

المطران يوسف الراس

تاريخ مصر القديمة

الدينوري في الدينوري

تاريخ شعوب سورية القدماء

مقالة افتتاحية ومقالتين في الحثيين والفينيقيين

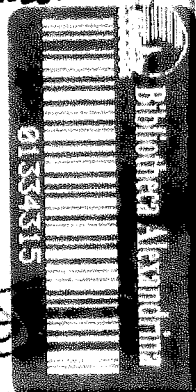
إشراف

نظير حبيش

راجعه ودققه

الدكتور مكارون رشيد

دار نشر



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الجزء الأول

تاريخ شعوب سورية القدماء

مقالة افتتاحية ومقالتين في الحثيين والفينيقيين

إشراف

نظير عبود

رأى وطققه

الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود

۱۹۹۴

ص.ب : ۸۰۸۶ / ۱۱ تلفون : ۹۳۶۷۷۲ - ۹۳۴۷۱۴

فهرس

صفحة	عد
١٥	مقدمة المدقق
١٧	مقدمة المؤلف
٢٠	مقدمة الكتاب
٢٣	مقالة افتتاحية

الفصل الأول

لمعة في جغرافية سورية واسمها

٢٤	تخوم سورية	١
٢٥	جبال سورية	٢
٢٦	أنهر سورية	٣
٢٩	بحيرات سورية	٤
٢٩	مدن سورية	٥
٣١	اسم سورية	٦

الفصل الثاني

الخطوط المصرية والهيروكليزية والخطوط المسمارية ومن اكتشف رموزها

٣٤	الخطوط المصرية	٧
٣٦	الخطوط المسمارية	٨

الفصل الثالث خلق العالم والإنسان

٩	خلق العالم	٣٩
١٠	تكوّن الكائنات	٤١
١١	خلق الإنسان	٤٤
١٢	إثبات إبداع الله العالم والإنسان بالآثار القديمة	٤٥

الفصل الرابع

١٣	محل الفردوس الأرضي	٥٣
١٤	تقليدات القبائل في شأن الفردوس الأرضي	٥٧

الفصل الخامس

شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر والحياة ومعصية الإنسان

١٥	شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة	٥٩
١٦	الحياة	٦٢
١٧	آثار القبائل القديمة الدالة على ما في الكتاب بهذا الباب	٦٣

الفصل السادس

الآباء الأوّلون قبل الطوفان

١٨	قايين وهابيل	٦٨
١٩	شيت	٧١
٢٠	ذرية قايين	٧٢
٢١	ابناء شيت إلى نوح	٧٤
٢٢	طول حياة الآباء الأوّلين	٧٧

٢٣	التطابق بين عدد الآباء قبل الطوفان في الكتاب وبين عددهم في
٧٩	آثار القبائل
٢٤	الجبايرة
٨٢

الفصل السابع

الطوفان

٢٥	رواية الكتاب خبر الطوفان
٢٦	مباحث في الطوفان وأولاً أعاماً كان أم خاصاً
٢٧	هل يثبت علم الجيولوجية حصول الطوفان
٢٨	آثار الأقدمين الدالة على الطوفان
٢٩	مستقرّ السفينة ومهد البشر بعد الطوفان
٣٠	تتمة أخبار نوح بعد الطوفان
١٠٤

الفصل الثامن

ابناء نوح وتفرق أبنائهم في الآفاق

٣١	أهمية الأنساب التي ذكرها موسى
٣٢	هل ذكر موسى أنساب البشر كلهم
٣٣	الأنساب التي ذكرها موسى وأولاً في بني حام
٣٤	نمرود والمدن التي وليها والتي بناها
٣٥	مصرائيم بن حام وأعقابه
٣٦	فوط بن حام
٣٧	كنعان بن حام وذريته
٣٨	ابناء سام
٣٩	يقطان وولده جدود العرب
٤٠	ابناء آرام
٤١	بنو يافت
٤٢	مجمل هذه الأنساب
١٣١

الفصل التاسع

برج بابل

٤٣	آيات الكتاب في برج بابل ثم مَنْ بناه	١٣٤
٤٤	موقع برج بابل	١٣٥
٤٥	الآثار المثبتة تاريخ برج بابل	١٣٧

الفصل العاشر

اللغة

٤٦	اللغة الأولى	١٣٩
٤٧	بليلة اللغة	١٤١
٤٨	علم معارضة اللغات	١٤١
٤٩	اللغات السامية	١٤٣
٥٠	السنسكريت وفروعها	١٤٥

الفصل الحادي عشر

نحلة في الكتابة

٥١	الكتابة بالصّور	١٤٨
٥٢	الكتابة بالحروف	١٥٠

الفصل الثاني عشر

سكان سورية الأولون

٥٣	سكان سورية قبل الطوفان	١٥١
٥٤	سكان سورية بعد الطوفان	١٥٢

مقالة في الحثيين

الفصل الأول

أصل الحثيين وموطنهم وما يظهر من تاريخهم في الكتاب المقدس

٥٥	الحثيون الجنوبيون	١٥٤
٥٦	الحثيون الشماليون	١٥٦
٥٧	أصل الحثيين بالخصوص	١٥٩

الفصل الثاني

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار القديمة

٥٨	مصادر تاريخ الحثيين	١٦١
----	---------------------------	-----

الفصل الثالث

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار المصرية

٥٩	هيئة الحثيين ونوع حكومتهم وبسطة ملكهم	١٦٣
٦٠	قادس مدينة الحثيين	١٦٤
٦١	الروتانو والحثيون في سورية الشمالية	١٦٦
٦٢	غزوات توتمس الثالث ملك مصر للروتانو والحثيين	١٦٨
٦٣	الحثيون ورعمسيس الأول	١٧١
٦٤	الحثيون وساتي الأول	١٧٢
٦٥	الحثيون ورعمسيس الثاني	١٧٤
٦٦	عهدة الصلح بين رعمسيس ملك مصر وكيثاسار ملك الحثيين .	١٧٩
٦٧	زواج رعمسيس بابنة ملك الحثيين	١٨١
٦٨	تيسر حرب المصريين والحثيين ودخول بني إسرائيل أرض الموعد	١٨٣
٦٩	بقية ما كان بين خلفاء رعمسيس والحثيين	١٨٤

الفصل الرابع

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثار الآشوريين

٧٠	الحثيون وتجلت فلاصّر الأول	١٨٥
٧١	كركميش مدينة الحثيين	١٨٦
٧٢	الحثيون وآشور نسيربال	١٨٨
٧٣	الحثيون وسلمناصّر الثالث	١٨٩
٧٤	الحثيون وخلفاء سلمناصّر حتى تجلت فلاصّر الثاني	١٩١
٧٥	الحثيون وسرغون ملك آشور	١٩٣

الفصل الخامس

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثارهم

٧٦	آثار الحثيين وتعمّش فهم رموزها إلى اليوم	١٩٥
٧٧	لغة الحثيين وصناعتهم	١٩٧
٧٨	ديانة الحثيين	١٩٩
٧٩	ملابس الحثيين وأسلحتهم	٢٠٠

الفصل السادس

آثار الحثيين الدالة على توطنهم آسيا الصغرى وولايتهم فيها

٨٠	تمثال نمفيو	٢٠١
٨١	آثار الحثيين في بوغاز كوي ويازيللي كايا	٢٠٢
٨٢	آثار أخرى للحثيين في آسيا الصغرى	٢٠٥

الفصل السابع

جاليات الحثيين إلى بلاد اليونان وإيطاليا وقبرس

٨٣	مذهب الأب قيصر دي كارا في أصل السكان القدماء في هذه البلاد	٢٠٧
----	---	-----

أقوال العلماء في سكان بلاد اليونان وجزائر بحر الروم القدماء	٢٠٨	٨٤
رأي الأب دي كارا في أصل سكان قبرس الأولين	٢١٠	٨٥
رأي الأب دي كارا ان سكان جزائر بحر الروم رودوس وكريت وساموس وغيرها وبلاد اليونان وبعض إيطاليا إلى توسكانا هم حَثيون أصلاً	٢١٢	٨٦
رأي الأب دي كارا في قدموس وزمان ارتحاله إلى بلاد اليونان	٢١٤	٨٧
خطبة الأب دي كارا في الحثيين والبلاسج الأولين	٢١٥	٨٨

الفصل الثامن

غارة الحثيين على مصر أي في الملوك الرعاة

أصل الملوك الرعاة ومهاجرهم	٢١٩	٨٩
أقوال العلماء في أصل الملوك الرعاة ومنشأهم	٢٢٠	٩٠
تحرير قول الأب دي كارا في الملوك الرعاة وحججه عليه	٢٢٤	٩١
إثبات أن الملوك الرعاة حَثيون بما سَمَتهم به الآثار المصرية	٢٢٦	٩٢
عصر غارة الرعاة على مصر ومدة ملكهم فيها	٢٢٨	٩٣
بيان سنّي عبودية الإسرائيليين في مصر بسنّي الملوك الرعاة	٢٢٩	٩٤
أعمال الملوك الرعاة في مصر	٢٣٢	٩٥
ندرة آثار الرعاة	٢٣٣	٩٦
حروب الرعاة	٢٣٤	٩٧
حصار آفاري محصن الرعاة	٢٣٦	٩٨
استسلام آفاري وخروج الرعاة منها	٢٣٨	٩٩
موقع مدينة آفاري متحصن الرعاة	٢٣٩	١٠٠

مقالة في الفينيقيين

الفصل الأول

الكنعانيون

أصل الكنعانيين ومهاجرهم الأولى وداعي ارتحالهم إلى سورية	٢٤١	١٠١
زمان ارتحال الكنعانيين إلى سورية	٢٤٢	١٠٢

١٠٣	الحال التي توطنها الكنعانيون في سورية	٢٤٣
١٠٤	حال الممالك الكنعانية	٢٤٦
١٠٥	تشبّت الكنعانيين وجالياتهم	٢٤٨

الفصل الثاني

اسم فينيقية وتخومها وأشهر مدنها

١٠٦	اسم فينيقية	٢٤٩
١٠٧	تخوم فينيقية	٢٥٠
١٠٨	مدن فينيقية	٢٥١

الفصل الثالث

الصيدونيون واختراعهم الملاحة ومستعمراتهم وحالتهم السياسية

١٠٩	اختراع الصيدونيين الملاحة وانكبابهم عليها	٢٥٥
١١٠	مستعمرات الفينيقيين في مدّة سؤدد صيدا	٢٥٧
١١١	الحال السياسيّة على عهد الصيدونيين	٢٦١
١١٢	قيام الفينيقيين بعمارة مصر البحرية	٢٦١
١١٣	تقهقر صيدا وسقوطها	٢٦٢

الفصل الرابع

الفينيقيون في عصر سيادة صور إلى بناء قرطاجنة

١١٤	جعل صور عاصمة للفينيقيين وانضمامهم إليها	٢٦٤
١١٥	مستعمرات الفينيقيين في مدّة سيادة صور	٢٦٧
١١٦	إتفاق الفينيقيين وبني إسرائيل	٢٧١
١١٧	حيرام الثاني وسليمان الملك	٢٧٢
١١٨	ملوك صور وما كان من الأحداث في أيامهم إلى بناء قرطاجنة	٢٧٥
١١٩	بناء قرطاجنة	٢٧٩

الفصل الخامس

الفينيقيون وملوك الآشوريين

١٢٠	أول من غزا فينيقية من الآشوريين	٢٨١
١٢١	الفينيقيون وسلمناصر الثالث وخلفاؤه إلى تجلت فلاصر الثاني ..	٢٨٤
١٢٢	الفينيقيون وسلمناصر الخامس وسرعون ملكي الآشوريين	٢٨٧
١٢٣	الفينيقيون وسنحاريب ملك آشور	٢٨٩
١٢٤	الصيدونيتون وأسرحدون	٢٩١
١٢٥	الفينيقيون وآشور بانيال ملك آشور	٢٩٣

الفصل السادس

الفينيقيون في مدة ملك الكلدان والفرس

١٢٦	انقراض دولة الآشوريين وخلافة دولة الكلدان لها وغزوة نكو	
	ملك مصر لسورية وفينيقية	٢٩٥
١٢٧	الفينيقيون وبختنصر وحصاره صور	٢٩٧
١٢٨	الحرب البحرية بين أسطول خفرع ملك مصر والأسطول	
	الفينيقي من قبل بختنصر	٣٠٠
١٢٩	حالة صور في عهد ملوك بابل بعد فتح بختنصر لها	٣٠١
١٣٠	الفينيقيون في عهد ملوك الفرس	٣٠٢
١٣١	فهرس اسماء ملوك صور نقلاً عن لانرمان	٣٠٦

الفصل السابع

تجارة الفينيقيين

١٣٢	تجارة فينيقية وصور خاصة على ما ذكرها حزقيال النبي	٣٠٨
١٣٣	تجارة فينيقية في آسيا نسبة إلى الجهات الثلاث التي كانت	
	تسير فيها	٣١٠
١٣٤	تجارة فينيقية في افريقية	٣١٢
١٣٥	تجارة فينيقية في أوروبا	٣١٣

الفصل الثامن

صناعة الفينيقيين

٣١٥	البرفير ويعرف بالأرجوان	١٣٦
٣١٦	صنع الفينيقيين الزجاج	١٣٧
٣١٧	اصطناع الفينيقيين المتاع والآنية الخزفية والمعدنية وغيرها	١٣٨

الفصل التاسع

اختراع الفينيقيين الكتابة بالحروف وفي لغتهم وعلومهم

٣٢٠	الفينيقيون أخذوا حروف الكتابة عن الخطوط الهيروغليفية	١٣٩
٣٢٢	إن حروف كتابة الفينيقيين أصل لحروف الكتابة في كل اللغات	١٤٠
٣٢٥	الحروف الفينيقية وما طرأ عليها من التغيير	١٤١
٣٢٦	لغة الفينيقيين	١٤٢
٣٢٧	آثار الفينيقيين	١٤٣
٣٢٩	علوم الفينيقيين	١٤٤

الفصل العاشر

ديانة الفينيقيين

٣٣٢	الوثنية عند الفينيقيين وغيرهم	١٤٥
٣٣٣	معبودات الفينيقيين	١٤٦
٣٣٦	ذبائح الفينيقيين	١٤٧
٣٣٨	كهنة الفينيقيين وهياكلهم	١٤٨
٣٤٠	آثار أبنية الفينيقيين	١٤٩
٣٤٢	مدافن الفينيقيين	١٥٠

مقرّرة

«تاريخ سورية الديني والديني» للعلامة المؤرخ المطران يوسف الدبس مؤسس معهد الحكمة الشهير في بيروت. وقد طبع في المطبعة العمومية في بيروت سنة ١٩٠٣.

يتألف هذا الكتاب من تسعة مجلدات بالاضافة إلى مجلد عاشر يختص بالفهارس. وتكمن اهميته في مضامينه إذ تتناول موضوعاته فترات سحيقة في تاريخ لبنان وسوريا والعراق وفلسطين وقبرص تعود إلى ايام نوح والطوفان، بالاضافة إلى تاريخ اليونان والرومان والفرس والخلافة العربية منذ ظهور الاسلام مرورًا بمختلف الحقب التاريخية التي مرت بها الخلافة المذكورة بما في ذلك الوجود العربي في الاندلس والحكم الذي أقاموه هناك، وصولاً إلى تاريخ المغول والتتار والحملات الصليبية والسلطنة العثمانية، ومن ضمنها نظام الامارة في جبل لبنان وعهد القائمقاميتين، ونظام المتصرفية.

وبموازاة هذا التاريخ السياسي والعسكري والحضاري تطرق المطران الدبس إلى التاريخ الديني، فتحدث عن الشعب العبراني ونبوءات انبيائه، وأجرى مقارنة فيما بينها ليميز بين الصحيح والمزور منها. ثم تحدث عن ظهور المسيحية واعمال الرسل، والصراعات العقائدية التي حصلت بين الكنائس الشرقية المختلفة على الصُّعْد العقائدية والسياسية والمذهبية بما فيها الكنيسة المارونية أيضًا التي تمكنت من تأسيس أول بطريركية لها على يد مار يوحنا مارون في اواخر القرن السابع الميلادي، ولا تزال هذه المؤسسة مستمرة حتى اليوم كما أشار إلى بطاركة هذه الطائفة واساقفتها في كل عصر من العصور معدداً أبرز أعمالهم ومنجزاتهم على مختلف الصُّعْد. وبالاضافة إلى اهمية الكتاب من حيث مضامينه، فانه يكتسب اهمية كبرى

ايضًا تعود في الاساس إلى شخصية المؤلف، وعمق ثقافته، وموضوعيته وحبه للحقيقة، بالإضافة إلى تعمقه في اللغات السريانية واليونانية والعبرانية والفرنسية والعربية. لذا، نراه يستقي معلوماته من مختلف المصادر والمراجع العربية والاجنبية، ويقابل فيما بينها ويمحصها ويدقق فيها بغية الوصول إلى الحقيقة التي كان ينشدها حتى ولو كانت إلى جانب خصومه.

لقد اعادت « دار نظير عبود » طباعة هذا الكتاب بحلة جديدة بعد التدقيق في معلوماته، واصلاح بعض الهفوات الواردة في النسخة الاصلية والناجمة عن سوء الطباعة وذلك خدمة للدارسين والباحثين والمهتمين بالتاريخ. ونأمل بأن يجد فيه الجميع الفائدة المرجوة، ونكون عند حسن ظن القراء.

الدكتور مارون رعد

مقدمة

إنَّ جلَّ الغرض من كتابي هذا، لاسيَّما في جزئه هذا الأول الذي تمَّ بعون الله، وفي جزئه الثاني المعقود العزم على تأليفه؛ إنما هو جعل الاكتشافات الحديثة معروفة لدى عامة الشعوب المتكلِّمين باللغة العربية، لنفعهم وتقوية إيمانهم بواسطة هذه البينات الحديثة المتسامية عن كل ردٍّ؛ وهي إنطاق الله الحجاراة بصحة ما أوحاه لموسى وسائر مَنْ كتبوا الأسفار المقدَّسة.

ولمَّا لم يكن لنا بالعربية حتى الآن كتاب، يشمل تاريخ وطننا سورية القديم والحديث، ويستحقُّ الإركان إليه؛ أردتُ أن يكون كتابي على سبيل تاريخ تثبته تلك الآثار، لاعتقادي أنَّ هذا السبيل يُغري المطالع غير الإكليركي أيضاً بالمطالعة أكثر من أن يكون الكتاب دينياً أو لاهوتياً، فيعثر أثناء مطالعته تاريخاً على بينات سديدة لا تردُّ، تثبت له صحة رواية الأسفار المُتَّزلة.

إنَّ مَنْ أراد أن يكتب تاريخ سورية القديم، انفسح له مجال الكلام ليتطرَّق إلى كل ما يلتحم بكلامه من تاريخ مصر، وبلاد الكلدان، وآشور، طبق نسق الكتاب المقدَّس؛ وهذه البلاد هي مواطن أكثر الاكتشافات الحديثة التي لم يكن لقومنا المتكلِّمين بالعربية إلا علم شائع بها، إذ لم يتصدَّ أحد قبل الآن أن يكتب فيها شيئاً بالعربية - اللهمَّ إلا فقرات قليلة في بعض الجرائد، أو شيئاً يسيراً في غيرها - مع أنَّ موضوع أكثر ما كشف عنه أجدادنا أو قدماء سكان بلادنا، وقسم كبير منها وُجِدَ في أرضنا. وقد بذلت اللجان العلمية الأوروبية وعمداء بعض الدول مبالغ جسيمة من المال في هذا السبيل، وغنم بهذه الكنوز سكان أوروبا على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، وكان أبناء اللغة العربية عن ذلك غافلين إغفالاً يُعَدُّ عاراً وخساراً؛ فشئت أن أبذل كل ما يقدرني الله عليه لنفع قومي أيضاً بهذه الكنوز التي أوجدتها عناية الله في هذا العصر، لشدة الحاجة إليها.

وقد كان لي دافع آخر لتأليف هذا الكتاب؛ وهو أنه ليس عندنا في اللغة العربية حتى الآن شيء من تفسير أسفار العهد القديم مطبوعاً - على ما أعلم - إلا تفسير المزامير، وقد كنتُ غنيثٌ بطبع تفسير الأناجيل - أخذته عن أفضل المفسرين - ثم تفسير رسائل بولس والرسل، جعلتُ أحد كهنتي الخوري يوسف العلم يعتني بجمعه ثم تفسير رؤيا يوحنا لأحد علمائنا في القرن الماضي، ولم يتهيأ لي إشهار شيء من تفسير أسفار العهد القديم، فمشيتُ الآن على كل القسم التاريخي في الكتاب المقدس من سفر التكوين إلى سفرني المكابيين في تاريخ العبرانيين. وتطوّقتُ إلى كل ما يلتحم بكلامي من آيات الكتاب غير الاخباريّة، وتعمّدتُ بيان كل غموض، وحلّ كل إشكال، فكان لنا بذلك تفسير لجزء كبير من الأسفار المقدسة، وعلى المنوال الحديث بعض الاكتشافات.

أما ما تضمّنه هذا الجزء فهو أربع مقالات:

أولها مقالة إفتاحيّة ضمّنتها ذكر تخوم سورية وجبالها وأنهرها وبحيراتها، وأشهر مدنها القديمة، ثم الكلام في خلق العالم والأبوين الأولين؛ ثم ذكر شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر، ومخالفة أبويننا. ثم ذكر الآباء قبل الطوفان والتطابق بعددهم العشري بين كلام الكتاب وآثار القبائل القديمة لاسيّما الكلدان. ثم ذكر نوح والطوفان ومباحثه. ثم ذكر برج بابل وبلبله اللغة. ثم ذكر اللغات وأصليها العائين وفروعهما، وتفرّق القبائل بحسب الأنساب التي ذكرها موسى. وأتيتُ في كلّ من هذه المواد على ما يثبتها علمياً أيضاً من آثار القبائل القديمة، ومن الصفائح الكلدانيّة والمصريّة والفارسيّة وسائر ما اكتشّف وتوصّلت معرفتي إليه من آثار قدماء الشعوب. وبالجملة تضمّنت هذه المقالة كلّ ما جاء في الفصول العشرة الأولى من سفر التكوين، واختتمتُ بذكر سكّان سورية قبل الطوفان وبعده.

وتلي هذه المقالة مقالة ثانية في تاريخ الحثيين الحديث النشأة، مشيتُ فيها أولاً على جميع الآيات المقدسة التي جاء فيها ذكرهم - مبيّناً ما تنوّر بالاكتشافات من هذه الآيات الغامضة. ثم تتبّعُ تاريخهم عن الآثار المصريّة ثم عن الآثار الآشوريّة، ثم عن آثارهم هم أنفسهم، وألحقْتُ ذلك بذكر جالياتهم وارتحالاتهم من سورية الشماليّة إلى آسيا الصغرى وبلاد اليونان وغيرها، ثم بذكر الملوك الرعاة في مصر الذين يُرجّح أنّ أصلهم منهم، وما اكتشّف من آثارهم مُعاوناً على فهم آيات

الكتاب الملاحظة استيزار يوسف في مصر وحصول المجاعة وتعيين مدة سنّي عبودية بني إسرائيل فيها.

وأُتبعَتْ هذه المقالة بمقالة ثالثة في الفينيقيين، ذكرتُ فيها أصلهم ورجالاتهم، وما كان لهم من العلاقات مع المصريين والكلدان والآشوريين والفرس، ومع ملوك يهوذا وإسرائيل واتفاقهم مع داود وسليمان، ثم تجارتهم التي انبسطت في الآفاق، مع حروف كتابتهم وصناعاتهم ومعبوداتهم وهياكلهم ومدافنهم وما جاء في نبؤات الأنبياء عنهم.

ولمّا كانت المقالة الثانية في سكان شمالي سوريا وهم الحثيّون، والثالثة في سكان وسطها وهم الفينيقيون، تحتم أن تكون الرابعة في سكان جنوبيها أي فلسطين، وهم العبرانيون. وفي تاريخ هؤلاء قد مشيتُ على كل القسم التاريخي من أسفار العهد القديم، من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين إلى سفري المكابيين، مبتدئاً من تاريخ ابراهيم ومنتهاً ببداية ملك اسكندر الكبير الذي به نهاية هذا الجزء.

وقد أوردتُ في هذه المقالة كل ما يثبت علمياً صحة رواية مَنْ كتبوا بوحى الله من الآثار المصرية والبابلية والآشورية والفارسية وغيرها، وتطرّقتُ إلى كل ما يلتحم بكلامي من نبؤات الأنبياء، وآيات الكتاب المقدس غير الاخباريّة، متعمّداً ما سبقت الإشارة إليه من الاعتياض بقدر الإمكان عن تفسير لأسفار العهد القديم.

وقد اعتمدتُ في ذكر هذه الآثار على علماء فضلاء مثل الأب فيكورو أحد كهنة سان سولبيس، والأب قيصر دي كارا اليسوعي، وفرنسيس لانرمان في طبعة كتابه الأخيرة، وغير هؤلاء من العلماء الثقة المتكلمين في الآثار المصرية والآشورية. وفي عزمي أن ألحقَ هذا الجزء بجزء ثانٍ، يشمل تاريخ سورية في عهد خلفاء اسكندر والملوك الرومانيين إلى ظهور الإسلام. فيدخل في طيّ هذا الجزء كلّ ما كان تاريخياً في سفرَي المكابيين وأسفار العهد القديم كلّها على الأسلوب الذي اتّبعته في هذا الجزء، فيكون تاريخي علمياً. وأردفُ ذلك بجزء ثالث، يتضمّن تاريخ سورية منذ ظهور الإسلام إلى استيلاء سلاطينا العثمانيين عليها في مبادي القرن السادس عشر، ثم الجزء الرابع في تاريخها في مدة سلاطينا العثمانيين إلى اليوم.

فهذه خلاصة الغرض من كتابي وما حواه بالإجمال.

مقدمة الكتاب

حمداً لمن جعل آثار مَنْ سلف. عبرةً وحجّةً لمن خلف. سواءً اتَّفَق بعضهم مع البعض أم اختلف. إذ برأ الكائنات من العدم. وكوّن آدم من تراب وحواء من ضلعه فكانت منهما الأم. وغالبت إحداها أخرها على متاع الدنيا وسوددها. وعلي منتجع الأرض ومصدرها وموردها. وألف غيرهم الجار وصافاه. فشقي وسعد كلّ بما اصطفاه. لأنه تباركت أسماؤه رفع مَنْ أحسن المسعى بمنّ فضله. وخفض مَنْ ساءه بمنّ عدله. وألهم إبداع الآثار والصحف ما كان للأولين. ليكون تبصرة وذكرى للآخرين. فسبحانه من إله قسط حكيم رحيم.

أمّا بعد فيقول المفتقر إلى عفو ربه المطران يوسف الدبس، رئيس أساقفة بيروت المارونيّ إذا كان علم التاريخ على إجماله من أجل العلوم وأكثرها عائدة. وأكبرها فائدة. ومنّ وعاه في صدره. أضاف أعماراً إلى عمره. فعلم المرء بتاريخ سلفه ووطنه أنفع وأولى. على أنّ المؤلّفات الشاملة تاريخ بلادنا نادرة لا تصل إليها أيدي العامة وما تداولته منها أيدي الخاصّة. أُلّف في سالف الدهور فلم يدرك عصر التحقيق والتنقيب. ولم يستطع مَنْ أفضّلوا بكتبه أن يستطلعوا ما كشفت عنه الاكتشافات الحديثة ولم يغنموا ما غنم أهل العلم في هذا العصر بكنوز رموز الخطوط الهيروغليفية. وحلّ معيّات العلامات المسمارية.

ولذلك أصبح فقهاء وطننا حتى مَنْ عُدّ فيهم عالماً، يفقهون تاريخ الأمم النائية. والبلاد القاصية. ويغنّون على تاريخ بلادهم. وعلم أحداث أجدادهم. وقد تعدّدت اللجان العلمية الأوروبية وعمداء الدول فأكثرُوا من الاحتفال في أرضنا والتنقيب عن آثار قدمائنا. باذلين ألوف الألوف من الدراهم والدنانير في هذا السبيل الأثيل، فثروا بالكشف عن كثيرها واكتنّزوا كنوز معارف جلّ عوارفها بيان تاريخ أجدادنا وما جرى في بلادنا. ونحن عن ذلك غافلون كأنّه في ديار لم يكن لها أحد منّا. فأعتمنا في ما علموا. ولم نعتم بما غنموا. فبئس المسير والمصير. ولما كنت قد

وقفتُ كلَّ ما وهبه الله لي من قوة ومعرفة على نفع مواطنيَّ وابناء جلدتي، لم أتوقف عن أن تقحَّمتُ مشاقَّ هذا التأليف العذبة. ولو تكلفتُ لها عرق القربة. واستأثيتُ من الكتب والمجلات العلميَّة ما دار نفعه في خلدي. ولم يظاهرنِي فيه إلا جلدي وكذِّي. وعلى ما عليَّ من المهام الشاقَّة وما ترقب بعنقي من الفروض الحقَّة. وما تنازعت به حاجاتي أوقاتي. شددتُ له عن عمد عينٍ مئزري واتَّخذتُ الثبات مؤازري. وشمرْتُ عن ساق عزيمة. وإن كليله. وساعد همة. وإن عليله. واكلاً بعون مَنْ يقوِّي الضَّعيف. وينير الخسيف والكفيف. فكنتُ أسترُقُّ الشاعات وأسارق النَّظر إليه. وأفترض الفرص بالانكباب عليه. هذا وقد كان داعٍ آخر إلى هذا التصنيف، ألا وهو أنَّ أسفار العهد القديم المُنزَّلة لم يكن لها إلى اليوم في العربية من تفسير يوضح إبهام بعض آيها، ويحلُّ ما أشكل منها، مع أنَّ ذلك مما هو للدين والعلم ضربة لازب. وقد كنتُ عُنيْتُ بإذاعة تفسير الأناجيل وغيرها من أسفار العهد الجديد. ولم يتهيأ لي أن أردفه بشيء من تفسير أسفار العهد القديم. فضمَّنتُ هذا الجزء من كتابي ما يُزيل الإشكال ويجلو الإبهام عن كل ما جاء من القسم الاخباريِّ في هذه الأسفار من سفر التكوين إلى سيفريِّ المكايين على أحسن منوال نسج عليه بعد الاكتشافات الحديثة، وقد تمهَّد بها كثير من العقبات. وانحلَّ كثير من العضلات. فترى في مقالتي الافتتاحية تفسيراً جلياً لكل ما جاء في الفصول العشرة الأولى من سفر التكوين؛ وهي تنطوي على أعضل المشكلات، ثم ترى في مقالتي في العبرانيين، أنني مشيتُ على كل ما كان اخبارياً في هذه الأسفار من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين إلى سيفريِّ المكايين (حيث الكلام في أخبار الإسكندر الكبير وخلفائه وهو مرجأ إلى الجزء الثاني).

واستطردتُ إلى بيان كل ما التحم بكلامي من آيات الكتاب النبوية وغير الاخبارية. وعليه فأرتجي أن يكون كتابي للمجتهد فيه ذا نفعين. ويصيب المستجهد فيه غرضين: دينياً وعلمياً.

وقد أتممتُ بعون المئان هذا الجزء الأول مضمناً إياه مقالة افتتاحية من خلق العالم إلى تفرُّق القبائل في آفاقه. وثلاث مقالات أخرى في أحصَّ شعوب سورية القدماء، وصحيح أخبارهم منذ نشأتهم إلى عهد اسكندر الكبير. وجعلته في مجلدين. وعقدتُ العزم أن أتبعه بثلاثة أجزاء أخرى إن أقدَّرني الله؛ أعني أن

سيكون الجزء الثاني في تاريخ سورية في عهد اليونان والرومان من سنة ٣٣٠ قبل الميلاد إلى سنة ٦٣٠ بعده. والثالث في تاريخها في عهد الخلفاء وغيرهم إلى سنة ١٥١٥م؛ إذ طلعت على هذه الديار بدور سلاطيننا العثمانيين. والرابع في تاريخها أيام دولتهم الزاهرة وولايتهم الباهرة إلى العهد الحميدي - عهد عبد الحميد الغازي خان أيّد الله وأيّد أريكة سلطنته ما تنال الملوان.

مقالة افتتاحية

قد ضمّنا هذه المقالة مباحث لا بدّ من العلم بها لأنّ بعضها ملازم الغرض؛ وهو تاريخ سورية أو جزء منه، وبعضها يمهّد السبيل إلى إدراكه أو ينزل منه منزلة الأساس من البناء. وعليه فتشتمل هذه المقالة أولاً على لمعة جغرافية في سورية. ثانياً على كلام في الخطوط المصرية المعروفة بالهيروغليفية (أي الكتابة المقدسة) ثم في الخطوط الآشورية المعروفة بالمسمارية. وفي من اهتدى إلى مغزى هذه الرموز، وفتح هذه الكنوز لاعتمادنا عليها في تاريخ سورية القديمة كلما تيسّر لنا أن نستعين بها على إثبات الحقائق التاريخية. ثالثاً في خلق العالم وآدم وحواء وموقع الفردوس الأرضي. رابعاً في الآباء الأولين إلى نوح. خامساً في الطوفان. سادساً في ابناء نوح أصول سكان العالم في الدور الثاني. سابعاً في تفرّق قبائل هؤلاء في المعمور. ثامناً في أخذهم في تشييد الصرح العظيم في بابل وبلبله ألسنتهم واللغة الأولى وأصول اللغات المعروفة الآن. تاسعاً على لمعة في الكتابة وكيف كانت أولاً وتمزّج أوجد الكتابة بالحروف. ثم نتخطّى إلى الكلام في شعوب سورية الأولين. ثم نتبع هذه المقالة بثلاث مقالات أخرى نتكلم فيها على أشهر قبائل سورية القديمة، ونذكر سائرهم ضمناً موصلين تاريخنا في هذا المجلد إلى أيام اسكندر الكبير.

على أن بعض هذه المباحث، وإن كان لا يجيء توّاً مصيباً الغرض في تاريخ سورية فليس من نكير أنه ملازم له وملتحم به التحام الفرع بالأصل، وأنه أقوم السبل إلى كتب تاريخ كامل راسخ في الصحة. ولا يخفى ما يتوقّر بذكر هذه المباحث من الفوائد الدينية والأدبية والعلمية، وما تتكفّل به هذه المقالة من الممالأة على كشف غوامض الفصول الأولى من التوراة. وقد جرّأنا هذه المقالة وما يليها إلى فصول والفصول إلى أعداد، رغبة في زيادة التفصيل، وتيسيراً لوجدان المعاني المطلوبة.

الفصل الأول

لُمة في جغرافية سورية واسمها

من أحسن ما جرى عليه المؤرخون وأنفعه أنهم إذا شاءوا كتابة تاريخ بلاد قدّموا عليه كلاماً موجزاً في تخومها وجبالها وسهولها وأبحرها وبحيراتها وأنهرها وأشهر مدنها، توشّلاً لإدراك تاريخها حقّ إدراكه، وكلفاً بزيادة رسوخه؛ وكذا رأى الجغرافيون أن يشفعوا كلامهم بشيء من تاريخ البلاد التي يتصدّون لكتابة جغرافيتها. فالتاريخ والجغرافية علمان متقاربان متعاونان، فجرياً على عادتهم وتيقناً بنفع مأخذهم نقول:

عد ١

تخوم سورية

بسّطت تخوم سورية تارةً، وضائق أخرى، بحسب تقلّب الأيّام والدول فيها. فكانت تشمل أحياناً ما بين النهرين وأرمينيا وبعض آسيا الصغرى وبعض بلاد العرب، وتضيق أحياناً عن هذه التخوم. والذي نتعمّد الآن الكلام فيه يحده شمالاً آسيا الصغرى من خليج اسكندرونة إلى نهر الفرات، وشرقاً نهر الفرات والبادية إلى بلاد العرب، وجنوباً قسم من العربية يُسمّى تيه بني إسرائيل إلى تخوم مصر، وغرباً البحر المتوسط المسمّى بحر الروم أيضاً. وطولها المتوسط على هذه التخوم من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر. وعرضها المتوسط من الغرب إلى الشرق نحو أربعمائة وخمسين كيلومتراً. وكان القدماء يقسمونها إلى سورية بحصر اللفظ، ويريدون بذلك قسمها الشمالي وبعض الشرقي، وإلى فينيقي، وهي على الأصحّ من ارواد إلى جبل الكرمل مع بعض لبنان، وإلى فلسطين، وهي ما يلي فينيقي إلى

الجنوب وإلى نهر الأردن. وكانوا يقسمون سورية أيضاً إلى كوماجان، وهي ما فيها حلب إلى نهر الفرات، وإلى سورية المجوّفة، ويريدون بها السهول الواقعة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي المسّى انتيلبنان (أي المقابل للبنان). ويعتبرون أحياناً عنها باسم سورية الأولى إلى الشمال، وهي ما فيها انطاكية، وسورية الثانية، وهي ما فيها حماه، وسورية الثالثة، وهي ما فيها دمشق وجبل لبنان؛ وهذه البلاد تشمل الآن القسم الأكبر من ولاية حلب وولايتي دمشق أو سورية وبيروت ومتصرفيّتي لبنان والقدس الشريف.

عد ٢

جبال سورية

أشهر جبال سورية في الشمال؛ جبل اللّكام، وقد سمّاه اليونان آمانوس. ويتبدى من آخر جبل طوروس في آسيا الصغرى، وينتهي على الصحيح في الشمال من مصب نهر العاصي على مقربة من السويدية. ويتبدى في جنوب مصب نهر العاصي جبلّ شامخ يُسمّى الجبل الأقرع وهو كاسيوس عند القدماء. ويمتد منه إلى الجنوب سلسلة تنتهي على مقربة من دير الحميراء؛ وهذه السلسلة هي المعروفة بجبال النصيرية. ثم تتبدى سلسلة جبل لبنان الممتدة إلى الجنوب الغربي إلى أن تنتهي في وادي الليطاني عند قلعة الشقيف. وتبتدى سلسلة أخرى تمتد جنوباً إلى نواحي صفد والناصرية وتنحرف شرقاً إلى نابلس. وبين هذه الجبال وجبل الكرمل مرج ابن عامر. ويتبدى جبل الكرمل عند حيفا ويمتد إلى الجنوب الشرقي فيتصل بجبل نابلس. ويمتد إلى الجنوب حتى جبل الشراة إلى جنوبي بحيرة لوط. ومن هذه السلسلة جبال اليهودية. وفي مرج ابن عامر جبل منفرد يُسمّى جبل الطور.

وأما لبنان الشرقي فيبتدئ من الشمال على مرحلة من حمص. ويمتد إلى الجنوب الغربي، وبينه وبين لبنان الغربي سهول بعلبك وبقاع العزيز. وأعلى رؤوس الشرقي جبل الشيخ فوق حاصبيا، ويسمّي القدماء هذا الجبل حرمون، وتمتد منه شعبة إلى الجنوب الشرقي ثم إلى الجنوب الصريح، وتنتهي في محل يُسمّى تل الفرس. وبين هذه الشعبة المسّاة جبل حيش وبين جبل الشيخ وادي التيم الأسفل. وفي جنوب هذه الشعبة في شرقي الأردن جبل عجلون، وفي جنوبيه جبل الصلت

(السلط) الذي يسمّيه الكتاب جبل جلعاد. وفي جنوبي الصلت جبل البلقاء، وفي جنوبي هذا جبال موآب نحو الشرق من بحيرة لوط. وعند الطرف الجنوبي من هذه البحيرة سلسلتا جبال بينهما الغور الذي يؤدي السفر به جنوباً إلى أيلة على خليج عقبة الممتد من البحر الأحمر^(١). والحاصل أن في سورية سلسلتي جبال؛ إحداهما ساحلية تمتد من الشمال إلى الجنوب الغربي على قرب متباين من البحر فتنتهي في آخر اليهودية. والثانية داخلية تمتد من نواحي حمص شمالاً إلى آخر سورية جنوباً. وبين السلسلتين وحولهما السهول الخصبة الفسيحة. ويضاف إلى هذه الجبال جبل حوران وجبل العلا في الجنوب الشرقي من حماه وجبل نبو في الشرق من بحيرة لوط.

عد ٣

أنهر سورية

أما الأنهر في سورية فأشهرها العاصي والأردن. فالأول مصدره ينبوع اللبوة، والينبوع الذي سمّاه أبو الفدا مغارة الراهب، وينابيع أخرى إلى الشمال من بعلبك. ويجري إلى الشمال ماژاً بجانب حمص، وفي حماه حتى يقرب من انطاكية فينحرف نحو الجنوب الغربي ويمر بين جبل اللكام والجبل الأقرع فيصبّ في بحر الروم عند السويدية.

وأما الثاني وهو الأردن فمؤلف من عدّة ينابيع منها ينبوع حاصبيا ومياه بانياس وتل القاضي، وكلها تصبّ في بحيرة الحولة، وتجري منها إلى بحيرة طبرية، وتخرج الأمواه منها فتجري إلى الجنوب الغربي بتعاريج كثيرة فتصبّ في بحيرة لوط المسماة البحر الميت أيضاً. وتجتمع هناك أمواه أنهر أخرى من الشرق والغرب أعظمها اليرموك والزرقاء والنهر المعجب^(٢). فتموت هذه الأمواه هناك أي لا يظهر لها مخرج فوق الأرض. وغاية الأمر أن في سورية نهريّن كبيرين، مخرجهما في وسطها يجري أحدهما من الجنوب إلى الشمال فيصبّ في قرب تخمها الشمالي

(١) البحر الأحمر: سمي بالبحر الأحمر لوجود الصخور المرجانية الحمراء، أو الوردية اللون.

(٢) نهر المعجب: اسمه نهر الموجب.

وهو العاصي. ويجري الثاني من الشمال إلى الجنوب ويصبّ في قرب تخمها الجنوبي وهو الأردن. ولا يعد مخرج أحدهما عن مخرج الآخر إلا مرحلتين أو ثلاثاً.

وأما سائر الأنهر فهي نهر حلب منبعه قرب عيتاب ويجري إلى الجنوب فيمّر في حلب ويُسمّى نهر قويق ويصبّ في أجمة^(١) في جنوبي حلب، ثم نهر عفرين ونهر يغرا^(٢) والنهر الأسود. منابعها في شرقي جبل اللكام ومصبها في بحيرة انطاكية^(٣). ونهر القنديل ويصب في البحر المتوسط بين السويدية شمالاً واللاذقية جنوباً. والنهر الكبير الشمالي مخرجه في جبال النصيرية ويجري إلى الجنوب الغربي ويصبّ في البحر المتوسط في جنوب اللاذقية. وفي جنوبيه نهر الصنوبر. ثم نهر المضيق. ثم نهر الروس. ثم نهر المسكين ثم نهر يرغل. ثم نهر الملك ثم نهر السن أو الأبت. ثم نهر مرقية. ثم نهر حسين. ثم نهر عمرت. ثم نهر الأبرش. ثم النهر الكبير الجنوبي، الذي يسميه القدماء الوتاروس وهو غير الأول. ومخارج كل هذه الأنهر أو الجداول في جبال النصيرية ومصبها في البحر المتوسط. ويليهما جنوباً نهر عكار ثم نهر عرقا ثم النهر البارد. وأما الأنهر الجارية في لبنان فهي: نهر أبي علي وتجتمع فيه أمواه نهر رشعين، ومنبعها من سفح جبل الضنية في قرب زغرتا. وماء ينبوع جوعيت بين اهدن وجبال الضنية وماء ينبوع مار سركيس على جانب اهدن. وماء ينبوع قاديشا مخرجه بين بشري وأرز لبنان الشهير، فتمر هذه الأمواه في اطرابلس وتصبّ إلى الشمال من ميناها. ثم نهر الجوز ومخرجه على مقربة من كفرحلبا ويصبّ في شمالي البترون. ثم نهر ابراهيم وهو نهر أدونيس عند القدماء ومصدره مغارة أفقا، وتضاف إليه مياه ينبوع آخر في جانب العاقورة يعرف ينبوع الجوزات ويصبّ في الجنوب من جبيل. ثم نهر الكلب وهو ليكوس في كتب القدماء منبعه مغارة جعيتا وتجتمع إليه في مدة الشتاء أمواه عدة ينابيع في الجبل ويصبّ بين جونبة وضبية. ثم نهر بيروت الذي يسمّيه بلينيوس ماغوراس (وهذا

(١) أجمة: مستنقع التخ (المطبخ) وهذا النهر يفيض شتاء فيهدد بفيضانه المدينة، وفي الصيف يقطعه الأتراك لأعمال الري.

(٢) نهر يغرا: اسمه النهر الأسود.

(٣) بحيرة انطاكية: اسمها بحيرة العمق المكوّنة من الأخدود الآسيوي الإفريقي.

الاسم وصف للإله بعل) ومصدره ينبوع الداشونية، وتجمع إليه لاسيما في فصل الشتاء أمواه من جهة ترشيش وكفرسلوان ومن جهة حمانا وفالوغا ويصب في جانب بيروت الشمالي. ثم نهر الدامور وسماه بوليب داموراس واسترابون تميراس وهو مجتمع أمواه من الغابون ثم من ينبوع الصفا بالقرب من عين زحلتا ومن ينبوع القاع ومن وادي عين دارا ويصب في الجنوب من معلقة الدامور. ثم نهر الأولي وسماه القدماء بوسترانوس ومخرجه من ينبوع الباروك، ويجري إلى الجنوب الغربي، ثم يرتد نحو الغرب ويصب في شمالي صيدا ويسقي بساتينها، ويليه جنوباً نهر الزهراني ثم نهر الحيصراني ثم نهر أبي الأسود ثم النهر الليطاني. ومخرجه في قضاء بعلبك. ويجري في سهل البقاع ويمر تحت قلعة الشقيف ويصب في البحر في شمالي صور ويُسمّى هناك نهر القاسمية. ثم نهر النعمان وهو ييلوس عند القدماء، وكان مشهوراً عندهم بصلوح رماله لاصطناع الزجاج، ومخرجه من تل الكرداني ومصبه في جنوبي عكا. ثم نهر المقطع الذي سمّاه القدماء والكتاب (ملوك ٣ فصل ١٨ عد ٤ بمعرض قتل ايليا أنبياء بعل) قيشون. ومخرجه في الشرق من مرج ابن عامر ويجري إلى الشمال الغربي ويصب في قرب حيفا. ويليه جنوباً نهر الدخلة ونهر المفجر ونهر الفلايك ثم النهر الأعوج ومخرجه في محل قريب من لد. وتصب هذه الأنهر في الشمال من يافا، وفي جنوبيها نهر روين ثم نهر صقير شمالي عسقلان.

وبقي نهر بردى، ومخرجه قريب من الزبداني، ويجري إلى الجنوب الشرقي وتضاف إليه مياه عين فيجة، ويتشعب في غوطة دمشق ودورها وشوارعها ويصب في بحيرة المرج^(١) إلى الشرق من دمشق. ثم النهر الأعوج غير المذكور آنفاً ومخرجه من سفح جبل الشيخ الشرقي ويجري إلى الجنوب الشرقي، ويصب في بحيرة هيجانة الآتي ذكرها خلافاً لما جاء في كلام بعضهم من أنه يصب في بحيرة المرج.

(١) المرج: هو اسم السهل الذي تتكوّن في أخفض نقاطه بحيرة العتبية التي ينتهي فيها نهر بردى، وبحيرة الهيجانة التي ينتهي إليها نهر الأعوج، وقد سمي بالأعوج لكثرة أنواعه وتعاريفه.

بحيرات سورية

أما بحيرات سورية، فمنها بحيرة انطاكية، يجتمع فيها ماء النهر الأسود ونهر يغرا ونهر عفرين المارّ ذكرها، ويخرج منها نهر يتصل بالعاصي قرب الجسر المسّمي جسر الحديد. وبحيرة أفاميا^(١) في الشمال الغربي من حماه يجتمع ماؤها من عدة آجام وبحيرات وذكرها أبو الفدا. وبحيرة حمص^(٢) في الجنوب الغربي منها وهي مصطنعة من أمواه العاصي بسدّ عليه، وتُسمّى بحيرة قادس لأنّ قادس القديمة كانت هناك وسترى ذكرها مرات في تاريخ الحثيين. ثم البحيرات المتكوّنة من أمواه الأردن، وهي بحيرة الحولة وبحيرة طبرية وهي المسماة في الإنجيل بحر الجليل. وبحيرة جاناشر ثم بحيرة لوط التي تُسمّى البحر الميت. والبحيرة المنتنة وسطحها أوطاً من سطح البحر المتوسط نحو ألف وثلاثمائة قدم. ثم بحيرة المرج في الشرق الجنوبي من دمشق وتُسمّى البحيرة الشرقية وتصبّ فيها فضلة نهر بردى وغيره. ونحو الجنوب منها ثلاث بحيرات تُسمّى الأولى منها بحيرة هيجانة وفيها مصبّ لنهر الأعوج كما مرّ، وتُسمّى الثانية بحيرة بلع، والثالثة مضخّة برك.

مدن سورية

أشهر المدن التي نكتب تاريخها الآن كركميش المعروفة الآن بديرابولس على الجانب الغربي من الفرات، وقد تولّاها الحثيون من أقدم الأيام. ويليها حلب^(٣) وتُسمّى في الآثار القديمة كالب وحلبون، ويظهر أنها من بنايات الحثيين أيضاً

-
- (١) أفاميا: هي قلعة المضيق الآن شمالي حماه على العاصي، والتي كان فيها دير الموارنة الشهير. أما البحيرة فتتكوّن من فائض مياه العاصي.
- (٢) بحيرة حمص: هي بحيرة قطيئة المكوّنة في فوهة بركان خامد، وتتكوّن من مياه العاصي بُني عليها سدّ كبير لأجل ريّ سهول حمص وحماه وعليه مشروع كهرباء.
- (٣) حلب: كبرى المدن السورية، سمّيت حلب لأنّ ابراهيم الخليل كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدّق به فيقول الفقراء حلب حلب فسُمّيت حلب. وتشتهر باسم الشهباء. وفيها قلعة قديمة.

لوجود كثير من آثارهم فيها. ويليها نحو الجنوب على مسافة أربع مراحل حماه التي أسستها قبيلة الحمثى من ولد كنعان. ويليها في الجنوب على بعد مرحلة حمص، ويظهر أنها أحدث من حماه أو لم تكن ذات شهرة قديمة لسبق قادم إليها، وموقع هذه في الجنوب من حمص بجانب بحيرتها. والأظهر أن سكان قادم الأولين آراميون. ثم تغلب عليها الحثيون كما ستري في تاريخهم. وفي الجنوب الغربي من حمص على مسافة مرحلتين بعلبك ويظهر أنها كانت مدينة كهنوتية لعظمة الهيكل الباقية آثاره فيها. وضخامة الصخور المني بها سفله، مؤذنة بأنه من بنايات الفينيقيون أو شاركهم به الآراميون السكان الأولون لهذه الأنحاء على ما يظهر.

ويلي بعلبك جنوباً على بعد مرحلة دمشق. والأظهر أنها من بنايات الآراميين ولد آرام بن سام، حتى يقال إن تسميتها والبلاد التابعة لها شاماً نسبة إلى سام بن نوح. وقال أبو الفدا شُمت شاماً لأن قوماً من بني كنعان تشاءموا أي تياسروا إليها لأنها عن يسار الكعبة. وقال آخرون سُميت كذلك لبقع فيها بيض وحمر وسود تشبهاً لها بالشامات. وأما تدمر فهي نحو الشرق من حمص على بعد تسعين ميلاً وينسب بناؤها إلى سليمان. ولعل المراد أنه زاد فيه وبنى فيها صرحاً أو حصناً. وأما المدن الساحلية فمنها أنتراود أي طرسوس الحالية وجزيرة ارواد المقابلة لها، والظاهر أن سكانها الأولين الأرواديون ولد ارواد من بني كنعان. ويليها جنوباً عمريت الشهيرة بأطلالها. ويليها جنوباً على بعد مرحلة عرقا في الجبل مسكن العرقي من ولد كنعان. ونحو الجنوب الغربي من عرقا على مسافة بضع ساعات طرابلس، وهي أحدث مما تقدّمها من المدن، إذ يقال بناها نزالة من ارواد وصيدا وصور في ثلاثة أحياء، ولذا سماها اليونان تريبولي أي المدن الثلاث. وفي جنوبيها على بعد ست ساعات البترون وينسب بناؤها إلى ايتوبعل ملك صور أو كاهنها في زمان أخاب ملك اسرائيل. ويليها جنوباً على بعد ثلاث ساعات جبيل. ويظهر أن سكانها الأولين آراميون تغلب عليهم الفينيقيون. ويليها جنوباً على بعد سبع ساعات بيروت. ويظهر أنها كانت أولاً مستعمرة آرامية، ولكن تغلب عليها الفينيقيون من أقدم الأيام. ويليها في الجنوب على مسافة مرحلة صيدا وهي مسكن قبيلة صيدون بكر كنعان. ويليها جنوباً على بعد نحو ست ساعات صور. وهي في الأصل

مستعمرة صيدونية. ويليها جنوباً على مسافة مرحلة عكا وأقدم سكانها كنعانيون. ويليها نحو الجنوب الشرقي في الجبل على بعد نحو ست ساعات مجدّو. والأرجح أنها اللجون الآن على طرف مرج ابن عامر. وكانت محطة الحروب بين المصريين وسكان سورية. وفي جنوبيها على بعد نحو خمس ساعات السامرة وهي سبسطية الآن، بناها عمري ملك إسرائيل (ملوك ٣ فصل ١٦ عد ٢٤). وفي جنوبيها على بعد نحو عشر ساعات يابوس وهي أورشليم. بناها اليابوسيون والأموريون من ولد كنعان. وفي الجنوب الغربي منها على بعد مرحلة حبرون وهي المعروفة الآن بالخليل. وكانت تُسمّى في أقدم الأيام قرية أربع، نسبة إلى رجل اسمه أربع هو جد بني عناق فأخذها منهم الحثيون. ويليها غرباً على مسافة يوم غزة من مدن الفلسطينيين، ولكنها كانت قبلهم وقد ورد ذكرها في الآثار المصرية قبل أيامهم. وكان من مدن الفلسطينيين أيضاً عسقلان في شمالي غزة على ساحل البحر، ويليها شمالاً أيضاً اسدود.

وبقي المدن التي في شرقي الأردن وبحيرة لوط. فمن أشهرها راموت جلعاد وهي الصلت الآن. وفي جنوبيها الشرقي ربة عمون، وهي عمان الآن. وفي جنوبيها الغربي حشبون وهي حسان الآن في شرقي جبل نبو. وفي جنوبيها عراعر وهي عراعر الآن. وفي جنوبيها رابة مواب وهي ربة الآن. وفي جنوبيها كيرمواب وهي الكرك الآن. وأول سكان هذه المدن الأخيرة الإيبيون والزمزيون من الجبابرة، ثم صارت موطناً للعمونيين والموابيين؛ وكان يتولاها في عصر موسى سيحون ملك الأموريين، وعوج ملك باسان فافتتحها موسى لبني إسرائيل (تثنية الاشتراع فصل ٢ و٣). وسترى في مساق هذا التاريخ ذكر هذه المدن كلها وغيرها، وإن شئت استقراء كل ما كان في كل منها أرشدك إليه الفهرست المعلق في آخر هذا الكتاب.

عد ٦

اسم سورية

سمّى الكتاب المقدس في العهد القديم سورية آرام نسبةً إلى آرام الخامس من أبناء سام بن نوح، لأن كثيراً من سكانها الأقدمين من أعقابه. على أن الكتاب

أضاف اسم أرام إلى أعمال عديدة، فقال أرام النهرين ويراد بها ما بين النهرين دجلة والفرات. وأرام دمشق ويراد بها مملكة دمشق. وأرام صوبا ويراد بها على الراجح سورية المجوّفة أي ما بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي. أو هي مملكة كانت بين دمشق جنوباً وحماه شمالاً. وأرام معكة ويظهر أنّ المراد بها مملكة كانت في موقع حاصبيا ومرجعيون وبانياس وأرام رحوب ويظهر أنها كانت في محل الجولان الآن.

وأول من سُمّي هذه البلاد سورية اليونان مع أن أوميروس شاعرهم سُمّي سكانها آراميين. على أن هيرودت (الذي ولد سنة ٤٨٤ ق. م) هو على ما نعلم أول من سُمّي هذه البلاد سورية. وتابعه في ذلك سائر اليونان والرومانيون، ولكن ما الذي حملهم على هذه التسمية؟ ففيه للعلماء القدماء أقوال أقربها إلى الصحة قولان: الأول أنها سُمّيت سورية نسبة إلى صور مدينتها البحرية الشهيرة. وقد عرف اليونان أهلها لكثرة تردّدهم إلى بلادهم للتجارة فسَمّوهم سوريين وبلادهم سورية بإبدال الصاد بالسين لعدم وجود الصاد في اللغة اليونانية. وكلمة صر بالفينيقية معناها الصخر أو السور، ويرى هذا الاسم منقوشاً على المسكوكات القديمة التي وجدت في هذه المدينة. والثاني أنّ اليونان سمّوا هذه البلاد سورية نسبة إلى آسور أو أسيرتيا بلاد الآشوريين لأن الآشوريين كانوا يتولّون أعمال سورية عند استفحال أمر اليونان، فنسبوا سورية إليهم مخفّفين اللفظة بحذف الهجاء الأول منها، والمبادلة بين السين والشين فاشية حتى في كلمة آشور وآسور. ونرى بعض قدماء اليونان وغيرهم يطلقون اسم سورية على ما بين النهرين أيضاً وعلى أرمينيا وبعض بلاد فارس، فكان اسم سورية مرادفاً لاسم اسيريا أي مملكة الآشوريين.

أما علماء هذا العصر الباحثون في الآثار فوافق بعضهم على ما رآه القدماء وخالفه بعضهم. قال مسبرو^(١): «إن توتمس ابن امنهوتاب الذي خلفه في الملك كان أول من اقتاد المصريين إلى فتح آسيا والبلاد التي وصلوا إليها بعد خليج السويس كانت تُسمّى منذ حينئذ سورية». وقال في حاشية علّقها على كلمة

(١) في التاريخ القديم لشعوب المشرق فصل ٥ صحيفة ١٤٧ طبعة ٤.

سورية إن اللفظة المصرية كسارو تُحَقِّقَت فصارت سارو، ثم سورية. فهذا التخمين بعيد المرمى ضعيف المستند، وتعبه الأب دي كارا^(١). وقال بروغش^(٢): ما اسم سورية إلا مخفف اسيرية، سُمِّيَت كذلك بعد أن دانت أعمال سورية على التعاقب لتجلت فلاصر الثاني (من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٢٧ ق.م). ثم لسرغون (من سنة ٧٢٢ إلى سنة ٧٠٥ ق.م). وهذا كان بعد عهد توتمس بنحو ألف سنة على أنَّ الأب دي كارا^(٣) ردُّ رأي بروغش، ورأى الأولى نسبة اسم سورية إلى آسور أو آسوريم بن ددان بن يقشان بن ابرهيم الخليل من قطورة^(٤). لحسابه أنَّ الشعوب الذين ارتحلوا إلى فينيقية وأسسوا مدينة صور كانت مهاجرهم بلاد العرب الشمالية. وإنَّ اسم آسور أو آشور يُطلق على أحد أعمال بلاد العرب.

وفي الآثار المصرية ذكر شعب يُسمى آسور من جملة الشعوب حلفاء الحثيين سكان سورية الشمالية لمحاربة رعمسيس الثاني ملك مصر. وهذا كان في القرن الرابع عشر قبل الميلاد إذ لم يكن لمملكة الآشوريين شيء من السطوة في سورية. وذكر الأب دي كارا مستنداً آخر لرأيه هو أنه قد وجدت صفيحة في سان بمصر، كتب عليها في ثلاث لغات اسم سورية؛ فكان في الهيروكليفية روثانو وفي اليونانية سورية، وفي لغة الشعب المصرية أسار أو آسور وليس من علماء الآثار المصرية من يمتري بأنَّ الروثانو يراد بهم سكان سورية الشمالية خاصة. ثم إنَّ هذا الاسم آشور أو آسور وجد مكتوباً بين أسماء القبائل التسع التي كتبت على جدار هيكل ادفو في مصر لإنباء بأن رعمسيس دُونُها؛ ورعمسيس أحد ملوك الدولة التاسعة عشرة في مصر كان قبل استيلاء الآشوريين على سورية بقرون، وإنَّ هيرودت واسترابون وغيرهما من القدماء وبعض علماء هذا العصر أيضاً قالوا بارتحال قبائل عديدة من بلاد العرب أو من جانب خليج العجم إلى سورية منذ أقدم الأيام. وعليه فتسمية هذه البلاد سورية هي أقدم كثيراً من أيام علماء اليونان المعروفين. هذا ملخص ما قاله الأب دي كارا ونراه قريباً من الصحة.

(١) في كتابه الملوك الرعاة فصل ٩ .

(٢) في تاريخ مصر.

(٣) في المحل المذكور آنفاً.

(٤) تكوين فصل ٢٥ عد ٣ .

الفصل الثاني

الخطوط المصرية الهيروكليفيّة والخطوط المسماريّة ومن اكتشف رموزها

عد ٧

الخطوط المصرية

ترى في الخطوط المصريّة صور دبابات وطيور وأعضاء بشريّة، وغيرها من أشباه الأشياء الماديّة. وقد انقضت السنون بل القرون ولم يهتد أحد إلى حلّ هذه الرموز ولا إلى استخراج شيء من هذه الكنوز الظاهرة للأبصار الخفيّة عن البصائر.

ولما غزا القائد بونايرت (نابليون الأول) الديار المصرية سنة ١٧٩٨ إلى سنة ١٨٠٠م، صحبه بعض العلماء للاستقصاء في الآثار المصرية، وإكساب العلم والصناعة شيئاً من التبخر فيها. فكتبوا شيئاً كثيراً في حالة مصر القديمة والحديثة، وفي ما شاهدوه فيها. ونشرت حكومتهم ما ألفوه في كتاب موسوم برسوم مصر انطوى في تسعة مجلّدات، وتكاملت طباعته سنة ١٨٠٩م وما يليها في باريس. إلا إنّ هؤلاء لم يبلغوا المراد مما كتبه فراعنة مصر على آثارهم. على أنّ ضابطاً من الجيش الإفرنسي يُسمّى بوشار Bouchard عثر في رشيد على صفيحة كتب عليها بالهيروكليفيّة واليونانيّة، والصفيحة الآن في المتحف البريطاني. وقد أكثر العلماء من التفحص عما كتب فيها فلم يفتح على أحد منهم، فكأنّ الكشف كان محفوظاً لشاب إفرنسيّ يُسمّى يوحنا فرنسيس شامبوليون Champollion. ولد في فيجاك سنة ١٧٩٠م وتوفاه الله في باريس في ٤ آذار سنة ١٨٣٢م وكان ذا فكر ثاقب، ورأي أصيل صائب. أشغل ذكاه المتوقّد أليماً متطاولة في التفحص عما كتب في هذه الصفيحة وفي صفيحة أخرى كانت قد وُجدت في جزيرة الهائف في النيل

(على بعد أربعة كيلومترات نحو الجنوب من أسوان) مكتوبة باللغتين الهيروغليفية واليونانية معاً. وكان من التوقيقات الرثائية أنَّ أسماء الأعلام تُكتب عندهم ضمن إطار يُحيطها من جهاتها الأربع، وقد كُتب في صفيحة رشيد اسم بتولمايس. وفي صفيحة الهائف اسم كلوبترا.

ووجد شامبليون في صفيحة أخرى اسم ألكسندروس (إسكندر) فأخذ يعارض الحروف الواقعة في هذه الكلمات بعضها ببعض فوجد مثلاً الحرف الأوّل من بتولمايس والحرف الرابع من كلوبترا واحداً. فعلم أنَّ تلك العلامة دالة على الباء. والثاني من بتولمايس والخامس من كلوبترا واحداً. فعلم أنَّ تلك العلامة بمثابة حرف التاء والثالث من بتولمايس وكلوبترا واحداً فهو الواو. والرابع من بتولمايس والثاني من كلوبترا وألكسندروس واحداً فهو اللام. والثامن من بتولمايس والأخير من ألكسندروس واحداً فهو السين. والسادس من كلوبترا والسابع من ألكسندروس واحداً فهو الراء. والأوّل من كلوبترا والثالث من ألكسندروس واحداً فهو الكاف. فكذا عرف بعض الحروف من هذه الكلمات وغيرها من غيرها إلى أن وجد مفتاحاً لقراءة هذه الخطوط. وكان قد درس اللغة القبطية القديمة وبرع فيها، فأداه ثباته وذكاءه إلى الشرف الوسيم بأن يكون أوّل مكتشف عن قراءة الخطوط المصرية، وأوّل من حلّ رموزها وفتح كنوزها. فنشر سنة ١٨٤٢م كتابه المعنون «خلاصة نظام الكتابة الهيروغليفية» ضمّنه صور العلامات التي اكتشف عنها، وكيفية التلقظ بها. ووضع أصولاً لحلّ ألغازها لم تزل راهنة يُعتمد عليها. ولم يُطل الله عمره بل توفاه في الثانية والأربعين منه. ومن على فراش موته كان يُملي على أخيه كتابه في نحو اللغة المصرية. وقد أنبأنا المجلة الإفريقية المسماة الأرض المقدسة في عددها المؤرخ في غرة شباط سنة ١٨٩٢م أنَّ البعض في برلين نفسها عقدوا العزم على نصب تمثال إجلالاً لشامبليون ذلك الفاتح الشهير، ومن بعد وفاة شامبليون تصدّى لتكملة عمله علماء كثيرون: منهم شرل لانرمان (Lenormant) ونسترلى هوت (Nester L'hote) من إفرنسة. وسالفوليني (Salvolini) وروزاليني (Rosellini) من إيطاليا. ثمّ ليمان (Leemans) من هولندا. واسبورن (Asburn) وبيرش (Birech) من انكلترا. ولبسيوس (Lepsius) من ألمانيا. وبلغ هذا الفن شأوه عمويل دي روجه (Em. de Rougé) ودي سولسي (de Saulsy) ومريات (Mariette) وشباس

(Chabas) وغيرهم من إفرنسة. وبروغش (Brugsch) ودوميكان (Dumichen) وغيرهم من المانيا. وبلايت (Blete) من هولندا. وكودوين (Coodwin) ولاباج (Lepage) من انكلترا وغيرهم. وتكامل هذا الفن حتى أصبح علماؤه يقرأون ما كتب على الآثار المصرية كما يقرأ الخبيرون باللغة اللاتينية كتب شيشرون وغيره ممن كتبوا فيها قديماً.

ولهذه الكتابة المصرية ثلاثة فروع: الهيروكليفيّة؛ وكان يكتب بها على الآثار الخطيرة ما يُراد تخليده. والهيباراتيكيّة وهي موجزة الأولى ومشتقة منها علامة علامة، وكانوا يستعملونها في الحاجات العامة والصكوك المدنيّة والعلوم. ثمّ الداموتيكيّة وهي مختصر الفرع الثاني ومعناها العاميّة، إذ كانت العامة تستعملها في أواخر أيّام المملكة المصريّة. وما كُتب بهذه الفروع الثلاثة إن لم يكن اللغة القبطيّة القديمة نفسها، فهو لا يختلف عنها إلا اختلافاً قليلاً. وفي هذه الكتابة عدا الحروف الهجائيّة علامات أخرى كثيرة لفصل الكلام ولضبط المعاني كالدلالة على أنّ الاسم مذكر أو مؤنث. وبعض العلامات يدلّ على هجاء كامل أو على حرفين معاً، وبعضها يدلّ على تصوّر لا على حروف كصورة الأرقام الهنديّة عندنا. فمن ذلك أنّك تجد في هذه الكتابة صورة إنسان ويده ممتدّة إلى فمه دلالة على فعل أكل، ورسم دائرة عبارة عن الشمس. ولذلك كانت هذه الخطوط عديدة كثيراً حتى أبلغها بروغش سنة ١٨٧٢م إلى ما يُنيف على ثلاثة آلاف علامة. ومن ثمة قد انبثت لغة المصريين القدماء وكتاباتهم من أرماسها، ففتح لنا كنز معارف عديدة جادت على العلم عظيم الجدوى. وزادتنا بياناً وتيقناً بصحة ما رواه الكتاب المقدّس في محال عديدة، وأوضحت لنا آيات كثيرة كانت عثرة المدرك وحلّت مشكلات رابكة كما ستري في كتابنا هذا.

عد ٨

الخطوط المسماريّة

سميت هذه الخطوط مسماريّة لأنّ هيئة حروفها أشبه بمسمار أو زاوية. ومن تلك المسمامير ما هو عرضي وما هو عمودي مفرداً أو مكرّراً. وكذا الزوايا متعددة الهيئات، وكان أمرها مجهولاً كل الجهل، حتى كان بعض العلماء أنفسهم

يحسبون في أوائل القرن السالف أنَّها ليست كتابة بل نقوش، يتبيّن منها كم تُولف هيئة المسار من الهيئات المختلفة المتباينة. ولم يُكتشف عن أنَّها تهجيات وتحلّ ألغازها إلا بعد سنين من الاكتشاف عن الكتابة الهيروكليفيّة وإدراك رموزها. وكان يُكتب بالخطوط المسماريّة بثلاث لغات الفارسيّة والماديّة والآشوريّة، وأوّل من وُفّق إلى معرفة بعض حروفها باللغة الفارسيّة هو العالم كروتفاند (Grotefend) من هانوفر في ألمانيا سنة ١٨٠٢م. فقد كان وجد في فرسبوليس (في الشمال الشرقي من شيراز في مملكة إيران) صفيحتان كُتب في إحدهما «داريوس الملك العظيم ملك الملوك ابن كيستاسف (أو هيسستب الكني) (Achémenides)^(١) هو الذي بنى هذا القصر». وكُتب على الثانية «كسرکس (في الأصل الفارسي كسايرسا، ولعلّه الذي يُسمّيه أبو الفداء وغيره من مؤرخي العرب كيخرس) الملك العظيم ملك الملوك ابن الملك داريوس (دارا) الكيني».

فتكرار العلامات الدالّة على كلمة ملك وتروّيه بأن أحد هذين يخلو نصفه من كلمة ابن إذ لم يكن أبوه ملكاً، نبهاه إلى أنَّ الكلمة المكررة يُراد بها ملك وباقي الكتابة علّمه. ولما كان يعلم أنَّ ذلك الحبل من آثار الملوك الكينيين، فأنبأه ذكاؤه وجده أنَّ الملكين إنما هما داريوس وكيخسرو. وكان بالتوفيق الربّاني أن أوتي إلى باريس بإناء من المرمر وُجد في مصر (وهو الآن محفوظ في متحف باريس) مكتوباً عليه بأربع لغات من جملةتها الهيروكليفي المصري والمسماري الفارسي اسم كيخسرو أو كركس، وكان وجد شامبوليون هذا الاسم، فتبيّن كروتفاند أنَّ حدسه إصابة وصدّقه العلماء في اكتشافه. إلا أنَّه لم يُوفّق إلى الكشف التام عن هجاء هذه اللغة. واستمرّ هذا الفن نحواً من ثلاثين سنة لم يتقدّم خطوة إلى أن اكتشف العالم اوجان بورنوف (Burnof) الإفرنسي والعالم لاسان (Lassan) الألماني عن تهجيات أخرى، وحققا أنَّ ما كُتب في الصفيحتين المار ذكرهما إنما هو باللغة الفارسيّة القديمة. على أنَّ الذي أكمل إحياء هذه الكتابة إنما هو العالم هينك

(١) الكلمة في الأصل الفارسي هاكا مانيزيا. وفي الإفرنسية كما رأيته. وهذه الدولة سماها ابن خلدون في أخباره عن ملوك الطبقة الثانية من الفرس الكينية، لأن اسم كل واحد من ملوكها الأولين يتدّى بكي. وسماها أبو الفدا في الفصل الثاني من تاريخه في ملوك فارس الكينية. وقال إن كي معناه الروحاني أو الجبار.

(Hincks) من دوبلين في إيرلندا سنة ١٨٤٦م والعالم اوبر (Oppert) في باريس سنة ١٨٤٧م دون علاقة لأحدهما بالآخر.

والاكتشاف على مآل الخطوط المسمارية في اللغة الفرنسية يشر الاكتشاف على مآلها في اللغات البابلية والآشورية والمادية. واكتشاف العالم بوتّا (Botta) قنصل إفرنسة في الموصل عن موقع نينوى سنة ١٨٤٦م وما غنمه من الآثار، واكتشاف العالم هنري لايرد (Henry Layard) الإنكليزي من سنة ١٨٤٩م إلى سنة ١٨٥١م عن آثار أكثر من أن تُعدّ في كوينجك وفي نمرود، يشرت للعلماء راولينسون وهينك وفكس ثلوت من انكلترا ودي سولسي واوبر من إفرنسة حلّ رموز هذه الكتابة واغتنام كنوزها. وظهر أنّ بعض علامات هذه الكتابة دالة على تصوّر كامل كما مرّ في الهيروكليفيّة، وأنّ قسماً كبيراً منها يدلّ على هجاء تام، أي على حرف وحركته، وبعضها يدلّ على حروف معاً، فكان لنا بهذه الخطوط. أيضاً كنز توقّر النفع به للعلم والدين.

وقد قدّر الأب فيكورو (في كتابه المسمّى الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلّد ١ صفحة ١٧٦ طبعة ٤)^(١) أنّ الآثار التي وجدها لايرد في المكتبة الملكية في نينوى لو تُرجمت برمتها لتألف منها خمسمائة مجلّد؛ حوى كلّ مجلّد خمسمائة صفحة بقطع الربع. وهي مشتملة على كلّ فنّ، وعلم اللاهوت والفلك والتاريخ السياسي والتاريخ الطبيعي، وكتب أصول اللغة ومعجماتها والجغرافية وغيرها، وكلّها مطبوع في الآجر فضلاً عما وجده غير لايرد من الآثار، وفضلاً عما نُقش على الأبنية والصخور والمدافن. وسترى أهمية هذه الاكتشافات عند مطالعة كتابنا هذا، فنُسدي الله حمداً لا ينقضي وشكراً لا ينتهي على ما منّ به في هذا العصر وقت معظم الحاجة إليه. وسنعلّق على هذا الكتاب مثلاً للخطوط الهيروكليفيّة والمسمارية.

J. Vigoureux, La Bible, et Les Découvertes Modernes. (١)

الفصل الثالث

عد ٩

خلق العالم

ليس من تاريخ أقدم زماناً وأصدق إنباء من أسفار التوراة التي كتبها موسى بإلهام الله، فنعتمدها في كلامنا ونزيد ثبوتها بياناً بما ورد في كتب الأقدمين وبما جُذت علينا به الاكتشافات الحديثة. ففي مفتتح سفر التكوين: «في البدء خلق الله السموات والأرض وكانت الأرض خاوية خالية (وفي العبرانية توهو بوهو). وعلى وجه الغمر (بالعبرانية تهوم) ظلام. وروح الله يرفّ على وجه المياه»^(١). إلى أن قال: «إنَّ الله خلق في اليوم الأوّل النور، وفي اليوم الثاني فصل المياه العليا والمياه السفلى، وفي اليوم الثالث خلق النبات والأعشاب والأشجار، وفي الرابع الشمس والقمر والكواكب، وفي اليوم الخامس الأسماك والطيور، وفي اليوم السادس خلق الدبابات والبهائم، ثمَّ الإنسان على صورته ومثاله؛ ذكراً وأنثى خلقهما. وفرغ من عمله واستراح في اليوم السابع.

وقال في كلِّ مما مرَّ: «وكان مساء وكان صباح يوم أوّل» ثمَّ يوم ثانٍ إلى الآخر. ثمَّ عاد في الفصل الثاني مفصّلاً كيف خلق الله الإنسان، فقال إنَّه جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في وجهه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حيّة، وأوقع سبائباً على آدم فاستلَّ إحدى أضلاعه، وبنى الضلع التي أخذها من آدم امرأة، وأتاه بها. فهذه خلاصة ما كتبه موسى في خلق العالم والإنسان، متعمّداً به لا أن يعلم العبرانيّين علوم الطبيعة والجيولوجيّة (أي الكلام في الأرض وطبقاتها وتكونها) والفلك، بل أن يرشدهم بعبارة ساذجة يدركونها إلى الصحيح في خلق العالم والإنسان، وقاية لهم من فساد أذهانهم بما كان يعلمه الوثنيّون من مصرّين وغيرهم من أحاديث خرافة في مادّة هي أوّل أركان الدين وأساس المعتقد الصحيح.

(١) إننا نعتمد في ذكر الكتاب المقدّس نسخته التي طبعت في مطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت.

فالآية الأولى الكريمة وهي «في البدء خلق الله السماوات والأرض» تأولها بعضهم بمعنى أنها خلاصة موجزة لكل ما تبعها من الكلام في خلق العالم وما فيه. والأظهر أن المراد بها خلق المادة الأولى أو عناصر المادة، ويؤيده قوله التابع أن الأرض كانت خاوية خالية أي ليس فيها شيء إلا المادة وهي مشوشة لا نظام لها. وقوله في البدء معناه قبل أن يكون شيء، وخلق (بالعبرانية بَرَأ) أي أتى بالمادة من العدم إلى حيز الوجود إذ لم تكن موجودة قبلاً. يضاد موسى بذلك الذين قالوا بأزلية المادة وهو مستحيل لأن المادة معلول، ولا معلول دون علة، فيتحتم وجود علة خالقة لها ويستحيل أن تكون علة لنفسها وإلا فتكون وتفعل قبل أن تكون. وقوله: إن روح الله كان يرف على المياه بعد خلق المادة وقبل إيجاد النور؛ يُراد به الروح القدس أو الريح. فإن اللفظ العبراني (رواح) يتناول المعنيين والثاني هو الأظهر، فكأن موسى أراد أن يبين أن الله جعل في ذرات المادة التي خلقها حركة كحركة الريح كانت علة لتكوينها التابع كما سترى.

قد روى موسى أن الله كوّن العالم بستة أعمال سَمّاها أياماً، وجعل كلاً منها مفصلاً عن الآخر بمساء وصباح. فكلمة (يوم) بالعبرانية لا يُعتبر بها دائماً عن اليوم الطبيعي المؤلف من أربع وعشرين ساعة، بل كثيراً ما يُراد بها مجموع أيام عديدة. فقد ورد في سفر التكوين نفسه (فصل ٢ عد ٤) «هذه مبادي السماوات والأرض إذ خلقت يوم صنع الرب الإله الأرض والسماوات». ولا مرية بأن اليوم في هذه الآية عبارة عن مجموعة أيام عديدة، ولا أقل من الستة أيام التي ذكرها في الفصل الأول. ومثله قوله في سفر التثنية (فصل ٩ عد ٢٤) «منذ يوم عرفتكم ما برحتم معاصي الرب» ولا إشكال بأن المراد باليوم هنا المدة لا اليوم الطبيعي.

وأمثال هذا كثيرة في سائر الأسفار ونبوات الأنبياء، وقد حقق خبيرون باللغة العبرانية أن ليس فيها لفظ يدل على اليوم والمدة والعصر إلا كلمة (يَوْم)، ثم إن اليوم الطبيعي مقياسه حركة الشمس، فلا مقياس له قبل إبداعها في اليوم الرابع، وإذا لم تكن الأيام الثلاثة الأولى أياماً طبيعية فلا تكونها كذلك الأيام التابعة. ولا نجعل أن بعض الآباء قالوا بحسب حالة العلم في عصرهم إن أيام الخلق طبيعية، لكن بعضهم الآخر وأشهرهم القديس أغوستينوس وجميع علماء مدرسة الإسكندرية الذين فسروا الكتاب، والقديس توما الأكويني أثبتوا أن الكلمات يوم

ومساء وصباح في الفصل الأول من سفر التكوين مجازية لا يُراد بها معناها الحقيقي بل العصر أو الحقبة أو المدة. فقد عبّر موسى إذاً بكلمة يوم عن العصر الذي انقضى بين تكوّن كل من الكائنات التي ذكرها وبين ما تلاه. فغرضه من ذكر المساء نهاية ذلك التكوّن، ومن ذكر الصباح بداية تكوّن غيره. وأما كم هو مقدار تلك الأعصار أو الأحقاب فلم يتيسّر للعلماء إلى الآن تعيينه. وما دلّ عليه علماء الجيولوجية والفلك إنما هو أنّ تلك الأعصر كناية عن ألاف مؤلفة من السنين.

عد ١٠

تكوّن الكائنات

وأما كيفية تكوّن الكائنات فما على المؤرخ الكلام فيها لأنّ ذلك من مواد علمي الجيولوجية والفلك. على أنّنا نلتخص شيئاً منه كلفاً بتوقّر الفوائد وبياناً للمطابقة بين اكتشافات العلم وما كتبه موسى. فالمذهب الذي يُسلّم به عامة العلماء بهذا الفن أنّ الذرات (التي سمّاها بعضهم الأثير لفظ يوناني) أي مبدأ المادة ومبدأ تكوّن السماء والأرض خلقها الله أولاً. وقد أنبأنا اكتشافات الأب ساكي اليسوعي وغيره أنّ التركيب الكيماوي في الأجرام السماوية والأرضية واحد في أصله وجوهره.

وكان الظلام في البدء عاماً طبق ما قال موسى وعلى وجه الغمر ظلام. وجعل الله في عناصر المادة قوّة التجاذب، فوجدت مراكز للجذب في نقط عديدة من الفضاء؛ فكانت مبدأ لكرات سديمية أي ضبابية ومبدأ للحركة. ثمّ إنّ حركة هذه الكرات في داخلها نحو مركزها ودورانها على محورها أصدرت شيئاً من الحرارة، واشتداد الحرارة تدريجاً أصدر النور، وعند تكاثف الكرات انبعثت من جوانبها أنوار تُضيء. ثمّ تجزأت فكانت أجزاءها كواكب، وانتهت بأن جعلتها الحرارة ملتهبة. والأرض كوكب من هذه الكواكب، وإلى حالتها هذه أشار موسى بقوله كانت الأرض خاوية خالية، وأبان هذا التكوّن بقوله إنّ الله خلق في اليوم الأول النور وفصل بين النور والظلام.

ثم إنَّ الكرة الأرضية بعد انتقالها من الحالة الغازية إلى حالة سائل ملتهب لبداً وجهها يتجمد بواسطة البرد، وتكون حولها جلد مظلم مشبع ببخارات معدنية ومائية، وبمقدار ما كان يتواصل البرد كانت المواد المتطايرة حول الكرة تتجمد تباعاً الثقيلة منها أولاً. على أنَّ ما كان منها أكثر خفة، كبخار الماء الذي كان في أعلى الفضاء، تكاثف بمماسسته للأنعاء الأكثر برودة، فتكوّنت منه قبة من سحب كثيف فوق الكرة، وانبسط الجلد كما نراه في الفضاء المتوسط بين هذا المحيط الهوائي المطروق من الأرياح وبين وجه الأرض؛ وهذا هو معنى فصل المياه العليا عن المياه السفلى بواسطة الجلد الذي ذكر موسى أنَّ الله صنعه في اليوم الثاني^(١). أو المراد بهذا على قول آخرين تجمد قسم من الأبخرة المائية المسماة المياه السفلى وفصلها عن المياه التي لبثت في حالة البخار فسمّاها مياهاً علوية.

على أنَّ الجوّ لم يكن حينئذ نقيّاً حتى يمكن أن يصل إلى الأرض نور كافٍ لإتمام النبات فيها. فإنَّ النور ضروريّ لنمو النبات، فإذا صلحت الأرض لذلك في العصر الثالث جعلها الله فيه تنبت نباتاً يبذر بذراً، طبق ما قال موسى إنَّ الله خلق النبات في اليوم الثالث. على أنَّه قد تبين لعلماء الجيولوجية من الآثار التي اكتشفوا عنها أنَّه لم يكن في هذا العصر الثالث كلّ أنواع النبات، بل ما كان منها أقلَّ احتياجاً إلى النور والحرارة. ولم يكن نبات هذا العصر زاهياً بألوانه، بل كان أكثر نمواً وضخامة. وباقي النبات أوجده الله بعد ظهور الشمس والقمر في العصر الرابع. وذكره موسى هنا قبل وقته مستطرداً لئلا يتكلّم مرتين على خلق النبات. وطالما اعترض الكفار على تاريخ موسى قائلين كيف ينمو النبات دون الشمس وقد وُجد قبلها. ويكفي مؤونة ردّ زعمهم ما قاله العالم بفاف^(٢): «إنَّ النبات لا يحتاج الشمس، بل يكفيه النور والحرارة وليس من يمتري بوجودهما قبل الشمس». وقد اختبر بعض العلماء إتمام بعض النبات فكفاهم له ضوء كبير من الغاز.

قد ذكر موسى أنَّ الله خلق في اليوم أي العصر الرابع الشمس والقمر والكواكب. وذهب بعض العلماء إلى أنَّ الشمس كانت في الأعصر السالفة كجرم منير ولكن لم تكن أشعتها تصل إلى الأرض لعدم صفاء الجوّ. وحيث إنَّ موسى

(١) كودا في الدروس الكتابية Godet Etudes Biliques I Seric. p. 406.

(٢) في كتابه في خلق العالم Phaff Schop Fungsgeschichte pag 745.

كان يكتب تاريخ الأرض لم يذكر إبداع الله لها إلا عند اتصال أشعتها إليها وانتفاعها بها. على أن فهم كلام موسى بحسب ظاهره وحرفيته لا يُضاد العلم بشيء. قال العالم بفاف (في المحلّ المارّ ذكره): «إنّ شمسنا كوكب حقيقي ثابت وعليه فظهورها بمنزلة كوكب ممتاز عن غيره يحتمل ان كان مع ظهور سائر الكواكب الثابت، وليس في علم الفلك ما يعترض به على هذا المذهب... فلا محلّ هنا إذاً للبحث في تناقض بين علم الفلك والكتاب».

لما كان النبات الذي وُجد في العصر الثالث امتصّ كمية كبرى من الأكسيد أي الحامض الكربوني، وجاءت أشعة الشمس في العصر الرابع تزيد الحرارة والنور فتتقيّ الجو، وصلحت الأرض للحياة الحيوانية، فأبدع الله حيوانات البحر والطيور أولاً طبق قول موسى إنّ الله خلق في اليوم أي العصر الخامس زحافات البحر والحيتان العظام والطيور.

وقد قسّم علماء الجيولوجية عصر التوليد هذا إلى ثلاث مدد: المدة الثانوية وهي عبارة عن العصر الخامس في كلام موسى، والمدة الثالثة والرابعة وهما عبارة عن العصر السادس في كلام موسى، وطبقات الأرض تُثبت هذا التقسيم إثباتاً قاطعاً. وأخص ما يُستدل به على المدة الثانوية طبقات صخور تُرى في محال عديدة وفيها بقايا حيوانات بحريّة ظاهرة وكثيرة. وقد وُجد في طبقة الأرض هذه بقايا زحافات كبيرة هائلة حتى كان طول بعضها عشرين متراً، واكتُشفت فيها أيضاً بقايا طيور كبيرة من نوع النعام، ولم يوجد البتّة أثر لطائر قبل هذه المدة؛ كلّ ذلك مصداق لما كتب موسى. ثم إنّ هذه المدة الثانوية لم يوجد فيها شيء من الآثار لذوات الأنداء أي البهائم والوحوش، وتلك بيّنة أخرى قاطعة على صحّة كلام موسى أنّ الله أوجد البهائم والدبابات والوحوش في اليوم أي العصر السادس الموافق بداية المدة الثالثة في كلام علماء الجيولوجية.

وقد اكتشف في طبقة الأرض المنسوبة إلى هذه المدة بقايا بهائم وذوات أربع في محال عديدة، وبعضها كبير الهيكل كثيراً. ووُجد في طبقة الأرض عند الانتقال من المدة الثالثة إلى الرابعة بقايا ذوات أنداء قريبة من ذوات الأنداء في أيّامنا. ولا توجد آثار مؤكدة لبقايا الجسم الانساني إلا في طبقة الأرض المنسوبة إلى

المدّة الرابعة الموافقة لآخر اليوم أي العصر السادس الذي أنبأنا موسى أن الله خلق الإنسان فيه.

وعليه فتاريخ موسى مطابق لما اكتشفته العلوم الطبيعيّة طباقاً تاماً من حيث الجوهر. ولما كان موسى لم يتعمّد أن يكتب إلا تاريخ الإنسان إبتدأ تاريخه من خلق الإنسان لا من خلق المادّة الأولى، واكتفى بالإشارة إلى إبداعها وإلى تكوّن سائر الكائنات دون أن يتعرض لذكر كمية السنين التي مرّت بها قبل خلق الانسان، وقد مرّ أن العلماء مُجمعون على أنّها ألوف مؤلفة من السنين.

عد ١١

خلق الإنسان

اننا نراه تعالى استعمل نوعاً مخصوصاً في خلق الإنسان. فاجتزأ بمجرد الأمر في خلق سائر الكائنات بقوله ليكن نور ولتكن نيرات ولتنبت الأرض نباتاً إلى الآخر. وأما في خلق الإنسان فكأنّه عقد مشورة إذ قال لنصنع إنساناً على صورتنا ومثالنا وليتسلّط على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض. فما ذلك إلا لأنّه جعله مترقّعا على الكائنات الأرضيّة متسلّطاً عليها، كأنّ الأرض وما سُخّر لها خلقت له.

ثمّ عاد إلى الكلام في تكوينه في الفصل الثاني من سفر التكوين فقال: «إنّ الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان ذا نفس حيّة» مبيناً بذلك أنّه مؤلّف من جزئين ترايي وهو الجسد وروحاني وهو النفس؛ جزء كونه من تراب وجزء بسيط أكسبه إياه بنفخة في أنفه نسمة الحياة، وسماه بعد ذلك آدم، ومعنى الكلمة أحمر مأخوذاً عن آدمه بالعبرانيّة ومعناها التراب الأحمر الذي جبله منه كأنّه ليتذكر دائماً أنّ أصله من تراب. ثمّ قال الكتاب: «إنّ آدم لم يوجد له عون يازائه فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام، فاستلّ إحدى أضلاعه وسدّ مكانها بلحم، وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة، فأتى بها آدم فقال: ها هذه المرأة عظم من عظامي ولحم من لحمي»، وسمّى الكتاب المرأة حواء، ومعناه الحياة، لأنّها والدة الأحياء في البشر. وما أحسن ما قال

القديس توما إنَّ الله لم يأخذ حوًا من رأس آدم تدعي أن تدبره وتتسلط عليه، ولا من رجله لئلا يحتقرها ويعتدّها جارية له، بل أخذها من وسطه ليعتبرها ويحبّها كجزء من جسمه.

زعم الكاردينال كاتانوس^(١) أنَّ كلام الكتاب في تكوين حوًا من إحدى أضلاع آدم إنما هو مجازي لا تاريخ حقيقي، وعلل رأيه بأنّه لو كان هذا الكلام تاريخياً وضعياً لأدانا إلى القول بأحد محالين؛ إما أنَّ آدم كان مسخاً لزيادة ضلع في تركيب جسده، إما أنَّ جسده كان بعد أخذ الضلع ناقصاً غير كامل. وقد كان أوريغانوس جنح إلى مثل هذا التفسير (في ردّه مزاعم شلسوس)، فالكنيسة لم تحرم حتى الآن القول بمقال كاتانوس لكنَّ آباءها مجمعون على خلافه. فقال القديس إيرونيموس^(٢) «إنَّ الله جبل آدم وكون حوًا من جنبه». وقال القديس أغوستينوس^(٣): «إنَّ كلام موسى في سفر التكوين ليس البتّة مجازياً أو من باب الكناية كنشيد الإنشاد، بل هو إيراد أخبار وضعية مقروناً بالسذاجة والأمانة كأخبار سفر الملوك. ومن الضلال الفظيع الزعم أنّه لا يورد تاريخاً وضعياً إلا بعد ذكر الطرد من الفردوس الأرضي». على أنَّ برهان الكاردينال كاتانوس قاصر ضعيف المستند. نقول هذا على إجلالنا لمقامه وعلمه أفلا يقدر الله على ذلك؟ فهذا هو المحال حقيقة. وأخذ ضلع من جسد آدم لا ينتج منه أنّه كان مسخاً ولا أنّه أمسى بعد ذلك ناقصاً، إذ صرح الكتاب بأنّه شدّ مكان الضلع بلحم ومن يعلم قدر ما أخذ الله من جسد آدم^(٤)؟

عد ١.٢

إثبات إبداع الله للعالم والإنسان بالآثار القديمة

إذا تبصّرنا في آثار كلّ القبائل القديمة لاسيّما بعد الاكتشافات الحديثة، ألفينا عندها التقليد الدال على خلق العالم والإنسان كما جاء في الكتاب، وإن مشوباً

(١) مجلد ١ صفحة ٢٢ من تأليفه المطبوعة في ليون.

(٢) في تفسيره رسالة فيليمون.

(٣) في تفسيره الحرفي لسفر التكوين.

(٤) ملخص عن الوجيز الكتابي للأب فيكورو عد ٢٨٦ Vigoureux Manuel Biblique.

بحكايات وأقاصيص أدخلها الجهل وعبادة الأوثان على التقليد الصحيح. ولما كان موسى من ذرية إبراهيم، وإبراهيم هاجر أرض الكلدانيين آتياً إلى أرض الكنعانيين، واستودع ذريته التقليد الصحيح في خلق العالم وما تبعه كتبه موسى كما تلقاه من أجداده. فلهذا، إذا عارضنا ما كتبه موسى بما اكتشف من آثار الكلدان القديمة العهد، وجدنا ما كتب في بابل وبلاد الكلدان في خلق العالم وما يليه، شديد المطابقة لما كتبه موسى؛ وكأنه لا فرق بينهما إلا في بعض الشوائب المشار إليها، وإلا من حيث التعليم بوحدانية الله في كتب موسى وبالشرك في ما كتبه الكلدان في آثارهم، حتى أذهلت هذه المطابقة آباء الكنيسة وهم لم يكونوا يعلمون من تقليد الكلدان إلا ما كتبه باروز الكاهن البابلي في اليونانية في عصر خلفاء إسكندر، كاشفاً عن تاريخ بلاده منذ خلق العالم، فكيف الآن وقد اكتشف عن آثار عديدة أنبأنا ما كان تعليم المدارس الكهنوتية على ضفاف الفرات ودجلة، وظهر لنا منها أن تكوين العالم كان في ستة أيام، وأن المخلوقات كُتبت بعضها بعد بعض في النظام نفسه الذي كتبه موسى. وقُصت علينا أخبار الطوفان وبليلة الألسن وتفرق الأمم كأنها وأخبار موسى سواء، إلا من حيث الوحدانية والشرك والتباين في الاسماء والتشوش ببعض أقاصيص وثنية، حتى قال فرنسيس لانرمان^(١): إنه يحق لنا أن نرى أحد أمرين؛ إما أن ما كُتب في سفر التكوين نسخة عن التقليد الكلداني، نقاها موسى بإلهام الله من ضلال الشرك ومذهب الحلول (أي انتشار الإله في كل موجود). إما أن تعليم سفر التكوين وتعليم كهنة الكلدان نسختان عن أصل واحد عام هو التقليد الأولى حُفظت الأولى منهما بعناية الله سالمة، وشيبت الثانية بأحاديث خرافة وأقاصيص أدخلها كهنة الأوثان تمكيناً لمزاعمهم ولم يتمكنوا من إخفاء الأصل وإن شوهوه.

وأولاً إن الآثار الكلدانية عند ذكرها خلق السماء والأرض تذكر السماء قبل الأرض كما في رواية موسى. ومما يستدعي الالتفات أنه وجدت آثار كُتب عليها بثلاث لغات الفارسية والسوسية والأشورية ما يتعلق بخلق العالم. ولكل من هذه الكتابات ترجمة حرفية عن الأخرى إلا في كلمة «بوميم» التي هي في الفارسية

(١) في التاريخ القديم للمشرق مجلد ١ صفحة ١٩ طبعة ٩ F. Lenormant Hist. Aneinne de l'Orient

بمعنى الأرض، فإنك ترى تجاهها في الآشورية كلمة دالة على السماء في آثار عديدة كُتبت بهذه اللغات الثلاث معاً. فأثبت تعدد الكتابات على نمط واحد أنَّ الأمر لم يكن اتفاقاً ولا سهواً، بل غرضاً مقصوداً. ولدى التفحص عن وجهه وُجد أنَّ الفرس يُسمّون هرمزدا أبا الأرض والسماء، والآشوريّين يعتقدون الإله خلق السماء أولاً ثمَّ الأرض. فالترجم الفارسي أبي مجارة الآشوريّين في معتقدهم. ومهما يكن فذلك دليل صريح على أنَّ إلهاً خلق العالم. ثمَّ قد مرَّ بك أنَّ قول الكتاب: «وكانت الأرض خاوية خالية» هو في العبرانية توه وبوه أي عديمة النظام، وأنَّ الظلام من قوله: «وعلى وجه الغمر ظلام» هو في العبرانية تهوم.

فقد وُجد في آثار الآشوريّين كلمة بوه مراداً بها آلهة الغمر أي البحر، أو آلهة الكاؤس أي التشوش وعدم النظام؛ فكأنَّهم سَمَّوها بذلك للدلالة على قدمها أو على معاونتها في انتظام ذلك البوه. وقد وُجد أيضاً في بعض آثار الكلدان تسمية إحدى معبوداتهم تهوم أو تهومتى؛ ومعنى الكلمة عندهم الغمر أو مجتمع الماء والبحر واللجة. ولنأت إلى ما هو أكثر بياناً؛ أنَّ باروز المار ذكره قال في تاريخه إنَّ أوناس الذي جعله أول إنسان كتب كتاباً قال فيه إنَّه كان زمان لم يكن فيه إلا ظلام وماء إلى أن يقول: «وكانت امرأة اسمها أوموركا تولّت الخلق يُسمّونها الكلدان تهوت (أو تهومت) وفي اليونانية الغمر. وبينما كانت الأشياء في هذه الحال أتى بالوس (الإله) فشقَّ المرأة (أي البحر أو المياه) نصفين؛ فكانت الأرض من نصفها السفلي والسماء من نصفها العلوي. وفشّر باروز ذلك بقوله هذا كلام مجازي، يتبيّن منه خلق العالم والكائنات من مادة رطبة... كذا ميزبالوس وهو الذي يُسمّيه اليونان ثاؤس (الله) النور من الظلام وفصل السماء عن الأرض ورتب العالم... وكوّن الكواكب والشمس والقمر والسيّارات الخمس. وقد جاءت آثار الآشوريّين والكلدان وصورهم مصداقاً لما كتبه باروز في تاريخهم.

وأوضح مما مرَّ ما ترجمه العالم جرج سميث^(١) عن بعض صفائح الآجر في مكتبة نينوى التي اكتشف عنها لايرد ونشره في أواخر سنة ١٨٧٥م، فإنّه عثر في هذه المكتبة على صفائح يظنُّ أصلها إثنتي عشرة صفحة كُتب عليها تاريخ خلق الكائنات. ولسوء البخت لم تخلُ إحداها من تشويه على أنَّ الباقي وافٍ بشيء من

(١) J. Smith The Chaldaen. Account Of Gencsis p. 29

المقصود. وقد كُتب على هذه الصفائح في عهد آشور بانيبال ملك آشور لنحو سنة ٦٧٠ ق.م لكنّ المكتوب نسخة عن نصوص أكثر قدماً مأخوذة من بلاد الكلدان، وقد برهن سميت أنّ النصوص الأصلية كُتبت من أكثر من ألفي سنة قبل الميلاد، حتى يترجح أنّ هذا التقليد الذي حفظه لنا الكتبة الآشوريون أقدم من أيام موسى بل من أيام ابراهيم أيضاً. وقد نظم سميت ما وجده في هذه الصفائح في أقسام؛ فجعل في الأول منها الكلام في الكاؤس أي الغمر وعدم الانتظام ومولد الآلهة. وفي الثاني تأسيس الغمر. وفي الثالث خلق الأرض. وفي الرابع إبداع الأجرام السماوية. وفي الخامس إبداع الحيوانات الأرضية. وفي السادس وهو مؤلف من ثلاث صفائح خلق الإنسان. وفي السابع وهو مؤلف من عدّة فقرات الحرب بين الآلهة والأرواح الشريرة. وهاك ما كُتب أولاً ويظن لتكسر الصفائح أنّه من الصفيحة الأولى «إنه كان وقت لم يكن يُسمّى فيه ما فوق سماء ولا ما تحت أرضاً، فالغمر غير المتناهي كان أصلها (أي أصل السماء والأرض)، والغمر الذي تولّد منه كلّ شيء كان كاؤس (أي عديم النظام) فاجتمعت الأمواه معاً وكان حيثن ظلام دامس ولا شيء من النور، وكانت ريج عاصفة... ولم يكن اسم تسمّى» ثم يفصل موالد الآلهة. وما أخرى هذا الكلام أن يكون شرحاً لآيات سفر التكوين «وكانت الأرض خاوية خالية وكان على وجه الغمر ظلام وكان روح الله يرفّ على المياه».

على أنّ الصفائح الثلاث التابعة الأولى لم تزل مفقودة، ويترجح أنها تشتمل على تاريخ إبداع النور ثم الجلد أو الرقيق ثم تبييس الأرض وإبداع النبات. ووُجدت فقرة موجزة يتبيّن منها جعل الأرض يابسة كُتب فيها: «وعندما وضعت دعائم الأرض فسميتها أساس الأرض... أنت جعلت السماء». ثم أنّ ما كُتب في الصفيحة الخامسة يطابق ما كتبه موسى في مبدعات اليوم الرابع. فإنّ هذه الصفيحة تُنبئنا بإبداع الكواكب والقمر والشمس لتكون علامات تفصل بين الفصول والأيام والسنين كما جاء في سفر التكوين، ودونك ما كُتب فيها أنّ الإله: «قسم المنازل وهي سبع عدداً على الآلهة الكبار وعين الكواكب لتكون مراكز للدوائر السبع، وخلق مدار السنة وقسمته إلى عشرات وجعل لكلّ من الإثنين عشر شهراً ثلاثة كواكب من يوم بداية السنة إلى نهايتها، وأعطى الإله نبير منزله لتجدد الأيام في حدودها كي لا

تقصر ولا تنتهي... وعهد إلى نانار (القمر) أن ينير الليل وجعله يتجدد ليخفف ظلام الليل ويديم النهار. ففي كل شهر تتم (أيها القمر) دائرتك وفي مبتدئها يستحوذ الليل فلا ترى القرون (كأنه يُريد جوانب القمر)... وفي اليوم السابع تكمل الدائرة من اليمين إلى الشمال ولكن يبقى النصف منه محجوباً بالظلام، وفي وسط الشهر تكون الشمس في أعماق السماء عند بزوغك... فاطلع وغب بحسب الشرائع الأبدية. وترى القمر هنا مُفضّلاً على الشمس كما في سائر أقاصيص الآشوريين، فإنّ الإله أور أو سين أي القمر عندهم مُقدّم على الإله شماش أي الشمس.

وقد وُجدت فقرة يُظنّ أنها من بقايا الصفيحة السابعة تُطابق ما قيل في الكتاب عن مبرّوات اليوم السادس، وهي: «وفي هذا الزمان أيدع الآلهة باجتماعهم... ثم كوّنوا مخلوقات حيّة... حيوانات البرية ووحوش البرية ودبابات البرية» فترى تقسيم الحيوانات إلى ثلاثة أصناف طبق ما قيل في الكتاب (تك فصل ١ عد ٢٥) «فصنع الله وحوش الأرض بحسب أصنافها والبهائم بحسب أصنافها، وكل دبابات الأرض بحسب أصنافها». وأما الفقرات التي موضوعها خلق الإنسان فهي مفقودة أو مشوّهة حتى لا يمكن تحصيل معنى أكيد لها، ومع هذا حَسِبَ سميت أنه استطاع منها على خطاب القاه الله على الإنسان الأوّل والمرأة الأولى، حضّهما به على العمل بما فُرض عليهما وأوصاهما بالمحافظة على البرارة والثقى. وروى لانرمان^(١) أنه وُجدت فلذة من آجر يُظنّ أنها من الصفائح المذكورة (المحفوطة كلّها في المتحف البريطاني) كُتب عليها أنّ آيا إله الفهم السامي وربّ الحكمة هو الذي «صوّر يديه الجبلية البشرية لتكون خاضعة لها للآلهة وهو إله الحياة البارة والمرشد إلى التقوى وهو الذي يُحيي الموتى... والرحيم الذي به الحياة».

ثم إنّ اسم آدم في الآشورية «ادمي أو ادمي» عن العبرانية. وقد وُجد في آثار آشورية كثيرة ذكر يوم السبت أو السابع من الأسبوع موصوفاً بأنه يوم راحة لا يحلّ فيه عمل طبق ما جاء في التكوين (فصل ٢ عد ٣)، وتسمّيه هذه الآثار ساباتو كما يُسمّيه العبرانيون، وبعضها يفسّر الكلمة بمعنى يوم راحة القلب. والحاصل أنّ الآثار الكلدانية تُطابق نصّ موسى في خلق العالم والكائنات ولا

(١) مجلد ١ من تاريخه القديم للمشرق المازّ ذكره صفحة ٢٣ طبعة ٩.

تخالفه إلا بما شَوَّه الجَهِل أو الشُّرك وعبادة الأوثان ولننظر في آثار غيرهم من القبائل. إنَّ الآثار المصريَّة أيضاً يظهر منها ما يُطابق كلام موسى في إبداع العالم. فقد نشر العالم شبَّاس سنة ١٨٥٧م ترجمة ترنيم لازوريس أحد معبودات المصريين. يُقال فيه إنَّ أزوريس هذا «صنع هذا العالم بيده أمواه ورقيعه ونباته وجميع ماشيته وطيوره وأسماكه ودباباته وذوات الأربع فيه». فالتعداد تام ويخلو عن الإنسان فقط لأنَّ المصريين ينسبون خلق الإنسان إلى الإله توم أو كوم كما سترى بعينه^(١). وهاك مقابلة بين كلام موسى وآثار المصريين أوردها العالم مريات في مقالة كتبها في أمَّ الإله أيس ونشرها سنة ١٨٥٦م فقال: «إنَّ المصريين، رغبةً في الدلالة على مجموع آلهتهم، استعملوا كالتوراة (في كلمة ألوهيم) تعبيراً دالاً على الجمع، وللمفرد في هذا التعبير المحلَّ الأول، إذ من وراء الجمع إله وحيد يُراعى به تعداد قوَّاته ككلمة الوهيم في التوراة». ولكن حيث يقول العبراني في الإله غير المتناهي: «إنَّ الرب الإله (الوهيم) خلق بالمفرد». يقول المصري لما لا يُخفى من مبدئه: «إنَّ الرب الآلهة خلقوا» بالجمع. على أنَّ الإله الوحيد عند المصريين ليس الإله الوحيد عند اليهود، فموسى لاستمساكه بتصوُّر الإله العظيم يُصرِّح بدون خوف بقوله يهواه ألوهيم خلق، والكهنة المصريون يروغون ولا يمكنهم أن يقولوا إلا إنَّ الرب الآلهة خلقوا لاعتبارهم الرب بمنزلة مجموع آلهة أخرى. ويتفق الفريقان على أنَّ العالم مخلوق، وأنَّ الرب خالق، وإن اختلفا في تصوُّره واسمه وعدده.

وقد تبين من آثار مصريَّة عديدة أنَّ المصريين الأقدمين اعتقدوا أنَّ الإله السامي توم أو خنوم (ومعناه مصوِّر الكائنات وباريها) كَوَّن الإنسان من تراب. وترى في هيكل دندرة صورة ناتئة تصلح أن تكون لما ورد في العدد السابع من الفصل الثاني من سفر التكوين من أنَّ الرب جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ فيه نسمة الحياة. فتشاهد في تلك الصورة الإله خنوم جالساً على كرسي ويده الواحدة على رأس غلام يكوِّنه والأخرى على رجله، وتجاه الإله الآلهة جاثية تقدِّم إلى أنفه رسم صليب في أعلاه حلقة أو ممسك وهو رمز الحياة في عرفهم. وذكر لانرمان^(٢) صورة أخرى في هيكل أسنه تمثِّل الإله خنوم جالساً على كرسي ورافعاً يديه

(١) ذكر ذلك الأب فيكورو في معجم الكتاب في كلمة آدم.

(٢) في كتابه التاريخ القديم مجلد ١ صفحة ٢١ طبعة ٩.

وأمامه شخصان على عنقيهما عقد الملك، وتجاهه الآلهة بيدها رمز الحياة، وهو الصليب تُدنيه من أنفيهما. وكثيراً ما ورد في آثارهم أنّ الإنسان كُوّن من طين النيل. ومن تقليداتهم المقررة أنّ مبدأ الأشياء المادية كلّها هو السائل الأولي أي الأمواه السمويّة.

ومن تقليدات الفينيقيين التي أوصلتها إلينا فقرات سنكونياتون تسليمهم بإنسان أوّل وامرأة أوّل أوجدتهما الريح كليباس وعرسه باهو (هو مشوّش ما ورد في الكتاب عن الغمر توه وبوه وعن روح الرب الذي كان يرفّ على المياه) وأنّ اسم المرأة أيون (يظهر أنه ترجمة اسم حوّاء أي الحياة) وأنها «هي التي اخترعت الأكل من ثمر الشجر» وفي فقرة أخرى «إنّ الإنسان كُوّن من الأرض ومنه تناسل الناس»^(١).

ومن تقليدات اليونان الأقدمين أنّ الإله برومائه هو الذي كُوّن الإنسان من أربعة عناصر لاسيّما التراب والماء. وعلى قول آخرين من قدمائهم أنّ برومائه لم يُكوّن بل وهبه الحياة بواسطة نار أخذت من السماء^(٢). وأما الفرس فمن معتقداتهم أنّ أهورمزدا الإله الصالح العظيم خلق العالم والإنسان في ست مدد متتالية مجموعها سنة مؤلفة من ٣٦٥ يوماً، وآخر ما صنعه إنما هو الإنسان، وإنّ الإنسان الذي برز من يدي الخالق ولا عيب فيه يُسمّى «كايومرستان» أي الحياة المائنة^(٣).

ومن معتقدات أهل الصين أنّ هوانكتي الروح القديم هو الذي خلق الإنسان أوّلاً وكُوّن الرجل والمرأة. وفي عبارة أخرى من كتاب تعليمهم الديني أنّ مينهوا يتّس التراب الأصفر وكُوّن منه الإنسان، وأنّ هذا هو الأصل الحقيقي للنوع البشري؛ هذا ما رواه الأب كو في مقالة كتبها في الصينيتين نقلاً عن علمائهم القدماء. وقد جمع عالم صيني في هذه الأيّام كلّ ما عثر عليه هناك من الآثار الدالة على الآلهة القدماء، فكان من جملة أنّ كائناً سامياً خلق الإنسان الأوّل، وأنّ لباسه كان محزماً من أوراق الشجر. روت ذلك المجلّة العلميّة الموسومة بالدروس الدينيّة سنة ١٨٩٠م صفحة ٤٨٠^(٤).

- (١) فيكورو في معجم الكتاب ولانرمان في المحل المذكور صفحة ٢٠.
- (٢) فيكورو في المحل المذكور من معجم الكتاب ولانرمان صفحة ٢٤ من المجلد المذكور.
- (٣) لانرمان صفحة ٢٥ من المجلد المذكور.
- (٤) Etudes Religieuses.

بل إنّ القبائل الهمجيّة نفسها وسكان أميركا الأولين وجدت عندهم آثار دالة على ما كتبه موسى في خلق العالم والإنسان. فقد وجد في برونستون (في بنسلفانيا من أعمال أميركا الشماليّة) صخر نُقش عليه صور عديدة منها صورتا رجل وامرأة، ويبد المرأة ثمر (تاريخ الفصاحة والصناعة مجلد ٩ صفحة ٢٨٠). ووجد في جزيرة جافا (إحدى جزائر السند) صخر قديم منقوش عليه صورتا رجل وامرأة متمسكين بأغصان شجرة عليها ثمر وحيّة ملتفة على جذعها (مجلة الجمعية الآسيوية في لندره في حزيران سنة ١٨٣٢م). وفي البارو في جنوب أميركا يُسمّى الإنسان الأوّل الذي أبدعته القدرة القديرة على كلّ شيء «الباكاسكا» أي التراب المتنفّس. ومن معتقدات قبيلة المندان في أميركا الشماليّة أنّ الروح العظيم كوّن صورتين من تراب ويّتسهما وجعل فيهما نفساً بنفخ فمه؛ وسمّيت الأولى منهما الإنسان الأوّل والثانية قرينة أو رفيقة. وقبيلة التهتين هناك تعتقد أنّ الإله العظيم كوّن الإنسان من تراب أحمر^(١). والحاصل أنّ أبناء آدم أينما حلّوا تركوا آثاراً دالة على أصلهم كما كتبه موسى، وإن شوّهت الأثام والجهل وعبادة الأوثان هذه العقائد.

(١) لانرمان صفحة ٢٢ من المجلد المذكور وفيكتور في معجم الكتاب في كلمة آدم.

الفصل الرابع

عد ١٣


محل الفردوس الأرضي

جاء في سفر التكوين (ف ٢ عد ٨ وما يليه): «وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً وجعل هناك الإنسان الذي جبله... وكان نهر يخرج من عدن فيسقي الجنة. ومن ثم فيتشعب فيصير أربعة رؤس، اسم أحدها فيشون؛ وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، وذهب تلك الأرض جيد، هناك المقل وحجر الجزع. واسم النهر الثاني جيحون؛ وهو المحيط بجميع أرض الحبشة (كذا في نسخة الآباء اليسوعيين، والأولى أن يقال أرض كوش أو الكوشيين لما سترى). واسم النهر الثالث حدافل (كذا في نسخة الآباء اليسوعيين، واسمه في الآثار القديمة حيدقلا أو هيدقلا). فلفظة حيد أو هيد معناها النهر أي نهر دافل. وفي السريانية **وهذا** دقلت دجلة) وهو الجاري في شرقي آشور. والنهر الرابع هو الفرات.

قال كلمت^(١): قلما وُجد صقع في العالم لم يدع بعضهم أن موقع الجنة كان فيه. فتعددت الأقوال فيما إذا كان في آسيا أو إفريقيا أو أوروبا أو أمريكا أو في بلاد التتر أو على شاطئ الكنج أو في الهند أو الصين أو جزيرة سيلان أو أرمينيا أو تحت خط الاستواء أو فيما بين النهرين أو سورية أو بلاد فارس أو بابل أو بلاد العرب أو فلسطين أو بلاد الحبشة حيث جبال القمر، أو على مقربة من لبنان أو في لبنان الشرقي أو دمشق. انتهى. أما نحن فلا نتصدى للتفحص عن هذه المدّعات كلها ولا عما يقوله كل من القائلين بها، ولا نسلّم لمن قال إن من تقليدات الموارنة أن موقع الفردوس الأرضي كان في ناحية إهدن، فما ذلك من تقليداتنا ولا نعتقد

(١) معجم الكتاب في كلمة فردوس.

نحن ولا غيرنا من علماء الموارد هذا التقليد صحيحاً أو عاثماً. وما أتى في كتب بعض علمائنا من ذلك جيء به مفاكهة أو توسعاً بإيراد ما كتبه بعض علماء أوروبا في هذا الشأن. فجل ما نتعمده هنا أن نبيّن أنّ هذه الأقوال العديدة لا يظهر لنا منها قريباً من الصدق إلا قولان؛ يجعل أحدهما موقع الفردوس الأرضي في ما بين النهرين، والثاني في أرمينيا. ولما كان الكتاب صرّح بذكر النهرين الشهيرين دجلة والفرات، ولم تكشف الآثار ما يخالف هذا الظاهر، تعيّن أن يكون محل الفردوس الأرضي في الأنحاء التي فيها هذان النهران؛ إما من حيث منبعهما في أرمينيا وإما من حيث مجراهما في ما بين النهرين إلى الخليج العجمي.

قال العالم أنري راولينسون إنّ موقع الفردوس الأرضي بابل أو إحدى ضواحيها، وأسند قوله إلى بعض يثّنات محلية منها؛ أنّ هذه المعاملة سمّيت مراراً في الآثار القديمة «غان دونياس» أي جنة دونياس، فغان تقرب من الكلمة السريانية  ومعناها جنة أو حديقة، ودونياس اسم إله عندهم. وهذا التعبير يقرب من غان ادن أي جنة عدن. ومنها أنّ نهرين من أنهر الفردوس الأربعة أي دجلة والفرات يسقيان سهول بابل الخصبة. ومنها أنه وُجد في مكتبة آشور بانيبال في نينوى تسايح قديمة في اللغة الأكادية والآشورية تفيض بذكر حديقة مقدّسة مغروسة في أريدو، وهي أبوشارين الآن على مقربة من بابل.

وقد جدّد راولينسون بقوله هذا مذهب السيد هوا أسقف افرانس^(١) في فرنسا الذي نشر كتاباً مخصوصاً في موقع الفردوس الأرضي طبع في باريس سنة ١٦٩١ م. وتابعه غيره من العلماء في هذا المذهب على أنّ الذي عني بتأييد هذا المذهب إنما هو فريدريك داليتش^(٢) معلم اللغة الآشورية في كلية لبسيلك، وأفرد له كتاباً مخصوصاً طبع في لبسيلك سنة ١٨٨١ م جدّد فيه ليثبت أنّ مهد النوع البشري كان في السهول التي بُنيت فيها بابل بعد ذلك. ومن براهينه أولاً: إنّ دجلة كان في أقدم الأيام يلتحم مع الفرات في شمالي بابل مسافة طويلة ثم يفصل عنه في جنوبها. ثانياً: إنّ فيشون وجيحون ليسا نهرين حقيقة بل قناتان كبيرتان، وإنّ اسم ناهار الذي يُسمّى به الفرات وفروعه الثلاثة بالعبرانية. واللفظ

(١) Huet évêque d'Avranche de Situation du Paradis Terrestre

(٢) Frédéric Delitysch

المرادف له في الآشورية والبابلية نهرو، وفي الآرامية السريانية **ܢܗܪܐ** نهرا، وفي العربية نهر. كل هذه الألفاظ تحمل معنى القناة أيضاً. ثالثاً: إنَّ أرض كوش التي جاء في الكتاب أنَّ جيحون كان يسقيها، يُراد بها أرض الدولة العيلامية التي كانت تلي بابل في أقدم الأيام. وورد في الآثار القديمة ذكرها مسماة كاسي أو كاشي. فإذاُ يرد في الكتاب اسم كوش دالاً على شعبين؛ أحدهما في إفريقية يُراد به الحبشة وما جاورها، والثاني في آسيا من حيث خرج نمرود بن كوش وملك في بابل (تك فصل ١٠ عد ١٠). قلنا إنَّ بني كوش بن حام كانوا أولاً في آسيا قبل أن يرحلوا إلى إفريقية، ولا بد أن يكون قد بقي منهم بقية في مهاجرهم الأصلية، فحق لموسى أن يُسمي بلادهم بلاد كوش. وهذا ما يجعلنا نرى أنه كان الأولى أن يترجم النص العبراني في نسخة الآباء اليسوعيين بكلمة كوش بدلاً من كلمة الحبشة.

ومن براهين داليتش على مذهبه أنَّ أرض حويلة (أرض الرمل) التي ورد في الكتاب أنَّ فيشون كان يسقيها يُراد بها الأرض المتاخمة للفرات من برية سورية، وأنَّ الذهب والمقل وحجر الجرع توجد في أنحاء بابل. فحويلة على الضفة الغربية من الفرات، وكوش على ضفته الشرقية. فالفرات إذاً هو الذي يسقي جنة عدن بأرؤسه الأربعة التي يضحى كلُّ منها نهراً مستقلاً مع دجلة، وتحت بابل قناتان كبيرتان من أمواه الفرات، وكلُّ منهما نهر يُسمَّى أحدهما بالأكوباس، يسقي مدينة أور التي خرج منها إبراهيم، ويصبُّ في الخليج العجمي وهو فيشون على رأي المؤلف، والثاني هو شط النيل كما سمَّاه العرب؛ وهو نهر أيضاً يتفجَّر من الفرات، وهو جيحون على رأيه، ويسقي أرك التي ذكرها سفر التكوين (ف ١٠ عد ١٠)، ثم يلتحم مع الفرات. وهناك بلاد كوش والمدن الأربع التي كانت لنمرود ابنه؛ وهي بابل وأرك وأكد وكلنه، كما أنبأنا سفر التكوين في المحل المذكور آنفاً. وقال داليتش، استدراكاً لما يرد عليه من أنَّ اسمي بالاكوباس وشط النيل لا شبه بينهما وبين اسمي فيشون وجيحون. إنه لا يلزم أن نتناسى أنَّ هذه الأعلام عرضة للتغيير والنقل، وأنَّ شط النيل كان اسمه في اللغة البابليَّة أرحتو وهي قرية من — أُرُحو الطريق. ولكن كان يُسمَّى في اللغة السوماريَّة كاحان، وذكره سنحاريب مرات وتبين من كلامه أنه نهر تسير فيه السفن. والعلامة «كا» في هذه اللغة تحمل لفظ

«كو» فيصير الاسم كوحان، وهذا لا يعد عن كلمة جيحون، والكلمة ييشان وييشانو في الآشورية معناها قناة. فرمما سُمِّي الكلدان بالاكوباس ييشان أي القناة علماً له. والفرق بين ييشان وفيشون ليس كبيراً، وبدل الباء بالقاء مستفاض؛ فهذه خلاصة مذهب داليتش^(١).

على أنَّ الأب فيكورو تعقَّب داليتش بمذهبه هذا منذدأ به، وقال إنه نظري لا يطابق حقيقة نص موسى، لاسيما من جهة النهرين فيشون وجيحون اللذين جعلهما داليتش فرعين عن الفرات، وذكرهما موسى أولاً كأنهما أصلان ولم يذكر الفرات إلا في المحل الرابع، وأنَّ سهول بابل يسمِّيها الكتاب شنعار لا عدن. وأخيراً إنَّ الإنسان الأول طُرِدَ ونسله من الفردوس الأرضي وحُرِّم عليه الدخول إليه، وسهول بابل استمرَّت دائماً معمورة مأهولة من أقدم الأيام إلى نهاية مملكة الفرس. وصرَّح فيكورو أنه يرى الأقرب إلى الصدق مذهب القائلين بأنَّ الفردوس كان في جهة أرمينيا، ولم يورد أدلته في كتابه المُسمَّى الكتاب والاكتشافات الحديثة بل في كتابه الآخر الموسوم بالوجيز الكتابي^(٢)، وهذا ملخص ما قاله في هذا الكتاب عد ٤٨٧ إنَّ الطوفان والإنقلابات العديدة التي شوَّهت وجه بعض الأرضين يحتمل أن تكون بدلت هيئة المكان الذي كان فيه الفردوس الأرضي فجعلت، المبحث مشكلاً يتعسَّر حلُّه. على أنَّ القول الذي يظهر أقرب إلى الحقِّ إنما هو قول مَنْ جعلوا الفردوس في أرمينيا في تلك الهضاب التي ما برحت من أخصب الأرضين في المعمور. وأخصَّ مَنْ بَثَّ هذا المذهب ودافع عن صحته كلمت (في مقالته في الفردوس وفي معجم الكتاب). ويؤيده أنَّ الفرات ودجلة متبعهما في هذه الديار. ومصدر دجلة على بعد نحو من ساعة عن الفرات في الشمال من ديار بكر. وأما فيشون فهو إما النهر الذي سمَّاه القدماء فاش أو فاس. ويحتمل أن يكون النهر المُسمَّى الآن ريون، ويجري من الشرق إلى الغرب، ويصبُّ في البحر الأسود. وأما نهر كور الذي سمَّاه القدماء كورش، ومنبعه في نواحي الفرس غير بعيد عن المنبع الغربي للفرات، ويصبُّ في بحر الخزر المُسمَّى بحر قزوين أيضاً بعد أن تختلط

(١) ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة للأب فيكورو مجلد ١ صفحة ٢١٤ إلى ٢١٨ طبعة ٤.

(٢) Manuel Biblique.

مياهه بمياه نهر أركس الآتي ذكره. وحويلة التي يسقيها فيشون هي اقليم كولشيد الواقع بين جبل قاف شمالاً والبحر الأسود غرباً والمشهور بالمعادن الثمينة، كما في الكتاب: وأما جيحون فهو النهر المُسمَّى الآن الرس وكان القدماء يسمونه أَرْكُس ويسميه العرب جيشون أو جيحون الرس، والفرس جيون، ومنبعه في جوار المنبع الغربي للفرات، ويصب مع نهر كور في بحر الخزر، وأرض كوش التي يحيط بها على ما في الكتاب هي بلاد الكوسيين أو الكوشيين Roscéns الواقعة بين بلاد فارس جنوباً وجبل قاف شمالاً. وفي وسط هذه البلاد بحيرة تُسمَّى إلى اليوم كوتشا؛ فهذا ما قاله الأب فيكورو في الوجيز الكتابي، وهو أشبه بما رواه كلمت في معجم الكتاب في كلمة فردوس.

وليس لمثلنا أن يرجح أو يضعف أقوال مثل هؤلاء العلماء الأعلام، لاسيما لقصر يدنا عن الكتب اللازمة مطالعتها في هذه المسائل الغامضة، لكننا على مزيد إجلالنا للأب فيكورو واعترافنا بطول باعه، وكثرة مطالعته، نرى تنديده بقول مَنْ زعموا أنَّ الفردوس كان في نواحي بابل قاصراً وغير سديد، لاسيما أنَّ برهانه الأخير بأنَّ سهول بابل استمرت معمورة يمكن عكسه على القول الذي رآه أشبه بالحق بأن يقال بأنَّ الإنسان خسر المحل الأول وحُطِرَ عليه وعلى نسله الدخول إليه، والحال أنَّ أرمينيا استمرت دائماً معمورة، فلا تصلح أن تكون هذا المحل الأول. وليس من غرضنا أن نرجح القول الأول على الثاني بل إننا أيضاً نراه محتملاً.

عد ١٤

تقليدات القبائل في شأن الفردوس الأرضي

حفظت أكثر قبائل المعمور ذكر الفردوس الأرضي، وأقوى شاهد لذلك ادعاء كل منها أنَّ هذا الفردوس كان في أرضها كما رأيت في العدد السابق. وقد مرَّ بك ذكر الحديقة المقدسة التي كان يجعلها الكلدان القدماء في اريدو ويطرَّمون بوصف جمالها. وجعل كثيرون مهد البشرية على الجبال الشامخة في آسيا الوسطى بجانب ينباع الأنهر الكبرى. فزعم الهنود أنَّ الأربعة أو الخمسة الأنهر الكبرى كانت تجري من شمال الجبل المقدس وهو حملايا (أو هملايا) وتسقي

جهات العالم الأربع رواه لوكان في كتابه في تقليدات البشر^(١) مجلد ١ صفحة ٩٨. واعتقد الإيرانيون القدماء أن في أعلى جبال بلادهم ينبوع تجري منه أمواه محيية منحدره من السماء، فتصدر الخصب في الأرض كلها، رواه لوكان أيضاً في المحل الماز ذكره. ووصف الصينيون المحل الذي كان مهذاً للبشرية بأنه جبل في وسط سهل خصب في آسيا الوسطى. وفي هذا الجبل جنة يهب فيها أبداً النسيم العذب. وموقع هذه الجنة عند أبواب السماء المغلقة، والأمواه الجارية فيها غزيرة وصفراء ومصدرها يُسمى منبع عدم الميتوة، ومن شرب منه لا يموت، ويتفرع إلى أربعة أنهر، تجري نحو الجهات الأربع. روى هذا أيضاً المؤلف المذكور، وأطال في تعداد هذه التقاليد، وأسهب الأب داراس^(٢) في تاريخه البيعي (مجلد ١ صفحة ١٤٤) بإيراد تقليدات الصينيين والهنود، واليونان والفرس، واليابانيين والمنغول، وقدماء المكسيك في شأن الفردوس الأرضي. ونكتفي بهذا الإجمال حباً بالإيجاز وتفادياً من ملل المطالع.

(١) .H. Luken Traditions de L'humanité

(٢) L'abbé Darras, Histoire Ecclesiastique

الفصل الخامس

شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر والحياة ومعصية الإنسان

إننا نثبت أولاً ما جاء في الكتاب في هذا الأمر، ونتبعه ببيان المراد به بموجب التعليم الكاثوليكي، ثم نؤيده بذكر تقليد القبائل القديمة وآثارها.

عد ١٥

شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة

جاء في سفر التكوين (ف ٢ و ٣) «وأثبت الرب الإله من الأرض كل شجرة حسنة المنظر وطيبة المأكّل، وشجرة الحياة في الجنة وشجرة معرفة الخير والشر... وأمر الرب الإله الإنسان قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، فإنك يوم تأكل منها موتاً تموت...» وكانت الحياة أحيّل لجميع حيوان البرية فقالت للمرأة: أيقيناً قال الله: لا تأكلا من جميع شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه كيلا تموتا! فقالت الحية للمرأة: لن تموتا إنما الله عالم أنكما في يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما، وتصيران كآلهة عارفين الخير والشر. ورأت المرأة أنّ الشجرة طيبة للمأكّل وشهية للعيون، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت بعلها أيضاً منها فأكل، فانفتحت أعينهما فعلما أنهما عريانان، فخاطا من ورق التين وصنعا لهما مئزرًا. ثم يقول: إنّ الربّ ظهر لآدم فوثّبه على صنيعه. فاعتذر بأنّ امرأته أعطته فأكل من ثمر الشجرة. واعتذرت المرأة بمكر الحية بها. ففضى الربّ عليهما وعلى نسلهما بالموت، وبمشقة العمل لتحصيل معاشهم، وعلى المرأة بمقاساة مشاقّ الحبل والولادة، وعلى الحية بأكل التراب والسلوك على صدرها.

وصنع الربّ لآدم وامرأته أقمصه من جلد وكساهما، وأخرجهما من جنة عدن ليحرث الأرض التي أخذ منها، وأقام شرقي جنة عدن الكرويين، وبريق سيف متقلّب لحراسة طريق شجرة الحياة. فهذا ما جاء في الكتاب.

ذهب مفسّرو الكتاب وآباء الكنيسة الكاثوليكية، أنّ شجرة معرفة الخير والشرّ لم تُسمّ كذلك لخاصة جوهريّة بها بل لوصيّة الله ونهيّه عن الأكل منها. ولما كان لأكل ثمرها من النتيجة، ونجّزىء عن التطويل بما قاله القديس يوحنا فم الذهب في تفسيره سفر التكوين وهو: «يحقّ لكلّ أن يسأل قائلاً: أية قوة كانت في هذه الشجرة لتفتّح ثمارها عقل مَنْ يأكل منها؟! ولم تُسمّيت شجرة معرفة الخير والشرّ؟... إنّ أعين آدم وحواء لم تنفتح لأكلهما من ثمر هذه الشجرة فإنهما كانا قبلاً يصبران، بل لاقترافهما المعصية بأكلهما منه. فلما خالفا النهي الإلهيّ خسرا النور الذي كان يجلّلهما إذ جعلاً نفسيهما غير أهل له». وكذا أُجيب على السؤال الثاني وهو لِمَ سُمّيت هذه الشجرة شجرة معرفة الخير والشرّ قائلاً: زعم بعض الحمقى أنّ آدم لم يكن يميّز بين الخير والشرّ إلا بعد أن أكل من الثمر المحظور أكله وتلك حماقة متناهية... فمَنْ يجسر أن يزعم أنّ الإنسان لم يعرف الخير والشرّ إلا بعد أكله الثمر النهيّ عنه، وهو قد كان من قبل مملوءاً من الحكمة (كما أثبت الكتاب)... فيقال: إنّ الكتاب نفسه سمّى الشجرة شجرة معرفة الخير والشرّ. أجل وما على هذا من تكبر. ولكن كل مَنْ له شيء من إلمام بأساليب كلام الكتاب أدرك بأقلّ تكلف ما يُراد بهذا التعبير فلم تُسمّ الشجرة بهذا الاسم؟ لأنها أولت الإنسان معرفة الخير والشرّ؛ بل لأنها كانت وسيلة للمعصية فعزّفت الإنسان بجريمته وبالعار الذي ألحقته به. فمن عادة الكتاب أن يتخذ لبعض الأشياء اسماً من بعض أحوالها، فسمّى هذه الشجرة شجرة معرفة الخير والشرّ لأنها كانت مزمنة أن تكون وسيلة للخطيئة أو الفضيلة. «والحاصل أنها سُمّيت بما آلت إليه لا بما كانت عليه».

وأما شجرة الحياة فهي شجرة أعدّها الله في الفردوس لحفظ حياة آدم ونسله لو أطاع وصيته، بأن لا يأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشرّ. وزعم قوم أنّ شجرة الحياة هي شجرة المعرفة نفسها، مخرجين قول الكتاب: «شجرة الحياة في وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشرّ». بمعنى أنّ في وسط الجنة شجرة الحياة أو شجرة معرفة الخير والشرّ، كأنّ لهذه الشجرة اسمين وقالوا إنّ حرف العطف في العبرانيّة

يتحمّل معنى التقسيم والتفسير أيضاً. إلا إنّ الأظهر والأطبق لنص الآية المذكورة وغيرها أنهما شجرتان؛ ولا وجه لجعل الله للأمرين شجرة واحدة. وزعم بعضهم أنّ شجرة معرفة الخير والشر كانت من طائفة التفاح. واستدلّوا على ذلك بقول نشيد الانشاد (ف ٨ عد ٥): «لقد نبهتك تحت شجرة التفاح هناك وضعتك أملك». وفي بعض النسخ: «هناك فقدت أملك برارتها» والصحيح أنه لا يمكن القطع بنوعه.

ومهما يكن من هذه المباحث فإنّ الله نهى آدم وحوا عن الأكل من ثمر هذه الشجرة اختصاراً لطاعتها، وليعلما أنه ربهما وخالقهما، وأنّ العالم لم يوجد من نفسه بل هو خالقه ومدبّره، فيلزمهما الإذعان لأمره خاصة لأنه سلّطهما على كل ما في العالم. ولا ينبغي منهما بدلاً من ذلك إلا الخضوع له والاقرار بإحسانه. فمثله مثل مالك كريم، سلّط رجلاً على ملكه ولم يطلب منه بدلاً إلا ما يتبيّن به أن الملك للمولى، وأنّ المنتفع تحت إمرته، فحظّر الله على آدم وحوا الأكل من ثمر شجرة واحدة تقريراً لسلطته، وهذّبهما بأليم العقاب إن عصيا أمره^(١)، وأطلق لهما حرية العمل ان ينقادا طائعين، أو يعصيا متكبرين ليكون لهما وسيلة للاستحقاق. فالله صالح طبعاً لكنه بغامض حكمته لم يشأ أن يسعد أحداً أو أن يشقي أحداً دون سعي إرادته، ومجده ثابت في كل حال. فمنّ سعد أو خلص مجّد رأفته. ومنّ شقي أو هلك هلك بإثمه ومجّد به عدله. ثم إنّ بعض المواهب التي أتيتها الإنسان كانت تفوق طبعه؛ فهو لترجّبه من عناصر مادّيّة كان متعرّضاً طبعاً للإنحلال والموت والأمراض، فعصمته من ذلك لو لزم الطاعة لم تكن من خواصّ طبعه بل تفوقه. وكذا اللحم والوصب والطلق في ولادة المرأة تلازم طبعها وعصمتها منها تفوقه. فكانت العصمة إذاً من الموت والأمراض والأوجاع هبة مجانيّة من فضل الله لا يقتضيها طبع الإنسان. وكانت تركة سعيدة يشترك بها أبناؤه لو احتفظ الأب عليها، فلما زلّ وعصا أمر الله، خسر المواهب المجانيّة الممنوحة له كرمّاً بشرط طاعته، وأضاع ما كان مزمّعاً أن يبقى ملكاً لبنيه، فصرنا نولد جميعاً بعد ضياع هذا الإرث أو الملك ولا حقّ لنا به، لأنّ والدنا أضاعه قبل ولادتنا. فهذا أحسن أسلوب لبيان الخطيئة الأصلية واتصالها بنا. ورأى بعض الآباء أنّ النوع البشري لم يخسر بآدم المواهب الفائقة طبعه فقط بل

(١) ملخص عن كلام فم الذهب في خطبته ١٦ في سفر التكوين.

جرح أيضاً بالمواهب الطبيعية، وكلها آلاء كرم الله يوليها مَنْ شاء وكيف شاء.

عد ١٦

الحية

زعم أوريجانوس وغيره من علماء مدرسة الإسكندرية أنَّ كلام الكتاب في إغواء الحية لحواء مجازي، يُراد به أنَّ إبليس أغرى امرأة أن تأكل من الثمر وتطعم زوجها بإنشائه في عقلها وإرادتها الرغبة في أكل الثمر المحظور لا بكلام الحية إحدى العجماوات.

وقد جدّد الكردينال كاتانوس هذا المذهب بقوله لم يكن هذا كلاماً شفاهياً بل أُريد به الإغواء الباطن، إذ جعل إبليس في مخيلة المرأة هذا الفكر السيئ. وكذا يلزم أن تفهم هذه المحاوراة كلّها بين الحية والمرأة، وقد نزل عقاب الحية منزلة تاريخ. وليس من الحكمة أن يفهم بحسب حروفه. فهذه معانٍ مجازيّة لا تُحسب كالأقاصيص بل تجلّ كأسرار، وتنطوي مجازاً على ما يختصّ بالإيمان (ملخص عن مجلد ١ من تأليفه صفحة ٢٥). على أنَّ الكنيسة لم تنه عن القول بمذهب هؤلاء كأنه مخالف لعقائد الدين. ولكن أبى سائر الآباء واللاهوتيون إلا المخالفة له. وما أحسن ما قاله بوصوا في هذا الشأن (في خطبة على الأسرار)^(١). لنا أن نقول إنَّ ظاهر كل شيء هنا يدل على مجاز. فحيّة عجماء تتكلّم، وامرأة تسمع لها، ورجل مستنير كامل يغترّ بتجربة غير شديدة. والنوع البشري برمته يقع معه في وهدة الإثم ويستحوذ عليه الموت. ذلك كله يظهر غريباً ولكن تزول الغرابة إذا نظرنا إلى الحية، ليس من حيث هي حيوان غير ناطق، بل من حيث هي آلة لدهاء إبليس الذي دخل بسماح الله في جسم هذا الحيوان. وأية غرابة في ذلك والله نفسه كان يظهر للإنسان بهيئة محسوسة... فالإنسان مؤلّف من جسد ونفس فله أن يجعله يعرفه بكليهما؛ بالروح والحس. وكذا كان الملائكة يتراءون للناس بهيئة يريدّها الله. فلم تنذهل إذا حواء عند سماعها الحية تكلمها، كما لم تنذهل عند رؤيتها الله يظهر لهما بهيئة محسوسة. «وما ينبّه إليه أنَّ نصّ الكتاب لم يقل حيّة بالكرة بل الحية بالتعريف، فذاك دليل على أنَّ الكلام ليس في حيّة كسائر الحيات، بل في حيّة

(١) Bossuet, Elévation Sur Les Mystères

مخصصة يُراد بها إبليس لانتخاذه إياها آلة للمكر. ولو لم يكن للحية مدخل في إغواء حواء لما نسب هذا المكر إليها، إذ لم تكن الحية في عرف الأقدمين ولا في عرف المتأخرين مثلاً للدهاء بل للحكمة أو غير الدهاء من المعاني.

عد ١٧

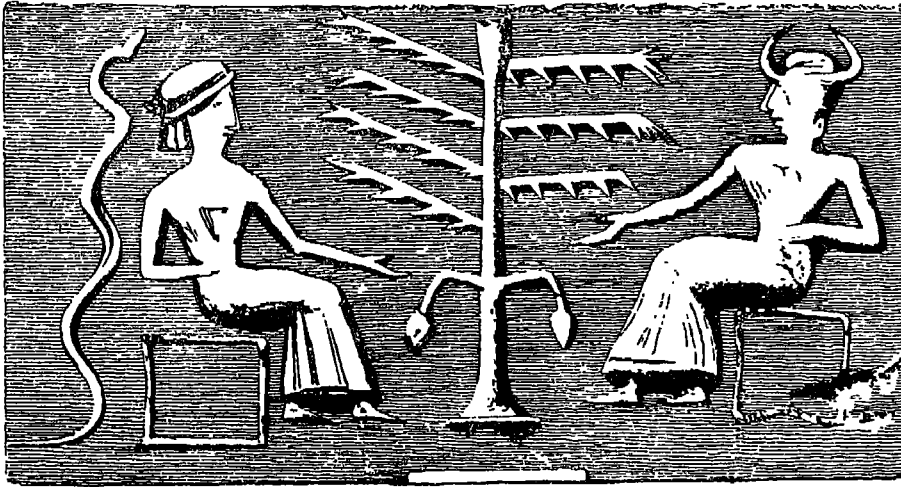
آثار القبائل القديمة الدالة على ما في الكتاب بهذا الباب

إننا نجد عند أكثر القبائل آثاراً تنبئنا باعتقادهم شجرة حياة وشجرة معرفة الخير والشر، ومعصية الإنسان الأول ونسبتها إلى الحية - وإن كنا لم نجد حتى الآن أثراً مكتوباً للكلدان مشعراً بما كان معتقدهم بهذه الأمور. فقد وجدنا في آثارهم صوراً عديدة يتبين منها اعتقادهم ذلك، ولا يمكن تأويل مغزى تلك الصور ورمزها إلى غير ما كتبه موسى؛ ومنها صورة الشجرة المقدسة الآشورية الكلدانية التي وجدت على قصر في نمرود، حيث تُرى صورة شجرة وعلى جانبيها ملكان أو كاهنان



الشجرة المقدسة عند الآشوريين والكلدان نقلاً عن صورة في القصر الكائن في الشمال الغربي من نمرود

ببلايسهما الحبرية، دلالة على إجلال الشجرة ومن فوقها دائرة ذات أجنحة كانت في عرفهم كناية عن الإله السامي (انظر في مثالها صورة عد ٣). وقد اكتشفت في هذا القصر صورة أخرى هي الآن في المتحف البريطاني، ترى على جانبيها ملاكين مجنحين جاثين إجلالاً لهذه الشجرة، يمدّ كل منهما يده بكل وقار نحو ثمرة منها ليجنيها أو ليزدب عنها ويحرسها. وأكثر بياناً مما مرّ الصورة التي نقلها العالم فالكس لاجار^(١) (في كتابه المعنون الأبحاث في عبادة ميترا). ثم إن العالم سميث (في كتابه آثار الكلدان عن التكوين) اكتشف^(٢) عن أثر بابلي حيث ترى شجرة عن جانبيها رجل وامرأة يمدّ كل منهما يده إلى ثمرة فيهما. ومن وراء المرأة حية منتصبية إلى رأس المرأة كأنها تلقنها شيئاً. وهذه الصورة الآن في المتحف البريطاني. ومن رآها قضى بأنها تمثّل - ولا جرم - ما رواه موسى في وسوسة الحية لحواء وأكلها مع آدم من شجرة معرفة الخير والشر.



صورة وجدت في بابل تمثّل بلا مرء وسوسة الحية لحوا
وأكلها من الثمر الخطور وإطعامها آدم صفحة ٤٨.

(١) Felix Lajard Recherches Sur Le Culte de Mithra

(٢) .Smith Chaldaean of Genesis. P. 91

إنَّ الأريانيين^(١) (وهم سكان كل البلاد الواقعة بين فارس والهند) كان التقليد العام عندهم قبل انقسامهم إلى إيرانيين وهنود، أنَّ الإنسان الأول كان اسمه عند سكان إيران (ايما) وعند الهنود (ياما). والفريقان يقولان إنه ابن السما لا ابن الإنسان. وها هوذا ما كتب في الكتاب الذي يسمونه ماسكيا ومسكيانا: «كان الإنسان كان أبو العالم كانت السماء معدة له بحيث أن يكون متواضع القلب، ويعمل بحسب الشريعة متذللاً، وبشرط أن يكون باراً في أفكاره صادقاً في كلامه، مستقيماً في أعماله، وأن لا يلجأ إلى الديوا (ابليس) ولعلَّ الأصل من **يُومِها** الأرامية بمعنى ابليس). وكان مفروضاً على الرجل والمرأة في هذه الحال أن يسعى كلُّ منهما بالحظ للآخر». وكذا كانت بداية بدء أفكارهما وأعمالهما... وقالوا أولاً: إنَّ اهورمزدا أوجد الماء والأرض والأشجار والبهائم والكواكب والقمر والشمس. وكل خير يصدر عن أصل طاهر وثمره صالحة، ثم غلب الكذب على ذهنهما، فغيّر استعدادهما وجعلهما يقولان إنَّ انكرمانبوس (إله الشر) إنما هو الذي أوجد الماء والأرض والأشجار والحيوانات وكلَّ ما مرَّ ذكره، فخادعهما منذ البداية بما يتعلّق بإبليس. وما انفكَّ هذا القاسي يكر بهما حتى النهاية، فصار كلاهما لتصديقهما هذا الكذب أشبه بالشياطين، وتستمّر أنفسهما في الجحيم إلى انبعاث الأجسام، وأكلا (ثماراً) مدة ثلاثين يوماً، وأنشحا مطارف سوداء، وذهبا بعد ذلك يصطادان فوجدا عنزاً بيضاء، فامتصّا الحليب من ضرعها، فطاب لهما كثيراً فازداد الديوا (ابليس) الكذاب جساراً، فقلّم لهما مرة ثانية ثماراً فأكلاها. فلم يبقَ لهما إلا منفعة واحدة من مائة منفعة كانت لهما... وظهر لهما بعد مدة خروف وأرشدتهما الآلهة السماويون إلى إيجاد النار باحتكاك الأخشاب. فأضرموا ناراً وشويوا الخروف وأكلا اللحم واكتسبوا بالجلود».

فتأمل كيف تشفّت هذه الرواية عما ورد في سفر التكوين عن حالة البرارة التي أبدع الله بها آدم وحواء وعمّا أمرهما به، وعن إغواء إبليس وخسارة ما كان لهما من المواهب، وعن اقتنيات الإنسان أولاً بالثمار، وعدم اغتذائه باللحم أولاً وعن اكتسائه بجلد البهيمة. روى ذلك لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ١ صفحة ٣١ و ٣٢ طبعة ٩).

(١) Aryas.

وقد روى لانرمان أيضاً (صفحة ٣٤) أنَّ آثار الإيرانيين أنبأتنا بوجود رسم شجرة الحياة عندهم. وترى في آثارهم تارة شجرة واحدة منبتها في وسط المنبع المقدس الذي يستوونه اردويسورا، وتارة شجرتين (أي شجرة الحياة وشجرة المعرفة) طبق ما جاء في الكتاب عن شجرتي الفردوس. وترى في آثار الهنود أيضاً رسم شجرة الفردوس مستاة (هاوما) أي شجرة الحياة. وفي بعض آثارهم صورة أربع شجرات، منبتها على أربعة جوانب جبل مارو المقدس. وأقدم اسم لبابل في لغة أقدم سكانها هو «تين تيركي» تأويله مكان شجرة الحياة. وعن الأب فيكورو (في كتابه المعنون الكتاب والاكتشافات مجلد ١ صفحة ٢٢٨ طبعة ٤): أنَّ الفرس كانوا ينقشون على فصوص خواتمهم صورة الشجرة المقدسة البابلية مع أنه لا يعرف لها مثال في النبات، واستمروا على ذلك من عهد الملوك الكينين (الماز ذكرهم أي منذ القرن الثامن قبل الميلاد) إلى عهد ملوك الدولة الساسانية.

وقد وجد العالم شسنولا في أحد المدافن القديمة في دالين (هي ايداليون القديمة) في وسط جزيرة قبرس وعاء من صنع الفينيقيين في القرن السابع أو السادس قبل الميلاد، وقد رسمت عليها صورة شجرة في أسفل جانبيها شبه عنقودين، وحيّة كبيرة تدنو من الثمرة مائة عنقها لتقتطف من الثمر. وهذا الوعاء محفوظ في متحف الصنائع في نيويورك. وقد علّق لانرمان صورته على كتابه المذكور صفحة ٣٧؛ وهذا يدلّ بلا امتراء على أنَّ الفينيقيين أيضاً كانوا يعتقدون شجرة الفردوس ووسوسة الحيّة لحواء. بل إنَّ رانان نفسه لم يتردّد عن أن يسلم بوجود هذا التقليد عند الفينيقيين، منقاداً إلى ذلك بما جاء في فقر سنكوياتون التي ترجمها إلى اليونانية فيلون الجبيلي؛ وهو أنَّ الإنسان الأول وأيون التي يُراد بها حواء اخترعت الاقتيات بشمار الشجر.

وقد وجد مثل هذه التقليدات عند السكandinاف (وهم قبيلة هاجرت من أقدم الأيام من آسيا وتوطّنت أسوج ونروج في شمالي أوروبا). ففي كتاب معتقداتهم القديمة الذي ترجمته السيدة دي بوجا إلى الإفرنسية ونشر سنة ١٨٤٠م ما ملخصه: «إنَّ ايدهونا غير المائنة كانت تسكن مع براجي في اسكرد في وسط العالم في الفردوس محرزة كمال البرارة، فسلم إليها الآلهة حراسة ثمار عدم الميتوة. على أنَّ لوكي المحتال علّة كلّ شرٍّ ومثّل المبدأ الشرّير خدعها بشمار أخرى

قال: إنه رآها في غابة وأغراها باتباعه فتنجته لتجني منها، فخطفها جبار، فلم تبق السعادة بعد ذلك في اسكرده». ومن البين أن هذه الرواية أيضاً تشف عما كتبه موسى في هذا الشأن وإن داخلها بعض التشوش. (روى ذلك لانرمان في المحل المذكور صفحة ٣٢).

وكثيراً ما نرى في آثار مصر شجرة الحياة مصورة على المدافن خاصة. فكأن التقليد أنبأهم أن شجرة الحياة حُظِر الوصول إليها، فلا وسيلة لجني ثمرها في هذه الأرض بل في عالم آخر. ولا نشاهد هذه الشجرة السريّة مفصولة البتة عن مياه الحياة. ونشاهد في آثارهم أيضاً أن الحية اباب تخاصم الإله رع (يراد به الشمس) عند تنظيمه العالم، فيقتلها الإله هار أو هاروس. (وقد علّق لانرمان في كتابه المذكور صفحة ٣٩) صورة هذا البطل أو الإله مأخوذة عن هيكل أرفو في مصر. فتراه ويده رمح يسحق به رأس الحية. وهذا يشف عما جاء في الكتاب: «واجعل عداوة بينك (الضمير للحية) وبين المرأة ونسلك ونسلها فهو يسحق رأسك». ومن هذه الآثار أن الملك الأرضي الذي افتتح به الإله رع وجود العالم والبشر، كان عصراً ذهبياً لم يكن للأسف والحسد فيه من أثر. وكان المصريون إذا أرادوا التعبير عن شيء لا مثيل له قالوا لم يكن له من مثيل من عهد الإله رع. ولا ريب أن في هذا إشارة إلى ما قاله الكتاب في حال البرّ التي كان فيها آدم وحواء.

وأثبت لانرمان أيضاً (في صفحة ٣٦ من المجلد المذكور) صورة أخذت عن مدفن في متحف الكايتول (الكمبيدولي) في رومة رُسم فيها الإله برومائه جالساً. وقد أقام بيده الشمال على ركبتيه صورة بشرية، رسم هيكلها ويمناه المنقاش ليرسم نخطوطها، وبجانبه سلّة ملأى تراباً وصورة أخرى تامة. ويمرّفا الإلهة تضع على رأس الصورة التي بيد الإله طائراً ذا أربعة أجنحة رمزاً على الحياة. ويرى في طرف الصّورة الإنسان الأول والمرأة الأولى عريانين بجانب شجرة يقتطف الرجل من ثمارها إلى غير ذلك من الرموز الدالة على خلق الإنسان وتنقسه واستحواذ الموت عليه، وتناوله من شجرة معرفة الخير والشر. ويقدر أن هذه الصّورة نُقشت في القرن الأخير قبل التاريخ المسيحي.

الفصل السادس

الآباء الأولون قبل الطوفان

عد ١٨

قايين وهابيل

لم ينبئنا الكتاب كم كانت المدة التي أقام فيها آدم في الفردوس. وأوّل ما ذكره من أحداثه بعد طرده منه أنه عرف امرأته حواء، فحملت وولدت قايين وقالت رُزقت رجلاً من عند الرب. فمعنى كلمة قايين قنية وثمرة، وقد وردت في الكتابات القديمة في نينوى وبابل بمعنى مَنْ يقتني عبداً. وربما كانت منها كلمة قنّ بالعربية بمعنى الرقيق، أو كان بذلك أثر للّغة التي استحَقّها قايين لقتله أخيه. وعن ابن الأثير في الكامل: «إنّ أهل العلم مختلفون. في اسم قاييل. فبعضهم يقول قين، وبعضهم يقول قائن، وبعضهم يقول قايين وبعضهم يقول قاييل».

ثم قال الكتاب: «عادت (حواء) فولدت أخاه هابيل». وفُسّر الرّيبون هابيل بمعنى البخار أو الهبلة بلغة العامة، وبمعنى الباطل والغمّ والحداد. وفي العربية هبلته أمه؛ بمعنى ثكلته. وتسوّلوا إلى ذلك بأنّ مقتل هابيل كان لذويه علّة الغمّ والحداد. على أنّ إطلاق هذا الاسم عليه كان قبل مقتله لا بعده. ومع هذا قال أهل العلم بهذا التفسير لعدم وجدانهم غيره. ومن جعلوا معنى هابيل الباطل وجدوا له مسنداً في قول الجامع: «باطلة الأباطيل وكلّ شيء باطل». فالكلمة في العبرانية هابيل، وكأنّه لقصر حياته زال كالبخار أو كالشيء الباطل.

على أنّ كثيراً من الآثار الآشورية أنبأنا أنّ كلمة هابيل ترد بمعنى ابن أو ولد من الفعل هَبَلَ وَلَدَ (ولعلّ أصل اللفظ حبل) فهابيل بمعنى المولود. قال بذلك اوبر

في كتابه الدروس الآشورية ص ٣٥^(١) وترى كلمة هابال أو أبال في مركب أعلام كثيرة آشورية مثل آشور بان هيال أي ابن آشور. وكذا سرد أنابال. وقال العالم سيلام في كتابه بيان العهد القديم بالعلوم الآشورية صفحة ١٠^(٢): «من البين أن كل اللغات السامية إلا الآشورية أضاعت كلمة هبلو بمعنى ابن. فثبتت هذه الكلمة في تاريخ التكوين دالّ دلالة وضیحة على قدم هذا التاريخ». (ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو مجلد ١ صفحة ٢٤٠ إلى ٢٤١ طبعة ٤).

وكان هاييل على رعاية الماشية، وقاين على حراثة الأرض. ومنه تبين أن هاتين الصناعتين المتوقّفت عليهما معاش الإنسان كانتا معاصرتين له من بدئه، وعمل بهما آدم كحكم الله عليه أن يأكل خبزه بعرق جبينه، وعنه أخذ أبناؤه. وقد أوعز آدم إلى ابنه أن يقدم تقدمة للرب. فقدّم قاين من ثمار الأرض، وهاييل من أبكار غنمه وسمانها. فتقبّل الرب تقدمة هاييل لأنزال نار سماوية عليها كما في ترجمة تاودوسيون. وعليه أكثر الآباء والمفسّرون أو بعلامة أخرى ولم يتقبّل تقدمة قاين، فشقّ ذلك على قاين ونكده، وأضمر الغدر بأخيه، فاستدعاه إلى الصحراء ووثب عليه فقتله. فظهر له الرب مؤثّباً قاضياً عليه بأن يكون طريداً شريراً لا تعطيه الأرض غلتها. فأدرك جريمته وارتاع قائلاً خطيئتي أعظم من أن تغفر. وتوهم أن كل من وجده يقتله. فقال له الرب: من قتل قاين فسبعة أضعاف يُقاد به ليثبت الانتقام له وينهي غيره عنه، وجعل الله فيه علامة كيلا يقتله كل من وجده. وقد أجمع المفسّرون على أنه لا بدّ أن كان لقاين آثام سابقة اقتضت رذل الله تقدمته. وعلى أن ما حمّله على قتل أخيه إنما هو حسده له لإيثار الله له عليه. لكنهم لم يجمعوا على الذريعة التي توسّل بها لقتله. فلأهل العلم بذلك تخمينات لا يمكن إبلاغها درجة من التوكيد العلمي لعدم المسند لها. منها قول أبي الفدا في تاريخه: «وقيل بل كان لقايل أخت توأمة وكانت أحسن من توأمة هاييل. وأراد آدم أن يزوّج توأمة قايل بهاييل وتوأمة هاييل بقايل. فلم يطب لقايل ذلك فقتل أخاه هاييل وأخذ توأمة». وكذا ورد في الكامل لابن الأثير وفي غيره من كتب العرب. وعنها أخذ سعيد ابن بطريق البطريرك الإسكندري هذه القصة في تاريخه العربي. وذكرها

(١) Oppert Etudes Assyriennes

(٢) Sillem Das Alte Testament Im. Lichte Der Assyrischen Forschungen

أيضاً ابن العبري في تاريخ الدول عن مثوديس، وسُمي توأمة قاين قليميا، وتوأمة هابيل ليوذا. بل روى ابن الأثير أنَّ هذا الخصام بين ابني آدم كان قبل تقدمتهما. فقال آدم لقاين يا بني لا تحلّ لك توأمتك. فأبى أن يقبل كلامه. فقال له أبوه: قُرب قرباناً ويقُرب أخوك هابيل قرباناً. فأيكما قبل الله قربانه فهو أحقّ بها. فقربا القربان فكان ما رأيت وفؤ قاين بتوأمته.

قال القديس ايرونيμος (في تفسيره فصل ٢٧ من نبوة حزقيال) إنّ من تقليدات العبرانيين أنَّ مقتل هابيل كان في صحارى دمشق، وينسب مدفن هناك إلى هابيل ولكن هذا لا وسيلة لإثباته. وذهب بعض الآباء أنَّ هابيل لم يتزوج. وفي التاريخ الإسكندريّ أنه قتل قبل زواجه. وقال غيرهم بل تزوّج فلم يعقب. ومهما يكن فموسى لم يذكر له عقباً. ويرجّح هذا قول حواء بعد ولادة شيت: «أقام الله لي نسلاً آخر بدل هابيل» (تكوين ف ٤ عد ٢٥). فيتلخّص منه أنه لم يكن لهابيل نسل. على أنَّ فم الذهب وغيره من الآباء أثبتوا زواجه بقولهم إنّ الضرورة دعت أن يتزوّج بأخته. ونسّر بعضهم قول الكتاب إنّ دمه ينادي أو يصرخ من الأرض بمعنى أنَّ ذريته تطلب الانتقام من قاتله والله أعلم.

أما قاين فأقام بعد مقتل أخيه في أرض سمّاها الكتاب أرض نود. ووصفها بأنها شرقي عدن فيتعلّق تعيها بتعين عدن. وقد رأيت ما في ذلك من الخلاف. وأما العلامة التي جعلها الله له كيلا يقتله كلّ من وجده ففيها أقوال. والذي قال به أكثر الآباء إنّ هذه العلامة كانت ارتجافاً في كل أعضائه نشأ عن مناخس ضميره وارتياحه من جنايته. وقال بعض علماء هذا العصر إنّ العلامة كانت اسوداد جسمانه وجعلوه أصل السودان. وجنح لانرمان نفسه إلى شيء من هذا المذهب كما سترى في كلامنا على الطوفان. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ ف ٣) أنَّ قاين ازداد شراً على شرّ وعكف على السلب والنهب، وأدخل الخداع والمكر في العالم. ولم يذكر مسنداً لقوله، وليس في الكتاب إشارة إليه. وأما في شأن موته فيقال إنّ لاملك أحد أحفاده قتله اتفاقاً ظاناً إياه وحشاً، وأنه عرف بعد خطيئته فقال لامرأته: عادة وصلّة ما جاء في سفر التكوين (ف ٤ عد ٢٣): «لاني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي. إنه ينتقم لقاين سبعة أضعاف، وأما للملك فسبعة وسبعين. وقال بعضهم بل قتل نفسه أو مات تحت ردم بيت سقط عليه. (معجم الكتاب

لكلمت في كلمة قاين). ولا يُعلم كم كانت سنوّه. فقال بعضهم ثمانني مائة سنة، وغيرهم نحواً من سبعمائة، وآخرون إنها ستمائة وثمانون سنة. والله أعلم.

قد عثر بعض الجوّالين في هذا العصر على آثار وتقليدات عند أم بريرية مؤذنة بأنّ مصدرها قتل قاين هايل أخاه. منها ما رواه هومبولد (المجلد ١ من كتابه في منظر جبال كورديلار في أمريكا)^(١) عن أثر في المكسيك يمثّل امرأة تخاطبها حيّة وعلى جانبيهما رجلان يعتدي أحدهما على الآخر. وقال هذا العالم في ذلك: إنّ هذه الصورة مثال للمرأة مع الحيّة، وهي في عرف أهل المكسيك أم النوع البشري. ومن تقليداتهم أنها ولدت رجلين توأمين. فصورة رجلين عريانين بجانبها يعارك أحدهما الآخر تذكّرنا بقاين وهايل. وروى العالم دومون دورفيل (في كتاب سفره في استرولاب السفينة التي سافر فيها)^(٢): أنّ أخصّ معبودات أهل زولاندا إلهان أخوان قتل أكبرهما أصغرهما وأكله. وأنه وجد في جزيرة تونكا (من جزر الأوقيانوس) تقليداً بأنّ أحد آلهتهم كان له ابنان أصغرهما مجتمّل بالحكمة، وقد اخترع كثيراً من الصنائع والمعارف. وأما الأكبر فكان مكسلاً لقاباً يعدو إلى هنا أو هناك أو ينام ويذري بأعمال أخيه إلى أن صادفه يوماً في الصحراء فقتله. فانهدر إليه أبوه محتتماً فسأله لِمَ قتل أخاك؟ أما كان لك أن تعمل كأعماله؟ فبّح الله صنعك. (عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة قاين).

عد ١٩

شيت

جاء في سفر التكوين (ف ٤ عد ٢٥): «وعرف آدم امرأته أيضاً فولدت ابناً وسَمّته شيناً». وقال بعيدة إنّ مولد شيت كان لسنة ١٣٠ لآدم، وفي الترجمة السبعينية لسنة ٢٣٠ له. وقد ضبط أبو الفدا كلمة شيت بالثاء المثلثة وكذا في الكامل لابن الأثير وفي تاريخ ابن خلدون، وفسّر أبو الفدا الكلمة بمعنى هبة الله. والأظهر تفسير لانرمان لها (في مجلد ١ من تاريخه ص ٤٣) بمعنى أساس

(١) De Humboldt, Vue Des Cordillieres to 1

(٢) Dumont d'Urville Voyage, de l'Astrolabe an 1832 tom 1v par 1

وأصل فهي تقرب من كلمة **אחא** (الأساس والأصل) في اللغة السريانية أخت العبرانية إن لم نقل بنتها أو أمتها. وشيت كان أصلاً لجميع بني آدم الذين ذكرهم الكتاب إلا ذرية قايين. وقد سُمي سفر التكوين (في ف ٦ عد ٢) ذريته أبناء الله لعملهم بسنة الله، وسُمي ذرية قايين بنات الناس لانحرافهم عن جادة الحق والبر وعكوفهم على الشهوات والمعاصي.

وولد آدم وحواء بعد مولد شيت بنين وبنات آخرين ذكر الكتاب إجمالهم، ولم يُصريح بأسمائهم ولا تعدادهم إذ قال: «وعاش آدم بعد ما ولد شيتاً ثمانين سنة، ولد فيها بنين وبنات. فكانت كل أيام آدم التي عاشها تسعمائة سنة وثلاثين سنة ومات» (تك ف ٥ عد ٤ و ٥). وكان ولد قبل شيت بنات زوجهن باخوتهن بسماع الله وحكم الضرورة، وتزوج شيت أيضاً بأخت له سمّاها القديس أيفانيوس (في أرطقة ٣٩) أوريا، فولد له وعمره مائة وخمسة سنين ابنه أنوش. وفي كتب المؤرخين العرب ومنهم أبو الفدا في التاريخ «تقول الصابية إنه ولد لشيت ابن آخر اسمه صابي ابن شيت وإليه تُنسب الصابية» وعاش شيت بعدما ولد أنوش ثمانين مائة وسبع سنين ولد فيها بنين وبنات؛ فكانت أيام شيت تسع مائة سنة واثنتي عشرة سنة ومات» (تك ف ٥ عد ٧ و ٨).

عد ٢٠

ذرية قايين

أما ذرية قايين فقال فيها الكتاب (تك ف ٤ عد ١٧): «وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت أخنوخ، ثم بنى قرية فسماها باسم ابنه أخنوخ» وسمّاها ابن الأثير في الكامل حنوخ بالحاء المهملة. وسترى أنّ أحد أعقاب شيت يُسمّى بهذا الاسم أيضاً. وأما القرية أو المدينة التي بناها وسمّاها باسم ابنه أخنوخ أو حنوخيه فلا يعرف موقعها، فيتيقن أن يكون في شرقي عدن حيث أقام قايين كما قال الكتاب. غير أنّ شرقي عدن بل عدن نفسها غير مُتفق على موقعها، وكلمة شرقي تتناول كثيراً من البلاد إلى الشرق، فلا تحقيق مع هذا. نروي ما قال بعضهم.

ذكر بتولميس مدينة تُسمّى أخنوختا في سوسيانا وهي الآن خورستان الواقعة بين بلاد فارس شرقاً وبلاد آشور غرباً وخليج العجم جنوباً. وفي الكتاب المنسوب

لباروز، وعنه أخذ ادريكومبوس أنَّ مدينة حنوخ كانت إلى الشرق من لبنان في نواحي دمشق. وعند غيرهم أنها كانت في بلاد العرب الحجرية. والصحيح أنَّ موقعها غير معروف كما مرّ.

ثم إنَّ أخنوخ بن قاين ولد عيراد، ولا يعرف شيء من أخباره إلا اسمه. وعيراد ولد محويائيل وهذا ولد متوشائيل. وجعل ابن الأثير هؤلاء الثلاثة اخوة أبناء حنوخ خلافاً للتوراة، وسماهم غيرد ومحويل وأتوشيل. ومتوشائيل ولد لامك وشهره الكتاب بأنه اتخذ امرأتين معاً، ويُظن أنه أوّل من أدخل في العالم عادة الزواج بأكثر من امرأة واحدة. وكان اسم أولى امرأته عادة، واسم الثانية صلة، (وفي كلام ابن الأثير عدى وصلى بالقصر). فولد له من الأولى يابل ويوبل، ومن الثانية توبل قاين وبتاً اسمها نعمه (تك ف ٤ عد ١٩ إلى عد ٢٣). وقال يوسفوس (ك ١ من تاريخ اليهود ف ٢): إنه ولد للامك من امرأته ستة وسبعون ابناً، لكنّ الكتاب لم يذكر إلا ثلاثة بنين وبتاً كما رأيت. وقال لامك ذات يوم لإمرأته: «اسمعا قلتي وانصتا لكلامي إني قتلت رجلاً لجرحي وفتى لشدخي، أنه ينتقم لقائين سبعة أضعاف، وأما للامك فسبعة وسبعين» (تك ف ٤ عد ٢٤)، وتقليد العبرانيين ما قدّمناه أي إنَّ لامك قتل قاين خطأ. وقال بعض المفسرين بل قتل رجلاً آخر، فإنّ ذريّة قاين اعتادت مثل هذه الفظائع.

وقال الكتاب في يابل ابن لامك: إنه «أبو ساكنيّ الخيام ومتّخذي المواشي»؛ فكلّمة أب في مثل هذا التعبير في الكتاب يُراد بها الأوّل أو البادىء بطريقة ما، فيكون المعنى أنَّ يابل أوّل من اعتاد الارتحال والسكنى تحت الخيم، ورعاية المواشي كرحل أيّامنا. وأما يوبل فقال الكتاب فيه إنه (أبو كلّ عازف بالكنارة والمزمار) أي أنه أوّل من أدخل فن الضرب بالبونج والبنج والعزف بالكنارة والمزمار. وأما أخوهما لأبيهما توبل قاين فقال الكتاب: إنه «أوّل صقيل لجميع المصنوعات النحاسيّة والحديدية»، أي أوّل من اخترع صنع الآنية والأدوات من النحاس والحديد. وقد أثبتت الاكتشافات الحديثة أنَّ أوّل العمل في المعادن وما يُصنع منها كان في آسيا. وأثبتت المجلّة المعروفة بالكاثوليكية^(١) التي تُطبع في لوفان (البلجيك) في أحد فصولها في آب سنة ١٨٧٨ (في صفحة ١٢٠ إلى صفحة ١٣٨) أنَّ صناعة

(١) Revue Catholique de Louvain

العمل في المعادن ابتدأها توبل قاين هذا (فيكوررو في الموجز الكتابي عد ٢٩٣ ومعجم الكتاب لكلمت في الكلم المذكورة) ولم يذكر الكتاب غير هؤلاء من ذرية قاين.

عد ٢١

ابناء شيت إلى نوح

قد مرَّ أنَّ شيتاً ولد أنوش وعمره مائة وخمسة سنين، فكان مولد أنوش لسنة مائتين وخمسة وثلاثين لآدم على ما في العبرانية، وقال الكتاب (تك ف ٤ عد ٢٦): «وحينئذ (أي في أيام أنوش) أبتدي بالدعاء باسم الله». وفسر كثيرون هذه الآية بمعنى أنَّ أنوش وضع نظاماً لعبادة الله الخارجية، وللصلوة العامة إذ كان يجتمع بذويه فيستبحون الله ويشكرونه. وذهب كثير من الربيين أنَّ عبادة الأوثان ابتدأت في عهد أنوش فترجموا الآية: «وحينئذ أبتدي باحتقار اسم الله» أي شرع بعض الناس يُسمي المخلوقات والأصنام آلهة. ويمكن ترجمة الآية «وحينئذ أبتدي بالتسمية باسم الله» ليكون المعنى أنَّ الناس الصلح طفقوا يُسمون أنفسهم ابناء الله أو عبيد الله تمييزاً لهم عن الأشرار، فيكون هذا تمهيداً لما قاله موسى بعد ذلك (ف ٦ عد ٢): «لما رأى ابناء الله (أي نسل أنوش الصحيح المعتقد) بنات الناس» أي نسل قاين الأشرار. وعن بعض المؤرخين العرب أنَّ شيتاً جعل ابنه أنوش سيّداً متسلطاً، وحبراً على الناس بعده وأنه أول من أقام المحاكم، وأول من أوصى بالصدقة. وعاش أنوش تسعين سنة إلى أن ولد قينان، وعاش بعد ما ولده ٨١٥ سنة، ولد فيها بنين وبنات فكان مجمل سنيه ٩٦٥. وفسر لانرمان (مجلد ١ صفحة ٤٣) اسم أنوش بمعنى إنسان.

فولد إذاً قينان لسنة ٣٢٥ لآدم ولم يُنبئنا الكتاب شيئاً من أخباره، إلا إنه ولد مهلائيل لسبعين سنة من عمره، وإنه عاش بعدما ولده ٨٤٠ سنة ولد فيها بنين وبنات؛ وأنَّ مجموع سنيه كان ٩١٠ سنين. وإذا أضفنا إلى سني آدم المار ذكرها سبعين سنة عمر قينان حين ولادته وجدنا مهلائيل ولد سنة ٣٩٥ لآدم. وفسر لانرمان (في المحل المذكور) كلمة قينان بمعنى خليفة (وأظن الأولى تفسيرها بقنية أو مقتنى) وكلمة مهلائيل بمعنى تسبحة الله. وعن ابن الأثير عن هاشم ابن الكلبي أنَّ

مهلائيل أوّل من بنى البناء، واستخرج المعادن، وأمر أهل زمانه باتخاذ المساجد، وبنى مدينة بابل في العراق ومدينة السوس بخورستان. وهذا مما يورد ولا يُمكن إثباته إذ لا سبيل إلى إقامة البيّنة عليه.

وولد مهلائيل يارد لسنة ٦٥ من عمره وعاش بعدما ولده ٨٣٠ سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت كلّ سنّيه ٨٩٥ سنة، وإذا أضفنا ٦٥ سنة إلى سنّي آدم السابقة وجدنا يارد وُلد سنة ٤٦٠ لآدم. ولم يُثبتنا الكتاب من أخبار يارد إلا إنه عاش ١٦٢ سنة إلى أن ولد أخنوخ (أو حنوخ) سنة ٦٢٢ لآدم وعاش يارد بعدما ولد أخنوخ ٨٠٠ سنة ولد فيها بنين وبنات ومات وله من العمر ٩٦٢ سنة وسماه المؤرّخون العرب يرد أيضاً وفسّر لانرمان اسمه بمعنى انحدار أو ذريّة.

وأخنوخ هو الذي يُسمّيه المؤرّخون العرب ادريس، وقد جاء في التوراة أنّ أخنوخ ولد متوشالّح لسنة ٦٥ من عمره، وأنه سلك مع الله بعدما ولده ثلاثماية سنة ولد فيها بنين وبنات وأنّ كلّ أيّامه كانت ٣٦٥ سنة ولم يوجد بعد لأنّ الله أخذه (تلك ف ٥ عد ٢٤). وفهم بعض المفسّرين الآية الأخيرة بمعنى أنّ أخنوخ مات موتاً طبيعياً، لكنه لم يدرك سنّي سائر الآباء الأوّلين إذ عاش أقلّ من جميعهم ٣٦٥ سنة. فكأنّ الله أراد أن يقيه الفساد فأماته قبل الوقت المعتاد في تلك الأيّام. إلا إنّ أكثر الآباء والمفسّرين على أنه لم يمّت بل حجبه الله عن مرأى الناس كما فعل يايّليا بعده، ويؤيّد هذا القول بولس الرسول: «وبالإيمان نقل أخنوخ لكي لا يرى الموت، ولم يوجد بعد لأنّ الله نقله، إذ قبل نقله شهد له بأنه أرضى الله» (عبرانيّة ف ١١ عد ٥). وقال فيه ابن سيراخ (ف ٤٤ عد ١٦): «أخنوخ أرضى الله فنقل» وزادت النسخة اللاتينيّة العاميّة «إلى الفردوس» أي الأرضيّ، ولا وجود لكلمة الفردوس في اليونانيّة. وفهم القديس إيرونيموس بذلك أنه نقل إلى السماء، وكذا يعتقد المؤرّخون المسلمون العرب. فقد جاء في تاريخ أيّي الفدا «وأما حنوخ وهو ادريس فإنه رُفع لما صار له من العمر ثلاثماية وخمسة وستون سنة رفعه الله إلى السماء».

ويعزى إلى أخنوخ سفر لم تثبته الكنيسة الكاثوليكيّة بين الأسفار المقدّسة، على أنّ القديس يهوذا الرسول قال في رسالته (عد ١٤): «وقد تنبأ على هؤلاء (الأنمّة) أيضاً أخنوخ سابع آدم (أي السابع بعده) حيث قال: هوذا يأتي الرب في ربوات

قدسيه ليجري القضاء على جميعهم، ويحج جميع المناققين منهم على كل أعمال نفاقهم التي نافقوا بها. فكان هذا للمفسرين معضلة يعسر الإهداء لوجهها. أخذ الرسول هذه الآية عن كتاب لأخنوخ كان في صدر النصرانية أم علم ذلك بتقليد أو وحي خاص؟ والأظهر أنَّ الرسول قرأ هذه الفقرة في سفر أخنوخ أو في كتاب اشتمل عليها، وهو لاستنارته بالإلهام الإلهي استشهد بها بما أنها حقيقة وإن لم يكن السفر برمته قانونياً. على أنَّ المشاهير الآباء لم يعتبروا من هذا السفر منزلاً إلا هذه الفقرة لإثبات يهوذا الرسول لها في رسالته المعدودة من الأسفار الموحاة. وفسر لانرمان (في المحل المذكور) كلمة أخنوخ بمعنى المبتدي.

وأما متوشالغ بن أخنوخ فكان مولده سنة ٦٨٧ لآدم، ونبأنا الكتاب أنه عاش ١٨٧ سنة إلى أن ولد لامك. وعاش بعد ولادته ٧٨٢ سنة ولد فيها بنين وبنات فكانت سنوه ٩٦٩ سنة، وإذا أضفنا سنّي عمره إلى سني آدم حين مولده، كان مجموعها ١٦٥٦ سنة هي سنة الطوفان بحسب النسخة العبرانية واللاتينية العامية، فيكون قد مات سنة الطوفان قبل حدوثه. وفسر لانرمان اسمه بمعنى رامبي السهام، والظاهر من المقاربة بين العبرانية والسريانية أنَّ الكلمة مركبة من **مات** و**هلم** أرسل أو بعث. ولذا جعل بعضهم تأويل اسمه مات فأرسل الطوفان لما مر من أمر وفاته سنة الطوفان ستمائة موسى بهذا الاسم. وأما لامك بن متوشالغ ويسمى ملك أيضاً فولد سنة ٨٧٤ لآدم، وعاش ١٨٢ سنة إلى أن ولد نوحاً وعاش بعد ولادته ٥٩٥ سنة، فكان مجموع سنّيه ٧٧٧ سنة، فإن أضفنا هذا المجموع إلى سني آدم حين ولادته، وجدنا أنَّ موته كان ١٦٥١ خمس سنين قبل الطوفان وقبل موت والده متوشالغ. وفسر لانرمان كلمة لامك بمعنى الشاب السمين القوي.

وأما نوح ففسر الكتاب اسمه بمعنى الراحة والتعزية، وإذا أضفنا سنّي مولد أبيه إلى سنّي ولادته نوحاً، وجدنا أنَّ مولد نوح كان سنة ١٠٥٦ لآدم. وأنبأنا الكتاب (تك ف ٥ عد ٢٢) أنه كان ابن خمسمائة سنة لما أخذ يلد ابنائه ساماً وحاماً ويافت. ثم إنه كان ابن ستمائة سنة لما كان ماء الطوفان على الأرض (تك ف ٧ عد ٦ و ١١) وعليه فكان الطوفان سنة ١٦٥٦ لآدم، هذا بحسب الأصل العبراني والترجمة اللاتينية العامية وغيرهما من النسخ، على أنَّ النسخة السامرية أنقصت شيئاً من سني الآباء إلى أن ولدوا. فكان الطوفان بموجبها سنة ١٣٠٢ لآدم وزادت

النسخة السبعينية في عداد تلك السنين فكان الطوفان على موجبها سنة ٢٢٤٢ لآدم، وسنضع جدولاً يبيّن منه هذا الفرق بين النسخ ومواطنه.

قد رأيت أنّ جميع الآباء إلا نوحاً ولدوا وآدم في الحياة، وأمّكنهم أن يعاشروا ويتلقوا عنه الأخبار الصحيحة عن إبداع العالم وما علّمه الله إياه. وكثير منهم لاسيما متوشالحو ولاملك عاشروا نوحاً سنين متطاولة، فسلموا إليه ما تسلموه من آدم. ولما كان نوح قد عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة (تك فصل ٩ عد ٢٨)، أمّكن ابراهيم أن يعيش معه نصف قرن وثيقاً بحسب الأصل العبراني. ويتلقّى عنه التقليدات الصادقة، ولا أقل من أن يتلقّاها عن سام ابنه بحسب الترجمة السبعينية، وتبلغ إلى اسحق ويعقوب ثم موسى بسلسلة متصلة قليلة الحلقات كما سترى.

عد ٢٢

طول حياة الآباء الأولين

إنّ طول حياة الآباء قبل الطوفان إلى ثيف وتسعمائة سنة، كان من قرون مشكلاً توقّرت الأقوال في حلّه. ومنذ زمان القديس أوغوستينوس كان يحاول بعضهم إيجاز هذه المدد المتطاولة، زاعمين أن ليس المراد بالسنة إلّا ستة وثلاثون يوماً، على أنّ موسى لم يقل كلمة تجعل اللبس في أنّ المراد بسنّي الآباء غير المراد بالسنة في باقي كلامه، بل إنّ ذكره الشهر السابع والعاشر (تك ف ٧ عد ١١ وف ٨ عد ٤) هو نصّ صريح على أنّ الشهر يختلف عن السنة التي تتألف لا أقلّ من ثلاثمائة وستين يوماً. وما أحسن ما قاله القديس اغوستينوس (كتابه في مدينة الله راس ١٥) في هذا الصدد وهو أنّ شيئاً ولد ابناً وعمره مائة وخمس سنين. وقينان ولد ابناً وعمره سبعون سنة. فلو كانت السنة ستة وثلاثين يوماً لتتج ما هو مستحيل بيّن، أي إنّ شيئاً ولد وعمره نحو من عشر سنين، وقينان ولد وعمره نحو من سبع سنين. فالمراد إذاً بسنّي عمر الآباء سنون حقيقية، وإنّ الآباء قبل الطوفان كانوا طويلي الأعمار لحكمة من قبل الله، يظهر لنا من مقاصدها السامية نماء النوع البشري والتكمّل بالمعارف، والمحافظة على ما علّمه الله آدم بالتقليد كما رأيت قبيله. وقد جعل الله بنية هؤلاء الآباء قوّة تتحمّل كرور هذه السنين، وعاونت على ذلك

صيانتهم بالبرارة والاعتدال وتنكّبهم كل إفراط. وقال يوسفوس (في ك ١ في تاريخ اليهود فصل ٣ إن الله أطال عمر هؤلاء ثواباً لفضائلهم وتوسلاً للتكتمل بالمعارف والعلم... وكل من كتبوا التاريخ يوناناً كانوا أو غيرهم، يشهدون لما قلته. فإنّ مانيتون الذي كتب تاريخ المصريين، وباروز الذي كتب تاريخ الكلدان، وموكوس واستيوس وهيروم المصريّ الذين كتبوا تاريخ الفينيقيون قالوا هذا القول نفسه. واسيود وأكرتا واكوسيلاس وايلانيك وايفور ونيقولاوس رويو أنّ الأولين كانوا يعيشون حتى ألف سنة).

فيقول جاحدو التنزيل إنّ طول العمر بهذا المقدار مخالف للطبع، ومضاد علم التشريح (القيسيولوجيا). لكنّ هذا العلم لا مستند له إلا ما يشاهد في الحال الحاضرة، ومعتمده في تحديد عمر الناس إنما هو الاختيار والمعاينة لتركيب الأجسام الآن، فلا تمتدّ نتائجه إلى ما لا يرى الآن. فلو سلّمنا بأنّ تركيب الأجسام الآن يستحيل معه البلوغ إلى عمر الآباء قبل الطوفان لما نتج منه ما يخالف قول الكتاب في الآباء الأولين. هذا وكثيراً ما وجد في هذه الأعصر أشخاص تجاوزوا العمر المعتاد وبلغوا إلى مائة وخمسين أو مائتي سنة أيضاً من عمرهم. فروى بريشارد^(١) أمثلة كثيرة؛ منها: أنّ رجلاً اسمه توما بار من شروب على تخوم بلاد غال^(٢) اشتهر بطول عمره وبلغ منه ١٥٢ سنة. فرغب كرلس الأول ملك إنكلترا في أن يراه فأشخصوه إلى بلاطه. وأراد بعضهم الاحتفاء به والإيلاء له فأفرط في المأكّل فمات متخوماً، فشرّحه الطبيب هرفاي الشهير، فوجد أمعاه وباقي أعضائه الرئيسيّة على تمام السلامة، وقضى أنه يمكنه أن يعيش سنين عديدة لولا التخمّة التي أصابته. وحقّق الجوّالون في هذا العصر أنّ طول الحياة ليس نادراً في العرب سكان صحارى افريقية. ويكثر وجود أفراد يتجاوزون المائة من سنّهم في البلاد الباردة كروسيا وغيرها. وربما كان الهواء قبل الطوفان أصلح منه للصحة بعده فضلاً عمّا يوجد من البون الكبير بين المعيشة والأشغال قبلاً والآن. (عن الوجيز الكتابيّ لفيكورو عدد ٢٩٤ بتصرف).

(١) Prichard.

(٢) Thomas Parr Du Comté de Shrop.

التطابق بين عدد الآباء قبل الطوفان في الكتاب وبين عددهم في آثار القبائل

من المستغرب أننا نجد عند أكثر القبائل القديمة عشرة آباء أو ملوك أولين طبق عدد الآباء العشرة الذين ذكرهم الكتاب من آدم إلى نوح. وتزول الغرابة إذا تذكرنا أن أصل الناس واحد، وأن التقليد الذي أودعه موسى سفر التكوين حفظته هذه القبائل بآثارها يمازجه شيء من التشوش، أو تغيّر الاسماء من جري مرور الأعوام واختلاف اللغات والجهل وعبادة الأوثان. فقد نبأنا تقليدات الكلدان تتابع عشرة آباء قبل الطوفان ستمتهم ملوكاً. ونظم فرنسيس لانرمان (في مجلد ١ من تاريخه صفحة ٤٣ طبعة ٩) عن فقر لباروز أسمائهم في جانب أسماء العشرة الآباء قبل الطوفان في جدول اختلفت فيه الاسماء، وتطابق العددين في الكتاب والآثار. وروي أن أيبان (هو كاتب يوناني كتب تاريخ بعض شعوب آسيا في عهد خلفاء اسكندر) جمع من تقليدات الآشوريين ما يتبين منه أن هذه القبيلة كان فيها في بدء أمرها قبل بناء نينوى عشرة أبطال تولّوا تديرها. ومن معتقدات الإيرانيين القدماء أنه قام فيهم عشرة ملوك يستمنهم باشدين، أي رجال السنّة القديمة. ويقولون إنهم كانوا يقتاتون بشراب يستمنه (هوما) أي شراب عدم الميتة، إشارة إلى طول أعمارهم.

واعتقد الهنود وجود تسعة آباء يستمنهم (براهمديكاس) ويضيفون إليهم براهما أصلهم وأولهم. ويستمن الكلّ (البيتريس العشرة) أي الآباء العشرة. وقال الجرمانيون والاسكنديناف (سكان أسوج ونروج القدماء) بعشرة جدود (الأودين معبودهم). واعتقد الصينيون عشرة سلاطين اشتركوا بالطبع الإلهي قبل بزوغ أنوار الأعصر التاريخية. ومن تقليدات العرب تتابع عشرة ملوك من قبيلة (عاد)، وهم مع قومهم أول من سكن شبه جزيرتهم بين البحر الأحمر والخليج العجمي. وعدّ سنكونياتون عشرة مواليد للآباء الأولين عند الفينيقيين، أولهم بروتوكونوس أي المولود الأول وأيون أي حواء. ذكر هؤلاء الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٤١ طبعة ٤). وروي لانرمان (في التاريخ القديم مجلد ١

صفحة ٤٣ و ٤٤ طبعة ٩) ما رواه فيكورو، وزاد عليه أنَّ ابيدان المارّ ذكره آنفاً، عدّ عشرة أبطال عند الأرمن القدماء تقدّموا أرام (بن سام بن نوح) جدّ هذه القبيلة على مذهبه الذي تابعه به علماء مدرسة الرها وغيرهم. وأنّ المصريين اعتقدوا أنَّ الآلهة حكموا في الأرض في الأعصر الأولى للبشرية. على أنَّ فقر مانيتون التي تكلم فيها على هذه الأعصر الأولى بلغت إلينا مشوّهة، لا يُهتدى بها إلى تأكيد عدد هؤلاء الحكام. لكنّ الباير التاريخي الكائن الآن في متحف تورين، يُستنار منه أنَّ الآلهة الذين تولّوا سياسة الناس في البدء كانوا عشرة طبق تقليدات سائر الأمم. فهذا التطابق في عدد الآباء العشريّ في الكتاب، وفي آثار هذه القبائل كلّها يستحيل أن يكون مصادفة و اتفاقاً ولا وجه له إلا إنه عن مصدر واحد، هو التقليد الأولي الذي استودعه موسى سفر التكوين والقبائل آثارها.

إنّ التقليد البابليّ في عهد باروز كان يجعل لولاية الملوك الذين حكموا قبل الطوفان مدداً مديدة من السنين، يقسمونها إلى مائة وعشرين مدة، ويسمّون كلّ منها (ساراً). وجعل باروز كلّ سار منها ثلاثة آلاف وستماية سنة. فكان عدد السنين معظماً كثيراً. على أنَّ سويداس (وهو مؤلّف يونانيّ يظنّ أنه كان في القرن التاسع أو العاشر بعد الميلاد)، أفادنا في معجمه أنَّ السار في عرف البابليين عبارة عن ثماني عشرة سنة وستة أشهر. فالماية وعشرون ساراً يساوي في عرفهم ٢٢٢٢ سنة، لأنّ السار يساوي ٢٢٢ شهراً قمريّاً، فيتألّف منها ثماني عشرة سنة وستة أشهر، فإذا ضُربت في مائة وعشرين كان الحاصل ألفين ومائتين واثنين وعشرين سنة. وعليه فكان للسار استعمالان أحدهما فلكيّ يساوي ٣٦٠٠ سنة، والآخر مدنيّ يساوي ١٨ سنة وستة أشهر. وعلى مقال سويداس يلزم اعتبار المائة والعشرين ساراً قبل الطوفان بحسب الاستعمال المدنيّ. وإذا حسبناها كذلك وجدنا بين تاريخ الكتاب وتاريخ الكلدان تطابقاً أو تقارباً مدهشاً، لاسيما أننا نتوصّل إلى ذلك بطريقتين مختلفتين فتؤدّينا كلتاها إلى نتيجة واحدة. فالطريقة الأولى أساسها السنة التي ولد فيها أحد الآباء أبناء، كما هي في سفر التكوين. والثانية أساسها المدة التي حكم فيها كلّ من الملوك العشرة عند الكلدان قبل الطوفان. فهذه الأعداد تؤدّينا على مباينتها إلى ظهور الاتفاق بين نصّ الكتاب والآثار الكلدانية، كما ستري في الجدول التابع الذي يكشف لك أيضاً عن الفرق الكائن بين نسخ الكتاب العبرانية

والسامرية والسبعينية، وعن مواطنه كما وعدنا آنفاً بذلك وهاك الجدول:

الآباء قبل الطوفان	عن النسخة العبرانية والعامية	السامرية	السبعينية	عدد اللغات	مجموعها مضروبة في ١٨ سنة ونصف	اسماء ملوك الكلدان قبل الطوفان
آدم ولد شيتاً	١٣٠	١٣٠	٢٣٠	١٠	١٨٥	الوريوس
شيت	١٠٥	١٠٥	٢٠٥	٣	٥٦ ١/٢	الأباروس
أنوش	٩٠	٩٠	١٩٠	١٣	٢٤٠ ١/٢	المالون
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠	١٢	٢٢٢	امينون
مهلائيل	٦٥	٦٥	١٦٥	١٨	٣٣٣	امكالروس
يارد	١٦٢	٦٢	١٦٢	١٠	١٨٥	داونوس
اختنوخ	٦٥	٦٠	١٦٥	١٨	٣٣٣	ادورنكوس
متوشالغ	١٨٧	٦٧	١٦٧	١٠	١٨٥	امابسينوس
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨	٨	١٤٨	اتيرتس
نوح سنة الطوفان	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠	١٨	٣٣٣	كيسوترس
١٠	١٦٥٦	١٣٠٢	٢٢٤٢	١٢٠	١٢٢١	١٠

فالظاهر من هذا الجدول أنَّ مجموع السنين الحاصل من المائة والعشرين ساراً مدد ملوك الكلدان إلى الطوفان محسوبة على مذهب سويداس، يوافق عدد السنين التي خلّت من خلق الإنسان إلى الطوفان بموجب النسخة السبعينية. وليس من فرق بينهما بسوى إحدى وعشرين سنة مع أنَّ النسخة السبعينية تزيد على العبرانية ٥٨٦ سنة، وعلى السامرية ٩٤٠ سنة. والكنيسة لم تقطع في القول بشيء من هذه الأعداد ولو كان الاتفاق بين الكتاب وآثار غير الكلدان لربما أمكن تخريج وقوعه على المصادفة. ولكن وقوعه في آثار الكلدان الذين كثيراً ما تساوت تقليداتهم

وتقليدات العبرانيين يصوّب لنا حسابان هذا التطابق حقيقياً واقعياً. انتهى ملخصاً عن فيكورو (في مؤلفه الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٤٥ طبعة ٤).

عد ٢٤

الجبابرة

جاء في سفر التكوين (ف ٦ عد ١ وما يليه): «ولما ابتدأ الناس يكثرون على وجه الأرض وولد لهم بنات رأى بنو الله بنات الناس أنهنّ حسنات، فاختدوا لهنّ نساء من جميع من اختاروا... وكان على الأرض جبابرة في تلك الأيام. وأيضاً بعد أن دخل بنو الله على بنات الناس، وولدن لهم أولاداً أولئك هم الجبابرة المذكورون منذ الدهر». وقد مرّ أنّ المراد بيني الله أبناء شيت وأنوش الذين ابتدأوا يدعون باسم الله، واستمروا يحفظون سننه، وأنّ المراد بينات الناس ذرية قايين الذين سلكوا طريق الإثم. وقد ورد ذكر الجبابرة في آيات أخرى عديدة من الكتاب بعد الطوفان أيضاً؛ كجبابرة بني عناق الذين ذكرهم جواسيس موسى في أرض الموعد (سفر العدد فصل ١٣ عد ٣٣)، وكعوج ملك باشان (نشيد فصل ٣ عد ١١)، وكجليات الذي صرعه داود (ملوك ١ فصل ١٧ عد ٤). وقد وافقت آثار القبائل وتقليداتها آيات الكتاب في ذكر الجبابرة فقال باروز سنداً إلى تقليدات الكلدان إنّ الأناس الأولين كانوا ذوي قامة وقوة عجبتين؛ وإنه استمرّ مثل هؤلاء بعد الطوفان أيضاً. وترى الآثار الكلدانية تعبّر عن الجبابرة بكلمة (كبرو) أو (جيبور) كما تعبّر الكتاب عنهم. وترى آثار اليونان وأشعار شعرائهم طافحة بذكر الجبابرة وأعمالهم. ومن تقليداتهم أنّ جنوب جزيرة رودس وجزيرة كوس كان أول سكانهما من الجبابرة. وروى مار أباس كاتينا مؤرّخ الأرمن حروب هؤلاء الجبابرة في أرمينيا وما بين النهرين. وقد فشا في كتب العرب وآثارهم وصف الجبابرة في قبيلتي عاد وثمود وبني عناق والعمالقة. وترى مثل ذلك في آثار المصريين والهنود وغيرهم من القبائل العريقة في القدم (روى ذلك لانرمان في تاريخه مجلد ١ صفحة ٤٧، وفيكورو في الكتاب والاكتشافات مجلد ١ صفحة ٢٤٦). وما من ناكراً أنه وجد ويوجد في بلادنا وغيرها أعضاء بشرية تتجاوز في طولها وضخامتها أعضاء البشريين في هذه الأيام.

على أنَّ كلمة الجبابة في الأصل العبراني في آية التكوين هي نوفل أو نيفليم، ومعناها رجل مربع أو قدير. وترجمها أكويلا في اليونانية بكلمة معناها الرجال المحاربون أو المعتدون، وسيماخوس بكلمة معناها الرجال القساة أو المحبّو الاعتداء، والسبعينية بجيكاس أو جييور ومعناه الرجل القدير المحارب؛ ولذلك ذهب بعض العلماء القدماء والحدثاء، أنَّ الجبابة الذين ذكرهم الكتاب كانت شهرتهم باعتدائهم وشراسة أخلاقهم، وآثامهم أكثر منها بقوّتهم وطول قاماتهم. على أنَّ الأكثرين من الآباء والعلماء علموا بأنه كان جبابة امتازوا لا باعتدائهم وسطوهم فقط بل بقوّتهم وطول قاماتهم أيضاً. وقد أسهب كلمت (في معجم الكتاب في كلمة جبابة) بإيراد الحجج الدامغة، والبيّنات الوضيعة على وجود جبابة ضخام الجثث طويلي القامات، دلّت عليه بقايا أجسامهم العديدة. فضلاً عن آيات عديدة من الكتاب لا يمكن تخريجها إلى معنى الاعتداء والمعاصي، وفضلاً عن شهود عدل من المؤرّخين، وعما ذكرناه من آثار القبائل، بل لا يمكن أصحاب الزعم المضاد أن يقيموا نكيراً على أنه يوجد في هذا العصر، وقد وُجد في كلّ عصر، أناس غير عادّين في طول قاماتهم وقوّتهم. ووجود بقايا بشرية لا تزيد على أعضاء أهل عصرنا لا يثبت - ولو مهما كثرت تلك البقايا - أنه لم يكن جبابة، بل يقتصر إثباتها على أنه لم يكن كلّ الناس جبابة. وعلى كلا الرأيين يبقى صدق الكتاب كاملاً سالماً. فإن فهم بالجبابة قبل الطوفان الأئمة وأصحاب المعاصي، أو طوال القامات والمقتدرون فسيّان في صدق الكتاب، وربما كان المعنى الأول أنسق وأكثر التحاماً مع كلام الكتاب في انزال الله الطوفان عقاباً لمعاصي الأشهار. وأيّ محال في وجود أشخاص غير عادّين قبل الطوفان أو بعده، وقد وُجد مثل هؤلاء في كل عصر بالنسبة إلى سائر أهله؟

الفصل السابع

الطوفان

عد ٢٥

رواية الكتاب خبر الطوفان

جاءنا سفر التكوين في الفصول السادس والسابع والثامن والتاسع منه بأخبار الطوفان وما تعلّق به. فكانت الخلاصة أنه لما فسدت الأرض أي أهلها أمام الله وملئت إثمًا وجورًا، استاء الله من الناس استياءً عبّر عنه الكتاب بالندم والأسف على أنه خلقهم وعزم أن يمحوهم من الأرض، مع ما أبدعه من الحيوان والطير إلا نوحًا وأسرته، فأمره أن يصنع فلكًا ويقسمه إلى طبقات ومواضع، ويطلّيه من داخل ومن خارج بالقار، ويجعل طوله ثلاثماية ذراع وعرضه خمسين، وعلوّه ثلاثين ذراعًا؛ والذراع عبارة عن نصف المتر في أيامنا على الصحيح، وأن يدخل الفلك بأهله أي امرأته وبنيه ونسائهم، وأن يدخل معه من الحيوانات الطاهرة سبعة سبعة ذكورًا وإناثًا، ومن الحيوانات الغير طاهرة اثنين ذكرًا وأنثى مع ما يلزم من العلف والقوت. فصنع نوح كما أمره الرب. وفي سنة الستماية من عمره في السابع عشر من الشهر الثاني (الذي يظهر أنه تشرين الثاني)؛ تفجّرت حينئذ عيون الغمر العظيم، وتفتّحت كوى السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى حمل الماء الفلك، وكثرت المياه حتى غطّت جميع الجبال الشّامخة التي تحت السماء كلّها، وعلت على الأرض خمسة عشر ذراعاً^(١)، تغطّت الجبال فهلك كلّ ذي جسد يدبّ على الأرض والطير والناس كافة. وتعاظمت المياه على الأرض مائة

(١) الذراع: ٦٨ سم.

وخمسين يوماً فأرسل الله ريحاً على الأرض، فتناقصت المياه وانسَدَّت عيون الغمر وكوى السَّماء، واحتبس المطر، واستقرَّ الفلك في السابع عشر من الشهر السابع (نيسان على ما مرَّ) على جبال أَرَارَاط. ففتَح نوح كَوَّةَ الفلك بعد مدَّة، وأطلق الغراب فجعل يتردَّد إلى أن جفَّت المياه، ثم أطلق الحمامة فلم تجد مستقرّاً لرجلها فرجعت إليه. ثم أطلقها بعد سبعة أيام فعادت وفي فيها ورقة زيتون خضراء. فعلم أن قد جفَّ الماء. فخرج نوح وامرأته وبنوه ونسوتهم من الفلك في السابع والعشرين من الشهر الثاني، فتكون مدة اقامتهم في الفلك سنة وعشرة أيام. وخرجت أيضاً الحيوانات. وبنى نوح مذبحاً وقَدَّم عليه ذبيحةً للرب من الحيوانات الطَّاهرة والطيور. فتقبَّل الرب ذبائحهم ووعدَهُ بأن لا يكون طوفان آخر مثل هذا على الأرض. وقال له ولبنيه انموا واكثروا واملأوا الأرض. وفرض عليهم بعض السَّنن، وأباحهم أكل لحم الحيوان والطيور، وجعل القوس في الغمام علامة لعهدِهِ معهم. فهذه خلاصة ما في الكتاب في هذا الباب. وجعله القوس في الغمام علامة لعهدِهِ لا ينتج منه أن هذه القوس لم تكن قبلاً، فتكوَّنْها طبيعيّ كلما وقعت أشعة الشَّمس على غمام غير متكاثف. فقد جعل تعالى ما كان علامة لما سيكون من أنه لا يسمح بحصول طوفان كهذا في ما بعد، كما يجعل أحد الصخور الكائنة في محلّ علامة وتخيماً لملك مالك.

عد ٢٦

مباحث في الطوفان وأولاً أعاماً كان أو خاصّاً

أعمّ الطوفان الأرض كلّها وأباد الناس على آخرهم إلا نوحاً وأهله، أم اقتصر على المعمور حيثئذ فقط ولم يعمّ الأرض بكليتها؟ ذلك مبحث اعتاص أمره على الآباء والعلماء، فكان لهم فيه ثلاثة أقوال. أولها قول بعض الآباء والعلماء إنّ كلام الكتاب على إطلاقه أي أنّ الطوفان عمّ الأرض كلّها لا المأهولة حيثئذ فقط، بل ما كان منها أهلاً للسكنى أيضاً. والثاني قول بعضهم إنّ كلام الكتاب ليس على إطلاقه، بل يلزم قيده بالأرض المأهولة حيثئذ فقط. وعلى القولين أنّ الناس أجمع بادوا بالطوفان لا يُستثنى منهم إلا نوح وأهله الذين ذكرهم الكتاب. والثالث قول قوم من أهل العلم المتأخّرين من أنّ الطوفان لم يبد الناس كافة. وبالأولى أنه لم يعمّ

الأرض كلّها. وأقام كلّ من أصحاب هذه الأقوال حججاً وبيّنات على مدّعاها. فمن حجج أصحاب القول الأوّل أنّ نص الكتاب صريح «بأنّ المياه غطّت جميع الجبال التي تحت السماء كلّها»، وأنها أهلكت «كلّ ذي جسد يدبّ على الأرض من الطير والبهائم والوحوش وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة»، ومن حججهم أيضاً أنّ جميع القبائل حفظت ذكر الطوفان وافترضته عاماً، ومنها أيضاً على زعمهم وجود الأودية والجبال في كلّ أرض، فينسبون وجودها إلى الطوفان، ومنها وجود الصدف وبقايا الحيوانات البحرية في الجبال. على أنّ هاتين الحجّتين الأخيرتين قاصرتين؛ فإنّ الجبال كانت قبل الطوفان وهذا ثابت بنص الكتاب نفسه، ووجود الجبال يستلزم طبعاً وجود الأودية، وأما وجود البقايا البحرية في الجبال فيسهل تخريجه بأنّ هذه البقايا من قبل الطوفان في الأعصر الأولى لتكوّن العالم. ومع هذا فقد استمسك بهذا القول أكثر القدماء، وكثير من الحدّثاء أيضاً ومن جملةهم كلمت في معجم الكتاب في كلمة طوفان وبرجيا في معجم اللاهوت في هذه الكلمة.

ولأصحاب القول الثاني بأنّ الطوفان لم يعمّ الكرة كلّها حجج، أولاها أنّ كلام الكتاب الدال على التعميم لا يفهم دائماً على إطلاقه. مثلاً جاء في سفر التكوين نفسه (فصل ٤١ عد ٥٤) «وشمل الجوع جميع وجه الأرض... وقدم أهل الأرض بأسرها إلى يوسف ليمتاروا، لأنّ الجوع كان شديداً في الأرض كلّها». ليس من قائل أنّ مجاعة مصر حيثئذ عمّت البسيطة كلّها، بل كانت مقصورة على مصر وما جاورها من البلاد. وجاء في سفر تثنية الاشتراع (فصل ٢ عد ٢٥): «وأنا في هذا اليوم أبدأ بإيقاع ذعرك وخوفك على وجه الأمم الذين تحت السماء» ومن يقول إنّ خوف موسى وقع على وجه كلّ الأمم التي تحت السماء. وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٤): «وكانت كلّ الأرض تلتمس مواجهة سليمان لتسمع حكمته»، ومن يفهم كلمة الأرض هنا على إطلاقها. وفي الأبركسيس (فصل ٢ عد ٥) أنه كان في عيد البنديكستي في أورشليم «يهود رجال أنقياء من كلّ أمة تحت السماء». ومن البيّن أنّ التعميم في هذه الآيات كلّها لا يفهم على إطلاقه. فأبّى الموانع إذّا من فهم قول التكوين في الطوفان على غير إطلاقه. وحجّتهم الثانية أنّ من الأصول المفروضة لتفسير الكتاب أن في نصّه العصر

الذي كُتب فيه وكيفية فهم الكتاب والمكتوب إليه معنى كلامه. ففي وقت الطوفان لم تكن الأرض ملأى بالسكان فلم يفهم نوح ولا موسى بالأرض كلّها الكرة برمتها كما عُرفت الآن بعد الاكتشافات عن أميركا وغيرها، بل فهما من ذلك الأرض المأهولة حينئذ ويؤيد هذه الحجة أنّ الداعي إلى الطوفان إنما هو إهلاك الناس الأثمة، ولم يكن حينئذ أناس على وجه البسيطة بإطلاقها. وحجّتهم الثالثة أنّ مذهبهم أسلم من النقد وأعون على ردّ الاعتراضات الواردة على الطوفان. ومن جعلتها كيف استطاع نوح أن يجمع كلّ الحيوانات من أقاصي الأرض، وكيف وسعتها فلكه مع أعلافها سنة، وكيف أتى بالحيوانات التي كانت الأبحر المحيطة (الأوقيانوس وهو متعدّد) تفصل بينه وبينها، وكيف أمكن الحيوانات التي تعيش في الجزر أن تعود إليها بعد الطوفان. فكلّ هذه الاعتراضات لا يبقى لها قوام ولا محل إذا سلّمنا بأنّ الطوفان لم يشمل إلا الأرض المعروفة حينئذ، وبأنه لم يدخل السفينة من الحيوانات إلا ما كان في الأصقاع المأهولة حول نوح، ولا يبقى مشكل في جمعها ولا في وسع الفلك لها، ولا تبقى حاجة إلى القول بسلسلة معجزات لنقل الحيوانات من وراء الأبحر المحيطة وردّها إلى هنالك وإلى الجزر الشاسعة. فقد أنزل الله الطوفان ليبيد الناس لشترهم ولم يكن لازماً من وجه أن يبيد أنواع الحيوان كلّها. وأيّة حاجة لله أن يوحى إلى نوح وجود حيوانات لم يكن عرفها ولا سمع بها. ولا يلزم الالتجاء إلى المعجزات الخارقة الطبع في ما يمكن بيانه دون خرق شرائع الطبيعة. فالحيوانات العائشة في البلاد غير المأهولة بالناس استمرّت في مواطنها، ولم تحتج النجاة بالفلك إذ لم يتصل الطوفان إليها على هذا المذهب. إنّ للطبيين معضلات أخرى منها أنّ الماء الذي على الكرة كلّها لا يكفي لتغطية كلّها، فيلزم عندهم لذلك قدر من المياه فوق قعر البحر يساوي عمقها علوّ أعلى الجبال كحملايا الذي يساوي ارتفاعه نيف وثمانية آلاف وخمسمائة متر. فمن أين الماء ليغمر الأرض كلّها ويرتفع خمس عشرة ذراعاً فوق الجبال العالية. ومنها أنّ تغطية سطحي الكرة معاً مستحيلة مع حفظ شرائع الطبيعة الحالية فيلزم خرقها من أوجه. ومنها أنّ الاسماك العائشة في المياه العذبة يميّتها ماء البحر الملح. ولم يذكر الكتاب أنّ نوحاً أدخل فلكه نوعاً من الحيوانات التي تعيش في الماء. فمن أين الآن الاسماك التي تعيش في الماء العذب؟ فهذه المعضلات وإن التمس لها

أصحاب القول الأول أوجهاً لبيانها كأن الأرض كانت مغطاة بالماء قبل ظهور اليابسة، وإن في قلبها مستودعات ماء يسلم بوجودها بعض علماء الجيولوجية، وإن حالة الجو كانت في أيام نوح غير ما هي في أيامنا. إلا إن هذه الأوجه لا تزال الإشكال، ويضطر أصحاب القول الأول أن يعزوا كل ذلك إلى قدرة الله القادرة على كل شيء بخرقها شرائع الطبيعة وإبدائها معجزات عديدة معاً. فإذا سلم بالقول الثاني إن الطوفان لم يعم من الكرة الأرضية إلا ما كان مأهولاً زالت هذه المعضلات بالاهتداء إلى وجهها، ولم تبق حاجة إلى قدر الأمواه اللازمة لتغطية الأرض بكمالها، بل يكفي المطر العرمم، وفيضان أمواه البحر في بعض الأماكن، وانفجار أحواض الماء التي في قلب الأرض كما أشار الكتاب. ولا يتغنى حينئذ سطحا الكرة معاً، وتبقى أمواه عذبة يعيش بها السمك غير البحري.

إن هذا القول الثاني لا يضاد الإيمان ولا وسمته الكنيسة الكاثوليكية بسمه ضلال، فقد بُحث في هذه المسألة في رومة سنة ١٦٨٥ بداعي كتيبات نشرها اسحق فوسسيوس^(١) يثبت بها أن الطوفان لم يكن عاماً. فأكثر مجمع فحص الكتب التحري في هذا الشأن واستوضح العلامة ماييلون الشهير^(٢) ما يراه في أقوال فوسسيوس هذه. فأثبت أنها لا تخالف الكتاب بوجه من الوجوه، بل هي أعون على تفسيره. وأورد بعض ما أوردنا آنفاً، واستشهد بأقوال بعض الآباء لرأيه. فلم ينة هذا المجمع حينئذ ولا الكنيسة بعداً عن اتباع هذا المذهب.

وأما القول الثالث بأن الطوفان لم يهلك الناس كلهم أيضاً، فقال به بعض أهل العلم عن عهد قريب زاعمين أن بعض قبائل المنغول في الصين والأحباش والسودان هي من أصل قبل الطوفان. ومَن قالوا بهذا المذهب العالم دي كاترفاج والعالم شويال الذي جعل (في المجلة تاريخ الفلسفة المسيحية في كانون الأول سنة ١٨٧٦) قايين أصلاً لدرية السودان وأن الطوفان لم يهلكها. وجنح فرنسيس لانرمان (في تاريخ المشرق مجلد ١ صفحة ٥٦ وفي موجز هذا التاريخ) إلى هذا المذهب بحجة عدم وجود أثر للطوفان عند السودان خلافاً لسائر الأمم. وقد دافع عن هذا المذهب

(١) Ysac Vossius وهو عالم الماني شهير ولد سنة ١٦١٨ وتوفي سنة ١٦٨٩.

(٢) Mabillon وهو أحد مشاهير رهبانية القديس مبارك ولد سنة ١٦٣٢ وتوفي في باريس سنة ١٧٠٧.

العالم أوماليوس دي هالوي البلجيكي في خطبة ألقاها في المجتمع العلمي في البلجيك سنة ١٨٦٦م وتابع هؤلاء بعض العلماء الألمان الكاثوليكين. وصرح الأب بالينك اليسوعي البلجيكي بأن هذا المذهب يمكن تأييده، وإن لم يتمسك هو به لأنه قال (كما ورد في مجلة الدروس الدينية في نيسان ١٨٦٨م): «ليس من قصدنا أن ندافع عن هذا المذهب إذ لا نرى الدفاع عنه لازماً في حالة العلم الحاضرة، لكننا لا نندد بمن يظن هذا المذهب سيتغلب يوماً ما». على أن ما صرح الكتاب به إنما هو أن الله أراد أن يغرق جميع الناس لأن جميعهم غرقوا في لجة الإثم ما خلا نوحاً وأهله. وصرح بطرس الرسول (في رسالته الأولى فصل ٣ عد ٢٠) أنه خلص بالفلك «نفر قليل أي ثمانية أنفس». وقال أيضاً (رسالته ٢ فصل ٢ عد ٥): «ولم يشفق على العالم القديم وإنما وقى نوحاً كراز البر وهو ثامن ثمانية وأتى بالطوفان على عالم المنافقين» (ملخص عن الوجيز الكتابي لفيكورو عد ٣٢٣).

عد ٢٧

هل يثبت علم الجيولوجية^(١) حصول الطوفان

وضع الأب فيكورو في كتابه الوجيز الكتابي (عد ٣٢٢) فصلاً في هذا المبحث؛ فنلخص هنا ما كتبه هناك. قال ظن علماء الجيولوجية الأولون أنهم وجدوا حججاً بيّنة تثبت نصاً تغريق جزء من الأرض على الأقل بطوفان حصل في العصر التاريخي، أي بعد أن أهلك كرتنا بالبشر. على أن عامة العلماء هجروا هذا القول الآن لأنه لا يظهر قريباً من الصدق أن طغيان ماء على سطح الأرض سنة واحدة يترك فيها آثاراً يمكن تحقيقها بعد قرون، وتمييزها عن آثار طغيانات أخرى سابقة. فقالوا أولاً إن بين طبقة الأرض المعروفة عندهم بالثالثة وبين أرضنا الآن في أكثر أنحاء البسيطة طبقة مؤلفة من حصى وتراب خزفي ورمل بحري وحصى ملساء، فاعتبروا ذلك راسباً من ماء الطوفان، وسموا طبقة الأرض هذه طوفانية. أما علماء الجيولوجية الآن فيسمون هذه الطبقة طوفانية، لكنهم لا يرون أن طوفان سنة كوّنوها، بل هي نتيجة طغيانات وثورات عديدة جرت بحسب سنن الطبيعة في

(١) معنى اللفظة الكلام في الأرض وهذا علم يبحث عن تكون الأرض وطبقاتها إلى غير ذلك من متعلقاته.

قرون. ولا يبعد أن يكون طوفان نوح من فواعل هذه الانقلابات لكنه ليس الفاعل الوحيد بها، بل يلزم اعتزاء كثير منها إلى الأعصر الأولى قبل خلق الإنسان.

قالوا ثانياً: إنَّ ممَّا يثبت الطوفان الصخور الدخيلة أي الصخور الكائنة في غير مواطنها منتقلة من محلٍّ إلى آخر. ويُرى مثل هذه الصخور في إنكلترا والمانيا وروسيا ثم في آسيا على جبال حملايا، وفي لبنان وطورسينا ومحال أخرى عديدة. فحسب هؤلاء العلماء أنَّ هذه الصخور حملها ماء الطوفان من مواطن أصلها إلى مواطنها الحاضرة، ولكن تعرَّس على علماء هذه الأيام أن يصدِّقوا بنقل ماء الطوفان صخوراً كبيرة تبلغ مساحة بعضها أربعين ألف قدم مكعب من محال بعيدة إلى مواضعها الحالية، ولا حظوا أنَّ سطوحها غير ملساء وزواياها غير مكشَّرة، كما كان يلزم أن تكون لو قلبها الماء في مسافات من حيث كانت إلى حيث استقرَّت. ولذا رأوا الأولى نسبة نقلها إلى انقلابات في الأعصر الأولى، ولم يروا بها بيّنة قاطعة في إثبات طوفان نوح. ثالثاً أثبت كثير من العلماء الأوّلين حصول الطوفان التّوحيّ بما يرى في بعض المغاور والكهوف في أنحاء كثيرة من بقايا عظام بشريّة يخالطها أحياناً بقايا عظام حيوانات، ونسبوا ذلك إلى الطوفان. ولا ننكر أنه يحتمل كثيراً أن يكون بعض هذه البقايا من مفعولاته بل ليس لعالم أن يجزم بخلاف ذلك، إلا إنه لما كان ممكناً أن تكون لهذه البقايا عللٌ أخرى كطغيانات خاصّة، وكسكنى الناس الأوّلين في المغاور. فلا يمكن أن تكون إحداها حجّة قاطعة تبيّء مثبته الطوفان التّوحيّ.

وعليه فعلم الجيولوجية يثبت الطوفان ضمناً، ولا يناقضه البتّة فإنه يظهر جليّاً أنه قد طرأ على سطح الكرة انقلابات وثورات مسببة عن حركة الأمواه بعد أن وُجدت الحيوانات والإنسان. ويلزم أن يكون الطوفان التّوحيّ من جملة العلل التي بدّلت وجه الأرض. وإن لم تكن طبقة الأرض الطوفانيّة كلّها من مفاعيل الطوفان، فلا أقلّ من أن يكون بعضها، وإن لم يكن الطوفان ناقلاً كلّ الصخور الدخيلة فلا أقلّ من أن يكون ناقلاً بعضها. والحاصل أنَّ علم الجيولوجية يؤيّد الطوفان وإن لم يشته إثباتاً قاطعاً لوجود علل أخرى تصدر ما كشف هذا العلم عنه. وقد أجاد الكاردينال ويزمن الشهير بإثبات الطوفان بهذه الآثار في خطبه الشهيرة في العلاقات بين العلم والدين الموحى. وترى خلاصة من كلامه في الحواشي المعلقة على معجم

اللاهوت لبرجيا في كلمة طوفان إلا إنَّ ذلك كان قبل-الاعتبارات الأخيرة التي ذكرناها.

عد ٢٨

آثار الأقدمين الدالة على الطوفان

ليس كالطوفان أمر أجمعت آثار الأقدمين من كل قبيلة على تبيانه. ونبدأ بآثار الكلدانيين فهم أقرب القبائل من الأصل الذي رواه موسى عن أجداده الذين عاشوا في بلاد الكلدان. فمن آثار هؤلاء ما هو قديم وما هو أقدم. فنجتزئ من الأقدم بما اكتشف عنه في مكتبة آشور بانيبال التي وُجدت في نينوى ونُقل أكثر صفائحها إلى المتحف البريطاني. فمن ذلك اثنتا عشرة صفيحة من الآجر خُطت عليها أشعار عُقد بعضها على تاريخ الطوفان. وكان في هذه المكتبة ثلاث نسخ من هذه الصفائح لكنها مشوهة مكسرة. فأرسل العلامة جرج سميت على نفقة الجريدة الإنكليزية (دالي تلغراف) إلى بلاد الكلدان للبحث، علَّه يجد فقرات أخرى من هذا التاريخ تملأ فارغ ما سقط من النسخ التي في المتحف البريطاني، فوفق إلى وجدان ما كاد يجعل نسخة هذا المتحف كاملة. والنسخ الثلاث خُطت بأمر ملك نينوى في القرن السابع قبل الميلاد، لكنها أُخذت عن أصل متناه في القدم، حتى لم يتردّد سميت بأن يثبت أن هذا الأصل كتب لا لأقل من القرن السابع عشر قبل الميلاد، فهو أقدم من موسى. مستدلاً سميت على ذلك باستعمال كتاب آشور بانيبال أحرفاً قديمة جداً في كلمات صوّروها على الأصل، ربما لعدم إدراكهم معناها، ثم باختلاف الرواية بين بعض فقرات النسخ الثلاث، حتى يظهر أن بعضها عن أصل أقصى قدماً.

أما موضوع هذه الأشعار فتاريخ بطل يُسمّى ايزدوبار كان مشهوراً بالصيد والحاربة. ولم يكن يملك أولاً إلا على بابل وضواحيها إلى أن انبسط حكمه، فعُمر كل ما بين دجلة والفرات من جبال أرمينيا شمالاً إلى الخليج العجمي جنوباً. وقد حسب سميت وفريدريك داليتش وفرنسيس لانرمان؛ أن ليس هذا البطل إلا نمرود الذي ذكره سفر التكوين (فصل ١٠)، مستدلّين بأنه كان يتولّى كنمرود بابل وأرك وشوريابك ونيبور. فالمدنيتان الأوليان تطابق الكتاب والآثار في اسميهما. ونيبور على



صورة ازدوبار
نقلًا عن تمثال في متحف اللوفر في باريس
ويظن أنه نمرود

قول كاتبي التلمود هي اكلنه
التي ذكر الكتاب أنها من
مملكة نمرود وليست شوريياك
إلا أكد مدينة نمرود الثالثة.
وقد وصفه الكتاب بأنه كان
جباراً أو صياداً، كما وصف
الأثر ايزدوبار. ففي الصحيفة
الحاوية الكلام في الطوفان
يقال إن ايزدوبار سمع برجل
نجا من الطوفان والموت اسمه
هزيردرا (ويظن أن أصل الاسم
عزيزدورا - لقرب هذا الاسم
من لفظ سرياني يُراد به قديم
الأيام). فعزم أن يراه، فتوصل
إليه بعد مشاق لا عزاله في
محل بعيد صعب المسلك،
وسأله عن أخبار الطوفان.
فيجيبه عزيزدورا عن سؤاله
في الصحيفة الحادية عشرة،
قاصداً عليه أخبار الطوفان كما
في الكتاب، حتى يمكن في
 فقرات عديدة وضع الروايتين
الواحدة في جانب الأخرى
ليظهر الطباق. وهاك ترجمة
هذه الأشعار عن فيكورو في
مؤلفه الكتاب والاكتشافات
الحديثة، وعن لانرمان في
تاريخه القديم للمشرق مؤثرين

ما كان منهما أظهر. «فكلّم عزيزدورا أزدوبار قائلاً: هاأنذا أنبئك يا أزدوبار بتاريخ منجاتي (من الطوفان)، وأطلعك على ما قضى به الآلهة. إنّ مدينة شوريياك (الماز ذكرها) التي تعرفها والواقعة على الفرات هي مدينة قديمة ولم يكن أهلوها يكرّمون الآلهة، وكنت أنا وحدي خادماً متعبداً للآلهة العظام. فدعا (أنوا) الآلهة، فعقدوا مشورة، فعرض عليهم (بعال) إنزال طوفان، فرأى رأيه (نابو وتركال ونييب)، وأثبت أمرهم الإله (هيا) ربّ الحكمة غير المدركة. فسمعت أنا بالرؤيا (أو الحلم) القضاء المبرم وقيل لي: يا رجل شوريياك...

فقال الله لنوح: قد دنا أجل كل بشر... فهاأنذا مهلكهم مع الأرض. اصنع لك فلكاً من خشب قطرانني واجعله مساكن... وكذا تصنعه ثلاثماية ذراع طوله وخمسون ذراعاً عرضه وثلاثون ذراعاً سمكه. وتجعل طاقاً للفلك وإلى حد ذراع تكمله من فوق (تك ف ٦ عد ١٣ وما يليه).

وأنت فخذ لك من كل طعام يؤكل، وضمّه إليك فيكون لك ولهم مأكلاً (ف ٦ عد ٢١).

دع بيتك واصنع لك فلكاً، وكمله عاجلاً فإنني سأبدي كل ما فيه نسمة حياة، وأدخل كل ما فيه نسمة حياة في الفلك واجعل طول الفلك الذي تصنعه ستماية ذراع، وعرضه ستين ذراعاً وكذلك ارتفاعه، واطلقه في لجة الأمواه وغطه بسقف. ولما سمعت هذا قلت (لهيا): يا سيدي إذا صنعت الفلك الذي أمرتني بصنيعه سخر مني الشبان والشيوخ. ففتح (هيا) فاه وقال لي: أنا عبده. إن سخرُوا منك فقل لهم: مَنْ احتقرني حلّ عليه العقاب، فإنّ الآلهة تذبّ عني... فإنني أدين من علا ومن سفل. ولا توصل الباب إلى أن يأتي الزمان الذي أنبئك به، وحينئذٍ أدخل داخلاً وأوصد باب الفلك... وأدخل إليه قمحك، وأثائك، وذخائرك وأموالك وخذّام امرأتك وخادماذك، وخادميك وحيوانات البرية، ووحوش البرية وكل ما أجمعه وأرسله إليك، فليكن محفوظاً داخل

باب الفلك... وفي اليوم الخامس ارتفع جانباه (أي الفلك)... وصنعت سقفه وأكملته، ودخلت داخله في السادس وقسمته في السابع إلى طبقات (لا يعلم اليوم أم الشهر هو المراد بأسماء العدد هذه). وأقامت المساكن الداخلة في الثامن وفتحت أحواضاً لجمع الماء، وسددت كل ثقب يدخل الماء منه، وصببت ثلاث سارات (اسم مكيال أو وزن) من القار على خارجه، وثلاث سارات على داخله... وثلاثة آلاف وستماية حُمّال كانوا يحملون على رؤوسهم صناديق الزاد، وحفظت ثلاثة آلاف وستماية صندوق مؤونة لأسرتي. ثم يصف ما أذخره وما أدخله السفينة من مقتنى وذخائر، وحيوانات إلى أن يقول: «لئن الإله شمس (أي الشمس) قال لي في السماء أنزل المطر من السماء مدراراً فأدخل السفينة وأطبق الباب. فقد دنا الحين المعين فكان هذا الطوفان الذي قال إنه سيكون في المساء فخفت ذلك اليوم، ودخلت السفينة وأقفلت الباب، وسلّمت السفينة إلى الرّبان. فكان في أفق السماء ظلام حالك، وأرعد بين (إله العواصف)، ومشى نابو وشارو (الإلهان) فزلزلا الجبال والبطاح، وجرّ نرغال القدير العصيف وراءه، وأجرى اذار الأتنية دون انقطاع... فبلغ طوفان الإله بين السماء، وانقلب كل نور ظلاماً، فباد عن وجه الأرض كل موجود حيّ إلى

فتدخل الفلك أنت وبنوك ونسوة بنيك معك ومن كل حيّ... من الطير بأصنافها ومن جميع البهائم بأصنافها (عد ١٨ وعد ٢٠).

واجعل الفلك مساكن، واطيله من داخل ومن خارج بالقار (ف ٦ عد ١٤).

وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض... في ذلك اليوم تفجّرت عيون الغمر العظيم، وتفتّحت كوى السماء، وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. فعلت المياه خمسة عشر ذراعاً على الأرض، وتغطّت الجبال فهلك كل ذي جسد يدبّ على الأرض من الطير والبهائم والوحوش، وجميع الزحافات التي تزحف على الأرض والناس كافة» (تك ف ٧ عد ١٠ و ١١ و ١٢ و ٢١).

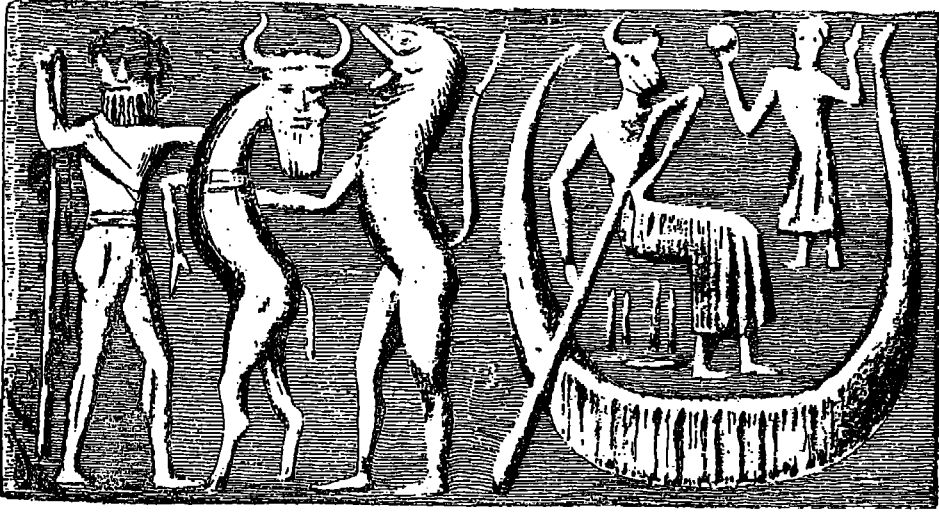
وذكر الله نوحاً. فتناقصت المياه... واحتبس المطر من السماء:

أن يقال: وفي اليوم السابع احتبس المطر وسكن العصف الشديد الذي كان دمر الأرض كزلزال... فتفرست حزينا في البحر... والجثث تخفق كالقصب... وتولتني الكآبة فجلست وبكيت وفاضت مدامعي على خدي، وأشرفت على البلاد فلم أجد يابسة بل صارت بحراً. وقد حُمِلَ الفلك إلى ما فوق بلاد نيزير فأوقف جبل نيزير الفلك فلم يتجاوزه. ففي اليوم الأول... إلى السادس استمرَّ جبل نيزير على ما كان عليه، وفي اليوم السابع أخرجت حمامة وأطلقتها، فذهبت الحمامة وعادت فلم تجد محلاً تَقَرُّ عليه فعادت، وأخرجت خطأفاً وأطلقتها فعاد إذ لم يجد محلاً يستريح به. فأخرجت غراباً وأطلقتها فذهب، ورأى الجثث التي على الماء فأكل واستقرَّ عليها ثم لم يعد. وأخرجت أيضاً الحيوانات، وسرحتها إلى الأرياح الأربع، وقدمت ذبيحة وجعلت نار الذبيحة على قمة الجبل، ورتبت الآنية سبعة سبعة فاشتتَّم الآلهة رائحة الذبيحة الطيبة، واجتمعوا فوق مقدم المحرقة. «ويستتبع عزيزدورا كلامه إلى أزدوبار قائلاً: إِنَّ الآلهة ارتضوا بمحرقة إلا الإله الأكبر الذي ترجم فيكورو اسمه بكلمة ايل أو ايلو، وترجمها لانرمان بكلمة بعل أو بعال؛ فهذا أظهر السخط على الآلهة لأنه بقي بعض الإنسان حيّاً فخاطبه هيا قائلاً: «كيف لا ترضى يا أمير الآلهة؟

وكانت المياه تتراجع عن الأرض (ف ٨ عد ١ وما يليه).

واستقرَّ الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال أراراط... وفتح نوح كوة الفلك التي صنعها وأطلق الغراب، وجعل يتردّد إلى أن جفت المياه عن وجه الأرض. ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاضت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت إليه... ولبث سبعة أيام آخر، وعاد فأطلق الحمامة فعادت إليه وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء (ف ٨ عد ٧ وما يليه).

فخرج نوح وبنوه وامراته ونسوة بنيه معه، وجميع الوحوش والدبابات والطيور... وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من جميع البهائم الطاهرة، ومن جميع الطير الطاهرة، فأصعد محرقات على المذبح فتشم الرب رائحة الرضى (ف ٨ عد ١٨ إلى عد ٢١).



صورة عزيزدورا وازدوبار نقلاً عن صفحة في المتحف البريطاني
ويظن ان الأول نوح والثاني ثمرود صفحة ٨٥

وقال الرب في نفسه: لا
أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب
الإنسان... ولا أعود أهلك كل
حيي كما صنعت. وأبدأ ما دامت
الأرض. فالزرع والحصاد والبرد
والحر والصيف والشتاء والنهار
والليل لا تبطل (ف ٨ عد
٢١ وعد ٢٢).

ورجل الحرب وقد أنزلت الطوفان؟ فأوقر
الأنيم إثمهم والشرير شره ولتأخذك الشفقة
على الإنسان كيلا يباد وكن رحيماً...
وبدلاً من أن تنزل الطوفان بعداً مؤ تأت
الأسد فتنقص البشر وبدلاً من الطوفان...
مؤ تأت مجاعة فتدمر بعض البلاد. وبدلاً
من أن تنزل طوفان آخر مؤ يكن الوباء
فينقص الناس... فحمد غضب أمير الآلهة،
وصعد ايلو إلى السفينة وأخذ بيدي وأقامني
وأقام امرأتي وأدناها منه وتحول نحونا وقام
في وسطنا وباركنا. وعزيزدورا هو رجل
عرضة للموت إلى الآن.

فكلّ من طالع هذه الرواية دُهش، ولا جرم بما يراه من مماثلتها لما جاء في الكتاب من حيث النسق والمبنى والاتفاق في أكثر المعاني، وإذا استثنت تعدد الآلهة فيها لأنّ كاتبها من المشركين وبعض المباشنة في الأعداد كعدة أيّام الطوفان، وأذرع السفينة وذكر ربّان لها وخادمين وخادّات لنوح وامرأته، وتُجدت بين سائر أجزاء الرواية وبين كلام الكتاب ما يشبه الطباق التام، ولا عبرة للإيجاز والإطالة إذ لم ينشأ عنهما خلاف في الخبر. وأما تسمية الكتاب الجبل الذي استقرّت عليه السفينة اراراط، وتسمية الرواية له نيزير فيمكن حملها على أنّ لذلك الجبل اسمين. ومهما يكن فهذه الرواية التي سبق عهدها موسى قد نزلها العلماء حتى الملحدون منهم منزلة بيّنة قاطعة لإثبات حصول الطوفان إثباتاً علمياً بغير طريقة الوحي أيضاً.

ومن الآثار الكلدانية القديمة الدالة على الطوفان، نجتزئ بذكر ما رواه باروز عن النصوص المقدّسة في بابل، وضمّه إلى تاريخه الذي كتبه إلى اليونان. فبعد أن فرغ من كلامه في الملوك التسعة الذين كانوا قبل الطوفان قال إنه في زمان العاشر منهم كان الطوفان طبق ما جاء في الكتاب عن الآباء التسعة من آدم إلى نوح. وفي زمان العاشر منهم وهو نوح كان الطوفان. وهاك ترجمة نص باروز: «إنّ كيسوثروس (عزيزدورا) ملك ثمانية عشر ساراً (كما من)، وعلى عهده حصل الطوفان العظيم الذي جاء تاريخه في النصوص المقدّسة هكذا. إنّ كرونوس (الإله هيا) ظهر له في الحلم وأنذره بأنّه سيهلك الناس أجمع بالطوفان في الخامس عشر من شهر داشيوس، وأمره أن يأخذ البدء والوسط والنهائية من كلّ ما كتب، وأن يفرّ إلى مدينة الشمس إلى شيبارا، وأن يبنّي فلکاً يدخل إليها مع أسرته وأصدقائه الأعزّاء، وأن يُعدّ في الفلك زاداً مأكولاً ومشروباً، وأن يُدخل إليها أيضاً الحيوانات والطيور والدبابات ويتأهبّ للسفر... فأطاع كيسوثروس وبنى فلکاً طولها خمس غلوات (الغلوة في عرف العبرانيين مائة وخمس وعشرون خطوة) وعرضها غلوتان، وجمع كلّ ما أمر بجمعه، وأدخل الفلك امرأته وأولاده وأصدقائه الأعزّاء. فنزل الطوفان. ولما شرع الماء ينضب أطلق بعض الطيور، وإذ لم تجد هذه قوتاً ولا محلاً تستقرّ فيه عادت إلى الفلك. وبعد أيّام أطلقها ثانية فعادت إلى الفلك أيضاً والوحول على أرجلها. وأطلقها ثالثة فلم تعد الطير بعد فعلم أنّ الأرض جفّت، وفتح كوة في أعلى السفينة، فرأى فلکه استقرّ على جبل. فنزل هو وامرأته وبنوه

والربان، فسجد على الأرض ونصب مذبحاً، وقدم عليه محرقات للآلهة وتوارى مع من صحبه. وأما من لبثوا في السفينة، فلما رأوه لم يعد، نزلوا إلى الأرض ينشدونه فسمعوا صوتاً من السماء يأمرهم أن اتقوا الآلهة... وقد رست فلك كيسوثروس في أرمينيا وجزء منها باقي في جبال كورديا (كردستان الآن) ومن يحجّون إليه يأخذون شيئاً من القار ينتزعونه من بقاياها ويستعملونه وقاية من مفاعيل السحر».

انتهى مترجماً عن التاريخ الشرقي للانرمان (مجلد ١ صفحة ٥٨) وعن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو (مجلد ١ صفحة ٢٥٠)، ولا حاجة إلى أن نقول شيئاً في المماثلة الكائنة بين هذه الرواية وما جاء في الكتاب في هذا الصدد؛ فهي بيّنة مصرّحة، بل نأتي إلى الكلام في آثار غير الكلدان.

إنّ مؤلّف المقالة في الآلهة السورّيّة أنبأنا بما كان عند الآراميين من أخبار الطوفان، كما كانت تُروى في هيكل إيرابوليس الشهير قال: «خبّر الكثيرون أنّ باني هذا الهيكل هو دوكليون سيسيتاس، وهو الذي حصل في عهده الطوفان الأكبر، وقد سمعت ما يرويه اليونان أيضاً من قصّة دوكليون؛ فيحدّثون أنّ ذريّة البشر الحالية ليست الأولى، بل كانت ذريّة قبلها هلك أناسها كلّهم، ونحن من ذريّة ثانية أصلها دوكليون، ثم نمت وكثرت بمرور الأيام. أما الناس الأوّلون فيقال إنهم كانوا ذوي كبرياء وقحة ارتكبوا المعاصي، ولم يكونوا يبرون إيمانهم ولا يعملون بسنن الضيافة ولا يتراّفون بالمعوزين، فعوقبوا لأنامهم بذهاب طامة؛ فقد انجرفت بغتة أمواه هائلة من الأرض وانهمرت من السماء عليهم أمطار غزيرة، وخرجت الأنهر عن مجاريها، وتجاوز البحر حدوده فغطى الماء كلّ شيء، وهلك الناس كافة. ونجا دوكليون وحده سالماً ليكون أصلّاً للذريّة حديثة جزاءً لفضيلته وتقواه. وهاك وجه نجاته؛ فقد دخل مع أولاده ونسائهم في تابوت كبير كان له، ولجأت إليه في أثرهم خنازير وخيول وأسود وحيات، ومن كلّ حيوانات الأرض فقبلها كلّها عنده. وألهمها ذاؤس (الإله) كلّ مدّة أقامتها في التابوت وداداً متبادلاً، جنبها أن يسطو بعضها على بعض، واستمرت على ذلك في التابوت ما دامت الأمواه في طغيانها؛ فهذه أخبار اليونان عن دوكليون. على أنّ أهل إيرابوليس يزدون على ما يتابعون اليونان فيه قصّة أخرى عجيبة؛ هي أنّه فُتح في بلادهم وهدة فسيحة غامضة ابتلعت مياه الطوفان على آخرها. فأقام دوكليون حينئذ مذبحاً

ودشّن هيكلًا لهارا (الآلهة) حذاء الوهدة. وقد رأيت أنا هذه الهواة الواقعة تحت الهيكل، فإذا هي حجرة ضيقة، ولا أعلم إن كانت قبلاً وسيعاً فضاحت الآن، وذكرًا للحدث الذي يروون خبره يحتفلون في العام مرتين بجلب ماء البحر إلى الهيكل ولا ينقله الكهنة فقط، بل يأتي جم غفير من الحجاج من سورية كلّها ومن بلاد العرب، وعبر الفرات حاملين الماء، فيصبّونه في الهيكل فيجري إلى الهواة فتبتلع على صغرها أمراً غزيرة. وينسبون سرّ ذلك إلى سنّة دينيّة افترضها دوكليون تخليداً لذكر الطوفان وإحسان الآلهة إليه؛ فهذا هو التقليد القديم في هذا الهيكل.

وللهنود في الطوفان تقليد يشفّ عن تاريخ الكتاب له ويحاكي تقليد الكلدان. وأقدم الروايات عندهم جاءت في آثارهم المسماة «سائاباتا برهمانا» القديمة العهد، وأوّل من ترجمها مكس مولر وهي: «جاء ذات صباح يوم إلى مانو (هو في عرف الهنود أصل البشر) بماء ليغتسل، فعلمت يده بعد الاغتسال سمكة ناجته قائلة نجني فأنجيك. فقال: بم تنجيني؟ قالت سيكون طوفان عرمرم يهلك الخلائق كلّها فأقيك منه. فقال: وكيف أنجيك أنا؟ قالت: كلما كنا صغاراً تعرّضنا لخطر كبير؛ فالسمك يبتلع السمك، فضعني أولاً في إناء فإذا كبرت فاحتفر حوضاً وألقني فيه، وإذا تناهيت في الكبر فاطرحني في البحر المحيط أنج من الهلكة. ولما كبرت السمكة بلّغت مانو أنّ الطوفان سيأتي سنة تبلغ هي معظم الكبر. وقالت لإصنع لك فلكاً واسجد لي، وإذا غزرت المياه فادخل الفلك فأقيك... فصنع مانو الفلك وسجد للسمكة، ولما أتى الطوفان دخل الفلك فوافته السمكة تشقّ الماء، فأوثق فلكه بذنبها فعبّر بهذه الوسيلة فوق جبل الشمال، فقالت له السمكة قد أنجيتك. فأوثق السفينة بشجرة كيلا يقلبها الماء. فنزل مانو عندما تناقص الماء؛ وهذا ما يُسمّى نزول مانو على جبل الشمال. وأباد الطوفان كلّ الخلائق إلا مانو فبقي حيّاً». فمهما يكن من الخرافات التي اشتملت عليها هذه القصّة، فيتحصّل منها صراحة اعتقاد الهنود حصول الطوفان، إذ يفسّرونها بأنّ أحد الآلهة أخذ صورة سمكة، فأنجى مانو وهو نوح عندهم من الطوفان. واتخاذ الآلهة صورة السمك أمر مستفاض عند القدماء، وترى كثيراً من صور الآلهة القديمة مؤلفة من هيئة بشر وسمك. وأصل ذلك اعتقاد القبائل العام؛ أنّ وجود الكائنات ابتداءً بالماء أي بالغمر الذي كان عليه الظلام، وكان روح الرب يرفّ عليه والأرض خاوية خالية كما في الكتاب. وللهنود آثار

أخرى عديدة تدلّ على اعتقادهم حصول الطوفان، ذكرها لانرمان (مجلد ١ فصل ٤ في الطوفان) أضربنا عن إثباتها لنوسّع محلاً لغيرها.

ومن معتقدات أهل الصين أنّ (فخّا) الذي يعزون إليه أصل حضارتهم، نجا من الطوفان العظيم مع امرأته وبنيه الثلاثة وبناته الثلاث (رواه فيكورو في الوجيز الكتابي عد ٣٢١). ومن تقليدات الإيرانيين القديمة المودعة في كتبهم المقدسة الحاوية تعليم زورواستر (يسمّيه العرب زاردشت)، أنّ هرمزدا إله الخير أنذر (إيما) أوّل البشر، أنّ طوفاناً سيخرب الأرض ويبيد ما عليها، وأنّ يشيّد ملجأً منه جنة مربّعة يحيطها بأسوار، ويُدخل إليها أصول البشر والحيوانات والنبات وقاية لها من الهلكة. فنزل الطوفان. فلم ينبج منه إلا جنة إيما وكلّ ما كان في داخلها، وأرسل هرمزدا طائراً يبيّنه بالنجاة. فهذه الرواية تخالف غيرها من حيث وسيلة النجاة، وتطابق ما سواها في حلول الطوفان والنجاة منه. وقد مرّ ذكر معتقد اليونان الطوفان، ويزاد عليه أنّ أهل أتينا كانوا يحتفلون لذكر الطوفان، ونجاة دوكليون منه بحفلة يسمّونها (إيدروفوريا)؛ أي حفلة الماء، وهي أشبه بما كان يصنعه أهل إيرابوليس في سورية كما مرّ؛ أي إنه كان تجاه هيكل ذاؤس الأولمبي وهدة في الأرض يقولون إنها ابتلعت ماء الطوفان، وذكراً لذلك يجتمعون في بعض الأيام فيصيّتون أمواهاً في تلك الوهدة مدوّفاً بها طحين وعسل. وهذا مشعر بتطوّق هذا التقليد من سورية إلى بلاد اليونان. (عن لانرمان في التاريخ الشرقي مجلد ١ صفحة ٧٣).

ومن أقاصيص الفينيقيين في آلهتهم أنّ (بون) الذي يعبّرون به عن البحر، قد تغلّب على (داموروس) الذي هو الأرض في عرفهم. وكان قدما مدينة أباميا في آسيا الصغرى، يعتقدون أنّ مدينتهم كانت مهبط سفينة نوح، وينازعهم في ذلك سكان قونية، وقد ضرب كهنة أباميا في نحو القرن الثاني للميلاد نقوداً نُقشت عليها صورة السفينة مفتوحة، وصورة الأب الذي نجا من الطوفان مع امرأته يتناول حمامة آتية إليه بغصن زيتون، وعلى وجه الصكة الآخر صورة شخصين خارجين من السفينة ليمتلكا الأرض، وقد كُتب على السفينة اسم نوح بصورته اليونانيّة تلقوها عن النسخة السبعينيّة.

وما يُدهش، وجداننا في أميركا نفسها آثاراً دالّة على الطوفان أقرب مما سواها

لما جاء من أخباره في التوراة، وتقليدات الكلدان حتى أقرّ بعض البرهانيين أنفسهم بهذه المقاربة. والأظهر أنّ تقليد الطوفان تطرّق إلى هنالك مع من هاجروا من آسيا مجتازين بجزر كوريل إلى أميركا الشمالية. ونجتزئ من هذه الآثار بذكر التقليد الذي وُجد عند سكان المكسيك قبل اختلاط الأوروبيّين بهم؛ فإنّ (كوسكس)، الذي يسمّيه بعض قبائلهم (تزيى) أيضاً، يعتقدون أنّه نجا من الطوفان بسفينة دخل إليها مع امرأته وولده وكثير من الحيوانات، والحبوب المستلزمة لحياة الإنسان، ولما أمر الإله الأكبر بأن ينضب الماء، أطلق طائراً يقتات بالجيف فلم يعد لكثرة ما غطى الأرض منها، فأطلق طيوراً أخرى فلم يعد منها إلا الحمام حاملاً بمنقاده غصناً مورقاً، فعرف أنّ الشجر عاد يورق. ووُجدت عندهم صور تمثّل الطوفان والسفينة ونجاة البعض بها والطير الحاملة الغصن المورق.. وفي المكتبة الواتيكانية درج قديم، أوتي به من أميركا يشتمل على أربع صور رمزيّة، تشخّص أربعة أعصر في العالم سابقة هذا العصر، والعصر الرابع منها ينتهي بطوفان هائل عاد به كل الناس سمكاً ما خلا رجلاً وامرأته، خلصا بسفينة مصنوعة من خشب السرو. ويشار إلى أنّ هذا الطوفان كان آخر داهية خرّبت الأرض. ومن تقليدات سكان جزر فيدجي أنّ وطنهم بعد أن أهل بولد الرجل الأوّل والمرأة الأولى، حلّ فيه مطر عرمرم غرق الأرض برمتها، ولكن قبل أن تغشى الأمواه أعلى الأعالي أقبلت سفيتان فأنجتا ثمانية أشخاص (فيكورو في الوجيز الكتابي عد ٣٢١).

أما الآثار المصريّة فلم تنبئنا إنباءً صريحاً بالطوفان، بل صرّحت بإبادة الآلهة للناس عقاباً لمعاصيهم وعتوهم. ولما كان طغيان الماء في بلادهم حياة لها ومنبعاً لثروتهم أضربوا عن ذكر طوفان الماء، واكتفوا بذكرى إهلاك الآلهة للبشر إلا قليلين منهم. ومن هذه الآثار ما كُتب على مدفن ساتي الأوّل في طيبة (تاب) وترجمه إدوار نافيل ونش سنة ١٨٧٥م؛ ومحصله أنّ الإله (رع) استدعى سائر الآلهة، وأعلمهم بما يجذّف به الناس عليه وعليهم، وما يركبون من المعاصي وحضّ على إهلاكهم. فأسرعت آلهة فقتلت الناس على الأرض، فحمد غضب الإله (رع) بعد مقتلهم. وأخذ يأسف على ما أمر به، فقُدّمت له ضحية عظمي فشرّ بها ورفع يده وأقسم أنّه لا يُبيد الناس بعداً. وما من منكر للمقاربة بين هذه الرواية وخبر الطوفان في غير طوفان الماء والسفينة لاعراض المصريين عن ذكره لما مرّ. ولولا خشية ملل

المطالع لأطلنا الكلام في هذا الباب، ومن أحبّ هذا التطويل فليطالع الفصل الرابع من المجلد الأول من التاريخ القديم للمشرق للعلامة لانرمان (من صفحة ٥٥ إلى صفحة ٩٢ من الطبعة التاسعة)، فإنه استقرى هناك آثاراً وتقليدات أخرى عديدة، وأثبت أنّ تاريخ الطوفان لا تخلو قبيلة من أثره إلا السودان خاصة، وهذا ما جعله يجنح إلى التسليم بقول من زعموا أنّ الطوفان لم يعمّهم وأنهم من ذرية قايين كما رأيت آنفاً.

عد ٢٩

مستقرّ السفينة ومهد البشر بعد الطوفان

جاء في الكتاب (تك ف ٨ عد ٤): «استقرّ التابوت... على جبال أراراط»، وفي رواية باروز المازّ ذكرها، أنّ سفينة كيسوثروس استقرّت في أرمينيا. وقال لانرمان (في كتابه المعنون موجز تفسير باروز صفحة ٢٩٩^(١)) ما ملخصه: «إنّ النص البابلي الأصلي الذي أخذ عنه باروز لا بدّ من أنه حوى كلمة أراراط كما في التكوين، لأنّ اسم أرمينيا المتعارف والمستطرق في الآثار السامرية إنما هو أورارطي أو أرارطي»، وهذا الاسم يعرفه العبرانيون، ويجهله الجغرافيون اليونان واللاتينيون. والقديس إيرونيموس لخبرته باصطلاحات العبرانيين ترجم أراراط بأرمينيا في الآية المازّ ذكرها وفي سائر الآيات التي حوت هذا الاسم. والكتاب لم يُعيّن جبلاً بل بلاداً، إذ لم يقل جبل أراراط بالمفرد بل جبال بالجمع، فكان مؤدّى كلامه أنّ السفينة استقرّت في أرمينيا، وعلى ذلك مشى تقليد عامة القبايل. على أنّ بعض أهل العلم في هذا العصر رأوا خلاف ذلك، ومنهم لانرمان (مجلد ١ من تاريخه الشرقي صفحة ٩٢ طبعة ٩) فإنه قال إذا تحوينا آيات الكتاب لزمنا أن نهجر القول بأنّ أراراط في أرمينيا، لأنّ الكتاب قال بعيد ذلك (تك ف ١١ عد ٢) إنّ بني نوح ارتحلوا من المشرق نحو المغرب، فوجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا فيها، وشنعار هي أرض بابل. وعليه فيلزم أن يكون الجبل الذي استقرّت السفينة عليه سلسلة جبال الهند وكوش حيث محلّ يُسمّى أرياورتا (أي الأرض المقدسة)، أو في

(١) Lenorman Essai de Commentaire de Berosé

الجبال التي يخرج منها نهر الهند المسمى هندوس. وأقام على قوله بعض الحجج؛ منها تقليدات الهنود والفرس الذين هم من أقدم الأمم، وقد حفظوا ذكر الأعصر الأولى على سلامته، ومن تقليداتهم. أن أصل البشر كان مقرّه جبل مارو، وهناك مهبط الآلهة. وقال الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٢٥٣) لا ننكر على هذا القول درجة ما من احتمال الصحة لأنّ الكتاب لم يصرح إلا بذكر أراراط، وكثيراً ما يسمّى محلّ أو جبل باسمين. ومن عادة المهاجرين أن يسمّوا أماكن وجبالاً وأنهرها بأسماء ألفوها في مهاجرهم الأولى. على أنّ ورود اسم أراراط في أسفار الأنبياء المتأخرة كأسفار موسى المتقدمة يؤيد القول بأنّ أراراط في أرمينيا، ويزيد أيضاً إجماع تقليدات العبرانيين والأرمن وغيرهم على أنّ السفينة استقرّت في أرمينيا، وهذه التقليدات صريحة، وليست أقلّ اعتباراً من تقليدات الهنود والفرس. انتهى مقال فيكورو. فإن لم يحقّ لمثلي أن يكشف عن رأيه بين هؤلاء العلماء الأعلام، فيحقّ له أن يعارض أقوالهم بعضها ببعض آنفاً فأقول إنّ لانرمان نفسه مهّد لرأيه الذي لحصناه آنفاً بقوله: «إنّ بعض العلماء في صدر النصرانية آثروا الاعتماد على رواية باروز، بجعلهم مهبط السفينة في الجهة الجنوبية في جبال أراراط نفسها؛ أي في جبال كورديا وهي كردستان الآن في الشمال الشرقي من آشور، وجبل نيزير الذي ورد ذكره في أشعار أزدوبار الآنفه الذكر؛ هو القسم الجنوبي من هذه السلسلة، وقد ذكره آشور نيزيرال أحد ملوك آشور في إحدى كتاباته القديمة متكلّماً في غزوته لهذا الجبل قائلاً إنه اجتاز بنهر الزاب السفلي سائراً أبداً نحو المشرق». وعليه فإن لم تكن أرمينيا مع ما اتصل بها من جبال كردستان في الشرق الصريح من أرض شنعار، فلا أقلّ من أن تكون في الشمال الشرقي منها؛ وهذا بينّ وصريح به لانرمان نفسه، فيصحّ إذاً أن يُقال إنّ المسافر منها إلى شنعار يسير من المشرق إلى المغرب كقول الكتاب: «ولما ارتحلوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار»، وعليه فما الحاجة «إلى التوغّل في الإتجاه نحو الشرق للتفتيش عن قمّة عالية جداً كالتي قرت عليها السفينة، ليتّصل المفتش إلى سلسلة الهند وكوش، أو إلى الجبال التي فيها منبع الهندوس؟» كما يقول لانرمان (في المحل المذكور نفسه). فعلى إجلالي المزيد لهذا العلامة المفضال على العلم؛ لا أرى حججه كافية لهجر التقليد الذي حفظته عاتمة القبائل، وأيده آباء وعلماء قدماء وحدثاء. ويطابق الكتاب اختلاف الرواية في الاسم فالأقرب إذاً إلى

الصواب كثيراً أنّ مستقرّ الفلك النوحية ومهد البشر بعد الطوفان، كانا في أرمينيا أو في الجبال المتصلة بها.

عد ٣٠

تتمة أخبار نوح بعد الطوفان

لم ينبئنا الكتاب من أخبار نوح بعد نجاته من الطوفان، إلا أنه عاد «بحرث الأرض» كما كان يصنع آباؤه، «وغرس كرماً». ولا يفهم منه أنّ شجر الكرم لم يكن قبل الطوفان، بل ذكره الكتاب تمهيداً لخبره أنّ نوحاً شرب من الخمر فسكر غير عالم قوّة الخمر، والأظهر أنّ استعمال الخمر لم يكن معروفاً قبل الطوفان، وأما بعده فهو عند الساميين أقدم منه عند اليافتيين على ما روى العالم بولس كلاتز في مقالته في الكرم والخمر عند الساميين واليافتيين القدماء المثبتة في مجلة اللغات الرومانية الصادرة في تموز سنة ١٨٧٠م^(١). وتابع الكتاب الخبر بأنّ نوحاً تكشف داخل خبائه فسخر حام من عرية أبيه، وأخبر أخويه وهما خارجاً، فأخذوا رداء ومشياً مستديرين وغطياً عرية أبيهما، وأوجههما إلى الورا. ولما علم نوح بعد إفاقته ما صنع حام فقال: «ملعون كنعان عبداً يكون لعبيد اخوته. وقال: تبارك الرب إله سام، وليكن كنعان عبداً له ليرحب الله ليافت ويسكن في أخبية سام، ويكون كنعان عبداً له». لا يُعلم لما لعن كنعان بن حام بدلاً من أبيه، والأظهر أنّ الإبن كان شريراً، واشترك في جرم والده، فلعنه جدّه واللّعن للإبن يقهر الأب أيضاً. وهذه أوّل مرّة ورد فيها ذكر العبد في الكتاب على ما قال القديس أغسطينوس (في كتابه في مدينة الله ف ١٩). وكلام نوح هذا نبوة جاءت الحوادث مصداقاً لها. فإنّ بني حام وإن فازوا بنجاح كبير وسريع، وأدرك بعضهم الحضارة قبل غيرهم كما كان المصريون والفينيقيون والحثيون، إلاّ إنهم لطّخوا شرفهم بوحول معاصيهم، وفساد أخلاقهم، وافتضحوا بخلاعاتهم وشركهم؛ وكلّ ما كان عند اليونان الرومانيين من الشرك، والمعتقدات السيئة قد تلقّوه عن الحاميين أو عن تلقّاه عنهم، ولذا تغلب عليهم بعد ذلك الساميون، وانتزعوا ما كان لهم من الولاية،

(١) M. Paul Glaise La Vigne et le Vin Chez les Semites

والسطوة في بلاد الكلدان وآشور وسورية، ثم في مصر والحبشة أيضاً. وقهرهم اليافتيون في الهند وبلاد فارس وفي مستعمرات الفينيقيين في أوروبا وغيرها. وحتى اليوم لا تجد في القبائل الحامية دولة مستقلة معززة. وأما بنو سام فنالوا البركة والنماء، وتقوّوا كما مرّ على أبناء عمّهم حام، وحفظ العبرانيون منهم وديعة الوحي المقدّس والإيمان الصحيح. ونما اليافتيون وبلغوا أوج الحضارة، وأقبلوا بواسطة الساميين إلى معرفة الإله الحق والدين الصحيح، واشتركوا في بركتهم، وصحّ فيهم لذلك القول إنهم يسكنون في أخبية سام. وما أحسن ما قال فم الذهب في هذا الشأن (خطبة ٢٩ في التكوين): «أرى أنّ نوحاً بمباركته ساماً ويافت أراد أن يعبر عن دعوة ذريّتهما إلى الإيمان، فأراد بسام اليهود لأنه جدّ ابراهيم وأمة اليهود، وأراد ببركة يافت دعوة الأمم؛ فانه قال بهذه البركة. (ليرحب الله ليافت ويسكن في أخبية سام)، وهذا تمّ بالأمم؛ فقلوه: ليرحب، يشير إلى الأمم كافة. وقوله: يسكن في أخبية سام، يدلّ على أنّ الأمم تنعم مشتركة بما أعدّ لليهود». فيعد نوح بني يافت بالسعة في أملاكهم والمنافع الماديّة، ثم بالاشتراك في منافع بني سام الروحيّة. وأنبأنا الكتاب أخيراً أنّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاثماية وخمسين سنة. وسيأتي أنه يكون على ذلك قد بقي حياً في بعض سنيّ ابراهيم.

الفصل الثامن

ابناء نوح وتفرّق أبنائهم في الآفاق

عد ٣١

أهميّة الأنساب التي ذكرها موسى

قال الكتاب: «وكان بنو نوح الذين خرجوا من التابوت ساماً وحاماً ويافت، وحام هو أبو كنعان، ومنهم انبثّ الناس في الأرض» (تك ف ٩ عد ١٨ و ١٩). ثم ذكر موسى (في الفصل العاشر من هذا السفر) أنساب بني نوح وبني أبنائهم مبيّناً ذريّاتهم، وأيّ البلاد قطنوا في المعمور المعروف حينئذ، فكان لبيان هذه الأنساب أهميّة كبرى من وجوه؛ أحصّنها أنّ ذلك أقدم بيّنة على أنساب أقدم الشعوب، فهو محور تدور عليه مقالات النشايين، ومصدر يرجع إليه كلّ من يتكلّمون في أصول الشعوب القدماء ومواطنهم، سواء كانوا ممن اعتقد التوراة والتّنزيل أو ممن كذّبوا بالكتاب أيضاً. ولا مرأى بأنّ هذه البيّنة منذ عهد موسى على أقلّ نسبتها؛ أي منذ نحو خمسة عشر قرناً قبل التاريخ المسيحي. ولا يُعرف حتى الآن أثر تبينّ منه أنساب القبائل القديمة، يشاكل ما رواه موسى بقدمه واتساع اشتماله، بل يظهر أنّ الأنساب التي ذكرها موسى تلقّاها عن تذكّرات أو تقليدات سبقت أيّامه، وقد حفظتها ذريّة عابر، وأتى بها ابراهيم من بلاد الكلدان إلى فلسطين وتطرّقت باسحق ويعقوب وذريّته إلى موسى. وعلى ذلك أدلّة؛ أولها أنّ النظام الجغرافي للشعوب التي ذكر موسى نسبها مركزه بلاد الكلدان لا مصر ولا فلسطين. ثانيها أنّ بعض المواطن التي عيّنها موسى لبعض الشعوب كان طراً تبدّل على سكّانها يوم كتب التوراة، كما يتبيّن من الآثار المصريّة وغيرها. ثالثها أنه وصف بعض المدن بأنها كانت عامرة زاهرة بمجدها مع أنها كانت في أيّامه خربة

أو ساقطة عن مجدها، ولا وسيلة له لعرفان ما كانت عليه قبله إلا تذكّرات أو تقليدات سابقة، فتعيّن أنه أخذ تلك الأنساب عن آثار سابقة عصره. وقد علّق العالم بورداي Dr Bourdais مقالة مهمّة في المجلّة المعروفة بالمجلّة الكتابيّة Revue Biblique في عددها الثالث في تمّوز سنة ١٨٩٢م، يبيّن بها بإسهاب وفقاهة أنّ الأحد عشر فصلاً من سفر التكوين - خاصة هذه الأنساب - أخذها موسى عن مفكّرات قديمة كتبها الآباء الأوّلون قبل أن شخص ابراهيم إلى فلسطين، واتصلت بابراهيم ونسله إلى موسى.

ثم إنّ هذه الأنساب أساس وطيد للمباحث التاريخيّة عن أصول القبائل القديمة وعلاقات النسب بينها. وكلّ ما تقدّم العلم بهذه الأمور بواسطة الاكتشافات الحديثة، والمعارضة بين لغات هذه القبائل ازدادت رواية موسى ثبوتاً وبياناً علمياً. فقد جاءت الخطوط الهيروكليفيّة المصريّة، والمسماريّة الكلدانيّة مصداقاً لما كتبه موسى في التكوين. حتى اعتقد العالم أبار في كتابه مصر وأسفار موسى^(١) على إنكاره الوحي أنّ موسى أخذ عن المصريّين ما كتبه في أنساب بني حام. وقال العلامة شارل شابل^(٢): «كلما تقدّم العلم بأصول اللغات والتاريخ جاءت القبائل - التي ذكر موسى أنسابها - معروضة إحداها بعد الأخرى على أبصار المؤرّخ، مؤدّية بنظّامها الجميل التكريم والتوقير للعلم السامي الذي حبا الله به كاتب السفر المقدّس» (كتابه المعنون الدفاع عن صحّة رواية موسى في التكوين).

عد ٣٢

هل ذكر موسى أنساب البشر كلّهم؟

من المعلوم أنّ البشر ينقسمون من حيث اللون والشكل والهيئة إلى ثلاثة أو أربعة أقسام، سمّوها أنواعاً توسعاً لأنّ البشر كلّهم نوع واحد لاشتراكهم جميعاً بالخواص الجوهريّة المميّزة لنوعهم. وأولها النوع الأبيض ويسمّونه القوقاسي نسبة إلى قوقاس، وهو جبل قاف لامتياز أهل نواحيه خاصّة ببياض البشرة، وحسن استدارة القحف، ولين الشعر ورقّة الأنف، إلى غير ذلك من مميّزات هذا النوع الذي منه

(١) Eber Aegypten Und Die Bücher Moses t. 1p. 55

(٢) Charle Schocbel L'authenticite Mosaique Dans la Genese

أكثر سكان أوروبا ومستعمراتهم، وسكان آسيا الغربية وسواحل إفريقيا الشمالية. والثاني الأصفر وهو يمتاز بصفرة البشرة، وقلة الشعر وخشونته، واستواء الوجه، وانخفاض الجبهة وضيقها، وفطس الأنف، وضخامة الشفتين، وقصر القامة، ومنه أهل الصين والهند وياپان وشمالى بلاد المسكوب، والجيار فى أوروبا وبعض سكان شمالى أميركا. والثالث الأسود وهو يمتاز بسواد البشرة، وجعودة الشعر وسواده، وانخفاض الجبهة، ومقدم القحف، وفطس الأنف وبروز الفك الأعلى عن مساواة الوجه، واتساع الفم. ومنه أكثر سكان إفريقيا فى أواسطها وجنوبها. والرابع وقد ألحقه بعضهم بالتالث، وهو الأحمر أو النحاسى ويمتاز باللون النحاسى أو الزيتونى، وبغيره من سمات النوعين التالث والثالث، ومنه سكان جزائر البحر الحيط، وجزيرة ماداكسكار والأجاش وأكثر سكان أميركا الأصليين. فمن كل هذه الأنواع يظهر أنّ موسى اكتفى بذكر أنساب النوع الأول الأبيض وحده، وقد أثبتت المجلة المعنونة التمدّن الكاثوليكي Civiltà Cattolica (فى عددها الصادر فى ١٥ شباط سنة ١٨٧٩م) مقالة فاضت بالبرهان على أنّ موسى لم يتعرّض لذكر أنساب النوع الأصفر أو الأسود أو الأحمر، لأنّ غرضه لم يكن أن يبيّن أصل كلّ الشعوب الذين تتألف منهم البشرية، بل الشعوب الذين يعرفهم العبرانيون ويهمهم أن يعرفوهم. وأما السودان الذين فى إفريقيا فلا جرم أنّ العبرانيين كانوا يعرفونهم عند اقامتهم فى مصر، وكان للفراعنة معهم حروب قبل عهد موسى أيضاً، وكانوا يشخصون منهم أسرى إلى مصر. وكان العبرانيون يرون صورهم على آثار مصر، وقد تواتر ذكرهم فى باييرات وخطوط مصرية قديمة مسمين نحشى أو نجاشى، ومع هذا لا نرى موسى أتى بذكر أصلهم، إذ لم تكن لهم علاقة مع تاريخ العبرانيين لا فى عهد موسى ولا بعده.

فمن أيّ أصل تفرّع الشعوب الذين لم يذكر موسى أنسابهم؟ هذا مبحث آخر لا يعتاص علينا الإهتمام إلى وجهه. فقد جاء فى الكتاب أنّ نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة، فلا مانع من القول أنه ولد فى هذه المدة أولاداً غير سام وحام ويافت، كانوا أصولاً لشعوب أخرى. وكذا قال الكتاب فى سام بعد ذكر ولادته أرفخشاد: «وعاش سام بعد أن ولد أرفخشاد خمس مئة سنة ولد فيها بنين وبنات» (تك ف ١١ عد ١١). ويبيننا الكتاب أن نقول مثل ذلك فى

حام ويافت، أعني أنهما ولدا أولاداً غير من ذكرهم لهما، فكان هؤلاء أيضاً أصولاً لشعوب أخرى لم يذكرهم موسى لعدم ذكره آبائهم. وذكر لانرمان (في موجز تاريخه القديم للمشرق مجلد ١ صفحة ١١٠) وجهاً آخر لذلك قال لا يمنعنا الكتاب من أن نسلّم أنّ بعض الأسرات المتشعبة من أبناء نوح الثلاثة، انفصلت عن الأصل العام في المدة التي بين الطوفان وتشيد صرح بابل، (وليست أقلّ من مئة سنة). وقبل التفرّق العام الذي دعا إليه بلبال الألسن، فعاشت معتزلة كلّ العزلة عمن سواها، فاكتمت هيئة مخصوصة بها. ولم يحفل موسى بذكرها إذ كان غرضه أن يكتب أنساب الشعوب الذين تفرّقوا في الآفاق بعد أن أقاموا مجتمعين في شنعار، فكانوا أصولاً لأكثر سكان آسيا وأوروبا وقسم من سكان إفريقيا، وهؤلاء هم القسم الأهم والأشرف من النوع البشري. وترك موسى للنسابين المتأخرين أن يستوضحوا باكتشافاتهم ومباحثهم عن أنساب من لم يُصرّح بنسبهم. (انتهى ملخصاً عن الوجيز الكتابي لفيكورو عد ٣٣٢ وعن الفصل المثبت في المجلة المارّ ذكرها).

عد ٣٣

الأنساب التي ذكرها موسى وأولاً في بني حام

ذهب بعض أهل العلم أنّ الأعلام التي ذكرها موسى في أنسابه تعيّن أفراداً، وذهب غيرهم أنها تعيّن قبائل أو شعوباً. والصحيح أن بعضها علم لأفراد مثل سام وحام ويافت وغيرها، وبعضها علم لقبائل مثل مصرائيم ولوديم والجرجسي والأموري وغيرها. وقد ضاق ذرع العلماء ومفسرو الكتاب دون التوفيق بين أعلام الأفراد والقبائل والبلاد التي ذكرها موسى، وبين أسمائها الآن كلياً بالحصول على علم واضح بها. على أنّ الاكتشافات الحديثة ومعارضة اللغات والاطّلاع على رموز الخطوط الهيروغليفية والمسمارية، انجلى بها كثير من هذه الأنساب ومواطن أهلها، فتيسّر إدراكها من جهة وجاءت من أخرى مصداقاً لما ورد في الكتاب، وما بقي منها غامضاً، يرجى بتقدم العلم بهذه الاكتشافات كشف النقاب عن غموضه. وهذه خلاصة ما كتبه موسى في هذه الأنساب ومواطن أهلها.

قال: «هؤلاء مواليد بني نوح سام وحام ويافت، ومن وُلد لهم من البنين بعد

الطوفان». وذكر بنو يافت أولاً على أنّ لانرمان في تاريخه القديم لشعوب المشرق والأب فيكورو في الوجيز الكتابي، وفي الكتاب والاكتشافات الحديثة ذكرا نسب بني حام أولاً بناءً على أنّهم أول من ابتعد عن المركز العام وشيّد ممالك قديمة، فنقفو أثرهما مبتدئين بأنساب بني حام، ثم أنساب بن سام، خاصة وأنّ لنا وجهاً ليس لهذين العالمين، وهو أنّ كلامنا في تاريخ سورية وأكثر سكانها القدماء حاميون وساميون. وقبل أن نأتي إلى التفصيل نقول بالإجمال إنّ ذرية حام كان منهم الكوشيون، وكانت مساكنهم في بابل على شطوط بحر عمان إلى الحبشة، والمصريّون ومساكنهم مصر، والقوطيّون ومساكنهم شمالي افريقية على سواحل البحر أو جنوب العربية وبعض شرقي افريقية، والكنعانيون ومساكنهم شمالي سورية وفينيقية، وكل ما هو بين البحر المتوسط والبحر الميت. وذرية سام كان منهم العيلاميون والآشوريّون والعرب سكان البلاد المنسوبة إليهم، والعبرانيّون والآراميون سكان سورية حيث دمشق وما يليها، وذرية يافت كان منهم الماديّون والفرس واليونان، والترک والصقالبة والتتر، وغيرهم من الشعوب الذين اجتازوا إلى أوروبا وغيرها. ولنأتي إلى التفصيل.

قال الكتاب (تك ف ١٠ عد ٦): «وبنو حام كوش ومصريّين وفوط وكنعان». قد أنبأنا الآثار الهيروكليفيّة أنّ المصريّين وإن لم يسمّوا أنفسهم حاميين، فقد سمّوا وادي النيل حامي في كثير من آثارهم إيذاناً بأصلهم، وإن تأوّل المتأخرون منهم كلمة حامي بمعنى الأسود أو الأزرق، زاعمين أنّ وادي النيل سُمّي بذلك لونه. ثم إنّ أول أبناء حام كوش، وترى الآثار المصريّة تُسمّي سكان الحبشة كوش، وتصف وليّ العهد في مملكة مصر بنحاكم كوش أو واليها. قال لانرمان (مجلد ١ صفحة ٢٦٦ من تاريخه القديم) ما محصله إنّ اسم كوش في سفر التكوين كاسمه عند الجغرافيين، يُطلق على مجموع كبير من الأمم يقرب بعضها من بعض كلّ القرب بالهيئة الطبيعية، وإن اختلفت هذه الأمم لغة. وكانت بلادهم ممتدّة على شاطئ بحر عمان في الشرق من افريقيا إلى مصبّ نهر الهندوس. ولنا على ذلك بيّنة بما ذكره الكتاب عن أبناء كوش متبّعاً فيه نظاماً جغرافياً كاملاً، مبتدئاً به من المغرب إلى المشرق فإنه قال: «وبنو كوش سبا وحويلة وسبتا ورعمه وسبتكا» (عد ٧). فبلاد سبا جعلتها بعض نسخ الكتاب متّصلة بمصر والحبشة. وجعل

استرابون موقع مدينة سبا على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وفي الشمال من بوغاز باب المندب «وحيلة». وفي كلام ابن خلدون جويلا وهي بلاد الحويليين، وكانوا يسكنون شاطئ الخليج العربي من جهة مصر، وحيلة هذه غير حويلة الواقعة في مساكن الساميين في بلاد ذرية يقطان. وأما «سبتا» فاسمه أشبه باسم مدينة ساباتا أو سابوتا التي صارت بعداً عاصمة سكان حضرموت في طرف بلاد العرب الجنوبي «ورعمة». (وفي الترجمة السبعينية وترجمة القديس إيرونيموس رغمه بالغين المعجمة). يظهر أنّ ذريته أقامت على الشاطئ الغربي من خليج العجم، فهناك مرفأً يُسمّى رغمه ويسمّيه العرب برجام، ويؤيده قول الكتاب «وبنو رغمه شبا ودادان» (عد ٧) فهناك جزيرة من جزائر البحرين تُسمّى دادان. وأما شبا ففي اسمه غموض ويمكن أن يكون المراد به شعب أشاب الذي جعل الجغرافيون مساكنه على شاطي بحر عمان، وذكر بلينيوس هناك شعباً سمّاه شبا. وفي تاريخ ابن خلدون «ومن ولد رعماء شاو وهم السند ودادان وهم الهند». وبقي من ولد كوش هؤلاء سبتكا (وفي كلام ابن خلدون سفخا)، ولم يتحقق بعد موقع موطن بنيه، بل كان فيه تخمينات بعيدة المرمى أقربها إلى الصدق، أنّ هذه القبيلة توطّنت كرمانيا المسماة الآن كرمان أو لايبستان على أطراف بلاد فارس في الجنوب الغربي من أفغانستان حيث ذكر الجغرافيون نهراً سمّوه سايبس وشعباً سمّوه سابا.

وقد أنبأنا الكتاب أنّ نمروء أيضاً من ولد كوش. وقاطعنا سلسلة الأنساب مشغلاً إيتانا بعدة آيات، ذكر فيها ملك نمروء وأوصافه والمدن التي وليها أو بناها، فتحتم علينا أن نتابع الكتاب بشرح ما رواه لأهمية هذه المملكة الأولى والمدن الأولى في العالم ولتواتر ذكرها في الأسفار المقدسة.

عد ٣٤

نمروء والمدن التي وليها والتي بناها

أنبأنا الكتاب أنّ بني كوش لم يهاجروا بأجمعهم من أرض شنعار بل بقي منهم بقية فيها وفي جوارها. وجاءت الآثار المسمارية تزيد ذلك ثبوتاً وبياناً، إذ ظهر منها أنه وجد في أقدم الأيَّام شعب يُسمّى كاشي، أقام في أنحاء بابل في الشمال الغربي من بلاد عيلام، وهالك كلام الكتاب: «وكوش ولد نمروء وهو أول جبار على

الأرض... وكان أول مملكته بابل وأرك وأكّد وكلنه في أرض شنعار (تك ف ١٠ عد ٨ إلى عد ١٠). فنمرود كلمة آشورية تأويلها العاصي أو المتمرد، وهو أول من أقام مملكة بعد الطوفان. وقد روى العالم أبار (في كتابه المارّ ذكره الموسوم بمصر وأسفار موسى صفحة ٥٨)، والعالم شباس (في كتابه المسمّى سفر مصري صفحة ٢٢٣ إلى ٢٢٥)^(١) أنّ آثار مصر حفظت ذكر نمرود. وذهب سميث وكثيرون من أهل العلم في الآثار الآشورية إلى أنّ أزدوبار البطل المارّ ذكره في الأشعار التي رويها أكثرها في كلامنا على الطوفان هو نمرود. وقال الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ٢٩٤): «ومهما يكن من أمر الاسم فما اكتشف من الآثار الآشورية جاء مؤيداً ما رواه موسى عن هذا الغازي. فإنّ الحاصل من رواية سفر التكوين أنّ ذرية حام جدّ نمرود هي أول من حكم على الأرض بعد الطوفان، وأنّ هذه الدولة الحامية امتدّت سلطتها من الجنوب إلى الشمال. فإنّ نمرود حكم في بابل أولاً ثم غزا بلاد آشور فدوّخها بسلاحه». والآثار الآشورية تؤيد كل ذلك كما سترى. وقال لانرمان (في موجز تاريخه القديم مجلد ١ صفحة ٩٩): «أجمع العلماء الآن أنّ شاطي دجلة وبلاد فارس الجنوبية، وقسماً من الهند نفسها توطّنها أولاً ولد كوش، وحكموا فيها قبل أن يأتيتها أبناء سام ويافث».

وأما المدن الأربع التي جعلها الكتاب أركان مملكة نمرود، وهي «بابل وأرك وأكّد وكلنه»، فاثنتان منها؛ أي بابل وأرك، سمّتها الآثار الآشورية بالاسم نفسه الذي عرفها به موسى؛ ومن هذه الآثار ما رويها أنفأ من أشعار أزدوبار. وموقع بابل على ضفة الفرات، وسيجيء الكلام فيه عند الكلام في الصرح البابلي. وأما أرك فكان قول عامة العلماء إنها الرها المسماة الآن أرفا استناداً إلى شهادة كثير من مشاهير القدماء منهم القديس إيرونيموس، والقديس افرام شماس كنيسة هذه المدينة والترغوم (الترجمة) الأورشليمي. على أنّ بعض المتأخرين أخذوا في العدول عن هذا القول إلى القول بأنها البلدة المسماة الآن وركا أو ورقه الواقعة على ضفة الفرات السفلى في الجنوب الشرقي من بابل لتسمية النصوص المسمارية هذا المحلّ أركو أو أورك، وتسمية المؤلفين اليونان له أوركوا. وقد وُجد في خراباتها قطع أجبر كُتب

(١) Chabas Voyage d'un Egyptien p. 223.

عليها اسم هذه المدينة بعلامة قرأها أوبر أركو، وقرأها غيره روتكى، ومعناها مدينة القمر. ومن تخمينات راولينسون القرية من الصواب، أن اسم أرك ليس إلا مكسر يارج كلمة سامية معناها القمر، ويظهر أنها كانت مقبرة عامة فقل أن يوجد لوركا شبيه بكثرة المدافن وبقايا العظام البشرية.

وأما أكد فلا تجد في حطام القدماء إلا اسمها في الأسفار المقدسة. وأما الآن فقد وجد اسمها في كثير من الكتابات المسمارية القديمة والحديثة مدلولاً به؛ تارة على مدينة، وتارة على بلاد، وأخرى على شعب. وأما المدينة فكانت نحو الشمال الشرقي من بابل على مقربة من شيبار المسماة الآن ابو حابور. وأما بلاد أكد فكان يُراد به القسم الشمالي من مملكة بابل، كما كان يُراد بسومير أو شومير قسمها الجنوبي. وشعب أكد ذهب كثيرون، منهم هنري راولينسون، أنه كان يُراد به الحاميتون الذين توطّنوا أولاً أرض شنعار. ومن الآثار التي ذكرت بها أكد كتابة سنحاريب المنقوشة في بافيان، حيث ذكر ملكاً لأكد كان في عهد تجلت فلاصر الأول ملك نينوى نحو سنة ١١٣٠ ق.م فقال: «أخذ جنودنا الآلهة التي كانت تسكن هناك وكسروها وغنموا بكنوزهم... وآلهة الهيكل التي كان أخذها مردوخ نادين أخي ملك أكد من تجلت فلاصر وجلاها إلى بابل، رددتها أنا من بابل من بعد ٤١٨ سنة وركزتها في محلّها الأول»؛ أي في هيكل نينوى. وهذه الكتابة تدلنا على أن أكد كانت ذات سطوة وصوله من أقدم الأيَّام حتى قبل عهد تجلت فلاصر الأول.

وبقي كنهه؛ فقد قال أكثر مفسري الكتاب وأهل التدقيق بأن موقعها على الضفة الشرقية لدجلة في مملكة بابل في الجنوب الشرقي من بغداد، حيث أقيمت بعد ذلك قطيسفون وهي المدائن تجاه سلوقية. ولا يمكن القطع بذلك لكنه كالمؤكد، ويُؤيده التقليد الكلداني القديم. وقد اعتمده أوسايبوس القيصري، والقديس إيرونيموس، والقديس افرام، وأبو الفرج ابن العبري، ويزيده تأييداً أن البلاد الواقعة فيها قطيسفون، كان يُسميها اليونان كلنوتيس أي بلاد كلنة. والآثار المسمارية لم تنبئنا حتى الآن بما يُثبت هذا القول أو يُخالفه. انتهى ملخصاً عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو، وعليه فالمدن الأربع في العراق العربي.

وجاء في الكتاب بعد ذلك (تك فصل ١٠ عد ١١) «ومن تلك الأرض (يريد أرض شنعار) خرج آشور فبنى نينوى وساحات المدينة وكالاح، وراسن بين نينوى وكالاح، وهي المدينة العظيمة». قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات صفحة ٣٠٩) إنّ قول الكتاب ومن تلك الأرض خرج آشور فبنى نينوى، يتحمّل معنيين؛ فقال بعضهم إنّ الكلام في شخص غير نمرود وهو آشور، وإنّ هذا بنى نينوى فاستمسكوا بظاهر اللفظ. وقال غيرهم ما هذا الكلام إلا تنمّة تاريخ نمرود، فلا يُراد بآشور رجل بل بلاد، ومعنى الآية عندهم خرج نمرود من تلك الأرض إلى بلاد آشور فبنى نينوى الخ.

وقول هؤلاء أثبت وهو الذي يقتضيه المعنى ومساق الكلام، وليس فيه تكلف إلا لتقدير حرف الجر؛ أي خرج إلى آشور أو تعدية خرج بنفسه. وكذا رأي لانرمان (مجلد ٤ من تاريخه القديم صفحة ٦٤) قائلاً: إنّ تقليد الساميين بجملته يُثبت ذلك وإنّ أرض نمرود من قول ميخا النبي (ف ٥ عد ٦) «فَيرعون أرض آشور بالسيف، وأرض نمرود بمدخلها»؛ يُراد بها بلاد الكلدان وبلاد آشور معاً. وأنّ النبي يعتبر نمرود بابلي ونينوى، وهذا أطبق لما سترى من الآثار. وترى أبداً اسم آشور في الكتاب علماً لأحد أبناء سام، ولبلاذ، لكنه ورد في الآثار علماً لمدينة مخصوصة ولبلاذ ولإله ليس هو إلا آشور ثاني أبناء سام، ألّهوه على جاري عاداتهم وباسمه سُميت البلاد التي هي الآن الجزيرة. فنمرود من ذرية حام وليي قومه أولاً، ثم خرج من الجنوب إلى نحو الشمال فولّي بلاد آشور وسكانها الساميين. ومما يُثبت ذلك وجداننا لغة نينوى سامية كلغة بابل إلا في اختلافات طفيفة، ثم تصريح تقليدات نينوى بأن أصلها كلداني بابلي، فإنك تجد على شواطئ دجلة والفرات الطباق التام في المعتقد والمعبودات، ونوع عبادتها وفي اللغة والكتابة وأنواع الحضارة والعادات. وقد برهن العالم فيكتور بلاس^(١) (في كتابه في نينوى وآشور مجلد ١ صفحة ٢١٤) هذا الأمر ببناء المساكن في آشور بالآجر، مع أنّ الحجارة في جهات الموصل حيث كانت نينوى يسهل استحضارها بخلاف جهات بابل، فلا وجه للبناء بالآجر في آشور وعلى هيئة أبنية بابل إلا استمسك المرتحلين من بابل إلى نينوى بعادات مهاجرهم الأولى، وعليه فالحضارة الآشورية بنت الحضارة البابلية الكلدانية.

(١) Victor Place. Ninive et l'Assyrie

إنَّ اسم نينوى معناه في لغتهم المسكن أو المدينة، وهي أوَّل مدينة بنيت في بلاد آشور بعد الطوفان، ولكن تغلّبت عليها منذ أقدم الأيّام مدينة راسن الآتي ذكرها. ثم سقطت راسن من ذرى عظمتها، فخلفتها نينوى في دورها الثاني؛ وإلى هذا الدور تعزى الآثار المسماريّة الوارد بها ذكر نينوى. وقد بيّنت الآثار الآشوريّة أنّ موقع نينوى كان في المحلّ المسمّى الآن كوينجيك في الشرق الجنوبي من الموصل.

وأما مدينة كالح فموقعها في محل نمرود الآن في جنوبي الموصل، فلم تكن في الشمال من نينوى في جوار خرشباد كما توهم بعضهم، بل في الجنوب من نينوى حيث الآن خرابات نمرود كما حققت ذلك اكتشافات لايرد، فإنه وجد هناك كثيراً من الكتابات والآثار الدالة عليها. وكانت هذه المدينة عاصمة الملك في عهد سلمناصر الأوّل، وبنى فيها هو وبعض خلفائه قصوراً شاهقة، ووجد في خراباتها تمثال سلمناصر الثالث. روى ذلك الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٣٠٠ و ٣١٢). وقال أوبر^(١) (في رحلته في ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٣٠٩) إنّ موقع كالح كان في محل خرابات نمرود، وهذا أمر غنمه العلم من الآثار ولم يحدث فيه بعد خلاف.

وأما راسن فقد صرّح الكتاب بأنّ موقعها بين نينوى وكالح أي بين نمرود وكوينجيك، لا على ضفة النهر بل في داخلية البلاد على مسافة ست ساعات من خرشباد. ويُرجّح أن يكون موقعها حيث الآن كركوش على ما روى أوبر في المحلّ المذكور. وكانت هذه المدينة عاصمة آشور بعد نينوى في دورها الأوّل كما مرّ؛ ولذا وصفها الكتاب بأنها المدينة العظيمة. فالوصف لها لا لنينوى، كما توهم بعض المفسّرين، بل لا يمكن عوده على نينوى إلا بتعسف ظاهر. وعليه فوصف راسن بالمدينة العظيمة - مع أنها دُمّرت منذ أقدم الأعصر - دليل ساطع على قدم تاريخ موسى. فعظمة راسن أقدم كثيراً من عهد عظمة نينوى في أيّام ملوكها الآشوريّين المعاصرين ملوك يهوذا واسرائيل. وكفى بهذا مؤونة لرد مزاعم بعض المنّدّدين الألمانيّين الذين وهموا أنّ أنساب موسى كتبت في عهد ملوك اسرائيل.

(١) Opport Expédition en Mesopotamie

مصريّيم بن حام وأعقابه

ولنعد إلى الأنساب التي أشغلنا الكتاب عنها بذكر نمرود وملكه ومدنه. قد سُمّي الكتاب ابن حام الثاني «مصريّيم»، وتجدّه يُسمّى أبداً وادي النيل مصرّاً والآثار الآشورية تسمّيه مُصّر أو مِصر، والفارسيّة مودريا بإبدال الصاد بالذال. والاسم في العبرانيّة بصيغة المثني أو الجمع لقسمة هذه البلاد من أقدم الأيّام إلى مصر العليا ومصر السفلى. ثم ذكر الكتاب أبناء مصريّيم فقال: «ومصريّيم ولد لوديم»، وذريّة لوديم هم المصريّون بحصر اللفظ وكانوا الفصيلة المتغلّبة، ويُسمّون أنفسهم لوت أو روت، وإبدال اللام بالراء مستفاض عندهم وأكثر منه إبدال التاء بالذال وعكسه؛ فتكون لوت بدلاً من لود كتسمية الكتاب لهم «وعناميم». وقد كثر في الآثار المصريّة ذكر عانو مراداً بهم شعب مشّت في أكثر أنحاء وادي النيل، وقد حفظ اسمهم أيضاً في أسماء بعض المدن في مصر. فإنّ البيولي ودندره كان اسمهما عان في لغتهم، وكان لبطين من هذه الفصيلة نوع من الاستقلال سكن أحدهما في شبه جزيرة سيناء، والآخر في بلاد النوبة، وسَمّتهما الآثار المصريّة عانوكنس ولعلّهما المقصودان في كلام موسى. ومن كلام ابن خلدون: «ومن ولد مصر عناميم وكان لهم نواحي الإسكندريّة» وابن مصريّيم الثالث «لهاييم»، ولا إشكال بأنّ المراد بهذا الاسم سكان ليبيا وهي البلاد الواقعة في غربي مصر وتُسمّى الآن المغرب. على أنّ اسم ليبيا كان يشمل قديماً كلّ الأعمال الواقعة في الغرب من مصر إلى بوغاز جبل طارق. فمسكن هؤلاء يلزم حصره على المغرب الشرقي وهو من برقة إلى تخوم مصر، وشعب هذه الأعمال تُسمّيه الآثار المسماريّة لابو، ولا يُخفى القرب بين لهاييم أو لاييم بالتخفيف. ولابو «ونفتوحيم» ويُراد بهم سكان بلاد منف واسمهم في الآثار المصريّة الكهنوتيّة «نافتاح» أي ملك الإله فتاح أحد معبوداتهم. «وفتروسيم» وهم سكان الصعيد واسمهم في لغة مصر القديمة بتورس، ومعناه البلاد الجنوبيّة «وكسلوحيم»، وفي عرفان هذه الفصيلة غماضة ناشئة من عدم وجود اسم يقرب من هذا لا في الآثار المصريّة ولا في الآثار المسماريّة؛ ولذا كان في هؤلاء لأهل العلم أحداس ضعيفة المبني. على أنّ النسخة السبعينيّة لا تُسمّيهم كسلوحيم كما في العبرانيّة، بل هسمونيم ومعناه سكان بلاد النبطون

(أحد الأملح سلفات الصود معرب)، وفي اللغة المصرية هسمن. ولا يُخفى أنّ في غربي مصر السفلى عملاً يُسمّى وادي النطرون، فيه بعض بحيرات يُستخرج منها هذا الملح. والآثار المسمارية تُسمّى هذا العمل مالوحي أي بلاد الملح. وعليه فيظهر أنّ هذه الفصيلة أقامت هناك، والأظهر أنّ موسى لم يُعَيّن هذا العمل وحده بل أراد سكان شطوط مصر البحريّة من ليبيا إلى فلسطين.

وقد أتبع الكتاب كلامه في كسلوحييم بقوله: «الذين خرج منهم الفلسطينيون وكفتوريم». قلنا وفي النسخة السريانية: «وخرج من هناك الفلسطينيون والكفتوريون». والخير يعلم كم عُنّت هذه الآية العلماء والمفسّرين في تفسيرها، وكم تضاربت الأقوال فيه وفي أصل الفلسطينيين قبل الاكتشافات الحديثة. وأما الآن فنقول: سيجيء ما كشفته الآثار المصرية عن أصل الفلسطينيين من أنهم قدموا إلى مصر من جزيرة إكريت وغيرها من جزر الأرخبيل، وما جاورها من البلاد نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فأسرهم المصريون وأقاموهم في البلاد التي سُمّيت فلسطين نسبة إليهم، وهم من قبيلة البلاسج أصلاً، وبين الاسمين مقارنة ظاهرة؛ فعلى القراءة أنّ الفلسطينيين وكفتوريم خرجوا من الكسلوحييم تكون إشارة إلى أنّ الغزاة الآتين من الشمال اختلطوا بالسكان القدماء الحاميين في مصر، فخرج من الكسلوحييم الفلسطينيون لا ولدوا منهم. على أنّ قراءة نسختنا السريانية «ومن هناك خرج الفلسطينيون» هي أظهر وأنسب لتأدية المعنى، وليبان الحقيقة التي كشفت لنا عنها الآثار المصرية، إذ يتبيّن منها أنّ الفلسطينيين خرجوا من بلاد الكسلوحييم التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط، حيث أسر الغزاة وجلّوا إلى فلسطين. وقد كان من تقليدات عامة العلماء أنّ البلاسج الأولين؛ ومنهم سكان إكريت وما جاورها من الجزر واليابسة هم من ذريّة يافث ومن أعقاب ابنه يawan أبي اليونان على أنّ الأب دي كارا ينشر الآن فصلاً متتالية (في المجلة المعنونة بالتمدّن الكاثوليكي)، يُبيّن بها أنّ البلاسج الأولين من قبيلة الحثيين ولد حث بن كنعان. وعليه فيكون الكسلوحييم والفلسطينيون جميعاً من ذريّة حام؛ فهم أبناء أعمام: الأولون من ولد مصريّين، والثانون من ولد كنعان أخيه. وسترى تفصيل هذه الأمور في كلامنا على الحثيين وعلى بني إسرائيل وحروبهم مع الفلسطينيين.

وأما كفتوريم أو الكفتوريون على ما في نسختنا السريانية فنسبتهم إلى كفتور؛

وهي جزيرة اكريت، وقد ورد اسم هذه الجزيرة ونسبة الفلسطينيين إليها في آيات عديدة من الأسفار المقدسة فكأن الغزاة المارّ ذكرهم آنفاً كان قسم كبير منهم من اكريت فخصّه موسى بالذكر.

عد ٣٦

فوط بن حام

وأما فوط الثالث من ابناء حام ويُسمّى بوت وبوت أيضاً. فلم يذكر الكتاب أعقابه ولا جرم إن كان له ذرية فأين أقامت؟ قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات صفحة ٢٩٠) ذهب كنوبل وكايل وغيرهما أنّ هذه القبيلة توطّنت ليبيا. وذهب أبار (في كتابه مصر وأسفار موسى مجلد ١ صفحة ٦٣) أنها توطّنت بعض بلاد العرب وسومال الواقعة في الجنوب من خليج عدن، وفي الشرق من الحبشة، على ما ظهر من اكتشافات ماريات الآتي ذكرها. وأما لانرمان فبعد أن ذكر (مجلد ١ من تاريخه القديم صفحة ٢٧١) أنّ مواطن هذه القبيلة لا يبعد إن كانت في ليبيا، جنح إلى قول أبار بأنها كانت في بلاد العرب وسومال. وقال: إنّ من تقليدات أهل سومال الآن أنهم من أقارب أقدم الشعوب الذين توطّنوا اليمن وحضرموت، وحرّر رأيه بأنّ هذه القبيلة انقسمت إلى فصيلتين يفصل بينهما السودان. فمساكن إحداهما في سومال وجوارها على الشاطئ الشرقي من افريقيا. ومساكن الثانية في ليبيا ممتدة في شمالي قارة افريقيا من تخوم مصر حتى الأتلتيك وجزائر كاناريس فيه.

على أنّ الذي أطال وأجاد في ذكر قبيلة فوط هو الأب دي كارا (في الفصل الثامن من كتابه في الملوك الرعاة). وملخص ما قاله إنّ المصريين القدماء كانوا يسمّون بلاد العرب الجنوبية فوطاً، وإنّ اكتشافات ماريات في الكرنك (مصر) عن جريدة الأسماء الجغرافية أفادتنا أنّ أرض فوط - التي كان يحصرها أهل العلم بالآثار المصرية في العربية السعيدة واليمن - تمتدّ إلى قسم من قارة افريقيا وهو ما يقابل مضيق باب المندب إلى أرض الحبشة، أعني سومال. وذكر أنّ أحد ملوك مضر المسمّى سنكسارا من الدولة الحادية عشرة أرسل قائداً اسمه حانو إلى بلاد فوط ليأتيه ببعض حاصلات هذه البلاد، وأنّ الملكة ماكارا ابنة توتمس الأول أحد

فراعنة الدولة الثامنة عشر أرسلت قائداً آخر إلى بلاد فوط ونقش تاريخ سفره على جدران دير البحارى (مصر)، وأنّ رعمسيس الثالث أحد فراعنة الدولة العشرين أرسل جيوشاً تغزو بلاد فوط، وكتب تاريخ هذه الغزوة في بابير مصريّ. والمتحصّل من كل ما ذكر في هذه الآثار، أنّ بلاد فوط ليست في قارة آسيا وحدها ولا في قارة افريقيا فقط، بل هي في القارتين معاً؛ قسم في اليمن وما جاوره من العربية وقسم في افريقية لجهة الحبشة أي في سومال المازّ ذكرها.

عد ٣٧

كنعان بن حام وذريّته

بقي من ولد حام كنعان والكلام في ذريّته أهمّ منه في غيرها لأنّ ابناء كنعان توطّنوا ديارنا هذه. قال فيكورو (مجلد ١ من الكتاب والاكتشافات ٢٩٣) لم نجد اسم كنعان حتى الآن في الآثار الآشوريّة مع أنها أكثرت من ذكر البلاد التي سكنها أبناؤه. وكان الآشوريّون يُسمّون هذه البلاد «مات أchary»؛ وتأويله البلاد التي إلى الراء أو البلاد الغربيّة. فكان من عاداتهم أنهم إذا أرادوا تعيين الجهات الأربع التفتوا إلى جهة مشرق الشمس فسّموا الشرق الأمام والغرب الراء. وقد فصّل في كتابه لنبيرار الثالث أحد ملوكهم ما تشتمل عليه هذه البلاد؛ فإنه ذكر الأعمال التي تؤدّيها الجزية فقال من جملتها: «أرض أchary كاها» أعني أرض صور وأرض صيدا وأرض عمري (أي مملكة إسرائيل)، وأرض ادوم وأرض بلاسطاف (أي فلسطين) حتى إلى بحر مغرب الشمس» (رواه أوير في كتاب رحلته بين النهرين مجلد ١ صفحة ٣٣٣). قال الكتاب: «وكنعان ولد صيدون بكره»، وتوطّنت ذريّته في صيدا وما جاورها وسَمّتها باسمه. وسنفرّد مقالة خاصة بتاريخ الفينيقيين نسهب فيها الكلام في صيدا وصور وما يليهما. «وحتّا» ومواطن الحثّيين البلاد التي بين العاصي والفرات وجبل اللكام، وفصيلة منهم سكنت حبرون أي الخليل الآن وجوارها قبل أن يأتيها ابراهيم. وسنفرّد لهذه القبيلة الكبرى مقالة مخصصة أيضاً. تريك ما كان لها من السطوة، وامتداد السلطة والحروب مع المصريّين والآشوريّين. ولم يكن في حطام المؤرّخين شيء من هذه الأمور قبل الكشف عن كنوز الكتابات الهيروكليفيّة والمسماريّة، وقبل الاهتمام إلى الآثار الحثّية منذ بضع سنين فقط.

«واليابوسيون» أي ولد يابوس وقد سكنوا أولاً المحلّ الذي سُمّي بعداً أورشليم، والآموريّون وكانوا يسكنون جبل افرائيم ويهوذا عند استيلاء بني اسرائيل على أرض الموعد، وكانوا قد امتدّوا حتى غربي البحر الميت وعبروا قبيل عهد موسى الأردن، وشيّدوا مملكة باسان وحشبون. وفي الآثار المصرية ذكر لفصيلة أمورية تسكن جهة قادش وعند منبع العاصي في الشمال من بعلبك. «والجرجاشيون» وكان مركزهم في عبر الأردن، وتمتد بلادهم إلى الجليل وجبل الكرمل على الأظهر، وجاء ذكرهم في الآثار المصرية - ويظنّ أنّ بحيرة الجرجسين (وهي بحيرة طبرية) تُنسب إليهم. «والحوثيون» ويظهر من الكتاب عند كلامه في استيلاء بني إسرائيل على فلسطين أنهم كانوا يسكنون في جوار جبل حرمون (جبل الشيخ الآن). وقد ترجم اسمهم في الترجمة (الترغوم) الأورشليمية بالطرابلسيين، كأنهم بعد أن طردهم يشوع بن نون من فلسطين ارتحلوا إلى طرابلس أو أنحائها. «والعرقثيون» وكانوا يسكنون عرقا وجوارها في عمل عكار في الشمال من طرابلس إلى النهر الكبير. «والسينيون» وكانوا يسكنون مدينة سين في الشمال من عرقا. كذا روى لانرمان في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٢٧٤). ولا يبعد أن تكون أملاك هذه الفصيلة توصّلت إلى نهر السن بين جبلة شمالاً والمرقب جنوباً. لكن لانرمان قال في المجلد السادس (صفحة ١٢٠) إنهم كانوا يسكنون في جبل لبنان وإنّ استرابون ذكر مدينة اسمها سينا أو شينا واقعة في هذا الجبل فوق البترون، ولا يُعرف محلّها إلى الآن. (والإرواديتون) وهم سكان جزيرة ارواد وما قابلها في اليابسة خاصة طرسوس وعمريت. «والصماريون» قضبتهم سيميرا وذكرها استرابون بين المدن الواقعة بين النهر الكبير في عكار جنوباً واللاذقية شمالاً فقال: «ارتوسيا (طرسوس) وسيميرا». وفي معجم الكتاب لكلمت أنّ موقعها بين النهر الكبير جنوباً ونهر مرقية شمالاً. وهناك بلدة تدعى صمرة وناحية تسمّى ناحية زميرين أو صمرين. «والحماتيون» وهم سكان حماه على العاصي وباسمهم سُمّيت. فكان هؤلاء بين الحثّيين في الشمال والآراميين في الجنوب.

عد ٣٨

ابناء سام

فرغ موسى من ذكر أنساب بني حام فأخذ في تنسيب بني سام متّبعا فيه نظاماً جغرافياً مرتّباً فقال: «وبنو سام عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام». فعيلام

سمّيت باسمه البلاد التي سكنها أعقابها؛ والكلمة في اللغة السامية تأويلها البلاد المرتفعة أو الجبلية، فيظهر أنها سمّيت كذلك تمييزاً لها عن سهول بلاد الكلدان. وكان الآشوريون والعبرانيون يسمّون هذه البلاد سوسيانا؛ وموقعها بين دجلة وبلاد فارس وهي خورستان الآن ومنها الأهواز. ويظهر من بعض الآثار المسمارية ومن بعض صور تمثل حروب ملوك نينوى في بلاد عيلام؛ أنّ العيلاميين اختلطوا من أقدم الأيام بقبائل أخرى ولكن استمرّت السيادة لهم. وأما «آشور» ثاني أبناء سام فإليه يُنسب الآشوريون. وبلاد آشور وهي الجزيرة كما مرّ - أي القسم الشمالي من بين النهرين. ومن كلام ابن خلدون عن ابن اسحق «أنّ بني آشود (آشور) هم أهل الموصل وبني غليم (عيلام) أهل خورستان ومنها الأهواز». وقد رأيت أنفأ ما بين الكلدان البابليين والآشوريين من وحدة اللغة والمعبودات والحضارة إلى غير ذلك، مع كون أولئك حاميين وهؤلاء ساميين، وهيئات القبيلتين الظاهرة من صور قديمة تدلّ صريح الدلالة على أنهما من ذريّتين. كل ذلك يزيد صحة الكتاب ثبوتاً علمياً أيضاً. وقد توهم يوسفوس وغيره أنّ العيلاميين هم الفرس سكان فارس وهو خطأ ظاهر لأنّ الفرس يافتيون والعيلاميين ساميون بلا مرأى.

والثالث من بني سام «أرفكشاد» ويروى أرفخشاد وأرفخشذ؛ ومعنى الكلمة جدار الكلداني ومتاخمه على ما روى لانيان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ١٨٣). فذلك ناطق بأنّ مهد ذريّة أرفخشاد التي منها العبرانيون، والعرب معاً كان في جوار أبناء عمهم الكلدان الذين هم ذريّة كوش بن حام كما مرّ في الكلام على نمرود. وأما «لود» رابع أبناء سام فزعم بعضهم أنّ ذريّته أقامت في ليديا القديمة حيث ولاية أزمير الآن، مغتربين بالمقاربة بين الاسمين لود وليديا. لكنّ وحدة الاسمين أو تقاربهما لا يكفيان وحدهما للدلالة على أنّ الأصل واحد. فقدماء ليديا يافتيون ومحلّهم من حيث موقعه الجغرافي لا يمكن أن يقرب إلى محل أبناء لود لأنهم ساميون. والكتاب جعل مساكن بني سام متناسقة تبعاً فيلزم أن يكون مقرّ ذريّة لود بين آشور وأرفكشاد من جهة وبني أرام من الجهة الأخرى. ومن كلام ابن خلدون في تاريخه «ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ (لود) قال ابن اسحق: كان للاوذ أربعة من الولد وهم: طسم وعمليق وجرجان وفارس، وفي تاريخ أبي الفدا في ذكر العمالة «وهم من ولد عمليق بن لاوذ بن سام». وبقي «أرام» خامس أبناء

سام. وتأويل الكلمة العالي أو المرتفع ولا شك أنَّ ابنائه أقام بعضهم في سورية الجنوبية أي في دمشق وأنحائها حتى لبنان. وبقي بعضهم بين النهرين كما سيجيء عند ذكر كل منهم.

وكثيراً ما ورد اسم أرام في الآثار المسمارية مراداً به طوراً مساكنهم في سورية وطوراً بين النهرين أو في الاقليمين معاً.

لم يذكر الكتاب ولداً لعيلام وآشور ولود بل اجتزأ بذكر أعقاب أرفكشاد وأرام فقط لأنَّ العبرانيين من ذرية أرفكشاد. وجلَّ غرض موسى أن يكتب لهذا الشعب تاريخه. ولأنَّ الآراميين أقاربهم الأدنون وجيران مواطنهم. وكانت بين الشعبين علاقات تاريخية كثيرة كما سترى. ومما يستوجب الالتفات أنَّ أسماء من ذكرهم الكتاب من بني أرفكشاد جميعها تاريخية جغرافية دالة على انتجاع هذه القبيلة من المشرق نحو المغرب. فقال: «أرفكشاد ولد شالح». وشالح تأويله البعث بالشيء إلى الأمام، وتلك إشارة إلى تقدّم هذا الفرع من ذرية أرفكشاد من محل اقامته الأول نحو الغرب. ثم قال: «وشالح ولد عابر» بمعناه بالعربية أي العابر أو المجتاز، فإنه عبر الفرات إلى الغرب وعنه أخذ سكان سورية قبل ابراهيم يسمّون ذرية عابر عبرانيين أو بني عابر؛ يريدون أنهم أتوا من الفرات. ثم قال الكتاب «وولد لعابر ابنان اسم أحدهما فالج (أو فالغ) لأنه في أيامه انقسمت الأرض، واسم أخيه يقطان». فقالج أو فالغ معناه القاسم أو المقسّم. ففي السريانية **فالج** بمعنى قسم وشقّ، وفي العربية فلج الشيء فلجين: شقّه نصفين، وفلّج الشيء: قسمه، وفلغ رأسه: شدّخه. فكان موسى يقول إنّ بني عامر انقسموا بعد عبورهم الفرات إلى فصيلتين: أقامت الأولى منهما في أور الكلدانيين (وسيجيء الكلام فيها عند ذكر ابراهيم)، وارتحلت الثانية أي بنو يقطان إلى بلاد العرب.

عد ٣٩

يقطان وولده جدود العرب

إنَّ يقطان هذا يسمّيه العرب قحطان^(١) وهو أبو العرب العاربة، وسَمّوا كذلك

(١) قحطان أول من تكلم العربية. وابنه يعرب. معجم البلدان مجلد ٤ حرف ع لياقوت الحموي.

على ما قال ابن خلدون: «أما بمعنى الرساخة في العروية، كما يقال ليل أئيل وصوم صائم أو بمعنى الفاعلة للعروية والمبتدعة لها بما كانت أول أجيالها». وأما العرب العاربة فأكثرهم من ولد أرام ومنهم عاد، وثمود، وجهم الأولى. وستوا بائدة، لأنهم بادوا فلم تبقَ لهم ذرية مستقلة بل اختلطت بغيرها». وأما العرب المستعربة فهم على ما قال أبو الفدا (في تاريخه) ولد اسماعيل وقيل لهم العرب المستعربة لأن اسماعيل لم تكن لغته عربية بل عبرانية، ثم دخل في العربية. فلذلك سُمي ولده العرب المستعربة». وقد ذكروا أن اسماعيل نزل في جرهم الثانية وزوجوه امرأة منهم. ومن هؤلاء العرب المستعربة آل قريش.

أخذ الكتاب في تعداد بني يقطان فقال: «ويقطان ولد الموداد». إنَّ آل الداخلة على هذا الاسم هي أداة التعريف العربية بلا مراء. ولكن هل الاسم المأخوذ هنا عن لغة أعجمية هو في العربية كذلك أم هو المرذاذ بن قحطان - على ما روى ابن خلدون - أو هو مضاض أو المضاض. وقد كثر هذا الاسم في قبيلة جرهم الثانية التي هي من ولد قحطان. كل ذلك لا سبيل إلى تحقيقه الآن. وفي تواريخ العرب أنَّ من نسل قحطان من ملك في اليمن. وأول ملك منهم يعرب بن قحطان ثم يشجب بن يعرب إلى غيرهما. ثم ذكر الكتاب من ولد يقطان «شالف». وعن ابن خلدون «شالف وهم أهل السلفات». وفي التاج السلف كصرد بطن من ذي الكلاع من حمير وهو السلف بن يقطن. وقال لانرمان إنَّ هذا العمل أي السلفات أو سلفية هو في الجنوب الغربي من صنعاء في اليمن ثم «حضر موت». وقد بقي هذا الاسم حتى الآن علماً لأقليم حضر موت على الطرف الشرقي من شبه جزيرة العرب. ثم «يارح». وعن لانرمان إنما هذا الاسم مترجم إلى العبرانية عن كلمة هلال العربية. ولذلك وقف المفسرون بين أن يكون المراد به بني هلال؛ وهم شعب قديم في شمالي اليمن أو جبال القمر الواقعة في حضر موت نحو الشرق. قال ابن خلدون في يارح هذا ومن تبعه من ولد يقطان بعد أن ذكر خمسة منهم «هؤلاء خمسة وثمانية أخرى ننقل أسماءهم وهي عبرانية. ولم نقف على تفسير شيء منها ولا يعلم من أي البطون هم. وهم يياراح وأوزال ودقلا وعوثال وأفيمايل وأيوثير وحويلا ويوناف». والجملة ثلاثة عشر نقلاً عن الكتاب بتغيير ما، وهوذا ما أمكن التوصل إلى معرفته في هذه الأيام من شأن هؤلاء.

ذكر الكتاب بعد يارح «هدورام». قال لانرمان (صفحة ٢٨٥) ولا ريب أنَّ هؤلاء هم الحضارمة Adramites الذين جعل الجغرافيون منازلهم في جوار قبيلة حضرموت. وكان في الشام قبيلة الحضارمة بعد الإسلام أتوا إليها من العجم. وفي التاج الحضارمة قوم من العجم خرجوا في بدء الإسلام فسكنوا الشام. وفي الصحاح: ففترقوا في بلاد العرب فَمَنْ أقام منهم بالبصرة فهم الأساودة وَمَنْ أقام منهم بالشام فهم الحضارمة، وَمَنْ أقام منهم بالجزيرة فهم الجراجمة، وَمَنْ أقام منهم باليمن فهم الابناء، وَمَنْ أقام منهم بالموصل فهم الجرامقة. ثم «أوزال» وبهذا الاسم عمل في اليمن كان حيث صنعاء الآن. واستمرَّ يسمَّى أزال أو عزال إلى أن غزا الأحباش هذه الديار في القرن الخامس للميلاد فسَمَّوها صنعاء. وفي التاج أزال كسحاب اسم صنعاء اليمن في الجاهلية الجهلاء... أو أزال اسم بانيها وهو ابن يقطن ابن عابر وهو والد صنعاء كانت امرأة ملكت. ثم «دقلة» قال لانرمان: ما من عمل في بلاد العرب يقرب اسمه من هذا الاسم على أنَّ معنى دقلة في العبرانية النخل فيراد بدقلة عمل كثر فيه النخل، أو كان فيها نوع من العبادة لهذا الشجر كما كان عند قدماء نجران في اليمن. وموقع نجران هذه يناسب كثيراً أن يكون موطناً لفصيلة دقلة من حيث الجوار لمساكن اخوانه. على أنه جاء في التاج نقلاً عن الصائب قال أبو حنيفة الدقل المجهول من النخل كله الواحدة دقلة؛ وفيه عن القاموس دقلة محرّكة موضع في اليمامة. ثم «عوبال» ويقرب هذا الاسم من اسم بني عييل الذين كانوا يسكنون في الغرب من صنعاء على شاطئ البحر، وكانت عاصمة بلادهم ثمنه مدينة كبرى حوت من الهياكل خمسة وثلاثين هيكلاً.

وفي التاج بنو عييل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام قبيلة من العرب العاربة قد انقرضوا وهو أخو عاد بن عوص. وذكر ابن خلدون عييل من شعوب العرب العاربة. وذكر الكتاب بعد هؤلاء «أييمائيل» وكان هذا الاسم علماً لعمل في بلاد مهرة من اليمن وأخصَّ حاصلاته البخور. وروى ثيوفريست اليوناني المشهور بعلم الطبيعة أنَّ أحسن البخور كان يُؤْتَى به في أيامه من عمل مالي الذي لا يبعد أن يكون مائيل أو أبي مائيل. ثم «شبا» أو سبا وهذه القبيلة مشهورة وكان منها أكثر سكان اليمن. غير أنَّ بعض المؤرخين العرب لا يجعلون سبا بن قحطان كما في الكتاب، بل يقولون ما قال أبو الفدا: «واسم سبا عبد شمس فلما أكثر

الغزو والسبي سُمِّي سبا وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان... وكان لسبا عدّة أولاد فمنهم حمير وكهلان وعمرو وأشعر وعاملة بنو سبا». إلى أن قال إنّ من بني حمير التابعة ملوك اليمن، ومن بني كهلان قبائل طي، ومن بني عمرو نجم، ومن بني أشعر الأشعريّون، ومن عاملة بنو عاملة من القبائل اليمانيّة التي ارتحلت من اليمن ونزلت بالقرب من دمشق في الجبل المعروف بجبل عاملة. انتهى ملخصاً عن تاريخ أبي الفداء، وأصبح من ذلك قول ابن خلدون في جدول بني سام سبا بن يقطن بن عابر كما مرّ في التوراة، وقوله هناك أنّ من بني يقطن «سبا وهم أهل اليمن من حمير والتابعة وكهلان».

أما «أوفير» فلا شك أنّ في بلاد العرب الجنوبيّة محلاً يُسمّى باسمه سكنه أبناؤه بجانب أبناء اخوته. ولكن توفرت الأقوال وتضاربت في ما إذا كانت أوفير علماً لمحلّ واحد أو لمحلّين، إذ ورد ذكر أوفير هنا ثم في سفر الملوك الثالث عند الكلام في ارسال سليمان سفنه إلى أوفير لاستحضار الذهب وغيره. والأظهر على ما حقق الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ فصل ٨) إنّ أوفير هذه غير أوفير محلّ تجارة سليمان؛ فهذه في بلاد العرب الجنوبيّة في بلاد عمّان على بعد نحو من خمسة عشر كيلومتراً من مدينة سوحار، وتلك في بلاد الهند. وإنّ سفن سليمان كانت تسير حتى أوفير الهندية. وبما قاله لانرمان (مجلّد ١ من تاريخه صفحة ٢٨٥) إنّ أوفير التي في بلاد العرب كانت محطة للتجارة بما يرد من أوفير التي في الهند. فكانت السفن الهندية تُقلّ البضائع والحاصلات الهندية إلى مرفأ عدن فتتقلها سفن أخرى أو قوافل إلى مصر وبلاد العرب وسورية.

«وحويلة» الثاني عشر من أبناء يقطان استوطنت ذريّته في بلاد خولان في شمالي اليمن على تخوم الحجاز حيث امتدّت بعد ذلك ذريّة اسماعيل كما جاء في التكوين (فصل ٢٥ عد ١٨). «ويوباب» قد رأيت أنه يُسمّى في كلام ابن خلدون يوفاف. قال لانرمان (في المحلّ المذكور صفحة ٢٨٦) يظهر أنّ هذا الاسم مكسّر، والصواب أن يُقال «يوبار»، فقد ذكر بتولميس قبيلة اليوباريّين في جنوبي العربية. وجاء في تواريخ العرب أنّ وَبَر من ولد قحطان وأنّ فصيلة وَبَر كانت تسكن شرقي عدن إلى تخوم حضرموت.

واختتم موسى كلامه في ولد يقطان بقوله: «كلّ هؤلاء بنو يقطان وكان

مساكنهم من ميثا وأنت آت نحو سفار جبل المشرق». فميشا عند مصبّ الفرات ودجلة في الخليج العجمي مع البلاد التي تُسمّى الآن مساليك، وهي البريّة التي يسكنها الآن قبيلة بني لام من العرب وتتصل بالعراق العربي. وسفار هي التي كانت عاصمة بني سبا وتُسمّى الآن زعفر. وجبل الشرق يظهر أنّ المراد به جبل نجد. وعليه فكان بنو قحطان يسكنون منطقة فسيحة تبتدي من مساليك من طرف العراق العربي وتمتد إلى جبل شومر ونجد وجنوبي الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة.

عد ٤٠

ابناء آرام

ذكر الكتاب ابناء آرام قبل بني أرفكشاد فقال: «بنوآرام عوص وحوور وجائر وماش». فقد مرّ أنّ بني آرام أقاموا في دمشق وأنحائها. وقد حفظ اسم آرام لهذه الأعمال عند كلّ القبائل القديمة وفي كلّ اللغات، أما ابنه عوص فأقام نسله في الأرض التي سماها الكتاب باسمه إذ قال في فاتحة سفر أيّوب: «كان رجل في أرض عوص اسمه أيّوب». وروى يوسيفوس (في ك ١ من تاريخ اليهود فصل ٦): «أنّ عوص بكر آرام أقام في عمل تراخونيد (أو تراكونيت) الواقعة بين فلسطين وسورية المجوّفة». وقد ورد هذا الاسم في بشارة لوقا (ف ٣ عد ١) حيث قيل: «فيلبس رئيس ربيع على ايطورية وبلاد تراكونتس». فالكلمة يونانية من تراخوس معناها الوعر أو الحزن أو البلاد الكثيرة الحجارة. وقد فهم بعضهم بها بلاد الشقيف. وكلام يوسيفوس مؤدّن بشيء من ذلك، والأظهر أنّ المراد بها اللجا التي كان القدماء يسمّونها أرجوب وليس معناها إلا الصبرة بمعنى الحجارة الغليظة المجمعة. وإيطورية هي مملكة يطور القديمة وهي الناحية المعروفة الآن بالجيدور. وكل ذلك في الشرق من الأردن والجولان وفي الجنوب الشرقي من دمشق، فهناك كانت قبيلة عوص وهناك كان أيّوب، يؤيّد أنه وُجد في الآثار المسماريّة ذكر شعب يُسمّى عوصو، ويظهر من الأثر أنّ مقرّه في جهة حوران واللجا. وفي كتب المؤرّخين العرب ان عاد إحدى قبائل العرب البائدة هي من ولد عوص، وأنّ ثمود وجديس من هذه القبائل أيضاً هما من ولد جاتر أخيه الذي يُسمّيه العرب كاتر،

وأنّ منزل ثمود كان بالحجر بين الشام والحجاز؛ كذا في تاريخ ابن خلدون وغيره. وعن يوسفوس والقديس إيرونيموس أنّ عوص بن آرام هو الذي بنى دمشق. أما «حول» فيظهر أنّ ذريته أقامت في البلاد الواقعة بين باسان والجولان ممتدة إلى بلاد الحولة، وأنّ هذا الاسم عن حول بن آرام. وأما «جائر» فكان مقام أعقابه في ناحية ابطورة المار ذكرها المعروف الآن بالجيدور في الجنوب الشرقي من دمشق. وجعل بعضهم موقع ابطورة في الشمال من الجيدور وفي الجنوب من جبل الشيخ، وأنها مملكة جشور القديمة حيث الآن بانياس وقسم من اقليم البلان، ولا تخفى المقاربة بين جائر والجيدور وجشور. وبقي «ماش» الرابع من ابناء آرام وكان مفسّرو الكتاب يترددون بين أن يكون مقام ذريته في ميثا مساليك المار ذكرها، أو في ماسيوس أو ماشيوس في جوار نصيبين، فجاءت الآثار المسماة قاضية بتبوّئهم مساليك إذ أبانت هذه الآثار أنه كان فيها أرامي، وربما كان هناك مقام بني آرام كلّهم أولاً، فنجع بعضهم إلى سورية وبلاد العرب، واستمرّ نسل ماش في مقرّهم الأوّل.

إنّ فصائل القبيلة الآرامية قد استفحل أمرها في وسط سورية وشرقيها. وكان قطبها دمشق يليها عدّة ممالك أو ولايات كما سترى في محال عديدة من هذا التاريخ. ويظهر أنّ ذريّة لود أخي آرام التي كانت تسكن بعض شمالي سورية كما أشرنا آنفاً اختلطت بالآراميين من أقدم الأيّام، فكان هذا ما حمل بعض المؤرّخين العرب على حسابان لود الذي يُسمّونه لاوذ ابناً لأرام مع أنه أخوه. ومنهم ابن خلدون عن ابن حزم إذ جاء في تاريخه (في المقدّمة الأولى من مجلّد ٢): «قال ابن حزم عن قدماء النسابين إنّ لاوذ هو ابن آرام بن سام أخو عوص». وأهمّ من ذلك أنّ الآثار المصريّة عند ذكرها الشعوب الذين عُرفوا بعدئذ باسم آراميين تُسمّيهم روتان أو روتانو، وتقسمهم إلى روتان المغرب يُراد بهم سكان دمشق وبلاد كنعان منهم، وإلى روتان المشرق أو الأعلى وتريد بهم سكان شمالي سورية وجزء من غربي ما بين النهرين. فمادة كلمة روتان الأصلية روت أو لوت لا يبعد أن تكون تحريف لود كما حرّف المصريون اسم جدّهم لوديم بن مصرائيم بن حام بتسمية أنفسهم لوت أو روت كما مرّ في عد ٣٥. وعليه فتكون القبيلتان اللوديّة والآرامية المتميّزتان أصلاً اختلطت إحداهما بالأخرى، وبعد انقراض ملك الحثّيين في

القرن الثامن قبل الميلاد عمّ اسم آرام بلاد هؤلاء أيضاً فأصبح القسم الأكبر من سورية يُسمّى آرام.

عد ٤١

بنو يافت

ذكر الكتاب ابناء يافت (تك ف ١٠ عد ٢) أولاً فقال: «بنو يافت جومر وماجوج ومداي وياوان وتوبل وماشك وتيراس». ولم يذكر من هؤلاء إلا بني جومر وبني ياوان فتكلّم أولاً في الأصول ثم في الفروع التي ذكرها. فجومر ويُسمّيه العرب كומר هو أصل قبيلة الجيماريّين أو الكومريّين القدماء الذين ذكرهم هيرودت، وكانوا يسكنون على شاطئ البحر الأسود في جهة آسيا وفي جهة أوروبا. وربما أخذ عنهم اسم بلاد القرم، وقد غزوا آسيا الصغرى مرات في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وتُسمّيه الأثار المسماريّة جيميراي. وأما «ماجوج» فتأول بعضهم اسمه بمعنى الجبل الكبير مركباً من كلمتين ما وجوج، يريدون بذلك جبل قاف وأنّ قبيلته سكنت هناك. لكنّ هذا التأويل لا يُعتمد عليه، وأكثر المفسّرين وفي مقدّماتهم يوسفوس (في ك ١ من تاريخ اليهود ف ٦) أنّ قبيلة هذا يُراد بها التتر ولا مرية بكونهم من ذريّة يافت. وقد جاء في نبؤة حزقيال (ف ٣٨ عد ٢ وما يليه): «وكانت إليّ كلمة الرب قائلاً: يا ابن البشر اجعل وجهك نحو جوج أرض ماجوج رئيس روش وماشك وتوبل وتنبأ عليه وقل... هاءنذا إليك يا جوج فأدبرك... وأخرجك أنت وجميع جيشك ومعهم فارس وكوش وفوط... ومعك جومر وجميع جيوشهم وآل توجرمة وأقاصي الشمال... فتأتي إلى جبال اسرائيل». ذكرنا كلام النبي مطوّلاً لتضمّنه كثيراً من اسماء الشعوب الذين نتكلّم فيهم، وهو نبؤة على غزوة التتر لبلاد فلسطين في القرن السابع قبل الميلاد. وجوج رئيس أو ملك أرض ماجوج، يُريد النبيّ به ملك التتر الأوروبيّين على ما رأى لانرمان. فهؤلاء التتر كانوا اجتازوا في أوائل القرن السابع قبل الميلاد من شمالي جبل قاف إلى جنوبيه، وأقاموا بين أرمينية الشرقية وبلاد ماداي، استمروا على اسمهم. فقد ورد في كتابات آشور بانيبال، الذي لم يكن بعيداً عن عهد حزقيال، ذكر كوج أو جوجي ملك شخا أو شتا (أي شيت Schythes الذين اعتاد العرب أن يُسمّوهم تتر) يسكن في الشمال من اراراط أي أرمينية، فهذا هو جوج أرض ماجوج الذي

ذكره النبي ووصفه برئيس ماشك وتوبل، لأن جيوش التتر كانت مستحوذة حيثئذ على هذين الشعبين الآتي ذكرهما (لانرمان مجلد ١ من تاريخه صفحة ٢٩٤).

وأما «مادي» ثالث أبناء يافث فلا إشكال أن ذريته هي قبيلة الماديين المتواتر ذكرها في الكتاب والآثار، ومساكنها بلاد مادي، وهي الآن أذربيجان والعراق العجمي، ومادي أصل شعوب إيران. وأما «ياوان» فالتقليد العام أنه جدّ اليونان في آسيا وأوروبا، فقد انقسم هؤلاء إلى فرعين؛ اجتاز أحدهما بوزاغ الدردنيل و«أقام في تراسة Thrace ومكدونية وامتد في سائر بلاد اليونان وجزرها. واستمرّ الفرع الثاني في آسيا الصغرى فكان منه من كان من اليونان فيها. هذا وسترى في كلامنا على الحثيين تفصيل السكان الأولين في هذه البلاد. ثم ذكر الكتاب «توبل وماشك» وكلما ورد ذكرها فيه ذكرنا معاً كأنه لاتفاق نسلهما واقامة أحدهما في جانب الآخر، وذكرتهما الآثار المسمارية مراراً باسم «ماشكي وتابالي» وعامة العلماء على أن مقرّ قبيلة توبال في الجنوب من جبل قاف. وجعل يوسيفوس مساكنهم بين بحر قزوين (بحر الخزر) والبحر الأسود حيث جورجية الآن، والآثار المسمارية تؤيد هذا. وأما قبيلة ماشك فرأي الأقدمين أن مواطنها كانت في الشمال من آشور بين البحر الأسود وبحر قزوين مع قبيلة توبل، وهذا وجه ذكر الكتاب القبيلتين معاً. وقد ورد مرّات ذكر تابال وموشكي في كتابات سرغون الملك في خرشباد حيث عُثِرَ من جملة أقاليم ملكه: «تابال إلى موشكي». وقال في محل آخر إنه انتصر على ميلا ملك الموشكيين. وذهب أوسان وغيره أن المسكوبيين هم من ذرية ماشك هذا (فيكورو مجلد ١ صفحة ٢٩٢).

وأما «تيراس» الأخير من ولد يافث فأكثر مفسري الكتاب وفي مقدمتهم يوسيفوس (ك ١ في تاريخ اليهود فصل ٦) على أن ذريته أقامت في تراسة^(١). ولكن لانرمان خالفهم (مجلد ١ من تاريخه صفحة ٣٠٠) قائلاً بأن مساكن ذرية تيراس كانت في جبل توروس، وفي كيليكيا البلاد الفسيحة التي لم نزلها ذكراً في أنساب موسى، وبأن بعض الفقهاء أرجع إلى هذه القبيلة اسم ترسيس مدينة هذه البلاد، وقد وجدت فيها بعض قطع مصكوكة كُتِبَ عليها اسم ترس،

(١) هي حيث الاستانة إلى البحر الأسود شرقاً وإلى جزر الارخيل جنوباً وإلى الرومي الشرقية شمالاً ومكدونية غروباً.

وُتَسَمِّيها الكتابات الآشورية تارسي. والحاصل أَنَّ قبيلة تيراس - على قوله - أقامت في ترسيس وفي كيليكيا حيث جبل توروس أيضاً. وسترى أَنَّ الأظهر نسبة ترسيس إلى ترشيش بن ياون. ثم ذكر الكتاب ابناء جومر فقال: «وبنو جومر أشكناز وريفات وتوجرمة». أما أشكناز فقد جاء ذكر قبيلته مع غيرها من سكان أرمينية بقول إرميا النبي (فصل ٥ عد ٢٧) متكلماً في خراب بابل: «نادوا عليها ممالك اراراط ومثي واشكناز» وشبه هذا الاسم لاسم قبيلة الأشكينيّين القدماء ظاهر، وهؤلاء كانوا يسكنون ييتينيا حيث مدينة نيقية المسماة الآن ايسنيك، وفي جنوبها وشمالها بحيرتان تسمّى كلّ منهما إيسنيك، والجزر الواقعة تجاه ترويا تسمّى جزر اشكانيا. وعليه فيظهر أن قبيلة اشكناز بن جومر سكنت أطراف آسيا الصغرى من جهة الآستانة العليا. وأما ريفات فعلى تقليد اليهود الذي حفظه يوسفوس كان مقام ذريته بفلاغونيا، وهي ولاية قسطنطيني الآن، وهذا ينطبق مع مركز أشكناز في ييتينيا ومركز ذرية توجرمة في أرمينية الغربية كما يجيء، فيكون مركز ريفات بينهما. ويؤيّدُه أَنَّ اليونان سمّوا هذه البلاد ريفاس. «وتوجرمة» ورد ذكر نسله مرّات في الكتاب؛ منها قول حزقيال المذكور آنفاً حيث يجعله مجاوراً لنسل جومر وقريباً من أقاصي الشمال. ومنها قول هذا النبي أيضاً (فصل ٢٧ عد ١٤) في صور: «آل توجرمة بالخليل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». فيتحصّل من ذلك أَنَّ بلاد هذه القبيلة لا يمكن أن تكون بعيدة كثيراً عن فينيقية، بحيث يُمكن أن يُؤتّى منها إلى صور بالخليل والبغال براً. ومن تقليدات الأرمن أَنَّ جدّهم يُسمّى ترجوموس أو ترجوم، وهو أبو هيك الذي ينتسبون إليه. وعليه فمساكن توجرمة كانت في أرمينية الغربية.

ثم ذكر الكتاب بني ياون فقال: «وبنو ياون اليشة وترشيش وكثيم ودودانيم». فأليشة يُراد به سكان بلاد اليونان في قارة أوروبا، وقد كثر ذكره في الكتاب دالاً على هذه البلاد. وأما «ترشيش» فكان علماً لإسبانيا في أيام الفينيقيين إذ كان تجّارهم يأثون ترشيش أي إسبانيا طلباً للكسب، على أنه لا يُظنّ أَنَّ موسى أراد بترشيش إسبانيا في هذه الأنساب. فترشيش هو ابن ياون فيلزم أن يكون قد أقام بين قومه أو في جوارهم، وقد أحله موسى بين اليشة المُراد بها بلاد اليونان كما مرّ وبين كثيم المُراد بها قبرص على قول أكثرهم؛ فيلزم أن تكون ذريته توسّطت بينهما

أي كان مقامها في جزر الأرخبيل أو في الشواطئ الغربية من الأناضول. هذا ملخص ما قاله لانرمان في المحل المذكور.

وجاء في تاريخ ابن خلدون: «إن ترشيش أهل ترسوس» أي ترسيس الآن، وأرى هذا أقرب إلى الصواب مما سمّوه، لا لوحدة الاسم فقط بل للمجاورة في الاحتلال أيضاً. فكيليكيا وقبرص وبلاد اليونان متقاربة إحداها من الأخرى. «وكتيم» والأكثر على أن المراد بهم سكان قبرص الأقدمون، ويُقوّيه أن أقدم مدن قبرص تُسمّى كيت أو كيتون، وكانت محطة للتجارة بين أهلها والفينيقيين، وأن الاكتشافات الحديثة في هذه الجزيرة تبين أنها أن سكانها الأقدمين من اليونان البلاسج، وأن لغتهم فرع من فروع اللغة اليونانية ولكن أحرفها مخصوصة بها؛ هذا ما قاله لانرمان (مجلد ١ صفحة ٢٩٨). ولكنك ستري في كلامنا على الحثيين أن الأب دي كارا يرى أن كتيم يُراد به حثيم أي قبيلة الحثيين، وأن قدماء قبرص حثيون لا يونان، ويعقب على لانرمان وغيره في هذا الصدد.

وبقي من ولد يامان «دودانيم» كذا في النص العبراني في سفر التكوين. وعنه ما في اللاتينية العامية. ولكن في السبعينية والسامرية «رودانيم». وكذا في الأصل العبراني في سفر أخبار الأيام حيث تُعاد أنساب موسى. وعليه فيرجح أن صحيح الرواية رودانيم لا دودانيم. ويظهر من ثم أن هذه الفصيلة كان موطنها رودس الشهيرة بقدمها والقرية من قبرص، فيتبادر الفهم إليها ولا يبعد أن تكون هذه التسمية تعمّ العمل المقابل لرودس في اليابسة. ومن اعتمدوا رواية دودانيم جعلوا محلة هذه الفصيلة في دودون في الأبير أو أن المراد شعب الدردنيين في ترويا.

عد ٤٢

مجمّل هذه الأنساب

إن المتحصّل من هذه الأنساب على سبيل الإجمال هو أن ولد حام كان منهم؛ أولاً الكوشيون وامتدّت مساكنهم من بابل وعلى شطوط الأوقيانوس الهندي حتى بلاد الحبشة ومصر، والآثار المصرية مؤيدة لذلك، إذ تسبّط شعوب أعلى النيل كوش كما مرّ، وبقي من الكوشيين نمرود وقومه في بابل ومملكته التي ذكرناها. ثانياً

ذرية مصرائيم وقد توطنت مصر واسمها في أكثر اللغات الشرقية حتى اليوم مشعر بأصلها. ثالثاً ذرية فوط وقد سكنت شطوط أفريقية الشمالية على قول بعضهم أو بعض اليمن وسومال على قول الآخرين وهو الأظهر. رابعاً الكنعانيون وقد أهلت بهم سهول سورية الشمالية وشطوط البحر المتوسط إلى جنوبي فلسطين، ومن هؤلاء الفينيقيون وأقاموا في وسط قبائلهم والحيثيون وامتدوا إلى الشمال كما سترى.

وأما ذرية سام فمنهم: أولاً العيلاميون سكان بلاد عيلام التي صارت بعد ذلك من أعمال الفرس. ثانياً الآشوريون سكان آشور وهي الجزيرة؛ أي القسم الشمالي من بلاد ما بين النهرين وجواره. ثالثاً العبرانيون من ولد عابر بن شالح بن أرفخشاد، واستمر بعضهم في بلاد الكلدان وهاجر منها ابراهيم إلى بلاد الكنعانيين فكان من نسله بنو إسرائيل. رابعاً العرب وأصلهم يقطان أو قحطان بن عابر بن شالح بن أرفخشاد بن سام. وامتدوا في الحجاز واليمن وسائر أعمال بلاد العرب وهم العرب العاربة. خامساً الآراميون وهم ولد آرام بن سام وكانت مساكنهم دمشق وأعمالها، وأضيف إليهم ولد لود بن سام ومن هذين الأصلين العرب البائدة أيضاً؛ أي عاد وثمود وجديس وجرهم الأولى إلخ.

أما ذرية يافت فمنهم: أولاً الإيرانيون وهم الماديون والفرس وغيرهم وأصلهم مادي، ومساكنهم بلاد فارس وجوارها وبعض الهند. ثانياً الكومريون أو الجومريون وأصلهم جومر بن يافت، ومساكنهم على شطوط البحر الأسود من جهة أوروبا وجهة آسيا، ويظهر منهم السلت Celtes أصل بعض قبائل أوروبا كما سيجيء. ثالثاً ذرية ماجوج وهم التتر Scythes وكانت مساكنهم في شمال جبال قاف وانتقل بعضهم إلى جنوبيه. ومن هؤلاء أيضاً أصل لبعض قبائل أوروبا. رابعاً الترك ونسبهم ابن خلدون إلى كומר (أو جومر) بقوله: «وشعوب الترك كلهم من كומר ولم يذكروا من أي الثلاثة هم، والظاهر أنهم من ترغما (توجرمة)». ولكن في الكامل لابن الأثير: «ومن ولد تيرش (تيراس) الترك والخزر». خامساً اليونان وأصلهم ياوان وأبنائهم ومساكنهم بعض آسيا الصغرى وبلاد اليونان والجزر القريبة منها وبعض إيطاليا، ومنهم أو هم البلاسج على رأي عاقبتهم. ولكن على رأي الأب دي كارا البلاسج لاسيما الأولين هم حثيون. سادساً الإياريون وأصلهم توبل وماشك ومواطنهم الأولى بين بحر الخزر والبحر الأسود أي بلاد الجركس

وبعض شروان. سابعاً وقد كان تيراس بن يافت أصلاً لبعض قبيلة السلاف أي الصقالية.

إنّ التقليد العام عند جميع سكان أوروبا أنّ أصلهم من آسيا، ارتحلوا إليها من جهة آسيا الصغرى، وبوغاز الدردنيل والبوسفور ومن جهة البحر الأسود وجبل قاف وبحر الخزر، وأكثرهم من ذرية يافت وأصولهم خمس قبائل كبرى؛ أولاها التتون ولها ثلاثة فروع: الأوّل السكندينايف ويُظنّ أنهم ظعنوا من آسيا في القرن الأوّل قبل الميلاد، ومنهم سكان أسوج ونروج والدانيمرك. والثاني الجرمانى ومنهم أكثر سكان جرمانيا. والثالث الإنكليزي ومنهم الإنكليز بحصر اللفظ وسكان سكوتسيا. والقبيلة الثانية السلت انتشرت من أقدم الأيّام من المشرق إلى المغرب في أواسط أوروبا، والسواد الأعظم منها حلّ في إفرنسة؛ فهم الغال سكان إفرنسة القدماء أو نرلاؤهم، وجالية من هؤلاء أقاموا في بوهاميا وبافيارا وفي بعض أعمال إيطالية وإنكلترا أيضاً حيث بلد غال. والثالثة اللاتين ومنها الإفرنسيّون من غير الأصل السابق، ثم السواد الأعظم من سكان إيطالية وإسبانية والبرتوغال ورومانيا. والرابعة اليونان ومنها سكان بلاد اليونان والألبانيّون وبعض سكان إيطالية الجنوبيّة. والخامسة السلاف أي الصقالية ومنهم خاصة سكان روسيا والبشناق والسرب والبلغار والبولونيّون وغيرهم.

الفصل التاسع

برج بابل

عد ٤٣

آيات الكتاب في برج بابل ثم من بناه

بعد أن ذكر موسى أنساب بني نوح وتفرّق قبائلهم في الآفاق، أنبأنا بما كان في بابل فقال (تك ف ١١ عد ١ وما يليه): «وكانت الأرض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً. وكان أنهم لما رحلوا من المشرق (نحو المغرب) وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لبناً وننضجه طبخاً؛ فكان لهم اللبن بدل الحجارة، والخمر كان لهم بدل الطين. وقالوا: نبني لنا مدينة وبرجاً رأسه إلى السماء، ونقيم لنا اسماً كيلا نتبدّد على وجه الأرض كلها» قبل أن نشيد لنا أثراً نتفاخر به. فاستكبروا وأغاظوا الرب فقال: «هوذا هم شعب واحد ولجميعهم لغة واحدة؛ وهذا ما أخذوا يفعلونه، والآن لا يكفّون عما همّوا به حتى يصنعوه. هلّمّ نهيط ونبلبل هناك لغتهم حتى لا يفهم بعضهم لغة بعض، فبدّهم الرب من هناك على وجه الأرض كلّها، وكفّوا عن بناء المدينة، ولذلك سمّيت بابل لأنّ الرب هناك بلبل لغة الأرض كلّها؛ فهذا ما جاء في الكتاب وهو شامل أمرين: الكلام في برج بابل، ثم بلبال لغة الأرض. فتتكلّم في هذا الفصل على برج بابل وفي التالي على اللغة وبلبالها.

وأما من هم الذين أخذوا يبنون هذا البرج؟ فذهب بعضهم إلى أنهم جميع الأحياء حيثئذ من نسل نوح، وأنهم اجتمعوا في أرض شنعار يتعاضدون ويتنافسون بتشيد مدينة وبرج. وذهب غيرهم أنّ هؤلاء كانوا بني سام فقط وبعض ولد حام، وأيّد هؤلاء مذهبهم بحجج عديدة منها أنّ التعميم المتحصّل من قوله: «وكانت

الأرض كلّها لغة واحدة»، لا يُراد به كل الأرض المأهولة يومئذ بل كل الأرض التي اجتمع فيها المرتحلون أي أرض شنعار. ولا يستفاد من نصّ الكتاب البتّة أنّ كل الأحياء حينئذ اجتمعوا في هذه الأرض. ومنها أنّ موسى ذكر أخبار تفرّق أبناء نوح قبل خبر برج بابل وبلبال الألسن، ومن خاتمة الفصل العاشر من سفر التكوين وهي «هؤلاء عشائر بني نوح... ومنهم تفرّقت الأمم في الأرض بعد الطوفان». يتلخّص أنّ هذا التفرّق كان بُعيد الطوفان وقبل بناء البرج. ومنها أيضاً أنّ قوله إنهم ارتحلوا من المشرق لا يستلزم أنه لم يبقَ منهم أحد حيث كانوا، أو لم يتخلّف أحد منهم في أثناء الطريق. ومن حججهم أيضاً أنّ الظاهر من النص العبراني أنّ ببلبة الألسن كانت بعد سنة ١١٧ من الطوفان. ولكن يؤخذ عن الترجمة السبعينية أنّ ذلك كان بعد ٤٠٠ سنة من الطوفان. وإذا اعتمدنا هذه الرواية الأخيرة كان اجتماع نسل نوح يرُمته في بابل مستحيلًا. ويظهر من الآثار المصرية أنّ بني مصرائيم كانوا مقيمين في وادي النيل قبل القرن الرابع بعد الطوفان. والحاصل من ذلك كلّه ومن قرائن النص المقدّس ومجموعه أنّ الذين همّوا بتشييد المدينة والبرج في أرض بابل، وبلبلت لغتهم لم يكونوا جميع الناس على آخرهم. وإذا فهم كلام الكتاب بهذا المعنى سقط كل ما يتعرّض به على رواية موسى من حيث وحدة اللغة أو غيرها كما سترى.

عد ٤٤

موقع برج بابل

لا جرم أنّ أرض شنعار التي شُيّد البرج فيها هي أرض بابل، لتصريح الكتاب بأنّ ما بنوه سُمّي بابل أخذًا عن ببلبة ألسنتهم. ويظهر أنّ العلامات المسماة الدالة على شنعار تشير إلى معنى ما بين النهرين، لأنها على ما روى أوبر (في كتاب رحلته ما بين النهرين): «مات مات را». فعلامة مات تدلّ على اسم البلاد ورا معناه ريّ الماء أو السقي أي النهر، فكان المعنى البلاد المسقية بنهرين أي ما بين النهرين. وأما أين كان موقع هذا البرج من أرض بابل؟ فاختلف القدماء في تعيين محل بابل أدّى بأولى حجة إلى الاختلاف في موقع البرج. والأظهر الآن أنّ موقع بابل إنما هو مدينة الحلة الآن موطن الشيخ صفّي الدين الحلّي صاحب البديعية المشهورة.

وأما موقع البرج فجعله بعضهم في الشمال من بابل في محلّ الهرم القديم الذي ذكره استرابون وسمّاه قبر بالوس، وجعله غيرهم في بورسييا القديمة التي هي الآن برج نمرود في وسط الطريق بين بغداد وبابل على بعد اثني عشر كيلومتراً في الجنوب الغربي من الحلة حيث خرابات كبيرة من آجر بعضها متزجج بالنار. وهبنا صرح بقي من ارتفاعه ستة وأربعون متراً ومحيطه سبعمائة وعشرة مترات. وقد أثبت العالم أوبر^(١) الإفرنسي أنّ هذه الخرابات هي في موقع برج نمرود، حتى أفضل على العلم بإبلاغ هذا المبحث إلى درجة من التوكيد. فقد جمع (في كتابه الدروس الآشورية وفي كتاب رحلته بين النهرين) شهادات المؤرخين وفقرات الخطوط المسمارية التي جاء فيها ذكر الهرم القديم وبرج نمرود، واستخلص مثبتاً أنّ برج نمرود هو برج بابل الذي بلبت الألسن عند بنائه.

إننا كلفاً بالإيجاز نكتفي عن ذلك بإيراد بعض فقرات من كتابة مسمارية خطها بختنصر على هرم قديم في محلّ برج نمرود، وكان أوّل من ترجمها أوبر المشار إليه، وشرحها في كتابه الدروس الآشورية. فبختنصر بعد أن يستغيث بالإلهين مروداخ ونابو يقول: «إنّ هيكلاً أنوار الأرض السبعة المعلق عليه، أقدم ذكر لبورسييا بناه ملك قديم (يحسبون من عهده إلى اليوم اثنين وأربعين عمراً بشرياً). لكنه لم يكمل قمته فتركه الناس منذ أيام الطوفان متكلمين كلاماً مشوشاً، وزلازل الأرض والرعود زعزعت اللبن (الآجر غير المشوي)، وشققت الآجر المشوي الملبس به البناء فتهدم اللبن فتكوّن منه تلّول. فآلهم مروداخ الإله العظيم قلبي لأجدّد بناءه فلم أمسس الأساس بل اخترقت في شهر الخلاص واليوم المسعود اللبن والآجر بقناطر أقمته، وكتبت اسمي المجيد على وجه القناطر، وغنيت بتجديد بناء البرج ورفع قمته كما كان يلزم أن تكون. وكذا أعدت تشييده كما كان يلزم أن يكون في الأعصر الخالية القاصية وكذا رفعت أعلاه».

وقد أيقن أوبر وغيره من أهل العلم بالآثار أنّ خطّ بختنصر هذا مشعر بلا شكّ ببرج بابل الذي ذكره الكتاب، على أنّ لانرمان تابع أوبر على هذه الترجمة في موجز تاريخه القديم، ثم عاد في مطوّل هذا التاريخ وفي موجز تفسير فقر باروز

(١) Oppert Etudes Assyriennes p 192 et Expédition en Mesopo. T.1p. 213.

يشبهه بصحة الترجمة خاصة في الفقرة، «تركه الناس منذ أيام الطوفان متكلمين كلاماً مشوشاً» مترجماً لها بمعنى آخر. ولما كانت الخطوط المسمارية عرضة لتأولات عديدة ولقراءات مختلفة فلم نحصل حتى الآن على التوكيد المطلق أنّ برج نمrod هو برج بابل حقيقة. وإن كان رأي أوبر هو الأقرب إلى الصواب والأظهر خاصة لاستمساكه بحجج قوية وإسناد قوله إلى يثينات عديدة، ولأنه يتبين من أي تفسير كان لخط بختنصر أنه جدّد بناء برج كان من أقدم الأيام ولم يتم صناعه سقفه أو قمته، ولا يخفى ما في ذلك من الإشارة الواضحة إلى برج بابل - سواء ذكر الطوفان في ذلك الخط أم لم يُذكر.

عد ٤٥

الآثار المثبتة تاريخ برج بابل

إنّ عالماً اسمه أييدان يظنّ أنه كان كاهناً مصرياً في هيكل أزوريس في مصر على عهد خلفاء اسكندر، ألف كتاباً اعتمد فيه التاريخ البابلي لباروز الشهير، وضعه أخبار الكلدان والآشوريين. إلا إنّ غير الزمان لم تبق منه إلا فقرات رواها أوسايوس في الاستعداد الإنجيلي، والقديس كيرلس الإسكندري في كتابه ضد يوليانوس، وجرج سينسال في تاريخه؛ ومنها فقرة رواها أوسايوس وغيره. قال أييدان فيها: «رووا أنّ الرجال الأوّلين استكبروا بقوتهم وارتفاع قاماتهم، فأخذوا يحترقون الآلهة ويظنون نفوسهم أسمى وأعظم منهم، فحملتهم كبرياؤهم على أن يشيدوا صرحاً عجيباً في ارتفاعه، وهو الآن بابل. وبينما كاد رأسه يناطح السماء عصفت الأرياح بأمداد الآلهة، فحطمت مراقي البناء وكفأتها على البنائين وسُميت هذه الخرابات بابل. والناس الذين كانت لهم لغة واحدة إلى ذلك الحين شرعوا منذ حينئذ يتكلمون لغات مختلفة بأمر الآلهة». وقد حفظ اسكندر بوليستور (أي العلامة وهو كاتب يوناني توفي في القرن الأوّل قبل الميلاد) رواية أخرى أشبه بهذه أخذها عن باروز.

إنّ التقليدات البابلية التي بلغت إلينا فقرات باروز وغيره في شأن برج بابل ولبال اللغة فيه تشبه كلّ الشبه ما رواه موسى في سفر التكوين بهذا الشأن، حتى لم يجد توش ورنان وغيرهما من كفرّة عصرنا مفراً من قوتها، فلجأوا إلى الزعم أنّ باروز لم يلق ما كتبه في برج بابل عن آثار كلدانية، بل تلقاه عن كتب اليهود،

وأوهمهم ميلهم السيئ أنه كان لليهود سكان بلاد الكلدان صولة وسطوة في هذه البلاد أيام كان باروز يكتب تاريخه على عهد اسكندر الكبير وسلوقوس. مع أنه لم يكن لهم شيء من ذلك، بل كانت مدارس بلاد الكلدان لم تزل عامرة زاهرة تعلم قراءة الخطوط المسمارية وتفسيرها، حتى كان كل ما بقي من فقر باروز، وأمكن معارضته بالآثار المكتشفة حديثاً قاضياً علينا أن نوقن أنه تلقاه عن آثار قديمة في وطنه، وأنه كان على غاية من الدقة في ما ينقله ولا وجه لاستثناء روايته في برج بابل، وبلبله الألسن من هذا الحكم وليس في ذلك ما يشرف قبيلته أو يعود عليها بنفع.

ويزيد ذلك تحقيقاً ما اكتشفه عن قرب جرج سميت من صفائح نقش عليها بالخط المسماري تاريخ برج بابل، وهي الآن في المتحف البريطاني. إلا إنها لسوء الحظ مشوهة محو قسم منها، والصحيفة الأولى التي يظن أنه كان مكتوباً فيها خبر تكبر من شيدوا البرج لم يهتد إليها بعد. على أن الباقي من هذه الصفائح يشف ظاهراً عن الغرض؛ وهوذا ترجمة ما كان منه كذلك. «كانت أفكار قلبه سيئة... وكان ترك أبا كل الآلهة... فلبلهم كباراً وصغاراً على البرج... كان بيني الجدران النهار بطوله وفي الليل عقاباً لهم... لم يترك بقية... في غضبه جاهر برأيه الخفي بأن يبلبل ألسنتهم فحوّل وجهه وأمر فتبلبلت آراؤهم... سر - تولي - إليّ (تأويله إله البرج السامي وهو أنو) أباد (أو عاقب)... فالتقوه مرتعدين فنظرهم... ولما لم يتوقفوا وعصوا الآلهة... فبكوا بكاءً مراً على بابل وانتحبوا وقلبهم...». فالحاصل من هذا الكلام المتقطع أن شعب تلك الأيام عصى الآلهة، وأراد بناء برج غير مبالٍ بإسقاطهم. فلبل الآلهة ألسنة الشعب وآراءهم، ودُمّروا ليلاً ما كانوا يبنون نهاراً، فشق عليهم ذلك وناحوا على بابل وما كانوا بنوه فيها؛ وهذا مؤذن ببناء برج بابل ودكّه، وبلبله ألسن من بنوه بل لا يمكن تخريجه أو صرفه إلى معنى غير هذا.

روى لانرمان (مجلد ١ من التاريخ صفحة ١١٥) أن التقليد الدالّ على بناء برج بابل وبلبال الألسن به وجد عند الأرمن، ولم تخل عنه كتب اليونان لأنه جاء في قصصهم عن الألياد (أي الجبابرة)، أنهم شرعوا يبنون برجاً يبلغ رأسه إلى السماء. فعاقبهم الآلهة على قحتهم وأهالوهم بالصواعق وأهبطوهم إلى الجحيم. وروى ما رويناه آنفاً، وقال لم نجد أثراً لذلك في الهند ولا في إيران لأنه خصّ سكان بابل أو بمن كانوا مجتمعين في شتعار أو بمن تفرّع منهم بعد ذلك.

الفصل العاشر

اللغة

عد ٤٦

اللغة الأولى

لما كان جميع الناس من ولد آدم وحواء أولاً ثم من ولد نوح بعد الطوفان، لم يكن إشكال ولا ريب في أنه كان للأولين في الدورين لغة واحدة يحسن تسميتها اللغة الأولى. وجاء الكتاب ينبئنا أنه عند بناء برج بابل «كانت الأرض لغةً واحدة وكلاماً واحداً». وقد أثبتنا مفهوم هذه الآية على أن الاختبار في كل أين وأن حقق لنا أنه لا يمكن أن تكرر أعوام عديدة على لغة إلا وتدخل عليها تبديلاً في ألفاظها وتغييراً في صورها وزيادة عليها، وتحريفاً وتصحيفاً في حروفها لاسيما إذا كانت تلك اللغة غير مكتوبة. وعليه فليس لنا أن نقضي بأن اللغة التي أنطق الله آدم بها استمرت محفوظة على سلامتها إلى أيام الطوفان. وإذا سلمنا ببقاء أصلها وجوهرها فلا أقل من تبدل هيئتها الخارجية، ودخول بعض التغير فيها إلا أن يكون ذلك بمعجزة. ولم ينبئنا الكتاب بشيء من هذه المعجزة. ثم إذا كانت المدة التي تخللت بين الطوفان، وبناء برج بابل أربعة قرون على ما في النسخة السبعينية فلا بد أن يكون قد طرأ على اللغة التي كان نوح تكلم بها مثل تلك التبدلات، والتغيرات والزيادات الحديثة. وعليه فالأظهر أن اللغة التي كان يتكلم بها من بنوا برج بابل هي اللغة الأولية مهذبة ومكتملة، ومزاداً عليها ألفاظ جديدة وصور حديثة. وأن بني سام تيسر لهم أكثر من سواهم حفظ اللغة التي نطق بها آباؤهم، لأنهم استمروا أدنى من غيرهم إلى مهد النوع البشري وإن طرأ على لغتهم ما طرأ ويطرأ على كل لغة كما أثناه.

ذهب بعض الآباء منهم أوريجانوس (في مقالة ١١ في سفر العدد) والقديس أوغوستينوس (في كتابه مدينة الله فصل ١٦) وغيرهم، وكثير من العلماء حتى أيامنا، أنَّ اللغة العبرانية هي اللغة الأولى التي تكلم بها آدم في الفردوس. وذهب كثيرون غيرهم أيضاً أنها لغة أخرى سامية كالسريانية أو الكلدانية أو العربية، على أنه قد تبين من العلم الحديث النشأة؛ وهو علم معارضة بعض اللغات ببعضها، أنَّ كل اللغات القديمة تعاقبت عليها ثلاثة أدوار. ففي دورها الأول كان كل من كلماتها ذا هجاء واحد، فتوضع الكلم إحداها بعد الأخرى بحسب نظامها المنطقي لتأدية المعنى المقصود. وما برحت لغة الصين ولغات بعض القبائل في داخلية إفريقية وغيرها من هذا النوع. وفي الدور الثاني أخذ يلحق كلمة إلى أخرى فيؤدي اللفظان المعنى الأول مُضافاً إليه معنى جديد، أو يحصل من تركيب الهجائيين أو أكثر معنى آخر. وفي هذا الدور أيضاً أخذ بزيادة أحرف على الأصول في أولها أو آخرها، أو بين حروفها للدلالة على معانٍ ترافق المعنى الأصلي. مثال ذلك في لغتنا العربية زيادة الألف في مثل قاتل للدلالة على المشاركة، وزيادة الألف والسين والتاء في مثل استغفر للدلالة على طلب الفعل، ومن ذلك تشديد وسط الفعل للدلالة على المبالغة، أو إدخال الهمة أو التشديد على الأفعال للتعدي. ومثال ذلك في غير العربية لا يخفى على الخبير بها؛ فمنها زيادة بعض الحروف في اللغات الأوروبية للدلالة على تجديد عمل الفعل مثل Commencer ابتداءً Recommencer ابتداءً ثانية أو استأنف ومثل Honorer كرم ووقّر Déshonorer عاب واحتقر. وفي الدور الثالث اكتسبت كلم اللغات التصريف، وهو تغيير الأصل إلى هيئات متعددة للدلالة على معانٍ منها تصريف الأفعال في الأزمنة ومع الضمائر، وبنائها للمجهول، وإلحاق الضمائر بالاسماء والأفعال. ومثل النسب والتصغير وما أشبه. وإذا علمت ذلك ظهر لك أنَّ اللغة العبرانية، وغيرها من اللغات السامية لا يمكن أن تكون في حالتها الحاضرة اللغة الأولى التي تكلم بها آدم. فإنَّ نحو كل منها ومعجماتها تنبئنا أنها في دورها الثالث. ولكن يمكن أن تكون إحدى هذه اللغات السامية لغة آدم ولغة نوح من حيث جوهرها وأصلها. وقد قدَّر لانرمان أنَّ اللغات ذات الهجاء الواحد يتكلم فيها نحو ٤٤٩ مليوناً في العالم، واللغات المركبة غير المتصرفة يتكلم بها نحو ٢١٦ مليوناً والمتصرفة ينطق بها نحو من ٥٣٧ مليوناً (مجلد ١ من تاريخه القديم صفحة ٣٣١).

وأما كيف كان بلبال اللغة في بابل فلآباء ومفسري الكتاب في ذلك قولان؛ قال بعضهم أنشأ هذا البلبال عدم إدراك بُناة البرج ما يقوله أحدهم للآخر بإرادة الله عقوبة لكبريائهم فتفرقوا. فنشأ عند كل فريق منهم لغة تقدّمت شيئاً فشيئاً. ومَن استمسكوا بهذا القول القديس غريغوريوس نيصص، ومما قاله (في ردّه مزاعم أونيموس ك ١٢): «لما كان موسى ولد بعد قرون من بناء برج بابل فاستعمل لغة من اللغات المتأخّرة»؛ أي التي نشأت بعد البلبال وجرت في مدارج التقدّم، وجنح أهل العلم بمعارضة اللغات إلى تأييد هذا القول. وقال آخرون، وهم كثير من الآباء والمفسرين: «إنّ الله غيّر بغتةً لغة بُناة البرج حتى استحال على أحدهم أن يدرك كلام الآخر، وأنطق كل فريق بلغة. تلك معجزة لا يعجز الله صنعها. قال فم الذهب (مقالة ٣٠ في التكوين): «إنّ وحدة اللغة دعت إلى الاجتماع واختلاف اللغة أوجب التفوق». وقال القديس افرام السرياني (في تفسيره سفر التكوين مجلد ١ من كتبه السريانية صفحة ٩٥): «يظهر أنّ الله محا من ذاكرتهم اللغة القديمة التي كانت تعمّم جميعاً، وبذلها بلغة خاصة بكل فريق منهم... واستمرت اللغة القديمة عند أسرة واحدة فقط». وعلى كلا القولين كان بلبال الألسن معجزة خارقة ناموس الطبيعة لا ينكر إمكانها إلا مَنْ ينكر قدرة الله على تغيير سنن الطبيعة، وهو على كل شيء قدير، على أنّ المعجزة في القول الثاني مضاعفة أي إنساء اللغة الأولى وإنطاق كل فريق بلغة.

هو علم حديث النشأة عُني وما برح يُعنى به كثير من أعلام أهل العلم في هذا العصر؛ والغرض منه معرفة أصل اللغات واشتقاق بعضها من بعض، وما دخل من إحداها في الأخرى، وردّها إلى أصولها، والبحث في ما إذا كان لها أصل واحد ترد إليه سائر اللغات. وقد ردّوا، حتى الآن، كل اللغات التصريفية المعلومة

إلى أصليين خاصةً الأول السامي - والأولى على رأي بعضهم أن يُسمّى السرياني العربي؛ وأخصّ فروعهُ الكنعانية بفروعها، والآرامية أي السريانية بفروعها، والآشورية والعربية بفروعها، ولغة بعض أهل الحبشة بفروعها. ومن هذا الأصل أيضاً اللغة الحامية، وهي ذات ثلاثة فروع؛ المصري القديم المكتوب بالحروف الهيروغليفية، ولغة بعض سكان الحبشة غير المازّ ذكرها، ولغة سكان ليبيا، وهي المغرب أي الأقاليم الواقعة في غربي مصر. فقد أثبت لانرمان (مجلد ١ من تاريخه صفحة ٣٧٠) أنّ أصل هذه اللغات واللغات السامية واحد، بدليل أنّ أصولها النحوية وأصول الضمائر فيها وصيغة التأنيث، والجمع ونحو نصف أصول الكلمات؛ جميعها واحدة في اللغتين والنصف الثاني من اللغات الحامية، حتى أنّ الفرع المصري نفسه هو من لغات إفريقية يتكلّم بها شعوب السودان. ويظهر أنّ انفصال اللغات الحامية عن السامية قديم جداً. وقد سبق تقدّم اللغات وتحسينها. وأما الأصل الثاني فهو السنسكريت ويقسمونه إلى الهندي الإيراني والهندي الأوروبي؛ ومن فروع الأوّل: الفارسي والأرمني، ومن فروع الثاني: اليونانية بفروعها، واللاتينية بفروعها، والجرمانية بفروعها، والسلافية بفروعها إلى غير ذلك من اللغات أو الفروع المستعملة في أوروبا ومستعمراتها، وسنأتي على بيان ذلك كلّهُ.

وقد أسند هؤلاء العلماء نتائجهم إلى مقدّمات هي قرب الفروع من الأصل، والمشابهة بين الأصول النحوية وأزمنة الفعل وتصاريفه ونوع الكتابة. واستعانوا بتاريخ القبائل وارتحالاتهم وأنسابهم إلى غير ذلك من الأدلّة المفردة عندهم.

وأما مرجع هذين الأصلين إلى لغة واحدة أولية فهو ما يعني أهل هذا العلم. وقد تقدّم كثيراً على حداثة نشأته، وإن لم يتمكّن ذروه حتى اليوم من الإهتمام إلى كل حلقات هذه السلسلة المتقطّعة، وإيصال إحداها بالأخرى. وما أدركوه حتى الآن وليس هو باليسير إثباتهم إثباتاً علمياً إمكان وجود لغة واحدة أولية هي أصل سائر اللغات، واهتداؤهم إلى قرائن قوية دالّة على أنّ اللغات مشتركة في الأصل ولها أصل واحد يعمّ جميعها، خاصة إذا رُوعي دورها الأوّل، إذ كان كل أصل ذا هجاء واحد. حتى قال بعضهم إنّ بعض ما كان في اللغات السامية من ثلاثة أحرف أصله حرفان فقط. هذا، وإذا تعدّر الوصول إلى التيقّن بوحدة الأصل في جميع اللغات فيبقى قول الكتاب: «وكانت الأرض كلها لغة واحدة» على سلامته

وتنزهه عن كل خلاف، إذ أبان أن الأظهر من معنى الآية أن المراد بالأرض كلها أرض شنعار لا الأرض بإطلاق لفظها. فسيان في صدق الكتاب ثبت وجود لغة واحدة هي أصل كل اللغات أم لم يثبت. والراجع الآن ثبوته.

عد ٤٩

اللغات السامية

قد مر أن أصل اللغات - الذي سمّته عامة أهل العلم سامياً. رأى بعضهم ومنهم لانزمان أن الأولى تسميته بالسرياني العربي، لأنه أصل لبعض لغات الحاميين. أيضاً، فتسميته سامياً لا تشمل هذه اللغات. ولأنّ أخصّ فروعه السريانية والعربية فكانت السريانية والعربية فرعين عامين يُسمّى الأول منهما شمالياً والثاني جنوبياً. ولكلّ منهما فروع تأتي على ذكرها كلفاً بتوفّر الفوائد. فالفرع العام الشمالي الذي هو السرياني، تفرّع منه اللغات الآرامية والآشورية والكنعانية. فالآرامية لغة الشعوب الذين سمّاهم الكتاب آرام، فكانت لغتهم في سورية ثم أوصلتها ولاية الآشوريين والفرس إلى كل من ما بين النهرين حتى خليج العجم، وفلسطين وبلاد العرب الشمالية. واستمرّت الآرامية اللغة المتغلّبة في هذه الأقاليم إلى أن نسختها وخلفتها العربية بعد ظهور الإسلام. ومن فروع الآرامية الفرع الذي كتبت فيه بعض أجزاء من أسفار الكتاب المقدّس كنبوة دانيال وسفرا عزرا ونحميا وسفر استير. وقد بقيت فقرات منها مكتوبة من القرن الخامس إلى القرن التاسع بعد الميلاد يتبيّن منها حالة هذه اللغة وقتئذٍ.

ومن فروع الآرامية أيضاً اللغة السريانية التي كان يستعملها سكان الرها ونصيبين، وقد كانت زاهرة خاصة من القرن الثاني إلى القرن التاسع بعد الميلاد، وهي المكتوبة فيها ترجمة الأسفار المقدّسة المسماة بسيطة. وكتب القديس افرام السريانية، وكتب طقوس طائفتنا المارونية، وقد داخلها كثير من الألفاظ اليونانية، وكانت موصلاً للعلوم بين اليونان والعرب. فأكثر ترجمات الكتب من اليونانية إلى العربية، غني بها علماء السريان أو أخذت عن ترجمات سريانية. واستمرّت هذه اللغة في بعض قرى جبل لبنان كمحصرون وجوارها إلى أمد غير بعيد - أعني نحواً من قرنين فقط. ومن الفرع الآرامي اللغة التي استعملها اليهود وغيرهم في سورية

وفلسطين في أيام المخلص، وقد كتب الريتون بها التلمود الأورشليمي والتلمود البابلي. وتُسمى السريانية الكلدانية، وسُمّاها بعضهم عبرانية نسبةً إلى العبرانيين الذين تكلموا بها بعد عودهم من السبي البابلي.

ومن هذه الفروع أيضاً: الفرع التدمري الذي كان مستعملاً في تدمر ونواحيها وفي شمال سورية في أيام دولة تدمر، وبقي منه كتابات عديدة قديمة. ومنها أيضاً الفرع النبطي، وكان لغة أهل العربية الحجرية، يداخله كثير من الألفاظ العربية، وبقيت منه أيضاً كتابات قديمة. ثم الفرع السامري، انتشر في السامرة في عهد ولاية الآشوريين والبابليين والفرس عليها. وقد حفظ بحالة لغة علمية عند السامريين، والنسخة السامرية مكتوبة به.

وللغة الكنعانية فرعان، خاصة أولهما اللغة العبرانية؛ وهي كقطب يدور عليه درس اللغات السامية. وقد كتبت بها أكثر أسفار العهد القديم. وقد أنبأتنا الاكتشافات الحديثة، والآثار القديمة أنها كانت لغة الموابين، والعمونيين من نسل لوط. ومن المؤكد أنها لم تكن لغة ابراهيم ونسله قبل أن زایل بلاد الكلدان بل تلقّاها عن الكنعانيين بعد أن توطّن بين أظهرهم، وسُمّاها اشعيا النبي لغة كنعان. والفرع الثاني هو لغة الفينيقيين على أنه وإن كان الفينيقيون من ولد كنعان، فقد كان لهم لغة مخصوصة قريبة من اللغة العبرانية. لكنّ بين الفرعين فروقاً تجعل كلّاً منهما فرعاً ممتازاً عن الآخر. فيظهر أنّ العبرانية كانت لغة الكنعانيين سكان جبال فلسطين والفينيقية لغة السواحل. وقد دلّلتنا آثار هذه اللغة أنها كانت ثلاث لهجات أو فروع: فرع جبيل وهو الأقرب إلى العبرانية، وفرع صيدا وهو الأهمّ والأكثر انتشاراً. ويمكن اعتباره مثلاً لهذه اللغة. ثم الفرع البوني وهو لغة الفينيقيين الذين هاجروا إلى قرطاجنة كما سترى في تاريخهم.

وأما الفرع الثاني العام من اللغات السامية فهو اللغة العربية، وهي ذات فرعين؛ أحدهما الفرع القحطاني أو اليقطاني. والثاني الفرع الاسماعيلي نسبةً إلى اسماعيل ابن ابراهيم من هاجر أمته، فإنّ اسماعيل عاش بين قبيلة جرهم. كما قال ابن خلدون في تاريخه: «وشبّ اسماعيل بينهم (أي بين جرهم الثانية) وتعلّم اللغة العربية منهم، وأعجبهم وزوّجوه امرأة منهم، وماتت أمه هاجر فدفنها في الحجر». ومن جرهم قریش. والحاصل أنّ هذا الفرع المستعمل في كتبنا وبلادنا هو

صحيح، وهو لغة الأمصار من العراق والجزيرة إلى أطراف مراكش، ومن شطوط البحر المتوسط إلى الحجاز واليمن. وقد انتشرت بالمسلمين العرب وهي الآن ذات أربع لهجات خاصة أي لهجة بلاد العرب، ثم لهجة سورية، ثم لهجة مصر، ثم لهجة المغاربة. ولا حاجة إلى القول إن هذه اللغة من أغنى اللغات في أصولها. وإذا عورضت قواعدها النحوية بغيرها من قواعد اللغات السامية ظهر أنها ركن لكتب الأصول في باقي هذه اللغات. وقد أخذت بعض لغات آسيا وأوروبا ألفاظاً كثيرة من العربية. فمنها في اللغات الإيرانية، لاسيما الفارسية، ألفاظ لا يدركها عاذاً. واللغة التركية نحو النصف من ألفاظها عربي، ومنها ألفاظ عديدة في بعض لغات الهند الآن. وفي الإسبانية والبرتغالية كلمات كثيرة أخذت عن العرب مدة اقامتهم في اسبانيا. ولا تخلو الفرنسية عن كلمات منها يعرفها من علم اللغتين. وفي علم الفلك كثير من ألفاظها منها: السميت والدبران والطير وبنات نعش والمغز إلى غيرها. وأما الفرع اليقطاني فيشمل اللغات الميتة التي كانت في بلاد العرب الجنوبية وبعض اللغات الحية الآن في بلاد الحبشة. وحفظت لنا الآثار القديمة بعض فقرات من تلك اللغات الميتة. وقد جمع العالمان أرنو ويوسف ألافي صور كتابات قديمة عديدة بهذه اللغة كانت كافية لمعرفة أصولها. وظهر أن لهذه اللغة أربعة فروع: السباوي أو الحميري، وكان لغة اليمن خاصة، وبها كتبت أكثر الآثار المذكورة، فعرفنا أصولها أكثر من غيرها وهي مثال لباقي الفروع، ثم الفرع الحضرموتي؛ وهو لهجة حضرموت القديمة، والضمائر فيه أشبه بضمائر لغة آشور، والفرع الميناوي - وكان لغة سكان الشمال الشرقي من اليمن، والفرع العقيلي (نسبة إلى عقيل أحد بطون العرب القدماء) وهو لغة مهرة من أعمال اليمن.

عد ٥٠

السنسكريت وفروعها

إن الأصل الثاني العام للغات يُسمى مع فروعها اللغات اليافتية، لأن كل من نطقوا بها من نوع الإنسان الأبيض هم من ذرية يافت. والأصل الذي ترد إليه هذه اللغات يُسمى السنسكريت؛ ومعنى هذا اللفظ عند الهنود: «ما هو كامل بنفسه». فكانهم سموا هذه اللغة كذلك لأن تصاريفها كاملة وكان موطنها الهند. وكانت

اللغة العامة في نحو من عشرين قرناً، ثم أمست لغة العلم والدين هنالك؛ وهي أسّ لمجموع اللغات الهندية الكثيرة الفروع، والتي لا وجه لنا لتبينها، بل حسبنا أن نبين أنّ السنسكريت أصل لفرعين شاملين: الأول الهندي الإيراني، والثاني الهندي الأوروبي. وللإيراني مثالان قديمان: الزند والفارسي. فالزند هو اللغة المكتوبة بها الكتب الدينية المنسوبة لزورواستر واضع دين الفرس القدماء أو مصلّحه. والفارسي نجده في الكتابات المسمارية التي خطّها ملوك الفرس القدماء. واللغة الكردية تقرب كثيراً من هذه اللغة الفارسية، فهي مكسرة عنها ويدخلها كثير من الألفاظ الأجنبية. ومن فروع الإيرانية اللغة الأرمنية ولم يتجد من الآثار ما يكشف لنا عن حالتها القديمة. والمعلوم أنّ القديس مسروب هو الذي وضع أحرف هجائها في القرن الخامس للميلاد عند تنصّر الأرمن. واللهجات بهذه اللغة عديدة.

وأما الفرع الثاني الشامل وهو الهندي الأوروبي فله خمسة فروع وهي: اليوناني، واللاتيني، والسليتي، والجرماني، والسلافي أي الصقلي. ولكلّ منها فروع أيضاً. وكان يُظنّ قبلاً أنّ اليونانية أم اللاتينية، فظهر الآن أنّ الصحيح أنهما أختان حتى يمكن تنزيل اللاتينية منزلة البكر، وهي أم للإيطالية، والإفرنسية، والإسبانية، والبرتغالية، والرومانية. وكان لها في أقدم الأيام فروع كالساينية وغيرها من اللهجات التي استغرقتها سطوة المملكة الرومانية. وأما الفرع اليوناني فقد طرأ عليه تبديلات، وتغيّرات لكنها لم تبعد الفروع عن الأصل بعداً كثيراً. وهذه الفروع هي الأيولياني، والدوري، والأتيكي، والمكدوني. وقد اعتبر كثيرون لغة الألبانيين الآن من فروع لغة البلاسج، وإن دخلها كثير من الكلمات اليونانية والسلافية، وبعض صيغها أقرب إلى السنسكريت منها إلى اليونانية، والفرع السليتي أمسى الآن محصوراً في أعمال قليلة من افرنسة وجزائر بريطانيا. وله فرعان: أحدهما يُسمّى الغالي لغة سكان عمل غال في جزائر بريطانيا، والثاني يُسمّى بروتون وهو لغة بعض سكان شمالي افرنسة، ومن هذا الفرع لغة ايرلندا.

وأما الفرع الجرمني الشامل فله فرعان: الغوتيك أي الغططي (نسبة إلى قبيلة جرمانية أصلاً)، والألماني فالغوتيك لا نعلم منه إلا ما بقي منه على الآثار - ومن جملتها فقر من ترجمة للكتاب المقدّس عُني بها أسقف يُسمّى ولفيلا Vulfila في القرن الرابع للميلاد، ومنه تفرّعت أولاً لغة الدانيمرك وأسوج. ثانياً الفرع المعروف

بأنكلو ساكسون الذي نتجت منه ومن الإفرنسية القديمة اللغة الإنكليزية. ثالثاً
الألماني السافل، وفيه عدة لهجات. وأما الفرع الألماني العام فله عدة فروع منها
اللغة الألمانية، واللغة النمساوية.

وأما الفرع السلافي أو الصقلي الشامل فله فرعان عامان أيضاً؛ السلاف
بالخصوص واللاتيك. والسلاف قسماً أيضاً؛ شرقي وغربي. فمن السلاف الشرقي
اللغة المكتوبة فيها الكتب الطقسية في جميع كنائس الصقالية. ومنذ القرون الوسطى
لم تعد اللغة العامة بين الشعب، وتقرب منها اللغة البلغارية؛ وهي مشتقة من لغة
الصقالية الجنوبيين، أخذها البلغاريون عنهم عند احتلالهم أعمال الدانوب السفلي.
ومن هذا الفرع أيضاً اللغة الروسية، وقد انتشرت كثيراً بامتداد أملاك دولة روسيا.
ثم اللغة التي يتكلم بها السكان بين بحر الأدرياتيك ونهر الدانوب. وأما الفرع
السلافي الغربي فهو لغة أهل بولونيا، وبوهاميا وغيرهما من الفروع غير المشهورة.
والمقاربة بين اللغات السلافية أكثر منها بين فروع لغة أخرى. فمن عرف إحداها
فهم الكلام في باقيها إلا لغة بلغاريا، لأنه طرأ عليها تبديلات وتغييرات في أصولها.
وأما الفرع الثاني المسمى اللاتيك فكان من فروعه لغة قديمة في بروسيا نسختها
الألمانية، ولغة أخرى كان يتكلم بها شعب قرضه البولونيون.

قد أخذنا عن لانرمان (في المجلد الأول من تاريخه) أكثر كلامنا في اللغات
ونختتمه بما اختتم به كلامه، وهو أننا خرجنا بعيداً عن غرضنا في كتابة تاريخ
سورية أو مقدمة له. ولكن إذا تبصّر المطالع بتوفّر الفائدة مما أثينا به أحلّ عذرنا لديه
محلّ القبول والاستحسان.

الفصل الحادي عشر

لمحة في الكتابة

عد ٥١

الكتابة بالصور

مذ أخذ الإنسان يكسب المعارف اللازمة لتقدّمه في مدارج الحضارة، شعر باحتياجه إلى ما يعاون ذاكرته على حفظ تلك المعارف، وإلى ما يبلغ أفكاره ورغائبه إلى غيره إذا تعدّرت عليه المشافهة. وكان له في ذلك وسيلتان؛ الأولى أن يرسم صورة لما يتصوّره ويرغب فيه، والثانية أن يرسم صورة لأصوات كلامه. والصورة في الوسيلة الأولى، إما أن تكون حقيقية ان كان الشيء المرغوب في بيانه مادياً يمكن تصويره وإما أن تكون مجازية دالة في سبيل الكناية والرمز على المقصود. والصورة في الوسيلة الثانية تدلّ إما على الكلمة برمتها أو على بعض حروف هجائها، فكان الناس في بدء نشأتهم وحضارتهم يرسمون صورة لما رأوه أو فكّروا به وأرادوا تذكّره، فينقشونها على حجر أو خشب أو مادة أخرى صلبة. ولما لم يكونوا يحسنون التصوير كانوا يحفرون أو يجسّمون خطوطاً كما تسمح قريحتهم القاصرة لتذكّركم تلك الخطوط ما أرادوا. وقد وُجدت آثار دالة على مثل ذلك في محالّ عديدة؛ فهذا أول طور للكتابة.

ثم تدبّج الناس الأوّلون بحسب حضارتهم إلى التعبير عن أفكارهم برسم صور دالة على مسمياتها بحقيقتها أو مشيرة إلى الغرض بقرينة ما. فإذا أرادوا مثلاً التعبير عن حرب رسموا صور رجال متعاركين وأدوات حرب، أو عن حيوان أو طائر أو شيء آخر مادي صوّروه للدلالة عليه، أو دلّوا بصورته على أمر آخر متعارف عندهم، فكان من ذلك ألغاز لا يحلّها إلا مَنْ عرف اصطلاحاتهم، أو اهتدى إليها

بعض القرائن. من ذلك رسم المصريين صورة رجل ويده إلى فمه كناية عن الأكل. ونجح بعض القبائل بهذا الفن فكان منه ست أنواع؛ هيروغليفية أي تمثل صور أشياء مادية يراد بها معنى الصورة أو شيء منه أو يشير إليه، وأول هذه الأنواع الهيروغليف المصري، ثم العلامات الصينية، ثم المسمارية في بلاد الكلدان، ثم الحثية عند الحثيين في شمالي سورية وفي آسيا الصغرى، ثم المكسيكية عند قدماء المكسيك، ثم الكانوتية في أميركا؛ والأظهر أن كلاً من هذه الإصطلاحات كان مستقلاً لا علاقة له بغيره. وبقي إلى الآن اصطلاحان منها هما: الحثي والأميريكاني لا تُعرف حقيقة مدلولهما. وقد اهتدى سايس إلى كلمتين أو ثلاث من الإصطلاح الحثي.

على أن الإصطلاح على رسم الصور كان قاصراً لا يمكنه أن يؤدي إلا بيان تصورات قليلة العدد ومادية. ويتعذر أن ترسم به التصورات المجردة عن المادة؛ كتصور الفضيلة والعدل وما أشبه من التصورات التي يسميها المنطقيون مجردة. ولذلك ألجأت الحاجة من تقدموا في الحضارة أن يبحثوا عن طريقة أخرى يتيسر بها بيان أفكارهم، فكانت أولى خطاهم جعلهم ما كانوا ينقشونه من الصور دالاً لا على مسميات الصور بل على الهجاء الأول من اسمها أي على اللفظ المصطلح عليه لها. فأصبحت تلك العلامات صوتية بعد أن كانت تصوورية. ولكي تمثل بما يدركه أبناء العرب نقول إن صورة الشمس التي كانت تدل على الشمس في اصطلاحهم الأول جعلوها في اصطلاحهم الثاني تدل على الهجاء الأول من كلمة الشمس، أي الشين مع حركة لها. وصورة الهلال الدالة عليه في اصطلاحهم الأول أصبحت في اصطلاحهم الجديد دالة على حرف الهاء مع حركة له. وكان هذا الإصطلاح الجديد في اللغات ذات الهجاء الواحد لكل كلمة أكثر ملاءمة منه في اللغات المؤلفة كلماتها من تهجيات متعددة. وتقدم تدريجياً الإصطلاح على تصوير التهجيات. إلا إنه ما برح في ذلك صعوبات، وتطويل وحاجة إلى مهارة في صناعة التصوير، واستمرت ألفاظ كثيرة ترسم بصور دالة على تصور. ولذلك استمر عدد العلامات يتصل إلى ألوف، فكان الإصطلاح على تقدمه أخرى أن يكون نوعاً من التصوير من أن يكون كتابة.

أجمع القدماء على أنّ الفينيقيين أوّل من أوجد الكتابة بالحروف. فقد كان منهم جَمّ غفير يقيم في مصر أو يكثر التردد إليها للإتجار. فأخذوا العلامات الصوتيّة من اصطلاح المصريين معترضين بخطوط عن الصور، فوضعوا الإثني عشرين حرفاً هجاء لغتهم، وأخذوا يكتبون بها ما شاءوا من ألفاظها. وعنهم أخذ سائر معاصريهم. فلم يجد العلماء حتى الآن حروف هجاء قبل حروف الفينيقيين. وكل ما وُجد مكتوباً بالحروف على الآثار أو محفوظاً بالاستعمال يرّد عن قرب أو بعد إلى الحروف الفينيقية. وقد عارض كثير من العلماء هذه الحروف بغيرها من حروف جميع اللغات، فتيّن أنّ الأصل هو الفينيقية طرأت عليه تدريجاً تحسينات واختصارات في اللغات الأخرى. وسنبيّن عند كلامنا عن الفينيقيين كيف أوصلوا حروفهم مع بضائعهم إلى الآفاق القاصية من العالم المعروف حيثذ. على أنه لا يعلم في أيّ عصر بالخصوص أوجد الفينيقيون هذا الاختراع الوفير الأهمية ولا شك بأنه كان قبل عصر موسى.

الفصل الثاني عشر

سكان سورية الأولون

عد ٥٣

سكان سورية قبل الطوفان

لا مريّة بأنّ سورية كانت قبل الطوفان أيضاً مأهولة بولد آدم. ولا نعتد في هذا على التقليدات العامية التي روى كثيراً منها الأب مرتين اليسوعي في كتابه «تاريخ لبنان»^(١) الذي نشرت جريدة البشير بعض مقالاته، حيث روى التقليد أنّ الفردوس كان في أنحاء دمشق أو لبنان، وأنّ آدم عاش في سورية، وأنّ مقتل قايين وهابيل كان في صحارى دمشق، وأنّ قبر قايين هناك، وأنّ مدفن هابيل في الجبل الشرقي، وأنّ مدفن نوح في سهول البقاع، وأنّ المدينة الأولى التي بناها قايين في بعلبك، وما أشبه من تقليدات العامة التي ركن إليها بعض الجوّالة. وكذا لا نعتد بما رواه يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ١ فصل ٢) من أنّ بني شيت نصبوا عمودين من حجر ولبن، وكتبوا عليهما ما علموه حتى إذا حصل الطوفان، وغرق عمود اللين يستمرّ عمود الحجر حافظاً للخلف ذكر ما كتبوا. وقال إنهم يؤكّدون بقاء هذا العمود إلى الآن في سورية. وأيضاً لا نعتد في هذا الحكم على أقوال بعض أهل العلم في هذا العصر؛ كقول دي لامرتين بأنّ بعلبك شيدّها الجبابرة قبل الطوفان. فإنّ هذه التقليدات، والآراء على احتمال صحة بعضها لا تصلح أن تكون بيّنة علمية على أنّ سورية كانت مأهولة بولد آدم قبل الطوفان، بل الحجة القاطعة في ذلك هي موقع سورية الطبيعي. فإنّ أخصّ الأقوال في مهد النوع البشريّ وأوجهها وأقربها إلى الصدق أنّ هذا المهد كان في ما بين النهرين، أو في أرمينية كما أبنا (ارجع إلى عد ١٣). ولا جرم أنّ الناس على طول حياتهم قبل الطوفان تكاثروا

(١) صدر عن دار نظير عبود طبعة جديدة.

عديدهم. فالحقة التي هي ١٦٥٦ سنة بحسب النسخة العبرانية أو ٢٢٤٢ سنة بحسب الترجمة السبعينية، كانت فوق ما يكفي لتفرق ذرية آدم وانتشارهم في أصقاع عديدة. ويثبت ذلك تفرق ذرية بني نوح في الآفاق لأقل كثيراً من هذه الحقة. وما بين النهرين متاخم لسورية، ولا يفصل بينهما إلا الفرات غرباً. وأرمينيا أيضاً لا تبعد عن سورية. وليس بين أرمينية وسورية وما بين النهرين بحوراً أو جبال يُستعصى مسلكها، بل سهول خصبة طيبة الهواء جيدة المرعى، تغري القلوب بالانتجاع إليها والتوغل فيها. وعليه فقد كانت سورية بلا مرء مأهولة قبل الطوفان بعدد كثير من الناس لا نعلم من أخبارهم، ولم نفز من قصص أحداثهم إلا بما ذكرناه في الكلام على آدم والآباء الأولين قبل الطوفان.

عد ٥٤

سكان سورية بعد الطوفان

قد مرّ في كلامنا على أنساب موسى أنّ سورية سكنها أولاً الآراميون ولد آرام بن سام بن نوح؛ وكانت مواطنهم في سورية المجوّفة، وما يليها في الجنوب، وفي دمشق وما يليها. وسيجيء في كلامنا على الفينيقيين أنّ مَنْ توطّن من الآراميين في سهول بعلبك وحمص اتصلوا إلى لبنان الشمالي وإلى أنحاء طرابلس، والبترون وجبيل وبيروت أيضاً على قول بعضهم. ثانياً بعض قبائل الجبارة والأظهر أنهم ساميون من أقارب الآراميين؛ ومن هؤلاء الرافائيم أي الرافائيون، وقد ورد ذكرهم في سفر التكوين (فصل ١٤ عد ٥) بين القبائل التي ضربها كدرا لعومر ملك عيلام. وكانوا يسكنون ما وراء الأردن في بلاد باسان ثم الزوزيم أي الزوزيون. وجاء ذكرهم هناك وفي سفر تثنية الاشتراع (فصل ٢ عد ٢٠) وكانوا يسكنون في عبر الأردن أيضاً في الأرض التي سكنها بعداً العمونيون، إذ جاء في الآية المارّ ذكرها من التثنية؛ أنّ هذه الأرض «تحسب من أرض الجبارة لأنّ الجبارة أقاموا بها قبلاً والعمونيون يسمونهم زمزميين». ثم الإيميون قد جاء ذكرهم في سفر التكوين والتثنية (في الفصلين المذكورين)، وكانوا يسكنون في شرقي البحر الميت في الأرض التي سكنها بعدهم الموآبيون، إذ قال موسى في سفر التثنية في هذه الأرض: «وكان الإيميون قد أقاموا بها قبلاً، وهم شعب كثير طوال القامات كالعناقين... والموآبيون يسمونهم إيميين»، ثم بنو عناق ويظهر أنهم المستمون نيفيليم أي الجبارة، وكانت مساكنهم في قرية أربع وهي حبرون في أيام ابراهيم، والحليل في أيامنا، ثم اليفيم

وكانوا يسكنون السهول الواقعة في الجنوب الغربي من فلسطين إلى غزة - ويظهر أنهم العويون الذين قال فيهم موسى (تثنية ف ٢ عد ٢٣): «العويون المقيمون بالقرى إلى غزة أبادهم الكفتوريون الخارجون من كفتور وأقاموا مكانهم». ويظهر أنّ هذه القبائل توطّنت في سورية قبل أن يصلها الكنعانيون. ثالثاً الكنعانيون وقد سكنوا شمالي سورية إلى حماه ثم بعض الشطوط البحرية، والبلاد التي سُمّيت بعد ذلك فلسطين. وقد مرّ بك ذكر المواضع التي أقامت فيها كل فصيلة منهم (ارجع إلى عد ٣٨). رابعاً العبرانيون وأولهم في جنوبي سورية ابراهيم الخليل وابن أخيه لوط. خامساً شعبان أصلهما لوط من بنتيه وهما الموابيون، وكانت بلادهم في الشرق من البحر الميت، والعمونيون وكانت مساكنهم في عبر الأردن كما مرّ آنفاً. سادساً ذرية اسماعيل بن ابراهيم ولكن أكثر هؤلاء من سكان بلاد العرب. سابعاً المدينيون ذرية مدين بن ابراهيم من قيطورا ويحسبون من سكان بلاد العرب. ثامناً الأدوميون ذرية أدوم وهو عيسو بن اسحق وكانت مساكنهم في جبل سعين في جنوب سورية وشمال بلاد العرب. وكان الحوريون يسكنون قبلهم هذا الجبل فطردهم منه الأدوميون كما في سفر التثنية (فصل ٢ عد ١٢). تاسعاً الفلسطينيون وكانت مساكنهم البلاد التي سُمّيت باسمهم وقد أتوا إليها من اكريت، وغيرها من الجزر ومن آسيا الصغرى بعد أن أسره المصريون وأحلّوهم في فلسطين. وأصلهم يافتيّ أو حاميّ على أحد القولين. وسوف ترى تفصيل أخبارهم في الكلام على بني إسرائيل. عاشراً السامريون وقد جلاهم ملوك آشور من بلاد الكلدان إلى السامرة وأنحائها بعد جلائهم الإسرائيليين إلى بابل.

فهذه أخصّ القبائل التي سكنت سورية إلى عهد اسكندر الكبير. وأن نتكلّم في كل منها على حدة أمر طويل المجال رابك موجب لاعادات يمكن تنكّبها. وأن نتكلّم في سورية كأنها مملكة ينافيه انقسامها في تلك الأعصر إلى ممالك عديدة. ولذلك آثرنا أن نقصر كلامنا على أشهر قبائلها، فنضع مقالة في الحثيين سكان شمالي سورية، ومقالة أخرى في الفينيقيين سكان وسطها، وأخرى في العبرانيين سكان جنوبيها الذين انتشروا بعداً في أكثر أرجائها. ونضمن تاريخ باقي القبائل في المقالات الثلاث، ونضع فهرستاً هجائياً في آخر هذا الكتاب يتبيّن منه تاريخ كل قبيلة في سورية، وكل مملكة ومدينة فيها إلى أيام اسكندر الكبير المكدوني، فيكون ذلك وافياً بالمقصود ومصيباً الغرض على ما رأينا. وعلى الله الإتكال في كل حال.

مقالة في الحثيين

الفصل الأول

أصل الحثيين وموطنهم وما يظهر من تاريخهم

في الكتاب المقدس

عد ٥٥

الحثيون الجنوبيون

قد رأيت في المقالة السابقة أنّ كنعان هو الرابع من أبناء حام، وأنه وُلد له أحد عشر ابناً أوّلهم صيدون، وثانيهم حث إلى سائر آباء الفصائل الكنعانية. وعليه فأصل الحثيين حث بن كنعان بن حام بن نوح. وبعد أن هاجر الكنعانيون إلى سورية وجدنا لولد حث بطنين أو فصيلتين، سكنت إحداهما وادي ممرا، وحبرون (الخليل الآن) في جنوبي سورية. والأخرى بين الفرات والعاصي في شماليها. وكان الحثيون في حبرون قبل أن يأتيها ابراهيم بشاهد أنه عند وفاة سارة امرأته «كَلَّمَ بني حث قائلاً: أنا غريب ونزيل عندكم اعطوني ملك قبر عندكم فأدفن ميتي»، (تكوين فصل ٢٣ عد ٤). فابتاع من عفرون الحثي مغارة المكفيلة أي المغارة المضاعفة، وما بجانبها من الحقل. فكانت مدفناً لسارة وله، ولاسحق ابنه ويعقوب حفيده. ويظهر أنّ هؤلاء الحثيين كانوا يؤثرون حينئذ التجارة، وامتلاك

الحقول على الحرب والغزو، لأننا نرى الكتاب ذكر أنهم وزنوا أربعماية المثلقال من الفضة التي دفعها ابراهيم لعفرون. ولم يذكر أنّ ابراهيم استنجدهم عند محاربته كدرا لا عومر بل استجار بالآموريين. وقد وفرت العلائق بين الحثيين والعبرانيين. فإننا نقرأ في سفر التكوين (فصل ٢٦ عد ٣٤): «ولما صار عيسو ابن أربعين سنة اتخذ يهوديت بنت بعري الحثي وبسمة بنت ايلون الحثي امرأتين له». ويظهر أنّ أطوار الحثيين وآدابهم كانت تخالف آداب العبرانيين، لأننا نرى رفقة تقول لاسحق: «قد سئمت حياتي من أجل ابنتي حث اللتين (تزوّج بهما عيسو). فإن تزوّج يعقوب (ابني) بامرأة من بنات حث مثل هاتين أو بنات سائر هذه الأرض فما لي والحياة» (تكوين فصل ٢٧ عد ٤٦).

ويظهر أنّ فصيلة الحثيين هذه كانت أمست قليلة العدد واهية القوة، يسطو عليها جيرانها فتلجأ إلى الفرار وتبديل منازلها؛ لأننا لا نرى لهم أثراً ولا عيناً في حبرون وما جاورها من البلاد عند عود بني إسرائيل من مصر، وغزو يشوع بن نون فلسطين، بل نرى مكانهم في حبرون بني عناق. فالظاهر أنّ الحثيين كانوا استحوذوا على حبرون في زمان غير معلوم قبل ابراهيم، طاردين منها سكانها القدماء بني أربع إذ كانت تُسمّى قرية أربع باسم أول من بناها وهو أربع أبو عناق أصل العناقين. فاستردّ هؤلاء مدينتهم واستمرت في حوزتهم إلى أن افتتحها يشوع بن نون، وخصّ بها كالب بن يوفثا من سبط يهوذا. فقد جاء في سفر يشوع (فصل ١١ عد ٢١): أنه «جاء في ذلك الوقت وقرض العناقين من الجبل من حبرون». ثم قال (فصل ١٤ عد ١٣): «وأعطى حبرون لكالب بن يوفثا ميراثاً». وقد أقام الحثيون بعد طردهم من حبرون في الجبل والمراد به جبل افرائيم على الأظهر. فقد ورد ذكر الحثيين في أسفار الخروج والعدد، وتثنية الاشتراع مع الجرجاشيين والآموريين، واليابوسيين وسائر فصائل الكنعانيين. وفي سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٩) تفصيل أكثر حيث قيل إنّ جواسيس موسى قالوا عند عودهم إليه: «رأينا ثم أيضاً بني عناق العمالقة مقيمون بأرض الجنوب، والحثيون واليبوسيون والآموريون مقيمون بالجبل، والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى عدوة الأردن».

وكان الحثيون من جملة الكنعانيين الذين تألبوا على يشوع بن نون، فبدّد شمل

المتألمين في جبعون في جنوب فلسطين، ثم في شمالها عند بحيرة الحولة كما سترى في تاريخ العبرانيين. ويستدل من قول حزقيال (فصل ١٦ عد ٣) في أورشليم «أبوك أموري وأمك حثية»، أنّ الحثيين شاركوا الآموريين واليابوسيين في بناء أورشليم. والظاهر من الكتاب أنّ الحثيين لم يقرضهم بنو إسرائيل بل بقيت في فلسطين منهم بقايا، إذ جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١١) أنّ أوريا أحد قواد عساكر داود كان حثياً، وقتل بأمر داود فتزوّج الملك بامرأته بتشيع فولدت له سليمان. فكانت جدة بعيدة للمخلص. قال سايس إنّ نسبة أوريا هذا إلى حثيي حبرون حيث ملك داود سبع سنين أولى منها إلى الحثيين الشماليين. وأنبأنا سفر الملوك الثالث (فصل ١١) أنه كان بين نساء سليمان العديداً نساء حثيات. ولا يمكن القطع بأنهنّ من الحثيين الجنوبيين أو الشماليين. والراجع أنهنّ من الفصيلة الشمالية، إذ كان لها ملوك وكان بينهم وبين سليمان علاقات وداود وتجارة منها استجلا بهنّ لهم الخيل من مصر كما في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٨) هذا في الحثيين الجنوبيين.

عد ٥٦

الحثيون الشماليون

أما الحثيون الشماليون فالأرجح أنهم والجنوبيون من أصل واحد هو حث بن كنعان. وكانت منازلهم أولاً في جبل أمانوس المعروف الآن باللكام. ثم انتشروا بمرور الأيام من الفرات إلى حماه وحمص، ومن دمشق وبرة تدمر إلى الكبادوك. وقد جاء في سفر يشوع بن نون (فصل ١ عد ٣) أنّ الربّ قال له: «قم فاعبر هذا الأردن أنت وجميع هؤلاء الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لبني إسرائيل... من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير الذي في جهات مغارب الشمس تكون تخومكم». وكانت هذه الآية من معضلات الكتاب على مفسّريه لإطلاقها اسم أرض الحثيين على أرض الموعد كلها. ومن المستغرب أن يكون الحثيون سكان حبرون القدماء تغلبوا على كل هذه البلاد حتى نسبها الكتاب إليهم. ولذلك قال بعض المفسّرين إنّ اسم الحثيين هنا بدل من اسم الكنعانيين. وقال آخرون إن هذا إلا غلط ركه النسخ وقد أغفلت بعض نسخ

الترجمة السبعينية ذكر الحثيين في هذه الآية، على أنَّ الاكتشافات الحديثة جلت لنا مدلول هذا النص، إذ أعلمتنا الآثار المصرية ما كان حينئذٍ للحثيين الشماليين من الصولة والسودد في سورية كلّها، لأنهم كانوا قبل عهد يشوع قد حاربوا رعمسيس الثاني فرعون مصر مترئسين على الكنعانيين وسائر شعوب سورية كما سترى. وعليه فحقّق لكاتب سفر يشوع أن يسمّى وقتئذٍ أرض الموعد أرض الحثيين.

وقد جاء في سفر القضاة (فصل ١ عد ٢٣ وما يليه) أنَّ آل يوسف أرسلوا جواسيس إلى بيت إيل وكان اسمها قبلاً لوز، فدلّهم رجل منها على مدخل المدينة، فضربوا أهلها بحدّ السيف، وأطلقوا الرجل وعشيرته فانطلق إلى أرض الحثيين وبنى مدينة وسمّاها لوز وهو اسمها إلى اليوم. وقد اعتاصت هذه الآية أيضاً على المفسّرين خاصّة لعدم علمهم بأعمال تُعرف في تلك الأيام بأرض الحثيين. فذكر أوسابوس مدينة باسم لوز على بعد تسعة أميال عن نابلس. وظنّ بعضهم أنَّ لوز الجديدة كانت في قبرص لتسميتها كيتيم أو حيتيم كأنّ المراد بلاد الحثيين. وغيرهم ظنّ أنها كانت في بلاد العرب حيث مدينة تُسمّى ليزا أو لوزا. وأما بعد أن دلّتنا الاكتشافات الحديثة على بلاد الحثيين في سورية الشمالية فيرجّح أنَّ لوز الجديدة كانت هناك.

وفي سفر الملوك الثاني (فصل ٢٤ عد ٥ وما يليه) أنَّ داود أراد أن يحصي الشعب فأرسل يواب قائد جيشه وغيره من الرؤساء يجولون في البلاد ويحصون الشعب. فعبروا الأردن ونزلوا بعروعر (عراعر الآن في شرقي البحر الميت)، وأتوا إلى جلعاد (السلط) «إلى الأرض السفلى في حدشي»، ثم أتوا إلى دان (بانياس)، ثم إلى صيدون (صيدا)، وإلى حصن صور، ثم خرجوا إلى جنوبي يهوذا إلى بئر سبع (في الطرف الجنوبي من أرض الموعد). انتهى كلام الكتاب.

فطريق هؤلاء معلوم وتخطيطه سهل. فإنهم اجتازوا الأردن، وتجوّلوا في شرقيه حتى انتهوا إلى بانياس في الشمال قرب منبع الأردن، ثم انحدروا غرباً إلى صيدا وصور وعادوا جنوباً إلى فلسطين. ولا غموض إلا في قوله: الأرض السفلى في حدشي. وفي العبرانية «ارز تحتيم حدسي» أو حدشي. وقد كاد مفسّرو الكتاب يأسون من تفسير هذه الكلمات وتعيين المحل المحكى عنه فيها، حتى قال العالم كايل سنة ١٨٦٤م (في كلامه في سفر صمويل) إنَّ بيان المراد بها ضرب من

المستحيل. على أن ما كان كايل يحسبه من أمد قريب مستحيلاً لم يبق الآن كذلك، لأن أرض تحتيم هي أرض حثيم أي أرض الحثيين، والفضل بهذا أيضاً للاكتشافات الحديثة. فإن قرائن كلام الكتاب تدل على أن هذا الحل يلزم أن يكون في شمالي فلسطين. وقد حققت الاكتشافات أن شمالي فلسطين أرض الحثيين الشماليين. وقد أنبأنا الكتاب (ملوك ٢ فصل ٨ عد ٩) أن توعي ملك حماه خضع لداود، ويظهر أنه كان حثياً. والحثيون المقيمون في قادس كانوا في جنوبي حماه وشمالي فلسطين. فإذا تحرير معنى الآية أن وفد داود أتوا أرض الحثيين في قادس أو أرض حثيي قادس، وما هذا مجرد تقدير وحسب بل حقيقة مثبتة بما يأتي. فقد روت بعض نسخ السبعينية الآية هكذا: «وأتوا إلى جلعاد وأرض حثيي قادس». وطبعت الآية كذلك في جامعة نسخ الكتاب التي نشرها الكردينال سيمانس المعروفة بالكمبلوتية وفي جامعة لجاي الباريسية وفي جامعة انفر. ثم ليس بين كلمتي تحتيم وهتيم في العبرانية إلا إبدال الهاء بالتاء. وصورة الحرف الواحد تقرب كثيراً من صورة الآخر في هذه اللغة. ولم تكن فيها حيثئذ حركات. ولم يكن النسخ يعرفون إلا حثيي الجنوب، فتصحفت عليهم الهاء بالتاء للمقاربة بين صورتيهما، فكتبوا ادز تحتيم التي ترجمت الأرض السفلى بدلاً من ارز هتيم أرض الحثيين. ومثل ذلك قال في كلمة حدشي فهي قدسي أو قدشي أي قادس مدينة الحثيين الشهيرة وسيأتي الكلام فيها.

قد جاء ذكر الحثيين الشماليين على عهد سليمان أيضاً. ففي سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٩) أن تجار هذا الملك كانوا يشترون له الخيل من مصر «ويجلبون على يدهم لجميع ملوك الحثيين وملوك آرام». ولا جرم أن ملوك الحثيين هؤلاء لم يكونوا في فلسطين التي استقل سليمان في ملكها. وكان «يسخر الشعب الذين بقوا من الآموريين والحثيين الجنوبيين وغيرهم من فصائل الكنعانيين في ما بينيه من المدن والحصون (ملوك ٣ فصل ٩ عد ٢٠) بل كانوا ملوك الحثيين الشماليين الذين كانوا بسطوا ولاياتهم في سورية الشمالية وأعمال آسيا الصغرى. ويظهر من الآثار المصرية أنه لم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك، فجاء ذلك مصداقاً لقول الكتاب: «جميع ملوك الحثيين». وكان من رأي بعض المفسرين قبل الاكتشافات الحديثة أن اسم الحثيين في الآية بدل من اسم الكنعانيين. فظهر الآن بطلان ما وهموا.

وجاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٧ عد ٦) أنّ الآراميين بينما هم يشدون الحصار على السامرة في أيام يورام بن أحاب، أسمعهم الرب أصوات مراكب وخيول وعسكر عظيم. فقال كلُّ منهم لصاحبه: «هوذا ملك إسرائيل قد استجار علينا ملوك الحثّيين، وملوك المصريين ليأتوا علينا فقاموا وهربوا». وكانت هذه الآية أيضاً قبل بضع سنين لغزاً يستعصي حلّه، حتى زعم بعض أهل العلم أنه لا يمكن التصديق بها على ظاهر حروفها، إذ لا يتصوّر أنّ ملك الحثّيين الضعيف يروّع ملك آرام القدير، أو يتهيّأ له أن يحالف فرعون مصر. قال سايس (في كتابه في الحثّيين): تعقّب أحد علماء هذا العصر كاتب السفر المقدّس قائلاً إنّما الحليف الطبيعي للملك إسرائيل هو ملك يهوذا. فلم يأتِ الكاتب بذكره بل بدله بالحثّيين الخاملين الذكّر؛ وهذا مشعر بجهله تاريخ عصره. فلا صدق لروايته. وردّ سايس على المنّدد سهام قدحه مبيناً أنه الأولى بالانتساب إلى الجهل، وأنّ الاكتشافات الحديثة أثبتت أنّ الحثّيين الشماليين كانوا حينئذ دولة أقوى من ملك يهوذا. وكانوا حلفاء مصر ويعادلونها قوة وبأساً. انتهى ملخصاً عن كتاب الأب فيكورو المسمّى مباحث متشوّرة كتابية Melanges Bibliques مع زيادات عليه.

عد ٥٧

أصل الحثّيين بالخصوص

بقي علينا أن ننظر في أصل الحثّيين، أمن أصل واحد هم أمن من أصلين؟ رأى جمهور العلماء أنّ للفصيلتين أصلاً واحداً هو حث بن كنعان كما مرّ. لكنّ لانرمان بعد أن تابع رأي الجمهور هذا في المجلد الأوّل من تاريخه (صفحة ٢٧٣ طبعة ٩ عاد في المجلد الثاني صفحة ٢٢٠) يقول إنّ الحثّيين الشماليين ليسوا من ولد سام ولا من ولد حام، بل هم من ولد يافت. وعليه فلا قرى بين الجنوبيين والشماليين، بل بين الشعبين مشابهة الاسم ليس إلّا. وأسند ذلك إلى اختلاف بينهما من قبيل اللغة والهيئة الطبيعية. على أنّ لغة الحثّيين الشماليين، موضوع البحث حتى الآن بين العلماء، فلا تصلح أن تكون حجة حتى لو ثبت أنها تخالف لغة الشماليين لم يكن ذلك حجة، أيضاً. فعلاقة اللغة بالمسكن أكثر منها بالأصل. فلغات قدماء سورية كلّهم ساميّة مع أنهم من أصلين: سام وحام. وكذا قل في

الهيئة الطبيعية فلم يثبت حتى الآن اختلاف فصيلتي الحثيين هيئة. وهب ثبت فلا يثبت شيئاً كما ستري في كلامنا في الملوك الرعاة وخاصة لأنّ الفريقين من نوع واحد هو الأيبيض. قال الأب فيكورو (في كتابه مباحث منشورة صفحة ٣٣٠ طبعة ٢) إنه يسلم بأن أصل فصيلتي الحثيين واحد وأنهم من ذرية واحدة، لأنّ الكتاب لم يفرق بينهما. ولكن بما أنّ الكتاب لم يصريح بأنهما أولاد أب واحد فتبقى القريبى بينهما موضوعاً لبحث العلماء.

قد صرّح الأب قيصر دي كارا اليسوعي (في كتابه الملوك الرعاة Hyksos Gli فصل ١٠) بأنّ الحثيين حاميتون لا ساميتون وبأنّ فصيلتيهم الجنوبية والشمالية استوت فيها الهيئة الطبيعية. وكانت صناعة الحرب وأنواع الأسلحة والملابس واحدة عندهما. وروى ما كان من الخلاف بين سايس Sayce وهلافي Halévy في أصل الحثيين، فقال سايس إنّ الحثيين غير ساميين مسنداً إلى اسماء كثيرة جمعها وهي أعلام رجال وشعوب ومدن حثية. وليس فيها ما يشعر بأنها سامية. وقال هلافي إنّ الحثيين ساميتون لأنّ أكثر الاسماء نفسها التي جمعها سايس سامي وباقها لا يختصّ بالحثيين بل بغيرهم من الشعوب. فقال دي كارا: خلط العالمان مسألة الأصل بمسألة اللغة. وعندي أنه لم يُصب أحد منهما، ولم يُخطئ أحد منهما. فقد يكون أحد الشعوب حامياً ولغته سامية اكتسبها من محل سكناه، فلا تدلّ اللغة على الأصل إلا أن يصحبها أدلة أخرى. فالحثيون حاميتون أصلاً لا ساميتون سواء كانت لغتهم سامية أم حامية. كل هذا من كلام دي كارا. وقد رجّح أنّ لغة الحثيين حامية أكتسبتها المجاورة للساميين والتجارة معهم ألفاظاً وجمللاً وأصولاً نحوية سامية. وقد تكون اللغة المكتوبة بها الآثار غير لغة الشعب العامة. كما اعتاد سكان ايطالية مثلاً، أن يكتبوا آثارهم باللاتينية لا بلغة عامة الشعب الايطالية.

زعم شباس (في كتابه سفر مصري الخ.)^(١) سنداً إلى مثل هذا البرهان اللغوي أنّ الكاتاس أو الحاتاس الوارد ذكرهم في الآثار المصرية غير الحثيين الذين ذكرهم الكتاب مدّعياً أنّ أعلام الحثيين الواردة في الكتاب من اسماء رجال ونساء ومدن إنما هي سامية أي عبرانية. والاسماء الواردة في الآثار المصرية ليست من هذه اللغة في شيء ولا تقرب منها. فردّ العالم ليابلان Lieblein اعتراضات شباس في خطبة ألقاها في مجتمع العلماء بأمور المشرق في بطرسبورج سنة ١٨٧٦ م. وقال الأب

فيكورو (في كتاب المباحث المذكور صفحة ٣٣٢) لو سلّمنا بصحة برهان شباس لما نتج عنه أنّ الحاتاس الذين ذكرتهم الآثار المصرية غير الحثيين الشماليين الذين ذكرهم الكتاب، بل جلّ ما ينتج من ذلك أنّ الحثيين الشماليين والحثيين الجنوبيين لم تكن لهم لغة واحدة». وقال هناك أيضاً أجمع العلماء بالآثار المصرية أنّ الحاتاس في هذه الآثار هم الحثيون الوارد ذكرهم في الكتاب، ولا أقل من أن يكونوا الشماليين. وما أحسن وما أقوى برهان الأب دي كارا حيث قال (في المحل الماز ذكره) إنّ الآثار المصرية على عهد ساتي الأول ورعمسيس الثاني أعلمتنا بقبيلة سمّتها كاتاس أو حاتاس، ووصفتها بأنها كانت محبّة للحرب ممتدة في شمالي سورية وفي أرض الحثيين التي ذكرها يشوع بن نون، وقد حاربها هذان الملكان وغيرهما من فراعنة مصر، فكيف يمكن أن يكون في بلاد واحدة وفي وقت واحد قبيلتان مختلفتان مع أنّ اسم الواحدة لا يزيد على اسم الأخرى إلا حرفاً واحداً. فحثيو الكتاب إذاً هم الحاتاس أو الكاتاس الوارد ذكرهم في الآثار المصرية وهم الحثي أو الحتا الوارد ذكرهم في الآثار المسمارية.

الفصل الثاني

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار القديمة

عد ٥٨

مصادر تاريخ الحثيين

قد رأيت أنّ ما جاء في الكتاب المقدّس من تاريخ الحثيين قليل غير وافٍ، لأنّ غرض كتابة الأسفار المقدّسة ديني وروحي لم يتخطا تاريخ شعب الله إلا في ما كان له علاقة بهذا التاريخ المقدّس. وقد قلّت علائق اليهود مع الحثيين ولم يذكر المؤرّخون القدماء من تاريخهم إلا نزراً يسيراً، ولم تكن الآثار المصرية والمسمارية إلا

طلاسّم تُخفيت رموزها واستعصت معميّاتها على الحلّ إلى أواسط هذا القرن. ولذلك كان تاريخ الحثّين ميتاً مدفوناً قد انبعث من أمد قريب؛ فهو حديث النشأة وقد أخذ يشبّ وينمو ويتقدّم سنة فسنة بل شهراً فشهرًا أو ما يرح الأمل معقوداً يبلوغه الكمال خاصّة متى فتح الله باب الكشف عن اصطلاح علاماتهم الكتابية الذي ما زال مغلقاً إلى اليوم، ولكن يُرجى فتحه من شهر إلى آخر. وما عُرف إلى الآن من تاريخهم كان له ثلاثة مصادر:

الأوّل: الآثار المصرية الهيروكليفية؛ فمنها علمنا ما كان للحثّين مع دول مصر من حرب وصلاح، وأين كانت مساكنهم، وما كانت قوتهم وسطوتهم، وأيّ المعبودات عبدوا إلى غير ذلك من تاريخهم.

والثاني: الآثار الكلدانية المسمارية؛ ومنها تبينّ لنا ما كان لهم مع ملوك نينوى وآشور من الحروب والمغالبات، وما أفضت إليه هذه الحروب وأين كانت مدنهم وحصونهم إلى غير ذلك.

والثالث: آثار الحثّين أنفسهم؛ فقد دلّتنا (وهي بكما لا نستوضح إلى اليوم ما كتب فوقها) على مستعمراتهم وجالياتهم وصنائعهم، وكشفت لنا عن نوع بناياتهم وأسلحتهم وملابسهم إلى غير ذلك مما ستره في كلامنا الآتي.

قد أنبأنا فرنسيس لانرمان (مجلد ١ من تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٣٠ طبعة ٩) كيف اهتدى إلى الآثار الحثّية ومتى كان ذلك. فقال ما ملخصه أنّ جوّالة إنكليزيّاً اسمه بوركرد Burckhardt مرّ في حماه سنة ١٨١٢م فأبصر على جدار أرقّتها خطوطاً قديمة هيروغليفية تختلف عما يشاهد في الآثار المصرية فعلق ذلك بين أخبار رحلته. فلم يكن لصوته صدى يوقظ أهل العلم بالآثار القديمة أو يحمل المجتهدين والجوّالين على التنقيب في هذا الأثر، إلى أن زار حماه جوّالان أميركانيان وهما جونسون Johnson وجاسوب Jessup فغنيا بنسخ تلك الخطوط التي كان بوكرد أشار إليها، واكتشفا خطوطاً أخرى فنسخاها أيضاً. فتنبّه العلماء إلى أهمية هذه الخطوط، وكلّفت لجنة الاكتشاف في فلسطين العالم شارل دراك Charles Drak بالتنقيب عن هذه الآثار في حماه، واعتقبه العالم وريت Wright أحد أعضاء جمعية الرسائل الإنكليزية فتنبّه له بمساعدة صبحي باشا والي سورية حينئذ، أن يأخذ من حماه خمس كتابات ذات أهمية، وهي محفوظة الآن في

متحف الآستانة العلية. ثم أخذ العلماء في التنقيب عن أمثال هذه الآثار فعثروا على كثير منها في حماه وحمص وحلب ومرعش وكركميش (ايرابوليس الآن)، وفي الكبادوك ومحالٍ أخرى عديدة في آسيا الصغرى، سنأتي على بيان كثير منها. وقد برع بالعلم بهذه الآثار سايس ودريكت وباروت Perrot وغيرهم، ستمرّ بك أسماؤهم وتغنم بمطالعة بعض أقوالهم في كلامنا الآتي حيث نفرد لكل من مصادر تاريخ الحثيين الثلاثة فصلاً مخصوصاً.

الفصل الثالث

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار المصرية

عد ٥٩

هيئة الحثيين ونوع حكومتهم وبسطة ملكهم

تُرى في الآثار المصرية صور عديدة تمثل كثيرين من الحثيين الشماليين، وهيئة وجوههم الطبيعية أقرب إلى الروتانو، (كذا تسمي الآثار المصرية شعباً كان يسكن سورية الشمالية قبل الحثيين أو في جانبهم)، منها إلى سكان فلسطين، ولون وجوههم أبيض ضارب إلى الحمرة، فيمتازون عن العمور (يُراد بهم في هذه الآثار الساميون) الذين لون وجوههم مائل إلى الصفرة. ولا يطلق الحثيون لحاهم خلافاً للساميين بل يحلقون لحاهم وشواربهم وشعور رؤوسهم، ويتركون في أعلاها ناصية. وشعورهم سوداء، ولباسهم قميص مستطيل يتصل إلى العقب، وصورتهم الآثار المصرية خفاة كأنه للدلالة على أسرهم وذلهم، لكن آثارهم في أوطانهم، تُصور أحذيتهم معكفة أو معطفة إلى ما فوق كما كانت الأحذية في القرون الوسطى، وبقي شيء منها في بلادنا إلى عهد قريب. ويُرى في صورة أحد الحثيين في مدينة أبو حلقة مدورة في أذنيه، فكأن رجالهم كانوا يتحلّون بهذه الحلى.

وكانت حكومة الحثيين ملكية يتخلف فيهم الملك للآخر بحق الإرث. وكان الملك يلقب بلغتهم بكلمة سار أو سيرا على ما يظهر من أسماء ملوكهم. وكان لهذا الملك ولاية على ملوك آخرين، أو أقيال منهم يعدّون العساكر تحت إمرته إبان الحرب. وكانت أهمّ أشغالهم الحرب والتجارة. وكانوا يكثرون من الخيول كسائر سكان السهول. وقد مرّ نقلاً عن سفر الملوك الثالث أنّ تجّار سليمان كانوا يجلبون لهم الخيل. فجاءت الآثار المصرية مصداقاً لآية الكتاب. وكانت معظم قوّتهم الحريّة في الخيل والمركبات. وكانت جيوشهم ذوي بسالة في الحرب محتّكين في القتال، يتوفّر فيهم الإنقياد لقوّادهم، منقسمين إلى فرسان ورجالة. وكان الفرسان يحاربون في المركبات أيضاً، ومركباتهم خفيفة صغيرة تدور على دولابين فقط ويجرّها فرسان وتقلّ ثلاثة رجال سائقاً ومقاتلين. ففي آثار مصر صور عديدة لمركباتهم هذه.

وأوّل محلّ احتلّوه أودية جبل أمانوس (اللكام). ثم أخذوا يسيطون ولايتهم شيئاً فشيئاً نحو الشرق، والجنوب حتى اتصلوا شرقاً إلى الفرات، فاستحوذوا على كركميش، وغرباً إلى وادي العاصي، فاستولوا على حماه ثم على قادس في جانب حمص. ثم غالبوا الآراميين على دمشق نفسها فحكموا فيها مدة ومدّوا استيلائهم في وقت غير معلوم إلى الشمال والشمال الغربي، حتى ضبطوا آسيا الصغرى كلّها، كما تبين آثارهم الباقية هناك، وسنأتي على ذكرها. وقد شهدت لهم الآثار المصرية بذلك بإحصائها شعوب هذه البلاد أبداً بين محالفي الحثيين ومنجديهم. ويحتمل أن يكونوا الكيتيوا الذين ذكرهم أوميروس الشاعر اليوناني في أشعاره. وأمنع حصونهم في الجنوب مدينة قادس التي طارت شهرتها بحروبهم مع المصريين. ولما كان ذكرها قليل الورد في هذه المقالة رأينا أن نبسط الكلام فيها.

عد ٦٠

قادس مدينة الحثيين

إنّ اسم قادس هذه نفسه كان مجهولاً قبل الكشف عن الكنوز الهيروكليفيه عما قريب. وأما الآن فكلّ من له إلمام بالآثار المصريّة يعلم أنها كانت في بيرة حمص. فقد كثر ذكرها في هذه الآثار بل حفظت لنا صورتها ومناظرها في أطلال

هياكل مصر. ومن جملتها صورة ناتئة على جدار هيكل الأقصر، مثل فيها حصار رعمسيس الثاني لهذه المدينة (انظر الصورة السادسة تر حصن قادس في جزيرة تحيطها أمواه العاصي وحامية الحثين على أسوار الحصن. وترى يميناً فريقياً من الحرس خارجاً من الحصن يهاجم العدو، ويسرّة رجالاً يُعنون بإنقاذ قائد غرق في النهر. وفي أسفل الصورة فرسان الحثين يميناً وفرسان المصريين يسرة).

وفي مصر أيضاً في الكرنك صورة أخرى ناتئة من عهد الفرعون ساتي الأول، تمثل حصار عساكر مصر لقادس. ولا شك بأنّ البحيرة التي صوّرها مصوّرو رعمسيس الثاني هي التي زارها روينسون عام ١٨٥٦م وأطال الكلام فيها. وهاك ما كتب هذا الجوّالة الأميركاني الشهير: «يتكوّن من نهر العاصي على بعد من نحو ثلاث ساعات من ربله نحو الشمال بحيرة تُسمّى بحيرة قادس، وبحيرة حمص طولها مسافة ساعتين وعرضها مسافة ساعة واحدة، وطرفها الشمالي يبعد عن حمص مسافة ساعتين، وأكثر أجزاء البحيرة (حتى لا نقول كلها) صناعية. فهي مؤلفة من سدّ قديم يعترض جريان ماء النهر. وطول هذا السدّ من أربعماية إلى خمسمائة يرد وعلوّه لا يتجاوز الأربع عشرة قدماً. وعلى طرفه الشمالي الغربي برج صغير وفي جهته الشمالية جزيرة صغيرة وتل... وذكر أبو الفدا هذه البحيرة وسمّاها بحيرة قادس، واعتبرها صناعيّة لأنه لو هُدم السدّ لجرى الماء ولم تبقَ ثمّ بحيرة بل نهر. وكانت العامّة على عهد أبي الفدا تنسب هذه البحيرة الصناعية إلى اسكندر الكبير». والصحيح أنها قبله قرونًا. ولا بدّ إن كانت مدينة قادس على جانب هذه البحيرة كما حقّق كثير من أهل العلم، ومنهم أخيراً الأب جوليان اليسوعيّ في تذكّرة تطوافه في سورية المجلّدة سنة ١٨٩٠م التي طُبعت في المجلة المعنونة الدروس الدينية الفلسفية التاريخية في شهر حزيران من السنة المذكورة. فموقع قادس في المحل المذكور كان يجعلها حصناً منيعاً، يوقف العدو عن مسيره في الشمال في سهول حمص وحماه. ولذلك كثر عدد الوقائع هنالك كما سترى في هذه المقالة وما يليها.

أما الكتاب فذكر عدّة مدن باسم قادس. فمنها: قادس برنع في العربية لإحدى محطات بني إسرائيل في طريقهم من مصر إلى الأردن، وقادس يهوذا في نصيب سبط يهوذا، وقادس نفتالي في نصيب سبط نفتالي بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية

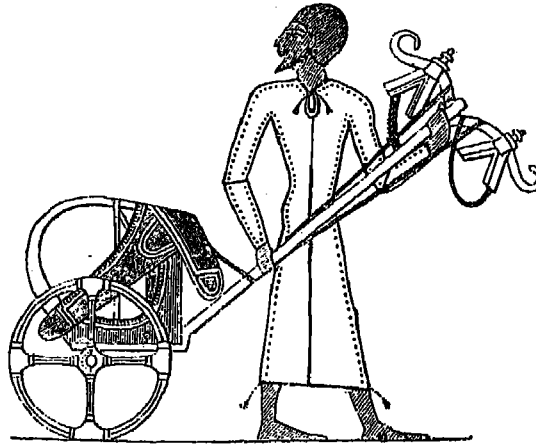
(المعروفة الآن بقادس محولة). وستكتلم في موقع هذه المدن في المقالة في العبرانيين. ولم يذكر الكتاب قادس مدينة الحثيين إلا مرة واحدة في سفر الملوك الثاني (ف ٢٤)، على ما ذكرنا في عدد ٥٦ بحسب رواية بعض نسخ الترجمة السبعينية في طريق الوفد الذي سيّره داود لإحصاء الشعب. على أنّ النص العبراني يسمّيها هناك حدشي أو حدسي أو حدثي. قال الأب فيكورو (في كتابه المباحث المنشورة صفحة ٣٥٢ طبعة ٢): «إن كان كاتب النصّ العبرانيّ لم يحرف سهواً (كما قدّمنا) اسم مدينة الحثيين هذه، فينتج من ذلك أنها كانت تُسمّى اسماً يختلف عن اسماء باقي المدن التي سّماها الكتاب قادس. فيبتدئ اسم هذه بحرف الحث (الحاء) واسم تلك بالقاف، وعليه فيكون تأويل قدسي بالقاف المقدّسة أي المدينة المقدّسة، وتأويل حدثي بالحاء الجديد (فكلمة **ههيم** في السريانية معناها الجديد). وكانوا يعتبرون بذلك عن أوّل الشهور القمرية فيسمّونه المستجدّ أي المستهلّ أو ظهور الهلال. فتسمية المدينة بهذا الاسم يشير إلى جعل المدينة معبداً لعشتروت الإلهة وهي القمر عندهم «فتكون حدشي بهذا المعنى أيضاً أي المقدسة لجعلها معبداً للإلهة المذكورة.

عد ٦١

الروتانو والحثيون في سورية الشمالية

نجد في الآثار المصرية ذكر قادس قبل ذكر الحثيين. فيظهر من ثمّ أنّ هذه المدينة كانت قبل الحثيين من أملاك الشعب الذي تسمّيه هذه الآثار روتانو، ويُراد بهم سكان سورية الشمالية وتُسمّى بلادهم روتان. ويرجح على ما مرّ أنه مكسر لودان أي بلاد ذرّة لود، بل إنّ بعض أهل العلم بالآثار المصرية يقرأون العلامة الدالة على هذا الاسم لودانو لا روتانو. فيظهر أنّ اللوديين والآراميين سكان دمشق وما يليها نحو الشرق والشمال اختلط بعضهم ببعض، فسَمّتهم آثار مصر روتانو أي لوديين. ومن بعد انقراض الحثيين وتغلّب الآراميين في القرن الثامن قبل الميلاد عادوا يسمّون آراميين. هذا ما رواه لانرمان في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٢٩٠) على أنه قال في المجلد الثاني من تاريخه المذكور (صفحة ١٧٦) أنّ اسم الروتانو كان أحياناً شائعاً يُراد به سكان سورية على اختلاف الأصول. ومن رأي الأب دي

كارا (في كتابه في الملوك الرعاة فصل ٩) أنَّ إطلاق هذا الاسم على سكان سورية في آثار غزوة توتمس لها كما ترى بعيد لم يكن إلا لأنَّ قيادة عساكر السوريين حينئذ كانت لقبيلة الروتانو. فهؤلاء الروتانو كانت سلطتهم منبسطة في سورية الشمالية على عهد ابراهيم الخليل، وفي أكثر المدة التي أقام فيها بنو إسرائيل في مصر واستمرت سيادتهم عليها إلى عصر الدولة الثامنة عشرة في مصر قبل خروج



صورة مركبة روثانية مأخوذة عن احد جدران تاب (طيبة)

بنو إسرائيل منها وكان الحثيون ينتزعون أملاكهم مدينة مدينة، مضميرين أن يظفروا يوماً ما بأسيادهم الآراميين الروتانو الذين كانوا يؤدّونهم الجزية إلى أن أدركوا ما كانوا يبتغون، فأذلّوا الروتانو واستأثروا بملكهم؛ فهذا ما أنبأنا به الآثار الهيروكليفية لأننا نرى الخطوط المنقوشة على جدار هيكل الكرنك والمسماة «تواريخ توتمس الثالث». لم تأت بذكر الحثيين البتة في أخبار حملة هذا الملك الأولى على سورية بل ذكرت الروتانو وحدهم، لكنها في أخبارها عن حملته الأخيرة ذكرت تقادم

الحثيين له كما سترى بعيدة. وتوتمس هذا كان قبل مولد موسى، وبعكس ذلك نرى الخطوط التي أرخت بها حملات رعمسيس الثاني على سورية تذكر الحثيين، ولا تتعرض لذكر الروتانو إلا من حيث الجغرافية لأنها تُسمى البلاد التي كان فيها الحثيون بلاد الروتانو. ورعمسيس الثاني هذا هو الذي فرّ موسى من وجهه بعد قتله الرجل المصري آخذاً بثأر الإسرائيلي.

عد ٦٢

غزوات توتمس الثالث ملك مصر للروتانو والحثيين

قد كان لفراعة الدولة الثامنة عشرة بعد طرد الملوك الرعاة من مصر غزوات في سورية. فإنّ أمون هوتبو أول خلفاء أحمس أصل هذه الدولة، غزا بلاد الكنعانيين، وأخضع ملوكها المتعدين، وتوتمس الأول خليفته أتم إخضاع الكنعانيين في فلسطين، واتصل إلى أنحاء دمشق وانتصر على الروتانو، وتوغّل في شمالي سورية إلى الفرات، وأقام عليه بمقربة من كركميش نصباً يذكر الحلف بغزوته، وتوتمس الثاني ابنه لم يملك إلا زمناً قصيراً، وخلفه أخوه توتمس الثالث. فكان له في سورية غزوات أكثر أهمية نُقشت تواريخها على جدار هيكل الكرنك، كما مرّ، فجدات علينا بكثير من الفوائد في تاريخ بلادنا، فأثرنا أن نلخص منها ما كان مهماً. ارتقى توتمس منصبة الملك طفلاً فكانت أخته المسماة هاتشبو تدبّر الملك. فسوّل صغر سنّه لسكان سورية الذين كانوا يؤدّون إلى ملك مصر الجزية أن يأبوا أدائها. وعمّت الثورة فلسطين ولم يبقَ على طاعة ملك مصر إلا سكان غزة. ولما شبّ توتمس واستتبّ له الأمر خرج في فصل الربيع للسنة الثالثة والعشرين من ملكه إلى غزة، وولي بنفسه قيادة جيوشه. وكان ملوك سورية والكنعانيون المتحالفون عليه ألقوا قيادة عساكرهم إلى ملك قادم، وأقاموا معظم جحافلهم في مجدو، وهي المعروفة الآن باللجون في جانب جبل الكرمل. فزحف بجحافلهم إليهم فانتشبت الحرب بين الفريقين في ظاهر المدينة. فانهزمت عساكر المتحالفين وسعت جنود توتمس في إثرهم إلى أسوار المدينة، وكان حرسها، وصد الأبواب خيفةً، فألجئ أن يُدلى حبالاً يسحب بها المنهزمين من أعلى السور. وحاصر توتمس المدينة مضيقاً عليها، فاستسلمت إليه ودان له الأمراء المتحالفون الذين لجأوا إليها. فاجتاز توتمس

بعساكره مرج ابن عامر وما يليه إلى لبنان وأعمال سورية حتى الفرات. ولم يك ثمة من يقاومه. فإن من لم يشهدوا حرب مجدو تسابقوا في الخضوع، وإظهار الأمانة والإنقياد له، وفتحت الحصون أبوابها ومن جسر على التلال أكره على الاستسلام. وقد عُذت على جدران الكرنك المدن التي سلمت إلى توتمس، فكان عديدها مئة وتسع عشرة مدينة منها باروتا (بيروت). وتماسكو (دمشق)، فإنهما سلمتا إلى توتمس قبل وصوله إليهما. ثم أكثر المدن الواقعة في فلسطين، وعبر الأردن من بلاد المواين إلى دمشق، واتصل بحملته هذه إلى سورية الشمالية حتى ما بين النهرين. وعاد إلى مصر ظافراً تحف به ألوف من الأسرى، ومن رغبوا في أن يتطوعوا في جنديته، ومن أخذهم رهينة الإنقياد له. وذكرت تواريخ توتمس غنائم حربه هذه فتبين منها أنها كانت تسعمائة واثنين وأربعين مركبة، وعديداً من الصفائح الذهبية، وألفين وواحداً وأربعين فرساً. وظهر منه أن معظم قوة العساكر الكنعانية كانت منذ وقتئذ بالمركبات الحربية، كما كانت في عهد يشوع والقضاة (طالع سفر يشوع فصل ١١ عد ٤ وفي سفر القضاة فصل ٤ عد ٧ و ١٥).

ثم في ربيع السنة التالية زحف توتمس بعساكره إلى سورية فأتم إخضاعها لسلطته واجتاز الفرات ثانية وشيّد حصناً على نهر الخابور بقيت آثاره إلى الآن. وقد وجدت ثمة صفائح صغيرة كُتب عليها اسمه، فدان له الروتانو في عبر الفرات وأرسل إليه آشور وملك بابل جزيتهما قبل أن يدخل بلادهما. وعبرت أربع سنين لم تتخللها حرب، فجدد فيها ملك الروتانو في قادس بلم شعث قومه وإصلاح شؤون بلاده واعداد معدّات الحرب، واستمال إليه سكان شمالي سورية ولا بد أن كان الحثيون بينهم. فهب توتمس للتنكيل بهم للسنة التاسعة والعشرين من ملكه. ويظهر أنه سير جنود حملته هذه في طريق سواحل البحر. ففتح أراتو (ارواد) وحيلبون (حلب) وغيرها ودخل بلاد زاهي التي يُراد بها على ما روى لانرمان (في صفحة ١٩٥ من المجلد الثاني من تاريخه) قسم من لبنان بين مدن فينيقية وسورية المجوّفة، وحاصر في السنة التالية قادس فافتتحها عنوة وغنمت جنوده بما كان فيها، ودك بعض حصونها فأسرع ملوك الروتان السفلي (يُراد به ما بين النهرين) فأدّوه الخضوع، واثارت ارواد عليه فأذلّها ثانية وعاد إلى مصر ظافراً ومعه أبناء الملوك واخوانهم ليكونوا رهينة الأمانة له «وحتى إذا مات أحد الملوك أو الولاة أرسلت

جلالته من لديها مَنْ يتخلّف له» (ترجمة الأصل) فكان من دأب الفراعنة حينئذ أن يستبقوا في كل مملكة ملكاً من سكانها يقرّ لهم بالسؤدد وفيهم الجزية وينجدهم برجاله إبان الحرب.

ثم عاد توتمس للسنة الثالثة والثلاثين من ملكه فحمل على بلاد الآشوريين وبلغ نينوى فعظمت سطوته واشتدّ بأسه وعمّ الرّوع كل مَنْ ناوأه. ولذا التقاه عند عوده وفود من قبل شعب زاهي ولنون (لبنان) وأسو (وهي على رأي لانرمان عمل في شمالي لبنان كانت مشهورة بمعادن الحديد فيها (ولعلها جبة بشري والضّئبة) وغيرها. فقدّموا للملك الظافر جزيتهم، وقد عدّت على جدران الكرنك تقادم الملوك وجزيات البلاد ومن جملة جزية بلاد الحثيين حيث قيل «جزية سكان بلاد الحاتاس الوسيعة، كانت هذه السنة ثمانى حلقات من فضة وزنها ٣٠١ ليبرا Livre وحجراً ثميناً كبيراً أبيض ومركبات وأخشاباً إلى غير ذلك». فهنا نجد اسم الحثيين لأوّل مرّة في الآثار المصرية. ولما كان اللبنانيون لم يخلصوا الطاعة لتوتمس اضطرّ أن يبعث في السنين التابعة إلى بلادهم وإلى بعض المدن الشمالية عسكرياً يتكفّل باستتباب الراحة والسكينة. وقد حمل حملة أخرى على بلاد الروتانو أي سورية لسنة ٣٩ من ملكه. فانتصر أيضاً وأدّى إليه الحثيون الجزية إذ قيل في تواريخه المذكورة «من ملك بلاد الحاتاس الفسيحة أربعون ليبرا ذهب وواحد وعشرون عبداً وأمة وثيران وبقرة».

وعاد ملك قادس فحصّن مدينته وحمل غيره من ملوك سورية على الخروج عن طاعة توتمس فاضطرّ في سنة ٤٢ للملكه أن يجيّد الجيوش مرّة أخرى للتنكيل بالروتانو والسوريين حلفائهم، فافتتح قادس عنوة وبدّد شمل المتألمين وقطع دابر ثوراتهم عليه. فعاش بعد ذلك اثنتي عشرة سنة ناعم البال طيب القلب من قبل ملوك سورية. فتكون مدة ملكه أربعاً وخمسين سنة. كل ذلك كشفت لنا عنه الخطوط المنقوشة على جدار هيكل الكرنك، وكان أوّل مَنْ ترجمها أغوستوس ماريات. ومن أنباء هذه الخطوط أيضاً أنّ توتمس في ٣٢ و ٣٤ و ٣٨ من سنّي ملكه أخذ الجزية من سكان جزيرة أسابي وهي قبرس بلا ريب. وقد وُجدت أيضاً في الكرنك صفيحة كتبت عليها أشعار فصيحة منبئة بغزوات توتمس هذه فترجمها الفيكنت دي روجه de Rouge (وهي منبئة باخضاعه سكان زاهي المارّ ذكرها

والروتانو وشعب فينيقية وقبرص وسكان مدين وغيرهم). ومن بعد توتمس الثالث، لم نجد أثراً ينبئ بأن أحد الفراعنة الستة أو السبعة الذين تخلّفوا له حارب الحثيين أو الروتانو سوى توتمس الرابع فإنه حمل على الحثيين حملة لا نعلم من أمرها إلا ما وُجد مكتوباً على صحيفة من حجر وُجدت في هيكل أمون في تاب (طيبة) جلّ ما كتب فيها «غزوة الملك (توتمس الرابع) في بلاد الحثيين». وقد ظهر بأس الحثيين وسطوتهم في عهد دولة الرعمسيسيين وهي الدولة التاسعة عشرة.

عد ٦٣

الحثيون ورعمسيس الأول

ابتدأت دولة مصر التاسعة عشرة برعمسيس الأول. فإن هورامهب الملك الأخير من الدولة الثامنة عشرة توفي ولم يعقب، فرقي منصّة الملك رعمسيس الذي كان قائداً للجنود. واشتهر بخدماته لوطنه ولم يكن من نسل الملوك بل لم يكن مصرياً أصلاً، فإن سمات وجهه ووجه ابنه ساتي الأول وحفيده رعمسيس تظهر في تماثيلهم جميلة لا شبه فيها لوجوه ذريّة مصريين. فدلّ ذلك على أنهم من شعب غير مصري. وأيّد هذا أنّ العلامة ماريات اكتشف صحيفة قديمة في تانيس كتب فيها ما يثبت أنّ رعمسيس الثاني جدّد عبادة الإله سوتك أو سوتخ؛ وهذا هو معبود الملوك الرعاة في تانيس عاصمتهم. ويسمّى رعمسيس هناك ستعابتي أحد الملوك الرعاة أباً أو جدّاً له. ويجعل ارتقاء هذا الملك سدة مصر مبدأ تاريخ يؤرّخ به أعمال الملك، فكان ذلك دليلاً على أنه وملوك دولته من سلالة الملوك الرعاة السوريين أصلاً، وبقي بعض نسلهم في مصر بعد طردهم منها.

وكان حصل في آخر سنّي الدولة الثامنة عشرة شغب سياسي وديني أضعف قوّة مصر عن ضبط أملاكها الخارجية. فنبذت سورية وفلسطين طاعتها وكان الحثيون في هذه الأثناء تغلبوا على الروتانو في شمالي سورية وأزاحوهم من مراكزهم وانضمّوا في مملكة واحدة فسيحة الأرجاء تنبسط من شاطئ الفرات إلى جبل طوروس وإلى البحر المتوسط وتمتدّ جنوباً إلى قادس بل إلى دمشق أيضاً. ولما كان هؤلاء من قبيلة الملوك الرعاة على الأرجح هاموا أن يستحوذوا على سورية كلها ليثأروا بأجدادهم الرعاة من المصريين الذين طردوهم من مصر بانتزاعهم منهم

أَملاكهم في سورية (ملخص عن لانرمان في مجلد ٢ صفحة ٢١٩ من تاريخه). وكان ملك الحثيين حيثُ يُسمى سابالت وهو أول مَنْ نعرفه من ملوكهم. فغني رعمسيس أولاً بإصلاح شؤون مملكته في مصر وهمّ بإعادة سكان سورية إلى طاعته. ولكن لم يكن خصماًؤه في سورية هذه الدفعة كما كان خصوم أسلافه الروتانو الذين كانوا ضعفاء لانقسامهم إلى عدة قبائل مختلفة الأغراض والنزعات لا تجتمع كلمتها، بل كان الحثيون حيثُ ذوي دولة قديرة فسيحة الأرجاء تهيم بالحروب وتعاذل مصر قوّة. فدخل رعمسيس الأول فلسطين فلم يصادف شديداً مقاومة فقد اعتاد أهلها أن يستسلموا إلى كلّ غازٍ أقبل على بلادهم، لكنه لم يبلغ نهر العاصي إلّا وقابلته جيوش لم تكن له في الحسبان. ولم نطلع على تفاصيل هذه الحرب. فربما اضطرب المصريون عن ذكرها لأنها لم تكن مشرّفة لهم، لأنّ الظاهر من قرائن الحال أنّ رعمسيس لم يقوَ على إخضاع الحثيين، بل ألجئ أن يعقد مع ملكهم عهدة صلح تشترك بموجبها كلتا الدولتين بالدفاع والمهاجمة على مَنْ يناوئ إحداهما ليتقي رعمسيس غائلة الحرب التي أوقد نارها.

وقد لاحظ مسيرو (في تاريخ المشرق) أنّ الفراعنة لم يكونوا إلى تلك الأيام يعتبرون ملوك سورية بمنزلة ملوك مساوين لهم أو يتنازلون لعقد صلح معهم بل كانوا يحسبونهم أعداء ينكّلون بهم أو عُصاة يجرون عقابهم. وكانت نهاية الحروب معهم خضوعهم صاغرين دون شرط أو تدميرهم التام. ولم يملك رعمسيس هذا إلّا ست سنين أو سبعة.

عد ٦٤

الحثيون وساتي الأول

خلف رعمسيس ابنه ساتي الأول ويُسمّيه اليونان ساتوس وهو الذي بدأ يضطهد العبرانيين في مصر كما في سفر الخروج. وقد بنى هذا الملك آثاراً مدهشة أغربها وأجملها الردهة الشهيرة المعروفة بردهة الأعمدة في هيكل أمون في الكرنك التي ما برحت على كرور القرون آية تحمل الجوّالين والمتفرّجين بها على العجب العجائب. وقد نُقشت على مجذره صور غزواته وتاريخها مطوّلاً؛ فمن هذه الصور ما يمثّل محارباً الشاسو وهم العرب الرحل في جانب خليج السويس، ومنها ما يمثّل

أهل لامنون وهم سكان أعالي لبنان يقطعون أخشاب الأرز والسرّو لأبنية الملك الذي ظفر بهم، ومنها ما يُمثّل مدينة قادس وحصنها يحاصرها المصريّون ويفتحونها على الحثّيين، ومنها ما يُمثّل مركبات الحثّيين وعلى كل منها ثلاثة رجال ويجزّها فرسان، ومنها ما يُمثّل هذا الملك عائداً من الحرب ظافراً محقوفاً بكثير من الأسرى يلتقيه عظماء مملكته عند تخوم مصر فيقدّم الأسرى للإله آمون في (طيبة). وفي جوانب هذه الصور خطوط كثيرة نأخذ عنها ما نذكره هنا بتصرّف.

حارب ساتي في السنة الأولى للملكه العرب الذين كانوا أكثروا من السطو والاعتداء في تخومه الشرقية فشنت شملهم في البريّة. وزحف في السنة التالية بعساكر جرّارة إلى سورية فقلّ من قاومه في فلسطين لأنّ ملوك الكنعانيّين ولاسيّما الفينيقيّين لم يكن لهم همّ إلّا بأرباح تجارتهم، فاستسلموا إليه وأدّوا إليه جزيتهم وقدّموا الذخائر لجنوده. ثم دان له الآراميّون دون شديد نزاع. وانقاد إليه من كانوا لبثوا قبلاً على استقلالهم في بلاد دمشق وفي السهول التي بين الفرات ولبنان الشرقيّ لجهةّ تدمر وفي أعالي جبل لبنان حتى ارتاع منه ملوك ما بين النهرين والعراق العربيّ، وأرسلوا إليه هدايا يسترضونه بها فحسبها جزية. لكنّ الطامة الكبرى أدركته عند بلوغه تخوم مملكة الحثّيين في قرب العاصي، فقد استعرت نار الوغى على قلعة قادس وطال أجيجها، وتعددت المواقع إلى أن افتتحها المصريّون. فلم يكن فتحها ختام الدفاع بل كان الحثّيون يذبّون عن مواطنهم قدماً قدماً، وكلما كثر عديد المواقع اشتدّت حميتهم وبنالهم حتى أعيوا فرعون فاضطر أن يوقّع على عهدة صلح مع موتنار ملكهم ضمنّت لهم سلامة أملاكهم حتى ردت عليهم قادس مدينتهم، ولم يلزموا أنفسهم إلا الإنكفاف عن الاعتداء على الأعمال المصرية وأن لا يُثيروا ثورة على سلطة ملك مصر بل يكون بين المملكتين عهدة دفاع وهجوم. إنّ خطوط الكرنك لا تصرّح بانخزال ساتي بل تحاول اخفاء ما تُبديه قرائن الحال وتقرّ بيسالة الحثّيين بتعظيمها نفسه مشاق الانتصار عليهم. وتشبّه ساتي بالآلهة وتدعوه تارة جقلا يطوف البلاد سحراً، وتارة أسداً ضرغاماً يعرف الطرق الخفية في كلّ بلاد، وتارة ثوراً شديداً لاقتدار قويّ القرون. وقد كُتب على الصورة المثلثة هذه الحرب: «ها هي تي ذريّة الحثّيين وقد صنعت جلالته فيها ملحمة».

إن نجاح الحثيين بهذه الحروب زادهم جسارة فقطعوا على المصريين طريق حلب والفرات الذي كانت عساكر توتمس الأول وتوتمس الثالث تمرّ به ظافرة أو لا تجدد فيه من مقاوم، وأصبحت أملاك مصر في سورية مقصورة على فلسطين وما جاورها من بلاد آرام الجنوبية. وعلى فينيقية التي كان تجارها يؤثرون اعطاء ملك مصر الجزية على فوات أرباح تجارتهم البحرية وضياع كسبهم في مصر. واجترأ ساتي بأن يحسن سياسة ما بقي من أملاكه في مصر وسورية مؤثراً ثبوت هذه الأملاك والانتفاع بها على انبساط سلطته ونفقات الحرب لضبطها. وبذلك الحكام الوطنيين بعمال مصريين وأقام حرساً مستمراً في أخص الحصون كغزة وعسقلان وماكتا وهي مجدو المعروفة الآن باللاجون. وتوفي ساتي بعد أن ملك نحواً من ثلاثين سنة على الأظهر وخلفه ابنه رعمسيس الثاني .

عد ٦٥

الحثيون ورعمسيس الثاني

سمّى اليونان رعمسيس الثاني سيسوستريس وعزّوا إليه حروباً وانتصارات على الحثيين وغيرهم أكثر مما كشفت عنه الخطوط المصرية بعد استطلاع سرّها. وقد فضّل غيره في ما أتت به آثاره من أخبار الحثيين، وعنّها أخذنا مما نرويه هنا فقد رقي رعمسيس منصّة الملك في أواخر القرن السادس عشر وأوائل الخامس عشر، فلم يتجشّم حروباً مهمّة في السنين الثلاث الأولى للملكه، بل بدت آثار ثورات في بعض أعمال فلسطين يترجّح أنّ يدا حثية أثارتها فحملت رعمسيس أن يغشي هذه البلاد مرتين؛ بلغ في إحداها إلى بيروت وترك صورته منقوشة على صخر عند مصبّ نهر الكلب (أثبت لانرمان مثلاً لها في مجلّد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ٢٥١). على أنّ العدو الذي كان يروّعه إنما هو الحثيون، فكان موجساً منهم خيفة لأنهم حافظوا على عهدة الصلح مع أبيه ما حيي، وأخذوا بعد موته يتأهبون لثورة هائلة وكانوا حيثئذ في أوج سؤددهم وصولتهم، وكانت أملاكهم منبسطة من قادس إلى أطراف آسيا الصغرى ومن لبنان إلى الفرات، وقد أبقت لنا آثار رعمسيس على اسماء الشعوب الذين تألبوا مع الحثيين لمناوأة ملك مصر؛ فمنهم سكان حلب وكركميش والجرجاشيون إحدى فصائل الكنعانيين، والآراميون سكان

سورية المجوّفة، والأرواديّون من الفينيقيين. وأما أهل صيدا وجبيل فكانوا يمالئون رعمسيس ولا يعلم كم كان عدد جيوش المتحدين، ويظهر أنه كان كثيراً يشدّ عن الحصر. فإنّ ملك حلب وحده كان أتى بثمانية عشر ألف جنديّ، وبيّنت الإحصاءات أنّ عدد المركبات الحربيّة لم ينقص عن ألفين وخمسمائة مركبة. ودرى رعمسيس ما كان يدبره عليه أعداؤه فزحف في فصل الربيع للسنة الخامسة من ملكه بجيش جرّار وسورة الشباب وحميته وصلفه تأخذ برأسه، فاجتاز فلسطين حيث كان الحرس المصري الذي أقامه أبوه كما مرّ، وبلغ إلى محلّ يُسمّى شبطون. قال لانرمان إنّ موقعه عند ينبوع النهر السبتي في جهة الحصن إلى الغرب من حمص، فوقف جيوشه ثمة ليتجسّس مراكز أعدائه ويدبّر حركات جنوده بما تقتضيه الحال. وكان موتنار ملك الحثّيين رجلاً مدبّراً في أمور الجندیّة والحرب، يؤثّر الحيلة على استعمال القوّة. فأعلمه جواسيسه موقف رعمسيس فعزم أن يأخذه بوهق احتياله، فأرسل اعرابيين متنكّرين يقولان له: «أرسلنا اخواننا رؤساء القبائل المتّحدة مع ملك الحثّيين الخسيس لنسرّ إلى جلالة الملك أننا تايقون أن نخدم فرعون ونغادر رئيس الحثّيين الخسيس، وهو الآن في حلب في شمال المدينة حيث انزوى بغتة خائفاً بطش الملك». فاغتّر رعمسيس بالخدعة وأقبل على قادس بعدد قليل من جنوده مطمئناً. وصفّ ملك قادس جنوده في شمالي المدينة وغيّرها ليشب على فرعون في حين غفلة فيهلكه وجيشه. على أنّ رعمسيس قبض حينئذ على جاسوسين فاستنطقهما معذباً لهما فباحا إليه بسرّ المكيدة، فعظمت دهشته وحيرته وعلم الخطر العظيم الملمّ بنفسه وجيشه. وبينما هو على عدوة العاصي يفكر بما يتسوّل به لنجاته إذ وثب ملك الحثّيين بغتة على قلب جيشه فشتمه وشرّ جنود رعمسيس شطرين، فعظم الخطر على رعمسيس في موقفه ولم تُنّجّه إلا شدّة شجاعته. وقد كُتب في خطوط آثاره أنه اخترق صفوف العدو المحدّقة به ثماني مرّات إلى أن أقدرته العناية على ضمّ صفوف جيشه وإصلاء نار الحرب على العدو النهار كله.

إنّ شاعراً مصريّاً اسمه بنتاور نظم تاريخ هذه الموقعة بأشعار نُقشت على جدران هيكل الكرنك والأقصر، ووُجدت مكتوبة في باير محفوظة الآن في المتحف البريطاني. فنثب هنا شيئاً من ترجمتها لما بها من الفائدة والفكاهة:

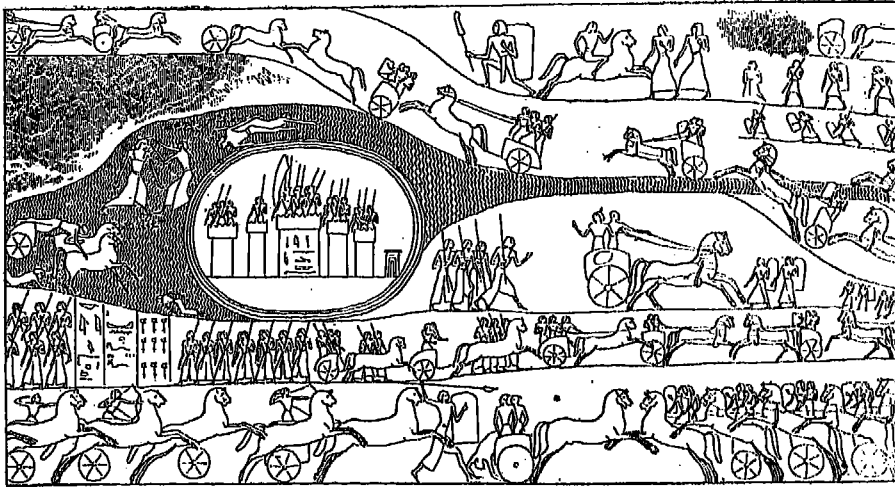
«كنت وحدي لا يصحبني رئيس ولا قائد ولا آمر ولا ضابط .
انهزمت الجنود والفرسان ولبثت أحارب العدو منفرداً، فصرختُ حينئذ: أين
أنت يا أبتاه أمون؟ هل يُنكر أب ابنه أو يُغادره في ضيقه؟
هل أقدمتُ على عمل دون رضاك أو مشيئتُ أو وقفتُ ولم أشخص أبصاري
إليك؟

هل خالفْتُ أوامر فمك أو نبذتُ مشوراتك؟ هل تحتمل أن يُذلَّ ملك مصر
وسيدها أمام شعوبٍ يُعاندونك؟
فمن هؤلاء العمو (يُريد بهم الآسيائيين المتحالفين عليه) بعيشك يا أمون؟ يَدِّد
من لم يقرّوا بألوهيتك.

أما شِدت لوجهك آثاراً لا عداد لها؟
أما أفعمت هيكلك بالغنائم التي أحرزتها من الأعداء؟
أما بنيت لك معابد تدوم ألوفاً من السنين؟
فبك أستجير وإياك أدعو يا أبتاه أمون فقد أهدت بي جماعات لا أعرفها،
وتألبت عليّ قبائل وأنا وَخَد لا أحد معي، فأدعو وليس من يُجيب، على أنني موقن
بأنَّ أمون خير لي من ألوف جنود تجتمع معاً...

وقد استُجيب دعاء رعمسيس وتداركه العون. فإنَّ الشاعر يقول بلسانه: «قد
استجابني رع (وهو أمون أيضاً ويُراد به الشمس) لما دعوته ومدَّ إليَّ يده فطفح قلبي
سروراً وناجاني من ورائي قائلاً: لا تخف رعمسيس ميامون (لقب له تأويله محبّ
أمون) أنا معك، أنا أبوك رع يدي تعضدك، أنا خير لك من ألوف الجنود، أنا ربّ
النصر وعاشق الشجاعة، فإذا رأيت شجاعاً مثلك همت بحبّه وامتلأ فؤادي سروراً
وكلّ ما أردته كان، فأرمني سهامي يميني مثل مونت (إله الحرب) وتقبض شمالي
على الأعداء مثل بار (يُريد به بعلأ باعتبار كونه إلهاً للحرب) في ثورة غضبه،
فأرى الآن ألفين وخمسمائة مركبة وأنا في وسطها وقد قلبتها خيولي وليس من
ركابها من يمدّ يداً للقتال، قد تولى الرعب والذعر قلوبهم وشلت أيديهم فلم
يعلموا كيف يرمون السهام فارقهم قلبهم فلم تضبط أيديهم الحراب فأغرقتهم بالماء
كما يفرق التمساح فيتهافت بعضهم على بعض قتلى». ثم يطراً الشاعر بسالة بطله

هذا واختراقه صفوف الأعداء دفعات وله شعث جيشه وانتصاره. على أنه لا بدّ في ذلك من مبالغة على عادة الشعراء، فالصحيح أنّ رعمسيس عرض نفسه للهلكة لانفراده مخفوراً بعدد قليل من الجنود، فوثب عليه العدو فدافع عن نفسه مدافعة الكمي بجنده القليل إلى أن أدركه عسكره. فكان ذلك دليلاً على عظم بسالته وقلة دربته معاً لانخداعه بكلام اعرابيين مجهولين.



صورة حرب رعمسيس الثاني على قادم مدينة الحثيين ترى قلعة قادم بهيئة جزيرة في العاصي والحرس في أعلاها وبعضهم خارج من اليمين يهاجم المصريين ترى الحثيين يمتد والمصريين يسرة وترى بعض الحثيين غرقى في الماء وأصحابهم يحاولون انجاءهم وهذه الصورة مأخوذة عن أصلها في هيكل الأقصر في مصر

وبعد نجاة الملك تسعرت نار الحرب النهار كله فاضطرّ موتنار - ملك الحثيين - أن يلوي غير يائس من الظفر. فخدمت جدوة الحرب مساء وجدّ شوبها صباحاً، فكانت موقعة هائلة دارت فيها الدوائر على الحثيين؛ فتفرقت صفوفهم في نقط عديدة، وقُتل حامل سلاح الملك وقائد الرجال ورئيس الحصان وكتاب الوقائع

الرسمي وغيرهم كثيرون، وحاول بعض المنهزمين أن يعبروا النهر سابحين فراراً من لحاق المصريين فغرق كثيرون ونجا أخو ملك الحثيين المُستعى ميسرائيم، وغرق ملك نينا، واستُخرج ملك حلب من الماء وفيه رمق. وتُرى في الصورة الممثلة لهذه الموقعة ملك حلب معلقاً برجليه يندفق من فيه الماء الذي كان يظن أنه ابتلعه، ولولا خروج حرس المدينة للذبّ عن المنهزمين لم يبقَ منهم باق.

فعوّل ملك الحثيين على طلب الأمان فسيّر وفداً إلى رعمسيس يقول له على ما في الآثار المصرية: «إنّ شعب الحثيين مشترك مع المصريين مقدماً خدماته أمام أقدامك، فإنّ رع (الشمس) أباك السعيد ولاك أمرهم فاكفف عنا سخطك فإنك شديد البأس، فتكت بسالتك بأمة الحثيين فهل يحسن بك أن تقتل عبيداً أنت سيدهم؟ فأرى محيّاك مغضباً مكفهراً ولا تشاء اخماد غضبك. وصلت أمس فقتلت مئات ألوف، فإن عاودت القتال اليوم فلا يبقى من يخضع لك فلا تنمّ ما اعتزمته أيها المليك المظفر! فيا روح تسرّ بالقتال نكرّم بأن تمنحنا نسمة الحياة». فاستشار رعمسيس أركان حربه فعقد صلحاً مع ملك الحثيين وعاد إلى مصر ظافراً وكان ذلك للسنة الخامسة من ملكه.

على أنّ ذلك الصلح لم يكن إلّا هدنة على دَجَنٍ فإنّ ملك الحثيين لم يلبث أن همّ بتجديد الحرب آخذاً بثأره على أنه لم يقتحم بادىء بدء مواقع كبيرة، بل اجتزأ أولاً أن ينفخ نار الثورة على مصر مهتجاً القبائل الخاضعة لها للخروج عليها. ففي السنة الثامنة لرعمسيس هتّج الشرّ بينه وبين الكنعانيين في الجليل. فترى عساكره تحارب عند بحيرة ميمروم أي في الحولة وفي جبل طابور لتردّ العصاة إلى طاعة مصر. وفي السنة الحادية عشرة للملكه تقوّى الآسباويون على المصريين حتى تخيل أنهم حصروهم في وادي النيل. وقد خرجت أكثر أعمال فلسطين عن طاعة رعمسيس إلى أن تمكن من استرداد عسقلان بعد حصار عنيف وحُسب ذلك فوزاً كبيراً. ثم استردّ شلاما (أورشليم) والكرمل. وأسعدهم الحظ في اخضاع مدن أخرى بل وُقّق أيضاً في طرد عساكر المتحدين من فلسطين وفينيقية وسورية المجوّفة (سهول البقاع وبلبك). ثم وصل بعد ذلك إلى قادس وافتتحها مرّة أخرى وتوغّل في وادي العاصي إلى وسط بلاد الحثيين. وأتخفتنا آثاره بجريدة اسماء مدن افتتحها عليهم. وتمثّله إحدى الصور المنقوشة في تاب (طيبة) جالساً بعد حرب مع الحثيين

وحلفائهم وقواد جيشه يكردسون أمام قدميه ما قطعوه من أيدي الأعداء. ودامت هذه الحروب أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ولم تخمد جذوتها إلا بعد أن قُتل موتار ملك الحثيين غيلة في إحدى معامع الحرب.

ونخلفه أخوه كيتاسار وقد تأوّل كثيرون هذا الاسم بمعنى ملك الحثيين؛ أي أنّ سار معناه ملك وكتيا أو حيتا الحثيون. ولكن لاحظ العالم بليكس أنّ هذا التأويل غير صحيح إذا اعتبر أصل هذا الاسم سامياً، لأنّ اللغات السامية لا يتقدّم فيها المضاف إليه على المضاف. وعليه فيكون معنى الاسم خوف الملك أو الخائف من الملك؛ أي الله وتحرير المعنى خائف الله أو مجلّ الله. وكانت الدولتان المحاربتان قد كلّتا من القتال وسُئمت نفوسهما الحرب فعولتا على عقد صلح نهائي مستمرّ، ووقّعتا على عهده. وروى مسيرو (في تاريخ شعوب المشرق) إنّ نص العهدة كُتب أولاً في اللغة الحثية ونُقش على صفيحة من فضة وقُدّم لفرعون، وهو في المدينة التي شيّدها ودعاها رعمسيس باسمه. وهذه أوّل عهدة ظفرنا بنصّها.

عد ٦٦

عهدة الصلح بين رعمسيس ملك مصر وكتيتاسار ملك الحثيين

قد نُقش نص هذه العهدة على ظاهر جدار هيكل الكرنك حيث يُشاهد حتى الآن، لكنّ آخره مشوّه وهاك ملخصه:

«في السنة الحادية والعشرين واليوم الحادي والعشرين من شهر طيبي (وهو الشهر الخامس من السنة عندهم) لملك رعمسيس ميامون (محب أمون)، بينما كان جلالة الملك رعمسيس في مدينة بيت رعمسيس (هي المدينة التي شيّدها وسماها باسمه) مقدّماً التقادم استرضاءً لأبيه أمون رع، (ويعدد اسماء باقي معبوداته ويتوسّل إلى هؤلاء الآلهة ليقبضوا له سنين عديدة يقضيها ناعم البال ويُخضعوا له القبائل والبلاد أبداً)، وافاه مفوضان من قبل كيتاسار ملك الحثيين المعظّم مصحوبين بصفيحة من فضة، كُتبت عليها شروط الصلح والإخاء المؤبد بين ملك مصر العظيم وكتيتاسار ملك الحثيين العظيم، وهذا هو الاتفاق الذي وقّع عليه بينهما بصورة عهدة أبعد الله معاودة كلّ عداوة بينهما. وقد كانت في أيام أخي موتار

ملك الحثيين المعظم حروب مع ملك مصر المعظم. على أنه مذ هذا النهار فصاعداً يكون سلام واخاء مؤبدان بين بلاد مصر وبلاد الحثيين فلا تنشأ عداوة بينهما البتة، بل يكون ملك مصر العظيم أخاً لي مستمراً على السلم معي، وأكون أخاً له مقيماً على السلم معه منضمّاً إليه كأَنَّ لكلينا قلباً واحداً، وابناء ملك الحثيين العظيم يكونون بالاتفاق والإخاء مع ابناء رعمسيس ملك مصر العظيم، وهكذا يكون خلفاء رعمسيس مع خلفاء كيتاسار العظيم ويكون سكان مصر وسكان بلاد الحثيين على وفاق واخاء مؤبدين لا تنشأ عداوة بينهم إلى الأبد. ولا يسطو ملك الحثيين على أرض مصر البتة ليأخذ منها شيئاً أياً كان ولا يسطو ملك مصر على أرض الحثيين ليأخذ منها شيئاً أياً كان. وأرعى العهدة التي عُقدت في أيام سبالات ملك الحثيين والعهدة التي وقّع عليها أخي موتنار، وأسلك بمقتضاها دون خلل، ويرعى ملك مصر العهدين ويسلك بموجبها دون خلاف. فإذا غشا عدو أرض رعمسيس ملك مصر وأوفد يقول للملك الحثيين تعال فأجندني، عليه لزم ملك الحثيين أن يأتي ويضرب العدو. وإذا تعذّر عليه الحضور بنفسه لزمه أن يُرسل رجاله وخيله للإيقاع بالعدو. وكذا إذا غشا أرض الحثيين عدو واستنجد ملكهم ملك مصر لزمه أن ينجده بنفسه أو برجاله وخيله. وكلّ جانٍ حاول النجاة من الجزاء الذي تفترضه الشرائع، ففرّ إلى إحدى المملكتين لزم تسليمه إلى ضابطة قبيلته. وكلّ عبد أبق من إحدى المملكتين إلى الأخرى وأضرّ بمولاه لزم رده على طالبه. وكلّ منتقل لغير داعي جناية من إحدى المملكتين إلى الأخرى، وكلّ مأخوذ جبراً إلى إحداهما، وكلّ صاحب صناعة أو عمل أراد أن ينقل سكناه من أحد القطرين إلى الآخر؛ هؤلاء جميعاً يردون على شعبهم لدى طلبه إياهم. ولكن لا يسوغ احتساب انتقالهم من وطنهم جناية. فمن ردّ على شعبه في هذه الصورة لا يمسه ضرر في بيته ولا تزعج امرأته ولا أولاده، ولا تُضرب أمّه ولا يُضرب هو على عينيه ولا على فمه ولا على قدميه، وفي الجملة فلا تقبل عليه لذلك شكوى جزائية. ويلزم أن تكون المساواة التامة والاشتراك الكامل بين الشعبين المصري والحثي. وتبرم عهدة الدفاع والهجوم هذه بين المملكتين. وأخيراً يستدعي الملكان المتعاهدان آلهة كلّ قبيلة منهما ذكوراً وإنائاً للشهادة عليهما وللانتقام ممن يخالف شيئاً مما أبرم الاتفاق والعهد عليه، ويسألان الآلهة أن يجزوا من يرعى بنود هذه المعاهدة بمنحه التوفيق والعافية له ولعِياله ولن يلوذ به».

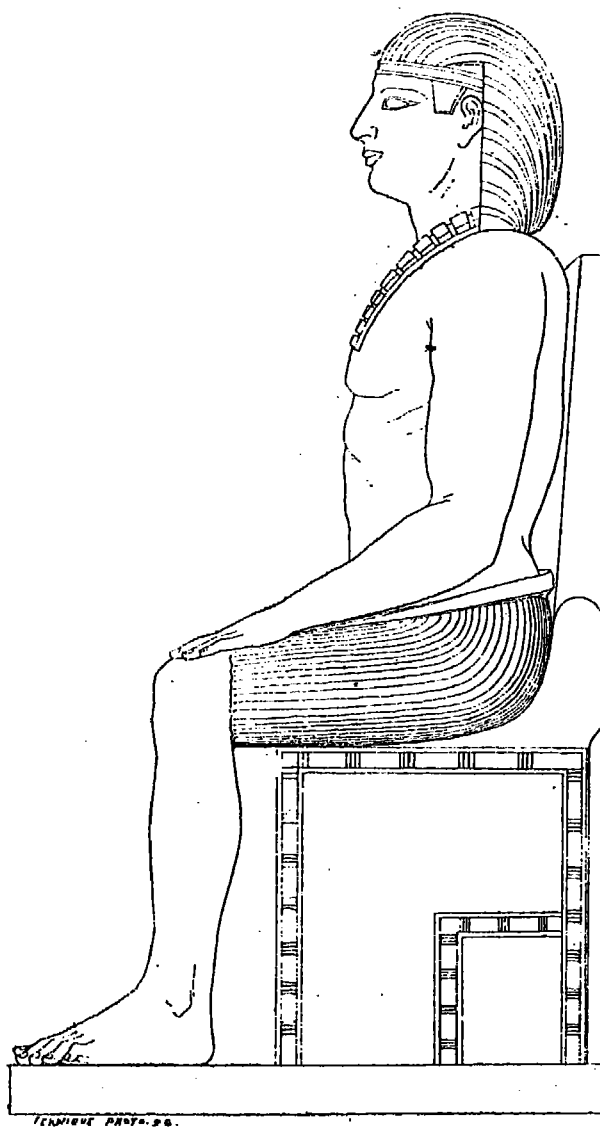
وقد حافظ المصريون والحيثيون على العمل بمقتضى هذه العهدة وجعلوها دستوراً للتعامل بينهما مدة قرن كامل. فلم نعر على أثر يُنبئ حصول حرب أو نزاع بين الأمتين في تلك الحقبة. ويظهر أنّ كلّ ما كان من جيبيل نحو الغرب والجنوب خصّ المصريين بموجب هذه العهدة، وكلّ ما كان منها إلى الشمال والشرق خصّ الحيثيين. فقد وجد باير هو الآن في المتحف البريطاني وترجمه العالم شباس معلقاً عليه بعض الشروح؛ ينطوي على أخبار رحلة عامل مصري أوفد في ذلك العصر إلى فينيقية، فيذكر المدن الخاضعة لصولجان مولاه والتي تجول فيها؛ فمنها كابونا (جيبيل) مدينة الأسرار، وباروتا (بيروت)، وصيدونا (صيدا)، وسربوتا (صارفة صرند)، وتसार (صور) وكانت حينئذ مأوى للصيادين، ومستتب محطات سفره نحو الجنوب في فلسطين إلى أن عاد إلى مصر (ملخص عن رواية فيكورو لهذه العهدة في كتابه المسائل المنثورة، وعن لانرمان في المجلد الثاني من تاريخه الشرقي في فراعنة مصر).

عد ٦٧

زواج رعمسيس بابنة ملك الحيثيين

قد وطّد رعمسيس وثاق الوفاق بتزوجه بابنة ملك الحيثيين، ودعا حماه كيتاسار إلى زيارته في بلاده. وقد جاء في الباير المعروف بأنستازي المحفوظ الآن في المتحف البريطاني:

إنّ كيتاساري استدعى أحد محالفيه أميركاتي في آسيا الصغرى ليصحبه في سفره إلى مصر فقال له: «هلمّ نذهب إلى مصر فقد صرّح الملك بدعوته فلنطع رعمسيس فطاعته حياة لمن يحبّه فتجلّه الأرض كلّها وهو والحيثيون الآن واحد». ومضى كيتاسار إلى مصر فالتقاه رعمسيس إلى مدينته التي شيّدها في أرض جاسان حيث كان بنو إسرائيل، وأتيا معاً إلى تاب وأقيم هناك نصب وعليه صورة رعمسيس وحميه وامرأته حيث يرى رعمسيس على أريكته وحموه وامرأته يُبديان التجلّة له. وقد توطّد السلم بين المصريين والحيثيين بعد تلك الحروب الدموّة الجديدة حتى أصبح الأعدا اخداناً والمحاربون اخواناً.



صورة رعمسيس الثاني نقلاً عن تمثال في متحف اللوفر في باريس

قد لاحظ مسبرو (في تاريخ شعوب المشرق) أنَّ المصريين أخذوا يُدخلون حينئذ في لغتهم كلمات من فروع اللغة السريانية، وأنَّ يعلّموا أبناءهم بل عبيدهم أيضاً هذه اللغة، واستحسن علماءهم أن يُرَضّعوا كلامهم بألفاظ وجمل من لغة أجنبية؛ مثلاً بدلاً من أن يُسمّوا الباب «رو» كما في لغتهم المصرية سمّوه «ترعو» **لأفح** كما في السريانية، وبدلاً من أن يقولوا في التحيّة «أو» كما في لغتهم أخذوا يقولون «شلم» **هده** لسلام بالسريانية. فكأنه كان عندهم يومئذ ما هو كائن عندنا الآن من إدخال ألفاظ وعبارات أجنبية في لغتنا العربية. وروى لانرمان (في مجلّد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ٢٦٥) إنَّ التحاب بين دولتي مصر وسورية حينئذ كان وسيلة لدخول عبادة كثير من المعبودات السورّيّة الغينية عند سكان وادي النيل، فانتشرت عندهم وقتئذ عبادة بعل وعشتروت وغيرهما من الآلهة والآلهات. على أنَّ الظاهر أنَّ هذه العبادة استمرّت فرديّة فلم نجد حتى الآن هيكلًا على اسم هذه المعبودات السورّيّة إلّا سوتخ إله الحثّيين الذي أدخل عبادته الملوك الرعاة، وجدّد له رعمسيس الهيكل العظيم في تانيس بعد أن لبث مهتدماً في عصر الدولة الثامنة عشرة.

عد ٦٨

تيسّر حرب المصريين والحثّيين ودخول بني إسرائيل أرض الموعد

كانت هذه الأحداث بين المصريين والحثّيين عندما كان موسى منهزماً من غضب رعمسيس في برية سينا بعد قتله الرجل المصري أخذاً بثأر عبرانيّ أهانه. فكان الله يُعدّ موسى لإنقاذ شعبه من عبوديّة مصر، ويُهيّء بهذه الحروب ما يُيسّر تملك شعبه أرض الموعد بعد سنين. فلو تيسّر لملك الحثّيين أن يقهر ملك مصر ويؤذله لاستحوذ على أرض الكنعانيين برمتها وتعذّر على يشوع بن نون افتتاحها على ملك الحثّيين القدير الرهيب. ولو تيسّر للمصريّين أن يُبيدوا الحثّيين لاستمرّوا متمكّنين في أرض الموعد وعجز بنو إسرائيل عن امتلاكها والنجاة من غضب فرعون، فيسّرت العناية الصمدانيّة طريق العبرانيين إلى أرض الموعد بأن أضاف كلا العدوين قوّة الآخر وأعاقق بني إسرائيل في البرية أربعين سنة، إلى أن فقدت كلتا المملكتين ما كان لهما من الصولة والافتدار، فتهيّأ لشعب الله أن يرث بسهولة الأرض التي وعد بها إبراهيم وإسحق ويعقوب.

بقية ما كان بين خلفاء رعمسيس والحثيين

مات رعمسيس الثاني بعد أن ملك ٦٧ سنة منذ وفاة أبيه، وخلفه ثالث أبنائه المُسمّى منفتاح وهو فرعون الذي خرج في أيامه بنو إسرائيل من مصر. ولم تهدنا الآثار علاقة لمنفتاح مع الحثيين إلاّ بأنه أرسل إليهم مؤونات عند حصول مجاعة في بلادهم. فقد كتب هذا الملك على هيكل أمون: «شحت السفن مؤونات يعيش بها شعب الحثيين لأنني الملك الذي اختاره الآلهة». ولما استفتح بنو إسرائيل فلسطين قاومهم الحثيون الجنوبيون منضمين إلى سائر الفصائل الكنعانية. ولكن لا يظهر أنّ الحثيين الشماليين أنجدوا هذه الفصائل في حربها مع يشوع بن نون الذي قصر غزوته على سفح لبنان كما يظهر من سفر القضاة (ف ٣ عد ٣). فلم يمسّ الحثيين الشماليين بضرّ. ولم نجد في الآثار المصرية ذكراً للحثيين بعد ما مرّ إلّا في عهد رعمسيس الثالث أحد فراعنة الدولة العشرين. فقد نبأنا آثاره أنه لزمه في السنة الثامنة من ملكه أن يحارب الشعوب الذين حملوا على مصر من آسيا الصغرى وجزر اليونان برّاً وبحراً. والظاهر أنّ سلطة الحثيين حينئذ على آسيا الصغرى لم تكن على ما كانت عليه فيها في أيام رعمسيس الثاني لأنّ رعمسيس الثالث يقول في ما كتبه على هيكل النصر في مصر: «ارتعدت فرائص الشعوب فإنّ المتحالفين خرجوا من أنحائهم وجزرهم وانتشروا بغتة في أعمال عديدة، فلم يناصرهم شعب فنهبوا وأذلّوا شعوب الحثيين وسكان كاتي (عمل في كيليكيّا) وكركميش وأرواد». فاضطرّ الحثيون أن يصحبوا المتغلبين عليهم لقتال المصريين. ولما انكسر هؤلاء العداة انكسر ملك الحثيين معهم. وقد نُقشت جريدة اسماء الملوك الذين أذلّهم رعمسيس الثالث على جدر مدينة أبو؛ فكان بينهم: «ملك الحثيين المنكود الحظ الذي أسر حياً في الحرب». فهذا آخر ما ذكرته آثار مصر في الحثيين ونراها بكمت عن ذكر قادم ذلك إما لأنها هُدمت وإما لأنها هُجرت وأصبحت كركميش مركزاً لدولة الحثيين التي تقلصت شيئاً فشيئاً نحو الشمال، وقامت مكانها دولة الآراميين التي ستري أخبارها.

الفصل الرابع

تاريخ الحثيين المأخوذ عن آثار الآشوريين

عد ٧٠

الحثيون وتجلت فلاصّر الأول

إنّ تجلت فلاصّر الأول هو أول ملك من ملوك نينوى أنبأنا شيئاً من أخبار الحثيين. فهذا الملك كان نحو سنة ١١٣٠ (أو سنة ١١٢٠ على رواية لانرمان) قبل الميلاد في أيام قضاة إسرائيل. ويتلخّص من آثار تجلت فلاصّر أنه كان للحثيين حينئذ صولة كبرى في شمالي سورية خاصة، حتى كانت البلاد تُسمّى باسمهم أي بلاد الحثيين. وكانت ولايتهم تمتد من لبنان إلى الفرات وكانت بلاد الآراميين خاضعة لسلطتهم، وتنسبط ولايتهم شمالاً إلى مدخل البحر الأسود فتؤدّيهم الجزية قبائل الكبادوك (في آسيا الصغرى). وكانت عاصمة الحثيين كركميش (سيأتي تعريف موقعها). وهوذا ملخّص ما كتبه تجلت فلاصّر في إحدى صفائحه:

«أنا تجلت فلاصّر المحارب الشريف ذلت بلاد سوير الفسيحة ... قد أستحوذ أربعة آلاف رجل من فصائل الحثيين العصابة على مدن سويرتا المتعبدّة لآشور سيدي فروعتهم مخافة سلاحي، فأذعنوا دون حرب وذلت رقابهم لنيري، فغنمت أموالهم وأخذت مئة وعشرين من مركباتهم ووهبتها لرجال بلادي... وبعد السجود لآشور إلهي جمعت مركباتي وجيشت جنودي المظفرة، ومشيت على بلاد آرام التي لم يجلّ أهلوها آشور ربي، وسرت حتى مدينة كركميش في بلاد الحثيين (سورية) فعبرت الفرات وصنعت ملحمة كبرى وغنمت من عبيدهم وأموالهم ما لا يدركه عدّ. وبعد أن عبرت الفرات افتتحت شيئاً من مدنها ونهبتها وأحرقتها ودترتها».

ويظهر من كلامه أنه لم يفتح كركميش. وقال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ١٥٣): «لم يجسر تجلّت فلاصّر أن يحاصر كركميش لتيقنه بأنّ هذا الحصن المنيع لا تقوى عليه جنوده ولو كثر عديدها وعظمت بساتها. فاجترأ أن يضرب الجيوش التي كانت تنتظره في معبر الفرات ويفتح المدن الست المشار إليها. وتابع تجلّت فلاصّر غزوته في بلاد الحثّيين حتى بلغ جبل أمانوس (اللكام) فنكّل بأهله ونهب أموالهم فدانوا للغازي صاغرين فحسب نفسه كريماً إذ عفا عن حياتهم وابتزّ أموالهم، لكنه لم يبلغ نينوى إلا واحتشد عشرون ألف مقاتل من أهل هذا الجبل الحثّيين مؤثرين الموت على ذلّ أوطانهم. ولكن لم تغن ثورة هؤلاء شيئاً لأنهم كانوا أفراداً غير مدربين في الحرب. فإنّ جيوش تجلّت فلاصّر عادت على أعقابها إليهم فبسلتهم وشتّت شملهم ودمّرت هانوسا مدينتهم ودكّت كل بناء فيها إلا بيتاً صغيراً تركته ذكراً. وأقام تجلّت فلاصّر منصباً هناك كتب عليه خبر حملته وانتصاره ودكّة المدينة وأن لا يجترئ أحد على تجديد بنائها.

عد ٧١

كركميش مدينة الحثّيين

كانت كركميش في محاربة الآشوريين للحثّيين ما كانت قادس في محاربة المصريين لهم. فكانت قادس حصناً منيعاً يخفر طريق آسيا في وادي العاصي. وكانت كركميش مثلها على الفرات وتفضلها بأنها كانت محطة تجارة أيضاً بين مغرب آسيا ومشرقها. وقد ورد ذكر كركميش في نبوة اشعيا (فصل ١٠ عد ٩) وفي نبوة ارميا (فصل ٤٦ عد ٢) وفي سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠) حيث قيل: «صعد نكو ملك مصر لقتال كركميش عند الفرات فخرج عليه يوشيا». وفي السريانية لقتال مبوغ وفي العربية لقتال منبج عند الفرات وكان موقع كركميش نكرة لم تعرف إلا في سنة ١٨٧٥ ق.م، فكان بعض أهل العلم يقول إنه بين نهري الخابور والفرات. وجعله راولينسون من علماء الإنكليز ومسبرو من علماء افرنسة في محل منبج في قرب حلب سنداً إلى رواية الترجمتين السريانية والعربية الآتفة الذكر إلى أن اكتشف (سيكان) قنصل انكلترا في حلب موقعها الحقيقي سنة ١٨٧٤ و ١٨٧٥ م. وصدقه في ذلك العلامة جرج سميت الشهير بعلم

الأمر الآشورية. فقد اتفق أن مرّ هذا العلامة بحلب ماضياً إلى نينوى فأخبره
سكان أنه وجد على ضفة الفرات الغربية خرابات مدينة كبيرة وأسوار منيعة مؤذنة
بأنه كان هناك مدينة قديمة، وأنّ العرب تسمي هذا المحل جرابولس، ويسميه الأتراك
جرايس، وأنه يرى أن ليس هذا الاسم إلا مكسر هيرابولس أي المدينة المقدسة التي
ذكرها علماء اليونان. وأنّ كثيراً من الجوّالين ذكروا هذه الخرابات البعيدة مسافة
ست ساعات عن بيره جك. وأنه يرى أنّ هناك كركميش الشهيرة فشخص سميت
إلى جرابولس، وتفحص خراباتها ونسخ كل ما وجد من الكتابات، واستوضح
النقوش وسائر الآثار التي عثر عليها. فتابع سكان في رأيه وكتب إلى إنكلترا أن قد
اكتشف كركميش عاصمة الحثيين. ثم توفي سميت بعد أسبوعين على مقربة من
تلك الخرابات ضحية في سبيل العلم، وأخذ بعده بعض علماء الإنكليز ينقبون في
هذا الأمر ويحفرون في تلك الخرائب، فأدّى جهدهم إلى ما رآه سكان وسميت.
وأئده أنه تبين من آثار آشور نسيربال ملك آشور الذي كان سنة ٨٨٥ ق.م وآثار
ابنه سلمناصر الذي ملك سنة ٨٦٠ أو سنة ٨٥٨ ق.م أنّ كركميش موقعها على
الفرات في الشمال من نهر الساغون المعروف الآن بالساجور. وفي الشرق من
حلمان أو حلفان وهي حلب ومن خرزاز المعروفة الآن باعزاز في قضاء كلس.
وفي الجنوب من بلاد كمكوما المعروفة الآن بيلقيس. وكل هذه القرائن تدل دلالة
صريحة على أنّ هيرابولس هي كركميش فهي نحو الشرق من حلب واعزاز
وعلى ضفة الفرات الغربية وعلى بعد ثلاث ساعات تحت الساجور وست ساعات
من بيره جك. ثم وجدت في هيرابولس قطعة من آجر من آثار سرغون ملك
آشور الذي كان سنة ٧٢١ ق.م يتبين منها أنّ هذا الملك بنى هناك قصراً وتبين
من آثار أخرى له أنه افتتح كركميش وأضافها إلى مملكته وبنى فيها صرحاً لسكنى
الحاكم الآشوري الذي أقامه هناك. وأيضاً وجد في هيكل بلاوات في شمالي
نمرود باب كبير من نحاس أصفر نقش عليه صور حروب سلمناصر الثالث
والمدن التي افتتحها ومنها كركميش. وإذا عورضت خرائب هيرابولس وهيئة
موقعها بصورتها على ذلك الباب قضى بلا مشاحة أنّ جرابولس أو هيرابولس هي
كركميش، وهذا الباب محفوظ الآن في المتحف البريطاني. وروى سانس (في
كتابه في الحثيين) أنّ اسم هيرابولس نقل وقتاً ما إلى موبوغ أو منبج. ونقل إليها
أيضاً هيكل عشتروت الآلهة (من هذا اسم هيرابولس أي المدينة المقدسة). وبعد

خراب منبج رد اسم هيرابولس لكركميش؛ وهذا وجه التوفيق بين تسمية المدينتين باسم هيرابولس.

وقد كان افتتاح كركميش مخففة الفرات مقدّمة لا بدّ منها لكل غزوة في سورية من جهة المشرق. كما كان افتتاح فلسطين ضربة لازب لكلّ من الفراعنة عند حملاتهم على سائر أرجاء سورية والجزيرة. ومنذ زمان آحاب ملك إسرائيل لم تكن مملكة السامرة لتأمن سطو الآشوريين إلا إذا كانت كركميش مستقلة عنهم خاضعة لهم. ولما دمر سرغون ملك آشور مملكة السامرة وقرضها، قرض هو نفسه دولة الحثّيين في كركميش وأخضع بلادها لنير سلطانه.

عد ٧٢

الحثيون وآشور نسيربال

ملك آشور نسيربال من سنة ٨٨٣ إلى سنة ٨٥٨ ق.م وقد اكتشف لايرد تمثاله في أسوار حصن نمرود وهو الآن في المتحف البريطاني. وتجد مكتوباً على صدره: «آشور نسيربال الملك العظيم القدير ملك البلاد من ضفة دجلة إلى بلاد لبنانا (لبنان). أخضع لسطوته البحار الكبيرة وكل البلاد من مشرق الشمس إلى مغربها». وقد نقش تاريخ غزوته لسورية على صفيحة من صخر فهاك مآله: «في اليوم الثامن من شهر ايرو (نيسان)، غادرت كالح، وعبرت دجلة قاصداً مدينة كركميش في بلاد الحثّيين (سورية) واجتزت نهر بورات (الفرات) على قطع من أديم، واقتربت من كركميش وفرضت على سنغار ملك بلاد الحثّيين عشرين وزنة من الفضة وحلى عديدة من الذهب ومائة وزنة من النحاس ومائتين وخمسين وزنة من الحديد والقصدير وآلات من حديد ونحاس (ذكر اسماءها ولا تعرف مستحياتها) وغنائم بلاطه وأثاثه شيعاً كثيراً لا مثيل لظرافته وأثاثاً من أبنوس وأعراشاً من خشب السنديان ومائتي امرأة رقيقة وأنسجة من صوف وبرفير ومركبات مرصعة بالعاج وتمائيل من ذهب والمركبات والأدوات الحربية التي كانت لقائد جيش كركميش حفظتها في مخازني».

فمن هذا الغنائم الثمينة العديدة الأصناف تتبيّن عظمة غنى سنغار ملك الحثّيين،

واتساع نطاق التجارة في بلاده، وتسميته ملك الحثيين لا ملك كركميش دليل على انبساط ملكه في سورية كلها، ولا أقل من اشتماله على القسم الأكبر منها. ولذا لا عجب من كون انخذاله أفضى إلى استسلام الأقيال الخاضعين له إلى الغازي في كركميش. فإن آشور نسيربال كتب أيضاً: «لأن ملوك هذه الأعمال ذلت أعناقهم لنير سطوتي بعد أن تهيأوا لناوأتي، فقبلت رهائنهم ودانوا لسلطتي وتركت كركميش وصرت قاصداً بلاد لبنانا» (لبنان). على أن أميراً حثياً كان يلي السهول المجاورة نهر عبزا (هو المعروف الآن بنهر عفرين). وبعض المدن الشهيرة منها هزاز (المعروفة الآن باعزاز)، نوى أن يعترض مرور الغازي لكنه عند دنوه من أملاكه ذل له وقدم له أثمن ما كان يملكه.

ودوخ هذا الملك بلاد أمانوس (جبل اللكام) وجدد المسير نحو العاصي فعبره، وسار بجيشه على جانبه أياماً كانت له فيها حروب ليست بذات بال، إلى أن بلغ لبنان وملك سفحيه من جهة البحر وجهة سهل بعلبك والبقاع العزيز، وقدم محرقة للآلهة على صخر تتلاطم عليه أمواج البحر شكراً لهم على إحسانهم إليه. وقد عدد ملوك شاطئ البحر الذين أخذ الجزية منهم فكان منهم ملوك صور وصيدا وجبيل وارواد التي في وسط البحر. وكانت جزيتهم فضة وذهباً ونحاساً وحديداً وأدوات من حديد ونسائج من صوف وكتاناً وأخشاباً من الصندل والأبنوس وجلود حيوانات بحرية. ولم يأت بذكر قادم مع أنه سار في وادي العاصي كافة لأنها كانت قد خربت أو تدهورت كثيراً. وقال إنه ركب السفن التي أخذها من ارواد متنزهاً في البحر فقتل دلفيناً، وأنه أكب على الصيد في لبنان فاصطاد خنازير برية وبقراً وحشية، وأنه أخذ بعضها حياً وأرسله إلى آشور، وأنه قتل نموراً وضباعاً وثعالب واصطاد أياًلاً وغزلاناً ونسوراً إلى غير ذلك من الوحش والطيور.

عد ٧٣

الحثيون وسلمناصر الثالث

خلف آشور نسيربال ابنه سلمناصر الثالث فاستوى على سرير الملك سنة ٨٥٨ ق.م. ودام فيه إلى سنة ٨٢٣ ق.م. وكانت له حروب عديدة مع الحثيين الذين كانوا منقسمين على ممالك عديدة تضمها عهدة واحدة. وكانت لهم

مراكز مهمة وحصون منيعة منها كركميش وحلب وحماه. إلا إنَّ غري الوفاق لم تكن بينهم متوثقة بل كان يغاير بعضهم بعضاً. ولذا نراهم أحسنوا الدفاع ولم يتيسر لهم الانتصار على عدو شديد البأس ودولة جبارة كالآشوريين. وقد جدّد سلمناصر حملات أبيه عليهم بل قضى أكثر مدة ملكه يحارب الحثّيين ومَن جاورهم. ويظهر أنَّ سنغار كان استمرَّ ملكاً عليهم وعصا سلمناصر فجهز عليه الحملة الثالثة من حملاته، فانتصر عليه سنة ٨٥٤ ق.م. فإنه كتب على صفيحة في كورخ ما ملخصه: «إنَّ سنغار ملك كركميش وغيره من الملوك وثقوا بقوتهم وهبوا لمحاربتني فتوكلت على قدرة نركال السامية وعلى الجيوش المظفرة التي حشدتها لي آشور سيدي، فحاربتهم وشتت شملهم وبسلت جنودهم بالنبال كالإله بالي (إله العواصف والصواعق)، وأمطرت عليهم طوفان نبال وأفعمت البرية من قتلاهم. وذريت جثثهم كالطين في الصحراء وأخذت كثيراً من مركباتهم وخيولهم المروضة لجرّ المركبات، وأقمت راية من رؤوس قتلاهم على مدخل المدينة ودثرت مدنهام ودفعتها للهب» (فيكورو في مسائل مثورة صفحة ٣٩٦). وروى لانرمان (مجلد ٤ من تاريخه الشرقي صفحة ١٩٢) إنَّ سلمناصر بلغ بغزوته هذه إلى جبل أمانوس (اللكام) وأقام هناك نصباً ذكراً لانتصاره، وسار حتى وادي العاصي فحضر جيش المتحالفين الذين تجمعوا هناك فلعبت بهم أيدي سبأ. وتجدل منهم في ساحة الحرب ألفان وستمئة قتيل. وقبض سلمناصر على أربعة آلاف وستمئة أسير استاقهم إلى نينوى.

ولكن لم يزايل ملك آشور بلاد الحثّيين ليضع غنائمه وأسراه في مأمن إلا وجيش لرؤساء الحثّيين عسكرياً آخر، وتعقبوا آثار الغازي مستردين المواضع التي كان يغادرها حتى بلغوا الفرات. فعاد سلمناصر على أثره منكلاً بالملوك الذين جسروا على معاودة العصاوة. وكان سنغار ملك الحثّيين قد حصّن مدينة من أملاكه تُسمى سازابي لم نعلم حتى الآن موقعها في بلاده فحاصرها سلمناصر وافتتحها عنوة. فإنه كتب على مسئته: «دنوت من مدينة سازابي أحد حصون سنغار ملك كركميش فحاصرتها وافتتحتها وقتلت كثيراً من الرجال وغنمت غنيمة ثمينة وخربت مدن ولايته وأحرقها وافترضت جزيةً على سنغار ثلث وزنة ذهب ووزنة من فضة وثلاثين وزنة من النحاس ومئة من الحديد وعشرين وزنة من النسيج الأبيض والبرفير، وخمسة أعراش، وابنته مع حلالها ومئة بنت من الأشراف، وخمسمئة ثور

وخمسة آلاف خروف». ثم يقول: إنه تقدّم إلى سفح جبل أمانوس (اللكام) وفرض على كايانا ملكه وزنة من فضة ووزنة من نحاس ووزنة من حديد وثلاثمائة ثوب من صوف وكتان وثلاثمائة ثور وثلاثمائة وثلاثة آلاف خروف ومئتي جائز (يُراد به ما تسمّيه العامة عندنا المذّ والرومية. فالجائز الخشبة المعترضة بين الحائطين والتي توضع عليها أطراف الخشب) من الأرز، وبناته مع حلاهنّ. وجاء في الخطوط المنقوشة على الثيران التي أقامها في قصره في نينوى، أنه افتتح في إحدى حملاته سنة ٨٤٦ ق.م سبعا وثمانين مدينة من بلاد سنغار ملك الحثّيين.

وبعد أن تشاغل سلمناصر مدة في الحرب في بلاد أرمينيا سؤلت له نفسه المغرمة بالفتح أن يُخضع للملكه سورية الوسطى أيضاً فعبّر الفرات مرة أخرى، واستوفى الجزية من ملك كركميش وباقي الولاة الخاضعين له في سورية الشمالية. وسار إلى وادي العاصي فتألّب عليه ايركولينا ملك حماه، وابن هدر الأوّل ملك دمشق، وعصابة كبيرة من فصائل الحثّيين. فكان المتحالفون على سلمناصر اثني عشر ملكاً من جملتهم آحاب ملك إسرائيل. فاستعرت نار الحرب في كركر (لم يتعيّن حتى الآن موقعها) وكان النصر لسلمناصر. وقد كتب في آثاره إنه قتل من الأعداء حينئذٍ أربعة عشر ألف قتيل. ومع هذا جمع ابن هدر بقايا عساكره وأضرم نار الحرب ثانية فلم يصادف نجاحاً أيضاً، بل ترك في ساحة القتال عشرين ألف قتيل وخمسمائة قتيل وانهزم نحو البحر. فأخذ سفناً فنزلها مع بعض قادته فاتبعه سلمناصر. وقد تفاخر بأنه لحقه مع جنوده في وسط تيّار البحر لكنه لم يدركه. وسنجيء على ذكر بعض غزواته عند الكلام في تاريخ فينيقية والبرانيين. فإنّ سلمناصر هذا هو الذي كسر آحاب ملك إسرائيل وأكره ياهو ملك السامرة على أداء الجزية. ومن بعد موته استراحت كركميش والحثّيون مدةً لشغب وقع في بلاد آشور عقبه وهن ملوكها فاغتنم جيرانها هذه الفرصة فخلعوا نيرها.

عد ٧٤

الحثّيون وخلفاء سلمناصر حتى تجلت فلاصر الثاني

لم نرَ إلى الآن أثراً لخلفاء سلمناصر وأسلاف تجلت فلاصر الثاني ينبئنا بشيء من أخبار الحثّيين إلا ما رواه لانرمان (مجلد ٤ صفحة ٢١١ من تاريخه الشرقي)

من أن رمان نيرار الثالث حفيد سلمناصر حمل بسلاحه على بلاد الحثيين ثم فينيقية حتى صيدا وصور وبلاد عمري أي مملكة إسرائيل وبلاد آدوم وبلاد فلسطين. وأنه دخل دمشق وأسر ملكها المسمى مرياه أو مرياح. فقد كتب في أثر له قد راعه خوف سيدي آشور فوقع على ركبتي صاغراً خاضعاً، ففرضت عليه جزية ألفين وثلاثمائة وزنة من الفضة وعشرين وزنة من ذهب وثلاثماية وزنة من نحاس وخمسة آلاف وزنة من حديد ونسائج صوف وكتان. وأخذت سريراً من عاج وعرشاً من عاج وأثاثه وخزنته وكل ما كان في دمشق قاعدة ملكه وفي قصره. على أن خضوع هذه البلاد كلها للآشوريين لم يكن إلا موقوفاً فإذا عاد الغازي إلى عاصمة ملكه عاد الحثيون وغيرهم إلى استقلالهم واستفحل أمرهم في بلادهم، لاسيما في هذه الحقبة التي استحوذ الوهن فيها على ملوك آشور. فاستمر الحثيون ينعمون بالآستقلالهم إلى أن رقى منصة الملك تجلت فلاصر الثاني في ١٣ أيار (نيسان في عرفهم) سنة ٧٤٥ ق.م. وبعد أن ذلّ صعب الأمور في بلاد الكلدان وغيرها غزا سورية سنة ٧٤٣ ق.م. ويتلخص من فقرة وجدت من آثاره أنه عبر في سورية ظافراً فأكره ملك الحثيين الذي كان يُسمى حينئذ بيزيريس على الخضوع له، وأقام بعسكره على جبل يقرب من مدينة أرباد المعروفة الآن بتل ارفاد على بعد نحو ساعتين نحو الغرب الشمالي من حلب، وكان سكانها حينئذ حثيين. ومن هناك أرسل يستدعي جميع ملوك سورية ليأتوه بالتقادم دلالة على انقيادهم إليه وإن أبوا غداً إياهم مصارحة بالعداوة فوافوه وقطار مركباتهم وخيولهم وجمالهم تقلّ هداياهم وتقادمهم. فانصرف مظهرأ الرضى عنهم حينئذ على أن تلك التقادم الثمينة هيّجت مطامعه وحملته أن يعاود غزواته في السنة التالية. فلم يكن هؤلاء الملوك هذه المدة أوغاداً بل أخذتهم الحميّة وضمتهم العصبية فقاوموا الغازي شديد المقاومة. فأرباد وحدها تحمّلت الحصار سنتين لكنّ افتتاحها يشر للغازي أن يقهر مدن سورية بأسرها. ففتحت حماه أبوابها للظافر فجلا من أهلها جمّاً غفيراً ومن سائر مدن سورية ألوفاً مؤلفة إلى بلاده، وأداه الجزية ملوك سورية. وقد عدّد هؤلاء الملوك متفاخرأ في أحد آثاره فكان منهم بيزيريس ملك كركميش، وأنيال ملك حماه، وراسن ملك دمشق، ومنحم ملك السامرة، وحيرام ملك صور، وسبييتي بعل ملك جبيل. على أن تجلت فلاصر ترك الملوك الحثيين وغيرهم من ملوك سورية على

منصبات ملكهم وعاد إلى آشور. وأما هم فبدلاً من أن يعنوا بلتم شعث شعوبهم وإصلاح أحوال بلادهم وتجديد قواهم بالإنقاذ، انقلبوا إلى المغامرة والانقسام ومعاودة بعضهم بعضاً. فعاد تجلت فلاصّر يغشي بلادهم بجحفل جزّار سنة ٧٣٤ ق.م، فاستحوذ على مدنها، ونكّل في أهلها، وجلا كثيرين منهم، وبسط غزوته وسطوته إلى أطراف فلسطين الجنوبية. ولما هم بالعود إلى بلاده استدعى هؤلاء الملوك لمقابلته فكانوا خمسة وعشرين ملكاً منهم بيزيريس ملك كركميش وغيره من ملوك الحثّيين. وسنأتي على ذكر هذه الحروب في تاريخ العبرانيين بتفصيل أكثر. ومات تجلت فلاصّر سنة ٧٢٦ ق.م وخلفه سلمناصّر الخامس. وعاد الشغب والقلق في بلاد آشور، فانتهاز بيزيريس ملك كركميش الفرصة فثار بغية أن يتملّص من ولاية آشور ويعود إلى استقلاله الذي انتزعه منه سرغون خلف سلمناصّر الخامس كما سيجيء (ملخص عن المجلد الرابع من تاريخ لانرمان).

عد ٧٥

الحثّيون وسرغون ملك آشور

لم يوجد حتى الآن أثر مسماريّ يبيّن بما كان من أعمال سلمناصّر الخامس لأنه لم يملك إلا خمس سنين من سنة ٧٢٦ إلى سنة ٧٢١ ق.م. لكن يوسفوس (في ك ٩ ف ٤ من تاريخ اليهود) حفظ لنا فقرات من تاريخ ميناندر يتكلّم فيها على أعمال هذا الملك لاسيما حصاره صور. والكتاب المقدّس أشبع الكلام في محاربه مملكة إسرائيل وحصاره السامرة. وسنأتي على ذلك في كلامنا على الفينيقيين والعبرانيين. وأما الحثّيون فلا نعلم من أحداثهم في أيامه إلا محاولتهم التملّص من استيلائه على أنّ خطوط سرقين أو سرغون الذي تخلف له بعد موته حتف أنفه أو قتله أفاضت بذكر الحثّيين. فنلخص منها ما يأتي:

إنّ بيزيريس ملك الحثّيين كان وليّ أمرهم في كركميش ثيفاً وثلاثين سنة، وكان يقاتل الآشوريين كلما تيسّر له قتالهم، فإذا انتصروا عليه أذاهم جزية وإن ثقيلة واستمرّ في منصّة ملكه. وافتتح سرغون السامرة وصور ودمشق، وأغضى على بيزيريس لقره من بلاده. ورآه بيزيريس متشاغلاً في الحرب في أرمينيا وبلاد مادي. فحسب الفرصة تلائمها للتشبّث بملكه وتقويته تجاه الآشوريين. ولم يكن له أن

يتطلب حلفاء في دمشق والسامرة تعرض سرغون ملكهما، فعنَّ له أن يحالف ملوك الشمال لاسيما ميتا ملك الموشكيين (وهم من ذرية ماشك ابن يافت ومقامهم في بلاد الجركس) وأمريس ملك توبال (وهو ابن يافت أيضاً ومقام قبيلته في جانب بني ماشك المذكورين ارجع إلى عد ٤١) وأودسا ملك أرمينيا فعقد عهدة معهم. ودرى بذلك سرغون فذهمه على حين غفلة وهاك ما كتبه سرغون (نقلًا عن مينان في تاريخ ملوك آشور صفحة ١٦٢)^(١):

«وفي حملتي الخامسة (سنة ٧١٧ وسنة ٧١٦ ق.م) كان بيزيريس ملك كركميش عصا كبار الآلهة وأوفد سعاة إلى ميتا ملك بلاد موشكى (ماشك) لإشهار العداوة للآشوريين، وعقد على ذلك عهداً وموائق. فرفعت يدي إلى آشور سيدي خاضعاً فقيض لي أن أخرجه من مدينته وأخذت خزائنه وكبئلته بقيود الحديد، وغنمت ما كان من الفضة والذهب في قصره، وجلوته مع سكان كركميش إلى بلاد آشور لأنهم شاركوه في ثورته. وأخذت أمواله وغنمت منهم خمسين مركبة وأسرت مئتي فارس وثلاثة آلاف راجل. ووسعت أملاكى وأسكنت قوماً من بلاد آشور في مدينة كركميش بعد أن نقلت أهلها إلى بلاد آشور». وأقام سرغون حاكماً آشورياً في كركميش، فإنه استطرق سياسة حديثة وهي أن لا يجتزئ بضرب جزية على من يقهره من الملوك، بل أن يعزل هؤلاء الملوك عن منصبات ملكهم ويرفع إليها حكاماً آشوريين، ويجعل بلادهم اقليماً من مملكته.

وعليه فقد لحق الحثيون سكان كركميش ببني إسرائيل المسيبين إلى آشور وبابل. وكانت هذه الضربة قاضية وانقرضت بها مملكة الحثيين. وكان بيزيريس آخر ملوكهم. وأمست كركميش ولاية آشورية يليها حاكم من نينوى وتبدلت بسقوطها حالة المشرق كله. وكان اشعيا النبي يهتف في إحدى نبؤاته على آشور: «أليست كلنة (مدينة في الجزيرة يظن أنه كان موقعها حيث بُنيت قطيسغون بعداً) مثل كركميش وحماء مثل ارفد (تل ارفاد في أنحاء حلب كما مر) والسامرة مثل دمشق» (فصل ١ عد ٩)؟ على أنَّ استحواذ الآشوريين على كركميش أضرب بالحثيين. لكنه جدًّا بكبير النفع على المدينة، فإنَّ انبساط سلطة الآشوريين في سورية

Menent Annales Des Rois d'Assyrie. (١)

زاد في حركة تجارتها، فأصبحت مركز تجارة متوسطة بين مغرب آسيا ومشرقها يتقاطر التجار إليها من كل أفق.

وأنبأتنا الآثار المسمارية أنّ: «منه كركميش» أي وزنتها كانت معياراً لموازين آسيا كلّها. وما برح موقعها مفتاحاً لكل ما وراء الفرات غرباً. فجعلها ذلك مطمئناً لعيون الملوك إليها. فقد جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠): «أنّ نكو ملك مصر صعد لقتال كركميش عند الفرات» كما مرّ. وجاء في نبؤة ارميا (فصل ٤٦ عد ١): «كلمة الرب التي كانت إلى ارميا النبي على الأمم على مصر على جيش فرعون نكو ملك مصر الذي كان عند الفرات في كركميش الذي ضربه نبوكدنصر ملك بابل». ولم تتقهقر إلا عند سقوط نينوى في القرن السابع قبل الميلاد على أنه بقي لها شيء من الأهمية في مدة ولاية اليونان وسقوطها هيرابولس أي المدينة المقدسة كما رأيت.

الفصل الخامس

تاريخ الحثيين المأخوذ عن آثارهم

عد ٧٦

آثار الحثيين وخطوطهم وتعسّر فهم رموزها إلى اليوم

إنّ كل ما رويناه حتى الآن من تاريخ الحثيين أخذناه عن آثار غيرهم؛ أعني الآثار المصرية والآشورية. وتبيّن منها أنه كان للحثيين دولة كبرى حاربت مصر وآشور حروباً غزواً. وأكرهت مصر على عقد عهدة صلح مشرف لها. ولم يقو الآشوريون عليها إلا بعد قرون من السنين. على أنّ أخبار هذه الأحداث كتبها أعداء يهوون طبعاً تخليد حسن الذكرى لهم ويأنفون من تخليد ذكرى انخذالهم. ورواها كتبة ملأقون لملوكهم فلا أقلّ من أن سكتوا فيها عن كل ما يشعر بحطّة شأنهم ورفعة شأن أعدائهم. فلا تحسب أخبارهم على صدقها منزّهة عن المبالغة

والتعظيم. ولا يأتينا بصحيح أخبار الحثيين إلا آثارهم. ولا يحق لنا أن نأتي بالحكم الفاصل إلا بعد التروّي بينات الفريقين. وقد اهتدي في هذه الأيام إلى آثار عديدة للحثيين كان بعضها يظنّ مصرياً فتحقّق الآن أنه حثّي. فدلّتنا هذه الآثار على انبساط دولتهم وشدة صولتهم وكثرة مستعمراتهم وتوغّل منازلهم في أقصى البلاد. وما برحنا نحتاج إلى الكشف عن رموز خطوطهم وفتح الله علينا باب كنوزها فلم يهتد العلماء بعد إلى مفتاح لها. ونعلّل النفس بأمل الفوز بذلك عن أمد قريب فنغنم منها ما غنمناه من الكنوز الهيروغليفية والمسمارية.

قال العالم سائس عن نفسه (في كتابه في الحثيين) إنه عثر على مثال قطعة مستديرة من فضة وُجدت في ازمير، نُقشت عليها صورة بطل ويمناه رمح، وشماله على صدره، ولباسه قميص تعلوه منطقة مطرّزة، وعلى رأسه قبة منطقة على أعلاه، وفي رجليه حذاء يشمل الساق (جزمة) معكف الطرف وفي نطاقه خنجر، وعلى دائرة القطعة أحرف مسمارية سهلت عليه قراءتها، وحول الصورة خطوط حثّية يشرّ له أن يقرأ فيها: «تركودية ملك بلاد إرمه». وقد كان ملك في كيليكيا لهذا الاسم وتكثر التسمية به في سكان آسيا الصغرى. وأما بلاده فيترجّح أنها أريما في بلغارداغ في آسيا الصغرى. فإذا وجدت آثار أخرى حثّية وقد كُتبت عليها بلغة أخرى مع لغتهم تيسّرت قراءة لغتهم وتوضّل بها لإدراك معانيها كما حصل في حلّ رموز الخطوط الهيروكليفية والمسمارية.

إنّ الخطوط الحثّية تختلف عن الخطوط الهيروكليفية المصرية. وقد رأى سانس (في كتابه المذكور) والأب فيكورو (في كتابه المسائل المنشورة صفحة ٤١٦) أنّ الحثيين أوجدوها ولم يأخذوها عن غيرهم. وتختلف عن الخطوط المصرية وإن قُدّر أنّ مشاهدتهم للخطوط الهيروكليفية نبّهت أفكارهم لاختراع خطوطهم. ويحمل على القول بذلك أنّ في أقدم الكتابات علامات تمثّل بعض المتاع المختصّ بالحثيين دون غيرهم، كالحذاء المتعكّف الطرف، والإكليل الحائطي. وإذا تتبّعنا هذه الخطوط وجدنا هيئتها تتحسنّ بمرور الزمان. فالخطوط المنقوشة على الآثار في آسيا الصغرى أشبه بخطوط كركميش. لكن الخطوط التي تُرى على الآثار في حماه أبسط وأقلّ تلبّكاً؛ فهي أحدث لأنّ استيلاء الحثيين على حماه كان متأخراً.

وقدّر سائس أنه لا يبعد أن تكون الأبجدية التي بقي استعمالها في جزيرة

قبرص إلى عهد اسكندر الكبير هي الحروف الحثية لعدم مطابقتها للحروف اليونانية الفينيقية الأصل. ولاحتمال أن تكون فرعاً عن الحروف المستعملة في أنحاء آسيا الصغرى القريبة من قبرص، والتي سنبين أن السواد الأعظم من سكانها القدماء كان من الحثيين. ويؤيده أن الآنية التي وُجدت في ترويا كُتب عليها بتلك الأحرف القبرسية. فيظهر من ذلك أن هذه الحروف القبرسية كانت تستعمل في آسيا الصغرى قبل أن تخلفها الحروف الفينيقية. وكان من عادة الحثيين أن يرسموا خطوطهم ناتئة لا محفورة. فتطرق من وراء على صفائح معدنية لنتتأ الحروف في جهتها الأخرى. فكذا كانت عهدتهم مع مصر مكتوبة على صفيحة من فضة. وتقرأ هذه الحروف تارة من اليمين إلى الشمال وتارة بالعكس. فإن كانت رؤوس الحيوانات المصوّرة بها متجهة إلى اليمين فتقرأ منها، وإن إلى الشمال فمناها أيضاً، وتقرأ أحياناً من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى.

عد ٧٧

لغة الحثيين وصناعتهم

وأما اللغة المكتوبة فيها هذه الخطوط فيرجح أنها ليست من اللغات السامية. فالأعلام المذكورة في الآثار المصرية والآشورية قل فيها ما يمكن رده إلى أصل سامي على أن الحثيين الذين توطّنوا جنوب فلسطين فلا جرم أنهم تركوا لغة أصلهم الحثي وتكلموا بلغة مواطنيهم من الساميين؛ هذا رأي سائس وقد رأيت مخالفة هالافي له ودعواه أن في لغتهم أسماء كثيرة سامية. والأصوب ما رآه فيكورو أي إنه لا يلزم التعجيل بالحكم على لغتهم قبل الوقوف الكافي عليها وحل رموزها. أما الصنائع فقد اشتهروا منها بالنحت. وتشهد لهم بذلك آثارهم الباقية لاسيما أطلال بوغاز كوي وأيوق في آسيا الصغرى. وقد أتقنوا هندسة التحصين كما يرى في محاصن بوغاز كوي وخنادقها والحصن المنيع الذي في وسطها. وقد مهروا في استخراج المعادن كما يظهر من مناجم بلغارداغ في آسيا الصغرى. وتُنسب إليهم صناعة تحويل الحديد فولاذاً. وقد وُجدت لهم أختام من حجار كريمة بدیعة الصناعة تمتاز عن مصنوعات سائر الأمم برسم ثلاث دوائر تتخلّلها رموز وصور مدهشة.

قال الأب فيكورو (صفحة ٤٣٠ من كتابه المذكور) شرع عامة العلماء الآن

يَقْرُون أَنَّ قِسْماً كَبِيراً مِنَ الصَّنَاعَةِ عِنْدَ الْيُونَانِ انْتَحَلُوهُ عَنِ الْآشُورِيِّينَ مُنْتَقِلاً إِلَيْهِمْ مِنْ آسِيَا الصَّغْرَى بِوِاسْطَةِ الْحِثِّيِّينَ. فَإِنَّ الصَّنَاعَتَيْنِ الْمِصْرِيَّةَ وَالْآشُورِيَّةَ اجْتَمَعَتَا فِي كَرَكَمِيشَ مَدِينَةِ الْحِثِّيِّينَ مِنْ أَقْدَمِ الْأَيَّامِ. فَقَدْ رَأَيْنَا الْحِثِّيِّينَ يُحَارِبُونَ الْمِصْرِيِّينَ وَالْآشُورِيِّينَ مِنْ أَقْدَمِ الْأَعْصَرِ. وَرَأَيْنَا كِتَاسَارَ مَلِكِ قَادِسَ يَزُورُ صَهْرَهُ رَعْمَسِيسَ الثَّانِيَّ فِي مِصْرَ. فَالْحُرُوبُ وَالتَّجَارَةُ أَدْنَتْ الْقِبَائِلَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. فَأَخَذَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهَا مَا رَاقَ لَهُ مِنَ صَّنَاعَةِ الْآخَرِ. يَظْهَرُ أَنَّ صَنَاعَ الْحِثِّيِّينَ أَلْفُوا مِنَ صَّنَاعَةِ مِصْرَ وَنِينُوى وَبَابِلَ أَسْلُوباً خَاصّاً بِهِمْ، وَاخْتَرَعُوا أَشْيَاءَ مِنْهَا التَّسَرُّ ذُو الرُّأْسَيْنِ الَّذِي صَارَ بَعْدَ ذَلِكَ شِعَاراً لِلْإِسْلَامِيِّينَ وَلِبَعْضِ مُلُوكِ أَوْرُوبَا. وَتَطَوَّرَتْ صَّنَاعَةُ الْحِثِّيِّينَ مَرَحَلةً مَرَحَلةً إِلَى بِلَادِ الْيُونَانِ فَأَخَذَ هُؤُلَاءُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً عَنِ الْفِينِيقِيِّينَ لَكُنْهُمْ لَمْ يَأْخُذُوا عَنْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ. فَبَيْنَ مَصْنُوعَاتِهِمْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَشْبَهَ بِصَّنَاعَةِ الْحِثِّيِّينَ فِي آسِيَا الصَّغْرَى وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا فِينِيقِيَّةٌ. هَذَا مَا رَوَاهُ الْأَبُ فَيْكُورُوسُ.

عَلَى أَنَّ الْأَبَ قَيْصَرَ دِي كَارَا بَرَهَنَ فِي الْفُصُولِ الَّتِي يَنْشُرُهَا فِي الْمَجْلَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالْتَمَدُّنِ الْكَاثُولِيكِيِّ وَخَاصَّةً فِي عِدْدِهَا الصَّادِرِ فِي ١٦ نَيْسَانَ سَنَةِ ١٨٩٢مَ هَذِهِ إِنَّ صَّنَاعَةَ الْحِثِّيِّينَ خَاصَّةً بِهِمْ لَمْ يَأْخُذُوهَا عَنْ غَيْرِهِمْ بَلْ أَخَذَ غَيْرُهُمْ عَنْهُمْ. وَإِنَّ دَعْوَى أَخْذِهِمُ الصَّنَاعَةَ عَنِ الْمِصْرِيِّينَ أَوْ الْبَابِلِيِّينَ أَوْ الْآشُورِيِّينَ لَمْ تُثَبِّتْ حَتَّى الْآنَ، وَإِنْ قَالَ بِهَا بَعْضُ الْمَشَاهِيرِ وَاطَالَ الْبَرَهَانُ عَلَى ذَلِكَ. وَمِنْ أَقْوَى حُجَجِهِ أَنَّ آثَارَ الْحِثِّيِّينَ فِي بُوغَازِ كُورِيٍّ وَغَيْرِهَا مِنْ آسِيَا الصَّغْرَى هِيَ أَقْدَمُ كَثِيراً مِنْ آثَارِ الْمُلُوكِ الْآشُورِيِّينَ، بَلْ رَوَى أَنَّ تَجَلَّتْ فَلَاصِرُ الثَّانِي نَفْسَهُ تَفَاخُرَ فِي مَا كَتَبَهُ عَلَى بَعْضِ آثَارِهِ بِأَنَّهُ بَنَى فِي كَالِحَ مَدِينَتَهُ صَرْحاً أَشْبَهَ بِقُصُورِ بِلَادِ الْحِثِّيِّينَ وَإِنَّ سُرْغُونَ تَفَاخُرَ بِأَنَّهُ شَيَّدَ إِيُونَاناً أَشْبَهَ بِقُصْرِ حِثِّيٍّ. وَقَالَ دِي كَارَا أَيْضاً إِنَّ الْآثَارَ الْحِثِّيَّةَ فِي آسِيَا الصَّغْرَى هِيَ أَقْدَمُ أَيْضاً مِنْ حُرُوبِ الْمِصْرِيِّينَ مَعَ الْحِثِّيِّينَ. فَلَمْ يَأْخُذُوا صَّنَاعَةَ التَّحْصِينِ وَغَيْرِهَا عَنِ الْمِصْرِيِّينَ بَلْ رُبَّمَا أَكْسَبُوهُمْ أُمُوراً مُهِمَّةً فِي صَّنَاعَتِهِمْ عَلَى عَهْدِ الْمُلُوكِ الرَّعَاةِ الْحِثِّيِّينَ أَصْلاً عَلَى مَذْهَبِ دِي كَارَا وَغَيْرِهِ كَمَا سَتَرَى. وَعَلَى كَلَا الْقَوْلَيْنِ فَالْيُونَانُ أَخْذُوا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي صَّنَاعَتِهِمْ عَنِ الْحِثِّيِّينَ. وَقَالَ سَائِسُ (فِي كِتَابِهِ فِي الْحِثِّيِّينَ فَصْلُ ٦) إِنَّ مَصْدَرَ فَلَاحِ الْيُونَانِ هُوَ الْحِثِّيُّونَ الَّذِينَ افْتَتَحُوا آسِيَا الصَّغْرَى مِنْ أَقْدَمِ الْأَعْصَرِ.

ديانة الحثيين

أما ديانة الحثيين فيظهر أنهم أخذوها عن بابل وبثوها في سورية وآسيا الصغرى. وتطوّرت من ثم إلى بلاد اليونان. فإنّ معبودات قبائل البلاد المذكورة واحدة وإن اختلفت اسماً. فعشتروت البابلية هي من معبودات الحثيين والكنعانيين أيضاً. وابن عشتروت البابلية وعروسها هو تموز أو أدونيس عند الفينيقيين ويسمّيه الآراميون في سورية هداد. وهو في آسيا الصغرى أنيس راعي النجوم الساطعة. وهو بلا شكّ الإله الشاب المنقوشة صورته على صخر في يازيلي كايا عند بوغازكوي. وراء تمثال الإلهة الأم مستوياً نظيرها على ظهر فهد أو أسد. وجميع هذه القبائل تبكيه كل سنة لأنه قُتل يافعاً ثم تحتفل بالمسرة لقيامته من الموت. وفي لبنان صورته قتيلاً في قرية الغينة في الفتوح على صخرة، وصورة الزهرة معشوقته على صخرة أخرى تبكيه واجمةً، وصورته قائماً من الموت على صخرة في محل قبالة الغينة يُسمّى المشنقة من عمل جبيل.

وقد وجد هندرسون قنصل إنكلترا في حلب (الذي كلّفته إدارة المتحف البريطاني أن ينقب في أطلال كركميش) صفيحة من صخر في حائط صرح اكتُشف هناك مصوراً عليها صورة الزهرة السورية تسجد لها امرأة أحد الكهنة. والإلهة عريانة مجتّحة بجناحين، وهذا أقدم مثال لصورة هذه الإلهة التي عمّت عبادتها آسيا وبلاد اليونان. فأنات أو نانا البابلية وإيستار الآشورية وعشتروت الكنعانية وفانوس الزهرة القبرسية ليست إلا أسماء متعددة لإلهة واحدة هي المعبودة والمصوّرة في كركميش (فيكورو صفحة ٤٠٩ من كتابه المذكور). وعثر بعضهم على قطع نقود في ترسييس تمثّل إلهاً يُسمّى في لغتهم سنداس أو سندن، وهو الإله الشمس في كيليكيّا على ما برهن ادوار ميار. وقد تبين من نصّ العهدة التي عقدت بين رعمسيس الثاني ملك مصر وكيثاسار ملك الحثيين أنّ أخصّ معبودات الحثيين كان ستخ أو شتخ، وعشتروت. ويظهر أنّ الملوك الرعاة (الذين يرجّح كونهم حثيين كما سترى) أوصلوا إلى مصر عبادة ستخ وسمّوه سات. وكان أعظم الآلهة عندهم. وكانوا يقيمون له المعابد في المدن فيقولون ستخ تاب وستخ ممف مثلاً. والمعبود واحد إلى أن تغلبت على عبادته عبادة الآلهة الأم التي كانوا يستمونها عشتروت أو أثنارانا وليست إلا سميراميس إلهة آسيا الشهيرة.

وقد كان الهيكل الذي ترى أطلاله في منبج في أنحاء حلب مفرداً لعبادة هذه الإلهة الأم العظيمة. وقد بُني على مثال هيكلها في كركميش بعد انتقاضه. وقد وصفه لوقيانوس على ما كان عليه في القرن الثاني بعد الميلاد فقال إنه كان أشبه بهيكل سليمان. فكان مؤلفاً من دار خارجة وهيكل داخلي يحوي قدس أقداس. ويفصله عن باقي الهيكل حجاب كبير ثمين. وعلى جانبيه عامودان مخروطيان (أي يتديان من سطح ويرتفعان مستدقين حتى ينتهيا إلى نقطة) رمز إلى إلهة الخصب. وفي الدار الخارجة مذبح كبير من النحاس. وعلى شماله صورة إلهة هي سميراميس ومن ورائها حوض ماء فسيح فيه السمك المقدس. وفي داخل الهيكل عرش للشمس وتماثيل آلهة شتى. ومن جملتها تماثيل آلهة أشبه بصورة الإلهة التي في بوغاز كوي الآتي ذكرها منتصبة على أسد والإله بعلها واقف على أظهر ثيران وهو أيضاً أشبه بما تمثله صورة الإله في المحل المذكور. وتحت الهيكل الجب المارّ ذكره (في الكلام على الطوفان) الذي يزعمون أنه ابتلع ماء الطوفان. وتقليد الطوفان عند الحثيين مطابق لما في التوراة أخذه أجدادهم من بابل (ملخص عن الفصل السادس من كتاب سائس في الحثيين).

عد ٧٩

ملابس الحثيين وأسلحتهم

عدا الحذاء المتعكف الطرف الذي أصبح دليلاً على الحثيين لأنه يشاهد في آثارهم كلّها، كان لهم نوع من القفّاز (الكفوف) يدفئ الراحة ولا يشمل الأصابع ليطلق لها العمل. ولهما نوعان من القبعة إحداهما تنطبق على الرأس كالعراقية، والثانية كبيرة بشكل تاج مستطيل أعلاه مخروطي على الغالب ويشاهد أحياناً مدوراً ومزداناً بعصائب على شبه من القرون. ويرى على رأس أحد تماثيل الآلهة في بوغاز كوي تاج حائطي أي أشبه بحائط أو سور. وتشاهد ملابس النساء طويلة تشمل الرجلين. فصورة امرأة الكاهن الساجدة للزهرة في الصورة التي وُجدت في كركميش (كما من) متشحة بثوب طويل يستر جسمها إلا الذراعين وبعض الصدر، محتزمة بنطاق من حبل مشدود إلى الراء. فهذا ولا ريب هو النطاق المقدس الذي أشار إليه ارميا (في رسالته التي رواها باروك في فصل ٦ من نبوته عد ٤٢) بقوله:

«والنساء يقعدن على الطرق متحزّيات بالحبال». وترى مثل هذا المحزم في التماثيل الصغيرة التي وُجدت في هيكل أنات في بابل وفي هيكل أفروديت في قبرص. وكانت ملابس كهنتهم مستطيلة أيضاً متسعة الأكمام. وأما ملابس رجالهم فقميص تتصل إلى الركبة فقط مشدودة على الوسط بنطاق يعلّق به خنجر. وكانت هذه الملابس من الصوف والكتان مصبوغة بألوان. واعتادوا تزيين أثوابهم بنقوش وطرّاز على أطرافها. وسلاحهم الرمح والقوس يُشدّ على الظهر والفأس ذو الحدين وهو من مختصّاتهم وقد صار في ما بعد رمزاً إلى الإله زفس وهو المشتري. وُجدت لهم آنية وأسلحة من حجر كانوا يستعملونها في بدء نشأتهم. وقد عثر بعضهم على فأسين حجريين في ارفاد (تل ارفاد في أنحاء حلب) وأفسس (يختلف شكلهما عن غيرهما فكأنهما كانا مختصّين بخدمة الآلهة) سائس في كتابه في الحثّيين فصل ٨ ملخصاً. هذا ما أدّتنا آثارهم لمعرفة ولتنظر إلى ما تؤدّينا إليه من معرفة مستعمراتهم وانبساط ولايتهم.

الفصل السادس

آثار الحثّيين الدالة على توطنهم آسيا الصغرى وولايتهم فيها

عد ٨٠

تمثال نمفيو

إنّ آثار الحثّيين التي كُشف عنها في محالّ عديدة من آسيا الصغرى، دلّتنا على أنّ مستعمراتهم لم تنبسط جنوباً وغرباً فقط حتى دمشق ولبنان، بل امتدّت شمالاً أيضاً في أعمال آسيا الصغرى إلى مدخل البحر الأسود، وقد استفحل أمرهم في هذه البلاد على هيئة معاهدة ضمّت جميع ولايتهم، وآثارهم المؤدّنة بذلك كثيرة. وأوّل أثر اكتُشف هو تمثال ملك حثّي في قرية اسمها نمفيو على الطريق المؤدّية من

ازمير إلى سرد (المعروفة الآن بسرت وهي سرديس القديمة) في وادي يُسمى الآن قَرْبال. فقد مرّ في ذلك الطريق جَوَّالان إنكليزيّان سنة ١٨٣٩ م. فشاهدا صورةً على صخر وظهر لهما أنها سابقة عهد اليونان. وكان حينئذٍ في ازمير العالم تكسيا الإفرنسي فذهب مع بعض الإفرنسيين فأخذ رسم الصورة وأرسله إلى بعض أهل العلم في أوروبا. ولما كان هيرودوت قد ذكر هذه الصورة (في كتابه ٢ صفحة ١٠٦) وقال إنها صورة رعمسيس الثاني ملك مصر. فأجمع رأي مجتمع العلماء (أكاديمي) في باريس وبرلين على أنّ الصورة ليست إلا ما ذكره أبو التاريخ هيرودوت لعدم العلم وقتئذٍ بتاريخ الحثيين إلى أن أخذ بعض علماء الآثار الريب في صحة مقال هيرودوت بناءً على أنّ الثوب المتقشّص به التمثال قصير، والخذاء الذي في رجله معطّف الطرف إلى غير ذلك من العلامات المخالفة لعوائد المصريين. ومع هذا لبث أكثر العلماء يقولون بمقال مجتمعي العلماء في باريس وبرلين مغتريين بالأحرف الهيروغليفية المنقوشة في جانب التمثال. إلى أن وجد العالم روزليني فرقاً بين الخطوط المصرية والخطوط المنقوشة على التمثال. لكنه قال: إنّ الكاتب لا يعرف الكتابة المصرية وأراد أن يقلّدها ففاته أمور كثيرة. وبقي أمر هذه الصورة بين الشك واليقين إلى أن كُشف عن الآثار الحثية فتحقّق الآن أنّ تلك الصورة لا تمثّل رعمسيس الثاني بل ملكاً حثياً كان يلي تلك البلاد.

وجاء في المجلة العلمية المعروفة بالتمدّن الكاثوليكي في عددها المؤرّخ في غرة تشرين الثاني سنة ١٨٩٠م أنه عدا هذه الصورة قد كشف العالم هومان هناك سنة ١٨٧٦م عن صورة ملك آخر أصغر من الأولى لكنها تطابقها هيئة. وقد انقطع الصخر المنقوشة عليه من الجبل. ووجد سائس بعد ذلك في جانب هذه الصورة قطعاً كتبت عليها خطوط تطابق خطوط الحثيين التي وُجدت في سورية. وسمات هذه الصورة الثوب القصير والخذاء المتعطّف الطرف والقوس والسيف والتصوير الناتئ لا المحفور فتعيّن أنها حثية.

عد ٨١

آثار الحثيين في بوغاز كوي ويازيل ي كايا

إنّ المجلة العلمية التمدّن الكاثوليكي المارّ ذكرها شرعت منذ أوائل سنة ١٨٩٠م

تنشر فصولاً متتالية موضوعها الحثيون وارتحالاتهم. ومؤلف تلك الفصول هو الأب قيصر دي كارا اليسوعي صاحب الكتاب في الملوك الرعاة في مصر. وقد أطلال وأجاد بذكر كثير من آثار الحثيين في أعمال آسيا الصغرى متعمداً غرضين؛ أحدهما: أن يثبت توطنهم وولايتهم في هذا الاقليم منذ أقدم الأعصر. والثاني: أن يعارض آثارهم هذه بأمثالها في بلاد اليونان وبعض إيطاليا وجزر بحر الروم لينتج من ذلك أنّ سكان هذه البلاد الأولين حثيون أصلاً ارتحلوا إليها من آسيا الصغرى. ففي هذه الفصول نلخص ما نرويه في هذه الآثار.

فهذه المجلة ذكرت في عددها المؤرخ في ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٩١م أطلال بوغاز كوي من عمل الكبادوك حيث الآن ولاية سيواس وقرمان. فقالت إنّ هذه القرية الحقيرة الآن دللتنا آثارها أنها كانت مدينة كبيرة لا ينقص مدار أسوارها عن خمسة أو ستة كيلومترات. وقد بقيت منها أطلال حثية مذهشة أخذ رسومها العالم يروو وأطلال الكلام فيها في كتاب نشره سنة ١٨٦٢م موسوماً «بالكشف عن الآثار القديمة في غلاطية وبيتينيا»^(١). ثم في كتاب آخر نشره سنة ١٨٨٧ أسماه «تاريخ الصناعة في القدم»^(٢).

ومن هذه الأطلال ما حسبه بعضهم هيكلاً والأظهر أنه قصر ملكي طوله ٥٧ متراً وعرضه ٤٢ متراً وبعض أحجاره لا ينقص عن خمسة أو ستة أمتار طولاً ومترين عرضاً. وهناك أطلال ردهة لا ينقص طولها عن خمسة وعشرين متراً وعرضها عن واحد وعشرين متراً، وعرش قائم على أسدين من صخر. وللردهة أربعة أبواب أمام كل منها رواق فسيح وفي جانبيها مخادع للخفر وفي داخل القصر غرف لسكنى الملك وآله وحمامات. وكل ذلك على غاية من الإتقان والزخرف. وأسوار المدينة غاية في المناعة والمتانة. وقد بُني هناك على صخرين حصنان يسميهما السكان الآن ساري قلعة (أي القلعة الصفراء) وينجي قلعة (أي القلعة الجديدة). وفي كلا المحصنين آبار للماء منقورة في الصخر وثخانة السور المتوسطة أربعة أمتار ونصف، وأحجاره الخارجة ضخمة والداخلة أصغر منها والحشو

Perrot Exploration Archéologique de la Galatie et de Bithynie (١)

Histoire de l'Art dans l'Antiquité (٢)

بينهما حصى صغيرة. وعلى مدار الأسوار من الخارج خليج فسيح يمنع الدنو منها وتحتها سراديب واسعة ذات مخارج خفية. حتى إذا رأى الأعداء الأبواب موصدة وهاجموا المدينة خرج المحاصرون من ورائهم وجعلوهم في الوسط.

ثم ذكرت المجلة المذكورة في عدديها المؤرخين في ٢١ شباط وفي ١٨ نيسان سنة ١٨٩١م أطلالاً أخرى في القرب من بوغاز كوي على بعد كيلومتر منها نحو الشرق في محل يسمونه هناك يازيلي كايا (أي الصخرة المكتوب عليها). فترى هناك عرصة تحيطها صخور من جهة وبناءً من أخرى. طولها نحو خمسة وعشرين متراً وعرضها نحو أحد عشر متراً. وعلى جدرانها سبع وستون صورة نائمة عجبية الصناعة. وفيها كل السمات الدالة على كونها من صنع الحثيين. ولا مراء بذلك لأنّ على بعضها خطوطاً حثية. على أنّ غير الأيام غيّرت تلك الصور حتى تعسّر الآن التمييز بين ما كان منها رجلاً وما كان منها امرأة. فرأى يزو أنّ أكثرها صور رجال، ورمساي أنّ أكثرها صور إناث. واتفقا في أنّ المشهد يمثّل حفلة دينية. وأثبت رمساي أنه كان للنساء في آسيا الصغرى المقام الأوّل في أمر الدين كأنه بسبب عبادة الإلهة الام كما مرّ. وقدّر مكاتب المجلة أنّ نقش هذه الصور لم يكن قبل القرن الخامس عشر ولا بعد الرابع عشر قبل الميلاد. وفصّل هيئات أكثر تلك الصور ومن جمعتها صورة الإله الام وهو عستروت، ومن ورائها صورة ابنها أو عروسها وهو أنيس أو تموز يستوي كل منهما على ظهر فهد أو أسد.

وأجمل هذه الزخارف صورةً على رأسها التاج المخروطي المطرّز، وفي رجلها الحذاء المتعكّف الطرف ويدها اليمنى ممتدّة إلى صورة طفل أو رجل، ويسراها تحتضن صورة رجل آخر مازّة على عنقه وقابضة على معصم يده. ومن رأي كاتب المجلة أنّ هذه التماثيل يُشار بها إلى تملك الحثيين بلاد الكبادوك آتين من سورية الشمالية بعون إلهتهم المنقوشة صورها في هذا المحلّ. وعليه فالصورة المذكورة أنفاً تشير إلى ستخ يحتضن ملك الحثيين وخاصةً لأنه كتب في صورة المعاهدة مع ملك مصر ما نصّه: «وما في وسط الصفيحة الفضيّة هو صورة ستخ محتضناً ملك الحثيين». فأبّى العجب أن تكون صورة الكبادوك كذلك؟

آثار أخرى للحثيين في آسيا الصغرى

روت المجلة العلمية التمذّن الكاثوليكي في عددها المؤرخ في ٢٠ حزيران سنة ١٨٩١م أنه يوجد في قرية حقيرة تُسمى أيوك أو أيوق تبعد مسافة خمس ساعات عن بوغاز كوي نحو الشمال الشرقي أطلال بناء قديم وُجد فيها صور عديدة ناتئة تمثل آلهة وإلهات وكهنة ونساءهم ورجالاً ونساءً ومسوخاً وأسوداً وثيراناً معدة للتضحية بها ونسراً ذا رأسين وغيرها. ولا مرية أنها حثية لمطابقتها باقي آثارهم من حيث الهيئة والملابس والصناعة والصور الرمزية. ويظهر أنها أقدم قليلاً من آثار بوغاز كوي ويازيللي كايا. ومن رأي يرو أن تلك رسوم قصر ملك أو أمير ومسنده أن النقوش في هذه الأطلال أشبه بالنقوش التي على أبواب قصور الملوك الآشوريين. لكن بناء أيوك كان نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وقصور الآشوريين شيدت في القرن الثامن قبله. فالأولى أن تكون هذه القصور على مثال أبنية الحثيين كما قدّمنا. والأوجه أن أطلال أيوك كانت معبداً للحثيين بدليل وجود صور الآلهة والآلهات والمذبح وأشخاص في حالة السجود والتعبّد وثيران وغيرها مما تستلزمه الضحايا.

وقد وجد يرو أطلال حصن في الجنوب الغربي من أنكوروا على مسافة تسع ساعات. ويُسمى هذا الحصن بلغة أهل البلاد كاور قلعة سي (أي قلعة الكافر). ويظهر أن هذا الحصن كان فسيحاً منيعاً وقد نُقش على صخر في قرب مدخله صورتان ارتفاع كل منهما ثلاثة أمتار، وهيئة ملبسهما واحدة وعلى رأسيهما التاج المخروطي. وإحدهما ذات لحية والثانية لا لحية لها وملبسها الثوب القصير المتصل إلى الركبة، وهو مشدود على الوسط. وفي النطاق سيف قصير والرجل مشدود عليها بالحذاء المعطف. فتعین بهذه العلامات أنهما من صنع الحثيين ولعلهما صورتا ملك وابنه افتتحا هذا العمل.

وقد ذكرت المجلة المذكورة في عددها المؤرخ في ١٨ تموز ١٨٩١م آثاراً وُجدت في مرعش منها تمثال أسد هو الآن في متحف الآستانة العلية نقله إليها حمدي بك الشهير وهو من صخر أسود صلد طوله نحو متر، وعلى صدره وبطنه وذراعيه خطوط حثية. (وترى صورته عد ٧). وُجد أيضاً في مرعش تماثيل وآثار

أخرى عديدة ضربنا عن ذكرها خشية الملل؛ هذا فضلاً عما وجد في آسيا الصغرى وسورية الشمالية من الأختام المحفور عليها خطوط حثية حتى ألف منها مجموعات



صورة تمثال أسد موجود في متحف الأستانة
وهو من صخر أسود صلد

عديدة من جملتها المجموع الكائن الآن في متحف اللوفر في باريس. فكلّ ما مرّ وما ضربنا عن ذكره حبّاً بالإيجاز لا يدع محلاً للريب في أنّ الحثّيين ارتحلوا منذ أقدم الأيام من شمالي سورية وانتشروا في أعمال آسيا الصغرى وتولّوا أمرها.

الفصل السابع

جاليات الحثّيين إلى بلاد اليونان وإيطاليا وقبرص

عد ٨٣

مذهب الأب قيصر دي كارا في أصل السكان القدماء في هذه البلاد

روى الأب دي كارا في فصله المثبت في عدد المجلة التمدّن الكاثوليكي المؤرّخ في ١٧ ك^٢ سنة ١٨٩١م أنّ العالم يزو الأنف الذكر بعد إبداء اندهاشه من صناعة الحثّيين وحذقهم في تحصين مدنهم ومناعة أسوارهم تمتّى أن يتجد من يتجشم معارضة صناعة الحثّيين بصناعة اليونان، ويبيّن ما بينهما من المشابهة أو الفرق. فلعلّ هذه المعارضة تكشف عن مشابهات كثيرة ومهمة بين الحصون الكبادوكية. وأقدم الأسوار والحصون في بلاد اليونان خاصة في مدينة تيرينت (Tiryntes في القرب من خليج أرغوس. وينسب بناؤها إلى تيرنس بن أرغوس) وأطلال مدينة ميشان (Mycenes وهي أيضاً في عمل أرغوس). وينجلي التقليد الذي يجعل مشيدّي هذه المدن أبطالاً أتوا من آسيا. ولعلّ التنقيب والتروّي بهذه الآثار يأتينا بإثبات لشهادة الأفاصيص القديمة التي قلّما حفل بها المؤرّخون ولا أعاروها جانب التصديق.

فالأب دي كارا يصرّح في الفصل المذكور أنّ جلّ عنايته مصروف في ما تمناه يزو من المعارضة بين الآثار الحثّية واليونانية، وأنّ المشابهة بين آثار الفريقين تامة وليست مقصورة على آثار المدن التي ذكرها في بلاد اليونان بل تمتد إلى آثار في إيطالية خاصة في جنوبيها وفي جزر البحر المتوسط. وإنّ الأفاصيص القديمة يتبيّن منها أنّ الأبطال الذين أتوا من آسيا لم يشيدوا المدن التي ذكرها يزو في عمل

أرغوس فقط بل بنوا كثيراً غيرها أيضاً في أركاديا والمورة والأبير وتاليا وإيليريا وفي جزر البحر المتوسط وإيطاليا. وإنه إذا كان المؤرخون لم يحفلوا بتلك الأقاليم فلم يكن ذلك إلا لجهل العلماء قبل الخمسين سنة الأخيرة بحالة الممالك القديمة وآثار الشعوب الشرقية خاصة في بلاد الكلدان وآشور وسورية الشمالية ومصر. فإن الخطوط الهيروغليفية والمسمارية التي فتحت لنا كنوز المعارف كانت علامات بكاء لا تنطق بشيء. ولا يُستدل بها على شيء فأصبحت الآن لسناء فصيحة تنبئنا بحقائق مهمة. وأقاليم الآلهة وإن داخلها خرافات ومبالغات فغالبيتها مسندة إلى أصل تاريخي شوهته الخرافات. ولم يكن يُهتدى إلى أصلها للجهل بحقيقة تواريخ الشعوب. فما جاء فيها عن الأبطال الذين أتوا من آسيا فشيدوا المدن في بلاد اليونان وجنوب إيطاليا وجزائر بحر الروم إنما هو عبارة عن أنَّ جاليات من هؤلاء الحثيين اجتازت من آسيا الصغرى فبنت ثم المدن المذكورة. واستقرى الأب دي كارا غرضه هذا مقيماً الحجج عليه لا من المشابهة فقط في البناءات والتحصينات بل من أنَّ المعبودات ونوع العبادة والأسلحة وصناعة الآنية وغيرها؛ كل هذه واحدة عند الحثيين والسكان القدماء في البلاد المذكورة وسيريك كلامنا الآتي يبين ذلك مفصلاً.

عد ٨٤

أقوال العلماء في سكان بلاد اليونان وجزائر بحر الروم القدماء

ذهب عامة العلماء القدماء وكثير من علماء هذا العصر أيضاً إلى أنَّ سكان بلاد اليونان، وجزائر بحر الروم إنما هم من نسل يوان الرابع من أبناء يافت بن نوح وخاصة مع ذرية كتيمة أحد أبنائه. فقد جاء في سفر التكوين (فصل ١٠): «بنو يافت جومر وماجوج وماداي ويوان... وبنو يوان آليشه وترشيش وكتيم ودودانيم من هؤلاء تفرق أهل جزائر الأمم في بلدانهم كلٌّ بحسب لغته وعشائره بأسمهم». وقال فرنسيس لانرمان (في كتابه أصل التواريخ تبناً للتوراة مجلد ٢ قسم ١ من طبعة باريس سنة ١٨٨٢): «وكلٌّ يرى بناءً على البيِّنات التي عينا بجمعها أنَّ لاسم كتيمة في أسفار العهد القديم معنى واحداً متفقاً عليه أعني جزيرة قبرص. وبهذا المعنى يلزم فهم هذه الكلمة في الفصل العاشر من سفر التكوين. وقد أنبأنا

التقليد القديم أنّ كتيّم بن ياوان يُعبّر به عن سكان جزيرة قبرص. وهذا التقليد حفظه لنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ فصل ٦) والقديس ايرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين فصل ١٠) والقديس ايفانيوس (في كتابه ضد البدع) وتاودوريطوس (في تفسير نبوة ارميا) وزوناراس (في ك ٥ من تاريخه): «وزاد لانرمان على ذلك أنّ الأنساب التي ذكرها موسى في الكتاب أُيدتها الآن اكتشافات العلم الحديثة لاسيما الخطوط القديمة التي وُجدت في قبرص وأمكن حلّ رموزها في هذه السنين الأخيرة. فالأحرف الهجائية التي كُتبت هذه الخطوط بها استعملها القبرصيون من أقدم الأيام وقبل أن تبلغ أحرف الهجاء الفينيقية إلى اليونان. ولا يعلم أصلها ولعلها اخذت عن الحثّيين الشماليين. وقد كتب بها فرع من اللغة اليونانية القديمة يقرب من لغة أركاديا التي كانت اللغة الطائفية في الجزيرة. وكلما مرّ يثبت أنّ شعب قبرص كان يونانيّاً ولغتهم يونانية منذ الأعصر العريقة في القدم، وأنّ كتيّم هو ابن ياوان لا غيره.

ثم إنّ العالم هالافي ذهب في المباحث الكتابية التي نشرها في المجلة المعروفة بالجلة اليهودية إلى أنّ المراد باسم كتيّم ابن ياوان وقبرص واحد. فإنه قال: «وأما نظراً إلى ياوان فيمكننا أن نُسلّم بأنّ كتيّم ودودانيم يُراد بهما قبرص ورودس. ونعتقد ذلك أمراً مؤكّداً». وقال بعد ذلك: «إن اسم كتيّم في التكوين يُراد به جزيرة قبرص لا غير». وفي محل آخر: «إنّ جزيرة قبرص كتيّم الكتاب وهو ابن ياوان». وقال في مقالة نُشرت بين مقالات مجتمع (أكادمي) الخطوط القديمة سنة ١٨٨١م متكلّماً في اسم الحثّيين ما ملخصه أنّ هذا الاسم يُراد به سورية بأسرها يعني كل البلاد الواقعة في عبر الفرات الغربي ممتدة من جبل أمانوس (اللكام) إلى تخوم مصر أي سورية وفينيقية وفلسطين. واسم الحثّيين في آثار تجلت فلاصّر الأوّل (في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد) يشمل سورية التي بين الفرات والعاصي. وأما فينيقية فتُسمّى هناك عارواي المغرب، والمصريون كانوا في الدولة الثامنة عشرة يعنون بالحثّيين شعوب سورية الشمالية. واسم حثّيين في الكتاب المقدّس يُراد به سكان سورية الشمالية ويُطلق أيضاً على بعض سكانها الجنوبيين. إذاً لا ريب في القربى بين الحثّيين سكان فلسطين والحثّيين الشماليين. فالفصيلتان من ولد حث بن كنعان.

ولاحظ هذا العالم في كلامه على الآثار الآشورية التي جاء فيها ذكر جزيرة قبرص، إنّ هذه الجزيرة دُعيت فيها باسمين (بلاد مينا وبلاد أمنا وبلاد يتنانا). أما الاسم الأول فإنّ لفظ يونا أو أونا ظهر قربه من يوان الذي يُسمّى به العبرانيون أحد أبناء يافت. ويسمّيه اليونان ياون أو يون ويطلقون هذا الاسم على البحر المتوسط. وكتيم في الترجمة العبرانية يُراد به ابن يوان وتُسمّى به جزيرة قبرص؛ وهذا لا يشدّد عن التاريخ بشيء إذ لا مرية بأنّ السواد الأعظم من قدماء القبرسيين يوناني أصلًا. وأما يتنانا الاسم الثاني فلم يرد إلا في آثار الآشوريين وخاصة في أثر لسرغون اكتشف في أخربة شيشيوم أو كيتيون في قبرص؛ فهذا مقال هذين العالمين الحديثين وهو مطابق لقول جمهور العلماء القدماء.

عد ٨٥

رأي الأب دي كارا في أصل سكان قبرص الأولين

أفاض الأب دي كارا في فصله المثبت في مجلة التمدّن الكاثوليكي (في عددها المؤرّخ في ١٧ أيار سنة ١٨٩٠م) في الكلام في هذا الشأن. فروى قولَي العالمين المذكورين كما رويناها وبالع في ردّها وفي إثبات قوله الآتي بيانه. فأنكر أنّ الكتاب يعني قبرص باسم كتيم بن يوان لأنّ كلمات الآية الرابعة من الفصل العاشر في سفر التكوين هي: «وبنو يوان أليشة وترشيش وكتيم ودودانيم». ولا شيء فيها يعني أو يعنّ قبرص. وموسى عقب كلامه في كل من أنساب بني نوح الثلاثة بآية مترادفة. فقال في بني يافت (عد ٥): «من هؤلاء تفرّق أهل جزائر الأمم في بلدانهم كل بحسب لغته وعشائره بأممهم». وقال في بني حام (عد ٢٠): «هؤلاء بنو حام بعشائرتهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم». وفي بني سام (ع ٣١): «هؤلاء بنو سام بعشائرتهم ولغاتهم في بلدانهم بأممهم». فهذا الكلام لا برهان فيه على مواطن أبناء نوح بل لا بدّ من تمييز مصادر أخرى للاستدلال على أوطانهم وعشائرتهم ولغاتهم. فالكتاب ذكر كتيم كما ذكر أليشة وترشيش ودودانيم وسائر بني سام وحام. فكما لا تدلّ أسماءهم على بلاد كل منهم كذلك لا يدلّ اسم كتيم على بلاده. وما من جاهل بتضارب أقوال العلماء ومفسّري الكتاب في تعيين البلاد، والشعوب المقصودة بالاسماء التي ذكرها موسى في أنسابه. فجزيرة قبرص

إذاً ليست معنيّة بنفسها باسم كتيّم بن يواو الذي ذكره الكتاب، بل لا مناص من إقامة غير هذا الذكر دليلاً على أنّ كتيّم يُراد به سكان قبرص الأوّلون.

وقد ردّ دي كارا برهان لانرمان بالتقليد القديم فقال ما هذا التقليد إلا مقصور على شهادة يوسيفوس، لأنّ سائر مَنْ ذكرهم أخذوه عنه واعتمدوا فيه قوله، بل إنّ القديس إيرونيموس لم ينسب القول بأنّ المراد بكتيّم وقبرص واحد إلى التقليد، بل عزاه إلى تفسير بعض المفسّرين. وعليه فيوسيفوس هو الشاهد الفرد لهذا التقليد القديم وهو من ذلك يجهل حقيقته، إذ خلط بين الحثّيين وكتيّم؛ وهذه عبارة يوسيفوس (نزيدها نحن على ما في المجلة مأخوذة عن ك ١ فصل ٦ في تاريخ اليهود): «كتيّم (بن يواو) الذي أقام في الجزيرة المسماة الآن قبرص وسماها باسمه. ولذا يسمّى العبرانيون كل الجزر والسواحل البحرية كتيّم. وحتى الآن تُسمّى إحدى مدن قبرص كيتيوم سماها كذلك مَنْ يضعون لكل شيء اسماً يونانياً. وهذا يختلف قليلاً عن اسم كتيّم». وقال دي كارا إنّ اسم كتيما أو حتيما التي سمّيت الجزيرة به منذ القدم هو من حثيم لا من كتيّم بمقتضى رواية يوسيفوس. وأما على برهان لانرمان المأخوذ عن حروف الهجاء التي وُجدت في قبرص وعن أنّ المكتوب فيها فرع من اللغة اليونانية يقرب من لغة أركاديا.

وإنّ تلك الحروف لم تكن يونانية بل ربما كانت خطوط الحثّيين. فيجيب دي كارا إن صحّ قول لانرمان إنّ لغة القبرصيين كانت أركادية أو فرعاً يقرب منها، وإنّ الحروف التي كانوا يكتبون بها لم تكن يونانية، بل ربما كانت حروف الحثّيين، فيلزم من ذلك أنّ القبرصيين الأوّلين لم تكن لهم حروف كتابة خاصة بهم بل تعيّن عليهم أن يستعملوا خطوط أمة أخرى ربما كانت الحثّية. وعليه فلا يخلو الأمر بأحد وجهين؛ إما أنّ تلك الخطوط كانت في الجزيرة عندما أخذ القبرصيون يستعملونها، وإما أنهم أتوا بها من الخارج عندما غشوا الجزيرة. فإن كانت في الجزيرة فيلزم منه أنّ الحثّيين أتوا قبرص قبل القبرسيين الذين ذكرهم لانرمان لأنّ الخطوط حروف الحثّيين. وإن كانوا أتوا بها من الخارج فيلزم أن يكونوا أخذوها من أركاديا لأنّ المكتوب بها أركادي بحسب زعم لانرمان. والحال أنّ لانرمان نفسه أيضاً لا يسلم بحروف هجاء في بلاد اليونان قبل حروف الفينيقيين. وسوف نقيم الأدلة على أنّ الأركادييين أيضاً كانوا حثّيين، وكان بين سكان قبرص فريق يتكلّم باللغة

الأركادوية. فإذا الخطوط التي كان القبرصيون يستعملونها كانت حثية أصلاً في كل افتراض. وسكان قبرص الأولون كانوا حثيين لا من ولد كسيم بن يواو أي يونان.

ثم ينشئ دي كارا باقامة البرهان على غرضه قائلاً كان للجزيرة في أقدم الأيام اسمان: كثيما أو حثيما وحماتوسيا؛ والاسمان مشعران بنسبتها إلى الحثيين. أما الأول فأمره بين وأما الثاني فيؤذن أن هذا الاسم أخذ عن حماه أخص مدن بني حث. إلى أن يقول إن صحَّ زعم من يقولون إن القبرصيين يونانيون أصلاً، فلا يلزم منه أن اليونان تقدّموا الحثيين بتوطنهم جزيرة قبرص بل غشوها بعدهم. ولذا سلّم بمقال هالافي في تسمية قبرص يمنا أو امنا مكسر يونا أو يون. ولكن أنكر عليه أن هذا من أول اسماء الجزيرة. وحسب هذا الاسم متأخر الوضع. وأنكر أيضاً أن السواد الأعظم من القبرصيين يوناني أصلاً بدليل أن هيرودوت ذكر (في ك ٧ راس ٨٩) الشعوب الذين توطّنوا قبرص فقال: إنهم «أثينيون وأركاديون وشيتينيون وفينيقيون وأحباش». وليس من هؤلاء يونان إلا مهاجري أثينا، ولا يمكن أن يكون هؤلاء السواد الأعظم.

عد ٨٦

رأي الأب دي كارا أن سكان جزائر بحر الروم رودس وكريت وساموس وغيرها وبلاد اليونان وبعض إيطاليا إلى توسكانا هم حثيون أصلاً

نبه دي كارا في آخر الفصل الآنف الذكر إلى التمييز بين حثيم وهم الحثيون وبين كثيم وهم عشيرة يافية من ذرية كثيم بن يواو بن يافت بن نوح، مثبتاً أنه على هذا التمييز يتعلّق حلّ المسألة، أيّ الفريقين سبق الآخر في الارتحال من آسيا الصغرى إلى بلاد اليونان وجزرها وإلى إيطاليا أيضاً. وإن مصدر الإشكال في معرفة أصل اليونان والإيطاليين إنما هو عدم التفرقة بين اسماء القبائل القديمة، ثم الإغضاء على مراعاة الوقت الذي كانت الارتحالات فيه، وإن من هذا الباب لزوم التمييز بين البلاسج الأولين - أقدم سكان بلاد اليونان وبعض إيطاليا - وبين البلاسج المتأخرين وهم أقوام من قبائل يافية أتت بعد ذلك من آسيا أيضاً فحلّت في بلاد اليونان

وإيطاليا وانتصرت على البلاسج الأولين وقاسمتهم السكنى في أوطانهم. ويأخذ في تأييد قوله أنّ السكان الأولين في بلاد اليونان وجزر بحر الروم وإيطاليا الجنوبية الذين يسمّون البلاسج الأولين؛ إنما هم حثّيون ارتحلوا من آسيا الصغرى ومن شمالي سورية فحلّوا في قبرص ورودس وكريت وساموس وغيرها من الجزائر. وفي بلاد اليونان وجنوبي إيطاليا إلى وسطها وفي قسم من توّسكانا؛ فهم من ولد حث بن كنعان بن حام لا من ولد يافان بن يافت مستدلاً على ذلك بأنّ آثار الصناعة وأسلوب تشييد المدائن والحصون القديمة التي ترى في بلاد اليونان وإيطاليا هي أشبه بآثار الحثّيين التي ترى في سورية وآسيا الصغرى كما مرّ ذكرها. ومما يحتجّ به لرأيه أنّ التقليديات الدينية عند البلاسج الأولين كانت مخالفة لتقليديات اليافيّين وأنّ لغتهم كانت حامية لا يافتيّة.

وقد استأنف دي كارا إقامة البراهين لتأييد قوله في فصل آخر أثبتته مجلة التمدّن الكاثوليكي في عددها المؤرّخ في ١٩ تموز سنة ١٨٩٠. وخلاصة ما قال فيه إنّ من التقليد العام المعقود عليه لإجماع المؤرّخين أنّ السكان الأولين في قبرص ورودس وكريت وساموس وسائر جزائر بحر الروم وفي بلاد اليونان وبعض إيطاليا هم البلاسج الأوّلون. والحال إنّ البلاسج الأولين هم حثّيون فإذا السكان الأوّلون في هذه البلاد والجزائر هم حثّيون. فكبرى هذا القياس ليس من يشدّد عليها نكيراً لثبوتها بالتقليد الجمع عليه ولا مخالف، وبآثار عديدة في هذه البلاد يرى عليها اسم البلاسج ورموز معتقدتهم. وأما صغراه فيثبتها أنّ البلاد التي سكنها الحثّيون والبلاسج أولاً هي واحدة؛ أي سورية الشمالية وآسيا الصغرى. والصناعة عند الفريقين واحدة كما شهدت آثارهم، والعوائد والمعتقدات المذهبية واحدة، إلى غير ذلك من الأدلّة التي تراها مبسّطة في خطبة الأب دي كارا الآتي ذكرها.

وأما في تعيين وقت ارتحال البلاسج الأولين من آسيا إلى الجزائر وبلاد اليونان فقدّر دي كارا أنّ الارتحالات ابتدئ بها في قرب الزمان الذي شخص ابراهيم فيه من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين. وربما كان في الوقت الذي كانت فيه غارة الملوك الرعاة على مصر أي في القرن العشرين أو الحادي والعشرين قبل الميلاد. ومن مستنداته آثار قديمة تُعزى إلى سرغون الأوّل ذكر فيها تواريخ حروبه في سبعين صحيفة. وقد استنسخها آشور بانيبال لمكتبة نينوى. ففي إحداها يقول سرغون إنه

غزا بلاد مغرب الشمس وبحر المغرب ثلاث غزوات بلغ في الثالثة إلى بحر المغرب ونصب ثمة تمثاله. فيحسب دي كارا بلاد مغرب الشمس بلاد الحثيين. وإن سرغون انتصر عليهم فاجتازوا حيثئذ إلى جزائر بحر الروم وبلاد اليونان. والصحيح عنده أن سرغون الأول كان في القرن الثاني والعشرين أو الحادي والعشرين قبل الميلاد.

عد ٨٧

رأي الأب دي كارا في قدموس وزمان ارتحاله إلى بلاد اليونان

خطأ دي كارا لانرمان في قوله (في كتابه في التقليدات الأولية) إن قدموس أول المرتحلين من فينيقية إلى بلاد اليونان. كان ارتحاله في أواخر القرن الرابع عشر أو في النصف الأول من القرن الثالث عشر قبل الميلاد قائلاً إن لانرمان لم يفرق بين ارتحالين سبق الأول منهما الثاني في مدة ثمانية قرون أو تسعة. وإن قدموس لم يشخص إلى بلاد اليونان بمهاجرين فينيين بل حثيين، ولم تكن مهاجرتهم في القرن الرابع عشر بل في نحو القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد. وإن العالم يزو (في كتابه في تاريخ الصناعة في القدم الماز ذكره) تابع لانرمان في رأيه فتسكع في غلطه، وإن مصدر هذا الغلط إغفال بعض العلماء أن يراعوا أن اسم فينيقية متأخر عهداً، وإن بعض الرجال والأحداث التي تنسب إلى فينيقية في أقدم الأيام لم تكن في فينيقية بل في البلاد المتاخمة لها أي في سورية، وإن اسم سورية يشمل فينيقية أيضاً، وإن إدخال الحروف الهجائية في بلاد اليونان الذي ينسبه الجمهور إلى قدموس حتى تُسمى تلك الحروف فينيقية وقدموسية وأرامية أيضاً لا يخالف رأيه، لأن قدموس يمكن أن يكون فينيقياً وسوريّاً، وإن سورية كانت في أيام تلك الارتحالات الأولى موطن الحثيين وسائر القبائل المتحدة معهم. ويستحصل من ذلك أن قدموس الذي يُدعى فينيقيّاً هو حثي، وأن المستعمرة التي جعلها في بواتسيا في بلاد اليونان وفي جزيرة كريت وغيرها إن هي إلا مستعمرة حثية، حتى قال إن اسم قدموس نفسه ليس إلا مكسر حتموس أي الحثي بإبدال الحاء بالقاف. كما جاءت أمثال لذلك في ترجمة اليونان الأعلام إلى لغتهم وإبدال الدال بالتاء للمقاربة بينهما.

فإن حَقُّ لنا أن نقول شيئاً بين هؤلاء العلماء الأعلام قلنا إننا لا نرى براهين الأب دي كارا كافية للعدول عن رأي جمهور العلماء القدماء وبعض علماء هذا العصر أيضاً. وتقليدهم أنَّ قدموس كان فينيقيّاً وارتحل إلى بلاد اليونان في زمان غزوة يشوع بن نون لفلسطين. وإنَّ الحروف التي أدخلها في بلاد اليونان هي الحروف الفينيقية لا الحثية. وقد روى دي كارا نفسه أنها تُسمّى فينيقية وقدموسية وآرامية. والمعلوم أنَّ صور الحروف اليونانية القديمة وأسماءها أشبه وأقرب إلى صور الحروف الفينيقية وأسماءها من الخطوط الحثية. ولو كانت الخطوط الحثية أصلاً للحروف اليونانية ليسّرت قراءتها ولم يعتصم حتى الآن حل رموزها. ولا يخفى التعسف في قوله إنَّ قدموس مكسر حتموس.

ومهما يكن من هذا الأمر فتلك أحداث يعرضها الأب دي كارا على أهل العلم في هذا العصر مصرّحاً أنه لا يقطع بصحتها. على أنَّ ما أورده من الحجج ليثبت به أنَّ البلاسج الأولين والحثيين قبيلة واحدة أصلاً لا يبعد أن يكون صحيحاً وأشبه بالصواب. وقد أشار الأب فيكورو إلى شيء من ذلك حيث قال (في كتابه المسائل المنشورة صفحة ٤٣١): «إنَّ حاصلات الحثيين وتصوّراتهم تطرّقت مرحلة إلى بلاد اليونان. فقد أخذ اليونان أشياء كثيرة عن الفينيقيين لكنهم لم يأخذوا عنهم كل شيء. فالمصنوعات اليونانية الأولى لاسيما ما اكتُشف منها في ميشان (في بلاد اليونان) لا يرى فيها أثر لأصل فينيقي بل هي أشبه خاصة بالمصنوعات الحثية في آسيا الصغرى. وهذا مغزى الحكاية اليونانية الناطقة بأن ييلوب استمدَّ غناه من نهر بكتول الذي يروي سرد وليديا» (في آسيا الصغرى حيث ولاية أزمير الآن). وقد جمع الأب دي كارا في خطبته الآتي ذكرها خلاصة كل ما تضمّنته فصوله العديدة من البرهان على أنَّ البلاسج الأولين والحثيين قبيلة واحدة.

عد ٨٨

خطبة الأب دي كارا في الحثيين والبلاسج الأولين

بعد أن ذكر الأب دي كارا في فصول عديدة هيئات الأبنية والأسلحة والآنية الخزفية التي اكتُشفت في بلاد اليونان وبعض أعمال إيطاليا، ويُنّ قربها ومشابهتها للمصنوعات الحثية التي تُشاهد في سورية وآسيا الصغرى، تلا خطبةً في المجتمع

التاسع العام المنعقد في لوندريه في شهر أيلول سنة ١٨٩١م بحضرة جم غفير من العلماء الباحثين في تواريخ المشرق وآثاره، أثبت فيها أن تلك الأبنية والمصنوعات إنما هي من أعمال الحثيين وأن قبيلة الحثيين والبلاسج الأولين واحدة. وقد أثبتت مجلة التمدن الكاثوليكي هذه الخطبة في عددها المؤرخ في ٢٠ شباط سنة ١٨٩٢م وذيّلها بما روته في شأنها جرائد إنكلترة المهمة من حيث يظهر أن هذه الخطبة كان لها أحسن وقع في ذلك المجتمع الحافل، وأنه اعتبرها ذات أهمية كبرى، وقضى بإيلاء مؤلفها علامة الشرف، وطلب منها مئات من النسخ ليوزعها على أعضائه. وهناك خلاصة ما انطوت عليه:

أورد دي كارا أقوال العلماء في الآنية الخزفية التي توجد في أمصار عديدة متباعد بعضها عن بعض، وكلها متقاربة الشكل عريقة في القدم، وأبان تضارب هذه الأقوال حتى لا يمكن تصويب أحدها لضعف مستنداتها وإيهانها بمسندات أخرى. ثم طفق يث رأيه فقال تراعى في هذا المبحث الحقيقة وعلتها. فالحقيقة أننا نرى في آسيا وبلاد اليونان وجزرها وفي وادي النيل وإيطاليا آنية خزفية ذات شكل واحد أو متقارب، ومثله شكل الأسلحة؛ وهذه حقيقة لا يقيم أحد عليها من نكير. وقد سلّم كل عالم منصف أن الرسوم والنقوش التي تُرى على هذه الآنية لا مثيل لها إلا في المصنوعات البابلية القديمة لا في مصنوعات آشور أو نينوى.

وبما لا يمتري فيه أن البابليين لم يهاجروا إلى بلاد اليونان ولا إلى جزائرها ولا إلى إيطاليا بأولى حجة، فإذا قد كان مستحيلًا نقل الصناعة البابلية إلى هذه الأمصار بغير واسطة قبيلة تتاخم بلادها بابل. وتتوفر العلاقات بينهما ويلزم أن تكون تلك القبيلة ذات اقتدار على بث هذه الصناعة في تلك الأمصار بوسيلة انبساط قوتها وامتداد حكومتها وكثرة مستعمراتها وتجارتها. فهذه هي الحقيقة وهذه هي الشرائط المستلزمة للكشف عن علتها، فلا يبقى إلا البحث عن أئمة قبيلة تستجمع هذه الشرائط للتوصل إلى إدراك علّة تلك الحقيقة. فعلى رأيه أن هذه القبيلة لا يمكن أن تكون إلا قبيلة البلاسج الأولين الذين هم الحثيون أنفسهم؛ فإنّ هاتين القبيلتين لا يمكن أن تكونا في الأعصر القديمة إلا واحدة. أو يرد علينا أن نسلم بأمر مستحيل وهو أن قبيلتين قديرتين أقامتا في بلاد واحدة في حين واحد حاكمتين في هذه البلاد نفسها، وكل منهما ليست الأخرى. وقال إنه بين في

فصوله العديدة أنّ الآثار القديمة الكائنة في محالّ عديدة من آسيا الصغرى ليست إلا حثّية. والحال أنّ أكثر هذه الأعمال هي بلاد البلاسج الآسيويين بإجماع رأي القدماء. فإذا البلاسج والحثّيون قبيلة واحدة. وأضاف دي كارا إلى ما مرّ براهين أخرى، إثباتاً لغرضه، منها أنّ صناعة استخراج مواد المعادن والعمل بها واحدة عند البلاسج والحثّيين. ومنها أنّ لتشييد المدن والحصون طريقة واحدة عند الفريقين. فإنّ أطلال بوغاز كوي وأيوق وكاور قلعة سي وأزمير المعروف أنها من بقايا آثار الحثّيين تشبه كل الشبه أطلال المدن والحصون البلاسجية الباقية في بلاد اليونان وإيطاليا. ثم إنّ هذه الأبنية في آسيا الصغرى متقدمة العهد وسابقة عصر اليونان، فيستلزم انتسابها إلى قبيلة توطّنت هذه الأمصار قبلهم. وهذه القبيلة لا يمكن أن تكون إلا البلاسج الأولين، لأنّ الأبنية تُعزى إليهم، ويلزم أن تكون من صنع الحثّيين، لأنّ العلاقات المميّزة لهم وخطوطهم منقوشة على صخورها، ولا مرية بأنّ سكان البلاد الكائنة بها في ذلك العصر إنّما هم الحثّيون. فكل ذلك يجهر بالنتيجة المقصودة، أعني أنّ البلاسج والحثّيين قبيلة واحدة.

وقال: إنّنا نرى شيم القبيلتين وأخلاقهما واحدة. فقد ذكر استرابون أنّ من شيم البلاسج الحلّ والترحال. وتبيّن مما مرّ أنّ الحثّيين ارتحلوا من سورية وانتشروا في آسيا الصغرى وجزيرة قبرص، ثم في جزر بلاد اليونان؛ فإن كانت الشيم واحدة والصناعة واحدة والبلاد التي سكنها الفريقان واحدة فلم لا تكون القبيلة المسماة باسمين واحدة؟ وأيضاً إنّ أسماء كثير من المدن والجبال والأنهر والأعمال في آسيا الصغرى وأسماء أمثالها في بلاد اليونان وجزائرها وفي إيطاليا هي واحدة أصلاً، ولم يطرأ عليها تغيير في بعض الاسماء إلا من قبيل تيسير اللفظ وجعل أواخر الكلمات كصيغة نهاية الاسماء في اليونانية أو الإيطالية. وأيضاً إنّ المشابهة بين العقائد الدينية والرموز المذهبية عند القبيلتين يحصل لنا منها برهان آخر على أنّهما قبيلة واحدة. فالآلهة الكبرى القديرة التي كان يعبدها البلاسج إنّ هي إلا الآلهة المحاربة التي نراها ممثلة على صخور يازيلي كايا في آسيا الصغرى مجتبةً السيف، معتقلةً الرمح، متنكبةً القسيّ، شبيهة بالآلهة المحاربة الوارد ذكرها في عهدة الصلح بين ملك الحثّيين ورعمسيس الثاني ملك مصر كما مرّ. والرمز بصور الأسد وغيرها نراه عامّاً في آثار الحثّيين في آسيا الصغرى وآثار البلاسج في بلاد اليونان وإيطاليا.

ومن الحجج التي أقامها دي كارا إثباتاً لغرضه التقليدات وأقاصيص الالهة التي يرى ويستشهد غيره من مشاهير علماء هذا العصر أنّ لها أصلاً تاريخياً على الغالب، وإن داخلتها أحاديث خرافة. ومن هذه الأقاصيص أنّ آباء شعوب سورية وفينيقية وكيلىكيا وغيرها من أعمال آسيا الصغرى هم من أقرباء بلاسكو أبي البلاسج وهو أبو أجيونر أو أخوه. وهذه الأقاصيص نفسها تجعل كيلىك وفينيق وقدموس أبناء أجيونر. وعليه فهم أحفاد بلاسكو أو بنوه. وتجعل نيوب أمّاً لأجيونر وبلاسكو وهؤلاء الآباء كانوا يسكنون ويلون الأمصار نفسها التي كان الحثّيون يسكنون فيها ويلون أمورها، كما يظهر من الآثار الحثّية في آسيا الصغرى. كل هذا يبيّن في البلاسج الآسيويين. وأما البلاسج سكان بلاد اليونان وإيطاليا فقال فيهم ديونسيوس الأليكارناسي إنهم كانوا يُسمّون آزيين، والمقاربة بين آزيّ وحثّيّ، فإبدال الحاء بالهمزة لسهولة اللفظ مستفيض وإبدال الثاء بالزاء لا تحصى أمثاله؛ فهذا مما تقدّم يثبت لنا أنّ البلاسج في بلاد اليونان وإيطاليا هم ذوو قرابة البلاسج الآسيويين وأنّ الفصيلتين مع الحثّيين قبيلة واحدة.

وقد اختتم دي كارا كلامه بهذا القياس ذي الحثّيين. لا يخلو ما أتينا به من الأدلّة العديدة على الوحدة بين الحثّيين والبلاسج من أن يكون إما مصادفةً واتفاقاً وإما واقعياً وتاريخياً. فإن كان واقعياً فيلزم اعتبار الوحدة بين الفريقين حقيقة تاريخية ثابتة ذات أهمية كبرى. وإن كان كل ما جئنا به اتفاقياً ومنسوباً إلى المصادفة فيكون أمراً لم يسبق له مثال. ولا يبقى محلّ لتصديق برهان كهذا مهما كثرت ووضحت أدلّته وهذا محال. فالمعتمد إذاً على الأوّل وهو أنّ الحثّيين والبلاسج قبيلة واحدة سُمّيت باسمين. إنّ الأب دي كارا يهتم في فصوله التي نشرها في هذه الأيام ليبين أنّ أسماء المدن القديمة والأنهر والجبال في بلاد اليونان وإيطاليا أصلها حثّي ومن جملتها اسم آسيا. فعلى رأيه أصله حاثيا بدلت الحاء بالهمزة للخفة والثاء بالسين للمقاربة. وإنّ اسم البلاسج أنفسهم مركّب من كلمة يَل معناها في لغتهم الغريب أو الدخيل. ومن كلمة أَسى أو أَسكى أو أَسجى ومعناها الآسيويّ. فتحرير معنى البلاسج عنده الغرباء الآسيويون أو الآتون من آسيا.

الفصل الثامن

غارة الحثيين على مصر أي في الملوك الرعاة

عد ٨٩

أصل الملوك الرعاة ومهاجرهم

إنَّ مانيتون (وهو كاهن مصريّ كان في القرن الثالث قبل الميلاد) ألّف كتاباً جمع فيه شتات تواريخ مصر. فاغتالت يد غيّر الزمان هذا الكتاب ولم نظفر منه إلا بفقرات حفظت في كتب يوسيفوس وأوسايوس ويوليوس الإفريقي وغيرهم من القدماء. فمن هذه الفقرات ما رواه يوسيفوس في كتاب ردّه أقوال أبيون (ك ١ فصل ٤) حيث قال: «كان ملك يُسمّى تيمائوس دهمنا في أيامه غضب الله ففاجأنا من جهة المشرق على غير انتظار جيش أقوام أوغاد جسروا أن يغشوا بلادنا فاستحوذوا عليها دون حرب، وأثخنوا في أرضنا، وأذلّوا أصحاب الأمر فيها، وأحرقوا المدن بقساوة، ودكّوا هياكل الآلهة، وأنزلوا بالأهلين ما استطاعوا من السوء فذبّحوا بعضاً وأسروا نساء البعض وأطفالهم» إلى أن يقول: «وكل هذه القبيلة دُعيت هيكسوس أي الملوك الرعاة لأنّ معنى هيك في اللغة المقدّسة ملك ومعنى سوس بلغة العامة رعاة».

فمَنْ هم هؤلاء الملوك الرعاة؟ ومن أين أتوا إلى مصر؟ ومن أية قبيلة هم؟ اجتزأ مانيتون بأن يقول فيهم إنهم أتوا من جهة المشرق؛ وهذا كلام شائع متّسع اتّسع المشرق لا يعلم منه من أية جهة من المشرق أتوا ولا من أيّ شعب تفرّعوا. ولذلك توقّرت أقوال العلماء القدماء والحديثاء في أصلهم وفي مهاجرهم أي البلاد التي هاجروا منها، فذهبوا في الأمرين مذاهب عديدة متضاربة. وكتب علماء

عصرنا هذا في ذلك مقالات مسهية. وألّف الأب دي كارا كتاباً برّمته سّمّاه الملوك الرّعاة، نشره أولاً فصولاً في مجلة التمدّن الكاثوليكي ثم ضمّ تلك الفصول في كتاب طبع في رومة سنة ١٨٨٩ حيث لم يأل جهداً ليثبت أنّ الملوك الرّعاة حثّيون أصلاً ومهاجرهم سورية الشمالية، غاروا على مصر منضجاً إليهم غيرهم من القبائل السورية. وعليه عتوّنا هذا الفصل بغارة الحثّيين على مصر. وأودعناه الكلام في أقوال العلماء في أصل الملوك الرّعاة ومهاجرهم ثم في زمان غارتهم هذه. وأية دولة مصرية كانت منهم وما كانت أعمالهم وكم سنة ملكوا في مصر ومتى طردهم المصريون من بلادهم بما يمكن من الإيجاز ملخصاً خاصة عن كتاب الأب دي كارا السالف الذكر.

عد ٩٠

أقوال العلماء في أصل الملوك الرّعاة ومنشأهم

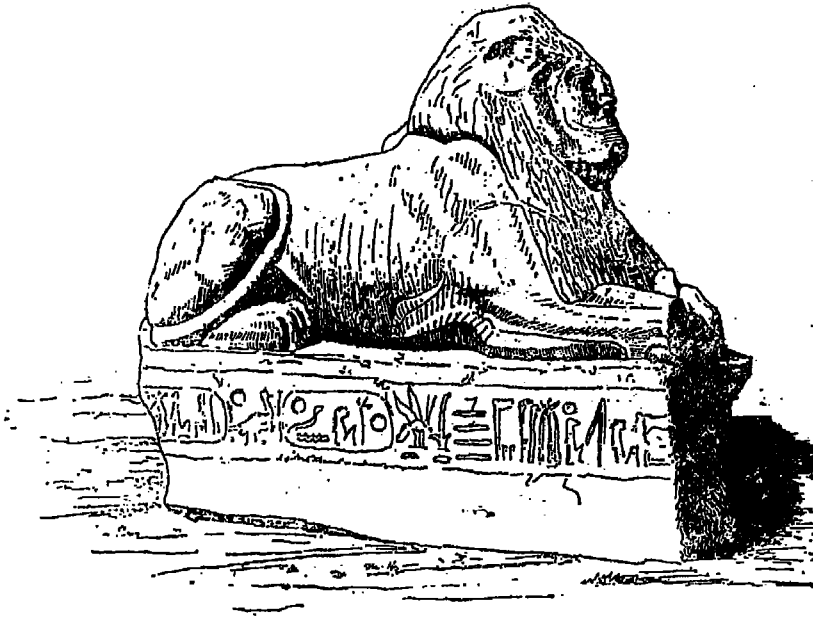
قال مانيتون في أثر كلامه الذي ذكرناه نقلاً عن يوسيفوس «قال بعضهم إنهم عرب». لكنه قال في محلّ آخر على ما روى يوليوس الإفريقي: «إنهم رعاة اخوة فينيقيون ملوك أجنبية». فظهر أنه لم يكن على يقين في أصلهم ومنشأهم بل يُروى ما كان يُقال عليهم في أيامه. فبيّن الخلاف في الأقوال ولم يصحّح أحدها. وأما علماؤنا العرب فقالوا إنهم عمالقة من نسل عمليق أو عماليق وهو عندهم ابن لود (يسمونه لاوذ) بن سام بن نوح.

قال ابن الأثير في الكامل: «فمن ولد لاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق وهو أبو العماليق. ومنهم كانت الجبابة في الشام الذين يُقال لهم الكنعانيون والفراعنة بمصر». وتعقّبهُ أبو الفداء من قبل أنه جعل الكنعانيين من ولد سام وتابعه في الباقي إذ قال: «نقل ابن الأثير أنّ بني كنعان من ولد سام والله أعلم وولد لسام عدة أولاد منهم لاوذ ابن سام وولد للاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق الذي هو أبو العماليق. ومنهم كانت الجبابة بالشام والفراعنة بمصر». وقال ابن خلدون: «ولم يذكر في التوراة ولد لاوذ (وهو الواقع). وقال ابن اسحق وكان للاوذ أربعة من الولد هم: طسم وعمليق وجرجان وفارس. وقال ياقوت إنّ العمالقة امتدوا من بلاد العرب إلى سورية فكانوا ملوكاً في سورية وفراعنة في مصر. وذكر

بعضهم أسماء هؤلاء الفراعنة وقالوا إنّ أولهم في مصر يُسمّى الوليد. وتعقّب بعضهم قول هؤلاء المؤرّخين بأنّ عماليق هو ابن اليفاز بن عيسو على ما في سفر التكوين (فصل ٣٦ عد ١٢ و١٦). فكيف يمكن أن يكون فرعون ابراهيم كما قالوا من بني عماليق. لكنّ هذا التنديد مردود بأنّ سفر التكوين نفسه صرّح بوجود العمالقة قبل عيسو إذ قال (فصل ١٤ عد ٧) إنّ كدراوعمر ملك عيلام وأحلافه «ضربوا كل أرض العمالقة وأيضاً الآموريين». ومن المعلوم أنّ هؤلاء الملوك هم الذين حاربهم ابراهيم وأنقذ لوطاً ابن أخيه من أيديهم. فلا يعاب على المؤرّخين العرب قولهم. ولكن هل كان الملوك الرعاة من هؤلاء العمالقة؟ فهذا موضع الخلاف الذي نبسط الأقوال فيه.

وأما علماء عصرنا أهل البحث في الآثار المصرية والشرقية فلهم في هؤلاء الملوك الرعاة أقوال متباينة متضاربة. فقال لبيسوس هم حاميون من بني كوش أتوا من بلاد العرب المجاورة البحر الأحمر المسماة فوط أو بونط. والأظهر أنّ المراد بها عدوّتا البحر الأحمر من جهة العربية وجهة الحبشة. وتابعه مسيرو في هذا القول. وقال بروغش لا بل هم ساميون من سورية أصحابهم أقوام من أقاليم عديدة. وذهب دي روجه وإبر إلى أنهم ممّن تسمّيهم الآثار المصرية ساتي وعامو. ويُرَاد بهم علماء آسياويون. وذهب ليايلين أنهم من فلسطين، ومريات وسائس ولانرمان أنهم حثّيون وآموريون وعيلاميون. ورأى القانوني أنّهم آدوميون وعمالقة وحثّيون. وقال كوندرا وهامي ولانرمان (بعد هجره رأيه الأوّل) أنهم مغول من التتر.

فمصدر التباين في هذه الأقوال ندور البيّنات والآثار الدالّة على أصل الملوك الرعاة ومهاجرهم وغموض ما وجد منها وشيوعه. فقد سمّتهم الآثار المصرية مان ومانتي وساتي وعامو؛ وكلها أسماء شائعة لا تعيّن القبيلة التي تفرّعوا منها ولا البلاد التي نشأوا فيها. ولهذا التباين مصدر آخر هو أنه قد وُجِدَت تماثيل في تانيس (سمنه وصيان أو سان في شرقي مصر السفلى). وحسب أنها تمثّل الهيئة الحقيقية لهؤلاء الملوك. ولدى تفحص العلماء عنها قالوا إنها أشبه بهيئة الصيادين الذين يسكنون الآن في جانب بحيرة المنزلة في مصر السفلى، وقدّروا أنّ هؤلاء الصيادين من سلالة أولئك الملوك. وأخذوا ينسبون الرعاة إلى القبائل التي تُخيّل لهم أنّ هيئة فروعها تشبه هيئات التماثيل والصيادين المذكورين.



صورة مسخ دال على أحد الملوك الرعاة وجدت في تانيس (صان)
وهي الآن في متحف بولاق

وعليه فترد الأقوال المتباينة في هذا الشأن إلى مصدرين أعني أقوالاً مسندها الاختلاف في تفسير الاسماء التي عبّرت بها الآثار عن هؤلاء الملوك، وأقوالاً مسندها المشابهة بين هيئة هؤلاء الملوك في تماثيلهم وبين هيئات غيرهم من القبائل المعروفة. فنسب أصحاب الأقوال الأولى هؤلاء الملوك إلى سورية أو العربية أو فلسطين أو الجزيرة أو عدوّتي البحر الأحمر. ومعظم الخلاف بينهم في ما إذا كان هؤلاء الملوك ساميين أو غير ساميين. ومضى أصحاب الأقوال الثانية يفتشون على أصل الملوك الرعاة في شرقي آسيا أو شماليها فجعلوهم من المغول والتتر. ولا مستمسك لزعمهم إلا المشابهة في الهيئة الطبيعية وسمات الوجوه بين هؤلاء الشعوب وبين تماثيل الملوك وسكان القرى التي حول بحيرة المنزلة.

وأما العلامة الأب دي كارا فردّ أولاً الأقوال السندة إلى المشابهة في الهيئة والتكوّن الطبيعي مبيّناً خاصة أنه لا يمكن أن يتأكد كون التماثيل المذكورة تمثل كل السمات الحقيقية في هيئة هؤلاء الملوك ولا كون الملوك الرعاة كلهم كانوا بهذه

الهيئة، لأن التماثيل التي وُجدت إنما هي لأربعة منهم فقط. وزاد على هذا أنه لا أثر في التواريخ لغارة من التتر في تلك الأيام على مصر، فضلاً عما بين البلدين من البعد الشاسع وتوسط قبائل كثيرة بينهما. وأيضاً إن الهيئات الطبيعية لا يمكن الاعتماد عليها وحدها في معرفة أصول الشعوب ونسبهم، بل لا بد من قرائن أخرى ومن أساس تاريخي يُستمسك بها.

وقال دي كارا إن مسبرو كتب إليه رسالة في ٩ ك^١ سنة ١٨٨٨م جواباً على الفصل الذي أثبت به أن منشأ الملوك الرعاة سورية الشمالية يقول له فيها إن رأيه هذا يحوز أحسن قبول وإن المشابهة في الهيئات كثيرة الوجود على اختلاف التَّسب والوطن. وإنه رأى منذ بضع سنوات في نابولي امرأة أشبه هيئة بصورة امرأة مادريوم الكائنة في متحف بولاق. وتيسر له أخذ صورتها الفوتوغرافية بالزِّي الذي يرى التمثال به، وإن الصورة باقية عنده. ويختتم مسبرو رسالته بقوله: «هاك إيطاليا يمكنها أن تدَّعي بأنها مصرية وتثبت دعواها بتكوُّنها وهيئتها الطبيعية. فدونك ما يوقعنا به من السخريات الاعتماد في التَّسب على الهيئة.

وعاد العلامة دي كارا إلى تفصيل الأقوال المسندة إلى الاختلاف في تفسير الاسماء المعبر بها عن هؤلاء الملوك في الآثار المصرية كما روينها بالإيجاز. ومما يستوجب التفاتة مخصوصة ويتحفنا بفوائد أخرى قول سائس الذي أكثر الكلام هذه السنين الأخيرة في هؤلاء الملوك فقال اعتبرهم بعض العلماء غزاة حثيين. وفي خطبة ألقاها في ٢٣ تشرين أول سنة ١٨٨٦م في مجتمع العلماء في لوندرة، أظهر جنوحه إلى التيقن بأن قادة الرعاة كانوا حثيين محالفي الأموريين. وأنه يُستلمح من الكتاب المقدس أن هذه العهدة كانت في جنوب فلسطين لأن سكان حبرون (الخليل) كانوا حثيين وأموريين. وصرَّح بذلك حزقيال بقوله (فصل ١٦ عد ٤٥) لأورشليم إن أمك حثية وأبوك آموري. ولما كان مانيتون روي في الفقر التي حفظها يوسفوس أن الملوك الرعاة بنوا أورشليم بعد طردهم من مصر. اعتقد سائس سنداً إلى ما قيل في سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٣) وهو: «إن حبرون بُنيت قبل صوعن مصر (وهي تانيس الرعاة المعروفة الآن بسان) بسبع سنين». إن مانيتون اعتمد في رأيه هذا في بناء أورشليم على شهادة التقليد. ونُتج سائس أخيراً أن قول مريات وغيره بأن قادة الرعاة كانوا حثيين هو قريب من الصحة والصواب. وأما ميل سائس

إلى تصديق رواية مانيتون بأن الرعاة بنوا أورشليم فيقال فيه إن صدقت هذه الرواية لم يكن المفهوم منها أن الرعاة أول من أسس أورشليم، إذ جاء في سفر التكوين (فصل ١٤ عد ١٨) أن ملكيصادق ملك شليم خرج للقاء ابراهيم وعامة المفسرين على أن شليم أورشليم وطرد الرعاة من مصر كان بعد نزول بني إسرائيل إليها.

عد ٩١

تحرير رأي الأب دي كارا في الملوك الرعاة وحججه عليه

حرر الأب دي كارا (في الفصل الثامن من كتابه الملوك الرعاة) رأيه فقال إن الرعاة الذين غاروا على مصر لم يكونوا من بلد واحد ولا من أمة واحدة بل كانوا من بلاد عديدة تضمهم عهدة واحدة وغرض واحد، ويقودهم ملك واحد أو أكثر للأمة التي هي مركز العهدة، وتُنسب الغزوة إليها، ويرى أن الأمة الحثية هي مركز هذه العهدة، وهي الفاعلة في الحملة على مصر بجندوها الخاصة وجنود المعاهدين لها. ومن براهينه على رأيه أن من ذلّلوا دولة قوية رهية كما كانت مصر إذ ذاك، وضبطوا زمام أحكامها قروناً لا بد أن كانت لهم قوة تفوق قوة مصر عدداً وعدداً ومالاً. ولا يُصوّر لإحدى قبائل آسيا الغربية أو الشرقية قوة وسطوة مثل هذه إلا باتحادها مع قبائل أخرى. فيتفق أن تشن قبيلة الغارة على قبيلة أخرى أقوى منها وتنتصر مرة. ولكن أن تستحوذ عليها وتضبط أعنة حكمها رغم أنوف أهلها قروناً كما فعل الرعاة في مصر، هذا يخالف الطبع.

ولا نجد له في التاريخ مثلاً. فمن افتتحو مصر في ذلك العهد لم يكونوا إذاً أمة واحدة بل ألفافاً من قبائل شتى يرأسه ويقوده ملوك الحثيين. ثم يثبت هذا؛ أي أنه كان للحثيين المحل الأول في هذه الغزوة، والملوكهم وأمرائهم السيادة فيها بالحجج الآتية؛ أولاً أن الصفيحة التي وجدها مريات سنة ١٨٦٤م في هيكل سمنه (وهي تانيس القديمة) تثبت ذلك، إذ نُقش في أعلاها ثلاث صور؛ إحداها: صورة سات أو شات وما هذا إلا شتخ معبود الحثيين ويده الصولجان وعلى رأسه التاج. والثانية مثال رع مسيس الثاني قائماً أمام سات باسطاً يديه نحوه، وفي كل منها كاس خمر. والثالثة صورة من أقام هذه الصفيحة ساجداً وبين سات

ورعسميس عمود خطوط هيروغليفية. وبين رعسميس والصورة الأخرى عمودان من هذه الخطوط. وفي أسفل الصفحة اثنا عشر سطراً منها؛ وهذا ملخص ما كتب هناك:

«في سنة ٤٠٠ في الرابع من شهر ميسوري للملك مصر العليا والسفلى، أمر رعسميس الثاني ملك مصر أن تُقام هذه الصفحة تكراً للإله شات إجلالاً لاسم أبي آباه (كثيراً ما سُمي ملوك مصر آلهتهم آباءهم وكثير منهم دعا نفسه ابن الشمس معبودهم). ويحتوي شات تحتات إله سام ويستمد منه التوفيق والاقبال في أيامه والثبات في ملكه». وما من منكر أن الرعسميسيين امتازوا بإجلال الإله شات وباقامة الهياكل تعبداً له وبسمية بعضهم أنفسهم باسمه تبرّكاً. منهم شاتي أو ساتي الأول. وعليه يحقق دي كارا أن تاريخ الأربعمئة سنة المثبت في الصفحة يُراد به تاريخ اتخاذ شات إلهاً سامياً في مصر سوياً لرع وأمنون، وأن الأربعمئة سنة في عهد رعسميس الثاني توافق أيام أبي أبي أحد الملوك الرعاة الذي غني بجعل شات أو شتخ معبود الحثيين إلهاً سامياً في مصر.

وثانية الحجج التي أقامها دي كارا على عناية أبي أبي بإدخال عبادة شات معبوده في مصر، ما ورد في البايير المنسوب إلى سليار الأول. والمحفوظ الآن في المتحف البريطاني وخلاصته: «أن الملك أبي أبي اتخذ شات أو شتخ رباً له. ولم يعد يعبد إلهاً في أرض مصر إلا شات. وأقام له هيكلأً بديعاً على مقربة من قصره. وكان ينهض كل يوم فيقدم له الذبائح اليومية مصحوباً بأعوانه». وجاء في هذا البايير أيضاً أن أبي أبي كان أوفد إلى ملك تاب (في مصر العليا) ليتابعه في هذه العبادة وقال: «إذا أجاب أمير الجنوب (يريد ملك تاب الذي كان أوفد إليه) أنه يعمل بما أقول، فلا آخذ منه شيئاً ولا أعود أسجد لإله آخر في أرض مصر إلا لأمون رع ملك الآلهة. ولكن إذا لم يجب سؤالي بأن لا يعبد إلا شات فما العمل؟».

وفي البايير أيضاً أن ملك الجنوب أطلع مستشاريه على رسالة أبي أبي فذهشوا ولم يأتوا أولاً ببنت شفة. ويظهر أنه منذ يومئذ بدأ القلق والشغب على الملوك الرعاة والمخالفة على طردهم. ويستخلص دي كارا قائلاً إن الواضح من آثار عديدة لاسيما عهدة الصلح بين ملك مصر وملك الحثيين أن شات أو شتخ إنما هو إله الحثيين فيحصل مما مر أن الملوك الرعاة حثيون، وأن الأربعمئة سنة التي ذكرها

رعمسيس في هذه الصفيحة يُراد بها تعميم عبادة شات وتفضيله في مصر بأمر أبائي أحد الملوك الرعاة. هذا على اختلاف الترجمة والتفسير لهذا الأثر. ونرى رأي دي كارا فيه راجحاً وبرهانه واضحاً وأطبق للظاهر. ومن رأيه أيضاً أنَّ تاريخ الأربعمئة سنة يوافق القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وعليه فصفيحة رعمسيس نُقشت نحو سنة ١٤٠٠ إلى سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد أي نحو أربعمئة سنة بعد أبائي، فيكون إتيان يوسف بن يعقوب مصر في أيام أبائي. فإن أضفنا إليها سنّي عبودية بني إسرائيل في مصر وهي أربعمئة وثلاثون سنة كان خروجهم منها في عهد دولة الرعمسيسيين. فإنَّ القول الأعم والأظهر عند علماء الآثار المصرية أنَّ خروج بني إسرائيل من مصر كان بعد وفاة رعمسيس الثاني في عهد ابنه منفتاح الأول. وسترى معارضة أقوال الكتاب في شأن سنّي العبودية بما يظهر من الآثار المصرية والتوفيق بينهما. انتهى ملخصاً عن كتاب دي كارا في الملوك الرعاة (فصل ٣ من صفحة ٣٩ إلى صفحة ٦١).

عد ٩٢

إثبات ان الملوك الرعاة حثيون بما سمّتهم به الآثار المصرية

ألحق دي كارا حججه الآتفة الذكر بحجج أخرى. منها أنَّ الاسماء التي عبّرت بها الآثار المصرية عن الملوك الرعاة تثبت كونهم حثيين. فإنَّ هذه الآثار تسمّيهم ساتي وماتي وعمو. فساتي يُراد بهم على الأظهر الشعوب المتوطنون في غربي آسيا، ولاسيما سكان شمالي سورية، بدليل أنه جاء في الأثر وهو الدرج المعروف «بمرسوم كانوبوس»: أنَّ الملك تولماوس أفرجات الأول غشا بلاد الساتي واستردَّ تماثيل الآلهة التي كان الفرس انتزعوها من هياكل مصر. ولا جرم أنَّ المضيي من مصر إلى بلاد فارس يستلزم العبور بسورية، فهي إذاً بلاد الساتي. والملوك الرعاة يُسمّون ساتي فهم إذاً سوريّون. وأشهر سكان سورية يومئذ الحثيون، فإذاً الملوك الرعاة حثيون. وقد سمّتهم هذه الآثار «مان وماتي» مرات. والحال أنَّ هؤلاء الماتي يُراد بهم سكان سورية أيضاً.

فقد جاء في جريدة اسماء القبائل التسع التي نُقشت على جدار هيكل ارفو في مصر «الماتي في بلاد أسور». وفي الصفيحة التي وُجدت في سان (تانيس

القديمة) مكتوباً عليها بثلاث لغات عُبر فيها عن هؤلاء المانتي في الهيروغليفية بأنهم سكان بلاد الروتان الشرقية. وفي الترجمة اليونانية سكان سورية. وفي لغة الشعب المصرية بلاد آسور. فإذا المانتي الذين طردهم ملوك الدولة الثامنة عشرة من مصر هم من سكان سورية التي سُميت في الهيروغليفية بروتان في آثار عديدة. وسُميت بلغة الشعب آسور وهو اسم سورية عندهم (طالع العدد ال ٦). وفي الأثر القديم المنسوب لأحمس ابن أبانا يُقال إنَّ أحمس الأول الذي طرد الملوك الرعاة من مصر أُنْخِن في المانتي ساتي مقصياً لهم عن مدينة آفارى. فإذا لفظا مانتي وساتي استعملهما المصريون علماً للملوك الرعاة الذين غشوا بلادهم من جهة مشرقها، وسَمُوا بهما سكان سورية أيضاً ولاسيما شماليها.

وقد سَمَتهم الآثار أيضاً عمو في محلات عديدة، ومن جملتها الأثر الذي اكتُشف حديثاً على مقربة من قرية بني حسن حيث يقول أحد الفراعنة الذي يُظَنُّ أنه توتمس الثالث: «أنا جدَّدت ما كان آل إلى الدمار، أنا أكملت ما بُدِئَ به مذ كان العمو في مصر السفلى في جهة آفارى. فإنَّ الغزاة نقضوا ما كان مشيِّداً، وحكموا ولم يعترفوا بالإله رع». ونرى اسم العمو بين عداد الشعوب الذين قهرهم توتمس الثالث في سورية مع الساتي والروتانو أصحاب المعاهدة في مدن سورية الشمالية والجنوبية وفي فينيقية. ونجد أيضاً اسم عمو في صفيحة كُتبت عليها ترجمة أمنهاب. واكتشفها العالم أبار في قرية قرنة من أعمال مصر، وأذاع ترجمتها سنة ١٨٧٣م. ومما كُتِب في أعمال هذا القائد في حروب توتمس الثالث في سورية أنه قبض على أسرى من العمو وأحضرهم أحياء وذكر محالَّ المواقع فكان منها وإن في غربي كالب (حلب) وكركميش وقادس. ولا يختلف اثنان أنَّ هذه المدن في شمالي سورية، وسَمَت الآثار سكانها عمو كما سَمَت الملوك الرعاة بهذا الاسم نفسه.

وليس أصحاب عهدة الرعاة إلا المتحالفون الذين حاربهم ملوك الدولة التاسعة عشرة ولاسيما ساتي الأول ورعمسيس الثاني في سورية الشمالية كما مرَّ. وبناتور شاعر رعمسيس الذي كتب أخبار واقعته مع قادس (طالع العدد ال ٦٥) يسمي الحثَّيين عمو كما رأيت. فإذا أسماء ساتي ومانتي وعمو التي نراها في الآثار المصرية معبراً بها عن الملوك الرعاة، نراها نفسها مُراداً بها شعوب سورية الشمالية ومَن جاورهم من العشائر المتحدة معهم، بل قال دي كارا إنَّ الحثَّيين الذين حاربهم رعمسيس كما مرَّ

من نسل هؤلاء الملوك الرعاة، وإنهم بعد طردهم من مصر عادوا إلى مواطنهم الأولى في سورية. ومن الأدلة التي أقامها على ذلك وجود عبادة الإله سات بينهم في سورية الشمالية كما كانت لهم في مصر. ثم وجود بعض العوائد وأثار التمدن المصري في أنحاء سورية التي عادوا إليها ثم تعاظم القوة والسطوة في سورية الشمالية في زمن جيز حتى حارب سكانها ملوك الدولة التاسعة عشرة في مصر وأكروهوهم على صلح مشرف لهم كما رأيت في تاريخ الحثيين عن الآثار المصرية.

عد ٩٣

عصر غارة الرعاة على مصر ومدة ملكهم فيها

توفرت الأقوال وتضاربت في تعيين زمان غارة الملوك الرعاة على مصر. ولا نرى كبير فائدة في استقراء هذه الأقوال وحجج كل من القائلين بها. فنقتصر على ذكر الأظهر والأعم من أقوالهم؛ وهو أنّ هذه الغزوة كانت بين القرن العشرين والحادي والعشرين قبل الميلاد. وكان من الملوك الرعاة ثلاث دول في مصر هي الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة. وذكر مانيتون هذه الدول واسماء ملوكها ومدة ملكهم. ولكن لما كانت غير الأيام لم توصل إلينا كتاب مانيتون بل وصلت إلينا فقر أقواله يرويه يوسيفوس في كتاب رده على أيون ويوليوس الإفريقي وأوسابيوس وغيرهم. فكان بين هذه الروايات يون كبير من قبيل الاسماء وعدد السنين للملوك وللدول الثلاث. وقد وُفق العلامة أدولف إرمان (Erman) مدير المتحف المصري في برلين بين روايتي يوسيفوس والإفريقي بما ملخصه: «إنّ يوسيفوس حسب مدة ولاية الملوك الرعاة في مصر ٥١١ سنة. وقال إنه عقب ذلك سنون عديدة دام بها الحرب والنزاع. وروى الإفريقي أنّ الدولة الخامسة عشرة من هؤلاء الملوك ملكت ٢٨٤ سنة. ثم ذكر ملوك الدولة السادسة عشرة وضمّ سنّي ملك الدولتين. فكان مجموعها ٥١٨ سنة. ولا تخفى المقاربة بين الروايتين على ذلك إذ لا يبقى من فرق إلا سبع سنين. ثم ذكر الدولة السابعة عشرة وعيّن لملكها مدة ١٥١ سنة. فكان ذلك كناية عن السنين العديدة التي ذكر يوسيفوس أنها انقضت في الحرب مع الوطنيين. وكان لهؤلاء ملوك يلون مصر العليا وبعض أعمال مصر السفلى على التدريج». فكان بهذا التوفيق بين الروايتين.

وسترى أنّ أبائي آخر ملوك الدولة الأولى من الرعاة ملك في أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد أي من سنة ١٧٤٠ إلى سنة ١٧٥٠. فإن أضفنا إلى ذلك ٢٥٩ سنة وعشرة أشهر، مدة ملك الدولة الأولى من الرعاة بحسب رواية يوسفوس، ظهر أنّ بدء ملك الرعاة كان في القرن العشرين قبل الميلاد أو أضفنا إلى ذلك ٢٨٤ سنة بحسب رواية الإفريقيّ كان بدء ملكهم في القرن الحادي والعشرين قبل الميلاد. ويحصل من ذلك أنّ فرعون الذي كان يلي مصر وقت انحدار ابراهيم إليها قبل نحو مائتي سنة من انحدار يعقوب كان من الملوك الرعاة كما كان فرعون الذي استوزر يوسف.

عد ٩٤

بيان سنّي عبودية الإسرائيليين في مصر بسنّي الملوك الرعاة

جاء في سفر التكوين (فصل ١٥ عد ١٣) أنّ الله ناجى ابراهيم قائلاً: (إنّ نسلك سيكونون غرباء في أرض ليست لهم، ويستعبدون لهم ويعذبونهم أربع مئة سنة). ثم جاء في سفر الخروج (فصل ١٢ عد ٤٠): «وكان مقام بني إسرائيل الذي أقاموه بمصر أربع مئة وثلاثين سنة». كذا ورد في النصّ العبراني، وفي نسختنا السريانية، وفي اللاتينية العامية وغيرها من النسخ، على أنه يظهر من الترجمتين السبعينيّة والسامريّة أنّ مدة الأربع مئة وثلاثين سنة يُراد بها مدة اقامة ابراهيم ونسله في فلسطين ومصر، أي من خروجه من أور الكلدانيين إلى خروجهم من مصر.

ولذلك قال يوسفوس (ك ٢ من تاريخ اليهود فصل ٦): إنّ العبرانيين خرجوا من مصر لسنة ٤٣٠ من بلوغ أيّنا ابراهيم إلى أرض كنعان، ولسنة ٢١٥ من انحدار يعقوب إلى مصر. وقد حذا حذوه في هذا القول كثير من القدماء والحدثاء. على أنّ الأكثرين اعتمدوا نصّ الأصل العبراني الصريح في الآيتين الآنف ذكرهما، وقد أيدته سائر الترجمات القديمة غير السبعينية والسامرية. فأثبتوا أنّ مقام بني إسرائيل في مصر من انحدار يعقوب بولده إليها إلى حين خروجهم منها إنما هو أربع مئة وثلاثون سنة لا مئتان وخمس عشرة سنة فقط. وقد أقاموا على ذلك أدلة وحججاً عديدة لا محلّ الآن لاستقراءها. ومنها أنّ مئتين وخمس عشرة سنة لا

تكفي لتكاثر عدد بني إسرائيل بالمقدار الذي ذكره الكتاب أي ليكون منهم ست مئة ألف مقاتل.

على أنَّ الاكتشافات الحديثة زادت في بيان هذا البحث، فإنَّ العلامة إرمان السالف ذكره، اهتدى إلى طريقة للتوفيق بين ما عيّنه الكتاب من سنِّي العبودية وبين الآثار المصرية. وخلاصة ما قال: أجمع مَنْ ذكروا فقرات مانيتون على أنَّ يوسف كان في عهد أبابي آخر ملوك دولة الرعاة الأولى. وصرَّح شنسلوس أنه استوزره للسنة ١٧ من ملكه آخذاً ذلك بلا بدّ عن رواية الإفريقي. ومن المجمع عليه في ذلك العصر أنَّ خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد أموسيس المسمَّى منفتحاح بن رعمسيس الثاني. فيلزم أن تكون سنو العبودية من عهد أبابي إلى عهد منفتحاح. على أنَّ الدولتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة حكمتا مصر، على رواية الإفريقي ٥١٨ سنة؛ أي الدولة الخامسة عشرة ٢٨٤ سنة والسادسة عشرة ٢٣٤ سنة. وأعقبها الدولة السابعة عشرة واستمرت ١٥١ سنة في الحرب مع الدولة الثامنة عشرة الوطنية. فكان في مصر دولتان معاً. وعليه فيمكن حساب سنِّي العبودية على هذه الصورة.

سنة ٤٥ بقي من مدة أبابي بعد أن استوزر يوسف لأنه ملك ٦١ سنة وبعض أشهر واستوزره في ١٧ للملكه.

٢٣٤ مدة الدولة السادسة عشرة.

١٥١ مدة الدولة السابعة عشرة مع الثامنة عشرة الوطنية وإلى عهد منفتحاح.

٤٣٠ فالجموع أربع مئة وثلاثون سنة طبق ما في الكتاب عن سنِّي العبودية.

هذا ملخص ما رواه دي كارا (في صفحة ١١٢ وما يليها من كتابه في الملوك الرعاة) عن إرمان. ويتراءى إلى أنَّ فيه نظراً من قبيل أنَّ الدولة الثامنة عشرة كان منها عدة ملوك بعد طرد الرعاة. وكذا كان بعض فراعنة الدولة التاسعة عشرة قبل منفتحاح. ولم يخرج بنو إسرائيل من مصر على أثر طرد الرعاة منها بل بعد مدة. وأرى أننا لو اعتمدنا رواية يوسفوس لفقر مانيتون في أنَّ مدة ملك الرعاة كانت ٥١١ سنة ولبثوا سنين عديدة محارين، لكان البرهان أقوى وأسلم من النقد، إذ تكون ١٥١ سنة أو القسم الأكبر منها عبارة عن مدة ملوك الدولة الثامنة عشرة

بعد طرد الرعاة وبعض ملوك الدولة التاسعة عشرة إلى منفتاح فرعون الخروج. على أننا لا نستند إلى هذا البرهان وحده في بيان سنيّ العبودية بآثار مصر بل لنا غيره. فقد مرّ أنه يتبيّن من صفيحة رعمسيس الثاني أنّ بين ملك أبيبي ورعمسيس هذا أربعمئة سنة، وقد انقضت عبودية بني إسرائيل في عهد ابنه منفتاح. وعليه فتكون مدة الثلاثين سنة انقضت بين حين كتابة الصفيحة وحين خروج بني إسرائيل من مصر.

قد أجاد بروغش العلامة في الآثار المصرية بملاحظات مهمّة في هذا الغرض فنلخصها هنا. قال (في كتابه تاريخ مصر صفحة ١٧٤ طبعة ٢) إذ جعلنا ملك رعمسيس الثاني سنة ١٣٥٠ ق.م اعتماداً على أصحّ الأقوال في هذه المباحث كان ملك أبيبي سنة ١٧٥٠ (لجعل صفيحة رعمسيس بينهما أربعمئة سنة). ويزيد هذا الأمر بياناً وأهميّة مطابقتها لنصّ الأسفار المقدّسة في عداد السنين التي أقام فيها بنو إسرائيل في مصر (وذكر الآيات التي ذكرناها آنفاً). ولما كان خروج بني إسرائيل من مصر بعد وفاة رعمسيس الثاني الذي جلس على منصّة الملك نحواً من خمسين سنة، فيكون منفتاح الأول فرعون الخروج ارتقى إلى عرش الملك سنة ١٣٠٠. فإذا أضفنا إليها ٤٣٠ سنة مدة إقامة بني إسرائيل في مصر كان المجموع ١٧٣٠ سنة. وانطبق ذلك ضرورة على عهد وزارة يوسف في مصر إذ أتى إليه أبوه وأخوته من فلسطين وابتدأت سنو العبودية.

وانطبق أيضاً على عهد ولاية الملوك الرعاة في مصر وخاصة على عهد أحدهم أبيبي المسمّى نوب أيضاً وسمّاه اليونان أبوفيس. واختتم بروغش كلامه قائلاً إنّ هذا الطباق بين نصّ الكتاب والآثار المصرية لهو ذو أهميّة كبرى واعتبار مزيد، ويؤيّد التقليد المسيحيّ القديم الذي حفظه لنا سينشلوس ولم يعبه أحد؛ وهو أنّ يوسف دبّر شؤون مصر في أيام الملك أبيبي الذي تسمّيه الآثار أبوبي. وزادت ذلك بياناً وثبوتاً صفيحة اكتشفت في مصر من أمد قريب اتّضح منها حصول مجاعة في مصر دامت سنين عديدة. ودلّت قرائن الحال على أنّ وقوعها كان في مدة تدبير يوسف شؤون مصر (وسأتي على ذكر هذه الصفيحة في الكلام على يوسف في تاريخ العبرانيين) فنسدي الله حمداً وشكراً لكشفه عن مثل هذه الآثار القديمة في هذا العصر الطامي بالغواية والعتو.

أعمال الملوك الرعاة في مصر

شكا مانيتون هؤلاء الملوك بثلاث جنایات فظیعة: حرق المدن، ونقض هياكل الآلهة، والقسوة على الأبرياء من المصريين، إذ أسلوا بعضاً وسبوا النساء والأطفال. وتابع كثير من القدماء والحدثاء مانيتون في بث هذه الشكايات وأمثالها. على أن الأب دي كارا غني بترئة ساحتهم من هذه التهم مستمسكاً بأن لا دليل في الآثار المصرية على ارتكابهم مثل هذه الأمور الفظیعة إلا شكاية مانيتون التي يلزم حملها على الشحنة والتعصب لقومه. كما يظهر من وصفه الملوك الرعاة بالخشنة والوغادة، ومن تذبذبهم عليهم باستيلائهم على مصر دون شديد مقاومة. والمصريون أولى بنسبة هذا الذنب إليهم، ثم من تسميته لهم وباء ونقمة وما أشبه من الأوصاف الذميمة. وأقام دي كارا برهاناً وضعياً على غرضه فقال إنه اكتشف في أخص مدن الرعاة كنانيس (سان على مقربة من دمياط) وبوبست (تل البسطة الآن في جنوب الزقازيق) عن تماثيل وصور تمثل ملوكاً تقدّموا عصر الرعاة. وبعض هذه التماثيل يُشاهد الآن في متاحف أوروبا نُقل إليها من المدن المذكورة. ولم ينقض الرعاة هيكل تانيس الذي كان قبلهم وبعض التماثيل التي كانت فيه حُفظت في أيام الرعاة وكُشف عن بعضها ولم يزل بعضها، على ما يُظنّ، مطموراً بالأنقاض. وقد اهتمدى نافيل Naville في سنة ٨٧ و٨٨ و٨٩ الأخيرة في بوبست إلى آثار عديدة للدول السابقة الرعاة لم ينقضوها في أيامهم. ووجد بينها تماثيل للملوك الرعاة منها تمثال أبابي أشهرهم. وحسبك الآثار المكدّسة في متحف بولاق ومتاحف أوروبا منقولة إليها من مصر السفلى، وهي للملوك وآلهة قبل عصر الرعاة. وإذا كانت تهمتا مانيتون الأوليان غير صحيحتين فيحق لنا أن نمتری في الثالثة وهي القسوة على الأبرياء واضطهادهم، وإن صحّ شيء منها فيلزم حمله على عادة الأيام السالفة، وعلى حاجة الرعاة إليه لتأييد ملكهم، ذاك دأب كل الغزاة. ولهذا قد أضرب بعض علماء هذا العصر بعد الاكتشافات الحديثة عما كانوا قد عابوا الرعاة به استناداً إلى ما رواه مانيتون.

ندرة آثار الرعاة

وأما الذي تركه الملوك الرعاة من الآثار المخلّدة لذكورهم أو المشرفة لبلاد تولّوا أمرها، وأما الذي أتوا به من المنافع العامة أو التجارة بترويج سوقها أو بسط نطاقها بين مصر وفينيقية وسورية وبلاد العرب وغيرها؛ فكل ذلك ندرت آثاره والتاث الدليل عليه. فترى استيلاءهم على مصر مدة خمسة قرون أبكم، لم يفصح عما أتوه أو تأتّى عليهم. وقد اشتغل أهل البحث في الآثار المصرية في بيان علّة هذا الندور في آثار الرعاة، فنسبه أحدهم - العالم فيادمان الألماني (في كتابه تاريخ مصر) - إلى عدم الإهتمام حتى الآن إلى آثارهم قائلاً إنّ كشف مريات في تانيس عن بعض تماثيل الملوك الرعاة يبعثنا على الظنّ أنّ لهم آثاراً أخرى في محالّ أخرى. وأنكر ما أوجبه بعضهم من أنّ الدول التابعة قد محت آثارهم بغضباً بهم، وحاول أن يثبت أنّ هذه البغضاء لم تكن.

على أنّ العلامة دي كارا ردّ زعمه هذا مثبتاً وجود البغضاء والضغينة بين الفريقين، وهو أمر طبيعي، لكنه أنكر أن تكون هذه الضغائن حملت المصريين على إزالة آثار الرعاة، ورأى أنّ هذه الآثار قليلة بنفسها لكنها غير معدومة. وعلة ندرتها ما كانت عليه حالهم. فإنّ الملوك الأوّلين منهم أشغلهم عن إقامة الآثار جدّهم في بناء مدينة، وجعلها قلعة حصينة تقيهم وثبات أعدائهم المصريين وغيرهم عليهم، وهي مدينة آفارى (يرجح أنّ موقعها في قرب المحلّ المعروف الآن بتل الهر أو فرما في شرقي خليج السويس). ولم تكن لهم حاجة إلى بناء هياكل وقصور ملكية استغناء بما بناه قبلهم ملوك الدول السابقة ولا سيما الدولة الثانية عشرة. وإذا راعينا أنّ ملوك الدولة السادسة عشرة من الرعاة أصبحوا مصريين يستخدمون عملة ومهندسين مصريين في الأبنية والتصوير والحفر والنقوش مقتفين آثار المدارس المصرية، ظهر لنا أنه لا يمكن تمييز آثار الرعاة عن آثار الملوك السابقين أو التابعين لهم، بل يلبس بعض هذه الآثار ببعضها. وأما ملوك الدولة السابعة عشرة فانقضت مدتهم في الحروب مع ملوك تاب الوطنيين، فلم ينفصح لهم المجال للعناية بآثار مخلّدة أو منافع عامة.

حروب الملوك الرعاة

يظهر أنّ قبائل سورية وبلاد العرب لم تقلق خواطر الملوك الرعاة ولا سطت على أملاكهم في كل مدة ولايتهم على مصر، لما كان لهذه القبائل من جرّ الثّقع والمغنم من قبل هؤلاء الملوك. فإنّ اشتراك الفريقين في اللغة والدم والوطن القديم كان ميسراً لمَن جاؤا من سورية وبلاد العرب إلى مصر كسب المال ورواج سوق التجارة وأسباب العمل والراحة وحسن المعاملة حتى هاجر جمٌّ غفير من سورية والعربية إلى مصر، خاصة في أيام الحنّ والمجاعات. كما وقع لبني إسرائيل على أنّ الذين كانوا ينكدون عيش الرعاة ويسلبون راحتهم إنّما هم الملوك الوطنيون الذين استمروا في تاب ليون مصر العليا والصعيد. ومن أغلاط الملوك الرعاة جعلهم عاصمة ملكهم في مصر السفلى في الطرف الشرقي من القطر أي في تانيس (مرّ أنها سان في ناحية دمياط)، وفي بوبست (في جانب الزقازيق). فكانوا بذلك نائين ومنفصلين عن مركز الشعب المصريّ، فلو أقاموا في مصر العليا لأكروهوا الملوك الوطنيين أن يتوغّلوا في البرية بعيدين عن الإتصال بشعبهم، يتعسّر عليهم لإجهاز العساكر واعداد الأزودة والعلوفات لها. فإبقاؤهم في تاب (طيبة) كان كأنه إبقاء مفاتيح البلاد في يدهم.

وأشهر الحروب بين الملوك الرعاة وملوك تاب الحرب الأخيرة التي استمرّ لظها متسجراً قرناً ونيّفاً. وكانت أسبابها القرية على رأي جمهور المؤرّخين، مسائل دينيّة. ولا غرو فإنّ هذه المسائل كثيراً ما كانت سبباً لحروب عديدة بين كثير من الأمم كما أنبأتنا التواريخ. فقد كان الملوك الوطنيون يتأوّهون أبداً من استيلاء الأجانب على بلادهم، ويفترصون كل وسيلة لاسترداد شرف وطنهم. وكان يمالئهم على ذلك كثير من الولاة الوطنيين في مصر العليا والسفلى أيضاً.

وكان في بدء هذه الحرب أنّ أبائي، أحد الملوك الرعاة الآنف الذكر، أوفد إلى ملك تاب (طيبة) يطلب إليه أن يقرّ بشات أو شتخ معبود الرعاة مقدّماً إياه على آلهة مصر، فأبى الإذعان لطلبه وجعل ذلك وسيلة لتهييج قومه. وقد أجمع الباحثون في الآثار المصرية إلا مسبرو على أنّ الباير المنسوب إلى ساليار الأوّل السالف ذكره، ينطوي على ذكر صحيح الأسباب التي دعت إلى هذه الحرب.

وقال مسيرو إنَّ ما في هذا الباير حكاية لا تاريخ وقول جمهورهم أظهر وأصح. قد أنبأنا كاتب هذا الباير أنَّ ملك تاب الذي أرسل أبائي الوفد إليه كان اسمه ساكن انده وتأويله الشمس المحاربة أو الظافرة، وأنه قد سُمِّي بهذا الاسم ثلاثة من ملوك تاب حاربوا جميعاً الملوك الرعاة. لكنَّ الحرب القاضية كانت في عهد الثالث منهم المسمَّى ساكن انره الأكبر. وفي عهد أحمس الأوَّل من سلالة هؤلاء الملوك، وهو الذي أذلَّ الرعاة وطردهم من مصر. وكان أوَّل ملوك الدولة الثامنة عشرة التي انبسطت ولايتها على مصر كلها. وهاك ما كتب في باير ساليار (صفحة أولى): «كان هذا لما كانت النقم حالة على بلاد مصر وعند هذه الأحداث لم يكن سيد ولا حيوة ولا صحة ولا ملك. ولما كان الملك ساكن انده هيكاً أي ملكاً في أنحاء الجنوب كانت النقم حالة في مدينة العَمُو (ثراد بهم السوريون أي الرعاة). وكان الأور (أي السيد أو الرئيس) أبائي في مدينة آفاري. وكان سكان البلاد كلها يحملون إليه حاصلاتها. وكان أهل الشمال (يريد مصر السفلى) يأتونه بأحسن ما عندهم. وجعل أبائي الملك شت أو شتخ إلهه وربه. ولم يعبد أحداً من آلهة البلاد كلها، وأقام له هيكلاً بديع الصناعة يدوم قروناً. وجعل أعياداً وعيَّن أيتاماً لتقديم الضحايا كل يوم لشتخ» (صفحة ثانية): «وأراد أبائي أن يرسل وفداً إلى الملك ساكن انده في بلاد الجنوب. ودعا بعد أيتام كتبتهم العلماء يستشيرهم في الوفادة إلى ساكن انده الملك (وهنا عبارات ممحوَّة في الباير إلى أن يُقرأ).

لا أريد أن أعبد أحداً من آلهة البلاد كلها إلا آمون رع ملك الآلهة. وبعد أيتام طوال أرسل أبائي إلى رئيس الجنوب في بلاد الجنوب اعلاناً لقَّنه إيتاه كتَّابه العلماء، فسار وفد أبائي إلى رئيس الجنوب ومثل بحضرته فسأل الوفد: مَنْ بعثكم إلى بلاد الجنوب، ولمَ أتيتم لتجسوا البلاد؟ فأجابه الوفد: أوفدنا إليك الملك أبائي لنقول لك... لعمرى لم أستطع أن أذوق طعم الوسن ليلاً ولا نهاراً... ولبث رئيس الجنوب برهة مرتعداً لا يدري ما يجيب به وفد أبائي الملك... (صفحة ثالثة): «ودعا رئيس الجنوب كبار قواده وعمَّاله والخبراء في بلاده يكشفهم بما بُنَّه إليه وفد الملك أبائي، فلم يفهم أحدهم بينت شفة. وأخذ الرعب والدهش منهم كلَّ مأخذ ولم يدروا ما يجيبون به إيجاباً أو سلباً الملك أبائي أرسل...» وهنا يقطع الكاتب الكلام ويأخذ في كلام آخر.

وعلى اختلاف الترجمة لهذا الباير لغموض بعض عباراته وتشويه يتبين منه ما لا يمكن الامتراء بصحته؛ وهو أولاً وجود ملك من الرعاة أبابي، كما يقرأ اسمه على تمثاله الذي اكتشفه مريات في تانيس. ثانياً ملك من ملوك تاب يُسمى ساكن انده يقرأ اسمه في باير آخر يُعرف أبوت. ثالثاً اسم عَمُو مع اسم آفارى مدينة العمو أي الملوك الرعاة؛ وهذا دلالة واضحة على أنَّ هؤلاء الملوك من سورية الشمالية أصلاً، لأنَّ خطوط الثامنة عشرة سُمِّت به سكان سورية الشمالية. رابعاً إنَّ عبادة الإله شت أ خاصة بالرعاة، وقد كانت قبلاً عند الحثيين في شمالي سورية واستمرت عندهم هنالك. خامساً إنه كان عند الملوك الرعاة صنائع وعلوم، دلَّ عليها هيكلاً بديع الصناعة يدوم قروناً للإله شت، ووجود كتاب علماء في د سادساً إنَّ الحروب بين الفريقين ابتدأت في أيام أبابي ملك الرعاة وساك ملك الجنوب. والظاهر من آثار أخرى أنَّ هذه الحروب استمرت أعواماً وإن لم نفرز حتى الآن بما يدلُّ على تفصيل مواقعها وظروف مكانها وزمانه ظفرنا بآثار تدلُّ على نهايتها كما سترى.

عد ٩٨

حصار آفارى محصن الرعاة

قد كُشف عن خطوط قديمة نُقشت على جدار أحد المدافن القديمة حذاء قرية الكاب في مصر، تنبئ تلك الخطوط بمواقع الحرب الأخيرة على الرعاة وحصار قلعة آفارى. وتشتمل على ترجمة رجل يُسمى أحمس بن أب البشارة الذي شهد هذه الحرب وتوغَّل في معامعها. وهاك ترجمة ما كتبه مدفنه: «أحمس الريان ابن أبانا المغفور له إليكم أيها الناس أجمع أسوق لأقص عليكم ما عرض لي. فقد نلت قلائد الذهب سبع دفعات على مشهد البلاد قاطبة، وكسبت عبيداً وإماءً عدداً عديداً، وما حزته بالسلح من والفخر يدوم مخلداً في هذه البلاد. فقد جئت إلى الوجود (وُلدت) في سوبان (الكاب) وكان أبي عاملاً عند الملك ساكن انرة، وكان اسمه رونت. ودونك ما فعلته أنا إذ كنت رباناً مكانه في السفينة المسماة باماس

في زمان الملك نباهتبرا (أحمس الأول) المغفور له. وكنت بعد شاباً في سن لا أعرف النساء به وألبس ملابس الشبان... أقمنا الحصار على مدينة آفارى وكنت أحارب مترجلاً بحضرة جلالة الملك فأعلى رتبتي. وبينما نحن نحارب في جانب قناة بتنكو في آفارى قتل عدواً. وعلم بذلك مخبر الملك فرفعه إليه، فتفضل عليّ بقلادة ذهب. وجاهدت مرة أخرى في هذا المحل وأخذت يداً (أي قتل عدواً وأخذ يده) فنلت مرة أخرى قلادة الذهب. ويوم كان الوغى في نوكامي جنوب هذه المدينة أخذت أسيراً حياً وألقيت نفسي في الماء بعيداً كي لا أمر في طريق المدينة فعبرت الماء به. ودرى بذلك مخبر الملك فتحليت بالذهب مرة أخرى. وقد افتحنا آفارى. وأخذت حيثيذ رجلاً وثلاث نساء أربعة رؤوس أسرى فوهبتهم جلالته لي عبيداً. وحاصرنا شاروحانا (في فلسطين لا يعلم محلها إلى الآن) في السنة الخامسة فافتحتها عظمتها. وأسرت منها امرأتين، وقتلت رجلاً فأعطيت أيضاً ذهباً ثميناً ووهب لي الأسرى عبيداً.

وبعد أن فتكت عظمتها بالماناساتي (أي الملوك الرعاة) عادت حالاً تستأصل الأعداء في بلاد النوبة فعمل بهم مذبة. ويتبع كلامه في غارة أحمس الأول على جنوب مصر إلى الحبشة وهو يصحب الملك ويعتد انتصارات أخرى له وفوزه بقلائد ذهب أخرى. ويقول إن الملك وهبه دفعتين في كل منها خمسة استا من الأرضين (وهو مقياس للأرض متعارف عندهم)، وهذا مشعر بشيء مما جاء في سفر التكوين من أن يوسف جعل أرض مصر ملكاً لفرعون يتصرف به كيف شاء. إلى أن يقول صاحب المدفن إنه نال الخطأ بأن يصحب الملك أمنوفي الأول إلى الحبشة لإيساع تخوم مصر، وإن الملك أعلى مقامه وسمه محارب الملك ثم أمير البحرين. وإنه صحب توتمس الأول إلى بلاد النوبة إلى أن يقول: «وبعد هذا تحولت عظمته نحو الروتانو (سكان سورية) انتقاماً منهم (لعل أهلها أنجدوا الرعاة أو قبلوهم بالترحاب بعد طردهم من مصر). فبلغ نهرينا (لعل المراد البلاد التي بين العاصي والفرات كما ورد أكثر من مرة) حيث التقى بذاك الوغد الحنيس (لم يذكر اسمه). وأعد نفسه للقتال فأثخن جلالته في أرضهم واستاقت عدداً عديداً من الأسرى أحياء. وكنت أنا إذ ذاك على قيادة جيوشنا. وشاهد الملك أعمالي المشرفة وأخذت مركبة مع خيلها ومن كانوا فوقها أسرى أحياء وأتيت بهم إلى عظمتها

فتكبرم عليّ بالذهب دفعةً أخرى. وقد طعنْتُ في السنّ وبلغت الشيخوخة... فهذا ذكر أعمالِي الخطيرة وسأستريح في المدفن الذي أعددتَه لنفسي».

وقد وُجِدَت خطوط أخرى نُقِشت في عصر الخطوط السالف ذكرها على صفيحة هي الآن في متحف اللوفر في باريس أخذت إليه عن مدفن رجل آخر اسمه أحمس أيضاً؛ فإنّ هذا الاسم كان يُسمّى به كثيرون في عهد الدولة الثامنة عشرة التي ابتدأت بانتصارات أحمس الأوّل على الرّعاة. ويُعرف صاحب الصفيحة بأحمس بنسوب وخلاصة ما كتب فيها: «إنه خدم أحمس الأوّل وأمانوفي الأوّل، وتوتمس الأوّل، وتوتمس الثاني، وإنه جاهد في حروبهم مع الرّعاة وفي النوبة والحبشة وبلاد العرب وسورية وقتل وأسر من الأعداء ونال قلائد الذهب». فهذه الخطوط وغيرها تثبت الحروب الأخيرة مع الرّعاة وحصار قلعتهم آفارى وشدّة دفاعهم أمداً مديداً. ولكن ليس فيها بيّنة قاطعة على افتتاحه عنوةً وقول أحمس أمير البحّارة إنهم افتتحوا آفارى لا يفهم على إطلاقه كما سترى.

عد ٩٩

استسلام آفارى وخروج الرّعاة منها

قال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه الشرقي صفحة ١٥٧) قال مانيتون في فقرة حفظها لنا يوسيفوس: «وغلب الرّعاة أخيراً وطردوا من أعمال مصر فتألّبو في بقعة اتساعها عشرة آلاف أرور (مقياس للأرض) تُسمّى آفارى، وأحاط الرّعاة هذه البقعة بسور رفيع منيع احتفاظاً على أموالهم ومقتناتهم. فحاول ابن الملك أخذ المدينة عنوةً فحاصرها محققاً بها بأربعمائة وثمانين ألف رجل. ولما يئس من افتتاحها صالحوهم على شرط أن يترك الأعداء أرض مصر ويذهبوا آمنين حيث شاءوا فخرجوا بأموالهم ومقتناتهم، وكان عديدهم يبلغ إلى مئتين وأربعين ألفاً، وأخذوا طريق البريّة إلى سورية. ولخوفهم من دولة الآشوريين المستحوذة يومئذ على آسيا لبثوا في البلاد المسماة الآن اليهودية. وصوّب لانرمان شهادة مانيتون هذه لمطابقة الآثار لجوهر الخبر الذي روته. وذكر من هذه الآثار ما روّياه أنفأ مما كتب على مدفن أحمس أمير البحّارين. وقد لاحظ الأب دي كارا (صفحة ٣٥٠ من كتابه الملوك الرّعاة) أنّ استسلام الرّعاة في آفارى لم يكن إلا لمضايقتهم بقطع طريق الدخائر عنهم، إذ لم

يَقَّ إِلَّا مَدِينَةَ آفَارَى وَقَلْعَتَهَا. وَأَنَّ قَوْلَ أَحْمَسَ أَمِيرِ الْبَحَارِينَ إِنَّهُمْ افْتَتَحُوا آفَارَى وَإِنَّ الْمَلِكَ فَتَكَ بِالرُّعَاةِ، فِيهِ الْمُبَالِغَةُ الْمَعْتَادَةُ فِي بَعْضِ آثَارِ الْفِرَاعَةِ. فَلَوْ كَانَ فَتَكَ بِهِمْ أَوْ قَرَضَهُمْ كَمَا يُمْكِنُ تَرْجُمَةُ كَلِمَتِهِ، لَمَا اضْطَرَّ بَعْدَ خَمْسِ سِنَوَاتٍ أَنْ يَجِيْشَ الْجِيُوشَ لِإِذْلَالِهِمْ فِي شُرُوحَانَا وَطَرْدَهُمْ مِنْهَا. وَلَوْلَا خَشْيَتُهُ مِنْ مَعَاوِدَةِ سَطَوْتِهِمْ عَلَى بِلَادِهِ مَعَ اسْتَفْحَالِ أَمْرِهِ فِي مِصْرَ الْعَالِيَا وَالسُّفْلَى لَمَا اضْطَرَّ إِلَى هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْحَدِيثَةِ. فَقَدْ خَرَجُوا إِذَا مِنْ آفَارَى مَكْرَهِينَ وَلَكِنْ غَيْرَ مَذْلَلِينَ. وَيُؤَيِّدُهُ شَهَادَةُ مَانِيْتُونَ وَهُوَ مِنْ خَصْمُوهُمْ، كَمَا مَرَّ، عَلَى أَنَّ كَثِيرِينَ مِنْ هَذِهِ الْعَشِيرَةِ الَّتِي أَقَامَتْ قُرُونًا فِي مِصْرَ آثَرُوا الْعُبُودِيَّةَ فِي مِصْرَ الْخَصْبَةِ عَلَى الْإِرْتِحَالِ وَالْإِغْتِرَابِ، فَاسْتَمَرُّوا فِي نَاحِيَةِ مِصْرَ الشَّرْقِيَّةِ مَعَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَشَائِرِ السُّورِيَّةِ وَبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاسْمَحْ لَهُمْ أَحْمَسُ كَلْفًا بِالْإِتْنَفَاعِ بِهِمْ أَنْ يُمْكِنُوا لِحِرَاثَةِ الْأَرْضِينَ الْمُسْلِمَةِ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَخْرُجُوا بَعْدًا كَمَا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ. وَلِذَا ذَهَبَ بَعْضُهُمْ وَلَاسِيَا لَانْرِمَانَ فِي تَارِيخِهِ الشَّرْقِيِّ أَنَّ مِنْ بَقَايَا عَشِيرَةِ الرُّعَاةِ سَكَانَ الْقَرْيَةِ الَّتِي حَوْلَ بَحِيرَةِ الْمَنْزَلَةِ، مُسْتَدَلِّينَ عَلَى ذَلِكَ بِهَيْئَتِهِمْ الطَّبِيعِيَّةِ أَيْضًا الْمُمْتَازَةِ عَنْ هَيْئَةِ سَائِرِ الْمِصْرِيِّينَ بِقُوَّةِ بَنِيَّتِهِمْ وَطُولِ وُجُوهِهِمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ السَّمَاتِ الْمُمَيَّزَةِ لَهُمْ وَالَّتِي يَقُولُونَ إِنَّهَا أَشْبَهُ بِهَيْئَةِ بَعْضِ الْمُلُوكِ الرُّعَاةِ فِي تَمَائِيلِهِمْ الَّتِي وُجِدَتْ فِي تَانِيْسَ كَمَا مَرَّ.

عد ١٠٠

موقع مدينة آفَارَى متحصَّن الرُّعَاةِ

أَطَالَ الْأَبُ دِي كَارَا (فِي فَصْلِ ١٧ مِنْ كِتَابِهِ الْمُلُوكِ الرُّعَاةِ) الْكَلَامَ فِي اسْمِ آفَارَى وَمَوْقِعِهَا فَقَالَ إِنَّ اسْمَهَا وَرَدَ فِي فِقْرِ مَانِيْتُونَ وَفِي تَرْجُمَةِ أَحْمَسَ أَمِيرِ الْبَحَارِينَ الْآلَفَةِ الذِّكْرَ وَعَلَى تَمَائِيلِ الْمُلُوكِ الرُّعَاةِ الَّتِي وُجِدَتْ فِي تَانِيْسَ. وَأُورِدَ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي أَصْلِ هَذَا الْاسْمِ وَمَوْقِعِ الْحُلِّ الْمُسَمَّى بِهِ فَقَالَ ظَنُّ شَمْبُولِيُونَ أَنَّ تَأْوِيلَ آفَارَى فِي اللُّغَةِ الْمِصْرِيَّةِ اللَّعْنُ وَالتَّجْدِيفُ أَيْ الْمَدِينَةُ الْمَلْعُونَةُ لِإِشَارَةِ إِلَى مَقْتِهِمُ الرُّعَاةَ، وَأَنَّ الْيُونَانِ سَمَّوْهَا إِيرَابُولِيْسَ. فَكَانَتْ عِنْدَهُ آفَارَى وَإِيرَابُولِيْسَ وَاحِدَةً وَهَذَا خَطَأً ظَاهِرًا، وَلَا عَجَبَ فَقَدْ قَالَ شَمْبُولِيُونَ بِهِ قَبْلَ حُلِّهِ الرَّمُوزِ الْهِيروغليفِيَّةِ. وَقَالَ لَيْسِيُوسُ إِنَّ بِالْوَسِ وَآفَارَى مَدِينَةً وَاحِدَةً مَوْقِعُهَا فِي شَرْقِي تَرْعَةِ بُوَيْسْتِ (تَلِ الْبَسْطَةِ) فِي جَانِبِ الزَّقَازِيقِ، وَإِنَّ اسْمَهَا الْقَدِيمَ آفَارَى ثُمَّ سُمِّيَتْ بِالْوَسِ، وَإِنَّ كَلِمَةَ

بالوس ليست اللفظ اليوناني الذي معناه الطين أو الوحل كما وهم علماء اليونان وتابعهم العرب بتسميتها طينة، بل أخذ هذا الاسم عن الستين أخط الأبطال الذي ورد في الأفاصيص أنه أتى من سورية فأقام بقومه هناك. ورأى ليسيوس أن أخربة المحلّ المسمّى تل الهر، الممتدة إلى بالوس، هي أطلال آفارى. وعليه فتل الهر وآفارى مدينة واحدة في القدم. وواقفه على قوله شباس وبروغش الذي قال أيضاً إنّ بالوس كانت في محل القرية المسماة الآن فرما عن كلمة قبطية فرومى أي مدينة الوحل وفي اليونانية بالوس بمعنى الوحل. أما الأب دي كارا، فبعد إيراد هذه الأقوال وغيرها وتنديده بأكثرها، ذهب على سبيل الحدس والتخمين إلى أنّ آفارى وبالوس مدينة واحدة واسمهما واحد، وأنّ فرما قرية منهما وليست إحداهما، وأنّ كلمة وار أو فار معناها في لغة مصر الهارب أو المرتحل. وعليه فمعنى آفارى بلد المرتحلين أو الهارين إشارة إلى من ارتحلوا من سورية إلى هناك، وأنّ اسمها اليوناني بال مكسر فار يبدل الفاء بياء والراء بلام للقرب بين مخارج هذه الحروف، وأنّ موقع هذه المدينة ذات الاسمين في شرقي خليج السويس وفي الجنوب الشرقي من بورت سعيد، وأنّ موقع تانيس وهو سان الآن في الجنوب الغربي من بحيرة المنزلة وفي شرقي المنصورة.

مقالة في الفينيقيين

لما كان الفينيقيون فصيلة من قبيلة الكنعانيين استلزم مساق هذا التاريخ وبيان
أن نأتي أولاً على كلام موجز في الكنعانيين نجعله تمهيداً لكلامنا المخصوص
بالفينيقيين.

الفصل الأول

الكنعانيون

عد ١٠١

أصل الكنعانيين ومهاجرهم الأولى وداعي ارتحالهم إلى سورية

مرّ في عد ٥٤ ذكر العشائر التي توطّنت سورية قبل أن يغشاها الكنعانيون.
وأما هؤلاء فلا مرية أنهم ولد كنعان بن حام بن نوح وعليه صريح نصّ الكتاب
(تك فصل ١٠). ولكن أين كانوا قبل أن هاجروا إلى سورية وأقاموا فيها رحالاً في
بادئ أمرهم. فما رواه هيرودوت نقلاً عن تقليد الفينيقيين الذي تلقّاه في صور
نفسها، وما ذكره استرابون من تقليد سكان بلاد العرب الجنوبية، وما جاء في بعض
الآثار القديمة؛ كل ذلك مجمع على أنّ الكنعانيين قطنوا أولاً بجانب الكوشيين ولد
عَمّهم كوش على شاطئ خليج العجم من جهة بلاد العرب. وذكر بلين أنه كان
هناك في أيامه عمل يسمّى بلاد كنعان. وروى استرابون أنّ هناك جزيرتين تسميان
صور وارواد وهما من الجزائر المعروفة الآن بجزائر البحرين وقال: «لنّ فيهما هياكل

أشبه بهياكل الفينيقيين. وإذا صدّقنا قول السكان هنالك كان سكان صور وارواد في فينيقية من منازلهم». ويظهر منه أنهم سمّوا صوراً وارواد باسم محالّ مهاجرهم الأولى، ذاك شأن كثير من المهاجرين إلى الآن.

وأما ما كان الداعي إلى مهاجرة وطنهم وانتجاع سورية فقال هيرودوت إنّ زلازل توالى عليهم في بلادهم أكرهتهم على الاغتراب. وجاء في الكتاب السرياني الكلدانيّ الذي ألف في بابل في صدر النصرانية موسوماً بالحرثة النبطية. (ذكره لانرمان في تاريخه مجلد ٦ صفحة ١٠٦ طبعة ٩) إنّ الكنعانيين طُردوا من أوطانهم لنزاع وقع لهم مع الملوك الكوشيين حكام بابل من ذرية نمرود. وتؤيّد أقوال كثير من المؤرّخين العرب الذين ذكروا مهاجرة الكنعانيين إلى سورية وسمّوهم العمالقة من نسل حام - تمييزاً لهم عن العمالقة من نسل سام - وجعلوا سبب انتزاحهم حرباً تلطّت بينهم وبين سلالة نمرود. رواه العالم برسفال في كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام^(١). وقال لانرمان (في المحل المذكور) أما مهاجرة الكنعانيين أوطانهم لداعي خصومة ونزاع فأمر قريب من الصواب، ويرجح الظنّ صحّته. فإنّ أكثر ارتحالات الأمم كان لها مثل هذا الداعي. وأما أنّ هذا النزاع كان مع أبناء عمّهم الكوشيين فأمر يحقّ الامتراء فيه. وصوّب أن تكون علّة هذه المهاجرة غارة الملوك العيلاميين على بابل نحو سنة ٢٢٥٠ ق.م وقرضهم دولة الكوشيين القديمة؛ فهذا من الأحداث التاريخية المهمة التي يرجّح أن كان من نتائجها إكراه العشائر الكنعانية الحامية على الرحيل من جانب الخليج العجمي إلى سورية. وسترى أنّ هذه المهاجرة كانت معاصرة لتاريخ الغارة السالفة الذكر.

عد ١٠٢

زمان ارتحال الكنعانيين إلى سورية

روى هيرودوت في تاريخه أنّ هيكلم ملكرت الشهير في جزيرة صور مضى عليه إلى أيامه ٢٣٠٠ سنة بحسب أخبار الفينيقيين له. لكنّ هيرودوت وُلد سنة ٤٨٤ ق.م ونشر تاريخه سنة ٤٥٦ ق.م. وعليه فيكون ذلك الهيكلم بُني نحو سنة

(١) Caussin de Perceval. Histoire des Arabes Avant L'islamisme to pa. 118.

٢٧٥٠ ق.م وقد بناه الكنعانيون؛ وهذا غير صحيح بل هو محمول على تعظيم الفينيقيين قدم هيكلمهم أو على حساب هيرودوت السنين بحسب المواليده، فلا يستقيم حسابه، ففي ذلك زيادة قرون. وأصح ما يظهر من الباير المحفوظ الآن في متحف برلين وقد ترجم أكثره العالم شباس الإفرنسي. فهذا الباير ينطوي على تقرير رفعه عامل مصري أرسل في أيام الملك آمون أمهات الأول من ملوك الدولة الثانية عشرة في مصر إلى بلاد آدوم وجرار وغيرهما من الأعمال في جنوبي فلسطين، ليتجسس أخبار هذه البلاد ويسبر حالة سكانها. ففي هذا التقرير لا نجد أثراً لوجود عشائر الكنعانيين في فلسطين بل يظهر منه أن سكان هذه البلاد كلهم من الساتي الذين كان يُراد بهم في أيام الدولة الثانية عشرة قوم ساميون يسكنون هذه البلاد مع الرفائيم أي الجبابرة، وإن أطلق هذا الاسم في عهد الدول المتأخرة على سكان سورية على اختلاف أصولهم. وقد وجدت آثار أخرى منذ أيام الدولة الثانية عشرة أيضاً تصرّح أنه لا مجاور للمصريين من جهة سورية في ذلك العهد إلا العشائر التي من ذرية العمو. فكان بنو مصرائيم يستمّون ولد عمهم سام عمّو، وهي كلمة سامية معناها الشعب وفي السريانية **ܫܡܝܐ**.

على أن الكتاب المقدس أنبأنا بأن انتجاع الكنعانيين سورية كان قبل أن يحتلها ابراهيم آتياً من أور الكلدانيين، فإنه قال (تك فصل ١٢ عد ٦): «واجتاز ابرام في الأرض إلى موضع شكيم وإلى بلوطة ممرة. والكنعانيون حينئذ في الأرض وسترى أن مهاجرة ابراهيم إلى سورية كانت في القرن العشرين أو الحادي والعشرين قبل الميلاد. ولم تبين آية الكتاب أمن زمان مديد أم وجيز كان الكنعانيون في الأرض التي بلغها ابراهيم والذي حدس فيه لانزمان وغيره أن حلول الكنعانيين في سورية كان بين سنة ٢٢٥٠ وسنة ٢٣٠٠ قبل المسيح. وقالوا إن هذا يطابق عصر ثورة العيلاميين على الملوك الكوشيين في بابل وأنحائها، إذ جعلوا مهاجرة الكنعانيين من مسيبيات تلك الحوادث.

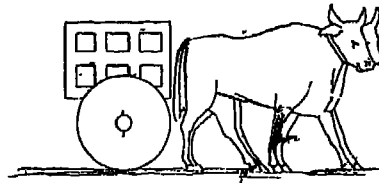
عد ١٠٣

الحال التي توطنها الكنعانيون في سورية

قد سلف في عد ٣٧ ذكر الحال التي احتلتها عشائر الكنعانيين الإحدى عشرة في سورية. ونزيد على ذلك هنا أن الكنعانيين لم يكونوا أول السكان في سورية بل

سبقهم إليها الآراميون وغيرهم من العشائر السامية. وعند احتلال الكنعانيين هذه البلاد أزاحوا بعض السكان الأولين عن مواطنهم واستمر بعضهم في محالهم الأولى. وذهب بعض العلماء منهم الأب مرتين اليسوعي في كتابه «تاريخ لبنان» الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه من أمد قريب أنَّ السكان الأقدمين في مملكتي جبيل وبيروت لم يكونوا من الكنعانيين بل من الآراميين ولد آرام بن سام بن نوح. وأنَّ بناء مدينة جبيل كان قبل حلول الكنعانيين في سورية. وقد أقاموا على ذلك حججاً وأدلةً نكتفي بذكر بعضها. فمنها؛ أولاً أنَّ موسى جعل تخوم الكنعانيين صيدا شمالاً وجرار وغزة جنوباً (تك فصل ١٠ عد ١٩) وسنأتي على بيان ما يرد على هذا من قبيل إقامة عشائر كنعانية في الشمال أيضاً كالعريقين والأروادين وغيرهم. ثانياً أنَّ اسم معبود الجبيليين والبيروتيين يختلف عن اسم معبود الكنعانيين؛ فهؤلاء كانوا يُسمّون معبودهم بعلاً وأولئك يُسمّون معبودهم إيل. فقد وُجدت آثار للآراميين نُقش عليها اسم إيل، وآثار أخرى للكنعانيين نُقش عليها اسم بعل. ثالثاً أنه قد أنبأت التواريخ والآثار بمخالفة أو عهدة بين الكنعانيين وبين الجبيليين والبيروتيين فيتبادر إلى الفهم من ذلك أنهم لم يكونوا من قبيلة واحدة أصلاً. وليس لقدماء هذه الأنحاء إلا أصلان آرام وكنعان. فإن لم يكن البيروتيون والجبيليون الأقدمون كنعانيين فلا يعدّون أن يكونوا آراميين. رابعاً أنه قد ثبت بالتواريخ وشهادة الآثار والأقاصيص التي لا تخلو غالباً من أصل تاريخي أنَّ جبيل عريقة في القدم جداً وأنَّ بيروت من مستعمراتها. ولا يحتمل الصحّة أنَّ هذه السواحل البحرية لبثت خالية خاوية من السكان إلى أن غشيها الكنعانيون بعد قرون من الطوفان وتفريق القبائل. ولا نرى الكتاب ولا غيره ذكر مقاماً لإحدى عشائر الكنعانيين بين صيدا وعرقا. ولما كان الآراميون أشهر سكان سورية وقد انتشروا في هذه الأنحاء إلى دمشق، فيظهر من ذلك كلّهُ أنَّ السكان الأقدمين في هذه السواحل وما جاورها من لبنان هم آراميون أصلاً. يحملنا على هذا القول بيان ما نراه من الصواب لا غرض في النفس للفرار من وصمة لعنة كنعان. ومنَّ يعلم الآن أحاميّ هو أم ساميّ أم يافتيّ بعد مرور الدهور وتوالي الغزوات في سورية وتركها فيها بقايا من الفازين. وأما جعل الكتاب صيدا تخماً لبلاد الكنعانيين من ناحية الشمال مع أنَّ العريقين والسينيين والأروادين والصماديين والحماطين كنعانيون أيضاً. وكانت مساكن جميعهم بعيدة عن صيدا نحو الشمال. ففيه أقوال وتفسير متباينة نرى أظهرها

وأقربها إلى الصواب أنّ موسى قسم الكنعانيين إلى جنوبيين وشماليين وجعل صيداً تخماً شمالياً للجنوبيين منهم خاصة، لأنّ أرضهم إنما هي الأرض التي ملكها بنو إسرائيل عند افتتاحها فلسطين، ولم يتجاوزوا تخومها قبل أن تملك داود عليهم. ومهما يكن من تفسير الآية فيظهر منها أنّ سكان البلاد من تخوم صيدا جنوباً إلى تخوم عرقا شمالاً لم يكونوا كنعانيين لاسيما أنّ الممالك قي تلك الأيام لم تكن إلا عبارة عن أعمال أو كُور وأصقاع. ولم يكن للكنعانيين مملكة واحدة بل لكل عشيرة أو صقع مملكة تستقلّ بتدبير شؤونها. وليس ما يمنع من تخلّل عشيرة آراميّة بين بلاد الكنعانيين الجنوبيين والشماليين. وأما قول لانرمان (في المجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ١٢٠) إنّ مسكن السنين كان في لبنان، فهو منقوض بقول نفسه (في المجلد ١ صفحة ٢٧٤) إنهم كانوا يسكنون في شمالي عرقا، وهذا يُستلمح من نظام ذكر الكتاب العرقيين ثم السنين ثم الأروادين ثم الصماريين. ومساكن كل عشيرة من هذه في شمالي مساكن الأخرى طالع ما ذكرناه في عد ٣٧. ولا يُعلم إلى الآن متى اختلط هؤلاء بالكنعانيين ولا كيف كان ذلك. ويظنّ أنه جرى عند استفحال أمر الفينيقيين وانبساط سطوتهم واتساع نطاق تجارتهم.



صورة عربة كنعانية مأخوذة عن احد جدران تلّاب (طيبة) في مصر

حال الممالك الكنعانية

قد مرَّ أنَّ كل عشيرة من الكنعانيين كانت تستقلّ بتدبير شؤونها فيلي أمرها أمير يُستونه ملكاً بل كان أحياناً لكل عمل أو مدينة أيضاً ملك. ولا علاقة سيادة أو خضوع بين هؤلاء الملوك. ولم تكن تتحد كلمتهم إلا إذا فاجأهم غارة أو حلت بهم نكبة عامة. ولم يكونوا مع هذا ليتألبوا دائماً عند حلول التوائب بل كثيراً ما تركوا العدو ينكّل ويفتك بهم تباعاً. ولم يكن عندهم عصبية ولا تناصر بل توفرت بينهم العداوات والحروب الأهلية، حتى بعد أن انضمَّ بعض العشائر إلى بعضها بعهدة كما صنع الفينيقيون. فلم يكن للعشيرة الواحدة على الأخرى سيادة تامة أو مطلقة بل كانوا أحلافاً يتناصرون. ولملك العاصمة المقام الأوّل والكلمة الأولى بينهم ويُستثنى من هذه العشائر الحثيون؛ فإنه كان لهم دولة كبرى، وأهمية سياسية، وعصبية شديدة، وجندية منظمّة لم تكن لسواهم من عشائر الكنعانيين، كما رأيت. وامتاز الفينيقيون بذكاء العقل والكتّ على التجارة والكّد في الصناعة وتحمل مشاقّ الاغتراب وركوب مخاطر الأسفار البحرية وإيثار السلم وأرباح التجارة على معاندة الغزاة في مواطنهم. فكانوا يستسلمون غالباً لكلّ غازٍ قدير. وامتاز الحويّون بأنه لم يكن في مدنهم ملوك يلون أمرها، بل كان فيها نوع من الجمهورية البلدية تسوس الأهلين بمقتضى سنن أشبه بسنة بني إسرائيل في أيّام القضاة.

وهم بعض المؤرّخين أنه كان في فلسطين أيضاً عشيرة تُعرف بالفريزين وأنها الثانية عشرة من عشائر الكنعانيين؛ وهذا خطأ ظاهر لأنّ موسى لم يذكر لولد كنعان في سفر التكوين إلا إحدى عشرة عشيرة. وأما اسم الفريزين الوارد في آيات أخرى من الكتاب فيُراد به سكان القرى تمييزاً لهم عن سكان المدن، لا فرع آخر من بني كنعان. وعليه فالفريزيون بمعنى القرويين كذا قال لانرمان في المجلد السادس من تاريخه الشرقي صفحة ١٢٠. وعن كلمت في معجم الكتاب (في كلمة الفريزين). أنّ الفريزين شعب قديم كان يقطن بفلسطين مختلطاً مع الكنعانيين. ويظهر من أدلّة كافية أنهم من نسل كنعان، لكنهم لم يكن لهم مستقرّ بل كانوا رحالاً يقيمون تارة في هذا الصّقع وأخرى في غيره. وتأويل اسمهم المشّتون والمفروزون أو سكان المزارع والقرى. وكانت محالّهم في عبري الأردن يتنخبون

الحزون والسهول. وقد جاء ذكرهم دفعات في الكتاب مع الكنعانيين. منها في التكوين (فصل ١٣ عد ٧) حيث قيل: «وكانت خصومة بين رعاة ماشية أبرام ورعاة ماشية لوط. والكنعانيون والفرزيون حينئذ مقيمون في الأرض». ومنها في سفر يشوع بن نون (فصل ١٧ عد ١٥) حيث جاء أنّ بني يوسف شكوا إلى يشوع أنّ أرضهم ضاقت عليهم «فقال لهم يشوع إذا كنتم شعباً كثيراً فاصعدوا إلى الغاب ومهّدوا لأنفسكم هناك في أرض الفرزين والجبايرة (رافائيم)». ويظهر أنهم استمروا في فلسطين بعد أن عاد بنو إسرائيل من سبي بابل. فقد جاء في سفر عزرا (فصل ٩ عد ١) أنّ الرؤساء أتوا يشكون إلى عزرا «أنّ شعب إسرائيل والكهنة واللاويين لم ينفروا عن شعوب الأرض ورجساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين».

وبعد أن طرد المصريون الملوك الرعاة من أرضهم، كما مرّ في آخر المقالة في الحثيين، أخذ ملوك الدولة الثامنة عشرة في مصر يشتون الغارة على سورية والكنعانيين فينكّلون بهم ويشخّنون في أرضهم ويفترضون عليهم الجزية، لكنهم كانوا يتركونهم وما يدينون، ولا يعترضونهم في شرائعهم ولا في ولاية شؤونهم ولا يزعونهم عن المحاربات الأهلية ولا عن محاربة ملك منهم لآخر، ولا يصدّونهم عن عقد عهديات بينهم، بل كانت الدولة المصرية تكتفي بأن يعطيها هؤلاء الجزية ويفتحوا أبواب بلادهم لجنودها وينجدوها في حروبها مع أعدائها إذا دعتهم إلى ذلك. فلم يصنع المصريون ما صنعه بعد ذلك الرومانيون من أنهم إذا أخضعوا بلداً جعلوها اقليماً رومانياً وأقاموا عليها والياً رومانياً. ولذلك لم تكن غرى الصداقة بين المصريين والكنعانيين وثيقة بل كان أن كلما مات ملك في مصر أو كُسرت جنوده أو شاع خبر انكسارها أو سمع خبر اضطراب في مصر تمزّد الكنعانيون وأبوا دفع الجزية أو ثاروا. فعاد ذلك الملك أو خلفه إلى الاقتصاص منهم وكتبهم للعودة إلى الطاعة. ويُسْتثنى من هذا صيدا فإنها قلّما دخلت في ثورة، بل كانت تؤثر الراحة والسكينة على العصاوة والخساسة. انتهى ملخصاً عما رواه مسيرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق في كلامه على الدولة الثامنة عشرة في مصر.

تشّت الكنعانيين وجالياتهم

إنّ ما أوهن الكنعانيين ولاسيما الجنوبيّين وشّت شمل السواد الأعظم منهم إنّما هو افتتاح يشوع بن نون بلادهم، وقهره ملوكهم، وتمليكهم أرضهم لبني إسرائيل، كما سترى في تاريخ العبرانيين. فقد ضرب واحد وثلاثين ملكاً (يشوع فصل ١٢) ودمّر مدنها، ومع هذا بقيت منهم بقايا في السواحل البحريّة خاصة. ولم يتخطّ يشوع حدود صيدا في لحاقه ملوك الكنعانيين. ولذلك تراحمت أقدام الفائزة من الكنعانيين في صيدا وضافت بهم الأرض فارتحلوا إلى آفاق عديدة. فكان منهم جاليتان خاصتان؛ إحداهما ارتحلت إلى تاب في بلاد اليونان وهي المعروفة بجالية قدموس لأنّه كان في مقدّمة هؤلاء المرتحلين، وهو على رأي جمهور العلماء، واضع الحروف اليونانية، وحكم في تلك الأصقاع، لكنه لم يستمرّ أمناً في ولايته. وخلفه أحد السبرتيين وكان ذا قرابة لأسرة قدموس. ثم استردّ الكنعانيون الولاية لعشيرتهم فولي أمرهم بوليدوس. وقال بعضهم إنه ابن قدموس. واستمرّت ولاية تاب تتنازعها سلالتان؛ إحداهما كنعانيّة والأخرى سبرتيّة أو وطنيّة، نحواً من ثلاثة قرون. هذا ملخّص ما رواه لانرمان في مجلد ٦ من تاريخه الشرقيّ صفحة ٤٩٧ وهو قول جمهورهم - وقد مرّ بك في المقالة في الحثّيين عد ٨٧ قول دي كارا إنّ قدموس كان حثيّاً وإنه ارتحل بقومه إلى بلاد اليونان قبل افتتاح يشوع بن نون بلاد فلسطين بقرون.

وأما جالية الكنعانيين الثانية فتوطّنت في إفريقية في المغرب حيث تونس الآن وقرطاجنة القديمة. وكان لهم هناك من قبل مستعمرة تجارية. وتبعهم غيرهم من الفينيقيين، كما سترى، واختلطوا مع عشائر الليبيين اليافتيين فكان منهم تلك الأئمة التي صارت شهرتها في حروبها وإتقان أهلها الحراثة، وقد تسمّت بالأئمة الليبيّة الفينيقية وكسبت قرطاجنة تلك الشهرة العظمى خاصة في حروبها مع الرومانيين. وكانت تتكلّم اللغة الفينيقية أو فرعاً منها يُسمّى البوني أو الفينيقية إلى أيام القديس أغوستينوس أسقف هيونا التي وضع الكنعانيون أسسها. ثم إنّ احتلال الفينيقيين جنوبي البلاد المنسوبة إليهم أزاح من كان بقي ثمة من الكنعانيين عن مواطنهم. وانضمّ من بقي منهم في سواحل فلسطين وفي شماليّها حتى أرواد وفي بعض لبنان

إلى عهدة واحدة مؤلفة من عدّة عشائر كنعانية. وسُمّيت أرجاؤهم فينيقية وسُمّوا هم فينيقيون. وعليهم مدار كلامنا في بعض الفصول التابعة. وقد بقي بقايا من الكنعانيين في فلسطين إلى أيام المخلص. فقد ذكر متى (فصل ١٥ عد ٢٢) خبز المرأة الكنعانية التي وافت المخلص في تخوم صور وصيدا تبتهل إليه ليبرئ ابنتها. ولما قال لها المخلص لا يجب أن يؤخذ خبز البنين ويُعطاه الكلاب أجابته بذكائها والكلاب أيضاً تلتقط خبز البنين المتساقط عن الموائد.

الفصل الثاني

اسم فينيقية وتخومها وأشهر مدنها

عد ١٠٦

اسم فينيقية

تُسمّى هذه البلاد فونيقية وفينيقية. وتوفّرت الأقوال وتضاربت في أصل هذا الاسم وتأويله. وقد أكثر الأب مرتين اليسوعي في كتابه «تاريخ لبنان» (الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه) من ذكر هذه الأقوال. ومن المعلوم أنّ اسم فينيقية وضعه لها اليونان حتى لا تجد هذا الاسم في الأسفار المقدّسة التي كُتبت بالعبرانية، بل تُسمّى هذه البلاد كنعان وبلاد الكنعانيين، ولكن تجده في سفرزي المكابيين وأسفار العهد الجديد التي كُتبت في اليونانية، وترى متى يسمّي المرأة الآنفة الذكر كنعانية، لأنّ إنجيله كتب بالعبرانية السريانية (لغة اليهود من عهد المخلص). ولكن ترى مرقس (فصل ٧ عد ٢٦) يقول إنها (من فينيقية سورية) لأنّ إنجيله كتب باليونانية. واسمها في الآثار المصرية كفتا وزاهي وفي الآثار الآشورية أحرى أي بلاد المغرب.

ومن الأقوال العديدة في سبب تسمية اليونان هذه البلاد فينيقية لا نرى إلا قولين يقربان من الصواب. أولهما لمسبرو أوجب به أنّ اسم فينيقية وفينيقيين أُخذ عن كلمة فون أو بون التي عبّرت بها أقدم الآثار المصرية عن بلاد العرب الشرقي وشاطيء خليج العجم من حيث أتى الكنعانيون، كما مرّ، وألحق العرب بالاسم حرفي النسب كما هما في اللغات الأعجمية. فصار فينيقية أو بونيقي، ويسمّون أيضاً بوني وبونيين كما سمّي أهل مستعمراتهم في إفريقية. وعليه فاسم فوني أو بوني صحب الكنعانيين من شاطئ خليج العجم إلى سورية، وفينيقيّو سورية أوصلوه إلى إفريقيا، وبونيتو إفريقيا أوصلوه إلى مستعمراتهم الشاسعة (مسبرو في التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ١٨٢ طبعة ٤). وتابع لانرمان (في مجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ٤٧٣) مسبرو في قوله هذا. وقال يزّو (في كتابه «تاريخ الصناعة» في القدم صفحة ١٢) إنّ أشهر العلماء الآن يصحّحون هذا القول. وأما القول الثاني فهو لكثير من العلماء القدماء والحداث، ومقتضاه أنّ اسم فينيقية يونانيّ تأويله النخل، سمّيت به هذه البلاد لكثرة هذا الشجر قديماً فيها، ويؤيّد وجود صورة هذا النخل على بعض المسكوكات القديمة في فينيقية وبعض مستعمراتها أيضاً رمزاً إلى بلادهم. فهذا القولان أدنى إلى الصواب من سائر الأقوال مثل قول بوشار Bochart إنّ فينيقية سمّيت كذلك نسبةً إلى بني عناق. وقول بعضهم إنّ الكلمة في اليونانية معناها الأحمر وإنّ الفينيقيين سمّوا بذلك لأنهم هاجروا من جانب البحر الأحمر أو نسبة إلى البرفير الأحمر الذي كان من مصنوعاتهم وسمع تجارتهم.

عد ١٠٧

تخوم فينيقية

لم تكن تخوم فينيقية في كل عصر واحدة فقد كانت قبل افتتاح يشوع بن نون فلسطين تمتد من تخوم أنطاكية إلى غزة، كما يتلخّص من كلام هيرودوت (كتاب ٤ فصل ٣٩) وكانوا يقسمونها إلى فينيقية البحرية وتشتمل على مدن سورية الساحلية، وفينيقية لبنان ويشمل اسمها بعلبك ودمشق وغيرها حتى تدمر. على أنه بعد طرد يشوع الكنعانيين من جبال فلسطين وانحصار السواد الأعظم

منهم في السواحل البحرية أصبح اسم فينيقية لا يشمل إلا الأصقاع الساحلية من عكاء أو جبل الكرمل جنوباً وإلى أرواد شمالاً مع ما يجاور هذه السواحل من جبل لبنان.

عد ١٠٨

مدن فينيقية

قد مرّ في عد ٥ ذكر أسماء بعض مدن فينيقية بين أسماء مدن سورية. فنذكر هنا مدن فينيقية خاصة بأكثر تفصيل مبتدئين بها من الشمال إلى الجنوب. وأولاً أرواد وكانت عاصمة الأرواديين من بني كنعان وكان موقعها في الجزيرة المعروفة حتى الآن بأرواد نحو الشمال من طرابلس. وروى مسبرو في التاريخ القديم لشعوب المشرق (صفحة ١٨٢) أنّ أهلها كانوا أبدأً يكلفون بالقلق والثوران على مجاورهم وحكامهم الأجانب من المصريين والآشوريين والفرس. وقد بسطوا ولايتهم على سكان السواحل وداخلية البلاد فتولّوا جبلة شمالاً، وخضعت لهم حماه مدة ما. هذا ما عدا أملاكهم في اليابسة تجاه جزيرتهم منها طرسوس المستاة قديماً أنتيرواد أي قبالة أرواد وعمريت الآتي ذكرها.

وتلي أرواد جنوباً ماراتوس المعروفة اليوم بعمريت وقد بقي فيها حتى الآن أخربة وأطلال ناطقة بعظمتها في العصور الخالية. وقال فيها لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٦) إنها أهم ما بقي من آثار أبنية الفينيقيين. وجعل بعضهم موقع ماراتوس في شمالي أرواد حيث مصبّ نهر مرقية الآن. وذكر لانرمان (في المحلّ السالف ذكره) بعد عمريت سيميرا وقال إنها في الجنوب من عمريت قرية من مصبّ النهر الكبير، وأنها عاصمة الصماريين وأنها لم تدخل في عهدة الفينيقيين. ويتبيّن لي أنّ الأظهر ما قلناه في عد ٣٧ اعتماداً على أنّ استرابون ذكر سيميرا بين المدن الواقعة بين النهر الكبير جنوباً واللاذقية شمالاً. وذكر أرتوسيا (طرسوس) قبلها من جهة الجنوب ثم استثناساً بما في معجم الكتاب لكلمت من أنّ موقع سيميرا بين النهر الكبير جنوباً ونهر مرقية (في شمالي أرواد) شمالاً. ويؤيد ذلك أنّ هناك أي في الشمال من أرواد لجهة المرقب وبلدة زميرين أو صمرين ووادي صفرة أو

سمرة - والكلمتان تقربان من سميرا أو صميرا - وربما أشعر بشيء من ذلك قول لانرمان نفسه بأن سميرا لم تدخل في عهدة الفينيقيين إذ يكون وجهه كونها خارجة عن تخومهم التي لم تمتد شمالاً إلا إلى أرواد.

ويلي النهر الكبير إلى الجنوب عرقا المعروفة حتى اليوم بهذا الاسم وكانت عاصمة العرقين. وجعل لانرمان موقع أرتوسيا هناك على شاطئ البحر، وقال إن الآثار الآشورية تسميها شمرون وإنها كانت من مدن فينيقية الكبيرة، ويحتمل أن صارت عاصمة العرقين من أقدم الأيام لبعد عرقا عن البحر. لكن المعلوم أن أرتوسيا يُراد بها طرطوس أو بلدة أخرى قديمة تقرب منها. ويلي عرقا من جهة الجنوب طرابلس. ولا يُعرف ما كان اسمها قبل أن يُسميها اليونان تريبوليس أي المدن الثلاث. بل المعروف أن الأرواديين والصيداويين والسوريين بنوا هناك ثلاثة أحياء لكل فريق حياً منفصلاً عما سواه، فسُميت باليونانية تريبوليس أي المدن الثلاث، فجعلها العرب طرابلس وزادوا الهمزة في أولها تمييزاً لها عن طرابلس المغرب، ويميّزها بعضهم عن تلك بطرابلس الشام.

ويلي طرابلس نحو الجنوب أيضاً قلموس، ويرجح أنها في محلّ القلمون الآن، ثم جيغارتوس ويُحتمل أن كان موقعها في القرية المعروفة اليوم بأنفة. وذكر بوليب وبلين واسترابون مدينة أخرى صغيرة بين جبيل وطرابلس وسموها ترياريس ولا يُعلم موقعها حتى الآن. ويلي هذه المدن الخلّ الذي سمّاه اليونان ثأوبروسبون أي وجه الله. ويظهر أنهم ترجموا الاسم الفينيقي وهو «فاني بعال» أي وجه بعل، كأنه كان هناك هيكل أو معبد، ويُسمّى هذا الخلّ اليوم وجه الحجر. وفي جانب وجه الحجر من جهة الغرب الجنوبي البترون، وليست عريقة في القدم، إذ روى يوسيفوس عن بعض القدماء أن إيتوبعل ملك صور بناها.

ويلي البترون من جهة الجنوب جبيل وهي أقدم المدن، حتى كان من تقليداتهم أن الإله إيل بناها، وفي اسمها أقوال. فمن قائل إنه مرّكب كذلك من جب بمعنى قبر أو مدفن ومن ايل بمعنى الإله أي مدفن الإله، يريدون به أدونيس أو تموز لاشتهار أهلها بعبادته، ومن قائل إنه مرّكب كذلك، ولكن جب بمعنى حصن وتأويله حصن الإله. ومن قائل إنه بمعنى الجبل لأن موقعها كان على الآكام القريبة منها أو لأن سكانها الأولين أتوها من الجبل، وسمّاها اليونان بيبولوس. وروى مسبرو

عن رنان أنه كان على الأكمة التي تعلو أخربتها الآن هيكل كبير بديع الصنّاعة كانت تزدهم به أقدام الحجّاج من كل صوب، إذ كانت المدينة المقدّسة عندهم حتى سمّاها رنان أوّرشليم لبنان. وكان في جنوبي جبيل مدينة أخرى أو ضاحية سمّاها اليونان بالي بيلوس أي جبيل القديمة. وفي موقعها أقوال بين أن كانت على مقربة من جبيل في جنوبها أو حذاء نهر ابراهيم وهو نهر أدونيس عندهم أو في طبرجة أو في صربا بجانب جونية.

وفي جنوبي جونية نهر الكلب وهو المعروف بليكوس عند القدماء. وهناك الممرّ الشهير حيث ترك لنا أكثر غزاة فينيقية حتى بعض الملوك الرومانيين تماثيلهم ذكرى لهم. وفي جنوبيه بيروت قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٦): «قد أسّسها الجبيليّون وكانت مدينة ملكيّة في كل عصر، وكانت لها أهميّة كبرى في مراكبها البحريّة وتجاريتها المتسعة النطاق، وتأويل اسمها أبار وأرضها تتاخم بلاد عشيرة صيدون بكر كنعان كما سمّاه الكتاب». وعن مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٨٤) إنّ بيروت كانت تتفاخر كجبيل بأنّ الإله إيل بناها. وكان للمدينتين أهميّة كبرى في السياسة بعد بلوغ الكنعانيين إلى سورية فلم تتمكّن من المحافظة عليها، ولكن لم ينحطّ لذلك شأنهما، واستمرّتا إلى منتهى أيام الوثنيّة أشدّ استمسكاً بثرى أحد المذاهب الدينيّة السوريّة. قلنا: لكنّ أهليهما آمنوا بالإنجيل عند بزوغ أنواره. وأقام القديس بطرس الرسول نفسه أسقفين فيهما كما حقّقه كثير من أصحاب التواريخ البيعيّة.

ويلي بيروت جنوباً خلدوا. ويظهر أن قد كان موقعها في محلّ خلده الآن على بعد نحو من ساعتين عن بيروت، ثم يورفيرون، ويُظنّ أن قد كان موقعها في محلّ الجيّة اليوم. والاسمان لليونان، ولا يُعلم ما كان الفينيقيون يُسمّون هاتين البلديتين به.

ويلي ما مرّ جنوباً صيدا وصيدون أقدم مدن الفينيقيين. وكانت تُسمّى أم المدائن، ما عدا جبيل المقدّسة، ولذلك سمّاها الكتاب صيدون الكبيرة (يشوع فصل ١١ عد ٨). وكانت منقسمة إلى محلتين صيدون الكبرى على شاطئ البحر، وصيدون الصغرى على مسافة منه نحو الجبل. وأنكر بعضهم أن يكون أصل لذلك إلا قول الكتاب الآنف الذكر «صيدون الكبيرة». فتوهم بعضهم أنه سمّاها الكبيرة

تميزاً لها عن صيدون أخرى صغيرة. فقالوا ما قالوا ولم يحقق أحد الجغرافيين وجود صيدونين (عن كلمت في معجم الكتاب في كلمة صيدا). وسترى كلاماً مطوّلاً في صيدا وسوددها. ويلي صيدا جنوباً سريتا المعروفة الآن بصرفند، ويظهر أنها كانت في الأعصر القديمة ذات غنى وأهمية كبرى، لكنها منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد خضعت لصور. وكان بين صرفند وصور عدّة مدن صغيرة منها نازانا التي سُميت بعد ذلك قيصرية، وأفاكا حيث الآن أخربة عدلون، بل كان هذا الشاطئ معتمداً بمحطّات التجارة ومستودعاتها. ويلي ذلك جنوباً صور ومعنى اسمها في الفينيقيّة صخر أو حجر، وجعلها الجغرافيون القدماء مدينتين؛ إحداهما موقعها في جزيرة صغيرة غير بعيدة عن الشاطئ وكانت محصّنة كأرواد، والأخرى في اليابسة. وجعل لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٧٧) موقعها في محلّ راس العين الآن، وأنها كانت تُسمّى بالي تير أي صور القديمة، وأنها لم تكن في أوّل أمرها إلا أكواخاً من قصب يتخذها الصيادون. وسنجد بكلام مسهب في صور وملوكها وعظمتها وتجارها وحروبها. ويلي صور جنوباً سرعة وكانت من نواحي صور، ولا يُعلم من أمر موقعها إلا أنه كان قريباً من صور، ثم أوس وسماها اليونان اسكندرونة وهو اسمها الآن أيضاً، وذكرت في الآثار المصريّة باسم أوس ثم كيكتا وهي المسماة في أيام السلوقيين اللاذقيّة، والآن تُسمّى أم العواميد، ثم أكديا وهي المعروفة اليوم بالزيب. ويلي هذه جنوباً عكا وهي التخم الجنوبي لبلاد الفينيقيين وسماها اليونان بتولمايس، ثم عادت إلي اسمها القديم وهو أكو أو عكو. فهذه أخصّ مدن الفينيقيين. وسترى ذكر كل منها مرّداً بذكر ما كان من الأحداث فيها.

الفصل الثالث

الصيدونيون واختراعهم الملاحة ومستعمراتهم وحالتهم السياسية

عد ١٠٩

اختراع الصيدونيين الملاحة وانكبابهم عليها

كان السؤدد في الفينيقيين بل في أكثر العشائر الكنعانية في بادئ أمرها للصيدونيين. فهم الذين رَقُوا الأُمَّةَ أولاً في مدارج الحضارة، واخترعوا فيها الملاحة، وذلَّلوا تيار البحور ساعين فوق الأمواج بسلع مصنوعاتهم، وافتتحوا الجزر والبلاد الشاسعة، وأقاموا فيها المستعمرات العديدة؛ فبينما كان أبناء عمهم الحثيون يشنون الغارة على مصر فيستحذون على أرضها الخصبية ويُجلسون قادتهم على منصّات الفراغة، كان الصيدونيون يغالبون البحر ليتصرفوا عليه ويمتطوه ويزلَّلوا أمواجه كلفاً بالتجارة واعتياضاً بها وبالصناعة عن حرائة الأرضين التي لم يكن لهم منها ما يكفيهم ويكفي سائر العشائر المرتحلة معهم والمحتلة البلاد قبلهم. فلم يكن لهم في كل غربهم ييس بل ماء. وكان السواد الأعظم من ساكني شطوط البحر المتوسط على حالة الهمجية المعروفة بالعصر الحجريّ. فلم يكن لهم خبر بعمل زورق تقلّه الأمواج والبلاد المتقدمة بالحضارة كمصر نفسها، لم يكن من أهلها مَنْ يجسر أن يركب خشباً يطفو به فوق الماء ولو مرمى حجر. فكان الصيدونيون أول مَنْ أجاد على المعمور بهذا الاختراع الخطير الذي تشدّ منافعه عن كل عد، فركبوا البحر معاندين الرياح والعواصف، يتطلّبون في شاسع الأرض المعادن والأخشاب والحجارة الثمينة، ويستجلبون المواد الأولى اللازمة للصناعة، وينقلون إلى الآفاق مصنوعاتهم، وينشرون معارفهم. وقد احتكروا هذه الصناعة فلم يكن فيها مبارٍ قروناً.

وهاك ما كتب فيهم العالم بوجولا الإفرنجي (في كتابه المعروف بمراسلات المشرق رسالة ١٣٧): «إنَّ ما يُدهش في أعصر صيدا القديمة إنما هو ذكاء أهلها التقدير على الاختراع وعلمهم بالصناعة. وقد أطرى هوميروس الصيدونيين بأنهم أهل لكل شيء. فأقدم التواريخ تقلد أبناء صيدون فخراً ومجداً. فكانت أرضهم أوّل مهد للعلوم البشرية وأوّل مهد للصناعة، فهيأت بذلك أسباب الحضارة في المعمور. فقد يمكن أن يكون الفينيقيون أخذوا عن الهنود والفرس البابليين بعض المعارف الأولى وبعض التقليدات النافعة، لكن ما لم يخترعوه قد كملوه. فقد أخذوا شرارة فصيروا منها شمساً. والحق يقال إنَّ هذا الشعب جاد علينا بأكثر المنافع. فمصر القديمة جعلت حكمتها وعلومها أسراراً فكانت تحجب مصباحها لئلا ينبعث نوره لأرض سواها، وأما فينيقية فلم تكن لتألو جهداً في تسطيع أنوار معارفها في كل صوب، فتتراءى لي مصر في أعصرها الخالية بهيئة كاهن لا ينطق بشيء بل يخبئ نوره المقدس في أعرق خفايا هيكله. وأما فينيقية فأراها بهيئة أولئك القدماء الذين كانوا يقلّون على رؤوسهم منارة في وسط البحور. وأخصّص ما يحقّ لفينيقية الفخار به اختراعات؛ أعني اختراع الملاحاة واختراع الكتابة» انتهى.

قال لانرمان (في مجلد ٦ صفحة ١٨١) ما ملخصه إنَّ تنقيب العلماء في مصنوعات الأولين أكسبنا العلم ثلاثة أمور لا مزية فيها؛ أوّلها: أنّ المصنوعات المعدنية في آسيا هي قديمة قدماً مستغربة. ثانيها إنّ المصنوعات النحاسية أقدم كثيراً من المصنوعات الحديدية. ثالثها أنه منذ اهتدى الناس أن يذيبوا النحاس ويصنعوا منه أدوات شعروا بالاحتياج إلى ما يجعله أكثر صلابة ومتانة بأن يدوبوا به شيئاً آخر. وعلموا أنّ مزج القصدير بالنحاس يصلح هذا الخلل إذ يتركب منهما البرونز وهو الصفر (أي النحاس الأصفر) التي وُجدت تلك الأدوات مصنوعة منه. فالمصريون والبابليون كانوا يجدون النحاس في أرضهم أو ما جاورها. وأما القصدير اللازم لتركيب الصفر فلم يكن إلا في بلاد شاسعة إذ لم يكن منه إلا في جبل قاف وفي الهند واسبانيا. وقد وجدوا في منف أدوات وأنية من الصفر مدفونة هناك منذ عهد الأهرام، فنتجوا أن لا بدّ من تجارة في تلك الأعصر المتناهية في القدم. كانت تجلب القصدير من تلك الأمصار القاصية إلى فراعنة مصر لخلق أرضهم وجوارها منه.

وقد جنح بعض العلماء إلى القول بأنّ القصدير الذي كانت تستعمله الأمم المتمدّنة في الشرق أي المصريون والكلدان والآشوريون والفينيقيون كانوا يستجلبونه من جنوب سيبيريا ومن بلاد الصين الغربية ومن شبه جزيرة ملاكا حيث توقّرت معادن القصدير. ولا يخفى ما كان من المخاطر على القوافل في أسفارها بين قبائل زُحّل دأبهم السطو على ابناء السبيل. وقد كانت الحروب والعداوات تقطع أحياناً الطرق قطعاً على السالكين فحملت الضرورة الفينيقيين الذين لا معاش لهم إلا بالتجارة والصناعة أن يستنبطوا وسائل لاستجلاب القصدير وحاصلات المشرق لأنفسهم ولغيرهم كالمصريين، وأن يستطرقوا طرقاً آمنة لا معتدٍ ولا منازع لهم فيها، فاهتدوا إلى الملاحة وأخذوا أولاً يسيّرون سفائنهم إلى جزر البحر المتوسط، إحداها بعد الأخرى إلى أن بلغت أسفارهم إلى البحر الأسود، وأقاموا لهم في تلك الجزر وفي اليابسة محطات لم تلبث أن أصبحت مستعمرات لهم كما ترى في العدد التالي.

عد ١١٠

مستعمرات الفينيقيين في مدة سؤدد صيدا

كانت قبرص أوّل محاط الفينيقيين في البحر لقربها من شطوطهم. وعن مسيرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ٢٣٧) عن اسطفان البيزنطي:

إنّ الجبيليين سبقوا الصيدونيين إليها لكن جبيل كانت مدينة هياكل ومعابد يهتمّها الدين أكثر من التجارة. فلم يكن لها أملاك مهمّة في الجزيرة بل أقامت هيكلًا فسيحاً في بافوس (الباف) في غربي الجزيرة. وكان عمّال بعض أصقاعها المسّمون ملوكاً يخضعون أولاً لجبيل إلى أن ذلّ جميعهم لسلطة صيدا، وكثر منازل الصيدونيين بين أظهرهم حتى أصبحت الجزيرة بلداً فينيقيّاً. وكانت غنيّة في المعادن خاصة الحديد والنحاس. وكانت أكمام تامازوس مقعمة بالنحاس حتى اعتاد الرومانيون أن يصفوا هذا المعدن بالقبرصي Cyprium. وشاع هذا الوصف في سائر لغات أوروبا. انتهى ملخصاً.

وعن فردينند هوفر Ferd. Hocfer في تاريخ فينيقية أنّ هذه الجزيرة افتتحها أولاً

الحثّيون Chittiens والحماتيون من عشائر الكنعانيين. وبنوا أخصّ مدنها وهي شيتيوم وحماتونة (أو حماسيا). ثم استحوذ عليها الصيدونيون على عهد ملكهم بالوس. وتجد صورتها على بعض الآثار القديمة ناطقة بأنها من مستعمرات صيدا القديمة». وهذا يطابق ما ذكرناه في مقالة الحثّيين من قول دي كارا إنّ قبرص كانت مستعمرة حثّية لا يونانية (طالع عد ٨٥). وأرى القول بأنّ الحثّيين بنوا شيتيوم التي سُمّيت الجزيرة كلها باسمها أظهر من قول لانرمان وغيره، بأنّ الصيدونيين بنوها وغيرها في القرن السابع عشر إلى الرابع عشر قبل الميلاد، لأنّ أوّل مدن الجزيرة التي سُمّيت باسمها يلزم أن يكون قبل هذا التاريخ، ولأنّ اسم شيتيوم لا يحتاج إلاّ بدل الشين بالحاء ليكون حيتيوم وحثيم إشعاراً بأنها من أبنية الحثّيين وحماتونة أو حماسيا كما سمّاها بعضهم مشعرة باسم حماه مدينة الحثّيين.

وانتقل الفينيقيون من قبرص إلى رودس دون أن تكون لهم حاجة إلى كولمبوس. فسيرهم نحو الشمال على جانب الشاطئ أذاهم إلى مدخل الأرخيل وهو رودس. وعن مسيرو (صفحة ٢٨٤ من تاريخه المذكور) عن سالون الآثيني (صولون الآثيني). فالعلاقة لإحدهما بالأخرى، وأنّ بعض العشائر كان ينضمّ إلى بعضها الآخر فيقرّ ملوكها بالسيادة والتقدّم للملك عاصمتهم، وكانت هذه السيادة أولاً لملك صيدا. ولما كان الملوك الرعاة يلون مصر كان ملوك سورية ناعميّ البال لا يخشون غارة، ولا يتّقون سطواً من قبل مصر بل كانت لهم ملجأً وملاداً في كل نازلة ونائبة إذ كان الرعاة سوريين. ولكن منذ طُرد الرعاة من مصر واستتبّ ملك الدولة الثامنة عشرة فيها طمحت أبصار ملوكها إلى الاستيلاء على سورية ولا أقلّ من تذليل ملوكها خيفة أن يتألّبوا مع الملوك الرعاة ويعاودوا الغارة على مصر.

وعليه فقد غزا آمون هوتاب الأوّل (ويسمّيه اليونان أمانوفيس) سورية الجنوبية. ثم أكمل توتمس الأوّل خلفه إخضاع العشائر الكنعانية في فلسطين وتوغّل في البلاد حتى وصل إلى أنحاء دمشق. وكانت له وقائع عديدة مع الروتانو السالف ذكرهم فانتصر عليهم وأراد تذليلهم كي لا يعاودوا العداوة له، فوطئ بجحافله بلادهم كلها حتى انتهى إلى الفرات وأقام على ضفّته على مقربة من كركميش نصباً لذكرى انتصاره. ويظهر أنّ الصيدونيين ومنّ جاورهم من العشائر خضعوا حيثئذٍ لفراعنة مصر، وأخلصوا في الطاعة لهم حتى لم يشتركوا أو لم يجاهروا

بالعداوة لتوتمس الثالث عند غزوته للروتانو والسوريين. ولم يدخلوا حرب مجدو (اللجون) (طالع عد ٦٢)، واستسلموا لرعمسيس الأول أول ملوك الدولة التاسعة عشرة عند غارته على الحثيين، ولم يعترضوا طريقه عند مروره بهم (طالع عد ٦٣). وكذا فعلوا مع ابنه ساتي الأول عند حروبه في سورية مع الحثيين وأدوه الجزية ونجدوه بذخائرهم (طالع عد ٦٤). وكانوا يمالئون ابنه رعمسيس الثاني عند معاداته الحثيين أيضاً (طالع عد ٦٥). وعليه فالصيدونيون ومن جاورهم سالموا فراعنة الدول، الثامنة عشرة والتاسعة عشرة والعشرين مؤثرين راحتهم ونجاح تجارتهم على العصاوة والخسارة، وهذا بين من الآثار المصرية التي جئنا بترجمة بعضها في الأعداد التي ذكرناها هنا. فإنك لا تجد فيها ذكراً للصيدونيين ومدنهم في عداد من ثاروا أو جاهروا بالعداوة للملوك المذكورين، مع أن سائر العشائر الكنعانية حتى من انضموا بعد ذلك إلى العهدة الفينيقية كالأروادين والصمريين حازبوا أعداء مصر. وتجد الآثار الهيروغليفية تكثر من الكلام في صناعة الفينيقيين وثروتهم.

إن في المتحف البريطاني بairoاً يشتمل على حكاية سفر عامل مصري في سورية للسنين الأخيرة من ملك رعمسيس الثاني بعد عقده عهدة الصلح مع الحثيين. فهذا الباير ينبئنا حالة سورية في زمان كتبه، ولذا كان له أهمية تاريخية. فهذا العامل كان في بلاد الحثيين وانتهى إلى حلبون (حلب). وعند عودته منها وقبل أن يبلغ إلى فلسطين مرّ بفينيقية وذكر جبيل وأسرارها وأهميتها الدينية، ثم بيروت ثم صيدا، ثم صربتا أي صرند، ثم شاطئ تاوانا (معبّر نهر الحيصراني)، ثم أوالتا حيث كانت أخربة عدلون. ثم أتى «صور البحرية» وكلامه فيها مشعر بأنها كانت حينئذ قرية على صخر في وسط البحر. وقال: «إن الماء يجلب إليها بالسفن وإنه يتوفر فيها السمك». وإنه سار بعد ذلك قليلاً إلى الجنوب فبلغ إلى سعره، وإن اسمها بالفينيقية معناه الزنبور اللساع. وإنه انتهى بعد ذلك إلى كايكنا المعروفة اليوم بأمر العواميد، ثم إلى أخريب وهي المعروفة الآن بالزيب، وإنه من هناك ترك الساحل وسار في الجبل قاصداً حازور. ويظهر أنه أتم سفره هذا آمناً لا معارض له كأنه في وادي النيل، بل كان يستعمل السلطة أحياناً آمراً ناهياً لأنه عامل مصري. ومن هذا أيضاً يظهر أن الصيدونيين والبيروتيين والجيبيليين استسلموا لحكومة مصر منذ تولت سورية مخلصين الطاعة والانقياد لها. وبدلاً من أن يناوئوها لنيل الاستقلال الكامل

لهم اجتزأوا بأن يبقى لهم حكامهم الوطنيون وحرية العمل بسننهم وعدم الاعتراض لهم بأسفارهم وتجارتهم لمصر إن الكارين سكان الجزيرة حينئذ اختلطوا بالفينيقيين فزوجوهم وتزوجوا بينهم حتى أصبحوا شعباً واحداً يُسمى كاريون وفينيقيون. ورقوا الحضارة درجات في الجزر والبلاد القريبة منهم. ولما تدهورت حالة الفينيقيين تدهورت حالهم أيضاً. وتوصل الفينيقيون من جهة إلى أكرت فبنوا فيها مدينة إيتانوس ومن أخرى إلى جزيرتي ثارة وقيثارة فأدخلوا فيهما عبادة عشتروت أي الزهرة الفينيقية، فكان ذلك أصلاً تفرعت عنه عبادة أفروديت القيثارية معبودة اليونان. ونرى آثار اقامتهم في أولياروس وأنتيباروس ويوس وسيروس (سيرا).

وعن اسطفان البيزنطي أن أولياروس كانت للصيدونيين ومالوس للجيبيليين. واكتشف الفينيقيون معدن الفضة في جزيرتي سيغنوس وسيمولوس أو جعلوا سكانهما يكتشفونها. وكل هذه الجزائر هي من الأرخبيل في بحر الروم في شمالي رودس وغربي الأناضول. ثم توصلوا إلى جزيرة تاسوس (بولاية الجزر في قرب شاطئ الروملي) فاستحوذوا عليها طمعاً بمعدن الذهب الذي كان فيها. وقد شهد هيرودوت هذه الجزيرة بعد عشرة قرون وقال إنه دُهِش مما رآه في آثار الأعمال الكبيرة التي أجراها الفينيقيون في استخراج هذه المعادن.

ولم يقف الفينيقيون عند تاسوس بل كان ملاحوهم يعدون ذخائرهم هناك ويسترون سفائنهم إلى الشمال أيضاً، فيعبرون بوزاغ الدردنيل وبحر مرمرا والبوسفور. فيتصلون إلى البحر الأسود غير مبالين بعواصفه التي يخشاها بحارة سفائن هذا العصر نفسه، حتى انتهوا إلى جنوب جبل قاف. وكانت سفنهم تشحن من هناك المعادن الثمينة ولاسيما الذهب المشهور معدنه في تلك البلاد، والقصدير اللازم لصناعتهم في عمل الصفر. وكان الإياريون سكان تلك الأمصار يستخرجونه من سلسلة جبل قاف ويأتون تجارتهم به وبالرصاص والفضة لوجودهما في أنحاء أخرى من هذه البلاد. وكان للفينيقيين محاط ومستعمرات في سواحل هذه البحار وجزرها بقيت آثارها إلى الأعصر التاريخية فأوصل القدماء أخبارها إلينا.

وكان تجار الفينيقيين في ذلك العصر نفسه يجدون في تسيير سفنهم على شواطئ الأبير (البانيا الجنوبية شمالي بلاد اليونان) وإيطاليا الجنوبية وجزيرة صقلية وصار لهم فيها ولاسيما في الأبير مستعمرات ومحال تجارية. ولم تنحصر تجارة

الفينيقيين في هذه البحار وسواحلها بل كان لهم في مصر أيضاً تجارة واسعة. وأقام كثير من تجارهم في مدن مصر السفلى وكان لهم في منف حي خاص بهم. وكانت سفائن الصيدونيين والبيروتيين تسير على شطوط افريقيا حتى قرطاجنة حيث ولاية تونس الآن، وبنوا هناك مدينتين؛ كمباه حيث بُنيت قرطاجنة في ما بعد، وهيبون على مقربة منها. (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٤٨٩). وبينما كانت سفائن الفينيقيين تمخر البحور كانت قوافلهم تطوي البيد أيضاً، فيغترب تجّارهم طلباً للرزق والانتفاع. وقد تطرقوا إلى سائر أنحاء سورية وإلى بلاد العرب والكلدان وأرمينيا أيضاً، وجميع الطرق التجارية من الشرق الأقصى (أي من الهند وتركستان وبلاد الكلدان) حتى أنحاء جبل قاف كان اتجاهها نحو المغرب ومؤداها في صيدا وصور، وكان للفينيقيين في هذه الطرق محاطٌ ثم مستعمرات ؛ أخصّها في حماه شاطئء العاصي، وتبسك على شاطئء الفرات من جهة بادية تدمر، ونصيبين على مقربة من ينبوع دجلة ، إلى غيرها من المحال التي كان يتفاخر قداماؤها بأنهم من الفينيقيين. (مسبرو عن موفر واسطفان البيزنطي صفحة ٤٣٤ من تاريخه لشعوب المشرق).

عد ١١١

الحال السياسيّة على عهد الصيدونيين

قد مرّ أنّ الكنعانيّة كانت تنقسم إلى ممالك عديدة قلّما كان من السؤدد السامي، والفراعنة رغبوا في تنويلهم كلّ ما شاءوا لحاجتهم إليهم، إذ لم يكن في شعب مصر من يحسن نظيرهم الملاحة والتجارة. (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٤٨٥).

عد ١١٢

قيام الفينيقيين بعمارة مصر البحريّة

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٤٩١) لم يحسن المصريون الملاحة بل كانوا مغضّبين لها كالآشوريين والفرس، وكانوا يمتقنون البحر ويحسبونونه نجساً يليه إله السوء؛ فإذا ركب المصري البحر في سفينة خال نفسه على ظهر عدو يهدّده ويلحق به نجاسة دينيّة. فتشبههم بهذه المعتقدات الباطلة حرّم عليهم أن يكون منهم

بحارون. ثم انه لم يكن للآشوريين عند استفحال أمرهم أسطول بحري في بحر الروم إلا سفن كيليكيا وفينيقية، وإن لم يكن للفرس من السفن إلا ما ركبه اليونان والفينيقيون والكيليكيون. فبأولى حجة لم يكن لفراعنة مصر من سفن إلا ما قام فيها الفينيقيون والصيدونيون خاصة. وقد تبين بالآثار والتواريخ المصرية أنه كان لمصر في عهد توتمس الثالث، أحد ملوك الدولة الثامنة عشرة، أسطول ينفذ سلطته ويجبي له الجزيات من الأمصار الشاسعة. وما تلك الأمصار إلا البلاد التي كان الصيدونيون يتعاطون التجارة فيها، أو حلّ فيها جالية منهم؛ كقبرص وكريت وجزائر الأرخبيل وشطوط افريقيا الشمالية وغيرها.

وإذا كان جنود الفراعنة في البحر المتوسط فينيقيين فلا يعدو أن يكون كذلك جنودهم في البحر الأحمر. وعليه، فقد كان الصيدونيون ينقلون العساكر المصرية إلى بلاد العرب الجنوبية لتدويخها، أو لرد أهلها إلى الطاعة. وهم كانوا يلون السفن التي تنقل إلى مصر حاصلات الهند وبلاد العرب من معادن وأحجار وأخشاب ثمينة وعاج وغيره. والأسفار في البحر الأحمر محفوفة بالأخطار فتستلزم ملاّحين ماهرين. حتى إنّ الدولة السادسة والعشرين أرادت أن تسيّر سفناً، فلزمها أن تلتجئ إلى الفينيقيين. ونرى من جهة أخرى الكتاب يُبَيِّنُ أن السفائن التي بناها سليمان في ايله بعد معاهدته لحيرام، ركبها ملاحون صوريّون ليسيروا إلى أوفير لجلب الذهب. ونجاح هذه السفن منذ أوّل أسفارها دليل على إنّ البحارة الصوريين كان لهم خبرة سابقة في تلك البحار وسواحلها، تلقّوها عن أسلافهم الصيدونيين من لدن اشتراكهم مع المصريين. انتهى.

عد ١١٣

تقهقر صيدا وسقوطها

قد كشفت لنا الآثار المصرية التاريخية عن خطوط كبيرة، حدثت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على عهد ساتي الأوّل أو قبيله؛ وهي أنّ عشائر البلاسج (قدماء بلاد اليونان) أحدثوا سفائن في البحر المتوسط، وبعض فصائل الليبيين اليافتيين غشوا افريقية بحراً وحلوا على شواطئ بحيرة تريتون المسماة بحيرة فرعون في بلاد المغرب. فعقدت عهدة بين البلاسج سكان جزر الأرخبيل وبلاد اليونان

وإيطاليا وسكان كريت وصقلية وسردينيا وبين الليبيين في افريقيا، ودامت هذه
العهدة قروناً، ولم يكن توسط البحر بين المتحالفين بمانع لهم عن المواصلات
المستمرة في أمور التجارة وغيرها؛ وهذا تقتضي بلا بد مهارة قوم من المتحالفين في
الملاحة وإدارة السفن. وعظمت صولة أصحاب هذه المعاهدة، وانبسطت سلطتهم
حتى غزا الليبيون في أيام منفتاح (فرعون الخروج) مصر السفلى إلى ما وراء منف
بالإتفاق مع بعض الإيطاليين واليونان. فنجاح البلاسج في الملاحة كان جرحاً مثخناً
في نفوذ الصيدونيين، الذين لم يكن لهم قبل ذلك مزاحم ولا مبار في البحر. ولم
يكتف هؤلاء بالمزاحمة بل كان الطبع نفسه يحملهم على معاداة الصيدونيين،
ليأخذوا منهم جزر الأرخبيل وما جاورها في بلادهم، ويمنعوهم استفراغ معادن
الذهب والفضة التي هم بها أولى. فابتدأ لصوب البلاسج يعتدون على سفن
الصيدونيين في بحر الروم، وشرع أعدائهم يثيرون السكان الوطنيين على جاليتهم،
وينجدونهم عليهم. فاضطرّ الفينيقيون أن يتركوا مستعمراتهم في الأرخبيل، الواحدة
بعد الأخرى. فلم يبق لهم منها إلا ثارة ومالوس وتاموس لتمكنها من الدفاع. ولم
ينجد فراعنة مصر الفينيقيين مسؤديهم على أعدائهم، بل أغضوا عن كل مساعدة
لهم مادية أو معنوية. ولم يقف البلاسج عند هذا الحد، بل قطعوا على الفينيقيين
طريقهم في الدردنيل والوسفور ليمنعوهم البلوغ إلى البحر وإلى المراسي التي كانوا
يتلقون فيها المعادن وذهب كولشيد (معاملة في جنوب جبل قاف) خاصة، وتطوّقت
سفن اليونان إلى تلك الأمصار كلفاً بإحراز معادنها النفيسة.

وعقب ذلك افتتاح بني إسرائيل بلاد الكنعانيين وطرد يشوع بن نون لهم من
مواطنهم، وتمليكهم أراضيهم لشعبه، فهو لم يحارب ملك صيدا لكنّ غزوته غيّرت
حالة البلاد، وأضنكت صيدا، إذ دمر إحدى وثلاثين مملكة صغيرة، وقتل ملوكها،
وقد كانوا عضداً للصيدونيين. وتزاحمت أقدام الفائزة في ساحل صيدا، فضاقت
الأرض بهم وأثقلوا كاهل أهلها وكانوا عليهم وبالأ، وأكروها على أن يتترح منهم
كثيرون إلى جهات عديدة. والمشهور من هؤلاء المنازيح الجاليتان الأنف ذكرهما في
عد ١٠٥؛ أي جالية قدموس إلى بلاد اليونان، وجالية الجرجسيين، واليابوسيين
خاصة إلى بلاد المغرب، حيث أملاك تونس الآن. وأعقب غزوة يشوع بن نون
حلول الفلسطينيين في جنوب بلاد الكنعانيين. وسترى في تاريخ العبرانيين أنّ هؤلاء

الفلسطينيين أتوا من كريت وغيرها من جزر بحر الروم وسواحله ببحراً، قاصدين أن يستحوذوا على مصر، وكانوا من أصحاب العهدة السالف ذكرها؛ أي البلاسيج والليبيين، فهبَّ رعمسيس الثالث لمقاومتهم فانتصر عليهم، وأسر السواد الأعظم منهم، وأسكنهم في التخوم الفاصلة بين سورية ومصر، أي في غزة وأسدود وعسقلون وغات وعقرون. وكان ذلك في أثر تملك بني إسرائيل أرض الموعد. ويظهر أنه لحقهم إلى هناك قوم من جلدتهم، فنكاثروا عديدهم، واشتدَّ ساعدتهم. ولم يمرَّ عليهم قرن حتى كان منهم جنود مدرَّبون في القتال يرؤعون مَنْ جاورهم. وبنوا سفناً بحريّة، وعظمت سطوتهم وصولتهم، وأعانهم على ذلك خمول ملوك الدولة العشرين في مصر، حتى سؤلت لهم أنفسهم الاستيلاء على سورية الجنوبيّة كلها، فضايقوا بني إسرائيل سنين طوالاً، وأذلّوهم نحواً من نصف قرن، وسطوا على الصيدونيين أيضاً ونكلوا بهم. وفي نحو سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد سيّروا أسطولهم من عسقلون على حين غفلة إلى صيدا إذ لم تكن مستعدّة للقتال فافتتحوها عنوةً، ودثّروا المدينة، وأبسلوا مَنْ وجدوا من أهلها. فكانت بذلك نهاية سؤدد صيدا (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥٠٠).

الفصل الرابع

الفينيقيون في عصر سيادة صور إلى بناء قرطاجنة

عد ١١٤

جعل صور عاصمة للفينيقيين وانضمامهم إليها

قد سُرَّ الفلسطينيون بقهرهم ملكة البحر، وتشيت شمل أهلها. وأملوا أن ترثها عسقلون مدينتهم. لكنهم لم يتولّوا شؤون الفينيقيين، بل اكتفوا باقامة حرس في بلاد العبرانيين، فكان بذلك فرجة للصيدونيين ومندوحة لنهوضهم بعد سنين قليلة

من ورطة مصابهم. والذين ركنوا إلى الفرار من صيدا اجتمعوا في صور حول هيكل ملكرت الذي كان مركز الأئمة الديني. ولم تكن صور إذ ذاك إلا مدينة ثانوية، فزادت هذه الأحداث في عداد شعبيها، ورقّتها إلى أعلى مقام في الأئمة، فخلفت صيدا في سؤدها، وأصبحت عاصمة الفينيقيين سياسةً ودينًا، وكان ذلك في بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد. ولم يميّز بعضهم بين بناء صور وسؤدها، فجعلوا بناءها في تاريخ سؤدها، ومنهم يوسيفوس فإنه قال (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود) إنّ صور لم تُبنَ إلا لمّتين وأربعين سنة قبل هيكل سليمان. وادّعى بعضهم أن يوفّق بين القولين بأنّ صور القديمة التي كانت في اليابسة وهي عريقة في القدم، وصور الحديثة هي التي كانت في الجزيرة وهي التي ذكرها يوسيفوس، لكنّ الآثار القديمة تخالف هذا التوفيق وتثبت أنّ صور البحرية أقدم كثيراً من التاريخ الذي ذكره يوسيفوس، وصور البحرية هي التي كانت مصايب صيدا فوائدها، فإنه لم يكن في الإمكان توسيع نطاق الجزيرة لسكنى الغاظة فيها. ولم يكن فيها ماء صالح للشرب، كما مرّ آنفاً، في حكاية سفر العامل المصري. وكان في شمالي الجزيرة وجزيرة ملكرت مرفأً طبيعيّ يسع سفناً عديدة. وعليه فكانت صور ذات ثلاثة أحياء يفصل الماء أحدها عن الآخر؛ أي الحيّ البريّ، وهو المدينة حقيقة، وأكثرهم أجمع على أنّ موقعها كان في محل راس العين الآن، ثم الحيّ البحريّ، وهو الجزيرة الأولى، ثم الحيّ الكهنوتيّ حول هيكل ملكرت في الجزيرة الثانية في جانب الأولى. وقد سُمّي اشعيا النبي (فصل ٢٣ عد ١٢) صوراًيّة صيدا إذ قال لها لا تعودين تفتخرين أينها المنهكة العذراء بنت صيدون. فعصر سيادة صور هذا افتتح سنة ١٢٠٩ ق.م (على ما ذكر لابنرمان)، واستمرّ خمسة قرون؛ أعني إلى أن حاصر سرغون ملك الآشوريين صور. وفي هذا العصر خاصة استحكم اتحاد الفينيقيين وتوثقت غرى عهدتهم. فإنّ الكنعانيين بعد أن استحوذوا على أكثر أعمال سورية زماناً طويلاً أصابتهم في القرنين الرابع عشر والثالث عشر نكبات عديدة متتالية انتزعت أكثر أملاكهم. فافتتح بنو إسرائيل فلسطين وطردوهم منها وغنموا ما كانوا يملكون وأخرب الفلسطينيين صيدا واستردّ الآراميون حماه منهم وأذلّوا من كان فيها من الكنعانيين، وفصلوا بذلك بين الكنعانيين الذين كانوا يسكنون لبنان وجواره واخوانهم الحثّيين سكان شمالي سورية وجبل اللكام. فهذه الحن حملت من بقي من الكنعانيين في شمالي فلسطين على الانضمام. فاتّحد سكان صور وعكا

وَمَنْ بقي من الصيدونيين. ثم غيرهم من العشائر كالعريقين والصماريين والسينيين والأرواديين الذين كانوا يسكنون السواحل البحرية إلى ارواد. فتألف منهم شعب واحد وعصبة واحدة وسموا فينيقيين. على أن مدنتهم الشهيرة كبيروت وجبيل وسيميريا وغيرها حفظت لنفسها استقلالها المحلي، وهيئة حكومتها التي كانت الملكية مقيدة بمجالس عامة مؤلفة من أغنياء الشعب، ومرتبطة بمشورة الكهنة والقضاة الذين كان لهم الكلمة النافذة.

وكان هؤلاء القضاة يمشون في الحفلات العامة بجانب الملوك، وكان الملوك يفاوضونهم في أمر بعث السفراء إلى صور مركز الأمة. وكان للكهنة نصيب وافر في تدبير شؤون الحكومة. على أنه لا سبيل إلى القطع بما كانت تتصل إليه سلطتهم، ولكن إذا راعينا ما كان يجريه كهنة بعل في اليهودية علمنا أن مقدرتهم كانت عظيمة. وكانت نظمات جبيل دستوراً ومثالاً لهذه الحكومات الملكية المقيدة بآراء الكهنة والأشراف. وكان ملوك المدائن الفينيقية، على استقلالهم بتدبير شؤون ولايتهم، يُقرّون الملك صور بالسيادة على الأمة كلها. وكان يُسمى حينئذ ملك الصيدونيين وإن أقام في صور، وله أن يبت جميع المسائل المتعلقة بالمصالح العامة، وأن يُوقع على العهود مع الأجانب ويُخضع لإمرته الجنود البحرية والبرية. وكان لديه مبعوثون من كل من مدن فينيقية. وبقي الأرواديون على شيء من الانفصال عن سائر مدن فينيقية وإن كانوا من حلفائها، ويُقاسمونها منافع التجارة والأسفار البحرية؛ فأصبحت صور لذلك المرفأ الأول للتجارة والمركز العام للسياسة. ولم يكن السكان فيها وفي سائر المدن يكفون للإقامة على تجارتهم وأعمالهم ولتعاطي الملاحة في السفن وللخدمة في الجندية براً وبحراً؛ فلزمهم أن يستأجروا بحارة أجانب خاصة من بلاد الأرواديين. وكان أكثر جنودهم مستأجرين، حتى كان حرس صور نفسها من الأرواديين، وباقي الجنود من الشعب الليبي الفينيقي السالف الذكر من سكان سواحل افريقية، وكان فريق منهم من ليديا من آسيا الصغرى. (لانرمان مجلد ٦ من تاريخه صفحة ٥٠٦). وقد أشار إلى ذلك حزقيال النبي بقوله (فصل ٢٧) لصور: «سكان صيدون وأرواد كانوا قذافين لك، شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك جلافة لخصاصك (أي يضعون القير في خروق سفنك أو غيرها)... فارس ولود وفوط كانوا في جيشك رجال حربك... بنو أرواد مع جيشك كانوا على أسوارك من حولك».

مستعمرات الفينيقيين في مدة سيادة صور

إنَّ انضمام الفينيقيين إلى صور جدّد قواها وشدّدها، ويشر أسفارها التي كان عراها بعض الوقوف من قبل خراب صيدا واعتراض سفن البلاسج لها. ولما كانوا يحسّون من معاودة الاستيلاء على الجزر المجاورة بلاد اليونان، ولم يكن باقياً لهم منهم إلا ثارة وميلوس وكاميروس وتاسوس، وإلا مدينة ياليسوس في جزيرة رودس، لزم أن تكون أسفارهم وأتجارهم في وجهة أخرى لا يلقون لهم بها منازعاً. وقد مرّ أنه قد كان حلّ منهم نزلاء في المغرب وعثروا مدينة هيونا وكمباه في أملاك تونس الآن. وتفرّع منهم ومن السكان القدماء الأمة المعروفة بالليبية الفينيقية. فأثروا تلك البلاد في هذا العصر الصوريّ، وعثروا سنة ١١٥٨ ق.م مدينة أخرى سمّوها أوتيك، وكان موقعها على شاطئ البحر في الشمال الغربي من قرطاجنة. وأخذت سفنهم تتقدّم من ثمة نحو المغرب وتتجر وتقيم نزلاء في نوميديا (محلّ معاملة قسطنطينية الآن في جزائر الغرب وقسم من أملاك تونس)، وفي موريتانيا (المعروفة الآن بمملكة فاس وبعض جزائر الغرب). وتطوّروا من هناك مرحلة مرحلة إلى أن اكتشفوا اسبانيا، وعثروا قادمين مدينة في اسبانيا، وتواترت أسفارهم، وتوفّرت جالياتهم في تلك البلاد. ولما كانوا يسمّون أهلها يسمّون أنفسهم تورتي أو توردا ثاني غلب على لفظهم اسم ترسييس أو ترشيش فجعلوه علماً لهذه البلاد. وكثرت مستعمراتهم فيها. فهم الذين بنوا ملاكا المعروفة حتى الآن بهذا الاسم، وسكس المسماة الآن مريتيل في شرقي ملاكا، وأبدار المعروفة الآن بالماريا على شاطئ البحر المتوسط إلى الجنوب الشرقي من مدريد على مسافة ٤١٠ كيلومترات. ويظهر أنّ من مستعمراتهم كرتايا المسماة الآن الجزيرة (كلّها سمّيت بذلك في عهد ولاية العرب اسبانيا)؛ وهي في غربي جبل طارق على بعد ثمانية كيلومترات. وعثروا الفينيقيون هنالك مدناً أخرى عديدة أقلّ أهميّة شهدت نأصلها الفينيقي أسماؤها التي ذكرها قدماء الجغرافيين. وذكروا لهم مستعمرات أخرى في شمالي هذه البلاد ووجدوا أسماء مدن أخرى كثيرة في الجهة الشرقية من اسبانيا حتى سفح جبال البيرينيّة تدلّ تلك الاسماء على أنّ تلك المدن عثروها الفينيقيون. ولم ينقض قرن بعد أن عثروا الفينيقيون قادمين حتى تولّوا أخصب الأرضين وأغناها في اسبانيا؛ أعني

أعمالها الجنوبية المسماة باتيك، وهي الاندلس في عهد ولاية العرب. وعمرها بنزلاء أتوا بأكثرهم من الأمة الليبية الفينيقية السالفة الذكر لحرثة الأرض، فاختلطوا بالوطنين حتى قال استرابون: إنّ أكثر السكان في تلك الأنحاء كانوا في أيامه كنعانيين أصلاً. وأنبأنا بعض الآثار التي اكتشفت هناك أنّ استعمال اللغة الفينيقية استمرّ إلى أيام ولاية الرومانيين في قادس وملاكا وسكس وأبدار السالف ذكرها (لانرمان في تاريخه مجلد ٦ صفحة ٥٠٩).

وأما ما كان يستجلبه الفينيقيون من اسبانيا فهو المعادن خاصة أي الذهب والفضة والحديد والرصاص والنحاس والقصدير ثم العسل والشمع والزفت. فقد قال حزقيال النبي (فصل ٢٧ عد ١٢) لصور: «ترشيش متجرة معك في كثرة كل غنى وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص أقامت أسواقك». وكانت تجارة الفينيقيين في اسبانيا رابحة أي ربح. فقد قال أرسطو الفيلسوف الشهير (الذي وُلد سنة ٣٨٤ ق.م. وقوله الآتي من كتابه في المعجبات فصل ١٤٧): «إنّ الفينيقيين الأولين الذين أتوا ترشيش استبدلوا زيتهم وغيره من بضاعتهم بمقدار كبير من الفضة حتى لم تسعه سفنهم. فصنعوا أدواتهم وآتيتهم كلها حتى أناجر سفنهم من الفضة». وروى ديودور الصقلي (مجلد ٢ صفحة ٣٦ من ترجمة هوفر): «سبّت نار في أحد محالّ جبال البيرينيّة فأذابت مقداراً كبيراً من معدن فضة، وكان سكان تلك الأصقاع يجهلون بما يستعمل ذلك المعدن فباعوا الفضة للتجار الفينيقيين، فكان هؤلاء يجلبون إلى آسيا وبلاد اليونان وآفاق أخرى، من الفضة ما أكسبهم غنى وثروة تشدّ عن الحصر. وكان من شدة حرص هؤلاء التجار أنهم بعد أن شحنوا سفنهم من الفضة قطعوا رصاص أناجرهم واستبدلوه بمراس من فضة».

ولذا أصبحت تجارة الفينيقيين في افريقية واسبانيا من جلى مهامهم. وكان لا بدّ لها من محطة بين فينيقية ومستعمراتها الشاسعة، فاختاروا لذلك مالطة ونعم الاختيار. فاحتلتّ جالية منهم فيها في آخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد. وكان فيها قبلهم ليبّيون، فاختلطوا بنزلائهم الذين استتبخوا جزيرة كولوس (المسماة الآن كوزو) للمالطة لقربها منها. وقد وُجدت أطلال الهياكل الفينيقية في مالطة وهي محفوظة إلى الآن. وتخلف للفينيقيين في الجزيرتين سكان قرطاجنة. وقال ديودوروس الصقلي (في مجلد ٢ صفحة ١٢ في مالطة): «إنّ سكانها جالية فينيقية انبسطت تجارتها

إلى الأوقيانوس الغربي. فكانت لهم هذه الجزيرة أوفق محطة من حيث موقعها ومرفئها الأمين. فأصبح سكانها في أمد وجيز أصحاب ثروة وشهرة. والجزيرة الثانية تُسمى كولوس على مقربة من الأولى وهي أيضاً مستعمرة فينيقية» (هوفر في تاريخ فينيقية).

أما سكان صقلية القدماء فيستدلّ ببعض الآثار أنهم كانوا من الإيباريين والليكوريين قدماء اسبانيا وجنوبي إفريقيا وإيطاليا وقد انضموا إلى عهدة الليبيين والبلاسج الآنف الذكور، وشاركوهم في غزواتهم البحرية، ولكنهم لعلّ يعلمها الله شقوا العصا مع اليونان وخالفوهم، وأعرضوا عن الملاحة وطلب الرزق في البحر، وانكبوا على المشاغل في البرّ. فافتصر الفينيقيون فرصة هذه الحال فنزلوا التجارة في صقلية. وبعد أمد وجيز توفّر عداد محالّهم التجاريّة في شواطئ هذه الجزيرة الخصبة الثرية. ولم يكن لهم حينئذ من مزاحم. فإنّ اليونان لم يعودوا إلى هنالك إلا بعد ثلاثة قرون (ملخص عن لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥١٠). وعن هوفر (في تاريخ فينيقية) إنّ الفينيقيين عبّروا مدناً عديدة في صقلية منها ماكارا التي تسمّى آثارهم راس ملكرت المعروف عند اليونان بهرقل Hercule. ولذلك سمّى اليونان هذه المدينة هرقلية. ومنها بانورم المسماة الآن بالرم وتُسمى في آثارهم مخنات. وذكر بعضهم أنها كانت مركز عبادة الزهرة الصوريّة إلى غيرها من المدن. واستحوذ الفينيقيون أيضاً على جزيرة قسورة المعروفة الآن بباتلريا وهي جزيرة صغيرة بين صقلية وإفريقية قريبة من شاطئ إفريقية، وجعلوها مستودعاً للذخائر والأدوات اللازمة في الأسفار.

وكانت سفن الفينيقيين التي تسافر من المغرب إلى اسبانيا لا بدّ لها من المرور بجانب سردينيا فعمرّوا هناك مدينة كرايس حيث الآن كلياري لتكون مستودعاً لتجارّتهم وذخائرهم، ثم نورا على شاطئ الجزيرة الغربي. وكان قبلهم فيها قوم من جملة أصحاب المعاهدة الليبية البلاسجية السالفة الذكر. وكانت لهم عناية كبرى في الماشية ولاسيما الأغنام، وكان للتجار بصوفها سوق رائجة. وفي الجزيرة معادن نحاس ورصاص فتوفّرت فيها محالّ تجارة الفينيقيين حتى استحوذوا على الجزيرة. وقد اكتشفت فيها كتابة فينيقية منذ عصر ولاية الصوريين يُدعى بها معبود أهل الجزيرة سردوس باتر، وفي الفينيقية أب سردون. وتُشاهد صورة على نقود الجمهورية الرومانيّة (لانرمان مجلد ٦ صفحة ٣١١). ويظهر أنه كان لهم معاهد

في كورسيكا أيضاً، وأنهم تطرّفوا من هذه الجزر إلى شطوط إيطاليا الجنوبية وإلى توسكانا وغيرها من أعمال إيطاليا. وسترى في الكلام على تجارة الفينيقيين أنّ تجّارهم لم يقتصرُوا على إبلاغ سلّهم إلى مدن أوروبا التي على سواحل البحر فقط، بل توغّلوا في إفرنسة وألمانيا إلى بحر البلتيك برّاً وإلى جزر بريطانيا. فكانوا يستبدلون في هذه الأمصار عروض تجّارتهم ومصنوعاتهم بحاصلات البلاد ومستخرجات معادنها.

قد روى استرابون وغيره من القدماء أنه كان للفينيقيين أو الأخرى أن يُقال لجاليتهم في قرطاجنة مستعمرات عديدة في مراكش وفي ما وراء بوغاز جبل طارق على شطوط إفريقية الغربية؛ ومن ذلك ما جاء ذكره في درج حنون Perible de Hanon الذي يظهر أنه خلاصة كتاب مهمّ كُتب في الفينيقيّة ولم يبقَ منه إلا خلاصة موجزة في اليونانية بلغت إلينا في بعض كتب القدماء أخصّ انبائها: إنّ أهل قرطاجنة الليبيّون الفينيقيّون أرسلوا حنون هذا بستين سفينة مشحونة بجالية منهم إلى ما وراء بوغاز جبل طارق لتحتلّ تلك الثغور. فذهب بهم وأخذ يحلّ في كلّ محلّ قوماً منهم مُستعياً المدن والقرى والجزائر التي توصّل إليها وما شاهده فيها. ولم يتفق العلماء على مواقعها ولا على بعد إحداها عن الأخرى إذ مقياسه مدة السفر في البحر بالشّراع. ولا يفسح لنا مجال هنا للتطويل في ذلك، بل نجتزئ بأن نقول إنّ هذا الدّرج يثبت وجود مستعمرات للفينيقيين في ما وراء جبل طارق غربي إفريقية، وإنّ زمان كتابته غير مُتفق عليه. فجعله بعضهم في نحو ألف سنة قبل الميلاد، وبعضهم أقلّ من ذلك. والأظهر أنه كتب في القرن السادس قبل الميلاد.

هل دارت سفن الفينيقيين حول قارة إفريقية؟ هذا سؤال من جملة ما ذكره هوفر (في كتابه تاريخ فينيقية صفحة ٤٩). وأجاب عليه جواباً موجباً اعتماداً على ما رواه هيرودوت أبو التاريخ (ك ٤ فصل ٤٢) حيث قال ما ملخصه: «ليس مَنْ يجهل أنّ قارة إفريقية تحيطها الأمواه إلا عند الخليج الذي يصلها بقارة آسيا (هذا قبل فتح خليج السويس). فنكو ملك مصر هو على ما نعلم أوّل مَنْ استوضح هذا الأمر. فإنه بعد أن رغب عن تكملة القناة الموصلة بين النيل والخليج الغربي، سیر سفناً ملاحوها فينيقيّون، فسار هؤلاء الفينيقيّون أولاً من البحر الأحمر ثم في البحر

الجنوبي (أي الأوقيانوس الهندي). وإذا نفذت ذخائرهم أقاموا وزرعوا الأرض وانتظروا حصادها، فإذا جمعوا غلتها عاودوا سفرهم. وبعد أن سافروا كذلك بلغوا في السنة الثالثة أعمدة هرقل (بوغاز جبل طارق) فاجتازوا البوغاز واتصلوا إلى مصر. وأخبرني بعضهم أمراً لم أصدقه وربما صدّقه غيري؛ وهو أنّ الشمس كانت على يمين المسافرين في دورانهم حول إفريقيا». فهذا مثبت أنّ الفينيقيين داروا حول هذه القارة. ويؤيّد ما لم يصدّقه هيرودوت وما لم يمكن اختراعه؛ وهو أنّ كل مسافر حول إفريقيا مبتدئاً من البحر الأحمر تكون الشمس على يمينه عند مروره بطرفها الجنوبي. وعليه فالفينيقيون تقدّموا البرتوغاليين ألفي سنة في الدوران حول قارة إفريقيا.

عد ١١٦

اتفاق الفينيقيين وبني إسرائيل

إنّ افتتاح بني إسرائيل فلسطين كان في عهد سيادة ملوك صيدا كما مرّ. ولا جرم أنّ الصيدونيين كانوا إذ ذاك من جملة المتضاferين على مقاومة بني إسرائيل. على أنّ يشوع بن نون قائدهم وقتلهم لم يخترق تخوم صيدا. فاستمرّت على استقلالها مع ما يليها من المدن الشماليّة خاصة. وما برحت العداوة بين الفريقين تشبّ نارها لكلّ داع أعواماً طوالاً إلى أن استفحل أمر الفلسطينيين وقويت شوكتهم، وحاولوا الاستيلاء على جنوبي سورية برمتها، وأخربوا صيدا وأزالوا سؤددها. فقضت الضرورة على بني إسرائيل والفينيقيين أن يغادروا ما كان بينهم من الإحن والضغائن، وأن يعمدوا إلى الائتلاف بينهم. واتفق أيضاً أن كان الآراميون أخذوا في تلك الأثناء يوسعون تخوم ولايتهم نحو الشمال فتغلّبوا على الكنعانيين في حماه، واستحوذوا عليها وعلى بني إسرائيل في عبر الأردن الشمالي فطردوهم منه. فكان ذلك داعياً آخر للوفاق والافلاخ عن العداوة التي استمرّت نحواً من ثلاثة قرون. واتفق أيضاً أن كانت دولة مصر ودولة آشور في تلك الحقبة على غاية من الضعف والوهن اتفاقاً لم يكن له نظير في الدولتين معاً. ولذا توارد على خاطر الفريقين أنّ ما تلك إلا فرصة سعيدة ثمينة يلزم اغتنامها لتشييد أركان مملكة وطنيّة مستقلّة كل الاستقلال في سورية دعائمها الاتحاد الصحيح والمعاهدة المخلصة بين

مملكة بني إسرائيل الجبلية ومملكة صور الساحلية. وعليه فلما انقضى النزاع الذي أفضى إلى قتل شاول ملك إسرائيل وتمليك داود. وفي السنة نفسها التي أخذ داود أورشليم من اليابوسيين وجعلها قاعدة للملكه أرسل إليه حيرام الأول ملك صور وفداً يوقع على عهدة الصداقة والاتفاق بينهما. وكان ذلك في نحو سنة الألف قبل الميلاد إذ قال الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ١١): «ووجه حيرام ملك صور رسلاً إلى داود وأخشاب أرز ونجارين ونحاتين فبنوا بيت داود». فالظاهر أنه بعد التوقيع على عهدة الاتفاق سأل داود حيرام أن يرسل إليه مهندساً لبناء القصر الذي عزم على بنائه في مدينة صهيون، وأن يصحبه عملة ماهررون نجارون ونحاتون، وأن يأذن بقطع أخشاب من غياض لبنان الشهيرة لزينة قصره. فأتم حيرام كل ما سأل داود. ويتحصّل من ذلك أنّ الحروب في عصر القضاة ومضايقه الفلسطينيين لبني إسرائيل أعواماً عديدة أغفلتهم عن الصنائع التي كانوا يحسنونها أيام خروجهم من مصر، بدليل إتقانهم عمل خباء المحضر أي قبة العهد. واستمر حيرام هذا ما حيي مسالماً داود. وتوفي فخلفه ابنه أبييعل، وكان على شاكلة أبيه في موازة داود الملك. وقد شرّ شعبه في إذلال داود الفلسطينيين واخضاعه الآراميين والحثيين واستيلائه على دمشق وحماه وانبساط ملكه في سورية إلى الفرات. ثم مات أبييعل وخلفه ابنه حيرام الثاني لسنة ٩٧٨ قبل الميلاد على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٣).

عد ١١٧

حيرام الثاني وسليمان الملك

قد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٥ عد ١): «وأرسل حيرام (الثاني) ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنه مسح ملكاً مكان أبيه» ليهتّمه ويوثّق عُرى الاتحاد بينهما. ونبينا الكتاب أنّ الوفاق تمكّن بين الفريقين إذ قال إنّ سليمان أرسل يقول لحيرام: «مر بأن يقطع لي أرز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك وأجرة عبيدك أوّديها إليك... لأنك تعلم أن ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيّدونيين. فلما سمع حيرام كلام سليمان فرح فرحاً عظيماً وقال مبارك اليوم الرب الذي رزق داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير». إلى آخر ما قاله الكتاب من عناية حيرام بقطع الأخشاب وجعلها أطوافاً في البحر إلى الموضع الذي

عنه سليمان وأداء سليمان إلى حيرام عشرين ألف كر من الخنطة وعشرين ألف كر من الزيت. وسترى ذلك بأكثر تفصيل في كلامنا في تاريخ العبرانيين.

وروى يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٢) إن رسالتي سليمان وحيرام الأصليين كانتا محفوظتين حتى أيامه في خزائن أوراق الهيكل وفي خزائن سجلات الصوريين قائلاً: «إن من رغب في تحقيق ذلك فما عليه إلا أن يسأل حافضي هذه الخزائن اطلاعاً على ذلك، فيرى أنني كنت في نقلها أميناً مجاناً للخل. رأيت أن أقول هذا لأعلن أنني وأيم الله لا أزيد على الحقيقة شيئاً. وأني لرغبتني في الاقبال على تاريخي دأبت أن لا أروي إلا ما كان صحيحاً. ولذلك أرجو ممن يطالعه أن يطمئن إلى صحته ويوقن أنني أحسب نفسي مرتكباً جريمة كبرى تستحق الاعراض عن كتابي إذا لم أبذل الكد والجهد في إثبات الحقائق بحجج زاهنة». وروى رسالة سليمان كما رواها الكتاب، ثم رسالة حيرام مطابقة لجوهر نص الكتاب وهاكها كما رواها: «من الملك حيرام إلى سليمان الملك أنني لأسدين الله شكراً لا ينقضي على أنك ورثت تاج الملك أبيك الذي كان عاهلاً تسامت حكمته وعظمت فضيلته. وسأتم بطيبة قلب ما سألتني. وسوف أمر أن يقطع لك من غياضي مقدار ما تحب من الأرجوزة والجزوع من السرو والأرز وأجعلها في البحر أطوافاً إلى المحل الذي تراه أكثر ملائمة لنقلها منه إلى أورشليم. وأسألك أن تعوضني من ذلك مقداراً من الخنطة. فأنت تعلم حاجتنا إليها في هذه الجزيرة.

وروى يوسفوس أيضاً (في ك ١ من رده أقوال أبيون فصل ٥): «إن الصوريين كانوا شديدي الحرص على حفظ السجلات الرسمية القديمة التي كتب فيها ما جرى بينهم... ومن جملتها أن الملك سليمان بنى هيكلًا في أورشليم لسنة مئة وثلاث وأربعين وثمانية أشهر قبل أن يبنى أسلافهم قرطاجنة».

ثم روى فقرة من هذه السجلات وهذه ترجمتها: «إن حيرام أحد ملوكهم كان يخلص الوداد لداود الملك وواصل إخلاصه لسليمان الملك ابنه. وإثباتاً لمودته له أهدى إليه عند بنائه الهيكل مئة وعشرين وزنة (وأنبأنا الكتاب ذلك إذ قال في سفر الملوك الثالث فصل ٩ عد ١٥) وأرسل حيرام إلى سليمان الملك مئة وعشرين قنطاراً ذهباً وجزوعاً من أفخر الخشب أمر بقطعها من جبل لبنان لسقف الهيكل وزينة جدرانه الفاخرة. فأهدى سليمان إليه هدايا نفيسة عديدة وكانت محبة

الحكمة تزيد في الوفاق بين هذين الملكين. وكانا يتطارحان الألفاظ لحلّها. وكان سليمان يعلو على حيرام في ذلك». وأردف يوسفوس هذا بقوله: «إنّ الصوريين يحفظون حتى اليوم بحرص شديد رسائل عديدة كان ينقذها كل من هذين الملكين لصاحبه. وأستشهد الله على نفسي أنني دققت في ما نقلت عن تواريخ الفينيقيين توثيقاً للقراء وهوذا ما كتب فيها: «ولما مات الملك أبيبعل خلفه ابنه حيرام الذي زاد كثيراً في مدن ملكه التي كانت في المشرق وألحق بمدينة صور أبنية عديدة... وقد حقّقوا أنّ سليمان ملك أورشليم كان يرسل إليه بعض ألعاز ويجعل جائزة لحلّها».

يظهر أنّ المهندس ومديري البناء والبنايين والنحاتين الذين أرسلهم حيرام إلى سليمان كانوا جميعاً من جبيل. فإنّ عملة هذه المدينة كانوا أشهر أصحاب الصنائع في فينيقية. ولما كان شحن الأخشاب منها ظهر أنّ الأرز الذي قطعت منه كان في جبال ناحية جبيل العليا لا في نواحي جبة بشري حيث الأرز الآن. وإلا للزم شحن هذه الأخشاب من طرابلس أو البترون أو من فرضة أخرى بينهما. وقد حقّق بعض سكان ناحية جبيل العليا أنّ في غابهم حتى اليوم أثراً لأشجار الأرز.

قد أراد سليمان أن يعطي حيرام عشرين مدينة وقرية متاخمة لأرض صور جزاء صنعه المعروف في تيسير زينة الهيكل. فأبى حيرام قبولها مخافة أن تكون هذه القرى مندوحة للخصام بين أهل المملكتين. وذلك دليل على تضلّعه بفنّ السياسة. وآثر على ذلك أن يرسل إليه سليمان كل سنة ما دام الاشتغال ببناء الهيكل العشرين ألف كر بُر والعشرين ألف كر زيت السالف ذكرها لتكون مؤونة لعاصمته ولأسطوله.

ورغب سليمان في توثيق عُرى الاتحاد بينه وبين مملكة صور فتزوَّج بإحدى بنات حيرام وكان قد تزوّج قبلها بإحدى بنات فرعون، ثمّ بإحدى بنات ملك الحثّيين الشماليين. فكان زواجه بالأمرتين الكنعانيتين وسيلة لدخول عبادة بعل وعشتروت في أورشليم. وقد عقد سليمان وحيرام شركة في تسفير السفن إلى أوفير لاستجلاب الذهب وغيره من النفائس. وكان الفينيقيون، من أقدم الأيام، يتجرون بفضائع الهند الثمينة. فكانت سفن الهنود تقلّ حاصلات بلادهم إلى سواحل اليمن وخليج العجم. وكان في العربية الجنوبية عدد غفير من تجّار الفينيقيين فيتلقون ثمة بضائع الهند فتحملها قوافلهم برّاً إلى فينيقية وسائر أعمال سورية وإلى مصر وما بين

النهرين. ولما كان الصيدونيتون يسافرون في البحر الأحمر لجلب هذه البضائع إلى مصر في عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، لم تكن سفنهم تتجاوز اليمن. وأما سليمان وحيرام فكان غرضهما تسيير السفن من مرافئ الخليج العربيّ تَوّاً إلى سواحل الهند فأصابا الغرض وكلّل النجاح مشروعاتهما. فقد جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٨) إنّ مَلّاحي هذه السفن «أتوا أوفير وأخذوا من هناك أربعمئة وعشرين قنطاراً (أو وزنة والوزنة ٤٣ كيلو) من الذهب وأتوا بها الملك سليمان. على أنه لم يدم هذا النجاح إلا ما دام ملك سليمان.

وقد سمّي الكتاب سفن هذه الشركة سفن ترسيس أو ترشيش لمشابهتها السفن التي كان الصوريّون يسافرون بها إلى اسبانيا المسماة ترشيش. ونرجى الكلام في أوفير وموقعها إلى المقالة في العبرانيين.

ومات حيرام سنة ٩٤٤ ق.م قبل سليمان. ويظهر أن قد بقي الوفاق بين مملكة صور ومملكة بني إسرائيل إلى ما بعد انقسامها إلى مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل، إذ لا نرى في الكتاب ولا في غيره أثر حرب بينهما في هذه الحقبة. بل نرى آحاب بن عمري ملك إسرائيل تزوّج بإيزبال ابنة إيتو بل ملك صور. ويعلم قراء الكتاب المقدّس ما كان للأميرة الصوريّة من السطوة المحزنة على زوجها الضعيف، وكم عززت كهنة بل بالنفوذ السياسي والديني في مملكة إسرائيل أولاً ثم في مملكة يهوذا بعد وفاة يوشافاط. والحاصل أنّ مملكة صور كانت شديدة النفوذ في مملكتي العبرانيين، حتى أنّ سلالة إيتو بل الصوريّة استخلفت يوماً لبيت داود نفسه في أورشليم بواسطة عتلية. واستمرّ هذا النفوذ لصور في مملكة إسرائيل إلى أن توفي يورام سنة ٨٣٠ ق.م. وفي مملكة يهوذا إلى أن رُقي يواش منضّب الملك سنة ٨٢٣ ق.م. وسنجد على ذكر هذه الأحداث بأكثر تفصيل عند كلامنا في تاريخ العبرانيين.

عد ١١٨

ملوك صور وما كان من الأحداث في أيامهم إلى بناء قرطاجنة

إنّ تاريخ صور منذ عقد ملوكها العهدة مع العبرانيين إلى بناء قرطاجنة معلوم حقّ العلم، مما كتب في تواريخ صور التي ترجمها مينندر المؤرّخ اليوناني الأفسسي. وحفظ لنا يوسيفوس فِقْراً من ترجمته في كتاب ردّه أقوال أبيون. وأوّل مَنْ نعرفه

من ملوكهم هو حيرام الأول صديق داود الملك. وقد كان مالكا في نحو سنة الألف قبل الميلاد وخلفه بعد وفاته ابنه أبييعل. ولا يعلم شيء من الأحداث في أيام ملكه إلا محافظته على عهدة الوفاق مع بني إسرائيل. وقد وُجد اسمه محفورا على حجر كريم محفوظ الآن في متحف فيرنسا بإيطاليا. وبعد وفاته خلفه ابنه حيرام. فقد جاء في فقر مينندر: «وبعد موت أبييعل قبض على صولجان الملك ابنه حيرام، فعاش ثلاثاً وخمسين سنة، وملك أربعاً وثلاثين منها، وجدّد بعض الأبنية في صور، وأقام عمود الذهب الذي يشاهد في هيكل المشتري Jupiter، وأمر بقطع أخشاب الأرز من جبل لبنان لسقف الهياكل، وهدم الهياكل القديمة، وأقام هيكل هيرقل Hercule وعشثروت، فدشن الأول لهرقل في شهر بارتوس (يوافق بدء هذا الشهر أواسط شباط) والثاني لما زحف بجنوده إلى الشيتين (سكان قبرص)، لأنهم أبوا أداء الجزية إليه، فردّهم إلى الطاعة له. وكان لديه شاب يُلقَّب بابن عبديمون اتصل إلى أن يحلّ جميع الألغاز التي كان يلقّيها سليمان ملك أورشليم».

وجاء مثل ذلك في فقر لديوس حفظها لنا يوسيفوس حيث يُقال: «خلف حيرام الملك أبييعل، وعمر الأحياء الشرقية من المدينة، وزاد كثيراً في أبنيتها، وأدخل فيها هيكل المشتري الأولمبي (المؤلف يوناني فيسمي الآلهة باسم آلهته فهو هيكل ملكرت) الذي كان منفرداً في جزيرة. فردم الفسحة التي بين الجزيرة واليابسة». ويظهر من كلام بعض الروايات أنّ حيرام هذا هو الذي كان في زمان داود وعلى عهد ابنه سليمان؛ ومؤداه أن ليس إلا حيرام واحد لا حيرامان. لكن الأرجح والأقرب إلى الصواب أنّ حيرام الأول كان في أوائل ملك داود وخلفه ابنه أبييعل فملك في أكثر مدة ملك داود. ثم خلفه ابنه حيرام الثاني فكان حليف داود وسليمان وصديقهما. ومما يؤيد ذلك أنّ جميع الروايات القديمة أي روايات يوسيفوس وروفينوس وأوسابيوس وسنشلوس والرواية المجهولة المؤلف أجمعت على أنّ مدة ملك حيرام هذا كانت أربعاً وثلاثين سنة. ومن المعلوم أنّ داود ملك أربعين سنة. ويظهر من الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ١١) أنّ حيرام كان صديقاً لداود منذ افتتح أورشليم. فلا يمكن أن يكون حيرام واحد في أيام داود وأيام سليمان، بل الأظهر أن حيرام الأول كان مالكا في صور عندما ملك داود في بني إسرائيل، وحيرام الثاني ملك في صور في آخر مدة ملك داود وفي مدة من ملك سليمان.

ويشعر بذلك قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ٥): «إذ كان حيرام لم يزل محبباً لداود كل أيامه» أي أيام داود. وقول سليمان لحيرام: «قد علمت أنّ داود أي لم يقدر أن يبني بيتاً لاسم الرب إلهه». وقول حيرام: «مبارك الرب الذي رزق داود ابناً حكيماً على هذا الشعب الكثير». فكل هذا مؤذن بأنّ حيرام صديق سليمان كان صديق أبيه داود. وكان يعلم أنّ داود لم يقدر أن يبني بيت الرب. وقد يشر بأنه رُزق ابناً حكيماً. ولا يمكن أن يكون حيرام واحداً في المدة التي هي من فتح داود أورشليم إلى بناء سليمان الهيكل فيها مع أنه لم يملك إلا أربعاً وثلاثين سنة كما مرّ.

ثم مات حيرام الثاني سنة ٩٤٤ ق.م قبل سليمان وحيث إنه ملك أربعاً وثلاثين سنة فيكون ارتقى منصبة الملك سنة ٩٧٨ في عهد داود الذي توفي سنة ٩٧٣ على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٦). وخلف حيرام الثاني ابنه بعلعزار إذ قال مينندر في الفَقَر التي رواها يوسيفوس (في ك ١ ضد أبيون فصل ٥): «ولما مات حيرام الملك خلفه ابنه بعلعزار (أو قلاعزار) ثم مات وعمره ثلاث وأربعون سنة ولم يملك إلا في سبع منها». هذا في رواية يوسيفوس وروفينوس. ولكن في روايتي تاوافيلوس وأوسابيوس أنه ملك سبع عشرة سنة. ولم نجد ذكراً لشيء من أعماله. وخلفه بعد وفاته ابنه عبد عشتاروت فملك تسع سنين بإجماع الروايات. فقال مينندر في المحل السالف ذكره: «وخلف بعلعزار ابنه عبد عشتاروت ولم يعيش إلا تسعاً وعشرين سنة ولي الملك في تسع منها. وقد تأمر عليه أبناء ظئره الأربعة فقتلوه غيلةً وملك مكانه أكبرهم مدة اثنتي عشرة سنة». ولم يذكر مينندر ولا غيره اسم الملك. وكان مقتل عبد عشتاروت لنحو سنة ٩٢٨ ق.م أي في نحو الوقت الذي شقّ فيه ياربعام بن ناباط مملكة بني إسرائيل فانقسمت إلى مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل. وقد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ١١ عد ٤) أنّ ياربعام هرب من وجه سليمان إلى شيشاق ملك مصر ومكث هناك إلى وفاة سليمان، وعاد بعدها فشقّ الأسباط العشرة عن مملكة راحبعام بن سليمان. فيتحصّل من ذلك أنّ شيشاق ملك مصر كان ينوي غزوة إلى سورية، ومن معدّاته لها دسيسته لقتل ملك مصر ولشقّ مملكة العبرانيين إلى شطرين. وقد تيسّرت له بذلك هذه الغزوة إذ قال الكتاب (ملوك ٣ ف ١٤ عد ٢٥): «ولما كانت السنة الخامسة للملك رجبعام

صعد شيشاق ملك مصر على أورشليم فانتهب ما في خزائن بيت الرب و خزائن دار الملك وأخذ الجميع وأخذ كل مجان الذهب التي عملها سليمان».

ولم يستتب الملك لابن الظفر، قاتل عبد عشتاروت، بل استمرَّ الشَّغب والهرج في الإثنتي عشرة سنة التي قضاها على منصّة الملك، إلى أن تيسّر لعلية الصوريين أن يجلسوا عليها عشتروتوس بن بعلعزار أخا الملك القليل، إذ قال مينندر: «وملك عشتروتوس بن بعلعزار اثنتي عشرة سنة وعاش أربعاً وخمسين سنة». ولما مات عشتروتوس لم يخلفه ابنه بحسب شريعة مملكة صور بل خلفه أخوه المسمّى عشتاريم ثالث أبناء عبد عشتاروت. وقال مينندر: «وخلف عشتروتوس عشتريم أخوه وعاش أربعاً وخمسين سنة ملك في تسع منها، ثم قتله أخوه فالس وأخذ ملكه وعاش خمسين سنة لم يملك إلا في ثمانية أشهر منها. قتله إيتوبعل كاهن الرّبة عشتاروت، وملك مكانه اثنتين وثلاثين سنة». فإن راعينا أنّ ما جرى من هذا الهرج والقلق في مملكة صور كان مثله في وقته في مملكة إسرائيل إذ باد فيها بيتي ياربعام وبعشا أحدهما بعد الآخر. رأينا شدة العلائق السياسية بين مملكتي صور وإسرائيل.

وكان ملك إيتوبعل في صور معاصراً للملك عمرى، وابنه احاب في إسرائيل. وكان كلاهما أصلاً لسلالة ملكيّة في قومه. وزوّج ايتوبعل ابنته إيزابال باحاب بن عمرى ملك إسرائيل الذي رُقّي منصّة الملك سنة ٨٧٣ ق.م. وكان ايتوبعل صار ملكاً في صور سنة ٨٩٤ ق.م، وايتوبعل هذا بنى مدينة البترون إذ قال مينندر في فقرة رواها يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ ف ٧) إنّ ايتوبيل «هذا هو الذي بنى مدينة بتريس (البترون) في فينيقية» التي استمرت زمناً طويلاً محصناً لردّ غارات اللبنانيين على تلك السواحل الفينيقيّة. ثم قال مينندر: «ومات ايتوبعل وعمره ثمانى وستون سنة وخلفه ابنه بعل عزور، فعاش خمساً وأربعين سنة ملك في ستّ منها، فخلفه ابنه موتون أو موجم فعاش اثنتين وثلاثين سنة ملك في تسع منها، فخلفه ابنه بيكماليون وعاش ستاً وخمسين سنة ملك في سبع وأربعين سنة منها، وفي السنة السابعة من ملكه فوّت أخته ديدون إلى افريقية وعمرت قرطاجنة في ليبيا». انتهى كلام مينندر كما رواه يوسفوس الذي قال بعد ذلك: «تبَيَّن مما مرَّ أنّ من ملك حيرام إلى بناء قرطاجنة مئة وخمساً وخمسين سنة وثمانية أشهر، وأنه لما كان بناء هيكل اورشليم في السنة الثانية عشرة لحيرام فيكون بين بناء الهيكل وبناء

قرطاجنة مئة وثلاث وأربعون سنة وثمانية أشهر. مع إنه إذا حسبت مدّات هؤلاء الملوك كما رواها يوسفوس عن مينندر لا تبلغ إلا مئة وسبعاً وثلاثين سنة، فالثماني عشرة سنة التي هي الفرق حاصلة من اختلاف الرواية في تعيين مدّة بعض الملوك؛ مثلاً قد عيّن للملك موتون تسع سنين مع إنّ روايات أخرى جعلت مدّة ملكه خمساً وعشرين سنة.

عد ١١٩

بناء قرطاجنة

توفي موتون ملك صور عن ولدين؛ أحدهما ييكماليون وعمره إذ ذاك إحدى عشرة سنة، والثاني بنت اسمها اليسار وتُسمّيها الشعراء اليسا تكبر أختها ببعض سنين. وأوصى موتون أن يشترك ولداه في إرث ملكه، ولكنّ الشعب كان يرتقب فرصة لتبديل هيئة الحكومة لتغلّب سلطة الأشراف فيها، فثار القوم ونادوا باسم ييكماليون وأجلسوه على منصّة الملك وحده، وأقاموا له ندوة مشورة أكثر رجالها من الشعب، وأسقطوا اليسار أخته من عرش الملك. فتزوّجت بزيكار بعل وسماه فرجيل سيكا، وسماه غيره أشرباس أو أشربال. وكان خال اليسار وأعظم كهنة ملكرت، وله المقام الثاني بعد الملك فكان لذلك رئيس حزب الأشراف. ولما مرّت على ذلك مدة أرسل بكماليون فقتل زيكار بعل إما بدسيسة من رجال حزب الشعب وإما طمعاً بأخذ ماله إذ كان غنياً، فاستاءت اليسار حتى طارت نفسها شعاعاً من قتل أخيها زوجها وهمت بإنشاء ثورة لتأثر لزوجها وتثّل عرش أخيها وتعيد نفوذ حزب الأشراف. ومالأها في ذلك ثلاث مئة عضو من رجال الندوة كانوا من حزب الأشراف. فتغلّب عليهم الحزب الشعبي حتى يمس الثائرون من الفوز بما يبتغون. وآثروا مغادرة وطنهم على أن يُذلّوا لبكماليون وحزب الشعب. فاستولوا بغتة على سفن عديدة كانت مُعدّة للسفر فركبتها اليسار وألوف من رجالها وساروا ينوون أن يعثروا صوراً أخرى تحت جوّ آخر. فأكسبها سفرها على هذه الحال لقب «ديدو» وتأويله الفارّة أو الهاربة. وعن يوستينوس المؤرّخ اللاتيني الذي كان في القرن الثاني وكتب قصّة هذه الأحداث أنّ اليسار سارت أولاً بجاليتهما إلى قبرص ثم إلى سواحل إفريقيا حيث كانت جالية صيدونية عمّرت

كعبه منذ نحو من ستة قرون في محل تونس الآن أو على مقربة منه كما مرّ (عد ١١٠). وكانت الجالية الفينيقية القديمة انحطّ قدرها. وكانت تؤدّي الجزية حينئذٍ إلى ملك من الليبيين يُسمّى جابون فاشتريت أليسار منه أرضاً لجاليتها وعمّرت فيها مدينة سمّتها «قرية حديثاً» أي المدينة الجديدة. فكسر اليونان هذا الاسم وجعلوه «كرشيدون» وجعله الرومانيون «كرتاكو» Carthago وفي الإفرنجية كرتاج Carthage. وسمّاه العرب قرطاجنة؛ فهذه المدينة بُنيت سنة ٨٢٢ ق.م وعلى قول آخرين سنة ٨٦٠ ق.م للسنة السابعة من ملك بكماليون.

قد كثر ما نظمته الشعراء في أليسار ويُسمونها بلقبها ديدون حتى أفعموا تاريخها من الأقايصص الموضوعة. على أنّ ما روينا تاريخ حقيقي. وقد جعله كذلك كاتون القديم (هو مؤلف لاتيني كان في القرن الثالث قبل المسيح) وبومبايوس تروك (هو كاتب روماني كان في القرن الثاني للنصرانية)، بل القديس أغوستينوس أيضاً (في تفسير المزمور ٦٨) اعتماداً على تواريخ قرطاجنة. وأما ما ذكروا عن ملكها أكياساً رملأ وإيهامها وفد أخوها الملك بأنها أكياس ثلثت بمال زوجها وطرحها في البحر بحضرتهم كتباً لطمع أخوها، ثم طلبها أن تشتري في إفريقيا أرضاً بمقدار جلد ثور وقدها الجلد سيوراً رقيقة مستطيلة وأخذها أرضاً بطولها لبناء مدينتها، ثم انتحارها فراراً من عقدها الزّواج مع هيرباس ملك المكسيثانيين. فكل ذلك من الأقايصص والحكايات الموضوعة.

الفصل الخامس

الفينيقيون وملوك الآشوريين

عد ١٢٠

أول مَنْ غزا فينيقية من الآشوريين

وَهُمْ بعض العلماء القدماء أَنَّ نينوس باني نينوى - على زعمهم - أخضع لسلطته فينيقية وآسيا الصغرى، اعتماداً على ما رواه كتاسياس اليوناني الذي كان عند أحد ملوك الفرس في آخر القرن الخامس ق.م، ونقله عنه ديودوروس الصقلي ذاكراً حكاية سميراميس امرأة نينوس وأنها ولدت في عسقلان مدينة سورية. وجعل يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١ فصل ٩) أمرفال ملك شنعار وكدرلاعومر ملك عيلام وحلفاءهما (الذين حاربوا بارع ملك سدوم وأحلافه في عهد ابراهيم الخليل) آشوريين أخضعوا جنوبي فلسطين بل سورية كلها. وذكر مثل ذلك أبو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني، وجاء في الكتاب المسمى قانون أوسايوس أَنَّ الآشوريين حاربوا الفينيقيين في القرن السادس عشر قبل الميلاد. وفي تاريخ ابن العبري الآنف ذكره: «أَنَّ قد كانت حرب عوان بين الكلدانيين والفينيقيين» في ذلك القرن. وظنَّ بعضهم أَنَّ كوشان رشعتائم ملك آرام النهرين الذي تعبد له بنو إسرائيل ثمانين سنين في أيام قضاة إسرائيل (قضاة فصل ٣ عد ٥ إلى ٨) إنما هو ملك آشوري. ولم يستعبد بني إسرائيل فقط بل استعبد الفينيقيين أيضاً (هوفر في تاريخ فينيقية). فكل هذه الأقوال كان يستمسك بها قبل الاكتشافات الحديثة وكانت تُظنَّ صحيحة لا يرد عليها من اعتراض. على أَنَّ الاكتشافات الحديثة أثبتت أَنَّ نينوس الذي سمّاه القدماء آشورياً تقدّم دولة الآشوريين بقرون. وعند أكثرهم ومنهم لانرمان أنه لم يوجد بل هو عبارة عما كان لنينوى التي نسبوها إليه

ولبابل من السطوة والافتدار. فجعل القدماء الحكاية تاريخاً وكذا وضع الآن أنّ ملك شنعار وملك عيلام وأحلافهما لم يكونوا آشوريين؛ وإن كان بعضهم ملك البلاد التي ملك فيها بعدهم الآشوريون. وقد يحتمل الصّحة أنّ كوشان رشعنائيم كان من أسلاف الملوك الآشوريين لكنّ الكتاب لم يصرّح بأنه فعل في الفينيقين شيئاً.

إنّ الذي علم إلى اليوم من الآثار أنّ أول ملوك الآشوريين حقيقة الذي جاوز الفرات غازياً إلى سورية إنما هو تجلت فلاصّر الأول الذي ارتقى منصّة الملك سنة ١١٢٠ ق.م. واستمرّ فيها إلى سنة ١١٠٠ قبل الميلاد. وقد كشف عن آثار له تبينّ حروبه سنة فسنة. قال لانرمان (مجلد ٤ صفحة ١٤٦) إنّ الذي يظهر من هذه الآثار أنه لم يتجاوز بغزواته (التي ذكرناها في عد ٧٠) جبل اللكام ولم يبرّ البحر المتوسط. وزعم بعض المؤرّخين أنه استحوذ على كيليكيا ودّمّر سواحل البحر المتوسط وأدّت إليه مصر الجزية. لكن الذي حملهم على هذا القول إنما هو اعتمادهم على أثر محطّم يُعرّف عندهم بالصفحة المكشّرة ذكرت بها حروب في فينيقية وصيدا في البحر المتوسط فنسبوها إلى تجلت فلاصّر الأول وليست له، لخالفها الأثر الذي نُقشت عليه تواريخ غزواته كلها ولاكتشافها في كوينجك حيث لم يوجد حتى اليوم أثر آخر له. والصحيح أنّ الصفحة المكشّرة تشتمل على ذكر غزوات آشور نزيربال ولاسيما أنّ تجلت فلاصّر عدّد اثنين وأربعين شعباً خضعوا لسلطته «من مجرى الزاب السفلى إلى شط الفرات، ومن بلاد الحثّيين إلى البحر الأسود». ولم يذكر فينيقية ولا البحر المتوسط. وزاد لانرمان على ذلك في حاشية علّقها على صفحة ١٥٤ «أنه وجد أثر لتجلت فلاصّر الأول كتب فيه أنه ملك البلاد حتى سواحل البحر المتوسط. وعبّر عنه «بتامدي رايبتي أchary» أي بحر فينيقية الكبير. وقال لكنني لا أظنّ ما عبّر به عن هذه التخوم الغربية التابعة للملكه يلزم فهمه بحسب منطوق حروفه.

على أنّ الأب فيكورو قال (في مجلد ٤ من مؤلّفه الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ٣٦) إنّ تجلت فلاصّر «هو أول ملك من هذه الأمة جاوز الفرات واتصل بسلاحه إلى سورية حتى جبل لبنان والبحر المتوسط. وقد أقام تمثالاً لنفسه عند منبع دجلة ومثاله في لندره وعليه خطوط هذه ترجمتها: «بعون آشور وشماس

وبان كبار الآلهة أسيادي أنا تجلت فلاصّر ملك آشور (يعدّد آبائه) ملكت من البحر الكبير في أرض أحمارى (المغرب أي فينيقية) حتى إلى بحر أرض نهري (آخر مملكته في الشرق لعلّ المراد البحر الأسود أو بحر قزوين). واشتملت صفائح هذا الملك على تفاصيل غزواته الخمس الأولى وعدّد فيها نصراته على الآراميين، لكنه لم يتكلّم كلاماً مخصوصاً في حربه في فينيقية بل ذكر خشب الأرز (من لبنان) بين الجزيات التي افترضها على البلاد التي افتتحها وأنّ أسلافه الملوك وآبائه لم ينتصروا على هذه البلاد؛ وعليه فيتّيان تجلت فلاصّر الأوّل إلى فينيقية غير مجمع عليه حتى الآن لعدم وجود آثار تصرّح به.

لكنّ المجمع عليه أنّ آشور نزيروال غشى فينيقية بعساكره؛ فإنه فضلاً عما كتب على صدر تمثاله القائم الآن في المتحف البريطاني كما مرّ (في عد ٧٢) قد نُقشت أخبار غزوته لفينيقية على صخر كالح حيث يقول إنه لم يخضع لسلطته سورية الشمالية، وبلاد الحثّيين، وجبال اللكام، وشواطئ العاصي فقط، بل يقول أيضاً إنه نزل بنفسه إلى فينيقية، وإلى ساحل البحر المتوسط، وأخذ الجزية من صور وصيدا وجبيل وأرواد. وقد كتب على صخرة نمروذ: «وفي هذا الزمان أخذت نواحي جبل لبنان، وذهبت نحو بحر فينيقية الكبير، وترنّمت على أعالي الجبال بتسايح الآلهة العظام، وقدمت لهم المحرقات، وأخذت الجزية من ملوك بلاد البحر، من سكان صور، وصيدا، وجبيل، ومحالا، وميزا، وكيزا (لا يُعرف موقع هذه المدن الثلاثة)، وأرواد التي هي في وسط البحر. فقد أتوني بالفضة والذهب والرصاص والنحاس والحديد وبمنسوجات الصوف والكثان وبأخشاب ثمينة وجلود حيوانات بحريّة، وقبّلوا قدمي». وفي أثر آخر وهو الصفيحة المكشّرة السالف ذكرها قال: «إنه ركب السفن التي أخذها من مرفأ أرواد، ومضى للنزهة في البحر فقتل دُخساً (الدلفين)، وأنه قضى بعد ذلك أياماً يصطاد في جبال لبنان الوعرة فقتل جواميس وخنازير بريّة، وقبض على كثير منها حيّاً وأخذه إلى بلاد آشور. ويتفاخر بأنّه قتل مائة وعشرين أسداً». وقد كانت غزوة آشور نزيروال هذه نحو سنة ٨٦٥ ق.م في أيام إيتوبعل ملك فينيقية. واكتفى بما أخذه من الجزية والتقاد من مدن فينيقية المشهور انصباب أهلها على التجارة وإيثارهم مثل هذه الجزى على معاناة الحروب ووقوف حركة تجارتهم وقفل آشور نزيروال عائداً إلى بلاده.

الفينيقيون وسلمناصر الثالث وخلفاؤه إلى تجلت فلاصر الثاني

قد ذكرنا في العدد ٧٣ أنّ سلمناصر الثالث هو ابن آشور نزيربال وخلفه، وأنه قبض على صولجان ملك آشور من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٨٢٣، وأبناً ما كان له مع الحثيين من الحروب الهائلة والمواقع العديدة. وسوف نذكر في تاريخ الغبرانيين ولاسيما عند الكلام في تاريخ آحاب ملك إسرائيل الحروب التي انتشبت بينه وبين ملوك سورية وملك إسرائيل. ومن أخبار أعماله مع الفينقيين ما نقشه على مسلة نمرود حيث قال: «في غزوتي الثامنة عشرة عبرتُ الفرات المرة الواحدة والعشرين، وسرتُ بجنودي على مدن حزائيل ملك دمشق، وأخذتُ الجزية من صور وصيدا وجبيل». على أنه في محالفة الاثني عشر ملكاً في سورية على سلمناصر هذا لا نجد من أسماء ملوك فينيقية إلا اسم ماتينبعل ملك أرواد. ولم يكن معه من الجنود إلا مئتا رجل. وإن وجدنا بين عداد هؤلاء الملوك المتحالفين اسم آحاب ملك إسرائيل وأنه كان معه ألفا مركبة وعشرة آلاف رجل فيظهر أنّ الفينقيين استسلموا إلى سلمناصر على عادتهم المستمرة ولاسيما أنه ورد في آثار هذه الغزوة أنها انتهت بخسارة ابن هدد ملك دمشق رئيس هذه المحالفة وعشرين ألفاً وخمسة مئة رجل من رجاله تجندلوا في ساحة الحرب. واضطرّ ابن هدد أن يفرّ في البحر مع رؤساء عماله وسلمناصر يتفاخر بأنه ركب السفن في نخبة من جنوده وتأثره في وسط تيار البحر فلم يدركه (طالع عد ٧٣). وتأثر سلمناصر للملك دمشق كان ولا بدّ من مدن فينيقية وذلك مؤذن بلا إشكال أنّ هذه البلاد استسلمت له. وقد جرت هذه الأحداث في فينيقية على عهد موتون أو ماتان بن بعلعزار بن إيتو بعل ملك صور الذي ابتداء ملكه سنة ٨٣٨ وانتهى ٨٢٩ - على ما روى لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥١٧) وفي أيامه خسر الفينيقيون أملاكهم في جزيرتي مالوس وثاره ومدينتي كاميروس وباليوسوس في جزيرة رودس. أخذها من يدهم الدورويون إحدى عشائر اليونان الأربع بعد حصار عنيف - على ما قال لانرمان في المحل السالف ذكره.

وخلف سلمناصر الثالث ابنه شمسي رامان ودام ملكه من سنة ٨٢٢ إلى سنة ٨٠٩ ق.م. ولم يوجد له أثر ينبئ أنه غزا سورية أو فينيقية. ولكن ابنه وخلفه

رامان نيرار الثالث (الذي رُقِّي منصبة الملك سنة ٨٠٩ واستمرَّ فيها إلى سنة ٧٨٠ ق.م) غار على بلاد الحثيين ثم على فينيقية وبلاد عمري أي مملكة إسرائيل وبلاد آدوم وفلسطين ودمشق. فإنه قد عدَّ في أثر له البلاد التي تؤدِّي له الجزية كل سنة فذكر كلَّ ما ذكرنا من البلاد في سورية، ومن جملتها «فينيقية برمتها بلاد صور وصيدا». على أنَّ خلفاء هذا الملك كانوا على غاية من الوهن. فبات الفينيقيون وسائر السوريين ناعمي البال من قبل الآشوريين - كما أسلفنا (في عد ٧٤) - إلى أن استوى على عرش الملك تجلت فلاصر الثاني سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٢٦ ق.م. وغزا سورية غزوات إحداها سنة ٧٤٣ انتصر فيها على بيزريس ملك الحثيين. واستدعى إليه إلى تل أرفاد في جانب حلب ملوك سورية فأثوه بالتقادم. ومن جملتهم حيرام (الثالث) ملك صور. والثانية في السنة التالية أي سنة ٧٤٢ تألَّب فيها عليه ملوك سورية فحاصر تل أرفاد ولم يفتحها إلا بعد سنتين لكنَّ افتتاحها يشرُّ له قهر سائر ممالك سورية. فجلا منها ألوفاً وأدَّى له ملوكها الجزية. وعدَّد اسماءهم في أحد آثاره متفاخراً. فكان بينهم حيرام ملك صور، وسيبتي بعل ملك جبيل وستة عشر ملكاً آخرون. والغزوة الثالثة كانت سنة ٧٣٤ انتصر فيها على عساكر رصين ملك دمشق وفاقح ملك إسرائيل. وقتل رصين. ويظنُّ أنَّ قتل هوشع لفاقح ملك إسرائيل كان بإيعازه (ملوك ٤ فصل ١٥ و١٦). واتصل بغزوته إلى غزوة فهرب ملكها حنون إلى مصر وعاقب شمسة ملكة العرب وجلا كثيرين من بني إسرائيل وغيرهم إلى بلاده. وأدَّى له آحاز ملك يهوذا الجزية. ولما همَّ تجلت فلاصر بالعود إلى نينوى استدعى الملوك الذين أخضعهم فكانوا خمسة وعشرين ملكاً منهم كثير ممن دُكرت أسماؤهم آنفاً. وفي جملتهم سيبتي بعل ملك جبيل وماتان بعل ملك أرواد. وأما صور فأرسل إليها قائداً آشورياً. ويظهر أنَّ حيرام الثالث كان قضى نحبه فخلفه مياب بعل الذي دفع إلى القائد مئة وخمسين وزنة من ذهب افتدى ملكه بها (لأنرمان مجلد ٤ صفحة ٢٢٤ عن آثار هذا الملك). ويظهر أنَّ مياب بعل هذا غير موتون ابن حيرام الثالث الذي خلفه نحو سنة ٧٣٨. وكان في هذه الأثناء نزاع لا نعلم داعيه ولا تفصيله حمل الصيدونيين على أن يغشوا أرواد ويفتتحوها برضى ملك صور، وأقاموا جالية منهم فيها فأصبحوا أسيادها.



صورة ملكي الآشوريين

الفينيقيون وسلمناصر الخامس وسرغون ملكي الآشوريين

إنَّ سلمناصر الخامس (على ما وصفه لانرمان أو الرابع على ما وصفه فيكور) استوى على منصّة الملك خمس سنين فقط، أي من سنة ٧٢٦ أو سنة ٧٢٧ إلى سنة ٧٢١ أو سنة ٧٢٢ ق.م. ولا يُعلم هل كان نسب بينه وبين تجلت فلاصر سالفه ولا كيف رُقّي عرش آشور، وقد وُجد اسمه في كثير من الآثار الآشورية. ولكن لم يوجد له إلى اليوم أثر تاريخي يُنبئ بأعمال خطيرة له. وعزا لانرمان ذلك إلى قصر مدة ملكه وإلى أنه لم يكن من عادة ملوك آشور أن ينقشوا ما يخلد ذكرى أعمالهم وغزواتهم الحربية إلا بعد مرور بضع سنين من ملكهم. على أنه قد ورد اسمه مكرراً في الكتاب لتتكيله بيني إسرائيل وحصاره السامرة (ملوك ٤ فصل ١٧). وحفظ لنا يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١٤) خلاصة عن مينندر كاتب تواريخ صور أنبأنا بما كان بين هذا الملك والفينيقيين؛ وهذه ترجمة كلام مينندر: «إنَّ إلولا (ملك صور) ملك ستاً وثلاثين سنة. ولما تمرد عليه الشيتيون (في قبرص) مخر إليهم بأسطول فدانوا لسلطته طائعين. وأرسل ملك آشور عليهم عسكرياً واستحوذ على فينيقية كلها^(١). ثم عقد عهدة صلح وعاد إلى بلاده. على أنَّ سكان عكا (وصيدا في ترجمة هوفر) وصور القديمة ومدناً أخرى عديدة ثاروا على الصوريين وخلعوا نير طاعتهم واستسلموا إلى ملك الآشوريين. فلم يبقَ على نبذ طاعته إلا الصوريون في الجزيرة. فألب ملك آشور ستين سفينة مفعمة بالفينيقيين وفيها ثمان مئة مجذف فأرسل الصوريون اثنتي عشرة سفينة فقط لمناسبة هذا الأسطول، فشئتوه، وأخذوا خمسمائة أسير من جنوده وبخارته. فأكسبهم هذا الانتصار فخاراً وأعلى شأنهم. فعاد ملك الآشوريين عنهم تاركاً جنوده لحراسة النهر وأقنية الماء ليمنعوا الصوريين الاستقاء. ودامت هذه الحال خمس سنين فاضطرَّ الصوريون أن يحتفروا آباراً للاستقاء».

(١) كذا في ترجمة يوسفوس الافرنسية عن النسخة المطبوعة في باريس سنة ١٧٠٠ ولكن ترى هذه الفقرة في ترجمة هوفر في تاريخ فينيقية (وارسل سلمناصر ملك الآشوريين إليهم وفداً واستحوذ على فينيقية كلها) فلعل المراد انه ارسل وفداً إلى الشيتيين ليجرئهم على مقاومة الولا.

فالظاهر من هذه الأحداث أنَّ شعوب سورية الغربية لما قبض تجلت فلاصّر انتهزوا فرصة موته ليخلعوا نير عبودية آشور. فتحالف ملك إسرائيل وملك فينيقية وغيرهما على الخروج من طاعة الآشوريين. وقبل أن تكمل معدّاتهم لذلك دهمهم سلمناصّر، فاستسلموا إليه، وأدّوا له الجزية. فعاد إلى نينوى، لكنهم أضرموا العود لمناوئته مستنجدين بشباك ملك مصر الذي يسمّيه الكتاب (سؤ). وهذا يبيّن مما جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٧ عد ٣) حيث قال في هوشع ملك إسرائيل: «وصعد عليه سلمناصّر ملك آشور. فكان هوشع عبداً له وكان يؤدّي له جزية. وعلم ملك آشور أنَّ هوشع محالف عليه. وقد وجّه رسلاً إلى سؤ ملك مصر ولم يؤدّ الجزية إلى ملك آشور». فعاد سلمناصّر ثانية إلى سورية فقبض عليه وأرسله مكتوفاً إلى السّجن وصعد ملك آشور على الأرض كلها وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين». وحينئذ استسلمت إليه مدن فينيقية ولم يبقَ على مناوئته منها إلا الصوريّون الذين في الجزيرة. فكان قول مينندر إنّ سلمناصّر عقد عهدة صلح مع ملوك سورية وعاد إلى بلاده. ثم رجع ثانية إلى سورية مطابقاً لنصّ الكتاب. على أنَّ سلمناصّر لم يفتح السامرة بل فتحها بعده خلفه سرغون الذي كان قائداً لجيوشه، كما سترى في كلامنا على العبرانيين. ولم يفتح هو ولا خلفه سرغون صور، بل استمرّت تتحمّل شديد الحصار إلى أن رأى سرغون أنَّ لا نفع من حصارها. وآثر عليه التوقيع على عهدة صلح تقضي على صور بدفع فدية سنويّة. فاستردّ جنوده عنها وعاد إلى آشور فنجت صور من هذه النازلة متفاخرة بثباتها ونصرها.

ولا نرى بعد ذلك في آثار سرغون ذكراً لفينيقية. ففي غزوته لأزورى ملك أشدود الذي كان قد عزم أن لا يؤدّي الجزية، وأغرى الملوك مجاوريه بالعصاوة، نجد ذكراً للملك فلسطين ويهوذا وأدوم ومواب أنهم نووا العصاوة وراسلوا ملك مصر. ولكن لا ذكر لأحد ملوك الفينيقيين لا بالمؤامرة ولا بما أجراه سرغون على رؤساء العصاة، إذ هزم أزورى إلى مصر وألحق به ياون الذي أقامه العصاة على عرشه، وأخذ امرأته وبنيه وبناته وأمتعته وخزائن قصره، وخرب مدن فلسطين، وجلا كثيراً من سكانها إلى بلاده. وأقام مكانهم جالية من بلاد الكلدان. وثمّت بذلك نبوة اشعيا التي نطق بها قبل سبع عشرة سنة من هذه الغزوة؛ أي سنة ٧٢٧ حيث

قال (فصل ١٤ عد ٢٩-٣٠): «لا تفرحي يا فلسطين بأن قضيب ضاربك انكسر... بينا أنا ميمت أصلك بالجوع وبقيتك تقتل. ولول أيها الباب اصرخي يا أيتها المدينة قد ذبت يا فلسطين بأسرك لأنّ قتاماً وافد من الشمال وليس من ينفرد عن عصائبه».

لكننا نجد سرغون قد ضمّ قبرص إلى مملكته إما بغارته عليها بنفسه وإما بإرساله إليها أحد قوّاده. فقد وُجدت في أخربة شيتيوم (لرنكا) أشهر مدن قبرص في ذلك العصر صفيحة هي الآن في متحف برلين تُسمّى صفيحة لرنكا تبينّ منها أنّ سرغون غزا قبرص وأضافها إلى أملاكه، وأنّ ذلك كان في السنة الحادية عشرة لملكه؛ أي نحو سنة ٧١٠ ق.م. وجعل سرغون مدن فينيقية تؤدّي الجزية إليه توّاً منفصلة عن صور التي خسرت في مدة الحصار بعض مستعمراتها في جزر البحر المتوسط فقلّ نفوذها وإن علا شأنها بثبات أبطالها في جزيرتهم. على أنّ مقتل سرغون في نينوى سنة ٧٠٤ وما كان من الاضطراب بسببه كان فرصة اغتنتها ألولا ملك صور لاعادة سؤده على مدن فينيقية، وكفّها عن أداء الجزية للآشوريين. إلا أنه ما عثم أن نزلت به داهية أخرى دهماء كما سترى.

عد ١٢٣

الفينيقيون وسنحاريب ملك آشور

إنّ سرغون اغتاله جنديّ أو أحد سفلة الناس سنة ٧٠٤ فهبّ ابنه سنحاريب الذي كان يلي بلاد الكلدان من بابل إلى نينوى. فاستوى على منصّة الملك إلى سنة ٦٨٠. فتكون مدّة ملكه أربعاً وعشرين سنة. وبعد أن أخمد نار الثورة في بلاد الكلدان ومادى وأرمينيا زحف بعسكر جرّار نحو سنة ٧٠٠ ق.م ينوي إذلال ملوك سورية وتمكين سلطته فيها بل يطمح بصره إلى الاستيلاء على مصر أيضاً. وأوّل البلاد التي وطلقتها جنوده فينيقية. فكان مجرّد دنوّه من أكثر مدنها كافياً لاستسلام ملوكها إليه ودفعهم الجزية له. فكذا فعلت أرواد وملكها عبديليت، وشمرون وملكها مناحيم، وجبيل وملكها أورملك. ومشى على أثر هؤلاء صيدا وسربتا (صرفند) وأكو (عكاء) وأكذيب (الزيب) وغيرها من مدن فينيقية. وأما ألولا ملك صور الذي كان يُسمّى حينئذ ملك الصيدونيين فأقام في صور البحرية أي الجزيرة

وهم يتحصنها رجاء أن يسعده الحظ بالدفاع كما أسعده في عهد سرغون فخاب أمله. وافتتح سنحاريب المدينة ولجأ ألولا إلى الفرار فأقام سنحاريب مكانه أميراً يُسمى إيتوبعل فأقر له بالسيادة، وتعهد بأداء الجزية إلى ملك آشور، فكان هذا إيتوبعل الثاني بهذا الاسم من ملوك فينيقية. وهذه ترجمة ما كتبه سنحاريب في أثره المسمى صفيحة تيلور في هذا الشأن: «في غزوتي الثالثة مشيت على بلاد الحثيين أي (سورية) فراغت رهبة عظمتي لولى (أي ألولا) ملك صيدا ففر إلى محل شاسع في وسط البحر. فأخضعت بلاده لسلطتي صيدون الكبرى وصيدون الصغرى وسريتا (صرفند) وبيت زيتي ومحاليا وحصا (هذه المدن الثلاث لا يُعرف موقعها بتأكيد) وأكسيب (الزيب) وأكو (عكا). فإن مخافة جنود آشور سيدي حلت في مدنه المحصنة وقلاعه المسورة وفي مخازن عدده وذخائره وفي مراعي مواشيه. فخضع كل ذلك لسلطاني وأقمْتُ توبعل على العرش الملكي ملكاً عليهم. وافترضت عليهم جزية سنوية دائمة بمنزلة فدية تقدّم لعظمتي. وأما مناحيم ملك شمشيمونا (وهي شمرون السالف ذكرها في شمالي فينيقية وموقعها الآن غير مؤكد)، وتوبعل ملك صيدا، وعبديليت ملك أرواد، وأور ملك جبيل، وميتيتي ملك أشدود، وبودويل ملك بيت عمون، وكموش نداب ملك مواب، ومليكرام ملك آدوم، وجميع ملوك أحرار (المغرب)، وكل ملوك ساحل البحر (المتوسط). فهؤلاء جميعاً قدّموا لي تقادهم النفيسة وهداياهم الثمينة وقبلوا أقدامي». ويستتبع كلامه في ملوك آخرين وفي حزقيّا الملك، كما ستراه في تاريخه. ولسنحاريب أثر آخر يُعرف بصفيحة القسطنطينية لوجوده في متحفها، اختصر فيه تاريخ هذه الأحداث بأبلغ عبارة فقال: «أما لولى ملك صيدون فأخذتُ ملكه وأقمْتُ توبعل على عرشه وفرضتُ عليه جزية». وقد نقش سنحاريب صورته على صخر عند معبر نهر الكلب ذكرى لاختضاعه سورية وفينيقية. فتراها إلى اليوم بين صور غزة بلادنا من كل صوب.

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٢٥) ما ملخصه إنّ في أخبار الحروب التي جرت بين سرغون وسنحاريب وألولا ملك صور عبرةً يُنَظَرُ بها. فإننا رأينا المدن الفينيقية تغادر صور عاصمتها منفردة، وتفتح أبوابها لملك آشور، بل تغدر بملكها وآله وأهل عاصمته بإنجادها الآشوريين عليهم بسفنها وملاحيها. وما الخوف من

الجنود الآشورية بكافٍ لارتكاب هذه الخيانة والغدر، فلا جرم أنَّ الحسد والإحن حملت الفينيقيين على خيانة عاصمتهم التي أثقلت نير سؤدها عليهم، واحتجنت لنفسها أرباح التجارة برؤيتها، وعاملت غير الصوريين معاملة خدم لها ولحالفيها كجعلهم بخّارة في سفنها وجلافطة لخصاصها وعملة في معاملها. فكانوا يهرون أن يروها مدحورة مذلة لينتفعوا بخرابها، ويثأروا لنفوسهم منها وتستوي وسائر مدن فينيقية. فهذا سرّ تصرف صيدا وجبيل وعكا في هذه الأحوال. لكن سوء العاقبة عمّ الطرفين، فحسرت صور سؤدها بتكبرها وتجبرها، وأضاعت سائر مدن فينيقية استقلالها لتشفّى من غيظها وكمدها، وثقل على الجميع نير آشور، واشتدّت وطأته، وتوفّرت جزياته وبسّ المصير. على أنّ صور بعد ثلّ عرش ألولا وتخلّف إيتوبعل له أذعنّت لقضاء الحال. وقلّ ما نراها بعد ذلك حاولت استرداد سيادتها الغابرة.

عد ١٢٤

الصيدونيون واسرحدّون

إنّ سنحاريب قتله ابنه أدرملك وشراصار وهو ساجد في بيت نصرورك إلهه، كما أنبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٩ عد ٣٧). وكان ذلك سنة ٦٨٠ ق.م. ووقع الخلاف والنزاع بين ابنائه على ملكه ففاز به ابنه أسرحدّون إذ انتصر على أخويه القاتلين. فزوّج من نصبة الملك من سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٦٧ ق.م. فملك اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة سنة. وتأويل اسمه «آشور أعطى أخاً». فأحمد جذوة الشّغب الذي حصل عند مقتل أبيه في بلاده. واستتبّت الراحة على يده في بلاد الكلدان. وكان عبد ملكوت صيدا وغيره من ملوك سورية استغنموا فرصة مقتل سنحاريب فهجموا بالتملّص من سلطة آشور وأداء جزياتها. ومئى ملك صيدا نفسه أنه يستقلّ ويخلف صور في سيادتها. فثبّئ أسرحدّون بما يأترون وما يتوخّون، فحشد الجنود، وأعدّ العدد، وغشا سورية بنفسه وسار لا يلوي على شيء حتى بلغ إلى صيدا فحاصر المدينة برأ فافتتحها عنوة. فلجأ عبد ملكوت وبعض قومه إلى الفرار بحرأ بسفنه آملين النجاة والعود إلى وطنهم بعد جلاء الآشوريين عنه. فأخذ أسرحدّون سفناً من مدن فينيقية الأخرى وتتبع سفن صيدا التي حملت الفارين.

فانتصر عليها وقبض على الملك وقتله ودُمِّر المدينة وغنم جنوده بما فيها وجلا بعض الصيِّدونيين إلى آشور.

وهاك ما نقشه اسرحدون على إحدى صفائحه: «ضربتُ مدينة صيدون التي على ساحل البحر، وأهلكْتُ سكانها، ودُمِّرْتُ أسوارها ومنازلها، وألقيْتُ مواذَّها في البحر، ونقضْتُ الهياكل. وفرَّ ملكها عبد ملكرت في البحر كسملِك ليختفي عن وجه عزَّتي، فاجتذبتُه إلَيَّ من بين الأمواج، واستحوذْتُ على خزائنه من ذهب وفضة وحجار كريمة وكهرباء وصنديل وأبنوس ومنسوجات من الصوف والكتَّان، وكل ما حواه قصره، وجلوتُ إلى آشور جمًّا غفيراً من الرجال والنساء، وأخذْتُ أيضاً بقرأ وغنماً ودوابَّ الركوب والحمل، وأقمتُ سكان ساحل سورية في أنحاء شاسعة، وبنيتُ في وسط بلاد الحثَّيين مدينة سَمَّيْتُها دراسرحدون (أي مدينة أو قلعة أسرحدون)، وأسكنتُ فيها القوم الذين قهرهم ذراعي في الجبال التي في جهة جبال مشرق الشمس، وأقمتُ عليهم أحد عمالي حاكماً». فالمراد بهذه العبارات الأخيرة أنه جلا السوريين إلى آشور وجلا أقواماً آخرين من شرقي آشور، فأسكنهم في سورية. ولا يُعلم زمان هذه الغزوة، ولكن لا بدَّ أنها كانت بين سنة ٦٧٨ إلى سنة ٦٧٣ ق.م.

وقال في أثر آخر أنه دعا إليه الملوك الخاضعين له في بلاد الحثَّيين، أي في سورية وفينيقية وفي الجزر، فكانوا اثنين وعشرين ملكاً وعدَّهم هكذا: «بعل ملك صور، منساملِك يهوذا، قدموه ملك آدوم، موصورى ملك مواب، زليبيِل ملك غزَّة، ميتيتي ملك عسقلون، إيتوزو ملك عقرون، ملكي آصاف ملك جبيل، ماتان بعل ملك أرواد، أيبعل ملك شمرون، بودويل ملك بيت عمون، أحي ملك أشدود». ثم يعدد عشر ملوك في مدن قبرص.

وهذا الملك توغَّل في بلاد العرب إلى حيث لم يسبق إليه أحد ملوك آشور. وحاول البلوغ إلى أوفير بلاد الذهب، فمنعه من ذلك الحرُّ الشديد وصعوبة المسالك وقلة الماء فيها. لكنه استحوذ على بلاد العرب، وأخضع مصر، وهزم ترهاقة ملكها الذي كان من الدولة الحبشية التي وليت مصر، وأخذ منف وتاب (طيبة) وأقام في أعمال مصر أقبالاً يؤدُّون الجزية إليه. ولم يجسر منسا ملك يهوذا أن يقاومه بل دُلَّ له وأعطاه الجزية، كما سترى في كلامنا عليه في تاريخ العبرانيين.

وجاء هذا الظافر أخيراً فنقش صورته على صخر عند معبر نهر الكلب، ونقش تحتها أخبار غزواته وإذلاله مصر. وكان رعمسيس الثاني ملك مصر نقش قبله صورته هناك، كما أسلفنا، ذكراً لاستيلائه على سورية. فكان أسرحدون أراد أن يوعز إلى الأجيال المتخلفة له أن مصر وأخلاف رعمسيس أنفسهم دانوا لعظمته، ودُلُّوا لسطوته. ولكن في آخر مدة ملكه عاد ترهاقة فتغلب على مصر وقتل الحرس الآشوري. وكان أسرحدون قد أعيته الأتعاب والمرض ولم يَز من نفسه المقدرة على غزو مصر ثانية فتنازل عن الملك لابنه آشور بانينال.

عد ١٢٥

الفينيقيون وآشور بانينال ملك آشور

أقام أسرحدون حفلة المبايعة لابنه آشور بانينال بالملك في الثاني عشر من شهر ابرو (يوافق بعض شهر نيسان وبعض شهر أيار) لسنة ٦٦٧ قبل الميلاد. ولا نعلم العلم الأكيد مدة استوائه على العرش لانقطاع الأثر الذي أنبأنا بسني ملوك آشور السالف ذكرهم. والأظهر أن آشور بانينال استمر ضابطاً صولجان الملك زهاء ثلاثين سنة، أي إلى سنة ٦٣٧ ق.م. وكان هماماً قاسياً محبباً العلم وراعياً في المحافظة على الآثار القديمة. وترك من الآثار ما لم يبارِه أحد من ملوك آشور. وما عتَم بعد تتوجه أن سار بجيشه الجرار يؤم مصر تداركاً لغارة ترهاقة عليها بعد انخذه. وعند مروره في فينيقية وسورية تسارع إليه اثنان وعشرون ملكاً منها ومن جزيرة قبرص لتحيته والاعتراف بالأمانة لعرشه واعطائه الجزية. فلم يكونوا لينسوا ما أنزله بهم أبوه وأجداده. وقد اكتشف عن أثر له مشوه، ولكن تظهر منه اسماء هؤلاء الملوك فترى بينهم: «بعل ملك صور، ومنسا ملك يهوذا، وملكى آصاف ملك جبيل، ويكيلو ملك أرواد، وأبيعل ملك شمرون». ولا بد أن مدَّ هؤلاء الملوك آشور بانينال برجالهم أيضاً لمحاربة مصر. وانتصر على ترهاقة في موقعة كرينيت على ضفة النيل. فانهزم إلى تاب فلاحقه آشور بانينال إليها ففرَّ إلى الحبشة. فأعاد ملك آشور الأقيال الذين كان نصبهم أبوه إلى ولاياتهم. وأكثر الحامية الآشوريين في محاصن مصر، وقفل إلى نينوى، لكنه لم يصل إليها إلا وثار عليه هذه المرة الأقيال أنفسهم وفي مقدمتهم نكو أحد هؤلاء الأقيال. فقبضت عليه الجنود الآشورية وعلى قيلين آخرين

وأرسلوهم مكبلين إلى آشور. فاعتمد آشور بانيبال هذه المرة الحلم. فأكرم مثواهم وأفاض نعمه على نكو خاصة وردّهم إلى ولايتهم. لكنه اضطرّ بعد أمد وجيز أن يعود للقتال في مصر لأنّ ترهاقة توقّي فجّد ابنه أوردامان الذي خلفه في عرش الحبشة الاعتداء على أملاك مصر. ولا يبدو أن كان آشور بانيبال في غزواته هذه يثقل الفينيقيين عند ممّره بأرضهم بأعداد الذخائر وإمداد جنوده برجالهم.

ولا نعلم ما الذي جرّأ بعل ملك صور على المجاهرة بالعصيان على آشور بانيبال في السنة الثالثة للملكه، أي سنة ٦٦٤ ق.م، ولا كيف مالاًه على ذلك غيره من ملوك فينيقية حتى هبّ عليهم آشور بانيبال فحاصر مدّنها وافتتحها. ودام حصار صور سنين عديدة، واشتدّ الضيق على أهلها حتى ساقهم الظمأ أن يشربوا ماء البحر، واضطرّهم العوز إلى القوت أن يفتحوا أبواب محصّنها. وهاك ما كتبه آشور بانيبال على إحدى صفائحه: «ذلّت بعلأ (ملك صور)، وجعلته يعرض عن طماحه ويخضع عنقه لنيري. وأشخصت لديّ بناته وأخوات أخيه ليكنّ لي إماء. وأتى ياملك ابنه يدي خضوعه لي ويقدم لي تقادم لم يسبق إليّ مثلها. ويدفع إليّ رهينة بنته وبنات اخوته. فغفوت عنه ونصبته ملكاً على البلاد». وكل ملوك سواحل فينيقية الذين مالوا بعلأ ألجئوا إلى طرح أسلحتهم صاغرين طوعاً أو كرهاً. ويكينلو ملك أرواد الذي كان يحسب أمواج البحر تسعفه على حفظ استقلاله ألجىء أن يرسل ابنته لتكون مخفورة بين حرم الغازي في نينوى. ثم ألجىء إلى الانتحار فراراً من وقوعه بيد الآشوريين. وأسر آشور بانيبال ابنائه الثمانية فقتل سبعة منهم واستحيى أكبرهم اذبل فأقامه ملكاً على أرواد. واستمرّ الفينيقيون على طاعة ملك آشور حتى نهاية ملك آشور بانيبال. هذا ما رواه لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٢٧). لكنه كان روى في (مجلد ٤ صفحة ٣٤٤): أنّ ابناء يكينلو عشرة وأنهم بعد أن كانوا فرّوا إلى قبرس على ما يظهر عادوا صاغرين إلى آشور بانيبال بتقادم عديدة، وقتلوا قدميه فعفا عنهم، وأقام أكبرهم ملكاً على أرواد. فلا نعلم أيّ الروايتين أحقّ بالاتباع. وكانت في هذه الأثناء غارة التتر الشهيرة، فإنهم جاءوا جمّاً غفيراً من بلادهم في الشمال، فخيّموا في آسيا الصغرى وسورية، وبلغوا تخوم مصر حيث أقاموا مدة، ثم انقلبوا نحو الشمال، فأضربوا بالمزارع والحقول في فينيقية، لكنهم لم يدنوا من المدن المحصّنة إلا عسقلون، فإنهم دخلوها وانتهبوا كل ما كان فيها حتى

هيكّل الزهرة أقدم هياكلها، لأنّ هيكّلها في قبرص وجزيرة قيثارة بُنِيا بعد هذا الهيكل بزمان طويل كما روى هيرودوت (ك ١ فصل ١٠٥).

الفصل السادس

الفينيقيون في مدة ملوك الكلدان والفرس

عد ١٢٦

انقراض دولة الآشوريين وخلافة دولة الكلدان لها وغزوة نكو ملك مصر
لسورية وفينيقية

خلف آشور بانينال بعد وفاته ابنه آشور أدليلان، كذا وُجد اسمه مكتوباً على قطعة من آجرٍ في كالح: «أنا آشور أدليلان ملك العساكر ملك آشور بن آشور بانينال». وكان هذا الملك واهن العزيمة مع أنّ ملكه انبسط حتى لم يمكن ضبطه. ونشأ في شرقيه دولة ضُمَّت إليها عشائر الماديين كلها. وتعاقت الحروب بين الآشوريين والكلدان في بابل، إلى أن وُلّي آشور أدليلان ملك آشور نبوبلاسر الكلدانيّ على بابل وأعمالها أو جعله قائداً لجنوده هناك. ولما رأى من نفسه القوة ومن ملك آشور الوهن سُمّي نفسه ملك بابل، وحالف شيكسر ملك الماديين، ونكو الثاني ملك مصر على الخروج على ملك آشور وقرض دولته وخراب نينوى. فحجّش شيكسر جنوده وسار بها نحو نينوى فلم يلقَ معارضاً إلى أن بلغ أبواب المدينة وأقام عليها الحصار. ولولا أنّ غارة التتر السالف ذكرها تكرهه على العود إلى مملكته لافتتحها حينئذٍ. على أنه بعد أن فتك بالتتر وطردهم من مملكته عاد إلى حصار نينوى بجنوده وجنود نبوبلاسر ملك بابل. ولم تنبئنا الآثار كيف كان سقوط نينوى بل أنبأنا قدماء المؤرّخين أنّ الحصار دام ستين. فلم تمكّن مناعة أسوارها أعداءها من افتتاحها. على أنّ دجلة طغى يومئذٍ طغياناً فوق عادته فأقلب جانباً من الأسوار.

فتيسر الفتح للأعداء فدخلوا المدينة. ولما يس ملكها ألقى النار في قصره فاحترق هو ونساؤه وخزائنه. فذكّ الظافرون أبنية المدينة كلّها دكّاً حتى أسسها. وكذا زالت عظمة هذه المدينة وانقرضت دولتها كما تنبأ عليها الانبياء. ولم تقم من ورطتها، بل لم يعد يعلم أين كانت إلا في هذه السنين الأخيرة. فإنه ظهر أنها كانت في محل كوينجك الآن. وكان خرابها سنة ٦٢٥ ق.م على قول بعضهم، أو سنة ٦٠٦ على قول آخرين وهو الأظهر. وسنجيء على تفصيل ذلك في تاريخ العبرانيين. واقتسم ملك بابل وملك مادي أملاك دولة الآشوريين.

عفواً من القراء عن تخطّي سبيل الغرض رغباً في توقّر الفوائد وفي التمهيد لإدراك الكلام الآتي حقّ إدراكه، لم تنجّ فينيقية من القلق والمشاقّ من جري هذه الأحداث. فإنّ نكو الثاني ملك مصر خرج على سورية إما بقضاء المحالفة مع نبوبلاسر ملك بابل على قول بعضهم، أو طلباً لنصيبه من تركة ملك آشور على قول غيرهم. فسار نكو بجيش جرّار من منف في فصل الربيع من سنة ٦٠٨ ق.م في طريق أسلافه. فالتقاه يوشيا ملك يهوذا في مجدّو (اللاجون) يريد منع عبور العساكر المصرية حفظاً لأمانته لملك آشور فقتله نكو وبدّد شمل عساكره. ولما رأى ملك صور وسائر ملوك فينيقية ما حلّ بملك يهوذا تلقّوا جنود مصر بالترحاب، وخضعوا لنكو ملك مصر متذكّرين ما أنزله الآشوريّون بهم من الضنك والعسف والخراب، وما كان لصيدا في أيام سيادة مصر عليها من النجاح والفلاح. وتوصّل نكو ملك مصر بغزوته هذه إلى كركميش على الفرات. ونكو هذا هو الذي جعل ملاخي السفن الفينيقيّة يسافرون على نفقته حول قارّة إفريقية مبتدئين من البحر الأحمر وعائدين إلى مصر في طريق بوغاز جبل طارق كما مرّ (عد ١١٥). إلا إنّ هذا السفر لم يكرّر ولم يعنّ بحفظ مذكّرات المسافرين فلم يكن منه النفع المرغوب فيه للتجارة.

إنّ تذليل الآشوريين للملوك فينيقية والاستيلاء على بلادهم لم يوقفا حركة تجارتهم، ولا نقّصا غنى صور، ولا أحمدا حميّة الفينيقيين ورغبتهم في الاتّجار والاغتراب، بل أقاموا جاليات عديدة منهم في غربي البحر المتوسط أي في أوروبا. ولما انتقص القصد في معادن اسبانيا في الأيّام التي نكتب تاريخها أمعن تجّارهم في المغرب حتى بلغوا جزائر بريطانيا طلباً للقصدير من معادن كورنويل الشهيرة.

ذكر ذلك استرابون (ك ٣ من تاريخه). وسنجيء على الكلام في تجارة فينيقية في فصل مخصوص.

عد ١٢٧

الفينيقيون وبختنصر وحصاره صور

قد مرَّ أنَّ نكو ملك مصر بلغ بجنوده ظافراً إلى كركميش. فشقَّ على نبوبلاسر أن يستحوذ على سورية كلها. وخشي أن يملك ما بين النهرين كأسلافه توتمس وساتي ورعمسيس. وكانت الشيخوخة والمشاق أضعفت عزيمته فلم يرَ من نفسه المقدرة على إدارة جيشه في مقاومة ملك مصر. فأشرك في ملكه ابنه نبوكدنصر الذي يسمّيه العرب ببختنصر (وتأويله الإله نبو يحفظ الاكليل). وفي سنة ٦٠٦ ق.م خرج ببختنصر لمقاومة ملك مصر في كركميش على ضفة الفرات. فكان بين الجيشين المصريِّ والبابليِّ موقعة هائلة دارت الدوائر بها على المصريين فتبّعهم الكلدان على أعقابهم في سورية كلها. وفتحت مدن سورية وفينيقية أبوابها للكلدان مستسلمة لهم كماداتها المستمرة. وبلغ ببختنصر بجحافله إلى تخوم مصر يريد الاستيلاء عليها. لكنه اضطرَّ أن يعود إلى بابل لوفاة والده سنة ٦٠٤ ق.م. وروى باروز أنه نظم حينئذٍ سورية والبلاد التي استولى عليها باقامة قوّاد مخلصين لحاميته التي تركها في المدن التي خضعت له، ورؤساء يخفرون الأسرى العديدين ويقتادونهم إلى بابل. وأجدُّ السير بشرذمة من جنده إلى بابل حيث كلَّل ملكاً سنة



صورة رأس ببختنصر وجدت منقوشة على خاتم في اسيا والأصل محفوظ في متحف برلين وترجمة ما كتب حولها في العلامات المسمارية «بختنصر ملك بابل صنع هذا المرداخ سيده» على رأسه خوذة لا تاج وهو بهيئة شاب

٦٠٤. واستوى على منصبة الملك وحده إلى سنة ٥٦١ ق.م. فيكون ملك ٤٣ سنة وحده وستين مع أبيه.

إنّ بختنصر عاد إلى سورية سنة ٦٠٢ ليقتص من يواقيم ملك يهوذا، لدخوله في المحالفة عليه مع نكو ملك مصر، ويزيل آثار الثورة من سورية. فأكره يواقيم على الخضوع للملك بابل وعلى أداء الجزية إليه. وأخذ بختنصر بعض آنية الهيكل. ولا نرى ذكراً في غزوته هذه للملك فينيقية. فيظهر أنهم أظهروا له الخضوع وأدوا إليه الجزية، وعهدوا إليه بحفظ الأمانة، فلم يضرب بهم على أنّ يواقيم ما برح سهل الانخداع بدسائس ملك مصر، ولذلك عاد يسعى بخلع نير بابل طبق ما جاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٤ عد ١) حيث قال فيه؛ «وفي أيامه صعد نبوكدنصر ملك بابل فكان يواقيم عبداً له ثلاث سنين. ثم عاد فتمرد عليه». فهبّ بختنصر هذه المرة الثالثة إلى سورية سنة ٥٩٩ ق.م. فتوفي في تلك الأثناء يواقيم وخلفه ابنه يوياكين. فلم يمكنه أن يقاوم جنود ملك بابل أكثر من ثلاثة أشهر وألجى أن يسلم نفسه وآله إلى يد عدوه. فأخذهم بختنصر أسرى إلى بابل، وجلا معهم عشرة آلاف رجل من نخبة بني يهوذا، ودخل أورشليم واستلب كل ثمين في الهيكل وقصر الملك، وأقام متنيا عم يوياكين ملكاً مكانه وسماه صدقيا. وفي هذه الغزوة أيضاً لا نجد ذكراً في الكتاب ولا في الآثار ولا في كتب المؤرخين للملك فينيقية ومدنها. فظهر أنهم ما برحوا على طاعة ملك بابل. فكانوا أحكم من بني يهوذا مع إنذار ارميا لهم بالإذعان للملك بابل وعدم الاتكال على مصر.

على أنّ بختنصر اضطرّ أن يعود بعد تسع سنوات إلى سورية، أي سنة ٥٩٠ ق.م. وكان إذذاك ملكا صور وصيدا وغيرهما من ملوك فينيقية شركاء في المحالفة مع ملك مصر وصدقيا ملك يهوذا وملكي العمونيين والموايين أيضاً. وزين لهم الإقدام على هذه المحالفة نفرة وقعت بين ملك بابل وملك مادي إذ كان مات شيكسر ملك مادي حليف بختنصر وحموه. وخلفه ابنه استياج فنشأ الخلاف بينهما شأن كل دولتين قويتين متجاورتين. فاغتنم ملوك سورية ومصر فرصة هذا الخلاف لخلع طاعة ملك بابل فهبّ عائداً إلى سورية. وأنبأنا حزقيال النبي أنه وقف قليلاً يفكر أي الطريقين يسلك أولاً أطريق أورشليم أم طريق صور؟ إذ قال النبي (فصل ٢١ عد ٢١): «إنّ ملك بابل وقف عند أم الطريق في رأس الطريقين لياشر

عرافة... فإذا العرافة في يمينه أورشليم لينصب المجانيق عليها» فقسم جحافلها إلى قسمين سار برأس أحدهما إلى أورشليم وسيّر الآخر إلى صور. فأقام الحصار عليها. وسنأتي في تاريخ العبرانيين على ذكر ما كان من حصاره أورشليم، ووقوفه عنه قليلاً حتى هزم خفرع ملك مصر أحد ملوك الدولة السادسة والعشرين فيها، الذي كان يظهر أنه أتى لنجدة صدقيا ملك يهوذا، ثم عوده إلى حصار أورشليم الذي استمر ثمانية عشر شهراً، وهرب صدقيا والقبض عليه وإشخاصه أمام بختنصر الذي فقأ عينيه وذبح ابنائه بحضرته وأخذ مكبلاً في السلاسل إلى بابل. وجلا معه كل عليّة القوم في يهوذا، وحرّق الهيكل وقصر الملك، وقتل عظيم الكهنة وستين رجلاً من الأعيان وولّى جدليا على أورشليم.

وأما صور فأقامت جنود بختنصر الحصار عليها، وحان إتمام ما تنبأ عليها به حزقيال النبي إذ قال (فصل ٢٦ عد ٢ وما يليه): «بما أنّ صور قالت على أورشليم نعمّا قد انكسرت مصاريع الشعوب وتحوّلت إلّٰي. فأنا أمتلئ أما هي فخربت لذلك. هكذا قال الرب هأنذا عليك فاصعد عليك أمّا كثيرة، كما يصعد البحر أمواجه، فيدمرون أسوار صور ويهدمون بروجها، واسحي غبارها عنها واجعلها صخراً عارياً فتصير مبسطاً للشباك في وسط البحر... هأنذا أجلب على صور نبوكدنصر ملك بابل من الشمال ملك الملوك، بخيل وعجلات وفرسان وجمع وشعب كثير، فيقتل نباتك في الصحراء بالسيف، ويجعل عليك مترسة، ويركم عليك تلاً، ويرفع عليك المنجب، ويلقي على أسوارك صدمات منجنيقه، ويهدم بروجك بأدوات حربه. ولكثرة خيله يغطي غبارها. ومن صوت الفرسان والعجلات والمراكب ترتعش أسوارك، إذ يدخل أبوابك دخول مدينة قد ثغرت، وحوافر خيله تطأ جميع شوارعك، ويقتل شعبك بالسيف. وأنصاب عزّتك تهبط إلى الأرض، ويسلبون ثروتك، وينهبون تجارتك، وينقضون أسوارك ويهدمون بيوتك الشهية، ويلقون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه، وأبطل زجل أغانيك وصوت كناراتك لا يسمع من بعد، واجعلك صخراً عارياً فتكونين مبسط شباك ولا تبين في ما بعد». ودام الحصار على صور ثلاث عشرة سنة وملكها إيتوبعل الثالث وأبطاله يبدون آيات الشجاعة والتجلّد والثبات. وألجئ الصوريّون أن يغادروا المدينة البريّة

أولاً، وأن يتحصَّنوا في المدينة الجزرية. فدكت جنود بختنصر أبنية المدينة حتى جعلوها قاعاً صاففاً وكلَّوا عن افتتاح الجزيرة.

وكان بختنصر قد مضى إلى بابل. فعاد إلى صور سنة ٥٧٤ ق.م. وشدد الحصار بنفسه. فقليل إنه افتتح الجزيرة عنوةً. وقيل إنَّ إيتوبعل الثالث شمت نفسه هذا الحصار الطويل ورأى الخراب الملمَّ بشعبه لانقطاعهم عن التجارة والأشغال. فاستسلم لبختنصر واعترف بسيادته عليه. وذكر لانرمان الروايتين الأولى في المجلد السادس (صفحة ٥٣٠) والثانية في المجلد الرابع (صفحة ٤٠٢). وأسر بختنصر إيتوبعل وكثيراً من أعيان قومه وقادهم إلى بابل. وفرَّ فريق من المحاصرين بسفنهم إلى قرطاجنة. ولم تعد صور منذ يومئذٍ إلى مجدها واتساع تجارتها وأسفار جالياتها. وأقام بختنصر على صور ملكاً اسمه بعل. واستسلمت له سائر مدن فينيقية ودُلَّ أهلها له صاغرين.

عد ١٢٨

الحرب البحرية بين أسطول خفرع ملك مصر والأسطول الفينيقي من قبل بختنصر

إنَّ خفرع ملك مصر أبطأ كثيراً على صور بإنجاده لها كما أبطأ على أورشليم. ولم تتكامل معدَّاته الحربية إلا بعد افتتاح صور. وكانت سلطة الكلدان توطدت في فينيقية وسورية فلم يجرؤ خفرع على إيقاد نار الحرب برّاً. فجهَّز أسطولاً بحريّاً لم يكن لمصر مثله منذ عهد توتمس الثالث. واستأجر له بسّارة وجنوداً يوناناً وكاريين (هم سكان كاريّا في آسيا الصغرى تجاه جزر الأرخبيل). وسيّر أسطولاً نحو فينيقية آملاً أن يهيج مدنها على ثورة يخرجون بها عن طاعة الكلدان على أنَّ توفرَّ جنود بختنصر في فينيقية ومخافة أهلها أن يحلَّ بهم ما حلَّ في صور قبلهم خيِّباً مسعى خفرع، بل انقلب الفينيقيون عليه «وجهزوا سفنهم البحرية، وضمت إليها سفائن جزيرة قبرس، وسيروها تعترض مسير الأسطول المصري». فكانت موقعة هائلة بين الأسطولين في أمواه قبرص، وكان النصر فيها لأسطول مصر فتتبع الأسطول الفينيقي حتى أتى يتطلَّب غرامة الحرب من المدن الساحلية. وافتتح صيداء عنوةً لأنَّ ملكها

كان رئيس الأسطول ونهبها، وغنم ما فيها، وأخذ أيضاً خفرع أرواد وجبيل وسالته باقي مدن فينيقية. وقد وُجدت أطلال أبنية في جبيل وأرواد على نمط الصناعة المصرية. واكتُشف فيها آثار كُتب عليها اسم هذا الملك كأنه بانيها. على أنَّ تسلطه على فينيقية لم يثبت إلا زماناً وجيزاً، أي نحواً من ثلاث سنين أو أربع، لأنَّ بختنصر عاد إلى فينيقية وأخضعها، بل قصد مصر أيضاً فاستولى عليها، وثلَّ عرش خفرع، وأقام مكانه ملكاً يُسمَّى أحمس. وقد تفاخر بختنصر كاتباً في أحد آثاره أنه نزل إلى مصر وقلب ملكها عدوّه عن منصّته، وأقام عليها ملكاً آخر، وقهر المصريين وأثنى في أرضهم. وكان كل ذلك مصداقاً لنبؤات حزقيال في الفصول ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢ من سفر نبوّه حيث يهدّد مصر باستيلاء بختنصر عليها وخرابها وإذلال ملكها المتكبر، ولنّبؤات إرميا حيث قال (فصل ٢٤ عد ٣٠): «هكذا قال الربّ هأنذا أجعل فرعون خفرع ملك مصر في أيدي أعدائه وطالبي نفسه كما جعلتُ صدقيا ملك يهودا في يد نبوكدنصر ملك بابل عدوّه وطالب نفسه». وقال في ذلك أيضاً (فصل ٤٦ عد ٢٤): «قد أخزيّت بنت مصر وجعلتُ في أيدي شعب الشمال... وافتقد فرعون وجميع المتوكّلين عليه واجعلهم في أيدي طالبي نفوسهم في يد نبوكدنصر ملك بابل وأيدي عبيده».

عد ١٢٩

حالة صور في عهد ملوك بابل بعد فتح بختنصر لها

قد مرّ بك أنّ بختنصر أقام بعلأ ملكاً على صور بعد إذلاله لها. وحفظ لنا يوسيفوس (في كتاب رده أقوال أبيون ك ١ فصل ٧) فقرة من تواريخ صور التي ترجمها مينندر إلى اليونانية، تيسّر لنا بها استقراء تاريخ ملوك مصر في باقي مدة ولاية البابليين. فقال مينندر: «حاصر بختنصر مدينة صور على عهد إيتوبعل ملكها الذي خلفه بعل، فملك عشر سنين. وبعد وفاته انتقل الملك من الملوك إلى قضاة. فولّى القضاة أكنيعل بن بالوق شهرين ووليه كالب بن عبادي عشرة أشهر، ثم آبار عظيم الكهنة ثلاثة أشهر، ثم موتون وجيروت ابنا عبد ريم ست سنين، ثم بلاتور سنة. وبعد ذلك استدعى الصوريّون موربعل من بابل وملكوه، فملك أربع سنين وخلفه أخوه حيرام وملك عشرين سنة. وكان إذذاك كورش ملك الفرس مالكاً في

البلاد. وإذا جمعت هذه المّدّات معاً كان مجموعها أربعاً وخمسين سنة وثلاثة أشهر (بعضها من مدة إيتوبعل). وحصار صور بُدِئَ فيه للسنة السابعة لبختنصر. وكورش ملك الفرس رُقّي منصّة الملك للسنة الرابعة من ملك حيرام (لعلّ الأصل الرابعة عشرة من ملك حيرام) انتهى كلام مينندر. والظاهر منه أنه بعد أن وُلّي بعل صور مدة عشر سنين، أي من سنة ٥٧٣ إلى سنة ٥٦٣ ثار الصوريّون عليه وثلّوا عرشه، واستبدلوا الحكومة الملكية بحكومة جمهوريّة يُسمّى رئيسها شفط أي حاكماً أو قاضياً. فلم تستقرّ لهم حال بل تتالي الحكّام فيهم تتالي الأشهر كما رأيت. ومدة هذه الثورة توافق مدة جنون بختنصر، فكأنّ الصوريين انتهزوا فرصة جنون ملك بابل وما صحبه من القلق والاضطراب ليتملّصوا من ولاية بابل، ويردّوا على أنفسهم استقلالهم. ولما لم تستقم حالة الجمهورية استدعوا موبعل الذي يظهر أنه كان من سلالة ملوك صور، وكان سجيناً في بابل أو أرسله إليهم نابونيد ملك بابل حينئذ، فملك في صور سنة ٥٥٥ ولكن لم يدم ملكه إلا أربع سنين كما مر. وتوفي سنة ٥٥١ وخلفه أخوه حيرام الرابع، وأقام على منصّة الملك أربع عشرة سنة خاضعاً لسلطة بابل. ثم خضعت فينيقية لكوروش ملك الفرس بعد ظفره بملك بابل سنة ٥٣٧ فعاش حيرام خاضعاً لكوروش ست سنين وتوفي سنة ٥٣١ ق.م وخلفه ابنه موتون.

عد ١٣٠

الفينيقيون في عهد ملوك الفرس

إنّ بختنصر اعتراه الجنون في آخر ملكه حتى حسب نفسه ثوراً يُعلّف بعشب الأرض ويمشي على الأربع ويأوي البراري، إلى أن مات سنة ٥٦٢ أو سنة ٥٦١ ق.م. وسوف نبسط الكلام في ذلك في تاريخ العبرانيين. وخلفه ابنه أويل مروداك الذي أطلق يواكين ملك يهوذا من السجن وعظم مثواه (ملوك ٤ فصل ٢٥ عد ٢٧). ولم يملك إلا ستين. وقتله صهره زوج أخيه وملك مكانه وسمّي نرغل سار سور (أي الإله نرغل يحفظ الملك). فملك أربع سنين فقط وقتل في موقعة مع كورش والفرس سنة ٦٥٥. وخلفه ابنه بلابار اسكون ولم يستقم الملك له إلا أشهراً وحطه أشراف المملكة وبايعوا نابونيد بالملك.



وبينما كان يعنى بتجديد معابد
الآلهة والآثار القديمة كانت في
بلاد مادي أحداث مهمة. فإن
كورش ملك الفرس انتصر على
حميه استياج ملك مادي وثل
عرشه. وحكم في كل البلاد
التي في شمالي بلاد الكلدان
وشرقيها. فلم يعد مفر من
انتشاب الحرب بينه وبين الكلدان.
وكان حيثل أن وقعت فترة بين
الملك وأشراف مملكته فأثر العزلة
متنحياً عن العناية بالمملكة، وعاهداً
بتدبيرها إلى ابنه بلشضر. وكان
كورش يقترب من بلاد الكلدان
فألجىء بلشضر أن يلي بنفسه إمرة
جيوشه لمناوئته. فعبر كورش دجلة
ولم يغادر نابونيد عزله إلا للسنة
السابعة عشرة من ملكه. فتولّى
قيادة جيوشه لكنه غلب وأخذ
أسيراً. واستمر بلشضر محارباً إلى
أن افتتح كورش بابل ليلة الولاية
التي صنعها بلشضر لألف من
عظمائه. وشرب الخمر في آنية
الذهب والفضة التي أخذها
بختنضر من الهيكل في أورشليم.
وظهرت له اليد التي كتبت على

الحائط: «نمانا ثقل وفسين» (دانيال فصل ٥)، أي جعل الله أيامك معدودة ووزن
أعمالك وفصلك من الملك. وسترى ذلك بأكثر إسهاب في تاريخ العبرانيين.

وانقرضت بذلك مملكة بابل وخلفتها مملكة الفرس سنة ٥٣٧ ق.م. وإذا انتهينا من بيان ذلك فرى الآن ما كان للفينيقيين مع كورش وخلفائه.

أسلفنا الكلام في أنّ حيرام الرابع ملك صور خضع لكورش. فإنّ المدن الفينيقيّة كلها خضعت له دون مقاومة بعد افتتاحه بابل، وكانت تؤدّي له الجزية التي كانت تؤدّيها إلى الكلدان. وقد عدّ كورش في أحد آثاره «جميع ملوك فينيقية» بين الملوك الذين قدّموا له جزياتهم النفيسة في بابل. وقال في هذا الأثر: «وقد جمعت هؤلاء الشعوب (أي المسيبين إلى بابل) وأعدتهم إلى بلادهم» فكان ذلك مصداقاً لما جاء في الكتاب أنّ كورش أمر بعود اليهود المسيبين إلى فلسطين وبتجديد بناء الهيكل. وعاش كورش بعد فتح بابل ثمانين سنين ومات قتيلاً في الحرب التي كانت له مع بعض قبائل التتر في الشمال سنة ٥٢٩ ق.م. وخلفه ابنه كمبيس. وبعد أن ثار لأبيه من التتر وقتل أخاه سمرديس حشد جنوده قاصداً مصر فاجتاز سورية وفينيقية، فلم يلقَ إلاّ التجلّة والإذعان لسلطته، بل نجّده ملوك فينيقية بأسطولهم لافتتاح مصر التي استولى عليها، وأثنى في أرضها، وقتل ملكها أحمس، وتوغّل فيها حتى الصعيد، بل قصد أن يغزو الحبشة فكانت هذه الغزوة وبالاً عليه، إذ عاد منها مدحوراً بل فاقداً رشده.

ولما خضع له سكان ليبيا في غربي مصر طمع أن يستولي على قرطاجنة. فأمر جنوده البحريّة أن تسافر إليها بالسفن. فأبى الفينيقيّون الإذعان لأمره لأنّ سكان قرطاجنة أقرباؤهم. وكانت بين الفريقين محالفة اخاء فترقّعوا عن الاختلاف بإيمانهم وحقوق نسبهم. ولما تمّنّع الفينيقيّون من المسير أصبح باقي الأسطول غير كافٍ لهذه الغزوة. ولم يرَ كمبيس من السداد أن يغالظ الفينيقيين الذين انقادوا إليه طائعين. وكانت نخبة جنوده البحريّة وملاحيه منهم. ونشأت ثورة على كمبيس في بلاده فاضطرّ أن يعود مسرعاً. ولدى امتطائه جواده متلهوفاً سقط على سيفه فجرحه، فلم يبالٍ بجرحه، وداوم سفره فأصابته الغنغرة في جرحه. فمات في الطريق في محلّ يسمّى عقبتان، اختلف في موقعه فقليل في جهة جبل الكرمل وقليل في جهة حماه.

وكان أحد الجوس الذي سمّى نفسه سمرديس بن كورش ولي البلاد بضعة أشهر فقتله داريوس (ويسمّيه العرب دارا كما سترى في تاريخ العبرانيين). وارتقى

منصبة الملك من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥ ق.م. واستمر الفينيقيون على جادة الطاعة له، ولم يشتركوا في الثورة التي نشأت عليه في أكثر أقاليم ملكه. وقسم داريوس مملكته إلى تسع عشرة سترابي، أي ولاية. وكانت الخامسة منها فينيقية وسورية وفلسطين وجزيرة قبرص. وكانت الجزية المفروضة عليها ثلاث مئة وخمسين وزنة من فضة تؤدّيها كل سنة؛ وقد ألحق بهذه الولاية عشائر العرب في برية سورية وتخوم مصر. وكان هؤلاء معفين من الجزية.

وبعد وفاة داريوس خلفه ابنه كي خسرو (كذا يسمي العرب كسر كس) من سنة ٤٨٥ إلى سنة ٤٦٥ ق.م. واشتهر في حروبه مع اليونان. وحفظ الفينيقيون الأمانة ولم يكن في بلادهم ما يستحقّ ذكراً. إلا إنّ اليونان بعد حربهم الشهيرة معه في سلمينا سنة ٤٨٠ أرسلوا أسطولهم يهدّد قبرص وساحل آسيا الصغرى بالتنكيل بهما والاستيلاء عليهما. ورزقي ابنه أرتخششتا (ويسميه ابن خلدون أرتخششار) الأوّل منصبة الملك سنة ٤٦٥ إلى سنة ٤٢٥. فكان الأسطول اليوناني في أيامه يسطو على سواحل فينيقية إنجاداً للمصريين على الفرس. وكان والي سورية وفينيقية إذ ذاك رجلاً يُسمّى ييفاييس كانت له موقعة هائلة عند مصب النيل مع القائد اليوناني فانتصر عليه، لكن هذا الوالي عصى بعد ذلك ملكه أرتخششتا وظفر بالجيش المنفّذ لإخضاعه. وتوفّي أرتخششتا وخلفه ابنه كي خسرو الثاني. فلم يملك إلا خمسة وأربعين يوماً وقتله أخوه وملك مكانه. ولم يدم ملكه إلا ستة أشهر وتلّ عرشه أخ آخر له وسمي داريوس الثاني فملك إلى سنة ٤٠٥ ق.م. وخلفه ابنه أرتخششتا الثاني فعصى عليه أفاغوراس ملك سلمينا، وبسط ولايته على جزيرة قبرص برمتها، وأخذ أسطوله ينكّل بسكان سواحل كيليكيا وسورية.

ولما استراح أرتخششتا من حربه مع اليونان همّ باخضاع أفاغوراس فأقام الحصار على قبرص ست سنوات. وكان ينجدها هاكوري ملك مصر إلى أن أقرّ أفاغوراس بسيادة ملك الفرس عليه فأبقاه في ملكه، وفرض عليه جزية سنوية. وكان ذلك سنة ٣٨٠ (ملخص عن لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥٢ و٥٣). وخلف أرتخششتا الثاني ابنه أرتخششتا الثالث الملقّب أوكوس. وقبض صولجان الملك من سنة ٣٥٩ إلى سنة ٣٣٨ ق.م. وهام في أن يوطّد ولايته في مصر فانتصر على جنوده نكتانبو ملك مصر. فثار على أرتخششتا ملوك قبرص وتاناس والي فينيقية وغيرهم. أما

القبرسّيون فردّهم بعض عمّال ملك الفرس إلى طاعته. وأما الفينيقيّون ومَنْ حازبهم فزحف أرتخششتا إليهم بجيش جرّار مؤلّف من ثلاثمائة ألف رجل من المملكة ومن عشرة آلاف مستأجر يونانيّ، وأقام الحصار على صيدا حيث تحصّن تاناس والي فينيقية، فدافع أهلوها بعض الدفاع ثم طلبوا الأمان، وعرضوا على الغازي الاستسلام فلم يجب متمّناهم.

وروى ديودورس الصقلّي أنه اجتمع منهم إذذاك أربعون ألفاً في بيوتهم وألقوا فيها النار مؤثرين الاحتراق على نحر الفرس لهم، فبادوا عن آخرهم. فعادت سورية إلى طاعة الفرس زماناً طويلاً، وغشى أرتخششتا مصر فاستظهر على نكتانبو ملكها. وفتحت له مدن مصر أبوابها، وأركن ملكها إلى الفرار، وأقام ملك الفرس عمالاً في البلاد التي دانت له وكان ذلك لسنة ٣٤٥ ق.م. فعاودت العزة والعظمة مملكة الفرس. على أنّ ذلك لم يكن إلاّ لزمن وجيز لأنّ أرتخششتا الثالث مات مستماً سنة ٣٣٨ ق.م. ولم يستمرّ ابنه أرسيس على منصّة الملك إلا سنة. وقضى قتيلاً بدسياسة بغواس وزيره. وخلفه داريوس الثالث الملقّب كودمان سنة ٣٣٧. وفي هذه السنة نفسها رُقّي اسكندر بن فيلبوس المكدوني منصّة ملك اليونان، فسلب داريوس ملكه. وكان اليونان يُكثرون التطاول على فينيقية، ولكن لم يتمّ استيلاؤهم على مدنها إلا في سنة ٣٢٢ حين دُلّت صور لاسكندر الكبير.

عد ١٣١

فهرس اسماء ملوك مصر نقلاً عن لانرمان

ذكر لانرمان في حاشية علّقها على المجلد السادس من تاريخه القديم للمشرق فهرساً للملوك مصر، فأثّرنا تعريبه هنا، كما رواه، والعهدة إليه في تعيين سنّي الملوك.

حيرام الأول ملك نحو سنة ١٠٠٠ ق.م.

أبيعل ... لا تُعرف سنوّ ملكه

٩٤٤ حيرام الثاني

٩٤٤ إلى سنة ٩٣٧ بعل عازر

٩٢٨-٩٣٧ عبد عشتروت

لا تُعرف سنوّ ملكهم	دليل عشتروت	
لا تُعرف سنوّ ملكهم	عشتروتني	
لا تُعرف سنوّ ملكهم	عشتوريم	
لا تُعرف سنوّ ملكهم	فاليا	
ملك سنة ٨٨٤ إلى سنة ٨٤٤	إيتوبعل الأول	
٨٣٨	٨٤٤	بعل عازر الثاني
٨٢٩	٨٣٨	ماتان
٧٨٩	٨٢٩	بيكماليون
	نحو ٧٧٠	حيرام الثالث
	٧٣٠	موتون الأول
	٧٢٤	ألولا

إيتوبعل الثاني لا تُعرف مدة ملكه ...

	نحو ٦٧٠	بعل
	٦٥٠	ياملك
	٥٩٠	إيتوبعل الثالث
	٥٧٤	اتبعل
٥٦٣	٥٧٤	بعل الثاني
٥٥٩	٥٦٣	قضاة
	نحو ٥٥٦	بعل لاتور
٥٥١	٥٥٥	موربعل
٥٣١	٥٥١	حيرام الرابع
	نحو ٥٣١	موتون الثاني

ومن بعد هذا الملك الأخير أمست فينيقية ولاية من ولايات الفرس كما رأيت.

الفصل السابع

تجارة الفينيقيين

عد ١٣٢

تجارة فينيقية وصور خاصة على ما ذكرها حزقيال النبي

قضت على الفينيقيين حالة بلادهم أن يكتبوا على التجارة. فإن موقعها على ساحل البحر المتوسط بين المشرق والمغرب جعلها محطة للتجارة بين سكان قارتي آسيا وأوروبا، وتوسطها بين مصر وما يليها غرباً وجنوباً، وبين فلسطين وسورية وبلاد العرب جنوباً وشرقاً، وبين سورية الشمالية وآسيا الصغرى وما يليهما شرقاً وشمالاً، صيرها نقطة الدائرة للمعمور المعروف وقتئذ. وقل ما كان من أراضيها خصيباً، خاصة بعد أن استحوذ بنو إسرائيل على أكثر ما كان منها سهلاً وصالحاً للزراعة، وحصروا الفينيقيين في مدنهم الساحلية، ويسير من السهول المجاورة لبعضها، ومن هضاب لبنان. وألجأتهم هذه الحال نفسها إلى إتقان الصنائع والحرف، والإكباب على العمل، وعلى نقل مصنوعاتهم إلى الآفاق التي كان أكثر سكانها على حالة الهمجية وقلة الإلمام والاهتمام بالصنائع. وكانوا يستبدلون مصنوعاتهم بما يحتاجونه إليه أو يعود بالنفع الأوفر عليهم من حاصلات غيرهم. فانبسطت تجارتهم إلى كل أفق، وضرب تجارهم في كل صوب، وعظمت ثروتهم، وتوفر غناهم. ولا نرى ألبق بهذا المقام من ذكر ما رواه حزقيال النبي في تجارة صور التي يُراد بها كل مملكة صور، أي فينيقية لا مدينة صور وحدها. فقد قال هذا النبي في الفصل السابع والعشرين من نبوته: «ترشيش (ويريد بها إسبانيا) مثمرة معك في كثرة كل غنى وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت أسواقك». ثم ذكر النبي ياوان وأراد بها جزائر اليونان وبلادهم وتوبل وماشك، وأراد بها سكان البلاد الواقعة في

الشمال من بلاد آشور وما بين بحر الخزر والبحر الأسود حيث كرجستان (طالع عد ٤١) فقال: «ياوان وتوبل وماشك متجرون معك وبنفوس الناس وآنية النحاس أقاموا موسمك». ثم ذكر آل توجرمة وأراد بهم سكان أرمينيا (طالع عد ٤١ أيضاً) فقال: «آل توجرمة بالخليل والفرسان والبغال أقاموا أسواقك». وذكر بني ددان وأراد بهم سكان جنوب العربية (طالع عد ٣٣)، وجزائر البحرين فقال: «وبنو ددان متجرون معك وجزائر كثيرة تجار يدك. وقد أدت قرون العاج والأبنوس قياضاً لك». ثم ذكر آرام وأراد بها بلادهم في سوريا وما بين النهرين فقال: «آرام متجرة معك في كثرة صنائعك وبالبهرمان والأرجوان والوشى والكتان والمرجان والياقوت أقامت أسواقك». ثم ذكر فلسطين فقال: «يهودا وأرض إسرائيل متجرتان معك وبحنطة منيئت (محلل) اشتهر بجودة حنطته) والحلاوى والعسل والزيت والبلسان أقامتا موسمك». ثم ذكر دمشق وما يليها فقال: «دمشق متجرة معك بكثرة صنائعك من أجل كثرة كل غنى لك بخمر حلبون (حلب) وبالصفوف الأبيض». ثم ذكر دان وياوان وأراد بهما على الراجح جزائر البحر المتوسط وبلاد اليونان فقال: «دان وياوان بالغزل أقامتا أسواقك. وكان في موسمك حديدهما المصنوع وقصب الزريرة (وهو قصب يتداوى به). ثم ذكر ددان والراجح أن المراد به شعب كانت مساكنه في أطراف العربية من جهة الهند فقال: «ددان متجرة معك بالنمارق (وهي الطنافس التي توضع فوق الرّحل) للركوب». ثم ذكر العرب فقال: «العرب وجميع رؤساء قيادهم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس، فإنهم اتجروا معك». ثم ذكر شبا ورعمه وأراد بهما سكان حضرموت وسكان الشاطئ العربي من خليج العجم (طالع عد ٣٣) فقال: «تجار شبا ورعمه متجرون معك وبأفضل كل طيب وكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك». وأتبع النبي كلامه ذاكراً عدة مدن في بلاد العرب والجزيرة والعراق فقال: «حاران وكنة وعادان وتجار شبا وآشور وكلمد متجرون معك. هؤلاء يتجرون معك بالأنسجة الفاخرة بأردية من السمنجوني والوشى وبالنفائس من الثياب المبرمة المشدودة بالجلال المعكومة (المشدودة بثوب) بين بضائعك». ثم ذكر سفن ترشيش وأراد بها السفن التي كانت تسير إلى أوفر استجلاباً للذهب فقال: «سفن ترشيش سيّارة لك لموسمك وقد امتلأت وصرّت ذات مجد عظيم في قلب البحار».

إنّ في أقوال النبي حزقيال هذه ما يغني عن البيان في سعة تجارة فينيقية ووفرة مواردها، وكلفا في زيادة التفصيل تأتي في الأعداد التالية على تجارتها في آسيا ثم في إفريقيا ثم في أوروبا.

عد ١٣٣

تجارة فينيقية في آسيا نسبة إلى الجهات الثلاث التي كانت تسير فيها

كان لتجارة الفينيقيين في آسيا ثلاثة فروع؛ فتسير أحدها في الجنوب، وثانيها في المشرق، وثالثها في الشمال. فكانت قوافلهم تسير جنوباً حتى اليمن وحضرموت وعمّان، فتقل مصنوعاتهم، وتجيء من هذه البلاد بالذهب والحجار الثمينة والبخور والمز إلى غيرها من سلع التجارة، وتأتي من مواني عدن وكثه ببضائع الهند والحجار الثمينة والعاج والأخشاب ذات الرائحة الزكية، وتلقى من أطراف اليمن بضائع الحبشة وحاصلاتها وهي الذهب والعاج والآبنوس وريش النعام. وكان عملتهم في نقل هذه البضائع عشيرة قidar في برية العربية، والمدنيين والآدوميين في البرية الحجرية. وكانت قوافل اليمن تسير إلى الشمال فتجاوز مكة ويثرب، وتصل إلى حجر مدينة العربية، وتنتهي إلى فينيقية في طريق بلاد مؤاب وعمّون. وأما قوافل حضرموت وعمّان فكانت تمرّ على جره؛ وهي مرفأ على خليج العجم ترسو به السفن الآتية من الهند. وكانت قوافل أخرى تقلّها من هناك مجتازة بلاد العرب في طريق الحجاج في هذه الأيام إلى أن تنتهي إلى صور.

وأما الفرع الثاني من تجارتهم فكان في شرقي بلادهم أي في بابل ونيوى. وكان السوربون عملة هذا الفرع كما كان العرب والمدنيون عملة الفرع الأول. فكانت قوافلهم تعدو لبنان وبلبك فتنتهي إلى حمص. وتأخذ من ثم القوافل الميمنة نيوى الطريق المستطرق الآن أيضاً؛ أي تجاوز حماه وحلب والرها ونصيبين. فتصل إلى بلاد الآشوريين حيث كان نزالة فينيقيون يتلقون بضائع بلادهم فيبيعونها هناك، ويبعثون إلى زملائهم في فينيقية بضائع آشور وحاصلاتها. وأما القوافل التي تيمم بابل فكانت تسير في البرية مارة بتدمر، وتسير تواء إلى تبسك على الفرات. فإنّ هذه المدينة كانت محطة للتجارة تأتيها بضائع بابل بالفرات، وبضائع سورية وفينيقية وفلسطين على القوافل. ولم يبق لنا حزقيال النبي ما كانت تجلبه صور من

بابل. على أن تجارة بابل في تلك الأيام معروفة ومدارها على الأنسجة القطنية والصوفية الفاخرة، وعلى الحلى والأثاث التي مهر البابليون في صياغتها وحفرها، وعلى العطور التي كانوا يستقطرونها. وكان استعمالها عاماً في المشرق وعلى الحجارة الثمينة إلى غيرها. وكانت قوافل بابل تحيي بحاصلات آسيا الداخلة من بخارى، فيتلقاها الفينيقيون من أيديهم، ويوصلونها إلى بلادهم. وبهذه الوسيلة عرف السوريون الحرير الذي جاء ذكره في نبوة حزقيال.

وأما الفرع الثالث وهو تجارة الفينيقيين في الشمال فكان مجهولاً، لولا أن يصرح به حزقيال النبي بذكره تجارة صور مع توبل وماشك وآل توجرمة بنفوس الناس أي الرقيق، وأنية النحاس والحلج والبالغ. ولا مرأ بأن هذه البلاد يُراد بها الأقاليم الشمالية المجاورة البحر الأسود وبحر قزوين، ومنها كرجستان أي بلاد الكرج المعلوم الاتجار فيها بالفتيات. وتوجرمة هي أرمينية، والحاصلات التي يشير النبي إليها هي حاصلات هذه البلاد إلى اليوم. إلا إن غزوات روسيا المتأخرة حظرت الاتجار بالرقيق في تلك البلاد. وبلاد الأرمن مشهورة حتى الآن بغناها بالحلج الجياد حتى كان الآشوريون والفرس لا يتاعون خيل مركبات ملوكهم إلا من أرمينيا. وقد علمت مما مر أن جالية الفينيقيين اتصلت إلى جنوبي جبل قاف، وكانت لهم مستعمرات عديدة على ساحل البحر المتوسط وفي أكثر جزره وإلى شطوط البحر الأسود.

ولا مرية في تسيير الفينيقيين سفنهم في خليج العرب وخليج العجم والأوقيانوس الهندي للاتجار. وحسبك في الدلالة على ذلك ما جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٦ وفصل ١٠ عد ١١ وعد ٢٢) حيث قيل إن سليمان اشترك مع حيرام ملك صور في عمل سفن في عصيون جابر بجانب أيله على خليج عقبة من البحر الأحمر. وسيّر هذه السفن إلى أوفير لجلب الذهب، وأن سفن سليمان وحيرام لم تكن تأتي إلا مرة في كل ثلاث سنين ولو مخرت في البحر الأحمر وخليج فارس فقط لما اقتضى لسفرها كل هذا الزمان. فكانت تسيير إذاً في بعض الأوقيانوس الهندي أيضاً، ولا علم مفصل لنا بمواد هذا الاتجار إلا بما ذكره الكتاب حيث قال: «فأرسل حيرام عبيده في السفن مع عبيد سليمان قوماً ملاحين عارفين بالبحر. فأتوا أوفير وأخذوا من هناك أربع مائة وعشرين قطاراً من الذهب،

وأَتوا بها الملك سليمان». وقال بعد ذلك: «وكذا سفن حيرام التي كانت تحمل ذهباً من أوفير جاءت منها بخشب صندل كثير جداً وبحجارة كريمة». إلى أن يقول إنَّ هذه السفن كانت تأتي «حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقزدة وطواويس». وسنزيد كل ذلك بياناً في كلامنا على سليمان في تاريخ العبرانيين. ولا يعدو أن كانت سفن الفينيقيين تقل إلى بلاد أوفير مصنوعاتهم وما يرغب فيه من حاصلات بلادهم.

عد ١٣٤

تجارة فينيقية في افريقية

قد كان لتجارة فينيقية في مصر رواج لا مزيد عليه. فكان للفينيقيين أحياء برمتها في مصر السفلى والعليا. وكان كل ما يحتاج إليه المصريون من وراء البحار جلبه لهم الفينيقيون، إذ لم يكن منهم ملاحون، بل كانت البحارة نجسة عندهم - كما مرّ. وروى هيرودوت (في الكتاب الأول من تاريخه) أنَّ الفينيقيين وحدهم كانوا ينقلون بضائع مصر وحاصلاتها إلى جميع الأمم. وقال النبي حزقيال (فصل ٢٧ عد ٧) مخاطباً صور: «البزّ الموشى من مصر كان ما نشرته شراعاً لك». فكان هذا البزّ (وهو نسيج من قطن موشى) من سلع تجارتهم. ولم يقف تجار فينيقية على حدود مصر، بل حفظت لنا في حطام المؤرخين القدماء آثار تثبتنا بتواصل مستعمراتهم ومحاط تجارتهم من تخوم مصر إلى ما وراء بوغاز جبل طارق خاصة بعد أن عمّروا قرطاجنة. وأهمّ الجاليات الفينيقيّة الافريقيّة هي التي أقامت على ساحل الاتلتيك في أعمال مراكش. حتى روى استرابون (ك ١٧ فصل ٣) أنَّ الصوريين عمّروا هناك ثلاثمائة مدينة. ولما تركت صور جاليتها هذه في أيام الآشوريين استحوذ عليها البربر سكان تلك البلاد. ولما سير أهل قرطاجنة حنون السالف الذكر بجالية فينيقيّة حديثة وجد هناك بعضاً من النزلة القدماء.

ومن شاء زيادة التفصيل في مستعمرات افريقية الفينيقيّة التجاريّة فليطالع كتاب هوفر في تاريخ فينيقية (فصل ٣). وكانت فصيلة الفينيقيين المسماة الليبيين الفينيقيين تنقل سلع تجارتهم من آنية وأنسجة وحلى إلى داخلية لإفريقية. وتجلب لهم من هنالك حاصلات تلك البلاد من معادن وأخشاب ثمينة وجلود وعاج لكثرة الأفيال في صحارى افريقية.

تجارة فينيقية في أوروبا

قد مرّ بك ذكر جاليات الفينيقيين العديدة في أوروبا، وكان أخصّ داع لاغترابهم الاتجار، وقد تطرّقوا إلى أوروبا بطريقتين؛ أحدهما من جهة جزر البحر المتوسط التي كانت لهم محاط تجارة في أكثرها، فتوصّلوا منها إلى بلاد اليونان، ومن صقلية وسردينيا وكورسيكا إلى شطوط إيطالية وفرنسة، وأمعن تجّارهم في هذه البلاد. والثاني من جهة إفريقية وبوغاز جبل طارق، وتوصّلوا به إلى اسبانيا، وعمّروا مدناً كثيرة فيها كما رأيت عند ذكر جالياتهم، وتطرّقوا من هناك إلى البرتغال وإلى بعض جزر الأتلنتيك. ولم يقف الفينيقيون عند تجارتهم في مدن أوروبا الساحلية، بل أشغلوا قوافل كانت تتوغّل في البلاد فتبلغ أقصاها، فتجوب افرنسة وجرمانيا، وتتصل إلى البلتيك، فالكهرباء كانت من بضائع الفينيقيين منذ عهد سيادة صيداء، وهي لا توجد إلا على شطوط البلتيك، فتعيّن أن يكونوا قد جلبوها من هنالك. وكذا كانوا يجلبون القصدير من كورنويل في انكلترا. ولا يظنّ أنّ سفنهم كانت تتوصّل حينئذ إلى البلتيك وإن قال به بعضهم.

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٤٥) ما ملخصه وُلدت الحضارة في مصر وآشور، ولكن كان الفينيقيون دعائها ورسلاها. فلا تجد بلداً من جزر اليونان حتى بوغاز جبل طارق إلا رأت فيه آثار تعليمهم، وما كان لأسفارهم فيه من بثّ مبادئ التمدّن. فقد جعل نفوذهم ونشاطهم بلاد اليونان وإيطالية وفرنسة واسبانيا تغادر حالتها الأولى البربرية وتصبح آسيوية، إلى أن أحرزت بنفسها النجاح الذي رقاها الفينيقيون أوّل درجاته. فلا يمكن أن يقدر الفينيقيين حقّ قدرهم في ما تفضّلوا به على العالم القديم، وما سبقت خطاهم إليه في مدارج التمدّن. ولا يبعد عندي أن يتحقّق ذات يوم ما يراه الآن بعض العلماء وأجنح أنا إليه؛ وهو أنّ سكان صيدا وصور هم أوّل من باح بأسرار العمل بالمعادن إلى شعوب أوروبا الغربية. فإذا استقرينا آثار عصر النحاس في بلادنا فلا نجد جيلاً جديداً أدخله وأزال عصر الحجر، بل نجد النفوذ الفينيقي علّم قداماءنا العمل بالنحاس قبل الحديد. فكانت الآنية والأدوات والأسلحة تُعمل من حجر. فأخذوا يعملون من النحاس ما عملوه بعداً من الحديد. فكذا كان في اسبانيا وإيطاليا وغالية أي افرنسة وجرمانية وجزر

بريطانيا وباقي البلاد الشمالية؛ ودليل ذلك أنّ هيئة هذا المتاع واحدة، والنقوش عليها واحدة، حتى نحسبها خرجت من معمل واحد وهيئة كلها آسيوية. فالفينيقيّون كانوا يحتاجون المعادن الثمينة لأنفسهم ولتجارتهم؛ وهذه علة امتدادهم السريع في مستعمراتهم في اسبانيا.

يكاد البنادقة والهولنديّون والإنكليز أنفسهم في هذه الأعصر لا يُساوون الفينيقيّين في أعصرهم بامتداد تجارتهم. وكانوا أينما حلّوا عمّروا محاطاً لتجارتهم، وأصبحت معاملهم بعد ذلك مدناً كبيرة. فإنّ السكان الذين كانوا على جانب من الهمجية كانوا يجتمعون حول المعامل الفينيقية كلفاً بالنّفع منها وبالعيشة الحضريّة وتعلّم الصنائع. فالشعب الغير المتمدّن يكتسب شيئاً فشيئاً خصال المتمدّنين. ويجري على أثرهم بمقتضيات عيشه وراحته، فتتوفّر حاجاته فيسعى بإيجاد ما يقيم بها من حرفة أو صناعة أو تجارة أو زراعة، فتحصل الحضارة والعمران. وكما نرى اليوم جيلنا يقتدي بالأوروبيين هكذا كان الأوروبيّون يقتدون بقدمائنا لعمران بلادهم. فقد أخذوا عتاً الصّناعة فنستردّها الآن منهم مكتملة. وليس من يقيم نكيراً على أنّ الفينيقيّين أدخلوا الحضارة والتمدّن في أوروبا وغيرها. فقد كان مهد الصنائع والعلوم والتمدّن مصر وبلاد الكلدان وفينيقية. على أنّ الفينيقيّين كانوا رسل هذا التمدّن والتقدّم في المعمور كلّه. فلا ينكر العالم القديم فضلهم.

إنّ هذه التجارة التي استمرّت قروناً وانبسطت إلى آفاق المعمور حيثذ أفعمت مدن فينيقية بالثروة والغنى. فكان ذلك نفسه أكبر معين على سقوطها وزوال مجدها لوجهين؛ الأوّل: أنّ هذه الثروة هاجت مطامع الملوك الآشوريين والكلدان والفرس فكلفوا بالاستيلاء عليها. والثاني أنها حملت الفينيقيّين على البذخ وأفسدت آدابهم فساداً لا يقدر. ولهذا قال حزقيال النبي (ف ٢٨ عد ١٣) لملك صور أي لأهل مملكتها: «كنت في عدن جنة الله وكان كل حجر كريم كساء لك من الياقوت الأحمر والياقوت الأصفر والماس والزبرجد والجزع واليشب واللازورد والبهرمان والزمرد وصنعت بيوت حجارتك من ذهب... من كثرة اتجارك امتلأ باطنك جوراً وخطئ... بكثرة أثامك في ظلم اتجارك دثت مقداسك فأخرجت من وسطك ناراً فأكلتك وجعلتك رماداً على الأرض على عيني كلّ من يراك.

الفصل الثامن

صناعة الفينيقيين

عد ١٣٦

البرفير ويُعرف بالأرجوان

لم يكن الفينيقيون تجاراً فقط يضربون في الأرض قياضاً لبضاعتهم بغيرها، بل اشتهروا أيضاً بالصناعة، فكان لهم مصنوعات عديدة تأتي على ذكر أحصائها. فإنهم لم يكونوا يتجرون بمصنوعات الآشوريين والكلدان والمصريين فقط، بل كان لهم تجارة واسعة من صنع أيديهم، ولبعض مصنوعاتهم منزلة كبرى من الاعتبار في العالم القديم.

ومن أول مصنوعاتهم وأفخرها صبغ البرفير أي الأرجوان، الذي كان يرغب فيه قدماء الشعوب، وكان ملبس الملوك وموضع الإسراف. وليس من نكير أن أول من اخترعه الكنعانيون سكان ساحل البحر المتوسط أي الفينيقيون. ونُسب اختراعه في الأفاصيص الوثنية إلى ملكرت معبود الصوريين. وكانوا يأخذون مادة هذا الصبغ من حيوانات بحرية من ذوات الصدف. وقد أطال أرسطو وبلين في الكلام على البرفير وصبغه وعلى الحيوانات التي يؤخذ من حشائها وعلى وقت اصطيادها وكيفية أخذ هذه العصاره من أحشائها. ولون الأرجوان كان أحمر بنفسجياً وحمرة تكون ناصعة أو يخالطها لون آخر صادر من خاصية في الحيوان الذي تؤخذ الصبغة منه. وأجود البرفير وأثمنه وما كان منه ملبس الملوك هو ما أخذت صبغته عن الحيوانات العائشة في البحر بجانب صيدا وصور وجوارها. وكان يستعمله ملوك آشور وآرام وبابل وفارس ومدين، كما جاء في نبوات حزقيال وارميا ودانيال. وكان ملوك

آسيا يسرفون باستعمال البرفير في ملابسهم وفي زينة قصورهم. ولم يكن الفينيقيون يأخذون هذا الصبغ من البحر المجاور مدنها فقط، بل يجلبونه أو يعملون به في أنحاء أخرى أيضاً. وأخصّ مصائدهم لهذا الحيوان ومعاملهم للصبغ كانت صور على ما ذكر استرابون، وصيدا على ما ذكر اكليمنضوس الإسكندري، وصارفند، وقيسارية اللد، وقبرص، وشطوط الموره في بلاد اليونان والجزر: قيثاره، وكريت، ورودس وغيرها. وقد ذكر حزقيال النبي أرجوان جزائر اليونان لصور إذ قال (ف ٢٧ عد ٧) «والسمنجوني والأرجوان من جزائر أليشة كانا غطاءً». وكانوا يصبغون بهذه الصبغة أنسجة من قطن وصوف وحرير، وخاصة أنسجة الصوف الناعم الرقيق الذي كان يستجلب من برية سورية. ولما كانت مادة هذا الصبغ غالية الثمن فلم يكونوا يصبغون بها إلا أجود النسيج. وكان لهم بهذا الاختراع ثروة كبرى وأرباح لا تُقدّر.

عد ١٣٧

صنع الفينيقيين الزجاج

أشهر مصنوعات الفينيقيين الزجاج، وقد عزا كثير من القدماء استنباطه إليهم. فقد سبقهم المصريون إلى اختراع نوع من الزجاج، لكنه لم يكن شفافاً، وكانوا يصطنعون منه آنية صغيرة، أو يطلون به الآنية الخزفية، ويصنعون منه حلّى كالعقود التي يحبّ السودان إلى اليوم التحلي بها. وترى آثاراً لمصنوعاتهم هذه من أقدم الأيام. على أنّ الزجاج الشفاف اخترعه الفينيقيون على الأرجح. وفي متاحف أوروبا كثير من مصنوعاتهم هذه الزجاجية لا ينحطّ اعتباراً عن مصنوعات البندقية (فانيسيا) في القرون الوسطى. وقد روى بلين (في التاريخ الطبيعي فصل ٣٦) كيف وفقّ الفينيقيون إلى اختراع الزجاج فقال ما ملخصه: «إنّ في فينيقية المتاخمة لليهودية عند ذيل جبل الكرمل مستنقعا يُظنّ أنّ منه أصل نهر بالوس (المعروف الآن بنهر النعمان) الذي يصبّ في البحر المتوسط غير بعيد عن بتولمايس (عكا). وأمواه هذا النهر عميقة غير سريعة الجري. وليس على ضفتي النهر من رمل إلا عند مصبه. وهناك تغسله أمواه البحر وتنقيه فيصبح أبيض نقياً خالصاً بعد أن كان لا يصلح لشيء. وحكوا أنّ بعض المتجربين بالنطرون (ملح البارود) حلّوا في هذا

الموضع، وأرادوا أن يطبخوا لهم طعاماً فلم يجدوا حجارة ليجعلوها أثافي فجعلوها من قطع النطرون المشحونة سفينتهم به. ولما أضرمو النار رأوا الملح يذوب وينصب على الرمل فيتكوّن منه سائل براق. فاستغربوه وهداهم إلى اصطناع الزجاج؛ فهذا هو أصل الزجاج.

فلهذه الحكاية أصل تاريخي. فالتجار الفينيقيّون أضرمو النار في خرق صخر يجمع لحيها بادئ بدء على تزجج ملح النطرون؛ وبهذا قام اختراعهم. فتمّ عرفوا الزجاج قبل الفينيقيين كانوا يستعينون على صنعه بمحلول البوتاس (القلي) مأخوذاً من حرق بعض النبات. فلم يكن زجاجهم شفافاً. أما الفينيقيّون فاعتاضوا عن القلي النباتي بالقلي المعدني فكان زجاجهم شفافاً. وكان مركز معامل الزجاج عند الفينيقيين صيدا وصرفند، كما كان مركز معامل الصباغة حول صور. وكان أجود الرمل الذي يتخذونه لصنع الزجاج رمل نهر بالوس (النعماني). فكان أشبه برمل فنتبلو في افرنسة في هذه الأيام. وفي متاحف أوروبا كثير من مصنوعات الفينيقيين الزجاجية وهي شاهدة لهم بطول الباع والمهارة العجيبة بهذه الصناعة.

عد ١٣٨

اصطناع الفينيقيين المتاع والآنية الخزفية والمعدنية وغيرها

اشتهر الفينيقيّون أيضاً في عمل المتاع والآنية الخزفية. وكانت هذه الآنية من أخصّ أصناف تجارتهم، واستمرّوا على ذلك عندما تناهت أسفارهم إلى جزر بريطانيا بالأتلنتيك. فكان من مشحونات سفنهم هذه الآنية يعطون أهل تلك البلاد إياها قياضاً بالقصدير. وقال بزو (في كتابه في الصناعة في القدم السالف ذكره مجلد ٣ صفحة ١٦٨) ما ملخصه: «كانت معامل الآنية من أرواد إلى صور، وكان يشحن من هذه الفرض في ربيع كل سنة مقدار وفير من الجرار والقذور والكؤوس والصّحاف إلى غيرها من المتاع فتوزّع في الآفاق حتى على شواطئ الاتلنتيك».

وذهب أكثر العلماء إلى أنّ الفينيقيين علّموا اليونان هذه الصناعة مستدلّين بأن مصنوعات اليونان القديمة من هذه الآنية إن هي إلا منقولة عن مثال فينيقية. وما

وُجد منها في بعض جزر الأرخييل خاصة في ثارة ومالوس يظهر أنه من صنع الفينيقيين أنفسهم عند احتلالهم هذه الجزر. وقد مرَّ بك في مقالة الحثيين أنَّ الأب دي كارا يرى أنَّ سكان بلاد اليونان القدماء تلقَّوا هذه الصناعة عن الحثيين؛ على أنَّ الحثيين ظعنوا من جوار فينيقية، أي من سورية الشمالية إلى آسيا الصغرى، ثم إلى بلاد اليونان على مذهبه. فتعود هذه الصناعة إلى أصل واحد. وليس من نكير أنَّ اليونان حسَّنوا وكَمَّلوا مصنوعاتهم الخزفية. فترى عليها رسوم هندسيَّة مدقَّقة وأمثلة أزهار وهيئات تطابق قوانين الصَّناعة. مع أنَّ مصنوعات الفينيقيين نراها ضخمة متينة لا دقَّة في صناعتها؛ ولا بدع فإنَّ غرض الفينيقيين إنما كان التجارة والربح، وأن يصنعوا لعملائهم البرابرة آنية متينة لا يسهل انكسارها في استعمالها اليوميِّ. ولم يتعمَّدوا إتقان الصَّناعة والظرف لما يقتضي لصنعه من الوقت الطويل فيغلى ثمنه فلا تروج البضاعة.

اشتهر الفينيقيُّون أيضاً بالمصنوعات المعدنية. ولكن يظهر أنهم لم يعملوا بالحديد ولا بالفولاذ، بل كانوا يأخذون المصنوعات الحديدية من البلاد التي يسهل صنعها بها لوجود معادن الحديد فيها، لكنهم حازوا قصبات السبق في العمل بالصففر، أي النحاس الأصفر. وحسبك شاهداً لذلك ما جاء في الكتاب عما صنعه الصوريُّون من الآنية وأثاث الزينة في هيكل سليمان وبلاطه (سفر الملوك الثالث فصل ٧ من عد ١٣ إلى عد ٤٦). وكثيراً ما جاء في الخطوط الهيروكليفيَّة على عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في مصر ذكر آنية الصففر من صنع الفينيقيين. وكان يقدِّم للفراغة من جملة مواد الجزيات المقدَّمة لهم آنية من هذه توصف بالظرف وبديع الصَّناعة. وقال استرابون (في ك ٣) إنَّ التجار الفينيقيين كانوا يشحنون إلى جزائر بريطانيا أسلحة من الصففر مع الآنية الخزفية. ولا غرو أن كانت هذه الأسلحة مثلاً لما استدلَّ به على العصر النحاسيِّ في أوروبا.

وقد ذكر هوميروس الشاعر مرَّات الكؤوس التي يصنعها الصَّاغة الفينيقيُّون من معادن ثمينة. وأبان شديد رغبة اليونانيين في نوالها. وقد وُجد بعضها في جزيرة قبرص وفي توسكانة في إيطاليا نقلها التجار أو الجالية الفينيقية إليها. وفي متحف الواتيكان في رومة واللوفر في باريس شيء كثير وجميل منها. وقد اكتُشف منذ

بضع سنوات في عمريت وطرطوس قطع كثيرة من الحلى مرصعة بجواهر فشهدت بمهارة الصّباغة الفينيقيين ونبوغهم في صنع الحلى.

وذكر حزقيال النبي مهارة الصوريين في صنع العاج أيضاً يزخرفون به المساكن والمتاع بأشكال بديعة. وكانوا يستجلبون أسنان الأفيال اللازمة لذلك بطريقتين. فكانت قوافل اليمن تأتيهم من الهند بشيء من ذلك، وسفنتهم في المتوسط تأتيهم بشيء منه من شمالي إفريقيا، إذ كانت الأفيال حينئذ كثيرة في نواحي مراكش والجزائر وتونس لا كما أصبحت الآن محصورة في الأنحاء الواقعة تحت خط الاستواء. وأكثر مصنوعات العاج التي كُشف عنها في أطلال قصور الآشوريين صنعتها أيدي الفينيقيين.

لم يكن للفينيقيين أرض كافية لتحصيل قوتهم بالزراعة، ولذلك أكتبوا على الملاحاة والتجارة والصناعة. ومع هذا أجادوا كثيراً استثمار ما كان لهم من الأرضين. فقد توفّرت في جوانب صور وصيداء وبيروت وجبيل كروم العنب، فكانوا يعصرون منها ومن عنب لبنان خمرهم التي طارت شهرتها. حتى كان يرغب فيها في رومة في أيامها وفي بلاد اليونان وبارتها في الشهرة خمر حلب. (ملخص عن لانرمان مجلد ٦ صفحة ٥٤٧ وما يليها). وروى رنان أنه وجد في ضواحي صور آلات للحرثاة أكمل وأمتن منها في أيامنا (كتاب بعثة إلى فينيقية صفحة ٦٣٣). وقد اشتهروا أيضاً بتقديد الاسماك، أي جعلها قطعاً وتمليحها ووضعها في الهواء لتجف فتحفظ مؤونةً وزاداً. فقد سبقوا في ذلك الهولاندي الذي نصب له كرلوس الخامس ملك المانيا تمثالاً. وكان لمصايد صور وبيروت دخل كبير من صنف تجارتهم هذا. وقد اشتهر الفينيقيون أيضاً بهندسة الأبنية وتحصين الحصون، فكانوا أساتذة لغيرهم من القبائل في هذا الفن. ومزية أبنيتهم ضخامة حجارها وحسن تنجيدها. وهم أول من غني بتبليط الأزقة والشوارع في المدن. فإن شوارع صور وقرطاجنة بلطت عند بنائها كما يظهر من أشعار فرجيل. ولا حاجة إلى القول إنهم أول من صنع السفن وعلم الناس صنعها. (عن هوفر في تاريخ فينيقية فصل ٤).

الفصل التاسع

اختراع الفينيقيين الكتابة بالحروف ولغتهم وعلومهم

عد ١٣٩

إن الفينيقيين أخذوا حروف الكتابة عن الخطوط الهيروغليفية
سلف لنا كلام في عد ٥٢ أن قد أجمع القدماء على أنّ الفينيقيين أوّل مَنْ
وضع الكتابة بالحروف، ولم يخالف الحدّاء القدماء في هذا، بل زادوه إثباتاً
وشفعوه ببيان لهم أخذوا حروفهم عن الخطوط الهيروغليفية. فقد صرّح شمبوليون
الكاشف عن كنوز الخطوط الهيروغليفية أنّ الحروف الفينيقية اشتقت من هذه
الخطوط. وقد أطال وأجاد العالم عمّونيل دي روجه بإثباته هذا الاشتقاق، وبيان
طريق التوصل إليه. فقال إنّ العلاقات السياسية والتجارية بين المصريين والسوريين
كانت كثيرة متلاحقة. فكان يضطرّ الكاتب في كل هنية أن يرسم بالخطوط
المصرية كلمات أو أسماء أعلام مأخوذة عن اللغات السامية. فاستلزم الأمر استلزاماً
طبيعياً لا مناص منه الاصطلاح على روابط مقرّرة ليكون بين اللفظ السامي واللفظ
المصري ما أمكن من المشابهة. وقد كان بين اللغتين بعض تهجيات متشابهة. وما
لم يكن مُتشابهاً اصطلاحاً على تأدية لفظه بالخطوط المصرية اصطلاحاً ثابتاً لا يتغيّر.
وبعد أن وضع روجه هذا الأساس لغرضه أخذ يطالع ويعارض بين الحروف
الفينيقية والعلامات المصرية المرسومة في أقدم الأيام، فتيشّر له أن ينظّم جدولاً يضع
فيه الحروف الفينيقية على جانب الخطوط المصرية. فظهر به اشتقاق الأولى من
الثانية لأنّ الحروف الفينيقية اثنان وعشرون حرفاً كعدد حروف لغتنا السريانية.
فوضع تجاهها اثنتين وعشرين علامة هيروغليفية تشابه تلك الحروف بلفظها. فكانت
صورة خمس عشرة علامة منها أشبه بصور خمسة عشر حرفاً من الحروف

لفظها	اسماء الحروف	حروف فونيقية	حروف مصرية
الف	ا	𐤀	ⲁ
بت	ب	𐤁 𐤂	Ⲃ
كول	ج	𐤃 𐤄	ⲃ
دولت	د	𐤅 𐤆	Ⲅ
هاء	هـ	𐤇 𐤈	ⲅ
واو	و	𐤉	Ⲇ
زين	ز	𐤊	ⲇ
حط	ح	𐤋 𐤌 𐤍	Ⲉ
طاظ	ط	𐤎	ⲉ
يود	ي	𐤏 𐤐	Ⲋ
كوف	ك	𐤑	ⲋ
لومد	ل	𐤒	Ⲍ
ميم	م	𐤓	ⲍ
نون	ن	𐤔	Ⲏ
سمكة	س	𐤕 𐤖	ⲏ
عين	ع	𐤗	Ⲑ
فاء	ف	𐤘	ⲑ
صادي	ص	𐤙	Ⲓ
قوف	ق	𐤚 𐤛 𐤜	ⲓ
ریش	ر	𐤝	Ⲕ
شین	ش	𐤞	ⲕ
تار	ت	𐤟 𐤠	Ⲗ

الفينيقية. والحروف السبعة الباقية تبعد صورها عن العلامات الهيروغليفية المقابلة لها، ولكن يمكن ردها إليها. وإليك هذا الجدول في الصورة عد ٧. فمن أمعن النظر فيها لم يمتز أن الفينيقيين أخذوا حروفهم عن الخطوط الهيروغليفية.

وقد قال دي روجه إن هذا الاختراع كان في عهد ولاية الملوك الرعاة في مصر التي دامت على القول الأظهر من القرن الحادي والعشرين إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد. ونعم الاختراع الذي اعتيى به باثنتين وعشرين علامة بسيطة عن ألوف علامات يحتاج الكاتب تعلّمها وإتقان فنّ التصوير. فإن أكثر العلامات الهيروغليفية صور طيور وحيوانات وهيئات بشرية. فجاد الفينيقيون على العالم كلّ بهذا الاختراع، وزادوا فضلهم فضلاً بنشرهم حروف كتابتهم مع بضائع تجارتهم في جهات المعمور المعروف يومئذ، كما سترى في العد الآتي. قال رنان كانت حروف هجاء الفينيقيين صنفاً من البضائع التي يشحنونها.

عد ١٤٠

إن حروف كتابة الفينيقيين أصل لحروف الكتابة في كل اللغات

قال لانرمان (مجلد ٦ صفحة ٥٥٣) لا نعرف أحرفاً للكتابة سبق وجودها حروف الفينيقيين، بل نعلم أن كل ما بقي له أثر من الحروف، وجميع الحروف المستعملة اليوم في كل اللغات، قد صدرت توّاً عن الحروف التي وضعها الفينيقيون أو تفرّعت عن أحد فروعها. فالحروف الفينيقية أم وحروف سائر اللغات أولادها. إن العلماء الباحثين في أصول اللغات ومعارضة بعضها ببعض قسموا اللغات وحروف كتابتها إلى طوائف. كما قسم علماء البوتانيك النبات، وعلماء الفزيولوجية الحيوان، إلى طوائف، مراعين في ذلك درجات البنوّة بين الحروف الأصلية التي هي الفينيقية وبين حروف سائر اللغات.

فالحروف المعروفة يسهل ردها إلى خمس طوائف مطابقة للجهات الخمس التي ضرب بها الفينيقيون للتجارة. وهذه الطوائف هي السامية بفرعيها العائين؛ السرياني والعربي، ثم اليونانية الإيطالية بفرعيها؛ اليوناني واللاتيني، ثم الإيبيرية وهي كتابة الإيبيريين سكان اسبانيا، ثم الطائفة الشمالية. وتشتمل على الكتابات القديمة عند

ألفبها بالعربية	أروف لائنية	أروف يونانية	أروف عبرانية	أروف فوننية
أ	A	A	א	א
ب	B	B	ב	ב
ج	C	Γ	ג	ג א
د	D	Δ	ד	ד
هـ	E	E	ה	ה
و	V	Υ	ו	ו ו
ز	Z	Z	ז	ז
ح	H	H	ח	ח ח
ط	«	Θ	ט	ט
ي	I	I	י	י
ك	K	K	כ	כ ו
ل	L	Λ	ל	ל א
م	M	M	מ	מ
ن	N	N	נ	נ א
س	S	Σ	ס	ס
ع	O	O	ע	ע
ف	P	Π	פ	פ
ق	»		צ	צ
ر	Q	P	ק	ק
ش	R	T	ר	ר
ت	T		ש	ש
			ת	ת

الإسكندريانيين (وهم جالية أتت من آسيا فحلّت في شمالي أوروبا في أسوج ونروج)، والجرمانيين، والصقالية قبل تنصّره، ثم الطائفة الهندية الحميرية. وقد امتازت بأن زاد ذووها على حروفها خطوطاً اصطلاحاً عليها لتدلّ على حركة الحروف، فغيّرت هذه الزيادة هيئتها. ويظهر أنّ مصدر هذه الطائفة كان بلاد العرب الجنوبية، فتنفّرت من هناك إلى إفريقيا من جهة، فتكون منها كتابة الأحباش والليبيين. فكانت مع كتابة الحميريين قداماء سكان اليمن طائفة مستقلة. وامتدّت من جهة أخرى إلى أريا (وهي إقليم من بلاد فارس حيث خراسان الآن) فتكون منها نوع كتابة مخصوص، ثم إلى الهند الذي ردّ العالم البراش وبر (Albrecht Weber) أقدم حروف كتابته إلى مصدر فينيقية. وتفرّع من هذا الأصل فروع عديدة ترد إلى خمس طوائف تضرب عن تفصيلها هنا طلباً للإيجاز.

إنّ لكل هذه الطوائف من الكتابة أتماً واحدة؛ هي حروف الفينيقيين أوصلوها إلى الآفاق مع بضائع تجارتهم. فالطائفة السامية نتجت من تجارة الفينيقيين مع بلاد آرام وشطوط الفرات ودجلة، والطائفة اليونانية الإيطالية مصدرها أسفار الصيدونين لتجارتهم في الأرخبيل وغيره من جزر البحر المتوسط وفي بلاد اليونان، واليونان أنفسهم يعزّون دخول حروف الكتابة عندهم إلى جالية قدموس الفينيقي ويُسَمّون الحروف فينيقية، ثم الطائفة الإيبيرية مصدرها تجارة صور مع إسبانيا الجنوبية. وأما مصدر طائفة الكتابة الشمالية فيظهر أنه كان من الأنحاء المجاورة البحر الأسود حيث كان قداماء الجرمانيين والإسكندريانيين قبل مهاجرتهم إلى أوروبا.

وقد مرّ بك أنّ الفينيقيين اتصلوا بتجارتهم إلى تلك الأنحاء، فأوصلوا حروفهم إلى سكانها، فحملوها معهم إلى أوروبا عند مهاجرتهم. وأما الطائفة الأخيرة وهي الهندية الحميرية فلا وراء أنّ مصدرها تجارة الفينيقيين مع سكان جنوبي العربية، وبواسطتهم مع سكان الهند من جهة وسكان إفريقية الشرقية من أخرى. وترى مثلاً لذلك في الجدول التالي عد ٨ المنطوي على الحروف الفينيقيّة والعبرانيّة واليونانيّة واللاتينيّة. فيظهر لك ما بينهما من المشابهة فتقيس غيرها عليها. أما الحروف العربيّة التي نستعملها الآن، فالمشهور أنّ عبد الحميد الكاتب البغداديّ إنما هو الذي أكسبها الهيئة التي تراها في أيامنا والحروف السريانيّة التي تجدها الآن

في كتبنا البيعية قد أخذت عن الحروف المسماة استرنكلية وهي أشبه بالفينيقية. وكان ذلك في نحو القرن الثاني عشر للميلاد.

عد ١٤١

الحروف الفينيقية وما طرأ عليها من التغير

إنَّ الحروف الفينيقية على ما توصّلت إلينا بالخطوط التي كُشف عنها في صيداء وشيتيوم، أي لرنكا في قبرص، وفي هذه الجزيرة، ومالطة، ومرسيليا؛ هي الحروف نفسها التي كانت تستعمل في كتابة اللغة العبرانية والفروع الصادرة عنها؛ كلغة الموابيين وغيرهم من شعوب فلسطين. وقد ثبت ذلك بالكتابات القديمة التي وُجدت على عين شيلوحا وعلى صفيحة ميشع في بلاد مواب (وسنأتي على ذكر هذين الأثرين في تاريخ العبرانيين) وعلى فصوص خواتم وأختام لبعض اليهود القدماء. على أنَّ هذه الحروف قد طرأ عليها بعض التغير بمرور الأيام. فلا تمكنا ندرة الآثار الفينيقية من تفصيل ما طرأ على كل حرف منها من التبدل في كل مكان وزمان. لكنه يتيسر لنا مراعاة هيئات هذه الحروف في ثلاثة أعصر:

العصر الأول، كانت فيه على هيئتها الأولى. ومدة هذا العصر من عهد ولاية الرعاة في مصر إلى القرن السادس قبل الميلاد. وكان يكتب هذه الحروف لا الكنعانيون فقط، بل جميع الشعوب الآراميين أيضاً. وفيها كُتبت الآثار السالف ذكرها، وصفيحة من الصفر دالة على تقديمة من أحد ملوك صيدا المسمى حيرام إلى بعل لبنان. وتمتاز هذه الكتابة عما سواها خاصة بأنَّ بعض أحرفها معوج ملتو كثير الزوايا، وقد أمسى بعد ذلك مستديراً مستقيماً.

وأما العصر الثاني، فنقسم فيه كتابة الفينيقين إلى صيدونية وقرطاجية. فالصيدونية التي استعملت من القرن السادس قبل الميلاد إلى صدر النصرانية، تجد مثالها في الآثار التي وُجدت في قبرص وصيداء، وفي صفيحة يهو ملك جبيل، وفي مسكوكات المدن الفينيقية في ساحل سورية وقبرص، وفي الكتابة التي نُقشت على مدفن تبنيث ملك صيدا، وفي ما كُتب على مدفن ابنه وخلفه أشمون عازر. وهاتان الكتابتان كُشف عنهما من أمد قريب في صيدا، وقد كُتبتا في أواسط

القرن الرابع قبل الميلاد. وتمتاز حروف هذه الآثار عما قبلها بكونها أكثر استدارة وأقل تعرجاً، ويكون أوسطها ضخماً وطرفها رقيقاً. وأما الكتابة القرطاجنية فتجد مثالها على مسكوكات قرطاجنة وصقلية، وعلى ما وُجد من الآثار فيهما وفي الكتابات القديمة التي وُجدت في مرسيليا وفي سردينيا، وهي قريبة كثيراً من الكتابة الصيداوية وأشبه بها، لكن حروفها غير منسوقة على خط مستقيم، بل محدبة تحديداً لطيفاً.

وأما العصر الثالث فتسمى أحرفه البونتيّة، أي الفينيقيّة الحديثة، وكانت تستعمل على الساحل الغربي من البحر المتوسط منذ زهاء مئتي سنة قبل الميلاد، واستمر استعمالها مدة بعد استيلاء الرومانيين، ولها مثال في صفائح وُجدت في قرطاجنة ومالطة وصقلية وسردينيا، وفي بعض مسكوكات اسبانيا. ويظهر منها جلياً أنّ الكتاب أرادوا وتعمد جعل الحروف بسيطة، فترى أكثر الحروف في هذه الكتابة استغني عنها بخط واحد منها، وأخذ في تعليق الحرف الواحد بالآخر فتعسر قراءة ما كُتب فيها.

عد ١٤٢

لغة الفينيقيين

إنّ لغة الفينيقيين ساميّة، فهي أخت اللغة العبرانيّة التي تكلم بها العبرانيون، والعربيّة التي تكلم بها العرب؛ وهؤلاء ساميون بلا مرأى. ولذلك عقب بعض الجاحدين على موسى بجعله الكنعانيين والفينيقيين من ذرية حام ولغتهم ساميّة. فيلزم أن يكونوا من ذرية سام. ولكن طاش سهم الجاحدين فأخطأ الغرض. فلا تدلّ اللغة دلالة أكيدة على الأصل أبدأ؛ فإن قدماء سكان بابل وآشور حاميون، وكان يملك فيهم نمروذ بن كوش بن حام. وما من قائل بأنّ اللغة الكلدانيّة أو الآشوريّة حاميّة بل هي ساميّة، والسكان القدماء في اليمن وحمير هم من نسل حام، وكانوا هناك قبل أن يحلّ بينهم بنو قحطان الساميون. وما من منكر أنّ اللغة الحميريّة من فروع العربيّة فهي ساميّة. وقد أثبت كثير من العلماء حتى رنان نفسه أنّ الفينيقيين وسائر الكنعانيين، وإن كانت لغتهم ساميّة هم أقرب أصلاً إلى المصريين من الساميين. وبين المصريين والفينيقيين اشتراك في كثير من العقائد الدينيّة والمعبودات.

وقد ثبت بالتقليد المستمر عند الفينيقيين أيضاً أنهم أتوا سورية من ساحل خليج العجم ولم يكن هناك إلا ولد حام. ويستدل من بعض الآثار المصرية أن شعب كفتا الذي يعتبرون به عن الفينيقيين يقرب منهم أصلاً، لأن بعض الخصال والسمات الطبيعية مشتركة بين الفريقين. ولنا ما لا يحصى عاد من أمثال من حلوا في بلد وتكلموا بلغة أهله. والظاهر أن سكان سورية قبل الفينيقيين ساميون، فأخذوا لغتهم. فمن الثابت إذاً ثبوتاً علمياً أيضاً أن الفينيقيين وسائر الكنعانيين حاميون أصلاً ولغتهم سامية. (عن لانرمان مجلد ١ صفحة ٢٧٥).

ليس من يمتري أن لغة الفينيقيين لا تختلف عن لغة العبرانيين إلا اختلافات قليلة كما مر (في عد ٤٩)؛ فليستا لغتين، بل هما فرعاً لغة واحدة، وبين أصول الفرعين وألفاظهما مطابقة تامة يُسند القول بها إلى المعارضة بين الآثار التي اكتشفت مكتوبة بالفرعين؛ ككتابة عين شيلوحا، وصفيحة ميشاع بالعبرانية، وكتابة الآثار الفينيقية باللغة الفينيقية. وقد مر أن اشعيا النبي سَمَّى اللغة العبرانية كنعانية. وترى في كتب العلماء اليونان اسمي اللغتين الفينيقية والعبرانية مترادفين، ينزل أحدهما منزلة الآخر. وقد سلف لنا كلام في فروع اللغة الفينيقية في عد ٤٩ فطالعه. وقد استمرت اللغة الفينيقية في سورية فلم تنسخها غزوة اسكندر الكبير ولا ولاية خلفائه. فقد كثر استعمال اللغة اليونانية في المدن وبين عليّة القوم وعلمائهم. ولكن ما برح السواد الأعظم من الأهليين يتكلمون باللغة السامية. ووجدت مسكوكات منقوش عليها بالفينيقية والعبرانية حتى أيام القياصرة الرومانيين الأولين. وكذا استمر استعمال اللغة البونوية أي الفينيقية في قرطاجنة أزمنة متطاولة حتى روى بروكوب والقديسان أوغوستينوس وإيرونيμος أن سكان قرطاجنة وما جاورها من البلاد ما فتئوا يتكلمون باللغة البونوية الفصحى حتى القرن الثاني بعد الميلاد.

عد ١٤٣

آثار الفينيقيين

قل كثيراً ما بلغ إلينا من آثار الفينيقيين. ولسوء البخت لم نتوصل إلى ما كان منه كبير فائدة. فنقضني العجب من أن هذا الشعب الذي أوجد الكتابة بالحروف ونشرها في المعمور كله لم يخلف لنا من آثاره إلا ما ندر، وكان قليل الفائدة يسير

العائدة. ونرى المصريين والآشوريين على تعسر رسم علاماتهم واعتياص حلّ رموزها ملأوا صخور المدافن وحجارة الهياكل وصفائح القصور من الآثار الجزيلة التّفع، واحتفروا في الآجر ما يساوي كتباً ضخمة مشتملة على تواريخهم وأنسابهم وعلومهم بكلّ فنّ. فهل أغفل الفينيقيّون طمعهم بالأرباح عن تخليد ما ترتاح إليه الأرواح أو استلبت صروف الحداث ما خلفوه لنا، فلم ننعم بالحظوة به؟.

فالآثار الفينيقيّة المكتوبة التي جمعت إلى الآن كثيرة تتجاوز بعض ألوف. ولكن ندر ما كان منها غير مكتوب على تمثال أو نصب أقيم لأحد الآلهة أو على مدفن كُتب عليه اسم من دُفن فيه، وبعضها فينيقي وبعضها قرطاجنيّ وهو أكثرها. ولا يختلف بعضه عن البعض الآخر إلا في اسماء الأعلام. وقد عُثيت جمعيّة الكتابات الساميّة والصنائع الجليلة بجمع هذه الكتابات القديمة ونشرها. وطُبع منها القسم الأوّل في الخطوط الفينيقيّة والقرطاجنيّة؛ فكان شاهداً مصرّحاً بقصور هذه الآثار عن تبيان حقائق تاريخيّة مهمّة. فجُلّ ما اشتمل عليه من البيّنات التاريخيّة هو صفيحة يهو ملك قيل جليل، ولا تحوي إلا اقامة هذا الملك نصباً تكريمه لعشّرتو بعلّة جليل. والصفيحة مشوّهة كثيراً والملك الذي نصب هذا التمثال كان بعد كورش وقبل اسكندر الكبير، وهو ابن يهربعل وحفيد أروملك. ثم ما كُتب على مدفن تينيت وابنه أشمون عازر ملكي صيدا، ولا يتحصّل منه إلا الدعوات على من يجترئ أن يسطو على مدفن الملكين. ثم قطعة من الصفر محفوظة في مكتبة الأمتة في باريس لا يفهم منها إلا أنّ ملكاً اسمه حيرام ملك صيدا قدّم تقدمة لبعل لبنان. ولا يُعلم منها أهو حيرام صديق سليمان أم هو حيرام آخر. ثم وُجد في صور أثر ذكرت فيه تقدمة لبعل شمائم (أي. إله السموات) قدّمها عبدليم بن ماتان بن عبدليم بن بعل شمار؛ وهذا الأثر هو بعد عهد اسكندر الكبير؛ فهذا أخصّ ما وُجد في فينيقية حتى الآن من الآثار المهمّة، ووُجدت فيها بعض مسكوكات لكنها متأخّرة عن عهد اسكندر الكبير.

على أنه قد وُجد في قبرص أكثر مما وُجد في فينيقية من هذه الآثار. ولكن ليس منها ما تقادم عهده على القرن الرابع قبل الميلاد. فقد اكتشف بوكوك في لرنكا ثلاثة وثلاثين أثراً مكتوباً. واكتشف لويس روس الألماني ثلاثة آثار أخرى في جوار لرنكا، ولكن قلّ فيها ما يهمّ؛ فبعضها دالّ على تقادم لعشّرتو وللإله

راسف او رسبو مشبهاً بابلون ومؤرخ بعهد الملك ملكياتون وبومياتون وغيرهما من أمراء هذه السلالة، وبعضها الآخر يحتوي حساب نفقة بعض الهياكل، كما وُجد مثل حساب هذه النفقات في بلاد اليونان. وقد وُجد في مصر بعض آثار فينيقية مكتوبة خاصة على أسوار هيكل أوزوريس وفي أييدوس وغيرها، وليس فيها ما يهم. وُجد في جزيرة والوس وفي أثينا آثار دالة على تقادم للآلهة مكتوب عليها بالفينيقية واليونانية. وُجدت في مالطة آثار؛ فأحدها دالّ على تقدمة للمكرت إله صور، وبعضها كُتب عليه «تقدمة للملك بعل تقدمة للملك عشتروت تقدمة للملك أوزوريس». وُجد مثل هذه الآثار الدالة على تقادم في صقلية وفي بالرمو خاصة وفي سردينيا وفي إفريقيا أيضاً.

على أنّ الأثر الذي اكتُشف في مرسيليا سنة ١٨٤٥م يستحقّ ذكراً خاصاً لقدمه ولطول عبارته. فيظهر أنه كُتب في القرن الخامس قبل الميلاد وأحسن ترجمة لهذا الأثر ما عُني به الأب برجيس معلّم اللغة العبرانية في كلية باريس. وخلاصة ما كُتب فيه حساب هيكل بعل صافون في قرطاجنة في زمان الحاكم (شفط) ألس بعل بن بودتانيت، وألس بعل بن بودشمون. وقد عيّن فيه ثمن المحرقة إن كانت ثوراً أو خروفاً أو جدياً أو عصفوراً، ثم ثمن الحليب والدهن وكل ما يدخل في تضحية الذبائح وتقدمة التقادم للآلهة. ويُضاف إلى ما مرّ من الكتابات تكملةً لذكر كل ما نعلمه من اللغة الفينيقية بعض المئات من الكلم. والأعلام التي ذكرها الكتاب اليونان واللاتينيون ولا يؤمن فيها من التحريف والتصحيح، ثم أبيات شعر وردت في رواية لبلوت مصحوبة بترجمتها اللاتينية لا يؤمن فيها غلط النسخ، وقد جدّ بعضهم في إصلاحها ولا يُعلم هل أجادوا؛ فهذا ما نعلم من آثار الفينيقيين.

عد ١٤٤

علوم الفينيقيين

لا جرم أنّ الفينيقيين مهروا ببعض العلوم، وإن ندر كثيراً ما بقي لنا من حطام آثارهم العلمية. فقد كان لآخوانهم العشائر الكنعانية كتب وتأليف في علوم وفنون عديدة قبل غزوة يشوع بن نون لبلادهم أيضاً. فإننا نرى في سفره (فصل ١٥ عد

١٥) أنّ كالب بن يفنا «صعد إلى سكان دير وكان اسم دير قبلاً قرية سفر»، أي قرية الأسفار والكتب، وهي في جوار الخليل. فإن كان للكنعانيين من تلك الأعصر أسفار وكتب علمية يجمعونها في مكاتب، فالفينيقيون أولى بمثل ذلك لسبقهم سائر قبيلتهم إلى الحضارة والتمدّن. ونرى في الآثار المصرية اسم شاعر مجيد كان من المقرّين إلى ملك الحثّيين عند محاربته رعمسيس الثاني على أسوار قادس. وكما كان للبابليين كتب أوانس، وللمصريين أسفار طوت الحاوية شرائعهم ورسوم دينهم، كان للفينيقيين أسفار تنطوي على شرائعهم ورسوم دينهم وقانون أحكامهم على سبيل وصايا سماوية مقدّسة. وكانوا يعزون هذه الأسفار إلى إله لهم يستونه تاوت، ولعله طوت إله المصريين. وكان في مدن فينيقية خزائن تُحفظ فيها سجلات ترقم بها بغاية الضبط الأحداث المهمة وتواريخ المملكة وما يجري لها، كما رأيت مرّات في فقر مينندر المأخوذة عن سجلات صور. وكان للفينيقيين مقالات دينية وجغرافية غير داخلية في أسفار تاوت القانونية، وكتب أخرى عملية موضوعها الزراعة والصنائع والحرف النافعة. وقد ذكرنا آنفاً (في عد ١١٥) رحلة حنون مع جاليته في الأتلتيك، وقد كتب أخبارها في درجه.

ولما شرع علماء اليونان في عهد خلفاء اسكندر الكبير يكتبون تواريخ شعوب آسيا ترجم باروز تاريخ بابل، ومانيتون تواريخ مصر، وكتب غيرهما تواريخ فينيقية نقلاً عن سجلاتها وآثارها؛ ومن هؤلاء ثيودت وهيسيكرات وموخ أو موكوس. ولم تُبقي لنا الأيام مما كتبه هؤلاء إلا أسماءهم، بل بقي لنا شيء مما نقله مينندر وديوس عن تواريخ صور قد مرّ معنا ذكره. وأحسن ما بلغنا من كتب الفينيقيين المترجمة إلى اليونانية إنما هو ترجمة فيلون الجبيلي (غير فيلون اليهودي) لكتاب سنكونياتون البيروتي المشتمل على الكلام في أصل العالم وموالد الآلهة. فسنكونياتون ألف هذا الكتاب وجعله مقدمةً لأبيعل ملك بيروت، فتقبّله بالسرّة. وحفظ لنا أوسايوس القيصريّ (في كتابه الاستعداد الإنجيلي ك ١ فصل ٦) فقرات من ترجمة فيلون الجبيلي. وهاك ما علّقه أوسايوس عليها: «إنّ هذه الأمور غني بشرحها سنكونياتون وهو مؤلف قديم جداً يقال إنه كان قبل حرب ترويا. ورووا أنه كتب التاريخ الفينيقي متحرّياً الصدق. ونشر فيلون الجبيلي جمع مصنّفات هذا المؤرّخ بعد أن ترجمها من الفينيقيّة إلى اليونانية. وذكر ذلك خصمنا المعاصر لنا يريد به (برفير

الفيلسوف الشهير الذي كتب خمسة عشر كتاباً يضادّ النصرانية فيها). وروى أوسايوس عن يرفير أنّ سنكونياتون يبروتي موطناً، وأنه أخذ مادة تاريخه عن إيروبل كاهن الإله ياهو. وقدّم كتابه لأبيعل ملك البيروتين فشرّ به، وأنه كان قبل حرب ترويا قريباً من عصر موسى، كما يظهر من تواريخ الملوك الفينيقيين.

ثم ذكر أوسايوس بعض ما كتبه فيلون الجبيلي في مقدمة ترجمته، وخاصة أنه غني بها بياناً لضلال مَنْ زعموا أنّ قصص الآلهة ليست حقيقية، بل هي رموز مجازيّة دالّة على حوادث طبيعيّة وتقلّبات فلكيّة؛ ثم كلفاً بمعرفة تاريخ الفينيقيين بغير كتب اليونان الذين قلّموا وافق بعضهم بعضاً، بل آثروا انتقاد أحدهم كلام الآخر على توحيد مساعيهم للتوصّل إلى الحقائق. ومما مرّ يظهر أنه لم يصب مَنْ زعم أنّ سنكونياتون كان بعد عصر اسكندر الكبير، فهو أقدم منه كثيراً، بل الواضح أنّ فيلون الجبيلي كان في عهد خلفاء اسكندر. ومَنْ شاء الاطلاع على فقر سنكونياتن هذه فليطالعها في كتاب أوسايوس السالف ذكره أو في تاريخ فينيقية لهوفر (ف ٤). وقد روى الأب مرتين اليسوعي أكثرها في كتاب تاريخ لبنان (جزء ٢) الذي نشرت جريدة البشير قسماً منه، وقد أضربنا نحن عن إثباتها هنا طلباً للإيجاز ولأنها أقاصيص لا ينتفع بها إلا بمعرفة خرافاتهم بموالد الإلهة وبدء العالم. وقد استشهدنا ونستشهد بما صلح منها.

الفصل العاشر

ديانة الفينيقيين

عد ١٤٥

الوثنية عند الفينيقيين وغيرهم

قضت جميع القبائل العريقة في القدم أن لا بدّ للعالم من موجد ومدبّر. وحملهم على ذلك النظر البديهيّ إلى هذا الكون وما اشتمل عليه، وإلى أنه لا يمكن أن يكون علّة لنفسه، ثم تقليد الآباء القدماء بأنّ الله خلق العالم وكل ما فيه. ولذا رسخ تصوّر الإله في أذهان جميعهم. فلا نرى قبيلة لم تقر بوجود الله أو لم يكن لها مساجد ومعابد. على أنّ الجهل غشّى بصائرهم فلم يدركوا أنّ هذا الإله روح بسيط وأزليّ تعالى عن مدارك البشر، بل جعلوه كالهيلولات أو جعلوها صادرة من جوهره بغير طريقة الخلق. ونظروا إلى أسمى الكائنات فتوهّموها هذا الإله السامي فعبدوها. ولذا لم تخلُ قبيلة من عبادة الشمس إذ رأوها أسمى الكائنات، واتّبعوا بها القمر وسائر الكواكب السيّارة وغيرها من النجوم. فاختلفت أسماء المعبودات باختلاف القبائل، وقلّما اختلف موضوع العبادة. فعبد المصريّون الشمس يستّونها رع أو عمون رع. وعبدها السورّيّون يستّونها بعل شمائم أي رب السموات. قال برو (مجلد ٣ صفحة ٧٦) إذا تفحصنا في ديانة الفينيقيين نجد أنهم أخذوا معبوداتهم واسماءها عن الكلدان لأنهم أتوا من جوارهم وكسوها بملابس مصريّة، لأنهم كانوا في أوّل أمرهم يخضعون لمصر. هذا ولا يختلف دينهم عن سائر أديان الشعوب في سورية عدا اليهود إلا في أمور خارجيّة وطفيفة.

ونجد هذه الأديان ودين البابليين والآشوريين كأنها صادرة عن مبدأ واحد، وهو

تصوّر إله وحيد وقدير سمّاه كل من العشائر اسماً دالاً على إحدى صفاته. فسّمّاه الحثيون الشماليون ست أو ستخ وتأويله القدير على كل شيء، ودعاه الآراميون هداد (ولعله حاد حاد) وتأويله الوحيد أو الواحد الأحد، والعمونيون ملوك أي الملك والمتسلط، والمواييون كموش أو كموس وتأويله الضابط أو المتولي، والفينيقيون بعلأ وتأويله السيد أو الرب، وسائر العشائر الكنعانية بعلأ أو إيلأ وتأويله الإله، كما كان البابليون يسمّونه إيلو ويواه أي الموجود بالإطلاق والأزلي؛ وهذا أشبه بإطلاق العبرانيين كلمة يهوه على الله. فليس بعل الفينيقيين إلا بيل الكلدانيين. وليست عشثروت عند أولئك إلا أشتار أو أشتار عند هؤلاء (برو في مجلد ٣ من تاريخ الصناعة في القدم صفحة ٦٨). وليست عشثروت سورية إلا فانوس أي الزهرة عند اليونان الذين أخذوا معبوداتهم عن الفينيقيين. إنّ إله الفينيقيين وجميع المشرّكين القدماء كان واحداً ومتعدداً معاً. فإنّ الإله الواحد عندهم كان ذا أقانيم عديدة يسمّونها بعليم، أي الآلهة، وليست إلا ألوهيات ثانوية صادرة عن الإله السامي، وهي صفات وقوّات متألّهة صادرة عن الإله غير المدرك. فكان عند جميعهم الإله السامي ومن دونه آلهة آخرون، وكذا كان مذهب البابليين والآشوريين. وانفرد الفينيقيون بأن جعلوا تعدّد الآلهة غالباً من قبل المحلّ لا من قبل الصّفات. فالبعل الذي كان يعبد في صور وصيدا ولبنان وحرمون وغيرها تعدّد؛ فكان بعل صور وبعل صيدا وبعل لبنان وبعل حرمون إلى غيرها. وقد أحكم العالم دي فوكوا إذ قال: «إنّ هذه التسميات الخصوصية كانت تمحو من ذهن عابثهم الخاصّة الأولى للمعبود وهي الوحدانيّة، ولا تترك لها إلا تصوّراً مشوّشاً». ولكنّ الوحدانيّة هي الحقيقة؛ مثلاً ملكرت إله صور الأعظم، الذي بثّت جالياتهم عبادته في أقصى الآفاق ليس هو إلا بعل. فقد وُجدت صفيحة في مالطة كُتب عليها: «تقدمة إلى الرب ملكرت بعل صور»، فهو إذاً الإله السامي معتبراً إلهاً محلياً لصور واسمه دالّ على ذلك، فإنّ أصله «مالك قرية» ملك المدينة أي ربها فجعل ملكرت أو ملقرت.

عد ١٤٦

معبودات الفينيقيين

أكثر الفينيقيّون كالبابليين من رصد الكواكب ومراقبة حركاتها، فأدهشهم نظام

الكواكب وفعل الشمس في الكون والناميات خاصة، فعزوا كل ما في الطبيعة إلى الكواكب لاسيما ملكتها وهي الشمس، فعبدها لا بما أنها مظهر للقدره الربانيّة بل لاعتقادهم إياها إلهاً، فصار بعل عندهم كناية عن الشمس يسمّونه بهذا الاعتبار بعل شمائم، أي رب السموات. وأشهر معبوداتهم خاصة في جبيل أدونيس ويُسَمَّى تموز أيضاً. ومعنى أدون أو أدونيس كما سمّاه اليونان السيّد أو الربّ، وهو بمقتضى أقدم تقليداتهم الإله الشمس يتصوّرونه يموت في الخريف إذ تجفّ نضارة النبات وتذوي ثماره، ويحيى في الربيع إذ يعاوده الخصب والازدهار فيندو إيناع ثمره، فيحتفلون لعيده في الخريف، فتلبس نساؤهم كلها ملابس الحداد ويذهبن إلى ضفة نهر أدونيس (وهو نهر ابراهيم الآن) فينخنّ على تموز أي على موت الطبيعة الجميلة بأزهارها وثمارها. وكانت النساء في جبيل يعزّرن شعرهنّ إشعاراً بالحداد، أو يطفنّ وشعرهنّ مسترسل حائراتٍ بائرات يتغنّين بالمرثي على تموز حشرات. فإذا جاء الربيع احتفلوا بعيد قيامة أدونيس أي بعود نضارة التّبات وازدهائه بالأزهار والثمار، وأكثروا من الملاهي والطّرب والمزح؛ فهذا سرّ هذا الاحتفاء الذي لم تكن عاتتهم لتدركه بل كانت تحسبه واقعياً.

وكانت نساء العبرانيين يشاركن الفينيقيّات في الرثاء والحداد ولا يتعظّن بنصائح الأنبياء ومنهم حزقيال إذ قال (فصل ٨ عد ١٤): «ثم أتى بي (الملاك) إلى مدخل باب بيت الربّ الذي هو جهة الشّمال، فإذا هناك بنساء جالسات يبكين على تموز». وأصبح تموز في عهد ولاية اليونان صياداً في سورية مغزماً بأمه عشتروت. وبينما كان يوماً يصطاد في غاب لبنان غير بعيد عن جبيل حسده الإله آراس اليونانيّ، فتقمّص بخنزير برّي ورصد له في طريقه، فكان عراك شديد بينهما أفضى إلى قتل أدونيس. وقد مرّ أنّ حكاية قتله نُقش مثالها على صخر في قرية الغينة في الفتوح حيث ترى صورة وحش يفترسه وبجانباها صورة عشتروت وهي الزهرة تبكيه، ثم أعادته من الموت. وصورة قيامته منقوشة على صخر في المحلّ المعروف بالمشقة في بلاد جبيل.

وقد جعلوا السيّارات السّبع المعروفة عندهم بوعولاً أي آلهة، وأطلقوا على جميعها اسم كبيرم جمع كبير ومعناه القدير. وكان عددها عند الفينيقيّين ثمانية أي الكواكب السيّارة السبعة مع العالم المكوّن من مجموعها. وسمّوا أبا هذه الآلهة

زديق ومعناه البار. وجعلوا الكبير الثامن وهو كناية عن مجموع أفلاك الكواكب كوكب القطب الشمالي (الذي تسميه العائمة المسمار)، وكانوا يتخذونه هادياً في أسفارهم وسموه أشمون أي الثامن، وكانت الحية مثلاً له ولباقي الآلهة الكوكبية لحسابهم أنها تمثل بتعرجها حركة الكواكب في الأفق. وكانوا يربّون حيّات في هياكل أشمون تلحس جراح مَنْ استشفع به فبرئها، إذ كان من معتقداتهم أنّ أشمون وسائر الكبيّرم أوجدوا عقاقير الطب. وإلى ذلك يُعزى ما ذكره دانيال النبي في نبوّته عن التّين في هيكّل بابل.

ولم تكن الآلهة عندهم ذكوراً فقط بل كان لهم آلهة إناث أيضاً. فكانت عشتروت زوجاً لبعل وكان لكلّ من البعل الثانويّة بعلّة. وكلما كان للبعل خاصّة شمسيّة كان للبعلة خاصّة قمرية. ولذا كانت عشتروت عندهم القمر ويجعلونها من جملة الكبيّرم. على أننا نجد الآثار القديمة الفينيقيّة تصف الآلهة أو البعلة بأنّها «مظهر» أو «وجه» الإله الذكر. فيظهر أنهم كانوا يعتقدون الاثنين واحداً لا يمتاز أحدهما عن الآخر إلا بما يصلح به أن يكون زوجاً للآخر. والألوهيّة واحدة بينهما مثناة بالتجلّي الخارجيّ فكأنهما أفنومان لذات واحدة. وما ذلك إلا أثر الاعتقاد الأوليّ بالوحدانيّة مشوّشاً. وكانوا يدعون البعلة ملكات شمائم أي ملكة السموات كما يدعون الإله بعل شمائم أي رب السموات. وكان من هذه الأزواج في صيدا بعل صيدون وعشتروت، وفي جبيل تموز وبعلة، وفي صور ملكرتن وعشتروت، وفي قرطاجّة بعل حمون وتانيت التي تسمّيها الآثار «فني بعل» أي وجه بعل. وكان عند الحثّيين الشماليين سات وساتة، وعند الآراميين في دمشق هدد وأترغات. وكانت عبادة عشتروت أعمّ من جميع عبادة الآلهات. فقد ورد ذكرها على اختلاف أسمائها في كثير من الآثار التي كشف عنها في فينيقية وقبرص ومالطة وصقلية وسردينيا وقرطاجّة.

ومن الغريب أننا نجد عندهم نوعاً من الثالث، فتراهم يعبدون في كل مدينة ثلاثة من الآلهة. فكان لهم في صور ملكرت وبعل عشتروت، وفي صيدا بعل وعشتروت وأشمون، وفي قرطاجّة تانيت وبعل حمون وأشمون، وفي جبيل إيل وأدونيس وبعلة جبيل. وكان في مصر ثالث لكل مدينة من مدنها الكبيرة. فكان في تاب أمون رع الإله الأعظم وزوجه مُوت وابنه خنسو فيتألّف ثلاثتهم من أب

وابن وزوجة، ويعتقدون الثلاثة إلهاً واحداً (لانرمان مجلد ٣ صفحة ٢٠٨ و ١٧٤). وكان للنار دخل في عبادتهم ينزلونها منزلة مبدأ الحياة وينبوع كل فاعلية، لنسبتها إلى الشمس، ومصدر كل ولادة وإبادة. وكانت عندهم الآلهة الشمسية والكوكبية نارية طبعاً. وكان يختصّ بذلك بعل ملوك. كما سيأتي بعيد هذا ومثله بعل حمون الذي تأويله الإله المحرق؛ وهو أحد معبودات قرطاجنة، ومثله الإله راسف وتأويله الصاعقة أي النار السمية وسماء اليونان بعد ذلك أبولون وثاوس، والآراميون في دمشق آدار وهو من معبودات الآشوريين. وكان الحجر الناري رمزاً للإله الناري. وكان الصوريون يسجدون للمكرت ممثلاً بحجر لأمع. وكان عند الفينيقيين والعرب نوع من العبادة للحجارة، وكانوا يسمّون هذه الحجارة المكّومة بيت إيل أي مسكن الله، متوهّمين أنّ الله يسكنها لاسيما الحجارة التي يروي بعضهم أنها نزلت من الجوّ ملتتهبة، فيعتبرونها نزلت من الكواكب. وكان لون هذه الحجارة المكّومة غالباً أسود فيستدلّون بذلك أنّ أصلها ناري. وجاء في الخطوط المسمارية ذكر سبعة حجارة سوداء كانت تعبد في هيكل أرك في بلاد الكلدان. وعبادة حجر حمص استمرّت شهيرة حتى أيام الملوك الرومانيين. وقد وُجدت صورة هذا الحجر منقوشة على مصكوكات في سورية وحمص وسلوقية والزها وغيرها.

عد ١٤٧

ذبائح الفينيقيين

لم تكن في الوثنية قبيلة لم تعدد تقدمة الضحايا لآلهتها، بل كانت تقدمة الذبائح والضحايا منذ أوّل العالم وعند كل أمة. فنرى هايل وقاين ابتدآها. ونرى نوحاً قدّم ذبائحه لله إثر نجاته من الطوفان. على أنّ الفينيقيين امتازوا عن سائر الأمم القديمة بتقدمة الضحايا البشرية. قال برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ٧٤) لم نجد أثراً عند المصريين أو الكلدان للتضحية بالناس تكراً للآلهة، بل انفرد السوريون بهذه العادة السيئة التي حملتها جالياتهم إلى مستعمراتهم وإلى قرطاجنة خاصّة. وأسوأ الصنيع في ذلك تقدمة الضحايا تكراً لبعل ملوك، إذ كان الآباء أنفسهم يطرحون أولادهم في النار المضطربة، ومصدر هذا الصنيع الخفيف

تصوّرهم طبع الإله نارياً واعتقادهم شيئاً من الألوهية في النار. فيضخون بأولادهم ليشتركوا في شيء من الألوهية، أو يسترضوا الإله المتغضب. وكانت الضحايا البشرية عندهم أعظم الضحايا، ويقدمون بها غالباً بكر أولادهم أو أحدث مولود لهم معتقدين أنهم بذلك يكرمون الإله بأنفس ما يملكون.

وقد استمرت هذه العادة عندهم إلى النهاية. على أنهم دخلوا من قديم الدهر طريقة البدل. فكانوا يستبدلون الضحية البشرية بالضحية بحيوان أو طير من الأوالف، كثور أو خروف أو جدي أو حمامة إلى غير ذلك. وقد تبين في الصفيحة التي وجدت في مرسيليا (قد مر ذكرها عد ١٤٣) ما يصلح لهذه الضحايا من الحيوان والطائر وما الثمن المفروض لكل منها. ولم تكن البقرات تصلح لهذه الضحايا إذ قال برفير (ك ٢ فصل ٢) إنّ المصريين والفينيقيين لو خيروا بين أكل لحم البشر أو لحم بقرة لاختاروا أكل لحم البشر. ولذلك لم تكن البقرة تصلح عندهم ضحية (رواه هوفر في تاريخ فينيقية فصل ٤).

وكان الفينيقيون يستبدلون أيضاً الضحايا البشرية باقامة نصب كعمود أو تمثال تكرمه للآلهة، ويعتاضون أحياناً عنها بنذرهم أن يخدموا في أحد الهياكل عمرهم أو مدة منه. فكل ما مرّ ينبئنا بما كان أحكم تونيب الأنبياء لبني إسرائيل على اتباعهم عادات الكنعانيين، وتقديم العبادة لآلهتهم، والافتداء بهم، وتحذيرهم إياهم من ذلك أشد التحذير. ومع هذا حدث مثل هذه الفظائع أحياناً في شعب إسرائيل، كما سترى في تاريخ العبرانيين. وامتدت هذه البربرية من أقدم الأيام إلى جزر البحر المتوسط وبلاد اليونان وغيرها مع الجاليات الفينيقية. فقد أوصل الفينيقيون ديانتهم ومعبوداتهم وعاداتهم إلى حيث أوصلوا بضائعهم وحروف كتابتهم وتمذّنهم؛ فكانوا موصلاً بين المشرق والمغرب لما حسن ولما قبح. فأخذوا عن الكلدان والمصريين معتقداتهم الدينية ومعبوداتهم فبثوها في الآفاق. ولذا كانت الأديان الوثنية ومعبوداتها واحدة أصلاً وجوهرأً، وإن داخلها اختلاف في الاسماء أو زيادات على الأصل أو تغيّرات اقتضتها حالة البلاد أو الجهل بالأصل أو الأهواء الشخصية.

كهنة الفينيقيين وهياكلهم

كان كهنة بعل وعشتروت عند الفينيقيين في أعيادهم يلبسون ملابس النساء، ويخصّصون وجوههم بالحمرة، ويرتججون حواجبهم، ويكحلون عيونهم، ويعزّون أيديهم إلى الكتف، ويحملون بأيديهم سيوفاً أو يتنكبّون حراباً ويتأبطون دفوفاً أو معازف يضربون بها، ويرقصون ويضجّون ويدورون على عقب واحد، وينعطفون برأسهم إلى الأرض عند دورانهم فيمرغون شعورهم بالوحول، ويعضّون أذرعهم، ويخذشون أجسامهم بسيوف وحراب، كما جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٨ عد ٢٨) فإذا سال دمهم قدّموه ضحيّة لآلهتهم الدمويّة. وكان كثير منهم يعوّهون أعضاءهم عند صنع هذه الحجانّ والشعوذات. ومع هذا كان هؤلاء الكهنة نفاذين في أمور مملكتهم. يصغي لهم الحكّام ويستشيرونهم، ويعملون بمشورتهم، ويحملون الأثمة على ما شاءوا، ويكثرون من الحيل، خدعة للشعب في أمر عبادة الآلهة وفي ما يهون. ولم يخزهم ويفضح مكرهم وينكل بهم مثل ايليا النبي عندما جعل آحاب ملك إسرائيل يجمع أربعمئة وخمسين نبياً أو كاهناً من كهنة بعل وأربعمئة من كهنة عشتروت، ويمتحنهم بأن يقدّموا ضحيّة لبعل ويستميحونه آية يثبت بها أنه الإله الحق ففعلوا، وأكثروا من الهتاف والتضرّع إليه ومن تخديش أجسامهم على عادتهم بالسيوف والحراب حتى سالت دماؤهم. فلم يكن من مُجيب ولا مصبغ، فقبض عليهم إيليا وذبحهم عن آخرهم حذاء نهر قيشون بجانب الكرمل (ملوك ٣ فصل ١٨). ولا تسأل عما كانت خصالهم وآدابهم. فإنهم كانوا يبيعون أعظم المنكرات بل يجعلون بعض الرذائل فضائل ولاسيما في أمر الشهوات البدنيّة. ولنا بكل ذلك عبرة لمن يعتبر. فهو شاهد كأنه محسوس وبرهان كأنه ممسوس. على أنّ العقل البشريّ إذا ترك وهواه، ولم يهده وحي سماويّ، تسكّع في دياجير الظلمة، وتاه في بيداء الجهل، ولو كان ثاقباً ومتوقّداً وركب الغرور، وقادته أُمياله فاستحسن ما ظهر قبحه، واقترب الفظائع يظنّها فضائل، وأضاع رشده، وسود محامده، وغشّى محاسنه بأطمار خلاعته. فاهدنا اللهم الصواب فأنت منبع كل حقّ وخير وليس من دونك سداد ولا رشاد.

ويظهر أنه لم يكن للعشائر الكنعانيّة في أقدم أيامها هياكل ومعابد، بل كانوا

يعبدون آلهتهم على قمم الجبال والمشارف، فيقيمون هناك عموداً أو نصباً أو صخراً يستمونه بيت إيل، أي مسكن الرب، فيعبدونه ويجلّونه. وعنهم أخذ بنو إسرائيل المشارف التي ورد ذكرها مكرراً في أسفار الملوك وأخبار الأيام حيث كانوا يتعبدون عند جحودهم وتركهم عبادة الله الحقّة. على أنّ المدائن الشهيرة كان فيها من أقدم الأيام هياكل، فإنّ هيكل ملكرت في صور كان معاصراً ببناء المدينة. وقال هيرودوت إنّ كهنة صور أنبأوه أنه قد مضى على بنائه إلى أيامه ٢٣٠٠ سنة، كما مرّ. على أنّ أطلال الهياكل والمعابد الباقية من قبل عهد ولاية اليونان في سورية مؤذنة بأنّ الفينيقيين اتّبعوا فيها هندسة الهياكل في مصر. وعليه فيكونون قد شرعوا في بناء الهياكل بعد ولاية المصريين عليهم، ولا أقلّ في أن يكون ذلك بعد تردهم إلى مصر. على أنّ هيئة هذه الهياكل كانت حجرة ضيقة لكن محوطة بأسوار فسيحة، يتكوّن ضمنها عرصة مكشوفة. وقد يكون فيها أحياناً رواق. من خشب. ودلّنا على ذلك أخربة هيكل الزهرة في الباف في قبرص والمعابد الباقية في مالطة التي يستمونها كازا الكرندي، أي البيوت الكبيرة. وما جاء في الكتاب عن هيئة هيكل سليمان الذي كان مهندسوه فينيقيين، وما بلغته إلينا حطام بعض المؤلّفين القدماء عن هيئة هيكل ملكرت في صور. وكان أمام هياكلهم غالباً رواق أرفع من سائر البناء، ويليّه معبد تقدّم به الضّحايا والتّقاد، ثم معبد آخر، ثم قدس أقداس لا يحلّ للعامة ولا لجميع الكهنة الدخول إليه. وكان بجوانبه مخادع للخدّام. فكذا كان هيكل صور. وكذا تنبّأنا أطلال هيكل الباف السالف الذكر. وكذا كان هيكل أورشليم، كما أنبأنا الكتاب، على أنه لم يكن في قدس الأقداس في هيكل الله إلا تابوت العهد. وأما في هياكل الفينيقيين فكان مثال الآلهة السريّ لا تمثال بهيئة بشرية بل حجر أو صخر يستمونه بيت إيل، أي مسكن الله، كما مرّ. وكان في هيكل ملكرت قطعة كبيرة من الزمرد تمثّل بلمعائها طبيعة الإله النارية. وكانوا ينزلونها منزلة كوكب سقط من السماء فالتقطته عشتروت. وكان الحجر الممثل عشتروت في هيكل الباف مخروطيّ الشكل. ولهم بهذا الشكل إشارة يستحيّ ببيان المراد بها ويدلّون بها على تواصل الخصب والنموّ.

ولم يبقَ لنا من أطلال الهياكل المهمّة في فينيقية إلا أخربة هيكل عمريت المعروف هناك بالمعبد. وقد اعتبره العلماء الباحثون في الآثار أشبه بالهياكل المصرية.

ففي وسط عرصته مخدع أو معبد كانوا يضعون فيه تمثال المعبود. وجدران هذا المعبد وسقفه أربع بلاطات كبيرات، ثلاث قائمة مقام الجدران والرابعة سقف للمعبد. وكانت الجهة الرابعة تُحجَّب بستائر تمنع نظر العامة إلى الحجر الإلهي المنحدر من الجوّ. ويتلخّص من صفيحة يهوملك المازّ ذكرها أنّ هيكل بعلة جبيل كان مبنياً على هذا النمط، وكان له رواق وأعمدة. وكانت نقوش الهياكل الداخلية تُطلى بالذهب ولكنّ مذايحها كانت من الصفر.

عد ١٤٩

آثار أبنية الفينيقيين

شكا أهل العلم بالآثار ندرة آثار الأبنية في فينيقية، كما شكوا ندور. خطوطها القديمة. فوجدوا بين دجلة والفرات وفي وادي النيل، أطلال القصور وأخربة الهياكل والأهرام والمدافن مرّت عليها القرون، وحدثانها. فاستعصت عليها واستمرّت إلى اليوم تشهد لمن بناها. وتبين أسلوب الصّناعة في تلك الأيام وكثيراً من الحقائق. وأما فينيقية فكانت أفقر البلاد بهذه الآثار فندر ما كان منها فيها. وهل علّة هذا الندور أنه لم تقم فيها آثار في الأعصر الأولى، أو دُكّت هذه الآثار ومحقت بعد إنشائها؟ فالذي أراه أنه لم ينشأ في فينيقية آثار بمقدار ما أنشئ منها في ما بين النهرين ومصر، إذ لم يكن في فينيقية ملوك؛ مثل فراعنة مصر وسلاطين آشور وبابل وفارس الذين انبسط ملكهم، وعظمت سطوتهم، وشدّت عن العدد شعوبهم، وتسامت ثروتهم، وتوفّر عدد الأسرى عندهم يشغلونها ببناء الآثار. ولم يكن للملوك فينيقية - على ضيق بلادهم وقلة شعبهم - ميل إلا إلى التجارة والصناعة، فجعلوا فخرهم بها ويعتثم الجاليات لا بالعساكر الغازية إلى الآفاق. على أنهم لم يخلوا من اقامة آثار كثيرة بالنسبة إلى ضيق بلادهم وقلة عددهم. وقد روى العالم برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ٩١) علّة ندور ما نشاهده الآن منها نقلاً عن رنان (في كتاب بعثه إلى فينيقية) فقال ما ملخصه: «لأنّ الآثار الفينيقيّة أندر من غيرها من الآثار، والعلّة في ذلك توفّر سكانها في كل عصر، على ضيق أرضها. فقد توالى فيها اليونان والرومانيون والبيزنطيون والصليبيّة إلى سكانها الآن. وكلّما شاءوا البناء استيسروا كسر الحجارة القديمة أو نقلها على قطع حجارة حديثة، فدكّوا على

ذلك كثيراً من هذه الآثار لاسيما في عصر الصليبيين، إذ كانت الحال تضطربهم إلى إقامة أسوار منيعة. ولم يكن الوقت يسعفهم على قلع الحجارة أو قطعها من مقطعتها. على أنّ الآثار الجبلية كانت أوفر حظاً من الساحلية لسهولة نقل حجارة هذه بالسفن، كما يصنع حتى اليوم، وصعوبة نقل ما لا يحمله الجمل في الجبل مع كثرة الصخر فيه. فمن ذلك ما صنعه أحمد باشا الجزائر وعبدالله باشا واليا عكا في أبنيتهما، وما صنعه قبلهما الأمير فخر الدين المعني. على أنّ تنالي المذاهب الدينية في هذه البلاد ساعد أيضاً على تدمير بعض هذه الآثار؛ من ذلك هدم المسيحيين بعض معابد الوثنيين، ويلحق بذلك جهل بعض السفّل الذين يهدمون أو يكسرون بعض هذه الآثار ليستطلعوا من تحتها الخبايا والكنوز. ولهذه الأسباب لم يبق لنا من الآثار الفينيقية القديمة إلا ما قل، ومنه ما هو في أم العواميد وعمريت». وأشهر ما يُعرف من صنع الفينيقين بقايا أسوار جزيرة أرواد وبقايا هيكل سليمان وأسواره في أورشليم، فإنّ مهندسيها وعملائها فينيقيون، ثم الطبقة الأولى من بناء بعلبك، وما سلف ذكره من آثار أم العواميد في جنوبي صور وآثار عمريت في جنوبي أرواد، وجميعها دالّ على أنّ من سمات أبنية الفينيقين ضخامة حجارها ومناعة بنائها. على أنّ آثار الفينيقين الباقية في مستعمراتهم أكثر منها في أوطانهم. فيرى منها في قبرص وما يليها من جزائر البحر المتوسط، وفي بلاد اليونان وصقلية وسردينيا ومالطة وقرطاجنة وأنحاءها. وأوّل ما اصطنعوه نقر مساكنهم في الصخور. فكانوا يوسعون المغاور الطبيعية ويهدمونها أو ينقرون في الصخور مسكناً يأوون إليه في الشتاء. وترى كثيراً من مدافنهم منقورة في الصخور، فلم يصنعوا كل ما تراه سِتّاً بالموتى، بل نقروا كثيراً منه لسكناهم. وروى برو (مجلد ٣ صفحة ١٠١) إنّ في عمريت بيتاً مؤلفاً من عدة مساكن منقورة في صخر واحد طول واجهته ثلاثون متراً وعرضه كذلك، وعلوّ جدرانه نحو ستّ أمتار. ومثل هذا المحلّ المعروف بدير رهبان مار مارون في جانب منبع العاصي، حيث تجد مخادع عديدة منقورة في صخر واحد، فتنسبها العامة إلى هؤلاء، وهي من صنع الأقدمين، ولعلّ بعض الرهبان اتخذها مسكناً. وترى كثيراً من هذه المخادع في لبنان وسواحلها. وقد قسم رنان وتابعه في ذلك برو (مجلد ٣ صفحة ١١١) الآثار الباقية في فينيقية إلى ثلاثة أقسام: آثار فينيقية محضة ومنها آثار عمريت، وآثار داخلها النمط اليوناني الروماني

ومنها صخر نُقِر فيه جرن للعماد وُجد في جبيل، وآثار يونانية رومانية محضة ومنها آثار المشهد الذي وُجد في البترون وبعض الآثار التي وُجدت في بيروت.

قلّ ما استعمل الفينيقيّون العقد في أبنيّتهم، فلم يوجد له حتى الآن مثال إلا في مدفين أو ثلاثة بين مدافن صيدا؛ ومنها مدفن أشمون عازر السالف ذكره. ولم تُبنَ هذه المدافن المعقودة قبل عهد اسكندر، بل كانوا يعتاضون من العقد حيث لزم مثلاً في الأبواب أو السقوف بحجارة طويلة أو عريضة كمقتضى الحال. قال رنان (في كتاب بعثة إلى فينيقية صفحة ٤٠٨): «لم يكن قدماء الفينيقيين يعرفون عقد الأبنية». وقلّ ما تجد في الأبنية الفينيقيّة المحضة من الأعمدة إلا ما كان قصيراً. فيظهر أنهم كانوا يستعملون الأعمدة للزينة أو يلصقونها بالعضائد، لا كما يستعملها المصريّون والفرس واليونان، ليحملوا عليها أعالي البناء وسقوفها. ولم يوجد حتى اليوم قاعدة فينيقيّة للأعمدة، وُجد لها تيجان مختلفة الأشكال والنقوش اختلاف سائر نقوشهم على أبواب الهياكل أو المساكن وفي رفارف الأبنية (كرنيش) وغيرها لا محلّ لتفصيلها، بل نكتفي بإيجازاً بما لحصناه هنا عن تاريخ الصناعة في القدم للعالم برو المكرّر ذكره.

عد ١٥٠

مدافن الفينيقيين

أكثر ما بقي لنا في مدن الفينيقيين من آثارهم المدافن فقد وُجد كثير منها في جبيل وبيروت وصيدا وصور، ولاسيما عمريت وأكثر هذه المدافن مؤلّف من عدّة قبور منقورة في الصخر كأمثالها في اليهودية وبلاد العرب ومصر. فتجد في محالّها مخدعاً أو عدّة من مخادع ينفّث في جوانبها ألحاد تُضمّ فيها الجثة محنّطة ضمن نعش. وللمدافن التي اكتشفت إلى الآن في عمريت وصيدا وصور وعدلون نمط واحد؛ فكلّها تحفر في الأرض ينحدر إليها بجبّ، هي أقدمها عهداً، أو يُنزل إليها بمدرج وفي الأسفل فسحة تنفتح في جوانبها ألحاد الموتى. وتختلف مدافن جبيل عن هذه بأنّها منقورة في صخور يتوصّل إليها دون حاجة إلى جبّ أو مدرج. وكان غالباً لكل أسرة مقبرة على حداثها. ومنّ كان من الموتى حسيباً أو ذا أهميّة وُضع في ناووس وسط المخدع المعدّ له. قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي

صفحة ٥٨٨) لم يكن مثل الفينيقيين شعب دفن مع موتاه أشياء نفيسة. على أنه ندر أن تجد مدفناً من هذه لم يُسلب منه ما كان فيه من الحلي أو الأشياء الثمينة، ولو بقيت لنا منها أدلة مهمة على صناعة القدماء وأحوالهم. وما بقي من هذه المدافن نفسها يُخشى عليه أن يحطّمه من يتبشون الكنوز فلا يجدونها ويخسرونها كنوزاً لا يعلمون قيمتها.

على أنّ المدافن التي كُشف عنها في فينيقية كانت قليلة النفع للعلم، إذ قلّ ما كُتب عليها إلا اسم المدفون فيها. على أنّ مدفني تبنيت وابنه أشمون عازر ملكي صيدا السالف ذكرهما، كُتب عليهما مطوّلاً. ولكن أكثر ما اشتملت عليه تلك السطور إنما هو دعاء على من يسطو على قبريّهما. فظهر أنّ تحطيم المدافن وسرقتها كانا منذ عهدهما، لأنّ أشمون عازر كُتب على مدفنه: «لا تفتح قبري متطلباً كنوزاً فليس ثمة كنز». ويظهر أنه خشي أن لا يصدّقه السارقون فيقولون له دعنا نر إن كنت صادقاً في ما تقول. ولذلك لجأ إلى وسيلة أخرى وهي الاستغاثة بعشروت وغيرها من الآلهة أن تعاقب من يجسرون أن يرفعوا الغطاء عن ناووسه بموتهم دون عقب وبإعدامهم الراحة في الرقاد الأخير، لأنهم لم يحترموا في غيرهم، وقد كرّر هذا الدعاء مرتين. روى ذلك برو (في مجلد ٣ صفحة ١٣٨) وقال من اهتم بهذا المقدار بصيانة مدفنه، ومن سعى الموت رقاداً فهو، بلا مرأى ممن يعتقدون أنّ النزول إلى القبر لا يُعدم الإنسان كل شيء. وتنتج منه أنّ الفينيقيين كالمصريين والكلدان اعتقدوا الموت رقاداً في القبور، وأنّ لهم بعد ذلك حياة أخرى، وأنّ هذا محضّل من آي عديدة في الكتاب ينهي بها الله والأنبياء بني إسرائيل عن التشبيه بالأمم المجاورة لهم بالعرفاء وسؤال الموتى عن أحوال وأحداث، ومن ذلك سؤال شاول العرافة ذات التابعة في عين دور أن تصعد له صموئيل من بين الموتى (ملوك ١ فصل ٢٨).

إنّ الناووسين اللذين وُجدت بهما جثتا ملكي صيدا أتي بهما من مصر، إذ ليس من نوع حجرهما في سورية، وعلى غطائها صورتا الملكين مجسّمتين. وقد وُجد مثل هذه الصّور على أغطية القبور في أكثر البلاد التي استوطنتها جاليات فينيقية؛ فبعضها حُفر فيه الرأس وحده، وبعضها لجعلت اليدين فيه طويلة بطول الجسم كله. وكان الفينيقيون يضعون في مدافن موتاهم قارورات صغيرة من زجاج

أو خزف وأصناماً صغيرة من خزف تمثل عشتروت وبعل أوباس الإله المصري أو غيرها. وكانوا يدرجون الجثة بلقائف ويغطّون غالباً الوجه والعينين بغشاء رقيق من ذهب. وكان الأغنياء يلقون الجثة كلها بغشاء من ذهب ويرسمون عليه سمات الوجه؛ وكل هذا من عادات المصريين التي استمسك بها الفينيقيّون شديد الاستمساك. ويوجد في قبورهم أيضاً كثير من الحلي يدلّ على مهارة عجيبة في الصناعة. ولم يوجد حتى الآن في مدافنهم ما يدلّ على أنه كان يُوضع فيه مآكل كمدافن المصريين.

ولم يكن من عادة الفينيقيين أن يقيموا أصناماً في هياكلهم، ولكن كان لهم أصنام عديدة يقيمونها في بيوتهم للعبادة لها، وينصبون على أسوار الهياكل خاصة أوثاناً على سبيل النذر. ولم يتجدد حتى الآن من نحت الفينيقيين إلا قليل من الأصنام الكبيرة ومن الصّور على المدافن. ولكن كثر في متاحف أوروبا العائمة والخاصّة وجود الأصنام الصغيرة من حجر أو خزف أو نحاس تمثل الآلهة وتشبه كلّ الشّبه التماثيل التي وُجدت في مدافن الفينيقيين وجالياتهم. على أنّ هذه التماثيل الصغيرة يُرى بعضها بديع الصّناعة بالغاً حدّ الإعجاز في الإتقان، وبعضها مشوّشاً غير محكّم الصّناعة وهو غالباً من حجر أو خزف أو نحاس.

والوجه في ذلك أنه كان متحتّماً على كل أهل بيت من الفينيقيين أن يكون لهم صنم. فالبيوت الفقيرة التي كانت تستغني بهذه التماثيل السافلة صناعةً، لقصر يدها عن الحصول على تمثال من صنع عامل ماهر. وذكر برو (في كتابه تاريخ الصناعة في القدم) وجهاً آخر؛ وهو أنّ هذه التماثيل السافلة لم توجد في فينيقية نفسها، بل في مستعمراتها. فيظهر أنّ سكانها الأوّلين قلّدوا صناعة نزلائهم بعمل هذه التماثيل فلم يحكموا. والثابت الآن عند مشاهير العلماء أنّ الفينيقيين أخذوا في صناعتهم شيئاً عن المصريين وشيئاً عن الكلدان والآشوريين. فكان لهم نمط خاصّ بهم قائم بنفسه، أدركوا به قصبات الشّبق، ولاسيما في المصنوعات الدقيقة الصغيرة.

ا	ا	م	س	ش	ش
ا	ا	ن	س	ق	ق
ا	ا	ر	س	ج	ج
ا	ا	ز	س	خ	خ
ا	ا	ح	س	ط	ط
ا	ا	ك	س	د	د
ا	ا	س	س	ث	ث

[illegible]

٣
 ١
 ٢
 ٣
 ٤
 ٥
 ٦
 ٧
 ٨
 ٩
 ١٠
 ١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

١٠١ (١٠٢) ١٠٣

١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠

٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠

الطبعة الأولى

تاريخ سوريا الديني

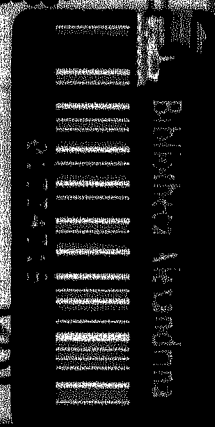
تاريخ شعوب سورية القدماء

يحتوي مقالة في العبرانيين

إشراف
نظير عبتود

رأبته ودقته
الدكتور مارون رعد

دار المطبعة



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الجزء الثاني

تاريخ شعوب سورية القدماء

يحتوي مقالة في العبرانيين

إشراف

نظير عبود

رأىه ودققه

الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود

فهرس

صفحة

عد

مقالة في العبرانيين ١٧

الفصل الأول

ابراهيم الخليل

١٨	نسب ابراهيم وعصره	١٥١
٢٢	منشأ ابراهيم اي في اور و حاران	١٥٢
٢٤	ارتحال ابراهيم إلى ارض الكنعانيين وما قيل في ولايته في دمشق ..	١٥٣
٢٦	انحدار ابراهيم إلى مصر	١٥٤
٣٠	محاربة ابراهيم لكدر لاعومر واحلافه	١٥٥
٣٧	ملك يصادق الذي التقى ابراهيم عند عوده من حرب الملوك ...	١٥٦
٣٨	تجديد الله مواعده لابراهيم وولادة اسماعيل	١٥٧
٣٩	أمر الله لابراهيم بالختان	١٥٨
٤١	ظهور الملائكة الثلاثة لابراهيم وسارة وانطلاقهم إلى سدوم وتدميرها	١٥٩
٤٤	ارتحال ابراهيم إلى جرار ومولد اسحق	١٦٠
٤٥	خروج اسمعيل من بيت ابيه ابراهيم وزواجه وولده	١٦١
٤٦	امتحان ابراهيم بذبح ابنه اسحق	١٦٢
٤٧	موت سارة ودفنها في المغارة المضاعفة	١٦٣
٤٩	زواج اسحق	١٦٤
٥٠	زواج ابراهيم بقطورة وولده منها وموته	١٦٥

الفصل الثاني

اسحق وابناه يعقوب وعيسو

١٦٦	اسحق	٥٢
١٦٧	ارتحال يعقوب إلى حاران وزواجه فيها وولده	٥٥
١٦٨	مقتل شمعون ولاوي ابني يعقوب اهل شكيم وتثمة	
	اخبار رحلة يعقوب	٥٨
١٦٩	عيسو وولده	٥٩

الفصل الثالث

يوسف

١٧٠	محبة يعقوب ليوسف وحسد اخوته له وما كان منه	٦٠
١٧١	بيع يوسف لقوطيفار ومراودة امرأته له وسجنه	٦٢
١٧٢	تعبير يوسف حلم فرعون واستيزار الملك له	٦٧
١٧٣	تدبير يوسف شئون مصر والجماعة فيها	٧١
١٧٤	ما يعزى إلى يوسف في مصر	٧٤
١٧٥	انحذار اخوة يوسف إلى مصر وتعرفه بهم	٧٦
١٧٦	انحذار يعقوب إلى مصر بأسرته وفي محلهم فيها	٨١
١٧٧	وفاة يعقوب ثم يوسف في مصر	٨٣

الفصل الرابع

اخبار بني اسرائيل في مصر

١٧٨	حالة بني اسرائيل في مصر واشترائهم مع المصريين	
	في بعض غزواتهم	٨٦
١٧٩	بدء اضطهاد بني اسرائيل في مصر	٨٨
١٨٠	مولد موسى ومنشأه في بيت فرعون وفراره من مصر	٩١
١٨١	إقامة موسى في بلاد مدين وزواجه فيها وعوده إلى مصر	٩٢

١٨٢	مخاطبة موسى وهرون فرعون ليطلق بني إسرائيل
٩٤	وما كان من قسوته
١٨٣	ضربات مصر وهي آيات الله فيها على يد موسى وهرون

الفصل الخامس

أخبار خروج بني إسرائيل من مصر إلى البرية

١٨٤	مدة إقامة بني إسرائيل في مصر
١٨٥	الحل الذي ارتحل منه بنو إسرائيل وفي طريق خروجهم
١٨٦	أقوال العلماء في طريق بني إسرائيل ومعبرهم في البحر الأحمر
١٨٧	نجاة بني إسرائيل وغرق جنود فرعون في البحر الأحمر

الفصل السادس

أخبار بني إسرائيل في برية سيناء

١٨٨	لمعة في شبه جزيرة سيناء
١٨٩	مراحل بني إسرائيل من جانب البحر الأحمر إلى برية سيناء ...
١٩٠	الموت
١٩١	السلوى
١٩٢	ارتحال بني إسرائيل من برية سيناء إلى رفيديم
١٩٣	آية اجراء الماء من الصخرة
١٩٤	حرب العمالقة
١٩٥	إتيان يترو حمي موسى إليه في البرية ومشورته عليه
١٩٦	في القضاء للشعب
١٩٦	ارتحال بني إسرائيل من رفيديم إلى برية سيناء ونزولهم من الجبل
١٩٧	وأي الجبال هو
١٩٧	تنزيل الله السنة
١٩٨	إبطاء موسى في الجبل وعبادة بني إسرائيل عجل الذهب
١٩٩	خباء المحضر ورد لإزعام من جحدوا صحة كلام الكتاب

الفصل السابع

ما بقي من مراحل بني إسرائيل إلى صحراء موآب

- ٢٠٠ ارتحال بني إسرائيل من جبل سيناء إلى قبور الشهوة ١٤٢
٢٠١ ارتحال بني إسرائيل من قبور الشهوة إلى حصيروت وغيرها حتى
قادش وتذمر مريم وهرون على موسى بسبب إمرأته ١٤٤
٢٠٢ ما كان لبني إسرائيل في قادش أعني وفاة مريم أخت موسى
وإجراء الماء من الصخرة ثانية وإرسال الجواسيس إلى ارض الموعد .. ١٤٦
٢٠٣ ارتحال بنو إسرائيل من قادش في جانب جبل أدوم إلى جبل
هور وموت هارون هناك ١٤٩
٢٠٤ حربهم مع ملك عراد ومراحلهم من جبل هور إلى صحراء موآب . ١٥٠

الفصل الثامن

تملك بني إسرائيل البلاد التي في شرقي الأردن

- ٢٠٥ نهى الرب بني إسرائيل عن محاربة الأدوميين والموابيين والعمونيين
وفي من سكن بلادهم قبلهم ١٥٣
٢٠٦ تملك بني إسرائيل بلاد سيحون ملك الأموريين وعوج ملك باشان . ١٥٥
٢٠٧ دعوة بالاق ملك الموابيين لبلعام ليلعن بني إسرائيل ١٥٦
٢٠٨ اغواء بنات موآب ومدن لبني إسرائيل والإنتقام من المدينيين ... ١٥٩
٢٠٩ تمليك موسى سبطي راويين وجاد ونصف سبط منسا الأرض التي
في شرقي الأردن ١٦١
٢١٠ إحصاء موسى بني إسرائيل وتسليمه قيادتهم إلى يشوع
بن نون وموته ١٦٣
٢١١ الأسفار التي كتبها موسى ١٦٥

الفصل التاسع

يشوع بن نون وأخبار بني إسرائيل في أيامه

- ٢١٢ يشوع بن نون والسفر المنسوب إليه ومجمل أعماله ١٧٠

٢١٣	عبور يشوع الاردن بيني اسرائيل واختتانهم	١٧٢
٢١٤	سقوط اسوار أريحا وإبسال بني اسرائيل جميع ما كان فيها ..	١٧٤
٢١٥	محاربة بني اسرائيل أهل العي	١٧٥
٢١٦	مسألة بني اسرائيل لسكان جيعون	١٧٧
٢١٧	تألب ملوك الجنوب على يشوع وبني اسرائيل	١٧٨
٢١٨	إيقاف يشوع الشمس والقمر عن مسيرهما	١٨٠
٢١٩	افتتاح يشوع مدناً أخرى في جنوبي فلسطين	١٨٢
٢٢٠	اعتصاب ملوك شمال فلسطين على بني اسرائيل	
١٨٣	وتشتيت يشوع شملهم	
٢٢١	محاربة يشوع بني عناق وتدويخه بلادهم	١٨٥
٢٢٢	قسمة أرض فلسطين على بني اسرائيل	١٨٦
٢٢٣	نصب خباء المحضر في شيلو	١٨٩
٢٢٤	وفاة يشوع بن نون ومدفنه	١٩٠

الفصل العاشر

قضاة بني اسرائيل بعد يشوع

٢٢٥	سفر القضاة	١٩٤
٢٢٦	مدة قضاة بني اسرائيل	١٩٥
٢٢٧	محاربة بني يهوذا وشمعون وبني يوسف بعض الكنعانيين	١٩٨
٢٢٨	تسلط كوشان رشعائيم ملك ارام على بني اسرائيل وتخليص عتثيل لهم	٢٠٠
٢٢٩	تعبد بني اسرائيل لعجلون ملك مواب وتنجية اهود لهم	٢٠١
٢٣٠	دابورة وباراق وتخليصهما بني اسرائيل من يد ملك حاصور ..	٢٠٣
٢٣١	جدعون وتخليص بني اسرائيل من المدينيين	٢٠٥
٢٣٢	ايملك وتولع ويائير	٢١٠
٢٣٣	يفتاح	٢١٢
٢٣٤	شمشون والفلسطينيون	٢١٥
٢٣٥	مولد شمشون وزواجه	٢١٧

٢٣٦	إحراق شمشون زروع الفلسطينيين وقتله كثيرين منهم بلحى الحمار	٢١٩
٢٣٧	اقتلاع شمشون باب غزة وحمله وقبض الفلسطينيين عليه وموته	٢٢٢
٢٣٨	أحداث داخلية في مدة القضاة	٢٢٥

الفصل الحادي عشر

راعوت وعالي الخبر وصموئيل النبي

٢٣٩	راعوت الموابية	٢٢٦
٢٤٠	عالي الخبر	٢٢٩
٢٤١	ضربات الله الفلسطينيين لامساكهم تابوت العهد واضطرارهم إلى رده	٢٣٠
٢٤٢	مولد صموئيل وخدمته في هيكل الرب في شيلو	٢٣٣
٢٤٣	الأسفار المنسوبة إلى صموئيل	٢٣٥
٢٤٤	معاربة بني إسرائيل للفلسطينيين وظفرهم بهم بارشاد صموئيل .	٢٣٦
٢٤٥	الحاح بني إسرائيل على صموئيل ان يقيم لهم ملكاً	٢٣٨

الفصل الثاني عشر

شاوول وتتمة اخبار صموئيل

٢٤٦	تولية صموئيل شاوول ملكاً على إسرائيل	٢٣٩
٢٤٧	معاربة شاوول لناحاش ملك العمونيين	٢٤١
٢٤٨	معاربة شاوول للفلسطينيين	٢٤٢
٢٤٩	معاربة شاوول للعمالقة	٢٤٥
٢٥٠	مسح صموئيل داود ليكون ملكاً موضع شاوول	٢٤٧
٢٥١	قتل داود جليات الجبار	٢٥٠
٢٥٢	حصول النفرة بين شاوول وداود	٢٥٢
٢٥٣	هرب داود من وجه شاوول وإتيانه إلى أحيملك الكاهن	٢٥٣
٢٥٤	هرب داود إلى جت ومواب وقتل شاوول كهنة نوب	٢٥٥
٢٥٥	مطاردة شاوول لداود وعفو داود عن قتله	٢٥٦
٢٥٦	وفاة صموئيل	٢٥٨

٢٥٧	تتمة اخبار داود في مفره وعفوه ثانية عن قتل شاول	٢٥٩
٢٥٨	محادبة الفلسطينيين لشاول وقتله	٢٦١
٢٥٩	محادبة داود العمالقة ومناحته على شاول وبنيه	٢٦٤

الفصل الثالث عشر

اخبار داود في مدة ملكه

٢٦٠	اقامة بني يهوذا داود ملكاً وسائر بني اسرائيل اشبوشث بن شاول .	٢٦٥
٢٦١	استقلال داود في ملك اسرائيل وفتح قلعة صهيون ومخالفته لحيرام	٢٦٧
٢٦٢	حرب وادي الجبارة بين داود والفلسطينيين	٢٦٩
٢٦٣	نقل داود تابوت عهد الرب إلى اورشليم واهتمامه ببناء بيت الله ..	٢٧٠
٢٦٤	اخضاع داود الفلسطينيين والموآبين وملك صوبة ورامي دمشق ..	٢٧٢
٢٦٥	حرب داود مع العمونيين والاراميين	٢٧٥
٢٦٦	اثما داود وتوبته	٢٧٨
٢٦٧	خروج ابشالوم على داود ابيه	٢٧٩
٢٦٨	مدفن ابشالوم	٢٨٢
٢٦٩	عودة داود إلى اورشليم وما كان حينئذ	٢٨٢
٢٧٠	الجماعة في أيام داود وقتل ابناء شاول	٢٨٥
٢٧١	وقائع اخرى لداود مع الفلسطينيين	٢٨٦
٢٧٢	احصاء داود بني اسرائيل وغضب الرب لذلك	٢٨٧
٢٧٣	شيخوخة داود وتمليك سليمان قبل وفاته	٢٨٨
٢٧٤	ما اعدّه داود لبناء الهيكل والخدمة فيه	٢٩٠
٢٧٥	وصايا داود لرؤساء الشعب وسليمان ووفاته	٢٩٢

الفصل الرابع عشر

سليمان

٢٧٦	بواكير اعمال سليمان	٢٩٥
٢٧٧	زواج سليمان بابنة فرعون	٢٩٧
٢٧٨	حكمة سليمان وقضاؤه بين المرأتين البغيين	٢٩٨

٢٧٩	هيئة حكومة سليمان وموارد دخله ونفقاته	٣٠٠
٢٨٠	محالفة سليمان لحيرام ملك صور واخشاب الارز	٣٠١
٢٨١	هيكل سليمان وأولاً سنة بنائه	٣٠٤
٢٨٢	محل الهيكل وهيئته	٣٠٨
٢٨٣	تدشين سليمان للهيكل	٣١١
٢٨٤	باقي أبنية سليمان في أورشليم	٣١٢
٢٨٥	أبنية سليمان في غير أورشليم	٣١٦
٢٨٦	بعلة التي بناها سليمان وبعليك	٣١٨
٢٨٧	تجارة سليمان	٣٢١
٢٨٨	أوفير محل تجارة سليمان وسلع تجارتها	٣٢٣
٢٨٩	سليمان وملكة سبا	٣٢٥
٢٩٠	آثام سليمان وإثارة الفاتنين عليه	٣٢٨
٢٩١	وفاة سليمان وما كتبه	٣٣١

الفصل الخامس عشر

انشقاق مملكة بني اسرائيل وملوك يهوذا واسرائيل إلى آحاب

٢٩٢	ملك رحبعام بن سليمان وياربعام بن نباط	٣٣٣
٢٩٣	حملة شيشاق ملك مصر على رحبعام ملك يهوذا	٣٣٧
٢٩٤	وفاة رحبعام وملك ابنه ايا وحره مع ياربعم	٣٣٩
٢٩٥	آسا ملك يهوذا وناداب وبعشا ملكي اسرائيل	٣٤٢
٢٩٦	خروج زارح الكوشي على آسا ملك يهوذا	٣٤٣
٢٩٧	خروج بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وخروج ملك ارام على بعشا	٣٤٥
٢٩٨	ملك ايله وزمري وعمرى ملوك اسرائيل وتتمة اخبار آسا ملك يهوذا	٣٤٨
٢٩٩	يوشافاط ملك يهوذا	٣٤٩

الفصل السادس عشر

اخبار احاب ملك اسرائيل وخلفاؤه حتى ياهو واحزيا ملكي يهوذا

٣٠٠	احاب وايزابل وايليا النبي	٣٥٢
-----	---------------------------	-----

٣٥٣	آية انحباس المطر بكلمة ايليا وقتله أنبياء البعل	٣٠١
٣٥٦	فرار ايليا من وجه ايزابل وامر الرب له أن يسمح حزائيل وياهو واليشاع	٣٠٢
٣٥٧	خروج ابن هدد على احاب	٣٠٣
٣٥٩	احاب والآشوريون	٣٠٤
٣٦١	اختلاس احاب كرم نابوت	٣٠٥
٣٦٢	حرب احاب وملك دمشق وقتل احاب	٣٠٦
٣٦٤	احزيا بن احاب وارتفاع ايليا نحو السماء	٣٠٧
٣٦٧	يورام بن احاب	٣٠٨
٣٦٨	صفيحة ميشاع	٣٠٩
٣٧٢	الحرب بين ملك ارام وملك اسرائيل والمجاعة في السامرة	٣١٠
٣٧٤	يورام ملك يهوذا	٣١١
٣٧٦	احزيا ملك يهوذا وياهو ملك اسرائيل	٣١٢

الفصل السابع عشر

باقي ملوك يهوذا واسرائيل إلى خراب السامرة

٣٨٠	قتل عتليا ابناء النسل الملكي ونجاة يواش	٣١٣
٣٨١	يواش ملك يهوذا	٣١٤
٣٨٢	يواحاز بن ياهو ملك اسرائيل ويواش ابنه	٣١٥
٣٨٤	امصيا ملك يهوذا	٣١٦
٣٨٥	ياربعام الثاني ملك اسرائيل ويونان النبي	٣١٧
٣٨٩	عزريا بن امصيا ملك يهوذا	٣١٨
٣٩٠	زكريا بن ياربعام وشلوم ومنحيم ملوك اسرائيل	٣١٩
٣٩٣	فقحيا وفاقح ملكي اسرائيل ويوتام وإحاز ملكي يهوذا	٣٢٠
٣٩٧	هوشع ملك اسرائيل	٣٢١
٣٩٩	من افتتح السامرة وجلاء بني اسرائيل	٣٢٢
٤٠٠	محال إقامة بني اسرائيل في آشور	٣٢٣
٤٠١	أصل من جلاهم سرغون إلى السامرة	٣٢٤

٣٢٥	معبودات سكان السامرة الجلوين إليها	٤٠٣
٣٢٦	تتمة أخبار سرغون في غزواته لسورية	٤٠٦
٣٢٧	سنو ملوك يهوذا وملوك إسرائيل	٤٠٩

الفصل الثامن عشر

سائر ملوك يهوذا إلى الجلاء البابلي

٣٢٨	حزقيا ملك يهوذا	٤١٢
٣٢٩	حملة سنحاريب على حزقيا ملك يهوذا	٤١٦
٣٣٠	اجراء حزقيا الماء إلى اورشليم ووفاته	٤٢٦
٣٣١	منسا بن حزقيا ملك يهوذا	٤٢٨
٣٣٢	حملات اسرحدون وآشور بانيبال على سورية ومصر	
	في عهد منسا ملك يهوذا	٤٣١
٣٣٣	قتل يهوديت اليفانا في أيام منسى الملك	٤٣٥
٣٣٤	ما جاء من الآثار الآشورية مؤيداً أخبار سفر يهوديت	٤٤٠
٣٣٥	وفاة منسا وخلافة آمون إبنه له	٤٤٣
٣٣٦	يوشيا بن آمون ملك يهوذا	٤٤٤
٣٣٧	يوحاز والياقيم إبننا يوشيا ويوخانيا ملوك يهوذا	٤٤٨
٣٣٨	صدقيا ملك يهوذا	٤٥١
٣٣٩	من ارتحلوا من بني إسرائيل إلى مصر وحملات بختنصر عليها	٤٥٣
٣٤٠	سنو ملوك يهوذا من خراب السامرة إلى الجلاء البابلي	٤٥٦

الفصل التاسع عشر

أخبار بني إسرائيل في بلاد الكلدان

٣٤١	حال بني إسرائيل في بابل وإنذار الأنبياء لهم	٤٥٨
٣٤٢	طوبيا البار	٤٦٠
٣٤٣	دانيال النبي	٤٦٥
٣٤٤	دانيال وسوستة	٤٦٦

٣٤٥	حلم بختنصر وتعبير دانيال له	٤٦٨
٣٤٦	تمثال بختنصر وطرح حننيا وميشائيل وعزريا في الاتون	٤٧١
٣٤٧	الحلم الثاني لبختنصر وجنونه وتعبير دانيال لحلمه	٤٧٥
٣٤٨	بلشصر ملك بابل وتعبير دانيال رؤياه	٤٧٨
٣٤٩	باقي ملوك بابل إلى انقراض دولتهم	٤٨٠
٣٥٠	طرح دانيال في جب الأسد	٤٨٢
٣٥١	كشف دانيال خديعة كهنة بال	٤٨٤
٣٥٢	قتل دانيال التين	٤٨٦
٣٥٣	رؤى دانيال	٤٨٧
٣٥٤	وفاة دانيال وصحة تنزيل سفره	٤٨٩
٣٥٥	رؤى حرقياي وموته ومدفنه	٤٩١

الفصل العشرون

أخبار بني إسرائيل عند عودهم من الجلاء وبعده

إلى ملك اسكندر الكبير

٣٥٦	أمر كورش بعود بني إسرائيل إلى فلسطين	٤٩٦
٣٥٧	آثار كورش المؤيدة قول الكتاب	٤٩٨
٣٥٨	تجديد بناء هيكل اورشليم	٥٠٠
٣٥٩	ملوك فارس إلى داريوس	٥٠١
٣٦٠	استئناف بناء الهيكل وإتمامه	٥٠٤
٣٦١	تتمة أخبار دارا	٥٠٥
٣٦٢	عزرا الكاهن	٥٠٧
٣٦٣	حظر عزرا على بني إسرائيل الزواج بالأجنبيات	٥٠٨
٣٦٤	تتمة أخبار عزرا ووفاته وأسفاره	٥٠٩
٣٦٥	نحميا وبناءه اسوار اورشليم	٥١١
٣٦٦	تتمة أخبار نحميا	٥١٣
٣٦٧	سفر استير ومن كانت هي زوجة له	٥١٣
٣٦٨	ملخص خبر أستير عن سفرها	٥١٥

٣٦٩	أخبار ارتحششتا وخلفاؤه إلى أيام اسكندر الكبير	٥١٩
٣٧٠	حالة اليهود بعد أيام نحميا إلى أيام اسكندر الكبير	٥٢١

الفصل الواحد والعشرون

النبوة والالبياء الكبار

٣٧١	تعريف النبي والنبوة وامكانها ونوعها	٥٢٢
٣٧٢	الانبياء اجمالاً	٥٢٥
٣٧٣	اشعيا	٥٢٧
٣٧٤	ارميا	٥٣٠
٣٧٥	حزقيال	٥٣٦
٣٧٦	دانيال	٥٣٧

الفصل الثاني والعشرون

الأنبياء الصغار

٣٧٧	هوشع	٥٣٨
٣٧٨	يوئيل	٥٣٩
٣٧٩	عاموس	٥٤١
٣٨٠	عويديا	٥٤٢
٣٨١	يونا	٥٤٤
٣٨٢	ميخا	٥٤٦
٣٨٣	نحوم	٥٤٧
٣٨٤	حبقوق	٥٤٧
٣٨٥	صفنيا	٥٤٨
٣٨٦	حجاي	٥٤٩
٣٨٧	زكريا	٥٥٠
٣٨٨	ملخيا	٥٥٢

مقالة

في العبرانيين

قد تكلمنا في مقالتنا الافتتاحية على خلق العالم والإنسان الأول وعلى الآباء الأولين حتى نوح وأبنائه الثلاثة سام وحام ويافت وعلى أعقابهم ، والمواطن التي حلّوا فيها بعد تفرق القبائل في الآفاق . متبعين في ذلك مساق كلام الكتاب في الفصول العشرة الأولى . وبعض آي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين حتى مولد ابراهيم الخليل . ثم أعقبنا ذلك بمقالتين في الحثيين والفينيقيين أشهر القبائل التي توطنت في شمالي سورية ووسطها . فبقي علينا أن نتكلم في أشهر القبائل التي توطنت في جنوبيها . وهي قبيلة العبرانيين اي بني إسرائيل مستضيئين بنبراس أصبح تاريخ وأقدسه وأقدمه وأكمله وهو أسفار العهد القديم المقدسة . فإن جلّ الغرض من كلامها من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين فصاعداً بيان تاريخ بني إسرائيل . وما افترضه الله عليهم وأرشدهم إليه بمناجاته ولسان أنبيائه . ونستعين لإدراك شأونا بما اكتشف من الآثار القديمة وما استودع في حطام قدماء المؤرخين . وما جاء في كتب ثقات من العلماء والمفسرين . ولما كان ابراهيم الخليل أصل هذه القبيلة وقد ظعن بأسرته من بلاد الكلدان إلى سورية تعين علينا أن نستهل كلامنا بذكره .

الفصل الأول

ابراهيم الخليل

عد ١٥١

نسب ابراهيم وعصره

قد مرّ بك في عد ٣٨ أن ساماً ولد ارفكشاد، وارفكشاد ولد شالح، وشالح ولد عابر، فعبر الفرات وإليه ينسب العبرانيون. «وهو ولد فالج (أو فالغ) ويقطبان جد العرب الذي ذكرنا ولده في العدد المشار إليه آنفاً» وأما فالج فولد أرعو، وأرعو ولد سروج، وسروج ولد ناحور، وناحور ولد تارح، وتارح ولد أبرام (الذي سمّاه الله ابراهيم). وناحور باسم جدّه وهاران الذي ولد لوطاً وتوفاه الله قبل أبيه تارح في أرض مولده في أور الكلدانيين (تك ف ١١ من عد ١١ فصاعداً).

ويرجح أن ابراهيم كان أصغر إخوته وقدمه الكتاب بالذكر تعظيماً له لأنه أبو المؤمنين (فيكوررو في معجم الكتاب في كلمة ابراهيم)، وقد ذكر الكتاب سني موالد هؤلاء الآباء فيظهر منه ما مرّ من السنين من بعد الطوفان إلى مولد ابراهيم على أن بين النص العبراني والترجمة اليونانية السبعينية اختلافاً في حساب هذه السنين. فزادت السبعينية مئة سنة على سني ولادة أكثر الآباء الآنف ذكرهم، واتبعت النسخة اللاتينية المعروفة بالعامية. وأكثر نسخ الكتاب النص العبراني. وإليك جدولاً يتبين منه هذا الاختلاف:

سنو مولد الآباء بعد الطوفان، بحسب النص العبراني، سنوهم بحسب الترجمة السبعينية.

٢	٢	سام ولد أرفكشاد بعد الطوفان
١٣٥	٣٥	أرفكشاد ولد شالح وله من العمر
١٣٠	٣٠	شالح ولد عابر وله من العمر
١٣٤	٣٤	عابر ولد فالغ وله من العمر
١٣٠	٣٠	فالغ ولد أرعو وله من العمر
١٣٢	٣٢	أرعو ولد سروج وله من العمر
١٣٠	٣٠	سروج ولد ناحور وله من العمر
٧٩	٢٩	ناحور ولد تارح وله من العمر
٧٠	٧٠	تارح ولد ابراهيم وله من العمر
٩٤٢	٢٩٢	

وقد زادت السبعينية أباً آخر على هؤلاء وهو قينان.

وذكرت أن أرفكشاد ولده وعمره

١٣٥

١٠٧٧

وان قينان ولد شالح وهلمَّ جزاً إلى ابراهيم كما مر وعليه فيكون ما بين الطوفان ومولد ابراهيم مئتان وإثنان وتسعون عاماً بحسب النص العبراني، وألف وسبعة وسبعون عاماً بحسب الترجمة السبعينية. وذكرت الترجمة السريانية قينان بن أرفكشاد كالسبعينية في الفصل الثالث من بشارة لوقا. وقد اتبع ابن خلدون في تاريخه حساب الأصل العبراني في موالد هؤلاء الآباء، ولكن «أبو الفدا» اعتمد فيه حساب الترجمة السبعينية وجعل المدة من الطوفان إلى مولد ابراهيم ألفاً وإحدى وثمانين سنة.

وإذا أضفنا إلى ٢٩٢ عاماً من الطوفان إلى مولد ابراهيم ١٦٥٦ سنة من خلق آدم إلى الطوفان بحسب الأصل العبراني كما في الجدول الذي وضعناه في عد ٢٣، وألحقنا به ٧٥ سنة عمر ابراهيم عند ارتحاله من حاران ليمضي إلى أرض كنعان - كما في سفر التكوين (فصل ١٢ عد ٤ و ٥) - كان مجموع الأعوام

التي مرت من آدم إلى بلوغ ابراهيم سورية ٢٠٢٣ سنة . وأما بحسب السبعينية فالجموع ٣٣٩٤ سنة مؤلفة من ٢٢٤٢ سنة قبل الطوفان . ومن ١٠٧٧ سنة من الطوفان إلى مولد ابراهيم ، ومن ٧٥ سنة من مولد ابراهيم إلى أن ارتحل إلى سورية وكان الفرق بين الحساين ١٣٧١ عاماً ، وأما في أية سنة قبل مولد المخلص شخص ابراهيم إلى سورية فذلك يختلف فيه اختلاف المذاهب في تعيين سنة المولد من سني الخليقة . فعلى مذهب من قال إن مولد المخلص كان في سنة ٤٠٠٠ لخلق الإنسان يكون بلوغ ابراهيم إلى فلسطين سنة ١٩٧٧ . وعلى مذهب من قال إن المولد كان في سنة ٤٠٥١ يكون بلوغ ابراهيم سنة ٢٠٢٨ . قال الأب فيكورو : جعل اوساريوس مولد ابراهيم لسنة ١٩٩٢ ق.م ، وجعل كليبتون وفاته سنة ١٩٥٥ ق.م ، وإقامته في أرض كنعان من سنة ٢٠٥٥ إلى سنة ١٩٥٥ ق.م وقال بلمر Palmer : إنه بلغ أرض كنعان سنة ٢٠٨٤ وتوفاه الله سنة ١٩٨٤ ق.م . والحاصل أن المسألة يختلف فيها حتى الآن . وعلى كل الأقوال إنه بلغ بلاد الكنعانيين لنحو من ألفي سنة قبل الميلاد ، ولعله يكتشف أثر يزيل الخلاف مثل أن توجد قطعة آجر أو أثر آخر في بلاد الكلدان تنبئ بشيء من تاريخ كدرلاومر الذي حاربه ابراهيم . فينجلي تاريخ ابراهيم بالحصص أو بالتقريب (فيكورو في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٣٦٦) .

وقد طالعنا في هذه الأيام في المجلة الموسومة بالعلم الكاثوليكي ، مجلة المباحث الدينية ، فصلين علقهما فيها الأب مور الشهير في عديها الصادرين في ١٥ آب وفي ١٥ أيلول سنة ١٨٩٣ أثبت فيهما أن ابراهيم شَخَص إلى فلسطين سنة ٢١٤٥ ق.م . ففي الفصل الأول منهما أجهد نفسه ليثبت أن خروج بني إسرائيل من مصر كان لسنة ١٥٠٠ ق.م متمسكاً بآثار آشورية يظهر فيها أن سرغون دمر السامرة ، وقرض مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م . ووضع جدولاً للملوك إسرائيل ويهوذا يتبين منه أن سليمان أخذ ببناء الهيكل سنة ١٠٢٠ ق.م ، واستشهد بقول «الكتاب» (ملوك ٣ فصل ٦) ، بأن هذا البناء كان بعد ٤٨٠ سنة من خروج بني إسرائيل من مصر . فكان الحاصل على قوله أن الخروج كان سنة ١٥٠٠ ق.م ثم أضاف سني العبودية ٤٣٠ سنة إلى ذلك العدد ، فكان المجموع ١٩٣٠ سنة . وضّم إلى ذلك ٢١٥ سنة حصلت من أن يعقوب نزل إلى مصر وله من العمر ١٣٠ سنة ، وأن اسحق ولده عمره ٦٠ سنة ، وأن ابراهيم ولد اسحق بعد ٢٥

سنة من إتيانه فلسطين (وكل هذا بين في سفر التكوين) . ونتج أن ابراهيم شخص إلى فلسطين سنة ٢١٤٥ ق.م ، ثم أيد قوله في الفصل الثاني بوجه آخر مستنداً إلى أثر لآشور بانيبال ملك آشور قال فيه :

«إنَّ كودر ناهوندا ملك عيلام سطا على هياكل أگد (بابل) ، وأخذ تمثال الآلهة نانا، فاستمر هذا التمثال في بلاد عيلام سنة ١٦٣٥ (وفي نسخة ١٥٣٥) . وأن آشور بانيبال ظفر بملك عيلام، وأرجع هذا التمثال إلى محله» . ومن البين أن هذا الملك الآشوري انتصر على ملك عيلام سنة ٦٦٠ ق.م . فإن أضفنا هذه السنين إلى ما قبلها كان المجموع ٢٢٩٥ سنة . وقد رأى الأب مور أن غزوة العيلاميين لبابل كانت الداعي لمهاجرة الحثيين من سورية إلى مصر، ولمهاجرة تارح أبي ابراهيم من أور الكلدانيين إلى حاران . وإنَّ كدراوعمر الذي حاربه ابراهيم فيما بعد هو من دولة العيلاميين هذه ، وإن دولة أخرى حليفة لها تعرف بالسيسكو، كان منها ملك يسمى كركال . وإن هذا ليس هو إلا تدعال ملك الأمم حليف كدراوعمر، وباقي الملوك الذين حاربهم ابراهيم (تك ف ١٤) . وبناءً على ما مرّ، وضع مور جدولاً يتبين منه أن تارح ولد سنة ٢٣٥٠ ، وعاش ٢٠٥ سنين، وأنه هاجر بلاد الكلدان . ولما مرّ كان عمر ابراهيم ٣٥ سنة ، وعاش ابراهيم مع أبيه هناك ٤٠ سنة . فإن أسقطنا ٢٠٥ سنين من ٢٣٥٠ كان الباقي ٢١٤٥؛ هي سنة شخوص ابراهيم إلى فلسطين انتهى ملخصاً والله أعلم .

قد أنبأنا الكتاب (تك ف ١١ عد ٢٩) : ان قد «اتخذ أبرام وناحور لهما امرأتين؛ اسم امرأة أبرام ساراي، واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة» . قال يوسفوس (ك ١ في تاريخ اليهود ف ٦) : إنَّ ناحور «توفي في أور الكلدانيين ويشاهد هناك مدفنه إلى اليوم ، وخلف ابناً يسمى لوطاً، وابنتين تسمى إحداهما سارة والأخرى ملكة . فتزوج ابراهيم بسارة وناحور بملكة» . فسارة إذاً بنت أخي ابراهيم على هذا القول . وسيجيء فيه كلام في عد ١٥٤ ، وهي المسماة يسكة أيضاً، وأخوهما لوط ارتحل مع ابراهيم إلى أرض الكنعانيين . ومن عوائدهم أن لا يتزوج الأخ البكر بابنة أخيه الذي هو أصغر منه، ويباح للأخ الأصغر أن يتزوج بابنة أخيه البكر . وهذا يرجح ما مرّ من أن ابراهيم لم يكن بكر تارح، بل كان أصغر أبناؤه ، وهذا أعون على حل الإشكال الحاصل من قول «الكتاب» (في أعمال الرسل ف ٧ عد ٤) : إنَّ ابراهيم لم يرتحل إلى أرض

الكنعانيين إلا بعد وفاة أبيه، وإن أباه عاش مئتين وخمسة سنين، وولد إبراهيم وعمره سبعون سنة، وإن إبراهيم ارتحل إلى أرض كنعان وله من العمر خمس وسبعون سنة (كما في سفر التكوين ف ١١ و ١٢). فيحصل من ذلك أن عمر تارح لم يتجاوز حين ارتحال إبراهيم المائة والخمسة والأربعين سنة، ويلزم منه أن يكون قد عاش ستين سنة بعد ارتحال ابنه. فإذا قلنا إن هاران إنما هو الذي ولده وعمره سبعون سنة انفسح لنا القول إنه ولد إبراهيم بعد ستين سنة لأنه أصغر ولده، فيزول الأشكال. ورأى بعضهم أن عدد المئتين والخمسة سنين من غلط النساخ لا من حقائق «الكتاب» (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ٣٤٢). ولذلك قال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة تارح) إن تارح ولد إبراهيم وعمره مئة وثلاثون سنة.

عد ١٥٢

منشأ إبراهيم أي في أور وحران

ولد إبراهيم ونشأ في أور الكلدان، ولكن أين موقع أور هذه؟ فقد توفرت فيه الأقوال وتضاربت، وسمّاها «الكتاب» في النص العبراني أور كسديم. ولم يُنبئ بموقعها، ولذلك جعله بعضهم في بلاد الكلدان، وبعضهم في الجزيرة، وبعضهم في سورية. ومن التقليدات المستمرة حتى الآن في المشرق - وقد أخذ بذلك القديس أفرام السرياني، وتابعه كثير من مفسري الكتاب - أن مولد إبراهيم كان في أرفه وهي الرها، ومن أدلتهم على ذلك تسميتها في السريانية **ܐܘܪܗܝܡ** (أورهي). وأن أهلها متشبثون حتى الآن بهذا التقليد، وقد دافع ستانلاي عن صحة هذا القول واعتمده. وقال بوخرت إن موقع أور بين نصيبين ودجلة، ووافقه على قوله كثير من مشاهير العلماء على أن العالم أوير وُقِّع إلى تعيين موقعها وأورد بينات إثباته في ٢٢ نيسان سنة ١٨٦٩م لتلامذته وللجَمِّ الغفير في مدرسة إفرنسة، حيث كان يدرس التاريخ. وهو في المحل المعروف الآن بالمقائر، وسمّاها بعض الجغرافيين «أم قير» وهو في وسط الطريق بين بابل ومصب نهر الفرات في خليج العجم، حيث تشاهد أكمة عليها أخربة عديدة. وسمّي هذا المحل المقائر لكثرة ما يوجد فيه من كسر الآجر مطلية بالقار. وقد اكتشف هناك قطع عديدة من الآجر يتبين منها أسماء هذه المدينة وبعض ملوكها.

وظهر من آثار عديدة أنَّها كانت مدينة علوم وصنائع ، وكثر فيها عداد العلماء والفلكيين الذين يرصدون الكواكب ، والشعراء والكتبة . وقد بقي لنا بعض ما كتبه على الحجر في مكتبة نينوى السالف ذكرها ، وكان ملوكها يسمون أنفسهم ملوك أور ، كما كان يُسمَّى ملوك بابل وملوك شومير وملوك أكد . فهي من أقدم مدن بلاد الكلدان ؛ فإن بعض الآثار التي وجدت فيها تعسر قراءتها وفهمها لتناهي قدمها ، ومنها فلذة آجر كتب عليها : « إن ليك باغاس ملك أور بنى هذا الهيكل تجلَّة للإله سين » . وكتب على فلذة أخرى « أقام ليك باغاس ملك أور هيكلًا تكرمه لسيدته الإله سين وبنى أسوار مدينة أور » . وليك باغاس هذا كان قبل مولد ابراهيم . والاله سين هو القمر الذي كان أعظم معبودات أور . فهذه المدينة ولد فيها ابراهيم ، ولا يبعد أن كان أبوه تارح يعبد الإله سين كغيره من أهلها في الهيكل الذي بناه ليك باغاس .

وجاء في سفر التكوين (ف ١١ عد ٣١) : « وأخذ تارح أبرام ابنه ولوط ابن هاران ابن ابنه وساراي كُنته امرأة أبرام ، فخرج بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فجاءوا إلى حاران وأقاموا هناك » . وحاران هي المعروفة الآن بحران وموقعها في الجنوب من أرفه على بعد ثمان ساعات ، وهي الآن خربة وفيها معبد ينسبونه إلى ابراهيم ، وسمَّاهَا اليونان واللاتينيون حازَه ، وهي مشهورة في التاريخ العالمي بانتصار البرتيين فيها على كراسوس الروماني . وفي التاريخ المقدس يسكن ابراهيم فيها ، ويظهر أنها كانت من أعمال مملكة أبجر ملك الرها المشهور برسائله للمخلص وجوابه له عليها . وورد اسمها مكرراً في الآثار الآشورية محسوبة في عداد المدن الآرامية ، وجاء ذكرها مع بعلبك في الخطوط القديمة التي وُجدت في قصر خرشباد ، ونقش اسمها على مسلة سلمناصر في عداد المدن التي فتحها في شمالي ما بين النهرين . وكان أهلها يعبدون القمر كسكان أور . وترى فيها إلى الآن البئر التي التقى بعد ذلك اليعازر رسول ابراهيم برفقا عندها ، فخطبها لاسحق كما سيجيء . وحكى بعض الجواله أن رعاة الماشية يجتمعون حتى اليوم حول هذه البئر ليستقوا ماشيتهم . والنساء يكرن بالورود إليها لاستقاء الماء ، ولا بد أن يكون ابراهيم قد ورد هذه البئر مراراً كما صنع بعده حفيده يعقوب ، إذ كان يرعى غنم حميه لابان . قال بعضهم : إنَّ ابراهيم أقام في حاران خمس عشرة سنة وجعل غيرهم مدة إقامته

فيها ست سنين أو خمساً (ملخص عن الكتاب والإكتشافات الحديثة لفيكورو
مجلد ١ في الكلام على ابراهيم).

عد ١٥٣

ارتحال ابراهيم إلى أرض الكنعانيين، وما قيل في ولايته
في دمشق

اتفقت تقليدات اليهود والعرب على أن ابراهيم اضطر إلى مغادرة بلاد الكلدان
فراراً من الخطر الملم به من قبل قومه، إذ فشت بينهم عبادة الأوثان. وكان ييكتهم
عليها، ويناصبهم في انتشارها، فثاروا عليه يتطلبون قتله، فأمره الله بالخروج من
بينهم، والارتحال إلى أرض كنعان. ولهذه التقليدات مسند في «الكتاب» أيضاً.
فإننا نرى يشوع بن نون يقول لجميع الشعب: «هكذا قال الرب إله إسرائيل، في
عبر النهر سكن أبائكم منذ الدهر، تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة
أخرى. فأخذت أبائكم ابراهيم من عبر النهر، وسيرته في جميع أرض كنعان»
(يشوع فصل ٢٤ عد ٢). بل روى بعض المؤرخين العرب، ومنهم أبو الفدا (في
مجلد ١ من تاريخه): «إن تارح أبا ابراهيم كان يصنع الأصنام، ويعطيها ابراهيم
ليبيعها. وكان ابراهيم يقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟» وقد تأول علماء
التلمود كلمة أور من قوله أور الكلدانيين بمعنى نار، ولذلك كان من تقليداتهم أن
الكلدانيين ألقوا ابراهيم في أتون نار متقدة، لأنه أبى السجود لآلهتهم، فأجابه الله
منه بمعجزة. على أن القديس إيرونيموس ترجم آية سفر نحemia (فصل ٩ عد ٧)،
وهي: «أنت الرب الإله الذي اصطفيت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيين». فكتب
بدلاً من أور الكلدانيين من نار الكلدانيين - كما في النسخة اللاتينية
المعروفة بالعامية - لكنه قال: إن تقليد علماء التلمود في هذا الشأن إنما هو حكاية
لا يعتد بصحتها. وعن ابن العبري في تاريخ الدول: «إن ابراهيم أحرق هيكل
الأصنام بقرية الكلدانيين، ودخل هاران أخوه ليطفئ النار فاحترق، ولذلك فر
ابراهيم» ولكن هذا مما لا يمكن إثباته.

ولما أمر الله ابراهيم أن انطلق من أرضك أي حاران إلى الأرض التي أريك،
أي أرض الكنعانيين، نهض بامرأته سارة وابن أخيه لوط وحاشيته وخدمه ومواشيه،

وخلف أخاه ناحور في حاران . وكان أبوه قد توفي فعبّر الفرات . وروى يوسفوس (ك ١ فصل ٧ من تاريخ اليهود) نقلاً عن نيقولاوس الدمشقي الذي كان في القرن الأول قبل الميلاد أنّ ابراهيم بلغ دمشق أولاً وولي أمرها . وإليك كلام الدمشقي الذي رواه يوسفوس :

« خرج ابراهيم بجحفل كبير من بلاد الكلدان ... فملك في دمشق ، ثم زایلها بعد مدة مع شعبه كله ، وأقام في أرض كنعان التي تسمى الآن اليهودية . فكثرت ذريته كثرة لا تقدر . وسأجيء على ذكر ذلك في محل آخر . وما برح اسم ابراهيم إلى الآن موقراً ومشتهراً جداً في بلاد دمشق ، وهناك قرية تسمى باسمه ويقال إنها كانت مسكنه » . وعَدَّ يوسفوس ملوك دمشق ، فقال : « ومن بعد دمشقوس ملك حزال ، ثم ادوراس ، ثم ابراهيم وإسرائيل » . ورأى كثير من العلماء أن هذه التقليديات لا تخالف الصواب ولا أقل من أن تكون دليلاً على إقامة ابراهيم مدة في دمشق بمنزلة أمير ثري ، والبعازر قيم بيته . كان من دمشق (تك ف ١٥ عد ٢) وقد جاء ذكر هذا التقليد في كتب علماء مسيحيين ومسلمين .

وأول محطة احتلها ابراهيم في اليهودية هي شكيم المسماة في الإنجيل سوخار والمعروفة الآن بنابلس . وتجلّى الرب هناك لابراهيم ، ووعدته بأن تكون تلك الأرض لنسله . فأقام فيما بعد مذبحاً تكربة للرب الذي تجلّى له ، ثم ظعن من هناك وضرب خيامه في الجبل بين بيت إيل غرباً والعاي شرقاً (تك ف ١٢ عد ٨) . فهذا الجبل يلزم أن يكون الأكمة التي عليها المحل المسمى خربة البرج ، وبيت إيل هي المسماة الآن بيت أين في شمالي البيري ، واورشليم . وأما العاي فكانت في محل الكديرة الآن في جانب دير ديوان بين رمان في الشمال ومخماس في الجنوب . وكل ذلك في الشمال الشرقي من اورشليم (كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٤ و ٥٩) . وكانت بيت إيل تسمى قديماً لوزا ، وفيها تجلّى الرب ليعقوب عند فراره من وجه أخيه عيسو ، وأراه سلماً يتصل رأسها بالسما ، وملائكة الله تصعد وتنزل عليها ، فنصب هناك مذبحاً . وقال عن الموضع : إله بيت الله ، وسماه «بيت إيل» (تك ف ٢٨ عد ١٢ وما يليه) . والعاي تسمى عاي (دون أل) ، وغاي هي المدينة التي بعث إليها يشوع بن نون بعد افتتاحه أريحا ثلاثة آلاف رجل ، فهزمهم أهل المدينة . ثم انتصر عليهم يشوع ، وأحرق مدينتهم ، وصلب ملكها ، ورجمه . (يشوع فصل ٧ و ٨) كما سيجيء في محله . ولم

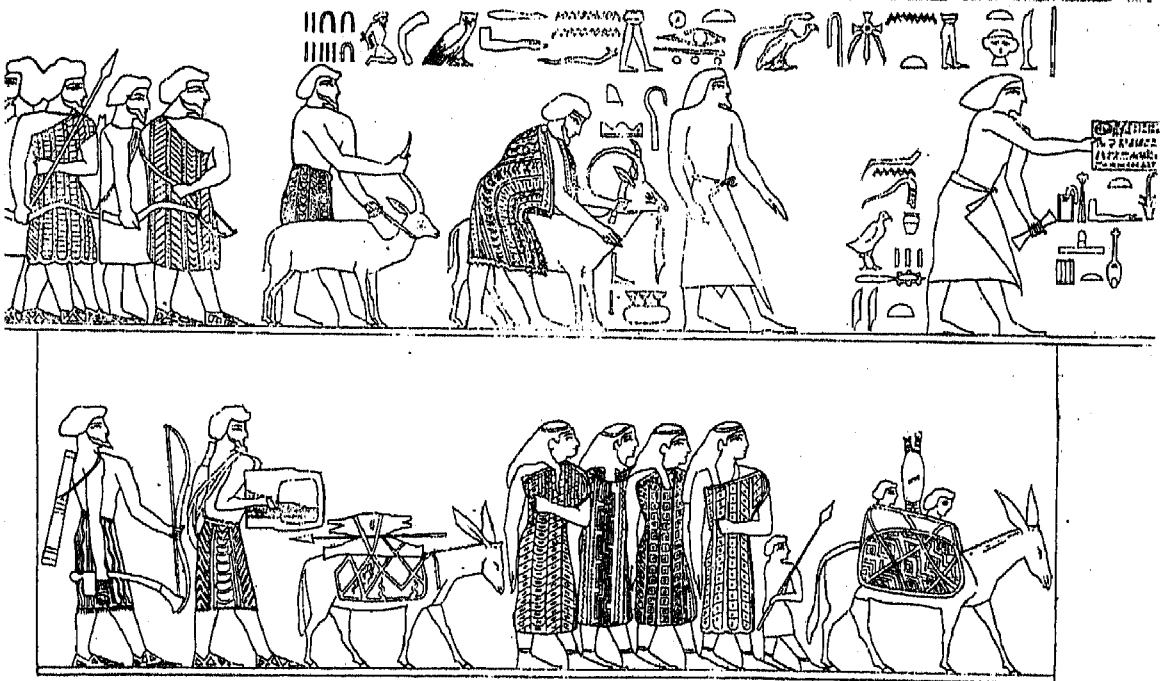
يستمر ابراهيم هناك بل أمعن في أرض الكنعانيين نحو الجنوب مرتحلاً لارتحالاً متوالياً.

عد ١٥٤

انحدار ابراهيم إلى مصر

نبأنا الكتاب (تك ف ١٢) أن حصلت مجاعة في أرض كنعان دعت ابراهيم أن ينحدر إلى مصر مع سارة امرأته . ولما كانت بديعة الجمال ، وهو يعلم فساد المصريين ، لقنها أن تقول إنها أخته ، لئلا يقتله المصريون ويأخذوها ، فقالت كما علمها . وأخبر فرعون عظماءه بجمالها فهمام بها ، وأدخلت بيته ، فضرب الرب فرعون وأهله ضربات عظيمة بسببها ، فاستدعى ابراهيم وردّ عليه امرأته معتذراً بأنه حسبها اخته فأخذها لتكون له امرأة . وأحسن إلى ابراهيم بسببها ، فصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وجمال ، واثن . وامر فرعون قوماً يشيعونه هو وامرأته وكل ماله .

زعم بعض النقاد أن ما أجراه فرعون إلى ابراهيم من الإكرام والإحسان يخالف



صورة مهاجرين من سورية إلى مصر نقلًا عن مدافن بني حسن في مصر

الصواب ولا يصدق، خاصة إن صبح أن فرعون هذا كان مصرياً أصلاً. والصحيح أن زعمهم هذا يخالف الصواب، لأن إكرام فرعون لإبراهيم وأخذه سارة ينطبقان كل الانطباق على عادات المصريين وأطوارهم. وقد وُجدت آثار عديدة تُثبت ذلك؛ منها صورة نقشت على أحد المدافن في تربة بني حسن على ضفة النيل الشرقية على عهد أزوررتسان الثاني أحد ملوك الدولة الثانية عشرة، تمثل رئيس عشيرة من الرحل أتى مصحوباً بأسرته وخدمه يحيى حاكم البلاد أحد أقارب الملك، ويلتمس منه الحماية، ويسمى الأثر هؤلاء الغرباء عمو.

وقد مرّ أن المصريين يعثرون بهذا الاسم عن الرعاة الرحل الذين يأتون من بلاد العرب وفلسطين. ويصف رئيس هذه الأسرة بهاك أي أمير أو رئيس العشيرة، ويسميه أبشاه أي أبي الرمل. وتأويل هذا الاسم قريب من معنى إبراهيم الذي هو أبو الكثيرين. ولهذا الأمير وأسرته وحاشيته كل السمات المميّزة الساميين من حيث الهيئة الطبيعية والملابس. ويظهر من الصورة أن حاكم البلاد يتلطف بمقابلتهم كأناس ذوي حسب ونسب، فيقدمهم أحد الكتاب ووراء الحاكم يافع يحمل حذاءه ولم تكن العادة بخلعه إلا في المقابلات الرسمية. ومن جملة ما يقوله الكاتب عند تقديمهم إنّ الجماعة حملتهم على الإتيان إلى مصر، ويعدد احسانات الحاكم ومكرماته. فإن لم تكن هذه الصورة صورة إبراهيم ولوط واسرتهما فلا اقل من أن تبين بطلان زعم النقادين.

وهم بوهلن Bohlen الألماني أنه وجد بيّنة على التأكيد بصحة آيات «الكتاب» بتسمية الحيوانات التي اعطاها موسى في مصر. ولم يكن منها في وادي النيل ذلك العصر أو كانت نادرة. فإن الغنم كان نادراً كالجمال، والحمير كانت مكروهة بسبب لونها، ولم يذكر موسى الخيل على كثرتها في وادي النيل. فردّ الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٤٣٩) زعم بوهلن هذا، وأثبت بالآثار والخطوط والصور القديمة وفرة الغنم والبقير والحمير في مصر منذ أيام الدولة الثانية عشرة. وأما في الجمال فقال: وإن ندرت صورها في الآثار فلم يندر وجودها. ويظهر أنه كان لهم قواعد تحظر عليهم تصوير بعض الحيوانات كاللدجاج والهر والجمال. ولا يمكن أن تكون الجمال منقطعة الوجود في مصر مع كثرتها عند جيرانهم العرب من أقدم الأيام ونقلها إليهم كثيراً من حاصلات العرب وغيرها. وفي بعض الخطوط المصرية انهم كانوا يعلمون الجمال الرقص. وقد جاء

في سفر الخروج (فصل ٩ عد ٣) ذكر هذه الحيوانات كلها في مصر، إذ قال موسى لفرعون: «ها يد الرب على مواشيك التي في الصحراء؛ الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم بوباء شديد».

ولما إهمال ذكر الخيل في عداد ما أعطيه موسى فهو بينة على صحة الكتاب، لأن أول من أدخل الخيل إلى مصر إنما هم الملوك الرعاة، وإبراهيم كان قبلهم، أو في أوائل ولايتهم على مصر كما سيجيء. وكانت أرض مصر في أيام موسى موعبة بالخيول، فلم يذكرها موسى بين الهدايا لإبراهيم مع ذكره لها مراراً في آيات أخرى. فكان ذلك دليلاً وضاحاً على أنه تلقى ما كتبه عن تقليد صحيح ثابت. وكان المصريون يسمون الخيل ساس، وفي العبرانية سوس، وفي السريانية **ܣܘܣܐ** (سوسيو). وكانوا يستعملون الخيل لجزّ مركبات الحرب في أيام الدولة الثامنة عشرة. ويسمون المركبة مركابوتا وهي في اللغات السامية مركبة، **ܡܪܟܒܬܐ** (مركبتو). فكل ذلك يصرح بأن المصريين أخذوا الخيل والمركبات عن سكان آسيا الذين يتكلمون باللغات السامية.

وأما من كان فرعون الذي أتخف إبراهيم بهذه الهدايا، فقال فيكورو (في كتابه السالف ذكره صفحة ٤٤٩)، إنه كان أحد ملوك الدولة الثانية عشرة قبل ولاية الملوك الرعاة في مصر، سنداً إلى أنه لم يهد إبراهيم خيلاً، لأنها لم تكن في مصر قبل أن يليها الملوك الرعاة. على أن ما رويناه في عد ٩٣ نقلاً عن الأب دي كارا وغيره، يظهر منه أن فرعون هذا كان من الملوك الرعاة في دولتهم الأولى، ويستلمح ذلك من إعزاز فرعون لإبراهيم لأنه من أبناء وطنه القديم.

وأما كيف استباح إبراهيم الكذب بتلقيه سارة أن تقول إنه أخوها وهو زوجها، فقد أجمع الآباء والعلماء أن سارة أخت إبراهيم حقيقة على أن لهم في أثبات هذه الأخوة بينهما قولين؛ فأثبتهما بعضهم بأن العبرانيين كانوا يسمون الأقارب الأدين كأولاد الإخوة والأعمام إخوة، وقالوا: إن سارة بنت هاران أخي إبراهيم. فصدق بتسميتها أخته جرياً على عادتهم. ومن قالوا بهذا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ ف ٦) والقديس إيرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين ف ٢٠) وأبو الفدا في تاريخه. وأسندوا قولهم إلى آية التكوين (ف ١١ عد ٢٩) وهي: «اتخذ أبرام وناحور لهما امرأتين اسم امرأة أبرام ساراي

واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة . وما يسكة عندهم إلا اسم آخر لساري كما مرّ في عد ١٥١ . ورجح كلمت في معجم الكتاب هذا القول ، واعتمده كرنيلوس الحجري (في تفسيره سفر التكوين) مستمسكاً بنهي سثة الطبيعة عن الزواج بين الإخوة والأخوات وإن لأمين على أن غير هؤلاء من الآباء والعلماء ، ذهبوا إلى أن سارة أخت ابراهيم لأبيه لا لأمه ، وقالوا إن تارح تزوج بامرأتين : اسم الأولى يونا وهي أم ابراهيم ، واسم الثانية ثاريللا وهي أم سارة . فتزوج ابراهيم بأخته لأبيه وإنّ هذا لم يكن محظوراً في أيامهم ، وأسندوا قولهم هذا ، إلى آية صريحة في سفر التكوين (ف ٢٠ عد ١٢) حيث قال ابراهيم نفسه : لأيملك ملك جرار عن سارة . « وعلى الحقيقة هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أُمي » ، وقد رجّح فيكورو (في معجم الكتاب في كلمة ابراهيم) هذا القول لصراحة الآية به ، والاحتياج إلى التأويل في الآية الأخرى ، وعلى كلا القولين فسارة أخت ابراهيم وهي زوجته ، فهاتان حقيقتان لقن إبراهيم سارة أن تكشف عن إحداهما وتسكت عن الأخرى وليس من إلزام على أحد أن يقول كل ما يعلم .

ولكن كيف عرض ابراهيم زوجه لخطر الإثم الذي حف بها فعلاً ؟ لقد برّأ القديس اغوستينوس ابراهيم من الكذب - كما مرّ - ومن تعريضه امرأته للإثم فقال : إنّ ابراهيم كان معرضاً لشرّين : قتله ، واختطاف امرأته ، ولا مفرّ له من كليهما إن قال إنّ سارة امرأته ، وينجو من القتل إن قال أخته ، فاختار من الشرّين أصغرهما موكلاً إلى عناية الله حفظ طهارة سارة مع يقينه بعفافها ، فلا حرج عليه لاسيّما أنه لو قال هي امرأته لم تنج من هذا التعرّض أيضاً ، وكان موقناً بفساد آداب المصريين ، وعناية الله به وبامرأته ، وبرّ العمل يقينه إذ خطفت سارة بفساد المصريين ، وأنجاه الله من شرّهم ، وحصن سارة من الإثم .

روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ ف ٨) : « إنّ فرعون دفع إلى ابراهيم مقداراً من الفضة عدا هداياه السالف ذكرها ، وسمح له أن يباحث حكماء مملكته ، فكتشفت هذه المباحثة عن فضيلته وحكمته وأكسبته أسمى اعتبار . وكان حكماء المصريين متشعبي الآراء وأدّى بهم هذا الخلاف إلى انقسام كبير ، فجاءهم ابراهيم بجلي البرهان على أن الفريقين عن الحق بمراحل ، فدهش الفريقان بذكائه

وسمّو مداركه : وعلمهم فنّ الحساب، وعلم الفلك، وكانوا لهما جاهلين . فهو الذي ، أوصل هذه العلوم من بلاد الكلدان إلى المصريين، وعن هؤلاء أخذها اليونان . وهذا رواه كثير من القدماء، منهم نيقولاوس الدمشقي، وأبو لام وارتبان وغيرهم ، ذكرهم أوسابيوس (في كتابه الموسوم بالاستعداد الإنجيلي ك ٩ ف ١٩) .

وبعد أن أقام ابراهيم في مصر نحو سنة على الأظهر، عاد منها ومعه لوط ابن أخيه وقومه ، غنيّاً بالماشية والذهب والفضة، وقد أحرزهما بهدايا فرعون، ونتاج قطعانه . فحلّ في منزله الأول بين بيت إيل والعاي أشبه بقبائل الرحل في هذه الأيام : وتوفرت قطعان لوط أيضاً فوق نزع بين رعاته ورعاة ابراهيم عمه، أفضى إلى أن يخير ابراهيم لوطاً في الجهة التي يريد الانطلاق إليها بقطعانه ورعاته، فاختر لوط السهول التي على ضفاف الأردن والبحر الميت التي كانت تسقى قبل أن ينزل الله رزاه بسدوم وعمورة . فتوطّن سدوم قصبه المدن الخمس المتعاهدة، وهي : سدوم، وعمورة، وأدّمة، وصبواثم، وصوعر . وبعد أن انتزع لوط عن ابراهيم تجلّى الله له مجدداً ووعدّه بأن تكون له ذرية تشدّ عن العدوّ، وتملك هذه البلاد . وارتحل ابراهيم من محله وضرب خيامه في وطاً ممراً حذاء حبرون، وابتنى هناك مذبحاً للرب على عادته حيثما حلّ . وحبرون هي المعروفة الآن بالخليل، أي مدينة ابراهيم الخليل، وهي على مسافة نحو سبع ساعات في الجنوب من أورشليم . وجاء في سفر العدد (ف ١٣ عد ٢٣) : « وكانت حبرون قد بنيت قبل صوعن مصر بسبع سنين » . وصوعن هي تانيس المعروفة الآن بسان بجهة مصر الشرقية . وقيل في سفر يشوع بن نون (ف ١٤ عد ١٥) : « وكان اسم حبرون قبلاً قرية اربع وهو اعظم رجل في العناقين » . ومنه يظهر أن اربع أحد جبابرة بني عناق هو أوّل من اختط اسس الخليل، وسماها قرية اربع أي مدينته نسبة إليه .

عد ١٥٥

محاربة ابراهيم لكدرلاعومر وأحلافه

إنّ ملخص ما جاء في الفصل الرابع عشر من سفر التكوين هو أن كدرلاعومر ملك عيلام كان أخضع لسلطته سكان وادي الأردن، فاستمروا على الطاعة له

اثنتي عشرة سنة وفي الثالثة عشرة عصوه . فجيش عليهم في السنة الرابعة عشرة ، وغشا بلادهم يصحبه أمرافل ملك شنعار ، واريوك ملك الاسار وتدعال ملك الأمم . وكان هؤلاء الملوك الثلاثة أحلافاً أو أقبالاً لكدرلاعومر . فضرب هؤلاء الملوك في مسيرتهم قبيلة الرافائين في عشتروت قرنين ، وعشيرة الزوزين في هام ، والاييين في شوى قريثائم . ثم الحوريين في جبلهم سعيم إلى سهل فاران الذي عند البرية . ثم جاءوا إلى عين مشفاط وهي قادس فضربوا كل أرض العمالقة والآموريين المقيمين في حصاصون تamar . فخرج إليهم ملوك المدن الخمس السالف ذكرها ؛ وهم : بارع ملك سدوم ، وبرشاع ملك عمورة ، وشناب ملك أدمة ، وشميثير ملك صبوئيم ، وملك بالع وهي صوعر . فصافوهم للحرب في غور السديم ، فانهزم ملكا سدوم وعمورة فسقطا في آبار حُمر هناك . والمراد أنهما دُحرا ، وسقط بعض جنودهما في هذه الآبار ، لأنه قيل في عد ١٧ إن ملك سدوم التقى ابراهيم بعد عوده ، وفرّ الباقيون إلى الجبل . فغنمت عساكر كدرلاعومر جميع أموال سدوم وأخذوا بين أسراهم لوطاً ابن أخي ابراهيم وما له . وأفلت من اخبر ابراهيم بالنازلة ، فجرد حشمه المولودين في بيته ثلاثمائة وثمانية عشر ، وصحبه عاثر ، واشكول ، وممرأ ، حلفاؤه الآموريون ، وجدّ في أثر الغزاة إلى وان ، وتفرق عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم . واتبعهم إلى صوبة التي عن يسار دمشق ، فاسترجع جميع المال ولوطاً ابن أخيه (وسماه «الكتاب» هنا أخاه على حد تسميته سارة أخته) والنساء وسائر القوم .

فهذه خلاصة ما جاء في الكتاب وكلفاً بتوفر الفائدة وزيادة البيان نقول : لا يخفى أن عيلام هو ابن سام بن نوح وأبو قبيلة العيلاميين التي استحوذت نحو سنة ٢٣٠٠ ق.م على الممالك التي نشأت من تقسيم مملكة نمرود ، ولا جرم أن كدرلاعومر ملك عيلام هو أحد ملوكها . فإن الجزء الأول من اسم كدرلاعومر وهو كدر ، قد أبانت الاكتشافات الحديثة أنه شَمِي به كثير من ملوك العيلاميين ، منهم كدرنكودي ، وكدرمابوق . وهذا عمل العالم أوبر على أن يُسمي ملوك دولة العيلاميين هذه بالكدرين . والجزء الثاني من هذا الاسم لاعومر هو اسم أحد الآلهة عند العيلاميين فجاء في إحدى صفائح آشور بانيبال ذكر صنم لاعومر بين الأصنام التي أخذها هذا الملك من سوس بعد أن فتحها ؛ ومعنى كدر خادم ؛ أو عبد ، ومعنى لاعومر الباقي أو القيوم فيكون تأويل اسم هذا الملك خادم الإله القيوم أو

الباقى . وجعل سميث كدرلاعومر وكدرمابوق ملك الكلدان واحداً سنداً إلى وجدان قطعة من الآجر في أور الكلدانيين (ام قير) خط عليها : « لاله أور من ملكها كدرمابوق المستحوذ على أرض المغرب » ، ويراد بأرض المغرب على رأيه أرض الكنعانيين . وإذا لم يثبت رأي سميث هذا ، فلا أقل من أن يثبت بهذا الأثر ان أحد ملوك الكدريين تسلط على بلاد كنعان ، ووجد أثر آخر كتب عليه أن « كدرمابوق أقام هيكلًا للإله سين أي القمر إله أور » ، ويُسمى نفسه في بعض آثاره سيد سورية . ويمتد بعل أي بلاد عيلام . وكل هذا ناطق بأن ملوك هذه الدولة غزوا أرض كنعان كما فعل كدرلاعومر سواء كان هو كدرمابوق أم غيره . (فيكورو في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٤٥٩) .

والظاهر من الآثار أن الملوك الثلاثة الباقين كانوا أحلافاً أو أقبالاً خاضعين لكدرلاعومر ، وأن صفائح آشور بانيبال تثبت أن دولة الكدريين العيلاميين تولت بلاد بابل مدة طويلة ، لأنه كُتب أنه افتتح مدينة سوس عاصمة العيلاميين ، واستردّ تمثال الإلهة نانا الذي كان قد أخذه كدرننكوندر أو كودرناهوئا (كما مرّ عد ١٥١) ملك عيلام منذ ألف وستمئة وخمس وثلاثين سنة ، وبقي عند العيلاميين . وعليه فهذا الملك العيلامي كان يلي بلاد الكلدان نحو سنة ٢٢٨٠ ق.م . وقد مرّ أن كدرمابوق أحد ملوك هذه الدولة سُمى نفسه ملك أور الكلدانيين ، وبنى فيها هيكلًا ، ووجد في ضواحي بغداد تمثال من نحاس لإحدى الآلهات عليه اسم كدرمابوق ، وهو الآن في متحف اللوفر في باريس .

وعلى رأي بعضهم أن ولاية العيلاميين في ما بين النهرين استمرت ٢٢٤ سنة ، بدؤها سنة ٢٢٨٧ ق.م ؛ وكلّ هذا يبيّن لنا بياناً علمياً أيضاً صحة رواية سفر التكوين ، أن ملك عيلام كان إذ ذاك يلي بلاد الكلدان حتى كان بمعيته في غزوته أمرافل ملك شنعار التي هي بابل . وقال الأب فيكورو (في المحل المذكور) : إنّ اسم امرافل بابلي برمته مؤلف من كلمة أمير ومعناه السيد أو الأمير كما في العربية ، ومن كلمة فل أو بال أو هابال ومعناها الابن ؛ فتحرير معنى الكلمة ابن الأمير أو الابن هو أمير .

وأما أريوك ملك الاسار فكان للعلماء ومفسري الكتاب فيه أقوال متعددة متضاربة ، بل لم يكن لأحد أن يقطع بمن هو ، وأين كان مالكا ، إلى أن جاءت

الإكتشافات الحديثة مصرحة بمن هو وابن من هو وأين كانت مملكته، وناطقة بصحة رواية الكتاب، ومخجلة بعض البرهانيين الذين زعموا أن هذه الحرب وانتصار ابراهيم فيها حكاية أو رواية وهمية. فقال لانرمان (في كتابه في اللغة الأولى في بلاد الكلدان صفحة ٣٧٤): «إنّ أريوك هو من تُعبر عنه الخطوط المسمارية بأريكو، وإنّ تأويل اسمه خادم الإله القمر، وإنّهُ كان ملك لارسا، وأقامه أبوه كدرمابوق ملكاً فيها. فقد وجد أثر في أم قير (أور الكلدانيين) كتب عليه «كدرمابوق وابنه أرياكو... حاكم بلاد أور وملك لارسا وسومير واكد». فقال سكردر (Schrder في تاريخ العهد القديم الصفحة ١٣٥): «لا أشكّ البتّة في أن أريوك ملك الاسار هو أريكو ملك لارسا نفسه، وكان ابن كدرمابوق. ملك أور وملك سومير». وأكد كما يدلّ على ذلك اسم أبيه كدمابوق واسم جده سمى سلهلك، وكان من ملوك الدولة العيلامية البابلية حليفة كدرلاعومر». وأما الاسار مدينته فلا ذكر لها في الأسفار المقدسة في غير هذه الآيّة وأكثر الباحثين في الآثار الآشورية على أنها لارسا مدينة بابل في شرقي أرك في الشمال الغربي من أور الكلدانيين، وتعرف الآن بسنقرة واقعة في وسط الطريق بين الفرات ودجلة، وكان فيها هيكل الإله شمس (الشمس)، فجعلها شهيرة بهذه العبادة من أقدم الأيام (فيكورو في المجلد المذكور صفحة ٤٦٣).

وأما الملك الأخير من حلفاء كدرلاعومر فيُسمّى في النص العبراني تدعال - كما روبنا - لكنه يسمّى في الترجمة السبعينية ترغال، وكذا سمّاه يوسيفوس. وفسر رولينسون (في معجم الكتاب لسميث) ولانرمان (في كتابه في اللغة الأولى في بلاد الكلدان صفحة ٣٧٧) هذه الكلمة بمعنى الرئيس الأعظم، والشعب، الذي كان يلي أمره يسمى بالعبرانية كويم. ولما كان معنى الكلمة في العبرانية الامم، فجاءت في الترجمات مفسرة بها، فوصفوه بملك الأمم. وأكثر مفسري الكتاب على أنه يراد بهم العشائر الرحل التي لا مقر لها. وقال كلمت (في معجم الكتاب): إن المراد ملك جليل الأمم في عبر الأردن. وقال الاب فيكورو (في المحل السالف ذكره) يحق لنا أن نظن أن كويم اسم للبلاد التي نجد ذكرها مكرراً في الخطوط المسمارية، مسماة كوتي، ويراد بها على رأي رولينسون الصحراء الكائنة بين الفرات وسوريا حيث تقيم عشائر الرحل. وأما سميث فقال أولاً إنه يُراد بهذه، البلاد العربية، ثم قال يراد بها بلاد اشور.

وبقي أن ننظر في القبائل التي ضربها كدرلاعومر وحلفاؤه، فقال أولاً: إنهم ضربوا قبيلة الرافائيين في عشتروت قرنائيم، فالمراد بالرافائيين أو الرافائيم الجبابرة، القدماء الذين كانت مساكنهم في ما وراء الأردن. وظن بعضهم أنهم من ذرية رجل يُسمى رافا فَنُسبوا إليه. وقال غيرهم إن معنى كلمة رافائيم الجبابرة بلغة هؤلاء القوم القدماء، وبقي من هذه القبيلة بقايا في عهد موسى. إذ جاء في سفر يشوع بن نون (فصل ١٣ عد ١٢): كل مملكة عوج في باشان الذي كان مالكا في عشتروت، وادري وهو من بقية الجبابرة الذين ضربهم موسى وطردهم.

ولعل جليات الجبار الذي صرعه داود (ملوك ١ فصل ١٧) وغيره من الجبابرة كانوا من هؤلاء الرافائيين. وقد أطلنا الكلام في الجبابرة في عد ٢٤ فطالعه. وأما عشتروت قرنائيم مدينة هؤلاء فموقعها في عبر الأردن. قال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة عشتروت قرنائيم): هي مدينة واقعة في أرض باشان أو البثينة (كما سماها ابو الفدا) في نصيب نصف سبط منسا تبعد ستة أميال عن أذرع التي يسميها العرب اذرعات. وقال بعضهم إنها بصرى، وسميت بهذا الاسم تكرامة لعشتروت معبودة الكنعانيين والرافائيين. وكانوا يصورونها وعلى رأسها قرنان أو نصف هلال. فمعنى قرنائيم القرون.

ثانياً: قد ضرب كدرلاعومر وحلفاؤه عشيرة الزوزيين أو الزوزيم في هام، وهذه أيضاً من عشائر الجبابرة الذين كانت مواطنهم في عبر الأردن، حيث سكن بعدهم العمونيون، ويظن أنهم الزمزميون الذين جاء ذكرهم في سفر تثنية الإشتراع (فصل ٢ عد ٢٠) حيث قيل: «فإذا دانيت جهة بني عمون فلا تعادهم ولا تناصبهم فإني لست معطيك من أرض بني عمون لأنني لبني لوط وهبتها ميراثاً». وهي أيضاً تحسب من أرض الجبابرة، لأن الجبابرة أقاموا بها قبلاً، والعمونيون يسمونهم زمزميين وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقيين». وأما هام فهي مدينة في بلاد العمونيين جنوبي اللقاء لم يتحقق إلى اليوم موقعها. وفي الترجمتين السبعينية واللاتينية العامية أن كدرلاعومر ضرب الزوزيين مع الرافائيين في عشتروت.

ثالثاً: ضرب الغزاة عشيرة الأيميين في شوى قرينائيم وهؤلاء عشيرة قديمة كانت مساكنها في عبر الأردن في جنوبي بلاد العشيرة السالف ذكرها، وشرقي البحر الميت وتخلف لهم بسكنائها الموآبيون، قال موسى في سفر التثنية

(فصل ٢ عدد ٩ إلى ١١) قال لي الرب: «لا تعادِ الموابيين ولا تناصبهم حرباً فإنني لست معطيكم من أرضهم ميراثاً اذ لبني لوط وهبت عاد ميراثاً. وكان الأيميون قد أقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير، طويل القامات كالعناقين... والموابيون يسمونهم «أيميين». وأما مدينتهم قريثايم، فكان موقعها في عبر الأردن على عشرة أميال عن ميدبا نحو الغرب على ما روى أوسابيوس وشوى بمعنى وادٍ أو سهل. وقد ورد ذكر قريثايم في سفر العدد (فصل ٣٢ ع ٣٧)، وفي سفر يشوع بن نون (ف ١٣ ع ١٩) بين المدن الواقعة في نصيب سبط روبين وقد استرذها الموابيون منهم بعد مدة.

رابعاً: ضرب هؤلاء الملوك الحوريين أو الحوريم في جبل سكير، وقد سُمي الجبل وهذه القبيلة التي كانت تسكنه باسم سكير الحوري الذي ذكره وذريته الكتاب في سفر التكوين (ف ٣٦ ع ٢٠ وما يليه). وهذا الجبل يمتد إلى الشرق والجنوب من البحر الميت وقد ظعن إليه عيسو بعد أن افترق عن أخيه يعقوب، إذ لم تسعهما أرض غربتهما لكثرة مواشيهما - كما في الفصل السالف ذكره من سفر التكوين - وأقام ثمة الحوريون والأدوميون ولد ادوم الذي هو عيسو. وقال بعضهم: إنه سُمي أدوم نسبة إلى احتلاله هذه البلاد التي كانت تُسمى ادوم قبله على ما يظهر من بعض الآثار المصرية. وقد ذكر موسى جبل سكير والأدوميين في سفر تثنية الإشتراع (ف ٢ ع ١) حيث قال: درنا حول جبل سكير أياماً كثيرة، ثم كلمني الرب قائلاً: حسبكم أن تدوروا حول هذا الجبل فخذوا إلى الشمال، ومر الشعب وقل لهم إنكم جائزون في تخوم اخوتكم بني عيسو المقيمين في سكير، فسيخافونكم، فتحرزوا جداً، لا تناصبوهم فإنني لست معطيكم من أرضهم شيئاً ولو موطن قدم، لأن جبل سكير قد وهبته لعيسو ميراثاً.

خامساً: ضربوا العمالقة والآموريين بعد أن رجعوا إلى عين مشفاط وهي قادس، وكانت مدينة الآموريين حصاصون تamar. أما العمالقة فذهب بعضهم إلى أنهم من ذرية عماليق بن اليفاز من ذرية تمانع (تك ف ٣٦ ع ١٢)، واليفاز هو ابن عيسو، ولما كان عماليق هذا لم يولد إلا مدة مديدة بعد ابراهيم، فتأول هؤلاء آية الكتاب بمعنى أن كدراوعمر ضرب سكان البلاد التي سُميت بعد ذلك بلد العمالقة نسبة إلى عماليق بن أليفاز بن عيسو. على أن المحققين صححوها ما رواه علماء العرب، فقال بعض هؤلاء إن عماليق هو ابن حام بن نوح، وأنه ولد عاداً،

وعاد ولد شدّاداً وشديداً. وقال ابن خلدون: «قال ابن اسحق وكان للاوذ (وهو لود بن سام) أربعة من الولد وهم: طسم وعمليق وجرجان وفارس». وقال أبو الفدا: وولد لسام عدة أولاد منهم لاوذ بن سام، وولد للاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق الذي هو أبو العمالق، ومنهم كان الجبارة بالشام والفراعنة (أي الملوك الرعاة) في مصر». وقد نقل أبو الفدا قوله هذا برمته عن ابن الأثير في الكامل. وعليه فالأظهر والأقرب لنص الكتاب أن العمالقة الذين ضربهم كدرايعومر ينتسبون إلى عماليق آخر غير ابن اليفاز، لا يتحقق أمن ولد حام هو، أم من ولد سام، لأن الكتاب لم يذكر ولداً للود بن سام، ولم يذكر لحام ابناً يسميه عماليق، فقد يكون من أحفادهم. وقال لانزمان إنه يظهر من أقدم التقليدات العربية أن أصل العمالقة من ذرية آرام ولوديم (أو لود) بن مصرائيم فهم من أصلين حامي وسامي. ومهما يكن فهم أقدم من عماليق حفيد عيسو. ويقوي هذا ما جاء في سفر العدد (ف ٢٤ ع ٢٠) حيث قيل في بلعام: لما استدعاه بالقي ملك الموآبيين ليلعن شعب إسرائيل أنه «رأى عماليق فضرب مثله، وقال: أول الشعوب عماليق وعاقبته إلى الهلاك». فوصفه عماليق بأنه أول الشعوب لا يصدق على العمالقة لو كانوا من ولد اليفاز بن عيسو، إذ لا يكون تعاقب عليهم حينئذ إلا ثلاثة أو أربعة قرون. وأيضاً لو كان هؤلاء العمالقة من ذرية عيسو لوبهم موسى على تنكيلهم بأخوتهم بني إسرائيل، ولا أثر لهذا التوبيخ في أسفار موسى.

وأما عين مشفاط أي قادش فالأظهر أن موقعها على تخوم بلد أدوم، واطراف بلاد الكنعانيين، وأنه هناك كان خصام بني إسرائيل لموسى لقلّة الماء. وأخرج موسى الماء لهم من الصخرة الذي سمي ماء الخصوبة (سفر العدد ف ٢٠). واسم مشفاط مشعر بشيء من ذلك لأن معناه الخصومة أو القضاء ويؤيده ما ورد في الفصل المذكور (عد ١٤)، وهو أن موسى بعد معجزة إخراج الماء من الصخرة أنفذ رسلاً من قادش إلى ملك أدوم. فإذا قادش هذه كانت في جوار بلاد الأدوميين. وقال هيرودت (ك ٣ ف ٥): «إن بلاد السوريين الذين يُسمون فلسطينيين تمتد من فينيقية إلى جبال قادش، وما قادش، على ما أرى أقل اعتباراً من سرد» مدينة اليونان.

وأما الآموريون فهم ولد الأموري الرابع من أبناء كنعان، وكانت مساكنهم

الجلال الواقعة في غربي البحر الميت ، وكانت لهم مواطن في شرقيه ايضاً . وقد أخذ موسى هذه البلاد من ملكهم سيحون ملك الآموريين وعوج ملك باشان كما سيحيى . وأما مدينتهم حصاصون تamar فيظن أنها عين جدي المعروفة الآن بهذا الاسم في غربي البحر الميت غير بعيدة عن أريحا . وتأويل حصاصون تamar مدينة النخيل لكثرة أشجاره فيها (كلمت في معجم الكتاب) .

وأما دان التي وثب فيها ابراهيم وغلمانه على جيش الملوك الأربعة فشئت شملهم واسترد لوطاً وما غنموا من سدوم ، فموقعها في سفح لبنان الغربي ، وليست في محل بانياس بل على مقربة منه في محل تل القاضي . وصوبا التي استمر ابراهيم يطارد اعداءه إليها موقعها في محل قرية المزة على مقربة من دمشق على ما رأى بوجولا (في مراسلات المشرق) الذي تجول في هذه المحال ، وتروى في البحث عنها . وغور السديم الذي تصافت فيه عساكر المتحاربين كان قريباً من سدوم وعمورة .

عد ١٥٦

ملكيساى الذى التقى ابراهيم عند عودته من حرب الملوك

جاء في سفر التكوين (ف ١٤ ع ١٨) أن ملكيساى ملك شليم خرج للقاء ابراهيم عند عودته من حرب الملوك ، وقدم خبزاً وخمراً لأنه كان كاهناً لله العلي وبارك ابراهيم ودعا له ، ورفع ابراهيم إليه العشر من كل ما كان معه من المال . وقد توفرت الأقوال في أصل ملكيساى هذا ، فروى القديس ايرونيوس أن السامريين أيضاً يزعمون أن ملكيساى إنما هو سام بن نوح ، والقديس ابيفانيوس أن السامريين أيضاً يزعمون كذلك . وقال أبو الفرج ابن العبري في تاريخ الدول : إن ملكيساى هو ابن عابر أو أحد أحفاد سام . وزعم بعضهم انه من ذرية حام . وقال غيرهم إنه ابن صيدون بن كنعان . والأظهر والأشبه بالصواب ان ملكيساى من ذرية سام ، وأن عشيرته كانت من العشائر القليلة التي استمرت على الاعتقاد بوحدانية الله على ما رواه لانرمان (في مجلد ٦ صفحة ١٤٥) . ولما كان الرسول قال في ملكيساى (عبرانية فصل ٧ عد ٣) إنه لم يذكر له أب ولا أم ولا بدء أيامه ، ولا منتهى حياته ، فتوهم بعض القدماء أنه ملك أو خليفة سمية مع أنه ليس المراد من

كلام الرسول إلا أن سفر التكوين أتى بذكره بغتة، ولم يمهّد له بذكر أيّيه أو نسبه، ولم ينبئ بمولده ولا بمماته. وقد شبه الرسول المسيح به من حيث الخبرة وفضله عليه، بأن خبرته تدوم إلى الأبد (عبرانية فصل ٧). وذكر المرتل ملكيصادق متنبأ على المسيح بقوله: «أقسم الرب ولم يندم أنك انت كاهن إلى الابد على رتبة ملكيصادق» (مزمور ١٠٩ عد ٤). وقال بعض الاباء منهم اكليمنطوس الاسكندري وكبريانوس: إن الخبز والخمر لم يقدمهما ملكيصادق لابراهيم، بل قدمهما محرقة لله شكراً له على نصره ابراهيم، فكانت ذبيحته خبزاً وخمراً كذبيحة المخلص غير الدموية. وتأويل ملكيصادق ملك البر، ويسمى ملك شليم أي ملك السلام. كما فسر الرسول (عبرانية فصل ٧). والاكثرون على ان شليم يراد بها اورشليم، وأن ملكيصادق كان ملكاً على هذه المدينة وحبراً لله فيها. ولكن ظن القديس ايرونيوس أن مدينة ملكيصادق هي مدينة سالم، وكان موقعها بجانب نابلس. وقال بعضهم إنها سالم التي ورد ذكرها في بشارة يوحنا (فصل ٣ عد ٢٣) حيث قيل: «وكان يوحنا يعمد في عين نون بقرب سالم لكثرة الماء هناك». والمعتمد عليه القول الاول بأنها أورشليم.

عد ١٥٧

تجديد الله مواعده لابراهيم وولادة اسماعيل

شكر ابراهيم لله لنصره على الملوك وسائر آلائه فتجلى له الرب في الرؤيا مشجعاً ابراهيم له ومجدداً وعوده، فناجاه ابراهيم قائلاً: ربي ما تعطيني وأنا منصرف عقيماً وقيم بيتي اليعازر الدمشقي هو يرثني. فقال له الرب: لا يرثك هذا بل يخرج من صلبك من يرثك وتكون ذريتك كعدد نجوم السماء. فصنع ابراهيم إذ ذاك بامر الله الحفلة الرمزية الدالة على توطيد العهد بين الله وبينه. فذبح بعض الحيوانات وشطرها أنصافاً، فرأى الرب مجتازاً بين ذبائحه بهيئة غمام ولهيب نار، ليدل على تقبله ذبائحه وإبرامه العهد معه. وكان من عوائدهم في تلك الأيام أنهم إذا شاءوا إبرام عهد ذبحوا ذبائح وشطروها، ومر المتعاقدون بينها كأنهم يقولون بلسان حالهم: فليشطرنّا الله كهذه الذبائح إذا لم نقم بوعدنا ونبرّ إيماننا. وروى القديس أفرام السرياني (في تفسيره سفر التكوين): إن هذه العادة استمرت

عند الكلدان حتى أيامه . ثم أنذر الله ابراهيم « بأن نسله سيكونون غرباء في أرض ليست لهم (أي في أرض مصر) ، ويستعبدون لهم ويعذبونهم أربع مئة سنة » .
ولأنه سوف يعاقب معذبيهم ويخرجهم بمال جزيل من بلاد مضطهديهم بعد القرن الرابع ويردهم إلى أرض موعدهم .

وبعد أن أقام ابراهيم عشر سنين في أرض كنعان ، ويعست سارة من أن تلد له ولداً سألته أن يتزوج بهاجر المصرية أمتها التي يظن أنها من جملة هدايا فرعون لابراهيم رغباً في أن يكون له منها وارث . ففعل ابراهيم ، وعلقت هاجر منه ، فهانت مولاتها في عينيها . وشكت سارة أمرها إلى ابراهيم فقال لها : هي أمتك ، اصنعي بها ما يحسن لك . فأذلتها سارة فهربت من وجهها . وظهر لها ملاك الرب وقال لها : إرجعي إلى مولاتك واتضعي لها ، ونبأها بأن الابن الذي يولد لها تسمية اسمعيل ، ويكثر نسله ، وتكون يده على الكل ، ويد الكل عليه . فعادت إلى مولاتها وولدت اسمعيل ، وكان عمر ابراهيم إذ ذاك ستاً وثمانين سنة وتأويل اسمعيل سمع الله واستجاب .

ولما صار ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة ، وكان عمر اسمعيل ثلاث عشرة سنة ، تجلى الله أيضاً لابراهيم ووعدته بتكثير نسله وأثبت عهده معه ؛ وغير اسمه أبرام الذي تأويله أب سام وجعله ابراهيم بدلالة على الجمع . فيؤول بابي الجماعة أو الأب العام ، وغير اسم ساراي ، الذي تأويله سيدتي أو أميرتي بالإضافة إلى ضمير المتكلم ، وجعله سارة أو سيدة أو أميرة . وصرح لابراهيم بأنه يعطيه منها ابناً فضحك وقال في نفسه : ألا بن مئة سنة يولد ؟ أم سارة وهي ابنة تسعين سنة تلد ؟ وسأل الله أن يحيي له اسمعيل . فحقق الله له أن سارة تلد له ابناً يسميه اسحق ، وأنه يبارك اسمعيل ، وينميه ويلد اثني عشر رئيساً ، ولكنه يقيم عهده مع اسحق لا مع اسمعيل (تك ف ١٥ و ١٦ و ١٧) .

عد ١٥٨

أمر الله لابراهيم بالختان

جاء في سفر التكوين (فصل ١٧) أن الله أمر ابراهيم أن يختن كل ذكر منهم في اليوم الثامن بعد مولده علامة لعهد بينه وبينهم ، فاختنن ابراهيم وهو ابن

تسع وتسعين سنة، وختن ابنه اسمعيل وجميع مواليد بيته، وسائر المشتريين بفضته كل ذكر من أهل منزله. قال بعضهم: كان الختان عند المصريين وغيرهم من الشرقيين قبل ابراهيم، وليس من يقيم نكيراً على اعتياد المصريين الختان قبل عهده، وقد عرفه مدة إقامته بين أظهرهم. وروى هيرودت (ك ٢ ف ١٠٤): إن الكلشيين (الذين يعتبر هيرودوت أصلهم من مصر)، والمصريين والأحباش هم أقدم الناس في استعمال الختان، وإن الفينيقيين وسريان فلسطين يقرّون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين، على أن قوله في اعتياد الفينيقيين الختان غير صحيح، إذ جاء في نبوة أشعيا (فصل ٣٢ عد ٣٠): «هناك امراء الشمال كلهم وجميع الصيغونيين الذين هبطوا مع القتلى... وهم غلف» أي غير مختونين. وأما قوله في المصريين فثبت بالقول والآثار. قال شباس (في مجلة الآثار القديمة مجلد ٣ صفحة ٢٩٨): إنه اكتشف في الكرنك صورة تمثل أولاداً يجري عليهم الختان وعمرهم من ست سنين إلى عشر. وحقق فيلكنسون (Wilkinson) أن هذه الصورة من عهد الدولة الرابعة في مصر أي نحو سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد. ويُرجّح أن المصريين استعملوا للختان موسى من حجر، كما استعملت في عهد موسى ويشوع بن نون (خروج ف ٤ عد ٢٥) ويشوع (ف ٥ عد ٢) ولا موجب حينئذ لوضع الحجر موضع آلة الحديد أو الفولاذ إلا تقليد القدماء. وهذا يحملنا على القول بأن الختان كان منذ عصر الحجر أي قبل استعمال آلات القطع من نحاس أو حديد أو فولاذ.

إن الله لم يقتصر في وحيه إلى الآباء على ما كانوا يجهلون، بل أرشدهم أحياناً أن يتخذوا طرائق يعرفونها من قبل، ويبارك تلك الطريقة ويجعلها مقدسة. فالذبايح مثلاً كانت معروفة من أقدم الأيام قبل أن يوحى إلى موسى كيفية تقديمها، وطريقة التعميد كانت معروفة قبل أن يرفعها المخلص إلى مقام السر ويؤيده تعميده يوحنا، فكذا أمر الله ابراهيم بالختان، وكان عرفه في مدة إقامته في مصر، إلا أنه كان عند المصريين وغيرهم أمراً صحيحاً تقصد به النظافة، فجعله الله علامة لميثاقه مع ابراهيم وذريته، وعليه فكان عند اليهود مأموراً ولازماً وكان عند المصريين وغيرهم اختياراً ومستحباً. وكان المصريون يختنون أولادهم في السادسة إلى الرابعة عشرة من عمرهم ذكوراً وإناثاً، وأما اليهود فيختنون بحسب أمر الله ابنائهم الذكور فقط في اليوم الثامن بعد مولدهم. وكانت أكثر قبائل العرب قبل الإسلام

أيضاً تستعمل الختان متصلاً إليها من اسمعيل . وكان لوط اوصل استعماله إلى العمونيين والمآبيين . وعيسو إلى الادوميين وقد حفظ الأحباش والقبط المسيحيون عادة الختان بمنزلة تقليد لا علاقة له بالدين .

عد ١٥٩

ظهور الملائكة الثلاثة لابراهيم وسارة وانطلاقهم إلى سدوم وتدميرها

انبأنا الكتاب في الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر من سفر التكوين ، أنه بينما كان ابراهيم جالساً بباب خبائه عند بلوط ممراً ، نظر ثلاثة رجال وقوفاً أمامه ، فبادر للقائهم وسجد لهم ، وألحَّ عليهم أن يضيفوه في خبائه ، فأولم لهم وظهر انهم من ملائكة الله ، وقالوا : إنهم سيعودون في السنة المقبلة لسارة ابن ، فسمعت سارة وهي في الخباء فضحكت ، فلامها الملائكة لامتراثها في أنَّ الله على كل شيء قدير . وقام الملائكة من هناك واستقبلوا جهة سدوم ، ومضى ابراهيم معهم ليشيخهم ، فدخل اثنان منهم سدوم ، وبقي ابراهيم مع ثالثهم ، فأعلمه ما يحل بسدوم لتناهي أهلها في الفواحش ، فطفق ابراهيم يتوسل إليه ألا يهلك البار مع الأثيم .

ولما لم يوجد خمسون باراً ولا خمسة وأربعون ولا أربعون ولا ثلاثون ولا عشرون ولا عشرة ، وكان الملاكان الآخران شهدا فحش أهل سدوم عياناً ، ولم ينجوا منهم إلا بضربهما لهم بالعمى . فأخرجوا لوطاً وبنتيه وامراته من سدوم وأمطر الرب عليها وعلى ما جاورها من المدن كبريتاً وناراً ، فدمرها وأباد سكانها ، ونجا لوط وبنتاه بفرارهما إلى مدينة صغيرة ، وسأل الملاكين العفو عن تدميرها لأنها صغيرة فسميت صوعر أو زوعر (أي الصغير أو الصغيرة) وكان اسمها قبلاً بالغ . والتفتت امرأة لوط إلى ما وراءها خلافاً لأمر الملاكين فصارت نصب ملح ، وصعد لوط من صوعر فأقام في مغارة في الجبل . وتوهمت بنتاه ان العالم باد كله بطوفان نار ، ولم يبق فيه رجل إلا أبوهما ، وأنه يحلّ لهما مضاجعة أيهما حفظاً للنوع وجرياً على ما كان بين ولد آدم . ففعلت الكبرى بعدما أسكرت أباهما ، وضارعتها اختها في فعلتها . فحملتا وولدت الكبرى إبناً سمته موب ، ومعناه من أبي وهو أبو الموابيين ، وولدت الصغرى إبناً سمته عمون ، ومعناه ابن شعبي وهو أبو العمونيين .

ذهب بعضهم أن مطر الكبريت والنار كونه الله في الجوِّ بمعجزة، وأنزله على هذه المدن فأحرقها، وذهب غيرهم وهو الأظهر أن ذلك كان انفجاراً بركانياً عجل الله فيه حركة الفواعل الطبيعية، وقوّاها، فكان هذا الانفجار الذي هو معجزة حقّة، عاقب الله به أهل هذه المدن الأربع؛ وهي سدوم، وعمورة، وأدّمة، وصبوئيم لتناهيهم في الفواحش. فأهلكهم ودمّر مدّنتهم. وترى ثمة آثار هذا الإنتقام إلى الآن. ويرجح هذا المذهب ما قاله «الكتاب» (ف ١٩ عد ٢٧) وهو: «فبكر إبراهيم في الغد إلى الموضع الذي وقف فيه أمام الرب فطلّع إلى جهة سدوم وعموره وسائر أرض البقعة ونظر، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتون.

وقد أثبت كثير من العلماء القدماء إحراق سدوم وما جاورها؛ منهم استرابون (في ك ١٦ من الجغرافية) وتاشيتوس (في ك ٥ من تاريخه). وقد ضارح كاتب السفر المنزل بوصفه سهل سدوم بالخصب وكثرة السكان وتدمير مدنها بنار من السماء، ومنهم أيضاً سولين بوليستر (في ف ٣٨ في اليهودية) وبلينيوس (في ك ٣ من التاريخ الطبيعي)، ويوسيفوس (في ك ١ ف ١١ من تاريخ اليهود وك ٤ ف ٢٧ من تاريخ حريهم) وغيرهم. وأخذ شعراء اليونان عن هذا التاريخ عدة روايات منها الرواية الشهيرة الموسومة برواية أرفا وأوريديس. وقد أثبتها كثير من القدماء منهم ديودورس الصقلي (ك ٤ من مكتبته)، وأوفيد (ك ١٠ و ١١)، وفرجيل (في آخر ك ٤ من أشعاره) وغيرهم. ثم رواية الشاعر سيمونيد ورواية فيلامون وبوشيس التي أثبتها أوفيد وملخصها: أن المشتري وعطارد تنكرا فلبغا محلاً في جانب بحيرة كانت قبلاً أرضاً مأهولة، فقرعا ابواباً فلم يؤوهما احد. إلى أن لقيا شيخاً اسمه فيلامون وامرأته، واسمها بوشيس أكرما مثواهما وأصلحا لهما مأكلاً وغسلاً أرجلهما، وأعدّا لهما مرقداً. وبعد أن تعشى الضيفان كشفوا للشيخ وزوجه حقيقة حالهما، وأنهما سيّدمران المدينة وما جاورها لفحش سكانها، وينجيان مضيفهما وامرأته فقط، وأن يخرججا من البيت عاجلاً، ويتبعاهما إلى الجبل. فلبغا سفحه فإذا البلاد تفرقت، وأصبحت بحيرة إلا بيتهما الصغير، فتولاهما الغم لهلاك قومهما والمسرة لنجاتهما، ولا أشكال ولا مزية أن هذا الكلام منتحل عن «الكتاب» مغيراً فيه اسم الملاكين باسمي المشتري وعطارد واسمي لوط وامرأته باسمي فيلامون وبوشيس (انتهى ملخصاً عن كلمت في معجم الكتاب في كلمة لوط).

قال بعضهم : إنّ سدوم وما جاورها من المدن لم تدمرها النار فقط بل غطى أيضاً أرضها الماء الذي تكونت منه بحيرة لوط ، وعليه فكان موقعها محل البحيرة الآن . حتى عيّن بعضهم موقع سدوم تحت مياه الجانب الغربي من البحيرة . وأسند هذا القول ذروه إلى ما جاء في نبوة إرميا (ف ٤٩ عد ١٨ وف ٥٠ عد ٣٨) وهو : كما قلب الله سدوم وعمورة وما جاورهما ... فلا يسكن هناك انسان ولا يتغرب فيها ابن البشر . وفي نبوة عاموس (ف ٤ عد ١١) : « فقلبتكم كما قلب الله سدوم وعمورة ، فكنتم كشعلة منتشلة من الحريق » . وفي نبوة صفنيا (ف ٢ عد ٦) : « ليكون مواب كسدوم ، وبنو عمون كعمورة ، ملكاً للقواص ، وحفرة للملح ، وخراباً إلى الأبد » .

وقال آخرون : إن موقع هذه المدن كان على شاطئ البحيرة . وإنه جدد في ما بعد بناؤها ، ومن جملة ما استشهدوا به لقولهم توقيع ساويروس أسقف سدوم بين تواقع الأساقفة على الجمع النيقوي الأول الذي عقد سنة ٣٢٥ للميلاد . ولا يُبعد أن بنيت هناك مدينة حديثة ، وسميت باسم القديمة . وقد تكشف لنا اكتشافات هذا العصر العديدة عن وجه الحقيقة . فقد روت بعض الجرائد أن لجنة علمية إنكليزية تُعنى بهذا الكشف . وقال الأب فيكورو (في الموجز الكتابي عد ٣٥١ في الحاشية) : « يظهر من الإكتشافات الحديثة أن بلاد سدوم كانت ممتدة من طرف بحر الميت الجنوبي إلى شاطئ الأردن الغربي ... والأظهر أن موقع سدوم كان في جانب جبل أسدوم في الجنوب الغربي من البحر الميت . ولم تفرق بالماء كما ظن كثيرون ، فكانت حيث يرى الآن كثير من قطع الملح المتبلور . وقد اهتدى لينش الأمريكي في هذا المحل إلى عمود ملح منفرد ، فلعله تمثال امرأة لوط الذي ذكره يوسيفوس (كما سيأتي) ، وباقي المدن كان في سفح الجبل في الغور . وصوّر كانت في مصب وادي الصافية أو وادي الذراع » .

وأما قول الكتاب بأن امرأة لوط صارت نصب ملح ، فذهب بعضهم إلى أن مفهومه على ظاهره . فقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود في ك ١ ف ١١) : إن هذا النصب أو العمود كان يشاهد هناك إلى أيامه ، وقال كلمت (في تاريخ العهد القديم) : حقق بعض القدماء أن امرأة لوط صارت عمود ملح حقيقة لا تؤثر به التغيرات الجوية ، فاستمر يمثل امرأة ، وإن في كتب بعض الجواله أن سكان تلك البلاد دلّوهم على هذا التمثال عن بعد . ولكن ظهر لدى تفحص أقوالهم أنها لا

تخلو من مناقضات وحكايات . وقال بعضهم إن موسى لم يشأ أن يقول الا امرأة لوط لإبطائها في سيرها ، وتتالي التفاتاتها إلى ما ورائها خلافاً لأمر الملاكين ، فأدركها مطر الكبريت والنار فصارت كموميا مصر موعبة من القار والكبريت . وزعم بعضهم أن المراد أنه أقيم نصب من حجر ملحي على قبرها ، وزعم آخرون ان قول الكتاب رمزي يراد به أن امرأة لوط صارت نصب ملح رمزي يصلح فساد الناس عند تبصّرهم بما حلّ بها لمخالفتها .

عد ١٦٠

ارتحال ابراهيم إلى جرار ومولد اسحق

غادر ابراهيم ممرا في جانب الخليل ، وانتجع جرار في جنوبي غزة وشرقي خان يونس وهي المعروفة الآن باسم أم الجرار . وكان ملكها حينئذ يسمى أييملك ، ولقن ابراهيم سارة أن تقول إنها اخته كما فعل عند انحدارهما إلى مصر ، وهام أييملك بها فأخذت إلى داره ، لكن الله ابتلاه بمرض منعه الدنو منها . وقيل له في الحلم إنك هالك بسبب المرأة التي أخذتها فإنها ذات بعل . فاعتذر بجهله أنها امرأة ، واستدعى ابراهيم فلامه على قوله إنها أخته . فقال ابراهيم : « على الحقيقة هي أختي ابنة أبي غير أنها ليست ابنة أُمي » . وقد مرّ الكلام بهذا الشأن في عد ١٥٤ ، فأعطى أييملك ابراهيم غنماً وبقراً وعبداً وإماءً ، وردّ عليه سارة امرأته ، وقال لسارة : أعطيت أخاك ألفاً من الفضة تكون لك حجاب عين حيشما ذهبتي ، واذكري أنك أخذت . فكأنه يقول : لتشتري حجاباً تغطي به وجهك حيشما ذهبتي لئلا تؤخذي مرةً أخرى . وغضب عبيد أييملك بمر ماء كان احتقرها رعاة ابراهيم ، فكان لذلك نزاع أدّى إلى معاهدة بين أييملك و ابراهيم . وأقام ابراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها وقال لأييملك : هذه سبع نعاج تأخذها من يدي لتكون شهادة لي بأني حفرت هذه البئر ، ولذلك سمي ذلك المكان بئر سبع ، وما برج هذا اسمه إلى الآن . فهناك حلف ابراهيم وأييملك وفيكول رئيس جيشه إبراماً للعهد بينهم (تك ف ٢٠ و ٢١) .

وولدت هناك سارة لابراهيم ابناً سمته اسحق وهو لفظ عبراني معناه ضحك ، يشار به إلى ضحك سارة عندما بُشّرت بأنها تلد ابناً في شيخوختها .

وكان ابراهيم ابن مئة سنة وسارة بنت تسعين سنة حين ولد لهما اسحق ونختن اسحق في اليوم الثامن من مولده بحسب أمر الرب لأبيه . قال يوسفوس (ك ١ ف ١١ من تاريخ اليهود): «ما برحت عادة الختان في اليوم الثامن يجري عليها اليهود، على ان العرب لا يختنون ابناءهم إلا في الثالثة عشرة من عمرهم تمسكاً بأن اسمعيل جدهم لم يُختن إلا في هذا العمر». وصنع ابراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام اسحق . وقال كلمت في تاريخ العهد القديم: قال بعض اليهود القدماء لم يكن الأطفال يفظمون في ذلك العصر إلا للسنة الثانية عشرة بعد مولدهم . وقال آخرون: بل كانوا يفظمون في الخامسة من عمرهم . والذي أراه أنهم لم يكونوا يرضعونهم إلا سنتين أو ثلاثاً . فإننا نرى أم المكابيين تقول لأحد أبنائها (مكابيين ٢ ف ٧ عد ٢٧): «قد أرضعتك ثلاث سنين» . وأفتى فقهاء اليهود بأنه يلزم الام أن ترضع ولدها سنتين . ولا يتيسر لإرضاع ولدين أو ثلاثة معاً إذا ولدت الأم أولاداً في خمس سنين أو أكثر .

عد ١٦١

خروج اسمعيل من بيت أبيه ابراهيم وزواجه وولده

كانت سارة تحب اسمعيل قبل أن تلد اسحق ، ولكن بعد أن ولدته خشيت أن يزاحم أخاه في ميراث أبيهما ، ورأته ذات يوم ساخراً فقالت لابراهيم : اطرد هذه الأمة وابنها من بيتك ، فسأها ابراهيم ونكده ، فقال الله له : كل ما تقوله لك سارة فاسمع لقولها ، ولا يسوءك أمر اسمعيل وأمتك ، فإنه سيكون من اسمعيل أمة لأنه نسلك . فدفع ابراهيم في الغداة خبزاً وقربة ماء إلى هاجر فمضت مع ابنها تائهة في بركة بئر سبع ، ونفذ الماء من القربة وكادا يموتان عطشاً ، فهدى ملاك الله هاجر إلى بئر ماء فملأت القربة وسقته . فشب اسمعيل في بركة فاران وكان رامياً بالقوس ، واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر ، لأن هاجر مصرية وقد وهبها فرعون لسارة عند انحدارها مع ابراهيم إلى مصر كما مرّ .

وعن ابن خلدون في تاريخه : «إن اسمعيل شب بين قبيلة جرهم ، وتعلم اللغة العربية منهم ، وأعجبهم ، وزوجوه امرأة منهم . وماتت أمه هاجر فدفعها في الحجر» . ولعل امرأته الجرهمية غير المصرية التي أزوجته بها أمه كما قال الكتاب .

وروى ابن الأثير في الكامل، وأبو الفدا وغيرهما زواج اسمعيل بامرأة من بني جرهم وقالوا: إن الماء الذي اهدت إليه هاجر إنما هو بئر زمزم نبتت من دحض اسمعيل الأرض بقدميه. وقال ابن خلدون عن السدي: إن جبرائيل هو الذي همز له الماء بعقبه. ومما قالوه: إن ابراهيم كان يزور اسمعيل، وإنه وجد له امرأة فضلة غليظة فأوصاها لاسمعيل بأن يحول عتبة بابه، وأراد به أن يطلقها فظللها، وتزوج أخرى. ولما زاره أبوه في غيبته أحسنت تحيته ومثواه، فأوصاها أن تقول لاسمعيل: بأنه رضي عتبة بابه، ففهم منه أنه يريد إمساكها فأمسكها (ابن خلدون في تاريخه). وأن الله أمره ببناء الكعبة وهي البيت الحرام، وأن يعينه اسمعيل عليه، وأن هذا البيت استمر على ما بناه ابراهيم إلى أن هدمته قريش بعيد ظهور الإسلام (ملخص عن أبي الفدا في التاريخ).

وذكر الكتاب أسماء بني اسمعيل (تك ف ٢٥ عد ١٣) فقال: «نبايوت بكر اسمعيل وقيدار وادبيل ومبسام ومشماح، ودومة ومسا وحدار ويطما ونافيش وقدمة... إلنا عشر زعيماً لقبائلهم» وولد له بنت اسمها بسمة تزوجها عيسو بن عمها اسحق (تك ف ٣٦ عد ٣). والذي ذكره ابن الأثير في الكامل: أن السيدة بنت مضاض الجرهمي «ولدت لاسمعيل اثني عشر رجلاً: نابت وقيدار وازيل وميشا ومسمع ودما وماش وآزر وقطورا وقاقس وطميا وقيدمان. ومن نابت وقيدار ابني اسمعيل نشر الله العرب» أي العرب المستعربة، وأكثرهم على أن اسمعيل هو جد هذه الطبقة من العرب. قال أبو الفدا (في تاريخه): «وقيل لهم العرب المستعربة لأن اسمعيل لم تكن لغته عريية بل عبرانية. ثم دخل في العربية، فلذلك سمي ولده العرب المستعربة». واختلط هؤلاء بالعرب العاربة الذين هم من ذرية يقطان أو قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشاد بن سام بن نوح.

عد ١٦٢

امتحان ابراهيم بذبح ابنه اسحق

لم ينبئنا الكتاب شيئاً عن ابراهيم بعد مولد اسحق إلى امتحان الله له بذبحه. وكان عمر اسحق إذ ذاك خمساً وعشرين سنة على ما روى يوسفوس (في تاريخ

اليهود ك ١ ف ١٣). وقال بعضهم: كان عمره أكثر من ذلك، وقد مكث ابراهيم في كل هذه المدة في جرار وبرة بئر سبع خلافاً لمن زعموا أنّ ابراهيم كان قد عاد إلى حبرون عند امتحانه بذبح ابنه تمسكاً بآية الكتاب (تك ف ١ عد ٣٤): «ونزل ابراهيم أرض فلسطين أياماً كثيرة». مع أن بئر سبع وما جاورها من أرض فلسطين أيضاً ومضيه لذبح ابنه من جرار لا من حبرون ظاهر من قول الكتاب لأنه لم يبلغ جبل مورية الذي هو في اورشليم إلا في اليوم الثالث بعد سفره، ولو كان مضى من حبرون التي هي الخليل لبلغ في يوم واحد ولا أكثر من يومين، ويظهر ذلك أيضاً من قول الكتاب (تك ف ٢٢ ع ١٩):

«ثم رجع ابراهيم إلى غلاميه (من جبل مورية) فقاموا ومضوا معاً إلى بئر سبع وأقام ابراهيم ببئر سبع» فإذا من بئر سبع بكر ابراهيم وأكفّ حمارة وأخذ معه غلامين واسحق ومضى إلى الموضع الذي أشار له الله إليه وهو أرض مورية. وفي اليوم الثالث رفع ابراهيم طرفه فأبصر الموضع من بعيد؛ وترك الخادمين مع الحمار في سفح الجبل، وأخذ اسحق وجعل حطب المحرقة عليه. فقال له اسحق: هذه النار والحطب فأين الحمل للمحرقة؟ فقال له: الله يرى له الحمل لها. ولما افضيا إلى الموضع المعين بنى ابراهيم المذبح، ونضد الحطب، وأوثق اسحق وألقاه على المذبح، وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب أن لا تمد يدك إلى الغلام. ورفع رأسه فإذا بكبش وراءه معتقل بقرنيه، فأخذه واصبعده محرقة بدل ابنه. ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية قائلاً: بنفسى أقسمت يقول الرب بما أنك لم تذخر ابنك وحيدك لأباركتك واكثرن نسلك كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويتبارك بنسلك جميع أمم الأرض، ورجع ابراهيم إلى بئر سبع كما مر. وأما جبل مورية فقال بعضهم هو المحل الذي بُني فيه بعد هيكلي سليمان، وقال آخرون هو جبل الجلجلة، وزعم السامريون أنه جبل غريزيم حيث بُني بعد هيكليهم.

عد ١٦٣

موت سارة ودفنها في المغارة المضاعفة

عاد ابراهيم من بلاد جرار فأقام في حبرون (الخليل) حيث كان أولاً.

وأدركت المنية سارة وعمرها مئة وسبع وعشرون سنة قبل زواج اسحق ابنها . فأقبل ابراهيم يكيها، وسأل بني حث ، وهم فصيلة من الحثيين - كما مرّ - أن يملكوه أرض قبر ليدفنها . ويتبين منه أنه استمر إلى يومئذٍ من الرجل لا يملك أرضاً فأجابوه : إنما أنت زعيم الله في ما بيننا في خيار قبورنا ادفن ميتك . فقال : إسألوا لي عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة (المضاعفة من كفل أو كيل العبرانية بمعنى ضاعف) التي له في طرف حقله بثمن كامل . وكان عفرون جالساً بين القوم فقال لابراهيم : الحقل قد وهبته لك ، والمغارة التي فيه أيضاً هبة لك مني على مشهد بني قومي . فتبصر ما أقدم هذه المجاملات في بلادنا وما برحت تجري فيه . فإن عفرون ذكر بعداً أن أرضه تساوي أربع مئة مثقال فضة . فوزن له ابراهيم الفضة التي ذكرها مما هو رائج بين التجار ، فصار هذا الحقل ملكاً لابراهيم دفن فيه امرأته سارة في المغارة المضاعفة ، ودُفن بعدها هناك ابراهيم . واسحق ووليه ويعقوب بعد نقل جثته من مصر . وأما راحيل فدفنت على مقربة من بيت لحم . ورفقة لم يذكر الكتاب مدفنها، ولكن روى يوسيفوس (ك ١ ف ١٩) أنها أيضاً دُفنت في هذه المغارة .

روى الأب فيكورو (في كتابه الموسوم بالكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٤٨٦) : إن موقع المغارة المضاعفة معروف بعينه، فهي في جامع الخليل المعروف بجامع ابراهيم ، ويحده به سور رفيع من أبداع آثار فلسطين، وقد حمل على العجب جميع الجوالاة الاوربيين من سائح بردو الذي طاف هذه البلاد سنة ٣٣٣ للميلاد إلى العالم دي فوكوا الذي تعهدا منذ بضعة سنين . وقد سمح الباب العالي للأمر دي غال وليّ عهد إنكلترا سنة ١٨٦١م أن يزور هذا المقام، لكنه رأى مدخل المغارة ولم يدخلها .

ثم أجاز ذلك للمركز دي بوت الإنكليزي سنة ١٨٦٦م . ولوليّ عهد المانيا فريدريك الثاني سنة ١٨٦٩م . فلم يتمكنوا من أن يطرفانا بنياً مهم عن داخل المغارة . على أن يياروتيّ المهندس الإيطالي أحد مستخدمي الدولة العلية ، وفق لأن يدخل جامع إبراهيم ثلاث مرات في ٨ ت ٢ سنة ١٨٥٦م ثم في ٧ ك ٢ و ٢٥ آب سنة ١٨٥٩م . على أن ما أتحفنا به قليل الأهمية، منه اكتشافه ان المغارة مضاعفة حقيقة لانقسامها إلى طبقتين عليا وسفلى . ومنه رؤيته بعض المدافن عن بعد . بيد أنه قد تلي في جمعية الكتابات القديمة في ٢٦ ك ٢ سنة ١٨٨٣م

خطاب حوى فقرة تاريخية من كتاب مجهول مؤلفه. وقد خطّ في القرن الثاني عشر إذ كان الصليبيون في فلسطين. وملخص تلك الفقرة: ان راهباً اسمه أرنول كان يسكن دير حبرون اهتمدى في سنة ١١٢٠م إلى عظام الآباء في المغارة المضاعفة، إذ أمره رئيسه أن يبحث في أرضها، فبحث فوجد أولاً عظام يعقوب ثم وجد في القرب من موضع رأسه مغارة أخرى لقي فيها بقايا ابراهيم واسحق. ولدن كشفه هذا الكنز أسرع يبشر الرئيس وإخوانه به فشملمهم السرور، وأقاموا الصلوة والشكر لله، وأقفل الرئيس باب المغارة كيلا يدخلها احد دون اذنه. وبعد أن أتم الأب فيكورو رواية هذه الفقرة قال: ولو بينت لنا هذه الشهادة، بتم عرف الراهب أرنول أن العظام التي وجدها هي بقايا أولئك الآباء لحسبناها قاطعة، فترك هذا البيان يجعل الشهادة قاصرة مشكوكاً فيها، ولا سيما ان الكتاب أثبت ان جثة يعقوب حنطت تحنيط المصريين موتاهم فلم يجد أرنول إلا عظامه، وبتم عرفها؟ وهل يراد بالأربع مئة مثقال من الفضة التي دفعها ابراهيم فضة مسكوكة او وزن منها ففي ذلك نظر، فعادة وزن الفضة جرى عليها الكلدان والكنعانيون. وكلمة شقال العبرانية المستعملة في هذه الآية معناها الوزن. ويراد بها أحياناً نوع من المسكوكات ولا نجد اسم المثقال في التوراة قبل هذه الآية، وقد عبر الكتاب عما دفعه ايمملك إلى سارة بألف من الفضة دون ذكر المثقال. ومهما يك من الأمر فلا نجد في الكتاب ذكراً للنقود المسكوكة إلا بعد السبي البابلي. واول من بدأ بسك الدراهم عند اليهود إنما هو سمعان المكابي. وكان عند المصريين في عهد ابراهيم خواتم من ذهب وفضة ترى صورها على آثارهم، وكانت متساوية وزناً فيتعاملون بها تعاملنا بالنقود، ولا يعلم ما كانت قيمة الفضة حينئذ في فلسطين. فلا يعلم قدر ما دفعه ابراهيم إلى عفرون. ولكن إذا غُذِل أن المثقال كان يساوي فرنكين وأربعة وثمانين سنتيماً كما كان في أيام الخللص. كان الثمن الذي دفعه ابراهيم ألف ومائة وستة وثلاثين فرنكاً (ملخص عن كتاب فيكورو في المحل الآنف الذكر).

عد ١٦٤

زواج اسحق

لما طعن ابراهيم في سنه استدعى اليعازر الدمشقي قيّم بيته وقال له: أن ضع

يدك تحت فخذني وهذه إشارة لليمين استعملها ابراهيم ويعقوب حفيده، مراداً بالفخذ فيها على ما فسر الحجري الولادة والحياة، فكأن الحالف يقول: أعدمني الله الحياة إن لم أبرّ في يميني. واستحلف ابراهيم اليعازر أن لا يزوج ابنه اسحق بنت من الكنعانيين، بل يذهب إلى ما بين النهرين، ويختار له زوجة من عشيرته. وحذّره من أن يرّد ابنه إلى هناك. فأخذ اليعازر عشرة جمال من جمال مولاه وحلياً وهدايا، وبلغ حاران مساءً، وأناخ الجمال عند بئر الماء وصلى إلى الله أن يجعل الفتاة التي يسألها أن تسقيه، وتقول له: «اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً». تكون من أعدها الله زوجة لعبده اسحق. وقبل فراغه من صلاته وفدت رفقة بنت بتوئيل بن ناحور أخي ابراهيم، فسألها أن تسقيه فأسرعت وأنزلت جرتها على يدها، وسقته وقالت: استقي لجمالك أيضاً. فتيقن انها من أعدّها الرب امرأة لابن مولاه، وأخذ خرساً من ذهب وزنه نصف مثقال، وسوارين لبيدها وزنهما عشرة مثاقيل ذهب، فدفع ذلك إليها. ويستدل من هذا على قدم عادة التحلي بالخرص والسوار، وهل كان الخرص يعلق بالأنف أو الأذنين؟ فالظاهر انه كان حلية للأنف وتلك عادة قديمة حفظها العرب وغيرهم من الشرقيين إلى الآن. ودليله صغر الخرص، وكونه فرداً. ولو كان للأذنين لكان زوجاً ووزنه أكثر من نصف مثقال. ويؤكد قول «الكتاب» بعد ذلك: «جعلت الخرص في انفها» (تك ف ٢٤ ع ٤٧). وأسرعت رفقة فأخبرت أخاها لابان، وأتى إلى البئر يدعو اليعازر للضيافة فأتى، ولم يشأ أن يذوق طعاماً قبل أن يصرّح بمقصده، فقصوا سؤاله، وارتضت رفقة أن تمضي معه في اليوم التالي. فسار بها تصحبها جواريتها. وكان اسحق يوم وصلوا خرج إلى الصحراء، فرأى الجمال مقبلة، ورفعت رفقة طرفها، وإذا عرفت أنه اسحق نزلت عن الجمل، وأخذت النقاب فاستترت به. وهذا دليل على قدم العادة في استتار النساء في المشرق، ولا سيما عند اللقاء بمن يخطبهن. فأدخلها اسحق خباء سارة أمه، وصارت له زوجة. فاحبها وتعزّى بها عن أمه (تك ف ٢٤).

عد ١٦٥

زواج ابراهيم بقطورة وولده منها وموته

قال الكتاب (تك ف ٢٥ ع ١): «عاد ابراهيم فأخذ زوجة اسمها قطورة

فولدت له زمران ويقشان ومدان ومدين ويشباق وشوحاً». قال علماء اليهود : ليست قطورة إلا هاجر نفسها استردها ابراهيم بعد وفاة سارة . وظن بعضهم أن قطورة كنعانية أصلاً . وقال ابن خلدون : إنها بنت يقطان من الكنعانيين . وروى عن السهيلي أنه كان لابراهيم أولاد آخرون ، خمسة من امرأة اسمها حجین أو حجون بنت أهيب . وإن الطبري سمي هذه المرأة الأخرى رعوة . وفي قولهم هذا نظر ولا أراء يضاد الكتاب بل في الكتاب إشارة إليه بقوله (عد ٥) : « وأعطى ابراهيم جميع ماله لاسحق ، ولبنى السراي التي لابراهيم وهب ابراهيم هبات وصرفهم عن اسحق ابنه في حياته شرقاً إلى ارض المشرق . ومن الغريب ان يتزوج ابراهيم بقطورة وعمره مائة واربعون سنة ، وأن يولد له ستة اولاد . فقال بعضهم ، منهم القديس اغوستينوس (في ك ٣ رداً على يوليانوس) : إن الله حفظ فيه قوته على كبر سنه تكثريراً لنسله . وقال آخرون : إنه تزوج بقطورة قبل وفاة سارة ، فكانت سرية جعلها امرأة بيته بعد موت سارة . وفي الآية الآنف ذكرها إشارة إلى هذا . وقال : كلمت ان الأصل العبراني يحتمل أن يترجم : « وكان ابراهيم أخذ زوجة اسمها قطورة » إلى آخر الآية .

وكان أبناء ابراهيم أصولاً لبطون وفصائل من العرب . ومن مدان ومدين المدينيون الذين كانت مواطنهم في شرقي البحر الميت وجنوبي بلاد مواب . وكانت عاصمة بلادهم تسمى مدين أيضاً وهم الذين ضربهم موسى وأثنى في ارضهم ، وقتل فنحاس بأمره ملوكهم الخمسة ، وسبى نساءهم وأطفالهم عقاباً لإغراء بناتهم بني إسرائيل بالفحشاء . وعبادة بلع فغور كما في سفر العدد (ف ٢٢ و ٢٥ و ٣١) . وهم الذين كسرهم هدد بن ملك ادوم كما جاء في سفر التكوين (ف ٣٦ عد ٣٥) . وقد ضايقوا بني اسرائيل في عهد القضاة فكسرهم جدعون وبدد شملهم (قضاة ف ٦ و ٧) . وكان مدينيون آخرون يسكنون في الجانب الشرقي على البحر الأحمر وإلى بلادهم فرّ موسى من وجه فرعون ، وتزوج منهم بصفورة بنت يترو كاهن مدين الذي يسميه المؤرخون العرب شعيباً ولأهل العلم في أصل هؤلاء قولان : فمن قائل إن أصل كل المدينيين واحد وهو مدين بن ابراهيم من قطورة ، وبه قال كثير من المؤرخين العرب منهم ابن الأثير في الكامل ، حيث روى عند ذكر أولاد ابراهيم : إن « أهل مدين قوم شعيب من ولد مدين » . وهو الظاهر من كلام العلامة لانرمان (في كلامه على بني إسرائيل) إذ جعل المدينيين قبيلة واحدة مواطنها بين البحر الميت وخليج البحر الأحمر .

ومن قائل : إن أصل المدينيين سكان شواطئ البحر الأحمر من ولد كوش بن حام . وقد استدل بأن الكتاب وصف (سفر العدد ف ١٢ ع ١) صفورة امرأة موسى المدينية بكوشية أو حبشية . ويظهر من قول حبقوق النبي (ف ٣ ع ٧) : « رأيت اخبية كوش تحت البلاء وشقق أرض مدين رجفت » . ان اسمي كوش ومدين مترادفان ولا أقل من أن بلاد أحدهما تتأخم بلاد الآخر . وقد ذكر المؤرخون العرب هذا الخلاف منهم أبو الفدا حيث قال في تاريخه : « وقد اختلف في نسب شعيب (حمي موسى المديني) فقليل إنه من ولد ابراهيم الخليل . وقيل من ولد بعض الذين آمنوا بابراهيم » . وكذا في الكامل لابن الأثير عند ذكره شعيب . وقد توفي الله ابراهيم وله من العمر مئة وخمس سبعون سنة ، ودفنه ابنه اسحق واسماعيل في المغارة المضاعفة للسنة الخامسة أو السادسة بعد أن ولد اسحق عيسو ويعقوب . (تك ف ٢٥ ع ٧) .

الفصل الثاني

اسحق وابناه يعقوب وعيسو

عد ١٦٦

اسحق

ذكرنا في تاريخ اسحق خبر مولده وزواجه ، وجل ما بقي من أخباره أنه تزوج وعمره أربعون سنة . واستمر تسع عشرة سنة لم يرزق ولداً ، فصلى واستجاب الرب سؤاله ، فحملت رفقة امرأته فولدت توأمين . فخرج الأول أكلف اللون كله كفروة شعر فسموه عيسو ، ثم خرج أخوه ويده قابضة على عقب عيسو ، فدعي يعقوب اي المعقب (وهو من يجيء بعقب الآخر) . وأحب اسحق عيسو ، وأحب رفقة يعقوب . وكان عيسو صياداً ويعقوب رجلاً سليماً مقيماً بالخيام . فطبخ يعقوب عدساً وأتى عيسو من الصحراء وهو قد أعيا ، فرغب إلى أخيه أن يطعمه

من طبخه، فأبى إلا أن يبيعه بكرته. فحلف له على بيعه إياها منه، فأكل واستخفّ بالبكرية. وحدث جوع غير الذي كان في أيام ابراهيم فمضى اسحق إلى جرار، وكان ملكها اسمه ايملك، والأظهر أنه غير ايملك الذي كان في أيام أبيه على ما في معجم الكتاب لفيكورو (في كلمة ايملك). وسأله أهل الموضع عن رفقة فقال: هي اختي خشية أن يقتلوه شغفاً بجمالها، كما قال أبوه عن سارة أمه. وبالمعنى نفسه أي أنها من أدنى أقربائه إليه. واطلع ايملك على أنها امرأته فعتبه على مواراته الحقيقة. وزرع اسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف، وهذه أول آية في الكتاب أنبأتنا بأن أبناء ابراهيم باسروا الزراعة. وعظم شأن اسحق، وتوفرت ثروته فحسده أهل جرار، وأخذوا يردمون الآبار التي حُفرت في أيام أبيه أو حفرها رعاة ماشيته: فقال ايملك لاسحق: اخرج من عندنا لأنك أصبحت أقوى منا جداً، فمضى وأقام في وادٍ في أطراف جرار، ثم شخص إلى بئر سبع فتجلى له الرب مجدداً، ووعد به تكثير نسله فذهب إليه ايملك وبعض حاشيته راغباً في محالفته، فأولم لهم اسحق، وحلف كل منهما لصاحبه. وأخبره عبيده أنهم وجدوا ماء «فدعاها الشبع». ولذلك اسم المدينة بئر سبع إلى اليوم». وقد مرّ (في عد ١٦٠ اعتماداً على ما في التكوين ف ٢١ ع ٣١) أن هذا المكان دُعي بئر سبع نسبة إلى النعاج السبع التي أقامها ابراهيم توثيقاً لعهدده مع ايملك، فلا خلاف بين الآيتين. فيظهر أن أهل جرار كانوا قد ردموا بئر سبع كما ردموا غيرها من الآبار، فحفرها عبيد اسحق ثانية وسماها الشبع. فللكلمة سبع أو شبع في لغتهم معنيان السبعة اسم العدد والشبع. فسميت البئر في أيام ابراهيم بئر سبع نسبة إلى النعاج السبع. وسميت في أيام اسحق بئر شبع، أي بئر الشبع من الماء حيث بنيت مدينة سميت بهذا الاسم كما قال موسى (تلك ف ٢٦ ع ٣٣).

ولما شاخ اسحق وكلّت عيناه عن النظر، رغب إلى ابنه عيسو أن يأتيه بشيء من صيده، ويصلحه له طعاماً ليأكل منه ويباركه. فعرفت رفقة، فأصلحت له ما يحب من ألوان المأكّل، وقدمته له مع يعقوب بعد أن كست يديه وملاسه عنقه بجلد المعز. وقال لأبيه: إنه ابنه عيسو فحُدع اسحق بملسمه، فنال يعقوب بالمرّة بركة أبيه. ولما أتى عيسو احتدم غيظاً على أخيه لخادعته أباه؛ وسبق يعقوب له إلى بركته. قد توفرت أقوال الآباء ومفسري الكتاب في ما إذا كان إثم عيسو ببيع

بكريته، ولثم يعقوب بمشتراتها، ويقول له لاييه انه عيسو بكره إلى سائر ما صنعه لينال البركة التي كان اسحق وعد عيسو بها. واطهر الاقوال في هذه المباحث ان عيسو أثم بشراسته واستخفافه بيكريته، ولم يأثم يعقوب بمشتراتها لأنهما توأمان، فلهما الحق سوياً لاسيما لأنه لا بد أن أعلمته رفقة أمه بما قال لها ملاك الرب وهي حبلى: « ان في جوفك أمتين، ومن أحشائك يتفرع شعبان: شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير ». (تك ف ٢٥ ع ٢٣). ومفاده ان حق التقدم والبكرية له بأمر الله، فلا حرج عليه إن توسل إلى حقه بطريقة ظاهرة وهي الشراء. وأما قوله لأبيه إنه عيسو بكره فلا يبرأ من الكذب، لكنه عرضي لعدم مضرتة بأخيه، فهو الأولى ببركة أبيه بحسب تديير الله. ويظهر أن اسحق كان موقناً بذلك فلم يباركه بعد انجلاء الحقيقة له بركة يعقوب مع حاجته في التماسها، بل أثبت البركة ليعقوب. وبهذا المعنى قال الرسول (رومة ف ٩ ع ١١): « فإنه قبل أن يولد الولدان ويعملا خيراً أو شراً ... قيل لها (لرفقة) إن الكبير يستعبد للصغير كما كتب: إني أحببت يعقوب وأبغضت عيسو » (ملخص عن معجم اللاهوت لبرجيا وعن تفسير الحجري لسفر التكوين). فحق عيسو على يعقوب، وأضر في نفسه قتله. وعرفت رفقة بما كنهه فاستدعت يعقوب، وأوعزت إليه أن يهرب إلى لابان أخيها خاله في حاران. وزينته إلى اسحق بأن قالت له « قد سئمت حياتي من أجل ابنتي حث (اللتين تزوج بهما عيسو)، فإن تزوج يعقوب بامرأة من بنات حث مثل هاتين، او من بنات سائر هذه الأرض فما لي والحياة ». فاستدعى اسحق يعقوب وباركه وأوصاه ان لا يأخذ امرأة من بنات كنعان، بل أن يمضي إلى حاران، ويتزوج بامرأة من بنات خاله لابان. فمضى يعقوب إلى حاران هرباً من وجه أخيه، ورغباً في ان يتزوج بامرأة من بنات خاله، وأما عيسو فلما رأى ان زواجه بامراتين حثيتين ينكد والديه مضى إلى اسمعيل عمه في بلاد العرب، فتزوج بنته محله (كذا في التكوين ف ٢٨ ع ٩ لكنها سميت بسمه في ف ٣٦ ع ٣ ولعله كان لها اسمان). وأما اسحق فاستمر حياً إلى أن عاد يعقوب من حاران بعد أن أقام ثمة عشرين سنة، وتوفاه الله وله من العمر مائة وثمانون سنة، ودفنه عيسو ويعقوب ابناه في مدفن أبيه ابراهيم في المغارة المضاعفة.

ارتحال يعقوب إلى حاران وزواجه فيها وولده

قد قص الكتاب أخبار رحلة يعقوب إلى حاران في الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين إلى الفصل السادس والثلاثين منه، فكان ملخصها: خرج يعقوب من بئر سبع وبات في موضع قفر. فرأى حلمًا كأن سلمًا منتصبًا على الأرض، ورأسها إلى السماء، وملائكة الله تصعد وتنزل عليها، والرب في أعلاها يعده بكثرة النسل، وبتمليكه وذريته تلك الأرض. وبرده إليها غائمًا موفقًا. فاستيقظ يعقوب مرتعشًا وقال: ما هذا إلا بيت الله وأخذ الحجر الذي كان وضعه تحت رأسه وأقامه نصبًا. وسمى ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله. وهو المحل المعروف الآن ببيت اين شمالي البيري (طالع عد ١٥٣) قريبًا من رام الله. وسار يعقوب إلى ان بلغ البئر التي منها تستقي ماشية حاران. فسأل الرعاة هل يعرفون لابان، او سالم هو؟ فقالوا: هو سالم وهذه راحيل ابنته آتية مع غنم أبيها. وكان على فم البئر حجر عظيم يجتمع الرعاة لدحرجته، فلما أقبلت راحيل دحرج يعقوب الحجر وسقى غنم خاله، وأخبر راحيل أنه ابن عمتها رفقة.

فأسرعت وأخبرت أباه، فأتى للقاءه وعانقه، ومضى به إلى منزله، وأحب يعقوب راحيل، وخدم أباه سبع سنين يرعى ماشيته إلى أن زفَّ إليه لية أختها الكبرى خدعة، بحجة أن العادة في بلادهم أن لا تزوج الصغرى قبل الكبرى، ووهب لابان زلعة أخته للية ابنته، ثم خدمه سبع سنين أخرى براحيل فأزوجه إياها، ووهبها بلهة أخته أمة لها. ثم خدمه ست سنين ليستوفي أجرته، واتفقا ان يعزل من الضان والمعز كل أرقط وأبلق وأدهس ويسلم إلى بني لابان مفروزًا، وأن تستمر بقية الغنم والمعز يرعاها يعقوب، وما كان من نتاجها أرقط أو أبلق أو أدهس كان أجره له. وما كان من النتاج أبيض أو أسود فهو للابان. فأخذ يعقوب عصي بُنى رطبة ولوز ودلب، وقشر فيها خطوطًا بيضاء، وجعلها تجاه الغنم في مساقى الماء، فكانت توحم الضان والمعز على العصي المقشرة، فتلد بهامًا مخططة ورقطاء وبلقاء. وكان يضع ذلك في الربيع ويتركه في الخريف، ليكون قسم من النتاج له، وقسم لخاله. وقد حقق الآباء اللاتينيون وكثير من العلماء أن الوسيلة التي استعملها يعقوب لا شيء من المعجزة فيها، بل هي أمر طبيعي، أثبتته العلماء بذكر اختبارات

عديدة، فإن أنثى كل نوع من الحيوان إذا تأثرت بشيء عند الوحام ظهر له غالباً أثر في صغارها. ولا حرج على يعقوب بهذه الحيلة لاستيفاء أجرته بالعدل، ولا سيما لأنه يظهر أن الله ألهمه هذه الوسيلة.

ولدت لية ليعقوب راؤيين وقالت: نظر الرب إلى مذلتني انه الآن يحبني بعلي، فتأويل الكلمة العبرانية رأى البنين مركبة من رأ بمعنى رأى، ومن بن بمعنى ابن ثم ولدت له شمعون. وقالت سمع الرب دعائي، فشمعون بمعنى سمعني. ثم ولدت لاوي وقالت هذه المرة ينعطف إليّ زوجي لأنني ولدت له ثلاثة بنين. فتأويل الكلمة المتعطف أو الملتوي، ثم ولدت يهوذا وقالت: هذه المرة أحمد الرب. فالكلمة معناها أحمد الله مركبة من يه بمعنى الله ويذا أو جدا بمعنى مدح أو حمد. وولدت له بلهة أمة راحيل داناً، وقالت راحيل: قد حكم الله لي وسمع صوتي. فدان بمعنى الديان أو الحاكم. ثم ولدت بلهة نفتالي، وقالت راحيل: قد صارعت أختي وغلبت، فالكلمة بمعنى المصارع أو المحارب. وولدت له زلفة أمة لية جاداً وقالت لية بجدي فتأويل الكلمة الجد أو الجودة والحظ. وولدت زلفة أيضاً اشير، وقالت لية: تغبطني النساء، فتأويل الكلمة السعيد أو المغبوط. وولدت لية ابناً خامساً ليعقوب سمته يساكر وقالت: أعطاني الله أجري لأنني أعطيت أمتي لرجلي، فالكلمة بمعنى الأجر. وولدت له أيضاً ابناً سادساً وسمته زبولون، وقالت: أمهرني الله مهراً حسناً فالآن يساكنني بعلي إذ ولدت له ستة بنين. فزيد بالعبرانية بمعنى وهب وأمهر، وزبل بمعنى سكن. وولدت لية ابنة سمته دينة، وذكر الله راحيل وفتح رحمها، فولدت ابناً سمته يوسف، وقالت: يزيدي الرب ابناً آخر فأوسف وأوسف العبرانية كالسريانية بمعنى زاد فسمته به تفاؤلاً ليزيدها الرب ابناً آخر كما قالت. وولدت عند موتها ابناً آخر ليعقوب سمته ابن المي لأنها ماتت بعيد ولادته، وسماه أبوه بنيامين أي ابن يميني كناية عن المحبة له. فأبناء يعقوب اثنا عشر: راؤيين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، ولدتهم له لية. ويوسف، وبنيامين، ولدتهما راحيل، ودان، ونفتالي ولدتهما بلهة أمة راحيل. وجاد واشير ولدتهما زلفة أمة لية (أخذنا تفسير الكلمات عن ذيل معجم الكتاب لكلمت).

وقد أيسر يعقوب جداً، وصارت له غنم كثيرة وأماء وعبيد وجمال وحمير، وداخل الحسد بني لابان وقالوا: إنه أنشأ ثروته من مالهم. ورأى يعقوب تغير وجه

خاله عليه . فقام بقومه وماشيته وعبر نهر الفرات ، واستقبل جبل جلعاد (جبل السلط) . ولم يعلم لابان مزاييلته أرض حاران إلا في اليوم الثالث ، فمضى باخوته يتعقبه سبعة أيام حتى أدركه في جبل جلعاد . فعتبه لهربه خفية ، ومخاتلته له بأن لا يدعه يودّع بنتيه ، ولسرقة آلهته . وكانت راحيل قد سرقت أصنام أبيها ، إما لاعتقادها بها قوة ما ، وإما لتستغني بها عن مهرها . إذ يظهر أن هذه الأصنام كانت من ذهب ، ونرى لية وراحيل تقولان ليعقوب : « هل بقي لنا نصيب وميراث في بيت أبينا » ؟ . ولم يكن يعقوب يعلم سرقة راحيل فاعتذر لخاله بأنه خشي أن يغتصب بنتيه منه ، ويمنعه العود إلى أبيه وأنكر السرقة . وسأله أن يبحث عن هذه الأصنام في أخبيتهم ، ومن وجدت معه فلا يحيا ، ففتش في كل أخبيتهم فلم يجدها لأن راحيل كانت أخذتها وجعلتها في رحل الجمل . وجلست فوقها ، فوثّبه يعقوب على اتهامه له ولبنتيه بالسرقة . ويظهر من ذلك أن أبناء تارح وأحفاده استمروا يعبدون الأوثان أو يجمعون بين عبادة الله والأوثان . ثم تسالما وقطعا عهداً بينهما وجمعا مع ذويهما حجارة وجعلوها كومة ، وأكلوا فوقها طعاماً ، وسماها لابان يجر سهدوتا أي كومة الشهادة . وسماها يعقوب جلعاد والمعنى واحد وانصرف لابان عائداً إلى مكانه وسار يعقوب في طريقه .

وأوفد يعقوب رسلاً إلى أخيه عيسو في جبل سعين ، وأفرز له هدية مثني عشرين تيساً ، ومثني نعجة ، وعشرين كبشاً ، وثلاثين ناقة مرضعاً مع أولادها . وأربعين بقرة وعشرة ثيران وعشرين أتاناً وعشرة جحاش . ودفعها إلى عبيده ليتقدموه بها إلى أخيه آملاً أن يسترضيه عن نفسه وآله . وعرف عيسو قدوم أخيه ، فهبّ للقاءه ومعه أربعمئة رجل ، ولما رآه يعقوب خاف ، وتقدم نساءه وأولاده وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى دنا من أخيه . فتلقاها عيسو وعانقه وبكيا وتقدمت أسرة يعقوب فسجدت لعيسو فعمت المسرة جميعهم . وأبى عيسو قبول هدية أخيه تلطفاً ، فألح يعقوب عليه فقبلها ورجع عيسو في طريقه إلى سعين . وأتى يعقوب بعد ذلك إلى شليم مدينة أهل شكيم (نابلس) ، وابتاع قطعة حقول بمئة نعجة فحضر ثمه خبائه . وكان قبل لقاء عيسو أن ظهر ملاك الرب ليعقوب فأمسكه وصارعه ليباركه ، فمس حق وركه فصار يطلع منه وسماه الملاك لذلك إسرائيل ، فالكلمة مركبة من إسر بمعنى ضبط أو ربط ومن إيل وهو لفظ الجلالة ، فالمعنى من أمسك أو صارع ملاك الله . وقال الكتاب (تك فصل ٣٢ عد

٢٣٢) «؛ ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي مع حق الورك إلى هذا اليوم لأنه لمس حق ورك يعقوب على عرق النسا» .

عد ١٦٨

مقتل شمعون ولاوي ابني يعقوب أهل شكيم وتمة أخبار رحلة يعقوب
خرجت دينة بنت يعقوب لتتنظر بنات شكيم فرأها شكيم، بن حمور الحوي
رئيس البلد، فأخذها وأذلها، وتعلقت نفسه بها، وسأل أباه أن يأخذها له زوجة،
فخرج حمور إلى يعقوب يقول: ابني علقت نفسه بابتكم، فصاهرونا وأعطينا
بناتكم، وخدوا بناتنا. وهذه الأرض بين أيديكم أقيموا بها، واتجروا، وتملكوا وما
تقترحوه عليّ أؤيده لكم، أكثروا عليّ المهر فأعطيتكم كما ترسمون لي، وأعطيني
الفتاة زوجة لابني. فقال بنو يعقوب: لا نستطيع أن نعطي أختنا لرجل اغلف،
فوافقكم بأن يختن كل ذكر منكم، فنعطيتكم بناتنا ونأخذ بناتكم. فحسن
كلامهم عند حمور وشكيم ابنيه وسمع لهما أهل المدينة. واختتن كل ذكر منهم
وبينما هم متألمون في اليوم الثالث، أخذ شمعون ولاوي كل منهما سيفه ولا بد
أن يكون صاحبهما بعض خدماهما، ودخلا المدينة آمينين، فقتلا حمور وشكيم ابنيه
وكل ذكر في المدينة. ثم دخل بنو يعقوب على القتلى، وغنموا كل ما في المدينة
من أجل تدنيس أختهم، فساء ذلك يعقوب، وقال لشمعون ولاوي: قد أشقيتmani
وأخبتما ريحي عند أهل هذه الأرض. وأنا في نفر معدود فيجتمعون علينا
ويقتلوننا. فقالا: أكرانية يتخذ أختنا؟ وأكثر الآباء والمفسرين على أن بني يعقوب
اقترفوا بذلك إثماً كبيراً. وزعم بعض علماء اليهود أن دينة تزوجت بأيوب بعد
ذلك، ولا مستمسك لهم بهذا ولا دليل عليه، فلا يعتد به.

فقام يعقوب من شكيم، وأقام في بيت إيل (بيت إين) وهو المحل الذي بات
فيه عند مضيه إلى حاران، حيث رأى السلم، فبنى ثمة مذبحاً، ثم ارتحلوا من
بيت إيل. وبينما هم على نحو ميل من افراتا (بيت لحم)، وقد دنا وقت ولاد
راحيل ففسر ولادها حتى ماتت بعيد أن ولدت بنيامين. فدفنت في طريق بيت
لحم، ونصب يعقوب نصباً على قبرها. وقال الكتاب: «هو نصب قبر راحيل إلى
اليوم» .

قال العالم كاران (ك ١ في اليهودية صفحة ٢٢٥): أجمعت تقليدات اليهود والمسلمين والنصارى على أن مدفن راحيل هو المحل المعروف الآن بقبر راحيل على الطريق بين أورشليم وبيت لحم، وأثبت ذلك بشهادة كثير من المؤلفين من القرن الرابع بعد الميلاد إلى هذه الأعصر، وإن كان البناء القائم الآن هناك حديثاً. وقدم يعقوب من هناك على اسحق أبيه في ممرا بجانب حبرون وهي الخليل، فسر به اسحق وبأبنائه وباركهم، واستمر معهم حياً مدةً بعد عود يعقوب إليه. وأما رفقة فروى يوسفوس (ك ١ ف ١٩ من تاريخ اليهود) أنها ماتت قبل أن عاد يعقوب إلى فلسطين، ولم يذكر سفر التكوين موتها. وقد ذكر المؤرخون الوثنيون تاريخ يعقوب، كما روى تاريخ ابراهيم وغيره من مشاهير العهد القديم، ومنهم ديمتريوس على ما روى أوسايبوس (في كتابه الموسوم بالاستعداد الإنجيلي ك ٩ ف ٢١). ورأى كثير من علماء هذا العصر أن رواية لاميدون التي أنشأها أوميروس في أشعاره منتحلة عن قصة يعقوب ولابان. وقال بعضهم: ان اسمي لابان ولاميدون بمعنى واحد وهو اللبن أو مادة البناء، وان اسمي هيزيون بنت لاميدون وراحيل بنت لابان بمعنى واحد وهو النعجة.

عد ١٦٩

عيسو وولده

قد مرّ أن عيسو تزوج بثلاث نساء يهوديت أو عادة بنت ايلون الحثي، واهليامه بنت عانة بنت صبعون الحوي (الحثي)، ويسمه أو محله بنت عمه اسمعيل. واختلاف الرواية في أسماء بعض هؤلاء النساء وبعض آبائهن يخرج إلى أنه من غلط النساخ، أو انه كان لكل من هؤلاء اسمان، فولدت عادة لاسمعيل إليفاز، وبسمة رعوائيل، واهليامه يعوش ويعلام وقورح. وكان عيسو أقام أولاً في جبل سكير وبعد عود يعقوب أخيه ارتحل منه إلى فلسطين مجاوراً لأخيه. ولكن لما أصبحت مواشيهما أكثر من أن يقيما معاً عاد عيسو إلى جبل سكير وهو في الجنوب الشرقي من البحر الميت ممتداً نحو البحر الأحمر. وسمي هذا الجبل بهذا الاسم نسبة إلى سكير الحوري الذي كان يسكنه قبل عيسو. وتسمى هذه البلاد ادوم، وظن أكثر القدماء انها إنما سميت بذلك نسبة إلى ادوم وهو عيسو. ولكن

أثبت بعض علماء هذا العصر ومنهم لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي ك ٩ في العرب ف ٣) : ان اسم أدوم وأدومين اقدم من عهد عيسو ، وأن عيسو نفسه سمي أدوم لسكنائه في أدوم بين الأدوميين . واستمسك بأن بعض البايبرات المصرية منذ عصر الدولة الثانية عشرة ورد فيها ذكر بلاد ادوم قبل عيسو بقرون .

ومهما يكن من هذا فقد توطن عيسو وذريته هذه البلاد ، وتقووا على الحوريين سكانها قبلهم . وكان منهم ملوك فيها كما كان قبلهم ملوك متعددون من الحوريين . قال فيهم «الكتاب» (تك ف ٢٦ عد ٣١) : «وهؤلاء الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل أن يملك ملك في بني اسرائيل» . فتدّرّع الجاحدون بهذه الآية لينددوا بالكتاب قائلين : كيف أمكن موسى أن يكتب هذه الآية ؟ ولم يكن ملك في إسرائيل إلا بعد قرون ؟ . وقد فند العلماء والمفسرون الكاثوليكيون زعمهم بطريقتين . فقال بعضهم ومنهم الحجري في تفسير هذه الآية : إن هذه الكلمات أدخلها كاتب متأخر العهد على كلام موسى ، فلا يعاب كتاب بدخول كلمة شرح عليه . وقال آخرون منهم الأب فيكورو (في الموجز الكتابي ع ٢٥٩) : لا يستغرب أن يكتب موسى الكلمات الآتفة الذكر فهو كتب في الفصل السابق من التكوين (ف ٣٥ ع ١١) : إن الله قال ليعقوب : «أنا الله القدير اتم وأكثر أمة وجماعة أم تكون منك وملوك من صلبك يخرجون» . فأى الغرابة أن يقول موسى بعد ذلك إنه كان في ادوم ملوك قبل أن يملك ملك في اسرائيل كما وعد الله يعقوب بأن يكون ملوك من صلبه .

لم يذكر الكتاب وفاة عيسو ، ولكن جاء في كتاب قديم جداً موسوم بوصية الآباء الإثني عشر أن عيسو أتى لمحاربة أخيه يعقوب ، فقتل في الحرب ودفن في جبل سكير . وقد ذكر «الكتاب» (تك ف ٣٦) أسماء الملوك أو الولاة الذين تولوا بلاد أدوم من الحوريين وبني عيسو . فقال جاحدو الوحي إن عدد هؤلاء الملوك وافر يتصل إلى أيام سليمان ، فلا يمكن أن يكون موسى كتبه . والصحيح الظاهر ان زمان هؤلاء الملوك لا يتجاوز زمان الخروج ، ولا تزيد مدتهم على المدة التي من أيام يعقوب إلى أن كتب موسى ، وهي نحو من خمسة قرون . وذكر اسم هدد بن بدد بينهم مع أنه كان ملك يسمى بهذا الاسم في أيام سليمان لا يثبت شيئاً . فما أكثر أسماء الملوك المترادفة في كل عصر وعند كل القبائل (فيكورو في الوجيز الكتابي ع ٢٥٩) .

الفصل الثالث

يوسف

عد ١٧٠

محبة يعقوب ليوسف وحسد اخوته له وما كان منه

قد أحبَّ يعقوب يوسف على إخوته لحسن منظره وسجاياه ، ولتذكره به راحيل أمه التي قضت في غَضِّ صباها ، وألبسه قميصاً موشى ملوناً . وكان الساميون يلبسون أولادهم خاصة أثواباً ملونة ، ويرى على مدافن بني حسن في مصر صور أناس تردوا بأردية تنوعت ألوانها ، فأوغر ذلك صدور اخوته وزادهم ايغاراً رؤيته أحلاماً منبئة بسؤدده عليهم . وقصه لها على أبيه واخوته كحلمه كأنه وإخوته يشدّون حزماً فانتصبت حزمته ، وسجدت لها حزمهم وكأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له . فزجره أبوه قائلاً : أترانا نجيء أنا وأهلك وإخوتك فنسجد لك ؟ وأضمر ليوسف اخوته السوء ، وأرسله أبوه يفتقدهم ، وهم يرعون ماشيتهم في ناحية شكيم (نابلس) . وكانوا ارتحلوا إلى دوتائين فصادفه رجل هداه إلى منتجعهم ، فلما رأوه مقبلاً أثمروا على إهلاكه فعارضهم رآوين أكبرهم . وصرف أفكارهم إلى طرحه في بئر لا ماء فيها لكي يخلصه من أيديهم ، ويردّه إلى أبيه . ونزعوا عنه قميصه الموشى وألقوه في بئر جافة في دوتائين . وكان يظن قبلاً أن دوتائين في جنوبي صفد وفي شمالي بحيرة طبرية حيث خان يسمى خان جب يوسف . على أن روبينسون كشف عن موقع دوتائين وهو في المحل المعروف الآن بتل دوتان في الطريق المؤدية من دمشق إلى مصر في الجنوب الغربي من جنين ، وفي شمالي السامرة على بعد إثني عشر ميلاً على ما حقق كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٢٠) . وفيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٨) ودوتائين معناه البثران أو الآبار وهناك آبار عديدة .

وبينما كان يوسف يتوقع الهلاك جوعاً إذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة نازلة إلى مصر، فحمل يهوذا اخوته أن يبيعوا يوسف لهؤلاء التجار الذين سماهم «الكتاب» (تك ف ٣٧) تارة إسماعيليين، وطوراً مدينيين فقال بعضهم إن القافلة كانت من الشعبين، وقال غيرهم إن الإسماعيليين كانوا يسكنون بلاد مدين، فسماهم «الكتاب» مدينيين نسبة إلى البلاد، واسمعييلين نسبة إلى الأصل. فأصعد يوسف إخوته من البئر وباعوه بثمن بخس بعشرين من الفضة. وأخذوا قميصه وغمسوه في دم تيس، وبعثوا به إلى أبيه قائلين أقميص ابنك هو أم لا؟ فأثبتته وقال: وحش ضار افترس يوسف، وظل يبكيه، وقد أبى أن يتعزى.

فأخذ التجار يوسف إلى مصر إذ لم يكونوا يتجرون بالبلسان واللاذن فقط بل بالرقيق أيضاً. والآثار الدالة على هذه التجارة في مصر من أقدم الأيام كثيرة فيشاهد على أبنيتهم كثير من صور الأرقاء بيضاً وسوداً. وجاء ذكرهم مكرراً في الخطوط القديمة، وخاصة في عهدة الصلح بين رعمسيس والخثيين حيث نص انه إذا أبقي رقيق من مصر إلى سورية لزم رده على مولاه (طالع عد ٦٦). وقد أطلال واجاد الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٣ وما يليها)، في بيان احتياج المصريين إلى النكعة، وهي نوع من الطيب يؤخذ من زهر نبات يسمى نكعة، والبلسان واللاذن وغيرها من الطيوب، واستجلابهم لها من بلاد العرب في طريق سورية، مثبتاً ذلك بكثير من آثارهم وخطوطهم. وروى صديقنا الأب روار الاراسي معلم اللغة العبرانية في كلية ليل (في مقالته مصر في عهد يوسف): إن العالم ابار اكتشف في أدفو أثراً يظهر منه دخول النكعة والبلسان في تركيب نوع من البخور سماه المصريون كوفني.

عد ١٧١

بيع يوسف لفوطيفار ومراودة امرأته له وسجنه

قال «الكتاب» (تك ف ٣٧ ع ٣٦): ان يوسف «باعه المدينيون في مصر لفوطيفار خصمي فرعون رئيس الشرط». وكثيراً ما ورد اسم فوطيفار في الآثار المصرية فقد سمي به كثيرون، وقد كتب في العلامات الهيروكليزية باطيفرا، وتأويله المكرس للشمس او المختص بالشمس معبودهم. وسماه المؤرخون العرب

العزیز، وثبت وصف «الكتاب» له بخصي فرعون كثرة ذكر الخصيان في الآثار المصرية، وتشاهد صورهم على مدافن مقبرة بني حسن مدلولاً عليهم بخلو أذقانهم من الشعر، واتساع صدورهم، وبلون بشرتهم الترابي . وقد أثبت كثير من آثار الكلدان أيضاً وجود الخصيان في قصور ملوكهم. على أن لفظة الخصي لم تبقى دالة على ما وضعت له حقيقة، فإن فوطيفار كان متزوجاً بل صارت وصفاً لمن كانت له مرتبة رفيعة عند الملوك، وقد اعتاد الملوك في كل عصر وبلاد أن يمنحوا رجالاً ألقاب شرف لا يعملون شيئاً مما تشير إليه كاسطبل عامرة. على أن بعض الجلالة في المشرق أثبتوا أن بعض الخصيان في هذه الأيام يتخذون نساء.

وروى مثل ذلك بعض المؤرخين القدماء عن الخصيان في أيامهم، ولنا بينة على ذلك في رواية الأخوين الآتي ذكرها التي وجدت مكتوبة في باير منذ عهد موسى. فإن بيتو أحد الأخوين كان خصياً، ووهبه الإله نوم امرأة. كل هذا يفند مزاعم جاحدي صحة الوحي الذين قالوا: ان كان فوطيفار خصياً فكيف كانت له امرأة؟. ووصف فوطيفار برئيس الشرط، وقد بينت آثار مصر كثرة ألقاب عمال ملوكها والمقرين إليهم، ومنها ما جاء في «الكتاب» عن رئيس السقاة ورئيس الخبازين اللذين وصفا بخصيين أيضاً (تك ف ٤٠ عد ٢). وتشاهد صور ملوكهم محفوفة بالحرس وكبراء العمال.

ونال يوسف حظوة في عيني مولاه، وأقامه على بيته وجميع ما كان له جعله في يده، ولم يكن يعرف معه شيئاً إلا الخبز الذي كان يأكله (تك ف ٣٩ ع ٤ و ٦)، ولنا في الآثار المصرية صور تمثل من كان كيوسف قيماً بيت مولاه ويده عصا أو صفيحة، يكتب عليها وعلى أذنه قلم. ومن ذلك الصور التي على مدفن في المحل المعروف بكوم الأحمر، وفي مقبرة بني حسن. وذكر الكتاب قيماً لبيت يوسف بعد أن استوزره فرعون. وتسمى هذه الآثار بعض هؤلاء ميراً أي رئيس البيت، فكذا كان يوسف في بيت مولاه. وكان حسن الهيئة جميل المنظر، فطمحت عين مولاته إليه، وراودته عن نفسها، فأبى اتقاء لله وتحصناً من الخيانة لمولاه. واتفق أن دخل البيت، ولم يكن فيه أحد من أهله، فأمسكت بثوبه، فترك ردائه بيدها، وفرّ هارباً إلى الخارج. فاتهمته بأنه راودها عن نفسها، وشكته إلى مولاه، فاستشاط غضباً، وأودعه السجن.

زعم بعض الجاحدين لصحة الوحي أن قصة يوسف هذه ليست إلا رواية وهمية سنداً إلى أن النساء المصريات كنَّ متحجّبات محصنات لا يخالطن من الرجال إلا الخصيان . فجاءت الإكتشافات الحديثة مبطلّة دعواهم مبيّنة غرورهم، إذ لم تكن نساء مصر في تلك الأيام محجّبات كنساء المسلمين في أيامنا، بل كنَّ يخرجن سافرات الوجوه، ويشهدن الملاعب والملاهي قائمات بين الرجال، ويستقبلنهم في بيوتهم، بل كانت المرأة سيّدة المنزل حتى كان لهنّ من الحرية أكثر مما لنساء الإفرنج في هذا العصر . وقد شهدت لذلك آثار تشدُّ عن العدّ، فإنّك ترى صورهنّ على كثير من الآثار سافرات الوجوه، شاهدات المحافل والإجتماعات، ومزدانات بالحلى والمطارف الثمينة .

وقد روى هيرودت (ك ٢ فصل ٣٥) ان المصريات كنَّ يقمن في الحوانيت متعاطيات التجارة والكسب، ويظلّ رجالهنّ في البيوت يحيكون الأنسجة . ونرى بعض الصور تمثل النساء أيضاً حايكات، وبعضها يمثلهنّ صارفات حيناً متطاولاً في زينتهنّ . وقد شهدت النصوص والآثار، والصور والتقليد بما كان من الخلاعة والتهتك في مصر . ومثلت بعض الصور نساء بعض أشرف القوم في حالة السكر، وعلى جدار مدينة أبو ما يأنف القلم أن يخطّ الإشارة إليه .

وقد اكتُشف في صدر هذا القرن باير حُطّت عليه رواية موسومة برواية الأخوين ، كتبها كاتب يسمّى إنانا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على عهد منفتح فرعون الخروج ابن رعمسيس الثاني لتكون فكاهة لوليّ العهد . وهذا البايير هو الذي كان يطالعه هذا الأمير نفسه ، وقد اشترته أولاً السيدة دي اورينياني من إيطاليا، وبعد وفاتها اشترته سنة ١٨٥٧ م إدارة المتحف البريطاني . ونشرت مثلاً له سنة ١٨٦٨ م . وكان العالم دي روجه أول من عني بترجمته، فكان ما حواه أشبه بما كان ليوسف مع امرأة فوطيفار، بل يظهر أن هذه الرواية منتحلة عن تاريخ يوسف . وقد أثبتّها الأب فيكورو (في كتابه الموسوم بالكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٤٣ وما يليها) . وأثبت ملخصها الأب روار صديقنا الآنف الذكر في مقالته (مصر في عهد يوسف) وعنه نلخص فحواها : « كان أخوان يسمّى أكبرهما أنابو وأصغرهما باتو عائشين بأعظم ائتلاف في بيت واحد . وكان أنابو متزوجاً، وباتو لا امرأة له ويعاون أخاه في الحراثة وشغل الحقل . فأثى باتو ذات يوم إلى البيت يلتمس بذراً ليزرعه، فانتهرت امرأة أخيه فرصة غياب زوجها،

فراودته عن نفسه دون حياء فوثبها، وفرّ من بين يديها وعاد إلى أخيه في الحقل . ولم يفه ببنت شفة عن قحة امرأة أخيه . أما هي فلما عاد زوجها من الحقل تمارضت وتظاهرت بالغضب، وشكت باتو بأنه راودها عن نفسها . فحنق أخوه واستلّ سيفاً وأزمع أن يفتك بباتو، فعنى الإله الشمس بنجاة البري، وأنطق بقرة فنبهته للفرار من أخيه . وفصل بين الأخوين بنهر موعب بالتماسيح وما بقي من الرواية مبين ما كان من حسن المجازاة لباتو البري، حتى جعله الملك ولياً لعهد، وعهد إليه تدبير المملكة وملك مصر عشرين سنة وبعد وفاته خلفه أخوه الأكبر . وجاء في «الكتاب» (تك فصل ٣٩ ع ٤٠) : ان يوسف « رزق حظوة في عيني رئيس الحصن » . فيظهر أن السجن كان في حصن، وأنه كان في هذا الحصن محل إقامة فوطيفار، إذ جاء في الكتاب (فصل ٤٠ ع ٣) عن رئيس السقاة ورئيس الخبازين أن فرعون « جعلهما في حبس بيت رئيس الشرط في الحصن حيث كان يوسف مسجوناً » . وقد وصف فوطيفار قبلاً برئيس الشرط « فجعل رئيس الحصن في يد يوسف جميع السجناء » . وكان أن رئيس السقاة ورئيس الخبازين أجزما إلى فرعون، فسخط عليهما، وألقاهما في السجن وكان يوسف يهتم بهما . فرأيا كلاهما حلماً في ليلة واحدة، وقلقا إذ لم يكن من يعبر لكل حلمه، فسألهما يوسف أن يقصا عليه حلميهما فقال رئيس السقاة : رأيت كأن جفنة كرم بين يدي فيها ثلاثة قضبان، أفرعت ونضجت عناقيدها، فأخذت العنب، وعصرته في كأس فرعون وناولته، فقال له يوسف : هذا تعبيرة القضبان الثلاثة هي ثلاثة أيام فبعدها يردك فرعون إلى منزلتك، وتناول الكأس كالعادة . فاذكرني عند فرعون . وقال رئيس الخبازين : رأيت كأن ثلاث سلال حواري (دقيق أبيض) على رأسي، وفي العليا منها جميع طعام فرعون مما يصنعه الخباز، والطير تأكله من السلة . فقال يوسف هذا تعبيرة حلمك : الثلاث سلال هي ثلاثة أيام بعدها ينزع الفرعون رأسك فتأكل الطير لحمانك . وكان اليوم الثالث يوم مولد فرعون، فردّ رئيس السقاة إلى سقايته، وأمات رئيس الخبازين على حسب تعبيرة يوسف (تك فصل ٤٠) .

وقد جاءت الآثار المصرية معاونة على بيان صحة كلام الكتاب بياناً علمياً . فقد كثر فيها ذكر الحصون التي كانت مقاماً لرؤساء الجند ومخفراً للسجناء . وقرأ إبار الكلمة المصرية الدالة على الحصن بيتاسوچار، أي بيت الحصن، وهي في النص

العبراني بت حص سحر فتأمل بهذه المقاربة . ثم ليس من يجهل اعتبار الأحلام عند المصريين وإجلال معبريها .

وقد جعلت العناية الربانية أحلام رئيس السقاة ورئيس الخبازين ثم فرعون نبوية لتكون ذريعة لرفعة يوسف ونجاة مصر وأهله من المجاعة . ومما جاء في الآثار المصرية عن الأحلام ما حُطَّ على جدار الكرنك ، وهو أن تمثال الإله فتاح ظهر في الحلم لمنفتح وانتصب أمامه يمنعه أن يتقدم بعساكره إلى ما كان أمامه فامتنع . وإن فرعون نوات ما يامون رأى حلمًا سنة ارتقائه إلى عرش مصر والحبشة معاً . كأن حيتين قامت إحداهما عن يمينه والأخرى عن يساره . وعبر الكهنة له حلمه بأنه يملك على مصر والحبشة ، وقد حُطَّ هذا الحلم وتعبيره على الصفيحة المعروفة بصفيحة الحلم التي ذكرها مسيرو . وقد جاء في كثير من البايترات ذكر الأحلام وتعبيرها ، وبما يتلذع للحصول عليها ولتعبيرها ، ومن شاء زيادة بيان فعله بمراجعة ما كتبه الأب فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٥٨ وما يليها .

زعم بعض الملحدّين تنديداً بالكتاب انه لم يكن في مصر جفن الكرم ، واستسلموا بأحد أقوال هيرودت (ك ٢ فصل ٧٧) : « إنه لم يكن كرم في مصر » ويقول بلو ترخوس إن المصريين كانوا يأنفون من شرب الخمر . وقالوا : إن جفن الكرم لم تغرس في مصر إلا في عهد الدولة السادسة والعشرين فيها . والصحيح ان جفن الكرم كانت عديدة في مصر منذ اقدم أعصارها ، وصورها على مدافن الأهرام ، ومقبرة بني حسن بتكذيب الملحدّين . وقد روى ويكلنسون (في كتابه في قدماء مصر) نقلاً عن الآثار المصرية طريقة غرس الكرم واستثماره وعصر العنب في المعاصر وتصفية العصير في الآنية بعد اختماره .

وقال الأب روار في مقالته (مصر في عهد يوسف) : « قد ساعدني الحظ في سفري عن قرب إلى مصر أن أكون من أول الداخلين إلى المدفن الذي كشف عنه من امد قريب في دير البحاري ، وهو بلا مرأ أقدم من عهد الدولة السادسة عشرة (التي كان فيها يوسف) . وكنت أظنني في وسط كرم حقيقة فجدران المدفن وسقفه مغطاة بجفن الكرم مزدانة بورقها وثمارها » . وقال الاب فيكورو (في المحل السالف ذكره) : إنما الصحيح أن المصريين لم يشربوا الخمر في كل عصر فقط بل

كانوا ايضاً يقدمونه لآلهتهم . فقد جاء في البايير المعروف بهاريس ذكر كثير من تقادم الخمر لهياكل الآلهة، وان رعمسيس الثالث (أحد ملوك الدولة العشرين) : « قدم ألف وثلاث مئة وسبعة وسبعين اناءً من الخمر ... وانه وهب هيكل طيبة (تاب) خبة خمر » أي كرماً، ولم يكن المصريون يكتفون بخمر مصر بل كانوا يستجلبون أنواعاً، من سورية وغيرها . وكان مشتهراً عندهم خمر عون وهي بلدة في غربي حلب.

وفي متاحف أوروبا كثير من الآنية التي كان خمر مصر يوضع فيها، ويزيد هذا اثباتاً الصورة الممثلة كوباً من الخمر مقدمة للآلهة او سكارى . وهذه الصور عديدة، ومنها صورة وجدت في طيبة ترى فيها صور رجال متماسكين بحبل ربط في شجرة، يدوسون العنب في المعصرة بأقدامهم وهم حفاة مترنمون . وأما قول هيرودت الذي استمسكوا به فلا عبرة له لا سيما لانه مخالف لكثير من اقوال هيرودت نفسه، حيث نص ان المصريين كانوا يشربون الخمر في بعض الاعياد والحفلات اكثر مما يشربونه في سائر الايام . وأن ابن البثا الذي سرق بيت مال الملك اسكر الحراس بالخمر . وأنه كان لكل من جنود الحرس الملكي اربعة اقداح خمر في كل يوم . وكل ذلك ظاهر في كتبه، ومثله في كلام بلوترخوس . وقد صرح ديودر الصقلي واسترابون وبلين بما يخالف قول هيرودت الأول فقد صدق الكتاب وكذب الملحدون .

عد ١٧٢

تعبير يوسف حلم فرعون واستيزار الملك له

قال «الكتاب» (تك فصل ٤١) : « وكان بعد مضي سنتين من الزمان » الذي عبّر فيه يوسف حلمي السجينين معه ان رأى فرعون حلماً كأنه واقف على شاطئ النهر اي النيل . فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهي حسان وسمان، وارتعت في المرج . وكان سبع بقرات أخر صاعدة وراءها من النهر وهي قباج وعجاف.. فأكلت البقرات القباج السبع البقرات الحسان السمان . وقد كان عدد البقرات السبع عند المصريين من الرموز الدينية، فانهم كانوا يعتقدون ان للثور المتأله

المعروف عندهم باوسيريس سبع بقرات بمنزلة سبع زوجات له . واستيقظ فرعون ثم نام، فحلم كأن سبع سنابل قد نبتت في ساق واحدة وهي سمان جياد . وكأن سبع سنابل دقاق قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها، فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل الممتلئة، وما برحت الريح الشرقية تثور في مصر إلى الآن، وهي المعروفة عندهم بالخمسين، فتلفح الزروع وأزعج الحلمان فرعون، فاستدعى جميع سحرة مصر وجميع حكمائها . قال الاب فيكورو (في المحل الأنف ذكره صفحة ١١٤) : يحق لنا ان نقول ان آية الكتاب هذه مترجمة من المصرية إلى العبرانية. فقد ورد مثلها في صفيحة رعسيس الثاني حيث. كُتب أن أمير بقطان بعد أن رأى حلماً « انزعجت نفسه واستدعى جميع السحرة » ولم يكن بين سحرة فرعون من يعبر له حلمه .

فتذكر رئيس السقاة يوسف، وقص على فرعون ما جرى له، وتعبير يوسف حلمه وحلم رئيس الخبازين . فدعا فرعون يوسف فاحتلق وأبدل ثيابه . روى هيرودت (ك ٢ فصل ٣٦) إن من عادات المصريين المخصوصة بهم ان يحلقوا شعورهم إلا مدة الحداد. وقد أثبتت آثار مصر مقال ابي التاريخ : فترى اكثر الصور فيها محتلفة الذقن والرأس بعكس ما كان يصنع العبرانيون من اطلاق لحاهم، حتى كان الجلع نفسه عاراً عندهم كما يظهر من تعبير صبيان بيت ايل لاليشاع . إذ قالوا له اصعد يا اجلع اصعد يا اجلع (ملوك ٤ ع ٢٣) . ولما دخل يوسف على فرعون قص عليه حلمه فقال له يوسف : إن الله مكاشف فرعون بما هو صانعه. السبع البقرات الجياد هي سبع سنين، والسبع السنابل الحسان هي سبع سنين فالحلم واحد، ومثلها السبع البقرات الدقاق والسبع السنابل الفارغة . ستأتيكم سبع سنين فيها شبع عظيم في جميع ارض مصر، وتأتيكم بعدها سبع سنين جوع ينسى الشبع الذي كان، فلينظر فرعون رجلاً فهِماً حكيماً يقيمه على أرض مصر يخترن الخمس من برّ سني الخصب ذخيرة لسبع سني الجوع .

فحسن كلام يوسف عند فرعون وقال له : بعدما عرفك الله هذا كله فليس فهِم حكيم مثلك، أنت تكون على بيتي ، وإلى كلمتك ينقاد كل شعبي ولا أكون اعظم منك إلا بالعرش . انظر قد أقمتك على جميع أرض مصر . إن الآثار المصرية مفعمة بمثل هذه العبارات الدالة على ترقية الفراعنة من راموا إعزازه إلى المناصب الرفيعة وعلى مواهبهم له . ومن هذه الآثار ما نقش على مدفن احمس بن

ابانا أمير البحارة ، وقد مرّ لنا ذكره في (ع ٩٨) وقد اكتشفت صفيحة هي الآن في متحف تورين في إيطاليا ، وللرجل المحكى عنه فيها مناقب وصفات اشبه بما كان عليه يوسف ، فيسمى باكاً ، وتأويله الرقيق أو المسيحي . ويقال فيها : إنه أحسن إتمام فروضه لأهله ولم يذكرهم لأنهم كانوا غرباء في مصر وإن فرعون أعزه وغمره بالآله . وأهمّل الكاتب ذكر اسم الملك لأنه من الملوك الرعاة الذين ييغضهم المصريون . وإن فرعون جعله قيماً على مخازن البر العامة او المختصة بالحكومة ولم يؤت في الصحيفة بذكر احد معبودات مصر خلافاً لما جاء في غيرها من الآثار وقد تليت ترجمة هذه الصفيحة في مجلس عقده جمعية الآثار القديمة الكتابية في لندرة سنة ١٨٧٧ م . وقيل حينئذٍ ما أخرى هذه الصفيحة أن تكون وضعت على مدفن يوسف ثم ان الآية « وإلى كلمتك ينقاد كل شعبي » إذا ترجمت بحرفها كانت : كل شعبي يقبل فمك » . قال العالم شباس (في كتاب مباحثه في الدولة التاسعة عشرة) : إن هذه العبارة مصرية محضة فمن أسمى المراتب عند المصريين مرتبة الفم الاعلى . وقد أعلمنا بها أثر للدولة الثامنة عشرة أذاعه العالم بروغش مع غيره من الآثار تبين منه أن تانونا احد كبار عمال مصر عهد إليه فرعون بتدبير المملكة . فلقب « الفم الأعلى في البلاد كلها » فكان المراد الى الأمر الأعلى وكذا لما أراد فرعون آخر ان يشرك في ملكه رعمسيس الثالث . رقا هذه المرتبة الفم الأعلى في البلاد كلها .

ثم قال الكتاب : ونزع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف » . واعلمتنا الآثار المصرية ان كل مصري وجيه كان له خاتم يختم به . وقد اكتشف كثير من هذه الخواتم في المدافن وترى منها في متحف اللوفر في بريس عدداً عديداً وألبس فرعون يوسف ثياب بزّ وهي الكتان وفي آثارهم وفي كتب بعض القدماء منهم هيروdot (ك ٢ فصل ٨١) : إن كهنة المصريين كان متحتماً عليهم ان تكون ملابسهم من الكتان النقي دلالة على نقاوتهم . وترى الموميا عندهم ملتفة بنسيج من كتان ، وأمر موسى ان لا يستعمل في خباء الحضر إلا الكتان وأتبع الكنيسة هذا التقليد وأمرت ألا يستعمل على المذابح سواه . ثم جعل فرعون في عنق يوسف طوقاً من ذهب . وترى في آثار مصر صور عظمائها ووجهاها وفي عنق كل منهم قلادة أو طوق . وقد وجد كثير من هذه العقود في المدافن المصرية . وأركب فرعون يوسف مركبته الثانية ، للدلالة على انه الثاني بعد الملك ، ونادوا أمامه

إركعوا. في العبرانية: ابرك. وقال الحجري (في تفسير هذه الآية): إن هذه الكلمة مصرية لا عبرانية فإن المنادي مصري ينادي المصريين بلغتهم قائلاً أبرك أي أجتو. وقال فيكورو (في المحل السالف ذكره): إن كلمة ابرك التي حفظت في سفر التكوين مصرية، وقد ترجمت لفو في كثير من الترجمات القديمة، بمعنى أحنوا ركبكم، أي اركعوا. وصحيح ترجمتها الحرفية احنوا رؤوسكم كما قال كثيرون وقال آخرون: ان ابرك تأويلها رئيس الحكماء.

وسمى فرعون يوسف مخلص العالم، وفي العبرانية سغنت بعنه وقال القديس ايرونيμος إن الكلمة مصرية، لا عبرانية. إذ لا وجه للملك المصري أن يلقب يوسف بلقب عبراني لا مصري، وتأويله مخلص العالم. وقال أهل العلم في الآثار المصرية: إن الكلمة تأويلها مقيت العالم أو مخلص الحياة. وزوج فرعون يوسف اسنات بنت فوطيفار كاهن أون. وتأويل اسنات في المصرية مقر الآلهة نات. وفوطيفار أبوها غير فوطيفار مولى يوسف، لأن هذا كان رئيس كهنة، وذلك رئيس شرط. ومدينة أون هي التي سميت بعد ذلك هليوبوليس أي مدينة الشمس، وتعرف الآن بالمطرية. ولا يخفى ما كان لكهنة مصر من نفوذ الكلمة والسطوة في بلادهم، وعليه فكان تزويج يوسف بابنة رئيس كهنة من جملة الآلاء التي عظم بها فرعون قدر يوسف. ومن المطابقة بين كلام موسى في يوسف، والآثار المصرية التي اكتفينا اختصاراً بإيراد بعضها يتبين بطلان مزاعم الجاحدين بأن تاريخ يوسف رواية وهمية، أو أنه كتب بعد موسى أو في غير مصر.

قال شمبوليون فاتح الكنوز الهيروكليزية: إن أعلم علماء اليونان مجمعون على أن فرعون الذي استوزر يوسف، إنما هو ابوفيس أو ابابي أحد الملوك الرعاة. وإن ذلك كان للسنة السابعة عشرة من ملكه، وقد اطلنا الكلام في هذا الشأن في ع ٩٤ من مقالة الحثيين. وأفردنا الفصل الثامن من هذه المقالة للكلام في الملوك الرعاة. قال العالم مسيرو (في كتابه تاريخ المشرق): كثر المهاجرون من سورية إلى مصر في عهد الملوك الرعاة لأنهم سوريون أصلاً، فكان المهاجرون يجدون في مصر قوماً من طبيعتهم لم ينسوا ذكر أصلهم ولغتهم. وكثيراً ما فتحت قصور مصر في تلك الأعصر لعمال سوريين. وكانت كل حرب أو مجاعة في سورية تحمل أفراداً بل جاليات، وعشائر برمتها على الهجرة إلى مصر. فيتلقاهم الملوك الرعاة وحواشيهم بالمعزة والترحاب. ولا يخلو

استيزار ابابي ليوسف من ان يشف عن شيء من هذا القليل ، فلما كان فرعون هذا أجنبياً لم يكن ليأنف من سيادة أجنبي في مصر كما لو كان مصرياً اصلاً .

عد ١٧٣

تدبير يوسف شؤون مصر والمجاعة فيها

قال «الكتاب» (تك ف ٤١ ع ٤٦ وما يليه) وكان يوسف ابن ثلاثين سنة حين مثل بين يدي فرعون ، وخرج وجال في جميع أرض مصر وجاءت سنو الشبع فكان يجمع في كل مدينة غلال ما حولها من الحقول مدة السنين السبع : فخن كثيرأ جداً من البر في مخازن مصر وكان من مهامه نظارة المخازن الملكية . وكشفت لنا الآثار المصرية عن أسماء كثيرين من عمال مصر يلقبون بنظار المخازن . ففي متحف ميرامار قصر مكسيمليان عاهل المكسيك على مقربة من تريستي تمثال صغير كتب عليه اسم شمنشت ناظر المخازن الملكية . وفي المتحف البريطاني صفيحة كتب عليها اسم متوهبت ناظر مخازن الحكومة ، إلى غير ذلك مما كتب على بعض المدافن في مصر . وقد بينت لنا هذه الآثار كل ما يتعلق بالغلال من زرعها إلى حصادها ، وجمعها أكداً أكداً كما قال الكتاب ، وإلى وضعها في المخازن التي هي أهرات واسعة مبنية على هيئة مخروطية الشكل ، في أعلاها فتحة لإنزال الغلال ، وفي أسفلها نافذة لإخراجها . ولقلة الرطوبة في هذا القطر تصان الغلال فيه سنين عديدة من التعفن والفساد . ففي متحف اللوفر في باريس غلال وجدت في مدافن حفظت فيها منذ من أربعين قرناً ، وحسبك هذا رداً لمزاعم من قال لا يمكن صيانة غلال يوسف سبع سنين من الفساد .

كذب بعض الجاحدين بحصول مجاعة في مصر مدة سبع سنين متتالية ، وتمحلوا لتكذيبهم وجهين : أولهما أن فيضان النيل سبع سنين ونقصه سبع سنين متتالية مخالف لسنن الطبيعة . وتوفر الغلة في مصر أو قلتها . متوقفان على زيادة امواه النيل وانتقاصها . والثاني أن هذه المجاعة لم يرد ذكرها في أحد كتب القدماء ، ولا ترى لها أثراً في الآثار المصرية ، ولذلك جنح بعض المؤرخين في هذا العصر أن عدد السبع السنين هنا لا يراد به حصر السنين . بسبع بل يراد به مدة متطاولة . على أنه لا حاجة إلى هذا التكلف والتأويل إذ جاء في كتب القدماء

والحدثاء ذكر مجاعات كالتي كانت في عصر يوسف ، وأنبأنا الآثار بحصول مجاعات ويرجح كثيراً أن إحداهما المجاعة التي استدرك يوسف مضارها وهاك البيان .

فقد ذكر أوفيد (في الكتاب الأول من اشعاره في صناعة الحب) ، وهو شاعر لاتيني كان في عهد اغوستوس قيصر « أنه حصلت مجاعة في مصر دامت تسع سنين » وقال بلينيوس (في كتابه التاريخ الطبيعي) قوله المشهور : « إذا لم يبلغ ارتفاع أمواه النيل حين فيضانه اثني عشر ذراعاً كانت في مصر مجاعة . وإذا بلغ ثلاثة عشر ذراعاً فالجوع أيضاً . وكانت المسرة إذا بلغت أربعة عشر ، والطمأنينة إذا بلغ خمسة عشر ، والرغد إذا بلغ ستة عشر ذراعاً » . وقد كتب عالم يسمى عبد اللطيف (كان في عصر الخلفاء العباسيين في مصر) مقالة في مصر ، ترجمها العالم دي سناسي إلى الإفرنسية ، ومما قاله فيها : « إذا نقص فيضان النيل عن ستة عشر ذراعاً كان في مصر عوز إلى القوت كثيراً أو قليلاً بحسب انتقاص المياه » . وذكر كثيراً من المجاعات بسبب انتقاص أمواه النيل ، وإحداها استمرت كمجاعة يوسف سبع سنين من سنة ١٠٦٤ م إلى سنة ١٠٧١ م على عهد المستنصر بالله ، وأنه في سنة ٥٩٦ للهجرة (الموافقة لسنة ١١٩٩ للميلاد) . لم يرتفع النيل إلا اثني عشر ذراعاً وواحد وعشرين قيراطاً ، وهو أمر نادر لم يكن له مثيل منذ تاريخ الهجرة إلا في سنة ٣٥٦ هـ . وأطال الكلام في مضار المجاعة التي كانت في سنة ٥٦٧ للهجرة حتى أكل الناس الكلاب ، وسائر الدواب والحشرات وجثث الموتى ، بل اتصلوا إلى أن يأكل بعضهم بعضاً ، وألجئت الحكومة أن تحرق في القاهرة في بضعة أيام ثلاثين امرأة أقرت كل منهنّ بأكلها لحم صغارها وغيرهم .

ثم أنبأنا الآثار المصرية القديمة حصول مجاعات عديدة في مصر . فقد كتب في مقبرة بني حسن على مدفن وإل اسمه أماني ، توفي في السنة الـ ٤٣ للملك اوزرتسن الأول احد ملوك الدولة الثانية عشرة قبل يوسف بقرون ما نصه : « لم تكن مجاعة في أيامي ولم يهلك الجوع أحداً في عهد ولايتي ، إذ حصلت سنو المجاعة لأنني جعلت الناس يحرقون كل الحقول الواقعة في عمل ساه (اسم موضع) جنوباً ، وشمالاً ، وأقّت السكّان على آخرهم موزعاً عليهم حاصلات تلك الحقول حتى لم يمت أحد جوعاً » . وذكر مسبرو (في كتاب تاريخه القديم لشعوب المشرق) وصية ، يقال : أن أمنامهت الأول عهد بها إلى اوزرتسن الأول الآنف

ذكره ، ومما حوته هذه الوصية قوله : « جعلت القوم يحرقون أرض البلاد حتى ابر (في جنوب مصر) ، فشملت المسرة جميعهم حتى أدهو (مصر السفلى) ، فكنت موجوداً ثلاثة أصناف من الغلال ، وأنا صديق نبرات (إله الغلة) ، وجاد النيل علينا بفيضانه على كل الحقول فلم تكن مجاعة في مدة ملكي .

واكتشف العلامة بروغش أثراً مصرياً منبئاً بحصول مجاعة ، ورأى أنها المجاعة التي حاقت بمصر على عهد يوسف ، وهذا الأثر هو خطوط هيروكليفية وجدت منقوشة على مدفن رجل يسمى بابا في قرية الكاب ، ويتبين منها أنه حصلت مجاعة في مصر دامت سنين عديدة ، وتهياً لهذا الرجل أن يُقَيَّت أسرته العديدة وسائر سكان المدينة التي كان فيها . وهاك ترجمة هذا الأثر كما رواها بروغش (في كتابه في تاريخ مصر مجلد ١ صفحة ١٧٦ طبعة ٢) ، وكما عربها أحمد أفندي كمال مترجم الأنثيقه خان المصرية ، وناظر مدرستها في كتابه الموسوم بالعقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين قال : « كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب ، ولذا أكرمتني المعبودات بالخير الجزيل في دار الدنيا . وكان أهل بلدي وهي الكاب يتمنون لي الصحة وطول العمر ، وكنت أقتص من المسيئين ، ورزقت من الأولاد مدة حياتي اثنين وخمسين ولداً صغيراً وكبيراً . وكان لكل منهم سرير وكرسي ومائدة ، وكانوا يأكلون كل يوم مئة وعشرين مداً من القمح والحبوب . وكان لهم ثلاث بقرات حلويات واثنان وخمسون ماعزة ، وثمانية حمير ، وكانوا يحرقون من البخور ما ينيف على الهين (مكيال لقدماء المصريين) ، ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين ... وكنت هيأْتُ كل ذلك في بيتي ، وكنت أعطي اللبن الرائب في قدر والسمن في قدر طويلة ضيقة الرأس تعرف بالذلق بمقدار يزيد على الهين . وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الصالح (وفسره أحمد أفندي بمعنى الملك) . وكنت حريصاً على الزراعة في سني الخصب ، ولما حصلت المجاعة مدة كثيرة من السنين كنت أعطي القمح لأهل المدينة في كل مجاعة » .

ولم يُذكر تاريخ لهذه الخطوط وقدّر بروغش سنداً إلى نقش المدفن ، ونوع الكتابة عليه ، وإلى مجاورته لمدفن العامل المصري المسمى أحمس (الذي روي ما كتب على مدفنه في ع ٩٨) : إن هذه المجاعة هي التي ذكرها الكتاب في عصر يوسف ، وقد روت المجلة المسماة التمدن الكاثوليكي هذا الإكتشاف في ع ٩٣٨

في تاريخ ٢٠ تموز سنة ١٨٨٩ م . وأثبتت ما نحن مثبتون، وأنه لا يحفل بالفرق بين ما كتب في الأثر، وهو مدة كثير من السنين (أو سنين عديدة) ، وما كتب في الكتاب وهو سبع سنين . فالمعنى متقارب وكأنه مرادف . وجاء في الجريدة الإفريقية الاونيفر (المسكونة) في أحد أعدادها في شهر آب سنة ١٨٩٠ م ان العالم بروغش اكتشف أيضاً في محل قريب من القصر صفيحة تبين منها أنه انتقص فيضان النيل، فنجم عن ذلك حصول مجاعة دامت سبع سنين . وان بروغش جد في التنقيب عن تاريخها، فأداه جدّه إلى أنها كانت لنحو سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، أي في نحو الزمان الذي كان فيه يوسف وزيراً لفرعون على أننا نظن أن كلام الاونيفر إنما هو في الأثر الذي وجد في مدفن بابا السالف ذكره لا في أثر آخر .

عد ١٧٤

ما يعزى إلى يوسف في مصر

قال «الكتاب» (تك ف ٤٧ ع ١٤ وما يليه) : «وجمع يوسف جميع الفضة التي في أرض مصر، وفي أرض كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها، وأدخلها بيت فرعون» . لم يكتفِ يوسف بأن يتلافى مضار المجاعة بل عني كرجل خبير بالسياسة أن يقوّي سلطة مولاة ، ويزيد غنى دولته بإدخال فضة الأهلين خزائن فرعون . ثم بتخليكه ماشيتهم إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام : «إذا كانت فضتكم قد نفذت فهااتوا ماشيتكم أبعكم بها ، فجاءوا يوسف بماشيتهم ، فأعطاهم طعاماً بالخيل وبالماشية من الغنم والبقر والحمير» . وهذه أول مرة أُتي بها بذكر الخيل في مصر، فيرجح أن الملوك الرعاة أدخلوها فيها . قال شباس : كان عامة الناس في مصر يربون الخيل، ويستخدمونها فلا سبيل إلى نقض شهادة الكتاب المصرحة بأن المصريين أتوا يوسف حين مجاعتهم بخيلهم ، وغنمهم، وبقرهم يستبدلونها بغلّة . وجاء في الباير المعروف بساليار الأول، وفي الباير انسطاسي الثالث أنه كان لصغار العمال خيل لاستحضار المون اللازمة لبيوتهم من القرى، وكان كبارهم ووجهائهم يركبون الخيل، وعَمَلَتهم يستخدمونها لجر العجال كما في آثار عديدة . قال «الكتاب» إن المصريين عادوا في السنة التالية إلى يوسف يشكون إليه سوء

مصريهم، لأنه لم يبق بين يديه إلا أبدانهم وأراضيهم، ويسألونه أن يشتريهم وأراضيهم لفرعون. فاشترى يوسف جميع أراضي المصريين لفرعون لأنهم باعوا كل واحد حقله، فصارت الأرض لفرعون إلا أن أرض كهنتهم لم يشتريها لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاق من قبل فرعون، يأكلونها ولذلك لم يبيعوا أراضيهم، وقال لهم يوسف: خذوا لكم بذراً تزرعونه في الأرض، فإذا خرجت الغلال تعطون منها الخمس لفرعون، والأربعة الأخماس تكون بذراً للحقول وميرة لكم. وجعل يوسف تأدية الخمس للملك رسماً على أرض مصر إلى اليوم فقال له المصريون قد أحييتنا، ودعوا له (تك ف ٤٧ ع ١٨ وما يليه)، قال الأب فيكورو في (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٨٠) ما ملخصه: إن الآثار المصرية مثبتة انتقال ملك الأرض في مصر إلى الفراعنة، وإن لم تصرح باسم من صنع ذلك، فإننا نرى أرض مصر في أيام ملوكها الأقدمين، والمتوسطين يملكها بعض سادة مصر وكبرائها، ويسلمونها إلى مزارعين، وتنقل إلى غيرهم بطريق البيع أو الإرث أو الزواج. وأما في أيام ملوكها بعد الرعاة فلا نجد أثراً مُشعراً بملك أحد أرضاً إلا الملك. فيوسف نقل ملك أرض البلاد كلها إلى فرعون، ولا يستثنى من ذلك إلا أرض الكهنة. وقد جاء في البابير المعروف بهاريس أن رعمسيس الثالث كان مالكا أرض مصر كلها إذ قال: «أنا غرست في البلاد بأسرها أشجاراً كبيرة وصغيرة، وسمحت للناس أن تستظل بفيئها... أنا كفيت البلاد كلها رزقاً... أنا مونت البلاد بعد أن نفدت مؤنّها، فامتألت البلاد، شعباً في عهد ملكي... فاشتغلوا له (أي لابنه رعمسيس الرابع)، كأن لكم يداً واحدة بكل نوع من العمل... فتجزون بقوته لكم كل يوم».

وهذا الكلام ينطق صراحة بأن أرض مصر كانت ملك فرعون وهو يؤن حارثيها وسائر شعبه، ولا يمكن اعزاء ذلك إلا إلى تملك يوسف فرعون أرض مصر إذ كان قبله مالكون. ولا نجد بعده مالكا إلا الملك والكهنة الذين ترك يوسف لهم أراضيهم. وقال هيروت (ك ٢ ف ١٠٩): «رووا أن الملك سيزوستريس (رعمسيس الثاني) قسم أرض مصر على جميع المصريين، فأعطى كلاً منهم نصيباً سوياً، وفرض على كل منهم جزية سنوية على نصيبه من الأرض». وهذا تصرف مالك بلا مراء. ورعمسيس كان بعد يوسف في عهد موسى. وأثبت هيروت (في ك ٢ ف ٣٧): أن أرض الكهنة كانت معفاة من

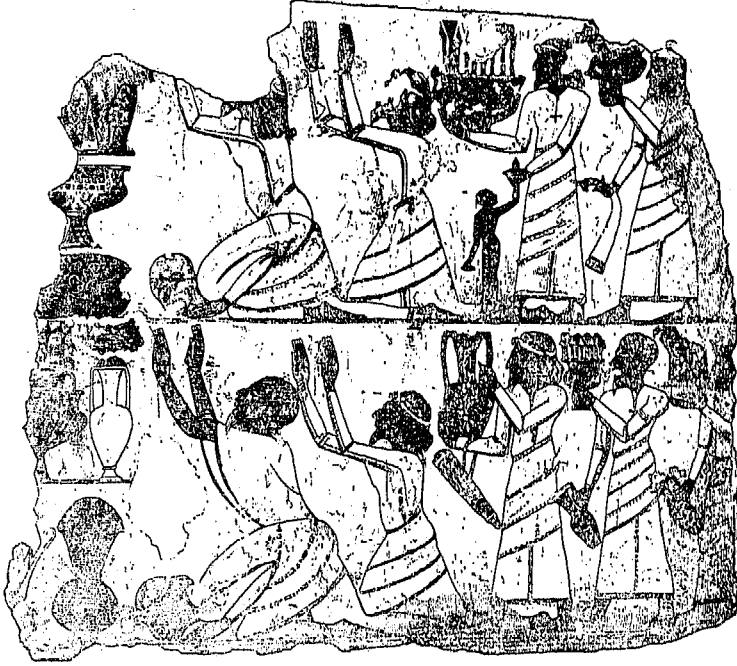
الضرائب ، والجزية طبق ما جاء في التكوين كما رأيت . على أن يوسف لم ينتزع الأرضين من يد حارثيها بل أبقاها في يدهم ووضع نظاماً حديثاً للمال الأميري . ويعزى إلى يوسف إنشاء بعض مجارٍ للنيل في أرض مصر . وقال فيكتور (صفحة ١٨٣ من المجلد الآنف الذكر) : إنّ هذا التقليد غير بعيد عن الصحة . ويعزى إليه إنشاء بعض أهراء لغالل الحكومة في مصر القديمة ، وتسميها العامة خزان أو مخازن يوسف . ولكن قال بعض الجواله إنّ تلك الأهراء محال فسيحة يحيطها سور ارتفاعه عشرون قدماً ، ولا سقف لها ، وهي منقسمة أقساماً عديدة ، تجمع الحكومة فيها الغلال التي تجيئها من مصر العليا . وهيئة بنائها تقضي بأنها ليست قديمة . وروى كثيرون أن يوسف علّم المصريين مساحة الأرض ، ووضع المكاييل وأقام عموداً في مياه النيل لمعرفة درجات فيضانه . وقال المرتل فيه (مزمور ١٠٤ : عد ٢١ و ٢٢) : « أقامه (فرعون) سيداً على بيته وسلطاناً على جميع مقتناه حتى أنه جعل عظماءه تحت حكمه فهو علّم شيوخه الحكمة » .

عد ١٧٥

انحدار إخوة يوسف إلى مصر وتعرفه إليهم

قد عمت المجاعة أرض فلسطين ، فانحدر بنو يعقوب إلى مصر ليمتاروا لهم طعاماً . فعرفهم يوسف أخوهم وتنكر لهم . وقلق لأنه لم يرَ بينهم شقيقه بنيامين . فاستدعاهم ، وتظاهر بأنه يحسبهم جواسيس ليستطلعهم أخبار أخيه وأبيه ، فأجابوه بسذاجة ، ولم يكتموه إلا سرّ يبيعهم له ، وصرّحوا بأن صغيرهم باقٍ عند أبيهم فسكن قلقه من جرائه . لكنه واصل تعنيفهم لهم بأنهم جواسيس خالفوا بحياة فرعون . قال شباس : يظهر من الآثار أن هذا الحلف كان متوتراً عند المصريين ، وأنهم كانوا يخشون حقيقة هجوم بعض القبائل على بلادهم لاسيما بسبب المجاعة . وانه يظهر من الباير المحفوظ في برلين أنهم بنوا أسواراً تمتد من خليج السويس إلى بحيرة المنزلة تحصناً من مثل هذه المهاجمات ، وأن رعمسيس الثاني لم يبنِ هذا السور بل رمه على ما روى ديودورس الصقلي (ك ١ فصل ٥٧) . ولم يؤذن يوسف بانصراف إخوته إلى بلادهم إلا بشرط أن يعودوا إليه وأخوهم الصغير معهم ، وأن يبقى شمعون أحدهم رهينة عنده على ذلك . وأمر أن تملأ أوعيتهم برّاً ،

وترد فضة كل واحد في جوالقه، وأن يعطوا زاداً للطريق . فصنع لهم ذلك وبينما هم يفرغون أوعيتهم إذا بصرة فضة كل منهم في جوالقه . فخافوا واغتم أبوهم لما قصوا عليه ما نالهم ، وكيف استبقى المتسلط على مصر شمعون رهينة عنده إلى أن يأتوه بنيامين، تصديقاً لقولهم إنهم ليسوا هم جواسيس . وحاول أن لا ينحدر



صورة أخذت عن جدران تاب إلى المتحف البريطاني تظل روثانو اي سورين
يقدمون هداياهم لمتسلط في مصر

بنيامين لكنهم فرغوا من أكل الميرة التي أتوا بها ، واشتد الجوع فألجئ يعقوب أن يسمح لهم بالعودة إلى مصر وبنيامين معهم وقال : لإصطحبوا هدية إلى الرجل « شيئاً من اللسان وشيئاً من الدبس ونكعة ولاذناً وفستقاً ولوزاً » ، فالبلسان والنكعة واللاذن هي من أصناف التجارة التي كانت قافلة الإسماعيليين تقلها إلى مصر عند مشتراهم يوسف ، والدبس لا يراد به غسل النحل كما وهم بعضهم بل الدبس حقيقة المصطنع من عصير العنب، وهو في الأصل العبراني « دباش » .

ولما بلغ بنو يعقوب مصر أمر يوسف قِيم بيته ، أن يدخلهم داره ، ويعدّ لهم مأدبة ، فوهموا أنه يريد إلقاءهم في السجن بسبب الفضة التي وجدت في جوالقهم . وبأحوا إلى القِيم بسرّ وهمهم ، فأثْنهم واطمأنوا . « ولما قدم يوسف إلى البيت ادخلوا له الهدية التي في أيديهم وسجدوا له إلى الأرض » . فكان بذلك إتمام ما رآه في أحلام صباه . وفي المتحف البريطاني صورة أخذت من طيبة (تاب) ، ويظهر أن هذه الصورة نقشت في عصر الدولة الثامنة عشرة ، وهي تمثل رجلاً من الروثانو ، (وهم سكان سورية أو الساميون) يقدمون هدايا لفرعون أو أحد كبار دولته وبعضهم ساجد له بوجهه إلى الأرض ، «وبعضهم رافع يديه يدعو له ويتوسل إليه ، وبينهم صبي ، ويلقون تقادهم عند رجلي الملك أو أحد كبار عماله ، وكل منهم إلا الصبي - مرتد بثوب طويل أبيض معلم ، وسمات وجوههم وعيونهم أشبه بسمات اليهود أو العرب ، ولحاهم مطلقة نظيرهم حتى يخال الناظر أن الصورة رسم لما جاء في الكتاب عن تقدمة اخوة يوسف هدايا له ، وسجودهم أمامه ولا اختلاف إلّا في الأسماء وعدد الأشخاص .

وسألهم يوسف عن سلامة أبيهم ، فقالوا : انه في سلام ولا يزال حياً وخروا وسجدوا ونظر إلى بنيامين فقال : أهذا هو أخوكم الصغير الذي ذكرتموه لي ؟ وقال : يرأف الرب بك يا بني وتحرك فؤاده إليه ، فدخل الخدع وبكى ، ثم غسل وجهه ، وتجلد ، وقال : قدموا الطعام وقدموا له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ، لأن المصريين لم يكونوا يأكلون مع العبرانيين لأنه رجس عندهم . وفي المتحف البريطاني صور أخذت من مصر تمثل لنا هيئة الموائد عند المصريين ، فترى كلاً من المدعوين جالساً بجانب مائدة مخصصة متشجاً بأفخر ملابسه ، والأرقاء يقدمون لهم المشرب ، وبجانبيهم راقصات يرقصن ، وأربعة أرقاء يضربون بآلات الطرب . وكان لحم الخنزير محظوراً أكله على المصريين ، فيأكلون لحوم البقر والماعز والغنم مطبوخة ومشوية . قال هيرودت (ك ٢ ف ٤١) : إنّ المصريين كانوا يفضلون البقرات (إجلالاً لأيسيس) على جميع الحيوانات ، ولا يستعملون سكيناً أو إناء استعمله يوناني ، ولا يذوقون لحم البقر نفسه ولو نقياً إذا مسه سكين يوناني . وكانوا يعتبرون الأجانب أرجاساً فلا يؤاكلونهم ، وأكل يوسف وحده رعاية لمقامه ، لكنه رفع حصصاً من بين يديه إلى إخوته ، فكانت حصّة بنيامين أكثر من حصّة خمسة منهم .

وشاء يوسف أن يمتحن إخوته ليرى ما يكتنون من جهة أخيه بنيامين . فأمر قيم بيته أن يملأ جوالقهم طعاماً ، ويجعل فضة كل منهم في قم جوالقه ، ويضع جام الفضة التي يشرب يوسف به في قم جوالق بنيامين مع فضة ميرته . فصنع القيم كما أمر يوسف ، وانصرف إخوته صباحاً ، فقال للقيم : قم فاسع في أثر القوم فإذا أدركتهم فقل لهم لِمَ كافأتم الخير بالشر؟ أليس هذا هو (الجام) الذي يشرب به مولاي ويتفأل به؟ فلحقهم وقال لهم ذلك الكلام فاستغربوه واستاءوا منه . وأوردوا لتبرئتهم ما صنعوه بردهم الفضة التي وجدت أولاً في جوالقهم وقالوا : من وجد الجام معه يقتل ، ويكون الباقيون عبيداً لسيده ، فحطوا الجوالق ففتشها ، فإذا الجام في جوالق بنيامين . فمزقوا ثيابهم وحمل كل منهم حماره وعادوا إلى المدينة ، ووقعوا بين يدي يوسف ، فقال لهم : ما هذا الصنيع؟ أما علمتم أن رجلاً مثلي يتفأل؟ فقال يهوذا : بماذا نتكلم؟ وبماذا نتبرأ؟ ها نحن ومن وجد الجام في يده عبيد لسيدي . فقال يوسف : حاش لي أن أصنع هذا بل الرجل الذي وجد الجام في يده هو يكون لي عبداً ، وأنتم تصعدون بسلام . فبسط إليه يهوذا ما كان لهم معه أولاً ، وكم شق على أبيه أن يسمح لبنيامين أن ينحدر معهم إلى مصر لتعلق نفسه به ، وما يتولاه من الكتابة إن لم يعد معهم ، فيموت وتنحدر شيبته بحسرة إلى الجحيم (تك ف ٤٤) .

وقد أنبأنا الآثار المصرية أن قصور المصريين كانت ملأى بالأثاث والآنية النفيسة . وكانت الجامات والكؤوس لاسيما التي يستعملها رب البيت ثمينة المادة بديعة الصناعة . فقد وجد في المدافن كثير من هذه الاجوؤ . وازدهت متاحف أوروبا بكثير منها وبعضها من ذهب وبعضها من فضة أو نحاس أو زجاج . ففي متحف باريس جام من ذهب نقش عليه اسم تحوتمس الثالث أحد فراعنة الدولة الثامنة عشرة ، وهو بديع الصناعة . وهناك أيضاً جام آخر من فضة كان لأحد كبار عمال مصر ، فلا بدع إن كان ليوسف جام من فضة . وقد ندد جاحدو الوحي بالكتاب قائلين : لم نجد أثراً ولا ذكراً للتفاؤل بالجامات في مصر أو غيرها من الأصقاع ، وكيف اعتقد يوسف الفال أو تفأل؟ على أنه قد حقق كثير من الجوالاة أن المصريين كانوا يستعملون التفاؤل بالأجوام وما برح بعضهم يستعمله إلى الآن . وفي كتاب صيني كتب سنة ١٧٩٢م أن من جملة أنواع التفاؤل التي يستعملها أهل هذه البلدان انهم يصبون ماء في إناء ويصرون ما يظهر لهم في الماء . وكان

الجام عند الفرس آلة للتفاؤل، وقد لهج شعراؤهم بجام توصل من بلادهم إلى سليمان واسكندر. فكان سبباً لنجاحهما ومجدهما. وذكر أحد هؤلاء الشعراء يوسف في عداد توصل هذا الجام إليهم. وقال القديس أفرام السرياني (في كتبه المطبوعة في رومة بالسريانية واللاتينية مجلد ١ صفحة ١٠٠): انه كان البعض يتفاءلون بالجام فينقرونه ويصغون لصوت رنته، فيستدلون به على ما يستقبل من الأمور. وأما كيف اعتقد يوسف الفأل أو تفاءل؟ فقال القديس توما (في الخلاصة اللاهوتية مجلد ٢ مبحث ١٩٥): «ان قول يوسف أما علمتم أن رجل مثلي يتفاءل؟ قاله هزلاً لا جدّاً على ما رأى أغسطينوس، ولعله أشار بذلك إلى ما تعتقده العامة به بعد تعبيره الأحلام (أي إنه ساحر ككهنتهم) وكذا قل في كلام قديم بيته».

قال «الكتاب» (تك ف ٤٥) لم يستطع يوسف أن يضبط نفسه فنأدى: أخرجوا كل أحد من بين يديّ فخرجوا. وتعرف يوسف إلى إخوته قائلاً: أنا يوسف أخوكم أحي أي بعد؟ فارتاع إخوته فقال لهم: تقدموا إليّ فتقدموا وأطلق صوته بالبكاء، وألقى نفسه على عنق بنيامين أخيه. فبكى وبكى بنيامين على عنقه، وقبّل سائر إخوته وبكى معهم، وقال: لا تأسفوا، ولا يشقّ عليكم أنكم بعموني إلى هنا، فإن الله قد بعثني أمامكم لاحتبيكم، وصيرني أباً لفرعون وسيداً لجميع أهله، ومتسلطاً على أرض مصر كلّها. وقد مضت سنتا جوع في الأرض، وبقي خمس سنين ليس فيها حرث ولا حصاد. فبادروا وأشخصوا إلى أبي، وقولوا له كذا قال ابنك يوسف، فهلّم إليّ ولا تقف فتكون قريباً مني أنت، وبنوك وبنو بنيك وكل ما هو لك لئلا تفنى أنت وأهلك. ونما الخبر إلى بيت فرعون أن قد جاء إخوة يوسف، فقال له فرعون: قل لإخوتك: حملوا دوابكم وانطلقوا وخذوا أبائكم وبيوتكم، وتعالوا إليّ فأعطيكم خير أرض مصر. وخذوا لكم عجلات لأطفالكم، ونسائكم، ولا تحزن نفوسكم على أثاثكم إن خير مصر هو لكم. وأعطاهم يوسف عجلات بأمر فرعون، وزاداً للطريق، وأعطى كلّاً منهم حلل ثياب، وبنيامين ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب. وبعث إلى أبيه بمثل ذلك، وبعشرة حمير محملة من خير مصر، وعشر اتن محملة برأ وخبزاً، وزاداً لأبيه للطريق وصرفهم وأوصاهم أن لا يتخاصموا في الطريق.

انحدار يعقوب إلى مصر بأسرته وفي محلهم فيها

ارتحل إسرائيل بجميع ماله حتى جاء بئر سبع . فقدّم لله ذبائح . فظهر الله له في الحلم قائلاً : لا تخف أن تهبط إلى مصر ، فإنني سأجعلك ثمة أمة عظيمة ، فقام يعقوب من بئر سبع ، وحمل أبنائه أباهم وأطفالهم ونساءهم على العجلات التي أرسلها فرعون . وأخذوا ماشيتهم وسرحهم ، فكان جملة الداخلين إلى مصر مع ابني يوسف منسا وإفرائيم سبعون نفساً . وشدّ يوسف على مركبته وصعد ليلقي أباه في جاثان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً وقال له : دعني أموت الآن بعد أن رأيت وجهك ، وقال يوسف لأبيه وإخوته : أنا صاعد إلى فرعون لأخبره بقدمكم . فإذا استدعاكم وقال لكم : ما حرفتكم قولوا : كنا نحن وآباؤنا إلى الآن ذوي ماشية لكي تقيموا بأرض جاثان ، لأن كل راعي غنم هو عند المصريين رجس (تكوين فصل ٤٦) .

إنما قصد يوسف بهذا أن يستمر أهله على حالة رعاية الماشية ، وأن ينجبهم كثرة المخالطة مع المصريين ، وأن يحلهم في أجود الأرض . وقد تعددت أقوال المفسرين في اعتبار المصريين كل راعي غنم رجساً ، فقال الحجري في تفسير هذه الآية : إنما ذلك لأن الرعاة يذبحون ويأكلون لحوم غنمهم ، وبقرهم التي كان المصريون يعبدونها ، واستشهد لرأيه بقول الكتاب في سفر الخروج (ف ٨ عد ٢٦) : أن موسى قال لفرعون : « ليس من الصواب أن تصنع (أي أن نذبح في أرض مصر) لأننا إنما نذبح للرب إلهنا ما هو رجس عند المصريين . فهل نذبح بحضرتهم ما هو رجس عندهم ولا يجمعونا ؟ » وقال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٦٤) ما ملخصه : قال بعضهم : « ان المصريين كانوا يعدّون الرعاة أرجاساً لتوقف نجاح بلادهم على الزراعة ، ولأن اسم الرعاة يشير إلى الخساسة والوغادة والهمجية . وقالوا : إن الآثار تمثل الرعاة بهيئة ضعفاء شنيعي المنظر . وأن هيرودت أشار (في ك ٢ فصل ١٦٤) إلى أن المصريين كانوا يمتقون جميع الرعاة ، لأن رعاية الخنازير منهم ، ولا تستقيم النتيجة لأن مقت المصريين رعاية الخنازير إنما كان لرجاسة هذا الحيوان عندهم . فلا يتعدى إلى سائر الرعاة ، وبعض الآثار المصرية يمثل الرعاة بهيئة الأرقاء ، وبعضها يمثلهم

بشيء من التعظيم لكثرة ماشيتهم ، أو ما كان الأولى لحل هذه المشاكل ان نقول : إن المصريين كانوا يمتنون الرعاة لأن الملوك الرعاة أذلّوهم واستحوذوا على بلادهم . وأبائي أحدهم أحسن قبول العبرانيين لأنهم من أهل وطنه القديم . وقرظ الأب فيكورو كلمت لأنه اهتدى (في تفسيره سفر التكوين) إلى هذا الوجه لتفسير هذه الآية قبل أن ينجلي تاريخ الملوك الرعاة كما انجلي الآن ، فلم يكن الرعاة الوطنيون أرجاساً بل كانوا يعتبرون الرعاة الأجانب أرجاساً من جرى الملوك الرعاة .

وأخذ يوسف أولاً خمسة من إخوته فمثلهم بين يدي فرعون ، فتلطف بهم وقال نيسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوي حذق فأقمهم على ماشيتي . ثم أدخل يوسف يعقوب أباه ومثله بين يدي فرعون ، فرحب به وسأله عن عمره فقال : سنو غربتي مئة وثلاثون سنة، ولم تبلغ سني حياة آبائي . وعاش يعقوب بعد ذلك في مصر سبع عشرة سنة ، وأحلّ يوسف أخوته في أجود موضع من مصر، وهو أرض جاسان التي سماها الكتاب أرض رعسيس أيضاً . وأقام بعض اخوته وكلاء على ماشية فرعون . وكان للفراغة ماشية كثيرة ، ويكفي لاثبات ذلك ما ذكره من تقادمهم للهيكل . فجاء في الباير المعروف بهاريس : أن رعسيس الثالث قدم لهيكل طيبة (تاب) قطيع ماشية وعدده ستة وثمانون ألف رأس ، ولهيكل هيلوبوليس (المطرية الآن أو تل الحصن) قطعاً عدده خمسة وأربعون ألفاً وخمس مئة وأربعة وأربعون رأساً .

قد كان للعلماء ومفسري الكتاب قبل الإكتشافات الحديثة أقوال عديدة متضاربة في موقع أرض جاسان التي احتلها بنو إسرائيل . فإنّ الجهل بجغرافية مصر أوقع امهرهم في أغلاط يبتة من ذلك ، جعل العلامة كرنيولوس الحجري موقع مدينة رعسيس وأرض جاسان في الصعيد في جنوبي مصر حيث توفر عدد السائحين في صدر النصرانية . ولم يسعد الحظ كلمت الشهير أن يحترز من التهور في مثل هذا الغلط على أن احتقار قناة السويس ، وابحات العالم أدوار نافيل في هذه الأرض سنة ١٨٨٥ م على نفقة الجمعية الإنكليزية المعروفة بلجنة البحث في مصر ، كشفت لنا عن حقيقة موقع جاسان وأرض رعسيس ، فهي في الجهة الشمالية الشرقية من مصر حيث الآن المديرية المعروفة بالشرقية . فقد وجد نافيل هناك تمثال رعسيس الثاني نفسه مكتوباً عليه اسم ست مرات . واكتُشف في المحل المعروف الآن هناك بسقط اللجنة على أثر يتبين منه أن هذا المحل كان يسمى كاسام . وكان هذا الاسم يطلق على

العمل كله ، وليس كاسام إلا جاسان مبدلاً فيه حرفان بما يقاربهما، كما جرى في كثير من هذه الأسماء، وهو في الجنوب الشرقي من الزقازيق، وفي الشرق من تل المسقوطة . وهناك سفت وتل الكبير. وقد جاء في سفر الخروج (ف ١ ع ١١) : أن بني إسرائيل « بنوا لفرعون مدينتي خزن وهما فیتوم ورعمسيس .

وحققت أبحاث نافيل أن أحربة تل المسقوطة إنما هي فیتوم القديمة حقيقة . ففیتوم أو بیتوم كلمة مركبة من بي ومعناه بيت كما في السريانية ، ومن توم اسم أحد معبودات مصر، فكانت هذه المدينة مفردة لهذا الاله وتحت حمايته . وجميع الآثار التي وجدت هناك تجدد عليها اسم الاله توم، وهناك وجد تمثال رعمسيس الذي سميت المدينة الثانية باسمه . ومن جملة هذه الآثار تمثال صغير من حجر أحمر كتب عليه اسم الإله توم ثلاث مرات، ووجدت صورة هذا الإله أيضاً وكثير من اللبن مصنوع من أوحال النيل يخالطها التبن وذلك من بقايا سور المدينة . وهذا اللبن هو الذي كان الفراعنة يسخرون بني إسرائيل بصنعه . فقد كان إذاً تل المسقوطة جزءاً من أرض جاسان أو أرض رعمسيس . ولا يخالف ذلك أن هذه الأرض لا ترى الآن خصبة جيدة التربة لأن أرمال البرية الحارة غطتها بعد أن كانت في أيام بني إسرائيل تسقى بمياه النيل . وتشهد لذلك آثار القناة الباقية إلى الآن ولم يشهد الكتاب وحده بجودة أرض جاسان بل شهدت لها الآثار أيضاً، فقد جاء في البايير المحفوظ الآن في لوندرة، وقد خط في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر ان أرض رعمسيس كانت على غاية من العمران من حيث كثرة السكان، وغزارة ماء سقائها، وكثرة غلاتها . قال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٢٢٤) : « إن أرض جاسان يعود إليها خصبها إذا أحيها ماء النيل . وقد دلنا أحد سكان تل المسقوط عند زيارتنا لها في شهر آذار سنة ١٨٨٨ م على أرض فسيحة تبلغ ثماني مئة فدان (كما يقولون) اشتراها سنة ١٨٨٥ م . وسقاها بقناة صغيرة من ماء الإسماعيلية فأصبحت نضرة خصبة متوفرة الغلة » فهناك إذاً أقام يعقوب وهناك نما نسله كما سترى .

عد ١٧٧

وفاة يعقوب ثم يوسف في مصر

لما دنا أجل يعقوب دعا يوسف واستحلفه أن لا يدفنه في مصر، بل في مدفن

آبائه في حبرون . وأتاه يوسف بابنيه منسا وأفرائيم ، فباركهما مقدماً أصغرهما أفرائيم على أكبرهما منسا ثم جمع بنيه وباركهم . وتنبأ على ما يكون للذرية كل منهم ، وخصَّ يهوذا بإرث المواعد الالهية وبأن المخلص يولد من نسله ، وقدمه على إخوته : رآوين وشمعون ولاوي مع أنهم أكبر منه سناً لجعلهم أنفسهم غير أهل للتقدم لما اقترفوا من الجرائم ، ولاسيما إيثخانهم في أرض شكيم عند افتضاض اختهم دينا . ولما فرغ من وصيته لبنيه ضم رجله على السرير ، فيظهر أنه كان يوصي جالساً ورجلاه ممتدتان ، ولما فرغ ضم رجله وفاضت روحه فما أنها موت الأبرار . فبكاه يوسف وأمر الأطباء أن يحنطوا جثته فحنطوها .

وقد اعتاد المصريون تحنيط جثث الموتى من أقدم الأيام . ذلك دليل على تيقنهم حياة أخرى وقيامة الموتى . وكان لهم من التحنيط أساليب متنوعة يجرون منها على ما شاءه أهل الميت من النفقة . وأقل أنواعه نفقة إخراج الأحشاء والدماغ ووضعها في قار مغلي ، وحفظها في آنية من خزف أو غيره ، وتحفيف سائر الجسم بوضعه في التترون مدة متطاولة نحواً من أربعين أو سبعين يوماً . ثم لف الجسم بعصائب من كتان نقي ، وكثيراً ما توجد مكتوباً عليها أسماء الآلهة وآيات من السفر المعروف عندهم بسفر الموتى . وكانوا يضعون أيدي النساء على صدورهن وأيدي الرجال على جانبي جثتهن ، أو يضعون اليد اليسرى على كتف اليمنى . وكانت الخنافس رمزاً عندهم إلى عدم الموت ، فكانوا يضعون مثالها موضع القلب ويعتبرون القلب مقر الضمير ، فيكتبون على لفافته فقرة من الفصل الثلاثين من كتاب طريقة دفن الموتى هي : يا قلب يا قلب قد اتخذتك من أُمِّي وكنت قلبي ما حييت على الأرض ، فلا تكن شاهداً عليّ ولا تشكوني إلى رئيسي الإلهي ، ولا تثقل عليّ أمام الإله الأعظم » (رواه مسبرو في تاريخ شعوب المشرق صفحة ٤١) ذلك دليلاً على اعتقادهم الديونة .

وبعد إتمام التحنيط صعد يوسف ليدفن أباه ، وصحبه آله إلّا أطفالهم ، وجمّ غفير من عبيد فرعون ، وشيوخ أرض مصر ومراكب وفرسان . فكان الموكب عظيماً جداً فأفوضوا إلى بيدر اطااد في عبر الأردن . وقال القديس إيرونيموس : إنّ موقع هذا البيدر في عبر الأردن الشرقي . ثم قال : إنه في عبره الغربي يبعد ثلاثة أميال عن أريحا وميلين عن الأردن نحو الغرب . ولعل القول الأول حرّفه النساخ ، أو ذكره هذا العلامة تبعاً لنص الكتاب . انه في عبر الاردن للقدام من مصر، إذ يكون قدومه من شرقي الاردن . وعبره في مغربه ولاسيما لأنه جعل موقع بيدر

أطاد في محل عين حجلة الآن (كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٥٣). وهو تجاه مخاضة حجلة في شمالي الخليل، فهناك أقام يوسف مع صحبه مناحة لأبيه، ولذلك سمي هذا المحل وقتئذ مناحة المصريين. ثم رفعوا جثة يعقوب إلى حبرون (الخليل)، ودفنوه في المغارة المضاعفة مع ابراهيم وسارة واسحق ورفقا ولية (راجع عد ١٦٣).

وخاف إخوة يوسف أن يتذكر أخوهم بعد وفاة أبيهم مساءتهم إليه فيجزئهم عليها شراً. فأرسلوا يقولون له، إن أباه أوصى أن يغفر لاختوته، فبكى يوسف حين قيل له هذا الكلام. فجاء إخوته ووقعوا بين يديه فقال: لا تخافوا هذه مشيئة الله ولاطفهم، وعاش يوسف بعد وفاة أبيه نحواً من أربع وخمسين سنة، لأن فرعون استوزره وعمره ثلاثون سنة، ومرت سبع سني الشبع، وستان من المجاعة إلى انحدار يعقوب إلى مصر. وعاش يعقوب في مصر سبع عشرة سنة فمجموع هذه السنين ست وخمسين سنة. وأنبأنا الكتاب أن يوسف مات وله من العمر مئة وعشر سنين فيكون الباقي منها أربع وخمسون سنة. وقبل موته استحلف آله أن ينقلوا عظامه إلى أرض الموعد متى افتقدهم الله وأخرجهم من مصر. فحنطت جثته على عادة المصريين، ووضعت في تابوت حملوه معهم عند ارتحالهم من مصر إلى أرض كنعان. وجاء في سفر يشوع بن نون (ف ٢٤ ع ٣٢): إنّ «عظام يوسف التي أصعدها بنو إسرائيل من مصر، دفنوها في شكيم (نابلس) في قطعة الحقل الذي اشتراه يعقوب من بني حمور أبي شكيم بمئة نعجة (تك ف ٣٣ ع ١٩) وصار لبني يوسف ملكاً». وقال القديس إيرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين): إنّ مدفن يوسف كان يشاهد إلى أيامه في فلسطين. وقال العالم رونلدرسن إنه زار في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٨ م مدفناً في نابلس أجمع السامريون واليهود والمسلمون والنصارى على أنه مدفن يوسف، وتلا هذا الجلالة الإنكليزية خطبة في هذا الشأن بحضرة أعضاء جمعية الآثار الكتابية في لوندرة في ٧ ك ٢ سنة ١٨٧٣م، روى ذلك الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٩٦) وقال: «يحتمل أن يكون يوسف دفن في هذا المحل ولكن في حجرة والأثر الذي يشاهد الآن حديث وقد زرته في ٢٨ آذار سنة ١٨٨٨م وعليه كتابة إنكليزية ناطقة بأن العالم روجه عني بمرمته».

لقد كانت المدة التي انقضت من إتيان ابراهيم إلى أرض كنعان إلى انحدار

يعقوب إلى مصر مئتين وخمس عشرة سنة ، لأن ابراهيم شخص إلى أرض كنعان وله من العمر خمس وسبعون سنة ، وولد اسحق وعمره مئة سنة أي لسنة ٢٥ من إتيانه إلى فلسطين . واسحق ولد يعقوب وعمره ستون سنة . ويعقوب انحدر إلى مصر وعمره مئة وثلاثون سنة كما رأيت ؛ فيكون المجموع ٢١٥ سنة .

الفصل الرابع

أخبار بني اسرائيل في مصر

عد ١٧٨

حالة بني اسرائيل أولاً في مصر واشتراكهم مع المصريين
في بعض غزواتهم

نما بنو إسرائيل كثيراً في أرض جاسان الخصبة. ولم يبرحوا متميزين عن المصريين في دينهم وأدبهم ولغتهم. ولم يكن المصريون يهرون التقرب إليهم لأنهم رعاة ورُحُل. وقد رأيت أن الرعاة كانوا يحسبون في مصر أرجاساً، وتلك عناية صمدانية ندرك من غايتها محافظة بني إسرائيل على اعتقادهم وحدانية الله. وعلى التقليدات التي تلقوها من ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف، ووقايتهم من سريان عدوى عقائد المصريين إليهم. على انه وإن كان للفراعنة الولاية العليا عليهم فكان لهم شيوخ يلون امرهم، فكان كل سبط يقسم إلى أسر، ولكل أسرة شيخ ولشيوخ كل سبط رئيس يسميه المصريون هاك (والياً أو رئيساً). ويرأس هؤلاء عمال يسميهم المصريون سكوتريم (كتبة). تختارهم الحكومة من بني إسرائيل وهم المواخذون أمام الحكومة بتنفيذ أوامرها، وأداء التكاليف المفروضة على بني إسرائيل. فكان لإقامة بني إسرائيل في مصر وجهان نافع وضار. فالنافع قريبهم من شعب

فاقهم حضارة، وتمدناً، فاقتبسوا منه بعض الصنائع، وأخذوا عنه عيشة الحضارة بدلاً من البدو. والضرar تشوش بعض تقليداتهم وآدابهم وبعض الخلل في عبادة الاله الحق، ولذلك شاء الله إخراجهم من مصر.

قد حصلت ثورات عديدة في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر منها طرد الملوك الرعاة، وعود البلاد إلى إستقلالها ومجدها كما رأيت في تاريخ الحثيين. ويظهر أن الملوك الوطنيين بعد الرعاة رفقوا ببني إسرائيل ولم يعتنوهم. وإن رجال هولاء كانوا من جنود الفراعنة في حملاتهم على آسيا، وحاولوا منذ ذلك العصر الإقامة في أرض موطنهم فلم تيسر لهم. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (ف ٧ ع ٢٠) أن أبناء ابراهيم بن يوسف نزلوا إلى جت (مدينة الفلسطينيين) ذكرين الآن ليأخذوا ماشيتهم فقتلهم رجال جت. وذكروا أن ابنة من ذرية أفرائيم بنت مدناً في بلاد كنعان، وأن بعض بني سبيلا بن يهوذا استحوذوا على بعض مدن الموابين؛ هذا ملخص ما رواه لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ١٩٥). وقد طالعت في هذه الأيام مقالة أثبتها الأب دي مور L'Abbé de Moor في المجلة الكتابية Revue Biblique في عددها الثالث الصادر في تموز سنة ١٨٩٢م معنونة: «العبرانيون في فلسطين قبل الخروج» وموضوعها الكلام في صفائح مسمارية كشف عنها سنة ١٨٨٧م في تل الامرنا بما بين النهرين، ذكرت فيها أسماء أورشليم واليهود بين أسماء الشعوب سكان فلسطين الذين انتصر عليهم أمانوفيس الرابع أحد فراعنة الدولة الثامنة عشرة بعد طرد الرعاة من مصر، وقبل خروج بني إسرائيل منها بزهاء مئة وخمسين سنة. فارتبك العلماء في مغزى هذه الصفائح، وفي التوفيق بين ما كتب وآيات الكتاب وآثار أخرى. فبذل الأب دي مور قصارى جهده ليثبت أن هولاء اليهود الذين أبان الأثر الجديد إقامتهم في فلسطين قبل الخروج قد رافقوا الملوك الرعاة عندما طردهم المصريون، فأقاموا في فلسطين وأورشليم خاصة وملكوا فيها. وأيد قوله هذا بحجج؛ منها قول مانيتون أبي التاريخ المصري إن الرعاة بنوا أورشليم أي رفقاء الرعاة ومنها أقوال أخرى لمانيتون أيضاً سمي بها الرعاة أورشليميين أو أراد العبرانيين الأورشليميين. ومنها أنه وجد في جريدة أسماء الشعوب الذين قهرهم تحوتمس الثالث أسماء يعقوبال ويوسفال أي بني يعقوب وبني يوسف، وهذه الجريدة منقوشة على جدار الكرنك يحدد بها تحوتمس الشعوب الذين قهرهم بعد موقعة مجدو (راجع عد ٦٢). ومن حججه أيضاً ما كتب على

صفائح تل الامرنا المبحوث فيها، وأقوى حججه آية سفر أخبار الأيام الأول (ف ٧ ع ٢٠ وما يليه):

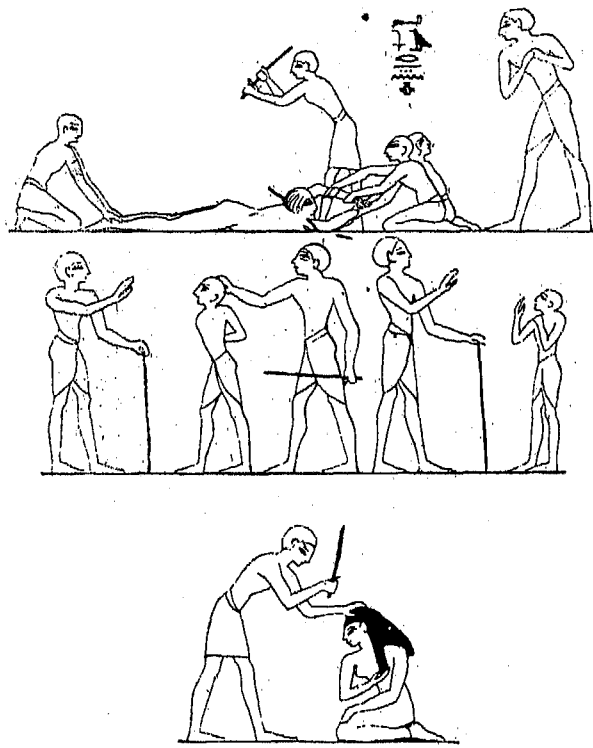
« وبنو أفرائيم شوتالح... وعاز والعاد فقتلهم رجال جث المولدون في الأرض لأنهم نزلوا ليأخذوا ماشيتهم، ففاح أفرائيم أبوهم أياماً كثيرة وأقبل لإخوته ليعزوه». ولا مرية أن افرائيم هو ابن يوسف، وجث هي مدينة فلسطين المشهورة. وخروج بني اسرائيل من مصر كان لسنين متطاولة بعد وفاة أفرائيم بن يوسف فلا مخرج لهذه الآية التي أعيا العلماء تفسيرها إلا بأن يقال إن بعض العبرانيين حاربوا مع الرعاة لقريهم منهم موطناً في سورية وفلسطين. وخرجوا معهم عند خروجهم من مصر فأقاموا في اليهودية؛ هذا خلاصة ما جاء به الأب دي مور في مقالته.

عد ١٧٩

بدء اضطهاد بني إسرائيل في مصر

قال الكتاب (في الفصل الأول من سفر الخروج عد ٦ وما يليه): «ومات يوسف وجميع إخوته وسائر ذلك الجيل ونما بنو إسرائيل وتوالدوا، وكثروا وعظموا جداً جداً وامتألت الأرض منهم. وقام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه ان شعب بني إسرائيل أكثر وأعظم منا تعالوا نحتال عليهم كي لا يكثروا، فيكون أنهم إذا وقعت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا. ويخرجون من الأرض. فأقاموا عليهم وكلاء تسخير لكي يعتوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي خزن وهما فيثوم ورعمسيس، غير انهم كانوا كلما أذلهم ينمون ويمتدون حتى تخوفوا من قبل بني إسرائيل، فاستخدم المصريون بني إسرائيل بقسوة ونغصوا حياتهم بخدمة شاقة بالطين واللبن وسائر أعمال الأرض».

وقد جاءت الآثار المصرية مصداقاً لآي الكتاب هذه فقد وجدت على مدافن مصرية صور عديدة تمثل أسرى ساميين يعملون بالطين واللبن. وبينون الأسوار تحت امرة عمال مصريين بيد كل منهم سوط أو عصا طويلة، حتى أن الناظر إلى تلك الصور يقضي لأول وهلة أن ما تلك الصور إلا ممثلة لما رواه الكتاب من استعباد المصريين لبني إسرائيل، وسنذكر إحدى هذه الصور في العدد ١٨٢. أجمع أهل العلم بالآثار المصرية أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد



صورة عن مدافن بني حسن في مصر تمثل هيئة الضرب بالعصا

الدولة التاسعة عشرة. وقال بعضهم ومنهم مسيرو (في تاريخ شعوب المشرق):
 إنهم خرجوا في عهد ساتي الثاني أحد فراعنة هذه الدولة. وقال ليسيوس ودي
 روجه وشباس ولانزمان وسائس وبروغش وإبار، وتابعهم في قولهم أكثر أهل
 العلم بهذا الفن في إفرنسة وإنكلترا وألمانيا: ان خروج بني إسرائيل كان في عهد
 منفتح الأول ابن رعمسيس الثاني، وعليه فرعمسيس هذا هو الذي شرع
 يضطهد بني إسرائيل، وأثقلهم ببناء المدينتين اللتين سميت إحداهما رعمسيس
 باسمه. كما سميت الاسكندرية باسم اسكندر وقسطنطينية باسم قسطنطين.

وأنبأنا الخطوط الهيروغليفية أن رعمسيس الثاني إنما هو باني هذه المدينة،
 وقد حققته خاصة اكتشافات أدوار نافيل في فيثوم مدينة رعمسيس الأخرى،
 حيث كشف عن آثار عديدة لا تدع محلاً للامتراء في أن المدينتين بنيتا بأمر

رعمسيس، لأن اسم رعمسيس على كثير من هذه الآثار، ومن جملتها تمثال رعمسيس نفسه مكتوباً عليه اسمه ست مرات وهو الآن في جنة الإسماعيلية. ثم أنك تجد على مقربة من تل المسقوطة (حيث كان موقع فيتوم) صخراً كبيراً من الحجر المحجب (غرانيت) رسمت عليه صورة ملك جالس بين إلهين فهذا الملك هو رعمسيس الثاني. وقد نقش اسمه مكرراً على هذا الصخر والالهان بجانبه هما توم ورع. وقد مرّ (في عد ١٧٦) إن فيتوم أو بيتوم تأويلها بيت الاله توم أو معبده مركبة من نبي أو في بيت وتوم اسم الإله. ويراد به عندهم الشمس عند غروبها، ورع أو أمون رع يريدون به الشمس وقت خفائها. وحول هذا الصخر أخربة كثيرة وكبيرة وهي بقايا لبن مصنوع من وحول النيل يخالطها التبن. وكانت أسوار مدينة بيتوم مبنية بها حتى يمكن أن يثبت أن بعض بقايا هذا اللبن هي من عمل بني اسرائيل (طالع العدد ١٨٢).

قد وجد في منف باير سُحْطٌ في عهد رعمسيس الثاني وهو الآن في متحف لايد (في هولندا) ترجمه العالم شباس ، فإذا به بينتان قاطعتان لصحة ما جاء في الكتاب من أعنات بني إسرائيل وتسخيرهم بأبنية رعمسيس. وإليك البينة الأولى فمن مآل هذا الباير أن الكاتب كويسر يجيب رئيسه الكاتب (كان العمال يسمون كتبة) بكفتاح عن شيء أمره به فيقول «إسترضاء لسيدي أتممت أمره الذي أنفذه إليّ قائلاً أعط الجنود قوتهم، وأعط أيضاً العبريو (العبرانيين) الذين ينقلون الحجارة لبناء البكهان (المخازن أو الحصون العسكرية) الكبيرة للملك رعمسيس مريمان خليل العدل (العبرانيين) الذين وكل أمرهم إلى رئيس المدجاير (رجال الشحنة والضابطة) عمينمان. فأنا أجريت عليهم رزقهم في كل شهر بمقتضى الأوامر السامية التي أنفذاها سيدي إليّ». والبينة الثانية هي رسالة أخرى كتبها الكاتب كنيامن إلى رئيسه كجاناهوي من المقربين إلى رعمسيس الثاني فقال: «أطعت ما أمرني به سيدي قائلاً: أعط الجنود أرزاقهم والعبريو أيضاً الذين ينقلون الحجارة لشمس الشمس (أي هيكل الشمس) الذي انصرفت إليه عناية رعمسيس مريمان في جنوب منف». فالبينتان قاطعتان خاصة إذا راعينا أن بني إسرائيل كانوا يعرفون في مصر باسم عبرانيين. ونرى فرعون نفسه يسميهم بهذا الاسم لأنه قال للقابلتين: «إذا استولدتما العبرانيات». وموسى نفسه قال: «وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات» (خروج ف ١ ع ١٥ و ١٦).

ولما رأى رعمسيس أن أعنات العبرانيين وأثقالهم بالأشغال الشاقة لا ينوله مآربه من انقاص عددهم. عمد إلى ذريعة أخرى بأن أمر قابليتي العبرانيات أن تقتلا كل ذكر يولد لهن. فاتقت القابلتان الله ولم تفعلوا، واحتجنا بأن العبرانيات قويات يلدن قبل أن تدخل القابلة عليهن، فبارك الله القابلتين وعمر بيوتهما. فاستشاط رعمسيس غضباً فأمر جميع شعبه أمراً فظيعاً أن يطرحوا في النهر كل ذكر يولد للعبرانيين. ولم يكن الفراعنة يقدرون حياة الإنسان حتى قدرها، تبنينا بذلك ألوف الرجال الذين كانوا يهلكونهم في بناء آثارهم وغيرها. على أن أمر فرعون هذا لم ينفذ إلا في مدة وجيزة. لأننا نرى عدد بني إسرائيل بعده بثمانين سنة قد اتصل إلى ستمائة ألف مقاتل عند خروجهم من مصر. وقد مرّ في كلامنا على الحثيين أن رعمسيس هذا غشى سورية بعساكره مرتين لمحاربة الحثيين والكنعانيين ونقش صورته ظافراً على صخر في جانب نهر الكلب.

عد ١٨٠

مولد موسى ومنشأه في بيت فرعون وفراره من مصر

وكان أن رجلاً من سبط لاوي يسمى عمران أو عمرام تزوج بابنة من قرائبه اللاويات اسمها يوكابد، وسماها يوسفوس (في تاريخ اليهود) يوكابل وابن الأثير يوحانذ. فولدت له أولاً بنتاً سمّتها مريم. ثم ابناً سمّته هرون. ثم (ابناً آخر رآته حسناً وخافت عليه نفوذ أمر فرعون به فاحتفظته ثلاثة أشهر. ولما لم تستطع أن تخفيه بعدما أخذت له سفطاً من بردي. وطلته بالحر والزفت وجعلت الولد فيه، ووضعت بين الخيزران على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتنظر ما يقع له فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل. وكانت جواربها سائرات على شاطئ النهر فرأت السفط بين الخيزران فأرسلت امتهأ فأخذته. ولما فتحت رأت فيه صبياً يبكي فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين. وروى يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٢ ف ٥) أن ابنة فرعون هذه كان اسمها ترموتيس. وذكرت الآثار المصرية لرعمسيس امرأة سمّتها ترمموت أو ترموت وتأويل هذا الاسم « محبوبة الآله موت ». وروى يوسفوس ثمة أيضاً أن ابنة فرعون استدعت كثيراً من المرضعات فلم يأخذ الطفل ثدي إحداهن. فقالت حينئذ مريم أخته لابنة فرعون لا يأخذ الطفل ثدي ظن من

غير امه فان أمرت أتيتك بموضع عبرانية فقالت إليّ بها . فأسرعت الفتاة فدعت أم الصبي فقالت لها إبنة فرعون خذي هذا الصبي وارضعيه، وأنا أعطيك أجرتك. فأخذته وأرضعته مع الحليب حب الإله الحق، والغيرة على بني قبيلته، وحفظ التقليدات العبرانية . ولما كبر جاءت به إبنة فرعون فاتخذته ابناً لها، وسمته موسى وقالت: لأنني انتشلته من الماء فمعنى الكلمة النشيل لأن لفظة مو في المصرية معناها الماء وإيزاس أو ساس معناها نشل.

لم يبننا الكتاب شيئاً مما كان لموسى في بيت فرعون. على أن التقليدات اليهودية التي رواها يوسفوس (في الفصل الأنف ذكره) تؤذن بأن ابنة فرعون أقامت عليه أساتذة من الكهنة يفقهونه علوم المصريين. وعنت بأن تنكبه حسد الكهنة والمنجمين الذين كانوا يتوسمون فيه ذكاء سامياً، ويخشون ما يكون في مقبل أمره ويجعلون الملك واجساً منه. ومن أقاصيصهم أن موسى سلمت إليه قيادة الجيوش في حملة على الحبشة ولهم في ظفره فيها وفي تزوجه بترييس بنت ملك الحبشة حكايات لا تصدّق فنضرب عنها.

إن رفاه عيش موسى وعزازته في بيت فرعون لم ينسيه الضيق الملم بشعبه. فكان يكثر التردد بين أظهرهم معزياً ومشجعاً لهم. وخرج يوماً إلى إخوته فإذا بمصري يضرب عبرانياً فلم يتمالك موسى عن أن يثب على المصري ويقتله ويطمره في الرمل. وخرج في اليوم التالي، فإذا بعبرانيين يتضاربان فقال للمعتدي لِمَ تضرب قريبك؟ فقال: من أقامك رئيساً وحاكماً علينا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وعلم أن الخبر قد ذاع، وأن فرعون يريد قتله مدفوعاً إلى ذلك بحسد المصريين له، فهرب موسى من وجه فرعون.

عد ١٨١

إقامة موسى في بلاد مدين وزواجه فيها وعوده إلى مصر

قد فرّ موسى إلى أرض مدين وهي من بلاد العرب في شرقي البحر الأحمر. وقد مر بك عند كلامنا في ولد ابراهيم من قطورة أن هؤلاء المدينيين الذين لجأ موسى إليهم هم كوشيون أصلاً. وغير المدينيين ولد مدين ابن ابراهيم من قطورة الذين كانت مساكنهم في شرقي البحر الميت. وإن بعض العلماء يرى أن للشعبيين

أصلاً واحداً. وأنبأنا الكتاب (خروج ف ٢) أن موسى قعد عند بئر في أرض مدين فجاءت بنات رعوثيل كاهن مدين الذي يسميه الكتاب يترو أو يترون أيضاً ويسميه العلماء العرب شعيب. فاستقين وملأن المساقى ليسقين غنم أبيهن فطردهن الرعاة فانتصر لهن موسى، وسقى غنم أبيهن، فأخبرن أباهن بما فعله الرجل ليهن فاستدعاه وشكر له وأكرم مشواه. ورغب إليه أن يقيم عنده فارتضى موسى، ووكل إليه يترون العناية بماشيته، وزوجه صفورة ابنته فولدت لموسى ابناً سماه جرشوم : وقال: كنت نزيراً في أرض غريبة فتأويله الغريب أو النزير. ثم ولدت له ابناً ثانياً سماه اليعازر وقال: إن اله ابي ناصرني أنقذني من يد فرعون. فتأويله عون الرب أو إنجاده.

إن موسى أقام في أرض مدين أربعين سنة وكان عمره إذ هرب إليها أربعين سنة، وقام على قيادة بني إسرائيل أربعين سنة فجملة سني عمره مئة وعشرون سنة، كما جاء في الفصل الأخير من سفر التثنية، وعليه فما جاء في الفصل الثالث من سفر الخروج من تعلي ملاك الرب له في جبل حوريب بلهيب نار في وسط العليقة كان في السنة الثمانين من عمره والأخيرة من سني إقامته في أرض مدين، لأن موسى هم بالعود إلى مصر بعد هذه الرؤيا التي افتتح الله بها رسالته إلى فرعون ليطلق الشعب إذ جاء في الكتاب: إن موسى مال لينظر ما بال العليقة تتوقد بالنار ولا تحترق. فناده ملاك الرب من وسط العليقة قائلاً:

«إخلع نعليك من رجليك فإن الموضع الذي أنت قائم فيه أرض مقدسة». وكان خلع النعلين في المشرق خاصة دليلاً على الإحترام والتهيب. وناجاه الرب قائلاً: أنا إله أبائك ابراهيم واسحق ويعقوب، وقد نظرت إلى مذلة شعبي في مصر، فالآن تعال أبعثك إلى فرعون، وأخرج شعبي من مصر فقال له موسى: من أنا حتى أمضي إلى فرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر. فقال له الرب: أنا أكون معك. فقال له موسى: ها أنا سائر إليهم وقائل لهم إن إله آبائكم بعثني إليكم؛ فإن قالوا لي ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال له الرب: أنا هو الذي هو أنا الكائن أي أنا القيوم أنا هو الأزلي والأبدي، أنا هو الذي لا يتغير بل هو دائماً هو. فقال موسى: لا يكفيهم هذا بل يقولون لي لم يتجل لك الرب؟ وكأنه يطلب من الرب آية فقال له الرب: ما تلك التي بيدك؟ قال: عصا. قال: ألقيها على الأرض فألقاها، فصارت حية فهرب موسى من وجهها، فقال له الرب: أمدد يدك وأمسك بذنبها

ففعل، فعادت عصا في يده. ثم قال له أدخل يدك في جيبك فادخلها وأخرجها فإذا يده برصاء كالثلج. فقال له: ارددها إلى جيبك. فردّها وأخرجها فعادت كسائر بدنه فصدق موسى قوة الله، واستمر متردداً بقوة نفسه فقال: رحماك يا رب إني بطيء النطق وثقيل اللسان. فقال له الرب: من الذي خلق للإنسان فماً، ومن الذي خلق الأخرس والأصم، والبصير والأعمى أليس إياي أنا الرب؟. والآن فامضْ فإنني أكون مع فيك وأعلمك ما تتكلم به. فقال: رحماك يا رب إبعث من أنت باعته فاتقد غضب الرب على موسى واسمعه أن أخاه هرون يكون معه. وهو يخاطب الشعب عنه وأمره أن يأخذ بيده العصا التي صارت حية فمضى موسى ورجع إلى يثرو حميه، وأعلمه بانطلاقه إلى إخوته، فشيعه بالسلام. فأخذ موسى امرأته وولديه، وأركبهم الحمير كعادة المصريين إلى اليوم. ولما كان في الطريق في المبيت التقاه ملاك الرب وأراد قتله. فأخذت صفورة صوانة فقطعت قلعة ابنها ومست رجله وقالت: أنت لي عروس دم فكف عنه عندما قالت عروس دم من أجل الختان. لا تخلو آيات الكتاب هذه من غموض، وكثرت الأقوال في تفسيرها. وأظهرها أن الملاك أراد قتل موسى لخالفته السّنة بترك ختان ابنه اليعازر لأن ابنه الأكبر جرشوم كان اختتن. وعرفت صفورة امرأة موسى علة إرادة الملاك إهلاكه. فأخذت الصوانة وختنت ابنها والضمير في رجله من قوله: مست رجله عائد إلى موسى على الأظهر لا إلى ابنها فمست رجلي موسى وقالت: أنت لي عروس دم. كأنها تقول: إن الملاك كان يريد قتلك فاستحييتك بختان ابنك فكأنك لي عروس جديد بالدم الذي وفيتك به الهلكة. وكف الملك عنه بعد الختان، فظهر أن ترك الختان كان علة لطلب اغتياله. والتقى هرون موسى في البرية فقصّ موسى عليه جميع كلام الرب الذي بعثه به. وأخبره بالآيات التي أمره بها. ومضيا إلى مصر فجمعاً شيوخ بني إسرائيل كلّهم. وخاطبهم هرون بما كلم الرب به موسى، وصنع الآيات على عيون الشعب فخروا وسجدوا شاكرين لأن الرب افتقدهم.

عد ١٨٢

مخاطبة موسى وهرون فرعون ليطلق بني إسرائيل وما كان من قسوته
قد مرّ بك أن فرعون الذي كان يلي مصر لدنّ عود موسى من مدين إتما هو
منفتح ثالث عشر أبناء رعمسيس. فقد كتب على جدار هيكل صيوا أنه كان

لرعمسيس مئة وأحد عشر ولداً، فمات في أيامه الإثنا عشر الأولون، وخلفه منفتاح. والبايرت الكاتنة الآن في متاحف لندرة وبولنية وتورينو، وقد خطت في عهد منفتاح هذا أنبأتنا أنه كان يقيم في مصر السفلى أي في منف وهليبولي (المعروفة اليوم بالمطرية). ورعمسيس مدينة أبيه (تل المسقوطة) وتانيس (صان في قرب الزقازيق). وهذه المدن مجاورة أرض جاسان أو واقعة فيها. وفي الأخيرة منها أي في تانيس كان يحاول مقاومة إرادة الله بإطلاق شعبه. وما في هذه البايرت يطابق ما رواه موسى مكاناً وزماناً. ويتبين منها أن منفتاح كان قاسياً فظاً يعتمد على السحرة كما جاء في سفر الخروج. وكان الليبيون وثبوا على تخوم مصر الغربية في عهد رعمسيس الثاني فانتصر عليهم، وبدد شملهم فتألبوا بعد موته مع سكان جزر البحر المتوسط وبعض آسيا الصغرى. ويظهر أن بعض السوريين شايعوه، فوثبوا على شمالي مصر بحرراً وبراً فروعوا المصريين ولكن استظهر عليهم منفتاح وأخذ منهم ٩٣٧٦ أسيراً.

وفصلت ذلك خطوط نقشت على جدار مدينة أبو وهيكل الكرنك. ونهت هذه الأحداث منفتاح إلى زيادة الحذر من الأجانب، ولاسيما من توطنوا في شمالي مصر الشرقي أي العبرانيين خشية أن ينشعوا شعباً في مملكته أو يضافروا من غزاها. وقد كتب هذا الملك على هيكل الكرنك ما يشير إلى ذلك وهو: «إن هذه الأماكن أو أحدها لم تكن تحرث بل تركت مرعى للماشية من جرى البرابرة (الأثر محطم فلم تكن وسيلة لتعيين المحل). وقد تواتر السطو في هذا المكان منذ عهد السلف لما كان ملوك مصر العليا رقاداً في ظلال آثارهم. وكان ملوك مصر السفلى ينعمون في مدنهم تحديق بهم مواطن العثو والفساد، ولم يكن لجنودهم من منجد لكبت أولئك». روى ذلك شباس (في كتابه الموسوم بدرس القدم التاريخي صفحة ٢٠٤) وقال: إن هذا الكلام مؤذن بارتباك منفتاح من جرى ترايد عدد العبرانيين في عمل من بلاده كثر فيه من أقدم الأيام السطو، والعثو حتى لم تكن أرضه تحرث لعدم الأمن على استغلالها من مهاجمات العرب وغيرهم، فكيف أن عظم فيه عداد أجنيين واشتد ساعدتهم فلا منجاة منهم ألا ياذلهم وتقليل عديدهم ما أمكن. فرأف الله بشعبه وبعث موسى وهرون إلى هذا الملك ليطلباً إطلاق بني إسرائيل.

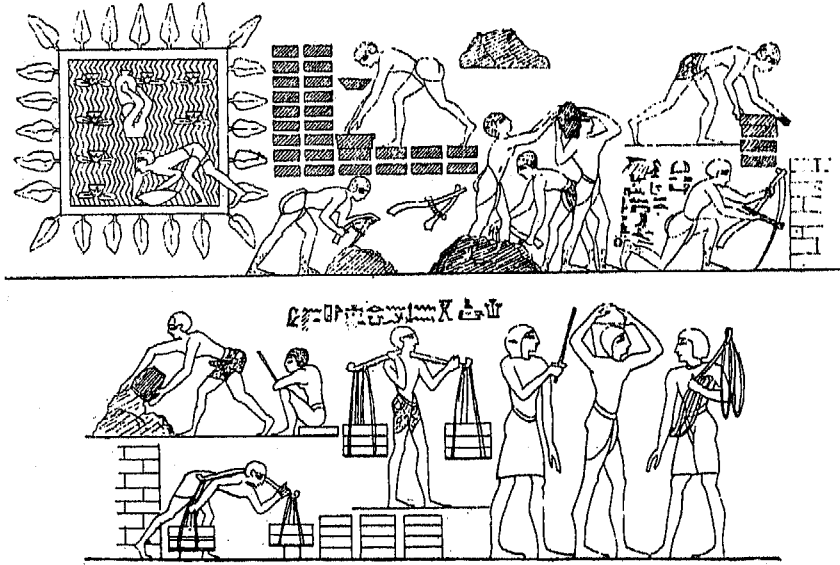
قال الكتاب (خروج ف ٥ ع ١ وما يليه): «دخل موسى وهارون وقالوا

لفرعون: كذا قال الرب إله إسرائيل أطلق شعبي لكي يعيدوا لي في البرية. فقال فرعون: من هو الرب فأسمع لقوله وأطلق إسرائيل... وأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريهم قائلاً: لا تعطوا الشعب تبناً بعد ليصنعوا اللبن مثل أمس، فما قبل، بل ليذهبوا هم، ويجمعوا لهم تبناً ومقدار اللبن الذي كانوا يصنعونه أمس، فما قبل فإرضوه عليهم ولا تنقصوا منه شيئاً... ليثقل العمل على الشعب فيشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب. فخرج مسخرو الشعب ومدبروهم وخاطبوا الشعب قائلين كما قال فرعون: «تفرق الشعب في جميع أرض مصر ليجمعوا جذامة عوض التبن. والمسخرون يلحون عليهم قائلين أكملوا أعمالكم فريضة كل يوم في يومها كما كان وقت إعطاء التبن، وضرب مدبرو بني إسرائيل الذين ولّاهم عليهم مسخرو فرعون»: إن الجذامة من الزرع هي ما بقي بعد الحصاد كما في كتب اللغة والكلمة في العبرانية قش، وفي النسخة السريانية **معها وإحدا** وقد ارتبك العلماء في تفسيرها فقد ترجمها بعضهم بالجذامة، كما روينا عن نسخة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت. ويظهر أنه اعتاص على القديس ايرونيμος لدى ترجمته سفر الخروج من العبرانية فهم المقصود بكلمة قش فلم يترجم الآية كلمة فكلمة بل اقتصر على قوله: «تفرق الشعب في أرض مصر كلّها يجمع التبن». والتوى على كلمت أيضاً تفسير الآية فقال: «تفرق الشعب لجمع العصيفة أي التبن الدقيق المهمل في الحقل بدلاً من التبن الذي كانوا يعطونه قبلاً». وقرائن كلام الكتاب تقضي بأن يكون ما جمعه بنو إسرائيل غير التبن المعتاد، على أن الإكتشافات المصرية أبانت لنا أن كلمة قش التي ذكرها موسى في هذه الآية إنما هي مصرية، يراد بها نبات يكثر وجوده على شواطئ النيل والأقنية المتفرعة عنه، ويترجح أنه البرديّ الذي تعمل منه الحصر أو ما تسميه عامتنا السعد. فقد وجد العالم نافيل صاحب إكتشافات تل المسقوفة في أرض جاسان ما لا يقدر من هذا اللبن وحلل كثيراً منه، فوجد بعضه يخالطه عصيفة من البرديّ، وبعضه مخلوطاً بالتبن مصنوعاً من وحول النيل ليس إلّا. وإليك قوله في خطبته التي قدمها سنة ١٨٨٣م. في المجتمع الأول العام في شأن الإكتشافات المصرية.

«إن قسماً من هذا اللبن يخالطه التبن أو أفلاذ من البرديّ (أو القصب المراد به كل نبات أصله أنابيب)، وآثارها بيّنة وقسماً آخر منه مصطنع من وحول النيل وحدها لا يرى أثراً للتبن فيه». وقد لاحظ الدكتور لبيسوس أن اللبن الذي وجد في

تل المسقوطة وقد كان مبنياً فيه سور مدينة رعمسيس القديمة يخالطه تبن مجذوم. ونقل بعضه إلى متحف برلين، وقاسه فكان طول كل لبنة منه ٤٤ وعرضها ٢٤ سنتيمتراً وثخانتها ١٢ سنتيمتراً. وقد اكتشفت شركة قناة السويس هناك طبقة من التراب المعدّ لاصطناع اللبن واصطنعت منها آجرًا جديدًا كما ذكر فرديناند دي لاسبس في خطبته في نانت التي طبعت في باريس سنة ١٨٦٧م حيث قال: «إنَّ يعقوب أقام في الوادي حيث كشفنا عن القناة القديمة المتفرعة من النيل، وهناك وجدت أخربة رعمسيس (المسقوطة) المدينة التي ذكرها الكتاب. وحيث كان العبرانيون يصنعون اللبن الشهير فشركة القناة البحرية وجدت عند حفرها في رعمسيس طبقات من التراب الذي كان العبرانيون يعملون منه لبنهم فصنعت منه الشركة لبنًا بنت به الإسماعيلية».

وقد وجدت صورة في القرنة بجانب تاب (طيبة) على مدفن رجل يسمى



صورة عن مدفن رخمارا أحد عمال تحوتس الثالث في القرنة بجانب تاب
تقل أسرى في مصر يصنعون اللبن

رخماراً أحد عمال تحوتمس الثالث، تمثل أكمل تمثيل ما جاء في سفر الخروج عن التسخير بصنع اللبن. فترى في هذه الصورة هيئة رجال غير مصريين يميزهم لونهم عن الوطنيين، والتقليد موضح بأنهم أسرى أخذهم الملك لبناء هيكل أبيه عمون. وترى من هؤلاء الأجانب من يحفر التراب بالمعاول ومن يدلي الماء، وغيرهم يعجن الطين، وغيرهم ينقله قبل اصطناعه، وبعضهم يضغظه بملزم من حشب، وبعض الأسرى يحملون اللبن على عواتقهم، وبعضهم ينقلونه إلى محل بناء الهيكل. ويبد بعض المصريين عصي وهم يعتنون العملة بقسوة لإتمام ما فرض عليهم. وقد رأى كثير من أهل العلم بالآثار المصرية منهم روزاليني (في كتابه في آثار مصر والنوبة مجلد ٢ صفحة ٢٥٤): أن هذه الصورة تمثل بني إسرائيل مسخرين بعمل اللبن. وإليك مثلاً من هذه الصورة.

عد ١٨٣

ضربات مصر^(١) وهي آيات الله فيها على يد موسى وهرون

قد أمر الله موسى وهرون أن يعودا إلى فرعون، فعادا ومعهما العصا التي صارت ثعباناً في حوريب. فدخلوا على فرعون فلم يعجب لحمل هرون عصا إذ كانت عادة الكهنة والأعيان في مصر أن يحملوا في أيديهم عصا. وكثيراً ما ترى صوراً لكهنة وأعيان ويدهم عصي. وقد توفّر في متاحف أوروبا عدد هذه العصي القديمة من أخشاب متنوعة وأكثرها من الأكاسيا. فطلب فرعون منهما آية يثبتان بها قوّة الإله الذي أرسلهما. «فألقي هرون عصاه بين يدي فرعون وعبيده فصارت ثعباناً، فدعا فرعون أيضاً الحكماء والعزّافين، فصنع سحرة مصر كذلك بسحرهم. ألقي كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. فابتلعت عصا هرون عصيهم» (خروج ف ٧) بياناً لعظمة إله إسرائيل. وقد حفظ التقليد إسمي ساحرين من سحرة فرعون. هؤلاء ذكرهما بولس الرسول (في رسالته ٢ إلى تيموتاوس ف ٣ ع ٨): وهما «ياناس ويمبراس». وعسى الإكتشافات تأتينا يوماً باسمهما.

وقد اشتهرت مصر في كلّ عصر بسحرتها وعزّافها. وكان من عادة الفراعنة

(١) أسماها ابن خلدون الجوائح جمع جائحة وهي الشدة والنازلة العظيمة.

أن يستدعوهم إليهم. في كل أمر خطير كما نرى فرعون في عصر يوسف استقدمهم لتعبير أحلامه. وقد رأى أكثر القدماء من مفسري الكتاب أن صيرورة عصي سحرة فرعون ثعابين كانت تخيلاً لا حقيقة. ونسبوا ذلك إلى قوة إبليس إذ جعل أعين الناظرين ترى عصي السحرة بهيئة حيات. وأما الآن فأكثر المفسرين على إعزاء ذلك إلى صناعة الرقية التي كانت معروفة من أقدم الأيام في مصر. ولا نحتاج في بلادنا إلى شرحها إذ قل بيننا من لم يتفق له أن يرى أحداً من هؤلاء الراقين يحملون الحيات على أعناقهم وأيديهم. ويلعبون بها كيف شاءوا ويستخرجونها من خباياها بالصفير والتلفظ ببعض كلمات. وقد جاء ذكر الرقية مكرراً في الكتاب منه (في مزمو ٥٧ ع ٥): «لهم سم كسم الحية الأفعى الصماء التي تسد أذنها فلا تسمع صوت الحواة ولا رقي راقٍ ماهر». ومنه (في نبوة إرميا ف ٨ ع ١٧): «هأنذا أبعث فيكم حيات أراقم لا تُرقى فتلدغكم يقول الرب». وذكر الرقية من القدماء استرابون (ف ١٧) وبلين (في التاريخ الطبيعي ف ٧) وغيرهما. فعلى رأي القدماء أنه خيل إلى الناظرين بفعل إبليس أن عصيهم تسعى. وجاء في القرآن: «إذا حبالهم وعصيهم يخيل إليهم من سحرهم أنها تسعى». وعلى رأي المتأخرين أن السحرة كانوا حواة أعدوا حيات وأرسلوها بدل عصيهم في مجلس فرعون فسعت لكن ابتلعها عصا هرون بياناً لعظمة إله إسرائيل ومع ذلك تقسى قلب فرعون ولم يسمع لموسى وهرون.

فأمر الله موسى أن يمضي بالغداة إلى فرعون على شاطئ النهر ويده العصا التي انقلبت حية وأن يضرب بها ماء النهر فينقلب دماً. فصنع كذلك موسى وهرون «رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر على مشهد فرعون وجميع عبيده، فانقلب جميع الماء الذي في النهر دماً والسماك الذي في النهر مات وأتت النهر، ولم يستطع المصريون أن يشربوا من ماء النهر وصار الدم في جميع أرض مصر... وحفر جميع المصريين حوالي النهر ليشربوا ماء» (خروج ف ٧ ع ٢٠ وما يليه). وهذه الضربة الأولى من الضربات العشر الآتي ذكرها وما نلاحظه فيها أنها إذا اعتبرت بنفسها مجردة عن ظروفها وقرائن حدثها كانت طبيعية. وإذا اعتبرت بظروف مكانها وزمانها وإنزالها بكلمة وانقضائها بكلمة إلى غير ذلك من القرائن الملازمة لها كانت آيات ومعجزات حقة. فاحمرار ماء النيل مثلاً يحصل في كل سنة في شهر تموز عند بدء فيضان مائه لما يمازجه من الوحول لكن انقلابه دماً في غير وقت فيضانه (لأن الظاهر

من الكتاب أن تلك النعمة كانت في أواسط شباط)، وبضربة عصا وموت السمك فيه ونباتة النهر، وامتداد ذلك إلى أحواض المصريين، وآنية استقائهم وعدم سريان ذلك إلى جاسان حيث مساكن العبرانيين؛ ذلك كله آية لا يقدر عليها إلا من هو على كل شيء قدير. وكذا قل في آيات الضفادع والجراد، والبرد إلى غيرها فتلك المصائب يكثر نزولها في مصر على أن نزولها بمجرد كلمة يتلفظ بها موسى وفي غير حينها المعتاد ووفرته الخارقة العادة، وانكفافها من فور أمر موسى إن ذلك إلا آية معجزة. وكثيراً ما تستند عناية الله في صنع المعجزات إلى الفواعل الطبيعية معظمة قواها ومبرزة أفعالها في غير حينها، وهذا لا يخرجها من حيز المعجزات.

الضربة الثانية بالصفاد فقد جاء في سفر الخروج (ف ٨): إن الرب أمر موسى أن يدخل إلى فرعون طالباً إطلاق الشعب، وإذا أبى ضرب تخوم مصر كلها بالصفاد فتقسي قلب فرعون. فمد هرون يده على مياه مصر فصعدت الصفاد وغطت أرض مصر، وانتشرت في البيوت والمخادع وعلى الأسرة والناس، وفي التناير والمعاجن. فدعا فرعون موسى وهرون وقال: إشفعا إلى الرب أن يرفع الصفاد عني وعن شعبي حتى أطلق الشعب. فقال له موسى: اقترح علي متى تشاء أن تشفع الصفاد فيك فتقطع الصفاد قال: غداً. قال موسى: سيكون كما قلت لتعلم ان ليس للرب إلها نظير، وفعل الرب كما قال موسى وماتت الصفاد من البيوت والأقنية والحقول، فجمعوها كوماً كوماً وأنتنت الأرض منها. وكان المصريون يعبدون من أقدم الأيام أي من عهد الدولة الخامسة إلهاً يقيمهم لإزعاج الصفاد وغيرها من الديب والذباب، وترى في آثارهم صور آلهة وعلى رأسها صفدع منها في متحف بولاق تمثال إله وعلى رأسه صفدع. وفي دندرة صورة كتب عليها: «وجهك أشبه بوجه صفدع». وكانوا يحسبون النيل إلهاً ويعبدونه فأراد الله بآياته أن يذل النيل بالضربة الأولى محولاً ماءه دماً، وأن يذري بالآلهة الصفاد بالضربة الثانية ليظهر للمصريين عجز هذه الآلهة عن وقاية عبادها بل إتيانها بنفسها عليهم بالمضرة.

«ولما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج صلب قلبه ولم يسمع لهما»، أي لموسى وهرون فأبلاه الله بالضربة الثالثة، فإن هرون مد يده بعصاه بحسب أمر الرب فضرب تراب الأرض، فكان البعوض على الناس والبهائم حتى نحى أن كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر. إن كلمة البعوض في العبرانية قينيم. وقال اوريجانوس (في خطبته ال ٤ في الخروج) في وصفه البعوض: «هو

حيوان صغير يحمله الهواء، وهو دقيق حتى لا تراه إلا عين من يحدّق إليه ويؤلم الجسم بمنخسه الخادّ». ووصفه هيرودت (في ك ٢ من تاريخه) : بأنه يزعج الناس ويقلقهم وهم جلوس على موائدهم ويحرمهم النوم. ويمتص الدم ويكسي الجسم لدغات أليمة وعليه فهو ما تسميه عامتنا الناموس أو السكيت. وهذا البعوض يكثر في مصر ولذلك يظهر من الآثار المصرية أن ستائر الأسيّة (وهي الناموسيات بلغة عامتنا) تقادم عهد استعمالها في وادي النيل، وترى بين هذه الآثار صوراً تمثل أشخاصاً بيدهم مراوح يراوحون بها وقاية لأعيان من لدغ هذا البعوض على أن الذي ابتلى الله به المصريين، كان خارقاً العادة وشرائع الطبيعة حتى خيل أن تراب مصر كلّها صار بعوضاً وانمحق بكلمة من موسى.

إنّ سحرة فرعون صنعوا ما صنعه موسى وهرون في الجائحتين السالف ذكرهما. فإنهم حوّلوا الماء إلى هيئة دم، وأوجدوا ضفادع في حضرة فرعون. وكان لهم في ذلك وجهان : الأول أنهم حوّلوا الماء بصبغ ألقوه فيه بخفة لا تدركها عيون الحاضرين، ونقلوا بعض الضفادع بصنعة كذلك إلى حضرة فرعون وأعوانه. والثاني أنهم عملوا ذلك بحيلة شيطانية سمح الله بها لمقاصد عنايته التي تعلق المدارك البشرية، ولتنفسية قلب فرعون ليفرغ الله نقمه به وبشعبه، على أنهم حاولوا في الضربة الثالثة لإخراج البعوض فلم يكن لهم إليه سبيل. فقالوا لفرعون : « هذه أصبغ الله » ومع هذا ظل قلبه متقسّياً. قال برجيا (في معجم اللاهوت الإعتقادي في كلمة سحر وسحرة) ما ملخصه : « ليس ما يحملنا على أن نفترض أن سحرة مصر أتوا بشيء خارق لشرائع الطبيعة، والكتاب يبيّن لنا عكس ذلك. فكان للسحرة وقت يعدون به ما شاءوا، فإن فرعون استقدمهم وحوّلوا عصيّهم حيات ورقية الحيات. وانتزاع قوتها على اللدغ أمر مستفاض في مصر والهند بل في بعض أقاليم أوربا أيضاً، حيث يتجر بالحشرات فشيء من الذكاء وخفة الحركة كان كافياً للسحرة ليخيلوا أن عصيّهم استحالت حيات. على أن تحويل ماء النيل دماً وفساده بضربة عصا آية تفوق الطبيعة. وأما صبغ ماء في حوض أو إناء بلون الدم فلا شيء من المعجز فيه، وكذا مد يد هرون إلى النيل وإخراجه منه ضفادع تغطي أرض مصر ثم إماتها من فور أمر موسى آبتان حقتان وأما إيجاد بعض الضفادع بحيلة ما أمام فرعون فلا معجزة فيه ».

لم تنجع الجوائح الثلاث في فرعون ولا قرار سحرته بأن هذه أصبغ الله فضربه

الله بالضربة الرابعة . وهي انه أرسل عليه وعلى عبيده وشعبه وبيوته الذبان حتى امتلأت منها بيوت المصريين والأرض التي هم عليها . وميّز أرض جاسان المقيم فيها شعب الرب فلم يكن ثمّ ذبان (خروج ف ٨ ع ٢١ وما يليه) . إنّ كلمة الذبان في هذه الآية بالعبرانية عَرَب ومذلّولها الخلط والإمتزاج، فيمكن أن يكون المراد كل صنف من الذباب دون تعيين صنف على أن الذبان في مصر من آفتها المنكّدة العيش ، وما أعظم تنكيدها وقد أرسل الله على المصريين منها ما فسدت الأرض من قبله كما صرّح الكتاب فكانت هذه الضربة قاسية حتى نرى فرعون أخذ يتساهل إذ قال لموسى وهرون : « امضوا اذهبوا لإلهكم في الأرض فقال موسى : ليس من الصواب أن نصنع ذلك ، لأننا إنّما نذبح للرب إلهنا ما هو رجس عند المصريين . أفنذبح بحضرتهم ما هو رجس عندهم ولا يرجموننا ؟ » ، قال كلمت في تاريخ العهد القديم : ان المصريين كانوا يعبدون بعض الحيوان فلا يطبقون ذبح العبرانيين له . وقال روهربخر (في تاريخه البيعي) ما ملخصه إنّ حكماء المصريين كانوا يجعلون بعض الحيوان ممثلاً للاله ، فيجعلون كبش الغنم أو تيس الماعز قائد القطيع مثلاً للرب مدبر الكون ، والحيوان الكثير النتاج مثلاً للاله الخالق ، والنسر الحادّ البصر للاله الذي يرى كلّ شيء . وكان للثور والبقرة في عرفهم وفي لغتهم السرية والهيروكليفية رموز ودلائل على أمور مقدسة . ولم تكن عامتهم تدرك هذه الأسرار، فكانت تسجد وتعبد هذه الحيوانات ، لا بما أنها ممثلة للاله فقط بل لاعتقادهم فيها شيئاً من الألوهية . ولا أقل من اجلالها كأشياء مفردة لله » فيستاءون من العبرانيين إذا ذبحوها لالههم . فقال فرعون أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلهكم في البرية ولكن لا تبعدا في المسير واشفعا فيّ . وخرج موسى من عند فرعون فشفع إلى الرب فرفع الذبان عن فرعون وعن عبيده وشعبه ولم يبقّ واحدة . لكنّ فرعون صلّب قلبه هذه المرة أيضاً ولم يطلق الشعب، فضربه الرب بالضربة الخامسة ، وهي وباء شديد أصاب الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، فماتت مواشي المصريين ولم يمت شيء من جميع ما هو لبني إسرائيل . وأرسل فرعون فإذا مواشي إسرائيل لم يمت منها واحد (خروج فصل ٩) . ومثل هذا الوباء يصيب أحيانا المواشي في مصر فيلجأ أهلها إلى شراء البقر من سورية، وجزائر البحر المتوسط لكنه لا يشتد اشتداده في ضربة موسى، ولا تتناز به مواشي مصريّ عن مواشي عبراني . وقد قسا قلب فرعون هذه المرة أيضاً ولم تليّنه ضربة الماشية ،

فضربه الله وشعبه في أجسادهم بالجائحة السادسة، وهي القروح. فإن موسى وهرون أخذوا بحسب أمر الرب ملء راحتيهما من رماد الآتون، وززاه موسى إلى السماء على مشهد فرعون فصار غباراً في جميع أرض مصر، وصير في الناس والبهائم قروحاً وبثوراً منتفخة، ولم يستطع السحرة أن يقفوا بين يدي موسى من أجل القروح. ولا يمكن تعيين هذا المرض إلا بكونه من الأمراض الوبائية، وقد أصاب كل طبقة من الناس كما أشار إليه الكتاب بذكره السحرة، ومع ذلك قسا قلب فرعون أيضاً فضربه الرب الضربة السابعة بالبرد، إذ مد موسى عصاه نحو السماء فأرسل الرب بروقاً ورعوداً وبرداً على أرض مصر، لم يكن مثله منذ يوم أسست مصر. فأمات الناس والبهائم وأيس العشب وكثر جميع الشجر ولم يكن شيء من البرد في أرض جاسان التي فيها بنو إسرائيل.

وكان موسى أنذرهم بأنه أي إنسان أو بهيمة وجد في الصحراء ولم يأو إلى المنازل ينزل عليه البرد فيموت. فمن خاف كلام الرب من عبید فرعون هرب بعبیده وماشيته إلى البيوت ومن لم يوجه قلبه إلى كلام الرب ترك عبیده، وماشيته في الصحراء، فمات. وقد عيّن الكتاب وقت إنزال هذه الضربة بقوله: «إذ كان الشعير مسبلاً والكتان مبذراً». ويكون ذلك في مصر في شهر آذار. وأما الخنطة والقطاني فلم تلتف لأنها كانت متأخرة»، على أنها ألتفها بعد ذلك الجراد كما سيجيء، وذكر الكتاب ناراً مع البرد، والأرجح أن المراد بها البروق المتتالية. ولما عظمت الجائحة «استدعى فرعون موسى وهرون، وقال لهما: قد خطئت هذه المرة أيضاً الرب عادل، وأنا وشعبي منافقون فاشفعا إلى الرب فحسبنا ما نالنا من أصوات الرعود والبرد، فأطلقكم ولا تعودوا تمكثون... فخرج موسى وبسط يديه إلى الرب فكفت الرعود والبرد. ولم يعد المطر يهطل على الأرض» (خروج فصل ٩).

وقد عاد فرعون إلى معصيته وأخلف موسى ما وعده ولم يؤذن إلا في انطلاق الرجال من بني إسرائيل. وأخيراً طرد موسى وهرون من بين يديه فعاقبه الله بجائحة الجراد وهي الثامنة. فإنه أمر موسى أن يمدّ عصاه على أرض مصر فساق ريحاً شرقية على الأرض طول ذلك اليوم وطول الليل، فحملت الريح الجراد على جميع أرض مصر واستقرّ عليها كثيراً جداً لم يكن قبله جراد مثله، ولا يكون بعده كذلك. فغطّى وجه الأرض حتى أظلمت وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد وثمر الشجر، حتى لم يبق شيء من الخضرة. فبادر فرعون واستدعى موسى

وهرون وقال : قد خطئت إلى الرب إلهكما وإليكما، والآن فاصفحا عن ذنبي هذه المرة، واشفعا إلى الرب إلهكما أن يرفع عني هذه التهلكة . فخرجا من عند فرعون وشفع موسى إلى الرب فردَّ ريحاً غربية شديدة جداً فحملت الجراد وطرحته في بحر القلزم . ولم يبقَ جرادة واحدة في ناحية من نواحي مصر، ولكن قسا الرب قلب فرعون فلن يطلق بني إسرائيل، فابتلاه الله بالضربة التاسعة وهي أن موسى مدَّ يده نحو السماء فكان ظلام مدلهم في جميع أرض مصر ثلاثة أيام لم يكن الواحد يبصر أخاه ولم يقيم أحد من مكانه . ولجميع بني إسرائيل كان نور في مساكنهم (خروج ف ١٠) . وقد وصف كاتب سفر الحكمة (ف ١٧ وف ١٨) شدة هذه الجائحة . فمما قاله : « لم يكن في قوة النار مهما اشتدت أن تأتي بضياء ولا في بريق النجوم أن ينير ذلك الليل المدلهم ... حيثئذ بطلت صناعة السحر وشعوذته وبرز على افتخارهم بالحكمة حجة مخزية ... أما أولئك فكان جديراً بهم أن يفقدوا النور ويحبسوا في الظلمة لأنهم حبسوا بنيك الذين بهم سيمنح الدهر نور شريعتك الغير الفاني » . والأظهر أن النعمة لم تكن بمجرد الظلام المدلهم خاصة لأنه جاء في سفر الحكمة ذكر أصوات قاصفة تدوي من حولهم ، وأشباح مكفهرة تتراءى أمام وجوههم ، ومرور وحوش ، وفحيح أفاعي ، وقعقة حجارة متدحرجة ، وزئير وحوش ضارية إلى غير ذلك . وقد رأى الأب فيكورو (مجلد ٢ صفحة ٣٣٦) : أن الظلام حصل بأمر الله أن يشتد السموم المعروف في مصر بالخمسين اشتداداً خارقاً العادة، واستشهد لذلك بأن آية سفر الخروج المنبئة بذلك . إنما هي في الترجمة السبعينية مؤذنة بهذا المعنى، وبأن اوريجانوس قال (في تفسير بشارة متى) : « إِنَّ الظلام المدلهم كان في مصر ثلاثة أيام لا من قبل انتفاص نور الشمس ، ولا من قبل تكاثف السحب المظلمة، ولا من قبل كثافة الهواء » . وقد كانت هذه الضربة موجعة إذ نراها جعلت فرعون يستدعي موسى، ويؤذن في انطلاق الشعب وأطفالهم بشرط أن يتركوا غنمهم وقرهم . فقال له موسى : تعطينا ذبائح ومحرقات نقرّبها إلى الرب إلهنا . فمواشينا أيضاً تمضي معنا لا يبقى منها ظلف . فقال له فرعون : إمض عني واحذر أن تعود النظر إلى وجهي فإنك يوم تنظر وجهي تقتل فقال موسى نعماً؛ قلت؛ لا أعاود أرى وجهك أيضاً .

وقال الرب لموسى قد بقيت ضربة واحدة انزلها على فرعون والمصريين وبعد ذلك يطلقكم من ههنا جملةً بل يطردكم طرداً . فكلم الشعب أن يطلب الرجل

من صاحبه ، والمرأة من صاحبها أمتعة من فضة وذهب، وأنا آتيكم حظوة في عيون المصريين فيعطونهم ما يسألون . ومضى بنو إسرائيل فصنعوا كما أمر الرب »، ولما كان نصف الليل ضرب الرب كل بكر في جميع أرض مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الأسير الذي في السجن . وجميع أبكار البهائم . وكان صراخ عظيم في مصر حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت » (خروج ف ١١ و ١٢): وهذه هي الجائحة العاشرة والأخيرة . وقال فيها صاحب سفر الحكمة (ف ١٨ ع ١٢): « وكان لكلهم اجمعين أموات لا يحصون قد ماتوا ميتة واحدة حتى ان الاحياء لم يكفوا لدفن الموتى » . وأما بنو إسرائيل فذهبوا في ذلك المساء خروفا الفصح بحسب ما أمر الرب موسى، ورشوا من دمه على أبوابهم . فعبر ملاك الرب عن بيوتهم بضربته فلم يمسه هم ضرر . فدعا فرعون موسى وهرون ليلاً وقال : قوما فاخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل بغنمكم وبقركم وامضوا اعبدا الرب وباركوني أيضاً . وألح المصريون على الشعب ليعجلوا لإطلاقهم لأنهم قالوا قد متنا بأجمعنا . فحمل الشعب عجيتهم قبل أن يختمر ، وأخذوا ما أعارهم المصريون من أمتعة فضة وذهب وثياباً . وكان ذلك يحق لهم مكافأة عن أتعابهم في بناء مدن وأقنية . وقد يمكن أن يكون الملاك المهلك أباد الأبكار بوباء أو بوسيلة أخرى، تنفذ أمر الرب على أنه لا يمكن أن تكون هذه التهلكة بوباء طبيعي كما ادعى بعض منكري الوحي لاسيما لشمول الموت الأبكار وحدهم ولا وجه طبيعي لذلك .

لا عجب من أننا لا نجد أثراً مصرياً ينبئنا بهذه الجوائح لأنها مصائب نزلت بهم لعصيانهم وهي مخزية لهم ، وحاطة من شأنهم . وقد لاحظ أهل العلم بالآثار المصرية أن المصريين لم يتركوا أثراً لكل ما كان خافضاً من شأنهم إلا إذا استعادوا شرفهم ، وهو بديهي . فمن يرغب في تقليد ذكر خزيه وذله ومع هذا قد وجد أثر دال على الضربة الأخيرة وهي موت الأبكار . قال شباس (في تاريخ الدولة ال ١٩): « إننا نجد في أثر مصري كائن في متحف برلين أشار إليه بروغش (في تاريخ مصر) ذكراً لابن لمنفتاح الأول مات قبل أبيه كابين فرعون الوارد ذكره في سفر الخروج » حيث قال من بكر فرعون الجالس على عرشه » كما مرّ آنفاً .

وقد أتخفنا العالم لوت بإيضاحات أكثر دقة في هذا الشأن قال : إن فرعون الذي كان يلي مصر لدى عود موسى من مدين لا يمكن أن يكون إلا منفتاح ، وإذا تقرّر ذلك لزمنا أن نحول بصرنا إلى تمثال كبير لمنفتاح كائن الآن في متحف

برلين، يمثل ابن منفتاح البكر مشاركاً لأبيه في الملك، كما يدلّ على ذلك التاج الذي على رأسه. ووصفه بالابن الذي يحبه أبوه والذي يعطف إليه قلب من ولده. ويسمى منفتاح باسم أبيه وقد صوّر ساجداً لسوتخ الإله العظيم رب السماء، فلا يلزم أن يكون الإنسان شديد التشبّث بإيمانه ليوقن أن هذا الأمير الذي مات قبل أبيه منفتاح، وترك الخلافة في الملك لساتي أخيه الأصغر، إنما هو بكر منفتاح الذي تهدده الرب بقوله: «قلت لك أطلق ابني ليعبدني وإن أبيت ان تطلقه هاأنذا قاتلُ ابنك البكر» (خروج ف ٤ ع ٢٣). وقد أتمّ الرب ما هدده به كما جاء في سفر الخروج (ف ١١ ع ٥ وف ١٢ ع ٢٩). «ضرب الرب كل بكر في جميع أرض مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الأسير». فالجالس وصفٌ للبكر وقد كُتِر ذلك في آيات ثلاث من الخروج، فالبرهان واضح: روى ذلك فيكورو في مؤلفه الكتاب والإكتشافات الحديثة (مجلد ٢ صفحة ٣٤١).

الفصل الخامس

أخبار خروج بني إسرائيل من مصر إلى البرية

عد ١٨٤

مدّة إقامة بني إسرائيل في مصر

قد مرّ في عد ٩٤ ذكر الخلاف الحاصل في تعيين سني العبودية التي قضّاها بنو إسرائيل في مصر. وأبنا أن منشأ الاختلاف بين النص العبراني وغيره من الترجمات التي صرّحت بأن مقام بني إسرائيل في مصر كان أربع مئة وثلاثين سنة. وبين الترجمتين السبعينية والسامرية اللتين يتبيّن منهما أن الأربع والثلاثين سنة كانت من خروج ابراهيم من أور الكلدانيين إلى خروج بني إسرائيل من مصر. وأن يوسف وغيره من القدماء والحدثاء، اعتمدوا على ما جاء في الترجمة السبعينية لكنّ الأكثرين من العلماء والمفسّرين عوّلوا على ما جاء صريحاً في النص العبراني في سفر التكوين (ف ١٥ ع ١٣)، حيث قال الله لابراهيم: «إنّ نسلك

سيكونون غرباء في أرض ليست لهم . ويستعبدونهم ويعذبونهم أربع مئة سنة » ثم في سفر الخروج (ف ٢ ع ٤٠) : « وكان مقام بني إسرائيل الذي أقاموه بمصر أربع مئة وثلاثين سنة » .

وقد أثبتنا هناك أن كثيراً من الآثار المصرية يُستخلص منه أنّ المدّة التي انقضت من عهد أبايي الذي استوزر يوسف في سنة ١٧ للملكه، إلى عهد منفتاح فرعون الخروج إنّما هي نحو من أربع مئة وثلاثين سنة، لا مئتان وخمسة عشرة سنة وعليه فالأظهر أن مدّة إقامة بني إسرائيل في مصر أربع مئة وثلاثون سنة، ويؤيده النص العبراني الصريح، وأقوال كثير من الآباء والعلماء منهم من مشاهير الحداثاء لانرمان في التاريخ القديم لشعوب المشرق، وفيكورو في محال عديدة من كتبه والأب مور في مقالته في سلسلة تواريخ الكتاب، وتوفيقيها مع الآثار المثبتة في مجلّة المباحث الدينية في عددها المؤرخ في ١٥ أيلول سنة ١٨٩٣م وغيرهم كثيرون، بل إنّ يوسفوس نفسه الذي قال (في ك ٢ ف ٦ من تاريخ اليهود) « إن العبرانيين خرجوا من مصر لسنة ٤٣٠ من بلوغ آيينا ابراهيم إلى أرض كنعان ولسنة ٢١٥ من انحدار يعقوب إلى مصر » . كان قال قبلاً (ف ٥ من الكتاب الثاني المذكور) : « وانقضت أربع مئة سنة على هذا النحو كان المصريون فيها يجدون في إبادة أمّتنا وبنو إسرائيل يجهدون في توطئة هذه المصاعب » . وقال العالم فلاس (من مقالته في الشعوب القدماء المطبوعة في أمستردام سنة ١٧٦٩م) أن ذرية الأصل الواحد في مدّة ٤٣٣ سنة وأربعة أشهر يبلغ عديدها إلى ٢٤٥٧٦ شخصاً فإذا فرضنا إنّ السبعة والستين ذكراً الذين انحدروا إلى مصر مع يعقوب أقاموا فيها ٤٣٠ سنة كان عددهم عند خروجهم منها ١٦٤٦٥٩٢ نفساً فإذا أسقطنا النساء نصف هذا العدد كان الباقي ٨٢٣٢٩٦ ذكراً وإذا أسقطنا ربع هذا العدد أطفالاً وشيوخاً كان الرجال المقتدرون على حمل السلاح ٦١٧٤٧٢ رجلاً . وفي الكتاب إنّ عددهم عند خروجهم « نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال خلا الأطفال » (خر ف ١٢ ع ٣٧) .

عد ١٨٥

الحمل الذي ارتحل منه بنو إسرائيل وفي طريق خروجهم

إن لتعيين الحمل الذي ارتحل منه بنو إسرائيل لدى خروجهم من مصر أهمية إذ

يتعلق به مبحث آخر، توفرت الأقوال فيه وهو تعيين معبرهم في البحر الأحمر، فإذا غلّم محل بدء سفرهم سهل العلم بطريقهم، وبالحل الذي انتهوا إليه عند البحر الأحمر، فقال يوسفوس (في ك ٢ رس ٥ من تاريخ اليهود): «إن العبرانيين ارتحلوا من مصر والمصريون يذرفون الدموع أسفاً على سوء معاملتهم لهم، وكان طريقهم في ليتوبولي، وكانت حينئذ صحراء فبنيت بعد ذلك هناك مدينة سمّيت بابل عندما استحوذ كمبيس على مصر». رقال في محل آخر إن بابل هذه كانت في محل القاهرة الآن. وقال أسطفان البيزنطي (في كلامه على المدن): «أن ليتوسبولي مدينة في مصر وهي حي في منف وتجاهها الأهرام». وعليه فرأي يوسفوس أنّ بني إسرائيل رحلوا من منف أو القاهرة. وهذا غير ثابت ولم يكن يوسفوس يعرف المحال التي تكلم فيها. ولعلّه أسند رأيه إلى تقليد اليهود الذين أقاموا في مصر بعد أن دُمّر بختنصر أورشليم. ولم يكن لتقليد هولاء أسّ راهن ومع هذا اعتمد عليه وعلى رواية يوسفوس بعض العلماء المسيحيين في صدر النصرانية وبعده دون أن ينسبوا أسامته.

ولما جاء عصر التدقيق والتنقيب كان الأب سيكار P. Sicard اليسوعي^(١) أوّل من عني بالتنقيب عن طريق الإسرائيليين عند خروجهم من مصر إلّا أنه لم يبلغ من الحقيقة شأواً لأنه ظنّ أن منفاح ملك مصر وقتئذ كان يسكن مدينة منف على مقربة من القاهرة لا مدينة تانيس (صان)، كما حققت الآثار القديمة الآن، وأن رعمسيس المدينة التي صرّح الكتاب بأن بني إسرائيل هاجروا منها، إنّما هي في القرب من منف في جنوب القاهرة على نحو ثلاث ساعات منها في المحل المسمّى الآن البساتين. فلم يكن لهم والحالة هذه إلّا طريقان من منف إلى البحر الأحمر، الأوّل في الوادي الذي بين جبل طورا وبين جبل ديوشي، والثاني في الصحراء التي بين القاهرة والسويس التي سَمّاها القدماء أرسينيا، وقطع بأنّ بني إسرائيل سلكوا الطريق الأوّل. وقد تابع الأب سيكار في قوله كثير من علماء عصره ولاسيما في إفرنسة على أن الإكتشافات الحديثة محقت كل أشكالي؛ وأتت بالعلم اليقين أن منفاح كان عند إنزال الجوائح بمصر، ولدى إطلاق بني إسرائيل في تانيس المعروفة الآن بصان والواقعة في الشمال الغربي من البحر الأحمر، وفي جوار أرض جاسان

(١) ولد في اوين في افرنسة سنة ١٦٧٧ ومات في مصر سنة ١٧٢٦.

التي كان يسكنها بنو إسرائيل . وقد حَقَّقت هذه الآثار أيضاً أن رعمسيس المدينة لم تكن في القرب من منف والقاهرة ، بل من أرض جاسان وتانيس في مصر السفلى (راجع ع ١٧٦) .

وعليه فمما لا يشوبه ريب أن بني إسرائيل ارتحلوا من رعمسيس المدينة التي بناها رعمسيس الثاني في مصر السفلى إلى سكوت . ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا بأيتام في طرف البرية كما صرَّح بذلك سفر الخروج (ف ١٢ ع ٣٧ و ف ١٣ ع ٢٠) . «ولم يسيرهم الرب في طريق أرض فلسطين مع أنه قريب لأن الله قال لعل الشعب يندمون إذا رأوا حرباً فيرجعون إلى مصر» (خروج ف ١٣ ع ١٧) . إذ كان الأقرب مسافة أن يسيروا على شاطئ البحر المتوسط ويجتازوا من العريش إلى غزة على أن هذا الطريق كانت تحدد به حصون غاصة بالجنود المصرية . فتمنع مسيرهم ويتسنى لفرعون أن يدركهم ولم يشأ الله أن يعرض بني إسرائيل (وهم منهوكون بالعبودية وغير ممرنين على حمل السلاح) ، للحرب مع الكنعانيين المخنكين بالحرب واللائذين بملك مصر فينجدهم لا محالة على الإسرائيليين . وقد أخرج بنو إسرائيل معهم عظام يوسف كما كان أوصاهم . ومن تقليد اليهود الذي أثبتته القديس أسطفانوس في أعمال الرسل (ف ٧ ع ١٥ و ١٦) والقديس إيرونيموس أن العبرانيين أخذوا معهم عظام إخوة يوسف الأحد عشر .

عد ١٨٦

أقوال العلماء في طريق بني إسرائيل ومعبرهم في البحر الأحمر

قدمنا قول الكتاب أن بني إسرائيل ارتحلوا من رعمسيس إلى سكوت ، وارتحلوا من سكوت ونزلوا بأيتام ثم أمر الرب موسى «أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الخيروت بين مجدول والبحر أمام بعل صفون» (خروج ف ١٤ ع ٢) . فأين سكوت وأيتام وفم الخيروت ومجدول وبعل صفون ؟ فهذه مسألة معضلة مهمة يتعلق على العلم بها بطريق العبرانيين إلى البحر الأحمر ومعبرهم فيه . وقد توفرت فيها الأقوال وتضاربت ، وقد أورد الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٣٦٢) منها قولين خاصة قول بروغش العلامة الألماني ، وقول مهندسي ترعة السويس الإفرنسيين ، وعقبهما بذكر رأيه فنجتزئ بتلخيص هذه الأقوال . فالحاصل

من قول بروغش (في كتابه الخروج والآثار المصرية صفحة ٢٥ وما يليها): إن للمسافر من رعمسيس (وهي تانيس على رأيه) إلى فلسطين طريقتين، أحدهما نحو الشمال الشرقي من رعمسيس إلى بالوز (وهي الآن طينة أو فرما)، ماراً بفيتوم إلى سكوت، على أن الآثار أنبأتنا أن هذا الطريق تكثر به الوحول فلم يكن مطروقاً ولا يسافر به جمٌّ غفير بعدد وذخائر وماشية. والطريق الثاني هو الطريق الذي كان الفراعنة يسيرون به جنودهم وخيولهم ومركباتهم، ويسميه المصريون السكة السلطانية وهو مسافة أربع مراحل أي رعمسيس وأسوار سكوت وأيتام ومجدول.

وأثبت بروغش إستطراق هذه الطريق بأثر عُثر عليه اتفاقاً. والأولى أن يقال بعناية ربّانية (كما قال) في المتحف البريطاني حُطَّ هذا الأثر منذ ثلاثين قرناً كاتب مصري قص فيه أخبار سفره لينشد خادمين قرأ فقال: «مضيت من القصر الملكي في تانيس في مساء اليوم التاسع من الشهر الثالث من الصيف أطلب الخادمين فبلغت أسوار سكوت في اليوم العاشر من ذلك الشهر. فخبرت ثمة أن الفارين ذهبوا نحو الجنوب فبلغت في الثاني عشر إلى قيتام فقيل لي هناك إنهما توجّها إلى شمال مجدول». وهذا الأثر هو البايير المعروف بأنستازي الخامس وقال بروغش: بعد ذلك ضع موسى وقومه موضع الفارين وهذا الكاتب موضع فرعون تجد طريق العبرانيين.

وقد تعقّب فيكورو قول بروغش هذا لأوجه منها إن تانيس التي سافر منها الكاتب غير رعمسيس التي سافر منها العبرانيون. وأن سكوت التي جعل بروغش موقعها في شرقي تانيس قد حققت اكتشافات العالم نافيل إنَّها في جنوبيها في محل المسقوفة الآن. ومنها أن أيتام التي حلّ فيها بنو إسرائيل غير قيتام التي بلغ الكاتب المصري إليها. ومنها أن الفارين توجّها إلى شمال مجدول والكتاب ينبئنا أن بني إسرائيل مضوا من أيتام نحو الجنوب. فإذا قد كان طريق العبرانيين غير طريق الفارين والكاتب المصري. ونُدّد فيكورو بهذا القول خاصة لأنه يؤدي إلى أن بني إسرائيل لم يتوجّهوا من جهة البحر الأحمر بل من جهة البحر المتوسط. ولم يجتازوا في البحر بل عبروا في مضيق من الأرض يفصل بين البحر المتوسط وبحيرة سربونيس المسماة الآن بحيرة بردويل. وأن جنود فرعون لم تفرق في بحر بل في بحيرة أو آجامها وكلّ ذلك يخالف كلام الكتاب في سفر الخروج وغيره.

وأما أكثر المهندسين الموظفين في حفر خليج السويس ففرضوا أن البحر الأحمر

في أيام عبور المصريين من مصر إلى بركة سينا كان متصلاً بالبحيرات المرة الواقعة في شمالي السويس. وفي جنوب بحيرة التمساح وزعم بعضهم إنهم عبروا في هذه البحيرات. وإليك ما قاله فردينند دي لاسبس في خطبته التي ألقاها في نانت في ٨ كانون الأول سنة ١٨٦٦م: «جاء في الكتاب المقدس الذي تيقنت صدقه باكتشافاتي وأسفاري كلها أن موسى لما أخرج بني إسرائيل من مصر سار بهم من رعمسيس المدينة، حيث يُرى إلى الآن صخر يمثل أحد فراعنة مصر ويسمى رعمسيس، والمحلة الثانية التي حلوا فيها سماها الكتاب سكوت وتأويل الكلمة في العبرانية مظلة وخيمة، والعرب يسمون هذا المحل أم الخيم. وقام موسى بقومه من سكوت إلى محلة سماها الكتاب، أيتام وهناك محل تنجعه عشيرة من رعاة الماشية تسمى إيتاميس. ومن عادة قبائل العرب أن تسمى الأرض التي تحل فيها باسمها.

ولما عرف موسى أن جنود فرعون يتبعون أثرهم، عاد إلى الورا بشعبه بحسب أمر الله له، واحتلوا بحيرت أو فم الحيرت، وتأويل الكلمة محل القصب، والعرب تسمى هذا المحل وادي بيت البوز أي وادي القصب. وكان هناك حينئذ مستنقعات من أمواه البحر الأحمر. وقد اكتشفنا ثمة طبقات من الملح البحري متجمعة من بخار ماء البحر في مدة قرون، وعثرنا أيضاً على أصداف البحر الأحمر. ولم يكن القدماء يحسبون طول الخليج إلا خمسة عشر فرسخاً، ولا امترى البتة أن مجتمع أمواه البحيرات المرة إنما هو الخليج المسمى خليج هيربوليس. وأما بحيرت أو فم الحيرت، فكان موقعها على ما يتلخص من الكتاب بين البحر جنوباً ومجدول شمالاً، وبعل صفون شرقاً، وبيتوم غرباً، وكان البحر متصلاً بالبحيرات المرة. وأما مجدول فكانت حصناً، سماه الرومانيون مكحول أو مكدلون. وترى أطلالها في جانب الطريق المؤدي إلى سورية. وبعل صفون كانت هيكلاً مقاماً على أرفع أكمة هناك تذكراً لحرب أثارها أوسيريس على تيفون (بحسب حكاياتهم)، وهي آخر ما يسقى بمياه النيل.

وبيتوم كانت على مدخل الوادي الذي يسمى إلى اليوم وادي توم... ولما احتل بنو إسرائيل فم الحيرت ظهرت لهم طلائع الجيش المصري، فارتعدوا لكن الله أثار عند المساء الريح الشديدة التي وصفها الكتاب، فامسك المصريين عن الوثوب عليهم إلى صباح اليوم التالي. وقد كنت شاهداً لمثل هذه الريح العاصفة إذ حللت في المحل نفسه عند أول ما أخذت في اكتشاف الخليج سنة ١٨٥٤م. فلم أتمكن أنا

ورفقائي من توثيق أطناب مظللتنا التي قلبتها العاصفة. وكانت الحصى تدمي وجوهنا وأيدينا. فشدة الريح العاصفة في أيام موسى قذفت الأمواه من حيث لم تكن عميقة فاعتنم موسى العون الرباني الذي أمده الله به، وسير العبرانيين في البحر طريقاً ييساً وعند سكون الريح عاد الماء إلى محله فغمر المصريين الذين كانوا دخلوا في أثر بني إسرائيل، وحيث أن ارتفاع الماء هناك من متر وثلثين سنتيمتراً إلى متر وثمانين سنتيمتراً فأمسك جيش فرعون أو غرقه».

ومن هؤلاء المهندسين العالم لاكوانتر، وقد حقق أن البحيرات المرة كانت متصلة بالبحر الأحمر وأن ارتفاع البرزخ المسمى الشالوف فصل بينهما وأن مياه البحيرات أشد ملوحة من مياه البحر. وذلك دليل على أن هذا الإتصال كان متقطعاً، فتكون الأمواه تارة متصلة وطوراً منفصلة. وعليه قال إن موسى إذا ارتحل من أيتام سير قومه على شاطئ البحيرات المرة الغربي، قاصداً أن يدخل الصحراء الواقعة في شرقي خليج السويس. فقطع الطريق عليهم جيش فرعون الآتي من منف في الجنوب الغربي، وأمسى بنو إسرائيل محصورين بين العسكر المصري جنوباً والبحيرات شرقاً. وجبل جنفاً (المسمى الآن جبل أحمد تاشر على ما روى فيكورو) غرباً، فخلص الله شعبه بآية فاتحة له في وسط البحيرات طريقاً ييساً وغرق أعداءهم في هذه الأمواه المتصلة بالبحر الأحمر فصدق قول الكتاب أن بني إسرائيل عبروه، والمصريين غرقوا فيه. وقد أبان لاكوانتر شديد التشبث بقوله حتى سأل أن يستقصى الكشف في محال يعينها في هذه البحيرات فيأمل وجدان أثر لمركبات فرعون.

قد ندد الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٣٨٧) بأقوال هؤلاء المهندسين. ولاسيما لاكوانتر مبيّناً أن برزخ الشالوف الفاصل بين خليج السويس والبحيرات المرة هو أقدم من موسى بقرون وأثبت ذلك من طبقات أرضه التي لا يمكن تكونها في عهد موسى ولا بعده، بل قد تقدمته كثيراً. وقال: إن الآثار المصرية لم تأتينا بإشارة إلى اتصال البحر الأحمر بالبحيرات المرة، بل أنبأتنا بما يخالف ذلك، وهو احتفار قناة توصل بينهما. فقد اكتشف بوكرد في القرن الماضي خط هذه القناة، واستتبع روبل مجراها مسافة ساعة ونصف، بل ذكرها هيرودت من أيامه وعزاها إلى رعمسيس الثاني أبي منفتاح الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في عهده. وآثار هذه القناة باقية إلى يومنا هذا، وعليه فلم يكن البحر الأحمر في أيام موسى متصلاً بالبحيرات المرة، ولا في وقت الأنواء الشديدة، ولا حاجة إلى

يتعذر تعيين موقعها لتعذر تعيين موقع مجدول وبعل صفون، اللتين عرف موسى بهما فم الحيروت. ولكن لا يعدو أن يكون موقع هذه في شمالي خليج السويس عند آخره لأن موسى أتى من جهة الشمال ميّماً المشرق فلا وجه لعوده نحو المغرب، بل أن يحل عند الطرف الشمالي من الخليج. وقد عثر إدوار نافيل في أخرية تل المسقوطة على صفيحة من عهد بتولمايس فيلادلفوس؛ كتب عليها اسم بيكارت أو بيحارت مرتين ولكن لم يعين موقعها، ولعلها بيحيروت التي ذكرها سفر الخروج وقال كثير من المحققين الحدباء: إنّ بيحيروت هي المسماة الآن أجروود وهي واقعة بين البحيرات المرة والسويس على بعد أربع ساعات من السويس، ولا يبعد هذا عن الصواب وإن تعسّر القطع به.

وكذا لا يمكن القطع بتعيين محل مجدول، وقد وجد اسمها مكتوباً في الآثار المصرية مَكْتَل أو مَكْدَل، ومعناه القلعة أو الحصن كمعنى مجدَل أو مجدول. وهذا مؤذن بأن موقعها كان على التخوم بين مصر والبرية، وكان ثمة حصن. وفي أثر لساني الأول أنّ هذا الملك مؤم مدينة اسمها مجدَل عند إيابه من سورية إلى مصر (ذكر ذلك بروغش وشباس وغيرهما). وأمّا بعل صفون فيرجح أنه الجبل المسمى الآن جبل الطاقة (؟) الواقع في الجنوب الغربي من السويس. ويظهر أن هذا الاسم سامي دال على مهد الاله وقال بعضهم: إن بعل صفون معناه إله الشمال أو إله الرياح الشمالية. وإنّ واضع هذا الاسم لهذا الجبل إنّما هم البحارة الفينيقيون الذين كانوا يسيرون سفنهم من هناك نحو الجنوب، ويقدمون محركات لبعل إله هذا الجبل. انتهى ملخصاً.

عد ١٨٧

نجاة بني إسرائيل وغرق جنود فرعون في البحر الأحمر

قال الكتاب (خروج ف ١٤ ع ٥ وما يليه) «فلما أخبر ملك مصر أن الشعب قد هربوا تغيّر قلبه وقلوب عبيده عليهم وقالوا: ماذا صنعنا فأطلقنا إسرائيل من خدمتنا، فشدّ مركبته، وأخذ قومه معه وأخذ ست مئة مركبة مختارة، وجميع مراكب مصر... فاتّبعهم المصريون فأدركوهم وهم نازلون عند البحر»، قد كان المصريون حراساً على إمساك أسراهم وعبيدهم لتواصل النفع بعملهم كما تبين من

كثير من آثارهم فلا مزية إن كان غمهم شديداً إذ رأوا شعباً كبيراً هاجر بلادهم، وأعدمهم الإنتفاع بأعماله لا إلى زمن ليقدموا الذبائح لإلههم كما كان يظن فرعون بل إلى ما لا نهاية له. ولذلك ركب فرعون بنفسه في مقدمة قومه، وأخذ ست مئة مركبة من مركباته وجيشاً كبيراً وأسرع في لحاق بني إسرائيل. وقد كتب منفتحاً نفسه في أحد آثاره أنه صنع كذلك عند محاربته غزاة أجنييين انتصر عليهم في مبادئ ملكه. إذ قال إن الفرسان الراكبين خيول عظمتهم جدوا في تتبع آثارهم»، فسار الجيش المصري من تانيس حيث كان الملك حينئذ كما مرّ فأدركوا بني إسرائيل عند خليج السويس، وقطعوا عليهم الطريق من جهة الشمال والشمال الشرقي. وكان في الغرب والجنوب جبل الطاقة وعمر يستعصي عليهم المسير به. وفي الشرق البحر فضاقت بهم المسالك، وسدّت عليهم الطرق ولذلك ارتاع بنو إسرائيل إرتياعاً شديداً وقالوا لموسى: «أمن عدم القبور في مصر أخرجتنا لنموت في البرية...»



فقال لهم موسى: قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يجريه اليوم لكم... ومدّ موسى يده على البحر، فأرسل الرب ريحاً شرقية شديدة طول الليل حتى جعل في البحر جفافاً وقد انشقّ الماء، ودخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليبس والماء لهم سور عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون، ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومراكبه وفرسانه إلى وسط البحر... وقال الرب لموسى: مد يدك على البحر فيرتد الماء على المصريين... فمد موسى يده ورجعت المياه، فغطّت مراكب وفرسان جميع جيش فرعون الداخلين وراءهم في البحر، ولم يبقَ منهم أحد. ولا يعلم حق العلم كم كانت المسافة التي اجتازها بنو إسرائيل في البحر، ويظهر أنها لم تكن طويلة لأنهم عبروا في ليلة واحدة، فيقدر أنّها مسافة ست إلى ثماني ساعات على كونهم مليونين من النفوس، ومنهم نساء وأطفال ومعهم ماشية. ويرجح أن معبرهم كان من شاطئ الخليج الغربي بخط منحرف إلى شاطئه الجنوبي الشرقي. إنّ فرعون لم يفرق كما غرق عسكره لأن الكتاب لم يشر إلى ذلك، والتاريخ والآثار المصرية يظهر منها أنّه مات حتف أنفه وعلى فراشه. ودفن في الحقل الذي يسمونه بيبسان الملوك في مدفن أعدّ له. على أنّ الآثار لم تثبت بشيء من الأحداث في عهده بعد السنة الثامنة من ملكه. وإن قال بعضهم: إنّه ولي مصر عشرين سنة دون أن يقيموا على مدعاهم دليلاً. ولا عجب من أننا لا نجد ذكراً لجائحة البحر الأحمر في الآثار المصرية، كما لم نجد ذكراً للضربات العشر لما مر من أن المصريين وغيرهم لم يشأوا تخليد إنخذالهم وخزيهم وهو طبيعي وبديهي.

ومع هذا قد روى العلامة شبّاس ترجمة اعلام أخذه عن البايير المعروف بأنستازي الخامس قد نسخ في عهد ساتي الثاني ولكن يمكن أن يكون كتب لأوّل مرة في أيام منفتاح الأول، وقد أنفذه أحد قادة الجيش إلى بعض مأموريه، وهذه ترجمته: «إعلام، متى وصلت إليكم رسالتي هذه اهتمّوا سريعاً بأن تحضروا إليّ بالمديجو (مّر معنا أن المراد بهذه الكلمة رجال الشحنة الموكولة إليهم المحافظة على العبرانيين بعمل اللبن). الذين يلون السافكي (لا يعلم معنى هذا اللفظ) الأجانب العازمين على الصعود (أي من مصر نحو بلاد العرب. وهذا التعبير كان المصريون والعبرانيون يستعملونه للدلالة على الانطلاق من مصر)، ولا تحضروا جميع الرجال الذين عينت لكم أسماؤهم في درج. وأحرصوا على نفسكم وأن لا يتردّد الرجال في طاعة أمريهم، وايتوني بهم إلى تقهو (هو حصن من حصون المحافظة على

التخوم الشرقية) فانا أدخلكم وإياهم». وقال شباس: لو عيّن العبرانيون في هذه الرسالة باسمهم لما كان لأحد أن يمتري في دلالتها على خروجهم من مصر، ولكن سموا سافكي ولعلّ هذا اللفظ دال على حالتهم أو شغلهم في مصر وعليه فلا يمكن القطع بأن المراد به العبرانيون. وإن أوجبت ذلك القرائن فيبقى الأمر في حيّز الاحتمال .

زعم بعض ناكري الوحي أن العبرانيين انتهزوا فرصة الجزر في البحر الأحمر، فعبروه على اليسر الحاصل من قهقرة ماء البحر. ولما تتبّع المصريون أثرهم استولى المدّ في البحر ففرّقهم. ومَن تمحلوا لذلك العالم دوبا إمه الذي كان يصحب القائد بونايرت (نابوليون الأول) في غزوته إلى مصر. وتابعه أكثر مفسريّ الكتاب من العقليين وسلفادور اليهودي. على أن أي الكتاب ناطقة بما يخالف زعمهم نطقاً جلياً. وقد دقّق ونقّب كثير من الجوّابين والعلماء، وصرّحوا بأنه يستحيل حقيقة على مليونين من النفوس أن يعبروا سوّية مصحّوين بماشيتهم، وأطفالهم ونسائهم على ضبّة حاصلة من جزر البحر في مدة ساعات قليلة. ولا نرى آية عظمت الأسفار المقدّسة قدرها كآية شق البحر الأحمر وإجازة بني إسرائيل فيه. وقد كثر ذكرها في أسفار العهدين القديم والحديث، وترتّم بها الانبياء في مواضع عديدة من كتبهم.

ومثل هذا الزعم في بطلانه زعم بعضهم أن عمود النار والغمام، إن هو إلا أقباس من النار كان موسى يسيّرها في مقدّمة قومه فتضيئهم. ولما اتبعهم المصريون سيّرها في أواخر قومه لتحجّجهم عن نظر أعدائهم، فهذا يُسخر منه، ولا يلتفت إلى ردّه. فالأقباس لا تنير مليونين من النفوس، والكتاب يعزو هذا العمود إلى ملاك إذ قال (خروج ف ١٤ ع ١٩): «فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل فصار وراءهم، وانتقل عمود الغمام من أمامهم فوقف وراءهم، ودخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل فكان من هنا غماماً مظلماً، وكان من هناك ينير الليل فلم يقترب أحد الفريقين من الآخر طول الليل». وهذا العمود صحب بني إسرائيل مذ سافروا من سكوت على ما قال القديس إيرونيموس في رسالته إلى فابيول أو مذ سافروا من رعمسيس على ما قال غيره أو مذ سافروا من ايتام إلى ممات هرون على ما قال أكثر المفسرين: وكان مضيئاً في مدة الليل ومظلماً كغمام حالك في مدة النهار. فقد توفّرت آيات الله في إخراج شعبه من مصر لتكون ذكرى وعبرة لشعبه وغيرهم طول الأيام.

وقد سبّح موسى وبنو إسرائيل بعد نجاتهم التسيّحة التي ذكرها سفر الخروج (في الفصل الخامس عشر منه) والمفتحة: «أسبّح الرب فإنه قد تعظّم بالمجد القوس وراكبه طرحهما في البحر». إلى آخرها وأخذت مريم أخت موسى وهرون الدفّ في يدها، وخرجت النساء كلّهن وراءها بدفوف ورقص يترنّمن بأيّ هذه التسيّحة ومريم وبعض رفيقاتها يجاوبن: سبّحوا الرب فإنه قد تعظّم بالمجد.

الفصل السادس

أخبار بني إسرائيل في برية سيناء

عد ١٨٨

لمعة في شبه جزيرة سينا

إنّ سينا شبه جزيرة يحدها خليج السويس غرباً والبحر الأحمر جنوباً وخليج عقبة شرقاً. وتتصل ببلاد العرب شمالاً وأعلى جبالها يُسمّى الآن جبل أم شومر وجبل موسى وجبل سربال. وليست برية سينا صحارى تعلوها الرمال بل بلاد جبلية متحجرة، وليس فيها من الرمل إلا ما ندر خلافاً لصحارى مصر، وترتها غير خصبة والنبات فيها قليل إلا في بعض الأودية، والهضاب حيث تكثّر الأعشاب العطرية، وليس على أكامها تراب ولا خضر والماء قليل في أوديتها، وسماؤها نقيّة، ولكنّ شمسها محرقة حتى تزيد فيها الحرارة مدة النهار ثلاثين درجة عليها مدة الليل. وسمّاها الكتاب (خروج ف ١٥ ع ٢٢) شور وهي كلمة عبرانية معناها السور. وفي السريانية **ܫܘܪܐ** فإنّ العبرانيين رأوا تجاههم عند إقبالهم على هذه البلاد جبلاً شامخاً من وراء البرية كأنها أسوار طبيعية للبلاد، فسّموها شور أي سوراً، حتى قال هنري بلمر رئيس اللجنة الإنكليزية الآتي ذكرها وهو ينظر مع صحبه من عند عيون موسى إلى جبلي الراحة والتهيه

من وراء البرية، أعجبوا من تسمية العبرانيين لهذه البلاد سوراً. فما أطبق هذه التسمية للحقيقة والوضع.

إنَّ أول من زار برية سينا في هذا العصر، واستقصى فيها إنما هو بوكرد لسنة ١٨١٠م. ثم تتبعه كثير من الجوّارين والزائرين على مشقة السفر، وقلة الأمن فيها إلى أن أرسل الإنكليز سنة ١٨٦٨م لجنة علمية للتنقيب فيها والاستطلاع على مواقعها. وكان رئيس هذه اللجنة العالم هنري بلمر، فأقامت هذه اللجنة في تلك الأنحاء ستة أشهر، وأخذت نحو ثلاثمائة صورة فوتغرافية تمثل أخصّ مواقع هذه البلاد، ورسمت لها عدة خرائط جغرافية، ونسخت كل ما عثرت عليه فيها من الخطوط، ونشرت خلاصة أعمالها وآرائها سنة ١٨٧٢م ونستشهد مرات أقوال هؤلاء العلماء في الأعداد التالية.

عد ١٨٩

مراحل بني إسرائيل من جانب البحر الأحمر إلى برية سين

أثبت كثيرون ما جاء في تقليدات أهل تلك الأنحاء أنَّ الإسرائيليين بعد أن عبروا البحر الأحمر حلّوا في الموضع المسمّى الآن عيون موسى. فهناك صحراء كافية لاحتلالهم فيها بعض عيون ماء صافٍ لكنه ملح. وقال فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٤٤٢) إنه عدّ هناك اثني عشر ينبوعاً عند زيارته هذا المحل في ٨ آذار سنة ١٨٨٨م، وهناك بعض النخيل أيضاً. وقال الكتاب (خروج ف ١٥ ع ٢٢): «ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر القلزم، وخرجوا إلى برية شور، فساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماء فأفوضوا إلى مارة» قال فيكورو (في المحل المذكور) إنَّ بني إسرائيل اجتازوا حينئذٍ في ساحل البحر الأحمر الذي طوله إلى مارة ثمانون كيلومتراً، وعرضه ثمانية عشر كيلومتراً وساروا هذه المسافة في مدة ثلاثة أيام فكأنهم ساروا في كل يوم ما يجتازه راكب واحد في مدة نحو أربع ساعات ونصف.

وقد تيقّن كل من جابوا هذه الأماكن بصدق كلام الكتاب إذ لم يجدوا هناك إلا أرضاً جرداء، ذات حصى سوداء ليس فيها من النبات إلا بعض أعشاب لا نضارة لها، وبعض شجيرات ذابلة ولا شيء من الماء هناك، حتى قال هنري بلمر

رئيس اللجنة الإنكليزية: «إنَّ كل ما هنالك لا يطبع في مخيلة المسافر إلا تصوُّر برية لا ماء فيها». وقال فلستد (في كتاب رحلته ببلاد العرب المطبوع في لندرة سنة ١٨٣٨م): «يكره العرب الرُّحْل كل البلاد التي من حرارة إلى عيون موسى لعدم وجود الماء فيها».

وأما مارة التي أفضوا إليها فأكثر العلماء أكدوا على أنها الينبوع المسَّيَّ اليوم عين حوارة؛ وهي على أكمة صغيرة هناك ويختلف طعم مائها باختلاف الفصول لكنه لا يخلو أبداً من مرارة. وقال بوكرد (في كتاب رحلته في سورية سنة ١٨٢٢م صفحة ٤٧٢) إنَّ الناس لا تستطيع شرب هذا الماء لمرارته، بل الجمال نفسها تأنف منه إلا إذا أضناها الظمأ. على أن اللجنة الإنكليزية لم تقطع بموقع مارة كل القطع بل قال رئيسها هنري بلمر إنَّه وجد أثراً لذلك في وادي مريرة في تلك الجهة إذ اكتشف سنة ١٨٦٩م هناك عين ماء مر المذاق.

إنَّ كل ما مرَّ مصداق لقول الكتاب: «فافضوا إلى مارة فلم يطبقوا أن يشربوا من مائها لأنه مرّ. ولذلك سمَّيت مارة فتذمَّر الشعب على موسى وقالوا: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأشار له إلى شجرة فألقى منها في الماء فصار عذبة». وسمَّي بعضهم هذه الشجرة كركد، وقالوا إنها شجرة ذات أشواك يكثر نبتها حذاء الينابيع، تثمر في الصيف حبواً حمراء عذبة المطعم، وإنَّ من خواصها جعل الماء أقلَّ مرارة. ولكن أبى حكماء اللجنة الإنكليزية المصادقة على هذا الزعم. وقال بلمر رئيسهم لا يعلم أحد أيَّ الشجر استعمل موسى في تحلية ماء مارة. فسفر الخروج لم يصرَّح به، وأهل تلك البلاد لا يعرفون نباتاً يحلِّي الماء. وقد مرَّ بنو إسرائيل في تلك البلاد، ولم تكن ثمار الأشجار ناضجة، ولكن قال فردينند دي لاسبس: (في خطبته السالف ذكرها في نانت سنة ١٨٦٦م): أخبرني بعض العرب أنهم يلقون في المياه المُرَّة نوعاً من الشوك يحمل ثمرأً أحمر حامضاً فيمتصُّ ما فيها من المواد الملحية والقلويَّة، فتخفُّ مرارتها وتصلح للشرب عند الحاجة. ومهما يكُ فذلك فضلٌ من الله سواء قيل إنه هدى موسى إلى شجرة يحلِّي بطبعه مرارة الماء أو أنه أزال مرارته بآية مع توسُّط الشجر.

ثم قدم بنو إسرائيل إلى ايليم وكان هناك اثنتا عشرة عين ماء، وسبعون نخلة فنزلوا هناك على الماء. وقد أجمع أكثر العلماء والجوَّابين على أن موقع ايليم

هذه إنما هو في وادي غرندل. فهناك صحراء تبعد عن عيون موسى ستة وثمانين كيلومتراً. وتجد إلى اليوم أشجار النخل وغيرها من أشجار البرية. وهناك أيضاً ينبوع ماء يجري دائماً ومياهه صافية غزيرة لاسيما في أيام الربيع، وقت حلول بني إسرائيل هناك حتى يتفرّع منه عدة ينابيع. «ثم ارتحلوا من ايليم وأقبل كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين ايليم وسيناء». كذا في سفر الخروج (فصل ١٦ عد ١) وفي سفر العدد (فصل ٢٣ عد ١٠)، وارتحلوا من ايليم ونزلوا على بحر القلزم، وارتحلوا من بحر القلزم ونزلوا بيرية سين». ففصل موسى في سفر العدد ما أجمله في سفر الخروج ومحلة بني إسرائيل هذه في جانب بحر القلزم الذي هو البحر الأحمر نفسه يتيسّر لمن شهد هذه الأماكن تعيينها تعييناً أكيداً. فأقوم طريق لهم من ايليم إلى البحر كان أن يجتازوا في سفح الجبل المسّمى حمام فرعون، وأن ينحدروا نحو ساحل البحر في وادي شيبقة ووادي طيبة. وعليه فأكثر من تجوّلوا في هذه البلاد قضوا بأن محلة بني إسرائيل هذه كانت في أطراف وادي طيبة من جهة البحر، وأن موسى وعمدة قومه حلّوا على الأرجح عند ينايع وادي طيبة ونخيله على بعد ألف وخمس مئة متر من الشاطيء، وبين هذا المحل وبين وادي غرندل الذي ارتحلوا منه مسافة ثلاثين كيلومتراً أي مسافة نحو خمس ساعات.

وقد كان لهم في مرحلتهم من وادي طيبة إلى برية سين طريقان يُسمّى أحدهما طريق البحر، يُسار به على شاطئ البحر مسافة عدة كيلومترات، ثم يُصعد به نحو الجبل بوادي فيران. والثاني يُسمّى طريق الشمال يُصعد به في وادي طيبة ثم يتحوّل إلى الجنوب الشرقي إلى طرف المحل المعروف بدبة الرملة من جهة الغرب إلى أن يتصل بالطريق الذي على شاطئ البحر. وأجمع أعضاء اللجنة الإنكليزية أن بني إسرائيل ارتحلوا في طريق البحر لسهولة مسلكه ووجود الماء فيه، وهو أرجح من قول غيرهم لأنهم سلكوا طريق الشمال لقربه من برية سين. وهذه البرية هي الصحراء المعروفة الآن بيرية المرقى على ما رأى علماء اللجنة الإنكليزية، وهي واقعة بين الجبال شرقاً والبحر الأحمر غرباً وطولها ٢٢ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلومترات وفيها ينبوعان: عين ذفاري وينبوعها عذب، وعين المرقى وماؤها مّ ملح، والمسافة من وادي طيبة إلى عين ذفاري اثنان وعشرون كيلومتراً. وفي هذه البرية بعض المرعى. وبلغ إليها بنو إسرائيل بعد شهر من خروجهم من مصر».

لم يتذمّر بنو إسرائيل في برية سين على موسى لحاجتهم إلى الماء إذ كان منه ما يكفيهم فيها. بل أنبأنا سفر الخروج (فصل ١٦ عد ٢ وما يليه) أنهم تذمّروا لحاجتهم إلى الطعام، وقالوا لموسى وهرون: «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم، ونأكل من الطعام شعبنا فلم أخرجتنا إلى هذه البرية لتقتلنا هذا الجمهور كله بالجوع؟ فقال الرب لموسى: ها أنا ممطر لكم خبزاً من السماء. فليخرج القوم ليلتقطوه، طعام كل يوم في يومه... وبالغداة كان يسقط الندى حول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق. مكثّل كالجليد على الأرض. فلما رآه بنو إسرائيل قال بعضهم لبعض: منهو (أي ما هو ما هذا فسّي لذلك منّا)، لأنهم لم يعلموا ما هو... وسماه آل إسرائيل المن وهو كبزير الكزبرة أبيض وطعمه كقطائف بعسل». وكانوا يلتقطون منه كل واحد على قدر أكله عمراً لكل نفس. والعمر كبل. وقال بعضهم: إنه الوعاء الذي كانوا يشربون الماء به. وكانوا يقسمون ما جمعه بهذا العمر. فمن أكثر لم يفضل له ومن أقلّ لم ينقص له. وكانوا يلتقطونه في كل غداة. فإذا حميت الشمس كان يذوب. وما بقي منه إلى اليوم التالي دبّ فيه الدود. وأنتن إلا في يوم السبت فكانوا يلتقطون منه يوم الجمعة ما يكفي مؤونة يومين، فلا يعتريه فساد ولا يجدون يوم السبت شيئاً منه في البرية.

زعم بعض الطبيعيين أن المنّ الذي أكله بنو إسرائيل في برية سینا لم يكن إلا شيئاً طبيعياً، فهو صمغ شجر الطرفاء. وإلى اليوم يلتقط العرب ورهبان دير طور سینا من هذا المنّ، ويأكلونه بالخبز كالعسل. وقد أخذ منه كثير من الجوّابین إلى أوروبا. فلا تنكر أن شجر الطرفاء كثير في تلك البلاد وأنه ينضج ضمغاً يتعلّق على أغصانه كحباب الندى، ويسيل عند اشتداد حرارة الشمس في شهري حزيران وتموز، وله طعم العسل. ويسمّيه العرب المنّ لشبهه بالمنّ الذي أقات الله به بني إسرائيل، لكن بين منّ الطرفاء، وبين المنّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل فرقاً كبيراً من أوجه عديدة؛ منها أولاً: إنّ منّ بني إسرائيل كانوا يلتقطونه كل يوم في السنة كلها، وفي مراحلهم كلّها من برية سینا إلى أرض

الموعد. ومنّ الطرفاء لا تجد له عيناً ولا أثراً إلا في شهري حزيران وتموز. ثانياً: إنّ المنّ الرّبانيّ كان يسقط عند الفجر ومن الطرفاء يسقط نحو نصف النهار إذ كان من إسرائيل يذوب. ثالثاً: إنّ منّ بني إسرائيل كان يقيت جمهورهم وهو نحو من مليونين، ومنّ الطرفاء قليل جداً حتى حقّق ستتلاي (في كتابه منّ سينا وفلسطين صفحة ٢٦) إنّ ما يلتقط من المنّ في سينا هيهات أن يكفي مؤونة رجل واحد في مدة ستة أشهر. وقال بوكرد (في كتاب رحلته في سورية صفحة ٦٠١): إنّ ما يلتقط منه في شبه جزيرة سينا كل سنة إنما هو خمس مئة إلى ست مئة ليبرا وزده ما استطعت، فلا يكفي بني إسرائيل مؤونة أسبوع واحد. رابعاً: إنّ منّ بني إسرائيل كان ينتن في اليوم التالي إلا يوم السبت. ومنّ الطرفاء يمكن حفظه سنين عديدة. خامساً: إنّ منّ بني إسرائيل كان كأنه القوت الوحيد لجمهورهم مدة أربعين سنة. ومنّ الطرفاء لا يكفي لقوت إنسان واحد لأنه دواء مسهل قلّ فيه الجواهر المغذّي. سادساً: إنّ منّ بني إسرائيل «كانوا يطحنونه بالرحى أو يدقونه في الهاون ويطبخونه في القدور ويضعونه ملىاً» (سفر العدد فصل ١١ عد ٨). ومنّ الطرفاء لا يصدق عليه شيء من ذلك. هذا وقد حلّل العالم پريتلت - أحد القائلين بأنّ المنّ كان طبيعياً - المنّ المأخوذ من سينا والمنّ المأخوذ من كردستان، فكانت نتيجة تحليله الكيماويّ أن أكبر جزء مما تألّف منه هذا المنّ إنما هو المادة السكرية. وبعض المواد المسهلة التي لا تصلح للتغذية. فإذا ما المنّ الذي اقتات به بنو إسرائيل إلا الخبز الذي نزل من السماء.

زعم بعضهم أن بني إسرائيل كانوا يذوقون بالمنّ أي طعم أرادته كلّ منهم، وأسندوا ذلك إلى قول سفر الحكمة (فصل ١٦ عد ٢٠ و٢١): «وأرسلت لهم من السماء خبزاً معدّاً لا تعب. فيه يتضمّن كل لذة ويلائم كل ذوق، لأنّ جوهره أهدى عذوبتك لبنيك. فكان يخدم شهوة المتناول ويتحوّل إلى ما شاء كل واحد». ففهموا الآية بحسب منطوق حروفها على أن القديس أغوستينوس وغيره من الآباء والعلماء، أثبتوا أن المراد بكلام سفر الحكمة ليس هو إلا أن المنّ كان يلائم ذوق كل من يستعملونه، وخاصة لأنه جاء في سفر العدد (ف ١١ عد ٦): «والآن فنفسنا يابسة لا شيء أمام عيوننا غير المنّ». ولو ذاق كلّ به ما شاء من الطعام لما قالوا: إنّ نفوسهم يابسة: فالمنّ كان لذيذاً مغذياً يلائم كل ذوق فلا يأنف منه أحد ويخدم شهوة المتناول فيعيضه عن أحسن ما يشتهي.

جاء في سفر الخروج (ف ١٦ ع ١٣) «ولما كان العشي صعدت السلوى فغطت المحلّة». وجاء في سفر العدد (ف ١١ ع ٣١) «وهبت ريح من لدن الرب فسأقت سلوى من البحر، وألقته على المحلّة على مسير يوم من هنا ويوم من هناك حوالى المحلّة. (وكان طيران السلوى) عن نحو ذراعين عن وجه الأرض فأقام الشعب يومهم كلّهم وليلتهم وغدهم، يجمعون السلوى. فجمع أقلّهم عشرة أعمار فسطّحوها لهم مساطح حوالى المحلّة لتجف، وتكون لهم مؤونة. والظاهر أن الله أرسل إليهم السلوى مرتين الأولى في بركة سين وهي التي ذكرها موسى في سفر الخروج، والثانية في محلّة قبور الشهوة، وهي التي ذكرها في سفر العدد وبين الأولى والثانية سنة، وكلتاها في فصل الربيع. وقال علماء الزولوجيا (وهم أهل العلم بالحيوان) إنّ السلوى لا ترتفع عند طيرانها عن الأرض أكثر من ذراعين لاسيما إذا أضناها التعب. وحقق الجوابون وغيرهم أن هذا الطائر يكثر مروره في بركة سيناء وسائر بلاد العرب في فصلي الربيع والخريف. فكانت المعجزة إذاً قائمةً بجعل الله الريح تسوقها بكثرتها العجيبة إلى محلّة بني إسرائيل. وتيسيره التقاطها وإنباء موسى بها قبل بلوغها وسوقها عند مسيس الحاجة إليها.

واسم هذا الطائر في العبرانية شلوى وفي الكلدانية والسريانية **ܫܠܘܝܐ** (سلواي) وفي العربية سلوى. وواحدته سلواة وهو معروف في بلادنا بهذا الاسم وكذا فهمه قدماء المترجمين في الترجمات السبعينية واللاتينية والسريانية والعربية. وكذا ورد في القرآن أيضاً وإن قال بعض مفسريه: أن المراد بالسلوى الشّماني على أنّ العالم لودلف لم يألُ جهداً ليثبت (في كتابه تاريخ الحبشة ك ١ فصل ١٣ عد ٩٦): إنّ المراد بكلام موسى ليس طائر السلوى بل الجراد ومن مستنداته أن اسم شلوى في العبرانية مشتق من أصل يدل على الكثرة والغزارة. فيصدق على الجراد أكثر من طائر السلوى. وإنّ الجراد يكثر في بلاد العرب، وتسوقه الريح إليهم ويلتقطونه ويملّحونه، ويذخرونه مؤنة طيبة المطعم نافعة للصحة لا يأنف منها أكابرهم وأعيانهم. وإنّ رأيه يؤيده قول موسى إنّهم سطّحوها

مسطح حوالي المحلة، ولو كان المسطوح طائر السلوى لدب فيه الدود وأتت من تعريضه للشمس. غير أنّ اجماع نسخ الكتاب ومفسريه القدماء والحدثاء على أنّ المراد طائر السلوى يبطل إزعام لودلف ويحققها أن العبرانيين سألوا موسى لحماً لأن نفوسهم سئمت المنّ فلا يغنيهم الجراد عن اللحم.

عد ١٩٢

ارتحال بني إسرائيل من برية سين إلى رفيديم

قد جاء في سفر الخروج (ف ١٧ ع ١) «ثم ارتحل كل جماعة بني إسرائيل من برية سين مرحلة مرحلة على حسب أمر الرب ونزلوا في رفيديم». ولكن جاء في سفر العدد (فصل ٣٣ ع ١٢) تفصيل المراحل حيث قيل: «وارتحلوا من برية سين ونزلوا بدفقة. وارتحلوا من دفقة ونزلوا بألوش، وارتحلوا من ألوش ونزلوا برفيديم». فالظاهر أن سفر الخروج لم يصرح بذكر منزلتي دفقة وألوش، لأنه لم يكن فيهما شيء مهم. وللمسافر من برية سين إلى وادي فيران حيث موقع رفيديم القديمة ثلاث طرق: الأولى شمالية يسار بها من عين ذفاري السالف ذكرها، ويجتاز في جبل هناك إلى رفيديم ولكن هذه الطريق مستحدثة. والثانية يمرّ بها في وادي سدره ووادي مكثّب في جانب المحل المسمى مغارة حيث كان المصريون يحتفرون المعادن. والثالثة وهي الأيسر والأطول يسار بها على شاطئ البحر في جنوب سهل المرقى إلى مصب وادي فيران. ويصعد في هذا الوادي إلى رفيديم والمسافة بين برية سين ورفيديم في هذا الطريق ثمانية وسبعون كيلومتراً.

وقد رأى أعضاء اللجنة الإنكليزية أن السواد الأعظم من بني إسرائيل سار في هذا الطريق مع ماشيتهم، وأنّ بعض المشاة منهم سار في طريق وادي سدره لانتقاصها سبعة عشر كيلومتراً عن الأولى. وزعم بعضهم أن مسير هؤلاء في هذا الطريق يمنع منه خوفهم من المصريين الذين كانوا يعملون في المعادن أو يحرسون العملة. ولكن هذا مردود بأن بني إسرائيل الذين كان عديدهم حينئذ زهاء ست مئة ألف رجل، لم يبالوا بنفر يحتفرون المعادن أو يحرسونها. ولم تتمكن اللجنة الإنكليزية من تعيين موقع دفقة، على أنّ العالم لإبر الألماني استرعى الالتفات إلى المشابهة الكائنة بين اسم دفقة، وبين اسم مققة الذي يراى به باللغة المصرية المواد الثمينة التي تخرج من معادن سيناء. فكأنه يشير إلى أن دفقة كان موقعها قريباً من

المغارة السالف ذكرها. وأما ألوش فلا يعلم في أي المواقع هذه بين دفقة ورفيديم. وأما رفيديم فموقعها في الوادي المعروف الآن بوادي فيران، وتأويل اسمها محل الراحة. والماء الآن قليل في المسافة بين بركة سين ورفيديم فإن كان كذلك في أيام موسى، فيكون بنو إسرائيل أسرعوا في مسيرهم متزودين بقرهم ما كان لا بد منه لهم من الماء، وكانوا يعللون أنفسهم بوجودهم ماء في رفيديم فخاب ما أملوا فعاودوا على عادتهم الشكوى.

عد ١٩٣

آية إجراء الماء من الصخرة

قال الكتاب (خروج ف ١٧ ع ٣): «وعطش هناك الشعب إلى الماء وتذثروا على موسى وقالوا: لِمَ أضعنا من مصر لتقتلنا وبنينا وماشيتنا بالعطش؟ فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ما أصنع بهؤلاء الشعب لأنهم عن قليل يرجعونني. فقال له الرب: مر أمام الشعب وخذ معك من شيوخ بني إسرائيل، وعصاك التي ضربت بها النهر... وها أنا قائم هناك أمامك على الصخرة في حوريب، فاضرب الصخرة فإنه يخرج منها ماء، فيشرب الشعب فصنع موسى كذلك على مشهد شيوخ إسرائيل». فجرى الماء من الصخرة «وسمي ذلك الموضع الحنة والخصومة لسبب مخاصمة بني إسرائيل»، وتأويل حوريب الخراب واليبوسة إذ ليس هناك ماء. ورأت اللجنة الإنكليزية أن حوريب هذه غير حوريب التي تجلى الرب فيها لموسى في العليقة. وأما الصخرة الوارد ذكرها هنا فقد أشغل الجوالين والزائرين البحث عنها من أقدم العهد، وحسبها رهبان دير القديسة كاترينا في جوار ديرهم. وكثيراً ما أروها زائريهم فصّدقوا بقولهم، وكتبوا فيها ما عنّ لهم وأخصّهم شاو الإنكليزي وبوكوك؛ الأول في كتابه الذي طبعه في أكسفردي لسنة ١٧٧٢م وملخص ما قال: «قد شهدنا رفيديم وتهياً لنا أن نرى صخرة مربية (وهي التي تسميها النسخة اللاتينية العامية الحنة والخصومة كما رويها آنفأ). فإذا هي محفوظة سالمة من التأثيرات الجوية وكرور الأيام وهي صخر من رخام أشبه بالحجر المحبب مكعبه ستة يردات (واليرد أقل من المتر قليلاً). وهو في وسط الوادي منفصلاً عما سواه ويظهر أنه منقطع أصلاً من جبل سيناء المحيط بهذا السهل.

والماء الذي جرى منه قد ثقب في إحدى زواياها قناة عمقها إنشان (الإنش جزء من إثني عشر جزءاً من القدم). وعرضها عشرون إنشاً وقد عاينا ثقباً عديدة على طول هذه القناة، وتلك أدلة حية ناطقة بأن كل ثقب كان يصدر عين ماء. والمتأمل يرى أن مثل ذلك لا تأتي به صناعة ولا مصادفة بل كل ما شاهدنا دلنا أن ثمة آية، وأن هذا المشهد يبدي حركة تقوية في قلب كل ناظر». وقال بوكوك ما خلاصته: «إن في الغرب والجنوب من جبل سيناء وادي يسمى وادي يه أي وادي الله، ولا غرو أن ما كان منه في الغرب إنما هو وادي رفيديم حيث حلّ بنو إسرائيل بعد ارتحالهم من برية سين. فأهل هذا المحل يدلون هناك على الصخرة التي يقولون إن موسى ضربها فجرت المياه. وهي صخرة ضخمة من الحجر المحبب الأحمر طولها عشرة أقدام، وعرضها كذلك وعلوها إثنتا عشرة قدماً. وفي أسفل جانبيها منفجرات لا يظهر أنها صنع آلة وعددها من كل جانب نحو إثني عشر منفجراً، والعرب يسمون هذه الصخرة صخرة موسى. ويلقون عشباً في هذه المنفجرات ويطعمونه جمالهم زاعمين إنه يبرئها من كل مرض». وقال بهذا المقال لاون دي لا بورد وستلاي وغيرهما.

على أن أعضاء اللجنة الإنكليزية لم يروا في منفجرات الصخرة المحكي عنها شيئاً من المعجزة. وأوردوا لعدم تصديقهم بأن هذه الصخرة صخرة موسى سببين: الأول أنها ليست في وادي رفيديم بل في الوادي المسمى وادي اللجة. والثاني أن هذه الصخرة لا تنفرد بالعلامات التي استدلوها بها على أنها صخرة موسى، فإن في هذا الوادي نفسه صخرة أخرى تشبه الأولى كل الشبه، ولها مثل أخرى في أنحاء شبه جزيرة سيناء. وقد تابع الأب فيكورو أعضاء اللجنة الإنكليزية في رأيهم فقال: في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ (صفحة ٤٧٦) ما ملخصه: «لم تكن آية ضرب الصخرة وجري الماء في المحل الذي يعينه الآن رهبان سيناء، وصدقهم فيه شاو وبوكوك، لأن رفيديم حيث جرى الماء من الصخرة ليس موقعها في وادي اللجة بل في وادي فيران، كما حقق لنا ذلك تقليد قديم حفظه أوسايوس والقديس أيرونيوموس في القرن الرابع وأنطونيوس الشهيد في القرن السابع. وأيدته رؤية هذه المحال فالصخرة الحقيقية يلزم أن تكون في وادي فيران، وقد ذكر رجال اللجنة الإنكليزية تقليداً عند عرب تلك الأنحاء، يعين محل هذه الصخرة في بقعة

تسمى حسي^(١) الخطاطين وهم يعدون موسى من الخطاطين لأنه خطّ الشريعة ولهم عادة لا يعرف لها بدء، وهي أن كل من مرّ بهذا المحل رمى حجراً صغيراً دالاً على أنه لا ينسى المحل، ولا التقليد المشار إليه، فترى الحصى ركاماً فوق الصخور الكائنة هناك والعرب يقولون: إنّ بني إسرائيل بعد أن شربوا من الماء الذي انفجر من الصخرة جلسوا يلعبون برمي الحصى على الصخور. ومن يمشون الآن على هذه العادة يقصدون تذكر هذه الآية، والإستشفاع بموسى صانعها لبرء أقربائهم أو أصحابهم من المرض. ولا تنحصر عادة رمي الحصى على هذا المحل بل يعرف لها نظائر في محلات أخرى حيث وجد تقليد دالّ على أمر مهم، فالعالم بلمر هو أول من روى هذا التقليد وهو يعيّن محلاً يرجّح أنه محلّ هذه الآية.

قال الرسول: «إنّ آبائنا شربوا شراباً واحداً روحياً لأنهم كانوا يشربون من الصخرة الروحائية التي كانت تسير معهم، وتلك الصخرة كانت المسيح». (قرنتية ١ ف ١٠ عد ٤) فقال بعض المفسرين والآباء إنّ الصخرة التي ضربها موسى فجّرت المياه كانت تسير مع بني إسرائيل أو كانت أمواها تسيل في أقنية تابعة لهم حيث حلوا. واتّصل بعضهم إلى أن يقول إنّ مياه الصخرة لبثت تصحبهم ثماني وثلاثين سنة على أنّ هذا التفسير غير صحيح بل الصحيح ما قال غير هؤلاء من المفسرين والآباء وهو أن كلام الرسول مجازي ورمزي كما هو ظاهر من وصفه الشراب بالروحي، والصخرة بالروحائية ومن تصريحه بأن الصخرة كانت المسيح. فالصخرة أي مدلول الصخرة وهو المسيح كان يسير معهم بما أنه إله أجرى لهم الماء، وأنزل عليهم المن. وأيضاً لو كانت الصخرة تسير معهم بنفسها أو بمائها لما خاصموا موسى في قادش أيضاً لحاجتهم إلى الماء، كما ورد في سفر العدد (ف ٢٠). ولما أغفل موسى ذكر استمرار هذه الآية سنين طوالاً فهو لم يغفل ذكر استمرار المن أربعين سنة.

عد ١٩٤

حرب العمالقة

بينما كان بنو إسرائيل في رفيديم وافاهم العمالقة يقطعون الطريق عليهم فكانت

(١) الحسي والحسي والحسي سهل من الأرض يستنقع فيه الماء وقيل غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطر وكلما نرحت دلواً اجتمعت أخرى.

الحرب التي دُكرت في سفر الخروج (ف ١٧ ع ٨ وما يليه). وقد مرّ في كلامنا على غزوة كدرلاعومر ملك العيلاميين الجنوبي سورية أن كثيراً من العلماء يرون أن العمالقة هم ذرية عماليق بن أليفاز (من سريته تمنع) بن عيسو ابن اسحق ابن ابراهيم؛ وإن العلماء العرب وكثيرين غيرهم يرون أن عماليق جد هولاء إنما هو من ذرية حام لا من ذرية سام. ويؤيد قولهم أن غزوة كدرلاعومر كانت قبل مولد عيسو وأليفاز وذكر أنه ضرب العمالقة فأرجع إلى ما مرّ هناك عد ١٥٥. فهولاء العمالقة، كانوا يسكنون بركة فاران وما جاورها وسمعوا أخبار قدوم بني إسرائيل إلى أرضهم. وظنّوا أنهم ينوون الإقامة فيها فانتظروا بلوغهم محلاً يسر لهم فيه الانتصار عليهم، وفاجأوهم في وادي فيران حيث كانوا بلغوا ضحكاً بسفرهم الشاق مسافة ثمانين كيلومتراً من بركة سين. فقال موسى ليشوع بن نون الذي كان يخدمه مذ كان حدثاً:

« اختر لنا رجالاً واخرج لمحاربة العمالقة، وغداً وأنا أقف على رأس (الراية) اليفاع، وعصا الله في يدي. فصنع يشوع كما قال له موسى في محاربة العمالقة. وموسى وهرون وحوور صعدوا إلى رأس اليفاع؛ فكان إذا رفع موسى يده يغلب بنو إسرائيل، وإذا حطّها تغلب العمالقة. ولما كلّت يدا موسى أخذوا (أي هرون وحوور) حجراً وجعلاه تحته فجلس عليه واسند هرون وحوور يديه أحدهما من هنا والآخر من هناك، فكانت يداه ثابتتين إلى مغرب الشمس فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف. وقال الرب لموسى: أكتب هذا ذكراً في الكتاب». فيظهر أنّ الحرب دامت النهار بطوله، وكانت للعمالقة حروب أخرى مع بني إسرائيل سيأتي ذكرها. وأما من هو حور هذا؟ فزعم يوسيفوس أنّه زوج مريم أخت موسى. على أنّ الآباء ونخصّ بالذكر منهم غريغوريوس النيصصي وامبروسيوس، أثبتوا أن مريم أخت موسى استمرت بتولاً لم تتزوج، وأنّ الصحيح أن حور من ذرية يهوذا فهو، ابن كالب بن حصرون غير كالب بن يوفنا. وأما اليفاع فهو اسم راية قال فيكورو (في المحل الآنف ذكره) إنّها تسمّى اليوم جبل الطاحونة وإنّ ارتفاعها ٢٢٠ متراً. وقد عمر المسيحيون الأولون في هذا المحل مدينة فاران ذكراً لهذه الآية، وكانت مدينة اسقفية وترى هناك إلى اليوم أطلال كنائس ومعابد وأديرة ومدافن. وقد كشفت اللجنة الإنكليزية ثمة عن صفيحة مثلت عليها صورة رجل مثشّح بحلّة، وذراعاها مبسوطتان

يصلي كما صوّر لنا سفر الخروج موسى في موقعة رفيديم. ووجدوا أيضاً صورة نائمة على أعلى باب تمثل ثلاثة أشخاص في الهيئة الأنفة الذكر، فلا غرو أنّ سكّان فاران الأولين راموا أن يخلدوا بهذه الصور ذكر موقعة كانت سبباً لشهرة مدينتهم.

عد ١٩٥

اتيان يترو حمي موسى إليه في البرية ومشورته عليه
في القضاء للشعب

إنّ يترو حما موسى ويسميه العرب شعياً كان كاهن مدين كما يسميه الكتاب. ويظهر أنّه كان يعبد الإله الحقيقي، أو أخذ يعبدّه حيثُذِ إذ جاء في سفر الخروج (ف ١٨ ع ١١) أنّه قال لموسى: «الآن علمت أن الرب عظيم فوق جميع الآلهة بنفس الأمر الذي بغوا (المصريون) به عليهم (على بني إسرائيل). ثم قرب يترو حمو موسى محرقة وذبائح لله، وجاء هرون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا مع حمي موسى أمام الله»، والأرجح أن المدينيين قوم يترو سكّان العدو الشرقية من البحر الأحمر هم غير المدينيين ذريّة مدين بن ابراهيم من قطورة سكان الجهة الشرقية من البحر الميت، فالأولون حاميون من ذرية كوش بن حام لتسمية الكتاب صفورة امرأة موسى كوشية (سفر العدد ف ١٢ ع ١). والثانون ساميون من ولد ابراهيم، وإن قال بعضهم إنّ أصل القبيلتين واحد، وقد مرّ لنا كلام في هذا الشأن. فلنأسمع يترو بجميع ما صنع الله لموسى وبني إسرائيل، أتى إليه ومعه صفورة ابنته امرأة موسى وجرشوم واليعازر إبناه، فيظهر أن موسى كان قد أرسلهم إلى يترو بعد أن نزل بهم إلى مصر كما جاء في الفصل الرابع من سفر الخروج. وخرج موسى للقاء حميه وسجد وقبّله، وسأل كل منهما عن سلامة صاحبه. وقصّ موسى على حميه جميع ما صنع الرب بفرعون، والمصريين وجميع ما نالهم من المشقة في الطريق وكيف خلّصهم الرب.

ولمّا رأى يترو موسى يجلس وحده ليقضي للشعب من الغداة إلى العشي قال له: ليس ما تصنعه بحسن فإنّك تكلّ أنت وهذا الشعب الذين معك أيضاً، فاسمع ما أشير به عليك. كن أنت للشعب من قبل الله ترفع دعاويهم إليه، وتنبئهم

بالفرائض والشرائع وتنهج لهم الطريق الذي يسلكونه. وانظر من جميع الشعب أناساً أقوياء أتقياء مستقيمين يكرهون الطمع، وولّ منهم عليهم رؤساء فئات بين ألف ومئة وخمسين وعشرة، فيقضون للشعب في كل أمر صغير ويرفعون إليك كل أمر عظيم، فسمع موسى من حميه وصنع جميع ما قاله له. ولما أزمع بنو إسرائيل على المسير من برية سيناء نحو أرض الموعد، سأل موسى حماه أن يبقى معهم ليهديهم الطرق. فاعتذر، ولذلك جاء في سفر الخروج (ف ١٨ ع ٢٧): «ثم صرف موسى حماه فمضوا إلى أرضه» ولكن يظهر أنّ حو باب بن يثرو استمر معهم إذ جاء في سفر العدد (ف ١٠ ع ٢٩) إنّ موسى قال لحو باب: «تعال معنا نحسن إليك... فقال له: ولأنا أمضي إلى أرضي وعشيرتي. فقال له: لا تتركنا فإنّك تعلم مواضع حلولنا في البرية، فتكون لنا بمنزلة الأبصار وإن سرت معنا فما يحسن الرب من خير نحسن به إليك». وقد صحبهم إلى أرض الموعد وأخذ نصيباً ممّا قسّمه يشوع بن نون.

عد ١٩٦

ارتحال بني إسرائيل من رفيديم إلى برية سيناء ونزولهم الجبل
وأي الجبال هو

جاء في سفر الخروج (ف ١٩ ع ١ وما يليه): «وفي الشهر الثالث لخروج بني إسرائيل من مصر في ذلك اليوم... رحلوا من رفيديم وجاءوا برية سيناء فنزلوا في البرية... تلقاء الجبل» إنّ للمرّتحل من رفيديم أي من وادي فيران إلى برية سيناء طريقين: الأول يسمى الآن طريق الواطية في الطرف الشمالي من وادي فيران، والثاني في محل يسمى الآن نجب الهواء في شرقي رفيديم، وممر الطريقين بين سلسلة جبال ارتفاعها من ست مئة إلى تسع مئة متر على أنّ طريق نجب الهواء عسر المسلك، فالأظهر أنّ العبرانيين سلكوا طريق الواطية إلى جبل سيناء. ثم إنّ المسافة التي اجتازها بنو إسرائيل من عيون موسى إلى جبل سيناء هي نحو من مئتين وواحد وستين كيلومتراً، فإذا قسمت على إحدى عشرة مرحلة (كما كانت مراحلهم هذه) كان الحاصل أنّهم ساروا في كل مرحلة ٢٤ كيلومتراً إلا قليلاً، عبارة عن مسافة أربع ساعات بناءً على أن الراكب يجتاز في كل ساعة ستة

كيلومترات، وليس ذلك قليلاً، وهم شعب كامل يسير بأطفاله وشيوخه ومواشيّه، وإما تلقاء أي الجبال حلوا لأن هناك جبلاً أو قمماً لسلسلة جبل سيناء، يسمى كل منهما باسم خاص فأعم التقاليدات أنّ الجبل الذي حلوا تلقاءه إنما هو الجبل المسمى الآن جبل موسى. وقد صحح أعضاء اللجنة الإنكليزية هذا التقليد القديم. على أنّ بعض الجوالين في هذا العصر، رأوا أنّ الجبل الذي حلوا تلقاءه هو جبل سربال. وهو قمة من جبال سيناء تبعد عن رفيديم ستة كيلومترات أو سبعة، وسمي سربالاً أي درعاً لهيئة تحدر الماء على صخوره آونة الشتاء. فتكون أشبه بزرد درع نشرت عليها وارتفاعه عن ساحل البحر نحو ١٩٨٠ متراً ويبلغ بعض أعالیه ٢٠٦٠ متراً على أنّ موقع هذا الجبل المحاط بثلاثة أودية ضيقة، هي وادي الريم ووادي علامة ووادي عجلة، يقضي بأنه يكون صالحاً لنزول إسرائيل تلقاءه، ولا سيما إنهم أقاموا في بركة جبل سيناء مدة طويلة.

وقد صرح كثير من المؤلفين القدماء الذين ساءحوا أو حجوا إلى جبل سيناء، أنّ هذا الجبل هو المعروف الآن بجبل موسى، ومن هؤلاء سيلفانوس أمون والقديس نيلوس راهب سيناء وانطونيوس الشهيد وغيرهم.

ثم ليس في جبل سربال ما نراه في جبل موسى من الآثار الدالة على إجلال القدماء له لتزليل السنّة عليه كبناء كنائس ومعابد وأنهاج طرق. وقد استمسك القائلون بأن سربال هو الجبل الذي نزلت عليه الشريعة، بوجود بعض خطوط قديمة في جواره لكن هذه الخطوط في جوار سربال أقل منها كثيراً في غيره كجبل المناجاة. وقد كان العلماء في أواخر القرن السالف، ومبادئ هذا القرن يظنون تلك الخطوط تمّقها العبرانيون في أيام خروجهم من مصر، فظهر الآن بعد حلّ رموزها والإطّلاع على فحواها أنّه لم يكن لبني إسرائيل يد فيها بل أنّ ما كان منها سامياً قد كتبه النبطيون قبل قليل من التاريخ المسيحي أو بعده. وبعضها كتب باليونانية وقد قطعت اللجنة الإنكليزية بأن سربال ليس الجبل الذي حلّ بنو إسرائيل تلقاءه، وبالنتيجة ليس الجبل الذي نزلت السنّة فيه على موسى.

فالصحيح إذاً أنّ الجبل الذي ذكره الكتاب إنما هو جبل سيناء، ويسمى الآن جبل موسى، وطول هذا الجبل ٣٢٠٠ متر وعرضه ١٦٠٠ متر وهو يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وارتفاعه الأوسط على ساحل البحر ٢٠٠٠

متر وعن الأوداء ٤٥٠ متراً على أن له قمتين الأولى جنوبية وارتفاعها ٢٢٤٤ متراً وهذه يسمونها جبل موسى، باسم الجبل كله وكانت تسمى قبلاً جبل المناجاة. والثانية في الشمال الغربي وتسمى رأس الصفصافة ومعظم ارتفاعها عن سطح البحر ٢١١٤ متراً. وفي الشمال الغربي من رأس الصفصافة، سهل فسيح يسمى سهل الراحة، مساحة سطحه ألف وست مئة اكتوبر، والاكتار عبارة عن عشرة آلاف متر مربع فيكون المجموع ستة عشر مليون متر مربع. وإذا ألحق به منفجاً وادي الدير ووادي اللجة تضاعف اتساعه. فعلى أي القمتين تجلى الرب لموسى وأنزل عليه الشريعة؟ فرهبان دير القديسة كاترينا يزعمون استناداً إلى تقليد متوغل في القدم أن القمة الجنوبية المسماة جبل موسى أو جبل المناجاة هي مهبط السنة. وإن رأس الصفصافة لا أهمية له على أن معاينة هذه الأماكن تقضي بالخالفة لزعمهم إذ ليس في سفح القمة الجنوبية أرض يمكن أن يجتمع فيها جمع غفير، وسهل الراحة محجوب عنها بقمة رأس الصفصافة.

وقد صرح الكتاب بأن بني إسرائيل كانوا يرون قمة الجبل الذي نزل الله السنة عليه. ولذلك رأى روينسون أولاً، ثم قطعت اللجنة الإنكليزية بأن رأس الصفصافة إنما هو مهبط الشريعة الموسوية. وهذا لا ينقص من حرمة جبل موسى فإنه يرجح أنه الجبل الذي تجلى الله لموسى عليه في العليقة، والنار تضطرم فيها وفي مناجاته له بعد الشريعة، كما تدل على ذلك تسميته القديمة جبل المناجاة. وتقليدات أهل تلك البلاد أن الجبل المسمى الآن جبل المناجاة، هو جبل منخفض في شرقي جبل موسى ويشرف على سهل الراحة: فهناك أقيم خباء المحضر (قبة العهد)، إذ عليه يصدق ما ذكره الكتاب من أن هذا الخباء كان خارجاً عن المحلة، وكان من بني إسرائيل يمكنه أن يرى من باب خيمته موسى داخلًا في الخباء. انتهى (ملخصاً عن الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ من صفحة ٤٨١ إلى صفحة ٤٩٩ طبعة ٤).

عد ١٩٧

تنزيل الله السنة

لما حل بنو إسرائيل لقاء جبل سيناء صعد موسى إلى الجبل، فناداه الرب قائلاً: كذا تقول لبني إسرائيل قد رأيتم ما صنعت بالمصريين وكيف حملتكم على أجنحة

النسور، وأتيت بكم إليّ والآن إن امتثلتم أوامري وحفظتم عهدي فإنكم تكونون لي خاصة من جميع الشعوب لأن جميع الأرض لي، فعاد موسى ودعا شيوخ الشعب، وألقى إليهم جميع الكلام الذي أمره الرب به، فأجاب الشعب أجمع كل ما تكلم به الرب نعمل بحسبه. ولما أنهى موسى كلامهم إلى الرب قال له : أمض إلى الشعب وقدسهم اليوم وغداً، وليغسلوا ثيابهم، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث، فإن الرب يهبط أمام جميع الشعب على جبل سيناء. واجعل حداً للشعب من حواليه، واحذروا من أن تصعدوا الجبل أو تمسوا أطرافه فإن كل من يمس الجبل يقتل قتلاً بالرجم. وإذا نفخ في البوق جاز لهم أن يصعدوا فنزل موسى، وأعدّ الشعب كما أمر الرب. وحدث في اليوم الثالث عند الصباح أنّها كانت أصوات وبروق وغمام كثيف على الجبل، وصوت بوق شديد جداً. فأخرج موسى الشعب من المحلة، فوقفوا أسفل الجبل (في سهل الراحة)، وهو مدخن كله كدخان الأتون. فارتجف الشعب جداً، ونادى الرب موسى إلى راس الجبل فصعد، فقال الرب له: انزل ناشد الشعب أن لا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون. وليتقدس الكهنة الذين يتقدّمون إلى الرب كي لا يبطش الرب بهم، فامض وانزل ثم اصعد أنت وهرون معك. ففعل موسى كما أمر الرب، ثم تكلم الرب على مسمع من الشعب منزلاً شريعته، وأولها الوصايا العشر وألحق بها السنن والأحكام الواردة في الفصول ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من سفر الخروج. فوعد الشعب أن يعمل بكل ما أمر الرب فكتب موسى جميع كلام الرب وبكر في الغداة وبنى مذبحاً في أسفل الجبل، ونصب إثني عشر نصباً لاسباط إسرائيل الإثني عشر، وبعث فتيان بني إسرائيل فاصعدوا محرقات، وذبحوا ذبائح سلامة من العجول للرب.

قد أنكر جاحدو الوحي في القرن السالف أنّ موسى كتب السنّة وسائر أسفار التوراة المنسوبة إليه متمحلين لإنكارهم، بأنّه لم يكن له في البرية ما يكتبها به فقال فولتير ومن حدا حدوه إنّه لم تكن وسيلة في تلك الأيام لكتب المرء أفكاره، إلّا بحفرها على حجر أو رصاص أو خشب أو لين. ولم يكن للكلدان والمصريين حينئذ من ذريعة لإبلاغ الخلف ما كان لهم إلّا برسم ما يدل على مجمل أحداثهم بإيجاز، وخطوط هيروكليفيّة لا أن ينمقوا كتباً في البرية، وهم كل يوم بواد. وقال هرتمان الألماني في هذا القرن أيضاً إنّه كان نوع من الكتابة في أيام موسى إلّا أنّها لم تكن إلّا سرّاً محفوظاً للكهنة فلم يتهيأ لبني

إسرائيل عرفانها على حالتهم الدليلة في مصر، وزعم مع غيره من الجاحدين أنه لم يكن في إمكانهم وجدان المواد اللازمة لكتابة أسفار ضخمة كأسفار موسى الخمسة، ولا سيما أن التقاليد المحلية كانت تحظر عليهم استعمال غير الحجر أو المعدن أو الخشب، ولا تبيحهم استعمال الرق. واحتتم هرتمان كلامه بأن العبرانيين لم يعرفوا الكتابة قبل عصر القضاة.

إن هؤلاء الجاحدين كانوا قبل هذه الأيام، ولو أوردوا اليوم مثل هذه الحجج الباطلة لعيبوا بالجهل الفاحش. فقد صدّقوا بأن فنّ الكتابة كان في ذلك العصر نادراً عند القبائل اليافيتية في أوربا، لكنّه كان في وادي النيل عامّاً شاملاً. يعرفه المصري والعبراني أيضاً. وكنت ترى الكاتب المصري كيف أنجّهت، وقلمه بيده كما نرى الآن صوراً لهم تشذ عن العد نقشت قبل أيام الخروج، وفي عصره بل كان للمصريين ولوع أو هوس بالكتابة، حتّى عدّت من العلامات المميزة لهم، ولم تكن المواد اللازمة لها تعوزهم إذ كانوا يكتبون على الحجر والخشب والنسيج والباير. وفي متاحف أوربا ما هو أكثر من أن يعد مكتوباً على المواد المذكورة في عصر الخروج وقبله. وعليه فإذا رأينا موسى حاملاً اللوحين، ووصايا الله مكتوبة عليها ورأيناه يأمر بأن تكتب هذه الوصايا على عتبات الأبواب، وعلى عصائب تُشدُّ بها الجبهة، وعلى غيرها علمنا بلا ريب أن الكتابة مطروقة عند المتكلم ومن يكلمهم. وكان ذلك برهاناً آخر جلياً لصدق الكتاب لا للتكذيب به من وجه أن من يتكلّم كذلك يلزم أن يكون تربي في مصر، وتعلّم علومهم ومن يكلمهم يلزم أن يكونوا كذلك يعرفون الكتابة والقراءة وغيرهما مما اعتاده المصريون، كما كان موسى وبنو إسرائيل وعليه فتكون حجج الجاحدين حججاً عليهم.

عد ١٩٨

إبطاء موسى في الجبل وعبادة بني إسرائيل عجل الذهب

أنبأنا الكتاب (خروج ف ٢٤) أن موسى بعد أن أذاع شريعة الرب على بني إسرائيل، أمره أن يصعد هو وهرون وناداب وإيهو ابناه، وسبعون من شيوخ إسرائيل ليسجدوا للرب، ويشكروه على آلائه عن بعد ويتقدم موسى وحده فكان

كذلك. وبعد أن صعد موسى الجبل غطاه الغمام، وأقام موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة، وحيثُ أمره الرب بعمل الخبء وتابوت العهد، ويُن له كيف يلزم عملهما وكيف تكون خدمة الكهنة فيه، وعيّن عاملين لصنعه، وهما بصلائييل بن اورى بن حور من سبط يهوذا، وأهلياب بن اجساماك من سبط دان وسلم إليه لوحى الوصايا كما فصل ذلك في سفر الخروج من ف ٢٥ إلى ف ٣٢. وسنأتي على ذكر ملخص ما ذكره الكتاب عن هذا الخبء وما حواه. أمّا الشعب فرأوا أنّ موسى أبطأ في النزول من الجبل، فاجتمعوا على هرون وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا، فإن موسى لا نعلم ماذا أصابه. ويظهر أنّهم أكثروا من الإلحاح على هرون، فأراد أن يصرفهم عن عزمهم بما خيّل له أنّهم يأبون صنعه. فقال لهم: إنزعوا شنوف الذهب التي في آذان نسائكم وبنيككم وبناتكم وآتوني بها فلم يتوقف الشعب عن العمل بقوله، فأخذها منهم ودفعها إلى صانع وصورها في قالب وصنعها عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر. فتناسوا حالاً تعليم الله بوحدانيّة ذاته، ونطقوا بالشرك. ولا جرم فهم أرادوا أن يتابعوا المصريين بعبادتهم للاله ايبس الذي كانوا يرونهم يسجدن له أمام عجل أو صورة عجل، وكانوا يصورون أحياناً هذا الاله بهيئة إنسان ورأسه رأس عجل.

وقد أجهد العالم مونسو نفسه ليبرئ هرون من هذه الجريمة في كتاب أفرده لذلك، ومن حججه فيه أنّ العجل الذي تسبب بسببه كان شبيهاً بالكارويم الذي كان الرب جالساً عليه عند تجليه لموسى في جبل سيناء. وإنّه لم يأثم بسبك العجل، بل بوضعه وسيلة لتقدمة الشعب عبادة وثنية على أنّ مونسو لم يصادف نصيراً له في رأيه هذا وحاول غيره أن يبرئ ساحة هرون بأنّه إنّما قصد أن يجعل الشعب يسجد للاله الحقيقي امام صورة عجل كأن لم يكن إلا صورة لله. واستدلوا على ذلك بأنّه قال للشعب: غداً عيد للرب، واستعمل كلمة يهوه الدالة على الله لا على آلهة الأمم. وإنّ الشعب تجاوز مقصده فسجد لعجل آكل عشب كما قال المزل (مز ١٠٥ ع ١٩): «صنعوا عجلاً من حوريب، وسجدوا للمسبوك، وتبدلوا بمجدهم شكل ثور آكل عشب». على أنّه لا يمكن تبرئة هرون من الاثم وهو لم ينكر ذنبه. وقد قال موسى في سفر التثنية (ف ٩ ع ٢): «أمّا هرون فغضب الرب عليه جداً حتى همّ أن يبيده، فتضرّعت لأجل هرون

أيضاً في ذلك الوقت». وسنأتي على إخجال الجاحدين لتنديدهم بالكتاب لذكره سبك العجل عند ردنا تنديدهم به لما ذكره في عمل الحباء.

فقال الرب لموسى في الجبل: هلم فانزل فقد فُيِّد شعبك الذي أخرجته من أرض مصر، ودعني يضطرم غضبي عليهم، فأفنيهم وأجعلك أنت أمة عظيمة. فخشع موسى للرب ضارعاً إليه أن يرجع عن شدة غضبه، ويعود عن مساءة شعبه، ونزل موسى من الجبل ولوحا الشهادة في يده مكتوب على جانبيهما من هنا وهناك، بأمر الله الوصايا العشر، ولما دنا من المحلة رأى العجل والرقص فأتقّد غضبه، فرمى باللوحين من يديه، وكشّرهما في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوه فأحرقه بالنار وسحقه حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء وأسقى بني إسرائيل، وأنب هرون على صنيعة. زعم بعض الربيين أن كل من شرب من ذلك الماء، وكان مذنباً بالسجود للعجل ضُرب بقروح عرّفت موسى به فقتله بنو لاوي بأمره. وقال غيرهم من الربيين إن كل من شربوا من هذا الماء، وكانوا أكثر عبادة للعجل تغير لون لحاهم إلى لون الذهب، واتصل ذلك أيضاً بأولادهم على أن هذه أقاصيص لا يعتد بها. والظاهر إنّه أسقاهم من الماء الذي ذرى على وجهه رماد العجل، ليروا بطلان ما عبدوا وإنه لا يأتي بنفع ولا ضرر ولو تناولوا رماده.

ثم وقف موسى على باب المحلة وقال: من هو للرب فليقبل إليّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقال لهم: كذا قال الرب إله إسرائيل ليتقلد كل واحد سيفه وليقتل كل واحد أخاه وصاحبه وقريه، فصنع بنو لاوي كما أمر موسى فسقط من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل كذا في النص العبراني، والترجمات السبعينية والسريانية والسامرية. وكذا قرأ كثير من الآباء اليونان واللاتينيين، ولكن جاء في النسخة الانطاينية المعروفة بالعامية ثلاثة وعشرون ألفاً. ثم قال موسى للشعب في الغد قد خطئتم خطيئة عظيمة والآن أصعد إلى الرب لعلي أكَفّر خطيئتكم. ورجع موسى إلى الرب وقال: يا ربّ قد خطئ هؤلاء الشعب خطيئة عظيمة، والآن اغفر خطيئتهم وإلا فامحني من كتابك الذي كتبتّه. فقال له الرب: الذي خطئ إليّ إياه أمحو من كتابي، والآن امض وقد الشعب إلى حيث قلت لك: هوذا ملاكي يسير أمامك (خر ف ٣٢). ثم قال له: انحت لك لوحين حجري كالأولين فاكتب عليهما الكلام الذي كان على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما. واصعد في الغداة إلى جبل سيناء، ولا يصعد أحد معك. فنحت لوحين حجري كالأولين وبكر إلى جبل سيناء وفي يده لوحا الحجر،

فهبط الرب في الغمام وأقام موسى هناك أربعين يوماً وأربعين ليلة، لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً. فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر، وأوصاه وصايا أخرى. وعاد موسى ولوحا الشهادة في يده ولم يعلم أن أديم وجهه قد صار مشعاً من مخاطبة الرب له، حتى خاف هرون وبنو إسرائيل من الدنو منه فأرجعهم موسى، وأمرهم بجميع ما كلمه الرب به في طور سيناء، ولما فرغ من مخاطبتهم جعل على وجهه برقعاً، وكان يرفعه عند دخوله بين يدي الرب إلى أن يخرج فإذا خاطب بني إسرائيل رد البرقع على وجهه.

عد ١٩٩

خباء المحضر ورد لإزعام من جحدوا صحة كلام الكتاب

لما كان عقل الإنسان قاصراً عن أن يسن لنفسه شريعة يقوم بها أعماله، ويقوم بفروضه. وعمت الوثنية وطغى الشرك بالله والشر استجذب الله شعبه من مصر إلى البرية. فنزل على موسى شريعته وجعل اسمها التوحيد، وأمر بني إسرائيل العمل بها، وبما أن الإنسان مركب من نفس وجسد، ويلزمه أن يعبد الله خالقه بهما. وكان المحسوس أشد تأثيراً به من المعقول المجرد، ألهم الناس مذ بدء نشأتهم إقامة المعابد والمساجد، بما أمكن من العظمة والأبهة لإجلالاً له وحملأ لهم بالوسائل الخارجة أيضاً إلى توقيره وعبادته. ولذا أمر موسى بعد سن شريعته أن يجعل لشعبه الناقلة خباءً متنقلاً، أي مظلة بدلاً من المعبد الراسخ، وأن يكون له من العظمة ما يشعر بانه بيت الله أو خبأؤه، ويميزه عن أخبيتهم. ولذلك أمر موسى (الخروج ف ٢٥) قائلاً: مر بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة عند كل إنسان ما تسخو به نفسه، وهذه هي التقدمة ذهب وفضة ونحاس وسمنجوني وأرجوان. وصبغ قرمز وبز وشعر معزى، وجلود كباش مصبوغة بالحمرة وجلود سمنجونية، وخشب سنط (وهو الأكاسيا) وهو كثير هناك. وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسح وللبخور العطر، وحجارة جزع وحجارة كريمة لترصيع الأقود، والصدرة من ملابس الأحبار. ولما أبلغ موسى ذلك إلى الشعب أتى الرجال والنساء بأسورة وشنوف وخواتم وقلائد كل متاع من الذهب، وكل من وجد عنده سمنجوني وأرجوان وصبغ قرمز إلى سائر ما ذكره الرب أتى به، وكل امرأة حاذقة غزلت بيدها وأتت بغزل، والاشراف

أتوا بحجارة الجزع، والحجارة الكريمة تطوعاً للرب. فصنع بصلائل وأهلياب وكل من أودع الرب قلوبهم فهماً وحكمة الخباء بحسب كل ما أمر الرب به (خروج ف ٣٥)، وكان أهلياب «نجاراً ونساجاً حاذقاً ومطرزاً» (خروج ف ٣٨ ع ٢٣) وقد فصل موسى كل ما كان في الخباء في سفر الخروج من الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثاني والثلاثين ثم من الفصل السادس والثلاثين إلى الفصل الأربعين. ومجمل ما هنالك أنَّ هذا الخباء كان مظلة كبرى طولها ثلاثون ذراعاً، وعرضها عشر، وعلوها كذلك. وكان مقسوماً إلى قسمين أحدهما يسمى القدس وطوله عشرون ذراعاً وعرضه عشر. وكان فيه مائدة خبز التقدمة ومنارة الذهب ومذبح الذهب. وثانيهما يسمى قدس الأقداس وطوله عشر أذرع وعرضه كذلك، وكان فيه تابوت العهد وضمنه لوحا الوصايا، وقسط المنّ وعصا هرون. وكان يفصل بين القدسين ستار ثمين معلق على أربعة أعمدة من السنط مرصعة بصفائح من ذهب. وكان حول الخباء سرادق طولها مئة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وكل ذلك قائم على أعمدة من السنط والواح. وكان سقف الخباء مغطى بأربعة أستار أولها من داخل كان مصنوعاً من الأرجوان. والثاني شعر المعزى لمنع نفوذ المطر إلى الداخل. والثالث من جلود كباش والرابع من جلود سمجنونية اللون. كانت الجهة الشرقية من الخباء مفتوحة معلقاً عليها في خمسة أعمدة ستر ثمين، يحجب ما كان في داخله. ومن شاء أكثر تفصيل لهيئة الخباء وما حواه وملابس الأبحار فيه فليطالع الفصول المشار إليها آنفاً.

كذب الجاحدون بكلام الكتاب في الخباء، وسخروا منه متهمين وقالوا ما هو إلا حكاية كتبت بعد بناء هيكل سليمان للشبه الكبير بين الهيكل والخباء. ومن هؤلاء: الكافران فولتر ورنان في المقالات التي كتبها في آخر حياته. وأخص ما تمحلوا به لاسناد أوهامهم قولهم من أين المعامل، والأدوات عند قوم رحل ليعملوا في البرية ما وصفه موسى في الخباء من المناثر والمذابح، وصفائح الذهب والترصيع بالحجارة الكريمة، والانسجة المصبغة. ومن أين العملة الماهرون وهم لم يكن بينهم من يصلح أحديتهم؟ لكنهم طغوا وجهلوا، وجاءت الاكتشافات الحديثة تخجلهم بكفرهم وتخزيهم بجهلهم. والشبه بين الهيكل والخباء لا يقوم عليه تكبر مذ كان سليمان صنع الهيكل على مثال الخباء، وأراد أن يكون بيت الله مبنياً راسخاً بعد أن كان مظلة متنقلة. ولم يرد ذكر الخباء مرة واحدة في الخروج ليسمى حكاية بل

كرر ذكره كأنه في كل صفحة بعد الخروج أي في باقي أسفار موسى، وأسفار يشوع بن نون والقضاة والملوك الأول والثاني إلى بناء الهيكل.

ولنأت إلى شهادة الآثار فهي أعظم مفحم للجاحدين، فقد اكتشفت معامل للمصريين في محل يسمى الآن وادي المغارة في جانب جبل سيناء، وعلى مقربة من محلة العبرانيين. كان المصريون يعملون بها ما يستخرجونه من معادن الذهب والنحاس هناك، وحققت اللجنة الإنكليزية وجود هذه المعامل والمعادن هناك. وتبينت أخريتها ومثل ذلك حققتها أبحاث الكونت لابورد ولبسيوس، ولوتان دي لافال. ونجد ذكر اكتشاف المعادن منذ عهد الدولتين الخامسة والسادسة في مصر، فإن أماني عامل الملك اوزرتيسان الأول، روى في أثر له أنه كان يخفر من ينقلون ذهب معادن كبتوس. وقد كشف عن صفيحة في كوبان كتب عليها للسنة الثالثة من ملك رعمسيس مضطهد اليهود؛ إن ساتي الأول احتفر بئراً ليشرّب منها عملة المعادن، ومن يسيرون في البرية إليها راكبين الحمير فعمق ١٢٠ ذراعاً فلم يجد ماء لكن رعمسيس احتفر سبع أذرع أخرى أو ثمانى فوجد الماء. وفي متحف تورين باير يحوي خريطة هذه المعادن الذهبية للاهتمام إلى عروق الذهب فيها. وقد وجدت اللجنة الإنكليزية في وادي المغارة تمثالاً لفرعون الذي يسمى سنافرو من الدولة الرابعة، ونقوشاً تمثل فرعون كاويس الذي بنى أول أهرام هذه الدولة الرابعة فلم يكن إذاً مستحيلًا ولا عسراً على موسى أن يصنع عند جبل سيناء ما صنعه في الخباء، أو في تابوت العهد وملابس الكهنة، فقد استخدم بصلاييل معامل وادي المغارة في صنع ما صنعه من ذهب أو فضة أو نحاس. أو أشغل العملة المصريين بعمله حسب ما شاء. وإذا كان بصلاييل عاملاً في المعادن وأهلياب نجاراً نساجاً طرازاً واستخدم هذان غيرهما ممن أودع الرب قلوبهم حكمةً وفهماً كما جاء في الكتاب فأى مستحيل أو أي غرابة في عمل الخباء لنكذب بآيات الكتاب؟.

ثم إن بني إسرائيل لم يكونوا كلهم في مصر رعاة ماشية، ولم يشغلهم كلهم المصريون في عمل اللبن، بل أشغلوا بعضهم في معامل الصنائع أيضاً. وكان بينهم كثير من أسرى مصر وشعبها. وكان في مصر عملة ماهرون في الذهب والجواهر وترصيعها والحفر بها. ولنا على ذلك شهادات تشدُّ عن العدِّ بما وجد في المدافن القديمة وغيرها من الخلي والتماثيل والصور التي يعجب منها احذق صناع هذا العصر، وقد ملئت بها متاحف أوربا ومتحف بولاق. وقد كشف عن خريطة لمعادن

الذهب التي كانت في وادي حمامات بين النيل والبحر الأحمر. وتلك الخريطة صنعت في أيام رعمسيس الثاني مضطهد اليهود. وقد ترجمها وأذاعها العالم ليابلان وأمر خديوي مصر سنة ١٨٧٤م بالبحث هناك عن آثار المعادن التي تشير إليها الخريطة، فوجد هناك كثيراً من الآنية والأدوات التي كانت تستعمل في تصفية الذهب والعمل فيه، وبعض المادة الحاوية العروق الذهبية أيضاً. وإذا راعينا أنَّ رعمسيس الثاني صانع هذه الخريطة هو الذي كان يسخر اليهود في الأعمال الشاقة لزمنا لزوماً بديهياً أن نسلم أنه سخر بعض اليهود في العمل بمعادن، ومعامل وادي حمامات أيضاً. ومن كان أهلاً منهم أشغل بعمل الحلي وغيره من المصنوعات الذهبية. ثم إنَّ كل ما ورد ذكره في عمل الخباء من نسج أو طراز أو ترصيع جواهر أو طلي بالذهب، والتصفيح به أو عمل الآنية منه أو من الفضة فكل ذلك من صنائع المصريين التي لا تعد أمثلتها في متاحف أوروبا. ويستبعد كثيراً أن لا يكون بعض بني إسرائيل تعلم هذه الصنائع منهم مع إقامتهم بين أظهرهم أربعة قرون ونيفاً، وإذا لم يعسر على بني إسرائيل عمل ما كان في الخباء فبالأولى أن لا يعسر عليهم سبك عجل الذهب الذي عبده عند إبطاء موسى في الجبل، ولم يغفل الجاحدون عن انتقاد كلام الكتاب فيه.

وبعد أن تمَّ عمل الخباء وأدواته وما كان فيه، أمر الرب موسى أن يقيم هذا الخباء في اليوم الأول من الشهر الأول للسنة الثانية من الخروج، فكرس بالزيت المقدس المركب من زيت الزيتون والميعة وغيرهما أدوات الخباء، وآنيته ووضع التابوت والمذابح والمناثر فيه. واستدعى هرون وبنيه والبسهم بحضرة الشعب أثواب التقديس، ومسحهم بالدهن المشار إليه آنفاً، وقدم ذبائح لله. ويظهر أن الخباء أقيم على الجبل المسمى الآن جبل المناجاة. وهو أكمة مرتفعة قليلاً عن السهل، وكائنة في مدخل الوادي المسمى الآن وادي الدير في شرقي جبل موسى، ومشرفة على سهل الراحة حيث حل بنو إسرائيل، فموقعها وموقع هذا السهل قاضيان بإقامة الخباء في أعلاها إذ جاء في سفر الخروج (فصل ٣٣ عد ٧ و ٨) إنَّ كلاً من بني إسرائيل كان يرى الخباء وموسى عند دخوله إليه.

الفصل السابع

ما بقي من مراحل بني إسرائيل إلى صحراء مواب

عد ٢٠٠

ارتحال بني إسرائيل من جبل سيناء إلى قبور الشهوة

بعد أن أقام بنو إسرائيل تلقاء جبل سيناء نحواً من سنة، ونزل الرب عليهم سنّته، وأقاموا الخباء، ومسح أحبارهم، وأتمّ نظامهم، أمر الرب موسى أن يعدّهم. فكان عديدهم من ابن عشرين سنة فصاعداً ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمسة مئة وخمسين رجلاً عدا اللاويين (سفر العدد ف ١ ع ٤٥ وما يليه). ثم انكشف الغمام عن الخباء فحملة اللاويون وارتحل بنو إسرائيل حوله بحسب النظام المذكور في الفصل الثاني من سفر العدد. وكان ارتحالهم في العشرين من الشهر الثاني للسنة الثانية بعد الخروج يؤمون بركة فاران. وقد أقرّت اللجنة الإنكليزية بعجزها عن تعيين الطريق الذي سار به بنو إسرائيل حينئذ، لكنها أوردت بعض افتراضات تقرب من الصحة. وحيث أنّ أوّل محلة احتلها بنو إسرائيل بعد ارتحالهم من بركة سيناء إنّما هي قبور الشهوة، فرأى أعضاء هذه اللجنة أن الأظهر أنّ موقع قبور الشهوة هو في المحل المسمى اليوم رويس الاويرج، وهو بعيد ٤٢ كيلومتراً عن جبل موسى في طريق خليج عقبة. وذهب بعض العلماء إلى أنّ بني إسرائيل عند ارتحالهم من سفح جبل سيناء ساروا نحو الشمال لكن الأظهر أنّهم اتجهوا نحو المشرق إلى جهة خليج عقبة. وعليه فلا يصح أن يكون موقع قبور الشهوة في المحل المسمى الآن وادي العين في الشمال الشرقي من جبل موسى على بعد ٨٨ كيلومتراً منه - كما ظنّ بعضهم - ولا في السهل الواقع في الشمال الغربي منه المعروف الآن بالواطية.

ويرجح أنه في رويس الاويرج كما رأى أعضاء اللجنة الإنكليزية. وروى الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة- ٥٥٣) أن عند العرب هنالك تقليداً منبهاً بأنه قد مرّ بهذا المحل منذ أحقاب جمهور كبير من الحجاج ماضين إلى حيصروت، فلبثوا فيه، وما يرى فيه من الآثار إنما هي آثار عبورهم ثم تاهوا في التيه وانقطعت أخبارهم. فيمكن إنتاج شيء من هذا التقليد وإن غير راهن لأن قول العرب في رواية هذا التقليد «تاهوا» مشعر بأن المراد بجمهور الحجاج الماضين إلى حيصروت بنو إسرائيل، وعن هذه الكلمة أخذ اسم بادية التيه أي تيه بني إسرائيل، وقولهم حجاج يريدون به جمهوراً كحجاج مكة. ولكن يمكن اشتقاق الكلمة من حك العبرانية مثل **حك** (حكى) السريانية ومعناها العيد. وقد استعمل هذا اللفظ (في الخروج ف ١٠ ع ٩) للدلالة على العيد الذي سأل موسى وهرون فرعون أن يأذن لبني إسرائيل أن يعملوه في البرية.

وأما الداعي لتسمية هذا المحل قبور الشهوة فهو ما جاء في سفر العدد (ف ١١ ع ٤ وما يليه) حيث قيل: «واشتهى الأخطا (أي من خرجوا مع بني إسرائيل من مصر، ولم يكونوا منهم) الذين فيما بينهم شهوة فتابعهم بنو إسرائيل، وبكوا هم أيضاً وقالوا من يعطينا لحماً فقد ذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء، والبطيخ والكراث والبصل والثوم، والآن فنفسنا يابسة لا شيء أمام عيوننا غير المن». فلما سمع موسى الشعب سيكون بعشائهم وقد اشتد غضب الرب جداً ساء ذلك موسى. وقال للرب: لِمَ ابليت عبدك؟ حتى وضعت أثقال جميع هؤلاء الشعب عليّ! أَلَعَلِّي أنا ولدتهم؟ حتى تقول لي إحملهم في حجرك كما تحمل الحاضن الرضيع، من أين لي لحم أعطيه لجميعهم؟ فإن كنت فاعلاً بي كذا فاقتلني إن حظيت في عينيك ولا أرى بليتي. فقال له الرب: إجمع لي سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل وخذهم إلى خباء المحضر فيقفوا ثمة معك، فانزل وأتكلم معك وأخذ من الروح الذي عليك وأحلّه عليهم، فيحملون معك أثقال الشعب، وقل للشعب تقدّموا للغد فتأكلون لحماً لا يوماً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً بل شهراً من الزمان إلى أن يخرج من أنوفكم، ويصير لكم بشماً. فخرج موسى وأخبر الشعب وجمع سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل، ووقفهم حوالي الخباء وحل روح الرب عليهم، فتنبأوا إلا أنهم لم يستمروا انبياء وبقي منهم الداد وميداد في المحلة فتنبأوا فيها. وعند انحيازهم إلى المحلة «هبت ريح من لدن الرب

فساقت سلوى من البحر، وألقتة على المحلة على مسيرة يوم من هنا ويوم من هناك حوالي المحلة على نحو ذراعين عن وجه الأرض، فأقام الشعب يومهم كله وليلتهم وغدهم يجمعون السلوى فجمع أقلهم عشرة أحمار^(١) فسطحوها لهم مساطح حوالي المحلة، وبينما اللحم بعد بين أسنانهم قبل أن يعضوه إذا اشتد غضب الرب فضربهم ضربة عظيمة جداً، كأنه بلاهم بوباء إثر أكلهم السلوى، فمات منهم خلق كثير فقبروهم هناك، «فسمي ذلك الموضع قبور الشهوة لأنهم دفنوا فيه القوم المشتين». وقد ذكرنا ما يتعلّق بالسلوى عند إنزالها المرة الأولى في بركة سين فطالع عد ١٩١.

عد ٢٠١

ارتحال بني إسرائيل من قبور الشهوة إلى حصيروت وغيرها حتى قادش وتذمر مريم وهرون على موسى بسبب امرأته

جاء في سفر العدد (ف ١١ ع ٣٥): «ورحل الشعب من قبور الشهوة إلى حصيروت فأقاموا هناك». وحصيروت تسمى الآن عين حصيره أو حصاره على مسيرة أربعة وعشرين كيلومتراً من رويس الاويرج نحو خليج عقبة. وهناك آثار محلة من ينابيع ماء جارية ونخيل. وكلمة حصيروت عبرانية تأويلها الخطيرة وهي الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الماشية. ومثل هذه الحظائر كان ولا شك كثيراً في بلاد العرب. ويظهر في سفر العدد (ف ١٢) إنّه هناك تكلمت مريم وهرون في موسى بسبب المرأة الحبشية التي تزوجها، لأنه كان قد اتخذ زوجة حبشية (والأولى أن تترجم كوشية)، وهي صفورة امرأته فإنّها من المدينيين وهم على الأرجح قبيلتان إحداهما من ذرية كوش بن حام ومنها امرأة موسى هذه. والثانية من ذرية مدين بن ابراهيم من قطورة كما مر في عد ١٩٥.

وعلماء العرب يحسبون المدينيين سكان شرقي البحر الأحمر أجنيين عنهم وليسوا من قبائل العرب السامية. وهذا مؤيد للقول بأنهم من ولد كوش بن حام،

(١) كذا في نسخة الآباء اليسوعيين في سفر العدد فصل ١١ عد ٣٢ ولكن في سفر الخروج فصل ١٦ عد ١٨ انهم كالوا المن بالغمر وفي عد ٣٦ (وكان العمر عشر الألفية) فلعل مرتبي الحروف في المطبعة بدلوا العين بالخاء هنا.

وأما الذي حمل مريم وهرون إلى القول على موسى بسبب امرأته، فالظاهر من أمره أن صفورة تسببت في هذا التدمير بتفاجرها بالنعم التي اعطاها زوجها موسى. وكان العبرانيون يمتنون ذرية حام والمصريون والكوشيون منها. وكان موسى نهاهم عن التزوج بالأجنبيات، فأروا أنه كان عليه أن يردها على أبيها لا أن يستبقها. فانتصر الله لموسى وقال له: أخرج أنت وهرون ومريم إلى الخباء فخرجوا. وقال الرب لهرون ومريم: اسمعا كلامي إن يكن فيكم نبي للرب فبالرؤيا أتعرف له وفي حلم أخطبه، وأما عبدي موسى فأخطبه فما إلى فم، فما بالكما لم تهابا أن تتكلما فيه؟ وأظهر الرب شدة غضبه عليهما ومضى ومال الغمام عن الخباء فإذا مريم برصاء كالثلج فشفع بها موسى لدى الرب فلم يقبل شفاعته، إلا أن تحجز سبعة أيام خارج الخلة فحجزت كذلك ولم يرتحل الشعب حتى أرجعت.

ثم قال الكتاب (سفر العدد ف ١٣): «وبعد ذلك ارتحل الشعب من حصيروت ونزلوا بيرية فاران»، بيرية فاران فسيحة الأنحاء، ولم يعين الكتاب في أي جهاتها حلوا، ولكن يؤخذ من كلامه التالي في بعثه رجالاً يجسسون أرض كنعان أنهم حلوا في قادش. لقول الكتاب بعد ذلك (عد ٢٧) إن هؤلاء الجواسيس عادوا إلى موسى في بيرية فاران في قادش، وإذا كان الأمر كذلك فلا يكون مفهوم كلام الكتاب أن الشعب ارتحل من حصيروت توجاً إلى قادش فإن ما جاء في الفصل ١٢ من سفر العدد؛ إنما هو كلام مجمل موجز ورد تفصيله في الفصل الثالث والثلاثين منه حيث ذكر ثماني عشرة مرحلة بين حصيروت وقادش. ولما لم يكن في هذه المراحل ما يهم موسى ذكره اضرب عن تفصيلها. وأبقى ذكر جميع المراحل من خروجهم من مصر إلى بلوغهم صحراء مواب، فأفرد له الفصل الثالث والثلاثين على أن تلك المراحل قلما كان فيها أمر مهم. وقد تتبعها كثير من العلماء والمكتشفون، ولهم في تعيين مواقعها أقوال قل منها ما يمكن إخراجه من حيّز الاحتمالات. فنضرب عن تفصيلها مجانباً للملل القراء، وأكثرها في بادية التيه المعروف بتيه بني إسرائيل. على أن المرحلة الأخيرة قبل قادش وهي عصيون جابر معروفة وموقعها معين، وهي على خليج عقبة وظن بعضهم أنها ويلة مدينة واحدة. وليس ذلك بمقطوع به إذ جاء في سفر الأيام الثاني (ف ٨ ع ١٧). ثم ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى ويلة على شاطئ البحر في أرض أدوم». فالظاهر منه أنهما مدينتان، ولعل ويلة سميت باسم ويلة من ولد عيسو الذي خلف اهلييامة في

الولاية على بلاد أدوم، كما في التكوين (ف ٣٦ ع ٤١). وقد انقضت مدة ارتحال بني إسرائيل من حصيروت إلى قادش دون أن يكون فيها حدث مهم. ولا أقل من أن الكتاب لا ينبئنا شيئاً من الأحداث المهمة إلا ثورة قورح من بني لاوي وداثان وأبيرام وأون من بني راويين ومعهم مئتان وخمسون من رؤساء الجماعة وتذمرهم على موسى لاختصاص هرون وذريته بالكهنوت.

وقد صرح الكتاب بما عاقب الله به رؤساء الثائرين أي بانشقاق الأرض وابتلاعهم مع أولادهم ونسائهم، وبخروج نار أحرقت محازبيهم المئتين والخمسين، ولما شكوا الشعب وقالوا إن العقاب شديد الصرامة انتشر فيهم وباء أهلك منهم أربعة عشر ألفاً، وانكفأت الضربة بتوسل موسى وهرون. وقد فصل الكتاب ذلك في الفصل السادس عشر من سفر العدد، ثم ذكر في الفصل السابع عشر أن الرب أمر موسى أن يأخذ عصاً من كل بيت من رؤسائهم فأخذ اثنتي عشرة عصاً، وكتب أسم كل واحد على عصاه واسم هرون على عصا لاوي. فوضع موسى العصي أمام الرب في الخباء فأفرخت عصا هرون وأخرجت براعيم، وأزهرت وأنضجت نوراً. فأخرج موسى جميع العصي إلى بني إسرائيل ليتحققوا اختيار الرب هرون ونسله للكهنوت. وأمر الرب موسى أن يرّد عصا هرون إلى أمام الشهادة لتحفظ آيةً لذوي التمرد.

وارتحل بنو إسرائيل من عصيون جابر إلى قادش وهي واقعة على تخوم الادوميين. وقال أعضاء اللجنة الإنكليزية: إن موقعها في عين قادش في جبل مغرة وتسمى قادش برنع، وتوجد قادش أخرى في أعلى الجليل وقعت في نصيب سبط نفتاليم. وقال بعضهم إن قادش التي حل بها بنو إسرائيل غير قادش برنع وإنهما مدينتان ومهما يكن فقد أقام بنو إسرائيل في قادش مدة متطاولة، كما يظهر من سفر تثنية الإشتراع (ف ١ ع ٤٦) حيث قال الله لهم: «فأقمتم في قادش ما أقمتم من الأيام الكثيرة».

عد ٢٠٢

ما كان لبني إسرائيل في قادش أعني وفاة مريم أخت موسى وإجراء الماء في الصخرة ثانية وإرسال الجواسيس إلى أرض الموعد

قد جاء في سفر العدد (ف ٢٠ ع ١): «أقام الشعب بقادش، وماتت ثم مريم ودفنت هناك»، وهي أخت موسى وبنت عمران. وكانت تكبر أخاها موسى بعشر

أو باثنتي عشرة سنة فهذا ما يقضي به ما جاء في الكتاب عن كلامها مع ابنة فرعون عند انتشار أخيه من النيل، والأظهر أنَّها استمرت بتولاً وإن قال بعضهم إنَّها زوجة حور (راجع عد ١٩٤). ولم يذكر الكتاب سني عمرها ولا يتأكد في أية سنة بعد الخروج ماتت فإن صحَّ قول كلمت إنَّها ماتت في السنة الأربعين للخروج كان عمرها إلى موتها مئة وثلاثين أو مئة واثنين وثلاثين سنة بناءً على أنَّ موسى أخاها مات تلك السنة، وعمره مئة وعشرون سنة (تثنية ف ٣٤ عد ٧) وعمرها قبل مولد أخيها عشر أو اثنتا عشرة سنة كما مرَّ. وقال يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٤ ف ٤) إنَّها دفنت باحتفاء وأنفق على دفنها من مال الجماعة. وإنَّ بني إسرائيل رثوها شهراً. وقال اوسابيوس أن سكان قادش كانوا إلى زمانه يدلون على قبر مريم في ضواحي مدينتهم.

وفي قادش أيضاً خاصم الشعب موسى وهرون لحاجتهم إلى الماء، فتجلى الرب لهما في باب الخباء وقال لموسى أن يجمع الجماعة ويأخذ عصاه ويضرب الصخرة فتجري المياه. فعمل كما أمر الرب وقال للجماعة اسمعوا أنَّها المتمردون أنخرج لكم من هذه الصخرة ماء؟ ورفع يده وضرب الصخرة مرتين بعصاه فخرج ماء كثير فشرب منه الجماعة وبهائمهم، وهناك قضى الرب على موسى وهرون بأنَّهما لا يدخلا أرض الموعد، ولم يصرَّح في سفر العدد بالداعي لهذا القضاء، لأنَّ الرب قال لموسى وهرون بما أنكما لم تؤمنا بي ولم تقدساني على عيون بني إسرائيل لذلك لا تدخلان أنتما هؤلاء الجماعة الأرض التي أعطيتها لهم. لكن الميراث أوضح ذلك في المزمور ١٠٥ عد ٣٢ إذ قال بموجب النص العبراني: «ثم أغضبوه على مياه الخصومة، فلحق موسى سوء من أجلهم لأنهم غاظوا روحه ففرطت شفتاه»، فكأنَّ قوله أنخرج لكم من هذه الصخرة ماء؟ كان من باب الإستفهام الإنكاري مع أنَّ الرب كان قال له ولهرون أن يكلِّما الصخرة فتعطي مياهها (سفر العدد ف ٢٠).

ومن قادش أرسل موسى بأمر الله اثني عشر رجلاً من كل سبط رجلاً من رؤسائه يجسسون أرض كنعان. وقال دي لابور (في تفسيره الجغرافي في سفري الخروج والعدد): إنَّه بعثهم من رثمة أوَّل مرحلة بعد حصيروت، فعادوا إليه في قادش، وأمرهم موسى أن يطوفوا في البلاد، ويروا سكانها أشديدون هم أم ضعفاء؟ وقليلون أم كثيرون؟ وما مساكنهم أحيام هي أم حصون؟ فمضوا وجسَّوا الأرض

من بركة فاران إلى رحوب عند مدخل حماه. وظن بعضهم أن رحوب يراد بها سهل البقاع وبعليك مستمسكين بقول الكتاب إنها عند مدخل حماه وبأن اسمها رحوب أي رحب، وفسيح ينطبق خير انطباق على تلك السهول. ولكن رأى غيرهم سنداً إلى ورود اسمها في سفر يشوع بن نون، وفي سفر القضاة دالاً على مدينة في سبط اشير، إن رحوب كانت في أنحاء دان قرية من منابع الأردن إلا أن يوفق بين القولين أن مملكة رحوب كانت تخومها تمتد إلى دان و منابع الأردن. وقد أتم الجواسيس تطوافهم في أربعين يوماً، وأتوا خبرون وهي الخليل الآن. وقال الكتاب: إنها بنيت قبل صوعن مصر (وهي تانيس القديمة وصان الآن) بسبع سنين. وقطع الجواسيس من ثم زرجونة بعنقود واحد من العنب، وحملوه بعثلة بين اثنين مع شيء من الرمان والتين فسمي الموضع وادي العنقود. وجاءوا موسى في بركة فاران في قادش، وأروا الجماعة ثمر الأرض وقالوا إن الأرض تدرُّ بالحقيقة لبناً وعسلًا وهذا ثمرها، غير أن الشعب الساكنين فيها أقوىاء، والمدن حصينة عظيمة جداً فهناك العمالة مقيمون بأرض الجنوب، والحثيون واليوسيون والأموريون مقيمون بالجليل، والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى عدوة الأردن. وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بني عناق فصرنا في عيوننا كالجراد وكذلك كنا في عيونهم.

وخالفهم يشوع بن نون وكالب بن يوفنا قائلين نصعد ونرتب الأرض، فإننا قادرون عليها. ووقع الرعب في الجماعة، ورفعوا أصواتهم في البكاء وتذمروا على موسى وهرون، فمزق يشوع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما قائلين: إن الأرض التي مررنا فيها لتتجسسها جيدة جداً فلا تخافوا سكانها، والرب معنا فلا تهربوهم فقالت الجماعة كلها: ليرجما بالحجارة، وظهر مجد الرب في الخباء لجميع بني إسرائيل مغضباً عليهم. فأخذ موسى يتوسل إليه كي لا يهلكهم. وقضى الرب بأن جميع الرجال الذين خرجوا من مصر، وعمرهم عشرون سنة فصاعداً لا يدخل منهم أحد أرض الموعد إلا يشوع بن نون وكالب بن يوفنا. وقال الرب للجماعة إن أطفالكم الذين قلتهم إنهم يكونون غنيمة لأعدائكم في أرض الموعد فإياهم أدخل الأرض التي رذلتموها، وأما جثثكم فتسقط في البرية إذ تكونون فيها بعدد الأيام التي تجسستم الأرض فيها، وهي أربعون يوماً كل يوم بسنة أي من يوم خروجهم من مصر إلى دخولهم أرض الموعد، فالرب رآهم غير أهل لمحاربة الكنعانيين، وسائر سكان فلسطين فأطال مدة إقامتهم في البرية ثمانين وثلاثين سنة. وسوف تأتي على

ذكر المواضع التي أقاموا فيها هذه المدة الطويلة، وأما الرجال الذين بعثهم موسى ليجسوا الأرض ورجعوا وذرّوا عليه كل الجماعة، فضربهم الرب وأماتهم وأبقى يشوع بن نون وكالب بن يوفنا (العدد فصل ١٣ و ١٤).

عد ٢٠٣

ارتحال بنو إسرائيل من قادس في جانب جبل أدوم إلى جبل هور
وموت هرون هناك

قد أضرب موسى عن ذكر ما كان في الثماني والثلاثين سنة التي أقاموا فيها بالبرية، وعاد بعد ذكره آية الصخرة في قادش بيننا (سفر العدد ف ٢٠ عد ١٤)، لأنه أنفذ رسلاً من قادش إلى ملك أدوم، ولا يظن أنهم أقاموا كل هذه المدة في قادش بل الأظهر أنهم ارتحلوا عنها. ثم عاودوا الإقامة فيها، وأما ملك أدوم هذا فهو من ذرية عيسو بن اسحق بن ابراهيم. وسُميت هذه البلاد باسمه أدوم أو هو سُمي باسمها على أحد القولين اللذين ذكرناهما قبلاً. ومن كلام الكتاب الآتي يتضح أن ولاية هذه البلاد استمرت في ولد عيسو، إذ قال موسى لملك أدوم:

«قال أخوك إسرائيل قد علمت بجميع ما نالنا من المشقة، وإنّ آبائنا هبطوا مصر. فأقمنا بها أياماً كثيرة، فأساء المصريون إلينا وإلى آبائنا، فصرخنا إلى الرب فسمع صوتنا، وبعث ملاكاً وأخرجنا من مصر. وها نحن في مدينة قادش في طرف تخمك، دَعْنَا نَمْزُ في أرضك ونحن لا نميل إلى حقْل ولا كرم ولا نشرب ماء بئر، لكننا نسير في الطريق السلطاني لا نميل يمنة ولا يسرة إلى أن نجوز تخمك». فأبى ملك أدوم إلّا التهديد لهم إن جازوا بأرضه. ومنعهم الرب من محاربة الأدوميين، فتحوّل إسرائيل عنهم واضطّروا أن يدوروا نحو الجنوب الشرقي حول جبل سعير مسكن الادوميين، ليعودوا من جهة الشمال. فارتحلوا من قادش وأقبلوا إلى جبل هور وهو على تخم بلاد ادوم في الجنوب. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٤ ف ٤) تقليداً يتيئ منه أن هذا الجبل واقع على مقربة من مدينة حجر قصبة بلاد العرب الحجرية، وإنها كانت تسمى قديماً اركا، وتسمى الآن حجر فحلّ بنو إسرائيل لا على الجبل بل في سفحه. وجاء في تثنية الإشتراع (فصل ١٠ عد ٦). إنّ هذه المنزلة تسمى موسير إذ قال: «وارتحل بنو إسرائيل من

أبار بني يقعان إلى موسير هناك مات هرون ودفن». فيظهر أنَّ اسم المحلة موسير واسم الجبل هور وهناك كلم الرب موسى قائلاً لينضم هرون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي اعطيتها لبني إسرائيل، لأنكما عصيتما أمري عند ماء الخصومة. وأمره ان ياخذ هرون واليعازر ابنه ويصعدهما جبل هور، وينزع عن هرون ثيابه ويلبسها اليعازر ابنه. فصنع موسى كما أمره الرب ومات هرون هناك في راس الجبل. وعاد موسى واليعازر إلى الجماعة فبكى جميع آل إسرائيل هرون ثلاثين يوماً، وكان عمره وقتئذٍ مئة وثلاثاً وعشرين سنة. وقد دفنه موسى واليعازر في مغارة بحيث لا يعرف أحد قبره لئلا يعبدوه بنو إسرائيل جرياً على ما ألفوا من عوائد المصريين أن يعبدوا مشاهيرهم إذا ماتوا. أو خشية أن ينتهك العرب هناك حرمة مدفنه، ومع هذا ففي جبل هور مدفن يسمونه مدفن هرون. وقد زاره كثير من الجوّالة منهم العالم دي لابور وقال إنَّ العرب يجلبون إلى اليوم مدفن النبي هرون في أعلى جبل هور، ويسمى الجبل الآن جبل النبي هرون. وقد زاره أيضاً إرربي ومنكل Yrbi et Mangles سنة ١٨١٨م وكتبوا في هذا المدفن كثيراً وخلاصته أن جبل هور عسر المسلك جداً وإنَّ في قمّته مغارة في صخر، ومدفن هرون في داخلها، وهو قبر صغير أشبه بمدفن الإسلام. فيحتمل أنَّ البناء الذي يرى اليوم احدث في عصر قريب، وفي جوانبه الخارجة بعض الأعمدة وقطع من الحجر المحبب والرخام. وإنَّهما وجدا كتابة عبرانية ترجمها فلم يكن فحواها إلا أنَّ رجلاً يهودياً زار مع أسرته هذا المحل، وأنَّ في زاوية المغارة في الشمال الغربي منحدرًا بسلم إلى مغارة أخرى. وكان ثم حاجز من حديد يمنع الدنو من المدفن؛ فاتفق لهما أنَّ هذا الحاجز كان ساقطاً، فتيسر لهما أن يمشيا المدفن الذي يقال إنَّه مدفن هرون، ومن فوقه طنفسة رثة، وذكر ذلك فيكورو أيضاً في معجم الكتاب في كلمة هرون وقال إنَّ كثيراً من المسلمين أيضاً يحجون إلى قبر هرون، هناك تبركاً وإنَّ البناء الخارج فوق مغارة المدفن قد بُني بأنقاض معبد مسيحي كان هناك في مبادي القرن الثالث عشر.

عد ٢٠٤

حربهم مع ملك عراد ومراحلهم من جبل هور إلى صحراء مواب

قال الكتاب (سفر العدد ٢١): «وسمع الكنعاني ملك عراد المقيم في الجنوب :

أَنَّ بني إسرائيل قد جاءوا على طريق أثاريم، فقاتلهم وسبى منهم سبياً». ويظهر من قوله إِنَّ بعض عشائر الكنعانيين كانت قد ظننت إلى عراد الواقعة في قرب العربية الحجرية. وظن هذا الملك أَنَّ بني إسرائيل ينوون أخذ ملكه، ففاجأهم بالقتال واستظهر عليهم وسبى بعضهم. فخشعوا للرب فدفع الكنعانيين إليهم فأبسلوهم هم ومدنهم. وأكسبهم هذا الظفر جرأة على أعدائهم، وثقة بعون الرب لهم. على أَنَّهُم لم يعتمدوا أن عاودوا تشكيهم لأنهم رحلوا من جبل هور على طريق بحر القلزم ليدوروا من حول أرض أدوم. فضجرت نفوسهم من طول الطريق فعادوا يتذمرون على الله وعلى موسى. فأرسل الرب عليهم حيات نارية فلدغتهم ومات منهم قوم كثير. فأقبلوا إلى موسى يقولون: قد خطئنا بكلامنا على الرب وعلينا، فتضرع موسى إلى الرب من أجلهم فقال له الرب إصنع لك حية وارفعها على سارية فكل لذيغ ينظر إليها يحيا. فصنع كذلك فكان أي إنسان لدغته حية، ونظر إلى الحية النحاسية يحيا فقال الجاحدون: لا غرو أن من نظر إلى صورة حية آملاً أن يبرأ ارتكب معصية عبادة الأوثان فكيف عرضهم موسى لذلك؟ وقد فاتهم أن مجرد النظر إلى حية أو غيرها ليس عبادة وقد أفصح لهم موسى أَنَّ صورة الحية لا قوة لها بنفسها على أن تحيي اللذيغ، بل الله هو الحيي بهذه الوسيلة فأية عبادة وثنية في صنع ما أمر الله به؟ على أَنَّهُ بعد أن تسكع بنو إسرائيل بعبادة المنحوتات في أيام ملوكهم، وأظهروا نوعاً من التكريم لهذه الحية خلافاً لأمر الله سحقها حزقيا لأن بني إسرائيل كانوا يقدمون لها البخور (ملوك ٤ ف ١٨ ع ٤).

وقد أنبأنا المخلص أَنَّ تلك الحية كانت رمزاً وإشارة إليه إذ قال: «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن البشر» (يوحنا ٣ ع ١٤)، وقد ارتحل بنو إسرائيل من جبل هور إلى صحراء مواب ثماني مراحل أخرى، ذكر أكثرها في الفصل الحادي والعشرين من سفر العدد، وكلها من الفصل الثالث والثلاثين منه. وتملكوا في مدة ارتحالهم في هذه المراحل بعض أملاكهم في شرقي الأردن كما سترى في الفصل التالي.

إِنَّ اللجنة الإنكليزية تتبع آثار بني إسرائيل، وبحثت عن مراحلهم مذ عبروا البحر الأحمر إلى أن بلغوا جبل موسى غير أَنَّهُم لم تفضّل بتتبع آثارها من جبل موسى إلى شرقي الأردن. فبقي ذلك لمكتشفين آخرين يتحفوننا بأكثر تحقيق

وتدقيق في مواقع هذه الحال، ولا يحسن العدول عن ترجمة ما اختتم به العالم هولاند أحد أعضاء اللجنة الإنكليزية مقالته في أبحاثها قال: «إنَّ طريق بني إسرائيل لم تتعين كل مراحلها بتوكيد مطلق على أنَّ الإكتشافات التي عايننا مشقاتها أكسبت على المسألة انواراً ساطعة وبياناً جلياً. وأزيد على ذلك أنَّه ما من عضو من أعضاء اللجنة عاد إلى إنكلترا دون أن يكون متيقناً تيقناً لا يشوبه ريب بصحة التاريخ المقدس وثبوته. فالبرية نفسها وجبالها وأوداؤها وصخورها العارية والمحترقة تبين صحة كلام الكتاب، وتثبتها وتقدم لكل من عاينها بينة مفحمة لا يقام عليها نكير إنَّها هي البرية الكبرى المربعة التي قاد فيها موسى شعب الله بأمره وارشاده».

قد مرَّ أنَّ بني إسرائيل أقاموا في البرية بعد إرسال الجواسيس إلى أرض لموعد ثماني وثلاثين سنة. وذلك نص صريح في الفصل الرابع من سفر العدد (عد ٣٣ و ٣٤) كما مرَّ في عد ٢٠٢. وأوضح منه قوله في سفر تثنية الإشتراع (ف ٢ ع ١٤): «وكانت جملة الأيام مذ سرنا من قادش برنع إلى أن عبرنا وادي زارد (في شرقي الأردن) ثماني وثلاثين سنة إلى أن انقضى جميع رجال الحرب من المحلة كما أقسم الرب فيهم»، فأين أقام بنو إسرائيل في هذه السنين المتطاولة؟ فهذه مسألة معضلة أعنى المفسرين حلها وذهبوا فيها مذاهب شتى.

فقال بعضهم إنَّ المراحل التي جاء ذكرها في سفر العدد (ف ٣٣) قبل قادش كانت بعد ارتحالهم منها. وقدم الكتاب ذكرها وقضى بنو إسرائيل الثماني والثلاثين سنة في هذه المراحل وقال غيرهم: إنَّ قادش اسم لمحلين حلَّ بنو إسرائيل فيهما. وقال آخرون إنَّهم حلوا في قادش مرتين الأولى عند إرسال الجواسيس، والثانية عند ارتحالهم إلى هور حيث مات هرون لسنة الأربعين بعد الخروج. والذي أراه أكثر مطابقة للآيات الكريمة وقد أثبتته العالم لاون دي لابورد (في كتاب تفسيره الجغرافي لسفري الخروج والعدد) الذي تتبع مراحل بني إسرائيل مرحلة مرحلة، وتابعه في رأيه العالم فولارد محشي معجم الكتاب لكلمت إنَّما هو أن بني إسرائيل استمروا مدَّة الثماني والثلاثين سنة في برية قادش، وفي وادي عربه الفسيح الإرجاء مرتحلين من محل إلى آخر في برية

قادش نفسها التي يسميها العرب تيه بني إسرائيل على عادة الرحل، طلباً للانتجاع، وكما نرى عشائر العرب في هذه الأيام في السلط والجولان. ويؤيد ذلك قول موسى (تثنية ف ١ ع ٢٦): «أقمتم في قادش ما أقمتم من الأيام الكثيرة». وقد وضع العالم دي لابور جدولاً للمراحل التي ذكرت في أسفار الخروج، والعدد والتثنية مثبتاً الآي الواردة في كل منها في جانب الأخرى، فظهر من ذلك أن لا خلاف بينها إلا من حيث الإيجاز والتفصيل. وقال العلامة فرنسيس لانرمان (مجلد ٢ في تاريخه الشرقي في تاريخ بني إسرائيل): «استمر بنو إسرائيل ثمانين وثلاثين سنة على العيشة الإرتحالية طائفتين البرية التي يسميها العرب التيه أو تيه بني إسرائيل، ظاعنين من الشمال إلى الجنوب حتى عصيون جابر على خليج عقبة وعائدين من هناك إلى الشمال حتى قادش برنع.

الفصل الثامن

تملك بني إسرائيل البلاد التي في شرقي الأردن

عد ٢٠٥

نهى الرب بني إسرائيل عن محاربة الأدوميين والموآبيين والمعونيين ومن سكن بلادهم قبلهم

اجتاز بنو إسرائيل عند ارتحالهم إلى شرقي الأردن بلاد الأدوميين، وهم بنو عيسو والموآبيين وهم بنو موآب بن لوط من بنته الكبرى، والعمونيين وهم بنو عمون ابن لوط من بنته الصغرى فنهاهم الرب عن محاربة اخوتهم هؤلاء. أمّا في الأدوميين فقال لموسى (تثنية ف ٢ ع ٤): «إنكم جائزون في تخم إخوتكم بني عيسو المقيمين بسعير فسيخافونكم، فتحرزوا جداً لا تناصبوهم. فإني لست معطيكم

من أرضهم شيئاً ولو موطيء قدم لأن جبل سعين قد وهبته لعيسو ميراثاً. ولذا لزمهم أن يدوروا حول جبل سعين في طريق الصحراء على ايلة وعصيون جابر الأنف ذكرهما. وأن يعودوا في طريق بركة مواب، وأما في الموابين فقال له (هناك عد ٩): «لا تعاد الموابين ولا تناصبهم حرباً فإني لست معطيكم من أرضهم ميراثاً إذ لبني لوط وهبت عاد (اسم بلادهم القديم) ميراثاً. وقال له في العمونيين (عد ١٩): «إذا دائيت جهة بني عمون فلا تعادهم، ولا تناصبهم فإني لست معطيك من أرض بني عمون ميراثاً لأنني لبني لوط وهبتها ميراثاً». إلا أن هؤلاء العشائر غمطوا نعمة الله وأثاروا غضبه عليهم لأنهم أسأوا إلى بني إسرائيل، وعاملوهم بالقسوة عند اجتيازهم إلى أرض كنعان وبعده الموابيون خاصة أرادوا إفساد بني إسرائيل بتهتك بناتهم، وبالق ملكهم استأجر بلعام بن بعور ليعلم بني إسرائيل عند احتلالهم صحراء مواب، ولذلك قال موسى فيهم بعد ذلك (تثنية ف ٢٣ ع ٣): «لا يدخل عموني ولا موابي في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر لا يدخل أحد منهم في جماعة الرب إلى الأبد لأنهم لم يلتقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر ولأنهم استأجروا بلعام بن بعور... ليعلنكم»، ولذا كانت حروب عديدة بعد ذلك بين بني إسرائيل وهذه العشائر كما ستري.

لم يكتفِ موسى بذكر نهي الرب عن محاربة هؤلاء، بل أعلمنا أيضاً في (الفصل السالف ذكره) بمن سكن بلادهم قبلهم فقال (عد ١٢): «أما سعين (بلاد الأدوميين) فأقام بها الحوريون (بنو سعين الحوري) قبل بني عيسو، فطردوهم وأبادوهم من بين أيديهم وأقاموا مكانهم». ويظهر أن الحوريين قبيلة قديمة جداً حتى عدد موسى (تك ف ٣٦) كثيراً من زعمائهم أو حكامهم قبل أن يقرضهم الأدوميون وبلادهم في جنوبي بلاد الموابين. وقال في بلاد الموابين (عد ١٠): «وكان الأيمون قد أقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير طوال القامات كالعناقين، وهم يحسبون جبابرة كالعناقين والموابين يسمونهم ايميين». وقال في أرض العمونيين (عد ٢٠): «وهي أيضاً تحسب من أرض الجبابرة لأن الجبابرة أقاموا بها قبلاً والعمونيون يسمونهم زمزيين، وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقين، فأهلكهم الرب من بين أيديهم فطردوهم وأقاموا مكانهم». وأرض بني عمون في جنوبي السلط، وأرض بني مواب في جنوبي أرض بني عمون، والأظهر أن الجبابرة الذين أقاموا في هذه البلاد كانوا ساميين أصلاً وقد مر لنا كلام في ذلك في عد ١٥٥.

تملك بني إسرائيل بلاد سيحون ملك الأموريين وعوج ملك باشان

جاء في الكتاب (سفر العدد ف ٢٠ والثنية ف ٢) أن موسى بعث رسلاً من قديموت إحدى مراحل بني إسرائيل إلى سيحون ملك الأموريين قائلاً له: «يأمر في طريق أرضك... ولا أميل يميناً ولا يسرة بفضة، تميزني طعاماً فأكل نعمة تعطيني ماء فأشرب، وأعبر برجلي فقط». فأبى سيحون أن يعجزهم في وخرج عليهم بجميع قومه للحرب إلى محل يسمى ياهص، فاستظهر عليه بنو إسرائيل فقتلوه وبنوه وكثيراً من قومه، وفتحوا جميع مدنه من عروعر (المسماة اليوم ر إلى جلعاد (السلط)، لم تبقى قرية امتنعت عليهم. وفتحوا أحشبون (المسماة حسان) قصبة ملكه وبحسب آية سفر العدد (ف ٢١ ع ٢٤): «ورثوا أرضه أرنون إلى ييوق»، وأرنون وادٍ ونهر يصب في بحر الميت، ويسمى الآن النهر س أو المعجب على رواية بعضهم، وكان قديماً فاصلاً بين أملاك الموابين في و بين أملاك الأموريين في شماليه، كما يفصل الآن ولاية البلقاء في شماله بلاد الكرك في جنوبه (فيكور في معجم الكتاب). وييوق وادٍ ونهر يصب في ف بين البحر الميت، وبحيرة طبرية وهو المسمى الآن نهر الزرقاء، ووادي الزرقاء ما في كتاب أعلام الأماكن الواردة في الكتاب، ومواقعها واسمائها الآن^(١) يوسفوس (ك ٤ من تاريخ اليهود ف ٥): إن مملكة الأموريين هذه كان ما جنوباً نهر أرنون (المعجب) وشمالاً نهر ييوق (نهر الزرقاء) وغرباً الأردن، كلمة ييوق بمعنى تارك وفي السريانية ~~ܝܝܘܩ~~ (شباق) بمعنى ترك، وقد «الكتاب أن سيحون هذا «كان حارب ملك مواب قبلاً، فأخذ من يده جميع إلى أرنون». فالمراد أن سيحون كان عبر الأردن من عدوته الغربية إلى عدوته ية. وأخذ أملاكاً من بني مواب، وأقام هناك هذه المملكة الأمورية التي ملكها إسرائيل.

قد اكتشف العالم دي سولسي في أخربة تل شيجان في تلك الأنحاء تمثالاً من مطعوناً بحربة أحد أعدائه مجندلاً على الأرض، فأخذ هذا التمثال إلى

هذا الكتاب لجورج ارمسترونك وقد أعاد النظر فيه ويلسون والماجور كوندل الشهيرين ونشرته لجنة البحث في فلسطين.

إفرنسة، وهداه إلى الدوك دي لوين الشهير. وهو الآن في متحف اللوفر. ولعل اسم
تل شيحان أخذ عن سيحون فتقارب اللفظان ظاهراً.

جاء في الكتاب (سفر العدد فصل ٢١ عد ٣٣ تثنية فصل ٣ عد ١) أنَّ بني
إسرائيل صعدوا بعد استيلائهم على بلاد سيحون في طريق باشان، فخرج عليهم
عوج ملكها بجميع قومه للحرب في ادرعي. وأمرهم الرب أن لا يخافوه وأسلمه
وقومه إلى أيديهم حتى لم يبقَ لهم شريد، وفتحوا جميع مدنها ولم تبقَ لهم قرية
لم يأخذوها، «ستين مدينة كل بقعة ارجوب مملكة عوج في باشان». وغنموا البهائم
وما كان في المدن، فكان ما أخذوه من الملكين سيحون وعوج كل الأرض التي في
عبر الأردن، من وادي ارتون (وادي المعجب الآن) إلى جبل حرمون (جبل الشيخ
الآن). «وحرمون يسميه الصييدونيون سريون والأموريون يسمونه سنير... وعوج هذا
هو وحده بقي من الجبارة، وسريه سرير من حديد، وهو لم يزل في ربة بني
عمون طوله تسع أذرع، وعرضه أربع أذرع بذراع الرجل». وقد كان عوج من ذرية
الجبارة المسمين رافائيم أو رافائين الذين كانوا في فلسطين قبل أن يغشاها
الكنعانيون. وكان قد ألب جماعة من الأموريين وغيرهم من الكنعانيين فغزا مملكة
باشان فاستظهر على العمونيين ولاتها قبله وأزاحهم منها نحو المشرق فكانت تخوم
مملكته جبل جلعاد (السلط) شرقاً، والأردن غرباً ولبنان وجبل الشيخ شمالاً، ونهر
يوق أي نهر الزرقاء جنوباً. وقال كلمت من معجم الكتاب إن التسع الأذرع عبارة
عن خمس عشرة قدماً وأربعة قراريط ونصف، والأربع الأذرع عبارة عن ست أقدام
وعشرة قراريط. وادرعي هي التي يسميها العرب أذرعات وتسمى الآن ذرعات
وموقعها في جهة اللجاة الغربية. وربة بني عمون هي المسماة الآن عمان (فيكورو
في معجم الكتاب) في الجنوب الغربي من قلعة الزرقاء في ولاية البلقاء، وسميت
بعد فيلدلفيا (اعلام الأماكن الكتابية الآنف ذكره).

عد ٢٠٧

دعوة بالاق ملك الموآبيين لبلعام ليلعن بني إسرائيل

ارتحل بنو إسرائيل بعد إنتصارهم على ملكي الأموريين وباشان. فحلوا في
صحراء موآب على عبر الأردن تجاه أريحا، فخاف بالاق بن صفور ملك الموآبيين

وطأة بني إسرائيل بلاده. وأخذهم ملكه كما فعلوا بيسحون وعوج. فحالف شيوخ المدينيين، وهم من ولد مدين بن ابراهيم من زوجه قطورة. وأغراهم بمناصبة بني إسرائيل قائلاً: «الآن تلحس هذه الجماعة كل ما حوالينا، كما يلحس الثور خضر الصحراء». فاستدعوا رجلاً اشتهر بالعرافة يسمى بلعام بن بعور، من فاتور التي على النهر أي نهر الفرات إذ جاء في فصل ٢٣ عد ٤ من سفر التثنية: «من فتور في آرام النهرين»، ولم يكن القدماء يعرفون فتور مدينته فكشفت لنا الخطوط المسماة عن موقعها، وهي المسماة ربسك الآن على عدوة الفرات من جهة سورية. كما ظهر من الخطوط المنقوشة على مسلة سلمناصر، ومن صفيحة وجدها لايرد وهي التاسعة والثمانون من الآثار التي ذكرها هذا العالم. وكان بالاق يعتقد أن من لعنه بلعام خذله الله لأنه نبي الرب. فتردد بلعام في مطاوعة الوفد بأن يحضر معهم، ويلعن بني إسرائيل، ولو قدموا له حلوان العرافة قائلاً: إن الرب لا يؤذن له في المضى معهم ولا بلعن شعب إسرائيل لأنه مبارك، فبعث بالاق إليه رؤساء كثيرين أجل من أولئك واعدأ أنه سيكرمه جداً، ويصنع له كل ما يقوله فأبى المسير أولاً قائلاً: لو أعطاني بالاق ملء بيته فضة وذهباً، لم أستطع أن أتجاوز أمر الرب لكنه قال بالغداة: إن الرب أذن له في المسير معهم فشد على اثائه وصحبهم، فاعترضه ملاك الرب في طريقه فجفلت الأثان في الصحراء. ثم زحمت الحائط فضغطت رجل بلعام فزاد في ضربها؛ ثم ربيضت الأثان لاعتراض ملاك الرب لها في موضع ضيق. فكرر ضربها بالعصا فانطقها الله بالتوبيخ له على ضربه إياها. وكشف الرب عن بصره فرأى ملاك الله واقفاً في الطريق، وسيفه مسلول فخز ساجداً على وجهه فنهاه الملاك عن أن يقول غير ما يقوله له، وسار بلعام إلى أن التقاه بالاق ودخلا المدينة، ولما كانت الغداة أخذ بالاق بلعام فصعد به إلى مشارف مجل يسمى بعل، فنظر أقصى الشعب، وأمر بلعام بالاق ببناء سبعة مذابح، وأن يعد عليها سبعة عجول، وسبعة أكباش، فصنع وانفرد بلعام، وعاد إلى بالاق يبارك الشعب بدلاً من أن يلعنه. ثم أخذه بالاق إلى موضع ثان وثالث، وكان بلعام يعيد بركة الشعب وينبئ بانتصاره وتسلمته. فغضب عليه بالاق، وقال: إنما دعوتك لتلعن أعدائي فإذا أنت قد باركتهم ثلاث مرات فانصرف إلى موضعك، لقد كنت عزمت أن أكرمك فحرمك الرب الكرامة، وانصرف بلعام إلى قومه (العدد فصل ٢٢ و ٢٣ و ٢٤). وقد قال لبالاق والمدينيين قبل انصرافه إنهم إذا أحبوا ينتصروا على بني إسرائيل

فليغروهم بعبادة غير إلههم، وبالفحشاء ففعلوا ما أشار عليهم به كما سترى.
أما من هو بلعام؟ أنبي صادق هو أم عراف كاذب؟ ففي هذا أقوال: قال
اوريجانوس (خطبة ١٣ في سفر العدد) إن كل ما كان لبلعام من المعرفة والقوة إنما
كان بوسائل سحرية، وكان اللعن دأبه فإن إبليس دأبه اللعن. وقال توادوريطوس
(مبحث ٣٩ و ٤٢ في سفر العدد) إن بلعام لم يكن يستشير الرب في ما يقول
بل كان الرب يلهمه ما يقول مجبراً. وقال القديس كيرلس الاسكندري (في ك ٤
و ٦ في السجود بالروح): إنه كان شريراً ونبياً كاذباً لا ينطق بالحق إلا مجبراً.
وشبهه القديس امبروسوس (في رسالته ٥٠) بقيافا الذي نطق بالحق جاهلاً ما
يقول، على أن القديس ابرونيوموس (في المباحث العبرانية في التكوين)، يظهر أنه
تابع رأي العبرانيين بقوله إن بلعام كان ممن يؤمن بالإله الحق، وقد بنى له مذبح
وكان نبياً صادقاً وإن سئى السيرة وإن موسى صرح بأنه استشار الرب، وإنه دعا
الرب إذ قال (عد فصل ٢٢ عد ١٨): «لم أستطع أن أتجاوز أمر الرب إلهي فاعمل
شيئاً صغيراً أو كبيراً» وقال القديس اغوستينوس (في ك ٢ في أمور شتى) إن بلعام
سيكون في يوم الدين ممن يقولون للديان: «يا رب أليس باسمك تنبأنا؟» ويظهر من
قوله إنه حسبه نبياً صادقاً، وإن أثيما ومن عداد المردولين. وقال برجيا من المتأخرين
(في معجم اللاهوت): «لا يمكن دون مخالفة نص الكتاب أن يحسب بلعام نبياً
كاذباً، أو كافراً، أو وثياً». وقد أشار القديس بطرس الرسول إلى شيء من ذلك إذ
قال (رسالته ٢ فصل ٢ عد ١٥): «وقد تركوا الطريق المستقيم واتبعوا طريق بلعام
ابن بعور الذي أحب اجرة الظلم. إلا إنه قد ناله التوبيخ على معصيته إذ ردع
حماقة النبي حمار أبكم نطق له بصوت إنسان».

ومثل هذا الخلاف في نطق اثنان بلعام أكلام حقيقي هو أم مجرد مجاز يراد
به ما قام في مخيلة بلعام فقال القديس اغوستينوس (مبحث ٤٨ و ٥٠ في
التكوين) إن الاثنان نطقت بكلام حقيقي، وإن آية الكتاب يلزم فهمها بمعناها
الحرفي، وتابعه على قوله كثير من المفسرين مثبتين. إن تلك معجزة حقبة كسائر
معجزاته تعالى مع العبرانيين. وأيدوا ذلك بما ذكرناه آنفاً من قول بطرس الرسول في
رسالته وقالوا: لم يهب الله الاثنان عقلاً ناطقاً بل أنطقها بكلام توبيخ كما ينطق به
إنسان. على أنه يظهر من كلام القديس غريغوريوس نيصص (في ترجمة موسى) أن
الاثنان لم تنطق بكلمات مفصلة بل تأول بلعام مجرد نهيقها بالمعنى الذي ذكر.

وكان بلعام عرافاً متعوداً التطير بأصوات الحيوانات والطيور. وذكر موسى ذلك تهكماً بالعرافة كأن الأثان نطقت به. وقال ميمونيد إن هذه المحاورة بين بلعام واثانه إلا اختلاق ومجاز نبأنا موسى به ما قام في مخيلة بلعام على سبيل التاريخ وهو تصوري فقط. وقال بعضهم في وجه كلام بلعام مع اثنائه كأنها ناطقة إنه كان يعتقد التناسخ أي تقمص النفس من بدن إلى بدن آخر، إنسانيا كان أو غير إنساني فحسب اثنائه متمصصة بنفس إنسان ما؛ (ملخص عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة بلعام).

عد ٢٠٨

اغواء بنات موآب ومدین لبني إسرائيل والإنتقام من المدينيين

دعا الموابيون والمدينيون بني إسرائيل إلى أعياد بعل فغور معبودهم. وأرسلوا بناتهم عملاً بمشورة بلعام يغرين بني إسرائيل بالفحشاء، والسجود لآلهتهم فعلق في قلوب كثيرين من الشعب حب الموابيات والمدينيات، وسجد بعضهم لبعل فغور. فاشتد غضب الرب عليهم، فقال موسى لقضاة إسرائيل أقتلوا كل واحد من تعلق من قومه ببعل فغور. والأوجه في تأول هذا اللفظ بعل الفجور أي سيده أو إلهه. وبين كان الشعب ييكي عند باب خباء المحضر، فإذا زمري بن سالوا أحد روساء سبط شمعون مر أمام موسى والشعب تصحبه كزبي بنت صور أحد روساء مدين. وأدخلها خباءه ففتبعهما فنحاس بن اليعازر بن هرون، ورمحه بيده فطعنهما كليهما الرجل والمرأة في بطنها، فكفت الضربة عن بني إسرائيل إذ ردت غيرة فنحاس سخط الرب عنهم، وقال الرب لموسى إنه معط فنحاس عهد سلامة وإنه يكون له ولنسله من بعده عهد كهنوت أبدي جزاء غيرته لأهله، وتكفيره عن بني إسرائيل. وكان عدد من قتلهم القضاة بحسب أمر الرب لموسى أو أفناهم البواء الذي عبر عنه الكتاب بالضربة أربعة وعشرين ألفاً، وأمر الرب موسى أن يضايقوا المدينيين ويضربوهم لأنهم ضايقوا بني إسرائيل بما تسببوا لهم به من الشر وضربة الرب لهم (سفر العدد ف ٢٥).

وأنبأنا الكتاب (فصل ٣١ من سفر العدد) أن موسى جرد إثني عشر ألف مقاتل من كل سبط ألفاً، فسيّرهم ومعهم فنحاس بن اليعازر الكاهن، يغزون إلى

مدین. وكانت فی ید فئحاس أمتعة القدس (یرجّح أن المراد بها تابوت العهد) وأبواق الهتاف. فقاتلوا المدینیین ونصرهم الرب علیهم، فقتلوا منهم کثیرین وملوکهم أي ولاتهم الخمسة. وسماهم الکتاب أوی ورقم وصور وصور وربع وكان بلعام هناك فقتلوه بالسيف، وسبوا نساء مدین وأطفالهم. وغنموا بهائمهم ومواشیهم واثاثهم وأحرقوا مساکنهم، وقصورهم وعادوا إلى موسى فی صحراء مواب، ولم یفقد أحد منهم، فسخط موسى علی وكلاء الجيش وقال: هل استبقیتم الإناث کلهن؟ إن هولاء هن اللّائی حملن بني إسرائيل بموامرة بلعام علی أن یتمردوا علی الرب فحلت الضربة فی جماعة إسرائيل، فاقتلوا کل ذکر وکل امرأة وأما اناث الأطفال اللّائی لم یبلغن سن الزواج فاستبقوهنّ لکم. ففعلوا بحسب أمره ولو كان ذلك بغير أمر الرب لعیب موسى بشدة القسوة. ولم یمتلك فئحاس ورجاله بلاد مدین لأنها أرض عبرانیین من ذریة ابراهیم، وموعدهم أرض الكنعانیین. واجتزأ أن ینکل بأهلها ویدمر بلادهم جزاء لما جنت أیدیهم وما عثت نساؤهم.

وقد فصل موسى ما غنمه المحاربون من المدینیین فكان من الغنم ست مئة ألف وخمسة وسبعین ألفاً، ومن البقر إثنین وسبعین ألفاً، ومن الحمیر واحدأ وستین ألفاً. ومن البناث اللّائی لم یبلغن مبلغ النساء إثنین وثلاثین ألفاً، ویظهر من هذا أن المدینیین كانوا أغنیاء کثیراً بالماشية، لاسیما الغنم وبالااث والحلی كما یتحصل مما سیأتی. وقد تذرّع بهذا جاحدو الوحي فکذبوا بصحته، وعدّوه من المبالغات البعیده عن الصدق وهو لا منافاة فی حال بلاد عمّ خصبها وانفسحت أرجاؤها، وتوفرت مراعیها. فلو حسبنا فی بلاد مدین کلها ست مئة وخمسة وسبعین مالک غنم، وجعلنا لکل منهم ألف رأس منها لوجدنا العدد الذی عینه الکتاب. وهذا الحساب معقول لاسیما فی بلاد انصرفت عناية أهلها إلى تریة المواشی، وكان بها مورد ثروتهم. وكذا قل فی البقر فلو جعلنا فی کل البلاد ستة وثلاثین ألف ذراع لكان لهم الإثنان والسبعون ألفاً من القدن عدا البقر التي لا تحرث. ولأمر ظاهر فی عدد الحمیر أيضاً فقد طاش إذاً هذا السهم للمنددین کسائر مهامهم.

وقد قسم موسى الغنیمة من الناس والبهائم نصفین، نصفاً للغزاة المحاربین وهم الإثنان عشر ألفاً، ونصفاً لجماعة إسرائيل. وأخذ من نصیب المحاربین رأساً واحدأ من کل خمس مئة رأس من الناس، والغنم والبقر والحمیر وضیعة للرب، دفعها إلى إلیعازر الكاهن، فأصابه من الغنم ست مئة وخمسة وسبعون رأساً، ومن البقر إثنین

وسبعين رأساً، ومن الحمير واحد وستون رأساً، ومن الناس إثنتين وثلاثون نفساً. وأخذ من نصيب الجماعة واحداً من خمسين من الناس، والبقر والحمير والغنم وسائر البهائم. ودفع ذلك إلى اللاويين متولّي حراسة مسكن الرب وإذا راعيت نصف عدد البهائم والإناث المذكورة آنفاً، وفرضت منه اثنين من المئة واحداً واحداً من الخمسين للاويين علمت كم أصابهم من هذه الغنائم. وإنما أمر الرب موسى أن يأخذ من نصيب المحاريين واحداً من كل خمس مئة، ومن نصيب الجماعة واحداً من خمسين لأن المحاريين كافحوا معرضين نفوسهم لخطر القتل، وأما سائر الجماعة فنالوا غنيمة باردة. واعتبر نوع هذه القسمة بعد ذلك سنة في إسرائيل. ثم تقدم رؤساء الألوف ورؤساء المئين إلى موسى، وقدّموا قرباناً للرب ما وجدوه من أدوات الذهب من حجل وسوار وخاتم وقرط وقلادة تكفيراً عن نفوسهم. فكان جملة ذهب التقدمة ستة عشر ألفاً وسبع مئة وخمسين مثقالاً، ولو كانت ذهباً مسكوكاً لعادلت أحد عشر ألفاً من الليرات الإفريقية، ولا مبالغة في هذا القدر بالنظر إلى بلاد غنية توفرت فيها الثروات ولو ضوعف أضعافاً. وأدخل موسى إلعازر الكاهن الذهب إلى خباء المحضر ذكراً لبني إسرائيل أمام الرب.

عد ٢٠٩

تمليك موسى سبطي راويين وجاد ونصف سبط منسا الأرض التي في شرقي الأردن

جاء في الكتاب (سفر العدد فصل ٣٣) إنه كان لبني راويين وجاد مواش كثيرة جداً. ونظروا الأرض التي ملكها بنو إسرائيل في عبر الأرض الشرقي من سيعون ملك الآموريين، وعوج ملك باشان صالحة للماشية. فتقدّموا إلى موسى وإلعازر الكاهن، ورؤساء الجماعة يسألون أن يعطوا هذه الأرض ميراثاً لهم. ولا يجوزون الأردن فقال لهم موسى: أخرج إخوتكم إلى الحرب وتقعّدوا انتم ههنا؟ إن هذا يفضي إلى قلق الشعب ووهن في قوته، وذكرهم بما صنع آبائهم في البرية مما أسخط الرب عليهم، فقالوا: إننا نبني حظائر لمواشينا هنا ويوتأ لأطفالنا، ونحن نتجرد مسرعين أمام بني إسرائيل حتى ندخلهم مكانهم، ولا نرجع إلى بيوتنا حتى يستحوذ كل من إخواننا على ميراثه، ونحن لا نرث معهم شيئاً من عبر الأردن إلى

هناك. فحسن كلامهم في عيني موسى والجماعة. فأعطى موسى بني جاد وبني رآوبين ونصف سبط منسا بن يوسف مملكة سيحون ملك الأموريين ومملكة عوج ملك باشان، فبنى بنو جاد ديبون وهي ديبان الآن في شمالي نهر المعجب. ونحو الجنوب من جبل عطروش وعطاروت. ويرجح إنَّها كانت عند الجبل المسمى الآن عطروس الأنف ذكره. وعراير المسماة الآن عراير في جنوبي ديبان وشمالي الكرك وعطروت شوفان ولا يعرف موقعها، ويعزير ويرجح أنَّها كانت في محل بيت زرة الآن، وجعل اوسايوس والقديس ايرونيوس موقعها على بعد عشرة أميال من عمان نحو الغرب وخمسة عشر ميلاً من حسيبان نحو الجنوب.

وبنوا أيضاً يجبيهة وتعرف الآن بخربة الجبيهة، بين السلط شمالاً وعمان جنوباً. ثم بيت نمره، المعروفة الآن بتل نمرين وبيت هاوان، وتسمى اليوم تل رame في جانب كفرين في شرقي أريحا، وبني بنو رآوبين حشبون وهي حسيبان الآن في الشمال الشرقي من جبل نبو والعالا أو العالة، وتسمى اليوم العال، وهي في الشرق الشمالي من حسيبان قريبة منها ثم فريتائيم. ويرجح أنَّها المسماة الآن القرية بين ديبان جنوباً وميدبا شمالاً ونبو. ويظهر أنَّه كان موقعها في سفح جبل نبو وبعل معون، وتسمى اليوم تل معين، أو معين في الغرب الجنوبي من ميدبا وفي الجنوب من جبل نبو وسبمه أو سبام. ويحتمل أن موقعها كان في محل سوميا الآن في غربي حسيبان وشمالي جبل بنو^(١).

ومضى بنو ماكير بن منسا بن يوسف ففتحوا جلعاد وهي السلط، وطرّدوا الأموريين منها، فأعطاهم موسى إياها فأقاموا فيها. ومضى يائير من سبط منسا أيضاً واستولى على مزارعها، وسماها حُثُوت يائير أي ما أحياه يائير. ومضى نويح وفتح قنات وتوابعها، وسماها نويح باسمه ولا يعرف موقعها إلى اليوم، ولكن في شرقي الأركن موضع يسمى وادي قانه، فربما كانت هناك وعليه فكان مقام بني رآوبين في جنوبي تلك الأرض، ومقام بني جاد في شماليها، ونصف سبط منسا في أرض باشان أو باسان.

وأمر موسى أن يعطى اللاويون ثمانين وأربعين مدينة في انصبة أسباط إسرائيل

(١) أخذنا أسماء هذه المدن القديمة عن الكتاب واسماءها الآن عن كتاب أعلام الأماكن الكتابية الآنف ذكره.

في عبر الأردن، وأرض الكنعانيين مع محاجرهما لماشيتهم. وأن تكون ست مدن منها مدن ملجأ، يلجأ إليها من قتل نفساً غير متعمد وأن تكون ثلاث من مدن الملجأ هذه في عبر الأردن، وثلاث في أرض كنعان. وقال (تثنية ف ١٩ ع ٩): إذا وسَّع الرب تخومكم، فزيدوا ثلاثاً على هذا الثلاث. وعين مدن الملجأ الثلاث في عبر الأردن. وهي باصر في البرية في أرض السهل للراويين. وراموت في جلعاد للجادين. وجولان في باشان للمنسيين». (تثنية ف ٤ ع ٤٣). أمّا باصر فيرجح أنّها بصر الحيري من قرى اللجاة الجنوبية، تبعد خمسة أميال عن اذرعات وأما راموت جلعاد فموقعها في بلاد السلط، وربما كانت في المحل المسمى الآن ريمون. وأمّا جولان فكان موقعها في سهل الجولان بل سمي باسمها. وقال اوسايوس إنّها كانت في أيامه مدينة مهمة ولم يعين موقعها.

وتقدمت بنات صلفحاد من عشائر منسا إلى موسى واليعازر الكاهن، ورؤساء الجماعة قائلات: إنّ أبانا مات في البرية ولم يكن من جملة القوم الذين اجتمعوا على الرب مع قورح، ولم يكن له بنون فلماذا يسقط اسم أيّنا من بين عشيرته؟ فاعطنا ميراثاً بين أعمامنا، فرفع موسى أمرهم إلى الرب فقال له إنّهم نطقن بالصواب، فانقل ميراث أبيهنّ إليهنّ. وأعلم الرب موسى حينئذ كيف يقسم الميراث في بني إسرائيل إذ قال: «أي رجل مات وليس له ابن، فانقلوا ميراثه إلى ابنته فإن لم تكن له بنت فاعطوا ميراثه لاختوته، فإن لم يكن له إخوة فاعطوه لأعمامه، فإن لم يكن له أعمام فاعطوه لأدنى ذوي قرابته في عشيرته». (عدد فصل ٢٧) ورد بنو منسا سؤال بنات صلفحاد بأنهنّ سيصرنّ نساءً لأحد رجال أسباط بني إسرائيل، فيسقط ميراثهنّ من ميراث بني منسا، ويزاد على ميراث السبط الذي يتزوجن منه. فأمر موسى عن أمر الرب أن بنات صلفحاد يتزوجن بمن يحسن لديهنّ لكن يجب أن يكون من عشيرة أبيهنّ حتى لا يتحول الميراث من سبط إلى آخر فتزوجن ببني أعمامهنّ (عدد ف ٣٦).

عد ٢١٠

إحصاء موسى بني إسرائيل وتسليمه قيادتهم إلى يشوع بن نون وموته.

قد أمر الرب موسى أن يحصي بني إسرائيل الإحصاء الثالث، إذ كان الأول

عند خروجهم من مصر. والثاني في بركة سيناء فكان عدد الرجال من ابن عشرين سنة فصاعداً ست مئة ألف ومئة وثلاثة وسبعين رجلاً. ولم يكن باقياً ممن عُدّوا في بركة سيناء الاكالب بن يوفنا. ويشوع بن نون ذاك بحسب قول الرب لأنهم يموتون في البرية إلا هذين الرجلين، ومع هذا لم ينقص عدد الشعب عما كان عليه لدن خروجه من مصر. وقد أحصى اللاويون وحدهم فكان عددهم من ابن شهر فصاعداً ثلاثة وعشرون ألفاً (عدد فصل ٢٦).

قد أنبأنا موسى (تثنية ف ٣ ع ٢٥) أنه سأل الرب قائلاً: «دعني أجوز فأرى الأرض الصالحة التي في عبر الأردن هذا الجبل الحسن ولبنان». فقال له الرب: «حسبك لا تزد في الكلام معي في هذا الشأن، لكن إصعد إلى قمة الفسجة وارفع طرفك غرباً وشمالاً وجنوباً وشرقاً، وانظر بعينيك لأنك لا تجوز هذا الأردن. ومر يشوع وشددته وشجعه فإنه هو يعبر أمام هؤلاء الشعب، ويورثهم الأرض التي تراها». والفسجة قمة في جبل نيبو تسمى الآن راس السياغة (على ما في كتاب أعلام الأماكن الآنف الذكر). ومن وقف عليها رأى قسماً كبيراً من أرض فلسطين. ومن وقف على شاطئ البحر الميت غرباً غير بعيد عن مصب الأردن، رأى حسناً جبل نيبو. وهذه القمة تجاهه نحو الشمال، فمن هناك نظر موسى أرض الموعد. ثم سلّم قيادة الشعب إلى يشوع بن نون، وأمره أن يستشير دائماً رئيس الأحرار، وأن يقسم معه أرض الموعد في عبر الأردن على بني إسرائيل بالقرعة. وخطب في بني إسرائيل خطباً عديدة ذكرهم بها بأخص مواد السنة مغيراً أو مزيداً عليها أشياء إقتضاها الزمان، وحض الشعب على اتقاء الرب والعمل بسننه مبيناً لهم حسن الثواب إن عملوا بها وشر العقاب إن خالفوها. ودفع كتب الشريعة إلى الكهنة آمراً أن يتلوها على مسامع الشعب مرة في كل سبع سنين في عيد المظال. ثم ترثم أمام جماعة بني إسرائيل بالنشيد المثبت في الفصل ٣٢ من سفر التثنية مستهلاً بقوله: «انصتي أيتها السماوات فأتكلم ولتستمع الأرض لأقوال في». وهذا النشيد يلزم كل عبراني مدى الدهر أن يستظهره حافظاً إياه بلا كتاب. ثم بارك بني إسرائيل بركات نبوية ذكرت في الفصل ٣٣ من ذاك السفر. وصعد إلى جبل نيبو ومات على هذا الجبل وعمره مئة وعشرون سنة، ولم يكل بصره ولم تذهب نصرته، ودفنه الرب في الوادي في أرض موآب تجاه بيت فغور التي يرجح أنها المسماة المريجة الآن، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا كما جاء في الفصل الأخير من سفر

التثنية الذي أضافه يشوع بن نون أو غيره من الكتبة الملهمين إلى هذا السفر. وقد أخفى الله قبر موسى لئلاً يعبد بنو إسرائيل تشبهاً بالمصريين، وقد كان بين بني إسرائيل قوم ممن كان عمرهم لدن الخروج أقل من عشرين سنة. وبكى بنو إسرائيل موسى ثلاثين يوماً.

عد ٢١١

الأسفار التي كتبها موسى

قد كتب موسى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي أسفار التكوين، والخروج، والأخبار، والعدد، وتثنية الإشتراع. فذكر في التكوين خلق الله السماء والأرض، وما فيها وإبداع الإنسان الأول والمرأة الأولى، ثم أنساب الآباء قبل الطوفان وبعده ومواطنهم. وتفرق أعقابهم في الآفاق بعد بلبلة ألسنتهم في بابل. ودون أخبار نوح وإبراهيم، واسحق ويعقوب ويوسف إلى انحذار يعقوب بذريته إلى مصر ووفاته، و وفاة يوسف فيها. وذكر في سفر الخروج مولد موسى، وتبني ابنة فرعون له وهربه إلى مدين، وإرسال الرب له ليخرج شعبه من مصر. وعمل الله المعجزات على يده فيها وخروج بني إسرائيل منها، واجتيازهم في البحر الأحمر، وحلولهم في طور سيناء وتنزيل الله الشريعة عليه وأمره بعمل خبء الحضر. ويلي هذا السفر سفر الأخبار وقد فصل موسى به بأمر الله ما يلزم الكهنة والأخبار عمله، وطرائق تقدمه الذبائح، والمحرقات، وتكملة الوصايا الشرعية والطقسية. ويلي سفر العدد وقد انطوى على تكملة تاريخ ارتحال بني إسرائيل من جبل سيناء إلى صحراء مواب، وتفصيل بعض مراحلهم التي كان موسى ذكرها قبلاً مجملته وعلى سنن أضافها إلى السنن التي ذكرت في سفر الخروج والأخبار. ويلي هذا السفر تثنية الإشتراع وقد وضعه موسى بمنزلة مذكرة للأحداث التي جرت لهم، وللسنن التي فرضها بأمر الله مكرراً ذكر ما ورد في أسفار الخروج والأخبار والعدد، وزائداً أو منقحاً بعض المواد لاقتضاء تقلب الحال زيادة أو تنقيحاً.

وقد أيدنا في ما مر من كلامنا إلى الآن صحة كثير من أي هذه الأسفار بالآثار القديمة، والإكتشافات الحديثة المصرية والآشورية والبابلية والسورية، كما رأيت وما برحت هذه الإكتشافات تزيد المنددين افحاماً، والجاحدين بكماً والمؤمنين تمكناً وتشبهاً بعري الدين الكاثوليكي المقدس.

وقد رأينا أن نلخص هنا عن الموجز الكتابي للأب فيكورو (مجلد ١ عد ٢٣٩ وما يليه) أخص الحجج المثبتة أن موسى كتب أسفار التوراة الخمسة هذه وأنه صادق بما كتب. إن مصادر هذه الحجج أربعة الكتاب المقدس نفسه، والتوراة السامرية، والآثار المصرية، واللغة المكتوبة بها أسفار التوراة، ففي الحجة الأولى نقول: قد أجمع اليهود والنصارى على أن موسى كتب أسفار التوراة الخمسة، وأنه لم يكتب إلا ما كان حقيقياً وصادقاً. واس هذا الإجماع آيات يثبت في أسفار التوراة نفسها، وفي سائر الأسفار المنزلة، فقد جاء في سفر الخروج (ف ١٧ ع ١٤) أن الرب أمر موسى أن يكتب في الكتاب تاريخ محاربة بني إسرائيل للعمالقة، وقال الرب لموسى: «أكتب هذا ذكراً في الكتاب». بالتعريف كما في النص العبراني لا في كتاب بالتنكير. وهذا دال صريح الدلالة على أنه كان لموسى كتاب يدون به تاريخ ما يحدث لبني إسرائيل. وجاء في هذا السفر (ف ٢٤ ع ٤): «وكتب موسى جميع كلام الرب». وقال بعد ذلك (ع ٧): «وأخذ كتاب العهد وتلا على سامع الشعب»، وعليه فلم يكتب موسى السنة وحدها بل الأحداث التاريخية أيضاً.

وقد صرح موسى بذلك أكثر تصريح بما كتبه في سفر تثنية الإشتراع (فصل ٣١ عد ٩ وما يليه). «وكتب موسى هذه التوراة، ودفعها إلى الكهنة بني لاوي... وسائر شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلاً في نهاية السبع السنين... حينما يأتي جميع بني إسرائيل ليمثلوا لدى الرب... تنادي عليهم بهذه التوراة على مسمع من جميع إسرائيل. إجمع الشعب الرجال والنساء والأطفال، والغريب الذي في مدلك لكي يسمعون ويتعلموا، ويتقوا الرب إلهكم. ويتحذروا العمل بجميع كلام هذه التوراة» ومن ذلك قوله بعيد هذا (عد ٢٤): «ولما فرغ موسى من رقم كلام هذه التوراة في سفر بتمامها أمر موسى اللاويين... إن خذوا هذه التوراة واجعلوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم فيكون ثم عليكم شاهداً». وقد مر أن الفصل الأخير من سفر التثنية المنبئ بموت موسى، قد علقه يشوع بن نون أو كاتب غيره بمنزلة ذيل على هذا السفر.

ثم إن سائر أسفار الكتاب التي كتبت بعد التوراة تثبت صحتها، وحقيقة نسبتها إلى موسى فسفر يشوع بن نون مفعم بالايغاز إلى أسفار التوراة حتى قال بعض المنادين إنها وسفر يشوع من قلم كاتب واحد، ونقتصر من ذلك على

ذكر أقواله: «تشدد وتشجع جداً لتحفظ جميع الشريعة التي أمرك بها موسى عبدي... لا يرح سفر هذه التوراة من فيك بل تأمل فيه نهائياً ولبلاً». (يشوع ف ١ ع ٧ و ٨)، «كما أمر موسى عبد الرب بني إسرائيل على ما هو مكتوب في سفر توراة موسى» (يشوع ف ٨ ع ٣١): «فتشددوا جداً لتحفظوا جميع المكتوب في توراة موسى وتعملوا به ولا تعدلوا عنه يئنة ولا يسرة» (يشوع فصل ٢٣ عد ٦). وسفر القضاة مفعم أيضاً بالإشارات إلى أسفار التوراة، ونراها في سفرَي الملوك الأول، والثاني قاعدة وسنة لبني إسرائيل من أيام غالي إلى بمات داود. وقد كثر في جميع الأسفار الباقية اخبارية أو نبوية أو حكمية ذكر موسى، وما عمله الله على يده من المعجزات وما نزل عليه من السنن كما ذكره موسى في أسفار التوراة. وليست الفصول الأولى من سفر أخبار الأيام إلا خلاصة ما كتبه موسى في الأنساب والمواليد، وقلماً تجد صفحة في الزبور لا تحوي إشارة ما كتبه موسى. وقد تواتر ذكر المخلص ورسله آيات من أسفار العهد الجديد، ويضيق المقام عن استقراء جميع الآيات المثبتة ما نحن مشتبون، وعليه فأسفار الكتاب كلها تثبت أن موسى كتب أسفار التوراة الخمس وإن صدقها مجمع عليه في أسفار العهدين القديم والجديد.

الحجة الثانية من التوراة السامرية أن للسامريين توراة باللغة العبرانية، ولكنها مكتوبة بالحروف القديمة على الهيئة الفينيقية. وهي غير الترجمة السامرية أو الآرامية التي كانت أيديهم تتداولها قديماً، وغير الترجمة العربية التي في أيديهم الآن. وتلك التوراة السامرية القديمة تطابق جوهرها توراتنا ولا تخالفها إلا بأمور عرضية أو بتعيين بعض السنين. وقد أطلع عليها الآباء القدماء، واستشهدوا بها ونخص بالذكر منهم أوريجانوس (في سفر العدد فصل ١٣ عد ١) وإيرونيوس (في مقدمة سفر الملوك الأولى). إلا أنها تورّت عتاً بظلمات الجهل إلى بدء القرن الثاني عشر. وقد عثر بطرس دلاً فالي على نسخة منها في دمشق سنة ١٦١٦م، وهي التي طبعت في الجامعتين (بوليكولت أي الكتاب المقدس بعدة لغات مجموعة معاً) الباريسية، واللندنية سنة ١٦٤٥م وسنة ١٦٥٧م. ولا يعلم حق العلم متى تلقى السامريون التوراة لكن الأرجح والظاهر من سفر الملوك الرابع (فصل ١٧ عد ٢٥ وما يليه)، أنهم تلقوها من الكاهن الإسرائيلي الذي بعثه إليهم ملك آشور، عندما أرسل الرب عليهم أسوداً تقتل منهم في مبدأ إقامتهم في السامرة في مكان بني إسرائيل المبين

إلى آشور. «وأقام الكاهن بيت أيل وأخذ يعلمهم كيف يَتَّقون الرب»، ولم يستطع الجاحدون إلى الآن إقامة حجة ثابتة توجب التسليم لهم بتلقي السامريين التوراة في غير الوقت المشار إليه، أعني بعيد خراب السامرة وجلاء بني إسرائيل إلى بلاد آشور، وإقامة السامريين مكانهم، وقد كان ذلك لسنة ٧٢١ ق.م. فإذا وجود التوراة عند السامريين أعداء اليهود مطابقة لتوراتنا بينة قاطعة على عراقة أسفار موسى الخمسة في القدم، ولا أقل من أن تثبت هذه البينة أن هذه الأسفار أقدم من العصر الذي تمحله لها كثير من الجاحدين والمنددين.

الحجة الثالثة تؤخذ من الآثار المصرية، وقد رأيت عند الكلام في أخبار يوسف وإقامة بني إسرائيل في مصر، وخروجهم منها الطباقي الكائن بين كلام موسى في آيات عديدة وما جاء في الآثار المصرية مصداقاً لكلامه، ودل ذلك صريح الدلالة على أن كتاب سفرَي التكوين والخروج كان له العلم التام بأحوال مصر لاسيما أحوالها على ما كانت عليه في أيام رعمسيس الثاني، ومن سلفه فما جاء في الكتاب عن حالة البلاد، ومدنها ولاسيما التي على تخومها وتآلف جنودها إنما هو دال حقيقة على عصر رعمسيس، لا على عصر الفراعنة الذين كانوا في أيام سليمان وخلفائه.

فإن كانت التوراة دُوِّنت في آخر مدة ملوك يهوذا كما زعم الجاحدون فلم كانت منبهة إنباء مدققاً بحال مصر القديمة؟ ولم تنبئ بحالها على عهد أولئك الملوك؟ ولم كانت رواية التوراة أخبار حالة مصر مختلفة عن رواية الانبياء لها؟ ولم كانت الروايتان كلتاهما تطابقان حالة البلاد في العصرين كما شهدت آثارها صريح الشهادة؟ وكيف مثلت لنا التوراة مصر بهيئة مملكة واحدة؟ ولم تشر إلى تقسم هذه المملكة إلى أمريات صغيرة، كما صرَّح بذلك أشعيا إذ قال (فصل ١٩ عد ٢) «وأسلَّح مصر على مصر، فيقاتل الإنسان أخاه، والرجل صديقه، مدينةٌ مدينةً، ومملكةٌ مملكةً». ولماذا نرى الأعلام المذكورة في التوراة تطابق ما كشفت عنه الآثار المصرية على عهد رعمسيس ومن سلفه؟ ولا نرى فيها مثلاً واحداً للأعلام السامية التي اعتادت وضعها الدول المصرية المعاصرة لسليمان. فلماذا نجد في التوراة أسماء صوعن ورعمسيس، وصوعر ولا نجد أسماء مجدل وتحفيس وغيرهما مما ذكره الانبياء. ثم إنَّ لنا في علاقات مصر مع البلاد الأجنبية دليلاً آخر على ما نحن مثبتون مثلاً إنَّ الحبشة تولَّت مصر قبل أيام حزقيا، وفي مدة ملكه ولا نجد ذكراً

لذلك في التوراة كما لم تذكر دولة الآشوريين الأولى التي نشأت في أيام انحطاط مملكة مصر، ولو كتبت التوراة في عهد ملوك يهوذا كما وهم الجاحدون لرأينا فيها ذكر هذه الأحداث المهمة لا ذكر أخبار رعمسيس وأسلافه. إنَّ بعض أهل العلم بالآثار المصرية قد عارضوا اخبار التوراة بما كشفت عنه الآثار المصرية، واضعين كلاً منها بجانب الآخر فتيقنوا ما بينهما من المطابقة. ولا يمكن الجمع بينهما بهذه الدقة دون أن يكون كاتب التوراة مقيماً بمصر عند وقوع تلك الأحداث، ولا يمكن التقليد أن يحفظها على سلامتها التامة مدة قرون عديدة.

الحجة الرابعة تؤخذ من اللغة العبرانية المكتوبة بها التوراة، قد رأى الماهرون باللغة العبرانية أن في أسفار موسى كثيراً من الكلمات، وأساليب التعبير الدالة على قدم هذه الأسفار ومخالفتها من حيث ألفاظ اللغة، ونحوها للأسفار التي كتبت بعدها باللغة العبرانية. من ذلك استعمال هو ضمير المذكر الغائب بدلاً من هي ضمير المؤنثة الغائبة في مئة وخمس وتسعين آية من التوراة، ولم يرد الضمير هي بصيغة التأنيث إلا في إحدى عشرة آية، ويحتمل أن يكون النساخ المتأخرون أصلحوا ذلك في الإحدى عشرة آية، وقد استعملت كلمة نعر العبرانية المذكورة ومعناها الشاب في إحدى وعشرين آية بدلاً من نعة المؤنثة بمعنى الشابة، ولم ترد الكلمة بصيغة التأنيث إلا في آية واحدة. ويحتمل أن يكون ناسخ متأخر أصلح في هذه الآية فعدم الفرق بين المذكر والمؤنث دليل قاطع على العراقة في القدم، وعلى أن اللغة العبرانية لم تكن قد ضبطت في أيام كاتب تلك الأسفار، بالأصول النحوية التي ضبطت بها بعد ذلك إذ لا تجد أثراً لمثل ذلك في الأسفار العبرانية التي كتبت بعد موسى. وقد لاحظ الماهرون في اللغة العبرانية أيضاً أن في أسفار التوراة أصولاً خاصة بها لا توجد في الأسفار المتأخرة، منها أنه إذا اجتمع موصوفان ربط الأول مع الثاني بحرف اليود (الياء) وهو اصطلاح قديم لا تجد له أثراً إلا نادراً في اللغة العبرانية بعد موسى. وكذا تجد في أسفار موسى فعل الأمر منتهياً بحرف النون، ولا مثيل لذلك في الأسفار المتأخرة، وللمصدر في أسفار موسى صيغة غير صيغته في غيرها. وذكروا ألفاظاً وعبارات كثيرة في أسفار موسى لا وجود لها في غيرها، وقالوا ليس في أسفار موسى كلمات أجنبية إلا الكلمات المصرية. وقد أطال واجاد الأب فيكورو بإثبات هذه الحقيقة في كتابه الآخر الموسوم بالأسفار المقدسة، وانتقاد العقليين لها (مجلد ٣٠ من صفحة ٩ إلى صفحة ٢١٣).

وقد نسب كثير من القدماء والحدثاء كتابة سفر أيوب الصديق إلى موسى ومنهم القديس أفرام السرياني، إذ قال في مقدمة كلامه على هذا السفر **ܡܘܨܝ ܐܝܘܒ** أي أن موسى كتب كتاب أيوب ولكن قال غيرهم: إن أيوب نفسه كتب سفره بالسريانية أو العربية، فترجمه موسى إلى العبرانية. وعزاه بعضهم إلى أصدقاء أيوب أو أحدهم، وغيرهم إلى سليمان وأصله شعر فصيح العبارة، بليغ الإشارة، ولكن ناظمه لم يقيد نفسه بوزن ولا قافية، وهذا دالٌّ على قدمه، والأظهر أن أيوب كان في زمان موسى، وأقام بأرض عوص المنسوبة إلى عوص بن آرام بن سام والأرجح أنها اللجة وحوران.

الفصل التاسع

يشوع بن نون وأخبار بني إسرائيل في أيامه

عد ٢١٢

يشوع بن نون والسفر المنسوب إليه ومجمل أعماله

إنَّ يشوع بن نون هو من سبط افرايم بن يوسف، وكان خادماً أميناً لموسى بل مؤازراً له، وعهد إليه موسى بقيادة بني إسرائيل بعد وفاته. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ ف ١) أنَّه كان له من العمر خمس وثمانون سنة حين تولى قيادة بني إسرائيل، وعليه فكان عمره خمساً وأربعين سنة عند خروجهم من مصر. ولم يبقَ ممن خرجوا منها، وعمرهم فوق العشرين سنة إلاَّ يشوع هذا، وكالب بن يوفنا كما مرَّ. إنَّ كل ما سنورده في هذا الفصل من أخبار بني إسرائيل مسنده السفر المنسوب إليه، وتلك النسبة وإن لم تكن يقينية فتؤيدها أدلة راهنة عديدة منها أنَّ تقليد اليهود المصرح به في كتاب التلمود، يعزو هذا السفر إلى يشوع. وقد

تابعهم على ذلك كثير من المحققين والمدققين. ومنها أنه جاء في هذا السفر (فصل ٢٤ عد ٢٦): «وكتب يشوع هذا الكلام في سفر توراۃ الله» أي كتب هذا السفر وألحقه بأسفار موسى.

ويستغرب أن يكون يشوع غفل عن أن يدوّن الأحداث المهمة التي أجراها الله على يده. وتقاعد عن إتمام فرض تستلزمه رسالته. وتشتنى من ذلك الآيات الأخيرة من هذا السفر المنبئة بموت يشوع، واليعازر الحبر، فإنّها من قلم كاتب آخر قديم. ان لنا بيّنات قاطعة على قدم سفر يشوع منها أن لا ذكر فيه لبيت لحم موطن داود بين مدن يهوذا، وذلك دليل قاطع بأنّ هذا السفر كتب قبل أيام داود، ولأ ما أهمل الكاتب ذكرها. ومنها أنه جاء فيه (فصل ١٥ عد ٦٣): «أمّا اليبوسيون سكان اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فاقام اليبوسيون مع بني إسرائيل في اورشليم إلى اليوم». وعليه فكاتب هذا السفر كان قبل السنة الثامنة من ملك داود التي فيها تولى داود صهيون، أي اورشليم (كما في ملوك ٢ فصل ٥ عد ٥٧). ومنها أنّ هذا السفر وصف صيدون بالكبيرة (فصل ١١ عد ٨)، مع أنّ صيدون أخربها الفلسطينيون في زمان القضاة سنة ١٢٠٩ ق.م، وأخذت صور سوددها، فإذا كان الكتاب قبل أيام ملوك إسرائيل.

قد أعدت عناية الله يشوع لأمرين كبيرين إفتتاح بلاد فلسطين، وقسمتها على أسباط بني إسرائيل. فأتمّ أولهما بما قيّض الله له من النصر، والفوز في مواقع عديدة فتيسّر له ثانيهما. وكانت بلاد فلسطين يومئذ منقسمة إلى ممالك عديدة لكن هذه الممالك لم تكن إلّا أعمالاً أو أقطاعاتاً مستقلة أحدها عن الآخر، ويلي كلّاً منها حاكم يسمونه ملكاً يتأمر على عشيرته، وهذه العشائر هي التي سماها الكتاب الحثيين واليبوسيين والآموريين الخ. وقد جاءت الآثار المصرية مصداقاً لما ورد في الكتاب، فقد كشف العالم مريات عن وجه مساكن في أخربة هيكल الكرنك على مقربة من تاب (طيبة) القديمة، دوّن عليه تحوتمس الثالث أحد ملوك الدولة الثامنة عشرة أكثر من ست مئة اسم موضع، استحوذ عليها وبين هذه الأسماء مئة وتسعة عشر علماً لعشائر ومواقع في فلسطين، وهي منقسمة إلى ست دوائر كأنها ست إمارات. ويمكن أن تقرأ أسماءها كما يأتي يابوسي (اليبوسيون)، آموري (الآموريون)، كركاسي (الجرجسيون)، حيوي (الحوويون)، عرقي (العرقيون أو الحثيون)، سيني (السينيون أو الفرزيون)، وقد

رقت هذه الخطوط في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر قبل خروجهم منها.

عد ٢١٣

عبور يشوع الأردن بيني إسرائيل واختتانهم

قد أنبأنا الكتاب (يشوع ف ١) أنَّ الرب أمر يشوع بن نون بعد وفاة موسى أن يتشدّد ويتشجّع، وأن يقوم فيعبر الأردن هو وجميع الشعب إلى الأرض التي الرب معطيها لبني إسرائيل من البرية ولبنان إلى نهر الفرات. جميع أرض الحثيين (طالع عد ٥٦) وافتتح يشوع أعمال قيادته بأن أرسل من شطيم حيث كانت محلّتهم جاسوسين لينظروا أرض عبر الأردن وأريحا. فدخلوا بيت امرأة بغتي اسمها راحاب، وعرف ملك أريحا بقدمهم، وأرسل جنداً للقبض عليهما فأخفتهما راحاب وقالت إنهما خرجا ولا تدري أين ذهبا، وأنبأت الرجلين بفرط الخوف المستحوذ على قلوب الكنعانيين من مهاجمة بني إسرائيل لهم. وسألتهما أن يرأف بنو إسرائيل بها وبأهلها متى تولّوا أريحا. فوعداهما ودلّتهما بحبل من الطاق لأنّ بيتها كان في حائط السور، ووافقاهما على علامة أن تعقد من خيوط القرمز في الطاق التي دلّتهما منه، فينجو كل من كان في بيتها أبوها وأُمّها وإخوتها، وجميع بيت أبيها وعادا إلى يشوع فحدثاه بجميع ما وقع لهما.

فبكر يشوع في الغداة ورحل من شطيم، وأقبل إلى الأردن هو وجميع بني إسرائيل. وباتوا هناك قبل أن يعبروا وكلم يشوع الكهنة قائلاً احملوا تابوت عهد الرب، واعبروا أمام الشعب فحملوه، وساروا أمامهم ولما انغمست أقدام الكهنة حاملتي التابوت في حاشية المياه، والأردن طافح من جميع شطوطه كل أيام الحصاد، وقف الماء المنحدر من فوق وقام نداً واحداً ممتداً جداً، وانقطع الماء المنحدر إلى بحر الغور (البحر الميت) تماماً. وعبر الشعب قبالة أريحا ووقف الكهنة على اليبس حتى فرغ الشعب كلّ من عبور الأردن، ودعا يشوع بأمر الرب اثني عشر رجلاً من كل سبط قائلاً إرفعوا من ههنا من وسط الأردن من موقف أرجل الكهنة اثني عشر حجراً، واعبروا بها وضعوها في المبيت الذي تبيتون به الليلة. فرفع كل من الإثني عشر حجراً على كتفه، ووضعوها في مبيتهم لتكون تذكرة لهم أن مياه الأردن انفلقت أمام تابوت عهد الرب عند عبورهم الأردن. ونصب يشوع اثني عشر حجراً في وسط الأردن في موقف أرجل الكهنة حاملتي التابوت «وهي

هناك إلى يومنا هذا». ولما صعد الكهنة من وسط الأردن، رجعت مياه الأردن إلى موضعها وجرت كما كانت تجري قبلاً (يشوع فصل ١ إلى ٥).

لا مرأى بأن انفلاق مياه الأردن معجزة خارقة نظام الطبيعة، كشق البحر الأحمر وغيره من الآيات التي ذكرها الكتاب، ولا ينكر إمكان صيرورة المعجزات إلا من ينكر أن الله على كل شيء قدير، فيخرق نظام الطبيعة أو يغيّره كلّما شاء لأنه بادع كل كائن سواه وربه، وسنن الطبيعة طوع يده. وقال أوسايوس (في كتابه في المواضع العبرانية) إن الحجارة التي نصبت تذكرة لهذه الآية استمرت قروناً في محلها، وكان سكان تلك البلاد يدلون الغرباء عليها. وجاء في أخبار رحلة السائح الإفرنسي من بوردو الذي زار الأماكن المقدسة سنة ٣٣٣ للميلاد: «وبقي فوق ذلك الينبوع (وهو الذي حلّى الإشاع ماءه) اثر لبنت راحب البغي الذي دخله الجاسوسان فأخفتهما، ولما سقطت أسوار أريحا استمر هذا البيت سالماً، فهناك كانت أريحا التي دار بنو إسرائيل بتابوت العهد حول أسوارها، فتهدّمت ولا يظهر من آثارها إلا محل تابوت العهد والإثنا عشر حجراً التي رفعها بنو إسرائيل من الأردن». وجاء أيضاً في كتاب رحلة أنطونيوس الشهيد الذي كتب سنة ٥٧٠ أو سنة ٦٠٠ أن بيت راحب بقيت آثاره، وأقيم معبد للعدراء في محل الغرفة التي أخفت الجاسوسين فيها. وأما الحجارة التي رفعها بنو إسرائيل من الأردن فهي باقية وراء المذبح في كنيسة كبيرة غير بعيدة عن المدينة.

وجاء في الكتاب (يشوع ف ٥) أن الرب قال ليشوع لصنع لك سكاكين من صوان، واختن بني إسرائيل لأن من خرجوا من مصر كانوا مختونين فيها وماتوا. وأما جميع الشعب الذين ولدوا في البرية، فلم يختنوا لأنهم كانوا رحلاً لا مقر لهم في البرية مدة أربعين سنة، فاختن جميع هؤلاء. واستعمال السكاكين من صوان مؤذن بقدّم الختان، وقد مر في كلامنا في إبراهيم أن الله أمره أن يختن كل مولود من نسله. وأبناً ثمة أن الختان كان عند المصريين قبل إبراهيم، فهو منذ العصر الحجري أي مذ كانت الآلات القاطعة تصنع من حجر قبل أن اعتادوا صنعها من حديد. وحفظ على استعمال الآلات الحجرية رعاية وتذكرة للأصل. وقال بعضهم إن استعمال الصوان أسلم من استعمال الحديد لعدم تهيج محل القطع. وقد وجد الأب ريشار سكاكين من صوان سنة ١٧٧٠م في محلة بني إسرائيل، وسأتي على تفصيل ذلك عند الكلام في مدفن يشوع. وقد صرح الكتاب بأن محلّتهم

هناك دعيت الجلجلال إذ جاء في سفر يشوع (فصل ٥ عد ٩) «فقال الرب ليشوع: اليوم كشفت عار المصريين عنكم، فدُعِيَ ذلك الموضع الجلجلال إلى هذا اليوم». ولذلك قال يوسفوس: إنَّ معنى الجلجلال الحرية لأن بني إسرائيل تحرروا ثمة من عبودية مصر ومشاق البرية. وقال العالم كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١١٨) إنَّ الجلجلال كانت في المحل المسمَّى الآن تل جلجلول، واستشهد يوسفوس الذي قال: إنَّ الجلجلال كانت على بعد خمسين غلوة في غربي الأردن (عبارة عن مسير ساعة ونصف)، وعلى بعد عشر غلوات في شرقي أريحا (عبارة عن ١٨٥٠ متراً)، وحقق كاران بالمعينة أنَّ هذا الموقع هو المسمَّى الآن تل جلجلول. وتوجد مواضع أخرى تسمى الجلجلال سيأتي ذكرها وهناك صنع بنو إسرائيل الفصح، وأكلوا من غلة الأرض بعد الفصح فطيراً وفريكاً، فانقطع المن منذ أكلوا من غلة الأرض.

عد ٢١٤

سقوط أسوار أريحا وإسبال بني إسرائيل جميع ما كان فيها

كانت أريحا بمنزلة مفتاح لبلاد فلسطين وأنبأنا الكتاب (يشوع فصل ٦) أنَّها كانت مغلقة مقفلة من وجه بني إسرائيل لم يكن أحد يخرج منها ولا أحد يدخلها. فأمر الرب يشوع أن يطوف رجال الحرب حول المدينة كل يوم مرة، وأن يحمل سبعة كهنة سبعة أبواق الهتاف أمام تابوت العهد، وأن يطوفوا في اليوم السابع سبع مرات حول المدينة وينفخ الكهنة في الأبواق. ففعلوا كذلك وفي اليوم السابع طافوا حول المدينة سبع مرات، وفي الأخيرة منها نفخ الكهنة في الأبواق، وهتف الشعب كله هتافاً شديداً، فسقط السور المنيع مكانه، فصعد الشعب إلى المدينة كل واحد على وجهه. وأخذوا المدينة وأبسلوا كل ما فيها بحد السيف من رجل وامرأة، وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير. ولم يبقوا إلا على راحب البغي التي آوت الجاسوسين، وأبيها وأمها وإخوتها وجميع ما هو لها، وأقام هولاء بين بني إسرائيل. وقتل يشوع ملك أريحا كما صرَّح الكتاب في الفصول الآتية كما ستري.

وأحرق رجال الحرب المدينة وجميع ما فيها بالنار إلا الذهب والفضة، وآنية النحاس والحديد، فإنَّهم جعلوها في خزانة بيت الرب. وقد أباحهم الله هذا القتل

والتدمير ليشند رعبهم على سكان الأرض التي جعلها لهم ميراثاً، فيتيسر لهم إمتلاكها عنوة كما فعلوا. وقد أشار الكتاب إلى ذلك بقوله (يشوع فصل ٦ عد ٢٧): وكان الرب مع يشوع وذاع خبره في كل الأرض، ففر كثير من الكنعانيين من وجهه بأسه. وروى بروكوب أنه وجد في بلاد المغرب عمودان من حجر أبيض، نقش عليهما باللغة الفينيقية ما معناه، «لأننا نحن هم الذين فروا من سطو يشوع بن نون». رواه بوجولا في تاريخ أورشليم (مجلد ١ فصل ٢) وقال: حاول بعضهم أن ينكر صحة رواية بروكوب لكنهم لم يقيموا على زعمهم حجة إلا مجرد الإنكار لها.

قد لعن يشوع أريحا قائلاً: «ملعون لدى الرب الرجل الذي ينهض ويبنى هذه المدينة أريحا، يبكره يؤسسها، وبأصغر بنيه ينصب أبوابها». (يشوع فصل ٦ عد ٢٦)، وقد صدقت نبوته في حيثيل الذي من بيت ايل أريحا، فإنه شاء تجديد بنائها في أيام أحاب ملك إسرائيل. ففجع بموت بكره المسمى أيرام لدى تأسيسها، وبأصغر بنيه المدعو سحوب لدى إقامة أبوابها كما جاء نصاً في سفر الملوك الثالث (فصل ١٦ عد ٣٤)، ثم تهدم هذا البناء. ويظهر أن بعض بني إسرائيل جددوا بناء هذه المدينة بعد عودهم من الجلاء البابلي لا في محلها القديم بل على مقربة منه نحو الجنوب. وهذه المدينة الحديثة هي التي شرفتها أقدام المخلص مرات. إن كلمة أريحا تحتل أن تؤول بالقمر فإن يرحا **مهم** السريانية تأويلها القمر والشهر فكان سكانها الأولين من الكنعانيين كانوا يعبدون القمر، وتحتل أن تؤول بالرائحة فإن جناتها وورودها كانت شهيرة.

عد ٢١٥

محاربة بني إسرائيل أهل العي

إن مدينة العي التي يسميها يوسفوس عينا، وفي الترجمة العربية القديمة غاي، كان موقعها في الغربي الشمالي من أريحا. وجاء في كتاب أعلام الأماكن الكتابية المطبوع بنفقة اللجنة الإنكليزية للبحث في فلسطين، أنها كانت في المحل المسمى الآن تل عيان، في الشرقي الجنوبي من بيت اين التي هي بيت ايل القديمة أو في الجنوب الشرقي منها على مقربة من دير ديوان. وقال العالم كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٥٩) إن موقع العي في محل خربة الكديرة الآن، وإن روينسون

على ما يُظن هو أول من اهتدى إلى ذلك، وإنَّها في الجنوب الشرقي من بيت اين (بيت ايل)، وإنَّه متابع لروينسون على رأيه. فإلى هذه المدينة أرسل يشوع من أريحا قوماً يجسونها، فعادوا وقالوا ليشوع: لا تكلف كلَّ الشعب إلى هنالك، فإنَّ أهلها قلائل بل يصعد نحو ألفي رجل أو ثلاثة آلاف، فصعد نحو ثلاثة آلاف رجل فهزمهم رجال العي، وقتلوا منهم نحو ستة وثلاثين رجلاً فاذعر الشعب. ومزق يشوع ثيابه، وسقط على وجهه على الأرض قدام تابوت الرب هو وشيوخ إسرائيل يستعطفون الله على شعبه فقال ليشوع: قد أجرم إسرائيل بإخفائه ما حظر عليه أخذه من غنائم أريحا، ورمى القرعة بين الأسباط وعشائر كل سبط وبيوته ورجاله فأخذ عاكان بن كرمي من سبط يهوذا، فاستنطقه يشوع فقال: «رأيت في الغنيمة رداءً بابلياً حسناً، ومئتي مثقال فضة، وسبيكة من ذهب وزنها خمسون مثقالاً، فاشتيتها وأخذتها، وها هي مدفونة في الأرض في وسط خبائي والفضة تحتها». فأرسل يشوع فأخذ ذلك من وسط الخباء، وطرحه أمام تابوت الرب وأخذ عاكان والفضة والرداء والسبيكة وبناته وبقرة وحميته، وخباءه وأتوا بهم وادي عكور وهو الآن وادي كلت (كتاب أعلام الأماكن الكتابية). فرجموه بالحجارة وأحرقوه بالنار ورضي الرب عنهم لاقتصاصهم من الجرم الذي أسخطه بمخالفة أمره وقد شاء الرب ذلك ليكون عبرة وتذكرة لهم (يشوع ف ٧).

ثم سَير يشوع ليلاً ثلاثين ألف رجل جبابرة بأس، ليكنوا من وراء المدينة. وبكر غدوة وصعد هو وشيوخ إسرائيل أمام الشعب إلى العي، فخرج ملكها برجاله لقتالهم، فأظهر يشوع وعسكره الإنهزام أمامهم، فقتل أهل العي بني إسرائيل حتى أبعدوا عن المدينة. فسُدَّ يشوع حريته والعلم عليها، فوثب الكامنون على المدينة فدخلوها والقوا النار فيها، وخرجوا وراء أهلها فصار القوم في وسط إسرائيل هؤلاء من هنا واولئك من هنالك، فضربوهم حتى لم يبقَ منهم باقٍ ولا شريد، وقبضوا على ملك العي حياً، وقادوه إلى يشوع ورجعوا إلى المدينة. فقتلوا من بقي فيها فكان جملة من قتلوا من رجل وامرأة إثني عشر ألفاً. وغنم بنو إسرائيل سلب المدينة بحسب أمر الرب، وعَلَّق يشوع ملك العي على خشبة ثم ألقوا جثته عند مدخل باب المدينة، وجعلوا عليه جثوة كبيرة من الحجارة (يشوع فصل ٨) فكان ما عمله يشوع حيلة حرية كثرت أمثالها بين المحاربين. وأرشدتهم الله إليها نعمةً من سكان العي الآمورين، وتيسيراً لامتلاك

شعبه أرض موعدهم وهو مالك الأرقاب الذي يميت ويحيي ويجزي كلًا بما جنت
يداه.

عد ٢١٦

مسألة بني إسرائيل لسكان جبعون

أما جبعون فهي المسماة الآن الجيب أو الجب، وقال يوسفوس (تاريخ اليهود ك
٧ فصل ١١) إنها بعيدة عن أورشليم نحو خمسين غلوة (الغلوة ثلاث مئة إلى أربع
مئة ذراع) شمالاً، وقال كاران (ك ١ في اليهودية صفحة ٣٨٦): ليس من يقيم
نكيراً على أن جبعون هي المسماة الآن الجيب، وإنها بعيدة عن أورشليم نحو
الشمال عشرة كيلومترات أي مسافة نحو ساعتين. وإن بهاء الدين سماها في
ترجمة الملك صلاح الدين في أيام الصليبيين الجيب كما تسمى الآن. وكذا جاء
في كتاب أعلام الأماكن. وقال كلمت في معجم الكتاب إنها بعيدة عن الجلجال
مسافة ثماني ساعات أو تسع غرباً. فسكان هذه المدينة سمعوا بما فعله يشوع
بأريحا وبالعبي. فاحتالوا بأن أخذوا لحميرهم حقائب رثة، وزقاق خمر عتيقة مشققة
مرقعة، وجعلوا نعالاً مرقعة في أرجلهم، وثياباً بالية عليهم، وجميع خبز زادهم يابس
عفن، ومضوا إلى يشوع في محلة الجلجال. وقالوا: إنا قادمون من أرض بعيدة
على اسم الرب الهكم لأننا سمعنا بخبره، وبجميع ما صنع في مصر وبسبحون
ملك حشبون، وعوج ملك باشان. فأرسلنا شيوخنا وسكان أرضنا لقطع لهم عهداً
منكم وهذا خبزنا تزودناه سخناً من بيوتنا، وها هو الآن يابس وعفن، وهذه زقاق
الخمر ملأناها جديدة، وها هي مشققة وهذه ثيابنا ونعالنا قد تعتقت، ولم تلمس
جماعة إسرائيل مشورة الرب فسالموهم، وقطعوا لهم عهداً، وحلفوا لهم أنهم
يستبقونهم. ولكن سمعوا بعد ثلاثة أيام أنهم جيران لهم وساكنون بينهم، فأتوا
مدنهم وهي جبعون المحكى عنها وكفيرة وهي خربة فقيرة اليوم على بعد ثمانية
أميال في الشمال الغربي من أورشليم على ما في كتاب أعلام الأماكن، وعلى ما
روى كاران (مجلد ١ في اليهودية صفحة ٢٨٤). ثم بثروت وهي البيري الآن في
شمالي أورشليم، وشرقي رام الله كما في كتاب أعلام الأماكن، وكما روى كاران
(مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٩)

وقال: إنها على بعد نحو ثلاث ساعات من أورشليم في الطريق المؤدية منها

إلى نابلس والناصرية، وإنَّ التقليد الراجح الصحة يتبين منه ان هذا هو المحل الذي انتهت فيه العذراء، والقديس يوسف إلى تخلف يسوع عنهما، ثم قرية يعاريم (أي محل الأشواك)، والأظهر أنَّها المسماة الآن قرية العنب، وقرية أبي غوش على بعد تسعة أو عشرة أميال من أورشليم في الطريق المؤدي إلى يافا (كما في كتاب أعلام الأماكن وفي كتاب كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٦٢).

لم يضرب بنو إسرائيل أهل جبعون حرمة للعهد الذي قطعوه لهم، ومبرة ليمينهم بالله، وجعلهم يشوع والرؤساء محتطبي حطب ومستقي ماء لكل الجماعة ولمذبح الرب، فأذعنوا لذلك ورعوا الزمام لبني إسرائيل في ما عُثِنُوا له (يشوع فصل ١٠)، على أنَّ شاول أهلك جمّاً غفيراً منهم لحسابه أنه يلزمه استئصال بقايا الكنعانيين والجبعونيين من الحووين. فانتقم الله لدمهم بمجاعة في أيام داود دامت ثلاث سنين، وكفّر داود عنها بتسليمه إلى الجبعونيين سبعة من ولد شاول فقتلوهم. وقد صرّح الكتاب بذلك في الفصل الحادي والعشرين من سفر الملوك الثاني. ولم يأت الكتاب بعد ذلك بذكرهم بمنزلة فصيلة مستقلة.

عد ٢١٧

تألب ملوك الجنوب على يشوع وبني إسرائيل

قال الكتاب (يشوع فصل ١٠): ولما سمع أدونيصادق ملك أورشليم بما فعله يشوع بأهل أريحا، وملكها وأهل العي وملكها، وإنَّ أهل جبعون سالموا بني إسرائيل، وأقاموا فيما بينهم، فخاف خوفاً شديداً لأن جبعون مدينة عظيمة مثل إحدى المدن الملكية، وهي أكبر من العي وجميع رجالها جبابرة. فأرسل أدونيصادق إلى هوام ملك حبرون وهي الخليل، وإلى فرام ملك يرموت، وهي المعروفة الآن بخربة يرموك على مسافة نحو ثلاث ساعات شمالاً من بيت جبرين، ويافيع ملك لاكيش «وهي المعروفة الآن بخربة أم الاكيس في الغرب الجنوبي من بيت جبرين، وفي غربي عجلون الآتي ذكرها». ثم «دبير ملك عجلون» وتعرّف إلى الآن بهذا الاسم، وهي في الغربي الصريح من بيت جبرين على مسافة أربع ساعات، وتبعد ستة عشر ميلاً عن غزة شمالاً (أعلام الأماكن

وكانان في مجلد ٢. في اليهودية). وأرسل ملك أورشليم يقول لهؤلاء الملوك الأربعة: هلموا إليّ وناصروني، فنضرب جبعون لأنها سالت يشوع وبني إسرائيل. فاجتمعوا ونزلوا على جبعون وحاربوها. فاستنجد أهلها بيشوع، فزحف عليهم بغتة سائراً الليل كله من الجلجال فهزم الرب ملوك الآموريين ورجالهم، وضربهم ضربة عظيمة في جبعون، وتعقبهم يشوع في طريق عقبة بيت حورون (وهي المعروفة اليوم بيت أور في الغرب من الجب (جبعون)، وهي محلطان عليا وسفلى واستمر بنو إسرائيل يطاردونهم إلى عزيقة لم يتعين إلى الآن موقعها فهي بين بيت جبرين وأورشليم قرية من خربة الشويكة^(١). وإلى مقيدة وقال أوسايوس: إنّ هذه المدينة بعيدة ثمانية أميال عن بيت جبرين، وفي كتاب أعلام الأماكن الكتابية أنّه يحتمل أن كان موقعها في محل قرية المغار الآن، وقال فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ١٨٦): ويحتمل أن يكون موقعها عند سفح جبل بيت أور قريباً من السهل وبين كان ملوك الآموريين منهزمين من وجه إسرائيل في مهبط بيت حورون (بيت أور)، رماهم الرب ببرد كالحجارة فقتل منهم كثيرين، وهرب الملوك الخمسة، واختبأوا في مغارة بمقيدة فقال لهم يشوع: دحرجوا حجارة كباراً على فم المغارة. ووكلوا عليها قوماً يحفظونها، وأنتم هلموا على أعقاب أعدائكم وأهلكوا ساقتهم. ففعلوا كذلك حتى أفنواهم ودخل من بقي منهم المدن المحصنة، ورجعوا إلى يشوع في مقيدة وفتحوا فم المغارة، وأخرجوا الملوك الخمسة منها وضربهم يشوع وقتلهم، وعلقهم على خمس خشبات إلى المساء ثم أنزلوهم عن الخشب، وطرحوهم في المغارة التي اختبأوا فيها وجعلوا على فم المغارة حجراً كبيراً، وفتح يشوع في

(١) ففي كتاب أعلام الأماكن الكتابية ومواقعها ان عزيقة كانت في تل زكريا أو في دير العاشق فزكريا هي بين بيت جبرين وبيت الجمال ودير العاشق في وادي سارق وقال كانان (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٣٣) ان عزيقة لا بد ان تكون قرية من سوكو لأنهما ذكرتا معاً في آيات عديدة ومنها في سفر الملوك الأول ١٠ فصل ٧ عد ١) حيث قيل ان الفلسطينيين «نزلوا بين سوكو وعزيقة» حيث صرع داود جليات الجبار ولا وراء ان سوكو هي خربة الشويكة البعيدة سبعة أميال ونصف عن بيت جبرين إلى جهة أورشليم وعزيقة أقرب منها إليها. وقد ذكر أوسايوس والقديس ايرونيوس أنها بين بيت جبرين وأورشليم. وذكر الآب فيكورو (في معجم الكتاب) كل هذه الأقوال وقال إنّ كلمة عاشق يمكن ان تكون مكسر عزيقة وان كانت بعيدة عن الشويكة.

ذلك اليوم مقيدة وضربها بحد السيف، وأبسل ملكها وكل الأنفس التي فيها.

عد ٢١٨

ايقاف يشوع الشمس والقمر عن مسيرهما

جاء في الكتاب : إنه لما كان بنو إسرائيل يطاردون ملوك الآموريين، كلم يشوع الرب، «فقال على مشهد إسرائيل: يا شمس قفي على جبعون ! ويا قمر أثبت على وادي أيتالون ! فوقفت الشمس وثبت القمر إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم... فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تمل للمغيب مدة يوم كامل، ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب لصوت إنسان» (يشوع فصل ١٠ عد ١٢ وما يليه)، قال الأب فيكورو (في الموجز الكتابي عد ٤٢٥ وما يليه): أن هنا أربعة مباحث في أي وقت من النهار أوقف يشوع الشمس؟ وكم كانت مدة وقوفها؟ وبأية وسيلة صنع الله هذه الآية، وكيف يرد ما ورد عليها من الاعتراض؟ وقال في المبحث الأول: إن وقت وقوف الشمس كان عند مغيبها فلا محل لالتماس الآية إلا عند مدهامة الليل، وكفه بني إسرائيل عن تتبع أعدائهم. وقوله في كبد السماء يرادف قوله في السماء، ولا يمكن تحقيق مدة وقوف الشمس لأن الآية في النص العبراني، «ولم تمل (الشمس) للمغيب مدة نحو يوم كامل، ولم يكن مثل ذلك اليوم». فهذا النص قيد المدة بنحو يوم كامل ولم يطلقه، وليس فيه الكلمات «قبله ولا بعده». فكان ذلك مانعاً من تحقيق المدة ومؤذناً فقط بأن الوقت كان طويلاً على أن ميمونيد اليهودي، وبعض البروتسطنت وقليلاً من العلماء الكاثوليكين أيضاً وهموا أن كلام يشوع مجازي وشعري ليس المراد منه إلا أنني يشوع طول ذلك النهار، ووقوف الشمس لاستئصال بني إسرائيل أعدائهم لا إن النهار طال أو الشمس وقفت حقيقة واستمسك أصحاب هذا الرأي بقول الكتاب، «وذلك مكتوب في سفر المستقيم» قائلين ليس هذا السفر إلا نفثات شعرية على أن زعمهم مردود بصراحة أي الكتاب وأجماع التقليد على مخالفته.

وأما بأية وسيلة أطلال النهار؟ فلا يخلو أن يكون إما بأن الله أوقف الكرة الأرضية عن دورانها اليومي، إما بأنه جعل أنوار الشمس تضيء بني إسرائيل

كلما لزم من الوقت للحاقهم أعدائهم دون إيقاف الأرض بغتة عن حركتها، فيرد على الأول: إنَّ وقوف الأرض عن حركتها ينشأ عنه طبعاً دمار عام في الكائنات الأرضية كهدم الأبنية، ودك الجبال، وتشوش كبير في الأجرام السماوية، وخروج الأرض عن نقطة دورانها بتشوش حركة القمر. وقد فات المعارضين أنَّ الله الذي هو قادر على إيقاف حركة الأرض هو قادر أيضاً على تدارك ما ينتج عنه من الغوائل الطبيعية. وإنَّ حركة الأرض السنوية حول الشمس، وحركة القمر حول الأرض، لا علاقة لهما بدوران الأرض اليومي على محورها، وأمَّا على التفسير الثاني وهو وقوف الشمس ظاهراً دون إيقاف حركة الأرض، فلا يعسر على الله وهو على كل شيء قدير أن يتصرف بأشعة نور الشمس كما يشاء بانبعائها، أو انكسارها لتتير أرض فلسطين، فبعد مغيب الشمس نرى أنوارها في الأفق مدة الشفق، وقبل بزوغها إلى الأفق نرى أنوارها فيه مدة الفلق، فهل يعسر على الله أن يطيل مدة الشفق ساعات عديدة في صقع مخصوص؟ وحيثُ لا يصدق القول: إنَّ الشمس واقفة وإنَّ النهار طال، ولا يتأتى من ذلك دمار في الكائنات الأرضية ولا تشوش في الأجرام السماوية.

فيقول الجاحدون لا أثر في تواريخ القبائل القديمة لوقوف الشمس، أو لطول نهار أكثر من عادته، ولو صدق كلام يشوع لظهر هذا الوقوف في البسيطة كلها فلا يعتد بقولهم، إذ لا تاريخ لذلك العصر، وليس ما يثبت أنَّ طول النهار عم غير فلسطين. فيقولون أيضاً إنَّ حركة الأرض أو الشمس مخالف لسنن الطبيعة ولكن لا يستطيع باري الطبيعة الذي فرض لها هذه السنن أن يغيّرها أو يصرف قوتها إلى ما شاء؟ وقد تكلم كاتب السفر المقدس في وقوف الشمس بحسب مفهوم القوم في ذلك العصر، ولم يكن عليه وهو في معمة الحرب أن يراعي علم الفلك، ويخاطب قومه بما لا يعلمون. فهذا ملخص ما جاء به الأب فيكور في كتابه المارّ ذكره. وقد أطلال واجاد بكلامه على هذه الآية في كتابه الآخر الموسوم بالأسفار المقدسة وانتقاد العقليين لها (مجلد ٤ من صفحة ٤٥٩ إلى صفحة ٤٨٥) حيث أفصح بأن نبد مجمع الفصح المقدس مقالات كلبلاي التي أثبت بها دوران الأرض حول الشمس لم يكن من العقائد الدينية ولم يثبت أحد من الأحبار الأعظمين بمنزلة سئة في الكنيسة. وإنَّ القول بأن الأرض تدور حول الشمس لم يكن حديثاً بل قال به البيتاغوريون لنحو خمسة قرون قبل

التاريخ المسيحي. وأثبته نيقولاوس دي كوسا في إيطاليا. ولم تنبذه الكنيسة بل رقت القائل به إلى مقام الكردينالية، ثم أثبته نيقولاوس كوبرنيكوس في القرن الخامس عشر قبل كليلاي، وقد فرط من مجمع الفحص نبذ مقالات هذا العالم فالكنيسة الكاثوليكية لا تعتبر كل ما جرى في إحدى المجمع الرومانية معصوماً من الضلال، بل هذه العصمة لرأسها المنظور متى بت أمراً بمنزلة معلّم للكنيسة كلّها وأمر جميع المؤمنين بتنزيله منزلة عقيدة دينية ولم يأمر أحد من الأحرار الأعظمين بشيء من ذلك في شأن مذهب كليلاي.

عد ٢١٩

افتتاح يشوع مدناً أخرى في جنوبي فلسطين

قال الكتاب (يشوع ف ١٠ عد ٢٩): «ثم اجتاز يشوع وجميع اسرائيل معه من مقيدة إلى لبنه، وحاربها فاسلمها الرب ايضاً إلى أيدي اسرائيل هي وملكها... وقتلوا كل نفس فيها لم يبقوا فيها باقياً وفعلوا بملكها كما فعلوا بملك أريحا». وموقع لبنه غير معين إلى الآن ففي اعلام الأماكن الكتابية أنّ موضعها غير معروف. وقد ذكر اسمها بين مقيدة ولاكيش، وفي معجم الكتاب لكلمت أنّ اوسابينوس والقديس ايرونيμος قالوا إنها كانت في عمل بيت جبرين. واجتاز يشوع من لبنه إلى لأكيش (خربة ام الاكيس طالع عد ٢١٧) فافتتحوها في اليوم الثاني، وقتلوا كل نفس فيها كما فعلوا بلبنه. وصعد هورام ملك جازر لنصرة لأكيش فضربه يشوع هو وقومه حتى لم يبق منهم باقياً. أما جازر ففي اعلام الأماكن الكتابية انها تسمى اليوم تل جازر وهي بعيدة أربعة اميال نحو الغرب من عمواص المسماة قديماً نيكوبوليس. واجتازوا من لأكيش إلى عجلون وتسمى الآن أيضاً بهذا الاسم (طالع عد ٢١٧) وحاربوها وافتتحوها في ذلك اليوم وضربوا أهلها بحد السيف وصعدوا من عجلون إلى حبرون (الخليل) وحاربوها، وافتتحوها، وضربوها بحد السيف هي وملكها ومدنها وكل نفس فيها. وعادوا إلى دبير (وسماها الكتاب في محل آخر قرية سفر أي قرية الأسفار أو الكتب، ورجّح كاران أنها كانت في المحل المسمى الآن خربة سراسير وخربة دويربان في ناحية الخليل. وذكر قول العالم وان دي فلد أنها كانت في محل خربة الدلبة التي تبعد مسافة ساعتين عن الخليل نحو الجنوب الغربي وضعف هذا القول). وحاربوها

وأخذوها هي وملكها وسائر مدنها، وضربوهم بحد السيف. وضرب يشوع جميع أرض الجبل أي جبل اليهودية والجنوب والسهل والسفوح وقتل ملوكها واستحوذ على جنوب فلسطين كله ولم يبق من أهله إلا من تحصنوا في الحصون، ولم يفتح أورشليم حينئذ وإن قتل ملكها.

عد ٢٢٠

اعتصاب ملوك شمال فلسطين على بني اسرائيل وتشتيت يشوع شملهم

أخذ الرعب من ملوك الكنعانيين الشماليين كل مأخذ، وراعهم أن يسطو يشوع عليهم كما سطا على ملوك الجنوب، فعمدوا إلى مهاجمة بني اسرائيل قبل دنوهم إليهم، واعتصبوا يداً واحدة. وكان مقدام هذه العصابة يابن ملك حاصور. فقد جاء في سفر يشوع (فصل ١١ عد ١) ولما سمع يابن ملك حاصور ما فعله يشوع بملوك الجنوب، أرسل إلى يوباب ملك مادون وإلى ملك شمرون وملك اكشاف ليناصروه في محاربة بني اسرائيل. أما حاصور مدينة رئيس العصابة فالذي في اعلام الأماكن الكتانية يرجح أنها كانت في جبل حصيره في الجليل قرية من قادمين والذي اعتمده كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٦٤). مسنداً إلى آيات عديدة ذكرت فيها حاصور وإلى أقوال ليوسفوس أن هذه المدينة كانت على بحيرة الحولة عند طرفها الشمالي الغربي في المحل المسمى الآن تل الخراوي، وجعلها روينسون في خربة الخريبة، ودي سولسي في خربة الخان وكل هذه الأماكن قرية من بحيرة الحولة. وأما مادون فيرجح أنها كانت في محل خربة مادين في غربي بحيرة طبرية، وشمرون سمونيه هي الآن قرية صغيرة تبعد خمسة أميال عن الناصرة غرباً. واكشاف كفر ياسيف الآن هي قرية تبعد ستة أميال عن عكا في الشمال الشرقي منها (عن اعلام الأماكن في أسماء هذه المدن الثلاث). ويرجح كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٢٦٩) أن موقع اكشاف كان في قرية كشاف على بعد كيلومترين من الطيبة في قضاء نابلس.

لم يقتصر يابن على دعوة الملوك الآنف ذكرهم لمظاهرة لأن الكتاب قال (عد ٢) إنه أرسل أيضاً «إلى الملوك الذين إلى الشمال في الجبل وفي الغور

جنوبي كثُروت وفي السهل وفي بقاع غور غرباً وإلى الكنعانيين شرقاً وغرباً، والآموريين والحثيين واليبوسيين في الجبل، والحويين تحت حرمون في أرض المصفاة» المتبادر إلى الفهم من قوله إلى الشمال في الجبل ان المراد الملوك الذين كانوا في لبنان أو في أطرافه من جهة مرج عيون، وبلاد الشقيف فهي في الشمال من مملكة يابان، وأما كثُروت فقال فيها كاران (مجلد ١ في الجليل صفحة ٢١٠) إنها كانت في المحل المسمى الآن أبو شوشة في جانب بحيرة جناشر التي هي بحيرة طبرية، وان اسم كثُروت في اللاتينية Genereth جنرات أو كنرات على الاصطلاح القديم ليس هو إلا اسم كنروت في العبرانية، وبهذا الاسم سميت بحيرة جاناشر نسبة إلى المدينة القديمة التي كانت في جانب البحيرة. وقال القديس ايرونيوس ان هيرودس ملك اليهودية جدّد هذه المدينة، فدعاها طبرية باسم طياريوس قيصر. وقالوا إنّه اول من سماها به وجاء في التلمود الأورشليمي ان كثُروت المذكوة في سفر يشوع بن نون، هي جاناشر وأن اسمها مركب من جنا جنة وسار بمعنى ملك فتأويله جنة الملك أو الجنة الملكية لخصب أراضيها، وقد مر في اعلام الحثيين أن سار بمعنى ملك.

وأما بقاع غور غرباً فيتبادر إلى الفهم أن المراد به الجولان فهو في غربي بحيرة طبرية وشمالها. والمراد في الجبل بعد قوله اليبوسيين جبل اليهودية، وحرمون جبل الشيخ. وأما أرض المصفاة فالذي في كتاب الاعلام الكتابية أنّه يظهر أنّها البقاع. ويؤيده أنه جاء بعد ذلك (عد ٨) إن بني إسرائيل ضربوا هؤلاء الملوك وتعقبوهم إلى صيدون (صيدا) الكبيرة وبقعة المصفاة شرقاً. فخرج هؤلاء الملوك في خلق كثير، وبخيل ومراكب عديدة جداً، ونزلوا جميعاً على مياه ميروم لمحاربة بني إسرائيل وأمر الرب يشوع أن لا يرهبهم، فخرج يشوع عليهم بجميع رجال الحرب، وانقضوا عليهم بغتة عند مياه ميروم والمراد بها بحيرة الحولة على ما في الاعلام الكتابية وفي كتاب كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٤٥٠).

ولكن جاء في معجم الكتاب لكلمت أنّ مياه ميروم هي في ناحية الكرمل قرية من مجدو (اللجون الآن)، وأسند قوله إلى أنّ الملك يابن وحلفاءه لا يدعون يشوع يتوغل في بلادهم إلى بحيرة الحولة، فالأوجه أن يقطعوا عليه الطريق عند مضيق مجدو، كما فعل ملوك سورية مراراً بملوك مصر عند غزوهم

بلادهم. ومهما يكن من أمر المكان فقد أسلم الرب يايين وحلفاءه وجيوشهم إلى أيدي بني إسرائيل فضربوهم، وتعقبوهم غرباً إلى صيدا وإلى مياه سرفوت (وهي صرند على ما في كتاب الاعلام وقيل إنها بحيرة طبرية). وشرقاً إلى بقعة المصفاة وهي البقاع كما مر حتى لم يبقَ منها باق. وعرقب يشوع خيلهم واحرق مراكزهم بالنار وافتتح حاصور مدينة رئيس العصبة وأحرقها، وقتل ملكها يايين واستولى على كل تلك المدن، وأبسل ملوكها بحد السيف، وغنم بنو إسرائيل غنائم تلك المدن، وقتلوا أهلها وانبسط حكم يشوع من الجبل الأملس الممتد جهة سعيم وهو في بلاد الأدوميين إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون، وبعل جاد هي بانياس من منبع الأردن على ما في كتاب الاعلام الكتابية.

عد ٢٢١

محاربة يشوع بني عناق وتدويخه بلادهم

عاد يشوع ظافراً غانماً في شمالي فلسطين إلى جنوبيها فحارب بني عناق وقرضهم (يشوع فصل ١١ عد ٢١). وبنو عناق هم ولد عناق بن أربع، وبه سميت الخليل في أقدم الأعصر قرية أربع. ثم دعيت حبرون في أيام ابراهيم الخليل والآن الخليل. وجاء في سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٣)، وفي سفر يشوع (فصل ١٥ عد ١٤) أنه كان لعناق ثلاثة بنين، وهم شيشاي وأحيمان وتلماي، فكانوا آباء عشائر دُعيت بني عناق وكانوا جبابة حتى قال بنو إسرائيل إنهم كانوا في أعينهم كالجراد وكانت مواطنهم الخليل وغزة واشدود وغيرها في جنوبي فلسطين. وقد قرضهم يشوع من حبرون (الخليل)، ودير (خربة سراسير طالع عد ٢١٩)، وعتاب هي المسماة الآن أيضاً بهذا الاسم تبعد عن دير ميلين ونصف غرباً على ما في كتاب اعلام الأماكن الكتابية، وفي كتاب كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٦٥). وقد سماها خربة عناب الكبيرة. وطردهم يشوع أيضاً من سائر جبل يهوذا، ولم يبقَ عناق في أرض بني إسرائيل إلا في غزة الباقية على اسمها، وفي جت وهي الآن تل الصافي بعيدة خمسة أميال عن بيت جبرين في الطريق المؤدية منها إلى اللد على ما في اعلام الأماكن الكتابية. أو هي ذكرين في الطريق المذكورة، وأقرب من تل الصافي إلى بيت جبرين على ما في كتاب كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ١٠٩). ثم في أشدود أسدود الآن في ناحية المجدل من

شمالي عسقلان. وقد مرّ في (عد ٢١٩) إنّ يشوع حارب سكّان حبرون وديبر وقتل ملكيهما كما في سفر يشوع (فصل ١٠ عد ٣٦ و ٣٨)، ثم ذكر (فصل ١١) ما جاء هنا، فكأنّه افتتح حبرون وديبر قبل محاربة يايين كما في الفصل العاشر ثم ذكر قرضه العناقيين منهما ومن باقي مدنهم في الفصل الحادي عشر أو ذكر فتحهما استطراداً مع باقي المدن التي افتتحها مع هذا الفتح لم يكن إلّا بعد انتصاره على يايين وحلفائه في الشمال.

وكذا ولي بنو إسرائيل أرض فلسطين في مدّة ست سنين أو سبع، واستفحل أمرهم فيها ولكن بقي الكنعانيون في المدن البحرية وفي بعض المدن المحصّنة وفي غزة، وجت (ذكرين) واشدود وعسقلون وعقرون (عافر الآن). وهي المدن الخمس التي فرّ إليها بنو عناق، وتحصّنوا فيها وقد حلّ فيها بعداً الفلسطينيون فكانت مراكز أقطابهم واستمر كثير من الكنعانيين في أملاك سبط افرايم وفي الأرض التي أعطيتها نصف سبط منسى في عبر الأردن. وفرّ كثير منهم إلى المدن البحرية وتشتتوا جاليات في الآفاق كما مرّ في مقالة الفينيقيين. وقد عدّ يشوع (فصل ١٢) الملوك الذين قتلهم بنو إسرائيل، فكانوا واحداً وثلاثين ملكاً منهم سيحون ملك الأموريين وعوج ملك باشان قتلها موسى. وباقيهم وهم تسعة وعشرون ملكاً قتلهم يشوع بن نون وقد مرّ في عد ٢١٢ ذكر ما كانت عليه حالة هؤلاء الملوك وإنّ الآثار المصرية أثبتت تقسيم فلسطين في تلك الأعصر إلى ممالك صغيرة كهذه.

عد ٢٢٢

قسمة أرض فلسطين على بني إسرائيل

قد أمر الرب يشوع أن يقسم ما ملكوه من البلاد على بني إسرائيل، وإن بقي قسم كبير من أرض موعدهم بيد أعدائهم في فلسطين وغيرها. وكان موسى قسم في أيامه ما ملكوه في عبر الأردن على بني راويين وبني جاد ونصف سبط منسا. وكان رجال هؤلاء تجنّدوا مع إخوانهم في حروبهم السالف ذكرها بل كانوا في مقدمة جيوشهم كما تعهّدوا أمام الرب وموسى حين رغبوا إليه أن يعطيهم أرض عبر الأردن ميراثاً كما مرّ. فأطلقهم يشوع بعد حروبه فعادوا إلى أرضهم وأهلهم. أمّا نصيب سبط راويين فكان في شرقي البحر الميت، وكان من مدنهم عروعر

(عراير الآن)، وميدبا (وتعرف اليوم أيضاً بهذا الاسم)، وحشيون (حسبان الآن) إلى غيرها من المدن والسهول. وكانت هذه البلاد مملكة سيحون ملك الأموريين، وكانت قبله بلاد الموآبيين وهي الآن في ولاية البلقاء. وكان نصيب بني جاد في شمالي نصيب رآوين ومن مدنه جلعاد وهي السلط ويعزير وهي بيت زرعة الآن ورثة أو ربة عمون وهي عمان الآن، ودعيت في زمان اليونانيين فيلادلفيا. ويمتد هذا النصيب على عدوة الأردن الذي هو تخم له طرف بحر كنارت وهو بحيرة طبرية، وكانت هذه البلاد بلاد العمونيين. وكان قد استحوذ سيحون على بعضها وعرج على بعضها الآخر. وأما نصيب نصف سبط منسا فكان في شمالي نصيب جاد، وهو جميع السهول الواقعة على عدوة الأردن الشرقية بين بحيرة طبرية جنوباً وبحيرة الحولة شمالاً، حيث الجولان الآن وكان من مدنها إدرعي أذرعات الآن وعشتاروت والراجح أنها تل عشترة في الجولان. وهذه البلاد كانت مملكة عوج ملك باشان، فهذه البلاد هي التي قسمها موسى على سبطي رآوين وجاد ونصف سبط منسا وكلها في عبر الاردن شرقاً.

وبعد أن استراح يشوع من حروبه اجتمع هو واليعازر رئيس الأخبار ورؤساء الأسباط، وقسموا الأرض التي ملكوها في غربي الأردن بالقرعة، وبعد أن أفرزوا أنصبة سبطي يهوذا وافرثيم ونصف سبط منسا، وبقي سبعة الأسباط متقاعدون عن امتلاك أرضهم، فأمرهم يشوع أن يأخذوا من كل سبط ثلاثة رجال يسيرون في الأرض، ويخططونها ويقسمونها سبعة أقسام، وأن يعودوا إليه فيلقى القرعة أمام الرب فيمتلك كل منهم ما أصابه، ففعلوا فكان نصيب كل من الأسباط بعد هذه القرعة كما يأتي.

فكانت تخوم سبط يهوذا شرقاً البحر الميت، وغرباً نصيب شمعون، وجنوباً البرية وتخوم مصر، وشمالاً نصيب سبط بنيامين في أورشليم وما جاورها، ونصيب سبط دان فكان في هذا السهم ناحية الخليل وما في جوارها. وأصاب سبط شمعون ما يتاخمه غرباً البحر المتوسط، وشرقاً نصيب بني يهوذا وما كان باقياً في يد بني عناق غزة وما جاورها، ومن مدنه بئر سبع وتل الشريعة. وأصاب سبط بنيامين أورشليم وما جاورها شرقاً إلى نهر الأردن، وغرباً إلى قرية يعريم (أبي غوش الآن) وتخوم سبط دان، وجنوباً نصيب سبط يهوذا، وشمالاً نصيب سبط افرثيم ومن مدنه أورشليم وأريحا وجبعة. وأصاب سبط دان ما تخومه غرباً البحر

المتوسط. وشرقاً أملاك سبط بنيامين، وشمالاً نصيب بني افرائيم، وجنوباً نصيب بني يهوذا. فكان نصيبا بنيامين ودان متحاذيين شرقياً وغريباً. الأول في الجبل وفيه أورشليم إلى الأردن، والثاني في غريبه وفيه يافا والد وصرعة. وأصاب سبط افرائيم ما يحده شرقاً نهر الأردن من تخم بنيامين إلى تخم منسا، وغرباً البحر المتوسط على تخم دان، وجنوباً أملاك دان وبنيامين، وشمالاً أملاك نصف سبط منسا، وفي هذا النصيب نابلس الآن وسبسطة وهي السامرة وكفرسابا إلى غيرها. وأصاب نصف سبط منسا ما يتاخمه شرقاً نهر الأردن بين تخمي افرائيم ويساكر، وغرباً البحر المتوسط إلى جبل الكرمل، وجنوباً أملاك بني افرائيم، وشمالاً نصيبا زابلون ويساكر. ومن مدنه قيسارية فلسطين وعملت ودورا وهي الطنطورة الآن. وأصاب سبط يساكر ما يحده شرقاً نهر الأردن بين تخمي منسا وزابلون، وغرباً أملاك زابلون ومنسا، وشمالاً نصيب منسا، وجنوباً نصيب منسا وجنوباً نصيب زابلون وكان في هذا النصيب جانب كبير من مرج بن عامر وناحية جنين وجلبون وهي جلبوع القديمة ونورس ونين وهي نائين القديمة.

وأصاب سبط زابلون ما يحده شرقاً نهر الأردن وبحيرة طبرية، وغرباً البحر المتوسط في جهة حيفا، وشمالاً نصيب سبط نفتالي وآشير، وجنوباً أملاك سبطي يساكر ومنسا. ومن مدن هذا السهم طبرية والناصرية وما بينهما وفي جوارهما من المدن. وأصاب سبط آشير ما يحده غرباً البحر المتوسط في جهة صيدا وصور وعكا، وشرقاً سهم سبط نفتالي، وشمالاً بلاد الشقيف واقليم الشومر، وجنوباً سهم زابلون، وكان في سهم آشير الجانب الأكبر من بلاد بشاره الآن وبعض الشومر والشقيف وبعض سنجد عكا. وأصاب سبط نفتالي ما يحاذي سبط آشير شرقاً، فكان لأشير البلاد الساحلية، ولنفتالي البلاد الجبلية. فكانت حدود نصيبه سهم آشير غرباً ونهر الأردن من بحيرة طبرية إلى بحيرة الحولة شرقاً، وناحية مرج عيون وبعض الشقيف شمالاً، وسهم زابلون جنوباً، ومن مدنه صفد وقنس وهي قادس القديمة والجش والجرمق وناحية الشاغور. وسوف نعلق في آخر هذا المجلد خريطة سورية وفي جانبها خريطة هذه الأسهم إن شاء الله. ولم يعط بنو لاوي سهماً معيناً بل أعطوا ثمانياً وأربعين مدينة أو قرية مشتتة في أنصبة أسباط إسرائيل ليقيموا بخدمة الرب بينهم؛ ومنها ست مدن للملجأ حتى يهرب إليها كل قاتل نفساً سهواً بغير عمد. وكانت هذه المدن الست، ثلاث في عبر الأردن وهي باصر (بص

الحريري) في سبط راوبين، وراموت جلعاد (السلط) في سبط جاد. وجولان في باشان في سبط منسا (طالع عد ٢٠٩). وثلاث في غربي الأردن، وهي قادش في الجليل في نصيب نفتالي في غربي بحيرة الحولة على ما في أعلام الأماكن كما مرّ آنفاً. ثم شكيم في جبل افرائيم وهي نابلس الآن. ثم حبرون في جبل يهوذا وهي الخليل. وقد تقدم كالب بن يوفنا إلى يشوع راغباً في أن يعطى جبل حبرون كما وعده موسى بعد عوده من تجسس أرض الموعد فأعطيه. فطرد بني عناق من هنالك، وصعد إلى دبير (سراسير) ووعد من يأخذها أن يعطيه ابنته عكسة زوجة، فانتحها ابن اخيه فأنجز وعده له (يشوع فصل ١٥). على أن ما أعطيه كالب إنما هو صحراء حبرون وقراها. وأما المدينة فأعطيتها بنو هرون كما هو مصرّح في سفر يشوع (فصل ٢١ عد ١٢). ووقع تخم بني دان الذي كان في جهة يافا ضيقاً عليهم، فصعدوا وحاربوا لاشم وضربوا أهلها بحدّ السيف وسكن بعضهم فيها، وسموها لاشم دان باسم دان أبيهم. وتسمى لايش ودان وموقعها في محل تل القاضي حيث ينابيع الأردن، تبعد ميلين غرباً عن بانياس (كتاب أعلام الأماكن الكتابية وكاران مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٣٨).

وبعد الفراغ من قسمة الأرض أعطى بنو إسرائيل يشوع بأمر الرب المدينة التي طلبها وهي ثمنة سارح في جبل افرائيم، فبنى المدينة وأقام فيها بين بني افرائيم لأنه من سبطهم (يشوع فصل ١٩). وثمنة سارح هي الحلّ المعروف الآن بخربة تبة في جبال افرائيم، تبعد نحو ساعتين ونصف نحو الشمال الغربي من جفنة وسنجيء على ذكر هذا الحل عند الكلام في مدفن يشوع.

عد ٢٢٣

نصب خباء المحضر في شيلو

جاء في سفر يشوع (فصل ١٨ عد ١): «والتأمت كل جماعة بني إسرائيل في شيلو، ونصبوا هناك خباء المحضر وأخضعت الأرض بين أيديهم». وشيلو هذه تسمى الآن خربة سيلون. وقال أوسايوس أنها بعيدة اثني عشر ميلاً عن نابلس جنوباً. وقال القديس ايرونيوس أنها تبعد عنها عشرة أميال فقط، ورجّح كاران قول أوسايوس وهي في شمال (بيت اين)، وفي شرقي الطريق المؤدي من بيت اين

الى نابلس (كاران مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٤). وقال الأب فيكورو:
(الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ١٨٩) إن روينسون الجوّالة
الاميركي هو أول من اهتم الى موقعها سنة ١٨٣٨ م، وأنّ تعيين موقعها في
سيلون لا مريّة فيه. فهناك أقيم خباء المحضر ووضع فيه تابوت العهد، واستمر ثمة
إلى أن أخذه الفلسطينيون في زمان عالي الكاهن كما سترى. وقال علماء اليهود
إنّ تابوت العهد بقي في شيلو ٣٦٩ سنة. فكان هناك المركز الديني لبني إسرائيل
كما كانت أورشليم بعداً، ولما بنى بنو رآوين وجاد ونصف سبط منسا مذبحاً
للرب في عبر الأردن، قلق منهم بنو إسرائيل وهتموا بقتالهم ثم اكتفوا بأن يرسلوا
إليهم فنحاس بن اليعازر الكاهن، ومعه عشرة رؤساء لينذروهم بالإنكفاف عن هذه
المعصية فأذعنوا، واعتذروا بأنهم لم يقدّموا على ذلك إلا ليكون لهم مذبح للرب
كماخوانهم في غربي الأردن (يشوع ف٢٢). وفي سيلون الآن أطلال على أكمة
يُستدلّ منها أنه كان هناك خباء المحضر حتى حملت رؤية هذه الأطلال للجنة
الإنكليزية التي تفحصت عن آثار فلسطين سنة ١٨٧٨م على القطع بأنه هناك كان
بيت الرب حقة طويلة، إذ بنوا أسافله بالحجارة وظلّلوا اعاليه بالخباء (كوندرو في
كتابه في اعمال هذه اللجنة مجلد ١ صفحة ٨٣). وقال الأب فيكورو (في المحل
المذكور آنفاً) بعد أن روى ما مرّ، إنّ كلّ من زار هذه الأماكن كما زارها هو سنة
١٨٨٨م قطع ولا ريب بأنّه هناك كان خباء المحضر لا سيما أنّ عند سفح الأكمة
سهلاً فسيحاً يضيّو الشكل يتيسر للشعب كله أن يرى منه خباء الرب.

عد ٢٢٤

وفاة يشوع بن نون ومدفنه

قد شاخ يشوع وطعن في السنّ فاستدعى اليه جميع بني اسرائيل، وشيوخهم
ورؤساءهم وقضاةهم وعرفاءهم، وذكّرهم بما صنع الرب الى آبائهم واليههم،
وحزّضهم ليحفظوا كلّ ما كُتب في توراة موسى، ولا يعدلوا عنه يميناً ولا يسرة.
ويتنكبوا الإختلاط مع الأمم ويعتزلوا مصاهرتهم. وقال إن عملتم بذلك هزم الواحد
منكم الفأ. وإن اختلطتم ببقية هؤلاء الأمم كانوا لكم وهماً ومعثرة وسوطاً على
جنوبكم وشوكاً في عيونكم. فأجاب الشعب وقالوا: حاش لنا ان نترك الرب ونعبد

آلهة غريبة. واذعنوا لما اوصاهم به، فقطع يشوع عهداً للشعب في ذلك اليوم، وكتب هذا الكلام في سفر توراة الله. وأخذ حجراً كبيراً وأقامه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الرب، وقال هذا الحجر يكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا الهكم، وصرف الشعب كل واحد الى ملكه. ومات يشوع بعد ذلك وهو ابن مئة وعشر سنين، فدفنوه في ارض ميراثه في ثمنة سارح التي في جبل افرايم الى شمال جبل جاعش (يشوع فصل ٢٣ و ٢٤). ولا إشكال في أنّ الآيات الأخيرة من سفر يشوع المنبئة بموته، ودفنه هي لكاتب قديم غيره. وإن صدق قول يوسفوس الذي روينا في عد ٢١٢ أنّ يشوع كان عمره يوم وليّ قيادة اسرائيل خمساً وثمانين سنة، وقد مات وعمره مئة وعشر سنين، فتكون مدّة قيادته خمساً وعشرين سنة وعلى هذا أكثر العلماء. وإن ظهر من جداول كلمت المعلقة في فاتحة معجم الكتاب أنّ مدة قيادته لم تكن إلا السبع السنين التي افتتح فيها فلسطين.

قد مرّ آنفاً أنّ ثمنة سارح كان موقعها في المحل المسمّى الآن تبنة او تبني في جنوبي نابلس. وقد كشف فيها العالم كاران عن مدفن يشوع بن نون في ٣١ آب سنة ١٨٦٣م ثم شخص الى هذا المحل ثانية سنة ١٨٧٠م فازداد تيقناً بذلك، وتابعه على رأيه العالم دي سولسي الذي تعهد هذا المحل بعد اشهر من زيارة كاران له سنة ١٨٦٣م ثم الأب ريشار الذي جال في فلسطين في شهري ايار وحزيران سنة ١٨٧٠م، والذي حمل هؤلاء جميعاً على القطع بأنّ قبر يشوع بن نون هنالك إنّما هو الحجج الآتية:

اولاً: إنّ الكتاب صرّح بأن يشوع دفن في ثمنة سارح كما روينا عن سفر يشوع (فصل ٢٤ عد ٣٠). وجاء في سفر القضاة (فصل ٢ عد ٩) أنه دفن «في ثمنة حارس في جبل افرايم الى شمال جبل جاعش» وقد حققت التقلييدات القديمة وظروف المحل، وقرائن الحال أنّ ثمنة القديمة كانت في محل تبنة الآن، ويؤيد ذلك تقارب الحروف في اسميّ ثمنة وتبنة وابدال الميم بالباء مستفاض في إعلام كثيرة وقلب الحروف كما في سارح وحمارس ليس بنادر ايضاً.

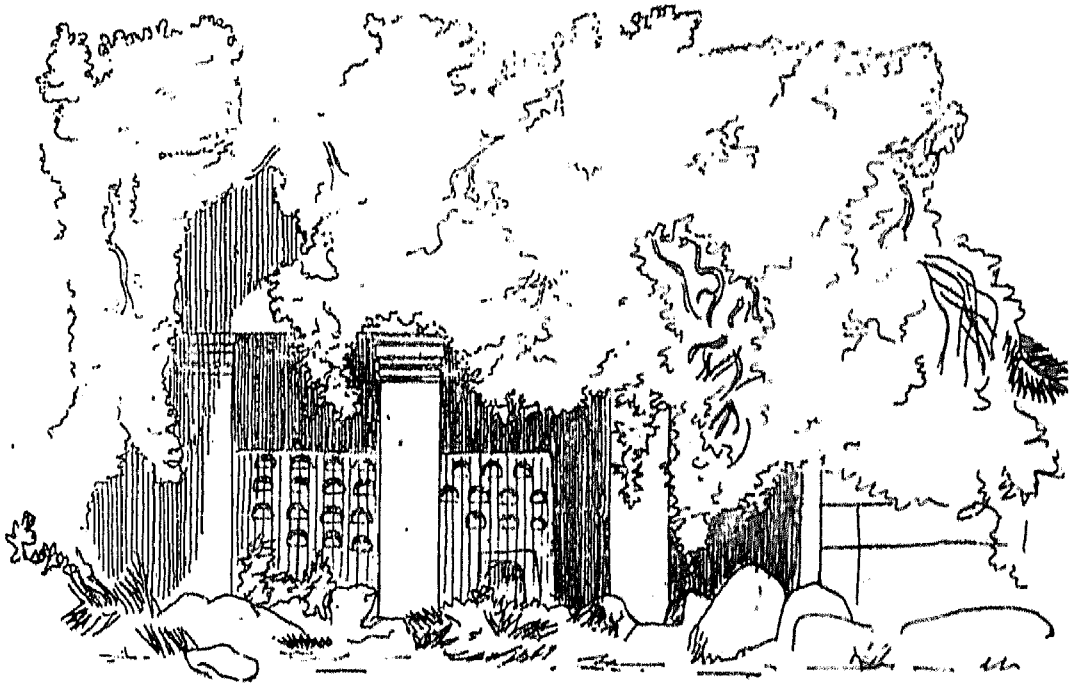
ثانياً: إنّ كاران كشف ثمة عن مقبرة فيها ثمانية مدافن يمتاز باقيها بزيادة

اتقانه، وبإقامة رواق أمامه، وكلُّ ما فيه دالٌّ على قدمه، وفي الرواق ثقب معدة لوضع المصاييح فيها وقت حفلة أو زيارة حتى يقضي كل ناظر دون تلوم أنَّ هناك مدفن رجل كريم كبير في قومه، وأن المدافن التي إلى جانبه إنما هي مدافن بعض أسرته. وقد أنبأنا الكتاب انه هناك اقام يشوع ومات ودفن ، فإذاً هذا المدفن مدفنه ويؤيده ان في جنوبه جبلاً قضى العلماء المشار اليهم أنه الجبل الذي سمّاه الكتاب جاعش. وقال أنَّ يشوع دفن الى شماله.

ثالثاً: إنَّ الأب ريشار المار ذكره وجد في محلة الجلجال كثيراً من السكاكين الصوّانية التي ختن بها يشوع بني اسرائيل هناك (طالع عد ٢١٤). ثم مضى الى مدفن تبنة بعد أن أعلمه كاران أمره، فبحث ووجد كثيراً من هذه السكاكين الصوّانية في المدفن وفي ما جاوره.

وفي النسخة السبعينية كلام خلا عنه النصّ العبراني والترجمة اللاتينية العامية وهو (بعد قوله فبنى المدينة واقام فيها). « وأخذ سكاكين الحجر التي ختن بها بنو اسرائيل الذين كانوا ولدوا في مدّة عبورهم البرية ووضعها في ثمّة سارح». وزادت كلامها في دفنه: « ووضعوا هناك في القبر حيث دفنوه سكاكين الحجر التي ختن بها بني اسرائيل في الجلجال عندما اقتادهم من مصر. وأتموا بذلك وصية الرب وهذه السكاكين باقية هناك إلى اليوم». وقد كتب الأب ريشار من بيروت في ٢٠ حزيران سنة ١٨٧٠م رسالة إلى أحد اصدقائه اذاعتها المجلّة العلميّة المسماة Les Mondes (العوالم)، أفصح فيها بأنّه وجد بعض هذه السكاكين في الجلجال، ثم في مدفن يشوع وجواره وحقق أنَّ هناك قبر يشوع بلا مرية. ثم شخص الأب ريشار في ٥ آب سنة ١٨٧٢م إلى اديبورك فخطب في مجلس الجمع العلمي الذي كان حينئذ ملتئماً في هذه المدينة. وأرى المجتمعين السكاكين الصوّانية التي لقيتها في الجلجال، وفي مدفن يشوع وغيره مثبّتاً أنَّ ذلك دليل صراح على أنَّ ذلك المدفن إنما هو مدفن يشوع بن نون وقال تزيد ذلك بيانا شهادة الترجمة السبعينية بأنَّ سكاكين الحجر التي صُنعت في الجلجال، وُضِعَ قسم منها في مدفن يشوع وقد وجدناه الآن، وها هو. ثم اتى الأب ريشار في آخر الشهر المذكور الى باريس، وعرض هذه السكاكين على منظر جمعية العلوم فيها فكان لذلك احسن وقع في اذهان علمائها. وقد اختتم العالم كاران كلامه

في هذا المدفن بقوله (مجلد ٢ في السامرة صفحة ١٠٤) لا أرى بعد وجدان هذه السكاكين العديدة سبيلاً الى الإمتراء في أنّ هناك حقاً قبر يشوع بن نون، وقد تابع الأب فيكورو العالم كاران على رأيه ذاكرًا مجلّ كلامه (مجلد ٣ في الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ١٩١)، والرسم المعلق هنا يُريك هيئة هذا المدفن الآن.



صورة مدفن يشوع بن نون في تبة

الفصل العاشر

قضاة بني اسرائيل بعد يشوع

عد ٢٢٥

سفر القضاة

لما كان كلامنا في هذا الفصل على ما تضمنه سفر القضاة تحتم علينا أن نبيّن متى دُوّن هذا السفر، ومن كتبه وخلاصة ما حواه. أن الظاهر من اختتامه بموت شمشون أنه لم يُكتب قبل انتصار صموئيل على اعداء شعب الله كما في سفر الملوك الأول (ف ٧). ثم قد ورد في سفر القضاة مرّات هذا القول. « ولم يكن في تلك الأيام ملك لإسرائيل ». وهذا مشعر بأن هذا السفر كُتب بعد ارتقاء شاول الى منصّة الملك في اسرائيل. وقد ضُرّخ فيه (ف ١ ع ٢١) أنّ الياوسيين كانوا مقيمين في اورشليم مع بني بنيامين الى هذا اليوم. وهذا دالّ على أن هذا السفر كُتب قبل عهد داود اذ جاء في سفر الملوك الثاني (ف ٥ عد ٦ و ٧): إنّ داود هو الذي طرد الياوسيين من اورشليم واقام سدّة ملكه فيها. فالحاصل من كل ذلك أن هذا السفر كُتب بعد موت شمشون وقبل ارتقاء داود منصّة الملك. وقد عزاه علماء التلمود الى صموئيل، وهذا لا يبعد عن الصواب وينطبق خير انطباق على ما ذكرناه آنفاً ، وإن لم يمكن القطع به مطلقاً، ولم يرتّب أحد من العلماء القدماء في قدم سفر القضاة. ولم يأب العقليون انفسهم التسليم بأنه عريق في القدم، بل اثبتوا أنه اول اسفار العهد القديم، وانزلوه منزلة سفر التكوين عندنا وإن ندّدوا ببعض ما حواه كما سترى في كلامنا الآتي.

وأما ما حواه هذا السفر فمقدمة أبان فيها الكاتب حالة بني اسرائيل بعد وفاة يشوع بن نون، واهتمام بعضهم بمحاربة من بقي بينهم من الكنعانيين تكملة

لامتلاكهم أرض موعدهم، وتقاعد بعضهم عن طرد أعدائهم وضربهم الجزية على من دان لهم منهم. ثم تقلبهم في أمر دينهم فاذا استراحوا بطروا، ولووا عن الرب إلههم إلى آلهة الأمم وعبدوها. وإذا ضايقتهم أعداؤهم تابوا إلى الله فأقام لهم مخلصاً سمّوه قاضياً أو حاكماً فيهم. ولم يكن لهم مركز لانضمام كلمتهم بل كانوا كعشائر البدو في أيامنا.

وهذه المقدمة ينطوي عليها الفصلان الأول والثاني. ثم أخذ الكاتب من الفصل الثالث إلى الفصل السابع عشر يروي لنا أخبار هؤلاء القضاة وما كان من أعمالهم، فذكر منهم اثني عشر أو ثلاثة عشر قاضياً إذا حسبنا بينهم إيملك الذي سينجلي لك ما كان من أمره. وهم عتنييل واهود وشمجر ودابورة مع باراق، وجدعون وإيملك وتولع ويائر ويفتاح وابصان وإيلون وعبدون وشمشون. وقصّ كاتب السفر أخبار بعضهم، واجتزأ بذكر أسماء بعضهم ومدة ولايتهم. ثم علّق على سفره في الفصلين السابع عشر والثامن عشر ذكراً فيه خبر ميخا الذي صنع صنماً مسبوكاً. وسجد له وإقام له كاهناً ثم أخذه منه بنو دان عند استيلائهم على لايش (دان وهي الآن تلّ القاضي)، ونصبوه هناك وعبدوه. وروى في الفصول الثلاثة الأخيرة خبر الرجل اللاوي الذي مرّ في جبع بنيامين مع امرأته، فأماتها أهل هذه المدينة بأعمالهم الفاحشة، ومحاربة بني إسرائيل لبني بنيامين وإهلاك السواد الأعظم منهم. فهذه خلاصة هذا السفر وسترى تفصيلها.

عد ٢٢٦

مدة قضاة بني إسرائيل

إنّ في تعيين مدّة هؤلاء القضاة عقبات ومشاكل يعتاص الاهتداء إلى وجه حلها لأنّه إذا حُسِبَت السنين التي ذكرها الكتاب لكلّ منهم، ومدة مضايقتهم منذ تعبدّهم لكوشان رشعائيم ملك آرام، النهرين، إلى وفاة شمشون كان مجموع هذه السنين أربع مئة وعشر سنين، وإذا أُضيفَ إليها مدة ولاية عالي وهي أربعون سنة على ما في سفر الملوك الأوّل (فصل ٤ عد ١٨)، وأهمل حسابان مدة صموئيل كان مجموع سني هؤلاء القضاة أربع مئة وخمسين سنة. على اننا نرى في سفر الملوك الثالث (فصل ٦ عد ١) أنّ سليمان شرع ببناء الهيكل في السنة الأربع

والثمانين لخروج بني اسرائيل من مصر. ويُلزم أن يضاف الى سني القضاة مدة مُلكِ شاول وهي أربعون سنة، ومدة مُلكِ داود وهي أربعون سنة أيضاً ومدة اربع سنين من مُلكِ سليمان. فيكون مجموع السنين من ولاية القضاة الى بناء الهيكل خمس مئة واربع وثلاثين سنة. ويُلزم أن يضاف إلى هذا العدد مدة اقامة بني اسرائيل في البرية، وهي اربعون سنة، ومدة ولاية يشوع وهي خمس وعشرون سنة - كما مرَّ - فيكون المجموع خمس مئة وتسع وتسعين سنة، وهذا مخالف لما في سفر الملوك. ولذلك توقَّرت الاقوال وتضاربت، وأصحَّها ان هؤلاء القضاة كان احيانا اثنان او ثلاثة منهم في وقت واحد. وقد جاء في سفر القضاة نفسه (فصل ١١ عد ٢٦) التصريح بأنه انقضى على بني اسرائيل منذ بلوغهم شرقي الاردن الى زمان يفتاح ثلاث مئة سنة، وعليه وضع الأب فيكورو (في الموجز الكتابي عد ٤٤٩) لتوفيق هذا الخلاف الجدول الآتي .

سنة.

٤٠	مدة إقامة بني اسرائيل في البرية
٣٠٠	من ولاية يشوع إلى يفتاح
٦	يفتاح
٧	أبصان
١٠	أيلون
٨	عبدون
٢٥	من عبدون الى ارتقاء شاول عرش الملك
٤٠	شاول
٤٠	داود
٤	سليمان
٤٨٠	المجموع

والذي أراه بخامد فكرتي على سبيل استخراج العدد غير المعلوم من المعلوم أن نراعي عدد السنين المنصوص عليه. ولا يحتمل اللبس لنستخرج منه مدة سني

القضاة الحاصل الاشكال فيها من قبيل ان كان بعضهم مع غيره في وقت واحد او كان احدهم في شرقي الأردن والآخر في غربه فاليك الجدول الآتي :

سنة	
٤٨٠	المدة من الخروج إلى بناء الهيكل (ملوك ٣ ف ٦ ع ١)
٤٠	مدة اقامة بني اسرائيل في البرية كما في آيات عديدة
٢٥	قيادة يشوع (يوسفوس ك ٥ من تاريخ اليهود فصل ١)
٤٠	ملك شاول (اعمال الرسل فصل ١٣ عد ٢١)
٤٠	ملك داود (ملوك ٢ فصل ٥ عد ٤)
٤	من مدة ملك سليمان (ملوك ٣ فصل ٦ عد ١)
٣٣١	فتكون مدة القضاة
٤٨٠	

وَيُرَجَّحُ أَنْ أَبْصَانَ وَابِلُونَ وَعَبْدُونَ كَانُوا يَلُون شَرْقِيَّ الْأُرْدُنِّ فِي مَدَّةِ وَلَايَةِ عَالِي وَصْمُوئِيلَ وَسَطُو شَمْشُونَ فِي غَرْبِهِ. طَالَعَ جَدُولًا آخَرَ سَنَيْتُهُ عَدَدُ ٢٨١. قَالَ فَرَنْسِيْسُ لَانْرَمَانَ فِي تَارِيخِهِ الْقَدِيمِ لِلْمَشْرِقِ (مَجْلَدُ ٦ صَفْحَةُ ٢٠٨) مَا مَلْخَصَهُ لَا يَطْمَعَنَّ أَحَدٌ بِأَنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْيْنَ بِالدَّقَّةِ تَارِيخَ الْإِحْدَاثِ وَسَنِي كُلِّ مِنَ الْقَضَاةِ الَّتِي جَاءَ ذِكْرُهَا فِي سَفَرِ الْقَضَاةِ، فَمَنْ جَدَّ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي هَذَا التَّعْيِينِ أَضَاعَ تَعْبَهُ وَوَقْتَهُ، وَحَالَتْ مَشَاكِلُ دُونَ مَرَامِهِ. فَفِي أَسْفَارِ الْمُلُوكِ أَعْدَادُ تَخَالَفَ أَعْدَادِ السَّنِينَ فِي تَعْيِينِ مَدَّةِ الْقَضَاةِ، وَيُوسَيْفُوسُ الْمُؤَرِّخُ الْيَهُودِي وَالرَّائِي الْأَمِينُ لَتَقْلِيدِ أُمَّتِهِ لَمْ يَثْبِتْ عَلَى قَوْلٍ فِي تَعْيِينِ مَدَّةِ الْقَضَاةِ بَلْ قَالَ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: يَخَالَفُ أَحَدُهَا الْآخَرَ عَلَى أَنْ تَقْدُمَ عِلْمُ التَّارِيخِ بِمَا ظَهَرَ مِنَ الْآثَارِ الْمِصْرِيَةِ بَيِّحُنَا أَنْ نَعْلُلَ النَّفْسَ بِأَمَلٍ أَنْ يَتَهَيَّأَ لَنَا فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ تَعْيِينُ زَمَانٍ مُؤَكَّدٍ لِلخُرُوجِ بِمَعَارِضَةِ تَوَارِيخِ مِصْرَ بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ. وَيَضْطَرُّ كُلُّ عَالِمِ الْآنِ أَنْ يُقَرَّرَ بِأَنَّهُ يَلْزَمُ أَنْ يَطْرَحَ مِنْ عِدَادِ السَّنِينَ الَّتِي انْقَضَتْ بَيْنَ خُرُوجِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ وَإِقَامَةِ مَلِكٍ فِيهِمْ أَكْثَرَ مِمَّا جَاءَ فِي كُلِّ التَّقَاوِيمِ الَّتِي أَذْبَعَتْ حَتَّى الْآنِ.

محاربة بني يهوذا وشمعون وبني يوسف بعض الكنعانيين

جاء في سفر القضاة (ف ١) أن بني اسرائيل سألوا الرب بعد وفاة يشوع قائلين: من منا يصعد في مقدمتنا لمحاربة الكنعانيين ؟ فقال الرب: يهوذا يصعد لأنني إلى يده قد أسلمت الارض، لأن الله أراد أن يكون ملوك اسرائيل من هذا السبط وأن يكون منه المخلص. واتفق بنو يهوذا وبنو شمعون على مقاتلة الكنعانيين الذين في ارض نصيبهم. وقصدوا أولاً بازق التي روى لانرمان انه لا يمكن تعيين موقعها ولكن يلزم بين اورشليم والأردن على انه جاء في كتاب اعلام الاماكن الكتابية انه يُحتمل ان يكون في موضع خربة يزقة على بعد ستة اميال في الجنوب الشرقي من اللد. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ ف ٢) أن الكنعانيين أملاوا الانتصار على بني اسرائيل بعد وفاة يشوع. فجمعوا عسكرياً غفيراً في جانب مدينة بازق، وأمرؤا عليه ملكها المسمى ادوناي بازق اي سيد بازق او واليها، لأن تأويل ادوناي بالعبرانية السيد او المتسلط. فاستظهر عليهم بنو اسرائيل، وقتلوا منهم عشرة آلاف رجل، وشتتوا شمل الباقيين وادركوا ادوناي بازق، وقطعوا اباهم يديه ورجليه، وعلى رواية يوسيفوس بأنهم قطعوا يديه ورجليه فكان ما جرى عليه نعمة من الله، فقد اعترف أنه صنع كذلك سبعين ملكاً كانوا يلتقطون الخبز تحت مائدته، فعاقبه الله كما جنى، واتوا به الى معسكرهم الحال قريباً من اورشليم فمات هناك.

وحارب بنو يهوذا اورشليم، وافتتحوها، ولكن روى يوسيفوس انهم افتتحوها المدينة السفلى. وقتلوا اهلها واحرقوها بالنار، وكانت المدينة العليا محصنة فلم يفتتحوها لكن النص صريح بأنهم افتتحوها اورشليم، فيطلق على كلها. ولذلك قال بعضهم انهم افتتحوها فلم يتمكنوا من حفظها بل عاد اليبوسيون اليها او لم يطردوهم منها، فلبثوا فيها مع بني بنيامين كما جاء في عد ٢١ من الفصل الاول نفسه من سفر القضاة، ومهما يكن فقد استمر اليبوسيون في اورشليم الى ان افتتحوها داود.

وحارب بنو يهوذا حبرون ايضاً (الخليل) فاستولوا عليها وضربوا بني عناق فيها وسلموها الى كالب ابن يوفنا كما وعده موسى، وكما طلب هو من يشوع. وقد مر (في عد ٢٢٢) أن كالب بن يوفنا هو الذي افتتح حبرون وديبر، ولا بد أن

كان مع اله بني يهوذا، فذكر سفر القضاة هنا لهذا الفتح اعادة لما جاء ذكره في سفر يشوع كما تبين من أن قرائن الخبر في السفرين واحدة. ثم انطلق بنو يهوذا مع بني شمعون الى صفات فاخذوها وضربوا اهلها بالسيف، وسموها حرمة اي الحرمه. ولا يمكن القطع بموقع صفات فكتاب اعلام الاماكن لم يعين موقعها بل اورد فيه عدة احتمالات. وكاران لم يذكرها بالخصوص بل ذكر شيئاً عند كلامه في مريشه في وادي صفاته الذي رأى بعضهم ان صفات كانت على جانبه فقال ما ملخصه ان مريشه هي خربة مراش الآن، وقد جاء ذكرها مع وادي صفاته في سفر اخبار الايام الثاني (فصل ١٤ عد ٩) حيث قيل: « فخرج عليهم اي على بني يهوذا زارح الكوشي... فخرج آسا عليه وتصافا للحرب في وادي صفاته مريشه». وقال: إن مريشه خربة مراش تبعد ميلين عن بيت جبرين نحو الجنوب، وإن روينسيون جنح الى جعل موقع صفاته في محل تل الصافي الآن التي تبعد مسافة نحو ثلاث ساعات عن خربة مراش، فان صحَّ ان صفات كانت على جانب وادي صفاته فيكون موقعها في ناحية بيت جبرين. ثم افتتح بنو يهوذا غزة وتخومها واشقلون (عسقلان) وتخومها. وعقرون (عاقر)، وتخومها وسائر مدن الجبل. واما مدن الساحل فلم يفتتحوها اذ كان لاهلها مركبات من حديد تحول دون الدنو منها.

ثم صعد بنو يوسف أي سبط افرايم ونصف سبط منسا أو سبط افرايم وحده على ما روى يوسفوس، فحاصروا بيت ايل (بيت اين الآن) الى ان دلهم رجل خارج منها على مدخل اليها. فافتتحوها وضربوا اهلها بالسيف، واستبقوا الرجل وعشيرته. وكان اسمها قبلاً لوز فانطلق ذلك الرجل الى ارض الحثيين، وبنى مدينة وسمها لوز (طالع ما ذكرناه في عد ٥٦ في اسم هذه المدينة وموقعها). واما باقي الاسباط فلم تهزم الحمية أو لم تساعدهم القوة على طرد الكنعانيين كما اوصاهم موسى ويشوع في المدن الساحلية كعكاء وصيداء وغيرها، وفي بعض المدن الجبلية، وحيث تقوى بنو اسرائيل ضربوا عليهم جزية، وحيث ضعفوا سالوهم وتركوهم يسكنون بين اظهرهم. وحققت لنا الآثار المصرية بقاء الكنعانيين في السواحل، اذ ذكرت هذه الآثار غزوة رعمسيس الثالث ومرور جنوده في هذه السواحل. ولم تأت بكلمة في بني اسرائيل، ولا جاءت في سفر القضاة كلمة في مرور عساكر مصريين في بلاد بني اسرائيل أو مضايقتها لهم.

تسلط كوشان رشعتائيم ملك آرام على بني اسرائيل وتخليص عتنييل لهم

لم يكتف بنو اسرائيل بمسألة بعض الكنعانيين بل اتخذوا بناتهم زوجات لهم. وأعطوا بناتهم لبنيم، وعبدوا آلهتهم البعليم (اي الابعال) والعشتاروت، فاشتد غضب الرب عليهم. ولما كان الكنعانيون لم تعاودهم القوة للتسلط على بني اسرائيل باعهم الرب إلى يد كوشان رشعتائيم ملك آرام النهرين. فتعبدوا له ثمانين سنين. وسمى يوسفوس (تاريخ اليهود ك ٥ فصل ٣) هذا الملك «كوزرتا ملك الآشوريين». وقال رولينسون إنه يحتمل ان يكون اشوريش عليم حفيد آشور ديان وابو تجلت فلاصر الاول الذي قال فيه «إنه الملك القدير وغازي البلاد الاجنبية». وتابعه سايس (في كتابه معارضة تاريخ آشور وبابل). ولكن ندد فيكورو بقولهما اذ لم يكن لهما فيه حجة تؤيده، فان لم يكن كوشان معلوماً بشخصه فمعلوم أنه كان من بلاد ما بين النهرين لتصريح الكتاب بانه ملك آرام النهرين. ولا عبرة لزعم كراتس انه ملك ادوم وقد تصفحت أدوم بآرام للمقاربة في العبرانية بين صورتَي الحرفين المقابلين الدال والراء كما هما في لغتنا أيضاً. فكوشان غشى فلسطين بعساكره واخضع بني اسرائيل لسلطته. وكانوا يدفعون اليه جزيتهم كل سنة، يحملونها إلى مقره فيظهر انهم تقاعدوا عن حملها إليه أو لاح له ما يدل على عصيانهم. فزحف إليهم بجنوده ينوي التثكيل بهم، فصرخ بنو اسرائيل الى الرب فأقام لهم مخلصاً وهو عتنييل قناز اخي كالب الاصغر، وكان مزوجاً بعكسه ابنة عمه كالب وعده بها يوم حصار قرية سفر فكان هو اول من افتتحها كما مرّ عد ٢٢٢. فعتنييل حضّ اخوانه بني اسرائيل على التوبة إلى الله مذكراً لهم بآياته يوم كانوا يتقونه واياه وحده يعبدون فاذعنوا لكلامه. وأمروه عليهم فجمع عسكرياً من بني اسرائيل، وخرج لمحاربة كوشان فاسلمه الرب الى يده واستظهر على جنوده وشتت شملهم. ولم يبنينا الكتاب اين كانت تلك الحرب، ولم يطرّفنا بشيء من التفصيل ولكن ظهر من كلامه ان الضربة كانت قاضية لذكره ان بني اسرائيل استراحوا بعدها اربعين سنة، وان سلطة كوشان كانت عمّت بلاد فلسطين حتى جنوبها، لأن عتنييل الذي شتت جنوده كان من سبط يهوذا ساكناً في قرية سفر اي دير (وهي سراسير الآن) على مقربة من الخليل (قضاة ف ٣).

تعبّد بني اسرائيل لعجلون ملك مواب وتنجية اهود لهم

مات عتنيئيل فعاد بنو اسرائيل إلى شرهم، فلم يجلب الرب عليهم هذه المرة ملكاً من قاصي البلاد ويجعله آلة لنقمته، بل اثار عليهم عجلون ملك الموابيين من ذريتهم، اي من ذرية مواب بن لوط من بنته الكبرى، وكان الرب حذر على الاسرائيليين في أيام موسى أن يحاربوا الموابيين حرمةً للوط. وكانت مساكنهم في الجنوب الشرقي من فلسطين وراء البحر الميت. ولما كانوا ضعفاء لا يملكون من الارض إلا يسيراً استنجدوا بالعمونيين أبناء خالتهم واخوانهم لانهم أبناء لوط من بنته الصغرى. وكانت مساكنهم في الشمال الشرقي من أرض الموابيين. ولجأوا إلى العمالقة، وكانوا رُحلاً في البرية الواقعة في شرقي تخوم الموابيين، وأمر هؤلاء على جيشهم عجلون ملك الموابيين. فانتصروا على بني اسرائيل الذين في شرقي الاردن وعبروا هذا النهر، ولم يقتصروا على إجبار بني اسرائيل ليدفعوا لهم الجزية كما فعل كوشان ملك آرام النهرين، بل ارادوا انتزاع املاكهم ايضاً لضيق ارض مواب فاخذ عجلون مدينة النخل المراد بها على الأرجح اريحا. واقام فيها ثماني عشرة سنة مستعبداً بني اسرائيل، والظاهر أن هذا الاعتبار لم يكن عاماً ولكن لا أقل من ان يكون شاملاً من اقام من بني اسرائيل في شرقي الاردن وسبط بنيامين الذي اريحا في نصيبه وسبط يهوذا لقربه من العدو.

وصرخ بنو اسرائيل الى الرب فأقام لهم مخلصاً أهود بن جيرا من سبط بنيامين. وكان رجلاً أعسر يعمل بيده العسرى بدلاً من اليسرى، والظاهر انه كان يعمل بكلتا يديه كما كان كثير من سبطه (قضاة ف ٢٠ عد ١٦). فأرسل بنو اسرائيل على يده هدية أو جزيتهم إلى ملك عجلون. وعمل لنفسه سيفاً ذا حدين طوله ذراع اشتمل عليه تحت ثوبه على فخذه اليمنى ليبسر له إنتضاؤه بيده اليسرى، وليخفي اشتماله عليه فقدم الهدية وشيخ حاملها. وذهب الى المنحوتات المقامة في الجلدجال في جانب أريحا ليظهر أنه يستشيرها بامر. وعاد يقول للملك لي إليك كلام سرّ ايها الملك فقال: صه. فخرج من عند الملك جميع الواقفين لديه ولم يخطر على بال أن رجلاً منفرداً أعزل لا سلاح له يفتك بالملك، فلما خلا به في غرفة صيفية له في أعلى داره قال أهود لي كلام إليك من عند الله فنهض عن

سريه تهيأ، وكان غرض اهود من كلامه أن لا تخطئه الضربة اذا كان على سريه فمد يسراه، وأخذ السيف عن فخذة اليمنى، ووجأه في بطنه فغاص القاتم أيضاً وراء النصل، واطبق الشحم عليهما لأنه كان سميناً. ولم ينزع اهود السيف وخرج واغلق أبواب الغرفة واقفلها وأفلت. ودخل عبيد الملك فإذا ابواب الغرفة مقفلة فظنوه يقضي حاجة في مخدع المصيف، ولما استبطأوه اخذوا مفاتيح، وفتحوا فإذا مولاهم صريع على الارض ميتاً، وأما اهود فبلغ الى سعيه. (لم يتعين موقعها، ويظهر انه في جبل افرايم على ما قال فيكوررو وعلى ما في كتاب أعلام الاماكن: ونفخ في البوق في جبل افرايم، فنزل بنو اسرائيل من الجبل على اثره، واستولوا على مخاوض الاردن، وضربوا من كان عند الملك، ومن فرّ وقع بيدهم في معابر النهر. فقتلوا من الموابين حيثلذ نحو عشرة الاف رجل كل شجاع وكل ذي بأس، فذلّ الموابيون لهم واستراحت الارض ثمانين سنة (قضاة ف ٣).

وليس المراد باستراحة الارض أن الراحة عمّت جميع ارض بني إسرائيل، فقد انبأنا الكتاب بأثر ما مرّ دون فاصل أن شمعون بن عناة يصحبه قوم من حارثي الارض ضربوا الفلسطينيين الذين كانوا يعتدون عليهم في الجنوب، فقتلوا منهم ست مئة رجل، ولم يكن لهم سلاح إلا منسّاس البقر فعُدّ شمعون من مخلصي بني اسرائيل وهو الثالث من القضاة وسوف نأتيك ببيان اصل الفلسطينيين.

ان استعمال حيلة كالتى عمد إليها اهود في قتل عجلون كان مستباحاً مستفاضاً عند جميع القدماء، ولا سيّما الشرقيين وكانوا يحسبونه نوعاً من الحرب، وربما فضلوه عليها لاقلاله عدد القتلى والمصابين. وقد ترمّم اليونان بتقريظ هرمودبوس، وارتوجيتون لأنهما اتيا مثل ما أتاه اهود. وقُرّظ الرومانيون موشوس سكافولا (اي الاعسر ايضاً)، لانه فعل مثل ذلك بيرسينا الذي حاصر روما. وما احسن ما قاله هردر في تاريخ شعراء العبرانيين (صفحة ٤٣٦): «ليس اخص من التنديد بسفر القضاة، وبما رواه عن بعضهم، فمن دأب هؤلاء المنذدين ان يتناسوا الزمن الذي كُتب هذا السفر فيه. فالقبائل القديمة كانت تستبيح استعمال اخبث الحيل في حروبها، ولم تزل هذه العادة عند بعض الشعوب الذين لم يبلغوا ذروة التمدّن. فانهم على ما لهم من البسالة والسطوة يؤثرون الحيلة على القوّة، وكانت الضرورة تقضي بهذا الدهاء على شعب يضطهده جيرانه وهو قلق في داخله. ولم تبق الحمية الطائفية الا في بعض افراده، ولم يكن له رئيس ولا حاكم يهتم

بالمصالح العامة وهل لفرد ولو عظمت شجاعته ان يدّعي مقاومة عسكر برمته؟ ولم تكن في تلك الايام الاختراعات التي جعلت الحرب صناعة وعلماء، او ليست هذه الاختراعات نفسها أكبر حيلة ودهاء. وهل من حيلة او شجاعة أحسن مما يقذفه احد المدافع؟ هذا والكتاب لم يثن في محل على ما عمله اهود بل اقتصر على ذكره فقط.

عد ٢٣٠

دابورة وباراق وتخليصهما بني اسرائيل من يد ملك حاصور

مضى على الكنعانيين نحو من خمسين سنة بعد تذليل بني اسرائيل لهم، فعاودتهم القوة لينهضوا من سقطتهم خاصة في شمالي فلسطين حيث استمرّ جثمّ غفير منهم يتيسر لهم لدى الحاجة ان يستنجدوا بالفينيقيين، وسكان جبل لبنان الذي لم يدخله بنو اسرائيل، فسوّلت انفسهم لهم أن يأخذوا بثأرهم. وعاد بنو اسرائيل يتمرغون بشؤونهم فباعهم الرب الى يد يابين ملك حاصور التي على جانب بحيرة الحولة. (في المحل المسمى الآن تل الهراوى أو في جبل حضيرة وهو خليفة يابين الآخر الذي حارب يشوع بن نون مؤلفاً عليه ملوك الشمال، وكان له رئيس جيش يسمى سيسرا مقيماً بحروشت الامم وهي مدينة أخرى على بحيرة الحولة (في المحل المسمى الآن الحراثية اعلام الاماكن). وربما كان سيسرا ملكاً او قبيلاً محالفاً ليايين، لأن دابورا قالت في نشيدها: «وفد الملوك وقاتلوا» (قضاة ف ٥ عد ١٩). وعليه فكان من ضايقوا بني اسرائيل ملوكاً لا ملكاً واحداً ويابين رئيس عصبتهم. وضايقوا بني اسرائيل الذين في شمال فلسطين عشرين سنة، واثقلوهم بجزريات فاحشة ولم يجسر بنو اسرائيل ان يخلعوا نيره، وكانت مركباتهم المصفحة بالحديد ترؤّع بني اسرائيل.

وكانت قوات الممالك في تلك الأيام تقاس بعدد مركباتها، وقد أبقت لنا الآثار المصرية على ذكر هذه المركبات في سورية. فالشاعر بنتاور المصري روى انه كان للحثيين عند محاربتهم رعمسيس الثاني الفان وخمس مئة مركبة للحرب. وفي آثار رعمسيس الثالث انه كان للكنعانيين عند استظهاره عليهم في موقعه مجدّو (اللجون) تسع مئة وأربع وتسعون مركبة. ولم يكن لبني اسرائيل مركبات لاقامتهم

في الجبال. وكان في معسكر سيسرا تسع مئة مركبة لإقامتهم في السهول، فضايق بنو اسرائيل ذرعاً ولم يجدوا لهم ملجأ ولا منصاً إلا بأن يصرخوا إلى الله كما كانوا عند ضيقتهم يفعلون. فرأف الرب بهم وأقام لهم هذه المرة مخلصاً وهي امرأة. كانت تسكن في جبل افرائيم وتسمى دابورة. وتأويل اسمها بالعبرانية نحلة (كما قال يوسفوس ك ٥ ف ٦ في تاريخ اليهود) وكانت نبيّة، ولها من شهرة الحكمة ما جعلها حكماً يلجأ إليها المتنازعون من كل فج لفصل دعاويهم، فأخذتها الغيرة على انقاذ شعبها. فأرسلت ودعت باراق (وتأويله ألبرق كما قال يوسفوس : في المحل المذكور) بن اينوعم من قادش نفتالي، وهي المعروفة الآن من اعمال صفد وقالت له من قتل الرب ان يجيش في جبل طابور عشرة آلاف رجل من بني نفتالي وزابلون. فلم يشأ ان ينطلق الا ان تصحبه دابورة فانطلقت معه الى قادش. وعلم سيسرا أن باراق ورجاله صعدوا الى جبل طابور فجمع مركباته ورجاله ومضى لقتالهم، ولما كانت المركبات لا تسير في الجبل فخيم بعسكره في مرج بن عامر على نهر قيشون المعروف الآن بالنهر المقطع. وقالت دابورة لباراق قم فان الرب اليوم يدفع سيسرا الى يديك. فنزل من جبل طابور ووراء عشرة آلاف رجل، والقي الرب رعباً على سيسرا وجنوده فانهزموا من وجه بني اسرائيل، فتنبعوا آثارهم الى حروشت الأثم المار ذكرها وصنعوا بهم مقتلة. وروى يوسفوس (في الفصل الأنف ذكره) انه لما اقبل بنو اسرائيل على الكنعانيين انزل الرب مطراً مدراراً وبرداً وريحاً عاصفة بوجه الكنعانيين حتى لم يقووا على استعمال سلاحهم. وكانت العاصفة من جهة ظهر بني اسرائيل، والى ذلك اشارة في تسبحة دابورة حيث قالت: «من السما نشب القتال، الكواكب من حجبها حاربت سيسرا نهر قيشون جرفهم» (قضاة ف ٥ عد ٢٠). اما سيسرا فنزل من مركبته وفرّ راجلاً، وكان حابر القيني احد اقرباء امرأة موسى الذين كانوا اختلطوا ببني اسرائيل ساكناً هناك في خيمة وكان بينه وبين يابين مسالمة.

فخرجت ياعيل امرأة حابر لإستقبال سيسرا وقالت له: مل يا سيدي لا تخف فدخل خيمتها، وسألها ان تسقيه فناولته عوض الماء لبناً فساعد على نعاسه، فاسترخى ونام وغطته بالقطيفة. فاخذت ياعيل وتد الخيمة من حديد بشمالها والميتدة يمينها وضربت الوتد في صدغه حتى غرز في الارض، واذا بباراق جاد في اثره فقالت له ياعيل: تعال أرك الرجل الذي انت طالبه، فدخل فاذا بسيسرا ساقط

ميتاً والوتد في صدغه، فتقوى بنو اسرائيل على يابين واذلوا قومه. وسبحت دابورة تسبحتها الشهيرة المثبتة في الفصل الخامس من سفر القضاة وهي شعر، بل قال فيها هرذر أنها احسن اشعار العبرانيين الحماسية، واستراحت الارض اربعين سنة. ويراد بها ارض الشمال والصريح في الكتاب أن رجال باراق الذين اصلوا نار الحرب كانوا من سبطي نفتالي وزابلون فقط. ويتلخص من تسبحة دابورة انه لمجدهم بعض من اسباط بنيامين ويساكر وافرائيم. واستمر الباقون في الجنوب وعبر الاردن وسبط دان واشير (على قرب هذا السبط الاخير من ساحة الحرب)، لا تهزم الحمية على انجاد اخواتهم بل آثروا عليه الراحة في املاكهم آمنين، وكانت هذه الانقسامات علّة لتواتر المصائب عليهم فان الله يجعل احياناً نقايص الناس انفسهم نقمة منهم.

عاب بعض المنددين ياعيل بخيانتها سيسرا، وعابوا الكتاب بمدحه ما صنعت، وقد فاتهم أن قتل سيسرا كان عادلاً لإشهاره الحرب على بني اسرائيل، وياعيل تحسب من عديدهم. وكانت شرائع الحرب حينئذ تبيح قتل العدو وان فاراً، وكان على سيسرا أن يتحاشى دخول خيمة سكانها من اعدائه. واما قولها له ان لا يخاف فمحمول على أنها اخذتها الشفقة عليه أولاً، فأوته ثم تروّت فرأت انه عدو لشعبها، وانها مندوبة لقتله حباً بشعبها ووطنها ففعلت. ولم يثن الكتاب عليها لعملها عملاً صالحاً بل اثنى على شجاعته، وحبها ووطنها وسنن الحرب في تلك الايام ومعاملة الكنعانيين بني اسرائيل في مثل هذه الاحداث، قد صوغت لهذه المرأة عمل ما نراه اليوم خيانة، وكان ذلك قبل سنة المخلص الكملى التي ارشدت الى الرفق بالاعداء ايضاً (فيكوررو الموجز الكتابي عد ٤٥٤).

عد ٢٣١

جدعون وتخليص بني اسرائيل من المدينيين

مرّ أن الارض التي استراحت اربعين سنة بعد اذلال يابين، يُراد بها ارض من حاربوا مع باراق اي سكان نصيب نفتالي وزابلون ومن جاورهم. اذ انبأنا الكتاب (قضاة ف ٦) أن آثام غير هؤلاء من بني اسرائيل اسخطت الرب، فدفعهم الى ايدي بني مدين سبع سنين. وبنو مدين هؤلاء من ذرية ابراهيم من قطورة امرأته. ويؤيده انهم كانوا يتكلمون بلغة العبرانيين كما يظهر من ان جدعون فهم كلام

الرجل الذي كان يقصّ حلمه على صاحبه (قضاة ف ٧ عد ١٣)، وهم الذين ضربهم بنو اسرائيل في ايام موسى لمعاونة بناتهم الموابين على اغواء بني اسرائيل. وكانت مساكنهم في شرقي البحر الميت وراء مساكن بني اسرائيل في عبر الاردن، والاطهر انهم غير المدينين الذين كانوا يسكنون في شرقي بحر الاحمر، ومنهم بترو حمو موسى، فهؤلاء من ذرية كوش (طالع عد ١٩٥ وعد ٢٠١). فالمدينيون الذين من ولد ابراهيم كانوا يأتون كل سنة مع العمالقة سكان الشمال في جزيرة العرب، ومع بني المشرق المراد بهم العرب الرّحل سكان انحاء حوران. وينكولون ببني اسرائيل، ويفسدون غلة الارض إلى مدخل غزّة ولا يبقون ميرة ولا غنماً ولا بقرأ ولا حميراً. ويأتون بماشيتهم وخيامهم في مثل كثرة الجراد، حتى اضطّر بنو اسرائيل ان يخفوا او يخفوا مالهم في المغاور والكهوف والحصون مدة السنين السبع.

فصرخوا الى الرب فأرسل اليهم نبياً يذكرهم بانقاذه اياهم من المصريين، وسائر ظالمهم. وظهر ملاك لجدهون بن يواش الایعزري في عفرة، وهو يدوس الحنطة في المعصرة مكان أن يدرسها بالتورج. وفي الاندر هرباً من المدينين، فأعلمه ان الرب مرسله ليخلص إسرائيل، فاعتذر بأنّ عشيرته أضعف عشيرة وبأنه اصغر اخوته. وسأل علامة يعلم بها انه يكلمه بذلك من قبل الرب، فحقق الملاك له هذا بأنه مدّ طرف العصا التي بيده ومسّ اللحم والفطير اللذين كان اعهدهما له. فصعدت نار من الصخرة التهمت اللحم والفطير وغاب الملاك عن عينيه.

وابتنى جدعون مذبحاً للرب دعاه سلام الرب قال الكتاب: « وهو إلى هذا اليوم لا يزال في عفرة». وجاء في كتاب اعلام الاماكن أنه يُحتمل ان عفرة هذه كان موقعها في القرية المسماة الآن فرعاتا، تبعد ستة اميال عن نابلس غرباً. واراد جدعون تحقيق رسالته من قبل الرب فضرع اليه قائلاً: هأنذا واضع جزّاز صوف في البيدر، فإذا سقط الندى على الجزّاز وحده وعلى سائر الارض جفاف علمت انك مخلص اسرائيل على يدي فكان كذلك. وعصر الجزّاز في الغد فخرج منه من الماء ملء سطل ثم قال: اجرب هذه المرة ايضاً بالجزّاز ، ليكن على الجزّاز وحده جفاف وعلى سائر الارض ندى، وصنع كذلك فكان في تلك الليلة على الجزّاز وحده جفاف، وعلى سائر الأرض ندى فتبيّن إرسال الرب له.

وقال الرب لجدهون ان يقوِّض مذبح البعل الذي لأبيه، ومنه يستلمح أن اياه كان يعبد البعل، وان يقطع الغابة التي حوله وان يبتني مذبحاً للرب هناك ويقدم عليه ثوراً كان لأبيه. فأخذ عشرة رجال وفعل كما امره الرب ليلاً خوفاً من بيت أبيه واهل مدينته، لكنه لم يختف، وطلب اهل المدينة من ابيه ان يخرج له ليقْتَل. فقال ابوه ان كان البعل إلهاً فلينتقم لنفسه ممن هدم مذبحه، وهذا يمنع من القطع بأن اياه كان يعبد البعل. ودعا ابنه يذبح لكي ينتقم منه البعل واما جدهون فنفيخ في البوق فتبعه بعض قومه وأرسل رسلاً الى بني منسا فاتبعوه، والى بني آشير وزابولون وفتالي فصعدوا للقتال. فاجتمع اليه اثنان وثلاثون الفاً، واعتصب جميع المدينيين والعمالقة وبنو المشرق. فعبروا الاردن ونزلوا وادي يزرعيل حيث زرعين الآن من ناحية جنين (اعلام الاماكن). وتقدموا في السهل الذي هو مرج بن عامر الى محل غير بعيد عن المحل الذي كُسر سيسرا فيه. فبكر جدهون ونزل بقومه على عين صرود المسماة الآن عين جلود في الشمال الغربي من جبل جلبوع الى الجنوب من محلة المدينيين.

وقال الرب لجدهون أن ينادي على مسامع الشعب إن من كان خائفاً فليرجع، فعاد منهم اثنان وعشرون الفاً، وبقي معه عشرة آلاف. فقال له الرب ان الشعب كثير ايضاً فيفتخر إسرائيل بأنه خلص نفسه، فأنزلهم الى الماء وكل من ولغ في الماء بلسانه من راحته الى فمه فأقمه ناحية، ومن جثوا على ركبهم ليشربوا فناحية اخرى. فكان عدد من ولغ الماء من راحته الى فمه ثلاث مئة رجل فقط فابقي جدهون هؤلاء معه، وصرف الباقين الى اماكنهم. وقال له الرب إن كنت تخاف فادُّ من محلة العدى ليلاً مع فورة غلامك واسمع ما يقولون. ولما جاء جدهون اذا برجل مديني يقص حلاً على صاحبه، كأنني برغيف خبز يتقلب على عسكر مدين فانقلب حتى صار الى الخيمة، وصدمها فسقطت. فأجاب صاحبه وقال: أما هذا سيف جدهون بن يواش جبار إسرائيل الذي دفع الله الى يده مدين كل المحلة، فعاد جدهون موقناً بالظفر. وقسم الثلاث مئة رجل ثلاث فرق، وجعل ابواقاً في ايديهم وجراً فارغة في ضمنها مشاعل. وقال لقومه اصنعوا ما ترونني صانعاً واحتاط المدينيين من ثلاث جهات ونفخوا في الابواق. وهتفوا السيف للرب ولجدهون، وكسروا الجرار فظهرت المشاعل. فضج جيش مدين، وجعل كل منهم سيفه في صاحبه فقتل بعضهم بعضاً، وفر الباقون الى بيت الشطة الى صريدة حتى

انتهوا الى عدوة آبل محولة التي عند طبات. اما بيت الشطة فهي الحبل المسمى الآن شطة في شرقي عين جالود نحو الاردن، وهو اسمها القديم نفسه لأن بيت معناها البيت او الحبل او القرية . وصريدة - وفي بعض النسخ العبرانية صريرة - لم يتعين موقعها، ولكن لا بد أن يكون بين شطة وابل محولة شرقاً (اعلام الاماكن وكاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٠٢).

وأما ابل محولة فالذي قاله كاران (في المجلد المذكور صفحة ٢٧٧) إنها كانت في محل خربة الحمام المالح بعيدة أربعة عشر ميلاً عن بيسان نحو الجنوب والذي في اعلام الاماكن انها كانت في الحبل المسمى الآن العين الحلوة بعيدة عشرة اميال عن بسان جنوباً، والحلان قريتان من الاردن واحدهما من الاخر، وطبات لا يعلم موقعها معيناً، ولكن لا بد أن كانت في جانب ابل محولة والاردن كما قيل في اعلام الاماكن. واجتمع رجال اسرائيل من بني نفتالي واشير وجميع سبط منسا وتعقبوا أثر المدينين، وارسل جدعون رسلاً الى جميع جبل افرايم ليقطعوا عليهم معابر النهر ففعلوا، وقبضوا على قائدَين من قواد مدين وهما عوريب (اي الغراب) وذيب (اي الذئب) فقتلوهما، واتوا برأسيهما الى جدعون في عبر الاردن.

فلام رجال افرايم جدعون لانه لم يدعهم للقتال، فتخلص من لومهم بقوله، ليس ان خصاصة افرايم افضل من قطاف أبيعزر، فالخصاصة ما يبقى في الكرم بعد قطافه، والقطاف جمع قطف اي العناقيد المقطوفة. وابعزر اسم عشيرته فكأنه يقول انهم فعلوا اكثر مما فعل لانه هزم عوريب وذيباً، واما هما فقتلوهما. ويظهر منه ان جدعون لم يكن كميّاً شجاعاً فقط بل كان متقلّباً في السياسة ايضاً. ثم عبر جدعون الاردن برجاله الثلاث مئة مطارداً زاباح وصلمناع ملكي مدين. وقال لاهل سكوت (في كتاب اعلام الاماكن ان الظاهر انها كانت في محل تل درعالا في شرقي الاردن). ولأهل فنوئيل (مدينة في شرقي سكوت لم يتعين موقعها) من سبط جاد اعطوا القوم الذين في عقبي ارغفة خبز لانهم قد اعيوا. فقالوا له أَلْعَلُّ اكُفَّ زاباح وصلمناع في يدك حتى نعطي عسكري خبزاً؟ فلم يعطوهم خشية ان يعود المدينيون فينتقموا منهم. فهددهم جدعون بما اجراه بعده عليهم كما سترى وظل مطارداً ملكي مدين الى قرقر. قال اوسايوس والقديس ايرونيموس ان موقع هذه المدينة في شمالي مدينة حجر في بلاد العرب. وفي اعلام الاماكن ان اسمها الآن غير معين ويحتمل ان يكون المراد بها عمل او مدينة فهناك ادرك جدعون الملكين،

ومعهما خمسة عشر الف رجل، وكان من تجنبوا في ساحة القتال مئة وعشرين الف رجل. ولما اقبل جدعون على الملكين وعسكرهما تسارعوا الى الفرار فجذب رجال جدعون في اثر الملكين، فادركوهما وقبضوا عليهما ورجعوا بهما من عند عقبة الشمس كذا في الترجمتين السبعينية والسريانية، وفي نسخة الآباء اليسوعيين ولكن في اللاتينية المعروفة بالعامة « ورجع قبل مطلع الشمس»، ولعله الأصح اذ لم يوجد ثمة محل يسمى عقبة الشمس.

وعاد جدعون الى سكوت فقبض على شيوخها وقال لهم هوذا الملكان اللذان غيرتموني بهما، واخذ اشواكاً من البرية، ونارج وعاقبهم بوضعهم على الاشواك تحت النوارج، وهدم برج فنوئيل وقتل رجالها، وقال لزبابح وصلمناع كيف كان الرجال الذين قتلتمهم بطابور؟ فقالا كانوا مثلك وهيئتهم كهية ابناء الملوك. فقال انما هم اخوتي وابناء امي ولو ابقيتما عليهم لما كنت اقتلكما. وقال لياتر بكره قم فاقتلهم، فلم يخرط سيفه خوفاً لانه كان صبيهاً. فقام جدعون وقتلهم، واخذ اهله الفضة التي كانت في اعناق جمالهم. ومنه يظهر قدم عادة العرب في تزيين اعناق جمالهم باهلة وغيرها من الحلى الى اليوم. وقد كانت ضربة جدعون المدينيين مذلة لهم اعواماً طويلاً اذ قال الكتاب ذل مدين امام بني اسرائيل، ولم يعودوا يرفعون رؤوسهم» (قضاة ف ٨ ع ٢٨).

وبعد هذا الظفر قال رجال اسرائيل لجدعون: تسلط علينا انت وابنك وابن ابنك. فقال لهم جدعون: لا انا اتسلط عليكم ولا ابني بل الرب يتسلط عليكم. ولكن اقترح عليهم أن يعطيه كل واحد منهم خرساً من غنيمته. فقالوا: لك ذلك وبسطوا رداءً، فالتقى عليه كل امرئ منهم خرصان غنيمته، فكان وزن خرصان الذهب التي طلبها الفاً وسبع مئة مثقال ذهب ما خلا الاهلة والنطفات اي القروط والثياب الارجوانية التي كانت على ملوك مدين، وما خلا القلائد التي كانت في اعناق جمالهم. وقد اتفق الكتاب والآثار المصرية، والآشورية والسورة في الدلالة على ان تحلي الرجال، والنساء والدواب ايضاً بالحلى كان من اقدم الدهر عائماً في المشرق، فصاغ جدعون ذلك الذهب افوداً، وهو احد الملابس الكهنوتية كالبطارشيل في أيامنا، وجعله في مدينة عفرة (فرعانا) وكانت الناس تتقاطر من كل فج لتراه به حتى نشأ عن ذلك نوع من العبادة الوثنية لهذا الافود.

والى هذا اشار الكتاب بقوله ان هذا الافود صار وهقاً لجدعون، وييته على أنه في الترجمتين القديمتين السريانية والعربية، وفي كتب بعض المفسرين كلمة تمثال مكان الافود. والنص العبراني غير صريح، والالف والسبع مئة مثقال ذهب تعادل اربعة وعشرين الف غرام ومئة واربعين غراماً اي نحو ثمانية آلاف درهم، اذا حُسِبَ كل مثقال ٢٠. ١٤ غراماً كما كانوا يحسبون بعد السبي البابلي. وعمل الافود لا يستلزم هذا القدر الكبير من الذهب. ومات جدعون وله سبعون ولداً لانه اتخذ نساءً كثيرات، ودفن في مدفن يواش ابيه في غرفة، واستراحت الارض بعد انتصاره أربعين سنة (قضاة ف ٦ و ٧ و ٨).

عد ٢٣٢

اييملك وتولع ويأثير

كان لجدعون سرية في شكيم (نابلس) وُلِدَ له منها ابنٌ سناه اييملك، فانطلق بعد وفاة ابيه، فكلم أخواله وعشيرتهم قائلاً ايي الامرين خيرٌ لكم؟ اَن يتسلط عليكم اخوتي سبعون رجلاً أم أن يتسلط عليكم رجلٌ واحد؟ واذكروا اني عظيمكم ولحمكم، فمالت قلوب اهل شكيم اليه وقالوا: إنه اخونا واعطوه سبعين مثقالاً من الفضة عبارة عن نحو من الف غرام من بيت بعل بريت الذي كانوا يعبدونه. وكانت عادة اهل شكيم ككثير غيرهم من القدماء ان يضعوا كنوزهم وما كان ثميناً عندهم في هياكلهم لاعتبارهم الهياكل محلاً حريزاً مباركاً. وقد وُجِدَ في كثير من الهياكل خزائن يستودعونها ما كان ثميناً. فأخذ اييملك الفضة، واستأجر بها رجالاً بطلالين اشقياء تبعوه، فجاء بيت ابيه في غرفة، وقتل اخوته، ولم ينج منهم إلا يواتام اصغرهم، فاجتمع اهل شكيم وبيت ملو، وهي مدينة مصابغة لشكيم. وقال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٤٦٤) انها تسمى الآن خربة الدوّارة ومضوا فأقاموا اييملك ملكاً عليهم.

فانطلق يواتام اخوه ووقف على قمة جبل جرزيم (وهو جبل الطور حيث يجتمع السامريون في أعيادهم كل سنة في جانب نابلس). ورفع صوته وقال: إسمعوا لي يا اهل شكيم سمع الله لكم. ذهبت الشجر مرة ليمسحنّ عليهم ملكاً فقلن لشجرة الزيتون كوني علينا ملكة فقالت: أدع زيتي الذي لاجله تكثر مني

الآلهة والناس، واذهب لاستعلي على الشجر؟ فقلن للتينة: كوني انت ملكة علينا فقالت: أأدع حلاوتي وثمرتي الطيبة واذهب لاستعلي على الشجر؟ فقلن للجفنة: كوني انت علينا ملكة، فقالت: أأدع مسطاري الذي يسر الله والناس، واذهب لاستعلي على الشجر؟ فقلن للعوسجة: تعالي انت فكوني علينا ملكة فقالت: ان كنتن حقاً تمسحني ملكة عليكن فتعايلن استظللن بظلي، وإلا فلتخرج نار من العوسجة وتحرق ارز لبنان. والآن ان كنتم فعلتم بالحق والاستقامة فملكتم ايملك عليكم، وكافأتم جدعون على تخليصكم من اهل مدين بذبحكم سبعين رجلاً من بنيه، فافرحوا بأيملك وليفرح هو بكم. وإلا فلتخرج منه ناز، وتأكل اهل شكيم وبیت ملو، ولتخرج ناز منهم وتأكل ايملك. وهرب يواتام، واختفى من وجه اخيه ومليك ايملك على اسرائيل ثلاث سنين، ثم ثار عليه اهل شكيم، فحاربهم ونكل بهم اولاً. وتيسر له أن يدخل المدينة بعد أن خرج منها، وقتل الشعب الذي كان فيها، وهدم المدينة وزرع في أرضها ملحاً، فانهم كانوا اذا ارادوا أن يجعلوا الارض عاقراً لا تنبت القوا فيها ملحاً. ومن بقي من اهل شكيم فزوا الى برج حصين كان فيه هيكل بريت معبودهم. فحاصره ايملك، وجمع حطباً حوله واحرقه، فأباد من السكان نحو الف نسمة. ثم انطلق الى تاباص المسماة الآن توباس، وهي في الشمال الشرقي من نابلس تبعد عنها ثلاثة عشر ميلاً. (ذكره اوسايوس وحققه كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٥٩). فأخذها وكان فيها صرح حصين لجأ اليه جميع الرجال والنساء، فحاصره ايملك وتقدم ليحرقه فألقت امرأة قمامة رحي اصابت رأس ايملك، فشذخت جمجمته فاستدعى حامل سلاحه وقال له: استل سيفك واقتلني لئلا يقال عني ان امرأة قتلتها، فوجأه الغلام فمات، وانتقم الله منه على ما صنعه باخوته (قضاة ف ٩).

وقام بعد ايملك لخلاص اسرائيل تولع بن فواة من سبط يساكر، وكان مقيماً بشامير (لم يُعَيَّن موقعها كما في كتاب اعلام الاماكن) في جبل افرايم. فتولى قضاء اسرائيل ثلاثاً وعشرين سنة، ومات ودفن في قريته شامير. وقام بعده يائير الجلعاوي فتولى القضاء على اسرائيل اثنتين وعشرين سنة، وكان له ثلاثون ابناً يركبون ثلاثين جحشاً، وكان لهم ثلاثون مدينة تسمى مزارع يائير، وهي في ارض جلعاد (السلط). ولم يطرنا الكتاب بشيء غير ذلك من اخبارهما، ويظهر ان ولاية يائير كانت في جلعاد وعبر الاردن الشرقي فقط.

يفتاح

وعاد بنو اسرائيل فعبدوا آلهة الآراميين والصيدونيين وغيرهم، فاشتد غضب الرب عليهم، واسلمهم إلى أيدي الفلسطينيين، وبني عمون فضايقوهم ثماني عشرة سنة. وبعد ان اذل بنو عمون الاسرائيليين الذين في عبر الاردن، اتوا ينكلون ببني يهوذا وبنيامين وافرائيم في غربي الاردن فصرخوا الى الرب، فذكّرهم بتخليصه لهم مرات عديدة، وبعودتهم الى عبادة الآلهة الغريبة. ولذلك صرف وجهه عنهم قائلاً: اذهبوا فاستغيثوا بالآلهة التي اخترتموها، فأزالوا الآلهة الغريبة من بينهم، وخشعوا له. فرق قلبه لمشقة اسرائيل واجتمع بنو عمون، ونزلوا بجلعاد (السلط)، واجتمع بنو اسرائيل، ونزلوا بالمصفاة المعروفة الآن بسوف في شمالي نهر اليبوق، وهو نهر الزرقاء (كتاب اعلام الاماكن) وقالوا أي رجل ابتداء الحرب مع بني عمون فهو يكون رئيساً على سكان جلعاد كلهم. وكان رجل من جلعاد اسمه جلعاد كبلده وله ابن من امرأة بغي اسمه يفتاح، وله بنون آخرون من زوجته الشرعية، طردوا يفتاح لئلا يقاسمهم الميراث فهرب من وجه اخوته. واقام في ارض طوب التي لم يُعَيّن موقعها الى الآن، ويُرجّح انها كانت في شرقي الاردن.

وقال الأب مرتينوس اليسوعي في ما أذاعه البشير من كتابه تاريخ لبنان ان مملكة طوب كان موقعها في انحاء حرمون (جبل الشيخ)، ولعلها كانت في منحدره الشرقي في الجهة المسماة الآن بالبلاس. فجمع يفتاح اليه في هذه الارض قوماً بطالين، كانوا يخرجون معه لشن الغارة وسلب المازة. فانطلق شيوخ جلعاد اليه وكلفوه ان يأتي فيكون لهم قائداً فعزز نفسه اولاً وقال انكم ابغضتموني وطردتموني، فكيف اتيتموني الآن في شدّتكم؟ ويظهر انه كان خبيراً بضروب السياسة، فلم يرّض ان يأتي معهم إلا ان يعاهدوه امام الرب، بأنه اذا انقضت الحرب استمر رئيساً عليهم فعاهدوه. فأتى معهم وارسل رسلاً الى ملك بني عمون يسأله لِمَ حمل عليهم؟ ويرغب اليه ان ينكف عن حربهم، فأجابه ملك العمونيين: إن بني اسرائيل اخذوا ارضهم عند خروجهم من مصر، فليردوها عليهم، فأرسل له يفتاح رسلاً آخرين، يبيّن له ان بني اسرائيل في ايام موسى تحاشوا بأمر الله محاربة الموآبيين والعمونيين، لانهم من نسل لوط وانه قد مضى عليهم وهم مقيمون في

هذه الارض ثلاث مئة سنة. فلماذا لم يسترجعوا ارضهم في تلك المدة؟ فلم يسمع ملك عمون كلامه، وزحف بجيشه الى بني اسرائيل. «ونذر يفتاح نذراً للرب وقال: ان دفعت بني عمون الى يدي، فكل خارج يخرج من باب بيتي للقائي حين اياي سائلاً... يكون للرب اصعده محرقة». وهاجم يفتاح بني عمون فسلمهم الرب الى يده، فضربهم من عروعر (عراير الآن) الى حد منيت عشرين مدينة والى ابل الكروم ضربة عظيمة جداً. فذل بنو عمون امام بني اسرائيل. قال الاب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٣٣) إن الجواله الانكليزي تريسترم طاف بلاد مواب سنة ١٨٧٢م واهتدى الى موقع ابل الكروم، وهي بعيدة عشرين دقيقة عن ديبان المعروفة بهذا الاسم ايضاً، وذلك الموقع يسمى الآن كروم ديبان، واما في منيت فقال: ظن بعضهم أن موقعها كان في المحل المسمى الآن منجه، في شرقي حشبون (حسبان الآن). وهو بعيد أحد عشر كيلومتراً عنها؛ لكننا لم نجد هناك أثراً دالاً على ذلك. ونقل كلمت عن أوسايوس: أن منيت بعيدة اربعة اميال عن حشبون شرقاً على طريق فيلادلفية، وهي عمان الآن، وفي اعلام الاماكن أن موقعها في المحل المسمى المنية الآن في جنوبي جبل نبو على قول بعضهم.

وعاد يفتاح الى بيته في المصفاة فإذا ابنته خارجة للقائه بالدفوف والرقص، وهي وحيدة لا ولد له سواها. فقال لها: أوه يا بنية قد صرعتني لأنني أبرزت نذري للرب، ولا سبيل لنكثته. فقالت: يا أبت ان كنت قد أبرزت نذرك فاصنع بي ما خرج من فيك بعدما انتقم الرب من اعدائك. وطلبت أن يمهله شهرين لتتردد في الجبال، وتبكي بتوليبتها هي واتبائها، ففسح لها شهرين فانطلقت، وبكت على الجبال بتوليبتها مع اترابها، ثم رجعت الى أبيها فأتم بها النذر الذي نذره وهي لم تعرف رجلاً، وكانت بنات اسرائيل يمضين كل سنة وينحن على ابنة يفتاح اربعة أيام.

قد أجمع الآباء القدماء، والتقليد اليهودي والمسيحي الى القرن الحادي عشر ان يفتاح قدّم ابنته محرقة للرب. ولكن رأى بعض الحدّثاء أن يفتاح لم يُضَحِّح بابنته بل نذر ان تبقي بتولاً، ومن حجج هؤلاء أن شريعة موسى حظرت صريحاً تقدمة الضحايا البشرية، فلا يُظنّ ان يفتاح اراد ان يبرز نذراً مخالفاً للسنة، ومنها انه لو كان يفتاح نذر حقيقة ان يقدم ابنته ضحيّة لما جاز له أن يقدمها بنفسه اذ لم يكن

كاهناً، ومنها ان الكتاب لم يحب يفتاح بل نرى الرسول عدّه مع غيره من الآباء. بقوله: ماذا اقول؟ وزماني قصير عن ان اخبر بأمر جدعون، وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والانبياء» (عبرانية ف ١١ ع ٣٢). وقد ردّ اصحاب القول الاول الحجج المار ذكرها بقولهم: إنّ حظر السنّة تقدمة الضحايا البشرية لا تكون منه حجة، بأنّ يفتاح لم يُضَحَّ بابنته اذ يمكنه مخالفة السنّة كما خالفها بنو اسرائيل بتضحيتهم ببنيتهم وبناتهم ايضاً. وكذا يمكنه ان يخالف السنّة بتضحيتها، وان لم يكن كاهناً. وذكر الرسول يفتاح بين باقي من ذكرهم لا يمكن تنزيله منزلة ثناء على كل اعماله.

فما من قائل ان الرسول بهذا الذكر اثني على داود بقتل اوريا ايضاً او على شمشون بكثير من اعماله. وقالوا: إنّ آية الكتاب «كل خارج يخرج من بيتي يكون للرب أصعده محرقة». صريحة تأبى كل تأويل، ويراد بها شخص فلا يمكن حملها على بتولية ابنته، وقال القديس توما: إنّ يفتاح ركب الحمافة بنذره والمعصية باتمامه (الخلاصة اللاهوتية قسم ثانٍ مبحث ٨٨). وكذا قال كثير من الآباء والعلماء، ولكن انثنى العلماء الحدّاء قائلين: إنّ كلام الكتاب مجازي، فالحرق لا يراد بها محرقة دموية بل يراد بها انقطاع ابنة يفتاح عن الزواج. وهذا الانقطاع كان في المشرق في ذلك العصر محرقة كبرى، اذ كان عندهم عاراً على المرأة ان لا تلد وهذا واضح من قول الیصابات بعد ولادتها يوحنا: «هذا ما صنعه بي الرب لينزع عاري من بين بني البشر» (لوقا ف ١ ع ٢٥).

ويفتاح بنذره أن تبقى ابنته بتولاً كان يعدم نفسه الامل بأن تكون له ذرية وهذا محرقة من قبله اذ لم يكن له ولد غيرها. وتذرّع هؤلاء لقولهم بباقي آيات الكتاب وهي: «لم تعرف رجلاً، وابكي بتوليتي، وبكت بتوليتها على الجبال» على أنّ صراحة آية الكتاب بأنه نذر ان يصعدها محرقة، وقوله انه اتمّ نذره بها ومراعاة عادات البلاد والايام، وجهالة نذر العقّة في تلك الايام. كل ذلك يرجّح قول من رأوا ان يفتاح قدّم ابنته محرقة حقاً (فيكورو الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٣٥ والموجز الكتابي عد ٤٥٧ وما يليه).

واجتمع رجال بني إفرائيم، وعنفوا يفتاح لانه لم يدعهم لمحاربة العمونيين، فلم يُخمد غضبهم برقة كلامه كما فعل جدعون معهم بل اضطربت نار الوغى بينهم.

تبين من سفره أنّ بني عناق كانوا يسكنون غزة، وعسقلون وعقرون (عاق) التي سكنها بعد ذلك الفلسطينيون. وقد ورد ذكرهم ثمة لأول مرة في سفر القضاة حيث جاء أن شمعرج حاربهم بمنساس البقر مع أمثاله من الحارثين، وقتل منهم ست مئة رجل.

وقد كان للعلماء ومفسري الكتاب أقوال متعددة متباينة في أصل الفلسطينيين، ولم ينجلي أصلهم وذريتهم، وارتحالهم إلّا من املٍ قريب بعد أن أحيا العلماء اللغة الهيروكليزية. وانبعث رمم تلك الصور، فظهر من ورائها كنوز معارف اثن من كنوز الذهب، ومنها أنّ الفلسطينيين لم يكونوا من قبائل سورية بل من ذرية البلاسج السكان القدماء في بلاد اليونان، وفي اسمهم نفسه الحروف الأصلية في كلمة بلاسج أو فلاسج، لأنّ ابدال الباء بالفاء كثير في مثل هذه الأسماء. وإنما بُدلت الجيم الأخيرة بالهاء أو الطاء تخفيفاً، وقد جاء في كثير من آي الكتاب وأقوال المؤلفين أنّ منشأهم جزيرة كريت. أو هي أول مرحلة معروفة لهم، فقد ورد في سفر الملوك الأول (ف ٣٠ ع ١٤). «وقد غزونا جنوب الكريتيين وما ليهودا، وجنوبي كالب»، ولا وراء في أنّ المراد بالكريتيين هنا الفلسطينيون، وجاء في نبوة حزقيال (ف ٢٥ ع ١٦). «هأنذا امدّ يدي على الفلسطينيين وأقرض الكريتيين وأيد بقية ساحل البحر». وفي نبوة صفنيا (ف ٢ ع ٥). «ويلّ لسكان ساحل البحر لأمة الكريتيين، إنّ كلمة الرب عليكم يا كنعان أرض الفلسطينيين، فأيدك حتى لا يبقى فيك ساكن وصريح تاشيتوس (في تاريخه ق ٢) أنّ الفلسطينيين اتوا من كريت.

وقد كشفت لنا الآثار المصرية المنبئة بتاريخ رعمسيس الثالث عن أنّ الفلسطينيين اتوا من كريت. ففي قصر مدينة أبو في تاب (طيبة) صُوّر وخطوط دالة على حصول محالفة بين الكريتيين وغيرهم من عشائر البلاسج في أيام رعمسيس الثالث أحد ملوك الدولة العشرين من الدول المصرية. فغشوا سورية ومصر بعد افتتاح يشوع بن نون بلاد كنعان وأتى بعضهم بحراً والسواد الأعظم منهم، أكريتيون، فحاربهم رعمسيس الثالث، وانتصر عليهم وأسر جميعهم. وكانوا عشيرة برمتها رجالاً ونساءً واطفالاً، ولم يرَ من السداد أن يبيد هذه العشيرة جمعاء، فعوّل على استبقائهم، وإعطائهم أرضاً يسكنونها. فأقام رعمسيس الفلستا (كما في الأصل) الفلسطينيين في جانب بلاد كنعان بين يافو (يافا)، ونهر مصر فسكنوا غزة

وأشدود، وعسقلان حيث يمكن الحرس المصري أن يرقب تحركاتهم. روى ذلك الأب فيكوررو في الكتاب والإكتشافات الحديثة (مجلد ٣ صفحة ٣٣٨). ولا نرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٦ صفحة ٢١٤ طبعة ٩). ومسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق (صفحة ٣١٣ طبعة ٤).

وكان هؤلاء الفلسطينيون أولاً ضعفاء يؤيده قتل شمر كثيرين منهم بمناس البقر، ولكن زادهم قوة إنحطاط الدولة المصرية، ولحق كثير من أبناء جلدتهم الى فلسطين، وأستحوذوا على جت. وهي ذكرين الآن وعلى عقرون وهي عاقر الآن. فكان لهم خمسة أقطاب أو خمسة أمراء شديدي التحالف بينهم. وسولت لهم انفسهم الإستيلاء على بلاد كنعان، وإخضاع بني اسرائيل والفينيقيين لهم فافتتحوا صيدا نحو سنة ١٢٠٠ ق.م وأخربوها كما ذكرنا في مقالة الفينيقيين عد ١١٣. وهل البلاسج الذين منهم الفلسطينيون هم من نسل يافت أو من نسل حام؟ فالعلامة لانرمان (في المحل السالف ذكره) يقول: إنهم يافتيون تبعاً لرأي الجمهور لا سيما القدماء على أن الأب دي كارا أكثر من الحجج على أن البلاسج من الحثيين من ولد حام، طالع ما دوناه مشبعاً بهذا الشأن في مقالة الحثيين عد ٨٦ و ٨٨.

عد ٢٣٥

مولد شمشون وزواجه

قال الكتاب (قضاة ١٣ ع ٢) كان رجل من صرعة من قبيلة دان، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، فترأى ملاك الرب لها وقال إنك ستحبلين وتلدن ابناً لا يعلو رأسه موسى لأنه يكون ناسكاً أو نذيراً لله. ويبدأ بخلاص اسرائيل من أيدي الفلسطينيين وأن تحتفظ على نفسها مدة حملها، وعلى الصبي مدة حياته من شرب المسكر ومن أكل ما يكون نجساً. وأخبرت زوجها بما قال لها الملاك، فظهر لهما ثانية. وأثبت لهما بآية ما بشرهما به، وحبلت المرأة فولدت شمشون. فكان نذيراً كما قال الملاك وهو أول نذير ذكره الكتاب، ولما شب شمشون كان يتردد بين صرعة واشتاوول. أمّا صرعة فما برحت تسمى بهذا الإسم، وقال اوساييوس وايرونيوس إنها بعيدة عشرة اميال عن بيت جبرين شمالاً، وقال كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ١٧) إن صرعة واقعة حقيقة في الطريق المؤدي من بيت جبرين الى عمواص، ولكن

بعدها عن بيت جبرين هو خمسة عشر ميلاً، وأما اشتاؤول فقال كاران في المجلد المذكور (صفحة ١٣) إنها تسمى الآن اشوع ولا تبعد عن صرعة إلا أربع كيلومترات والموضعان في جانب السكة الحديدية الموصلة بين يافا واورشليم.

ونزل شمشون إلى تمته المسماة الآن تبنة في جوار صرعة، غير تمته سارح مدينة يشوع بن نون. فهام في حب امرأة من بنات فلسطين، وطلب الى أبيه وأمه أن يتخذاها له زوجةً، فمانعه من ذلك لأنها اجنبية فأصرَّ على طلبه، ونزلا معه الى تمته. ورأى شمشون في كروم تمته شبل لبوة يزأر فوثب عليه، وفسخه بيديه كما يفسخ جدياً صغيراً، ولم يخبر أباه وأمه بما فعل. وقد روى سويدا أن بطلاً يونانياً يسمى يوليداماس فعل مثل ذلك، أي أنه قتل أسداً في جبل أوليمبوس، وهو أعزل لا سلاح بيده. وروى الكتاب أن داود أيضاً قتل اسداً كما سترى، وقد توفرت في الآثار الآشورية صُورُ أزدوبار يخنق اسداً بيده اليسرى. وكثيراً ما قتل المصارعون اسداً في المحاضر الرومانية وغيرها.

وعاد شمشون بعد أيام أي بعد سنة لثُرَفَ اليه المرأة التي خطبها أولاً، فكانت مدة الخطبة عند العبرانيين سنة، فحاد لينظر في جثة الأسد فإذا في جوف الأسد خشرم من النحل وعسل، فاستشار منه على كُفْيهِ ومضى وهو يأكل. وأعطى منه أباه وأمه فأكلا، ولم يخبرهما من أين اشتاره. وقد أكثر المنددون بالكتاب من الطنطنة بتعيب شمشون بهذه الآية زاعمين أن النحل يأنف من الجثث، فكيف يتخذها خلقةً ويصنع فيها عسله؟ لكنهم قد تعاملوا عن أن النحل وإن نأى عن الجثث فلا ينأى عن العظام اليابسة، وعن أن قول الكتاب بعد أيام كثيراً ما أراد به مدد طوال. وروى هيرودت (ك ٥ فصل ١١٤) أن النحل عشل في جمجمة اونايسيوس حاكم قبرص الذي قطع اعداؤه رأسه، واستبقوه معلقاً امامهم. والجثث في البلاد الحارة كفلسطين تجفُّ في الصيف وتبيس كالومياء في وقت وجيز ولا تنتن، فلا يفرّ النحل منها كما حقق كثير من الجوّالة في فلسطين. وأثبتوا أن النحل البري فيها كثير، وأنه يتخذ خلاياه في الكهوف، والمغاور وثقوب الأشجار بحيث يستظل من حرّ الشمس.

وأدب شمشون مأدبة العرس مدة سبعة أيام لأنه كذلك كانت تصنع الفتيان. وصحبه ثلاثون رجلاً وكان عشوراً فقال لهم إني ملقٍ عليكم لغزاً، فإن حللتموه لي

في سبعة أيام الوليمة أعطيتكم ثلاثين قميصاً، وثلاثين حلة من الثياب، وإن لم تحلوه اعطيتموني كذلك. ومنه يظهر أن ملابسهم كانت يومئذ القميص والحلة أي الرداء الطويل فوق القميص. وكذا نرى اليوم أكثر السكان هناك، وفي سائر الأمم البدوية في المشرق. فقالوا له ألي لغزك. فقال لهم خرج من الآكل أكل، ومن الشديد حلاوة، فلم يكن لهم إلى حل لغزه سبيل. وقالوا لعرسه خادعي زوجك ليحل لنا اللغز وإلا حرقناك مع بيت ابيك، ألتسلبونا دعوتونا فأكثر من التدلل والبكاء عليه، وضايقته فأطلعها على اللغز، وباحت بسرّه اليهم. فقالوا له لا أحلى من العسل ولا أشد من الأسد. فقال لهم لولا أنكم حرثتم على عجلتي لم تكشفوا لغزي. وروى يوسفوس انه قال: «ولا ادهى من النساء»، وأشد غضبه فنزل إلى اسقلون (عسقلان الآن)، وقتل ثلاثين رجلاً وأخذ ثيابهم، وأعطى الحلل لحالي اللغز. ولا عجب من قتل رجل ثلاثين رجلاً في أيام لم يكن فيها سلاح ايمان. ولم يقل الكتاب أنه قتلهم مجتمعين، وقد انبأنا التواريخ أن كثيرين قتل كل منهم أكثر من هذا العدد، وشمشون كان قاضياً ورئيساً في قومه الذين يضطهدهم الفلسطينيون، فجاز له أن ينكل بأعداء قومه (قضاة فصل ١٤).

عد ٢٣٦

إحراق شمشون زروع الفلسطينيين وقتله كثيرين منهم بلحى الحمار

وأتى شمشون في أوان الحصاد يزور إمرأته، وحمل إليها جدياً من المعز. ويظهر من هذه الآية وغيرها أن أهل ذلك الجيل كانوا يؤثرون لحم الجدي على لحم الغنم في الولائم والهدايا. ولما أراد شمشون أن يدخل على امرأته في حجرتها صده أبوها وقال إنك ابغضتها فزوجتها من أحد اصحابك، ولكن هذه أختها الصغرى أحسن منها فلتكن لك بدلاً منها. فقال شمشون لاني بريء الآن من الفلسطينيين إذا انزلت بهم شراً. وانطلق واصطاد ثلاث مئة ثعلب، وأخذ مشاعل فجعل الثعالب ذئباً إلى ذئب وبين كل ذئبين مشعلاً، وأوقد المشاعل، وأرسل الثعالب في زرع الفلسطينيين، فأحرقت الأكداس والزرع حتى الزيتون. ولا يتحتم من كلام الكتاب أن يكون شمشون قد صاد كل هذه الثعالب منفرداً بل يرجح انه أعين على صيدها والكلمة في العبرانية هنا تعليم وفي السريانية **ܬܠܡܝܬܐ** (تعلّى). فتتحمل تفسيرها بالثعالب كما ترجمتها النسخة اللاتينية المعروفة بالعامية أو بينات آوى، والحقل وهو لفظ

فارسي يُراد به نوع من الثعالب، وأثبت كثير من الجوالاة في فلسطين وفرة الثعالب فيها.

وقال السيد مينرلن في كتابه الموسوم بالأماكن المقدسة (طبعة سنة ١٨٥٨م مجلد ٢ صفحة ١٥٦) أنه بينما كان في محلة قرية من محل شمشون شُيع عواء الثعالب من جميع المغاور والكهوف والغابات وقال: «لا أعلم إن كان ثمة ثلاث مئة ثعلب، لكنني موقن أنه لو وُجِدَ شمشون آخر وأراد أن يحرق زروع بلاد الفلسطينيين لصاد من هذا الوادي وحده ما كفى وناف على عداد الثعالب اللازم لحرقها»، وكان إحراق زروع العدى من عادات كل جيل وكل مكان. فقد وُجِدَت صفيحة مصرية تُعرف بصفيحة أونا تُقَشَّ عليها لنحو من ثمانية وعشرين أو ثلاثين قرناً قبل المخلص على ما رأى شباس (في كتابه دروس القدم صفحة ١٢٢) ما ترجمته: «ذهب الجنود بسلام فيقوضون الحصون المنيعه. ذهب الجنود بسلام فيبيدون زيتون البلاد وكرومها. ذهب الجنود بسلام فيحرقون الزروع». وجاء في أثر لاويز تاسان الثالث في سمعة على عدوة النيل خط فيه «أن هؤلاء (أي سودان بلاد النوبة) ليسوا رجالاً يستحقون الإلتفات فقد أخذت نساءهم وقبضت على شعبهم عند خروجهم لإستقاء الماء من الآبار، وأهلكت مواشيهم وأحرقت زروعهم». ولا حاجة الى أن نذكر مواطننا بديب هذه العادة السيئة الى بلادنا من أقدم الأعصر بل نتمنى نسخها.

أمّا الفلسطينيون فلشدّة حنقهم أحرقوا المرأة وأباها بالنار. وأما شمشون فضرِبهم ضربة أخرى عظيمة لم يفضّلها الكتاب. ثم نزل وأقام في كهف صخرة عيطم قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٥٥) يُحتمل أن هذا الكهف كان في آخر سفح جبل يهوذا على مقربة من دير دوبان. ولكن في كتاب أعلام الأماكن أنه كان في قرية بيت عتاب في غربي بيت لحم، فصعد الفلسطينيون وحلّوا في أرض يهوذا فقال لهم لماذا صعدتم علينا؟ فقالوا: لنوثق شمشون ونصنع به كما صنع بنا. فأتى ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى كهف صخرة عيطم، وقالوا لشمشون أما تعلم أنّ الفلسطينيين متسلطون علينا؟ فجئنا لنوثقك ونسلمك الى ايديهم. فقال لهم: إحلّفوا لي أنكم لا تقعون أنتم بي، فقالوا لا نقتلك ولكن نوثقك ونسلمك إليهم. فأوثقوه بحبلين جديدين وأصعدوه من صخرة عيطم، ولما انتهى الى حيث الفلسطينيون صاحوا عند لقاءه، فقطع الحبلين

الموثوق بهما كأنهما كئئان مشيط بالنار، ووجد لحن الحمار فتناوله، فقتل به ألف رجل، وقال بلحن الحمار كدست كومة كومتين، وبفك حمار قتلت ألف رجل. ورخي اللحن من يده، ودعا ذاك المكان رامة لحن. أمّا قطعه الحبلين فبالقوة غير العادية التي حباه الله لإياها، وأما ضربه ألف رجل كما في النص العبراني، أو قتلهم كما في الترجمات فنسبته الى شمشون نسبة ظفر الجنود الى القائد. فكثيراً ما يقال إن فلاناً القائد إفتتح المدينة أو كسر جيش العدو ولا يكون المراد منه أنه فعل ذلك بنفسه منفرداً، فقد يكون بعض من بني يهوذا عاونوا شمشون على قتل الفلسطينيين بعد أن رأوه قطع وثاقه وبطش بأعدائهم. وهب أنه صنع ذلك بنفسه فما على الله أمر عسير، وقد كان الرعب تولّى قلوب الفلسطينيين لما سمعوه ورأوا من أعمال هذا البطل.

وقد عطش شمشون بعد هذه الموقعة حتى كاد يهلك عطشاً فصرخ الى الرب، «فشقّ الله مورم الفك فخرجت منه مياه فشرب، ورجعت روحه إليه (أي قوته) وعاش، ولذلك دعا ذلك الموضع عين الداعي وهي في لحن الى اليوم». كذا في نسخة الآباء اليسوعيين البيروتية، ومورم الفك منبت الأضراس فيه. وفي الترجمة العربية التي طبعها الأمريكيون في بيروت سنة ١٨٨٤م «وشقّ الله الكفة التي في لحن فخرج منها ماء فشرب». والكفة كل مستدير ونقرة يجتمع فيها الماء. وقال بعض المفسرين تبعاً لظاهر الآية أن الماء خرج من فكّ الحمار والله على كل شيء قدير، ولكن يظهر من الترجمة الكلدانية أنّ الماء خرج لا من اللحن أي الفك بل من المحل الذي رماه فيه، وسمى رامة لحن أي مرمى اللحن. فالعرب وغيرهم من أصحاب اللغات يسمّون كل صخر مرتفع ومنقطع عن غيره سناً. وعليه فيكون المعنى أن الله شقّ سناً أي صخراً في المحل المسمى لحن، فخرجت منه مياه وباقي الآية مشعر بذلك كقوله: «ولذلك دعا ذلك الموضع عين الداعي وهو في لحن الى اليوم». وإلا لقال: «واللحن باقي الى اليوم».

وذكر كلمت أنّ كليكاس (في قسم ٢ من تاريخه). وأنطونينوس الشهيد (في أخبار رحلته)، ذكرا عين الداعي هذه وقالوا إنها كانت في أيامهما ولم يشيرا الى أنها خارجة من فك حمار. وقال يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ فصل ١٠): إنّ العين خرجت من صخر وعليه مشى أكثر المفسرين ولا حاجة الى تكثير المعجزات. فكيف إخراج الماء من صخر أو من الأرض. وقال بروكوب (في مقدمات مكتبة

الآباء اليونان مجلد ٨٧ جزء ١) «يقال إن الله فتح ثقباً في الفك فأخرج منه المياه والأمثل أنه فتح الأرض بالفك». وأما موقع اللحي أو رامة لحي فقال فيه كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٩٦) إنه كان في المحل المسمى الآن خربة عين اللحي قريباً من عتان في غربي بيت لحم وبيت جالا. وأسند ذلك الى أن الاسم الآن وفي سفر القضاة واحد الى قرب هذا المحل من عتان حيث كانت صخرة عيطم التي لجأ شمشون إليها. ولا يُقدَّر أن الفلسطينيين إجتمعوا في محل بعيد عن مخبأ شمشون.

عد ٢٣٧

إقتلاع شمشون باب غزة وحمله وقبض الفلسطينيين عليه وموته

جاء في سفر القضاة (فصل ١٦) أن شمشون انطلق الى غزة ودخل الى بيت بغي أو صاحبة نزل، فاحتاط به الفلسطينيون سكان غزة وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة، وأوصدوا الباب وقالوا عند الصبح نقتله. فقام شمشون عند نصف الليل فأخذ مصراعين باب المدينة بعضادتيه وقلع الباب ومغلقه. وصعد به الى رأس الجبل الذي قبالة حبرون وهو اكمة في الجنوب الغربي من غزة تسمى المنطاد. فالتقليد القديم وأهل غزة الآن ايضاً يقولون إن شمشون على هذه الأكمة وضع باب المدينة (فيكورو الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٥٩).

وأحب شمشون بعد ذلك امرأة اسمها دليلة ساكنة في وادي سوريق وهو الوادي الممتد من سفح الجبل المبنية عليه صرعة المار ذكرها نحو الغرب. قال كثير من الآباء القدماء منهم فم الذهب (خطبة ١٧)، والقديس أفرام (في تفسيره سفر التكوين) إن شمشون اتخذ هذه المرأة زوجة شرعية. وقال غيرهم إنها كانت سرية تسراها وعلم بذلك أقطاب الفلسطينيين، فصعدوا إليها وأغروها بمال وقالوا خادعيه وأنظري بماذا قوتيه؟ وبماذا تتمكن منه؟ وأخذت تتدلل عليه وتسأله بتلطّف بماذا قوته وشعر بمكرها فقال إذا أوثقوني بسبعة أوطار طريفة لم تجفّ، فأضعف وأصير كواحد من الناس. فدفّع إليها الأقطاب هذه الأوتار فشدّته بها والكمين راibus عندها، وقالت دهمك الفلسطينيون يا شمشون، فقطع الأوتار كما يقطع خيط المشاقه إذا شيط بالنار، وعادت تتدلل عليه وتعبه لأنه كدّبها الحديث فقال لها إن أوثقوني بحبال جديدة لم تُستعمل قطّ فأني أضعف فشدّته كذلك، وصاحت دهمك

الفلسطينيون يا شمشون والكمين رابض، فقطع الحبال كما يقطع الحيط. فقالت إلى متى تخدعني وتكذبني؟ فأخبرني بما توثق؟ فقال: أوثق إذا ضُفِرَت سبع خصل رأسي مع السدى (ما مدُّ من خيوط النسيج وهو خلاف لحمة). فشَدَّتْ خصل شعره بالسدى ومكنتها بالوتد وقالت كالأول فاستيقظ من نومه وقلع وتد النسيج والسدى. وعادت تضايقه وتضاجره كل يوم فضاقت نفسه وكاشفها بسرّه قائلاً لم يعمل موسى رأسي لأنني نذير للرب من بطن أُمي، فإن حُلِقَ رأسي فارقتني قوّتي. ورأت أنه كاشفها بما في قلبه فدعت اقطاب الفلسطينيين وأضجعتة على ركبتيها، ودعت رجلاً فحلق سبع خصل رأسه. وصاحت دهمك الفلسطينيون يا شمشون فاستيقظ من نومه وقال أخرج كما كنت أصنع كل مرة وأنتفض وهو لا يعلم أنّ الرب فارقه لإخلافه نذره، ووثب الفلسطينيون الكامنون فقبضوا عليه وفقوا عينيه وشدّوه بسلسلتين من نحاس، ونزلوا به إلى غزة وكان يطحن في السجن. ولا نحتاج إلى إخبار قومنا بما أعلم تومسن الانكليزي قومه بالإرحاء التي تدار باليد، ووضع صورة إمرأتين تديران رحى فإنّ هذه الإرحاء ما برحت في كثير من قرانا وهي المعروفة بالجاروشة.

وقد حان أوان الأخذ بالثأر فإنّ شعر شمشون أخذ يطول، واجتمع أقطاب الفلسطينيين ليذهبوا ذبيحة لداجون معبودهم. وأتوا بشمشون ليلعب أمامهم فأثى ولعب وأقاموه بين العمود. فقال للصبي الآخذ بيده دعني المس العمود القائم عليها البيت حتى اتكئ عليها. وكان البيت غاصاً بالرجال والنساء وفوق السطح نحو ثلاثة آلاف منهم يتفرجون على شمشون وهو يلعب. فصلّى إلى الله صلوة خاشعة وقبض على العمودين اللذين في الوسط القائم عليهما البيت واتكأ عليهما آخذاً أحدهما يمينه والآخر بشماله وقال: لثمت نفسي مع الفلسطينيين، وانحنى بشدّة فسقط البيت على الأقطاب وجميع من فيه، فكان الموتى الذين قتلهم في موته أكثر من الذين قتلهم في حياته. ونزل إخوته وأهله فحملوه ودفنوه بين صرعة واشتاوول في قبر منوح أبيه وكان قد تولّى القضاء على اسرائيل عشرين سنة.

وأصحّ تفسير للآيات المنبئة بسقوط البناء على شمشون والفلسطينيين هو ما ذكره العالم ستارك في مقالته في غزة وشاطئ فلسطين حيث قال ما ملّخصه إنّ الملعب لم يكن هيكلاً داجون نفسه بل أروقة بجانيه قائمة على أعمدة يتخللها عرصة تجتمع الناس فيها وعلى أسطحها الأروقة المستوية. فيتيسّر للشهّد رؤية

اللاعبين. ويصل بين الأعمدة المتقاربة جذوع من خشب فزعزعة عمودين منها أدّت الى إنقياض البناء كله فمات من كان تحته ومن كان فوقه. ويظهر أن شمشون صنع ذلك بالقوة غير العادية التي حباه الله بها وكانت عاودته بعد أن طال شعره. وقد أراد الله ذلك انتقاماً من الفلسطينيين الذين كانوا يضطهدون شعبه فجعل شمشون ينتقم منهم في حياته وعند مماته. ورأى بعض الآباء والعلماء أنه يمكن تبرئة شمشون من الإثم، فهو كان قاضياً وحاكماً ومدافعاً عن بني اسرائيل، فكان له أن يتعمّد مضرة اعدائهم ونفع قومه ولو بتعريض نفسه للموت كما فعل ويفعل كثير من الملوك وقواد الجيوش، ياقتحامهم بأنفسهم حومة الوغى.

وقد وجد العالم كاران مدفن شمشون اذ قال (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٢٤): إنه بينما كان في قرية عتاب القريبة من صرعة أخبره بعض سكانها أنه يوجد محلّ على مقربة من صرعة وعرطوف يسمى خربة عسلين. وأنّ ثمة معبداً تسمّيه العامة ولي شيخ غريب وأنهم يسمّونه قبر شمشون. ويعتقدونه كذلك. وقال ذكّرني هذه الأخبار أنّ شمشون بعد أن مات تحت الردم في غرة حمله اخوته، ودفنوه في مدفن ابيه منوح بين صرعة واشتاوول. وقال لي سكان بيت عتاب: إنّ القرية المسماة الآن أشوع كانت تسمى قديماً اشوعال أو اشتوعال. فرأيت أنّ هذه الا اشتاوول التي ذكرها الكتاب وصرعه معاً والمدفن بينهما. وقد شخصت الى خربة عسلين وعانيت مقام ولي شيخ غريب، وهو الآن معبد للإسلام وقد يكون المعبد بُني فوق المدفن. ولما كانت خربة عسلين واقعة بين صرعة جنوباً وبين اشوعال أي اشتاوول في الشرق الشمالي رأيت أنّ المحل المسمّى الآن ولي شيخ غريب هو مدفن شمشون. ويؤيد ذلك أنّ الربّي اسحق كالمو الذي جال في فلسطين سنة ١٣٣٣م قال في مقالته الموسومة بطرق اورشليم: «ومن اورشليم الى صرعة وطن شمشون... والسكان يدلّون هناك على مدفن شمشون وهو أثر قديم مزجّن بفك الحمار الذي قتل به الفلسطينيون». والحاصل أنّ مواقع هذه المحال المطابقة لنص الكتاب والتقليد الذي حفظه سكان تلك الناحية، وما رواه الربّي اسحق المذكور، جعلت كاران يرى أنّ هناك مدفن شمشون وأبيه منوح، وتبعه في ذلك الاب فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٧٠) ذاكراً كلام كاران برمته وجميع هذه الأماكن واقعة بين الرملة واورشليم حيث الخط الحديدي الآن.

أحداث داخلية في مدة القضاة

قد ذُيِّل كاتب سفر القضاة سفره بخبر حدثين ذكرهما في الفصول الأخيرة منه، فهما مقدمان حدثاً وإن تأخرا وضعاً أولهما أنّ رجلاً من جبل افرائيم اسمه ميخا أخذ ألف ومئة مثقال فضة من أمه فردّها عليها؛ فأخذت أمه مئتي مثقال منها ودفعتها الى الصائغ فعملها صنماً منقوشاً، وكُرِّس ميخا يد أحد بنيه فصار له كاهناً، ثم أخذ لاوياً فكرّس يده وجعله كاهناً له. وكان بنو دان أرسلوا رجلاً ليجسّوا الأرض، ويوسعوا ميراثهم، فباتوا في بيت ميخا وعرفوا الفتى اللاوي. ولما أتوا برجالهم للإستيلاء على لايش التي سموها دان (تل القاضي الآن) أخذوا اللاوي والصنم ونصبوه في مدينتهم الجديدة، وعبدوه إكْتِفَاءً به عن بيت الله في شيلو (سيلون).

والحدث الثاني أنّ رجلاً لاوياً من جبل افرائيم اتّخذ امرأة من بيت لحم يهوذا فتركته وعادت إلى أهلها. فسار في طلبها وعاد بها الى بيته وأغربت الشمس عليهما عند ييوس (أورشليم)، ولم يُرد المبيت فيها لأنّ أهلها من الكنعانيين. وتقدّما إلى جبع وهي المعروفة الآن بتل الفول على بعد ميلين ونصف شمالاً من اورشليم على ما رجّح كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١٩٢) سنداً الى شهادة يوسفوس وحجج روينسون. ودخل الرجل وامرأته بيتاً ليبيتا فيه فاختطف قوم اشرار المرأة، وفجروا بها حتى أدّى الى موتها. فحملها رجلها على حماره الى مكانه وقطّعها مع عظامها اثنتي عشرة قطعة، ووزعها في جميع تخوم إسرائيل. فاستفزع بنو اسرائيل هذا الصنيع وأنتمروا، وخرج أربع مئة ألف من كل أسباط اسرائيل بطلب الجانين ليقتصّوا منهم بقتلهم. ويصرفوا الشرّ والعار عن بني اسرائيل. فأبى بنو بنيامين أن يسمعوا لمقال اخوتهم، فحاربهم بنو اسرائيل فقتل من بني اسرائيل اثنان وعشرون ألف رجل.

فخشعوا إلى الرب وصاموا وعادوا إلى الحرب مع آل بنيامين. فقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفاً. وارتدوا إلى الناس الذين في المدينة فقتلوه، واحرقوا مدنهم بالنار. وحلفوا بأن لا يزوّج رجل منهم ابنته لأحد من بني بنيامين، ثم ندموا على قرضهم سبطاً من اسباط اسرائيل، ولم يكن باقياً من سبط بنيامين، إلا ست مئة

رجل فزّوا وأختفوا في صخرة الرّمون وهي رومان الآن في شرقي بيت اين (اعلام الاماكن). ولما لم يجدوا احداً من أهل ياييش جلعاد (السلط) عاونهم على بنيامين سيّروا إليها إثني عشر ألفاً فقتلوا الرجال والنساء، وأسّبقوا اربع مئة صبيّة اشخصوهنّ الى شيلو، واستدعوا البنيامينيين فصالحوهم وأزوجوهم هؤلاء البنات. وبقي مئتان منهم، فأرسلوهم عند خروج البنات الى الرقص في عيد سنوي في شيلو فكمنوا في الكروم، وخطفوا مئتي بنت من شيلو وتزوجوا بهنّ وقالوا لا يكون اهلهنّ أخلفوا يمينهم لأنهم لم يعطوهم إياهنّ طوعاً. فهذا مثال لما كان عليه بنو إسرائيل في تلك الأيام من الهمجيّة.

كانت راعوت المواية في عهد القضاة أيضاً على أنّ الكتاب أفرد لها سفرأ مخصوصاً فنذكر خبرها في العدد التالي.

الفصل الحادي عشر

راعوت وعالي الحبر وصموئيل النبي

عد ٢٣٩

راعوت المواية

قد أنبأنا الكتاب بأخبار راعوت في السفر المنسوب إليها متضمناً أربعة فصول فقط؛ وموضوع هذا السفر بيان نسب داود، أصل السلالة الملكية التي ولّد منها المخلص. وهذا النسب لم يذكر في سفر الملوك بل ذكر في هذا السفر في الفصل الرابع منه من عد ١٨ إلى عد ٢٢ قال الأب فيكورو (الموجز الكتابي عد ١٦٠): «إنّ هذا النسب غير كامل إذ لم يذكر به من فارص بن يهوذا إلى داود إلا عشرة آباء. وهذا العدد غير كافٍ لمُدّة ستة أو ثمانية قرون على أنّ الكاتب أراد أن يذكر أخصّ أجداد داود فقط وأن يثبت أنّه من أصل يهوذا بن يعقوب».

وقد جاء في الفصل الأول من بشارة متى أن عدد هولاء الآباء من فارص بن يهوذا الذي نزل مع أبيه إلى مصر إلى سلمون الذي تزوج براحاب إنما هو سبعة كما في سفر راعوت أيضاً. وعدد السبعة الآباء في مدة عبودية بني إسرائيل في مصر وهي أربع مئة سنة، ومدة إقامتهم في البرية وهي أربعون سنة هو كاف لهذه المدة التي مجموعها أربع مئة وسبعون سنة. ولكن العدد الذي ذكر في بشارة متى وسفر راعوت وهو أن سلمون ولد بوعر الذي تزوج براعوت. وولد منها عوبيد وعوبيد ولد يسي، ويسى ولد داود. هو غير كاف لمدة القضاة ولمدة ملك شاول أربعين سنة فإن كان حذف من أسماء هولاء الآباء فيكون في هذه المدة من سلمون إلى داود إلا أن يقال: إن هولاء الآباء كانت أعمارهم طويلة أو أن يقال مع لانرمان: إن مدة القضاة كانت أقل مما جاء في كل التقاويم التي أذيعت حتى الآن. طالع ما ذكرناه في عد ٢٢٦ وقد كانت راعوت في مدة القضاة ولذا حسب بعضهم السفر المنسوب إليها ذيلًا وتتمة لسفر القضاة، ولكن لا يمكن أن يعين في مدة أي القضاة كانت الأحداث المحكى عنها في هذا السفر. فرجح بعضهم أن الجوع الذي استهل السفر بذكره كان في أيام تسلط المدينيين على بني إسرائيل أي في مدة جدعون. وروى يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ ف ٩): بوعر الذي تزوج براعوت كان في أيام عالي الآتي ذكره. وكذا لا علم يقين لنا بمن كتب هذا السفر فنسق عباراته مخالف لنسق سفر القضاة وسفري الملوك الأولين. وعزاه كثير من العلماء إلى صموئيل، وقال غيرهم: إن حرقيا كتبه ولا حجة لهم في ما يدعون، والظاهر أنه دُون في أيام داود أو بعيد موته لاختتام النسب الوارد فيه بذكر هذا الملك.

وأما الأخبار الواردة في هذا السفر فهي أنه كان في أيام حكم القضاة جوع في أرض فلسطين. فهاجر رجل من بيت لحم يهوذا اسمه اليملك إلى أرض مواب هو وزوجته نعمى وابناه محلون، وكليون فتوفي اليملك. واتخذ ابنه امرأتين موابيتين اسم الواحدة عرفة، واسم الأخرى راعوت، وأقاما هناك عشر سنين وماتا. فعزمت نعمى على العود لوطنها، ورافقتها كئيبا فسألتهما أن يبقيا في وطنهما بين أهليهما. وألحت نعمى عليهما فبكنا وأذعنت عرفة لسؤالها، وأما راعوت فأصرّت على مرافقة حماتها حتى الموت. وقالت: حيثما ذهب أذهب، وحيثما بئت أبث، شعبك شعبي والهك إلهي وحيثما تموتي أمت، وهناك أدفن وذهبنا كلتاها حتى دخلتا بيت لحم،

وكان لايملك ذو قرابة اسمه بوعز. فذهبت راعوت لتلقط سنابل من وراء الحصادين. واتفق أن كان قطعة أرض لبوعز وأن راعوت مضت إليها ولما أقبل بوعز سأل غلامه القائم على الحصادين لمن هذه الفتاة؟ فقال هي فتاة موابية رجعت مع نعمى من أرض مواب. فقال لها بوعز لا تذهبي تلتقطي من حقل آخر، ولا تبرحي من ههنا ولاطفها وأثنى عليها بصنيعها مع حماتها، وأباحها أن تشرب من أوعيتهم، وتأكل من خبزهم، وتغمس لقماتها بالخل معهم. وقدم لها فريكة فأكلت وشبعت، واستبقت ما فضل معها وأعطت حماتها عند عودتها ما فضل عنها بعد شبعا. وقالت لها حماتها: إن بوعز هو ذو قرابة لهم وأن تلازم حقله، وأن تغسل وتنظف وتلبس ثيابها وإذا رقد تعين مرقده وتكشف جهة رجله، وتضع فيخبرها بما تصنع ففعلت راعوت ما قالت حماتها.

وقلق بوعز عند انتصاف الليل فإذا بامرأة مضجعة عند رجله فسألها من هي؟ فقالت: أنا راعوت آمتك فابسط ذيل ثوبك لأنك ولي، فباركها وقال إنها فاضلة ونعم إنه ولي، لكن لها ولياً أقرب منه. وتركها تبث ليلتها، وقامت قبل أن يعرف الإنسان صاحبه. فكال لها ستة أكبال شعير وجعلها عليها، فعادت إلى حماتها فأخبرتها بما كان. ودخل بوعز المدينة وجلس على الباب فإذا الولي الذي تكلم عنه عابر، فدعا بعشرة رجال من أشياخ المدينة وقال للولي إن نعمى باعت حصّة حقل اليملك أحيانا، فإن كنت تريد أن تفتك فافعل، وإلا فاخبرني لأنه ليس من يفتك غيرك وأنا بعدك. فقال أنا أفتك. فقال بوعز إنك يوم تشتري الحقل تأخذ راعوت امرأة الميت لتقيم اسمه على ميراثه، فقال الولي: إشتري أنت لنفسك، وخلع نعله وكذا كانت العادة في إسرائيل في أمر الفكاك والمبادلة أن يخلع الرجل نعله ويدفعه لصاحبه. فاشهد بوعز جميع الشيوخ وجميع الحاضرين أنه اشترى جميع ما كان لايملك وابنيه، وأنه أخذ راعوت امرأة له فقال جميع القوم فليجعلها الرب كراجيل وليا. وأخذ بوعز راعوت فولدت له عوبيد وهو أبو يسي أبي داود، وقال كثير من المفسرين إن بوعز وراعوت لم يرتكبا اثماً عند إضجاعهما جهة رجله.

إنَّ عالي كان من قضاة بني إسرائيل وبينما كان يلي قضاءهم في شيلو مركز الأمة حيث بيت الرب كان شمشون ينكل بالفلستينيين في جنوب البلاد، على أنَّ كاتب سفر القضاة أغفل ذكر عالي، وكاتب سفري الملوك الأولين المعروفين بسفري صموئيل لم يذكره إلاَّ استطراداً في معرض ذكر أخبار صموئيل. ولم ينبئنا الكتاب أنَّه شهد حرباً أو خلَّص بني إسرائيل من عدو لهم كما فعل باراق وجدعون وغيرهما، بل إنَّه كان حبراً يعني بإتمام ما فُرض في السنَّة الموسوية. ويدعو إلى عبادة الله في خباء المحضر المنسوب في شيلو. ويفصل الدعاوى بين بني أسرائيل فكان حبراً وحاكماً معاً، وهو من ذرَّة هرون لكنَّه لم يكن من ولد اليعازر الذين لهم حق رئاسة الأخبار بل من ولد إيتامار بن هرون أيضاً. ولم يذكر الكتاب لِمَ أو متى أو كيف انتقلت رئاسة الأخبار من بني اليعازر إلى بني إيتامار، وقد استمرَّت فيهم إلى أيام سليمان، بل تبَيَّن منه أنَّ عالي كان فاضلاً غيوراً ورعاً لكنَّه كان ضعيفاً لا يتمالك كف ابنه حفني وفنحاس عن المساوي وانتهاك حرمة الهيكل، بل كان يعتبهما عتاباً رقيقاً يزيدهما تورطاً.

وكان الفلسطينيون ازدادوا جرأة وسطوا، ولم يقتصروا على مضايقة بني إسرائيل في الجنوب بل تطرق اعتداؤهم إلى من سكن منهم في وسط فلسطين وشمالها وإلى الفينيقيين أيضاً. فخرج بنو إسرائيل لقتالهم ونزلوا في المحل الذي سمي بعد ذلك حجر النصر. ونزل الفلسطينيون في أفيق وقد جاء في معجم الكتاب ليفكرورو ذكر قولين في حجر النصر وأفيق أولهما لكوندر وكارمون كانا قالا فيه إنَّ حجر النصر كان في محل دير أبان الآن بعيداً نحو ثلاثة أميال شرقاً عن عين شمس وهي بيت شمس القديمة، في شمالي بيت الجمال، وعليه فرجع أنَّ أفيق كانت في المحل المسمَّى الآن البلاد الفوقا على بعد نحو ستة كيلومترات في الجنوب الغربي من دير ابان. وثانيهما لبيرش وتوما شابلين. قال أولهما إنَّ حجر النصر كان في محل خربة صموئيل الآن على بعد ألف وست مئة متر جنوباً من المحل المسمَّى النبي صموئيل في الشمال الغربي من اورشليم. وقال ثانيهما: إنَّ حجر النصر كان في محل بيت عكسه الآن. واتفق إثناهما أنَّ أفيق كانت في محل

القسطل في غربي اورشليم وشرقي أبي غوش. ومهما يكن من أمر المكان فقد التحمت الحرب، وانهزم بنو إسرائيل من وجه الفلسطينيين وقتل منهم أربعة آلاف رجل. وعادوا إلى محلاتهم جزعين، فأرسلوا وحملوا تابوت عهد الرب من شيلو إلى معسكرهم. وسار معه حفني وفنحاس ابنا عالي، فأكثر بنو إسرائيل من الهتاف عند حلول التابوت بينهم، وأملوا النصر به على أعدائهم كما دُغت به أسوار أريحا أيام أجدادهم، لكنهم لم يشاكلوهم إيماناً وتكلاًناً على الله، ولهذا خذلهم عند عودهم إلى محاربة الفلسطينيين. فانهزموا وتشتت شملهم، وهرب كل منهم إلى خيمته وقتل منهم ثلاثون ألف رجل، منهم حفني وفنحاس وأخذ تابوت عهد الله وجرى رجل إلى شيلو، وأذاع الخبر فيها فتعالى الضجيج وسمع عالي، وكان ابن ثمان وتسعين سنة فسقط عن الكرسي إلى خلفه فاندق عظم عنقه ومات. وكان قد تولى قضاء إسرائيل أربعين سنة كذا في النص العبراني، والترجمة اللاتينية العامة ولكن في السبعينية عشرين سنة. وكانت كُتبه امرأة فنحاس حبلى وقد دنت أيام ولادتها، فلما سمعت أنّ التابوت أخذ وأنّ حماها وبعلمها ماتا سقطت، وولدت وأشرفت على الموت. فقال لها من حولها لا تخافي قد ولدت غلاماً فلم تبجهم ولم تمل قلبها وسُمت الصبي إيكابور قائلة قد انتقل المجد عن إسرائيل. وقال يوسيفوس إنّ معنى الكلمة عار وذل، لكنّه رواها يواخاب أو يوكاب. (ملوك أوّل فصل ٤).

عد ٢٤١

ضربات الله الفلسطينيين لإمساكهم تابوت العهد واضطرارهم إلى رده

لم يحسب الفلسطينيون إنتصارهم على بني إسرائيل نصرة شعب على شعب فقط، بل وهموا أنّه انتصار داجون معبودهم على إله بني إسرائيل. فأخذوا تابوت العهد وأقاموه في هيكل داجون في اشدود (اسدود) كأنّه ليسجد له. وكانوا يعتقدون داجون مصدر القوّة المولدة على نحو ما كان الكنعانيون مصدر هذه القوة في بعل. وقد دلّتنا الآثار القديمة أنّهم كانوا يصورون معبودهم هذا نصفه الأعلى بهيئة إنسان، ونصفه السفلي بهيئة سمكة تذكّرة لأسفارهم البحرية. وقد اتّفقت في هذا أكثر التماثيل التي بلغت إلينا وإن اختلفت في بعض الأجزاء. ومن هذه التماثيل صفيحتان من فضة إحداهما في منضد بروسير دوبرا في باريس، والثانية في متحف مكتبة الأمة هناك تمثلان إلها رأسه وذراعه بشريّة، وسائر جسمه بهيئة

الدُّخَس (الدلفين) ويبد كل منهما سمكة، وكأنَّهما عائمَان في تيار البحر. وقرينة داجون أو امرأته المسماة درغات تُصوَّر بهيئة امرأة وسمكة، ومن صورها كذلك التمثال الذي في متحف اللوفر في باريس. وقد شاء الله أن يخزي الفلسطينيين ومعبودهم، فإنَّه لما دخل الكهنة في الغد بيت داجون وجدوا تمثاله ملقى على وجهه على الأرض أمام تابوت الرب فردُّوه إلى موضعه.

وبكروا في صباح الغد فإذا بداجون ملقى على الأرض أمام التابوت ورأسه وكفَّاه مقطوعة عند إسكفة الباب وجثته وحدها في موضعها. قال الأب فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٩١) إنَّ في متحف اللوفر تمثالاً آشورياً نقل إليه من قصر سرغون يمثِّل داجون ساقطاً على وجهه ورأسه، مقطوع من عنقه ويده محطَّمتان وأسفل جسمه الذي هو بهيئة سمكة باقي على سلامته.

ولم يكتف الله بإذلال داجون بل أنبأنا الكتاب أن قد «ثقلت يد الرب على الأشدوديين فدمَّرههم وضربهم بالبواسير في أشدود وتخومها». الكلمة العبرانية أفاليم المترجمة هنا بالبواسير تدل على شي مرتفع أو أكمة ولذا ذهب بعض المفسرين أنَّ المراد البواسير، وذهب غيرهم إلى أنَّ المراد نوع من الدمل أو الخراج. وسمى يوسفوس (تاريخ اليهود ك ٦ ف ١) هذا المرض دستريا والأظهر أنَّه البواسير. وروى هيرودت (ك ٢ من تاريخه ف ١٠٥) أنَّ التتر لما نهبوا هيكل أفروديط في عسقلان أصيبوا بمرض يستحي منه. فقال كثير من العلماء ما مصدر هذا التقليد الذي رواه هيرودت إلَّا المرض الذي أصاب الأشدوديين عند إمساكهم تابوت العهد. وجاءت في أكثر نسخ الترجمة السبعينية وفي اللاتينية العامية ذكر ضربة أخرى إذ قيل وهاجت القرى والصحارى في وسط أرضهم، وتولَّدت الفيران وحدث اضطراب موت شديد في المدينة. فهذه الآية يخلو عنها النص العبراني والترجمتان السريانية والعربية، على إنَّه جاء في النص العبراني (فصل ٦ عد ٥) أنَّ الأشدوديين صنعوا «خمسة بواشير من ذهب، وخمس فيران من ذهب. فهذا مؤيَّد لرواية السبعينية واللاتينية ومثبت نزول هذه الضربة بالأشدوديين. وقد أضرت الفيران بزروعهم وأشجارهم فكان ذلك عقاباً آخر لهم ومدعاة لرُدِّهم تابوت الرب. وكثيراً ما تضرُّ الفيران في زروع فلسطين إلى اليوم. فحملت هذه الضربات أهل أشدود أن يستدعوا إليهم أقطاب الفلسطينيين ويستشيروهم في ما يفرج ضيقهم فقالوا: ننقل هذا التابوت إلى جت (ذكرين). وفعلوا فأصاب أهل جت ما أصاب الأشدوديين،

فصرخوا ونقلوه إلى عقرون (عافر) فأصابهم ما أصاب غيرهم، فأجمعوا على رده لئلا يقتلهم وشعبهم (ملوك ١ فصل ٥).

ودعا الفلسطينيون الكهان والعرافين ليخبروهم كيف يرسلون تابوت العهد إلى موضعه. فقالوا لا ترسلوه فارغاً بل أدوا له كفارة على عدد أقطاب الفلسطينيين خمسة بواسير من ذهب، وخمس فيران من ذهب، فتصوغون مثال بواسيركم، ومثال فيرانكم المفسدة لأرضكم، وتؤدون بذلك مجدداً لإله إسرائيل لعله يخفف يده عنكم وعن آلهتكم وأرضكم. واصنعوا عجلة جديدة، وخذوا بقرتين مرضعين لم يعلمهما نير، وشدوا البقرتين إلى العجلة وردوا عجليهما إلى البيت، واجعلوا التابوت على العجلة وأدوات الذهب في صندوق بجانبه، وانظروا فإن صعدت البقرتان به في طريق تخومه جهة بيت شمس يكون هو الذي أنزل بنا هذا البلاء العظيم، وإلا علمنا إنما كان ذلك اتفاقاً.

ف فعل القوم كذلك فتوجهت البقرتان في سبيلهما على طريق بيت شمس وهما تخوران (تصيحان) في مسيرهما، ولم تميلاً يميناً ولا يسرة إلى أن وقفنا في حقل يشوع الذي من بيت شمس. فأتى بيت أهل شمس فرحين برؤية التابوت، وأنزل اللاويون التابوت عن العجلة والصندوق الذي فيه التماثيل الذهبية. وكان هناك صخر عظيم، فشققوا خشب العجلة وأصعدوا البقرتين محرقة للرب وقدموا ذبائح أخرى شكراً لله. وكانت مدة إقامة التابوت في أرض الفلسطينيين سبعة أشهر (ملوك ١ ف ٦). وقد مر أن بيت شمس الآن في شمالي بيت الجمال وفي الجنوب الغربي من قرية أبي غوش.

إن أهل بيت شمس انقصوا من الإحترام المفروض لتابوت عهد الرب. كأن من لم يكونوا كهنة منهم أو فتحوه لينظروا ما فيه دون تجلّة وإكرام. فسخط الرب عليهم وأمات بعضهم إذ قال الكتاب (ملوك ١ فصل ٦ عد ١٩): «وضرب الرب أهل بيت شمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب، وقتل من الشعب سبعين رجلاً وكانوا خمسين ألفاً» كذا في ترجمة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت وعليها فلا إشكال في الآية إذ يكون المعنى أنه اجتمع في بيت شمس عند حلول التابوت فيها خمسون ألف من الأنحاء المجاورة، ولما لم يبدوا التكريم المفروض له ضرب الرب سبعين رجلاً ممن كانوا منهم أكثر قحة. إلا أن النص العبراني: «وقتل

من الشعب سبعين رجلاً خمسين ألف رجل». وفي الترجمة اللاتينية العامية: «ضرب الرب بعضاً من رجال بيت شمس لأنهم نظروا إلى تابوت الرب، وضرب من الشعب سبعين رجلاً وخمسين ألفاً من السفلة». وفي ترجمة الأميركان البيروتية: «وضرب من الشعب خمسين ألفاً رجل وسبعين رجلاً». ولذا أعضلت الآية المفسرين، وذهبوا في تفسيرها مذاهب أصبحها أن بعض النشاخ القدماء أغفلوا كلمة كانوا قبل قوله خمسين ألف رجل، ليكون صحيحاً قد جاءت الآية كما جاءت في ترجمة اليسوعيين، أو لأن النشاخ زادوا سهواً «خمسين ألف رجل» ولا أصل لها في النص. واحتج القائلون بهذا المذهب ومنهم كايل الشهير بأن هذه العبارة ساقطة في كثير من النسخ المخطوطة العبرانية وبأن يوسيفوس لم يذكر إلا سبعين رجلاً، وبأنه لم يسمع في العبرانية ذكر عدد العقود قبل عدد الألوف فكان المتحتم أن يقال: خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً، وبأن حرف العطف ساقط من كلمة خمسين. ففاح الشعب لأن الرب ضربه هذه الضربة العظيمة. وأرسل أهل بيت شمس رسلاً إلى سكان قرية يعاريم ليأتوا ويصعدوا تابوت عهد الرب إلى قريتهم، فأتوا وأدخلوه بيت أبيناداب في الأكمة، وقدسوا يعازر ابنه لحراسة التابوت. واستمر التابوت عشرين سنة في قرية يعاريم التي يرجح كاران أنها المسماة الآن قرية العنب أو قرية أبي غوش على طريق المركبات من يافا إلى أورشليم وتبعد عشرة أميال عن أورشليم؛ معنى يعاريم الأشواك أو الغابات ويعرا ^{٢٤٢} السريانية التي تجمع ^{٢٤٣} معناها الأشواك فكأنه كان هناك قديماً غابات جعل محلها كروماً فسُميت قرية العنب.

عد ٢٤٢

مولد صموئيل وخدمته في هيكل الرب في شيلو

افتتح كاتب سفر الملوك كلامه بخبر مولد صموئيل، لكن عالي الخبر كان قبله بل كان صموئيل يخدمه في الهيكل. فقدّمنا خبر عالي وما كان في أيامه على ذكر صموئيل وإن أخره الكتاب وضعاً. فقد جاء في الفصل الأول من سفر الملوك الأول أنه كان رجل من الرامثائم صوفيم في جبل أفرائيم اسمه القانه مزوّجاً بامرأتين اسم إحداهما حنة، واسم الأخرى فنّة. فرزقت فنّة بنين ولم يكن لحنة ولد وكانت ضربتها تغضبها معنّة لها لذلك. وكانت حنة مكتعبة النفس، وكان زوجها

يشخص كل سنة من مدينته إلى شيلو ليسجد للرب مع امرأته. فصلت حنة إلى الرب، وبكت ونذرت أنها إن رزقها الرب ابناً جعلته نذيراً لله كل أيام حياته، ولا يعلو رأسه موسى، فاستجابها الرب وحملت وولدت ابناً دعتة صموئيل، ومعناه الملتمس أو المسؤول من الرب أو سمع الرب. وبعد فطامه جاءت أمه به إلى هيكل الرب في شيلو فكان يخدم عالي فيه. وليس المراد بالفطام كفه عن الرضاع بل المراد به إستغناؤه عن أمه، فإن العادة في فلسطين فطام الأولاد في السنة الثالثة بعد مولدهم. فرى أم المكايين تقول لأصغر أبنائها (مكايين ٢ فصل ٧ عد ٢٧): «يا بني ارحمني أنا التي حملتك في جوفي تسعة أشهر وأرضعتك ثلاث سنين». ولأنه كان صموئيل وقرأ على عالي لا خادماً في بيت الرب. وقدمت حنة ذبيحة للرب عند تقدمه ابنها لخدمة بيته. وفاهت بتسبحة بليغة أشبه بتسبحة العذراء بعد تجسّد الخلص بها وهي مثبتة في الفصل الثاني من سفر الملوك الأول. وكانت أمه تنسج له كل سنة جبة صغيرة، وتأتيه بها عند صعودها إلى الهيكل. ودعا الرب ذات ليلة صموئيل، فظن عالي يدعوه فركض إليه وقال لبنيك فأجابه عالي: لم أدعك يا بني إرجع فتم. فعاد ونام فدعاه الرب ثانية فهب إلى عالي فأجابه كالأول فمضى ونام. ثم دعاه الرب ثالثة، وانطلق إلى عالي ففهم عالي أن الرب هو الذي يدعو الصبي فقال له اذهب فتم! وإن دعاك أيضاً فقل: تكلم يا رب فإن عبدك يسمع، وكان كذلك فأعلمه الرب ما يحلّ ببني إسرائيل وبعالي الحبر وابنيه حفني وفنحاس كما رأيت. ومن الصباح استنطقه عالي عمّا كلمه الرب به فلم يكتبه شيئاً. وذاع خبر صموئيل، وعلم كل بني إسرائيل أن الرب ائتمنه نبياً. وكانوا يسمعون له واختاروه بعد موت عالي، وابنيه قاضياً في إسرائيل فكان آخر القضاة وأول الانبياء، وكان يقيم في الرامثائم صوفيم الآتي بيان موقعها.

أطال كاران الكلام وأجاده (مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣٦٣ إلى صفحة ٣٨٤) في بيان موقع الرامثائم صوفيم المسماة أحياناً الرامة. ومما قاله إن بعض العلماء ظنّ موقعها في جبل الفريديس في الجنوب الشرقي من بيت لحم على مسافة أربعة أميال. وحسبه بعضهم في محل صوبا الآن في غربي أورشليم على بعد ستة أميال عنها، واستندوه إلى تقارب الحروف في اسمي صوبا وصوفيم. وقال آخرون إن موقعها كان في رام الله في شمالي أورشليم وغربي البيري، ثم حقّق أن موقعها كان في الحل المسمى الآن النبي صموئيل قائمة في الشمال الغربي من أورشليم

على الطريق القديم المؤدي من يافا إلى أورشليم، مثبتاً ذلك بانطباق آيات عديدة من الكتاب على هذا الموقع، وبأن قرية النبي صموئيل قائمة على أكمتين تصدق عليها تسمية الرامثائم أي الرامتين، والرامة المحل المرتفع وإن كلمة صوفيم مشعرة بنسبة هذا المحل إلى صموئيل إذ ذكر الكتاب أحد جدود صموئيل يسمى صوف بقوله في أبيه القانة إنّه: «ابن يروحام بن الياهو بن توحو بن صوف» فضلاً عن تسمية المحل باسمه منذ زمان لا يعرف بدؤه.

عد ٢٤٣

الأسفار المنسوبة إلى صموئيل

إنّ الأسفار الأربعة التي نسميها أسفار الملوك ليست من قلم كاتب واحد وإن كان موضوعها واحداً، بل إنّ النص العبراني يسمي الأولين منها سفري صموئيل، والآخريين سفري الملوك. وكذلك تسميها نسختنا السريانية على أنّ الترجمتين السبعينية واللاتينية العامة قسمتها إلى أربعة أسفار معزوة إلى الملوك: فتغلّبت تسميتها بأسفار الملوك، ولم تكن تسمية السفرين الأولين منها سفري صموئيل للقطع بأنّ هذا النبي كتبهما، بل لأنّ أخص مدار الكلام فيهما إنّما هو على ميلاده، وقضائه في إسرائيل، ومسحه الملكين شاول وداود وسائر أعماله. ومع هذا قد أثبت يوسفوس وكثير من الآباء أنّ صموئيل كتبهما إلّا أخبار الأحداث التي جرت بعد موته. وقال كثير من اليهود وعلماء هذا العصر إنّ صموئيل دوّن الأربعة والعشرين فصلاً من السفر الأول، وإنّ النبيين جاد وناتان دوّنا الباقي واحتجّوا لقولهم بآية من سفر أخبار الأيام الأول (ف ٢٩ عد ٢٩) وهي: «وأخبار داود الملك الأولى والأخيرة مكتوبة في كلام صموئيل الرائي وناتان النبي وجاد الرائي). إلّا أن هذه الآية لا تثبت أن صموئيل كتب السفرين المنسوبين إليه، ويمكن تخريجهما أنّ كاتب سفر أخبار الأيام أراد بكلام صموئيل سفري الملوك الأولين بحسبما كان يسميهما العبرانيون، لا لأنّ صموئيل كتبهما بل لأن مدار كلامهما عليه، لاسيّما لأنّ الأحداث المحكى عنها في السفر الثاني جرت بعد موت صموئيل، وفي السفر الأول نفسه آيات لا جرم إنّها كتبت بعد الأحداث المنبئة بها، ولم يكتبها كاتب معاصر لها منها قوله: «وتولّى صموئيل قضاء إسرائيل كلّ أيام حياته» (ملوك ١ ف ٧ ع ١٥). وقوله: «لأنّ الذي يقال له اليوم نبي كان يقال له من قبل راء» (ملوك

١ ف ٩ ع ٩). وقوله «فلذلك صارت صقلاج للملك يهوذا إلى اليوم» (ملوك ١ ف ٢٧ ع ٦). وعزا آخرون هذين السفرين إلى داود وغيرهم إلى أشعيا وأرميا وحزقيال، أو عزرا وليس لأصحاب كل هذه الأقوال بينة قاطعة عليها. والحاصل أنَّ الأمثل أن نقول إنَّ كاتبهما نكرة لم يعرف إلى الآن وكل ما يمكن ترجيحه إنما هو أنَّ السفرين كتبهما بعيد موت سليمان في أيام راحبعام ابنه، وإنَّه لا مزية في أنَّ السفر الثاني لم يكتبه صموئيل لأنَّ ما انطوى عليه كان بعد وفاته، على أن كاتب السفرين الأوَّلين هو غير كاتب السفرين الأخيرين، وإن قال كثير من المدققين إنَّهما واحد. ويستدل على ذلك باختلاف النفس وطريقة الكتابة. فالسفران الأولان غاية في فصاحة اللغة العبرانية ونقاوتها في الألفاظ والأساليب الأعجمية. والسفران الأخيران ينحطَّان لغةً عن الأوَّلين ويمارجهما ألفاظ آرامية كلدانية. وكاتب الأوَّلين صرف عنايته في تدوين أخبار الأشخاص وأطال العبارة، وكاتب الأخيرين أوجز العبارة. وأهمل ذكر قرائن عديدة وصرف من العناية في تدوين أخبار الأحداث أكثر منها في تعريف الأشخاص وأنسابهم، ثم ترى في السفرين الأخيرين ذكراً صريحاً لأسفار موسى وترى كاتبهما يستشهدا، ولا ترى مثل ذلك في السفرين الأوَّلين إلى غير ذلك من الأدلَّة (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكوروو عد ٤٦٤ وما يليه).

عد ٢٤٤

محاربة بني إسرائيل للفلسطينيين وظفرهم بهم بإرشاد صموئيل

قد ضايق الفلسطينيون بني إسرائيل فاجتمع هولاء لدى صموئيل شاكين إليه ضيقهم وذللهم. فقال لهم إن كنتم تائبين إلى الرب من كل قلوبكم فأزِيلوا الإلهة الغريبة والعشتاروت من بينكم وأعدُّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم. فأزالوها وعبدوا الرب وحده وقال أحشدوا كل إسرائيل إلى المصفاة فأصلي لأجلكم إلى الرب، فاجتمعوا ثمة واستقوا ماءً وصبوه أمام الرب. وكان هذا طريقة دينية دالة على توبة القلب، وإليها أشار أرميا في مرثيته بقوله (فصل ٢ عد ١٩): «ارقي كالماء قلبك قبالة وجه السيِّد»، وصاموا في ذلك اليوم وأخذ صموئيل حملاً رضيعاً وأصعده بجملته محرقة للرب.

وعرف الفلسطينيون أنَّهم مجتمعون فلم يتم صموئيل المحرقة إلا وأقبل

اقتطابهم لمحاربة بني إسرائيل، فخاف هؤلاء وقالوا لصموئيل لا تكف عن الصراخ لأجلنا إلى الرب فارعد الرب بصوت عظيم على الفلسطينيين وزعجهم، فانهزموا من وجه إسرائيل. قال يوسيفوس (ك ٦ من تاريخ اليهود ف ٢) إنهم شعروا بالأرض تميد تحت أرجلهم، وكأنها تفتح فاهها لتبتلعهم. وأغشى على أبصارهم برق ورعد قاصف فشلت أيديهم عن حمل سلاحهم، فرموه وانهزموا، وإلى ذلك أشار يشوع بن سيراخ بقوله (ف ٤٦ عد ١٦ وما يليه): «صموئيل المحبوب عند الرب نبي الرب سنَّ الملك، ومسح روساء شعبه قضى للجماعة بحسب شريعة الرب... دعا الرب القدير عندما كان أعداؤه يضيّقون من كل جهة واصعد حملاً رضيعاً، فارعد الرب من السماء وبقيصيف عظيم اسمع صوته وحطّم روساء الصوريين وجميع أقطاب فلسطين». فضر بهم بنو إسرائيل من المصفاة إلى ما تحت بيت كار فأخذ صموئيل حجراً ونصبه بين المصفاة والسن وسماه حجر النصر. وقال إلى ههنا نصرنا الرب. وسيأتي بيان موقع هذه الأماكن وانتهز بنو إسرائيل الفرصة فاستردّوا المدن التي أخذها الفلسطينيون منهم من عقرون (عافر) إلى جت (ذكرين).

وروى لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلّد ٦ في بني إسرائيل) أنّ بني إسرائيل أجبروا الفلسطينيين يومئذ على إمضاء عهدة صلح أقرّوا لهم بها باستقلالهم بعد أن ضايقوهم أربعين سنة. واختصّوا أنفسهم بالحق على إقامة مركز لجنودهم في جبعة، وأن لا يحمل من جاورهم من بني إسرائيل سلاحاً خشية الغدر بهم. وقال الكتاب: إنّ صموئيل كان يذهب في كل سنة ويطوف في بيت ايل والجلجال والمصفاة، ويقضي لإسرائيل في جميع تلك الأماكن ثم يأوب إلى بيته في الرامة، فلم يكن كباراق وجدعون ينقذ شعبه من أعدائهم فقط بل كان أيضاً حاكماً فيهم، يفصل دعاويهم ويلي أمرهم ويضم كلمتهم وبذلك أعدّهم لطريقة الحكم الملكية (ملوك ١ ف ٧).

أمّا المصفاة الآن فقد حقّق كاران (مجلّد ١ في اليهودية صفحة ٣٩٥ وما يليها) أنّ موقعها كان في محل قرية شعفات الآن في شمالي أورشليم على مقربة منها وفي الشرق الجنوبي من قرية النبي صموئيل. وقال روينسون إنّ المصفاة كانت في محل هذه القرية الأخيرة وإنّ الرامة كانت في صوبا (طالع عد ٢٤٢). وذكر الكتاب عدّة مدن أخرى باسم المصفاة أو مصفاة دون التحلية بال إحداها

في جلعاد (السلط)، والثانية في بلاد مواب في شرقي الأردن أيضاً، والثالثة في سفح لبنان في ناحية بانياس. والرابعة في نصيب سبط يهوذا. وأما بيت كار فالذي في كتاب الأعلام الكتائية أنه يحتمل ان كان موقعها في عين كارم وأما حجر النصره فقد ذكرنا موقعه في عد ٢٤٠ فطالعه هناك. قال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٤٠٣) لا ريب في أن الرامثائم صوفيم وطن صموئيل والمصفاة قرية يعريم (قرية أبي غوش) وجبعون لم تكن إحداها بعيدة عن الأخرى.

عد ٢٤٥

إلحاح بني إسرائيل على صموئيل أن يقيم لهم ملكاً

جاء في الكتاب (ملوك ١ ف ٨) ولما شاخ صموئيل قلد ابنه يوئيل وايبا قضاء إسرائيل، وكانا قاضيين في بئر سبع في طرف فلسطين الجنوبي. وروى يوسفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود ف ٣) أن صموئيل أمر ابنه أن يقيم أحدهما في بيت ايل، والثاني في بئر سبع ليقضي كل منهما لفريق من الشعب. وكذلك قال العالم كريتس الألماني في تاريخ اليهود. على أن الإبنين لم يسلكا في سبل أبيهما لكنهما مالا إلى الحرص، وقبل الرشوة وحاييا في القضاء وذاع صنيعهما. فاجتمع شيوخ إسرائيل وأتوا الرامة (قرية النبي صموئيل) يشكون أمرهم إلى أبيهما، ويسألونه أن يقيم عليهم ملكاً كجميع الأمم، فساء هذا الكلام صموئيل فصلى إلى الرب، فأوحى إليه أن اسمع لكلام الشعب في جميع ما يقولونه، فإنهم لم يسأموك أنت وأما سأموئي أنا في تولي عليهم، ولكن أشهد عليهم واخبرهم بسنن الملك الذي يملك عليهم. فبذل صموئيل قصارى جهده لكفهم عما يسألون فلم يدعنوا له، فذكر لهم كلمات الرب عما يصنعه الملوك الذين يستبدون فيهم قائلاً هذه سنة الملك الذي يملك عليكم يأخذ بنيكم، ويجعلهم لنفسه ولعجلته وفرسانه، فيركضون أمام عجلته. ويتخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين، واکرة لحرثه وحصاده وصناعاً لآلات حربه وأدوات عجلاته. ويتخذ بناتكم وطباخات وخجارات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم ويعطيها لعبيده. ويأخذ عشوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشببانكم

الحسان وحميركم ويستعملهم في شغله. ويعشر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً فتصرخون من ملككم الذي اخترتم لأنفسكم. فلا يجيبكم الرب فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: كلا بل يملك علينا ملك كسائر الشعوب، فيقضي بيننا ويخرج أماننا ويحارب حروبنا. فتكلم صموئيل بكلام الشعب على مسامع الرب فأوحى إليه أن أسمع لصوتهم، وولّ عليهم ملكاً فقال لهم: إنصرفوا كل إلى مدينته ريثما أفكر بمن يكون ملكاً واجتمع بكم ثانية.

الفصل الثاني عشر

شاوول وتتمة أخبار صموئيل

عد ٢٤٦

تولية صموئيل شاوول ملكاً على إسرائيل

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ١ ف ٩ و ١٠) أنه كان رجلٌ من سبط بنيامين اسمه قيس، وكان له ابنٌ يسمى شاوول لم يك في إسرائيل رجلٌ أحسن منه. وكان يزد طولاً على جميع الشعب من كتفه فما فوق. واتفق أن ضلّت اتن لقيس فأرسل شاوول ابنه وواحداً من غلمانه في طلبها فلم يجدها. فهم بالعود إلى أبيه، وكان مع غلامه على مقربة من الرامة موطن صموئيل. فقال الغلام: هوذا رجل الله في هذه المدينة، فهلّم بنا إليه لعلّه يدلّنا على طريقنا التي نسلكها. فصعدا إلى المدينة، وفيما هما داخلان في وسطها إذا بصموئيل قد صادفهما، وهو خارج ليصعد إلى المشرف أي الأكمة التي كان بنى فيها مذبحاً. وكان الرب قد أوحى إليه قبل أن يأتيه شاوول بيوم، وإن غداً في مثل هذه الساعة أرسل إليك رجلاً من أرض بنيامين، فامسحه قائداً على شعبي فيخلصهم. ولما رآه صموئيل قال له الرب هوذا الرجل، وقال شاوول له أخبرني أين بيت الرائي؟ فأجابه صموئيل: أنا هو، وأنبأه أن الأتن التي خرج في طلبها قد وجدت، وقال لمن كل نفيس في إسرائيل إلا لك ولكل بيت أبيك، فقال شاوول: أأست أنا بنيامينياً من أصغر أسباط إسرائيل وعشيرتي أصغر

جميع عشائر سبطي؟ فكيف تقول لي مثل هذا الكلام؟ ودعاه صموئيل مع غلامه ليأكل معه في المشرف، واجلسهما في صدر المدعوين، وعاد معهما إلى المدينة، وباتا عنده.

ثم دعاه النبي باكراً، وسارا معاً إلى طرف المدينة، فقال النبي له مَرُّ الغلام أن يتقدّم ويمرّ أمامنا وقِفْ أنت فأسمعك كلام الله. وأخذ صموئيل قارورة الدهن وصبّ على رأسه وقبّله وقال إنّ الرب قد مسحك قائداً على ميراثه، وأطلقه منبهاً له بكل ما يلتقيه في طريقه، وبما يقال له، وإنّه يحلّ عليه روح الرب فيتنبأ مع الانبياء، وعندما حوّل منكبه لينصرف من عند صموئيل أبدل الله قلبه، ووقع له كل ما قاله النبي. وأقبل إلى الأكمة التي عيّنها له فإذا بجماعة من الانبياء قد استقبلوه، فحلّ عليه روح الله، فتنبأ بينهم ولمّا رآه كل من كان يعرفه قالوا أشاول أيضاً من الأنبياء؟! فذهبت مثلاً. ولكلمة النبي في الكتاب معنيان: الأوّل النبي حقيقة وهو من يتجلّى الله له، ويكشف له عن أمور مستقبلية فينطق بها، والنبي بهذا المعنى مرادف للرأي وهو من يكشف الله له بالرؤيا عن أمور خفيّة. والمعنى الثاني المعلم والمنذر، فإنّ صموئيل أقام جمعيات يتفقه بها الشبان بما يتعلّق بسنة الله، والحض على حفظها لينذروا الشعب بكلمة الله ويحرّضوه على العمل بسنته. وكانت هذه الجمعيات تسمى مدارس الانبياء، وطلبتها يسهون انبياء أي معلّمين ومنذرين، ويُظنّ أنّه بهذا المعنى قيل في شاول أنّه تنبأ أي أخذ ينذر بكلام الله ويحضّ على العمل بسنته.

وكان صموئيل أوصى شاول أن يوافيه في اليوم السابع إلى المصفاة (شعقات). ففي ذلك اليوم دعا الشعب إليها، وخطب فيهم مذكراً لهم بإحسان الله إليهم مذ كانوا في مصر، ورفضهم له وإلحاحهم أن يقام عليهم ملك، وأمرهم أن يقفوا أمام الرب على حسب أسباطهم وعشايرهم، لينتخب منهم ملكاً بإلقاء القرعة تنكّباً للغيرة والخلاف بينهم. فأصابت القرعة سبط بنيامين، ثم القى القرعة بين عشائره ف وقعت لعشيرة مطري ثم لشاول بن قيس. فطلبوه فلم يجدوه، وقد كان اختبأ بين الأمّعة، فهداهم الرب إليه فأسرعوا وأخذوه، ووقف بين الشعب، فإذا هو يزيد طولاً على الشعب كافة من كتفه فما فوق، فهتف الشعب كلّهم يحيى الملك. فكتب صموئيل السنن التي يلزم الملك أن يسير بها، وأخصّها أن يكون خاضعاً أبداً لشرعية الله عاملاً بمشورة الأحبار. ووضع ما كتبه أمام الرب كأنّه في تابوت العهد،

وصرف الشعب كل امرئ إلى منزله. وانصرف شاول إلى بيته في جبع وهي المسماة قديماً جبعة شاول أيضاً، والآن تل الفول على ما حقق كروس الألماني، وروينسون الإنكليزي وكاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١٨٨)، أو هي جبعة الآن كما في أعلام الأماكن، وفي قول آخر لكاران وهي في الشمال الشرقي من أورشليم. ووافق من مس الله قلبهم شاول وازدراه بعض بني إسرائيل قائلين كيف يخلصنا هذا ولم يهدوا إليه الهدايا؟ فما أقدم في المشرق عادة تقديم الهدايا لمن حاز رتبة أو رُقي مقاماً بسبيل التهنة، ولم يكثر شاول بمن لم يريدوه بل تعامى عنهم كأثمه غير عالم بهم.

عد ٢٤٧

محاربة شاول لناحاش ملك العمونيين

لم يمض شهرٌ على انتخاب شاول ملكاً إلا صعد ناحاش ملك العمونيين الذين كان قد ذلّهم نفتاح، ونزل على يايش جلعاد وهي مدينة كانت لنصف سبط منشا في شرقي الأردن، ولعلها كانت في المحل المسمى اليوم وادي اليايس في ناحية السلط. وقال أوسايوس إن موقعها كان في شرقي بحيرة طبرية (كتاب أعلام الأماكن). وضايق ناحاش أهل يايش فقالوا له إقطع لنا عهداً نخدمك، فأجابهم: إنّه لا يقطع لهم عهداً إلا أنّه يقلع كل عين يميني لهم، ويجعل ذلك عاراً على جميع إسرائيل. فقال له شيوخ يايش أمهلنا سبعة أيام حتى ننفذ رسلاً إلى جميع تخوم إسرائيل، فإن لم يكن لنا مخلص خرجنا إليك لتقلع عيوننا. ووافى رسلهم إلى جبع مدينة شاول وقصّوا ما كان لهم فرفع الشعب أصواتهم بالبكاء، واشتد غضب شاول، وأخذ ثورين فقطعهما، وأنفذ رسلاً إلى جميع تخوم إسرائيل يقولون كل من لم يخرج وراء شاول وصموئيل هكذا يصنع بيقره. فهاج الشعب وخرجوا فكان عديدهم ثلاث مئة ألف رجل، ورجال يهوذا ثلاثين ألفاً، وروى يوسفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود ف ٦) أنّهم كانوا سبع مئة ألف، ورجال يهوذا سبعين ألفاً وتلك مبالغة مخالفة لنص الكتاب. وقد خصّ سبط يهوذا بالذكر لأنّ بني يهوذا كانوا اعتزلوا في مدّة القضاة مشاركة سائر بني إسرائيل في حروبهم إلا عندما قبضوا على شمشون وسلّموه إلى الفلسطينيين. وأرسل شاول رسل يايش يقولون

لقومهم إله غداً يكون لهم خلاص عندما تحمي الشمس. ففرحوا وأرسلوا يقولون لبني عمون غداً نخرج إليكم فتصنعون بنا ما يحسن في عيونكم. ولم يكذبوا في ما قالوا بل أخفوا كيفية خروجهم إليهم كيلا يباغثوهم بالقتال، أمّا شاول فغير الأردن ليلاً ولما كان الغد رتب عسكره ثلاث فرق، ودخلوا في وسط المحلة عند هجيع الصبح، فقاتلوا بني عمون حتى حمي النهار، فتشتت من بقي منهم وتفرقوا شذر مزر، ووجد ناحاش ملكهم مجندلاً بين القتلى. وصموئيل كان معهم إذ قال الشعب له من الذي يقول أشاول يملك علينا؟ اخرجوا القوم لنقتلهم، فأبدى شاول حلمه ودرايته السياسية إذ قال لا يُقتل اليوم أحد لأنّ الرب أجرى فيه خلاصاً لإسرائيل. فانضم إليه مخالفوه. وقال صموئيل هلثوا بنا إلى الجلجال (المسمّى الآن جلجول حذاء أريحا) لنجدد هناك الملك فانطلقوا، وجدّدوا تملك شاول وذبحوا ذبائح سلامة أمام الرب، وفرح شاول وبنو إسرائيل أجمعون فرحاً عظيماً (ملوك ١ ف ١١).

عد ٢٤٨

محاربة شاول للفلسطينيين

إنّ شاول في السنة الثانية للملكه انتخب لنفسه ثلاثة آلاف رجل من بني إسرائيل ليكونوا جنوداً يقيمون عنده. وأقام منهم الفين في مكماش المسماة الآن مخماس على سبعة أميال من أورشليم شمالاً (كتاب اعلام الأماكن). وجعل ألفاً منهم تحت إمرة ابنه يوناثان في جبع بنيامين، وهي المسماة الآن جبعة في جوار مخماس على ما في كتاب اعلام الأماكن أو تل الفول على ما روينا انفاً عن كاران. وقد رأيت قبيله أن الفلسطينيين استبقوا لأنفسهم محرساً عسكرياً في جبعة، فضرب يوناثان رجال هذا المحرس. فهاج الفلسطينيين واجتمعوا لمحاربة بني إسرائيل، وكان لهم ثلاثون ألف مركبة، (وروى أكثر المدققين ثلاثة آلاف مركبة) وستة آلاف فارس، وشعب يشدّ عن العد، وصعدوا وعسكروا في مكماش (مخماس). فتولّى الرعب بني إسرائيل حتى اختبأ الجبناء منهم في المغاور والغياض والآبار، وجاز قوم منهم الأردن ليستأمنوا هناك. واجتمع بعض الشجعان مع شاول في الجلجال (جلجول)، وأقام ثمة شاول سبعة أيام ينتظر صموئيل بحسب مواعده ليقدم الذبائح

الله التماساً للظفر، فلم يأتِ وطفق الشعب يتفرق عن شاول، فأقدم على إصعاده المحرقة ولما فرغ من إصعادها إذا صموئيل قد أقبل، فخرج شاول للقائه فلامه النبي شديد اللوم على اختلاسه حق الكهنة بتقدمة الذبائح خلافاً للسنة، ولما افترضه النبي عليه بأمر الرب عند انتخابه قائلاً إِنَّكَ بحماقة فعلت إذ لم تحفظ وصية الرب، والآن لا يدوم ملكك لأن الرب اختار له رجلاً غيرك على وفق قلبه، فاعتذر له شاول بأنه رأى الشعب يتفرون عنه، وأنه هو لم يأت في أيام الميعاد، والفلسطينيون مجتمعون في مكماش، وصعد صموئيل من الجلجال إلى جبع بنيامين، وتبعه شاول ورجاله ولم يكن باقياً منهم إلا ست مئة رجل.

وخرجت ثلاث فرق من محلة الفلسطينيين يخربون في أرض اسرائيل. فأخذت فرقة منها في طريق عفرة. وهي المعروفة الآن بالطيبة في الشمال الصريح من مخماس. وفي الشمال الشرقي من بيت اين. وعلى خمسة عشر ميلاً من اورشليم شمالاً. وهي غير عفره موطن جدعون كما في كتاب اعلام الأماكن الكتابية وكما حقق كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٤٧)، وفرقة أخذت في طريق بيت حورون. وهي بيت اور العليا الآن في الشمال الغربي من اورشليم وفي الجنوب الغربي من رام الله. وفرقة أخذت في طريق التخيم المشرف على وادي صبوعين ناحية البرية. قال كاران (في المحل المار ذكره) إِنَّ وادي صبوعين لم يتحقق تعيينه إلى الآن، على أَنَّ الكلمة العبرانية صبوعيم معناها الضبع. وفي البرية الكائنة بين مخماس وأريحا محل يسمى الآن شق الضبع، وإن هو في العربية إلا ترجمة الكلمة العبرانية. ولما كانت الفرقة الأولى سارت شمالاً والثانية غرباً، فيظهر أَنَّ الثالثة سارت شرقاً نحو البرية المشار إليها. وأما في الجنوب فكان شاول ورجاله فلم يتوجه إليه الفلسطينيون. وقال اوسابيوس والقديس ايرونيμος إِنَّ صبوعين أو صبوعيم كانت على شاطئ بحيرة لوط غرباً. ولم يكن في أرض اسرائيل حداد منعهم من ذلك الفلسطينيون لئلا يعملوا سيفاً أو رمحاً، وكان يذهب كل امرئ منهم إلى الفلسطينيين ليحدّد سكته، ومنجله وفأسه ومعوله، ولما حان وقت الحرب لم يوجد سيف ولا رمح إلا في أيدي شاول ويوناثان ابنه.

وخرجت طلائع الفلسطينيين إلى معبر مكماش (مخماس)، فقال يوناثان ذات يوم لحامل سلاحه هلمّ نعبر إلى محرس الفلسطينيين من غير أن يعلم أباه، وكان في

ذلك المعبر سن صخرة من هذه الجهة، وسن صخرة من تلك السن الواحدة من جهة الشمال مقابل مكماش، والأخرى في الجنوب مقابل جبع (جبعة). وقد كتب العالم كاران عند زيارته هذه الأماكن (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٦٤): «إنَّ وادي ماسوينيت الفاصل بين جبعة ومخماس هو عميق جداً، وكأنه عمودي في بعض محاله لا سيَّما نحو الشرق، وعلى جانبي الوادي أكمتان صخريَّتان إحداهما شمالية، والأخرى جنوية طبق ما نصَّ الكتاب». فعبر يوناثان بين صخور الأكمة الشمالية مع حامل سلاحه، وأظهرا أنفسهما لحرس الفلسطينيين، فقالوا هوذا العبرانيون خارجون من الحجرة التي اختبأوا فيها، وقالوا ليوناثان وغللامه: تعالوا إلينا نعلمكما أمراً وكان يوناثان قال للغلام إن قالوا قفَّا حتى نصل اليكما وقفنا ثابتين، وإن قالوا إصعدا إلينا صعدنا، فيكون هذا علامة لنا أن الرب أسلمهم إلى أيدينا.

وصعد يوناثان على يديه ورجليه وحامل سلاحه وراءه، ووثباً على الحرس فكانت المقتلة الأولى التي عملها نحو عشرين رجلاً في نحو نصف تلم فدان أرض، أي في قدر نصف ما يحرقه الفدان في نهار، فحلَّ الرعب في الحملة. وارتعد الحرس والمخربون أيضاً. قال يوسيفوس (ك ٦ من تاريخ اليهود) إنَّ يوناثان وغللامه إنصرفا من وجه الأعداء، وصعدا من محل آخر على صخر لم يكن عليه حرس فوجدا الأعداء نائمين، فأعمالا السيف بهم فأخذوا يطرحون سلاحهم لينجوا بأنفسهم، وبعضهم يقتل بعضاً يظنهم أعداء لأنَّ عسكرهم كان من أُمم مختلفة، وبعضهم كان يدفع بعضاً ويزحمة فأرَّا فيقعون من على الصخور. وقال كريتس (في تاريخ اليهود) تولَّى الرعب الفلسطينيين لمهاجمتهم بغتة وهم على صخر عالٍ لا يتسنى لأحد الصعود إليه دون أن يجتاز في الحرس، فتوهَّموا أنَّ موجودات غير طبيعية تقتلهم. ورأت طلائع عسكر شاول تشتت شمل الفلسطينيين، وافتقدوا من غاب من عندهم فإذا يوناثان وحامل سلاحه ليسا هناك. وأسرع شاول ومن معه إلى محل المعركة ومعهم تابوت العهد فإذا بسيف كل واحد على صاحبه وانضمَّ إلى عسكر شاول العبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين خوفاً منهم. وظهر من كانوا اختبأوا في جبل أفرائيم، وانضمُّوا إلى شاول حتى صار عسكره نحو عشرة آلاف رجل، فتتبعوا أثر الفلسطينيين يقتلون منهم. وقال شاول ملعون الرجل الذي يذوق طعاماً إلى المساء حتى أنتقم من أعدائي، فامتنع الشعب عن الأكل النهار كله. ومزوا في غاب كثُر فيه النحل والعسل حتى كان العسل يسيل على الأرض.

ولم يمدد أحدهم اليه يداً إلا يوناثان فإنه مدَّ طرف عصاه، وغمسها في شهد العسل وردّها إلى فمه، ولم يكن عالماً بما حثَّم أبوه، فقال له رجلٌ إنَّ أباك حَلَفَ الشعب أن لا يذوق اليوم طعاماً، فلم يصوّب عمل أبيه، واعتذر عن عمله بجهله الأمر. واستمروا يطاردون الفلسطينيين من مكماش إلى أَيْالون وهي يالو الآن على ما روى كاران اسمها بالعربية. وأظنها يعلو كما في الخريطة الجغرافية العربية وهي في شرقي عمواص، وهو المحل الذي أوقف يشوع بن نون فيه الشمس عن المسير. وقد أعيا الشعب من كدِّه النهار كله دون قوت، فأخذوا بقرأ وغنماً وذبحوا على الأرض، وأكلوا بالدم فمنعهم شاول عن ذلك فدحرجوا صخرة عظيمة، وكانوا يذبحون عليها ويأكلون. وبنى شاول مذبحاً فكان أول مذبح بناه للرب، وأراد شاول أن ينزل وراء الفلسطينيين ليلاً فقال الكاهن لنسأل الله. فسأل شاول الله هل أنزل وراءهم وهل تدفعهم إلى يدي؟ فلم يجبه. وشعر بأنَّ الشعب اقترف إثماً، وحلف له أنه لو كان الإثم بابنه يوناثان، ليموتن موتاً. واقترعوا فأصابته القرعة يوناثان فسأله أبوه ماذا عملت؟ فقال إنه ذاق العسل برأس العصا. وأراد أبوه قتله مبرّةً ليمينه، ولكن أبى الشعب قتله لأنَّ الخلاص جرى على يده فلم يُقتل.

وحارب شاول كل من حوله من الموآبيين والعمونيين وملوك صوبا، (الراجح أنهم كانوا في سهول البقاع وبعليك)، وكان ظافراً حيث ما توجه، ولم يطرنا الكتاب بشيء من تفصيل أخبار هذه الحروب، وكان أبناء شاول يوناثان ويشوي وملك يشوع، وله بنتان اسم الكبرى ميراب والصغرى مبكل، وكان أبنير بن نير عمّ شاول قائداً لجيوشه. وكان كل ما رأى رجلاً ذا بأس ضمّه إليه (ملوك ١ ف ١٤).

عد ٢٤٩

محاربة شاول للعمالقة

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ١ ف ١٥): إنَّ صموئيل أتى إلى شاول قائلاً أنا الذي أرسلني الرب لأمسحك ملكاً على شعبه فاسمع الآن ما يقول الرب. قد إفتقدت ما صنع عماليق ببني إسرائيل وكيف وقفوا لهم في الطريق عند خروجهم من مصر، فهلهم الآن، واضرب عماليق ولا تعفُ عن أحد منهم الرجال والنساء، وأبسل

بهائمهم أيضاً. وقد أبنا عند كلامنا في غزوة كدرا لعومر لسورية من هم العمالقة ومن ذرية من هم. فطالع عد ١٥٥. وقد مرّ في الكلام على القضية أنّ هؤلاء العمالقة شايعوا المدينيين. فضايقوا بني إسرائيل، وخلّصهم أهود ثم ناصروا المدينيين، فضايقوهم مرةً أخرى، ونجّاهم جدعون. ويظهر من كلام صموئيل للملكهم أجاج أنهم كانوا يسطون في أيامه على بني إسرائيل الساكنين في شرقي الأردن. ويقتلون بعضهم، فلهذا أمرّ الرب شاول أن يبيدهم على آخرهم فجمع شاول رجلاً من بني إسرائيل، وأحصاهم فكانوا مئتي ألف راجل، وعشرة آلاف رجل من سبط يهوذا. وبالغ يوسفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود ف ٨) على عادته أن يزيد عددهم فقال كانوا أربع مئة ألف عدا ثلاثين ألفاً من سبط يهوذا.

وزحف شاول بعسكره إلى مدينة عماليق وكَمَنَ في الوادي، وأرسل يقول للقينيين ذوي قرابة يترو حمي موسى (الذين يظهر أنّ بعضهم توطّنوا بين العمالقة) أن يعتزلوا من بين العمالقة لئلا يهلكهم معهم، وهم قد صنعوا رحمةً إلى بني إسرائيل عند خروجهم من مصر. وضرب شاول بني عماليق من حويلة إلى آشور التي قبالة مصر، والمدينتان في بلاد العرب. وقتل كل من وجده بحدّ السيف، وأسر أجاج ملكهم وأبقاه حياً، وعفا أيضاً عن خيار الغنم والبقر، وكل سمين وكل ما كان جيداً، ولم ييسلوا إلا كل من كان حقيراً مهزولاً خلافاً لأمر الرب. قال يوسفوس (في المحل المشار إليه) إنّ شاول أباد بعضهم بالسلاح وبعضهم بمنعهم عن الزاد أو الماء حتى دوّخ بلادهم كلها. وعاد شاول ظافراً غانماً، وأقام نصباً لانتصاره على جبل الكرمل الذي في أملاك سبط يهوذا في المحل المعروف الآن بخربة الكرمل على عشرة أميال من الخليل جنوباً، كما ذكر أوسايبوس وإيرونيموس، وحققه كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٦٦). فهناك أقام شاول نصب لانتصاره لا في الكرمل الذي على البحر المتوسط، ثم نزل إلى الجلجال (جلجلول) يقدّم محرقةً للرب.

فأوحى الرب إلى صموئيل أنه متسخطّ على شاول لأنه مال عن أتباعه، ولم يعمل بأمره أن يبید العمالقة وماشيتهم. فشق ذلك على صموئيل، وصرخ إلى الرب ليله كله، وبكّر للقاء شاول، فإذا هو يُضْعِد محرقة للرب في الجلجال من خيار الغنيمة التي غنمها من عماليق. فالتقاه شاول قائلاً مبارك أنت إلى الرب إني قد

أقمت كلامه. فقال صموئيل فما هو إذاً صوت الغنم والبقر الذي أنا سامع مع أن الرب أمرك بقرض عماليق وماله؟ فاعتذر بأن الشعب عفا عن خيار الغنم والبقر ليذهبوا للرب، وجئت بأجاج ملك عماليق وأبسلت العمالقة.

فقال له صموئيل: كنت حقيراً في عيني نفسك، فمسحك الرب ملكاً على إسرائيل. وقال لك إنطلق فافنِ العمالقة، فملت إلى الغنيمة وخالفت أمره. أترى الرب يُسّر بالحرقات كما يُسر بالطاعة لكلامه؟ إن الطاعة خير من الذبيحة، قد رذلت كلام الرب، فذلك من المُلْك. فقال شاول قد خطئتُ لخوفي من الشعب فاغفر خطيئتي، وارجع معي لأستغفر الرب. فأجابه لا أرجع معك، وتحوّل لينصرف فأخذ شاول بطرف رداءه فأنشق، فقال له صموئيل: سيشق الرب مملكة إسرائيل عنك، ويدفعها إلى صاحبك الذي هو خير منك. فقال شاول: قد خطئتُ فاحفظ كرامتي أمام شيوخ الشعب وبني إسرائيل وارجع معي لأسجد للرب فرجع صموئيل وراء شاول، فسجد للرب ثم قال صموئيل هلمّ لي بأجاج ملك عماليق، فشخص أمامه مترفاً مرتعداً. فقال له صموئيل: كما أأكل سيفك النساء في إسرائيل تُنكل أمك بين النساء، وأمر بقتله في الجلجال. وانصرف صموئيل إلى البرامة وصعد شاول إلى بيته في جبع (جبعة). ولم يعد صموئيل يعاين شاول إلى يوم وفاته. وقد جاء في سفر الملوك نفسه (ملوك ١ فصل ١٩ ع ٢٤): إن شاول «تنبأ أمام صموئيل». وهذا يدل على أن قوله لم يعد صموئيل يعاين شاول إلى يوم وفاته، معناه أنه امتنع من زيارته لا من أن يراه مصادفة كما في الآية الثانية.

عد ٢٥٠

مسح صموئيل داود ليكون ملكاً موضع شاول

قد جاء في سفر الملوك (فصل ١٦) إن الرب قال لصموئيل إلى متى تنوح على شاول وأنا قد رذلته؟ فاملاً قرنك دهناً، واذهب إلى يسى من بيت لحم لأنني اخترت من بنيه ملكاً. فقال صموئيل إن سمع شاول يقتلني. فقال له الرب خذ معك عجلة، وقلّ إنني جئت لأذبح للرب، وادعُ يسى إلى الذبيحة وأنا أعلمك ماذا تصنع؟ ومن تمسح؟ ففعل صموئيل، وأتى بيت لحم فاضطرب شيوخها وقالوا:

إِلْسَلامِ قَدُومِكَ؟ فَقَالَ أَتَيْتُ أَذْبَحُ لِلرَّبِّ، فَقَدِّسُوا أَنْفُسَكُمْ، وَتَعَالَوْا مَعِيَ إِلَى الذَّبِيحَةِ. وَيُظْهِرُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ وَغَيْرِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَوْمِئِذٍ يَقْدُمُونَ الذَّبَائِحَ مَرَاتٍ فِي غَيْرِ خَبَاءٍ مُحْضَرٍ، وَأَتَى يَسَّى وَأَوْلَادُهُ إِلَى الذَّبِيحَةِ. وَنَظَرَ صَمُوئِيلُ إِلَى أَلْيَابِ أَكْبَرِ أَبْنَاءِ يَسَّى فَقَالَ: أَمَامَ الرَّبِّ مَسِيحُهُ؟ فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ لَا تَنْظُرْ إِلَى مَنْظَرِهِ، وَطَوَّلَ قَامَتَهُ. فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَنْظُرُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ. وَأَمَّا أَنَا فَانْظُرْ إِلَى الْقَلْبِ. وَأَجَازَ يَسَّى أَبْنَاءَ السَّبْعَةِ وَصَمُوئِيلُ يَقُولُ عَنْ كُلِّ مِنْهُمْ لَمْ يَخْتَرَهُ الرَّبُّ ثُمَّ سَأَلَ يَسَّى أَهْؤُلَاءَ جَمِيعَ الْغُلَامِ؟ فَأَجَابَهُ: بَقِيَ الصَّغِيرُ وَهُوَ يَرْعَى الْغَنَمَ. فَقَالَ جِئْنَا بِهِ. فَأَتَى وَكَانَ أَشَقَرُ حَسَنِ الْعَيْنَيْنِ وَسَيِّمَ الْمَنْظَرِ. فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ هَذَا هُوَ قَدْ قَامَ مَسْحَهُ. فَأَخَذَ صَمُوئِيلُ قَرْنَ الدَّهْنِ وَمَسَحَهُ، فَحَلَّ رُوحَ الرَّبِّ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ فَصَاعِداً، وَأَمَرَ صَمُوئِيلُ أَنْ يَبْقَى الْأَمْرَ سَرّاً مَكْتُوماً.

أَمَّا شَاوُلُ فَمَذَّ أَعْلَمَهُ النَّبِيُّ بِانْتِزَاعِ الْمَلِكِ مِنْهُ فَارَقَهُ رُوحُ الرَّبِّ وَاعْتَرَاهُ دَاءُ الْمَنْخُولِ^(٢). وَكَانَ أَعْوَانُهُ يَنْسُبُونَ دَاءَهُ إِلَى رُوحٍ شَرِيرٍ، وَأَشَارُوا إِلَيْهِ أَنْ يَسْتَدْعِيَ رَجُلًا يَحْسُنُ الضَّرْبَ بِالْكَنَارَةِ حَتَّى إِذَا اعْتَرَتْهُ نَوْبَةُ الْمَرَضِ فَرَّجَ كَرْبَهُ بِضَرْبِ الْكَنَارَةِ فَيَسْتَرِيحُ وَيَنْتَعَشُ. وَهَذَا بَعْضُهُمْ (رَبِّمَا كَانَ بَتَلْقِينَ صَمُوئِيلَ) إِلَى دَاوُدَ بْنِ يَسَّى فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِيهِ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ بِهِ. فَأَخَذَ يَسَّى حِمَاراً حَمَلَ عَلَيْهِ خَبِيراً وَزَقَّ خَمْرَ وَجَدِيّاً مِنَ الْمَعَزِ، وَأَرْسَلَهَا مَعَ دَاوُدَ إِلَى شَاوُلَ. وَلَمَّا تَمَثَّلَ أَمَامَهُ أَحْبَبَّهُ جِداً وَجَعَلَهُ حَامِلَ سِلَاحِهِ. وَكَانَ إِذَا اعْتَرَى شَاوُلُ الدَّاءَ أَخَذَ دَاوُدَ الْكَنَارَةَ، وَضَرَبَ بِيَدِهِ فَيَسْتَرِيحُ شَاوُلُ وَيَنْتَعَشُ. هَذَا مَا جَاءَ فِي الْفَصْلِ السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ سَفَرِ الْمُلُوكِ الْأَوَّلِ، وَلَكِنْ فِي الْفَصْلِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْهُ (عَدَّ ٥٥ وَمَا يَلِيهِ): «وَإِذْ رَأَى شَاوُلُ دَاوُدَ حِينَ خَرَجَ لِلِقَاءِ الْفَلَسْطِينِيِّ، قَالَ لِأَبْنِيرَ رَئِيسِ جَيْشِهِ ابْنِ مَنْ هَذَا الْغُلَامُ؟ فَقَالَ أَبْنِيرُ طِبْتُ نَفْساً أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنِّي لَا أَعْرِفُهُ. فَقَالَ الْمَلِكُ: سَلْ ابْنَ مَنْ هَذَا الْفَتَى؟ فَلَمَّا رَجَعَ دَاوُدُ مِنْ قَتْلِهِ الْفَلَسْطِينِيِّ، أَخَذَهُ أَبْنِيرُ وَأَدْخَلَهُ عَلَى شَاوُلَ وَرَأْسَ الْفَلَسْطِينِيِّ بِيَدِهِ. فَقَالَ لَهُ شَاوُلُ ابْنِ مَنْ أَنْتَ يَا فَتَى؟ فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ: أَنَا ابْنُ عَبْدِكَ يَسَّى مِنْ بَيْتِ لَحْمٍ». فَأَكْثَرَ جَاحِدُو الْوَحْيِ مِنْ تَعْظِيمِ هَذِهِ الْمَعْضِلَةِ، وَقَالُوا إِنَّهَا مُسْتَغْلَقَةٌ لَا يُهْتَدَى إِلَى وَجْهِ حَلِّهَا. وَقَالَ أَحَدُهُمْ فُولْتَر:

(١) وَهُوَ اضْطِرَابُ مِلَازِمِ الْعَقْلِ تَسْبِيهِ شِدَّةِ الْغَمِّ وَالْكَلِمَةُ يُونَانِيَّةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ مَالَانَ أَيْ اسْوَدَ وَخَوَلِيَ أَيْ مَرَّةً لِقَوْلِهِمْ أَنَّهُ مَسْبَبٌ عَنِ الْخَطِّ الْمَذْكُورِ أَيْ الْمَرَّةِ السَّوْدَاءِ.

«كيف جهل شاول من هو داود؟ وكيف خفي عليه ضارب كنارته وحامل سلاحه؟ فنحن لا نرى وجهاً لحل هذه المعضلة». على أنَّ الآباء القدماء والعلماء الحداثاء رأوا المسألة معضلة لكنهم لم يروها مستغلقة بل إهتدوا إلى أوجه عديدة لحلها.

فقال بعضهم - ومنهم كريتس - في تاريخ اليهود أن صرع داود جليات كان قبل أن يستقدمه شاول ليُفَرِّج كربه بضرب كنارته، وقبل أن يجعله حامل سلاحه. لكن الكتاب قدّم وضعاً ذكر ما تأخّر زماناً ولهذا أمثلة عديدة في الكتاب مرّ بنا ذكر بعضها. واحتجّوا لقولهم بتسمية داود غلاماً وفتى عند قتله جليات كما رأيت آنفاً وتسميته «جبار بأس ورجل حرب حصيف الكلام». (ملوك ١ فصل ١٦ عد ١٨). عند استقدام شاول له إليه، وأُيدوه بأنه جاء في الكتاب عن داود بعد صرعه جليات «وكان داود يضرب بيده كما كان يفعل كل يوم وكان في يد شاول رمح فأشرع شاول الرمح، وقال أخرج داود الحائط فتنحى داود من بين يديه مرتين» (ملوك ١ فصل ١٨ عد ١٠ و ١١). وأخبار قتله جليات ذُكرت في الفصل السابع عشر وقال هؤلاء أيضاً إنَّ كُتِبَ الأقدمين - وإن كانوا من الكُتّاب الملهمين - ملأى من الإعادات ومن التقديم والتأخير في الوضع. فموسى مثلاً ذكر أبناء نوح أربع مرات في سفر التكوين (أي في فصل ٥ عد ٣٢ وفصل ٦ عد ١٠، وفصل ٩ عد ١٨، وفصل ١٠ عد ١). فإن صحَّ قول هؤلاء امتحنت كلُّ ضائلةٍ وزال كلُّ إشكال.

وأما إذا كان استقدام شاول داود قبل قتله جليات كما هو ظاهر الكتاب، وعليه مشى أكثر الآباء والعلماء فلهم في حلّ المعضلة أوجه عديدة، نذكر بعضها. قال القديس أفرام جهيد الكنيسة السريانية (في تفسيره سفر الملوك الأول مجلد ١ من كتبه السريانية المطبوعة في رومة صفحة ٣٧٠): «إنَّ شاول الملك كان يعرف راعي الغنم الذي من بيت لحم المعرفة الكافية. وكان قد قرّبه إليه، وجعله حامل سلاحه، وضارب كنارته على أنَّ شجاعة داود قد أذهلته وزادته اعتباراً بعينه. وكان وعد بأنه يزوّج ابنته بمن قهر جليات، فرام الإستقصاء الجهيد عن نسب من كان مزماً أن يصاهره كما يفعل كل أب فطِن صالح. ولذا كلّف أنبير بأن يسأل عنه وهذا أمر بديهي وعلى غاية من الصواب والسداد. ولعله أيضاً فكر أنه هو

الذي سوف يخلفه كما كان صموئيل قال له. وقال تاودوريطوس (في خطبته ٤٣ في سفر الملوك الأول): «كيف لم يعرف شاول داود؟ فيجواب بأحد أمرين إما أنَّ الداء الذي كان يعتريه لم يكن يمكنه من عرفان من يضرب له بالكثارة، إما أنَّ حسده له جعله يدقق بالإستقصاء عنه من أين هو وابن من هو؟» وقال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة داود): إنَّ داود كان ترك شاول من مدة فتبدل منظره وصوته وقامته. وكان يقوم أمامه بملايس ضارب الكثارة أو جندي يحمل سلاح الملك. فرآه عند محاربته جليات رجلاً بأثواب راعي غنم، فخفي عليه هذا وقد خلت أكثر نسخ الترجمة السبعينية عن الآيات المنبئة بسؤال شاول عن داود وإن وُجِدَتْ في بعضها وفي النص العبراني وغيره من الترجمات.

عد ٢٥١

قتل داود جليات الجبار

جاء في الفصل السابع عشر من سفر الملوك الأول أنَّ الفلسطينيين جمعوا عساكرهم للحرب. ونزلوا بين سوكو وعزيقة واجتمع شاول ورجال إسرائيل، ونزلوا وادي البطمة وبين الجيشين الوادي. أما سوكو فهي خربة الشويكة اليوم على بعد سبعة أميال ونصف من بيت جبرين نحو أورشليم. وأما عزيقة فكان موقعها في دير العاشق أو في تل زكريا مصابة لخربة الشويكة. وأقرب منها إلى أورشليم (طالع عد ٢١٧). وأما وادي البطمة فهو في محل كلوني الآن وتسميه السبعينية وادي السنديان. قال ميشود (في مراسلات المشرق رسالته ٩٣ مجلد ٤): «قد عبرنا الوادي الذي انتقى منه داود الخمسة الحجارة الملص ليصرع بها خصمه فكان على جانبنا الجبل الذي كان عليه معسكر إسرائيل، وعلى جانبنا الآخر محلة الفلسطينيين. وقد بنى الصليبيون ثمة مدينة سموها كلونيا تذكراً لظفر داود وأطلالها باقية هناك» في المحل المسمى كلوني. ولما صاف القوم للقتال خرج مبارز من عسكر الفلسطينيين اسمه جليات من جت (ذكرين). وروى لانرمان (في تاريخه الشرقي مجلد ٦ في تاريخ العبرانيين) أنه من ذرية بني عناق الأقدمين. وقال الكتاب: كان طوله ست أذرع وشبراً وقدّر كلمت (في تاريخ العهد القديم) أنها إثننا عشرة قدماً ونصف وعلى رأسه بيضة من نحاس. وكان لابساً درعاً حرشفية

وزنها خمسة آلاف مثقال نحاس. أي سبعة آلاف وخمسة مئة درهم بحساب المثقال درهماً ونصفاً، عبارة عن ثماني عشرة أُنَّةً وثلاث مئة درهم. وعلى رجله ساقان من نحاس. وبين كَفَّيه مِزْرَاقٌ من نحاس، وقناة رمحه كنول النساج أي كالخشب التي يطوى عليها النسيج المعروفة بالمطوى، ووزن سنان رمحه ست مئة مثقال من حديد عبارة عن أُفْتَيْنِ ونِيف.

وروى يوسيفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود فصل ١٠): إِنَّ طوله أربع أذرع وشبر وكان بين يديه رجل يحمل مجنبه، فوقف هذا ونادى صفوف إسرائيل لِمَ الحرب ووفرة إراقة الدماء؟ فأنا فلسطيني وأنتم عبيد شاول، فاختاروا رجلاً ينازلني فإن قتلني صرنا لكم عبيداً، وإن قتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً. ولهذا مثلٌ في التواريخ القديمة واستمرَّ على ذلك أربعين يوماً، فارتاع شاول وبنو إسرائيل من هذا الكلام. وكان بين عسكر شاول ثلاثة من إخوة داود، فقال أبوهم لداود خذ إيفة مكيال من هذا الفريك وهذه العشرة الرغفان، وامضْ لِنَقْدِ إِخْوَتِكَ فِي الْحَلَّةِ، فبَكَر داود ووَكَّلَ الْغَنَمَ إِلَى مَنْ يَحْفَظُهَا. وانطلق إلى المترسة وبينما هو يكلم إخوته إذا جليات خرج يكرر تقريره لبني إسرائيل. وسمع داود رجلاً يقولون من قتل هذا المبارز أغناه الملك وزوّجه لِبَنَتِهِ. فقال: من عسى أن يكون هذا الفلسطيني الأقف، حتى يقرع صفوف الله الحي؟ وصرّح بعزمه أن ينازله فاستشاط أخوه ألياب غضباً عليه وقال له لماذا نزلتَ إلى هنا؟ وعند من خلّفت تلك الغنيمات في البرية، فانصرف داود إلى ناحية أخرى. وقال إنه ينزل جليات وبلغ شاول كلامه فاستحضره وقال إنه يحارب الفلسطيني. فقال له شاول لا طاقة لك بقتاله لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه. فأجابه داود كان عبدك يرعى غنم أبيه فقتل أسداً ودباً طرقا غنمه. وسيكون هذا الفلسطيني كأحدهما، وينقذني الرب هنا كما أنقذني هناك. وألبس شاول داود سلاحه. فلم يُحَسِّنِ الحركة فيه فنزعه عنه وأخذ عصاه بيده، وانتقى خمسة حجارة ملس من الوادي، ووضعها في كنف الرعاية (الجراب) ومقلّاعه بيده، وبرز للفلسطيني فاستخفَّ به وقال أَكَلْتُ أَنَا حَتَّى تَأْتِيَنِي بِالْعَصَا؟ تعال فأجعل لحملك لطير السماء ووحش القفر، ولعن داود بآلهته. فقال له داود أنت تأتيني بالسيف والرمح والمِزْرَاق، وأنا آتيك باسم الرب إله إسرائيل الذي قَرَعْتَهُ. ومدَّ داود يده إلى الكنف، وأخذ منه حجراً قذفه بالمقلّاع، فانغرز الحجر في جبهة الفلسطيني فسقط على الأرض. وأسرع داود فاخترط سيف الفلسطيني من غمده، وقطع رأسه

به فتوَّى الرعب الفلسطينيين لما رأوا جبارهم صريعاً، وولّوا الإديبار منذعرين متشتتين. فتعقبهم بنو إسرائيل يقتلون منهم إلى جت (ذكرين)، وإلى أبواب عقرون (عافر). ثم رجعوا عن مطاردتهم، وانتهبوا محلّتهم وأخذ داود رأس الفلسطيني وجاء به إلى شاول ثم وضعه في أورشليم، ووضع عدته في خيمته ثم وضع السيف في بيت الرب كما يتّضح من فصل ٢١ عد ٩ في سفر الملوك الأول.

قد ندّد الطبيعون بالكتاب لقوله: إنّ داود جاء برأس جليات إلى أورشليم مع أنه لم يفتح أورشليم إلّا بعد أن قبض على زمام الملك كما في سفر الملوك الثاني (فصل ٥ عد ٩). وقد فاتهم أنّ أورشليم كان يسكنها يومئذ بنو إسرائيل واليبوسيون معاً. والذي إفتتحه داود بعد تولّيه الملك إنما هو حصن صهيون الذي سمّاه مدينة داود كما هو بيّن لكل ذي عينين يطالع ما استشهدوا به نفسه.

عد ٢٥٢

حصول النفرة بين شاول وداود

أحبّ شاول داود أولاً وقوّبه إليه، وصافاه يوناثان بن شاول، وأخلص له في الداد، وقطع معه عهداً، ووهبه رداءه وسائر ثيابه وسيفه وقوسه ومنطقته. وكان داود يخرج حينما وجهه شاول ويتصرّف بحكمة. وأحبه جميع الشعب ولا سيما عبيد شاول. فداخل شاول الحسد والغيرة وقد بلغه أنّ النساء كنّ عند رجوعهم من حرب الفلسطينيين يغنين قائلات قتل شاول ألوفه وداود ربواته. ووجس أن يكون داود خلفاً له بالملك بعد إنتزاعه منه كما هدّده صموئيل. فعظّمت شجونه، وتولّته الكآبة، وعأوده مرضه، فاستدعى داود ليضرب له بالكثارة، وأشرع الرمح ليخرق داود به فتنحّى داود من بين يديه مرتين، وأضمر قتله لكنه قال لا تكن يدي عليه بل يد الفلسطينيين، وأسمعه أنه يزوّجه بميراب ابنته الكبرى بشرط أن يكون ذا بأس. ويحارب حروب الرب، فقال داود من أنا وما عشيرة أبي حتى أكون صهر الملك؟ وفي ميعاد إعطائه إياها زفّها أبوها إلى غيره، وكانت ميكال أختها الصغرى تحب داود. فقال شاول أعطيها له فتكون له وهفاً ويقتله الفلسطينيون. ولذلك أرسل يقول لداود أن لا رغبة له في المهر لكنه يريد مئة قلفة من الفلسطينيين لإنتقاماً منهم. فذهب داود ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل، وجاء بقلفهم فغرّضت على الملك بتمامها. وقد استطرق القدماء قطع قلف الأعداء، فجاء في كتاب

شمبوليون كاشف الكنوز الهيروكليفية. أنه وجد في قصر مدينة أبو في تاب (طيبة) خطوطاً هيروكليفية مؤداها «أَنْ رؤساء العسكر المصري أقاموا الأسرى في حضرة الملك رمسيس الأول (قبل داود بقرون). فكان عددهم ثلاثة آلاف وعدد الأيدي المقطوعة ثلاثة آلاف وعدد القلف المقطوعة ثلاثة آلاف»، وعن خطوط أخرى هناك.

«وكان رئيس كل فرقة من الجنود يقدم حساب الأيدي اليمنى المزلومة من الأعداء في معمة القتال وعدد قلفهم». فزوجه شاول ميكال ابنته واستمر واجساً منه. بل كلّم ابنه يوناثان وغيره أن يقتلوه. فلم يكتم يوناثان داود خبر سخط أبيه عليه، وحرّضه أن يحتفظ لنفسه ويختبئ. ثم كلّم أباه مذكراً بإياه بفضل داود وأعماله الحسنة، وبفطاعة إثمه إذا أراق دمأً ذكياً إعتباطاً. فحلف شاول أنه لا يقتل داود، وأدخله يوناثان على أبيه فكان بين يديه كما كان قبلاً. وعادت الحرب مع الفلسطينيين، فضربهم داود ضربات عظيمة فهربوا من وجهه. ولم يأتنا الكتاب بتفصيل أخبار هذه الحرب بل أنبأنا أنّ شاول عاوده مرضه، وأتى داود يضرب له في الكثرة. فأشرع رمحه ثانية على داود ليخرقه فأخطأه الرمح، ونشب في الحائط ونجا داود تلك الليلة. فوجه شاول رسلاً ليقتلوه في بيته. فدلته امرأته ميكال من كوة وهرب ناجياً، وأتى صموئيل في الرامة. وأخبره بكل ما صنع به شاول، وانطلقا وأقاما بنايوت وهي محلة قريبة من الرامة، وتابعة لها كما يظهر من قول الكتاب التابع في نايوت في الرامة. فأنفذ شاول رسلاً ليأخذوا داود، فأروا صموئيل في رأس جماعة الأنبياء وهم يتنبأون أي يندرون بحفظ سنة الرب. فتنبأ الرسل أيضاً أي جعلوا يتكلمون كأولئك الانبياء أي المعلمين وكذلك كان لمن أوفدهم شاول ثانياً وثالثاً. فانطلق شاول بنفسه ولماً دنا من مقام صموئيل وداود أصابه ما أصاب وفوده وزيادة. فإنه إنطرح عرياناً نهاره وليله أجمع إذ عاودته نوبة دائه شديدة حتى فقد رشده (ملوك ١ فصل ١٨ و ١٩).

عد ٢٥٣

هرب داود من وجه شاول وإتيانه ألى أحيملك الكاهن

قد هرب داود من نايوت وأتى إلى يوناثان وقال له ما جرمني عند أبيك حتى يريد قتلي؟ فأجابه يوناثان إنّ أباه لم يكشفه بشيء من هذا، ولم يعتد أن يكتمه ما يصنع. فقال له داود إنّ أباك يعلم وداذك لي فلم يشأ أن يعلمك لئلا تحزن، ولكن

ما كان بيني وبين الموت إلا خطوة، واتفقا أن يكشف يوناثان أباه في أمر داود يوم الإتكاء للطعام في رأس الشهر. وخرجا إلى الصحراء فعثنا محلاً يلتقيان فيه للنبا بما يكون. وفي اليوم الثاني من الشهر قال شاول ليوناثان لماذا لم يأت ابن يسي لا أمس ولا اليوم إلى الطعام؟ فأجاب يوناثان أنه قد استأذني ليمضي إلى بيت لحم لأن لعشيرتهم ذبيحة. فغضب شاول على يوناثان، وعيَّره بتعصبه له وقال ما دام ابن يسي حياً فلا تثبت أنت ولا مملكتك. فإتني به لأنه مستوجب الموت، فقال يوناثان أي سوء صنع؟ فأشعر أبوه الرمح ليطعنه به فقام يوناثان عن المائدة مغضباً وخرج إلى الحقل بحسب ميعاده لداود ومعه غلام صغير وسهام. وكان قد عاهد داود أن يرميها وإن قال لغلامه الأسهم خلفك فخذها كان خيراً لداود، فقبِل إليه وإن قال له: الأسهم أمامك كان شراً لداود فينصرف. فرمى يوناثان سهماً وأرسل الغلام يلتقطه وناداه السهم أمامك أعجل لا تقف، والتقط الغلام السهم وعاد إلى مولاه وهو لا يعلم شيئاً. وصرفه يوناثان بالسهم إلى المدينة. وقام داود من مخبئه وخرَّ أمام يوناثان ثلاث مرَّات لأنه ابن الملك، وقبَّل كلَّ منهما صاحبه وبكيا. وكان بكاء داود أشدَّ. وجددا عهد الموالاة بينهما وبين ذريتهما. وعاد يوناثان إلى المدينة ومضى داود في طريقه.

وأتى داود إلى نوب وهي إما المسماة الآن بيت نوبا على ثمانية أميال شرقاً عن اللد، وأما المسماة بيت أنابه على ما روى كاران، وأظنها عنايني على ما في خريطة سورية. وهذه البلدة على أربعة أميال شرقاً عن اللد أيضاً (كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣١٥). وهي غير نوب أو نوبا التي في شرقي الأردن. وكان غرض داود من إتيانه إليها أن يرى أحيملك الكاهن، ويأخذ سيف جليات الذي كان وضعه في مقدس الرب في هذه المدينة الكهنوتية، فارتعد الكاهن حين رآه وحده. فقال له داود: إنَّ الملك أمره بحاجة خفية. وأنه واعد غلماناً إلى موضع كذا. وسأله أن يعطيه خمسة أرغفة أو ما تيسر فأجابه الكاهن أن ليس عنده خبز مباح إنما عنده خبز مقدس، ولا يباح تناوله إلا لمن كان طاهراً. فهل الغلمان طاهرون؟ فأوجب داود ذلك فدفع إليه الخبر خبز الوجوه المرفوع من أمام الرب ليوضع خبز سخن في موضعه. وهذا ما استشهد به المخلص لإبكام الفريسيين عن تذرهم لفرك التلاميذ سنبلاً يوم السبت كما روى متى (فصل ١٢ عد ٣). وذكر أبيتار في بشارة مرقس (فصل ٢ عد ٢٥) موضع احيملك إنما هو سهو من النشاخ أو لأن

أبياتار هو ابن أحيملك وكان يعاونه في خدمته. وسأل داود الحبر أليس عندك ههنا رمح أو سيف؟ فقال إن ههنا سيف جليات الذي قتلته. فقال داود ومن لي بمثله عليّ به؟ وكان هناك وقتئذٍ دويج الأدومي كبير رعاة شاول. فأخبره ما كان بين داود وأحيملك، وكذا تسبّب قتل الكهنة وخراب نوب كما سترى (ملوك فصل ٢٠ و ٢١).

عد ٢٥٤

هرب داود إلى جت ومواب وقتل شاول كهنة نوب

وأنى داود أكيش ملك جت. وقد مرّ في مواضع عديدة أن موقع جت كان حيث ذكرين الآن على خمسة إلى سبعة أميال عن بيت جبرين في الشمال الغربي على ما رجّح كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ١٠٨). أو كان حيث تل الصافي الآن على مقربة من ذكرين شمالاً على ما في أعلام الأماكن الكتابية. ولما بلغ داود إلى جت عرفه بعض أهلها، فقالوا لملكها أليس هذا داود الذي كانت الإسرائيليات يغنين له قائلات قتل شاول ألوفه وداود ربواته؟ فخاف داود جداً وتظاهر بالجنون بين أيديهم. فقال أكيش أمن قلة المجانين عندي أتيتوني بهذا ليتجنّ بين يديّ. إن داود خاف جداً من أن شاول يقتله وصمم على الاختباء من وجهه، ورأى أن اختفائه في أرض الفلسطينيين آمن منه في أرض العبرانيين فلا الفلسطينيون يظنون أن الدّ أعدائهم، وقاتل جبارهم يختفي بين أظهرهم، ولا أحد من بني إسرائيل يخال له ذلك في بال ولما كشف أمره لم يكن له منجاة من الخطر إلا بتظاهره بالجنون. لأنّ قرائن الحال توجه عليه وتقضي بتصديقه به فلا يقدم على مثل عمله إلا من اختلّ عقله هذا ما رأيته أحسن أقوال المفسرين وأسدّها.

قد انصرف داود من جت وهرب إلى مغارة عدلام. وقال كثيرون إن هذه المغارة هي المعروفة الآن بخربة خريتون نسبة إلى القديس خريتون الذي نسك فيها. وهي على ثمانية أميال عن بيت لحم جنوباً بين جبل فريديس وتقوع، والظاهر من كلام اوسايوس إنّها كانت في أيامه قرية كبيرة على عشرة أميال من بيت جبرين شرقاً، وقد ترجم القديس ايرونيμος كلامه ولم يصلح به شيئاً فكأنه تابعه فيه. وقال آخرون إن مغارة عدلام كانت في جوار عين جدي. روى كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٣٥ وما يليها) هذه الأقوال ولم يصحح أو يُرجّح أحدها. ولما

سمع أخوة داود وجميع بيت أبيه أنه في عدلام نزلوا إليه، واجتمع إليه كل من كان في ضيق وعليه دين أو مرت نفسه فقام عليهم رئيساً وكانوا نحو أربع مئة رجل، فانطلق بهم داود إلى مصفاة مواب حيث كان ملك مواب فقال له داود ليقيم أبي وأمي عندكم حتى أنظر ما يصنع الله لي. وأرسل صموئيل جاد النبي إلى داود ليعود إلى أرض يهوذا فعاد ودخل غيضة حارث. وجاء في كتاب الأعلام الكتابية انها كانت في جبل الخليل على مقربة من القرية المسماة اليوم حلحول في شمالي الخليل. وسمع شاول ان داود قد ظهر هو والرجال الذين معه، فأخذ يؤتب آل بنيامين على ميلهم إلى داود وكتمانهم عليه معاهدة ابنه يوناثان له.

فقص عليه دويج الأدومي الذي كان في نوب عند مرور داود من هنالك ما صنعه احيملك لداود. وأنه دفع إليه سيف جليات الجبار، فأرسل شاول فدعا احيملك الخبر وجميع الكهنة الذين في نوب. وعثفهم على أنهم حالفوا داود وأعطوه خبزاً وسيفاً. فقال احيملك إنه لا يعلم هو والكهنة بقليل ولا كثير مما كان بين الملك وداود بل عهدوه صهره ومسرعاً في طاعته. وأمر الملك السعاة الواقفين بين يديه أن يعطفوا ويقتلوا كهنة الرب. فلم يمدد أحدهم إلى الكهنة يداً حرمة للرب. فأمر دويج الأدومي ان يقتلهم. فقتل منهم في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً. ثم ضرب نوب مدينتهم بحد السيف فأهلك الرجال والنساء الأطفال والماشية، ونجا ابن لاحيملك اسمه ايباتار وأتى إلى داود؛ وأخبره بما صنع شاول فأمنه داود قائلاً لا تخف لأن الذي يطلب نفسي هو الذي يطلب نفسك (ملوك ١ فصل ٢٢).

عد ٢٥٥

مطاردة شاول لداود وعفو داود عن قتله

قد نُحِب داود في مفرّه أنّ الفلسطينيين يحاربون عقيلة وينتهبون البيادر، وسأل الرب فأوحى إليه ان سر إليها وخلّص أهلها. فسار إليها برجاله وضرب الفلسطينيين ضربة عظيمة، واستاق مواشيهم وخلّص أهل عقيلة التي تسمى الآن كيلا على ستة أميال شرقاً من بيت جبرين (على ما روى كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٤٢)، وعلى ستة أميال غرباً من حلحول (على ما في كتاب الأعلام الكتابية).

فهني في وسط الطريق بين بيت جبرين وحلحول، وعلم شاول أن داود في عقيلة فظن أنه يظفر به لأنه داخل مدينة ذات أبواب وإغلاق. وهم بالخروج إليه، وسأل داود الرب بواسطة ابياتار الكاهن، فاعلمه أن شاول يخرج إليه، وأن أهل عقيلة يسلمونه إلى يده فانصرف داود مع نحو من ست مئة رجل نحو البرية، وأقام في الجبل في برية زيف، فخرج شاول في طلبه. وأتى ابنه يوناثان إلى داود خفية وشدد يده بالله قائلًا: لا تخف لأن أبي لا يظفر بك وأنت تملك على إسرائيل، وأنا أكون لك ثانياً. وتعهدا على ذلك وصعد سكان زيف إلى شاول، وتعهّدوا بأن يسلموا داود إلى يده. وعلم داود فانتقل إلى برية معون فتعقبه شاول. ولكن ورد إليه رسول يخبره أن الفلسطينيين انتشروا في الأرض فعاد عن لحاق داود إلى لقاء الفلسطينيين.

أمّا زيف فكان موقعها في المحلّ المسمّى اليوم تل زيف في الجنوب الشرقي من الخليل وفي الجنوب الغربي من بني نعيم. على أربعة أميال من الخليل (كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٦٠ وكتاب الإعلام الكتابية). وأمّا معون فكانت في المحلّ المعروف الآن بتل معين في جنوبي زيف والخليل (كاران في المجلّد المذكور صفحة ١٧١ وكتاب الإعلام). وشخص داود من معون إلى حصون عين جدي وهي المعروفة بهذا الاسم حتى اليوم في شرقي بحيرة لوط. ولمّا رجع شاول من وراء الفلسطينيين قيل له إنّ داود في عين جدي، فأخذ ثلاثة آلاف رجل منتخين وسار في طلبه، ودخل مغارة في طريقه لحاجة نفسه. وكان داود وأصحابه في باطنها فأغرى داود بعض أصحابه بقتل شاول قائلين هذا هو اليوم الذي قال لك الرب هاءنذا أدفع فيه عدوك إلى يدك فتصنع به ما حسن لك. فأبى إلاّ المخالفة لهم وزجرهم كي لا يمد أحد إليه يداً لكنّه جاء من ورائه خفية وقطع طرف رداءه. ولمّا خرج سار داود ورائه ونادى يا سيّدي الملك فالتفت شاول ونحرّ داود على وجهه ساجداً. وقال لماذا يصدّق مولاي من يقولون له إنّ داود يطلب أذاه فإليك بيّنة قاطعة أنّه كان في يدي اليوم أن أقتلك في المغارة؟ وقد أشير عليّ بذلك، لكنني أشفقت وقلت لا أرفع يدي على مسيح الرب. فانظر يا أبي أنظر طرف رداك في يدي، وكما قطعتك كان لي أن أقتلك وأنت تصيّد نفسي لتأخذها وراء من خرج ملك إسرائيل، ووراء من أنت مطارد وراء كلب ميّت وبرغوت واحد فليحكم الرب بيني وبينك. ولمّا سمع شاول صوت داود بكى وقال له: أنت أبو ميّ لأنك جزيتني خيراً وأنا جزيتك شراً، ولقد علمت الآن أنك ستصير ملكاً

فاحلف لي أنك لا تقرض ذريتي من بعدي. فحلف له فانصرف شاول إلى بيته وصعد داود وأصحابه إلى محال حصينة (ملوك ١ ف ٢٣ و ٢٤).

عد ٢٥٦

وفاة صموئيل

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ١ ف ٢٥) أنّ صموئيل توفي فاجتمع جميع إسرائيل وناحوا عليه. قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٦ ف ١٤): إنّ مناحة بني إسرائيل على صموئيل شملت جميعهم بل كان أسف كل منهم عليه أسف من فقد أقرب أقربائه، فقد تسامى بفضله وفضيلته وغيرته على سنة الرب وجدّه في إكساب بني إسرائيل مجداً. وتفرد باستقامة مسلكه، ونزاهة أمياله، وكففي مؤونة بيان كل ذلك ما قاله للشعب في محضر حافل عند إقامته شاول ملكاً وهو: «هأنذا فاشهدوا عليّ قدّام الرب وقدّام مسيحه ثور من أخذت أو حمار من أخذت أو من ظلمت، أو من ضغطت أو من يد من ارتشيت لأغضي عينيّ عنه. فارد لكم فقالوا: ما ظلمتنا ولا ضغطنا ولا أخذت من يد أحدنا شيئاً». (ملوك ١ ف ١٢ ع ٣ و ٤). وقد مرّ أنّه يرجّح أن يكون كتب سفر القضاة، وسفر راعوت ويحتمل أن يكون كتب من سفر الملوك الأوّل إلى الفصل الخامس والعشرين المنبئ بموته. ويحسب أوّل الانبياء أي الانبياء الذين كانوا في عهد ملوك بني إسرائيل إلى عودهم من سبي بابل، فإنّ موسى كان نبياً ودابورة نبية، وكانا قبله بل كان هو مؤسس مدرسة الانبياء كما يظهر من سفر الملوك الأوّل (ف ١٠ ع ٥ و ١٠). وكان لهذه المدرسة رئيس كما يتبيّن من هذا السفر (ف ١٩ ع ٢٠) وكانوا يسمّونه أباً (ملوك ١ ف ١٠ ع ١٢)، ومعلّماً (ملوك ٤ فصل ٢ عد ٣). وكانوا هم يسمّون أبناء الانبياء (ملوك ٤ فصل ٦ عد ١). وكانوا يعكفون على تسبيح الله (ملوك ١ فصل ١٠ عد ٥ وغيره). وكانت مواد دروسهم سنة الرب وطرائف الإنذار بها. والأظهر أنّ رئيسهم كان يُمسح بالدهن المقدّس كما مُسح اليشاع (ملوك ٣ فصل ١٩ عد ١٦). ولم يكن جميعهم انبياء حقيقة يندرون بالمستقبلات، ولكن قد خرج من مدرستهم كثير من الانبياء وسائرهم علماء ومنذرون فقط (طالع عد ٢٤٦). وعليه فقد كان صموئيل أوّل من وضع طريقة

التعليم والتهذيب الديني. وأقام مدرستهم أوّل الأمر في موطنه الرامة، وأنبأنا الكتاب أنّه كان مثل هذه المدرسة في بيت أيل وأريحا والجلجال وغيرها.

روى كلمت (في تاريخ العهد القديم) أنّ صموئيل عاش نحو ثماني وتسعين سنة صرف منها عشرين سنة في القضاء لبني إسرائيل قبل مسحه شاول. وعاش مع شاول ثماني وثلاثين سنة. ولكن روى يوسفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود فصل ١٤) أنّه ولي القضاء للشعب اثنتي عشرة سنة، وعاش مع شاول ثماني عشرة سنة. ودفن في بيته أي في موطنه الرامة. وقد مرّ أن الأرجح إنّها كانت في الحقل المسمّى اليوم النبي صموئيل في الشمال الغربي من أورشليم. قال لانرمان (مجلّد ٦ من تاريخ المشرق في ملك شاول) إنّ مقتل الكهنة وأهل نوب الآف ذكره كان بعد موت صموئيل. فقدّم الكتاب وضعاً ما تأخّر زماناً. ومن أدلّة ذلك أنّ شاول لم يكن ليقترف جريمة فظيعة كهذه في حياة صموئيل الذي كان يهابه ويخشاه ويؤيده. إنّنا لا نرى في الكتاب أنّ صموئيل فاه بكلمة توبيخ على هذا الصنيع اللدريع خلافاً لما تعود من إتقاد نار غيرته.

عد ٢٥٧

تِيَمّة أخبار داود في مفوّه وعفوه ثانية عن قتل شاول

قد مرّ أنّ داود لم يركن إلى كلام شاول ومضى إلى محال حصينة. والظاهر من أي الكتاب أنه أقام في برّة معون (تل معين السالف تعريفها). واحتاج الزاد لرجاله فأرسل إلى رجل غني في معون اسمه نابال كان يجرّ غنمه الكثيرة جداً سائلاً إياه أن يعطيهم ما تيسّر لقوتهم لأنهم أحسنوا إلى رعاته، وذبوا عنهم. وكان وقت الحجاز عندهم كوقت قطاف الكروم، يكثر فيه من معذات اللهو والمسرّة فأبى الرجل إلّا أن يسمع غلمان داود ما يسوءهم قائلاً من هو داود؟ وقد كثر العبيد الذين أبقوا من عند مواليهم. ولمّا علم داود إحتدم صدره غيظاً، وأخذ أربع مئة رجل من رجاله ينوي التنكيل به. وكان لنابال امرأة اسمها أيجائيل (أو أيبغال) ذكية جميلة علمت بإحسان داود وفضاظة زوجها، فأخذت مِئتي رغيف وِزقي خمر وخمسة خرفان مطبوخة وخمس كيلات من الفريك، ومِئتي عنقود من الزبيب، ومِئتي قرص من التين. ومضت إلى داود فالتقت به في طريقها فخدمت جذوة

غِيظَهُ بِتَذَلُّلِهَا وَرَقَّةَ كَلَامِهَا. فَتَقَبَّلَ هَدِيَّتَهَا وَعَادَتْ إِلَى بَيْتِهَا، وَقَصَّتْ عَلَى زَوْجِهَا مَا كَانَ فَارْتَاعَ جَدًّا حَتَّى عَبَّرَ الْكِتَابُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «مَاتَ قَلْبُهُ فِي جَوْفِهِ وَصَارَ كَحَجَرٍ». وَبَعْدَ عَشْرَةِ أَيَّامٍ مَاتَ فَشَكَرَ دَاوُدُ الرَّبَّ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْتَقِمْ مِنْ نَابَالٍ عَلَى غَيْرِ يَدِهِ. ثُمَّ تَزَوَّجَ دَاوُدُ بِأَيِّيْجَائِيلَ امْرَأَتِهِ، وَاتَّخَذَ امْرَأَةً أُخْرَى اسْمَهَا أَحِينُوعَمَ. وَكَانَ شَاوُلُ أَعْطَى مِيكَالَ ابْنَتَهُ زَوْجَةَ دَاوُدَ لِرَجُلٍ آخَرَ بَعْدَ فَرَارِهِ (مَلُوك ١ فَصَل ٢٥).

وَعَادَ أَهْلُ زَيْفَ (تَلْ زَيْفَ) يَخْبِرُونَ شَاوُلَ أَنَّ دَاوُدَ مَخْتَبِئٌ فِي الْبَرِيَّةِ قَرِيبًا مِنْهُمْ. فَأَخَذَ شَاوُلُ ثَلَاثَةَ آلَافِ رَجُلٍ مِنْ مَتَخَبِيي إِسْرَائِيلَ لِيَطْلُبَ دَاوُدَ. وَأَرْسَلَ دَاوُدَ جَوَاسِيسَ فَعَلِمَ مَحَلَّ إِقَامَتِهِ، فَغَشِيَتْهُ لَيْلًا وَمَعَهُ أَيِّشَايُ بْنُ صَرْوِيَّةَ فَوَجَدَهُ نَائِمًا فِي الْمَتْرَسَةِ وَرَمَحَهُ مَرْكُوزٌ عِنْدَ رَأْسِهِ، وَأَبْنِيرُ قَائِدُ جَيْشِهِ وَالشَّعْبُ رَقُودٌ حَوْلَهُ، فَقَالَ أَيِّشَايُ لِدَاوُدَ دَعْنِي أَطْعَمَهُ بِهَذَا الرَّمْحِ طَعْنَةً وَاحِدَةً وَلَا أَتْنِي عَلَيْهِ، فَأَجَابَهُ دَاوُدُ مِنَ الَّذِي يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى مَسِيحِ الرَّبِّ وَيَكُونُ بَرِيئًا؟ وَأَخَذَ دَاوُدُ رَمَحَ شَاوُلَ، وَكَوَزَ الْمَاءِ مِنْ عِنْدَ رَأْسِهِ وَانْصَرَفَا، وَوَقَفَ دَاوُدُ عَلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ مِنْ بُعْدٍ وَصَاحَ بِالشَّعْبِ وَبِأَبْنِيرَ ابْنِ نِيرَ فَأَجَابَ أَبْنِيرُ مِنْ أَتَى يَا مَنْ يَصِيحُ بِالْمَلِكِ؟ فَقَالَ لَهُ دَاوُدُ كَيْفَ لَمْ تَحْرُسَ سَيِّدَكَ الْمَلِكَ؟ فَقَدْ جَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الشَّعْبِ لِيَقْتُلَهُ فَانْظُرْ أَيْنَ رَمَحَ الْمَلِكِ، وَكَوَزَ الْمَاءِ اللَّذَانِ كَانَا عِنْدَ رَأْسِهِ. فَعَرَفَ شَاوُلُ صَوْتَ دَاوُدَ وَقَالَ أَصَوْتُكَ هَذَا يَا ابْنِي دَاوُدَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ وَمَا بَالُكَ يَا سَيِّدِي تَطْلُبُ عَبْدَكَ أَخْرَجْتَ لَتَطْلُبَ بَرِغُوثًا وَاحِدًا كَمَا يَطْلُبُ الْحَجَلُ فِي الْجِبَالِ؟ فَقَالَ شَاوُلُ قَدْ أَخْطَأْتُ فَارْجِعْ يَا ابْنِي دَاوُدَ فَإِنِّي لَا أَعُودُ أَوْذِيكَ فَنَفْسِي كَانَتْ كَرِيمَةً فِي عَيْنِكَ وَأَنَا قَدْ فَعَلْتُ بِحِمَاقَةٍ. وَنَادَى دَاوُدُ هَذَا رَمَحَ الْمَلِكِ فَلْيَعْبِرْ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ، وَيَأْخُذْهُ وَيَكَاغِي الرَّبَّ كُلَّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ بَرِّهِ وَأَمَانَتِهِ. وَانْصَرَفَ دَاوُدَ لِسَبِيلِهِ غَيْرَ آمِنٍ وَرَجَعَ شَاوُلُ إِلَى مَكَانِهِ (مَلُوك ١ فَصَل ٢٦).

رَأَى دَاوُدُ أَنَّ فَرَارَهُ إِلَى أَرْضِ الْفِلَسْطِينِيِّينَ خَيْرٌ وَسِيلَةٌ تَقِي نَفْسَهُ مِنَ الْقَتْلِ وَقَوْمَهُ مِنَ الضَّرِّ. فَعَادَ ثَانِيَةً إِلَى أَكِيْشَ مَلِكِ جَتَ (ذَكَرِينَ) وَلَمْ يَخْشَ هَذِهِ الْمَرَّةَ غَدْرَ الْفِلَسْطِينِيِّينَ بِهِ إِذْ كَانَ يَصْحَبُهُ سِتُّ مِئَةِ رَجُلٍ مِنْ شُجْعَانِ قَوْمِهِ. وَكَانَ الْفِلَسْطِينِيُّونَ يَلْقَوْنَ بِهِ نَصِيرًا عَلَى شَاوُلَ وَأَعْوَانَهُ، وَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يَدْخُلُوا بِهَذِهِ الذَّرِيعَةِ الْإِنْقِسَامَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَبِلَهُ أَكِيْشُ مُشْتَرِطًا عَلَيْهِ الْأَمَانَةَ لَهُ وَالْمُنَاصَرَةَ عَلَى شَاوُلَ. وَكَفَّ شَاوُلُ عَنْ طَلَبِ دَاوُدَ فَأَقَامَ أَيَّامًا فِي جَتَ، ثُمَّ سَأَلَ أَكِيْشَ أَنْ يُعْطِيَهُ قَرْيَةً فِي الصَّحَرَاءِ، فَيَسْكُنُ فِيهَا مَعَ امْرَأَتَيْهِ وَرِجَالِهِ فَأَعْطَاهُ صَقْلَاجَ. وَهِيَ عَلَى مَا فِي كِتَابِ

أعلام الأماكن مدينة كانت من نصيب سبط شمعون، وهي اليوم أطلال في جنوبي
 بحر سبع وفي شرقي خلاصة تسمى أسلوج. وقد اكتشفها رولاند سنة ١٨٤٢م.
 وأقام داود في بلاد الفلسطينيين سنة وأربعة أشهر. كذا في نسخة الآباء اليسوعيين
 المطبوعة في بيروت بالعربية. وفي كتب كثير من المفسرين ولكن في النص العبراني
 «أياماً وأربعة أشهر». وفي الترجمة السريانية **حلم / ٥ / ودا / مسم**
 وقال كلمت: إن داود أقام أربعة أشهر في جت وستة في صقلاج، وكان يخرج هو
 وأصحابه ويغزون الشجورين والجرزين، وهم (على ما قال كلمت في تاريخ العهد
 القديم) من عشائر الكنعانيين ساكني جنوبي فلسطين ثم العمالة. وقد مرّ تعريف
 أصلهم وكان هؤلاء جميعاً أعداء لبني إسرائيل. ولذلك قال الكتاب إن داود كان
 يضرب البلاد فلا يبقى على رجل ولا على امرأة. ويأخذ الغنم والبقر والحمير
 والجمال. والثياب ويرجع إلى أكيش فيقول له: أين غزوتم اليوم؟ فيقول داود: في
 جنوبي يهوذا وجنوبي اليرحميلين من عشائر بني إسرائيل. وجنوبي القينين وهم من
 ذوي قرابة يثرو حمي موسى. وأعطوا أرضاً في نصيب سبط يهوذا. وكان داود يقول
 لأكيش ذلك ليصدقه بأنه جعل نفسه مكروهاً لدى شعبه بأنه مخلص له. قال بعض
 المفسرين لا يمكن تبرئة ساحة داود من الكذب لمخالفة كلامه الحقيقة وعندهم أن هذا
 من جملة نقائصه التي استغفر الله عنها. وقال غيرهم ليس في كلامه إلا إخفاء
 الحقيقة وتلبيس الجواب على أكيش فلم يصريح له بمن غزا، وقال الحق: لأن من
 كان يغزوهم كانوا في جنوبي يهوذا.

وجاء في سفر أخبار الأيام (فصل ١٢) أنه جاء لمناصرة داود في صقلاج رجال
 أشداء وكثيرون من سبط بنيامين أقرباء شاول ومن سبط يهوذا وسبط جاد سكان
 عبر الأردن. فقبلهم داود وجعلهم رؤساء غزاة وتوفر الحشد عند داود وكان هذا
 ميسراً لإرتقائه منصة الملك بعد مقتل شاول كما سيجيء.

عد ٢٥٨

محاكمة الفلسطينيين لشاول وقتله

قد أمّل أكيش الظفر ببني إسرائيل لإنقسامهم ولحسابه أن داود ورجاله
 يناصرونه على شاول وأنصاره، فأغري سائر أقطاب الفلسطينيين باستئناف الحرب.

واستدعى داود وقال له لا بد أن تخرج معي في الجيش أنت وأصحابك، فقال داود ستعلم ما يصنع عبدك. فحمل أكيش كلامه على ما يتبادر الفهم إليه فقال: إذن أقيمك حافظاً لرأسي كل الأيام فبات داود مرتبكاً في أمره لا يريد ولا يستبيح أن يشائع الفلسطينيين على إخوانه شعب الله، ولا أن يغالظ أكيش ففرّج الله كربه إذ سأل أقطاب الفلسطينيين أكيش بعد مضيهم إلى مكان الحرب أن يسرح داود ورجاله خشية أن ينقلبوا عليهم إذا استعرت نار الوغى. فانصرف داود ورجاله شاكرين الله، وتقدمت جيوش الفلسطينيين نحو الشمال إلى مرج ابن عامر، ونزلوا بشونم وهي سونم الآن في شمالي زرعين في ناحية جين من متصرفية نابلس (كتاب أعلام الأماكن). وجمع شاول رجاله ونزلوا بجلبوع وهو المسمى الآن جبل جلبوع أو جلبون على ما في كتاب أعلام الأماكن نسبة إلى قرية هناك تسمى جلبون، أو جبل فقوعة على ما روى كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٣٢٥). نسبة إلى قرية تسمى فقوع وهذا الجبل في شمالي سولم محلة الفلسطينيين.

ورأى شاول كثرة جيوش الفلسطينيين فعخاف وارتعد قلبه جداً، وسأل الرب فلم يجبه لا بالحلم ولا بالكهنة ولا بالانبياء. وقال له بعض رجاله إن في عين دور (تسمى إلى اليوم بهذا الاسم هي على ستة أميال من الناصرة شرقاً) امرأة ذات تابعة (جنية). فتنكر شاول وانطلق ليلاً مع رجلين إلى العرافة فأبت أولاً أن تكهن له خوفاً من الملك الذي كان نفى العرافين وأصحاب التوابع. ولما أثبتتها قالت: من تريد أن أصعد لك؟ قال صموئيل. ولما رآته المرأة صرخت وقالت إنها ترى رجلاً شيخاً صاعداً متردياً برداءٍ فعرف شاول أنه صموئيل فخرّ على الأرض وسجد. فقال صموئيل لشاول لماذا أفلقتني وأصعدتني؟ فقال شاول قد ضاق في الأمر جداً والله فارقني. ولم يعد يجيبني فدعوتك لتعلمني ماذا أصنع. فقال صموئيل لماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك؟ وشقّ الملكة من يدك ودفعها إلى صاحبك داود. وغداً تكونون معي أنت وبنوك أيضاً في القبور أو الحياة الأخرى، فسقط شاول في الحال بطوله على الأرض، وارتاع جداً ولم تعد له قوة ليدوق طعاماً كل يومه. ثم انصرف إلى معسكره (ملوك ١ ف ٢٨).

إن في آيات الكتاب المار ذكرها إشكالاً أدّى إلى اختلاف في أقوال الآباء العلماء. فمن قائل: إن الشيطان تشبّه بملك النور وظهر لشاول بهيئة صموئيل، وأعلمه بسماح الله بما يكون له ولبنيه حقيقة على مثال ما نرى في الإنجيل، أن

الشياطين كانوا يشهدون للمسيح أنه ابن الله. ومن قالوا بهذا القديس يوستينوس الشهيد وأوريجانوس وانسطاس الانطاكي والقديس أغوستينوس في أحد أقواله. ومن قائل إنه لم يكن للشيطان ولا للعرافة ذريعة بظهور صموئيل بل أراد الله وهو على كل شيء قدير أن يتراءى صموئيل لشاول. فيبرز القضاء عليه بالموت جزاء لجرائمه على مثال ما ظهر موسى وإيليا للمخلص عند تجليهما. وبهذا قال كثير من الآباء والعلماء واستمسكوا لإثباته بقول الكتاب: «فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم». فهذا مؤشر بأنها رأت غير ما كانت تنتظر وغير ما اعتادت عليه في تكهنها. واستشهدوا لرأيهم بقول ابن سيراخ (فصل ٤٦ عد ٢٢ وما يليه) في صموئيل. «ومن بعد رقاذه تنبأ وأخبر الملك بوفاته، ورفع من الأرض صوته بالنبوة لحو إثم الشعب». ورجح هذا القول من الحدباء كلمت في معجم الكتاب وفيكورو في الموجز الكتابي (عد ٤٨٥). وساسي في تفسير الآيات المار ذكرها وهو الأظهر والأمثل.

وتقدم الفلسطينيون إلى يزرعيل وهي زرعين الآن في جنوبي سولم التي كانت محلتهم فيها وفي شمالي جلبوع حيث كان جيش شاول. وتسعرت نار الحرب فانهزم رجال إسرائيل من وجه الفلسطينيين الذين شدوا على أثر شاول وبنيه فقتلوا يوناثان، وأبيناداب وملكيشوع بني شاول. وأدرك الرماة بالقسي أباهم وأخنوه بالجراح. فقال لحامل سلاحه أستل سيفك وأوجأني به لئلا يقتلني هؤلاء القلف ويتشفوا بشيعةهم بي. فأبى حامل سلاحه أن يمد إليه يداً فأخذ شاول سيفه وسقط عليه فمات. ولما رأى حامل سلاحه أنه مات سقط هو أيضاً على سيفه، ومات معه. ولما رأى رجال إسرائيل الذين في نواحي الأردن أن قد مات شاول وهرب جيشه، فخلوا مساكنهم وفرّوا. فأتى الفلسطينيون وأقاموا فيها وفي الغد وجد الفلسطينيون شاول وبنيه صرعى بين القتلى، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وعلّقوه في بيت عشتاروت ربّتهم. «وعلّقوا جسده على سور بيت شان وهي نيسان الآن في الشرق الجنوبي من جبل جلبوع، وسمع أهل يايش جلعاد (وادي الياي في السلط) بما صنع الفلسطينيون بشاول. فنهض كل ذي بأس منهم وساروا الليل كله، فأخذوا جثث شاول وبنيه عن سور نيسان، وأتوا بها مدينتهم وأحرقوها، وأخذوا العظام ودفنوها في بلدهم» وصاموا سبعة أيام متذكرين إحسان شاول إليهم بإنقاذهم من ناحاش ملك العمونيين كما مرّ (ملوك ١ ف ٣١).

محاربة داود العمالقة ومناحته على شاول وبنيه

قد عاد داود من معسكر الفلسطينيين إلى صقلاج مدينته فوجد العمالقة غزوها إبان غيبته، وأحرقوا بيوتها وسبوا منها النساء والأطفال حتى امرأتَي داود. فرفع هو ورجاله والشعب أصواتهم بالبكاء حتى لم يبقَ لهم قوة أن ييكوا. فاعتصم داود بالله وسار برجاله في أثر العمالقة، فصادف في طريقه رجلاً مصرياً كان عبداً لرجل عماليقي تركه مولاه في الطريق لمرضه فهداهم إلى محلة العمالقة. وكانوا فيها يأكلون ويشربون، ويرقصون فرحين بما نالوه من الغنيمة. وكان تخلف من رجال داود مثنان في الطريق، فحاربهم برجاله الأربع مئة النهار كله ولم ينبج منهم إلا أربع مئة من الفتيان، ركبوا على الجمال وهربوا تاركين غنائمهم. واستخلص داود إمرأتيه وكل ما أخذ العمالقة. ولم يُفقد لهم شيء لا صغير ولا كبير ولا بنون ولا بنات. بل أخذوا كل ما كان للعمالقة هناك من غنم وبقر، وأحب رفقاء داود أن لا يقاسموا الغنيمة أصحابهم الذين أعيوا عن لحاقهم. فقال داود إن نصيب النازل إلى الحرب يكون كنصيب القائم على الأمتعة على السواء يقتسمون. فكان ذلك سنةً وحكماً في بني إسرائيل، وبعث داود بعد عودته إلى صقلاج من الغنيمة إلى كثير من شيوخ المحال التي أقام فيها كان ليعوضهم من الخسائر التي ألحقها بهم أو ليحببهم إليه.

وفي اليوم الثالث بعد رجوع داود إلى صقلاج من قتل العمالقة أقبل رجلٌ وثيابه ممزقة وعلى رأسه تراب يخبر داود أن قد سقط من الشعب كثيرون ومات شاول وابنه يوناثان. وأن شاول قال له أن ينهض عليه ويقتله فقتله لأنه عَلِمَ أنه لا يحيا بعد، وأخذ التاج عن رأسه وانتزع السوار من ساعده وأتى بهما داود. قال كل ذلك آملاً أن يمين على داود بما صنع فيجيزه على صنيعه. وكأنه كان أول من وجد شاول قتيلاً فأخذ تاجه وسواره فمزق داود ثيابه، وتابعه بذلك رجاله. وناحوا وبكوا على شاول وصاموا إلى المساء. ثم سأل داود الغلام مخبره من أين أنت؟ فقال: أنا ابن رجلٍ غريب عماليقي. فقال له داود كيف لم تهَبْ أن تمُدَّ يدك إلى مسيح الرب؟ فدمك على هامتك لأن فمك شهد عليك بأنك قتلت مسيح الرب. ودعا واحداً من الغلمان وقال أوقع به فضربه ومات. ورثي داود شاول ويوناثان المراثية

الشهيرة المثبتة في الفصل الأول من سفر الملوك الثاني المفتحة: «الطبي يا إسرائيل مجدل على روايك كيف تصرعت الجبارة؟ لا تخبروا في جت ولا تبشروا في أسواق شقلون (عسقلان). لئلا تفرح بنات الفلسطينيين وتطرب بنات القلف، يا جبال الجلبوع لا يكن فيكن ندى ولا مطر». إلى أن يقول: «يا بنات إسرائيل إبكين على شاول الذي كان يكسوكن القرمز ترفاً ويرضع لباسكن بحلى الذهب... قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يونانان لقد كنت شهياً لدي جداً وكان حبك عندي أولى من حب النساء وقد أحبتك حب أم لابنها الوحيد».

الفصل الثالث عشر

أخبار داود في مدة ملكه

عد ٢٦٠

إقامة بني يهوذا داود ملكاً وسائر بني إسرائيل أشبوشت بن شاول وصعد داود بعد مناحته على شاول إلى حبرون (الخليل) بوحى الله، فأتى رجال يهوذا ومسحوه ملكاً عليهم. وكانت باكورة أعماله أن بعث رسلاً إلى أهل ياييش جلعاد (وادي اليبس في السلط) يشكر لهم بما صنعوا من الإحسان في دفن شاول. ويشددهم وينبئهم أن بني يهوذا مسحوه ملكاً عليهم. فلم يكن من أبنير بن نير عم شاول ورئيس جيشه إلا أن أخذ أشبوشت بن شاول، وعبر به الأردن وملكه على سائر بني إسرائيل. وجعل قصبة ملكه محنائيم المسماة اليوم محنه. وفي كتاب أعلام الأماكن أنها على أربعة عشر ميلاً في الجنوب الشرقي من بيسان، وعلى مقربة من ياييس جلعاد. وفسر يوسيفوس (ك٧ من تاريخ اليهود فصل ١) اسمها بمعنى المحنّين أو المحنّين، فدان لأشبوشت سكان عبر الأردن وكثير من أسباط إسرائيل إلا سبط يهوذا وكان عمره يوم ملك أربعين سنة. واستتب له الملك على مريديه سنتين وفي السنة الثالثة عبر أبنير بن نير ورجال أشبوشت الأردن، وأتوا

جبعون المعروفة الآن بالجب في شمالي أورشليم (أعلام الأماكن). وقد مر ذكرها
 عند الكلام في إحتيال اهلها على بني إسرائيل في عهد يشوع بن نون. وعرف
 داود بخروج جيش أشبوش. فأرسل للقتالهم يواب بن صروية أخت داود.
 (يوسيفوس في المحل الأنف ذكره) ورجال داود، فالتقى الجيشان على بركة جبعون
 ولما كان كل من القائدين صديقاً للآخر ولم تكن شحنة بين الفريقين قال أبير
 ليواب ليبرز بعض الغلمان من كل فريق على سبيل اللعب كما قال الكتاب أو على
 سبيل إمتحان قوة الرجال في الفريقين كما قال يوسيفوس فبرز إثنان عشر رجلاً من
 سبط بنيامين من جهة أشبوش، وإثنان عشر رجلاً من رجال داود وأخذ كل واحد
 برأس صاحبه ووجهه بسيفه في جنبه فسقطوا جميعاً، وسُمي المكان حقل الصناديد.
 وأفضى ذلك إلى قتال شديد كانت عاقبته إنهزام أبير ورجال أشبوش، ومطاردة
 يواب وأخويه بيشاي وعسائيل لأبير إلى أن قتل أبير عسائيل، وكان عدد القتلى
 من رجال داود تسعة عشر رجلاً وعسائيل ومن رجال أشبوش ثلاث مئة وستين
 رجلاً. وعاد أبير برجاله إلى محنائيم عند أشبوش ويواب برجاله إلى حبرون عند
 داود. قال الكتاب (ملوك ٢ فصل ٣) وطالت الحرب بين بيت شاول وبيت داود
 ولم يزل داود يتقوى وبيت شاول يضعف. وكان أبير قائد جيش أشبوش يتردد
 إلى سرية كانت لشاول أو كان تزوجها. ولم يكن له أن يتخذ أرملة الملك فعُتِبَ
 أشبوش لدخوله على سرية أبيه. فاستشاط صدر أبير غيظاً وأرسل رسلاً إلى داود
 ليقطع معه عهداً فيرد إليه جميع إسرائيل. فقطع داود معه عهداً، وطلب منه أن يأتيه
 بميكال امرأته ابنة شاول (التي كان أعطاها لغير داود) عندما يأتي إليه. ووفد أبير إلى
 داود في حبرون ومعه ميكال فصنع له ولرجالها مأدبة. ورُحِبَ به وأكرم مثواه. ثم
 إنطلق أبير ليجمع شيوخ بني إسرائيل لبيتوا عهداً مع داود ويملكوه فيهم. وعاد بعدئذ
 يواب ورجالها، من الغزو ومعهم غنيمة عظيمة فأخبر عمّا كان لأبير وخشي أن
 يشاطره وجاهته لدى الملك. وتذكر قتله عسائيل أخاه فسعى به أنه إنما جاء لينخدع
 الملك ويقف على ما يصنعه. ووجه رسلاً فردوا أبير من طريقه على غير علم من
 داود. ولما رجع مال به يواب ليفاوضه على دعة، وضربه في بطنه فمات بدم عسائيل
 أخيه. فسألت فعلته داود جداً وقال أنا بريء ومملكتي أمام الرب من دم أبير.
 وتسخط على يواب ودعا عليه وعلى بيته، وبالغ في مظاهر النوح والأسف على أبير
 حتى حُسِّنَ ذلك في عيون الشعب كله وأيقنوا أنه لم يكن للملك يد في قتل أبير.

وسمع أشبوشث بأن قد مات أبير بحبرون فاسترخت يده وارتاع جميع إسرائيل. وكان لأشبوشث رئيساً غزاة اسم أحدهما ريكاب، واسم الآخر بعنه إينا رمون البثيروتني نسبةً إلى بثيروت المسماة الآن البيري على تسعة أميال في الطريق من أورشليم إلى نابلس. فهذان دخلا بيت أشبوشث بينما كان نائماً عند قائلة الظهيرة وكانت الحاجة أغفت وهي تنقي الحنطة. فقتلاه وقطعا رأسه وأتيا به إلى داود وقالوا: هوذا رأس أشبوشث بن شاول عدوك فقال لهما حيي الرب الذي خلصني من كل ضيق إن الذي ظن أنه يبشّرني بقتل شاول قتله في صقلاج. وكان يستوجب جائزة فما يكون لرجلين بغيّين قتل رجلًا بريئاً في بيته على سريره ألا أطلب دمه من أيديكما، وأبيدكما وأمر داود الغلمان فقتلوهما، وقطعوا أيديهما وأرجلهما وعلّقوهما على بركة حبرون. وأخذوا رأس أشبوشث ودفنوه في قبر أبير في حبرون (ملوك ٢ فصل ٤).

عد ٢٦١

إستقلال داود في ملك إسرائيل وفتح قلعة صهيون ومخالفته الحيرام

قد جاء في الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥): وأقبل جميع أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون وأقرّوا له في الملك فاستقلّ به. «وقد فصل في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٢) عدد الرجال الذين أقبلوا إلى داود ليبايعوه الملك فكان مجموعهم ٣٥٩٦٠٠ رجلاً. إذا كان عدد رجال يساكر عشرين ألفاً كما رواه يوسفوس (٧ من تاريخ اليهود فصل ٢)» إذ لم يتعيّن في سفر أخبار الأيام عدد الرجال من هذا السبط بل قيل فقط «رؤساء يساكر مئتان وجميع إخوتهم تحت أمرهم». واستمرّ هؤلاء جميعاً عند داود ثلاثة أيام يأكلون ويشربون لأنّ رجال جميع الأسباط حتى يساكر وزبلون ونفتالي سكان شمالي فلسطين كانوا يقلّون على الحمير والجمال المؤن والذخائر، من خبز ودقيق وأقراص تين وعناقيد زبيب وخمر وزيت، ويسوقون بقرأ وغنماً وكان الإحتفاء شائقاً بهجاً. وكان لداود من العمر يوم ملك على يهوذا ثلاثون سنة واستمرّ على ذلك سبع سنين وستة أشهر فملك على بني إسرائيل في السنة الثامنة والثلاثين من عمره. وملك كذلك ثلاثاً وثلاثين سنة فجملة ملكه أربعون سنة وستة أشهر.

وانتهز داود فرصة ليفتح حصن صهيون في ييوس (أورشليم) ويأخذه من يد

اليبوسيين إحدى عشائر كنعان. فسار إلى هنالك برجاله فتمرد اليبوسيون وقالوا لداود إنك لا تدخل إلى هنا حتى لا يبقى مثاً أعمى ولا مقعداً. فكأنهم يقولون مستخفين به أنّ العميان والمقعدين يكفون لرؤك عن متمناك ولا حاجة إلى عناء رجال حربنا بقتالك، فكانوا يحسبون قلعته في صهيون حصينة منيعة. وروى يوسيفوس في المحل السالف ذكره أنه لم يظهر من اليبوسيين عن أول حصار داود قلعته إلا العميان والمقعدين. ووعده داود أن يعجز كل من قتل يوسياً وكل من بلغ إلى قناة الماء أو إلى أولئك العرج والعميان. فكان يواب أول من إفتتح مع أبطاله قلعة صهيون. فملكها داود وسماها مدينة داود وأقام في هذا الحصن وبنى ما حوله من ملو فداخلاً. قال كلمت (في معجم الكتاب): ملو وإذ كان يفصل بين ييوس القديمة وحصن صهيون، ويتصل بعين شيلوحيه فردم داود هذا الوادي وسواه، وأقام ثمة قصرأ له ومساكن لأعوانه ومجتمعاً للشعب. وزاد ابنه سليمان شيئاً هنالك كما يظهر من سفر الملوك الثالث (ف ٩ ع ١٥). وعرف داود أنّ الرب أقوه ملكاً على إسرائيل وعظم ملكه من أجل شعبه.

وكان شاول يعيش مقتصدأ وأما داود فكان مترفاً، وأكثر من إتخاذ النساء فإنه تزوج بأحينوعم أليزرعيلية، وأبيجال امرأة نابال الكرملية كما مرّ. وولد منهما أمون وكلاب. ثم اتخذ معكة بنت تلماي ملك جشور^(١) فولد منها أبيشالوم. وجحيت فولد منها أدونيا. ثم أبطال فولدت له شفطيا. ثم عجلة فولدت له يترعام. وبعد مجيئه من حبرون إلى أورشليم تزوج بزوجات وسراري فولدت له بنين وبنات. وذكر الكتاب له من هؤلاء أحد عشر ابناً منهم ناثن وسليمان. وسمع حيرام ملك صور أخبار عظمة داود ومجده وأنه بنى قصرأ لسكناه، ففاق إلى مخالفته كلفاً براحته ونجاح تجارة أئنته، فوجّه رسلاً إلى داود يستعطفه إلى صداقته، وأرسل إليه أخشاباً من أرز لبنان ونجارين ونحاتين لتجميل قصره. وقد استمرت الصداقة بين داود وسليمان وملوك صور وكانت وبالأعلى بني إسرائيل كما سترى طالع عد ١١٦ و ١١٧.

(١) الاظهر ان مملكة هذا الملك كانت في جنوبي جبل الشيخ وشمالى السلط حيث الجولان والجيدور الآن.

حرب وادي الجبارة بين داود والفلسطينيين

لما كان الخلاف بين شاول وداود كان الفلسطينيون يُظهرون الرضى عن داود ويطنون الحذر منه. ولكن لما أجمع بنو إسرائيل على تمليكه واستفحل أمره قلبوا مجن السياسة وخشوا سطوة داود وشدة بأسه وآثروا الهجوم على الدفاع خشية أن يزداد داود صولة وتمكناً، لذا تألبوا وانتشروا في وادي الجبارة قال كاران (مجلد ١ في اليهودية صفحة ٢٤٨) أنّ في تعيين موقع هذا الوادي قولين. فقال أوسايوس إنه في شمالي أورشليم. وذكر القديس إيرونيموس قوله ولم يغيّر منه شيئاً وتابعهما عليه بعضهم. ولكن رأى جمهور العلماء أنّ هذا الوادي في جنوبي أورشليم بينها وبين بيت لحم، وهو المتحصل من كلام الكتاب ومن قول يوسفوس. ويسمى هذا المحل الآن البقعة. انتهى كلام كاران.

وفي كتاب الأعلام الكتابية أنّ وادي الجبارة يسمى البقعة وهو في جنوبي أورشليم على طريق بيت لحم. ولما عرف داود إقتراب أعدائه سأل الرب فأوحى إليه أن يصعد إليهم فزحف برجاله فضربهم في الموضع المسمى بعل خراصيم. ويلزم أن يكون في وادي الجبارة وأن يتعين موقعه إلى اليوم. فانذعر الفلسطينيون وولّوا هارين تاركين ذخائرهم وأصنامهم أيضاً. فغنمها داود ورجاله وأحرق الأصنام. فيظن أنها كانت من خشب ممّوه أو مصفّح بالذهب أو الفضة. وجاء في فصل ٢٣ من سفر الملوك الثاني وفي فصل ١١ من سفر أخبار الأيام الأول في معرض ذكر أبطال داود تنمّة لأخبار هذه الحرب إنّ داود كان في حصن وكان محرس الفلسطينيين في بيت لحم فتأوّه وقال من يسقيني شربة ماء من بئر بيت لحم؟ فاخترق ثلاثة من أبطاله محلة الفلسطينيين واستقوا من هذه البئر ماء، وأتوه به فلم يشرب بل قال حاش لي يا رب أن افعل هذا أشرب دم قوم خاطروا بأنفسهم؟

على أنّ إنكسار الفلسطينيين يومئذ لم يكن فاصلاً بل إنتشروا ثانية في وادي الجبارة. وروى يوسفوس أنهم إستنجدوا بغيرهم من ملوك سورية فجدوهم. وسأل داود الرب فقال له لا تصعد بل أعطف من خلفهم. وآتيهم من حيال أشجار البكاء في العبرانية بوكيم، وفي اليونانية كلو تومن، وفي اللاتينية محلة الباكين. ويُحتَمَل أن يكون المراد بالكلمة محلة أشجار التوت. وزعم بعضهم أنّ هذا الموضع في شيلو

(سيلون الآن). لكن الأظهر أنه على مقربة من أورشليم ووادي الجبارة حيث كان الفلسطينيون. وجعل له الرب علامة أنه إذا سمع صوت خطوات حاصلاً من حركة أغصان الشجر، فليضرب محلة الفلسطينيين ففعل داود كما أمره الرب، وشئت شمل أعدائه. ويظهر من قول أشعيا (ف ٢٨ عد ٢١) ومن المزمور ال ١٧ أن الرب أرب الفلسطينيين حينئذ بعاصف شديد أثاره عليهم. ففتتبع داود آثارهم من جبع إلى مدخل جازر. فإن قُدِّرَ أن وادي الجبارة في شمالي فلسطين تبعاً لقول أوسايبوس لزم أن تكون جبع هذه جبعة شاول التي كانت في المحل المسمى الآن تل الفول أو أن تكون جبعون المسماة اليوم الجب لأنهما في شمالي أورشليم. وإن قُدِّرَ أن وادي الجبارة في جنوبي أورشليم تبعاً لقول جمهورهم لزم أن تكون جبع هذه في الموضع المسمى إلى اليوم جبع في غربي بيت لحم وبيت جالا. وأما جازر وفي اللاتينية كادر وكادار فيظن أنها المسماة اليوم قطره على مقربة من خلده والمنصورة في غربي أورشليم. قال بذلك كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٥) وهي على ساعة من عاقر عقرون القديمة مدينة الفلسطينيين. وقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٧ فصل ٤) إن بني إسرائيل طاردوا الفلسطينيين إلى جازر التي هي تخم المملكتين مملكة إسرائيل ومملكة الفلسطينيين، وروى كلمت في تاريخ العهد القديم أن جازر قرية من عقرون.

عد ٢٦٣

نقل داود تابوت عهد الرب إلى أورشليم وإهتمامه ببناء بيت الله قد استدعى داود منتخبين من جميع بني إسرائيل ونهض بهم إلى قرية يعريم المسماة الآن قرية العنب أو قرية أبي غوش. وأخذوا تابوت عهد الرب من بيت أئيناداب حيث وُضِعَ بعد إرجاع الفلسطينيين له كما مرَّ وجعلوه على عجلة جديدة. كان عزة وأحيو ابنا أئيناداب يقودانها، وكان داود ومنتخبو بني إسرائيل جميعاً يلعبون أمام التابوت بالكثارات والعيدان والدفوف والصنوج وغيرها من آلات الطرب. ولما أفضوا إلى بيدر نكون الذي لا يعلم موضعه إلا أنه في الطريق بين قرية أبي غوش وأورشليم. رمحت الثيران فمدَّ عزة يده إلى التابوت فأمسكه لئلا يسقط فأماته الله لجسارته إما لأنه مسَّ تابوت الرب وليس هو كاهناً أما لأنه إفتكر أن الرب غير قادر على وقاية تابوته من السقوط.

وأراد الله في كلتا الحالتين أن يُعلِّمهم الإجلال والتهيب لتابوته. وشقَّ على داود كثيراً ضرب الرب لعزة ولذلك خاف أن يُنزل تابوت الرب في قصره. وعدل به إلى بيت رجل يسمى عوبيداروم الحثي. وبقي التابوت هناك ثلاثة أشهر فبارك الرب عوبيد وكل بيته، وعرف داود بذلك فزال خوفه واستدعى اللاويين كلهم ليحملوا التابوت، وأمرهم أن يتقدَّسوا هم وجميع الشعب. وعين مرثمين ومغنين يضربون بآلات الطرب وكان كلُّما خطا اللاويون حاملو التابوت ست خطوات ذبحوا ثوراً وكبشاً مسمناً. وكان داود يرقص بكل قوته وجميع آل إسرائيل يكثرُونَ الهتاف والتبويق وضرب آلات الطرب إلى أن وضعوا التابوت في وسط المظلة التي أعدها له داود في قصره. وأصعد داود محرقات وذبائح سلامة، وبارك الشعب باسم رب الجنود. ووزَّع على كل جمهور إسرائيل رجالاً ونساءً لكل واحد جردقة خبز وقطعة لحم وقرصاً من الزلابي أو الحلواء. ورأت ميكال ابنة شاول داود زوجها يرقص أمام التابوت فازدرته في قلبها. ولما أتت لملاقاته قالت ما كان أمجد ملك إسرائيل اليوم حيث تعرَّى من ثوبه الملكي كما تعرَّى أحد السفهاء. فقال لها: صنعت ذلك وأصنعه في كل فرصة أمام تابوت الرب الذي اصطفاني على أهلك وعلى جميع بيته. قال الكتاب ولم تلد ميكال ولداً إلى يوم ماتت فكانه يعزو ذلك إلى إزدرائها بداود لرقصه أمام التابوت. وأقام داود مرثمين يسبحون الله أمام التابوت في أوقات معيَّنة. ونظم بعض مزاميره لذلك (ملوك ٢ فصل ٦ وسفر أخبار الأيام الأول فصل ١٣ وفصل ١٥ وفصل ١٦).

وكان داود تبعاً لمشورات صموئيل يعزز جانب الدين وسنة الله. وكان يحبُّ الأنبياء والأخبار ويبالغ في إكرامهم وإجلالهم. وكان يونانان وجاد النبيَّان أخلص الأصدقاء له. فقال لنathan أنظر إني مقيم في بيت فسيح متقن مزدان بأخشاب الأرز وتابوت عهد الرب مقام في داخل الشقق. وكان كلام الرب في تلك الليلة إلى يونانان ليقول لداود: أأنت تبني لي بيتاً لسكنائي؟ ولم أسكن بيتاً مذ أخرجت بني إسرائيل من مصر، وأن يذكره بنعم الله وإختياره له من مريض الغنم. ويَعده بأنه يقيم من صلبه من بيني له بيتاً ويقرُّ عرش ملكه. ويكون الله له أباً وهو يكون له إبناً. فقصَّ Nathan الرؤيا على داود فدخل أمام تابوت الرب يتذلل مبدياً عواطف الشكر على ما أسبغه الله عليه من الآلاء وما وعد به من قرار الملك في ذريته خاشعاً لله بتوسلات حميمة. تراها في الفصل السابع من

سفر الملوك الثاني والفصل السابع عشر من سفر أخبار الأيام الأول.

ويظهر أنَّ الله لم يحب أن داود يبني له الهيكل لما صرَّح به داود نفسه في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢٢ عد ٢) حيث جاء «وقال داود: يا بُنَيَّ أنه قد كان في نفسي أن أبني بيتاً لاسم الرب إلهي غير أنه قد صار إليَّ كلام الرب قائلاً: أنك قد سفكت دماء كثيرة وباشرت حروباً عظيمة فلا تبني أنت لي بيتاً... فهوذا يولد لك ابن... هو يبني بيتاً لاسمي» وكذلك قال داود للشعب: كما ورد في سفر أخبار الأيام الأول أيضاً (فصل ٢٨ عد ٣). فهذا وما اقترفه داود من الإثم كما سترى منعه الحظ بأن يبني بيت الله وإن رخص آثامه بدموع توبته على أنَّ داود كان يذخر كل ما يغنمه من ذهب وفضة ونحاس لينفقه ابنه في بناء الهيكل.

عد ٢٦٤

إخضاع داود الفلسطينيين والموايين وملك صوبة وأرامي دمشق

إنَّ كلام يوناثان لداود من قِبَل الرب زاده شجاعة واتكالا على الله فعزم أن يخضع جميع أعداء شعبه، وأن يتولَّى الأرض التي وعدهم بها من تخوم مصر إلى شاطئ الفرات. فاستأنف الحرب مع الفلسطينيين وأذلَّهم، وافتتح جت (ذكرين) عاصمتهم وما جاورها من مدنهم وقراهم. ولما ذُلَّ له مجاوروه وأمن سطوتهم عبر الأردن بعسكر جرار فحارب الموايين، وبدَّد شملهم وأسر منهم جمّاً غفيراً وكان يضجعهم على الأرض، ويقيسهم بحبل فيقتل من كانوا على طول جبلين. ويستبقي من كانوا على طول جبل، وكانت الحرب في تلك الأيام تبيع الظافر قتل الأسرى الذين حملوا السلاح عليه أو إستبقائهم. قال الكتاب «وصار الموآبيون عبيداً لداود يؤدون الجزية».

ثم ضرب داود هدد عازر بن رحوب ملك صوبة وقد كان ذاهباً ليسترد سلطته على نهر الفرات، وأخذ منه داود ألف وسبع مئة فارس وعشرين ألف راجل وعرقب خيل المراكب، وأبقى منها مئة مركبة والظاهر أنَّ مملكة صوبة كانت في شمالي سورية المجوفة، تمتدُّ من شمالي لبنان الشرقي نحو حمص وحماه وحلب. وفي شرقي لبنان المذكور حيث يبرود والنبك وصدد والقريتين إلى تدمر والفرات. وعلى ذلك أدلّة منها ما سيأتي من أن توعي ملك حماه كانت له حروب مع هدد

عازر ملك صوبة. وبعث ابنه يهنئ داود بانتصاره عليه فقد كان مجاوراً له ومنها أيضاً مجاورتها لمملكة دمشق. فسيأتي أن آرامي هذه المدينة أتوا لنجدة هدد على داود. ومنها قوله إن هذا الملك كان ذاهباً ليسترد سلطته على نهر الفرات. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٨ عد ٣): «وضرب داود هدد عازر ملك صوبة في حماه (أي في جوار حماه). وقد كان ذاهباً ليمد سلطته على نهر الفرات». فسواء ذهب ليمد أو ليسترد سلطته على نهر الفرات فمجاورة مملكته لدمشق من جهة حماه من أخرى وغزوته نواحي الفرات يدل صريح الدلالة أن مملكته كانت حيث ذكرنا.

وجاء آراميو دمشق وهم من ذرية آرام بن سام لنجدة هدد عازر ملك صوبة. وتسقرت نار الحرب بينهم وبين عسكر داود فاستظهر داود عليهم. وشتت شملهم وقتل منهم إثنين وعشرين ألف رجل، وأقام في آرام دمشق محافظين. فكان الآراميون يؤدون الجزية ولم يذكر الكتاب اسم ملك دمشق يومئذ. ولكن روى يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٧ فصل ٦) أنه كان يسمى هدد وهو اسم معبود السوريين. وحقق مكروب (ك ١ راس ٢٣) أنه كان يُراد به الشمس وإن تأويل هدد الواحد أو الوحيد، وعليه فأصله حد بالحاء أو حد مكررة فإن مع السريانية الآرامية معناها الواحد أو الأحد.

وروى يوسفوس في المحل المذكور أن نقولا الدمشقي العالم الشهير (وُلد في دمشق لسنة ٧٤ ق.م). ذكر هذه الحرب في الكتاب الرابع من تاريخه فقال: «وبعد سنين طوال كان مالكا في دمشق وسورية كلها عدا قونيقي ملك أقوى أمراء هذه البلاد يسمى هدد. وكانت له حروب مع داود ملك اليهود فاستظهر داود عليه في موقعه هائلة في قرب الفرات، بعد أن أبدى هدد البسالة والأعمال الخطيرة آيات تشهد له بأنه كان قائداً كبيراً وملكاً عظيماً». إلى أن يقول العالم المذكور: ومن بعد وفاة هذا الملك خلفه ملوك من نسله سمي جميعهم هدد باسمه. كما سمي بتولميس كل من خلف بتولميس في مصر، وكان عددهم من ذريته إثني عشر ملكاً، وقد عقبوه لا بالملك وحده بل بالمجد والفخار أيضاً. وثالثهم الذي فاق شرفاً على جميعهم، أحب أن يأخذ بثأر جدّه عما أنزله بهم اليهود (في أيام داود) من الخسران. فضر بهم في زمان آحاب الملك ودمّر كل البلاد المجاورة السامرة.

وسمع توحي ملك حماه أنّ داود بدّد جيوش هدد عازر وآراميتي دمشق، فأرسل ابنه آرام إلى داود ليحييه، ويهنئه بانتصاره على هدد الذي كان عدواً لتوحي وكانت بينهما حروب. وأرسل إلى داود مع ابنه آنية من فضة وذهب ونحاس. قال يوسفوس (في المحل المذكور) أنّ توحي لم يوفد ابنه على داود تحبباً إليه بل ليعقد معه عهدة خشية أن يصيبه ما أصاب هدد خصمه. فأكرم داود مشوى ابن توحي وتقبّل هداياه، ووقع على عهدة بينهما. فأصبح داود يلي سورية كلها من الفرات إلى حدود مصر، وجمع داود كلّ ما غنمه من أعدائه وما أهداه إليه توحي من فضة وذهب ونحاس، وأتى به إلى أورشليم وازدخره إلى ابنه لينفقه في بناء الهيكل.

إنّ ما اكتشِف من الآثار الآشورية والمصرية لم يأتنا بينات قاطعة على ملك داود واستفحال أمره في سورية كلها. لكنه لا يخلو من أدلة على ذلك فإنه يتبيّن من آثار الآشوريين أنّ دولتهم القديرة الزاهرة إعتراها وقتئذ كسوف أو إنحطاط بعد وفاة سمسي بين الذي كان يلي أمرها سنة ١٠٨٠ ق.م. فأمنت واهنة خاملة الذكر حتى لا تعرف أسماء ملوكها مدة مئة وخمسين سنة، ولا تجد في خطوطهم القديمة أثراً إلّا لانتصار ملك آرام أو سورية على جنود آشور في عهد ملكهم آشور بامار حتى أخذ منه ناحية الفرات نفسها.

واليك ما نُحطّ على الصفيحة المعروفة بصفيحة سلمناصر: «عبرت أنا (سلمناصر) نهر ساغورا (الساجور) عند مصبه في الفرات. وكانت مدينة مولكينا الواقعة على عدوة الفرات ضمّها إلى بلادي تجلت فلاصر الأب القدير الذي ملك هذه البلاد قبلي. ولكن آشور تخلّى عنها إلى ملك آرام. (كذا يعبر سلمناصر عن إنخذال سالفه بخروج هذه المدينة من ملكه). فاستعدت أنا هذه المدينة وأرجعتها إلى حالها القديمة وأسكنت فيها أبناء آشور». فانحطاط دولة آشور يشر امتداد دولة داود إلى شاطئ الفرات دون مُعارض. وأنبأتنا الآثار المصرية أن قد توفرت في تلك الحقبة التقسمات والحروب الأهلية في مصر. فجعلت داود في مأمن من سطو المصريين على جنوبي مملكته. وتقسّم سورية وما جاورها من بلاد العرب إلى ممالك عديدة ضعيفة يشر له الانتصار على جميعها فدانت لسلطته. وكانت تؤدي الجزية صاغرة ومحافظو داود في كل منها. فعظمت مملكة داود وضاهت مملكتي مصر وآشور في أيام مجدهما، لكنها كانت قصيرة العمر لم تحيا كذلك إلّا في أيامه

وأيام سليمان ابنه، ولم تخلف في سورية إلى اليوم. وكان رجال دولة داود يواب ابن صورية أخت داود رئيساً على جيشه. ويوشافاط بن أحيلود مسجلاً وهو حافظ مهر الملك أو مسجل الوقائع. وصادوق بن أحيطوب وأحيملك بن أياتار كاهنين. وسرايا. كاتباً وبنايا بن يوياداع رئيساً على الجلادين والسعاة.

وعن كلمت أنّ هؤلاء كانوا فيزقاً من الجنود اتخذهم الملك من غير بني إسرائيل قال الكتاب: «وبنو داود كانوا كهنة». على أنهم لم يكونوا كهنة حقيقة لأنّ الكهنوت خص بسبط لاوي بل المراد أنهم كانوا كهنة مجازاً أي أشبه بالكهنة سيرة ونزاهة وكرامة لدى الشعب. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٨ عد ١٧): «وبنو داود كانوا الأولين تحت يد الملك». وكان داود حكيماً عادلاً دأبه النزاهة والإستقامة لا يجور بحكمه على أحد ولا يحايي ذكوراً للإحسان والوداد. إستدعى مفيبوش بن يوناثان بن شاول الذي كان زمن الرجلين، وأقامه لديه وكان يأكل على مائدته كأحد ابنائه. وردّ عليه جميع مزارع أبيه وجعل صيبا خادمه قيماً على أملاك مفيبوش ليحرثها ويستغلها له (ملوك ٢ فصل ٨ و ٩).

عد ٢٦٥

حرب داود مع العمونيين والآراميين

وكان أن توفي ملك بني عمون فملك حنون ابنه مكانه. فأرسل داود وفداً يعزّيه عن أبيه متذكراً أنه أحسن إليه عند فراره من وجه شاول. فأوهم رؤساء بني عمون ملكهم أن وفد داود جواسيس أرسلهم ليحسّوا أرضه رغبة أن يلحقها بملكه، فقبض حنون على رجال داود. وحلق نصف لحاهم، وقطع نصف ثيابهم حتى استاههم، ثم أطلقهم. وخيّر داود فأرسل رجالاً للقائهم. وكانوا حجلين جداً فقال: امكثوا في أريحا حتى تنبت لحاكم ويظهر منه أنّ بني إسرائيل كانوا حينئذ يطلقون لحاهم. واستفاق بنو عمون إلى سوء فعلتهم. وخافوا بطش داود وتنكيله بهم، فاستأجروا آراميين بيت رحوب، وآراميين صوبا عشرين ألف راجل. ومن ملك معكة ألف رجل. ومن رجال طوب إثني عشر ألف رجل. أما بيت رحوب وتسمّى رحوب فقط ومعناها الرحب والواسع، فالأظهر أنّ موقعها كان بين بانياس جنوباً إلى مملكة حماه شمالاً فتشمل سهول بقاع العزيز وبلبك. وعن بعضهم إنّ بيت رحوب هي المسماة الآن هونين في الشمال الغربي من بحيرة الحولة. وأنّ المملكة

المنسوبة إليها كانت في جهة بانياس وسهول الحولة. وأما صوبة فقد مر ذكرها آنفاً
عد ٢٦٤ ومعكة معناها الضيقة والحرجة. وفي كتاب أعلام الأماكن أنّ موقعها
كان في جنوبي صوبة وغربي رحوب. وفي غيره أنها كانت في شرقي رحوب تمتد
قليلاً في سهل الحولة، وتتصل بالجبل المسمى اليوم جبل حيش في جنوبي جبل
الشيخ. ويظهر أنّ هذه المملكة كانت صغيرة إذ لم يستأجر العمونيون منها إلا ألف
رجل. وطوب ومعناها. الصالح يُظن أنّ موقعها كان في منحدر جبل الشيخ من
ناحية الشرق في الجهة المعروفة اليوم بالبلاس. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول
(فصل ١٩ عد ٦ و ٧) أنّ بني عمون أرسلوا «ألف قنطار من الفضة ليستأجروا لهم
مراكب وفرساناً من آرامي معكة ومن صوبا. فاستأجروا لهم اثنين وثلاثين ألف
مركبة». قال كلمت في تاريخ العهد القديم يُحتمل أن يكون عدد المركبات هذا قد
أدخل النسخ عليه زيادة سهواً.

فلما أخبر داود بما يُعده بنو عمون أرسل يواب قائد جيشه وجميع الأبطال.
فخرج بنو عمون واصطفوا للقتال عند مدخل المدينة. ويظهر من سفر أخبار الأيام
(في المحل السالف ذكره) أنها ميدبا المعروفة إلى اليوم بهذا الاسم. ولكن روى
يوسيفوس أنها ربّة أي ربّة عمون التي سُميت في أيام اليونان فيلدلفية وهي عمان
الآن. وانفرد آراميو صوبا ورحوب ورجال طوب ومعكة وأقاموا في الصحراء. فرأى
يواب أنّ القتال مصوّب إليه من الأمام والخلف. فقسم عسكره إلى شطرين رأس
أحدهما وانطلق به للقاء الآراميين، ورأس على باقي الجنود أخاه أيشاي لقتال بني
عمون. وقال لأخيه إن قوّي عليّ الآراميون أتيت لنجدتي وإن قوّي عليك بنو
عمون أذهب لنجدتك. وازدلف يواب ورجاله لقتال الآراميين فانهزموا من وجهه.
ورأى بنو عمون أن قد انهزم الآراميون فانهزموا هم أيضاً من وجه إيشاي، ودخلوا
المدينة فكفّ يواب عن قتالهم وعاد إلى أورشليم.

على أنّ هذه الموقعة لم تكن الفاصلة وحوش هدد عازر بين القوم ليستأنفوا
الحرب. واستدعى رجالاً من الآراميين في عبر الفرات، وانضمّ إليهم غيرهم من
الآراميين. وقلّد هدد شوباك رئيس جنده قيادة الجيش. وأخبر داود بتألبهم عليه.
فرأى الأمر جلاً يقضي عليه أن يشهد الحرب بنفسه. فعبر الأردن، وزحف إلى
الآراميين فانهزموا من وجهه. وأهلك منهم سبع مئة مركبة، وأربعين ألف فارس.
وروت بعض النسخ ويوسيفوس أربعين ألف رجل. وضرب شوباك قائدهم فمات

هناك. ولما رأى سائر الملوك أنّ جيش هدد عازر قد إنكسر دُعِروا وهربوا ومعهم ثمانية وخمسون ألفاً وصالحوا داود ودانوا له. وخاف الآراميون أن يعودوا لنجدة بني عمون (ملوك ٢ فصل ١٠). وفي السنة التالية أرسل داود يواب ورجال إسرائيل فدثروا مدن بني عمون، وحاصروا ربّة عمون عاصمتهم المار تعريفها. ولما تيّقن يواب فتحها أرسل إلى داود أن يأتي، فيأخذها كيلا يكون الفتح باسم يواب بل باسم الملك. فسار داود بعسكر من الشعب فافتتح ربّة «وأخذ تاج ملكام عن رأسه وكان وزنه قنطاراً من الذهب ومرصعاً بالحجارة الكريمة فكان فوق رأس داود وأخرج من المدينة غنيمة وافرة جداً». وأمات من كان فيها شرّ الميتات معذباً إياهم بالمناشير وبالطرح في أتون الآجر وكذلك صنع في سائر مدن بني عمون، وكانت سنة تلك الأيام تبيح مثل العذابات التي أنزلها داود بالعمونيين، ولعل ذلك كان بأمر الله الذي كان أمر شاول أن يبيدهم دون شفقة فلم يفعل، فأعلمه صموئيل سخط الله عليه لذلك.

قال فولتير في تاج ملكام الذي وضعه داود على رأسه: «زعموا أنّ وزنة الذهب (أو القنطار كما روينا عن ترجمة الآباء اليسوعيين) تساوي تسعين ليبرا والليبرا ست عشرة إنشياً (أوقية في اصطلاح الأطباء) فلا يستطيع إنسان أن يحمل على رأسه مثل هذا التاج». قال دوكلو (في تفسير سفر الملوك الثاني في طبعة الأب مين) إنّ الآية معضلة إذا اقتصرنا على الترجمة اللاتينية العامة. ولكن قال كثير من العلماء: أنه إذا روعي النصّ العبراني في سفر الملوك وفي سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢٠ عد ٣) كان المفهوم قيمة التاج أو ثمنه لا وزنه لأنه كان مرصعاً بجواهر كريمة فيساوي الذهب، وهذه الجواهر قيمة وزنة من الذهب فضلاً عن أنّ الككر العبرانية التي عبّرت عنها الترجمات بوزنة لا يعلم قدر وزنها الأكيد. انتهى كلام دوكلو ولا يُخفى على ذي إلمام بالتاريخ أنّ القدماء كانوا يتعاملون بالمعادن وغيرها موزونة. واستمرّ المتأخرون يعبرون عن القِيم والأثمان باسماء الأوزان من ذلك المثقال والدرهم وغيرها، فإنها وُضِعَتْ في الأصل للوزن ثم استعملت للتعبير عن قيمة أو ثمن بحسب إصطلاحهم هذا. والقنطار في العربية أربعون أوقية من ذهب على أحد الأقوال فلا يستحيل وضعه على الرأس.

إثما داود وتوبته

بينما كان داود في أورشليم وعسكر بني إسرائيل يحارب العمونيين اقترب داود ذينك الإثميين الفاضحين: مفاجرته بتشابع امرأة أوريا الحثي وتسببه بقتل زوجها. فقد رآها عن سطحه تستحم فهام بها، وعلقت منه وأراد أن يستر حملها، فاستدعى أوريا من المعسكر فاستخبره، ثم أمره أن يذهب فينام في بيته. فقال إن تابوت الرب وبني إسرائيل في الخيام على وجه الصحراء، وأنا أدخل بيتي وأكل وأشرب وأدخل على أهلي ! لا وحياتك لا أفعل هذا وبقي في أورشليم يوماً آخر وحده. فدعاه داود وأكل بين يديه، وشرب وأسكره ولم ينزل إلى بيته فصرفه إلى المعسكر، وكتب إلى يواب كتاباً أرسله بيده قال فيه وجّهوا أوريا إلى حيث يكون القتال شديداً، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت. فجعله يواب عند محاصرة ربة عمون في الموضع الذي علم أنّ فيه رجال البأس. وخرج رجال المدينة وضربوا بني إسرائيل فسقط بعضهم وقُتل أوريا الحثي أيضاً. وأرسل يواب فأخبر داود بما كان وبقتل أوريا وبعد أن أتمت امرأته مناحة بعلها ضمّها داود إلى بيته فكانت زوجة له. فهذان الإثمانيان سوّدا صفحتا تاريخ داود إلى اليوم وقد صرف ما بقي من حياته أسفاً باكياً، مستغفراً الله مكفراً عن إقترافه لهما. ويشهد لذلك أكثر زبوره ولا سيما مزموره الخمسين المفتّح: «إرحمني يا الله كعظيم رحمتك» إلى باقي تضرعاته الخاشعة ويظن أنه ألف هذا المزمور على أثر ما أنذره ناثان من قتل الرب بفظاعة إثمه وسوء عاقبته (ملوك ٢ ف ١١).

وقد أرسل الرب ناثان إلى داود وقال له كان رجلان في مدينة أحدهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً، ولم يكن للفقير غير رحلة واحدة صغيرة قد إشتراها ورباها، وكانت تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وترقد في حضنه. فنزل بالغني ضيف فشج أن يأخذ من غنمه وبقره ليقترى ضيفه، فأخذ رحلة الفقير وهياها للوافد عليه. فغضب داود وقال حيّ الرب إن الرجل الذي صنع هذا يستوجب الموت ويردّ بدل الرحلة اربعاً. فقال له ناثان: أنت هو الرجل؛ وذكره بما صنع الرب إليه وما أقدم هو عليه من قتل أوريا وأخذ زوجته. ونبأه ما سيحلّ به من المصائب جزاء لما جنى. أي أن الرب يثير عليه الشر من بيته كما فعل

أبشالوم ابنه، ويأخذ أزواجه ويدفعهن إلى غيره فيفخر بهنَّ جهرَةً لا كما فعل هو سرّاً مع زوجة أوريا. فخشع داود وقال قد خطّعت إلى الرب. فقال له ناثن: قد نقل الرب خطيئتك عنك فلا تموت قتيلاً كما قتلت أوريا بل يموت الابن الذي يولد لك من بتشايح. وكانت تلك المصائب تباعاً على داود وأولها أنّ الرب ضرب الابن الذي ولدته له بتشايح فأكثر داود من التضرّع لله والصوم والإضجاع على الأرض في حين مرضه علَّ الرب يعفو عن الصبي. فلم يستجب وأذعن داود بعد موته لقضاء الله وطابت نفسه وأكل وشرب. وولدت له بتشايح بعد ذلك ابناً سقاه سليمان وأرسل الرب على لسان ناثن النبي وسماه يد يديه أي محبوب الرب (ملوك ٢ فصل ١٢).

عد ٢٦٧

خروج أبشالوم على داود أبيه

أنبأنا سفر الملوك الثاني في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر منه بمصيبة أخرى حلّت بـداود لإثمته وهي أنّ ابنه أمنون أوقع العار بتامار أخته لأبيه، وشقيقة أبشالوم الذي احتدم صدره غيظاً على أخيه أمنون لإذلاله أخته وأضر له السوء. ثم دعاه لوليمة حين جراز غنمه، وأمر غلمانه أن يقتلوا أمنون فقتلوه. وهرب أبشالوم من وجه أبيه، والتجأ إلى تلماي بن عميهود ملك جشور الواقعة في جنوبي جبل الشيخ في جهة الجولان والجيدور الآن. وأقام أبشالوم ثمة ثلاث سنين عند جدّه تلماي لأنه ابن معكة بنت تلماي (طالع عد ٢٦١) إلى أن رضي داود عنه وعاد إلى أورشليم، ولكن أمسك أبوه عنه أن يراه سنتين إلى أن صالحه، وسمح أن يدخل عليه وسجد بوجهه إلى الأرض فقبّله أبوه.

فما عثّم أبشالوم بعد نيل رضى أبيه أن أنزل به مصيبة أخرى، فإنه اتّخذ له مركبة وخيلاً وخمسين خادماً يجرون بين يديه. وكان يُكرّر ويجلس بجانب طريق باب الملك فينمُّ لأصحاب الدعاوى بسياسة أبيه ورجاله. ويلاطفهم ويقبلهم ويسترق قلوبهم. قال الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ٧): «وكان بعد أربعين سنة أنّ أبشالوم قال للملك: دعني أنطلق فأقضي نذري الذي نذرت للرب في حبرون». فقد عنى العلماء والمفسرون ذكر الأربعين سنة وذهبوا في تفسير الآية مذهبين فقال بعضهم منهم كلمت أنه وقع تحريف سهواً في النصّ العبراني فكتب الناسخ أربعين سنة

مكان أربع سنين وقد جاء في نسختنا السريانية **ܡܥܪܟܐ ܕܐܪܥܐ ܕܐܪܥܐ ܕܐܪܥܐ** ومن بعد أربع سنين ومثله ورد في كتب كثيرة قديمة مخطوطة في اللاتينية وكذلك في الترجمة العربية. وهكذا ترى يوسفوس وتاووادوريطوس وغيرهما من الآباء والمفسرين رووا أربع سنين لا أربعين سنة، وصحح بعضهم النص العبراني وأكثروا البحث في بدء هذه الأربعين سنة فقال بعضهم إنَّ بدءها سنة مسح صموئيل داود ملكاً في أيام شاول. ورجَّح هذا فيكور في معجم الكتاب وقال آخرون إنَّ بدءها سنة فرض شاول سنة الملك في إسرائيل مضافاً إليها عمر أبشالوم الذي كان حينئذٍ ينيف على الثلاثين سنة. وللمذهبتين محامون ومدافعون. ويظهر لنا أنَّ المذهب الأول هو الأوجه والأمثل. وعليه فبعد أن استمال أبشالوم قلوب كثيرين إليه في مدة أربع سنين مضى إلى حبرون وسار معه مئتا رجل من أورشليم على سلامة نية. وأرسل جواسيس إلى جميع إسرائيل واستدعى أحيثوفل الجيلوني مشير داود ليأتي إليه من مدينته جيلو، وهي على الراجح بيت جالا الآن (كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ١١٨). فتزايد الشعب عند أبشالوم واشتدت المحالفة حتى اضطروا داود أن يلجأ إلى الفرار. فخرج وجميع آل بيته مشاة وترك عشرين من السراي لحفظ البيت وكان الجميع ييكون. فعبروا وادي قدرون المعروف في جانب أورشليم. وأتى صادق الكاهن واللاويون بتابوت عهد الرب فأرجعهم داود به إلى المدينة. وانتهى إلى جبل الزيتون فصلى لله هناك وأرجع حوشاي الأركي صديقه إلى أورشليم ليستقصي مقاصد أبشالوم ويخبره، فبلغ المدينة وأبشالوم داخل فيها فسار داود حتى بلغ بحوريم التي كانت في محل قرية أبي ديس الآن الواقعة في جنوبي الطريق المؤدي من أورشليم إلى أريحا على خمسة كيلومترات في الشرق الجنوبي من جبل الزيتون. (كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ١٦١). وخرج من بحوريم رجل من عشيرة شاول اسمه شمعي بن جيرا يلعن داود ويشتمه ويعيِّره ويرجمه بالحجارة. فهمَّ أبيشاي بن صروية أن يقطع رأسه فنهاه داود صابراً متجلداً عالماً أنَّ الله شاء ذلك تأدياً له.

أما أبشالوم فدخل أورشليم برجاله وأحيثوفل معهم ودخل عليه حوشاي الأركي مبدياً له الصداقة. وأشار أحيثوفل على أبشالوم أن يدخل على سراي أبيه اللاتي تركهنَّ لحفظ بيته ليعلم بنو إسرائيل أنه صار مكروهاً من أبيه فتشتدَّ أيدي محازبيه. فعمل بهذه المشورة السيئة على مشهد رجاله. إذ نصب لهنَّ خيمة على السطح

ولعله السطح نفسه الذي من فوقه ابتداء لثم داود بنظره إلى بتشباع. فتم ما أنذر به ناثان النبي داود لدخوله على امرأة أوريا. وقال أحيثوفل لأبشالوم أن ينتخب إثني عشر ألف رجل ويسعى في طلب داود تلك الليلة. وخالفه حوشاي وأشار أن ينظر أبشالوم اجتماع جميع بني إسرائيل إليه. فأثر أبشالوم مشورته على مشورة أحيثوفل وقام داود بعسكره ليلاً وعبر الأردن، ووافى إلى محنائيم المسماة اليوم محنة في جبل عجلون. وقد أقام فيها أشبوش بن شاول بعد مقتل أبيه (طالع عد ٢٦٠). ولما رأى أحيثوفل إعراض أبشالوم عن العمل برأيه ركب حماره وانصرف إلى بيته فخنق نفسه.

وأقام أبشالوم عماسا بدل يواب قائداً لجيشه، وزحف بعسكره إلى أرض جلعاد (السلط). وأحصى داود الشعب الذين معه وأقام عليهم رؤساء ألوف ومئتين. وأمر يواب على ثلث جيشه، وأخاه أيشاي على ثلثه، وأتاي الحثي على ثلثه. ولم يبق لنا الكتاب كم كانت جنوده؟ ويظهر أنهم كانوا كثيرين لقسمتهم إلى ثلاثة أقسام. ولكن روى يوسيفوس أنهم لم يكونوا إلا أربعة آلاف. أحب داود أن يخرج للقتال فمانعه الشعب تعزيزاً لشأنه ولكي ينجدهم إذا انكسروا في القتال، وقال على مسمع الشعب: ترفقوا لي بالفتى أبشالوم.

واصطف الجيشان للقتال في غابة أفرائيم التي لم يتعين محلها إلى اليوم، ولكنها لا بد أنها كانت في شرقي الأردن على مقربة من محنائيم (محنة كتاب الأعلام الكتابية). ولم يلبث عسكر أبشالوم أن انكسر من وجه رجال داود وقتل منهم عشرون ألفاً. وافتربت الغابة من الشعب أكثر مما افترس السيف. وهرب أبشالوم مسرعاً وكان راكباً بغلاً، فدخل تحت أغصان بلوطة ملتفة فتعلق شعره الطويل بها ومزّ البغل تحته فزفع بين السماء والأرض. ورآه رجل وأخبر يواب فلامه لأنه لم يقتله، وأغراه بقتله فلم يشأ أن يفعل حرمة لتوصاة الملك بالترفق به وسعى يواب فأنشب ثلاث حراب في قلبه وإذا كان لم يزل حياً أحاط به، عشرة من غلمان يواب فقتلوه. ونفخ يواب في البوق فكف الشعب عن القتال. وأخذوا جثة أبشالوم وطرحوها في جب في الغابة وجمعوا فوقه جثة عظيمة من الحجارة وهرب كل امرئ من رجاله إلى بيته. ولما بلغ داود خبر وفاته إرتعش وكان يبكي ويقول وهو يتمشى يا بني أبشالوم يا بني يا بني أبشالوم يا ليتني مت عوضاً منك يا أبشالوم؛ (ملوك ٢ فصل ١٥ إلى ١٩).

مدفن أبشالوم

جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١٨ عد ١٨): «وكان أبشالوم في حياته قد أخذ وأقام لنفسه النصب الذي في وادي الملك. لأنه قال ليس لي ابنٌ يُذكر به اسمي ودعا النصب باسمه». فوادي الملك لا ريب أنه وادي يوشافاط في شرقي أورشليم حيث مدفن كبير تسمّيه العامة قبر أبشالوم. ولكن في الآية السابقة أنهم أخذوا جثة أبشالوم وطرحوها في جب في الغابة جمعوا فوقه جثوة عظيمة جداً من الحجارة. فقال بعضهم إنَّ جثة أبشالوم استمرت في جبتها وليس في وادي يوشافاط إلا أثر النصب الذي أقامه أبشالوم. وقال غيرهم: إن داود نقل جثة ابنه إلى النصب الذي كان أقامه لنفسه محتجين لذلك بشدة. أسيّف داود على ابنه فلا يُظنّ أنه ترك جثته في غابة، وكذلك اختلافهم في الأثر القائم الآن من قبّل هيئة بنائه فقال بعضهم إنه مشبة هيئة أبنية اليونان فلا يمكن أن يكون من عهد داود. وقال غيرهم إنه مشبة هيئة أبنية المصريين فيمكن أن يكون من عهد داود وسليمان. وقال الأب فيكورو في معجم الكتاب: «إنَّ التقليد الآن يحسب قبر أبشالوم والنصب الذي أقامه واحداً ولكن ليس لهذا التقليد بيّنة راهنة. وإذا نظرنا إلى التقليد في صدر النصرانية وجدنا ما يخالف تقليد هذه الأيام فقد شهد يوسيفوس (ك ٧ في تاريخ اليهود فصل ٩) إنَّ النصب الذي أقامه أبشالوم لإحياء لذكره لم يكن إلا عموداً من رخام أبيض ثم إنَّ النقوش اليونانية والمصرية التي في أسفل ذلك الأثر لا تؤذن بأن بناءه كان في عصر ملوك إسرائيل». هذا ما جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١٤ عد ٢٧): «وولّد لأبشالوم ثلاثة بنين وابنة واحدة سماها تamar». فكيف يوفّق هذا مع قوله «أن ليس له ابنٌ يُذكر به اسمه». فقال بعضهم أنه أقام النصب قبل أن يلد بنين. وقال غيرهم أنه أقامه بعد موتهم إذ لم يرد ذكر لابن له فيما بعد.

عودة داود إلى أورشليم وما كان حينئذٍ

أقام داود بعد مقتل أبشالوم في بيته يبكي وينتحب عليه حتى صارت النصرانة. فدخل يواب على الملك وقال: أخزيت وجوه جميع عبيدك الذين لجّوا

نفسك، وأنفس بنيك وبناتك وأزواجك وسراريك بحبك لمبغضيك وإبغاضك لحبيك. فقم الآن وطيب قلوب عبيدك. وإن لم تخرج فلا يبيت الليلة عندك أحد. فقام الملك وجلس بالباب فأقبل الشعب كلهم بين يديه. وكان في جميع أسباط إسرائيل خصاصاً وأسفٌ لثورتهم على الملك الذي خلصهم من أعدائهم، وأعلى شأنهم وبعث الملك إلى صادوق وأبياتار الكاهنين ليذكرا جميع شيوخ إسرائيل أنهم من عظمه ولحمه. وليقولوا لعماسا قائد جيش أبشالوم أنه من ذوي قربي الملك أيضاً. وأنه سيكون رئيس الجيش أمامه بدل يواب لأنه قتل أبشالوم خلافاً لنهيه. فانضم رجال سبط يهوذا كأنهم رجل واحد، وألقوا الملك إلى الأردن عند الجلجال (جلجال). وبادر شمعي البنياميني الذي كان قد أهان داود إلى لقياه ومعه ألف رجل من سبطه وخرّ ساجداً للملك مستغفراً عما أساء به إليه فأراد أيشاي قتله لأنه لعن مسيح الرب فازدجره داود. وأمن شمعي وأتى صبياً قيماً بيت شاول وبنوه الخمسة عشر وعبيده العشرون للملاقة الملك. ونزل مفيبوش بن شاول للقائه، وأنبأنا الكتاب في هذا السبيل بما كان الحداد في تلك الأيام فقال: «وكان لم يُغسيل رجله ولم يُحَفِ شواربه (أي ثُرَكَت ولم يؤخذ منها). ولم يرحض ثيابه منذ يوم خرج الملك إلى اليوم الذي عاد فيه سالماً». وعته الملك لأنه لم يميض معه فاعتذر بعرجه وبمكر خادمه به، وقد كان صبيّاً، سعى بمولاه عند الملك وقال لداود لدى سؤاله عنه إنه مقيم بأورشليم لأنه قال اليوم يرث عليّ آل إسرائيل مُلك أبي. فقال لصبيّا كل ما هو لمفيبوش فهو لك (ملوك ٢ فصل ١٦ عد ٣ و ٤).

ولذا رأينا داود يقول لمفيبوش عند لقياه على تذلُّله له: «حسبك أن تتكلم في أمورك. فقد قلت إنّ الحقول تقسم بينك وبين صبيّا» بعد أن كان أعطاه إياها كلها. وقد حملت هذه الآية كثيراً من الآباء المفسرين على العجب كيف عامل داود ابن يوناثان صديقه بهذه القسوة، وقضى عليه هذا القضاء الجائر بأن يعطي ولو نصف حقوله لقيم بيته. والتمس بعضهم معذرةً لداود بتيقُّنه كلام صبيّا المار ذكره، فعاقبه هذا العقاب. وبرأ بعضهم ساحته من الإثم ومن حججهم إنّ حقول شاول كانت تحت لداود فوهبها لمفيبوش ثم استردَّ هبته لما رآه ناكراً لإحسانه. وأوجب بعضهم الإثم عليه حتى قال بعض العلماء اليهود أنّ هذا القضاء الجائر كان من أسباب شق مملكة إسرائيل بعد سليمان من قبل الله. ولكن أجمع الجمهور على أنه إذا ثبت إثم داود هذا فيكون قد تاب عنه وردَّ على مفيبوش نصف حقوله، أو

عاضه منه بغيره لا سيما لتلطّف مفيبوشت لقوله للملك: «لأأخذ (صيباً) الجميع أيضاً بعد ما عاد سيدي الملك إلى بيته بسلام». وقد خطئ داود في كل حال بفرط تصديقه كلام صيبا قبل أن يسمع حجة مفيبوشت، وقد انتبه إلى خطئه وعدل عن حكمه الأول بأن يعطي مفيبوشت نصف حقوله لكنه رآه لم يزل جائراً. فعاضه على الراجح من حقوله بغيرها. والحدث مثال لدوي المناصب كيلا يفرطوا في التصديق لسعاية من يزدلفون إليهم بغيرهم بل يتلوّموا في حكمهم ويتزوّوا.

واجتمع جميع رجال إسرائيل عند الملك بعد عبوره الأردن. ولاموا رجال يهوذا لأنهم ذهبوا خفية إلى الملك قبلهم. فأجابهم رجال يهوذا لأنّ الملك ذو قرابة لنا. ولمّ غيظكم أنتم؟ لعنا أكلنا من عند الملك أو أجازنا بجائزة؟ فقال رجال إسرائيل إنّ لنا عشرة سهام في الملك. ونحن أولى منكم. بداود. وكان كلام رجال يهوذا أقسى من كلام رجال إسرائيل. فقام رجلٌ عاث اسمُه شابع بن بكري من سبط بنيامين ونفخ في البوق وقال ليس لنا نصيب مع داود ولا ميراث مع ابن يسي فارجعوا يا بني إسرائيل كل إلى محله فأنفضوا متبعين شابع ولازم بني يهوذا ملكهم إلى أورشليم. فما أخبث هذه العادة التي ما برحت مستطرفة عند سفلة قومنا أن يعدل عن المصلحة العامة أو تشوّش الراحة للتقصير عن شيء من الإدارة والمجاملة أو أن ينقاد الجمهور لكلام مفسد ذي أرب فاسد فيضحى بشأه ونفعه من غير رؤية ولا تبصّر بسوء العاقبة.

قد أقام داود السراري العشر اللائي دخل عليهنّ أبشالوم في بيت حجز ولم يدخل عليهنّ بل أجرى لهنّ النفقة إلى يوم وفاتهنّ. وأراد أن يتدارك ثورة شابع فقال لعماسا اجمع إليّ رجال يهوذا في ثلاثة أيام. وأبطأ عماسا عن الميعاد الذي ضربه له فقال لأبيشاي أخي يواب إنّ شابع يصنع بنا شراً مما صنع أبشالوم فخذ جنودي وانطلق في أثره، فخرج جميع رجال يواب في طلب شابع فالتقوا بعماسا عند صخرة جبعون (الجب). وكان يواب محتزماً بثوبه وفوقه منطقة سيفٍ مشدود على حقويه ولما تقدم ليحيي عماسا اندلق السيف أو دلقه، وأخذ بيده اليمنى لحية عماسا ليقبله وضربه بيسراه بالسيف في بطنه فذلق أمعاءه إلى الأرض ومات. وسار يواب ورجاله في طلب شابع الذي كان جاوز جميع أسباط إسرائيل، وانتهى إلى إبل بيت معكة وهي إبل الآن على ستة أميال ونصف من بانياس غرباً على ما في كتاب أعلام الأماكن؛ وهي في قضاء مرجعيون في جنوبي الحثيم والقلعة، وتسمّى

إبل الهواء وإبل القمح. وقد ورد اسمها تارةً مع العاطف إبل وبيت معكة وطوراً دونه إبل بيت معكة. فقال كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٤٨) إنه يظهر أنَّ إبل وبيت معكة محلّتان أو حيّان في مدينة واحدة وهذه غير إبل الواقعة في الجنوب الشرقي من الجديّدة. فتبع يواب شابع إلى هناك وحاصر المدينة وجدّ رجاله في هدم سورها فنادت امرأة حكيمة يواب مؤنبة له على طلبه أن يُهلك مدينة إبل أما في إسرائيل فأجابها حاش لي أن أتلّف وأهلك لكنني أطلب شابع الذي عصى داود فسلموه إليّ وحده وأنا أنصرف عن مدينتكم. وأقنعت المرأة بحكمتها شعب المدينة فقطعوا رأس شابع وألقوه إلى يواب فنفخ في البوق، ورجع كلّ إلى محله وعاد يواب إلى أورشليم (ملاك ٢٠ فصل ٢٠). وروى يوسفوس أنه أخذ رأس شابع فقدمه إلى داود.

عد ٢٧٠

الجماعة في أيام داود وقتل أبناء شاول

كان جوعٌ في أيام داود ثلاث سنين، سنة بعد سنة فسأل داود الرب، فأوحى إليه أنَّ ذلك لأنَّ شاول قتل الجبعونيين سكان جبعون (الجب الآن). وقد مرَّ أنَّ قدماءهم احتالوا على يشوع بن نون بأنهم قادمون من محلٍ بعيد يتطلبون الخضوع له ليستأمنوه فأثّنتهم، وحلف لهم وانكشف مكرهم، فلم يخلف يمينه بل أمر بني إسرائيل أن يبقوا عليهم، وأن يكونوا محتطيين حطب مستقي ماء لكل الجماعة، فسعا عليهم شاول مخلفاً عهد الرب. وقتل كثيرين منهم لا يُعلّم لأيّ الأسباب ولا في أي الأوقات. ويُرجّح أنه أقدم على ذلك في آخر مدة مُلكه حين قتل كهنة نوب (بيت نوبا)، وأهلها كما مرَّ ويتبيّن من هذا وغيره أنَّ هذا الجوع كان في بدء مُلك داود وقبل حروبه المار ذكرها، فهو مقدّم عليها زماناً وأنَّ آخر الكتاب ذكره وضعاً لأهمية الحروب. ومنه يظهر أيضاً أنَّ العقاب من أجل إثم شاول لم يتأخر كثيراً عن إقترافه كما هو ظاهر الكتاب.

ولما غلِم داود علة النازلة استدعى من بقي من الجبعونيين، وسألهم ما ينفون ترصيةً لهم فرغبوا في أن يُسلمَ إليهم سبعة من بني شاول فيصلبهم في جبع شاول (خربة تل الفول) مدينته. فأمر أن يُعطوا ابْنين كانت قد ولدتهما رصفة لشاول وخمسة من بني ميراب بنت شاول. وأشفق على مفيبشت بن يوناثان بن شاول

من أجل عهد المؤدة الذي كان بينه وبين يوناثان. فصلب الجبعونيون السبعة في الجبل. وأخذت رصفة أم الأولين مسحاً وفرشته لنفسها على الصخر، وأقامت أشهراً لا تدع طير السماء تعثر عليهم نهاراً ولا وحش الصحراء ليلاً. وأخبر داود بما صنعت فمدحها، وانطلق فأخذ عظام شاول ويوناثان من ياييش جلعاد (السلط) التي كان أهل هذه المدينة سرقوها من ساحة بيت شان (باسان) حيث علّقهما الفلسطينيون يوم إنكسارهما في جلبوع وضمها إلى عظام المصلوبين. ودفنها في مقبرة قيس في صيلع بأرض بنيامين ولم يعين إلى الآن موقع صيلع هذه، ويترجح أنه كان على مقربة من جبعة شاول المسماة الآن خربة تل الفول على مذهب كاران (ملوك ٢ فصل ٢١ إلى عدد ١٥).

عد ٢٧١

وقائع أخرى لداود مع الفلسطينيين

كانت لبني إسرائيل وقائع مع الفلسطينيين أوجز الكتاب (ملوك ٢ فصل ٢١ عد ١٥ وما يليه) بذكرها، وشهد داود أولها وكُلّت يداه ودهمه بيشينوب أحد الجبابرة الذي كان وزن رمحه ثلاث مئة مثقال من نحاس وكاد يقتله. فتداركه أيشاي بن صروية فقتل الفلسطيني فاستحلف داود رجاله أن لا يخرج معهم إلى الحرب لئلا يُطْفئ سراج إسرائيل. ولم يذكر الكتاب محل هذه الواقعة لكنه ذكر وقعة أخرى في جوب ولا يُعلم موقع هذه المدينة. ولكن جاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢٠ عد ٤) أن هذه الحرب نشبت في جازر وفي كتاب أعلام الأماكن أن جازر تسمى اليوم تل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص. وقتل حينئذ سكاي الحوشي سنفاي من بني الجبابرة فذلّ الفلسطينيون. والواقعة الثالثة كانت في جوب أيضاً، وقتل فيها الحانان بن ياعير أحد قواد داود أخا جليات الجتتي المسمى لحمي، وكانت قناة رمحه كنول النساج. وكانت وقعة أخرى في جت مدينة الفلسطينيين (ذكرين الآن أو تل الصافي). وقتل فيها يوناثان بن شمعا أخي داود أحد أبناء الجبابرة من الفلسطينيين، وكان طويل القامة أغش اليمين والرجلين أي له أربع وعشرون إصبعاً فهؤلاء الأربعة كانوا من بني الجبابرة في جت. فسقطوا بيد داود وأيدي رجاله، وقتل غيرهم كثيرون ولكن اقتصر الكتاب على ذكر الجبابرة منهم لينبئنا بإذلال داود لهم وانبساط ملكه. وقد ذكر الكتاب

في أثر هذه الوقائع نشيد داود الذي ترنّم به شاكراً الله على نجاته من أيدي جميع أعدائه وفتحتّه: «الرب صخرتي وملجأّي ومنقذي». وهو من جملة زبوره وقد أثبتته سفر الملوك الثاني في الفصل الثاني والعشرين منه وعدّد في الفصل الثالث والعشرين أبطال داود وأعمالهم الخطيرة.

عد ٢٧٢

إحصاء داود بني إسرائيل وغضب الرب لذلك

قد شاء داود إحصاء بني إسرائيل. فأمر يواب أن طُفّ في جميع أسباط إسرائيل واحصوا الشعب ولم يكن يواب يصوّب هذا الإحصاء. فغلب كلام الملك على رأيه ورأي رؤساء الجيش، وخرجوا فطافوا في أرض بني إسرائيل كلها، وعادوا إلى أورشليم بعد تسعة أشهر وعشرين يوماً، فرفع يواب جملة العدد إلى الملك فكان عدد بني إسرائيل عدا بني يهوذا ثمان مئة ألف رجل ذي بأس مختلط سيف ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل؛ هذا ما جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ٢٤ عدد ٩). ولكن جاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢١ عدد ٥) «فكان إسرائيل كلهم ألف ألف ومئة ألف رجل مختلط سيف، ويهوذا أربع مئة ألف وسبعين رجل مختلط سيف. فأما اللاويون والبنيامينيون فلم يحصهما بينهم لأنّ كلام الملك كان مكروهاً لدى يواب». ولا نعلم أي العددين صحيح وأيهما حرّفه النساخ على غير عمد وقال كلمت في تاريخ العهد القديم: يُظنُّ أنّ التحريف وقع في رواية سفر أخبار الأيام الأول. فإنّ المذكرات التي أخذ عنها هذا السفر استمرت مشتتة أياماً طويلاً، ولم يُدوّن هذا السفر مأخوذاً عنها إلّا بعد العودة من الجلاء البابلي. ويظهر أنّ عدد بني إسرائيل كان يومئذٍ نحواً من خمسة ملايين من النفوس.

قد أغضب هذا الإحصاء الرب أما لأنّ مصدره الخيلاء والتكبر، وإما لأنّ غرض داود منه أن يحدث ضريبة على رأس كل رجل. وأورد يوسفوس (ك ٧ في تاريخ اليهود فصل ١٠) وجهاً آخر: وهو أنه قد جاء في سفر الخروج (فصل ٣٠ عدد ١٢) «إذا أحصيت جملة بني إسرائيل... فليعط كل رجل فدى نفسه للرب عندما تحصيهم لئلا تموت بهم ضربة بعد تعدادهم. هذا ما يعطيه كل من جاز عليه العدد نصف مثقال بمثقال القدس». وخالف داود هذه الفريضة. فأمر الرب جاد

النبي أن يمضي إلى داود، ويذكره يائمه وأن يخيّره ليختار إحدى ثلاث ضربات أما الجوع مدة سبع سنين، أما الهرب أمام أعدائه ثلاثة أشهر، وأما الوباء ثلاثة أيام. وفي الترحمتين السبعينية والعربية «ثلاث سنين مكان سبع». وفي سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢١ عد ١٢) «أما ثلاث سنين جوعاً» في النص العبراني والترجمات فيظهر أن الرواية الثانية أصح ويرجحها وجود العدد الثلاثي في الضربات الثلاث. فقال داود: خطّمت جداً في ما صنعت ولنقع في يد الرب لأنّ مراحمه كثيرة ولا أقع في يد الناس. فأرسل الرب وباء في إسرائيل، فمات من الشعب سبعون ألف رجل. وصرخ داود إلى الرب قائلاً: أنا الذي خطّمت وأما أولئك الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليّ وعلى بيت أبي. ورأى داود ملاك الرب المهلك في الجور فوق بيدر أرونا أو أرون اليبوسي مستلاً سيفه ليدمرّ أورشليم والرب يقول له: كفى كف يدك الآن. ووفد جاد على داود يقول له اصعد فأقم مذبحاً للرب في بيدر أرونا. فصعد داود إلى هناك فخرّ له أرونا ساجداً، ولما أخبره الملك بما في نيّته قال هوذا البقر للمحرقة والنواج وأدوات البقر تكون حطباً فأبى داود إلا أن يشتري منه فاشترى البيدر والبقر بخمسين مثقالاً من الفضة. وقال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفح ٤٤٤) أنّ الخمسين مثقالاً من الفضة تساوي الآن مئة وخمسين فرنكاً ولكن سفر أخبار الأيام الأول في المحل المذكور «وأدى داود إلى أرنان عن المكان ست مئة مثقال من الذهب». والتوفيق بأنه شرى منه البيدر والبقر بخمسين مثقال من الفضة ثم شرى الأرض كلها بست مئة مثقال من الذهب. فأعدّ داود هناك محل الهيكل الذي أقامه ابنه سليمان، وابتنى ثمة مذبحاً وأصعد محرقات وذبائح. فتعطّف الرب وكفّ الضربة عن إسرائيل (ملوك ٢ ف ٢٤).

عد ٢٧٣

شيخوخة داود وتمليك سليمان قبل وفاته

إنّ مدار ما يأتي من كلامنا إنما هو على ما تضمنه سفر الملوك الثالث. فإنّ سفر الملوك أو سفر صموئيل الأول اشتمل على أخبار عالي وصموئيل وشاول. والثاني تضمّن أخبار داود في مدة ملكه. وأما سفر الملوك الثالث فانطوى على أخبار أيام داود الأخيرة، وأخبار سليمان وملك يهوذا وإسرائيل حتى آحاب. والرابع

على أخبار سائر ملوك يهوذا وإسرائيل إلى الجلاء البابلي. وقد مرَّ أنَّ كاتب سفري الملوك الأول والثاني هو غير كاتب الثالث والرابع منها، وللعلماء والمفسرين في كاتب السفرين الآخرين أقوال أقربها إلى الصدق، وأشبهها بالصحیح قول كثير من قدمائهم وحدثائهم إنَّ أرميا النبي إنما هو كاتب هذين السفرين، واستدلوا على ذلك بالمشابهة التامة لغةً وتصوراً بين هذين السفرين، وما كتبه أرميا حتى أنَّ خاتمة سفر الملوك الرابع، وخاتمة سفر أرميا واحدة بالفاظهما وحروفهما في أربع آيات قد عزاها علماء التلمود إلى أرميا (عد ٢٩). فالتقليد القديم ومشابهة أسلوب الكتابة في سفرَي نبوة أرميا ومراثيه يثبتان وإن غير قاطعين على أنَّ كاتب هذه الأسفار واحد (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ٤٧٣).

قد جاء في فاتحة سفر الملوك الثالث أنَّ داود شاخ وطعن في السنّ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ، فالتمس له أعوانه فتاة عذراء تسمّى أيشاج الشونمية نسبةً إلى شونم وهي شولم الآن في مرج ابن عامر تخدمه، وتضعج معه فتدفعه ولم يعرفها الملك. وطمع أدونيا أحد أبناء داود من امرأته حجيت أم أبشالوم أن يملك مكان أبيه لأنه أكبر إخوته بعد أبشالوم، فترقّع وسلّك مسلّك أخيه بأن اتّخذ له مراكب وفرساناً وخمسين رجلاً يجرون بين يديه. وكان جميل الصورة كأخيه، وكان يواب قائد الجيش وأبياتار الحبر يعاونانه. ولكن كان صادوق الحبر وبنايا بن يوياذاع وثانان النبي، وغيرهم من أبطال داود يخالفونه، فأولم ودعا إلى وليمته جميع إخوته أبناء الملك (خلا سليمان) ومريديه. وذبح غنماً وبقراً ومسمنات، وكان إجتماعهم في جانب أورشليم في الحبل المسمى قديماً حجر زُحَلَّت بجانب عين روجل. قال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٤١٩): إنَّ هذه العين كانت حيث بئر أيوب الآن. ومعنى روجل في العبرانية الدّوأس أي من يدوس الثياب برجليه لرحضها. فكأنه كان عند هذه العين مغسل. وكان القصارون يضعون الثياب على هذا الحجر لتيسير غسلها على ما قال بعض الرّبيين، وقال غيرهم: بل كان هذا الحجر ربيعة تمتحن بإشالته القوي.

وعليّم ناثان النبي ما ينوي أدونيا فكلم بتشابع أم سليمان مشيراً عليها أن تدخل على الملك، فتخبره ما يصنع أدونيا. وتذكره بيمينه أن يجلس سليمان ابنها على عرشه، ووعدا النبي أن يدخل على الملك في إثرها فقصّ كلاهما على داود ما أجراه أدونيا. فاستدعى صادوق الحبر وناثان النبي وبنايا بن يوياذاع وغيرهم من

حاشيته، وأمر أن تُحذوا معكم عبيدي وأركبوا سليمان ابني على بغلتي، وانزلوا به إلى جيحون، وهي عينٌ كانت في محل عين العذراء الآن على ما قال فيكورو في المحل المذكور. فأتوا بسليمان إلى هناك باحتفائٍ شائق وأخذ صادوق الخبر قرن الدهن من الخبء ومسح سليمان، وهتفوا بالبوق، ونادى جميع الشعب ليحيي الملك سليمان. وأدخلوه المدينة والأرض تكاد تتصدع من أصوات تهلُّلهم. وسمع أدونيا ومدعووه هذه الجلبة، فقالوا: ما هذه الأصوات التي تضطرب منها المدينة؟ ووفد عليهم يوناثان بن أبيتار الخبر وقال: ملَّك سيدنا الملك سليمان ومسحه صادوق وناثان النبي. فارتاع أدونيا وجميع مدعويه وذهبوا كلُّ واحد في سبيله. وأما أدونيا فخاف وانطلق وأخذ بقرون المذبح ونبئ سليمان فقال: إن كان ذا صلاح فلا تسقط شعرة منه على الأرض، وإن وجد به سوء فإنه يموت. وأرسل فأنزله عن المذبح فأتى وسجد للملك. فقال له: إنصرف إلى بيتك (ملوك ٣ فصل ١).

عد ٢٧٤

ما أعدّه داود لبناء الهيكل والخدمة فيه

أضرب كاتب سفر الملوك الثالث عما أعدّه داود لبناء الهيكل والخدمة فيه، ولكن أفصح بذكره كاتب سفر أخبار الأيام الأول (من الفصل ٢٢ إلى الفصل ٢٩) فقال بعد ذكره شراء داود أرض أرونا اليبوسي وتقدمته الذبائح على بيده: إن داود أمر أن يُجمع الأجانب الذين في أرض إسرائيل، وأقام منهم رجالاً لقطع الحجارة. وآخرين لنحتها وتهيتها للبناء، وجهازاً ملاً غزيراً ونحاساً وحديداً وخشب أرز كان حلفاؤه الصيدونيون والصوريون أحضروه إليه كثيراً لأنّه قال إن سليمان ابني صبيّ غضّ، والبيت الذي يُبنى للرب يلزم أن يكون عظيماً في كل الأرض. ودعا سليمان إليه وقال يا بُني إنه قد كان في نفسي أن أبني بيتاً للرب غير أنه صار إليّ كلام الرب أنك قد سفكت دماء كثيرة وباشرت حروباً عظيمة فلا تبني أنت بيتاً لاسمي فهذا يولد لك ابن يكون رجل سلام وأنا أريحه، فهو يبني بيتاً لاسمي وهو يكون لي ابناً وأنا أكون له أباً وأقرّ عرش مملكه. فالآن يا بُني ليكن الرب معك فتفلق، وتبني بيت الرب كما تكلم عنك فتقو وتشدّد. وهأنذا قد جهّزت لبيت الرب من مذلتي مئة ألف قنطارٍ من الذهب وألف ألف قنطارٍ من الفضة ومن النحاس والحديد ما يفوت الوزن لكثرتة.

تدّرع الطبيعيون بفرط عظمة هذه الأموال ليكذبوا بالكتاب، وتعاموا عن أن يهتدوا إلى وجه لتخريج المسألة على كثرة أوجهها؛ وأولها أننا لا نعلم علم اليقين ما المراد بالقنطار أو الوزنة المترجمة بهما كلمة ككر العبرانية ولا ما تساوي من نقود أيامنا حتى يمكن القطع باستحالة جمع هذه الأموال الغزيرة. ثانيها أن ليس على الله أن يصنع المعجزات بجعله كل ناسخ معصوماً من الخطأ على عمد أو غير عمد. وقد رأينا وسنرى أمثلة لتحريف النساخ بعض الكلام لا سيما في الأعداد منها ما مرّ من أن الفلسطينيين كان لهم ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس (ملوك ١ فصل ١٣ عد ٥) مع أن أكبر الممالك لم يكن لها مثل هذا العدد من المركبات فأولى أن لا يكون للفلسطينيين على قلة عددهم وضيق بلادهم. ولما كان الكتاب يعبر بالفارس غالباً عمن يحارب بالمركبة، وأنبأنا بالآثار المصرية أن كل مركبة كانت تقلّ رجلين، ظهر أن الصحيح أن مركبات الفلسطينيين كانت ثلاثة آلاف مركبة لا ثلاثين ألف كما أوصل تحريف النساخ الآية إلينا. فأى العجب أن يكونوا حرقوا عدد قناطير داود من الذهب والفضة. ثالثها أن العبرانيين كانوا يعبرون عن الأعداد بالحروف كما نصنع بحساب الجمل أي الحساب بالحروف الهجائية. وقد أثبت القديس إيرونيموس وكثير من الربيين، أنه منذ أيام المكاين كان يعبر عن العدد بالحروف وأخذ اليونانيون ذلك عن الفينيقيين أو العبرانيين من أقدم الأيام لأنهم يحسبون بحروفهم كما تلقّوها من الفينيقيين لا بحسب نظامها الذي أدخلوه متأخراً، ذلك كما نحسب نحن بحسب الأصل السرياني لا بحسب نظام أحرفنا العربية الآن، والحروف العبرانية متقاربة الشكل والصورة فتعسر كثيراً مجانية الخطأ والتحريف أو التصحيح فيها (ملخص عن الموجز الكتابي ليفيكورو عد ٥٠٧). وأزيد وجهاً آخر لم أره في ما لديّ من كتبهم، ولكن لا بد أن يكون بعضهم ذكره وهو أن الكلام في عدد قناطير الذهب والفضة على سبيل المبالغة للتعبير عن قناطير كثيرة على مثال ما ورد متواتراً في الكتاب في وصف الجنود وغيرها، بالكثرة أنها كرمل البحر وعلى مثال ما في الآية المحكى عنها نفسها. «ومن النحاس والحديد ما يفوت الوزن». فاستعمل كاتب السفر أعظم الأعداد أي مئة ألف قنطار من الذهب وألف ألف قنطار من الفضة للتعبير عن كثرتها الوفرة. وفي لغاتنا الشرقية لذلك أمثلة، ومن هذا الباب قول يوحنا الإنجيلي في آيات الخلص أنها لو كُتبت واحدة واحدة لم يسعها العالم صحفاً مكتوبة كما أظن.

وقد سلم داود إلى سليمان رسم هيكل الرب الذي يبنيه، وما يكون في داخله وخارجه من رواق وغرف ومخادع وخزائن وقال: إنه قد تلقى كل ذلك من لدن الله ليفهم جميع أعمال الرسم. ثم أمر بإحصاء اللاويين من ابن ثلاثين سنة فما فوق فكان عددهم ثمانية وثلاثين ألفاً. فجعل منهم أربعة وعشرين ألفاً يناظرون مناوبةً على بناء الهيكل. وستة آلاف ولاة وقضاة يفصلون دعاوى الشعب في كل محل. وأربعة آلاف يحرسون مناوبةً أبواب الهيكل وأربعة آلاف يسبحون للرب على آلات التسبيح، وكان رؤساء المرنمين أساف وهيمان ويدوتون. وكان اللاويون يقفون تحت يد الكهنة في خدمة الهيكل. وقسم هؤلاء إلى أربع وعشرين فرقة تخدم كل فرقة من نهار السبت إلى نهار السبت الذي يليه. وجعل الكهنة من بني هرون خاصة وقسمهم بالقرعة إلى أربع وعشرين فرقة. فكان منها للذرية العازر بن هرون ست عشرة فرقة. وللذرية أيتامار ابنه الثاني ثماني فرق. ويظهر من بشارة لوقا (فصل ١)، أن هذا التقسيم استمر معمولاً به إلى أيام المخلص. إذ نرى ذكرياً يُشهر بمولد يوحنا عندما بلغت نوبته في وضع البخور. وكان من خصائص الكهنة تقدمه البخور في كل صباح ومساء ووضع خبز التقدمة نحو المذبح وتقدمة الذبائح، وحفظ الموازين والمكايل في الهيكل إلى غيرها، وكانوا يتناوبون هذه الخدمة كاللاويين كل سبت.

لم يقتصر داود على فرض نظام لخدمة الرب في الهيكل، وعلى تعيين القضاة والولاة بل افترض نظاماً لحرس الملك في بلاطه، ليكون له نحو من ثلاث مئة ألف رجل من أحسن رجال بني إسرائيل يؤدون هذه الخدمة مناوبةً في كل شهر أربعة وعشرون ألفاً تفادياً من مضرة الخدمة الدائمة بأعمال حقولهم والكسب لعيالهم. وأقام اثني عشر رئيساً من أبطاله يرأس كل منهم الحرس شهراً. ونصب نظاراً لخزائن الملك وخزانة البلاد وقهارة على حقول الملك وكرومه وماشيته حتى لم يدع شيئاً مهمّاً إلا وفرض له نظاماً سديداً يدهش الاهتداء إليه في تلك الأيام (سفر أخبار الأيام الأول فصل ٢٢ إلى ٢٨).

عد ٢٧٥

وصايا داود لرؤساء الشعب وسليمان ووفاته

وجمع داود جميع رؤساء إسرائيل ورؤساء الأسباط. ورؤساء الفرق الذين

يخدمون الملك. ورؤساء الألوف، ورؤساء المئين. والوكلاء على جميع موجودات الملك وأبنائه والخصيان والجبارة وجميع ذوي البأس إلى أورشليم. وقام الملك على قدميه، خاطباً فيهم، محرّضاً لهم أن يتّقوا الرب، ويحفظوا جميع وصاياهم. ومعيداً ما كان قاله لسليمان منفرداً أنه كان في نفسه أن يني للرب بيتاً، فأوحى إليه أنه رجل حروب وقد سفك الدماء، وأنه اصطفى ابنه سليمان ملكاً فهو يني بيت الرب. والتفت إلى سليمان وقال وأنت يا ابني فاعرف إله أبيك واعبد به بقلب سليم، ونفس راغبة لأنه فاحص القلوب، وخواطر الأفكار إذا طلبته فإنك تجده. وإن تركته فإنه يخذلك إلى الأبد. وأعطاه ذهباً وفضة لعمل آنية الخدمة في الهيكل ثم قال للمجتمعين: إني لرغبتي في بيت إلهي لي مال خاص من الذهب والفضة، وهبته لبيت إلهي علاوة على ما أعددت له ثلاثة آلاف قنطار ذهب من ذهب أوفير. وسبعة آلاف قنطار فضة مصفاة لتصفيح جدران البيت، وحينئذ تطوّر رؤساء الآباء والأسباط وسائر الرؤساء. وأدّوا لخدمة بيت الله خمسة آلاف قنطار وعشرة آلاف درهم من الذهب، وعشرة آلاف قنطار من الفضة، وثمانية عشر ألف قنطار من النحاس، ومئة ألف قنطار من الحديد، والذين عندهم حجارة كريمة أدوها لخزانة بيت الرب. وبارك داود الرب أمام كل الجماعة، ودعا لهم ولسليمان فخر الجماعة وسجدوا للرب وذبحوا ذبائح، وأصعدوا محرقات، وأكلوا وشربوا بفرح عظيم، ومسحوا سليمان ثانية ملكاً على إسرائيل، وجلس على عرش أبيه (سفر أخبار الأيام الأول فصل ٢٨ ٢٩). راجع ما ذكرناه في العدد السابق عن عدد هذه القناطير.

ولما دنا يوم وفاة داود أوصى ابنه سليمان أن يتشدّد ويحفظ وصايا الرب ويعمل برسومه، وشهاداته على ما هو مكتوب في توراة موسى ليفلح في كل ما يعمل، وحيثما توجه ثم قال إنك تعلم ما صنع بي يواب ابن صروية بقتل أبشالوم وأبني بن نير، وعماسا بن ياتر فاصنع به بمقتضى حكمتك، ولا تدع شيبته تنزل إلى الجحيم (القبر) بسلام، وعندك شمعي بن جيرا الذي لعني يوم إنطلقت إلي محنائيم. ثم نزل إلى لقائي عند الأردن فأمنته. وأما الآن فلا تُبرئه فأنت رجل حكيم، وأنزل شيبته بالدم إلى الجحيم. إن يواب كان قديراً نفاذ الكلمة في الجيش والبلاد، فأغضى داود سياسة على سفكه غدرأ دم قائدين بريقين هما أبني وعماسا، وقتله أبشالوم خلافاً لنهي الملك عنه فكان العدل يوجب عقابه، وقرائن الحال لا تمكن داود منه. فأجلّه إلى زمان، ولما رأى دتو المنون أوصى سليمان أن يقتص منه

عما جنت يدها ويتمُّ فرض العدالة بجزائه. وكذلك شمعي فإنه لم يلعن الملك فقط بل رماه بالحجارة وهو منهزم من وجه ابنه فأمنه عند استغفاره ولم يشأ قتله حيثُ لأنه كان يوم انتصار من قُتل الرب ورعايةً لمقتضيات الحال فترك له جريمة الإهانة لشخصه. ولم يسقط حق الحكومة على جزائه بل أجله إلى وقتٍ أكثر ملائمة فلم يتسنَّ له في حياته فأوصى به ابنه عند مماته.

وأوصاه أن يصنع الخير والمعروف إلى أبناء برزلاي الجلعاوي، وأن يكونوا من الآكلين على مائدته، لأنَّ أباهم أحسن الصنيع إلى داود عند هربه إلى محنائيم (محنة) من وجه أبشالوم. وأضاف الملك وحاشيته وقد رافقه أبنائه عند عودته إلى أورشليم. وبعد أن أوصى داود الملك العادل الصالح ابنه أن يعاقب من ساء ويثيب من أحسن أضجع مع آبائه. فدفنه ابنه سليمان بعظيم الاحتفاء والاجلال في مدينة داود.

وقال بطرس الرسول في خطبته إلى اليهود (أعمال الرسل فصل ٢ عد ٢٩): إنَّ قبره كان باقياً عندهم إلى أيامه. وقد ملك داود أربعين سنة سبعاً منها في حبرون (الخليل)، وثلاثاً وثلاثين في أورشليم، وفي سنة بدء مُلكه وتمليك ابنه سليمان خاف فقال لانرمان: ابتداءً مُلك داود سنة ١٠١٢ ق.م. وانتهى سنة ٩٧٣ ق.م وقال كلمت ملك سنة ١٠٥٠ ومات سنة ١٠١٠ وقال الأب فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٤٢٠ و ٤٤٢) إنَّ القول الذي يسلم به جمهور العلماء إنما هو أنَّ داود ملك سنة ١٠٥٥ ق.م ومات سنة ١٠١٥ فملك سليمان إلى سنة ٩٧٥ وسوف نستأنف الكلام في هذا الشأن.

قد كتب داود الزبور والأظهر أن ليس كلها له بل كتب بعضها أساف وهيمان ويدوتون. بدليل أنَّ بعض الزبور علّق عليها اسم كاتبها وبعضها جاء فيه ذكر سبي بابل، فلا يمكن أن يكون لداود وللمرغمين المذكورين لأنهم كانوا قبل سبي بابل بقرون. وروى يوسفوس (تاريخ اليهود ك ٧ ف ١٢) إنَّ سليمان دفن مع جثة أبيه أموالاً غزيرة. وأنه لما حاصر أنطيوخوس بن دمتريوس أورشليم فتح هركان عظيم الأبحار مدفن داود فأخذ منه ثلاثة آلاف وزنة ذهب دفع بعضها إلى الملك فرفع الحصار عن أورشليم. وأنَّ هيرودوس استخرج بعد ذلك مقداراً من المال من جهة أخرى من مدفن داود. فقد يمكن أن يكون يوسفوس تلقى هذا الخبر عن مذكرات تقليد شفاهي ولكن لا يمكن القطع بصحته.

الفصل الرابع عشر

سليمان

عد ٢٧٦

بواكير أعمال سليمان

معنى سليمان ذو السلم والسلامة سمي به لأنه وُلد لأبيه من بتشابع في مدة السلم والراحة التي عقيت محاربة داود للعمونيين وهو بمعنى فريدريك عند الألمان وإيريناوس عند اليونان. وكان عمر سليمان يوم مَلِكَ عشرين سنة. وقد حباه الله بأحسن الأخلاق الطبيعية والمعنوية. وجمع في باكورات أعماله بين الذكاء والسطوة. فأمال قلوب شعبه وغيرهم إلى محبته وأهابه. فقد زاحمه أخوه أدونيا على الملك وكانت عادات ملوك آسيا في مثل ذلك تقضي بقتل من غلب كلفاً باستتباب الراحة في المملكة. أما سليمان فقد عفا عن أخيه على شريطة أن لا يصنع سوءاً وأن ينكف عن مطعمه فعاد يمتنّ قائلاً: إِنَّ حَقَّ الملك له ويطلب بعد وفاة أبيه أن يتزوج بأبيشاج الشونمية مدفنته متعمداً تقوية دعواه، وإكثار محازبيه بهذه الذريعة. ولجأ في مطلبه إلى أم الملك حتى إذا أذعن ابنها لها نال أدونيا ما يبتغي وإن ردَّ سؤالها أوقع فتوراً بينهما. فتدارك سليمان الأمر بحكمته فاسترضى أمه بركة كلامه إذ قال لها ما بالك تطليين له أبيشاج؟ أطلبي له الملك لأنه أخي الذي هو أكبر مني. وأرسل على يد بنايا بن يوياداع فبطش به كيلاً يواصل مساعيه الخبيثة ويقلق الراحة فمات.

وإذا راعينا عادات أيامهم لقينا معذرة لقتل سليمان أخاه، ووجدنا مثلاً لذلك في تلك الأيام منها ما أنبأنا به الآثار الآشورية أنّ آشور بانيبال ملك آشور أهلك أخاه سولوجينا. ومن الآثار الهندية صورة الملك أوتنك زايب جالساً على عرشه يحدِّق به رجال دولته وأحد أعوانه يطرح بين يديه رأس أخيه المسمى دارا شروك مقتولاً بأمره.

ثم عزل سليمان أبياتار الخبر عن كهانة الرب لأنه كان محازباً لأدونيا. وقد قال له الملك: انصرف إلى عناتوت إلى حقولك فإنك رجل مستحق الموت لكنني لست أقتلك اليوم لأنك حملت تابوت الرب بين يدي أبي، وعانيت كل ما عاناه. وعناتوت هي المسماة اليوم عيناتا على ثلاثة أميال في الشمال الشرقي من أورشليم (كتاب أعلام الأماكن الكتابية. وكاران نقلاً عن أوسايوس والقديس إيرونيموس ويوسيفوس). وبقي صادوق وحده عظيم الأخبار كما كان عظيم الأخبار أبداً واحداً إلا في مدة داود إذ قضت عليه أحوال أيامه أن يكون للأخبار رئيسان أبياتار وصادوق.

ونمي الخبر إلى يواب فخاف لأنه كان قد حازب أدونيا وتذكر قتله أبير وعماسا. وهرع إلى خباء بيت الرب، وأخذ بقرون المذبح فأرسل الملك إليه بنايا بن يوياداع فقال له: أمر الملك أن تخرج من هنا فقال كلاً، ولكن ههنا أموت فعاد بنايا، وأخبر الملك بما قال. فأجابه سليمان: إفعل به ما قال وأبطش به وأدفنه. واصرف عني وعن بيت أبي الدم الذكي الذي سفكه دم أبير وعماسا اللذين قتلهما عامداً، وفي حين سلم وعلى غير علم أبي وليردد الرب دمهما على رأسه ورؤوس ذريته. فانطلق بنايا وقلته ودفنه في بيته في البرية، وعهد الملك بقيادة جيشه إلى بنايا. لقد غني بعض مفسري الكتاب بتبرئة سليمان وبنايا من الإثم لقتل يواب في جانب المذبح مستمسكين بأن المذابح في تلك الأيام كانت تقدم عليها الذبائح الدموية لله خلافاً للمذابح في العهد الجديد. وقتل الأثيم محرقة لله فلا حرج على سليمان ولا على بنايا بقتله هنالك وأوجب غيرهم الإثم عليهما لأن السنة حظرت ذلك، وكان للملك أن يقيم خفراً ينتظر خروج يواب ليقتله وقال لم يكن سليمان أعطى بعد الحكمة من الله ففرط منه الأمر بقتل يواب آخذاً بقرون المذبح كما أقدم بعداً على ما هو شر من هذا الإثم، (ملخص عن كسبردوس سنكتيوس في تفسير أسفار الملوك عن طبعة الأب مين). وقد استدعى سليمان شمعي الذي كان لعن داود وهو من بحوريم (قرية أبي ديس الآن) وأمره أن يبنى بيتاً في أورشليم ولا يخرج خارج المدينة، واستحلفه على ذلك فحلف عل أنه أي يوم خرج يموت موتاً. واتفق بعد ثلاث سنين أن أبقى له عبدان إلى أكيش ملك جت (ذكرين)، فخرج في طلبهما وأتى بهما فخبر سليمان بخروجه وعودته فاستدعاه وذكره يمينه للرب وبما فعل بداود أبيه، وأمر بنايا بن يوياداع فقتله.

زواج سليمان بابنة فرعون

قد استقر الملك في يد سليمان ومات مخالفوه. وأخذ الروح بمخالفهم كل مأخذ، واستتبت الراحة واستفحل أمره. وكانت المملكة التي أورثه أبوه إياها فسيحة الأرجاء كثيرة الشعوب تمتد من الفرات إلى تخوم مصر. وعمت صولته بلاده فشاء أن يكون في مأمن من سطو الخارجين، فحالف فرعون ملك مصر. وتزوج ابنته. وأما من كان فرعون هذا ومن أية دولة هو؟ فقال مسبرو (كتاب تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ٣٣٣ و ٣٥٦ طبعة ٤) إنه بسيناكس الثاني أحد ملوك الدولة الحادية والعشرين. وقد أثبتت الآثار المصرية أن هذه الدولة كثر فيها التنارع على الملك. ولذلك كان ملوكها يحتاجون إلى محالفات مع الأجانب فشر فرعون بزواج ابنته بسليمان كما شر العبرانيون بأن يصاهر ملكهم فرعون بعد أن كانوا أسرى لدولته. وبين المفسرين خلاف في ما إذا كان مثل هذا الزواج مخالفاً لسنة موسى أو مباحاً بها وأكثرهم على سنة موسى لم تحظر على العبرانيين إلا التزوج بالكنعانيات، وإباحته بغيرهن من الأجنيات. وقال بعضهم: قد تكون الأميرة المصرية تهودت، ولا أثر للعبادة المصرية الوثنية في فلسطين منذ تلك الأيام على أن دي سولسي قال (في كتاب رحلته حول البحر الميت) إنه اكتشف معبداً مصرياً في القرب من أورشليم كان سليمان قد بناه لإمرأته بنت فرعون. وقال الأب فيكورو (في المحل المذكور صفحة ٤٢٦) نرى حجة تثبت مقال دي سولسي بل نرى هذا المعبد أحدث نشأة من ذلك العصر.

كان من عادة الملوك أن يعطوا بناتهم عند زواجهن مهراً وافراً فلا علم لنا بما أتت به ابنة فرعون إلى سليمان صداقاً. وقد كشف في مصر آثار منبئة بعقود زواج فإذا هي حاوية غالباً ذكر أملاك عديدة أعطيتها المرأة عند زفافها. على أنه جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ١٦) استطراداً ذكر شيء من مهر بنت فرعون إذ قيل إن فرعون صعد إلى جازر وأخذها وأحرقها وقتل الكنعانيين المقيمين فيها. ووهبها مهراً لابنته زوجة سليمان. وأما موقع جازر هذه فقد مر (عد ٢٧١) نقلاً عن كتاب الأعلام الكتائية إنه كان في المحل المسمى اليوم تل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص. وقال فيكورو (في المجلد المذكور صفحة ٤٢٨) فيها إن

موقعها استمر إلى سنة ١٨٧٠م نكرة لا تُعرف إلى أن كشف عنه كارمون كانو مهتدياً إليه بما جاء في كتاب تاريخ القدس وحبرون لمحير الدين. وقد وُجد ثمة خطوطاً بالعبرانية واليونانية تصرّح باسمها جازر وهي على خمسة كيلومترات عن خلدة قبالة القرية المسماة الآن أبوشوشة على يمين المسافر من يافا إلى أورشليم. وهناك أطلال دالة على أنه كان ثمة مدينة محصنة. وتعريف فيكورو لها لا يخالف وضعاً تعريف كتاب الاعلام الكتائية لموقعها، فقد عرفها فيكورو بما في جنوبها وهو خلدة وفي شمالها وهو أبوشوشة وعُرفت في الكتاب المذكور بما في شرقها وهو عمواص.

عد ٢٧٨

حكمة سليمان وقضاؤه بين المرأتين البغيين

قال الكتاب (ملوك ٣ فصل ٣ عد ٣): «وأحب سليمان الرب سالكاً على سنن داود أبيه لكنه كان يذبح ويقتّر (أي يقدم البخور) على المشارف». وبين المفسرين خلاف في ما إذا كان سليمان اثم في ذبحه وتقتيره على المشارف أو لم يأثم. فبرأ بعضهم ساحته من الإثم سنداً إلى أنّ داود وإليّا وغيرهما ذبحوا ذبائح لله في غير بيت الرب. وأنه قبل بناء بيت الرب لم تكن السنّة الأمرة بتقديم الذبائح فيه ملزمة. وأوجب بعضهم الإثم عليه لأنّ السنّة صرّحت بخطئ مثل ذلك إذ قيل (تثنية ف ١٢ ع ١٣): «إحذر أن تُصعد محرقاتك في أي موضع رأيته إلا في الموضع الذي يختاره الرب». (ملخص عن سنكتيوس في تفسير هذه الآيات). وليس الأمر كذلك في ما ذكره الكتاب بعد الآية السالفة «وانطلق الملك إلى جبعون (الجب) ليذبح هناك لأنّها هي المشرف الأعظم. وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح». فقد جاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢١ عد ٢٩): «إنّ مسكن الرب الذي عمله موسى في البرية ومذبح المحرقة كانا في ذلك الوقت في مشرف جبعون». ولا يعلم متى نقل خباء المحضر إلى جبعون.

فقد مرّ أنّ داود نقل تابوت العهد من قرية يعريم (أي غوش) إلى أورشليم. ويظهر من هذه الآية أنّ الخباء ومذبح النحاس اللذين صنعا في البرية كانا يومئذ في جبعون، ولذلك تقبل الرب ذبائح سليمان وتجلّى له في الحلم ليلاً وقال له أطلب ما

أعطيك، فلم يطلب إلا حكمةً وفهماً ليحكم حكماً مستقيماً بين الشعب الذي ألقى الرب أزمته إليه. فحسن هذا الطلب في عيني الرب وقال بما أنك لم تسأل أياً طويلاً ولا غنى ولا نفوس أعدائك بل سألت حكمةً لتفقه الحكم. فهأنذا معطيك قلباً حكيماً فهماً حتى أنه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك. وما لم تسأله أعطيتك إياه الغنى والمجد أيضاً وإن حفظت وصاياي كداود أهلك أطيّل أيامك. وعاد سليمان إلى أورشليم وأصعد فيها أيضاً محرقات وذبائح وعمل مأدبة لجميع عبيده.

قد أبرز سليمان ذلك القضاء المشتهر بين امرأتين بغيّين كانتا تسكنان بيتاً واحداً، وولدت كل واحدة منهما ابناً فمات ابن إحدهما لأنها أضجعت عليه فوضعت في جانب الأخرى، وأخذت ابنها الحيّ. ولما استيقظت هذه عرفت أنّه ليس ابنها وأخذت كلّ منهما تدّعي الابن الحيّ أمام سليمان فقال: عليّ بسيف فأتوا به فقال: اشطروا هذا الولد الحيّ واعطوا كلّاً منهما شطراً. فقالت أمه لا يا سيدي أعطوها الصبي حياً ولا تقتلوه. وقالت الأخرى بل اشطروه فلا يكون لاي ولا لي. فقال الملك: ادفعوا الولد للأولى لأنها أمه، فسمع جميع إسرائيل هذا القضاء فهابوا وجه الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه.

إنّ إحكام سليمان سياسة مملكته زاد في محبة شعبه له، ومكّن علاقاته مع مخالفيه. وأراع مخالفيه فرقته حكيمته ذرى المجد والمهابة. فشاوّل قلّ ما صنع لنجاح مملكته فلم يكن له أعوان ولا اتخذ جنوداً مستمرين في الخدمة إلاّ عدداً يسيراً ولم يجعل لنفسه مركزاً ثابتاً. وكان إذا فرغ من مهام مملكته انقطع إلى الإهتمام بحقوقه ولم يفرض ضريبة ولا جزية على شعبه. وداود أكسب الملك رونقاً ونظاماً وأقام الجندية ووضع أصولاً للسياسة. ورثب الخدم الدينية. وجعل أورشليم عاصمة للملكه فكانت بمنزلة القلب من جسم الأمة. ويُرجّح أنه لم يفرض ضرائب ولا جزية على الشعب، وكانت نفقاته من ريع أملاكه وماشيتته. ومن الغرامات الحرية التي كان يكره عليها من استظهر عليهم. وأما سليمان ففاق أباه وجميع ملوك أمته بحكيمته وتدبير مملكته. وعظمت سطوته وصولته وغناه وكثرة آثاره وفخامتها.

هيئة حكومة سليمان وموارد دخله ونفقاته

كانت دولة سليمان مؤلفة من موظفين في بلاطه وعمال في جهات البلاد. فكان عزريا بن صادوق الحبر رئيساً للموظفين في البلاط واليخوف وأحيا كاتبي أسرار الملك ويوشافاط بن أحيلود مسجلاً كما كان في أيام أبيه. وبنايا بن يوياداع رئيساً على الجيش. وكان أبيتار الحبر حالف أدونيا فاضطر أن يعزله من منصبه. وبقي له لقب حبر ولكن كان صادوق وحده قائماً في منصب الحبرية ورئاسة الدين. وعزريا بن ناثان أخي سليمان رئيس العمال في الجهات. وأخوه زابور نديم الملك ومستشاره. واحيشار قيم بلاطه وأدونيرام على الخراج. وكان للملك جنود كثيرون، وكانت مملكة سليمان منقسمة إلى اثنتي عشرة ولاية وله فيها اثنا عشر والياً أو عاملاً. أنخص فروض هؤلاء الحكام جباية الجزيات. واستيفاء الأموال الأميرية. وكانت هذه الضرائب تؤخذ عيناً أي يؤخذ قسم من الغلال كما يؤخذ في هذه الأيام من غلال الأرض السلطانية. وقد اكتشفت في هذا العصر آثار كثيرة آشورية يتبين منها أن الضرائب كانت تؤخذ عيناً من الغلات والماشية ونتاجها. وكذلك كانت العادة في مصر فقد قال مسبرو (التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ١٩ طبعة ٤) اعتماداً على آثار مصرية: «إن الأهلين كانوا يعطون الملك وعماله الضرائب عيناً بحسب غناهم. وكان توزيع ذلك يستلزم إحصاء النفوس ومساحة الأرضين بتواتر». وكان على ولاية الأعمال الإثني عشر أن يقدم كل منهم ميرة (مصرف الطعام) للقصر الملكي شهراً في كل سنة.

وكان لسليمان موارد أخرى للدخل منها التقادم التي اعتادوا رفعها إلى الملوك عند تبوئهم العرش كما يظهر من سفر الملوك الأول (فصل ١٠ عد ٢٧). حيث ورد أن مخالفي شاول «ازدروه ولم يقدموا له الهدايا» وقد مر معنا ذكر ذلك. ثم في آونة الحرب كما يظهر من السفر المذكور (فصل ١٦ عد ٢٠) إن يسي بعث مع ابنه داود إلى شاول عند حربه مع الفلسطينيين «خبزاً وزق خمر وجدياً». ثم لدى المثلوث أمام الملك كما يتبين من سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٥) حيث قيل: «وكان كل واحد يأتيه (أي يأتي سليمان) بهداياه من آنية فضة وآنية ذهب. ولباس وسلاح وأطياب وخيل وبغال في كل سنة». وكانت لسليمان ضرائب بطريق

المكوس على البضائع والسلع التي يؤتى بها إلى بلاده أو تمر بها. فقد جاء في الفصل المذكور (عد ١٥): «غير الوارد من المكاسين ومن تجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض». هذا خلا الجزيات التي كان يضربها على الولاة الأجانب الخاضعين له وعدا لإحتكاره بعض صنوف التجارة كالذهب والخليل كما هو بين من سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٧ وفصل ١٠ عد ٢٨).

وأما نفقاته فقال فيها الكتاب (فصل ٤ عد ٢٢ وما يليه) وكان طعام سليمان في كل يوم ثلاثين كراً من السميد وهو لباب الدقيق. وستين كراً من الدقيق وعشرة ثيران مسمنة وعشرين ثوراً من المرعى. ومئة من الشآه هذا غير الأيائل (جمع أيل) والظباء واليحمير (جمع يحمور وهو حمار الوحش أو طائر) وسمان الطير. والكّر يساوي كيلو غرام و ٢٣٠ غراماً. فقال بعضهم إن هذه الميرة تكفي لقوت ثلاثين ألف نفس. وقال غيرهم إنها كافية لثمانية وأربعين ألفاً أو لأربعة وخمسين ألفاً من النفوس. وقال الأب فيكورو (المجلد المذكور صفحة ٤٣٨): والأظهر إنها لا تمون إلا أربعة عشر ألف نفس. والراجح أن الجنود كانوا ينفقون على أنفسهم لا سيما أنهم لم يكونوا يتجندون إلا شهراً في كل سنة بحسب النظام الذي فرضه داود. وليست هذه النفقات كثيرة على قصر ملكي في المشرق.

فقد روى ثقات أن ملوك الفرس في تلك الأيام كانوا ينفقون كل يوم ألف ثور. وروى تافرينا (في مقالته الموسومة بداخل قصر السلطان المطبوعة في باريس سنة ١٦٧٥ م) إنه كان ينفق في القصر خمس مئة خروف كل يوم. «وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخليل مراكبه وإثنا عشر ألف فارس». كذا في سفر الملوك الثالث (فصل ٤ عد ٢٦). ولكن جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٩ عد ٢٥): «وكان لسليمان أربعة آلاف مزود لخليل المراكب وإثنا عشر ألف فارس فأقامهم في مدن المراكب وفي أورشليم». فكانت آية سفر الملوك هذه وسيلة لتنديد فولتر وتهكمه بالكتاب وأخطأ معنى اللفظ اللاتيني Praescpia ففهمه بمعنى مرتبط لا بمعنى مزود أي معتلف أو معلف كما هو في الأصل العبراني. وفرض في كل مرتبط عشرة أفراس فكان مجموع خيل سليمان على زعمه أربع مئة ألف فرس. وجعل الإثني عشر ألف فارس إثني عشر ألف مرتبط فكأن منها مئة وعشرين ألف فرس فكان المجموع خمس مئة ألف وعشرين ألف فرس. سخر من الكتاب بذكرها قائلاً: هذا كثير على ملك لم يحارب على أنه إذا فهم كلام الكتاب بمعناه

الصحيح وبحسب النص العبراني أي أربعين ألف مزود أو معلف فلا يكون لسليمان إلا أربعين ألف فرس. وهذا ليس بالكثير على مثله ولو أضفنا إليه إثني عشر ألف فرس لأثني عشر ألف فارس.

وقد كان عسكره منذ أيام أبيه زهاء ثلاث مئة ألف رجل فيكون لسدسهم فقط أفراس لكن المحققين من العلماء والمفسرين أثبتوا أن العدد الوارد في سفر الملوك زلة قلم من النساخ. وصوابه أربعة آلاف مزود كما في سفر أخبار الأيام ويؤيده أنه جاء في الكتاب أن سليمان كان له ألف وأربع مئة مركبة فالأربعة آلاف فرس لا تزيد على ما يلزم لها. وقد رأينا وسنرى أمثلة كثيرة لزلات أقلام النساخ طالع ما ذكرناه في عدد ٢٧٤. (ملخص عن دوكلو في تفسير الآيات المذكورة في طبعة الأب مين).

عد ٢٨٠

محالفة سليمان لحيرام ملك صور وأخشاب الأرز

لم يُعَنِّ سليمان بنظام مملكته في الداخل فقط بل حرص على حفظ علائق الوداد مع أصدقاء أبيه وحلفائه في خارج المملكة، فجدد مع حيرام الثاني ملك صور ما كان بينه وبين داود من التحالف والتحاب. وقد مرَّ في مقالة الفينيقيين عد ١١٧ ما كان سليمان وحيرام من المراسلات. وكان حيرام أرسل إلى داود أخشاباً من الأرز لم يرها سليمان كافية لبناء بيت الرب فأرسل يقول لحيرام قد علمت إن داود أبي لم يقدر أن يبنى بيتاً للرب إلهه بسبب الحروب التي أحاطت به وقد أراحني الرب من كل الجهات، فنويت أن أبني هذا البيت، فمرَّ بأن يُقطع لي أرز من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك، وأجرة عبيدك أؤديها كما تحب. ففرح حيرام بكلام سليمان وأجابه إنه سيتم كل مرضاته في خشب الأرز وخشب السرو، وإن عبيده ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر. فيجعله أطوافاً في البحر إلى الموضع الذي يسميه سليمان له. وإن ما يرضيه إنما هو أن يرسل سليمان إليه بعض المون، فكان حيرام ينزل الأخشاب من الجبل إلى جيبيل ويرسلها أطوافاً إلى يافا.

وهذا مؤذن بأن أشجار الأرز كانت في جبال بلاد جيبيل أيضاً لا في جبّة بشري وحدها كما هي الآن، وإلا لزم شحنها من طرابلس إلى البترون لا من

جبيل؛ وكان سليمان يرسل إلى حيرام كل سنة عشرين ألف كز من الخنطة، وعشرين ألف كز من زيت الرضى وقد مرَّ أنَّ الكر يساوي ٣٣٨ كيلو غرام و٢٣٠ غراماً. وزاد في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢ عد ١٠) عشرين ألف كز من الشعير، وعشرين ألف بث من الخمر، والبث مكيال أو إناء متعارف عندهم. وسخر سليمان من بني إسرائيل ثلاثين ألف رجل لقطع الأخشاب من لبنان مع رجال حيرام. وكانوا يتناوبون العمل فيمضي عشرة آلاف رجل منهم فيقيمون في لبنان شهراً وفي بيتهم شهرين. وقد كان لهؤلاء المسخرين طعامهم كما كان لرجال حيرام.

كان لخشب الأرز عند الأقدمين منزلة عليا لصلابته ونساعة لونه، وذكاء رائحته، وندرة وجوده. حتى كان ملوك مصر وآشور وغيرهم يتباهون به في قصورهم. وقد أنبأنا خطوطهم الهيروكليفية والمسمارية أنهم كثيراً ما استأثروا من هذه الأخشاب من لبنان أو جعلوها جزية على أهلها. بل وجدت أطلال قصورهم قطع عديدة منها تحملت كرور القرون الكثيرة عليها وهي سالمة لم يعرّها فساد ولم ينخرها سوس.

وروى العالم لايرد في كتابه في نينوى وبابل، أنه بين كان يحفر في أخربة قصر آشور نزيروبال في نمرود وكان البرد شديداً. أصلى عملته ناراً ليصطلوا، وألقوا فيها قطع خشب كانوا وجدوها في تلك الأخربة، فدلته رائحتها على أنها من خشب الأرز. فتكون حفظت رائحتها على كرور ثلاثة آلاف سنة عليها. وقد نُقِلَ بعض هذه الأخشاب إلى المتحف البريطاني وصقل بعضها فظهرت ألوانه زاهية. وروى سميث في تاريخ آشور بانيبال إنه كُتِبَ على أثر لهذا الملك أنه اعتمد بناء قصره على أرز لبنان. وقال شباس (في كتابه الموسوم بدروس القدم صفحة ١٢٧): إن المصريين قبل أيام ابراهيم كانوا ينقلون الأخشاب للبناء من شواطئ فينيقية إلى مصر. وقد كُتِبَ على صفيحة في متحف اللوفر أنَّ أمانيسانب كان مأموراً أن يزئ مذابح هيكل أبيدوس بخشب الأرز. وكانوا يستعملون هذا الخشب في مصر لعمل كثير من الآنية ولعمل توايت الموتى.

وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢ عد ١٧ و ١٨) أنَّ سليمان أحصى جميع الاجانب الذين في أرض إسرائيل فكانوا مئة وخمسين ألفاً وثلاثة آلاف

وست مئة رجل، فأخذ منهم سبعين ألف حَمَّال. وثمانين ألف قطاع في الجبل. وثلاثة آلاف وست مئة يناظرون على عمل القوم. وإذا نظرنا إلى حالة تلك الأيام وصعوبة النقل فيها لعدم وجود آلات عصرنا لم نستعظم عدد المئة والثلاثة والخمسين ألفاً الذين أعملهم سليمان في قطع أخشابه، وحجاره ونقلها من الجبل إلى جبيل. ومن يافا إلى أورشليم. ومن محل الحجارة إلى موضع الهيكل. ولو أضفنا إلى هؤلاء الثلاثين ألفاً الذين سَخَّرهم سليمان من بني إسرائيل.

فقد روى هيرودت أنَّ هرم كابوس في مصر لزم لبنائه عمل مئة ألف رجل في مدة عشرين سنة. وروى بلين أنَّ رعمسيس لزمه عشرون ألف رجل لنصب مسلة. وقد زعم بعض المفسرين منهم كلمت أنَّ حجارة الهيكل قُطعت من جبل لبنان أيضاً لقول الكتاب يقطعون في الجبل لكن الإكتشافات الحديثة حققت أنَّ ما بقي من حجارة الأساس إلى اليوم مقطوع من المقاطع المسماة الملكية الكائنة في جبل بيت زيتا من ضواحي أورشليم. فيلزم أن تكون حجارة سائر البناء كذلك فالمراد بالجبل إذاً جبل بيت زيتا لا جبل لبنان. ولا يُعلم كم كان عدد الفينيقيين الذين كانوا يعملون في هيكل سليمان. ولكن الظاهر أنَّ كثيراً من البُنائين والنحاتين كانوا من جبيل لذكر الكتاب لهم ذكراً مخصوصاً إذ قال: «نحتها بُنَّاءو سليمان وبُنَّاءو حيرام والجبليون» أي الجبيليون وقد شهد حزقيال (فصل ٢٧ عد ٩) بمهارتهم.

عد ٢٨١

هيكل سليمان وأولاً في سنة بنائه

جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٦ عد ١): «وكان في السنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من مصر، في السنة الرابعة من مُلك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني إنه بنى بيت الرب». كذا في النص العبراني وفي الترجمة اللاتينية المعروفة بالعامية، وفي الترجمات الكلدانية والسريانية والعربية. وأما الترجمة السبعينية ففي نسخها المخطوطة التي في المكتبة الواتيكانية وفي مكتبة كمبريدج. «في السنة الأربع مئة والأربعين». وتابعتها على ذلك الجامعة (الكتاب المقدس بعدة لغات) التي طبعت في إنكلترا، ولكن في نسخها التي كانت عند الكاردينال كسيمانس وغيرها «السنة الأربع مئة والثمانين»، كما في النص العبراني. وتابعتها على ذلك من طبعوا جامعتي انفرنس وباريس. وقال يوسيفوس (في ك ٨

فصل ٢ من تاريخ اليهود) إنَّ تلك السنة كانت السنة ٥٩٢ للخروج. وسنة ١٠٢٠ بعد خروج ابراهيم من أور الكلدانيين. وسنة ١٤٤٠ بعد الطوفان. وسنة ٣٢٠٢ لخلق العالم. فيوسيفوس ممن قالوا: إنَّ سني العبودية في مصر لم تكن إلاَّ مئتين وخمسة عشرة سنة كما مرَّ في عد ٩٤. ولم يقرَّ على رأي في هذه الأعداد فلا يُعتدَّ بها.

ان آية سفر الملوك هذه كبيرة الأهمية ولا سيما لكشفها عن عداد السنين التي مرَّت من وفاة موسى إلى ملك شاول على بني إسرائيل. وقد اعتاص حصر هذه السنين على المفسرين والعلماء لعدم حصر سني القضاة كما مرَّ؛ فإذا لجعل عدد الأربع مئة والثمانين سنة اسماً لحساب السنين من الخروج إلى بناء الهيكل، وخطَّ منه ما صرَّح الكتاب به وهو أربعون سنة، مدة إقامة بني إسرائيل في البرية، وخمسة وعشرون سنة مدة قيادة يشوع بن نون لهم، وأربعون سنة مدة ملك شاول، وأربعون سنة مدة ملك داود وأربع سنين من ملك سليمان قبل الشروع في بناء الهيكل، كانت مدة القضاة من موت يشوع إلى مسح شاول ملكاً ثلاث مئة وإحدى وثلاثين سنة بحسب الجدول الذي وضعناه في عد ٢٢٦. وقد وضع الأب فيكورو (الموجز الكتابي عد ٤٥٠) جدولاً آخر، أبان به هذه السنين، وبجانبها السنين التي بعد الخروج إلى الهيكل. فأثرنا تلخيصه تكميلاً للفوائد وتكملة لما ذكرناه في العدد المذكور ولإفترضه أن الشروع في بناء الهيكل كان سنة ١٠١٢ ق.م. كان الخروج عنده سنة ١٤٩٢ بعد حط ٤٨٠ سنة المذكورة.

سنة ق.م	سنة	قبل بناء الهيكل
١٤٩٢	...	الخروج
١٤٥٢	٤٠	إقامة بني إسرائيل في البرية
١٤٢٧	٢٥	مدة يشوع بن نون
١٤٠٩	١٨	راحة من الحروب
١٤٠١	١٠	إستيلاء كوشان رشعنائيم
١٣٦١	٤٠	قضاء عتنييل واستراحة
١٣٤٣	١٨	إستيلاء الموابين عليهم

١٢٦٣	٨٠	قضاء أهود وسلم في جنوبي فلسطين وكان في شماله إستيلاء يابين وقضاء دبوراً وباراق
١٢٥٦	٠٧	إستيلاء المدينيين
١٢١٦	٤٠	قضاء جدعون وسلم
١٢١٣	٠٣	قضاء أبيملك
١١٩٠	٢٣	قضاء تولع
١١٦٨	٢٢	قضاء يائير الجلعاوي
١١٠٨	٦٠	وكان في غربي الأردن إستيلاء الفلسطينيين في مدة عالي سنة ٤٠ منها ٢٠ سنة كان فيها تنكيل شمشون بهم ثم ٢٠ سنة في قضاء صموئيل مجموعها ٦٠ سنة وكان في شرقي الأردن إستيلاء العمونيين ١٨ وقضاء يفتاح ٦ سنين وابضان ٧ وأيلون ١٠ وعبدون ٨ ومن قضاء صموئيل ١١ مجموعها ٦٠ سنة
١٠٩٥	١٣	تتمة مدة صموئيل إلى مسح شاول
١٠٥٥	٤٠	شاول
١٠١٥	٤٠	داود
١٠١١	٠٤	سليمان إلى بناء الهيكل
٤٨١		فالمجموع أربع مئة وثمانون سنة بعد الخروج. وسنة لإحدى وثمانين شرع في بناء الهيكل.

ويجدر بنا أن نثبت هنا الجدول الذي وضعه الأب البلجيكي في مقاله المعلقة
في المجلة الموسومة بالعلم الكاثوليكي؛ مجلة المباحث الدينية في عددها الصادر في
٢٥ أيلول سنة ١٨٩٣ م في بيان الطباق بين تواريخ الكتاب والآثار الآشورية
والمصرية. وقد ذكرنا خلاصة هذه المقالة في عد ١٥١ من هذا الكتاب، ومن رأي
المؤلف إنَّ الخروج كان سنة ١٥٠٠ ق.م، وإنَّ بناء الهيكل أخذ فيه سنة ١٠٢٠
ق.م وإليك الجدول.

سنة ق.م

٠٧٢١ خراب السامرة وارتقاء سرغون عرش آشور

٠٧٢٤	سبي هوشع ملك إسرائيل في السنة ٩ من ملكه وسنة ٦ من ملك حزقيا في يهوذا
١٠٢٠	وقد جعل مدة ملوك إسرائيل إلى بناء الهيكل ٢٩٦ فقال الاخذ في بناء الهيكل
١٥٠٠	الخروج سنة ٤٨٠ قبل بناء الهيكل
١٩٣٠	إقامة بني إسرائيل في مصر سنة ٤٣٠
٢٠٦٠	دخول يعقوب إلى مصر وعمره ١٣٠ فيكون مولده
٢١٢٠	اسحق ولد يعقوب وعمره ٦٠ فيكون مولده
٢٢٢٠	ابراهيم ولد اسحق وعمره ١٠٠ فيكون ولد

فإذا أسقطنا خمساً وسبعين سنة كما كان عمر ابراهيم عندما شخص إلى أرض كنعان فيكون بلوغ ابراهيم فلسطين سنة ٢١٤٥ على رأي هذا العالم. وإذا أسقطنا من هذا العدد ٢١٥ مدة إقامة ابراهيم ونسله في فلسطين، و ٤٣٠ سنة مدة العبودية في مصر كان المجموع ٦٤٥ وكان الخروج ١٥٠٠ كما هو رأيه وهو لا يختلف عن رأي فيكورو إلا بثماني سنين. فإن أضفنا إلى هذا الجدول سني حياة الآباء من الطوفان إلى مولد ابراهيم، وهي ٢٩٢ سنة كما في الجدول الذي وضعناه في عد ١٥١. ثم سني الآباء من آدم إلى الطوفان وهي ١٦٥٦ سنة كما في الجدول الذي وضعناه في عد ٢٣ بحسب النص العبراني. كان مجموع السنين من خلق آدم إلى الميلاد ٤١٦٨ ولا تنس ما ذكرنا من الاختلاف في ذلك بين النسخ. وما للعلماء من الأقوال المتباينة في هذا الشأن. ومما يستدعي الالتفات خاصة قصر المدة التي من الطوفان إلى مولد ابراهيم على ٢٩٢ سنة بحسب النص العبراني. فهذه المدة غير كافية لما ظهر بالآثار المصرية والبابلية من التمدن والتقدم وكثرة العدد في أنحاء مصر وبابل وغيرها.

وقد عنى العلماء والمفسرون تحقيق هذا البحث وحل هذه المعضلة. فلجأ بعضهم إلى تصحيح رواية الترجمة السبعينية أي أن هذه المدة ١٠٧٧ أو ١٠١٧ لا ٢٩٢ سنة. وحاول غيرهم إيجاد طريقة أخرى لحساب هذه السنين. فقال الأب شفاليا إن المراد بالسنة السار وهو كناية عن ثماني عشرة سنة وستة أشهر (طالع عد ٢٣)، أو جزء من السار وتابعه على بعض مذهبه الأب دومكس النائب الأول في

كنيسة سيدة الانتصار في باريس والذي توفاه الله من عهد قريب. وكان لنا صديقاً عزيزاً فهذا عرض على العلماء طريقة يراد بموجبها باسماء أرفخشاد وبنيه إلى تارح لا أعلام فردية بل أسرات أو دُول تحسب سنوها بحسب أعمار أولئك الآباء كاملة لا بحسبها إلى أن ولدوا أبناءهم كما حسبها جمهورهم. وقد نشرت المجلة الموسومة بالمجلة الكتائية فصلاً مطوَّلاً في هذا الشأن للأب اكتاف راي في عددها الرابع الصادر في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٣.

عد ٢٨٢

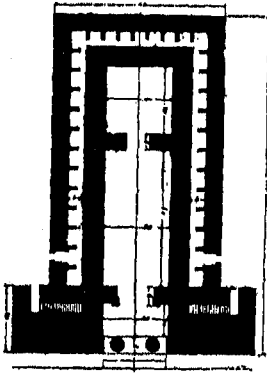
محل الهيكل وهيئته

أما محل الهيكل فكان في بيدر أرونا اليبوسي، والأرض التي شراها داود منه في جانبه، والذي عليه الأكثرون أنَّ هناك الجبل الذي أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه عليه. وسمي في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣ عد ١) جبل الموريا. أي جبل الرب على أنَّ قمة الجبل كانت تضيق عن بناء الهيكل فلزم توسيعها، وتسوية الأرض وإقامة جدار وعضائد متينة لإرساخاً للبناء. فبني شرقاً وغرباً حائطان عظيمان متوازيان. ورُدم ما بينهما وأما في الشمال فخفضت الأرض وترى إلى الآن صخوراً في الجهة الشمالية الغربية. قُطع جزء منه فتكوّن منه حائط طبيعي لا يقلّ علّوه عن ثمانية أمتار. وعكس ذلك في الجنوب فأنّ الأرض هناك كانت منخفضة فاحتيج إلى رفعها بعمل عقود باقية إلى اليوم. ولكن قال دي فكو (كتابه في هيكل أورشليم): إنَّ العقود التي في جنوبي ساحة الحرم الشريف هي من صنع العرب على مثال ما كان أولاً؛ وربما بقي شيء من بناء سليمان تحت الزاوية الجنوبية من الحرم وتحت الجامع الأقصى. وقال دي سولسي (في كتابه تاريخ الصناعة اليهودية صفحة ١٧٠) لا رية في أن سور الحرم هو سور هيكل سليمان. وقد قاس هذا العالم ساحة الهيكل على ما هي عليه الآن فقال إنَّ طولها شرقاً ٣٨٤ متراً وجنوباً ٢٢٥ متراً. وأما غربها فلا يقاس بخط مستقيم لميل في إلى جهتها الشرقية حتى كان شمالها أطول من جنوبها. وقاستها لجنة إنكليزية فقالت: إنَّ طولها شمالاً ٢٠٤٢ قدماً إنكليزياً وشرقاً ١٥٣٠، وجنوباً ٩٢٢ وغرباً ١٦٠٠ قدماً على أنَّ هذه الساحة لم تكن في أيام سليمان على سعتها الآن. قال يوسيفوس (ك ٥ في حرب اليهود فصل ١) إنَّ السور الخارج من جهة الجنوب وُسّع في عصر المكابيين. وقال أيضاً: إنَّ هيرودس وُسّع السور وزاده أربع غلوات إلى ست.

إنَّ الحِجَارَةَ الَّتِي أَقَامَهَا سُلَيْمَانُ فِي أَسْوَارِ الْهِيكَلِ كَانَتْ غَرِيبَةً فِي ضَخَامَتِهَا. وَقَدْ قَالَ الْكِتَابُ فِيهَا (مَلُوكُ ٣ فَصَل ٥ عَد ١٧): «وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَقْلَعُوا حِجَارَةً كَبِيرَةً حِجَارَةً ثَمِينَةً لِتَأْسِيسِ الْبَيْتِ». وَقَالَ يَوْسُفُوسُ (ك ١٥ فَصَل ١١ مِنْ تَارِيخِ الْيَهُودِ وَك ٥ فِي حَرْبِهِمْ) إِنَّ هَذِهِ الْحِجَارَةَ مِنْ أَغْرَبِ مَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ بِهِ وَإِنَّهُ كَانَ مِنْهَا مَا طُولُهُ أَرْبَعُونَ ذِرَاعاً (ثَلَاثُونَ مِثْراً). وَقَدْ بَالِغٌ فَأَنَّ أَكْبَرَ الْحِجَارَةِ فِي بِنَاءِ قَلْعَةِ بَعْلَبَك لَا يَبْلُغُ هَذَا الطَّوْلَ مَعَ أَنَّهَا أَكْبَرُ بَلَا مِثْرٍ مِنَ الصَّخُورِ الَّتِي فِي هَيْكَلِ سُلَيْمَانَ. وَضَخَامَةُ الْحِجَارَةِ فِي الْبِنَاءِ مِنْ أَصْطِلَاحَاتِ الْفِينِيقِيِّينَ وَذَلِكَ ظَاهِرٌ فِي أُورُشَلِيمَ وَبَعْلَبَكِ، وَأَسْوَارِ طَرطُوسَ وَهَيْكَلِ عَشْتَرُوتَ فِي الْبَابِ فِي قَبْرِصَ وَغَيْرِهَا. قَالَ الْعَالِمُ وَارَانُ أَحَدُ أَعْضَاءِ اللِّجْنَةِ الْعِلْمِيَّةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ لِلْبَحْثِ فِي فِلَسْطِينَ إِنَّ احْتِفَارَهُ فِي أُورُشَلِيمَ أَذَاهُ إِلَى التَّحْقِيقِ أَنَّ سُورَ الْهِيكَلِ الْجَنُوبِيِّ كَانَ بِنَاؤُهُ فِي عَصْرَيْنَ لِأَنَّ الْجِهَةَ الشَّرْقِيَّةَ مِنَ الْبَابِ الْمُضَاعَفِ هِيَ مِنْذُ عَهْدِ سُلَيْمَانَ، وَالْجِهَةُ الْغَرْبِيَّةَ مِنْ أَيَّامِ هِيرُودُسَ، وَأَحْسَنَ مَا حُفِظَ هُنَاكَ مِنْ بِنَاءِ سُلَيْمَانَ إِنَّمَا هُوَ الْحَائِطُ الْغَرْبِيُّ حَيْثُ يَجْتَمِعُ الْيَهُودُ كُلَّ يَوْمِ جُمُعَةٍ فَيَنْوَحُونَ عَلَى خِرَابِ الْهِيكَلِ. إِلَى أَنْ يَقُولَ أَنَّهُ كَشَفَ فِي أَسْوَارِ سَاحَةِ الْهِيكَلِ سَنَةَ ١٨٦٨ مَ عَنْ حِجَارَةٍ نُقِشَتْ عَلَيْهَا حُرُوفٌ لَا شَكَّ فِي أَنَّهَا فِينِيقِيَّةٌ إِلَّا أَنَّهُ اعْتَصَمَ عَلَيْهِ رِغْلِي غَيْرُهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ حُلَّ رَمُوزِهَا. وَالرَّاجِحُ أَنَّهَا عَلَامَاتٌ وَضَعَتْ عَلَى هَذِهِ الْحِجَارَةِ فِي مَقْطَعِهَا لِتَعْيِينَ مَحَلِّ وَضْعِهَا فِي الْبِنَاءِ. وَالْحَاصِلُ أَنَّ إِكْتِشَافَاتِ وَارَانَ وَأَبْحَاثِ دِي فِكُوَا فِي كِتَابِهِ فِي هَيْكَلِ أُورُشَلِيمَ، وَدِي سُولِسِي فِي كِتَابِهِ الْمَوْسُومِ بِالصَّنَاعَةِ الْيَهُودِيَّةِ، وَكَثِيرٌ غَيْرُهُمْ مِنَ الْمُدَقِّقِينَ قَدْ مَحَقَّتْ كُلَّ رَيْبٍ فِي صِحَّةِ مَا رَوَاهُ الْكِتَابُ، وَاتَّحَفْتْنَا بِبَيِّنَاتٍ دَامِغَاتٍ عَلَى بَقَاءِ آثَارِ كَثِيرَةٍ هُنَاكَ مِنْ أَيَّامِ سُلَيْمَانَ.

أَمَّا هَيْئَةُ الْهِيكَلِ فَكَانَتْ أَشْبَهَ بِهَيْئَةِ خِبَاءِ الْمُحْضَرِ الَّذِي صَنَعَهُ مُوسَى فِي الْبَرِّيَّةِ؛ فَإِنْ عَارَضْنَا مَا جَاءَ فِي سَفَرِ الْخُرُوجِ عَنِ الْخِبَاءِ بِمَا جَاءَ فِي سَفَرِ الْمُلُوكِ الثَّلَاثَ عَنِ الْهِيكَلِ، أَلْفَيْنَا الرِّسْمَ وَاحِداً إِلَّا أَنَّ الْهِيكَلِ كَانَ ضَعْفِي الْخِبَاءِ طَوِلاً وَعَرْضاً. وَالْخِبَاءُ كَانَ مِنْ أَخْشَابِ وَأَنْسِجَةِ وَجُلُودٍ، وَالْهِيكَلُ مِنْ حِجَارَةٍ مَرَصَّعَةٍ دَاخِلاً بِأَخْشَابِ الْأَرْزِ وَالسَّرُورِ، وَمَصْفُوحَةٍ أَوْ مَغْشَاةٍ بِالذَّهَبِ. فَلَمْ تَكُنْ عَظْمَةُ الْهِيكَلِ بِكَبَرِهِ وَاتِّسَاعِهِ بَلْ بِاتِّقَانِهِ وَزَخْرَفِهِ وَوَفَرَةِ الْمَوَادِّ النَّفِيسَةِ الَّتِي وَشَاهَا بِهَا. وَكَانَ طُولُهُ سِتِينَ ذِرَاعاً (تَقَرَّبَ مِنْ ذِرَاعِ أَيْامَنَا)، وَعَرْضُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعاً، وَعِلْوُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعاً فِي قُدْسِ الْأَقْدَاسِ، وَثَلَاثِينَ فِي بَاقِيهِ. وَكَانَ مَقْسُوماً إِلَى قِسْمَيْنِ قُدْسِ الْأَقْدَاسِ، وَكَانَ طُولُهُ عَشْرِينَ ذِرَاعاً، وَعَرْضُهُ وَعِلْوُهُ كَذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُهُ إِلَّا عَظِيمُ الْأَحْبَارِ مَرَّةً وَاحِدَةً

في السنة. وكان فيه تابوت العهد حاوياً لوحى الوصايا وقسط المن. ومظلالاً باجنحة كاروبين كبيرين تتصل أجنحتهما بالحناطين، ويماس أحدهما الآخر في الوسط. ثم القدس وهو موقف الشعب للصلاة، وموضع مقدمة الذبائح وكان طوله أربعين ذراعاً، وعرضه عشرين ذراعاً، وعلوه ثلاثين ذراعاً. وكان فيه عشر منائر من ذهب في كل منها سبعة مصابيح. وعشر موائد من ذهب، يوسع عليها خبز التقدمة خمس على اليمين، وخمس على اليسار. ثم مذبح البخور من خشب الأرز مصفح بصفائح من ذهب. وكان بين قدس الأقداس والقدس باب من خشب الزيتون. وكان أمام الهيكل رواق عرضه عشرين ذراعاً، وطوله على ما في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣ عد ٤) مئة وعشرين ذراعاً. وبين أبوابه وأبواب الهيكل عشرة أذرع. وكان حول الهيكل ثلاثون مخدعاً في ثلاث طبقات، وساحتان فسيحتان أو داران تسمى إحداهما دار الكهنة. والثانية دار الشعب. وأما ما كان داخل الهيكل من النقوش والزين والترصيع والتصفيح بالذهب وأخشاب الأرز والسرور، والآنية الذهبية والنحاسية. وما كان في جوانبه من الأعمدة وهيئة البحر والمغتسلات، كل ذلك يقصر عنه الوصف ويشد عن العد، ومن شاء تفضيلاً أكثر فليطالع الفصلين السادس والسابع من سفر الملوك الثالث، والفصلين الثالث والرابع من سفر أخبار الأيام الثاني، وقد كُمل بناء الهيكل في سبع سنين. وكان صانع ما كان في الهيكل من النحاس رجلاً اسمه حيرام ابن أرملة من سبط نفتالي وأبوه منصور صانع نحاس ودونك صورة تمثل رسم الهيكل على ما كان عليه بنفسه.



صورة هيكل سليمان

تدشين سليمان للهيكل

لما أراد سليمان أن يدشن الهيكل وينقل إليه تابوت عهد الرب من حيث أقامه داود في صهيون، جمع إليه شيوخ إسرائيل، وجميع رؤساء الأسباط، وعظماء بني إسرائيل، وكبراء مملكته جماعة عظيمة جداً اجتمعت: «من مدخل حماه إلى وادي مصر». (ملوك ٣ فصل ٨ عد ٦٥ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٧ عد ٨). فيظهر أنّ الحشد كان من اليهود وغيرهم. وكان هذا التدشين في الشهر السابع بين تشرين الأول وتشرين الثاني في السنة الثانية عشرة لملك سليمان. فحمل الكهنة تابوت عهد الرب من مدينة داود ووضعوه في الحبل المعد له في قدس الأقداس مظلاً بأجنحة الكاروبين. وأصعدوا أيضاً إلى الهيكل الجديد خباء المحضر الذي صنع في البرية مع كل آية القدس التي كانت فيه. وقد مرّ إنه كان باقياً في جبعون. وقدموا يومئذ ذبائح من الغنم والبقر عبّر الكتاب عن كثرتها بقوله: «ما لا يُحصى ولا يُعدّ». وذكر بعد ذلك أنها كانت إثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومئة وعشرين ألفاً من الغنم. وكان جميع الكهنة واللاويين إذ لم تراعى وقتئذ قسمة الفرق وجميع المرتمين تحت يد أساف وهيمان ويدوتون مع بنيتهم وأخوتهم أربعة آلاف مرّتين. ويدهم الصنوج والعيّدان والكنارات ومعهم مئة وعشرون كاهناً يهتفون في الأبواق، جميعهم كرجل واحد في التسبيح والاعتراف للرب. وأقبل سليمان بوجهه وبارك كل جماعة إسرائيل الذين كانوا وقوفاً، وخطب فيهم مذكراً لهم بإحسان الله إليهم واختياره داود أباه ليملك في شعبه ويملكه بعده، وبتوفيق الله إياه ليبني له بيتاً، ويخصّ أورشليم بهذا المجد المؤثّل الأبدي.

ثم جثا سليمان أمام مذبح الرب وبسط يديه نحو السماء، وطفق يتذلّل أمام الله بتلك الصلوات الخاشعة والتوسلات الحارة المثبتة في الفصل الثامن من ثالث أسفار الملوك (من عد ٢٣ إلى عد ٦٢). ومن جملة ما لُكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت الليل والنهار، واستجب تضرّع عبدك وشعبك الذين يصلّون نحو هذا الموضع. وإذا أساء أحدٌ إلى صاحبه فاجب عليه اليمين، وأتى ليحلف أمام مذبحك فاقض بين عبيدك بأن تحكم على المنافق وتذكّي البار. وإذا انهزم شعبك أمام أعدائهم ثم تابوا إليك في هذا البيت، فاسمع واغفر خطيئة شعبك، وارأف بهم.

وإذا احتبست السماء عن المطر وصلّوا نحو هذا البيت، فاسمع واغفر وأنزل المطر على الأرض التي وهبتها لشعبك. وإذا حدث في الأرض جوع أو وباء أو لفح غلال أو يرقان أو جراد أو دباب (وهو أصغر الجراد أو هو نبات أجنحة أو النمل)، فكل من صلّى إليك في هذا البيت فاجزه بحسب طرقه. وكذلك الأجنبي الذي أتى من أرض بعيدة لأجل اسمك لسماعهم بيدك القديرة، فإذا صلّى في هذا البيت فاسمع واصنع بحسب جميع ما يدعوك الأجنبي ليعرف الجميع اسمك. ويتقوّم ويعلموا أن اسمك دُعي على هذا البيت (هذا تلطف من سليمان بالأجانب الشاهدين الحفلة وإغراء لهم بعبادة الله). وإذا خرج شعبك إلى الحرب وصلّوا إلى جهة البيت الذي بنيت فاسمع واقض قضاءهم. وإذا خطّطوا إليك وجلاهم جالوهم وعادوا إلى أنفسهم وتابوا وصلّوا إليك جهة أرضهم فاسمع وأرجعهم من جلائهم. ولما أتمّ سليمان هذه الصلوات هبطت النار من السماء، وأكلت المحرقة والذبائح، وملأ الغمام بيت الرب شهادةً لتقدّسه له. وكان الجميع معانين هبوط النار ومجد الرب. فخرّوا بوجوههم إلى الأرض، وسجدوا للرب ولبنوا معيدين فرحين سبعة أيام. وعقبها عيد المظال، فاحتفلوا له مدة سبعة أيام أخرى ثم انصرفوا طيبي القلب داعين للملك (ملوك ٣ فصل ٨ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٥ و ٦ و ٧). وتجلّى الرب له ثانية وبشّره بأنه سمع صلاته وقُدّس البيت وأمره أن يواظب العمل بوصاياه فيقرّ ملكه، وإن زاغ هو والشعب عن رسومه فيقرض إسرائيل، وينفي البيت الذي قدّسه من حضرته، فسجد سليمان واعداً بإتمام كل ما أمر الرب به.

عد ٢٨٤

باقي أبنية سليمان في أورشليم

قد أحدث سليمان أبنية أخرى عديدة في أورشليم وغيرها. نذكر هنا ما أنشأه في أورشليم وجوارها، ونأتي في العدد التالي على ذكر باقي آثاره. بنى سليمان في أورشليم قصوراً، أشهرها القصر المسمى غابة لبنان، لا لأنه كان في لبنان كما وهم بعض القدماء بل لكثرة ما كان فيه من أخشاب أرز لبنان. وأنبأنا الكتاب (ملوك ٣ فصل ٧) أنّه كان مئة ذراع طولاً، وخمسين ذراعاً عرضاً، وثلاثين ذراعاً يسمكاً بناه على أربعة صفوف من عمد الأرز وكان على العمدة جوائز من الأرز وسقفه بالأرز

من فوق. وكان في هذه الدار خمس وأربعون غرفة في ثلاث طبقات، كل طبقة خمس عشرة غرفة. وصنع رواقاً أمام العمدة طوله خمسون ذراعاً، وعرضه ثلاثون ذراعاً، وأنشأ رواقاً آخر سُمي رواق العرش، لأنه كان يجلس فيه للقضاء، وكان مصفحاً بالأرز من الأرض إلى السقف. وبنى أيضاً داراً أخرى لسكنائه بديعة الصناعة لم يُن الكتاب لنا طولها وعرضها وعدد غرفها. ولكن لا جرم أنها كانت كثيرة لكثرة نساء الملك وحاشيته؛ بل أنبأنا بأن جميع أبنية سليمان هذه كانت من حجارة ثمينة على قياس الحجارة المنحوتة، منشورة بمناشير من داخل ومن خارج من الأساس إلى الشرفات، وإن الأساس كان من حجارة ثمينة ضخمة طول بعضها عشرة أذرع وبعضها ثماني أذرع.

وقد أثبتت إكتشافات واران المشار إليه سنة ١٨٦٨ م وسنة ١٨٦٩ م أن هذه الدار كانت في الزاوية الجنوبية الشرقية من الحرم. وبنى سليمان داراً خصّها بامراته بنت فرعون. ورأى كلمت إن سليمان لم يشأ أن تسكن امرأته هذه قرية من الهيكل لأنها وثنية، وبقي سليمان في عمل هذه الدور ثلاث عشرة سنة.

قد أجرى سليمان الماء إلى أورشليم من الحبل المعروف ببرك سليمان في الجنوب الغربي من بيت لحم وبيتجلا. ورأى بعض المفسرين إن سليمان أشار إلى هذه البركة بقوله في سفر الجامعة (فصل ٢ عد ٦): «صنعت لي برك ماء لأسقي بها الحماثل النامية الأشجار». وفي سفر نشيد الأنشاد (فصل ٤ عد ١٢): «أختي العروس جئة مقفلة وعين مختومة». فقالوا أراد ببرك الماء البركة المنسوبة إليه، وبالعين المختومة العين القريبة من هذه البركة على مئة وثلاثين خطوة من البركة العليا منها. وتسمى الآن راس العين وعين صالح. قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٥٠٦) إن ماء العين المختومة كان يُقسم في قناتين إحداهما تصب في البركة، والثانية يجري الماء فيها إلى أورشليم. وإن العالم واران الإنكليزي رأى إنه ثمة ثلاث قنوات متباينة العلو لكنه لم يجد أثراً منها إلا للعليا والسفلى، فالعليا يجري بها ماء العين المختومة والماء الذي يجتمع عن الصخور في وادي بيار، فيتصل بالماء المذكور في قرب البركة العليا، وما فاض منه إنصب في البركة، وآثار هذه القناة ظاهرة إلى بيت لحم. وكانت تتصل إلى أورشليم، وتصب عند باب يافا. ولما القناة السفلى فآثارها باقية، وكان يجري بها ما فاض في برك سليمان

وماء عين عتّان، وماء وادي عروب. ويصب عند الهيكل حيث الحرم الآن وموقع العين المختومة يعلو ستين متراً على موقع الحرم.

قال كاران (ك ٣ في اليهودية صفحة ١١١ وما يليها) في العين المختومة إنها تحت الأرض ويعسر كثيراً النزول إليها، وأنه كابد مشقة بنزوله إلى أصل ينبوع. فوجد ثمة غرفتين معقودتين بحجارة منحوتة مُحكمة التركيب، وقناة توصل الماء إلى البركة العليا من برك سليمان. وأنه ييسر كثيراً ختم هذه العين، ومنع الإستقاء منها بوضع حجر على بابها تعلوه العلامة الملكية إلى أن قال لا أعرف ينبوعاً آخر في فلسطين يصدق عليه اسم العين المختومة كما يصدق على هذه العين، وإنَّ الاظهر والأرجح عنده إنَّ هذه البرك من صنع سليمان. وأثبت ذلك بإجماع المسلمين والنصارى واليهود على حفظ التقليد الذي يعزوها إلى سليمان، وإنَّ هيئة بنائها المتين توجب نسبها إليه وإن طرأ عليه زيادات، وإصلاحات حديثة، وإذا كان سليمان صنع تلك البرك هناك ليستقي الحماثل فلأن يكفي عاصمته والهيكل مؤونة الماء هو الأولى، أي أنَّ القناة الموصلة الماء إلى أورشليم هي من صنع سليمان أيضاً ولم ينفرد كاران بهذا المذهب بل هو مذهب كثير من المدققين أيضاً.

على أنَّ يوسيفوس قال (في ك ٢ في حرب اليهود فصل ١٤) إنَّ بيلاطس البنطي أحدث اضطراباً بين اليهود لأنه أراد أن يأخذ مالا من تقادم القربان ليجري الماء إلى أورشليم من ينبوع يبعد عنها أربع مئة إستادة (أي غلوة والغلوة نحو ثلاثة مئة ذراع). وقال في تاريخ اليهود (ك ٨ فصل ٧) إنه يبعد مئتي غلوة لكن الصحيح أنَّ بيلاطس أصلح القناة التي كانت من عهد سليمان لا أنه أحدثها. وقال دي سولسي (في رحلته إلى سورية وحول البحر الميت مجلد ٢ صفحة ٣٥٧) «لا أتوقف دقيقة في أن كل ما يرى من آثار القناة في طريق بيت لحم إنما هو من صنع ملوك يهوذا... ولم يصنع بيلاطس إلا مرمة القناة القديمة». والقناة من برك سليمان إلى أورشليم ما برحت محفوظة، وإن غير صالحة لجلب الماء إليها. وقد عني كامل باشا وثرى باشا عند ولايتهما على القدس سنة ١٨٥٦ م وسنة ١٨٦٠ م بمهمة هذه القناة وجلب الماء ليصب في بركة في الحرم.

قال سليمان في سفر الجامعة (فصل ٢ عد ٤ و ٥): «إتخذت أعمالاً عظيمة، وبنيت لي بيوتاً، وغرست لي كروماً، وأنشأت لي جنات وفرايس، وغرست فيها

أشجاراً من كل ثمر». وروى يوسيفوس (ك ٨ من تاريخ اليهود فصل ٢) إن سليمان كان يخرج من أورشليم غدوة مصحوباً بجنده ممتطياً مركبة بدبعة متشحاً بسربال أبيض. ويمضي إلى محل في البرية بعيد عن أورشليم ستين غلوة واسمه عثان طلباً لترويح القلب، إذ كان له هناك جنات غناء وينايع مفرحة وأرض خصبة. وقال الأب فيكورو (في المحل المذكور صفحة ٥٠٧)، وكاران (كتاب ٣ في اليهودية صفحة ١٠٥) إن منتزه سليمان هذا وجناته كانت في وادي أرتاس القريب من عثان، وأنها هي الجنة المقفلة التي شجّه محبوبته بها في آية سفر النشيد المذكورة آنفاً. وقد أثبتنا قولهما بشهادة يوسيفوس وبالتقليد الذي حفظه المسلمون والنصارى اليهود، إذ يستون محلاً في أرتاس بيستان سليمان ومما قاله كاران (في المحل المذكور): «وعليه فأرى ما يراه سكان فلسطين وأكثر الجوالاة إن وادي أرتاس هو الجنة المقفلة». ولاحظ كوارسميوس إنها وصفت بمقفلة لا لإقفالها بجدار صناعية بل لإحاطتها بتلال وأكام طبيعية. وتسمية هذا الوادي وادي إرتاس يُحتمل أن تكون من أيام الرومانيين فأن Hortus (أرتوس) معناها في اللاتينية الجنة والبستان. وقد عبرت النسخة اللاتينية عن الجنة المقفلة بهذا اللفظ. وفي هذا الوادي الآن جنة لرجل يهودي الأصل وقد انحاز إلى مذهب البروتسنتن يسمى ماشولام. وقد غرس في بضع سنوات هناك كثيراً من الأشجار، والبقول التي تُربى في أوروبا فنمت أتمّ نماء.

لم يجتزئ سليمان بما جعل أورشليم به من بناء الهيكل والقصور وإجراء الماء إليها، بل حوَّطها بأسوار تتكفل برّد العدى عن عاصمة ملكه (ملوك ٣ فصل ٩ عد ١٢). وكان داود حصّن مدينة صهيون بأسوار فسور ابنه أورشليم كلها بأسوار منيعة. وقد حصّنت أورشليم بعد ذلك مرات ولا سيما في أيام هيرودس. وأكثر أصحاب البحث يرون أن الحجارة الضخمة التي في الجنوب الغربي من الحرم حيث يجتمع اليهود للمناحة كما مرّ إنما هي من بقايا أسوار سليمان، ولهم أبحاث طويلة رابكة في أسوار أورشليم وتمييز آثار أحدها عن آثار الأخر نضرب عن ذكرها حباً بالإيجاز.

أبنية سليمان في غير أورشليم

قد حصّن سليمان حاصور ومجدو (ملوك ٣ فصل ٩ عد ١٥). وجعلهما قلعتين تصدّان، الأعداء عن الدنو عن عاصمة ملكه من جهة الشمال، أما حاصور فموقعها فوق بحيرة الحولة في جنوبي جبل الشيخ. وقال كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٦٤) إنها كانت في المحل المسمى الآن تل الهراوي، وتابعه على ذلك ويلسون، ولكن ذهب روينسون إلى أنها كانت في محل خربة الخربة ودي سولسى، إلى أنها كانت في محل خربة الخان. والخربتان على مقربة من تل الهراوي المار ذكره. وحاصور هي مدينة يابان الذي حارب يشوع بن نون (يشوع فصل ١١ عد ١). ويابان الآخر الذي ضايق بني إسرائيل، وظفر به باراق ودابورة (قضاة فصل ٤ عد ١) كما مرّ. وأما مجدو فقال فيها كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٣٥) إنها المسماة الآن لجون في الجنوب الغربي من الناصرة على مدخل مرج ابن عامر من جهة الغرب، ولا ريب في أنها المسماة في أيام الرومانيين Legio (لاجيو وتأويلها فرقة من الجنود)، فكأنها كانت مخفراً يقيم فيه بعض جنودهم. وقد أثبت روينسون (في كتابه الأبحاث الكتابية في فلسطين مجلد ٢) إنّ مجدو هي لجون الآن بيراهين عديدة منها أنّ الكتاب ذكر غالباً مجدو وتعناك معاً، ولا وجه لذلك إلّا القرب بين المحليين. وتعناك هي تعنق الآن ولا تبعد عن لجون إلّا أربعة أميال فإذا مجدو هي لجون. وجاء كذلك في كتاب الأعلام الكتابية مع زيادة عليه بأنّ بعضهم رأى أنّ مجدو كانت في المحل المسمى اليوم تل المتسلم على مقربة من لجون شمالاً. وقد مرّ بنا مرات ذكر مجدو وأهميتها عند القدماء وحروب المصريين فيها. وقال مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٩١): كان الفراعنة إذا افتتحوا مجدو لم يلاقهم من يقاومهم إلى قادس في جانب حمص، ولذلك جدّد سليمان بناء مجدو أو حصّنها بأسوار لتكون قفلاً لعاصمته من جهة الشمال.

وحصّن سليمان أيضاً جازر وبيت حورون السفلى (ملوك ٣ فصل ٩ عد ١٧). أما جازر فقد مرّ في كلامنا على زواج سليمان بابنة فرعون أنّ ملك مصر كان افتتحها، ووهبها مهراً لابنته امرأة سليمان، وإنها كانت في محل تل جازر

الآن. وأما بيت حورون السفلى فقد مرّ في عد ٢١٧ أنها المسماة الآن بيت أور في الغرب الشمالي من الجبّ، وأنها محلّتان عليا وسفلى، فجاء في المحل المذكور في سفر الملوك إنّ سليمان بنى أي حصن بيت حورون السفلى. وفي سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٨ عد ٥) إنه «بنى بيت حورون العليا وبيت حورون السفلى مدينتين محصّنتين بالأسوار والأبواب والمغاليق». وبيت أور في جانب الطريق المؤدي من يافا إلى القدس، وأول من حقق أنها بيت حورون إنما هو العلامة كلارك ولم يخالفه أحد إلى اليوم.

وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ١٨). وبنى سليمان «بعلّة وتدمر في البرية». وفي سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٨ عد ٣) «ومضى سليمان إلى حماة صوبة، وتغلّب عليها، وبنى تدمر في البرية، وجميع مدن الخزن التي بناها في حماة». أما بعلّة فستفرد إليها العدد التالي، وأما تدمر فقال فيها يوسفوس (ك ١٣ فصل ٢ من تاريخ اليهود): «إنّ هذا الملك السعيد بعد أن استحوذ على البرية التي في أعلى سورية بنى هنالك مدينة كبرى على مسافة يومين عن سورية العليا، ويوم واحد عن الفرات، وستة أيام عن بابل الكبرى. وقد رأى بناء هذه المدينة لازماً على بعده من محال سورية المأهولة إذ لم يكن إلّا هناك ينابيع وآبار يستقي المسافرون الماء منها. وأحاطها بأسوار منيعة وسماها تدمر (أي العجيبة). وكذلك سماها السريان وأما اليونان فسموها بلمير أي النخيل». على أنّه لم يكن الداعي لبناء سليمان تدمر غزارة مائها فقط بل تعمد فيه تأمين طريق الفرات أيضاً من سطو البدو على المارة والتجار.

قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٥١١) إنّ خضوع أهل حماة صوبة قد وطّد ولاية الإسرائيليين على تلك الأنحاء. فأصبحت القوافل تسير من دمشق وحماة إلى تدمر، ومن تدمر إلى تبسك (على الفرات) آمنة من سطو العرب والآراميين. فإنشاء سليمان تدمر من أعظم آيات حكمته، وكانت محطة كبرى للتجارة فمن عهد سليمان إلى عهد الرومانيين، كانت أكثر القوافل التي تيمّم شطوط الفرات أو دجلة تسير من هذه المدينة، وتأوب إليها ببضائع الفرس والهند الثمينة. وقدّر بلينيوس تجارة روما وحدها في تدمر بما يساوي خمسة وعشرين مليون من الفرنكات في نقود أيامنا، على أنّ الآثار الباقية الآن في تدمر ليست أطلال بناء سليمان بل من آثار الرومانيين. وأقدم أثر فيها لا يجاوز قدمه

صدر التاريخ المسيحي، وقد كشف دي فكوا هناك عن مئة وأربعة وثلاثين أثراً مكتوباً. ولم يكن معروفاً قبله إلا ثلاثة عشر أثراً (كتابه في الخطوط السامية في سورية انتهى كلام فيكورو ملخصاً). وكان للرومانيين في تدمير حرب عوان مع أميرتها زينب المعروفة عند عامتنا بزييدة ولا محل في هذا الجزء لاستقصاء أخبارها. وقد أنبأنا الكتاب (في المحل المذكور) أنَّ سليمان بنى أيضاً مدناً للخبز ومدناً للمركبات والفرسان في أورشليم ولبنان وكل أرض سلطانه، والمراد أنه بنى مخازن كبيرة وعديدة يجمع بها الغلال، وحصوناً ومخافر يقيم بها الجنود، ومرابط للخيال ومواضع للمركبات في أورشليم، وفلسطين ولبنان وسائر البلاد التي ولى أمرها. ويظهر أنَّ المخافر كانت تمتد من أورشليم إلى حماة وتدمر شمالاً، وإلى مصر وإبله على شط البحر الأحمر جنوباً لاستتباب الراحة وتأمين الطرق. قال يوسفوس (ك ٨ من تاريخ اليهود فصل ٢): «لأنَّ ما أوتيته سليمان بفضل الله من الحكمة كان يعم كل شيء ولا تغفل عنايته عن شيء فقد إهتمَّ بتمهيد الطرق العامة، ورصف بالحجارة السوداء كلَّ السبل المؤدية إلى أورشليم من أنحاء فلسطين رغباً في راحة أبناء السبيل وعنواناً لمجده». وكان سليمان قد أخضع لسلطانه كل من كان باقياً من الأموريين والحثيين (في مملكته). والفرزيين والحويين واليبوسيين. وخصَّ يوسفوس بالذكر «الكنعانيين الذين كانوا يسكنون أنحاء لبنان إلى حماة». وكان يسخر هؤلاء في الأبنية، ورصف الطرق وغيرها من الخدم الدنيئة، ويصطفي من بني إسرائيل رجالاً للحرب وخداماً في بلاطه، وفرساناً ورؤساء للجنود وقادة للمركبات. وكان منهم خمس مئة وخمسون رجلاً يتسلطون على الأجانب العاملين (ملوك ٣ فصل ٩).

عد ٢٨٦

بعله التي بناها سليمان وبعلبك

قد عدَّ الكتاب بعله من جملة المدن التي بناها سليمان. وذهب بعض المفسرين والجوَّايين، والعلماء إلى أنَّ المراد بها بعلبك. قال أحدهم برياً دي بوكاج: «لأنَّ بعله التي بناها سليمان، والأولى أن يقال جدَّد بناءها في الوادي الخصب الفاصل بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي المسمى الآن البقاع إنما هي مدينة بعلبك. وتأويلها مدينة الشمس، وسماها اليونان اليوبولي مترجمين اسمها القديم ترجمة مدققة. وفي هذه

المدينة التي كانت الشمس معبود أهلها آثار بديعة بقيت أطلالها، وهيكل الشمس فيها من أعظم ما يحمل على العجب العجائب». وقال كاران (في أحد فصوله في المجلة المعروفة بالأرض المقدسة سنة ١٨٨٢م) إنّ هذا القول يمكن الإعتماد عليه وخالفه روينسون في المباحث الكتابية. وذهب أكثر المحققين أنّ بعلّة هذه لا يراد بها بعلبك بل مدينة أخرى في فلسطين. وقد كثرت المدن المسماة ببعلّة في هذه البلاد فمنها بعلّة في نصيب دان ورد ذكرها في سفر يشوع (فصل ١٩ عد ٤٤ حيث قيل: «وجبتون وبعلات وهود»). وبعلّة من نصيب يهوذا ورد ذكرها هناك (فصل ١٥ عد ٩) حيث قيل: «ويمتد التخّم إلى بعلّة التي هي قرية يعاريم». (قرية أبي غوش) وبعلّة أخرى في جنوبي نصيب سبط يهوذا أيضاً ذكرت هناك (فصل ١٥ عد ٢٩) حيث قيل: «بعلّة رعيم». وقد رجّح معجم الكتاب لفيكورو أنّ بعلّة التي بناها سليمان؛ إنما هي بعلّة الوارد ذكرها في الفصل التاسع عشر من سفر يشوع بين جبتون ويهود، ولما كانت يهود محل اليهودية الآن في شرقي يافا على رأي أكثرهم، وجبتون في محل قرية كيبية في الجنوب الشرقي من اليهودية يُرجح أن يكون موقع بعلّة بين يهودية وكيبية في نواحي يافا. وقال بعضهم إنّ بعلّة كان موقعها في دير بلوط في تلك الأنحاء وإنّ ليس كلمة بلوط إلّا تصحيف كلمة بعلّة. ورجّح كاران هذا التصحيف (مجلد ٢ في السامرة صفحة ١٣٠) وفي كتاب الأعلام الكتابية، إنّ بعلّة كانت في المحل المسمى اليوم بلعين على مقربة من بيت أور السفلى في الشمال الغربي منها.

ومثل هذا الخلاف في أنّ بعلّة يراد بها بعلبك أو غيرها الخلاف في أعلام أخرى وردت في الكتاب. وأثبت بعضهم أنّ المراد بها بعلبك وأنكره غيرهم. ومن هذه الأعلام بعل جاد التي ذكرت في سفر يشوع (فصل ١١ عد ١٧) حيث قيل: «من الجبل الأملس الممتد جهة سعيّر إلى بعل جاد في بقعة لبنان». فقال طمسون وريتير وغيرهما إنّ المراد بعلبك. وخالفهم روينسون في المحل المذكور ومنها بعل هامون الوارد ذكرها في نشيد الإنشاد (فصل ٨ عد ١١) بقوله: «كان لسليمان كرم يبعّل هامون». فقال ويلسون المراد بذلك بعلبك وخالفه غيره ومنها بقعة اون التي ورد ذكرها في نبوة عاموس (فصل ١ عد ٤ وما يليه) حيث قيل: «فأرسل ناراً على بيت خرائيل فتأكل قصور بنهدد واكسر مزلاج (مغلاق) دمشق. واستأصل الساكن من بقعة اون والقابض على الصولجان من بيت عدن». فقال كثيرون منهم

كلمت أيضاً إن بقعة اون يراد بها البقاع أي السهول الفاصلة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومدينتها وهي بعلبك. ولذلك مخالفاً (ملخص عن معجم الكتاب لفيكور).

وقد ورد اسم بعلبك في الآثار المصرية قبل سليمان مسماة تيبقات (مسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٩١ طبعة ٤). وسماها اليونان والرومانيون اليوبولي أي مدينة الشمس لعبادة أهلها الشمس كاليوبولي في مصر وعادت تسمى بعلبك في صدر الإسلام وإلى اليوم.

وقال بعضهم إن الاسم العربي ترجمة اليوبولي اليونانية لأن بك بمعنى مدينة ولا تخفى المقاربة بين بعل وال أو اليوس فيكون المعنى مدينة البعل أي اليوس باليونانية وهو الشمس. ولكن بك لم ترد باللغات السامية بمعنى مدينة بل وردت باكي في اللغة المصرية بهذا المعنى. ولذلك قال بعضهم إن الكلمة منحوتة من بعل وبك في العربية بمعنى زاحم. وتباكوا على الشيء لإزدحاموا عليه فيكون اسم المدينة مشيراً إلى كثرة البعول المعبودة فيها أو إلى إزدحام الناس لعبادة الآلهة فيها. كما سمي بطن في مكة بيكة لإزدحام الناس فيه. وظن رنان (في كتابه في فينيقية) إن ما اسم بعلبك إلا مكسر بعل بقاع مقابلاً لبعل حرمون. وإذا صح أن سليمان بنى شيئاً في بعلبك كما يقتضيه جعله تدمر محطة للتجارة وبعلبك في وسط الطريق إليها. فلا يصح أنه أول بان لها لأن أبنيته السفلية قاضية بأنها قبل عصر سليمان. وتؤيده ضخامة الصخور المنقطعة النظير المبني بها جدارها الغربي وهي أكبر كثيراً من الحجارة التي في هيكل أورشليم وأسوارها. ومن يظن أن سليمان أراد أن يولي بعلبك عظمة لم يولها بيت ربّه وقصوره في مدينته وأسوار عاصمته.

ولم يقف أهل البحث إلى الآن على تاريخ مؤكد لبناء بعلبك، والأظهر عندهم أنها من صنع الفينيقيين والكنعانيين القدماء استمسكاً بتسميتها ببعل وهو معبود الكنعانيين؛ وضخامة صخور بنائها. وهذا من إصطلاحات الفينيقيين وظاهر في كثير من أطلالهم وإن عزا رنان (في فينيقية صفحة ٣١٩) وبرو (في تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ١٠٥) تلك الصخور الضخام إلى الرومانين أيضاً سنداً إلى أن في آثار الرومانين ما يشبه هذه الصخور، وأما زمان بنائها فغير معلوم. وقد تكلم فيها دي لامرتين في كتاب رحلته إلى المشرق (مجلد ٣ صفحة ١٥٧) مبدئاً

العجب العجيب من آثارها وعاذراً العرب بوجههم أنها ليست من عمل البشر بل من صنع الجن. وحسب أنّ صخورها نقلها الجبابرة الأقدمون أو الرجال الذين كانوا قبل الطوفان. وأما أخربة الهيكل أو الهياكل الكائنة في اعلاها فهي من صنع الملوك الرومانيين. فقد ذكر يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٣) أنّ بومبايوس مرّ بها متوجّهاً إلى دمشق وكان أهلها خاضعين للرومانيين. ويوليوس قيصر جعلها جالية رومانية وأنطونيوس بيوس الذي استوى على عرش الملك من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٦١ للمخلص، أنشأ فيها هيكلاً كبيراً تكرمة لجويتر (المشتري). ويرى على مسكوكات سبتيموس ساويروس (الذي رقي منصة الملك سنة ١٩٥ وتوفي سنة ٢١١) صورة هيكل ورواق أمامه قائم على عشرة أعمدة، وصورة هيكل آخر قائم على أعمدة عديدة أشبه بما يرى الآن في بعلبك. فلعل أنطونينوس بنى الهيكل الكبير وسبتيموس بنى الرواق والهيكل الصغير وكان من معبودات أهلها الزهرة ربة العشق، وما أدراك ما كان هنالك من الفواحش إلى أن أدخل قسطنطين الدين المسيحي في مدينة الشمس والعشق وبنى هناك كنيسة كبرى (ذكره أوسابيوس في ترجمة قسطنطين).

عد ٢٨٧

تجارة سليمان

إنّ أبنية سليمان ومهامه الكبيرة ومظاهر عزه الباذخ وشرفه الشامخ كانت تستلزم نفقات وافرة لا تفي بها المكوس والضرائب والجزيات والهدايا. فحذا حذو ملك صور بإتجاره غير مراعى ما حذر الرب منه من يقوم ملكاً في إسرائيل بقوله: «لا يستكثر من الخيل فلا يرد الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل... ولا يستكثر من النساء لئلا يزيج قلبه، ولا يبالغ في إستكثار الذهب والفضة» (ثنية فصل ١٧ عد ١٦ و ١٧). فلم يكتفِ سليمان بوضع المكوس على سلع التجارة الواردة إلى مملكته، بل أخذ يزاحم التجار بنقل السلع إليها من بلاد العرب ومصر وما بين النهرين. وكان إتيجاره في مصر بشراء المركبات والخيل. فكان تجاره يشترون المركبة بست مئة من الفضة، وقدّرها فيكورو بنحو من ألف وسبع مئة فرنك، والفرس بمئة وخمسين أي بنحو من أربع مئة وخمسين فرنكاً، وكان سليمان يستبقي بعض هذه المركبات والخيل لنفسه ويبيع باقيها من جميع ملوك الحثيين والآراميين (ملوك ٣ فصل ١٠).

قد مرّ في عد ١٥٤ إنّ الملوك الرعاة جلبوا الخيل إلى مصر ولم تكن فيها قبلهم. وأبانت آثار مصر إنه كان لملوكها بعد ذلك ولوع شديد بالخيّل ولا سيما في عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أي قبل خروج بني إسرائيل من مصر. وكانوا يحفظون سلسلة خيلهم كما صنع العرب بعدهم فيزداد ثمن الفرس ما ازداد تحقيق أصله، بل حفظت الآثار أسماء بعض الأفراس التي كانت تجرّ مركبات الملوك. وقد اكتشف العالم مريات صفيحة من ناباطا في مصر كُتب عليها سنة ٧٤٥ ق.م ما محصله أنّ مصر كانت يومئذ منقسمة إلى إمارات عديدة، وفي كلّ منها سلالة من أصل خيل يقدمون أجودها للغازي الحبشي الذي كان يسمى بيانكي مريمان، وإنّ سوق التجارة بالخيّل كانت رائجة وقتئذٍ رواجها أيام سليمان. ويتبيّن من هذه الآثار ومن صور الخيل التي ترى عليها أنّ خيل مصر كانت أكبر وأجود من خيل بلاد العرب وسورية. وقد اكتسبتنا هذه الآثار فصل الخلاف الذي كان بين مفسري الكتاب في ما إذا كانت مركبات سليمان تُجرّ بأربعة أفراس أو أقل، فقد ظهر الآن أنّها كانت تُجرّ بفرسين فقط لأنّ صور المركبات المصرية من حرية وغير حرية لا يُرى فيها إلّا فرسان.

على أنّ تجارة سليمان في مصر لم تكن رابحة كتجارته البحرية، فقد كان سليمان يعلم أنّ غنى أهل فينيقية وثروتهم منبعهما أسفارهم البحرية. ولكنه لم يكن له من يصنع السفن ولا من يمارس الملاحة. فلجأ إلى صديقه حيرام ملك صور ليمنه بصانعي سفن وملاحين. وكان الفينيقيون استحوذوا على البحر المتوسط ولم يكن لهم مرفأ على البحر الأحمر أو خليج العجم. ولم تكن لهم وسيلة ليستأثروا سلع بلاد العرب والكلدان والهند إلّا القوافل. فاشترك المنفعة بين الملكين دعاها إلى عقد شركة بينهما وأرسل حيرام عملة يصنعون السفن في عصيون جابر على خليج عقبه. وهو ترعة شرقية من البحر الأحمر تقابل ترعة السويس الغربية وقد مرّ ذكر عصيون جابر في مراحل بني إسرائيل وهي في جانب ايله. وقال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٥٢١) إنها كانت في محل القرية المسماة الآن عقبة حيث منزلة للحجاج المصريين. وقد مضى سليمان إلى هناك عند صنع هذه السفن، وقد صرّح بذلك سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٨ عد ١٨) حيث قيل: «ثم ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى ايله».

قد جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٢) في النسخة اللاتينية

العامة: إنَّ هذه السفن كانت تذهب إلى ترشيش، ولكن ترشيش يراد بها إسبانيا التي كانت سفن الفينيقيين تسير إليها طلباً للفضة والنحاس. فأصبح من ذلك ما جاء في النص العبراني: «لأنَّ الملك كانت له في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتي مرّة في كل ثلاث سنين» فالمراد بسفن ترشيش السفن الكبيرة القوية كما يسمي الإنكليز اليوم جميع سفنهم الكبيرة القوية هندية، وإن لم تسير إلى الهند، بل لمجرد الاشعار بعظمتها ومتانتها ولا يظن أنَّ الفينيقيين أرادوا أن يقاسموا سليمان غنائمهم من إسبانيا. والسفن المصنوعة في عصيون جابر يستحيل عليها البلوغ إلى إسبانيا إلا أن تدور حول أفريقيا كلها. فإذا لم تكن سفن سليمان تسير إلى إسبانيا بل إلى أوفير كما هو مصرّح في سفر الملوك الثالث فصل ٩ عد ٢٨.

عد ٢٨٨

أوفير محل تجارة سليمان وسلع تجارتها

كتب بعض أهل العلم كتباً في تحقيق موقع أوفير فقال بعضهم: إنه ببلاد العرب، وغيرهم إنه بأفريقية الشرقية وآخرون إنه بجزيرة سيلان أو ملاكاً من أعمال الهند وغيرهم غير ذلك. وما كان له وجه معقول من هذه الأقوال ثلاثة: أولها أوفير بأفريقية الشرقية لأنَّ هنالك محلاً يسمى فوراً ويضعفه أنَّ فوراً بعيدة عن البحر نحو مئتي ميل فلا يسار إليها بسفن. والثاني إنَّها ببلاد العرب ودليله أنَّ أحد أبناء يقطان سمى أوفير، وسكن في بلاد العرب فسمى المحل باسمه (طالع عد ٣٩)، وهذا مردود بأنَّ السفر إلى أوفير هذه لا يستلزم صرف ثلاث سنين كما نصَّ الكتاب وبأنَّ وحدة الاسم لا تقضي بوحدة المسمى.

والثالث وهو الأظهر والأشبه بالصواب هو أنَّ أوفير عمل في الهند وأثبت هذا القول ذوره بأدلة كأنها قاطعة؛ منها أنَّ أسماء السلع التي كانت سفن سليمان تقلّها من أوفير عدا الذهب، وهي القردة والطاووس وخشب الصندل والعاج ليست عبرانية. ولدى البحث عن أصلها وُجد أنَّها من لغة السنسكريت الهندية. فقال العالم لاسان Lassan في كتابه في الهند الذي طُبِع سنة ١٨٦٦م إلى سنة ١٨٧٤م إنَّ كلمة كوف أو قوف التي عبّر بها الكتاب عن القردة هي في لغة الهنود كابي، وأصل وضعه للدلالة على الخفيف أو السريع، وإبدال الباء بالفاء

مطروق كثيراً، وكوف ليست عبرانية فهي كابي الهندية. وكلمة تيكيم أو تيكى التي عبّر بها الكتاب عن الطاووس ليست عبرانية أصلاً، وأهل الملابار يسمّون الطاووس توكى فإن حذفت من تيكيم الواردة بالعبرانية حرفي الجمع أي الياء والميم، بقيت الكلمة تيكى أو توكى، كما هي في الهندية، وزد على ذلك إنَّ هذا الطائر هندي أصلاً ولا يُرى برياً إلا فيها. وكذلك كلمة الموك أو الكوم التي عبّر بها الكتاب عن خشب الصندل ليست عبرانية، بل أنَّ هذا الخشب يسمّى في اللغة السنسكريتية والكو أو الكوم ولا يوجد إلا في أعمال الهند.

وكذا قُل في العاج الذي كان سلع تجارة سليمان فإنك ترى الكتاب يسميه في الأصل العبراني سان أو سان كرنوت أي سنّاً أو سن القرن إلا عند الكلام في تجارة سليمان، فيسمى سان هبّيم فالفيل يسمّى في اللغة الهندية إيبها كُسترت فصارت هبّا؛ فألحق الكاتب العبراني بها علامة الجمع، وأضاف إليها لفظة سان فصارت سان هبّيم أي سن الفيل أو سن الأفيال. فأخذ هذه الكلمات عن اللغة الهندية دالّ على أنَّ أوفير التي أتت منها بهذه السلع هي من أعمال الهند. ويؤيد هذا الدليل كثرة معادن الذهب في الهند ولا سيما في جبال حملايا. وصرف ثلاث سنين في المضي إلى أوفير والعود منها كما نصّ الكتاب، ولو كانت أوفير في بلاد العرب أو أفريقية لما لزم صرف كل هذه المدة. ويؤيده أيضاً قول يوسفوس (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود): «إنَّ حيرام الملك أبدى لسليمان خالص الوداد فإنه أرسل إليه ما شاء من الملاحين الماهرين بسفر البحار ليمضوا مع عبيده لجلب الذهب من عمل من أعمال الهند كان يسمّى سوفير واسمه الآن بلاد الذهب» وسمّت الترجمة السبعينية أوفير سوفير واللغة القبطية تسمّي الهند سوفير. وقال القديس إيرونيموس (كتابه في الأماكن العبرانية) إنَّ أوفير عمل في الهند وتابعه على ذلك غيره من الآباء والعلماء فكل ما مرّ يثبت أنَّ أوفير عمل في الهند.

ويُرجّح أنَّ هذا العمل كان عند مصبّ الهندوس حيث كان يتيسّر لسكان شمالي الهند أن ينقلوا ذهبهم وحجارتهم الثمينة. وبلغ تجارتهم بهذا النهر إلى شاطئ البحر فيبيعوها من التجار. وقال كتاب الجغرافية من الهند إنَّ في الحل المذكور شعباً يسمّى أبهيرا. وقال أبو الفدا في الجغرافيا: إنَّ في الهند مرفأً يسمّى سوبارة. تكثر فيه التجارة وهو على مسافة خمسة أيام من سندان فإسما أبهيرا

وسواراة يقربان من اسمي أوفير وسوفير وإبدال الباء بالفاء لا تُعد أمثاله وعليه فسفن سليمان كانت ترسو عند مصب الهندوس.

وقد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٩ عد ٢٨) إنّ سفن سليمان أتت من أوفير بأربع مئة قنطار من الذهب. قال فيكورو (في الحبل المذكور) إنّ هذه القيمة تعادل نحو سبعة عشر ألف كيلو غرام، ونحو خمسة وأربعين مليوناً من الفرنكات. وعمل سليمان من هذا الذهب خمس مئة مجنب وجعل جميع آنية شربه وآنية بيت غابة لبنان من ذهب خالص. وعمل عرشاً كبيراً من عاج يصعد إليه بست درجات وعلى كل درجة أسدان. وألبس كل ذلك ذهباً أبيضاً ولم تكن الفضة تُحسب شيئاً لكثرتها حتى عبّر الكتاب عنها بقوله كانت الفضة في أورشليم مثل الحجارة. وأما الصندل فكان فيه لذكاء رائحته عند إتياده. وعمل منه سليمان درابزيناً لبيت الرب وبيت الملك، وكثارات وعيداناً للمغنين. وأما العاج فكان استعماله كثيراً عند القدماء في مصر وبابل وآشور وروما وفي متاحف أوروبا آنية كثيرة من العاج.

وأما القردة فكانت لانبساط سليمان وأهل بلاطه بها، وربما كان يهدي أصدقائه من الملوك والأمراء منها، وربما باع تجّاره بعضها فقد كانت القردة في كل عصر ومكان تحمل الناس على التفرج بها، فعلى مسألة القروء صوّر أربعة قردة تُقاد بمقوّد، وقرد صغير راكب على أكتاف رجل. وصوّر المصريون في تمثيل أمور مهمة كصورة دينونة الموتى على البابير الذي وُجد في مصر، ومنه عدة نسخ في متحف اللوفر في باريس. وأما الطاووس فقد حمل جمال ريشه وكثرة ألوانه القدماء كأهل عصرنا على ترويح النفس به. وكان أول دخوله من آسيا إلى أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد. وروى أنثيفون إنّ رجلاً من أثينا رآى هذا الطائر فكانت الناس تتقاطر لرؤيته من مكدونية وتساليا، وكان يُباع الطائر منه بألف درهم. وروى اليان (كتابه في الحيوانات) إنّ اسكندر الكبير قضى العجب العجيب عند بلوغه الهند من جمال الطاووس وفرض عقوبة شديدة على من يُنزل به ضرراً.

عد ٢٨٩

سليمان وملكة سبا

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ٣ فصل ١٠) أنّ سليمان عظم على جميع ملوك

الأرض في الغنى والحكمة. وكان الكبراء من كل صوب يلتمسون مواجهته ليسمعوا الحكمة التي أودعها الله في قلبه. وكان كل واحد يأتيه بهدايا من آنية فضة وذهب، ولباس وسلاح، وأطياب وخيل وبغال في كل سنة. وسمعت ملكة سبا بخبر سليمان واسم الرب فقديمت إليه وهي التي سماها الإنجيل ملكة التيمن وقال إنها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان، وذهب بعضهم إلى أنها ملكة سبا في جنوبي العربية على شاطئ البحر المحيط، وكان القدماء يوهمون أن لا أرض بعده حتى قال تاشيتوش (ك ه في تاريخه): «إن الأرض تنتهي أطرافها إلى المشرق في بلاد العرب»، وذهب آخرون أن ملكة سبا هي ملكة الحبشة. وقال يوسيفوس (في الحل المار ذكره) إنها تسمى نيكوليس وإنها كانت ملكة مصر والحبشة وسماها المؤرخون العرب بلقيس. والظاهر أنها كانت ملكة سبا في جنوبي بلاد العرب، وربما امتدت سلطتها إلى بعض أعمال الحبشة وكان بعض القدماء يسمون سبا بالحبشة. والأحباش يسمون هذه الملكة مكادا. وقد أذاع العالم فرنسيس بروتوريوس سنة ١٨٧٠م جزءاً من كتاب بالحبشية موسوم بمجد الملوك مع ترجمته إلى اللاتينية والمتحصل من هذا الكتاب ومن أخبار كومبس وتاميزيار (في كتاب رحلتها إلى الحبشة مجلد ٣ الذي طبع في باريس سنة ١٨٤٣م) أن هذه الملكة مكادا سمعت بأخبار سليمان فوافت إليه وقدمت له هدايا نفيسة. وأقامت عنده أياماً فعلمت منه وولدت بعد عودها ابناً سمته مينالك كان أصلاً لسلالة ملكية في الحبشة دامت على منصتها قروناً. وفي الحبشة إلى اليوم قوم من اليهود يسمون فالسكاس أي المهاجرين يدعون أنهم في الحبشة من أيام سليمان.

وروى مرتين فلاد المرسل الألماني والعالم هالافي من أخبارهم أنهم يدعون بأن مينالك ابن ملكة سبا من سليمان أرسلته أمه إلى أورشليم يتربى عند أبيه، ولما بلغ أشده أكره بنو إسرائيل سليمان ليرده على أمه فأبى، إلا أن يبعث كل منهم ابنه البكر رفيقاً لمينالك ففعلوا. وصار مينالك بعد عوده ملكاً على الحبشة، وتزوج رفقاؤه بنساء حبشيات فكانوا أجداد الفالسكاس. وتبعهم إثنا عشر كاهناً من ذرية هرون فلا نعتد هذا صحيحاً بل أردناه مفاكهة. ونرى الأقرب إلى الصواب ما يقوله بعض هؤلاء الفالسكاس وهو إنهم من ذرية اليهود الذين هربوا إلى مصر في أيام أرميا كما هو ظاهر من نبوته (فصل ٤٣ و ٤٤). أو أنهم من ولد اليهود الذين فروا من فلسطين إلى جبال الحبشة عندما أخرب طيطوس أورشليم. وقد جاءت

الآثار المصرية والآشورية مصداقاً لولاية بعض الملكات على بلاد العرب والحبشة . وقد مر معنا ذكر بعضهن، وترى في آثار تجلت فلاصر الثاني اسم شمسة ملكة العرب مسماة بملكة سبا. ثم اسم ملكة أخرى زيبية ملكة أرض العريبي (العرب) أدت إلى هذا الملك الجزية فضةً وذهباً وحديداً.

قال الكتاب إن ملكة سبا قدمت لتختبر سليمان بأحاجي فقد كانت عادة القدماء أن يطرح بعضهم بعضاً أحاجي وألغازاً ومعميات مفاكهة وترويضاً للعقل، وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٢) عن ميناندر الذي ترجم تواريخ صور إلى اليونانية أن سليمان وحيرام كان يطرح أحدهما الآخر ألغازاً وأحاجي وأنه كان عند حيرام شاب اسمه يمون يحل ألغاز سليمان، وإن ديون المؤرخ تكلم في هذين الملكين ومما قاله: إن حيرام عجز ذات يوم عن حل ألغاز سليمان فدفع له مبلغاً من المال، ثم أرسل إليه عبد يمون فحل تلك الألغاز. وألقى على سليمان ألغازاً تعسر عليه حلها فرد عليه سليمان المبلغ الذي كان أخذه. وقد مر لنا كلام في ذلك في عدد ١١٧. وتتبع الكتاب كلامه بقوله إن ملكة سبا كلّمت سليمان بجميع ما كان في خاطرها من الأحاجي، ففسر لها سليمان جميع كلامها ولم يخف عليه شيء لم يفسره لها فعجبت بحكمته.

ومما قال الكتاب إن هذه الملكة دخلت أورشليم في موكب عظيم جداً، ومعها جمال موقرة أطياباً وذهباً كثيرة جداً، وحجارة كريمة. ثم بيّن مقدار الذهب فقال، إنه مئة وعشرون قنطاراً وهي تعادل على ما مرّ نحواً من ثلاثة عشر مليوناً من الفرنكات. وقد سخر فولتر من كلام الكتاب هذا وقال إن المئة والعشرين قنطاراً من الذهب تساوي ستة عشر مليوناً وثمان مئة ألف من الليرات الفرنسية. فقال دوكلو (في حواشي تفسير هذه الآيات لسانكتيوس في طبعة الأب مين) راداً زعم فولتر إن كلامه هذا هذيان أو جهل فاحش ولو حسب القنطار حسب الوزن، وإذا حسب بحسب القيمة كان أقلّ من ذلك كثيراً. ولا يُستغرب هذا القدر على ملكة كثر الذهب في بلادها وتوفرت الثروة والغنى. وقد قضت ملكة سبا العجب العجاب من حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام موائده، وقيام عبيده ولباسهم ومحرقاته التي كان يُصعدها في بيت الرب. وعبر الكتاب عن عجبها بقوله: إنه لم يبق فيها روح وحقت لسليمان أنه زاد عندها الخبر الخبر كثيراً وأعطاها سليمان كل بغيتها فوق ما أعطاه من العطايا ثم انصرفت هي وعبيدها إلى أرضها.

آثام سليمان وإثارة الرب الفاتنين عليه

قضى سليمان أكثر سني ملكه راقياً أوج المعالي متسامياً على ملوك الأرض بحكمته وغناه، راتعاً وشعبه في بحبوحة السلم والرغد والترف؛ لكن ما عثم أن انحطّ من ذروة مجده، وكسف لألاً مجده لأنه أحبّ نساء غريبات كثيرات مع ابنة فرعون من الموابيين والعمونيين والأدوميين، والصيدونيين والحثيين وغيرهم من الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الإختلاط معهم لئلا يميلوا بقلوب شعبه إلى اتّباع آلهتهم. فكان لسليمان سبع مئة زوجة وثلاث مئة سرية، فأذاعت نساؤه قلبه. وكان كلما تقدّم في سنّه زاد ضعفه ووهن عزمه في المحافظة على سنّة الله حتى حملته نساؤه على عبادة عشتاروت آلهة الصيدونيين. وملكوم معبود بني عمون. وكاموش معبود بني مواب، وأقام للكموم وكاموش معبدّين في جبل الزيتون تجاه هيكل الرب في أورشليم، وكذلك صنع لجميع نسائه الغريبات اللواتي كنّ يقترنّ ويذبحن لآلهتهنّ. فزرعت أصول الثورة في ملكه وازداد شعبه مذ رآه عاكفاً على ملاذه مزدرياً سنّة إلهه مجدداً في إغناء نفسه وآله بتجارته مثقلاً رعاياه بالضرائب والمكوس، وضعف روح الدين بسوء مثله. فتجلّى له الرب مرتين مؤنباً له لأنه لم يحفظ عهده ورسومه، ومهدداً له بأنّه سيشق الملك عنه ويدفعه إلى عبده إلّا أنّه لا يفعل ذلك في أيامه من أجل داود أبيه، لكنه يفعل في أيام ابنه، ويُقيي له سبطاً واحداً من أجل داود عبده وأورشليم التي اختارها وتتالت الحن بعد ذلك على سليمان كما سيجيء.

فقد أثار الرب عليه هدد الأدومي من نسل ملوك أدوم، فإنه لما كان داود في أدوم صعد يواب ليدفن القتلى، وأقام ستة أشهر في أدوم يقرض كل ذكر فيها. فهرب هدد هذا ابن ملك أدوم مع رجال من عبيد أبيه وكان صبياً صغيراً، وأتى أولاً مدين ثم فاراً، ثم سار إلى مصر، فأكرم فرعون مثواه، وأعطاه بيتاً وأرضاً وأمر له بطعام، ولما شبّ زوجه أخت امرأته تحفيس فولد له منها ابن سماه جنوبت فربته خالته تحفيس في بيت فرعون بين بنيه. قال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلّد ٣ صفحة ٤٢٢ طبعة ٥) لا علم لنا بمن كان فرعون هذا. وقال مسبرو (في التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ٣٥٦ طبعة ٤) إنه بسيوكانو أحد ملوك

الدولة الحادية والعشرين، وإنه هو الذي غزا جازر وزوج بنتيه بسليمان وهدد الأدمي لكن هذا يخالف نص الكتاب، أن فرعون زوج هدد بأخت امرأته لا بنته، ولم يسند مسبرو زعمه إلى نص أو أثر. ومهما يك من ذلك فلما سمع هدد بخبر وفاة داود وقتل يواب رئيس جيشه، سأل فرعون أن يطلقه ليعود أرضه.

ولم يصرح الكتاب أطلقه حينئذ بعد وفاة داود أم تلوم في إطلاقه إلى أواخر سني سليمان. قال يوسفوس (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود) أن فرعون لم يطلق هدد إلى آخر سني سليمان ليقلقه جزاء مخالفته لرسم الله. وقال فيكورو (في المحل المذكور) إن هدد عاد إلى أدوم بعد وفاة داود وفي أوائل سني سليمان لكنه لم ينجح بأن يملك على أدوم أو ملك مدة وجيزة، لأن سليمان بقي مالكا أدوم وإلا لما أمكنه التوصل إلى خليج عقبه وتسيير سفنه إلى أوفير. وأن الأظهر أن هدد كان يخرق في ملك سليمان كل مدة ملكه فيعتدي على أبناء السبيل. ويغزو وينهب لكنه لم يُنزل ضراً مهماً بملك إسرائيل إلا في أواخر سنيه. وجاء في الترجمة السبعينية (في ملوك ٣ فصل ١١ عد ٢٢): «وملك هدد في أدوم» ولكن في الأصل العبراني والترجمة اللاتينية العامة (في عد ٢٥ ثمه) «فصار (رزون) فاتناً في إسرائيل كل أيام سليمان، فضلاً عن شر هدد. وأعنت إسرائيل وملك على آرام». فلا يُعلم من الآية حق العلم أهدد أعنت إسرائيل وملك آرام أم رزون. فالظاهر من السبعينية أنه هدد، وأثر فيكورو (في المحل المذكور) رواية السبعينية أي أن هدد ملك في آخر مدة سليمان في أدوم لا في آرام، مستمسكاً بأن هذا أكثر مطابقة لباقى النص وبأن بعض النسخ العبرانية المخطوطة يُقرأ فيها أدوم لا آرام، وبأن صورتى الدال والراء في العبرانية متقاربتان في الخط المدور فيسهل تصحيف أدوم بأرام، وعليه فيظهر أن هدد ملك في أدوم ولكن إما أنه لم يملك إلا في بعض أنحائها، إما أنه نُخلع عن هذا الملك بعدئذ لأنه جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٢٢ عد ٤٨) إنه في أيام يوشافاط «لم يكن ملك في أدوم». وفي سفر الملوك الرابع (فصل ٨ عد ٢٠). وفي أيامه (أي أيام يورام بن يوشافاط) خرج الأدميون من تحت أيدي يهوذا وأقاموا عليهم ملكاً.

وأثار الرب على سليمان فاتناً آخر هو رزون بن ألياداع، فهذا كان قائداً في جيش هدد عازر ملك صوبة لدى محاربة داود له واستظهاره عليه، ففرّ وجمع إليه رجالاً وصار رئيس غزاة عندما كان داود يدثرهم، فانطلقوا إلى دمشق وأقاموه ملكاً

فيها. ولم يصريح الكتاب بذكر زمان ملكه فلا وسيلة لتعيينه ولكن يستلمح من قوله إنَّ الرب جعله فاتناً على سليمان جزاء إثمه إنه لم يصبر ملكاً إلا في سني سليمان الأخيرة. وعليه فيلزم أن يكون رزون عاش طويلاً لأنَّ محاربة داود لهدد عازر كانت في أوائل ملكه، وبما أنَّ رزون كان قائداً في جيش هدد عازر فلا بدَّ من أن كان له من العمر حينئذٍ لا أقلَّ من خمس وعشرين سنة. والمدة من أوائل ملك داود إلى أواخر ملك سليمان ليست أقلَّ من سبعين أو تسع وستين سنة، فيلزم منه أن يكون ملك وعمره خمس وتسعون سنة. إلا أن نقول إنَّه ملك في دمشق في عهدٍ داود وسليمان، وكان طائعاً يؤدي الجزية صاغراً ولم يتمرد إلا في أواخر مدة سليمان جزاء لإثمه.

قد أثار الله على سليمان فاتناً آخر لا من الأجانب بل من بني إسرائيل وهو ياربعام بن نباط من سبط أفرايم. فهذا كان سليمان قد رآه جبار بأس وأهل شغل فأقامه على الأعمال المفروضة على آل يوسف من ردم الوادي المسمى ملو الفاصل بين صهيون مدينة داود وبين الهيكل. وكان ياربعام يسمع شكوى الشعب من الضرائب التي أثقلهم بها سليمان، وكان سليمان حينئذٍ يبني المعابد للآلهة الغربية استرضاءً لنسائه على ما مرَّ أو إجابةً لسؤال الأجانب الساكنين في أورشليم (على ما روى كراتس في تاريخ اليهود). فجاهر الشعب بالشكوى وكثر عثاره بمثل ملكه فأرسل الرب أحيا النبي الشيلوني (نسبة إلى شيلو وهي الآن خربة سيلون وقد مرَّ تعريفها)، إلى سليمان ليرعوي عن آثامه فقلما حفل به، وكان ياربعام ذات يوم في الصحراء فالتقاه أحيا النبي ونزع عنه ثوباً جديداً كان مدثراً به وشقَّه إلى اثنتي عشرة قطعة. ودفع عشرة منها إلى ياربعام قائلاً هذا مثال ما يصنعه الرب بيني وإسرائيل فإنه سيشتق ملكهم ويدفع إليك عشرة أسباط منه، ولكن لا يتم ذلك ما دام سليمان حياً إجلالاً لداود الذي اصطفاه الرب، لأورشليم التي إختارها، وأنت احرص أن تحفظ رسوم الرب فهذا الكلام زاد ياربعام رغباً وأملأ في الملك. فذهب إلى آله يدعوهم لذلك، وعرف سليمان فأمر بقتله فقرَّ إلى مصر ولجأ إلى ملكها الذي سمَّاه الكتاب شيشاق. وروى كراتس في تاريخ اليهود أنَّ هذا الملك هو أبو الدولة الثانية والعشرين أي مبدئها وأصلها. وانحلت في أيامه المحالفة التي كانت بين سليمان وفرعون لزواجه بنته. وكان شيشاق يتوق إلى الإستيلاء على فلسطين

فرحَّب بياربعام وعظَّم مثواه وأمسكه عنده ليستعين به على إفتتاح فلسطين فبقي ثمة إلى وفاة سليمان (ملوك ٣ فصل ١١).

عد ٢٩١

وفاة سليمان وما كتبه

قال الكتاب (ملوك ٣ فصل ١١ عد ٣٢): «وكانت أيام ملك سليمان بأورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة، وأُضجع سليمان مع أبناؤه، ودُفن في مدينة داود أبيه. وملك رحبعام ابنه مكانه». وقال يوسفوس (ك ٨ فصل ٣ من تاريخ اليهود) إنَّ سليمان عاش أربعاً وتسعين سنة، وملك ثمانين منها لكن قوله مخالف للكتاب ورأي الأئمة والجمهور فهو ملك صغيراً وعمره عشرون سنة. ونصَّ الكتاب أنَّه ملك أربعين سنة فيكون مات وعمره ستون سنة. وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٤ عد ٣٢ وما يليه): «قال ثلاثة آلاف مَثَل وكانت أناشيدته ألفاً وخمسة أناشيد. وتكلَّم في الشجر من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج في الحائط. وتكلَّم في البهائم والطير والزحافات والسمك»، ولكن لم يبقَ لنا مما كتبه سليمان إلا سفر الأمثال، أي الحكيم وربما كان هو المشار إليه بقوله إنه قال ثلاثة آلاف مَثَل وسفر الجامعة المفتتح بقوله: «كلام الجامعة ابن داود ملك أورشليم». وحسب بعضهم أن سليمان كتبه بعد اقراره الإثم توبةً إلى الله. وأجمع القدماء على أن سفر نشيد الإنشاء يعزى إليه، وتردد المتأخرون في متابعتهم على ذلك بناءً على أن الكلام العبراني في هذا السفر وردت فيه عبارات كلدانية أو عبرانية حديثة، فيعزونه إلى كاتب كتبه بعد عصر سليمان، وهذا السفر بطريقة غزل يعبر به عن عواطف النفس المؤمنة وشوقها إلى الخطوة بالله كطريقة المتصوفين. ونسب بعض القدماء سفر الحكمة أيضاً إلى سليمان، ولا يمكن تحقيق هذه النسبة لأنه يظهر أنَّ هذا السفر كُتب أصله باليونانية، وأقل احتمالاً من هذا نسبة سفر حكمة يشوع بن سيراخ إليه.

ولا يُعلم ما كان كلام سليمان في الشجر، والبهائم والطير والزحافات والسمك أتكلَّم في خواصها وطبائعها ومنافعها أم ضرب أمثالاً بها فلا وسيلة للقطع بذلك لضياح هذه الكتب بمرور الأيام وحدثانها. قال بوجولا (في تاريخ أورشليم فصل ٩ مجلد ١ صفحة ١٧٣): «قد يكون سليمان كتب كلاماً مفصلاً في علم

التاريخ الطبيعي كما كتب موسى موجزاً في تاريخ إبداع العالم، فلو بقي لنا في علم الزولوجية (الكلام في الحيوانات) والبيوتانيك (الكلام في النبات) فوائد أورثتنا إياها حكمة سليمان لتقدم بلا مرأى العلم بأسوار الطبيعة في المعمور».

إن بين الآباء والعلماء مبحثاً كبيراً غامضاً في ما إذا كان سليمان تاب وخلص أو أصّر وهلك، فقال بعضهم إنه تاب وخلص مستدلين على ذلك بقوله تعالى لداود أبيه عنه: «أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً، وإذا أئتم أودبه بقضيب الناس وبضربات بني البشر، وأما رحمتي فلا تُنزع عنه كما نزعته عن شاول» (ملوك ٢ فصل ٧ عد ١٤ و ١٥). ويقول الكتاب: إن رجوعاً وشعبه «ساروا في طريق داود وسليمان ثلاث سنين» (أخبار الأيام الثاني فصل ١١ عد ١٧). وذهب كثير من مفسري الكتاب إلى أن سفر الجامعة أثر دالّ على توبة سليمان وأنه كتبه بعد إثمه. ولكن ذهب غيرهم وهم كثيرون أيضاً إلى أن سليمان لم يتب فلم يخلص مستدلين بأن الكتاب صرح بإثمه وعبادته الأوثان، ولا نرى فيه كلمة في توبته. وقالوا: ليس في سفر الجامعة دليل قاطع على توبته ولو تاب توبة صادقة لما ترك على جبل الزيتون المعابد التي أقامها للأوثان لأننا نراها استمرت إلى أيام يوشيا. إذ جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٢٣ عد ١٣) «والمشارف التي تجاه أورشليم إلى يمين جبل الهلاك التي بناها سليمان لعشتاروت قذر الصيغونيين ولكموش رجس الموابيين وملكوم رجس بني عمون نجسها الملك». والحاصل أن هذا مبحث اعتاص حله إلى اليوم فالأولى الإضراب عنه وترك الحكم فيه لله.

الفصل الخامس عشر

انشقاق مملكة بني إسرائيل وملوك يهوذا وإسرائيل إلى آحاب

عد ٢٩٢

ملك رحبعام بن سليمان وياربعام بن نباط

قلّ أولاد سليمان وإن كثرت نساؤه، وقد وُلد له راحبعام من امرأته نعمة العمونية قبل ملكه، لأنّ عمر راحبعام كان إحدى وأربعين سنة حين ملك (ملوك ٣ فصل ١٤ عد ٢١) لكنه لم يشبه أباه بشيء من حكمته فقد كان الشعب لا سيما سكان شمالي فلسطين يثنون من الأثقال والضرائب التي إفترضها عليهم سليمان. وكانت عظمتة ومهابته وغناه تجعلهم يطمنون كيدهم وضيعيتهم، ويظهرون طاعتهم وإنقيادهم. وقد مرّ أنّ ياربعم بن نباط كان حاول أن يثير فتنة على سليمان، فأراد قتله لكنه فرّ إلى مصر لاجئاً إلى ملكها. فبعد وفاة سليمان استدعى ياربعم ذروه فأسرع طلق العنان إلى شكيم (نابلس) ونصب أحبولة لرحبعام بأن حمل الشعب على أن يستدعوه إلى شكيم ليملكوه باحتفاء. فمضى غير عالم بما يكتنه خصومه فأرسلوا إليه وفدأ رئيسه ياربعم يقولون: «إنّ أباك قد ثقل نيرنا وأنت فخفّ الآن من عبودية أبيك الشاقة ونيره الثقيل الذي وضعه علينا فنخدمك، فقال لهم: أمضوا إلى ثلاثة أيام ثم عودوا إليّ». فشاور رحبعام الشيوخ مستشاري أبيه فقالوا إن تنازلت لهؤلاء الشعب اليوم ووافقتهم كانوا لك عبيداً كلّ الأيام فترك مشورة الشيوخ، وشاور الفتيان الذين نشأوا معه فقالوا قل لهؤلاء إنّ خنصري أغلظ من متن أبي فإن كان أبي حمّلكم نيراً ثقيلاً، فأنا أزيد على نيركم. أبي أدّبكم بالسياط وأنا أوّدّبكم بالعقارب. ولما عاد ياربعم ووكلاء الشعب في اليوم الثالث للوقوف على الجواب أجابهم الملك كما لقّنه الفتيان. فانفضّوا من أمامه قائلين: ما قيل في أيام داود جده «أبي نصيب لنا مع داود وأبي ميراث مع ابن يسي إلى خيامكم يا

إسرائيل». وبدلاً من أن يرسل اليهم من يحبّون أو يجلّون ليرجعهم إليه بعث إليهم أدورام المولّى على الخراج الذي كان يُثقل عليهم، فرجمه جميعهم بالحجارة فمات. فأُسرع الملك وصعد إلى مركبته وهرب إلى أورشليم، وتمزّد الأسباط العشرة على بيت داود، وأقاموا ياربعام ملكاً عليهم في شكيم (نابلس) ولم يبقَ لرحبعام إلا سبطه بنو يهوذا وسيط بنيامين. فانشقّت مملكتهم إلى ولايتين أو مملكتين مملكة يهوذا وبنيامين وعاصمتها أورشليم، ومملكة إسرائيل كما سبّوها وعاصمتها نابلس. فتّم ما قاله الرب بلسان النبي أحيا كما مرّ آنفاً. وحصل ما كان سليمان يخشاه إذ قال في سفر الجامعة (فصل ٢ عد ١٨ و ١٩): «وكرهت جميع ما عانيت تحت الشمس من تعبي الذي سأتركه لإنسانٍ يخلفني. ومن يدري هل يكون حكيماً أو أحمق مع أنه يتسلّط على كلّ عملي الذي أفرغت فيه تعبي وحكمتي تحت الشمس، هذا أيضاً باطل». وجمع رحبعام مئة وثمانين ألف مقاتل من آل يهوذا وبنيامين ليحاربوا سائر بني إسرائيل، ويردّوا الملك برّمته إلى رحبعام بن سليمان. فبعث الرب شمعيا رجل الله ينهاهم عن مقاتلة إخوتهم لأنّ هذا جرى بأمره، ويأمرهم أن يعود كلّ إلى محله، فأذعنوا وعاد كلّ إلى محله.

أما ياربعام فبنى شكيم، والمراد أنه حصّنها بأسوار تردّد العدو عنها على ما قال لانرمان (في تاريخ المشرق في كلامه على العبرانيين) أو بنى فيها قصراً لإقامته على ما قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٣) أو المراد أنه جدّد بناءها بعد أن أخربها إيمملك بن جدعون كما مرّ في الكلام عليه. وبنى ياربعام فنوئيل وهي مدينة في عبر الأردن كان جدعون هدم برجها، وقتل أهلها لدى عودته من ملاحقة المدينيين. فكأنّ ياربعام جدّد بناءها أو حصّنها لتكون قلعة في أطراف ملكه. وخشي أن يمضي الشعب في الأعياد ليذبح للرب في أورشليم فيستميل رحبعام قلبهم إليه، ويثّلون عرشه أو يقتلونه فصنع عجّلين من ذهب، كما كان رأى المصريين يعبدون أيبس بهيئة عجل، وأقام أحدهما في بيت إيل (بيت إين الآن على مقربة من نابلس) ليعبده سكان جنوبي مملكته. والثاني في دان (تل القاضي الآن حذاء بانياس) ليعبده سكان شمالي مملكته. وأقام كهنة من لفيف الشعب من غير بني لاوي وقال لبني إسرائيل لا حاجة لكم بعد إلى أورشليم. هذه آلهتكم يا إسرائيل التي أخرجتكم من مصر. وأقام عيداً في الشهر الثامن في الخامس عشر منه كالعيد الذي يقام في أورشليم. وقدم الذبائح للعجّلين. وجعل نفسه رئيس أخبار وصعد

على المذبح في بيت إيل ليقتر أي يقدم البخور والذبائح. ولا يُظن أن جميع بني إسرائيل عبدوا العجل وقتلوا، بل استمرّ جثم غفير منهم يحج إلى أورشليم أو يعبد الله خفية؛ وهذا بين من آيات في الكتاب منها قوله تعالى لإيليا النبي: «إني قد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل ركة لم تجث للبعل». ومنها ما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (ف ١١ ع ١٦): «وكان الذين وجهوا قلوبهم لالتماس الرب إله إسرائيل من جميع أسباط إسرائيل يأتون إلى أورشليم ليذبحوا للرب إله آبائهم» (ملوك ٣ فصل ١٢).

وأرسل الرب نبياً من سبط يهوذا إلى بيت أيل ولم يذكر الكتاب اسم هذا النبي وذكر يوسفوس (تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٣) إن اسمه يدون وقال بعض المفسرين إنه عدد الرائي الذي كتب أخبار رحبعام وأيا كما في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ١٢ ع ١٥). فدخل النبي هيكل بيت أيل واربعم واقف على مذبحه يقدم البخور والذبائح. وصاح بكلام الرب قائلاً: يا مذبح يا مذبح كذا قال الرب هوذا سيولد لبيت داود ابن يسمى يوشيا وهو سيذبح عليك كهنة المشارف الأحياء حينئذ، ويحرق عليك عظام الموتى منهم. وهاكم آية تثبت ذلك هوذا المذبح ينشق ويُلدى الرماد الذي عليه. وسمع ياربعم فاحتدم ومدّ يده قائلاً: أمسكوه، فبيست يده ولم يستطع أن يردّها إليه. وانشق المذبح وذري الرماد الذي كان عليه فتبيّن ياربعم أن ذاك أمر الرب. فتوسّل إلى النبي ليستعطف الله لترتد يده ففعل النبي وعادت يده كما كانت أولاً.

ورغب الملك إلى النبي أن يحضر معه إلى البيت ليكرمه فقال لو أعطيتني نصف بيتك لم أدخل معك. ومضى في طريق غير الطريق التي جاء منها. وكان في بيت إيل نبي كاذب وكان ياربعم يكرمه لأن يتنبأ له بما يرضيه على ما قال يوسفوس (في المحل المذكور) فخاف أن يزدرية ياربعم ويستمسك بالنبي الذي رأى معجزاته، ولما قصّ عليه نبوءة ما فعل رجل الله، مضى في إثره حتى أدركه والحّ عليه أن يعود معه إلى بيته ليأكل خبزاً. فأجابه: إن الرب نهاه عن ذلك فقال النبي الكاذب أنا نبي مثلك، وقد ناجاني ملاك قائلاً ردّه إلى بيتك فياكل خبزاً ويشرب ماءً. فاغترّ النبي وعاد معه، وصار كلام الرب إليه أن لا تدخل جثته قبور آبائه لأنه خالف وصية الرب. وبعد إنصرافه لقيته أسدّ فقتله ولم يفترس جثته. وعرف النبي الكاذب فأتى وأخذ جثته ودفنها في قبر أوصى أولاده أن يدفنه فيه. وذلك أنه

اعتقد ما قاله النبي أنّ عظام كهنة المشارف ستُحرق على مذبح ياربعام. فأحبّ أن تُجهل عظامه فلا تُميّز عن عظام النبي. وروى يوسفوس (في المحل المذكور) إنّ هذا النبي مضى بعد ذلك إلى ياربعام يقول لا تحفل بكلام هذا المهذار فلم تبيس يدك إلاّ لأنها كلّت من تقدمة الذبائح، ولم ينشقّ المذبح إلاّ لأنه جديد لم يتحمّل الذبائح والخطب التي وضعت عليه. ولو كان هذا نبي الله لما قتله الأسد، فلم يرتد ياربعام عن طريقه الفاسد (ملوك ٣ فصل ١٣).

ومرض ايبا بن ياربعام فقال الملك لإمرأته تنكري واذهبي إلى النبي أحيا الذي تنبأ أنني سأكون ملكاً، وخذي عشرة رغفان وكعكاً وجرة عسل وهو يعلمك ما يكون من أمر الغلام ففعلت. وكان أحيا كفّ بصره وأوحى الرب إليه ما يقول لها ولما سمع خفق خطواتها في الباب قال ادخلي يا امرأة ياربعام، لماذا أنتِ متنكرة؟ إذْهبي فقولي لياربعام إنّ الرب يقول له جعلتك رئيساً على إسرائيل. وشققت ملك داود وأعطيتك فصنعت لنفسك آلهة أخرى ونبدتني ظهرياً، لذلك أنا قارض كل ذكر من ذريتك. ومن مات منهم في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الصحراء تأكله طير السماء. وامضي أنتِ إلى بيتك وعند دخول رجلك إلى المدينة يموت الولد. وهذا وحده من بيت ياربعام يدخل قبراً لأنه وجد فيه شيء من الصلاح، فمضت وعند دخولها على عتبة الباب مات الغلام وأصرّ ياربعام على شرّ.

وأما رحبعام وأهل مملكته فاتقوا الله «وساروا في طريق داود وسليمان ثلاث سنين» (أخبار الأيام الثاني فصل ١١ عد ١٧). ونمت مملكتهم وأضيف إليها اللاويون والسواد الأعظم منهم، لأنهم لم يشأوا أن يكهّنوا على مذابح ياربعام وهو استبدلهم بكهنة من لفيف الشعب كما مرّ. وحصّن رحبعام مدناً من مملكته منها بيت لحم وحبرون (الخليل). وجت (ذكرين الآن) وجعل فيها مخافر وخزائن طعام وزيت وخمر ومجانب ورماحاً. وقال الكتاب: إنه «كانت حرب بين رحبعام وياربعام كل أيام حياته». وسطت الأيام على ما كتبه شمعيا، وعدّد في تاريخ هذه الحروب كما أشار الكتاب. وقال كراتس (في تاريخ اليهود) لم تكن هذه الحروب إلاّ مناوشات ومشاحنات كدأب كل جيران طال الخلاف بينهم، ولم يكن منها أمور ذات بال. ويظهر أنّ كلاً من الملكين اتّخذ حلفاء فحالف رحبعام روزون ملك دمشق المار ذكره، فإنه عزّز مملكته التي أقامها في أيام سليمان وألحق بها أعمالاً من بلاد الآراميين. وكان ياربعام حليفاً لملك مصر مد أقام عنده وقيل إنه زوّجه بانو

أخت امرأته، كما زوّج هدد ابن ملك أدوم بأخت أخرى لها كما مرّ.

عد ٢٩٣

حملة شيشاق ملك مصر على رحبعام ملك يهوذا

ما عثّم أهل مملكة يهوذا أن يصنعوا الشر، وأقاموا لهم مشارف وأنصاباً فغضب الرب عليهم. ولما كانت السنة الخامسة لملك رحبعام، صعد شيشاق ملك مصر على أورشليم وهذه أول مرة عبّر الكتاب فيها عن ملك مصر بغير علم فرعون، وكان جيشه مؤلفاً من ألف ومئتي مركبة وستين ألف فارس. وجثم غفير من الرّجاله جاءوا معه من مصر من اللوبيين والسكيين والكوشيين، ويراد بهؤلاء الأحباش. ولكن ذهب كلمت إلى أنّ العبرانيين كانوا يسمون سكان جنوب العربية كوشيين فعليه يكون هؤلاء من العرب. فأخذ المدن المحصّنة في طريقه إلى أورشليم، ثم أقبل عليها وكان رحبعام ورؤساء يهوذا اجتمعوا فيها. وأرسل الرب إليهم شمعي النبي يبيّتهم على تركهم إياه ويهدّدهم بالنّازلة المفاجئة لهم. فخشعوا وقالوا عادلاً هو الرب فأعلمهم النبي أنّ الرب لا يدمرهم بل يوتيهم بعض الفرج والنّجاة لكنهم يكونون عبيداً لملك مصر ليرفعوا عبودية الرب من عبودية ممالك الأرض. وزحف شيشاق إلى أورشليم فانتهب ما في خزائن بيت الرب وخزائن دار الملك، وأخذ جميعها ومجان الذهب التي عملها سليمان، فاضطرّ رحبعام أن يصنع مكانها مجاناً من النحاس (أخبار الأيام الثاني فصل ١٢). قال كراتس (في تاريخ اليهود): إنه يظهر أنّ أورشليم استسلمت فاكتمى شيشاق أن ينتهب كلّ نفيس في بيت الرب ودار الملك، ولم ينقض أسوار أورشليم، ولم يقرض مملكة يهوذا بل أقرّ رحبعام على عرشه.

إنّ شيشاق هذا هو أول ملوك الدولة الثانية والعشرين من دُول مصر، وبعد عوده من حملته هذه نقش صورة ما عمله فيها على جدار هيكل الكرنك. وقال شمبوليون الإفرنسي كاشف الكنوز الهيروكليفيّة (في رسائله التي كتبها من مصر والنوبة سنة ١٨٢٨ م وسنة ١٨٢٩ م، ونُشرت في باريس سنة ١٨٣٣ م) إنه بينما كان في ٢٣ ت ٢ سنة ١٨٢٨ م صاعداً في النيل نزل إلى البر يستفحص أطلال الكرنك. فعر في طرف الحائط الجنوبي من هيكلها على صورة ملك رافع يده ليضرب أسرى جاثين أمامه ومن ورائهم مئة وخمسون رجلاً ملتحين. فعلم أنهم



صورة شيشاق ملك مصر احد ملوك الدولة الثانية والعشرين الذي حمل على
راجبعام ملك يهوذا

ليسوا مصريين لأن هؤلاء لم يكونوا يطلقون لحاهم. فأخذ شمبوليون يتفّرس في كلّ منهم. ولما بلغ التاسع والعشرين منهم وجد مكتوباً عليه «يهوتا ملك» أي ملك يهوذا فهزّه السرور لعلمه أنّ الملك المصري صاحب هذا الأثر إنما هو شيشاق الذي حمل على راجبعام. وتيقّن أنّ الممثل هناك مكتوباً عليه ملك يهوذا إنما هو راجبعام. هذا فكان إكتشافه مثبتاً ما جاء في الفصل الرابع عشر من سفر الملوك الثالث، وفي الفصل الثاني عشر من سفر أخبار الأيام الثاني. وكان هذا الاكتشاف باكورة لاكتشافات أخرى عديدة كما رأيت وسترى. وقد تفاخر بعد ذلك الكردينال

ويسمن رئيس أساقفة لندرة بذكر هذا الأثر في خطبته الغراء. «في العلائق بين العلم والدين الموحى» التي كان يلقيها في روما قبل أن يرتقي مقام الكردينالية.

لم يجتزئ شيشاق بنقش صورة إفتتاحه أورشليم بل نقش على جدار الكرنك جريدة مطولة في اسماء المدن والأعمال التي دانت له، وقد أذاع فحوى هذه الجريدة روزالييني ولبسيوس وبروغش، وغيرهم في كلامهم على الآثار المصرية. وقد محا مرور الأيام بعض هذه الأسماء وبعضها لم تتحقق مسمياته ولكن بقي منها أسماء كثيرة مثبتة إثباتاً علمياً قطعاً ما ورد في الكتاب. فقد جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ١١ عد ٦ وما يليه) إن رحبعام حصّن «بيت لحم وعيطم وتقوع وبيت صور وسوكر وعدلام وجت ومريشة وزيف وأدورائيم ولاكيش وغريقة وصرعه وأيالون وحبرون». وفي جريدة شيشاق اسماء كثيرة من هذه المدن منها اسم «عدولما» وإن هي إلا عدلام الوارد ذكرها في الكتاب، والمعروفة الآن بخربة خريطون على ثمانية أميال جنوباً من بيت لحم. ثم «أيلولون» وهي بلا إشكال أيالون الكتاب المسماة في أيامنا يعلو في شرقي عمواس. ثم «سوكة» وليست إلا سوكو التي ذكرها الكتاب المعروفة اليوم بخربة الشويكة على ما حقق كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٢٠٢). ثم «أدورام» وليست إلا أدورائيم المذكورة آنفاً وتسمى في الترجمة اللاتينية أدورام. وأدورا وهي دورا الآن في جبل الخليل. ثم «صرعاتان» وليست إلا صرعة المذكورة آنفاً وهي المسماة اليوم صرعة حيث مدفن شمشون وأبيه. ثم «تقوعان» وليست إلا تقوع التي ذكرها الكتاب والمعروفة الآن أيضاً بهذا الاسم وموقعها في جنوب أورشليم بين بيت لحم والخليل.

عد ٢٩٤

وفاة رحبعام وملك ابنه ايا وحربه مع ياربعام

ملك رحبعام في أورشليم سبع عشرة سنة. وكان قد اتخذ ثمانى عشرة زوجة منهنّ معكة بنت أبشالوم كذا في سفر الملوك ال ٣ (ف ١٥ ع ٢). ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني (ف ١٣ ع ٢). «واسم أمه ميكايا بنت أوريشيل من جبع» مع أنه قيل في هذا السفر (ف ١١ عد ٢٠) عن رحبعام إنه «تزوج معكة ابنة أبشالوم فولدت له ايا». ففي توفيق هذه الآيات أقوال نرى أصحها وأظهرها ما رواه فيكورو في معجم الكتاب في كلمتي ايا وأبشالوم؛ وهو إن اسم ميكايا في سفر

أخبار الأيام إنما هو خطأ ظاهر من النساخ أو تحريف لإسم معكة. وحيث أبشالوم ابن داود لم يكن له إلا بنت اسمها تامار (ملو ٢ ف ١٨ عد ١٨). فالأظهر أن تكون معكة أو ميكايا أم ايبا بنت تامار هذه من زوجها أوريشيل من جبع وحفيدة أبشالوم بنت بنته. وسماها الكتاب ببنته في بعض آيه توسعاً، وأمثاله كثيرة فيه. إن أبشالوم المذكور هنا يمكن أن يكون غير ابن داود ويسمى باسمين أبشالوم وأوريشيل عبر الكتاب عنه بهما. وكان لتامار وجه لتسمية بنتها معكة لأن هذا اسم جدتها امرأة داود بنت ملك جشور. وأقل إشكالاً من هذا تسمية أم آسا ابن ايبا معكة أيضاً بقوله (ملوك ٣ فصل ١٥ عد ١٣). «وأيضاً معكة أمه (أي أم آسا) نزع عنها لقب الملك لأنها صنعت تمثالاً». إذ يُحتمل أن تكون امرأة ايبا مسماة معكة باسم أمه أو أن يكون المراد باسم أم آسا التي نزع ابنها لقب الملك عنها جدته أم أبيه ايبا خاصة لأن الترجمات اليونانية تسمي أم آسا حنه لا معكة.

وقد كان لرجعام ثمانية وعشرون ابناً وستون بنتاً. وأقام أبناءه في المدن المحصنة في مناصب مهمة دفعاً للنزاع بينهم. وأقام ايبا أحدهم رئيساً ومتسلطاً على إخوته لأنه نوى أن يورثه الملك بعده كما صنع قبيل موته. ودفنه مع آبائه في مدينة داود وملك ايبا على يهوذا في السنة الثامنة عشرة لملك ياربعام على إسرائيل. وانتشبت الحرب بينهما. فحشد ايبا أربع مئة ألف رجل منتخبين، وصافه ياربعام بشماني مئة ألف منتخبين. ووقف ايبا على جبل صمارايم ويظهر أنه الجبل الذي شراه له بعد ذلك عمري ملك إسرائيل من رجل اسمه شامر أو سامر. وبنى عليه مدينة سماها السامرة باسمه. ومن أعلى هذا الجبل خطب ايبا في ياربعام وقومه خطبة شاهدة له بالفصاحة والبلاغة. بين فيها أن الرب أعطى داود ملك إسرائيل بعهد مبرم، وأن ياربعام عبد سليمان بن داود عصا مولاه وجمع إليه رجالاً أئمة بطالين. فتغلبوا بعد وفاة سليمان على رجعام ابنه إذ كان صبيّاً ضعيف القلب. وإنهم يعتمدون الآن على كثرة عديدهم وعلى العجول الذهبية التي جعلها ياربعام آلهة لهم. وقد نبذوا كهنة الرب من بني هرون واللاويين. واتخذوا من تزلف إليهم بتقادمه كهنة لهم، وأنه هو وبني يهوذا وبنيامين ما برحوا شديدي التشبث بمعتقد آبائهم، ولم يتركوا الرب إلههم ويقوم بخدمته بنو هرون واللاويون بحسب سنته، وعليه فالله معهم وهو رئيسهم ومقاوم لأعدائهم، واختتم كلامه قائلاً يا بني إسرائيل لا تحاربوا الرب إله آبائكم فإنكم لا تغلبون.

وبين كان ايبا يلقي هذا الخطاب كانت فرق من جنود ياربعام تدور من وراء الجبل لتكمن لبني يهوذا، وتكون جحافل ياربعام من أمامهم وورائهم. ودرى ايبا وقواد جيشه بالحيلة، فصرخوا إلى الرب وهتف الكهنة بالأبواق، وتعالى هتاف رجال يهوذا، فاستولى الرعب على أعدائهم. وضرب الله ياربعام وجميع إسرائيل أمام بيا ويهوذا. وانهزموا من وجههم وأسلمهم الله إلى أيديهم فضربوهم ضربة عظيمة وسقط قتلى من إسرائيل خمس مئة ألف رجل، فذلّ بنو إسرائيل واعتزّ بنو يهوذا لأنهم اتكلوا على الرب. إنّ عدد الأربع مئة ألف في معسكر ايبا والثماني مئة ألف في معسكر ياربعام، وعدد قتلى بني إسرائيل خمس مئة ألف كل ذلك استبان لبعض مفسري الكتاب معظماً، وغير خالي من مبالغة، وحسب فيكرورو في (معجم الكتاب) ذلك غلطاً منشأه غفلة النساخ، أو التشابه بين الحروف العبرانية المعبر عن العدد بها، وأيضاً إنّ بعض النسخ المخطوطة والمطبوعة روت إنّ عسكر ايبا كان أربعين ألفاً وعسكر ياربعام ثمانين ألفاً، وعدد القتلى خمسين ألفاً على أنّ النص العبراني والترجمة السبعينية وأصحّ النسخ اللاتينية المخطوطة والمطبوعة، وتاريخ يوسفوس أثبتت هذه الأعداد كما رويناها أولاً. ومع هذا يُطلق لكل أن يستمسك بأي الروايتين شاء، فمثل هذه الأعداد لا تمسّ الدين بشيء، وتبيح الكنيسة كلاً أن يتبع فيها ما حسن له.

لم يكتفِ ايبا بقهر أعدائه بل سعى في أثر ياربعام، فلم يدركه وأخذ من مملكته بيت أيل (بيت أين الآن) وتوابعها، ويشافه. وفي كتاب اعلام الأماكن الكتابية أنها كانت في الحقل المسمى الآن عين سينيا في شمالي بيت إيل ثم عفرائين وتوابعها، وهذه تسمى عفرون وعفرا وأفرام أيضاً، وموقعها في الشرق الشمالي من بيت أيل، وتسمى الآن الطيبة، وكأنّ اسمها الجديد تفسير لاسمها القديم، لأنّ عفرا في العبرانية معناها الطيب والبهج. وروينسون أول من قال بهذا القول، وجاراه عليه كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٤٧) وقال: إنّها افرام التي اعتزل اليها المخلص بعد قيامة العازر وقبيل آلامه (يوحنا فصل ١١ عد ٥٤).

وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٥ عد ٣) في ايبا إنه: «لم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه كقلب داود أبيه» إلا أنّ الله نصره من أجل داود وانتقاماً من ياربعام وتثبيتاً لأورشليم. ومما يؤذن بعد خلوص قلبه لله إستبقاؤه المشارف في بيت أيل وعليه فيكون كلامه في خطبته ضرباً من السياسة يخيف به أعداءه، ويشجّع

قومه ولا يطابق عمله كلامه فيه. وقد تزوج ايبا بأربع عشرة امرأة وولد له إثنان وعشرون ابناً وست عشرة بنتاً ولم يملك إلا ثلاث سنين ومات. ودُفن في مدينة داود وخلفه ابنه آسا. وأما ياربعام فعاش بعد انخذه ستين مئتيماً ذليلاً. ومات في السنة الثانية والعشرين للملكه أو في بدء الثالثة والعشرين، وخلفه ابنه ناداب (ملوك ٣ فصل ١٥ وأخبار الأيام الثاني فصل ١٣).

عد ٢٩٥

آسا ملك يهوذا وناداب وبعشا ملكي إسرائيل

أما ناداب بن ياربعام فصنع الشرّ سالكاً في طريق أبيه. إلا أنّ ملكه لم يدم إلاّ سنتين. وحالف عليه بعشا بن احيا من آل يساكر وبينما كان محاصراً هو وجميع إسرائيل مدينة جبتون قتله بعشا غيلة. وجاء في أعلام الأماكن الكتابية أنّ جبتون يُحتمل أن تكون كيبا الآن في غربي تبنة. وفي غيره إنها كانت في الحقل المعروف اليوم بجباتا في الغرب الجنوبي من الناصرة. ويُظن أنّ الحرب فيها كانت مع الفلسطينيين. وبعد أن ملك بعشا لم يترك لياربعام ذا نسمة إلاّ أهلكه. وأكلت الكلاب والطيور جثثهم كما تكلم الرب على لسان النبي احيا الشيلوني كما مرّ.

أما آسا ملك يهوذا فأحسن المسعى، ونفى المخنثين من الأرض، وأزال جميع أقدار الأصنام حتى أنّ أمه أو جدته (كما مرّ) معكة، كانت صنعت تمثال فحل لعشتاروت فنزع عنها. لذلك لُقّب الملك، وكسر تمثالها وأحرقه في وادي قدرون وأمر شعبه أن يعملوا بسنة الرب. وحصّن مدناً كثيرة في مملكة يهوذا بأسوار وأبراج ومغاليق. وكان له جند يحملون الجناح والرمح ثلاث مئة ألف من يهوذا ومئتان وثمانون من سبط بنيامين، وبحكمته رتعت رعيته في رياض الأمن والسلم مدة العشر السنين أو الخمس عشرة سنة الأولى من ملكه. على أنّ ضعفه أو داعياً سياسياً أغفله عن نقض بعض المشارف التي كان فيها مذابح لله على خلاف السنة، وعن تدمير بعض المشارف الوثنية أيضاً كما هو ظاهر من قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ١٥ عد ١٤): «وأما المشارف فلم تزل إلاّ أنّ قلب آسا كان مخلصاً للرب كل أيامه»، ويؤيده أنّ المشارف التي كان سليمان بناها لبعض نساؤه في جانب أورشليم لم تنقض إلاّ في أيام يوشيا. لكن آسا أزال أكثر هذه المشارف، وكسر تماثيل الشمس وعشتاروت، وهذا ظاهر من قول الكتاب (أخبار الأيام الثاني فصل

١٦ عد ٥): «وأزال من جميع مدن يهوذا المشارف وتماثيل الشمس». وعليه فيكون ما مرّ طريقة التوفيق بين قولَي الكتاب.

عد ٢٩٦

خروج زارح الكوشي على آسا ملك يهوذا

قال الكتاب (أخبار الأيام الثاني فصل ١٤ عد ٩): «خرج عليهم زارح الكوشي بألف ألف (مليون) من الجيش. وثلاث مئة مركبة وزحف إلى مريشة» ذهب كلمت وغيره إلى أنّ زارح الكوشي هذا لم يكن ملك كوش التي هي الحبشة، بل كان ملك بلاد العرب الجنوبية التي تسمى كوش أيضاً، حيث سكن المدينيون الذين منهم امرأة موسى ولذلك دُعيت كوشية أو حبشية. إلا أن هذا المذهب لا يعول عليه لا سيما لأنّ جنوبي العربية لا يمكن أن يؤخذ منه عسكر جرار ألف ألف رجل كما نبأنا الكتاب، بل المعول عليه إنما هو أحد مذهبتين آخرتين أولهما قال به لانرمان (في تاريخه القديم للمشرق مجلد ٦ صفحة ٢٦٢ طبعة ٩) وهو أن زارح هذا أو أزرع عمان هو ملك الحبشة. وكان ألب إليه جحافل جرارة من البرابرة في جانبي النيل، فانقضّ بهم على مصر وأخربها من الجنوب إلى الشمال. وعمد أن يصنع كذلك في فلسطين، فالتقاه آسا فبدد شمل جيوشه كما سيأتي وأسند لانرمان قوله: إلى أنّ أزرع عمان الذي يخاله زارح وجد اسمه مكتوباً على كثير من آثار الحبشة، وإنّ العلامة بروغش أوجد هذا التصحيح المهم. والمذهب الثاني قال به شمبوليون (في كتابه خلاصة الخط الهيروكليفي صفحة ٢٥٧ وما يليها)، وتابعه عليه سميت (في معجم الكتاب في كلمة زارح)، ومريات وغيرهما وخلاصة قولهم إنّ زارح هذا هو أوزركن الأول ملك مصر والثاني من ملوك الدولة الثانية والعشرين. ومما قاله مريات إنّ أوزركن هذا لا يظهر إنه ابن شيشاق الأول الذي حارب رحبعام مع أنّه يظهر أنّه خلفه بعد تسع وعشرين سنة من أخذ شيشاق أورشليم يحارب آسا حفيد رحبعام وسماه الكتاب زارح. وقد ندّد لانرمان بهذا المذهب لإنتفاء المقاربة بين اسمَي زارح وأوزركن والله أعلم.

أما مريشة التي زحف إليها زارح فهي المسماة الآن خربة مراش على عشرين دقيقة من بيت جبرين جنوباً (أعلام الأماكن وكران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٢٣). ولم تحل جحافل زارح هذا المحل إلا وخرج آسا عليه بجيشه وعديده.

خمس مئة وثمانون ألفاً «وتصافاً للقتال في وادي صفاتة عند مريشة». كذا في النص العبراني. ولكن في الترجمة السبعينية «في الوادي الذي في شمال مريشة». وجنح روينسون إلى القول بأن وادي صفاتة هو المسمى اليوم تل الصافي. على أن هذا التل يبعد ثلاث ساعات عن خربة مراش فلا ينطبق هذا على قول الكتاب أن الواقعة كانت «عند مريشة». إلا أن يقال إن وادي صفاتة يمتد من بيت جبرين إلى تل الصافي، وإن الوادي يسمى كله باسم المحل الذي ينتهي فيه. وكانت الواقعة في طرفه عند بيت جبرين. ومهما يكن من أمر المحل فإن آسا صرخ إلى الرب عند إفتتاح القتال قائلاً: «يا رب لا فرق لديك أن تعين الكثيرين أو من لا قوة لهم فأعنا أيها الرب إلهنا لانا عليك نعتمد». فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وبني يهوذا، فانهزموا ولعبت بهم أيدي سبا. وقُتل منهم كثيرون وغنم جيش آسا غنيمة عظيمة جداً، وما انكفوا يطاردون الكوشيين إلى جرار وهي المسماة الآن أم الجرار في جنوبي غزة على ساعتين منها (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٢٥٧). وضرب آسا وجنوده جميع المدن المحيطة بجرار، وأخذوا منها غنائم وافرة، وضربوا أيضاً حظائر الماشية التي كانت هناك، وأخذوا كثيراً من الغنم والإبل. وعادوا إلى أورشليم (أخبار الأيام الثاني فصل ١٤).

فالتقاهم عزريا بن عوبيد النبي وقال أصغوا إليّ يا آسا وجميع يهوذا وبنيامين إن الرب معكم ما دمتم أنتم معه، وإن تركتموه فإنه يترككم. وسيكون إسرائيل أياماً كثيرة بلا إله حق، وبلا كاهن، وبلا شريعة، وتكون اضطرابات كثيرة وتسحق أمة أمة ومدينة مدينة. وأشار النبي بذلك إلى حالة الأسباط العشرة أو إلى ما سيكون وقت السبي إلى بابل؛ ولما سمع آسا نبوة عزريا تشدد بإزالة الرجاسات من جميع أرض يهوذا وبنيامين. ومن المدن التي أخذها من جبل أفرائيم وجدّد مذبح الرب الذي أمام رواق الهيكل. وانحاز إليه كثيرون من أسباط أفرائيم ومنسا وشمعون لما رأوا أن الرب معه. وجمع آسا هؤلاء وجميع بني يهوذا وبنيامين في أورشليم في السنة الخامسة عشرة لملكه في الشهر الثالث، وذبحوا للرب الغنائم التي جاءوا بها من أرض جرار ومعسكر زارح سبع مئة ثور وسبعة آلاف شاة، وأقسموا على أن كل من ترك الرب منهم وعبد الأوثان يُقتل كبيراً كان أو صغيراً رجلاً أو امرأة (أخبار الأيام الثاني فصل ١٥).

خروج بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وخروج ملك آرام على بعشا

قال الكتاب (أخبار الأيام الثاني فصل ١٦ عد ١): «في السنة السادسة والثلاثين من ملك آسا صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا. وبني الرامة لكي لا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا». قال فيكور في معجم الكتاب (في كلمة آسا) إن في ذكر السنة السادسة والثلاثين من ملك آسا هنا تحريفاً ظاهراً لأنه جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٦ عد ٨) إن بعشا مات في السنة السادسة والعشرين من آسا. وخلفه ابنه ايلة فالصواب أن يقال: «في السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من ملك آسا صعد بعشا على يهوذا وبني الرامة»، وهي الآن في المحل المسمى الرام في شمالي أورشليم على ساعتين منها في الطريق المؤدي من أورشليم إلى نابلس، وهي غير الرامة مدينة صموئيل المسماة اليوم النبي صموئيل، على ما قال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١٩٩) وكانت الرامة على تخم المملكتين أو بعشا افتتحها، وهم بتحسينها. وأقام فيها حامية وحرساً ليمنع أهل مملكته من الدخول إلى آسا وأورشليم. ويصعد بني يهوذا وبنيامين عن الدخول إلى مملكته خفية القاء الفساد والشغب فيها. فشق ذلك على آسا وأخرج ذهباً وفضة من خزائن بيت الرب ودار الملك، وأرسلها مع وفد إلى بنهدد أي ابن هدد ملك آرام الساكن في دمشق. مذكراً له بالعهد التي كانت بين أبويهما. ورغب إليه أن يخرج على أملاك بعشا لينكف عن أملاكه، فلبى ابن هدد دعوته، ووجه رؤساء جيشه إلى مدن إسرائيل. وضربوا عيون ودان وأبل مائيم وجميع مخازن مدن نفتالي، ولما سمع بعشا كف عن تحصين الرامة ليتفرغ إلى الذب عن الجهة الشرقية من ملكه وأقام بترصة.

إنه ليجدر بنا أن نبيّن من هو ابن هدد ومواقع المدن التي ضربها. فقد مرّ أن داود ضرب هدد عازر بن رحوب ملك صوبة فانتصر عليه. ونجده آراميو دمشق فظفر بهم أيضاً وأقام محافظين في دمشق؛ وأن رزون أحد قواد هدد عازر فرّ حينئذ، وصار رئيس غزاة وملك في دمشق. وصار فاتناً على سليمان في آخر مدة ملكه. والظاهر من الكتاب ومن الآثار الآشورية التي ذكرها سميت أن رزون هذا كان في عهد سليمان من سنة ٩٩٠ ق.م إلى سنة ٩٧٠. وملك بعده ابنه طبريمون من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٥٠ وكان في أيام ياربعام الأول. وخلفه ابنه المسمى ابن هدد الأول مالكا من سنة

٩٥٠ إلى سنة ٩٣٠ وكان في عهد بعشا ملك إسرائيل وافتتح المدن المار ذكرها. ولما كان ذكر هؤلاء الملوك متواتراً في كلامنا التالي آثرنا أن نستقرب سلسلتهم نقلاً عن فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٤٧ طبعة ٥):

ملوك دمشق.	من سنة إلى سنة	ملوك بني إسرائيل
خلف ابن هدد الأول	٩٣٠ ٩١٠	في عهد عمري ملوك ٣ ف ٢ ع ٣٤
ملك لم يُعثر على اسمه		
ثم خلفه ابن هدد الثاني	٩١٠ ٨٨٦	آحاب ملوك ٣ فصل ٢
حزائيل الأول	٨٨٦ ٨٥٧	ياهو ملوك ٤ فصل ٨ عد ٩
ابن هدد الثالث	٨٥٧ ٨٤٤	يوحاز ملو ٤ ف ١٣ ع ٣
حزائيل الثاني	٨٤٤ ٨٣٠	يواش ويواحاز ملو ٤ ف ١٢ ع ١٧
ابن هدد الرابع	٨٣٠ ٨٠٠	يواش وياربعام ملو ٤ ف ١٣ ع ٢٤
مريحا	٨٠٠ ٧٧٠	ياربعام ٢ صفيحة بينيرار ٣
هدارا	٧٧٠ ٧٥٠	منحيم صفيحة تجلت فلاصر
رصين الثاني	٧٥٠ ٧٣٢	فاقح ملو ٤ ف ١٥ ع ٣٧ وصفيحة تجلت فلاصر.

وقال سميت واضع هذا الجدول إنَّ حزائيل الثاني وابن هدد الرابع يشك في وجودهما، وقد يكونا حزائيل الأول وابن هدد الثالث وقال الأب فيكورو الذي نقل هذا الجدول عنه: إنَّه يلزم محو اسميهما وإنَّ مدَّات الملوك الأولين منهم مقدارها غير محقق لكنها تقرب مما ذكره وروى لانرمان ابن هدر بالراء لا بالبدال مستمسكاً بأنَّ اسمه يروى كذلك في الترجمة السبعينية وفي الخطوط المسمارية.

وأما المدن التي أخذها ابن هدد الأول من بعشا فهي عيون، وقد قال كثير من المحققين ومنهم روبينسون إنها كانت في المحل المسمى الآن تل ديين في شمالي الجديدة في قضاء مرجعيون. وتابعهم على ذلك كاران (مجلد ٢ في الجليل صفيحة ٢٨٠) وقال إنَّ اسم عيون ما برح يسمى به الوادي الخصب الذي هناك؛ والظاهر

من أخذ الغزاة لها أولاً وهم قادمون من الشمال نحو الجنوب إنها كانت التحم الشمالي لنصيب سبط نفتالي، وبهذا دليل آخر على أنَّ تل عيون إنما هي عيون التي ذكرها الكتاب ولعلَّ قضاء مرج عيون سُمي باسمها. وأما دان فقد مرَّ أنها كانت في محل تل القاضي على خمسة كيلومترات من بانياس غرباً طبق ما عرفها به أوساييوس والقديس ليرونيوموس. وأما إبل مائيم أي إبل المياه فقد مرَّ أنها تسمى الآن إبل أيضاً وهي بين الخيم جنوباً وتل ديين شمالاً. وأما ترصة التي أقام فيها بعشا وبعض أسلافه وخلفائه فكانت في محل تلوزا اليوم شرقي السامرة. وقال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٦٦) إنَّ جمهور العلماء يسلّمون بذلك. وإنَّ اسمها القديم ترصة واسمها الآن تلوزا متقاربان لأنَّ إبدال الراء باللام كثير في كلامهم وإنَّ ما لهذه المدينة من الموقع الجميل كان يُضرب به المثل حتى قال سليمان في نشيد الانشاد (فصل ٦ عد ٤): «جميلة أنت يا خليلتي كترصة».

أما آسا فبعد أن أكره بعشا على ترك الرامة (الرام)، استدعي رجال يهوذا كلهم ولم يعف أحداً فأخذوا الحجارة والأخشاب التي كان بعشا وضعها في الرامة. وحصنوا بها جبع بنيامين والمصفاة، أما جبع بنيامين فهي جبعة الآن في الشمال الشرقي من أورشليم بين مخماس شمالاً وعيناتا جنوباً (كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٩٦). وأما المصفاة هذه فهي شعفات الآن في شمالي أورشليم وجنوبي الرام وبينهما بيت حانون، وبعض أبنية أورشليم ترى من أرض شعفات (كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣٩٨). والشعفة في العربية أعلى الجبل ومن كل شئ أعلاه وجمعها شعفات. ومعنى مصفاة بالعبرانية المرصد أو المحل المشرف فلا تخفى المناسبة بين الاسمين. وقد مرَّ ذكر محال أخرى تسمى المصفاة أيضاً (راجع عد ٢٤٤). وقد طالعنا الآن في المجلة الكتابية في عددها الثالث الصادر في تموز هذ السنة ١٨٩٤ م فصلاً مطولاً كتبه العالم هايدت أجهد نفسه ليثبت به خلافاً للعلماء ستانلاي وبونار وكاران ودالفي ورياس وغيرهم. إنَّ المصفاة ليست شعفات كما قال هؤلاء بل هي البيرى الواقعة في جنوب بيت اين وشرقي رام الله وشمالي عطارا. وأنَّ البيرى هذه ليست بثروت الكتاب كما قال كثير من المشاهير حتى الآن بل هي المصفاة، والحق أقول إنني لم أر أدلته قاطعة ولا أجاله حسبها كذلك بل أراد عرضها على علماء هذا الفن علَّ بعضهم يتابعه على صحتها. وقد ندَّد بزعمه العالم ربواسون في المجلة الموسومة بالأرض المقدسة في عديدها الصادرين في

١٥ أيلول و ١ ت ١ سنة ١٨٩٤م. أما بعشا فأرسل الرب إليه ياهو النبي ابن حناني يقول له: إني رفعتك عن التراب وجعلتك قائداً لإسرائيل فسلكت طريق ياربعام وجعلت شعبي يغيظونني بخطاياهم؛ فهأنذا مستأصل ذرية بعشا وذرية بنيه. ومات بعشا بُعيد ذلك وقد ملك في إسرائيل ثلاثاً وعشرين سنة ودُفن في ترصة (أخبار الأيام الثاني فصل ١٦). وروى يوسفوس (ك ٨ فصل ٦ من تاريخ اليهود) إن بعشا قتله رجل يسمى كريون.

عد ٢٩٨

ملك ايله وزمري وعمرى ملوك إسرائيل وتتمة أخبار آسا ملك يهوذا بعد موت بعشا ملك ايله ابنه مكانه في السنة السادسة والعشرين لآسا ملك يهوذا. ولم يدم ملكه في إسرائيل إلا سنتين فحالف عليه عبده زمري رئيس نصف المركبات، وقتله إذ كان يشرب ويسكر في بيت أحد أعوانه في ترصة. وملك مكانه وما عثّم بعد أن استوى على عرشه أن قرض ذرية بعشا، ولم يدع منهم ذكراً وألحق بهم أقاربهم وأصدقاءهم كما أُنذر نبي الله بعشا؛ إلا أنّ زمري لم يملك على إسرائيل إلا سبعة أيام لأنّ الشعب كان محاصراً جبّتون (كيبيا جبّاتا طالع عد ٢٩٥)؛ ثانية على الفلسطينيين وبلغهم ما أجراه زمري فأقاموا عمري قائد الجيش ملكاً عليهم. ومضوا به من جبّتون وحاصروا زمري في ترصة، ولما افتتحوها دخل زمري قصر الملك فأحرقه واحترق به.

وانقسم شعب إسرائيل فأراد بعضهم تمليك تبني بن جينت ويظهر أنّ هؤلاء كانوا من سكان ترصة ومن تابعهم وأراد الآخرون تمليك عمري ويظهر أنّ هؤلاء كانوا من الجيش ومن تبعهم فتغلّب هؤلاء على أولئك ومات تبني. وعن يوسفوس (في المحل المذكور) إنه قُتل فاستبدّ عمري في الملك في السنة الحادية والثلاثين لآسا ملك يهوذا. واستمرّ عمري على منصّة الملك إثنتي عشرة سنة ستاً منها في ترصة (تلوزا)، وستاً في السامرة لأنه ابتاع جبلاً من رجل اسمه شامر أو سامر بقنطارين من الفضة قدرهما فيكورو بسبعة عشر ألف فرنك وبنى على هذا الجبل مدينة سماها السامرة، وهي سبسطية الآن فصارت عاصمة ملك إسرائيل إلى حين الجلاء إلى آشور. ويظهر أنّ عمري ألجئ إلى أن يغادر ترصة لمقاومة أهلها له وتنكيدهم عيشه لأنهم كانوا من أنصار تبني. وسار عمري في طريق ياربعام واقتدى بآثامه.

قال كراتس (في تاريخ اليهود عند كلامه في عمري) كان عمري رجل سياسة أكثر من أن كان رجل حرب وازدلف إلى ملك يهوذا فلم تكن بينهما حرب. وحالف ايتوبعل ملك صور كلفاً بأن يزداد قوة ونفعاً بغنى الفينيقيين وقوتهم. وكان ايتوبعل يخشى سطو ملك دمشق فلم يجد حليفاً أولى من ملك إسرائيل بمنع تسطيه فوقاً على عهدة بينهما، خُتمت بزواج آحاب بن عمري بإيزابل ابنة ايتوبعل. وروى لانرمان (مجلد ٦ من تاريخ المشرق القديم عند كلامه في عمري): إن عمري حارب السريان أي أهل مملكة دمشق فاستظهروا عليه وأخذوا بعض مدن من مملكته. ثم مات عمري ودُفن في السامرة وخلفه ابنه آحاب.

أما آسا فبقي حياً ثلاث سنين بعد أن ملك آحاب بن عمري، وعاب ملكه وكسف مجده ببعض النقائص منها استعانت به بملك دمشق ليكيح بعشا عن تطاوله عليه مكان أن يكل أمره إلى الله فينقذه منه، ولذلك أرسل الرب إليه حناني الرائي مؤثماً له بقوله من أجل أنك أتكلت على ملك آرام ولم تتكل على الرب إلهك، فلذلك فرغت يدك من جيش ملك آرام. ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشاً كثيراً؟ فإذا أتكلت على الرب أسلمهم إلى يدك، فقد فعلت بحماقة فغضب آسا على الرائي، وجعله في القيود وساء ذلك بعض الشعب، فاخترم بعضاً منهم أي أماتهم، وفي بعض النسخ عاملهم بقسوة. واعتل آسا برجليه في السنة التاسعة والثلاثين للملكه كأنه أصيب بالنقرس، أو داء الملوك واشتدَّت علته فلم يلمس الرب بل الأطباء، ومات في السنة الحادية والأربعين للملكه، ودُفن في مقبرة حفرها لنفسه، فأضجعوه في سرير كان مملوءاً أطياباً وأصنافاً عطرية، وحرقوه بها على عادة الأقدمين. واستبقوا عظامه ورماده وخلفه ابنه يوشافاط (أخبار الأيام الثاني فصل ١٦).

عد ٢٩٩

يوشافاط ملك يهوذا

ملك يوشافاط وعمره خمس وثلاثون سنة، وسلك في طرق داود جدّه، قاتقى الله، وجانب عبادة الآلهة الكاذبة. ونكّب شعبه عنها، وأزال المشارف والغابات من يهوذا وأقام جيشاً يحافظ على مدن مملكته المحصّنة. ومنذ السنة الثالثة للملكه أرسل معلّمين وتسعة من اللاويين وكاهنين يعلمون شعب يهوذا وبنيامين. ويُنذرونهم ليتّقوا

الله ويعملوا بسننه. ومعهم سفر توراة الرب يقرأون به ويفسرونه للشعب. وقَدَّم له جميع آل يهوذا التقدّام والهدايا على عادتهم لإقراراً بملكه، فكان ذا غنى ومجد عظيم، واهتابه الملوك مجاوروه، فلم يناصره أحد حرباً (لأنّ حربه في آخر مدّته مع الموابيين وحلفائهم) حتى كان من الفلسطينيين من حمل إليه الهدايا وجزية فضة على عداوتهم الشديدة لبني إسرائيل، وكذلك العرب ساقّت إليه من الشاة سبعة آلاف وسبع مئة كبش وسبعة آلاف وسبع مئة تيس. وذهب بعضهم إلى أنّ هؤلاء العرب كانوا يسوقون إليه مثل ذلك كل سنة في سبيل الجزية.

وقال يوسيفوس (ك ٨ من تاريخ اليهود فصل ٩) إنّ العرب كانوا يقدّمون له كل سنة ثلاث مئة خروف وثلاث مئة تيس. وقد بنى في أورشليم وغيرها أبراجاً وحصوناً. ويظهر من سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ١٧ عد ١٤ وما يليه) أنّ عدد جيوشه كان مليوناً ومئة وستين ألفاً يرأسهم خمسة قواد. ولم يستعظم بعض المفسرين هذا العدد بناءً على أنّ بني إسرائيل لا سيما في مملكة يهوذا كانوا قد نموا كثيراً وضاحت أرض المملكة بهم. وعلى أنّ يوشافاط كان يسود غيرهم من الأمم كالموابيين والأدوميين وبعض العرب وغيرهم. واستعظمه بعضهم وخرجوه على وقوع خطأ فيه من غفلة الناس أو إشتباه الحروف المعبر بها عن العدد، كما حصل في غيرهم ما مرّ معنا ذكره. وفي أكثر الكتب القديمة، وليس على الله أن يعصم كل كاتب بآيات تتعدد كتعدادهم، وقد وجد العلماء في كل عصر عقبات في توفيق هذه الأعداد ولا سيما عداد سني ملوك يهوذا وإسرائيل بمعارضة ما جاء في أسفار الملوك، بما جاء في سفر أخبار الأيام حتى قال القديس إيرونيموس في ما كتبه إلى فيثاليس الكاهن: «راجع جميع أسفار العهدين القديم والجديد فتجد اختلافاً كبيراً في أعداد السنين، وتلقى تشوشاً مفرطاً في تعيين سني ملوك يهوذا وإسرائيل. ومن البين أنّ التشبث بمثل هذه المباحث إنّما هو شأن متبطل متعطل لا شأن مجتهد حكيم».

لم يُعَبَّ يوشافاط إلاّ بمصاهرته آحاب ملك إسرائيل لأنه اتخذ عتليا بنت آحاب، وإيزابل زوجة لأبنة يورام، وربما كان غرض هذا الملك الصالح من تقربه إلى آحاب أن يردّه إلى طريق الرب فكان عكس ما أُمِّل لما تراه من شرّ عتليا. وقد زار يوشافاط آحاب في السامرة فعظّم ملتقاه، وأكرم مثواه واستدعاه إلى مرافقته لأخذ راموت جلعاد السلط من يد ملك دمشق والآراميين فلجّى يوشافاط دعوته. وصحبه

في هذه الحرب التي هلك فيها آحاب وكاد يوشافاط يهلك أيضاً كما سترى في الكلام على آحاب. وقال يوسيفوس (ك ٨ في تاريخ اليهود ف ٩) إنَّ يوشافاط أخذ من أورشليم أيضاً جنوداً لمناصرة ملك إسرائيل. ولدى عودة يوشافاط إلى أورشليم التقاه ياهو بن حناني الرائي وقال له أتتصر الأثيم وتحب مبغضي الرب فكنت لذلك تستوجب الغضب من قبله لولا أنه وجد فيك أموراً صالحة لأنك أزلت المشارف والغابات من الأرض، وهيأت قلبك لالتماس الرب. فأراد يوشافاط أن يكفر عن إثمه فمضى جائلاً في مملكته من بئر سبع إلى جبل أفرائيم منذراً رعيته أن يتقوا الله ويعملوا بسنته. وأقام قضاة في كل مدن يهوذا المحصنة وحرّضهم أن يقضوا بالعدل قائلاً إنكم لا تقضون للناس بل لله؛ فلتكن فيكم مخافته فلا جور عند الله ولا محاباة ولا أخذ رشوة. وأقام في أورشليم قضاة للدعوى الدينية والمدنية، من اللاويين والكهنة، ومن رؤساء آباء إسرائيل، وحرّضهم كما حرّص أولئك وأمرهم أن يندروا الشعب بأن لا يأتوا فيكون الغضب عليهم وعلى إخوتهم. وجعل امريا الكاهن رئيساً في أمور الرب وزبديا بن إسماعيل رئيساً في أمور الملك.

إلا أن يوشافاط صادق بعد ذلك أحزيا ملك إسرائيل ابن آحاب. واتفقا على عمل سفن تذهب إلى ترشيش أي أوفير لتأتي بالذهب كما فعل سليمان وحيرام. وعملا السفن في عصيون جابر حيث عملها سليمان. فأتى النبي العازر يقول ليوشافاط من قبل الرب من أجل أنك صادقت أحزيا وقد ساء مسعاه وعثا في الأرض، فقد أفسد الرب أعمالك فانكسرت السفن ولم يتهياً ذهابها إلى ترشيش. وخرج الموابيون والعمونيون والأدوميون على يوشافاط في آخر سني ملكه وحلّت عساكرهم في حصون تامر التي هي عين جدي المسماة إلى اليوم بهذا الاسم في الجانب الغربي من بحيرة لوط. فنادى يوشافاط بصوم في جميع يهوذا. واجتمع الرجال والنساء والأطفال في بيت الرب في أورشليم ليستهلوا إليه. فأجهر يوشافاط بصلوة خاشعة مثبّة في سفر أخبار الأيام الثاني (ف ٢٠). وكان جميع بني يهوذا واقفين أمام الرب فحلّ روح الرب على ي حزقييل من بني آساف فأمن الملك والجماعة محققاً لهم من قبل الرب الظفر بأعدائهم، فخرّ الملك وجميع القوم ساجدين. ثم بكروا في الصباح وخرجوا إلى بركة تقوع (وهو اسمها إلى اليوم وموقعها بين بيت لحم شمالاً والخليج جنوباً). ووقف يوشافاط وقال لجيشه: «آمنوا

بالرب إلهكم فتأمنوا آمنوا بأنبيائه فتفلحوا». وأقام مغنين يرغمون اعترفوا للرب لأنَّ رحمته إلى الأبد. وأوقع الرب خصاماً بين العمونيين والموآبيين وبين الأدوميين أولاً، ثم بين العمونيين والموآبيين. فاقتتلوا حتى أباد بعضهم بعضاً ولم يبقَ ليوشافاط وجيشه إلا أن يجمعوا الغنائم الكثيرة ثلاثة أيام، فجمعوا أكثر مما أمكنهم حمله وعادوا إلى أورشليم. فدخلوها بالعيدان والكنارات والأبواق إلى بيت الرب فسبحوه شاكرين. فحلَّ رعب الرب على جيرانهم واستراحت مملكة يهوذا من كل جهة. وقضيَّ أجل يوشافاط بعد أن ملك خمساً وعشرين سنة، ولما كان عمره حين ملك خمساً وثلاثين سنة فيكون مات وعمره ستون سنة، ودُفن في مدينة داود. وخلفه ابنه يورام (سفر أخبار الأيام فصل ١٧ إلى فصل ٢١).

الفصل السادس عشر

أخبار آحاب ملك إسرائيل وخلفاؤه حتى ياهو وأحزيا ملكي يهوذا

عد ٣٠٠

آحاب وإيزابل وإيليا النبي

قد مرَّ أنَّ آحاب خلف أباه عمري في الملك على إسرائيل. وقد صنع هذا الملك الشرَّ في عيني الرب أكثر من جميع من تقدَّموه من ملوك إسرائيل، وبين كان يوشافاط لا يألُو جهداً في مملكة يهوذا لبث عبادة الله، والعمل بسُنَّته كان آحاب يعثو ويُفسد في مملكة إسرائيل مغرباً بعبادة عجل الذهب، بل بعبادة بعل وعشتاروت معبودي الفينيقيين أيضاً، لأنَّ إيزابل امرأته بنت ابتوبعل ملك صور كانت تزني له هذه العبادة وتغريه بها. وكانت إيزابل مقلداً متكبِّرة متوقِّعة تحكَّمت بآحاب وقادته حيث شاءت، فكانت علَّة كفره ومصدر بلاياه كلها. وروى يوسيفوس (ك ١ في ردّه أقوال أبيون فصل ١٨) عن مينندر كاتب تاريخ صور إنها لطَّخت يديها بدم أخيها لترقى مكانه منصة الملك. ولما كانت بنت كاهن

رقي عرش الملك كانت كثيرة التشييع لعبادة معبودي أيها بلع وعشتاروت. وساعت زوجها إلى أن يسجد لهما ويبنى لهما هياكل حتى في السامرة مدينته، وأن يقام لبلع لا أقل من أربع مئة وخمسين كاهناً أو نبياً أي معلماً، ولعشتاروت أربع مئة كاهن تنفق هذه الملكة الداهية الجائرة على جميعهم. وتمدّهم بحمايتها وأيدها. وتضطهد كهنة الرب وأنبياءه حتى قتلت جماً غفيراً منهم. وحملت الشفقة عوبيدا قيم آحاب أن يأخذ مئة منهم ويخفيهم كل خمسين في مغارة ويعولهم بالخبز والماء (ملوك ٣ فصل ١٨ عد ٤).

قد أقام الله لمناسبة هؤلاء جميعاً إيليا النبي، فكان رئيساً لمن لم ينفكوا متشبثين بعري الدين وسنة الله. وكان التراخي والفتور وقلة الإكتراث بأمور الدين استحوذت على عامة الشعب، ولذا كان إيليا يؤنبهم قائلاً: «إلى متى أنتم تعرجون بين الجانبين؟» وكان آحاب من هؤلاء بل أولهم فتراه تارة يسجد لبلع وعشتاروت. ويتمرغ بأرجاس الوثنيين، وطوراً يخيفه كلام إيليا فيتذلل أمام الله ويمزق ثيابه أسفاً. ويوماً يدع إيزابل تأمر بذبح كهنة الرب ويوماً آخر يترك إيليا يذبح كهنة البلع. وكان إيليا من مدينة تسبة أو تشبة وينسبه الكتاب إليها فيسميه التسي أو التشبي وهي على ما روى كلمت (في معجم الكتاب)؛ مدينة في عبر الأردن في بلاد جلعاد. وذكر تسبة أخرى وهي مدينة طويا في سبط نفتالي في جنوبي قادم شمالي صفد؛ وفي أعلام الأماكن تسبة مدينة في سبط نفتالي لا يعلم موقعها الآن. وروى بعضهم إن إيليا وُلد في هذه المدينة ولكن سكن في بلاد جلعاد (السلط) إذ جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٧ عد ١): «إيليا التشبي من سكان جلعاد» وكان إيليا شديد الغيرة عليّ الهمة لا يهرب ملكاً ولا ملكة في أمور الله. فكان يؤنب آحاب ويهدد إيزابل ويقسو على كهنة الأصنام. ويفعل المعجزات إثباتاً لإرسال الرب له وانتقاماً من أعدائه كما ستري.

عد ٣٠١

آية إنحباس المطر بكلمة إيليا وقتله أنبياء البلع

قد أمر الرب إيليا أن يمضي إلى آحاب ويكته على صنيعه فمضى وقال له: «حيّ الرب إله إسرائيل الذي أنا واقف أمامه إنه لا يكون في هذه السنين ندى ولا مطر إلّا عند قولي». وتوارى عنه بأمر الله وأقام عند نهر كريت الذي تجاه الأردن

وقال بعضهم: إنَّ هذا النهر يسمى الآن وادي الياس أو الوادي اليابس. وقال روينسون: إنه يسمى وادي كلت ومصبّه في جوار باشان، ولما جفَّ ماء هذا النهر لانهباس المطر، إنتقل ايليا إلى صرفة وهي صرفند الآن بين صيدا وصور. وأقام ثمة في بيت أرملة صنع لها بأمر الله آيتين الأولى: إنَّ الجرة التي كان فيها الدقيق والقارورة التي كان فيها الزيت لم تفرغا إلى يوم أرسل الله المطر على وجه الأرض. والثانية إقامة ابنها بعد موته. وقد أثبت مينندر كاتب تاريخ صور آية انهباس المطر عند كلامه في أعمال ايتوبعل ملك صور فقال: «كان في أيامه (أي أيام ايتوبعل) أن انهبس المطر مدة طويلة أي لم يكن مطر من شهر هيرباروتوس إلى هذا الشهر في السنة التالية. فأمر هذا الملك شعبه أن يقدّموا الصلوات والابتهالات فأعقبتها رعود وعواصف. وهو الذي بنى مدينة بتريس (البترون) في فينيقية واوزات في أفريقية». رواه يوسفوس (ك ٨ في تاريخ اليهود فصل ٧) وعقبه بقوله: «لا جرم إن هذا الكلام يراد به انهباس المطر الذي كان في أيام آحاب لأنَّ ايتوبعل كان وقتئذٍ مالكا في صور».

واشتدَّ الجوع خاصة في السامرة لانهباس المطر ولم يكن عشب تقنات به الماشية. فدعا آحاب عوبديا قيم بيته وقال له: سير إلى جميع عيون الماء وأنهاره عسى أن نجد عشباً نحبي به الخيل، والبغال ولا نعدم البهائم كلها وسار آحاب في طريق آخر يفتش عن العشب؛ وكان الرب أمر ايليا أن يتراءى لآحاب فالتقى ايليا بعوبديا فعرفه وخرَّ على وجهه ساجداً. له فقال النبي له: إمض فقل لسيدك آحاب هوذا ايليا فأجابه: ما خطيئتي حتى تلقي عبدك الآن في يد آحاب ليقتلني؟ فما من أمة أو مملكة إلا بعث سيدي إليها في طلبك فلم يجدك فإذا قلت له: هوذا ايليا أخذك روح الرب إلى حيث لا أعلم. فيأتي آحاب فلا يجدك فيقتلني فقال له ايليا: إنني في هذا النهار أترأى له فمضى عوبديا وأخبر آحاب فجاء للقاء النبي وقال له أأنت ايليا مقلق لإسرائيل؟ فأجابه: لم أقلق لإسرائيل أنا بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب. واتباعكم البعل فاجمع إليّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل (المعروف). وانبياء البعل الأربع مئة والخمسين وانبياء عشتاروت الأربع مئة الذين يأكلون على مائدة إيزابل. فجمع آحاب الانبياء والشعب إلى الكرمل فتقدّم ايليا إلى الشعب وقال لهم: إلى متى أنتم تعرجون إلى الجانبيين؟ إن كان الرب هو الإله فاتبعوه. وإن كان البعل إياه فإياه اتبعوا، فأنا وحدي بقيت نبياً للرب، وهؤلاء انبياء البعل أربع

مئة وخمسون رجلاً، فليؤت لنا بثورين فيختاروا لهم ثوراً فيقطعوه ويجعلوه على الحطب ولا يضعوا ناراً، وأنا أيضاً أهى الثور الآخر ولا أضع ناراً ثم تدعون أنتم باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب؛ والذي يجيب بنار فهو الإله، فقال جميع الشعب: الكلام حسن. واختار انبياء البعل ثوراً وأعدّوه. ودعوا باسم البعل من الغداة إلى الظهر وهم يقولون: أيها البعل أجبننا فلم يكن من صوت، ولا مجيب وكانوا يرقصون حول المذبح.

فأخذ ايليا يسخر منهم قائلاً: اصرخوا بصوت أعلى لعلّ في محادثة أو في خلوة أو في سفر أو نائم فيستيقظ. وكانوا يصرخون بصوت عظيم، ويتخادشون على عادتهم بالسيوف والرماح حتى سالت دماؤهم عليهم. وفات الظهر وليس صوت ولا مجيب ولا مصغ. فقال ايليا لجميع الشعب أدنوا مني ليشاهدوا أنه لا يضع ناراً وأخذ إثني عشر حجراً على عدد أسباط إسرائيل وبنائها مذبحاً. وجعل حول المذبح قناة ثم نضد الحطب. وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال: املاؤا أربع جرار ماء وصبّوا على المحرقة والحطب. وثنّوا وثلثوا ففعلوا حتى جرى الماء حول المذبح دائراً وامتلأت القناة أيضاً ماءً. فتقدّم ايليا وقال أيها الرب إله ابراهيم واسحق ويعقوب؛ ليعلم اليوم أنك إله إسرائيل وإني أنا عبدك وبأمرك فعلت كل هذه الأمور. فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب، حتى لحست الماء الذي في القناة، فلمّا رأى ذلك جميع الشعب خزّوا على وجوههم وقالوا: الرب الإله، الرب هو الإله. فقال ايليا اقْبِضُوا على انبياء البعل ولا يفلت أحد منهم فقبضوا عليهم، فأنزّلهم ايليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك بأمر الرب. وقيشون هو النهر المسمى اليوم المقطع الذي يصبّ في خليج حيفا في شمالها.

ثم قال ايليا لآحاب اصعد فكل واشرب فهوذا صوت دويّ مطر، فمضى آحاب ليأكل وصعد ايليا إلى رأس الكرمل وخرّ إلى الأرض. وأرسل خادمه يتطلّع نحو البحر سبع مرات فعاد في السابعة فقال: ها سحابة صغيرة طالعة من البحر فقال له: إذهب وقل لآحاب شدّ وانزل لئلا يمينعك المطر. واربّد الجو بالسحب وهبّت الرياح وجاء مطرٌ عظيم فركب آحاب وسار إلى يزرعيل. وشدّ ايليا متنيه وجرى أمام آحاب حتى وافى يزرعيل وهي زرعين الآن في ناحية جنين حيث مرج ابن عامر، بل سُمي هذا السهل باسمها لأنّه يسمى صحراء يزرعيل. وكان آحاب

قد بنى ثمة قصراً كما سيجي وإن استمرت السامرة عاصمة ملكه (ملو ٣ ف ١٧
عد ١٨).

عد ٣٠٢

فرار ايليا من وجه ايزابل وأمر الرب له أن يمسح حزائيل
وياهو واليشاع

قصّ آحاب على ايزابل كلّ ما صنعه ايليا فاحتدمت غيظاً. وأرسلت رسولاً إلى
ايليا قاسمةً بآلهتها أنها ستجعل نفسه في مثل الساعة من غدٍ كنفس واحد من
الانبياء الذين قتلهم. فخاف ومضى على وجهه ووافى بئر سبع المسماة إلى اليوم
بهذا الاسم على ستة وعشرين ميلاً من الخليل جنوباً (كاران مجلد ٢ في اليهودية
صفحة ٢٨٣). وخلف غلامه هناك وتقدّم في البرية مسيرة يوم. فقائه ملاك برغيف
مليل، وجرة ماء وسار صائماً أربعين يوماً وأربعين ليلة إلى جبل حوريب. قال
كلمت في تفسير هذه الآية ليس المراد أنّ ايليا سار أربعين يوماً وأربعين ليلة حتي
انتهى إلى حوريب، فإنّ المسير من بئر سبع أو من البرية إلى حوريب لا يقضي كلّ
هذه المدة بل تضاف إلى الأربعين يوماً المدة التي قضاها النبي في حوريب، إلى أن
أكمل صومه أربعين يوماً. كما صام موسى قبل تنزيل السنّة عليه. وربما كان ايليا
في المغارة نفسها التي كان موسى فيها في جبل حوريب. والظاهر من كلام الآباء
والمفسرين أنّ ايليا لم يأكل شيئاً في مدة الأربعين يوماً كموسى الذي قال فيه
الكتاب (خروج فصل ٣٤ عد ٢٨): «أقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين
ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً».

وتلك آية خارقة نظام الطبيعة لا يعجز عنها من هو على كل شيء قدير، ولا
يأنف من عملها من حبس المطر بكلمة ايليا ثلاث سنين، ومن أنزل بصلاته ناراً
فأكلت محرقة. ثم تراءى له الرب والمراد بمثل هذه الآيات ملاك الرب، وأمره أن
يعود في طريقه نحو بركة دمشق، وأن يمسح حزائيل ملكاً على آرام. وياهو بن نمشى
ملكاً على إسرائيل. وأليشاع بن شافاط من إبل محولة نبياً مكانه لينتقم هؤلاء للرب
من تركوه وعبدوا الأوثان. وليكون من أفلت من سيف حزائيل يقتله ياهو، ومن
أفلت من سيف ياهو يقتله أليشاع. قال بعض المفسرين إنّ المسح هنا لا يراد به

صَبَّ الزيت المكرَّس على رأس المسحوق بل يُراد به إعداد حزائيل وياهو ليكونا ملكين، وأليشاع ليكون نبياً. ويؤيده أنَّ ايليا لم يمسح أحداً من هؤلاء بل رمى إلى أليشاع بردائه، وإنَّ حزائيل أجنبي فلا يمسح بالزيت المقدَّس، ولم يرد في الكتاب أنَّ ايليا مسح حزائيل أو ياهو. بل أنَّ أليشاع تلميذه مضى إلى حزائيل ومسح ياهو. وقد عاد ايليا من حوريب وانتهى إلى عبر الأردن إلى إبل محولة مدينة أليشاع. وفي كتاب الأعلام الكتابية إنَّ إبل محولة هذه كان موقعها بحسب قول القديس إيرونيموس على عشرة أميال من باسان جنوباً، وتسمى الآن عين حلوة على تسعة أميال ونصف من باسان. ولكن قال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٢٧٨) إنه يُحتمل أن كانت في المحل المسمى اليوم الحمام المالح على بعد عشرة أميال من باسان جنوباً، على ما قال القديس إيرونيموس مع أنَّ المسافة من باسان إلى هذا المحل أربعة عشر ميلاً. ويظهر أنَّ العرب قدموا اللام على الحاء في اسمها وسموها إبل ملوحة لوجود ينبوع ملح هناك. ولما انتهى ايليا إلى هذا المحل وجد أليشاع يحترق الأرض ومعه اثنا عشر حارثاً فرمى ايليا إليه بردائه. فترك البقر وجرى وراءه ثم عاد فودَّع والديه. وذبح زوجين من البقر وطبخ لحمهما على أدوات الحراثة وقَدَّم للشعب، فأكلوا ومضى مع ايليا وكان يخدمه (ملوك ٣ فصل ١٩).

عد ٣٠٣

خروج ابن هدد على آحاب

جمع ابن هدد وهو الثاني بهذا الاسم (راجع عد ٢٩٧) رجال آرام وصعد معه إثنان وثلاثون ملكاً أي حكام أعمال كانوا محالفين له، ومعهم خيل ومراكب ليحاربوا ملك إسرائيل. ودنوا من السامرة فوجَّه ابن هدد رسلاً إلى آحاب قائلاً له فضتكَ وذهبك هما لي، وأزواجك وبنوك الحسان هم لي. فراعت آحاب كثرة جيوش أعدائه، وكان جباناً واهن القوة، فأجاب كما قلت يا سيدي الملك أنا وجميع ما هو لي لك. وبعد أن بُلِّغ الوفد ابن هدد جواب آحاب أرسلهم ثانية يقولون: إنه في مثل الساعة من غد يرسل عبيده ليفتشوا بيت آحاب وبيوت عبيده، ويأخذوا كل ما هو شهِّي في عيونهم. فدعا آحاب شيوخ مملكته وأعلمهم بما كان. فقالوا: لا تسمع ولا ترضَ فقال لرسل ابن هدد أن يُتْلَغوا سيِّدهم أنه لا طاقة له بما يبتغيه من التفتيش وأخذ ما كان شهياً. فاستشاط ابن هدد وأرسل يقول حالفاً

بآلهته إن كان تراب السامرة يكفي لا كفَّ القوم الذين يتبعونه، فقال لملك إسرائيل: قولوا له لا يفتخرن من يتنطق كمن يحل منطقته، وهو مثل يراد به أنه لا يحق للمرء أن يتفاخر بأمر قبل الفوز به، أو بمعنى ما في حكاية الدب لا تسكر على حساب جلد الدب قبل إصطياده. فأمر ابن هدد بإقامة الحصار على السامرة، وإذا بنبيّ تقدّم إلى آحاب يشجعه من قبل الرب بأنه سيدفع هذا الجيش الجرار إلى يده ليعرف أنه الرب الإله وينبذ الأوثان. وأحصى آحاب رجاله فوجد عنده من غلمان رؤساء الأقاليم مئتين واثنين وثلاثين غلاماً، ومن شعب إسرائيل سبعة آلاف. فخرجوا عند الظهر وكان ابن هدد يشرب ويسكر هو والملوك المناصرون له، فقال ابن هدد لرؤساء جيشه إن كان هؤلاء خرجوا مسالين أو مقاتلين فاقبضوا عليهم أحياء فوثب الغلمان وبنو إسرائيل وراءهم فقتل كل رجل منهم رجلاً من طلائع جيوش ابن هدد. فانهزم الآراميون واتبعهم بنو إسرائيل. وأفلت ابن هدد على فرس بين الفرسان وضرب ملك إسرائيل الآراميين وخيلهم ومراكبهم ضربة عظيمة، وتقدّم النبي إلى آحاب قائلاً امض وتشدّد واستعدّ فإنه عند مدار السنة يصعد عليك ملك آرام ثانية.

أما رجال ملك آرام فقالوا له إنّ آلهة إسرائيل آلهة الجبال، ولذلك قوا علينا وإذا حاربناهم في السهل فنقوى عليهم. وأشاروا عليه أن يعزل الملوك كلاً من مكانه ويجعل أمكنتهم قوادم ففعل كذلك؛ ولما كان مدار السنة حشد جيشه وصعد إلى افيق لمحاربة إسرائيل، وافيق هذه غير افيق التي في مرج ابن عامر حيث كانت الحرب بين شاول والفلسطينيين، بل هي المسماة اليوم الفيك أو الفيك على مسير ساعة أو أقل من بحيرة طبرية شرقاً في الطريق المؤدي من دمشق إلى فلسطين (فيكورو مجلد ٤ من الكتاب والإكتشافات صفحة ٤٥ وفي معجم الكتاب له وفي كتاب الأعلام الكتابية). فمضى آحاب إلى افيق هذه للقاء أعدائه وكان عسكره قليلاً جداً لذلك عبّر عنه الكتاب بأنه كان كقطيعين صغيرين من المعز وعبّر عن كثرة جيش ابن هدد بأنه ملأ الأرض. وبقي الجيشان يناظر أحدهما الآخر دون حرب مدة ستة أيام وفي اليوم السابع التحمت الحرب. واستظهر بنو إسرائيل على الآراميين وقتلوا منهم مئة ألف رجل في يوم واحد. ولعبت أيدي سبأ بالباقيين وهرب منهم سبعة وعشرون ألفاً إلى افيق. فسقط السور عليهم فماتوا تحت الردم. وفرّ ابن هدد ودخل المدينة إلى مخدع ضمن مخدع مذعوراً مرتاعاً. فقال له أعوانه سمعنا

أَنَّ ملوك إسرائيل ملوك رحمة فنشد الآن مسوحاً على متوننا، ونجعل حبلاً على رؤوسنا ونخرج إلى ملك إسرائيل علّه يستقي نفسك. وفعلوا كذلك فقال لهم آحاب أو حيّ هو بعد إنما هو أخي وخرج إليه ابن هدد فرحّب به وأصعده على المركبة فقال له ابن هدد المدن التي أخذها أبي من أبيك أردّها إليك أسواقاً في دمشق أي نطلق لك التجارة فيها كأنها السامرة. فقال آحاب وأنا أطلقك بهذا العهد وقطع له عهداً وأطلقه. فالتقاء أحد الانبياء متكرراً وقال إنّ عبدك خرج في وسط الملحمة فأتاني رجلٌ بأسير وقال احفظه، وإن أفلت منك فنفسك مكانه أو تزن لي قنطاراً من الفضة، وبينما أنا مشغل هنا وهناك أفلت الأسير فقال له الحكم: عليك كما شرطت على نفسك فزحزح النبي البرقع عن عينيه فعرف الملك أنه نبي، وقال كذا قال الرب بما أنك أطلقت من يدك رجلاً قد أبسلته فنفسك تكون بدل نفسه وشعبك بدلاً من شعبه. فمضى آحاب إلى السامرة واجماً قلقاً.

عد ٣٠٤

آحاب والآشوريون

قد أبانت لنا الآثار الآشورية وجهاً لمساهلة آحاب ملك إسرائيل لابن هدد ملك دمشق، وهو خوف الملكين من آشور ومحالفتها عليه، ولما كان ذكر ملوك آشور سيرد متواتراً في ما يأتي من كلامنا، رأينا أن نلخص عن كتاب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٣٢ طبعة ٥) موجز تاريخ الآشوريين كلفاً بتوفير الفوائد وتيسراً لإدراك الكلام حق إدراكه. فلم يُعثر حتى اليوم على أثر للآشوريين يتبيّن منه تاريخ أصلهم، ولكن أنبأنا سفر التكوين (فصل ١٠ عد ٢٢): إنّ آشور هو ثاني أبناء سام وإنّ الآشوريين الأولين جالية بابلية وآثار بلادهم مثبتة شهادة موسى، وكانت عاصمة ملكهم أولاً مدينة آشور على شاطئ دجلة الايمن في جنوبي نينوى بين الزاب الأعلى والزاب السفلي. وكانت مركزاً لعبادة آشور أكبر آلهتهم، وإن هو إلا آشور ابن سام الهوه على عادتهم، وأول ما تحقّقه آثار بلادهم أنها كانت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد يليها ملك يسمونه ايسميدكان. وكان قد بنى هذه المملكة حاكم اسمه بلكفكابو في عصر غير معروف إلى الآن، وكان من خلفائه ملك يسمى بلباني يعتبرونه غازياً.

وتتفاخر دولة السرخونيين إحدى دولهم بانتسابها إليه. وكان في سنة ١٤٠٠ ق.م ملك من الآشوريين يسمى آشوروبيلد حكم من جانب بحيرة وان إلى الزاب السفلي. وجدد في نينوى هيكل استار الآلهة الذي كان بناه أولاً سمسيين ابن ايسميد كان المذكور. وفي سنة ١٣٣٠ ق.م عظم ملكهم بينيرار الأول مملكة آشور وصيرها أقوى مملكة في آسيا الغربية، وفي سنة ١٣٠٠ انتصر ابنه سلمناصر الأول على الموزري (يُحتمل أنَّ المراد المصريين). وجعل نينوى مقراً لحكومته ووسّع خلفاؤه تخوم مملكته شمالاً وشرقاً وجنوباً ولم تطمح أبصارهم نحو الغرب أي إلى سورية إلا في سنة ١١٢٠. إذ رُقي منصة الملك وقتئذ تجلت فلاصر الأول وهو أول من جاوز منهم الفرات. وغزا سورية إلى لبنان والبحر المتوسط (راجع عد ٧٠ وعد ١٢٠). ثم مات سنة ١١٠٠ وترك لخليفته مملكة كثيرة الأنحاء شاسعة التخوم لكن ما عثمت أن كسفت شمس مجدها، لأنَّ الآراميين بعد وفاة الخليفة الثاني لتجلت فلاصر؛ أذلوا مملكة آشور وضيقوا تخومها الغربية في مدة مئة وخمسين سنة، وتلك عناية ربانية يشرت لداود وسليمان انبساط ملكهما شرقاً حتى الفرات.

ومن بعد وفاة سليمان عاد الآشوريون يستردون سؤددهم وصولتهم في عهد آشور دانييل مشيد دولة كبرى من دولهم. ثم خلفه ابنه بينيرار الثاني وخلف هذا ابنه تجلت سمدان وبعد وفاته خلفه ابنه آشور نزيربال. وأُكتشف له عن آثار كثيرة مهمة. ووجد لا يرد تمثاله في أخربة قصر نمرود وقد مرَّ أنه حكم البلاد من عدوة دجلة إلى لبنان وفلسطين (راجع عد ٧٢ وعد ١٢٠). وبعد وفاته خلفه ابنه سلمناصر الثاني. وغزا سورية ست مرات وكتب وقائعته على مسلة من صخر أسود في مئة وتسعين سطراً طافحة بالفوائد التاريخية؛ منها أنها هدتنا إلى ما كان مجهولاً كلَّ الجهل وهو جلَّ الغرض من كلامنا هنا أعني أنَّ آحاب كان حليفاً لابن هدد ملك دمشق في حربه للآشوريين، ومنها إثبات العهدة التي ذكر الكتاب إبراهيم بين ملك إسرائيل وملك دمشق. وتبيان الوجه في مساهلة آحاب لابن هدد بعد استظهاره عليه. فأحاب كان رأى حملة آشور نزيربال على فينيقية وخشي أن يغزو ابنه سلمناصر الثاني مملكة إسرائيل. وملك دمشق كان يومئذ أقوى ملوك سورية فأحبَّ آحاب أن يقوِّي نفسه بمحالفته، وأن تكون مملكة دمشق حائلة بين الآشوريين ومملكة إسرائيل، وكان من وقَّعوا على هذه العهدة مع ابن هدد إثني عشر ملكاً منهم آحاب ملك إسرائيل.

ولإليك ترجمة ما أصاب غرضنا من خطوط سلمناصر على مسلة نمرود المذكورة، وعلى الصفيحة التي وجدها جون تليور عند منبع دجلة قال إنه في السنة السادسة للملكه «في الرابع عشر من شهر أيار رحلت عن نينوى وجاوزت دجلة... وأخذت الجزية من ملوك غربي الفرات فضة وذهباً ونحاساً وورصاصاً من المدن التي يسميها السريان باتور. وزحفت من عدوة الفرات إلى مدينة هلمان (حلب) فخاف أهلها الحرب وتراموا على رجلي فأخذت جزية منهم فضة وذهباً. وسرت من هلمان إلى ايركوليني ملك حماه أخذت ادينا وبرغوا وأرغان حاضرة ملكه واستحوذت على أثاثه وأموال قصره وأحرقت دوره. وزحفت من ارغانا إلى كركر فدمرتها وأحرقتها وكان في معسكرهم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس ٢٠٠٠٠ ألف رجل من قبل ابن هدد ملك دمشق ثم ٧٠٠ مركبة و ٧٠٠ فارس و ١٠٠٠٠ رجل من قبل ايركوليني ملك حماه. ثم ٢٠٠٠ مركبة و ١٠٠٠٠ رجل من قبل آحاب ملك سرلاي (إسرائيل)». وكذلك يعد باقي جيش هؤلاء الملوك المتحدين. ويظهر أن سلمناصر لم يقيم في سورية بل اكتفى بإذلال أهلها وأخذ جزيتهم وعاد إلى آشور. ومن أدلة ذلك أن ابن هدد نقض عهده مع آحاب واستمرّ مالكاً راموت جلعاد حتى اضطرّ آحاب أن يثير الحرب عليه فيها بعد إنجلاء الآشوريين من سورية كما سيجي.

عد ٣٠٥

اختلاس آحاب كرم نابوت

قد مرّ أنّ آحاب بنى له قصرًا في يزرعيل (زرعين) وكان لنابوت اليزرعيلي في جانب القصر كرم ورثه عن أبيه. فرغب الملك إليه أن يبيعه كرمه ليكون له بستان بقول فاعتذر له نابوت بأنّ الكرم ميراث آبائه فلا يمكنه أن يبيعه. وكان من الشين عندهم أن يتخلّى المرء عما ورثه عن آبائه ولم تُجز السنتّة ذلك إلّا لضرورة. فعاد آحاب كئيباً واضجع على سريره ولم يتناول طعاماً لإنكار آحاب عليه مسئوله. فقالت له ايزابل امرأته ما بالك كئيب النفس؟ فقصّ عليها ما كان له مع نابوت فقالت ما أنفذ سلطانك الآن على إسرائيل. قم فتناول طعاماً وطب نفساً وأنا أعطيك كرم نابوت. ثم إنّها كتبت كتباً إلى الشيوخ والأشراف في مدينة نابوت

وختمتها بخاتم الملك، ومنه يظهر قدم العادة بختم الرسائل بالخاتم. وقالت في تلك الكتب نادوا بصوم لتذكي شهودها الكاذبين، وأجلسوا نابوت في صدر القوم، وأقيموا رجلين يشهدان عليه أنه جُدّف على الله وعلى الملك وأخرجوه وارجموه فيموت. ففعلوا كما انفذت إيزابل إليهم، وشهد عليه شاهدا زور كما لقنت، ورجموه بالحجارة فمات. وأخبروا الملكة بموته فقالت لآحاب: قم فرث كرم نابوت، لأنهم كان من عاداتهم أن من قضي عليه بجريمة ضد الملك تولى الملك أملاكه. فنزل آحاب إلى الكرم فالتقاه بأمر الله إيليا النبي وقال له: قتلت وورثت أيضاً؟ ففي الموضع الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس دمك أنت أيضاً، فهوذا الرب جالب عليك الشر ومبيد نسلك وقال له في إيزابل إنَّ الكلاب ستأكل لحمها عند مترسة يزرعيل. فلمّا سمع آحاب هذا الكلام مرّق ثيابه وجعل على يده مسحاً وصام وبات في المسح ومشى ناكساً، فقال الرب لإيليا أرأيت كيف ذلّ آحاب أمامي؛ فمن أجل ذلك لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه أجلب الشر والعقوبة على بيته (ملوك ٣ فصل ٢١). وسترى تمام هذه النبوة وإنفاذ هذا التهديد في آحاب وإيزابل، على أنّ توبة آحاب لم تغيّر عمق قلبه فلم تكن صادقة ولا ثابتة، ولم يرد الكرم على ورثة نابوت وليس مطواعاً لإيزابل عابداً أصنامها فحلّت به العقوبة التي هدّده إيليا بها.

عد ٣٠٦

حرب آحاب وملك دمشق وقتل آحاب

جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٢٢) «ومضت ثلاث سنين لم تكن فيها حرب بين آرام وإسرائيل» أي بين ملك دمشق وملك إسرائيل، فالعهدة التي أمضاها هذان الملكان والحرب التي أثارها عليهما سلمناصر ملك آشور، وقفنا الحرب بينهما مدّة السنين الثلاث. وانتصار سلمناصر عليهما حلّ عقد تلك العهدة فلم يقم ابن هدد بما شرط على نفسه أن يتخلّى الملك إسرائيل عن المدن التي كانت تخصّه، ومنها راموت جلعاد (السلط) فقال ملك إسرائيل لأصحاب مشورته علمتم أنّ راموت جلعاد لنا، وكان ملك دمشق شرط على نفسه أن يردها علينا فلم يردها، ونحن متقاعدون عن أخذها، وكان يوشافاط ملك إسرائيل عنده كما مرّ.

فقال له أتمضي معي إلى القتال؟ فأجابه: نفسي كنفسك وشعبي كشعبك وخيلي كخيلك ولم يشرط يوشافاط إلا أن يسأل آحاب الرب بواسطة أحد أنبيائه فجمع آحاب نحو أربع مئة رجل لكنهم كذبة أو من كهنة بعل أو متعلقون له. فقالوا له اصعد إلى القتال فإن الرب دافع أعدائك إلى يدك. فقال يوشافاط: أليس هنا نبي للرب بعد فنسأل به؟ فقال آحاب يوجد بعد رجل لكنّه لا يتنبأ عليّ بخير وهو ميخا بن يملة، فأبى يوشافاط إلا أن يستأثوه فأتى. فقال له آحاب: أتمضي معي إلى راموت جلعاد للقتال أم نمتنع؟ فقال: رأيت جميع إسرائيل مبدين على الجبال كالغنم التي لا راعي لها. فقال آحاب ليوشافاط ألم أقل لك إنّه لا يتنبأ عليّ بخير؟ فقال ميخا رأيت الرب جالساً على عرشه وجميع جند السماء وقوف لديه، وقد أذن لأحد الأرواح أن يغوي آحاب بقول الكذب في أفواه أنبيائه، فتقدّم صدقياً بن كنعنه ولطم ميخا على لحيه وقال: من أين عبر روح الرب مني ليكلمك؟ فقال ميخا: ستنظر في ذلك اليوم الذي تدخل فيه مخدعاً ضمن مخدع لتختبئ: إن عدت بسلام فلم يتكلّم الرب فيّ وأشهد الشعب على كلامه.

قد مضى ملك إسرائيل ومعه يوشافاط ملك يهوذا إلى الحرب لاسترداد راموت جلعاد من يد ملك دمشق. فتنكر آحاب وتقدّم إلى ساحة الحرب واستمرّ ملك يهوذا لباساً، وكان ملك دمشق قد أمر رؤساء مراكبه أن لا يحاربوا كبيراً ولا صغيراً إلا آحاب، فتوهم رؤساء المراكب بأن يوشافاط هو ملك إسرائيل. فمالوا عليه فصرخ مستغيثاً بالرب الحال في هيكل أورشليم فعرفوا إنّه ليس آحاب ورجعوا عنه، وإن رجلاً نزع في قوسه غير متعمّد فأصاب ملك إسرائيل بين الذراع والورك وعن يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٨ فصل ١٠): إن السهم أصمى رثته. فقال لمدير مركبته: أخرج بي من الجيش فأني جرحت فأخرجته. واشتد القتال وآحاب واقف بمركبته مقابل آرام ودمه يسيل في المركبة ومات في المساء. ونودي في الجيش للانصراف فعاد كل إلى محلّه وأخذ آحاب إلى السامرة. وغسلت مركبته وسلاحه من الدم فلجست الكلاب دمه بحسب كلام الرب بفم إيليا النبي (ملوك ٣ فصل ٢٢).

إنّ بين مفسري الكتاب مبحثاً معضلاً للتوفيق بين قول إيليا (ملوك ٣ فصل ٢١) «في الموضع الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك».

وبين قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ٢٢ عد ٣٨)، «وغلست مركبته في بركة السامرة فلحست الكلاب دمه وغسل سلاحه على حسب كلام الرب الذي تكلم به». والسامرة على مسافة سبع ساعات من زرعين حيث قتل نابوت. فذهب بعضهم إلى أن كلمة الموضع من الآية الأولى لا يراد بها المكان المتحيز بل العمل أو الناحية من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، فكأنه يقول إن الناحية أو العمل الذي لحست به الكلاب دم نابوت تلحس فيه دم آحاب. وذكر آخرون أن تذلل آحاب أمام الرب بعد تهديد إيليا له، ووعدته تعالى إنه لا يجلب البشر في أيامه لكن في أيام ابنه، آجلاً جلب هذه العقوبة إلى ممات يورام بن آحاب؛ إذ جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٩ عد ٢٥) إن ياهو بعد أن قتل يورام قال لأحد قواده: «خذه واطرحه في حصّة حقل نابوت اليزرعيلي، واذكر إذ كنت راكباً أنا وأنت وراء آحاب أيّه كيف جعل الرب عليه هذا الحمل». واستحسن سنكتيوس هذا المذهب (في تفسيره فصل ٢١ عد ٢٣ في سفر الملوك ال ٣). وأراه أولى من المتابعة ليوسيفوس في قوله (ك ٨ من تاريخ اليهود ف ١٠): أن جثة آحاب نقلت في مركبته نفسها إلى السامرة ودفنت هناك وأمّا مركبته فأخذت إلى يزرعيل وغسلت بماء عين هذه المدينة. وكانت ملطخة بدم نابوت فتمت بذلك نبوة إيليا النبي. وقد استحسن كاران (مجلّد ١ في السامرة صفحة ٣١٦) رواية يوسيفوس هذه وقال: إنه أخذها عن نسخة مخطوطة كانت في أيامه وهي أصح ممّا أخذ عن غيرها، لأنّها تزيل الإشكال وظاهر الناقض بين نبوة إيليا ونوع تمامها. على إنه لا يخفى أن قول يوسيفوس إن مركبة آحاب غسلت بماء ينبوع يزرعيل مخالف لقول الكتاب إنّها غسلت «في بركة السامرة» ولذا قلت إن المذهب الثاني أولى بالإتباع.

عد ٣٠٧

أحزيا بن آحاب وارتفاع إيليا نحو السماء

خلف أحزيا أباه آحاب وكان على شاكلته، فقد عبد البعل وسجد له وأسخط الرب. وكان يوشافاط ملك يهوذا مصافياً له وقد اشتركا في بناء سفن تذهب إلى أوفير، لكنّها انكسرت كما مرّ (في عد ٢٩٩). وقد تمزّد الموابيون على أحزيا وأبوا

أداء الجزية المفروضة عليهم، ولم يثبتنا الكتاب أنه حاربهم بل أنبأنا أنه سقط من شبك عليته التي في السامرة، ومرض. فبعث رسلاً يسأل بعل زبوب إله عقرون وهل يبرأ من مرضه. وعقرون هي المسماة اليوم عاقر على ثلاث ساعات من الرملة جنوباً كما حقق روينسون وتابعه كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٨). وبعل زبوب تأويله إله الذباب أي الإله الذي يُلجأ إليه للتخلص من الذباب، وهو يكثر في فصل الصيف في تلك الأماكن، وكان لليونان إله من الذباب ذكره بلينيوس وغيره. فخطب ملاك الرب إيليا أن يلاقي رسل ملك السامرة ويقول لهم ألعله ليس إله في إسرائيل حتى تذهبوا وتسألوا إله عقرون؟ ولذلك فالسرير الذي علاه ملككم لا ينزل عنه بل يموت موتاً فصنع إيليا كما أمره الملك. فعاد رسل الملك وأخبروه بما قيل لهم فسألهم ما هيئة الرجل الذي خاطبكم بهذا الكلام؟ قالوا رجلٌ عليه شعر متمنطق بمنطقة من جلد فقال هو إيليا. ووجهٌ إليه قائد خمسين مع خمسينه فقال له يا رجل الله الملك يقول إنزل. فأجابه إيليا. إن كنت أنا رجل الله فلتهبط نارٌ من السماء وتأكلك أنت وخمسينك. فهبطت النار وأكلته وخمسينه. وأثبتت الآية إنه رجل الله فلم يتعظ حزيا وأرسل إليه رئيس خمسين ثانياً مع خمسينه فأصابهم ما أصاب الأولين. وأرسل إليه رئيس خمسين ثالثاً وكان حكيماً فجثا على ركبتيه، وتضرع إليه قائلاً ما حيلتي يا رجل الله وأنا عبدٌ مأمور فلتكرم نفسي في عينيك، ولا تبدني كما أبدت قائدي الخمسين وخمسينهما. فأوحى الرب لإيليا أن إنزل معه فنزل، وقال للملك ما كان قاله لرسله وتركه فمات حزيا بعد أن ملك سنتين فقط بعضها في حياة أبيه وبعضها بعد موته. فكثيراً ما أشرك ملوك إسرائيل أبناءهم في الملك على عادة ملوك فارس وغيرهم من ملوك المشرق لا سيما إذا مضوا لحرب يخشون الموت فيها. وهذا يوافق ما يظهر من التضاد أحياناً في تعيين سني ملوك يهوذا وإسرائيل بين رواية أسفار الملوك وسفري أخبار الأيام، ولما لم يكن لأحزيا إبنٌ ملك مكانه أخوه يورام بن آحاب (ملوك ٤ فصل ١).

ويظهر أنه في نحو هذا الزمان ارتفع إيليا نحو السماء، ولم يظهر بعد وترك أليشاع خلفاً له. قال كثيرٌ من الآباء ومفسري الكتاب إن إيليا ما برح حياً وسيعود إلى العالم قبل قيام الساعة. استمسكاً بقول ملاخيا النبي (ف ٤ ع ٥): «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل أن يجيئ يوم الرب العظيم الرهيب، فيردُّ قلوب الآباء إلى البنين». وكان الكتبة في أيام المختص يقولون إن إيليا يلزم أن يأتي قبل مجيئ المسيح،

ولما ذكر الرسل ذلك للمخلص أجابهم: «الحق أقول لكم إن إيليا جاء ولكنهم لم يعرفوه بل صنعوا به كل ما أرادوا» (متى ف ١٧ ع ١١). وفهم الرسل أنه عنى بذلك يوحنا المعمدان الذي قيل فيه في بشارة لوقا (فصل ١): «إنه يتقدم أمامه بروح إيليا النبي وقوته، ويرد قلوب الآباء إلى البنين» كما في كلام ملاخيا. ولذلك قال بعضهم: إن نبوة ملاخيا لا يتحقق منها مجيء إيليا إلى العالم في آخر الزمان، وإنه ربما كان هذا المذهب معاوناً لليهود في زعمهم أن المسيح لم يأت بعد، لأن إيليا لم يجرى بعد على أن المذهب الأول أي أن إيليا واخنوخ أيضاً ما برحا حييين، وسوف يأتيان قبل يوم الدين إلى العالم هو الذي عليه أكثر الآباء والمفسرين، بل سماه سنكتيوس الرأي العام. وقالوا إن قول المخلص أن إيليا جاء مجازي، يريد به أن مجيء يوحنا للتبشير به قبل ظهوره للعالم أشبه بمجيء إيليا قبل اليوم الأخير لإبذار الناس، ومقاومة الدجال وأيدوه بما جاء في رؤيا يوحنا (فصل ١١ عد ٣): «وسأقيم شاهدي (أي إيليا واخنوخ) فيتنبآن ألفاً ومئتين وستين يوماً وعليهما مسح». وبأن الترجمة السبعينية روت في بعض نسخها قول ملاخيا: «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي التشبي». واحتجوا له أيضاً بما جاء في كلام ابن سيراخ (فصل ٤٨ عد ٦) في إيليا: «وخطفت في عاصفة من النار في مركبة خيل نارية. وقد إكتسبك الرب لأقضية تجري في أوقاتها، ولتسكين الغضب قبل حدثه ورد قلب الأب إلى الابن». ولا نكير أن قول ابن سيراخ مشير إلى نبوة ملاخيا، ومحقق أن المراد بها مجيء إيليا قبل اليوم الأخير. ولهم في المباحث المتعلقة بهذا الأمر أقوال متباينة. مثلاً أين يقيم اخنوخ وإيليا الآن أفي الهواء أم في السماء؟ أم في الفردوس أو في جنة؟ وبكل منها قائل، وأحسن الأقوال وأسدّها إنهما في محل يعلمه الله ولم يعلمنا به، وكذلك أيّا كلان ويشربان ويلبسان أم تغنيهما عناية الله عن ذلك؟ والأظهر الثاني.

وقد خلف الإشاع إيليا وأثبت الله رسالته بآيات منها أنه ضرب مياه الأردن برداء إيليا الذي سقط عليه عند صعوده، فانفلقت إلى هنا وهناك وعبر على اليبس بمراى من أبناء الانبياء، ومنها إصلاحه نبع ماء أريحا بوصفه الملح فيه، وخروج دبتين من غاب إلى بيت إيل وافتراسهما إثنين وأربعين صبيّاً كانوا يعيرونه قائلين اصعد يا أجلع اصعد يا أجلع، ولا ريب أنهم كانوا يستوجبون هذه العقوبة هم وآباؤهم، ومنها إكثاره الزيت لإحدى الأرامل حتى وفّت دينها به، وإقامته ابن

الشونمية من الموت وإبرأؤه نعمان رئيس جيش آرام من البرص، وضربه بخادمه حجزى بالبرص لأنه أخذ من نعمان المذكور قنطارين من الفضة وحلّتين من الثياب.

عد ٣٠٨

يورام بن آحاب

ملك يورام بن آحاب مكان احزيا أخيه لأنه لم يكن له ابن وصنع الشرّ في عيني الرب، ولكن لا كأبيه وأمه لأنه أزال تمثال البعل الذي صنعه أبوه، إلا أنه أعاد عبادة العجل التي أدخلها ياربعام بن نباط إقتداءً بالمصريين. فأثار الرب عليه ميشاع ملك مواب فعصاه. وأبى إداء الجزية التي كان هو وأسلافه يقدّمونها لملك إسرائيل، وكانت تلك الجزية مئة ألف حمل، ومئة ألف كبش بصوفها، ولا عجب بكثرة هذه الأغنام لأنّ منبع ثروة مواب كان تربية الماشية وبلادهم صالحة لها. فلو فرضنا فيها ألفي مالك للماشية ولكلّ منهم ألف رأس كانت الجزية عشر مالهم، ولم يصرّح الكتاب أفي كل سنة كان ملك مواب يقدّم هذه الجزية أم عند قيام الملك فقط؟ ويحتمل أن كان الأخير كما مرّ آنفاً. فعظم الأمر على يورام وأحصى رجال مملكته، وأرسل إلى يوشافاط ملك يهوذا سائلاً هل يمضي معه إلى مواب للقتال؟ فأجابه كما أجاب أباه آحاب إنما نفسي كنفسك وشعبي كشعبك وخيلي كخيلك. وصعد الملكان في طريق آدوم لأنّ ملك آدوم كان حليفاً ليوشافاط، ولأنهم خافوا أن يسطرو عليهم ملك دمشق إن داروا حول البحر الميت من جهة المشرق، فداروا من جنوبه ولم يجدوا ماءً، فقال يوشافاط أليس ههنا نبي للرب فنسأل به؟ فقيل له إنّ ههنا اليشاع. فانحدر إليه الملكان وملك آدوم وقال اليشاع لملك إسرائيل ما لي ولك امض إلى انبياء أبيك وأملك، ولولا تكريمي لوجه يوشافاط ملك يهوذا لما نظرت إليك. ثم قال لهم النبي اجعلوا هذا الوادي حفراً حفراً فيمتلئ ماءً ولا ترون ريحاً ولا مطراً وسيدفع الرب مواب إلى أيديكم.

وكان في الغداة أنّ مياهاً جاءت من طريق آدوم فامتألت الأرض ماءً. واجتمع الموآبيون للحرب، وبكروا بالغداة وقد أشرقت الشمس على المياه فأروها حمراء كالدم، فتوهموا أنّ الملوك إقتتلوا حتى صبغ دم قتلهم المياه، وتهافتوا دون نظام ولا محاذرة على محلة الملوك فضربهم الملوك وهزموهم. ودخلوا بلادهم وهم يعملون

السيوف بهم وهدموا مدنهم وردموا عيون مائهم. وقطعوا كل شجرة حسنة في أرضهم وحاصروا قيرحراست حاضرتهم وهي الكرك الآن. ولما رأى ملك مواب أن قد اشتدت الحرب عليه أخذ معه سبع مئة رجل مختربين السيوف ليخترقوا الصفوف إلى ملك آدوم فلم يقدرُوا. ويئس ملك مواب من النجاة واعتقد أنَّ كاموش معبوده ساخطٌ عليه، وأنه لا يخمد غضبه عنه إلا أن يضحي بابنه ترضيةً له، فأصعد بكره محرقةً على أسوار المدينة، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك حنقوا حنقاً شديداً، وانصرفوا عن المدينة ورجعوا إلى أرضهم (ملوك ٤ ف ٣).

ويظهر مما مرَّ في كلامنا على يوشافاط إنَّ الادوميين انحازوا بعد هذه الحرب إلى ميشاع ملك الموابيين. وخرجوا معه على يوشافاط ودثروا مدناً كثيرة في مملكة يهوذا انتقاماً من يوشافاط: لأنه خرج مع ملك إسرائيل على الموابيين. وانتصر عليهم في عين جدي كما مرَّ في الكلام عليه. وقد كُشف من أُمِّدٍ قريب عن صفيحة تثبت ما ورد في الكتاب عن هذه الحروب إثباتاً علمياً قاطعاً وهي المعروفة بصفيحة ميشاع.

عد ٣٠٩

صفيحة ميشاع

إنَّ هذه الصفيحة قد كشف عنها سنة ١٨٦٩ م كلرمون كانو الإفرنسي ترجمان قنصلية إفرنسة في أورشليم وقتئذٍ، وهي الآن في متحف اللوفر في باريس بين الآثار اليهودية بمنزلة كنز ثمين. قال فيه دي فوكوه إنه ليس بين الآثار العبرانية ما يعادله اعتباراً وأهمية، وهي من حجر أسود كالصفائح المصرية. علوّها نحو متر وعرضها نحو ستين سنتيمتراً، وقد استمرت مدفونة من نحو تسعة قرون قبل الميلاد إلى سنة ١٨٦٩ م بعده في سفح أكمة في جانب ديبان شرقي البحر الميت على ثلاثة أيام من أورشليم. وكان سكان البادية قد كسروا هذه الصفيحة وهي الآن في اللوفر مركّبة من نحو عشرين قطعة، ولم تزل بعض قطعها مفقودة، ولا أمل بوجدانها والخطوط المكتوبة عليها باللغة الموابية، وهي فرع من اللغة العبرانية المدوّنة بها الأسفار المقدسة، فكل كلماتها يمكن ردها إلى أصل عبراني، وهي من أول الأمثلة للكتابة بالحروف، وقد حوت أربعة وثلاثين سطراً وترجمها برمتها لانرمان في



صحيفة ميشاع ملك مواب

تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٦ صفحة ٢٧٤ طبعة ٩). وفيكورو في الكتاب
والإكتشافات الحديثة (مجلد ٤ صفحة ٦٠ طبعة ٥). وقد ترجمناها عنهما موثرين
ما رأيناه الأحسن لتأدية المعنى من الترجمتين: «أنا ميشاع بن كاموش ملك مواب

الديوني (نسبة إلى ديون وهي ديان اليوم) ملك أبي في مواب ثلاثين سنة. وملكْتُ أنا بعد أبي، وأقمتُ هذا الباماه (الحل المشرق والمراد هنا الصفيحة) لكاموش في كوركاء. (الأظهر أنَّ الكلمة عَلم للأكمة حيث وُجدت الصفيحة أو لمدينة ميشاع الملكية)، لأنه خلَّصني من كلِّ من إعتدوا عليَّ وجعلني أن أقهر مناصبي. إنَّ عمري كان ملك إسرائيل وضايق مواب أياماً طوالاً، لأنَّ كاموش كان ساخطاً على أرضه.

وخلفه ابنه آحاب فقال أنا أيضاً أقهر مواب في أيامي (أو في مدة حياتي) وأتسلَّط عليه وأذلُّه هو وبيته فباد إسرائيل بيداً دائماً. وكان عمري استحوذ على أرض ميدبا واحتلَّها. وعاش هو وابنه أربعين سنة فاستردها كاموش إلى أيامي. أنا بنيت (أو أقمت) بعل معون (معين الآن)، واحتفرت هناك آباراً وأقمت قرياتي (على عشرة أميال من ميدبا غرباً). وكان رجال جاد يسكنون في أرض عطاروت (في جانب جبل عطروس) منذ زمان مديد فحاربْتُ المدينة وافتتحْتُها، وقتلتُ كلَّ رجالها فكان ذلك مشهداً لكاموش ومواب. وأخذتُ من ثمة مذبح دودو (داود) وطرحته على الأرض أمام كاموش في قريوت (علَّها قرياتي المار ذكرها). وأسكنتُ هناك رجال ستارون ومقارة (لا يُعرف موقعها). وقال لي كاموش امضِ وافتتح نابو (في جانب جبل نبو) على بني إسرائيل، فمضيتُ ليلاً وأقمتُ الحرب عليها من الفجر إلى الظهر فأخذْتُها. وقتلتُ كلَّ رجالها سبعة آلاف رجل ونساءهم واستحييت البنات والعبيد لأنني قدتهم إلى عشتاروت كاموش. وأخذتُ من هناك آنية يهوه (إله العبرانيين) وطرحتها على الأرض أمام كاموش. وكان ملك إسرائيل بني ياسا واحتلَّها عند ما كان يحاربني فطرده كاموش من أمام وجهه، لأنني أخذتُ من مواب مئتي رجل من أحسن الرجال، وأرسلتهم على ياسا فأخذْتُها وضممتها إلى ديون (يظهر منه أنَّ ياسا كانت حذاء ديان)، أنا بنيتُ كوركاء (المار ذكرها) وأسوار يعرين واوفيل وأقمتُ أبوابها وأبراجها، وبنيتُ دار الملك والسجون في وسط المدينة ولم تكن آبار في كوركاء، فأمرتُ الشعب أن يحفر كلُّ منهم بئراً في بيته. وحفرتُ مجاري لجلب الماء إلى كوركاء وأشغلتُ فيها أسرى إسرائيل. أنا بنيتُ عراعر (عراير الآن) ومهدتُ طريق أرنون (النهر المعجب). أنا بنيتُ بيت باموت لأنها كانت خراباً وبنيتُ باصور لأنها كانت... ديون خمسين لأنَّ ديون كلها كانت لأمري، وأكملتُ عدد المئة مع المدن التي ألحقها بأرض مواب وأقمتُ...

وبيت ديابلاتيم وبيت بعل معون وأتيث إلى هناك... وأورونيم كان يسكن فيها... وكاموش قال لي انزل فحارب أورونيم فأنا... وكاموش في أيامنا وعلى... صنع... وأنا...» فهذه ترجمة صفيحة ميشاع ويشار بالنقط المتتالية إلى القطع المفقودة وإليك مثلاً لهذه الصفيحة عن أصلها المحفوظ في متحف اللوفر.

لا جرم أن ميشاع صاحب هذه الصفيحة إنما هو ميشاع ملك مواب الذي جاء في الكتاب أنه عصى على يوارم بن آحاب، وإن الحرب التي تفاخر بأنه أثارها على إسرائيل إنما هي الحرب التي ذكرها الكتاب في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٠). وقد مر ذكرها في كلامنا على يوشافاط فإنه دمر حينئذ هو وحلفاؤه مدن إسرائيل في عبر الأردن وانتهى إلى عين جدي. ولا غرو أن ميشاع لم يشأ أن يخلد في صفيحة ذكر إنخذاله بل ذكر ظفره كما فعل المصريون والآشوريون في خطوطهم القديمة. ولا يقام نكير على أن الصفيحة مثبتة إثباتاً علمياً آيات كثيرة من الكتاب وتطابقه جوهراً في رواية عمري وآحاب وحرب ملك مواب مع يورام ويوشافاط، وتوافقه في تاريخ مدة ملك عمري وآحاب ابنه. فقد صرح الكتاب بأن عمري ملك إثنتي عشرة سنة، وآحاب ابنه إثنتي وعشرين سنة. وإن زمري نازع عمري الملك فلم يستبد به إلا بعد مدة، فإن جعلنا مدة النزاع ست سنين كما جعلها بعض المحققين كانت مدة ملك عمري وآحاب ابنه أربعين سنة كما في الصفيحة، وأيضاً تكون المطابقة بين الكتاب والصفيحة إن أضفنا إلى سني ملك عمري وآحاب التي هي أربع وثلاثون سنة السنتين اللتين ملك فيهما أحزيا بن آحاب، وجعلنا تحرير مواب من سلطة إسرائيل في السنة الرابعة ليورام بن آحاب فيكون المجموع أربعين سنة.

وجاء في الصفيحة: «وكان رجال جاد يسكنون في أرض عطاروت منذ زمان مديد (وفي ترجمة لانرمان منذ زمان لا يُذكر بدؤه) ... وقال لي كاموش: إمض وافتح نابو على بني إسرائيل». وجاء في الكتاب (سفر العدد فصل ٣٢): «جاء بنو جاد وبنو راويين وكلموا موسى... وقالوا: إن عطاروت وديون ويعيز... ونابو ومعون هي أرض تصلح للماشية، ولعبيدك ماشية فإن أصبنا عندك حظوة فلتعط هذه الأرض لعبيدك». وقيل بعد ذلك: «فبنى بنو جاد ديون وعطاروت وعروعر... وبنى بنو راويين حشبون وقرياتيم. ونابو وبعل معون». فتأمل بهذا الطباق بين أسماء هذه المدن في الكتاب وفي الصفيحة. ولما كان ما ذكره الكتاب مرّ عليه نحو من

سبعة قرون قبل ميثاش فحق له أن يقول إن بني جاد كانوا يسكنون هذه الأرض منذ زمان مديد أو منذ زمان لا يُذكر بدؤه. على أن قوله أنه بنى هذه المدن يراد به أنه رممها أو جدد بناءها بعد الخراب الذي أوقعه بها عسكر يورام ويوشافاط كما مرّ. ولا نسئ عن الطبايق في اسمي كاموش معبود مواب ويهوئ إله إسرائيل بين الكتاب والصفحة. وقد حلت لنا هذه الصفحة معضلة أخرى وهي أن آيات المزمور ال ١١٩ والفصل ال ٣١ من سفر الأمثال. موزعة على أحرف الهجاء أي تبثدي كل آية بحرف من الحروف الإثني والعشرين. فقال بعض المنددين بالكتاب لم تكن أحرف الهجاء حينئذ في العبرانية إثني وعشرين حرفاً لأن بعض هذه الحروف وُضع متأخراً، فجاءت هذه الصفحة حاوية الإثني والعشرين حرفاً فأفحمت المنددين.

عد ٣١٠

الحرب بين ملك آرام وملك إسرائيل والمجاعة في السامرة

كان ملك آرام ابن هدد الثاني يحارب يورام ملك إسرائيل، وقد تعسّر عليه الظفر. فلجأ إلى الحيلة وفاوض أعوانه في أن يقيم كميناً لملك إسرائيل فيقتله غيلة، فأرسل اليشاع وحذر يورام من العبور في محل الكمين واستجس فتتحقق مقال النبي، فاحتفظ بنفسه وعلم ملك آرام وظن أن بين أعوانه من يخونه. فقبل له أن اليشاع النبي يخبر يورام بما يسره أعداؤه، فأرسل خيلاً ومراكب وجيشاً ليقبض على أليشاع ليلاً في دوتان (وهي تل دوتان الآن على نحو إثني عشر ميلاً من السامرة شمالاً). ورأى غلام اليشاع الجيش فصرخ إلى سيده فقال له لا تخف، فإن الذين معنا أكثر من الذين معهم ونزل إليهم اليشاع فأعماهم الرب عن عرفانه. وقال لهم ليست هذه الطريق ولا هذه المدينة، تعالوا ورائي فأسير بكم إلى الرجل الذي تطلبون، فسار بهم إلى السامرة وفتح الرب عيونهم فأبصروا، فإذا هم في وسط السامرة ونهى النبي يورام عن مضرتهم بشيء، بل أصلح لهم بأمره مأدبة عظيمة فأكلوا وشربوا ثم أطلقهم فمضوا إلى سيدهم.

فعدل ابن هدد عن الخيل، وعزم على أن يجاهر ملك إسرائيل بالمحاربة وجيش جيوشه وحاصر السامرة، ورأى ملك إسرائيل عجزه عن المهاجمة فاكتفى أن يحصن

نفسه ضمن أسوار المدينة فحصل جوع شديد حتى بيع رأس الحمار بثمانين من الفضة. وقدرها كلمت بقيمة مئة وثلاثين فرنكاً وقال بعضهم إنَّ المراد برأس الحمار الحمار برمته. وبيع ربع قب (مكيال) من زبل الحمام بخمسة من الفضة عبارة عن ثمانية فرنكات ونيف. ولهم في تفسير هذا الزبل أقوال منها أنَّ المراد به السرقين على ظاهر لفظه وقد اضطربهم الجوع إلى الأقتيات به. وقالوا إنه لا يخلو من مادة مغذية بدليل أنَّ بعض الطائر يأكله ويتغذى به، ومنها أنَّ المراد بزبل الحمام الحبوب التي تُعدّ لقوته كالزوان وغيره، أو التي كان الحمام يجمعها في وكره. وكان الحمام كثيراً في السامرة وعن يوسفوس إنهم كانوا يعتاضون بهذا الزبل عن الملح، والأظهر أنَّ زبل الحمام كان عندهم إسماعاً لنبات كالحماص من طائفة الحمص كانوا يقتاتون به حتى غلا ثمنه، أو اسماً للحبوب تنبت على أصول بعض الأشجار كحب الحمص، وكانوا يأكلونه (عن سنكتيوس عن كلمت في تفسير الآية). وقد اشتدَّ الجوع حتى أكلت النساء أولادهنَّ، ووافت يورام امرأة تشكو جارتها بأنها قالت لها هاتي ابنك نأكله اليوم وغداً نأكل ابني فطبخنا ابنها وأكلناه. وفي اليوم الثاني أخفت الأخرى ابنها فاحتدم الملك ومزَّق ثيابه، وجعل على بدنه مسحاً من تحت ثيابه وأراد أن يقتل أليشاع لتيقنه أنه كان قادراً على إزالة هذا الضيق بصلاته فلم يُزل. وأرسل الملك رجلاً يقتله وعرف الإشاع ذلك وكان جالساً في بيته، والشيوخ جلوس معه فأخبرهم به، وقال إذا دخل الرسول فاغلقوا الباب وأضغطوه فيه. ثم قال للشيوخ في مثل هذه الساعة من غدٍ يباع مكيال السميد بمئتين. ومكيالاً الشعير بمئتين باب السامرة. فقال أحد أعوان الملك لو فتح الرب كوى في السماء هل يتمُّ ذلك؟ فأجابه النبي سترى ذلك بعينيك ولكنك لا تأكل منه. وكان أربعة رجال برص يقومون عند مدخل السامرة لمنع البرص من مخالطة القوم فضايقتهم الجوع. وقال أحدهم لصاحبه إن دخلنا المدينة متنا وإن بقينا هنا متنا جوعاً، هلئمَّ ننزل إلى محلة الآراميين فإن أبقوا علينا عشنا، وإلا فلا أكثر من الموت في كلِّ حال. فمضوا غلساً إلى محلة الآراميين فلم يجدوا أحداً، وذلك أنَّ الرب كان أسمع جيش الآراميين أصوات مراكب وخيل وعسكر جرار. فتوهَّموا أنَّ ملك إسرائيل إستأجر عليهم ملوك الحثيين وملوك المصريين. فقاموا وهربوا عند الشفق وخلوا خيامهم وخيلهم وكلَّ ما كانوا ثمة يملكون. فدخل البرص المحلة وأكلوا وشربوا وأخذوا بعض الغنائم وبادروا إلى المدينة ينادون بما رأوا، فلم يصدّق الملك

إلى أن أرسل من حققوا الخبر. فخرج الشعب وانتهبوا محلة الآراميين وغنموا بما فيها حتى صار مكيال السميد بمثقال ومكيالا الشعير بمثقال كما قال النبي. ووكل الملك على الباب من كان أنكر على النبي صدق نبوته فداسه الشعب ومات. وتمت به نبوة النبي أيضاً (ملوك ٤ فصل ٦ و ٧).

ومرض ابن هدد ربما لانخدال جيوشه، ووافى اليشاع دمشق فقيل له قد أتى رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل وزيره حمّل أربعين جملًا من أجود ما في دمشق هدية، واذهب إليه واسأله هل أبرأ من مرضي؟ ففعل حزائيل وقال له اليشاع امض وقل له لن تبرأ. ثم حدّق نظره إليه حتى بكى فقال حزائيل ما بال سيدي يبكي؟ فقال لأنني علمت بما ستصنعه ببني إسرائيل من السوء، فإنك ستحرق حصونهم وتقتل فتيانهم وتشدّخ أطفالهم، وتشقّ حبالهم، فقال من عبدك الكلب حتى يفعل هذا الأمر العظيم؟ فقال أراني الرب إياك ملكاً على آرام. فانصرف حزائيل ودخل على سيده فقال له ما قال لك اليشاع؟ فقال بشرني بأنك تعيش. وأخذ في الغد قطيفة (وهي دثار مخمل يضعه الإنسان عليه عند نومه) وغمسها بالماء وبسطها على وجهه فمات. فقال بعضهم إنّ الملك نفسه بسط هذه القطيفة عليه أو أمر ببسطها تبريداً لحرارة الحمى التي كانت تعذّبه. وقال غيرهم إنّ حزائيل ببسطها عليه بهذه الحجّة وشدّها على وجهه حتى قطع الهواء عنه فمات. وهذا هو الظاهر من كلام يوسيفوس. وبعد موت ابن هدد ملك حزائيل مكانه (ملوك ٤ فصل ٨ إلى عد ١٦).

عد ٣١١

يورام ملك يهوذا

ملك يورام بن يوشافاط على يهوذا في السنة الخامسة لملك يورام بن آحاب على إسرائيل. وقد ملك مع أبيه سنة كما يتبيّن من سفر الملوك الرابع (فصل ٨ عد ١٦) حيث قيل وملك يورام ويوشافاط مالك على يهوذا. وإنه ملك ثمانين سنين في أورشليم ثم قال (في عد ٢٥) إنّ احزيا بن يورام ملك في السنة الثانية عشرة ليورام بن آحاب، فيظهر أنه ملك نحو سنة في أيام أبيه وسبع سنين بعده. وكان كل من ملكي يهوذا وإسرائيل يسميان يورام. وكان يورام ملك يهوذا متزوجاً بعتليا

بنت آحاب وايزابل، فسار في طريق بيت آحاب وصنع السوء. ومن الأحداث المهمة في أيامه خروج الآدوميين من تحت أيدي يهوذا بعد أن كانوا من أيام داود يؤدون الجزية والخراج للملك يهوذا. فقد قتلوا ملكهم الذي كان يخلص الأمانة ليوشافاط وجأهروا بالعصاوة على يورام ابنه. فعبر الأردن وضرب بعض مدنهم على أنه اضطر أن ينكس يئساً من ردّهم إلى الطاعة، فذهبت مهابته، وذلت سيطوته في أعين الآدوميين وغيرهم. فقد قال الكتاب بأثر ما مرّ «وفي ذلك الوقت تمردت لبنة» عليه. وقد كانت مدينتان تسميان بهذا الاسم. إحداهما في نصيب سبط يهوذا ذكرت في سفر يشوع بن نون (فصل ١٥ عد ٤٢). وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٦ عد ٥٧) أنها جعلت مدينة ملجأ لبني هرون. وقال أوسايوس والقديس إيرونيموس أنّ موقعها كان في ناحية بيت جبرين، وعن لانرمان أنها المدينة التي تمردت على يورام إذ قال في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٦ عند كلامه في يورام) «في ذلك الوقت أبت لبنة المدينة الكهنوتية الواقعة في سهول يهوذا أن تخضع لهذا الملك الأثيم». ولبنة الثانية جاء ذكرها في سفر العدد (فصل ٣٣ عد ٢٠) بين مراحل بني إسرائيل إذ قيل: «وارتحلوا من رمون فارص ونزلوا بلبنة». وعليه فهي في البرية ويظهر من قول يوسفوس (ك ٩ في تاريخ اليهود فصل ٢) إنّ هذه هي المدينة التي تمردت على يورام إذ قال: «إنّ حملة يورام على الآدوميين ذهبت بمهابته أمام هؤلاء الشعوب. وجزأت غيرهم على الثورة عليه، فلم يشأ سكان بلاد لاين (كذا يسمي لبنة) أن يخضعوا لسلطته.

ومن فظائع هذا الملك أنه قتل إخوته الستة عن آخرهم مع جماعة من رؤساء إسرائيل منقاداً إلى ذلك بمشورة امرأته عتليا بنت آحاب وايزابل، وربما كان أولئك الرؤساء يقاومونه بإكراهه الشعب على المضي إلى المشارف ليسجدوا للأوثان. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢١ عد ١٢): إنه «وردت إليه كتابه من ايليا النبي» وتضاربت الأقوال من مصدر هذه الكتابة لأنّ ايليا كان قد صعد بالغمام. فمن قائل إنّ ايليا كان عرف بالروح النبوي ما سيكون من يورام، فاستودع هذه الكتابة تلميذه الإشاع ليلغها إلى يورام حين الحاجة إليها. ومن قائل إنّ هذه الكتابة من قلم ياهو النبي ابن حناني فغيّر النساخ اسم ياهو باسم ايليا. ومن قائل إنّ ايليا ظهر لأحد الانبياء ولقّنه هذه الكتابة وأمره أن يمضيها باسمه ويرسلها إلى يورام. ومن قائل إنّ ايليا كتبها من محل إختفائه وفحواها: «قال الرب إله داود أبيك

لأجل أنك لم تسير في طرق يوشافاط أبيك وفي طرق آسا ملك يهوذا بل سلكت في طريق ملوك إسرائيل. وحملت يهوذا وسكان أورشليم على أن يفجروا كما فاجر بيت آحاب وقتلت أيضاً إخوتك آل أبيك الذين هم خيرٌ منك. فهذا هوذا الرب يضرب شعبك ضربة عظيمة مع بنيك وأزواجك وجميع مقتناك ويضربك أنت بأمراض كثيرة، بمرض في أمعائك حتى تتساقط أمعاؤك بسبب المرض يوماً فيوماً. وقد أثار الرب على يورام الفلسطينيين والعرب الذين بقرب الكوشيين والمراد بهم العرب سكان جنوبي العربية حيث اليمن ومساكن المدينيين الذين يسمون كوشيين كما مرّ، أو الكوشيون حقيقةً وهم سكان الحبشة. وزحفت عساكر العرب إلى مملكة يهوذا وأنجدهم الفلسطينيون فافتتحوا مدنها. واتصلوا إلى أورشليم عاصمتها وانتهبوا كلّ ما وُجد فيها من المال في بيت الملك. وسبوا بنيته ونساءه فلم يبقَ له إلا يواحاز أصغر بنيته، ويسمى احزيا أيضاً ولم يلبثوا في اليهودية بل قفلوا إلى بلادهم غانمين. وأما يورام الملك فضربه الرب بداء عضال في أمعائه حتى خرجت أمعاؤه بعد أن قضى سنتين في آلامه ومات غير مأسوفٍ عليه، ولم يُدفن في مقبرة الملوك بل في محلٍ آخر في مدينة داود. وكانت مدة حياته أربعين سنة ملك في ثمانٍ منها. وقال يوسيفوس (ك ٩ ف ٣ من تاريخ اليهود) إنه ملك ثمانين وأربعين سنة وهو لا جرم خطأ من النساخ لأنّ يوسيفوس ذكر بعد ذلك ما يخالفه (سفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢١).

عد ٣١٢

احزيا ملك يهوذا وياهو ملك إسرائيل

قد خلف احزيا أباه يورام وكان عمره يوم ملك إثنتين وعشرين سنة وملك سنة واحدة. وكانت أمه عتليا تدبره فاستسار في طريق بيت آحاب جده لأمه، وكانت في سنة ملكه الحرب بين حزائيل ملك دمشق خليفة ابن هدد الثاني وبين يورام خاله ملك إسرائيل. وخرج احزيا مع خاله لقتال حزائيل في راموت جلعاد (السلط)، والأظهر والأطبق للنص العبراني أنّ يورام كان قد استردّ راموت جلعاد من ملك دمشق مغتناً فرصة موت ابن هدد، فحاول حزائيل خلفه استردادها من ملك إسرائيل، فكانت الحرب بينهما هناك وجرح فيها يورام واضطرّ أن يعود إلى

قصره في يزرعيل (زرعين) ليعالج من الجراح التي أصابته. وتبعه احزيا ابن أخته ليعوده وبقي ياهو رئيس الجيش محافظاً على راموت، فاستدعى الإشاع أحد تلاميذه، وأمره أن يأخذ قارورة الدهن ويمسح ياهو بن يوشافاط بن نمشي ملكاً على إسرائيل بدلاً من يورام بن آحاب. فمسح تلميذ الإشاع ياهو قائلاً قد مسحك الرب ملكاً على إسرائيل، فاضرب بيت آحاب ولا تبقِ على أحد منه، وانتقم لدماء عبيد الرب وأنبيائه، فخرج ياهو وأخبر قومه بما كان فنادوا به ملكاً. وركب ياهو وأخذ معه فريقاً من الجيش ميمماً يزرعيل، ولما رآه الرقباء أخبروا الملك، فأرسل فارساً للكشف فأمسكه ياهو عن العود وكذلك فعل بالفارسين الثاني والثالث؛ ولما دنا ياهو من المدينة خرج إليه يورام ملك إسرائيل واحزيا ملك يهوذا فالتقيا به عند حقل نابوت اليزرعيلي. فقال يورام أسلام يا ياهو؟ فقال له أي سلام ما دام فجور أمك ايزابل وسحرها الكثير؟ فردَّ يورام يديه وهرب قائلاً لأحزيا خيانة يا احزيا، فرماه بالقوس فأصابه بين ذراعيه. ونفذ السهم من قلبه فمات في مركبته. وقال ياهو لأحد أعوانه خذه واطرحه في حقل نابوت، واذكر إذ كنت راكباً أنا وأنت معاً وراء آحاب أييه كيف جعل الرب هذا الحمل عليه. وأما احزيا فهرب في طريق بيت البستان فجرى ياهو في أثره وقال: ارموه فرموه وجرح واستمرَّ هارباً إلى مجدو (اللجون الآن) فمات هناك وحمله عبيده في المركبة إلى أورشليم ودفنوه مع آبائه في مدينة داود.

ثم دخل ياهو يزرعيل وكحلت ايزابل عينيها وزيّنت رأسها وأشرفت من طاق، ولما دخل ياهو من الباب قالت: أسلام لزمري قاتل سيّده؟ فأمر خصيائه أن اطرحوها فطرحوها، فترشش من دمها على الحائط وعلى الخيل وداستها، ودخل وأكل وشرب، وقال افتقدوا هذه الملعونة وادفنوها لأنها بنت ملك، فمضوا فلم يجدوا منها إلا جمجمتها ورجليها وكفيها، فعادوا وأخبروه فقال هذا كلام الرب على لسان النبي ايليا إنه في حقل يزرعيل تأكل الكلاب لحم ايزابل. قال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٢٠) إنّ الطاق الذي أشرفت منه ايزابل لم يكن في محل البرج القائم الآن في زرعين، بل كان عند سور المدينة الشرقي من حيث دخل ياهو والظاهر من آي الكتاب أنها أشرفت عليه عند دخوله في باب المدينة وهناك رجم نابوت اليزرعيلي.

وكان لآحاب سبعون ابناً في السامرة فكتب ياهو إلى رؤساء إسرائيل فيها إنَّ

عندكم بني سيدكم وعندكم المراكب والخيول والسلاح، انظروا الأصلح من بني سيدكم وأجلسوه على عرش أبيه وقتلوا عنه. فخافوا جداً وقالوا هوذا ملكان لم يشبنا أمامه فكيف نثبت نحن؟ وأرسلوا قائلين إنما نحن عبيدك وكل ما قلت لنا نفعله، لا نقيم أحداً ملكاً وما يحسن في عينك فافعله. فكتب إليهم كتاباً ثانياً يقول فيه إن كنتم لي ومن المطيعين لأمرى فخذوا رؤوس أبناء سيدكم وتعالوا إليّ في مثل هذه الساعة من غداً. فأخذوا أبناء الملك وذبحوا السبعين رجلاً وجعلوا رؤوسهم في سلال ووجهوها إليه. فقال إجعلوا الرؤوس كومتين إلى الغداة وخرج في الغداة وقال لجميع الشعب أنتم أبرياء، هأنذا قد قتلت سيدي الملك ولكن من الذي قتل هؤلاء جميعاً؟ يريد أن الله أمر بقتلهم انتقاماً من آحاب ونسله لأنهم عثوا في إسرائيل وأدخلوا فيه عبادة الأوثان. وقال: اعلموا أنه لا يسقط شيء من كلام الرب الذي قاله إيليا. ثم قتل ياهو جميع الباقين من بيت آحاب في يزرعيل وجميع عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق منهم باق. وانطلق إلى السامرة فالتقى ياثنين وأربعين رجلاً من أقرباء حزيا ملك يهوذا كانوا أتوا ليسألوا عن سلامة ملكهم. فأمر بقتلهم فقتلهم على آخرهم. ثم وافى السامرة وقتل كل من بقي لآحاب فيها، وتظاهر بأنه يريد أن يقدم الذبائح للبعل، واستدعى جميع كهنة البعل وأنبيائه. فاجتمعوا من كل فج في هيكल البعل الذي كان آحاب بناه في السامرة وتحرق أن لا يكون بينهم أحد غير عباد البعل. وأقام على الأبواب ثمانين رجلاً وقال لهم من نجا من هؤلاء فنفسكم بدل نفسه، فضربوهم بحد السيف ولم يفلت أحد منهم. وكسروا تمثال البعل وهدموا بيته وجعلوه مرحاضاً. وكانت هذه الصرامة ضربة لازب لإصلاح فساد إسرائيل ورده عن عبادة الأوثان، وكانت الأيام تبيحها والله أمر بها. إلا أن ياهو ترك عجلى الذهب اللذين أقامهما ياربعام في بيت إيل (بيت اين) ودان (تل القاضي). ووعد الرب ياهو أنه سيجلس من بنيهِ إلى الجيل الرابع على عرش إسرائيل جزاء لأعماله القويمة، لكنه عاقبه عن تركه عجلى الذهب بإثارة حزائيل ملك دمشق الحرب عليهم كما سترى (ملوك ٤ فصل ٩ و ١٠).

جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٠ عد ٣٢): «في تلك الأيام ابتدأ الرب يقطّط من إسرائيل فضرِبهم حزائيل (ملك دمشق) في جميع تخوم إسرائيل» من باشان (باسان) إلى عروعر (عراعر) التي على وادي ارنون (وادي المعجب). واكتفى الكتاب بإعلامنا بهذه الحرب بهذه الآية الموجزة على أن الخطوط المسماة

كشفت لنا عما يظهر منه أنّ ياهو استنجد بسلمناصر ملك آشور على حزائيل ملك دمشق. وكان ذلك خطأ سياسياً وخيم العاقبة، ولم يظن أنّ مداخلة دولة قديرة في تلك الأيام تبلغ ما لا يبلغه أعداؤه من المضرة. وقد جاء في نبوة هوشع على ياهو ومن اقتدى به: «قد رأى أفرائيم سقمه ويهوذا ضمّاره فانطلق أفرائيم إلى آشور وأرسل (الهدايا أو الجزية) إلى الملك المنتقم لكنه لا يستطيع أن يشفيكم ولا هو يزيل عنكم الضمار» (هوشع فصل ٥ عد ١٣). وقال (فصل ١٢ عد ١): «إنّ أفرائيم يرعى الريح ويتبع السموم... وهم يبنون عهداً مع آشور» ثم (فصل ١٤) «لا يخلصنا آشور... يحمل إلى آشور هدية للملك المنتقم فينال أفرائيم خزيّاً ويخجل إسرائيل من مشورته» فقبل الإكتشافات الحديثة لم يكن مغزى هذه الآيات بيناً لأن الكتاب لم يخبرنا بما كان في عهد سلمناصر. فتضاربت أقوال المفسرين في تفسيرها فيسرت لنا الخطوط السمارية إدراكها إذ أبانت لنا أنّ سلمناصر حارب حزائيل بعيد جلوسه على منصة الملك في دمشق، فقدّم له ياهو حينئذ الجزية. فقد جاء في آثار سلمناصر: «في السنة الثامنة عشرة للملكي عبرت الفرات المرة السادسة عشرة وكان حزائيل ملك سورية اعتمد على قوة جيشه، وألب جنوده جمّاً غفيراً وتحصن في سانيرو في قمة الجبل المقابل للبنان (الجبل الشرقي). فحاربه وكسرتة كسراً تاماً وأبدت بالسلاح ستة عشر ألف من عساكره. وغنمت منه بألف ومئة وإحدى وعشرين مركبة، وبأربع مئة وسبعين فارساً مع ذخائرهم وفرّ هو لينجو من البوار، فاتبعته إلى دمشق حاضرة ملكه وحاصرتها، وقطعت أشجارها وسرت إلى جبال حوران ودمّرت مدناً تشدّ عن العد. وأحرقتها وأخذت منها أسرى لا عداد لهم... وفي هذه الأيام أخذت الجزية من صور وصيدا ومن ياهو بن عمري».

وقد سمي ياهو بن عمري لأن عمري هو أصل الدولة الساقطة، فهو أبو آحاب وجد ابنه أحزيا ويورام وهو الذي بنى السامرة، وجعلها عاصمة للملك. ولذلك سمى الآشوريون ملوك إسرائيل أبناء عمري ومملكة عمري. وقد نقشت على مسلة نمرود صورة تمثّل سلمناصر واقفاً وبجانبه رجلان من عظماء مملكته، يحمل أحدهما مظلة، ويقدم الآخر إليه سفراء الملوك حاملين التقادم والجزيات، وبين هؤلاء السفراء رجل يقبل الأرض خائراً أمام الملك، ومن ورائه وفد يقدمون تقادهم للعاهل الآشوري، وفي أعلى المسلة صورة ايلو الإله السامي، وقد نقشت على أسفلها هذه الكلمات «جزية ياهو بن عمري». وصورت على الوجه الثاني والثالث والرابع من

المسلة صور التقادم محمولة على أكتاف إسرائيل أو أكفهم وخط تحتها: «جزية ياهو ابن عمري فضة وذهب وسبائك ذهب وآنية ذهبية وأثاث ملكي وصولجان ليد الملك وعصا من ذهب هذا ما أخذته وقد حُطَّ على هذه المسلة ذكر حملة أخرى غزا بها سلمناصر حزائيل ملك دمشق في السنة الـ ٢١ للملكه وإليك ترجمة هذا الخط «في السنة الحادية والعشرين للملكي عبرت الفرات المرة الثانية عشرة وزحفت إلى مدن حزائيل وأخذت حصونه واستوفيت جزية صور وصيدا وكوبل (جبيل)» ولم يأت بذكر ياهو حينئذٍ مع إله قد يكون أخذ الجزية منه كما أخذ جزية مدن فينيقية. ومسلة نمروذ هذه محفوظة الآن في المتحف البريطاني، ولها مثال في متحف اللوفر في باريس. ثم مات ياهو بعد أن ملك السامرة ثماني وعشرين سنة ودفن في السامرة وخلفه ابنه يواحاز (ملوك ٤ فصل ١٠).

الفصل السابع عشر

باقي ملوك يهوذا وإسرائيل إلى خراب السامرة

عد ٣١٣

قتل عتليا أبناء النسل الملكي ونجاة يواش

قال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١١) إِنَّ عتليا بنت آحاب أم أحزيا (ملك يهوذا) لما رأت أَنَّ ابنها قد مات أهلكت جميع النسل الملكي لتستبد هي في الملك. فأخذت يوشابع ابنة الملك يورام أخت أحزيا يواش ابن أخيها هو ومرضعاً له وأخفته في مخدع الأسرة حيث كان ينام الكهنة في جانب الهيكل فلم يُقتل. وملكت عتليا ست سنين وهي لا تدري أَنَّ يواش حي، وكانت يوشابع عمته زوجة ليوياداع رئيس الأخبار. ولما كانت السابعة استدعى يوياداع روساء مئآت الجنود، وأدخلهم إلى بيت الرب وقطع معهم عهداً واستحلفهم أَنْ يكتُموا السر وأراهم ابن الملك. وأرسل بعض اللاويين يؤهبون الشعب لهذا الانقلاب المهم، ويستدعون باقي اللاويين

والكهنة وروساء أسرات إسرائيل ليتجمعوا في أورشليم يوم سبت، ولعلّه كان في أيام أحد الأعياد الثلاثة السنوية. ولما اجتمعوا أقام يوياداع بعضهم لحراسة أبواب الهيكل، وبعضهم للإحاطة بالملك واستخرج الأسلحة التي كانت في خزانة الهيكل ودفعه إلى المحافظين. وأتى ييواش ومسحه هو وبنوه ووضع التاج على رأسه فصقّ كل الشعب وهتفوا يحيى الملك وأقسموا على طاعته والذب عنه. وسمعت عتليا ضوضاء الشعب ودخلت الهيكل فإذا الملك قائم على المنبر عادة الملوك والرؤساء وأصحاب الأبواق يحيطون به وجميع الشعب يفرحون. فمزقت عتليا ثيابها غيظاً وكمدت وهتفت خيانة، فأمر يوياداع رؤساء المئات أن يخرجوها خارج الصفوف وأن يقتلوا كل من يتبعها. فاخرجوها وقتلوا في طريق مدخل الخيل إلى بيت الملك. وجعل يوياداع الملك والشعب يعاهدون الرب لأنهم لا يعبدون سواه ولا يحيدون عن طرق سننه وقطع عهداً بين الملك والشعب. ودخل الشعب بيت البعل الذي في أورشليم وهدموه. وحطموا مذابحه وتماثيله وقتلوا متان كاهن البعل أمام المذابح، وأنزل رؤساء المئات الملك من بيت الرب إلى بيت الملك فجلس على عرش الملك. وكان يوياداع مدبراً للملك إلى أن شبّ يواش ملوك ٤ فصل ١١ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٣).

عد ٣١٤

يواش ملك يهوذا

ملك يواش وعمره سبع سنين واستمر على منصة الملك أربعين سنة وأحسن المسعى كل الأيام التي كان فيها يوياداع يرشده، واهتم يواش بمرمة ما كان تهدم من بيت الرب. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٤ عد٧): «إن عتليا الأثيمة وبنيتها قد هدموا بيت الله. وبذلوا جميع أقداس بيت الرب للبعليم». فأمر يوياداع أن يوضع صندوق مثقوب في جانب المذبح، وكان الكهنة يضعون فيه جميع الفضة الموردة إلى بيت الرب فرموا ما كان تهدم من الهيكل. وقد زوج يوياداع يواش بامرأتين فولد بنين وبنات. وشاخ يوياداع وبلغ مئة وثلاثين سنة من عمره ومات. فتبدلت حال يواش الذي كان رجلاً واهناً ضعيف العزيمة متقلّباً، فاقبل إليه بعد وفاة يوياداع بعض رؤساء يهوذا الأشرار المتملقين، واغروه بأن تركوا الرب وعبدوا العشتاروت والأصنام، فغضب الرب على يهوذا وأورشليم. وبعث

إليهم انبياء يندرونهم فتصاموا عن سماعهم وحمل روح الرب زكريا بن يوياداع فوقف أمام الشعب، وقال كذا قال الله لِمَ تتعدون وصايا الرب إنكم لا تفلحون لأنكم تركتم الرب، فترككم. فتحالفوا عليه ورجموه بالحجارة بأمر الملك في دار بيت الرب. ولم يذكر يواش الرحمة التي صنعها إليه يوياداع إذ كان له كأب. وقال زكريا عند موته: ينظر الرب ويطلبه بدمي.

ولم تمض سنة إلا وخرج حزائيل ملك دمشق على مملكة يهوذا فقتل وخرب وافتتح جت (ذكرين). وهم أن يفتت أورشليم فسولت ليواش جبانته أن يجمع كل نفيس في خزائن الهيكل ودار الملك من أيام أجداده، وأن يرسله جزية إلى حزائيل. فانصرف عن أورشليم وعاد إلى دمشق على أنه أرسل في السنة التالية عدداً يسيراً من جنوده لأخذ الجزية تلك السنة، فجيش يواش عسكرياً ينيف أضعافاً على جنود حزائيل فانكسر جيشه أمام أولئك القليلين الذين دخلوا البلاد حتى أورشليم، وقتلوا بعض أكابر يهوذا وأخذوا غنيمة كبيرة أرسلوها إلى حزائيل في دمشق، وأوسعوا يواش إهانات وشتائم وتركوه مصاباً بأمراض عديدة. فلم يحتمل عبيده أنفسهم فتكة بزكريا وإذلاله لهم أمام أعدائهم وتحالفوا عليه وقتلوه ولم يدفونه في مقابر الملوك. وملكوا مكانه ابنه أمصيا (ملوك ٤ فصل ١٢ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٤).

عد ٣١٥

يواحاز بن ياهو ملك إسرائيل ويواش ابنه

قد مر (عد ٣١٢) أن ياهو ملك في السامرة ثماني وعشرين سنة ومات. فخلفه ابنه يواحاز في السنة الثالثة والعشرين ليواش ملك يهوذا (ملوك ٤ ف ٢٣). وصنع الشر سالكاً في طريق ياربعام بن نباط الذي آثم إسرائيل. فاشتد غضب الرب على إسرائيل، وأثار عليهم حزائيل ملك الآراميين في دمشق وابنه المسمى هدد الثالث فأذلاهم، وأضعفا قوتهم حتى لم يبق ليواحاز من جنوده إلا عشرة آلاف راجل وخمسون فارساً وعشرة مراكب. وقد أنبأنا عاموس النبي (فصل ١ عد ٤ و٣): إن ملوك دمشق داسوا سكان جلعاد بنوارج من حديد قائلاً: «هكذا قال الرب إني لأجل معاصي دمشق الثلاث والأربع لا أردّها لأنهم داسوا جلعاد بنوارج

من حديد فأرسل ناراً على بيت حزائيل فتأكل قصور ابن هدد». ويظهر أن حزائيل أخذ من ملك إسرائيل كل ما ملكه في شرقي الأردن. وقد تاب يواحاز إلى الرب واستعطف وجهه فاستجاب له لأنه رأى ضيم إسرائيل، ففرج عنهم وأتاهم مخلصاً، فخرجوا من ضيق الآراميين.

ذهب بعض المفسرين أن المراد بهذا المخلص يواش بن يواحاز، وذهب غيرهم إلى أن المراد أن الرب قيض ليواحاز نفسه بعض الانتصار على الآراميين، فاستراح بنو إسرائيل مدة على أنهم لم يعدلوا عن عبادة عجول الذهب. فعاودتهم المذلة والهوان ومات يواحاز بعد أن ملك في السامرة سبع عشرة سنة. وملك يواش ابنه مكانه في السنة السابعة والثلاثين ليواش ملك يهوذا. وإذا راعيت أنه قيل في (ملوك ٤ فصل ١٣ عد ١) إن يواحاز ملك في السنة الثالثة والعشرين ليواش ملك يهوذا وأنه ملك سبع عشرة سنة، وراعت أنه قيل (في عد ١٠ من هذا الفصل) أن يواش بن يواحاز ملك يهوذا، علمت أن ثمة غلطاً من غفلة النساخ والصواب أما أن يواحاز ملك في السنة العشرين ليواش وأما أنه ملك أربع عشرة سنة لا سبع عشرة، وأما يواش ملك إسرائيل ملك في السنة التاسعة والثلاثين أو الأربعين ليواش ملك يهوذا.

قد ملك يواش بن يواحاز في السامرة ست عشرة سنة وكان حينئذ ملك يهوذا وملك إسرائيل يسميان باسم واحد وهو يواش. وصنع ملك إسرائيل الشر أمام الرب متبعاً طريقة ياربعام بن نباط بعبادة عجول الذهب. وكان حزائيل ملك دمشق قد مات وخلفه ابنه المسمى ابن هدد الثالث بهذا الاسم من ملوك دمشق. وكان واهن القوة جبناً فانتصر يواش عليه واسترد أكثر المدن التي كان أبوه حزائيل انتزعها من يد يواحاز. وقد شجع الإشاع النبي يواش على محاربة ابن هدد، فإن الملك علم أن النبي دنف فمضى إليه عائداً مودعاً باكياً عليه، وهو يقول يا أبي يا أبي يا مركبة إسرائيل وفرسانه فأمره الإشاع أن يأخذ قوساً ويرمي نحو المشرق، فرمى ثلاث مرات وأمسك، فقال له النبي ثلاث مرات تضرب آرام وتنتصر ولو رميت خمس مرات أو ستاً لأبدت آرام. وأعظم انتصارات يواش على ملك دمشق كان في وقعة أفيق (وهي أفيك الآن في الطريق بين دمشق وأورشليم). وقد كفه عن حرب الآراميين غزاة أتوا من مواب يعثون في أرضه وينهبون، وبينما هم يقبرون رجلاً أبصروا الغزاة، فألقوا ميتهم في قبر الإشاع الذي كان الله توفاه، فلما مست جثة الرجل

عظام اليشاع عاش وقام على قدميه فطاردوا الغزاة وهزموهم. وقد انتشبت حرب بين يواش وأمصيا ملك يهوذا لما ستراه، وتلاقى المكان في بيت شمس (وهي عين شمس الآن في غربي أورشليم). فانكسر بنو يهوذا من وجه ملك إسرائيل وفر كل إلى محله، وقبض يواش على أمصيا. وأتى إلى أورشليم ودك أسوارها من باب أفرائيم شرقاً إلى باب الزاوية نحو أربع مئة ذراع. وأخذ كل ما وجده من الذهب والفضة والآنية في بيت الرب وفي خزائن دار الملك، وأخذ بعض وجوه بني يهوذا رهينة كيلا يعود قومهم لمحاربته، وعاد إلى السامرة وقد أطلق أمصيا ليعود إلى ملكه. ثم مات يواش ودفن في السامرة وخلفه ابنه ياربعام الثاني (ملوك ٤ فصل ١٣ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٥).

عد ٣١٦

أمصيا ملك يهوذا

ملك أمصيا في أورشليم وعمره خمس وعشرون سنة واستمر على منصة الملك تسعاً وعشرين سنة. وصنع ما هو قويم في عيني الرب على أنه لم يزل المشارف بل لبث الشعب يقدّمون الذبائح والبخور في الأماكن المرتفعة، ولما استتب له الأمر قتل قاتلي أبيه وعفا عن أولادهم جرياً على ما جاء في التوراة. أن لا يقتل الآباء بالبنين ولا البنون بالآباء بل يجرى كل امرئ بما جنت يده. وقد أزمع على أن يخضع الأدوميين لسلطة ملك يهوذا التي كانوا قد نبذوها في عهد يورام، فأحصى شعبه بني يهوذا وبنيامين من ابن عشرين سنة فما فوق فكانوا ثلاث مئة ألف منتخبين. واستأجر من بني إسرائيل مئة ألف مقاتل بمئة قنطار من الفضة. قال فيكورو (في معجم الكتاب) إنها تساوي ثمان مئة وخمسين ألف فرنك. وهم أن يزحف إلى الأدوميين، فجاءه نبي لم يسمه الكتاب فقال له أيها الملك لا يذهب رجال إسرائيل معك لأن الرب غاضب عليهم. وإن ذهبوا أسقطك الله في وجه العدو، فقال أمصيا فما أفعّل بمئة القنطار من الفضة التي أعطيتهم؟ فأجابه النبي إن الرب يعطيك أكثر منها كثيراً، فارجع رجال إسرائيل إلى تخومهم فوغرت صدورهم عليه غيظاً. وأخذوا ينهبون ويقتلون في طريقهم حتى بلغ عدد القتلى ثلاثة آلاف، فاغضى أمصيا على صنيعهم إلى حين، وغشي بعسكره بلاد أدوم في العربية. وتسعرت نار الوغى بين الفريقين في وادي الملح في جنوبي البحر الميت حيث ضرب داود أو

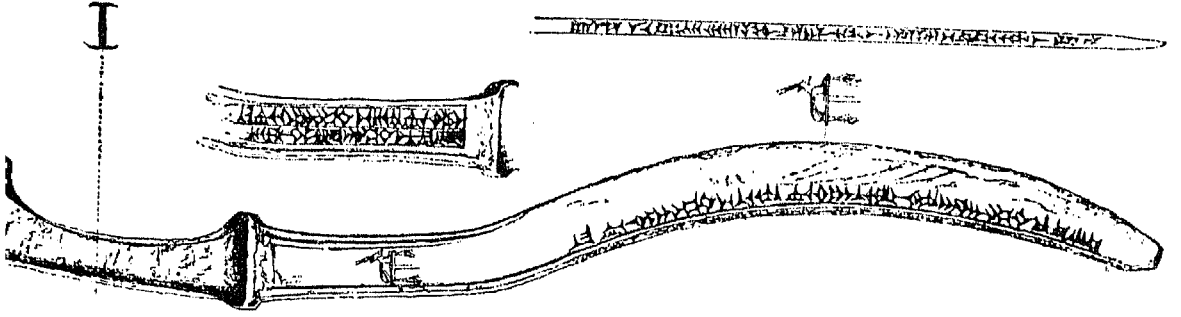
يواب قائد جيشه هولاء الأدوميين. وقتل أمصيا منهم عشرة آلاف رجل وأسر عشرة آلاف ثم طرحوهم من أعلى صخرة فتحطّموا. وافتتح مدينتهم التي سمّاها الكتاب الصخرة، وسمّاها اليونان بعد ذلك بترّا وهي مدينة حجر في بلاد العرب، وغيّر أمصيا اسمها ودعاها يقتيل أي المفتحة بالله.

وعاد أمصيا من غزوته ظافراً متفاخراً وأحضر معه تماثيل آلهة الأدوميين وسجد لها استرضاءً كي لا تضربه. فغضب الرب عليه وأرسل نبياً يؤنبه على فعلته، فازدجر النبي وهدده بالقتل فانذره النبي بهلاكه وانصرف عنه. وأرسل أمصيا إلى يواش ملك إسرائيل يقول له تهكماً هلّم نترأى مواجهة وكأنه يستدعيه للنزال أو الحرب ليقصص من رجاله الذين اعتدوا على بني يهوذا، فأرسل إليه ملك إسرائيل يقول إنّ العوسج (أو الشوك على ما في العبرانية) الذي في لبنان أرسل يقول لأرزه: زوج ابنتك لابني فجازت وحش الصحراء ووطئت العوسج. وفشّر له مثله بقوله إنّك قد ضربت أدوم فطمح بك قلبك إلى من هو أعظم منك فافخر وتلبّث في بيتك، ولا تتعرضنّ للشر فتسقط أنت ويهوذا معك. فلم ينتصح أمصيا وصعد عليه ملك إسرائيل، فكانت بينهما الحرب التي مر ذكرها في الكلام على يواش، وقد أفضت إلى مذلة أمصيا وشعبه، وافتتاح يواش أورشليم ونهبها. ثم مات يواش وعاش أمصيا بعده خمس عشرة سنة ذليلاً خاملاً إلى أن تحالف عليه بعض رجاله في أورشليم. ففر إلى لأكيش (وهي أم القيس الآن في الجنوب الغربي من بيت جبرين وفي غربي عجلون). فأرسل المتحالفون رجالاً في أثره فقتلوه في لأكيش، وحمل على الخيل فدفن مع آبائه في مدينة داود، وأقام بنو يهوذا عزريّا ملكاً مكانه (ملوك ٤ فصل ١٤ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٥).

عد ٣١٧

ياربعام الثاني ملك إسرائيل ويونان النبي

خلف ياربعم يواش أباه في الملك على إسرائيل، وقد استوى على عرش الملك في السامرة إحدى وأربعين سنة، وسلك مسلك ياربعم بن نباط على أنّ الرب قيض له نصراً أو فتحاً على بعض أعدائه شفقةً على بني إسرائيل، إذ لم يشأ أن يحو اسمهم، بل أن يؤدّبهم ويرأف بهم. فحارب الآراميين في مملكة دمشق وظهر عليهم، ورد تخوم مملكة إسرائيل لتكون من مدخل حماه إلى بحر الغور أي البحر



صورة سيف بنيرار الأول من اركان ملوك آشور وجد هذا السيف وعليه
اسم هذا الملك في ضواحي ديار بكر

الميت، واسترد بلاد العمونيين والموآبيين إلى مملكة إسرائيل، وأنقذ بني إسرائيل الساكنين في شرقي الأردن من ولاية ملك دمشق ولم يفز ياربعام بهذا النجاح لجزء قوته، بل لتوفيق الله، بل لأنه تعالى قد قوى حينئذ ملك آشور على مملكة الآراميين في دمشق فأذلّها وأحمد جذوة قوتها. وقد كشفت لنا الآثار الآشورية النقاب عن وجه هذه الحقيقة فقد جاء في آثار بنيرار ملك آشور أنه غزا سورية واتصل إلى شاطيء البحر المتوسط في جهة فلسطين. وإليك ما كتبه على جدار بلاطه «بلاط بنيرار الملك العظيم الملك القدير ملك الشعوب ملك أرض آشور الملك الذي اتخذه آشور ملك الآلهة السبعة ابناً له... ومن جهة الفرات الأخرى أخضعت أرض الحثي (الحثيين) وأرض اهارى (أو أحاري أي شواطي البحر المتوسط) على اتساعها صور وصيدا. وأرض عمري (أي مملكة إسرائيل)، وبلاد الفلسطينيين حتى البحر الكبير في مغرب الشمس (البحر المتوسط) وافترضت عليهم جزية. وغشيت أيضاً أرض ايبيروسر (سورية دمشق) لمحاربة مريحا ملك أرض ايبيروسو وحصرته في دمشق عاصمة ملكه. ودوخته مهابة عظيمة آشور سيدي فترامى على قدمي وجاهر بتذللّه وخضوعه. فأخذت منه ٢٣٠٠ وزنة فضة وعشرين وزنة ذهب و٣٠٠٠ وزنة نحاس و٥٠٠٠ وزنة نحاس وأنسجة صوف وكتان وسريراً من عاج ومظلة من عاج وأموالاً وأثاثاً لا عداد لها. فهذا ما أخذته من دمشق مقرّ ولايته ومن بلاطه».

ولا ذكر في هذه الخطوط لمملكة يهوذا مع أنها ذكرت مدن فينيقية ومملكة إسرائيل في شماليها ومدن فلسطين في غربيها وبلاد الآدوميين في جنوبيها. ويظن أن امصيا كان يلي حينئذ مملكة يهوذا وأنه سالم الغازي. ولم تؤرخ هذه الخطوط غزوة بنيرار لمريحا ملك دمشق وحسب سميت أنها كانت في سنة ٧٩٧ ق.م. على أن تواريخ الآشوريين تجعل غزوة شواطئ البحر المتوسط وبلاد فلسطين لسنة ٨٠٣ ق.م.

إن هذه الخطوط منبئة بآيهان ملك آشور سطوة ملك دمشق وبعلة فوز ياربعام الثاني على الآراميين واسترداده ما قد كانوا أخذوه من مملكته. ويظهر أن بنيرار حالف ملك إسرائيل بعد أخذه الجزية منه. وعليه فقد يكون ياربعام ناصر جيش بنيرار في افتتاح دمشق ونهبها. وربما كان هذا مغزى قول الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٤ عد ٢٨) إن ياربعام استرجع لإسرائيل دمشق. وقد جاءت هذه الخطوط أيضاً مصداقاً لنبوة عاموس النبي إذ قال (فصل ١ عد ٣): «هكذا قال الرب إني لأجل معاصي دمشق الثلاث أو الأربع لا أردّها (أي لا أرد قضيتي أو حكمي عليها) لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد، فأرسل ناراً على بيت حزائيل فتأكل قصور ابن هدد واكسر مزلاج دمشق، واستأصل الساكن من بقعة آون والقابض على الصولجان من بيت عدن (هما محلان في دمشق أو جوارها)، ويذهب شعب آرام إلى الجلاء إلى قير»، فقد بدأ بنيرار في إذلال دمشق كما رأيت في أثره وأتم تجلت فلاصر النبوة إذ جلى الآراميين إلى قير كما سترى.

قد كان يونان النبي في أيام ياربعام هذا لأنه جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٤ عد ٢٥) أن يونان هو الذي تنبأ على رد ياربعام تخوم إسرائيل من مدخل حماة إلى الغور (البحر الميت)، وقد نبأنا الآثار الآشورية لماذا تردد النبي في الذهاب إلى نينوى لانهذار أهلها وحاول الهرب إلى ترشيش (ترسيس الآن) ولماذا حزن واغتم؟ إذ لطف الله بهم ولم يخرب مدينتهم كما كان قد هددهم بلسانه، أعني لأن ملوك نينوى وجنودها كانوا يضيّقون على بني إسرائيل ويشغلونهم بالجزيات كما رأيت، وكان النبي يرى اشتداد هذا الضيق على ما هو عليه من الغيرة على شعبه ووطنه. هذا وقد تذرّع جاحدو الوحي بسماع أهل نينوى وملكها انهذار يونان ونصائحه للتكذيب بآيات الوحي قائلين كيف يعمل أهل نينوى بنصائح نبي مرسل من غير آلهتهم؟ لكن الآثار القديمة كشفت لنا الستار عن بطلان تنديدهم إذ أبانت لنا آثار كثيرة ان كل مدينة أو شعب كان لهم معبود خاص، لكنهم كانوا يجلسون

آلهة غيرهم ويهيمون قوتها، وكانوا يتحاشون اهانة الآلهة وإن أجنبية لاعتقادهم قدرتها على الإنتقام ممن يعصى أمرها أو ينبذ إنذارها.

قد أثبت روينسون أنّ بنيرار هو الذي كان مالكا في نينوى عند إنذار يونان أهلها لأنّه كان معاصراً لياربعام، الذي كان يونان في أيامه وقد استمر ضابطاً صولجان الملك تسعاً وعشرين سنة. وفي نينوى إلى اليوم آثار دالة على إنذار يونان أهلها. فعلى مقربة من نينوى القديمة تل يسمى تل النبي يونس وإن هو إلاّ يونان، وإن بعضهم يسمي هذا التل تل التوبة إشارة إلى إنذار يونان بها والتقليد العام والثابت إلى اليوم موجب للتصديق بذلك.

وخلف سلمناصر الثالث بنيرار المار ذكره والظاهر من بعض الآثار الآشورية أنّ سلمناصر هذا ملك من سنة ٧٨٣ إلى سنة ٧٧٣ ق.م. وغشي أنحاء دمشق سنة ٧٧٥ فدفع إليه ياربعام الجزية. على أنّ مجد نينوى أخذ في الإنحطاط في أيام هذا الملك وزيد انحطاطاً في أيام خلفه آشور دانيال الذي استوى على العرش من سنة ٧٧٣ إلى سنة ٧٥٥ ق.م، وعلى اشتغاله بإخماد الثورات عليه في أنحاء عديدة، غزا سورية غزوتين الأولى في بدء ملكه ضرب بها دمشق وحدرار، وهذه المدينة قد ورد ذكرها في الكتاب مرة واحدة في نبوة زكريا (فصل ٩ عد ١) يتهددها النبي بالخراب مع دمشق ولا يعلم موقعها بعينه، ولكن لا بد أن تكون قرية من دمشق لجمع النبي والآثار الآشورية بينهما في الكلام عليها.

والغزوة الثانية حارب بها حدرار وحدها سنة ٧٦٥ ق.م ثم توفي آشور دانيال وخلفه آشور نيرار الثاني ولم يكن في ملكه ما يفخر به ومع ذلك حل على حدرار سنة ارتقائه عرش الملك وهي سنة ٧٥٥ ق.م. وغزا في السنة التالية أرفاد أو أريد التي لم يكن موقعها معروفاً قبل الإكتشافات الآشورية إلاّ بذكر الكتاب لها في سفر الملوك الرابع (فصل ١٨ عد ٣٤ وفصل ١٩ عد ١٣)، وفي نبوتي أشعيا وأرميا وكان بعضهم يظن أنّ المراد بها أرواد وأن تسميتها أرفاد أو أريد خطأ من النساخ. فأبانت لنا الآثار المسمارية خطأ ظنهم وصحّة رواية الكتاب والأظهر أنّ أرفاد هذه هي المسماة اليوم تل أرفاد على ساعتين غرباً من حلب في شمالي توقات. وقد حصلت ثورة في نينوى سنة ٧٤٦ ق.م أفضت إلى تل عرش آشور نيرار والدولة المالكة، وولي الملك تجلت فلاصر الثاني في ١٣ أيار سنة ٧٤٥ ق.م

على ما روى سميت عن الآثار الآشورية (فيكتورو الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٦٧ إلى ٨٥ طبعة ٥). ومات ياربعام بعد أن ملك ٤١ سنة كما مر. ودفن في السامرة فملك زكريا ابنه مكانه (ملوك ٤ فصل ١٤).

عد ٣١٨

عزريا بن امصيا ملك يهوذا

إنَّ عزريا ويسمَّى عَزْرِيَّا أخذهُ الشعب بعد مقتل أبيه أمصيا وملكوه وعمره ست عشرة سنة، فاستمر على منصَّة الملك في أورشليم إثنين وخمسين سنة، وقد طفحت قلوب الشعب سروراً بارتقائه ذروة الملك إذ زالت من بينهم الاحن التي كانت تملكهم في مدَّة ولاية أبيه. وانكفأت عنهم المحن التي كان الله أنزلها بهم، وهي زلازل شديدة دُمِّرت بيوتاً عديدة، وقحط وانحباس مطر جعل الناس في أشد الضيق، وفاقّة قصوى إلى القوت والماء، وجراد لم يبق أخضر كما يتبيَّن من نبوة عاموس النبي. وقد سلك عزريا أولاً طريق الرب محافظاً على سننه إلاَّ أنَّه لم ييزل المشارف واستمر بعض الشعب يقدمون الذبائح والبخور في الأماكن المرتفعة. وكان يرشده نبي اسمه زكريا فيصغى لكلامه ويعمل به. وحارب الفلسطينيين واستظهر عليهم وهدم سور جت (ذكرين الآن)، وسور بينة وسماها يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١١) يمينه. وقال كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٥٨) إنَّها تسمَّى اليوم أيضاً بينة وإنَّ موقعها في الجنوب الغربي من الرملة بين يافا شمالاً وأشدود جنوباً. وهدم عزريا أيضاً أسوار أشدود مدينة الفلسطينيين وبنى مدناً في أرض أشدود وفلسطين، ونصره الله على العرب المقيمين بجور بعل وفي الترجمة السبعينية على العرب المقيمين فوق مدينة حجر في بلاد العرب. وروى يوسفوس (في المحل المذكور) إنَّه ضرب العرب المجاورين مصر فيظهر أنَّ المراد بجور بعل عمل ممتد جنوباً في العربية وبلاد أدوم إلى تخوم مصر. وانتصر عزريا على المعونين أي سكان كعون وهي أمَّا معون التي كان داود يختبئ في بريتها أيام مطاردة شاول له، وهي في أطراف جنوبي فلسطين وتسمى اليوم تل معين. وإنَّما هي معون أخرى في بلاد العربية على مقربة من فاران على ما ذكر كلمت في تاريخ العهد القديم. وذلل عزريا العمونيين وفرض عليهم جزية. وحصَّن أورشليم وبنى فيها أبراجاً ورَّم ما كان قد تهدَّم من أسوارها عند انتصار يواش ملك إسرائيل على أمصيا أبيه. وعمل في

أورشليم منجنىقات اخترعها رجال حدّاق ووضعها على الزوايا والأبراج لرمي السهام والحجارة الضخمة. وكان لديه من روساء آباء يهوذا وبنيامين ذوي البأس الفان وست مئة رجل، وتحت أيديهم جيش عديده ثلاث مئة ألف وسبعة آلاف وخميس مئة. وجهّز لجميع جيشه مجاناً ورماحاً وخوداً وذروعاً وقسيّاً وحجارة مقاليح. وبنى أبراجاً في البرية على أطراف ملكه وحفر آباراً كثيرة إذ كانت له ماشية كثيرة في الساحل والسهول وحرثون وكرامون في الجبال، والكرمل لأنّه كان محبّاً الحراثة ويقدرها قدرها. فذاع اسمه عند الملوك مجاوريه إلى مصر، وعظمت قوته واستفحل أمره فتكبر وطمح قلبه.

وادّعى أن يعمل عمل الكهنة في الهيكل أيضاً فدخله يقدّم البخور على مذبح الرب، فقاومه عزريا رئيس الكهنة وقتلّه وثمانون كاهناً قائلين له، أخرج من القدس فليس لك أن تقتتر للرب وأنما ذلك للكهنة، فحنق عزريا وكان في يده معجزة البخور ولمع البرص على جبهته قدام الكهنة، فأسرع الكهنة في إخراجه من الهيكل لظهور برصه. واضطر أن يخرج لأن الرب ضربه بالبرص وبقي أبرص إلى يوم وفاته. واعتزل في بيت منفرداً وكان ابنه يوتام يدبر الملك ويحكم في الشعب نائباً عنه ومات عزريا وعمره ثمانين وستون سنة، ودفنوه في حقل مقبرة الملوك لا في مدافنهم لأنه أبرص، وخلفه ابنه يوتام (ملوك ٤ ف ١٥ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٦).

عد ٣١٩

زكريا بن ياربعام وشلوم ومنحيم ملوك إسرائيل

إنّ زكريا بن ياربعام الثاني ملك في السامرة بعد موت أبيه للسنة الثامنة والثلاثين لعزريا ملك يهوذا، إلا أنّ ملكه لم يدم إلا ستة أشهر لأنّه صنع الشر أمام الرب. ولم يعدل عن أثم ياربعام بن نباط عبادة عجول الذهب فحالف عليه رجل اسمه شلوم بن ياييش. فقتله أمام الشعب وملك مكانه فانقرضت بزكريا سلالة ياهو الذي وعده الرب إنّه سيجلس علي عرش إسرائيل من بنيه إلى الجيل الرابع وكان وعده منجزاً. أمّا شلوم فلم يملك إلا شهراً واحداً وخرج عليه منحيم بن جادي من ترصة (المسماة اليوم تلوزا شرقي السامرة وشمالي نابلس) فقتله في السامرة وملك

مكانه وعاد منحيم إلى ترصة فأوَّصد الأهلون أبوابها في وجهه. فضربها والمدن المصابقة لها وأجرى فيها من القسوة والجور ما ترتعد له الفرائص، حتى شق جميع من بها من الحوامل فقتلهنَّ والأجِنَّة وساس المملكة عشر سنين بمثل هذا العنف عابداً الأوثان، وجارياً في طريق ياربعام بن نباط.

وكان أهل مملكة إسرائيل في أيام ياربعام الثاني قد توفَّرت ثروتهم وغناهم وعظم ترفهم وطما شرهم كما أنبأنا عاموس النبي الذي كان في تلك الأيام يوب بني إسرائيل على شرهم، ومن ذلك قوله (فصل ٦): «ويل للمتفرفين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة... إنَّكم تستعبدون يوم السؤ وتدنون مجلس العسف، وتضجعون على أسرة من عاج، وتبسطون على حجالكم. وتأكلون الحملان من الغنم والعجول من وسط المelf وتغنون على صوت العود... وتشربون الخمر بالجمامات وتدهنون بأدهان النفيسة ولا تكتشبون لانكسار يوسف لذلك يبجلون الآن في رأس الجلاء» فلهذا ابتلاههم الله بهذه المظالم ثم بعث ملوك آشور إليهم للإنتقام منهم وإذلالهم وجلائهم أخيراً إلى آشور وبابل كما سترى.

قال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٥): «وجاء فول ملك آشور على الأرض، فأعطى منحيم لفول ألف قنطار فضة حتى تكون يده معه لإقرار الملك في يده. وضرب منحيم الفضة على إسرائيل على جميع المقتدرين بالغنى أن يؤدوا إلى ملك آشور كل رجل خمسين مثقال فضة. فرجع ملك آشور ولم يقم في الأرض. وقد جاءت الآثار الآشورية مصداقاً لهذه الآيات الكريمة وهاك البيان إنَّ فول هو أوَّل ملك من الآشوريين سماه الكتاب بعلمه الشخصي. والصحيح الآن عند المحققين بعد تدقيقهم في الآثار المسمارية أنَّ تجلت فلاصر الثاني وكان يسمى باسمين (ملو ٤ ف ١٥ عد ١٩ وعد ٢٩). وقد عبر عنه في تاريخ باروز وقانون بنو لمايس وتاريخ أوساييوس بالاسمين. ومما يؤسف عليه أنَّ الآثار المنبئة بأعمال تجلت فلاصر لم تبلغ إلينا كلها سالمة، بل محت الأيام بعضها، وأُتلف أسرحدون أحد ملوك آشور بعضها. وما بقي منها سالماً يزيدنا أسفاً على فقدان باقيها وقد ورد في ما بقي من آثار هذا الملك ذكر ستة ملوك ممن ذكرهم الكتاب أعني ملكين من ملوك يهوذا وهما عزريا أو عزيا المار ذكره، واحاز الآتي الكلام فيه، وثلاثة من ملوك إسرائيل وهم منحيم وفاقح وهوشع وملك من ملوك دمشق وهو رصين. وسيأتي الكلام في هؤلاء فقد قال هذا الملك في الصفيحة الثالثة من الصفائح الباقية له: «وأخذت

الجزية من كستاسب ملك كوماجان (سورية المجوفة حيث بعلبك وبقاع العزيز). ومن رصين ملك دمشق ومنحيم ملك السامرة وحيرام ملك صور وسييتي بعل ملك جبيل... وأنيال ملك حماه» وقال الكتاب: إنَّ الجزية التي دفعها إليه منحيم كانت ألف قنطار من الفضة. قال فيكورو (في المحل المذكور صفحة ١١١): إنَّ هذه الجزية تساوي من مسكوكات إيماننا نحواً من ثمانية ملايين وخمسة مئة ألف فرنك والخمسين مثقالاً المضروبة على كل رجل تساوي ١٤١ فرنكاً.

وقد أنبأنا ما بقي من آثار هذا الغازي إنَّه غزا سورية غزوات أولها سنة ٧٤٣ ق.م فعبّر الفرات ومرَّ في جبل أمانوس (اللكام) ظافراً. وخيَّم جيشه في جبل قريب من أرفاد (تل أرفاد في أنحاء حلب). واستدعى إليه ملوك سورية فأثابه كثيرون منهم حيرام ملك صور ورصين ملك دمشق، وكستاسب ملك سورية المجوفة ومنحيم ملك إسرائيل على الأرجح لأنَّ الصفيحة محطَّمة لا تظهر فيها كل الاسماء. وذكره في صفائح أخرى قاضٍ بأنَّه كان بين عداد من لبَّوا الدعوة. وأتى هؤلاء الملوك إليه بعجلات وجمال تقلّ تقادهم صفائح ذهب وفضة ونحاس وحديد ورمصاص وأطياباً وقرون ثيران وأنسجة من صوف وكتان. وكانت تقدمة رصين ملك دمشق «١٨ وزنة ذهب و ٢٠٠ وزنة فضة و ٢٠٠ وزنة نحاس و ٢٠ وزنة طيب. واجتزأ تجلت فلاصر يومئذٍ بهذه التقادم وعاد إلى بلاده ولم يبق في سورية طبق ما جاء في الكتاب.

وقد ندم ملوك سورية على تذللهم له بعد عودته، فحصنوا أرفاد وثاروا عليه . فهبَّ راجعاً بجحافل سنة ٧٤٢ ق.م وحاصر أرفاد فأبدى أهلها ومخالفوهم آيات البسالة في الدفاع ولم يتهياً له افتتاحها إلَّا بعد سنتين. وأفضى فتحها إلى استسلام ملوك سورية إليه، ثم ألجئ أن يعود إلى بلاده فعاد ملوك سورية يأتمرون بخلع نير طاعته فرجع تجلت فلاصر المرة الثالثة إلى سورية سنة ٧٣٩ ق.م. ويظهر من آثاره أنَّ عزريا ملك يهوذا كان من جملة المتحالفين حينئذٍ عليه بل كان رئيس عصبتهم وإنَّ الغازي ضرب جيوش المتحالفين فاستظهر عليهم. ولم يكتف في هذه الحملة بأن يذل مخالفه ويأخذ جزيتهم وتقادهم بل عمد إلى تملك البلاد. فأخذ حماه وولَّى عليها أحد قادته، وألحق تسعة عشر عملاً من هذه البلاد بمملكة آشور وجلا كثيرين من أهلها عن بلادهم إلى بلاده. فأخذ من حماه ١٢٢٣ نفساً. ومن غيرها كثيرين أيضاً، وأقامهم في أنحاء عديدة من بلاده.

وكان يقيم النساء في جهة والرجال في أخرى ليبيد فيهم عاطفة جنسيتهم. ودانت له مدن وأعمال أخرى على شاطئ البحر المتوسط وفي جوار لبنان، وخضعت له حدراك المار ذكرها وهي على مقربة من دمشق. فأخضع لأمره أكثر ملوك سورية وزبيدة ملكة العرب ودوخ بلادهم وقفل عائداً إلى بلاده (طالع ما مر في عد ٧٤ وعد ١٢١).

أمّا منحيم فبعد أن ولي مملكة إسرائيل عشر سنين في أيام عزريا ملك يهوذا أضجع مع آبائه وخلفه ابنه فقحيا (ملوك ٤ فصل ١٥).

عد ٣٢٠

فقحيا وفاقح ملكي إسرائيل ويوتام واحاز ملكي يهوذا

قد خلف فقحيا منحيم أباه وملك في السامرة سنتين فقط. ولم يعدل عن خطايا ياربعام بن نباط فحالف عليه فاقح بن رمليا أحد قادة جيشه. ودخل عليه في قصره ومعه خمسون رجلاً فقتله وملك مكانه. واستمر على منصة الملك عشرين سنة صانعاً السوء كمن سلفوه، وفي السنة الثانية للملكه قضى أجل عزريا ملك يهوذا، واستقل بالملك ابنه يوتام ودام ملكه ست عشرة سنة. وقد أحسن يوتام المسعى وأصلح شيئاً في بيت الرب. ومنذ أيامه اتفق رصين ملك دمشق وفاقح ملك إسرائيل على أن يأخذا مملكة يهوذا ويقتسماها بينهما، وقبل أن يعملتا باتفاقهما مات يوتام ودفن في مدينة داود وخلفه أسر ابنه.

إن ملوك إسرائيل ويهوذا ودمشق مكان أن يغتنموا فرصة غياب تجلت فلاصر عن بلادهم، للهم شعثهم وإصلاح شؤونهم، وتحصين مدنهم عادوا إلى منازعاتهم الوطنية، وإيهان قوتهم شأن كل قبيلة قضى الله بانحطاطها أو انقراضها. وقد امتاز السوريون في كل عصر بهذه الضغائن والاحن الأهلية، حتى ندر أن يكون لهم مثيل فيها بين القبائل. فقد أنبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٦) أن قد اتفق رصين ملك آرام وفاقح ملك إسرائيل على محاربة آحاز ملك يهوذا فجيشا الجيش، واعدوا العدد وأتيا فحصرأ أورشليم فلم يقدرأ أن يقهرا آحاز، ولا أن يفتتحأ أورشليم، بل نكلا بشعب يهوذا وأخذ رصين جمأ غفيرأ أسرى إلى دمشق. وقتل فاقح مئة وعشرين ألفاً في يوم واحد من بني يهوذا. وسبى بنو إسرائيل من إخوتهم مئتي ألف

من النساء والبنين والبنات. وسلبوا سلباً كثيراً ثم أطلقوا الأسرى لتهديد عوديد النبي لهم بغضب الرب (سفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٨).

وحالف رصين وفاقح الأدوميين ورد رصين لهم أيله النبي على خليج عقبة، وطرده بني إسرائيل منها وأقام الأدوميين فيها. فأرسل آحاز رسلاً تجلت فلاصر ملك آشور قائلاً أنا عبدك وابنك فاصعد وخلصني من يد ملك آرام ويد ملك إسرائيل القائمين عليّ، وأخذ ما وجد من الذهب والفضة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. وأرسلها هدية إلى ملك آشور ولم يصغ لإرشاد أشعيا النبي الذي كان يقول له: «لا يضعف قلبك من ذنبي هاتين الشعلتين المدخنتين في اضطرام غضب رصين ملك آرام وابن رمليا، فإن آرام وأفرائيم وابن رمليا قد تأمروا عليك بالسوء قائلين لنصعد على يهوذا ونضغطها ونمزقها بيننا ونملك عليها بن طابئيل، لكن هكذا قال الرب لا يقوم الأمر ولا يكون» (أشعيا فصل ٧ عد ٤ وما يليه) أما تجلت فلاصر فلبى دعوة آحاز وغشي بعساكره سورية وأخذ بعض مدن فلسطين. وصعد إلى دمشق فأخذها وسبى أهلها إلى قير وقتل رصين.

هذا ما جاء في الكتاب وجاءت آثار تجلت فلاصر مصداقاً له بأكثر تفصيل. فقد كتب على إحدى صفائحه وهي محطمة كسائر آثاره. ولكن الباقي منها واف بيان الغرض قال: «أخذت جنوده... وأبدتهم بالسيف... وسقت مركباته... وكسرت أسلحتهم... وأخذت خيولهم... ورجال حربه حاملي القسي والدروع والحراش... أما هو ففرّ ليقى نفسه ودخل في باب مدينته الأكبر وقبضت على قادة جيشه أحياء وعلقتهم على صلبان... وحاصرت مدينة دمشق وضايقت عليه كعصفور في قفص ومن أشجار مدينته التي تشد عن العد لم أبق شجرة. ثم ذكر ما فتحه ودمّره من المدن في أنحاء دمشق وعدد من جلاهم منها. وقال إنه خرّب ستة عشر عملاً من أعمال سورية واسترسل إلى ذكر شمسة ملكة العرب قائلاً: إنها كانت تعبد الشمس. على أنه لم يفتتح يومئذ دمشق بل ترك فريقاً من جنوده محاصراً لها، وزحف بجيشه لافتتاح غيرها. وكتب على صفيحة أخرى محطمة أيضاً إنه أخضع سيميرا (بين أرواد وطرابلس) وعرقا. «وتوليت مدن جلعاد... وابل معكة التي هي تخم أرض بيت عمري (ملك إسرائيل)... وأخضعتها على اتساعها لملك آشور وأقامت قادة جنودي حكاماً فيها. وحنون ملك غزة وانهزم من وجه جنودي إلى مصر فأخذت غزة وغنمت كنوزها وآلهته ونصبت ثمة تمثالي الملكي...»

وأخذت الجزية. وأخضعت سكان أرض بيت عمري وجلوت أوجه قومهم إلى بلاد آشور مع أموالهم وأمرت بقتل فاقح ملكهم وأقمت هوشع بمنزلة ملك عليهم وأخذت منهم عشر وزنات ذهب وألف وزنة فضة. فتأمل ما أتم المطابقة في جوهر الخبر بين ما نقش على هذه الصفائح وبين آيات الكتاب ولاسيما قوله (ملوك ٤ عد ٢٩). «وفي أيام فاقح ملك إسرائيل جاء تجلت. فلاصر ملك آشور وأخذ عيون (تل دين في شمالي مرج عيون). وإبل بيت معكة (إبل). ويانوح (يانوح هناك)، وقادس (قادش) وحاصور (جبل حضيرة في قرب قادس). وجلعاد (السلط) وجميع أرض تفتالي وجلاهم إلى آشور» (عد ٣٠) «وحالف هوشع بن ايلة على فاقح بن رمليا وضربه وقتله وملك مكانه». ففي الصفيحة ذكر جلعاد وإبل معكة وهي محطة فيحتمل إن كان في المحل المحطم اسماء باقي المدن التي ذكرها الكتاب، وفي الصفيحة إن تجلت فلاصر أمر بقتل فاقح، وفي الكتاب أن هوشع حالف عليه وقتله. فلا بدع إن كان تجلت فلاصر أغراه بقتله أو أن هوشع علم بغرض الملك الآشوري فجرأه ذلك على قتله، وتفاخر تجلت فلاصر بأنه أمر بقتله.

أما آحاز ملك يهوذا فكان استنجاده بملك آشور على أعدائه وبالأعلى عليه. وأمسى الدواء داء قتالاً، لأنه اضطر أن يسلم بلاده إلى تجلت فلاصر وأن يخضع لسلطته ويؤدي إليه الجزية كأعدائه، وبعد أن أخضع ملك آشور هولاء الملوك سنة ٧٣٤ وسنة ٧٣٣ ق.م عاد إلى دمشق التي كان أبقي جنوده على حصارها، فافتتحها سنة ٧٣٢ ق.م وجلا ثمانية آلاف من سكانها إلى قير. وقتل رصين كما جاء في الكتاب. وقد وجد رولينسون صفيحة آشورية مثبتة قتل تجلت فلاصر لرصين، لكن الصفيحة بقيت في محلها ثم ضاعت مأسوفاً عليها. وقد استدعى تجلت فلاصر الذين دانوا له ليلغهم أوامره ووعيده قبل عودته. فشخصوا إليه صاغرين وأتى آحاز ملك يهوذا معهم. فقد جاء في الكتاب (ملو ٤ فصل ١٦ عد ١٠): «وانطلق الملك آحاز ليستقبل تجلت فلاصر ملك آشور في دمشق». وقد رأينا اسمه في الصفيحة التي دوّن الغازي عليها أسماء من أدوا له الجزية وهاك أسماء بعضهم نقلاً عنها. «جزية كستاجب ملك كوموحا (سورية المجوفة)، سيبتي بعل ملك جليل، وبيزيريس ملك كركميش، وأنيال ملك حماه... وماتا بعل ملك أرواد وسالامانو ملك مواب، وميتيتي ملك عسقلون وياهو حازي يهوداي (آحاز ملك يهوذا) وكوموسملك ملك أدوم وحنون ملك غزة. وكانت جزيتهم ذهباً

وفضة وورصاصاً وحديداً وأنسجة بلادهم وخيولهم وحميراً معتادة على حمل النير». ولعل اسم ملك إسرائيل كان في الحال المحطمة من هذه الصفيحة. وكان تجلت فلاصر يسمي نفسه ملك بابل أيضاً كما يظهر مما دوّنه على بلاطة. «بلاط تجلت فلاصر الملك العظيم الملك القدير ملك القبائل ملك آشور ملك بابل ملك سومير وأكد ملك الأقاليم الأربعة». واستمر تجلت فلاصر على منصة الملك سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة أي من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٢٧ أو سنة ٧٢٨ ق.م. ولم ينكف عن الحرب إلّا في السنين الثلاث الأخيرة من عمره، وقد تباهى قبل موته بما كتبه وهو: «انا هو الملك الذي هزمت أعدائي من مشرق الشمس إلى مغربها، ودوخت البلاد، ودانت لي القبائل، وحكمت في رجال الجبال والسهول، وخلعت الملوك، وأقمت نوابي مكانهم». وإلى ملكه يعزى قول حزقيال النبي (فصل ٣١ عد ٣): «هوذا آشور أرزة بلبنان بهيجة الأفنان غيباء الظل شامخة القوام... ارتفع قوامها فوق جميع أشجار الصحراء وكثرت أغصانها وامتدت فروعها من كثرة المياه. في أغصانها عششت جميع طيور السماء، وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء وفي ظلها سكنت جميع الأمم الكثيرة».

قد جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٦) إنّ أحاز ملك يهوذا رأى وهو في دمشق مذبحاً لآلهة الآراميين، فصنع مثلاً له وأرسله إلى أوريا الكاهن آمراً أن يصنع مذبحاً مضارعاً لهذا المثل بكل صنعتته، فصنع أوريا المذبح وعاد أحاز من دمشق فقرب عليه الذبائح، والحرقات والبخور، ونقل مذبح النحاس الذي كان في الهيكل إلى جهة أخرى منه وغير بعض بناء الهيكل. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٨) أحاز جرى على طرق ملوك إسرائيل وعمل تماثيل مسبوكة للبعليم وقدم لها الضحايا والبخور في وادي ابن هنوم في جانب أورشليم، وقدم من بنييه محرقة بالنار على عادة الأمم التي طردها الرب من وجه بني إسرائيل، وذبح على المشارف والآكام، وتحت كل شجرة خضراء، ولذلك انزل الرب به المحن المار ذكرها. ومات أحاز وعمره ست وثلاثون سنة ملك ست عشرة سنة منها. ودفن في مدينة داود ولكن لا في مدافن الملوك وملك حزقيا ابنه مكانه، ونرجى الكلام فيه إلى ما بعد الكلام في هوشع ملك إسرائيل الذي ملك في السامرة في السنة الثانية عشرة الملك أحاز ابي حزقيا (ملوك ٤ فصل ١٦ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٨).

هوشع ملك إسرائيل

قد مرّ ان هوشع بن ايله حالف على فاقح ملك إسرائيل وقتله باغراء تجلت فلاصر ملك آشور، فملك هوشع في السامرة تسع سنين وعمل الشر امام الرب ولكن على غير طريقة من تقدمه من ملوك إسرائيل، ولم يبين الكتاب طريق شره ولكن قال علماء اليهود إنّ هوشع لم يكن يمنع بني إسرائيل من الحج إلى أورشليم خلافاً لما صنعه أسلافه. وقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧): «وصعد عليه سلمناصر ملك آشور فكان هوشع عبداً له وكان يؤدي إليه جزية وعلم ملك آشور أنّ هوشع محالف عليه، وقد وجّه رسلاً إلى سؤ ملك مصر ولم يؤدّ الجزية إلى ملك آشور كما كان يفعل كل سنة فقبض عليه ملك آشور وأرسله مكتوفاً إلى السجن، وصعد ملك آشور على الأرض كلها وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. وفي السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة، وجلا إسرائيل إلى آشور واسكنهم في حلاح وعلى خابور جوزان وفي مدائن مداي» عقاباً لتركهم الرب الذي اخرجهم من أرض مصر وجريهم على سنن الأمم خلافاً لنهييه وزجره.

أما سلمناصر ونسميه سلمناصر أيضاً فلم يكن ما يعرفنا به قبل هذه السنين الأخيرة إلا آيات الكتاب المار ذكرها. وإلا فقرة من تاريخ صور حفظها لنا يوسيفوس (في ك ٩ فصل ١٤ من تاريخ اليهود). أنبأنا بها أن سلمناصر حاصر صور وضيق على أهلها. وقد روينا هذه الفقرة برمتها في عد ١٢٢ في تاريخ الفينيقيين على أن الآثار الآشورية المكتشفة في هذه الأيام. أبانت لنا أن سلمناصر هذا خلف تجلت فلاصر وملك آشور من سنة ٧٢٧ إلى سنة ٧٢٢ ق.م، ولكن لم تنبئنا بعد أكان ذوي قرى تجلت فلاصر أم كان غير أسرته، ولا كيف رقي عرش الملك. وقد وصفه لانرمان بالخامس وفيكورو بالرابع. وقد كُشف في كيونجك وفي أطلال قصر في الشمال الغربي من نمرود صفائح نحاسية نقش عليها اسمه. وجاء في التاريخ البابلي المحفوظة آثاره في المتحف البريطاني: «إنه في ٢٥ شهر تيبست استوى سلمناصر على عرش آشور فدك مدينة سابارين... وفي السنة الخامسة لسلمناصر في شهر تيبست توفي فكانت مدة ملك سلمناصر على أكد وآشور خمس سنين». ترجم ذلك العالم أوبر وترجمته مثبتة في مجلة جمعية الكتابات القديمة في شهر نيسان إلى حزيران سنة ١٨٨٧ م.

وأما سؤ ملك مصر فقد سمته الخطوط المسمارية سابوشلطنو أي سابي السلطان. وسمته الخطوط المصرية سبوك أو شباك، وفي تواريخ اليونان ساباكور، وفي العبرانية سؤ أو سوه، وهو أول ملوك الدولة الخامسة والعشرين من الدول المصرية. وكان يلي الحبشة أولاً ثم تغلب على مصر لأن المصريين بعد وفاة شيشونك انقسموا إلى ممالك صغيرة عديدة فتغلب عليها ملوك الحبشة.

لكن هذه الممالك ثارت عليهم وخلعت نير سلطتهم إلى أن اخضعها ثانية بيانكي ملك الحبشة الذي كان مالكا في ناباطا. وخلف بيانكي ملك يسمى كشتا لا يُعرف أصله، ولكن يظن أنه كان متزوجاً بابنة بيانكي على ما روى مسبرو (في تاريخه القديم للمشرق) وبعد موته خلفه ابنه شباك وكان محباً للحرب، ولم يكن لبيانكي على مصر إلا حق السيادة، فاستبد شباك بملكه فيها، فكان وخلفاؤه دولة حديثة في مصر واستمال المصريين إليه بحلمه وحكمته وحسن سياسته وما أجراه من المنافع العامة، فعظم أمره في مصر. ولجأ إليه هوشع ملك إسرائيل مستجيراً به من أعنات سلمناصر له، وإثقاله شعبه بالجزيات.

وعلم سلمناصر باستجارة هوشع قبل أن يجيره شباك فحفّ للتشكيل ببني إسرائيل قبل أن يتسنى للملك مصر إخراجهم. وزحف بجيوشه إلى مملكة إسرائيل فكسر جنود هوشع، وقبض عليه وألقاه في السجن. فلمّ بنو إسرائيل شعثهم وتألبوا في السامرة يدافعون عن أنفسهم مدافعة اليائسين. ولم يستطع الآشوريون أن يفتتحوا السامرة إلا في السنة الثالثة بعد حصارها فدكوها دكاً. وجلوا أغنياء بني إسرائيل ووجهاءهم إلى بلاد آشور وماداي وانحاز من بقي منهم إلى اخوانهم في مملكة يهوذا، أو استمروا في مواطنهم يؤدون الجزية صاغرين أذلاء. فانقرضت مملكة إسرائيل عقاباً لتركهم الله وعبادته واتباعهم الأوثان وجريهم على سيئات عابديها. وكان الانبياء أكثروا من انذارهم بهذا الخراب والوبال ومن ذلك قول أشعيا النبي (فصل ٧ عد ٨): «لأن دمشق تكون رأس آرام ورصين يكون رأس دمشق وبعد خمس وستين سنة يحطم أفرائيم (أي مملكة السامرة) فلا يبقى شعباً». وقد تبين من الآثار المسمارية أن سقوط السامرة كان سنة ٧٢٢ أو سنة ٧٢١ ق.م وهذا يطابق ما جاء في الكتاب طباقاً تاماً. وهو يقضي علينا بصحة التاريخ الواردة في أسفار الملوك وسفري أخبار الأيام حيث كان خطأ النساخ ظاهراً (فيكورو في الكتاب والإكتشفات الحديثة مجلد ٤ صفحة ١٢٢ وما يليها طبعة ٥).

من افتتح السامرة وجلاء بني إسرائيل

إن لأهل العلم في تاريخ الآشوريين قولين في من افتتح السامرة وجلاء أعيان مملكتها. فمن قائل أن سلمناصر افتتحها وجلاهم. ومن قائل أن سلمناصر مات قبل افتتاحها، وأن الفاتح هو سرغون خلفه. قال سميت (في تاريخ آشور صفحة ٩١) زعم بعضهم أن الآشوريين سئمت نفوسهم إبطاء الأعمال الحربية في فلسطين وقلة النجاح فيها، فثار الجنود في آشور واختاروا ملكاً سرغون الذي كان قائداً للجيش في فلسطين. قال الأب فيكورو (في المحل المذكور صفحة ١٢٧) ظن سميت وكثير غيره من أهل العلم في تاريخ آشور أن سلمناصر مات قبل افتتاح السامرة. وأن سرغون شدد الحصار عليها وافتتحها. وربما حملهم على هذا الظن الخطأ في تفسير بعض الآثار الآشورية لأن عاصمة إسرائيل افتتحها سلمناصر. وقد اجمع على ذلك مفسرو الكتاب إلى هذه الأيام على أنه إذا ظهر من بعض الآثار نسبة هذا الفتح إلى سرغون، فذلك محمول على أن سرغون كان قائد الجيش، فتفاخر بالظفر ناسباً إياه إلى نفسه. انتهى كلام فيكورو ملخصاً على أنه قد وجد لسرغون اثران مثبتان بأخذ السامرة قال في أولهما: «أنا حاصرت مدينة سامريثانا (السامرة) وأنا أخذتها وجلوت ٢٧٢٨ من سكانها. وأخذت منها خمسين مركبة حربية حفظتها لنفسي. وتركت أموالها لجنودي. ووليت عليها نواباً عني وفرضت عليها الجزية التي كانت تؤديها إلى الملك السالف». عن لانرمان مجلد ٤ صفحة ٢٣٨ في تاريخه القديم للمشرق طبعة ٩. وقال في الأثر الثاني: وخطوطه محطمة لكن الباقي منها واف بالغرض. «في بدىء ملكي... حاصرت وفتحت السامرة وجلوت: ٢٧٢٨ من سكانها وحفظت خمسين مركبة لجانيي الملكي. وأتيت إلى مكان من جلوتهم بسكان من البلاد التي كنت ملكتها وفرضت عليهم جزية كجزية الآشوريين (عن فيكورو في المحل المذكور صفحة ١٤٩)». فهذان الأثران يرجحان أن سرغون إنما هو الذي فتح السامرة بما أنه ملك وجلاء بني إسرائيل. على أن ترجيح هذا القول لا يضاد الكتاب في شيء لأنه وإن قال: «وصعد عليه شلمناصر ملك آشور» إلا أنه لم ينسب فتح السامرة والقبض على ملكها وجلاء سكانها إلى شلمناصر بل يحتمل نسبتها إلى غيره إذ عبّر عنه بملك آشور لا بشلمناصر، بل أن في الفصل الثامن

عشر من سفر الملوك الرابع إشارة إلى أن شلمنصر لم يأخذ السامرة بل صعد إليها فقط إذ جاء (عدد ٩): «صعد شلمنصر ملك آشور على السامرة وحاصرها (عد ٣) وأخذوها (أي الآشوريون) بعد ثلاث سنين» لا أخذها في المفرد (قال بذلك أوبر في كتابه في سلمناصر وسرغون صفحة ٧٠٢).

لم يرد ذكر سرغون في الكتاب إلا مرة واحدة في نبوة أشعيا (فصل ٢٠ عدد ١) حيث قال في السنة التي وفد فيها ترتان إلى أشدود إذ أرسله سرجون (أو سرعون) ملك آشور وحارب أشدود وأخذها». ولذلك لم يكن القدماء يعرفونه بل كانوا يظنونه أحد الملوك الآشوريين المعروفين سماه أشعيا سرجون. فقال بعضهم إنه سلمناصر سالفه وظنه غيرهم سنحاريب مع أن هذا هو ابن سرغون. ووهم غيرهم أنه أسرحدون مع أنه حفيد سرغون، بل قال بعض علماء هذا العصر أيضاً إن سرغون وسلمناصر واحد بناءً على أن الكتاب قال ان سلمناصر فتح السامرة والآثار الآشورية يتبين منها أن سرغون فتحها فسلمناصر وسرغون واحد. فقالوا قبل الاكتشافات إن سرغون الذي ذكره الكتاب إنما هو سرغون الذي ورد ذكره في الآثار حتى كان رولينسون نفسه ممن قالوا بهذا القول، إلا أنه عاد الآن وجميع أهل العلم بالآثار الآشورية يثبتون أن سلمناصر وسرغون ملكان خلف أحدهما الآخر. ولم تدع الآثار الآشورية ذريعة لإقامة نكير على هذه الحقيقة التاريخية، وما وجد من هذه الآثار في خرشباد أبان لنا تاريخ سرغون. وفصل لنا أعماله، بل وجدت صورته ناتئة على صفيحة يطلق لكل راغب أن يراها في متحف اللوفر في باريس. وقد كشف عن تمثاله في شيتسيو (وهي لرنكا في قبرص) وهو الآن في متحف برلين. وجاء في التاريخ البابلي المحفوظ في المتحف البريطاني ما نصّه «في ١٢ من شهر تيبست (في السنة الخامسة لسلمناصر): استوى سرغون على عرش آشور» فقطع العلماء بأن ذلك من حقائق التاريخ (ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو في المحل المذكور صفحة ١٣٧ إلى صفحة ١٤٥).

عد ٣٢٣

محال إقامة بني إسرائيل في آشور

قد مر بك آنفاً قول الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٦): «أخذ ملك آشور

السامرة وجلا إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلاح وعلى خابور نهر جوزان، وفي مدائن ماداي». وقد أعاد الكتاب هذا القول بحروفه في الفصل الثامن عشر من السفر المذكور عد ١١. وقد جاءت الخطوط المسمارية مؤيدة قول الكتاب بإثباتها أنّ هذه الأماكن واقعة في بلاد آشور أي في ما بين النهرين. فحلاح هي حلا الآن وموقعها على مقربة من نهر الخابور الأعلى، ومن المحل المسمى رأس العين.

وقد كشف عن جريدة جغرافية آشورية ذكرت فيها حلاح (حلاحو) من جملة مدن ما بين النهرين في جانب راصف وجوزان ونصيبين. (رواه سكردر في كتابه صفحة ١٦٧). وأما خابور فما برج يسمى بهذا الاسم إلى اليوم وهو نهر يصب في الفرات، ومخرج مياهه من عدة ينابيع في الجبل الذي سماه بتولميس واسترابون ماسيوس، ويسمى الآن كرادجاداغ. وقد ورد ذكره في كثير من الآثار المسمارية ولاسيما في خطوط لآشور نزيربال.

وجوزان اسم عمل من أعمال بين النهرين ذكره بتولميس، وهو مصاقب لحلاح وفي جانب حران، وجاء ذكره في خطوط لسلمناصر الثاني قال فيها: «وأخذت الجزية من عاسو ملك بلاد جوزان»، وقد مر ذكر اسمها في الجريدة الجغرافية الآشورية المار ذكرها آنفاً وقد أنبأنا الآثار الآشورية أنّه كان في ما بين النهرين مدينة تسمى جوزان سمي العمل باسمها. وأفادتها الآثار الآشورية أيضاً أنّ تجلت فلاصر الثاني أخضع ماداي لمملكة نينوى، وأنّ سرغون نفسه أثار الحرب مرات على الماديين، فلا بدع أن نقل إليها بعض بني إسرائيل الذين جلاهم. وقد حقق الكتاب في سفر طوبيا (فصل ١ عد ١٦) أنّ بعض بني إسرائيل كانوا في راجيس مدينة ماداي، وأنّه كان هناك كثيرون من أقرباء طوبيا.

عد ٣٢٤

أصل من جلاهم سرغون إلى السامرة

قال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٢٤): «وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوّا وحماه وسفروائيم، وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني إسرائيل. فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها». وقال سرغون في أثره المار ذكره: «وأتيت إلى مكان من جلوتهم بسكان من البلاد التي كنت ملكتها» فالخيران واحد إلّا في

زيادة تفصيل في قول الكتاب على ما جاء في الأثر. على أن آثاراً أخرى مسمارية جاءت مثبتة تفصيل الكتاب أيضاً فقد ظهر من آثار آشورية كثيرة أن سرغون حارب في السنة الأولى للملكه مروداخ بلدان ملك بابل، وانتصر عليه وكتب سرغون نفسه في الآثار المنبئة بتاريخه أنه جلا بعض البابليين إلى فلسطين فقال: (على ما ترجم يوتا في كتابه آثار نينوى مجلد ٥ صفحة ٧٠): «قد ظفرت بمروداخ بلادان الذي كان يلي مملكته بابل وجلوت (العدد محطّم) من السكان، وأقامتهم في أرض الحثيين (سورية وفلسطين)».

ولا يريد ببابل سكان هذه المدينة وحدها بل سكان غيرها أيضاً من المدن المجاورة لها ومنها كوت، فليس من يقيم كثيراً الآن على أن كوت من المدن البابلية. فقد ورد اسمها في كثير من الخطوط المسمارية، ومنها أنه نقش على مسلة سلمناصر: «قدمت ذبائح نفيسة في بابل وبرسيا وكوت». وقال هرموزد رسام بعد اكتشافاته سنة ١٨٨٠ م وسنة ١٨٨١ م إن موقع كوت كان في الحبل المسمى اليوم تل ابراهيم على ثلاث ساعات في الشمال الشرقي من بابل. ويظهر أن الكوتيين كانوا أكثر عدداً من غيرهم في السامرة، ولا أقل من أن كانوا أكثر نفوذاً ووجاهة، لأن اليهود كانوا يسمون السامريين كوتيين كما في التلمود. وقال يوسيفوس (في ك ٩ فصل ١٤ من تاريخ اليهود): «أن من يسميهم العبرانيون كوتيين يسميهم اليونان سامريين»، لكن يوسيفوس وهم أن موقع كوت في وسط بلاد فارس كما وهم غيره من مفسري الكتاب إنَّها كانت واقعة في العراق العربي، أو في إقليم آخر ولم يبق الآن لهذا الخلاف من موضوع.

وأما عوّا فلم يظهر إلى الآن اسمها في الآثار المسمارية، وإن قال كثيرون إنَّها من مدن بلاد الكلدان، وقال بعضهم (على ما في معجم الكتاب لكلمت)، إنَّها في بلاد العرب. وعليه فيكون ورد ذكرها ضمناً في الآثار الآشورية إذ وجد أثر في خرشباد يتبين منه أن سرغون جلا قوماً من بلاد العرب إلى السامرة. وإليك ترجمة هذا الأثر نقلاً عن سميت (في قانون مشاهير الآشوريين صفحة ١٢٨): «أنَّ الثموديين والعباديين والمرسيمانيين والهيابيين قبائل بلاد العرب القاصية كانوا يسكنون أرض بحري. ولم يكن الحكماء والحوالون يعلمون شيئاً من أمرهم، ولم يكونوا أدوا الجزية إلى أحد من ملوكنا، فأنا انتصرت عليهم بعون آشور سيدي ونقلت من بقي منهم فأقامتهم في السامرة وأخذت الجزية من فرعون ملك مصر،

ومن شمسة ملكة العرب، وإيتامار ملك سبا الذين كانت مساكنهم على شاطئ البحر وفي أرض... حجارة كريمة وعاجاً... وأخشاباً وأطياباً... وخيلاً وجمالاً». وفي محل النقط خطوط محطمة. وجاء في أثر آخر موجز ما ذكرناه وأنه «أسر كل من بقيوا أحياء وجلاهم إلى أرض ابن عمري» أي السامرة. وأما حماة فقد جاء ذكرها متواتراً في الآثار الآشورية كما رأيت في ما مر وجاء في آثار سرغون نفسه أنه: «في السنة الثانية للملكه حارب ايلوييد ملك حماة وأنه استظهر عليه في ربيعة كركر وأنه أخذ منه مئتي مركبة وست مئة فارس». ولم يصريح بأنه جلا بعض قومها إلى السامرة لكنه لمح إلى ذلك في أثر آخر إذ قال إنه جلا بعض من انتصر عليهم إلى أرض حماة التي كان نقل شعبها منها.

وقد تضاربت الأقوال في موقع سفروائيم، فمن قائل إنها كانت في أنحاء حماة ومن قائل إنها كانت في ولاية دمشق. والصحيح الآن إنها مدينة بابلية وقد ورد ذكر اسمها مكرراً في الخطوط المسمارية مسماة سيار أو سيئارا. وتسمى في بعض هذه الخطوط مدينة الفرات لوقوعها على عدوة هذا النهر. وذكرت هذه الخطوط مدينتين تسميان بهذا الاسم تسمى الأولى سيئاراساشمس أي سيارا مدينة الشمس. والثانية سياراسا انونيت أي سيارا مدينة أنونيت وهو معبود لهم، وفي تسمية الكتاب لها سفروائيم بعلامة التثنية إشارة إلى مدينتين بهذا الاسم. وقد عين هرموزد رسام بعد اكتشافاته سنة ١٨٨٠م وسنة ١٨٨١م موقع سيارا في المحل المسمى الآن تل أبي حابا في الجنوب الغربي من بغداد. إن كل ما مر هنا يبين لنا أن الآثار الآشورية مثبتة لآيات الكتاب إثباتاً علمياً يحمل كل مطالع على العجب والشكر لله (ملخص عن فيكورو في المحل المذكور صفحة ١٥٧ إلى ١٦٣).

عد ٣٢٥

معبودات سكان السامرة المجلوين إليها

لم تبيننا الآثار الآشورية بما كان لمن جلاهم سرغون إلى السامرة، وأنبأنا الكتاب بما كان لهم وبما عبدوا، فأثدت الآثار المسمارية إنشاء الكتاب ببينها أن ما ذكره الكتاب عن عبادة هؤلاء السامريين الجدد، إنما كان عبادتهم في مواطنهم. فقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٢٦ وما يليه) فأخذت كل أمة تعمل آلهتها

وتضعها في بيوت المشارف التي عملها السامريون، كل أمة في مدينتها التي سكنتها، فعمل أهل بابل سكوت بنوت. وأهل كوت عملوا نرجال، وأهل حماة عملوا أشيما، والعويون عملوا نجاز وترقاق، والسفروائيمون كانوا يحرقون بنيهم بالنار لادرملك وعنملك إلهي سفروائيم. فطالما أعيت هذه الآيات مفسري الكتاب. وقد زحزحت الآن الآثار الآشورية الظلام الدامس الذي كان مسدولاً عليها، فقد فسر لانرمان كلمة سكوت بنوت بمظال البنات، وقال إنَّ المراد بذلك أعياد كانوا يجتمعون فيها لتكرمة زربانيت إلهة الولادة. وذكر استرابون (ك ١٦ فصل ٨) كيف كان الفرس يحتفون بهذا العيد وأخذ البابليون ذلك عنهم. فقال إنَّ رجالهم ونساءهم كانوا يجتمعون معاً فيصرفون ليلهم ونهارهم بالطرب والملاهي معاقرين الحمرة مدمنين الفحشاء. والإلهة زربانيت هي التي ذكرها باروك النبي ومما قاله فيها (فصل ٦ عد ٤٢): «والنساء يقعدن (في بابل تكرمة لهذه الآلهة) متحزمات بالحبال يتبخرن بالبخالة»، وإذا فعلن الفحشاء تفاخرن بها «وعيرت» إحداهن «صاحبتهن بأنَّها لم تحظْ مثلها ولم يقطع حبلها»، وربَّما كسر العبرانيون اسم هذه الإلهة زربانيت أو زربانوت فجعلوه في لغتهم سكوت بنوت، على ما رأى هنري رولينسون. ومهما يكن من أمر الاسم فعبادة هذه الإلهة في بابل حقيقة لا خلاف فيها. وفي آثارها أنَّ بختنصر أقام لهذه الإلهة هيكلًا في بابل.

وأما نرجال الذي عبده الكوتيون، فتأويل اسمه الإله الأسد، ولا جرم ان هذا الإله كان معبود الكوتيين في بلادهم، وقد ثبت ذلك بآثار عديدة منها أثر دال على كيفية التلفظ بالكلمات وتفسيرها كتب فيه «إيلو أريو»: وفي السريانية **ܐܝܠܐܪܝܐ** (ايل أريو) «ايلونيزي كوروا» أي إله سكان كوت. وحقق ذلك سكردر وسميت (في كتابه الموسوم بذكر الماضي مجلد ٥ صفحة ١٠٧)، وكان على أبواب قصور الآشوريين تمثال أسد، وما ذلك إلا كناية عن نرجال الإله الأسد الذي كان تمثاله يقام لحراسة هذه القصور. وأما أسيما الذي عبده أهل حماة في السامرة فلا أثر لاسمه في الآثار الآشورية، ووجهه بينَّ لان أشيما من معبودات السوريين لا الآشوريين، ولا يبعد ان يكون أشمون أحد الهة الفينيقيين، وهو الكبير الثامن عندهم، وكان كناية عن كوكب القطب الشمالي (طالع عد ١٤٦). ولا بدع ان كان أشمون معبوداً في حماة أيضاً. واما نجاز وترتاق معبود العويين فقال بعض الربيين فيهما أنَّ نجاز كان يُمثل بهيئة كلب وان اسمه نجاز ربما

كان أصله من نباح وفي السريانية ^٦أحيم (نبح) أي نبح، ويظهر أنه كان من معبودات سبأ، وقالوا إنّ ترتاق كان يمثّل بهيئة حمار ولا أثر في الخطوط المسمارية لهذين المعبودين. وهذا مؤذن بأن العوين لم يكونوا من الكلدان كما مرّ.

وأما أور ملك وعنملك اللذان عبدهما السفروائيمون وكانوا يحرقون بنينهم تكرمّة لهما فيراد بهما ادار الملك وعانو الملك. وادار وعانو كانا من آلهة البابليين والآشوريين وكثيراً ما وجد اسمهما في الخطوط المسمارية. وقال لانرمان: إنّ اسم ادار يحتمل ان كان في الأصل بمعنى النار وقد نعت في هذه الخطوط «بالإله الذي ينير القبائل كالشمس». ويعبر أحياناً عن اسمه بصورة خشب للدلالة على النار. وعانو كان من كبار الآلهة في بلاد الكلدان، ونعته الخطوط القديمة «بالقديم وأبي الآلهة وسيد العالم السفلي ورب الظلام وولي الكنوز الخفية». وقال رولينسون إنّ ادار ملك كان عندهم كناية عن قوة الذّكر في الشمس وعنملك عن قوة الأنثى فيها، وعلى القولين كان أهل سيبارا أو سفروائيم يعبدون الشمس. وهذا مشعر بأصل عبادتهم السيئة، بأن يضحوا ببنينهم على النار تكرمّة لها. وقد كشف رسام المار ذكره في أبي حابا سيبارا القديمة عن صفيحة صورت عليها الشمس وأحد ملوك بابل ساجداً لها، ومن جملة ما خط على هذه الصفيحة «مثال الآله الشمس الرب العظيم الساكن في هيكل ايار الكائن في سيبارا». فأهل هذه المدينة لبثوا في السامرة على عبادتهم للشمس، والتضحية ببنينهم إكراماً لها كما قال الكتاب.

وجاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٢٥ وما يليه) إنّ المجلّين إلى السامرة لم يتقوا الرب، فبعث عليهم أسوداً كانت تقتل منهم، فكلّموا ملك آشور قائلين أن الأمم الذين جلوتهم وأسكنتهم في مدن السامرة لم يعرفوا حكم إله الأرض. فأرسل عليهم أسوداً فهي تقتلهم، فأمر ملك آشور أن أبعثوا إليهم واحداً من الكهنة الذين جلوتهم من هناك فيقيم، ويعلمهم حكم إله الأرض. فأثنى واحد من الكهنة الذين جلاهم وأقام بيت إيل (بيت أين) وأخذ يعلمهم كيف يتقون الرب. فكانوا على ذلك يتقون الرب ويعبدون آلهتهم القديمة. وقال كلمت (في تاريخ العهد القديم) إنّ الكاهن الذي أرسله ملك آشور إلى السامرة لم يكن من كهنة الرب الورعين، بل كان من كهنة إسرائيل الذين يخدمون في المشارف. فتركهم يعبدون آلهتهم إلّا أنه سلمهم توراة موسى مكتوبة بالحروف الكلدانية غير الحروف العبرانية. فتسلموها منه وهي باقية عندهم يتفاخرون بها وهي مثبتة صحة

التوراة اثباتاً قاطعاً للمطابقة التامة بينها وبين التوراة العبرانية (إلا في اختلافات يسيرة)، على ما بين الأمتين من النفرة والشحناء. قال يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١٤): إنّ هؤلاء الشعوب الكونيين الذين يسميهم اليونان سامرين قد استمروا إلى الآن (أي ساميرين إلى أيامه) على مذهبهم الديني لكنهم يتقبلون علينا تقلب الأيام، فإن صلحت حالنا قالوا أننا إخوة لهم لأننا نحن وهم من ولد يوسف، وإن جار علينا الدهر قالوا إنهم لا يعرفونا ولا يلزمهم أن يجيرونا لأنهم أتوا هذه الديار من بلاد قاصية».

عد ٣٢٦

تمة أخبار سرغون في غزواته لسورية

إنّ سرغون بعد أن استظهر على أيلوبيد ملك حماه في وقعة كركر سنة ٧١٩ بعد سنتين من خراب السامرة، سيّر جيوشه على شاطئ البحر المتوسط ينوي امتلاك سائر البلاد. وقد مر أن هوشع ملك إسرائيل كان قد استجار بشباك الحبشي ملك مصر والحبشة، وحالفه على ملك آشور فابطأ شباك في إنجاده ولم تكسبه هذه المحالفة إلاّ حنق ملك آشور عليه والإسراع في قدومه إلى السامرة. فانتصار سرغون قضى على ملك مصر أن يخرج لمقاومته تداركاً من أن يأخذ بلاده، فزحف بجيوشه إلى فلسطين لإيقاف جنود سرغون عن غزوة بلاده وصحبه حنون ملك غزة. وإليك ما خطّ على جدار خرشباد: «إنّ حنون ملك غزة وسيباجي (كذا يسمي شباك) سلطان مصر، اجتمعا في رابي (وهي رافية المسماة الآن بئر رفح على ٢١ أو ٢٢ ميلاً من غزة جنوباً) (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٢٣٣) ليصليا عليّ حرباً. واقبلا عليّ فهزمتكما وانكسرت جيوش سيباجي أمام جنودي. وهرب هو فلم يُهتد له على أثر وقبضت بيدي على حنون ملك غزة وافترضت جزية على فرعون ملك مصر». وفي خطوط أخرى أن سرغون أخذ حنون أسيراً إلى بلاد آشور وأنه ضرب قبائل بلاد العرب وجلا بعضهم إلى السامرة (كما مر في عد ٣٢٤).

إنّ انتصار سرغون على سلطان مصر وملك مصر وملك غزة قرضه مملكة إسرائيل، جعل بلاد فلسطين كلها في قبضة يده، ولم يتيسر له لحاق ملك مصر إلى وادي النيل. واكتفى بفرض الجزية عليه وعاد يسعر نار الحرب في أرمينية وبلاد

ماداي من سنة ٧١٨ إلى سنة ٧١٠ ق.م. التي فيها رجع إلى فلسطين وحاضر أشدود (وهي أسدود الآن بين يافا شمالاً وعسقلان جنوباً). وقد ذكر أشعيا النبي هذه الغزوة (فصل ٢٠ عد ١) قائلاً كما مرّ: «في السنة التي وفد فيها ترتان إلى أشدود إذ أرسله سرجون ملك آشور وحارب أشدود وأخذها». وهوذا أخبار هذه الغزوة عن آثار سرغون في خرشباد، ولم نكن نعلم منها إلا إشارة أشعيا إليها: «في السنة التاسعة لغزوتي في البلاد الواقعة على شاطئ البحر الكبير (البحر المتوسط وفي تاريخه أن هذه الغزوة كانت في السنة الحادية عشرة للملكه) مضيت إلى فلسطين، ونخيمت في أشدود لأن عازوري (أو ازوري) ملك أشدود قسا قلبه، ولم يؤد الجزية، وأرسل رسلاً إلى الملوك الذين حوله أعداء آشور، وصنع القبيح فأزلت ولايته عن الشعوب المجاورين له وأخذت ... (هنا كلمات محطمة). وأقمت أخاه مكانه على ملكه وضربت عليه مكوساً، وجزيات واجبة الاداء في آشور وضربت مثلها على الملوك مجاوريه. لكن رعاياه الخبثاء قسوا قلوبهم ولم يؤدوا المكوس والجزية... وعصوا ملكهم وطردوه بدلاً عما صنعه إليهم من الخير... وأقاموا يافان ملكاً عليهم وأجلسوه على عرش مولاهم، مع أنه لم يكن وريثاً لمنصة ملكهم وحصنوا مدنهم للحرب... واحتفروا خليجاً من حولها عمقه عشرون ذراعاً، وأجروا مياه الينابيع إلى أمام المدينة. وشعب فلسطين ويهوذا وأدوم ومواب المقيمون في جانب البحر والذين كانوا يقدمون الجزية، والتقدم لآشور سيدي أبدوا الخيانة ونوى الشعب ورؤساؤه الأشقياء أن يحاربوني. وقدموا إلى فرعون ملك مصر وهو قاصر عن أن ينجيهم وابتغوا محالفته، فأنا الملك الأشرف أقسمت بآشور ومروداخ وجيشت جيوش حرسى جميعاً، فعبروا دجلة والفرات في حين فيضانها. وسمع يافان ملكهم الذي كان معتمداً على قوته ولم يخضع لسلطتنا بمسير جيشنا فذلته عظمة آشور سيدي ففر إلى تخوم مصر... (وهنا كلمات محطمة لا يتحصل المراد بها). ولم يدر أحد أين انهزم فحاصرت مدن أشدود وجيزمو، وأخذتها وغنمت إلهته وامراته وبنيه وبناته وأثاثه. وماله وكنوز قصره مع شعب بلاده وجددت بناء هذه المدن وأقمت بينهم قوماً ممن كنت أخضعتهم في جهات مشرق الشمس. وأقمتهم في وسط شعب آشور ففعلوا حسب مشيئتي».

قد صرح أشعيا في قوله ذكره بأن سرغون لم يحاصر أشدود بنفسه بل أرسل إليها ترتان قائد جيشه. وعليه فقول سرغون: «حاصرت أشدود وأخذتها» مجازي لا

حقيقي إلا أن نقول إنه أرسل ترتان أولاً ثم شخص بنفسه إلى أشدود وقد وجد اسم ترتان في الآثار الآشورية. وأخبار هذه الأحداث مهمة لا لعلاقتها بتاريخ العبرانيين فقط بل لتفسيرها بأتم بيان كثيراً من نبوات أشعيا النبي لا سيما نبوته التي جعل تاريخها سنة ارسال سرغون ترتان لافتتاح أشدود وهي سنة ٧١٠ ق.م. وقد كان للمفسرين كبوات في تفسير هذه النبوات قبل اكتشاف الآثار المار ذكرها ويلزم إصلاح تفسيرهم في ما يلاحظ التاريخ، فالنوازل التي حلت بمدن فلسطين كما رأيت أنفاً تنبأ عليها أشعيا في الفصل الرابع عشر من نبوته مؤرخة في سنة موت أحاز وهي سنة ٧٢٧، كما حققه أهل العلم بالآثار الآشورية أعني قبل حصار السامرة بأربع سنين، وقبل تملك سرغون بست سنين، وقبل انكسار حنون ملك غزة بثمانين سنين، وقبل انكسار حنون ملك غزة بثمانين سنين، وقبل افتتاح أشدود بسبع عشرة سنة. وإليك كلام النبي في نبوته المشار إليها (فصل ١٤): «لا تفرحي يا أرض فلسطين بأن قضيب ضاربك انكسر... أنا مميت أصلك بالجوع وبقيتك تقتل... ولول أيها الباب اصرخي أيتها المدينة قد ذبت يا فلسطين بأسرك لأن قتاماً وافد من الشمال وليس من ينفرد عن عصائبه.

فالقنم الوافد من الشمال كناية عن جحافل سرغون التي أتت من الشمال، وأنزلت البلاء والوبال في مدن فلسطين. ولأشعيا نبوتان أخريان نطق بهما سنة ٧١٠ على الحبشة ومصر. وقد جمع بينهما لأن شبك الحبشي كان يليهما معاً فقال (فصل ٢٠ عد ٤ إلى عد ٦): «كذلك يسوق ملك آشور سبي مصر وجلاء كوش الصبيان والشيوخ عراة حفاة مكشوفة استاهم فضيحة لمصر. فيفزعون ويخزون بكوش رجائهم وبمصر فخرهم». وأكثر صراحة من هذا قوله (فصل ١٩ عد ٤): «وادفع مصر إلى سيد قاس. وملك ذو عزة يتسلط عليهم يقول السيد رب الجنود». فهذه النبوة على مصر والحبشة لم تتم في أيام سرغون وليس سرغون الملك القاسي الذي أشار النبي إليه كما وهم كثير من المفسرين قبل الاكتشافات، بل هو أسرحدون بن سنحاريب وحفيد سرغون أو آشور بانيبال بن أسرحدون. فقد حالت بعض المصاعب دون افتتاح سرغون مصر بعد إخراجه السامرة سنة ٧٢١ ق.م وبعد افتتاحه أشدود سنة ٧١٠ فإنه اضطر سنة ٧٠٩ ق.م أن يعود إلى الحرب مع مروдах بلدان ملك بابل. ولم يظفر به كل الظفر إلا في سنة ٧٠٨ ق.م، وأراد بعدئذ أن يستريح ويقيم قصره المعروف الآن بقصر خرشباد المكتوب على جداره أكثر تاريخه.

وقد ذكرنا (في عد ١٢٢) ضم سرغون قبرس إلى مملكته نقلاً عن صفيحة وجدت في هذه الجزيرة. وفي سنة (٧٠٤ ق.م سطا على سرغون رجل يسمى بلكاسباي فقتله غيلة ربما أخذ بثأر مروداخ بلادان، فقضي من أكمل خراب مملكة بعد أن ملك سبع عشرة سنة. (ملخص عن فيكورو في المجلد المذكور من صفحة ١٤٧ إلى ١٨١).

عد ٣٢٧

سنو ملوك يهوذا وملوك إسرائيل

إذا تتبعنا سني ملوك يهوذا وملوك إسرائيل كما ذكرها الكتاب وجدناها كما ترى في الجدول التالي.

ملوك يهوذا	سني ملكهم	آيات الكتاب	ملوك إسرائيل	سنو ملكهم	آيات الكتاب
راحبعام	١٧	ملو ٣ ف ١٤ ع ٢١	ياربعام	٢٢	ملو ٣ ف ١٤ ع ٢٠
ايا	٠٣	٠٠ ف ١٥ ع ٠٢	ناداب	٠٢	٠٠ ف ١٥ ع ٢٥
آسا	٤١	٠٠ ف ١٥ ع ٢٠	بعشا	٢٤	٠٠ ف ١٥ ع ٣٣
يوشافاط	٢٥	٠٠ ف ٢٢ ع ٤٢	ايله	٠٢	٠٠ ف ١٦ ع ٨
يورام	٠٨	ملو ٤ ف ٠٨ ع ١٧	زمري (يوم ٧)		٠٠ ف ١٦ ع ١٥
احزيا	٠١	٠٠ ف ٠٨ ع ٢٥	عمري	١٢	٠٠ ف ١٦ ع ٢٣
عتليا	٠٦	٠٠ ف ١١ ع ٠٣	احاب	٢٢	٠٠ ف ١٦ ع ٢٩
يواش	٤٠	٠٠ ف ١٢ ع ٠١	احزيا	٠٢	٠٠ ف ٢٢ ع ٥٢
امصيا	٢٩	٠٠ ف ١٤ ع ٠٢	يورام	١٠	ملو ٤ ف ٠٣ ع ٠١
عزيا	٥٢	٠٠ ف ١٥ ع ٠٢	ياهو	٢٨	٠٠ ف ١٠ ع ٣٦
يوتام	١٦	٠٠ ف ١٥ ع ٣٣	يواحاز	١٧	٠٠ ف ١٣ ع ٠١
احاز	١٦	٠٠ ف ١٦ ع ٠٢	يواش	١٦	٠٠ ف ١٣ ع ١٠
من مدة					
حزقيا	٠٦	٠٠ ف ١٨ ع ٠١	ياربعام ٢	٤١	٠٠ ف ١٤ ع ٢٣
المجموع	٢٦٠		زكريا شهر ٦		٠٠ ف ١٥ ع ٠٨

ملوك يهوذا	سنو ملكهم	آيات الكتاب	ملوك إسرائيل	سنو ملكهم	آيات الكتاب
			شلوم	(شهر ١)	١٠٠ ف ١٥ ع ١٣
			منحيم	١٠	١٠٠ ف ١٥ ع ١٧
			فقحيا	٠٢	ملو ٤ ف ١٥ ع ٢٣
			فاقح	٢٠	١٠٠ ف ١٥ ع ٢٧
			هوشع	(شهر ٧)	٠٩ ١٠٠ ف ١٧ ع ١٠
			المجموع	٢٤١	وشهر (٧)

والفينا سني ملوك يهوذا تزيد على سني ملوك إسرائيل ثماني عشرة سنة وخمسة أشهر لأن مجموع سني ملوك يهوذا ٢٦٠ سنة، ومجموع سني ملوك إسرائيل ٢٤١ وسبعة أشهر وسبعة أيام أيضاً. وقد أجهد العلماء ومفسرو الكتاب نفوسهم في توفيق هذا الخلاف فقال بعضهم إن النساخ ردوا خطأ هذه الثماني عشرة سنة على سني ملوك يهوذا عند ذكر سني ملك بعضهم فيلزم إصلاح هذا الخطأ الذي وقع مثله متواتراً في الأعداد، ولكن لا يعلم من سني الملوك المعاصرين لاحاب ملك إسرائيل. وقال بعضهم إن الملك انقطع في مملكة السامرة أي لم يكن ملك في إسرائيل مرتين أحدهما بين ملك ياربعام الثاني وملك زكريا مدة نحو من إحدى عشرة سنة. والثانية بين ملك فاقح وملك هوشع مدة نحو تسع سنين. وقد جنح الأب فيكورو إلى القول الأول في كتابه الموسوم بالأسفار المقدسة وانتقاد العقلين لها (مجلد ٤ صفحة ٥٠٥ طبعة ٣). وإلى القول الثاني في كتابه الموسوم بالموجز الكتابي (مجلد ٢ صفحة ٨١ طبعة ٧). ووضع الجدول الآتي للملوك إسرائيل مبيّناً سنة بدء ملك كل منهم قبل التاريخ المسيحي عن علماء أعلام فنترجمه توفيراً للفائدة مغتنين بما في الجدول السابق عن تعيين آيات الكتاب.

سنو ملوك يهوذا وملوك إسرائيل
أسماء ملوك إسرائيل سنو ملكهم بدء ملكهم ق.م
عن باتو كلينتون وينر

اسماء ملوك إسرائيل	سنو ملكهم	باتو	كلينتون	بدء ملكهم ق.م عن وينر
ياربعام الأول	٢٢	٩٧٥	٩٧٦	٩٧٥
ناداب	٠٢	٩٥٤	٩٥٥	٩٥٤
بعشا	٢٤	٩٥٣	٩٥٤	٩٥٣
اياله	٠٢	٩٣٠	٩٣٠	٩٣٠
زكري يوم ٧	٠٠	٩٢٩	٩٣٠	٩٢٨
عمري	١٢	٩٢٩	٩٣٠	٩٢٨
احاب	٢٢	٩١٧	٩١٩	٩١٨
احزيا	٠٢	٨٩٨	٨٩٦	٨٩٧
يورام	١٢	٨٩٦	٨٩٥	٨٩٦
ياهو	٢٨	٨٨٤	٨٨٣	٨٨٤
يواحاز	١٧	٨٥٦	٨٥٥	٨٥٦
يواش	١٦	٨٤٠	٨٣٩	٨٤٠
ياربعام الثاني	٤١	٨٢٤	٨٢٣	٨٢٥
لاملك	١١	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠
زكريا شهر ٦	٠٠	٧٧٢	٧٧١	٧٧٢
شلوم شهر ١	٠٠	٧٧٢	٨٧٠	٧٧١
منحيم	١٠	٧٧١	٧٧٠	٧٧١
فقحيا	٠٢	٧٦١	٧٥٩	٧٦٩
ناقح	٢٠	٧٥٩	٧٥٧	٧٥٨

٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٩	لاملك
٧٢٩	٧٣٠	٧٢٩	٩	هوشع
٧٢١	٧٢١	٧٢١	٠٠٠	خراب السامرة
٢٦٠				فمجموع سني ملوك إسرائيل

فيكون مجموع سني ملوك اسرائيل على هذا النحو مئتين وستين سنة كسني ملوك يهوذا. وقد قال بعض المتجددين بطرائق أخرى لتوفيق هذا الخلاف فقال أولد إنّ الصحيح في سني ياربعام الثاني أنها ٥٣ سنة لا ٤١ سنة. وفي سني فاقح انها ٢٩ سنة لا ٢٠ سنة. فيحصل من ذلك زيادة نحو من عشرين سنة. وتتفق بذلك سنو المملكتين ووفق غيره بطرائق أخرى. ومهما يكن من هذا الخلاف فلا يمس صحة الأسفار المقدسة بشيء لأنه من خطأ النساخ، وقلنا مراراً أن ليس على الله أن يعصم كل كاتب من الخطأ، وأن هذه الأعداد يعبر عنها الكتاب بالحروف وهي متقاربة الهيئة فتكون عرضة للخطأ.

الفصل الثامن عشر

سائر ملوك يهوذا إلى الجلاء البابلي

عد ٣٢٨

حزقيا ملك يهوذا

إنّ حزقيا بن آحاز ملك يهوذا خلف أباه راقياً منصة الملك في السنة الثالثة لهوشع ملك إسرائيل أي سنة ٧٢٧ ق.م، وكان عمره حينئذٍ خمساً وعشرين سنة. وملك ٢٩ سنة وفي السنة السادسة لملكه وهي السنة التاسعة لهوشع ملك إسرائيل أخذت السامرة، وجلا ملك آشور بني إسرائيل إلى بلاد آشور (ملوك ٤ فصل ١٨ عد ١ و ٢ وعد ١٠ و ١١) وكان حزقيا مستقيماً وأرضى الرب متشبهاً بدادود

جده. وكان أول مهامه وأجلها العناية بأمر الدين، وحض شعبه على التمسك بعروته الوثقى، والعمل بسنن الرب ففتح هيكل أورشليم الذي كان مقفلاً في أيام أبيه. وأزال المشارف وحطّم الأنصاب، وقطع الغابات وكسّر تماثيل الآلهة الفينيقية. ودّمّر هياكلها بل اتّصل إلى أن سحق الحية النحاسية التي كان موسى أقامها في البرية، لأن بني إسرائيل كانوا حينئذٍ يقدمون لها البخور ويعبدونها عبادة وثنية خلافاً لما أمر الرب موسى عند صنعها. وكان الرب مع حزقيا وحيثما توجه كان يتصرّف بحكمة، واحتفى بعيد أول فصح وقع في أيام ملكه بمزيد التجلّة. فأرسل رسائل ووفوداً إلى جميع أنحاء مملكته وإلى بني إسرائيل أجمعين من بئر سبع إلى دان ليأتوا إلى قضاء فصح الرب في أورشليم، إذ حالت عليهم أحوال ولم يقضوه حق قضائه. فانطلق الوفود من مدينة إلى أخرى يحضون الشعب على العود إلى الله وهيكله ليصرف عنهم حدة غضبه، فازدري بعضهم بالوفود وسخروا منهم وخشع جماعة من أسباط أشير ومنسا وزابلون، وجاءوا إلى أورشليم، وكان بنو يهوذا بقلب واحد على العمل بأمر الملك والرؤساء. وقد تقدّس الكهنة واللاويون وقَدّموا الذبائح والمحرقات واحتفى الشعب بعيد الفطير في أورشليم سبعة أيام بوافر الوقار والبهجة، وأضافوا إلى أيام العيد سبعة أيام أخرى. وأدّب الملك للجماعة ذابحاً كثيراً من ثيرانه وشياهه. وفعل الرؤساء مثلما فعل الملك وكان الفرّح عظيماً لم يكن مثله منذ أيام سليمان. وقد انقضى هذا العيد قبل خراب السامرة ولم يكن هوشع ملك إسرائيل يمنع مسوديه الإتيان إلى هيكل أورشليم كغيره من أسلافه وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في الكلام عليه. وأعاد حزقيا الملك نظام خدمة الكهنة واللاويين في الهيكل وأجرى عليهم الأرزاق ليعكفوا على خدمة الرب والهيكل. وأعطى حصّة من ماله للمحرقات وذاع ذلك فاقتدى به كثير من بني إسرائيل. فقدموا من بواكير الحنطة والخمر والزيت والعسل شيئاً كثيراً. وجاءوا بالعشور وافرة، وكان أشعيا النبي يرشد الملك إلى كل ذلك.

قد مرض حزقيا الملك فوافاه أشعيا النبي يقول له أوصي لبيتك لأنك تموت ولا تعيش فبكى بكاءً شديداً وصلى إلى الرب قائلاً، أذكر يا رب كيف سلكت أمامك بالحق وسلامة القلب، وكيف صنعت الخير أمامك. فأوحى الرب إلى أشعيا أن يعود إلى الملك ويقول له إنّه سمع صلاته ورأى دموعه وإنّه سيسقى، وفي اليوم الثالث يصعد إلى الهيكل، وإنّه سيزيده على أيامه خمس عشرة سنة، وينقذه وأورشليم من

شر ملك آشور. فعاد أشعيا وبلغه ما قال الرب ووضع قرص تين على قرحه فبرأ، ولم يكن هذا القرص على الأظهر شافياً القرح بنفسه بل كان إشارة إلى الآية الربانية كوضع الإشعاع الملح في المياه المرة فحلت، وكصب إيليا الماء حول المذبح حتى لفحته النار المنحدرة من العلاء. وقد التمس حزقيا من النبي آية يحقق أن الرب يبرئه فقال أشعيا هذه آية لك من قبل الرب «أيتقدم الظل عشر درجات أم يرجع عشر درجات فقال حزقيا أما تقدم الظل عشر درجات فأمر يسير ولكن ليرجع الظل إلى الوراء عشر درجات فهتف أشعيا النبي إلى الرب فرد الظل في الدرجات التي نزلها في درج آحاز عشر درجات، إلى الوراء». ذهب كثيرون من العلماء إلى أن المراد بدرج آحاز درج قصر حزقيا الذي كان أبوه آحاز بناه، وكان في أعلاه ابرة يستدل بظلها على ساعات النهار. وقد سخر فولتر من حزقيا ومن قول الكتاب إن تقدم الظل عشر درجات أمر يسير مع أن تقدمه ورجوعه سيان في منافاة شرائع الطبيعة. فنسلم له بأن حزقيا لم يكن فلكياً بل تكلم كعمامة أهل أيامه الذين ألفوا أن يروا الظل يتقدم دائماً ولم يرجع قط. وكذلك نسلم له بأن رجوع الظل إلى الوراء ينافي سنن الطبيعة لكننا لا ننسبه إليها، بل إلى قدرة باري الطبيعة وهو على كل شيء قدير، ولو كان هذا الرجوع ممكناً بقوة الطبيعة لما أثبت لحزقيا شيئاً ولا كانت الآية آية وجميع المؤمنين بالله يعتقدون أنه قدير على صنع الآيات، وخرق شرائع الطبيعة وإن كل ما شاء الرب صنع ولا تعوزه الوسائل لإرجاع الظل عشر درجات. ولم يصرح لنا الكتاب بهذه الوسيلة ومن كذب بوجود الله فلا بدع أن يكذب بآياته نعوذ به من شر المارقين.

وقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٠ عد ١١): «في ذلك الزمان أرسل بروداك بلادان بن بلادان ملك بابل كتباً وهدايا إلى حزقيا لأنه سمع أن حزقيا مريض، ففرح بهم حزقيا وأراهم جميع بيت نفائسه، وفضته وذهبه وأطبائه، ودهنه الطيب وبيت أنيته وجميع ما في خزانته». فوفد إليه أشعيا يبكته على ذلك وتنبأ له أنها ستأتي أيام يؤخذ فيها كل ما في بيته مما أدخره آباؤه إلى بابل. ويؤخذ من بنيهِ الذين يلدهم فيكونون خصياناً في قصر ملك بابل. قد نسب الملحدون نبوات انبياء إسرائيل إلى حذقهم، ومعرفتهم لغوامض السياسة، ولكن أي حذق يتصل إلى عرفان ما تخالفه الظواهر كلها ولا يرى فيه وجه لاحتمال وقوعه كنبوة أشعيا هذه على جلاء بني يهوذا إلى بابل، مع أن مملكة بابل كانت حينئذٍ منحطة يهددها في كل

فترة ملوك آشور بقوتهم الجبارة وجيوشهم الظافرة بل كان بعضهم أذل بابل، ودانت لهم ومع هذا أثبت النبي قبل ١١٤ سنة أنَّ هذه المملكة الدليلة سوف تقوى على مملكة آشور وتظفر بمملكة حزقيا الزاهرة يومئذ وتجلو سكانها إلى بلادهم. وبمثل ذلك ميخا النبي الذي كان معاصراً لأشعيا كما يظهر من نبوته (فصل ٤ عد ١٠).

أما برداك بلادان الذي ذكره الكتاب هنا فهو مروداخ بلادان ملك بابل الذي مر ذكره مرات وسماه أشعيا (فصل ٣٩ عد ١) مروداك. وقد تكلم فيه العلامة الكردينال ويزمن في السادسة من خطبه في العلامات بين العلم والدين الموحى فقال: «إنَّ مملكة آشور كانت يومئذ عزيزة زاهية راقية ذرى مجدها، ولم تكن بابل إلَّا خاضعة لسؤدها، فإن كان بروداك أو مروداخ ملك بابل فكيف اجترأ أن يرسل وفداً لتهنئة ملك يهوذا وهو محارب لملك آشور سيده» إلى أن يقول الكردينال العلامة إنَّه وجد فقرة لباروز حفظها أوساييوس في التاريخ الأرمني الذي نشره (مجلد ١٩ من مكتبة الآباء اليونان عمود ١١٨ من طبعة الأب مين) قيل فيها «ومن بعد وفاة أخني سنحاريم (سنحاريب) ملك هاجيسانو على البابليين، ولكن لم تنقض على ملكه ثلاثون يوماً إلَّا وقتله مروداخ بلادان. وقبض على صولجان الملك ستة أشهر فتلَّ عرشه رجل اسمه اليبوس، وملك مكانه في السنة الثالثة للملكه. خرج سنحاريب بجحافل على البابليين فاستظهر عليهم وقبض على اليبوس وأفراد أسرته. وجلاهم إلى بلاد آشور وبسط ولايته على البابليين وأقام عليهم ملكاً ابنه أسرحدون وعاد ظافراً إلى آشور». على أنَّ الخطوط الآشورية أزلت كل أشكال في أمر مروداخ بلادان فقد ذكره تجلت فلاصر في الخطوط التي نقشها على قصره، ومما قاله فيها إنَّ مروداخ بلادان بن ياكين ملك البحر (يريد بلاد الكلدان السفلى لمجاورتها خليج العجم. ولم يكن في مدة أسلافي أدَّى إليهم شيئاً من الجزية ولا قبل أقدامهم. فراعته عظمة آشور سيدي ومثل أمامي في مدينة سيبا وقبل قدمي» وعدد ما قدَّمه له من الجزيات. وكان خضوع مروداخ لتجلت فلاصر سنة ٧٣٠ أو سنة ٧٣١ ق.م عن سميت (في تاريخ تجلت فلاصر). وجاء في آثار سرغون ذكر مروداخ ملك بابل وقد حاربه سرغون سنة ٧٢٠ ق.م ويظهر أنَّ هذه الحرب انقضت بصلح من شرائطه أن يبقى مروداخ بلادان ملكاً في بابل. على أنَّ سرغون أضرم نار الحرب ثانية سنة ٧٠٩ وسنة ٧٠٨ ق.م وانتزع الملك منه وجمع بين

تاجي آشور وبابل. على أنه بعد وفاة سرغون تنازع كثيرون ملك بابل مدة سنتين ويظهر أن مروداخ عاد حيثئذ إلى عرش بابل فتبوأه ستة أشهر كما جاء في فقرة باروز المذكورة آنفاً. وقد كشف في بابل في هذه السنين عن صحيفة كتب عليها ما يثبت هذه الفقرة وهو: «أن رجلاً اسمه مروداخ زوكيرسومي ملك في بابل مدة شهر ثم ملك فيها مروداخ هابل ايدينا (مروداخ بلادان) تسعة أشهر». وفي آثار سنحاريب ما يثبت رواية باروز وأوساييوس ويحقق آيات الكتاب تحقيقاً علمياً. فقد جاء في أثره المعروف بعمود بلينو «في بدء ملكي انتصرت تجاه مدينة كيش على مروداخ بلادان ملك كردويناس (بابل)، وعلى جيوش عيلام. فغادر ساحة الحرب وانهزم منفرداً... فملك يدي في ساحة الحرب من المركبات والخيول والبغال والحمير والجمال والغنم. ودخلت قصره في بابل بملء المسرة وفتحت خزائنه وأخذت منها ذهباً وفضة وآنية ذهبية وفضية وحجارة كريمة وأشياء ثمينة... واستعبدت امرأته ونساء قصره والعمال الذين كانوا يخدمون بحضرته وكل ما كان يملكه. والظاهر من كل ما مرّ أن مروداخ بلادان بعد أن تَلَّ سرغون عرش ملكه في بابل عاد إليه بعد وفاة سرغون، وفي تلك الفترة أرسل وفده إلى حزقيا ملك يهوذا يهنئه بصحته ويرغب في محالفته له على سنحاريب عدو كليهما. وقد يكون وفده اهتم بعقد محادثات مع غير حزقيا من ملوك سورية وفينيقية وربما كان هذا ما حمل سنحاريب على غزوته سورية كما ترى.

عد ٣٢٩

حملة سنحاريب على حزقيا ملك يهوذا

إن حزقيا كان معاصراً سلمناصر وسرغون وسنحاريب ملوك آشور، وشهد حصار السامرة وافتتاحها وجلاء أهل مملكته وخراب مدن فلسطين، ولم يسطر سلمناصر ولا سرغون عليه لأن اباه احاز كان محالفاً لملك آشور. ولكن أمست يهوذا في أيامه يحتاطها الآشوريون كحلقة من حديد. فكان في شمالها من جلاهم ملك آشور إلى السامرة، وفي غربتها مدن فلسطين التي دمرها سرغون وأقام عماله فيها، وفي جنوبها العرب الذين دانوا لسرغون، وفي شرقها مملكة سورية، التي لم يبق منها ملك آشور إلا الاسم على أن هذا الموقف الحرج لم يؤر حزقيا بل ثبت واثقاً بالله مفضلاً الإعتصام به، على كل من لجأ إلى دولة أجنبية، عاملاً

يأمر أشعيا النبي. وانبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١ عدد ٧) إنه: «تُرد على ملك آشور ولم يتعب له». ولا نعلم متى كان هذا التمرد والأظهر أنه اغتنم فرصة موت سرغون سنة ٧٠٥ ق.م. كما اغتنمها غيره ممن كانوا يؤدون الجزية إلى ملك آشور فأبى أداء الجزية لسنحاريب وزاد على ذلك بالإحتفاء رسل مروдах ملك بابل. فاحتدم سنحاريب غيظاً على حزقيا وزحف بجيوشه إلى سورية.

وذكر الكتاب حملة سنحاريب هذه قبل مرض حزقيا ولذلك زعم وقبل وفادة ملك بابل إليه ولكن الأظهر والأمثل أن مرض حزقيا والوفادة إليه كانا قبل الغزوة. ويؤيده أن خزائن حزقيا كانت عند وفود رسل ملك بابل إليه مملوءة من الذهب والفضة. والآنية الثمينة فلم يكن إذاً استفرغها بتقدمة ما كان فيها لسنحاريب قبل الحرب والآثار الآشورية والبابلية قاضية بأن وفادة ملك بابل إلى حزقيا كانت قبل حملة سنحاريب على سورية، ولذا قدمنا ذكر غزوة سنحاريب خلافاً لوضع الكتاب لهما.

أما سنحاريب فهو ابن سرغون وقد خلف أباه في ١٢ آب لسنة ٧٠٥ وفي آثاره كلام مشيع في بني إسرائيل أكثر مما ورد في آثار اسلافه فقد كشف سنة ١٨٣٠ عن صحيفة من خرف ذات ستة اوجه في نينوى عند رجل اسمه تيلور، ولذلك تسمى هذه الصحيفة تيلور وهي الآن في المتحف البريطاني قد دُون عليها سنحاريب اخبار حروبه من سنة ٧٠٤ إلى سنة ٦٨٤ ق.م في اربع مئة وثمانين سطراً. تفاخر فيها بانتصاره في وقائع كثيرة وبكم عن ذكر انخذه مما انطوت اخبار السنين الأولين لسنحاريب. وقد كشف عن تمثاله في نينوى وهو اليوم في لندره يمثل جالساً في فلسطين عند مدينة لاكيش (أم لقيس الآن) على عرش ثمين محمول بين أربعة من أكابر رجاله، ومنتشحاً بأفخر الملابس، ودقنه مرسله وشعره طويل محكم الجدل وفي أذنيه حلقتان بهيئة صليب، وفي يده سوار ثمين ويمناه مرفوعة إلى فوق. وقد قبض بها على حربة وفي يسراه قوس يسندها إلى مقدم عرشه وهيئة وجهه، ناطقة بأنه غاز قاس جبار لا رحمة في قلبه. فمن رأى تمثاله درى ما كان أعظم حنقه عند سماعه أن ملكاً صغيراً في سورية أبى أن يؤدي إليه وأن يتحالفا على مناصبته.

على أنه لم يشأ أن يحمل على ملك يهوذا قبل أن يذل مروдах بلادان لئلا

يترك عدواً من ورائه، فحارب ملك بابل وهزمه وشتت شمل قومه كما رأيت آنفاً، وأوغر حروباً في شرقي مملكته وجنوبيها لا يهمنها الكلام فيها. وبعد أن أمّن تخوم مملكته شرقاً وجنوباً. أمّ سورية ينوي أخضاع ملوكها والتوصل إلى مصر. وكانت غزوته هذه سنة ٧٠١ ق.م خلافاً لما رأيته عامة المفسرين والمؤرخين قبل الإكتشافات من أن هذه الغزوة كانت بين سنة ٧١٤ ق.م وسنة ٧١٠ لأن عمود بليينو المار ذكره كتب عليه سنة ٧٠٢ ق.م ولا ذكر فيه لها فإذا كانت بعده أعني سنة ٧٠١ ق.م وقد انبأنا الآثار السامرية بأسباب أخرى لهذه الحملة (خلا الأسباب التي ذكرها الكتاب) وهي أن ملك صيدا وعسقلان وغيرهما لم يكتفوا بخلع نير الطاعة لملك آشور بل حالفوا ملك مصر عليه. ويظهر أن هذه المخالفة كانت بعد وفاة سرغون وأن المتحالفين لم يتسنّ لهم أن يضموا إليهم سائر ملوك سورية، بل أثر ملوك عمون ومواب وادوم الحيدودة، ومالاً ملوك ارواد وجبيل وأشدود الآشوريين وجاهر ملك عقرون بمحازبته لملك آشور خلافاً لرأي قومه فثاروا عليه وأسلموه إلى حزقيا ملك يهوذا ليسجنه في أورشليم.

و«إليك ما قاله الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٨) في حملة سنحاريب هذه (صعد سنحاريب ملك آشور على مدن يهوذا المحصنة وأخذها. فبعث حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور في لأكيش (ام لقيس في الطريق المؤدي من أورشليم إلى غزة) وقال أنه قد خطئت فانصرف عني ومهما تضرب عليّ انفضه إليك؛ فضرب ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة قنطار فضة وثلاثين قنطارا ذهب. فأدّى إليه حزقيا جميع الفضة التي وجدت في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. ونزع حزقيا الذهب عن أبواب الهيكل وعن الدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه إلى ملك آشور» فلم يرضَ سنحاريب بذلك وحده بل طلب أن يدخل إلى أورشليم. ولذلك «أرسل ملك آشور ترتان وربساريس وربشاقا من لأكيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم».

والأظهر ان الاسماء الثلاثة المذكورة ليست اعلاماً شخصية بل اسماء مقامات في الجندية، فترتان يراد به القائد العام في الجيش وقد ورد مرات آثارهم بهذا المعنى. وربساريس يراد به الحصيان أو رئيس الحرم. وربشاقا معناه رئيس كبير في الجيش. وقال سكردر: إن الكلمة منحوتة من لفظة راب ومعناها العظيم والكبير ولفظة شاق أو ساك ومعناها الرأس والرئيس. ولما بلغ هؤلاء القواد إلى أورشليم

أرسل حزقيا ثلاثة رجال من حاشيته» فقال لهم ربشاقا: قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك الكبير ملك آشور ما هذا الإنكال الذي اتكلت قد قلت ليس إلا كلام شفتين لي مشورة واقتدار على الحرب والآن فعلى من اتكلت حتى تمردت عليّ انك اتكلت على عكاز هذه القصبية الموضوعة على مصر التي من اتكأ عليها نشبت في كفه وثقبتها. هكذا فرعون ملك مصر لجميع الذين يتكلمون عليه... والآن الحم القتال مع سيدي ملك آشور وأنا أقدم لك ألفي فرس ان استطعت أن تجد لها فرساناً. وأنتى لك أن تردّ وجه قائد واحد من عبيد سيدي الصغار وتتكلم على مصر لأجل مراكب وفرسان. والآن أتراني بمعزل عن الرب صعدت إلى هذا المكان لأدمره. الرب قال لي: اصعد على هذه الأرض واخربها» فقال له رجال حزقيا الملك كلم عبيدك باللغة الآرامية فإننا نفهمها ولا تكلمنا باليهودية (العبرانية) على مسامع الشعب القائمين على السور. فقال لهم ربشاقا: «أعلمه إلى سيدك وإليك بعثني سيدي لأقول هذا الكلام أليس إلى الرجال القائمين على السور» ليدركوا شر العقابة ويظهر من ذلك أن عمال الدول كانوا في تلك الأيام يتعلمون بلغات غيرهم كما في أيامنا، واللغتان الآرامية والعبرانية اختان من أصل واحد أو اشتقت احدهما من الأخرى. ثم وقف ربشاقا ونادى بصوت عظيم باليهودية محذراً الشعب من أن يسمعوا لحزقيا، بأن يتكلموا على الرب لأن الرب لا ينجيهم وقال: «ألعل آلهة الأمم أنقذوا كل واحد أرضه من يد آشور أين إله حماه وأفراد أين إله سفروائيم وهيناع وعوة (مر الكلام في مواقع هذه المدن) ألعلمها نجيا السامرة من يدي، وطلب إليهم أن يعقدوا صلحاً مع ملك آشور فيأخذهم إلى مثل أرضهم أرض حنطة وخمر وكروم وزيت وعسل. فسكت الشعب ولم يجب ربشاقا بكلمة وسمع الملك فزق ثيابه ولبس مسحاً ودخل بيت الرب وأرسل يخبر أشعيا بما كان من الضيق والزجر والتجديف على الرب. فأجابه أشعيا مشجعاً إياه أن لا يخاف تهديد ملك آشور ولا يبالي بتجديف قواده على الرب.

أما قواد سنحاريب فلما يمسوا من استسلام حزقيا وأهل أورشليم إليهم، عادوا إلى ملكهم ليسألوه عما يشاء فوجدوه قد رحل من لأكيش، ويقاتل أهل لبنه ولم يتعين موقع هذه المدينة إلى اليوم، والراجح أنه كان في الشمال الغربي من بيت جبرين وفي الشمال الشرقي من لأكيش في الحقل المسمى الآن تل الصافي (فيكورو مجلد ٤ صفحة ٢٣٤ من الكتاب والاكتشافات). ثم قيل لسنحاريب أن ترهاقة

ملك كوش (أي ملك الحبشة) قد خرج ليقاتله فلثلا يتقوى حزقيا إذا بلغته هذه الأخبار أرسل إليه رسلاً، ورسالة يعيد فيها تهديده وتذكيره بما صنع هو وأسلافه بالقبائل التي أبت الخضوع لهم، ولم تنجهم آلهتهم فأخذ حزقيا الرسالة وقرأها وصعد إلى بيت الرب، وبسطها قدماه مصلياً خاشعاً إليه ليخلصه وشعبه من يد سنحاريب.

فأرسل أشعيا النبي يقول للملك من قبل الرب انه سمع صلاته وأنه سينتقم من سنحاريب الذي ترفع، وجدف على الرب قائلاً إنه بكثرة مركباته صعد إلى قمم الجبال، وأواخر لبنان قطعاً أرفع ارزه وخيار سروه، وداخلاً المنزل في أقصاه وغاية كرمه، وأنه سيجعل خزامة في أنفه وشكيمة في شفتيه، ويرده في الطريق التي جاء منها وجعل النبي للملك علامة لهم في تلك السنة يأكلون زريعة، لأن عساكر سنحاريب كانت أخربت البلاد. وقطعت أشجارها وفي السنة الثانية يأكلون خلفه لأنها سنة سبتية لا يباحون أن يزرعوا ويأكلون ثمارها لاستتباب الراحة. وحقق له من قبل الرب أن سنحاريب لا يدخل أورشليم ولا يرمي إليها سهماً ولا ينصب عليها مترسة، وكان في تلك الليلة أن خرج ملك الرب وقتل من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً، فاضطر سنحاريب أن يقفل راجعاً إلى نينوى ويقيم فيها. وفيما هو ساجد في بيت نصرورك الهه قتله أدرملك وشرآصار ابنه بالسيف وهربا إلى أرض أراط (أي أرمينية)، وملك أسرحدون ابنه مكانه. فهذه خلاصة ما جاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٨ و ١٩ وفي سفر أخبار الأيام الثاني فصل ٣٢). قال بعض مفسري الكتاب إن قتل جنود سنحاريب كان بوباء أرسله الله عليهم، وقال آخرون إن الرب أوهمهم أن الأعداء أدركوهم فاقتتلوا وقتل بعضهم بعضاً.

ودونك ما جاء في آثار سنحاريب مصداقاً لقول الكتاب فقد كتب سنحاريب أخبار حملته هذه في صفيحته ذات الأعمدة أو السطوح الستة المعروفة بصفيحة تيلور. وذكر في العمود الثاني منها أخبار ما صنعه في صور وصيدا وعكا وغيرها من مدن فينيقية وبلاد العمونيين والموآبيين والأدوميين. وقد ترجمنا كلامه فيها في عد ١٢٣ عند كلامنا في الفينيقيين ونتم هنا ترجمة باقي كلامه: «وأما زدقا ملك عسقلون فلم يخضع عنقه لنيري فأخذت الهة بيت أبيه. وقبضت عليه وجلوته وامراته وبنيه وبناته وإخوته، وأسرة بيت أبيه إلى آشور، وأقمت سرلوداري بن روكتي ملكهم القديم والياً على شعب عسقلون. وفرضت عليه جزية بياناً لخضوعه

لعظمتي وأخلص في الطاعة لي. وتتبع غزوتي فمشيت على بيت داغون (المعروفة الآن بيت دجن أو دجان بين اللد وبينه اعلام الأماكن وكاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣١). ويوبا (يافا) وبني برق (مدينة في نصيب سبط دان ورد ذكرها في سفر يشوع فصل ١٩ عد ٤٥). وحازور (المعروفة اليوم بيازور أو ياسور في أنحاء عسقلان) (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٦٧) وأما مدن زدقا (ملك عسقلان) الذي أبى الطاعة لي فافتتحتها وأخذت سكانها أسرى، وأما روساء أمكرون (الصحيح أنها عفرون وهي المسماة في أيامنا عاقر وقد مر الكلام فيها) ووجهائها وشعبها الذين كانوا قد كبلوا ملكهم بادي بالحديد لأنه أخلص في الطاعة والأمانة لآشور وأسلموه إلى حزقيا هو يهوداي (أي إلى حزقيا ملك يهوذا). فألقاه في السجن. أولئك تولى الرعب قلوبهم وأتى لإنقاذهم ملوك مصر وعساكر ملوك ملوحي (بلاد الحبشة أو مصر السفلى)، ومركباتهم وخيولهم، وقد حشدوا جيوشاً لا عداد لها، وصفوا صفوفهم لإيقاد نار الحرب عليّ تجاه مدينة التاقور^(١) وهيجوا جنودهم للقتال، أما أنا فاتكلت على آشور سيدي وحاربتهم وظهرت عليهم وقبضت يدي نفسها على رئيس مركبات مصر وعلى بنيه وعلى رئيس مركبات ملوك ملوحي، وأخذتهم أحياء في معمة الحرب وضربت مدينة التاقور وتمنه (وهي تبة الآن) وفتحتهما وغنمت ما كان فيهما».

وقال في العمود الثاني: «زحفت إلى مدينة أمكرون (عقرون) فقبضت على الرؤساء والوجهاء الذين تسببوا في الثورة وفتكت بهم، ووضعت جثثهم بعضها فوق بعض على أسوار المدينة. وأخذت من ظلم أو اعتدى من سكان المدينة أسرى، وأمرت باستبقاء باقي السكان الذين لم يشتركوا في العصاوة، ولم يقدموا على شيء يؤاخذون به. وأما بادي ملكهم فأخرجته من وسط أورشليمو (أورشليم). واجلسته على عرشه وفرضت عليه شيئاً من الجزية بياناً لسيادتي. وأما حزقيا ملك يهوذا الذي أبى الخضوع لي فأخذت ستاً وأربعين من مدنه المحصنة عدا القرى والمزارع التي لا تعد بعد أن حاربتها بالبتوس (أداة للحرب غير معروفة)... وأخذت منهم مئتي ألف ومئة وخمسين نفساً رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً. وغنمت خيلاً

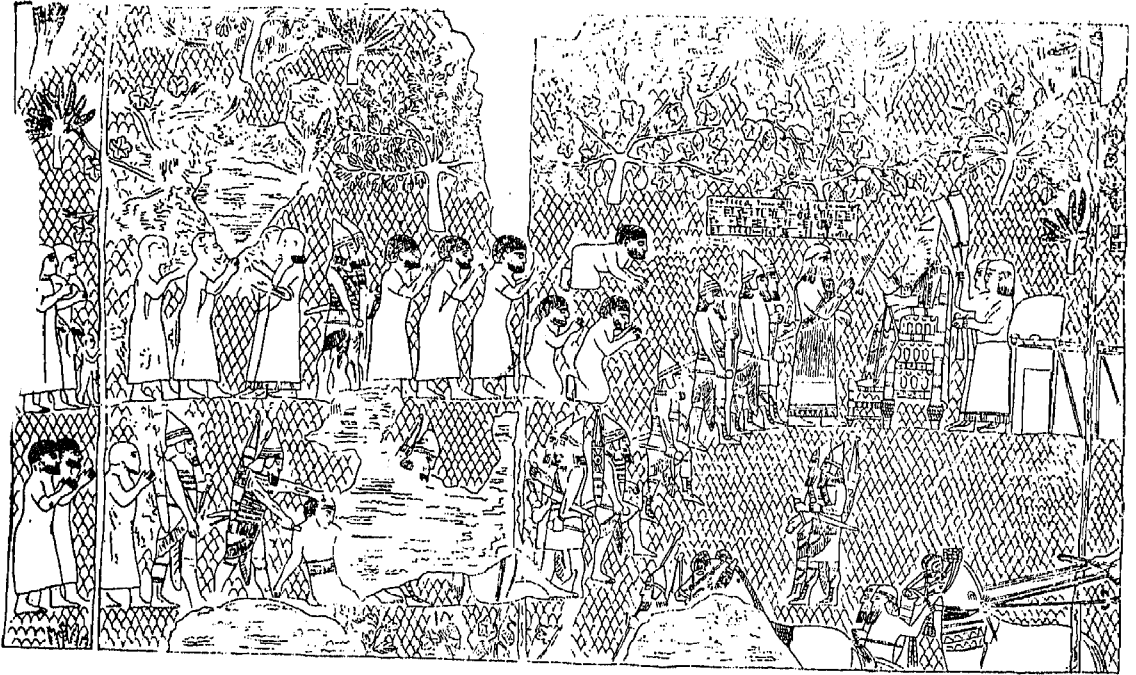
(١) يظهر أنّ هذه المدينة هي التقية التي ورد ذكرها في سفر يشوع (فصل ١٩ عد ٤٤) بين مدن سبط دان وقال فيكورو (مجلد ٤ صفحة ٣٠٨ من الكتاب والاكتشافات) إنه لم يعين أحد الجغرافيين موقعها ويظهر من هذا الأثر الأشوري إنها كانت في ناحية عاقر الان في الطريق على شاطئ البحر

وبغلاً وحميراً وجمالاً وبقراً وغنماً لا عداد لها. وهو نفسه (اي حزقيا) أسى محبوساً كعصفور في قفص في أورشليم عاصمة ملكه، وأقام أبراجاً حولها ومنع خروج الناس من بابها الكبير، فأخذت من وسط مملكته المدن التي جلوت سكانها وسلمت هذه المدن إلى ميتنتي ملك أشدود وبادي ملك امكرونا (عقرون). واسمبيل ملك غزة فانقصت مملكته وزدت على جزيتهم القديمة ان يؤخذ قسم من حاصلاتهم كل سنة بياناً لخضوعهم لسلطنتي. وهو حزقيا أخذ فيه الرعب كل مأخذ من شدة سطوتي كما تولى الجزع العرب وجنوده، والشعب الذين كان حشدهم للمدافعة عن أورشليم عاصمة ملكه. فأدّى إليّ جزية ثلاثين قنطاراً من الذهب وثمانى مئة قنطار من الفضة والمعادن الثمينة... ومن العاج لعمل عرش، ومن جلود البقر وقرون الثيران، ومن خشب الكال (لا يعرف ما هو) والأبنوس فتلك كنوز ثمينة. وقد أرسل إليّ إلى نينوى عاصمة سلطنتي بناته ونساء قصره ومغنيه ومغنيات. وبعث إليّ وفده لإداء جزيته وإبداء خضوعه». وفي أثر آخر لسنحاريب معروف بصفحة القسطنطينية خلاصة أخبار هذه الأحداث بأوجز عبارة: «أما لولى ملك صيدون فأخذت ملكه وأقمت توبعل على عرشه، وفرضت عليه جزية ورغمت على الخضوع لسلطتي الإقليم الفسيح أرض يهوذا وملكها حزقيا». وفي المتحف البريطاني أثر آخر منبئ بهذه الأحداث قل ما يختلف عما روينا، وفيه صفحة نقش عليها سنحاريب صورة حصاره لمدينة في فلسطين تمثل وضعه جثث القتلى بعضها فوق بعض على الأسوار وسوقه أهلها أسرى طبق كلامه الذي روينا.

فمن تبصر في ما كتبه سنحاريب وما ورد في الكتاب ألفى الروايتين اتفقتا في أمور عديدة حتى في أسماء نحو من ثلاثين مدينة، بل لا يكاد يظهر فرق في الأخبار المختصة بيني إسرائيل إلا في أمرين أحدهما إنخذال سنحاريب بقتل جنوده بأمر الرب. وهذا لم يكن لسنحاريب أن يذكره لئلا يخلد ذكر انخذاله وحذا في ذلك حذو غيره من الغزاة المصريين والآشوريين. وثانيهما جعله قناطير الفضة التي قدمها له حزقيا ثمانى مئة قنطار. وقال الكتاب إنَّها ثلاث مئة قنطار ولهذا الاختلاف وجه وهو أنَّ قنطار الفضة عند العبرانيين كان يساوي قنطارين وثلاثي القنطار عند البابليين، فالثلاث مئة قنطار التي ذكرها الكتاب كانت تساوي عند الآشوريين ثمانى مئة قنطار فلا خلاف.

وقد صدق في ما قال أنه ضيق على حزقيا وجعله كعصفور في قفص،

والكتاب أشار إلى ذلك لكنه لم يقل أنه كسر هذا القفص، وأخذ حزقيا منه بل قال إن هذا القفص أصبح حصناً حصيناً بوجهه، وأن حزقيا بنى حوله أبراجاً أخرى، وكلامه قاض عليه أنه لم يعتمد مضايقة حزقيا، وأخذ الجزية منه فقط بل أن ينتزع ملكه منه ويولي آخر عليه كما فعل في صيدا وعسقلون وغيرهما. وجل ما قاله إنه أخذ بعض مدنه وأكرهه على تخلية سبيل بادي ملك عقرون، فغاز جبار مثله وجنود مظفرة كجنوده. وأخذ كل البلاد المحيطة بأورشليم من كل صوب وأوقفوا الرعب في قلوب سكان سورية أجمعين، لم يكونوا ليعفوا كرمياً عن فتح أورشليم وهي جل الغرض من حملتهم، ولم يكن لحزقيا ومن حشد في أورشليم من القوة البشرية ما يكفي لرد غارة مثل هذه الجحافل الظافرة، فلا بد إذاً من أن كان انتكاصهم عن أورشليم بقوة غير بشرية، وبالغ سنحاريب أو كذب بقوله إن حزقيا أرسل له الجزية مع وفد إلى نينوى بعد الحرب. والصحيح أن حزقيا أرسل له ذلك وهو حال في لاكيش، وقبل أن يرسل قواد جيشه لتهديد حزقيا في أورشليم.



وهذا ظاهر لا من الكتاب وحده بل مما كتب تحت تمثاله المذكور آنفاً، وهو «سنحاريب ملك قبائل آشور جالس على عرش رفيع وتقدم أمامه التقدم في لاكيش». وسمات الجائين أمامه يقدمون التقدم وهيئاتهم تبين أنهم يهود حقاً.

ولنا في آثار آشورية أخرى ما يستلمح منه انخزال سنحاريب وذعره بعد حملته على حزقيا تصديقاً لقول الكتاب. فقد تبين من تلك الآثار أن العيلاميين سطوا كثيراً في تلك المدة على تخوم آشور الجنوبية وأنى كان لهم أن يتجاسروا على مثل ذلك لولا عود سنحاريب مدحوراً من اليهودية.

وقد حقق أوبر في مذكرات قدمها لجمعية الخطوط القديمة في لندرا سنة ١٨٦٩ م نقلاً عن آثار آشورية أن سنحاريب لم يعد إلى سورية بعد انخزاله مع بقائه في الملك بعد ذلك الانخزال ثماني عشرة سنة، مع أن شرفه وشراسته خلقه كانا يحملانه على ذلك، فلم يكفه عنه إلا ذعره من إله أورشليم. وقد وجد في حطام المؤرخين القدماء ما يثبت قول الكتاب في قتل جنود سنحاريب، فروى يوسفوس (في ك ١٠ فصل ٢ من تاريخ اليهود) فقرة من كلام باروز الذي كتب تاريخ الكلدان قال فيها: «إن سنحاريب وجد بعد عودته من مصر أن عسكره باد منه مئة وخمسة وثمانون ألفاً بوباء أنزله الله بهم في الليلة الأولى بعد أخذهم في حصار أورشليم بقيادة ربشاقا. فتولاه الرعب من أن يباد باقي جنوده فعاد مسرعاً إلى نينوى عاصمة ملكه، وبعد مدة قتله ابنه ادرملك وسلنار في هيكل آراك إلهه فساء الشعب عملهما. وطردوهما فهربا إلى أرمينيا وخلفه ابنه الأصغر أسرحدون» ولا حاجة إلى القول بأن هذه الفقرة ناطقة بمطابقتها لنص الكتاب. وروى هيرودت أبو التاريخ (في كتابه الثاني صفحة ١٤١ من طبعة سنة ١٨٠٢م: «إن سنحاريب ملك العرب والآشوريين عزم أن يحارب مصر بعسكر جرار، فلم يشأ رجال الحرب أن يتجنّدوا لوطنهم. وارتبك شاتوس الخبر (حاكم مصر حينئذ) واعتزل في الهيكل باكياً أمام تمثال الإله من جرى الحال التعيسة المقبلة عليه. وفيما هو ينتحب نام واعتقد أنه يرى الإله ظهر له مشجعاً ومحققاً أنه إذا مشى لمناسبة العرب فلا يحل به سوء، وإن الإله نفسه يكون له منجداً فاكسبته الرؤيا ثقة وثقى، فأخذ شاتوس من قومه كل من أراد خيراً ومضى بهم فحل في بالوز (فرما الآن طالع عد ١٠٠) التي هي مفتاح مصر، ولم يكن جنوده إلا من التجار والعملة والسوق ولم يصحبه أحد من المحنكين بالحرب، وعند وصوله بعسكره هذا إلى بالوس ظهرت فيران بكثرة

عجيبة في معسكر الأعداء. فقرضت أوتار آلات حربهم فأصبح العرب أعازل لا سلاح لهم. فانهزموا وأباد المصريون أكثرهم ويشاهد اليوم في هيكمل فلكان (في مصر) تمثال من حجر يمثل هذا الملك وعلى يده فارة كتب عليها: «تعلم أياً كنت عند نظرك إليّ أن تحترم الآلهة» انتهى ما كتبه هيرودت نقلاً عن كهنة مصر بعد نحو من ثلاثة قرون من أيام الواقعة، وهو على مخالفته لنص الكتاب في بعض أحواله لا ينكران مسنده. ما رواه الكتاب عما أصاب عسكر سنحاريب انتحله المصريون وعزوه إلى قوة آلهتهم فكانت الرواية مشوشة والحدث واحد.

وقد روى الكتاب أنّ سنحاريب «وفيما هو ساجد في بيت نصروك إلهه قتله أدرملك وسرّاصر أبناه». وقد جاءت الآثار الآشورية محققة أنّ نصروك كان معبود سنحاريب فقد جاء في أحد خطوطه المسمارية: «بالآذان المفتوحة التي وهبها لي نصروك». وهذا يبين لنا لماذا أضاف الكتاب نصروك إلى ضمير عائد لسنحاريب بقوله: «نصروك اله» وقد فسر سكردر نصروك بمعنى موزع النعم أو الوهاب، وفسّر أوبر الكلمة بمعنى من يشدد عقود الزواج. ولم تصرح الخطوط المسمارية بمقتل سنحاريب ولعله لفظاعة قتل الابنين أباهما. على أنّ في موجز تاريخ باروز وفي التاريخ البابلي رواية مقتله كما رواها الكتاب فقد جاء في التاريخ البابلي: «في ٢٠ من شهر تبيت قتل سنحاريب ملك آشور ابنه في ثورة وكان سنحاريب ملك في آشور أربعاً وعشرين سنة» (رواه أوبر عن التاريخ البابلي الكائن في المتحف البريطاني). وفي موجز تاريخ باروز اسم القاتلين، وإن بابدال بعض الحروف في اسم أحدهما كما رأيت آنفاً في فقرته. زعم بعضهم إنّ سنحاريب لم يعيش إلا قليلاً بعد عوده من فلسطين إلى نينوى، واحتجوا له بما جاء في سفر طوبيا (فصل ١ عد ٢١ وما يليه) «ولما قفل الملك سنحاريب من أرض يهوذا هارباً من الضربة التي حاقه الله بها بسبب تجديفه. وطفق لحنقه يقتل كثيرين من بني إسرائيل كان طوبيا يدفن أجسادهم فسمى ذلك إلى الملك فأمر بقتله. وضبط جميع ما له فهرب طوبيا بولده وزوجته عارياً واختبأ لأن كثيرين كانوا يحبونه، وكان بعد خمسة وأربعين يوماً أن قتل الملك ابنه فعاد طوبيا إلى منزله ورد عليه كل ماله». على أنّه قد تبين من الخطوط المسمارية أن سنحاريب عاش بعد عوده من فلسطين إلى نينوى ثماني عشرة أو تسع عشرة سنة كما مرّ. وعليه فالخمس والأربعون يوماً التي ورد ذكرها في سفر طوبيا يحسب بدؤها من يوم أمر سنحاريب بقتل طوبيا لا من يوم مآبه من فلسطين.

وبقي ان نقول شيئاً في ترهاقة الذي سماه الكتاب ملك كوش أي الحبشة فهو الثالث من الدولة الحبشية التي تولت مصر، ولم يكن في بدء أمره ملكاً على مصر بل على الحبشة، لأنه عد مصر بين البلاد التي افتتحها في خطوطه التي نقشها على جدار هيكل تاب (طيبة). وقال روجه: (في كلامه على آثار هذا الملك صفحة ١٦) انه قد كتبت تحت تمثاله الكائن الآن في متحف القاهرة اسماء الشعوب الذين استظهر عليهم وهم الساسو أي العرب. والحاثا أي الحثيون والأرواديون والكالتي أي الفينيقيون وآشور عدوه خاصة. وقال إنه يظهر ان حرب ترهاقة مع سنحاريب كانت قبل تبويته عرش مصر لأنه لم يل مصر إلا سنة ٦٩٢ ق.م. كما يظهر من الآثار المصرية ويلزم بمقتضاها ان تكون حملته على سنحاريب سنة ٧٠١ ق.م طبق ما جاء في الآثار الآشورية عن حملة سنحاريب على سورية وذلك مصداق لتسمية الكتاب ترهاقة ملك كوش وعدم تسميته بفرعون.

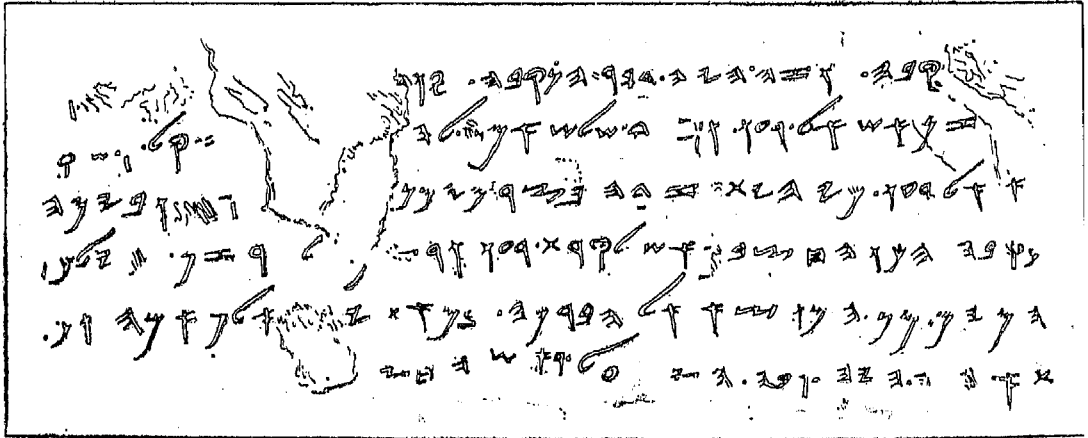
عد ٣٣٠

اجراء حزقيا الماء إلى اورشليم ووفاته

جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٢٠ عد ٢٠) «وبقية أخبار حزقيا وكل بأسه وانشاؤه البركة والقناة وادخاله الماء إلى المدينة مكتوبة في سفر أخبار الأيام». وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٢ عد ٢ وما يليه): «فلما رأى حزقيا ان سنحاريب قد وفد قاصداً محاربة اورشليم عقد مشورة مع رؤسائه وجبايرته في سد مياه العيون التي في خارج المدينة، فوافقوه فاجتمع شعب كثير وسدوا جميع العيون والنهر الفائق في وسط الأرض قائلين لِمَ يأتي ملوك آشور ويجدون مياهاً غزيرة؟» إلى ان قال (في عد ٣٨): «وحزقيا هو الذي سد مجرى الماء الأعلى في جيحون، واجراه أسفل إلى غربي مدينة داود». واليك الاكتشاف المهم الذي قيضه الله في هذا العصر.

إنَّ شباناً كانوا في صيف سنة ١٨٨٠ م يلعبون في بركة شيلوحا خائضين الماء في القناة الموصلة الماء إليها فسقط أحدهم في الماء، وشعر بعلامات كحروف منقوشة في الجانب الجنوبي من القناة الصخرية، وكان الشاب تلميذاً لمهندس جرمانى مقيم في اورشليم اسمه شيك، فقص على استاذة ما رآه فمضى إلى هناك

وأجهد نفسه في أخذ مثال لتلك الحروف وعرضه على أهل العلم بالآثار القديمة. ثم زار سايس وكندر وغيرهما من العلماء الجوالين محل الاكتشاف، فظهر لهم ان الماء جار من ينبوع المعروف اليوم بعين العذراء في خارج أورشليم. وفتحت له قناة في الصخر الصلد لإجرائه إلى داخل المدينة التي كانت وقشيد ممتدة إلى بركة شيلوحا، والقناة تزيد ٥٢٨ متراً على ما كان يلزم ان تكون لو وجد يومئذ مهندسو عصرنا، إذ فيها تعاريج كثيرة لم تكن لازمة. أما الكتابة فهي باللغة العبرانية لكنها كتبت بالحروف الفينيقية وقد ترجمها كثيرون ونحن نثبتها هنا أخذاً عن ترجمة فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٢٢٧ طبعة ٥) «النقر. هوذا تاريخ النقر لما كان العملة ينقر أحدهم بالمنقار قبالة رفيقه، وقد بقيت ثلاثة أذرع (لم تنقر) سمع صوت رجل ينادي رفيقه لأنه حصل غلط في نقر الصخر من الجانب الأيمن. وفي يوم الفتح كان العملة يضربون منقاراً (بيك) إلى منقار الواحد قبالة صاحبه. فجرت المياه من ينبوع إلى البركة في طول الف ومئتي ذراع، وكان ارتفاع الصخر ذراعاً واحدة فوق رؤوس العملة» انتهى. ومما يؤسف عليه ان هذه الخطوط لم تؤرخ ولكن يترجح كثيراً انها كانت في أيام حزقيا، وعليه فتكون مصداقاً لأي الكتاب التي ذكرناها. واليك في جانبه مثلاً لهذه الخطوط عن أصلها.



صورة الكتابة العبرانية المخطوطة على عين شيلوحا في أورشليم

ثم توفي حزقيا وعظم شعبه الاحتفاء بدفنه، وقبر في مقبرة ملوك يهوذا سنة

٦٩٦ ق.م على ما روى فيكورو في المحل المذكور (صفحة ٢٤٩)، لأنه ملك تسعاً وعشرين سنة. وفي السنة السادسة للملكه خربت السامرة (ملوك ٤ فصل ١٨ عد ١٠) وقد خربت سنة ٧٢١ أو سنة ٧٢٠ فتكون وفاته سنة ٦٩٦ ق.م كما مر.

عد ٣٣١

منسا بن حزقيا ملك يهوذا

خلف منسا أباه حزقيا على منصة الملك وعمره اثنتا عشرة سنة وملك خمساً وخمسين سنة في أورشليم وقد صنع الشرّ وعبد أصنام الكنعانيين وغيرهم، وأعاد بناء المشارف التي كان أبوه قد محققها، وأقام مذابح للبعل ونصب غابةً كما فعل آحاب. وسجد لجميع جند السماء أي للكواكب والنجوم وعبدها، وبنى لها مذابح في دار بيت الرب. وأقام تمثالاً لعشتاروت وأجاز ابنه في النار تكرمةً للملوك معبود الموابيين. ورصد الأوقات وتفاعل واستخدم أصحاب جان وعرافين إلى غير ذلك من المعاصي. قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه القديم للمشرق صفحة ٢٩٩ طبعة ٩): إن العصبية المناصبة للدين كان حزقيا كبجها لكنه لم يستأصلها فاستحوذت على ابنه الملك الشاب. وحملته على هذه المعاصي وعلى الانتقام من الانبياء ورجال الله، فلم يصغ لنصائح اشعيا وغيره من الانبياء، وازدرى تهديدهم ووعيدهم بأن الرب جالب على أورشليم ويهوذا شرّاً كل من يسمع به تطلّ أذناه، وإنه سينزل بأورشليم وملكها ما أنزله بالسامرة وآحاب، ولم يكن تهديد الانبياء إلا ليزيد منسا حنقاً فسفك دمًا ذكيًا كثيراً جرّداً. ولقد عبّر الكتاب عن كثرته بأنه ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب (ملوك ٤ فصل ٢١).

وقد اتفق تقليد اليهود وأقوال كثير من الآباء والعلماء على أنّ منسا أمات اشعيا منشوراً بمنشار من خشب لزيادة التبريح به. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٣ عد ١٠): «فكلم الرب منسا وشعبه فلم يسمعوا. فجلب الرب عليهم قواد جيش ملك آشور، فأخذوا منسا في الأصفاد وأوثقوه بسلسلتين من نحاس وأخذوه إلى بابل. ولما كان في الضيق التمس وجه الرب إلهه... وسمع لتضرعه وردّه إلى أورشليم إلى ملكه فعلم منسا أنّ الرب هو الإله». ويظهر من الآيات التالية أنّ منسا بعد عودته إلى ملكه أحسن مسعاه وأزال التماثيل التي كان نصبها

لآلهة الأمم، وهدم المذابح التي كان عملها في بيت الرب. ورَّم مذبح الرب وذبح عليه ذبائح سلامة وشكر. وأمر يهوذا أن يعبدوا الرب إله إسرائيل إلا أن الشعب ما زالوا يذبحون على المشارف. ولكن للرب إلههم فلم تكن ثم عبادة وثنية، لكن ذلك مخالف لوصية الرب أن يذبحوا في هيكل أورشليم. وروى يوسيفوس أن منسا استمر على مسعاه الحسن إلى مماته.

قال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٢٦٥) لا نص في الكتاب أقيم النكير على صحته في هذه الآيات مثل آيات سفر أخبار الأيام التي أنبأنا بأسر منسا ملك يهوذا إلى بابل. وقد حسبها الملحدون محض تخيُّل، وهم محتجين بأن ليس في سفر الملوك خطة تُنبئ بهذا الأسر، وبأن التاريخ مثبت إنه لم يكن للملك آشور في سورية شيء من السؤدد أو السطوة في الحقبة التي بين سنة ٧٠٠ وسنة ٦٥٠ ق.م، والتي كان فيها منسا وقالوا: أتى يصدق أن ملك آشور يجلو منسا إلى بابل لا إلى نينوى مدينته، وبابل كانت متحفزة في كل فرصة للثورة على نينوى. وملكها كان عقد محالفة مع حزقيا أبي منسا على ملك آشور. على أن ما لا يريد الملحدون تصديقه تفحهم بصحبته الآثار الآشورية نفسها قاضية عليهم بالجهل أو المكر. فقد رونا في كلامنا في الفينيقين (عد ١٢٤) ما كتبه اسرحدون على إحدى صفائحه من أنه ضرب صيدا وأهلك سكانها ودمر أسوارها ومنازلها وقبض على ملكها وجلا جمعاً غفيراً من سكانها إلى آشور. وقد عد في صفيحة أخرى الملوك الخاضعين له في سورية فقال: «بعل ملك صور منسا ملك يهوذا قدموه ملك أدوم» إلى غيرهم وكتب ابنه آشور بانيال في حملته الأولى على مصر (اسطوانة أولى عمود أول على ما ترجم سميت في تاريخ هذا الملك صفحة ١٧): «سرت إلى مصر والحبشة فالتقاني في طريق غزوتي إثنان وعشرون ملكاً يملكون على شاطئ البحر وفي وسطه (كقبرص)، وجميعهم يؤدون الجزية إليّ، ومثلوا بحضرتي وقبّلوا قدمي». وعدد (في الأسطوانة الثالثة) أسماء هؤلاء الملوك فكان منهم «بعل ملك صور ومنسا ملك يهوذا» وقال إن سما سوموقين قيل بابل كان ثار عليه وحازبه ملوك فينيقية وفلسطين وهوران وبلاد العرب. ومنهم منسا ملك يهوذا وكان سما سوموقين أخاً لآشور بانيال وكان نصبه قبلاً في بابل فسوّلت له نفسه أن ينتزع الملك من يد أخيه الأكبر ويستبد به، فهب آشور بانيال، لمناسبة أعدائه وكتبهم. ودونك ما كتب (في الاسطوانة الأولى عمود

٢ كما روى سميت في تاريخه صفحة ١٥٤ و ١٥٥): «وسما سوموقين أخبي الصغير لم يخلص لي في الطاعة وأثار عليّ رجال أكّد (بابل) وبلاد الكلدان، وآرام وشاطئ البحر (يريد البحر المتوسط أي فينيقية وفلسطين مع مملكة يهوذا) من أكابا (علّه خليج عقبه المعلوم) إلى بابساليمتو (لعلّ المراد أطراف مصر أو أطراف مملكة آشور) وكان هؤلاء جميعاً يؤدون إليّ الجزية. ويدلون لي وأومانيكاس الآبق الذي دان عنقه لنير سؤددى وكنث ملكته في عيلام وملوك الكوتي (الحثيين)، وسورية والحبشة (يريد مصر والحبشة معاً) الذين كانوا في قبضة يدي بأمر آشور وبتليس (الالهين) فهؤلاء جميعاً ثاروا. وأتمروا معه (أي مع أخيه) عليّ». وقال في أثر آخر (ذكره سميت صفحة ١٦٩): «ثاروا عليّ (أي من ذكرهم أنفاً) فأخضعتهم كما أمر آشور وبتليس وسائر الآلهة الذين عليهم اتكلت وكدنت أعناقهم بنير آشور الذي كانوا خلعه ونصبت عليهم نواباً... طوع يدي... وفرضت عليهم جزية على أرضهم قدرأ معيناً لا ينقص منه شيء واجب الأداء لسلطنتي» ولا غرو إن كان منسا من هؤلاء الملوك الذين أذلّهم آشور بانيبال وقد أخذه قواد جيشه مكبلاً بالحديد إلى بابل والوجه في أخذه إلى بابل لا إلى نينوى ظاهر مما مرّ ولا يُخفى إلّا على أعين الملحدّين فأشور بانيبال كان حينئذٍ في بابل مخمداً ثورة أخيه. وأراد أن يظهر للثائرين كيف يجزى من يهوون خلع نيره. ولا حجة للملحدّين بخلو سفر الملوك الرابع عن خبر أسر منسا مع إثباته في سفر أخبار الأيام الثاني، فإنّ كثيراً من الأحداث ذكرت في أسفار الملوك أو في سفر أخبار الأيام ولم تذكر في كليهما معاً. وقد إستشكل الملحدون أن يأخذ آشور بانيبال منسا مكبلاً بالحديد ثم يعيده إلى عرشه. ولا إشكال فإنّ آشور بانيبال نفسه صنع كذلك مع نكو أو نخو ملك سايس في مصر. وذكر التكبيل بالحديد مستفاض في تواريخهم. فقد كتب آشور بانيبال في إحدى اسطواناته (ذكره سميت في تاريخه صفحة ٤٣) «سر لوداري ملك زيهينو (لعلّهما فرما في مصر) ونخو ملك منف قبضوا عليهما وأوثقوهما بسلاسل من حديد، وكبّلوا أيديهم وأرجلهم بقيود من حديد» وقال (في اسطوانته الأولى عمود ٣) دومان وسمكون ملكا كمبول عدوا سلطنتي غللت ايديهما وارجلهما بسلاسل متينة من حديد» فكلّ ما مرّ يبيّن ما أبطل مزاعم الملحدّين، وما يأتي يزيد في إثبات آي الكتاب وتوفّر به الفوائد التاريخية.

حملات اسرحدون وآشور بانيبال على سورية ومصر في عهد منسا ملك يهوذا

لما كان منسا ملك يهوذا قد استمر على منصبة الملك خمساً وخمسين سنة كانت حملات اسرحدون وآشور بانيبال على سورية ومصر في أيامه. وأثرنا أن نثبت أخبار هذه الحملات لما فيها من الفوائد في تاريخ سورية ومن البيان لآيات الكتاب. فقد جاء في الفصل التاسع عشر من سفر الملوك الرابع (عد ٣٧) إن سنحاريب قتله ابنه ادرملك وشراصر وملك اسرحدون ابنه مكانه. وقد كشف عن فلذة من أجر في نينوى كتب عليها آشور آح ايدين (هو أصل اسم اسرحدون وتأويله آشور أعطى) ملك بلاد آشور ابن سنحاريب ملك آشور. وعن الآثار الآشورية إنه خلف أباه سنة ٦٨١ ق.م. وبقي على منصبة الملك إلى سنة ٦٦٨ أي إنه ملك ثلاث عشرة سنة. ويظهر أنه لم يكن في نينوى عندما قتل أخواه أباهما فنازعهما الملك. وكانت بينهم حرب عوان على ضفة الفرات العليا فاستظهر عليهما واستبد بالملك، وصرف عزمته أولاً في استتباب الراحة في ما بين النهرين، وفي استرداد الأقاليم التي خسرها أبوه بعد انتكاصه مدحوراً من فلسطين. وكان أحد ابناء مروдах بلادان إدعى الاستقلال في بابل وشاطئ الخليج العجمي. فزحف إليه اسرحدون بجيوشه ففر مدحوراً، ولجأ إلى ملك عيلام فقتله تحزراً من حنق اسرحدون عليه. وكان له أخ يئس من النجاش فوفد طائعاً إلى نينوى فعفا عنه اسرحدون، وأمره على البلاد الواقعة على خليج العجم (لانرمان مجلد ٤ من تاريخه القديم صفحة ٣٢٤). وبعد أن أمّن اسرحدون ما بين النهرين حمل بجيوشه على سورية لأنه بلغه أنّ ملك ضبيدا وغيره عصوا عليه. فدمر ضبيدا واستحوذ على غيرها من مدن سورية كما ذكرنا في تاريخ الفينيقيين (عد ١٢٤) نقلاً عن آثاره، وجلا قوماً من السوريين إلى آشور، وقوماً من أنحاء أخرى إلى فلسطين. وهؤلاء هم الذين نراهم قالوا لزربابل ورؤساء الآباء بعد العود من الجلاء: «نحن نبني معكم (الهيكل الجديد) لأننا نطلب إلهمكم مثلكم، ونحن نذبح له من أيام اسرحدون الذي صيرنا إلى هنا» (عزرا فصل ٤ عد ٢).

وكان ترهاقة ملك الحبشة الذي حارب سنحاريب قد تغلب على مصر وانبسط

حكمه فيها. وسُمِّي نفسه ملك الحبشة ومصر. فزحف اسرحدون بجحافلِه إليه يبغي إنتزاعه من ملكه والولاية على مصر. وعرف ترهاقة بمسيره إليه فأُسرع بإرسال جيشه إلى فلسطين تداركاً للنازلة قبل حلولها. فالتقى الجيشان في ضواحي عسقلان على ما يظهر من أحد آثار اسرحدون، فاستظهر ملك آشور على ترهاقة، وشَتَّت جنوده واستدرك ملك مصر النجاة بالفرار. فدخل الغازي مصر في طريق دمياط، واستحوذ على منف وتاب (طيبة). وأخذ تماثيل الآلهة والآلات وملابس الكهنة الثمينة وحلي نسائهم وأرسلها إلى هياكل آشور. وقسم مصر إلى اثنتين وعشرين ولاية وافترض على كل منها جزية مقدَّرة. وجعل نكو أو نخو الأول ملك سائس رئيساً على هذه الولايات فكان أول ملك من الآشوريين سَمى نفسه ملك مصر والحبشة. وكانت هذه الأحداث في سنة ٦٧٢ ق.م. واليك ما كتبه آشور بانيبال ابن اسرحدون في غزوة أبيه هذه: «ترهاقة ملك مصر الذي خذله أبي الذي ولدني اسرحدون ملك آشور وولي بلاده لم يحترم سطوة آشور وإستار وكبار الآلهة أربابنا. واعتمد على قوَّته وثار على الملوك والحكام الذين كان أبي الذي ولدني أقامهم في مصر ليفتك بهم. وينتهب أموالهم ويستحوذ على مصر ودخل منف، وأقام فيها بعد أن كان أبي الذي ولدني أخذها وأضافها إلى تخوم بلاد آشور». وقد كان نخو رئيس حكام مصر سليل أسرة لها حقُّ الملك في مصر. فازدلف إلى اسرحدون أملاً أن يكسبه ذلك قوة على ترهاقة الملك الحبشي فتعود ولاية مصر يوماً إليه وكان بينه وبين ترهاقة وقائع حققت لنا نبوة اشعيا حيث قال (فصل ١٩ عد ٢ وما يليه):

«وأسلح مصر على مصر فيقاتل الإنسان أخاه والرجل صديقه مدينة مدينة ومملكة مملكة... وادفع إلى يد سيد قاس. وملك ذو عزة يتسلط عليهم يقول السيد رب الجنود... قد سفه رؤساء صوعن (تانيس عند قدماء المصريين وسان الآن). وغوى رؤساء نوف (منف) وأضل مصر وجوه اسباطها... في ذلك اليوم يكون طريق من مصر إلى آشور فتأتي آشور إلى مصر ومصر إلى آشور» فتَمَّت نبوءات اشعيا بما مرَّ وبما سيأتي عن غزوات آشور بانيبال. وعند عودة اسرحدون من غزوته في مصر مرَّ بسورية فالتقاء ملوكها ومنهم منسا ملك يهوذا مبدين أدلة خضوعهم لسلطته. ونقش مثاله على معبر نهر الكلب بين تماثيل غزاة بلادنا كما مرَّ في عد ١٢٤. وقد كتب على صفيحة من أجر: «أنا اسرحدون الملك العظيم الملك القدير ملك القبائل ملك بلاد آشور وسيد بابل ملك سومير وأكد ملك ملوك مصر

وتيبائس (الصعيد) والحبشة أنا بنيت قصر تريس لسكنى آشور بانيبال ابن الملك العظيم».

أما آشور بانيبال فكان أبوه اسرحدون أشركه في الملك ثم استبدَّ به بعد وفاته سنة ٦٦٨ ق.م وكان محباً للعلم والعلماء حبه للحرب ورجاله وقد ترك آثاراً عديدة مهمة وهو الذي جعل العلماء يضعون الأصول النحوية للغتهم والنشرات التاريخية والمراقبات الفلكية. وأكثر الكتب الخزفية التي وُجدت في المكتبة التي كشف عنها لا يرد وغيره في نينوى وقدما الإشارة إليها في صدر هذا الكتاب. ومنذ استبداده بالملك اضطرَّ إلى إيقاد نار الحرب على مصر، فإنَّ ترهاقة عاد بعسكر جرَّار إلى مصر واستحوذ ثانية على تاب ومنف فجيَّش آشور بانيبال جيوشه وهبَّ مسرعاً إلى مصر. ومَرَّ بسورية فالتقاه ملوكها وملوك قبرص وكانوا إثنين وعشرين ملكاً منهم منسا ملك يهوذا كما مرَّ. وقدموا له الجزى والهدايا فسار لا يلوي إلى أن التقى بجيوش ترهاقة عند كربانيت فضربهم. وتفرَّقوا شذر مذر. وفرَّ ترهاقة فوطد آشور بانيبال سلطته في مصر وزاد على حاميته فيها وعاد إلى نينوى. فتحالف حكام مصر الوطنيون ونحو رئيسهم على خلع ولاية آشور عنهم، واستدعوا ترهاقة لإنجادهم، فلبَّى دعوتهم على أنهم كانوا من الخاسرين، لأنَّ الحامية الآشوريين تقوَّوا عليهم. وقبضوا على نحو وحاكمين آخرين وأرسلوهم مكبلين بالحديد إلى نينوى، ولم ينكف ترهاقة عن القتال وافتتح مرة أخرى تاب ومنف، لكنه على ما يقال حلم حلماً وقَّفه عن مسيره وعاد إلى الحبشة ومات.

وأما آشور بانيبال فأفرط في الحلم وردَّ نحو إلى ولايته في مصر مكرماً معزراً، وأتخفه بمَنَح وهدايا نفيسة فكان ذلك وبالأ، لأنَّ المصريين ما عثموا أن عادوا ثائرين على الآشوريين. فإنَّ رجلاً اسمه أردمان ابن امرأة ترهاقة أو ابنه على رواية أخرى وثب على تاب فاستحوذ عليها، وظفر بالآشوريين على أسوار منف وقبض على نحو فقتله. فاستشاط آشور بانيبال غيظاً وآلى أن يقرض ملوك الحبشة والمصريين ويقطع دابرهم كيلا يبقى منهم من يجترئ على العدو إلى مطامعهم. وزحف بجيوشه الجرامة إلى مصر ماراً بسورية فلم يلقَ فيها إلَّا التجلَّة والخضوع. وإليك ما كتبه في حملته الثانية إلى مصر (اسطوانة ١ عمود ٢ نقلاً عن سميت في الإكتشافات الآشورية صفحة ٣٢٨): «في حملي الثانية سيَّرت جوشي إلى مصر والحبشة. ولما علم أردمان بدتو غزاتي وإني عبرت تخوم مصر غادر منف وانهزم إلى

تاب لينجو بنفسه. فمثل أمامي الملوك والرؤساء والحكام الذين كنت نصبتهم في مصر وقبّلوا قدمي. فتتبعت الطريق الذي سلكه أردمان وانتهيت إلى تاب المدينة الحصينة. ولما رأى دنو جيوشي الظافرة من تاب فرّ منها إلى كيكيب (في أطراف الصعيد). فملك يدي هذه المدينة (تاب) بكل ما فيها خدمة لآشور وإستار وأخذت منها ذهباً وفضة وحجارة ثمينة، وأثاث قصره وكل ما حواه من ملابس كتان وصوف، وخيولاً عظاماً، وعبيداً ذكوراً وأناثاً. وكانت هناك مستلتان مغشأتان بنقوش بديعة ووزنهما خمسة وعشرون ألف وزنة (أو قنطار). وقد أقيمتا أمام باب هيكل، فانزعتهما من محلّهما ونقلتهما إلى آشور، فحرزت من تاب غنيمة كبرى لا يعادلها ثمن». وكان افتتاح تاب هذا لسنة ٦٦٤ أو سنة ٦٦٣ ق.م (على ما روى اوبر في مذكرته المار ذكرها).

وقد حمل آشور بانيبال حملة ثالثة على صور وحاصرها سنين إلى أن ظفر بها. وأدّى ملوك سورية الجزية إليه صاغرين كما مرّ في عد ١٢٥، وله حملات أخرى على غير مصر وسورية لا نحفل بذكرها لأنها خارجة عن غرضنا. على أننا لا نشاء أن يفوت قراء كتابنا أنّ الآثار المسمارية المنبئة بحملة آشور بانيبال الثانية على مصر، قد أكسبتنا حلّ معضلة في الكتاب توفرت وتضاربت بها أقوال مفسريه، وهي إنّ نحوم النبي تنبأ على خراب نينوى بكلام فصيح بليغ ولم يؤرّخ نبوّته، وذكر مدينة سماها نوامون قائلاً إنه نصيب نينوى ما أصابها. فاختلف المفسرون في تاريخ نبوة نحوم، وفي أي عصر كان هو، وأين هي نوامون. فذهب نيكوفوروس إلى أنّ نحوم كان في أيام فاقح ملك إسرائيل، وذهب يوسيفوس إلى أنه كان في آخر مدة يواتام. وفي سدر علام ربا (من كتب اليهود) أنه كان في أيام منسا ملك يهوذا إلى غير ذلك من الأقوال، ولم يتفق المتأخرون على ما اختلف فيه المتقدمون إلى أن قضت آثار آشور بانيبال في هذا المبحث وحلّت المعضلة. ودونك ما قاله نحوم النبي (فصل ٣ عد ٧ وما يليه) مخاطباً نينوى: «فكلّ من يراك يعرض عنك ويقول قد دُمّرت نينوى فمن يرثي لها ومن أين أطلب لك معزّين. هل أنت خيرٌ من نوامون الساكنة بين الأنهار (في النص العبراني «في وسط النهر وهو النيل»). التي حولها المياه ومرتستها البحر وأسوارها المياه. كوش ومصر قوتها ولا نهاية لها وفوط ولويم في نصرتك. فهي أيضاً ذهبت إلى الجلاء مسببة وأطفالها أيضاً حُطّموا في رأس كل شارع وعلى كرامها ألّفوا القرع وجميع عظمائها أوثقوا بالقيود».

فالقديس ايرونيμος ترجم نوامون باسكندرية في الترجمة اللاتينية العامة، وهو لا يجهل أنّ هذه المدينة سُميت اسكندرية نسبةً إلى اسكندر بعد نحوم بقرون، لكنه كان يظنّ أنّ نوامون كانت في المحل الذي بنيت فيه اسكندرية بعد ذلك، إلى أن جاءت آثار آشور بانيبال مصرّحة بأنّ نوامون إنما هي تاب عاصمة مصر العليا لأنها سمّتها نوا وتلفظ نو أو نا ونحوم النبي زاد على اسمها اسم معبود أهلها. وهو آمون فصارت نوامون. والمعنى نو مدينة الإله آمون، وليس من يقيم نكيراً على عبادة آمون في تاب. والأوصاف التي وصف النبي نوامون بها تنطبق خير إنطباق على تاب. فإنها كانت يومئذ المدينة الوحيدة القائمة في وسط المياه لبنائها على ضفتي النيل. وهي التي كان بنصرتها كوش أي الأحباش واردمان الملك الحبشي. وكان فوط أي المصريون ولوييم أي اللييون في جيوش اردمان المذكور الذي انتصر عليه آشور بانيبال كما رأيت في كلامه. وذكر اوير أثراً آخر لهذا الملك وبما قاله فيه إنّ جنوده «تولّوا هذه المدينة برمتها ودمروها تدمير طوفانٍ مقتلع». وكل ذلك مصداق لكلام نحوم. وقد مرّ أنّ حملة آشور بانيبال هذه على تاب كانت سنة ٦٦٤ أو سنة ٦٦٣ ق.م. وعليه فنحوم كتب نبوّته بعيد ذلك وهو كان في أيام منسا ملك يهوذا (ملخص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو مجلد ٤ صفحة ٢٥٩).

عد ٣٣٣

قتل يهوديت اليفانا في أيام منسا الملك

إنّ ما ذكره الكتاب في سفر يهوديت برمته إنما كان في أيام منسا ملك يهوذا وآشور بانيبال ملك آشور. ويظهر أنّ الأحداث المحكي عنها في هذا السفر جرت بينما كان منسا مجلّواً إلى بابل. وهي أحداث تاريخية لا تخيلية كما وهم بعض الملحدّين، ولا رمزية أو نبوية كما زعم بعض العلماء، فنلخص في هذا العدد ما ورد في السفر المذكور ونلحقه في العدد التالي بما جاء في الآثار مؤيداً له، وإليك خلاصة هذا السفر. «كان ارفكشاد ملك الماديين أخضع أمماً كثيرة لسلطانه وأنّ نبوكدنصر ملك آشور الذي كان مالكاً على نينوى المدينة العظيمة، حارب ارفكشاد فظفر به. فعظم نبوكدنصر وسمت نفسه فراسل جميع سكان قيليقية ودمشق ولبنان والأمم التي في الكرمل وقيدار وسكان الجليل في صحراء يزرعيل (مرج ابن عامر)

الواسعة. وجميع من في السامرة وعبر الأردن إلى أورشليم وفي جميع أرض يسي إلى حدود الحبشة. فأبى جميعهم (طاعته) إتفاقاً وردّوا الرسل خائبين وطردهم بلا كرامة. فاستشاط نبوكدنصر غضباً وحلف لينتقم من سكان تلك البلاد (فصل ١). فاستدعى اليفانا قائد جيشه وأمره أن يخرج على جميع ممالك الغرب ولا يشفق على من استهانوا بأوامره فأخذ اليفانا مئة وعشرين ألف راجل، وإثني عشر ألف فارس ولما جاوز تخوم آشور، انتهى إلى جبال النجمة العظيمة التي إلى يسار قيليقية. وزحف إلى جميع قلاعهم وتسلم كل الحصون وفتح مدينة بلوطة. ونهب جميع بني ترشيش (نرسيس) وبني إسماعيل الذين حيال البرية (ثم حمل اليفانا حملة أخرى على سكان شرقي الفرات أشار الكتاب إليها بقوله) ثم عبر الفرات وأتى إلى ما بين النهرين وقهر جميع ما هناك من المدن المشيدة من وادي ممرا (وهو) خطاً من النساخ صوابه نهر خابور كما في بعض الترجمات) إلى البحر (خليج العجم). (ثم أرسله ملكه لحملة أخرى على العرب قال الكتاب فيها) واستولى على حدودها من قيليقية إلى تخوم يافت التي إلى الجنوب (من بلاد العرب)، وأسر جميع بني مدين (المراد بهم العرب الرحّل لأنه جاء في النص اليوناني: «وأحرق خيامهم»). وغنم كلّ ثروتهم. وبعد ذلك انحدر (من بلاد العرب) إلى صحارى دمشق في أيام الحصاد. وأحرق جميع حقولهم وقطع كلّ أشجارهم وكرومهم. فوقع رعبه على جميع سكان الأرض (فصل ٢). فأرسل إليه ملوك سورية ولوبية وقيليقية مستسلمين إليه واستقبلوه بالأكاليل والمصابيح راقصين بالطبول والنايات، فلم يمكنهم أن يلبثوا قساوة قلبه، فإنه دثر مدنهم وقطع غاباتهم وأتى الأدوميين وأخذ مدائنهم وأقام هناك ثلاثين يوماً ليجمع كلّ قوة جيشه (فصل ٣).

وسمع بنو إسرائيل فخافوا جداً من وجهه وأرسلوا يُعلمون إخوانهم في كلّ جهة. وكتب ألياقيم الحبر (هذا مُشعر بأنّ ملكهم لم يكن حينئذٍ بينهم بل في بابل) إلى جميع الساكنين قبالة يزرعيل (مرج ابن عامر) وإلى جميع الذين يمكن الغازي أن يجوز في أراضيهم أن يضبطوا مراقي الجبال، ويحفظوا المضايق التي بينها وصرخوا إلى الرب خاشعين بالصوم والصلاة. ولبس الكهنة المسوح وطرخوا الأطفال أمام هيكل الرب (فصل ٤). وعرف اليفانا باستعدادهم للقتال فاستشاط غضباً. واستعلم من رؤساء بني مواب وعمون عن حال بني إسرائيل ومدنهم. فقصّ عليه احيور قائد بني عمون أخبار بني إسرائيل منذ نشأتهم في ما بين النهرين إلى أيامه.

واختتم كلامه بقوله إن لم يكن الآن لهذا الشعب إثم أمام إلههم فلا طاقة لنا بهم لأن إلههم يدافع عنهم. فغضب عليه اليفانا وهم رؤساء جيشه بقتله. وأمر اليفانا أن يقبضوا عليه ويسلموه إلى أيدي بني إسرائيل حتى إذا كان ما قاله صحيحاً نجاً. ولأعمال سيفه به فأخذ جنود اليفانا وربطوه على شجرة في قرب معسكر بني إسرائيل الذين حلّوه من وثاقه، وقصّ عليهم ما كان له فعزوه وأكرموه وأقام بينهم وواظبوا هم على الصلاة والخشوع لله (فصل ٥ و ٦).

وزحف اليفانا بعسكره ومن استصحبهم من الأقاليم والمدن. وجاءوا من جانب الجبل إلى القمّة المشرفة إلى دوتان (المعروفة الآن بتل دوتان في الشمال الغربي من سانور والجنوب الغربي من جنين كاران مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٢٠ وكتاب الأعلام). ومن الموضع المسمى بلما (رَجَّح كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٤٧ إنها تسمى اليوم خربة بلعمه على مقربة من دوتان، وكذا في كتاب الأعلام الكتابية) إلى قليمون التي قبالة بزرعيل (وتُعرف الآن بتل كليمون في طرف مرج ابن عامر على طريق عكا كاران مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٤٣). وأقام أرساداً على الينابيع التي كان أهل مدينة بيت فلولى يستقون منها (وقد أثبت كاران براهين عديدة في مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٤٦ إنَّ بيت فلولى هي المسماة الآن سانور^(١)) آملاً أن يُكره بهذه الوسيلة بني إسرائيل على الإستسلام إليه. فجفّت مياه الآبار والحياض بأسرها فصرخ الشعب إلى الله خاشعين وهمّوا بأن يستسلموا إلى اليفانا (فصل ٧). وسمعت بهذا امرأة أرملة اسمها يهوديت من سبط رآوبين بدیعة الجمال متّقية الله؛ ولم يكن أحد يقول عليها كلمة سوء، فاستدعت إليها

(١) ان العالم ربواسون يذيع في هذه الايام في المجلة الموسومة بمجلة الارض المقدسة فصلاً في تحقيق صحة سفر يهوديت بالاثار الاشورية وقد تكلم في هذه المدن في نشرتها الصادرة في ١٥ حزيران سنة ١٨٩٤ فقال ان بيت فاوى كانت في المحل المسمى اليوم المدينة الطويلة على مقربة من حطّين او قرن حطّين في غربي بحيرة طبرية وان دونان لم تكن في المحل المعروف في أيامنا بتل دوتان بل في محل حطّين الان وإن بلما إنما هي التي سماها الكتاب إبل بيت معكة وإن هذه لم تكن في نواحي بانياس بل في نواحي بحيرة طبرية وإن قليمون كان موقعها في المحل المعروف واليوم بكفر كاما فقد ذهب إلى أن عسكر اليفانا عبر الاردن في المحل المعروف بجسر بنات يعقوب فجعل مواقع هذه المدن في تلك الجهة بين صفد شمالاً وبحيرة طبرية جنوباً وأقام على كلامه أدلة يضيّق هذا المقام عن استقرارها وبيان قدرها.

شيوخ قومها، وذكرتهم بآيات الله مع ابنائهم وحزوتهم على الاعتصام بالله. وكشفت لهم عن عزمها أن تفعل شيئاً بأمر الله لنجاة شعبه. وسألتهم أن يصلوا لله ليؤيد ما عزمته عليه، ولا يفصحوا عما قصدت (فصل ٨).

ودخلت يهوديت مخدعها ولبست مسحاً وألقت رماداً على رأسها وخرّت أمام الله خاشعة تستميحه الأيد والعون على خلاص شعبه (فصل ٩). ثم خرجت ودعت وصيفتها ونزعت عنها ثياب أرمالها واستحمت وأدهنت بأطياب نفيسة، ولبست أفخر ملابسها. وتحلّت بحلّالها وحملت جارياتها زق خمر وإناء زيت ودقيقاً وتيناً يابساً وخبزاً وجبناً، وخرجت من باب المدينة منطلقة نحو معسكر العدو، وعند تبّلع النهار لقيتها طلائع الآشوريين وسألوها عن أمرها فقالت أنا بنت للعبيرانيين هربت من بينهم لأنني أيقنت أنهم سيكونون غنيمة لكم، وقلت إنني أنطلق إلى الأمير اليفانا لأخبره بأسرارهم، وأدّله على مداخل المدينة ليظفر بهم، ولا يُقتل رجل من جيشه. فأخذوها إلى خيمة اليفانا وأخبروه بأمرها. ولما دخلت عليه إصطيد لساعته بعينيها (فصل ١٠). ولاطفها وأكرمها وسألها لِمَ أثرت الحجى إليه، فأجابته ليحيى نبوكدنصر ملك الأرض ولتحيى قوته التي فيك لتأديب جميع النفوس الغاوية، لأنّ ذكاء عقلك قد شاع في جميع الامم، وحسن سياستك ذائع في جميع الأقاليم. وأخذت تقصّ عليه أخبار الضيق المكتنف قومها من حاجتهم إلى الماء والقوت، وإنهم يعلمون أنهم أسخطوا إلههم فحلّ رعبهم فيهم. وإنها هربت لذلك من عندهم وقد بعثها الرب إليه لتخبره بهذا، وقالت أنا أمتك أعبد الله حتى الآن عندك أيضاً وأخرج وأصلي إلى الله فيقول لي متى يردّ عليهم خطيئتهم، فأجيء وأخبرك بذلك حتى آخذك إلى وسط أورشليم ولا ينبج عليك كلب. فحسّن هذا الكلام عند اليفانا وعبيده وكانوا يتعجبون من كلامها وجمالها (فصل ١١).

فأمر اليفانا أن يدخلوها موضع خزائنه وأن تُعطى مأكلاً من مائدته. فقالت لا أستطيع أن أكل مما أمرت. فقال إذا فرغ ما أتيت به فماذا نصنع بك؟ قالت: تحيا نفسك يا سيدي لا يفرغ ما أتيت به حتى يصنع الله بيدي ما في خاطري. فأدخلها عبيده الخيمة التي أمر بها، وسألت إن يُرخص لها لتخرج قبل الصباح لتصلي إلى الرب وتعود. فأوصى أصحاب مخدعه أن يأذنوا لها، وكانت تخرج ليلاً إلى وادي بيت فلولى، وتغتسل في عين الماء وتصلي إلى الله أن يرشد طرقها لتخلص شعبه، ثم تعود إلى خيمتها طاهرة. وكان في اليوم الرابع أن صنع اليفانا

عشاءً لعبيده، وقال لخصيه انطلق واقنع تلك العبرانية أن ترضى بالإقامة معي طوعاً. فقالت يهوديت من أنا حتى أخالف سيدي. وترئيت بملابسها ودخلت فوقفت أمامه، فاضطرب قلبه وبالغ في اكرامها. فأخذت وأكلت وشربت مما كانت أمتها هيأته لها. ففرح اليفانا وشرب من الخمر أكثر مما شرب في حياته (فصل ١٢). وأضجع اليفانا على سريره نائماً لشدة سكره، وأغلق الخصي باب المخدع، وجميعهم ثقلوا من الخمر. فأمرت يهوديت جاريتها أن تقف خارجاً أمام المخدع وهي وقفت تصلي أمام السرير ليمن الله عليها بالقوة. ثم استلّت خنجره وأخذت بشعر رأسه، وضربت عنقه مرتين فقطعت رأسه، ووضعت جارتها، في مزود، وخرجتا على عادتهما كأنهما خارجتان للصلاة واجتازتا المعسكر. وانتهتا إلى باب المدينة، ونادت يهوديت الحراس ففتحوا أبواب المدينة. ودعوا شيوخها فاجتمع الناس حولها من أصغرهم إلى أكبرهم. وصعدت إلى أعلى موضع تخطب فيهم مبينة قوة الله وتخليصه من يتكل عليه. وأخرجت رأس اليفانا من المزود، وأرثتهم إياه، فسجدوا بأجمعهم للرب، واستمدوا لها بركته (فصل ١٣). وقالت لهم علقوا هذا الرأس على أسوارنا، ومتى طلعت الشمس فليأخذ كل واحد سلاحه، وظهروا كأنكم تقصدون المجابهة فينبه الحرس رئيسهم فيجدونه قتيلاً، ويقع عليهم الذعر ويهربون فاسعوا على أعقابهم آمنين. فيسحقهم الرب تحت أرجلكم وهكذا كان. فإن الآشوريين لما رأوا قائدهم مقطوع الرأس مخضباً بدمه تولاهم الذعر فولّوا هارين. وقتل بنو إسرائيل كل من أدركوه منهم وغنموا ما تركوه. واحيّر لما رأى ما كان آمن بالله واختن. وانضمّ إلى ذويه إلى بني إسرائيل. وأتى يواقيم الحبر من أورشليم مع جميع شيوخها إلى بيت فلوى وباركوا يهوديت قائلين أنت مجد أورشليم وفرح إسرائيل وفخر شعبنا (فصل ١٤ و ١٥). وهي أنشدت النشيد المثبت في الفصل السادس عشر من هذا السفر.

فهذه خلاصة سفر يهوديت وقد توفرت الأقوال في كتابه فعزاه القديس ايرونيemos إلى يهوديت نفسها، وفولف إلى احيور العموني وبعضهم إلى يواقيم أو الياقيم الحبر، وكلمت إلى يشوع بن يوصادق رفيق زربابل عند العود من سبي بابل وغيرهم إلى غير هؤلاء. والأظهر أنه كتب في أميد قريب من وقوع هذه الأحداث لما فيه من التفصيل الذي كان لا استطاع لو كرت عليه السنون.

ما جاء من الآثار الآشورية مؤيداً أخبار سفر يهوديت

إنَّ الأحداث المروية في سفر يهوديت كانت بعد خراب السامرة، ودليله أن لا ذكر لملك فيه، وبيت فلوى كانت من مملكة السامرة بل نرى مرجع الأمر فيها إلى أورشليم، والياقيم الخبر يأمر بضبط أعالي الجبال والاحتفاظ على المضائق. وقد مرَّ أنَّ من بقي من اليهود في مملكة السامرة انضموا إلى إخوانهم في مملكة يهوذا؛ ثم إنَّ هذه الأحداث جرت في حين لم يكن فيه ملك في أورشليم؛ ولا نعلم خلّوها من ملك في تلك الحقبة إلا في مدة جلاء منسا إلى بابل. ويلزم أيضاً أن تكون جرت قبل السبي البابلي، وقبل سقوط نينوى لأنه جاء في هذا السفر (فصل ٤ عد ٢) إنَّ اليهود خافوا أن يفعل اليفانا «بأورشليم وبهيكل الرب كما فعل بسائر المدن وهياكلها». ويلزم منه أن يكون الهيكل حينئذ قائماً وأورشليم في منعته، فيتعيَّن على كلِّ ما مرَّ أنَّ هذه الأحداث جرت في أيام منسا ملك يهوذا وآشور بانيال ملك آشور. وإذا رأينا سفر يهوديت سماه نبوكدنصر فذلك محمول إما على أنَّ آشور بانيال إتخذ لنفسه هذا الاسم بعد استيلائه على بابل اقتفاءً بملوكها؛ وإما على أنَّ النساخ غيَّروا اسمه خطأ، لأنَّ هذا السفر وصفه «بملك آشور الذي كان مالكا على نينوى العظيمة». ثم إنَّ آثار آشور بانيال المسمارية أنبأتنا بكثير مما ورد في سفر يهوديت وأثبتته. فقد رأيت في آثاره أنه أخضع مصر وصور، وأدَّى الجزية إليه إثنتان وعشرون ملكاً في سورية وقبرص، وإنَّ أخاه سماسوموقين قيل بابل قد عصاه، وأثار عليه القبائل الخاضعة له. فقهرهم بنفسه ويقوِّاد جيوشه وكل هذا ينطبق خير انطباق على ما جاء في سفر يهوديت عن عظمتها وعن ردِّ رسله خائبيين من قيليقية ودمشق ولبنان وفلسطين. فيظهر أنَّ هذا كان عندما تمرَّدوا عليه بإمداد أخيه وهو الراجح، أو عندما رأوه متشاغلاً بمحاربة الماديين التي ذكرها في أسطوانته الأولى عمود ٣ و ٤ وقال إنه حمل حملته الرابعة على ملك الميتيين احساري من العيلاميين وعلى رئيس الماديين بيرزهدري وإنه ظفر بهما. ودُمِّر مدنها وأخذ غنائم كبيرة من بلادها وهذا يطابق ما جاء في سفر يهوديت عن ظفره بارفكشاد في أرض عيلام وإن اختلف الاسم.

وقد ورد في سفر يهوديت أنَّ سكان قيليقية كانوا من جملة من ردوا رسله

خائين (في اسطواناته الأولى عمود ٢ كما رواه سميت في تاريخه): «سودازرمي ملك قيليقية الذي لم يكن دان للملوك آبائي، ولم يطعمهم، أحضر ابنته التي ولدها مع كثير من التقادم إليّ في نينوى لتكون زوجة وقبّل قدمي». وجاء في سفر يهوديت في الترجمة اليونانية ذكر ليديا أيضاً، وكانت في محل ولاية ازميز الآن. ودونك ما كتبه آشور بانيبال (في الأسطوانة المذكورة عمود ٣) ملخصاً: «إنّ جيحس ملك ليديا الذي لم يسمع آبائي باسمه ساقه صيت قدرتي العظيمة إلى أن يرسل إليّ وفداً ويتبعني مصادقتي. وكان يرسل وفده كلّ وقت إلى أن انقطع عني بغتة، واحتقر إرادة آشور، واعتمد على قوته، وأرسل جنوده لانجاد بساميتيك ملك مصر الذي كان خلع نير ولايتي. فسمعت بذلك وتضرّعت إلى آشور وإستار أن يُجندل أمام أعدائه السيميريين وأن يأخذوا جثته، فاستجابني آشور وطرحت جثته أمام أعدائه وأخذوا عبيده أسرى». ومن هذا يظهر أيضاً اعتصاب أهل ليديا مع المصريين وسكان آسيا الغربية على آشور بانيبال كما جاء في سفر يهوديت.

وقد جاء في سفر يهوديت على ما في النسخة اليونانية: «واستولى (اليفانا) على تخوم قيليقية وقتل بحدّ السيف كل من قاومه حتى بلغ أرض يافت التي في الجنوب قبالة بلاد العرب. وأسر جميع بني مدين (العرب الرّجل) وأحرق خيمهم وغنم كلّ ما كان في حظائر ماشيتهم». وهاك ما كتبه آشور بانيبال في تاريخه (اسطوانة ١ عمود ٦) ملخصاً: «في حملتي التاسعة سيّرت جنودي على فيتح ملك العرب لأنه بعد أن كان يؤدي الجزية إليّ انكفّ عن ذلك وحالف غيره من الملوك. وسيّروا عساكرهم لانجاد سماسوموقين أخي الثائر عليّ وثار معه رجال بلاد العرب. فبأمر آشور أدخلت جيوشي إلى بلاد عزران وحيرة تكازا (في بلاد العرب). وإلى أدوم وجوار بيرود وبيت عمون وعمل حوران ومواب والصحارى وعمل صوبة». وكتب في العمود الـ ٧: «قتلت ما لا عداد له من محاربيه وأكملت كسر جنوده. وأهلكت بحدّ السيف رجال العرب وكلّ من صحبوه وأما هو فانهزم من وجوه جنود آشور متوغلاً في البلاد إلى أرض النبطيين. وأحرق خيامهم ومنازلهم ومقتناهم». وكتب في العمود الـ ٨ «فأكمل جنودي قهر رجال العرب وأبادوا كلّ من ناصرهم بحدّ السيف وأحرقوا خيامهم ومنازلهم. وأخذوا من البقر والغنم والحمير والجمال والرجال ما لا عداد له، ونهبوا ودثّروا كلّ ما في البلاد على اتساعها.

وجاء في سفر يهوديت ما مرَّ أنَّ اليفانا «انحدر من صحارى دمشق في أيام الحصاد. وأحرق جميع حقولهم وقطع كلَّ أشجارهم وكرومهم». وفي إحدى اسطوانات آشور بانيبال (على ما روى سميت في تاريخه صفحة ٢٧١) بعد كلامه في ما غنمه من العرب قال: «جعلته يأخذ طريق دمشق» أي دمشق وذكر في الاسطوانة الأولى في العمود الـ ٥ القبائل التي ردها خاضعة لسلطانه فقال إنها: «رجال الكلدان والآراميون والسوريون» والحاصل أنَّ سفر يهوديت والآثار الآشورية متطابقة في ذكر القبائل التي غزاها آشور بانيبال بقائد جيشه وفي نوع المعاملة التي عاملها بها من قتل، وإحراق خيام، ونهب مواش. وقطع أشجار. والبلاد التي ذكرتها الآثار والكتاب واحدة، والعصر الذي كانت فيه هذه الأحداث واحد. فأئني يباح إنكار صحة هذا السفر وأين السبيل إلى التكذيب بآياته؟ ولا نطمع أن نرى في آثار آشور بانيبال ذكر فتك يهوديت بقائد جيشه، فلم يعتد أحد من الغزاة القدماء أن يخلد ذكر خزيه وحطته، ومع هذا بقي لنا ما نستلمح منه فشل آشور بانيبال. فبساميتيك ملك مصر كان ألدَّ أعدائه، وقد عاقب من تشيع له من الملوك ولا نرى في آثاره خطة مؤذنة بأنه قهره أو رده إلى طاعته، ولا وجه لذلك إلا أنَّ آشور بانيبال كانت حمية الشبيبة خمدت فيه، ووهنت عزمته عن أن يجدد حملاته على مصر. فوكل فيها إلى اليفانا قائد جيشه فقطعت امرأة عبرانية رأسه، وتشتت جنوده فلم ينل ما ابتغى من تذليل ملك مصر، بل استقلت إذ ذاك مصر عن ولاية آشور.

على أنه لم يوجد إلى اليوم اسم اليفانا في الآثار الآشورية، لكن صحة الرواية لا تتوقف على الاسم، والإعلام عرضة للتغيير، والنص العبراني في سفر يهوديت مفقود وبين ترجماته تباين واختلاف لا سيما في الاعلام والنسخة اللاتينية العامة تسمي اليفانا هولوفرن، فلا عبرة بالأسماء عند تطابق الحوادث. انتهى ملخصاً عن الكتاب والإكتشافات الحديثة لفيكورو (مجلد ٤ من صفحة ٢٧٥ إلى ٣٠٥ طبعة ٥).

لم نفرغ من كتابة ما مرَّ إلا وطالعنا في المجلة الموسومة بمجلة الأرض المقدسة الفصول التي يذيعها فيها الأب العالم ربواسون في تحقيق صحة سفر يهوديت. فالفينا يثبت في نشرتها الصادرة في ١٥ ايلول سنة ١٨٩٤ م ترجمة الصفائح التي وجدت في كوينجك على مقربة من الحبل المسمى النبي يونس، حيث كانت نينوى

القديمة على مذهبه. وهذه الصفائح أو الاسطوانات انطوت على أخبار محاربة آشور بانيال للعرب. وفي إحداها يقول آشور بانيال ما ملخصه: «إن سيّر جيشه على فاتح (أو فيتح) ملك العرب الذي كان قاومه مع جيش النبطيين. فساروا متجشمين أعظم المشاق في أرض العطش والموت إلى أن بلغوا بلاد ماس البعيدة مئة كسبو ككارو عن نينوى وإنّ هذه البلاد في جوار دمشق» أي دمشق فيقول ربواسون: إنّ بلاد ماس إن هي إلا بلاد باسان بإبدال الباء من الميم، وهذا كثير في آثارهم. واستدل على ذلك من أنّ هذه البلاد مجاورة لدمشق لأنها تمتد إلى جبل حرمون وهو جبل الشيخ القريب من دمشق، ومن أنها كانت من مساكن النبطيين حلفاء ملك العرب كما في الآثار، ومن أنّ كسبو ككارو يراد به مقياس الأرض، وإنّ كل كسبو كناية عن ستة كيلومترات، فيكون مجموع المئة كسبو ست مئة كيلومتر. والمسافة بين نينوى في الطريق الذي سار فيه الآشوريون وبين أطراف بلاد باسان إنما هو نحو ٦٦٠ كيلومتراً وهو قريب مما ذكر في الأثر. وفي نشرة هذه المجلة الصادرة في ١ ت ١ سنة ١٨٩٤ م. ذكر ربواسون عن هذا الأثر أنّ جيش الآشوريين حلّ في كوراسيتي وكيدراي. وقال ماكوراسيتي إلا كرسا أو جرجسا القديمة، وموقعها على ضفة بحيرة طبرية شرقاً (وبها سُميت هذه البحيرة بحيرة المجرسيين أو بحيرة جناش). وما كدراي إلا كادارا وهي المسماة الآن أم قيس لا تبعد عن طرف بحيرة طبرية من جهة الجنوب. ومن ذلك يستفاد أنّ جيوش آشور بانيال حلّت في جانب بحيرة طبرية عند مهاجمتهم وتضييقهم على بني إسرائيل طبق ما جاء في سفر يهوديت.

عد ٣٣٥

وفاة منسا وخلافة آمون ابنه له

توفي منسا للسنة الخامسة والخمسين من ملكه ودُفن في بستان بيته. وملك آمون ابنه مكانه وكان عمره حين ملك إثنتين وعشرين سنة. وكان على شاكلة أبيه قبل توبته فإنه عبد الأصنام التي عبدها أبوه وسجد لها. وترك الرب إلهه صانعاً الشر فتحالف عليه عبيده وقتلوه في بيته بعد أن ملك ستين ودُفن حيث دُفن أبوه. فثار الشعب على قاتليه وفتكوا بهم وأقاموا ابنه يوشيا ملكاً مكانه، فكان تملك آمون سنة ٦٤١ ومقتله سنة ٦٣٩ ق.م على أصحّ الروايات. ولا يظهر أنه كان

مدة ملكه أحداث مهمة لأن آشور بانيبال بعد تشتيت جنوده في فلسطين خمدت جمرة سطوته في سورية، وطُفئت في مصر كما روى مسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق (صفحة ٤٣٨ طبعة ٢) قائلاً إن مصر عادت مستقلة ولا غرو إن ذلك كان في مدة ثورة سمسوموقين على آشور بانيبال أخيه... وكانت حروب آشور بانيبال مع العيلاميين أوهنت قواه، فتخلى عن حق سيادته على مصر. وقد قضى أجل آشور بانيبال سنة ٦٢٦ ق.م كما روى فيكورو عن سميت (في تاريخ آشور صفحة ١٧٧).

عد ٣٣٦

يوشيا بن آمون ملك يهوذا

ملك يوشيا في أورشليم وعمره ثماني سنين وكان ملكاً صالحاً، ومضى على كل طرق داود جده ولم يعدل عنها يمينه ولا يسرة. ويظهر أن احتفاف الكهنة والانبياء حوله أكسبه الفضيلة للدين والغيرة عليه. فقد أخذ مذ شُب يطهر أورشليم وسائر مملكته من المشارف والغابات والمنحوتات والمسبوكات. فقوضوا أمامه مذابح الآلهة الكاذبة وحطموا تماثيلها وسحقوها. وذرّوا رمادها على وجه قبور من كانوا يذبحون لها. وفي السنة الثامنة عشرة لملكه عني بترميم ما تهدّم من بيت الرب، وبعث إلى حلقيا عظيم الكهنة أن يحسب الفضة التي أوردت إلى بيت الرب مما جمعه حفظة أعتاب الهيكل من الشعب. وأن يسلمها إلى متولّي العمل ليدفعوها إلى النجارين والبنائين وصنّاع الحديد والنحاس، ولشراء أخشاب وحجارة منحوتة وكان كذلك. وبينما كان حلقيا يبحث عن الفضة في بيت الرب وجد سفر توراة الرب بخط موسى (ملوك ٤ فصل ٢٢ عد ٨ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٣٤ عد ١٤) فدفعه إلى شافان الكاتب الذي كان الملك أوفده إليه. ولما تلاه الكاتب على مسمع الملك مزّق ثيابه لفرط ما خالف آباؤه ما كُتب في هذا السفر، ولما يستوجه شعبه من العقاب لتقاعدهم عن العمل به.

قال فولتير: «إن كتاب السنّة كان أمسى عند اليهود نادراً جداً حتى لم يتجد منه في أيام يوشيا إلا نسخة واحدة. وقال أيضاً: «قد حقّق الكتاب نفسه إن أول نسخة معروفة من هذا الكتاب وُجدت في أيام يوشيا، وإن هذه النسخة الوحيدة

أتى بها شافان الكاتب إلى الملك». فهو ملحد طياش يطيش أسهمه على غير رويّة، فأسفار موسى كانت دستوراً للعمل في أيام داود وسليمان وآسا ويوشافاط ويواش وأمصيا وحزقيا حتى أيام يوشيا نفسه قبل وجدان هذا السفر. وقد رأينا الكهنة وعظماء المملكة في أيام يوشافاط يطوفون في المدن والقرى وكتاب السنّة في أيديهم يُخضعون الشعب على العمل بموجبه. ونراه في أيدي الحكام في أورشليم وغيرها دستوراً يقضون بحسبما دُون فيه، بل رأينا آحاب الأثيم لم يتمكن من إختلاس كرم نابوت لا باتهامه بمعصية يقضي الكتاب بالجزاء عليها بالموت رجماً، وهي التجديف على الله. ونرى الانبياء يذكرون الشعب والملوك أيضاً بما جاء في هذا الكتاب. ألم يكن لهؤلاء الانبياء غيرة على حفظه أو إستشهدوه ولا وجود له أخرس الله الملحدين. وأما ما هو السفر الذي وجده حلقيا وأرسله إلى يوشيا الملك! فقال فيه كلمت في تاريخ العهد القديم يظهر جلياً أنّ أحد الكهنة أخفى هذا السفر القديم المخطوط بيد موسى حيث وجده حلقيا، لقلا تعبت به أيدي الملوك الأشرار الذين رفعوا من الهيكل تابوت العهد. وكان بجانبه السفر الذي قال فيه موسى (تثنية فصل ٣١ عد ٢٦):

«خذوا سفر هذه التوراة واجلوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم فيكون ثم عليكم شاهداً». وكلّ القرائن التي وردت في الكتاب في شأن وجدان هذا السفر تثبت ما وُجد حيثئذٍ إنما هو الفصول ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ من سفر التثنية، لأنّ هذه الفصول الأربعة إنما هي التي أمر موسى أن توضع في جانب تابوت العهد. وهي تشتمل على تهديد الله ولعنه كلّ من يخالف سنّته وبركاته، ووعوده لكلّ من يعمل بها وكلّ من قرأها، وتدبر ما بها. لا جرم أن تنشئ فيه التأثير الذي شعر به يوشيا، لا أنه كان يجهل سنّة الله التي لا بدّ أن يكون الكهنة والانبياء المحتفون حوله أطلعوه عليها. وزاد تأثره أنها كانت مخطوطة بيد موسى نفسه كما إذا عثرنا على الإنجيل الذي خطّه يد متى أو يد يوحنا. ويؤكد ذلك قول الكتاب بعد ذلك أنّ يوشيا جمع إليه جميع يهوذا وأورشليم. وصعد بهم إلى بيت الرب فتلا على مسامعهم جميع كلام سفر الميثاق الذي وُجد في بيت الرب، فإذا لم يكن ما وُجد أسفار موسى كلها ولا سفر كامل أيضاً إذ لا يمكن تلاوة ذلك في وقت واحد. إنّ يوشيا بعد تلاوة هذه الفصول عاهد الرب أنه وشعبه لا يخلفون وصاياهم ويعملون بسنّته وأعاد الشعب هذا العهد. وأمر الملك أن يُخرجوا من الهيكل كلّ ما

أُدخِل فيه تَكرمةً لبلع وعشتاروت وأجناد السماء. وأحرقه في خارج أورشليم واستأصل كهنة الأصنام الذين أقامهم ملوك يهوذا ليقترؤا على المشارف ونجس هذه المشارف، والمعبد الذي كان في جانب أورشليم للملك معبود بني عمون حيث كان الرجل يجيز ابنه أو بنته في النار إكراماً لهذا المعبود. وأزال المعابد التي كان سليمان أقامها لآلهة الصيغونيين والموآبيين والعمونيين. ومضى إلى بيت إيل ففوّض المذبح والمعبد اللذين كان ياربعام بن نباط أقامهما وأحرق كل ما كان هناك. وأبصر قبراً في الجبل فبعث وأخذ العظام منها وأحرقها على المذبح ونجسه. وتمت بذلك نبوة رجل الله الذي كان أتى من اليهودية إلى بيت إيل قبل نحو ثلاث مئة سنة لينذر ياربعام بن نباط وقال: «يا مذبح يا مذبح! كذا قال الرب: هوذا سيولد لبيت داود ابن يسمى يوشيا وهو سيدبح عليك كهنة المشارف الذين يقترؤن عليك وتُحرق عليك عظام البشر» (ملوك ٣ فصل ١٣ عد ٢). ورأى الملك جثوة وقيل له إنها قبر الرجل الذي جاء من يهوذا وتنبأ على ما أنت الآن فاعل. فقال دعوه لا يحركن أحد عظامه. وأزال أيضاً جميع المشارف التي كانت في مدن السامرة وذبح كهنتها على مذابحها، وأحرق عظام الناس عليها. فالكفر والخلاعة والفظائع التي أقدم عليها بنو إسرائيل في ذلك الحين كانت تستلزم هذه الوسائل الهائلة للارغواء عنها. ثم عاد يوشيا إلى أورشليم وأمر جميع الشعب بعمل فصح قال الكتاب فيه (ملوك ٤ فصل ٢٣ عد ٢٢): «لم يُعمل فصح منذ أيام القضاة... ولا في أيام جميع ملوك إسرائيل وملوك يهوذا مثل هذا الفصح الذي عُمل للرب في السنة الثامنة عشرة لملك يوشيا في أورشليم». وقال الكتاب (هناك) في مديح يوشيا: «لم يكن قبله ملك مثله لأنه أقبل إلى الرب بكل قلبه وكل نفسه وكل قدرته بحسب كل توراة موسى ولا قام بعده مثله.

واستراح بنو إسرائيل في ملك يوشيا زهاء ثلاثين سنة لأن آشور بانيال كان أعني بالحروب التي أثارها عليه الماديون والكلدان. وابنه آشور دليلي الذي خلفه بعد موته (أو بعد موت ملك آخر على رواية) كان واهن القوة خامد العزم ولم يوجد في آثاره إلا فلذات من خِزف كُشف عنها في قصر صغير بناه في كالح (نمرود الآن) يقول فيها عن نفسه إنه: «ملك الشعوب ملك بلاد آشور ابن آشور بانيال بن اسرحدون وإنه بنى هذا القصر لنفسه» وفي أيامه لم يكتفِ المصريون بخلع نير الطاعة للآشوريين بل عمدوا إلى إفتتاح بلادهم. وهذا ما أشار إليه الكتاب

بقوله: «وفي أيامه (أي أيام يوشيا) صعد فرعون نكو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات فذهب الملك يوشيا وأتقاه فقتله في مجدو (لجون) عندما تراءيا» (ملوك ٤ فصل ٢٣ عد ٢٩). وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠ وما يليه): «صعد نكو ملك مصر لقتال الكركميش (مدينة الحثيين المعروفة) عند الفرات فخرج عليه يوشيا فوجه إليه رسلاً يقول ما لي ولك يا ملك يهوذا أنا لست عليك اليوم بل علي بيت حربي لأن الله أمرني أن أبادر فدع مقاومة الله الذي معي لئلا يهلكك فلم يحول يوشيا وجهه عنه بل تشدد لمحاربتة... وجاء للقتال في وادي مجدو فرمت الرماة نحو الملك يوشيا فقال الملك لعبيده أنقلوني فإني قد أئخنت بالجراح فنقله عبيده من المركبة. ووضعوه في مركبة أخرى كانت له وجاءوا به إلى أورشليم فمات ودُفن في مقابر آبائه ففناح جميع يهوذا وأورشليم على يوشيا ورثى ارميا يوشيا» وقد ملك إحدى وثلاثين سنة في أورشليم.

إن نكو الذي ذكره الكتاب هنا هو غير نكو الذي جاء ذكره كما رأيت في آثار آشور بانيبال، وكان ملك منف وسائس لأن نكو هذا إنقضى ملكه سنة ٦٦٤ ق.م، فلا يمكن أن يكون في أيام يوشيا الذي رقي منصة الملك سنة ٦٣٩ إلى سنة ٦٠٨ ق.م. ونكو الثاني ابن بساميتيك ملك في مصر من سنة ٦١١ إلى سنة ٦٠٥ ق.م. ولكن على من حمل نكو الثاني أعلى ملك نينوى الآشوري أم على ملك بابل؟ فحلّ هذه المسألة مناط بتحقيق تاريخ السنة التي سقطت نينوى فيها. فقال ابيدان وستشلوس المؤرخان القديمان: إن دمار نينوى كان سنة ٦٢٥ ق.م وعليه فحملة نكو الثاني كانت على نابوبلاصر ملك بابل، وهو أبو بختنصر. ولكن الظاهر مما أورده اوساييوس والقديس ايرونيوموس إن خراب نينوى كان لسنة ٦٠٦ أو سنة ٦٠٥ ق.م. وعليه فحملة نكو سنة ٦٠٨ كانت على ملك آشور وإلى اليوم لم يُكشف على أثر يبين ما كان في أيام نينوى الأخيرة. والظاهر أنّ حالة مملكة آشور لدن موت آشور بانيبال على جرف هار. فكان بساميتيك ملك مصر أبو نكو محاصراً اشدود في فلسطين، وكان أهل بابل عصوا ملك آشور والماديون يعدون المعدات لحربه فمن خلف آشور بانيبال سار بجيشه على الماديين. وأمر بنو بلاصر على جيش سيّره لإخضاع بابل فنجح أمير هذا الجيش نجاحاً أكسبه أن يُسمى قيل بابل. فساس هذه البلاد بحكمة خمس عشرة سنة حتى إذا رأى من نفسه القوة حاول أن يخلع سيادة نينوى عليه، وتذرّع لذلك بذريعة أن طلب ما لا يمكن أن

يعطاه. ولما ردَّ سؤاله حالف نكو ملك مصر وشياكسر ملك الماديين، وأثار حرباً عواناً على نينوى نحو سنة ٦١٠ ق.م وزحف نكو في ربيع سنة ٦٠٨ ق.م إلى آسيا في الطريق الذي استطره أسلافه وكان يؤمل أن يجتاز فلسطين دون مقاومة. ولكن لم يفسح له مرج ابن عامر إلاّ التقاه يوشيا ملك يهوذا ليقطع الطريق عليه عند مضيق مجدو (اللجون) حفظاً للأمانة لملك آشور الذي كان تحت سيادته أو طمعاً بتعظيم اسمه إذا انتصر على ملك مصر.

فاضطربت نار الوغى فقتل يوشيا كما رأيت وتشتت جيش بني إسرائيل ولم يحفل نكو بما سيكون منهم، بل سار مسرعاً وانتهى إلى قادس في جانب بحيرة حمص، ثم إلى كركميش (قد ذكرنا تاريخها وأبنا موقعها في عد ٧١) فاستحوذ نكو عليها وعلى كل ما كان في غربي الفرات. وافتتح الماديون والبابليون نينوى ودمروها ولم نظفر إلى اليوم بأثر منبئ بما كان عند افتتاحها. ولكن جاء في كتب المؤرخين القدماء أنّ حصارها استمرّ سنتين، وبشر فتحها طغيان ماء دجلة حتى أسقط جانباً من أسوارها. فيئس ملكها وأحرق نفسه ونساءه وكنوزه في قصره، وقُسمت أملاكها، فكان الحظ الأكبر منها لملك بابل. وصحّ في نينوى ما تنبأ عليها نحوم النبي (في الفصلين الثاني والثالث من نبوته) ومما قاله فيها ويلّ لمدينة الدماء الممتلئة بأسرها كذباً وخطفاً قد انفتحت أبواب الأنهار وانحلّ القصر فكلّ من يراكِ يعرض عنك ويقول قد دُمرت نينوى.

عد ٣٣٧

يواحاز والياقيم ابنا يوشيا ويوخانيا ملك يهوذا

بعد أن دفن الشعب يوشيا ملكوا يواحاز ابنه مكانه وكان عمره حين ملك ثلاثاً وعشرين سنة، وصنع الشرّ في أعين الرب لكنه لم يملك إلاّ ثلاثة أشهر. فالظاهر أنّ نكو غضب لتمليك يواحاز وهو الأصغر وإيثاره على الياقيم أخيه الأكبر لأنه كان ناصحاً لأبيه والشعب كيلا يعترضوا ملك مصر في طريقه. فأرسل فريقاً من جنوده فكثّف يواحاز وأخذه إليه وهو في ربله من أرض حماه (وتسمى اليوم أيضاً بهذا الاسم) إما قبل أن يصل إلى كركميش وإما بعد عوده منها وهو الأظهر. وأخذه معه أسيراً إلى مصر حيث مات وغرّم بني إسرائيل مئة قنطار فضة وقنطار

ذهب. وأقام الياقيم أخاه الأكبر ملكاً في أورشليم، وغيّر اسمه مسمياً إياه يوياقيم (ملوك ٤ فصل ٢٣) وكان ذلك لسنة ٦٠٧ ق.م. وقد تكلم حزقيال في يواحاز فقال (فصل ١٩ عد ٢ وما يليه): «قل كيف أمك اللبوة ربضت بين الأسود ربت جرأوها في وسط الأشبال وأعلت واحداً من جرائها فصار شبلاً وتعلم افتراس الفريسة وأكل الناس، فسمعت به الأمم فأخذ في هوثهم فقادوه بيرة إلى أرض مصر» وقال فيه ارميا (فصل ٢٢ عد ١٠): «لا تبكوا على الميت (يوشيا) ولا ترثوه بل ابكوا بكاءً عليّ الذاهب الذي لا يرجع من بعد ولا يرى أرض ميلاده... بل في الموضع الذي أجليّ إليه هناك يموت».

وكان يوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك، وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم، وصنع الشرّ. وكانت باكورة أعماله أنه ضرب ضريبة على الشعب ليفي نكواً الغرامة التي فرضها على مملكة يهوذا. ولم يقتصر على ذلك بل أثقل شعبه بضرائب أخرى، وأدخل عليهم نظام التسخير ليقم أبنية يتفاخر بها وشعبه في أسوأ الأحوال. وهذا مستفاد من قول ارميا فيه (فصل ٢٢ عد ١٣): «ويل لمن يبني بيته بغير عدل وغرفة بغير حق. ويستخدم قريه بلا أجر ولا يوفيه عن عمله. ويقول ابن لي بيتاً وغرفاً فسيحة ففتح له كوى وسقف بالأرز ودهن بالمغرة أيكون ملكك بأن تفاخر بالأرز». وقد اضطهد الانبياء فأبى اوريا بن شمعي من قرية يعريم (قرية أبي غوش) تنبأ على خراب أورشليم. فطلب يوياقيم أن يقتله ففرّ إلى مصر فأرسل الملك في طلبه وأتوه به فقتله بالسيف وطرح جثته في قبور عامة الشعب (ارميا فصل ٢٦ عد ٢٠). ولم ينج ارميا النبي من اضطهاده لأنه بعد أن كتب نبواته أراد إذاعتها على الكهنة والرؤساء. ولما سمع الملك بها ألقاها بيده في كانون النار، وعزم أن يقتل ارميا وباروك تلميذه ففرّا واختبأ وعاود النبي كتابة نبواته بأكثر تفصيل (ارميا فصل ٣٦).

وفي السنة الرابعة لملك يوياقيم همّ نبوبلاصر ملك بابل أن يسترد أعمال سورية التي كان نكو ملك مصر تولّاهَا، وقال بعضهم إن نكو كان باقياً في كركميش. وقال غيرهم وقولهم أوجه إنه كان عاد إلى مصر وترك حامية في كركميش. ولما كان نبوبلاصر أسى شيخاً لا طاقة له على تجشّم مشاق هذه الحملة، أو كان متشغلاً بحروب أخرى عهد إلى ابنه نبوكدنصر (الذي يسميه العرب بختنصر) بقيادة جيشه في سورية. فكانت بين الجيشين المصري والبابلي وقعة كبرى في

كرشميش انكسر بها المصريون، وولّوا مدبرين، وتركوا كلّ ما ملكوا في سورية. فتتبع الكلدان آثارهم ولم يجترئ أحد من ملوك سورية أن يقاومهم، بل أقروا بسيادة بختنصر وأدّوا الجزية إليه صاغرين وكان منهم يواقيم ملك يهوذا (على ما روى سميت في كلامه في بابل صفحة ١٥٦). ولم يتعرّض بختنصر لهؤلاء الملوك في ملكهم بل استمرّ حينئذ سائراً إلى مصر قاسماً جيشه إلى قسمين سيّر أحدهما في الطريق البحري والثاني في عبر الأردن وبلاد العمونيين والموآبيين. وقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٤ عد ٧) في ذلك: «ولم يعد ملك مصر يخرج من أرضه لأنّ ملك بابل أخذ من نهر مصر (المراد وادي العريش الفاصل بين فلسطين ومصر) إلى نهر الفرات جميع ما كان لملك مصر». وبين كان بختنصر محاصراً تخوم مصر آتاه نعي أبيه فخاف أن يدخل دعياً على عرشه فعقد عهدة مع ملك مصر، وعاد مسرعاً إلى بابل فضبط الصولجان سنة ٦٠٤ ق.م واستمرّ متسلماً منصبه الملك ثلاثاً وأربعين سنة أي إلى سنة ٥٦١ ق.م. وهو أشهر ملوك بابل التي جعلها من غرائب العالم، وقد كشف عن خطوط كثيرة له يتفاخر بها بإقامته الدور والقصور وبتصويره بابل أجمل العواصم، وندر ما وجد له من الخطوط المنبئة بحملاته وحروبه.

إنّ بختنصر عاد للسنة الثانية من ملكه إلى سورية ليطفئ جذوات الثورة التي كان المصريون ينفخون فيها على ما يظهر. فدخل حينئذ مملكة يهوذا وفتح أورشليم وأخذ بعض آية الهيكل، وكان أزمع أن يأخذ يواقيم أسيراً إلى بابل، فبدا له أن يبقيه في أورشليم خاضعاً له يؤدي إليه الجزية. لكنه جلا يومئذ إلى بابل شبان شرفاء مملكته. وكان منهم دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا ليكونوا رهائن على إخلاص يواقيم في الطاعة له، وكان ذلك سنة ٦٠٢ ق.م. ولم تنقض ثلاث سنين إلّا عاد يواقيم يحاول التملّص من الخضوع لبختنصر بإمداد ملك مصر وإيتوبعل ملك صور. فهبّ إليه بختنصر سنة ٥٩٩ ق.م وأطلق شرادم من فرسانه تسطوا على الناس وتخرب في البلاد. ولكن لم يبلغ الغازي إلى أورشليم قبل أن تدرك المنية يواقيم ولا يُعلم كيف مات، بل أنبأنا ارميا النبي أنه مات غير مأسوف عليه ودُفن مهاناً. فقال (فصل ٢٢ عد ١٨): «هكذا قال الرب ليواقيم بن يوشيا ملك يهوذا إنه لا يُلطم عليه آهاً يا أخي أو آهاً يا أختي ولا يُلطم عليه آهاً واسيداه أو آهاً واجليلاه. بل يُطمر طمر الحمار وهو ممزّق مطروح بعيداً عن أورشليم». وقال (في فصل ٣٦ عد ٣٠): «وتكون جثته مطروحة للحرّ في النهار والقرس في الليل»

وقال يوسفوس (ك ١٠ فصل ٨ من تاريخ اليهود): إِنَّ بختنصر «قتله ومعه زهور شبان المدينة وأمر أن تُطرح جثته خارجاً عن أورشليم لا يأويها أحد في التراب». ورأى بعض المحققين أَنَّ دون تصديق مقال يوسفوس مشكلات ولكن حققته المجلة الموسومة بالتمدن الكاثوليكي (في إحدى نشراتها الصادرة في تشرين الآخر سنة ١٨٨٢ م) في مقالة موسومة «بمهام بختنصر وحروبه الأولى». وقد خلف يواقيم ابنه يوخانيا ويسمى يوياكين أيضاً ولم يقوَ الملك الجديد على الدفاع عن أورشليم زماناً طويلاً، بل أرغم أن يُسلم نفسه وأسرته وأمواله إلى ملك بابل. ولم يملك إلا ثلاثة أشهر وعشرة أيام، فأخذه بختنصر أسيراً إلى بابل وجلا معه عشرة آلاف من رؤساء أورشليم وكبرائها ولم يُبقَ من سكانها إلا الفقراء وأخذ جميع كنوز بيت الرب وبيت الملك. وكسر جميع آنية الذهب وأقام متنيا عمّ يوياكين ملكاً مكانه وسماه صدقيا. وكان ذلك سنة ٥٩٨ ق.م ومنها يتتبع تاريخ الجلاء البابلي الذي استمر سبعين سنة. وأقام يوياكين في بابل مسجوناً سبعاً وثلاثين سنة إلى أن توفي بختنصر. وخلفه ابنه اويل مروداك فأطلقه من السجن، وأكرم مثواه وكان يتناول الطعام على مائدته. (ملوك ٤ فصل ٢٥ عد ٢٧).

عد ٣٣٨

صدقيا ملك يهوذا

إِنَّ صدقيا الذي أقامه بختنصر ملكاً في أورشليم كان عمره إذ ذاك إحدى وعشرين سنة، وملك إحدى عشرة سنة وصنع الشرّ أمام الرب. ولما كان شاباً تلاعبت فيه أهواء الأغراض فعمّلت سقوطه عن عرشه، وانقراض مملكة أورشليم. فَإِنَّ بختنصر أُلحِقَ حينئذٍ إلى محاربة الماديين لأنّ شياكسر ملكهم الذي كان حمى بختنصر مات فخلفه ابنه استياج، وكان يريد سوءاً بمملكة بابل فاغتنم ملوك يهوذا ومواب وعمون وأدوم وصور فرصة هذا الخصام وحاولوا العود إلى إستقلالهم. فأصلح بختنصر شؤونه مع الماديين، وهبّ للانتقام من ملوك سورية وكتب مطامعهم، فعاد إلى سورية مرةً أخرى سنة ٥٩٠ ق.م وقسم جحافله قسمين سيّر أحدهما إلى صور (كما مرّ في عد ١٢٧) والثاني إلى أورشليم، ولما رأى صدقيا أَنَّ لا قدرة له على مصافتهم في خارج الأسوار، دخل المدينة فحاصرها البابليون شديد الحصار. وكان خفرع ملك مصر قد وعد ملوك سورية وصدقيا أن ينجدهم إذا أئتهم جنود بختنصر. فأرسل جيشاً مصرياً إلى جنوبي فلسطين فترك الكلدانيون

فريقاً من جيشهم على أورشليم، ومضى فريق آخر منهم لقتال المصريين. قال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه القديم صفحة ٤٠٢ طبعة ٩) لا نعلم ما كان بين الجيشين المصري والبابلي فمن قائل إن المصريين عادوا دون قتال، ومن قائل إن البابليين هزمهم. ثم تألبوا على أورشليم فدافع أهلها دفاع الأبطال ثمانية عشرة شهراً إلى أن برّح بهم الجوع، إذ لم يبق في المدينة ما يقتاتون به. فثغروا أحد أسوار المدينة وهرب صدقيا وجميع رجال الحرب ليلاً في طريق الغور إلى جهة الأردن. فتنبّع جيش الكلدان أثرهم فأدركوا صدقيا في صحراء أريحا وقد أرفضّ الجمع عنه فأخذوه وأولاده وبعض الرؤساء إلى ملك بابل في ريلة (المعروفة اليوم أيضاً بهذا الاسم)، فذبح بني صدقيا أمام عيني أبيهم وقتل غيرهم من الرؤساء وفقاً لعيني صدقيا. كما فعل كثير من ملوك آشور وغيرهم بأعدائهم، وقد وجدت آثار تمثل ملوكاً يفتقون بأيديهم عيون أسراهم. ثم أوثق بختنصر صدقيا بسلسلتين من نحاس وأخذه إلى بابل وجعله في بيت الحرس إلى مماته.

وقد عاد نبوزرادان أمير جيش بختنصر فأحرق في أورشليم بيت الرب وبيت الملك وبيوت كبرائها. وهدم أسوارها وانتهب كلّ أنية الهيكل وكلّ النحاس الذي كان في الأعمدة، وبحر النحاس كسره الكلدانيون، وحملوا نحاسه إلى بابل، وكلّ ما كان ثمة من ذهب أو فضة أخذه رئيس الشرط ومن نجا من الأهليين من السيف أسره وأرسله إلى الملك في ريلة، ولم يترك من سكان مملكة يهوذا إلا كرامين وفلاحين. ولم يشأ بختنصر أن تبقى اليهودية مملكة بل جعلها ولاية من ولاياته، وولّى رجلاً اسمه جدليا بن احيقاف عليها وأقام جدليا في المصفاة (شعفات على الأظهر في شمالي أورشليم). وفي الشهر السابع ملكه فاجأه إسماعيل بن نتنيا من النسل الملكي وعشرة رجال معه فقتلوه، وضربوا اليهود والكلدانيين الذين كانوا معه في المصفاة. ويظهر من كلام ارميا النبي (فصل ٤٠ عد ١٤) أنّ بعليش ملك بني عمون حمل إسماعيل على قتل جدليا. وإنّ بعضهم حدّره من ذلك وطلب إليه أن يأذن له في قتل إسماعيل فلم يصدّق ولم يأذن. وخاف اليهود من وجه الكلدانيين فارتحل جمّ غفير ممن لبثوا في اليهودية إلى مصر (ملوك ٤ فصل ٢٥). وأخذوا أرميا النبي معهم مكرهاً (ارميا فصل ٤٣ عد ٦). وهكذا أمسى السواد الأعظم من بني إسرائيل في بلاد الكلدانيين وجماعة منهم في مصر والأدلاء منهم في فلسطين. فنتكلم الآن في من ارتحلوا إلى مصر ثم في من أجلوا إلى بلاد الكلدانيين.

مَن ارتحلوا من بني إسرائيل إلى مصر وحملات بختنصر عليها

اجتمع بنو إسرائيل بعد مقتل جدليا إلى ارميا النبي الذي كان أخذ بين المجلولين. فأوصى بختنصر قائد جيشه أن لا يُنزل به شراً بل يصنع إليه كل ما شاء. فأطلقه القائد ولطفه وأرسله ليقم مع جدليا (ارميا فصل ٣٩ و ٤٠). فرغب إليه بنو إسرائيل أن يصلي إلى الرب ليلهمهم ما يصنعون، فصلى ارميا وعاد قائلاً لهم: «هكذا قال الرب لا تخافوا من ملك بابل الذي أنتم منه خائفون... فإنني معكم لأخلصكم وأنقذكم منه... وإن ثبتتم وجوهكم لتذهبوا إلى مصر وذهبتم لتتغربوا إلى هناك فالسيف الذي تخافون منه يدرككم هناك في أرض مصر، والجوع الذي تخشون منه يتعقبكم هناك في مصر وهناك تموتون». (ارميا فصل ٤٢ عد ١١ وما يليه). فلم يستمعوا كلامه بل أخذوا بقية يهوذا من الرجال والنساء والأطفال وبنات صديقا الملك اللواتي كنَّ بقين في اليهودية مختبيات. وأكرهوا ارميا وباروك تلميذه إلى المسير معهم. ولما انتهوا إلى تحفيس قال الرب لارميا: «خذ بيدك حجارة كبيرة واطمرها في الملاط في موضع التلبن (الموصوف باللبن) الذي عند مدخل بيت فرعون في تحفيس على عيون رجال من اليهود وقل لهم هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل هأنذا أرسل وأخذ نبوكدنصر (بختنصر) ملك بابل عبيدي وأجعل عرشه فوق هذه الحجارة التي طمرتها ويسط ديباجه من فوقها فيقتل ويضرب أرض مصر» (ارميا فصل ٤٣ عد ٩ وما يليه). وكان ارميا يوتخ بني إسرائيل ويهددهم لتركهم في مصر عبادة الرب، وتعبدتهم لملكة السماء التي يعبدونها المصريون. وينذر بما سيحل بالمصريين وبهم من الرزايا. وقد قال (في فصل ٢٤ عد ٣٠): «هكذا قال الرب هأنذا أجعل فرعون خفرع ملك مصر في أيدي أعدائه وطالبي نفسه كما جعلت صديقا ملك يهوذا في يد نبوكدنصر ملك بابل عدوه وطالبي نفسه». فهذه النبؤات قد تمت لأن بختنصر حمل على مصر ونكل بأهلها وببني إسرائيل الذين ارتحلوا إليها أشد التنكيل. وأمات كثيرين بحد السيف وقهر خفرع ملك مصر وجلا منها جمّاً غفيراً إلى بابل، وقد يكون منهم بعض اليهود الذين فزوا من وإلى مصر. ودونك ما جاءت به الآثار مصداقاً لأقوال الكتاب، إن العالم فلاندر باتري الإنكليزي قد غني سنة ١٨٨٦م باكتشافات في تحفيس القديمة المعروفة اليوم بتل

دفنه في مصر السفلى. فوجد هناك ثلاث خرابات تقرب إحداهن من الأخرى، وبينها بقايا أسس مؤذنة بأنه كان هناك مدينة مهمة جداً. وظهر له أن إحدى هذه الخرابات كانت قصراً فسيحاً مشرفاً على السهول الواقعة هناك، وقد طرب وعجب عندما أخبره سكان تلك الناحية أنهم يسمون ذلك المحل «قصر بنت اليهودي» فكأن خفرع ملك مصر أنزل في هذا القصر بنات صدقيا الملك صديقه عند ارتحالهن مع قومهن إلى مصر كما مرّ. فحفظ هذا الاسم بالتقليد وقد حققت الآثار التي كشف عنها باتري هناك أن هذا القصر بناه بساميتيك الأول ملك مصر سنة ٦٦٥ أو سنة ٦٦٦ ق.م.

وُجد في أحد المخادع خاتماً منقوشاً عليه اسم خفرع ملك مصر. وقد عُثر في خارج القصر على عرصة طولها نحو ثلاثين متراً، وعرضها ثمانية عشر مرصوفة بالآجر، وليس هناك أثر للخدع أو سقف بل هي كالمصاطب التي يقيمها عامة الناس أمام بيوتهم، ويطلونها بالملاط. وقد عبّر عن هذه العرصة بالعبرانية «مِلِط مالين». فصاحب الترجمة اللاتينية العامية لم يجد كلمة واحدة تؤدي المعنى المقصود، فعبر عنه بكلمات فقال في كلام ارميا: «تُخذ بيدك حجارة كبيرة واطمرها في المغارة التي تحت حائط اللبن عند باب بيت فرعون في تحفيس». وفي ترجمة الآباء اليسوعيين العربية الملاط وموضع التلبين كما رأيت وعلى كل قراءة. فهذا المحل الذي كان اللبن فيه كان عند باب بيت فرعون، وهناك يكون بختنصر قد بسط ديباجه كما قال النبي. وقد بحث باتري عن الحجارة التي طمرها ارميا فوجد هناك حجارة غير منحوتة، ولكن لا وسيلة للحكم بأنها الحجارة التي طمرها النبي إذ لم تكن لها سمة تميزها. ومهما يكن من أمرها فليس من يقيم نكيراً على أن اكتشاف هذا القصر في تل دفنة التي هي تحفيس؛ وما عُثر عليه فيه من الآثار مؤذن بصحة ما جاء في الكتاب. ولذلك قالت جريدة التيمس في نشرتها في ١٨ حزيران سنة ١٨٨٦ م «لا يخلو من فائدة كبرى أن يعلم الجمهور ولا سيما الإنكليز الذين يكتبون على مطالعة الكتاب المقدس أن عالماً إنكليزياً كشف عن خرابات قصر في مصر حيث وقف ارميا النبي وتنبأ، وحيث وجدت بنات الملك صديقا ملجأ عند فرعون خفرع وحيث نصب بختنصر عرشه وبسط ديباجه الملكي لما غشي مصر». وقد تنبأ حزقيال أيضاً على حملة بختنصر على مصر فقال (فصل ٢٩ عد ١ وما يليه): وكانت إليّ كلمة الرب قائلاً: يا ابن البشر اجعل وجهك نحو فرعون

ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها... هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر التّين العظيم الرابض في وسط أنهاره الذي قال إنّ نهري هو لي وأنا صنعت نفسي لني سأجعل حلقة في فكك... فيعلم جميع سكان مصر أنني أنا الرب ذلك بما أنهم كانوا عصا من قصب لآل إسرائيل فإذا أمسكوك بالكف تشققت فمزقت منهم الكتف كلها. وإذا اعتمدوا عليك انكسرت فزعرعت منهم الحقوين كليهما. ولذلك هكذا قال السيد الرب: هأنذا أجلب عليك السيف فاقرض منك البشر والبهائم... فاجعل أرض مصر قفاراً خربة مستوحشة من مجدول إلى أسوان وإلى تخم كوش... يا ابن البشر إنّ نبوكدنصر ملك بابل قد استخدم جيشه خدمة عظيمة على صور... ولم تكن له أجرة ولا لجيشه من جهة صور لذلك هأنذا أعطي نبوكدنصر ملك بابل أرض مصر. فيأخذ جمهورها ويسلب سلبها وينهب نهبها فيكون ذلك أجرة لجيشه». فقد أنكر قبلاً بعض الملحدّين صحة ما جاء في هذه النبؤات مستمسكين بأن هيرودت وديودر الصقلي لم يأتيا بذكر حملة بختنصر على مصر. وأما الآن فلم يبق من سبيل إلى هذا الإنكار والآثار المصرية والكلدانية ناطقة بتكذيب الملحدّين فقد كُشف في مصر عن تمثال لرجل شريف مصري اسمه نسهور، وعليه خطوط مؤذنة بأن هذا الرجل كان والياً في جنوبي مصر وقد عهد إليه أن يدرأ المجاورين له عن السطو على هذه الناحية. وقد أتم ما عهد إليه به وكان مقيماً في اللفتين (جزيرة في النيل تجاه أسوان) بمنزلة ملك إلى أن يقول عن نفسه: «أقمت تمثالي تخليداً لذكري فلا يزول من الهيكل لأنني عُيّنت بمعبد الآلهة عندما أراد جنود الأجانب أن يدمروه وهم جنود العمو (الساميين) شعوب الشمال شعوب آسيا التعساء... الذين أرادوا السوء بنا وعزموا أن يغشوا الأرض العليا (مصر العليا) ويدمروا البلاد ولم يخافوا جلالة الملك حق مخافته. وأتموا ما عقدوا عليه نيتهم لكنني لم أدعهم يتصلون إلى تاكان (عمل في جوار الشلال الأول) بل جعلتهم يقتربون من المحل الذي كانت جلالته حلّت فيه فدبرت عظمته على إنكسارهم». والحاصل من هذه الخطوط أنّ جنود الآسيانيين الساميين (كما هم الكلدان) حملوا على مصر في أيام ملكها خفرع وتوغلوا فيها إلى مصر العليا حيث كان نسهور فلم يدعهم يجتازون الشلال الأول حيث كان الملك فرّ فردّهم على أعقابهم، على أنهم أتموا نبؤة حزقيال بأن بلغوا إلى الحدّ الذي وضعه النبي بقوله إنّ بختنصر ينهب ويسلب في مصر ويجعلها خراباً إلى أسوان وإلى تخم كوش.

وقد وُجد في بابل صفيحتان مشعرتان بجملة بختنصر على خفرع ملك مصر وعليهما خطوط مصرية، فالأولى تمثل رجلاً يعارك أسداً وبجانبه رجل يسجد لصورة الملك مكتوباً عليها خفرع يحميه فتاح (أحد آلهة المصريين). والثانية تمثل رجلاً ساجداً ومن ورائه قرد وعليها اسم خفرع أيضاً ويُظن أن الصورتين نقشهما بعض الأسرى في بابل إبان الحرب بين بابل ومصر. ولا أقل من أنهما مشعرتان بما كان بين البلدين في أيام بختنصر وخفرع. وقد كُشف عن صفيحة أخرى لبختنصر كُتب عليها أخبار إحدى غزواته إلى مصر وهي الآن في المتحف البريطاني محطمة، ولكن يمكن أن يُقرأ فيها ما يأتي: فبختنصر بعد أن يشكر الآلهة على ما قَبِضَتْ له من النصر يقول «في السنة ٣٧ لنبوكدنصر ملك الأرض: ذهبْتُ إلى مصر للحرب فجمع أَماسو (اماسيس) ملك مصر جيوشه وسيّر عساكره... جزية في وسط أرض مصر ٠٠٠ ١٥٠٠٠ جندي وخيول ومركبات». فسنة ٣٧ لبختنصر توافق سنة ٥٦٨ ق.م وكان ملك مصر حينئذٍ اماسيس الذي رقي منصة الملك بعد سقوط خفرع عنها؛ وعليه فحملة بختنصر هذه على مصر غير حملته السابقة على خفرع، لكن الحملتين تؤيدان صحة نبؤات ارميا وحزقيال، فالظاهر أن بختنصر بعد رفعه الحصار عن صور دخل ظافراً وتتبع أثر خفرع إلى أسوان، ولكن بعد أن انتهى إلى الشلال الأول اضطُر أن يعود إلى الوراق، وبعد مضي ثلاث سنين أو أربع عاد إلى مصر فقهر أَماسيس وفرض جزية على بلاده. وقد ذكرنا في تاريخ الفينيقيين حملته على صور وتحملها مضض الحصار ثلاث عشرة سنة (طالع عد ١٢٧) وقد نقش بختنصر صورته على أحد الصخور في معبر نهر الكلب كغيره من غزاة بلادنا. وأما ارميا الذي أخذ إلى مصر فقال بعض الآباء إن اليهود الذين انحدروا إلى مصر رجموه لأنه لم يكن ينكف عن توبيخهم على تركهم الرب وعبادة آلهة المصريين. وقال بعض الربيين: إنه عاد إلى اليهودية ومات فيها وذهب آخرون إلى أنه مضى إلى بابل ومات هناك.

عد ٣٤٠

سنو ملوك يهوذا من خراب السامرة إلى الجلاء البابلي

إننا نختم هذا الفصل بوضع جدول يبين سني ملوك يهوذا من خراب السامرة الذي كان سنة ٧٢١ ق.م إلى إنقراض مملكة يهوذا وجلاء عليّة شعبها إلى بابل

تكملة للجدول الذي وضعناه للملك يهوذا وإسرائيل إلى إنقراض مملكة إسرائيل في
عد ٣٢٧ فخراب السامرة كان في السنة السادسة لحزقيال وهو قد ملك في
أورشليم تسعاً وعشرين سنة فيكون ملك بعد خرابها ثلاثاً وعشرين سنة كما ترى
في هذا الجدول:

اسماء ملوك يهوذا سنو ملكهم سنة بدء كل منهم					
باتو	كليبتون	فتر	آيات الكتاب		
٢٣	٧٢١	٧٢١	ملو ٤ ف ١٨ ع ٢	حزقيا	
٥٥	٦٩٨	٦٩٧	٤ ف ٢١ ع ١	منسا	
٠٢	٦٤٣	٦٤٢	٤ ف ٢١ ع ١٩	امون	
٣١	٦٤١	٦٤٠	٤ ف ٢٢ ع ١	يوشيا	
..	٦١٠	٦٠٩	٤ ف ٢٣ ع ٣١	يوحاز شهر ٣	
١١	٦١٠	٦٠٩	٤ ف ٢٣ ع ٣٦	يواقيم	
..	٥٩٩	٥٩٨	أخبار الأيام ٢ ف ٣٦ ع ٩	يوحاننا شهر ٣	
١١	٥٩٩	٥٩٨	ملو ٤ ف ٢٤ ع ١٨	صدقيا	
..	٥٨٩	٥٨٧	٤ ف ٢٥ ع ٨	خراب أورشليم شهر ٦	
١٣٣					المجموع

فمجموع سني هؤلاء الملوك بعد خراب السامرة مئة وثلاث وثلاثون سنة ومن
بعد انقسام مملكة إسرائيل إلى خرابها مئتين وإحدى وستين سنة ومدة شاول ودأود
وسليمان مئة وعشرون سنة فجملة مدة الملوك في إسرائيل من شاول إلى صدقيا
خمس مئة وأربع عشرة سنة.

الفصل التاسع عشر

أخبار بني إسرائيل في بلاد الكلدان

عد ٣٤١

حال بني إسرائيل في بابل وإنذار الانبياء لهم

إن إقامة اليهود في بابل مع ما طبعوا عليه من الثقل والملل كانت لهم معثرة كبرى في أمر دينهم. فقد كانوا أضاعوا إستقلالهم وفُرضت مملكتهم ودُمرت مدينتهم وهيكلهم. فحدثتهم عقولهم الضخمة أنَّ آلهة الكلدانيين استظهرت على إلههم فلم يَقَوْ أن ينجِّي شعبه من التشتت وهيكله من الدمار وآنيته من السلب. ورأوا عظمة بابل حينئذ وقصورها الشامخة وجناتها الغناء الزاهرة ورغد أهلها، وعز ملوكها وترف كبرائها وعظمة هياكلها على هيكلهم. وقد حققت الآثار أنَّ مساحة أسوار بابل وقتئذ كانت ٥١٣ كيلومتراً مربعاً تنيف سبعة أضعاف على أسوار باريس سنة ١٨٦٠ م ومساحة سورها الثاني ٢٩٠ كيلومتراً مربعاً أكبر كثيراً من مدينة لندرة (على ما روى اوبر في كتاب رحلته إلى ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٢٣٤). فكان كل ذلك باعثاً لبني إسرائيل على تركهم الرب إلههم وعبادتهم ما يعبد الكلدان ودينهم بما يدينون. أجل قد بقي بينهم من كان يقول: «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف في وسطها علقنا كنانيرنا. هناك سألنا الذين سبونا نشيداً والذين عذبونا تطريباً إن رغبوا لنا من ترانيم صهيون. كيف ترنم ترنيم الرب في أرض غربة؟ إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك إن لم أعلِ أورشليم على ذروة فرحي» (مزمو ١٣٦). لكن هذا ترنيم بعض المتورعين مقصوداً به إحياء ذكر الرب وأورشليم والهيكل في أذهان الشعب، وهو مؤذن بالخطر الهائل الحقيق بإخوانهم على أنَّ الله تدارك شعبه ببعثه يومئذ أكبر أنبيائه. فالانبياء الكبار أربعة أشعيا وأرميا

وحزقيال ودانيال. فاشعيا كان قبيل جلائهم لكنه تنبأ عليه. وحذر من معاصره وأكثر الحث لبني إسرائيل على التشبث بعروة إيمانهم الوثقى، وأفاض بالتعزية لهم بأنهم سيعودون إلى الأرض ميراث آبائهم.

والجزء الثاني من نبواته من الفصل الأربعين فصاعداً هو أفصح وأسمى من باقيها، وجل مدار كلامه فيه إنما هو في الجلاء وتعزية المجلّون، وتبشيرهم بقورش منقذهم. وكان حزقيال ودانيال بين أظهر المسيبين في بابل وسيأتي الكلام فيهما. وأما ارميا فبقي في اليهودية حين سبيهم وقبض الله له أن يصحب المرتحلين إلى مصر كما رأيت. على أنه لم يتقاعد عن أن يحذر من سيقوا إلى بابل من الكفر، ويحضهم على الإحتفاظ بدينهم كما يظهر في رسالته إليهم التي ذكرها باروك تلميذه، وهي حريّة بأن تدوّن بحروف من ذهب فقد قال فيها (باروك فصل ٦): «إنه لأجل الخطايا التي خطئتم أمام الله يسوقكم نبوكدنصر ملك بابل إلى الجلاء في بابل فإذا دخلتم بابل فستكونون هناك سنين كثيرة... وسترون في بابل آلهة من الفضة والذهب والخشب، تحمل على المناكب وتلقي الرهبة على الأمم فاحترزوا أن تشبهوا بالغرباء وتأخذكم منهم رهبة وإذا رأيتم الجموع أمامها ووراءها يسجدون لها فقولوا في قلوبكم لك يا رب ينبغي السجود... أما تلك فإن لها السئة وقد نحتها التجار وهي مغشاة بالذهب والفضة لكنها آلهة زور لا تستطيع نطقاً، يأخذ الناس لها ذهباً كما يؤخذ لعذراء تحب الزينة ويصوغون أكاليل يجعلونها على رؤوس آلهتهم وربما سرق الكهنة من آلهتهم الذهب والفضة لمنفعة أنفسهم... يزينون الآلهة بالملايس كاللبشر... وهي لا تسلم من الصدأ والسوس وإن كانت تلبس الأرجوان ويمسحون وجوها من غبار البيت المتراكم عليها وفي يد كلّ منها صولجان كالحاكم على بلد لكنه لا يقتل من يجرم إليه وفي يمينه سيف وفأس لكنه لا ينجي نفسه من الحرب واللبصص... إذا نُصبت في البيوت فعيونها تمتلئ غباراً من أقدام الداخلين» ويختتم كلامه قائلاً: «إنّ الرجل الصديق الذي لا صنم له أفضل لأنه بمعزل عن العار».

إنّ الآثار التي وُجدت في آشور وبابل جاءت مصداقاً لما قاله ارميا في تمائيل الآلهة الذهبية والفضية، وفي حملها على المناكب وسجود الناس لها وفي قبضها على الصولجان والسيف والفأس، ومن تاح له أن يرى المتحف البريطاني أو متحف اللوفر في باريس وغيرها من متاحف أوروبا لم يمتزّ البتة في صحة مقال النبي، لأنه

يرى ما يشذ عن العد من تماثيل هذه البلاد وصورها ونقوشها مطابقة وصف ارميا لها. ونخص بالذكر منها صورة عثر عليها لايرد في نمرود تمثّل أربعة آلهة وآلهات محمول كلّ منها على مناكب أربعة من الكهنة أو القواد الآشوريين (لايرد في آثار نينوى صفحة ٦٥).

عد ٣٤٢

طوبيا البار

كان طوبيا من سبط نفتالي ممن جلاهم ملك آشور إلى بلاده قبل جلاء بني يهوذا إلى بابل. وقد أفرد له الكتاب سفرأ معنوناً باسمه أجمعت شواهد التقليد على أنّ طوبيا وابنه كتبه. وقال القديس ايرونيμος إنهما دوّناه بالكلدانية لغة البلاد حيث كانا. وقال بعض المدققين إنهما كتبه بالعبرانية لغة موطنهما (فيكورو الموجز الكتابي عد ٥٢٢ و ٥٢٦). وإليك خلاصة هذا السفر: كان طوبيا مذ صبوته يتّقي الله ويسجد له في هيكل أورشليم. واتخذ له امرأة من سبطه اسمها حنة وولدت له ابناً سماه طوبيا باسمه. ولما جُلي مع امرأته وولده إلى نينوى كان يصون نفسه من مآكل أهلها. ونال حظوة لدى الملك شلمناصر فأطلق له أن يذهب حيث شاء ويفعل ما يريد. فكان يطوف على من كانوا في الجلاء، ويرشدهم بنصائح الخلاص، وأتى راجيس مدينة ماداي فرأى رجلاً من سبطه اسمه غايلوس في فاقة، فدفع إليه عشر وزنات من فضة كانت معه وأخذ صكاً بها. وبعد أن مات شلمناصر وملك سنحاريب ابنه (كذا) مكانه وعاد مدحوراً من أرض يهوذا لتجديفه على الله وطقق يقتل كثيرين من بني إسرائيل، كان طوبيا يدفن أجسادهم، ونمى ذلك إلى الملك فأمر بقتله وضبط ماله، فهرب طوبيا بولده وزوجته وبعد أن قتل سنحاريب ابنه عاد طوبيا إلى منزله وردّ عليه كلّ ماله (فصل ١).

واستمرّ طوبيا على عادته يدفن الموتى حتى في أيام أفراحه، وتعب من ذلك ذات يوم فرمى بنفسه إلى جانب الحائط فوقع زرق من عرش خطاف في عينيه وهو سخن فعمي. وتحمل مصابه بالصبر الجميل مرشداً امرأته وابنه إلى الإذعان لقضاء الله (فصل ٢). وضاعت نفس طوبيا يوماً فتوسّل إلى الله قائلاً: «مُرْ أَنْ تُقْبِضَ رُوحِي بِسَلامٍ لِأَنَّ المَوتَ خَيْرٌ لِي مِنَ الحَيَاةِ». وكان له ذو قرابة في راجيس اسمه رعوثيل

وله بنت اسمها سارة تزوجها سبعة رجال فقتلهم الشيطان لتفرغهم لشهواتهم، فعيرتها إحدى جوارى أبيها بقتل أزواجها، فانفردت تصلي لله في ذلك اليوم نفسه أن يحللها من وثاق العار أو يأخذها عن الأرض، فاستجبت صلاتها وصلاة طوييا لرفعهما في يوم واحد (فصل ٣). وقال طوييا إنَّ الرب استجاب صلاته وإنَّ أجله قريب، فاستدعى ابنه وأوصاه أن يتقي الله ويجانب كلَّ إثم. وأعلمه أنه أعطى غابيلوس في راجيس عشر وزنات من فضة وأخذ صكاً بها، فلينظر كيف يتوصل إليه فيقبض منه المال ويردُّ إليه الصك (فصل ٤). وأمره أن يلتبس رجلاً ثقة يصحبه بأجرته ليستوفي ماله. فأعدَّ الله له ملاكه رافائيل بزي فتى بهيٍّ مشرَّ كأنه متأهب للمسير، وقال إنه يعرف راجيس وغابيلوس وتعهَّد لطوييا أنه يأخذ ابنه ويرده سالمًا. ودعا طوييا لهما وسافرا (فصل ٥) فباتا أول منزلة في جانب نهر دجلة. وأراد طوييا غسل رجله فافتحمه حوت وارتاع وصرخ، فقال له الملاك خذ بخرشومه، وشقَّ جوفه، واحتفظ بقلبه ومرارته، فدخان القلب يطرد الشياطين، والمرارة تبرئ العيون التي عليها الغشاء. وأنزله الملاك بعد بلوغهما راجيس علي رعوئيل أبي سارة المشار إليها، وأعلمه أنه من ذوي قرباه وأنه غني وليس له إلا سارة فلا بد لك أن تتخذها زوجة. وأمَّنه بأنه إذا تزوجها وتفرَّغ معها للصلوات وأحرق كبِد الحوت فلا يمسّه ضرٌّ كما أصاب من تزوجها متفرغين لشهواتهم، فكان للشيطان سلطان عليهم (فصل ٦).

وقد استقبلهما رعوئيل بالمسرة، ولما عرف أنَّ الشاب ابن طوييا قبَّله بدموع وبكى على عنقه، وطلب طوييا إليه أن يزوجه سارة فتردَّد أولاً، فأمنَّه الملاك فأخذ يمين ابنته وسلمهما إلى يمين طوييا وباركهما وكتبوا عقد الزواج (فصل ٧). ولما دخل عليها فعل كما أمره الملاك، فأحرق فلذة من كبِد الحوت وتفرَّغ مع عروسه للصلوات. وظنَّ رعوئيل أنه يموت كباقي أزواج بنته، فأعدَّ القبر ليلاً وأنفذ إحدى الجوارى فوجدت العروسين سالمين. فشكر الله وطمر القبر وأعطى طوييا نصف ماله، وكتب لأبيه صكاً بالنصف الثاني يستولي عليه بعد وفاته ووفاة امرأته (فصل ٨).

وسأل طوييا رافائيل أن يذهب إلى غابيلوس ويقتضي منه زنات الفضة ويرد إليه صكه، ويدعوه إلى عرسه، ففعل رافائيل وأتى غابيلوس إلى طوييا، وفرح به ودعا له (فصل ٩). وقلق طوييا الكبير وامرأته لإبطاء ابنهما وألحَّ طوييا الصغير على حميه لينصرف إلى أبيه، فأعطاه سارة ونصف أمواله من غلمان وجوارٍ ومواشٍ وإبل

وبقر وفضة كثيرة وصرفه من عنده، وأوصى ابنته أن تكرم حمويها وتخب بعلمها وتحفظ نفسها غير ملومة (ف ١٠). وعاد طوييا ورافائيل يصحبه، ففرح أبوه وأمه به وبعرسه حتى بكيا من فرحهما وأخذ من مرارة الحوت وطلّى عيني أبيه، ومكث مقدار ساعة فبدأ يخرج من عينيه غشاوة كغرقى البيض فأمسكها طوييا وسحبها من عينيه وللوقت عاد إليه بصره فمجد الله هو وذووه (ف ١١).

وأراد أن يهب رافائيل نصف ما جاء به طوييا الصغير من عند حميه، فأجابهما أنّ الصلاة مع الصوم صالحة وأنّ الصدقة خير من ادخار كنوز الذهب. وكشف لهما أنه رافائيل الملاك، وأنه كان يرفع إلى الله صلاة طوييا وميراته بدفن الموتى، وأنّ الرب أرسله ليشفيه ويخلص سارة من الشيطان. فارتاعا وسقطا على أوجههما على الأرض، فشجعهما الملاك وأمنهما وارتفع عن أبصارهما، فباركوا الله وحدثوا بآياته (ف ١٢). وسبح طوييا تسبحته المثبتة في الفصل الثالث عشر من سفره. وعاش بعد أن عاد بصيراً إثنين وأربعين سنة، ورأى بني حفتة فتمت سنوه مئة وإثنين ودُفن في نينوى. وكان عمره حين ذهب بصره ستاً وخمسين سنة وعاد يبصر وعمره ستون سنة. ولما حضرته الوفاة دعا ابنه طوييا وأبناء السبعة وقال لهم قد دنا دمار نينوى، لأنّ كلام الرب لا يذهب باطلاً وإخوتنا الذين تفرقوا من أرض إسرائيل يرجعون إليها، وبيت الله الذي أحرق فيها سيستأنف بناؤه وأنتم لا تقيموا هنا، بل أي يوم دفتتم والدتكم معي في قبر واحد اخرجوا من هذا الموضع. وقُضي أجله واستمر طوييا الصغير في نينوى إلى ممات أمه، وارتحل عنها بزوجه وبنيه وبنيه بنيه ورجع إلى حمويه فوجدتهما سالمين. وبعد موتهما أحرز كل ميراث بيت رعوئيل ورأى بني بنيه إلى الجيل الخامس، واستوفى تسعاً وتسعين سنة من عمره بمخافة الرب ودُفن بفرح (ف ١٤).

فهذا ملخص سفر طوييا ولا يرى المطالع إشكالاً في إدراكه كما لخصناه مع أنّ فيه مشكلين رابكين. مصدر أحدهما اختلاف الروايات في نسخ هذا السفر لا سيما في تعيين السنين. ومصدر الثاني توفيق هذه السنين مع ما كشفت عنه الآثار الآشورية. وقد طالعنا في المجلة الموسومة بالتمذّن الكاثوليكي (في نشرتها المؤرختين في ٤ تموز و ١ آب سنة ١٨٩١م) فصلين مشبعين في هذا المبحث فلنخصهما كما يأتي: قد اختلفت النسخ في تعيين السنة التي فقد طوييا بصره. ففي الترجمة الإيطالية القديمة إنّ عمره كان يومئذ ٥٤ سنة. وفي الترجمة اللاتينية العامية ٥٦

سنة. وفي اليونانية الواتيكانية ٥٨ سنة. وفي الكتاب القديم المؤتى به من سينا ٦٢ سنة. وفي الكتاب المؤتى به من الاسكندرية والترجمة السريانية التي أذاعها فايوس ٨٨ سنة. وجاء في الترجمتين العامية والسريانية التي في الجامعة (الكتاب بلغات عديدة) إن جملة سني حياته مئة وستتان كما ذكرنا. ولكن في الترجمة العربية والكتاب المؤتى به من سينا والترجمة الإيطالية ١١٢ سنة. وفي السريانية التي أذاعها فايوس ١٣٢ وفي الترجمة الأرمنية ١٥٠ سنة وفي الكتائين الواتيكانى والاسكندري ١٥٨ سنة. ومثل هذا التباين في تعيين عمر طويا الصغير ففي اللاتينية العامية ٩٩ سنة كما رونا. وفي النسخة السريانية ١٠٧ سنين وفي الإيطالية والكتاب السيناوي ١١٧ سنة وفي الكتائين الواتيكانى والاسكندري والترجمة الأرمنية ١٢٧ سنة حتى جعل هذا التباين كلمت يصرح بيأسه من تحقيق عمر طويا. واكتفى بتافيوس أن يعتمد على اللاتينية وحدها.

والمعضلة الكبرى إنما هي في توفيق هذه السنين مع ما كشف عنه بالآثار الآشورية. فقبل هذه الإكتشافات قل ما لقي بعض المفسرين إشكالاً في تفسير هذا السفر إلا في الآية ال ٧ من الفصل ال ١٤ حيث قيل: «وبيت الله الذي أُحرق فيها سيستأنف بناؤه». والهيكل لم يكن أُحرق عند موت طويا فتأول الحجري أُحرق الفصل الماضي بمعنى سيحرق في المستقبل كما جاء في بعض النسخ اليونانية. وكانوا يظنون وقتئذ أن خراب السامرة وجلاء بني إسرائيل إلى نينوى كانا في آخر مدة سلمناصر، وأن سنحاريب خلف سلمناصر دون متوسط بينهما، فيتهيأ لهم توفيق هذه السنين. ولكن جاءت الآثار تبين أن سلمناصر ابتداء حصار السامرة، لكن سرغون هو الذي فتحها، وأن سرغون ملك سبع عشرة سنة بعد سلمناصر، ثم خلفه ابنه سنحاريب واستمر على منصّة الملك أربعاً وعشرين سنة. وهو الذي أمر بقتل طويا وضبط ماله، فاختماً ولم يظهر إلا بعد أن قتل سنحاريب ابنه. فإذا أضفنا سني سرغون السبع عشرة إلى سني سنحاريب الأربع والعشرين كان المجموع إحدى وأربعين سنة. ولزم منه أن يكون طويا أجلي وعمره خمس عشرة سنة لأنه عمي وعمره ست وخمسون سنة، والكتاب يقول إنه كان متزوجاً وله ولد، وكان يمضي إلى أورشليم ويقدم بواكيره وأعشاره في كل ثلاث سنين. وأنى يصدق هذا على حدث عمره خمس عشرة سنة.

فكاتب الفصلين في المجلة «التمدن الكاثوليكي» عني بالتوفيق بين روايات
ترجمات هذا السفر على اختلافها وبين ما جاءت به الآثار، مثبتاً أنّ طوبيا أجلي
وعمره نحو من عشرين سنة. وإنّ إقامته بعد الجلاء لم تكن في مدينة نينوى نفسها
بل في موضع آخر من بلاد آشور، وإنّ سفر الملوك الرابع ناطق بأنّ المجلّين من بني
إسرائيل أقاموا في أنحاء عديدة، وأنه لم يكن عند جلائه متزوجاً. بل تزوج في بلاد
آشور وولد طوبيا قبل أن ينتقل إلى نينوى، وأن هذا ظاهر من بعض الروايات ولا
يخالف الترجمة اللاتينية العامية، إذ جاء فيها (ف ١ ع ١٤): «ولما جلا مع امرأته
وولده إلى مدينة نينوى (لا إلى بلاد آشور) حيث كانت كلّ عشيرته». إنّ طوبيا
وُلد سنة ٧٤٣ ق.م. وأجلي سنة ٧٢٢ عند دمار السامرة وله من العمر عشرون أو
إحدى وعشرون سنة في السنة الأولى لسرغون فاتح السامرة. وأقام في موضع خارج
عن نينوى إثنتي عشرة سنة، وتزوج سنة ٧١١ وُلد له طوبيا سنة ٧١٠ ق.م.
وهي السنة الثالثة عشرة لسرغون وحيثُ أجلي إلى نينوى ونال حظوة عند سرغون
فأطلق له أن يذهب حيث يشاء فمضى وقتل إلى راجيس، وأقرض غاييلوس الفضة
وبقي على ذلك أربع سنين أو خمساً من مدة سرغون وأربعاً وعشرين سنة مدة
ملك سنحاريب. وعمي للسنة الأولى من ملك ابنه اسرحدون وهي سنة ٦٨١
ق.م. إذ كان له من العمر إثنان وستون سنة. وزدّ عليه بصره سنة ٦٧٧ ق.م أي
بعد أربع سنين وعمره ست وستون سنة. وعاش مئة وإثنتي عشرة سنة كما في
الترجمة العربية والإيطالية، وفي الكتاب المؤتى به من سينا مخطوطاً في منتصف
القرن الرابع للميلاد؛ فيكون قد عاش بعد زواج ابنه ستاً وأربعين سنة وهي كافية
ليرى بني حفدته كما قال الكتاب. ويكون مات سنة ٦٣١ قبل خراب نينوى
بست سنين على القول إنها خربت سنة ٦٢٥، أو بخمس وعشرين سنة على القول
إنها خربت سنة ٦٠٦. وعلى كلا القولين يصدق مقال طوبيا لابنه أنّ قد دنا دمار
نينوى كما جاء في الكتاب، ولما كان طوبيا الصغير وُلد سنة ٧١٠ كما مرّ ومُرّت
عليه خمس سنين من ملك سرعون وأربع وعشرون سنة مدة ملك سنحاريب وأربع
سنين مدة عمي أبيه كان زواجه بسارة وعمره ثلاث وثلاثون أو أربع وثلاثون سنة
أي سنة ٦٧٧ ق.م. وجاء في الترجمة اليونانية أنه شهد خراب نينوى سنة ٦٢٥
أو سنة ٦٠٦ فيكون عمره حيثُ ستاً وثمانين أو مئة وخمس سنين ومات سنة
٥٩٤ ق.م. فيكون جملة عمره مئة وسبع عشرة سنة كما في الترجمة الإيطالية

والكتاب المؤتى به من سينا. ويكون عاش بعد زواجه ثلاثاً وثمانين سنة، وهي كافية ليرى بنيه إلى الجيل الخامس كما قال الكتاب.

فكتاب الفصلين في المجلة المذكورة اعتمد في هذا التوفيق على بعض الترجمات والكتاب المؤتى به من سينا مخالفاً الترجمة اللاتينية العامة كما رأيت. وقد أبان وأبنا نحن أنّ مثل هذه الأعداد ليست من المعتقد بشيء، وإنه كثيراً ما عُثر على أغلاط فيها. وإنه وقع مثل هذا الخطأ في تسمية الملك الذي جلا طوييا سلمناصر وهو سرغون، ومثله تسمية ملك العيلاميين في سفر يهوديت ارفخشاد وهو فرادرتي، وتسمية آشور بانيال فيه بختنصر. وتسمية شياكسر بن استياج في سفر دانيال بداريوس المادي وهلمّ جراً.

عد ٣٤٣

دانيال النبي

كان من جملة من جلاهم بختنصر في غزوته الأولى في فلسطين أربعة شبان، وهم دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا. وقد اعتاد ملوك آشور وبابل أن يختاروا من جلوسهم شباناً من ذوي الحسب وقيموهم مع شبان كبراء مملكتهم، لتلقي العلوم وتعلّم لغة بلادهم، ويجروا لهم رزق كل يوم في مدة تعلّمهم في مدارس القصر الملكي. وهذا لم يكن لنا عليه قبلاً دليل إلا بما جاء في نبوة دانيال (ف ١). إلا أنه بعد اكتشاف مكتبة آشور بانيال الخزفية توفرت البيّنات عليه، فإنّ قسماً كبيراً من هذه الكتب المكتوبة على الآجر كان معدّاً لطلبة مدرسة القصر الملكي وأساتذتها، فبينها كثير من كتب نحو اللغة ومعجماتها، وعلوم التاريخ والمراقبات الفلكية وصفائح لتمرين الطلبة، ولوح لتعليم أميرة شابة حروف اللغة الآشورية وقراءتها، وهذا اللوح محفوظ الآن في المتحف البريطاني، وألواح أخرى كالتي نستعملها الآن في مدارسنا. وقد أنبأنا صفيحة لسنحاريب (هي المعروفة بصفيحة بلينيو على ما روى سميت في تاريخ سنحاريب صفحة ٢٧) إنّ مدرسة القصر الملكي كانت تنظّم في سلك تلامذتها طلبة من غير المملكة. فقد قال سنحاريب ثمة: «إنّ بلييني ابن رجل حكيم من جوار سوانا (بابل) الذي كان تلقى العلوم وهو شاب في مدرسة قصري أقمته ملكاً على سومير واكد». فكَذلك اختير دانيال

ورفقاؤه الثلاثة ليتعلموا علوم الكلدانيين مع أبناء أشرافهم في مدرسة القصر الملكي. وغير رئيس الحصيان أسماهم فسمى دانيال بلشصر وحنانيا شدرك وميشائيل ميشك وعزريا عبدنجو (أو الأحقّ عبدنبو أحد كبار آلهة الكلدان). وكان تغيير الاسم مألوفاً عندهم فقد رأينا ملك مصر سمي الياقيم ويواقيم. وبختنصر غير اسم متنيا ودعاه صدقيا وآشور بانيال غير اسم بساميتيك ودعاه نبوسيزباني.

إنّ الشبان اليهود الأربعة أبوا أن يأكلوا من طعام الملك وأن يشربوا من خمر شرابه تمسكاً بسنة موسى. واسترضوا رئيس الحصيان المقام على المدرسة ليركهم وشأنهم. وكانوا يقتاتون بالقطاني، ونبغوا في علومهم، وفاقوا أترابهم حتى لم يجد الملك عند إمتحانه الطلبة من مثيل لهم في صفوفهم، وحاز دانيال قصبات السبق على جميعهم (نبوة دانيال ف ١).

عد ٣٤٤

دانيال وسوسة

قد ذاع اسم دانيال أولاً بفصله الحادثة التي ذكرت في ذيل سفر دانيال، وحققها من حيث الزمان أن تذكر بعد الفصل الأول من هذا السفر. وهي إنّ امرأة اسمها سوسنة زوجة يهودي يسكن في بابل اسمه يواقيم كانت بديعة بجمالها متفرّدة بتقواها. وكان ملوك بابل يبيحون من جلّوهم أن يتخذوا قضاة يفصلون دعاويهم المذهبية. وكان بنو إسرائيل أقاموا وقتلًا للقضاء شيخين أثيمين، فكانا يتردّدان إلى بيت يواقيم، فيأتيهما كل ذي دعوى. وكانت سوسنة تدخل عند الظهر حديقة لزوجها تتمشى بها والشيخان يريانها، وقد كلفا بجمالها. فدخلت يوماً على عاداتها الحديقة وكان الشيخان اختبأ فيها. وكان الحرّ شديداً، فأرادت سوسنة أن تغتسل، وأرسلت جاريتها لتأتيانها بدهن وغسل، وأمرتهما بإغلاق باب الحديقة. فوثب الشيخان عليها، وصرّحا بما في نفسيهما، وتهدداها بأنها إذا لم تطاوعهما شهدا عليها بأنها كانت مع شاب غيرهما، ولذلك أبعدت الجاريتين فتنهدت سوسنة وقالت خير لي أن أتحمل ما يكون من تهمتكما ولا أخطأ أمام الرب، وصرخت بصوت جهير. فصاح الشيخان عليها وأسرع أحدهما ففتح أبواب الحديقة، فتراكض أهل البيت ليروا ما وقع لها. وفي الغد اجتمع الشعب في بيت

رجلها فطلب الشيخان أن تشخص سوسنة أمامهما. وقاما في وسط الشعب ووضعاً أيديهما على رأسها، وشهدا عليها بأنهما رأياها وشاباً متعانقين. فبكى أهلها وجميع معارفها، ورفعت هي طرفها إلى السماء باكية متوكلة على الرب، فصَدَّقَ الجمع الشيخين القاضيين وحكموا عليها بالموت. وبين كانت تساق إلى الموت التقاهم دانيال، فصرخ بصوت عظيم قائلاً: أنا بريء من دم هذه فالتفت الشعب كله إليه، فقال أهكذا أنتم أغبياء يا بني إسرائيل حتى تقضوا على بنت إسرائيل بغير تحقيق؟ إرجعوا إلى القضاء فرجعوا وقال: فَرَّقُوا بين الشيخين. ودعا أحدهما وسأله تحت أية شجرة رأيت هذه المرأة والشاب يتحدثان؟ فقال: تحت الضروة. ثم استدعى الآخر وسأله تحت أية شجرة رأيتهما فقال: تحت السنديانة. فافتضح كذبهما. فقام عليهما الجمع وصنعوا بهما كما نويا أن يصنعا بالمرأة عملاً بما في سنة موسى. فقتلوهما وخلص الدم الذكي. وكان في هذا الأمر الفخر لدانيال كما كان لسليمان في قضائه بين المرأتين المتداعيتين على ابن في أيامه.

قد وُجِدت سنة ١٨٤٩ م في روما في المقبرة المحاذية كنيسة القديس سيستوس صورة قديمة تمثل سوسنة بهيئة نعجة صغيرة قائمة بين ذئبٍ ونمر، يراد بهما الشيخان. وقد كُتِبَ فوق رأس النعجة سوسنة وفوق رأس الذئب الشيخ. وقد ذهب كثيرون إلى أنَّ تاريخ سوسنة كتبه دانيال وألحقه بسفر نبوته، ولكن ليس لهذا المذهب دليل راجح ولا حجة قاطعة بل يؤخذ من هذا التاريخ ما يخالف زعم القائلين به، وأولى منه بالصحة ما ذهب إليه كرنيلوس الحجري وهو أنَّ كاتب هذا التاريخ يهودي نجعل اسم، وقد كتبه في آخر مدة الجلاء البابلي أو بعد صدور أمر قورش بعود بني إسرائيل إلى أوطانهم. وكتب أصله في الآرامية أو العبرانية على الأرجح لا في اليونانية كما وهم بعضهم، وإن كانت أقدم ترجماته ترجمتان يونانيتان: إحداهما لتاوداوسيون الذي كان في القرن الثاني للميلاد وعنها ما في الترجمة اللاتينية العامة. والثانية في الترجمة السبعينية وقد وُجِدت نسخة قديمة منها في روما في مكتبة الأمير كييجي. حُطَّت في القرن الحادي عشر للميلاد، وطُبعت في روما سنة ١٧٧٢م، ثم وُجِدت نسخة أخرى منها في المكتبة الامبروسية في ميلان في كتاب قديم سرياني استرنكالي حُطَّ في القرن الثامن أو التاسع، وقد طبع بوكاتوس هذه النسخة في ميلان سنة ١٧٨٨ م مع ترجمتها إلى اللاتينية. وقد أثبت كثير من العلماء الكاثوليكين أنَّ النسختين السبعينية والتاوداسيونية ليستا إلا

ترجمتين عن الأصل العبراني أو الكلداني إلى اليونانية. واعتقدت الكنيسة الكاثوليكية وأباؤها وعلمائها أن تاريخ سوسنة جزء من أسفار الكتاب المقدس القانونية خلافاً ليويلوس الإفريقي وبرفير والبروتسطننت ومن رام الإطلاع على الحجج المثبتة قانونية تاريخ سوسنة على مزيد إسهاب في ما قدمناه فليطالع كتاب الأب فيكورو الموسوم بمسائل شتى كتابية (Melanges Bibliques) من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٨ طبعة ٢.

عد ٣٤٥

حلم بختنصر وتعبير دانيال له

لما كان دانيال تلقى العلوم في مدرسة بختنصر وذاع صيت حكمته كان مقرباً إلى حاشية الملك. وكان أن بختنصر حلم حلماً إنزعجت نفسه به وهي أنه رأى في حلمه تمثالاً عظيماً، رأسه من ذهب خالص، وصدرة وذراعه من فضة، وبطنه وفخذه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضهما من حديد وبعضهما من خزف. ورأى أن قد انقطع حجر لا باليدين ف ضرب التمثال على قدميه وسحقهما. فانسحق التمثال كله من حديد و خزف ونحاس وفضة وذهب وصارت كغفى البيدر في الصيف. وذهبت بها الريح حتى لم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملاً الأرض. ولما أصبح الملك ذهب عنه منامه ولم يتذكره، فاستدعى السحرة والمجوس والعرافين والكلدانيين ليعرفوا حلمه ويأتوه بتعبيره، فاعتذروا بأنهم لا يعرفون ما حلم الملك، فأثنى لهم الاتيان بتعبيره. فقال الملك إنه أمر أمراً لا يُرد إما بأن يبينوا له حلمه وتعبيره ولهم منه الهدايا والجوائز، وإما أنه يقطعهم قطعاً ويجعل بيوتهم مزابل. فقالوا ليس إنسان على الأرض يستطيع أن يعلم ما حلم الملك ما خلا الآلهة الذين لا سكنى لهم مع البشر. فغضب الملك وحنق جداً وأمر باستئصال جميع حكماء بابل. وبوشر في تنفيذ أمر الملك، وطلب دانيال وأصحابه ليقتلوا. فسأل دانيال اريوك الذي سلطه الملك على تنفيذ القضاء لِمَ هذه القسوة من قبل الملك؟ فأعلمه بالأمر. فدخل دانيال على الملك وسأله أن يمهله زماناً فيعبر له حلمه فأمهله. فأعلم دانيال أصحابه حننيا وميشائيل وعزريا وعكفوا على الابتهاال لله ليكشف لهم عن حلم الملك وتعبيره. فكشف السر لدانيال في رؤيا ليل. فبارك الله ومضى إلى اريوك فأدخله على الملك فقال دانيال إنَّ السر الذي

يسأل عنه الملك لا يستطيع الحكماء بيانه، لكن في السماء إلهاً يكشف الأسرار. وقد شاء أن يعلم بختنصر بما سوف يكون في آخر الأيام، وقصّ على الملك حلمه كما رآه وكما رويناه. وقال أما رأس التمثال الذي من ذهب فيعبر عنك أنت أيها الملك ملك الملوك الذي أتاك إله السماء الملك والقدرة والسلطان والمجد. وأما كون صدره وذراعيه من فضة فعبارة عن مملكة أخرى تكون بعدك أصغر منك. وكون بطنه وفخذه من نحاس فعبارة عن مملكة ثالثة من نحاس تتسلط على الأرض، وكون ساقيه من حديد عبارة عن مملكة رابعة تكون صلبة كالحديد لأنّ الحديد يسحق ويطحن كلّ شيء، وأما كون قدميه وأصابعه بعضها من حديد وبعضها من خنزف فإشارة إلى أنّ هذه المملكة يكون بعضها صلباً كالحديد وبعضها قصفاً كالخنزف، وأما الحجر الذي انقطع من الجبل وسحق الحديد والنحاس والخنزف والفضة والذهب، فعبارة عن أن إله السماء سيقم في آخر أيام هذه الدول مملكة لا تزول إلى الأبد. والمراد بهذه الممالك دولة بختنصر وخلفائه، ثم دولة ملوك مادي وفارس، ثم دولة اليونان أي اسكندر الكبير وخلفائه، ثم دولة الرومانيين وتليها مملكة المسيح الأبدية. ولما سمع بختنصر كلام دانيال خزّ على وجهه ساجداً له وأعطاه هدايا عظيمة كثيرة، وسلّطه على جميع إقليم بابل وجعله رئيس الولاة على جميع حكماء بابل. وولّى شدرك وميشك وعبدنبو أصحاب دانيال على أعمال بابل وكان دانيال في باب الملك (دانيال ف ٢).

جاءت آثار الكلدانيين وما عُلم من عاداتهم مصداقاً لما جاء في سفر دانيال. فكان للأحلام عندهم وعند الآشوريين أهمية لا أقلّ من أهميتها عند المصريين. كما رأيت في أحلام فرعون ورئيس السقاة، ورئيس الخبازين التي عبرها يوسف، والبيّنات على صحة ذلك عند الكلدان أكثر من أن تورّد، فنجتزئ منها بما يأتي: قال ديودور الصقلي (ك ٢ ف ٢٩): « إنّ الكلدانيين كانوا يعتبرون الأحلام كالمعجزات، ويعبرونها كالنبؤات. وكان لهذا التعبير عندهم أصول وضوابط، كان العلم بها معدوداً من جملة علومهم » وقد وُجد في مكتبة آشور بانيال التي كُشف عنها في نينوى كتاب في تعبير الأحلام انطوت صفحاته على كثير منها وعلى أحداث عديدة دلّت عليها، وقد نشر بعضهم ترجمة صفيحة منها فكان معناها «إذا رأى إنسان في الحلم ذكراً... أو رأى كأنّ جسم كلب... أو رأى كأنّ جسم دب وله أرجل حيوان آخر أو جسم كلي وله أرجل حيوان آخر، أو رأى كأنّ الاله

تنكستو يطلب ميتاً، ويؤسف على أنّ الصفيحة الخزفية محطمة لا يُعلم منها كيف يكون تعبیر هذه الرؤيات. وكانت النساء في بابل يمتنّ في هيكّل زرنايت إحدى معبودات الكلدان ليحلّمن أحلاماً يقصصنها على المنجمين فينبّونهنّ بما سيكون لهنّ. وجاء في تاريخ آشور بانيال عن آثاره المسمارية أنّ تيومان ملك عيلام سأله أن يسلم إليه بعض أمراء أسرته الذين كانوا تحالفوا عليه وفزّوا إلى مملكة آشور فأبى آشور بانيال تسليمهم فأثار تيومان الحرب عليه. ولم يتشأّم بكسوف الشمس الذي حصل وقتئذ. ولجأ آشور بانيال إلى استار آلهة آشور ويستمدّ إسعافها فتقبلت صلاته وأعلمته أن لا يخشى سوءاً، وأفاضت السرور على قلبه. وحلم تلك الليلة أحد العرافين حلمًا كأنّ إستار تبدت له ويدها حربة، وقد ركبت مركبة بهية وكأنها تقول لآشور بانيال: هلمّ إلى ماقدّام، فالجبال فسيح. فحارب تيومان وقهره (رواه لانرمان في كتابه العرافة عند الكلدان صفحة ١٣٧). وكلّ هذا مؤيد لأهمية الأحلام عند الكلدان كما روى دانيال.

ثم إنّ دانيال ذكر رتب الحكماء عند الكلدان وسماهم سحرة ومجوساً وعرافين. والكتب السحرية التي كشف عنها في مكتبة آشور بانيال جاءت مبيّنة رتب كل من هؤلاء ووسائل عرافته. (رواه لانرمان في كتابه المذكور صفحة ١٣). وذكر دانيال أيضاً رئيس الشرط وهو في الأصل «رب توبع حيا». وتأويله كبير المنتقمين أو منفذي القضاء بالقتل. وقد اكتشف سميت في نمرود صفيحة خزفية يمثل فيها أحد هؤلاء المنفذين وفي يمينه خنجر ويسراه على وتر قوس معلّق على ظهره. وقد سمى دانيال هذا الرئيس اريوك فكأنه في الكلدانية **أومدا** (أريخا)، ومعناه الطويل وقد ورد هذا الاسم كثيراً في آثار بابل فهو علّم منقول عن الصفة. وقد أبانت هذه الآثار أيضاً أنّ باختنصر كان مولعاً بالتمثيل وهذا يظهر من إقامته التمثال الآتي ذكره، ومن أقوال المؤرخين القدماء أيضاً. وكان لجيران الكلدانيين مثل هذا الولوع في التماثيل. فقد روى آشور بانيال في إحدى أسطواناته أنه أخذ من جملة غنيّمته من بلاد عيلام «إثنين وثلاثين تماثلاً» وإنّ بعضها كان من ذهب فكلّ هذه القرائن مؤيدة لما جاء في كلام دانيال.

تمثال بختنصر وطرح حننيا وميشائيل وعزريا في الأتون

جاء في سفر دانيال (فصل ٣) إن بختنصر الملك صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً، وعرضه ست أذرع، ونصبه في بقعة دورا بإقليم بابل، ودعا الأقطاب (سادة القوم الذين يدور عليهم أمرهم) والولاة والحكام والقضاة والخزّان والفقهاء والمفتين وسائر أمراء الأقاليم فأَتوا لتدشين التمثال. وهتف منادٍ بصوتٍ شديد قد أمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة بأنكم إذا سمعتم صوت القرن والأنبوب، والقيثار والونج والسنطير والمزمار وسائر أنواع المعازف، لزمكم أن تخروا ساجدين لتمثال الذهب الذي نصبه الملك. ومن لا يختر ساجداً فمن ساعته يلقى في أتون نارٍ متقدة فكان كذلك. ولم يختر حننيا وميشائيل وعزريا للتمثال، فوشي بهم قوم من الكلدانيين قائلين للملك إن رجالاً من اليهود وليتهم على أعمال بابل وهم شدرك وميشك وعبدنجو، لم يعابوا بأمرك ولم يسجدوا للتمثال الذي نصبته، فحنق الملك وأمر بإشخاصهم لديه وهددهم بأنه يلقىهم في أتون النار المتقدة إن لم يسجدوا للتمثال؛ فأجابوه لا نقدر أن نجاريك على هذا، وإلهنا الذي نعبد قادر على إنقاذنا من الأتون ومن يدك؛ وهبه لا ينقذنا فلا نسجد لتمثال الذهب.

فامتلاً بختنصر حنقاً وأمر أن يحمى الأتون سبعة أضعاف، وأوثقوا شدرك وميشك وعبدنجو في سراويلاتهم وأقمصتهم، وأرديتهم وألقوهم في وسط أتون النار المتقدة، فقتل لهيب النار من ألقوهم. وكان عبيد الله يتمشون في وسط اللهب مسبحين ومصلين له. ولم يزل عبيد الملك يوقدون الأتون بالنفط والزفت والمشاقة والزرجون، حتى ارتفع لهيبه تسعاً وأربعين ذراعاً وانتشر، وأحرق من كان من الكلدانيين حوله، ونزل ملاك الرب وطرد لهيب النار عمن كانوا فيه، وجعل في وسط اللهب ريحاً فلم تمسهم النار ولم تزعجهم، فسبحوا الرب تسبحة المنيّة في الفصل الثالث من سفر دانيال. واندھش بختنصر وقال لعظمائه: ألم نكن نلقي ثلاثة رجال في الأتون وهم موثوقون، فكيف أراهم أربعة يتمشون في وسط النار؟ ومنظر الرابع يشبه ابن إله واقترّب من باب الأتون ما أمكن وناداهم أن اخرجوا وهلمّوا، فخرجوا، ورأى الملك وعظماؤه أنهم لم تمسهم مضرة النار، ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولا تغيّرت سراويلاتهم فقال بختنصر تبارك الرب الذي أرسل

ملاكه وأنقذ من توكلوا عليه وغايروا كلمة الملك آمين. وأمر أن كل شعب أو أمة أو لسان تفوه بتجديف على إله شدرك وميشك وعبدنجو يُقطعون قطعاً وتجعل بيوتهم مزابل، فإنه ليس له آخر يستطيع أن ينجي هكذا، وأثبت شدرك وميشك وعبدنجو على أعمال بابل.

فهذا ما جاء في الكتاب ولا ذكر فيه لدانيال في هذه الحادثة، فيظهر أنه لم يشهد تدشين التمثال تعمداً أو لعذر، ولننظر بما تؤيده الآثار الكلدانية والآشورية؛ فقد مرّ أنفاً ذكر ولوع الكلدان والآشوريين بالتمائيل وقد كشف لايرد في نمرود عن تمثال آشور بانيال. ووجد هناك أيضاً تمثال للإله نبو وتمثال سلمناصر الثاني، وكل هذه التماثيل في المتحف البريطاني. هذا في بلاد آشور وأما في بلاد الكلدان فقد كشف سريك في أطلال تل نوح من سنة ١٨٧٦ م إلى سنة ١٨٨١ م عن عشرة تماثيل وهي الآن في متحف اللوفر في باريس. وكانت هذه التماثيل تدشن باحتفاء في بلاد الكلدان فتحمل على مناكب الكهنة يحرق بهم ألوف مؤلفة من الشعب، وكانوا يدشنونها في أيام الأعياد فقد وجدت صحيفة لبختنصر كُتب عليها: «أنا أخذت كثيراً من كنوز البلاد جعلتها حول المدينة كزينة لها يوم رُفع هناك الأمير الألهي إله السماء والأرض الرب الإله في عيد ليلموكو في رأس السنة في اليوم الثامن والحادي عشر، ويحمل بصنوف التبجيل تمثال ايلو (أو عليو العلي) جمال العالم وتطرح الكنوز أمامه» وقد اعتاد الكلدان عمل تماثيل ثمينة وكبيرة. فروى ديودو الصقلي (ك ٢ ف ٩) إنه كان في أحد أهرام بابل ثلاثة تماثيل من ذهب مع مذابحها وتوابعها. وكان فيها من الذهب ٥٨٥٠ وزنة وهي عبارة عن مئة وثلاثة وأربعين ألف وخمسة مئة وتسعة وخمسين كيلوغرام؛ قيمتها من نقود أيامنا أربع مئة وثلاثون مليوناً وست مئة ألف وسبعة وسبعون ألف فرنك. وقد وُجد في مكتبة آشور بانيال لوح هو الآن في المتحف البريطاني كُتبت عليه شكاية للملك بسرقة مقدار من الذهب المعد لصنع تماثيل.

وإليك ترجمة هذه الشكوى: إلى مولاي الملك من عبده عبدنبو السلام للملك مولاي، وليمنح آشور وشمش وبعل وزربانيت ونبو وتسميت وإستار نينوى وإستار اربل الآلهة المقتدرون مئة عام من العمر لمولاي الملك ويزيد في ارتقائه ورفاهه ورفاه بنيه، إنَّ الذهب الذي دفعه إليَّ المستشار المقرَّب ورئيس القصر في شهر تشرين وقدره ثلاث وزنات ذهب خالص وأربع وزنات ذهب خالص قد وقع في يد رب

دانيئو (لقب لأحد العمال)؛ وهو مُعد لعمل تمثال الملك وأمه ولم يدفع إلى العملة، فليصدر أمر مولاي الملك إلى المستشار المقرَّب ورئيس القصر أن يسترِدَّ الذهب ويدفعاه من الآن إلى شهر إلى الجند وأن يدققا في الأمر». (رواه لانرمان في كتابه الموسوم بالعرفاة عن الكلدان صفحة ١٩٢) فسبع وزنات من ذهب قيمتها ٦٣٦٣٠٠ فرنك. وكُشف عن لوح آخر كُتب عليه أن آشور صرف أربع وزنات ذهب لصنع صورتي مروداخ وزربانيت مع ملابس ذهبية لهما ورصَّعها بحجارة ثمينة، وقيمة السبع الوزنات من ذهب ٣٦٣٦٠٠ فرنك. فبختنصر أخذ من مصر وسورية من الذهب ما لا يعده عادٌّ وشهد باروز (فقرة ٤ من تاريخ اليونان) إنه بذل أكثره في تجميل المعابد. فلا عجب إذاً من صنعه تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً، وعرضه ست أذرع. هذا ولا يلزم منه أن يكون التمثال برُمته من ذهب بل يُحتمل أن كان من خزف مغشَّى بصفائح من ذهب فلا وجه للتكذيب بآيات الكتاب.

وأما دورا حيث أقيم التمثال فتسمى إلى اليوم بهذا الاسم، وهي على ثمانية كيلومترات في الجنوب الشرقي من بابل، فهناك أكتُمات تسمى تلؤل دورا ومنها تل يُعرف بالتل المخطط وهو مُشرف على الجهات الأربع. وفي أعلاه أطلال من الآجر، وكل من زاره حمل على الظنِّ أنه هناك أقام بختنصر التمثال الذي ذكره دانيال. هذا ما قاله اوبر واختتم كلامه (في كتابه الموسوم بالبعث إلى ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٢٣٩) قائلاً: «إنَّ المبعوثين من افرنسة إلى ما بين النهرين إن لم يكونوا وجدوا تمثال بختنصر الذهبي (وقد شاع بين أهل تلك البلاد أنهم وجدوه) فلا أقلَّ من أن يكون قد تيسَّر لهم تعيين محل نصبه».

إنَّ الآثار الكلدانية تؤيد ما جاء في سفر دانيال من وجه آخر، وهو أنَّ آلات الطرب والموسيقى التي ذكرها دانيال نجد صورها أو ذكرها في الآثار البابلية. وقد عدَّ النبي ستاً منها وهي: «القرن والأنبوب والقيثار والونج والسنطير والمزمار». فالقرن Trompette ترى صورته على إحدى صوَر سنحاريب ذكرها لايرد (في آثار نينوى صفحة ١٥) وهي في المتحف البريطاني، وهو مستقيم وأشبه بالقرن الروماني المصوَّر على عمود تريانوس في روما. والأنبوب Flute نجد صورته في كثير من الآثار الكلدانية ولا سيما في الصورة التي ذكرها لايرد (في كتابه في بابل ونيوى صفحة ٤٥٥): وكان مضاعفاً عند الكلدان كما كان عند اليونان والرومانيين. ثم القيثار

(Cithare ou Harpe) نرى صورته في آثار آشور القديمة وكانت أوتاره ثمانية إلى عشرة ونراه في الصور المتأخرة ذا سبعة عشر وترًا.

ومن صورهِ الصورة التي وجدها سرسك في تل نوح تمثل موسيقياً يضرب يمينه قيثاراً ذا أحد عشر وترًا يحمله يسراه. والونج (Sambuca) نوع آخر من القيثار على الأرجح ولم يكن فيه إلا أربعة أوتار ولا يؤدي إلا الأصوات الممدودة، وتجد هيئته في الآثار الكلدانية. والسنتير (Psalterion) آلة ذات عشرة أوتار وكان يُسَـط على صندوق مجوّف مثقوب ثقوباً عديدة وترى هيئته في صورة لآشور بانيال ذكرها لايرد (في كتابه في نينوى وبابل صفحة ٤٥٤). وأما المزامر (Symphonie) فيختلف في هيئته. وقال بعضهم إنه نوع من الأرغن، والآثار الكلدانية ترى فيها صور آلات طرب أخرى فقد تكون إحداها المزامر ومنها الدفوف والطبول والطنبور وهي المشار إليها في قول النبي: «وسائر أنواع المعازف» وما أحسن ما قاله لانرمان (في كتابه في العرافة عند الكلدان صفحة ١٩٠) إنَّ يهودياً عائشاً في فلسطين لم يكن يمكنه أن يعرف بعد أربع مئة سنة (كما يزعم الجاحدون ناسبين سفر دانيال إلى رجل يهودي كتبه بعد أربع مئة سنة من أيام دانيال) جميع عادات البابليين وقرائن حالهم وآلات طربهم كما ذكرها دانيال.

إنَّ الآثار الكلدانية تؤيد مقال دانيال بقرائن أخرى منها أنَّ إجلال الكلدانيين لا سيما بختنصر لآلهتهم وتمثيلها كان بالغاً حدَّ الغلو. ونرى خطوط بختنصر مفعمة بعبارات التجلة لتمثيلها ومعابدها ومؤذنة بأنه كان يقدم لها نفائس مقتناه وأثمن غنائمه. وما رأيك فيه وقد أقلَّ جهازاً رجال عبرانيون رقاهم هو مناصب رفيعة من إكرام التمثال الذي صنعه، ووشى بهم علانية على مسامع اراكنة دولته وأقطابها. ولدى إستجوابهم صرَّحوا دون هيبه ولا حياء أنهم لا يكرِّمون تمثاله، ولو لقوا أمرَّ العذاب. فلا جرم أنَّ كلَّ ذلك كان حاملاً له على أن يميتهم شرَّ الميتات. ومنها أنَّ عذاب الطرح في النار كان مستفاضاً عندهم وأتت آثار كثيرة بإثباته. فقد روى سميت في تاريخ آشور بانيال أنه كتب على الأسطوانة الثانية في العمود ال ٦ ما ترجمته: «إنَّ دونان ونيوزالي والي كميل فاها بشتائم فظيعة لآلهتي فقطعت لسانيهما في اربل... ودونان طُرح في أتون في نينوى وأحرق برمته». وقد عامل بمثل هذا العقاب أخاه سماسوموقين، إذ ألقاه في أتون النار في بابل لثورته عليه، فكانت العصاوة على الملوك تعاقب عقاب العصاوة على الآلهة. فقد كتب في

الاسطوانة الأولى العمود ال ٤: «إنَّ سَما سَومَوقينَ أخِي الذي عَصاني وحارَني ألقوه في أجيح النار المُتقدِّة وانتزعوا حياتهُ». وقد وُجدت صورة نائِمة على أحد أبواب قصر في بلوات (في ما بين النهرين) تمثِّل هيئَةً هذه الأتَّانين وكانت مقسومة إلى طبقتين لكلِّ منهما، ثلاث نوافذ ينبعث اللهب منها ويرى من أعلى الأتون وجوانبه نحو اثني عشر رأساً من المقضي عليهم بهذا التبريح. وقد استمرَّت في بلاد فارس عادة إحراق المجرمين في الأتون إلى عصر غير بعيد. فقد شهد سِردان في رحلته في بلاد فارس سنة ١٦٦٢ م (طبع كتاب هذه الرحلة في امستردام سنة ١٧٣٥م) إنه حصلت مجاعة في بلاد فارس. فأُضرم والي أَصفهان أتونين فيها مدة شهر متهدداً تجار الحنطة بأنه يلقي فيهما لأنَّ هذا العقاب أرعب تجار الحبوب. وعليه فطرح المجرمين في النار كان مستطرقاً عند الكلدان ولم يكن منه شيء في فلسطين إلى أيام المكابيين. فإننا نرى العازر الشيخ والأخوة السبعة المكابيين لم يُلقوا في النار بل عُذبوا بعدذابات أخرى (مكابيين ٢ فصل ٦ و ٧)، وهذا يفند زعم من قالوا إنَّ سفر دانيال كُتب في أيام المكابيين ولم يكتبه دانيال في بابل.

عد ٣٤٧

الحلم الثاني لبختنصر وجنونه وتعبير دانيال لحلمه

أنبأنا دانيال أن بختنصر بعد نِجاة الشبان العبرانيين من لهيب الأتون، كتب منشوراً إلى جميع شعوب مملكته افتتحه بإعلان الآيات التي صنعها إليه الإله العلي قائلاً: «إنَّ ملكوته ملكوت أبدي وسلطانهُ إلى جيلٍ فجيلٍ؛ وأخذ يقصُّ حلمهُ احتمله فقال إنه بينما كان مطمئناً في بيته خصبياً في قصره، رأى حلماً أفزعهُ وأقلقهُ، فدعا حكماء بابل وسحرتها ومجوسها. ودخل عليه دانيال أخيراً فقصَّ عليه حلمه قائلاً: رأيت كأنَّ شجرة في وسط الأرض مرتفعة جداً بلغ إرتفاعها إلى السماء، ومنظرها إلى أقصى الأرض وأوراقها بهية، وثمرها كثير شهِي، وفيها غذاء للجميع، وتحتها تستظل وحوش الصحراء، وفي أغصانها تسكن طيور السماء. وإذا بساهر^(١) قديس نزل من السماء، وهتف بصوتٍ شديد أن اقطعوا الشجرة واقضوا أغصانها.

(١) كان الكلمة في السريانية دنا (عبرو) ومعناها الساهر والملاك لانه يسهر على تسييح الله.

وانفضوا أوراقها. وانتروا ثمارها لتشرذ الوحوش من تحتها والطيور من أغصانها. واتركوا أصل عروقتها في الأرض وليوثق بالحديد والنحاس في خضر الصحراء وليبتل بندى السماء وليكن نصيبه مع وحوش الأرض. وليتحول قلبه عن البشرية ويُعط قلب وحش ولتمرّ عليه سبعة أزمنة.

هذا هو الحلم الذي رآه، وقال عبّره لي يا بلشصر. فإنّ جميع حكماء مملكتي لا يستطيعون تعبيره وأنت قادر عليه لأنّ فيك روح الآلهة القديسين. فبُهِت دانيال الذي سماه بلشصر ساعة مخافة أن يحتدم عليه الملك غيظاً لإنذاره بما سيحلُّ به. وألخ عليه فقال إنّ الشجرة التي رأيتهما أيها الملك إنما هي عبارة عنك إذ تناهت قوتك وعظمتك، وامتدّ سلطانك إلى أقصى الأرض. والساھر الذي نزل من السماء يراد به القضاء العلوي الذي صدر عليك بأن يكون سكنك مع وحوش الصحراء. وتفتدي بالعشب كالثيران، وتبتلّ بندى السماء، وتستمر على هذه الحال سبعة أزمنة إلى أن تعلم أنّ العلي يتسلّط على ملك البشر، ويجعل له من يشاء. وأما بترك أصل الشجرة فعبارة عن أن ملكك يبقى لك بعد أن تعلم أن السلطان للسموات. ولتحسن مشورتني لديك بأن تفتدي خطاياك بالصدقة وآثامك بالرحمة للبائسين. وبعد إنقضاء سنة كان بختنصر يتمشى على قصر مملكته، فقال متكبراً أليست هذه بابل العظمى التي بنيتها أنا بقوة عزتي وبهاء مجدي؟ فإذا بصوت من السماء يقول له أن قد زال الملك عنك ويعيد عليه ما رآه في حلمه، فأضاع رشده وفارق الناس. وأكل العشب كالثيران وابتلّ جسمه بالندى وطال شعره كريش النسر، وأظفاره كمخالب الطيور. وبعد انقضاء الأيام قال أنا بختنصر رفعت عيني إلى السماء فتاب إليّ عقلي وباركت العلي وسبحت، وعظمتُ الحي إلى الأبد، وطلبتني مشيري وعظمائي، وتقررت في ملكي، وازددت عظمة فأسبح وأعظم ملك السماء الذي جميع أعماله حقّ وسبله عدل، ومن سلك بالكبرياء فهو قادر على خفضه.

فهذا ما جاء في الكتاب. وأما السبعة الأزمنة فقال يوسيفوس أنّ المراد بها سبع سنين وتابعه على قوله كثير من المفسرين. ولكن قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي) إنها سبعة أشهر وهذا أطبق لما جاء في الآثار البابلية التي تؤخذ منها قرائن عديدة مؤيدة ما جاء في كلام دانيال. منها أنّ اعتبارهم للأحلام كان مزيداً وقد مرّ ذكره، وإنه كان من عادتهم أن يُصدروا مناشير لشعبهم بذكر الآله العلي، وتدلّ على ذلك آثار كثيرة وكلام بختنصر في منشوره الذي ذكره دانيال في تعظيمه

الإله العلي أشبه بكثير من خطوطه التي يعظم فيها مروداخ وغيره من آلهته. ففي أثره المعروف بالكتابة الكبرى سمي مروداخ «الرب العظيم الرب الجواد رئيس آلهة العلي بل الأعلى الذي يمنح الملك ويعني بنجاحه» إلى أن يقول في بابل: «ولم أرفع مدينة في كل البلاد كما رفعت مدينتك بابل أمام جميع الناس إجلالاً للاهوتك». فما ذكره دانيال ينطبق خير انطباق على عاداتهم. والذي يوقف عنده إنما هو أن ينشر الملك على شعبه أمراً مذكراً له لكن بختنصر كان على كبريائه يعظم فضل الآلهة وإحسانهم إليه، وكان له فخر بعناية الآلهة بصحته أكثر من سائر الناس. وقد كُتب هذا المنشور بعد إبلاله من مرضه. ولا غرو أن شعبه علم بمصابه فكان له أن يذيعه متفاخراً بشفاء الآلهة له: والعبارات التي يظهر منها ذلّه وجنونه واقتيابه بالعشب ليست من كلامه بل من كلام دانيال معترضة بين كلام الملك بدليل أنها وردت بضمير الغيبة لا بضمير المتكلم، وهي من عد ٢٥ إلى ٣١ من الفصل الرابع. ثم يعود كلام الملك حيث يقول: «وبعد إنقضاء الأيام أنا نبوكدنصر رفعت عيني إلى السماء» الخ.

إن لنا في الآثار البابلية قرينة تؤيد مقال دانيال في جنون بختنصر وتيسر حلّ معضلة في تاريخ بابل. فقد جاء في أحد هذه الآثار أن نركيسور صهر بختنصر وثاني خلف له يسمى أباه بلسوم إسكون في خطوطه الرسمية ملك بابل، وليس في جريدة ملوك بابل هذا الاسم، ولا يمكن تعيين وقت الملكه، ولا يُقدّر أنه زاحم بختنصر مع سطوته وعزه، فلا يمكن إذاً أن يكون ملكاً على بابل إلا في مدة جنون بختنصر أي أنه كان رئيس اللجنة المدبرة الملك في تلك المدة فسماه ابنه ملكاً. وقد جاء في أحد خطوط بختنصر «إن حالة مملكتي... لم تسر قلبي ففي كل ممالك لم أبن محلاً حصيناً ورفيعاً، ولم أحشد كنوز مملكتي الثمينة ولم أنشئ في بابل أبنية لنفسني وكرامة اسمي. ولم اقدم ضحايا لمروداخ سيدي ومسرة قلبي، ولم انظف القنوات والترع». ولم يذكر ما منعه من ذلك كله ولا يظهر له وجه إلا من قبل الداء الذي اعتراه. وقد كُشف من أمد قريب عن عتبة باب من نحاس يتلخص مما كُتب عليها إن بختنصر قدّمها نذراً لهيكل بورسيبا العظيم، لأنه أصيب بمرض وعادت إليه عافيته.

إن الداء الذي أصاب بختنصر هو الذي يسميه الأطباء ليكانثروبي (Lycanthropie) فهذا المرض يخيّل لمن أصيب به أنه استحال ذئباً أو حيواناً

آخر، فينكف عن الكلام ويمتنع عن القوت المعتاد ويقتات بالعشب كالبهيمة. ويأنف أحياناً أن ينتصب فيمشي على يديه ورجليه. ويحب أن يختفي نهاراً ويخرج ليلاً. وقد حَقَّق مشاهير من الأطباء منهم بريار دي بواسمون: (Brierre De Boismont) : «لأنَّ هذا الداء معروف من أقدم أيام الوثنية وكان المصابون به يُخيَّل لهم أنهم استجالوا إلى ذئاب. ويظهر من كتب هيرودت أنَّ هذا الداء كان فاشياً يصاب به كثيرون. وروى القديس اغوستينوس ان بعض النساء في إيطاليا كنَّ يتوهمنَّ أنَّهنَّ استحلنَّ إلى أفراس. وقد فشا هذا الداء في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فكان من اعتراهم يغادرون منازلهم ويتوغلون في الغابات، فتنمو أظفارهم. ويطول شعرهم، وتتصل الوحشية فيهم إلى أن يفترسوا أطفالاً». فبختنصر أصابه هذا المرض مع أعراضه المار ذكرها ثم شُفي منه. وقد حَقَّق الأطباء أنه لا يستحيل البرء من هذا الداء. فكتب منشوره المذكور إقراراً بفضل إله دانيال وتبجيلاً له، ولكن لا يفهم منه أنه ترك الوثنية واعتقد بوحداية الله، ولم يعيش بعد برئه طويلاً لأنه توفي في بابل سنة ٥٦١ ق. م بعد أن ملك أربعاً وأربعين سنة وأتمَّ من العمر نحواً من ثمانين سنة.

عد ٣٤٨

بلشصر ملك بابل وتعبير دانيال رؤياه

لما كان غرض دانيال أن يدوِّن أخبار عناية الله وآياته لم يتعرَّض لذكر وفاة بختنصر وأخبار خلفائه. بل انتقل إلى ذكر الوليمة التي صنعها بلشصر ملك بابل لألف من عظمائه، وإنه أتى بالآنية الذهبية والفضية التي أخذت من هيكل أورشليم، ليشربوا الخمر بها. ويسبِّحوا الهة الذهب والفضة والنحاس والحديد، والخشب التي يعبدونها؛ وإنه رأى أصابع يد إنسان كتبت تجاه المصباح على حائط قصره كلمات لم يُعلم المراد بها. فتغيرت سحته وقلقت أفكاره. واستدعى المجوس والكلدانيين والمنجمين، وقال لهم من قرأ هذه الكتابة وعبرها ألبيسته الأرجوان وقلدت عنقه بطوق من ذهب وجعلته الثالث في المملكة. فلم يستطع حكماء بابل أن يقرأوا الكتابة أو يعبروها، ودخلت الملكة، والأظهر أنها أم الملك، غرفة الشراب، وأشارت أن يُستدعى دانيال لأنَّ فيه روح الآلهة القدوسين. وقصَّت على الملك ما كان لبختنصر (وسمته أباه)، وتعبير دانيال حلمه فأدخلوا دانيال أمام الملك ووعدوه

بما وعد به مجوسه إن أنبأه بالكتابة وتعبيرها فقال دانيال للملك: لتكن عطاياك لك وجوائزك لغيري. وأخذ يخبره بعظمة بختنصر مسمى إياه أباه وبما أصابه لتجبره. وقال وأنت أيها الملك مع علمك بكل ذلك ترفعت على رب السماء، وأتيت بآنية بيته وشربت بها خمراً أنت وعظماؤك، ونساؤك وسرايرك، ولذلك أرسلت من لدنه كف تلك اليد فكُتبت: «منا منا ثقل وفرسين» وهذا معناها منا أي أحصى الله ملكك وأنهاه. ثقل أي وُزنت بالميزان فوجدت ناقصاً. فرس (أو فرش) وفرسين أي قُسمت مملكتك ودُفعت إلى ماداي وفارس. فأمر الملك حينئذ فألبسوا دانيال الأرجوان وقلدوا عنقه بطوق من ذهب. ونودي بأنه الثالث في سلطان المملكة. وفي تلك الليلة قُتل بلشصر (دانيال فصل ٥).

لم يذكر المؤرخون القدماء بلشصر بين ملوك الكلدان، ودانيال سماه ملكاً وابن بختنصر. فنذر الملاحدون بذلك للتكذيب بمقال دانيال والتنديد به. فجاءت الاكتشافات الحديثة تفند زعمهم وتفضح كذبهم. فقد كُشف في سنة ١٨٧٩م في بابل عن صفيحة من خزف هي الآن في المتحف البريطاني، كُتبت عليها أخبار مهمة سنأتي على ذكرها ومنها ما جاء في عمودها الثاني: «في السنة السابعة كان الملك (نابونيد) في مدينة تافا وابن الملك بلشوروصر (بلشصر) مع القادة والجنود في أكد (بابل) والملك لم يذهب إلى بابل». فإذاً كان بلشصر ملكاً ولا أقل من أن يكون نائباً عن الملك أبيه، فحق لدانيال أن يسميه ملكاً كما سمي بختنصر ملكاً في حياة أبيه (دانيال فصل ١ عد ١). وذكر لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٤ صفحة ٤٣١ طبعة ٩) صفيحة أخرى كتب نابونيد عليها أنه: «يسأل الآلهة حنونيت العون لنفسه ولابنه البكر بلشوروصر (بلشصر)». وفي الكتاب إشارة إلى أن الملك وابنه كانا شريكين في الملك، فإنه قال لدانيال أنه يكون الثالث في المملكة لأن الملك هو الأول وابنه هو الثاني ويكون دانيال الثالث. وروى فيكور (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٥١٣) أنه كُشف عن أربع صفائح في مغاور مدينة اور وهي الآن في المتحف البريطاني؛ كتب نابونيد على إحداها متوسلاً إلى الإله سين أي القمر: «أنا نابونيد ملك بابل احفظني بمخافة لاهوتك العظيم وأطل أيامي وأيام بلشوروصر (بلشصر) ابني البكر الذي ولدته». وأيضاً قد وُجدت سنة ١٨٧٦ م في ضواحي بابل ألواح كُتبت عليها صكوك عقود لأسرة شريفة تسمى أجيبني يتحصّل منها فوائد عديدة في تواريخ بابل في

مدة مئة وست وتسعين سنة. وفي المتحف البريطاني الآن منها نحو ألفين وخمسمئة صكاً. ومنها صكٌ مؤرَّخ في ٢٣ كيسلاوفي السنة الثالثة لمروдах شوروصر مبيع قطعة أرض معدة لزراع الحبوب، واسم البائع أحي ايتاسي بن نبو ملك؛ واسم الشاري ايدينا مروдах شريك بيت اجيبي. فالملك مروдах شوروصر ليس هو إلا بلشوروصر (بلشصر) لأنَّ معني الأول مروдах يحفظ الملك، ومعني الثاني بال يحفظ الملك فلا فرق بينهما إلا باسم الإله. ومروдах وبال كانا واحداً عندهم، حتى أنَّ هيكل مروдах في بابل كان يسمى أيضاً هيكل بال. وقد رأينا لكثير من ملوك آشور اسمين لاختلاف اسم الإله. فأشور بانيال يسمى أيضاً سين بانيال لأنَّ آشور وسين (القمر) إلهان. فلا امتراء إذاً في أنَّ بلشصر من ملوك بابل وهو الأخير منهم كما سيجئ. وقد سماه دانيال ابن بختنصر لأنه ابن بنته أو على سبيل تسمية الخلف باسم مشاهير السلف؛ كما سمى الكتاب كثيراً من ملوك يهوذا بإبن داود، وكما سمَّت الآثار المسمارية ياهو يابن عمري وليس هو ابنه كما مرَّ.

عد ٣٤٩

باقي ملوك بابل إلى انقراض دولتهم

قد مرَّ أنَّ دانيال أوجز كلامه في أخبار ملوك بابل بعد بختنصر، ولم يتعرَّض إلا لذكر بلشصر الأخير منهم لينبئ بما كان له من قبل الله كما رأيت في العدد السابق. فنورد هنا ما أبانته الآثار المسمارية وما رواه المؤرخون القدماء من أخبارهم توفيراً للفوائد ولإدراك ما يأتي حقَّ إداركه. فقد خلف بختنصر ابنه اويل مروداك الذي جاء ذكره في سفر الملوك الرابع (فصل ٢٥)،. وإنه أطلق يوياكين ملك يهوذا من السجن وأكرم مثواه كما مرَّ. وهذا لم يملك إلا سنتين على ما جاء في قانون بتولمايس، وعلى ما روى باروز (فقرة ١٤ من فقرات تواريخ اليونان)؛ وبين صكوك أسرة اجيبي المار ذكرها صكوك دالة على سني بختنصر كلها إلى الثالثة والأربعين منها، وآخر صكٍ اشتمل على اسم بختنصر كُتب في شهر نيسان سنة ٤٣ لبختنصر؛ ويليهِ صكٌ أرَّخ في تشرين الشهر السابع جاء فيه اسم اويل مروداك (أو مروдах). ويتبيَّن من باقي الصكوك أنَّ اويل مروداك استمرَّ على منصبة الملك إلى الشهر الخامس وهو آب في السنة التالية وهي سنة ٥٦٠ أو سنة ٥٥٩ ق.م وتل عرشه نركليسور. وأول صكٍ من الصكوك المذكورة كُتب اسمه فيه مؤرَّخ في

الثامن من تشرين الثاني من السنة المار ذكرها وحروف اسمه في الخطوط المسمارية «نركال سار أو سور». وتأويله نركال (الإله) يحفظ الملك، وهو ابن بلسوم اسكون الذي كان مديراً لمملكة بابل في مدة جنون بختنصر كما مر وكان هذا الملك متزوجاً بابنة لبختنصر، واستمرّ ضابطاً صولجان الملك ثلاث سنين من سنة ٥٥٩ إلى سنة ٥٥٦ ق.م. وبنى قصراً حديثاً في غربي بابل وقد كُشف عن صفائح خزفية كُتب عليها بيان ما جمّل به بابل من الأبنية. ويظهر من كتب المؤرخين اليونان إنه قُتل في وقعة حرب مع قورش والفرس، وخلفه ابنه لابوسوراكوس وكان حدث السن ولم يتسلّم منصة الملك إلا شهراً، وثار عليه رؤساء العصبة الكلدانية فثّلوا عرشه، وأقاموا أحدهم ملكاً وهو نابونيد ولم يكن من سلالة بختنصر. على أنه بعد ارتقائه منصّة الملك تزوج بابنة لبختنصر، وهي إما أرملة سالفه أو أخت لها ليكون له حقّ في الملك وتحازبه العصبة الملكية. وكانت حينئذٍ شؤن ذئ بال في جوار بلاد الكلدان، فإنّ قورش ملك الفرس انتصر على حميه إستياج ملك الماديين وضبط البلاد المحدقة بمملكة الكلدان شمالاً وشرقاً. وانتقل فيها من الماديين إلى الفرس.

وسوّلت لقوروش نفسه أن يملك آسيا الصغرى. فأرسل ملك ليديا (محل ولاية ازميز الآن) وفداً إلى نابونيد ملك بابل طالباً عقد عهدة دفاع وهجوم بينهما تفادياً من إضاعة استقلالهما. فلبّى نابونيد دعوته ووقّعا على العهدة وأخذ نابونيد في تحصين بابل وأقام سداً منيعاً للفرات ليحوّل مياهه عن المدينة كيلا يعبر به إليها المحاصرون. هذا ما رواه باروز في تاريخ الكلدان وهيرودت أبو التاريخ. وقلّ ما كنا نعلم من تاريخ نابونيد. إلى أنه في سنة ١٨٧٩ م عُثر على صفيحة خزفية هي الآن في المتحف البريطاني دُوت فيها أخبار مهمة في تاريخ تلك الأيام، على أنّ بعضها محطّم. وإليك ملخّص الباقي منها: «إنّ عصبة الشرفاء في بابل كانت تمقت نابونيد لعنايته بتجديد العبادات والمعابد القديمة خلافاً لما كانت العصبة تؤثّر من العبادات الحديثة. وعظم الشقاق حتى اضطّرّ الملك أن يغادر عرشه ويعتزل في مدينة تسمى يافا، غير مبالي بما يكون من الأحداث فهجرت المعابد. وكان يتراءى لأهل بابل أنّ الآلهة تركت هذه المدينة المقدسة فكانوا يقدمون لها الضحايا إسترضاء لها وهي صمّاء عن صراخ الكهنة. وفي السنة التاسعة للملك نابونيد دنت عساكر قورش من بابل واستمرّ نابونيد مصرّاً على عزلته... واضطرّ ابن الملك المسمى بلشوروصر

(بلشصر) بما أنه نائب الملك أن يحشد عسكرياً ويقوده للمحافظة على تخوم البلاد، وأخيراً عزم الملك أن يغادر عزلته وجيش جنوده فأنكسرت. فزاد مقت الجنود والشعب للملك فيشر ذلك للعدو أن يفتتح مدينة سيارا التي كان الملك فيها، فانهزم من وجه أعدائه، فقبض عليه أحد قادة جيش قورش وأخذه أسيراً، وانكسر الجيش الذي كان يقوده ابن الملك والذي كان يدافع عن بابل، فزحف قورش بجحافلها إليها ودخلها دون حرب».

ولم تنبئنا هذه الصفيحة كيف دخل قورش بابل دون حرب ولا متى دخلها ولكن أتحفنا هيرودت (ك ١ ف ١٩٠) بهذه الأخبار فقال: إنَّ قورش استمر زمناً طويلاً محاصراً بابل، فلم يتسنَّ له فتحها لمناعة أسوارها، وكاد يئأس من فتحها عنوة فعمد إلى الحيلة وصعد على مجرى الفرات إلى محل بعيد تاركاً وراءه فصائل من جنده تحمي طريقه واحتفر قنوات حوّل إليها مياه النهر عن الجري في المدينة ليتمكن جنوده من العبور به، وأوقع نهاية الحفر في يوم عيد كان يعلم أنَّ أهل بابل يعكفون فيه على السكر والطرب والملاذ وأمر عسكريه بالهجوم على المدينة ليلاً. فدخلوها آمنين وقتلوا كثيرين من أهلها وبلشصر ملكها كما قال دانيال. وثُمَّ بذلك نبوءة ارميا (فصل ١٥ عد ٣٩) الذي قال في بابل إنَّ الرب «يجفف بحرها» وأنه «عند توهجهم أجعل لهم شراباً وأسكرهم كي يمرحوا ثم يناموا نوماً أبدياً فلا يستيقظون يقول الرب وأنزلهم كالحملان إلى الذبح وكالكباش مع التيوس».

عد ٣٥٠

طرح دانيال في جب الأسد

قال دانيال بعد اخباره بمقتل بلشصر: «فأخذ الملك داريوس المادي وهو ابن إثنين وستين سنة» (فصل ٥ عد ٣١). وقد توفرت الأقوال في من هو داريوس المادي والمعلوم أنَّ قورش هو الذي أخذ ملك بابل. وقال بعضهم منهم لانرمان (في تاريخه القديم للمشرق. مجلد ٤ صفحة ٤٣٨ طبعة ٩) ما ملخصه: «إنَّ النص الذي بقي لنا من سفر دانيال كان مكتوباً بالسريانية الكلدانية، وقد خطّه في نحو القرن الثالث قبل الميلاد كاتب مجهل التاريخ فأسقط منه بعض آيات وشوْش أعلام بعض ملوك بابل تشويشاً ظاهراً. وكتب القدماء طافحة بمثل هذا التشويش، وروى

يوسيفوس (ك ١٠ من تاريخ اليهود فصل ١١) إنَّ اليونان كانوا يسمون داريوس هذا إسمًا آخر ولا مرأ في أنه كان مادياً إذ لا محلّ لخطأ الكاتب في اسم قبيلة يعلمها الجميع كما يخطأ في العلم الشخصي». وقال اوبر (في كتابه الموسوم بشعب الماديين ولغتهم صفحة ١٦٧) إنَّ داريوس هذا كان قائداً في جيش قورش فولاه على بابل بعد افتتاحها. وجاء في المجلة الموسومة بالتمدن الكاثوليكي (في نشرتها المؤرختين في ١٦ شباط و ١٥ آذار سنة ١٨٨٤ م) إنَّ داريوس هذا هو شيأكسر بن استياج ملك مادي. وقال بعضهم إنه اوغبارو الذي قيل في الصفيحة المار ذكرها: «إنَّ قورش نصبه حاكماً في بابل». وكان له السلطان الملكي فيها ورجح ذلك لانرمان (في كتابه العرافة عند الكلدان صفحة ١٨١) بقوله إنَّ قورش لم يكن يصف نفسه في الخطوط المسمارية بملك بابل إلا بعد ثلاث سنين من فتح هذه المدينة وكان قبلها يسمى نفسه ملك القبائل.

وأياً كان داريوس هذا فقد أنبانا دانيال (فصل ٦) إنه نؤله مزيد الاعزاز ورفع مكانته حتى جعله أحد ثلاثة وزراء أقامهم على مئة وعشرين قطباً، عهد إليهم بتدبير المملكة. وكان في عزم الملك أن يقيمه على المملكة كلها فحسده الوزراء والأقطاب والتمسوا عليه علّة ليخفض الملك مقامه. ولم يجدوا فزينوا للملك أن يقطع أمراً مبرماً بأنَّ كلَّ من يسأل سؤالاً من إله أو إنسان غير الملك مدة ثلاثين يوماً يلقى في جبِّ الأسد. فأذاع الملك هذا الأمر وكان دانيال معتاداً أن يصلي لله جاثياً على ركبتيه ثلاثاً في النهار تجاه كوة في غرفته مفتوحة إلى أورشليم واستمرَّ على عادته، فوشي به حساده إلى الملك بأنه لم يعبأ بأمره. وألحوا بتنفيذ الأمر بطرحه في جبِّ الأسد. فأغتنم الملك وهمَّ بانقاد دانيال النهار كله فلم يتيسَّر له تخليصه. فأذعن مكرهاً، والقوا دانيال في الجبِّ ووضعوا على فمه حجراً ختموه بخاتم الملك وبات الملك صائماً قلقاً، وشرد النوم عنه، وبكر في الغداة إلى الجبِّ ونادى بصوت حزين يا دانيال عبدالله الحي لعلَّ إلهك الذي أنت مواظبٌ على عبادته أنقذك من الأسود. فأجابه دانيال حييت أيها الملك إلى الأبد، إنَّ إلهي أرسل ملاكه فسدَّ أفواه الأسود فلم تؤذني. ففرح الملك به فرحاً عظيماً وأمر أن يخرجوه من الجبِّ وأن يلقوا فيه من وشوا به وبنههم ونساءهم؛ فلم ييلقوا أرض الجبِّ، حتى بطشت الأسود وسحقت عظامهم. وأذاع داريوس منشوراً في كلِّ مملكته أن يهابوا ويرهبوا وجه إله دانيال لأنه الإله الحي القيوم إلى الأبد الصانع الآيات في

السموات والأرض. «وكان دانيال ناجحاً في ملك داريوس وفي ملك قورش الفارسي».

ولنا في الآثار الكلدانية قرائن تؤيد ما كتبه دانيال. فإنَّ إلقاء المجرمين للأسود كان عند الآشوريين والبابليين مستطرقاً كالإلقاء في الأتون. فقد روى سميت في تاريخ آشور بانيبال (صفحة ١٦٨) عن خطوط مسمارية قال فيها هذا الملك «كما أنَّ سنحاريب جدِّي كان يلقي الرجال أحياء بين الثيران والأسود، فأنا أُلقيت إقتفاءً لآثاره هؤلاء الرجال في وسط هذه الحيوانات» وقال لانرمان (في كتابه العرافة عند الكلدان صفحة ١٩٢): «إنَّ جبَّ الأسود يشخصه أمام عيوننا نظرنا إلى الصوَر الناقطة التي أُتي بها إلى لندرة وهي تمثل صيد آشور بانيبال. فترى الأسود محبوسة في أقفاص لترويح قلب الملك برؤيتها». هذا وقد أُتي بصورة أخرى من كوينجك إلى المتحف البريطاني تمثل غرفة مقفلة بقضبان من حديد متينة وفيها أسد وفي أعلاها حارس يرفع حاجزاً فيخرج الأسد رأسه من عرينه متحفظاً لالتهم فريسته. وكانت الأسود كثيرة في جوار بابل وبلاد الكلدان كلها؛ حتى تفاخر تجلت فلاصر الأول في أحد خطوطه بأنه قتل ثماني مئة أسد. رواه مينان (في تاريخ ملوك آشور صفحة ٤٥). ولم ينقطع إلى اليوم وجود الأسود في جانب الفرات ووادي خابور كما روى لايرد (في تاريخ نينوى مجلد ٢ صفحة ٤٨). وكان ملوك آشور يطلبون أسداً من جملة جزيئهم ممن إستطاع أن يأتيهم بها. وقد كشف لايرد في قصر سنحاريب في كوينجك عن صورة أسد مغلل يقدمه لهذا الغازي بعض من انتصر عليهم.

عد ٣٥١

كشف دانيال خديعة كهنة بال

بقي مما حواه سفر دانيال من التاريخ ما ذكره هذا النبي في الفصل الرابع عشر منه، وهو كشفه خديعة كهنة صنم بال، وقتله التين فقال في الأول ما ملخصه: إنه كان لأهل بابل صنم اسمه بال (أو بعل)، وكانوا ينفقون له كلَّ يوم إثني عشر أردباً من السميذ (تساوي ٦٢٠ لتراً) وهي نحو من ٤٨٥ أقة، وأربعين شاة وستة أمتار من الخمر (تساوي ٣٥٠ لتراً ونحواً من ٢٧٣ أقة). وكان الملك يعبده ويذهب كلَّ يوم فيسجد له. وقال الملك لدانيال: لِمَ لا تسجد لبال؟ فقال: لأنني لا

أعبد أصناماً صنعة الأيدي؛ بل الإله الحي خالق السماوات والأرض. فقال الملك: أتَحسب أنّ بالاً ليس بإله حي أو لا ترى كم يأكل ويشرب كل يوم؟ فضحك دانيال وقال لا تضلّ أيها الملك، فإنّ هذا باطنه طين وظاهره نحاس فلم يأكل قط. فاستدعى الملك الكهنة وقال إن لم تقولوا لي من يأكل هذه النفقة تموتون، وإن يثبت أنّ بال يأكلها يموت دانيال. فقال الكهنة ضع أنت أيها الملك الأطعمة والخمر واغلق الباب واختم عليه بخاتمك، وفي غد أرجع تر صدق مقالنا، واستخفوا بالأمر لأنهم كانوا صنعوا تحت المائدة مدخلاً خفياً يدخلون منه فيلتهمون الأطعمة. ولما خرجوا وضع الملك الأطعمة، وأمر دانيال غلمانه فذروا رماداً في الهيكل بحضرة الملك وحده، وأغلق الباب وختم عليه. فدخل الكهنة وأولادهم ونساءهم ليلاً من المدخل الخفي على عاداتهم والتهموا الأطعمة. وبكر الملك ودانيال فوجدوا الخواتيم سالمة وفتحت الأبواب فلم يُرَ شيء على المائدة. فهتف الملك عظيم أنت يا بال ولا مكر عندك. فضحك دانيال وأمسك الملك عن الدخول قائلاً: أنظر البلاط واعرف ما هذه الآثار فقال: أرى آثار رجال ونساء وأولاد. وغضب الملك وقبض على الكهنة ونسائهم وأولادهم فأروه الأبواب الخفية التي يدخلون منها ويأكلون ما على المائدة، فأمر الملك بقتلهم وأسلم بالاً إلى يد دانيال، فحطّمه ودّمّر هيكله.

إنّ في الآثار البابلية ما يؤيد كلام دانيال. فقد وُجدت آثار عديدة تصرّح بعبادة بال في بابل ومنها الصورة التي تمثله محمولاً على مناكب الكهنة. وقد كشف عنها لايرد في نمرود وذكرها في كتابه آثار نينوى (صفحة ٦٥). وُجدت آثار أخرى كثيرة ناطقة بتقديم الأطعمة والأشربة للأصنام ومنها خطوط لبختنصر قيل فيها ما ملخصه: «إنه كان يُقدّم على مائدة الآلهة الأعزاء ثوراً كاملاً وسمكاً وطيوراً وأطعمة وخمراً من سبعة مواضع، أو ثمانية منها خمر حلب وكان ذلك فائضاً كمياه النهر». وقد وُجد ما يدلّ على مثل ذلك من أنواع الخمر في خطوط بختنصر في جانب تمثاله المنقوش على أحد الصخور في معبر نهر الكلب كما يتبيّن من خطب المجمع العلمي (الأكاديمي) الإفريقي في ١٣ أيار سنة ١٨٨٢ م. ومن ذلك يظهر أنّ من كتب الفصل الرابع عشر من نبوة دانيال كان خبيراً بعبادات أهل بابل وعائشاً بينهم، وقد كتب أمراً واقعاً لا وهمياً.

قتل دانيال التنين

وكان في بابل تنين عظيم يعبداه أهلها، فقال الملك لدانيال: أتقول عن هذا أيضاً إنه نحاس، ها إنه حي يأكل ويشرب فاسجد له. فقال دانيال: إني أسجد للرب إلهي لأنه هو الأله الحي، وإن سلطتني قتلْتُ هذا التنين بلا سيف ولا عصا. قال الملك: قد جعلت لك ذلك. فأخذ دانيال زفتاً وشحماً وشعراً وطبخها. وصنع أقراصاً ألقاها للتنين فأكلها وانشق. فقال: أنظروا ما تعبدون فغضب أهل بابل واجتمعوا على الملك وقالوا إنه صار يهودياً، فحطّم بالاً وقتل التنين وذبح الكهنة. وقالوا للملك: أسلم إلينا دانيال وإلا قتلناك وآلك. فلما رآهم الملك ثائرين اضطّر أن يُسلم دانيال إليهم فألقوه في جبّ الأسود وبقي هناك ستة أيام. وكان في الجبّ سبعة أسود يُلقى لها كلّ يوم جثتان ونعجتان، فلم يُلْقَ إليها حينئذٍ شيء لتفترس دانيال. وحمل ملاك الرب حبقوق من فلسطين إلى بابل ومعه طعام أقات دانيال به. وأتى الملك في اليوم السابع لبيكي دانيال فإذا هو جالس. فهتف بصوت عالٍ قائلاً: عظيم أنت أيها الرب إله دانيال لا إله سواك وأخرج دانيال من الجبّ، وألقى فيه من سعوا بهلاكه فافترستهم الأسود أمامه. وقال الملك: ليتّقي جميع سكان الأرض إله دانيال فإنه المخلص الصانع الآيات في الأرض.

المراد بالتنين هنا الأفعى أو الحية الكبيرة القديمة الأيام. والكلمة مأخوذة عن الأصل الكلداني **amēl** (تنينو) أو عن تنيم العبرانية. وكان من عادات البابليين وغيرهم من عبدة الاصنام أن يربّوا حيّات في الهياكل، وينسبوا إليها شيئاً من الألوهية ويعبدوها، وعلى ذلك أدلة نكتفي منها بما ذكره لانرمان في كتابه الموسوم بالعرفاء عند الكلدان (صفحة ٨٨). فقد قال: «إن اسم الحية أو الأفعى والفعل الدال على العرافة والسحر عند الساميين مصدرهما واحد وهو **amēl** (نحش) استعمل السحر أو العرافة **amēl** (نحشو) الحية والأفعى. وقد عُثر على أثر مسماري يتبيّن منه أنهم كانوا يستدلون على مستقبل الأمور بواسطة قلب الأفعى... وكانت الحية عند الكلدان والآشوريين تلامذتهم رمزاً إلى الأله ايا أي الفهم السامي أو إله كل علم. وقد جاء في رسالة ارميا المعلقة في ذيل نبوة باروك عن تماثيل الآلهة ما نصّه: «وقد ذُكر أنّ حشرات الأرض تنهش قلوبها فتؤكل هي وثيابها ولا

تشعر». فيظهر من هذه الآية أنهم كانوا يربّون أفاعي في هياكل بابل، ويعتبرونها بمنزلة تراجمة للآلهة، ويستخدمونها في الإستشارة لها».

عد ٣٥٣

رؤى دانيال

إنّ سفر دانيال قسمان: قسم تاريخي وهو ما لخصناه في كلامنا السالف وقد اشتملت عليه الفصول الستة الأولى والفصلان الثالث عشر والرابع عشر. وقسم نبوي اشتملت عليه الفصول الستة من السابع إلى ختام الثاني عشر. وقد كتب دانيال في هذه الفصول الرؤى التي منّ الله عليه بها وهي أربع. فقال في الأولى إنه رأى أربع حيوانات عظيمة خرجت من البحر أولها مثل الأسد وله جناحا نسر، وثانيها مثل دب، وثالثها يشبه نمرأ وله أربعة أجنحة وأربعة أرؤس، ورابعها يشبه حيواناً هائلاً وله أسنان من حديد، وكان يأكل ويسحق ويدوس الباقي برجليه وله عشرة قرون. وإنه بينما كان يرى ذلك نُصبت عروش فجلس عليها قديم الأيام. وكان لباسه أبيض كالثلج وعرشه لهيب نار، وعجلاته ناراً مضطربة. وأزال سلطان باقي الحيوانات، وأتى مثل ابن البشر على سحب السماء، وأوتي سلطاناً ومجداً، فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وإنّ دانيال سأل أحد الواقفين أمامه فأعلمه بتعبير الرؤيا: فكانت الحيوانات الأربعة عبارة عن أربع ممالك تقوم على الأرض. فيتراد بالأسد مملكة الكلدان. وبالذّب مملكة ماداي وفارس، وبالنمر مملكة اليونان. وأرؤسها الأربعة كناية عن إنقسامها بعد اسكندر الكبير إلى أربع ممالك في سورية ومصر ومكدونية وتراسة. ويتراد بالحيوان الرابع الهائل مملكة الرومانيين التي سحقته الممالك الأربع المذكورة. وبقديم الأيام وابن البشر ملك المسيح الروحي الذي لا يزول وهذه الرؤيا كحلم يختصر الأول المار ذكره فمدلولهما واحد.

والرؤيا الثانية ذكرها النبي في الفصل الثامن، وهي أنه رأى كبشاً قائماً عند نهر أولاي وله قرنان ينطح بهما نحو الغرب والشمال والجنوب. ثم رأى تيس معز أقبل من الغرب، وله قرنٌ عجيب وهجم على الكبش فكسر قرنيه، ولم يستطع الكبش أن يقف أمامه فتعاظم تيس المعز جداً فانكسر قرنه العظيم. وطلع من تحته أربعة قرون، ثم خرج من واحد منها قرنٌ صغير، ثم تعاظم جداً وبأمره نُزعَت

المحرقة الدائمة وهُدم موضع مقدسه. وقد عبّر ملاك لدانيال هذه الرؤيا فكان المراد منها تفصيل بعض ما جاء في الرؤيا الأولى، لأن المراد بالكبش ملوك ماداي وفارس. وبتيس المعز ملك اليونان. وبالقرن العظيم اسكندر الكبير وبانكساره وخروج أربعة قرون ممالك خلفائه الأربع. وبالقرن الصغير الذي تعاضم مملكة الرومانيين.

والرؤيا الثالثة ذكرها النبي في الفصل التاسع مؤرخاً لها في السنة الأولى لداريوس بن أحشورش المادي. وهي إنه بينما كان يصلي متأملاً قول ارميا إن عدة السنين التي تتم على خراب أورشليم سبعون سنة، رأى جبرائيل الملاك انحدر من السماء ليبشره بأن الرب حدّد على شعبه لإفناء المعصية وإزالة الخطيئة، والإتيان بالبرّ الأبدى، ومسح قدوس القديسين سبعين أسبوعاً بدؤها صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم، ونهايتها في مجئ المسيح الرئيس وبعد هذه الأسابيع يُقتل المسيح وشعب رئيس أتٍ يدُمّر المدينة والقدس وتبطل الذبيحة والتقدمة، فهذه هي الرؤيا. وكان الأسبوع عند العبرانيين أولاً عبارة عن سبعة أيام من السبت إلى السبت. ثانياً عن سبعة سنين وآخرها السنة السبتية. ثالثاً عن سنة الغفران، وهي سبع سنين مضروبة في سبع وحاصلها تسع وأربعون سنة. والمراد بكلام دانيال الأسبوع السبتى أي أنّ كلّ أسبوع سبع سنين فيحصل من السبعين أسبوعاً أربع مئة وتسعون سنة. والأصح أنّ بدء هذه الأسابيع السنة الثانية للملك أرتخششتا التي أرسل فيها نحميا إلى اليهودية مأذوناً له في تجديد أسوار أورشليم (نحميا فصل ٢ عد ٥) وختامها بموت الخُص. فهذه الحقة أكثر مطابقة للسبعين أسبوعاً التي هي أربع مئة وتسعون سنة.

والرؤيا الرابعة ذكرها النبي في الفصول العاشر والحادي عشر والثاني عشر. وهي أنه ظهر له الملاك جبرائيل فكشف له عما يكون في بلاد فارس بعد قورش، وعن مجئ اسكندر الكبير وحملاته وإنقراض مملكة الفرس، وتغلّب اليونان عليها ووفاة اسكندر بلا عقب، وانقسام ملكه إلى أربع ممالك وإنّ مملكة سورية الشمالية ومملكة مصر الجنوبية تكون بينهما حرب أزمنة طوالاً. ثم يُنبئه باضطهاد انتيوخوس أيفان للقديسين وبهلاك هذا الملك المضطهد وانتصار القديسين ثم يلخص له شيئاً عن إنقضاء العالم.

قد تذرّع الملحدون بوضوح هذه النبؤات وتماها في أوقاتها، ليزعموا أنّ سفر دانيال كُتب بعد وقوع الأحداث المذكورة فيه، أعني بعد موت أنطيوخوس أيفان في

أيام المكابيين؛ لكن زعمهم مردود ببيّنات قاطعة منها أنّ قسمي هذا السفر التاريخي والنبوي ملتزمان كلّ الإلتحام أحدهما بالآخر من قبيل النفس والنسق، واللغة والأحداث التي جرت على كتابه. ومنها ما مرّ من بيان المطابقة بين كلّ ما جاء في هذا السفر وبين الآثار الآشورية والبابلية، بل أنّ هذه الرؤى نفسها ناطقة بأنّها رؤيت وكُتبت أخبارها في بلاد الكلدان لا في غيرها، لأنّ صورة الأسد المجنّح بجناحي نسر هي من أحبّ الصور إلى المصورين الكلدان، لأنك ترى مثل هذه الصوّر على أبواب القصور والهيكل، وسائر الأبنية بل على الآنية أيضاً المصنوعة في بلاد آشور وبابل، وكذلك ترى صوّر الثور المجنّح والدبّ والنمر والكبش، وتيس المعز على كثير من آثارهم وكانت القرون عندهم عبارة عن القوة ولذلك ترى صوّر الآلهة والأبطال، والمشاهير عندهم وعلى رأسها قرنان أو أربعة أو ستة قرون، ولا نرى شبيهاً لقديم الأيام الذي لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار وعجلاته نار مضطربة إلّا في صور الآشوريين والبابليين. وقد حوى متحف اللوفر في باريس كثيراً منها وقد ذكر كثيراً منها العالم لونبريا (Long Prier) في كتابه في الآثار الآشورية التي في متحف اللوفر صفحة ٢٨ وما يليها). وعليه فكلام دانيال وتصوراتهِ وتمثيله ومطابقتها التامة لآثار الآشوريين وعاداتهم تقضي علينا بأن نحكم ان هذا السفر كتبه دانيال في بابل في أيام سؤدها، وعلى عهد بختنصر ومن خلفه، لا في فلسطين وعلى عهد المكابيين بعد اربعة قرون كما زعم الملحدون.

عد ٣٥٤

وفاة دانيال وصحة تنزيل سفره

يظهر أنّ دانيال ادركته المنية في بلاد الكلدان، فان المناصب التي وليها فيها امسكتها ثمة إلى وفاته. وقال بعضهم إنّّه توفي في بابل. وقال غيرهم إنّّه قضى اجله في شوشن (وهي سبب الآن أو تموز اسنان) حيث قضى بعض سني حياته، وحيث رأى أكثر رؤاه. وقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٠ في الفصل الاخير) إنّّه كان في عاصمة ماداي إلى ايامه برج عجيب البناء يقال ان دانيال اقامه، وان هناك مدافن ملوك الفرس وماداي، وانه كان يعهد بحراسة هذا المحل إلى ايامه إلى رجل يهودي. وقال بعض الجوّالة ان هذا المقام تحج الناس إليه حتى هذا العصر.

والأظهر ان سفر دانيال كتب بعضه بالآرامية الكلدانية، وبعضه بالعبرانية فكل ما كان من كلامه مع ملوك بابل وماداي وفارس ومنشور بختنصر كتب بالكلدانية. وباقي كلامه بالعبرانية. على أنَّ الفصلين الثالث عشر والرابع عشر الحاويين خبر سوسنة وخبر بال والتنين، ثم تسبحة الفتيان في الاتون المثبتة في الفصل الثالث (من عد ٢٤ إلى عد ٩١) لم توجد إلا باليونانية. فكلُّ ما كُتب من هذا السفر بالكلدانية والعبرانية أجمع النصارى واليهود على أنه من الأسفار المنزلة. وأما ما لم يوجد إلا باليونانية فكان بعض اليهود والنصارى أيضاً ينكرون تنزيله إلى أن حكم المجمع التريدينيني بلزوم إحصائه بين الأسفار المنزلة. وأنكر الملحدون كون السفر برمته مُنزلاً. وتمحلوا لإنكاره وجهين: الأول وضوح نبؤاته وتماها بدقائقها في أوقاتها، فوهما أنه كتب بعض الأحداث المنبئ بها، وهذا فتدناه في العدد السابق. والثاني أنه حوى ذكر آيات ومعجزات وهم ينكرون كلُّ ما كان فوق الطبيعة أو مخالفاً لها، على أنَّ المسيحيين وغيرهم يعتقدون الآيات وقدرة الله على صنعها، وقلَّ ما خلا عنها كتاب من الكتب المنزلة، ويقولون إنَّ الله أكثر من آياته في مدة جلاء بني إسرائيل تيسيراً لعودهم إلى أوطانهم، كما أكثر الآيات في مصر تيسيراً لخروجهم منها.

إنَّ لنا بينات قاطعة على أنَّ سفر دانيال مُنزل منها أولاً أنَّ متى الإنجيلي استشهد به بقوله (فصل ٢٤ عد ١٥): «إذا رأيتم علامة رجاسة الخراب الذي قيل عنه في دانيال». واستشهد به بولس الرسول بقوله (في رسالته إلى العبرانيين فصل ١١ عد ٣٣) عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والانبياء إنهم: «نالوا الموعد وسدوا أفواه الأسود» كما جرى لدانيال. ثانياً قد شهد يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٨) إنَّ اليهود أروا اسكندر الكبير نبؤات دانيال عليه عند زيارته أورشليم. ثالثاً جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٢ عد ٥٩ و ٦٠): «وحننيا وعزريا وميشائيل بإيمانهم خلصوا من اللهب، ودانيال باستقامته أنقذ من أفواه الأسود». وهذا يقتضي أن يكون سفر دانيال بين أيديهم. رابعاً إنَّ وضع اليهود سفر دانيال بين الأسفار المنزلة هو بينة دامغة على تنزيله، ولاسيما لأنهم لا يحصون بين هذه الأسفار ما كان قبل المكابيين. خامساً إنَّ اللغة التي كُتب بها سفر دانيال يلزم أن تكون لغة رجل عاش في أيام جلاء بابل ويحسن الكلام بالعبرانية والكلدانية. وفي زمان المكابيين لم تكن لغة اليهود إلا الآرامية أي الكلدانية (ملخص

عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ١٠٥٥). وقد ابنا آناً في الكلام على سوسنة أن هذا السفر وُجد كاملاً في نسختين قديمتين من الترجمة السبعينية، عُثِر على إحداهما في مكتبة كيحي في روما. وعلى الثانية في المكتبة الأمبروسية في ميلان. فطالع ما ذكرناه هناك.

عد ٣٥٥

رؤى حزقيال وموته ومدفنه

إنَّ حزقيال هو ابن بوزي من السبط الكهنوتي، جُلي إلى بابل مع يوياكين ملك يهوذا قبل خراب أورشليم بنحو عشر سنين. ولم يتنبأ حزقيال قبل جلّائه بل أحلَّ الله عليه روح النبوة في بلاد الكلدان ليكون رقيباً ونذيراً لإخوانه المجلولين. وقد إفتتح نبوّته بأنّه بينما كان بين الجلاء على نهر كبار انفتحت السماوات، فرأى رؤى الله فقال رأيت، فإذا بريح عاصف مقبلة من الشمال وغمام عظيم، ونار متواصلة وفي وسطها شبه أربع حيوانات، ولكل منها أربعة أوجه، وأربعة أجنحة، وجه بشر، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر. وأجنحتها منبسطة من فوق لكل منها جناحان يتصل أحدهما بالآخر، وجناحان يستران أجسامها، وأرجلها مستقيمة وأقدامها كقدم رجل العجل تبرق كمنظر النحاس الصقيل، ومن تحت أجنحتها أيدي بشر على جوانبها الأربعة. وكانت تسير كل واحد منها أمام وجهه حيث يوجهه الروح، وإذا بدولاب واحد على الأرض بجانب الحيوانات بأربعة أوجه، ومرأى الدواليب وصنعتها كمنظر الزبرجد، ولأربعتها شبه واحد كأنما كان الدولاب في وسط الدولاب. أما أطرها فعالية وهائلة وملأى عيوناً، وكان على رأس الحيوانات جلد كمنظر البلور. وسمعت صوت أجنحتها كصوت مياه غزيرة وفوق الجلد الذي على رأسها شبه عرش كمرأى حجر اللاذورد، وعلى شبه العرش شبه كمرأى بشر، ورأيت كمنظر النحاس اللامع في داخله عند محيطه، وهو كمرأى نار من مرأى حقويه إلى فوق، ورأيت من مرأى حقويه إلى تحت مثل نار أيضاً والضياء محيطاً به. هذا مرأى شبه مجد الرب وسمعت صوت متكلم يقول يا ابن البشر أنا مُرسلك إلى بني إسرائيل إلى أم متمردين قد عصوني إلى اليوم هم وآباؤهم (حزقيال فصل ١ و ٢).

لا يتهيأ إدراك رؤيا حزقيال هذه إلا لمن عاش في بلاد الكلدان في تلك الأيام، ورأى صورها ونقوشها وتمثيلها التي أرى الله نبيه مجده على أكمل هيئة منها، وأما من عاشوا في غير هذه البلاد وغير تلك الأيام فكان إدراكهم رؤيا النبي من أعضل المعضلات، حتى يمس المفسرون من الإتيان بتفسير واضح لها. وقال القديس ايرونيموس (في تفسيره هذه النبوة): «إن مجامع اليهود كلها بكمت عن تفسير نبوة حزقيال، وقالت إن تفسير رؤيا الكارويين فوق طاقة الإنسان ومداركه». ومما رواه بعض الربيين أنهم بحثوا ذات يوم في مجمعهم لينفوا نبوة حزقيال من عداد الأسفار المنزلة لشدة غموضها، واستحالة إدراك رؤيا المركبة السرية والكارويين. ورأى أكثرهم نفيها على أن أحدهم الربى حنانياس جسر أن يعدهم بأنه يأتيهم بتفسير وافٍ لهذا السفر، فقالوا له لإفعل. وقدموا له ثلاث مئة زق زيت قائلين إن مصابيحك تنفقه قبل أن تدرك شأوك الشاق. إلا أنه بعد أن أحيا بوتًا ولايرد وغيرهما رمم الآشوريين والبابليين وكشفوا آثارهم واستنطقوها تيسر لنا إدراك كلام نبي عاش بين أظهرهم، واتضح لنا ما كان معمى في كلامه، ورأينا بالصور ما كنا نقرأه. وتكفي الآن زيارة واحدة لغرف متحف اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندرة حيث آثار بلاد آشور وبابل فيستغنى بها عن مطالعة المقالات المطولة في تفسير رؤيا حزقيال. فترى هناك الأسود والثيران ذات أجنحة ووجه بشري وتلفي الإنسان مجنحاً كالنسر.

وقال لونيبريا المار ذكره (في كتابه الدليل على التحف الآشورية في اللوفر): «مما يعجب الزائر منه رؤيته هذه الحيوانات العظيمة قائمة إثنين فإثنين على مدخل الردهة الكبرى الحاوية الآثار الآشورية، كأنها ما برحت مقيمة على حراسة قصر الملك سرغون الذي نصبها هناك، وبينها فسحة أشبه بالفسحة التي ذكرها حزقيال (فصل ١٠ عد ٣). بين كاروب وكاروب فيسائل من يفسر الكتاب نفسه قائلاً: أما هذه الحيوانات أشبه بما أراه الله منها نبيه حزقيال على نهر كبار» وقال دي سولسي (في كتابه تاريخ الصناعة عند اليهود الذي طبع في باريس سنة ١٨٥٨م): «لا يمكن الانسان إلا أن يتعجب عندما يرى المشابهة المدهشة بين الحيوانات الرمزية التي ذكرها الكتاب وبين الثيران ذات الأجنحة والوجه البشري التي أرتنا إياها أطلال نينوى؛ أما أنا فلا أمترى البتة في أن الكارويين عند العبرانيين أشبه بالثيران الرمزية عند الآشوريين» ولا جرم أن هذه الحيوانات كانت رمزية فلم يخطر لأحد في بال

أَنَّ السعداء أو الملائكة لهم مثل هذه الهيئات بل هي رموز إلى القوة والشدة والسرعة والذكاء. وهي دالة بعظمتها وعظمة المركبات التي تجرها، والعرش الحالّ الله فيه، والنار المنبعثة منه، والجواهر المزدان بها على مجد الله وسؤدده على كل ما يراه العبرانيون في بلاد الكلدان، فيقصّ النبي على بني إسرائيل ما رآه من مجد الله الذي يفوق كثيراً على ما يرونه من عظمة هياكل آلهة الكلدان. ويذكرهم بآبائهم ليرعوا عنها ولا يغتروا بعبادة الآلهة الباطلة ناكرين عبادة الله الحيّ القيوم.

وقد طالعنا في المجلّة الكتابية (Revue Biblique) في نشرتها الصادرة في تشرين الأول سنة ١٨٩٤ م. فصلاً مشبعاً نشره فيها الأب هرنس اليسوعي في تفسير رؤيا حزقيال هذه، مثبتاً أَنَّ النبي أراد بها أن يبيّن مجد الله بما يرونه كل يوم في الأفلاك السماوية معبراً بالحيوانات عن الكواكب التي سمى بعضها الكلدانيون من أقدم الأيام وتابعهم عليه الفلكيون إلى الأبد باسماء الحيوانات كالثور والنسر والأسد وغيرها، وبالذوايب وحركتها عن حركة الأجرام السماوية، وبالعيون الملأى بها عن النجوم الكثيرة في السماء، وبالنار التي في وسطها عن الشمس القائمة في وسط العالم، وتدور الكواكب حولها. وقال إِنَّ الكلدانيين كانوا يفقهون هذه الأمور من أقدم الزمان وقد وُجدت عندهم صورة منطقة الأبراج منذ سنة ١١٠٠ قبل التاريخ المسيحي؛ وإنهم أول من أستنبط علم الفلك، وإنّ هذا التفسير أوجه، ويؤدي أكثر مما سواه إلى غرض النبي الذي هو بيان يفوق مجد الله على مجد آلهة الكلدان لئلا يعبدوا العبرانيون ويتركوا عبادة الله الذي خلق ما في السماء والأرض.

ثم قال النبي (فصل ٢ و ٣) إِنَّ يداً دفعت إليه درجاً كُتبت فيه مراثٍ ونواجٍ وويل، وأمر أن يأكله فأكله فصار في فمه كالعسل حلوة، فما كتب فيه رمز إلى ما كان بنو إسرائيل سوف يعانونه في جلائهم إلى بابل، فإنّ هذه الرؤى كانت قبل خراب أورشليم والحلاوة التي شعر النبي بها رمز إلى التعزية التي ستكون لهم ولعبيدهم من الجلاء إلى أرض موعدهم.

وقال (فصل ٤) إِنَّ الله تجلّى له وأمره أن يُغلق على نفسه في داخل بيته، وأن يأخذ لبنه ويرسم عليها مدينة أورشليم، ويقيم عليها حصاراً وينصب مناجيق من حولها وأن يضجع على جانبه الأيسر. ويجعل إثم آل إسرائيل عليه ثلاث مئة وتسعين يوماً، وأن يضجع بعد ذلك على جانبه الأيمن ويحمل إثم آل يهوذا أربعين

يوماً فإنه تعالى جعل كل يوم بسنة؛ هذه رموز أيضاً أعلمه الله بها مدة حصار أورشليم، وسني جلاء بني يهوذا. فأن يختصر حاصر أورشليم مدة تسعة عشر شهراً أي خمس مئة وسبعين يوماً، ولكن يلزم أن يحط منها مدة تركه الحصار وذهابه لمحاربة ملك مصر كما مر. فتعود أيام الحصار ثلاث مئة وتسعين يوماً، أي نحو ثلاثة عشر شهراً. وقد مكث بنو يهوذا في بابل أربعين سنة، إذا حسب بدء جلائهم من فتح أورشليم ونهايته في السنة الأولى لقورش عند إباحته لهم العود إلى موطنهم، على أن مدة هذا الجلاء تحسبها عامة العلماء سبعين سنة باعتبار أن بدءها حين أسر يوباكين ملك يهوذا، ونهايتها حين عود نحميا إلى أورشليم كما سيأتي. ولكي يبين الله للنبي شدة الضيق الذي يقاسيه سكان أورشليم في مدة حصارها، أمره أن يأخذ حنطة وفولاً وعدساً ودخناً وكرسنة ويجعلها في وعاء واحد، ويصنع منها خبزاً على عدد الأيام المذكورة أي ثلاث مئة وتسعين يوماً. وأن يأكل ويشرب بالوزن عشرين مثقالاً في اليوم كله. وسدس الهين من الماء، فيأكل كل يوم قرصاً وينضجه بزبل الإنسان أمام عيونهم. وصرح الرب له بأنه يقطع قوام الخبز في أورشليم، فيأكلون الخبز بالوزن والغم ويشربون الماء بالمقدار. وأنف النبي أن ينضج خبزه بزبل الإنسان فجعل له رجيع البقر بدلاً منه. وقد افترى الملحدون وسفهوا زاعمين أن الرب أمره أن يأكل زبله وهو افتراء بحت، فكل ما قاله له إنما هو أن يُنضج خبزه على زبل الإنسان إشارة إلى شدة الفاقة إلى كل شيء حتى الحطب، ولما أنف منه أباحه أن يُنضجه على رجيع البقر. وليس هذا بالأمر الغريب فإن كثيرين من سكان البلاد التي ندر الحطب فيها يُنضجون خبزهم إلى اليوم على رجيع البقر المعروف بالجللة.

وقال النبي (في الفصل الخامس) إن الرب أمره أن يأخذ سيفاً ماضياً وموسى حلاق، ويمرّها على رأسه ولحيته وأن يزن الشعر ويقسمه، ويحرق ثلثاً منه بالنار ويقطع ثلثاً بالسيف ويذري ثلثاً للريح. وفسر له الرمز بأن ثلثاً من سكان أورشليم يفنون بالبواء والجوع، وثلثاً يسقطون بالسيف، وثلثاً يذريهم لكل ريح ويستل السيف وراءهم. وأتم الرب للنبي تفصيل ذلك كما رواه في الفصلين السادس والسابع.

وقد ذكر في الفصل الثامن أنّ الرب نقله إلى أورشليم وأراه الأرجاس التي يصنعها بنو إسرائيل، والأصنام التي يعبدونها، والنساء اللواتي ينحنّ على تموز وهو

أدونيس معبود الفينيقيين، والرجال الذين يسجدون للشمس. وكشف الرب له في الفصل التاسع أنه سلط خمسة ملائكة على الانتقام من أورشليم. فرأى النبي بيد كل من الملائكة آلة موت ليقتلوا بها كل من لم يكن موسوماً بسمه الحياة التي كانت علامة حرف التو (التاء) في جبهته. وكان الرب أمر ملاكاً سادساً أن يسم بها من ساءهم انحراف أورشليم عنه فخرج الملائكة وقتلوا حتى ملئت المدينة بالدم والجثث. ثم قال في الفصل العاشر أنّ الرب تجلّى له وأمر ملاكاً أن يأخذ ناراً من خلال العجلة التي تحت الكارويين ويذريه على المدينة. وكل ذلك رموز إلى نار الحرب ونقمة الرب التي حلت على أورشليم بعد سنين قليلة من هذه الرؤى.

ولما أراد الرب أن ينبئه بهرب صدقيا ملك يهوذا من أورشليم أمره أن يبدي على نفسه أهبة الجلاء، وينقب الحائط ويخرج منه حاملاً على كتفه ويقول لبني إسرائيل هكذا تكون حالة الرئيس في أورشليم. فإنه ينقب الحائط ويخرج من أورشليم لكنه لا يفلت من أحبولة الرب. ويُجلى إلى بابل ولا يراها ويموت فيها؛ وهذا طبق ما جرى لصدقيا لدن حصار بختنصر أورشليم، وثقب ملك يهوذا حائط السور وهربه، والقبض عليه وفتي بختنصر عينيه، وإتيانه به إلى بابل كما مرّ. فبمثل هذه الرموز أنبأ الرب حزقيال بما سيكون لأورشليم وسكانها قبل حلوله. وقد تنبأ حزقيال على مصر وتنكيل بختنصر بأهلها كما ذكرنا، وعلى خراب صور وصيدا كما مرّ في تاريخ فينيقية، وعلى دمار بلاد العمونيين والوايين والأدوميين والفلسطينيين. وبعد هذه الرؤى المحزنة أنبأه الرب بأمر معزية كالعود من الجلاء، وتجديد بناء أورشليم والهيكل، وانتصار بني إسرائيل على أعدائهم إلى غير ذلك من الرموز إلى مجيئ المخلص وقيام الكنيسة.

روى القديس ابيفانيوس (في كتابه في حياة الانبياء ووفاتهم) إنّ حزقيال قتله أمير أو وال على شعبه لتونييه إياه على عبادته للأوثان أو قبح سيرته، والأظهر أن الشعب هاج عليه وقتله. وآخر نبؤاته مؤرخ في السنة السابعة والعشرين لجلائه وهي سنة ٥٧١ قبل الميلاد ويقال: إنه دُفن في المغارة التي دُفن فيها سام وأرفخشاد. وقال بنيامين دي تودال (في كتاب رحلته) إنه رأى على بعض فراسخ من بغداد مدفناً متقناً، وأنه قيل له أنه مدفن حزقيال، وأنه كان يحج إليه رؤساء الجلاء في تلك الأيام، والآن يحج إليه لا اليهود فقط بل الفرس والإسلام أيضاً. وقال أوشر الوا (في كتاب أخبار سفره إلى المشرق الذي طبع في باريس سنة ١٨٤٣ م) إنه

بينما كان مسافراً من بغداد سنة ١٨٣٥ م رأى جماعاً غفيراً من اليهود والأعجم والهنود والعرب ماضين لزيارة مدفن النبي حزقيال الذي توفي في مدة الجلاء إلى بابل؛ ولا يمكن مع ذلك القطع بصحة هذا التقليد. وأما سفر حزقيال فكتب بالعبرانية وقل من كذب بصحة تنزيله، وكثر من شكّا غموض كلامه لاستعماله رموزاً تيسر إدراكها على أهل أيامه وموطنه وتعرّس على غيرهم.

الفصل العشرون

أخبار بني إسرائيل عند عودهم من الجلاء وبعده إلى ملك
اسكندر الكبير

عد ٣٥٦

أمر كورش بعود بني إسرائيل إلى فلسطين

جاء في سفر عزريا (فصل ١) إنه في السنة الأولى لكورش (ويسمى قورش أيضاً بالقاف) نادى وكتب منشوراً في مملكته كلها قائلاً: إنّ جميع ممالك الأرض قد أعطاها الرب إله السموات، وأوصاني بأن ابني له بيتاً في أورشليم فمن كان منكم من شعبه فالله يكون معه، وليصعد إلى أورشليم وبين بيت الرب الإله الذي في أورشليم، وكل من بقي متعزياً في أحد المواضع فليمدد أهل موضعه بالفضة والذهب والمال والبهاائم، فضلاً عما يتطوعون به لبيت الله الذي في أورشليم. انتهى ملخصاً ويظهر أنّ اليهود رفعوا إليه عرائض يلتمسون بها إباحتهم العود إلى أوطانهم؛ وكان دانيال مقرباً إليه كثيراً فيرجح أنه عاونهم على إجابة مسؤولهم. وروى يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ١) إنه كان قرأ في نبؤات اشعيا (أو أطلعه دانيال عليها) التي كتبها قبل مولده بسنين متطاولة أنّ الرب سيقمه ملكاً على قبائل عديدة، ويلهمه ردّ شعبه إلى أورشليم وبناء الهيكل، فدهش كورش

بذلك، وهام في إتمامه، ولذلك كتب منشوره المشار إليه. وكان ارميا قد تنبأ على ذلك فيما كتبه (فصل ٢٩ عد ١٠) لبني الجلاء في بابل قائلاً: «هكذا قال الرب عند تمام سبعين سنة في بابل أفتقدكم وأقيم لكم كلمتي الصالحة بإعادتكم إلى هذا الموضع». وأمر كورش أيضاً أن جميع الآنية الفضية والذهبية التي أخذها بختنصر من أورشليم ووضعها في بيت آلهته بمنزلة غنيمة حرب تُرد إلى أورشليم. ولذلك أمر متريدات الخازن فسلمها إلى ششبصر رئيس يهوذا. وظنَّ عامة المفسرين أن ششبصر هذا إنما هو زربابل أحد أمراء بني يهوذا من نسل داود؛ وهذا عدد هذه الآنية كما جاء في سفر عزريا (فصل ١ عد ٩). «ثلاثون طستاً من الذهب، وألف طست من الفضة، وتسعة وعشرون سكيناً، وثلاثون جاماً من الذهب وأربع مئة وعشرة جامات من الفضة من الرتبة الثانية، وألف من آنية أخرى». وقال إن جميعها خمسة آلاف وأربع مئة ومجموع ما ذكره ألفان وأربع مئة وتسعة وتسعون فكأنه ترك ذكر آنية أخرى أو ذهل الناسخ عن ذكرها.

فعاد زربابل ويشوع بن يوصادق الكاهن وغيرهما من رؤساء يهوذا، وبنيامين وكل من نُبِّه الرب روحه ميممين أورشليم، واستمر في بابل كل من أراد أن يحافظ على مسكنه وماله. وقد فُصل عزرا عدد من عادوا إلى أورشليم وقتئذٍ فقال (فصل ٢ عد ٦٢ وما يليه): «كل الجماعة معاً إثنان وأربعون ألفاً وثلاث مئة وستون ما خلا عبيدهم واماءهم وهم سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وثلاثون؛ ولهم مئتان من المغنين والمغنيات وخيلهم سبع مئة وستة وثلاثون وبغالهم مئتان وخمسة وأربعون، وجمالهم أربع مئة وخمسة وثلاثون، وحميرهم ستة آلاف وسبع مئة وعشرون». وقد أمدهم بعض من استمروا في بابل ببعض الفضة والذهب، وأنبأنا أيضاً عزرا أن كورش أصحبه حينئذٍ بأمر منه لبناء الهيكل إذ قال (فصل ٦) إن داريوس بحث في بيت الأسفار فوجد درجاً مكتوباً فيه هكذا «هي سنة عودهم مع زربابل لكورش الملك أبرز... أمراً في حق بيت الرب الذي في أورشليم أن يبني البيت المكان الذي كانوا يذبحون فيه الذبائح وتوضع أسسه سمكه ستون ذراعاً، وعرضه ستون ذراعاً بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصف من خشب جديد، والنفقة من بيت الملك. ولترد أيضاً آنية بيت الله الذهب والفضة التي أخرجها نبوكدنصر من الهيكل في أورشليم... وتوضع في بيت الله» وقد روى يوسيفوس (ك ١١ فصل ١ من تاريخ اليهود) هذا الأمر بأكثر تطويل وتفصيل وأظن ما زاده مأخوذاً

من أمر داريوس الآتي ذكره. وأقام بنو إسرائيل الذين عادوا من الجلاء في أورشليم وما جاورها وكان جثمٌ غفير من إخوانهم استمروا في تلك المواضع فانضموا إلى العائدين. ولم تكن مدة الجلاء أنست جميعهم ذكر مواطنهم الأولى يقدمون محرقات لله ويصنعون أعيادهم بحسب سنة موسى قبل تجديد الهيكل أيضاً.

عد ٣٥٧

آثار كورش المؤيدة قول الكتاب

لم يكن لنا إلى سنة ١٨٧٩ م علم إلا بأثرين لكورش كتب عليهما بغاية من الإيجاز، وجد أحدهما في المحل الذي يسميه الفرس تختي مدري سليمان أي عرش أم سليمان، وقد وهم بعضهم أنّ المراد عرش كورش والأولى أن يكون عرش امرأته أو أمه. وقد كُتب عليه بالفارسية: «أنا كورش الملك الأكمنيدي». والثاني عُثر عليه في سنكره في بلاد الكلدان السفلى وهو فلذة من الآجر نُقلت إلى المتحف البريطاني سنة ١٨٥٠ م، والباقي منها كُتب عليه ما ترجمته: «أنا كورش... مقيم هيكل السوغاتو والإيذا ابن كمبيس... الملك القدير» على أنه في سنة ١٨٧٩ م بينما كان العالم هرمرز رسام يحفر في بابل على نفقة المتحف البريطاني كُشف عن اسطوانة من آجر كُتب عليها خمسة وأربعون سطرًا بأحرف بابلية وباللغة الآشورية؛ وقد محارور الأيام منها خمسة وعشرين سطرًا وأخذت هذه الاسطوانة إلى المتحف المذكور من كلام كورش الباقي عليها ما يأتي: «إنّ كثيراً من الملوك المقيمين في الحصون والذين كانوا من قبائل عديدة تسكن الأعمال التي بين البحر الأعلى (يريد البحر المتوسط)، والبحر السفلي (خليج العجم) مع ملوك سوريا وما وراءها من البلاد غير المعروفة قدّموا لي جزاهم كاملة وتوقعوا على قدمي... وأما الآلهة التي كانت تسكن بينهم فأعدتها إلى مواضعها، وجعلت لها مقراً مستمراً، وجمعت كل شعوبهم، وأمرت أن يرجعوا إلى بلادهم». ولا مرية في أنّ اليهود ممن أرجعهم كورش إلى بلادهم وأنه أطلق من المجلولين غير اليهود أيضاً.

ولما كان في هذه الاسطوانة غير ذلك مما يهتم العلم به ترجمنا منها ما يأتي أيضاً. فقال في سطر ٢٢ وما يليه: «إنّ الأسرة القديمة الملكية التي أيد بال ونبو بجودهما ملكها قد انقضت سلطتها عند دخولي بابل ظافراً. وأقمت عرش سلطنتي في القصر الملكي بالسرور والبهجة ومزدوخ الإله العظيم الحارس القديم لابناء

بابل... وتوطدت بالأمان سلطنتي الفسيحة الانحاء في بابل وأعمال سومير وآنكد
العديدة». وذكر ما أجراه من الإصلاح في حصون بابل وأسوارها وقصورها إلى أن
قال في سطر ٢٦: «وعنيت بإصلاح هيكل مردوخ الإله العظيم، وقد أمدني
(مردوخ) بعونه، ورأف بي أنا كورش الملك المتعبد له وبكمبيس ابني فلذة قلبي
وبجيشي الأمين، فاستطعنا أن نعيد معبده إلى حالة كماله الأولى». ثم قال في سطر
٢٣: «أما آلهة سومير وآنكد التي كان نابونيد يكرمها في أعياد سيد الآلهة بأمر
مردوخ الإله العظيم فأقمتها أنا مكرمة في معابدها كما كان لسائر الآلهة لكل معبد
في مدينته. وكنت أتضرع كل يوم إلى بال ونبو ليطيلا أيامي، ويزيدا في توفيقِي،
وأن يشفعا لدى مردوخ سيدي بعبد كورش وكمبيس ابنه.

فهذه الخطوط أعلمتنا بأمر كنا نجهلها أو ضلّ العلماء بها، منها أن العلماء
كانوا يحسبون كورش مؤحداً متبعاً الفرس في عبادة هورامزدا الإله الوحيد عندهم
أي سيد الآلهة، فظهر من هذه الخطوط أنه كان يعبد بال ونبو ومردوخ آلهة
الكلدانيين، ويبنى لها المعابد أو يردها إلى معابدها، ويخشع لها ولا أقل من أنه كان
يتظاهر سياسةً بإجلال آلهة مسوديه استرضاءً لهم، وهذا يؤيد صحة أمره بتجديد
هيكل الرب في أورشليم جرياً على ما صنعه إلى غيره من آلهة شعبه. وقد كان
العلماء يظنون مبيداً للأصنام، وكان بعض مفسري الكتاب يحسبونه كذلك سنداً
إلى آيات من نبوة اشعيا في كلامه على كورش كقوله (فصل ٤٦ عد ١ و ٢):
«قد جثا بال وجثم نبو وصارت أصنامهم على الوحوش والبهائم إن محمولاتكم
ثقيلة هي حمل شاق جثمت وجثت جميعاً هي أنفسها ذهبت إلى السبي». وإلى
آيات من نبوة ارميا كقوله (فصل ٥٠ عد ٢): «خبروا في الأمم واسمعوا وارفعوا
الرأية اعلنوا لا تكتنموا قولوا قد أخذت بابل وأخزي بال وانحطم مرداك قد
أخذت أصنامها وانحطمت أوثانها» وكقوله (فصل ٥١ عد ٥٩): «لذلك ها أنها
تأتي أيام يقول الرب افتقد منحوتاتها وفي كل أرضها يئن الجرحى». فكان المفسرون
يفسرون هذه الآيات بمعنى أن كورش يحتقر آلهة الكلدانيين أو يحطم أصنامها
فظهر الآن من هذه الخطوط أن المراد بتلك الآيات أن آلهة بابل تخزي لأنها لم
تقدر أن تنجي المتوكلين عليها، ولا أن تقي بابل مدينتها من تنكيل الغازي، لأنّ
الشرقيين كلهم إلّا اليهود كانوا يعززون إنتصارهم وانكسارهم إلى قوة آلهتهم أو
ضعفها، فإذا ظفروا حسبوا آلهتهم أقوى من آلهة أعدائهم. وإذا ذلوا حسبوا آلهة

أعدائهم أقوى من آلهتهم. وكان الظافرون يأخذون أصنام من استظهروا عليهم فيقيمونها كأسرى أو حبسى في بيوت آلهتهم في حالة تشعّر بذلها، كما أخذ الفلسطينيون تابوت عهد الرب. ووضعوه في هيكل داغون. وعليه فكان مفاد آيات اشعيا وارميا أنّ بال ونبو ومروداك تجثو وتجثم لآلهة كورش الظافر، وتخزي لأنها لم تستطع أن تقي عابديها، وتذلّ وكأنها تسبى مع المسبيين، وتحمل على البهائم كما تحمل غنائم الحرب. وقد يُحتمل أن يكون جنود كورش فعلوا عند دخولهم بابل بأصنامها ما ذكره النبيان، ثم عاد كورش يكرمها ملافاة لشعبه الجديد وطلباً لحسن السياسة. أو إنّ قول النبيين يصدق على أصنام بابل ومعابدها لما إفتتحها داريوس ثانية، ودمّر ابنيها ودكّ هياكلها كما سيجيئ.

عد ٣٥٨

تجديد بناء هيكل أورشليم

لما وفد رؤساء الجلاء إلى أورشليم صرفوا باكورة اهتمامهم لإقامة الهيكل في مكانه الأول. وتطوّع كلّ منهم بدفع ما كان في وسعه، فكان مجموع ما حشدوا ستين ألف درهم من الذهب، وخمسة آلاف من الفضة، ومئة قميص للكهنة. ولما كان الشهر السابع أقام يشوع بن يوصادق رئيس الكهنة وزربابل بن شلتائيل وإخوته المذبح على ما كانوا عليه من الذعر من شعب البلاد، وأصعدوا عليه الذبائح، وعملوا عيد المظال كما كتب موسى، ودفعوا فضة للنحاتين والنجارين وطعاماً وشراباً وزيتاً للصيغونيين والصوريين ليأتوهم بخشب الأرز من لبنان إلى مرفأ يافا. وفي السنة الثانية من بلوغهم إلى أورشليم أقاموا اللاويين على مناظرة بناء بيت الرب. ولما وضع البناءون أسس الهيكل قام الكهنة واللاويون بملاصهم والأبواق والصنوج بأيديهم يسبحون الرب، ويشكرون له بحسب النظام الذي وضعه داود الملك. وكان بعضهم يكون لفرحهم أو لأنّ الهيكل الجديد لا يساوي هيكل سليمان اتساعاً وإتقاناً (على ما روى كرتس). وكثيرون يهتفون بالمسرة حتى لم يعد يميّز صوت البكاء من صوت الفرح (عزرا فصل ٣).

وسمع أعداؤهم المقيمون في السامرة أنهم يبنون بيت الرب فأقبلوا على رزبابل ورؤساء الآباء قائلين نحن نبني معكم لأننا نطلب إلهكم مثلكم، ونذبح له من أيام

اسرحدون الذي صيّرنا إلى هنا. وقد مرّ عند كلامنا على خراب السامرة بيان أصل هؤلاء الأمم وما عبدوا، وخلطهم عبادة الله بعبادة آلهتهم فأبى زبابل ورؤساء يهوذا أن يشتركوا معهم في بناء بيت الرب، فطفقوا يقلقونهم ويرخون أيديهم في البناء جميع أيام كورش؛ ولما مات سنة ٥٢٩ ق.م وخلفه ابنه كمبيس الذي سُمي في سفر عزرا احشورش وارتخششتا؛ كتب رجال حكومة السامرة وغيرها إليه رسالة مثبتة في الفصل الرابع من سفر عزرا ملخصها: «إنّ اليهود الذين خرجوا من عندك وفدوا إلى أورشليم المدينة المتمرّدة الشقية، وأخذوا يبنون أسواراً ويرمون أسواراً، وإذا بُنيت هذه المدينة وتمت أسوارها لا يؤدّين الخراج ولا الجزية المفروضة، وحيث أننا أكلنا خبز القصر لم يكن لائقاً بنا أن لا نعلم الملك ليوحد في أسفار آبائه، فيعلم أنّ هذه المدينة متمرّدة مسيئة إلى الملوك والأقاليم، فقد أثاروا شغباً في قديم الدهر ولذلك خربت هذه المدينة». وكان كمبيس سبّئ الظنّ فأبرز أمراً لوالي السامرة وسائر ولاه عبر الفرات أن يكفّوا اليهود عن البناء إلى نفوذ أمر آخر منه، فبادر هؤلاء الأعداء إلى أورشليم وكفّوا اليهود عن بناء الهيكل كلّ مدة كمبيس التي كانت سبع سنين أي من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٢٢ ق.م وبقي البناء منقطعاً إلى السنة الثانية من ملك داريوس ملك فارس (عزرا فصل ٤).

عد ٣٥٩

ملوك فارس إلى داريوس

نقول رغبةً في بيان ما مرّ من قول الكتاب، وتوفيراً للفوائد أنّ كورش قُتل في حرب في بلاد التتر، وأوصى بأن يكون كمبيس ابنه البكر خلفاً له ملقباً بملك الملوك، وأن يكون ابنه الأصغر الذي تسمّيه الآثار البابلية بردياس وسماه هيرودت سمرديس والياً على الأقاليم الشمالية والشرقية معترفاً بملك أخيه كمبيس.

وهام كمبيس بالاستيلاء على مصر طمعاً بغناها الذي حمل أكثر الغزاة إليها، فأرسل قوماً قتلوا أخاه لئلا يستبد بالملك مدة غيابه، وأذاع أنه محجور عليه في قصره في بلاد ماداي، وكانت مصر في أسوأ حال لو هن قوّتها بالانقسام الداخلي؛ وكان ملوك سورية طوع يديه، والعبرانيون لم ينسوا فضل أبيه برّدهم إلى مواطنهم. فمرّت جنوده في سورية لا تلقي معارضاً بل قبل بالترحاب، وأنجده الفينيقيون

بأسطول كان يوفق حركته في البحر على حركة جنوده في البر. فضرب بالوس وهي المعروفة الآن بفرما أو مدينة في جوارها فافتتحها وزحف ظافراً إلى منف فلم تقو على مقاومته إلا أياماً. وكان أحمس أو اماسيس كما يسميه هيرودت قد مات في أثناء الحرب، وخلفه ابنه بسامتيك فأخذه كمييس أسيراً فانتحر متسماً. وأخرج كمييس جثة أحمس المخطئة من مدفنها وأنزل بها كل إهانة، وأحرقها بالنار مخالفاً سنة الفرس الذين كانت النار عندهم مقدسة فلا يحلُّ طرح جثة فيها، وسنة المصريين القاضية باحترام جثث الموتى. وتتبع كمييس بعد ذلك آثار سياسة أبيه بمجاراته المصريين على عاداتهم وتزيي بزئهم وكتب اسمه بالحروف الهيروكليزية، بل إدعى أنه من سلالة ملوكهم القدماء. وأمر بردّ عبادة سائس إلى ما كانت عليه، وكان يمارس فروض الدين والتعبد كملوك مصر، واتخذ كاهناً من كهنتها يلقنه ما يترتب عليه عمله. وفي المتحف الواتيكاني تمثال لهذا الكاهن كُتب عليه ما يُشعر بما ذكرناه. وجعل مصر ولاية من ولايات فارس أقام فيها والياً أجنبياً. على أن توفر نجاحه أضعاف الصواب فعزم أن يحمل على قرطاجنة، وكلف الفينيقيين إنجاده بهذه الحملة أيضاً فأبوا محاربة إخوانهم واختلاف إيمانهم ودينهم ونقض حق الدم بينهم، فاضطر أن يضرب عن عزمه. وعن له أن نزو الحيشة ولم يُهله ما دون ذلك من العقبات والأهوال، وتوغل في الصحراء حيث لا ماء ولا قوت فاقتات جنوده بالعشب أياماً. وألجأهم الجوع أخيراً (على ما روى هيرودت) أن يقتنعوا على واحد من كل عشرة منهم، ومن أصابته القرعة إقتاتوا بلحمانه. فاضطر كمييس أن يعود إلى مصر وقد فقد السواد الأعظم من جيشه وهبل واختل شعوره؛ وكان يتصرف تصرف الممسوس بأحكامه ودم مسوديه. وما روى من أخبار جنونه أنه أراد أن يتزوج بشقيقة صغيرة له خلافاً لسنة الفرس. استفتى قضاة قومه هل ليس من مسوخ شرعي لذلك فأجابوه لدعهم منه أنهم لا يرون مسوغاً لكنهم يعلمون أن ملوك الفرس لا سنة عليهم، بل لهم أن يصنعوا ما شاءوا، فقتل الظالم أخته مكان أن يتزوج بها.

وبين كان كمييس يُفعم مصر بمظالمه، نشأت ثورة في بابل، فهزم بالمسارعة إليها وإذا كان يمتطي فرسه متلهوفاً سقط جريحاً بسيفه، وسار لا يبالي فأتخن جرحه ومات في قرية في سورية سماها علماء اليونان اكتيان. وقال بعضهم إنه قضى في الكرمل أو حماء وكان ذلك بسنة ٥٢٢ ق.م. أما داعي الثورة فهو أن كمييس

كان وكل تدبير أملاكه إلى رجل مجوسي اسمه باتيزاتيس؛ وكان له أخ اسمه غوماتوس يشبه كل الشبه سمرديس بن كورش الذي كان أخوه كمبيس قتله وأذاع أنه محجور عليه في قصره؛ وبينما كان الملك في مصر والشعب يثق من جوره إدعى غوماتوس أنه سمرديس أخو الملك. واتصل بمساعدة أخيه والمجوس أن ينادى به ملكاً مظنوناً إنه أخو كمبيس، وأعفى الفرس من الجزية والخدمة والجندية ليحازبوه توطيداً للملكه. على أنه لم يختف أمره فتحالف عليه سبعة من حكام الأعمال منهم داريوس وباغته في قصره وقتلوه. ولم يملك إلا شهراً وأجلسوا أحدهم داريوس (ويسميه العرب دارا) على منصبة الملك. ومما روه في تملك دارا أن هؤلاء العمال اجتمعوا بعد مقتل غوماتوس يتفاوضون في نوع حكومتهم أملكية تكون أم فوضوية وآثروا الملكية، واتفقوا على أن يخرجوا في الغداة إلى مكان معين ومن سهل جواده أولاً عند مطلع الشمس كان الملك. وأخذ سائس خيل دارا جواده مساءً إلى ذلك المكان وكان ربط فيه فرساً فأكثر الجواد من الصهيل ولما عاد بكرة اليوم التالي إلى المكان أخذ يصهل كما فعل في الأمس، فنزل المتحالفون عن خيولهم وأقروا بالملك لدارا.

وقد روى هيرودت هذه الأخبار وجاءت الآثار تؤيد روايته. فإن في الطريق المؤدية من بغداد إلى همدان صخراً نُقشت عليه صورة تمثل صورة هورامزادا معبودهم في دائرة ذات أجنحة خارجة منها، ودارا وقوسه بيده ورجله على صدر رجل رافع يديه يستغيث، وعيناه إلى تسعة أشخاص قيام أمامه موثوقي الأعناق. مكتفي الأيدي. وقد كُتب تحت هذه الصورة ما ملخصه: «لما قتل كمبيس سمرديس أخاه وكان الشعب يجهل موته مضى كمبيس إلى مصر وعصاه شعبه وكان المكر والكذب متفاقمين في هذه البلاد وكان رجل اسمه غوماتوس ثار في ٢٤ من شهر فيهننا (شباط ٥٢٢). وخدع الشعب بقوله إنه سمرديس بن كورش واستمال الناس إليه. ومات كمبيس جريحاً. فالملك الذي أخذه غوماتوس إنما هو ملكنا وخاص بذريتنا ولم يجسر الشعب أن ينتزعه من الملك لقسوته. فخشعت حينئذ إلى هورامزادا. فاستجابني وقتلت غوماتوس وشركاه في ال ١٠ من شهر باكايريس (نيسان سنة ٥٢١). وأخذت الملك منه وصرت ملكاً بحسب مشيئة هورامزادا فأصلحت حال المملكة، وأعدت المذابح التي كان غوماتوس دمرها، ورددت العبادة القديمة، ووطدت النظام في فارس وماداي وسائر الأقاليم» ولا

مرية في أن هذه الخطوط لدارا الذي ضبط صولجان الملك من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥.

عد ٣٦٠

إستئناف بناء الهيكل وإتمامه

قد مرَّ أنَّ البناء في الهيكل بقي منقطعاً إلى السنة الثانية من ملك داريوس، فأوهى الانقطاع جلد أصحاب الغيرة، وأحمد جذوة حميتهم فعكف كلُّ على مشاغله وبناء بيت له وبيت الله خرب. ويظهر أنَّ زربابل حاكم اليهود في أورشليم عاد وقتئذٍ إلى بابل لإغتنام رضى دارا عنه، واستعطافه ليأمر باستئناف بناء الهيكل واستدعاء بعض من لبثوا في بلاد الكلدان للعود إلى أورشليم. فعاد منهم نحو من خمسين ألف جميعهم من سبطي يهوذا وبنيامين، ومعهم مئات من الكهنة واللاويين. وبلغوا أورشليم في الشهر الرابع بعد مسيرهم وكان ذلك للسنة الثانية من ملك دارا أي سنة ٥٢٠ ق.م. وكان حينئذٍ حجاجي النبي يؤنب اليهود في أورشليم على قولهم أنَّ زمان بناء الهيكل لم يأت بعد قائلاً (فصل ١): «أفحان لكم أن تسكنوا في بيوتكم المسقفة وهذا البيت خرب؟ وميناً لهم أنَّ القحط الذي حلَّ بهم تلك السنين، وقلة البركة في بيوتهم وعمل أيديهم سببهما تقاعدهم عن بناء بيت الرب.

وبمثل ذلك كان يحضُّهم زكريا بن براكيا (أو براشيا) النبي على الأخذ في إتمام بناء الهيكل. فتلوم زربابل مدة إستئناف البناء خشية أن يقاومهم أعداؤهم إلى أن أخذ سنة ٥١٨ ق.م في العمل بإقدام وجدِّ، فوافاهم تتناي وإلى عبر الفرات (المراد والي سورية وفينيقية وفلسطين) وشتريناي (لعله والي السامرة) وأصحابهما يقولون من أمركم ببناء هذا البيت وترميم هذه الأسوار؟ فقال زربابل ويشوع عظيم الكهنة إنَّ كورش الملك أمر بينائه وردَّ الآنية التي كان بختنصر سلبها منه إليه. وكان هؤلاء أرفق وأعدل من الأولين، فلم يكفوهم عن العمل بل رأوا أن يرفعوا الأمر إلى دارا فكتبوا إليه رسالة مثبتة في الفصل الخامس من سفر عزرا تضمَّنت حكاية الواقع وجواب اليهود لهم واستلفات الملك إلى البحث عن أمر كورش وإصدار أمره بما يشاء. فبحث دارا في سجلات ملكه فوجد أمر كورش كما مرَّ

بنصّه. فأثّده بجوابه إلى أعماله المثبت في الفصل السادس من السفر المذكور. وملخصه أن لا يعارضوا اليهود ببناء هيكلهم، ولا يزعموهم بشيء بل يُعطوا النفقة من خراج عبر النهر معجلة، وما يحتاجون إليه من العجول والكباش والحملان لمحرقات إله السماء وأن لا يُضنّ عليهم بالحنطة والملح، والخمر والزيت، بحسب قول الكهنة الذين في أورشليم، وإنّ من يخالف أمره يُقلع الخشب من بيته، ويُصلب عليه ويكون بيته مرحاضاً. واختتم أمره بقوله: «والله الذي أحلّ اسمه هناك يدمّر كلّ ملك وشعب يمد يده لتغيير وهدم بيت الله هذا الذي في أورشليم. أنا داريوس قد أمرتُ فلينفذ عاجلاً». ففعل الولاة بحسب أمر الملك وكُمّل بناء الهيكل في اليوم الثالث من آذار للسنة السادسة لدارا وهي سنة ٥١٦ ق.م. وأتى الشعب من كلّ فجّ فدنسوا الهيكل الجديد بمزيد المسرة والابتهاج، وقربوا حينئذٍ مئة ثور ومئتي كبش وأربع مئة حَمَلٍ وإثني عشر تيساً للإستغفار عن بني إسرائيل على عدد أسباطهم، وأقاموا الكهنة واللاويين على خدمة الهيكل بحسب سنّة موسى ثم عملوا الفصح سبعة أيام بالفرح (عزرا فصل ٥ و ٦).

ولا نعلم حقّ العلم مقدار اتساع الهيكل وبمقتضى أمر كورش كان يلزم أن يكون طوله ستين ذراعاً، وعرضه كذلك، وعليه فيكون أكثر اتساعاً من هيكل سليمان. إلّا أنّ الحال لم تسعفهم على بنائه كبيراً بهذا المقدار فكان أصغر من هيكل سليمان وأقلّ إتقاناً وعظمة. وروى يوسيفوس إنه كان أقلّ ارتفاعاً من هيكل سليمان. وقال بعض علماء اليهود إنهم نقشوا حيثئذٍ فوق باب السور الخارج من جهة المشرق صورة مدينة شوشن ذكراً لفضل ملوك فارس، ولم يكن تابوت عهد الرب في قدس الأقداس من هذا الهيكل الجديد، لأنه جاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٢) أن ارميا أخذ هذا التابوت ووضع في مغارة في جبل نبو، ولم يعد أحد يهتدي إلى محل وضعه.

عد ٣٦١

تتمّة أخبار دارا

قد عاش بنو إسرائيل في أيام دارا ناعمي البال مرعيي الجانب. وقد قسم مملكته إلى تسع عشرة ولاية على ما روى هيرودت (ك ٣ من تاريخه). وفرض على كل

ولاية جزية مقدّرة سنوية. ويهمنّا منها أن نبين أنّ الجزية المضروبة على سورية مع فينيقية وفلسطين، وجزيرة قبرص كانت ٣٥٠ وزنة أو قنطاراً من الفضة. وكانت قبائل العرب في بركة سورية وإلى تخوم مصر خاضعة لوالي هذه الولاية، لكنها كانت تُعفى من الجزية. وكانت الجزية المضروبة على ولاية قيليقيا (حيث ولاية اطنه الآن) ٥٠٠ وزنة يُنفق منها ١٤٠ وزنة على الفرسان المقيمين في هذه الولاية. ويُرسَل الباقي وهو ٣٦٠ وزنة إلى خزانة الملك. وكان المفروض على مصر ٧٠٠ قنطار من الفضة، ثم الميرة لمئة وعشرين ألف جندي تخفر هذه البلاد. وكانت جملة الدخل على ما قدّره هيرودت ١٤٥٦٠ وزنة بحسب إصطلاح أهل أثينا، وهي تساوي وزناً ٨٢٧٩٩٨٦٦ فرنكاً. وتساوي قيمة (لندرة الفضة وقتئذٍ ولكثرتها الآن) ٦٦٢٣٨٢٩٢٨ فرنكاً. وذهب بعض العلماء منهم كلمت في تاريخ العهد القديم وفي معجم الكتاب إنّ دارا تزوج باستير، وقد سُمي في سفر استير احشورش أو ارتخششتا. والأظهر أن استير كانت امرأة ارتخششتا الملقب بذي اليد الطولى كما سيجيء.

إنّ دارا بعد أن خمد نار الثورات التي توقّدت في بلاد فارس وفي بابل وقتل ثلاثة آلاف رجل من وجهاء هذه المدينة، وأخضع بلاد ماداي وأرمينية زحف إلى تراسة بجحافلها فافتتحها. وتوغّل في بلاد التتر وانتهى إلى بعض أعمال الهند لكنه خسر أكثر جنوده. ومع هذا عزم أن يحارب اليونان، وسيّر إلى بلادهم عسكرياً جرّاراً عهد بقيادته إلى دانيس واوترغن، فانتصر ملسياد قائد اليونان عليهما في ماداتون. وأهلك من جيشهما نحواً من مئتي ألف رجل وكان ذلك سنة ٤٩٠ ق.م. وبينما كان يجيئ جيشاً جيوشاً أخرى ليثأر من اليونان ويكبت المصريين الذين ثاروا عليه دهمته المنيّة سنة ٤٨٥ ق.م بعد أن ملك ستاً وثلاثين سنة. وخلفه ابنه كسر كس، وهو على ما أظن من يسميه المؤرخون العرب كيخسرو، ومعنى خسرو بالفارسية الوضيع الملك على ما في تاج العروس، وعنه سمي العرب ملوك فارس في طبقتهم الثالثة كسرى وجمعوها أكاسرة.

فيكخسرو أثخن بالمصريين وخمد جذوة ثورتهم وأقام أخاه اخمنيس والياً على أقاليم افريقيا، وذلل أهل بابل الذين عاودوا الثورة عليه. وبعد أن صفا له جو السياسة حاول إتمام نوايا أبيه في تذليل اليونان، فجيش الجيش وسيّره إلى ما وراء البوسفور. وعبرت جنوده الدردنيل على جسر من سفائن، واتصل إلى أن أحرق أثينا

وفتح غيرها من مدن اليونان، فكانت بين الفريقين الحرب المعروفة بحرب سلاميس وبلاطيس. واكتسب فيها تميستكل واريستيد مجدهما المخلد سنة ٤٨٠ وسنة ٤٧٩ ق.م. واضطرت جيوش الفرس أن تتقهقر إلى ما وراء الدردنيل. وأخذت أساطيل اليونان طريق الهجوم فنكلت بقبرص وشواطئ آسيا الصغرى. ويظهر أن كيخسرو قضى باقي مدة ملكه عاكفاً على ملاذه متسامحاً مع أعدائه إلى أن اغتاله رجلاان من أعوانه سنة ٤٦٥ ق.م فانتشبت الحرب بين ابنيه هستاسب وارتخششتا واستظهر فيها الثاني على الأول وملك من سنة ٤٦٥ إلى سنة ٤٢٥ ق.م. وكان في أيامه عزرا ونحميا واستير وسيأتي الكلام فيهم.

عد ٣٦٢

في عزرا الكاهن

إنَّ عزرا هو ابن سرايا بن عزريا بن حلقيا الذي وجد في الهيكل نسخة قديمة من سفر تثنية الإشتراع، أو بعض فصول من هذا السفر كما مرَّ في كلامنا على يوشيا الملك. ويتصل نسبه بالعازر بن هرون، وعزرا هو كاتب السفر المعنون باسمه وقد أجمع على ذلك علماء اليهود والنصارى خلافاً لبعض أهل الإنتقاد، وكان عزرا ماهراً في سنَّة موسى عاملاً بها. وأصاب بعضهم بقولهم إنه كان يعظ قومه في بابل بالمحافظة على هذه السنَّة بتعليمه وعلمه. ويظهر إنَّ اليهود الذين كانوا في بابل كانوا أشدَّ تمسكاً بسنة موسى من إخوانهم الذين مكثوا في فلسطين. وكان زربابل أقام الهيكل في أورشليم، فرأى عزرا في بابل إنه لا يجتزأ بأقامة حجارة الهيكل بل لا بد من تجديد المحافظة على سنَّة الرب فعزم أن يعود إلى أورشليم. وذهب بعضهم إنه كان شخص إلى أورشليم مع زربابل في أيام كورش، ثم عاد إلى بابل في أيام أرتخششتا الذي كان مقرباً إليه على ما يظهر من رسالة الملك الآتي ذكرها.

فسار من بابل في السنة السابعة لأرتخششتا وهي سنة ٤٥٨ ق.م. يصحبه قوم من الكهنة واللاويين والمغنين والبوايين وعامة الشعب، وكان بدء سفره في اليوم الأول من الشهر الأول، وبلغ أورشليم في اليوم الأول من الشهر الخامس. فكانت مدة سفره أربعة أشهر تخللها بلا بد بعض أيام للاستراحة. وقد دفع الملك إليه رسالته المثبتة في الفصل السابع من سفره وملخصها: «من أرتخششتا ملك الملوك إلى

عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل سلام. إني أمرت بان كل من شاء من مملكتي من شعب إسرائيل أن يرجع معك إلى أورشليم فليرجع لأنك أرسلت من عند الملك ومشيريه السبعة لتبحث عن يهوذا وأورشليم على حسب سنة الهك، وتأخذ الفضة والذهب اللذين تطوع بهما الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي مسكنه في أورشليم. وكل ما تجده من الفضة والذهب في بلاد بابل من تطوعات الشعب والكهنة تشتري به عاجلاً ثيراناً وكباشاً وحملاناً وتقربها على مذبح بيت الهكم. وكل ما حسن عندك وعند إخوانك أن تعملوه بما فضل من الفضة والذهب فاعملوه على مشيئة الهكم. والآنية التي أعطيتها لخدمة بيت الهك ردها إلى أمام اله أورشليم (كأنه كان باقياً شيء من سلب الهيكل). وسائر ما تحتاج إليه من النفقة في بيت الهك خذه من خزائن بيت الملك، وقد أمرت جميع الخزان الذين في عبر نهر الفرات إن كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن فليقبض عاجلاً إلى مئة قنطار فضة. ومئة كز قمح ومئة بث خمر ومئة بث زيت والملح دون تقييد. وكل ما يأمر به آله السماوات فليقبض باهتمام لبيته لكي لا يكون غضبه على مملكة الملك وبنيه.

ونعلمكم أن جميع الكهنة واللاويين والمغنين والبوايين وسائر خدام بيت الله لا يضرب عليهم خراج ولا جزية ولا ضريبة. وأنت يا عزرا أقم بحسب حكمة الهك قضاءً وحكاماً يقضون بين جميع الشعب الذين في عبر النهر(الفرات) من كل من يعلم شريعة الهك ومن لا يعلم فعلموه. وكل من لا يعمل بشريعة الهك وشريعة الملك فليقبض عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة مال أو بالحبس. وأعقب عزرا هذه الرسالة بقوله: «تبارك الرب إله أبائنا الذي ألقى مثل هذا في قلب الملك لتكريم بيت الرب. وقدم بنو الجلاء القادمون حينئذ إلى أورشليم محرقات للرب. وبلغ عزرا أمر الملك إلى أقطابه وحكام سورية فاعانوا الشعب وكرموا بيت الله (عزرا فصل ٧ و٨).

عد ٣٦٣

حظر عزرا على بني إسرائيل الزواج بالأجنبيات

قد أقبل رؤساء الشعب إلى عزرا ينبئونه بان الشعب بل بعض الكهنة واللاويين أيضاً لم ينفروا عن شعوب الأرض لأنهم تزوجوا بنات من الكنعانيين والموآبيين

والعمونيين والمصريين، وزوجهم بيناتهم. فاغتاظ عزرا ومزق ثوبه وتنف شعر رأسه ولحيته. وأخذ يصلي لله خاشعاً ويستميحه أن لا يغضب على شعبه لذلك، واجتمع إليه حشد كبير وبكوا معه. وتحالف عزرا ورؤساء الكهنة واللاويون والحشد المذكور على إخراج النساء الأجنبية وأولادهن. فاستدعوا جميع بني الجلاء ليشخصوا إلى أورشليم في مدة ثلاثة أيام، وكل من أبى أن يأتي تسبى كل أمواله ويفرز عن جماعة أهل الجلاء. فاجتمع جميع رجال يهوذا وبنيامين في ساحة بيت الله، فقال لهم عزرا تعديتم سنة الله واتخذتم نساء من الأمم لتزيدوا في أثم إسرائيل فاعتزلوا أمم الأرض والنساء الغريات. فقالت الجماعة حسن كما قلت إلا نفعل، إلا إنَّ الشعب كثير والوقت وقت أمطار لا طاقة لنا أن نقف في الخارج وليس العمل عمل يوم أو يومين، فليقم رؤساؤنا ويأت من اتخذوا نساء غريات في أوقات مسماة ومعهم شيوخ كل مدينة وقضاتها حتى يُصرف عنا غضب الهنا. وأقاموا مفوضين للبحث عن هؤلاء وتنفيذ الأمر عليهم، فوجدوا كثيرين ارتكبوا هذه المعصية وبعضهم من الكهنة واللاويين. فاذعنوا للأمر وحلفوا أن يخرجوا نساءهم الغريات وقدموا لله ذبائح تكفيراً عن أثمهم على أنه يظهر أنهم لم يتركوا جميعهم نساءهم، لأننا نرى نحماً اضطر أن يستأنف الأمر بطرد النساء الغريات (عزرا فصل ٩ و ١٠).

عد ٣٧٤

تمة أخبار عزرا ووفاته وأسفاره

قد بقيت لعزرا السلطة النافذة في أورشليم إلى وفود نحemia إليها حاكماً فيها من لدن أرتخششتا كما سيجيء، وفي السنة الثانية بعد إقامة أسوار أورشليم اجتمع الشعب في الهيكل للاحتفاء بعيد المظال. وسألوا عزرا أن يقرأ لهم التوراة فقرأ لهم من الصباح إلى نصف النهار، وكان في جانبه بعض من الكهنة واللاويين ليفهموا الشعب المعنى، فان إقامتهم في الجلاء سبعين سنة أنست أكثرهم اللغة العبرانية المكتوبة التوراة بها. وظل يقرأ لهم سنة الله ثمانية أيام، وفي الختام جدد جميعهم العهد واليمين على طاعة الله والعمل بناموس (نحميا فصل ٨).

روى يوسيف (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٥) أنَّ عزرا توفي في أورشليم وعظم الشعب الاحتفاء بدفنه، ولكن ذهب بعض علماء اليهود أنه قضى في بلاد

فارس لدن عوده مرة أخرى إليها وإنَّ سكان تلك البلاد يدلون على مدفنه في مدينة ساموز، ويقال إنه عاش مئة وعشرين سنة.

قد مرَّ إنَّ السفر الذي كان مدار كلامنا عليه في هذا الفصل إنما هو لعزرا بإجماع اليهود والنصارى على ذلك؛ لكن الترجمة اللاتينية العامية تعزو إليه السفر الثاني أيضاً الآتي الكلام فيه المعروف في النص العبراني بسفر نحميا وهو لنحميا حقيقة؛ ومن المجمع عليه إنه هو كاتب الفصول الستة الأولى منه، ولكن عزرا العقليون ما تضمنه هذا السفر من الفصل السابع عد ٦٩ إلى الفصل الثاني عشر عد ٢٦ إلى كاتب آخر كان بعد قرن من أيام الكاتب الأول. واحتجوا لذلك بادلة تضعف قول الجمهور بأن نحميا كتب هذا السفر إلا آيتين أو ثلاثاً في الفصل الثاني عشر منه (عد ١١ و ٢٢) ألحقها يد أخرى بكلامه تلاحظ نسب بعض كهنة لم يكونوا في أيام نحميا وأما نسبة هذا السفر إلى عزرا في الترجمة اللاتينية المذكورة فمصدرها جعل اليهود السفريين واحداً كيلا يتجاوز عدد الأسفار المنزلة عندهم عدد حروف هجائهم الأثنين والعشرين. ثم إنَّ الكنيسة اليونانية عزت إلى عزرا سفرًا ثالثاً وخالفتها في ذلك الكنيسة الكاثوليكية، وهذا السفر أشبه بسفر عزرا الأول، ولكن تخللته حواشٍ وزيادات منها إنه كان لداريوس ثلاثة حراس أحدهم زربابل، وإنه طارحهم سؤالاً في ما هو أقوى شيء في العالم فقبال الأول: إنه الخمر وأقام عليه ما عرَّ له من الحجج، وقال الثاني هو الملوك وأورد له ما خطر في باله من البراهين. وقال الثالث هو زربابل إنَّ أقوى شي النساء وأقوى من الخمر والملوك والنساء الحق. وأثبت ذلك بادلة دامغة فجمع الملك أعوانه وعماله وقصَّ عليهم ما كان فصوبوا جميعاً قول زربابل وجزاه الملك بالسماح له أن يعود إلى أورشليم ويجدد بناء الهيكل. وذكر يوسفوس هذه القصة (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٤) ولا يحسب بذلك إنه قطع بكونها من جملة الكلام المنزل في أمته. وأيضاً يعزى إلى عزرا سفر رابع ليس على صحة تنزيله من دليل، وقد بذل كاتبه جهده ليحذو به حذو عزرا في الفاظه واساليب كلامه. ومما كتب فيه أنَّ يوم الدين قريب، وأنَّ نفوس الصالحين والأشرار أجمع تنجو بعده من الجحيم، وأنَّ عزرا أصلح الأسفار المقدسة كلها وكانت قد بادت برمتها. ويتكلم في المسيح ورساله كلاماً واضح مما ورد في الإنجيل إلى غير ذلك مما حمل اليهود والنصارى على نفي هذا السفر من عداد الأسفار المنزلة. وينسب إلى عزرا أيضاً أنه كتب سفري الملوك الثالث والرابع

وسفري أخبار الأيام الأول والثاني، ولعله أعاد النظر فيها أو عارض نسخها وأصلح فيها شيئاً. ويقال إنه واضع نظام الأسفار المقدسة إلى أيامه كما نراه الآن. وإنه أول من وضع النقط والحركات على كلم الكتاب، والأصح إن وضعها كان بعده بقرون وبعد مجي المخلص.

عد ٣٦٥

نحميا وبنائه أسوار أورشليم

ذهب بعضهم إلى أن نحميا كان من السبط الكهنوتي، والأظهر أنه كان من سبط يهوذا من ذرية الملوك، وقد ولد في بابل في مدة الجلاء فلم يكن يعرف أورشليم بل كان يحنّ إليها لأنها موطن آبائه وحويت بيت الهه وكان من المقربين إلى أرتخششتا الملك بل كان ساقيه. وقد وفد يوماً أحد إخوته ورجال من يهوذا من أورشليم إلى شوشن عاصمة الفرس. فاستخبرهم عن حالة أمتهم فقالوا هم في ضنك وأسوار أورشليم ما برحت متهدمة، وأبوابها محترقة، فبكى وصام وصلى إلى الله ليمنه بعونه أمام الملك، ووقف أمامه في شهر نيسان في السنة العشرين للملكه وهي سنة ٤٤٥ ق.م. وناول الخمر مكتباً. فسأله الملك عن علة إكثابه فقال حييت مولاي إلى الأبد كيف لا أكتب والمدينة حيث مدافن آبائي خربة وأبوابها محترقة. فقال الملك ما تبغي؟ فقال بعد أن خشع لله إن كان لعبدك حظوة أمامك فمر بان أمضي إلى هناك. فأجاب الملك متمناه بحضرة الملكة. وفي هذا إشارة إلى إنها أستير بنت قبيلته. ودفع إليه رسائل توصية إلى الولاة الذين في عبر الفرات، ورسالة إلى أساف حارس غاب الملك ليعطيه ما يلزمه من الأخشاب.

وأصبحه بقواد وفرسان وولاه على قومه وشرط عليه أن يعود إليه بعد الفراغ من مهامه. فوفد إلى أورشليم ومكث ثلاثة أيام لا يقول شيئاً. ثم خرج ليلاً ودار حول المدينة متبصراً كيف يقيم أسوارها ودعا رؤساء قومه وأعلمهم بما أتاه الله له. وحضهم على بناء أسوار أورشليم، فلبوا دعوته مجدين، وأخذ كل في بناء ما يواجهه بيته. وسمع سنبلط الحوروني والي السامرة وطوبيا العبد العموني (لعله كان والياً على العمونيين) وجاشم العربي والي العرب فسخروا من اليهود قائلين ماذا يصنع هؤلاء اليهود الضعفاء أيتمردون على الملك أم يحيون الحجارة من كوم التراب، وهي محترقة، فلو وثب ثعلب لهدم سور حجارتههم. فلم يحفل نحميا

بكلامهم وجد في بناء السور وأتم نصفه فاستشاط أعداء اليهود حنقاً فعدلوا عن السخرية منهم وتفرغوا لقتالهم. وأخبر اليهود المقيمون بين الأمم نحميا بما ينوون فاقام الحراس ليلاً ونهاراً على قمم الجبال، وقسم شعبه إلى نصف يعمل العمل ونصف يحمل السلاح متأهباً للقتال، وكان البناؤون يبنون وسلاحهم معهم وكذلك فعل العملة. وأقام نحميا متوقين حتى إذا أقبل الأعداء من جهة عرف كل واحد باقبالهم وأتموا هذه الأسوار في مدة اثنين وخمسين يوماً، والمراد إنهم أتموا النصف الذي كان باقياً عند استعداد أعدائهم لقتالهم.

ولم يتهياً لأعداء اليهود أن يحاربوهم فعولوا على أن يحتالوا على نحميا ليهلكوه غيلة. فاستدعوه لمفاوضتهم في البرية لتسوية الخلاف دون حرب، فاعتذر لهم بأنه أخذ في عمل كبير فلا يتسنى له تركه مخافة أن يُعطّل ورأؤه في ذلك أربع مرات، وهو يجيبهم جواباً واحداً. فارسل إليه سنبط رسالة مع غلامه مفتوحة وقد كتب فيها: « قد سمع في الأمم وجاشم (والي العرب) يقول إنك أنت واليهود مضمرون التمرد، ولذلك أنت تبني السور لتكون ملكاً عليهم وقد أقمت لك انبياء ليتنبأوا لك في أورشليم قائلين إن في يهوذا ملكاً، والآن يسمع هذا الكلام عند الملك فهل الآن لناتمر معاً». فاجابه نحميا ليس كما تزعم وإنما هو كلام أنت تختلقه من قلبك. واستمال أعداؤه إليهم نبياً كاذباً اسمه شمعيأ أخذ يخوفه قائلاً: لنجتمع في بيت الرب ونوصد الأبواب لأنهم آتون ليقتلوك ليلاً. فاجابه نحميا مثلي لا يهرب ولا يدخل الهيكل ليحى، ويعلم إن أعداءه أستأجروه ليقول هذا الكلام وإن كثيرين من أورشليم يرسلون طوييا العموني ويراسلهم لأنه كان تزوج هو وابنه بأمرأتين عبرانيتين فلم يعبأ بشي من ذلك.

وأراد نحميا أن يدشن السور والأبراج والأبواب فدعا الكهنة واللاويين والمغنيين ورؤساء الشعب من كل أنحاء اليهودية. وسير فريقاً منهم عن جنوبي الأسوار وفريقاً عن شماله يستبحون الله بالغناء والصنوج والعيدان والكنارات إلى أن التقى الفريقان في الهيكل، وتلوا بعض فصول التوراة، وقدموا الذبائح والقرايين، وعيدوا عيد المظال بالبهجة والسرور. ووجد نحميا أسوار المدينة فسيحة لا تُملئها المساكن، فالقى قرعة على أن يأتي واحد من عشرة من الشعب ليسكن في أورشليم والتسعة يسكنون المدن والقرى (نحميا من الفصل الأول إلى الفصل السابع).

إنَّ بناء الأسوار وتفرغ الشعب للحراسة والعمل كما مرَّ أنهكا الفقراء منهم واضطر بعضهم أن يبيع عقاره، وبعضهم أن يرهنه، وغيرهم أن يقترض مالا بربا فاحش وآخرون إلى أن يعبدوا بنبيهم وبناتهم ليكسبوا ما يعيشون به، فجمع نحميا الكبراء والأغنياء وعنفهم على ظلمهم الفقراء وحملهم أن يحطوا لهم من دينهم ويردوا عليهم حقولهم وكرومهم، ويقرضوهم دون ربا. وقال مذ أمرت أن أكون قائداً لم أكل خبز القائد (أي لم يأخذ شيئاً من جعله). ولم أثقل على أحد بل كان على مائدتني كل يوم مائة وخمسون رجلاً من اليهود والولاة ما خلا من كانوا يقدمون إلينا من الأمم، فأذعنوا لكلامه وردوا على الفقراء بعض ما كانوا أخذوه. وعكف نحميا على استئصال ما تداخل عند اليهود من العادات السيئة، ومنه الزواج بنساء غريبات من غير أمتهم. وقد مرَّ أنَّ عزرا عني بذلك فيظهر أنَّ بعضهم لم ينبذوا نساءهم الغريبات فاحتاج الأمر عناية نحميا أيضاً وكان أكثر نجاحاً. وعين جعل الكهنة والمغنيين، وشدد بحفظ وصية السبت، ونهى الصوريين وغيرهم من بيع السمك وغيره في أورشليم يوم السبت. وأمر بأقفال أبواب المدينة في ذلك النهار. وحمل كبراء الشعب على تجديد ميثاق الطاعة لوصايا الرب. ووقع على هذا الميثاق هو وكبراء الشعب ووصف نفسه بكلمة ترشاتا وهي فارسية معناها على الأصح حاكم أو وال. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٢ عد ١٣) إنَّ نحميا «أنشأ مكتبة جمع فيها أخبار الملوك والأنبياء وكتابات داود ورسائل الملوك في التقادم» وأقامها في الهيكل. وبعد أن فرغ من هذه المهام عاد إلى أرتحششتا الملك كما وعده، ثم قفل بامرّه إلى أورشليم حيث توفي نحو سنة ٤١٥ ق.م. على الراجح سنداً إلى أنَّ أرتحششتا ملك سنة ٤٦٥ ونحميا أتى أورشليم في السنة العشرين للملكه وهي سنة ٤٤٥ ق.م. وإنه حكم في شعب يهوذا نحواً من ثلاثين سنة.

سفر أستير ومن كانت هي زوجة له

إنَّ مدار كلامنا في أخبار أستير إنما هو على ما تضمنه السفر المنزل المعروف

بسفر أستير وقد أنكر الملحدون تنزيهه، وسموه مثلاً أو حكاية مع أن حسابانه من الأسفار المنزلة ثابت بادلة قاطعة، منها إن العيد المعروف بيومي فوريم (أي القرعة) الذي ذكر في سفر أستير (فصل ٩ عدد ٢٨). قد جاء ذكره في سفر المكابيين الثاني أيضاً (فصل ١٥ عدد ٣٧) مأموراً أن العيد فيه ذكر للأحداث الآتي إيرادها، وأن اليهود كانوا يحتفون به في أيام نكانور في نحو سنة ١٦٠ ق.م. ومنها أن يوسفوس الذي كان في القرن الأول للميلاد ذكر هذا العيد (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٦). واليهود يحتفون به إلى الآن في الثالث عشر من آذار ويصومون اليوم السابق له ويقرأون في مسائه سفر أستير برمته. ومنها مطابقة كل ما جاء في هذا السفر لعادات الفرس في تلك الأيام وآدابهم. ولذلك قضت الكنيسة باحصائه بين الأسفار المنزلة مع الحواشي المذيل بها وإن خلا النص العبراني عنها مع وجودها في الترجمة السبعينية، أما كاتب هذا السفر فغير معروف وعزاه التلمود إلى مجمع اليهود الكبير في تلك الأيام، والقديس أكليمنضوس الاسكندري وغيره إلى مردكاي عم أستير أو ابن عمها وفي الفصل التاسع من هذا السفر (عدد ٢٠) ما يؤيد هذا القول لأنه جاء هناك: «وكتب مردكاي هذه الأمور وبعث برسائل إلى جميع اليهود الذين في جميع أقاليم الملك أحشورش من دأن وقاص». وعلى كل قول يلزم أن يكون الكاتب قد عاش في أيام ملوك الفرس لما يظهر من معرفته بعاداتهم وقرائن أحوالهم ودقائق أمورهم ومن أساليب كلامه المطابقة لأساليب كلامهم في تلك الأيام.

وقد جاء في هذا السفر أن أستير كانت بنت أبيخائيل من سبط بنيامين، وتوفي والدها فرباها عمها أو ابن عمها مردكاي بن يائير، وقبض الله لها أن تكون زوجة لأحشورش ملك الفرس، وذهب بعضهم منهم كلمت في تاريخ العهد القديم وفي معجم الكتاب إلى أن أحشورش هذا هو دارا بن هيستاسب. وذهب آخرون وهم كثيرون إلى أنه أرتخششتا الملقب بذي اليد الطولى، وأقاموا على ذلك أدلة وحججاً منها أن يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٦) صرح بأن الملك الذي تزوج باستير (أنا هو أرتخششتا ذو اليد الطولى) ومنها أن الترجمة السبعينية وحواشي سفر أستير اليونانية سمت أحشورش أرتخششتا. وتوجد قرائن عديدة تثبت أن «أحشورش هذا لا يمكن أن يكون أرتخششتا الملقب بميامون الذي ملك في الفرس بعداً فتعين أن المراد أرتخششتا ذو اليد الطولى؛ ومن هذه الأدلة تعطفات أرتخششتا على اليهود

بتولية نحميا عليهم ومعاونته على بناء أسوار أورشليم إلى غير ذلك مما يشعر بان امرأته كانت يهودية. وقد قال بهذا أكثر العلماء حتى قال كلمت نفسه في آخر كلامه على أحشورش في معجم الكتاب: «يظهر لي أن حجج هذا القول أقوى من حجج القول الآخر ولذلك اعتمد عليه».

عد ٣٦٨

ملخص خبر أستير عن سفرها

قد جاء في هذا السفر أن أحشورش صنع وليمة لعظماء مملكته في السنة الثالثة لملكه استمرت مئة وثمانين يوماً. ثم صنع وليمة أخرى لشعبه في شوشن عاصمة ملكه مدة سبعة أيام في دار حديقة قصره. وادبت الملكة للنساء في قصره وأمر في اليوم السابع أن تأتي وشتي الملكة إلى أمامه بتاج الملك ليرى الشعب والزعماء جمالها، فأبت الملكة أن تأتي فحنق الملك وقال للحكماء العارفين بالسنة ما تفعل بوشتي الملكة وما جزاؤها؟ فقال أحدهم إنها لم تسئ إلى الملك وحده بل إلى جميع الزعماء والشعب لأن خبرها سينتهي إلى جميع النساء فيحتقرن بعولهن، فان حسن عند الله أن يعطي ملكها لمن هي خير منها. وصوب الملك مشورته وأذاع أمراً بأن يكون كل أمرئ رباً على بيته (فصل ١). وطلب غلمان الملك أن يؤتى ببنات أبكار حسان ومن حسنت منهن في عيني الملك كانت بدلاً من وشتي الملكة. فادخل مردكاي أستير، بيت الملك وأوصاها بان لا تخبر أحداً بشعبها وأقربائها. ونالت حظوة عند هيجاي حارس النساء ونقلها والجواري التي أعطيتها من بيت الملك إلى أحسن محل في دار النساء. وكان مردكاي يتمشى كل يوم أمام دار النساء متفقدا سلامة أستير ثم قدمت إلى الملك فأحبها على جميع النساء ووضع التاج على رأسها وجعلها ملكة بدلاً من وشتي. وكان بعد أيام ان مردكاي عرف بخيانة على الملك أضمرها رجلاً من حراس أعتابه ليقتلاه غيلة فأخبر أستير وهي أخبرت الملك بذلك. وتحقق صحته فعلق كليهما على خشبة ودون ذلك في سفر أخباره (فصل ٢).

وكان أرتمششتا عظم رجلاً اسمه هامان ورفع مجلسه فوق جميع الزعماء الذين عنده. وكان جميع الراقفين في باب الملك يسجدون له، إلا مردكاي فلم

يكن يعجثو ويسجد له فحنق عليه هامان. وصغر في عينيه أن يلقي يده عليه وعمل على إهلاك اليهود جميعاً. فتم إلى الملك أن في أقاليم مملكته شعباً منتشراً تخالف سنته سنن الشعوب وسنة الملك فلا يجدر تركهم على ما هم عليه، فيعثون في المملكة. فليكتب الملك في تدميرهم وأنا أزن عشرة آلاف قنطار من الفضة لمن يتولون العمل. فقال له الملك الفضة موهوبة لك ونزع خاتمه من يده ودفعه إلى هامان ليوقع على الأمر الذي يحسن له. فاستدعي كتاب الملك في اليوم الثالث عشر من الشهر الأول، وكتب إلى الأقطاب وولاة الأقاليم ليستأصلوا اليهود رجالاً ونساءً وأطفالاً. فخرج السعاة معجلين بأمر الملك وصدر الحكم في شوشن العاصمة (فصل ٣). ولما علم مردكاي بما كان مرق ثيابه وألقى عليه مسحاً ورماداً، وخرج إلى وسط المدينة وصرخ صراخاً مراً، وجاء إلى أمام باب الملك. وأخبرت أستير جواريتها، فارسلت أحد الخصيان إلى عمها فاخبره مردكاي بما كان، وأرسل إليها نسخة أمر الملك الذي أذيع في شوشن. وأوصاها أن تدخل على الملك وتشفع في أمتها، ولا تخال إنها تنجي في بيت الملك دون اليهود. فارسلت تقول له أن يجمع اليهود ويصوموا ثلاثة أيام لأجلها، وهي تصوم كذلك مع جواريتها فمضى مردكاي وفعل كما أمرت (فصل ٤).

وفي اليوم الثالث لبست أستير ثياب الملك ووقفت في ساحة دار الملك، فرآها ونالت حظوة في عينيه. ومد لها صولجان الذهب فتقدمت ولمسته، وقال لها الملك مالك يا أستير وما بغيتك؟ ولو كان نصف المملكة فتعطي لك. فقالت إن حسن عندك أتيت أنت وهامان إلى مأدبة أعدتها في الغد. فقال الملك بلغوا هامان ليفعل كما قالت أستير. وخرج هامان ذلك المساء من القصر فرحاً طيب القلب لكنه لما رأى مردكاي لم يجث له احتدم غيظاً، وجاء إلى بيته يخبر امرأته وأصدقائه بمجده وبدعوة أستير له وحده إلى مأدبة الملك. وقال كل هذا كلا شيء عندي ما دمت أرى مردكاي جالساً في باب الملك ولا يسجد لي. فقالت زوجته وأصدقائه لتصنع خشبة علوها خمسون ذراعاً وغدا كلم الملك فيعلق مردكاي عليها. فحسن الأمر عنده وصنع الخشبة (فصل ٥). وفي تلك الليلة أرق الملك فامر أن يؤتى بسفر أخبار أيامه فوجد مكتوباً فيه أن مردكاي كشف للملك عن خيانة حارسيه اللذين ارادا قتله. فسأل ما صنع من الكرامة والتعظيم لهذا الرجل، فقال الغلمان لم يصنع له شيء فقال من في الساحة؟ قالوا: هامان! فقد كان جاء ليكلم الملك في تعليق

مردكاي على الخشبة. فامر أن يدخل عليه وقال الملك له: ماذا يُصنع لرجل يرغب الملك في تكريمه؟ وفكر هامان من يرغب الملك في تكريمه أكثر منه فقال: يأتيه بثياب الملك التي يلبسها وبالفرس الذي يركبه ويوضع تاج الملك على رأسه ويطاف به في ساحة المدينة، وينادى أمامه. هكذا صُنع للرجل الذي يرغب الملك في أن يكرمه فقال له الملك اسرع إذاً وخذ الثياب والفرس والتاج واصنع كما قلت لمردكاي ولا تدع كلمة تسقط من كل ما قلت. فارغم هامان أن يصنع كذلك وكبده يفطر كمدأً وحنقاً، ورجع مردكاي إلى باب الملك وهامان إلى بيته حزناً مغطى الرأس. وأخبر زوجته وأصدقائه بما جرى له فقالوا له إن كان مردكاي من نسل اليهود فلن تقوى عليه. وفيما هم يتكلمون جاء خصيان الملك يدعونه لمأدبة أستير (فصل ٦).

وعند شرب الخمر قال الملك لأستير: ما بغيتك ولو نصف المملكة فتعطينه؟ فقالت إن حسن عندك فلتوهب لي نفسي وشعبي لأننا مبيعون جميعاً للقتل والإستئصال. ولو بعنا عبيداً وأماء لسكتُ عن اضطهاد مضطهدنا. فقال الملك متعجباً: من هو وأين ذاك الذي يفكر في هذا؟ قالت: ها هو هامان العدو المضطهد. فقام الملك مغضباً عن شرب الخمر ومضى يتمشى في حديقة القصر، وجثا هامان يتوسل إلى الملكة عن نفسه، ثم عاد الملك فوجده وقد خرَّ على عرش الملكة. فقال أَيْغُضِبُ الملكة أيضاً في داري ولم تخرج الكلمة من فم الملك إلا وغطى الغلمان وجه هامان وسحبوه إلى الخارج. وعلم الملك أنه كان أعدَّ خشبة ليعلق مردكاي عليها. فقال: علقوه عليها. فعلقوه وسكن غضب الملك (فصل ٧).

ووهب الملك بيت هامان لأستير وأخبرته أن مردكاي من ذوي قرابتها، فاستدعاه ونزع الخاتم الذي كان من هامان فاعطاه لمردكاي، وأقامته أستير على بيت هامان، وعادت فخرت عند قدمي الملك، وبكت وتضرعت إليه في إزالة شر هامان عن أمتها. فقال الملك، لها ولمردكاي أكتباً أنتما إلى اليهود وغيرهم ما يحسن لكم، وأختما بخاتم الملك. فكتب كل ما أمر به مردكاي إلى اليهود والأعوان والولاة من الهند إلى كوش (بلاد الحبشة)، ووجه مردكاي الرسائل مع السعاة على الخيل فخرجوا مسرعين بأمر الملك، وأذيع الحكم في شوشن العاصمة. وخرج مردكاي من حضرة الملك، بثوب الملك السمنجوني والأبيض وبتاج نفيس من ذهب وثياب بز وارجوان. وكان لليهود بهجة وسرور وكرامة أينما كانوا أو

حلوا. وصار كثير من أمم الأرض يهوداً لأن خوف اليهود حل عليهم (فصل ٨)، وعظمت مكانتهم واشتدت صولتهم، وكان جميع الأقطاب والأعوان والولاة يساعدون اليهود خوفاً من مردكاي، وقتل اليهود في شوشن وحدها يوم إنفاذ أمر الملك خمس مئة رجل من أعدائهم، وفي اليوم الثاني ثلاث مئة وكان عدد القتلى جميعاً من أعدائهم في سائر أنحاء المملكة خمسة وسبعين ألفاً منهم أبناء هامان العشرة. واستماحت الملكة أن يعلقوهم على خشبات فعلقوهم ولم يمد أحد اليهود إلى غنيمة يداً، بل جعلوا الرابع عشر والخامس عشر من آذار عيداً لنجاتهم يحتفون به كل سنة إلى اليوم، وسموه فوريم أي القرعة، لأن هامان كان ألقى قرعة على إبادتهم (فصل ٩).

وقد علقت في الفصل السادس عشر من سفر أستير نسخة الرسالة التي أذاعها أرخششتا الملك نقضاً لأمره باستئصال اليهود وقد خلا عنها النص العبراني. وإليك ملخصها: «من أرخششتا العظيم المالك كل ما كان من الهند إلى الحبشة إلى القواد والرؤساء في المئة والسبعة والعشرين إقليماً التي في طاعتنا سلام. إن كثيرين يسيئون إتخاذ المجد الممنوح لهم فيتكبرون ويظلمون رعايا الملك بل يتآمرون على الذين منحوهم المجد أيضاً، ويتوهمون أنهم يستطيعون أن يفروا من قضاء الله المطلع على كل شيء، وهذا أمر أنبأنا به التواريخ، ومما يحدث كل يوم أن دسائس البعض تفسد خواطر الملوك الصالحة. ويلزم الملك أن ينظر في جميع الأقاليم وعليه فلا ينبغي أن يظن أننا نأمر بأمور متباينة عن خفة عقل بل ذلك ناشيء عن اختلاف الأزمنة وضرورتها. ولكي تفهموا كلامنا بأوضح بيان فاعلموا أن هامان المكדوني جنساً ومشرباً، والغريب عن دم الفرس قد فضح رحمتنا بقساوته وبعد أن أويناه غريباً، وأحسننا إليه حتى كان يدعى أباً لنا والجميع يسجدون له بلغ من شدة عتوه أن يسلبنا الملك والحياة. وسعى بدسائس لأهلاك مردكاي الذي إنما نحن في الحياة من أمانته وباهلاك قرينة ملكنا أستير وسائر شعبها، وكان في نفسه أن يترصد لنا ويحول مملكة الفرس إلى المكدونيين، ولم نجد نحن ذنباً في اليهود المقضى عليهم بالموت، بل هم بنو الله العلي العظيم الذي باحسنه سلم الملك إلى آبائنا وإلينا، وما برح محفوظاً، وعليه فليكن معلوماً إن الرسائل التي وجهها باسمنا هي باطلة، وبسبب تلك الجريمة علق هو وجميع أنسبائه على خشبات فنال بذلك جزاء ما استحق من قبل الله لا من قبلنا، وليعلن هذا الأمر الذي نحن منفذوه الآن في

جميع المدن ليباح لليهود أن يعملوا بسنهم. وتحصل المعاضدة لهم على أعدائهم وأن يعيد ليوم نجاتهم. وليعلم في ما بعد إن كل من يطيع الفرس بامانة يثاب على أمانته ثواباً وافياً، ومن يرصد للملكهم يهلك بجنايته».

عد ٣٦٩

تتمة أخبار أرتخششتا وخلفائه إلى أيام اسكندر الكبير

إن الملك أرتخششتا أوقد نار الحرب على مصر لعودها إلى ثورتها، فحازبها اليونان. وأرسلوا أسطولاً يخرب في شواطئ البحر المتوسط لإنجاداً للمصريين. وكانت وقائع عديدة انتصر فيها مكاييس والي سورية من قبل أرتخششتا على قائد الأسطول اليوناني. ولكن انتصر اليونان عليه مرات في قبرص فاضطر ملك الفرس أن يطلب الصلح مع اليونان، فوقع على عهده سنة ٤٤٩ ق.م. وكان من شرائطه تخلي أرتخششتا عن جميع المدن اليونانية التي على شاطئ بحر اليونان، ثم عصا عليه مكاييس والي سورية وانتصر على جيوشه. واستقل ملك ليديا عنه واستبد بملكها وكان ذلك مقدمة لتجزئة مملكة الفرس. ولم يشترك اليهود في شيء من هذه الحروب.

وقد توفي أرتخششتا سنة ٤٢٥ ق.م. وخلفه ابنه كيخسرو الثاني، لكنه لم يملك إلا خمسة وأربعين يوماً، وقتله أخوه سوغيدان. ولم يملك هذا أيضاً إلا ستة أشهر وقتله أخ آخر له، وملك مكانه وسمي دارا الثاني. وكثرت الثورات والحروب في أيامه فاستظهر ابنه كورش وقادة جيشه على أعدائه، ومات دارا الثاني الملقب بنوتوس سنة ٤٠٥ ق.م. فتأججت نار الحرب بين ابنه كورش المار ذكره وأرتخششتا الثاني. فقتل كورش سنة ٤٠١ واستتب الملك لأرتخششتا الثاني الملقب بميامون. وقد ثارت عليه مصر يحازبها عليه جيسلاس ملك سبرتا، واستحوذ فاغوراس ملك سلمينا في قبرص على هذه الجزيرة كلها. ونكلت سفائنه بمدن سورية وكيليكية التي على شاطئ البحر. وكان أرتخششتا هذا متقلباً في فنون السياسة فالتقى الفتنة بين اليونان. فاستراح وعاد يحارب فاغوراس في قبرص، وحاصرها ست سنين حتى أرغم فاغوراس أن يعترف بسيادته على الجزيرة. وفرض عليه جزية يؤديها كل سنة، وكان ذلك لسنة ٣٨٠ ق.م. واستعد أرتخششتا لمحاربة مصر وحصن ملكها نكتانبو قلعتها التي على تخوم آسيا، وزحفت عساكر الفرس إليها سنة ٣٧٣ ق.م. وكان

عديدها مئتي ألف رجل عدا المستأجرين والسفائن البحرية، فكسرت عساكر الفرس عند أسوار دمياط وخلعت مصر نير الفرس زماناً طويلاً. وعاش أرتخششتا باقي عمره مسالماً اليونان، ولكن هاجمه المصريون وأنجدهم أجيسلاس ملك سبرتا وكبيراس القائد اليوناني، ولكن اشتد النزاع بين هؤلاء الأعداء حتى اضطر تاهو ملك مصر أن يلجأ إلى أرتخششتا تاركاً عرش مصر إلى نكتانبو الثاني، ثم حاول أن يسترد ملكه بالجناد الفرس له. فكسرت عساكره وقتل هو عند أسوار تانيس سنة ٣٦٠ ق.م. ومات بعده أرتخششتا الثاني بعد أن ثار عليه أبناه.

وخلف أرتخششتا الثاني ابنه أرتخششتا الثالث الملقب باوكوس، واستمر على منصة الملك من سنة ٣٥٩ إلى سنة ٣٣٨ ق.م. وقد أهلك كل ذكر في أسرته ليأمن على نفسه؛ ومن أحداث أيامه أنه ثار عليه ملوك قبرص وإرتاباس والي آسيا الصغرى، وتانيس والي فينيقية. فاستظهر جيشه في قبرص ورد أهلها إلى طاعته، ولكن إنكسرت جنوده في فينيقية وفي آسيا الصغرى فلم يروعه انخزال جنوده، بل حشد من كل أقاليمه ثلاث مئة ألف مقاتل وعززها بعشرة آلاف استأجرهم من اليونان. وحاصر صيدا أولاً حيث كان تانيس والي فينيقية، فطلب أهل صيدا الأمان فانكره ملك الفرس عليهم. وقد مرّ في تاريخ الفينيقيين أنَّ أربعين ألفاً من هؤلاء آثروا الاحتراق في بيوتهم على ذبح الفرس لهم فدخلوا بيوتهم وأضرموا النار فيها فبادوا، واستتب حكم الفرس في سورية زماناً. وفرّ إرتاباس والي آسيا الصغرى إلى مكدونية، وأعد نكتانبو ملك مصر العدد للمدافعة فلم تجده نفعاً لأن جيوش الفرس أفتتحت دمياط ومنف، وأكره نكتانبو أن يفر إلى الحبشة. فعادت تخوم مملكة الفرس ممتدة إلى الحبشة وصحارى إفريقيا.

وحق لأرتخششتا الثالث أن يتفاخر بانه خير خليفة لكورش ودارا الأول، على أنَّ اتساع هذه المملكة وانفساح تخومها كانا داعياً لسقوطها ولو عظمت سطوتها، إذ لا يمكن ضبط مكانها من الهند إلى الحبشة مع تقدم العصر واختلاف سكانها جنسيةً وغرضاً ونزعة. ومات أرتخششتا الثالث مسمماً سنة ٣٣٨ ق.م. بدسائس باغواس كبير وزرائه، وأقام ابنه أرسيس خلفاً له. وحاول أرسيس أن يخلع وزيره، فعامل الوزير عليه وقته، ولم يجسر باغواس أن يتخذ الملك لنفسه فاقام فيه أحد شركائه في جرائمه وهو دارا الثالث الملقب بكودومان، وهو من أحفاد دارا الثاني، وكان ذلك لسنة ٣٣٦ ق.م. التي تبوأ اسكندر الكبير منصة الملك على اليونان. فغير

اسكندر الدردنيل بجيوشه وشتت عساكر دارا الثالث واستحوذ على آسيا الصغرى كلها. وتقاتلت جحافل اليونان والفرس عند إيسوس في خليج اسكندرونه سنة ٣٣٣ ق.م. فاستظهر اسكندر الكبير وقبض على أسرة ملك الفرس. وعاملهم بلطف ورقة ثم مضى بجحافله فخضعت له صور واليهودية وغزة ومصر. وعاد ميمماً الفرس في بلادهم، فكانت وقعة أرباليس (المعروفة بارييل الآن في شرقي نينوى) هي القاضية. ومات دارا الثالث قتيلاً فانقرضت به دولة الفرس سنة ٣٣١ ق.م. وملك اسكندر مصر وسورية وسائر أعمال آسيا إلى الهند. وسنسط الكلام على ذلك في الجزء التالي إن وفق الله.

عد ٣٧٠

حالة اليهود بعد أيام نحميا إلى أيام اسكندر الكبير

إنَّ الأسفار المنزلة لم تنبئنا بشيء من أخبار اليهود في الحقبة التي من يوم موت نحميا إلى حين ولاية اسكندر على اليهودية، وهذه الحقبة هي زهاء مئة سنة والمعلوم من أخبار اليهود فيها أنهم كانوا خاضعين للملك الفرس يدبر شؤونهم عظماء كهنتهم. وكان في هذه المدة أنَّ سنبَلطُ والي السامرة حمل السامريين على بناء هيكلهم في جبل غريزيم، إذ لم يشأ اليهود أن يشاركوهم في بناء هيكل أورشليم. وأنكر هؤلاء أنهم ذرية من جلاهم ملك آشور إلى السامرة وزعموا أنهم من ذرية يوسف وإفرائيم. وقد يكون اختلط بعضهم ببني إسرائيل الذين استمروا في فلسطين بعد الجلاء. وكان كلما ارتكب يهودي جريمة وخاف العقاب لجأ إليهم فقبلوه وأعزوه. وكانوا يجلبون أسفار التوراة التي أتاهم بها بعض الكهنة الذين أرسلهم إليهم ملك آشور لإجلال اليهود لها فكان ذلك بيّنة لصحة هذه الأسفار عند اليهود مأخوذة من أعدائهم.

ويظهر أنه كان عند اليهود بعد نحميا ندوة شيوخ مؤلفة من سبعين شيخاً كما كان في أيام موسى، ومنهم قضاة يجلسون في أورشليم وغيرها يومي الاثنين والخميس في كل أسبوع فيقضون للشعب. وكانت هذه الندوة تحافظ على السنّة وتفسر ما أشكل منها، وكانوا يسمون رئيس هذا المجلس ابتيدين أي أبا المحكمة أو رئيسها، وكان من فروضهم المحافظة على السبوت والأعياد والأصوام. ويظهر أيضاً إنَّ اليهود لم يشتركوا في شيء من حروب ملوك الفرس مع مصر أو مع سورية

وفينيقية، ولم يستنجدهم المصريون في حروبهم مع ملوك فارس، بل كان اليهود ينظرون في ذلك نظر المتفرج الملتزم الحيدودة. روى كل هذا كرتس في تاريخ اليهود. وروى يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٧) وكرتس في المحل المذكور أنَّ باغواس وزير أرتخششتا الثالث المار ذكره قائداً لجيش الفرس في سورية وفينيقية. وكان وقتئذٍ أن مات يوياداع عظيم الكهنة وله ابنان يوحنان البكر ويشوع الأصغر. فدفع يشوع مالا إلى باغواس ليجعله عظيم الكهنة بدلاً من أخيه البكر فوعده بذلك، فتنازعا الرياسة في الهيكل فقتل يوحنان يشوع أخاه فشخص باغواس إلى أورشليم لا لاجراء العدل بل لكسب الدرهم، ففرض على اليهود جزاء على هذه الجريمة أن يدفعوا على كل خروف يقدمونه ذبيحة في الهيكل خمسين درهماً. واضطر الشعب أن يدفع هذه الضريبة سبع سنين.

الفصل الواحد والعشرون

النبوة والانبياء الكبار

عد ٣٧١

تعريف النبي والنبوة وإمكانها ونوعها

النبي من أوحى الله إليه بنوع يفوق الطبيعة شيئاً يريد أن يبلغه إلى الناس. والنبوة تبليغ النبي إلى الناس أمراً أوحاه الله إليه؛ وعليه فتستلزم النبوة امرين، وحي الله وإرساله النبي ليبلاغه، ونرى الله قد صرح بالامرين لارميا إذ قال له: (فصل ١٩٤): «هأنذا قد جعلت كلامي في فمك» فهذا هو الوحي. وقال له (في الفصل المذكور عد ٧): «لكل ما أرسلك إليه تنطلق... هأنذا قد أقمتك اليوم على الأمم» وهذه هي الرسالة. ومن شرط النبوة أن تكون الأحداث المستقبلية المتنبى عليها لا يعلمها الا الله. وقد جاءت كلمة النبي في الأسفار المقدسة متناولة لا من يعلن

أموراً مستقبلية فقط، بل من يعلن إرادات الله أيتها كانت حاضرة أو مستقبلية كمدرسة الانبياء في عهد شاول. والقول عنه إنَّ شاول بين الانبياء أي بين من يذيعون إرادات الله، ويسمى في العبرانية الرائي أيضاً. والنبوة موهبة من الله فائقة الطبيعة، وبهذا تختلف عنه العرافة التي ليست الا شعبة أو تلقيناً شيطانياً أو فراسة بشرية، وهي الاستدلال بالامور الظاهرة على الأمور الخفية، وبالحاضرة على المستقبلية. وتكون النبوة قولية وفعلية، فالقولية تعبير النبي عن إرادة الله بالالفاظ المتعارفة، والفعلية تعبيره عن ذلك بتشابهه ورموز كالتي كان يديها حزقيال.

لا منكر للنبوة من اليهود والنصارى وأكثر الأمم، ولكن أنكر العقليون وجود نبوة حقيقية أي إichاء الله إلى الناس أموراً مستقبلية بنوع فائق الطبيعة. فيفترون بوجود أسفار نبوية في العهد القديم، لكنهم يعززون ما حواه بعضها إلى فراسة رجال أذكيا في إسرائيل عرفوا أن يستدلوا بالامور الحاضرة على امور مستقبلية، وإذا تعذر عليهم تخريج بعضها الآخر مثل هذا المخرج لجأوا إلى إنكار صحة هذه الأسفار زاعمين أنها كتبت بعد الأحداث المنبئة بها لا قبلها، لأن النبوة غير ممكنة. على أن تنفيذ زعمهم هذا سهل ويكفيه مؤنة البرهان أن الله يعلم المستقبلات، وقدير أن ينبي بها من اراد ومتى أراد، وليس لعلم الله وقدرته من نكير الا من يجحد وجود الله عزَّ وعلا، أو كان من الدهريين. وتلك حقيقة أجمعت القبائل عليها في كل عصر وكل مكان، ونزيد على هذا البرهان القاطع براهين أخرى. الأول إنَّ العقليين أنفسهم لم ينكروا أن بعض الأنبياء تنبأوا بامور مستقبلية وإن نسبوا ذلك إلى فراستهم وذكائهم. فقد أقرّوا مثلاً أن نبوة ميخا صحيحة وهو قد تنبأ بالجللاء إلى بابل. فهل نرى هل كان له أن يتصل بفراسته إلى العلم بهذا الجللاء؟ فهو تنبأ به قبل مئة وخمسين سنة من حدوثه، وفي زمان لم يكن فيه أقل عداوة بين البابليين واليهود، بل لم تكن بابل نفسها وقتئذٍ مستقلة. فمن أين للفراسة البشرية أن تتصل إلى العلم بهذا الجللاء وتنبأ به.

الثاني إنَّ كل الانبياء حتى أقدمهم تنبأوا بخراب أورشليم والهيكل وبالجللاء، ولم تكن نبواتهم شائعة أو ملتبسة بل صريحة واضحة. وكان الأعداء الألداء وقتئذٍ لليهود الآشوريين، ومع ذلك لم يتنبأوا أن هؤلاء الآشوريين يخربون أورشليم والهيكل، ويجلون اليهود، بل تنبأوا أن الكلدانيين إنما هم من يكونون آلة انتقام الله من اليهود، وإنَّ من يخلصهم لا يكون المصريين الذين كانوا عندئذٍ يعتمدون عليهم

بل الله، فكيف كانت الفراسة البشرية تستطيع أن تتصل إلى العلم بهذه الأمور المخالفة لكل ظواهر الحال في أيام الانبياء، ومع ذلك فقد تم فعلاً ما تنبأوا به. الثالث إنَّ ملك بختنصر كان في ذرى مجده وسؤدده لما أنبأ أرميا بانحطاطه وانقراضه، لا بكلام عام شامل بل بالفاظ صريحة مفصلة مبينة أنَّ بابل يفتتحها الماديون وحلفاؤهم. ويدخلون إليها مجففين مجرى الفرات في ليلة عيد وأهلها سكارى، ويتملص اليهود حيثئذ من جلائهم فبأية فراسة بشرية استطاع يهودي مقيم في أورشليم أن يبلغ إلى العلم بهذه الأمور وقرائنها الدقيقة قبل وقوعها بزمان مدید لعمر الحق؟ إن ذلك الا وحي من الله. الرابع إنَّ الانبياء عمّموا نبواتهم فتنبأوا على خراب نينوى وبابل وصور ومنف، وعلى انقراض العمونيين والموآبيين، والفلسطينيين والأدوميين. فتمت نبواتهم على كل هذه المدن وجميع هؤلاء الشعوب. فأى عاقل يتدبر الأمور ويعزوها إلى الفراسة أو إلى المصادفة والاتفاق ويتعمى عن وحي الله فيها؟ الخامس إنَّ زكريا قد تنبأ (فصل ٩ عدد ١ وما يليه) على ملك اسكندر الكبير وإنه يفتتح حدراك ودمشق وحماة. وإنَّ صور تحرق وتلقى أسوارها في البحر. وإنَّ غزة يهلك ملكها. واشقلون (عسقلان) لا تُسكن وإنَّ أورشليم تكون حيثئذ مطمئنة لا يقلقها شيء. وقد دهش أيعخرون أحد زعماء العقليين بسطوع حقيقة هذه النبوة، فلم يجد مفرّاً منها الا بزعمه المحال إنَّ هذا خبر تاريخي مغشى بهيئة نبوة. وما ذلك الا اقرار على رغم أنفه بصحة هذه النبوة. وأضف إلى ما مرَّ ما جاء في أسفار الانبياء وغيرها من النبوات على المسيح المفصلة كل أيام حياته من مولده في بيت لحم إلى موته على الصليب، وقد تمت جميعها. فإذا وجود النبوات امر ثابت ثبوتاً تاريخياً علمياً أيضاً منزهاً عن كل ريبة ومفحماً كل ملحد؛ وما النبوات إلّا شهادة الله إذ يستحيل على غيره الاتيان بها حقيقة. فإذا الدين المثبت بالنبوات هو الدين الحق.

وقد أوحى الله إلى أنبيائه بثلاث طرق الكلام والرؤيا والحلم. وقد افتتحت نبوات أرميا بقوله كلام أرميا بن حلقيا... الذي كانت إليه كلمة الرب في أيام يوشيا (أرميا فصل ١ عدد ٢)، ومثل ذلك نبوتا هوشع ويوئيل. والمراد بكلام الرب لا الألفاظ المسموعة بالاذان بل ألفاظ يشعر النبي في قلبه. وأوحى إلى بعضهم بالرؤيا ففرى نبوة أشعيا مفتتحة بقوله رؤيا أشعيا بن أموص؛ ومثل ذلك في رؤيا حزقيال. واختلف المفسرون في ما إذا كان الله يصور تلك الرؤيا لأعين النبي. فيراها بنوع محسوس وطبيعي أو يوجد في مخيلته صوراً لا حقيقة خارجية لها. فقال القديس

إيرونييموس عند كلامه في رؤية حزقيال العظام اليابسة، إنَّ الله أخذه بالروح لا بالجسد، بل خارجاً عن الجسد. فالصحيح القول الثاني أي إنَّ الله كان يوجد في مخيلة الانبياء صور ما يريهم إياه، ويظهر إنَّ هذا هو القول الأعم. وقد يحتمل أن لا يصح في كل الرؤى مثلاً ظهور جبرائيل لدانيال لم يكن مصوراً في مخيلته فقط، بل ظهر لعينيه (دانيال ٨ و ١٦). وفي كل حال لم تكن تلك الرؤيا وهمية بل كان الله يصورها حقيقة لمخيلة الانبياء. وقد أوحى الله إلى أنبيائه نادراً بالحلم، وهذا النوع يختلف عن النوع السابق في إنَّ الرؤيا كانت تحصل للنبي وهو مستيقظ، والحلم يحصل له وهو راقد. وكان الرب يستخدم في الرؤيا والحلم طرائق يألفها النبي. فترى رؤى أشعيا وأرميا بطريقة يألفها أهل فلسطين لأنهما كانا فيها. وترى رؤى حزقيال ودانيال بطريقة يألفها الكلدان لأنهما كانا في بلادهم.

عد ٣٧٢

الانبياء إجمالاً

لما كانت النبوات إحياء الله إلى الناس امرأ مستقبلاً كان الانبياء بهذا المعنى كثيرين. فقد أوحى الله إلى آدم شيئاً من تخليص الناس خاصة إذ قال للحية: وأجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وأنت ترصدين عقبه (تكوين ص ٣ عد ١٥). وأوحى إلى نوح إذ قال: «تبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً له ليرحب الله ليافت ليسكن في أخبية سام ويكون كنعان عبداً له (تكوين ص ٩ عد ٢٦). وقد أثبت الآباء والمفسرون إنَّ في هذه الآية نبوة على أن المسيح يأتي من نسل سام. وأوحى إلى ابراهيم إذ وعده بأن يكون أباً لأمة كبيرة ويباركه. ويعظم اسمه وتبارك به جميع عشائر الأرض (تكوين ١٢ عد ٣ و ٢٣). وإذ وعده بأن يكثر نسله كثراب الأرض (تكوين ١٣ عد ١٦). وأوحى إلى اسحق إذ جدد له الوعد بقوله وأكثر نسلك كنجوم السما وتبارك في نسلك جميع أمم الأرض (تكوين ٢٦ عد ٤). وأوحى إلى يعقوب إذ تنبأ على ابنه قائلاً: «لا يزول صولجان من يهوذا ومشرع من صلبه حتى يأتي شيلو (أي المرسل المراد به المسيح) وتطيعه الشعوب» (تكوين ٤٩ عد ١٠). وأوحى إلى موسى إذ تنبأ قائلاً: «يقيم لكم الرب إلهكم نبياً من بينكم من إخوانكم مثلي له تسمعون (تثنية الاشتراع ف ١٨ عد ١٥). وأوحى أموراً كثيرة إلى صموئيل وإيليا وإليشاع ولا سيما داود إذ

أوحى إليه في زبوره نبواته الكثيرة الصريحة على المسيح إلى غير هؤلاء. وقد عدّهم إكليمنضوس الاسكندري خمسة وثلاثين نبياً بعد موسى وخمسة قبله، وخمس نبيات. وعد أيفانيوس ثلاثة وسبعين نبياً في العهدين القديم والجديد وعشر نبيات. واليهود يعدون في كتابهم الموسوم بالجملة ثمانية وأربعون نبياً وسبع نبيات. وهنّ مريم أخت موسى ودبوره وحنة أم صموئيل وأيغال وحلدة (كانت في أيام يوشيا). وأستير والقوابل اللاتي لم يقتلن أبكار اليهود في مصر.

على أنّ الانبياء الذين لهم أسفار نبوات ستة عشر نبياً، أربعة منهم يسمون الكبار وهم: أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال، وإثنا عشر منهم يسمون الانبياء الصغار، وهم هوشع ويوثيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا ونحوم وحقوق وصفنيا وحجاي وزكريا ومليخا. ويمكن أن يضاف إليهم باروك المثبتة نبوته بعد نبوة أرميا لأنه كان كاتبه. وقد سمى الأربعة الأولون كباراً مراعاة لطول أسفار نبواتهم والأثنا عشر الآخرون صغاراً مراعاة لوجازة نبواتهم. وقدمت وضعاً في الأسفار المقدسة نبوات الانبياء الكبار على نبوات غيرهم لا لتقدمها زماناً بل لطول أسفارهم. ووجازة أسفار الانبياء الصغار وهاك جدولاً يتبين منه زمان كل من الانبياء وسني نبوتهم تقريباً واسماء الملوك الذين تنبأوا في أيامهم ومن تنبأوا عليهم:

أسماء الانبياء سنة نبوتهم تقريباً اسماء الملوك الذين تنبأوا في أيامهم على من تنبأوا

اسماء الانبياء	سنة نبوته تقريباً	اسماء الملوك الذين تنبأوا في أيامهم	على من تنبأوا
عوبديا	٨٨٩ إلى ٨٨٤	يورام؟	على الأدوميين
يوثيل	٨٧٨ إلى ٨٣٨	يواش؟	على يهوذا
يونان	٨٢٥ إلى ٧٨٤	يربعام الثاني	على نينوى
عاموس	٨٠٩ إلى ٧٨٤	يربعام الثاني وعوزيا	على إسرائيل
هوشع	٧٩٠ إلى ٧٢٥	يربعام الثاني وعوزيا	
		ويواتام واحاز وحزقيا	على إسرائيل
ميخا	٧٥٨ إلى ٧١٠	يواتام واحاز وحزقيا	على يهوذا وإسرائيل

أشعيا	٧٥٩ إلى ٦٩٩	عوزيا ويواتام وحزقيا ومنسا	على كل الشعوب المعروفين من إسرائيل
نحوم	٦٦٥	منسا	على نينوى
صفنيا	٦٢٨ إلى ٦٢٣	يوشيا	على يهوذا ومن جاوره من الشعوب
حبقوق	٦٠٩ إلى ٦٠٦	يويكين؟	على الكلدان
أرميا	٦٢٥ إلى ٥٨٨	يوشيا ويويكين يوخانيا	على يهوذا والشعوب المجاورين ومصر وبابل
باروك	٥٨٣	صدقيا	إرشاد للمجولين في بابل
حزقيال	٥٩٥ إلى ٥٧٣	يوخانيا والجللاء	على يهوذا والمجاورين
دانيال	٦٠٤ إلى ٥٣٤	يوخانيا وبختنصر وبلتصر ودارا	على الممالك الكبيرة والاصلاح المادي وقورش
حجاي	٥٢٠	دارا بن هستاب	وعود ليهوذا
زكريا منذ	٥٢٠	دارا بن هستاب	على مستقبل أورشليم الحسن
ملخيا	٤٣٣ إلى ٤٣٣	أرتخششتا ذي اليد الطولى	على إحسان الله إلى شعبه

انتهى مأخوذاً عن الموجز الكتابي لفيكورو في الانبياء.

عد ٣٧٣

أشعيا النبي

أشعيا كلمة عبرانية تأويلها الله يخلص، وقد كان هذا النبي ابن أموص ولم يميز بعض القدماء بين أموص أبي أشعيا وعاموس النبي. فوهموا أنَّ أشعيا بن عاموس النبي. وقد قال القديس أيرونيμος (في تفسير نبوة عاموس): «لأنَّ عاموس النبي لم يكن أباً أشعيا النبي لأنَّ أموص أباً النبي يكتب بالألف والصاد وتأويله القوي؛ وأما النبي فيكتب اسمه بالعين والسين، وتأويله الشعب المنتزع والميم والواو في كليهما». وجاء في تقليدات الربيين (أو الربانيين) أنَّ أشعيا كان ابن أخي الملك أمصيا، وأصله من سبط يهوذا وتزوج امرأة يسميها نبية ورزق منها: ابنان سكريابوس وتأويله البقية

تعود أي البقية من ابناء الجلاء والآخر شسباس وتأويله اسرعوا في التدمير. إشارة إلى خراب مملكتي إسرائيل وسورية (عن موجز تراجم القديسين في أشعيا). وكان مسكن النبي أورشليم، وقضى حياته في هذه العاصمة مشاهداً للتقلبات السياسية والدينية. ولم يكن في قرية حقيرة كما كان ميخا معاصره، ولا مطوفاً في فلسطين كما كان إيليا واليشاع. وهو أول نبي كان في المدينة المقدسة، وتوصل إلينا ما كتبه. وقد تنبأ في أيام الملوك عوزيا ويواتام واحاز وحزقيا كما جاء في نبوته (فصل ١٤١). وأولى رواه كانت في سنة موت عوزيا، وهي سنة ٧٥٨ ق.م كما في نبوته (ف ١٤٦). وآخر نبوة نعرف تاريخها من نبوآته كانت في السنة الرابعة عشرة للملك حزقيا، وهي سنة ٨١٢ ق.م. ويظن أنه بقي في الحياة إلى زمان منسا الملك الذي أماته منشوراً. وذهب بعضهم إلى أن المعني بقول بولس الرسول (إلى العبرانيين ١١ عدد ٣٧) وبعضهم نشروا) إنما هو أشعيا النبي. ويؤيد هذا القول التقليد القديم عند اليهود، وقد قال به كثيرون من آباء الكنيسة وعدا نبواته قد كتب سني عوزيا الملك كما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٦ عدد ٢٢). وبقية أخبار عوزيا الأولى والأخيرة كتبها أشعيا بن أموص النبي «فلم تبق الأيام لنا عليها.

وقلما ذكر الكتاب أشعيا في الست عشرة سنة مدة ملك يواتام، أي من سنة ٧٥٨ إلى سنة ٧٤٢ ق.م. ولم يكن في هذه الحقبة نبي آخر ولما في مدة أحاز الملك أي من سنة ٧٤٢ إلى سنة ٧٢٧ ق.م. فقد أبدى هذا النبي أموراً مهمة لما كان رصين ملك سورية وفاقح ملك إسرائيل يتهددان أورشليم، فإنه ساعد كثيراً على أحباط مساعيها كما جاء في نبوته (ف ٧). وأهم ما صرف إليه عنايته النبوية إنما كان في أيام حزقيا من سنة ٧٢٧ إلى ٦٩٨ ق.م. وزعم بعضهم أن هذا النبي كان مريباً للملك حزقيا كما كان ناتان مريباً لسليمان. ولكن لم يؤيد هذا الرأي ذروه بحجة. والمؤكد أنه كان صديقه ومستشاره وقد شجعه في مدة مرضه كما في نبوته (ف ٢٨)، وكما في سفر الملوك الرابع (ف ٢٠ عدد ١ إلى ١١). ووثق عرى ثقته بالله عند حملة سنحاريب على أورشليم كما في نبوته (ف ٣٦ و ٣٧)، وفي سفر الملوك الرابع (ف ١٨ و ١٩). وقد أسمع ابنه أحاز كلاماً قاسياً من قبل الله لما أرى وفود ملك بابل خزائن أورشليم على ما في نبوته (فصل ٣٩)، وفي سفر الملوك الرابع (ف ٢٠ عدد ١٢ وما يليه). ومن بعد هذه الأحداث لا نرى ذكراً لأشعيا في الأمور السياسية. ومن التقليدات إنَّ مدفن هذا النبي كان في بانياس في بلاد

باسان. وقد نقلت ذخائره من هناك إلى القسطنطينية سنة ٤٤٢م على عهد الملك ثاودوسيوس الثاني على ما روى بارونيوس في السنكسارى الروماني في ٦ تموز. وعليه فيظن أنَّ أشعيا فرَّ إلى باسان خوفاً من اضطهاد منسا الملك له، على أنَّ ابتعاده لم يبعد عنه جور هذا الملك إذ أرسل فقتله هناك. ولا يعلم تاريخ موته فقال بعض المفسرين إنه كان سنة ٦٩٠ ق.م. وإذا فرضنا إنه كان عمره عند دعوته إلى النبوة خمس عشرة سنة فيكون عمره عند موت حزقيا ستاً وسبعين سنة، وعند قتله أربعاً وثمانين سنة. ويعيد له في كنيسة المارونية ٩ أيار بمنزلة شهيد قتله منسا الملك منشوراً. إنَّ لأشعيا في الأسفار المقدسة المقام الأول لا من قبل تقدمه زماناً لأن يوثيل ويونان وعاموس وهوشع كانوا قبله، بل بحق استيهاله أن يكون أعظم من جميع الانبياء لكثرة الأوحية التي كانت إليه، وأهميتها، وسمو كلامه مع زيادة وضوحه وفصاحته. فهو النبي العظيم كما إنَّ بولس هو الرسول العظيم. وقال فيه الروح القدس في سفر ابن سيراخ (فصل ٤٨ عدد ٢٥): «أشعيا النبي العظيم الصادق في رؤياه... بروح عظيم رأى العواقب وعزَّى النائحين في صهيون. كشف عما سيكون على مدى الدهور وعن الخفايا قبل حدوثها». وقال فيه مار ابرونيموس (في مقدمته على سفر أشعيا): «لا يلزم أن يسمى نبياً بل انجيلياً فقد أبان أسرار كنيسة المسيح جميعها جلياً حتى لا تحسبه يتنبأ بأمور مستقبلية بل يؤرخ أموراً ماضية». أما سفر نبوته فينطوي على نبوات فاه بها في أزمنة وأحوال مختلفة، وقد اعتاد المفسرون أن يقسموا نبوته إلى قسمين: أولها تشتمل عليه التسعة والثلاثون فصلاً الأولى، وهو يتضمن نبواته في أوقات عديدة وعلى أمور مختلفة على عهد الملوك عوزيا ويواتام وأحاز وحزقيا، وثانيها تشتمل عليه الفصول من ٤٠ إلى ٦٦ وهو يتضمن نبوات عن مخلص إسرائيل وملتحم بالقسم الأول. ونبواته في القسمين منسوبة بحسب الزمان غالباً. فإن ماهية المواد التي تنبأ عليها أخرجه أحياناً عن هذا النسق. ومن نبواته الواضحة عن المخلص قوله (ف٧ عدد ١) ها إنَّ العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل «المتروك» كما في الأنجيل الهنا معنا والعذراء بكلامه في العبرانية علماً وقد وردت هذه اللفظة في الأسفار المقدسة سبع مرات. وفي كلها لا يحتمل المقام تفسيرها إلا بعذراء غير مزوجة. وقد وجد في الحجابي القديمة التي عند كنيسة القديسة بريشلا في رومية صورة العذراء والطفل يسوع بين يديها وأشعيا واقفاً بجانبها يشير إليها وإلى الطفل كأنه يقول: هذه هي العذراء التي قلت إنها

تَحْبِل وتلد الخ وهذا هو عمانوئيل الخ وإليك مثلاً لهذه الصورة.



عد ٣٧٤

أرميا

ما من نبي كأرميا يظهر لنا مما كتبه تاريخ حياته وأعماله وآراءه مما عاناه. فقد ولد في عناتوت المعروفة الآن بعيناتا وهي قرية حقيرة على ساعة ونصف عن أورشليم شمالاً. واسم أبيه حلقيا وظن القديس ايرونيμος وكثيرون من المفسرين أنَّ حلقيا هذا هو عظيم الكهنة الذي عاون يوشيا على الإصلاح الديني في يهوذا. والصحيح أنه حلقيا آخر لأن عظيم الكهنة كان من آل اليعاذر، وكهنة عناتوت كانوا من آل إيتامر. وكان أرميا يتردد في صبوته إلى أورشليم لقربها من قريته، ويشتمز من أخبار عبادة الأوثان ومساوئ منسا ملك يهوذا. وقد شب على محبة السنة واحترام التقاليدات الموسوية. وكان مولعاً بمطالعة الأسفار المقدسة ونبوات من

تقدمه من الانبياء لا سيما أشعيا، وميخا، فان في سفر نبواته كثيراً من الاستعانة بكلامهما وانتحال ألفاظها نفسها أحياناً. وكان له في شبابه إخاء مع نيريا بن نعيسا والي اورشليم حينئذ (سفر الأيام الثاني فصل ٣٤ عدد ٢). وكان معاوناً لحلقيا وشافان بن أصليا في الإصلاح الذي أجراه يوشيا. ثم تتلمذ له باروك وسرايا أبناء نيريا المذكور كما هو بين من نبوته (فصل ٣٦ عدد ٥١ وف ٥٩). وكان أرميا ورعاً دمث الأخلاق لين العريكة لكنه كان مضطرباً بالغيرة على سنة الله وخير قبيلته. ولم يكن بطبعه محباً للخصام بل كان يؤثر الفرار من المخاطر على اقتحامها، ويفضل العزلة على مخالطة الناس. وكثيراً ما تتولاه الكتابة على أنه إذا أراد إبلاغ أوامر الله إلى الشعب تحول طبعه واشتدت عزيمته حتى لا يروعه تهديد ولا إهانة ولا سجن ولا عذاب، ولا خشية ملوك ولا مهابة شعب، فيصدق عليه ما قاله الله له. (كما في نبوته ف١٨ عدد ١٨): «هأنذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعموداً من حديد وأسواراً من نحاس، على كل الأرض على ملوك يهوذا ورؤسائه وكهنته وشعب الأرض».

قد دعاه الله للنبوة في السنة الثالثة عشرة لملك يوشيا نحو ٦٢٨ قبل المسيح كما يظهر من نبوته (ف١ عدد ٢)، وكان عمره حينئذ من ثماني عشرة إلى عشرين سنة كما يؤخذ من كلامه (ف١ عدد ٦ وف ١٦ و٢). ويظهر أنه ترك بعيد ذلك عناتوت وصرف أكثر حياته في اورشليم لكنه استمر مدة ما يرى من نفسه الغفلة إذ لا نجد له ذكراً في الإصلاح الديني الذي أجراه يوشيا في السنة الثامنة عشرة من ملكه أي بعد خمس سنين من دعوة أرميا إلى النبوة فلا ذكر في تلك الأيام إلا لحلدة النبية. وكان الملك وحاشيته يلتهمون رأيها ولا نراه تعاطى أمراً مهماً في الثمانية عشرة سنة منذ دعوته إلى موت يوشيا. بل أنبأنا عن نفسه إنه كان معتزلاً متنسكاً حافظاً عفافه إذ قال (ف١٦ عدد ٢ وما يليه): «وكانت إليّ كلمة الرب قائلاً: لا تتخذ لك امرأة ولا يكون لك بنون ولا بنات في هذا الموضع... لا تدخل بيت الصباح ولا تنطلق إليه للندب ولا تعزهم... ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب». ويظهر إنه مدّ يداً إلى الأمور السياسية في آخر ملك يوشيا، وكان اليهود في مملكة يهوذا حزينين، يؤثر أحدهما المصريين، والآخر الكلدان. فبعد سقوط بينوى أخذ أشياع ملك مصر يغرون ملكهم بالمخالفة لفرعون نكو وكان أرميا يندد بهذه السياسة البشرية، ويحض على الاتكال على الله كما يظهر من قوله

(فصل ٢ عدد ١٨): «والآن مالك وطريق مصر لتشربي مياه شبحور؟ ومالك وطريق آشور لتشربي مياه النهر؟»

ويظهر أن يوشيا عول على رأي النبي فلم يحالف نكو بل اعترض مرور عسكره في اليهودية ليحارب الكلدان. فقتل في وقعة مع المصريين في مجدو، (اللجون) فكان ذلك فاتحة أحزان أرميا. وأخذ يرثي يوشيا كما في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عدد ٢٥). وخلف يوشيا يواحاز المسمى شلوم رابع ابنائه سنة ٦٠٩ ق.م. ولم يملك إلا ثلاثة أشهر وعزله نكو لأنه لم يكن من أنصاره، ولا ذكر له في نبوة أرميا إلا قوله فيه (ف ٢٢ عدد ١١ و ١٢): «هكذا تكلم الرب على شلوم بن يوشيا ملك يهوذا الذي ملك مكان يوشيا أبيه، وخرج من هذا الموضع إنه لا يرجع إلى هاهنا من بعد بل في الموضع الذي أجلي إليه هناك يموت ولا يرى هذه الأرض من بعد». ولما أسر نكو شلوم أقام مكانه يوياقيم سنة ٦٠٩ ق.م. فأخذ أرميا ينذر بني يهوذا وملكهم مبيّناً أن المصريين لا يقوون على دفع حملة بختنصر على أورشليم (كما في ف ١٨ و ١٩ و ٢٠ من نبوته). فقبض عليه الكهنة والانبياة وكل الشعب وقالوا لتموتن موتاً لنبوتك على خراب أورشليم. ولم ينجيه من الموت إلا واسطة رؤساء يهوذا (كما في نبوته ف ٢٦)، وبعد نحو أربع سنين مضى نكو يحارب الكلدانيين فاستظهروا عليه في كركميش (فصل ٢٦ عدد ٢). وقلّ أشياع مصر في يهوذا، وأخذت نبوات أرميا تتم. فان جنود بابل غشوا فلسطين يطاردون المصريين. فهرب كل من لم يكونوا في مدن محصنة يستعصون بأسوار أورشليم. فانتهاز النبي هذه الفرصة وأذاع بواسطة تلميذه باروك نبواته التي كان جمعها في درج. فعظم الهياج عليه واضطر أرميا وتلميذه أن يختبئا. وأحرق يوياقيم الدرج الذي كان منظوياً على هذه النبوات (ف ٣٦)، فاضطر أرميا أن يملي نبواته ثانية على باروك. وأوحى الله إليه جلاء بابل وإنه سيكون مدة سبعين سنة (ف ٢٥ عدد ١٢)، وما تنبأ به على يوياقيم لم يلبث أن حلّ به، فإن بختنصر حاصر أورشليم وافتتحها وأسر بعضاً من اليهود. وكان بينهم دانيال ورفقاؤه سنة ٦٠٦ ق.م. ومن الجلاء تبتدى مدة السبعين سنة. ثم عصي يوياقيم على بختنصر فهبّ لحصار أورشليم ثانية. فمات يوياقيم عند بدء الحصار على الأظهر فتمت بيوياقيم نبوات أرميا (ف ٢٢ عدد ١٩ وف ٣٦ عدد ٣٠) وكان ذلك لسنة ٥٩٨ ق.م. وخالف يوياقيم ابنه ولكنه لم يملك إلا ثلاثة أشهر. وأنذره أرميا

(ف ٢٢ عدد ٢٤ إلى ٣٠) بما يحل به من سوء ووقوعه في يد بختنصر فتمت به نبوات النبي بعد زمان وجيز لأنه أخذ أسيراً إلى بلاد الكلدان مع وجوه أمته. وكان بينهم حزقيال النبي (ملوك رابع ف ٢٤ عدد ١٠). وأما أرميا فاستمر في أورشليم، وأقام بختنصر صدقيا عم يوياكين ملكاً على اليهود. وكان صدقيا يحب أرميا ويستشيريه أحياناً (ف ٣٧ عدد ٣) لكنه كان واهن العزيمة وملكه قلقاً فلم يتسنَّ له أن يعزز النبي، ولم يكن باقياً في فلسطين إلا سفلة الشعب. وكان أرميا يتنبأ عليهم بأن الله يجعلهم عاراً ومثلاً وأحدوثاً في جميع المواضع التي يدرهم إليها ويعيد المجلّون إلى أرضهم ليكونوا للرب شعباً (فصل ٢٤). وكان نجاح خفرع ملك مصر خدع سكان أورشليم ثانية بالتشيع له. وقد زينت لصدقيا نفسه الثورة على الكلدان. فكان أرميا يناصبهم بأمر الله كما في (ف ٢٦ و ٢٨). وزحف بختنصر حينئذٍ إلى فلسطين وجلا بني إسرائيل عنها وحفت المخاطر بالنبي وهم أن يمضي فيختفي في عنانوت فكشف أمره وحسب خائناً وألقي في السجن (ف ٣٧). وكان كتب إلى الشيوخ والكهنة والشعب الذين في الجلاء في بابل (فصل ٢٩) فلم يكن من الانبياء الكذبة الذين في الجلاء إلا أن كتبوا للكهنة الباقين في أورشليم أن يضايقوا النبي ويضطهدوه. فألقوا في بئر ملكيا ولو لم ينقذه عبد ملك الكوشي أحد خصيان الملك كما في (فصل ٢٨) لهلك فيها إلا أنه بقي سجيناً، وكان صدقيا يستشيريه سراً. فقال له أرميا إنه لا يفلت من أيدي الكلدان (فصل ٣٨ عدد ١٨). وعاد الكلدانيون بعد زمن وجيز يحاصرون أورشليم فافتتحوها وخربوها وأحرقوا الهيكل. واقتيد الملك أسيراً سنة ٥٨٨ ق.م. وأوصى بختنصر بارميا فاطلق من سجنه، وخيّر بين أن يمضي إلى بابل أو يمكث في اليهودية. فاقام أولاً في خرابات المدينة المقدسة ثم اعتزل في المصفاة (شعفات في شمالي أورشليم). وكتب مراثيه البديعة والدخان ينبعث من أنقاض أورشليم في المغارة التي يسميها التقليد إلى الآن مغارة أرميا.

وأقام بختنصر جدليا بن أحيقام والياً على اليهودية، وكان يحب أرميا فاستراح من بقي من بني إسرائيل في اليهودية مدة ما (فصل ٤٠) على أن جدليا قتله اسماعيل بن نتنيا من النسل الملكي وعشرة رجال محالفون له. وخاف الشعب أن يكون مقتل الوالي مصيبة أخرى على الأمة فاستشاروا النبي فيما يصنعون فأشار عليهم أن يتربصوا في اليهودية آمنين (فصل ٢٤). فلم يسمعوا بل صمموا على

الهرب إلى مصر وأكرهوا النبي وباروك على المسير معهم (فصل ٤٣). وحلوا في تحفيس المعروفة اليوم بدفنه في مصر السفلى، وأخذ النبي يؤنبهم ويسلقهم بأوار كلامه، ويذكرهم بما صنعوا وأبأؤهم من المخالفة لسنة الله. ويتنبأ على أن يختنصر ينصب عرشه حيث يتكلم في هذه المدينة التي استعصموا فيها. ويسمى هذا الملك عبدالله (فصل ٤٤ طالع عدد ٣٣٩ وعد ٣٤١). وبعد هذا البلاغ النبوي لا علم لنا بما كان لآرميا.

والتقليد المسيحي الذي ذكره كثيرون منهم ترتوليانوس (في كتابه ضد الأمم ك٨) واييفانيوس (في تراجم الانبياء) وإيرونيμος (في كتابه ضد بوفيانوس فصل ٣٧) أن آرميا رجمه اليهود مستشيطين عليه لتوبيه لهم. وقد عظمه اليهود بعد وفاته أكثر مما أذلوه في حياته. وكانوا من بعد الجلاء إلى مجيء المخلص يفضلونه على أشعيا. ويعيد له في كنيسة المارونية في ١٠ أيار بمنزلة شهيد رجمه اليهود. وأما نبؤاته فقد نسقها بحسب مواضيعها لا بحسب أوقات اتيانها بها وقد قسمها إلى مقدمة وأربعة أقسام وخاتمة. ذكر في المقدمة دعوة الله له إلى النبوة، وفي القسم الأول من الفصل الثاني إلى الفصل السابع عشر رذل الله لبني إسرائيل والحكم عليهم، وفي القسم الثاني في الفصل الثامن عشر والتاسع عشر إثبات هذا الرذل، وفي القسم الثالث من الفصل العشرين إلى الخامس والعشرين تنفيذ هذا الحكم. والقسم الرابع من فصل ٢٦ إلى فصل ٥١ ضمنه نبؤاته على الشعوب الأجانب. وضمن الخاتمة في الفصل الثاني والخمسين خلاصة تاريخية للملك يهوذا الآخرين.

أما مرثي آرميا فهي قصائد رثاء في العبرانية لم ينسج شاعر على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها، ولا أشد وقعاً في القلوب لصدورها عن قلب كواه أوار الغم وعن مخيلة ألبيها وطيس الغيرة والحنان. يندب بها أورشلين ويتفجع لخرابها ودمار الهيكل وتشتيت ابنائها. وقد قسمها النبي إلى أربع مرث وضمن القصيدة الخامسة صلاة وابتهالاً. فكانت مقسومة الآن إلى خمسة فصول ووزع أبيات كل من المرثي على فقر تبدي كل فقرة منها بحرف من حروف الهجاء. فكانت كل مرثاة منها مؤلفة من اثنتين وعشرين فقرة بحسب عداد الحروف العبرانية؛ وفقرات المرتبة الثالثة أطول من فقرات سواها، وكثيراً ما كان اليهود المجلدون في بابل يجرون الدموع

السخينة متغنين بهذه المراثي على أنهر بابل، وبعد عودهم كانت لهم أعظم مذكر بما نابهم من الأسواء. وكانوا في ٩ تموز من كل سنة يصومون ويتلون في المجمع هذه المراثي مذرفين الدموع. وقد اعتادت الكنيسة من أول الدهر أن تتلوها في الكنائس في سبة الألام ذكراً لما هو أعظم من خراب أورشليم والهيكل وهو آلام ابن الله وصلبه بأيدي من أتى ليفتديهم.

أما باروك فهو ابن نبريا كما مر وكان تلميذاً أميناً لأرميا وكاتباً، ومن آل يهوذا وأخوه سرايا كان من حاشية الملك صدقيا ووشى به أعداؤه أنه كان من الكلدان، ويعزي أرميا بالمناصرة لهم (أرميا فصل ٤٣ عدد ٣). وفي السنة الرابعة ليوباقيم مضى يقرأ له نبوات أستاذه فاحرقها الملك وأملاها أرميا عليه فكتبها ثانية. وقد ألقى في السجن مع أرميا في أيام صدقيا كما مر، واستمر فيه إلى إفتتاح أورشليم سنة ٥٨٨ ق.م. وأرغم مع معلمه أن يمضي إلى مصر وانطلق أخيراً إلى بابل. وقضى هناك ويعيد له في كنيسة المارونية في ٣ تشرين الأول.

أما سفره فاصله العبراني مفقود وترجماته في اللغات الآن عن ترجمة يونانية من أقدم الدهر. وزعم بعض أهل النقد أنه كتب أصلاً في اليونانية وزعمهم ساقط لأنه ذكر فيه أن يقرأ في بيت الرب، وكان محظوراً عليهم أن يقرأوا فيه ما كتب بغير العبرانية. وأنكر العقليون وبعض البروتسطنت تنزيل هذا السفر تشبهاً بأنه قيل فيه أنه كتب في السنة الخامسة بعد خراب أورشليم أي سنة ٥٨٣ ق.م. وباروك كان حينئذ مع أرميا في مصر منذ سنة ٥٨٨ ق.م. ولكن أية منافاة بين أن يكون مضى إلى مصر سنة ٥٨٨ ق.م. ثم عاد إلى بابل، وكتب سفره سنة ٥٨٣ ق.م.؟ وقالوا إنه يستفاد من هذا السفر إنه كتب بعد نهاية الجلاء وتجديد الهيكل لأنه ذكر مذهب الرب وبيت الله أنه يظهر دون تكلف للمتأمل أن كلامه في الجلاء، أما تنزيل رسالة أرميا المعلقة في آخر سفره فيكتفي مؤنة إثباته ذكر سفر المكابيين لها (مكابيين ٢ فصل ٢٢ عدد ١ و٢).

وهذا السفر ينطوي على خمسة فصول لباروك، وفي الفصل السادس رسالة لأرميا أنفذها إلى المجلدين (طالع عدد ٣٤) ضمن باروك سفره مقدمة يطلب بها أن يسعف المجلدون إخوانهم الباقين في أورشليم، وأن يتلوا كتابه في بيت الرب أي حيث كانوا يجتمعون للصلاة في يوم العيد، وفي أيام المحفل ثم صلوة لله يقربها

الشعب المجلو بآثامه. ويسأله تقصير مدة العقاب الذي أنزل بهم، لاستحقاقهم ثم نصائح وتحريضات لهم ليرعوا عن أثمهم. ويشقوا بالله ونبوات على إفتقاد الله لهم وعلى إعادتهم إلى أوطانهم مسرورين. وفي الفصل الثالث عد ٣٨ نبوة على المسيح مرادفة لقول يوحنا الكلمة صار جسداً وحلت فينا إذ قال في الله: «وبعد ذلك تراءى على الأرض وتردد بين البشر».

عد ٣٧٥

حزقيال النبي

ذكرنا في عد ٣٥٥ شيئاً من ترجمة حزقيال ورؤاه ونبسط هنا ما بقي منها. إنَّ تأويل كلمة حزقيال في العبرانية الرب يقوي أو يشدد، وهذا النبي هو ابن يوزي من السبط الكهنوتي. وقال بعضهم إنه ولد سنة ٦٢٤ ق.م. وقد أخذ إلى بابل مع يوياكين الملك وبعض أعيان المملكة والكهنة سنة ٥٩٨ ق.م أي نحواً من عشر سنين قبل خراب أورشليم. وأقام في محل يسمى في العبرانية تل السنبلة، وفي الترجمة اللاتينية العامة تل حبيب أو أيب (حزقيال فصل ٣ عد ١٥) ولا يعرف موقعه. وتزوج هناك كما يظهر من قوله (فصل ٢٤ عد ١٨): «وماتت إمرأتي في المساء» وقد دعاه الله إلى النبوة في السنة الخامسة من جلائه أي سنة ٥٩٣ ق.م. وقد باشر هذه الخدمة لا أقل من إثنين وعشرين سنة لأن نبوته المذكورة (في الفصل ٢٩ عد ١٧) على أخذ بختنصر مصر أرخها في السنة السابعة والعشرين من الجلاء. ويؤخذ من التقليد القديم الذي ذكره القديس ايفانيوس (في تراجم الانبياء): إنَّ أميراً أو قاضياً من شعبه قتله لأنه كان يؤنّبه على عبادة الأوثان، وإنه دفن في مدفن سام وارفخشاد وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في ع ٣٥٥ فطالعه. ويعيد له في كنيسةنا المارونية في ٢٩ تموز ولا ذكر لاستشهاده، وكان موته قبل أن يستحوذ قورش على بابل. وعاش منغصاً لأنه كان في أيام بني إسرائيل وجلي معهم، ولم يدرك النجاة فكان أقل حظاً من أرميا الذي تركه الكلدانيون في وطنه يندب سوء حاله. ومن دانيال الذي ساعد كثيراً على عود شعبه من الجلاء، على أنَّ قوة حزقيال وبسالته المؤسسة على إيمانه جعلته يحتمل بصبر جميل وشجاعة ثابتة مضايق الجلاء، وكان يغري ويشجع إخوته على تحمل مصائبهم فيه، بل قد جعل بيته كمدرسة ومجمع يجتمع به الشيوخ ووجهاء الشعب إليه ليرشدتهم، ويوثق عرى ثقتهم بالله كما يظهر

من سفر نبوته (فصل ٨ عدا ١ وفصل ١١ عدا ٢٥ وفصل ١٤ عدا ١ وفصل ٢٠ عدا ١). وكان من مساعيه وأفكاره وأعماله ما يديه للناس نبياً عضدته يد الرب واملائته من قوة تفوق الطبيعة كما يظهر من ف ٢٤ عدا ١٥ إلى عدا ١٨).

أما نفس حزقيال في نبوته فمختلف عن غيره وله كلمات وتعبيرات خاصة به. وقد جدّ بان يقتبس تعابير وكلمات من أسفار التوراة على أن إقامته بين شعب أجنبي يتكلم باللغة الآرامية جعلته ينتحل كلمات من لغتهم. والمزية له بين الانبياء أن نبواته كانت بالرموز والتشايه غالباً، وكثيراً من هذه التشايه كانت حديثة مأخوذة عن الشعوب الساكن بينهم وهذا ما جعل في كلامه غموضاً طالع ما ذكرناه عن ذلك (في عدا ٣٥٥).

أما نبوة حزقيال فملتحمة الأجزاء كل الالتحام وهي مقسمة إلى قسمين الأول يتدي من الفصل الأول وينتهي في الفصل الثاني والثلاثين يتضمن قضاء الله على شعبه وعلى غيره من الشعوب. والقسم الثاني يتدي من الفصل الثالث والثلاثين وينتهي في الفصل الثامن والأربعين ويتضمن نبوات على إنجاز الله وعوده لأسرائيل بمجيء المخلص، وكل نبواته منسقة بحسب نظام الزمان. إلا ما تنبأ به الشعوب الأجانب في الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثاني والثلاثين فهذه النبوات منسقة بحسب ماهية مواضيعها، وقد أرخها. فيظهر من تاريخها أنها من القسم الأول من نبواته التي كانت قبل خراب أورشليم لا من القسم الثاني الذي كان بعده.

عد ٣٧٦

دانيال النبي

قد ذكرنا في عدا ٣٤٣ وما يليه ترجمة دانيال وإنقاذه سوسنة وتعبيره حلمي بختنصر الأول والثاني. وتعبيره رؤيا بلشصر ملك بابل وطرحه في جب الأسد وكشفه خديعة كهنة بال وقتله التنين ورؤاه ووفاته وصحة تنزيل سفره. ولخصنا القسم التاريخي منه الذي تشتمل عليه الفصول الست الأولى والفصلان الثالث عشر والرابع عشر. وأبنا بأية لغة كتب هذا السفر فنجتزيء بما مرّ. ويعيد له في كنيسةنا المارونية في ٢٨ كانون الأول.

الفصل الثاني والعشرون

في الانبياء الصغار

عد ٣٧٧

هوشع

أما هوشع فكلمة عبرانية معناها الله يخلص، وقد انبأنا هذا النبي أنه كان ابن بئيري وهذا كل ما نعلمه بتحقيق من ترجمته. وقد قال أكثر المفسرين أنه كان من شمالي مملكة إسرائيل، ومما يدل على ذلك استعماله في نبوته الفاظاً وتعابير آرامية، ومعرفته أماكن هذه المملكة وتوجيه كلامه إلى إسرائيل، وقوله عن ملك إسرائيل ملكنا وكل ذلك ظاهر من فصول نبواته. وقد ذكروا تقليداً قديماً أنه كان من مدينة بعلموت في سبط إيساخر وأنه مات هناك، لكن هذه المدينة لا يعرف موقعها. وتضاربت الأقوال في محل مدفنه وهو أول الانبياء الصغار لوضع النسخة اللاتينية العامة نبوته قبل باقي نبوات الانبياء الصغار. وقد يكون تقديم نبوته على غيرها لغزارة مادتها لا لتقدمه زماناً على باقي الانبياء الصغار. فعاموس كان قبله زماناً كما يظهر من تاريخ نبوته (في فصل ١ عدد ١)، ومع ذلك كان الثالث في مصاف الانبياء الصغار، وقد جاء في فاتحة نبوته أنه أي هوشع تنبأ في أيام عزبا ويوتام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا. ومدة هؤلاء الملوك نحو من مئة وعشرين سنة ولا بد أنه كان له من العمر عند تنبئه عشرون سنة، فلا يصدق أنه عاش مئة وأربعين سنة، وليس في نبواته ذكر لهؤلاء الملوك. فالأقرب إلى الصواب إن تلك الكلمات ليست لهوشع بل لناسخ لم يصب بزيادتها على سبيل العنوان على نبوته المفتوحة «بدأت كلام الرب بلسان هوشع». والظاهر أن هوشع كان معاصراً لأشعيا وقد تنبأ بعد خراب بيت أحاب في أيام ياربعام الثاني الخليفة الثالث لياهو على إسرائيل، كما يظهر من نبوته (فصل ١ عدد ٤) لأنك تراه يذكر دائماً جرائم أبناء ياهو الذي

استأصل بيت أحاب، وما برح أبناؤه يعبدون الأصنام ويسجدون لعجول الذهب، فهذا ناطق بان هوشع كتب نبواته في السنين الأخيرة للملك ياربعام، وهذا الملك استوى على منصة الملك إحدى وأربعين سنة أي من سنة ٨٢٥ إلى سنة ٧٨٤ ق.م. فإذا هوشع كتب نبوته قبل سنة ٧٨٤ ق.م، وهذا مستلزم لاثبات حقيقة نبواته فقد تنبأ على خراب بيت ياهو، وهذا لم يكن إلا سنة ٧٨٢ ق.م. وعلى انقراض مملكة إسرائيل، وهذا لم يكن إلا سنة ٧٢١ ق.م. ولما تنبأ هذا النبي على ذلك في عهد ياربعام الثاني كان ملك إسرائيل في ذرى مجده، وتعيد له كنيسة المارونية في ١٦ حزيران.

أما نبوة هوشع فليست منقسمة كباقي نبوات الانبياء الكبار إلى نبوات كثيرة في أوقات مختلفة، بل كأنها خطبة واحدة كتبها في آخر حياته عدّد بها النبوات التي فاه بها في مدة مباشرة الخدمة النبوية، قاسماً ما كتبه إلى قسمين. ففي القسم الأول المشتعلة عليه الفصول الثلاثة الأولى يبين بتشاييه ورموز غوايات بني إسرائيل وسيئاتهم إلى الله. وفي القسم الثاني من الفصل الرابع إلى الفصل الرابع عشر يؤنب الشعب، ويعتبههم على جرائمهم وزلاتهم، وينذر بالشرور التي تحل بهم عقاباً لهم على ذلك، ويعدّهم بزوال هذه المصائب إن ارتدوا إلى الرب الههم.

عد ٣٧٨

يوئيل

يوئيل كلمة عبرانية تأويلها الرب هو الإله، وكان هذا النبي ابن فتوئيل ولا يعلم من ترجمته إلا أنه كان من مملكة يهوذا على ما روى القديس ايرونيμος في تفسير نبوته، وربما كان قاطناً أورشليم كما يتلخص من بعض آيات كلامه. وظن بعض المفسرين إنه كان كاهناً، ولم يؤرخ نبواته، ولكن يمكن القطع بانها من أقدم النبوات التي وصلت إلينا. فهي أقدم من نبوات أشعيا لأن أشعيا أخذ عنها قوله في (الفصل ١٣ عد٦): « ولولوا فان الرب قريب وافد وفد اجتياح من لدن القدير». فهذا منتحل عن قول يوئيل (ف ١ ع ١٥) يا لليوم فان يوم الرب قريب فيأتي كالدمار من عند القدير». وهو أقدم من عاموس لأن عاموس أخذ عنه قوله (ف ١ ع ٢): «يزار الرب من صهيون ويطلق صوته من أورشليم» فهذا منتحل من قول يوئيل (فصل ٣ عد١٦): «يزار الرب من صهيون ومن أورشليم يطلق صوته». على

إنه لا يمكن تعيين المدة التي كان فيها يوثيل إلا على سبيل الظن، فإن من تدبر نبوته رآه يذكر من أعداء بني إسرائيل الذين سيعاقبهم الله المصريين والأدوميين. وصور وصيدا والفلسطينيين. ولم يذكر ملوك سورية، فيظن إنه إنما صمت عن ذكرهم لأنه كتب قبل أن يشكو بنو إسرائيل منهم. وقد صمت أيضاً عن ذكر الآشوريين والكلدان ولا وجه لذلك إلا إن تنكيل هؤلاء ببني إسرائيل كان بعد أيام هذا النبي. وعليه فيظهر أنه كان في أيام يواش قبل حرب حزائيل لبني إسرائيل، ويؤيد ذلك أنه لم يتكلم في المضار التي ألحقها الآشوريون ببني إسرائيل كما يتكلم فيها هوشع وعاموس.

أما نفس يوثيل في نبوته فمأذون بأنه أستاذ في صناعة الكلام فكلامه عبراني بحت شديد واضح. وقد كان مثلاً بعده لغيره من الانبياء الذين اقتبسوا منه آيات برمتها. وقد انتهز لنبوته فرصة إتيان جراد أعقبته مجاعة كبرى، فذكر ما أتلّف هذا الجراد وشبهه برسل غضب من قبل الله وحضّ على الصوم والتوبة. ويظهر أنّ الشعب أذعن لكلامه لأنه قال إنّ الرب غفر لشعبه وتنبأ على العدو يُباد وغزارة المطر تخصب الأرض. وجعل هذا المطر رمزاً إلى حلول الروح القدس على الشعب إذ قال (ف ٢ عدد ٢٢): «وسيكون بعد هذه إني أفيض روحي على كل البشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويرى شبانكم رؤى ويحلم شبوخكم أحلاماً وعلى عبيدي أيضاً آمائي أفيض روحي في تلك الأيام». وهذه هي الآيات التي استشهد بها مار بطرس في خطابه في أورشليم يوم البنديكستي. وأما الجراد الذي ذكره فاختلف في تفسيره، فقال القديس إفرام السرياني والقديس ايرونيμος وكثير من المفسرين ما هذا الجراد إلا كناية عن الآشوريين والماديين والفرس والرومانين. على أنّ أكثر المفسرين في هذا العصر يرون كلام النبي حقيقياً لا مجازياً. فيريد به الجراد حقيقة لأنّ النبي لم يذكر مضرتّه بالبشر بل بالحقول والحيوانات. ويمكن التوفيق بين القولين بأن يقال إنّ يوثيل ذكر جراداً حقيقياً في فاتحة نبوته، ثم جعله كناية عن رسل غضب الله. وقد تنبأ بالدينونة العامة فقال (ف ٣ عدد ٢): «اجمع جميع الأمم وأنزلهم إلى وادي يوشافاط وأحكمهم هناك». وأثبت بعضهم سنداً إلى هذه الآية أنّ الدينونة الأخيرة ستكون في وادي يوشافاط، وهذا القول كآته عام الآن ما بين علماء الكنيسة، على أنّ القدماء لم يفسروه دائماً بهذا المعنى. فقال اوريجانوس في تفسير بشارة متى (فصل ٢٥ عدد ٣٢): «إنّ الشعوب يجتمعون على وجه

وقال القديس ايرونيμος في تفسير بشارة متى (ف٢٤ عدد٢٧): «لا يظن إنَّ المخلص يظهر في مكان محيز وهو نور العالم»، على أنَّه عند تفسيره نبوة يوئيل هذه قال جميع الشعوب يجتمعون للدينونة في وادي يوشافاط أو وادي الدينونة ولم يعين موقعه. وقال القديس ايرونيμος في تفسير بشارة متى أيضاً إنَّ الشعوب يجتمعون للدينونة على الجبلجة ليحقق ابن الله أنَّه سيظهر بمجده حيث لحقه العار أقول ويظهر أنَّ القديس إفرام السرياني أشار إلى هذا المعنى إذ قال في قصيدة المثبت في صلاة الفرض عندنا في سوغيت صباح الأحد **ܕܡܚܝܬܐ ܕܥܪܘܟܐ ܕܐܒܪܗܡ ܕܡܠܟܐ ܕܡܫܝܚܐ** أي يركز صليبه (يوم الدينونة التي يتكلم عنها) في قبر آدم حيث ركزه اليهود، وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٣ تموز.

عاموس النبی

130

الثاني ملكها بسط تخومها شمالاً إلى حماة التي كانت التخم الشمالي لمملكة داود وإلى بحر الميت جنوباً. وأما مملكة يهوذا فكان عوزيا ملكها يحسن إدارة شؤونها الزمنية إلا أنه يسيء تدبيرها في المحافظة على السنة والدين، ففشت فيها عبادة الأوثان والردائل التي تصحبها. وكان عاموس ينذر الأشرار بأن الله سيعاقبهم فلا يجدي نجاحهم المادي عليهم شيئاً.

وتقسم نبوته إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يتضمن في الفصلين الأول والثاني منها نبوات على دمشق وغزة واشدود وصور وأدوم وبني عمون وموآب ويهوذا وإسرائيل. والقسم الثاني يتضمن ثلاث خطب في الفصل الثالث إلى السادس يؤنب بها بني إسرائيل ويتنبأ على عقاب الله لهم ويندب خراب السامرة. والقسم الثالث وتشتمل عليه الفصول السابع والثامن والتاسع يتضمن خمس رؤى تثبت ما قاله في خطبه الثلاث يعبر بها عن عقاب الله للآثمة بالجراد والنار والمطمار وزنبيل فواكه. والرؤيا الخامسة يبين بها خراب السامرة وتشيت شعبها وخراب هيكل بيت إيل ويختم نبوته بكلام معزٍ يشير به إلى رجوع بني إسرائيل من الجلاء وبناء المدن الخربة، وإتيان المخلص.

وعن موجز تراجم القديسين للأب بولس كاران في ٢٦ آذار أحد كهنة بيت إيل شكاه إلى الملك ياربعام الثاني بأنه تنبأ على موته ذبيحاً بالسيف، فأراد الملك نفيه وأشار إليه الكاهن أن يعتزل مملكة يهوذا فلم يروعه الخطر. فاجرى الملك عليه مَرَّ العذاب وشج ابنه رأس النبي. وحمل وفيه رمق إلى بلدته تقوع حيث فاضت روحه ودفن في مدافن آبائه سنة ٧٥٨ ق.م. وكنيستنا المارونية تعيد له ١٧ حزيران بمنزلة شهيد كما مَرَّ هنا، ولكن قيل في ترجمته أنه أبو أشعيا النبي وهو غير صحيح كما رأيت في الكلام على أشعيا.

عد ٣٨٠

عوبديا النبي

إنَّ تأويل عوبديا عبد الله، ولم تنبئنا نبوته من ترجمته إلا باسمه. فزعم بعضهم أنه عوبديا قيم بيت آحاب الذي أتى ذكره في سفر الملوك الثالث (فصل ١٨ ع ٣)، ولا حجة لهذا الزعم. وقال آخرون أنه أدومي تهود واسندوا ذلك إلى اختصاصه

آدوم نبوته. وقيل أيضاً أنه رئيس الخمسين الثالث الذي أرسله أحزيا إلى إيليا النبي فاسترضاه كما في سفر الملوك الرابع (فصل ١ عدد ١٣). ويظهر من نبوته أنه كان من سبط يهوذا، وأما الزمان الذي كان فيه فيعسر تعيينه أيضاً، إذ قال بعضهم إنه أقدم الانبياء الصغار، وقال غيرهم إنه كان في أيام الجلاء. وموجب هذا الخلاف وجازة نبوته حتى أنها لا عنوان لها ولا إشارة فيها إلى شيء معروف. قال فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٢ عدد ١٠٨٥) أنه يمكن مع ذلك اعتبار عوبديا أقدم الانبياء الذين توصل إلينا ما كتبوه، وإن لم يمكن القطع بهذا. واستدل على ذلك بأن بين نبوة عوبديا ونبوة أرميا على آدوم شَبهاً كبيراً يقضي بالقول إنَّ أحد النبيين انتحل قول الآخر. والأظهر أنَّ أرميا أخذ عن عوبديا. من ذلك قول عوبديا (ف ٥ عدد ٦) لو إن السراق أتوك أو الناهبين ليلاً كيف كان تدبيرك أما كانوا قنعوا بسرقة ما يكفيهم؟ لو أنَّ القاطفين أتوك أما كانوا أبقوا خصاصة كيف قتش عيسو، وفحصت خباياه؟ وهاك قول أرميا (فصل ٤٩ عدد ٩): «لو أنَّ القاطفين أتوك أما كانوا أبقوا خصاصة أو السراق ليلاً أما كانوا قنعوا بخطط ما يكفيهم؟ أما أنا فعريت عيسو كشفت خباياه». واكثر المحققين الآن أنَّ عوبديا كان قبل أرميا. وإذا عارضنا نبوة عوبديا بنبوة يوئيل القينا يوئيل على قدمه الذي لا نكير له استعان بشيء من كلام عوبديا الذي قال (عدد ١٧): «وفي جبل صهيون تكون النجاة». وقد استعان يوئيل بهذا الكلام إذ قال (ف ٢ ع ٣٢): «ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص لأنها في جبل صهيون وفي أورشليم تكون النجاة». ثم أنَّ عوبديا يؤنب الآدوميين على شماتهم ببني يهوذا يوم افتتح الأجانب أورشليم، على أنَّ أورشليم قد أفتتحت خمس مرات قبل بختنصر. والمرجح أنَّ كلامه في افتتاح الفلسطينيين والعرب لها في أيام يوارام. وعليه فيكون عوبديا في أيام هذا الملك إذ خلع الآدوميين نير الطاعة لملك يهوذا كما في سفر الملوك الرابع (ف ٨ عدد ٢٠). ولا تتضمن نبوة عوبديا إلا إحدى وعشرين آية فهي أخصر من كل ما كتب في العهد القديم، تنبأ فيها على خراب بلاد آدوم لشماتها بشعب الله وذلك من عدد ١٦ إلى عدد ١٦٦، وعلى خلاص أورشليم وظفرها بآل عيسو وجميع أعدائها من عدد ١٧ إلى ٢١. وتعيد له كنيستنا المارونية في ٣ كانون الأول. ويقال في ترجمته أنه رئيس الخمسين الثالث الذي أرسل إلى إيليا.

يونان النبي

كان يونان من مملكة إسرائيل واسم أبيه أمثاي. ومن تقليدات اليهود أنه ابن الأرملة الذي أقامه إيليا النبي في صارفة صيدا. ولم يؤرخ سفره على أننا نعلم أنه كان في أيام ياربعام الثاني ملك إسرائيل كما جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٤ عده ٢): «حسب قول الرب إله إسرائيل الذي تكلم به على لسان عبده يونان بن أمثاي النبي من جت حافر». ولا مرء بان يونان هذا هو يونان النبي نفسه الذي تكلم فيه. واما جت حافر القرية التي ولد فيها فهي المعروفة الآن بمجاد في شمالي الناصرة على الطريق من صفورية إلى طيبارية. واما سفره فلا يشبه أسفار الانبياء لعدم تضمنه نبوة وإنذاره بخراب نينوى ليس نبوة حقيقية إذ لم تخرب، فهو إذاً سفر تاريخي وضع بين نبوات الانبياء لأن كاتبه نبي. وقد ضمنه امر الله له أن يمضي إلى نينوى وينذر أهلها. فتردد إلى آخر ما كتبه كما سيأتي ونفسه فيه ساذج وليس فيه من الشعر إلا الصلاة المثبتة في الفصل الثاني (من عد ٣ إلى ١٠)، وبقاؤه ثلاثة أيام في بطن الحوت آية كانت رمزاً إلى بقاء المخلص ثلاثة أيام في القبر. وهذه الآية قد حملت الكفرة والجاحدين في كل عصر على أن يسخروا منها.

قال القديس أغوستينوس (في رسالته ١٠٢) ابتلع الحوت يونان، واستمر في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال ولا يصدق هذا سامعوه ولا سيما من انتقلوا من مدارس اليونان إلى مطالعة هذا التاريخ». وأجاب على ذلك قائلاً: «يرد على هذا بانه أما لا يلزم الاعتقاد بشي من المعجزات واما أنه يلزم الاعتقاد بهذه المعجزة أيضاً إذ لا وجه لأنكارها وحدها». فليس على الله امر عسير وهو على كل شيء قدير. وقد أراد بحكمته أن يجبر خادمه على تنفيذ ما يريد على هذا النحو وأن يكون الأموات مثلاً لسر قيامة ابنه من بين العناية فليس تعلقنا الضعيف أن يتحكم بطرق عناية الله، وقد أراد الله بهذه العناية أن يكشف عن أنه لا يهمله امر بني إسرائيل فقط بل امر الأمم أيضاً الذين كان اليهود يذرونهم. فكان مثال نينوى باعثاً بني إسرائيل على التوبة عن آثامهم. وأراد الله أن يثبت لنا بذلك شفقة على الخطاة أيّاً كانوا، وتساهله في المغفرة لهم وعنايته بالأمم بل بالبهايم أيضاً. فيها وما أشد وقع كلامه تعالى الذي قاله ليونان (ف ٤ عد ١٠): «لقد أشفقت أنت على الخروعة التي

لم تتعب فيها ولم تربها التي نشأت بين ليلة، أفلا اشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من إثنتي عشرة ربوة من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم ما عدا بهائم كثيرة». وسفر يونان بجملته منقسم إلى ثلاثة أقسام. أولها يتضمن (١ و ٢) أمر الله له أن يمضي إلى نينوى وينذر أهلها ليتوبوا عن آثامهم. فتردد يونان بغضاً بالآشوريين الذين كانوا أنزلوا بني إسرائيل شروراً كثيرة على عهد أخاب. وأراد أن يفرّ من إتمام إرادة الله وعوضاً عن أن يسير إلى المشرق نحو نينوى، مضى غرباً إلى يافا. ونزل سفينة فينيقية سائرة إلى ترشيش في إسبانيا. فكانت زوبعة عظيمة أشرفت بها السفينة على الانكسار، وخاف الملاحون فألقوا الأمتعة التي معهم إلى البحر، ونزل يونان إلى جوف السفينة واستغرق في النوم. فأيقظه رئيس النوتية وقال هلموا نلقي قرعاً لنعلم بسبب من أصابنا هذا الشر فوقع القرعة على يونان فقال لهم خذوني والقوني إلى البحر، فاخذوه والقوه فوق تيار البحر. وأعد الرب حوتاً عظيماً لابتلاع يونان فكان في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال. فخشع يونان إلى الله بصلاته المثبتة في الفصل الثاني من نبوته، فقذفه الحوت إلى الأرض وقد حقق البيعون وجود مثل هذه الحيوانات البحرية الهائلة، وقد وجد أحدها في جزيرة القديسة مرغاريتا في فرنسا مبتلعاً فرساً. وأما القسم الثاني (فصل ٣) فيتضمن مناداته في نينوى بالتوبة وإنذاره بانها تخرب بعد أربعين يوماً. فآمن أهلها بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من ملكهم إلى صغيرهم، فلم ينزل الله بهم الشر الذي قال أنه سينزله. والقسم الثالث (في الفصل الرابع) يبين استياء يونان وغضبه لأن الله عفا عن أهل نينوى. وصلى إلى الله قائلاً ألم يكن هذا كلامي وأنا في أرضي؟ ولذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش، فاني علمت أنك إله رؤوف رحيم طويل الأناة ونادم على الشر، فخذ نفسي مني فانه خير لي أن أموت من أن أحيا. فقال له الرب: أبحق غضبك؟ وخرج يونان من المدينة وصنع مظلة جلس تحتها في الظل ريثما يرى ماذا يصيب المدينة. فاعد الرب خروعة ظللت فوق رأسه لتقيه الضر. ففرح بها ولكن أعد الله دودة ضربت في الغد الخروعة فجفت. ولما أشرقت الشمس كانت ريح شرقية حارة فضربت الشمس رأس يونان فتمنى الموت لنفسه، فقال له الله الكلام الذي رويناه آنفاً. وأما قوله أنّ أهل نينوى آمنوا بالله فهم كان لهم آلهة خاصة، لكنهم يعتقدون أنّ آلهة غيرهم من الشعوب آلهة حقاً. وملك نينوى حينئذ كان بنيرار الذي ذكرناه في عد ٣١٧.

وتسمية النبات الذي أعده الله ليظلل على يونان خروعة مختلف فيها بين النسخ فقد يكون العشقة وقد يكون نوعاً من اليقطين أو الدبا أي القرع. وفي كتاب تراجم الانبياء المنسوب إلى ايفانيوس أنَّ يونان عاد من نينوى خجلاً لعدم تمام نبوته، فاعتزل بامه في محل قريب من صور إلى مماته. وفي مدفنه أقوال لا يتحقق أحدها وقد وجدت صورته بهيئات مختلفة في مخابيء رومه القديمة، لا سيما في مخبأ القديس كالستوس، وتعيد له كنيسة المارونية في ٢٣ أيلول.

عد ٣٨٢

ميخا النبي

إنَّ اسم ميخا أصله ميخايا، وتأويله في العبرانية من مثل الله، وكان من هورشت وهي قرية في جهات جت المعروفة الآن بذكرين أوتل الصافي. وهو غير ميخا بن يملة الذي ورد ذكره في سفر الملوك الثالث (ف ٢٢ عد ٨) فان هذا كان قبل ميخا النبي بقرن. وقد تنبأ هذا النبي في أورشليم على عهد يواتام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا كما هو يبيّن من فاتحة نبوته. وعليه فقد كان معاصراً أشعيا ونبوته تعم جميع أسباط إسرائيل وتختص بملك يهوذا. وقل من أنكر صحتها لذكر أرميا لها (فصل ٢٦ عد ١٨) ولكثرة الموازنات بين أقواله وأقوال أشعيا النبي. ولما نفسه في نبوته فمؤذن بترفع أفكاره وسطوع عبارته، وكثرة مقابلاته وتشابهه وكل ذلك مورد بفصاحة كلامه ونقاوته من الاصطلاحات الأجنبية. وحوت نبوته سبعة فصول مقسومة إلى ثلاث خطب يفتح كلاً منها بكلمة اسمعوا كما في الفصل الأول ع ٢ والثالث عد ١ والسادس ع ١. ففي الخطبة الأولى يتنبأ بخراب السامرة ويهوذا في الفصلين الأول والثاني. وفي الخطبة الثانية التي تشتمل عليها الفصول الثالث والرابع والخامس يؤنب الملوك والانبياء الكذبة وقضاة الاثم والكهنة الأردياء، وينذرهم بخراب صهيون والهيكل. ويعقب كلامه بذكر المواعيد لاسرائيل في آخر الأيام أي بمجيي المخلص، ويتنبأ بارتداد الأمم وولادة المسيح في بيت لحم. وقد استشهد متى نبوته على ذلك (في الفصل ٢ عد ٦). وأما الخطبة الثالثة المشتمل عليها الفصلان السادس والسابع فهي خطاب بين الله والشعب، ويبين به غموط الشعب نعمة الله وكيفانه باحسانه. ويذكر لاسرائيل بمجن الله عليه ويبين له طريق الخلاص بالعمل بسنته وصنع الخير. ويسأل الرب الغفران والصفح عن الأثمة، ويذكر وعد

الله له بتجديد معجزاته في إسرائيل، وأخيراً يشكر الله على رحمته. وتعيد له كنيسة المارونية في ١٤ آب ومما يلزم لإصلاحه في ترجمته في سنسكارنا أنه هو الذي تنبأ لأخاب، وذلك غير صحيح لأن ميخا الذي تنبأ بموت أخاب غير ميخا هذا كما رأيت أنفاً.

عد ٣٨٣

نحوم النبي

تأويل كلمة نحوم التعزية أو المعزي، فهذا كان من القوش وهي بلدة في الجليل لم يعين موقعها، وقد تنبأ على نينوى وفصل ما فيها حتى اعتقد كثير من أهل النقد أنه نظر نينوى بعينه، مع إن ذلك غير ثابت لأنه كان في فلسطين. وكتب بعد سقوط مملكة إسرائيل، ولم يؤرخ نبوته فتضاربت الأقوال في العصر الذي كان فيه إلى أن جلت لنا الآثار الآشورية هذه المسألة، فانه تنبأ في الفصل الثالث عد ٨) على نينوى قائلاً: «هل أنت خير من نوآمون الساكنة بين الأنهار التي حولها المياه ومرتستها البحر وأسوارها المياه». وترجم القديس إيرونيوس في اللاتينية العامة كلمة نوآمون بالاسكندرية، ولعلمه إن الاسكندرية بناها اسكندر بعد قرون من أيام نحوم، قال إنه كان اسم الاسكندرية نوآمون قبل أن يبنها اسكندر. فظهر من آثار آشوربانيبال أن نوآمون هي تاب عاصمة مصر العليا، وسمتها تلك الآثار نو، وزاد النبي اسم معبودها أمون فصارت الكلمة نوآمون أي مدينة الاله أمون (طالع ما ذكرناه في عد ٣٣٢). فظهر من ذلك أن نحوم كتب نبوته بعد خراب تاب الذي كان سنة ٦٦٥ ق.م. فيكون تنبأ في عهد منسا الملك، ولم يمت أحد بصحة نبوته ونفسه فيها واضح وعبراني بحث، وقد استعان في عبارته بكلام بعض من تقدمه ممن كتبوا الأسفار المقدسة. وقد قسم نبوته إلى ثلاثة أجزاء ذكر في الأول منها قضاء الله على عاصمة الآشوريين، وفي الثاني افتتاحها ونهبها، وفي الثالث جرائمها وتدميرها وسقوطها الذي لم تقم منه وتعيد له كنيسة المارونية في ١ ك ١.

عد ٣٨٤

حبقوق النبي

إن هذا النبي كان من سبط لاوي كما يظهر من خاتمة نبوته إذ قال: «الرب

الاله قواني وهو يجعل قدمي كالأيائل، ويمشيني على مشارفي لامام الغناء على ذوات الأوتار». وعليه فكان من المعنين في الهيكل وهؤلاء كانوا من سبط لاوي. وجاء في نبوة دانيال (فصل ١٤ عدد ٤٣): إِنَّ اللَّهَ استخدم حبقوق بآية لعيالة دانيال وهو في جب الأسود، ولم ينله منها مضرة. هذا كل ما نعلمه مؤكداً عن حبقوق، أما نبوته فلم يؤرخها لكن يتحصل من فحواها أنها كانت قبل تدمير الكلدان فلسطين، لأنه تنبأ به في الفصل الأول منها قائلاً في أيامكم. فكانت نبوته بين سنة ٦٠٩ و٦٠٦ ق.م. تقريباً. وكلامه فيها شعر على أصوله، وصلاته المثبتة في الفصل الثالث من أيدع النظم، وقد قسم نبوته إلى قسمين ضمن الأول في الفصلين الأول والثاني، وتنبأ فيه على معاقبة الكلدان يهوذا، ثم تدمير الكلدان لجرائمهم الطمع والشهوات والقسوة والسكر وعبادة الأوثان ونسبتهم ظفرهم إليها. والقسم الثاني في الفصل الثالث ضمنه صلاته لأجل يهوذا، واستماحته الرحمة، له وبيان عظمة الله الذي يأتي ليدين العالم وارتعاده منه ثم ثقته به. وقد أختتم كلامه بالرجاء ونيل المسرة. وتعيد له كنيسة المارونية في ٢ كانون الأول.

عد ٣٨٥

صفنيا النبي

إِنَّ هذا النبي من سلالة حزقيا كما في فاتحة نبوته لكنه لم يصفه بالملك. والأظهر أَنَّ كلامه في هذا الملك لأن باقي الأنبياء لم يذكروا إلا اسم آبائهم. وهذا قال عن نفسه إنه ابن كوشي بن جدليا بن حزقيا. فتفصيل نسبه مشعر بأنه متصل بملك، وقد أنبأنا (ف ١ عدد ١) انه كان في أيام يوشيا ملك يهوذا ويلزم أن يكون قد عاش في أول ملكه إذ ذكر (فصل ١ عدد ٤) أنَّ عبادة البعل كانت باقية في أورشليم كما كانت في أول ملك يوشيا. وإنَّ نينوى لم تكن خربت بعد (فصل ٢ عدد ١٣)، على أنَّ خراب نينوى غير مقطوع بسنة حدوثه، والأظهر أنَّه كان قبل نهاية ملك يوشيا نحو سنة ٦٠٨ أو سنة ٦٠٧ ق.م. فنبوة هذا النبي كانت نحو سنة ٦٣٩ أو سنة ٦٣٨ ق.م، لأنَّ يوشيا ملك سنة ٦٤١ أو سنة ٦٤٠ ق.م. وهذه النبوة ذات ثلاثة فصول منقسمة كانها خطبة واحدة، ففي الفصلين الأول والثاني يتنبأ بالعقاب والانتقام من بني يهوذا لعبادة الأوثان وجرائم الكبرياء، ومن الشعب، وإنَّ يوم

الغضب قريب، وإنَّ نينوى نفسها وأعداء يهوذا سيحل عليهم هذا الغضب، ويحضر بني يعقوب على التوبة والإرتداد إلى الله. ويشر في الفصل الثالث بانجاز وعود الله بارجاعهم من الجلاء، وانقضاء الشر والفوز بسعادة راهنة. وتعيد له كنيسة المارونية في ٣ ك ١.

عد ٣٨٦

حجاي النبي

إنَّ حجاي وزكريا وملاخيا كانوا بعد الجلاء البابلي، أمَّا حجاي ففي التلمود أنَّه كان عضواً في المجمع الكبير، وذكر الآباء انه كان مجلواً في بلاد الكلدان. وعاد إلى فلسطين مع زوربابل، وعهد الله إليه بالرسالة ليحمل الشعب على تكملة الهيكل الثاني كما يظهر من نبوته (فصل ١ عدد ٢ إلى ٤)، وقد أدرك شأوه (ف ١٤ع). وقد أخذ في بناء هذا الهيكل على عهد قورش سنة ٥٣٥ ق.م. فأوقف السامريون اليهود عن تكملة بنائه إلى أيام كمبيس بن قورش، ثم أخذ في البناء بالحاح حجاي وزكريا سنة ٥٢٠ ق.م، بعد أن تسنم دارا ابن هيستسب أريكة الملك. ودشن هذا الهيكل الجديد في السنة السادسة لدارا المذكور سنة ٥١٥ ق.م. أما نبوة حجاي فتحثوي على إيجازها على أربع نبوات. ففي الأولى منها يؤنب حجاي الشعب على تقاعدهم عن إقامة الهيكل مبنياً لهم عقوبة الله لهم على ذلك بالجماعة التي حصلت من انحباس المطر. ويغري زوربابل ويشوع بن يوصادق الكاهن عظيم الأحبار ليستأنفوا البناء فاذعنا لقوله، وأخذنا في البناء كما هو ظاهر في نبوته فصل ١. وفي النبوة الثانية المشتمل عليها الفصل الثاني عدد ١ إلى ١٠ يعظم الهيكل الجديد ويتنبأ قائلاً (فصل ٢ عدد ٧): «هكذا قال رب الجنود إني مرة بعد قليل أزلزل السماء والأرض والبحر واليبس وأزلزل جميع الأمم، ويأتي متمني جميع الأمم فاملاً هذا البيت مجدداً... وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأول، قال رب الجنود وفي هذا الموضع أعطي السلام».

متمني الأمم هو المسيح الذي ولد لنحو من خمس مئة سنة ونيف بعد نبوة حجاي، واعترض على هذه النبوة بان المخلص لم يدخل الهيكل الثاني بل الهيكل الثالث الذي بناه هيرودس. ويجب على ذلك أنَّ هيرودس لم ينقض هيكل زوربابل كله، وإنَّ غرض النبي الكلام في هيكل الآله الحق في أورشليم دون أنَّ يميز بين

الأول والثاني، فضلاً عن أن تحرير الآية خاصة على ما وردت في السبعينية، هو إنَّ المجد الأخير لهذا البيت يكون أعظم من المجد الذي كان للهيكُل الأول، فإنَّ المجد الذي يكسبه إياه حضور المسيح فيه يفوق كثيراً المجد الذي كان له في أيام سليمان.

والنبوة الثالثة يشتمل عليها الفصل الثاني من عدد ١١ إلى ٢٠. يشير حجاي الشعب فيها بأمر الله أنَّ المجاعة التي عاقبهم بها لتوانيتهم في إقامة الهيكل ستزول. وبين الرب عليهم بالخصب وإقبال مزروعاتهم وأشجارهم. والنبوة الرابعة والأخيرة المتضمنة في الفصل ٢ عدد ٢١ إلى ٢٤ يعد بها زور بابل ممثل بيت داود بأنَّ الله يحفظه ويؤيده في التقلبات السياسية التي ستكون في العالم. وفي ذلك إشارة إلى ملك المسيح. وتعيد له كنيسة المارونية ١٦ ك١.

عد ٣٨٧

زكريا النبي

تأويل زكريا من يذكره الرب، وهذا النبي كان من النسل الكهنوتي بن براكيا أو برشيا بن عدو النبي، ولشهرة عدو سمي زكريا في سفر عزرا الأول (فصل ٥ عدد ١٤ و ٦ و ١٤) بن عدو مع أنه جده. وقد ابتداءً زكريا أن يتنبأ في السنة الثانية لدارا وهي السنة نفسها التي تنبأ بها حجاي أي سنة ٥٢٠ ق.م، ونبوته المذكورة في الفصل السابع كانت سنة ٥١٨ ق.م. ونبوته الأخيرتان المذكورتان في الفصول التاسع إلى الرابع عشر هما بعد نبوته المذكورة، ولا يعلم بتأكيد في أية سنة. وفي سفره قسم حوى رؤى ورموزاً، وقسم آخر حوى خطباً ضمنها في الفصلين السابع والثامن. والنبوة بجملتها قسمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يبتدى من فصل ١ عدد ٧ إلى الفصل السادس يتضمن رؤى عديدة منها رؤية رجل راكب على فرس أحمر، واقف بين الآس في المستطل، وخلفه أفراس حمر وشقر وبيض رمز إلى الرحمة والبركة السماوية لأورشليم، ثم رؤيته أربعة قرون وأربعة صنائع وأنَّ الصنائع الأربعة كسروا القرون رمزاً إلى سقوط الكلدان والفرس واليونان والرومانيين الذين اضطهدوا يهوذا. ثم رأى رجلاً ويده حبل مساحة ليمسح أورشليم، ويشير بذلك أنَّ ملكوت الله في الكنيسة ينسب في الأرض كلها. ثم رأى (فصل ٣) يشوع الكاهن العظيم ابن يوصاداق واقفاً أمام ملاك الرب وملاك يلبسه حلاً حديثاً،

وتلك إشارة إلى مجد المدينة المقدسة المقبل ومجد المسيح. ثم رأى منارة (ف٤ عد٤) كلّها ذهب وقائمة بين زيتونتين، وذلك رمز إلى الهيكل الذي أكمله زوربابل وسيغنيه الله بمواهب الروح القدس. والرؤيا السادسة والسابعة أنّه رأى درجاً طائراً وامرأة جالسة في وسط إيفة، ثم امرأتان خرجتا والريح في أجنحتهما فرفعتا الأيفة بين الأرض والسماء، ذلك رمز إلى نفي الخطاة من ملكوت الله. والرؤيا الثامنة (فصل ٦) انه رأى أربع عجلات خارجات من بين جبلين من نحاس، وتلك إشارة إلى قضاء الله بان يجدد هيئة العالم بعد تمرغه بالآثام. وأخيراً رأى رأس يشوع بن يوصاداق عظيم الأحبار مكلاً، وأشار بذلك أنّ رئيس ملكوت الله سيكون ملكاً وحبراً وهذه خلاصة القسم الأول.

وأما القسم الثاني (فصل ٧ و ٨) فيتضمن جواباً من قبل الله لوفد بيت إيل ليسألوا الكهنة والانبيا هل كان الصوم المفروض بسبب تخريب بختنصر الهيكل يلزم حفظه أيضاً بعد تجديد المدينة وبيت الله؟ فيجيبهم الله بواسطة زكريا أنّه يريد طاعة لا صوماً، وأنّه بدد شعبه بسبب عصاوتهم، وأنه سيعامل صهيون بجوده بعد أن أدبها بعدله، وأنه سيبدل أيام الصوم بأيام المسرة ومجد المدينة المقدسة، وتأتي الشعوب ليسجدوا له فيها عند إرتدادهم إلى إيمان المسيح.

والقسم الثالث والأخير يتضمن نبوتين الأولى على حدراك ودمشق والبلاد المجاورة لهما (فصل ٩ عدد ١١)، والثانية على إسرائيل (ف ١٢ إلى ١٤) أما حدراك فكان موقعها مجهولاً إلى هذه الأيام، وكان بعض المفسرين يظنون اسمها مجازياً لا علماً لمدينة حقيقية. على أنّه الآن أصبح بينا أنّ حدراك مدينة جاء ذكرها مرات في حروب ملوك الآشوريين، وكان موقعها في سورية وقد ذكرت مع البلاد المجاورة لها أي دمشق وحماة وفينيقية وفلسطين. وكانت نبوة النبي عليها أنّ كل هذه البلاد تخرب فتم ذلك بغزوة اسكندر الكبير وأنّ شعب الله يتبارك ويقوى، وأما لاسرائيل فتنبأ قائلاً (ف ٩ عدد ٩) ابتهجي جداً يا بنت صهيون واهتفي يا ابنة اورشليم هوذا ملكك يأتيك صديقاً مخلصاً وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان. وقد تمت هذه النبوة في دخول المسيح إلى اورشليم.

وقد ضمن النبي الفصلين العاشر والحادي عشر وعوداً من قبل الرب بان يؤيد آل يهوذا ويخلص آل يوسف، وتهديدات لغيرهم من الشعوب وأنّ الله يبيد ثلاثة

رعاة الكلدان والفرس واليونان. وفي الفصل الثاني عشر إلى الرابع عشر يصف النبي
مجدد أورشليم بارتداد الأمم إلى المسيح، وأن المناصبين لأورشليم والكنيسة تعود
مناصبتهم عليهم فيظفر الله شعبه ويحل عليه روحه ونعمته حتى يندم يهوذا ندامة
مرة على موت المسيح. ويعيد له في كنيستنا المارونية في ٢١ شباط.

عد ٣٨٨

ملخيا النبي

تأويل ملخيا المرسل من الله وكان هذا النبي معاصراً نحيميا، وقد تنبأ عند إقامته
في أورشليم نحو سنة ٤٣٢ ق.م. وأيد نبواته الإصلاح الذي عنى به نحيميا في
حظره الزواج بنساء وثنيات، وفي منعه عن تقديم ذبائح لله غير مرضية له، وبتوبيه
الشعب على تقاعده عن أداء العشر، وقد كان الهيكل كمل بناؤه حينئذ. وسفر
هذا النبي يشتمل على أربعة فصول وهو بمنزلة خطاب بين الله والشعب أو الكهنة،
وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام: أولها في الفصلين الأول والثاني إلى العدد التاسع يبين
به محبة الله لشعبه. والقسم الثاني من عدد ١٠ من الفصل الثاني إلى عدد ١٦ يبين به
أن الله إله وحيد وآب لإسرائيل، والقسم الثالث يتدى لينتقم من آثام الأئمة،
ويثيب الأبرار، ويعد الخلاص ويرسل إيليا الثاني والمراد به يوحنا المعمدان سابق
المسيح. ثم يتنبأ على بطلان ذبائح العهد القديم وإقامة ذبيحة حديثة، ذبيحة القداس
إذ يقول (فصل ١ عدد ١٠) لا مسرة لي بكم قال رب الجنود ولا أرضى مقدمة من
أيديكم، لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم في الأمم وفي كل مكان
تؤثر وتقرّب لاسمي مقدمة طاهرة». وكلمة مقدمة في العبرانية منحأ ويفهم بها
تقدمة الطحين والخبز والخمر. فتعين أن المراد بها الخبز والخمر مادة تقديس جسد
المسيح ودمه. وأختتم ملخيا نبوته بقوله (ف ٣ عدد ١): «ها أنه آت قال رب الجنود».
ويريد بذلك المسيح الذي أتى من بعد ذلك بنحو من خمس مئة سنة، فقد أراد الله
أن يعد بواسطة الانبياء شعبه لانتظار المخلص الذي هو كمال جميع النبوات، وتعيد
له كنيستنا المارونية في ٣ من كانون الثاني.

كان الفراغ من تدوين هذا الجزء من تاريخ سورية في اليوم الخامس من شهر
كانون الثاني سنة ١٨٩٥ م. تقبل الله العناء به ووفق إلى الحاقه بالأجزاء الأخرى.

الطران يوسف الرّيس

تاريخ سورية

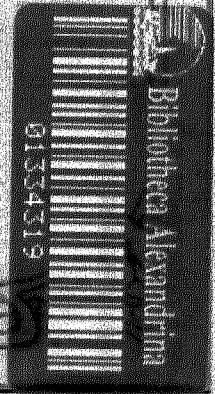
الدينيّ والسياسيّ

تاريخ سورية في أيام اسكندر الكبير وخلفائه
وعلى عهد القياصرة الرومانيين إلى آخر القرن الثاني للميلاد

إشراف
نظير عبّود

راجته ودقته
الدكتور مارون رعد

دار نظير عبّود



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء الثالث

تاريخ سورية في ايام اسكندر الكبير وخلفائه
وعلى عهد القياصرة الرومانيين إلى آخر القرن الثاني للميلاد

إشراف

نظير عبود

رأبعه ودققه

الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود

فهرس

صفحة	عد
١٥	فاتحة الجزء الثاني
١٦	مقالة في تاريخ سورية على عهد اسكندر وخلفائه

الفصل الأول

أخبار اسكندر الكبير

١٦	٣٨٩	لمحة في تاريخ اليونان إلى مولد اسكندر
١٨	٣٩٠	مولد اسكندر وترجمة حياته إلى ملكه
٢٠	٣٩١	ملك اسكندر واخضاعه آسيا
٢٢	٣٩٢	وقية ايسوس بين اسكندر ودارا
٢٥	٣٩٣	أعمال اسكندر في سورية إلى حصار صور
٢٧	٣٩٤	حصار اسكندر صور وفتحها
٣٣	٣٩٥	ذهاب اسكندر إلى أورشليم
٣٥	٣٩٦	فتح اسكندر غزه
٣٦	٣٩٧	إستسلام مصر إلى اسكندر وبنائه الإسكندرية
٣٧	٣٩٨	عود اسكندر من مصر لمحاربة دارا ووقعة اربيل
٤٠	٣٩٩	استحواذ اسكندر على بابل وشوشن وغيرهما وقتل دارا
٤٣	٤٠٠	غزوة اسكندر الهند وعوده منها
٤٥	٤٠١	أعمال اسكندر بعد عودته ووفاته

الفصل الثاني

انقسام ملك اسكندر وفي خلفائه الأولين في سورية

- ٤٠٢ ما كان من كبراء دولة اسكندر بعد وفاته ٥٠
٤٠٣ ولاية لاميدون في سورية وانتزاع بتلميس لها من يده ٥٥
٤٠٤ انتزاع انتيكون سورية من يد بتلميس ٥٦
٤٠٥ أخذ ديمتريوس قبرص وحرب رودس واسترجاع بتلميس بعض سورية ٥٨
٤٠٦ سلوقوس وديمتريوس في سورية ٦١
٤٠٧ محاربة سلوقوس ليسيماك وقتله واغتيال سلوقوس ٦٤

الفصل الثالث

انطيوكوس الأول والثاني وسلوقوس الثاني والثالث ملوك سورية

وفي ما كان في أيامهم

- ٤٠٨ انطيوكوس الأول ٦٧
٤٠٩ انطيوكوس الثاني وما كان في أيامه ٦٨
٤١٠ نبوة دانيال على ما ذكرنا من الأحداث ٧٠
٤١١ وفاة بتلميس وما يعزى إليه من العناية بالترجمة السبعينية ٧١
٤١٢ قتل لوزيقة انطيوكوس الثاني وامراته برنيس ثم مقتل لوزيقة وأخذ سورية ٧٥
٤١٣ سلوقوس الثاني وما كان في أيامه ٧٧
٤١٤ سلوقوس الثالث ٨١

الفصل الرابع

انطيوكوس الثالث الملقب بالكبير

- ٤١٥ حروب انطيوكوس الأولى في شرقي المملكة وفي سورية ٨٢

٤١٦	حرب انطيوخس وبتلميس في سورية	٨٥
٤١٧	قتل انطيوخس اخايوس وانتهائه بغزوته إلى الهند	٨٩
٤١٨	وفاة بتلميس فيلوباتور واسترداد انطيوخس فلسطين وما تبعها	٩٠
٤١٩	حملة انطيوخس على آسيا الصغرى ومناصبه الرومانيين العداوة له	٩٣
٤٢٠	حروب انطيوخس والرومانيين	٩٥
٤٢١	الصلح بين انطيوخس والرومانيين وغرامة الحرب	٩٨
*	ذيل في سفري المكابيين	١٠١
٤٢٢	مقتل انطيوخس الكبير وذكره في سفري المكابيين	١٠٢

الفصل الخامس

سلوقس الرابع وانطيوخس ابيفان ابني انطيوخس الكبير

وغيرهما من ملوك سورية

٤٢٣	سلوقس الرابع	١٠٦
٤٢٤	ملك انطيوخس الرابع الملقب ابيفان وصفاته	١٠٩
٤٢٥	غزوتي انطيوخس ابيفان الأولتين لمصر	١١٠
٤٢٦	تزلف اليهود إلى انطيوخس وأخذه أورشليم وانتهابه الهيكل	١١٣
٤٢٧	حملة انطيوخس الثالثة على مصر	١١٦
٤٢٨	حملة انطيوخس الرابعة على مصر	١١٧
٤٢٩	اضطهاد انطيوخس لليهود واکراهه لهم على اتباع مذهبه	١١٩
٤٣٠	قتل انطيوخس العازار والاخوة السبعة المكابيين	١٢٢
٤٣١	انتصار يهوذا المكابي على عساكر انطيوخس وغيرهم	١٢٤
٤٣٢	هلاك انطيوخس ابيفان	١٢٩
٤٣٣	تملك انطيوخس الخامس وسياسة ليسياس مدبره	١٣٣
٤٣٤	حروب يهوذا مع بعض العشائر وعمال الملك	١٣٥
٤٣٥	محاربة انطيوخس الخامس لليهود	١٣٧
٤٣٦	مقتل انطيوخس الخامس وليسياس وملك ديمتريوس سوتر	١٣٩
٤٣٧	حروب جنود ديمتريوس ويهوذا المكابي إلى مقتله	١٤١

٤٣٨	معاربات يوناتان وبكيديس قائد جيش الملك	١٤٥
٤٣٩	تزلف ديمتريوس إلى الرومانيين والمؤامرة عليه واستحواذ اسكندر	
٤٤٠	على عكا	١٤٦
٤٤١	جد كل من الملكين في استمالة يوناتان إليه وقتل اسكندر	
٤٤٢	ديمتريوس	١٤٧
٤٤٣	مصاهرة اسكندر لبتملايس وتعزيزه يوناتان وهيكل اليهود في مصر	١٥٠
٤٤٤	ثورة ديمتريوس الثاني على الملك اسكندر	١٥١
٤٤٥	سوء تصرف ديمتريوس لكانور	١٥٣
٤٤٦	الثورة على ديمتريوس لكانور	١٥٥
٤٤٧	ما كان في أيام انطيوخس السادس	١٥٧
٤٤٨	اغتيال تريفون يوناتان وانطيوخس السادس	١٦٠
٤٤٩	ما كان في أيام تريفون إلى مقتله	١٦٢
٤٥٠	حرب انطيوخس السابع مع اليهود	١٦٥
	تنمة أخبار انطيوخس السابع	١٦٨
	عود ديمتريوس الثاني إلى سورية وما كان إلى مقتله	١٧٠

الفصل السادس

قلوبطرة وزينا وانطيوخس كريوس وانطيوخس الشيزيكي ملوك سورية

٤٥١	قلوبطرة	١٧٣
٤٥٢	زينا ويوحنا هرکان أمير اليهود	١٧٤
٤٥٣	انطيوخس كريوس	١٧٥
٤٥٤	انطيوخس الشيزيكي	١٧٧
٤٥٥	اسكندر ملك اليهود وبتلملايس لاتيير وقلوبطرة في سورية	١٧٩
٤٥٦	تنمة أخبار انطيوخس كريوس وانطيوخس الشيزيكي أخيه	١٨١

الفصل السابع

باقي ملوك اليونان في سورية إلى انقراض دولتهم فيها

٤٥٧	سلوقس بن انطيوخس كريوس وانطيوخس اوساب	١٨٢
-----	---------------------------------------	-----

٤٥٨	اختيار السوريين تفران ملكاً عليهم وبقاء سيلانة في عكا	١٨٤
٤٥٩	انطيوخس الآسيوي واستيلاء الرومانيين على سورية	١٨٥
٤٦٠	فهرست الملوك اليونان في سورية ومصر وسني ملكهم	١٨٧
٤٦١	تتمة أخبار الملك اسكندر ووفاته	١٩١
٤٦٢	ملك اسكندرة وابنها هركان	١٩٢
٤٦٣	ارسطوبولس الثاني	١٩٤
٤٦٤	ما كان في أيام هركان الثاني	١٩٦
٤٦٥	انتيكون وهيرودس	١٩٩

مقالة في تاريخ سورية في أيام الرومانيين

فصل

أخبار سورية واليهودية منذ استحوذ عليهما الرومانيين إلى مولد المخلص

٤٦٦	لمعة في تاريخ الرومانيين إلى ملك اغوستوس قيصر	٢٠١
٤٦٧	الولاة الرومانيين على سورية إلى مولد المخلص	٢٠٥
٤٦٨	قتل هيرودس ارسطوبولس وشكواه إلى مرقس انطونيوس	٢٠٨
٤٦٩	محاربة هيرودس للعرب وتزلفه إلى اغسطوس	٢٠٩
٤٧٠	قتل هيرودس مريمنا امرأته واسكندرة أمها	٢١١
٤٧١	الأبنية التي انشأها هيرودس وبعض حسناته	٢١٣
٤٧٢	قتل هيرودس ابنه اسكندر وارسطوبولس	٢١٦
٤٧٣	باقي مظالم هيرودس وموته	٢١٩
٤٧٤	مولد المخلص وستته	٢٢٢

الباب الأول
تاريخ سورية في القرن الأول للميلاد

القسم الأول
تاريخ سورية الدنيوي في القرن الأول

(تمهيد)

٤٧٥ الملوك الرومانيين في القرن الأول ٢٢٥

الفصل الأول
أخبار سورية في المدة التي بين مولد المخلص وحرب اليهود والرومانيين

٤٧٦	ارشيلوس بن هيرودس	٢٣٠
٤٧٧	هيرودس انتيباس وفيليبس	٢٣٣
٤٧٨	ليسانبوس ويسمى ليسانياس	٢٣٥
٤٧٩	ولادة اليهودية بعد الميلاد إلى بيلاطس البنطي	٢٣٨
٤٨٠	اغريبا الأول	٢٤٠
٤٨١	اغريبا الثاني	٢٤٣
٤٨٢	ولاية سورية من الرومانيين إلى حين حربهم لليهود	٢٤٦
٤٨٣	ولاية اليهودية بعد بيلاطس إلى بداية حربهم مع اليهود	٢٤٨

الفصل الثاني
ذكر الحروب بين اليهود والرومانيين

٤٨٤	إيقاد فلورس نار الحرب وما كان في مدة ولايته	٢٥٣
٤٨٥	مقتل اليهود في مدن عديدة	٢٥٦
٤٨٦	حصار غلوس أورشليم	٢٥٨

٢٦٠	٤٨٧	ولاية يوسيفوس على الجليل والمناصبة له
٢٦٢ ...	٤٨٨	ارسال نيرون فسبسيان لحرب اليهود واستحواذه على الجليل
٢٦٧	٤٨٩	الحرب الأهلية في أورشليم
٢٧١	٤٩٠	أعمال فسبسيان في اليهودية وإقامته ملكاً
٢٧٥	٤٩١	حصار طيطوس أورشليم وفتحها وخراب الهيكل
٢٨١	٤٩٢	تممة أخبار الحرب

ذيل

٢٨٣	٤٩٣	بعض مشاهير الكتاب السوريين الدنياويين في القرن الأول
-----------	-----	--

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الأول

الفصل الأول

العهد الجديد والمخلص له المجد

٢٨٧	٤٩٤	العهد الجديد
٢٩٢	٤٩٥	سنة مولد المخلص وتبشير وموته
٢٩٦	٤٩٦	نسب المسيح بما أنه انسان
٢٩٩	٤٩٧	حياة المخلص منذ البشارة به إلى ظهوره للتبشير
٣٠٣	٤٩٨	اللغة التي تكلم بها المسيح
٣١٠	٤٩٩	حياة المخلص وأعماله بحسب الاناجيل
٣٢١	٥٠٠	شهادة أعداء يسوع المسيح له
٣٢٤	٥٠١	شهادة الآثار القديمة للمسيح وتعليمه

الفصل الثاني

العدراء والرسل

٣٢٩	العدراء والدة الله	٥٠٢
٣٣٦	الرسل اجمالاً	٥٠٣
٣٤١	بطرس الرسول	٥٠٤
٣٥٢	رياسة بطرس على الرسل والكنيسة جمعاء	٥٠٥
٣٥٨	بولس الرسول	٥٠٦
٣٨١	رسائل بولس	٥٠٧
٣٨٣	يوحنا الرسول	٥٠٨
٣٨٧	م ٥٠٨ رؤيا يوحنا	٥٠٨
٣٩٠	متى الرسول	٥٠٩
٣٩٣	يعقوب الرسول بن حلفى	٥١٠
٣٩٦	باقي الرسل	٥١١

الفصل الثالث

التلاميذ والمبشرين والمبتدعين

٤٠٦	التلاميذ اجمالاً	٥١٢
٤٠٧	مرقس الانجيلي	٥١٣
٤٠٩	لوقا البشير الانجيلي	٥١٤
٤١٢	الشممامسة السبعة	٥١٥
٤١٧	لعاذر واختاه مرتا ومريم	٥١٦
٤٢٠	تادي رسول ابجر	٥١٧
٤٢٦	خلفاء بطرس في كرسي أنطاكية في القرن الأول	٥١٨
٤٢٨	سمعان خليفة يعقوب الرسول في اورشليم في القرن الأول ...	٥١٩
٤٢٩	بعض أساقفة في مدن سورية في القرن الأول	٥٢٠
٤٣١	المبتدعون الذين كانوا في سورية في القرن الأول	٥٢١

الباب الثاني تاريخ القرن الثاني

القسم الأول التاريخ الدنيوي

(تمهيد)

٥٢٢ لمحة في تاريخ الملوك الرومانيين في هذا القرن ٤٣٥

(فصل)

ذكر بعض أحداث في سورية على عهد هؤلاء الملوك

- ٥٢٣ بعض الأحداث في أيام تريان ٤٤٠
٥٢٤ أحداث في سورية في أيام ادریان الملك ٤٤٢
٥٢٥ ما كان في أيام انطونيوس بيوس في سورية ٤٤٧
٥٢٦ ذكر أحداث في سورية في أيام مرقس اورليوس ٤٥٠
٥٢٧ ذكر ما كان من الأحداث في سورية في عهد
سبتيموس ساويروس ٤٥٢

الفصل الثاني

ما يؤخذ عن الآثار من تاريخ سورية في القرن الثاني والثالث

- ٥٢٨ ما يؤخذ من ذلك عن آثار تدمر وخطوطها القديمة ٤٥٨
٥٢٩ ما يؤخذ من تاريخ هذا القرن عن الآثار في حوران وما يليها ٤٦٤
٥٣٠ آثار أخرى في القرن الثاني في انحاء عديدة من سورية ٤٦٨
٥٣١ ذيل في مشاهير سورية الدنيويين في القرن الثاني ٤٦٩

القسم الثاني التاريخ الديني في القرن الثاني

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم وبعض الأساقفة في سورية في هذا القرن

- ٥٣٢ بطاركة أنطاكية في القرن الثاني ٤٧٣
٥٣٣ بطاركة أورشليم في القرن الثاني ٤٧٥
٥٣٤ من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن الثاني ٤٧٨

الفصل الثاني

من نعلمهم غير هؤلاء من المشاهير الدينيين في سورية في القرن الثاني

- ٥٣٥ القديس يوستينس الفيلسوف والشهيد ٤٧٩
٥٣٦ غير يوستينس من العلماء في سورية في هذا القرن ٤٨٢
٥٣٧ من عاصر العلماء المذكورين من العلماء غير السوريين ٤٨٤
٥٣٨ الشهداء في سورية في القرن الثاني ٤٨٩
٥٣٩ ممن كان من المبتدعين في سورية في هذا القرن ٤٩١

خاتمة هذا المجلد

- ٥٤٠ المبحث الذي كان في كنائس سورية في يوم تعييد الفصح ... ٤٩٦

فاتحة الجزء الثالث

بمَنّ الله وكرمه وفقنا في تدوين تاريخ سورية منذ خلق العالم إلى أيام اسكندر الكبير. وكانت خاتمة كلامنا في الجزء الأول خبر انقراض دولة الفرس وتقلص ظل سطوتها عن سورية. وألحقنا بذلك تراجم الانبياء فتحتهم علينا ان نستتبع كلامنا باخبار سورية على عهد اسكندر الكبير وخلفائه إلى ان تملصت من أيدي دولتهم وخلفهم فيها الرومانيون إلى ان استحوذ عليها الخلفاء المسلمون قبل منتصف القرن السابع للمولد وعليه فقد قسمنا كلامنا في هذا الجزء إلى مقالتين الأولى في تاريخ سورية في أيام اسكندر وخلفائه والثانية في تاريخها على عهد الرومانيين وعلى الله الاتكال في كل زمان وحال.

تاريخ سورية

على عهد اسكندر وخلفائه

الفصل الأول

أخبار اسكندر الكبير

عد ٣٨٩

(١)

لمحة في تاريخ اليونان إلى مولد اسكندر

قد ذكرنا في العد ٤١ ان اليونان هم من ولد ياوان بن يافت بن نوح. وان ذرية ابناء ياوان الأربعة وهم اليشة وترشيش وكثيم ودودانيم أو رودانيم (تكوين فصل ١٠) توطنت بلاد اليونان وما جاورها من الجزر واليابسة. وعليه فياوان هو جد اليونان الأولين على ما قال جمهور من قدماء وحدثاء. ثم لحقت بهم إلى بلادهم جاليات أخصها وأقدمها البلاسج والجمهور، على ان هؤلاء البلاسج من ذرية يافت أيضاً هاجر بعضهم المشرق. فتوطن فريق منهم تراسة ومكدونية وغيرها من بلاد اليونان وتوغل فريق في البلاد فكانت مساكنه في ايطاليا. واستمر فريق منهم في آسيا الصغرى وكان منهم سكان ترويا وغيرها. ولكن قال الاب قيصر دي كارا اليسوعي (في كلامه على الحثيين وارتحالهم)، ما البلاسج إلا الحثيون ظعنوا من آسيا الصغرى فحلوا بلاد اليونان والجزر القريبة منها. وابعدوا في البلاد إلى ايطاليا. وقد ذكرنا قوله وما اقامه له من الحجج في العد ٨٤ حتى العد ٨٨

فطالعه ويظهر ان البلاسج أتوا بلاد اليونان نحو القرن العشرين قبل الميلاد. وانقسموا إلى قبائل وفصائل عديدة وقد لحقت بالبلاسج إلى اليونان جالية أخرى من الفينيقيين يرأسها قدموس الذائع ذكره. والأظهر الذي قال به أكثر العلماء ان ارتحال هؤلاء كان في القرن الخامس عشر قبل الميلاد (طالع عد ٨٧). وقد اجمعوا على أن قدموس إنما هو الذي أدخل الحروف الهجائية في لغة اليونان لتسميتها فينيقية وقدموسية وآرامية. وللقرب بين الحروف القديمة في اللغتين صورة ولفظاً ووضعاً وعدداً وقد زاد اليونان المتأخرون بعض أحرف على الأصل. وولى قدموس وبعض ولده في بعض أعمال بلاد اليونان. وتبعهم منازيح من مصر فأدخل النزالة الشرقيون الحضارة في تلك البلاد وعلموا أهلها صنائعهم وبثوا فيهم عبادة آلهتهم.

وظهر هناك قوم سموها هيلانيين تغلبوا على البلاسج في القرن السادس عشر إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد وبسطوا سرادق ولايتهم على البلاد فارتحل جم غفير من البلاسج إلى الأقاليم القريبة. وتوطنوا فيها وكان من الهيلانيين فصيلة تسمى كراي أو كراشي (اغريق أو كراك). فغلب اسمها على سكان البلاد أجمعين. وانقسم الهيلانيون إلى ثلاث فصائل ايولين ويونين ودورين، وكانت بينهم وبين غيرهم من سكان بلادهم حروب عديدة أشهرها حرب ثاب سنة ١٣١٣ وسنة ١٣٨٣ ق.م، ثم حرب ترويا المشهورة واختلف في زمانها. فمن قائل إنها كانت سنة ١٢٨٠ إلى سنة ١٢٧٠ ق.م. ومن قائل سنة ١١٩٣ إلى سنة ١١٨٣ ق.م. ومن قالوا بهذا دوري في تاريخ بلاد اليونان (مجلد ١ صفحة ١٣٨). وقال بعض المؤرخين الحديثين إن هذه الحرب متأخرة ولم تكن إلا بعد قرون، وكان لكل فصيلة وعمل ملك مستقل ثم أثر أكثرهم الحكومة الجمهورية فأبطلت أثينا الملكية سنة ١١٣٢، وارغوس سنة ٨٢٠ ق.م، وقرنتية سنة ٧٤٧ ق.م ولم تبقى الملكية إلا في سبرتا.

وكان بين اليونان والفرس حرب عوان دامت أعواماً طويلاً تسمى الحروب المادية ابتدأت سنة ٤٩٠ ق.م. وكان لليونان فيها انتصارات أثيلة منها استظهاهم على الفرس في ماراتون سنة ٤٩٠ ق.م. وفي سلمينا سنة ٤٨٠ ق.م. وفي بلاتا سنة ٤٧٩ ق.م. وخلدت هذه الحروب ذكر ملسياد وتموستكل وسيمون واريستيد وليونيداس. ورقي اليونان في هذه الحقبة مدارج التقدم في العلوم والفنون والصنائع وذاع حينئذ صيت اشيل وسوفكل وارييد في المآسي (TRAGEDIE) واريستوتحان

في غيرها من الروايات (COMEDIE) وهيروdot وتوشديد في التاريخ. وانشأ تالس ودموكريت وبيتاغوروس وغيرهم معاهد لتعليم الفلسفة وبسط هذا العلم. وأدخل عليه اصلاحات بعدهم سقراط ثم أفلاطون وأرسطو ووضع بقراط اصول الطب، واشتهر فيدناس بصناعة حفر التماثيل وصنع النقوش البديعة.

ثم طراً على اليونان الوهن والضعف لحروبهم الأهلية وكانت أثينا وسيرتا تتنازعان السطوة والسؤدد فكانت بينهما الحرب المعروفة بحرب المورة استعرت نارها سبعاً وعشرين سنة من سنة ٤٣١ ق.م. إلى سنة ٤٠٤ ق.م. وانتهت بافتتاح السبرتيين أثينا، وتغلب سطوة سيرتا على بلاد اليونان، على أن السبرتيين أساءوا التصرف بسؤددهم، فثار عليهم سائر مواطنيهم وعزز قونون وايفيكرات وشيرياس جانب أثينا. وعقد انتلثيداس ملك سيرتا صلحاً مذكلاً مع ملك الفرس سنة ٣٨٧ ق.م. فأهاج على السبرتيين حتى اليونان أجمعين فتقلص ظل سطوتهم. فانتهر فيلبوس ملك مكدونية فرصة منازعات اليونان فاخضع أكثرهم لنير سلطنته، وأتم إخضاعهم في وقعة شارونا سنة ٣٣٨ ق.م. رغماً عن بذل ديموستان قصارى جهده في تأليف قلوبهم وتوحيد كلمتهم وتشجيعهم: وفيلبوس هذا هو أبو اسكندر الكبير الذي سنسبط تاريخ أعماله وأعمال خلفائه في هذه المقالة.

عد ٣٩٠

مولد اسكندر وترجمة حياته إلى ملكه

ولد اسكندر لفيلبوس ملك مكدونية ولاولبيا زوجته في ٢٩ تموز سنة ٢٥٦ ق.م. وروى بلوترك أن أباه تطير لورود ثلاث بشائر إليه في يوم واحد مولد ابنه، وانتصار أحد قواده، ونيله الاكليل في ملاعب اولمبيا. وكانوا يتشاءمون بمثل ذلك فخشع إلى المشتري قائلاً: «احل بي حالاً مصاباً خفيفاً بدلاً مما غمرتني به من نعمك». وقال كثير من المؤرخين القدماء ان فيلبوس الملك كتب بعد أيام من ولادة ابنه إلى أرسطو الرسالة الآتية: «أخبرك إنني رزقت ابناً وشكرت للالهة على رزقهم لي إياه شكراً لا يوازي شكري لهم على ولادته في أيام أرسطو. وأعلل نفسي إنك تجعله خلفاً أهلاً لنا وملكاً أهلاً لمكدونية». وحكى بلين (ك٣٦ فصل ١٤) إن يوم ولادته التهمت النار هيكل ديانا في أفسس الذي كان من عجائب الدنيا السبع. فكان

ذلك مشوياً على آسيا الصغرى التي ذللها في بدء ملكه. وكان اسكندر منذ نعومة اظفاره طماعاً عشيق المجد والمعالي وكان كلما تلقى خبر ظفر لأبيه أو افتتاح مدينة لم يشاطر أهل المملكة سرورهم، بل كان يقول للصبيان عشرائه بلهجة آسف: «خلاني أبي يأخذ كاشي ولا يدع لنا ما نصنع».

وأتى سفراء ملك فارس يوماً وأبوه غائب فرحب بهم وأكرم مثواهم حتى دهشوا من ذكائه على حداثة سنة. وزادهم دهشة أنه لم يطارحهم مسألة يشتّم منها رائحة الصبوة. مثلاً لم يسألهم عن الجنات المعلقة في الجو في بلادهم، ولا عن غنى ملكهم ولا عن الغرائب التي في وطنهم؛ بل سألهم بأي الطرق يسار إلى بلادهم وكم تبعد من مكدونية وبمّ تقوم قوة ملوك فارس؟ وأي موقف يتخذ ملكهم أبان الحرب وكيف يسوس شعبه؟ وكيف يعامل أعداءه وما أشبه. فقضى السفراء العجب العجائب وقالوا: «هذا الأمير الصغير كبير وأما ملكنا فغني». ولا يخفى ما في كلامهم من تفضيل اسكندر على ملكهم وليس الغنى بفضل: يذكر ويشكر.

وكان اسكندر فهامة متوقد الذكاء خلقاً فما يكون وقد تولى أرسطو أكبر فلاسفة عصره تعليمه وتهذيب أخلاقه. وبالغ في العناية به وكان اسكندر مطوعاً له يقدره حق قدره، ويجلّه اجلاله لأبيه حتى كان يقول إن أباه منّ عليه بأن يكون من الأحياء وأما أرسطو فبأن يحيى حياة حسنة».

وكان جد التلميذ ونجاحه كفوءاً لعناية استأذه به وقد علّمه أرسطو العلوم الرياضية والفصاحة والفلسفة إلى غيرها مما يجدر بملك أن يتعلّمه. وأكبّ اسكندر خاصة على علم تهذيب الأخلاق الذي مداره على معرفة الانسان فروضه لله ولنفسه ولغيره. ولم يغفل الطب أيضاً فقد حكى عنه أنه عالج كثيرين من أصدقائه وجنوده في أمراضهم. وكان ولوعاً بتلاوة أشعار اوميروس ليقبس منها الحماسة والسجايا الحسنة، حتى إنّه لما كسب من دارا في حربه قشوة عطوره الثمينة لم يرّها تحسن إلّا لوضع كتب اوميروس فيها. وكتب إلى أرسطو رسالة بينما كان متشاعلاً في الحرب في آسيا ومما قاله فيها: «إنّه يحب أن يفوق الناس بعلمه الأمور السامية أكثر جداً من أن يفوقهم بعظمته وانبساط ملكه». وكان حزوماً عزوماً لا تثنيه القوة عن عزمه ويثنيه عنه البرهان السديد بسهولة. ولما بلغ السادسة عشرة من

عمره واضطر أبوه أن ييارح مكدونية عهد إليه بتدبير مهام المملكة بمطلق السلطان، فقام بذلك أحسن قيام متصرفاً بالسداد والشجاعة كأعظم الرجال المحنكين بالسياسة. واشتهر بالبسالة والاقدام في حرب شارونا المشار إليه.

عد ٣٩١

ملك اسكندر واخضاعه آسيا

توفى فيلبوس الملك سنة ٣٣٦ وعمر اسكندر ابنه عشرون سنة، فرقى، منصة الملك تخلفها أهوال وأخطار. وكان بعض الشعوب المجاورين مكدونية جاهدوا بالعصاة فذلهم وردهم إلى الطاعة وهب إلى بلاد اليونان يشتت شمل المتحالفين. وأخذ تاب ودئرها وعفا عن أهل أثينا الذين كانوا ناوؤه. ولا نطيل الكلام في أعماله هذه لخروجها عن دائرة غرضنا وسماه قومه القائد العام لجيوش اليونان على الفرس، وعاد إلى مكدونية يتأهب للحرب في آسيا.

قد جمع اسكندر كبراء دولته واستشارهم في أمر حملته على الفرس فلم يكن من مخالف لرأيه إلا اثنان من أعوانه رغبا إليه أن يتزوج قبل سفره، فقال إنه يخجل بأن يضيّع زمانه بحفلة زواجه، وأكثر من هباته لعماله وجنوده حتى قال له بردبكاس وزيره: «مولاي ما تبقى لنفسك؟ فقال الرجاء. فأجابه الوزير إذا يلزم أن يكفينا الرجا مؤونة». ولم يكن جيش اسكندر حينئذ إلا عشرين ألف راجل وأربعة أو خمسة آلاف فارس. ولكن جميعهم من الكماة الأشداء سار بهم إلى أن عبر الدردنيل ووثب من زورقه ووطأت رجلاه أرض آسيا قبل جميع جنده، وقدم محرقات لآلهته، وزحف بجيشه لا يلقي معارضا إلى أن بلغ الضفة نهر كرانسيك في فريجيا. وكان أرسيتاس والي هذه البلاد من قبل دارا على الضفة الأخرى ليمنعه عبور النهر وجيشه مئة ألف راجل وأكثر من عشرة آلاف فارس على ما روى ديودرس الصقلي. وكان ممنون الرودسي أحد عمال دارا اشار على قادة جيشه أن لا يحاربوا اسكندر بل أن يدمروا البلاد بوجهه ويتركوها قاعاً صفصفاً، فيكرههم الجوع أن يعودوا على أعقابهم. ولم يعمل ارسيتاس بمشورته وكان من رأي برمنيون قائد رجال اسكندر أن ينتظر الجيش الغد ليشب غلساً فيعبر النهر بأقل مشقة وخالفه اسكندر قائلاً إنه يرى التلوم في عبور نهر عاراً عليه. وقد عبر

الدردنيل ولا يشاء أن يحط من مهابة سطوته وبسالة جنوده. وكانت فرسان العدو تحديق بضفة النهر والرجالة من ورائهم على أكمة بينهم يونان استأجرهم دارا فاقتحم اسكندر النهر وتبعه طليعة من فرسانه. فتهافت الفرس عليهم ورموهم بالنبال كالديم الهطلة فتقهقرت هذه الطليعة وتجنبدل منها الصف الأول فعاجلها اسكندر ينجدها برجال الميمنة التي كانت تحت أمرته ثم برجال الميسرة التي كانت تحت أمرة برمنيون وتعالى هتاف الجيش كله ووثبوا على الفرس دفعة واحدة فشتتوا شملهم وقتلوا كثيرين منهم وأسروا منهم ألفي رجل.

وقد قُتل من المكدونيين في الكرة الأولى خمسة وعشرون فارساً أقام لهم اسكندر في ديون تماثيل من نحاس. ولم يقتل بعد ذلك من الفرسان إلا ستون فارساً ومن الرجالة ثلاثون فدفعهم اسكندر مع سلاحهم تبيناً لبسالتهم. وأعفى آباءهم وأولادهم من كل جزية وضريبة، وكان يعود الجرحى ويفحص حالة جراحهم ويتودددهم. ودفن بكرامة قادة الفرس الذين سقطوا في القتال حتى من كان معهم من اليونان الذين استأجرهم الفرس، ولكن كُتِل بالقيود من وقع أسيراً من هؤلاء المستأجرين. وأرسلهم إلى مكدونية لنقضهم عهد الملكة بحاربهم اليونان ابناء جلدتهم (روى ذلك أريان ك ١ صفحة ٣٦) وديودورس الصقلي (ك ١ صفحة ٥٠٣) وغيرهما. وكانت هذه الواقعة سنة ٣٣٤ ق.م. إنَّ هذا الظفر يشير لاسكندر افتتاح سائر آسيا الصغرى، فإن سرد (في ولاية أزمير لآن) استسلمت إلى الغازي فتركها وحريتها والعمل بشرائعها. وبلغ أفسس وأعاد إليها الحكومة الجمهورية كما أثر أهلها، وأمر أن تنفق على تجديد هيكل ديانا الجزية التي كانت تُدفع للملوك الفرس، وعرض على أهل أفسس أن يرُدَّ عليهم كلما أنفقوه على الهيكل، ويقوم بكل ما يقتضى لاتمام بنائه بشرط أن يسيحوه نقش اسمه على جداره، فأبوا وتخلَّصوا منه بقولهم لا يحسن أن يقيم إله نصباً لإله آخر. وأرسل اسكندر شراذم من جنوده تشهد خضوع أهل المدن المجاورة له، وسار في طريق شاطئ البحر فانتهى إلى ميلات المسماة الآن بلانكا، فاغتر أهلها بإنجاد أسطول الفرس الذي كان هناك لهم. ووصدوا أبواب مدينتهم في وجه الغازي فما عثم أن افتتحها وعامل بالحلم سكانها، وأقلع الأسطول الفارسي من هناك. وصرف اسكندر أسطوله ولم يبق منه إلا ما كان لا بد منه لنقل أدوات الحرب. وفعل ذلك اقتصاداً كيلا يتحمَّل نفقاته على غير داعٍ، وإمّا كيلا يومل جنوده العود عن جهادهم.

وسار إلى البكرناس وطن هيرودت أبي التاريخ المسماة الآن بودرون، ولم تجدها نفعاً بسالة ممنون (عامل دارا المشار إليه) الذي كان فرّ ببعض ذويه من وجه اسكندر إلى هناك، لأنّ الغازي افتتحها عنوة وانهزم ممنون ببعض أهل المدينة إلى جزيرة كوس القريبة منها.

وبعد هذه الوقائع دان كثير من ملوك آسيا لاسكندر، ومنهم متريدات الثاني ملك بنطوس، ولما كان قد أقبل الشتاء أباح اسكندر من كان تزوج من جنوده تلك السنة أن يرجع إلى أهله مدة الشتاء ليعود إلى المعسكر في فصل الربيع طبق ما رسم موسى في سفر التثنية (فصل ٢٤ عد ٥). وربما كان أرسطو عرف ذلك فلحقه تلميذه اسكندر، ولما كان الربيع سنة ٣٣٣ ق.م زحف اسكندر بجيشه مخضعاً سائر أعمال آسيا الصغرى إلى أن انتهى إلى فيليقية، وأرسل أمامه برمينون إلى ترسيس فبلغها والفرس عاملون على إحراقها كيلا يغتم عدوهم هذه المدينة الغنية، فأنقذ برمينون المدينة من الحريق وهزم الفرس. ووصل اسكندر إلى نهر كدنا في خارج هذه المدينة والحر شديد والعرق يرشح من كل مسامه فأحب أن يغتسل به ولم يبتل جسمه إلّا وأخذته قشعريرة شديدة، ثم وقف حشّه ورشده حتى خشى عليه أن تدركه المنية، وعمت الكآبة جيشه، ولم يجسر الأطباء أن يعطوه أدوية قوية، لأنّ دارا أذاع أنّ من قتل اسكندر نقده ألف وزنة، وزوجه باخته، ومملكه في مكدونية على أنّ فيليبوس أحدهم الذي كان صديقاً مخلصاً لاسكندر أعدّ دواءً فعلاً دنا به إليه فتناول اسكندر الكأس ييمناه وقد كان عاوده رشده، وناول فيليبوس يسراه رسالة كان كاتبها يحذره اغتيال فيليبوس، وشرب الكأس إلى آخرها غير مبالٍ. فاضطرب فيليبوس كل الاضطراب من هذه التهمة على أنّ ذلك الدواء نجح باسكندر فبلّ من مرضه، وعرض بعد ثلاثة أيام على جنده، وفرحوا به وأكثروا الاطراء على الطبيب.

عد ٣٩٢

وقيةة ايسوس بين اسكندر ودارا

إنّ ممنون الرودسي كان قد أشار على دارا أن يثير الحرب على مكدونية فيمالؤه عليها أهل سبرتا وغيرهم من خصوم اسكندر، فتكون هذه الذريعة الفضلى لرده عن

آسيا، فأذعن دارا لهذه المشورة، وجعل ممنون قائداً لأسطوله في البحر المتوسط لينفذ ما أشار به. فاستولى على ساقس وليسبوس كلها إلا مدينة ميتلين منها ومات إذ كان محاصراً لها. ويُس دارا من البقاء في آسيا فهم بالحفاظة على سورية. فألب عسكراً جراراً لا ينقص عن ست مئة ألف رجل واستشار القادة فيما يصنع، فأشار عليه القادة اليونان الذين استأجرهم أن يتربص حيث كان في سهل فسيح في بلاد آشور منتظراً عدوه، وإن لم يحسن له التربص فليختر من هذا الجيش رجال الحرب وبسلاؤه، ويطلق الباقين لثلا يعرض جنوده كلها للانكسار دفعة واحدة ولتهلكة في يوم واحد. وخالفهم القادة الفرس فأشاروا على دارا أن يزحف بهذا الجيش العرمرم وأوقعوا شبهة الخيانة على القادة اليونان، ورغبوا إليه أن يمتهم فأبى انزال الضرر بهم، لكنه عمل بمشورة حاسديهم، وأرسل ما كان معه من المال والنفائس إلى دمشق، وسار بجيشه نحو فيليقية ومعه زوجه الملكة وأمه وبناته وابنه الصغير، واما اسكندر فأرسل برمنيون وقسماً من جيشه ليستحوذ على معبر سورية من جهة فيليقية ليأمن من مسير جيشه في ذلك المعبر. فولى برمنيون ايسوس الكائنة على خليج اسكندرونة في الشمال منها وضبط معبر سورية، وأقام فيه حامية وجاء الملك في عقبه واجتاز معبر سورية بسائر جيشه. وترك مرضاه في ايسوس ووفد دارا بجحافله إلى ايسوس وهو يظن اسكندر ورائه. وقد كان تقدمه فزين له أعوانه ان اسكندر منهزم من وجهه نحو سورية فما عليه إلا ان يتبع آثاره، فقتل دارا المرضى الذين كان اسكندر أبقاهم في ايسوس، واستبقى بعضهم وعرضهم على جيشه ليزيده شجاعة.

وبلغ اسكندر ان دارا من ورائه فكاد لا يصدق الخبر لوفرة سروره به لأن الموقف يلائمه كثيراً. وحسب الآلهة ساقط دارا إلى هذا المضيق ليهلكه فإن البحر هناك من جانب وجبل داغ من آخر، وليس بينهما إلا أرض تضيق عن جحافل دارا الكثيرة، وتكفي جنود اسكندر اليسيرة لحركة الحرب، فسوى المحل الحرج بين قوة الملكين فلم يكن للفرس ان يشغلوا من جنودهم إلا العشر أو أقل منه، وكان لاسكندر ان يشغل عسكره كله. وقام اسكندر ليلاً وقدم الضحايا للآلهة على عادته وأطعم جنوده وساقهم نحو عدوه. وصقهم للقتال فجعل نيقانور على ميمنة عسكره من جهة الجبل، وبتلاميوس على ميسرته من جهة البحر، وسار هو في قلب جيشه وكان بين الجيشين نهر يسمى بيناروس. وجعل دارا ميمنة جيشه على شاطئ البحر، وأقام ثمة أكثر الفرسان وميسرته نحو الجبل

وعبر النهر منها ثلاثون ألف فارس وعشرون ألف راجل ينوون الإيقاع بجيش اسكندر من الورا. وأقام تسعين ألفاً في الوسط تسد معبر النهر على المكدونيين. وأما اسكندر فسار بجيشه أولاً الهوينا لئلا يخل سلك صفوفه حتى إذا دنا من معسكر العدو أطلق العنان هو ومن معه، وأسرعوا اسراع الماء المنهمر من شاهق، آثرين ان يتلاحموا مع العدو على ان يتعرضوا لنباله. وانقضوا على الأعداء يجالدونهم بالسيوف وجهاً لوجه واسكندر في حومة الوغى يعمل سيفه كجندي ويأمر كقائد. وولى من بقي من هذه الفرقة مدبرين ولم يتيسر لجميع المكدونيين لحاق الملك بهذه الكرة فاخترقت صفوفهم. فأمطر اليونان الذين استأجرهم دارا بنبالهم على من بقي من جيش اسكندر في عبر النهر. فوقع هناك صريعاً بتلمائس بن سلوقوس ومئة وعشرون رجلاً من أعيان مكدونية. وتلظت نار القتال إلى ان بددت ميمنة اسكندر من كانوا امامها وفاجأت اليونان المذكورين عن جانبهم فأوقعت فيهم ملحمة. وشئت شمل الباقيين ووثب فرسان الفرس الذين كانوا عبروا النهر على فرقة التساليين من جنود اسكندر وضايقوهم، ولكن لم يلبثوا ان رأوا جيشهم تبدد وذهب الفرس شذراً مذر. فعاد الانكسار تاماً وظفر اسكندر بيناً فتهافت جيش دارا العرمرم على الفرار في تلك المضايق الوعرة فهلك منه جم غفير بأرجل الخيل خارجاً عن ساحة الحرب أيضاً، وأما دارا فمذ رأى التواء ميسرة جنده عمد إلى النجاة بالفرار على مركبته. ولما بلغ الحزون في الجبل ترك برفيره وسلاحه، وامتنطى جواداً ظل يعدو به إلى أن حجبه الظلام عن لحاق الظافر الذي أخذ مركبته. وكان عدد القتلى من الفرس نحو مئة ألف رجل على ما روى أريان، ومن المكدونيين ثلاث مئة راجل ومئة وخمسين فارساً. وكانت هذه الواقعة في ال ٢٩ من تشرين الثاني سنة ٣٣٣ أو سنة ٣٣٢ ق م. على قول آخر، وقد رواها بلوترك في ترجمة اسكندر واريان وغيرهم.

وفي الغد زار اسكندر الجرحى غير مباي بالأم كان أصابه في فخذه وأمر بدفن القتلى بمعظم التكرم. وخطب مطرياً ما رآه أو سمعه عن بسالة هؤلاء الأبطال، وتوفرت جوائزه على من ظهرت شجاعته من جنوده. وحكى بعض المؤرخين أنه دخل خباء دارا فسمع بكاء نسوة في الخباء الآخر فقال ما البكاء ومن هذه النسوة؟ فقليل له إنهن أم دارا والملكة وبتاه وابنه وبعض نساء خواصه سمعن أن برفير الملك وسلاحه بيد الظافر فلم يشككن في أنه قضى، فأخذن في البكاء، فأرسل ييشرهن أن دارا حي ويومنهن قائلاً أنه لم يحارب دارا لبغضه له بل لينزع منه ملك آسيا.

وزارهن في الغد ولم يصحبه إلا أفاستيون أحد أعوانه المقربين إليه، فلم تعلم أم دارا أيهما الملك، فخرت أمام أفاستيون فنبهها من حوله إلى غلطها فخرجت، فجاملها اسكندر قائلاً لم تغلطي فهذا أيضاً اسكندر.

روى بلوترك رسالة لاسكندر يتبين منها أنه انقطع بعد ذلك عن زيارة أسرة دارا لئلا يطمح به ميله إلى حب الملكة، فقد كتب في هذه الرسالة إلى برميون ليعاقب بال موت بعض الجنود الذين اعتدوا على نساء أعدائهم ما ترجمته: «أما أنا فلا سبيل لأحد ليقول عليّ إنني نظرت أو أحببت أن أنظر إلى امرأة دارا، بل لم أحتمل البتة أن أحداً يتكلّم في جمالها بحضرتي». فليتأمل شبان عصرنا ويتعظوا.

عد ٣٩٣

أعمال اسكندر في سورية إلى حصار صور

زحف اسكندر بجيشه يؤم فينيقية وسورية فلم يلقَ معارضاً إلى أن انتهى إلى صور، فإنّ انخزال دارا الذي كان يلي سورية وتشتيت شمل جيشه أوقع الرعب في قلوب الفينيقيين والسوريين. فدان أكثرهم له طائعين وبينما كان في مراتا المعروفة الآن بعمريت وردت إليه رسالة من دارا يسمي نفسه فيها ملكاً ولا يسمي اسكندر كذلك، ويطلب إليه أن يأخذ من المال ما شاء على شريطة أن يرد عليه أمّه وامرأته وأولاده. وإنه إذا أراد فصل النزاع على الملك كان الفصل في وقعة حرب تستوي فيها جنود الفريقين عدداً وإن أصغى لرأيه فيشير عليه أن يكتفي بملك أجداده ويعرض عن ملك غيره. وإنه سيكون معه على اخاء ووداد، وهو مستعد أن يؤمنه ويقبل تأمينه له. فساءت هذه الرسالة اسكندر فكتب إليه ما يأتي: «من الملك اسكندر إلى دارا أنّ دارا القديم الذي أخذت اسمه أنزل الوبال في اليونان المقيمين على شاطي الدردنيل وغيرهم من جالياتنا، ثم اجتاز البحر بعسكر جرار وأوقد نار الحرب علينا في مكدونية نفسها وفي سائر بلاد اليونان، وكيخسرو بعده أتاناً بجيش عرمم من البربر لينكل بنا فكسر وذعر في حرب في البحر. لكن ترك خلفه مردنيوس في بلاد اليونان ينتهب في مدننا ويخرّب في قرانا وأرضنا، وكلّ يعلم أن أبي فيليبوس اغتاله من أغراهم عمالك برغائب كبيرة، فأنتم الفرس تثيرون حروباً ولا تفكرون أظالمة هي أم عادلة، وبينما سلاحكم بأيديكم تغرون الأئمة باغتيال

أعدائكم فأنت نفسك وعدت عما قليل بألف وزنة من يقتلني وأنت محتفٌ بجيش عرمم، فأنا إذا أدافع عن نفسي ولست المعتدي ولذلك نصرني الآلهة وأخذت قسماً كبيراً من آسيا. وعليه فإذا لم يتوجب لك عليّ شيء مما تطلبه فإن حضرت إليّ خاضعاً رددت عليك دون فدية أملك وامراتك وأولادك. فأريد أن أثبت لك إني أعلم أن أظفر وأعلم أن أحلم على من ظفرت بهم، وإن خشيت أن تمثل بين يدي فعهدي لك إني ضامن لحياتك وإذا كتبت إليّ مرة أخرى فاذا كررتُ أنّك لا تكتب إلى أي ملك كان بل إلى ملكك».

ولما بلغ الغازي جبيل خرج سكانها إلى لقائه خاضعين مرحبين به فامنهم وشكر لهم خضوعهم له. ولم نجد ذكراً لبيروت عند هذه الأحداث، فلم يكن لها يومئذ ما كان لصور من الأهمية. وقد مرّ في عد ٣٦٩ أنّ أرتخششتا أوكوس كان حرب صيدا قبل ثماني عشرة سنة وحرقت جم منهم نفوسهم في بيوتهم كيلا يتحكم الفرس فيهم، وبعد أن قفل أوكوس عائداً إلى فارس عاد إلى صيدا من نجا من أهلها وجدّدوا بناء مدينتهم، وتأصل فيهم مقت كل ما كان من فارس، فما سمعوا بأخبار قدوم الغازي إلّا هبّوا جميعاً رجالاً ونساءً إلى لقائه جبراً على ما جد به من الممانعة لهم ستراتون ملكهم الذي كان محازباً لدارا . فانتزع اسكندر الملك منه وأمر أفسستيون نديمه أن يختار من الصيداويين من يراه أهلاً ليملكه.

وكان أفسستيون حالاً في دار شابين أخوين من أوجه أهل البلد عُرفا بالفضل والذكاء. فعرض الملك عليهما فأياه محتجين بأنّ شريعة مملكتهم تمنع من لم يكن من النسل الملكي أن يرتقي منصّة الملك. فعجب من ابائتهما ما يلتمسه غيرهما بالحديد والنار وقال لا تنفكا عن هذا العزم أنتما اللذان كانا أوّل من أدرك أنّ رفض الملك أشرف من الحصول عليه، ولكن أهدياني إلى رجل من النسل الملكي يذكر إذا صار ملكاً أنكما زينتما رأسه بالتاج. وذكر الأخوان أنّ كثيرين ممّن تولاهم الطمع وتعشقوا المجد سيتزلفون إلى أعوان اسكندر بغية الحصول على الملك، وهم غير أهل له فقالا لنديم الملك أنّهما لا يجدان أولى بالملك من رجل اسمه عبدوليم هو من ذرية ملوكهم، لكنه فقير الجأته حاجة معيشته أن يشتغل في بستان في ضواحي المدينة. فقال النديم استدعياه إليّ ليملكه الملك، فمضوا إليه بالمطارف الملكية فوجداه مشغولاً بقلع الأعشاب الخبيثة من البستان فحياه تحية الملوك وقال أحدهما له إنزع عنك هذه الأثواب الأخلاق واتّشح بهذه المطارف، واحرس وأنت

فوق العرش على حفظ الفضيلة التي أوصلتك إليه. وإذا صار في يدك الموت والحياة فلا تنسَ الحال التي كنت فيها والأولى أن يقال التي لأجلها اخترت للملك، أما هو فكان يحسب ذلك اضغاث أحلام، وقال أما تستحييان أن تسخراني وتزدراني. وكابر على مخالفتها فنفضا الغبار عنه وألقيا عليه البرفير وكررا الإيمان على صدق مقالهما. واستجراه إلى حضرة الملك وذاع الخبر فطرب له الأكثرون وامتنع منه الأغنياء وذوو المطامع، ولما مثل أمام اسكندر حدّق به طويلاً ثم قال إن هيتك لا تخالف ما قيل عن أصلك وأروم أن أعلم بأي صبر تحمّلت الفاقة؟ فقال قدرني الآلهة أن أتحمّل هذا التاج كما تحمّلتها، فيداي كانتا تسدان حاجتي، وإذا كنت لا أملك شيئاً لم يعزني شيء. فأعجب جوابه اسكندر فدفع إليه كلّ ما كان من الأثاث لستراتون سلفه وزاده أشياء مما غنمه من الفرس والحق بمملكته عملاً مجاوراً لها.

وكان اسكندر قد أرسل برمنيون إلى دمشق ليستحوذ على خزائن دارا التي أرسلها إليها كما مرّ. ولما كان والي هذه المدينة قد يئس من نجاح دارا عمد إلى خيائته. فكتب إلى اسكندر أنّه سيسلم إليه كل ما كان لدارا في دمشق من دراهم أو متاع أو آنية ثمينة، على أنه يروم أن يستر خيائته بتظاهره أنّه يرسل هذه الأموال إلى دارا لعدم طاقته الاحتفاظ بها في دمشق. فيلتقي أعوان اسكندر حاملها فيغصبونها من أيديهم ففرض برمنيون الرسالة المنفذة إلى الملك وأتفق مع والي على ما عزم عليه، وفي الغد سحراً حمل والي خزائن دارا وأرسلها مخفورة ببعض الجنود وهو يصحبهم، ولما رأى هولاء جنود برمنيون أظهروا أنّ الرعب أخذ فيهم كل مأخذ فتركوا تلك الخزائن وولوا مدبرين. وكان والي أوّل الفارين وقد حوت من الذهب والفضة والآنية والحلى والحلل الثمينة ما يشد عن العد والوصف، فضلاً عما كان لبعض أعيان الفرس الذين كانوا في دمشق، وخرجوا منها عند اخراج خزائن الملك فوقعوا في يد جنود اسكندر.

عد ٣٩٤

حصار اسكندر صور وفتحها

سار اسكندر بجيشه من صيدا إلى صور وكانت هذه المدينة ما برحت على

منعتها متوفرة السكان عظمة الثروة منبسطة الصولة «يؤمنها الناس من كل صقع للتجارة وقبل أن يبلغها اسكندر أرسل الصوريون إليه وفوداً وهدايا له ومرطبات لجنوده قائلين إنهم يحبون أن يتخذوا الغازي صديقاً لا مولى، فقال اسكندر للوفد إنه يريد أن يدخل مدينتهم ليقدم ضحية لمعبودهم، فأنكروا عليه سؤاله وساءه إنكارهم. وصرح بعزمه أن يحاصر مدينتهم فتأهبوا هم للدفاع وكان معظم أبنية صور في جزيرة تبعد عن اليابسة أربع غلوات ولها سور ارتفاعه مئة وخمسون قدماً. وكانت عمدة من القرطجينين وقتل في صور أتوا على عادتهم يقدمون التقدّم لهرقل لأنهم جالية من الصوريين، فوعدوا أهل وطنهم القديم بإنجادهم إذا منّت الحاجة. فزادهم ذلك إصراراً على المدافعة وملأوا أسوارهم وأبراجهم من أدوات حربهم، وسلّحوا شبانهم وطرق صناعتهم أيدي من حديد يلقونها على العدو أو على أدواته فتجرها. وكان اسكندر يرى أن لا بدّ له من فتح صور ليتيسر له فتح مصر ولثلا يجرى دارا على تجديد المغالبة له. ويفسح مجالاً للصوريين ليضموا أسطولهم إلى أسطول الفرس ويستحوذ أعداؤه على مدن الشواطئ ويتصلوا إلى بلاد اليونان فينكلوا بها. وتفوته ثمرة انتصاره وتدور الدوائر عليه، فصمّم على حصار صور ولو حال دون الفتح أعظم الأهوال والمصاعب.

وكان الدنو من الجزيرة لهاجمتها مستحيلاً إلا أن يُوضع سدّ يوصلها باليابسة. وكان دون هذا الصنيع مصاعب لا يقوى على إزالتها، ومنها أن الدبور (الريح الغربية) تهبّ عاصفة في البحر ثمة فيقلع التيار كل ما يكون ألقى في البحر. والأمواج تلطم المدينة من كل صوب فلا تمكّن من الدنو منها أو من وضع سلالم يتسلّق بها على أسوارها على أن بسالة اسكندر لا تثنيها مصاعب ولا عقبات. ومع هذا حاول أن يسترضي الأهليين فبعث منادين يندرونهم بشرّ العقابة ويستدعونهم إلى السلم والأمان فقتلهم الصوريون عن آخرهم.

فضاق ذرع اسكندر عن تحمّل هذه الإهانة وأمر للحال بعمل السدّ. ووجد في أخربة صور القديمة (التي كانت على شاطئ البحر) من الحجارة ما يتكفل بردم البحر هناك، وفي لبنان ما يكفيه مؤونة الأخشاب اللازمة. وتولى اسكندر بنفسه النظارة على الردم فكان حضوره يحمل جنوده على العمل دون كلل ولا ملل، وهو خبير بكسب النفوس خبرته بفنون الحرب، فنجع مسعاهم أولاً لقربهم من البرّ وبعدهم عن المدينة، ولكن كانوا كلما تقدّموا في البحر إزدادت المصاعب لعمق

البحر ولرمي أهل المدينة لهم بالنبال من أعلى الأسوار؛ ولما لم يكن لهم معارض في البحر كانوا يتقدمون بزوارق إلى جانبي السدّ يخربون ما بنى ويعيقون العملة ويسخرون من المكدونيين قائلين ما أحسن أن نرى هؤلاء الغزاة الطائر صبيتهم في العالم يقلّون الحجارة على ظهورهم كدواب الحمل. ولما ظهر السد فوق الماء كانوا يرسلون زوارق فيها رماة بالمقاليع والحراب فتحدق هذه الزوارق بالسدّ وتطر على العملة نبالاً وحجارة فتدمي كثيراً من العملة. ويضطرون أن ينكفوا عن العمل ليتفرغوا للدفاع عن أنفسهم إلى أن اهتمدوا إلى نشر جلود وستائر تقيهم النبال وأقاموا برجين من خشب في صدر السدّ لمنع العدو من الدنو منه.

وخرج بعض الصوريون إلى البر من حيث لا يراهم المكدونيون فوقعوا على ناقلي الحجارة فقتلوا منهم ثلاثين وأسرهم ثلاثين. فاضطرّ اسكندر أن يفرّق جنوده في مواقف عديدة صيانةً لهم، ولم يغفل المحاصرون حيلة في منع اسكندر من اتمام سدّه، من ذلك أنهم أخذوا سفينة من سفائن التجارة وملأوها من الزرجون وغيره من المواد اليابسة الخفيفة، ووضعوا بينها كبريتاً وزفتاً وغيرهما من المواد السريعة الالتهاب، وأقاموا صارخين علّقوا بكلّ منها رجلاً كبيراً مملؤاً زيتاً، وأثقلوا مؤخر السفينة بحجارة ورمل ليرتفع مقدمها وتحمينوا مهبّ ريح يلائم مأربهم وسيروا سفينتهم وحولها زوارق عديدة، ولما دنوا من السدّ أضرموا النار وقذفوا سفينتهم عليه فتسعّرت النار. وكان الزيت ينصبّ عليها من المراحل فتزداد تأججاً حتى أحرقت الأبراج وكلّ من كان ثمة على السدّ. وكان أي الصوريون يرمون المكدونيين من الزوارق بالنبال والحجارة فقتلوا وأحرقوا منهم كثيرين. ورمى بعضهم نفوسهم بالماء لينجوا سابحين فتهافت الصوريون عليهم يضربونهم بالحجارة والعصي حتى كسرت أو شلّت أيديهم فأخذوهم أسرى. وخرج آخرون من المدينة بزوارق فخربوا في جانبي السدّ واقتلعوا الأوتار وأحرقوا الأدوات.

فلم توهن هذه الحسائر والنوازل عزم اسكندر وأعاد ما تردّم إلى حاله الأولى. وجدّد جنوده آلاتهم وضاعفوا جدّهم وكدّهم حتى كاد السدّ يماس جدران المدينة بسرعة أدهشت الأعداء، ولكن ثارت ريح عاصفة وتلاطمت الأمواج على السدّ تلاطماً عنيفاً فانحلت ربطه وتخلّل الماء بين الحجارة فخرقت في وسطه وتداعى البناء من الجانبين وسقط في البحر. ولو كان المحاصر غير اسكندر لفشل وقط لا

محالة وأضرب عن هذا الحصار. على أنه كان ذا قلب تحسبه من حديد وذا عزيمة لا تنهيه الشامخات الرواسي، فلم ييأس وهم بتعزيز قوته بوسيلة أخرى، وفكر أن لا مطمع له في اتمام سده أو فتح المدينة ما دام الصوريون يضبطون البحر عليه. فجمع ما كان باقياً له من السفن في صيدا، وأتاه إذ ذاك ملك ارواد وملك جبيل بسفائينهم وألحق بذلك سفن صيدا فكان جميعها ثمانين سفينة. ووافاه وقتئذ أيضاً عشر سفن من رودس وثلاث عشرة سفينة من غيرها من الجزر وبلغ ملوك قبرص انكسار دارا واستفحال أمر اسكندر فأتوا إليه ومعهم مئة وعشرون سفينة. وأتته نجدة من المورة أربعة آلاف مقاتل. فنزل اسكندر من صيدا في هذا الأسطول مصحوباً ببعض حرسه ميمماً صور فخاف الصوريون وجمعوا سفائينهم في مرافئهم خشية أن يتصل اسكندر إليها. وهو لما رأى ذلك لم يشأ أن يقتحم المرفأ الذي من جهة صيدا بل رمى أناجر أسطوله في جانب السد. وجد عملته في اتمامه وكان الصوريون يفرغون جدهم بكفهم عن العمل، فلم يقووا على بسالة المكدونيين وتجلدهم إلى أن بلغ السد غايته. ونصب اسكندر عليه أدوات حصاره ومناجيقه، وأخذ جنوده يرمون المدينة بالحجارة والنبال والمواد المحرقة. وأرسل أسطول قبرص فضبط مدخل المدينة من جهة صيدا وأسطول فينيقية رسى تجاه مرفأها من جهة مصر. أما الصوريون فأقاموا أبراجاً رفيعة متينة فوق أسوارهم من جهة السد وطرحوا صخوراً ضخمة في البحر بجانب سائر أسوارهم تمنع الدنو منها. وكانوا يخرجون بزوارقهم فيقطعون جبال المراسي المعلقة بها سفن اسكندر. فأقام هو في البحر مترسة من السفن جعل في كل منها ثلاثين مجدافاً تحمي باقي السفن من سطو العدو. وربط سفنه الأخرى بسلاسل من حديد وعمد إلى آلات ترفع تلك الصخور من جانب الأسوار وتلقيها في البحر حيث لا ضرر منها، حتى تمكنت سفنه من مماسة الأسوار. وشد القتال على المدينة من كل صوب براً وبحراً وأمر جنوده أن يهجموا على المدينة نصف الليل من كل جهة. فيئس الصوريون وأشكل عليهم ما يعملون ولأعصفت ريح شديدة فحطمت بعض السفن وعرقلت باقيها عن العمل وأعاقت الفتح.

وبلغ وفود قرطاجنة إلى صور حينئذ ولم يكونوا إلا ثلاثين رجلاً فاعتذروا للصوريين عن القيام بوعدهم إياهم بنجدة لأن السيراكوسيين أثاروا عليهم حرباً عواناً. فعول الصوريون على أن يرسلوا نساءهم وأطفالهم إلى قرطاجنة ليتفرغوا للدفاع. ووثبوا على حين غفلة على أسطول قبرص الذي كان يحرس المعقل من

جهة صيدا فغرقوا بعض سفنه وقذفوا بعضها إلى الشاطئ. فتداركهم اسكندر وغرق بعض سفنهم واستنزلهم إلى حرب بحرية انتصر فيها عليهم وأخذ بعض سفنهم. وغرق بعضها ومنعته النبال دخول المعقل وأراح اسكندر جنوده يومين وعاد إلى القتال. وكان أشد من كل ما تقدّمه فاقتتل الفريقان كأنهم أسود وكانت الحرب أولاً سجالاً إلى أن فتحت مناجق اسكندر منفذاً في الأسوار تسلّقت منه فرقة من الجنود يرأسها ادمت رجل من أشجع قادة المكدونيين وقد قُتل حينئذ. وصعد اسكندر إلى برج رفيع ملاصق أسوار المدينة وعرف الأعداء أنه الملك فكان هدفاً لأسهمهم وكان هذا من أعظم آيات بسالته. وقتل بناله كثيرين من حامية السور ثم دنا منهم وكان يجندل بعضاً في أزقة المدينة أو في البحر بضربات سيفه وبعضهم بلكم مجنه. ثم عبر إلى أسوار المدينة وتبعه أعيان جنده واستحوذ على بيرجين وفتحت المناجق منافذ أخرى. فدخل بعض المكدونيين وافتتح العسكر البحري المعقل وتولّى برجين. فانكفأ الصوريون عن الأسوار وتألّبوا في ساحة أجينور في وسط المدينة فتتبعهم اسكندر بفرقة حرسه فقتل بعضاً وهزم الباقين. فافتتحت المدينة وانتشر المكدونيون في شوارعها ففرّ بعض الصوريين إلى الهياكل يستجرون بالآلهة، وبعضهم دخلوا بيوتهم فأحرقوا نفوسهم فيها. وبعضهم كانوا يسطون على الجنود كيلا يبيعوا حياتهم بثمن بخس، وصعد بعضهم على السطوح يرمون كل ما بحجارة أو غيرها. فأمر اسكندر أن ينهبوا المدينة ويحرقوها ولا يستبقوا إلا من لجأوا إلى المعابد. وبعث منادين يذيعون أمره هذا في كل محل ومع هذا لم يلجأ إلى المعابد إلا البنات والأحداث الذين بقوا في المدينة. وكان بعض رجال الحرب يقيمون على أبواب بيوتهم متوقعين فتك الجنود بهم. وكان الصيداويون دخلوا المدينة مع جنود اسكندر فأنجوا من الصوريين كثيرين لاتصال نسبهم بهم. فالصوريون جالية من صيدا فأنزلوهم في سفنهم وأرسلوهم إلى صيدا وكان عدد هؤلاء الناجين نحو خمسة عشر ألفاً، ومن هذا يتبين وفرة عدد القتلى. فقد وُجد على الأسوار نفسها نحو من ستة آلاف قتيل، وبقي ألفا رجل كل الجنود عن قتلهم. فعلقهم اسكندر على صلبان على طول الشاطئ وعفا عن القرطجين الذين كانوا أتوا صور على عادتهم لتقدمة الضحايا لهرق. وقدم اسكندر الضحايا لهذا المعبود على عادته المستمرة أن يقدم الضحايا لآلهة كل بلاد وصلها. ودام حصار صور سبعة أشهر بدأ فيه

في شباط وافتتحت في آب سنة ٣٣٢ (ديودر الصقلي ك ١٧ اربان ك ٢ وبلوترك في ترجمة اسكندر).

وتمت بذلك نبؤات الانبياء على صور. فقد تنبأ حزقيال (فصل ٦ و ٢٧) على تدمير بختنصر لها وقد ذكرنا ذلك في عد ١٢٧ فطالعه. ثم يجدد بناؤها وكثر سكانها. وعادوا إلى خيلائهم وترفهم وفحشائهم ولم يتعظوا بما أحله الله بهم بواسطة عاهل الكلدان. فأتاح الله لهم هذا العقاب على يد اسكندر وقد كان اشعيا تنبأ بذلك في الفصل ال ٢٣ من نبؤته ومما قال: «ولولي يا سفن ترشيش (التي كانت صور ترسلها إلى اسبانيا) فقد دُمرت حتى ليس بيت ولا مدخل من أرض كتيث (وهي بلاد اليونان) أخبر بذلك. إندهشوا يا سكان الجزيرة التي كان تجار صيدون وعابرو البحر يملأونها.. عند سماع مصر بالخبر يرتاعون عند سماعهم بخبر صور... من أثمر بذلك على صور التي تتوَّج الملوك وتجارها أمراء ومتكسبوها كرام الأرض. رب الجنود هو أثمر بذلك ليدل كل فخر... وقال لا تعودين تفتخرين أيتها المتهتكة العذراء بنت صيدون قومي إلى كتيث اعبري هناك أيضاً لا راحة لك». ويذكرها النبي بمثال بابل التي عظمت أكثر منها ومع ذلك دمرها الرب فقد قال: ها هي هذه أرض الكلدانيين قد أقاموا بروجهم دمروا قصورها فجعلت خراباً. وفي ذلك اليوم تنسى صور سبعين سنة (المراد المدة التي تبقى فيها صور خربة بعد تدمير اسكندر لها وبعد السبعين سنة يكون لصور مثل أغنية الزانية خذي الكنارة وطوفي في المدينة أيتها الزانية المنسية ... وبعد السبعين سنة يفقد الرب صور فتعود إلى مؤاجرتها فتزني مع جميع الممالك المسكونة (أي أن صور تعود مأهولة بعد السبعين سنة وترجع إلى تجارتها وعثوها في الأرض إلى أن يأتي المخلص فتؤمن به) وتصير تجارتها ومؤاجرتها قدساً لرب».

فقد آمن أهلها بالمسيح منذ صدر النصرانية، وقال النبي زكريا (فصل ٩ عد ٣ وما يليه): «قد بنت صور حصناً لها وكثرت الفضة كالتراب والذهب كطين الشوارع هوذا السيد يمتلكها ويضرب في البحر قوتها فتوكل بالنار فترى اشغلون فتخاف وغزه فتتوَّج جداً». وإذ كان اسكندر متشاعلاً بفتح صور وردت إليه رسالة أخرى من دارا يسميه فيها ملكاً ويقدم له عشرة آلاف وزنة (قدرها رولان بثلاثين مليون فرنك) فدية للأميرات المسيبات. ويعدده أن يزف إليه ابنته ساتيرا لتكون زوجة له ويترك له ما فتحه من البلاد إلى الفرات. وذكره بأن الحظ لا يثبت

على حال، وألّح إلى وفرة الجيوش التي ما زالت في حوزته، وأن لا يحسب عبور الفرات ودجلة أمراً يسيراً. فعقد اسكندر لجنة مشورته فقال: برمنيون لو كنتُ اسكندر لقبلتُ هذه التقدمة فقال له اسكندر: أنا أيضاً لو كنتُ برمنيون لقبلتها. وكتب إلى دارا ما خلاصته: «إنَّ لا حاجة له إلى مال دارا وإنه لم يكن يُحسن به أن يقدم ما خرج عن حوزته وأن يطلب قسمة ما قد أضاعه وإنه إن كان يجهل أيهما والي البلاد فليستوضح ذلك بوقعة ولا يطمع بأن يربح بأنهره من عبر بحوراً عديدة وإنه سيتبع آثاره إلى حيث يفرّ» فلما بلغ دارا هذا الجواب يئس من الوفاق بينهما وأخذ يستعدُّ للقتال.

عد ٣٩٥

ذهاب اسكندر إلى اورشليم

إنَّ انكباب الصوريين على التجارة أغفلهم الزراعة فكانوا يشترون مؤنهم من الجليل والسامرة واليهودية، ولما حاصر اسكندر صور ألجئ أن يستجلب أزودة جيشه من هذه المحال. وبعث إليها شراذم من جنوده تخضع أهلها وتكرهمهم على تقدة النفقات فأبى اليهود الامتثال قائلين إنهم أقسموا بيمين الأمانة لدارا فلا يسعهم أن يخلفوها ما دام حياً. أما السامريون فانقادوا لأمره ولَبّوا دعوته وزادوا على ذلك أنهم أرسلوا ثمانية آلاف رجل لإنجاد جنوده في حصار صور. فاستشاط الملك على اليهود وعزم أن يجزيهم شرَّ الجزاء. وروى يوسفوس في تاريخ اليهود (ك ١١ ف ٨) ما مرَّ وقال إنَّ يدوع عظيم الأخبار حينئذ علم حنق اسكندر على اليهود فلجأ إلى الله وفرض على الشعب صلوات وقَدَّم ضحايا وظهر الله له في الحلم، وأمره أن يفتح أبواب المدينة، ويزيّن شوارعها بالزهور والرياحين، وأن يخرج للقاء اسكندر هو وسائر الكهنة بملابسهم الحبرية البيضاء. وأن لا يخشوا هذا الغازي لأنه يكون لهم نصيراً. فقصَّ يدوع على الشعب الحلم الذي رآه، ولما أقبل الغازي خرج هو وسائر الكهنة والشعب إلى لقائه بمعظم الاحتفاء. وكان من انضَمَّ إلى جيش اسكندر من الفينيقيين وغيرهم يحسبون الملك يبيحهم نهب اورشليم، ويفتك بعظيم الأخبار جزاءً لعصيان اليهود أوامره. فكان العكس، لأنَّ الغازي لما رأى هذا الجَمّ الغفير وفي مقدمته رئيس الأخبار وعلى رأسه التاج وعصابة من ذهب كُتب عليها اسم الله.

ويحفه الكهنة بملابسهم البيضاء تقدّم اسكندر وحده وسجد للاسم الكريم وحيثاً عظيم الكهنة قبل أن يحييه أحد. فاجتمع اليهود حينئذ حول اسكندر، وجأروا إلى الله بالدعاء ليوليه كلّ توفيق، فتعجّب ملوك سورية وأعوان الملك أجمع من صنيعه. وقال له برمينيون كيف تسجد لحبر اليهود أنت الذي يسجد لك العالم كلّهُ؟ فأجابه اسكندر لم أسجد للحبر بل للإله الذي هو خادمه. لأنني لما كنت في مكدونية أفكر بأية ذريعة أتوسل لفتح آسيا ظهر لي في الحلم متشحاً بمثل هذه الملابس. وأمرني أن لا أخاف وأن أعبر الدردنيل ووثقني بأنه يحرس جيشي ويكسبني مملكة الفرس. ثم عانق الغازي عظيم الأخبار وسار تَوّاً إلى الهيكل، حيث قدّم الذبائح، كما كان يرشده عظيم الأخبار الذي أطلعه على نبؤات دانيال المؤذنة بأنّ ملكاً يونانياً يقرض مملكة الفرس. وحقّق له أنه هو الملك الذي جاءت النبؤة به. فطُرب اسكندر لذلك كثيراً وجمع في الغد رئيس الأخبار والشعب، وأمرهم أن يسألوه ما شاءوا لينعم عليهم به. فسأله يدوع أن يطلق لشعبه أن يعيشوا بحسب شرائع آبائهم، وأن يعفيهم من الجزية سنة في كل سبع سنين لأنهم لا يستثمرون أراضيهم فيها. فأجاز لهم ذلك ثم أوصاه الخبر باليهود المتوطنين في بابل ومادي ليطلق لهم أيضاً أن يعيشوا بحسب شرائعهم. فأطلق لهم ذلك وقال إذا شاء بعضهم أن يتجنّدوا في جيشي فأبيحهم أن يحفظوا دينهم ويعملوا بعباداتهم فدخل في جنديته كثير منهم.

وسار اسكندر من أورشليم ميمماً غيرها من المدن المجاورة لها ففتحت له أبوابها. وطلب إليه السامريون أن يحلّ في مدينتهم وأن يشرف هيكلمهم في غريزيم كما صنع لهيكل أورشليم فقال إنه سيمضي إلى هناك عند عودته، وسألوه أن يعفيهم من الخراج في السنة السابعة. فسألهم من أية أُمَّة أنتم؟ قالوا: عبرانيون. فقال: أيهود أنتم؟ قالوا: لا. فقال: لا أعفي من ذلك إلّا اليهود. ومع هذا سوف أنظر في الأمر عند عودتي فإذا وقفت على الحقيقة أمرت بما رأيته عادلاً، وصرفهم وقال لجنودهم أن يتبعوه إلى مصر فيعطيههم أرضاً. وكذلك نراه صنع بعداً فإنه أقامهم حرساً في الصعيد. انتهى ما رواه يوسيفوس. قال الأب فيكورو (في معجم الكتاب في كلمة اسكندر) إنّ رواية يوسيفوس هذه لم ترد في الأسفار المنزلة ولا في التواريخ العالمية، ولكن تؤيدها التقليدات اليهودية والسامرية. وذكر كثيرون من العلماء والمؤرخين الذين أيّدوها إلى أن قال: «مهما يكن من الأحداث التي ذكرها

يوسيفوس مفصلة فمما لا ريب فيه أنَّ الغازي أدخل بعض اليهود في جنديته. وروى ذلك هيكاتا، وأورد يوسيفوس قوله في رده أبيون (ك ٢ فصل ٢٢) ولا ريب أيضاً في أنه كان في الاسكندرية التي بناها اسكندر جثم غفير من اليهود. ولا أقل من أن نقول أنَّ الرعاية والرفق اللذين أبداهما خلفاء اسكندر الأولون لليهود ليسا إلا نتيجة سياسة اسكندر ومتابعة خلفائه له بهما. قلنا وقد قال كثيرون من مؤرخي العرب إنَّ اسكندر أكرم اليهود ومنهم أبو الفدا، فإنه قال (في مجلد ١ صفحة ٤٧) «ومرَّ اسكندر في طريقه على بيت المقدس وأكرم بني إسرائيل».

عد ٣٩٦

فتح اسكندر غزة

قد انتهى اسكندر في مسيره إلى غزه فلقى فيها حرساً غفيراً يتأمر عليهم باتيس أحد خصيان دارا. وكان كميأ أميناً لمولاه وقد ذب عن مدينته مبدئياً آيات البسالة. فلم يتسنَّ لاسكندر فتحها إلّا بعد مضي شهرين على حصارها العنيف. وقد أصاب اسكندر وقتئذٍ جرحان، وحملته ثورة حنقه على أن يعامل باتيس وجنده وأهل مدينته بقسوة عظيمة لا معذرة له فيها. فأبسل بحدّ السيف ألفي رجل وباع البقية ونساءهم وصغارهم، ولما أتوه بباتيس مأخوذاً في حومة الوغى ومضرباً بدماء جراحه، لم يقدر شجاعته حقَّ قدرها. ولم يلفظ به بل انتهره قائلاً أنت لا تموت كما تمنى فتهاياً لتحمل برحاء العذاب الذي يخترعه الثائر، فنظر باتيس إلى اسكندر نظرة مزدري ولم يفه بكلمة، فازداد حنق الملك لصمته وقال هاكم هذه الجسارة فهل حتى ركبتة أو برزت من فمه كلمة مؤذنة بالخضوع؟ لأذيقنه مرَّ العذاب على هذا الصمت المهين، وإذا لم أستنطق فمه بكلمة فأستنطقه بالزفرات وتنفس الصعداء. ويظهر أنه كان كلما علا شأنه ساءت أخلاقه لأنه ثقب عقبه بين العرقوب والعظم. وأدخل فيه حبلاً شده إلى عجلة وجره حول المدينة حتى قضى. وكان يتفاخر بأنه اقتدى باشيل الذي هو من سلالة إذ صنع مثل ذلك بجثة هوكثور مجرراً لها حول أسوار ترويا كما ذكر اوميروس.

وقد أرسل اسكندر أكثر ما غنمه في غزة إلى اولمبيا أمه وقلوبطرة أخته وإلى بعض أصحابه. وأهدى إلى لاونيداس حاكم مكدونية خمس مئة قنطار (القنطار مئة

ليبرا) من البخور وخمس مئة قنطار من المرّ متذكراً أمراً كان وقع له في حادثته مع لاونيداس، وهو أنّ هذا الحاكم رأى اسكندر يوماً عند تقدمة الذبائح يأخذ من البخور ملء راحتيه ويلقيه في النار فقال له إذا فتحت البلاد التي تستجلب هذه الطيوب منها فيكون لك أن تبذر ما شئت منها، وأما الآن فاحرص على ما يوجد منها فكتب له اسكندر حينئذ: «إني مرسل إليك شيئاً كثيراً من البخور والمرّ كيلا تضن بشيء على الآلهة». وترك اسكندر حامية في غزه وزحف بجيشه إلى مصر.

عد ٣٩٧

استسلام مصر إلى اسكندر وبنائه الاسكندرية

بلغ اسكندر في اليوم السابع من سفره من غزه إلى بالوس وهي المسماة اليوم فرما أو طينة (طالع عد ١٠٠). وكان مقت المصريين للفرس شديداً لما أنزلوه بهم من التنكيد والضيق والاحتقار لآلهتهم أيضاً. وكانوا يهودون خلع نير ولايتهم أياً كان المالك بعدهم. ولذا لما ظهرت طلائع جيش اسكندر في تخومهم أسرع جثم غفير منهم لملاقاته مجاهرين بالطاعة لسلطانه. فسار بهم إلى منف عاصمة مصر يومئذ. ولما رأى مازاي واليها من قبل دارا أنّ لا وسيلة له للمدافعة ولا رجاء بأنّ مولاه ينجده فتح أبواب العاصمة للغازي، واستسلم إليه ودفع إليه ثماني مئة وزنة. وهي عبارة عن أربعة ملايين وأربع مئة ألف فرنك فكانت مصر غنيمة باردة لم يلقَ فيها مقاومة.

وهمّ اسكندر أن يمضي من منف ليزور هيكل يوبيتر (المشتري) عمون الكائن في صحارى افريقيا على مسافة اثنتي عشرة مرحلة من منف، وهذا المعبود يسميه اليونان ذأوس المشتري؛ والمصريون عمون إلى أن تغلب عليه الاسمان أي المشتري وعمون. وكان قدماء المصريين أنشأوا له هذا الهيكل ويحجّونه وأغنوه بتقادمهم ونذورهم. وكان غرض اسكندر في هذه الزيارة استرضاء المصريين. وقد قرأ في كتب اوميروس وغيرها أنّ أكثر الأبطال القدماء كانوا يتباهون بأنهم ابناء أحد الآلهة - ومن أقوال أرسطو أستاذه: «إنّ الملك السامي الذكاء إله بين البشر». فأحب أن يتفاخر بهذا النسب تعظيماً له في أعين مسوديه في وادي النيل وعلي شاطئ الفرات ودجلة، إذ كان كلّ من ملوك هؤلاء يدعى أنه ابن أحد الآلهة. وعليه

فأرسل يرثي كهنة هذا الهيكل لينؤلوه بغيته، وسار معرضاً نفسه وجنوده لأخطار ومهالك في تلك الصحارى الجرداء المحرقة لا تلويه عن عزمه نصائح خلّانه ولا مشورات قوّاده إلى أن انتهى إلى هذا الهيكل. فحقق له أقدم كهنته أنه ابن المشتري وأنّ الإله نفسه يسميه بهذا الاسم فتقبّل هذا الاسم بالمسرة وأقرّ بأنّ المشتري أبوه. وسأل الكاهن هل كان المشتري أبوه قد قيّد له الاستيلاء على العالم كلّه فأجابه أنه سيملك البسيطة كلّها. ولا ينفك ظافراً إلى أن يُحصى في مصاف الآلهة، فقدّم اسكندر ضحاياه وتقادمه النفيسة لهذا الهيكل وطفق منذ حينئذ يكتب في رسائله وأوامره: «اسكندر الملك ابن المشتري عمون».

وقد كان عند مروره في ساحل البحر تجاه جزيرة فاروس شاهد محلاً يصلح لأن تكون فيه مدينة كبرى فخطط أسسها وعيّن فيها محال الهياكل والساحات. ووكل بناءها إلى ديفوكرات المهندس الذي اشتهر بتجديد بناء هيكل ديانا في أفسس بعد احتراقه وسماها باسمه اسكندرية. وبعد عوده من هيكل المشتري تعهّد مبانيها واستأثى إليها سكاناً من كلّ قطر ميسراً لهم الإقامة والاتجار فيها. واستدعى إليها كثيراً من اليهود مبيحاً إياهم أن يدينوا بدينهم ويعملوا بشريعتهم وجعلهم إسوة المكدونيين الذين أقامهم فيها. وأنشأ فيها لكلّ أمّة هيكلًا تعبد فيه آلهتها ولم ينقض زمان إلا وأصبحت أعظم مدن المشرق لموقعها على ساحل البحر المتوسط. وقربها من مصب النيل والبحر الأحمر وصارت محطة للتجارة بين المغرب والمشرق وخلفت صور في عظمة تجارتها. ومضى اسكندر منها إلى منف يقضي ما بقي من فصل الشتاء وأقام على مصر واليتين وطنيتين لإدارة المهام المدنية. وعهد بقيادة الجنود الذين تركهم فيها إلى قادة مكدونيين خشية الانقلاب عليه.

عد ٣٩٨

عود اسكندر من مصر لمحاربة دارا ووقعة اربيل

قد سُرّ اسكندر بأخبار كُتبت إليه منبئة بعود ساقس وكوس ولسبوس من جزر اليونان إلى الاتحاد مع المكدونيين، وإنه لم يبق أسطول للفرس في بحر الروم إلا وامسى في حوزة الغازي، فاطمأنّ إلى أنه لم يعد في الجانب الغربي من المملكة من مناوئ أو معارض له، وأنه حان الحين لملاحقة دارا وقرض ملكه والاستيلاء على

الجانب الشرقي من مملكة الفرس. فنهض بجيشه من مصر إلى صور وأقام فيها الملاعب وقفأها بالذبائح للآلهة. وكان قبل سفره إلى مصر ولّى أندروماك على سورية فأتي يوماً السامرة لإصلاح بعض الشؤون، فثار عليه السامريون وأحرقوه في البيت الذي دخله ربما ذلك لأنَّ اسكندر ضنَّ عليهم بما جاد به على اليهود. فحنق اسكندر عليهم وأمات كلَّ من اشترك في هذه الفعلة القبيحة. وطرد الباقين من السامرة وأقام مكانهم جاليةً من المكدونيين ووهب بعض أرضهم لليهود. وعرض حينئذٍ أن أدركت الوفاة ملكة دارا فعظم الاحتفاء بدفنها وبالع في تعزية آلهها. وفرَّ أحد خصيانها إلى دارا فأعلمه بموتها وبما أبداه اسكندر من الحفاوة بدفنها فتأسى ولكن خامره ريب في عفاها من قبل الملك الشاب، فخلا بالخصي وسأله مستحلفاً إياه بإيمان معظمة عما إذا كانت الملكة لم تضع شرفها قبل حياتها. فقصَّ الخصي على دارا ما حملة على العجب من أدب اسكندر وعفَّته. فرفع يديه إلى السماء مبتهلاً إلى الآلهة أن يحفظوا مملكته، وإذا قيَّضوا ثلَّ عرشه فلا يجلس غير اسكندر على عرش كورش.

وقد سار اسكندر بجيشه من صور مجتازاً في سهول البقاع وبلبلح وحمص وتدمر وانتهى إلى تبسك على الفرات. فعبّر هذا النهر على جسر وتطرَّق إلى دجلة فتيسَّر له عبوره لقلَّة مائه إذ كان ذلك في أواخر شهر أيلول ومن حسن طالعه أنَّ الجنود الذين أرسلهم دارا لضبط معابر النهر عليه أبطأ قدومهم فلم يتداركوه. وأقام اسكندر بجيشه يومين على عدوة النهر اراحةً لجنده وطلب دارا الصلح مرتين فلم يجبه اسكندر إليه. وأرسل إليه أخيراً عشرة رجال من أخصَّ أقربائه يشكر له حسن معاملته ويعرض عليه شرائط أخرى للصلح أفضل من الأولى. فأجابهم اسكندر: «قولوا لمولاكم لا محلُّ للشكر بين قوم تعمدوا الحرب وإذا كنت عاملت آله بالركة واللفظ فلم أصنع ذلك حباً به بل حباً بنفسي، فلا أروم الانتقام من الأسرى والنساء بل ممن حملت أيديهم السلاح، ومن حيث أنه لم ينفكَّ يغري جنودي ويحضهم على خيانتني وقتلي، فقد عزمت على لحاقه والتنكيل به لا بمنزلة عدو محارب بل بمنزلة مغتال وسام، وأتَّى يصالحني على ما ملكت يدي فإن اكتفى بأن يكون الثاني بعدي لا سواً لي ربما سمعت له. وأنبئوه أنَّ العالم لا يتحمَّل شمسين ولا موليين، وعليه فليختر إما الاذعان اليوم أو الحرب غداً، ولا يؤملنَّ اليوم حظاً أحسن من حظّه

في ما مضى»، فخطاب دارا مشعر بضعفه وجواب اسكندر مؤذن بخيالاته وصلفه. وزحف اسكندر بجيشه نحو معسكر دارا فأقبل عليه مساءً. فأشار عليه برمينيون أن يباغت العدو ليلاً فأجابه على مسمع الجند لا يليق باسكندر أن يسترق الظفر. وخشى دارا المفاجأة له ففوضى جيشه ليلهم وسلاحهم بأيديهم أما اسكندر فأرق في أول ليله ثم استغرق في نومه حتى عجب جنوده. وأتاه برمينيون يوقظه ويدي له عجبه من رقاده مطمئناً في يوم هائل فاصل حظ العالم. فأجابه: لِمَ لا أنام مطمئناً؟ والعدو مقبل مستسلم إلينا». ثم أخذ سلاحه وامتنطى جواده وجال بين صفوف جيشه وبشّر وجهه ببشّر بالظفر وأخذ يحضّ جنده أن يحافظوا على مجده كسبوه. ويزيدوا عليه فخراً تخلّده لهم الأيام. وكان بين عداد الجيشين بون كبير فكان جيش دارا لا أقلّ من ست مئة ألف راجل وأربعين ألف فارس. وقال بعض المؤرخين أنه كان ينوف على مليون من الرجال. وأما جيش اسكندر فكان أربعين ألف راجل وسبعة أو ثمانية آلاف فارس. ولكن كان في جيش دارا كثير من السوق وغير المدرين وجنود اسكندر كلهم من الكماة المحنكين.

وقد تسعرت نار الحرب في الثاني من شهر تشرين الأول سنة ٣٣١ ق.م وكان اسكندر في ميمنة جيشه وبرمينيون في ميسرته واتخذ دارا موقفاً تجاه اسكندر. وكانت الحرب أولاً سجّالاً وكان للفرس عجالات يشدون إليها مجازاً أطلقوها على جيش المكدونيين، فأمطر هؤلاء النبال وأكثروا من قعقة السلاح حتى نددت الخيل وعادت على الفرس فأضربت بهم أكثر من ضرّها بأعدائهم. وأمر اسكندر قائد فرسانه أن يقتحم فرسان الفرس فوثب عليهم وخرق صفوفهم. فأتبعه اسكندر محفوفاً بفرسانه وأصبح في وسط الأعداء واشتد الطعان وكان دارا في مركبته، واسكندر على جواده فعاجل حامل سلاح دارا بضربة صرعه بها، وظنّ الفرس والمكدونيون أنّ دارا قُتل. وفرّ أقاربه الذين كانوا على يسراه ولكن تداركه من كانوا على يمينه وجعلوه في وسطهم وخجل من الهزيمة فاستمرّ بين أمل ويأس. وعادت النخوة بعض جنوده فاشتدّ القتال بل أصبح مذبحة وعراكاً إلى أن تغلب المكدونيون ففرّ دارا وتبع اسكندر آثاره. وانجلى الظفر في الميمنة وأما في الميسرة التي كان يقودها برمينيون فتفاقم الخطر لأنّ شزيمة من فرسان الفرس والهنود اخترقوا صفوف الفرسان المكدونيين واتصلوا إلى محل الأسرى فتسلّح هؤلاء كلّ بما وصلت يده إليه. وانضموا إلى فرسان الأعداء وتهافتوا على المكدونيين الذين أمسى

القتال عليهم من أمامهم وورائهم. وأرسل برمينيون يُعلم اسكندر بما حلَّ به من الخطر فهبَّ راجعاً عن لحاق دارا لينجد مسيرته. فالتقى بفرسان الأعداء وقد انتهبوا ما كان في المعسكر فاشتدَّ العراك بين الطرفين فقتل من حرس اسكندر نحو من ستين فارساً لكنه استطاع على أعدائه. ودروا أنَّ دارا انهزم وجنوده ولَّوا الإدبار فتشتت شملهم ولحقوا برفقائهم وتتبع برمينيون أثرهم فاتكأ بهم ثم عاد اسكندر وبرمينيون من ملاحقة دارا إلى اربيل فوجداه زائلاً تاركاً خزائنه وسلاحه. فانقضت بهذه الحرب دولة الفرس. وقال اريان إنه قُتل بهذه الحرب نحو من الفرس من ثلاث مئة ألف رجل. وقال غيره: إنَّ عدد القتلى مئة وثلاثون ألفاً. وقال بعضهم تسعون ألفاً وغيرهم أربعون. وأما جيش اسكندر فقتل منه ألف ومئتا رجل أكثرهم من الفرسان على ما قال اريان المذكور. وقد وُجدت في ايطاليا صفيحة تُعرف الآن بصفيحة كيبي مثلت فيها إمرأتان تحمل كلُّ منهما بيدها دائرة صوّرت فيها حرب فرسان، وتُرى باليد الأخرى دم ضحية على مذبح زين بصور. فالإمرأتان كناية عن أوروبا وآسيا وحرب الفرسان عبارة عن وقعة اربيل وتدل عليها الخطوط المنقوشة تحت الدائرة والدائرة نفسها مشعرة بأنها مقدمة تقدمها أوروبا وآسيا في أحد الهياكل اجلالاً لاسكندر لأنه خط على أعلاها وأسفلها ما بين مولد اسكندر ومجده المخلد.

عد ٣٩٩

استحواذ اسكندر على بابل وشوشن وغيرهما وقتل دارا

إننا نوجز الكلام في هذه الأحداث لخروجها عن دائرة غرضنا تاريخ سورية. ولم يكن بدّ من ذكر شيء تعميماً للفائدة ورعاية لمساق التاريخ، فنقول إنَّ اسكندر بعد وقعة اربيل اقبل على هذه المدينة واحرز الغنائم الوفيرة التي تركها دارا فيها من فضة وذهب وأسلحة وحلل وحلى ولم يطل المكث ثمة خوفاً من الوباء الذي فشا فيها لفساد الهواء بجثث القتلى. وتطرق إلى عدوة دجلة ولما دنا من بابل خرج للقاءه مازاي واليهما بأبنائه الكبار مسلماً المدينة إليه. وخف الكهنة والحكام والأعيان والشعب لاستقباله حاملين التقادم. وقدّم اسكندر الضحايا لبابل (بعل) وأمر بتجديد هيكله وغيره من الهياكل التي كان كيوخسرو دمرها وجاد بما وجده في هذه المدينة

على فرسانه وجنوده. ونصب الولاة على الأعمال التي أخضعها وسار بجنوده نحو المشرق فانتهى بعد مسيرة عشرين يوماً إلى سوس (شوشن الكتاب عاصمة ملوك الفرس في الشتاء). فأرسل إليها أبوليت ابنه للقائه واعداً بتسليم المدينة إليه. فدخلها بمعظم الحفاوة ووجد في خزائنها ما قدره بعضهم بمئتين وخمسة وسبعين مليوناً من الفرنكات. وأتته في هذه المدينة نجدة من رجال مكدونية وتراسة والمورة خمسة عشر ألف رجل عاضوه عمن تركهم حامية في المدن التي استولى عليها وولّى أرشيلوس على شوشن ونصب أبوليت حاكماً في اقليم شوشن كله.

ومما يُذكر له فيُشكر أنه بينما كان في شوشن أرسل إليه من مكدونية شيء من أنسجة البرفير والحلل الثمينة فأهداها إلى سيسكمبيس والددة دارا مع من يحسن صنع مثلهما. وقال إذا راقك هذا النسيج فعلمي بنات ابنك أن ينسجن على هذا المنوال ترويحاً للنفس. فساء هذا الكلام الأميرة وهطلت عيناها بالدموع لأنّ الفرس كانوا يحسبون أشغال النساء بنسيج الصوف من أقبح العار. ودرى اسكندر سبب استيائها فعاد إليها وقال: «أترين أُمي هذه الحلل التي أنا متشخّ بها فهي هدية من أخواتي بل هي من عمل أيديهنّ أيضاً. فأسألك أن توقني أنّ عادة بلادتي خدعتني فلا تحسبنّ جهلي تعمداً لإهانتك وأظنني لم أقصّر بشيء مما علمته من عادات قومكم. فقد علمت أنّ الابن لا يجلس بحضرة أمه دون إذنها وترين أنني ما جلست أبداً أمامك إلّا بأمرك ولا أزيدك علماً بأنك كلما اردت أن تخزي لي مانعتك من ذلك. وحسبك شاهداً على اجلالي لك أنني دعوتك أبداً أُمي ولا يحق هذا الاسم إلّا لأولميا التي ولدتنى». فحبذا أن يستفيد من هذا المقال أبناؤنا الاجلال لوالديهم وبناتنا الانكباب على الأعمال اليدوية وكبراؤنا الاحترام لمن ساواهم أو كان دونهم.

قد ترك اسكندر آل دارا في شوشن وزحف بجيشه يؤمّ برسابوليس (المسماة اليوم استيكار على قول دورى وشهل مناراي الأربعين عموداً على ما في الأعلام الكتابية) وهي عاصمة ملك الفرس. وكان الطريق إليها عسر المسلك تحول دونها فيافي لا ماء فيها وجبال وعرة ومضايق حرجة لقي اسكندر منها الأمّرين. فقد قطع اديوبرزان الفارسي الطريق عليه في مضيق حفت به الجبال من الجانبين، وأخذ رجاله يلقون الصخور منها على اسكندر وجنوده حتى كاد يستحيل عليه العبور، لولا أنّ يهديه اسير يوناني طريقاً سار بها إلى أعلى الجبل يبيع شجعان، فاستحكم على

العدى من خلفهم وأمامهم فهزمهم، وقبل أن يصل إلى برسابوليس التقاه نحو ثمانى مئة، وفي رواية أربعة آلاف رجل من اليونان كان الفرس أسروهم وشوَّهوههم بقطع أيدي وأرجل، وصلم أذان وجدع أنوف. فاغرورقت عينا اسكندر بالدموع فأمنَّهم وطيب قلوبهم ووعدهم أن يقضوا على ما بقي من حياتهم بين أهلهم في أوطانهم. ودخل اسكندر المدينة وقد فرَّ كل من أهلها إلى حيث ساقه خوفه. فانتهب الجنود ما كان فيها وقتلوا من وجدوا فيها اسكندر عن القتل وهتك حرمة النساء. وقيل أنه أحرق قصور الملوك، وقال بعضهم إنه أحرق المدينة والأرجح أنه لم يحرق شيئاً بل استحوذ على الأموال التي جمعها الفرس إليها. ووجد في خزائنها ما عدَّله بعضهم بست مئة وستين مليوناً من الفرنكات عدا الأسلحة والحلل وغيرها.

وبعد أن دانت لاسكندر عواصم الفرس سار يتعقب دارا فبلغ اكنار التي يسميها الكتاب احمنا وهي همذان. وكان دارا بارحها قبل ثمانية أيام وقيل بخمسة أيام فترك غنائم حربه فيها يحرسها برمينيون. وجدَّ في لحاقه فقطع في أحد عشر يوماً أربع مئة وثمانين كيلو متراً، وبلغ إلى راجس على مقربة من طهران فاتصل به أنَّ دارا جاوز أبواب بحر الخزر، وبينما هو يثس من ادراكه أقبل عليه خادمان له ييشران أن بان باسس والي بقطريانا (اقليم في توركستان كان يتصل جنوباً بالهند). قد قبض على دارا وغلله ومضى به في طريق خراسان فهبَّ للحاقه وسار ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ متتالية، وفي اليوم الرابع ركب وخمس مئة رجل من خيار جنوده ما بقي سالماً من خيلهم فأدركوا باسس رفقاءه فانهزموا من أمام اسكندر. ولما لم يطاوعهم دارا على المسير وعجز باسس عن نقله فقتله فوجد اسكندر دارا ولكن صريعاً مخضباً بدمائه فعظم الاحتفاء بمآتمه وحنَّط جثته وسيَّرها بكل اجلال إلى والدته لتدفنها على عادة ملوك الفرس في مدافن أسلافه وكان مقتل دارا سنة ٣٣٠ في شهر تموز.

وهمَّ اسكندر بادراك باسس الذي عاد إلى بقطريانا وسمي نفسه ملكاً فيها، وبعد مشاق عنيفة انتهى اسكندر إلى بلاده وأخضعها له، وشلم باسس إليه فجلده في المعسكر على مرأى جنوده، ودفعه إلى أقرباء دارا ليثأروا منه بدمه، وكان ذلك سنة ٣٢٩. ثم توغل اسكندر في البلاد من كل وجهة فلم يترك في آسيا إلى أبواب الهند اقليماً أو عملاً إلا أخضعه ولا شاكي سلاح إلا إذله ولا قلعة حصينة إلا افتتحها أو فتحت أبوابها له. ومن الأحداث المهمة في هذه الأثناء ان فيلاتاس

ابن برمينيون علم بمكيدة على الملك فكنتم سرها ثلاثة أيام وأفشاه غيره، فهذا الكتمان وفرط كلمات من فم فيلاتاس على الملك ورسالة ملتبسة من والده أوقعت على فيلاتاس شبهة الخيانة فشكاه اسكندر إلى الجنود، فعذبوه وانطقه الألم بشيء ولم يتمكن من تبرئة ساحته في كتمان السر، فرجمه الجنود فمات واتبعوا به كثيراً من اصدقائه من علية الجند، وكان ابوه باقياً في همدان يحرس الخزائن وخيف ان يحدث ثورة، فارسل إليه اسكندر رسولاً على الهجين ومعه كتاب مزور باسم ابنه. وبينما كان يتبصر به اغتاله الرسول فقضى هذا الليث المغوار. ومنها ان اسكندر عند فتحه قلعة بخارى وجد اسرة رجل فارسي له ابنة اسمها ركسان بديعة الجمال، وكان من دأبه ان يجمع في المدن التي يليها بين اليونان والوطنيين بالزواج والسكنى فشاء ان يؤيد ذلك بمثاله فتزوج بركسان فسر أبوها واستسلم إليه وتبعه سائر القوم.

عد ٤٠٠

غزوة اسكندر الهند وعوده منها

بينما اسكندر في جهة بخارى وفد عليه وفد من قبل أومفيس ملك أحد أعمال الهند يستنجد على ملك في جواره يسمى باروس. ويعدّه بفتح أبواب الهند وكان الهوس قد تولى اسكندر بفتح الأمصار وقهر الملوك وإذلاله لهم، فترك وكان الهوس قد تولى اسكندر بفتح الأمصار وإذلاله لهم، فترك عشرة آلاف راجل وثلاثة آلاف وخمسة مئة فارس، لضبط البلاد التي اخضعها أخيراً. وسار بمئة وعشرين ألف رجل وخمسة عشر ألف فارس وفي ربيع سنة ٣٢٦ ق.م عبر نهر الهندوس وسار مع أومفيس الذي استنجد له لمحاربة باروس، فانتصر عليه وأسرّه بعد وقعة هائلة. وأمن في البلاد محارباً غانماً حتى بلغ نهر هيفاس فتوقف هناك لا لكلال في قوته أو فتور في عزمته بل لأن جنوده أنهكتهم المشاق، وهالتهم العواصف والأمطار مدة سبعين يوماً متتالية، ولم يبقَ عليهم من الملابس ما يستر أجسامهم. فأخذوا يتألبون زمراً زمراً ويتذمرون فاستدعى اسكندر رؤساءهم وقال: «إننا على مقربة من نهر الكنج والبحر المحيط الشرقي الذي يتصل بالبحر الهندي ويكتنف البسيطة كلها، ويتيسر لنا أن نتصل من خليج العجم إلى أعمدة هرقل أي بوغاز جبل طارق. ونخضع افريقيا كما أخضعنا آسيا فنجعل تخوم العالم تخوم ملكنا».

إلى أن قال: «لو إني كنت لا أقاسمكم المشاق والأخطار لكان لكم وجه في جباتكم وساغ لكم أن تشكوا من أن فريقاً يتحمل المتاعب وفريقاً ينعم بالجزاء. ولكن الأخطار والمشاق سواء بيننا والجزا عند نهاية الخطّة. فهذه البلاد لكم وهذه الخزائن خزائنكم. فقد أخضعنا آسيا وأرى أن نتمم خطتنا وأنولكم فوق ما تأملون، فمن شاء منكم أن يعود إلى وطنه فأنا بنفسني أصحبه إليه، ومن شاء أن يبقى في مكان آخر غمرته بمواهب لا تقدر». فلم يفه أحد منهم بينت شفة فقال: «من لا يصوب هذا المقال فليتكلم فظلوا صامتين. وأخيراً كشف شانوس أحد قدماء القادة عن رغبة جميعهم في استعطافه ليركهم يعودون إلى مكدونية وهناك يجد الملك شيئاً يطعمون بالمجد والفخار. ويودون أن يخلفوا الجنود القدماء». وصوب جميعهم هذا الكلام فاستاء اسكندر واعتزل ثم جمع الرؤساء في الغد وقال: «لا أكره أحداً على أن يتبعني فملككم لا ينكف عن مسيره ويجد جنوداً أمناء، ومن شاء الانصراف فليصرف أمضوا فقولوا لليونان: إنكم تركتم ملككم». ومضى فاحتجب في خبائه ثلاثة أيام آملاً أن يغيّر أحد أعوانه أفكار جنده فخاب متمناه، فاستدعى حينئذ بعض المقربين إليه وقال إمضوا فبشروا الجنود بالعود.

فضج الجنود ضجيج المسرة والابتهاج عند تلقي هذا الخبر وتسارعوا إلى خباء اسكندر يشكرون له على رفقته بنفسه وبهم فاستقبلهم بهشاشة وبشاشة. وترك لباروس ما كان أخذه منه واصطلحه على خصمه اومفيس ولم يُقم ولاية أجنيين في الهند على ما ملك فيها كما صنع في غيرها، بل ترك الحكام الوطنيين يلون أمورهم مشروطاً عليهم الأمانة في محالفاتهم له وأن يدفعوا له جزية ما سنوية. وأخذ في المسير قاصداً بابل وخبشية ملل القارئ نضرب عن تفصيل ما قاساه وجنوده في هذا السفر الشاق الطويل، ونقتصر منه على ما أَلَمَّ به في مدينة أوكسيدراك فإنّ سكّان هذا الصبّقع تألبوا عليه والتقوه بجيش لا ينقص عن ثمانين ألف راجل وعشرة آلاف فارس وتسع مئة مركبة، فاستظهر اسكندر عليهم وتبعهم إلى مدينتهم أوكسيدراك، وحاصرها وأمر بوضع السلالم على أسوارها ورأى الجند لا يسرعون بذلك فانتزع مسلماً من أحدهم وتسلق به إلى أعلى السور وتبعه قائدان، فتسارع الجنود إلى لحاقه خيفة عليه، فانحطمت السلالم وبقي الملك وحده ولا منجد له، وأمسى هدفاً لأسهم العدى من الأبراج والأسوار. وأعمته الجسارة فوثب إلى ساحة المدينة وهي غاصة بالأعداء، فبلغ الأرض منتصباً على قدميه وسيفه بيده. فقتل من كان الأقرب

إليه وارتاع الباقون ودنا منه رئيس الأعداء طامعاً أن يقتله فعاجله اسكندر بضربة ألقاه بها صريعاً، ووجد جذع شجرة أسند ظهره إليه وكان يرد السهام بترسه فلم يجسر أحد أن يقترب إليه، بل صوّب هندي سهماً إليه خرق درعه وأصابه فوق القرحقة (رأس الورك) اليمنى. فسأل كثير من دمه وبلغ حينئذ القائدان اللذان لحقا به وبعض الجنود فتعجلوا الذب عنه، وتمكنوا من فتح باب في أسوار المدينة فدخلها جنود اسكندر وحمل هو إلى خبائه ضنيكاً منهوكاً يخشى موته من جرحه. فقلق ذووه سبعة أيام إلى أن من الله عليه بالعافية وواصل سيره إلى شوشن وكان وصوله إليها سنة ٣٢٤.

عد ٤٠١

أعمال اسكندر بعد عودته ووفاته

استدعى اسكندر بعد بلوغه شوشن بعض الولاة الذين أساءوا المسعى في غيابه، فقتل بعضهم وعزل بعضهم. ورأى الاتحاد بين المكدونيين والفرس لم ينجح فصرف همته إلى تمكينه، وكان تزوج ركسان الفارسية فتزوج ابنة دارا المسماة برسين، على ما روى أريان، أو ستاتيرا على ما روى بلوترك. وزوج أفستيون نديمه باختها دريباتيس وجلة قادته، بينات أشراف الفرس. فعقد في يوم واحد ثمانين زوجاً ليوثق عروة علاقة قادته وكلف الجنود أن يقتدوا به وإعداداً بصلات وافرة من تزوج بامرأة آسيائية، فتقدم لذلك عشرة آلاف جندي فكان مشهد عز له النظير. ورام اسكندر أن يعزز الاتحاد بأن يضم جنوداً وطنيين إلى جنوده. وأرسل له الولاة ثلاثين ألف شاب فسلحهم وعلمهم النظام العسكري كالمكدونيين، فأنكاد هولاء وحسدوا أولئك. وتناسوا فضل ملكهم الذي كان عما قليل قام كرماءً بوفاء دينهم، وقد بلغ عشرين ألف وزنة (لا تقل عن مئة مليون فرنك). وتذمروا وطلبوا الانصراف إلى أوطانهم فحقق اسكندر ونزل عن منصبه وتبعه حرسه، فسعى إلى من كانوا أكثر تعنتاً بين القوم وألقى القبض عليهم وأمر بتسليمهم للعذاب، ثم رقى عرشه وخطب فيهم مذكراً لهم ما صاروا إليه من الجحد والفخر، وقال اذهبوا فقولوا لليونان أنكم تركتم اسكندر فالجئ أن يثق بالبربر الذين قهرهم واعتزل في خبائه يومين لا يكلم أحداً.

وفي اليوم الثالث استدعى روساء الجنود وسامهم أن يجمعوا عسكرياً من الفرس وحدهم، ودرى ذلك المكدونيين فأسرعوا إلى خبائه يستميجونه الصفح والعفو وأن يريهم طلعتة. ولما رأى تذللهم وبكاهم رق لهم ومزج دموعه بدموعهم وقال أنتم أسرتي ولا اسميكم بغير هذا الاسم وصنع لهم مأدبة جمع فيها تسعة آلاف منهم وأطلق عشرة آلاف ليعودوا إلى أوطانهم. وفي فصل الربيع سنة ٣٢٣ ق.م أتى إلى بابل فوجد وفوداً من جميع أصقاع العالم المعروف يومئذ ينتظرونه هناك من قرطاجنة والحبشة وليبيا ومن أصقاع أوربا. وقال أريان إنه لم يجد أثراً لوفد من قبل الرومانيين ولعلمهم كانوا يومئذ في شاغل عما كان في بابل. وكانت نفس اسكندر أمارة بفتح بلاد أخرى كالعربية وممالك افريقيا وأوربا. وكانت الراحة تتبعه حتى قال فيه بعضهم لو ملك العالم بأسره لفتش عن عالم آخر يملكه ليروي غليل مخيلته ويرد إوار مطامعه. وأشغل نفسه ببعض إصلاحات داخلية إلى أن يتيسر له الزحف على أحد هذه الأقاليم، ومن هذه الإصلاحات احتفاره مرفأ في بابل يجمع فيه مياه النهر ليسع ألف سفينة، وإزالة الأسوار التي كان أقامها ملوك الفرس في دجلة منعاً لسير السفن فيه، ثم عنايته بتجديد بناء السد الذي كانت تُضبط فيه مياه الفرات، وقد ثغر وطمغا النهر ففرق كثيراً من الأرضين وكان أكبر همه أن يجدد هيكل بال الذي كان كيخسرو دمره ويزيده عظمة على ما كان عليه، وقد أشغل فيه عشرة آلاف من جنوده شهرين ولكن أدركته المنية قبل اتمامه.

فإن هذا الملك لسروره بانتصاراته ونجاته ببسالته من المخاطر التي حفت به أكثر من المآرب منهوماً بالمآكل والمشارب حتى كان يضيع رشده أحياناً. فأصابته حمى لازمتة عشرة أيام وفي اليوم الحادي عشر شعر بدنو المنون منه. فانتزع خاتمه من يده ودفعه إلى برديكاس وأمره أن ينقل جثته إلى هيكل عمون في مصر. وسأله أحد كبار أعوانه قائلاً: «لن مولاي الملك من بعدك؟ فقال: لارشدكم». وقضى نحبه في الحادي والعشرين من نيسان سنة ٣٢٣ ق.م. على ما روى فيكتور دوري. وعن رولان أن الاكتشافات الحديثة أثبتت أن وفاة هذا الغازي كانت في صيف ٣٢٤ ق.م وقال كونيوس كرس (ك ١٢ فصل ١٣) أن الغازي مات مسمماً وإن بعض كبراء دولته أصحاب هذه الدسياسة أشاعوا أنه قضى لافراطه في شرب الخمر ليخفوا جنايتهم الفظيعة. ولكن قال بلوترك (في ترجمة اسكندر) وأريان (في تاريخه) إنه لم يكن عند وفاة اسكندر مظنة لأحد بالسم ولم يظهر عليه شيء من

أعراضه في حياته ولا بعد مماته. والصحيح أنَّ السَّم الذي أماته إنما هو المسكر كما أمات ويميت كثيرين غيره. ولما نُشر نعيه عمَّت الكآبة والغم والبكاء دون فارق، بين يوناني وفارسي أو غيرهما في جميع أنحاء مملكته الفسيحة. وكان حزنهم لموته يذكرهم حسناته وصفاته الحسنة وينسيهم سيئاته ونقائصه. وبلغ النعي والده دارا فكان وقعها عليها أشد من وقع خبر موت دارا فإنَّها قضت فور سماعها هذا الخبر. وإليك مثال رأس هذا البطل مأخوذاً عن تمثال رخام محفوظ في متحف فلورنسا في إيطاليا (دورى مجلد ٣ صفحة ٣١٣).



قال ابن الأثير في الكامل ولما مات اسكندر أطاف به من معه من الحكماء اليونانيين والفرس وغيرهم... فقال كبيرهم ليتكلَّم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزياً وللعمامة واعظاً. ووضع يده على التابوت وقال: «أصبح آسر الأسراء أسيراً» وتلاه غيره من الحكماء لشذرات تذكر بعضها لا لتيقننا صحة وقوعها بل لما حوته من الحكم والفكاهة. قال أحدهم من أعجب العجب أنَّ القوي قد غُلب

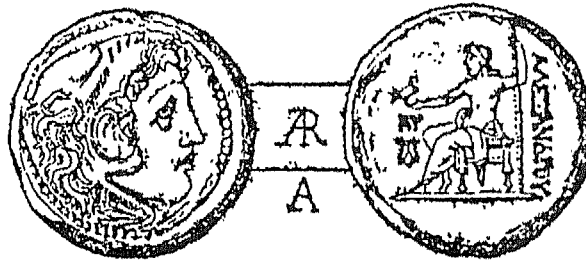
والضعفاء لاهون مغترون. وقال آخر قد كنت لنا واعظاً فما وعظنا موعظة أبلغ من وفاتك . فمن كان له معقول فليعقل. وقال آخر رُبَّ حريص على سكوتك إذ لا تسكت هو اليوم حريص على كلامك إذ لا تتكلم. وقال آخر كم أماتت هذه النفس لئلا تموت وقد ماتت. وقال آخر وكان صاحب كتب الحكمة قد كنت تأمرني أن لا أبعد عنك فاليوم لا أقدر على الدنو منك. وقال آخر من ضاقت عليه الأرض طولاً وعرضاً ليت شعري كيف حالك بما احتوى عليك منها؟ وقال آخر أنظروا إلى حلم النائم كيف انقضى وظل الغمام كيف انجلى. وقال آخر إن دنيا يكون هذا في آخرها فالزهد أولى أن يكون في أولها. وقالت أمه حين بلغها خبر موته: لئن فقدت من ابني امره لم يفقد من قلبي ذكره.

وعامة المؤرخين تسميه ذا القرنين كناية عن القوة والبطش. ولكن قال أبو الفدا في التاريخ: «قد استفاض على ألسنة الناس أن لقب اسكندر المذكور ذو القرنين وهو أيضاً غلط فإن لفظة ذو عربية محض وذو القرنين (المذكور في القرآن) من ألقاب العرب ملوك اليمن... وذو القرنين الصعب بن الرأش... ابن سيا».

أما جثة اسكندر فمُخنطت ووضعت في تابوت ثمين ولم يتيسر نقلها إلى مصر إلا بعد سنتين من قبل الاختلاف الذي جرى بين أعوانه كما سترى. وإلى أن تكاملت عدد هذا النقل من تمهيد الطرق وصنع المركبة البديعة النفيسة التي نقل بها، وصُحِبَ نعشه ألوف من الجنود. والتقاء بتولميس مصحوباً بمواكب الجند إلى سورية، ولم يتسّر له أخذه إلى هيكل المشتري عمون كما كانت وصيته وأحلّ نعشه أولاً في منف ثم نقله إلى الاسكندرية. وأقام له هيكلًا عظيمًا وقال لاون الافريقي (الذي كان في القرن الخامس عشر كتاب ٨ صفحة ٦٧٧) إن مدفن اسكندر كان باقياً إلى أيامه في الاسكندرية، لكنه يريد بذلك تابوتاً من حجر وكان في الاسكندرية في أحد الجوامع منقوشاً بالخطوط الهيروكليزية بصناعة بديعة وهو الآن في المتحف البريطاني. وكان الاسكندريون يعتبرونه تابوت اسكندر باني مدينتهم لكن منشأ ذلك تقليد لا شاهد صدق له. والمعلوم الآن من الخطوط المنقوشة عليه أنه تابوت أميرتاي أحد ملوك الدولة الثامنة والعشرين في مصر وكان حاكماً فيها في نحو سنة ٤٠٠ ق م.

وقد كان دانيال تنبأ على اسكندر ومملكة اليونان مشيراً إلى ذلك (في ف ٢

عد ٣٢ و ٣٩) بأن بطن التمثال الذي رآه بختنصر من نحاس كناية عن مملكته وشبهه (في ف ٧ عد ٦) بنمر له أربعة أجنحة ثم بتيس معز له قرنٌ عجيب كسر قرني الكبش (ف ٨ ع ١٥) ثم قال فيه (ف ١١ عد ٣): «ويقوم ملك جبار يتسلط سلطاناً عظيماً ويفعل كيف شاء ومتى قام (وفي رواية متى قبض عليه) تنكسر مملكته وتنقسم إلى أربع رياح السماء ولا تكون لعقبه». وقد وصفه صاحب سفر المكابيين الأول (ف ١) وصفاً مجملاً مبيناً انه أوقع بدارا واثار حروباً كثيرة. وفتح حصوناً متعددة وقتل ملوك الأرض واجتاز إلى أقاصي الأرض وسلب غنائم جمهور من الأمم فسكنت الأرض. ودونك مثلاً لسكة اسكندر الكبير ترى في الوجه الأول منها صورته ملتفاً رأسه بقطعة من جلد أسد وفي الوجه الثاني صورة المشتري جالساً على كرسي وعلى يمينه نسر ويسراه صولجانه وقد كُتب وراءه كلمة اسكندرس.



إن كل ما روينا من تاريخ هذا الغازي مأخوذ عن اريان وقد وُلد نحو سنة ١٠٥ ق.م في كتابه غزوات اسكندر وعن بلوترك الفيلسوف اليوناني وقد ولد في نحو ٤٨ ق.م في كتابه تراجم المشاهير لا سيما ترجمة اسكندر. ثم ديودر الصقلي وقد ولد في القرن الأول قبل المسيح في كتابه الموسوم بالمكتبة التاريخية وكانت أربعين كتاباً والباقي منها ١٥ كتاباً. ويوستينوس قد ولد في مبادي القرن الثاني في كتاب تاريخه. ثم كوينتوس كرس ويظن انه كان في القرن الأول للمسيح في كتابه تاريخ اسكندر وغيرهم وقد اعتمدنا في ذلك رواية رولان في تاريخ الفرس واليونان وفيكتور دروي في تاريخ بلاد اليونان

الفصل الثاني

انقسام ملك اسكندر وخلفاؤه الأولون في سورية

عد ٤٠٢

ما كان من كبراء دولة اسكندر بعد وفاته

جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ٦ وما يليه) بعد ما أوردناه آنفاً: «وبعد ذلك انطرح (اسكندر) على فراشه واحس من نفسه بالموت. فدعا عبيده الكبراء الذين نشأوا معه منذ الصبا فقسم مملكته بينهم في حياته، وكان ملك اسكندر اثنتي عشرة سنة ومات. فتملك عبيده كل واحد في مكانه وليس كلّ منهم التاج بعد وفاته». قد أكثر الملحدون من التنديد بقول الكتاب ان اسكندر قسم في حياته مملكته بين كبراء دولته مستمسكين بان هذا التقسيم في حياة اسكندر لا أثر له في كتب المؤرخين القدماء. وبأن أحدهم كوينتوس كورس قال (في الكتاب ١٠ فصل ٥) ظن بعضهم ان أقاليم المملكة قسمت بحسب وصية اسكندر. وعلى ما وجدنا أنّ هذا الخبر المستفاض على ألسنة الناس لا صحة له وان ذكره بعض المؤرخين». على اننا لا نرى وجهاً لإيثار شهادة مؤرخ لاتيني على شهادة كاتب شرقي أقدم منه لم يأت بذكر وصيته، بل أنّ المؤرخ اللاتيني صرح أنّ هذا الخبر مستفاض على الألسنة. وذكره بعض المؤرخين وقد حقق هربولت (في المكتبة الشرقية صفحة ٣١٨)، وموسى خوران (في تاريخ الأرمن مجلد ٢ صفحة ١١)، ويوحنا ملالاس (في تاريخه صفحة ١٩٥) إنّ التقليد بتقسيم اسكندر ملكه على أعوانه مستفاض كثيراً في المشرق.

هذا وأنّ الروايات القديمة يخالف بعضها بعضاً في موت اسكندر وفي تعيين من يخلفه، فروى أريان وكيونتوس كورس إنّه جعل الخلافة للأرشد منهم. وروى

ديودر الصقلي ويوستينوس إنه دفع خاتمه لبرديكاس، ففي هذا الخلاف لا يحق لأحد أن يدّعي بأن كاتب سفر المكابيين لم يورد الصحيح فضلاً عن أن هذا الكاتب لم يقل إن اسكندر قسم ملكه على أعوانه ورقاهم المقام الملكي. بل صرح بالعكس إنه لم يلبس أحد منهم التاج أي لم يملك إلا بعد وفاته. وعليه فيمكن أن يكون تحرير معنى الآية أن اسكندر نصّب على كل من الأقاليم واحداً من أعوانه ليتولاه باسمه (فيكورو في الموجز الكتابي عد ٥٦٣). أما المؤرخون القدماء المشار إليهم فرووا أن كبراء دولة اسكندر اجتمعوا بعد موته يتداولون في من يخلفه في الملك. وإن برديكاس دخل عليهم ويده خاتم الملك فوضعه على العرش المنصوب في ردهة الاجتماع. وكانت ركسان الملكة حبلى في الشهر الثامن فقال يلزم ان نختار رئيساً يمثل الجميع أمره إلى ان تلد ركسان. وكان يأمل اصابة الانتخابات له فخالفه نيارك (صهر برسين زوج أختها). وكانت برسين زوجة اسكندر الأخرى ولدت ابناً فقال إن الخليفة ولد وهو هرقل ابن برسين وخالفها بتلميذ فقال ليس من شيمة المكدونيين ان يخضعوا لابن برسين أو ابن ركسان بل الأولى ترك العرش فارغاً. وان يعهد بولايته إلى من كانوا من أصحاب مشورة الملك فحسن كلامه في أعين كبراء الدولة. واستاء منه الجنود فلم يعولوا عليه بل ثبت بينهم ان يعهد في تدبير المملكة إلى برديكاس وإلى ليوناس في آسيا، وإلى انتباتر وكراتر في أوروبا إلى ان تلد ركسان ابناً. وكان ملياكر عدواً لبرديكاس فأثار عليه الجنود الرجالة غيرة من الفرسان الذين كانوا يحازبون برديكاس، وزين لهم اختيار أريداي أخا اسكندر لأبيه لخلو عروقه من الدم البربري. فاختاروه على عدم كفايته وخمول ذكره واتوا به إلى ردهة الاجتماع، فأبى كبراء الدولة قبوله فهددهم الجنود واجلسوه على العرش، فانتشبت القتال بين الفريقين وجرح بعض. وحال بعض الكبراء بين المتعاركين وخاف برديكاس فخرج من بابل وتبعه الفرسان، على ان تعاضم الخطر دعاهم للاتلاف. فعاد برديكاس والفرسان إلى بابل، وقر رأيهم أن يشاطر اريداي بن ركسان (ان ولدت ذكراً) الملك. وان انتيباتر يتسلط في أوروبا. وكراتر يدبر الأمور بأمر اريداي. وبرديكاس يكون في منزلة الوزير الأول وملياكر نائباً له ولم يمر زمن إلا وقتل برديكاس ملياكر.

ثم ولدت ركسان ابناً سمّوه اسكندر. وأقروا له بالملك مع اريداي، ولم يكن لكليهما إلا اسم ملك لأن الأول طفل والثاني غير كُفء. وكانت الولاية لكبراء

الدولة وقادة الجند واقتسموا أقاليم المملكة بينهم. فكان ليسيماك في تراسه وما جاورها. وانتيباتر وكواتر في مكدونيه وبلاد اليونان. وبتلمايس في مصر وما فتحه اسكندر في افريقيه. ولاوميدون في سوريه وفينيقيه، وغيرهم في غيرها من الأقاليم والأعمال. وتركوا في أكثر آسيا الشماليه الولاة الذين أقامهم اسكندر. وكان سلوقوس بن انطيوخس رئيساً على الفرسان المتحدين، وكسندر بن انتيباتر رئيساً على فرق الحرس، ولم يتخذ برديكاس ولايه اقليم بل اتخذ قيادة الجيش في آسيا، والوصاية على الملكين، والسلطان المطلق بحجة خاتم اسكندر الذي استمر في يده.

على أن هذا التقسيم كان منبعاً لمنازعات وحروب هائلة لأن كلاً من هؤلاء الولاة كان يدعى الاستقلال ويريد أن يحرز السلطة السامية على الآخرين. على أنهم حرمة لاسكندر لم يسم أحد نفسه ملكاً في حياة أخيه وابنيه اللذين ملكوهما. وقتلت ركسان ضربتها ساتيرا امرأة اسكندر الأخيرة بنت دارا وأختها دريانيثيس أرملة افستيون. وتحالف برديكاس واومان والي الكبادرك على محاربة بتلمايس والي مصر. وكراتر وانتيباتر والي مكدونيه، وانتيكون والي بمغيليا وفريجيا، وأتى برديكاس إلى مصر ماراً بدمشق لمحاربة بتلمايس. فقتله بعض جنده غيلة في مصر بعد أن انتصر بتلمايس عليه سنة ٣٢١ ق.م، فأقيم انتيباتر مكانه في تدبير الملك، وأقام على الجيش الآسيوي انتيكون حليفه وأمره بلحاق اومان حليف برديكاس. وكانت بينهما حرب هائلة انتهت بأن قبض انتيكون على اومان وسجنه ثم قتله سنة ٣١٥ ق.م، فاندك ركن قوى للأسرة الملكية على أن انتيباتر أدركته الوفاة سنة ٣١٣ ق.م. ولما احتضر أوصى أن يخلفه بوليسبركون في تدبير الملك والولاية على مكدونيه موثراً له على ابنه كسندر حباً بخير المملكة. وجعل ابنه ثانياً له فاستدعى بوليسبركون اولمبيا أم اسكندر الكبير فاستحوذت عليه. وأصبحت قطب مدار الأعمال فقتلت سنة ٢١٧ ق.م اريداي الملك بعد أن ملك اسماً ست سنين وأربعة أشهر. وأتبعته به امرأته وأحد ابناء انتيباتر ومئة رجل من أصدقاء كسندر بن انتيباتر الذي أخذ الوجهة على بوليسبركون. فهب كسندر من المورة إلى مكدونيه ليثأر من اولمبيا، فتحصنت في قلعة مع ركسان والملك ابنها آملة أن يدفع عنها بوليسبركون مدبر الملك، فخاب أملها لأن الجنود انحازوا إلى كسندر. فدافعت إلى أن ألجأها الجوع والمرض في حرسها أن تستسلم. فوعدها كسندر أن يبقى على حياتها، وهيأ أهل من قتلهم للدعوى عليها، وأرسل يقول لها سراً أن تفرّ بحراً

قاصداً تغريقها. فقالت إنها تؤثر أن تحاكم فأنفذ ممثي جندي ليقتلوها فلبست ملابسها الملكية واتكأت على نديتين لها فهابها الجنود. ولم يُمدد أحدٌ إليها يداً فأنفذ إليها كسندر أهل من قتلتهم فقتلوا سنة ٣١٦ ق.م. وكان كسندر يرغب في أن يقتل ركسان وابنها الملك فلم يتهباً له ذلك يومئذ وتزوج بتسالونيس أخت اسكندر الكبير رغبةً في اكثار محازبيه ومريديه ليكون خليفة لاسكندر.

فاستفحل أمر كسندر في مكدونية وبلاد اليونان، واشتدَّت شوكة انتيكون في آسيا وفرَّ سلوقس والي بابل من وجهه إلى بتلمايس في مصر. وكان اسكندر الملقَّب باكوس وأمه ركسان كاسيرين في مكدونية. فسوّلت نفس انتيكون له أن يكون خلفاً لاسكندر الكبير، وأن يخضع بلاد اليونان أيضاً محتجاً بأن ينتصر لابن اسكندر. فنهض لمقاومته بتلمايس والي مصر وكسندر والي مكدونية. وليسيماك والي تراسة. وأراد انتيكون أن يفصل بينهم فأخذ يصطنع سفناً في صيدا وجبيل وطرابلس وفي صقلية ورودس. وزحف بجيشه إلى صور فحاصرها مقاوماً بتلمايس وحالف الأثوليين (قبيلة من بلاد اليونان) لمناسبة كسندر، وأرسل إليها اسكندر بن بوليسبركون مدير الملك قبلاً ومعه ألف وزنة ليستأجر جنوداً بها، ويُغري اليونان على خلع كسندر لقتله أم ملكهم وأسرته ابنه وأمه ويعدّهم بالحرية. وقام ليسيماك بإنجاده عدواً له وانتشبت الحرب سنة ٣١٥ ق.م فلم ينجح انتيكون هذه السنة بل انكسرت جنوده في حرب بحرية، وأخذ بتلمايس منه جزيرة قبرص. وكذلك استظهر كسندر على أحلافه في بلاد اليونان وعلى اسكندر بن بوليسبركون. وفي سنة ٣١٤ ق.م حاز انتيكون بعض الظفر وافتتح صور بعد حصارها خمسة عشر شهراً. وفي سنة ٣١٣ ق.م كانت لهم حروب أيضاً في بلاد اليونان وتراسة وآسيا الصغرى، ولم تأتِ بعاقبة فاصلة. ولكن في سنة ٣١٢ ق.م عهد انتيكون إلى ابنه ديمتريوس أن يمنع المصريين عن الدخول إلى سورية. فكسر بتلمايس وسلوقس جيشه عند غزة وتقهر ديمتريوس إلى أشدود. ثم قام منها إلى طرابلس وأسرع سلوقس بالعود إلى ولايته في بابل. وسمع انتيكون بانكسار جيش ابنه عند غزة فهبَّ لنجدته بعسكر كبير فلم يجسر بتلمايس أن ينازله بل عاد إلى مصر. واستمرت سورية بحوزة انتيكون ولم يكن من هذه الوقائع مدة أربع سنين ما يفصل الخلاف. وكسب انتيكون الولاية على سورية المجوفة واليهودية وفينيقية، وحفظ أملاكه وتعب الفريقان فرميا السلاح، وعقدا عهدة سنة ٣١١ ق.م من شرائطها أن يبقى حكم

مكدونية لكسندر إلى أن يبلغ اسكندر اكوس ابن اسكندر الكبير رشده. وأن يستمر انتيكون على ولاية آسيا الصغرى وسورية، وليسيماك على تراسة، وبتلميس على مصر وما يليها مع قبرص ورودس. وأما سلوقس فلم يؤت بذكره لأنه كان يظن أنه منهزم مع أنه كان قد عاد إلى بابل وقبله أهلها بمعظم الاحتفاء. وتألّب إليه عدد غفير فانتصر على أعوان انتيكون، واستفحل أمره في بابل وسائر الولايات التي في شرقي الفرات. ومن سنة عوده إلى بابل التي هي سنة ٣١١ ق.م. يتبدى تاريخ السلوقيين الذي يسميه بعضهم تاريخ اسكندر. وكان يؤرخ به النصارى وغيرهم قديماً. وهو المسمى في سفرى المكابيين تاريخ دولة اليونان. على أن السوريين واليونان يقولون إن السنة الأولى منه بتبدي في الخريف سنة ٣١٢ ق.م. وتنتهي في الخريف سنة ٣١١ ق.م. وأما اليهود فيحسبون الأولى منه بتبدي في الربيع سنة ٣١٢ ق.م. وتنتهي في الربيع سنة ٣١١ ق.م. والمعول على الأول. على أن هذه العهدة لم تبطل المطامع ولم تفصل الخلاف وكانت وبالأعلى من بقي من أسرة اسكندر، لأن كسندر قتل اسكندر اكوس وأمه ركسان اما بالسّم أو بالسيف خلافاً لما شرط في العهدة. ولم يبق من ذرية اسكندر الكبير إلا ابنه هرقل وأمه برسین فقتلهما كسندر بواسطة بوليسركون نفسه سنة ٣٠٩ ق.م، وقتل انتيكون قلوبطرة أخت اسكندر أرملة ملك الأبير، لأن بتلميس استدعاها من سرد اليه آملاً أن زواجه بها يزيد في عدد محازبيه، فأرسل انتيكون فقتلها سرّاً سنة ٣٠٨ ق.م. وعاد يعاقب النساء اللاتي تسببن في قتلها. وعليه فلم تكن العهدة إلا هدنة دامت قليلاً وعاد هؤلاء الولاة إلى القتال، حتى حاصر ديمتريوس ابن انتيكون أثينا وفتحها. وأقام فيها حكومة جمهورية وأتى بأسطول يحارب بتلميس فانتصر عليه في وقعة بحرية شهيرة أخذ بها سلامينا في قبرص واستولى على الجزيرة كلها، وحينئذ سمي انتيكون نفسه ملكاً وسمى ابنه كذلك واقتدى به باقي الولاة. فسمى بتلميس ملكاً في مصر، وكسندر ملكاً في مكدونية، وليسيماك ملكاً في تراسة. وأخيراً تحالف كسندر وبتلميس وليسيماك وسلوقس على انتيكون سنة ٣٠٢ ق.م. واجتاز ليسيماك ملك تراسة إلى آسيا الصغرى، فأخضع فريجيا وليديا وغيرهما في شمالها وزحف بتلميس إلى فلسطين وفينيقية، وسورية المجوفة فاستحوذ عليها ما عدا صور وصيدا، فإنه بقي محاصراً لهما، ومشى سلوقس بجيشه على أعمال آسيا الصغرى الشرقية فدخلها ظافراً. وانتشب القتال بين ديمتريوس بن انتيكون وكسندر

في تساليا ولما رأى انتيكون المضايقة له من كل جهة استدعى ابنه من بلاد اليونان. فكانت في ايسوس فريجيا سنة ٣٠١ ق.م وقعة هائلة بين جيوش الملوك المتحدين وبين جيش انتيكون ابنه ديمتريوس، كانت الفاصلة لأن انتيكون وقع قتيلاً وابنه ديمتريوس انهزم بخمسة آلاف راجل وأربعة آلاف فارس، وتشتت شمل باقي جيشهما. وسنأتي على باقي أخبار انتيكون وابنه في الأعداد التالية.

واقسم الملوك الظافرون المملكة فأصاب ليسيماك آسيا الصغرى إلى جبل طورس مضافة إلى تراسة، وأصاب سلوقس سورية الشمالية وما بين النهرين وما في شرقيهما إلى الهند، وأصاب بتلمايس اليهودية وفينيقية أي سورية الجنوبية إلى عكا مضافة إلى مصر وما يليها. وبقي كسندر في مملكته وما يسترده من بلاد اليونان وأخذ صقلية لأخيه. فأصبحت الممالك أربعاً كما تنبأ دانيال وقد طرأ عليها بعض التغيير كما سترى.

عد ٤٠٣

ولاية لاوميدون في سورية وانتزاع بتلمايس لها من يده

بعد أن أبتأ في العدد السابق ما كان من كبراء دولة اسكندر رغبة في توفير الفوائد، ورعاية لمساق التاريخ وتيسيراً لادراكه، تحتم علينا العود إلى مجل غرضنا وهو تاريخ سورية. فقد رأيت أن كبراء دولة اسكندر بعد اقرارهم بالملك لاريديا أخي اسكندر ولابنه، اقتسموا أقاليم المملكة بينهم وأصاب لاوميدون سورية. ولما اشتدت الحرب بين انتيكون واومان رأى بتلمايس والي مصر أن ضم اليهودية وفينيقية وجزيرة قبرص إلى مملكته ضربة لازب وقاية لمصر من مهاجمة عدو له، وطمعاً بتوسيع نطاق ولايته. فسير نيكاتور إلى سورية بجيش برّاً وسار هو بأسطول يدوخ مدنها البحرية، فاستظهر نيكاتور على لاوميدون وأخذه أسيراً. وافتتح بتلمايس المدن الساحلية وأصبحت سورية طوع يديه. فساء نجاحه السريع أقرانه على أن انتياتر كان بعيداً في مكدونية فلم يُبد حراكاً، وانتيكون كان مشغولاً بحرب اومان فلم يعترض هذه الزيادة على أملاك بتلمايس.

وقد أنبأنا يوسيفوس (ك ١٢ فصل ١ من تاريخ اليهود) إن اليهود رعوا الأمانة لملكهم لاوميدون مبرةً ليمينهم على الطاعة له. فقاوموا بتلمايس فشخص إلى

اليهودية بجيشه وحاصر أورشليم زماناً طويلاً فلم يتيسر لهم فتحها إلى أن درى بأن اليهود يحترمون يوم السبت فلا يأتون فيه عملاً. فهاجم المدينة في يوم سبت وقعد اليهود عن الدفاع فافتتح المدينة، وعامل أهلها وسائر اليهود أولاً بغاية القسوة، وأخذ منها أكثر من مئة ألف أسير إلى مصر. على أنه لما تذكر بسالتهم وحفظهم العهد لواليتهم وحكامهم غير ظنه ووثق بهم واختار منهم لخدمته ثلاثين ألف رجل وعهد إليهم في حراسة القلاع المهمة في مملكته.

عد ٤٠٤

انتزاع انتيكون سورية من يد بتلميس

قد مرَّ أن بتولميس كسندر وليسيماك وسلوقس تحالفوا على انتيكون وحاربوه سنة ٣١٥ ق م. وأخذوا منه قبرص التي كان استحوذ عليها. ففي سنة ٣١٤ ق م حشد جيشاً كبيراً وسار به إلى سورية قاصداً أن يثأر من بتلميس بانتزاعها من يده، وأن يأخذ سفن سورية وفينيقية لحاجته الشديدة إلى أسطول في محاربة المتحالفين؛ إذ لم يكن يطمع بفوزه عليهم إن لم تكن في يده فُرض سورية وفينيقية وعدد كافٍ من السفن. ودرى بتلميس ما أضمر انتيكون فأخذ إلى مصر كل ما وجد من السفن في مدن فينيقية، واستحاط في تقوية هذه المدن بتكثير الحامية فيها. فلقي انتيكون مَرَّ العناء في فتح صور ويافا وغزة ولم يفتح صور إلا بعد حصارها خمسة عشر شهراً. وجدَّ في اصطناع السفن في جبيل وطرابلس كما مرَّ مشغلاً ألوفاً من الرجال في قطع الأشجار من جبل لبنان، وفي نقلها وبناء السفن حتى بنى في سنة واحدة أسطولاً كبيراً. واستأثرت سفناً أخرى من قبرص ورودس وغيرهما من الجزر المحالفة له حتى عاد يؤمل السيادة في البحر، وأخصَّ ما حملة على ذلك تهويل سلوقس عليه بمئة سفينة أعاره إياها بتلميس ليروِّع جنود انتيكون ويضعف قلوب حلفائه.

وبينما كان انتيكون متشغلاً في فينيقية بلغه أن جيش كسندر استحوذ على محال عديدة في آسيا الصغرى. فأسرع إليها بفريق من جنده وترك الباقي تحت أمره ابنه ديمتريوس، وضايق أسطول انتيكون صور مانعاً عنها كل مدد وقوت. فاضطرَّ أهلها إلى الاستسلام وطلب الجنود الذين أقامهم بتلميس فيها الأمان ليخرجوا منها

بأمتعتهم فأعطوه. وشرط أهل المدينة المحافظة على دمهم ومالهم فعمل بشرطهم، ذلك ناطق بأن جنود انتيكون كانوا رأوا شدة بأس أهل مدينة صور ومناعة مدينتهم وصعوبة فتحها، فتساهلوا لهم مع أن اسكندر كان دمر صور قبل تسع عشرة سنة فقط فانبعثت من رقادها، وعادت إلى قوتها في هذا الوقت الوجيز. كل هذا نتيجة جد أهلها في الاتجار والصناعة وقد كانت حينئذ قطب التجارة بين المشرق والمغرب.

أما بتلمايس فسار بأسطوله إلى جزيرة قبرص وأخضع ولائها له ومنهم نيكوكاس ملك بافوس (الباف)؛ إلا أن هذا الملك انحاز بعد سنة أو سنتين إلى انتيكون. وحالفه خفية ودرى بتلمايس خيانتة فأمر بعض عماله في الجزيرة بقتله، فلم يقتلوه بنفسهم بل حملوه على أن ينتحر مزينين له أنه خير له من قتلهم إياه فانبحر. وكان بتلمايس أمر عماله أن لا يمسوا الملكة والأميرات بضراً فلم يتيسر لهم منعهن من الضرر بأنفسهن، ولأن الملكة قتلت بناتها بيدها، وحرضت سلفاتها على الانتحار ثم انتحرت هي. ولما رأى اخوة الملك ما كان ألقوا النار في زوايا القصر الأربع فاحترقوا به. هذا ما رواه ديودر الصقلي (ك ٢٠ صفحة ٧٦١) والعهد عليه. أما ديمتريوس بن انتيكون فأنتهى بجيشه إلى غزة فكانت هناك وقعة ارتعدت لها الفرائص بين جيش ديمتريوس وجيش بتلمايس وسلوقوس (الذي كان فر إلى مصر كما مر). وانجلى القتال عن خمسة آلاف قتيل وثمانية آلاف أسير من جيش ديمتريوس، وأخذت خيله وخيامه وماله وأمتعته وعاد هو إلى أشدود ثم إلى طرابلس تاركاً لبتلمايس فينيقية وفلسطين وسورية المجوفة. وسأل بتلمايس قبل قيامه من أشدود أن يرخص له بدفن قتلاه فأنكر عليه سؤاله، إلا أنه رد عليه خيامه وأمتعته وأصدقائه وخدامه دون فداء قائلاً أن ليس الغرض من الحرب بينهما المال بل الفخار. فشرد ديمتريوس بكرم بتلمايس وسأل الآلهة أن يتيحوا له فرصة ليكافئه بمثله. وتبع بتلمايس ديمتريوس فاسترد المدن الساحلية ولما بلغ صور هم أدرونيك واليها من قبل انتيكون أن يقاومه معتمداً على اخلاص الصوريين لمولاه. فخاب أمله لأن الأهلين والحرس أكرهوه على الاستسلام. وخاف أن يقتله بتلمايس فكان ما لم يأمل، فأبى بتلمايس جامله وأكرمه.

على أن انكسار ديمتريوس لم يوهن عزيمته بل أخذ يحشد جنوداً في شمالي فينيقية، ويحصن مدناً وسمع أبوه انتيكون بانتصار بتلمايس عليه فقال: «انتصر

بتلمايس على أحداث فيسليقي عما قليل حرب رجال». وكتب له ابنه يستأذنه باستئناف القتال مع بتلمايس فشجعه عليه. وسير بتلمايس شيل أحد قواده بجيش جرار يتتبع آثار ديمتريوس ليطرده من سورية. فأدركه في طرابلس (على ما يُظن) أو في شماليها. وانتشبت الحرب بينهما فاستظهر ديمتريوس على شيل، وشتت عسكره وأخذه أسيراً مع ستة آلاف من جنوده فغنم بأمته وذخائره. ولم يكن سروره بظفره أكثر منه بسنوح الفرصة له ليكافئ بتلمايس على كرمه السابق له، فانه ردّ عليه قائد جيشه وأصدقائه وأمتعة جنده وتقادم نفيسة. وبلغ انتيكون خبر انتصار ابنه فأسرع من فريجيا إلى سورية ولما لقي ابنه عانقه وفاضت مدامعه طرباً. ورأى بتلمايس أنّ ليس في مقدوره أن يحارب انتيكون فأثر العود إلى مصر على القتال، وهدم قلاع عكا ويافا والسامرة وغزة. وأخذ كل ما وصلت إليه يده من ثروة الأهلين وجماً غفيراً منهم. أو هم لحقوا به راضين على ما روى يوسيفوس (ك ١٢ في تاريخ اليهود فصل ١). وعادت فينيقية وفلسطين وسورية المحجوبة إلى ولاية انتيكون. وكان ذلك سنة ٣١١ ق.م (ديودور ك ١٩ صفحة ٧٢٩). واستمرت قبرص في يد بتلمايس ثم سير انتيكون بعد أخذه سورية أحد قادة جيشه إلى العرب النبطيين الذين كانوا يشتون الغارة على سورية فيسلبون ويقتلون. فنكل بهم واستردّ بعض ما سلبوا لكنهم كمنوا له في طريقه فقتلوه وجماً من رجاله. واسترجعوا السلب فحنق انتيكون منهم وبعث عليهم ابنه ديمتريوس فلم يتيسر له لحاقهم ولا الاستحواذ على بلادهم. فعقد معهم عهدة من حيث كان، وعاد إلى أبيه فوجهه إلى أثينا فحاصرها وافتتحها وأقام فيها حكومة فوضوية كما مرّ.

عد ٤٠٥

أخذ ديمتريوس قبرص وحرب رودس واسترجاع بتلمايس بعض سورية

قد أمر انتيكون ديمتريوس أن يسير بأسطول كبير وجيش وافر ليأخذ جزيرة قبرص من يد بتلمايس. فأرسل وفداً يدعو، أهل رودس إلى محالفته فأبوها وسار إلى قبرص فاحتل أرضها. وزحف بجيشه إلى سلامينا عاصمتها فالتقاه مينيلاس أخو بتلمايس. وتسعرت نار الحرب بينهما فاستظهر ديمتريوس وانهزم مينيلاس إلى المدينة تاركاً في ساحة النزال ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير. وكتب إلى أخيه بتلمايس

يخبره بما كان ويستعجله بنجدته. واستأثى ديمتريوس من سورية كثيراً من الحديد والأخشاب والعملة الحاذقين لصنع الآلات اللازمة لحصار سلمينا. واخترع حينئذ آلة سموها هاليبول ومعناها آخذة المدن. وهي برج من خشب طوله من كل جهة ٧٥ قدماً وارتفاعه ١٥٠. مرَّكب على عجلات يدنونه حين الحصار من الأسوار والرماة فيه. ولما تكاملت عدده احتاط أسوار المدينة وأخذ يرميها بمناجيقه وآلات حربه ودام الحصار أياماً إلى أن فتح ثلثة كبرى في الأسوار. ويئس المحاصرون من النجاة إلا أن يخرجوا بوثة شديدة على العدو وهم لا يوقنون بالظفر. فركموا ليلاً كثيراً من الأخشاب اليابسة والمواد السريعة الالتهاب وألقوها من أعلى الأسوار على المناجق والآلة المذكورة وباقي أدوات الحرب فالتهمت النار. وتسارع جيش ديمتريوس لاطفائها فلم يتيسر لهم إلا وقاية قليل منها وتعطل أكثرها.

وأتى بتلمايس سريعاً من مصر بمئة وخمسين سفينة. وكتب إلى أخيه في سلامينا أنه إذا التحم القتال واشتدَّ أجيجه فليأخذ الستين سفينة التي عنده إلى مرفأ سلامينا ويضرب بها سفن ديمتريوس من ورائها. وكان ديمتريوس احتاط بأن ترك عشر سفائن تخفر المرفأ الذي كان ضيقاً. وصفَّ جيشه حول المدينة وفي كل مكان مشرف على البحر. وانقضَّ بمئة وثمانين سفينة على أسطول بتلمايس فغرق بعض سفنه وكسر بعضها، وغنم سبعين منها بما كان فيها، ولم يبق لبتلمايس إلا ثمانين منها فرَّ بها مدحوراً. وبعد هذا الانتصار بحراً يئس مينيلاس من المدافعة واستسلم لديمتريوس هو وجنوده وأهل المدينة. وأراد ديمتريوس أن يكافئ مرة أخرى بتلمايس على ما صنع إليه في حرب غزة فأطلق له أخاه مينيلاس وابنه لاوتيسك وأرسلهما إليه بلا فدية مع أصدقائهما وخدامهم وأمتعتهم، وكان ذلك سنة ٣٠٦ ق.م. وقد مرَّ أنَّ أنتيكون سمى نفسه ملكاً بأثر هذا الانتصار وسمى ابنه كذلك. وقد أقام ديمتريوس تمثالاً من رخام ذكراً لانتصاره في جزيرة سامترلس. ووجد هذا التمثال شانبواسو قنصل فرنسا في هذه الجزيرة سنة ١٨٦٣ م ونقله إلى متحف اللوفر. وتوجد مسكوكات باسم ديمتريوس هذا يرى فيها صورة امرأة يعبرُّ بها عن الانتصار قائمة على مقدَّم سفينة ويدها اليمنى بوق تنفخ به، وفي شمالها راية النصر ذكراً لانتصاره هذا (دورى مجلد ٣ صفحة ٣٨٧). وبلغت أنتيكون أخبار انتصار ابنه فارتقص طرباً وهمَّ أن يستثمر هذا الانتصار فحشد في سورية جيشاً لا يقلُّ عن مئتي ألف رجل. وكتب إلى ابنه ليلتيه ليضربا مصر وينتزعاً ملك

بتلمائس. وكانا يحسبان انكساره في قبرص ميسراً الظفر به في مصر فكان غير ما حسبا. فقد سار الجيش براً والأسطول بحراً. وانتهيا إلى غزة وكان من رأي الريانيين أن ينتظر الأسطول مرور مغيب الثريا إذ تكثر عنده العواصف عادةً. وكان رأي انتيكون أن يباغت بتلمائس قبل أن يستعد للدفاع. وعمل برأيه فإنه أمر ديمتريوس أن يحتل عند أحد مصاب النيل. وجدّ هو أن يفتح ممراً إلى البلاد فثارت عواصف أضرت كثيراً بأسطول ديمتريوس. وأبدى الحرس الذي أقامه بتلمائس على مصب النيل آيات البسالة في الدفاع فلم يمكنه من الاحتلال. ولقى انتيكون عقبات ومصاعب لا يقوى عليها حتى قنط من دخول البلاد. وأخذ جنوده يأبقون لأنّ بتلمائس أرسل منادين يذيعون باسمه على جنود عدوّه عند استقائهم الماء أنّ كلّ جندي آبق فله منه منان (تساوي ١٨٣٣ فرنكاً). وكلّ ضابط آبق فله وزنة (تقدّر ٥٥٠٠ فرنك). فكثّر عدد الآبقين لا طمعاً بالمال فقط بل لأنهم كانوا يوثرون خدمة بتلمائس على خدمة انتيكون. فإنّ هذا كان أمسى شيخاً صعب المراس متكبراً قاسياً، وذاك كان ليّن العريكة طلق الوجه رقيقاً جواداً. ولما رأى انتيكون أنه يستحيل عليه دخول مصر وعازته المؤن لجنوده، وفشا فيهم المرض وكثّر الآباق عاد إلى سورية والخلجل دثاره والكآبة شعاره. وخسر في هذه الغزوة كثيراً من جوده وسفائنه وكان ذلك بسنة ٣٠٥ ق.م. واشتدّ ساعد بتلمائس وعظم بأسه ولم يعد أحد يزاحمه بعد ذلك على ولاية مصر، ولهذا جعل بتلمائس الفلكي اليوم السابع من تشرين الثاني السنة المذكورة بدءاً لتاريخ سني البتلمائسيين أو البطالسة وهي التاسعة عشرة بعد وفاة اسكندر.

وكان في رودس حكومة فوضوية شديدة البأس ميّالة إلى بتلمائس، وكان ديمتريوس دعاهم لمخالفته في حرب قبرص فأبوا كما مرّ. فأرسل انتيكون ابنه ديمتريوس لحربهم ليثأر منهم ومن بتلمائس ويزيد أملاكه وقوّته. فمضى ديمتريوس إليها بأسطول كبير وعسكر وافر فكانت بين ديمتريوس والرودسيين حروب عديدة خلدت الذكرى لبسالة الفريقين وتجلّدهما وثباتهما، وانتهت هذه الحروب بعهدة صلح وقّع الفريقان عليها. ومن شرائطها أن تبقى جمهورية رودس والرودسيون على حقوقهم وسلطتهم ولا يخضعون لدولة أيتها كانت؛ وإنّ المخالفة التي كانت بينهم وبين انتيكون تستمر ثابتة وبقوّتها. يلتزمون أن ينجدوه في كلّ حروبه إلاّ إذا كانت الحرب مع بتلمائس، وإنّ الجمهورية تدفع لديمتريوس مئة رجل يختارهم ليكونوا

بمنزلة رهينة على العمل بموجب العهدة. وقالوا إن قبل أن يزایل ديمتريوس رودس أهدى أهلها جميع آلات الحرب التي استعملها في حصار مدينتهم. فباعوها بثلاثمائة وزنة (تساوي مليون وست مئة وخمسين ألف فرنك). وأضافوا إلى ثمنها مبلغاً آخر واصطنعوا بها تمثالاً للشمس في رودس كان إحدى عجائب الدنيا السبع. وكان صانعه شارس دي ليندوس وقضى في عمله اثنتي عشرة سنة، وبعد ست وستين سنة من نصبه، أسقطته زلزلة. روى ذلك بلين (ك ٣٤ فصل ٧) وكان ذلك لسنة ٣٠٤ ق م.

ثم انتهز بتلمايس فرصة غياب انتيكون وابنه ديمتريوس عن سورية فحمل عليها. واسترجع فينيقية واليهودية وسورية المجوفة ما عدا صور وصيدا لأن انتيكون كان ترك فيهما عدداً غفيراً من المحافظين. وحاصر بتلمايس صيدا ولكن ورد عليه خبر لم يكن صحيحاً وهو أن انتيكون انتصر على عسكر المتحدين، وأنه قادم لنجدة صيدا. فأعطى أهلها هدنة خمسة أشهر وقفل إلى مصر (رواه ديودر الصقلي وهو آخر أخباره).

عد ٤٠٦

سلوقس وديمتريوس في سورية

قد مرّ (عدد ٣٨٤) أن الملوك الأربعة المتحدين بعد انتصارهم على انتيكون في وقعة ايسوس اقتسموا مملكته. فكانت سورية الشمالية من مملكة سلوقس، واستمرت فلسطين إلى عكا وسورية المجوفة تحت ولاية بتلمايس ملك مصر، على أن مملكة سلوقس كانت فسيحة الأنحاء تشتمل على ما مرّ ذكره من سورية وما بين النهرين ومملكة الفرس إلى الهند، ولكنها سُميت بمملكة سورية لأن سلوقس بنى أنطاكية وأقام فيها هو وخلفاؤه المعروفون بالسلوقيين نسبةً إليه. وسمى سلوقس المدينة التي بناها أنطاكية نسبةً إلى أبيه أو ابنه انطيوخس لأن كليهما سُميا بهذا الاسم. وكانت هذه المدينة عاصمة المشرق أعواماً متطاولة في مدة السلوقيين والقيصرية الرومانيين. وكان انتيكون بنى على مقربة منها مدينة سماها انتيكونية فنقضها سلوقس. وبنى بأنقاضها مدينة ونقل إليها سكان انتيكونية وبنى أيضاً سلوقية وسماها باسمه. ومن قائل أنها كانت على ضفة دجلة وهي سلوقية ما بين النهرين

الآن، ومن قائل أنها كانت عند مصبّ العاصي محل السويدية الآن، ومن قائل أنه بنى المدينتين على دجلة والعاصي وهو الأظهر. وسماههما باسم واحد، وبنى أيضاً أباميا على اسم امرأته ابنة ارتباس الفارسي وكانت على العاصي قرية من حماه. واللاذقية على اسم أمه لوديقه إلى غيرها من المدن (سترابون ك ١٦ صفحة ٧٤٩).

أما ديمتريوس بن انتيكون فانهزم بعد وقعة ايسوس إلى افسس برجاله وفرسانه. ثم سافر إلى أثينا حيث كان ترك سفنه وماله وامراته ديدامية آملاً أن يرحب به أهلها لما صنعه إليهم من المعروف. فأرسلوا إليه وفداً يبلغه أن الشعب لا يقبل أحداً من الملوك، وأنهم شتّعوا امرأته بكرامة إلى ماكارا (مدينة بين أثينا وقرنتية) فأبدى لهم شكواه وعتابه. وسأل أن يردوا عليه سفنه فردوها، فسار بها ونزل على بعض أملاك ليسيماك فأغنى رجاله بما غنم منها واشتدّ ساعده. وكان ليسيماك عقد عهدة مع بتلمايس وتزوج بنته فوجس سلوقس من هذه المعاهدة وصالح ديمتريوس وعاهده. وتزوج ابنته ستراتونيس فسُرّ ديمتريوس بعضد اتخذها وأتى بابنته وأسطوله من بلاد اليونان إلى سورية واحتلّ في طريقه بعض مدن قيليقية. وكان بليسترك أخو كسندر ملك مكدونية يلي هذا الاقليم فمضى إلى سلوقس يشكو إليه أمره، معيماً عليه اتحاده مع ديمتريوس عدو سائر الملوك. وعلم ديمتريوس فانقضّ على خزينة هذا الاقليم فاستلبها وعاد إلى سفنه وسار إلى سلوقس. فرفّ إليه بنته وعاد إلى قيليقية فاستحوذ عليها ودرجت امرأته ديدامية وكان قد صالح بتلمايس بواسطة سلوقس. فتزوج بابنته وعظم شأنه واستفحل أمره إذ ملك قيليقية وكان قد بقي له من أملاكه قبرص وصور وصيدا وأسطول كبير وناهيك به عزة من اعتضاده بسلوقس وبتلمايس.

وانتبه سلوقس إلى أن تعظيمه شأن ديمتريوس وتقويته إياه وبال عليه. فسأله أن يتخلّى له عن قيليقية ويدفع إليه مبلغاً جزيلاً من المال فلم يُجب سؤاله. ورغب إليه سلوقس أن يرّد عليه صور وصيدا لأنهما من مملكة سورية وهو ملكها فقال له لو ضويقت في حروب عديدة كحرب ايسوس لما شريت صداقة سلوقس بهذا الثمن الفاحش وهبّ إلى صور وصيدا وحصّنهما تلافياً من أخذ سلوقس لهما. وبعد أن أُشْن على أملاكه في آسيا مضى إلى أثينا ينكّل بها جزاءً على صنعهم القبيح به بدلاً من صنعه المعروف إليهم. فحاصر مدينتهم وافتتحها واجتزأً بالتونيب لهم على قبيح معاملتهم له، وأقام لهم حكماً أجمعوا على استحسان توليتهم. ثم مضى إلى

المورة وحارب ملكها وانتصر عليه. وبلغه حينئذ شائمة أن ليسيماك أخذ كلما كان يملكه في آسيا الصغرى، وأن بتلميس أخذ قبرص وهو محاصر سلمينا حيث كانت أمه وزوجته وأولاده. فأسرع في العود فوجد بتلميس افتتح سلمينا وردّ عليه أهله دون فداء، لكنه أخذ بعد ذلك صور وصيدا واستحوذ سلوقس على قيليقية فلم يبقَ لديمتريوس شيء من أملاكه (بلوترك في ترجمة ديمتريوس).

قلّ ما وُجد رجل مثل ديمتريوس كثر عليه اقبال الدنيا وأدبارها، فبعد أن أمسى معدماً كما رأيت حدث أن قضى كسندر ملك مكدونية. فتنازع ابنه انتيباتر واسكندر الملك وكانت أمهما تفضّل اسكندر الصغير فقتلها ابنها انتيباتر. فاستنجد اسكندر ديمتريوس ليثأر من أخيه بدمها فلأبى ديمتريوس دعوته على أنه لم يبلغ مكدونية إلّا وكان بيروس ملك الأبير أصلح الأخوين، فالتقى اسكندر ديمتريوس بالترحاب. وبلغه تبدّل الحال وأنه لم يعد في حاجة إلى معاونته فامتعض ديمتريوس وكان اسكندر يكرّم مثواه ويجامله وهو وجس من قوّته ودهاه. وبلغ ديمتريوس يوماً أن اسكندر يروم ابعاده عنه فعاجله بالقتل غيلة فهاج المكدونيون عليه أولاً لاقدامه على هذه الجريمة الفظيعة. فاعتذر لهم ديمتريوس عن فعلته وجعلهم لمقتهم لأنتيباتر (لاغتياه أمه) يوثرونه عليه. فرضوا عنه وملكوه فيهم سنة ٢٩٤ ق.م، واستمرّ على منصّة الملك في مكدونية سبع سنين وأخذ سنة ٢٨٨ ق.م يعدّ العدد ويحشد الجيش ليسترجع ملك أبيه في آسيا. فانضوى تحت رايته مئة ألف جندي ونيّف، وجهّز خمس مئة سفينة، فجذّد بتلميس وليسيماك وسلوقس محالفهم عليه وانضمّ إليهم بيروس ملك الابر.

وقد كُشف في أثينا عن صفيحة كُتبت عليها خطوط مؤذنة بعهدة بين بتلميس وأثينا والمورة وأحزابهم، غايتها المدافعة عن الحرية العامة ضدّ من يخربون بلاد اليونان وينقضون السنن والرسوم التي افترضها قداماؤهم. وزحفت عساكر ليسيماك وبيروس إلى مكدونية فافتتح بيروس بيريا (في مكدونية) حيث كانت نساء أكثر الجنود وأولادهم، فانشقّوا عن ديمتريوس وحازبوا بيروس ونادوا به ملكاً على مكدونية. فاضطرّ ديمتريوس أن ينهزم متنكراً بزي جندي ويعود إلى بلاد اليونان حيث بقيت بعض المدن خاضعة له، فترك ابنه انتيكون والياً عليها. ومضى إلى آسيا يتطلّب غنيمة فأخذ بعض أعمال من مملكة ليسيماك. فهبّ اكاتوكل بن ليسيماك لمقاومته وبعثه على الانهزام فأذاه تطوافه إلى ترسييس في قيليقية. وأرسل منها يشكو

حالة عسره إلى سلوقس صهره طالباً امداده بما يقوم بأوده وأود من بقي معه من جنوده، فرفق به سلوقس أولاً، وكتب إلى عماله أن يقدموا له كلما يحتاج إليه. ثم تذكّر دهائه وخاف أن يكره به فعمد على إهلاكه، وسار بجيشه إليه ففرّ ديمتريوس من وجهه وأرسل إليه أن يبيحه العبور نحو المشرق ليقضي ما بقي له من الحياة مطمئناً، فلم يركن سلوقس إلى صدق مقاله، وضبط الطرق عليه، أما ديمتريوس فلجأ إلى القوّة وعبر تلك الخافر ودخل إلى سورية فعاودته شجاعته لكنه أصيب بمرض عضال فتركه بعض جنوده. وهمّ بعد ابلاله من المرض أن يباغت سلوقس فيقتله. وفشا سرّ خديعته وضاقّت به الحيل، فعزم أن يفرّ إلى سفنه فوجد المعابر مخفورة بتحرز، فاخترأ في بعض الغابات إلى أن ألجأه الجوع أن يستسلم لسلوقس فأخذه أسيراً سنة ٢٨٦ ق.م وأقامه في مدينة في جوار اللاذقية تاركاً له فيها حريته، فقضى ما بقي من عمره مستكناً متحماً مصابه بصبر جميل متشاعلاً بالصيد واللعب سلواناً لنفسه. ولكنه عكف على معاقرة الخمرة، فأصابه مرض قضى به سنة ٢٨٣ ق.م بعد أن استمر أسيراً ثلاث سنين، ولم يكن له من العمر حينئذ إلا أربع وخمسون سنة (بلوترك في ترجمة ديمتريوس).

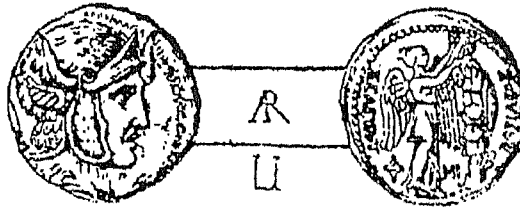
عد ٤٠٧

محاربة سلوقس ليسيماك وقتله واغتيال سلوقس

روى يوستينوس (ك ١٧ ف ١) وابيان (في تاريخ السوريين صفحة ١٢٨) وغيرهما أن ليسيماك زوّج ابنه اكاتوكل بليسندرة ابنة بتلميس ثم تزوج هو بأختها ارسينوا. وكان له ابناء فعظمت الغيرة بين الأختين احتساباً لمن يكون الوريث بعد وفاة ليسيماك. واشتدّت الضغائن بينهما وأتى بتلميس جيرانوس أخو بتلميس فيلادفوس ملك مصر إلى قصر ليسيماك وكانت ليسندرة شقيقة له. فتوهمت ارسينوا أنه إذا توفي ليسيماك قتلها جيرانوس وأتبع بها بنيتها ليملك اكاتوكل صهره، وما انفكت تزعج ليسيماك الملك زوجها بشكواها اكاتوكل، ووشايتها به أنه ييدي مؤامرات على حياة أبيه وأخذ تاجه حتى ألقى ابنه في السجن ثم قتله. وفرت لسندرا وأولادها وأخوها جيرانوس واسكندر بن ليسيماك الآخر إلى سلوقس، وحملوه على إعلان الحرب على ليسيماك وانحاز كثير من أعوان ليسيماك إلى سلوقس اشمئزاً من غدره بابنه. وكان سلوقس ميالاً إلى هذه الحرب طمعاً بتوسيع نطاق ملكه فعزم عليها راغباً.

وقبل أن يزحف بجيشه على ليسيماك تخلى لابنه انطيوكس عن أعمال كثيرة من ملكه، ولم يبق لنفسه إلا الأعمال التي بين الفرات والبحر. وزوجه أيضاً بامرأته ستراتونيس لأنه ظهر له شغفه ثم سار في آسيا الصغرى فلم يلق معارضاً حتى انتهى إلى سرد (في ولاية إزمير الآن). فحاصرها وافتتحها وغنم خزائن ليسيماك التي كانت فيها فعبير ليسيماك الدردنيل وأتى آملاً أن يوقف سلوقس عن تقدمه، فانتشبت القتال بينهما فاستظهر سلوقس على ليسيماك وقتله واستحوذ على مملكته كلها وسر بانتصاره، وبأن يرى أيضاً نفسه قد بقي وحده في الحياة من قادة اسكندر، وقد ظفر بالظافرين، وهذا الانتصار قد أكسبه لقب نيكاتور (ومعناه الظافر المنتصر) الذي سمى نفسه ويسميه به المؤرخون تمييزاً له عن خلفائه الذين سموا سلوقس وكان ذلك لسنة ٢٨١ ق.م.

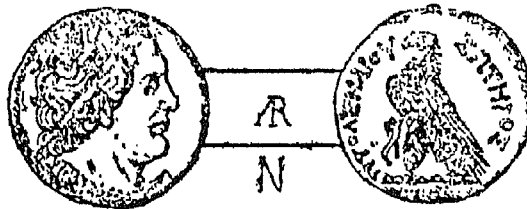
على أنه لم يعيش بعد هذا الظفر إلا ستة أشهر، فإنه مضى إلى مكدونية ليضع يده على ما كان لليسيماك فيها ويقضي ما بقي من عمره في وطنه العزيز، فحالف عليه جيرانوس بتلميذ الذي كان غمره بنعمه وإحسانه وأكرم مثواه عند فراره إليه وأصبحه معه في هذه الغزوة ناوياً أن يجلسه على عرش أبيه في مصر، فأبى خلقه الدميم إلا الخيانة، وغمط النعمة وقتل المحسن إليه غيلة سنة ٢٨٠ ق.م. وقد ملك سلوقس بعد أن سمى ملكاً في أثر وقعة ابسوس عشرين سنة، وكان ملك قبل ذلك إحدى عشر سنة إذ جعل بدء ملكه في السنة الثانية عشرة بعد وفاة اسكندر الكبير؛ فجملة سني ملكه إحدى وثلاثون سنة، وكان حسن الأخلاق محباً العدل مستمسكاً بالدين لين العريكة شفوياً يحجب الرعية به بحلمه. هذا مثال صورة سلوقس الأول على سكتته. ففي الوجه الأول مثال رأسه وعليه



خوذة ذات قرنين وأذن ثور. وفي الوجه الثاني مثال الظفر قائماً متجهاً نحو اليمين رافعاً يديه على خوذة ودرع وترس، وقد كُتب على الصورة سلوقس باسيلوس أي الملك سلوقس.

وأما جيرانوس الحائن فحسب أصدقاء ليسيماك أنه قتل سلوقس ثاراً بليسيماك فملّكوه فيهم، وكان يخشى أخته ارسينوا أرملة ليسيماك ويحذر منازعة أبنائها له. فأكرهها على الزواج به على عادتهم القبيحة ثم قتل ابنها ونفاها، فسَلَطَ الله عليه الغال (وهم قبيلة أتت من الشمال فدوخت البلاد وتوطن السواد الأعظم منها في فرنسا فشملت غالبية). وأعمى بصيرته عن التحوُّط في المحاربة لهم فأخذه أسيراً وقتلوه. وكان في هذه الأثناء أن بتلميس المعروف بسوتر بن لوغوس تخلى عن ملكه سنة ٢٨٥ ق.م لابنه فيلادلفوس (تأويل الكلمة محب أخيه) ثم توفي سنة ٢٨٤ ق.م بعد أن ملك عشرين سنة سمي فيها ملكاً وتسع عشرة سنة بعد وفاة اسكندر الكبير. فجعله سني ولايته في مصر تسع وثلاثون سنة. وكان عالماً محباً للعلماء ألّف كتاباً في ترجمة اسكندر لم يبلغ إلينا، ولكن أكثر القدماء من الثناء عليه وكان مثلاً للحكمة والعدل والشفقة. وقد رفع مصر في مدة ملكه إلى أعلى مقام بين الممالك الأخرى. وكان يجانب الإسراف والعظمة. ومما يُذكر له في هذا الشأن أن بعض أعوانه قال له يوماً: إنَّ الملك يلزمه غنى أكثر مما هو عليه. فقال إنَّ عظمة الملك الحقيقية ليست بأن يكون غنياً بل بأن يغني غيره. وهو الذي أخذ في إنشاء مكتبة اسكندرية الذائعة الصيت ثم زادها ابنه بتلميس فيلادلفوس وبعض خلفائهما. وقد استمرت فينيقية وسورية المجوفة والعريية وجزيرة قبرص خاضعة لمملكة مصر في أيامه.

وهذا مثال سكة بتلميس الأول ترى في وجهها الأول صورة رأسه مكللاً وفي الوجه الثاني صورة نسر كُتب عليها بتلميس سوتاروس.



الفصل الثالث

انطيوخس الأول والثاني وسلوقس الثاني والثالث ملوك سورية
وما كان في أيامهم

عد ٤٠٨

انطيوخس الأول

قد مرَّ أنَّ سلوقس قبل حملته على ليسيماك تخلى لابنه انطيوخس عن بعض أملاكه، وبعد مقتله سنة ٢٨٠ ق.م استبدَّ بالملك كله وسمى سوتراي المخلص، لأنه نجى مملكته من حملات الغال المشار إليهم آنفاً. ومن الأحداث المعروفة في أيامه أنه زوّج ابنته اباميا بماغاس والي ليبيا. فثار ماغاس على بتلميس فيلادلفوس ملك مصر مع أنه كان أخاه لأمه. واستقلَّ في ولايته بعد أن كانت خاضعة لمصر بل سوّلت له نفسه بأن يثلَّ عرش بتلميس ويملك في مكانه، وحشد جيشاً كبيراً وضرب اسكندرية واستحوذ عليها. ولكن نشأت فتنة في بلاده بعثته على العود إليها فانتهز بتلميس هذه الفرصة ولمَّ شعث جنده وهبَّ لمقاومته. واستنجد ماغاس بحميه انطيوخس وتعهداً أن يثب كلُّ منهم على مصر من جهة. ودرى بتلميس بما أسراه فأشغل انطيوخس في الدفاع عن مدنه البحرية لأنه أرسل إليها جنوداً يحتلون بعضها وينكلون بسكان بعضها. فاضطرَّ أن يلزم مملكته دون براح ورأى صهره أن لا طاقة له وحده على حرب بتلميس. وكسر جيشه في وقعة فرغب عن عزمه على الاستيلاء على مصر وكان ذلك لسنة ٢٦٤ ق.م.

وقد توفي في هذه الأثناء فيلاتر ملك برغام في آسيا الصغرى. فطمع انطيوخس في أن يأخذ ما كان له من البلاد ويلحقه بمملكته. فحشد الجيش وسار به فالتقاه اومان ابن أخي فيلاتر وخليفته مدافعاً عن ملكه فاستظهر اومان على

انطيوخس المعتدي وشتت عسكره. ولم يفقد شيئاً من أملاكه بل زادها بانتصاره زيادة كبيرة وكان ذلك لسنة ٢٦٢ ق.م. وعاد انطيوخس إلى أنطاكية مدحوراً فوجد أحد أبنائه أنشأ فتنة في مدة غيابه فقتله. روى ذلك تروك بومباي وقال بعضهم وهو أرجح أن رواية تروك مغلوطة فيها ثم سمي انطيوخس الأول ابنه الآخر ملكاً في حياته ودعاه باسمه انطيوخس. وكان رزقه من ستراتونيس ابنة ديمتريوس التي كانت زوجة لأبيه سلوقس، ثم زوجه إياها كما مرّ، وعاش انطيوخس الأول بعد ذلك مدة قليلة. وقضى سنة ٢٦١ ق.م في رواية وسنة ٢٦٠ ق.م في رواية أخرى وذكر له بعضهم حروباً مع المكدونيين والغلاطيين وغيرهم لم نظفر بتفصيل أحداثها.

عد ٤٠٩

انطيوخس الثاني وما كان في أيامه

إنّ انطيوخس هذا ابن انطيوخس الأول رقي منصّة الملك سنة ٢٦٠ ق.م ولُقّب ثاوس أي الإله تمييزاً له عن سمي بهذا الاسم من ملوك سورية. وكان أول من لقّبه بهذا الاسم أهل ميلات في آسيا الصغرى لأنه أنقذهم من جور والي اسمه تيمرك كان عصا بتلمايس فيلادلفوس ملك مصر (الذي كان له أملاك في آسيا الصغرى). واستقلّ في ذلك الاقليم وبغى وجار فلجأ أهل ميلات إلى انطيوخس فظهر عليه وقتله فأحبوه كالآلهة. وسموه إلهاً. وهي عادة سيئة كثر التملُّق بها في تلك القرون، وسمى أهل إزمير أمه ستراتونيس آلهة أيضاً. وكان باروز المؤرخ البابلي الشهير في أيام هذا الملك لأنه قدّم له كتابه. وقال بلين (ك ٧ فصل ٥٦) إنّ تاريخه كان ينطوي على مراقبات فلكية مدة أربع مئة وثمانين سنة، ولما كان ولاة بابل من المكدونيين تعلّم باروز اللغة اليونانية. وارتحل أولاً إلى جزيرة كوس مولد ابقراط وأنشأ مدرسة يعلم فيها علم الهيئة.

ثم انتقل إلى أثينا فأكسبه علمه أرفع منزلة من الاكرام حتى أقاموا له تمثالاً وجعلوا له لساناً من ذهب. وقد بلغ إلينا يوسفوس واوسايبوس شذرات من تاريخه جلّت لنا الالتباس عن كثير من آيات العهد القديم وكانت ذات فائدة كبرى في معرفة ملوك بابل.

وكان في أيامه أنَّ بتلميس ملك مصر أراد أن يحتكر لمملكته التجارة في البحر وكان ذلك للصوريين. فكانوا يستأثرون السلع بالبحر الأحمر إلى إبله وتقلها القوافل إلى مرفأ بين فلسطين ومصر فتشحن إلى صور. فبنى بتلميس مدينة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر وسماها برنيس (أو برنيقة) باسم أمه. وكانت السلع تأتيها من الهند والعربية وفارس والحبشة وتقلها القوافل إلى النيل وتسير به إلى اسكندرية فتشحن منها إلى المغرب. وتستأتي منه البضائع إليها فتحمل إلى الآفاق في المشرق. وأنشأ بتلميس كثيراً من السفن تمخر في البحر المتوسط والبحر الأحمر فكان هذا داعياً للتحاسد بين انطيوخس وبتلميس. وتلاه داع آخر للقتال وهو أنَّ ماغاس ملك ليبيا المار ذكره صالح بتلميس ووعد أنه يزوّج بنته برنيس الوحيدة بآبن بتلميس البكر ويترك له مملكته مهراً لها. وأدركت الوفاة ماغاس قبل اتمام وعده فهتّت امرأته اباميا أخت انطيوخس بأن تخلف هذا الوعد، فاستدعت ديمتريوس أخا ملك مكدونية واعدة بأن تزوجه بنتها وتسلم إليه ملك أبيها، فلبى دعوتها لكنه أساء إلى الوزراء وقادة الجيش فتحالفوا عليه واغتالوه على فراشه، فأنت برنيس إلى مصر وزّفت إلى ابن بتلميس وانهزمت أمها إلى أخيها انطيوخس. وطفقت تغريه بمحاربة بتلميس ملك مصر وليس على دهاء النساء عسير.

فقد انتشبت سنة ٢٥٥ ق.م بين انطيوخس وبتلميس حرب طالّت مدتها ووخمت عاقبتها. ولم يشهدا بتلميس لنحافة صحته بل كان يكل أمرها إلى قادة جيشه. وأما انطيوخس فكان يرأس جيشه الذي جمعه من كل أصقاع ملكه في كل وقائعه ولم يتحفنا المؤرخون بتفصيل ما كان. ولعلّه لأنه لم تكن في هذه الحروب عائدة كبرى لأحد الفريقين أو لم تكن فيها أحداث مهمة وإن طال زمانها، على أنَّ عاقبتها كانت سيئة على مملكة سورية، لأنه بينما كان انطيوخس متشاغلاً في حرب مصر نشأت مشاغب وثورات في الأعمال الشرقية من المملكة، ولم يتمكن انطيوخس من تداركها عن قرب، فعظمت وأفضت إلى انفصال البريتين عن مملكة سورية، وأقامتهم رجلاً اسمه ارساس ملكاً عليهم. وكذلك عصى تيودت والى بقطريان (في تركستان) وجعل نفسه ملكاً. وحذا هذا الحذو سائر القبائل في تلك الأصقاع حتى خسر انطيوخس سنة ٢٥٠ وسنة ٢٤٩ ق.م كل الأقاليم الشرقية من مملكته، ولم يبقَ له منها شيء في ما وراء دجلة.

فهذه الشؤون بعثت انطيوخس على الاستفاقة ومصالحة بتلميس ملك مصر

فبعد الصلح بينهما سنة ٢٤٩ ق.م وكان من شرائطه أن يطلق انطيوخس لاذيقة امرأته . ويتزوج بيرنيس بنت بتلميس وأن يمنع ابنه من امرأته الأولى من ارث الملك. ويعهد بالتاج الملكي إلى البنين الذين يرزقهم من ابنة بتلميس. وبعد التوقيع على العهدة طلق انطيوخس امرأته لاذيقة وإن كانت أخته لأبيه وله منها ابنان. وأتى بتلميس بنته إلى سلوقية عند مصب العاصي (السويدية) والتقاء انطيوخس إليها فزفت إليه برنيس بمعظم الاحتفاء. على أن مثل هذه الزيجات المنعقدة لمآرب سياسية أو مطامع سيئة قلما تخلو من الغائلة وسوء العاقبة.

عد ٤١٠

نبوة دانيال على ما ذكرنا من الأحداث

إن دانيال تنبأ بهذه الأحداث قبل وقوعها بثلاثة قرون ونيف نبوات بينة حتى تذر الملاحدون بوضوحها للتكذيب بأنها كتبت في أيامه. وقد أبنا فساد مدعاهم في عد ٣٥٣ واليك ما قال في الفصل الحادي عشر عد ٢: «ها أن ثلاثة ملوك يقومون من بعد في فارس». يريد بهؤلاء الملوك كورش الذي كان مالكا عندما كتب دانيال وكمبيس ابنه. ودارا ابن هيستاسب والرابع يستغني بغني أوفر من الجميع وعند تقويه بغناه يثير الجميع على مملكة ياون أي مملكة اليونان. ويريد بهذا الملك كيخسرو الذي حشد الجيش العرمم وحارب اليونان كما مر. ثم يقول النبي (عد ٣): «ويقوم ملك جبار يتسلط سلطاناً عظيماً ويفعل كيف يشاء» وليس من لا يتبادر إلى فهمه دون تكلف ان المراد بالملك الجبار ذي السلطان العظيم إنما هو اسكندر الكبير ويحققه كلامه التالي (عد ٤): «ومتى قام تنكسر مملكته وتقسم إلى أربع رياح السماء ولا تكون لعقبه ولا في مثل سلطانه الذي تسلطه، لأن مملكته تمزق إلى غير أولئك أيضاً». وقد رأيت أن مملكة اسكندر الفسيحة الأرجاء قد قسمت بعد منازعات وخصومات إلى أربع ممالك، ولم يكن في أحداها أحد من أعقابه إلا ابنه الصغير الذي كان له اسم ملك فقط قبل هذه القسمة، وقام في هذه المملكة امراء من غير أعوانه انشأوا فيها ممالك مستقلة كالكدوك وأرمينيا وهرقلية على البوسفور كما أشار النبي إلى ذلك بقوله: «تمزق إلى غير أولئك أيضاً». ثم يقول النبي (عد ٥): «ويتقوى ملك الجنوب» يريد بالجنوب ملك مصر

لوقوعها في جنوبي اليهودية، وبالشمال سورية لوقوعها في شماليها، وبهذا الملك بتلمايس بن لاغوش. «لكن أحد هؤلاء الملوك يقوى على هذا ويتسلط ويكون سلطانه عظيماً»، ويريد بهذا سلوقوس نيكانور ملك سورية. فإنَّ بتلمايس كان يلي مصر وليبيا والقيروان والعربية وفلسطين وسورية المجوفة، وبعض الأعمال البحرية في آسيا الصغرى وقبرص وبعض الجزائر وبعض جزائر الأرخبيل وبعض مدن ببلاد اليونان منها قرنية. لكن سلوقوس كان ملكه أكثر اتساعاً وسلطانه أكثر امتداداً لأنه كان يلي كل ما كان في سورية الشمالية وجبل طورس إلى نهر الهندوس في الهند، وأعمالاً في آسيا الصغرى. وملك قبيل موته على تراسة ومكدونية أيضاً.

واليك ما قال النبي فيما ذكرناه في العدد السابق في حرب انطيوخس وبتلمايس وعهدة الصلح بينهما واتيان بتلمايس بابتنه ليزوجها بانطيوكس (عد ٦): «وبعد انقضاء سنين يتعاهدان (أي انطيوخس وبتلمايس) وتأتي بنت ملك الجنوب إلى ملك الشمال للمسألة لكنها لا تملك قوة الذراع ولا يقوم نسلها. وتسلم هي والذين أتوا بها وولدها ومن قواها في تلك الأوقات». وسترى تمام نبوة دانيال في هذه الفقرة الأخيرة لأنَّ انطيوخس طلق امرأته برنيس بنت بتلمايس ثم قتلها ضرَّتها كما سيمر بك. وحسبك ما مرَّ دليل على صحة تنزيل الأسفار المقدسة، وشهادة الله لها إذ يُنذر أنبياءه بأحداث يستحيل على قوَّة بشرية ادراكها قبل قرون من وقوعها، فتتَّم في أوقاتها بكل دقائقها وقرائن أحوالها.

عد ٤١١

وفاة بتلمايس وما يعزى إليه من العناية بالترجمة السبعينية

لم يعيش بتلمايس فيلادلفوس بعد عوده من سورية إلى مصر إلَّا سنتين وقضى نحبه سنة ٢٤٧ ق.م، وله من العمر ثلاث وستون سنة. ملك في ثماني وثلاثين سنة منها (على ما في قانون بتلمايس الفلكي) وترك ابنين وابنة ولدتهم له ارسينوا بنت ليسيماك. أكبرهم بتلمايس افرجات ملك بعده وأصغرهم المسمى ليسيماك باسم خاله عصا أخاه فقتله، والبنت هي برنيس التي زوّجها بانطيوكس الثاني. وكان لبتلمايس فيلادلفوس معائب ونقائص منها نفيه ديمتريوس فالر الفيلسوف الشهير وتسببه بموته لأنه أشار على أبيه عند مذكراته في شأن الخلافة بما يخالف مصلحة بتلمايس، وإن كان منطبقاً على الانصاف، ومنها أنَّ غناه الفاحش جرَّه

إلى الإسراف والترف والعكوف على الملاذ كما يحدث عادةً. ومنها أنه لم يكن شجاعاً ولا رجل حرب على أنه كان له محامد ومآثر كثيرة منها محبته للعلم والعلماء، ورغبته في تقديم الصنائع ورواج سوقها وكرمه وجوده على العلماء والشعراء، حتى كان في وليجته كثير من مشاهيرهم. وقد زاد كثيراً في عدد كتب المكتبة التي أنشأها أبوه وأقام كثيراً من المدارس والمنتديات العلمية ووسّع نطاق التجارة في بلاده، وعنى بنجاحها وتأمين طرقها وأحسن معاملته للتجار الأجنيين ليكثر ترددهم إلى بلاده، وذلك مما أسعد مملكته وأتمى ثروتها. ورفع سرادق الأمن فيها وكان أساساً لنجاح مصر قروناً عديدة.

ومما يعزى إليه من المآثر عنايته بترجمة التوراة من العبرانية إلى اليونانية وهي الترجمة المعروفة بالسبعينية. فإنّ كاتباً يونانياً اسمه ارستاي كان عاملاً عند بتلميس فيلادلفوس كتب رسالة مطوّلة أنبأنا بها أنّ هذا الملك أشار عليه ديمتريوس فالر رئيس مكتبته المار ذكره آنفاً أن يجعل هذه المكتبة بترجمة لشريعة اليهود. فصوّب مشورته وكتب إلى اليغازر رئيس أحبار اليهود أن يرسل إليه رجالاً خبيرين بشريعة اليهود وأهلاً لأن يترجموها إلى اليونانية. وأنفذ رسالته إليه بيد ارستاي المذكور وأطلق لمئة وعشرين ألفاً من اليهود المقيمين في مصر أن يعودوا إلى مواطنهم. فبعث إليه اليغازر اثنين وسبعين رجلاً من علماء اليهود ستة من كلّ سبط من أسباطهم الاثني عشر. فترخّب بتلميس بهم وأكرم مثواهم فترجموا له التوراة أي أسفار موسى الخمسة إلى اليونانية في اثنين وسبعين يوماً في جزيرة فاروس (التي كانت عند مدخل مرفأ الاسكندرية ثم ألحقت باليابسة وأقيمت فيها منارة).

فأجزل جوائزه لهم وبعث هدايا ثمينة إلى رئيس الأحبار فصدّق العلماء ارستاي هذه ورووها عنه. وقد أفرد يوسيفوس الفصل الثاني عشر من تاريخ اليهود لتفصيل أخبار هذه الترجمة وللثناء على بتلميس فيلادلفوس. وروى فيلون الاسكندري والتلمود والقديس يوستينوس واكليمنضوس الاسكندري والقديس ايريناوس أنّ بتلميس أقام كلاً من المترجمين في مخدع منفرداً فكانت ترجماتهم متطابقة؛ وحسب القديس ايرونيوموس هذا التفريق بين المترجمين من الأقاصيص، لكنه لم ينبذ رسالة ارستاي بل أجمع العلماء على صحتها. ولكن امترى في صحتها لويس فيغاس في صدد القرن السادس عشر وسكاليينجر في أواخره. وتابعهما بعدئذٍ على رأيهما كثير من أهل النقد زاعمين أنّ تلك الرسالة ليست لارستاي. قال الأب

فيكورو (في الموجز الكتابي عد ١٠٥): «وإن كان لتلك الرسالة سمة الأقايسيس إلا أنه لا يخلو أصلها من الصحة ومن نبذها من المنتقدين نبذاً مطلقاً وزعم أن الترجمة اليونانية للتوراة وضعت خاصة لسد حاجة اليهود المقيمين في الاسكندرية. فقد تجاوز حد الاعتدال كثيراً فيمكن أن يُظن ولا محالة أن اليهود حسنوا وبالغوا في إيراد أخبار عن هذه الترجمة، ولكن لا يمكن البتة أن يقال أنهم اختلفوا. كل ذلك لأن اسم الترجمة السبعينية نفسه الذي كان لهذه الترجمة من أقدم الدهر لا بد أن قد كان منشأه عن حدث وضعي».

إن المؤرخين العرب المسلمين متفقون على أن التوراة اليونانية عني بترجمتها بتلميذ الثاني. قال أبو الفدا في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٥): «وأما التوراة فهي التوراة التي اختارها المحققون من المؤرخين وليس فيها ما يقتضي الإنكار من جهة الماضي من عمر الزمان، وهي توراة نقلها اثنان وسبعون حبراً قبل ولادة المسيح بقریب من ثلاثمائة سنة لبطلميوس اليوناني الذي كان بعد الاسكندر ببطلميوس واحد (أي بطلميوس الثاني)... ولذلك اعتمدنا على هذه التوراة دون غيرها» ثم قال (في صفحة ٣٤): «لما مات الاسكندر ملك بعده بطلميوس بن لاغوس عشرين سنة ثم ملك بعده بطلميوس محب أخيه (ترجمة كلمة فيلادلفوس). وهو الذي نُقلت له التوراة وغيرها من كتب الانبياء من اللغة العبرانية إلى اللغة اليونانية... قال أبو عيسى أن بطلميوس الثاني محب أخيه المذكور لما تولّى وجد جملة من الأسرى منهم نحو ثلاثين ألف نفس من اليهود. فأعتقهم كلهم وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم. ففرح بنو إسرائيل بذلك وأكثروا له من الدعاء والشكر وأرسل رسولاً وهدايا إلى بني إسرائيل المقيمين في القدس. وطلب منهم أن يرسلوا إليه عدة من علماء بني إسرائيل لنقل التوراة وغيرها إلى اللغة اليونانية. فسارعوا إلى امتثال أمره ثم إن بني إسرائيل تراحموا على الرواح إليه... واختلفوا ثم اتفقوا على أن يبعثوا إليه من كل سبط من أسباطهم ستة نفر فبلغ عددهم اثنين وسبعين رجلاً. فما وصلوا إلى بطلميوس المذكور أحسن قراهم وصيّرهم ستاً وثلاثين فرقة وخالف بين أسباطهم وأمرهم فترجموا له ستاً وثلاثين نسخة بالتوراة. وقابل بطلميوس بعضها ببعض فوجدها مستوية لم تختلف اختلافاً يعتد به. وفُرّق بطلميوس النسخ المذكورة في بلاده وبعد فراغهم من الترجمة أكثر لهم الصلوات. وجّههم إلى بلادهم. وسأله المذكورون بنسخة من تلك النسخ فأسعفهم بنسخة فأخذها المذكورون وعادوا بها إلى بني إسرائيل ببيت المقدس. فنسخة التوراة المنقولة

لبطلميوس حينئذ أصبح نسخ التوراة وأثبتها» هذا رأيه وكذا قال ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخه (صفحة ١٨٩).

قال كثيرون من المؤرخين أنَّ السبعين عالمياً ترجموا أسفار العهد القديم كلها، والصحيح الذي يعول عليه أنهم لم يترجموا إلا أسفار موسى الخمسة. وهي التوراة أولاً لأنَّ التقليد الصحيح يُنبئنا بأنهم لم يترجموا إلا التوراة، وإنَّ باقي الأسفار التي تشتمل عليها الترجمة السبعينية الآن قد ترجمها غير أولئك العلماء والحقوها بترجمتهم للتوراة رغبةً في إفادة اليهود الذين توفر عددهم تلك الأيام في افريقية، حتى كان في الاسكندرية حينئذ خمسا السكان من اليهود والثلاثة الأخماس من غيرهم، ثم تيسيراً لاتمام فرضهم بتلاوة هذه الأسفار وقد كان أكثرهم يجهل العبرانية أو لا يُحسن ادراكها. قال القديس ايرونيμος (في تفسيره نبؤة ميخا فصل ٢ عد ٩): «إنَّ الظاهر من تقليدات يوسفوس واليهود أنهم (أي السبعين عالمياً) لم يترجموا إلا أسفار موسى الخمسة وقدموها لبتملايس الملك».

ثانياً لأنَّ المحققين أثبتوا أنَّ بين ترجمة التوراة وبين ترجمة غيرها من الأسفار في السبعينية اختلافاً في استعمال الألفاظ وتركيب الجمل، والنسق وذلك مؤذن بأنَّ هذه الترجمات لم تكن كلها في زمن واحد، ولم يترجمها مترجم واحد فترجمة التوراة كانت نحو سنة ٢٧٠ ق.م وترجمة سائر الأسفار كانت على التعاقب فقال فم الذهب (مقالة ٥ في متى): «إنَّ الترجمة السبعينية كانت كأنها كاملة سنة ٢٣٠ ق.م وقال بعض المحققين إنها لم تكمل كلها إلا على عهد بتملايس محب أمه الذي ملك من سنة ١٨١ إلى سنة ٢٤٦ ق.م».

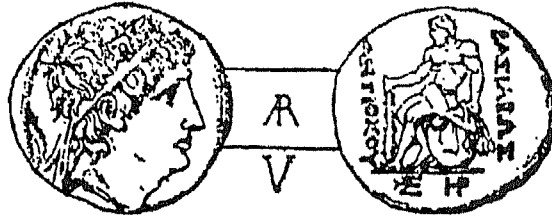
والإليك مثلاً لسكة بتملايس الثاني فيلادلفوس. فعلى الوجه الأول صورتا رأسه ورأس ارسينوا الثانية زوجه والتاج عليهما. وفي الوجه الثاني صورتا رأس أبيه ورأس أمه برنيس. وقد كُتب على الوجه الأول ثاون الغون أي الإلهين الأخوين.



قتل لوزيقة انطيوخس الثاني وامراته برنيس ثم مقتل لوزيقة وأخذ سورية

لم يبلغ انطيوخس الثاني نعي حميه بتلمايس الثاني المذكور إلا وطلق ابنته برنيس، واسترد امرأته الأولى لوزيقة مع ابنائها. وكانت لوزيقة موقنة بتقلبه وعدم ثباته على حال. فخافت أن يطلقها ثانية ويعود إلى برنيس ضرتها فيخسر أبنائها حق الملك بمقتضى عهده مع بتلمايس بأن يخلفه ابناء برنيس لا ابناء لوزيقة. فدفنت هذه سماً لانطيوخس قضى به سنة ٢٤٦ ق.م (بلين ك ٧ فصل ١٢ ويوسيفوس ك ١٧ فصل ١).

واليك مثلاً لسكنه فترى على الوجه الأول رأسه والتاج عليه. وعلى الوجه الثاني صورة هرقل جالساً على صخرة مغطاة بجلد أسد وييمناه مثال الظفر ويسراه ممتدة إلى الصخرة وكتب على جانبيه باليونانية باسيلوس انطيوخس أي الملك انطيوخس.



وأنامت لوزيقة في فراشه رجلاً اسمه اريلمون يشبه الملك كل الشبه هيئة وصوتاً، فأوصى كثيرين من عائديه أن يرفق كبار الدولة والشعب بامراته لوزيقة العزيزة وبابنها سلوقس. وأذاعت باسمه أمراً بأن يخلفه بكره سلوقس على منصة الملك، وبعد ذلك نشرت خبر موته فرقي ابنها سلوقس عرش الملك. على أنها لم تكن في مأمن من ضرتها برنيس وابنها. وتعصب ملك مصر لهما فدبرت على إهلاكها بالاتفاق مع ابنها سلوقس، ودرت برنيس بمكيدتها ففرت إلى برج في دفنة (مدينة على العاصي في الجنوب الغربي من أنطاكية). فاغتالها من أقامتهم لوزيقة

على حراستها وقتلوا ابنها أولاً ثم أتبعوها به مع جميع المصريين الذين لحقوا بها إلى هنالك.

وقمت بذلك كما مرَّ نبؤة دانيال الذي قال (فصل ١١ عد ٦): «وبعد انقضاء سنين يتعاقدان (أي ملك الجنوب وملك الشمال بتلمايس وانطيوكس). وتأتي بنت ملك الجنوب إلى ملك الشمال للمسالمة لكنها لا تملك قوة الذراع ولا يقوم نسلها وتُسَلَّم هي والذين أتوا بها وولدها ومن قواها في تلك الأوقات».

ولما كانت برنيس مخفورة في دفنة ذاع خبرها فرق لمصاحبها كثيرون من سكان مدن آسيا الصغرى. وأرسلوا جيشاً إلى انطاكية لانقاذها وسارع أخوها بتلمايس افرجات (الذي كان خلف أباه في ملكه) بعسكر جرار إلى سورية لينجي أخته وابنها، على أنَّ كلا الجيشين لم يبلغا دفنة إلا بعد مقتل برنيس وابنها فصرف بتلمايس والآسيويون عزيمتهم إلى أن يثأروا بدمهما. واتحد الجيشان تحت قيادة بتلمايس فتشفى من غيظه العادل بقتله لوزيقة وباستيلائه على سورية وقيليقية، ثم عبر الفرات واستحوذ على كل مدن ما بين النهرين إلى بابل ودجلة (ايان في السورين فصل ٦٥ ويوستينوس ك ٢٧ فصل ١ والقديس ايرونيوس في تفسير نبؤة دانيال فصل ١١)، ولولا أن ترغمه على العود إلى مصر فتنة نشأت في مملكته لدانت له أقاليم مملكة سورية كلها. وأقام في انطاكية أحد قادة جيشه ليلي ما ملكه إلى جبل طورس وآخر ليلي ما وراءه. وعاد إلى مصر موقراً بغنيمة كبيرة قُدِّرَت بما قيمته مئتان وعشرون مليوناً من الفرنكات عدا آنية الذهب والفضة وخلا نحواً من ألفين وخمس مئة تمثال بعضها من تماثيل مصر التي كان كمبيس أخذها إلى بلاد فارس من مصر عند حملته عليها. فسُرَّ بذلك رعاياه المصريون الشديدي التمسك بأصنامهم وشكروا له صنيعه ولقبوه حينئذٍ افرجات. وتأويله المحسن على قول بعضهم. وقد تمت بذلك نبؤة دانيال الذي قال (فصل ١١ عد ٧): «ويقوم مكانه فرع من أصولها (أي من أصول بنت ملك الجنوب ويروى من أصوله أي أصول ملك الجنوب أي ملك مصر والمعنى واحد). ويزحف بجيش ويدخل حصن ملك الشمال ويجري فيهم عمله ويغلب ويسبي آلهتهم إلى مصر مع مسبوكاتهم والآنية النفيسة من الفضة والذهب. ويبقى أكثر من سني ملك الشمال (كذا في ترجمة الآباء اليسوعيين المطبوعة) في بيروت وفي بعض الترجمات ويحرز كل نوع من الفوز على ملك الشمال). ويدخل ملك الجنوب إلى مملكته (أي مملكة الشمال)

ويرجع إلى أرضه (أي أرض مصر). فوضوح هذه النبؤات جعل الملحدّين يحسبونها أخباراً بعد وقوع أحداثها وقد أثبتاً بطلان زعمهم.

ومما روه أن برنيس امرأة بتلمايس نذرت عند ذهاب الملك في هذه الحملة أن تجزّ شعرها إن عاد سالماً وتقدمه للآلهة فوفت نذرهما عند عوده غانماً. وأرسلت شعرها إلى هيكل في قبرص كان بناه بتلمايس فيلادلفوس تكرمةً للزهرة، وبعد قليل لم يوجد هذا الشعر فحنق الملك زوجها على كهنة الهيكل. وكان في اسكندرية وقتئذ فيلسوف من سامس اسمه قوتون فقال للملك اخماداً لغضبه إن شعر برنيس نُقل إلى السماء وأشار إلى سبع كواكب قريبة من ذنب الأسد لم يكن علماء الهيئة قد وضعوا لها اسماً قائلاً إن هي إلا شعر برنيس. وتابعه على قوله بعض العلماء حينئذ تملقاً له وللملك فكان هذا اسم تلك النجوم إلى اليوم.

وروى يوسيفوس (في كتابه رد مزاعم ايون) أن بتلمايس عند رجوعه من حملته هذه مرّ بأورشليم وقدم للإله إسرائيل كثيراً من الذبائح تكرمةً له لنصره على ملك سورية، ولعل الكهنة أطلعوه على نبؤات دانيال فاعتقد أن من أولاه الظفر إنما هو الإله الذي أنذر بهذه الأحداث بفم أنبيائه قبل وقوعها بقرون وكان ذلك لسنة ٢٤٥.

عد ٤١٣

سلوقس الثاني وما كان في أيامه

إن سلوقس الثاني لما رأى بتلمايس عاد إلى مصر جهّز أسطولاً ومضى يستردّ إلى طاعته المدن التي ثارت عليه، ولكن ثار عاصف شديد غرق سفينه وعسكره ولم ينج إلا سلوقس وقليل من حاشيته. وخرجوا إلى البر عراة كأن السماء سلحت عليه الرياح والأمواج انتقاماً منه. كما قال القديس يوستينوس وكان شعبه قد مقتوه واشمأزوا من قتله وزوجه وابنه. فلما حلّت به هذه النازلة رقوا لحاله وقالوا كفاه عقاب الله له وعادوا إلى الاستمساك واللياذ بعقوته فتيشّر له استرداد بعض أعمال ملكه وحشد جيشاً يدوخ به من استمروا على العصيان على أنه لم ينجح لأن بتلمايس استظهر عليه وأهلك نصف جيشه. فعاد إلى انطاكية سنة ٢٤٤ ق.م مدعوراً نادباً سوء حظّه لأنه لم يلح طالع سعده إلا اقل.

وكان أهل إزمير ومناسيا من محازبي أسرة ملوك سورية وقد مرّ أنهم نزلوا انطيوخس ثأوس أبا سلوقس وستراتونيس أمه منزلة الآلهة، فتحالفوا على افراغ مجهودهم بإنجاد سلوقس، فشكر لهم وأولاهم نِعماً ومواهب ففكشوا صورة معاهدتهم على نجدته على عمود من رخام، وقد كشف عن هذا العمود ونقله توما كونت دي ارونديل إلى اكسفردي في أيام كرلوس الأول ملك انكلترا وهو الآن في كلية اكسفردي.

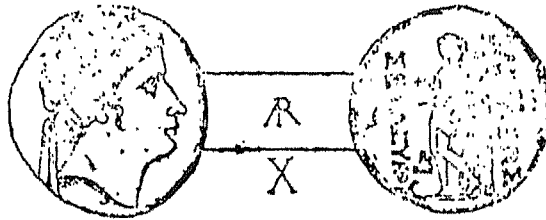
ورأى سلوقس أنَّ انضمامه إلى أخيه انطيوخس أكبر ذريعة يتوسل بها إلى تقويته. فلجأ إليه ووعد أن يولييه على أعمال آسيا الصغرى الملحقة بمملكة سورية على شريطة أن يأتي بجيشه ليتعاضدا في الحرب فقبل أخوه شرطه، وأتى إليه معتمدا لا المحافظة على مملكتهما بل اتخاذها لنفسه، لأنه كان طماعاً يلتقف كل ما وصلت إليه يده حلالاً كان أو حراماً. ولذلك لُقّب هياركس أي الصقر أو البازي. وعلم بتلمايس باتفاقهما عليه فصالح سلوقس خشية أن يقوى عليه الأخوان ووقع الملكان سنة ٢٤٣ ق.م على هدنة بينهما مدة عشر سنين.

أما انطيوخس فاستمرَّ يحشد الجند ويعدُّ العدد مظهرًا أنه يصنع ذلك لإنجاداً لأخيه ومبطناً ثل عرشه والملك مكانه. ودرى سلوقس بما أضمره أخوه فعبر جبل طورس قاصداً لإيقافه، واحتجَّ انطيوخس بوعد سلوقس له بالولاء على أعمال آسيا الصغرى. وأنكر أخوه عليه التزامه بالقيام بوعد إذ تملَّص من الحرب التي استنجد به من أجلها، فلم ينكفَّ انطيوخس عن مطامعه ولا أجابه سلوقس على سؤاله. فانتشب القتال بينهما قرب انكوره في غلاطية واستظهر انطيوخس على أخيه ونجا سلوقس بنفسه. وشاع أنه قُتل على أنَّ انطيوخس قلماً انتفع بانتصاره لأنَّ الجنود الذين استأجرهم من الغال صدقوا ما شاع عن قتل أخيه. فهتموا أن يلحقوه ويصنعوا ما طاب لهم في آسيا بعد مقتل الأميرين. فاضطرَّ انطيوخس أن يدفع لهم كل ما كان له من المال لجنوده (يوستينوس ك ٢٧ فصل ٢). وعاد سلوقس وانطيوخس الأخوان إلى النزاع والقتال غير مباينين بانتزاع ارساس والي البرتين واومان ملك برغام بعض أعمال مملكتهما. وبعد وقائع عديدة بينهما ظهر سلوقس على انطيوخس وهزمه، لكنه استمرَّ يسطو على بعض الأماكن بما بقي معه من الجند إلى أن طُرد أخيراً من ما بين النهرين. ولجأ إلى ارياراط ملك الكبادوك الذي كان تزوج بابنته فنقم على حميه وصمَّم على ابعاده عنه فهرب

انطيوخس إلى مصر ليلجأ إلى بتلميس عدو أسرته. فقبض عليه بتلميس وأودعه السجن بتحرز، فبقي فيه إلى سنة ٢٢٦ ق.م فتيسر له الفرار ولكن قتله اللصوص في طريقه (ايان في السوريين ك ٦٥ ويوستينيوس ك ٢٧ وايرونيوس في تفسيره نبوة دانيال فصل ١١).

ولما أريح سلوقس من القلق الذي أحدثه أخوه هم أولاً بتأمين مملكته ثم سار بجيشه نحو المشرق عازماً أن يكبح من ثاروا عليه. ويسترد الأقاليم التي أخذها منه ارساس والي البرتين على أنه لم ينجح بحملته هذه وأرغم أن يعدل عن عزيمته. لأنه حدث شغب في مملكته فاضطره أن يسارع بالعود إليها ليخمد سعي الثورة فيها وأن يدع مجالاً لخصمه ليتقوى ويستعد لحربه. وبعد أن أخمد سلوقس شغب الفتنة في بلاده عاد لمحاربة ارساس. فكانت هذه الحملة شراً من الأولى لأن جنوده انكسرت، ووقع هو أسيراً بيد عدوه. وكان البرتيون يعيدون كل سنة ليوم انتصارهم هذا ويعتدونه أول يوم لتحرير بلادهم وسموا ارساس ملكاً عليهم. وكان عندهم بمنزلة كورش عند الفرس واسكندر عند المكدونيين. وقد عظم ملكهم حتى غالب الرومانيين فلم ينتصروا عليه، وأما سلوقس فبقي عند البرتين خمس سنين أو ستاً إلى أن توفي سنة ٢٢٦ أو سنة ٢٢٥ ق.م بكبوة جواده به. ويُلقب بكلنيشيوس أي الظافر وقد ملك نحو عشرين سنة وترك ابنتين اسم الأكبر سلوقس والأصغر انطيوخس. وابنة زوجها لمتريدات ملك بنطوس وخلفه ابنه سلوقس فكان الثالث بهذا الاسم.

واليك مثلاً لسكة سلوقس الثاني فترى في الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني صورة ابولون واقفاً ويمناه حربة وقد ضربت في هرقية وكتب عليها سلوقس باسيلوس أي سلوقس الملك.

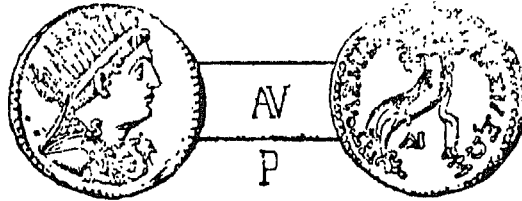


وروى يوسيفوس (ك ١٢ في تاريخ اليهود فصل ٣ و ٤) أنه كان في أيام سلوقس الثاني وبتلمائس افرجات سنة ٢٣٣ ق.م أنّ الونيا رئيس أحبار اليهود تقاعد عن دفع الجزية المعتاد دفعها كل سنة لبتلمائس، وقدرها عشرون وزنة وذلك كناية عن مئة وعشرة آلاف فرنك. وتراكم المبلغ لتأخرهم عن الدفع سنين. فأرسل بتلمائس اثنين أحد عماله إلى أورشليم ليُرغم أهلها على دفع الخراج الموظف عليهم وهددهم بالطرد من أرضهم. فعظم القلق في أورشليم وأوفدوا يوسف ابن أخي اونيا الحبر وكان اشتهر بذكائه وتقواه وانصافه. فنال حظوة كبيرة عند بتلمائس وأكرم مثواه وبرأ ساحة عمه من جريمة التقاعد عن الدفع.

ثم طرحت ضرائب سورية المجوفة واليهودية والسامرة في الزاد ولم يدفع بعض تجار اليهودية في بدلها إلا ثمانية آلاف وزنة، وذلك عبارة عن أربعة وعشرين مليوناً من الفرنكات. فالتزمها يوسف بستة عشر ألف وزنة أي ضعفي البدل وسأله الملك كفيلاً يضمن المبلغ فقال إنه يقدم كفيلاً لا يعترض أحد على صلاحيته. فقال الملك: سمّه فقال: هو الملك والملكة فضحك الملك. ولما كان يتيقن صدقه وعلو مداركه أقطعهم تلك الأعمال عشر سنين. فقام بما وجب عليه مرضياً الملك وأهل وطنه. وأدركت الوفاة بتلمائس افرجات وخلفه ابنه بتلمائس فيلوباتر أي محب أبيه سنة ٢٢٢ ق م.

واليك مثلاً لسكة بتلمائس الثالث. ففي الوجه الأول صورة رأسه مكلاً وفي الوجه الثاني صورة قرن رمز على الخصب والاقبال.

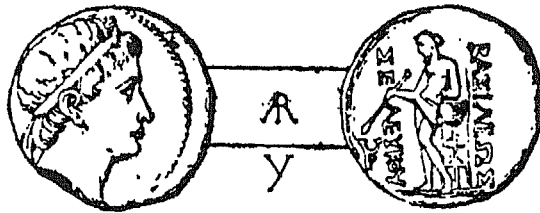
وقد كُتِب عليها بتلمائس باسيلاوس أي بتلمائس الملك.



سلوقس الثالث

أما سلوقس الثالث ابن سلوقس الثاني فملك سنة ٢٢٦ ق.م ولقبوه بشيرونوس وتأويله الصاعقة، ولكن لم يكن في لقبه معنى يصدق عليه لأنه كان ضعيف الجسم واهن العزيمة. وكانت مدة ملكه قصيرة وكأنه لم تكن له سلطة لا على الجنود ولا في أعمال المملكة، ولولا تدبير ابن خاله اخايوس شؤون المملكة لاستحوذ عليها بتلمائيس أو غيره من أعدائها، لأنها كانت في أسوأ حال من جراء أعمال أبيه الذميمة. ولما كان أثال ملك برغام استولى على آسيا الصغرى كلها حشد سلوقس جيشاً وسار به يصحبه اخايوس لقتال أثال. وترك تدبير المملكة لقائد اسمه هرمياس ولم يكن لسلوقس مال يدفعه إلى جنوده. وكان الجنود يزدرونه لضعفه فتحالف عليه نيكاتور واباتوريوس من عماله ودسوا له سماً فقتلوه به سنة ٢٢٣ ق.م في السنة الثالثة لملكه. فثار اخايوس من قاتليه لأنه أمات العاملين وكل من اشترك معهما في هذه الجريمة الفظيعة، وأحسن تدبير الجيش والمدافعة حتى منع أثال أن يستفيد من هذه الفعلة الذميمة. ولولا حسن تدبيره لما بقي شيء من أملاك سورية وآسيا الصغرى. فعرض الجنود وكثير من أهل الأقاليم تاج الملك على اخايوس فأبى كل الآباء وسعى بأن يكون التاج محفوظاً لوارثه الشرعي وهو انطيوخس أخو الملك المتوفي. وكان أخوه أرسله إلى بابل ليقتبس العلوم وحسن التربية فاستدعاه أخايوس إلى انطاكية. وأجلسه على العرش سنة ٢٢٢ ق.م وهو انطيوخس الملقب الكبير الآتي ذكره (يوستينوس ك ٧ فصل ٣ وغيره).

واليك مثلاً لسكة سلوقس الثالث ففي الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني صورة ابولون ويده اليمنى حربة وقد كُتب عليها سلوقس باسيلوس أي سلوقس الملك.



الفصل الرابع

انطيوخس الثالث الملقَّب بالكبير

عد ٤١٥

حروب انطيوخس الأولى في شرقي المملكة وفي سورية

استولى انطيوخس الثالث على منصبة الملك سنة ٢٢٢ ق.م وهم بإصلاح شؤون المملكة وإعادتها إلى رونقها السابق. وبعث مولون أحد قواد جيشه ليلي بلاد ماداي وأخاه اسكندر ليلي فارس. وعهد إلى اخايوس المشار إليه بولاية أعمال آسيا الصغرى وأقام ابيجان رئيساً على حرسه. واستوزر هرمياس كما كان في أيام أخيه فاسترد اخايوس كلما كان أثال أخذه من مملكة سورية، وأكرهه أن يقتصر على مملكته في يرغام. أما مولون واسكندر فازدريا حادثة الملك وجاهرا بالعصيان عليه. واستبد كل منهما في ما ولي عليه فاستدعى انطيوخس رجال مشورته سنة ٢٢١ ق.م وسألهم ما يرون أيزحف بجيشه إلى المشرق ويكبت العاصين أم يسير إلى الجنوب ليسترد ما اختلسه ملك مصر من مملكته في سورية. فقال ابيجان إنه يلزم الملك أن يسارع إلى المشرق فإما أن يهرب العاصيان صولة الملك وبذلاً له، وإما أن يصبروا فتبعث هيئته أهل البلاد على مقاومتها وتسليمهما إليه. فقاطعه هرمياس الوزير وقال إن مضيي الملك بجيش يسير إلى العاصين يعرضه لخطر الوقوع في يد الثائرين، فالأولى أن يحمل على بتلمايس الذي لا هم له إلا في بلاده. فعمل بقول الوزير وعهد بقيادة الجيش لمحاربة مولون، وأخيه إلى كسنيون وتيودت، وسار الملك بفريق من الجيش نحو سورية المجوفة ليستردّها من ملك مصر.

ولما بلغ الملك إلى سلوقية (السويدية) وجد لوزيقة ابنة متريدات ملك بنطوس أتوا بها ليتزوجها. فأقام ثمة مدة للاحتفاء بزفها إليه فكدر صفاء كأس الهناء خبر

انتصار مولون وأخيه على جيشه. فانتبه إلى غلظه بالانقياد لرأي هرمياس وهم أن يُضرب عن سفره إلى سورية المجوفة، ويعود إلى الشرق ليخمد أنفاس الثائرين. فعارضه هرمياس قائلاً إنه يجدر بالملك أن ينطلق لقتال ملك مثله. ويحطّ من قدره أن يقاتل عماله إذا عصوا بل يبعث عليهم بعض رجال حربه فانقاد أيضاً الملك لقوله ضعفاً لا تيقناً بسداده. وأرسل إلى المشرق كسانيتاس ليتّراس على القائدين المرسلين أولاً ولم يكن محنكاً ولا أهلاً لهذا المقام. وثقلت رياسته على سالفه فانتصر مولون واسكندر على الجيش الملكي، وبدّدوا شمله واستحوذوا على بابل وسائر مدن ما بين النهرين.

أما انطيوخس فسار بجيشه إلى سورية المجوفة وانتهى إلى السهول الواقعة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي. فوجد تيودت والي سورية المجوفة من قبل بتلمايس قد حصّن معابر الجبلين تحصيناً محكماً، حتى يئس الملك من العبور بين تلك الحصون. واضطرّ أن يعود على آثاره واستدعى رجال ندوته وفاوضهم في أمر العاصين. فعاد ابيجان إلى اثبات رأيه في المسارعة لكبتهما وأن لا يترك لهما مجالاً ولا زماناً لئلا يزداد قوة وجرأة؛ أما هرمياس فأخذ يُقرّع ابيجان ويظعن به ويستحلف الملك أن لا يرغب عن حملته على سورية المجوفة، وإلاّ فيحسب ذلك عليه جبانة وخفة وتقلباً. وحاشاه من ذلك وهو الكمي الحكيم وأطرق المستشارون خجلاً. وصبر انطيوخس على جسارة هرمياس كعادته ولكن أجمع رجال الندوة على الإعجال بتدارك العاصين. وأظهر هرمياس من نفسه تصويب رأيهم وأخذ يُغري بالإسراع إلى تنفيذه، فسار الملك بجيشه إلى اباميا (المعروفة بقلعة المضيق). على مقربة من حماه ولم يخرجوا منها إلاّ وحصل شغب بين الجنود لعدم وفاء علائقهم. فقلق الملك واعتاص عليه وجه التخلّص فأتاه هرمياس يضمن له وفاء العلائق للجنود بحيث لا يسمح لأبيجان أن يصحبه في هذه الحملة. وكان في نيّته أن يحطّ من قدر ابيجان في ذهن الملك وميله إليه عالماً أنّ الملوك ينسون خدع رجالهم إن بعدوا عنهم. فثقل على الملك اجابة سؤاله وكان متيقناً حاجته إلى ابيجان لاختلاصه ومهارته في فنّ الحرب لكنه رأى أنّ لا مناص له من ارضاء هرمياس. فأمر ابيجان أن يتخلّف عنه في اباميا، فشّر هرمياس بنيل مأربه إلاّ أنه خشي أن يعود ابيجان لخدمة الملك فيثأر منه. فاحتال أن دسّ بين أوراق ابيجان رسالة لفقها وأمضاها باسم مولون أحد الثائرين مودنة بمؤامرة يهتّم بها ابيجان على الملك. وأمر هرمياس الكسيس والي قلعة

اباميا أن يمضي يوماً إلى ابيجان، ويبلغه أنه مأمور بالكشف عن أوراقه، ولدى الكشف وجد تلك الرسالة المزورة. فأرسلها إلى الملك فلم يتلوّم بفحص ولا محاكمة بل تلاها على مسمع بعض أعوانه، فاعتقلت ألسنتهم عجباً ودهشة وأمر بقتل ابيجان فقتل.

ثم عبر انطيوخس الفرات وكان فصل الشتاء فأراح جنوده مدة ثم جمعهم في ربيع سنة ٢٢٠ ق.م وباغت أحد العاصين، فظهر عليه ظهوراً تاماً وبُدّد شمل جنوده وبلغ به اليأس إلى أن انتحر. وكان أخوه اسكندر في فارس وكان لهما أخ آخر اسمه نيولاس فرّ إلى اسكندر يخبره بما كان، ولما رأيا أنّ لا قوة لهما على قتال الملك الظافر قتلا أولاً أمهما ونساءهما وأولادهما ثم انتحرا كيلا يقعا في يد الملك. فهذا جزاء من عصى ملكه. وعاند ولّي أمره ثم دان من بقي من عسكر العاصين للملك (بوليب ك ٥) فعاد إلى سلوكية على دجلة معتتياً بتدبير الأعمال التي أخضعها واختار لها عمالاً أمناء خبراء. ومضى بجيشه إلى جرجيا (كرجستان) فذلّ له ملكها ارتابان فصالحه على ما حشّن له من الشروط.

وبلغه وقتئذٍ أن قد وُلد له ابن فعَمّ السرور الملك وأعوانه والجنود. وطفق هرمياس وزيره يفكر كيف يغتال الملك ليكون وليّاً على ابنه محرراً السلطان المطلق في المملكة وكان الجميع يميّتونه لتشامخه وقوته، والشعب يمس من ظلمه وقسوته ولم يكن أحد يجسر أن يبلغ الملك شكايه من وزيره خيفة جوره. وكان للملك طبيب اسمه ابولوفان أحرز ثقته به وكان يدخل عليه دون حاجب. فقصّ يوماً على الملك جور وزيره واعتسافه وهضمه حقوق الرعية وحذّره من غدره له لئلا يحلّ به ما حلّ بأخيه من الاغتيال. فإليك مثلاً للخدمة الصادقة ولنفع المقرين إلى الولاة إذا احتكوا وصدقوا. وما أحسن قول من قال إنّ أعظم نعمة يمنّ الله على الملوك بها إنما هي أن يقيم كلام المتملقين وصمت الصادقين. فانتبه الملك بنصيحة طبيبه إلى مراقبة أعمال وزيره فتحقق ما أسرّه الطبيب إليه واعتزل يوماً من معسكره بحجة ترويح نفسه. واستصحب هرمياس ونفراً من الجند الموثوق بهم ولما خلا بهم المكان أمر الجند بقتل هرمياس فبطشوا به فجزاه الله بما جنى على ابيجان وغيره. فشمل المملكة السرور لقتله وتسارع أهل اباميا عند سماعهم بخبر مقتله إلى رجم امرأته وأولاده بالحجارة لشدة حنقهم من مظالمه (بوليب ك ٥ صفحة ٤٠١ وغيره).

حرب انطيوخس وبتلميس في سورية

قد عاد انطيوخس إلى انطاكية بعد أن أصلح أحوال الأعمال الشرقية في مملكته. وقضى ثمة فصل الشتاء مكثراً من مذاكرة وزرائه فيما يترتب عليه أن يصنعه لتأمين مملكته. وردّها إلى مجدها السالف وكان حينئذٍ أمران مهمان: استنقاذ ما اختلسه بتلميس من مملكته في سورية كما مرّ، واخضاع اخايوس الذي استبدّ في ولاية آسيا الصغرى. وسمي ملكاً بعد أن كان أبي تاج ملك سورية كما رأيت. وأجمع الملك ووزرائه على أن يحاربوا بتلميس أولاً. وأمر الجنود أن يجتمعوا في اباميا ليسيروا إلى سورية المجوفة إلا أنّ ابولوفان طبيب الملك أثبت في مجلس بحضرته أنّ الحملة على سورية المجوفة وترك سلوكية وراءهم بيد أعدائهم غلط مبین. وكان موقع سلوكية عند مصبّ العاصي (في مكان السويدية الآن أو على مقربة منها). وكان بتلميس افرجات عند غزوته سورية ليثأر بدم أخته برنيس استحوز عليها وأقام فيها حامية مصرية. وكانت هذه المدينة مرفأً لأنطاكية عاصمة الملك فأورد ابولوفان كلّ هذه الحجج بأجلى بيان حتى بعث الملك ووزرائه على العمل بقوله. فحاصر الجنود سلوكية وافتتحوها وطرّدوا المصريين منها ٢١٩ ق م.

ثم سار الملك بجيشه إلى سورية المجوفة. وكان تيودت واليها المشار إليه آنفاً قلب ظهر الجن لبتلميس ووعد انطيوخس بتسليم هذه البلاد إليه، ذلك أنّ أعوان بتلميس محبّ أبيه زيّنوا له أنّ تيودت كان له أن يصنع أكثر مما صنع عند حملة انطيوخس الأولى كأن يقبض عليه أو يقتله. فاستدعى إلى اسكندرية فقرفه أعوان الملك وهدّوه بالقتل فبرأ ساحتهم وأخرسهم بحججه. فردّوه إلى ولايته لكنه لم ينسّ افتراءهم عليه وسوء معاملتهم له. ورأى فحش الملك وأعوانه وعكوفهم على ملاذهم وتعشّفهم الرعية وتقاعدهم عن فروضهم حتى قيل عن الملك أنه قتل أباه تعجلاً لارثه الملك، وأنه لُقّب بفيلوباتر أي مُحبّ أبيه من باب التسمية بالأضداد. وأمات أمه برنيس وأخاه ماكاس لثلاً يزاحمه، فلمّا رأى تيودت هذه الحال وسمع أخبار هذه الفظائع آثر أن يخدم مولى آخر. واستحوز لدن عوده على صور وعكا وجاهر بميله إلى انطيوخس، وأخذ يرأسه ويستدعيه ليغشى البلاد. وكان لبتلميس عامل آخر في سورية يسمى نقولا ضبط معابر لبنان ليمنع انطيوخس من الاتيان إلى

فلسطين. ودافع شديد الدفاع إلى أن أرغم على تخلية تلك المعابر. واستحوذ انطيوخس على صور وعكا حيث قبل تيودت جيشه بالترحاب. وكان في عكا مخازن المؤن والغدد لجنود بتلمايس ففتحها انطيوخس. وكان للملك مصر هناك أربعون سفينة أمر انطيوخس عليها ديونات وأوعز إليه أن يسير بها إلى بالوس (فرمي). وعزم هو أن يزحف براً إليها ليفتح مصر، ولكن قيل له أن الوقت حينئذ وقت فتح أسداد النيل فيستحيل المسير في أرض مصر. فأضرب عن عزمه وتشاغل بفتح مدن سورية الجنوبية ودان بعضها له طائعاً ثم استولى على دمشق بحيلة اصطنعها على دينون واليهما. وكانت نهاية أعمال الحرب في هذه السنة سنة ٢١٩ ق.م حصار دورا (الطنطورا) التي كان نقولا قد حصنها. وأقام فيها مدافعاً دفاع الأبطال حتى قنط انطيوخس من فتحها وهادن نقولا أربعة أشهر. وأقام تيودت والياً على كل ما كسبه في هذه الحملة. وأرجع جنوده تقضي فصل الشتاء في سلوقية (السويدية).

وهم بعضهم في مدة الهدنة بإيقاع الصلح بين الملكين وكان كل منهما يرغب في كسب الزمان، فبتلمايس ليتيسر له الاستعداد للحرب وانطيوخس ليتنزه فرصة يردّ بها اخايوس إلى طاعته. وكان بتلمايس يدّعي أن سورية الجوفية وفينيقية والسامرة واليهودية وقعت في نصيب بتلمايس في قسمة المملكة بعد مقتل انتيكون بين بتلمايس وسلوقس وكسندر وليسيماك، ولذا يطلب بقاء هذه الأعمال في حوزته. وكان انطيوخس يزعم أن الأعمال المذكورة وقعت في نصيب سلوقس ملك سورية وهو وارثه وخليفته في ملك سورية فهي له. وكان بينهما مشكلة أخرى فإن بتلمايس كان يتطلّب أن تشمل عهدة الصلح بينهما اخايوس، وانطيوخس يرفض ذلك رفضاً شديداً معيماً على بتلمايس تشييعه لوالٍ عصي مولاه وهو يتحين اختلاس ملكه.

فانقضت مدة الهدنة ولم يُقَضَ أمر فعاد الملكان سنة ٢١٨ ق.م إلى المحاربة. فعهد بتلمايس إلى نقولا المذكور آنفاً بقيادة جيشه لما أبداه من بينات البسالة والأمانة. وأمر على أسطوله باريجان وأوعز إليه أن يسير إلى موانئ فينيقية لضرب الأعداء. فجمع نقولا الجيش في غزة ثم سار به فضبط المعابر التي بين البحر ولبنان إذ لا بدّ لأنطيوخس من العبور من هناك. وأما انطيوخس فأمر ديونات رئيس أسطوله أن يسير سفنه للقاء العدو. وسار هو في رأس جيشه براً والتقى الأسطولان والجيشان عند معابر لبنان التي ضبطها نقولا. وانتشبت الحرب بحراً وبراً عند نهر

الكلب على ما يُظن. أما في البحر فكانت الحرب سجّالاً، وأما في البر فاستظهر انطيوخس وأكره نقولا أن يتقهقر إلى صيدا تاركاً في ساحة القتال أربعة آلاف رجل بين قتيل وأسير، واتبع الأسطول المصري نقولا إلى مياه صيدا. فتعقب انطيوخس الجيش المصري ببحراً وبراً إلى صيدا لكنه وجدها منيعة وعدد جيش العدو وافراً، وله ما يكفيه مؤناً وعدداً زماناً طويلاً. فأرسل أسطوله إلى صور وزحف هو بجيشه إلى الجليل فاستولى على مدن عديدة وعبر الأردن واستحوذ على تلك البلاد التي كانت نصيباً لسبطي رأوين وجاد ونصف سبط منسى. ودنا فصل الشتاء فعاد إلى السامرة وولّى عليها ايولوكس وشيراس اللذين تركا مولاها بتلمايس. وانحازا إليه وترك لهما خمسة آلاف من جنوده لضبط البلاد وأتى بباقي جنده يقضي فصل الشتاء في عكا (بوليب ك ٥ صفحة ٤٢١).

ثم في الربيع سنة ٢١٧ ق.م استؤنف القتال بين الملكين فإنّ بتلمايس أرسل إلى فرمي سبعين ألف راجل، وخمسة آلاف فارس وثلاثة وسبعين فيلاً. وأخذ بنفسه أمرة جنده وأتى فخيّم في رافيا في جهة غزة. والتقى جيشا العدوين هناك وكان جيش انطيوخس ينيف قليلاً على جيش عدوّه. فإنه كان تحت امرته اثنان وسبعون ألف راجل وستة آلاف فارس ومئة فيل وفيلان. وحلّ الجيشان على مقربة أحدهما من الآخر وكانت بينهما أولاً مناوشات على الماء والكلاء. ودخل تيودت المذكور آنفاً ذات ليلة المعسكر المصري يحجبه الظلام ويصحبه نفران من تبعته فظنّه الجنود مصرياً. وانتهى إلى خباء بتلمايس عازماً أن يقتله ويدك ركن الحرب بضربة واحدة، فلم يجده فقتل طبيبه وهو يحسبه الملك وجرح اثنين فقلق الجيش ونجا تيودت في جناح الظلام وعاد إلى معسكره.

وفي الغد صفّ الملكان جيشهما وقام كلّ منهما أمام صفوفه ليشجّع جنوده. ولم تكتفِ ارسينوا أخت بتلمايس وامراته أن تجرّ الجنود قبل التحام القتال بل لم تغادر بعلاها في معمعة النزال. فظهر انطيوخس في ميمنة جيشه على ميسرة بتلمايس وتوغّل في لحاقهم على غير رويّة. فكان ذلك وبالأعلى عليه لأنّ ميمنة جيش بتلمايس انتصرت على ميسرة جنده. وتحوّلت لضرب قلب جنده من جانبه فقويت عليه وكسرتة قبل أن يتمكن انطيوخس من العود لنجدته. ورقب أحد القادة القدماء حركة قسطل الحرب فاستدلّ منها على أنّ قلب جيشهم قد انكسر. ودلّ انطيوخس على ذلك فأسرع عائداً لنجدة جنده ولكن فاته إصلاح غلطه لأنه وجد

عسكره تشتت شمله، فانحاز هو عن العدو إلى غزة تاركاً في ساحة القتال عشرة آلاف قتيل وأربعة آلاف أسير. ولم يرَ من نفسه القوة على استئناف القتال فعاد ببقية جنده إلى انطاكية تاركاً ما كسبه من البلاد. وتراحمت أقدام الوفود من مدن فلسطين وفينيقية عند بتلمايس يبدون له خضوعهم وسرورهم بعودهم إلى ولايته على عادة الكثيرين من مواطنينا إلى اليوم أن يغادروا المغلوب شامتين ويتزلفوا إلى الغالب متملقين. وجاء في سفر المكابيين الثالث (فصل ١ وليس هو من الأسفار المنزلة) أن بتلمايس أراد بعد انتصاره أن يجول في المدن التي استولى عليها وانتهى إلى أورشليم وقدم محرقات وتقادم لإله إسرائيل. ورغب في أن يدخل إلى قدس الأقداس الذي لم يكن الدخول إليه مباحاً إلا لعظيم الأجر مرة في السنة. فمانعه عظيم الكهنة واللاويون مبينين له حرمة المحل ونهي إلههم عن الدخول إليه. وعظم قلق الشعب فلم ينش الملك عن عزمه بل إزداد رغبة في الدخول. واتصل إلى موقف الكهنة فألقى الله عليه رعباً شديداً أسقطه على الحضيض. فحمل إلى الخارج كأنه ميت ثم ترك المدينة وقلبه موعب حنقاً على اليهود ولسانه ناطق بالوعيد لهم. وأثار عليهم بعد ذلك اضطهاداً ذريعاً لا سيما على من توطن منهم في الاسكندرية وحاول اكراههم على عبادة أصنامهم.

أما انطيوخس فأرسل إلى بتلمايس بعد عوده إلى انطاكية يسأله الصلح لأنه رأى انكساره أذهب مهابته في أعين شعبه. وخشي أن يلاحقه بتلمايس من جهة ويشب عليه اخايوس من أخرى فيثلاً عرشه ويشطرا مملكته. وفوض إلى وفده أن يتساهلوا مع بتلمايس في التخلية عن الأعمال التي كانت سبب النزاع وهي سورية المجوفة أي كل ما بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي من البلاد وفلسطين وفينيقية. فوقع بينهما أولاً على هدنة مدة سنة وقبل انقضائها وقع على الصلح على الشرائط المذكورة أي أن يتخلى انطيوخس لبتلمايس عن فلسطين وفينيقية وسورية المجوفة. ورغب بتلمايس في هذا الصلح مع مقدرته على أخذ مملكة سورية كلها لراحته وحرصاً على ترفه وملاذه. فساء هذا الصلح شعبه وأفضى استيائهم إلى الثورة عليه، ونكب عن حرب خارجية فدهمته حرب أهلية (بوليب ك ٥ صفحة ٤٢٨ ويوستينوس ك ٣ فصل ١ والقديس ابرونيوموس في تفسير نبوة دانيال فصل ١١). وقد تمت بذلك نبوة دانيال (فصل ١١ عد ١٠) حيث قال: «ولكن ابني ذاك (سلوقس الثاني أبي انطيوخس الثالث وفي رواية أحد ابني ذاك) يتهيجان ويجمعان

جمهورية جيوش كثيرة. ويزحف أحدهما (انطيوخس الثالث في حربه الأولى) ويطمو ويعبر ويحل ويحارب حتى إلى حصنه (أي حصن بتلميس). فيستشيط ملك الجنوب ويخرج ويقاتل ملك الشمال (انطيوخس الثالث في الحرب الثانية). فيبرز جمهوراً عظيماً (من الجنود) فيجعل الجمهور (أي جمهور جنود سورية) في يده فيستأصل الجمهور (السوري) ويرتفع قلبه. ويصرع ربوات لكن لا يعتزّ إشارة إلى ما مرّ من ثورة المصريين على بتلميس.

عد ٤١٧

قتل انطيوخس اخايوس وانتهائه بغزوته إلى الهند

بعد أن اطمأنّ انطيوخس بعقده الصلح مع بتلميس صرف همّه إلى قتال اخايوس الذي استبدّ في آسيا الصغرى ليرده إلى طاعته. فعبر جبل طورس سنة ٢١٦ ق.م. واتفق مع أثال ملك برغام على مهاجمة اخايوس عدو كليهما. فضايقه من كلّ جهة حتى أرغم أن يترك ساحة الحرب وينزوي في مدينة سرد. فحاصره انطيوخس فيها وتعمّش عليه فتحها مدة سنة ونيف كثّرت فيها الوقائع على الأسوار إلى أن فتحها انطيوخس بحيلة احتالها أحد قوّاده. وفرّ اخايوس إلى القلعة وتحصّن فيها مدافعاً دفاع الأبطال ولكن خانه اكريتيان كان أحدهما في مصر فأرسله بتلميس لينقذ اخايوس حليفه. وزوّده مبلغاً وافراً من الدراهم وقال الخائن إنّ له صديقاً في معسكر انطيوخس يخفر جانباً من القلعة المتحصّنة فيها اخايوس فيغيره بفتح مجال له للفرار. ومضى إلى صديقه وكشفا الأمر لانطيوخس وعاهداه أن يسلماه اخايوس بهذه الحيلة. فنقدهما مبلغاً آخر وأوصل أحدهما إلى اخايوس الرسائل التي أتى بها من مصر. فخُدع وخرج من حصنه ليهرب فقبضا عليه وسلّماه إلى انطيوخس فقطع رأسه (بوليب ك ٥). وكان ذلك مصداقاً لقول الرسول (رسالته إلى طيطوس فصل ١ عد ٢): «إنّ أهل قريطش (أي اكريت) كذّبة ماكرون» وكان مقتل اخايوس لسنة ٢١٥ ق.م.

ثم أقام انطيوخس بعد مقتل اخايوس مدة في آسيا الصغرى ينظّم أمور مملكته وسار بجيشه سنة ٢١٢ ق.م. نحو المشرق وكان ارساس الثاني ملك البرتيين انتهر فرصة حرب انطيوخس وبتلميس واستولى على ماداي. فحاربه انطيوخس واستظهر

عليه وطرده من هذه البلاد وغنم ما وجدته فيها ولا سيما في هيكل انيا أو انات الآلهة حيث وجد أعمدة مغطاة بالذهب. وكثيراً من الأجرّة مصنوعة من فضة وبعضه من ذهب أيضاً. فسكّ ذلك انطيوخس فكان منه ما قدّره بعضهم باثنين وعشرين مليوناً من الفرنكات. ثم جدّ انطيوخس في لحاق ارساس إلى بلاده وكانت بينهما وقائع عديدة فلم ينتصر انطيوخس على عدوّه كلّ الانتصار. ولكنه قصّر ولايته على تخوم بلاده ثم صالحه على أن تبقى له بلاد البرتين ويلزمه أن يُجدد انطيوخس في محاربته أهل الأعمال التي ثارت عليه وكان ذلك لسنة ٢٠٨ ق.م.

وفي السنة التالية أي سنة ٢٠٧ ق.م زحف بجيشه إلى مملكة بكتريان في تركستان وكانت تخومها تتصل قديماً بالهند. فحارب ملكها اوتيدم وضايقه فأوفد إليه يطلب الصلح محتجاً بأنه لم يكن من رعيّته وعصاه بل أن أسلافه ملكوا هذه البلاد بما أراقوا من دمائهم في الحروب. وأبان له أنه إن طال الحرب بينهما أتى التثر فأخذوا البلاد من كليهما. وكان انطيوخس أعياه الجهاد فقبل الصلح وأرسل إليه اوتيدم ابنه فوقّع على الصلح بينهما سنة ٢٠٦ ق.م وكان من شرائطه أن يقدم لانطيوخس فيلة فأخذها انطيوخس وعبر جبل قوه كاف وانتهى إلى الهند. فجدّد عهده مع ملكها وأخذ منه أفيالاً فكانت جملة الأفيال التي أتى بها في هذه الحملة مئة وخمسين فيلاً. ثم عاد في طريق فارس وبابل وما بين النهرين إلى انطاكية سنة ٢٠٥ ق.م وحملاته هذه أكسبته لقب الكبير (بوليب ك ١٠ صفحة ٦٢٠).

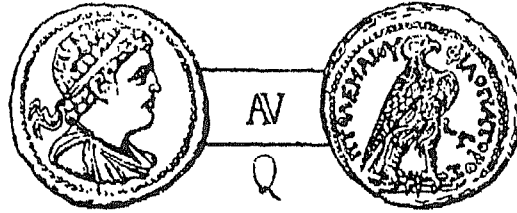
عد ٤١٨

وفاة بتلميس فيلوباتر واسترداد انطيوخس فلسطين وما تبعها

لم تكن مدة مذ عاد انطيوخس إلى انطاكية إلّا وبلغه نعي بتلميس فيلوباتر (محب أبيه). فقد توفي سنة ٢٠٤ ق.م شهيد الخمرة والملاذ كما أصاب ويصيب أكثر من يعكفون عليهما وكان عمره سبعاً وثلاثين سنة. رُقي إلى عرش الملك في العشرين منها واستمر عليه سبع عشرة سنة. وخلفه ابنه بتلميس ابيغان وعمره خمس سنين فقط.

وهذا مثال لسكة بتلميس الرابع. ففي الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه.

وفي الوجه الثاني صورة نسر وجهه إلى اليمين. وقد كُتب عليها بتلميس فيلوتروس.



وكان انطيوخس ملك سورية وفيلبوس ملك مكدونية يتوددان بتلميس ويُظهرا الاستعداد لإنجاده، لكنهما على فور خبر وفاته هبّا لمناسبة طفله طامعين خلافاً لفروض الانسانية والعدل أن ينتزعا منه ملكه الذي ورثه عن أبيه. وعقدا عهدة على قتل الوريث وتشطير مملكة مصر ليأخذ فيلبوس كاريا وليبيا والقيروان ومصر. وانطيوخس ما بقي من المملكة واحتلّ هذا فلسطين وسورية المخوفة. واستحوذ على مدنها وما يليها بوقعتين أو ثلاث. ولكن لم يهنأ الملكان بغنيمتهما الباردة إلاّ وسلّط الله عليهما الرومانيين فنكلوا بمملكة فيلبوس. وانتزعوها أخيراً من يده وضايقوا انطيوخس وخلفاءه لأنّ رجال دولة مصر لما رأوا مؤامرة فيلبوس وانطيوخس على ملكهم الصغير لجأوا إلى الرومانيين طالبين حمايتهم. وعرضوا عليهم الوصاية على الملك القاصر وتدير شؤون المملكة إلى أن يبلغ أشده. وكان الرومانيون حرصى على أن لا يزداد فيلبوس وانطيوخس قوّة وصوله وغنى بأخذهما مصر، فلم يترددوا في قبول الوصاية وعيّنوا ثلاثة مفوضين يحملون بلاغاً إلى الملكين لينكفّا عن الاعتداء على ملك مصر الذي هم أوصياء عليه، وإلاّ فيشهبون الحرب عليهما. وكان من المفوضين مرقس اميل لايبديوس أقامه رجال الندوة في روما وصيّاً على بتلميس. فأتى اسكندرية وأخذ يتعاطى مهام وصايته فدبّر شؤون المملكة كما يشرّت له الحال ونصب ارستومان وزيراً للملكة فأحسن تديرها بحكمة وأمانة (طيطس ليف ٣١ عدك ١٤).

واضطّر انطيوخس أن يسير بجيشه إلى آسيا الصغرى لمحاربة أثال ملك برغام فانتهاز ارستومان هذه الفرصة، فأرسل سكوباس قائد جيش مصر ١٩٩ إلى سورية

يسترد الأعمال التي أخذها انطيوخس. فأخذ اليهودية ومدناً كثيرة في غيرها وأقام حامية في قلعة أورشليم وعاد يقضي فصل الشتاء في الاسكندرية موقراً بالغنائم التي أخذها من المدن التي فتحها (القديس ايرونيμος في تفسير نبوة دانيال فصل ١١ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٣). أما انطيوخس فأرغمه الرومانيون أن يغادر محاربة أثال ويصطلح معه ففعل مكرهاً وعاد إلى سورية فلم يصبر على ما فعله المصريون في بلاده ابان غيابه. فجيّش الجيش وغشا سورية الجنوبية وكان سكوباس رجع من الاسكندرية إليها فالتقى الجيشان في بانياس في قضاء مرج عيون. فظهر انطيوخس على الجيش المصري وبدّده شذر مذر وفرّ سكوباس إلى صيدا بعشرة آلاف جندي بقيت من جيشه. فتتبّعه انطيوخس وحاصر المدينة وضايقه بمنع الزاد عن المدينة فأرسلت حكومة مصر ثلاثة من أحسن قادة جندها، ونخبة عسكرها لرفع الحصار فلم يكن لهم إليه سبيل لأنّ انطيوخس احتاط في كل شيء. واضطر سكوباس أن يقبل شروطاً مذلّة له ولحكومته. وعاد بمن بقي من جنده إلى الاسكندرية غزلاً لا سلاح لهم عراة ليس لهم من الملابس إلّا ما يسترهم (بوليب ك ١٥ وايان في السورين ك ١ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢ فصل ٣). وسار انطيوخس من صيدا إلى غزة فناوأه أهلها لكنه قهرهم وأباح جنوده أن تنتهب مدينتهم. وترك حاميته في المعبر لئلا تتعقبه جنود مصر. وعاد على عقبه فأخضع لسلطته فلسطين كلها وسورية المجوفة. ولما عليم اليهود دنو انطيوخس من بلادهم خرجوا للقاءه وبأيديهم مفاتيح مدينتهم وحصونهم. وأتى أورشليم فخفّ للقياء الكهنة والشيوخ بمعظم الاحتفاء وعاونوه على طرد المحافظين الذين كان سكوباس أقامهم في قلعة أورشليم. فجاد عليهم بنعم وامتيازات وصدر أمره أن لا يدخل أجنبي داخل أسوار هيكلهم. وفي ذلك إشارة إلى محاولة بتلميس أن يدخل جبراً إلى قدس الأقداس فأصابه ما أصابه كما مرّ (في عد ٣٩٨). وكان ذلك سنة ١٩٨ ق.م (يوسيفوس في المحل المذكور آنفاً).

قد كان بذلك تمام نبوة دانيال (فصل ١١ عد ١٢ وما يليه حيث قال: «فإنّ ملك الشمال (انطيوخس الثالث) يرجع ويرز جمهوراً أكثر من الأول وبعد انقضاء الأوقات والسنين (أي بعد بضع سنين) يزحف بجيش عظيم ومال كثير وفي تلك الأوقات يقوم كثيرون (أي فيلبوس ملك مكدونية وأهل سورية) على ملك الجنوب (بتلميس ابيفان). وترفّع بنو عتاة شعبك (أي بعض اليهود) لتمام الرؤيا فيسقطون.

ويأتي ملك الشمال (انطيوخس الثالث) ويركم تلاً ويأخذ المدن المحصنة فلا تقوم أمامه أذرع الجنوب (المصريون) ولا شعب مختاربه ولا تكون قوة للمقاومة (في وقعة بانياس). فالآتي عليه يفعل كيف يشاء (في حصار صيدا كما مر) ولا أحد يقوم أمامه فهو يقوم في الأرض الفاخرة (اليهودية) فتصير بتمامها تحت يده.

وكان انطيوخس مولعاً بالفتح وعزم أن يردّ مملكة سورية إلى تخومها الأولى على عهد سلوقس نيقانور، فبعد أن استحوذ على سورية كلها همّ أن يصنع كذلك في آسيا الصغرى لكنه خشي أن يفترض المصريون غيابه ويسطوا على أملاكه. ويمنعوه اكمال رغائبه فأرسل وفداً إلى مصر يعرض زفاف ابنته قلوبطرة إلى بتلميس ايفان متى بلغ العروسان مبلغ الزواج. وإنه في يوم الزفاف يتخلّى عن أعمال سورية الجنوبية مهراً لبنته. فاستحسن رجال دولة مصر ما عرضه ووقع الفريقان على عهدة بهذا المعنى. ووثق المصريون بكلام انطيوخس فتركوه يصنع ما عيّ له في غير مملكتهم (القديس ايرونيμος في تفسيره نبوة دانيال فصل ١١).

عد ٤١٩

حملة انطيوخس على آسيا الصغرى ومناسبة الرومانيين العداوة له

بعد أن اطمأن انطيوخس من ناحية المصريين بعهده معهم زحف بجيشه إلى آسيا الصغرى سنة ١٩٦ ق.م فاستولى فيها على مدن عديدة حتى افسس وكانت حينئذ ازمير وغيرها من المدن اليونانية في آسيا ناعمة باستقلالها وحريتها. ورأى أهلها انطيوخس عازماً أن ييسط سلطته عليها فجزموا أن يدافعوا عن استقلالهم. ورأوا من أنفسهم الضعف من مناورة عدوهم القدير فلجأوا إلى الرومانيين طالبين حمايتهم. ورؤي في روما أن لا مناص من قصر انطيوخس عن التقدم نحو المغرب لما ينجم عن ذلك من سوء العاقبة. فلبّوا دعوة المدن اليونانية بطيبة خاطر، وأرسلوا للحال وفداً إلى انطيوخس وكان قبل بلوغ الوفد إليه أرسل فريقاً من جيشه فحاصر ازمير. وعبر بالفريق الآخر من جيشه الدردنيل وأخذ بعض مدن تراسة. ووجد ليسيماكية متهدمة فأخذ يجدد بناءها ليجعلها عاصمة لملك ابنه سلوقس في تراسة. وبلغ يومئذ وفد الرومانيين إليه في تراسة يصحبهم بعض مفوضي المدن اليونانية في آسيا ولم يكن بين الملك والوفد في المقابلة الأولى إلا الجمالة. ولكن عند الشروع

في بيان الغرض من ارسال الوفد تبدلت الجملة بالنقرة لأن كرنيلوس أحد الوفد طلب إلى انطيوخس أن يرّد على بتلميس كلّ المدن التي اختلسها منه في آسيا، وأن يتخلى عن المدن التي كانت تخصّ فيلبوس ملك مكدونية إذ لا يحقّ له أن يجني ثمرة حرب الرومانيين لهذا الملك، وأن يترك المدن اليونانية في آسيا وشأنها واستقلالها. وقال إنّ الرومانيين يستغربون عبور انطيوخس إلى أوروبا بجيش جرار براً وبحراً ولا يتأولون ذلك إلّا بمعنى أنه يروم مناوأتهم. فأجابه انطيوخس أنّ بتلميس سيحصل على ما يروم عند زواجه بابنته كما أبرم الأمر بينهما وإنّ المدن اليونانية في آسيا التي تلتمس البقاء على استقلالها يلزمها أن تسأل في ذلك انطيوخس لا الرومانيين. وقال إنه يجدّد بناء ليسيماكية لتكون عاصمة لملك ابنه سلوقس لأنّ دراسة تخصّصه. فإنّ جده سلوقس نيقانور أخذها من ليسيماك وقد أتى هو ليضع يده على ميراثه، وإنه لا يرى وجهاً لمنازعتهم له على المدن التي أخذها من فيلبوس وختم كلامه بأنه يسأل الرومانيين أن لا يتداخلوا فيما يكون في آسيا ويقتصروا على ما يكون في إيطالية.

فطلب الوفد أن يُرخص لمفوضي ازميز وليسيماك بالدخول إلى غرفة الاجتماع فرُخص لهم. وأطلقوا اللسان بشكواهم فاحتدم انطيوخس شديد الاحتدام وقال ليس الرومانيون قضاة في هذه الأمور فأرفض المجلس على نفرة وخلاف مبين.

وشاع وقتئذٍ أنّ بتلميس ابيفان ملك مصر توفي فأسرع انطيوخس إلى أسطوله ميمماً مصر ليستحوذ عليها. وترك ابنه سلوقس في ليسيماكية ليتمّ ما بدأ فيه، على أنه عليم في أثناء مسيره أنّ خبر وفاة بتلميس لم يكن صحيحاً. فمضى إلى جزيرة قبرص عازماً أن يستولي عليها فهبّ عاصف غرق كثيراً من سفنه وجنوده. فاضطرّ أن يضرب عن عزمه وتحوّل بما بقي من أسطوله إلى سلوقية (السويدية). ومضى يقضي فصل الشتاء في انطاكية (طيطوس ليف ك ٣٣ عد ٣٨ وبوليب ك ١٧ وافيان في حروب سورية صفحة ٨٦).

وأما خبر وفاة بتلميس فمصدره مؤامرة دبّها سكوباس رئيس جيشه فإنّ هذا رأى الجيش كله طوع يديه، وأنّ الملك صغير لا يُحسن كبتة فسوّلت له نفسه أن يقتله ويأخذ تاجه ويستبدّ بملكه، فدرى بذلك ارستومان وزيره فقبض على سكوباس وأثبت جرمته وقتله وكلّ من شاركه فيها (بوليب ك ١٧ صفحة ٧٧١).

حروب انطيوخس والرومانيين

لم يجاهر انطيوخس الرومانيين بالعداوة بل أحبّ قبل ذلك أن يعزّز قوّته باتخاذ الملوك مجاوريه حلفاء له. فمضى إلى رافيا في تخوم فلسطين من جهة مصر بابتته قلوبطره فزوّجها لبتمايس ايفان. وتخلّى عن سورية المجوفة وفلسطين مهراً لها على شرط أنه يُقيي له نصف دخل هذه الأعمال، كما نصّ في المعاهدة على أنّ هذا الزواج عاد وبالأعلى على انطيوخس لأنّ ملكة مصر آثرت نفع زوجها على نفع لأبيها فتمت بذلك نبوءة دانيال (فصل ١١ عد ٧) حيث قال: «ويجعل (ملك الشمال انطيوخس) وجهه ليدخل بقدره مملكته كلها (أي مملكة بتمايس). ثم يصلحه ويعطيه بنت النساء وفي نيتّه أن يفسدها لكنها لا تثبت ولا تكون له» بل تؤثر نفع بتمايس بعلمها.

بعد عود انطيوخس إلى انطاكية زوّج بنتاً أخرى له باريارات ملك الكبادوك. وأراد أن يزوّج الثالثة باومان ملك برغام فلم يرضها حرصاً على رضى الرومانيين عنه. ثم زحف انطيوخس إلى آسيا الصغرى فبلغ افسس عازماً على معاقبة أهل يسيديا لشغبهم. وأرسل ابنه إلى أعمال المشرق ليؤمنها وقد وفد عليه حينئذ انيبال القرطاجني عدو الرومانيين الشهير. وقد كان استمرّ في قرطاجنة ست سنين مستكناً بعد عقد الصلح مع الرومانيين. ثم وشى به أنّ بينه وبين انطيوخس مراسلات الغرض منها محاربة الرومانيين في إيطاليا. فأرسل رجال ندوتهم وفداً للبحث عن هذه الوشاية حتى إذا وُجدت صحيحة أمروا أهل قرطاجنة بتسليمه إليهم. ودرى انيبال ما يسرون ففرّ بنفسه إلى صور. وشخص منها إلى انطاكية فلم يجد انطيوخس فتبعه إلى افسس وشّر انطيوخس بلقياه لما عهد به من المهارة في الحرب ولما اعتاده من كسر جنود الرومانيين. وعزم على الحرب وأخذ يستعد لها سنة ١٩٦ وسنة ١٩٥ ق م. وتوفرت المداولات بين الفريقين سنة ١٩٣ ق م ولكن لم يكن الغرض منها إلا كسب الوقت لتكملة العدد الحربية واستطلاع كل منها ما اعتمد عدوّه. وكان الرومانيون انتصروا سنة ١٩٧ ق م على فيلبوس الخامس ملك مكدونية حليف انطيوخس فاشتدّ بأسهم واستخفّوا بانطيوخس. وكان انيبال يرى أنه يلزم محاربة الرومانيين في ايطاليا ولم يكن يطلب إلا مئة سفينة وعشرة آلاف

راجل، وألف فارس ليمضي بهم إلى قرطاجنة آملاً أن يبعث أهلها على الانضمام إليه، وإنه إذا لم ينجح بضمتهم إليه سار تواً إلى إيطاليا بأسطوله. ولا تعوزه الوسائل لإشغال بال الرومانيين، وأنه يلزم الملك أن يغشو أوروبا بياقي جيشه فيقيم في مكان ما في بلاد اليونان ويهدد الرومانيين بأنه سيزحف إلى إيطاليا. وأرسل انيبال رجلاً من صور إلى قرطاجنة ليعد أهلها لقبول ما يرتقيه. فافتضح أمره وظهر مأربه فانهمز من قرطاجنة وأخبر رجال ندوة قرطاجنة الشعب الروماني بما كان.

وكان فيلبوس أحد وفد الرومانيين في آسيا الصغرى وعلم أن أنطيوخس مشغول في حرب بيسيديا، وأن انيبال في افسس فأتاه وأكثر من الترداد إليه مجدداً بأن يوثقه بأن لا خوف عليه من قبيل الرومانيين فلم يثق انيبال بكلامه. لكنه صيد بمكيدته بأن أوقعت كثرة ترداده إليه شبهة أنطيوخس باخلاصه وتحززه منه. ولذلك لم يعد يستدعيه عند عقد مشوراته. وشعر انيبال بتغير الملك عليه فقابله. ومن جملة ما قال: «لاني منذ صبوتي آليت أني أكون عدواً للرومانيين ما حييت وهذه اليمين هي التي جعلتني أحاربهم ستاً وثلاثين سنة. وأبعدتني عن وطني وألجأتني إليك فإن خيبت آمالي أرغمتني أن أجول الأرض مهيجاً على عداوة الرومانيين. وإن عوّلت على حربهم فاكتب اسمي في أعلى جريدة محبيك، وإن اضطرت إلى مسالمتهم فاسألن رأي غيري فلا أشير على أحد بالمسألة لهم». فأظهر له أنطيوخس عوده إلى الثقة به. وكانت منازعات بين عشائر اليونان في بلادهم واختلاف بين عشيرة الأتوليين وبين الرومانيين. فاستدعى اليونان أنطيوخس ليأمن بلادهم ويفصل هذا الخلاف فأتى بلاد اليونان فاستاء الرومانيون من ذلك وعالونه بالحرب فحاربه بعض اليونان. وانحاز بعضهم إلى الرومانيين. وأشار عليه انيبال أن يستقدم كل جنده من آسيا فلم يصغ له أو ضاق الوقت على قدومهم. واستحوذ أنطيوخس على مدن كثيرة في تساليا وأتى كلثيس (المعروفة الآن باغريبو في بلاد اليونان). فأغرم بينت مضيفه كأنه ابن عشرين سنة وقد جاوز الخمسين وذهل عن مهامه وصرف مدة الشتاء بملاهي زواجه. ولهي جنده بملاذهم اقتفاءً به ولم يستفق إلا عندما علم أن أشيل قائد الرومانيين قد باغته في تساليا. فهبّ لمناوئته لكنه لم يجد من جند اليونان محازبيه إلا قليلين. وفاته تدارك خديعته ولم يتيسر له إلا أن يضبط مضايقي جبل ترمويل. وأن يستنجد الأتوليين (عشيرة يونانية). وحال المطر والعواصف دون بلوغ الجيش من آسيا ولم يكن يصحبه إلا عشرة آلاف رجل. وزحف إليه أشيل

بعسكر جرار وأرسل كاتون نائبه بفريق من الجند ليتسلق على الجبل، ويتمكن من ضرب العدو ففعل. وشئت أولاً بعض جنود انطيوخس الذين عارضوه في طريقه. ثم شنّ الغارة على قلب جيش العدو والتقاء أشيل من الجهة الأخرى فأوقع بأعدائه. وأصيب انطيوخس بضربة حجر كسرت أسنانه فبعثه الألم على مغادرة ساحة القتال، ولم يستطع جيشه أن يقف أمام الرومانيين. فذعر وأعمل الرومانيون السيوف فيهم فهلك منهم خلق كثير وكان ذلك لسنة ١٩٢ ق م. وأوفد أشيل البشائر إلى روما فطرب أهلها بها وأمر رجال ندوتها باقامة صلوات عامة وتقديم ذبائح للآلهة شكراً لهم على ما أولوا جنودهم من الظفر. وكانوا قدّموا مثل هذه الذبائح عند مضي جنودهم للحرب وليت المسيحيين عباد الإله الحق يتشبّهون بعباد الآلهة الكذبة في الخشوع لله وشكره. (طيطوس ليف ك ٣٦ وايان في السورين صفحة ٣٤٣).

أما انطيوخس فعاد إلى افسس راكناً إلى كلام المتعلقين بأن الرومانيين لا يجسرون أن يعبروا آسيا. وكان انيال ناصحاً له أن لا يطمئن إلى تزويق كلامهم فإنه لا مناص له في أقرب حين من مدافعة الرومانيين في آسيا براً وبحراً. فيلزمه إما أن يتخلّى عن الملك وإما أن يستعد للقتال لأن الرومانيين عازمون أن يتولّوا على العالم كله. فأدرك الملك عظم الخطر الملّم به وأمر بتعجيل الجيش من المشرق. وجّهز أسطولاً وسار إلى تراسة فحصّن ليسيماكية وغيرها من الحصون ليمنع الرومانيين من العبور إلى آسيا بالدرديل. وعاد إلى افسس وأمر بوليكسانيد أمير أسطوله أن يضرب أسطول الرومانيين الذي كان قد بلغ إلى جزر الأرخبيل. فضربه ولكن ظهر الرومانيون عليه وغرّقوا عشرين من سفنه. وأخذوا منه ثلاثة عشرة سفينة، فهمّ انطيوخس بتجهيز أسطول آخر وأرسل انيال إلى سورية ليأتيه بسفنها. وأقام ابنه سلوقس على فريق من الجيش ليحافظ على سواحل البحر ومضى هو بالفريق الآخر يقضي فصل الشتاء في فريجيا.

أما الرومانيون فأقاموا على قيادة جيشهم سنة ١٩٠ ق م كرنيليوس شيبون بدلاً من أشيل. وتطوّع أخوه شيبون الأفريقي بأن يكون نائباً له. وزحفا بجيش الرومانيين من تسالية إلى مكدونية وتراسة ليعبرا به إلى آسيا. وأوعز إلى أسطول الرومانيين بأن يلتقيهم لتيسير معبر الجنود. وأتى لنجدتهم أسطول رودس فوثب أسطول انطيوخس على سفن الرودسيين في مرسى ساموس فغرق وخرق تسعاً

وعشرين سفينة منه. فتغيّط الرودسيون منه والتقوا انيبال الذي كان آتياً بسفن سورية وفينيقية تجاه بمفيليا. فاستظهروا بمتانة سفنهم ومهارة بحارتهم على هذا القائد العظيم وهزموه إلى البر وحصروه حتى استحال عليه أن ينفع انطيوخس بشيء. وحاول انطيوخس أن يستميل إليه ملك بتنيا فخاب أمله لأن الرومانيين سبقوه إلى صداقته. فعاد إلى افسس واستعرض جيشه. وأمر بوليكرسانيد أمير أسطوله أن يضرب أسطول الرومانيين مرة أخرى ففعل ولكن انتصر الرومانيون عليه وأرغموه أن ينهزم إلى افسس. فأعمى الله بصيرة انطيوخس وأمر جيشه الذي كان في ليسيماكيا وغيرها من المدن المجاورة الدردنيل أن يترك هذه المدن مخافة أن يقع في أيدي الرومانيين، فغادرها تاركاً ما كان له فيها من المؤن غنيمة باردة. وعبروا إلى آسيا (طيطوس ليف وايان في المحال المذكورة).

ولما علم انطيوخس أن الرومانيين عبروا إلى آسيا تيّقن هلاكه ووّد لو نار الحرب على انطيوخس فدّعروا وانهزم. ودارت الدوائر عليه لأنه قُتل من عسكره نحو من خمسين ألف رجل وأسر ألف وأربعمائة ولم يُقتل من عسكر الرومانيين إلا ثلاث مئة راجل وثمانون فارساً، وانهزم انطيوخس وعاد مدحوراً إلى سورية. ولم يشهد هذه الواقعة انيبال إذ استمرّ محصوراً في بمفيليا ولاشيبيون الافريقي لأنه بقي مريضاً. ودانت جميع مدن آسيا الصغرى إلى الرومانيين وكان ذلك لسنة ١٩٠ ق.م (طيطوس ليف ك ٣٧ وبوليب ف ٢٤ وايان في المحل المذكور) وقد تمّت بذلك نبوة دانيال حيث قال (ف ١١ ع ١٨): «يصرف (أي انطيوخس الثالث ملك الشمال) وجهه نحو الجزائر (أي جزائر البحر المتوسط وبلاد اليونان) ويأخذ كثيراً منها ويزيل قائد (روماني وهو شيبيون الآسيوي) تعبيره حتى لا يعود يعيّر» وفي نسخة وعاره يقع عليه.

عد ٤٢١

الصلح بين انطيوخس والرومانيين وغرامة الحرب

لما بلغ انطيوخس إلى انطاكية بعث وفداً إلى القائد الروماني يرأسه انتيباتر ابن أخيه يسأل الصلح والأمان. فوجد الوفد القائد في افسس وكان أخوه شيبيون بل من مرضه. فتوجهوا إليه أولاً ثم سار بهم إلى القائد فلم يلتمسوا معذرة لانطيوخس

بل سألوها الصلح باسمه متذللين ومما قالوا: «قد عفوتم أنتم الرومانيين أبداً بعزة نفسكم عن الملوك والشعوب الذين انتصرتهم عليهم ولا شك في أنكم تصنعون الآن كذلك بعد انتصار جعلكم سادة العالم كله، حتى ضارعتم الآلهة فدعوا المنافسة للناس جانباً وارفقوا بالمائتين». فعقد القائد لجنة مشورته وجزموا على ما يجيبون ثم أدخلوا الوفد. وأخذ سيبيون الأفريقي في الكلام فقال إن الرومانيين لا تهولهم الشدة ولا ينتفخون بالظفر وعليه فلا يطلبون بعد الحرب إلا ما طلبوه قبلها، ولهذا يلزم انطيوخس أن يتخلى عن كل ما وراء جبل طورس من آسيا الصغرى وفي نفقات الحرب البالغة خمسة عشر ألف وزنة، وهي عبارة عن ثلاثة وثمانين مليوناً من الفرنكات، فينقد الآن خمس مئة وزنة ويدفع ألفين وخمس مئة وزنة بعد أن يُثبت رجال الندوة عهدة الصلح. ويُقسَّم الباقي أنجماً إلى اثنتي عشرة سنة فيدفع كل سنة ألف وزنة، ويقدم عشرين رجلاً يختارهم الرومانيون رهائن ويُسلم إلى الرومانيين انبيال عدوهم وتواس الأتولي الذي تسبب باصطلاء هذه الحرب، فقبل الوفد هذه الشروط برمتها.

وبعث القائد بكوستا مع وفد انطيوخس إلى روما ليطلع رجال الندوة على ما كان ويلتمس اثباته، ونقد انطيوخس القائد الخمس مئة وزنة في افسس. وقدم له الرهائن وكان منهم انطيوخس ابنه الذي رقي بعداً إلى منصبة الملك. وسمى انطيوخس ايفان. أما انبيال وتواس فمذ شعرا بتعاطي أمر الصلح فترا قبل التوقيع على عهده. وكان بلوغ كوستا ووفد انطيوخس إلى روما باعثاً على أعظم السرور والابتهاج، وفرضت الحكومة اقامة الصلوات العامة وتقديم الذبائح للآلهة ثلاثة أيام متتالية شكراً للآلهة على ما قبضوا لجيشهم من الظفر. ثم مثل وفد انطيوخس بحضرة رجال الندوة ولم يسألوا إلا اثبات عهدة الامان والصلح التي أجراها شيبون القائد فأثبتها رجال الندوة ثم أيدت في ديوان الشعب وكان ذلك ١٨٩ ق.م (طيطوس ليف ك ٣٧ عد ٤٥ وبوليب راس ٢٤).

وقد جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٨ عد ٦ إلى ٨) استطراداً ذكر بعض الشروط المذلة التي وضعها الرومانيون على انطيوخس، فإننا نرى يهوذا المكابي عند كلامه في اقتدار الرومانيين وقهرهم الملوك يقول: «وكسروا انطيوخس الكبير ملك آسيا الذي زحف لقتالهم ومعه مئة وعشرون فيلاً وفرسان وعجلات وجيش كثير جداً. وقبضوا عليه حياً وعلى الذين يملكون بعده جزية عظيمة ورهائن ووضائع

معلومة. وأن يتركوا تلمصاً من حرب جناها على نفسه دون روية في عواقبها. وبعث وفداً إلى روما يعرض شرطاً للصلح وكان رئيس الوفد هركليد البيزنطي وكان يأمل عقد الصلح بعناية سيبينون الافريقي لأن ابنه كان أسيراً عند انطيوخس. فاستهمل هركليد كرمه في الندوة الرومانية بالتماس عذر لمولاه عن قبول الصلح فيما مضى لدواع قد زالت الآن وأنه لرغبته في أن يثبت للرومانيين أنه لا يبقى ملكاً في اوروبا بل يترك كلما فيها للرومانيين، قد تخلى عن ليسيماكية واستقدم جنوده منها وأنه مستعد أن يتخلى عن ازميز وليميساك واسكندرية في ترويا وغيرها من المدن لمخالفهم. كما طلبوا إليه أولاً وأنه لا يأبى أن يدفع نصف نفقات الحرب. واختتم كلامه مذكراً رجال الندوة بتقلب الأيام وعدم ثباتها على حال، وأنه لا يمكن التعويل على حسن الحظ في كل آن ويكفي أن تشمل تخوم ملكهم اوروبا الواسعة الأرجاء، وإنهم إذا طمعوا أن يكون لهم شيء في آسيا فلا يأنف مولاه من تنويلهم ما يبتغون بحيث توضع تخوم راهنة لا يتجاوزها فيما بعد. فكان الجواب على كلامه أن مولاه تسبب في انتشاب الحرب فيغرم بدفع نفقاتها كلها وأنه لا يكفي بتخليه عن المدن التي ذكرها بل يلزمه أن يطلق الحرية لجميع سكان آسيا كما أطلقها لجميع اليونانيين. وإن ذلك يستلزم تخليه عن كلما كان في آسيا الصغرى وراء جبل طورس.

ولما رأى هوكليد أنه لم ينجح في الندوة حاول أن يستميل شيبينون الافريقي. فأتاه واعداً من قبل الملك بأن يرد عليه ابنه دون فدية. وجهة أخلاق الرومانيين اسمعه أن الملك ينقده مبلغاً وافراً ويخوله سلطاناً مطلقاً لديه إن عاونه على عقد الصلح. فأجابه شيبينون: «لا اتعجب من جهلك أخلاقي وأخلاق الرومانيين لجهلك حالة مولاك الذي أوفدك إلينا. وقد زعمت أنه لا ينبغي الاعتماد على الحظ في كل حين وإن هذا يحملنا على الصلح فمولاك بتركه لنا ليسيماكية وعدم معارضتنا في عبور الدردنيل قد وضع لنا حكمة في فمه، ونيراً على عنقه ولم يبق له إلا أن يذل لنا في كلما نريد، وأما رده علي فلا يغريني شيئاً فيما إني فرد أشكر له على هذا الإحسان وهذه الهدية الثمينة. ولكن بما أني رجل الحكومة فلا يحق له أن يأمل شيئاً من قبلي فاذهب وقل له إنه إذا وثق بي فليطرح سلاحه ويتقبل كلما يعرض عليه من شرائط الصلح، فهذا ما يشير به عليه صديق مخلص وأمين له.

وقد رأى انطيوخس أن الشروط التي توضع عليه بعد الانكسار في الحرب لا تكون أشد عليه منها قبلها فأثر الحرب ولو غلب فيها على قبول شرائط الصلح

المذللة له دونها. واستعد للقتال وعرف أنَّ شيبون مريض فأرسل إليه ابنه وكان علةً لشفائه. وبعد أن عانق ابنه طويلاً قال له اذهب فقل لوفد الملك إنني شاكر له وليس لي ما أبدي له به دليل عرفاني جميله إلا مشورتني عليه أن يؤخر إيقاد الحرب إلى أن يعلم إنني عدت إلى المعسكر لأنه كان متخلفاً عن الجيش لمرضه. وكان يأمل أنَّ الملك يزيد التبصّر في غائلة الحرب أياماً عملاً بمشورة شيبون. وكان جيشه سبعين ألف راجل واثني عشر ألف فارس وأربعة وخمسين فيلاً. وكان جيش الرومانيين منظماً ورجاله مدربين في القتال وجيش انطيوخس لفيفاً مؤلفاً من أخلاط من أمم عديدة. ولما طال المكث وجيش الملك لم يبد حراكاً خشى الرومانيون أن يدخل فصل الشتاء فيؤذي البرد رجالهم في الخيم. فصفّ القائد الروماني صفوفه للحرب واقترب من معسكر الملك فخرجت جيوش انطيوخس إليهم، وانتشب القتال وظفر انطيوخس بفرسانه على ميسرة الرومانيين. ورأى مرقس اميليوس أحد أمراء الجيش فرار جنودهم فأسرع بفريق منهم منجداً ومؤنباً الهاريين على جبانته. وأمر جنده أن يبطشوا بطلائع الفارين ففعلوا. وآثر الفارون العود لساحة القتال على القتل فعادوا وأضرمو بلاد الهند وماداي وخيار بلادهم. وأخذوها منه وأعطوها لأومنيش الملك» وكل ذلك يضابق ما رويناه عن المؤرخين القدماء، فالجزية الفاحشة والرهائن والتخلي عن كل البلاد الواقعة وراء جبل طورس رويناه عنهم كما رأيت وربما كانت كلمة الهند خطأ من النساخ صوابه بلاد اليونان في آسيا، ولم يف انطيوخس الجزية المضروبة عليه كلها إذ لم يعيش بعد الصلح إلا سنتين كما ستري. فلزم من ملك بعده أن يفي ما بقي من أنجمها في مدة السنين العشر مصداقاً لما جاء في الكتاب. وقد أجمع كل المؤرخين القدماء الذين كتبوا أخبار هذه الأحداث أنَّ اومنيش أو اومان ملك برغام عاون الرومانيين بنفسه ورجاله على انطيوخس. فأعطوه كلما طلب ولم ينفرد كاتب سفر المكابيين إلا بذكره أنَّ الرومانيين قبضوا على انطيوخس حياً وهذا يؤذن به قوله عهدة شديدة الجور والقسوة عليه (ملخص من معجم الكتاب لفيكورو في كلمة انطيوخس الثالث).

ذيل في سفرَي المكابيين

لما كنا نستشهد كثيراً سفرَي المكابيين في كلامنا الآتي كان الجدير بنا أن نُطرف قراءنا بلمعة يتبيّن منها صحة هذين السفرين وكاتبهما وترجمتهما وزمان

كتابتهما. فالكنيسة الكاثوليكية تحصى هذين السفرين بين الأسفار المنزلة سنداً إلى تقليد الآباء والمجامع منذ القرون الأولى للنصرانية. وما حواه هذان السفران من تاريخ سورية ومصر يطابق ما رواه المؤرخون العالميون القدماء. وتاريخ السنين الوارد فيها يوافق كل الموافقة التواريخ التي تؤخذ عن مسكوكات الملوك اليونان في سورية ومصر. وقد نفى البروتسطنت السفرين من عداد الكتب المنزلة، على أن أكثر علمائهم الآن يثبتون أن كل ما انطويا عليه من أخبار فلسطين والمكايين يستوجب التصديق ولا مرية في صحته لكنهم يوردون بعض اعتراضات على بعض آياتهما نرد أكثرها في محالها.

أما كاتب السفر الأول فغير معروف ويظهر من قوله في آخره: «وبقية أخبار يوحنا... مكتوبة في كتاب أيام كهنوتية». إنه كتبه لبضع سنين من موت سمعان الذي كان سنة ١٣٥ ق.م. وربما كان ذلك قبل وفاة يوحنا هركان سنة ١٠٧ ق.م. وقد كُتب هذا السفر بالعبرانية لقول القديس ايرونيμος: «إني وجدت سفر المكايين الأول بالعبرانية. وأما السفر الثاني فباليونانية وهذا ظاهر من نسق عبارته». على أن النص العبراني الأصلي مفقود الآن وترجمته اليونانية عريقة في القدم، لأن يوسفوس اعتمد عليها في كتابه تاريخ اليهود وكثيراً ما انتحل كلماتها كلمة كلمة، وله ترجمة سريانية طُبعت في جامعة (الكتاب بعدة لغات) لاجاي الباريسية وفي جامعة ولتن اللوندنية، وهي مأخوذة عن اليونانية وبينهما طباق بين.

وأما سفر المكايين الثاني فليس تكملة للأول بل هو مستقل بنفسه وهو قسمان، حوى الأول رسالتين من اليهود في فلسطين إلى اخوتهم في مصر. وينطوي الثاني على تاريخ بعض الأحداث. وأما كاتبه فغير معروف أيضاً ويظهر أنه كان في أورشليم. وكان من اليهود المتخرجين بعلوم اليونان وقد كُتب في اليونانية كما مرّ، ولا يمكن أن يُعَيَّن زمان كتابته لكن من المؤكد أنه لم يُكتب قبل سنة ١٢٤ ق.م. ولا بعد سنة ٦٣ ق.م. إذ أخذ بومبايوس أورشليم. فيمكن أن يكون قد كُتب في زمان يوحنا هركان الأول الذي قضى سنة ١٠٧ ق.م. أو بُعِده.

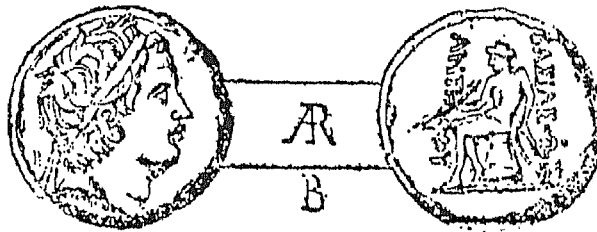
عد ٤٢٢

مقتل انطيوخس الكبير وذكره في سفرزي المكايين

قد ارتبك انطيوخس في إعداد المال الذي وجب عليه للرومانين فمضى مطوفاً

في أعمال المشرق يجبو ما يتكفل بوفاء الغرامة. وترك تدبير ملكه مدة غيابه إلى سلوقس ابنه الذي جعله وريثاً له، ولما انتهى إلى بلاد العيلاميين في فارس قيل له إنَّ في هيكل يوبيتر بالوس كنزاً عظيماً، فلم يقوَ الملك الوثني مع فاقته القصوى إلى المال على أن ينبذ هذه التجربة الشديدة. وسوّلت له نفسه ذريعة تذرع بها للنهب محتجاً بأنَّ أهل هذه البلاد ثاروا عليه فدخل الهيكل ليلاً وابتزّ كلما كان في الهيكل من أقدم الدهر، فحنق الشعب وثار عليه وقتله وكلّ حاشيته. وكان ذلك لسنة ١٨٧ ق.م (روى ذلك سترابون ك ١٦ فصل ٧٤٤ والقديس يوستينوس ك ٣٢ فصل ٢ وديودر فقرة ٢٦ والقديس ابرونيموس في تفسير نبوة دانيال إذ قال (ف ١١ ع ١٩): «ويصرف (انطيوكس الكبير) وجهه إلى حصون أرضه ويعثر ويسقط ولا يوجد».

وهذا مثال لسكة انطيوكس الكبير ففي الوجه الأول صور رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني ابولون جالس وييمينه سهم وفي شماله قوس كُتب عليها باسيلوس انطيوخس أي الملك انطيوكس.



قد مرَّ أنَّ كاتب سفر المكابيين الأول ذكر استطراداً انطيوكس الكبير واستظهار الرومانيين عليه، لكن لم يقل شيئاً في موته. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ١ عد ١٣ إلى ١٦): «فإنه إذ كان الملك في فارس يقود جيشاً لا يثبت أمامه أحد نكبوا في هيكل النّائية بحيلة احتالها عليهم كهنة النّائية. وذلك أنه جاء انطيوكس ومن معه من أصحابه إلى هناك متظاهراً بأنه يريد أن يقارنها وفي نفسه أن يأخذ المال في سبيل الصداق. فأبرز كهنة النّائية الأموال ودخل هو مع نفر يسير إلى داخل المعبد ثم أغلقوا الهيكل. فلما دخل انطيوكس فتحوا باباً خفياً كان في أرض الهيكل وقذفوا حجارة رموا بها القائد ثم قطعوه قطعاً وجزّوا رؤوسهم وألقوها إلى

الذين كانوا في الخارج». ولكن جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٦ عد ١ فصاعداً) ما مؤداه:

«إِنَّ انطيوخس الملك كان يجول في الأقاليم العليا وسمع بذكر المائيس وهي مدينة بفارس مشهورة بأموالها من الفضة والذهب وأنَّ بها هيكلاً فيه كثير من الأموال وسجوف الذهب والدروع والأسلحة. فأتى وحاول أن ينهب المدينة فلم يستطع لأنَّ أهل المدينة ثاروا عليه وقتلوه فهرب ومضى من هناك راجعاً إلى بابل. وجاءه مخبر بأنَّ الجنود التي وُجِّهت إلى أرض يهوذا قد انكسرت فبُهِت واضطرب جداً وانطرح على الفراش وأوقع الغم في السقم ومات هناك انطيوخس في السنة المئة والتاسعة والأربعين» لتاريخ السلوقيين. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٩ عد ١ وما يليه) ما ملخصه: «إِنَّ انطيوخس كان منصرفاً عن بلاد فارس بالحزري وكان قد زحف على مدينة اسمها بر سابويس. وشرع ينهب الهياكل ويعسف المدينة فبادر الجموع إلى السلاح فدفعوه فانهمز بالعار. ولما كان عند احتمائه بلغه ما وقع لنكانور وأصحاب تيموتاوس في اليهودية فاستشاط على اليهود مهدداً. فضربه الرب ضربة معضلة فلم يفرغ من تهديده حتى أخذه داء في أحشائه ومغص اليم في جوفه، ولم ينكف عن كبريائه بل كان يحث على الإسراع في السير حتى سقط من عجلة. فترضضت جميع أعضائه جسمه حتى نتن جسده وانبعثت منه الديدان وتساقط لحمه فارعوى عن ضلاله. وكتب إلى اليهود رسالة رقيقة (مُثَبِّتة في الفصل المذكور) لكن الله لم يعف عنه بل مات بعد آلام مبرحة على الجبل في أرض غربة».

وقد كان في تفسير هذه الآيات وتوفيق إحداها مع الأخرى إشكال عند المفسرين لا سيما لعدم التفريق بين انطيوخس وانطيوخس بعدد أو لقب. كما نصنع الآن وقد سمي ثلاثة عشر ملكاً من ملوك سوريا باسم انطيوخس. ووهم كثير منهم أنَّ انطيوخس الذي ذكر في الفصل الأول من سفر المكابيين الثاني أنه قُتل في الهيكل وانطيوخس الذي ذُكر أنه مات في مرضه إنما هما واحد. ولا يخفى ما في ذلك من التناقض البيِّن بين موت أحدهما قتيلاً وموت الآخر من مرض وإن اتفق الخبران بذكر نهب هيكل. فهب الكاتب غير ملهم فلا ينقض قوله الأول بقوله الثاني، فالصحيح إذاً أنَّ انطيوخس الذي قُتل في الهيكل وجاء ذكره في الفصل الأول من سفر المكابيين الثاني إنما هو انطيوخس الثالث الملقَّب بالكبير. وقد ذكرنا

آنفاً أقوال المؤرخين القدماء إنه مات كذلك وإنَّ انطيوخس الذي مات مريضاً في الطريق والذي جاء ذكره في الفصل السادس من سفر المكابيين الأول وفي الفصل التاسع من سفر المكابيين الثاني إنما هو انطيوخس الرابع الملقَّب باييفان مضطهد اليهود. وهو ابن انطيوخس الثالث. وقد أوجز صاحب السفر الأول بخبر موته وأسهب صاحب السفر الثاني فيه (ملخص عن المعجم الكتابي لفيكورو في كلمة انطيوخس الثالث).

إنَّ انطيوخس الثالث الكبير لم يضطهد اليهود كما فعل ابنه انطيوخس الرابع اييفان على أنهم تحملوا أشدَّ الضيق ولا سيما في سني ملكه الأولى لدى حربه مع ملك مصر. قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٢١ فصل ٣): «إنَّ محاربة هذا الملك (انطيوخس الكبير) لبتلمايس محب أبيه ولابنه الملقَّب اييفان أوقعت اليهود في أشدَّ الضيق غالباً كان أم مغلوباً حتى كانوا حينئذٍ أشبه بسفينة تلطمها الأمواج من كل جهة إذ كانوا في وسط المتحاربين». ولو لم يُقتل انطيوخس في هيكل النناية لعاد إلى اليهودية ومصر ليحشد ما يفي به غرامة الرومانيين وليثأر من ملك مصر. ولهذا نرى اليهود الذين كتبوا الرسالة المثبتة في أول سفر المكابيين الثاني إلى اخوانهم المتوطنين في مصر يقولون: «إنهم شكروا الله الشكر الجزيل على أنه خلصهم من أخطار جسيمة». وقد رُقي انطيوخس هذا منصة الملك سنة ٢٢٣ ق.م واستمر عليها إلى سنة ١٨٧ ق.م فمدة ملكه ست وثلاثون سنة وخلفه ابنه سلوقس الرابع.

الفصل الخامس

سلوقس الرابع وانطيوخس ابيفان ابني انطيوخس الكبير

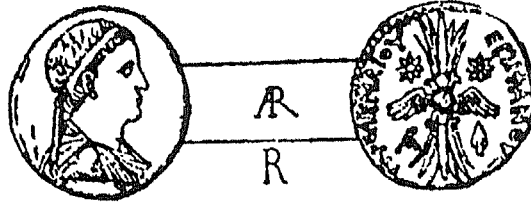
عد ٤٢٣

سلوقس الرابع

خلف انطيوخس الكبير بكره سلوقس الرابع ولقب فيلوباتور أي محب أبيه. وكان حامل الذكر ذليلاً لإذلال الرومانيين مملكة سورية واثقالها بغرامة الحرب إذ كان يترتب عليه بمقتضي عهدة الصلح مع أبيه أن يدفع لهم كل سنة ألف وزنة وهو عبارة عن خمسة ملايين وخمسة مئة ألف فرنك. وقد مرَّ أنَّ بتلمايس ابيفان ملك مصر كان تزوج بقلوبطرة ابنة انطيوخس فولدت في سنة وفاة أبيها ابناً خلف أباه. وسمي بتلمايس فيلوماتور أي محب أمه. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٤) أنَّ أهل المملكة كلها شروا ببشرى ولادته وذهب كثيرون من أعيان سورية ووجهائها إلى الاسكندرية للتهنئة بمولده، ولما كان يوسف ابن أخت اونيا الحبر (قد مرَّ ذكره) هرمًا لم يتمكن من المسير أرسل هركان أصغر بنيه. وكان هركان ذكياً رقيقاً لطيف المحاضرة فرحب الملك والمملكة بهؤلاء الأعيان، وأدبوا لهم فأراد بعض الجلساء أن يسخر من هركان لصغر سنّه فوضعوا أمامه العظام التي جرّدوا اللحم عنها، وقال أحدهم للملك: «هاك مولاي كم من العظام أمام هركان فكذلك أبوه يلتقم دخل سورية كلها». لأنَّ الملك كان أقطعها إياها فضحك الملك وقال لهركان: من أين لك هذه العظام كلها؟ فأجابه: «لا عجب مولاي لأنَّ الكلاب تأكل اللحم مع العظام كما صنع هؤلاء وأما الناس فيأكلون اللحم ويتركون العظام كما صنعت». فضحك الملك حتى استلقى وخجل من عبثوا به، وقدم هركان وحده أكثر مما قدّمه أعيان سورية معاً فأحرز مسرة الملك والمملكة وأحجّاه وأكرمّاه.

وعزم بتلمايس ابيفان أن يثير حرباً على سلوقس ملك سورية. وأخذ يستعدُّ لها فسأله أحد أعوانه من أين له المال لنفقة هذه الحرب، فقال له إنَّ أصدقاءه يغنونه من المال فتوهمُّ أعوان الملك وعماله أنه يريد أن يثقلهم بنفقات الحرب. وكان تعسف الرعية وجار فيها وتوفرت ثوراتهم عليه وكان عماله يؤثرون نفعهم على إداء فروض الأمانة له. فدسَّوا له سماً قضى به سنة ١٨١ ق.م بعد أن ملك أربعاً وعشرين سنة. وخلفه ابنه بتلمايس محب أمه المار ذكره وعمره ست سنين وكانت أمه قلوبطرة تدبِّر الملك.

وهذا مثال لسكة بتلمايس الخامس فترى في الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني صورة صاعقة مجنَّحة وقد كُتِب عليها بتلمايس ابيفان.



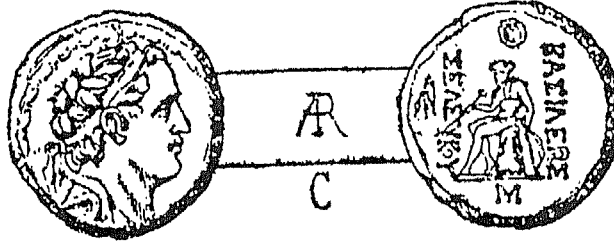
ولم يكن في أيام سلوقس الرابع ما يستحق الذكر إلَّا ما رواه لنا صاحب سفر المكابيين الثاني في الفصل الثالث، وهو أنَّ أورشليم كانت حينئذٍ عامرة آمنة وسُئِن الله محفوظة بعناية اونيا الكاهن العظيم، حتى أنَّ سلوقس كان يؤدي من دخله الخاص جميع النفقات اللازمة لتقدمة الذبائح. ووقع خصام بين سمعان من سبط بنيامين الذي كان مقلداً الوكالة على الهيكل، وبين اونيا الحبر لظلم أجراه على المدينة. فانطلق سمعان إلى ابلونيوس. قائد جيش سلوقس في بقاع سورية وفينيقية. وأخبره أنَّ الخزانة التي في أورشليم مشحونة بالأموال وإنَّ ذلك لا يختص بتقدمة الذبائح. فأعلم ابلونيوس الملك بذلك وهو لحاجته المعلومة للمال أرسل هليودورس وأمره بجلب هذه الأموال ولما بلغ أورشليم أحسن اونيا ملتقاه. فحدَّثه هليودورس بما كوشف به الملك وسأله عن حقيقته. فأجابه الحبر إنَّ ذلك المال هو ودائع الأرامل واليتامى وإنه كله أربعون قنطار فضة (نحو مئتي ألف فرنك). ومئتا قنطار ذهب (نحو ستة ملايين فرنك). ولا يجوز هضم حقٍّ من ائتمنوا قداسة الهيكل

ومهابته، فأصرَّ هليودورس على تنفيذ أمر الملك بحمل الأموال إلى خزانته. وكان في المدينة ارتعاش شديد وانطرح الكهنة بحللمهم أمام مذبح الرب خاشعين. وكان فؤاد اونيا الحبر يتفطر لعظم المصاب وتبادر الناس أفواجا للصلاة العامة في الهيكل. وازدحمت النساء في الشوارع باسطحات أيديهنَّ إلى السماء وشخص هليودورس إلى الخزانة بشرطه لكنَّ الله صرع كلَّ من اجترأ على الدخول إلى الهيكل. وأخذهم الإنحلال والرعب، وظهر لهم فرس عليه راكب مخيف وجهازه فاخر وضرب هليودورس بحوافر يديه، وتراءى له فتیان عجيبا القوة بديعا البهاء فوقفا على جانبيه يجلدانه جلداً متواصلأ حتى أثخنه بالضرب. فسقط لساعته على الأرض وغشيه ظلام كثيف فحملوه إلى الخارج وهو أبكم لا يُبدي حراكأ. فبارك اليهود الرب الذي مَجَّد مقدسه وسأل بعض أصحاب هليودورس اونيا الحبر أن يتهل إلى العلي ليمنَّ عليه الحياة إذ كان أصبح على آخر رمق. وخشي الحبر أن يتَّهم اليهود بمكيدة كادوها لهليودورس فقدَّم الذبيحة من أجل خلاصه فظهر الفتیان بهيئتهما الأولى لهليودورس، وقالوا له عليك بجزيل الشكر لأونيا لأنَّ الرب منَّ عليك بالحياة من أجله وأنت فاخبر الجميع بقدرة الله العظيمة. فقدَّم هليودورس ذبيحة للرب. وخشع إليه وشكر اونيا ورجع بجيشه إلى سلوقس معترفاً بما عاينه وعاناه من أعمال الله. ولما سأله الملك من يراه أهلاً ليرسله إلى أورشليم قال إن كان لك عدو أو صاحب دسيسة فارسله إلى هناك يعد إليك مجلودأ إن نجا فإنَّ في الموضع قدرة إلهية لا محالة».

أما سلوقس الملك فجزاه الله عن هذه الجريمة بيد من أرسله لسلب الهيكل، وذلك أنَّ انطيوخس الكبير كان قدَّم ابنه الآخر انطيوخس رهينة للرومانيين بمقتضى شرائط عهدة الصلح كما مرَّ. واستمرَّ انطيوخس هذا في روما ثلاث عشرة سنة. وأحبَّ سلوقس أن يستقدمه إليه لداع يعلمه الله فأرسل ابنه الوحيد المسمى ديمتريوس ليكون بدلاً منه في روما فأصبح كلا وارثي الملك بعيدَين عن سلوقس. فابنه لسفره إلى روما، وأخوه لأنه لم يكن عاد إليه. فانتَهز هليودورس فرصة غيابهما فدنَّ السم للملك ليأخذ تاجه فمات سنة ١٧٥ ق م. بعد أن ملك إحدى عشرة سنة، وتمَّت بذلك نبؤة دانيال (فصل ١١ عد ٢٠) حيث قال: «ويقوم بعده (أي بعد انطيوخس الكبير) من يجيز المختلس (أي يؤدي الرومانيين المختلسين غرامة الحرب) في فخر المملكة وفي أيام قلائل ينكسر لا في غضب ولا في قتال». وفي

رواية أخرى: «ويقوم مكانه رجل خامل الذكر وليس أهلاً لاسم ملك فيهلك بعد سنين قلائل لا يقتل ولا يقتل».

ودونك مثلاً لسكة سلوقس الرابع حيث ترى في الوجه الأول مثال رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني رسم ابولون وفي يمينه سهم وفي شماله قوس وقد كُتب عليها باسيلوس سلوقس أي الملك سلوقس.



عد ٤٢٤

ملك انطيوخس الرابع الملقب ابيفان وصفاته

لما كان انطيوخس عائداً من روما مرّ بأثينا فبلغه فيها منعى أخيه سلوقس الرابع، وإنّ هليودورس الدعيّ جمعاً غفيراً من المحازين، وإنّ بتلمايس ملك مصر يدّعي ملك سورية مدلى إليه بنسب أمه بنت انطيوخس الكبير، وأخت سلوقس وانطيوخس هذا. فلجأ انطيوخس إلى اومان ملك برغام وأخيه أثال فعاوناه على طرد هليودورس وارتقائه عرش الملك. وأخذ لنفسه لقب ابيفان وتأويله الشريف على أنّ أخلاقه السيئة الذميمة جعلت بعضهم يسميه ابيمان وتأويله والمجنون والأحمق، ولم يكتفِ بلقب ابيفان بل سمي نفسه في بعض مسكوكاته إلهاً وغازياً.

وقد وصفه بوليبي المؤرخ الذي كان معاصراً له بما يأتي: «إنه كان يحب العزلة عن قصره وأعوانه فيطوف هنا وهناك في المدينة مصحوباً بخادم أو خادمتين فقط. وكان كثير التردد إلى حوانيت الصاغة الذين يصنعون الحلى الفضية والذهبية مكشراً البحث مع الحفارين والنقاشين مبدياً غرامه بصناعتهم. وكان يؤدّ مخالطة سفلة

القوم ومحادثتهم ويأكل ويشرب مع ضيوفهم متطفاً على موائدهم، وإذا علم أنَّ بعض الشبان التأموا في موضع للهو باغتتهم بحضوره بينهم. وكان أكثرهم يفر منه وكان يتعرى من ملابسه الملكية ويتدثر بالوشاح الروماني فيأخذ بيد بعض السفلة ويعانق غيرهم. ويسألهم أن ينتخبوه لمقام في مملكته، فإذا حاز الانتخاب استوى على كرسي من عاج على عادة الرومانيين وسمع الدعاوي متأنياً. وأبدى الرصانة والعناية في أحكامه حتى حار فيه العقلاء. فكان بعضهم يحسبه ساذجاً وبعضهم ممسوساً. وكان في تنويله المواهب للناس يهب بعضهم عظيمات وبعضهم ثمرات وبعضهم ذهباً. ويكرم أحياناً من لم يعرفهم ولم يرهم وكان يستحم في الحمامات التي يستحم بها عامة الناس وعند تكاثرهم فيها. فهذه الصفات وصفه بوليب (ك ٢٦ فصل ١٠) وغيره من المؤرخين، وقالوا إنه كان مولعاً بالسكر بغيضاً للوجهاء متقلباً قاسياً كنيرون.

ولذلك صحَّ ما تنبأ به عليه دانيال إذ قال (فصل ١١ عد ٢١): «ويقوم مكانه (أي مكان سلوقس الرابع) فقير لا يُعطى مزية ملك لكنه يدخل بدسيسه ويحوز الملك بالتملق» (لاومان وأخيه كما مرَّ ولبعض كبراء قومه). وهو لم يملك ملكاً شرعياً لأنَّ الملك كان يحق لديميتريوس ابن أخيه سلوقس. وقد جاء ذكره في الأسفار المقدسة أكثر من كل من سواه لسبب اضطهاده اليهود. فقد ذكره دانيال (فصل ١١ من عد ٢١ إلى عد ٤٥) وسفر المكابيين الأول (فصل ١ من عد ١١ إلى عد ٦٧ وفي الفصلين الثاني والثالث والسادس من عد ١ إلى عد ١٦) وسفر المكابيين الثاني (من الفصل ٤ عد ٧ إلى الفصل التاسع عد ٢٩) كما سترى.

عد ٤٢٥

غزوتا انطيوخس ابيفان الأولتان لمصر

كانت قلوبطرة أخت انطيوخس تدبر مملكة مصر بعد وفاة زوجها بتلمائس ابيفان بما أنها وصية على ابنها بتلمائس فيلوماتور (أي محب أمه). وقد أحسنت القيام بمهام الملك وأحكمت إصلاح شؤونه على أنها أدركتها الوفاة سنة ١٧٣ ق.م. فعُهد بتدبير الملك إلى ليناى أحد أشرف البلاد. وبتربية الملك الصغير إلى اولاي

أحد الخصيان. فطالباً انطيوخس بأن يرُدَّ على ملكهما فلسطين وسورية المجوفة فكان هذا الطلب باعثاً على الحرب بين الملكتين. وكان المصريون يحتجّون بأنّ هذين الاقليمين وقعا منذ بادئ بدء قسمة للملك بين خلفاء اسكندر في نصيب بتلميس الأول. واستمرّاً كذلك إلى أن غصبهما انطيوخس الكبير من بتلميس ابيفان. ثم وهبهما مهراً لابنته أم الملك بمقتضى عهدة الصلح بين انطيوخس الكبير وبتلميس ابيفان؛ أما انطيوخس ابيفان فكان يجحد الأمرين ويدّعي أنّ سورية كلها مع فلسطين وسورية المجوفة وقعت بعد قسمة مملكة اسكندر في نصيب سلوقس نيقانور. وأنّ شرط هبة الاقليمين مهراً لم يكن إلّا تلجئة فهو فاسد باطل لم يعمل به. وكان حينئذ بلوغ بتلميس فيلوماتور السنة الخامسة عشرة من ملكه وأُعدّت الحفلات للاحتفاء بتتويجه على عادة المصريين، فأرسل انطيوخس ابولونيوس أحد كبراء دولته ليهنئ الملك، وجلّ غرضه أن يكشف عما هناك من المقاصد والاستعداد لأخذ فلسطين وسورية المجوفة. ولدى عودته أنبأ الملك بتصميم المصريين على الحرب فسار إلى يافا متفقداً تخوم البلاد آمراً بتحسينها (مكابيين ٢ فصل ٤ عد ١١). ومَرَّ على أورشليم فاستقبله أهلها بعظيم الاحتفاء ولم يغنهم ذلك عن شرّه وقسوته بعداً عليهم وعلى اليهود أجمعين واجتاز إلى فينيقية وعاد إلى انطاكية.

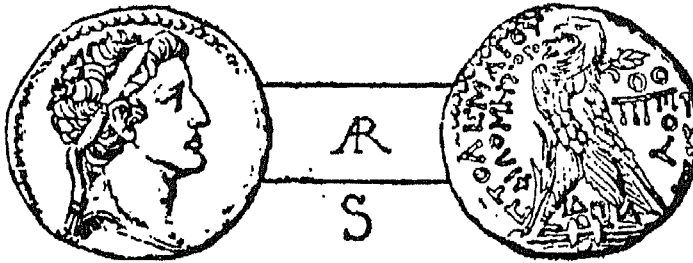
ثم أوفد ابولونيوس المذكور إلى روما يلتمس معذرة له في ابطائه عن إداء قسط الغرامة في أجله ودفعه حينئذ. ثم قدّم لبعض وجهاء الشعب آنية ذهبية من قبل مولاه. وسأل تجديد العهدة معه والموّدة له كما كانتا في أيام أبيه محققاً أنه حليف أمين مخلص الاخاء للرومانيين، وإنه لم ينسَ تفضّلهم عليه وتلطّفهم به إذ كان رهينة عندهم. وكانوا يعاملونه كملك فعاد ابولونيوس وصحبه في وفادته شاكرين ما لقوه من الاكرام والتجلّة من قِبل رجال الندوة والشعب (طيطوس ليف ك ٤٢ عد ٦). فاطمأنّ انطيوخس إلى صداقة الرومانيين ورأى أن لا ينتظر خروج أعدائه في مصر عليه فسار بجيشه إلى تخوم مصر.

وأرسل إلى الرومانيين وفداً آخر يثبت لهم حقوقه على فلسطين وسورية المجوفة لكي يوقفهم على المعارضة له لاتخاذهم حماية مصر، فالتقى الجيشان المصري والسوري على مقربة من بالوز (المعروفة الآن بفرما)، وانتشب القتال سنة ١٧١ ق.م فاستظهر انطيوخس على المصريين، واقتصر يومئذ على تحصين تخومه كيلا

يكون لأعدائه سبيل أو مطمع في الاجتياز إلى فلسطين. وعاد إلى صور يقضي فصل الشتاء فيها وأحلّ جنوده في جوارها. وجدّ في التأهب لحملة أخرى على مصر حتى إذا كان الربيع سنة ١٧٠ ق.م سيّر جيشه براً وأسطوله بحراً لمناوأة بتلميس فانتصر عليه ثانية. وأخذ بالوز وتوغّل في مصر ونهى جنوده عن قتل المصريين فأناله حلمه ميلهم إليه. فكان كلما انتهى إلى بلد خرج أهله إليه مستسلمين فأخذ القطر المصري كله إلّا الاسكندرية. أما بتلميس ابن أخته فإما أخذ في الحرب وإما أتى طائعاً إلى خاله انطيوكس. فأكرم مثواه وكان يعامله كصديق ونسب ويأكل على مائدته. وأظهر انطيوكس من نفسه أولاً أن يدبر مملكة ابن أخته كوصي عليه حتى إذا تمكن في البلاد فعل ما شاء فيها. وانتهب وجنوده كلّ نفيس فيها (مكايين ١ فصل ١ عد ١٧ إلى ٢٠ ومكايين ٢ فصل ٥ عد ١ وايرونيموس في تفسير نبؤة دانيال وديودر في المنتخبات صفحة ٣١١).

أما أهل الاسكندرية فلما رأوا ملكهم بتلميس فيلوماتور أمسى أسير خاله انطيوكس وأطلق له التصرف بملكه كيف شاء اعتبروه ساقطاً من منصبة الملك. فرقوا إليها أخاه سنة ١٦٩ ق.م وسموه أولاً بتلميس افرجات أي المحسن، ولما رأوا سوء تصرفه لقبوه كاشرجات أي المسيء. ثم سموه فيسكون (أي البطن الذي لا يهيمه إلّا بطنه) لأنه كان منهوماً مولعاً بالآكل. أما بتلميس فيلوماتور فلم يكن وغداً أو جباناً بطبعه لكن اولاي الخصي وزيره المذكور عوّده الترف والعكوف على الملاذ في صباه ليستمر على ذلك في شبابه. ويظلّ هذا الوزير الخائن قابضاً على زمام الملك مدبراً شؤونهم كما يطيب له.

وهذه صورة لسكة بتلميس السادس فيلوماتور ففي الوجه الأول مثال رأسه



متوجاً. وفي الوجه الثاني مثال نسر عليه سعف نخل واقف على صاعقة. وقد كُتب عليها بتلمائيس فيلوماتور.

وقد تَمَّت بذلك نبوة دانيال حيث قال: (فصل ١١ عد ٢٥ وما يليه) «ويستنهض (ملك الشمال انطيوخس ابيفان) قوته وقلبه على ملك الجنوب (بتلمائيس فيلوماتور) بجيش عظيم. فتَهَيَّج ملك الجنوب للقتال بجيش عظيم قوي جداً لكنه لا يقوم لأنهم يفكرون أفكاراً عليه والذين يأكلون طعامه هم يكسرونه فيطمي على جيشه ويسقط قتلى كثيرون وقلبا هذين الملكين إنما هما للسوء يتكلمان بالكذب على مائدة واحدة وذلك لا ينجح».

عد ٤٢٦

تزلّف اليهود إلى انطيوخس وأخذه أورشليم وانتهابه الهيكل

إنّ معاشرّة اليهود لأسيادهم اليونان في مصر وسورية أبعدتهم شيئاً فشيئاً عن إيمان أجدادهم وعاداتهم الحمية. فنشأ بينهم حزب يجنح إلى اقتباس تصورات اليونان والعمل بعاداتهم. وكان مركز هذا الحزب أورشليم واصحابه بعض الشبان المقلقين ذوي المطامع. وحسبوا تسلّم انطيوخس عرش الملك وسيلة يتزلّفون بها إليه لنفوذ كلمتهم في اليهودية. واتخذ الملك ذلك ذريعة للمداخلة في أمور قومهم ودينهم وأرسلوا إليه نفرأ منهم يكاشفونه بما في نفوسهم ويستميحونه أن يُطلق لهم العمل به فتلقى رسلهم بالترحاب. وأباحهم العمل بكل ما نوا فأقاموا مدرسة وثنية في المدينة المقدسة واستطرقوا عادات اليونان. وهذا ما أشار إليه صاحب سفر المكابين الأول (فصل ١ عد ١٢ وما يليه) حيث قال: «وفي تلك الأيام خرج من إسرائيل أبناء منافقون فأغروا كثيرين قائلين: هلمّ نعقد عهداً مع الأمم حولنا فإننا منذ انفصلنا عنهم لحقتنا شرور كثيرة. فحسن الكلام في عيونهم وبادر نفر من الشعب وذهبوا إلى الملك فأطلق لهم أن يصنعوا بحسب أحكام الأمم. فأثبتوا مدرسة في أورشليم على حسب سنن الأمم. وعملوا لهم غلفاً وارتدّوا عن العهد المقدّس ومازجوا الأمم وباعوا أنفسهم لصنع الشر».

وكان من هؤلاء رجل اسمه ياسون أخو اونيا الثالث رئيس الأحبار، سؤلت له نفسه أن يأخذ الرئاسة من أخيه فتزلّف إلى انطيوخس وكان اسمه يشوع، فبدّله

يياسون وهو لفظ يوناني كما روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٥). وقد ذكر لنا خبره سفر المكابيين الثاني (فصل ٤ عد ٧ وما يليه) فقال ما ملخصه: «إنه وفد على الملك ووعد به ثلاث مئة وستين قنطار فضة (مليون وتسع مئة وثمانين ألف فرنك) وبثمانين قنطار (أربع مئة وأربعين ألف فرنك) من دخل آخر. وضمن له فوق ذلك مئة وخمسين قنطاراً غيرها إن رخص له الملك في اقامة مدرسة لترويض الشبان. وأن يكتتب أهل أورشليم في رعية انطاكية فأجابه الملك إلى ذلك. وتقلد الرئاسة وما لبث أن صرف شعبه إلى عادات الأمم وألغى الاختصاصات التي أنعم بها الملوك على اليهود. وأبطل رسوم الشريعة وأدخل سنناً تخالفها. وأقام مدرسة لترويض الشبان وساق نخبتهم إليها فتمكن الميل إلى عادات اليونان والتخلت بأخلاق الأجانب حتى لم يعد الكهنة يحرصون على خدمة المذبح. واستهانوا بالهيكل وكانوا يستخفون بمآثر آبائهم ويتنافسون بمفاخر اليونان. ولذلك أحقت بهم رذيلة شديدة لأن مخالفة شريعة الله لا تذهب سدى. ولما جرت في صور المصارعة التي كانت تُجرى مرة في كل خمس سنين وكان الملك حاضراً أرسل ياسون رسلاً ومعهم ثلاث مئة درهم فضة لتقدم ذبيحة لهركليس (هرقل الأله). فاستهجن الرسل إنفاقها على الذبيحة، فقالوا أن تُنفق في بناء سفن. واستمر ياسون في الحرية ثلاث سنين (أي من سنة ١٧٤ إلى سنة ١٧١ ق.م) على أن الله لم يترك هذه الجرائم دون عقاب، لأن ياسون الذي قتل أخاه قتله منلاوس، وذلك أن ياسون ونجّه منلاوس هذا إلى الملك يحمل إليه أموالاً ويفاوضه في أمور مهمة فتزلف منلاوس إلى الملك. وأحال رئاسة الأحبار إلى نفسه بأن زاد ثلاث مئة قنطار فضة على ما أعطى ياسون. فرجع ومعه أوامر الملك وكانت له أخلاق غاشم عنيف وأحقاد وحش ضار. فطرد ياسون وفرّ إلى بلاد العمونيين لكن منلاوس لم يف الملك ما وعده به من أموال، واستخلف ليسيماكوس أخاه وسرق آنية ذهبية من الهيكل أهدى بعضها إلى اندرونكس الذي كان الملك أقامه نائباً عنه مدة غيابه في طرسوس (ترسيس). وباع بعضها في صور وغيرها فأقام اونيا الحجة عليه وهو معتزل في دفنة (على مقربة من انطاكية). فأغرى منلاوس اندرونكس أن يقبض على اونيا فأرسل إليه رجلاً خدعه. وعاهده بقسم حتى خرج من حماه فاغتاله ولم يزغ للعدل حرمة. وشق على كثير من سائر الأمم قتله بغياً، ولما عاد الملك إلى انطاكية رفع إليه الأمر فاستاء جداً. فنزع الأرجوان عن اندرونكس ومزق حلله

وأطافه في المدينة. وقتل قاتل اونيا في المكان الذي اغتاله فيه، وأما ليسيماكوس فسلب أيضاً باغراء منلاوس أخيه كثيراً من مال الأقداس. وذاع خبر سلبه واجتمع الجمهور عليه فسلّح ثلاثة آلاف رجل للتكيل بهم، فتناول بعضهم حجارة وبعضهم هراوى وبعضهم رماداً حثوه من كل جانب على أصحاب ليسيماكوس. فجرحوا بعضاً وصرعوا بعضاً وهزموهم بأجمعهم وقتلوا سالب مال الأقداس عند الخزانة. ورفع كبراء اليهود الدعوى على منلاوس إلى الملك وهو في صور ورأى منلاوس نفسه محكوماً عليه. فأرشى بطلمائوس أحد أعوان الملك بمال جزيل فاستمال الملك إليه وحكم بتبرئته وهو علة كل شر. وقضى بالموت على ثلاثة رجال من اليهود كان الجمهور أرسلهم لاقامة الدعوى عليه وحلّ بهم العقاب الجائر، فشقّ هذا الجور حتى على السوريين. وبذلوا نفقات دفنهم بسخاء واستقرّ منلاوس في الرياسة وكان يزداد خبثاً وشرّاً وضراً لأهل وطنه. وجاء في الفصل الخامس في سفر المكابيين الثاني المذكور (عد ٥ وما يليه) ما مؤداه: «وأرجف قومٌ أنّ انطيوخس مات في مصر فاتخذ ياسون (الذي كان فرّ إلى بلاد العمونيين) جيشاً ليس بأقلّ من ألف نفس وهجم على أورشليم بغتة ودفع الذين على الأسوار. وأوشك أن يأخذ المدينة فهرب منلاوس إلى القلعة وطفق ياسون يذبح أهل وطنه بغير رحمة ولم يفظن أنّ الظفر بالاخوان إنما هو عين الخذلان. لكنه لم يحز الرئاسة لأنّ الجمهور تقوى عليه فهرب ثانية إلى أرض بني عمون. فطرده ارتاس زعيم العرب وجعل يفر من مدينة إلى أخرى والجميع يندونه ويمقتونه مقت من هو قتال لأهل وطنه حتى دُحر إلى مصر، ثم مات غريباً جزاءً لتعزيه كثيرين ولم ييكة أحد عقاباً له لأنه أبكى كثيرين».

ولما سمع انطيوخس بثورة ياسون اتهم اليهود بالانقضاض عليه فزحف من مصر ببعض جيشه وأخذ أورشليم عنوة. وأمر جنوده أن يقتلوا كل من صادفوه ويذبحوا المختبئين في البيوت. فطفقوا يهلكون الشبان والشيوخ والنساء والأطفال حتى أهلك منهم ثمانين ألفاً في ثلاثة أيام. وبيع منهم عدد ليس بأقلّ من عدد القتلى، ودخل الهيكل وكان دليله منلاوس الخائن للشرعية والوطن. وأخذ من الآنية المقدسة مع ما أهدته ملوك الأجانب تكربةً للموضع المقدس. فكان ما حملة انطيوخس من الهيكل ألفاً وثمانين مئة قنطار وبادر إلى الرجوع إلى انطاكية وكان ذلك لسنة ١٧٠ ق.م. طالع أيضاً سفر المكابيين الأول (ف ١ عد ٢١ وما يليه).

حملة انطيوكس الثالثة على مصر

قد مرّ (في عد ٤٢٥) أنَّ الاسكندرین أسقطوا بتلمایس فیلوماتور عن منصة الملك إذ رأوه أسیر خاله انطيوكس ورقوا إليها بتلمایس افرجات أخاه. فلما بلغ ذلك انطيوكس تذرع به للعود إلى مصر. فجّهز حملته الثالثة عليها مُظهراً أنه يريد ارجاع ابن أخته الملك المعزول إلى ملكه ومبطناً الاستيلاء المطلق على مملكة مصر. وسار بجيشه توّاً إلى الاسكندرية عامداً إلى أن يحاصرها، فاستشار بتلمایس افرجات وزیریه فأشارا عليه أن يستدعي جميع قواد الجيش ويقاوضهم في طريقه للتملّص من النازلة. وبعد مفاوضات عديدة أجمع رأيهم على أنَّ قرائن الأحوال تقضي عليهم بمصالحة انطيوكس، وأن يكلف سفراء دول اليونان الذين في الاسكندرية أن يتوسطوا الصلح. فمضى هؤلاء السفراء يصحبهم مفوضان من قبل بتلمایس إلى انطيوكس. فتقبلهم بالترحاب وأكرم مثواهم ووعدهم أن يصغي في الغد لما يكاشفونه به، ولما كان اليوم الثاني تكلم سفير اخائيا أولاً ثم غيره من السفراء وأجمعوا على أنَّ اولاي وزير بتلمایس فيلوماتور هو الذي تسبّب بالحرب بسوء تصرفه، وحمله الملك الصغير السن عليها. وتطرقوا إلى مدح الملك الجديد وتخمين غضب انطيوكس عليه ليستميلوه إلى تعاطي الصلح معه. فوافقهم انطيوكس على ما ذكروا من سبب الحرب، وأخذ يؤيّد حقه في الاستيلاء على فلسطين وسورية المجوفة مورداً حججه على ذلك. وأبرز صكوكاً تبين منها حقه في الولاية على هذين الاقليمين حتى أقرّ له به أعضاء هذه اللجنة (بوليب فصل ١٨). وأرجأ الكلام في شرائط الصلح إلى وقت آخر وجعلهم يرجون عقده.

على أنه بعد هذا الجواب ارتحل من محله وحلّ تجاه الاسكندرية وأخذ في حصارها، ولما رأى ذلك بتلمایس افرجات وأخته قلوبطرة وجّها وفداً إلى روما يشكوان سوء حالهما، ويستنجدان الشعب الروماني. فمثل الوفد أمام رجال الندوة وعليهم ثياب الحداد وقالوا إنَّ جميع الشعوب والملوك يجلبون سلطة الشعب الروماني ولا سيما انطيوكس لما لهذا الشعب الكريم عليه من الأيادي، وعليه فإذا أبلغه رجال الندوة إنهم يستهجنون محاربتة للملك هم حلفاء لهم انصرف انطيوكس للحال ولا مرية عن الاسكندرية، وعاد بجيشه على عقبه إلى سورية، وأما إذا أبت

حكومة روما اجابة سؤال بتلمائيس وقلوبطرة فلا يبقى لهما بعد طردهما من الملك إلا أن يفرّا إلى روما. ولا يليق بالشعب الروماني أن يُهمل حلفاءه دون إنجاد ولا امداد في أقصى حاجتهم إليهما. فكان لكلامهم أشدّ وقع في قلوب رجال الندوة. ولم يكن من السداد في سياسة الرومانيين أن يتركوا انطيوكس يعظّم ويسط سطوته على سورية ومصر، فأوفدوا ثلاثة رجال إلى مصر يبلغون انطيوكس وبتلمائيس أن يتنكبا عن كل عدوان وينكصا عن كل حرب ومن خالف منهما لم يعتدّه الشعب الروماني صديقاً ولا حليفاً.

وكان قبل سفر الوفد الروماني من روما أن شخص إلى الاسكندرية عمدة من الرودسيين لتعاطي الصلح بين الملكين. ومضوا إلى انطيوكس وأكثروا من إيراد الحجج الداعية إلى الصلح، فقاطعهم الحديث قائلاً لا حاجة إلى هذا التطويل إن التاج لأكبر الأخوين وأنا عاهدته وسالته. فإن دُعي وأجلس على عرش الملك انقضت الحرب. قال هذا وجُلّ غرضه منه أن يُلقي الفتنة ويوقد الحرب بين الأخوين حتى إذا انتهكتها عاد إليهما. وكان رأى من نفسه عجزه عن فتح الاسكندرية فانصرف بجيشه عنها ووَلَّى بتلمائيس فيلوماتور ابن أخته على سائر البلاد. واستبقى لنفسه بالوز (فرما) لتكون له بمنزلة مفتاح لمصر ليدخلها كلما عَنّ أو طاب له. وبعد أن دبر ولايات مصر كما حشن له عاد إلى انطاكية سنة ١٦٩ ق م.

على أن احتفاظ انطيوكس على بالوز لنفسه فتح عيني بتلمائيس فيلوماتور فصحا من سكر ترفه، وأدرك أن خاله لم يستبق لنفسه مفتاح مصر إلا حتى إذا أجهده وأخاه الحرب بينهما، وأعجزتهما عن دفعه التعم مملكتيهما كفريسة له. ولذا أرسل يقول لاختيه إنه راغب في مصالحته. وأتمت قلوبطرة أختهما الوفاق بينهما على أن يملك الأخوان في مصر معاً. وعاد فيلوماتور إلى الاسكندرية وانبسط الأمان في مصر كلها وفرح أهلها لا سيما الاسكندريون لزوال ما عانوه من مشاق الحرب (بوليب فصل ٨ وطيوطوس ليف ك ٤٧).

عد ٤٢٨

حملة انطيوكس الرابعة على مصر

لما اتصل بانطيوكس خبر اتفاق الملكين الأخوين في مصر استشاط غضباً. وعزم

أن يفرغ قوّته في المناوأة لهما، فسير أسطوله إلى قبرص للاحتفاظ عليها وسار بجيش عرمرم عامداً إلى الاستيلاء على مصر غير مستر غرضه كما كان يفعل قبلاً. فالتقاء في طريقه رسل من قبل فيلوماتور يقولون له إنه غير جاحد نعمته بل يعترف أنه لم يل مصر إلا بأيديه، ويستحلفه بأن لا ينقض بسلاحه واعتسافه ما بناه بحلمه، وأن يكشفه بما يحب. فلم يصانع انطيوخس هذه المرة ولم يدهن، بل جاهر بأنه عدو للأخوين كليهما. وقال للرسل أنه يرغب في أن تُترك له قبرص وبالوز إلى ما شاء الله مع جميع الأرضين الواقعة على ضفة النيل من جهة بالوز. وأنه لا يصالحهما إلا على هذه الشروط. وعين يوماً لردّ الجواب له ولما انقضى ذلك اليوم زحف بجيشه إلى مصر وانتهى إلى منف مخصباً البلاد التي اجتاز بها. ثم وافاه رسل سائر البلاد مستسلمين إليه وركب طريق الاسكندرية عازماً أن يحاصرها فتدين له مصر. وقد كان فاز بما تمنى لو لم يلتقي به الوفد الروماني هناك ويُخمد جذوة عزيمته، ويُعطّل مقاصده، لأنه لما أشرف على الاسكندرية خرج للقاءه بوبيليوس أحد وفد الرومانيين. وكان انطيوخس يعرفه في روما حيث كان رهينة فبسط يده إليه ليحييه تحية صديق قديم، فأمسك بوبيليوس وأراد أن يعلم أولاً أصدقاً لروما يحيي أم عدواً لها وأبرز له درج وفادته. وسأله أن يقرأ فقرأه وقال إنه يفاوض مستشاريه ويجيبه عما قليل، فحنق بوبيليوس لطلبه مهلة. وخطّ بعصاه على الرمل دائرة حول انطيوخس وانتهره قائلاً: «أجب حكومة روما قبل أن تخرج من الدائرة التي خططتها لك». فذهش انطيوخس من شدة الأمر وفكر قليلاً وقال إني صانع ما تحب حكومة روما! فمدّ حينئذ بوبيليوس يده إليه وحيّاه ولاطفه. قال أحد المؤرخين يا لعظمة الرومانيين فإن كلمة من مفوضهم راعت ملك سورية ونجّت ملكي مصر. وخرج انطيوخس من مصر في اليوم الذي عيّنه له بوبيليوس الذي عاد مع رفيقيه إلى الاسكندرية، فوقع معهما على عهدة الصلح بين الأخوين. وساروا إلى قبرص فصرفوا أسطول انطيوخس عنها. وكان انتصر على أسطول مصر فردّ بوبيليوس الجزيرة إلى ملكي مصر ورجع إلى روما يعلم حكومته بما كان من وفادته.

وبلغ إلى روما حينئذ وفدان أحدهما من قبل انطيوخس والثاني من قبل ملكي مصر وأختهما قلوبطرة فقال وفد انطيوخس: «إن مولاهم يفضّل السلامة التي أولاه إياها رجال حكومة روما على كل ظفر كان يمكنه الحصول عليه وإنه امتثل أوامر الوفد الروماني امتثاله لأوامر آلهته». وأما وفد الملكين فقالوا: «إن الملكين وأختهما

يعترفون بالفضل لدولة روما وشعبها أكثر مما يعترفون به من الفضل لأبيهم وأمهم بل لآلهتهم أيضاً، إذ خلصوهم من شديد الضيق، وأجلسوهم على منصّة أجدادهم التي كانوا قد طُرحوا عنها» فدونك هذه المبالغات والتملقات التي لم تكن لتنتهي إلى اليوم في شرقنا. وكانت هذه الأحداث لسنة ١٦٨ ق.م (بوليب فصل ٩٢ ك ٢٩ ق ١١ وطيطوس ليف ك ٤٥ وديودر الصقلي ك ٣١ وبيان في السورين فصل ٦٦ والقديس يوستينوس ك ٣ فصل ٣). وإلى ذلك أشار دانيال إذ قال (فصل ١١ عد ٢٨). فيرجع (انطيوخس) إلى أرضه بمال كثير ويجعل قلبه على العهد المقدّس (كما رأيت أنه صنع في هيكل أورشليم). ثم يرجع إلى أرضه. وفي الميعاد يعود ويُقبل إلى الجنوب (بحملته الرابعة) ولكن لا تكون الأواخر كالأوائل. لأنّ سفن الكتيم (سفن الرومانيين) تأتي عليه فيكتتب ويرجع ويستشيط على العهد المقدّس فيفعل ثم يرجع ويلتفت إلى تاركي العهد المقدّس» كما ستري إنه فعل بأورشليم واليهود.

عد ٤٢٩

اضطهاد انطيوخس لليهود واکراهه لهم على اتباع مذهبه

قد عاد انطيوخس من مصر كثيراً يائساً فرام أن يتشفّى من غيظه بتنكيه باليهود فأرسل عند اجتيازه فلسطين ابولونيوس رئيس الجزية إلى مدن يهوذا باثنين وعشرين ألف جندي. وأمره أن يذبح كلّ بالغ منهم ويبيع النساء والصبيان. ولما وفد إلى أورشليم أظهر السلام، وتربّص إلى يوم السبت حتى إذا دخل اليهود في عطلتهم أمر أصحابه أن يتسلّحوا، ويذبح جميع الخارجين للتفرّج. ثم اقتحم المدينة بالسلاح وأهلك خلقاً كثيراً (مكايين ٢ فصل ٥ عد ٢٤ وما يليه). وجاء في سفر المكايين الأول (فصل ١ عد ٣٣ وما يليه) عدا ما مرّ: «إنه سلب غنائم المدينة وهدم بيوتها وأسوارها من حولها. وسبوا النساء والأولاد واستولوا على المواشي. وبنوا على مدينة داود سوراً عظيماً متيناً وبروجاً حصينة فصارت قلعة لهم. وجعلوا هناك أئمة أثيمة رجالاً منافقين فتحصّنوا فيها... وسفكوا الدم الزكي حول المقدس ونجّسوا المقدس. فهرب أهل أورشليم بسببهم فأمست مسكن غرباء». واستمرّت القلعة المذكورة يتحصّن فيها جنود ملك سورية ولم يقوَ على طردهم منها إلّا سمعان المكابي بعد ست وعشرين سنة أي سنة ١٤٣ ق.م.

ولمّا حَقَّق انطيوخس ابيفان ظفر قائد جنده وتحصَّنه أُورشليم عمد إلى اكراه اليهود على أن يتركوا سنَّتْهم. ويدنوا بدينه ويعبدوا آلهته ويذبحوا لها. فقد جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ٤٣ وما يليه) ما ملخصُه: «كتب الملك انطيوخس إلى مملكته كلها بأن يكونوا جميعهم شعباً واحداً ويترك كلُّ واحد سنَّتَه. فأذعنت الأمم لكلام الملك وارتضى كثيرون من بني إسرائيل دينه وذبحوا للأصنام. ودنسوا السبت وأنفذ كتباً إلى أُورشليم ومدن يهوذا أن يتبعوا سنن الأجانب ويمتنعوا عن المحرقات في المقدس. ويدنسوا السبوت والأعياد ويتنوا مذابح ومعابد للأصنام ويذبحوا الخنازير النجسة. ويتركوا بنيتهم قلفاً حتى ينسوا الشريعة ويعتبروا جميع الأحكام ومن لا يعمل بمقتضى كلام الملك يُقتل. وأقام رقباء على جميع الشعب وأمر مدائن يهوذا أن يذبحوا في كلِّ مدينة فانضمَّ إليهم كثيرون من اليهود وكل من نبذ الشريعة. وفَرَّ كثيرون إلى الجبال والمغاور وفي اليوم الخامس عشر من كسلو في السنة المئة والخامسة والأربعين للسلوقيين أي في شهر كانون الأول سنة ١٦٨ ق م. بنوا مذبحاً للأصنام على مذبح المحرقات في هيكل أُورشليم. وفي الخامس والعشرين من شهر كسلو المذكور قدَّموا على هذا المذبح الضحايا للأوثان وما وجدوه في أسفار الشريعة مزَّقوه، وأحرقوه بالنار وكلَّ من وُجد عنده سفر العهد أو أتبع الشريعة فإنه مقتول بأمر الملك، والنساء اللواتي ختنَّ أولادهنَّ قتلوهنَّ بمقتضى الأمر. وعلَّقوا الأطفال في أعناقهنَّ وقتلوا الذين ختنوهم. وعزم كثير من بني إسرائيل أن لا يأكلوا نجساً واختاروا الموت لئلا ينجسوا أو يدنسوا العهد المقدَّس فماتوا».

وجاء مثل ذلك في سفر المكابيين الثاني (فصل ٦ عد ١ إلى ١٢) مع زيادة عليه: «إنهم كانوا كلَّ شهر يوم مولد الملك ينساقون قسراً للتضحية، وفي عيد ديونيسيوس أحد آلهتهم يضطرون إلى الطواف اجلالاً له وعليهم أكاليل من اللبلاب، وإنَّ امرأتين سعى بهما أنهما ختنتا أولادهما. فعلَّقوا أطفالهما على ثدييهما وطافوا بهما في المدينة علانية ثم ألقيوهما عن السور. ولجأ قومٌ إلى مغاور كانت بالقرب منهم لاقامة السبت سرّاً فوشى بهم فأحرقوهم بالنار وهم لا يجترئون أن يدافعوا عن أنفسهم اجلالاً لهذا اليوم العظيم». وختم كاتب هذا السفر كلامه هذا بقوله: أرجو من مطالعي هذا الكتاب أن يحسبوا هذه النقم ليست للهلاك بل لتأديب أمَّتنا». فهذه أعمال هذا الملك الجائر وهذا انتقام الله من اليهود لأنهم تركوا سننهم وتزلّفوا إلى ملك وثني.

وأنبأنا سفر المكابيين الأول (ف ٢) إنه خرج في تلك الأيام من أورشليم كاهن اسمه متتيا بن يوحنا. وسكن في مودين (المعروفة الآن بالميدية على ما في كتاب الألفاظ الكتابية وفي تأليف كاران وهي في جهة اللد وسيأتي الكلام فيها). وكان له خمسة بنين ولما رأى ما يصنع من المنكرات قال: ويل لي لِمَ وُلدت؟ وطفق يندب ويرثي سوء حال شعبه ومزق هو وبنوه ثيابهم. وتحزّموا بالمسوح وناحوا مناحة شديدة وقدم عمال الملك إلى مودين. وكلفوا متتيا أن يمضي أمر الملك فيكون وأهل بيته من أصدقائه. فأجابهم حاشى لنا أن نترك شريعة إلهنا ونحيد عن ديننا يمينة أو يسرة فلفن طاعت الملك كلّ الأمم فأنا وبيتي واخوتي نسلك عهد آبائنا. وأقبل يهودي ليذبح على مذبح الأوثان فوثب عليه متتيا وقتله على المذبح وقتل رجل الملك. وصاح بصوت عظيم كلّ من غار للشريعة فليخرج ورائي وهرب هو وبنوه إلى الجبال. ونزل كثيرون ممن يتغفون البرّ إلى البرية. وعرف رجال الملك الذين في أورشليم فجروا في أعقابهم فأدركوهم وناصبوهم القتال يوم السبت. وكلفوهم الخروج فلم يخرجوا وقتلوهم فلم يردوا ولم يرموهم بحجر حرمةً للسبت فقتلوهم. وكانوا ألف نفس وأخبر متتيا وأصحابه فناحوا عليهم وعزموا أنّ كلّ رجل أتاها مقتلاً يوم السبت يقتلونه ولا يموتون كما مات اخوتهم. واجتمع إليهم جماعة من ذوي البأس وكلّ من انتدب للشريعة وانضمّ إليهم الفارون. فازدادوا بهم تعزيراً وألّفوا جيشاً وأوقعوا بمن حادوا عن محبّة الشريعة حتى فرّ الباقيون إلى جنود الملك. وجال متتيا في البلاد وهدموا المذابح الوثنية وخنقوا كلّ من وجدوه أغلف من بني إسرائيل وتبعّوا المتجبرين. وأنقذوا الشريعة من أيدي الأمم والملوك وأذلّوا الأئمة. ولما دنا يوم موت متتيا حرّض بنيه أن يغاروا للشريعة ويبدّلوا نفوسهم دونها. وذكّرهم بآبراهيم ويوسف وفنحاس ويشوع وكالب وداود وإيليا وحنانيا وعزريا وميخائيل ودانيال كيف غاروا لسنة الله فجزاهم خير الجزاء. وجعل أحد بنيّه سمعان رجل مشورة ليسمع لشعبهم ويكافئوا الأمم ويواظبوا على وصايا الشريعة. ثم باركهم وتوفي سنة ١٤٦ ق.م. للسلوقيين سنة ١٦٧ ق.م. وقد ذكر يوسيفوس كلّ هذه الأحداث (ك ١٢ في تاريخ اليهود فصل ٦ إلى فصل ٩) على عدم اعتقاده صحة تنزيل سفرَي المكابيين.

قتل انطيوخس العازار والاخوة السبعة المكابيين

إنَّ العازر هذا كان من علماء السنَّة إذ جاء في سفر المكابيين الثاني (ف ١٦ عد ١٨): إنه كان «من متقدمي الكتبة» وقال القديسان غريغوريوس الزينزي وامبروسيو تبعاً ليو سيفوس إنه كان من النسل الكهنوتي واختلف في مكان قتله. فمن قائل إنه كان في انطاكية بحضرة انطيوخس، ومن قائل إنه كان في أورشليم. وكان انطيوخس شخص إليها ومثل هذا الخلاف في مكان مقتل الإخوة السبعة ومنشأه أنه جاء في ترجمة الكتاب الموسوم بحكم العقل، والمنسوب إلى يوسفوس أو مقتل هؤلاء كان في انطاكية لكن الأصل اليوناني خالٍ من ذكر انطاكية. ويوسفوس نفسه قال (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٧) أنَّ مقتلهم كان في أورشليم. وروى القديس ايرونيμος (في الأماكن العبرانية في كلمة مودين) انه كان يدل علي مدافهم في انطاكية. وقال القديس اغوستينوس (الخطبة الأولى في المكابيين) إنه أقيمت كنيسة على اسمهم في انطاكية ولما كان كل من تكلموا في مقتل العازار أتبعوه بخبر مقتل الإخوة السبعة فإن صحَّ أنهم أشهدوا في انطاكية صحَّ أنه أشهد فيها أيضاً.

ومهما يكن من مكان مقتل هؤلاء الشهداء فقد أنبأنا الكتاب أنَّ أعوان انطيوخس أكرهوا العازار بفتح فيه على أكل لحم الخنزير فأثر الموت مجيداً على الحياة ذميماً. وقذف لحم الخنزير من فيه فخلا به الموكولون بأمر الضحايا وكانوا يعرفونه قبلاً وجعلوا يحثونه أن يهيئ لحمًا بيده ويأكله متظاهراً بأنه يأكل من لحم الضحايا التي أمر بها الملك. فأجابهم بغير توقُّف بل أسبق إلى الجحيم فلا يليق بسننا الرياء لئلا يظن كثير من الشبان أنَّ العازار وهو ابن تسعين سنة انحاز إلى مذهب الأجانب، فإني لو نجوت الآن من نكال البشر لا أفر من يد القدير لا في الحياة ولا بعد الموت، وإذا فارقت الحياة ببسالة أبقيت للشبان قدوة شهامة ليتلقوا المنية ببسالة في سبيل الشريعة المقدسة. قال هذا وانطلق من ساعته إلى عذاب التؤثر والضرب فتحوَّل من أبدوا له الرأفة إلى القسوة عليه حتى أُتخن جراحاً. ولما اشرف على الموت قال: يعلم الرب وهو ذو العلم المقدَّس إني وأنا قادر على التخلص من الموت أكابد في جسدي عذاب الضرب الأليم وأما في نفسي فأحتمل ذلك مسروراً لأجل مخافة الله. وقضى تاركاً موته قدوة شهامة وتذكار فضيلة لأُمَّته بأسرها.

وأما الإخوة السبعة فقبض عليهم مع أمهم وأشخصوا أمام انطيوخس الملك فأخذ يُكرههم على تناول لحم الخنزير معذباً إياهم بالمقارع والسياط فقال له أحدهم: ماذا تبتغي؟ إننا نختار الموت ولا نخالف شريعة آبائنا. فحنق الملك وأمر بإحماء الطواجين والقذور وأن يُقطع لسانه ويُسلخ جلد رأسه. وتُجدع أطرافه على عيون اخوته وأمه، وإذا بقي فيه رمق أمر أن يُلقوه في تلك الطواجين. وكانوا هم وأمهم يحضّ بعضهم بعضاً على تحمّل الموت بشجاعة. وقضى الأول فساقوا الثاني إلى الهوان ونزعوا جلد رأسه مع شعره وسألوه هل يأكل من لحم الخنزير قبل أن يعاقب في جسده عضواً عضواً فقال لا. فأذاقوه العذاب كالأول وفيما كان على آخر رمق قال للملك أنت أيها الفاجر تسلبنا الحياة الدنيا ولكن ملك العالمين إذا متنا في سبيل شريعتنا أقامنا حياةً أبدية. ثم شرعوا يستهينون بالثالث وأمره فدلج لسانه وبسط يديه بقلب جليد قائلاً إني من رب السماء أوتيت هذه الأعضاء ولأجله أبدلها وإياه أرجو أن أستردها من بعد. ولما قضى عذبوا الرابع ونكلوا به مثل اخوته ولما أشرف على الموت قال للملك جيداً ما يتوقعه من يقتل بأيدي الناس من رجاء إقامة الله له، أما أنت فلا تكون لك قيامة للحياة. ثم استاقوا الخامس وعذبوه فقال للملك إنك تفعل ما تشاء لأنّ لك السلطان على البشر ولا تظنّ أنّ الله خذل ذريتنا، فاصبر قليلاً ترّ بأسه الشديد كيف يعذبك أنت ونسلك. وأتوا بالسادس وعذبوه فقال عند موته للملك لا تعتزّ بالباطل فنحن جلبنا على أنفسنا هذا العذاب لأننا خطئنا إلى إلهنا، وأما أنت فلا تحسب أنك تُترك سُدىً بعد تعرضك لمناصبه الله. وكانت أمهم تحضّهم على تحمّل الموت ببسالة رجالية ثم أحضر الملك أصغرهم وأخذ يحرضه ويؤكد له بإيمان أنه يغنيه ويسعده ويقلّده المناصب إذا ترك شريعة آبائه فلم يصيح الغلام. وألحّ الملك على أمه أن تحرضه على ما يبلغه الخلاص فاستهزأت بالملك وانحنت إلى ابنها وقالت يا بني ارحمني أنا التي حملتك في جوفها تسعة أشهر وأرضعتك ثلاث سنين وعالتك إلى هذا السن. أنظر إلى السماء والأرض واعلم أنّ الله صنع الجميع من العدم فلا تخف من هذا الجلاد وكن مستاهلاً لاختوتك. وفيما هي تتكلّم قال الغلام ماذا تنتظرون؟ إني لا أطيع أمر الملك، وإنما أطيع أمر الشريعة التي ألقيت إلى آبائنا على يد موسى. والتفت إلى الملك قائلاً وأنت أيها المخترع كلّ شرّ على العبرانيين إنك لن تنجو من دينونة الله. ولقد صبر اخوتنا على ألم ساعة ثم فازوا بحياة أبدية وهم في عهد الله. وأما أنت

فسيحلُّ بك بقضاء من الله العقاب الذي تستوجبه. فحنق الملك من هذا التوبيخ فزاده نكالا على اخوته وقضى هذا الغلام طاهرا. وأخيراً ماتت الأم على أثر بنيتها (مكايين ٢ ف ٧). ولم ينبئنا الكتاب كيف أماتوها ولكن جاء في كتاب حكم العقل المشار إليه آنفاً. إنَّ بعض أعوان انطيوخس أغروه بقتلها، ولما سمعت أسرع لساعتها وطرحت نفسها في النار لئلا يمسَّها أحد هؤلاء الأشرار. وقال بعضهم إنَّ الملك عذَّبها كبنيتها. وقال فيكتوريان الافريقي في شعره عن المكايين إنها ماتت لفرحها. ومن تقليدات الشرقيين التي ذكرها أبو الفرج إنَّ اسمها شموني أو اشمونية. وفي كتاب حكم العقل إنَّ اسماء بنيتها المكايي واير وبكري ويهوذا واكوس وارث ويعقوب (كلمت في معجم الكتاب).

لما كان هؤلاء الشهداء يُسمَّون مكايين كما سمي يهوذا المكايي واخوته الآتي الكلام فيهم كان الخلق بنا أن نلخص شيئاً من أقوال العلماء في هذا الاسم وأصله. فقال بعضهم إنَّ اسم مكايي مشتق من كايا العبرانية ومعناها أباد وأتلف لأنهم كانوا يُبِيدون أعداء الرب. وقال غيرهم إنه مشتق من مخايي ومعناه الجراح والضربات لأنهم كانوا يضربون باسم الله. وقال آخرون إنه مشتق من مخابا العبرانية بمعنى مخبا بالعربية لأنَّ المكايين اختبأوا أولاً في المغاور هرباً من الاضطهاد، ثم خرجوا منها وأوقعوا بمضطهديهم إلى غير ذلك من التأولات. على أنَّ القول الأعم الذي قال به الجمهور إنَّ هذا الاسم أخذ من أنَّ المكايين كانوا يصنعون على أعلامهم وتروسهم أربعة أحرف تقابل م. ك. ب. ي. تبتدئ بها أربع كلمات مي كماكا يلوهم يهوه ومعناها: «من مثل الرب بين الآلهة». وهذا القول هو الأظهر والأمثل (كلمت في معجم الكتاب في كلمة مكايي).

عد ٤٣١

انتصار يهوذا المكايي على عساكر انطيوخس وغيرهم

قد مرَّ (في عد ٤٢٩) أنَّ متتيا غار للرب وانضمَّ إليه كثيرون من ذوي البأس، وعند احتضاره أقام ابنه يهوذا المكايي رئيساً على الجيش ليتولى قتال الشعوب. وجاء في سفر المكايين الثاني (فصل ٨ عد ١ وما يليه) إنَّ يهوذا المكايي ومن معه كانوا يتسللون إلى القرى ويندبون ذوي قرابتهم ويضمون من ثبتوا على دين اليهود حتى

جمعوا ستة آلاف رجل وكانوا يبتهلون لله لينقذ شعبه. ولما أصبح المكابي في جيش يثق برحمة الله بأنه ينتصر على الأمم جعل يفاجئ المدن والقرى ويحرقها. وتغلب على الأعداء في مواضع جمّة وكانت أكثر غاراته ليلاً. وذاع خبر شجاعته وجاء في سفر المكابيين (فصل ٣ عد ١٠):

«فحشد ابلونيوس والي السامرة من قبل انطيوكس جيشاً عظيماً وأتى لمناوأة بني إسرائيل. فخرج يهوذا للقائه فأوقع به وقتله وجمعاً غفيراً من جنوده. وهزم الباقين وسلب غنائمهم وأخذ سيف ابلونيوس وكان يقاتل به، وسمع سارون قائد جيش سورية من قبل انطيوكس وأراد أن يتمجّد بثأره بدم ابلونيوس ارضاءً لمولاه. فجهّز جيشاً عديداً وأتى به إلى عقب بيت حورون (المعروفة الآن بين اور في الشمال الغربي من أورشليم طالع عد ٣١٧). فخرج يهوذا للقائهم بنفر يسير ولما رأوا الجيش مقبلاً قالوا ليهوذا: كيف نطيق قتال مثل هذا الجمّ القوي؟ فقال: ما أسهل على الله أن يدفع الكثيرين إلى أيدي القليلين، وحضّهم على الانكال على الله. وهجم على الأعداء بغتة فانكسر سارون وجيشه أمامه فتبعه في عقبة بيت حورون إلى السهل. فسقط منهم ثماني مئة رجل وانهزم الباقون، فوقع خوف يهوذا واخوته على الأمم الذين حولهم».

أما انطيوكس فكان متلاًهياً في انطاكية بأعياد أقامها فيها على عادة اليونان وبلغته هذه الأخبار عن انكسار جيوش عماله مرتين. فاستشاط غيظاً وجمع جيشه كله عازماً أن يسير إلى فلسطين. فبيد أمة اليهود عن آخرهم على أنه لم يجد في خزائنه مالاً يقوم بنفقات الحرب. فأرجأ الانتقام من اليهود بنفسه إلى وقت آخر وقسم جنوده قسمين أمر ليسيّاس على فريق منهم. واستخلفه على أمور الملك من نهر الفرات إلى حدود مصر. وأمره أن يوجّه إلى اليهود جيشاً يكسر ويستأصل شوكة بني إسرائيل. ويمحو ذكرهم من فلسطين. وينزل الأجانب في جميع تخومهم. ويقسم أرض اليهود بينهم وسار هو بالشرط الباقي من الجيش إلى ما وراء الفرات يجبي المال لسدّ عوزه. أما ليسيّاس فاختر بطلماوس بن دوريماتس ونكانور وجرجياس من ذوي البأس المقربين من الملك. ووجّه معهم أربعين ألف راجل وسبعة آلاف فارس ليأتوا أرض يهوذا ويدمروها على حسب أمر الملك. فبلغ الجيش إلى قرب عماوس (المعروفة الآن بهذا الاسم على ١٥ ميلاً من أورشليم في الشمال الغربي الأعلام الكتابية).

ونزلوا في أرض السهل وسمع تجار البلاد بأن أنطيوخس أمر ببيع اليهود. فأتوا بشيء كثير من الفضة والذهب ليشتروا من بني إسرائيل عبيداً. ورأى يهوذا واخوته تفاقم الشر واحتشدت الجماعة للابتهال إلى الله والقتال. وكانت أورشليم مهجورة لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد من بنيتها وجنود الملك في قلعتها. فساروا إلى المصفات قبالة أورشليم (وهي المعروفة بشعفات في شمالي أورشليم عد ٢٤٤). وصاموا في ذلك اليوم ولبسوا المسوح وحثوا الرماد على رؤوسهم. ونشروا كتاب الشريعة تالين له ورتب يهوذا قواد الشعب. وأمر من أخذ في بناء أو خطب امرأة أو غرس كرماً أو كان خائفاً أن يرجع إلى بيته ثم سار بالجيش. ونزلوا في جنوب عماوس وكان يهوذا عازماً أن يوقع بالعدو في الغداة ولكن بلغه أن جرجياس أخذ فريقاً من جيش الملك خمسة آلاف راجل وألف فارس ويريد أن يباغتهم ليلاً في طريق أهدهاء إليه بعض الجاحدين من اليهود. فاصطاده بالأحبولة نفسها التي نصبها له لأنه غادر محله عامداً إلى ضرب عسكر الملك الذي أصبح ضعيفاً لانفصال جرجياس وجنوده عنه، ولما انتهى جرجياس إلى محل يهوذا لم يجده وظنه هرب من وجهه فطلبه في الجبال. ولما كان الصباح أشرف يهوذا على عسكر الملك. فخرجوا لقتاله فأرشد قومه إلى الاتكال على الله واندفقوا على الأعداء فاستظفروا عليهم، وهزمهم إلى السهل وتعقبهم وقتلوا منهم ثلاثة آلاف رجل.

وقال يهوذا لجنده لا تطمعوا في الغنائم لأن الحرب لا تزال قائمة علينا لأن جرجياس وجيشه على مقربة منا في الجبل. ولم يفرغ يهوذا من هذا الكلام حتى ظهرت فرقة تتشوف من الجبل. فرأت أنهم قد انكسروا ومحلتهم يتصاعد الدخان منها. فخافوا ورأوا جيش يهوذا متحزراً للقتال، ففروا جميعاً وتعقبهم يهوذا فقتل منهم كثيرين حتى كان عدد القتلى في هذه المواقع تسعة آلاف رجل كما في سفر المكابيين الثاني (فصل ٨ عد ٢٤). وقد جاء فيه (عد ٢٠ وما يليه) إن يهوذا علم أن تيموتاوس وبكسديس عاملي الملك يحشدان جنوداً لقتاله. فوثب بجيشه عليهما فقتل عشرين ألفاً من جنودهم وأخذوا منها حصوناً مشيدة. ورجع بقومه يسبحون الرب بعد أن غنموا كثيراً من الفضة والذهب والأسلحة وغيرها. فجعلها يهوذا سهاماً متساوية لجنده وللضعفاء واليتامى والأرامل والشيوخ. ونزع نكانور ثيابه الفاخرة وانساب في البلاد إلى انطاكية متكرراً وكان ذلك سنة ١٦٥ ق م.

ووفد من نجوا من جيش الملك إلى لسياس وأخبروه بما جرى فنهت وانكسر عزمه، ولما كانت السنة المقابلة سنة ١٦٤ ق.م جمع ستة آلاف راجل منتخبين (كذا في طبعة الآباء اليسوعيين في بيروت ولعله سهو من النساخ قديماً أو من مرتبي الحروف حديثاً لأن في غيرها من النسخ ستين ألفاً وهو ما تقتضيه القرائن. ويستلزمه ارساله أولاً أربعين ألفاً وهو ظاهر من الكلام التالي أن يهوذا لاقاهم بعشرة آلاف ورأى جيش العدو قوياً فصلّى إلى الله. فإذا كان جيش لسياس ستين ألف راجل وعززه بخمسة آلاف فارس). وحلّ بهم في بيت صور في جنوبي أورشليم فالتقاه يهوذا. والتحم القتال فسقط من جيش لسياس خمسة آلاف رجل وانهزم الباقون، وعاد لسياس إلى انطاكية كئيباً يحشد جنوداً آخرين ليعود إلى اليهودية. واغتنم يهوذا هذه الفرصة لتطهير المقدس في أورشليم فاجتمع كل الجيش، وصعدوا إلى جبل صهيون فرأوا المقدس خالياً، والمذبح منجّساً، والأبواب مُحترقة. وقد طلع النبات في الديار كما يطلع في غابة فناحوا نوحاً عظيماً. ووضع يهوذا رجالاً يصادمون أهل القلعة، واختار كهنة فطهروا المقدس. ورفعوا الحجارة المدنسة إلى موضع نجس. وبنوا مذبحاً جديداً على رسم الاول. وصنعوا آنية مقدّسة جديدة وأعادوا رتب الهيكل كما كانت. ودشّنوا المذبح الجديد في ١٥ من شهر كسلو (كانون الأول) سنة ١٦٤ ق.م.

وقدموا ذبيحة بحسب رسم الشريعة. وكان عند الشعب سرور عظيم وأزيل تعبير الأمم، وقد حسد هؤلاء الأمم اليهود على ظفرهم وقوّتهم. واثتمروا أن يبيدوهم من بينهم. وطفقوا يقتلون ويهلكون منهم فضرِب يهوذا بني عيسو في أدوم لأنهم كانوا يضايقون بني إسرائيل. فاستظهر عليهم وسلب غنائمهم وكان هناك قبيلة تُعرف ببني بيان كانوا يكمنون لبني إسرائيل في الطريق فألجأهم يهوذا البروج وحاصروهم. وابسلهم وأحرق بروجهم وكل من كان فيها بالنار وعبر إلى بلاد بني عمون. فصادف عسكرياً قوياً وشعباً كثيراً تحت قيادة تيموتاوس والي ذلك الاقليم من قبل انطيوخس. فواقعهم في حروب كثيرة فظفر بهم وأوقع فيهم وفتح يعزير (المعروفة الآن على الراجح بيت زرعة الأعلام الكنائية) وتوايعها ثم عاد إلى اليهودية. فأتاه كتاب من بني إسرائيل المقيمين في جلعاد (السلط) يقولون فيه إن الأمم الذين حولهم اجتمعوا عليهم تحت قيادة تيموتاوس والجاؤهم إلى حصن عزموا

أن يفتتحوه ويبيدوهم. وبينما هم يقرأون الكتاب إذا برسل آخرين قد وفدوا من الجليل وثيابهم ممزقة. وأخبروا بمثل ذلك قائلين قد اجتمعوا علينا من بطلمائس (عكا) وصور وصيدا وكل جليل الأمم لبييدونا. فعقد يهوذا والشعب مجمعا في ما يصنعون وقال يهوذا لسمعان أخيه: اختر لك رجالا وانطلق واستنقذ اخوتك الذين في الجليل وأنا ويوناثان أخوي ننطلق إلى أرض جلعاد. وتركوا حامية في اليهودية فناصر سمعان الأمم حروبا كثيرة فاستظهر عليهم وتبعهم إلى باب عكا. وعبر يهوذا مع يوناثان الأردن وتوجها إلى باصر (بصر الحريري) فاستحوذا على المدينة وقتلا كل ذكر فيها وسلبا غنائمهم. وأحرقا المدينة وسارا منها ليلا إلى الحصن الذي كان بنو إسرائيل لجأوا إليه فوجد يهوذا نار الحرب متسعة على اخوته. فقسم جيشه ثلاث فرق من وراء الأعداء ونفخوا بالأبواق. وجأروا بالصلاة وعلم جيش تيموتاوس أنه المكابي فهربوا من وجهه فضربهم ضربة عظيمة. وقتل منهم ثمانين ألف رجل وانصرف إلى المصفاة (المعروفة بسوف في عبر الأردن) فافتتحها. وقتل رجالها وغنم ما فيها وأحرقها وافتتح سائر مدن جلعاد.

وجمع تيموتاوس جيشا آخر قبالة رافون (الراجح أنها المعروفة الآن برافة في عبر الأردن على أربعة أميال من اذرعات في الجنوب الغربي الأعلام الكتابية) واستأجر العرب. فخرج يهوذا عليهم وهو في مقدمة جيشه فانكسروا أمامه والقوا سلاحهم. وفروا إلى المعبد الذي في قرنائيم (تل عشترة في عبر الأردن). فاستولى يهوذا على المدينة وأحرق المعبد مع كل من كان فيه. وجمع يهوذا جميع بني إسرائيل الذين في جلعاد لينصرف بهم إلى أرض اليهودية. فبلغوا إلى عفرون (ولم يُعَيَّن موقعها بعد وهي في عبر الأردن بين تل عشترة وباسان) ولم يكن لهم أن يحدوا عنها مينة ولا يسرة وأغلق أهلها على أنفسهم ورددوا الأبواب بالحجارة. وأرسل يهوذا يستميتهم العبور بأرضهم دون مضرة لهم فأبوا. فأمر يهوذا جيشه أن يهجم كل واحد من محله فهجموا وحاربوا المدينة يوما وليلة. فأسلمت إليهم وأهلك كل ذكر فيها ودمرها وسلب غنائمها. واجتاز فوق القتلى ثم عبروا الأردن وبلغوا إلى أورشليم بسرور وابتهاج. وقدموا المحرقات شكرا لله.

ثم سمع يوسف بن زكريا وعزريا اللذان كان يهوذا أقامهما على الحامية في اليهودية خبر انتصار يهوذا فقالا لنقم نحن أيضا لنا اسما فأخذنا جيشا وزحفا إلى يميننا (المعروفة الآن بيمينه في الجنوب الغربي من الرملة بين يافا شمالا واشدود جنوبا)

طالع عد ٣١٨). فخرج إليهم جرجياس ورجاله فكسروهم وقتلوا منهم ألفي رجل لأنهم خالفوا وصية يهوذا بأن لا يحاربوا الأمم في غيبته.

وعظم اسم يهوذا واخوته في عيون بني إسرائيل والأمم وخرجوا فحاربوا بني عيسو في جنوب اليهودية وضربوا حبرون (الخليل) وتوابعها. وهدموا سورها واحرقوا البروج التي حولها. وتوجّه يهوذا إلى أشدود فهدم مذابح الأجانب فيها وأحرق منحوتات آلهتهم. وسلب غنائم المدن وعاد إلى اليهودية (مكابيين ١ ف ٣ و ٤ و ٥ ومكابيين ٢ ف ٨ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢).

عد ٤٣٢

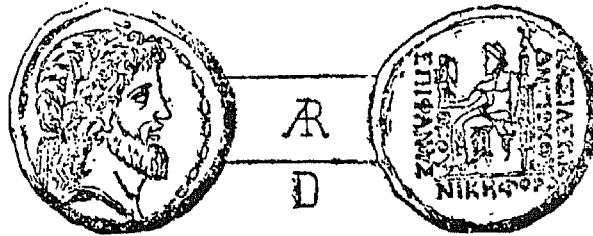
هلاك انطيوخس ابيفان

قد مرّ في العدد السالف أنّ انطيوخس سار بفريق من جيشه إلى ما وراء الفرات يجبي الأموال. وترك الفريق الآخر إلى لسياس ليقهر اليهود ويستأصل شافتهم. وجاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٦ وما يليه) ما ملخصه: «إنّ انطيوخس كان يجول في الأقاليم العليا وسمع بذكر المائس مدينة بفارس مشهورة بأموالها، وإنّ فيها هيكلًا حوى كثيراً من الأموال وسجوف الذهب والدروع والأسلحة التي تركها ثمّ الاسكندر المكدوني. فأتى وحاول أن يأخذ المدينة وينهبها فثار عليه أهلها وقتلوه. فهرب ومضى بغمّ شديد راجعاً إلى بابل وجاءه من فارس مخبر بأنّ الجنود التي وُجّهت إلى أرض يهوذا قد انكسرت. وأنّ لسياس قد انهزم من وجههم وأنّ اليهود قد هدموا ما كان بناه على مذبحهم في أورشليم وحصنوا مدينتهم فاضطرب جداً. وانطرح على الفراش وقد أوقعه الغمّ في السقم وأيقن بالموت فدعا أصحابه. وكشف لهم عن علّة كربه وأنه يتذكر المساوي التي صنعها في أورشليم وإنه لذلك أصابته هذه البلايا. ودعا فيلبوس أحد أصحابه وأقامه على جميع مملكته ودفع إليه تاجه وحلّته وخاتمته وأوصاه بتدبير انطيوخس ابنه ومات هناك في السنة المئة والتاسعة والأربعين للسلوقيين» وهي سنة ١٦٣ ق م.

وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٩) ما موداه: «إنّ انطيوخس كان منصرفاً عن بلاد فارس بالخزي لأنه كان زحف على مدينة اسمها برسابوليس. وشرع يسلب الهيكل ويعسف المدينة فثار الجموع إلى السلاح فدفعوه فانهمز منقلباً بالعار.

ولما كان عند احتما بلغه ما وقع لنكانور وأصحاب تيموتاوس فاستشاط غضباً. وأزمع أن يحيل على اليهود ما لحقه من الشرّ وأمر سائق عجلته أن يجد في السير وقال لآتين أورشليم وأجعلها مدفناً لليهود. فضربه الله بداء في أحشائه ومغص أليم. واستمر مع ذلك يحث على الإسراع في السير حتى سقط من عجلته فترضضت جميع أعضاء جسمه وتن جسده. وتساقط لحمه وأعوانه الذين كانوا يزيّنون له أنه يمش كوكب السماء لم يكن أحد منهم يطبق حمله لشدة نтанته بل أمسى هو نفسه لا يطبق ننته.

وأخذ ينزل عن كبريائه ويتعقل الحق ويتضرع إلى الله، ونذر أن المدينة المقدسة التي كان ينوي هدمها وجعلها مدفناً سيجعلها حرّة وأنه سيساوي اليهود بالأتينيين ويزيّن هيكل أورشليم بأفخر التحف، ويردّ إليه الآنية التي أخذها منه مضاعفة. ويقدم نفقات الذبائح من دخله الخاص بل إنه يتهود ويطوف المعمور منادياً بمقدرة الله فلم تسكن آلامه. وقنط من نفسه وكتب إلى اليهود رسالة أثبتت في الفصل التاسع المذكور ضئنها إظهار مودّته لهم وإعلامهم بأنه عين ابنه انطيوخس للملك وثقته بأنهم يقون على الولاء له ولابنه. ثم قضى انطيوخس بعد آلام مبرحة كما كان يفعل بغيره ومات ميتة شقاء على الجبال في أرض غربة. فنقل فيلبوس المذكور جثته إلى انطاكية وانصرف إلى مصر خوفاً من ابن انطيوخس وليسياس مدبره. وقد مرّ معنا ذكر شيء من ذلك في عد ٤٠٤ وقد ذكر سفر انطيوخس هذا إلى بلاد فارس، ورغبته في انتهاب الهيكل، وتهزيم الأهلين له وموته في الغربة (عد ١ سفرى المكايين ويوسيفوس) بوليب ك ٣١ فصل ١١ وبيان في السورين فصل ٦٦ وبرفير على ما ذكر القديس ايرونيوس في تفسيره ف ١١ من نبوة دانيال). وإليك مثلاً لسكة انطيوخس اييفان ترى في الوجه الأول صورة رأسه مكللاً



بالغار ولحيته مطلقة. وفي الوجه الثاني صورة المشتري جالساً وفي يمينه مثال الظفر وفي شماله الصولجان وقد كُتِبَ عليها باسيلوس انطيوخس ثاوس ايفانيوس نيكافور أي الملك انطيوخس ايفان نيكافو.

وقد رأيت أنَّ ما جاء في سفرَي المكايين عن خبر موت انطيوخس يطابق ما رواه فيه المؤرخون القدماء الوثنيون. ولكن زعم بعضهم أنَّ كاتبَي سفرَي المكايين لم يتفقا في رواية هذا الخبر، بل إنَّ كاتب السفر الثاني أتى بقولين متناقضين. فقال في فصل ١ عد ١٦ إن انطيوخس قُتل في هيكل النثاية، وقال في فصل ٩ إنه مات لمرضه على الجبال. وقد أثبتنا آنفاً عد (٤٠٤) أنه لا وجه للاعتراض بهذا التناقض لأنَّ انطيوخس الذي قُتل في هيكل النثاية إنما هو انطيوخس الثالث الكبير. وانطيوخس الذي مات لمرضه في الجبال إنما هو انطيوخس الرابع ايفان ابن الأول. وهذه حجة يبيِّنُ ماحقة لكل تناقض. وجلَّ ما يتمحلون لاثبات التناقض بين كلامي صاحب السفر الأول، وصاحب السفر الثاني في خبر وفاة انطيوخس الرابع ايفان إنما هو أمران: الأول أنَّ صاحب السفر الأول سمى المدينة التي كان فيها الهيكل المايس، وصاحب السفر الثاني سماها برسابوليس. ففي ذكر المايس زلَّة قلم لأنَّ أحسن النسخ اليونانية المخطوطة روت الآية هكذا: «وكان في المايس (أو المائداي بلاد العيلاميين) بفارس مدينة مشهورة». وهذه الرواية إنما هي الصحيحة إذ لا عين ولا أثر لمدينة اسمها المايس. وعليه فكاتب السفر الأول لم يعيِّن اسم المدينة التي كان الهيكل فيها بل عيَّن اسم الاقليم أو العمل وهو بلاد العيلاميين في مملكة فارس، كما ذكره بوليب وابيان أيضاً في المحال المار ذكرها آنفاً. وأما كاتب السفر الثاني فعَيَّن المدينة وقال إنها برسابوليس مدينة الفرس الشهيرة المسماة الآن شهل منار أي الأربعين عموداً، ولما كان هذا السفر كُتِبَ في اليونانية يمكن أن يقال إنَّ المراد ببرسابوليس لا علم هذه المدينة بل ما تفسره كلمة برسابوليس المنحوتة من برسا أي فارس وبوليس أي مدينة والمعنى مدينة الفرس أو عاصمتهم. ويكون المراد شوشن في بلاد العيلاميين التي كانت أخصَّ مقرَّ لملوك الفرس والتي كان اليهود يعرفونها في تاريخ استير واحشورش. وعليه فتَرَدُّ الروايتان إلى معنى واحد.

والأمر الثاني الذي تمحلوه لاثبات زعمهم هو أنَّ صاحب السفر الأول قال: «جاءه من فارس مخبر بأنَّ الجيوش التي وُجِهُت إلى أرض يهوذا قد انكسرت». وصاحب السفر الثاني قال: «ولما كان عند احتما (المسماة الآن تخت سليمان

وهمذان على ما في الأعلام الكتابية) بلغه ما وقع لنيكانور». واحتما في بلاد ماداي لا فارس على أنه لا تناقض في كلام كاتبتي السفين بل كل ما بينهما إنما هو اختلاف في التعبير والمعنى واحد. فكتاب الأول أراد بفارس كل ما اشتملت عليه هذه البلاد من مملكة الفرس وماداي من جملتها، لأنها وإن كانت أولاً مستقلة إلا أنها ضُمَّت بعداً إلى مملكة الفرس. وكتاب السفر الثاني عيَّن المحل الذي بلغت فيه انطيوخس أخبار كسر جنوده، وهو احتما وهذا مطابق لما ذكره المؤرخون اليونانيون من أنَّ انطيوخس قضى في تاب التي هي بيت احتما وهرسابوليس (ملخص من معجم الكتاب لفيكورو في كلمة انطيوخس الرابع).

وقد مضى انطيوخس سنة ١٦٤ أو سنة ١٦٣ ق.م بعد أن ملك إحدى عشرة سنة وإليك ما تنبأ به دانيال (فصل ١١ عد ٣٠ وما يليه) على اضطهاد اليهود: «ويرجع (انطيوخس بعد حملته الرابعة على مصر) ويستشيط على العهد المقدس فيفعل ثم يرجع ويلتفت إلى تاركي العهد المقدس (من اليهود) وتقوم منه أذرع (أي يرسل عمالاً) وتدنس مقدس العزة. وتزيل المحرقة الدائمة وتقيم رجاسة الخراب (كما فعل في الهيكل). وبالتملقات يجعل المنافقين في العهد يكفرون أما الشعوب الذين يعرفون إلههم فيتشددون. ويعملون والعقلاء من الشعب يعلمون كثيرين (كما صنع متتيا وبنوه) إلى أن يقول: «يصنع الملك كيف شاء ويطرف ويتعظم على كل إله ويتقوّل بالغرائب على إله الآلهة وينجح إلى أن يتم الغضب لأنَّ التحديد قد قضى وتفرعه أخبار من الشرق والشمال. فيخرج بحق شديد ليدمر ويسل كثيرين (وقد حقق تاشيت أنَّ خروج انطيوخس بفريق من جيشه لم يكن لجباية الجزية فقط بل لأنَّ البريتين ثاروا عليه). وينصب أخيبته مثل قصور بين البحار في جبل فخر القدس ويبلغ حدّه وليس له من نصير». كذا في طبعة الآباء اليسوعيين البيروتية وعن رولان إن في الأصل العبراني: «وينصب أخيبته في ابدنو البحرين في جانب زابي المقدس».

وقال لا تخلو هذه الآية من غموض إذ ليس في الجغرافية القديمة أسماء ابدنو وزابي على أنَّ برفير عدو النصرانية الألد أقّر أن هذه الآية تشير إلى حملة انطيوخس على ما وراء الفرات وموته في هذه الحملة. وعليه فراي هي تاب أو تابا حيث مات انطيوخس على ما روى بوليب كما مرّ.

تملك انطيوخس الخامس وسياسة ليسياك مدبره

بعد وفاة انطيوخس رُقي إلى منصبة الملك ابنه انطيوخس الخامس. ولُقّب اوباتور أي الشريف أباً ولم يدم ملكه إلا سنتين من سنة ١٦٤ إلى ١٦٢ ق.م أي من سنة ١٤٩ للسلوقيين إلى سنة ١٥١. قال ابيان (فصل ٤٦ و ٦٦ في السورين) إن عمره كان حين ملك تسع سنين وعن برفير (على ما روى اوسايوس في التاريخ) إنه كان عمره اثنتي عشرة سنة وكان أبوه قبل سفره من انطاكية اقام ليسياس مدبراً له. على أنه لدى احتضاره نصب فيلبوس أحد أصدقائه وقادة جيشه وأخاه رضاعاً مدبراً للملك ووصياً على الملك الصغير (مكاين ١ فصل ٦ عدد ١٤ إلى ١٧ و ٢ فصل ٩ عد ٢٩). فلما بلغ ليسياس خبر وفاة الملك ووصيته الأخيرة رأى نفسه مضطراً أن يغيّر سياسته في جانب اليهود، وأن يعدل عن حشد الجنود ليثأر من يهوذا المكابي وقومه لأنهم هزموا جيشه كما مر. وصرف همّه إلى توطيد انطيوخس الخامس في عرش الملك وإلى تأييد حقه في الوصاية عليه. فكان يخشى على الملك من منازعة ابن عمه ديمتريوس له في الملك لأنه الوريث الشرعي له. ولم يكن عمه انطيوخس ايبان إلا دخيلاً عليه ومختلساً له. وخاف على نفسه مضادة فيلبوس له بوصية الملك الأخيرة. فقضت عليه الحال أن يتربّص في انطاكية وأن لا يياشر حرباً وأن يعقد عهدة صلح مع اليهود يبيحهم بها مباشرة فروض دينهم.

وقد أشار إلى ذلك كاتب سفر المكاين الثاني إذ قال (فصل ١١ عد ١٣): «وإذ كان الرجل (ليسياس) صاحب دهاء أخذ يفكر في ما أصابه من الخسران وفطن أن العبرانيين قوم لا يقهرون لأن الله القدير مناصر لهم. فراسلهم ووعد بأنه يسلم بكل ما هو حق ويستميل الملك إلى موالاتهم. فرضي المكابي بكل ما سأل ليسياس ابتغاء لما هو أنفع وكل ما طلب المكابي من ليسياس بالكتابة قضاه الملك». وكتب ليسياس رسالة إلى شعب اليهود بأمر الملك يخبرهم بها أن الملك أجاب كل ما تتحمله الحال من سؤالهم، ويعددهم بالخير إن بقوا على الاخلاص. وأرسل إليهم صورة رسالة الملك إليه وملخصها إنه منذ انتقل والده إلى الآلهة لم يزل همه أن يكون أهل مملكته طيبي القلب منقطعين إلى شؤونهم، وإنه بلغه أن اليهود غير

راضين بما أمرهم به والده من التحوّل إلى سنن اليونان، وهم متمسكون بسننهم، وهو يريد أن هذا الشعب يكون خالياً من اليبال كغيره. ولذلك يحكم بأن يرد لهم الهيكل وأن يساسوا بمقتضى عادات آبائهم. وأرسل لهم أيضاً رسالة من الملك يؤمنهم فيها ويبيحهم استعمال أطعمتهم وشرائعهم كما كانوا عليه من قبل وإن من هفا منهم فيما سلف فلا اعنات عليه. وأيّد الرومانيون هذه الرسائل برسالة وجهوها إلى اليهود لأنهم كانوا يؤثرون بقاء الملك الصغير في عرش سورية على انتزاع ديمتريوس له منه لأنّ ديمتريوس كان رهينة عندهم كما مرّ. وكانوا على يقين من شدّة بأسه واهليته للملك ولا توافقهم سياسة ملك قوي. وكل هذه الرسائل مثبتة في الفصل الحادي عشر من سفر المكابيين الثاني.

قد كانت الضرورة قضت على لسياس بهذا التصرف ولم يكن مخلصاً ولا سيما ليهودا المكابي. وكان بقلبه منه حزازات لا تزول لكسرة جنوده وإلحاقه العار به. وكان يأمل أن يأتي يوم يتشفى فيه بإنفاذ ما أمر به انطيوخس ابيفان لآبادة اليهود. ويستدل على ذلك من تأييده الحزب المضاد ليهودا المكابي لا سيما منلاوس الحائن لأُمته الذي أخذ رئاسة الكهنوت بمال. وتسبب بقتل اونيا والذي قربه لسياس من الملك حتى جعله يني رسالته على ما أطلعه عليه وأن يرسله إلى اليهود ليشافهمهم كما في رسالة الملك المشار إليها. ومهما يكن من دخيلة لسياس فقد أقام اليهود سنة ١٦٤ ق.م ناعمي البال حتى أمكنهم أن يحرثوا أرضهم ويحصدوا غلاتها كما جاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ١٢ عد ١). وغنم يهودا المكابي واخوته هذه الفرصة وضرب المدن وعشائر مجاورتهم التي كانت تسطو عليهم وقد رأى بعضهم أنّ حروب يهودا للعشائر التي ذكرناها في عد ٤١٣ نقلاً عن الفصل الخامس من سفر المكابيين الأول كانت في مدة هذه الهدنة بعد موت انطيوخس ابيفان لا قبله كما يظهر في محل وضعها في الكتاب قبل خبر موته. على أننا حفظاً لسياق الكتاب وانباعاً لرأي الأكثرين الذين ذكروها قبل وفاة انطيوخس ومنهم يوسفوس ذكرنا أخبارها قبل خبر وفاته. ونذكر في العدد التالي أخبار حروبه الأخرى مع هذه العشائر كما وردت في سفر المكابيين الثاني فصل ١٢ بعد ذكره تأمين انطيوخس الخامس لليهود كما مرّ.

حروب يهوذا مع بعض العشائر وعمال الملك

أنبأنا سفر المكابيين الثاني (فصل ١٢) إِنَّ بعض عمال الملك لم يدعوا لليهود راحة ولا سكينه بل كانوا يحرقون بين الأمم واليهود على القتال، وينجدون الأمم ليستطوا عليهم. من ذلك أَنَّ أهل يافا أتوا اغتياًلاً فظيعاً فإنهم دعوا اليهود مواطنيهم أن يركبوا هم ونساءهم وأولادهم قوارب أعدوها لهم ولا عداوة بينهم، فوثق اليهود منهم ولما أمعنوا في البحر أغرقوهم وعرف يهوذا فنادى بمن معه. ودعا الله الديان العادل وسار إلى يافا ليلاً فضربها وهرب كثيرون من أهلها إلى السفن. فأضرم النار في المرفأ وأوقد السفن وقتل من فزوا إليها. وعلم أَنَّ أهل يمينيا (بنية بين يافا واشدود) نوا أن يغتالوا اليهود مساكينهم، فسار إليهم وأحرق المرفأ مع الأسطول حتى رُوي ضوء النار من أورشليم. وسار برجاله ينوي الإيقاع بتيموتاوس عامل الملك لأنه علّة هذه الشرور. فتصدى لهم خمسة آلاف من العرب الرّحل ومعهم خمس مئة فارس. فاستظهر يهوذا عليهم وسألوهم أن يعاقدهم على أن يؤدوا إليه مواشي ويمدوه بمنافع أخرى فصالحهم وانصرفوا إلى أخبيتهم، ثم أغار على مدينة حصينة اسمها كسفيس (لم يُعَيَّن محلها ولا يُعلم أفي شرقي الأردن أم في غربيه هي). فافتتحوها على مناعة أسوارها. وقتلوا كثيرين من أهلها وجدّوا في السير متتبعين تيموتاوس حتى انتهوا إلى الكرك. تُعرف بهذا الاسم إلى اليوم في شرقي البحر الميت) فلم يظفروا به لأنه كان انصرف من تلك المواضع، لكنه ترك حرساً منيعاً في بعضها. وخرج قائدان من رجال يهوذا وقتلا من الجنود الذين تركهم تيموتاوس في الحصون ما ينيف على عشرة آلاف.

ثم علم المكابي أَنَّ تيموتاوس في جهة قرنين (تل عشترة في عبر الأردن) ومعه مئة وعشرون ألف راجل وألفان وخمس مئة فارس. فقسم المكابي جيشه فرقاً وحمل على تيموتاوس ولما بدت أول فرقة من جيش يهوذا داخل الأعداء الرعب والرعدة فبادروا المفتر من كل جهة حتى كان بعضهم يؤذي بعضاً. وتتبع يهوذا آثارهم يشخن فيهم حتى أهلك منهم ثلاثين ألفاً. ووقع تيموتاوس في أيدي روسيتاوس وسوسيائتر من قادة جيش يهوذا. فطفق يتهلل إليهما أن يطلقوه حياً فيحسن إلى كثيرين من آبائهم وأخوتهم (الذين كانوا عنده) فخلوا سبيله لذلك.

وتيموتاوس هذا كان والياً في عبر الأردن من قبل انطيوخس وهو غير تيموتاوس الآخر رفيق بكيديس الذي قتله رجال يهوذا في برج حازر كما في سفر المكابيين الثاني (فصل ١٠ من عد ٢٤ إلى عد ٣٧). وأغار يهوذا على قرنين المذكورة وقتل خمسة وعشرين ألف نفس ثم زحف إلى عبرون (في عبر الأردن بين تل عشترة وبايان إحدى المدن الحصينة) فأخذها وصرعوا من الذين في داخلها خمسة وعشرين ألفاً. ولعل هذه الواقعة في عفرون هي التي ذكرت سفر المكابيين الأول فصل ٥ عد ٤٦ وقد ذكرناها في عد ٤١٣).

ثم هجموا على مدينة بيت شان (باسان) إلا أن اليهود المقيمين فيها شهدوا بأن أهلها مصافون لهم وأنهم عاملوهم بالإحسان في أزمئة الضيق. فشكروا لهم وأوصوهم أن لا يزالوا على المصافاة، ثم جاءوا إلى أورشليم لقرب عيد الأسابيع وهو عيد البنديكستي بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح. وبعد العيد أغاروا على جرجياس قائد جيش الملك في أرض أدوم فبرز إليهم بثلاثة آلاف راجل وأربع مئة فارس فاقتتل الفريقان، وسقط من اليهود عدد قليل، وأدرك دوسيتاوس المشار إليه جرجياس وقبض على ثوبه واجتذبه يريد أن يأسره حياً، فعدا عليه فارس من الأعداء فقطع كتفه. وفرّ جرجياس ثم استظهر يهوذا على أعدائه وشئت شملهم. وسار بجيشه إلى مدينة عدّلام (المسماة الآن غير الماء على عشرة أميال من بيت جبرين شرقاً على ما قال اوسابيوس وعلى ما في الأعلام الكتابية). ولما كان السبت دفنوه هناك وجاءوا ليحملوا جثث القتلى ويدفونهم في مقابر آبائهم فوجدوا تحت ثياب كل واحد الواطأ (أي معاليق أو ما يعلق) من أصنام يميناً التي انتهبوا، والسنة تحظر على اليهود ذلك فتبين للجميع أن هذا كان سبب قتلهم. واثبتوا يتهللون إلى الله أن تُمحي تلك الخطيئة واتخذ يهوذا ذلك موعظة أرشد بها قومه أن ينزّوها أنفسهم عن الخطيئة إذ رأوا بأعينهم ما أصاب من أثموا. «وجمع من كل واحد مقدمة فبلغ المجموع ألفي درهم من الفضة فأرسلها إلى أورشليم ليقدم بها ذبيحة عن الخطيئة وكان ذلك من أحسن الصنيع واتقاه لاعتقاده قيامة الموتى، لأنه لو لم يكن مترجياً قيامة الذين سقطوا لكانت صلاته من أجل الموتى باطلاً وعبثاً، لاعتباره أن الذين رقدوا بالتقوى قد أذخر لهم ثواب جميل وهو رأي مقدس وتقوى. ولهذا قدّم الكفارة عن الموتى ليحلّوا من الخطايا». وهذه الآيات برهان جلي قاطع على عقائد قيامة الموتى ووجود المطهر

وانتفاع الموتى بصلوات الأحياء. ولذلك كانت من جملة الحجج الدامغة التي أقامها اللاهوتيون الكاثوليكيون لاثبات هذه العقائد.

عد ٤٣٥

محاربة انطيوخس الخامس لليهود

إنَّ الذي أوقد جذوة هذه الحرب إنما هم الجاحدون من بني إسرائيل لا سيما منلاوس الخائن المشار إليه آنفاً. وإليك خلاصة هذه الحرب عن سفر المكابيين الأول (فصل ٦ عد ١٨ إلى آخره)، وسفر المكابيين الثاني (فصل ١٣ برمته). قد مرَّ أنَّ بعض حامية الملك كانوا يقيمون في قلعة أورشليم فكانوا يصدّون بني إسرائيل عن الدخول إلى الهيكل، ويتعمّدون إنزال المضرة بهم من كل جانب. فعزم يهوذا المكابي على الإيقاع بهم، وحشد الشعب فحاصروهم في القلعة فخرج بعضهم من الحصار وانضمَّ إليهم نفر منافقون من إسرائيل. فانطلقوا إلى الملك قائلين إنَّ أبناء شعبنا يضطهدوننا لأننا ارتضينا أهلك والعمل بأوامره والآن يحاصرون القلعة بغضباً لنا وكل من صادفوه منا قتلوه. ونهبوا أملاكنا وتجاوزوا إلى جميع تخومنا وحصّنوا بيت صور (تسمى الآن بهذا الاسم على ما في الأعلام الكتابية وعن اوساب أنها على عشرين ميلاً من أورشليم نحو الجنوب وما جاء في سفر المكابيين الثاني فصل ١١ عد ٥ أنها: «على نحو خمس غلوات من أورشليم»). زلّة قلم من الناسخ معجم الكتاب لكلمت).

فشرّ لسياس بهذه الشكوى ولم يكن ديمتريوس عاد من روما ولا فيلبوس من مصر. فاطمأن إلى أنَّ انطيوخس استتب له الملك وإنه حان الوقت للانتقام من المكابي وقومه، ولذلك جعل الملك يجمع جيشه ويستأتي جنوداً مستأجرين من ممالك أخرى ومن الجزائر حتى صار عدد جيشه مئة ألف راجل وعشرين ألف فارس واثنين وثلاثين فيلاً على ما في سفر المكابيين الأول (ف ٦ عد ٣٠) وفي سفر المكابيين الثاني (فصل ١٣ عد ٢). «مئة وعشرة آلاف راجل وخمسة آلاف وثلاث مئة فارس واثنين وعشرين فيلاً» قال فيكورو (في معجم الكتاب) إنَّ العدد الثاني حرّفه يد النساخ كما وقع في كثير غيره. وحمل الملك وليسياس على اليهودية من جهة الجنوب فاجتازا في بلاد أدوم ولم يخجل منلاوس الخائن أن ينضمَّ إلى

أعداء أمته ووطنه طامعاً في العود إلى رئاسة الأحبار. ولكن إما لأنه لم يُحسب أميناً للملك كما لم يكن أميناً للآلهة أو لسبب آخر يعلمه الله أشرب لسياس الملك أن الرجل كان السبب في تلك النوازل. فأمر الملك أن يذهبوا به إلى البرية ويقتلوه فأخذوه إلى برج عالٍ ودفعوه من أعلاه فهلك المنافق ولم يحصل على تربة يُوارى فيها.

وسار عسكر الملك فحاصر بيت صور المشار إليها أياماً كثيرة ولم يقدرُوا حينئذٍ على فتحها. وأمر يهوذا الشعب أن يتهللوا إلى الله فتضرعوا إليه بالبكاء والصوم والسجود ثلاثة أيام. وسار يهوذا ينجد أهل بيت صور ثم انصرف وحلّ بقومه في بيت زكريا (تسمى اليوم أيضاً بهذا الاسم وهي في الجنوب الغربي من بيت لحم أعلام الأماكن الكتابية) تجاه محلّة الملك. فبكر الملك في الغدّ ووجّه بأس جيشه إلى طريق بيت زكريا. وتأهبت الجيوش للقتال وأرووا الفيلة بعصير العنب والتوت ليهيئوها للقتال. وأقاموا حذاء كل فيل خمس مئة فارس منتخبين يذهبون معه حيث ذهب. وكان على كل فيل برج حصين من الخشب فيه رجال من ذوي البأس. وانتشروا في الجبال والبطاح وأكثرُوا من الجلبة والهتاف وتقدّم يهوذا وجيشه للمبارزة فاستظهروا على الأعداء أولاً وقتلوا منهم ست مئة رجل على ما في سفر المكابيين الأول (فصل ٦ عد ٤٢). ولكن جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١٣ عد ١٥). أربعة آلاف رجل وأهلك أول الفيلة مع القوم الذين كانوا في برجه» فلا بدّ من زلّة قلم في أحد العددين ورأى العازار بن سوأران فيلاً عليه الدرع الملكية فظنّ الملك عليه وأراد قتل الملك وتخليص شعبه وتخليد اسمه فعدا إلى الفيل ودخل بين قوائمه وقتله فسقط عليه الفيل ومات مكانه.

على أن يهوذا رأى سطوة الملك وكثرة جيشه فتنحى من هناك. وعقد الملك صلحاً مع أهل بيت صور فخرجوا من المدينة لنفاد الطعام من عندهم، فاستولى الملك على مدينتهم وأقام فيها حرساً للمحافظة، وزحف بجيشه إلى أورشليم وحاصرها أياماً طويلة إلى أن نفذ الزاد من عندهم فتفرّقوا كل واحد إلى موضعه ولم يبقَ إلّا نفر يسير. وكان بالعناية الربانية أن فيلبوس الذي كان قد فرّ إلى مصر كما مرّ انتهز فرصة شخوص الملك إلى اليهودية وخفّ إلى شمالي المملكة، واستدعى الجنود الذين كانوا ساروا في صحبة انطيوخس ايفان فلّبي دعوته كثيرٌ منهم، وزحف بهم إلى انطاكية وتبوّأ تخت الملك. وبلغ ذلك لسياس فبادر إلى

الملك وقادة الجيش قائلاً قد قلّ طعامنا والمكان الذي نحاصره حصين وأمور المملكة تستحثنا فلنعاهد هؤلاء الناس ونبرم صلحاً معهم ومع أئمتهم، ونبيحهم السلوك بسننهم كما كانوا من قبل، فإنهم لأجل نقضها غضبوا وفعلوا كلما فعلوا فحشن الكلام في عيون الملك ورؤساء جيشه.

وارسلوا اليهود بالصلح فأجابوا وأبرم الصلح على تركهم وما يدينون وحلف الملك والرؤساء على ذلك. فركن اليهود وخرجوا من حصونهم فدخل الملك إلى جبل صهيون ورأى الموضع حصيناً فنقض ما وقّع عليه ولم يبرّ يمينه. وأمر بهدم السور فهُدم ولكن نجا اليهود وقفل الملك مسرعاً إلى انطاكية. فقاتل فيلبوس الذي كان تسنم منصّب الملك وافتتح المدينة عنوة. وعن يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٩) إنّ الملك قتل فيلبوس أيضاً. وفي سفر المكابيين الثاني (فصل ١٣ عد ٢٤) إنّ الملك صافى المكابي ونصبه قائداً وحاكماً من بتلمايس (عكا) إلى آخر بلاد اليهود، فشقّ ذلك على أهل عكا فأقنعهم ليسيّاس وسكّتهم. قال الأب فيكورو (في معجم الكتاب في كلمة انطيوخس الخامس) إنّ حقّ اليهود بمباشرة أمور دينهم بعد أن قرّره لهم انطيوخس الخامس اوباتور لم يعد أحد من ملوك سورية ينازعهم عليه أو يعارضهم به. واضمحلّ عزم انطيوخس ابيفان على أن يجعل عباد الله يونانيين أخلاقاً وديناً. ولم تكن حروب اليهود بعد ذلك مع ملوك سورية لأجل دينهم بل لأجل استقلالهم المدني. وكانت كل هذه الأحداث لسنة ١٦٣ ق.م.

عد ٤٣٦

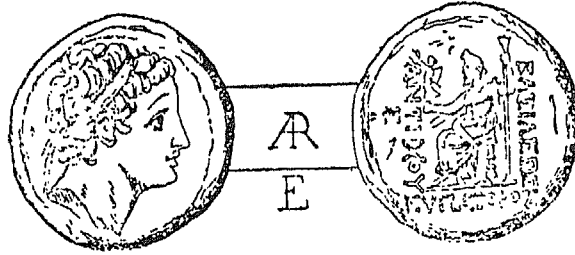
مقتل انطيوخس الخامس وليسيّاس وملك ديمتريوس سوتر

قد مرّ أنّ ديمتريوس ابن سلوقس الرابع كان رهينة في روما وإنّ حق الملك بعد أبيه كان له لأنّ أباه سلوقس هو بكر انطيوخس الكبير. فانتزعه منه عمه انطيوخس ابيفان واستمرّ ديمتريوس في روما لما علم بوفاة عمه تقدّم إلى رجال الندوة في روما ملتصقاً اجلسه على تخت أبيه. فيكون شديد الاخلاص للرومانيين لأنه عاش بين ظهرانيهم أعواماً عديدة فيحسب رجال الندوة كآباء له وبنينهم كاخوته. فأثر هؤلاء الحكام مصلحة الجمهورية الرومانية على اجابة سؤال ديمتريوس العادل. ورأوا أنّ الأصلح لهم أن يكون على تخت سورية ملك قاصر كما كان انطيوخس الخامس

لا شاب شديد البأس كديميتريوس. ولذلك أصدروا أمراً أثبتوا فيه تسنم انطيوكس عرش سورية وأوفدوا اكتاف ولوكرتيوس واوديليوس إلى سورية بأن يكون كل شيء طبق العهدة التي جرت بينهم وبين انطيوكس الكبير. وكان غرضهم أن يضعفوا هذه المملكة ما أمكنهم ليتيسر لهم التقامها وقتاً ما، وكلفوا وفدهم أن يمرّ في الاسكندرية وينظر في الخلاف الذي كان وقع بين ملكي مصر الأخوين بتلميس فيلوباتور وتلميس فيسكون وكانت النتيجة ما دبره هؤلاء الوفد في مصر اقتسام هذه المملكة بأمر رجال الندوة الرومانية بين الملكين الأخوين. فأعطوا فيسكون ليبيا والقيروان وفيلوباتور مصر وجزيرة قبرص ايهاً لقوة هذه المملكة أيضاً طبقاً للرغائب المشار إليها. وسار الوفد الروماني إلى سورية وجد أن للملكها من السفائن والفيلة أكثر مما نصّ عليه في العهدة بين انطيوكس الكبير والرومانيين. فأحرقوا من السفن وقتلوا من الفيلة ما زاد على العدد المتفق عليه، فأوغر هذا الصنيع قلوب الشعب. وأخذت الحماسة من رجل اسمه لبتيّن كلّ مأخذ فوثب على أكتاف الوافد الروماني وهو يستحم وقتله. ونسب هذه الفعلة إلى لسياس مدير الملك فأرسل رسلاً إلى روما يبرئ ساحة الملك وساحته من هذه الجريمة. فلم يُجب رجال الندوة الرسل إلا بأنهم يحفظون لأنفسهم الفحص والعقاب على هذه الجريمة.

قد ظنّ ديميتريوس أن حنق الرومانيين على انطيوكس اوباتور ييسّر له نيل بغيته العود إلى سورية فتقدّم إلى رجال الندوة ثانية مستميحاً الترخيص له بالعود إلى وطنه. فأنكروا عليه الإجابة لما قرّ من مقاصدهم فانسَلّ من روما خفية محتجاً بأنه ماضٍ للصيد وأسرع إلى استيا فوجد سفينة من قرطاجنة متأهبة للسفر إلى صور. فركبها ولم يُعلم مفره في روما إلا بعد ثلاثة أيام فأرسل الديوان الروماني في اثره وفداً يرقب ما يأتيه أما هو فحلّ في طرابلس. وشاع أن الرومانيين أرسلوه ليستحوذ على تخت أبيه. ويستردّ ملكه وإنهم مصممون على معاونته. فحلّ الرعب في قلبي انطيوكس الخامس وليسياس مدبره واعتبر الجمهور انطيوكس منحطاً على الملك. وأرفضوا عنه وانحازوا إلى ديميتريوس. وقبض بعض جنود انطيوكس انفسهم على مولاهم ومدبره وأتوا بهما إلى ديميتريوس فقال لا تروني وجوههما. فأخذهما الجنود وقتلوهما واستوى ديميتريوس على سرير الملك، وكان ذلك لسنة ١٦٢ ق.م (بوليب فصل ١١٤ وايان في السوريين وبوستينوس ك ٣٤ فصل ٣ وسفر المكابيين الأول فصل ٧ عد ١ و ٢ والمكابيين الثاني فصل ١٤ عد ١ و ٢).

وهذا مثال لسكة انطيوخس الخامس فترى على الوجه الأول رأسه مكلاً. وفي الوجه الثاني رسم المشتري ويمناه مثال الانتصار. وقد أسند يسراه إلى صولجانه وكُتب عليها باسيلوس انطيوخس اوباتور أي الملك انطيوخس اوباتور.



وكانت باكورة أعمال ديمتريوس أنه أنقذ أهل بابل من ظالمين. اسم أحدهما ديمرك كان انطيوخس ابيفان أقامه والياً على بابل. واسم الثاني هركليد كان أقامه على الخزينة. فقتل ديمتريوس ديمرك لأنه كان أقدم على العصاوة واكتفى لهركليد بالنفي، فشمّل السرور أهل بابل، وسموا الملك سوتر أي المنقذ والمخلص فكان هذا لقبه.

عد ٤٣٧

حروب جنود ديمتريوس ويهوذا المكابي إلى مقتله

قد كان رجل من بني هارون الذين لا تحق لهم الرئاسة على الكهنة اسمه يواقيم أو لياقيم. تزلف إلى اليونان طمعاً أن يصير رئيس الأخبار وغير اسمه ليكون شبيهاً بالاسماء اليونانية داعياً نفسه الكيمس (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٩). وبعد مقتل منلاوس الخائن الآخر كما مرّ (عد ٤١٧) أقامه لسياس مدير الملك في أيام انطيوخس الخامس. فلما تسنم ديمتريوس الأول سرير الملك أتاه الكيمس يصحبه بعض الجاحدين من بني إسرائيل. فسعوا لدى الملك يهوذا المكابي وإخوته وبمن يضادهم من الشعب قائلين له قد أهلكوا أصحابك وطرّدونا من أرضنا لأننا مخلصون الطاعة لك، فان حشّن بعينيك فارسل رجلاً تثق به يفحص عما أنزلوه بنا وبلادك ورعاياك من الدمار، ويعاقبهم على هذه الجرائم، فاختر الملك

بكيديس أحد أمنائه ووالي عبر الفرات وأرسله إلى اليهودية، وقد الكيمس رئاسة الأحبار وجعله رفيقاً لبديكيس وأصبحهما بجيش كثيف. ولما وصلا إلى اليهودية أثر بيكيديس الحيلة على الحرب وأرسل رسلاً إلى يهوذا واخوته يخاطبونهم بالسلم فلم يركن المكابيون إلى كلامهم. ولكن وافى بعض المقدمين في الشعب بكيديس والكيمس لطلب السلم لأنهم قالوا إنَّ مع الشعب كاهناً من نسل هرون فلا يظلمنا، فتقبلهم بكيديس بالترحاب وحلف لهم أنه لا يريد بهم ولا بأصحابهم سوءاً فصدقوه. لكنه لم يلبث أن قبض على ستين رجلاً منهم وقتلهم في يوم واحد. ثم أرسل فقبض على كثيرين فذبحهم وسلم البلاد إلى الكيمس وأبقى معه جيشاً يؤازره، وقفل بكيديس راجعاً إلى انطاكية عند الملك.

فانضمَّ إلى الكيمس جميع المفسدين في الشعب واستولوا على أرض يهوذا وألحقوا بإخوتهم الصالحين مضار كثيرة فلم يتحمل يهوذا المكابي فظائعهم. فهبَّ منكلاً بهم وراذعاً لهم عن التمادي في شرِّهم. فعاد الكيمس من أورشليم إلى الملك يشكو إليه معارضة يهوذا إنفاذ أوامره وتنكيله بكل من أخلص الطاعة للملك. وأهدى إليه اكليلاً وسعفة من ذهب وأغصان زيتون مما يختص بالهيكل. فأرسل الملك نكانور أحد قادة جيشه وأمره بآبادة اليهود وأصبحه بجيش جرار. فلجأ نكانور أيضاً إلى المكر وأرسل يخاطب يهوذا واخوته قائلاً لا يكون قتال بيني وبينكم وأنا قادم في نفر قليل لأواجهكم. وأتى إلى يهوذا وحيا أحدهما الآخر تحية سلام، وكان في نيَّة نكانور أن يختطف يهوذا إن قدر فلم يتيشَّر له حينئذٍ. فعاد إلى معسكره وعلم يهوذا ما كانوا ينوون فأجفل ولم يعد إلى مواجهته. ثم أرسل نكانور إليه رسلاً لعرض الصلح وإمضائه وبعد البحث في الأمر طويلاً عيَّنوا يوماً للمواجهة. وأقبل نكانور وأتى يهوذا وأقام رجالاً متسلحين يرقبون في مواضع موافقة مخافة أن يدهمهم الأعداء بشرَّ. وتفاوضا وعقدا اتفاقاً وأقام نكانور بأورشليم لا يدي منكراً وكان كثير التردد إلى يهوذا وصبا إليه قلبه وحثَّه على الزواج فتزوج ولبث في راحة.

ولما رأى الكيمس ما بينهما من المصافاة والتؤدد عاد إلى ديمتريوس الملك يقول إنَّ نكانور رأى رأي فساد واتفق مع يهوذا وآخاه فاستشاط الملك غضباً. وكتب إلى نكانور إنه ساخط من ذلك الاتفاق. وأمره أن يبادر إلى ارسال المكابي مقيداً إلى انطاكية. فاحتار نكانور وشعر يهوذا أنه قد تغيَّر عليه فتغيَّب

عنه: ورأى نكانور أنَّ لا مناص له من إنفاذ أمر الملك ولم تُغنه الحيلة. فعمد إلى قتال يهوذا وخرج إليه بجيشه فالتقيا عند كفرسلامة (عن سمت إنها تسمى اليوم كفرسلوان في جوار أورشليم. وعن كوندرا إنها تسمى سلمه في جوار يافا اعلام الأماكن الكتابية). فسقط من جيش نكانور نحو خمسة آلاف رجل وفرَّ الباقون إلى مدينة داود.

ثم خرج نكانور وأتى نحو الهيكل فخرج الكهنة وبعض الشيوخ يستعطفونه. ويروونه المحرقات المقدمة عن الملك فسخر منهم وتعذرهم. وأقسم لهم أنهم إن لم يسلموا إليه يهوذا ورجاله فيحرق الهيكل. وانصرف عنهم بحق شديد فعاد الكهنة إلى الهيكل يصلّون لله باكين لينقذ هيكله وشعبه من أيدي الظالمين. وكان في أورشليم شيخ محمود السمعة حتى سُمي بأبي اليهود. فأراد نكانور أن يُيدي حنقه عليه فأرسل إليه أكثر من خمس مئة جندي ليقبضوا عليه، ولما رأى الشيخ الجنود أوشكوا أن يفتحوا باب الدار وأصبح محاطاً من كل جهة، وجأ نفسه بالسيف فلم يمت لساعته. ولما دخل الجنود داره رقي إلى أعلاها وألقى نفسه إلى أسفل. فبقي فيه رمق واشتعلت فيه الحمية فعدا بين الجنود. وقام على صخرة عالية وقد نرف دمه فأخرج أمعاه وضرب بها الجند داعياً لرب الحياة والروح أن يردهما عليه وقضى.

ثم خرج نكانور من أورشليم ونزل بيت حورون (بيت اور) ونزل يهوذا بادسته (المعروفة اليوم باداسه أيضاً على ثلاثين غلوة من بيت اور غرباً أعلام الأماكن الكتابية). وصلّى المكابي وألحم الجيشان القتال في ١٣ من شهر آذار وانكسر جيش نكانور وكان هو أول من سقط في القتال، فتشتّت شمل جيشه، وألقوا سلاحهم هاربين فتبعهم يهوذا ورجاله من اداسة المذكورة إلى مدخل جازر (المعروفة اليوم بتل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص طالع عد ٢٧٧). ونفخوا وراءهم في أبواق الإشارة فالتقاهم الناس من كل جانب وصدموهم. فارتدوا إلى جهة من يتعقبونهم فأبادوهم عن آخرهم. وأخذوا غنائمهم وأسلابهم وقطعوا رأس نكانور وبينه التي مدها نحو الهيكل وأقسم أنه سيخربه. وأتوا بهما وعلقوهما على القلعة في أورشليم دليلاً بيّناً على نصره الله. وجعلوا اليوم الثالث عشر من آذار عيداً لذكر هذا الانتصار في كل سنة. واستراحوا أياماً قليلة وكان

ذلك لسنة ١٦١ ق.م (مكايين ١ فصل ٧ ومكايين ٢ فصل ١٤ و ١٥ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ١٦).

ولما كان يهوذا يعلم ما للرومانيين من الاقتدار والعظمة والصلوة وما يتأتى من حنق ديمتريوس عليه وعلى أمته لقتل وزيره نكانور وقرض جنوده، أرسل رجلين من أعيان شعبه إلى روما يبغى عقد الموالاة والمسألة مع الرومانيين. فرحّب أهل الشورى بوافدي يهوذا، وأكرموا مثنواهما وأجابوا سؤال مرسلهما. وكتبوا كتاباً على ألواح من نحاس وأرسلوه معهما إلى أورشليم ليكون تذكراً للمسألة والمناصرة. ونسخة هذا الكتاب ماثّبة في سفر المكايين الأول في الفصل الثامن ومؤداه: «تحقيق المسألة والمناصرة بين الشعب الروماني وأمة اليهود وإنه إذا قامت حرب على الرومانيين أو مناصريهم لزم اليهود إنجادهم بما أمكن على نفقاتهم. وكذلك إذا قامت حرب على اليهود ناصرهم الرومانيون على نفقاتهم. وإنهم كتبوا إلى ديمتريوس الملك يلومونه على ائثال نيره على مناصريهم اليهود، وإنهم إن عادوا يتظلمون منه فينتصرون لهم ويقاتلونهم بجرأ وبرأ.

أما ديمتريوس فوغر صدره على يهوذا ورجاله وأرسل بكيديس والكيمس ثانية بجيش كبير فنزلا على أورشليم. ثم انطلقا إلى بثروت (المعروفة الآن بالبري على ثلاث ساعات من أورشليم في طريق نابلس) في عشرين ألف راجل وألفي فارس ولم يكن مع يهوذا إلا ثلاثة آلاف رجل ورأوا كثرة عدد الجيش فهبّوا ينسابون حتى لم يبق منهم إلا ثمان مئة رجل. فانكسر قلبه واسترخت عزائمه ولم يكن وقت لرد رجاله وأراد الباقون معه أن يصرفوه عن عزمه، فقال حاشاي أن أهرب منهم وإن كان قد دنا أجلنا فلنموتن عن اخوتنا متشجعين. وبرز جيش العدو ووقفوا بازائهم ومقدمة الجيش كلها من ذوي البأس. وكان بكيديس في الميمنة. فقصد يهوذا ومعه كل ذي قلب ثابت ودام القتال من الصباح إلى المساء. وكسر يهوذا جيش الميمنة وتعقبوا أثرهم إلى جبل اشدود، ولما رأت ميسرة العدو انكسار الميمنة انقلبوا على آثار يهوذا ورجاله. واشتد القتال وصرع كثيرون من الفريقين وسقط بينهم يهوذا البطل الصنديد. فحملة يوناثان وسمعان أخواه ودفناه في قبر آبائه في مودين فبكاه شعب إسرائيل بكاء عظيماً، وناحوا عليه أياماً كثيرة واجتمع أصحاب يهوذا ورؤساء اليهود المستقيمون الرأي، واختاروا يوناثان رئيساً وقائداً مكانه (مكايين ١ فصل ٩ عد ١ إلى ٣٠).

محاربات يوناثان وبكيديس قائد جيش الملك

علم بكيديس أنَّ يوناثان خلف أخاه يهوذا فطلب قتله فنجا يوناثان وأخوه سمعان ومن معهما إلى بركة تقوع (وهي في عبر الأردن غير تقوع التي بين الخليل جنوباً وبيت لحم شمالاً). فزحف بكيديس إليهم بجيشه إلى عبر الأردن فأرسل يوناثان أخاه يوحنا إلى البنانيين أوليائهم يسألهم أن يعيروه عدتهم الوافرة. فخرج بنو عبري من ميدبا (تُعرف الآن بهذا الاسم في شرقي عبر الأردن). فقبضوا على يوحنا ومن معه وذهبوا بهم فكمن يوناثان ورجاله لبني عبري وهم سائرون في حفلة عرس فقتلوا منهم كثيرين انتقاماً لدم أخيه. ووفد بكيديس إلى شطوط الأردن والتحم القتال ومدَّ يوناثان يده ليضرب بكيديس فانصاع إلى الورا. وقُتل من جنوده في ذلك اليوم ألف رجل. وعبر يوناثان ورجاله النهر سابحين فلم يلحقهم بكيديس بل عاد إلى أورشليم وبنى قلعة وحصَّن أريحا وعماس وبيت حررون (بيت اور) وبيت ايل (بيت اين) وجازر (تل جازر) وغيرها وجعل فيها حرساً يراغمون إسرائيل وأخذ أبناء وجهاء البلاد رهائن وسجنهم في قلعة أورشليم. وأمر بكيديس الكيمس الخبر الخؤون أن يهدم حائط دار المقدس الداخلية وشرع في التدمير فضربه الله باعتقال لسانه، وأصابه فالج حتى لم يعد يستطيع أن ينطق بكلمة فمات في عذاب أليم وكان ذلك لسنة ١٦٠ ق م. ولما رأى بكيديس أنَّ الكيمس مات عاد إلى الملك وأخذ الرهائن المذكورين معه فهدأت أرض يهوذا سبتين إلى أن ائتمر المنافقون من بني إسرائيل، وأرسلوا إلى بكيديس وفداً حملة على العود إلى اليهودية بجيش عظيم وبعث بكتب إلى نصرائه في اليهودية أن يقبضوا على يوناثان ومن معه فلم يكن لهم لما يتغون سبيل. لأنَّ يوناثان درى بذلك فانصرف هو وأخوه سمعان ومن معهما إلى بيت حجلة (المعروفة الآن بعين حجلة في الجنوبي الشرقي من اريحا). وبنى هدموها وحصَّنوها وقبض على خمسين رجلاً من أصحاب الفتنة. وقتلهم على ما فُسر الحجري آية الكتاب (مكابيين ١ فصل ٩ عد ٦١) التي تخلو من لبس. فزحف بكيديس بجيشه وحارب بيت حجلة أياماً كثيرة. وترك يوناثان أخاه سمعان في المدينة ومضى ينكل بأعدائه وخرج سمعان ومن معه من المدينة وأحرقوا مناجيق العدو واستظهروا على بكيديس وضايقوه جداً

فاستشاط غضباً من المنافقين الذين أشاروا عليه بالخروج إلى اليهودية. وقتل كثيرين منهم وأزمع الانصراف إلى مولاة فراسله يونانان في عقد المصالحة فأجابه إليها. وحلف له أنه لن يطلبه بسوء كل أيام حياته وردَّ إليه الأسرى الذين أسرهم من قبل وعاد إلى انطاكية. وكان ذلك خاتمة أسفاره إلى اليهودية واستولى الأمان في بني إسرائيل وسكن يونانان في مكماش (مخماس على سبعة أميال من أورشليم شمالاً). وأخذ يحاكم الشعب واستأصل المنافقين من إسرائيل (مكابيين ١ فصل ٩).

عد ٤٣٩

ترُف ديمتريوس إلى الرومانيين والمؤامرة عليه واستحواذ اسكندر
على عكا

يظهر أنَّ ديمتريوس بلغته رسالة الرومانيين المذكورة بأنَّ يَنْكَب عن اعنات اليهود لأنهم من أنصارهم ولذلك لم يعد بكيديس ولا غيره لمحاربتهم بل روى بوليب (فقرة ١٢٠) إنه أخذ يتزلف إلى الرومانيين بكل ما عَنَّ له من الوسائل ليعرفوه ملكاً على سورية، ويجددوا معه العهدة التي كانت لهم مع أسلافه. وعلم أنهم أرسلوا وفداً إلى اريارات ملك الكبادوك فأوفد إليهم منيوثر وزيره يجاملهم، ويعرض عليهم بغية الملك فأملوه بنيل الملك ما يتغي. ثم أرسل إليهم ديمتريوس وهم في بمفيليا ثم في رودس يحقق لهم أنه سيكون مطواعاً لكل ما يهون فنال بواسطة هؤلاء الوفد ما أمل. وأقرَّ له الرومانيون بملك سورية وجددوا العهدة معه، ثم أرسل منيوثر وغيره إلى روما سنة ١٥٩ ق م. وأهدى الندوة اكليلاً ثميناً دليلاً على شكره للرومانيين لما لقيه عندهم إذ كان رهينة في روما. وبعث إليهم بلثين الذي اغتال اكتاف سفيرهم كما مرَّ ورجلاً يونانياً اسمه سقراط كان في سورية حينئذ. وكان يدافع عن المعتال المذكور فقبل رجال الندوة رسل الملك بالترحاب والتكريم ولم يلتفتوا إلى الرجلين المجرمين حافظين لأنفسهم الحق أن يطلبوا في وقت آخر ما يهون من الترضية عن قتل سفيرهم.

ولما أريح ديمتريوس من الحرب ونعم باله من الهم والبلال عكف على الملاذ واللهو. وبنى له قصراً في ضواحي انطاكية وعلى جوانبه أربعة أبراج وولع بالخمير وغوائله وأنف الاهتمام بمشاغل رعيتيه. وكان يستمر سكران أكثر يومه حتى وقفت

أشغال الملك وتآمر عليه كثير من شعبه حتى هولوفرن الذي كان جعله ملكاً على الكبادوك. فطُرد من هناك لشُرّه فكشف الملك عن وجه المؤامرة وتداركها بقتل كثيرين واستبقى هولوفرن طامعاً بأنه يحتاج إليه يوماً في محاربة اريارات. على أنَّ نار الفتنة لم تخبث إذ كان ينفخ بها بتلمائيس فيلوباتور ملك مصر لخلاف بينه وبين ديمتريوس على جزيرة قبرص. وأنال ملك برغام واريارات ملك الكبادوك لمحاربة ديمتريوس لهما انتصاراً لهولوفرن المذكور. واثمر هؤلاء الملوك الثلاثة على ديمتريوس وأسروا إلى هركليد خازن انطيوخس ايفان الذي كان ديمتريوس نفاه من بابل كما مرَّ (عد ٤٣٦) أن يجد شخصاً يدّعي أنه ابن انطيوخس ايفان. وينازع ديمتريوس الملك فوجد رجلاً اسمه بالا ظنَّ الأكثرون أنه كان من سفلة الناس نسباً ومن ازمير موطناً. لكنه أهل لما اختير له من المكر وقال كثيرون إنه كان ابن انطيوخس ايفان حقاً ومنهم استرابون (فصل ١٣) ويوسيفوس في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ٢). وسَمَّاه سفر المكابيين الأول (فصل ١ عد ١) ابن انطيوخس وكلامه يتحمل أنه أراد الحقيقة أو حكاية ماسمى نفسه به. ومهما يكن من نسب بالا فقد أرشده هركليد إلى ما يصنع وجعل الملوك الثلاثة يقرّون له إنه ابن انطيوخس ايفان. وتستيراً لهائه أخذ معه لاوذية ابنة انطيوخس ايفان حقيقة واستطاع بمكره وخديعته أن ينال له من الندوة الرومانية كتاباً يخوّلونه به أن يعود إلى سورية ليسترُدَّ ملكه. ووعدوه بالمعاونة له على ادراك بغيته وعاد هركليد ببالا إلى سورية، وشرَّ له كتاب الرومانيين أن يحشد جنوداً فاستحوذ أولاً على عكا وسمى نفسه اسكندر بن انطيوخس ايفان. وملك سورية وانضمَّ إلى رايته كثيرون من مخالفين ديمتريوس (بوليب ك ٣٣ فصل ١٦ وايان في السوريين فصل ٦٧ ويوستينيوس ك ٣٥ فصل ١ وغيرهم) وكان ذلك لسنة ١٥٣ ق.م.

عد ٤٤٠

جدّ كل من الملكين في استمالة يونانان إليه وقتل اسكندر ديمتريوس

إذا علمتَ ما مرَّ تهيأ لك ادراك ما جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١٠ عد ١ وما يليه) حيث قال ما ملخصه: «وفي السنة المئة والستين لتاريخ السلوقيين وهي سنة ١٥٣ ق.م صعد الاسكندر الشهير ابن انطيوخس وفتح بطلمائيس (عكا)

فقبلوه. وملك هناك وجمع ديمتريوس الملك جيوشاً كثيرة وخرج لملاقاته في الحرب. وشعر بحاجته إلى نصير فأنفذ إلى يوناثان كتاباً متقرباً إليه بالاطراء قاصداً أن يسبق اسكندر إلى موالاته. وأذن له أن يجمع جيشاً ويصنع أسلحة وردّ عليه الرهائن الذين كانوا في قلعة أورشليم. فتلا يوناثان الكتاب على مسامع الشعب وجزعوا جزعاً شديداً. وطفق يوناثان يبنى أسوار أورشليم ويحصنها فهرب الغرباء الذين كانوا في الحصون التي بناها بكيديس كما مرّ. وعلم الاسكندر بما وعد به ديمتريوس يوناثان وما صنع هو وأخوته من الحروب، فعزم أن يتّخذ ولياً ومناصرأ فكتب إليه مسمياً إياه أخاه وسائلاً أن يكون له ولياً ونصيراً. وأقامه كاهناً أعظم في أمّته وأرسل إليه أرجواناً وتاجاً من ذهب مما لا يلبسه إلا الملوك. فلبس يوناثان الحلة المقدّسة المختصة برؤساء الأخبار واستمرت هذه الرئاسة في ذرية المكابيين إلى أيام هيرودوس، وجمع يوناثان جيشاً وجّهز أسلحة.

فشقّ ذلك على ديمتريوس وقال كيف تركنا الاسكندر يسبقنا إلى مصافاة اليهود والتعزز بهم، وكتب إليهم قائلاً إنه بلغه إنهم محافظون على عهود ولايته ثابتون في مودّته ولم يتقرّبوا إلى أعدائه وإنه يستحسن ثوابهم على ما يفعلون ويعفيهم. ويحطّ عن جميع اليهود كل جزية ومكس الملح الذي كان يلزم اداؤه للحكومة على كلما يُنفق أو يُباع منه، ومن ضريبة الأكاليل إذ كان يضرب ضريبة على الرعية أن يدفع كلّ منهم شيئاً من ثمن أكاليل تُقدّم للملك. ويترك لهم ثلث الزرع ولا يريد به على الأصحّ ثلث الحبوب الحاصلة من الزرع بل ثلث البذر. فمن بذر مثلاً اثني عشر مدّاً لزمه أن يدفع للملك أربعة أمداد من الحبوب كأنهم اصططحوا على ذلك بدلاً من العشر (الحجري في تفسير هذه الآيات). وأعفاهم أيضاً من دفع نصف أتااء الشجر أي ثمارها في أرض اليهودية وما الحق بها من أرض السامرة والجليل. وأمر أن تكون أورشليم مقدّسة وحرّة هي وتخومها ولا تدفع شيئاً من العشور والضرائب. وقال إنه يتخلّى عن فعلتها للكهنة الأعظم ليقيم فيها من اختار ويطلق جميع النفوس التي سبيت من اليهود بلا فدية. ويُعفى الجميع من أتاوة المواشي ويبيحهم الاعتناء بأعيادهم وسبوتهم. وتكون تلك الأيام أيام ابراء وعفو لجميع اليهود فلا يثقل أحد عليهم في أي أمر كان.

وأن يكتب من اليهود في جيش الملك إلى ثلاثين ألف رجل يعطون وظائف كسائر الجنود ويفوّض إلى بعضهم النظر في مهام المملكة. ووهب بطلمييس (عكا

التي كان اسكندر استحوذ عليها) وما يتبعها لهيكل أورشليم لأجل نفقة الأقداس. ويزيد عليها كل سنة خمسة عشر ألف مثقال من الفضة. فتُعطى للهيكل من دخل الملك الخاص وإنَّ ما بقي من مال الحكومة في السنين السالفة يتخلَّى عنه لأعمال الهيكل. وخمسة آلاف مثقال فضة التي كانت تؤخذ من دخل الهيكل تترك رزقاً للكهنة القائمين بالخدمة ومن لاذ بالهيكل ومن للملك عليه مال أو أي حق كان فليعف. ونفقة البناء والترميم في الهيكل وبناء الأسوار في أورشليم وسائر اليهودية تُعطى من حساب الملك.

فلم يثق يونانان ولا الشعب بهذه المواعيد لأنهم تذكروا ما أنزل ديمتريوس بهم وما أنزلوه بجيوشه. فأثروا اسكندر على ديمتريوس واستمروا على مناصرتهم كل الأيام. «ثم انتشبت الحرب بين الملكين ففي الوقائع الأولى كانت سجالاً لم يظهر أحدهما على الآخر (يوستينيوس ك ٣٥ فصل ١). ولكن في سنة ١٥٠ ق.م اشتدَّ القتال وكان الملوك الثلاثة المذكورون ويونانان ينجدون اسكندر برجالهم. وفي الواقعة الأخيرة التي دامت النهار كله ظهرت ميسرة ديمتريوس على ميمنة اسكندر فتتبعها طويلاً تاركة الملك يقاتل في قلب جيشه وميمنته. فتقوى عليه الأعداء وكبا حصانه وهو منهزم في وحول فقتل برمي السهام واستتب الملك لاسكندر (مكابيين ١ فصل ١٠ عد ٤٨ إلى عد ٥٢) ويوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٢) واسترابون (ك ١٦ فصل ٢). وكانت مدة ملك ديمتريوس اثنتي عشرة سنة من سنة ١٦٢ إلى سنة ١٥٠ ق.م.

وهذا مثال لسكة ديمتريوس الأول فترى في الوجه الأول رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني رسم السعد جالس على كرسي وفي يمينه عصى الملك وفي شماله



بوق دلالة على الرعد والخصب. وقد كُتب عليها باسيلوس ديمتريوس سوتروس أي الملك ديمتريوس سوتر أي المخلص.

عد ٤٤١

مصاهرة اسكندر لبتولمايس وتعزيزه يوناثان وهيكل اليهود في مصر

إنَّ الملك اسكندر رغبةً في تعزيز سلطته أرسل إلى بتلمابس ملك مصر يقول إذ قد رجعت إلى أرض مملكتي وجلست على عرش آبائي واستتبَّ لي السلطان. فهلَّمَّ الآن نوالي بعضنا بعضاً وهب لي ابنتك زوجة فأصاهرك وأهدي إليك هدايا تليق بك. فأجاب به بتلمابس مبدياً سروره من استتباب الملك له ودعاه ليوافيه إلى عكا فيزف ابنته قلوبطرة إليه هناك. فالتقى الملكان في عكا وأقيم العرس على عادة الملوك بمعظم الاحتفاء. وكتب الملك اسكندر إلى يوناثان أن يقدم لملاقاته فانطلق إلى عكا في موكب مجيد. وأهدى للملكين وحاشيتهما هدايا نفيسة فعضمت منزلته لديهما. وقد وشى به رجال منافقون من بني إسرائيل فلم يصغ الملك إليهم بل أمر أن يلبسوا يوناثان أرجواناً. وأجلسه إلى جانبه وقال لعظمائه اخرجوا معه إلى وسط المدينة. ونادوا أن لا يتعرض أحد له في أمرٍ من الأمور ولا يسوءه بشيء من المكروه. فهرب من وشوا به واعزه الملك وأقامه قائداً وشريكاً في الملك. وعاد إلى أورشليم سالماً مسروراً (مكابيين ١ فصل ١٠ عد ٥١ إلى ٦٧). وروى يوسفوس (ك ٢ في رد ازعام ايون).

إنَّ اونيا بن اونيا الثالث لما لم يحصل على رئاسة الأخبار بعد موت عمه منلاوس مضى إلى مصر، وتزلف إلى بتلمابس فيلوماتور وقرينته الملكة قلوبطرة فاحتفيا به وأكرما مثواه. فسأل الملك أن يأذن له في هيكل لليهود في مصر كهيكلهم في أورشليم فيكونون له أخلص الرعية في طاعته. فأجاب الملك سؤاله وأمر أن تكون رئاسة الأخبار في هذا الهيكل له ولذريته من بعده. على أن اليهود ابوا إلا المقاومة لهذا الأمر الذي تنهاهم سنتهم عنه ولا تبيحهم أن يكون لهم هيكل إلا هيكل أورشليم. وما برحوا يكابرون اونيا إلى أن أفرحهم بنوّة اشعيا (فصل ١٩ عد ١٨ وما يليه) حيث قال: «في ذلك الزمان تكون خمسة مدن في أرض مصر تتكلم بلغة كنعان وتحلف برب الجنود. يقال لإحداها مدينة الشمس

(هليوبولي) في ذلك اليوم يكون مذبح للرب في داخل أرض مصر... فيكون علامة وشهادة لرب الجنود في أرض مصر لأنهم يصرخون إلى الرب من مضايقتهم. فيرسل لهم مخلصاً ورباً فينقذهم». فمعرفة هذا الأمر قبل حدوثه بقرون تعلو مدارك البشر ويخالف كل الخلاف قرائن الأحوال في أيام اشعيا فنبؤته عليه من أعظم النبؤات.

عد ٤٤٢

ثورة ديمتريوس الثاني على الملك اسكندر

إنَّ الملك اسكندر لما خلا له الجو من الحرب والنزاع انقطع إلى الملاذ وعكف على الترف والبطالة، وترك مهام الملك إلى خلٍّ له يسمى امونيوس. فهذا قتل لاوذيقة أخت ديمتريوس وانتيكون ابنه الذي كان قد استمر في سورية بعد مقتل أبيه. واغتال كل من وجددهم من النسل الملكي ليجعل مولاه في مأمن من المنازعة له على الملك الذي اختلسه بمكره. فمقت الشعب الملك وكثر أنينه من اعتزاله المهام ومن سوء تصرف عماله. وكان ديمتريوس بكر ديمتريوس الأول فاراً إلى كريت وكان بلغ أشده. وعلم تذرُّ الخاصة والعامة من الملك فانتهز الفرصة وهبَّ من كريت سنة ١٦٠ للسوقيين وهي سنة ١٤٧ ق م. فحلَّ في قيليقية فلبَّى القوم دعوته لمقتهم الملك واستحوذ على تلك البلاد. فصحا اسكندر من سكر غفلته وهبَّ من رقاد توانييه وجَهَّز جيشاً سار به لمناوأة ديمتريوس. وترك لتدير الملك في انطاكية هياركس وديودت المسمى تريفون. وبلغه أنَّ ابولونيوس والي بقاع سورية وفينيقية جاهر بالإنحياز إلى ديمتريوس. فأمره في ولايته كما كان من قبل اسكندر وأقامه على الجيش فكتب إلى حميه بتلمايس ملك مصر أن ينجده برجاله فأبطأ في إنجاده.

أما يونانان فاستمر يخلص في الطاعة لاسكندر فراسله ابولونيوس قائلاً ليس لنا من مقاوم إلا أنت فعلام تناهضنا في الجبال؟ فإن كنت واثقاً بجيوشك فانزل إلينا في السهل فتتبارز هناك. فاختر يونانان عشرة آلاف رجل وخرج بهم من أورشليم وتبعهم أخوه سمعان ونزل تجاه يافا فأغلق حرس ابولونيوس في وجهه الأبواب فحاصر المدينة فخاف أهلها. وفتحوا له الأبواب فاستولى يونانان على يافا وبلغ الخبر ابولونيوس فقدم بجيش كثير وثلاثة آلاف فارس وأظهر من نفسه أنه عابر إلى

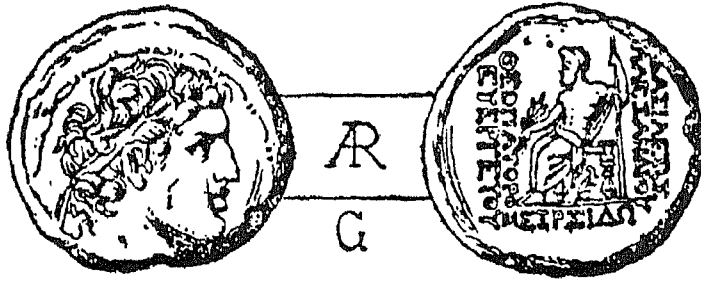
اشدود ثم عطف بغتة إلى السهل. وترك ألف فارس وراءه يكمنون ليونائان الذي تعقبه إلى اشدود. والتحم القتال بين الفريقين فوثب أولئك الفرسان يرمون ساقة يونائان بالسهم حتى أعيت خيلهم. فحينئذ برز سمعان بجيشه والحمل القتال على الفرسان فشنت شملهم وانتصر يونائان على جيش ابولونيوس، ففرّوا إلى اشدود ودخلوا بيت راجون معبد صنمهم فأحرقه والمدينة وما حولها وأخذ غنائمهم. وكان عدد القتلى ثمانية آلاف رجل ثم سار يونائان إلى اشقلون (عسقلان) فخرج أهل المدينة للقاءه باجلال عظيم وعاد غانماً إلى أورشليم. وبعث إليه اسكندر الملك بعروة من ذهب كما كان يهدي لابناء الملوك ووهب له عفرون وتخومها ملكاً (مكابيين ١ فصل ١٠ عد ٦٧ إلى ٨٦).

أما بتلميس السادس ملك مصر فجمع جيوشاً كثيرة وجّهز سفناً عديدة. وسار إلى سورية مظهراً أنه يريد إنجاد صهره اسكندر الملك ومبطناً للاستيلاء على مملكته وإلحاقها بمملكة مصر. ففتح له أهل المدن أبوابها والتقوه بالتجلة حسب وصية الملك اسكندر. وكان بتلميس كلما خرج من مدينة أبقى فيها حرساً من الجند ولما وصل إلى اشدود أروه هيكل داجون المحرق والمدينة وضواحيها المهذومة فلم يفه الملك بنت شفة.

ولاقاه يونائان إلى يافا باجلال ثم شيعه إلى نهر الوتاروس (المعروف الآن بالنهر الكبير في شمالي طرابلس اعلام الأماكن الكتابية). فاستحوذ بتولميس على المدن الساحلية إلى سلوقية التي على مصبّ العاصي (المعروفة الآن بالسويدية). وأرسل ديمتريوس أن يعقد عهداً بينهما ويعطيه ابنته قلوبطرة التي كان زوّجها بالملك اسكندر مدّعياً أنّ هذا الملك رام قتله. فتغيّر عليه والذي ذكره يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٣) من سبب هذا التغيير هو أنه لما كان بتلميس في عكا اكتشف مكيدة لاغتياله صلاها له امونيوس وزير اسكندر. فكتب إلى الملك أن يعاقبه على ما جنى فأجابه إنه لم يتحقق أنّ لوزيره ضلعاً في هذه الجناية فاستاء بتلميس. وذكر ديودر مثل هذا السبب على ما جاء في فقرات المؤرخين اليونان لمورل على أنّ الكتاب قال: إنه «تجنّى عليه طمعاً في ملكه» (مكابيين ١ فصل ١١ عد ١١). ومهما يكن فبتلميس دخل انطاكية ووضع على رأسه تاجين تاج آسيا، وتاج مصر، وفرّ امونيوس وزير اسكندر متنكراً بزي امرأة وعرفه بعض أهل انطاكية فقتلوه.

ولما علم اسكندر وهو في قيليقية بما كان خفّ لقتال حميه بتلمائيس والتحم القتال بين جيشي الملكين فدارت الدوائر على اسكندر. وتشتت جنوده وانهزم هو بخمس مئة فارس إلى زبدئيل أحد أمراء العرب فقطع الأمير رأسه، وأرسله إلى بتلمائيس في انطاكية. إلا أن بتلمائيس لم يعيش بعد ذلك إلا قليلاً، وأدركته المنية (مكايين ١ فصل ١١ عد ١ إلى ١٩ ويوسيفوس ك ٣٥ فصل ٢ وديودر في مجلد ٢ فصل ٢٠ في الفقرات المذكورة). وكانت وفاة الملكين سنة ١٤٦ وعند بعضهم سنة ١٤٥ ق م. واستتبّ الملك في سورية لديمتريوس الثاني الملقّب نيكانور أي الظافر أو الغازي.

وهذا مثال لسكة اسكندر بالا. ففي الوجه الأول صورته والتاج على رأسه. وفي الوجه الثاني صورة المشتري وفي يمينه رمز الصاعقة. وفي يسراه الصولجان وقد سُكّت في صيدا سنة ١٦٥ للسلوقيين. وكتب عليها باسيلوس الكسندروس ثاوبتروس افرجاتوس أي الملك اسكندر المتأله الأب المحسن.



عد ٤٤٣

سوء تصرف ديمتريوس نكانور

إنّ الملك ديمتريوس أساء السعى منذ بدء ملكه واعتمد على رجل من اكرت اسمه لستان كان ابوه ارسله إليه لدن تسعّر الحرب مع اسكندر بالا. فعند عود ديمتريوس إلى سورية أصبح لستان يبيع المتطوعين من الأكرتيين فوثق به وترك له زمام أعماله فنفر قلوب من كان لمولاه أن يعتصم بهم. وكانت باكورة أعماله السيئة أن جعل الملك يأمر بقتل الحرس الذين كان بتلمائيس أقامهم في مدن سورية

فقتلهم جنوده. وحنق منه الجنود المصريون الذين كانوا أجلسوه على أريكة الملك بهزيمهم عدوه الملك اسكندر فغادروه وقللوا إلى مصر. ثم طفق يبحث عن كل من خالفه أو خالف أباه في حروبه الأخيرة ويقتص من كل من وجده منهم بالقتل. وبعد أن فرغ من التكنيل بهؤلاء حسب أنه لم يبق له عدو ولا مقاوم وصرف السواد الأعظم من جنوده. ولم يُبق إلا على الأكريتيين وبعض الجنود الأجانب فمقته شعبه وعاداه الجنود الذين أعدمهم الرزق.

أما يوناثان فلما رأى استتباب الراحة والأمن في اليهودية عزم أن يُنقذ شعبه من ضيق الرجال المقيمين في قلعة أورشليم. فجمع الرجال وأعدَّ القُدود وحاصر القلعة فانطلق قوم من مبغضي أمته إلى ديمتريوس يوشون به ويخبرونه بحصاره القلعة. فاستشاط ديمتريوس غضباً وسار لساعته إلى عكا وكتب إلى يوناثان أن يكفَّ عن حصار القلعة ويبادر إلى ملاقاته في عكا. فأمر يوناثان رجاله أن يستمروا على حصار القلعة وأخذ بعض الشيوخ والكهنة وكثيراً من الفضة والذهب والحلل وغيرها من الهدايا وانطلق إلى الملك. فاحتفى به الملك وعامله معاملة أسلافه له وأقره في رياسته الكهنة. وفي كل ما كان له من الاختصاصات وسأله يوناثان أن يعفي اليهودية والمدن الملحقة بها وأرض السامرة من كل جزية فيدفع له ثلاث مئة قنطار (عبارة عن ثلاث مئة ألف ريال) فارتضى الملك بذلك. وكتب إلى يوناثان وأُمَّة اليهود كتاباً ضمَّنه نسخة الكتاب الذي أرسله إلى عامله في فلسطين وفحواه أنه رأى أن يُحسن إلى أُمَّة اليهود لمحافظتهم على ما يحقُّ له. وإنه يقرّر لهم حدود اليهودية والمدن الثلاث والملحقة بها من أرض السامرة وهي افيرمة (غزة) افرائيم (المعروفة بالطيبة). ولدة (وهي اللد في الجنوب الشرقي من يافا وفي شمالي الرملة). والرمثائم (ولم يُعَيَّن محلها وهي غير الرمثائم صوفيم أي الرامة التي في اليهودية أعلام الأماكن الكتابية). وإنه عفاهم من الجزية وغيرها من الضرائب «بناءً على ما تعهَّد به له يوناثان» وهذه الرسالة مثبتة في سفر المكابيين الأول (فصل ١١). وعاد ديمتريوس إلى انطاكية وإلى معاقرة الخمرة والانكباب على المعاصي وتعشُّف الرعية. فضاق ذرع شعبه وعال صبرهم عن التحمُّل فثاروا عليه ثورة اشترك فيها عامتهم وخاصتهم كما ستري.

وكان في مصر بعد وفاة بتلميس السادس أنَّ الملكة قلوبطرة زوجته أفرغت جدَّها في تملك ابنها منه. ويظهر مما جاء في الباير المصري إنَّ بين بتلميس

فيلوماتور المتوفى وبين بتلمايس افرجات الآتي ذكره ملكاً آخر يسمى بتلمايس اوباتور وهذا مُشعر أنَّ مسعى الملكة لم يُخفق. على أنَّ بعض أعيان الملكة عنوا بتمليك بتلمايس فيسكون أخي الملك المتوفى. وكان مالكاً في القيروان كما مرَّ وخافت قلوبطرة على نفسها فاستدعت اونيا وعسكراً من اليهود للذب عنها. وكان في الاسكندرية يومئذٍ سفير للرومانيين اسمه ترموس أصلح ذات البين بينهما على أنَّ فيسكون يتزوَّج قلوبطرة ويربي ابنها ليكون ولي العهد ويرث الملك بعد وفاته. لكنه ما عتَم بعد تزوّجه بالملكة واستوائه على أريكة الملك أن قتل ابن الملكة في حضنها يوم العرس نفسه. واستتبَّ الملك لفيسكون وهذا لقب إزدراء معناه البطن (الذي لا يهتمه إلا بطنه) لقَّبه به قومه كما مرَّ. واللقب الذي اتخذه في ملكه هو بتلمايس افرجات أي المحسن. وكان ذلك سنة ١٤٥ ق م. (يوستينوس ك ٣٨ فصل ٨ ويوسيفوس في رد مزاعم ابون ك ١ ف ٢ وغيرهما).

عد ٤٤٤

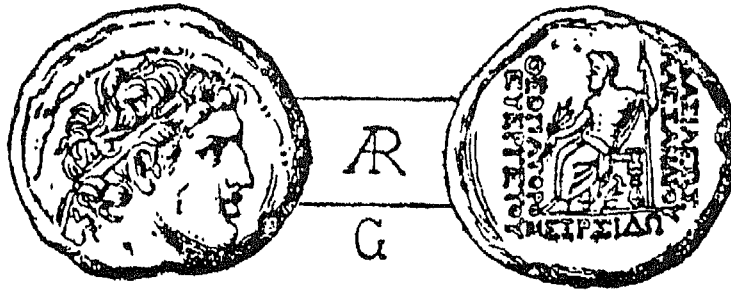
الثورة على ديمتريوس نكانور

قد مرَّ أنَّ ديمتريوس الثاني أثار الرعية بتعشفه وسوء تصرفه فديودرت الملَّقب تريفون (وهو الذي كان الملك اسكندر بالا أقامه على تدبير المملكة مع هياركس في مدة غيابه عن انطاكية كما مرَّ). انتهز فرصة مقت الشعب والجنود لديمتريوس فمضى إلى ايملكوئيل أمير العرب الذي كان يربي انطيوخس ابن الملك اسكندر بالا والَّح عليه أن يسلم إليه الأمير الصغير ليملكه مكان أبيه. وقصَّ عليه ما يفعل ديمتريوس وما له في قلوب الجيش والشعب من العداوة. وكان في عزم تريفون أن يستعين بانطيوخس ليثلَّ عرش ديمتريوس فإذا نال ما ابتغى دبَّر على انطيوخس وأخذ الملك لنفسه. فالأمير العربي لم يذعن أولاً لما زَّينه له تريفون ولم يُسلم إليه انطيوخس. «فمكث تريفون هناك أياماً كثيرة» (كما في سفر المكابيين ١ فصل ١١ عد ٤٠) يزيد في الإلحاح والتزوين لأمير العرب إلى أن سلَّم إليه انطيوخس.

وكان في أثناء غياب تريفون في بلاد العرب أن اشتدَّ شغب الشعب والجند في انطاكية على ديمتريوس وإنَّ يونانان استمر محاصراً قلعة أورشليم ولم يتيسَّر له فتحها. فكتب إلى ديمتريوس أن يأمر باخراج الجنود منها فأجابه الملك أنه سيفعل

ذلك وسأله أن يُرسل إليه رجالاً من أمته لأنَّ جيوشه كلها خذلت. فوجه يونانان إليه ثلاثة آلاف رجل أشداء البأس ففرح الملك بهم وتعزز جانبه. وأراد أن يأخذ السلاح من أهل انطاكية فتألبوا عليه وكانوا نحو مئة وعشرين ألفاً واحتاطوا قصره مصممين على قتله. فدعا الملك اليهود ومن بقي أميناً له لنجدته فشتتوا شمل المشاغبين وأحرقوا المدينة. وقتلوا كثيرين من أهلها وانتهبوا كل نفيس فيها. فترلّف الأهلون للملك وصالحوه وألقوا السلاح وعاد اليهود إلى أورشليم بغنائم كثيرة. على أنَّ ديمتريوس أخلف في كل ما وعد يونانان به وتغيّر عليه وضايقه. وعاد إلى ما كان عليه من الاعتساف للرعية وإذ ذاك عاد تريفون من بلاد العرب ومعه انطيوخس. وهو غلام صغير فاجتمع إليه جميع الجنود الذين سرحهم ديمتريوس وانضوى تحت رايته كل بغيض للملك وهم السواد الأعظم. ونادوا به ملكاً ووثبوا على ديمتريوس فأرغم أن يغادر انطاكية وينزوي في سلوقية (السويدية). واستولوا على فيلة الملك وأجلسوا انطيوخس بن اسكندر على منصّة الملك ولقبّوه ثاوس أي الإله (مكايين ١ فصل ١١ عد ٣٨ إلى ٥٧ يوستينيوس ك ٣٨ فصل ٩ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ ف ٩ وايان في الرسائل فصل ٦٨ واسترابون ك ١٦). وكان ذلك لسنة ١٤٥ أو لسنة ١٤٤ ق.م ولم يكن بذلك ختام ملك ديمتريوس نكانور فسترى أنه عاد إليه.

وهذا مثال لسكة ديمتريوس الثاني ففي الوجه الأول صورته مكللاً مطلق اللحية. وفي الوجه الثاني المشتري وفي يمينه تمثال الظفر وفي يساره الصولجان. وقد سكّت في صيدا سنة ١٨٥ للسلوقيين، وقد كُتب عليها باسيلاوس ديمتريوس ثاوس نكانور أي الملك ديمتريوس المتأله نكانور.



ما كان في أيام انطيوخس السادس

إنَّ هذا الملك استوى على أريكة الملك من سنة ١٦٧ إلى سنة ١٧٠ للسلوقيين كما يؤخذ عن سكته وهذا يطابق ما جاء في سفر المكابيين. ويوافق سنة ١٤٥ إلى سنة ١٤٢ ق.م وبعد أن طرد تريفون الملك ديمتريوس الثاني من انطاكية. افترض سخط اليهود على ديمتريوس لاختلاف وعوده لهم ليستميل يونانان إلى محاربة انطيوخس السادس. فجعل الملك يكتب له أنه يقره في رئاسة الكهنة وقيمته على اليهودية وملحقاتها. ويتخذ من أصدقائه وأرسل إليه آية من ذهب لخدمته وأباحه أن يشرب في آية الذهب. ولبس الأرجوان بعروة ذهب. وأقام أخاه سمعان قائداً للجيش من صور إلى تخوم مصر وخرج يونانان فطاف في عبر الأردن وفي المدن فألب جيشاً كبيراً في سورية قسمه إلى عسكريين قاد هو فريقاً وأخوه سمعان فريقاً آخر. فنكلوا بأعداء الملك وأدوه خدامات تُذكر فتشكر.

منها أنَّ يونانان انصرف إلى غزة فأغلق أهلها الأبواب في وجهه فحاصرها وأحرق ضواحيها ونهبها. فسأله أهلها الأمان فأمنهم وأخذ أبناء رؤسائهم رهائن وأرسلهم إلى أورشليم ثم جال في البلاد إلى دمشق فأتى قواد جيش ديمتريوس إلى قادش الجليل (المعروفة اليوم بقادس في غربي الحولة) يناوئونه فزحف لملاقاتهم إلى ماء جناشر (بحيرة طبرية). ثم سار إلى سهل حاصور (المعروفة الآن بجبل حضيرة في جوار قادس اعلام الأماكن الكتائية). فلاقاهم الأعداء في السهل واكتمن لهم فريق في الجبل. ولما انتشب القتال ثار الكمين عليهم ففرَّ السواد الأعظم من رجال يونانان فجتا يصلي. ثم قام بمن بقي معه يستأنف القتال فانهزم أعداؤه ولما رأى ذلك رجاله رجعوا وتعقبوا العدو إلى قادس وقتلوا منهم في ذلك اليوم ثلاثة آلاف رجل وعاد يونانان إلى أورشليم. وأما أخوه سمعان فحاصر بيت صور (المار ذكرها) أياماً كثيرة إلى أن سأله أهلها الأمان فأمنهم. وأقام فيها حرساً (مكابيين ١ فصل ١١ عد ٥٧ إلى عد ٧٤).

ثم بلغ يونانان أنَّ قواد ديمتريوس عادوا لمحاربته بجيش يزيد على جيشهم الأول فلم يمهلمهم أن يطأوا أرضه بل التقاهم إلى أرض حماه. وأرسل جواسيس إليهم فأخبروه أنهم مزمعون أن يهجموا عليهم ليلاً. فأمر جيشه أن يسهروا

وسلاحهم بأيديهم الليل كله، وعلم الأعداء أنهم متأهبون للقتال فداخلهم الرعب والردة، فأضرموا النار في محلتهم وفزوا. ولما علم يوناثان صباحاً بفرارهم تعقبهم فلم يدرهم لأنهم كانوا قطعوا نهر العاصي. فارتدَّ إلى قبيلة من العرب يسكنون في تلك الأنحاء ويُسمَّون زبدين فضربهم وسلب غنائمهم. ثم أتى دمشق وأما أخوه سمعان فمضى إلى اشقلون (عسقلان) والحصون القريبة منها ثم ارتدَّ إلى يافا واستحوذ عليها لأنه سمع أنَّ أهلها يريدون أن يسلموا حصنها إلى أحزاب ديمتريوس. وأقام في المدينة حرساً وعاد يوناثان إلى أورشليم. واثمر مع شيوخ الشعب أن يبنى حصوناً في اليهودية ويرفع أسوار أورشليم، ويفصل بين القلعة والمدينة. وأتمَّ ذلك هو وأخوه سمعان (مكابيين ١ فصل ١٢ عد ٢٤ إلى ٣٩).

وكان في هذه الأثناء أنَّ يوناثان سَيرَ إلى روما رجالاً ليقرِّروا الموالة بينهم. ويجتدوها فدخلوا الشورى وبلغوا رجالها الغرض من ارسالهم فرحبوا بهم وعند عودهم، كتبوا إلى عمالهم في الأقاليم أن يحسنوا مثواهم ويبلغوهم أرض يهوذا بسلام. وكتبوا إلى الملوك مناصريهم الرسالة المثبتة في الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين الأول (عد ١٦ إلى ٢٤) يعلنون فيها مناصرتهم لليهود، وأن لا يقيم عليهم أحد حرباً وأن يُسلموا من فَرَّ منهم من أهل الفساد إلى سمعان الكاهن الأعظم ليجزيهم بحسب شريعتهم. وأرسل يوناثان مع وفده إلى روما كتباً إلى اسبرطه (في المورة) وأماكن أخرى. وذكر صاحب سفر المكابيين الأول (فصل ١٢ عد ٥). نسخة هذه الكتب إلى أهل اسبرطه وملخصها: «من يوناثان الكاهن الأعظم وشيوخ الأمة والكهنة وسائر شعب اليهود إلى أهل اسبرطه اخوتهم سلام. إنَّ اريوس ملككم قديماً كان قد أنفذ إلى اونيا الكاهن الأعظم كتباً يشهد فيها أنكم اخوتنا فتلقَّى اونيا الرسول بالاكرام. وأخذ الكتب المصَّرح فيها بالمانصرة والموالة فنحن وإن لم تكن بنا حاجة إلى ذلك لما لنا من التعزية في الأسفار المقدَّسة قد أثَّرتنا مراسلتكم لنجدد الاخاء والموالة لئلا نُعَدَّ من الأجانب عندكم، إذ قد مضى على مكاتبتكم زمان مديد. وإنَّا في الأعياد لا نزال نذكركم في الذبائح وفي الصلوات كما يليق أن يذكر الاخوة. ويسرُّنا ما أنتم عليه من الاعتزاز وأما نحن فقد أحاطت بنا مضايق كثيرة وحروب عديدة. وقاتلنا الملوك الذين من حولنا وكرهنا أن نثقل عليكم وعلى سائر مناصرينا في تلك الحروب، فإنَّ لنا من السماء مدداً يمدُّنا. وتخلَّصنا من أعدائنا والآن اخترنا رجلين من وجهائنا وأرسلناهما إلى

الرومانيين لنجدد عهود الموالاة بيننا وبينهم. وأمرناهما أن يقدموا إليكم ويقرئكم السلام ويسلموا إليكم كتباً في تجديد الاخاء ولكم جميل الصنيع إن أجبتهم إلى ذلك». ثم ذكر نسخة رسالة اريوس الملك إلى اونيا الكاهن الأعظم فكان مآلها: «قد وُجد في بعض الكتب أن الأسبرطيين واليهود اخوة من نسل ابراهيم وإذ علمنا ذلك فلکم جميل الصنيع إن راسلتمونا فيما أنتم عليه من السلام، والآن مواشيكم وأملاككم هي لنا وإن مالنا هو لكم هذا ما أوصينا أن تبلغوه».

اختلف العلماء في هذه القربى بين اليهود والأسبرطيين فقال كثير منهم لا قربى بين القبيلتين بل المراد من كلام الكتاب إنما هو الاخاء والمودة لا الأخوة من جهة الأصل الجامع بينهما. وقالوا إن صحيح ترجمة كلام ملك اسبرطة إنما هو: «قد وُجد في بعض الكتب أن بين الأسبرطيين واليهود الذين من نسل ابراهيم موالاة واخاء». وأثبتوا قولهم بما جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ١٢ عد ٨ وهو: «فتلقى اونيا الرسول بالاكرام وأخذ الكتب المصرح فيها بالمناصرة والموالاة» كما رويها أنفأ. ثم بما جاء في جواب الأسبرطيين المثبت في الفصل الرابع عشر من هذا السفر (عد ٢٢) وهو: «ودونا ما قالوه في دواوين الشعب هكذا. قد قدم علينا تومانيوس ابن انطيوخس وانتيباتر بن ياسون رسولا اليهود ليجددا ما بيننا من الموالاة». حيث لا ذكر للأخوة والقربى التي أول من قال بها يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٢ فصل ٥ وك ١٣ فصل ٩). وقد كشف العلماء عن كثير من الأغلاط له.

وأما من قالوا بالقربى وهم كثيرون أيضاً فلهم في منشئها وأصلها أقوال، والأولى أن يقال احداث مختلفة. فمن قائل إن الأسبرطيين من ولد إحدى إمرأتي ابراهيم هاجر أو قطورة. ومن قائل إنهم من ولد امرأة لعيسو اتخذها من اليونان. ومن قائل إنهم من ولد قدموس الفينيقي أو أحد جاليتة الذين احتلوا بلاد اليونان. ولما كان قدموس فينيقياً حيث مواطن العبرانيين وهموا أن أصله من نسل ابراهيم. ومن قائل إن اسبرطة وضع أسسها رجل يهودي اسمه سبرطون (ملخص عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة لكديمونيين). وقالوا: إن السبرطيين يشبهون اليهود في أمور كثيرة منها شريعتهم وعاداتهم أن يغتسلوا كل يوم وثباتهم وبسالتهم. وعن القديس ابرونيوموس (في تفسير فصل ٢٣ من نبوة اشعيا) إن باختصر لما استحوذ

على اليهودية فرَّ كثيرون إلى قبرص ومكدونية وبلاد اليونان. وكذلك لما خرب
أورشليم فقد يكون ذلك منشأ هذه القري المدعى بها.

عد ٤٤٦

اغتيال تريفون يوناثان وانطيوخس السادس

كان تريفون هائماً بتاج الملك ولم يرق انطيوخس إلى العرش إلا ليحطه يوماً
عنه ويجلس عليه مكانه لكنه كان يخشى سطوة يوناثان. فأحب أن يهلكه وسار
بمسكر إلى بيت شان (بيسان) فالتقاء يوناثان في أربعين ألف رجل متخبين للقتال.
فلم يجسر تريفون أن يمد إليه يداً بل تلقاه بالاكرام. وأهدى إليه هدايا وأمر جنوده
أن يطيعوه طاعتهم لنفسه وقال له لِمَ ثقلت على هؤلاء الرجال وليس بيننا حرب
فاطلقهم. وانتخب لك منهم نفرًا قليلاً. وهلمَّ معي إلى بطلميس (عكا) فأسلمها
إليك هي وسائر الحصون ثم أنصرف أنا راجعاً لأنني لهذا جئت. فصَدَّقَ يوناثان
كلامه وصرف جيشه وأبقى معه ثلاثة آلاف وترك ألفين منهم في الجليل وسار مع
تريفون في ألف إلى عكا، ولما دخلها أغلق أهلها الأبواب وقبضوا عليه وقتلوا جميع
من كان معه، وأرسل تريفون جيشاً وفرساناً إلى الجليل لإهلاك جميع رجال
يوناثان. ولما علم هؤلاء أنَّ يوناثان قبض عليه ومن كانوا معه قُتلوا شجعوا أنفسهم،
وتقدَّموا وهم متضامنون متأهبون للقتال، ورأى طالبوهم أنهم مستبسلون فرجعوا
عنهم وعاد رجال يوناثان إلى أورشليم (مكايين فصل ١٢ عد ٣٩ إلى ٥٣).
فدخل الشعب الرعب والرعدة فصعد سمعان إلى أورشليم وشجَّع قومه فاخترأوه
قائداً لهم ووعدوا أن يفعلوا كل ما يقول. فحشد جميع الرجال وجدَّ في اتمام
أسوار أورشليم وحصنها، ووجه يوناثان بن ابشالوم إلى يافا في عددٍ وافٍ من
الجيش، فطرد من كانوا فيها من قبل تريفون وأقام هناك وزحف تريفون من عكا
في جيش عظيم ومعه يوناثان مخفوراً، وعلم أنَّ سمعان قد قام في مكان أخيه وأنه
مزعم أن يلحم الحرب معه. فأنفذ إليه رسلاً يقول إنما قبضنا على يوناثان لما كان
عليه للملك، فالآن أرسل مئة قنطار فضة وابني يوناثان رهينة لكلا يغدر بنا إذا
أطلقناه وحيثنَّ نطلقه. فعلم سمعان أنه يكلمه بمكر ومع ذلك أرسل إليه المال
والولدين مخافة أن يقال أنه أضرب بالشعب لأنه لم يرسل ذلك، فأخذ تريفون المال
والولدين. واستمرَّ يغير على البلاد ويدمرها وسمعان وجيشه يقاومونه حيث ما

تقدّم. وأنفذ الذين في قلعة أورشليم يقولون لتريفون أن يأتيهم في طريق البرية وينفذ إليهم ميرة. فجّهز تريفون جميع فرسانه للمسير في ذلك الليل ولكن تكاثرت الثلج حال دون مسيرهم. فارتحل تريفون إلى أرض جلعاد (السلط) ولما قارب من بسكاما (لا يُعرف موقعها إلا أنها في السلط) قتل يوناثان ودفنوه هناك سنة ١٤٣ ق م. ورجع تريفون إلى انطاكية ليغتال الملك إذ لم يعد يخشى أحداً في التوصل إلى غرضه.

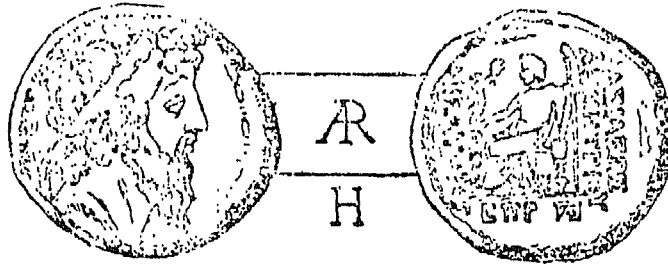
وأرسل سمعان وأخذ عظام أخيه ودفنها في مودين في مدافن آبائه. وناح عليه بنو إسرائيل نوحاً عظيماً وندبوه أياماً كثيرة. وأقام سمعان على قبر أخيه واخوته بناءً رفيعاً بحجارة منحوتة. ونصب على القبور سبعة أهرام لأبيه وأمه واخوته الأربعة. وكان أقام هراً ممدفنه حتى كانت الأهرام سبعة وزئنها بالنقوش. وجعل حولها أعمدة عظيمة عليها رسم أسلحة وسفن تخليداً لذكرهم (مكابيين ١ فصل ١٣ عد ١ إلى ٣٠). وقال كاتب السفر: «هذا هو القبر الذي صنعه بمودين باقياً إلى اليوم». وقد بقيت هذه المدافن قائمة إلى أيام يوسفوس لأنه ذكرها بل إلى أيام القديس ايرونيμος إذ قال في الأماكن العبرانية: «مودين قرية في جانب ديوسبوليس (اللد) كان فيها المكابيون وترى مدافنهم فيها إلى اليوم».

إنّ العالم كاران (في كتابه في فلسطين مجلد ٢ في السامرة صفحة ٥٥ وما يليها ثم في صفحة ٣٥٥ و ٤٠٤ و ٤١٥ وفي كتابه الموسوم بالأرض المقدسة في كلامه على مودين) أطال الكلام في مودين هذه. وحقّق أنها المسماة الآن المدية في جوار اللد، وقد احتفر فيها باحثاً عن مدافن المكابيين فوجدها. وأثبت أنها هي هي بأدلة راهنة، وردّ كلما يمكن أن يُرد على صحة ذلك من الاعتراضات، وهّم كثيراً بأن يشتري الأرض التي فيها هذه المدافن، ويجعلها ملكاً لحكومة افرنسا فلم يتيسّر له. وقد كان الأب عمنوئيل فورما أحد الآباء الفرنسيين تقدمه في القول أنّ المدية هي مودين حيث مدفن المكابيين سنة ١٨٦٦ م والدكتور سنبركتي وكندر الإنكليزيين قالوا بذلك سنة ١٨٦٩ م ثم أكمل هو (أي كاران) هذا الاكتشاف عن هذه المدافن سنة ١٨٧٠ م.

أما تريفون فلم يُطىء بعد عوده إلى انطاكية أن قتل انطيوخس الملك الصغير بذريعة أنه مريض مرض الحصاة. فاستدعى الأطباء لياشروا له عملية جراحية واسرّ

إليهم أن يقتلوه بها فقتلوه. ولم يكن من يثأر بدمه فملك تريفون مكانه وليس تاج آسيا (مكابيين ١ فصل ١٣ عد ٣١ و ٣٢ وطيطوس ليف رسالة ٥٥ وبيان في الرسائل فصل ٦٨ يوستينوس ك ٣٦ فصل ٢ ويوسفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٧) وكان ذلك لسنة ١٤٢ ق.م.

واليك مثلاً لسكة انطيوخس السادس ففي الوجه الأول مثال رأسه وعليه تاج تنبعث منه أشعة. وفي الوجه الثاني رسم فارسين على جواديهما ورماحهما مشرعة وعليها علامات دالة أنها ضربت في هرقلية سنة ١٦٩ للسلوقيين. وكتب عليها باسيلوس انطيوخس أبيفانيوس ديونيسيوس أي الملك انطيوخس ابيفان ديونيسيوس .



عد ٤٤٧

ما كان في أيام تريفون إلى مقتله

أحب تريفون أن يقر له الرومانيون بالملك تأييداً له فأرسل إلى روما وفداً وأهدى إلى ندوتها معهم تمثال الحظ من ذهب يساوي زنة عشرة آلاف قطعة من ذهب. فتقبله الرومانيون إلا أنهم كتبوا عليه أنه هدية من الملك انطيوخس الذي كان تريفون قتله إشعاراً بأنهم لم يقرؤا له بالملك. على أنهم لما بلغهم خبر وفاة يوناثان أسفوا عليه شديداً. وكتبوا إلى سمعان أخيه مع رسوله فوميانوس على ألواح من نحاس يجددون معه ما كان لهم من الموالاة والمناصرة مع أخويه يهوذا ويوناثان. وكتب إليه أيضاً رؤساء الأسبرطيين رسالتهم المثبتة في سفر المكابيين الأول (فصل ١٤). جواباً على الرسالة التي كان أخوه يوناثان أنفذها إليهم وبنى سمعان حصون

اليهودية . وعزّزها بالأسوار والبروج وأدّخر فيها ميرة وأرسل إلى ديمتريوس الملك وهو لاه في اللاذقية، عاكفاً على ملاذه أن يعفي البلاد من الضرائب التي يطلبها تريفون، لأنّ كل ما فعله هذا إنما كان اختلاساً. وأهدى إليه اكليل ذهب وسعفة فكتب إليه ديمتريوس كتابه المثبت في الفصل الثالث عشر من سفر المكابيين به يثبت له ولايته كل الاختصاصات التي كانت لهم قبلاً، وإنّ الحصون التي بنوها تكون لهم، وعفا عفواً عاماً عن كل مذهب أو جانٍ إلى ذلك اليوم. وترك لهم كل ضريبة وأباح اليهود أن يكتبوا في جنديته قاصداً أن يستميلهم إليه لمقاومة تريفون. وبدا بنو إسرائيل يكتبون حينئذ أي سنة ١٤١ ق.م في توقيع الصكوك والعقود في السنة الأولى لسمعان الكاهن الأعظم قائد اليهود ورئيسهم (مكابيين ١ فصل ١٣ عد ١٦ إلى عد ٤٣).

ونزل سمعان على غزة وحاصرها بجيشه وصنع دبابات، وأدناها من المدينة ووثب من فيها على المدينة فحصل اضطراب عظيم. وصعد أهلها رجالاً ونساءً وأولاداً إلى السور يصرخون إلى سمعان سائلين الأمان. فأمنهم ودخل المدينة بالتسبيح وطهر البيوت التي كان فيها أصنام. وحصّن المدينة وبنى فيها منزلاً وضايق الذين كانوا في قلعة أورشليم. فمات كثير منهم جوعاً فطلبوا الأمان فأمنهم وأخرجهم من هناك. وطهر القلعة من النجاسات ودخلها بمعظم الاحتفاء ورسم أن يعيّد ذلك اليوم بسرور كل سنة. وحصّن جبل الهيكل الذي بجانب القلعة وجعل ابنه يوحنا قائداً على جميع الجيوش. وأقام بجازر (تل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص) مكابيين ١ (فصل ١٣ عد ٤٣ إلى ٥٤). وجعل يافا مرسى للسفن وفتح مجازاً للجزائر. ووسّع تخوم مملكته واستتبّت الراحة والسلام في اليهودية وما ألحق بها. وكتب الشيوخ والكهنة وعامة الشعب في سنة ١٧٢ ق.م وهي سنة ١٣٩ ق.م والثالثة لسمعان صكاً لسمعان أقرّوا به بالفضل له ولاخوته. وأقرّوه قائداً لأمتهم وكاهناً أعظم وحثّموا أن يطيعه الشعب كله ولا يعارضه أحد. وقيل سمعان ذلك ووقعوا جميعاً على هذا الصك الذي كتبه على ألواح من نحاس وحفظوه في خزانة الهيكل.

أما ديمتريوس فاستفاق أخيراً من رقاده غفلته ولهوه إذ وافاه وفود من المشرق يستنجدونه على البرتين الذين كانوا استحوذوا على كل البلاد الواقعة بين الهند والفرات. فهبّ ديمتريوس لنجدتهم آملاً في أن ينجدوه بعداً على تريفون، فعبر

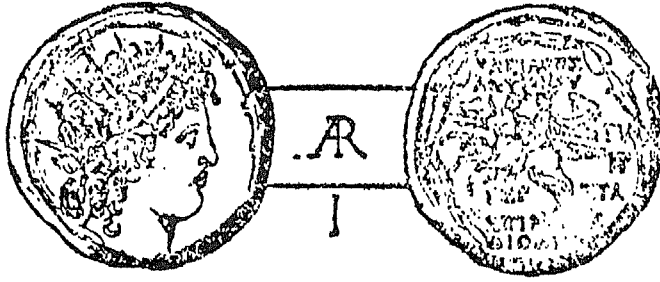
الفرات. وانضوى تحت رايته العيلاميون والفرس وغيرهم واستظهر على البرتين في وقائع عديدة، على أنَّ ملكهم ارساكيس أو ارساس (كما كان جميع ملوكهم يسمون بهذا الاسم نسبةً إلى ارساكيس أول ملوكهم وكان علمه الشخصي متريدات) استظهر عليه وأخذه أسيراً وطوّفه في كل الأعمال التي دونها ليحسن الخضوع له. ثم عامله بمنزلة ملك وأكرم مثواه وزوّجه بابنته رودوكون، وشرط عليه أن لا يبارح مملكته. وكان ذلك لسنة ١٤٠ ق.م.

ولما علمت قلوبطرة امرأته أنه وقع أسيراً بيد البرتين تحصّنت مع أولادها في سلوقية (السويدية). وترك كثيرون من الجنود تريفون لاعتسافه وانكبابه على الملاذ وتوانيهِ عن مهام المملكة. وحازبوا الملكة قلوبطرة على أنها لم تكن في مأمن من تريفون فبلغها زواج ديمتريوس بابنة متريدات. وكان أبنائها صغاراً لا ترجى منهم المقدرة على خلع تريفون. وتسلم عرش الملك فراسلت انطيوخس صيدات أنحا ديمتريوس زوجها أن يتزوّجها فتقدر بعونه على اتخاذ الملك فلبّى دعوتها. وكتب وهو في رودس (ابيان في السورين فصل ٦٨) إلى سمعان قائد اليهود رسالته المثبة في الفصل الخامس عشر من سفر المكابيين الأول يستحثه على مناصرته لطرده تريفون. ويخوّله اختصاصات كثيرة حتى أن يضرب في بلاده سكة خاصة. ثم تزوج قلوبطرة وسمى نفسه ملك سورية وحمل على سورية بجيش نحو مئة وعشرين ألفاً حشد أكثرهم من بلاد اليونان وآسيا الصغرى والجزائر، وانضمَّ إليهم من كان عند قلوبطرة. وزحف لقتال تريفون وكان شعبه وجنوده قد مقتوه فتركه كثيرٌ منهم وانحازوا إلى انطيوخس، ولما رأى تريفون عجزه عن مناوأة انطيوخس فرَّ من وجهه. وأحرق بيروت وسار إلى دورا (الطنطورة على مقربة من عكا) فحاصره انطيوخس فيها بحراً وبراً. فهرب تريفون بحراً إلى طرطوس ثم إلى حماه موطنه. فقُبض عليه هناك وقُتل (يوستينوس ك ٣٦ فصل ١ و ابيان في السورين ف ٦٨ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ ف ٩ و ١٢ وسفر المكابيين الأول فصل ١٤) وكان أخذ انطيوخس الملك وقتل تريفون سنة ١٣٨ ق م.

ولكن أين كانت بيروت التي أحرقتها تريفون فالمعول عليه بالاجماع إلى الآن أنها كانت حيث هي الآن. وإنَّ المدينة في أيام السلوقيين كانت في موقعها نفسه في أيام الرومانيين. على أنَّ الاكتشافات التي يعني بها الدكتور روفيه الافرنسي في ما وراء نهر الغدير أدّته إلى العثور على آثار قديمة فينيقية ومسكوكات كُتبت عليها

ما يُشعر بأنَّ المدينة القديمة كانت هناك وأنها كانت تسمى أيضاً لازقية كنعان. وقد وُجد أيضاً هناك مدافن فينيقية وآنية خزفية عليها أحرف فينيقية. وما برح مجدداً في التنقيب هناك علّه يتوصّل إلى اثبات رأيه بأنَّ بيروت القديمة كانت في المحل المذكور، على أنَّ ما نراه إنَّ ما كُشف عنه حتى الآن غير كافٍ لاثبات ما يخالف رأي الأقدمين. ونعلم من جهة أخرى أنَّ لازقية كنعان كان اسماً عند الأقدمين للمحل المعروف الآن بأَم العواميد على مقربة من الطنطورا على ما يؤخذ من بعض الخطوط التي عثر عليها رنان هناك وذكرها في كتابه الموسوم ببعثة فينيقية.

واليك مثلاً لسكة تريفون ففي الوجه الأول رسم رأسه مكلاً. وفي الوجه الثاني صورة نسر طاوٍ جناحيه على صاعقة وكُتب عليها باسيلوس تريفون اوتوكراتوس أي الملك تريفون المستقل.



عد ٤٤٨

حرب انطيوخس السابع مع اليهود

إنَّ انطيوخس هذا هو ابن ديمتريوس الأول الملقَّب بسوتر وأخو ديمتريوس الثاني الملقَّب بنكانور. رُقِّيَ إلى منصَّة الملك سنة ١٣٨ ق.م كما مرَّ. قال بعضهم أنه سمي صيدات لولوعه بالصيد. والأمثل ما قاله فيكورو (في معجم الكتاب) إنه سمي كذلك لأنه وُلد في صيدا في بمفيلية نصيدات بمعنى الصيداي. (اوسايوس في تاريخه). وقد رأيت أنه قبل أن بلغ مملكته كتب إلى سمعان يستنجد به ويثبث له اختصاصاته ويزيد عليها. فأرسل إليه سمعان وهو محاصر لدورا ألفي رجل منتخبين نصرته له وفضة وذهباً وآنية كثيرة. على أنَّ انطيوخس الملك لما رأى استفحال أمره

وفرار عدوّه أثر اتباع خطة أكثر سلفائه في مناصبة اليهود. وتغيّر على سمعان ولم يقبل رجاله ولا هداياه. ونقض عهده له وأرسل إليه اتينويوس أحد أصحاب الملك يقول من قبله إنكم استوليتم على يافا وجازر وقلعة أورشليم وهي من مملكتي فتخلّوا عن هذه المدن. وأدوا خراج ما تسلطتم عليه في خارج اليهودية خمس مئة قنطار فضة. وعمّا ألتفتموه خمس مئة قنطار أخرى ولّا فتأهبوا للقتال. فأجابه سمعان أننا لم نأخذ أرضاً لغريب، ولم تستولِ على شيء لأجنبي. لكننا استرددنا ميراث آبائنا الذي استولى عليه أعداؤنا. ويافا وجازر كانتا تجلبان على شعبنا نكبات شديدة فاستحوذنا عليهما. ونؤدي عنهما مئة قنطار فضة. فلم يجبه اتينويوس بكلمة وعاد إلى الملك. وقصّ عليه ما رآه من مجد سمعان وخزانة آنيته الفضيّة والذهبية وأثاثه الوافر. وبلغه جوابه فاستشاط الملك غضباً وأقام كندباوس قائداً على جيشه الساحلي. وأمره أن يزحف إلى اليهودية ويقاوم اليهود، وهو عاد بجيشه إلى الشمال متعقباً تريفون الذي كان فرّ إلى طوطوس كما مرّ (مكايين ١ فصل ١٥ عد ٢٦ إلى ٤٠).

وبلغ كندباوس إلى يمينيا (بينه الآن بين يافا شمالاً واشدود جنوباً) وحصن قدرون (قطرة الآن على خمسة أميال من بينة شرقاً الأعلام الكتابية). وجعل يرغم الشعب ويغير على اليهودية. فصعد يوحنا ابن سمعان وأخبر أباه بما كان. ولما كان سمعان قد شاخ وابناه يهوذا وسمعان بلغا أشدهما فأرسلهما لقتال كندباوس. وانتخب في البلاد عشرين ألفاً من رجال الحرب والفرسان جعلهم تحت أمرة ابنيّه، ولما بلغوا السهل التقاهم جيش عظيم من الرجالة والفرسان. وكان بين الجيشين وادٍ ورأى يوحنا رجاله خائفين من عبور الوادي. فعبر هو أولاً وأتبعه رجاله وألحموا الحرب ونفخوا في الأبواق المقدّسة فانكسر أمامهم كندباوس وجيشه وقُتل منهم كثيرون. وفرّ الباقيون ولجّروا يهوذا ابن سمعان فتعقبهم أخوه يوحنا فتحصّنوا في قدرون التي حصّنها كندباوس. فأخرجهم يوحنا منها وفرّوا إلى البروج التي في أشدود فأحرقها يوحنا. وقتل منهم ألفي رجل وعاد إلى أرض يهوذا بسلام (مكايين ١ فصل ١٦ عد ١ إلى ١١).

وكان الملك أقام بطلمائوس بن ابوبس صهر الكاهن الأعظم قائداً في بقعة أريحا. وكان غنياً فتشامخ وسوّلت له نفسه الأثارة بالسوء أن يستولي على البلاد

ويقتل سمعان وبنيه. وكان سمعان يجول في المدن يتعهّد مهامها فنزل إلى أريحا هو وابناه متتيا ويهوذا. فأنزلهم بطلماوس في حصن بناه يسمى دوق (يُعرف الآن بعين دوق في جوار أريحا اعلام الأماكن الكتابية). وأدب لهم مأدبة عظيمة وأخفى هناك رجالاً. ولما شرب سمعان وابناه وثب عليهم بطلماوس ورجاله فانتزعوا سلاحهم وقتلوهم وبعضاً من غلمانهم بخيانة فظيعة. وكتب بطلماوس إلى انطيوخس يخبره بذلك ويسأله أن يُرسل إليه جيشاً فيسلمه البلاد كلها. ووجّه قوماً إلى جازر ليقتل يوحنا بن سمعان وآخرين ليستولوا على أورشليم وجبل الهيكل. وعلم يوحنا بما عمله الخائن وقبض على الرجال الذين أتوا ليقتلوه فقتلهم عن آخرهم. ولم يطرفنا كاتب سفر المكابيين الأول بما صنعه يوحنا بعد ذلك إلا بقوله الذي هو خاتمة سفره: «وبقية أخبار يوحنا وحروبه وما أبداه من الحماسة وبنائوه الأسوار التي بناها وأعماله مكتوبة في كتاب أيام كهنوته الأعظم منذ تقلد الكهنوت الأعظم بعد أبيه». وكان مقتل سمعان لسنة ١٧٧ للسوقيين الموافقة سنة ١٣٥ أو سنة ١٣٤ ق.م.

على أن الكتاب في أيام كهنوت يوحنا مفقود، ولكن أنبأنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٥). واوسابيوس (في تاريخه كتاب ٢ فصل ١٩) إن يوحنا أتى أورشليم وحشد الرجال على بطلماوس ففرّ إلى حصن الدوق فحاصره يوحنا فيه. وكاد يفتحه ولكن بطلماوس كان أسر أم يوحنا وأخوين له فأصعدهم إلى أعلى السور متهدداً يوحنا بأنه يلقيهم إلى أسفل إن لم يرفع الحصار عنه. فأخذت يوحنا الشفقة على أمه وأخويه فرفع الحصار لكن الخائن قتلهم بعد ذلك وفرّ إلى زينون ملك فيلادلفيا. وهي عمان في عبر الأردن. ثم انطيوخس السابع حاول أن ينتقم لكندبوس قائد من اليهود فلجى دعوة بطلماوس قاتل سمعان وغشي اليهودية بجيشه. وخرّب ودّمّر في البلاد وحاصر أورشليم وأوشك أن يفتتحها لكنه خوفاً من الرومانيين صالح يوحنا على شروط لم تكن ثقيلة على اليهود منها أن يطرحوا سلاحهم. ويؤدوا إليه جزية يافا والمدن الخارجة عن اليهودية. وأن يقبلوا حرساً من قبله في مدنها فقبل يوحنا شروطه إلا إقامة الحرس في مدنها. وافتدى ذلك بدفعه إلى الملك مبلغاً وافراً من المال، ثم وقّع على الصلح. ويوحنا هذا يلقب بهركان وقد خلف أباه في رئاسة الكهنوت والولاية على اليهودية.

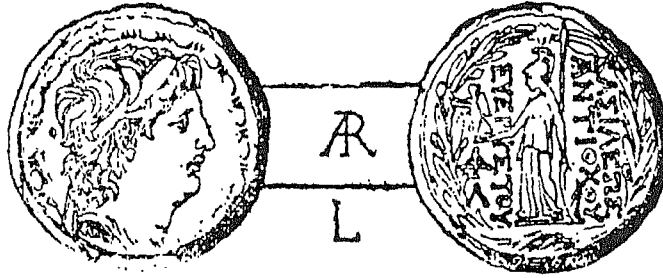
تتمّة أخبار انطيوخس السابع

قد أحبّ انطيوخس أن يستميل الرومانيين إليه فأرسل إلى شيبون الافريقي الثاني وهو في اسبانيا هدايا كثيرة نفيسة. فأخذ بعض رؤساء جنوده شيئاً منها فجمع شيبون جنده كلهم وأمر بحضرتهم أن تسلم تلك الهدايا كلها إلى خازن العسكر ليكافئ بها من امتاز من الجنود بإداء خدمته فدونك مثلاً للنزاهة وعزة النفس وحسن السياسة. وقد مرّ أنّ ديمتريوس الثاني كان أسيراً عند ملك البرتين فأطلق له الذهاب حيث شاء. ولم يخطر عليه إلا الخروج من مملكتهم، فحاول مرتين الهرب والعود إلى سورية فلم ينجح. وكان ملك البرتين يطمع في الولاية على سورية على بعدها عنه وكان يتحين فرصة ليغشى سورية بحجة أن يرد ديمتريوس صهره إلى ملكه فيستولي هو عليها. فأراد انطيوخس السابع أن يتدارك هذا الأمر قبل وقوعه فحشد جيشاً وافراً ينيف على ثمانين ألف مقاتل من نخبة رجاله. وأتبعهم جثم غفير من الطباخين والحلوانيين والمغنيين والنساء، فاستظهر انطيوخس أولاً على فرأت الثاني ملك البرتين (الذي كان قد خلف أباه متردت) في ثلاث وقائع واسترد منه بلاد بابل ومادي، وخلعت جميع أعمال المشرق التي كانت من مملكة سورية نير الطاعة للبرتين وخضعت لانطيوخس. وربما كان حينئذ ما رواه يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٦) عن نقولا الدمشقي وهو: «إنّ الملك انطيوخس أقام قوس انتصار على عدوة نهر ليكوس (نهر الكلب) ذكراً لانتصاره على إندات قائد جيش البرتين. وكان يوحنا هركان أمير اليهود مرافقاً لانطيوخس في هذه الحروب وشاطره شرف الظفر، وعاد بعده إلى أورشليم مكرماً مهيباً وكان ذلك سنة ١٣١.

واستمرّ الملك وجيشه يقضون فصل الشتاء سنة ١٣٠ ق.م في أعمال المشرق المذكورة. ولكثرة الجيش وتبعته تفرقوا في محال عديدة يبعد بعضها عن البعض آمنين غير مباينين بأنّ تشتتهم يحول دون اجتماعهم إذا دهمهم العدو. وأثقلوا على أهل البلاد وبغوا واستطالوا فتأمر الأهلون مع البرتين عليهم. ووثبوا عليهم في يوم واحد في كل الأماكن فقتلوهم. فأسرع انطيوخس بمن كان حوله من الجنود لانتفاذ القرابين من محلته. فارتكم الأعداء عليه وقتلوه ومن لم يُقتل من جنوده أخذ أسيراً

ولم يفلت إلا قليلون أتوا إلى سورية بهذا النبأ المفجع، فعمَّ الحزن والكآبة السوريين إذ قلَّ ما كانت أسرة لم تُفجع بأحد رجالها (يوستينوس ك ٣٨ فصل ٩ و ١٠ و ابيان في السوريين فصل ٩٦ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٦ وغيرهم). وكان ذلك لسنة ١٣٠ ق.م.

وهذا مثال لسكة انطيوخس السابع. ففي الوجه الأول صورة رأسه والتاج عليه. وفي الوجه الثاني رسم بالا ويدها اليمنى مثال الظفر وفي اليسرى سهم. وقد كُتب عليها باسيلوس انطيوخس افرجاتوس أي الملك انطيوخس المحسن.



وكان انطيوخس السابع حليماً ذا صفات حميدة كثيرة وروى عنه بلوطرخ إنه ضلَّ طريقه في يوم خرج فيه إلى الصيد فأوى إلى كوخ لفقراء، فقروه مما أمكنهم ولم يعرفوه. وفيما هم على العشاء سألهما عما يسمعون عن الملك وسيرته في الرعية فقالوا هو أميرٌ حليمٌ حسن الخصال على أن ولوعه بالصيد يغفله مهام المملكة وشدة ثقته بعماله كثيراً ما يحول دون اتمام نياته الصالحة فلم يفه بكلمة. وفي الغد بلغ بعض حاشيته إلى الكوخ فقصَّ عليهم ما سمعه في المساء ثم أقبل على توبيخهم فقال: «إني منذ اتخذتكم لخدمتي لم اسمع كلمة تبين حقيقة ما أنا عليه إلا أمس من هؤلاء الفقراء». ويحث فزأت بين جثث القتلى عن جثة انطيوخس فوجدها ووضعها على نعش من فضة. وأرسلها إلى سورية لتُدفن في مدافن آبائه، ووجد بين الأسرى ابنة له بديعة الجمال فراقه حسنهما فتزوج بها.

عود ديمتريوس الثاني إلى سورية وما كان إلى مقتله

إنَّ فَوَّاتٍ لما انتصر عليه انطيوخس السابع سَرَّحَ ديمتريوس إلى سورية مصحوباً بفريق من الجند آملاً أنَّ رجوعه إلى سورية ينشأ عنه قلق يبعث انطيوخس على العود عنه إلى مملكته. لكنه بعد مقتل انطيوخس وجيشه أسف على ما صنع وأرسل كتيبة من الفرسان تسترد ديمتريوس من طريقه فلم يدركوه. لأنه أسرع في مسيره خائفاً من أن يجد على الملك ما يثنيه عن عزمه. فبلغ ديمتريوس انطاكية واستوى على عرش الملك مبدياً مظاهر السرور بينما كان أهل مملكته متشحين بأطمار الحداد على قتلاهم.

وانتهز يوحنا هركان هذه الفرصة فمدَّ حدود ولايته وبسط سلطته على مواضع عديدة في سورية وفينيقية وبلاد العرب. وهمَّ أن يجعل نفسه مستقلاً في ولايته مطلق الأمر ففاز بذلك لأنه منذ حينئذٍ استبدَّ هو وذريته في الملك على اليهود. وخلعوا نير ولاية ملوك سورية ولم يبقَ لهم علاقة معهم (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٧ واسترابون ك ١٦ ويوستينوس ك ٣٦ فصل ١).

أما فَوَّاتٍ فهمَّ أن يحمل على سورية ليدرك ثأره من حملة انطيوخس على مملكته، ويكبح ديمتريوس عن الاستطالة عليه في تجهيز جيشه فنار عليه التتر الذين كان استنجدهم لقتال انطيوخس فلم تبلغ رجالهم إليه إلَّا بعد انقضاء الأمر. وقُتل انطيوخس ورأى فَوَّاتٍ نفسه في غنى عنهم فصرفهم ولم يدفع إليهم ما عاهدهم به من الأجرة، فانقلبوا عليه وحاربوه حتى قتلوه. فأنقذ قتل فَوَّاتٍ سورية من شرِّه ونجا ديمتريوس من غائلة حربه، على أنَّ ديمتريوس لم ينبُج من غوائل أعماله السيئة لأنه تمادى في صلفه واعتسافه وبغيه، فجُزي بما جنت يده. وإليك ما كان.

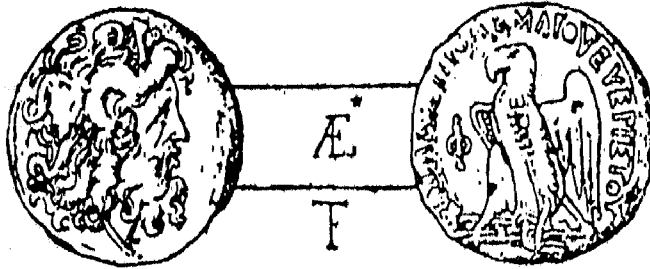
قد رأيت أنَّ بتلميس فيسكون أفحش في مصر حتى أنه في يوم زفاف قلوبطرة أخته، وأرملة أخيه إليه قتل في حضنها ابنها الذي كان وُلد لها من أخيه بتلميس فيلوماتور ثم كره قلوبطرة. وهام قلبه بابنة لها من أخيه فطلَّق الأم وأبعدها. وتزوج بابنتها المسماة قلوبطرة أيضاً على عادتهم في تسمية بنات الملوك بهذا الاسم. وأجلب الطامة الكبرى على الاسكندرئين بأنه جعل الأجانب من جيشه يقتلون جمًّا غفيراً من شبانهم عند اجتماعهم في حفلة. فحنق الشعب عليه

وتسارعوا إلى إلقاء النار في قصره ليحرقوه فيه، لكنه كان قد فرّ منه إلى قبرص. فنادوا قلوبطرة امرأته التي طلقها ملكة عليهم، فجهّز جيشاً لمحاربة هذه الملكة ومحاربيها. وخشي أن يستدعي الاسكندريون ابنه الذي كان قد ولّاه القيروان ويملّكوه فيهم. فاستدعاه واغتاله فور وصوله إليه ليجرد ما توهمه فعظم اشمئزاز الشعب من فظائعه، وحطّموا كل ما له من التماثيل في اسكندرية، وظنّ هو أنّ قلوبطرة الملكة حملتهم على ذلك. وكان له منها ابن أخذه معه إلى قبرص فذبحه وقطّع جثته قطعاً. وأبقى الرأس على سلامته ليُعرف رأس من هو، ووضع الجثة في صندوق أرسله مع حرس إلى الاسكندرية، وأمرهم أن يقدّموا الصندوق للملكة يوم عيد مولدها الذي كان قريباً فأتموا أمره. واستحال ذلك العيد مأتماً وبعثت هذه الفظيعة البربرية الشعب ورجال الدولة على حمل السلاح للحال فجهّزوا جيشاً يتكفّل بعدم عود هذا المسخ إلى عرش مصر. وجعلته الملكة تحت أمرة مرسيا وأعدّ هو جيشاً أمر عليه هيجيلوس وسيره على الاسكندريين والتحم القتال. فظهر جيش فيسكون على عسكر الملكة وأخذ قائده أسيراً فراسلت الملكة ديمتريوس ملك سورية صهرها لأنه كان متزوجاً بابنتها البكر من بتلميس فيلوماتور ووعدته بتاج مصر. فلَبّي ديمتريوس دعوتها لساعته وخفّ بجيشه فحاصر بالوس (فرما).

على أنّ ديمتريوس كان شعبه يمثته مقت المصريين للمكهم فلم يبرح انطاكية إلّا وثار عليه شعبها ثم تبعهم أهل اباميا (قلعة المضيق) وغيرهما من المدن. فأرغم ديمتريوس أن يغادر مصر ويعود لتدوين بلاده. أما الملكة قلوبطرة فلما رأت أنّ لا نصير لها وأنّ المصريين كسر فيسكون شوكتهم، أخذت خزائنها وفرت إلى حمى ابنتها قلوبطرة ملكة سورية. وقد علمت مما مرّ أنّ قلوبطرة هذه كان أبوها بتلميس فيلوماتور قد زوّجها أولاً بالملك اسكندر بالا ثم أخذها منه وزوّجها بديمتريوس الثاني، ولما أسره البرتيون تزوّجت بأخيه انطيوخس صيدات وبعد مقتله عادت إلى ديمتريوس زوجها. وكانت هذه الملكة في عكا عند بلوغ أمها إليها.

ولما تركت قلوبطرة الاسكندرية عاد إليها فيسكون واستتبّ له الملك فأراد أن ينتقم من ديمتريوس فحمل رجلاً اسمه اسكندر زينا ابن بائع خلقان في اسكندرية على أن يدّعي أنه ابن الملك اسكندر بالا، وينازع ديمتريوس الملك وجّهز له من مصر جيشاً سيّره إلى سورية. وعن يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٧) إنّ زينا هذا كان من ذرية سلوقس وأيّاً كان فقد انحاز إليه السواد الأعظم من أهل

سورية دون تروثة في صحة دعواه إذ كانوا يرغبون التملص من حكومة ديمتريوس
أياً كان الحاكم فيهم بعده. والتحم القتال بين جيش زينا وجيش ديمتريوس على
مقربة من دمشق فانكسر عسكر ديمتريوس وانهزم هو إلى عكا حيث كانت الملكة.
فانتهزت هذه الفرصة للانتقام منه لزواجه في مدة أسره بابتة ملك البرتين.
ووصدت أبواب المدينة فاضطر ديمتريوس أن يفرّ إلى صور وهناك قُتل فأخذت
قلوبطرة قسماً من الملك وملك زينا في باقيه. فيا لمشهد مفرج لا يعلم به من
الأسبق إلى الفطائع النساء أم الرجال من هؤلاء الملوك والملكات. فحيث ليس وازع
من قبل الدين لا تستغرب هذه الفطائع. وكانت هذه الأحداث سنة ١٣٠ إلى سنة
١٢٥ ق م. (يوستينوس ك ٣٨ فصل ٨ و ٩ وطيطوس ليف ك ٣٩ وديودور في
الفقرات التي أذاعها مولر ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ١٧ وغيرهم).
وهذا مثال لسكة بتلميس السابع فيسكون ففي الوجه الأول صورة رأس
المشتري عمون. وفي الوجه الثاني صورة نسر باسط جناحيه وقد كُتب عليها
باسيلاوس بتولماوس افرجاتوس أي الملك بتلميس المحسن.



الفصل السادس

قلوبطرة وزينا وانطيوخس كريوس وانطيوخس الشيزيكي ملوك سورية

عد ٤٥١

قلوبطرة

قد مرَّ أنَّ مملكة سورية بعد مقتل ديمتريوس قُسمت إلى قسمين ملكت قلوبطرة في عكا وجنوب المملكة، وملك زينا في انطاكية وشماليتها. وكان لقلوبطرة من ديمتريوس ابنان أكبرهما يسمى سلوقس همَّ أن يستوي على عرش أبيه وأعلن أنه ملك سورية. وحازبه قوم على أنَّ أمه كانت تحرص على الملك. وتطمع في بقائها على منصَّته ويوغر صدرها على ابنها لمزاحمته لها فيه. وتخشى أن يثار منها بدم أبيه الذي عملت على قتله فقتلته بيدها طاعنة له بمدية في بطنه. وقد استأصل طمعها الاشعبي في الملك الحنو الوالدي من قلبها ومن تملكته أمياله قاداته إلى ما تنفر منه الضواري أنفسها. فلم يملك سلوقس إلا سنة واحدة من سنة ١٥٢ إلى سنة ١٢٤ ق.م.

وبعد أن اغتالت قلوبطرة ابنها سلوقس فكرت بأنَّ الشعب المعتاد الحروب كشعبها لا تستقيم له حال ما لم يتوله ملك يسير في رأس جيشه.. وخشيت أن يثور الشعب عليها ويثُلَّ عرشها فتذرَّعت بذريعة أن تملك ابنها الصغير فتتلافى ثورة الشعب وتبقى لها السلطة المطلقة. وكانت أرسلت انطيوخس ابنها الصغير إلى أثينا لاقتباس العلوم فاستدعته وملكته سنة ١٢٣ ق.م لكنه لم يكن له إلا اسم ملك ومرجع جميع مهام الملك إليها، وهو لحدائته جعل أعنة الأمر والنهي طوع يديها. وشمي انطيوخس كريوس أي الكبير الأنف لكبر أنفه وسماه يوسيفوس فيلوماتور

(أي محب أمه). وهو يسمي نفسه في سكتته انطيوخس ايفان وبعد حربه الآتي ذكرها مع زينا وبلوغ رشده أراد أن يستبد في ملكه فلم تتحلى أمه قلوبطرة الطماعة هذا الاستبداد. وعزمت أن تهلك ابنها هذا الثاني كما أهلك الأول وتقيم على أريكة الملك ابناً آخر لها رزقته من انطيوخس صيدات. وكان بعد حدثاً فتستمر أزمة الملك بيدها وعاد انطيوخس كريبوس ذات يوم إلى قصرها تعباً فهيأت له كأس شراب دسّت له فيها سمّاً وقدمتها إليه وكان يحذر مكرها به فسألها أن تشرب هي الكأس حرمة لها لأنها أمه. وألحّ عليها أن تجرعه فأبت.

فاستدعى شهوداً وقال لها: لا وسيلة لك لتبرئة ساحتك من ظني بك السوء إلا أن تشربي هذه الكأس التي قدمتها لي. فلم يبق لها مناص إلا بأن تجرع الكأس فيهلكها السم أو يثبت عند ابنها مكرها به فيقتلها فأثرت التهام الكأس فهلكت به. وكانت كالباحث على حتفه بظلفه ونجت سورية من ذات الفظائع الخفيفة التي كانت داهية دهماء لها سنين عديدة وكان موتها سنة ١٢٠ ق.م (طيطوس ليف ك ٦٠ يوستينوس ك ٣٩ ف ١ و ٢ و ابيان في السورين ف ٦٩ وغيرهم).

عد ٤٥٢

زينا ويوحنا هركان أمير اليهود

قد مرَّ أنَّ زينا ملك في انطاكية وما يليها سنة ١٢٨ وثار عليه ثلاثة من عماله. وحازبوا قلوبطرة واستحوذوا على مدينة اللاذقية وعصوه فيها. فزحف إليهم بفريق من جيشه. وأرغمهم على الاستسلام إليه. والخضوع له فرفق بهم وعفا عنهم. فقد كان حليماً عادلاً يعامل بالأنس والرفقة كل من عاشره أو سألهم أمراً. فأجبه مسودوه حتى من أنفوا من استعماله المكر لتسئم العرش ورغبة في توطيد دعائم ملكه عقد عهدة مناصرة وموالة مع يوحنا هركان أمير اليهود. وانتهاز يوحنا هذه الفرصة لرسوخ ولايته على أمته وتأييد حريتهم الدينية والمدنية وانبساط سلطتهم. فاستحوذ على ميدبا وغيرها من المدن في شرقي الأردن وقهر السامريين والأدوميين. وأوفد رسلاً إلى روما يجدد عهد الموالة بينه وبين الرومانيين كما كان في أيام أبيه سمعان فرحب رجال الندوة برسله وأجابوهم إلى كل ما سألوا. ولما كان انطيوخس صيدات انتزع من سمعان يافا وغزة وبعض المدن التي كانت تحت

أمرته خلافاً لتوصية الرومانيين باليهود حثمت الندوة الرومانية أن تُرد هذه المدن إلى اليهود وأن يعرضهم ملوك سورية مما صرفوه من النفقات خلافاً لعهد الرومانيين. وأن يحذروا كل الحذر من أن يسيروا جنودهم في أرض اليهود وقد ذكر يوسيفوس صورة هذا الأمر من الندوة الرومانية في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ١٧).

وكان فيسكون ملك مصر يعتد نفسه ولي نعمة زينا فطالبه أن يكون منقاداً ومطيعاً له. وأبى زينا ذلك فحق عليه فيسكون وعزم أن يحطمه كما رفعه واتفق مع قلوبطرة ابنة أخيه وجّهز جيشاً عظيماً وسيّره إلى كريبوس ابنها وزوجه ابنته تريفان. فاشتد ساعد كريبوس بهذه النجدة واستظهر على زينا وأرغمه على الفرار إلى انطاكية. وحسن عند زينا أن ينتهب هيكل المشتري في انطاكية ليقوم بنفقات الحرب وشعر الأهليون بذلك فثاروا عليه وطرده من مدينتهم. فمضى يطوف من مكان إلى آخر إلى أن قبض عليه وأُشعر أي قُتل سنة ١٢٣ ق.م.

عد ٤٥٣

انطيوخس كريبوس

قد علمت أن الملك انطيوخس كريبوس استراح من مزاحميه على الملك أمه قلوبطرة وزينا بقتله إياهما. واستتب له الملك مدة ست سنين أي من سنة ١٢٠ إلى سنة ١١٤ ق.م. وبينا كان مهتماً بتجهيز جيش لمحاربة اليهود ثار عليه أخوه انطيوخس الشيزيكي نسبة إلى شيزيك بلدة في آسيا الصغرى كانت أمه أرسلته ليتربى فيها. وانطيوخس هذا هو أخو انطيوخس كريبوس لأنه ابن قلوبطرة المار ذكرها من انطيوخس صيدات. وكريبوس ابنها من ديمتريوس الثاني. وخشي كريبوس أن ينازعه أخوه الملك وأراد أن يدس له سماً يهلكه به فشعر الشيزيكي بالمكنة واضطر أن يجمع جيشاً للمدافعة عن نفسه والحفاظة على الملك. وكان في مصر أن بتلمايس فيسكون قضى نحبه في الاسكندرية سنة ١١٧ ق.م بعد أن ملك في مصر تسعاً وعشرين سنة. وكان له ابنان شرعيان من قلوبطرة ابنة أخيه (التي تزوجها بعد أن طلق أمها كما مر عد ٤٣١) لانيير واسكندر وترك ملك مصر لامراته قلوبطرة ولمن تختاره من ابنيها، فأثرت اسكندر على لانيير الأكبر، فناصبها الشعب العداء وأكرهها على أن يشاركها لانيير في الملك لأنه

الكبير. فأذعنت لكنها أجبرته قبل أن يتَّوج في منف على عاداتهم أن يطلق قلبوطرة أخته البكر وامراته التي كان يحبها كثيراً، وأن يتخذ سيلانة أختها الصغرى التي لم يكن يميل إليها. ولما رأت قلبوطرة لاتير طلقها تزوجت بانطيوكس الشيزيكي ولعرفتها باحتياجه إلى الرجال لناواة أخيه كريوس أخته بجيش بدلاً من المهر. فأصبحت القوة الحربية عند الأخوين متوازية فألحما القتال ودارت الدوائر على الشيزيكي ففرَّ إلى انطاكية حيث كان ترك امرأته قلبوطرة وهم بأن يحشد جيشاً آخر. ولكن عاجله أخوه كريوس وحاصر انطاكية وافتتحها فألحَّت عليه امرأته تريفان أن يسلم إليها قلبوطرة التي أمست أسيرة. فلجأت قلبوطرة إلى معبد في انطاكية تظنُّ أنَّ أعداءها لا ينتهكون حرمة فأكبر كريوس على امرأته اجابة سؤالها محتجاً بحرمة المعبد التي لجأت قلبوطرة إليه وإنه لا نفع لهما ولا ضرر لعدوهما من قتلها. وذكرها أنَّ قلبوطرة هي أختها لأبيها وأُمها وابنة عمِّ أمه وبأنه ليس من شيم الملوك أن يعاملوا بالقسوة من انتصروا عليهم. ولا سيما النساء فلم تكن هذه الحجة كلها لتقنع تريفان ووهمت أنَّ الملك زوجها لا يمانعها من قتل قلبوطرة شفقةً عليها بل لأنه متيم بها. وأرسلت شزيمة من الجند إلى المعبد فتشبتت قلبوطرة بأحد جانبي المذبح ولم يتكمن الجند من انتزاعها إلاَّ بقطع ساعدَيها ثم قضت سنة ١١٣ ق.م داعية على من تسبَّب بقتلها وسائلة الإله الذي جرت عليها هذه القسوة أمام عينيه أن ينتقم لدمها.

وأما قلبوطرة أمهما فلم يهمها قتل إحدى بناتها ولا الجريمة الأخرى الفظيعة بل كان كل همها منصرفاً إلى تمكين سلطتها في مصر. وجعلت ابنها اسكندر ملكاً في قبرص آملة أن ينجدها إذا شاء ابنها لاتير أن يستبدَّ في الملك دونها. على أنَّ جريمة موت قلبوطرة في سورية لم تتركها العناية الربانية زماناً دون عقاب. لأنَّ انطيوكس الشيزيكي جهَّز جيشاً آخر وأتى لمحاربة أخيه كريوس. فاستظهر عليه سنة ١١٩ ق.م وقبض على تريفان وأذاقها مرَّ العذاب جزاءً لقسوتها على أختها، واضطرَّ كريوس أن يفرَّ من سورية تاركاً إياها لأخيه الظافر (يوسنينوس ك ٣٩ فصل ٣ و ٤ و ٥ و ابيان في آخر كلامه في متريدات واسترابون ك ١٧ و بولين ك ٢ فصل ٦٧ وغيرهم).

انطيوخس الشيزيكي ويوحنا هركان أمير اليهود

لم تنقضي سنة حتى عاد انطيوخس سنة ١١١ ق.م إلى سورية بجيش عظيم واستظهر على أخيه ثم اتفقا على أن يقسما هذه البلاد بينهما. فكان نصيب الشيزيكي فينيقيا وسورية المجوفة إلى دمشق وأقام في هذه المدينة. ونصيب كريسوس سائر المملكة وأقام انطاكية وانكب كلاهما على الترف وأصيبا بغوائله.

وبين كان الملكان لاهيين مستترفين كان يوحنا هركان يزيد في صولته وثروته. ورأى أن لا خوف عليه من سطوتيهما فعزم أن يلحق السامرة لولايته. وأرسل ابنيه ارستوبولس وانتيكون فحاصرها سنة ١١٠ ق.م فاستنجد السامريون انطيوخس الشيزيكي ملك دمشق فأجدهم بجيش تولّى أمرته بنفسه فالتقاه الأخوان وانتشبت الحرب واستظها عليه وتبعها جنوده إلى شيتوبولي (بيسان)، ونجا هو بنفسه وعاد ابنا هركان سنة ١٠٩ ق.م إلى حصار السامرة فلجأ أهلها ثانية إلى ملك دمشق ولما لم تكن له جنود كافية لرفع الحصار طلب إلى بتلمايس لانيير ملك مصر. فأرسل إلي ستة آلاف جندي خلافاً لأرادة أمه الملكة قلوبطرة فإنه كان بين وزرائها والمقرين إليها كلشياس وحانانياس اليهوديان ابنا اونيا الذي بنى الهيكل في مصر كما مرّ. وكانا يستميلانها إلى المحاماة عن أمتهما فلامت ابنها على ارسال هؤلاء الجنود وكادت تعزه عن الملك لتورطه بهذه الحرب خلافاً لرضاهما. ولما بلغ الجنود المصريون إلى فلسطين ضمّهم ملك دمشق إلى جنده ولم يجسر أن يناوئ محاصري السامرة بل أخذ يسطو على الغرباء. ويسلب ويخرّب ويقطع الطريق على أبناء السبيل آملاً أن يرّد جيش اليهود عن حصار السامرة إلى الذبّ عن بلادهم فلم يصب سهمه المرمى. واستمرّ ابنا هركان يحاصران السامرة وانتقص عدد جنود ملك دمشق في بعض المناوشات مع الأهليين. ومن قبل فرار بعضهم مرض آخرين فأثر الملك العزلة في طرابلس على بقائه بين جنود ضعفت عزيمتهم. وخمدت حميتهم وقتل عددهم وأمر على من بقي من جنوده كلميندر وايبكرات. فالأول منهما قُتل في مناوشة. والثاني يمس من فوز جنود مولاه. ففضّل نفعه على فرضه وأخذ من هركان مبلغاً من المال وتخلّى له عن بيسان وسائر المدن التي كانت لملك دمشق في تلك الناحية.

أما أهل السامرة فلما رأوا أنَّ لا نصير لهم وقد ضايقتهم الحصار سنة كاملة استسلموا إلى هرکان سنة ١٠٨ ق م. فذكَّ مدينتهم وجعلها قاعاً صفصفاً واحتفر فيها حفراً وحوّل الماء إليها حتى لا يمكن تجديد بنائها ولم يجدد إلا في أيام هيروُدس الذي سمى المدينة الحديثة سبسطية ومعناها في اليونانية السعيدة تكربة لأغسطوس قيصر الذي معناه في اللاتينية السعيد. أصبح هرکان وقتئذ مالكا اليهودية والجليل والسامرة ومدناً أخرى في تخومها واستفحل أمره. وغدا من مشاهير الملوك في أيامه ولم يكن أحد من جيرانه يجترئ أن يناصبه حرباً ولكن حسده بعض قومه. وكان بين اليهود في تلك الأيام شيعتان فريسيون وصادوقيون. فالفريسيون كانوا يتظاهرون بالمحافظة على السنّة بتدقيق لكنهم كانوا يضيفون إليها تقليدات يدّعون أنهم تلقوها عن قدمائهم. ويتشبثون بها أكثر من السنّة على مخالفتها غالباً لها ويعتقدون خلود النفس وحياة أخرى. ويتظاهرون بالفضيلة والعيشة القشفة ليعتبرهم الشعب ومن وراء ذلك كبائر وكبرياء. وطمع أشعبي في حشد المال ونيل الكرامات والخطط الرفيعة ثم بغضة شديدة لكل من يقاومهم ورياء في عمل الخير لاراءة الغير. وقد سمّوا أنفسهم فريسيين بمعنى مميزين وحكماء وأما الصادوقيون نسبةً إلى رجل اسمه صادوق أو بمعنى الصادقين الأبرار فكانوا يزدرون تقليدات الفريسيين. ويُنكرون خلود النفس والحياة الأخرى وقيامة الأجساد وكان الأغنياء في الشعب وكثيرون من رجال مجتمعهم الذين يُنات بهم تدير مهام المملكة والدين من هذه الشيعة. وقد استمرّ الشيعتان في أيام الخُلص كما هو ظاهر في الأناجيل.

فيوحنا هرکان كان يداري الفريسيين ويسترضيهم وقد استدعاهم يوماً ما إلى مأدبة ألقى فيها خطاباً. ومما قاله فيه إنه جدّ دائماً ليكون عادلاً في الناس مرضياً لله بحسب تعليم الفريسيين. وقال من رأي منكم شذذت في شيء عن ذلك فأسأله أن يثبته إليّ لأصلح نفسي. فأطراً جميعهم هرکان وصوّبوا كلامه إلا رجلاً اسمه العازار نهض فقال بما أنك سألتنا أن نقول لك الحق بلا مراياة فإن كنت عادلاً فاترك رئاسة الكهنوت لغيرك. واحفظ الملك لنفسك فسأله هرکان وما الداعي لهذا؟ قال شهد كثير من الشيوخ الموثوق بصدقهم أنَّ أمك كانت أسيرة وابن الأجنبية لا يحق له أن يكون رئيس الكهنة. وكان كلامه هذا تهمة واختلاقاً، فعظم القلق وطلب هرکان مجازاة المفترى فلم يحكم عليه رئيس الفريسيين إلا

بالسجن والضرب. فاستقلَّ هر كان هذا الجزاء وكان له صديق من الصادوقيين اسمه يوناثان أغراه بترك الفريسيين والاستمالة إلى شيعته. فقاطع الفريسيين لكن لم يعيش بعد ذلك إلا سنة وتوفاه الله سنة ١٠٧ ق.م بعد أن تولَّى رئاسة الكهنوت وحكومة اليهود تسعاً وعشرين سنة (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ ف ١٨).

عد ٤٥٥

اسكندر ملك اليهود وبتولمايس لاتير وقلوبطرة في سورية

إنَّ ارسطوبولس ابن هر كان خلف أباه بعد وفاته في الولاية على اليهود وُسْمِي ملكاً وأشرك أخاه انتيكون في ملكه. وطرح سائر اخوته في السجن. وضيَّق على أمه حتى أماتها جوعاً لدعواها أنَّ أباه جعل عند وفاته الولاية في يدها. وسعى بعضهم بأخيه انتيكون لديه حتى حملوه بفسادهم على قتله. ثم اطلع على عتوهم فأسف وندم على ذلك ولا ندامة الكسعي لأنَّ شديد أسفه كان علةً لمرضه وموته فلم يملك إلا سنة واحدة. وصنع إلى شعبه خدمات كثيرة وحارب الإيطوريين (سكان اللجا) وقهرهم. وأكرهمهم على أن يختتنوا ويسلكوا بحسب سنة اليهود. ذكر ذلك يوسيفوس في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ١٩). واستشهد له بفقرة من كلام استرابون قال فيها: «إنَّ هذا الملك كان حليماً ليِّن العريكة صنع إلى اليهود معروفاً كبيراً لأنه اهتمَّ كثيراً بتوسيع تخوم بلادهم وضمَّ إليها جانباً من ايطورية وألحق سكانها باليهود إذ جعلهم يختتنون».

وبعد وفاة ارسطوبولس أخرجت امرأته صالومي اخوته من السجن ونادت بأحدهم يوحنا المسمى اسكندر أيضاً ملكاً. وأقرَّ اليهود بالملك له لأنه بكر هر كان لكنه كان أثر ارسطوبولس عليه فاسكندر قتل أحد اخوته لأنه أخذ ينازعه الملك. وأبقى على أخ آخر له لأنه أقرَّ له به وكانت باكورة أعمال الملك اسكندر أنه جهَّز جيشاً ومضى لمحاربة أهل عكا لأنهم وأهل غزة لم يخضعوا لحكومة اليهود. فظهر عليهم وأرغمهم على الفرار فتحصنوا في مدينتهم وأقام اسكندر الحصار عليها. ولجأ أهلها إلى بتلمايس لاتير وقد علمت أنَّ بتلمايس هذا كان قد أرسل ستة آلاف جندي لأنجاد أهل السامرة على اليهود غير مبالٍ بممانعة أمه قلوبطرة شريكته في الملك ونفورها من ذلك. فحنقت أمه عليه لهذا وغيره وأبعدت عنه امرأته سيلانة.

وأكرهته على الخروج من مصر بحيلة أنها هشتت بعض خصيانها واستدعت الشعب إلى اجتماع في الاسكندرية وأرثتهم الخصيان مجرحين قاتلة أن ابنها لاتير أنزل بهم هذه الجراح لمداغتهم عنها لأنه رام قتلها. فاستشاط الشعب على لاتير ووثبوا عليه فانهزم بسفينة إلى قبرص. واستدعت حينئذ أمه ابنها اسكندر الذي كانت أقطعتة قبرص وجعلته شريكاً لها في الملك مكان لاتير الذي أجبرته أن يجتزئ بقبرص (يوستينوس ك ٣٩ فصل ٤).

ولما وصل رسل أهل عكا إلى لاتير هبّ دون إبطاء لنجدتهم على أن أهل عكا تغيّروا على لاتير لخوفهم أن يأتي فيملك عليهم. وشعر هو بتغيير عزمهم فحلّ بعسكره الذي كان نحواً من ثلاثين ألف رجل في سيكامينوس (المعروفة الآن بحيفا) في جوار عكا وأخذ يرأسل اسكندر ملك اليهود ليعقد عهدة معه إلى أن درى أن اسكندر يرأسل أم قلوبطرة لتأتي بجيشها وتعاونه على طرد لاتير من فلسطين فانقلب عليه وجاهر بعدوانه، وعزم أن ينزل به كل ما استطاع من السوء. وكان ذلك لسنة ١٠٥ ق.م وفي سنة ١٠٤ قسم لاتير جيشه إلى عسكرين أمّر على أحدهما أحد قادته ليحاصر عكا لاختلاف أهلها وعددهم له. وزحف بالآخر لمناواة اسكندر ونجد أهل غزة لاتير بكثير من رجالهم، والتحم القتال بين لاتير واسكندر على عدوة الأردن فظهر لاتير عليه وقتل من جيش اليهود ثلاثين ألف رجل وأسّر كثيرين. وقد روى عنه أنه أقدم على فظيعة ترتعد منها الفرائص فإنه أتى عند المساء قرية يحتلها فوجدها ملأى من النساء والأطفال. فذبحهم عن آخرهم وقطّع جثثهم أرباً ووضعها في مراجل وأظهر أنه يريد أن يعدّ منها عشاءً لجنده ليحسب الناس أنهم يأكلون اللحم البشري فيشتد رعبهم في القلوب. ثم أخذ لاتير ينكل ويسلب ويخرب البلاد ولولا تدارك قلوبطرة أمر الملك اسكندر وأمته لاستحوذ لاتير على فلسطين واذلّ اليهود كل الإذلال.

فإن قلوبطرة خشيت أن يملك ابنها لاتير اليهودية وفينيقية ويتيسر له أن يعود إلى مصر ويثّل عرشها فجمعت سنة ١٠٣ ق.م جيشاً جراراً عهدت بقياته إلى كلشياس واتانياس اليهوديين المذكورين أنفاً. وجّهت أسطولاً أتت به فحلّت في فينيقية (ايبان في ترجمة متريدات). وأخذت مبلغاً وافراً من المال وحلّاه الثمينة. وأرسلتها مع حفيدها اسكندر إلى جزيرة كوس لتكون في مأمن عليها إذا حلّت بها نازلة. ولما علم لاتير بقدم أمه رفع الحصار عن عكا واعتزل في سورية المحفوفة

فأرسلت فريقاً من جندها مع كلشياس ليتبعه وأقامت هي الحصار على عكا مع انانياس، وضايقتها حتى افتتحتها فأقبل اسكندر ملك اليهود بهدايا نفيسة ليتمكنها في الاستمالة إليه على أنْ بغضها لابنها لاتير كان مغنياً له عن كل وسيلة لاسترضائها عنه. فقد تلقته بالترحاب وأكرمت مثواه وعززته وزَّين لها بعض حاشيتها أن تنتهز هذه الفرصة النادرة الوقوع لتستحوذ على اليهودية وسائر مملكة اسكندر بقبضها عليه. وكانت تنجح إلى ذلك إلا أنْ حنانياس شعر بما يزينون لها فمثل أمامها قائلاً ما أعظم العار علينا إن عاملنا على هذا النحو حليفاً لنا يشاركنا في المناوأة لاتير. لعمر ك مولاتي إنْ هذا ينافي الشرف والأمانة اللذين هما اس الهيئة الاجتماعية والعمران. ويعود بالضرر على جلالتك ويحمل اليهود أجمع أن يتحالفوا علي بغضك وهم منبثون في المعمور كله. فأذعنت لقوله وجددت عهداً لاسكندر فما أنفع المستشارين الصادقين للولاة وما أحوجهم إليهم.

وعاد اسكندر إلى أورشليم وحشد جيشاً عبر به الأردن وحاصر مدينة كدارا (في شرقي الأردن). وبعد أن قضى لاتير فصل الشتاء في غزة رأى أنْ استحوذته على فلسطين بعيد المجال صعب المنال ما دامت أمه تقاومه فيه فعاد إلى قبرص. وهي رجعت إلى مصر سنة ١٠١ ق.م (يوستينوس ك ٣٩ راس ٤ ويوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٢٠ و ٢١). وزاد يوسفوس على ذلك أنْ اسكندر فتح كدارا وغيرها من المدن في عبر الأردن وعاد ينكل بأهل غزة لإنجادهم لاتير عليه. وخرب في بلادهم وحاصر مدينتهم ولم يفتحها إلا بعد أشهر من المضايقة لهم.

عد ٤٥٦

تنمة أخبار انطيوخس كريوس وانطيوخس الشيزيكي أخيه

وقد علمت قلوبطرة بعد عودها إلى الاسكندرية أنْ ابنها لاتير عقد عهدة في دمشق مع انطيوخس الشيزيكي ملكها، وأنه تأهب ليسترد تاج مملكة مصر استناداً إلى مناصرة انطيوخس له فزوّجت انطيوخس كريوس بابنتها سيلانة التي كانت أبعدها عن لاتير. وأرسلت إليه جيشاً ومالاً ليقوى على مقاومة أخيه الشيزيكي. وكان كما دُبرت قلوبطرة أن انتشبت الحرب بين الأخوين فلم يتيسر للشيزيكي أن يعاون لاتير بشيء فطاش سهمه. ورأى بتلمايس اسكندر الذي أشركته أمه في

الملك معها جورها واعتسافها البربري لأخيه لاثير حتى انتزعت منه امرأته وزوجتها بعدوّه، فأثر العزلة على الملك مع أم وقاح الوجه لا تتقي فظيعة في سبيل مأربها. على أنّ الشعب ألحّ عليه وجاهر بأنه لا يطيق أن تنفرد أمه بالملك فيهم، فاضطرّ أن يعود إلى الملك وإن لم يكن له فيه إلا الاسم. واستمرّت الحرب بين ملكي سورية إلى أن اغتال هركليون انطيوخس كريوس ملك انطاكية سنة ٩٧ ق م. وكان له خمسة ابناء منهم أكبرهم سلوقس، لكن أخاه انطيوخس الشيزيكي استولى بعد موته على انطاكية. وحاول أن ينتزع سائر المملكة من ابن أخيه على أنّ هذا حشد جيشاً عظيماً وعزم أن يباغت عمه في انطاكية. فخرج عمه عليه والتقى الجيشان واشتدّ القتال فظفر سلوقس بعمه انطيوخس وشتت شمل جنوده وأخذ أسيراً وقتله سنة ٩٥ ق م. ودخل سلوقس انطاكية ظافراً واستتب له الملك في سورية كلها (طيطوس ليف ك ٧٠ ويوستينوس ك ٣٩ فصل ٥ واسترابون ك ١١ ويوسيفوس ك ١٣ فصل ٢١).

الفصل السابع

باقي ملوك اليونان في سورية إلى انقراض دولتهم فيها

عد ٤٥٧

سلوقس بن انطيوخس كريوس وانطيوخس اوساب

قد احرز سلوقس الملك على سورية كلها بعد مقتل عمه لكنه لم يستطع أن يستقر فيه زماناً طويلاً لأنّ انطيوخس اوساب ابن عمه انطيوخس الشيزيكي فرّ من انطاكية عند دخول سلوقس إليها. فأتى ارواد وسمى نفسه ملكاً سنة ٩٣ ق م. وزحف بجيش جرار لمناوأة سلوقس. واستظهر عليه حتى أكرهه أن ينهزم إلى المصيصة في قيليقية ويترك المملكة للظافر. وأثقل سكان المصيصة واعتصموا بطلبه منهم الذخائر والتجند له فعصوه وتألّبوا عليه، وأحاطوا بالدار التي كان حالاً فيها

وألقيوا النار فيها فاحترق مع كل من كان معه هناك. وجمع انطيوخس وفيلبوس أخواه رجالاً وغشياً المصيصة سنة ٩٢ ق. م فافتتحاها وأخرباها وقتلا بحدّ السيف كل من وجداه من أهلها. فالتقاهما انطيوخس اوساب عند العاصي واستظهر عليهما، وأراد انطيوخس أن يعبر العاصي بجنوده فغرق فيه. وكان سمي ملك سورية وهو الحادي عشر بهذا الاسم وفيلبوس تحوّل عن وجه العدو بجسم من الرجال تكاثر عديدهم حتى استطاع أن يناوئ الملك اوساب وينازعه الملك.

أما انطيوخس اوساب فلقي يعزز ملكه تزوج بسيلانة أرملة انطيوخس كريوس. وكانت هذه الأميرة الذكية استبقت لنفسها بعض أعمال من المملكة وكان لها جنود ذوو بأس ومهارة فتعزز جانب اوساب بها. على أن بتلمايس لانير لم يصبر على الإهانة له بأخذ امرأته فاستأتى ديمتريوس أوثر رابع ابناء كريوس من اكرت حيث كان للتربية. ونصبه ملكاً على دمشق. وكان الملك انطيوخس اوساب وفيلبوس بن كريوس متشاغلين بمحاربة أحدهما الآخر. فخلا الجو لديمتريوس في دمشق وظهر فيلبوس على اوساب في وقعة هائلة وأرغمه أن يترك مملكته ويلجأ إلى متريدات الثاني ملك البرتين الملقّب بالكبير. وغدا ملك سورية منشطراً بين ديمتريوس في دمشق وفيلبوس في انطاكية وهما أخوان ابنا انطيوخس كريوس.

أما اوساب فأمدّه البرتيون بجيش وعاد بعد سنتين أي سنة ٨٩ ق. م إلى سورية واستحوذ على بعض الأعمال التي كانت له أولاً. وكانت له حروب أخرى مع فيلبوس ثم أن انطيوخس وانيس خامس ابناء كريوس حشد جيشاً فاستولى على دمشق مكان أخيه ديمتريوس. وسمى نفسه ملك سورية المجوفة واستمر على ذلك ثلاث سنين أي إلى سنة ٨٦ (رواه المؤرخون المار ذكرهم).

وكانت أحوال مصر يومئذ أسوأ من أحوال سورية فإنّ قلوبطرة لم تكن لتصبر على اشتراك ابنها اسكندر معها في الملك فعزمت أن تغتاله لتستبدّ وحدها في السلطان، ودرى ابنها بعزمها فسبقها إلى ما دبّرت عليه وبعث جنوداً فقتلوا واستراحت الأرض من هذه اللاهية الدهماء التي أبت الشفقة أن تحل في قلبها على أم أو ابن أو ابنة لها في سبيل ادراك مطامعها فجوزيت بما جنت. ولكن بخيانة أخرى أفضع من كباثرها إذ قتلها ابنها ولم تعطفه عاطفة البنوة إلى الشفقة. وكانت هذه الفضائع المتواترة منذرة ولا مراء بدنو زوال مملكتي اليونان في مصر وسورية.

وقد قَبِضَ الله الرومانيون للانتقام من هؤلاء الملوك والمملكات لقتلهم ابناءهم وبناتهم وآباءهم وأمهاتهم وإخوتهم وأخواتهم حتى تنفر الضواري أنفسها من هذه المنكرات الفظيعة. ولما رأى الاسكندريرين ما قد أقدم عليه ملكهم ثاروا عليه وطرده من الملك، واستدعوا أخاه لاتير وأعادوه إلى عرش الملك واستمر عليه إلى وفاته. وحاول اسكندر استرداد الملك فحقق مسعاه وقُتل في إحدى حملاته. وكان ذلك سنة ٨٩ أو سنة ٨٨ ق.م (يوستينوس ك ٣٩ فصل ٤ وغيره).

عد ٤٥٨

اختيار السوريين تغران ملكاً عليهم وبقاء سيلانة في عكا

قد ضاق ذرع السوريون بالحروب المتصلة بين ملوكهم وعيل صبرهم في تحمّل اعتسافهم وأعناتهم وسُئمت أنفسهم معاصيهم، فعزموا أن يبنذوهم جميعاً ويختاروا ملكاً أجنبياً ينقذهم من عنفهم وتقسماتهم، ويذيقهم طعم الراحة بعد مرارة الحروب. ورغب بعضهم في اختيار متريدات ملك البنطوس وبعضهم في تسليم أمرهم إلى بتلمايس لاتير ملك مصر، على أن الأول كان مشغولاً في الحرب مع الرومانيين، والثاني كان أبداً عدواً للسوريين فعدلوا عن كليهما إلى انتخاب تغران ملك ارمينية. وأرسلوا إليه وفداً يثون إليه عزمهم ويكاشفونه في قبوله فقبل ما عرضوا عليه وأتى سورية سنة ٨٣ ق.م ولبس تاج ملكها. واستمر ملكه فيها ثماني عشرة سنة وقد وليها مدة اربع عشرة سنة بقليل ينوب عنه اسمه مفادات.

أما انطيوخس اوساب فقد طرده مسودوه وتغران فانهزم إلى قيليقية وقضى باقي عمره خامل الذكر وفيلبوس لا يعلم ما كان من أمره، والظاهر أنه قُتل في أحد الوقائع. وسيلانة امرأة اوساب تمكنت من أن تُبقي لنفسها عكا وجانباً من فينيقية ومن سورية المجوفة. فملكّت في هذه الأعمال سنين عديدة وكان لها ابنان أكبرهما يسمى انطيوخس وأصغرهما سلوقس. (يوستينوس ك ٤٠ فصل ١ و ٢ وايان في السوريين ويوسيفوس في تاريخ اليهود كتاب ١٣ فصل ٢٤).

وقد توفي في مصر بتلمايس لاتير بعد أن ملك في مصر بعد وفاة أمه سبع سنين (وكان ملك فيها مع أمه إحدى عشرة سنة وفي قبرص ثماني عشرة سنة). ولم يكن له ولد شرعي إلا ابنة اسمها قلوبطرة أيضاً وعلمها الشخصي برنيقة.

خلفته في الملك لكن الندوة الرومانية أرسلت إلى مصر اسكندر ابن اسكندر أخى لاتير ليملك في مصر وتفادياً من الخلاف واغاطة الرومانيين اتفقت قلوبطرة مع اسكندر أن تتزوج به ويملكا معاً، على أن اسكندر قتلها بعد تسعة عشر يوماً من زفافها إليه. فثار عليه الجنود وقتلوه بعدها على الأصح والأظهر. وقال بعضهم إنهم طردوه فقط فأتى صور وملك فيها سبع سنين ثم مات وأوصى أن يرثه الرومانيون. وكثر القلق في مصر من جراء ذلك وطمعت سيلانة أخت لاتير وأرملة انطيوخس اوساب أن تأخذ لنفسها تاج مصر. وارسلت ابنيها انطيوخس وسلوقلوس سنة ٧٣ ق.م إلى روما فأقاما سنين فيها يزنان للندوة تمليك أمهما أو أحدهما. فحقق مسعاهما لأن الرومانيين كانوا منهمكين في الحرب مع مريدات ولأنهم أبوا أبداً سياسة أن يضموا سورية ومصر إلى مملكة واحدة مخافة أن تقوى عليهم فيعسر ضمها إلى مملكتهم. ومز أحدهما انطيوخس في صقلية عند عوده فاحتال فرس واليها عليه وابتر منه منارة من ذهب مرصعة بجواهر ثمينة. كانت معدة لمعبد في روما، فغاب شيشرون هذا الاحتيال والطمع في الولاة الرومانيين في خطبته ٦ في فرس وهي من أحسن خطبه.

أما في مصر فبعد مقتل اسكندر أو مفره ملك الشعب بتلمايس اولات سنة ٧٣. وعلى قول بعضهم سنة ٨٠ واستمر في الملك إلى سنة ٥٢، وإن تقطع ملكه بطرده مرتين وخلفه ابنه بتلمايس الثاني عشر والملقب دانيس أو ديونيس وتزوج بأخته قلوبطرة الشهيرة وسيأتي الكلام فيها.

عد ٤٥٩

انطيوخس الآسيوي واستيلاء الرومانيين على سورية

قد مر أن السوريين ملّكوا فيهم تفران ملك الأرمن سنة ٨٣ أو سنة ٨٢ وكان مفادات يدبر مملكته بمنزلة قيل خاضع له وهذا هو الأظهر والذي عليه المؤرخون. وعند بعضهم أن تفران استحوذ على سورية سنة ٧٠ وقالوا: إن سيلانة أرملة انطيوخس العاشر اوساب ملكت في سورية سنة ٨٠ إلى سنة ٧٠. ولعل المراد ملكها في عكا على فينيقية وسورية المجوفة كما ذكرنا. ومهما يكن من هذا الخلاف فالرومانيون بعد حروبهم العديدة مع مريدات ملك بنطوس وإذلاله أقاموا

الحرب على تفران ملك أرمينية فاستعاد اليه مفادات الذي كان يلي سورية بأمره لحاجته إليه. وكان انطيوخس ابن الملكة سيلانة عاد من روما كما مرّ فاستوى على عرش سورية سنة ٦٩ ق.م وقام يدبر هذه الملكة أو قسماً منها أربع سنين أو خمساً. على أنّ كولوس قائد جيش الرومانيين انتصر سنة ٦٩ في وقائع عديدة على تفران، وأخذ أهم مدنه ثم أكمل بومبايس القائد الروماني الظفر به وأرغمه أن يدفع غرامة الحرب للرومانيين ستة آلاف قنطار. عبارة عن ثلاثة وثلاثين مليوناً من الفرنكات، وعلى أن يوقع سنة ٦٤ على عهدة يتخلّى بها الرومانيون عن سورية والكابادوك وأرمينيا الصغرى ويستبقي لنفسه أرمينيا الكبرى. وبعد أن كلّ بومباس من حرب متريدات وتفران أتى سورية، وأتى انطيوخس الآسيوي للقياء آملاً أن يقرّه بومبايوس في ملكه بواسطة لوكولوس الذي كان أباحه أن يلي ما يلي في سورية عند ترك تفران لها. فأبى بومبايوس إلا أن يلتهم ملكه ويجعله اقليماً رومانياً محتجاً بأنّ تفران تخلّى له عنه وأن ليس من السداد أن يترك ثمرة انتصاره على تفران، وإنّ انطيوخس لا يحرز الشجاعة والأهلية اللازمين لضبط هذه البلاد واستيلاء الأمن فيها. وإذا تُركت بيده كانت عرضة للخراب ولغزوات العرب وسطوة اليهود عليها. وبهذه الحجج الواهنة خسر انطيوخس تاج ملكه، واضطّر أن يعيش كعامة الناس وانقرضت به دولة السلوقيين في سورية سنة ٦٤ أو سنة ٦٥ ق.م. وأرسل بومبايوس قايديه سكاوروس وكابتيوس فأخضع الأول سورية المجوفة ودمشق، والثاني باقي سورية إلى دجلة وأتى بومبايوس إلى دمشق ينظّم أحوال مصر واليهودية (ابيان في السورين ويوستينوس ك ٤٠ فصل ٢ وبلوطرخ في ترجمة بومبايوس).

أما في مصر فاستمرت دولة اليونان إلى سنة ٣٠ ق.م ولكن طوع أيدي الرومانيين. فإنّ قلوبطرة ابنة بتلمايس اولات التي تزوجها بتلمايس الثاني عشر ديونيسيوس أخذها وعمره ١٣ سنة وعمرها ١٧ طمعت بأن تكون لها السلطة المطلقة فعظم الخلاف بينهما. وأقيم القيصر الروماني حكماً بينهما فحكم لها مسيئاً بجمالها. وعادت إلى الملك سنة ٤٧ وأراد أخوها أن يحارب الرومانيين فاستظهروا عليه وفراً ففرق في مياه النيل سنة ٤٨ ق.م فاقام القيصر بتلمايس الثالث عشر ملكاً وتزوج قيصر قلوبطرة وتوفي بتلمايس بعد أربع سنين مسمماً على الأرجح. وخلفه بتلمايس الرابع عشر ابن قيصر وقلوبطرة سنة ٤٢ ق.م وعمره خمس سنين بأمر

حكومة روما الثلاثية أي المؤلفة من ثلاثة رجال. وسموه سنة ٣٣ ق.م ملك الملوك دون أن يكون مالكاً إلاً بالاسم. ثم قُتل بأمر اغسطس قيصر سنة ٣٠ وانتهت به دولة اليونان في مصر التي أمست حينئذ اقليماً رومانياً. وأما قلوبطرة فبعد مقتل قيصر استدعاها انطونيوس أحد الثلاثة الرجال حكام الرومانين إلى ترسييس لتبرئ نفسها من الشكوى الواردة عليها. فهام بها وطلّق امرأته أخت اكتاف زميله في الحكم على الرومانين وتزوج قلوبطرة. وسلّم إليها سنة ٣٣ ق.م بعض أعمال رومانية في المشرق فانتشبت لذلك الحرب بين اكتاف وانطونيوس ودارت الدوائر على انطونيوس فانتحر. وحاولت قلوبطرة أن تصطاد بجمالها ودهائها اكتاف فخفق مسعاها وقتلت نفسها سنة ٣٠ ق.م وانتهت بها سلالة البطالسة.

عد ٤٦٠

فهرست الملوك اليونان في سورية ومصر وسني ملكهم

قد أحببنا أن نذيل كلامنا في الملوك اليونان في سورية بفهرست تبيين منه اسماء هؤلاء الملوك وسني ملكهم تذكرة للمطالعين.

اسماء الملوك	سني ملكهم
اسكندر الكبير في سورية	من ٣٣٣ إلى ٣٢٤ أو ٣٢٣
لاوميدون	من ٣٢٣ إلى ٣٢١
انتيكون وبتلمايس ملك مصر	من ٣٢١ إلى ٣١١
سلوقس الأول	من ٣١١ إلى ٢٨٠
انطيوكس الأول	من ٢٨٠ إلى ٢٦٠ أو ٢٦١
انطيوكس الثاني	من ٢٦٠ إلى ٢٤٦
سلوقس الثاني	من ٢٤٦ إلى ٢٢٥ أو ٢٢٦
سلوقس الثالث	من ٢٢٥ إلى ٢٢٢
انطيوكس الثالث الكبير	من ٢٢٢ إلى ١٨٦ أو ١٨٥
سلوقس الرابع	من ١٨٥ إلى ١٧٥

من ١٧٤ إلى ١٦٤	انطيوخس الرابع ايفان
من ١٦٤ إلى ١٦٢	انطيوخس الخامس اوباتور
من ١٦٢ إلى ١٥٠	ديميتريوس الأول سوتر
من ١٥٠ إلى ١٤٦ أو ١٤٤	اسكندر الأول بالا
من ١٤٧ . ١٤٣ . ١٤٠ . ١٣٩ ثم ١٣٠ . ١٣٥	ديميتريوس الثاني نكانور
من ١٤٥ إلى ١٤٢	انطيوخس السادس
من ١٤٢ . ١٣٨ أو ١٣٩	تريفون
من ١٣٨ . ١٢٩ أو ١٢٨	انطيوخس السابع صيدات
من ١٢٥ . ١٢٠ أو ١٢١	قلوبطرة في قسم من المملكة
من ١٢٤ . ١٢٣	سلوقس الخامس مع أمه قلوبطرة
من ١٢٨ . ١٢٣	زينبا في القسم الآخر من المملكة
من ١٢٠ . ١١٦ ثم ١١١ إلى ٩٧ أو ٩٦ مع أخيه	انطيوخس الثاني كريبوس
من ١١٦ . ٩٥	انطيوخس التاسع الشيزيكي مع أخيه
من ٩٥ . ٩٣	سلوقس السادس
من ٩٣ . ٩١ ثم ٨٩ إلى ٨٣	انطيوخس اوساب العاشر
من ٩١ . ٩٠	انطيوخس الحادي عشر
من ٩١ . ٨٩ أو ٨٨	ديميتريوس الثالث اوثر في دمشق
من ٩١ . ٨٣	فيلبوس في انطاكية
من ٨٩ . ٨٦ أو ٨٤	انطيوخس الثاني عشر في دمشق
من ٨٠ . ٧٠	سيلانة أرملة انطيوخس في عكا
من ٨٢ أو ٧٠ . ٦٩ أو ٦٤	تفران ملك الأرمن
	انطيوخس الثالث عشر الآسيوي
٦٤ .	في بعض المملكة ٦٩

فجملة سني ملك اليونان في سورية من دخول اسكندر إليها سنة ٣٣٣ إلى

أخذ الرومانيون لها سنة ٦٤ على الأظهر مئتان وتسع وستون سنة. وقد علمت أنَّ تاريخ السلوقيين فيها بُدئ فيه سنة ٣١١ فتكون مدة ملك السلوقيين فيها مئتين وسبعاً وأربعين سنة.

ولما كان البطالسة ملوك مصر ملكوا في جنوبي سورية مدّات طويلة وإن منقطعة وكثرت العلاقات بين مملكتي مصر وسورية رأينا أن نلحق فهرست ملوك مصر وسني ملكهم بفهرست ملوك سورية.

فهرست البطالسة ملوك مصر من اليونان

اسماء الملوك	سنو ملكهم
اسكندر الكبير	٣٣٢ إلى ٣٢٣
بتلميس الأول سوتر	٣٢٣ — ٢٨٥
بتلميس الثاني فيلادلفوس	٢٨٥ — ٢٤٧
بتلميس الثالث افرجات	٢٤٧ — ٢٢٢
بتلميس الرابع فيلوباتور	٢٢٢ — ٢٠٥
بتلميس الخامس ايفان	٢٠٥ — ١٨١
بتلميس السادس فيلوماتور	١٨١ — ١٤٦
بتلميس السابع فيسكون	١٤٦ — ١١٧
بتلميس الثامن لاتير	١١٧ — ١٠٧
بتلميس التاسع اسكندر	١٠٧ — ٨٨
قلوبطرة	٨٨ — ٨٣
بتلميس لاتير بعد عوده	٨٨ — ٨١
بتلميس العاشر اسكندر	٨١ — ٨٠
برنيقة	٨٠ — ٨٠
بتلميس الحادي عشر اولات	٨٠ — ٥٢

بتلميس الثاني عشر ومعه قلوبطرة ٥٢ — ٤٨

بتلميس الثالث عشر ٤٨ — ٤٢

بتلميس الرابع عشر ٤٢ — ٣٠

قلوبطرة كانت مع هؤلاء

الملك من سنة ٥٢ — ٣٠

فجملة سني هؤلاء الملك من سنة ٣٣٢ التي أخذ فيها اسكندر الكبير مصر إلى سنة ٣٠ التي قتل فيها اغوستوس قيصر بتلميس الرابع عشر ثلاث مئة سنة وستان.

تتمة تاريخ ملوك اليهود

إلى هيردوس الكبير

قد استوفينا في كلامنا الماضي أخبار المكابيين أمراء اليهود ورؤساء أحبارهم إلى سمعان المكابي. وذكرنا في عد ٤٤٧ أنَّ يوحنا هرکان بن سمعان المكابي خلف أباه في رئاسة الكهنة والولاية. وفي عد ٤٤٩ أنَّ هرکان بسط سلطته على محال عديدة في سورية وفينيقية. واستبدَّ في ولايته وفي عد ٤٥١ أنه وسَّع تخومها وأرسل وفداً إلى روما يجدد عهد الموالة بينه وبين الرومانيين فأجابوه إلى ذلك. وفي عد ٤٥٢ أنه حاصر السامرة وافتتحها رغماً على ملك دمشق وملك مصر فاستفحل أمره في اليهودية والجليل وغيرها. وغدا من مشاهير الملوك وتوفي سنة ١٠٧ ق.م. وفي عد ٤٥٤ أنَّ ابنه ارسطوبولس خلفه وسمي ملكاً على اليهود. وأشرك أخاه انتيكون في الملك معه لكن لم يملك إلا سنة. وخلفه أخوه اسكندر وافتتح عكا وغزة وحاربه بتلميس لانيير فاستظهر عليه ثم نجده قلوبطرة وعاهدته وعاد إلى أورشليم معزراً. فنعود الآن إلى تتمة أخبار ملوك اليهود هؤلاء في هذا الفصل الذي أفردناه للكلام فيهم.

تتمّة أخبار الملك اسكندر ووفاته

قد أنبأنا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٣ فصل ٢١) أنه قد كثُر القلق في ملك اسكندر لمقت شعب اليهود له حتى أنه دخل الهيكل في عيد المظال. وكان من عادتهم أن يأتوا إلى الهيكل في هذا العيد بأغصان النخل والليمون. فأخذ الشعب يرشق اسكندر على رأسه بأثمار الليمون ويقذفه بالشتائم قائلين إنه كان أسيراً فلا يحق له أن يكون حبراً ويقدم الذبائح لله، وربما كان المراد ما فاه به قبلاً العازار إن أم هركان كانت أسيرة. فاحتدم صدر اسكندر غيظاً، وخرج عليهم بحرسه فقتل منهم ستة آلاف رجل ولم يعد يركن إلى اليهود. فأخذ لنفسه حرساً من الأجانب من يبيديا وقليقية نحواً من ستة آلاف رجل كانوا يصحبونه حيث توجه. وكان ذلك لسنة ٩٥ ق م. ولما أخدم جدوة ثورة اليهود عليه سنة ٩٤ ق م أقبل على محاربة الأجانب فانتصر على عبيد ملك العرب. وذلّل الموايين وغيرهم وافترض الجزية عليهم وكمن له أعداؤه في مضيق عسر المسلك وزحمه قطار من الابل فلم ينبج إلا بشق النفس. وهلك كثيرون من رجاله فطرب مسدوده بتذليله وجراهم مصابه على محاربته فحاربوه ست سنين حتى قتل من الفريقين نحو خمسين ألفاً. وفتح مدينة كان العصاة تحصنوا فيها، وقبض على ثمان مئة رجل وأتى بهم إلى أورشليم وصلب جميعهم في يوم واحد. واستحضر نساءهم وأطفالهم فأبسلهم تجاه عيونهم وصنع في ذلك اليوم مأدبة لنسائه وسراريه في مكان مشرف على القتلى، فكان هذا المشهد الأليم له ولهن من أسباب المسرة وكان ذلك لسنة ٨٦ ق م.

وذكر يوسيفوس (فصل ٢٣ من الكتاب المذكور) إن الملك اسكندر بعد أن أخدم ثورة سورية افتتح مدناً أخرى لدن تشاغل ملوك سرورية بمحاربة بعضهم بعضاً. وعاد إلى أورشليم وعكف على الملاذ ومعاقرة الخمرة فأصيب بحمى الربع، ودامت عليه ثلاث سنين ولم يكن ينكف عن الحروب. وبينما كان محاصراً حصناً في شرقي الأردن اشتد مرضه واحتضر فدخلت عليه اسكندرة الملكة وقالت وعيناها مغرورتان بالدموع إلى يد من تتركني وأولادك وأنت عالم بضغائن الشعب كله وبغضه لك؟ فقال إن عملت بمشورتني حفظت الملك لك ولأبنائك فاخفين موتي

على جنودي إلى أن يفتتحوها هذا الحصن؛ وإذا رجعت منتصرة إلى أورشليم فترزقي إلى الفريسيين وخوليتهم ما يهوون من الوجاهة أمامك، فأنت عالمة بما لكلمتهم من النفوذ عند الشعب فمن أحبوه جعلوا الشعب يحبه ومن قلوبهم جعلوه يقدرون. فاستدعيهم لادن وصولك إلى أورشليم، وأرثهم جثتي وقولي لهم ها جثة ملككم بين أيديكم فاصنعوا بها ما شئتم، فإن أحببتم أن لا تواروها التراب جزاء عما أنزل بهكم من المضار فلكنكم، وإن رغبتم أن تكرموا دفنته فلكنكم، وحققي لهم أنك لا تصنعين شيئاً في الملك دون مشورتهم وارشادهم، وأنا موقن أنهم يحتفون بدفني ويعززونك. قال هذا الكلام وقضى نحبه سنة ٧٩ وعمره تسع وأربعون سنة. وقد ملك سبعاً وعشرين سنة وترك ابنتين هركان وارسطوبولس وأوصى بالملك لامرأته اسكندرة ما حييت. وأن يخلفها بعد وفاتها من تختاره من ابنيه.

عد ٤٦٢

ملك اسكندرة وابنها هركان

قد عملت اسكندرة بمشورة زوجها وجعلت نفسها وأولادها طوع أيدي الفريسيين قائلة إنها تكمل بذلك ارادة زوجها الأخيرة. فاستمالت قلوب الفريسيين إليها وأغضوا على قلاهم له، واستبدلوه بالتكريم والتجلة لذكره. وأخذوا يُطربونه ويُذكرون بأعماله الخطيرة في جانب تعزيز مملكتهم وبسط تخومها. وبعثوا الشعب على الاحتفاء بدفنه بنفقات بليغة حتى لم يكن لأحد أسلافه مثل هذا الاحتفاء. وقامت اسكندرة تدبر شؤون الملك كما أوصى زوجها. وجعلت هركان رئيس الأخبار وكان عمره إذ ذاك ثلاثاً وثلاثين سنة وعهدت بتدبير أهم أمور الملك إلى الفريسيين. وألغت الأمر الذي كان يوحنا هركان أصدره لابطال تقاليد الفريسيين، فاندفعوا يعملون بها أكثر من ذي قبل. واضطهدوا أشد الاضطهاد كل من كان يقاومهم قبلاً والملكة مغللة الأيدي لا تستطيع أن تغايرهم عالمة بما رأت في أيام زوجها من عظمة مضار الحرب الأهلية وما تجرّه من الغوائل العديدة. وقضت بأن في الحرب شراً أكبر من شر ذلك الاضطهاد وهم كانوا يختلفون كل يوم شكواوي على خصومهم. فضاق ذرع محازبي الملك اسكندر وخلاته في حياته عن تحمّل هذا الاضطهاد، وجاءوا ووجوههم الجماء الغفير إلى الملكة ومعهم

ارسطوبولس ابنها الثاني. وذكروها بخدماتهم وأمانتهم لزوجها وبما كابدوه من المشاق والمخاطر في حروبه، ويسوءهم أن يحسب ذلك الآن جنابة يقتصّ منهم خصومهم بسببها فلا وجه لاضطهادهم إلاّ اخلاصهم لزوجها ولها. وسألوها اتخاذ الوسائل الواقية وكفّ هذه القسوة عنهم أو تسمح لهم أن يهاجروا إلى غير بلادها أو تقيمهم حيث حامية تتكفّل بوقايتهم. فرق قلب الملكة ورثت لتظلمهم ولكنها لم تشأ أن تخلف وعدها للفريسيين بأن تستشير برأيهم. وخشيت سطوتهم ولم ترض أن ترخص لهم بالمهاجرة لئلا تسمي فريسة لهذه الشيعة وليس لها من يذب عنها. فعوّلت أن تقيمهم في القلاع والحصون فتجتمع بين الوقاية لهم والانتفاع بهم في حين حاجة.

وقد مرضت الملكة سنة ٧٠ ق.م ويئس من شفائها واحتضرت. فانسَلَّ ابنها ارسطوبولس من أورشليم ليلاً لا يصحبه إلاّ خادم واحد ومضى إلى القلاع والحصون التي كان فيها أصدقاء أبيه فقبلوه بالترحاب؛ وفي مدة خمسة عشر يوماً تجاهر بالمحاربة له الحرس المقيم في اثنين وعشرين حصناً، فأصبح أكثر جنود الملكة طوع يديه. وكان الشعب سئمت نفوسهم استبداد الفريسيين. فتسارعوا إلى الانضواء إلى ارسطوبولس ولم يكونوا يؤملون نفعاً من هركان لتشبهه بالميل إلى الفريسيين ولقلّة أهليته. ولما رأى الفريسيون استفحال أمر ارسطوبولس أتوا إلى الملكة ومعهم هركان ابنها يُنبئونها بما كان، ويسألونها أن تتدارك الأمر وتعاونهم على كبت ارسطوبولس. فأجابتهم أنها لم تبقى لها مقدرة على تدبير هذه الشؤون فتترك العناية بها لهم. وأوصت أن يخلفها هركان وبعد هنيئة أدركتها الوفاة سنة ٧٠ ق.م بعد أن ملكت تسع سنوات.

وبعد وفاتها أخذ ابنها هركان الملك وأجهد الفريسيون أنفسهم بالمانصرة له وكانوا بعد خروج ارسطوبولس من أورشليم أخذوا امرأته وولده. وأقاموهم في حصن ليكونوا رهينة توقفه عن المغايرة لهم. فلم يتوقف وحشدوا جيشاً والتقاهم ارسطوبولس بمثله. ونشبت الحرب في جوار اريحا فكانت القاضية لأنّ السواد الأعظم من جنود هركان غادروه وانحازوا إلى أخيه. فأجبر على أن يفرّ إلى أورشليم واتخذ محازبوه الهيكل ملجأ. وارغموا بعيده على الخضوع لارسطوبولس وقضت الحال على هركان أن يتخلّى لأخيه عن تاج الملك ورياسة الكهنوت وأن يعيش كأحد الناس تحت حماية أخيه متصرفاً بأملكه. فلم يدم ملكه إلاّ ثلاثة أشهر

وكان ذلك لسنة ٦٩ ق.م (يوسيفوس في تاريخ اليهود كتاب ١٣ فصل ٢٤ وك
١٤ فصل ١).

عد ٤٦٣

ارسطوبولس الثاني

لم يستقرّ ارسطوبولس على سرير الملك إلاّ ونشأ قلق في مملكته أحدثه انتيباس
(المسمى أيضاً انتيباتر) أبو هيرودس وكان هذا الرجل ادومياً أصلاً يهودياً مذهباً
كغيره من الادوميين الذين أجبرهم يوحنا هركان أن يتهودوا. وكان من رجال دولة
الملك اسكندر واسكندرة زوجه ومن المقربين إلى بكرهما هركان رجاء أن يرفع
مقامه إذا استوى على أريكة الملك، ولما أخفق مسعاه بسقوط هركان عن العرش
وارتقاء ارسطوبولس إليه. بذل قصارى جهده في إعادة هركان إلى ملكه فلجأ أولاً
إلى أرنياس حارس ملك العربية الحجرية ليعاونه على بغيته، فأتى لمحاربة
ارسطوبولس. فانتصر ارسطوبولس عليه وأنجده سكاوروس قائد جيش الرومانيين ثم
أتى بمبايوس إلى سورية سنة ٦٤ و ٦٥ ق.م عائداً من محاربة متريدات. فأراد أن
ينظر في دعوى هركان وارسطوبولس الذي استدعاه بمبايوس وهو في دمشق فلجئ
دعوته. وأتى جم غفير من اليهود يسألون بمبايوس أن يريحهم من ولاية كليهما لأنه
لم يكن من عادتهم أن يتولاهم ملوك بل أن يسوسهم رئيس كهنة، ويقضي بينهم
بحسب سنتهم. أما هركان فكان يشكو أن أخاه انتزع الملك منه خلافاً للحق لأنه
البكر وأن ليس له إلاّ حقول قليلة لا تقوم بأوده. وأن أخاه كاللص يسطو على
جيرانه وينهب مالهم. وكان انتيباس أحضر كثيراً من اليهود ليشهدوا على أخيه،
وأما ارسطوبولس فأجاب إنه لم يتزع الملك من أخيه إلاّ لأنه لم يكن أهلاً له وقد
ازدراه الشعب لأنه رجل بليد مكسال، فاضطرّ أن يقبض على أزمة الملك لئلا تقع
بيد أجنبي، وأحضر شهوداً على دعواه كثيراً من أعيان البلاد.

أما بمبايوس فتيّن له أن ارسطوبولس اعتدى على أخيه لكنه لم يبرز حكمه
خشية أن يبدى ارسطوبولس ما يحول دون قهر بمبايوس العرب، فأصرفهما متلطفاً
وقال إنه سوف يمرّ في اليهودية بعد أن يخضع ارتيباس والعرب، فينظر حينئذ في
هذا الخلاف ويسوّي بينهما فشعر ارسطوبولس بما كنّه بمبايوس فبارح دمشق حيث

كانوا لساعته ولم يودعه. وأسرع إلى اليهودية يسأل قومه ويتأهب للمدافعة فجعل نفسه بهذا التصرف عدواً لمببايوس.

وزحف بمبايوس بجيشه إلى بلاد العرب وكان ارتياس ملكهم يزوري الرومانيين، ولكن لما دنت جحافلهم من بلاده قنط، وأرسل وفداً يقول أنه خاضع لهم فلم ينكف بمبايوس عن المسير حتى بلغ مدينة حاجر عاصمة الملك وأخذها، وقبض على ارتياس ثم خلى سبيله لقبوله الشروط التي اقترحها عليه. ثم عاد بمبايوس إلى دمشق وسير جنوده على ارسطوبولس فلقبه في حصن يسمى الكسدرون كان أبوه بناه وسماه باسمه. وأمره بمبايوس أن يخف إليه فتردد ارسطوبولس متشاعلاً عن الحجى والحق عليه أصحابه أن يمضي علّه يقي البلاد من الحرب. فأتى وحدته بمبايوس في أمر الخلاف بينه وبين أخيه فبذل ارسطوبولس مجهوده في اقناعه وأرجأه بمبايوس إلى مقابلة أخرى.

وعاد إليه ارسطوبولس مرات آملاً أن يستميله بهذا التلطف إلى الحكم له ولم ينكف عن التأهب للحرب لئلا يحكم بمبايوس عليه. وشعر بمبايوس بذلك فأسره آمراً أن يسلم إليه كلما أعدّه للقتال، وأكرهه على أن يمضي أمراً بذلك إلى جميع رؤساء الحصون. فوغر صدر ارسطوبولس من هذا التحكم وأسرع بعد خروجه من عند بمبايوس فحل بجيشه أولاً في اريحا ثم أمّ أورشليم على أنه ما لبث أن ندم على ما صنع وخرج للقياه. وبذل قصارى جهده ليسترضيه عنه واعدأ بالخضوع المطلق له وبمبلغ جسيم من النقود تفادياً من الحرب فقبل بمبايوس ما عرضه عليه. وأوفد كابينيوس مع كتيبة من الجنود ليقبض المال فوجد أهل أورشليم أبوابها، وأخذوا يصيحون على القائد أنهم لا يقبلون الوفاق. فقبض بمبايوس على ارسطوبولس وغلله وزحف بجيش إلى المدينة. وكان محازبو ارسطوبولس يريدون الدفاع ومريدو هركان يهودون فتح أبواب المدينة لمببايوس. ولما رأى محازبو ارسطوبولس تغلب خصومهم عليهم انحازوا إلى جبل الهيكل للدفاع ونقضوا الجسور التي على الوهاد. ففتحت أبواب المدينة ودخلها بمبايوس وحاصر الهيكل فلم يتهياً له فتحه مدة ثلاثة أشهر ولاستحال عليه فتحه لولا تشبث المحاصرين بحفظ وصية السبت، لأنهم كانوا يرون أنه يجوز لهم أن يدفعوا عن أنفسهم يوم السبت، ولكن لا يجوز لهم أن يوقفوا الأعداء عن أعمالهم. فأخذ الرومانيون في أيام السبت يركمون الوهاد، ويحكمون في محلها أدوات حربهم ولا مقاوم لهم.

واتصلوا أخيراً إلى أن قوّضوا برجاً وانفتح لهم منفذ في الأسوار فوثبوا على أعدائهم وأوقعوا فيهم. وأبسلوا بحدّ السيف اثني عشر ألفاً منهم وكان الكهنة يقدمون الذبائح في الهيكل فلم يبالوا بما كان من الصراخ وقعقة السلاح ولم يبرحوا مواقفهم حتى اختلط دم بعضهم بدم ذبائحهم.

فدخل بمبايوس الهيكل حتى قدس الأقداس، فأسخط ذلك اليهود وهيجهم على مقت الرومانيين، ولم يمس بمبايوس خزينة الهيكل لعلمه أنّ أكثر الأموال فيها ودائع لبعض الناس جيء بها إلى الهيكل لتكون في مأمن. وقال شيشرون الخطيب (في خطبة محاماة لفلان) إنّ بمبايوس لم يصنع هذا اجلالاً لدين اليهود المخالف لعقائد الرومانيين بل ليظهر نزاهته وترفعه وليقطع مجال التّقوّل عليه. وقد فارق بمبايوس سعه بعد دخوله الهيكل فلم يكن له انتصار بعد انتصاره على اليهود، وقد نقض حينئذ أسوار أورشليم وأسر ارسطوبولس وابنيه اسكندر وانتيكون وابنته وأخذهم إلى روما. وأقام هركان على الملك وسكاوروس على باقي سورية وألحق مدناً كثيرة من مملكة اليهود بمملكة سورية. وكان ذلك لسنة ٦٣ ق.م (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ٢ إلى فصل ٨ وفي حربهم مع الرومانيين ك ١ فصل ٤ و ٥).

عد ٤٦٤

ما كان في أيام هركان الثاني

لم يستقر هركان في منصّة الملك إلّا وزعزعها اسكندر بن ارسطوبولس لأنّه فرّ من طريقه إلى روما وعاد إلى اليهودية. وحشد جيشاً سنة ٥٧ ق.م ليثّل عرشه. ولما كان هركان ضعيفاً لا يقوى على محاربة ابن أخيه لجأ إلى الرومانيين، فاستظهر كابينيوس قائد جيشهم على اسكندر، وأتى إلى أورشليم وأقرّ هركان في رئاسة الكهنوت. وجعل حكومة اليهود جمهورية وأقام اعيان الشعب على تدبير شؤون بلادهم التي قسّمها إلى خمس ولايات. وتتبع آثار اسكندر وضايقه حتى استسلم إليه ولكن لم تستتب الراحة إلّا قليلاً لأنّ ارسطوبولس فرّ من سجنه في روما وعاد إلى اليهودية مع ابنه انتيكون. وانضمّ إليه جمّ غفير فأرسل كابينيوس جنوده إليه وصرف ارسطوبولس كل من رأى أنّ لا نفع له منهم. واستبقى معه ثمانية آلاف

من رجال البأس المحنكين بالحروب. والتحمت الحرب فأبدى ارسطوبولس ورجاله آيات البسالة والشهامة في ذلك اليوم إلى أن دارت أخيراً عليه الدوائر. فقتل من رجاله خمسة آلاف وفرّ ألفان فاستعصى على قمة جبل وخرق ارسطوبولس صفوف الأعداء بمن بقي معه، وبلغ عند المساء إلى ماكرون فوجدها قد دُمرت في الأحداث السالفة وهمّ أن يرّم فيها شيئاً ولكن باغته الرومانيون فأقام يدافع عن نفسه يومين بشجاعة ولا شجاعة الأسود إلى أن انتصر الجيش الكثيف عليه وعلى رجاله القليلين. فقبضوا عليه وأرسلوه إلى كابينيوس ثم إلى روما مع ابنه انتيكون. وردّ رجال الندوة أولاده لأنّ كابينيوس كتب إليهم أنه وعد أنهم أن يستردّهم مكافأة لها على تسليمها بعض الحصون إليهم. وكان ذلك لسنة ٥٤ ق.م (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٤ ف ١٠ و ١١ في حربهم ك ١ ف ٦).

على أنّ اسكندر بن ارسطوبولس لم يلزم السكنية بعد عوده إلى اليهودية بل انتهز فرصة غياب كابينيوس إلى مصر، وحشد جمعاً غفيراً من اليهود وقتل كل من وقع بيده من الرومانيين. فعاد كابينيوس من مصر واستمال بعض اليهود إليه ولكن بقي مع اسكندر ثلاثون ألفاً عزموا أن يناوئوا الرومانيين فحُذِلوا. وسقط منهم عشرة آلاف في القتال وفرّ اسكندر بمن سلم من جنوده وجاء كابينيوس إلى أورشليم عملاً برأي انتيباس يدبر أمور اليهود.

وكان كابينيوس استدعته الندوة إلى روما ليحاكم على مخالقات لأوامرها. وأقامت كراسوس على سورية مكانه وأتى إلى أورشليم ولم يطاوعه طمعه الاشعبي أن يمسك نفسه عن أموال الهيكل كما صنع بمبايوس قبلاً. بل ابتزّ كل ما وجد فيه من النقود وآنية ذهبية بحجّة أن يقوم بنفقات الحرب على البريتين. ثم سار لحرب هؤلاء فانتصروا عليه وعاد إلى شمالي سورية فلم يقووا أن يدخلوها ثم أتى اليهودية. وحارب من حازبوا ارسطوبولس وابنه اسكندر وأخذ منهم ثلاثين ألف أسير وكان ذلك لسنة ٥٣ ق.م.

ولما استحوذ قيصر على روما سنة ٤٩ ق.م وفرّ بمبايوس وأكثر رجال الندوة من وجهه أطلق ارسطوبولس من السجن وأرسله إلى سورية للمحافظة على هذا الاقليم، فلم يهنأ ارسطوبولس بأمانيه بحماية قيصر لأنّ محازبي بمبايوس أماتوه مسمماً. فأخذ أصحاب قيصر جثته وحطّبوها ثم نُقلت إلى مدفن الملوك. وأما ابنه

اسكندر فقتله شييون في انطاكية بأمر بمبايوس. ولما غزا قيصر مصر سنة ٤٧ ق.م ملاحقاً بمبايوس أنجده انتيباس من قبل هركان بجيش اتخذه من العرب واليهود ومن رجال بتولمايس الذي كان يسكن في أعمال لبنان وفاز انتيباس (أبو هيرودوس) بمنزلة كبرى أمام قيصر وعظم اسمه. وأتى قيصر بعد ذلك إلى سورية فطلق انتيكون بن ارسطوبولس يتزلف إليه ويتوسل ليقمه على عرش أبيه. ويشكو من هركان وانتيباس وسعى بهما فلم يسمع قيصر له لما اصطنعاه إليه من الخدمات في حرب المصريين بل أمر أن يستمر هركان على رئاسة الكهنة وعلى ولايته على اليهود هو وذريته من بعده. وجعل انتيباس مديراً لليهودية تحت امرة هركان ففسخ بذلك ما كان كابينيوس أمر به من أن الولاية على اليهود تكون لأعيانهم. وأقام انتيباس بكره فازئيل والياً في اورشليم وهيرودس ابنه الآخر والياً على الجليل سنة ٤٤ ق.م، ورخص قيصر لهركان أن يعيد بناء أسوار اورشليم التي كان نقضها بمبايوس. فعني بذلك انتيباس دون ابطاء وعادت اورشليم محصنة كما كانت. وفي سنة ٤٤ نفسها في ١٥ آذار كان مقتل قيصر في الندوة غيلة بمؤامرة أخص منشيها كاسيوس وبروتوس الذي غمره قيصر بنعمه.

وفي سنة ٤٠ ق.م دخل ملك البرتين إلى سورية وأرسل فريقاً من جنوده إلى اليهودية آمراً أن يقام على أريكة الملك انتيكون بن ارسطوبولس. وحشد انتيكون جيشاً لنجدة عسكر البرتين وطلب قائد البرتين هركان وفازئيل أن يأتيا إليه للمفاوضة في وفاق، فلبيا دعوته فقبض عليهما وكنّلهما بالحديد. أما هيرودس ففرّ من اورشليم. فدخلت جنود البرتين المدينة فانتهبوها وقرأها وأجلسوا انتيكون على سرير العرش. وسلموا اليه هركان وفازئيل مغلّلين. ولما علم فازئيل أنه لا مفرّ له من الموت انتحر مكسراً رأسه على جدار السجن. وأما هركان فاستبقوا عليه حياً ولكن صلّم انتيكون أذنيه كيلا يبقى أهلاً لرئاسة الكهنوت، إذ أمر في سفر الأخبار (ص ٢١ ع ١٦) أن يكون رئيس الأخبار خالياً من كل عيب وتعويه. ثم أسلمه إلى البرتين ليأخذوه إلى بلادهم حيث لا يتيسر له أن يتدخل في أمور اليهودية. وبقي هناك سجيناً في سلوقية باقيلم بابل إلى أن رقي فرات عرش الملك. فحلّه من أغلاله وأذن له أن يتردّد إلى اليهود الذين كانوا كثيرين هناك. فأجلّه اليهود كملك ورئيس أخبار، وأمدّوه بما يسهّل له أن يعيش بحسب مقامه. ثم استدعاه هيرودس إلى اورشليم لكنه قتله بعد ذلك (يوسيفوس

في حروب اليهود مع الرومانيين ك ١ فصل ٦ و ٧ و ٨ وفي تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ١٠ إلى ١٧).

عد ٤٦٥

انتىكون وهىروس

إن هىروس فر إلى مصر عندما استحوذ البرتيون على أورشليم ثم سار إلى روما واستمال مرقس انطونيوس أحد الرجال الثلاثة رؤساء الحكومة الرومانية. فأفضل عليه بأكثر مما كان في حسابانه فجّل ما كان يلتمسه أن يُعطى تاج الملك لارسطوبولس بن اسكندر بن ارسطوبولس أخى هركان. ولما كان هىروس قد خطب مريمنا أخت ارسطوبولس هذا كان يؤمل أن يقام على تدبير الملك تحت أمرته كما كان انتيباس أبوه تحت أمرة هركان. فانطونيوس أقام هىروس نفسه ملكاً على خلاف عادة الرومانيين أن لا ينتهكوا حرمة السلائل الملكية إذا تقوا عليها. بل يختاروا من شاءوا منها ملكاً يجعلونه تحت حمايتهم. فأقوّت الندوة هىروس ملكاً على اليهودية سنة ٣٩ ق.م فلم يقم هىروس بعد ذلك في روما إلا سبعة أيام وأسرع إلى اليهودية فوصلها بعد ثلاثة أيام.

على أن استواء هىروس على عرش ملك اليهود لم يكن بالأمر اليسير لو لم يكن انتىكون ليتخلّى له عنه وقد كلّفه الوصول إليه أتعاباً وأموالاً، فاشتدّ النزاع بينهما سنتين. فهىروس صرف فصل الشتاء سنة ٣٨ ق.م حاشداً الرجال مُعداً الغدّد ثم زحف إلى أورشليم، وحاصرها بجيش كثيف، وكان انطونيوس أمر سوسيوس والي سورية أن يذلّ قصارى جهده في خلع انتىكون وتأييد ملك هىروس في اليهودية. وبعد اقامة الجنود الحصار مضى هىروس إلى السامرة فتزوج مريمنا ابنة اسكندر المذكور. وكان هىروس يؤمل أن تزوجه بهذه الأميرة التي هي من نسل ملوك اليهود يستميل الشعب إليه وييسّر له نيل بغيته. وبعد عوده ضمّ جيش سوسيوس والي سورية وجيشه حتى صار الجيشان لا أقلّ من ستين ألفاً. وشدّوا الحصار على أورشليم فأحسن انتىكون وقومه الدفاع مدة ستة أشهر إلى أن دخل الأعداء المدينة من كل جهة. واستحوذوا عليها سنة ٣٧ وملاؤا أزقتها من القتلى وانتهبوا ما فيها ونقضوا بعض أبنيتها.

أما انتيكون فلما يمس من الدفاع أتى إلى سوسيوس وانطرح على قدميه متذللاً. فغلله وأرسله إلى انطونيوس الذي كان حينئذ في انطاكية. وأحبَّ انطونيوس أن يقيه حياً لكن هيرودس طلب إليه أن يميته إذ لا راحة له في ملكه ولا ثبات له ما دام أحد من سلالة الملوك اليهود حياً. وأرشى أعوان انطونيوس بمبلغ جسيم من المال فحوكم انتيكون وحكم عليه بالقتل ونُفذ فيه القضاء الجائر سنة ٣٧ ق م. (يوسيفوس في حروب اليهود ك ١ فصل ١٠ و ١٣ وفي تاريخ اليهود ك ١٤ ف ٢٥ إلى ٢٨ وبلوطرك في ترجمة انطونيوس). فانقضى بموت انتيكون ملك المكابيين وولايتهم بعد أن دامت مئة وتسعاً وعشرين سنة. بدؤها ولاية يهوذا المكابي ونهايتها بمقتل انتيكون سنة ٣٧ ق م. وانتقل الملك من يهوذا إلى هيرودس بن انتيباس الأدومي الأجنبي عن اليهود، فكان ذلك دليلاً على دنو مجيء المخلص بحسب نبوة يعقوب أبي الأسباط حيث قال في يهوذا: «لا يزول صولجان من يهوذا ومشرع من صلبه حتى يأتي شيلو (أي المخلص) وتطيعه الشعوب». فقد تحققت هذه النبوة التي كانت قبل مجيء المخلص بنحو من تسعة عشر قرناً إذ لم يخلُ سبط يهوذا من أن يكون فيه ملك أو والٍ أو حاكم بحسب الشريعة من ذلك العهد إلى أن تبوأ هيرودس الأدومي عرش اليهودية.

مقالة

تاريخ سورية في أيام الرومانيين

فصل

أخبار سورية واليهودية مذ استحوذ عليهما الرومانيون إلى مولد المخلص

عد ٤٦٦

لمعة في تاريخ الرومانيين إلى ملك اغوستوس قيصر

الرومانيون قبيلة يافيتية ظنعت من آسيا إلى أوروبا وأقامت في وسط إيطاليا. ويبتدئ تاريخهم من بناء مدينتهم روما الذي كان في منتصف القرن الثامن قبل المسيح ولم يجمع المؤرخون على سنة بنائها بل اختلفوا فيها بين أن تكون سنة ٧٥٤ أو سنة ٧٥٣ إلى سنة ٧٤٩ ق.م. وقالوا إن رمولوس قتل أخاه راموس لأنه سخر منه لبنائها حقيرة، واستبد في بناء المدينة والملك فيها. ثم خلفه ستة ملوك آخرون في مدة مئتين وأربع وأربعين سنة. لا سبيل إلى تحقيق ما يُروى عنهم ولكن لا نكير أنه عظم شأن روما في مدة ملكهم، وتوفرت ثروتها وامتدت تخوم سلطتها إلى كثير من الأعمال المجاورة لها ثم قلبوا حكومتها الملكية سنة ٥٠٩ أو سنة ٥١٠ ق.م. واستبدلوا بحكومة جمهورية، يلقون زمامها كل سنة إلى حاكمين يسمونهما قنصلين ينتخبهما الشرفاء. قتقهقر نجاح الرومانيين، وكثرت المنازعات بين شرفائهم المسمين بطارقة وبين عامة شعبهم. واستمروا على حالة الضعف هذه مدة فسطت عليهم بعض العشائر المجاورة لهم وكادت تستحوذ عليهم وتقرض دولتهم لو لم يتداركوا أمرهم باقامة ندوة سنة ٤٩٣ مؤلفة من الشرفاء والعامة. ثم توفر تبديل

هيئة حكومتهم واسماء حكامهم في هذه المدة وغزا روما الغاليون (عشيرة من سكان افرنسة القدماء). واستحوذوا عليها وأوشكوا أن يدمروها إلى ما شاء الله سنة ٣٨٩ ق م. على أن منايوس قنصلها وكاميل قائد جيشها أنجياها من التهلكة وطردها الغاليين منها وكانت بين الرومانيين والسمنيين (سكان سمنيوم في ايطاليا الشرقية) حروب عديدة ابتدأت سنة ٣٤٣ وتواترت إلى سنة ٢٧٢ ق م. وعمت ايطاليا كلها. وكانت عاقبتها أن السمنيين ذلوا وخضعوا للرومانيين في السنة المذكورة. ثم دان حلفاؤهم لهم على التعاقب إلى سنة ٢٦٤ ق م. فأصبحت ايطاليا كلها في قبضة الرومانيين. واستفحل أمرهم وغدّوا من أعظم دول العالم وامتاز رجالهم بالفضائل الجندية والمدنية.

وكانت للرومانيين أيضاً حروب مع القرطاجنيين تُسمى الحروب البونية لأن القرطاجنيين يسمون بونيين أي فينيقيين. لأنهم جالية من فينيقية كما مرّ في المقالة في الفينيقيين. وأولى هذه الحروب استمرت من سنة ٢٦٤ إلى سنة ٢٤٢ ق م. وأخذ الرومانيون حينئذٍ صقلية الغربية من البونيين ثم استحوذوا دون حرب على سردينيا، وأخذوا قسماً من افرنسة في ما وراء الألب. ثم انتشبت الحرب الثانية بين الفريقين واستمرت من سنة ٢١٩ إلى سنة ٢٠٢ وكان قائد البونيين انيبال الشهير. فأنزل بالرومانيين أشدّ الوبال، وضايقهم حتى ضاق ذرعهم عن الدفاع وأشرفوا على الهلاك إلى أن حسنت عاقبة هذه الحرب فملكوا صقلية الشرقية وافتتحوا اسبانيا. ثم استؤنفت الحرب بينهم واستمرت من سنة ٢٠١ إلى سنة ١٤٦ فقهر الرومانيون البونيين وأخذوا قرطاجنة. ووطدوا ولايتهم في اسبانيا وفي ما وراء الألب في افرنسة. ثم افتتحوا مكدونية وقرضوا دولتها وجعلوها اقليماً رومانياً سنة ١٤٨ ق م. وكذلك فعلوا بمملكة اليونان سنة ١٤٦ ق م. وطردها السلوقيين من آسيا الصغرى إلى ما وراء جبل طوروس من سنة ١٤٦ إلى سنة ١٣٣ ق م. ومنذ سنة ١٢٥ ق م. أصبح قسم من افرنسة اقليماً رومانياً ثم انبسطت تخومه من طولوز إلى نيس وأخذوا نوميديا من سنة ١١٢ إلى سنة ١٠١ ق م. فأصبحت الدولة الرومانية حينئذٍ أعظم دولة في العالم، ولكن داخل رجالها وجنودها الترف والعكوف على الملاذ والخلاف للنظام. وتوفرت المنازعات بين العامة والبطارقة. ودامت سنين عديدة وإن تخللها حروب بينهم وبين التونين (عشائر من المانيا) من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٠١ ق م. وحروبهم مع متريدات ملك البرتين من سنة

٨٨ إلى سنة ٦٤ ق م. ثم استؤنف القتال بينهم وكان سيلاً رئيس حزب الأشراف، وماريوس رئيس حزب العامة. فانتصر سيلاً ومحاربوه واستتب له الأمر رهبة. لكن ولدن وفاته سنة ٧٨ ق م استؤنف النزاع بحروب دموية أو مؤامرات خفية منها مؤامرة كاتلينا على شيشرون الخطيب لأنه زاحمه في أن يكون قنصلاً. ثم مؤامرتة على الحكومة وخراب روما فكشف شيشرون أمرها وأبان شرّها وضربها في الندوة بفصاحته الشهيرة حتى أرغم كاتلينا أن يفرّ من روما ويحشد عسكرياً من محاربيه فقتل في أحد المواقع سنة ٦٣ ق م، وكان بمبايوس قد أخذ سورية سنة ٦٤ كما مرّ في عد ٤٥٨ .

وعهد الرومانيون بتدبير شؤونهم إلى ثلاثة رجال هم بمبايوس ويوليوس قيصر وكراسوس سنة ٦٠ واستمرت الحال كذلك إلى سنة ٥٣ ق م التي فيها أدركت الوفاة كراسوس. واستمرّ بمبايوس ويوليوس قيصر فوقعت النفرة بينهما واشتدّ النزاع وكثرت وقائع الحرب. فاستظهر قيصر على بمبايوس وفرّ أولاً إلى بلاد اليونان ثم إلى مصر. فقتل قيصر إلى أن قُتل بمبايوس بأمر من بتلميس الثاني عشر وجيء برأسه إلى قيصر. فبكاه واقتصر من قاتليه وثلّ عرش بتلميس ورقى قلوبطرة إلى منصّة الملك سنة ٤٨ ق م. ثم مضى قيصر من مصر فانتصر على فرتاس ملك بنطوس الذي كان عصاه وحطّه عن عرش ملكه سنة ٤٧ ق م، ثم عاد إلى افريقية فأباد عسكر مخالفيه من الرومانيين سنة ٤٦ ق م، ثم زحف إلى اسبانيا فانتصر على ابن بمبايوس وقتله، وأكمل إبادة محاربيه وعاد إلى روما سنة ٤٥ ق م وعفا عن أعدائه. وجملّ روما بإقامة أبنية كثيرة وحوّر شرائعها وأصلح الحساب الفلكي المنسوب إليه وأضمر الجمهوريون حقدهم عليه وحنقهم منه، وأشاعوا أنه يريد أن يسمي نفسه ملكاً فتآمروا عليه وكان رؤساء هذه العصابة عليه كاسيوس وبروتوس الذي كان غمره بآلائه فقتلوه في الندوة نفسها في ١٥ آذار سنة ٤٤ ق م.

على أنّ هذه العصابة لم يتهياً لها أن تضبط زمام السلطة لأنّ الشعب أقام ثلاثة حكام آخرين وهم: اكناف الذي سُمي بعداً اغوستوس قيصر، ومرقس انطونيوس وأبعدا لايد. وكان اكناف قد زوّج أخته اكنافية بانطونيوس فاتفقا أولاً وحاربا أعداءهما وانتصرا على كاسيوس وبروتوس سنة ٤٢ ق م وبدّدا شملهما وأبعدا لايد زميلهما عن الحكومة. واستقلا بها ثم وقع التحاسد والغيرة بينهما واقتسما المملكة. وأخذ اكناف المغرب. وأخذ مرقس انطونيوس المشرق وكثرت

المنازعات بينهما. وهام انطونيوس بقلوبطرة ملكة مصر فترك امرأته اكتافية أخت
اكتاف زميله واقرن بها. فشقّ صنيعه على اكتاف وأثار عليه حرباً بحرية عواناً تجاه
اكسيوم في طرف بلاد اليونان الغربي دارت الدوائر فيها علي انطونيوس وفزّ
بمعشوقته قلوبطرة إلى اسكندرية. وتتبعه اكتاف ورأى انطونيوس أنّ لا مناص له من
المنية فانتحر سنة ٣١ ق م. أما قلوبطرة فأفرغت جعبة دهائها وتدلّ لها وتبهرجها
لتقتنص قلب اكتاف كما استغوت واستهوت انطونيوس وقيصر. فصادت جلمود
صخري يرد أسهمها عليها فيئست وأماتت نفسها. قالوا جئ إليها بحية ضمن سلّة
تين وقدمت ذراعها إليها فلدغتها وقضت. وقيل دسّت السمّ في جسمها بآبرة
والأمثل أن يقال أنها انتحرت، ولا يُعلم بأيّة وسيلة. فأخذ اكتاف اسكندرية وجعل
مصر اقليماً رومانياً. وعاد إلى روما سنة ٢٩ ق.م ظافراً فسماه رجال الندوة أمير
الشورى وامبراطوراً أي عاهلاً واغسطس أي سعيداً. وابتدأت به الحكومة الملكية
سنة ٢٧ ق.م ويسمى غايوس يوليوس قيصر اكتاف اغسطس وهو ابن أخت
يوليوس قيصر المار ذكره والذي ربّاه ابناً له وإليك صورته عن تمثال في متحف
اللوفر في باريس.



الولاية الرومانيون على سورية إلى مولد المخلص

قد مرَّ أنَّ الرومانيين استحوذوا على سورية سنة ٦٤ ق.م وإليك الآن أسماء الولاية الذين أقاموهم عليها إلى مولد المخلص ملخصاً عن إحدى المقالات المعلقة على معجم الكتاب لكلمت في طبعة الأب مين عن الكتاب الموسوم بصناعة تحقيق التواريخ.

إنَّ بمبايوس بعد أن استولى على سورية ودانت له اليهودية أخذ الملك ارسطوبولس الثاني إلى روما وأقام في رئاسة الكهنوت هركان. وجعل مرقس اميلوس سكاوروس والياً على سورية سنة ٦٣ ق.م. وأقام في دمشق يولي ويعزل الحكام في سورية كما يعنّ له. وروى يوسفوس (في تواريخ اليهود ك ١٤ فصل ٢ و ٣) إنه ولّى ارسطوبولس على اليهودية. وقد عثر رنان على صفيحة من رخام في صور أقيمت تكربة لمرقس اميلوس سكاوروس هذا يعظمونه فيها بألقاب غير مألوفة تملقاً له. وقال رنان: إنَّ هذا الأثر كُتب سنة ٦٠ ق.م وعن فرهنر أنه كُتب سنة ٥٩ ق.م وروى استرابون (ك ١٦ فصل ٢) إنَّ الصوريين شروا من الرومانيين في بدء ملكهم في سورية حق بقائهم على تدبير شؤونهم بأنفسهم فباعهم سكاوروس إياه. وقد أقام في سورية أربع سنين ثم خلفه لوشوس فيلبوس سنة ٥٩ ق.م ولم يقيم على ولاية سورية إلا سنة واحدة وخلفه سنة ٥٨ ق.م كورنيليوس مرسيلينوس على أنه دُعي في السنة التالية إلى روما. وأقيم مكانه اولوس كابينيوس سنة ٥٧ ق.م ولم تكن ولايته إلا ثلاث سنين. وكانت له حروب مع اليهود كما مرَّ في عد ٤٦٣، وخلفه سنة ٩٤ ق.م مرقس كراسوس وهو الذي انتهب الهيكل كما مرَّ في العدد المذكور فقتله البرتيون سنة ٥٣ ق.م وأقيم مكانه غايس لونجينوس. ولم تدم ولايته إلا سنتين واستبدل بمرقس يبولس. فبلغ سورية في بدء الخريف سنة ٥١ ق.م فأقام سنة ونصب مكانه ميتالوس سيبون ولم يبق في الولاية إلا إلى شهر آب سنة ٤٩ ق.م وانحاز حينئذ أهل سورية إلى محازبه يوليوس قيصر. فأرسل إلى سورية أحد ذوي قرباه المسمى سيستوس قيصر سنة ٤٧ ق.م على أنَّ شيشيليوس باسوس أحد محازبي بمبايوس قتله واستتبَّت له ولاية سورية سنة ٤٦ ق.م. فنصب يوليوس قيصر غايوس باتس والياً على سورية سنة ٤٥ ق.م وحارب باسوس وأخذ

الولاية منه سنة ٤٤ ق.م ثم خلف باتس استاسيوس مرقس فتخلّى عن الولاية لغايوس كاسيوس أحد رؤساء المؤامرة على يوليوس قيصر. وفي سنة ٤٣ ق.م أرسل مرقس انطونيوس بوبليوس دي لابلأ والياً إلى سورية فقبله أهل اللاذقية في شهر أيار، على أنّ غايوس كاسيوس أخذ اللاذقية بعيد ذلك وقتل دي لابلأ.

وفي سنة ٤٢ ق.م استحوذ مرقس انطونيوس على آسيا كلها وسورية بعد وقعة في مدينة فيليبية في مكدونية، وظفره بروتس وكاسيوس قاتلي يوليوس قيصر. وولّى على سورية سنة ٤١ ق.م بوبليوس سكسا أحد قادته فاستظهر عليه البرتيون سنة ٤٠ ق.م واستحوذوا على سورية. واتصلوا إلى أورشليم وأقاموا انتيكون بن ارسطوبولس والياً على اليهودية سنة ٤٠ ق.م، لكن بوبليوس باسوس طرد البرتيين من سورية وولي هذه البلاد سنة ٣٩. وفي سنة ٣٨ ق.م وُلّي عليها اغايوس سوسيوس واستمرّ على هذه الولاية إلى سنة ٣٤ ق.م حين دُعي إلى روما، وأقيم في مكانه لوشيوس بلانكس وخلفه لوشيوس بيلبوس. ولا يُعلم كم استمر عليها والمعلوم أنه أدركته الوفاة سنة ٣٢ أو بداية ٣١ ق.م وفي هذه السنة وُلّي سورية كونيوتوس ديدويوس وكان من محازبي اكتاف اغوسطوس قبل موت مرقس انطونيوس. وخلفه سنة ٣٠ ق.م مرقس مشالا قُبيل أخذ اغوسطوس اسكندرية وخلفه في سنة ٢٩ ق.م مرقس شيشرون بن شيشرون الخطيب واستمر ثلاث سنين وخلفه في سنة ٢٦ فارون. وفي سنة ٢٣ ق.م شمي اغريبا والياً على سورية ومديراً لسائر الأقاليم الشرقية، لكن اغريبا بقي في مَتْلان وأرسل إلى سورية من ينوب عنه فدبّر شؤون سورية سبع سنين. وفي سنة ١٦ ق.م أتى اغريبا إلى سورية واستمرّ فيها إلى سنة ١٢ ق.م ثم دُعي إلى روما وخلفه في سورية سنتيوس ساتورنينوس وطيطس فولنميوس. وفي سنة ٦ ق.م جعلهما اغوسطوس قاضيين في دعوى هيرودس على ابنيه اسكندر وارسطوبولس. وفي سنة ٥ ق.م وُلّي اكونتيليوس فاروس. وحُكم على انتيباتر ابن هيرودس بالموت بدعوى أبيه وخلفه سنة ٥ بعد الميلاد بمقتضى التاريخ العامي^(١) ساتورنينوس ولم يل سورية

(١) وهو التاريخ الذي بدؤه سنة مولد المخلص على ان هذا التاريخ يتبدى حقيقة من السنة الرابعة بعد المولد وجعل بعضهم بدئه من السنة الخامسة او السادسة بعده وذلك ان تاريخ المولد لم يبدأ في استعماله إلا في القرن السادس وبدى به من السنة الرابعة بعدة أخطاء ولما كشف عن الخطأ فضلوا اتباع الخطأ المطروق على اتباع الصواب المهجور فكان كذلك إلى اليوم.

إلا سنة وخلفه فيها سنة ٦ بعد الميلاد سولبيسيوس قورينوس بسورية وهو الذي جاء ذكره في بشارة لوقا (فصل ٢ عد ٢) بقوله: «وهذه كانت الكتابة الأولى في ولاية قورينوس بسورية». إنَّ الذي نصَّ عليه المؤرخون القدماء إنما هو أنَّ قورينوس وليَّ سورية في السنة السادسة والثلاثين لاغوسطوس وهي توافق سنة ٦ بعد الميلاد. ولوقا يقول إنَّ هذه الكتابة حملت يوسف ومريم أن يأتيا من الناصرة إلى بيت لحم ليكتب اسمه هناك لأنه كان من بيت داود وقبيلته. فولدت المخلص فتذرَّع الجاحدون بهذه الآية لتخطئة لوقا البشير بما كتبه فيها. وذهب الآباء والعلماء الكاثوليكيون مذاهب عديدة في توفيق قول البشير على أقوال المؤرخين. فمن قائل إنَّ تحرير الآية في اليونانية «وقد كانت هذه الكتابة قبل (لا الأولى) ولاية قورينوس بسورية». ومن قائل أنَّ قورينوس لم يكن حينئذٍ والياً في سورية بل كان مفوضاً من قبل اغوسطوس قيصر في اجراء هذا الاكتتاب. ويقرب من هذا القول من قالوا إنَّ كلمة ولاية في اليونانية بهذه الآية ليس مدلولها الولاية بل هي بمعنى قصادة أو سفارة أو تفويض أو غير ذلك. على أنَّ الاكتشافات الحديثة قد جلَّت غياهب اللبس عن وجه الحقيقة حتى لم يعد محل للارتباب فيها. فقد كُشف في البندقية سنة ١٨٨٠ م عن صفيحة كانت على مدفن رجل اسم كونيتوس بالاتينوس وامرأته اسمها كيا. وكان هذا المدفن في بيروت ولا يُعلم متى نُقلت منها إلى البندقية هذه الصفيحة التي تبين أنَّ بالاتينوس أتمَّ بأمر قورينوس إحصاء أهل مدينة أباميا (قلعة المضيق في جوار حماه). وأوضح وأهمُّ مما ورد في هذه الصفيحة ما جاء في صفيحة وُجدت سنة ١٧٦٤ م في تيفولي في ضواحي روما، وهي الآن في متحف لاتران. واليك ملخَّص ما كُتب عليها: «سلبيسوس قورينوس بن بليوس قد وُلِّي وهو في المقام القنصلي اكريت وسيرانيك. وكان والياً من قبل اغوسطوس في أعمال سورية وفينيقية وحارب عشيرة الهومانيين (في جبل طوروس). وقتل ملكهم انيتاس وأخضع هذه العشيرة لسلطة اغوسطوس والشعب الروماني وقَدَّم رجال الندوة للآلهة الغير المائتين ضحيتين شكراً لما أولوه إياه من الظفر. وأمر أن يوشَّح بحلل الانتصار ووُلِّي على اقليم آسيا وهو في مقام نائب قنصل. ووُلِّي المرة الثانية على اقليم سورية وفينيقية من قبل اغوسطوس». والمتحصل من ذلك أنَّ قورينوس كان والياً المدة الأولى في سورية في سنة مولد المخلص كما قال لوقا

البشير. ثم عاد إلى هذه الولاية مرة أخرى في السنة السادسة بعده كما ذكره المؤرخون، وقد ذكروا أيضاً أنَّ إحصاء النفوس والأملاك حصل في تلك المدَّات ثلاث مرات.

عد ٤٦٨

قتل هيرودس ارستوبولس وشكواه إلى مرقس انطونيوس

مرَّ في عد ٤٦٤ أنَّ الندوة الرومانية أقامت بامداد مرقس انطونيوس هيرودس ملكاً على اليهودية سنة ٣٩ ق.م والأكترون على أنَّ ذلك كان سنة ٣٧. وذكرنا هناك الحرب التي كانت بين هيرودس وانتيكون بن ارستوبولس من أسرة المكابيين. فنستقرئ الآن أخبار الرومانيين وهيرودس في مدة ملكه. إنَّ هيرودس كان يخشى أن يقيم في رئاسة الكهنوت رجلاً من سلالة ملوكهم لئلا ينازعه الملك. فاستأثى من بابل رجلاً اسمه حنانيل فأقامه فيها وثنَّ على اسكندرة حماة هيرودس أم مريمنا امرأته أن يعبد ابنها عن الرئاسة. فلجأت إلى قلوبطرة معشوقة مرقس انطونيوس لتستعطفه ليأمر بأن يولي ابنها ارستوبولس رئاسة الكهنوت. فأمر مرقس انطونيوس هيرودس بذلك فاستاء هيرودس لكنه أذعن للأمر تفادياً من اسخاط انطونيوس واسكندرة حماته ومريمنا وزوجه. وبقي واجساً من هذا الأمر وحظَّ على اسكندرة أن تخرج من قصرها أو تكتأب أحداً فضاق ذرعها عن تحمُّل هذا التضيق عليها. وكتبت إلى قلوبطرة تستعطفها فأجابتها الملكة أن تفرغ جهدها لتفتر بابنها إلى مصر. فحاولت الفرار ولكن كُشف أمرها لهيرودس وخشي عاقبة فرارها فتظاهر بالجمالة لها وأضمر أن يهلك ارستوبولس إلى أن أهلكه غريقاً في الماء بواسطة بعض محازبيه. فقد دعت اسكندرة هيرودس إلى مأدبة في أريحا فلَبَّى دعوتها واستصحب بعض شبان أغروا ارستوبولس أن يستحم معهم في الأردن لشدة الحرِّ. وطاوعهم فغرَّقوه واحتجوا أنهم لم يتعمَّدوا هذه الجريمة الفظيعة فعزَّ العزاء على أمه وأخته وسكان أورشليم. وكانت أمه تعلم مكيدة هيرودس على إهلاك ابنها ولا تجسر أن تبوح بها وعظَّم هيرودس الاحتفاء بدفنه، وأكثر من الأسف عليه تبرئة لساحته من إهلاكه.

وكتبت اسكندرة إلى قلوبطرة تبتَّ غدر هيرودس بابنها فأفرغت قلوبطرة

قصارى جهدها لتبعث انطونيوس على مواخضة هيرودس بهذه الجريمة الفظيعة. وكان انطونيوس في قيليقية فأتى اللاذقية واستدعى هيرودس إليه فأتى مرتعداً. وأقام على تدبير المملكة يوسف صهره زوج أخته وأسراً إليه أن يقتل مريمنا إذا قتله انطونيوس، إذ لا يطيق أن تكون لغيره بعده. وأشاع أعداء هيرودس أن انطونيوس قتله فحضت اسكندرية يوسف أن يخرج معها ومع مريمنا ليضعوا أنفسهم تحت حماية قائد الجيش الروماني. ولكن ما لبث أن وردت رسالة من هيرودس يقول بها أنه بلغ سالماً إلى انطونيوس وطيب نفسه بالهدايا التي أهداها إليه وأنه لا خوف من دهاء قلوبطرة. فرغبت اسكندرية ومريمنا عن الالتجاء إلى الرومانيين. ولدى عود هيرودس بشت إليه أخته وأمه ما كان من حماته وامراته، وقالتا أن يوسف كان يتعاطى مع مريمنا بدالة مفرطة. فسألها هيرودس عن هذا فأكرته وأقسمت على أن قلبها لم يمل إلى غيره فصدقها وهش لها. وكان يوسف باح إليها بسر هيرودس أن يقتلها إن قتله انطونيوس. ففرطت منها كلمة عتاب تدل على ذلك فنفر هيرودس منها واستشاط غيظاً قائلاً إنه يستحيل أن يبيعها يوسف هذا السر إن لم تكن سلمت إليه نفسها. وأرسل فقتل يوسف وألقى اسكندرية في السجن بما أنها علّة كل هذه الشرور (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٥ فصل ٢ إلى ٥). وكان مقتل ارسطوبولس وهذه الأحداث نحو سنة ٣٢ ق.م.

عد ٤٦٩

محاربة هيرودس العرب وتزلفه إلى اغوستوس

بينما كانت هذه الأحداث في اليهودية إذ انتشبت الحرب بين اكتاف اغوستوس ومرقس انطونيوس لتقضي لمن يكون ملك الرومانيين منهما. وقد مرّ أن انطونيوس هو الذي سمى هيرودس ملكاً. وعفا عنه بعد موت ارسطوبولس فألب هيرودس جيشاً كثيفاً. واعدّ غُداةً وفيرة ليمضي لنجدة انطونيوس. وعلم انطونيوس بذلك فمنعه عن الاتيان لنجدته. ورغب إليه أن يزحف بجيشه وغُده إلى العرب. فدخل العربية والتقاء العرب وانتشبت القتال فاستظهر اليهود ولكن لمّ العرب شعث جيشهم، وجمعوا جيشاً آخر وأتوا فحلّوا في قانا (في عبر الأردن لا قانا الجليل).

واستظهروا على هيرودس لنجدة عسكر قلوبطرة لهم لشدة بغضها لهيرودس لكنه استأنف القتال في عبر الأردن فانتصر عليهم بعد قتال شديد. وقتل منهم خمسة آلاف وحاصر بعضهم في حصن مانعاً عنهم الزاد والماء، فأكرهوا أن يستسلموا إلى هيرودس بحيث يتركهم يمضون في سبيلهم. فلم يصغ إلى رسلهم ولم يقبل الفضة التي قدّموها له. فحملهم الضيق على الخروج لقتاله فقتل سبعة آلاف منهم ودان له العرب واتخذوه محامياً لهم.

قد عاد هيرودس من بلاد العرب معترّاً متفاخراً فبلغته أخبار انتصار اغوستوس على انطونيوس في وقعة أكسيوم. فذهبت بعزه وسروره وخشي وأصحابه أن صداقته مع انطونيوس ستبعث اغوستوس على خلعه من منصبه وقتله، فاعتم أصدقاؤه وسمت مبغضوه. وكان هركان قد بقي وحده من سلالة ملوك اليهود فعزم هيرودس أن يميته لثلاثي يوليه اغوستوس على فلسطين. وكانت اسكندرة ابنته حماة هيرودس ضاقت ذرعاً عن تحمّل اضطهاد هيرودس. فحملت أباه هركان أن يكتب إلى أمير العرب المسمى ملكاً يطلب حمايته وأن يميته من الذهاب إليه. ولم تنفك عن الإلحاح عليه إلى أن كتب إلى الأمير ما اقترحت عليه طالباً منه أن يرسل بعض فرسانه ليصحبوه إليه وعهد بإبلاغ هذه الرسالة إلى رجل اسمه دوزيتاوس من أعداء هيرودس الألداء لأنه كان أخا يوسف الذي قتله. وكان انطونيوس قتل أخوين آخرين له في صور فانتهاز الرجل هذه الفرصة ليسترضي هيرودس عنه. فأطلعه على رسالة هركان ورغب إليه هيرودس أن يبلغ الرسالة إلى أمير العرب، ويطلعه على جوابه بعد عوده ففعل دوزيتاوس ما أمره به، وكتب الأمير إلى هركان أنه يقبله بالترحاب مع كل اليهود محازبيه. فأخذ هيرودس هذه الرسالة واستدعى هركان إلى ندوة مشورته وأطلعه على الرسالة وأمر بقتله. كذا يقصّ هيرودس نفسه هذه القصة. وقال غيره إن قتل هركان لم يكن بهذه الذريعة التي اخترعها هيرودس تبرئة لنفسه. وكان هركان أقام تسع سنين في رئاسة الكهنوت ثم خلف اسكندرة في الملك ولم يبق فيه حينئذٍ إلا ثلاثة أشهر.

وانتزع ارستوبولس أخوه ثم ردّه بمبايوس إليه فأقام على منصبة الملك أربعين سنة وحطه عنها انتيكون. وأخذ البرتيون أسيراً ثم خلّى ملكهم سبيله فعاد إلى اليهودية إلى أن قتله هيرودس وقد جاوز الثمانين من عمره.

وبعد أن استراح هيرودس من هركان همَّ بالانطلاق إلى اغوسطوس جازعاً من أن يقتصَّ منه لصداقته مع مرقس انطونيوس، ومن أن تنتهز اسكندرة الفرصة فتثير الشعب عليه. وعهد بتدبير مهام الملك إلى فيروراس أخيه وإلى أمه وأخته صالومي. وأوصى أخاه أن يلي الملك إذا حبط مسعاه لدى اغوسطوس. وجعل مريمنا زوجه وأمها اسكندرة في حصن وأقام رقباء عليهما. وانطلق إلى رودس حيث كان اغوسطوس فانتزع التاج عن رأسه قبل أن يدخل عليه، ولم يخاطبه بالتذلل إليه أو بإيراد أعذار غير صحيحة بل قال إنه كان مخلصاً لانطونيوس ويحب أن يبذل قصارى جهده في أن يحفظ الملك له ولو لم يكن متشاغلاً بحربه مع العرب لضمَّ جيشه إلى جيش انطونيوس مدافعاً معه، وأنه أرسل إليه ازودة ومالاً. وكان يودّ لو أمكنه أن يعاونه بأكثر من ذلك لأنه كان متأهباً أن يفدي صديقه المحسن إليه بماله وجهاده بل بحياته أيضاً، حتى لا يستطيع أحد أن يلومه على تركه إياه قبل يوم اكسيوم.

وقال: «لما رأيت نفسي لم أتمكن من إسعافه بجنودي وكفاحي معه أشرت عليه مشورة أن يقتل قلوبطرة ويأخذ ملكها. ويتفق مع جلاتكم. ولو عمل بمشورتي لأتقى الفشل لكنه نبذها فكان ذلك وبالأعلى عليه وحظاً لكم، وإن جعلكم بغضكم له تقتصون مني فلا أتوقف عن الاقرار بحبي له ولا شيء يصدني عن التصريح بذلك علانية. وأما إذا أغضضتم النظر عن الماضي وقدرتم حفظ ذمامي للمحسن إليّ حق قدره فيتيسر لي أن أبدل اسم انطونيوس باغوسطوس. وأخلص لكم طاعتي وأجعل نفسي أهلاً لخدمتكم ولمدحكم لي عليها». فأعجب اغوسطوس كلام هيرودس الدال على عزة نفسه وعلى محاشاته النذالة والتذلل. فأمر أن يأتوا إليه بتاجه وجامله وأكرم مثواه واستصحبه معه إلى مصر.

ولما مرَّ اغوسطوس بسورية بالغ هيرودس في الاحتفاء به في عكا، ودفع له مبلغاً جسيماً من المال وأكرم جنوده وأهدى إليه وإلى حاشيته هدايا نفيسة، ولم يبق على شيء يعود عليهم بالراحة وتطيب قلوبهم حتى دُهِش الرومانيون من سخائه وتيقظه لكل ما يتمنون ويحبون (يوسيفوس ك ١٥ فصل ٦ و ٨ و ٩ و ٢٠).

قتل هيرودس مريمنا امرأته واسكندرة أمها

لم يهنأ هيرودس باستمالة اغوستوس إليه بل نكد عيشه قلق آله وسخط مريمنا واسكندرة أمها عليه. فإن هاتين الأميرتين أيقنتا أن وضعهما في حصن عند ذهابه إلى اغوستوس لم يكن إلا سجنًا لهما، فلم تهش مريمنا للقائه لاعتقادها أن ما يبيده لها من الحب لم يكن إلا مراية يظنها نافعة له في أعماله. وكانت تتذكر ما أمر به يوسف صهره أن يقتلها إذا قتله مرقس انطونيوس. وكان أكبر رغائب هيرودس بعد عوده أن يرى مريمنا ويقص عليها ما وُفق إليه. على أنها عند استماع كلامه لم تكن تبش له، وكانت تتنفس الصعداء حتى أيقن أن كلامه مدعاة لحزنها لا لسرورها. فاضطرب وتنازعه عاملان محبته لها ورؤيته حزنها لنجاحه. ولما رآته أمه وأخته صالومي قلقاً وكانتا تمقتان مريمنا لم تبقيا على تهمة اتهمانها بها لتزياده حنقاً عليها. ولولا أنه بُني أن اغوستوس استحوذ على مصر وانطونيوس وقلوبطرة انتحرا لقتلها ثم مضى إلى مصر. ورُحِب به اغوستوس وأولاه الأمر على أربع مئة رجل من الغال كانوا حرساً لقلوبطرة وردّ عليه ما كان انطونيوس قد سلّمه إليها من مدن اليهودية. وولاه على غزة ويافا وغيرهما فعاد منشرح الصدر لكنه لم يبلغ أورشليم إلا التفته أشجانه ونكده من قبل امرأته وأمها. واعتزل يوماً في مخدعه ورغب أن تحضر مريمنا فحضرت لكنها أخذت توبه على قتل أبيها وأخيها. وأتبع ذلك بكلام بعثه على أن يضربها وعلمت أخته صالومي بما كان فوضعت على الجرح ملحاً، وألقت على النار زيتاً. فاستدعى رجال ثقته ليحاكم الملكة واتهمها بأنها حاولت أن تدس له سماً فانقاد إلى رغبته ذووه. وحكموا على الملكة البريئة بالموت. ولم يكن هيرودس وأصحابه يربعون في تعجيل تنفيذ الحكم بل رأوا أن تُسجن في مخدع القصر. فدرت صالومي بما كان فأتت أخاها هيرودس تكثّر اقامة الحجج على تعجيل موتها، ومن جملة حججها أن الشعب إذا علم ما كان وأنها حيّة ثار على الملك، فالأولى تنفيذ الحكم دون تأجيل. وعمل برأيها فأبدت مريمنا آيات الشجاعة والبسالة عند موتها فلم تخش الموت ولم يتبدّل لونها ولا ذرفت دمعة من عينيها.

أما اسكندرة أمها فأبدت الوجدانة والسفل لدى هذا المصائب وتناست أن حظها

سيكون شراً من حظ ابنتها التي كانت تلومها وتوجب الذنب عليها، وترغم أنها لم تقدّر محبة الملك لها قدرها. وأما هيرودس فكان أسفه لموتها موازياً لحبه لها في حياتها حتى أوصلته الكتابة إلى نوع من الجنون. وكان ذووه يسمعون في كل ساعة يناديها باسمها وييدي من الشكوى ما لا يليق بملك، ولم تكن الملاهي تلهيه عن فقدتها. وكان يأمر خدمه ليدعوا مريمنا كأنها حيّة وأغفل تدبير أمور الملكة. وحدث وباء حينئذٍ أهلك كثيراً من شعبه وذويه واعتبر الناس هذا الوباء نقمة من الله لقتل الملكة البريئة فضاعف ذلك حزن هيرودس وتوغل في البرية بحجّة الصيد وكانت مناخس ضميره تعذبه حتى أصيب بمرض يئس الأطباء من شفائه. فعاودت الحمية حينئذٍ اسكندرة واستحوذت على قلعتين في أورشليم إلى أن أخذ هيرودس ييل من مرض جسمه. واستمرت قواه العقلية مشوشة فأرسل جنوداً قتلوا اسكندرة ولم يكن يبقى على أقرب المقرين إليه، بل قتل منهم كستوبار ولبسيماكوس وانتيتاتر ودوزيتاوس المار ذكره وكثيرين غيرهم (يوسيفوس ك ١٥ فصل ١١).

عد ٤٧١

الأبنية التي أنشأها هيرودس وبعض حسناته

إنّ هيرودس حباً بأن يسترضي اغوستوس عنه جدّد بناء السامرة وسماها سبسطيه وتأويلها السعيدة في اليونانية مرادفة لكلمة اغوستوس في اللاتينية ومعناها السعيد. وبنى أيضاً مدينة في محل كان يسمى برج ستراتون وسماها قيصرية نسبةً إليه وموقع قيصرية هذه بين يافا وحيفا في جنوبي الكرمل. وهي غير قيصرية فيلبوس الواقعة في قضاء مرج عيون. ثم أحاط أورشليم بأسوار وبنى قصراً في خارج هذه المدينة في المحل الذي انتصر فيه على اليهود عند محاربته انتيكون كما مرّ. وروى يوسيفوس (ك ١٥ في تاريخ اليهود فصل ١٤) إنّ هيرودس نقض هيكل أورشليم الذي كان قد بناه زربابل وبنى هيكلأً أعظم وأجمل وأكبر من الهيكل القديم. على أنّ بعض العلماء تعقبوا مقال يوسيفوس هذا وخطأوه به. ومنهم الأب هرودين اليسوعي ونطائس اسكندر في تاريخ الحقبة السادسة قبل المسيح في أخبار اليهود (فصل ٢) حيث قال ليس من يقيم نكيراً على أنّ هيرودس زاد شيئاً على هيكل أورشليم وجملّه برواقين في جوانبه لكنه لم ينقض الهيكل

القديم وبين هيكلاً حديثاً. وقال إنَّ لبعض العلماء في تخطيطة يوسيفوس ثلاث حجج الأولى أنَّ هيرودس لم يكن مستقلاً في ولايته بل خاضعاً لولاية الرومانيين. وقد اضطروا إلى نفقات كبيرة لارضائهم وقد كان بنى قيصرية وسبسطية وأقام فيها هياكل تكرمة لقيصر. وأحاط أورشليم بأسوار وبنى فيها ملاعب إلى غير ذلك من أبنيته ونفقاته. وكان انطونيوس أعطى قلوبطرة أنصب أماكن اليهودية فافترضت عليها مثني وزنة تُنقد إليها كل سنة وقد كان هيرودس دفع إلى اغوستوس ثماني مئة وزنة. وبالغ في النفقات على حاشيته وجنوده فمن أين له أن يبنى الهيكل كما وصفه يوسيفوس. والحجة الثانية تؤخذ من نبوة حجاجي حيث قال (فصل ٢ عد ٧).

«هكذا قال رب الجنود إنني أزلزل السماء والأرض والبحر واليبس مرة بعد عن قليل. وأزلزل جميع الأمم ويأتي متمنى جميع الأمم (أي المسيح) فاملاً هذا البيت مجدداً قال رب الجنود... وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأول وفي هذا الموضع أعطي السلام». فالواضح من هذه الآية أنَّ حجاجي يريد في البيت الأخير الهيكل الذي بناه زربابل، ويقول إنَّ هذا البيت نفسه يكون أعظم من البيت الأول أي هيكل سليمان لأنَّ المسيح متمنى الأمم يدخل إليه ويقدسه بنفسه ويملاؤه مجدداً. فإذاً الهيكل الذي كان في أيام المخلص إنما هو هيكل زربابل لا أنَّ هيرودس نقض ذلك الهيكل وبنى هيكلاً جديداً. والحجة الثالثة هي إنه ورد في بشارة يوحنا (فصل ٢ عد ٢٠) إنَّ اليهود قالوا للمخلص: «لأنه في ست وأربعين سنة^(١) بني هذا الهيكل فكيف تقيمه أنت في ثلاثة أيام؟» وهيرودس أخذ في بناء الهيكل سنة ١٩ أو سنة ١٨ ق.م وأكمّله في مدة تسع سنوات ونصف على ما قال يوسيفوس فلا يصدق كلامهم على هيكل هيرودس.

على أنَّ العلماء الذين صدقوا مقال يوسيفوس قالوا: كيف يمكنه أن يكتب هذا الخبر الكاذب وهو أفقه أمته في ذلك العصر. ومن أجل كهنتها ولم يكن مضى على ما أخبر به سنون متطاولة. وكيف يعرض نفسه لتكذيب اليهود له في أمر بينَ ومهم ولا يفوت ذكر الشيوخ منهم ويشق عليهم أن يعزو إلى هيرودس

(١) إنَّ بعض الآباء يحسبون سنة تجديد زربابل الهيكل السنة الأولى من ملك كورش على الفرس إلى السنة السادسة للملك دارا استاسب وهذه المدة ست وأربعون سنة. وكذا حسبها اليهود مع أن تجديد الهيكل لم يكن إلّا بعد أن أخذ كورش بابل وضمها إلى مملكة الفرس.

الظالم ما بناه آباؤهم. كذا قال ريبيرا أحد هؤلاء العلماء في تفسيره الفصل الثاني من نبوة حجاجي. وتأولوا الآية الواردة في بشارة يوحنا بمعنى يؤيد مذهبهم فقالوا إن هيرودس أخذ في إعداد ما يلزم لبناء الهيكل سنة ١٨ ق.م ولم يأخذ في البناء إلا سنة ١٦. واليهود قالوا للمخلص هذا الكلام سنة ٣٠ ميلاده فهذه هي الست والأربعون سنة وقد كمل بناء الهيكل في تسع سنين كما قال يوسفوس. ولكن لم تكمل زينته وزخرفته في أيام هيرودس وخلفائه إلا بعد سنين عديدة عددها حينئذ ست وأربعون سنة على أن سليمانوس (مجلد ٦ من تاريخه في سنة ٢٩ ق م) ردّ برهان ريبيرا قائلاً إنه عندما كتب يوسفوس هذا الكلام لم يكن بقي شاهد حيّ من اليهود حينئذ يؤنب يوسفوس على خطئه لأنه كتب كتابه تاريخ اليهود في أيام دومطيانوس. وهذا رُقي إلى سدة الملك في السنة الثمانين بعد المسيح على ما روى بارونيوس. فإن زدنا عليها الثماني عشرة سنة قبل المسيح عند بناء هيرودس الهيكل كانت جملة السنين ثماني وتسعين سنة فلا يبقى فيها حياً من شهد بناء هيرودس. ثم أن يوسفوس كتب في اليونانية ولم تكن عامتهم تفهمها وإن فهموها فلم يجسروا أن يؤنبوا يوسفوس على خطئه، لأنه كان معزراً عند الملوك وقتئذ، وكانوا يكبحون أعداءه كما كتب في ترجمة نفسه التي دوّنها بيده. والحاصل أن أقوال العلماء في هذه المسألة متضاربة كما رأيت والذي يظهر لنا أن قول من صدّقوا يوسفوس هو الأصوب والأمثل، وحجج من كذبوه غير قاطعة. فإن كان هيرودس بنى في نصف سني ملكه الأولى هياكل وملاعب. وقام بنفقات باهظة على الرومانيين فلا تعوزه في السنين الأخيرة لملكه النفقات اللازمة لبناء الهيكل. وقد كان ملكه استتب له ووسعت تخومه ورد عليه ما غصبتة قلوبطرة. وما استشهدوا به من نبوة حجاجي مجلّ ما يُراد به أن الهيكل الذي يدخله المخلص يفوق هيكل سليمان شرفاً ومجداً، والست والأربعون سنة التي ذُكرت في بشارة يوحنا تصدق على هيكل هيرودس كما رأيت أكثر من هيكل زربابل الذي لا يقال أنه بُني في ست وأربعين سنة إلا خطأ كما رأيت هذا. وقد انتقد العلماء أقوالاً ليوسفوس حمله على إيرادها رغبته في تعظيم شأن أمته أو انخداعه بتقليد غير صحيح مع تقادم العهد عليه أو اعتماده على أقوال غير محققة. وهنا لا وجه من كل هذه ليكتب الكذب في أمر قريب من عهده وفي موطنه ويحط من مجد آبائه الذين بنوا هيكل زربابل وإن لم يكن بقي من شهد بناء هيرودس الهيكل. فقد بقي

كثيرون ممن تلقوا خبر بنائه عن آبائهم فيؤاخذونه بكذبه. ومن حسنات هيرودس ما ذكره يوسيفوس (ك ١٥ فصل ١٢ من تاريخ اليهود) وهو أنَّ اليهودية أُصيبت بوباء ومجاعة شديدة لانقطاع المطر وعدم حراثة الأرض فمات بالوباء والمجاعة كثيرون. وأبدى هيرودس حينئذٍ عنايته بالبائسين فأشغل كثيراً من المحتاجين ببناء المدن والقلاع باذلاً لهم ما يسد حاجتهم. وسكّ كلما كان عنده من الذهب والفضة وأرسله إلى مصر واستأثى تسعين ألف كتر من الحنطة. فوزّعها على ذوي الفاقة وأعطى الزارعين بزرأ يبدرونه في أرضهم ولا يردّون عوضه إلّا قدر ما أعطوه.

عد ٤٧٢

قتل هيرودس ابنه اسكندر وارسطوبولس

كان لهيرودس من امرأته مريمنا التي قتلها كما مرّ ثلاثة بنون وهم اسكندر وارسطوبولس وهيرودس. أرسلهم إلى روما لاقتباس العلوم فمات هيرودس صغيرهم فيها. ومضى هيرودس إلى روما يزور اغوستوس ويرى ابنه فأكرم اغوستوس مثنوا وعاد بابنيه إلى اليهودية فرحّب اليهود بهما. وأكثروا من الاحتفاء بلقيهما والسرور بهما. فشقّ ذلك على صالومي أخت الملك وعلى كل من تسبب في قتل مريمنا أمهما وخشوا أن يرتقي الأميران إلى سدّة الملك فيثأران منهم بدم والدتهما. وعزموا أن يكتادوهما كما اكتادوا أمهما وأشاعوا أنَّ الأميرين يمتقتان أباهما ويريدان به سوءاً لقتله والدتهما. وبلغت هذه الإشاعة هيرودس فلم يعرها أولاً أذنأ صاغية بل استمر يعاملهما كما يحبان. وزوّج اسكندر بكلافيّة ابنة أرشيلالوس ملك الكبادوك. وأرسطوبولس بيرنيس ابنة أخته صالومي رجاء السلام في أسرته. على أنَّ هذا الزواج لم يخمد أوار حسد صالومي وفيروراس أخي هيرودس. ولم يكن الأميران يديان الانعطاف إلى أبيهما لتذكرهما قتل والدتهما. وربما أباحا بسرهما إلى بعض من كانا يظنانهم أصدقاء لهم. ومضى هيرودس حينئذٍ إلى اغريبا في بلاد اليونان ولما عاد من سفره أخذت صالومي وفيروراس ينمان إليه أنَّ ابنه قالاً علانية إنه لا بدّ لهما من أن يثأرا بدم أمهما. وإنهما يتخذان واسطة أرشيلالوس لدي اغوستوس في الشكوى على أبيهما فأقلق هيرودس هذا الكلام. وعزم أن يستدعي ابنه انتيباتر البكر الذي كان أبعد عنه مع أمه دوريس ليكون مقاوماً لأخويه. فشقّ على

الأميرين إثثار أخيهما انتيياتر عليهما. وظهر الخلاف بين الوالد وابنيه وكثرت الأقوال بأن هيرودس سيجعل انتيياتر خليفة له وينفي اسكندر وارسطوبولس عن الملك. وكان انتيياتر أيضاً يبعث أباه على إذلال أخويه حتى أخذهما هيرودس إلى روما وشكاهما إلى اغوستوس بأنهما حاولا قتله.

وأراد اغوستوس أن يسمع هو بنفسه دعواهم فقال هيرودس رفقا مولاي بأب ألقائهم الحال أن يشكو أمامكم ابنيه اللذين حملتهما الجسارة أن يفضا أباهما ويحاولا إعدامه الحياة وإنه قد صبر طويلاً عليهما آملاً أن يعدلا عن سوء نيتيها فعيل صبره، وأكره أن ييوح بشرهما. وقال محتدماً أأستحق أن يعاملاني على هذا النحو فما يشتكيان مني؟ وإلى ما يسندان بغضهما لي؟ أما يحق لي أن أترك الملك الذي حزنه باقتحام المخاطر وتحمل المشاق لمن رأيت من أبنائي أكثر أهلية له؟ أو ما جنيته على هذين العاقين. ألم أكسبهما العلم؟ أو ضننت عليهما بشئ مما يرغبه أبناء الملوك لا للحاجة فقط بل للعظمة؟ ألم أزوج أحدهما بابنة ارشيلوس ملك الكبادوك؟ والآخر بابنة أختي وكان لي أن أعاقبهما بما إني أبوهما وبما إني ملك؟ ولكن أحببت أن آتيك بهما لأنك المحسن إلينا جميعاً لتكون حكماً بيني وبينهما ولا أسألك إلا أن تبكتهما وتردهما عن سوء سبيلهما ليتركاني أقضي براحة ما بقي لي من الحياة.

وبينما كان هيرودس يفوه بهذا الكلام كانت أعين ابنيه تذرف الدموع ويمسكهما الاحترام لوالدهما عن مقاطعته في الحديث أو المجاوبة له، وخشياً أخيراً أن يعد صمتهما حجة عليهما. فوقف اسكندر يبرئ نفسه وأخاه من شكوى أيهما. فقال لأبيه حسبنا مولاي بينة على حنوك إلينا إنك أشخصتنا إلى هذا المقام السامي ولم ترد أن تعاقبنا بالسلطان الذي لك بما أنك ملك وبما أنك أب، فلولا أن حياتنا عزيزة لديك لما أتيت بنا إلى روما ليكون العاهل أعزه الله قاضياً وشاهداً على موتنا. فما من يأتي مجرم إلى الهياكل أو الأماكن المقدسة ليسله فيها، والأولى بنا أن نموت أبرياء من أن نعيش وعلينا مظنة الاحتيال على إهلاك والدنا. ساعدنا الله على كشف الحقيقة لك لا لننجو من الموت بل لتوقن برأينا. وإن بقيت التهم التي تعتمد عليها ثابتة لديك كان الموت لنا خيراً من الحياة. فشبيتنا ومصابنا بفقد والدتنا توقع علينا الشبهة بأننا نريد بك سوءاً. لكنني أسألك أن تمنع النظر أجميع أبناء الملوك الذين لا أم لهم تصدق عليهم مثل هذه الشكوى؟ وهل يكفي

مجرد شبهة للحكم بجناية فظيعة كهذه؟ وإن لم تكفِ الشبهة أفما يحق لنا أن نطلب بيّنة تثبت هذه الشكوى المروعة؟ فهل من يقول أننا أعددنا سماً أو أتينا مكيدة أو أُرشنا خادماً أو كتبنا رسالة؟ فقد بكينا أمنا ولكن لم تكن دموعنا لفقدنا فقط بل لئلا يظنها أحد أضاعت شرفها. وأطال كلامه إلى أن ختمه بقوله إذا بقيت براءتنا غير ثابتة لديك فنحن نحكم على أنفسنا بالموت كيلا يكون من يشكوك بقتلنا. ومهما كانت الحياة عزيزة فلا يعز علينا أن نفدي بها اعتبار من أولانا إياها.

وكان كلام اسكندر شديد الوقع في قلب اغوستوس حتى أيقن براءة الأميرين وبطلان التهم الواردة عليهما، وذهش من حكمة اسكندر واحتشامه في الرد على دعوى أبيه. فسأل هيرودس أن يرضى عن ابنه ولا يصغي إلى الساعين بهما ولا يصدّق مثل هذه الشكايات التي لا يقبلها العقل. وأشار إلى الأميرين أن يدنوا من أبيهما ويطلبوا العفو منه فتقدما والدموع تذرف من عيونهما. فعانقهما هيرودس وبكى حتى اغرورقت أعين الحاضرين بالدموع وشكروا جميعاً لاغوستوس وعادوا إلى اليهودية وكان ذلك لسنة ٧ ق م.

ولم ينكف انتيياتر عن السعاية بأخويه لدى أبيهم وكان يعزو إليهما أموراً لم يأتيها، ويتظاهر أمام أبيه بالحبّة لهما والمدافعة عنهما. وأمر هيرودس وزيره بتلمايس أن لا يصنع شيئاً دون أن يطلع عليه انتيياتر فعظم نفوذه أمام الشعب. وشقّ على اسكندر وارسطوبولس وجاهة أخيهما عليهما واستاءت كلافيرة امرأة اسكندر من صالومي أخت هيرودس لسعائتها بزوجها ولتقديمها ابنتها امرأة ارسطوبولس عليها. وكان فيروراس أخو هيرودس ينفخ في نار هذا الانقسام حتى بعث هؤلاء هيرودس أن يقبض على ابنه اسكندر ويلقيه في السجن. فسمع ارشيلالوس ملك الكبادوك حموه ما جرى لصهره، فأتى إلى أورشليم وأصلح بين اسكندر وأبيه. وأقام مدة في أورشليم وعاد إلى مملكته فرافقه هيرودس إلى انطاكية ولكنه لم يلبث أن عاد حنقه على ابنه اسكندر وارسطوبولس بسعاية أخته وأخيه وابنه. وكتب إلى اغوستوس يشكوهما إليه، فأجابه اغوستوس أن يستدعي قوماً من الحكماء والعقلاء ويجمعهم في بيروت. ويحاكم ابنه على ما يدعيه عليهما من الجرائم الحديثة وأن يستدعي ارشيلالوس ملك الكبادوك أيضاً. فسرّ هيرودس برسالة اغوستوس هذه وكتب إلى كل جهة يستدعي من أشار اغوستوس بدعوتهم إلا ارشيلالوس فلم يستدعه مخافة أن يعارضه بما ينويه. فاجتمع في بيروت نحو من مئة وخمسين رجلاً منهم

ساتورنينوس وفولنيوس واليا سورية. ولم يأت هيرودس بابنيه إلى بيروت بل تركهما في قرية اسمها بلاتان قرية من صيدا. ودخل هيرودس دار الندوة وأخذ يشكو ابنه بحدّة وحنق كأنه أضاع رشده ويفري القضاة بأن يشكوا ابنه معه، وأخذ يقرأ رسائلهما التي لم يكن فيها حقيقة ما يدل صراحة على تعمدهما الغدر به. بل لجّل ما يتبيّن منها أنهما حاولا الفرار من سجنهما وقال إنّ الطبيعة واغوستوس يخولانه السلطان على ابنه وأنّ في سنّة أمّته فقرة ناطقة بأنه إذا شكّا أب أو أم أولادهما فليضعا أيديهما على رأس المشكو وعلى الحاضرين حينئذ أن يرجموه. وإنه كان له أن يقتل ابنه دون محاكمة لكنه أراد أن يستطلع رأي هذه الجمعية الكبرى التي لم يستدعها لتقضي بل لتصادق على تصرفه العادل فيردع الابناء العاقون فيما بعد عن أن يحاولوا قتل آبائهم. ولما سمع المجتمعون هذا الكلام ولم يكن ابناء هيرودس هناك ليدافعا عن نفسيهما أيقن المجتمعون أنّ لا أمل في الإصلاح. وأثبتوا له ما خوّله اغوستوس من السلطان أن يتصرّف بابنيه كما يحب. وقال ساتورنينوس والي سورية إنه يرى أنّ عقابهما لازم ولكن لا عقاب بالموت فإنّ ذلك قسوة فظيعة من أب تزیده فيما بعد حزناً على حزن. وأما فولنيوس والي الآخر فارتأى الحكم عليهما بالموت. وتبعه غيره من المجتمعين الذين اختارهم هيرودس من أصحابه ومحازبيه. فانصرفت حبال الأمل في حياة الأميرين ومضى هيرودس للحال من بيروت إلى صيدا وأخذ ابنه وسار إلى صور. وأرسلهما إلى سبسطية (أي السامرة) مع بعض جنده فقطعوا رأسيهما. وبلغ اغوستوس ما عمل هيرودس فقال ذلك القول الشهير: «يستحب المرء أن يكون خنزيراً لهيرودس على أن يكون ابناً له». (يوسيفوس ك ١٦). وكان ذلك في السنة الخامسة قبل الميلاد بحسب التاريخ العامي وفي السنة الأولى قبله حقيقة.

عد ٤٧٣

باقي مظالم هيرودس وموته

لم يكن قتل هيرودس ابنه خاتمة مظالمه والنزاع في أسرته فقد كان أوصى أن يخلفه ابنه انتيباتر في الملك، ولم يطمئن انتيباتر إلى اثبات أبيه على وصيّته ما دام حياً. فتآمر سراً هو وفيروراس أخو هيرودس ليقتل أباه وافتضح له سرهما. وشهد

كثيرون أنَّ ابنه حاول أن يدسَّ له سماً. فكان ذلك كصاعقة انقضت على الملك الشيخ وبلغ به حنقه إلى نوع من الجنون. وكان انتيباتر حينئذٍ في روما ولما عاد قرَّعه أبوه وغالظه. واستدعى كثيرين إلى ندوة رئيسها كونتيلوس فاروس الوالي الروماني وشكا ابنه انتيباتر بأنه تسبَّب في قتل أخويه. وحاول أن يغدر به فأُكِّر انتيباتر وأقام الحجَّة بأنه بريء من هذه التهم. وأخذ نقولا الدمشقي صديق هيرودس يستنطق الشهود فحكم على انتيباتر بالموت. وسأل هيرودس اغوستوس أن يثبت الحكم على ابنه على أنَّ تراكم المصائب والأحزان على هيرودس أوقع به المرض. وحيرته في من يخلفه في الملك من أبنائه كانت تزيد مرضه. وبلغه أنَّ الفريسيين قد اشتركوا في المؤامرة عليه فقتل جمًّا غفيراً ممن ثبتت المؤامرة عليهم وأقام رقباء على الباقيين، فأثار الفريسيون عليه شبان المكاتب وكان بين هؤلاء الفريسيين رجلان يهوذا ابن سيوري ومتى بن مركلوت. وقد سمعا بأنَّ هيرودس يحضر فبعثا شبان المكاتب فألقوا تمثال نسر من ذهب كان هيرودس أقامه على باب الهيكل. وكانوا يعتبرون ذلك تنجيساً للهيكل وعلم جنود هيرودس فقبضوا على أربعين شاباً من هؤلاء رئيسيهما المذكورين ولدى استنطاقهم أقرّوا دون خوف بما صنعوه. بل تباها به فشعلوا من بعثكم على ذلك فأجابوا السنَّة بعثتنا عليه، فأمر هيرودس أن يحرقوهم أحياء.

وقد ورد له الجواب من اغوستوس بأن يعاقب ابنه انتيباتر بما يشاء فحمد تشفيه أوجاعه قليلاً لكنها اشتدَّت عليه بعد هنيهة حتى سعم الحياة وأخذ مدية يطعن بها نفسه ليستريح من الحياة. فانتزع أحد أقاربه المدية من يده وتعاظم الولوال في القصر حتى سمعه انتيباتر وهو في سجنه، وطلب من السجَّان أن يطلقه. ولما بلغ هيرودس أنَّ انتيباتر يأمل أن يحيا بعد أبيه أمر حرسه أن يقتلوه للحال فقتلوه قبل خمسة أيام من وفاة هيرودس. يوسفوس (ك ١٧ في فصول متعددة).

وقد كان يسوع المسيح مخلص العالم وُلد في أوائل السنة الأخيرة من ملك هيرودس وعرف هيرودس بمولده من المجوس الذين وافوا من المشرق ليسجدوا له. فأمرهم أن يمضوا إلى بيت لحم وينقبوا عن الصبي وأن ينبؤوه إذا وجدوه ليمضي فيسجد له، وتلك حيلة منه ليعلم محله فيقتله مخافة أن ينتزع الملك منه. ولما تحقَّق أنَّ المجوس سخروا منه ولم يعودوا إليه وتأكد ولادة المخلص من مقدمة أبويه له إلى الهيكل، أرسل جنوده إلى بيت لحم فقتلوا كل ذكر فيها من ابن سنتين فما دونهما

ونجا يسوع بإرشاد الملاك ليوسف أن يهرب به إلى مصر (متى فصل ٢ عد ١ وما يليه). وروى بارنيوس وغيره من المؤرخين أنه كان لهيرودس طفل في بيت لحم قُتل في جملة الأطفال الذين قتلهم جنوده. لكن تعقب نطائيس اسكندر قول هؤلاء المؤرخين وردّه بحجج منها أنّ هيرودس كان حينئذٍ في السبعين من سنه فلا يقرب من الصواب أنه كان له ولد عمره أقلّ من سنتين. ومنها أنّ يوسفوس لم يأت بذكر قتل هذا الولد لهيرودس مع أنه ذكر قتل كل من قتلهم من أولاده، ومنها أنه لا وجه ليكون ابن لهيرودس في بيت لحم وهو مقيم في أورشليم. وهبّ أنه كان له ابن فيها فلا بد أن يكون وُلد في أورشليم فلا يقتله مخافة أن يأخذ ملكه لأنّ الرؤساء حققوا له أنّ المسيح يولد في بيت لحم.

وقد أبان لنا يوسفوس (ك ١٧ من تاريخ اليهود فصل ٨) أعراض مرض هيرودس فقال إنه كان مصاباً بحمى شديدة محرقة في جوفه لا يشعر بها في ملمسه وكان يحس بجوع كلي لا شيء يُشبعه. وأمعأؤه متقرحة يقاسي منها مغصاً أليماً ورجلاه متورمتان وخصيتاه مهترئتان ينثر الدود منهما وأعصابه مأوّفة لا يمكنه أن يتنفس إلّا بوجع أليم. وتبعث من فمه رائحة نتانة تمتع من الدنو منه حتى كان كل من رآه يقضي أنّ الله عاقبه بهذه الأمراض والأوجاع جزاء لمظالمه وسفكه الدماء الزكية. وكان آخر جوره واعتسافه أنه أرسل أوجه وجهاء اليهود إلى أريحا وأقام خفراء عليهم وأمر أخته صالومي وزوجها أن يقتلهم فور موته لتليس الأئمة ثياب الحداد بدلاً من مطارف الحبور لموته. وأوصى بأن يكون ابنه ارشيلوس خلفاً له وقضى هذا السفاك غير مأسوف عليه. وقبل أن يُذاع خبر موته طلقت أخته وزوجها أولئك الوجهاء في أريحا بأمر وقعت عليه بختمه. وعن يوسفوس أنه ملك أربعاً وثلاثين سنة بعد أن طرد انتيكون من الملك وخمساً وثلاثين سنة بعد أن نصبه الرومانيون ملكاً على اليهودية، وأكثر المؤرخين على أنه ملك سبعاً وثلاثين سنة. وقد كشف ودينكتون ودي فكواي في سيع وهي إحدى قرى البشنية على هيكل كان في عصر هيرودس وسلالته وعلى عدة خطوط فيه منها خط (عد ٢٣٦٤) كتب فيه «أقام عيستوس (اوايستوس) سعودو تمثالاً للملك هيرودس مولاه». وقال ودينكتون في شرحه الأمر في أنّ هيرودس الوارد ذكره في هذا الخط هو هيرودس الكبير إذ لم يملك غيره في البشنية ووليها بعده ابنه فيلبوس ثم اغربا الأول والثاني. وكلمة مولاه مشعرة بأنّ التمثال أقيم له في حياته. ولعلّ الجالية التي

أسكنها هيرودس في هذا الحبل للمحافظة على طريق اللجا أقامت له هذا التمثال. وقد عللنا نفسنا بالأمل عند كشفنا عن هذا الخط أن نجد تمثلاً لهيرودس بين هيبته فخاب أملنا إذ لقينا التمثال محطماً إلى كسر عديدة بأيدي بشرية فلم نشك في أنَّ المسيحيين الأولين حطموا هذا التمثال انتقاماً من هيرودس لقتله أطفال بيت لحم.

عد ٤٧٤

مولد المخلص وسنته

لما كان الانسان عصي ربه وانغمس البشر بأحوال المآثم وتاهوا في بيداء الضلال ولم تكن خليقة كفوًّا لاسترضاء الإله المتسخط عليهم ولهدايتهم إلى الإيمان الصحيح وسواء السبيل. دعا الله حنوه ورأفته بهم أن يتخذ كلمة الله أي ابنه أحد أقانيم ذات الإله الواحد الأحد جسداً بشرياً، ويصير انساناً كاملاً مستمراً إلهاً كاملاً، بنوع يفوق المدارك البشرية ويهدي الناس إلى طريق الحياة الخالدة. ويتحمل مشاق هذه الحياة والآلام أيضاً، ليكفر بنفسه عن آثامهم ويسترضي الله عنهم. وقد كان أوحى بهذا السر العجيب إلى الآباء القدماء والأنبياء، فأكثروا من النبوات عليه. ووعدها العالم بهذا المصلح والمخلص الإلهي حتى كان ينتظره كل من اعتقد بالوحي، وآمن بتنزيل الله وقد خصَّ الله بهذا الشرف الباذخ سورية ووطننا. فقد ولد في بيت لحم وترتَّب في الناصرة وأكثر من التردد إلى أورشليم وغيرها من أماكن فلسطين.

أمَّا سنة مولده فمختلف فيها كل الاختلاف حتى جمع بعض العلماء نحو مئتي قول يخالف أحدهما الآخر في تعيين السنة التي ولد المخلص بها بعد خلق الانسان الأول. فاقبل هذه السنين ٣٤٨٣ سنة وأكثرها ٦٩٨٤. وذكر العالم ريشيولي من هذه الأقوال سبعين قولاً. وذكر الأب تورنامين أشهرها فكانت ٩٢ قولاً. وجاء في الكتاب الموسوم بصناعة تحقيق تاريخ الأحداث التاريخية قبل التاريخ العامي مئة وثمانية أقوال. وأشهر هذه الأقوال ما يأتي.

فقال اليهود الحدباء إنَّه كان من خلق الانسان إلى التاريخ المسيحي ٣٧٦١ سنة. وقال سكاليجر ٣٩٥٠. وبثو ٣٩٨٣. وأوساريوس ٤٠٠٤ وكليمينت ٤١٣٨. وفي الطبعة الحديثة لكتاب صناعة تحقيق التواريخ المار ذكره ٤٩٦٣. وهالس ٥٤١١.

وجكسون ٥٤٢٦. والكنيسة الاسكندرية ٥٥٠٤. وكنيسة القسطنطينية ٥٥١٠. وأوسيسوس ٦٠٠٤. وبافيسيوس ٦٣١١. والجداول الالفنسية ٦٩٨٤. وهذا الاختلاف حاصل من اختلاف الأعداد الواردة في النص العبراني وترجمات التوراة. وعدم التيقن بكون الأعداد التي نراها الآن هي التي خطتها يد موسى. فبمقتضى النص العبراني قد مرّ من خلق آدم إلى الطوفان ١٦٥٦ سنة. وبمقتضى نسخة السامريين ١٣٠٧. وعلى ما في نسخة السبعين اليونانية ٢٢٤٢. وليس أقل من ذلك الاختلاف على الحقة التي مرّت من الطوفان إلى دعوة ابراهيم فهي على ما في النص العبراني ٣٦٧. وعند السامريين ١٠١٧. وفي ترجمة السبعين ١١٤٧. فجملة المدة من خلق الانسان إلى دعوة ابراهيم على ما في النص العبراني ٢٠٢٣. وعلى ما في ترجمة السبعين ٣٣٨٩. وعلى ما في السامرية ٢٣٢٤. وهذا التباين حاصل من خطأ النسخ في الأعداد. وليس أيسر منه فيها وقد خلا بعض النسخ من اسماء بعض الآباء القدماء كقنيان الذي خلا منه النص العبراني وهو ثابت في ترجمة السبعين. وفي الأنساب التي ذكرها لوقا البشير، ولم يشأ الله أن يعصم جميع النساخ بآيات تتعدّد بعديدهم على أنّ الكنيسة الكاثوليكية لم تحلّ إلى الآن هذا البحث بل أطلقت لكل من المؤرخين أن يختار ما شاء من هذه الأقوال ولا حرج. ولم تؤثر أحدها على الآخر ويظهر أنّ آباء الكنيسة الأولين وبعض الحداثاء اعتمدوا ترجمة السبعين. وجميع علماء الكنيسة اليونانية. والقدماء من علماء الكنيسة اللاتينية عوّلوا على تواريخ هذه الترجمة. وفي السنكساري الروماني في ١٢٥٠ كإنّ مولد المخلص كان سنة ٥١٩٩ لخلق الانسان. وقال مشاهير من العلماء منهم باجوس في تنقيح تاريخ بارونيوس وييتو في (علم الأزمان) إنّ السنين التي مرّت من خلق الانسان إلى ميلاد المخلص يستحيل تعيينها تعييناً مؤكداً.

على أنّ المدّة المعينة في النص العبراني من الطوفان إلى دعوة ابراهيم وقدرها ٣٦٧ سنة هي غير كافية لانتشار الأمم، وتوفّر عديدهم وحضارتهم التي كانت في أيام ابراهيم ولاسيما في مصر عند شخوصه إليها. فلا أقل من الاعتماد في ذلك على ترجمة السبعين التي تجعل تلك المدة ١١٤٧. أو على النسخة السامرية التي تجعلها ١٠١٧ سنة. لتكون المدة كافية لانتشار الناس في الآفاق، ولحضارتهم المشار إليها. وعلى ذلك تكون المدة من خلق الانسان إلى الميلاد نحواً من ستة آلاف سنة. وهي كافية لمقتضيات الأبحاث العلمية والتاريخية في هذا العصر، ولا تخالفها

تواريخ المصريين والكلدان والصينيين والهنود، بعد أن كشف العلماء ستائر اللبس والخطأ والمبالغة عن وجه حقيقتها، على أنَّ المتداول بين أكثر العلماء والذي مشبنا عليه في كتابنا هذا إنما هو أنَّ المولد كان سنة ٤٠٠٠ وسنة ٤٠٠٤ لخلق الانسان (ملخص عن فيكورو في كتابه الأسفار المقدسة وانتقاد العقليين لها مجلد ٣ صفحة ٤٥٥ طبعة ثالثة. وفي موجزه الكتابي مجلد ١ عد ٣١٤ وما يليه صفحة ٥٣٣ طبعة سابعة).

وكذلك اختلف الآباء والعلماء في سنة مولد المخلص من سني التاريخ الروماني. فذهب ساويروس سولبيسيوس ونيقيطا ونيكوفورس كاليستوس وغيرهم إلى أنَّ المخلص ولد لسنة ٤٢ لقتل يوليوس قيصر، وهي السنة الرابعة قبل التاريخ العامي. وذهب ترتوليانوس في كتابه ضد اليهود. واكليمنضوس الاسكندري والقديسان ايرنيموس وفم الذهب إلى أنه ولد سنة ٤٣ ليوليوس، وسنة ٤١ لولاية أغوستوس وهي السنة الثالثة قبل التاريخ العامي. وذهب القديس إبيوليتوس والقديس أيفانيوس وأوسابيوس القيصري إلى أنَّ المولد كان سنة ٤٤ ليوليوس قيصر. وسنة ٤٢ لاغوستوس، وهي السنة الثانية قبل التاريخ العامي. وذهب يوليوس الافريقي وبيدا وغيرهما إلى أنه ولد سنة ٤٦ ليوليوس، وهي السنة الأولى من التاريخ العامي. وذهب بعض من القدماء ذكرهما القديس أيفانيوس (في هرطقة ٥١) إلى أنَّ المخلص ولد سنة ٥٤ ليوليوس. وهي التاسعة من التاريخ العامي ذكر ذلك نطائس اسكندر في تاريخ القرن الأول (مقالة ثانية). وأثبت بحجج عديدة أنَّ المخلص ولد في أواخر سنة ٤١ ليوليوس قبل خمس سنين من التاريخ العامي. وفي السنة ٢٦ لوفاة قلوبطرة، والسنة ٣٤ لهيرودس بعد مقتل أنتيكون، وسنة ٧٤٩ لبناء رومة، ومن حججه أنَّ المخلص ولد قبل سنة كاملة من موت هيرودس. وهيرودس مات سنة ٤٢ ليوليوس قبل التاريخ العامي بأربع سنين. فإذا المسيح ولد سنة ٤١ ليوليوس قبل التاريخ العامي بخمس سنين. وأثبت ذلك من أنه ورد في إنجيل متى (٢) إلى أنَّ المسيح ولد في أيام هيرودس الذي قتل الأطفال بعد أيام من مولده إلى غير ذلك من براهينه العديدة.

فليس لنا والحالة هذه أن نقضي بين هؤلاء الآباء والعلماء ونبين من أصاب ومن أخطأ، وحسبنا أن نبين أقوالهم التي لم تصم الكنيسة أحدها بصمة ضلال أو خطأ. على أنَّ التداول في كتب جمهورهم أنَّ ميلاد المخلص كان للسنة الرابعة قبل

التاريخ العامي، وذلك أنَّ التاريخ بسنة الخلّص أوّل من دعا للعمل به دانيس الصغير في القرن السادس. وابتدأه خطأ من الرابعة بعده ولماً أثبت أولو النقد أنَّ الخلّص ولد قبل ذلك التاريخ بأربع سنين آثروا اتباع الخطأ المشهور على أتباع الصواب المهجور كما مرّ. أو صوّب بعضهم قول من رأوا أنَّ سنة الميلاد وسنة بدء التاريخ العامي واحدة وسيأتي لنا كلام في ذلك.

الباب الأوّل

تاريخ سوريا في القرن الأوّل للميلاد

إنّنا نقسم هذا الباب والأبواب التالية إلى قسمين نضمّن الأوّل تاريخ سورية الدنيوي، والثاني تاريخها الديني تفادياً من التشوّش في الكلام عليهما معاً.

القسم الأوّل

تاريخ سوريا الدنيوي في القرن الأوّل

تمهيد

عد ٤٧٥

الملوك الرومانيون في القرن الأوّل

لما كان كلامنا التالي من تاريخ سورية على عهد الملوك الرومانيين يستلزم الكلام في هؤلاء الملوك وسني ملكهم أئرنّا تمهيداً له أن نفتح تاريخ هذا القرن بذكر الملوك الذين كانوا فيه وسني ملكهم بما أمكن من الإيجاز.

قد رأيت أنَّ المخلَّص ولد لسنة ٢٩ أو ٢٨ لملك أغوستوس قيصر. فأغوستوس هذا كان اسمه أولاً يوليوس اكتاف بن اكتاف أحد رجال ندوة رومة وابن أخت يوليوس قيصر. ولد في رومة سنة ٦٣ ق م. وبعد وفاة والده تبناه خاله. ولم يكن عمره عند مقتل خاله إلا ثماني عشرة سنة، وسُمِّي سنة ٤٣ ق.م حاكماً في الجمهورية الرومانية مع مرقس أنطونيوس، ولاييد. ثم وقع الخلاف بينه وبين مرقس أنطونيوس صهره فاستظهر عليه في حرب أكسيوم في بلاد اليونان سنة ٣١ ق.م. وفرَّ أنطونيوس إلى مصر مع قلوبطرة معشوقته فتبعهما أغوستوس إلى مصر. فانتحر أنطونيوس وقتلت قلوبطرة أيضاً نفسها كما مرَّ. وجعل أغوستوس مصر اقليماً رومانياً ولدن عوده سنة ٢٩ ق.م (وعلى قول آخرين سنة ٢٨) إلى رومة سمي عاهلاً. وأغوستوس أي سعيداً. وكان حليماً لا يتكلَّف القسوة إلا عند الحاجة إليها ومحباً العلم والعلماء. وضمَّ إلى بلاطه فرجيل وأراس الشعارين الشهيرين وطيط ليف المؤرِّخ. وسن شرائع مُحكمة وتوفي سنة ١٤ لميلاد المخلَّص في السابعة والسبعين من عمره. وهذا الملك جعل بيروت مدينة أولية وخوَّل أهلها حقوق الرومانيين. وولى عليها القائد مرقس فيبسانيوس أغريبا. وزوجه ابنته جولية ودعا المدينة باسمها جولية فيليكس (أي السعيدة). ويؤيِّد هذا خط ذكره ودينكتون (عد ١٨٤٢) وجد في دير القلعة منقوشاً على أحربة الهيكل الذي هناك المعروف في الآثار بهيكل بعل مرقد أي إله الرقص، فحواه أنَّ أهل بيروت الجالية الرومانية جولية أغوستو فليكس بيروت أقاموا نصباً لأدريان الملك.

وخلف أغوستوس طيباريوس وهو ابن نيرون ولد في رومة سنة ٤٢ ق.م وتقلَّب في المناصب واشتهر بالحروب مع الجرمانيين. وزوجه أغوستوس ابنته جولية بعد وفاة زوجها أغريبا وعيَّنه وريثاً له. ولدى موته سنة ١٤ للمخلَّص رقي إلى منصبة الملك وأجرى بعض المظالم وقتل بعض الأشراف، وفي السنة الخامسة عشرة لملكه ظهر يوحنا المعمدان يبشِّر وينذر ويعمِّد. وفي السنة ٢٠ منه مات المخلَّص وأدركت الوفاة طيباريوس سنة ٣٧ للميلاد ودونك صورته عن تمثال وجد في جزيرة كبرا وهو الآن في متحف اللوفر.

وخلفه غايوس كاليكولا وهو ابن أخي قيصر الجرمانى. تبَّناه عمُّه طيباريوس وأورثه الملك سنة ٣٧ م وعمره عشرون سنة. فأحسن مسعاه بعض أشهر ثم اعتراه مرض أنقص من قواه العقلية. فانكبَّ على الملاذ والاعتساف والصلف. وهام أن



يُجَل كاله وشغف بحصان له حتى سماه قنصلاً، وقتل كثيرين من شرفاء رومة وأغنيائها ليستحوذ على أموالهم. وقيل عنه أنه كان عند حنقه يتمنى لو كان للرومانيين كلهم رأس واحد ليقطعه بضربة واحدة إلى أن اغتاله أحد حرسه سنة ٤١ م.

وخلفه طيباريوس كلود بن دروسوس أخي غايوس أقامه الجنود ملكاً بعد مقتل غايوس. ولد في ليون سنة ١٠ ق.م وكانت بواكير أعماله حسنة لكنه ترك أزمّة الملك بيد ميسالين امرأته وحاشيته. فجاروا وبغوا على كثيرين باسمه ثم قتل امرأته سنة ٤٨ م وتزوج أغريبين اخته فاستحوذت عليه أيضاً وجعلته ينبد ابنه الملقّب قيصر البريطاني، ويترك الملك لابنها نيرون. وأدركته الوفاة سنة ٥٤ م ويظن أن أغريبين دسّت له سمّاً.

ومن الآثار لهذا الملك في بلادنا الهيكل الباقية أطلاله في الحبل المسقى قلعة
فقرة في كسروان. فقد وجد خطان في الحصن المحاذي له هما في مجموعة
الخطوط في عد ٤٥٢٥ وعد ٤٥٢٦ يتبين منهما أن هذا الأثر أقامه كهنة هيكل
الإله الأعظم تكربة للملك كلود سنة ٣٥٥ يونانية، الموافقة سنة ٤٣ للميلاد. ليس
الإله الأعظم على ما ذكر رنان (في بعثة فينيقية صفحة ٣٣٨) الا عليون أو
أدونيس معبود الجبلين المقام الهيكل هناك على اسمه. فيكون هذا الهيكل كهيكل
أفقا وهيكل جبيل على اسم هذا المعبود.

وخلفه تلك السنة نيرون بن دوميسيان ولد سنة ٣٧ للميلاد وعند ارتقائه إلى
منصة الملك سنة ٥٤ م ترك اعنة تدبير مهام الملك لابن أغريين، ولم يلبث أن
أبدى القسوة والجور والخلاعة وأبعد والدته عن قصره. فهددته بأنها تتزعج الملك منه
وتردّه على البريطاني وريثه الشرعي، فقتله سنة ٥٥ م ثم قتل أمّه وطلّق امرأته
اكتافية وقتلها وأمات من تزوجها بعده. ووقع سنة ٦٤ م حريق في رومة وظنّ
نيرون موقعه فأحال الشكوى على المسيحيين. وقتل كثيرين منهم فتأمّر عليه عماله
ومقته رجال الندوة، وقُضي بسقوطه عن منصة الملك. وهُم أن ينتحر فلم يملكه منه
كاتب سرّه. وانقضى ملكه سنة ٦٨ م وانقرض به الملك من سلالة قيصر.

وقد كان في أيام كلود ونيرون حاكم في سورية اسمه أو ميديوس كوادراتوس
على ما يظهر من خط عثر عليه ودينكتون في بيروت تحت كنيسة الكبوشيين (عد
١٨٤١) يؤخذ منه أن أهل بيروت أقاموا نصباً لهذا الوالي الذي دبر سورية على
عهد كلود ونيرون من سنة ٥١ إلى سنة ٦٠ م.

وخلفه سبرتيوس غلبه سنة ٦٨ م بعد أن كان قنصلاً في عهد طيباريوس
وعاملاً في إفريقيا وإسبانيا. وقد درى أن نيرون يريد قتله فثار عليه وسمّاه الجنود في
إسبانيا ملكاً. ثم أقروا له بالملك سائر أهل المملكة. ولكن مقتله الجمهور لبخله وقسوته
فقتله أوتون أحد المقرّبين إليه فلم يملك إلا ثمانية أشهر.

وخلفه أوتون المذكور سنة ٦٩ م وأقامه الجنود في جرمانيا فيتليوس فكانت
بينهما حرب إلى أن ظهر فيتليوس على أوتون في وقعة بعثت أوتون على أن
ينتحر سنة ٦٩ م. وأثأ فيتليوس فأتى رومة وقبله سكانها بمعظم الاحتفاء. ولم
يستو على منصة الملك فيها إلا وأقام الجنود في المشرق فسبسيان سنة ٦٩ م،
وأرسل قائد جيشه إلى رومة فافتتحها وقتل سفلة الشعب فيتليوس فيها سنة ٧٠ م.

وكان نيرون أمر فسبسيان بحرب اليهود فدوخ بلادهم كما سيجي. ولم يكن باقياً إلاً أورشليم ومضى إلى رومة فلم يلقَ معارضاً ولا منازعاً فأُمنَ أنحاء المملكة وأقام على سرير الملك عشر سنين. وتوفي سنة ٧٩ م تاركاً الملك لابنه طيطوس الذي كان اتبعه إلى اليهودية سنة ٦٦ م وأخذ مدناً كثيرة من اليهود. وبعد أن سُمي أبوه عاهلاً أبقاه في اليهودية فأتمَّ افتتاحها باستيلائه على أورشليم والهيكل سنة ٧٠ كما سترى. وعاد إلى رومة معاوناً لأبيه على تدبير المملكة وكان في بيروت في أيام فسبسيان حاكم من قبله يسمى قروتون أقام له الأهليون بأمر الملك نصباً كما يؤخذ عن صفيحة عثر عليها ودينكتون على يمين الطريق بين قنصلية افرنسة ودير الكبوشيين في بيروت، وهي عد ١٨٤١ في كتابه خطوط سورية اليونانية واللاتينية.

وخلف طيطوس أباه سنة ٧٩ م فترك ما كان عليه من التهلكة بسيرته واحسن كثيراً إلى من أصيبوا بانفجار البركان فاسوف سنة ٧٩ وبالبواب والحريق في رومة. حتى اشتهر بالشفقة على البائسين والمصابين، ولم يطل الله عمره بل توفاه سنة ٨١ م. فلم يملك إلاً سنتين وثلاثة أشهر.

وخلفه أخوه دوميسيان وكانت بواكير أعماله محمودة، وجُمِّل رومة بآثار عديدة ووفقاً للانتصار في بعض الحروب، ولكن تغلبت عليه أطواره الوحشية فقتل كثيرين من رجال الندوة وأكابر الرومانيين وأثار على الرومانيين أقصى الاضطهادات وأشدّها ظلماً، وهيات امرأته لنجينا مؤامرة عليه وقاية لنفسها من شره فقتله أحد المقرئين إليها سنة ٩٦ م وعمره خمس وأربعون سنة. ومن آثاره في بلادنا خط ذكره رنان (في كتابه بعثة فينيقية صفحة ٣٤٠) عثر عليه في المحل المسمى درجة مار سمعان في الطريق من العاقورة إلى اليموني كتب فيه اسم «العاهل دوميسان أغوستوس»، فكأنَّ هذا الملك فتح أو مهَّد هذا الطريق الذي كان طريق الغزاة إلى سورية في الجبل كما كان طريق نهر الكلب في الساحل، وربما كانت هذه الطريق تمر بأقفا وتنحدر في وادي نهر ابراهيم إلى أن تبلغ جبيل.

وخلف دوميسيان مرقس نرفا ابن كوشيوس الفقيه. أقامه رجال الندوة سنة ٩٦ م ولم يملك إلاً سنتين وكان ملكه مخالفاً للملك سلفه لأنه عامل الرعية بالحلم والعدل. لكنّه رأى نفسه ضعيفاً عن الإحاطة بتدبير شؤون الملك فتبنا ترايانوس وتوفي سنة ٩٨ م فخلفه في الملك واستمرَّ فيه إلى سنة ١١٧ م. ونرجى الكلام فيه إلى الكلام في القرن الثاني.

الفصل الأول

أخبار سورية في المدة التي بين مولد المخلص وحرب اليهود والرومانين

عد ٤٧٦

ارشيلوس بن هيرودس

إنَّ هيرودس قد تزوّج عشر نساء أولاًهن دوريس أم أنتيباتر الذي قتله قبل وفاته بخمسة أيام. والثانية مريمنا ابنة اسكندر التي قتلها كما مرّ وكان له منها ثلاثة أبناء اسكندر وأرسطو بولس اللذان أماتهما وهيرودس الذي مات في رومة. وابنتان زوّج أحدهما بابن أخته صالومي. والثانية بابن أخيه فازائيل. والثالثة من نساء هيرودس بالاس ورزق منها ابناً سماه فازائيل. والرابعة فدره رزق منها ابنة اسمها ركسان تزوجت بابن فيروارس أخيه. والخامسة مريمنا الأخرى ابنة سمعان الحبر، وكان له منها هيرودس المسمى أيضاً فيلبوس الأول وهو زوج هيرودية، وقد ولدت صالومي التي رقصت أمام هيرودس أنتيباس وسأله قطع رأس يوحنا المعمدان. والسادسة سامرية ولدت له أرشيلوس الذي كلامنا هنا فيه. وهيرودس أنتيباس حاكم الجليل، وانتيباس تزوّج أولاً بابنة أريتاس ملك العرب ثم هيرودية امرأة أخيه وهو حي. ولهذا كان يوحنا المعمدان يؤنبه على ذلك. السابعة قلوبطرة وكان له منها ابنان هيرودس وفيلبوس الثاني رئيس الربع على ايطوريا (الجيدور في جنوبي دمشق وغربي اللجاء). وكورة أنطرخون (اللجاء كما في الأعلام الكتابية). وقد تزوّج فيلبوس بصالومي ابنة هيرودية المذكورة. والثامنة البيد ولم يكن له منها إلا بنت تزوّجها ابن فيروارس أخيه. والتاسعة ابنة أخيه، والعاشر ابنة عمّه ولم يكن له منهما ولد.

وقد غيّر هيرودس وصيته بالخلافة له مرات فأوصى أولاً أن يخلفه ابنه اسكندر وأرسطوبولس ثم قتلها. وأوصى لانتيباتر ثم أماته. وأوصى لهيرودس فيلبوس الأول ولما علم أن أمه اشتركت في مؤامرة أنتيباتر عليه رغب عنه وأوصى أخيراً أن يخلفه أرشيلالوس في اليهودية والسامرة. وهيرودس أنتيباس في الجليل، وفيلبوس الثاني في اللجا والجلولان إلى ينايع الأردن أي إلى بانياس، وأوصى إلى أخته صالومي بدخل مدن يمتة وأشدود وفاليس (في شمالي إيريحا). وعلق تنفيذ وصيته هذه على ما يشاء أغوستوس قيصر ليثبتها أو يعدلها كيف شاء وقد ورث ابناء هيرودس الخلاف مع الخلافة له. فكان أحدهم ينازع الآخر وبياربه في استرضاء الشعب ليدلى بذلك إلى إيثار أغوستوس له.

وبعد أن انتهت أيام الحداد جمع أرشيلالوس الشعب في رواق الهيكل وخطب فيهم واعداً أن يقضي المظالم التي أدخلها أبوه، ويرتب كل شيء على ما يهوى الجمهور فلم يكتف الشعب بهذه المواعيد المطلقة، ورفع إليه عريضة يلتمس بها الحط من الخراج ونسخ الضرائب المفروضة على البيع والشراء. وتخلية سبيل الأسرى السياسيين. ومعاينة أعضاء اللجنة الذين قبضوا بموت الشبان الذين تسبوا بطرح نسر الذهب عن الهيكل كما مر. ثم تبديل رئيس الأحبار بحبر آخر أكثر أهلية، فلم ير أرشيلالوس من السداد أن يذعن لسؤال الشعب ولم يشأ أن يثيرهم عليه فقال: إنّه سيفعل ما يهون وأرجأ العمل به إلى أن يثبت أغوستوس وصية أبيه. وكان حينئذ في أورشليم ألوف من اليهود أتوا لعيد الفصح فأوغر الفريسيون صدورهم مذكّرين لهم بقتل هيرودس يهوذا. وماتيا وتلاميذهم فأبوا الأذعان وأصروا على اجابة سؤالهم للحال. وتألّبوا فأرسل إليهم أرشيلالوس جنوداً يفرقون شملهم وتلقاهم أولئك يرمونهم بالحجارة حتى ألجأهم إلى الهرب. فجمع أرشيلالوس جنوده وساقهم إليهم أمراً أن يبطشوا بهم وأقام فرساناً في السهل ليقبضوا على من يفرون فقتل من اليهود يومئذ ثلاثة آلاف رجل.

ثم مضى أرشيلالوس واخوته إلى رومة يسألون أغوستوس أن يثبت وصية أبيهم أو يلغيها. وكان كل منهم يخاصم الآخر وما زايلا اليهودية إلا والتقى ذوو الأهواء والمفاسد الشقاق بين الأهلين حتى أصبحت اليهودية ساحة قتال. وقام كثير من رؤساء الأحزاب فسوّوا نفوسهم ملوكاً. وكثر القتل والنهب وحرق المدن وكان أرشيلالوس قبل شخوصه إلى رومة سأل كونتيليوس فاروس والي سورية من قبل

أغسطس أن يبقى في اليهودية ليقى البلاد من الهياج فأقام مدة هناك. وعاد إلى أنطاكية قسبة ولايته ووكّل إلى ساينوس خازن أغسطس الذي كان أرسله ليأخذ خزائن هيرودس أن يعنى بحفظ السلام في اليهودية. فأتى ساينوس إلى أورشليم وبدلاً من أن يطفئ النار المتقدة نفخ فيها ليزيدها اضطراباً. وكان حينئذ عيد، البنديكستي فأقبل إلى أورشليم اليهود من كل فج ودار في خلد أكثرهم أن يبطشوا بالرومانيين والهيروديين. وكانت بينهم منازعات أفضت إلى قتل كثيرين منهم وإلى تشتيت شملهم فانتهب الرومانيون الهيكل وأخذ ساينوس وحده أربع مائة وزنة، ودنّسوا الهيكل وأحرقوا رواقه فاشتدّ حنق الشعب لذلك. وانحاز كثير من عسكر الهيروديين إلى اليهود لينجدوهم على قتال الرومانيين، وحاصر الثائرون بلاط هيرودس وأخذوا ينقبون تحته ليتداعى البناء، فاعتزل ساينوس وأقام في الحصن المحاذي القصر فحاصروه فيه. واستنجد ساينوس فاروس والي سورية فأتى إلى نجده بعشرين ألف رجل واستدعى أريتاس ملك العرب. فلجئ دعوته وأحدث جنوده وعساكر هذا الملك أضراراً لا تقدر في الجليل واليهودية ولما بلغ فاروس إلى أورشليم ارتاع من كانوا محاصرين ساينوس. وأرفض جمعهم وأخذ فاروس منهم ألفي أسير علّقهم على صلبان فلم تكن هذه الثورة إلاّ لزيادة إذلال اليهودية واستعباد الرومانيين أهلها ومنذئذ أبقي الرومانيون في أورشليم فريقاً من جنودهم يخفر عليها.

أمّا أرشيلالوس. واخته فكان يقرّع أحدهم الآخر ويسعى به حتى حمل تدنّثهم وخلافهم أغسطس على أن يعتد جميعهم غير أهل للملك. وكان اليهود أنفذوا إليه خمسين رجلاً يشكون من آل هيرودس ويستميحونه أن يضمّ اليهودية إلى أغسطس ثمانية آلاف يهودي من سكان رومة. على أنّ أغسطس أثبت وصية هيرودس إلاّ أنّه لم يسمح لأرشيلالوس أن يسمى ملكاً بل والياً أو رئيساً على اليهودية والسامرة وأدوم. ووعدّه أن يسميه ملكاً إن جعل نفسه أهلاً للملك على أنّ ولاية أرشيلالوس لم يكن فيها ما يهم وقد تزوّج بكلافيّة أرملة أخيه اسكندر ابنة أرشيلالوس ملك الكبادوك خلافاً لسنة التوراة لأنّها ولدت أولاداً لاسكندر واعنت مسودية واعتسف. فشكوه إلى أغسطس ولم يشأ أن يكتبه بل أرسل يستدعيه إلى رومة فشخص للحال إليها ولم يتيسّر له أن يرى نفسه من الشكايات الواردة عليه فعزله أغسطس. ونفاه إلى فيان في افرنسة ودامت ولايته عشر سنين أو تسعاً ولا يعلم متى مات في منفاه. وقول متى فيه: (في إنجيله ف ٢ عد ٢٢)

«إنه صار ملكاً على اليهودية». معناه صار حاكماً أو والياً أو أن ذويه كانوا يسمونه ملكاً. وبعد نفي أرشيلالوس ألحق أغوستوس اليهودية وما يليها بولاية سورية، وكان الرومانيون مع ذلك يقيمون عليها ولاية أو نواباً ولولة سورية الأمر عليهم.

عد ٤٧٧

هيرودس أنتيباس وفيلبس

قد أجاز أغوستوس وصية هيرودس أن يكون هيرودس أنتيباس والياً في الجليل، وفيلبوس الثاني والياً في الجيدور واللجا وحران واستمرّ على ذلك زماناً طويلاً. لأننا نرى لوقا البشير ذكرهما (ف ٣ ع ١) عندما ذكر مجيء يوحنا المعمدان لينذر في اليهودية إذ قال: «في سنة خمس عشرة من ملك طيباريوس قيصر في ولاية بيلاطس البنطي على اليهودية، وهيرودس رئيس الربع على الجليل وأخوه رئيس الربع على أيطوريا وكورة أنطرخون وليسانبوس رئيس الربع على الأبلية وحنان، وقيافا رئيسا الكهنة كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا الخ» ومن أخبار هيرودس هذا أنه حصّن ووّسع مدينة بيت صيدا وسماها جولية تكريماً لجولية جدّة أغوستوس قيصر أو ابنته. وبنى على بحيرة جانشر مدينة سماها طيبارية اجلالاً لطيباريوس قيصر. وقد تزوّج ابنة أرتياس (الحارث) ملك العرب ثمّ طلقها نحو سنة ٣٣ للميلاد. وتزوّج بهيرودية امرأة أخيه فيلبوس وهو حي. وكان يوحنا المعمدان يقيم النكير عليه مؤنباً له على هذا الزواج المخالف للسنة. فألقى هيرودس يوحنا في السجن إلى أن أمر بقطع رأسه اجابة لسؤال ابنة هيرودية بايعاز أمّها كما جاء في أناجيل متى ومرقس ولوقا. فأثار أريتاس حرباً على هيرودس ليثأر لابنته التي طلقها. فاستظهرت جنود أريتاس على جنود هيرودس وشتّتوا شملهم.

وقد أطرفنا يوسفوس اليهودي شهادة ناطقة بصحة ما رواه الإنجيليون عن يوحنا المعمدان إذ قال (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٧) ما ترجمته: «قد أيقن كثير من اليهود أن انكسار جنود هيرودس كان عقاباً من الله له لما أجراه على يوحنا الملقّب المعمدان. وكان هذا رجلاً متسامياً في التقوى يحض اليهود على الاستمساك بالفضيلة والاستسارة بالبرّ وقبول المعمودية بعد استرضاء الله بالتوبة، وأن لا يكتفوا بأن لا يقتربوا الاثم بل أن يقرنوا طهارة الجسد إلى طهارة النفس.

وكان جم غفير من الشعب يتبعه ويسمع تعليمه وخشي هيرودس أن ما كان له من السلطان عليهم يبعثهم على ثورة عليه، لأنهم كانوا متأهبين أن يصنعوا كل ما يأمرهم به. فرأى أن يتدارك الضر قبل وقوعه فألقى يوحنا في السجن في قلعة مشيرا. فعزا اليهود خذلان جنوده إلى حكم الله العادل جزاءً له على عمله الجائر». فكلام يوسفوس هذا يطابق كلام الإنجيليين في المعتقدان إلا في سبب طرح هيرودس له في السجن. فإن يوسفوس روى السبب الذي تمحله هيرودس لسجنه، والإنجيليون روى الحقيقة وهي مقاومة يوحنا له في أخذ امرأة أخيه.

وكان فيلبوس أخو هيرودس أنتيباس والي الجيدور واللجا وهوران قد أدركته الوفاة سنة ٣١ للميلاد ولم يكن له ولد إلا صالومي التي رقصت أمام هيرودس، وطلبت رأس يوحنا وكان أغريبا بن أرسطوبولس بن هيرودس الكبير تربي في رومة، وكان ملوكها يعرفونه وكان كاليكولا غايوس الذي ارتقى إلى منصبة الملك بعد وفاة طيباريوس سنة ٣٧ م يعزه. أقام أغريبا على ولاية فيلبوس سنة ٣٩ للميلاد والحق بها ولاية ليسنياس وسماه ملكاً. فأخذت الغيرة أخته هيرودية زوجة هيرودس أنتيباس، فزيت لزوجها أن يمضي إلى رومة ويستعطف غايوس أن يسميه ملكاً، فمضى وصحبته هيرودية آملة أن حضورها في رومة سيسر لبعليها نيل ما يبتغي. على أن أغريبا كتب إلى العاهل يشكو صهره أنتيباس أنه كان محازباً لسجان في مؤامراته على طيباريوس. وأنه يمالئ أرتبان ملك البرتيين على مناوأة الرومانيين. وأورد بيته لشكواه أن في خزائن أنتيباس أسلحة تكفي لسبعين ألف رجل، فاستشاط غايوس غضباً وسأل أنتيباس هل من صحة لما يقال أن عنده من السلاح؟ فلم يجسر أن ينكر ذلك فعزله للحال عن ولايته ونفاه إلى ليون وترك لهيرودية ما كان لها من المال، ووعد أن يعفو عنها حباً بأخيها أغريبا فأثرت النفي مع زوجها. روى ذلك يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٩). لكنه روى في محل آخر (في تاريخ حرب اليهود ك ٢ فصل ١٦ وما يليه): إنه نفي إلى إسبانية ومات هناك. فقال بعضهم: أن غايوس مضى في السنة التالية إلى افرنسة فأبعد أنتيباس من ليون إلى إسبانية، ولم نعر على ما يحقق سنة موته. وهيرودس أنتيباس هو الذي ازدري بالمسيح حين آلامه وألبسه ثوباً قرمزياً.

ليسانيوس ويسمى ليسانياس

وأما ليسانيوس فالصحيح ما رواه يوسيفوس أنه ابن ليسانيوس الشيخ والي الأبلية. قال ستروس: «لأنّ لوقا زعم أنّ ليسانيوس (أو ليسانياس) كان ملكاً بعد مولد المخلص بثلاثين سنة، مع أنّه لا مرأى في أنّه قتل قبل مولده بثلاثين سنة فهذه هفوة صغيرة بستين سنة». فهذا الجاحد لم يميّز بين ليسانياس الأوّل وليسانياس الثاني فالأوّل كان قبل تعميد يوحنا بستين سنة، لكنّه لم يكن رئيس الربع على الأبلية بل كان حاكماً في كلشيس الآتي بيان موقعها وقد ذكره يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ٧). فهذا ظنّه ستروس جهلاً أو تجاهلاً ليسانياس الذي ذكره لوقا، وقد كشفت الآثار القديمة عن وجه هذه الحقيقة ناطقة بتخطئة ستروس. فأوّل ملك معروف من آل ليسانياس هو بتلمائس ابن مينا. ذكره يوسيفوس في تاريخ اليهود (ك ١٣ فصل ١٥). وكان شيخ عرب رحل في أنحاء دمشق يسطو على أبناء السبيل. وكان نحو سنة ٨٥ ق.م وأرسلت إليه اسكندرة أرملة اسكندر ملك اليهود ابنها أرسطو بولس ليردعه عن سطوه على دمشق (يوسيفوس في المحل المذكور فصل ١٦). ولما أتى بمبايوس إلى دمشق سنة ٦٣ ق.م كان بتلمائس حاكماً في كلشيس (يوسيفوس ك ١٤ فصل ٧ واسترابون ك ١٦ فصل ٢). وهي المعروفة اليوم بعنجر على طريق العربات من بيروت إلى دمشق على بعد ربع ساعة من محطة المصنع (روبنسون في المباحث الكتابية في فلسطين وشوفة وإيزمبر في سورية وفلسطين). فأبقى بمبايوس بتلمائس على ولايته بعد أن غرمه مبلغاً وافراً إلى أن توفي سنة ٣٩ أو سنة ٤٠ ق.م.

وخلفه ابنه ليسانياس يوسيفوس في المحل المذكور (وفي تاريخ حرب اليهود ك ١ فصل ٩). ولم يهنأ ليسانياس زماناً طويلاً بملكه لأنّ قلوبطرة ملكة مصر حملت مرقس أنطونيوس على قتله سنة ٣٤ ق.م وأخذت بعض أملاكه (يوسيفوس ك ١٥ فصل ٤). وكان ليسانياس هذا حاكماً في كلشيس والأبلية وفي لبنان الشرقي وبلبك. وتمتد ولايته إلى بانياس والسهول المحاذية لها إلى بحيرة الحولة. ووجد شيء من مسكوكات ليسانياس وعلى رأسه تاج من جهة وفي الجهة الأخرى صورة بالاس واقفة مع خطوط دالة عليه ولا تاريخ عليها فقال بعضهم إنّها ليسانياس الثاني ومنهم

رنان «في مذكراته لجمعية الخطوط القديمة) وقال غيرهم أنها ليسانياس الأول ابن بتلمايس.

ولم تستمر ولاية قلوبطرة على أملاك ليسانياس إلا زمناً وجيزاً. وبعد انتحارها خلف ليسانياس ابنه زينودر حاكماً في الجيدور واللجا وهوران أيضاً (يوسيفوس ك ١٥ فصل ٩). ولكن في سنة ٢٣ ق.م أعطى أغوستوس هيرودس هذه الأعمال وبقي لزينودر كلشيس والأبلية وعلبك (يوسيفوس في المحل المذكور واسترابون ك ١٦ فصل ٢). ووجدت مسكوكات لزينودر مؤرخة سنة ٢٨٠ و ٢٨٢ و ٢٨٧ للسوقيين أي سنة ٣٢ و ٣٠ و ٢٦ قبل التاريخ المسيحي. ومات زينودر في انطاكية سنة ١٩ ق.م (يوسيفوس ك ١٥ فصل ١٠). فأعطى أغوستوس هيرودس بانياس وسهول الحولة وأبقى ليسانياس وزينودر كلشيس والابلية وعلبك.

وقد وجد بوكوك الجواله الإنكليزي الشهير سنة ١٧٣٧ م. صفيحة في أخربة الابلية نفسها في حائط معبد صغير كتب عليها ما يبين جلياً أنه كان في أيام طياريوس حاكم يسمى ليسانياس رئيس الربع في الابلية وله خادم اسمه نمغا ، وليسانياس هذا ليس ابن بتلمايس الذي أدركته الوفاة قبل تعميد يوحنا بستين سنة. بل ليسانياس الثاني بدليل أنه كتب في السطر الأول من هذه الصفيحة: «تجلة للأغوستسين فالأغوستسان هما طياريوس وأمه ليفية التي تزوجها اغوستوس قيصر بعد أن كانت زوجة أبي طياريوس. قال: رنان نفسه (في مذكراته المار ذكرها): «إن اسم الأغوستسين الذي كتب في الصفيحة لا يمكن أن يكون المراد به مرقس أوريليوس وفارس إذ لم يكن حينئذ عين ولا أثر ليسانياس رئيس الربع ولا يصدق على أحد قبل طياريوس إذ لم يكن شخصان من السلالة الملكية يسميان أغوستوس. وليفية لم تسم أغوستا في حياة زوجها أغوستوس بل سميت بعد وفاته جولية أغوستة. فإذا قد كتبت هذه الصفيحة في المدة التي بين سنة ١٤ للميلاد التي قضى فيها أغوستوس وبين سنة ٢٩ م التي ماتت فيها ليفية». إذاً هذه الصفيحة النفيسة تثبت أن سلالة ليسانياس لم تنقرض بموت زينودر بل كان ملك آخر منها في أيام طياريوس يسمى ليسانياس الثاني بهذا الاسم وهو الذي ذكره لوقا البشير.

ثم قد وجدت صفيحة أخرى في بعلبك لكنها محطمة. فوجد بوكوك فلذتين منها في أواسط القرن السالف، وعثر بروكّي على فلذة ثالثة منها سنة ١٨٢٣ م. وكشف دي سولسي سنة ١٨٥١ م عن فلذة رابعة ولم يتكامل عدد فلذاتها ولكن ما وجد منها إلى الآن واف بالغرض مع تكملة بعض حروف ساقطة من الأصل. وإليك ما كتب فيها: «قد أقامت ابنة هذا الأثر ذكراً لزينودر (ابن) ليسا (نياس رئيس الربع) ولليسا (نياس) وابنا (ئه)». والظاهر من ذلك أن ابنة (اسم أبيها أو زوجها ساقط) أقامت هذا الأثر ذكراً لزينودر بن ليسانياس الأول وذكراً لليسانياس الثاني وابنيه. ويتّضح جلياً من هذه الصفيحة أنه كان بعد زينودر بن ليسانياس. ليسانياس آخر هو الذي ذكره لوقا فقبل هذه الاكتشافات كان للعلماء مذاهب في حل هذا المشكل لم تبلغ التوكيد اللازم وأمّا الآن فلم يعد محلّ لامتراء في صحّة قول الإنجيلي حتى أقرّ رنان نفسه بصحة مقاله (في مذكراته المثبتة في منشورات جمعية الخطوط القديمة سنة ١٨٦٧ جزء ٢ صفحة ٨٠) (ملخص عن الكتاب الموسوم بالعهد الجديد والاكتشافات للأب فيكورو راس ٢ صفحة ١٢٣).

وقال رنان أيضاً (بعثة فينيقية صفحة ٣١٩ في كلامه على الخط المذكور الذي وجد في بعلبك ما ملخصه: «إنّ ليسانياس توفي سنة ١٩ ق.م وهذا الخط أثبت أن أسرة ليسانياس الوالي استمرت بعد وفاته وبقي منها أفراد يسمون ليسانياس. وهذا مهم في المبحث الذي نشأ بسبب قول لوقا فصل ٣ عد ١ ففي هذا الخط اسم ليسانياس بمنزلة وال في الابلية سنة ٢٨ للميلاد. وهذا أولى في تفسير قول لوقا من افتراض غلط في نصبه لمدة ستين سنة» فهذه شهادة جاحد لصحة الإنجيل ولاهوت المسيح.

وقد توفرت قبلاً الأقوال وتضاربت في موقع الابلية ولم يبق الآن من ريب في ما قاله الأب فيكورو في المحل المذكور. (وفي معجم الكتاب في كلمة ايلا) إنها كانت في موضع سوق وادي بردا في سفح جبل لبنان الشرقي من جهة الشرق. ومما حقّق ذلك خطوط وجدت في هذا المحل ومنها خطان نقشاً على جانبي الطريق المفتوحة هناك كتب فيهما: «إنّ العاهلين مرقس أريليوس ولوشوس فاروس أورليوس فتحا طريق النهر بخرقهما الجبل على نفقة أهل الابلية بعناية فاروس صديقهما والي سورية». (رواه ودينكتون خط ١٨٧٤) وهذا الخط كتب بين سنة ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ ق.م. وهناك أيضاً خط ذكره ودينكتون (عد ١٨٧٥) كتب فيه : «لسلامة

الملكين أنطونيوس وفاروس اقام هذا النصب نذراً فالوسيوس مكسيموس قائد الفرقة ١٦ الذي وقف على العمل. وعلى مقربة منها مدفن يعرف بقبر أبيل (والعامة تقول هابيل) ووهم بعضهم أنه قبر هابيل بن آدم والأمثل أنه قبر أحد الأسرة الذي نسب المحل إليها (معجم الكتاب لفيكور).

عد ٤٧٩

ولاية اليهودية بعد الميلاد إلى بيلاطس البنطي

إن أغوستوس بعد أن نفى أرشيلالوس عن ولاية اليهودية والسامرة وأدوم في السنة العاشرة من ولايته وهي الحادية عشرة للميلاد. جعل اليهودية وما يليها اقليماً رومانياً وأرسل لتدبير شؤونه كوبونيوس بصفة نائب عن الملك. وأما سورية فكان يليها قورينيوس كما مرّ. وخلف كوبويوس في اليهودية ماريوس أمبيفيوس إلى أن استدعاه أغوستوس إلى رومة، ونصب مكانه أينوس روفوس وفي أيام ولايته أدركت المنية أغوستوس قيصر وخلفه طيباريوس للسنة الرابعة عشرة للميلاد. وفي سنة ١٥ أرسل طيباريوس إلى اليهودية فالريوس كراتوس واستمرّ والياً فيها إلى سنة ٢٥ للميلاد إذ ولى طيباريوس بيلاطس البنطي، وفي عهده تمّ سرّ الفداء العظيم بموت المخلص على الصليب. ومن أخبار بيلاطس أنه بينما كان في قيصرية يمضي فصل الشتاء أرسل جنوده إلى أورشليم وعلى أعلامه صورة العاهل فاستاء اليهود من ذلك لحظر سنتهم عمل الصور. وتسارعوا إليه الجم الغفير يلحّون باخراج تلك الصور من أورشليم، فأمسك عن اجابة سؤلهم سبعة أيام محتجاً بأن اخراجها مهين للملك فلم يكفّوا عن إلحاحهم، فأمر جنوده أن يقبضوا عليهم. وصعد على منبر يتهجّد بهم بالقتل إن أصروا على عنادهم فانطرحوا على الأرض وكشفوا عن أعناقهم قائلين أولى بنا أن نموت من أن نخالف سنتنا فعجب من ثباتهم وتشبّثهم بدينهم. وأمر أن يؤتى بتلك الأعلام من أورشليم إلى قيصرية. ومن ذلك أيضاً أنه أراد أن يأخذ مالا من خزينة الهيكل ليجر الماء إلى أورشليم من منبع بعيد عنها مئتي غلوة فنار الشعب وأتى كثير منهم إلى بيلاطس يسألونه الإنكفاف عما جزم عليه وكان ما يحدث عادة في هذه الاجتماعات أي إن بعض الثائرين اسمع الوالي ما يهينه، فأمر جنوده أن يتأبطوا هريهم تحت أثوابهم ويحدقوا بهم ولما لم

يكفُّوا عن سجنهم أمر بضربهم. فلم يقف الجنود على حد أمره فأوقعوا بكل من استطاعوا ثائراً كان أم بريئاً فقتلوا وجرحوا كثيرين (يوسيفوس ك ١٨ فصل ٤). ومن أخباره أيضاً ما ذكر في بشارة لوقا (فصل ١٣ عد ١) من أنَّ قوماً أخبروا الخلّص عن الجليليين الذين خلط بيلاطوس دماءهم بذبائحهم فقال أنظُّون أنَّ أولئك الجليليين كانوا أخطأ من كل أهل الجليل وأوجه الأقوال في هولاء أنَّهم كانوا من أتباع يهوذا الجولاني الذي ابتدع بدعة، وتابعه عليها قوم أنَّه لا يحل اداء اليهود الجزية لقيصر الوثني فقتل بيلاطوس بعضهم إذ كانوا يقدِّمون ذبائحهم. وأنبأنا يوسيفوس وفيلون أنَّ بيلاطوس كان بخيلاً جداً طماعاً محباً المال يضحي في سبيل كسبه أقدس فروض العدل. وقد تألَّب السامريون في أيامه ليصعدوا إلى جبل غريزيم بأسلحتهم لأنَّ ماكرأ وعدهم أن يريهم الآنية المقدَّسة التي قال أنَّ موسى أخفاها هناك. فعاجلهم بيلاطوس بجنوده وهزمهم وقطع رؤوس وجهائهم فشكوه إلى ويتلُّوس والي سورية الذي كان قنصلاً. فأمره أن يذهب إلى رومة ليبرئ نفسه من هذه القسوة الشديدة، وأرسل مرشلوس صديقه يدبِّر أمور اليهودية فسار بيلاطوس إلى رومة بعد أن ولي اليهودية عشر سنين والتقليد القديم جداً أنَّه نُفي إلى فيان في افرنسة وأنَّه انتحر هناك ليأسه كما روى أوسايبوس (ك ٢ فصل ٧).

روى القديس يوستينوس الشهيد (في محاماته) وتورتوليانوس (في محاماته فصل ٥) وأوسايبوس (في التاريخ البيعي ك ٢ رأس ٢ فصل ٣) وتابعهم كثيرون من القدماء والحدثاء: إنَّ بيلاطوس عملاً بعادة الولاة الرومانيين أن يرفعوا تقريراً للعاهل في كل حادث مهم قد كتب لطيباريوس يخبره بأمر يسوع المسيح وما صنع من الآيات وصلب اليهود له وقيامته بعد موته. وإنَّ العاهل كتب إلى الندوة حدث في هذه الأثناء بحسد اليهود ما كنت أنا شاهداً له. فإنَّ الله وعد آباءهم أن يرسل إليهم من السماء قدوسه فيكون ملكهم الحقيقي ويولد من عذراء، فأنجز الله وعده في مدة ولايتي على اليهودية. ولما رآه اليهود يرد البصر على العميان ويشفي الخلعين ويطهر البرص ويطرد الشياطين وقيم الموتى ويأمر الأرياح فتطيعه، ويمشي على البحر ولا تبطل قدماءه، ويصنع آيات أخرى كثيرة جعلت الشعب يحسبه ابن الله، فحسده رؤساء اليهود وقبضوا عليه وأسلموه إليَّ وأقاموا عليه شكاوي كثيرة كاذبة، وقالوا إنَّه ساحر وناقض لسنَّتهم. وأنا لظنِّي ما يقولونه

صحيحاً جلدته وسلمته إليهم فصلبوه وأقاموا على قبره حراساً لكنه قام في اليوم الثالث بينما كان جنودي يحرسون قبره. فاليهود وخبثهم أعطوا الحراس فضة وأوعزوا إليهم أن يقولوا أن تلاميذه سرقوا جثته، فأخذ الجنود الفضة وما تمالكوا أن يخفوا ما كان حقيقياً فقالوا إن يسوع المسيح قام وإن اليهود رشوهم بفضة ليخفوا الخبر. فلهذا رأيت من فروضي أن أصدّقك الحديث على الحقيقة كي لا يصدق كذب اليهود».

عد ٤٨٠

أغريبا

إن غايوس ألحق ولاية هيرودس أي الجليل وعبر الأردن بمملكة أغريبا سنة ٤٠ للميلاد بعد أن سمّاه ملكاً على ولاية فيلبوس عمّه سنة ٣٩ كما مرّ في عد ٤٧٧. وهام غايوس بأن يحسب إلهاً ويجل كالآلهة. وأراد نصب تمثاله في هيكل أورشليم فقاومه اليهود شديد المقاومة اتّصل الخبر بغايوس وأغريبا في رومة فاستدعاه، وهذّده وتوعّد اليهود لانفرادهم في مضادته حتى غمي على أغريبا، وحمل إلى فراشه. ولما أفاق كتب رسالة مطولة إلى غايوس حملته أن يرغب ولو إلى زمان عن اقامة تمثاله في الهيكل إلى أن حدثت مؤامرة على غايوس لجوره، وبغيه على الرومانيين أيضاً حتى قيل أنّه كان عند حنقه يدي تمنيه ولو كان لجميع ما يشعر بأنه متيقّن بصحة ما عمله المسيح، وأنّه يريد أن يخصّ بالاكرام الذي يجلون به الآلهة. على أن رجال الندوة لم يتابعوا على تيقّنه ورغبته أن ذكر ترتوليانوس والقديس يوستينوس رسالة بيلاطوس كما مر لا يقام عليه نكير. وكلامهما مؤذن بأن تلك الرسالة كانت تتداولها أيديهم، على أن أوسايوس والقديس إيرونيموس اللذين دقّقا في هذه الأمور ومن كتب بعدهم لا يظهر أنّهم رأوا تلك الرسالة أو طالعوا أصلها، لأنّ نسخها الكثيرة التي بين أيدينا الآن ليست عن الأصل، ولا قديمة ولا تطابق إحداها الأخرى. والقديس غريغوريوس أسقف طور في فرنسة ذكر نسخة منها واعتدها من قلم بيلاطوس حقيقة مع أن جوهرها مأخوذ عن الإنجيل المنسوب إلى نيقوديموس. والحاصل قد اختلفت أقوال الآباء العلماء في صحة رسالة بيلاطوس هذه إلى طيباريوس الملك. وقد ذكر هذه الأقوال كلمت في معجم الكتاب في كلمة

بيلاطوس ونطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الأول فصل ٤). والأولى أن يقال في هذا الشأن ما قاله دومينيك منسي في حواشيه على تاريخ نطاليس المذكور ومؤداه: «إنه لا وراء في أن بيلاطوس البنطي كتب إلى طيباريوس منبئاً بما صنعه المسيح وما صنعه اليهود به لأنه واضح من رسالة بلين الشهيرة إلى ترايانوس إن الولاة الرومانيين كانوا ينبئون العاهل بكل ما يحدث في الأقاليم المولين عليها. ولكن هل بقيت رسالة بيلاطوس إلى طيباريوس حتى الآن فهذا لا يمكن تأكيده. وهبها باقية فلا يمكن تمييزها عن غيرها من الرسائل الكثيرة والمختلفة التي أذاعها بعضهم مأخوذة عن الكتب القديمة المخطوطة، ولا يعلم أيها صحيح وأيها كاذب. وقد جمع فبريشيوس نسخاً عديدة من هذه الرسالة» إلى أن قال منسي «إنه وجد نسخة في كتاب قديم خط في القرن الثامن وسيديعها وهي تخالف النسخ التي ذكرها فبريشيوس». وإليك رسالة بيلاطوس إلى طيباريوس عن نسختها الأكثر تداولاً: «من بيلاطوس البنطي إلى طيباريوس الملك السلام قد الرومانيين راس واحد ليقطعه بضربة واحدة كما مر، واغتاله رئيس حرسه في الرابع والعشرين من كانون الثاني سنة ٤١ للميلاد. وكان أغريبا باقياً في رومة وكان له باع طويل في تسنم كلود منصبة الملك. ولما استتب له كافاه عن اياديه بإعطائه اليهودية كلها، فأصبحت مملكة أغريبا فسيحة الأرجاء وارت على مملكة جدّه هيرودس الكبير. فسّر اليهود به وطابت نفوسهم على أن رغبته في ارضائهم وغلوه في التشبث بسنتهم بعثاه على الجور والبغي فقبض على يعقوب بن زبدى أخي يوحنا وقتله بالسيف سنة ٤٤ للميلاد كما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل ١٢ عد ١ وما يليه) الذي يسميه هيرودس، ثم قبض على بطرس الرسول وأودعه السجن ليقتله بعد الفصح فنجاه ملك الرب بمعجزة كما سيأتي.

قد أنبأنا يوسيفوس (ك ١٩ في تاريخ اليهود فصل ١) إن أغريبا هذا أنال بيروت كثيراً من فضله فلم يضمن بنفيس في بنائه فيها ملعباً Theatre ومشهداً وحمامات وايونات جميلة. فأنشدت في Amphitheatre هذا المشهد أغاني لم تسمع قبلاً. وشوهدت فرج لم يسبق لها نظير، ولكي يرى الشعب مثلاً للحرب في بحبوحة الأمن أتى إلى هذا المشهد بأربع مئة رجل، وقضى عليهم بالموت وقسموا إلى قسمين فاقتتلوا واستلحموا حتى لم يبق فيهم حي.

وأنبأنا يوسيفوس أيضاً (في المحل المذكور) أن أغريبا أتى إلى قيصرية في السنة الرابعة لملكه يشهد الملاعب المقامة تجلة للعاهل الروماني. وكان هناك عظماء المملكة

وشرفاؤها وبكر في اليوم التالي إلى الملعب وعليه حلة نسجت بخيوط من فضة. ولما وقعت عليه أشعة الشمس انبعثت منها أنوار ساطعة تغشي الأبصار فقال المتملقون الذين يفسد كلامهم قلوب الحكام كالسم الناقع إنهم أكرموا ملكهم إلى حينئذ كإنسان، لكنهم يرون أنه يلزم اجلاله كياله لأنه يظهر لهم أنه فوق طبيعة المائتين. فسكت أغريبا على هذا الكفر بدلاً من أن يجرى قائله شر الجزاء. ورفع نظره إلى ما فوق فجحد فوق رأسه يوماً على جبل فاعتده شؤماً عليه. وتطير به وتنفس الصعداء وشعر بمغص يقطع أمعاءه. والتفت إلى أصحابه قائلاً هوذا من جعلتموه يظن نفسه غير مائت يفاجئه الموت سريعاً، فحمل إلى قصره يكابد مر العذاب خمسة أيام وقضى في الخامسة والخمسين من عمره وفي السابعة للملكه. انتهى كلام يوسيفوس ملخصاً وهو مصداق لما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل ١٢ عد ٢٠ وما يليه) حيث قيل: «وكان (هيرودس أغريبا) حنقاً على الصوريين والصيداويين فحضرُوا إليه بنفس واحدة، وبعد أن استعطفوا بلستس الناظر على مخدع الملك التمسوا المصالحة لأن طعام بلدهم من أرض المملكة. وفي يوم معين لبس هيرودس الحلة الملكية وجلس على المنبر وخطب فيهم، وكان الشعب يصيح أن صوته صوت إله لا صوت إنسان. وفي الحال ضربه ملاك الرب لأنه لم يعط المجد لله فأكله الدود وأسلم الروح.

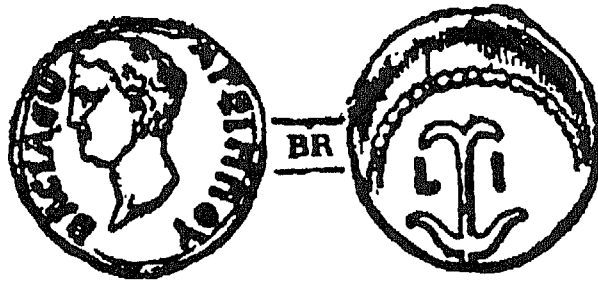
ومن الآثار ما ذكره ودينكتون (في كتابه في الخطوط اليونانية واللاتينية في سورية) فإن الخط ٢٣٢٩ الذي وجدته في قنوات حوران كتب فيه: «أغريبا الملك العظيم محب قيصر والرومانيين» والباقي محطّم ولكن يؤخذ منه أن أغريبا (ورجح ودينكتون أن المراد أغريبا الأول) أذاع منشوراً يؤنب فيه أهل هذه البلاد على عيشتهم الهمجية. ويحثهم أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً ويرعوا عن نوع معيشتهم، وهذا رواه المؤرخون في تلك الأيام لاسيما عن سكان حوران واللجاء، فإنهم قالوا إنهم كانوا يأوون إلى مغاور حرجة المدخل فسيحة الداخل لا مدن لهم، ولا أرضين تحرث. وكان لأهل البثنية نوع ما من الحضارة والخط ٢٢١١ الذي وجدته في المشنف (في البثنية) كتب فيه: «لسلامة مولانا الملك أغريبا أقام...» والباقي محطّم فكان المراد أن رجلاً ما أقام تمثالاً أو أثراً لأغريبا، وقال ودينكتون إن المراد هنا قطعاً أغريبا الأول وكلمات الخط مؤذنة بأنه كتب بعد عود أغريبا من سفره إلى رومة أبان موت كاليكولا. وتملك كلود سنة ٤١ ويستفاد منه امتداد ملك أغريبا إلى

المنشف والخط ٢٤١٣ الذي وجدته في حوران كتب فيه: «في السنة الثالثة لمولانا الملك أغريبا أقام أويدوس مليكاتو مذبحاً أو نصباً للمشتري» ورجح ودينكتون أنَّ الكلام في أغريبا الأوَّل.

عد ٤٨١

أغريبا الثاني

هو ابن أغريبا الأوَّل ووصفه يوسيفوس بالصغير أو الشاب تمييزاً له عن أبيه . قد ولد سنة ٢٧ م في رومة لإقامة أبيه حينئذٍ فيها ثم استمرَّ إلى أن توفي أبوه سنة ٤٤ وكان له وقتئذٍ من العمر ١٧ سنة، فوعده كلود بالخلافة لوالده لكنَّه أخلف وعده لدواعٍ أبانها له مستشاروه. وبعث إلى اليهودية كسيوس فاروس ليلياها نيابة عنه ثم جعل سنة ٥٠ أغريبا ملكاً على كاشيد إمارة صغيرة في لبنان الشرقي كانت قصبتها كلشيد محل عنجر كما مرَّ. وكان يليها قبله عمه هيرودس أخو أغريبا الأوَّل وكان كعمه مقلدة إليه حراسة هيكل أورشليم وخزنته والسلطان على تسمية رؤساء الكهنة وفي سنة ٥٢ م أقامه كلود ملكاً على الربع الذي كان لفيلبوس وهو الجولان والجيدور واللجا وحوران. ثمَّ ضمَّ إليه ولاية الابلية التي كان فيها ليسنياس وغيرها من المدن (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢٠ في فصول) ومسكوكات أغريبا كثيرة وإليك مثلاً منها فترى على الوجه الأوَّل مثال راس أغريبا مكتوباً حوله باسيلوس أغريبا أي الملك أغريبا وعلى الوجه الثاني مثال مرساة وعلامة دالة على عشرة أي السنة العاشرة، ولعل المراد السنة العاشرة من تاريخ كاشيد وهي الثامنة والخمسون للميلاد.



وقد سحب أغريبا جنود الرومانيين في حملتين على البرتين وأرمينيا. ولما ثار اليهود سنة ٦٦ م على فلورس والي اليهودية لاعتسافه وجوره أتى أغريبا إلى اورشليم يخمد جذوة ثورتهم، وأشار عليهم أن يخضعوا لفلورس إلى أن يصل وال يخلفه فحنقوا عليه حتى اضطر أن يهرول هارباً من المدينة. ولما التحم القتال ضمَّ جنوده إلى جيش الرومانيين. وبعد أخذهم اورشليم وسَّعوا تخوم مملكته على أنَّ أخبار هذا التوسيع وما كان من أغريبا بعده إلى مماته نادرة وغير مؤكدة فقليل إنَّه مات سنة ١٠٠ م وعمره ثلاث وسبعون سنة وقد وجدت قطعتان من سكته ضربتا سنة ٩٥م، وقيل إنَّه مات في رومة حيث اعتزل مع اخته برنيكة. وكان أغريبا محباً العلوم والصنائع وخبيراً بسنين اليهود وأسفارهم المقدَّسة كما يظهر من قول بولس الرسول له (أعمال الرسل فصل ٢٦ عد ٢ وما يليه): «إنِّي أحسب نفسي سعيداً أنَّها الملك أغريبا لأنِّي أحتج اليوم أمامك... ولاسيما وأنت خير بكل ما لليهود من سنن ومسائل» ومن قوله (عد ٢٦ و ٢٧): «والملك الذي أنا بين يديه أتكلَّم بجرأة هو عارف بهذه الأمور ولا أظن أنَّه يخفى عليه شيء منها لأنَّ ذلك لم يحدث فيه زاوية. هل تؤمن بالانبياء أنَّها الملك أغريبا؟ أنا أعلم أنَّك تؤمن بهم. فقال أغريبا لبولس إنَّك بقليل تقنعني أن أصبح مسيحياً». وقد فسَّر بعض المفسِّرين الكاثوليكين هذه الآية بمعنى أنَّ أغريبا أفحمته حجج الرسول وكاد يؤمن بالمسيح. وقال غيرهم إنَّه قال ذلك هازلاً والصحيح أنَّ كلامه غامض مشكل، ولا ريب في أنَّه كان يدافع عن المسيحيين ولا أقل من أنَّه لم يضادهم، وإنَّه تحقق براءة بولس لأنَّه «قال لفستس: كان يمكن أن يطلق هذا الرجل لو لم يكن رفع دعواه إلى قيصر» عد ٣٢ وكان اليهود يأنون منه لمالآته الرومانيين وتودده إلى ولايتهم في اليهودية ولاسيما فستس كما يظهر من الأبركسيس (فصل ٢٥ عد ١٣ و ١٤). وكانوا يشكونه بأنَّه جعل تسمية الأحبار ذريعة لكسب المال. وإنَّه مالاً الولاية الرومانيين على استنزاف خزينة الهيكل وإنَّه كان مشغولاً باخته برنيكة. وقد ترك آثار ابنيه في بيروت وطيارية (ملخص عن المعجم الكتابي لفيكورو).

وقال يوسفوس (ك ٢٠ من تاريخ اليهود فصل ١١) إنَّ أغريبا زاد ابنيه في قيصرية فيلبوس (بانياس) وجملها وسماها نيرونية اجلالاً لنيرون. وبنى في بيروت ملعباً عظيماً وكان يصنع كل سنة ملاعب للشعب فيه. وكان يوزع براً وزيتاً على أهليها. ولرغبته في تجميل هذه المدينة نقل إليها قسماً كبيراً من كل ما كان نفيساً

ونادراً في غيرها من مدن مملكته. من ذلك كثير من التماثيل البديعة للمشاهير القدماء فمقتته مسدوده ولم يصبروا على أن ينتزع ما كان زينة في مدنهم ليزين به مدينة أجنبية.

وأنبأنا يوسفوس أيضاً (في المحل المذكور أنه لما توفي فستس والي اليهودية وكان نيرون خلف الملك كلود سنة ٥٤ م أرسل البين ليلي اليهودية وحدث حينئذ أن الملك أغريبا انتزع يوسف من رئاسة الكهنوت وقُلِّدها إلى حنان بن حنان (الذي كان في عهد الخُص). وكان هذا جسوراً مقدماً ومن شيعة الصادوقيين الكثيري الغلو في سنّة اليهود. فانتهاز فرصة وفاة فستس وتأخر البين عن الوصول إلى ولايته فجمع مجمعاً، وأشخص فيه يعقوب أخا يسوع الملقَّب المسيح (هو يعقوب بن حلفي المعروف بالصغير تمييزاً له عن يعقوب بن زبدي المعروف بالكبير. وهو من أنساب العذراء ويوسف، ولذلك سماه أخا يسوع) وغيره وشكاهم بمخالفة السنّة وقضى عليهم بالرجم فأسخط هذا التجني كل من كان في أورشليم من أولي التقوى والمحبة الحقيقية لحفظ السنّة، فأرسلوا سراً إلى أغريبا يسألونه أن يردع حنان عن مثل هذا التجني إذ لا معذرة له بقبيح صنعه. ومضى غيرهم إلى لقاء البين الذي كان خرج من اسكندرية فأخبروه بما كان وأوضحوا له أن حنان لم يكن يسوغ له أن يعقد مجمعاً دون رخصة. فكتب إلى حنان يبين له سخطه عليه ويهدّده بالعقاب. ولما رأى أغريبا حنق البين عليه عزله من رئاسة الكهنوت التي لم يتقلّدها إلا أربعة أشهر، وأقام عليها يشوع بن دمنائوس. هذا ما ذكره يوسفوس عدو المسيحيين. ورواه أيضاً أوسايبوس في التاريخ البيعي (ك ٢) عن هاجيسوس الذي كان في عهد خلفاء الرسل الأولين أي من سنة ١٣٠ للميلاد. ونرجئ باقي الكلام في يعقوب هذا إلى القسم الثاني من تاريخ هذا القرن. أمّا أغريبا فبعد أن دُمِّر الرومانيون أورشليم واليهودية اعتزل مع اخته برنيكة في رومة حيث قضى في آخر القرن الأول.

ومن الآثار له ما ذكره ودينكتون من الخطوط التي عثر عليها في محال عديدة وأولها الخط ٢١١٢ الذي وجده في قرية العيت في البشية (مملكة باسان) حيث كتب: «في عهد الملك العظيم مرقس يوليوس أغريبا» (والباقى محطّم لا يتحصّل منه معنى) فكان ذلك كتب تحت تمثال أو بناء. والثاني عد ٢١٣٥ وجده في دير الشاعر من العمل المذكور كتب فيه: «دارايوس الوالي من قبل الملك العظيم أغريبا

وقال ودينكتون روى يوسيفوس (كتاب ٢ في الحرب فصل ١٧) إنَّ أغريبا استأثني من حوران واللجا والبثنية ثلاثة آلاف فارس وأرسلهم إلى أورشليم في أوَّل ثورة اليهود حباً بالسلام. وأمر عليهم دارايوس فلا ريب في أنَّ دارايوس هذا هو الوارد اسمه في هذا الخط. والثالث عد ٢٣٦٥ عثر عليه في سيع على نصف ساعة من قنوات كتب فيه: «أقام هذا البناء فاروس وأغريبا ابنه في عهد الملك العظيم أغريبا محب قيصر وصديق الرومانيين ابن الملك العظيم أغريبا محب قيصر. وصديق الرومانيين» والرابع عد ٢٥٥٢ وجده في حلبون على مقربة من دمشق كتب فيه: «في عهد الملك العظيم مرقس يوليوس أغريبا محب قيصر وصديق الرومانيين أقام... على نفقته» (علم الشخص محطّم) ومثله الخط عد ٢٥٥٣. وحلبون هي الوارد ذكرها في نبوة حزقيال (ف ٢٧ عد ١٨) بقوله «دمشق متجرة معك... بخمر حلبون بالصفوف الأبيض» والأظهر أنَّ المراد بحلبون هذه المدينة في جوار دمشق لا حلبون القرية من حلب أو حلب نفسها.

عد ٤٨٢

ولاية سورية من الرومانيين إلى حين حربهم لليهود

كان ولاية سورية الرومانيون يقيمون في أنطاكية وقد مرَّ أنَّ قورينوس كان يلي سورية في أيام المخلص. ثم خلفه نحو السنة العاشرة للميلاد سيلانوس فاستدعاه طيباريوس إلى رومة لظنّه أنَّه صديق لقيصر الجرمانى (وهو ابن أخي طيباريوس، وقد تبناه الجرمانى لانتصاره على الجرمانيين) الذي كان طيباريوس أرسله ليكون رئيساً للجيش في المشرق تخلّصاً من مزاحمته له على الملك، وولى على سورية رجلاً اسمه بيزون محرراً ثقته. وشعر الجرمانى أنَّ بيزون يخالفه ويتجسّس أعماله فعزله من منصبه سنة ١٩م، وأمره أن يعود إلى رومة فأذعن له لكنه دسَّ سماً قبل سفره للأمير فأسقمه بعد حين وأماته. وقال عند احتضاره أنَّه لا يمتري في أن بيزون أهلكه وحضَّ أغريبين امرأته التي كانت بنت أغوستوس قيصر وأصحابه أن يثأروا بدمه منه، فعادت أغريبين إلى رومة وأقامت في الندوة دعوى القتل على بيزون ورأى أنَّه سيحكم عليه فانتحر سنة ٢٠ م.

وأقام رؤساء الرومانيين بعد مفارقة بيزون أنطاكية سنتيوس ساتورنينوس على ولاية سورية. فدبّر شؤونها ثلاث سنين لأنّ اليوس لميا الذي نصبه طيباريوس والياً على سورية لبث في رومة ولم يغادرها فلم يعده المؤرخون من ولاة سورية. ثمّ عزل طيباريوس ساتورنينوس وأقام على سورية بمبايوس فلاكوس سنة ٢٣ م فوليها عشر سنين ومات فيها سنة ٣٣ م وقال الأب لنكرو وجدت قطعة من سكة فلاكوس ضربت وعليها تاريخ سنة ٨٢ م فيظهر أنّ هؤلاء العمال الذين كان طيباريوس يرسلهم إلى سورية لم يؤرّخوا بسني ملك أغوستوس بل بتاريخ متعارف في أنطاكية. فإنّ سنة ٨٢ لا توافق تاريخ أغوستوس لأنّ فلاكوس مات في ولايته على ما روى تاسيت سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ لأغوستوس وهي سنة ٣٣ للميلاد، واستمرت أنطاكية ولا عامل يليها سنتين إلى أن نصب عليها طيباريوس لوشيوس ويتليوس سنة ٣٥ م. وفي السنة الثانية لولايته شكّا اليهود والسامريون إليه بيلاطوس البنطي فعزله سنة ٣٨ م وأرسله إلى رومة، فنفي إلى فيان في افرنسة كما مرّ (عد ٤٧٨) ولم يبقّ ويتليوس على ولاية سورية إلّا أربع سنين. واستخلفه الملك غايوس بيليوس بترونيوس سنة ٣٩ م فدبّر أمور هذا الاقليم بالحزم والحلم، وأمره غايوس أن يرغم اليهود على وضع تمثاله في هيكلهم في أورشليم.

وحضر إلى عكا بجيش كثيف يهدّد اليهود بالحرب فأبوا اجابة سؤاله ولم يرعهم وعيده ولم يثنهم وعده. فأمرهم أن يجتمعوا في طيبارية وخطب فيهم مبيناً غوائل إصرارهم فلم يذعنوا، فكتب إلى الملك مستعطفاً حلمه ومورداً حججهم. وكان أغريبا كتب إلى الملك رسالته المشار إليها عد ٤٧٩ فخدمت ثورة غضبه ثم بلغه أنّ اليهود حملوا السلاح، فكتب إلى بترونيوس يهدّده بالموت لتساهله معهم ولإيثاره درهمهم على نفوذ أمره، فلم تبلغ رسالته إلّا بعد موت غايوس. وخلف بترونيوس فيلبس مرسوس سنة ٤٢ م في ولاية سورية وكثر النزاع بينه وبين أغريبا ملك اليهودية، فالتمس هذا من العاهل كلود تبديله فاستدعاه الملك إلى رومة ونصب مكانه غايوس لنجينيوس سنة ٤٥ م واستمرّ على ولايته إلى سنة ٥٢ م، وخلفه حينئذٍ غايوس كودراتوس. وكان في أيامه نزاع شديد بين اليهود المقيمين في الجليل وبين السامريين أفضى إلى قتل بعض اليهود، وكان والي اليهودية حينئذٍ يسمى كومانوس فشكّا اليهود أمرهم إليه فلم ينصفهم لأنّ السامريين رشوه، فحمل بعض اليهود السلاح ووثبوا على بعض قرى السامريين فانتهبوها وحرقوها، فجمع

كومانوس رجالاً وتعقبهم فقتل كثيرين وأسر غيرهم. وكان كودراتوس حينئذ في صور وبلغه ما كان، فأتى السامرة ثم سار إلى اللد فوقف على جلية الأمر، وقتل خمسة رجال ممن تسببوا بهذه الثورة وأرسل كومانوس وحنانياس رئيس الأخبار وبعض أعيان اليهود والسامريين إلى رومة، وبعد سماع الملك كلود حجج الفريقين وجد أن السامريين علة في هذه الفتنة فقتل أعيانهم الذين أرسلوا إلى رومة. ونفى كومانوس (يوسيفوس ك ٢٠ في تاريخ اليهود فصل ٥) ومات كودراتوس في سنة ٦٠ م وخلفه في الولاية على سورية دوميتيوس كربولون وكان رئيس الجيش الروماني في المشرق. فدبر شؤون سورية إلى سنة ٦٥ م واستدعاه نيرون الذي رقى إلى منصبة الملك سنة ٥٤ م وأقام مكانه لوشيوس غالوس وأمره بمحاربة اليهود فانتصروا عليه في ٨ تشرين الثاني سنة ٦٦ م. فكتب إلى نيرون يعزو انخزال جنوده إلى خطأ فلورس والي اليهودية وكانت حينئذ الحرب التي دمرت أورشليم واليهودية وبتدت اليهود كما سترى.

عد ٤٨٣

ولاية اليهودية بعد بيلاطوس إلى بداية حربهم مع اليهود

ذكرنا قبلاً ولاية اليهودية إلى بيلاطوس البنطي، ونقول الآن أنه بعد نفي بيلاطوس البنطي ويتلوس مرشلوس والي سورية على اليهودية وأثبتته غايوس الملك، لكنه نصب عليها بعد ذلك أغريبا الأول كما رأيت (في عدد ٤٧٩) ولما توفي سنة ٤٤ م رغب عن نصب ابنه أغريبا الثاني عليها لصغر سنّه وانقياداً لمشورة مستشاريه. وأقام عليهم كوسيبوس فاروس لأنه كان صديقاً لآل أغريبا ومن أخباره، أنه لدن وصوله إلى أورشليم وجد أن حدث نزاع بين اليهود المقيمين في عبر الأردن وبين أهل فيلادلفيا (وهي عمان الآن). وقد وثب اليهود شاكي السلاح على أهل هذه المدينة دون مشورة حكامهم وشيوخهم وقتلوا كثيرين منهم، فقبض على ثلاثة من اليهود ممن كانوا سبباً لهذا التحجني وقتل أحدهم ونفى الاثنين. وبعد مدة قبض على لص اسمه تلماوس كان يسطو على الأدوميين والعرب وقتله وأراح اليهودية من مقلقي الراحة العامة.

وقد بلغ الكهنة ووجوه أورشليم أمر الملك أن يضعوا ملابس الأخبار في قلعة

أنانيا في أورشليم ليحتفظ عليها وفيها الجنود والرومانيون. فقلق اليهود من هذا ولم يصوبوا المقاومة لأمر الملك فأرسلوا وفداً إلى رومة يسألونه أن ي بقي لهم على حريتهم في حفظ ملابس أحبارهم. فانعطف كلود لاجابة سؤالهم تكرمة لأغريبا الثاني الذي كان لائذاً بعقوته. وأمر الوفد أن يمضي إليه ويشكره على ذلك. وكتب رسالة إلى اليهود يؤمنهم بها ويوبح بانعطافه إلى أغريبا وباجابة سؤالهم حباً به (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢ فصل ١ و ٢). على أن فاروس لم يستمر على ولايته في اليهودية إلا سنتين وخلفه فيها سنة ٤٦ م طيباريوس اسكندر بن اسكندر الأبرش من الاسكندرية، وكان أبوه يهودياً لكنه ارتد عن مذهب اليهود وكان أغنى أهل الاسكندرية، وفي أيامه حصلت مجاعة شديدة في اليهودية، وهذا الوالي قتل يعقوب وسمعان ابني يهوذا الجليلي اللذين كانا هيجا اليهود ليثوروا على الرومانيين بأثر إحصاء قورينوس اليهود. وقام في ولايته سنتين أيضاً وخلفه فيها سنة ٤٨ م كومانوس المار ذكره. وكان من الأحداث في أيامه أن جندياً رومانياً من حراس باب الهيكل كشف في أيام عيد الفطير عن عورته على مرأى كثيرين من الشعب، فاستاء الجمهور من فظاعة صنعه وحسبوه إهانة لهم بل لله أيضاً. وأخذ المتحمسون يطعنون على كومانوس الوالي قائلين أنه بأمره أقدم الجندي على ما بدا منه.

فحنق كومانوس لهذا الطعن وأمر الجند أن يدخلوا بسلاحهم إلى قلعة أنانيا المشرفة على الهيكل. فتوهم الناس أن الجنود يشنون عليهم فتهافتوا على الفرار. وازدحموا في الأزقة الضيقة حتى مات منهم كثيرون وانقطع الناس عن الصلوات وتقدمه الذبائح في الهيكل. وانقلب فرحهم بالعيد نوحاً ثم التقى بعضهم في خارج أورشليم بخادم للملك اسمه اسطفان فسلبوه كل ما كان معه. فارسل كومانوس جنوده إلى القرى المجاورة أورشليم لينكلوا بأهلها ويشخصوا أوجهها إليه، فعثر جندي على أسفار موسى فمزقها على مرأى الجمهور، وأكثر من الشتائم للسنة والأئمة فهاج اليهود وماجوا ولم يصبروا على الإهانة، وأتوا الجم الغفير إلى كومانوس في قيصرية يسألونه معاقبة من جنى على إلههم بتمزيق أسفاره. وخشي ثورتهم عليه فقتل ذلك الجندي وتشفت صدورهم واستكانوا. وقد مر بك أنفاً ما أجراه كومانوس عند نزاع اليهود في الجليل والسامريين وهو ما أفضى إلى ارساله إلى رومة ونفيه (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ٢٠ فصل ٣ و ٤).

وخلف كومانوس كلود فيلكس الذي كان والياً على السامرة والجليل فألحقت

اليهودية بولايته سنة ٥٢ م وكانت اليهودية في أيامه في أسوأ حال فقد كثر فيها اللصوص والمكارون ولم يكن يوم يمرّ إلّا ويعاقب فيه فيلكس بعضهم. وكان من هؤلاء اللصوص رجل اسمه العازر صاحبه قوم على شاكلته فاستدعاه فيلكس وأمنه فأتى فأرسله أسيراً إلى روما. وكان فيلكس يمقت يوناتان عظيم الأحبار لتوبيه له على سوء تصرفه. فرشا رجلاً اسمه دورا من أورشليم ليقتاله فاستدعى دورا بعض اللصوص فأتوا إلى أورشليم متظاهرين بالتقوى ودخلوا بين خدمة عظيم الأحبار وخناجرهم تحت أرديتهم فقتلوه، ولم يجزوا على جنائتهم الفظيعة فازدادوا جرأة، وكانوا يأتون في الأعياد وينسابون بين الجمع فيقتلون من أبغضوه ومن رشوا على قتله حتى كانوا يرتكبون هذه الجرائم في الهيكل. روى ذلك يوسيفوس (ك ٢٠ فصل ٥ من تاريخ اليهود). وقال من يتعجب من هذا بعد أن نظر الله إلى أورشليم بعين الغضب وبعد أن أمسى بيته المقدس خلياً من القداسة التي تجعله مكرماً. فقد أرسل الرومانيين ليعاقبوا هذه المدينة التعيسة بالسلاح والنار ويسبوا سكانها مع نسائهم وأطفالهم لعلهم يستفيقون بالعقاب الأليم من سكر اثمهم».

وكان هؤلاء اللصوص يملأون المدينة من القتلى وكان بعض المكارين يستجذبون الناس من البرية ممّوهين أن يروهم آيات ومعجزات. فقبض فيلكس على بعض هؤلاء وسجن بعضاً وقتل بعضاً. وأتى حينئذ مصري يدعى النبوة وزين لكثيرين أن يتبعوه إلى جبل الزيتون فيلفظ بعض كلمات فتدك أسوار أورشليم. وعلم فيلكس بذلك فنداركة بفريق من جنده فقتلوا ممن أتبعوه أربع مئة رجل، وأسروا مئتين ولم يكن عقاب بعض اللصوص يرّوع الباقين بل استسمروا يهيجون الشعب على الشغب والثورة على الرومانيين قائلين نفذ صبرهم على تحمّل نير الرومانيين غير المحتمل. وكانوا ينهبون ويحرقون قرى من لا يتبعهم (يوسيفوس في المحل المذكور).

وفيلكس هذا هو الذي شكّا حننيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ بولس الرسول أمامه، إذ أوثقته قائد آلاف في أورشليم وأرسله إليه في قيصرية كما في كتاب أعمال الرسل (فصل ٢٣ و ٢٤). فأمر فيلكس قائد المئة أن يحرسه ويعامله برخصة ولا يمنع أحداً من خواصه عن خدمته. ولما سمع كلام بولس في البرّ والعفاف والدينونة ارتاع وكان يستحضره مراراً، ولكن قال الكتاب: «إنه كان يؤمل أيضاً أن يعطيه بولس رشوة... ولما انقضت سنتان خلف فستس فيلكس».

إن قول الكتاب هذا مطابق لما رواه المؤرخون العالميون إذ قالوا إن فستس خلف فيلكس وكان ذلك سنة ٦٠ للميلاد. فإن نيرون الملك استدعى فيلكس إلى روما لتظلم اليهود منه، وأرسل مكانه فستس فوجد اليهود في حال يرثى لها من اللصوص وتهيج المشاغبيين على سلب الراحة والطمأنينة. من جملة ذلك أن رجلاً كان يدعى السحر استجذب كثيرين من البرية واعداً أن ينقدهم من كل سوء فوجه إليهم فستس كتبية من الفرسان والرجالة فبددوا شملهم. وقد بنى في أيامه اغريبا داراً تجاه القصر الملكي في أورشليم الذي كان المكابيون قد بنوه. وكانت هذه الدار مشرفة على المدينة كلها وكان اغريبا يرى من غرفته فيها كل ما يحدث حول الهيكل. فشق على أعيان اليهود هذا النبأ لحظر سنتهم التشرف لما يكون في الهيكل لا سيما عند تقدمه الذبائح. فأقاموا حائطاً رفيعاً يصد اغريبا عن رؤية ما يكون في الهيكل وفي الرواق الذي بجانبه ويمنع جنود الرومانيين من أن يخفروا الهيكل أيام الأعياد. فاستاء اغريبا وفستس وأمر بنقض ذلك الحائط فلم يدعن اليهود بل لجأوا إلى نيرون وأوفدوا إليه عشرة من وجهائهم واسمعيل رئيس الكهنة وكلشياس خازن الهيكل. وشفعت بهم بوييا امرأة نيرون لديه فعفا عن اليهود ورخص لهم في بناء الحائط، ولكنه أمسك رئيس الكهنة والخازن عنده رهينة ليخلص اليهود في الطاعة له (يوسيفوس ك ٢ فصل ٧ من تاريخ اليهود). وفستس هذا هو الذي شكى اليهود بولس بحضرته في قيصرية وسمع له أولاً وحده ثم بحضرة اغريبا الملك كما مرّ (في عد ٤٧٨). واستغاث بولس بمحكمة قيصر كما في كتاب اعمال الرسل (فصل ٢٥ و ٢٦).

ومات فستس سنة ٦١ م وأقام نيرون مكانه البين فلم يدع شراً إلا وصنعه، وكان يتجر بحقوق العباد ويغصب أموالهم، وأثقل اليهودية بضرائب حديثة. وكان يُطلق من السجون من أودعتهم الحكومة إياها أو ألقاهم أسلافه فيها بحيث ينقدونه مالاً ولا يعتد مجرمًا إلا من لم يدفع له شيئاً. وقد ترلّف إليه الأغنياء بتقادمهم وشُرّ به المشاغبون لأن تصرفه أفسح المجال لثورتهم. ولما استدعاه نيرون إلى روما سنة ٦٤ م فتح كل السجون فأملأ اليهودية من اللصوص والقُتلَة (يوسيفوس في الحرب ك ٢ فصل ٢٤). وخلفه سنة ٦٥ م جسيوس فلورس فأأسى اليهود بجوره كل المظالم التي كانت في أيام أسلافه. ونرجئ باقي الكلام فيه إلى الفصل الثاني إذ ابتدأت الحروب بين اليهود والرومانيين في أيامه.

وهذه صورة نيرون عن تمثاله في متحف اللوفر



الفصل الثاني

ذكر الحروب بين اليهود والرومانيين

نعتمد في كلامنا في هذه الحروب على ما دوّنه يوسفوس اليهودي في تأليفه الذي أفرد له والموسوم بحرب اليهود للرومانيين من الفصل الخامس والعشرين من الكتاب الثاني فصاعداً إلى الختام. فهو ثقة في ما كتبه عن أمته وشاهد عياني لهذه الحروب بل كانت له بعض وقائع فيها وأخذ أسيراً كما سترى.

ايقاد فلورس نار الحرب وما كان في مدة ولايته

كان فلورس جائراً ظالماً لا يكتف جوره بل يتباهى به صارفاً مجهوده في أن يغني نفسه بأموال الناس. وكان ينتهب المدن والقرى حتى أرغم كثيراً من الأغنياء ومن لا يطيقون البغي أن يهاجروا البلاد. وكان غلّوس يومئذ والياً في سورية فلم يجسر أحد من اليهود أن يمضي إليه فيتظلم من فلورس، لكنه اتفق أن شخص غلّوس إلى أورشليم في عيد الفصح في ربيع سنة ٦٦ م وكانت أقدام الحجاج تزدهم هناك، فشكوا إليه وسألوه أن يرفق بهم وينجيهم من الداهية الدهماء التي حلت بهم بأن يبعد فلورس عن ولايته. وكان هذا الكلام على مسمع من فلورس فكان يسخر من قائله فوعدهم غلّوس بأن ينصح فلورس ليغير تصرفه. وعاد إلى انطاكية وصحبه فلورس إلى قيصرية، وفكر أنه إذا دام السلم في اليهودية شكاه اليهود إلى نيرون فيحطه من منصبه، وأما إذا اتقدت نار الوغى فيخفي دخانها. وظلّ قسطلها جرائمه فزاد في شره واعتسافه ليعثهم على الثورة.

وكان في قيصرية نزاع بين اليهود ومواطنيهم من الوثنيين، فكان اليهود يدعون أن هذه المدينة لهم لأن هيرودس ملكهم بناها. وأولئك يدعون أن مدينتهم كانت قبل هيرودس وإن جدّد أبنية فيها. وأنه لو أراد أن يخصها باليهود لما أقام فيها هياكل وتماثيل لهم. ورفعت الدعوى إلى نيرون فحكم بها للوثنيين على اليهود. وكان لأحد الوثنيين محل في جانب مجمع اليهود رغبوا إليه أن يبيعهم إياه لو بأكثر من قيمته فأبى، وأخذ بيني حوانيت تضيق ممر المجمع. وأراد بعض الشبان اليهود المتحمسين أن يكفوا العملة عن البناء فردعهم فلورس عن المعارضة. وقدم له وجهاء اليهود مبلغاً من المال فوعدهم بأن يوقف البناء. ومضى للحال من قيصرية إلى سبسطية (السامرة) ليفتح مجالاً للقتال بين اليهود والوثنيين. وكان اليوم التالي سبتاً فأخذ أحد الوثنيين يذبح طيوراً على باب المجمع عند خروج القوم منه. فاستاء اليهود من ذلك وحسبوه ابتداءاً لستتهم، فالتحم القتال بين الفريقين ولم يستطع الحرس أن يفرق الجمع. واسرع بعض وجهاء اليهود يشكون أمرهم إلى فلورس في السامرة فألقاهم في السجن مكان أن ينصفهم من خصومهم.

وسمع اليهود في أورشليم خبر هذه المعاملة الجائرة فقلقوا، وأرسل فلورس يطلب من خزينة الهيكل مبلغاً جسيماً من المال محتجاً بأن يصرفه في حاجات للملك. فتراكض الشعب إلى الهيكل يصيحون مستغيثين باسم قيصر لينقذهم من هذا الوالي المعتسف، ويقوه كثير منهم بشتائم ولعنات لفلورس، وبعضهم يستعطي الصدقة من الآخرين لفلورس تهكماً عليه، كأنه سيروت فقير. أما هو فبدلاً من أن يُسرع إلى قيصرية ليخمد جذوة القتال فيها سار بجيشه من فرسان ورجالة تَوّاً إلى أورشليم لينتقم من قذفه أو عارضوا نفوذ أمره. ولما دنا من المدينة خرج الشعب للقائه والترحيب اخماداً لغضبه. فأرسل إليهم خمسين فارساً يأمرهم بالعود إلى بيوتهم قائلاً إنه لا تغنيه تملقاتهم له بالخروج للقائه عن الإهانات التي ألحقوها به، وإنه يخشى أن يُسمعوه بحضرته ما اغتابوه به بغيبته. فوثب أولئك الفرسان على الجمع فبددوه وعاد كلٌّ إلى محله واجساً مرتعداً، وفي الصباح مضى إليه وجهاء الكهنة وسراة الشعب. فقام على المنبر يطلب منهم أن يُسلموا إليه للساعة كلٌّ من اغتابوه. فأجابوه أنَّ الشعب كلُّه مقيم على الاخلاص في الطاعة له، وإنه في الاجتماعات العامة لا بدُّ أن يفوه بعض السفلة بما لا يرضاه الجمهور. وإنهم لا يعرفون من هؤلاء السفلة من فرط منه لا يخل بكرامة واليهم. فزاد هذا الجواب فلورس حنقاً وأمر جنوده أن ينتهبوا كل ما يجدون في السوق العليا وأن يقتلوا كل من وجدوا. فاندفع الجنود ينهبون كل ما في الأسواق والبيوت ويقتلون كل من تمكنوا من قتله ولو كان من النساء والأطفال، فبلغ عدد القتلى يومئذ ثلاثة آلاف وست مئة وقبضوا على بعض الوجوه وجلدوهم ثم صلبوهم وكان هذا في ١٦ أيار سنة ٦٦ م.

وكانت برنيكة أخت الملك اغريبا في أورشليم فأرسلت إلى فلورس مرات تسأله أن يكفّ جنوده عن سفك الدماء فأعارها أذناً صمّاء. وخرجت بنفسها إليه فأوشك الجنود أن يقتلوها لولا أن تفرّ عائدة إلى قصرها. وفي اليوم التالي أي ١٧ أيار أمر فلورس أهل أورشليم أن يخرجوا إلى لقاء فريق من جنده آتٍ من قيصرية قائلاً إنَّ هذا يحقق له انقيادهم لطاعته فينكفّ عن التنكيل بهم. وأرسل يقول لقائد الجند أن يبطش بالأهلين. فتردّد الأهلون عن الخروج إلّا أنَّ الكهنة وسراة الشعب أقنعوهم بذلك فخرجوا وحيّوا الجنود فلم يجيبوهم. وتذمّر اليهود فوثب الجند عليهم يضربونهم وانهزموا أمامهم، فاتبعهم الفرسان وداست خيولهم كثيرين ومات

كثيرون. وازدحمت الأقدام في مدخل المدينة وكان الجنود الرومانيون يجدّون في أن يسبقوهم إلى الهيكل وقلعة انطونية^(١) فقتلوا كثيرين.

ولما رأى اليهود الرومانيين متسارعين إلى الهيكل وقلعة انطونية عاودتهم الحمية وتألّبوا فأمطروا على الجنود تهتان حجارة منعهم المسير. ونقضوا البناء الموصل بين القلعة والهيكل فخاب أمل فلورس من انتهاب خزينة الهيكل. واستدعى وجوه المدينة وصرّح لهم بعزمه أن يترك مدينتهم حباً بالسكينة ولا يترك فيها من الجنود إلّا قليلاً من الخفراء أباحهم أن يختاروهم. فاختراروا جوقة يرأسها رجل ضعيف جبان ومضى فلورس إلى قيصرية. وانقسم الشعب إلى حزين. صوّب بعضهم الحرب والعصيان على الرومانيين، وبعضهم السكينة والانقياد لهم. وعاد وقتئذٍ الملك أغريبا من الاسكندرية فخطب فيهم خطبة أفصح فيها عن قوّة الرومانيين وغوائل المناوأة لهم. فأذعن السواد الأعظم منهم لكلامه وهتّوا أن يجددوا بناء ما نقضوه وأن يجمعوا ما بقي عليهم من الخراج. ولما رأى اغريبا امتثالهم لمشورته اسمعهم أن يحسنوا الطاعة لفلورس إلى أن ينصب العاهل خلفاً له. فهاجوا وماجوا حتى طردوا اغريبا من المدينة وأوسعوه شتائم ورماه بعض المتحمسين بالحجارة فانصرف إلى مملكته.

ومضى بعض مريدي الحرب إلى قلعة ماسدة (على مقربة من البحر الميت غرباً) ففتكوا بالخفراء الرومانيين وأقاموا فيها خفراء من أمّتهم، وأمر اليعازر رئيس الكهنة أن لا يقبلوا تقادم للهيكل من أجنبي عن اليهود ولو كان العاهل. فعظم الأمر على الكهنة ووجهاء الشعب لأنه تصرّح بالعصيان على الرومانيين. وأرسلوا يسألون فلورس واغريبا أن يمدهم بجنود لكبت المشاغبين فلم يحفل فلورس بسؤالهم ليزيد النار اضطراباً. وأرسل اغريبا إليهم ثلاثة آلاف رجل والتحم القتال بين الثائرين ومريدي السلم. فكان الفوز للمشاغبين لتوفّر عديدهم فأحرقوا قصر الملك اغريبا والملكة برنيكة أخته ودام القتال سبعة أيام من ٨ آب إلى ١٤ منه. وكان في

(١) هذه القلعة بناها المكابيون وكانت قصراً للوكهم ثم وسعها وجعلها هيرودوس الكبير وسماها انطونية باسم مرقس انطونيوس صديقه وكانت في الزاوية الشمالية الشرقية من الهيكل حيث الآن الثكنة العسكرية. وقد جاء ذكرها مرات في الابركسيس عند الكلام في القبض على بولس الرسول مسماة المعسكر أي محل العسكر.

الخامس عشر منه عيد فزاد عدد الثائرين واستظهروا على مخاصمهم. وحاصروا قلعة انطونية وكان فيها الخفراء الرومانيون فافتتحوها في السابع عشر من آب وقتلوا بالسيف من كان فيها. ثم توجهوا إلى قصر هيرودس حيث كان الجنود الرومانيون ورجال اغريا فحاصروهم فيه ثمانية عشر يوماً فاستسلم إليهم اليهود ورجال اغريا وفرّ الرومانيون، وتحصّنوا في ثلاثة أبراج على سور المدينة. فدخل الثائرون المحال التي تركها الرومانيون وقتلوا كل من وجدوه وأحرقوا القلعة وكان ذلك في السابع من أيلول. وقام بينهم رجل اسمه منحيم ابن يهوذا الجليلي فألب إليه جماعة من الحمسين واللصوص. وأتى أورشليم وسمّى نفسه ملكاً وقاتل مع المشاغبين واستعظم نفسه بانتصارهم، وسطا على العيازر رئيس الكهنة وغيره فتأمروا عليه وقتلوه في الهيكل. وعاد المشاغبون يضيقون على الجنود الرومانيين في أبراجهم حتى اضطروا أن يطلبوا الأمان، فأعطوه على شرط أن يسلموا سلاحهم إلى اليهود. ولم يسلموا سيوفهم إلا ووثب عليهم المشاغبون وقتلوه عن آخرهم واستبقوا رئيسهم فقط لأنه يهود. وفي ١٧ أيلول سنة ٦٦ م لم يبق في أورشليم روماني.

عد ٤٨٥

مقتل اليهود في مدن عديدة

بلغ إلى قيصرية خبر قتل الثائرين الجنود الرومانيين في أورشليم، فاستغتم اليونان والسوريون سكان هذه المدينة هذه الفرصة ووثبوا على اليهود فقتلوا منهم عشرين ألفاً بامداد فلورس؛ فهذه المقتلة بعثت أمة اليهود على الحنق والانتقام من الوثنيين. فدمروا قرى ومدناً عديدة وقتلوا كل من وقع بيدهم، فثار عليهم السوريون ووثبوا على قرى اليهود ومدنهم فنهبوا وقتلوا وأحرقوا. وأمست سورية في حالة يرثى لها فلم تكن مدينة إلا وتوفر فيها الشغب والقلق والقتال. وكان اليهود والوثنيون في سيتوبولي (أي بيسان) اتفقوا على أن يسالم بعضهم بعضاً ويكبحوا معاً كل معتد عليهم، فوفد بعض اليهود إلى هذه المدينة فقاتلهم سكانها وأبعدوهم عنها ولما رأى الوثنيون زوال الخطر عنهم أخلفوا وعدهم ووثبوا ليلاً على اليهود فقتلوا منهم ثلاثة عشر ألفاً. واشتهر بينهم حينئذ رجل اسمه سمعان بن شاول تفرّد بالدفاع عن نفسه وذويه وجندل كثيرين ونجا، لكنه ندم على محاربه قومه مع الوثنيين ولا

ندامة الكسعي فقتل أباه وأمه وامرأته وبنيه؛ ثم وجا صدره بالسيف فمات على جثث أهله. ولما اتصل بسكان باقي المدن ما أجراه أهل بيسان ثاروا على اليهود فقتل أهل عسقلون منهم ألفين، وأهل عكا ألفين، وذبح أهل صور كثيرين وسجنوا كثيرين. وكذلك صنع الوثنيون في مدن عديدة. وأما أهل انطاكية وصيدا واباميا فأبقوا على اليهود فلم يسلبوهم ولم يسجنوهم لقلّة عديدهم ولأنهم لم يروا منهم ما يخلّ براحتهم. وأما مملكة اغريبا وهي الجولان والجيدور وهوران فلم ينبج أهلها لأنّ اغريبا مضى لزيارة غلّوس والي سورية في قيصرية، وأناب عنه رجلاً اسمه فاروس أتى إليه وجهاء بعض المدن من اليهود يسألونه أن يرسل إليهم جنوداً للمحافظة على راحتهم. فبدلاً من أن يحسن ملتقاهم بعث قوماً قتلوهم ليلاً عن آخرهم، ثم لم يدع جوراً واعتسافاً إلا وأقدم عليه. ولما بلغت اغريبا أخبار ظلمه عزله ولم يقتله لاتصال نسبه بأحد ملوك العرب.

وكان الاسكندريون يغيضون اليهود المقيمين في مدنهم وكان الملوك اليونانيون والرومانيون أولوهم حقوقاً مدنية وامتيازات دينية فاغتم الاسكندريون فرصة خروج أمّتهم على الرومانيين واجتمعوا في الملعب يتفاوضون في ارسال وفد إلى نيرون. وانسل بينهم بعض اليهود فحسبهم جواسيس وقبضوا على ثلاثة منهم وأرادوا حرقهم أحياء. فتسارع اليهود مدججين بالسلاح لينقلدوا اخوانهم وهذّوا خصومهم بحرق الملعب بهم. وكان والي المدينة اسكندر طيباريوس رجلاً ارتدّ عن مذهب اليهود وصار وثنيّاً فأطلق لجنوده أن ينكلوا بهم. فاندفعوا على اليهود كالضواري فقتلوا منهم خمسين ألفاً وانتهبوا بيوتهم وحوانيتهم.

ولما رأى غلّوس والي سورية الهياج على اليهود من كلّ فجّ جمع جيشاً سار به إلى عكا. وانضمّ إليه كثيرون من سكان المدن المجاورة لها وأمّده اغريبا ببعض جنوده. فزحف قائد الجيش الروماني إلى زابلون ففرّ أهلها إلى الجبال فانتهبها وأحرق بيوتها التي لم تكن أبنية صور وصيدا وبيروت أحسن منها. ونهب وأحرق القرى المجاورة لها وعاد إلى عكا فشجّع عوده اليهود وتعقبوا السوريين. فقتلوا منهم ألفي رجل أكثرهم من بيروت كانوا تباطأوا لطمعهم بالإسلاب. ثم سار غلّوس من عكا إلى قيصرية وأرسل كتائب من جيشه إلى يافا فباغتوا أهلها وقتلوهم عن آخرهم. ونهبوا المدينة وأحرقوها وكان عدد القتلى ثمانية آلاف وأربع مئة. وأرسل غلّوس كتيبة من فرسانه إلى جهة السامرة فقتلوا كثيرين من الأهلين. ثم أرسل

غلّوس فريقاً آخر إلى الجليل ففتحت مدينة صافوريس (المعروفة الآن بصفورية في شمالي الناصرة غير بعيدة عنها) أبوابها للجنود الرومانيين واقتدى بها غيرها من المدن، على أنّ المشاغبيين الذين لا يهودون إلا الثورة والسطو اعتزلوا في جبل عرميون المقابل لصفورية، فسار إليهم الجنود فظهروا عليهم وقتلوا منهم أكثر من مئتي رجل وأحدقوا بالجليل من كل جهة فقتلوا منهم نحو ألف رجل. وفرو قليلون وعرف غلّوس أنّ كثيراً من اليهود اجتمعوا في برج أفيق (المعروف الآن بفقوعه على قول كندر وبالفولة على رأي كاران في غربي سولم في مرج ابن عامر). فأرسل كتيبة لضربهم فلم يجسروا أن يقوموا في وجه الجند، فنهب الرومانيون أفيق والقرى المجاورة لها وأحرقوها. ثم سار غلّوس إلى اللد فلم يجد من أهلها إلا خمسين رجلاً لأنهم كانوا مضوا إلى أورشليم لعيد المظال فقتل الخمسين رجلاً. وأحرق مدينتهم وسار بعسكره نحو أورشليم فعبّر بيت اور وبلغ إلى جبعة الغربية من أورشليم وأحلّ جيشه هناك.

عد ٤٨٦

حصار غلّوس أورشليم

لما رأى اليهود دنو جيش الرومانيين من عاصمتهم تركوا حفلات العيد ولم يرعوا وصيّة السبت كما كان أجدادهم يرعونها. وخرجوا على جنود الرومانيين فكسروا طلائعهم واتصلوا إلى قلب الجيش، ولولا أن ينجد الفرسان المشاة لأبادوا جيش الرومانيين. وكان القتلى من الرومانيين خمس مئة وخمسة عشر رجلاً ولم يُقتل من اليهود إلا اثنان وعشرون رجلاً. وكانت هذه الواقعة في ٢٦ تشرين أول سنة ٦٦م. وارتدّ الرومانيون إلى بيت اور وتربّص غلّوس هناك ثلاثة أيام لا يُبدي حراكاً لإشراف اليهود عليه من قمم الجبال. وأرسل اغريبا رجلين من حاشيته إلى اليهود يبلغانهم من قتل غلّوس أنهم إذا ألقوا سلاحهم وأخلصوا في الطاعة أراحهم من كل ما كانوا يشكون منه. فلم ينش المشاغبون عن عزمهم بل قتلوا أحد المرسلين وفرو الآخر مشحناً بالجراح، فساء الشعب صنيع القاتلين وأرغموهم بضرب الحجارة والعصي أن يفرّوا إلى المدينة. فاغتنم غلّوس فرصة انقسامهم وزحف إليهم فهزمهم وتعقبهم إلى أورشليم، ودخل في جانبها وأقام هناك ثلاثة أيام ينذرهم

بالارعواء. وفي اليوم الرابع صفّ جنوده للقتال فلم يقف اليهود في وجههم بل تألبوا في الهيكل. فدخل غلّوس المدينة في ٣٠ تشرين أول وحلّ في أعلاها وحرّق بعض بيوتها ولو هاجم اليهود حينئذٍ لأنهي هذه الحرب، لكنه تلوّم بمشورة بعض قادته. فعاودت الحميّة اليهود وتحصّنوا في الأبراج واستمروا يدافعون ببسالة خمسة أيام وفي اليوم السادس دنا الرومانيون من الهيكل من جهة الشمال. وكان اليهود يرشقونهم بالنيل من شرف الهيكل واتصلت طلائع جنودهم إلى الحائط. فألقت إليه تروسها ومن كان وراءهم ألقى تروسه إلى تروس أولئك فكانت التروس تقيهم النبال وأخذوا ينقبون الحائط، فارتاع بعض المشاغبين وفتروا ولم يعلم غلّوس ما تولاهم من الرعب وخاف أمطار الخريف وعازته المؤن فرفع الحصار. فحسب اليهود ذلك انكساراً وتتبّعوا ساقه جيشه فقتلوا بعضهم. وفي اليوم الثاني أراحوهم من محلّتهم في أورشليم وتعقبوهم إلى جبعة محلّتهم الأولى. ورأى غلّوس توفّر عديد أعدائه فأثر أن يترك محلّته وما فيها من المؤن وأن يقتل الحمير والبغال ولا يستبقي إلّا على ما يلزم منها لنقل جنوده وأدوات الحرب. وعاد بجيشه نحو بيت اور فसार اليهود في أعقابهم وأحاطوا بهم من كل جانب وقتلوا منهم كثيرين وفرّقوا صفوفهم. وكفّهم الظلام عن تتبّعهم وترك غلّوس أربع مئة رجل من نخبة جنوده وسار بياقي الجند ليلاً إلى انتيبتريس^(١) بعد أن هلك من جيشه ستة آلاف رجل. وعند الصباح علم اليهود بخدعة غلّوس لهم فقتلوا الأربع مئة جندي وعادوا إلى أورشليم مبتهجين غانمين. وكتب غلّوس إلى نيرون يشكو فلورس بأنه كان علّة إثارة هذه الحرب وانخزال جنوده. وعظّم هوس اليهود بانتصارهم وقتل من بقي منهم يشير بمصالحة الرومانيين. وحازبهم السامريون أيضاً على مناوأة الرومانيين، ونصبوا لكل عمل عاملاً يدبر شؤونهم، وأخذوا يعدّون الغدود ويمرنون الشبان على حمل السلاح،

(١) سّأها هيرودوس بهذا الاسم إذ جدّد أبنتها تكمة لاييه انتيباتر وكان اسمها كفرسابا وعادت الآن تسمّى بهذا الاسم على قول كثير منهم وهي بين اللد جنوباً وقصرية شمالاً في الطريق المؤدية من يافا إلى نابلس على اثنتي عشرة ساعة من أورشليم. ولكن رجح كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٣٦٠ وما يليها) وفيكورو في معجم الكتاب ان انتيباتريس كانت في محل مجدل بابا وهذه على عدوة نهر العوجة واقرب إلى اللد من كفرسابا. وقد ورد ذكر انتيبتريس في الابركسيس (فصل ٢٣ عد ٣١) إذ أخذ الجند بولس ليلاً إليها من أورشليم.

ويدربونهم في الحركات الحربية. ولم يدرك الصواب إلا اليهود المنتصرون فإنهم هاجروا من أورشليم إلى بلد في عبر الأردن يسمى بلأ أقاموا فيه.

عد ٤٨٧

ولاية يوسيفوس على الجليل والمناسبة له

كان يوسيفوس المؤرخ في جملة العتال الذين أقامهم اليهود على الأعمال فقد ولّوه على الجليل وكان يعرف عظمة الرومانيين واقنذارهم. وقد كان زار روما ونال كرامة عند الملكة بوية ولم يكن يعلل نفسه بالأمل أن يتملص اليهود من سلطتهم. لكنه كان يأمل أن ثورة اليهود تبعث نيرون على أن يوليهم بعض الامتيازات أو يدع شؤون اليهودية إلى الملك اغريبا كما كان جدّه هيرودس الكبير؛ واغريبا نفسه كان يُظهر استياءه من الثائرين لكنه كان يطمّن الأمل في أن الثورة تجديه نفعاً بتوسيع نطاق ملكه. ولما بلغ يوسيفوس إلى الجليل صرف قصارى جهده في ترتيب أحوالها. فأقام ندوة مؤلفة من سبعين رجلاً من وجهاء ولايته كالندوة التي ألفوها في أورشليم. وعيّن سبعة رجال في كل مدينة من كرام قومها قضاة يفصلون الدعاوى غير المهمة بموجب نظام سنّه لهم ويحيلون ما كان مهماً منها إليه. وحصّن بعض مدن ولايته تحوطاً من مهاجمة الأعداء وجمع عسكرياً قال إنه كان عديده مئة ألف رجل. وقد يكون بالغ في قوله وأمر بتمرينهم على الحركات الحربية. واستأجر فرساناً وجعل لنفسه حرساً خمس مئة رجل مدربين مطيعين فشرّ القوم به وأثنوا عليه.

وكان في مدينة جسكالا وهي المعروفة اليوم بالجش (كاران في الجليل مجلد ٢ صفحـة ٩٦) رجل اسمه يوحنا ابن لاوي وصفه يوسيفوس بأنه كان مكاراً محتالاً كذاباً طماعاً ولعلّه وصفه بذلك لأنه كان مقاوماً له. وقد سأل يوسيفوس أن يحتكر بيع الخنطة والزيت فينفق ما يريـحه في تحصين مدينة الجش فتردّد في اباحة ذلك. ثم رُخص له فأصبح ثرياً فعزم أن ينفق ثروة في مناوأة يوسيفوس بقتله أو شكوى الجمهور منه طامعاً أن يخلفه. وكان حينئذ أن بعض خفراء الطريق في جانب جبل طابور استلبوا قيم بيت الملك اغريبا حلاً ثميناً ومبلغاً وافراً من المال؛ وإذ لم يتمكنوا من اخفاء السلب أتوا به إلى يوسيفوس وهو في تاريكا (المعروفة

اليوم بكرك في جانب بحيرة طيبارية كاران في الجليل مجلد ١ صفحة ٢٧٥). فوثبهم على صنعهم وأمرهم أن يستودعوا المسلوب رجلاً عُرف بالأمانة في المدينة، فشقَّ على الخفراء أنه لم يجعل لهم نصيباً من المال. وعلموا أنه سيرده برمته على الملك اغريبا وأخته برنيكة. فطافوا ليلهم كله في المدن والقرى يثون للناس أنَّ يوسيفوس خؤون لأُمَّته. فاحتشد في الصباح جمٌّ غفير في جانب كرك يصيح بعضهم أن ارجموا يوسيفوس وبعضهم أن احرقوه.

فنبه يوسيفوس بعض أصدقائه من رقاده وكان المشاغبيون أوشكوا أن يلقوا النار في الدار الحال فيها. فطلع عليهم بثياب رثة ممزقة وقد حثا الرماد على رأسه وأناط سيفه بعنقه، وقال لم يخطر لي ببال أن أردُّ المال على اغريبا أو أن أنتفع به عاقبي الله إن شئت أن أكون صديقاً للملك تجاهرونه بالعداوة أو أن أنتفع بما يضركم. والتفت إلى أهل كرك فقال إنَّ مدينتكم تحتاج إلى أسوار ولا مال عندكم تنفقونه على ذلك ويطمع أهل طيبارية وغيرها أن يأخذوا هذا المال الذي وقفته على تحصين مدينتكم. فإن لم ترغبوا في ذلك فهأنذا واضع بين يديكم المال لتصرفوا فيه كيف شئتم؛ وإن صوّبتم عزمي فعليكم أن تذبوا عني. فوقع الشقاق بين الجمع وتشبّع له أهل كرك وكانوا نحو أربعين ألفاً. وانسلَّ يوسيفوس إلى داره وأرفض ذلك الحشد ولم يبقَ من المشاغبيين إلّا عدد يسير وثبوا على دار يوسيفوس ليحرقوه، فاستدعى رئيسهم ليفاوضه فيما يريدون وأمر بجلده حتى انتشرت لحمانه وظهرت عظامه، ثم ألقاه إلى قومه فهالهم ما ناله فانصرفوا مدبرين.

وانقسم الجليليون فكان بعضهم محازباً ليوسيفوس وهم السواد الأعظم، وبعضهم الآخر ليوحنا المذكور، ولما رأى هذا أنه لا يتمكن من المجاهرة بالعداوة ليوسيفوس اعتزل مع ألفي رجل فآزة من صور. وكتب إلى أورشليم يشكو يوسيفوس بأنه يحشد جيشاً كبيراً وفي نيّته أن يستحوذ على أورشليم إن لم يتدارك أمره. وكان سمعان بن غملائل رئيس المجمع في أورشليم صديقاً ليوحنا ولا ثقة له بيوسيفوس وكان على شاكلته حنان الذي كان قبلاً رئيس أحبار. فحملا الندوة أن تُرسل ألفين وخمسمائة جندي وأربعة من وجوه أورشليم لينذروا الشعب بالارتداد عن يوسيفوس. وأصبحوهم بأمر مؤداه أنه إذا شاء يوسيفوس أن يشخص إلى أورشليم طائعاً ليبرئ ساحته مما ورد عليه فلا يمسّونه بضراً، وإن أبى فيعاملونه كعدو. فأخبر يوسيفوس أصدقاءه بما كان وجاهر بالعداوة له أهل بيسان والجش

وطيارة، لكنه علم أن يُخمد ثورتهم دون قسوة عليهم، وفاز أخيراً بأن يقبض على الوجهاء الأربعة المرسلين من أورشليم، وأن يرسلهم إليها مع رؤساء الثائرين عليه، وعند وصولهم إليها، وعلم الشعب بما كان وثبوا عليهم وكادوا يقتلونهم ومن أرسلوهم لو لم ينهزموا من وجه الشعب.

ومما عمله في هذه الأثناء ليدخل أهل طيارة في طاعته أنه كان في كرك فجمع كل ما وجد من السفن. وكان عديدها مئتين وثلاثين سفينة وضع في كل منها أربعة بحارة؛ ولما أقبل على المدينة أمرهم أن يضربوا على الماء بمجاذيفهم، ودنا بسفينته من المدينة يصحبه سبعة من خفرائه؛ فلما رآه أعداؤه هالتهم كثرة السفن التي كانوا يظنونها ملأى من الجنود. فأخذ يؤنبهم على تصميمهم أن يقتلوا واليهم الذي يُرجى منه نفع كبير في محاربة أعدائهم. ويعتَبهم على توصيدهم أبواب مدينتهم بوجه من حصنها لوقايتهم وقال إنه مستعد للعفو عنهم إن أرسلوا إليه معتمدين يسترضونه، فأرسلوا إليه عشرة من وجوه المدينة فوضعهم في سفينة وأبعدهم فيها. ثم طلب خمسين رجلاً من رجال مجلسهم وصنع بهم كالأولين. وكان كلما أتاه أناس ألقاهم في السفن التي أتى بها فارغة وأمر أن يأخذوهم إلى كرك. فأخذ الشعب كله يصيح أن كليتوس كان علّة هذه الثورة وأن يكتفي بجزائه شرّ الجزاء ويكفّ غضبه عن الباقيين. فأمر أحد حرسه أن يقطع يديه فابتهل إليه أن يترك له يداً، فقال أتركها لك بحيث أن تقطعها باليد الأخرى ففعل. وكذا أحمّد ثورة أهل طيارة بسبعة من حرسه وبيعض سفن فارغة. وبعد أيام أمر جنده أن ينتهبوا الجش وصفورية لثورة أهلها عليه، ثم جمع ما أخذه الجنود وردّه على الأهلين، وكذلك فعل مع أهل طيارة ليحبّب الشعب إليه. فدونك ما كانت عليه هذه الأمة من الانقسامات والخصومات الأهلية وعدوّهم الشعب الروماني واقف لهم في المرصاد بل دنا من الأبواب (يوسيفوس ك ٢ راس ٤٢ و ٤٣).

عد ٤٨٨

إرسال نيرون فسبسيان لحرب اليهود واستحواذه على الجليل

بلغ نيرون وهو في بلاد اليونان أخبار ثورة اليهود وانتصارهم على جنوده ووفاة غلّوس على أثر إنخذه. فاخترت لمحاربة اليهود فلافيوس فسبسيان الذي كان أذلّ الإنكليز والألمان. فشحّص من بلاد اليونان في فصل الشتاء سنة ٦٧ م وحلّ أولاً في انطاكية حيث التقاه الملك اغريبا. ثم أتى إلى عكا فوافاه طيطوس من

الاسكندرية وتحت أمرته الجيشان الخامس والعاشر فكان جملة الجيش الروماني ستين ألفاً. وكان اليهود في هذه الفترة حملوا على عسقلان وطرردوا الخفراء الرومانيين وقتلوا ثمانية آلاف رجل. وما احتل فسبسيان عكا إلا ووفد إليه أهل صفورية وكانوا استمروا على موالة الرومانيين، وقالوا إنهم طوع يديه في مناوأة أمّتهم أيضاً، وسألوه أن يصحبهم بفرسان ورجالة لمقاومة اليهود الذين يسطون عليهم. فأصحبهم مسروراً بألف فارس وستة آلاف راجل وكانوا يشتون الغارة كل يوم على مجاورهم فينهبون ويقتلون.

وحاول يوسيفوس أن يستحوذ على صفورية فرأى أنّ الثريا أيسر من ذلك منالاً. ونجد اغريبا وغيره من الملوك الأمناء للرومانيين فسبسيان بفرسان ومشاة ومضى بلاشيد أحد قادة الجيش فجال في البلاد وقتل كل من وقع بيده؛ على أنّ رجال الحرب تراكموا في المدن التي حصّنها يوسيفوس. ولما كانت يوتاباط المعروفة في هذه الأيام بجفت (في غربي قانا الجليل وعلى مقربة من جبل كوكب كاران مجلد ١ في الجليل صفحة ٤٧٩) من أحصن المدن أمّها، فخرج إليه الرجال منها يذبون عن نفوسهم وعرضهم ومالهم. فظهروا على جيشه وجرحوا كثيرين ولم يقتلوا إلا سبعة لأنهم لم يحاربوهم إلا بالنبال، ولم يجسروا أن يدنوا من الرومانيين فترك بلاشيد جفت إلى وقت آخر.

وعزم فسبسيان أن يتولّى الجليل أولاً لئلا يكون له أعداء من ورائه، فزحف من عكا إلى تخوم الجليل بجيشه الكثيف فهال خبره اليهود وطفقوا ينسلون من معسكر يوسيفوس قبل أن يروا جيش الرومانيين. ولما رآهم يوسيفوس أوغاداً لا يرجي منهم ثبات اعتزل بمن بقي منهم بين ظهرائه إلى طيبارية، وأرسل يُخبر ندوة أورشليم بحالة الجليل ويأس الرومانيين ويسألهم لإنجاده أو الترخيص له من يتعاطي الصلح معهم، أما فسبسيان فسار بجيشه إلى كابارا^(١) ففتحتها إذ لم يكن فيها من يُحسن الدفاع. وقتل كل من استطاع حمل السلاح فيها وأحرق المدينة وكل ما جاورها من القرى وأبسل سكانها أو باعهم أرقاء. وأتى يوتاباط المار تعريفها وكانت محصنة

(١) في بعض نسخ كتاب يوسيفوس (حرب اليهود ك ٢ فصل ١٠) كادار في عبر الأردن ولا يتصور ان فسبسيان افتتح حربه بها فالذي عليه الجمهور الآن ان الصحيح كابارا وهي المسماة في أيامنا كبرة على أربعة وعشرين كيلومتراً من عكا شرقاً وعلى اثني عشر كيلومتراً من جفت المار ذكرها شمالاً.

ومنيعة في موقعها الطبيعي لا يتوصّل إليها إلّا من جهة الشمال. وكان يوسيفوس قد حصّن هذه الجهة وأقام فيها أبراجاً وعاد من طيبارية إليها قبل حصارها. فنصب الرومانيون عليها مناجقهم وأدوات حصارهم فقاتل اليهود فيها قتال المستبسل وردّوا وثبات أعدائهم وأتلفوا آلات حصارهم مرات. ودام الحصار خمسة وأربعين يوماً من السابع عشر من أيار إلى غرة تموز سنة ٦٧م، إلى أن دلّ أحد الخونة الرومانيين إلى محل كان المدافعون فيه قليلي العدد ضعفاء. فوثب الرومانيون على هذا المحل غلساً فدخلوا المدينة من هذا المحل وباغتوا أهلها، فاستظهروا عليهم وقتلوه عن آخرهم، وكثير من اليهود قتلوا أنفسهم بسلّاحهم أو بإلقاء أنفسهم من أعلى الأسوار. فكان من قُتلوا في حصار جفت وعند فتحها نحواً من أربعين ألف رجل. وبيع أكثر من ألف امرأة وطفل أرقاء. ولما رأى يوسيفوس أنّ الرومانيين سيفتتحون المدينة لا محالة همّ بالانصراف من هناك فأمسكه الأهلون. ولما دخل الظافرون المدينة اختبأ في مغارة كان لجأ إليها أربعون رجلاً من اليهود الحازين. فكشفت امرأة أمرهم وحثّهم القائد على يوسيفوس أن يستسلم إليهم فتحفّز بذلك بضمانة رجل من أصدقائه اسمه نيكاتور. فوضع رفقاؤه السيف على عنقه يتهدّدونه بالقتل إن عاب شرفه بالتسليم بوغادته وآثروا الانتحار. فخطب فيهم خطبة بليغة بيّن فيها شرّ الانتحار، وحظر السنّة له، فأعاروه أذنّاً صمّاء. فقال لهم بما أنكم جزتم أن تموتوا فلنقترع على من يلزم أن يُقتل أولاً بيد من يليه، ونواصل هذا الاقتراع إلى النهاية حتى لا يقتل أحداً نفسه بل يقتله آخر. فقبل رفقاؤه ما عرضه متكلاً على أنّ عناية الله تنجيه على قوله، والأولى أن يقال إنه أضمر أن ينجو بهذه الحيلة. وأخذوا في هذا الاقتراع والعمل به إلى أن بقي يوسيفوس ورجل آخر فسأله واستمرا حين، وحينئذ استسلم يوسيفوس إلى يد نيكاتور صديقه. فأخذه إلى فسبسيان وكان يريد إرساله إلى نيرون لكن يوسيفوس تنبأ له على أنه سيكون العاهل بعد نيرون، وأنّ ابنه طيطوس يخلفه فاستبقاه عنده وأعزه وشاع في أورشليم أنّ يوسيفوس قُتل في جفت، فعظّم النوح والأسف عليه. ولما علّم أنه حيّ يعزّه الرومانيون انقلب حزنهم عليه بغضاً له وحنقاً عليه.

وكان فسبسيان قد أرسل ترايان إلى يافا مدينة في الجليل قرية من الناصرة جنوباً، وسيّر معه ألفي فارس فقهر أهلها على مناعة أسوارها، وكان عدد القتلى فيها خمسة عشر ألف رجل ما عدا النساء والأطفال الذين أخذوا أسرى، وبيعوا

أَرْقَاء، وكان عددهم ألفين ومئة وثلاثين وكان ذلك في العشرين من شهر حزيران.

وسمع فسبسيان أنَّ السامريين اجتمعوا على جبل غريزيم فأرسل إليهم أحد قادة جيشه بثلاثة آلاف رجل وست مئة فارس؛ فلم يشأ أن يحاربهم على الجبل بل ضيق عليهم من كل جهة حتى أوهنهم الجوع والعطش، وزحف إليهم وأنذرهم ليرعوا عن غيبتهم ويسلموا إليه سلاحهم، ولما لم يدعوا اندفع جنوده عليهم فقتلوهم. وكان عددهم أحد عشر ألفاً وست مئة رجل، وكان ذلك في السابع والعشرين من حزيران.

وبعد مدة وجيزة زحف الجند الرومانيون إلى طيبارية ولما كان يوسيفوس نُقِلَ على أهلها ونُكِّلَ بهم لم يُبدوا دفاعاً بل فتحو أبواب مدينتهم، واستسلموا إلى الرومانيين. فسار فسبسيان بجنده إلى تاريكا (مرُّ أنها تُعرف اليوم بكرك في جنوبي طيبارية على البحيرة). فخرج أهلها على الرومانيين وهزموا طلائعهم وقوّضوا بعض ما بنوا من متاريسهم، ولما رأوا وفرة الأعداء رجعوا القهقري فتبعهم الرومانيون حتى نزلوا في سفنهم وأخذوا يرمون الرومانيين على اليابسة بنبالهم، فأرسل فسبسيان ابنه طيطوس بست مئة فارس، ثم أردفهم بغيرهم من جنده. وبعد محاولات عديدة كان طيطوس أول من دخل المدينة فقتل كثيرين وانهزم كثيرون في سفنهم، وأبعدوا في البحيرة. وأمر فسبسيان أن يصنعوا له سفناً ولما كان العملة كثيرين والمواد متوفرة في هذه المدينة بُنيت له سفن عديدة في أيام قليلة. وتعقَّب الفارة من السفن فكانت حرب بحرية ولم يكن لليهود نبال. وكانت سفن الرومانيين أمتن من سفنهم فقتلوا من اليهود كثيرين بنبالهم وغرقوا بعض سفنهم ومن دنوا اليابسة قتلهم الجنود الذين كانوا على الشاطئ. فكان عدد القتلى في البحر والمدينة ستة آلاف وخمس مئة رجل.

وبعد أن قهر الرومانيون جفت وكرك استسلمت إليهم باقي المدن ولم يبقَ على العصاوة إلا كامالا في الجولان والجش وقلعة جبل طابور. وكان موقع كامالا في شرقي البحيرة تجاه مدينة طيبارية في الجولان، ولم نعثر على اسمها الآن ولعلها كانت في محل قلعة الحصن أو في محل خرسا. وكانت من مملكة اغريا وقد زحف إليها جيش الرومانيين فتصدى أهلها للدفاع. ودنا اغريا من المترسة لئنذر

المشاغبين فأصيب بحجر خدش ساعده اليمنى. وشدَّ الرومانيون الحصار عليها في الرابع والعشرين من أيلول والمشاغبون يبدون آيات البسالة. وكانوا كلما ارتفعت ادوات الحصار على متارسهم تقهقروا إلى داخل المدينة، وبعد ثلاثة أسابيع فتح الرومانيون نافذة في أسوار المدينة دخلوا بها إلى ساحتها. فهرع الأهليون إلى أعلى المدينة والرومانيون يتتبعون آثارهم في أزقتهم المعرَّجة فتراكم السكان على السطوح. وأخذوا يرشقونهم بالحجارة من كل جهة فضلَّوا طريق الخروج وتبددت صفوفهم ولجأ بعضهم إلى بيوت صغيرة فتداعت لكثرة الحشد فوقها فهلك منهم كثيرون. فأسف فسبسيان لهذه الخسارة الجسيمة لكنه خطب فيهم معزياً مشجعاً وعزَّز جنده لإدامة الحصار. واتفق أن ثلاثة من جنوده انسلَّوا ليلاً حتى انتهوا إلى أسفل برج في المدينة قريب إليهم. وعاونهم الظلام وغفلة الحفراء أن ينتزعوا من إسطه خمسة حجار ضخمة وتعجلوا الفرار، فسقط البرج، وهلك كل من كان داخله، ورُوع سقوطه من كانوا في غيره من الأبراج فانهزموا، ومن خرجوا من المدينة لينجوا بأنفسهم أبادهم المحاصرون.

وعند الصباح دخل طيطوس بكتائب منظمّة من الفرسان والرجالة فيس اليهود وهرع بعضهم إلى القصر في قمّة الجبل. وكان منيعاً عسر المسلك تحول الصخور دون إيصال نبال الجند إلى من فيه. «ولما كان الله مؤيداً الرومانيين للانتقام من هذا الشعب التعيس» (هذا من كلام يوسيفوس) سلط ريحاً زعازعاً منع اليهود من الإقامة على شرف القصر وضباباً كثيفاً حجب الرومانيين عن عيونهم. فتسلقوا إلى قمّة الجبل وأحاطوا بالقصر وفتحوه، وقتلوا من قاوم ومن استسلم بلا شفقة؛ ولما يس الباقون من الحياة ألقوا نساءهم وأطفالهم من أعلى الصخور إلى أسفل فكان من هلكوا كذلك خمسة آلاف. وكان ذلك في ٢٣ تشرين الأول سنة ٦٧م. وكان كثيرون من اليهود تحصنوا في قلعة جبل طابور، فأرسل فسبسيان بلاشيد إليهم بست مئة فارس فلم يرَ من السداد أن يقاتلهم بهذا العدد اليسير. وعمد إلى الحيلة وخاطبهم في الصلح واعداً أن يعفو عنهم فشخص بعضهم أمامه مضميرين الغدر به. فلاينهم بكلامه واستجذبهم بعيداً عن الجبل فغالطوه وأرادوا ضرب فرسانه فظاھر بالانهزام أمامهم. ونزل باقيهم من القلعة ليتعقبوه فدار عليهم بفرسانه وقتل بكثيرين منهم وبدد شملهم وصدهم عن العود إلى القلعة، ففرّ من بقي منهم إلى أورشليم.

ولم يبقَ من مدن الجليل إلاَّ جسكالاً وهي الجش فأرسل فسبسيان ابنه طيطوس إليها في ألف فارس. وكان فيها يوحنا بن لاوي المار ذكره وهو من أهلها وقد حملهم على الثورة، وعند انتهاء طيطوس إليها خاطبهم بريقى الكلام وقال أتأملون أن تنتصروا وحدكم على الرومانيين وقد قهروا العالم وسائر مدن بلادكم وبقيتم منفردين؟ فصوّب يوحنا كلامه وقال صدقتَ ولكن اليوم سبت وستتنا تحظر علينا كل عمل فيه، فإن شئت فامهلنا إلى الغد ننقدُ لك طائعين. فأمهلهم طيطوس وأحلَّ جنوده بعيداً عن المدينة ولم يخفها. فقام يوحنا ليلاً وأخذ أهلها ومن ماله من المشايخين وتعجّل الفرار بهم إلى أورشليم، ولما أتى طيطوس في الغد إلى الجش فتح له أهلها أبوابها والتقوه رجالاً ونساءً مرحبين. وكانوا يسمونه منقذهم والحسن إليهم وأخبروه بفرار يوحنا فاغتمّ لنجاته، وأرسل كتيبة من فرسانه في أثره فلم يُدرِكوه. ولما أكمل فسبسيان إخضاع الجليل ترك فيه خفراء. وسار بجيشه إلى قيصرية يريح جنده بعدما قاسوه من المشاق، ويستبعد لإذلال اليهودية (يوسيفوس في الكتاب الثالث من حرب اليهود وفي الكتاب الرابع إلى الفصل العاشر منه).

عد ٤٨٩

الحرب الأهلية في أورشليم

إنَّ يوحنا الجشي عند بلوغه إلى أورشليم أخفى هزيمته وقال إنه لم يرَ من السداد أن يهلك في الجش الحقيمة وفي مقدوره أن ينفع وطنه بالذب عن عاصمة أورشليم التي لا يقوى الرومانيون على الدخول إليها إلاَّ إن تكون لهم أجنحة. فصدّقه الأغرار والمغفلون وعظّم القلق والشقاق في أورشليم، وتوفّر عدد اللصوص في البلاد ولم يعبأ الخفراء في المدن إلاَّ بأن يعيشوا كما يطيب لهم غير مبالين بردع المعتدين واستتباب الراحة. وانضمّ رؤساء اللصوص بعضهم إلى بعض وجاءوا جمّاً غفيراً إلى أورشليم ولم يكن لهم من معارض إذ لم تكن ثم سلطة وازعة. وكانوا يحتجّون أنهم قدّموا للجهاد والدفاع عن مدينتهم. ولم يكتفِ هؤلاء أن يسرقوا وينهبوا بل كانوا يقتلون أيضاً من عارضهم أو رجوا من قتله نفعاً أو تشجيعاً. وألقوا في السجن انتيباس حارس الخزينة. وكان من النسل الملكي وغيره من أصحاب

المقام والوجاهة ثم اغتالوهم في السجن متهمين لهم بأنهم وعدوا الرومانيين بتسليم المدينة إليهم. وأطلقوا لنفوسهم التصرف برياسة الكهنة وأقاموا فيها غفلاً لا حسب ولا نسب لهم ليكونوا طوع أديهم. فسئمت نفوس الشعب الصبر على تماديهم في شرهم فثاروا عليهم بامداد حنان رئيس الكهنة وغيره من الأعيان. وخطب حنان في الشعب خطبة هيّجتهم على المشاغبين برشق الحجارة أولاً ثم بالسلاح. وحمل الشعب جرحاهم إلى البيوت ونقل المشاغبون جرحاهم إلى الهيكل غير مبالين بتنحيس الهيكل بدمهم وازداد الشعب حنقاً لذلك. وكثر عديدهم فأزاحوا المشاغبين عن السور الأول وتفقهروا إلى السور الثاني. ووصدوا أبواب الهيكل وكان حنان مع الشعب فأوقفهم عن ملاحقة المشاغبين حرمةً للهيكل. واختار من الحشد ستة آلاف رجل يخفرون في رواق الهيكل ويُستبدلون على سبيل المناوبة بستة آلاف أخرى.

وأما يوحنا الجشي فكان يُظهر تشبّهه بحزب الشعب ويبالغ في الاكرام لحنان رئيس الكهنة، ويتزلف إلى رؤساء الشعب بخدماته لهم ويطنّ الغدر بهم وتأيد جانب المشاغبين إلى أن تسوّت له الفرصة أن ينم لهم أنّ حنان عزم أن يعزّز قومه بالاستنجاد بفبسبسيان وجيش الرومانيين على خصومه. وأوعز إليهم أن يستنجدوا بمن يقيهم التهلكة ولخصّ لهم أن يستعينوا بالأدوميين فصبّوا رأيه. وأوفدوا إليهم رجلين فصيحين عُرفا بالذكاء والاقدام فبعثا الأدوميين على تلبية دعوة المشاغبين. وأتوا من الأدوميين الذين كانوا تهودوا بعشرين ألف رجل؛ ولما علم بذلك حنان وصد أبواب المدينة وأمر فريقاً من الخفراء أن يحرس في الأسواق. ولم يشأ أولاً أن يعاملهم كأعداء بل أن يجعلهم يدركون الصواب. ولذلك قام يشوع أحد قدماء الكهنة خاطباً فيهم من أعلى السور مبيّناً لهم تمادي المشاغبين في الشرّ وما أقدموا عليه من الفظائع. وداحضاً التهم التي اخترعوها على حنان رئيس الكهنة ووجهاء الشعب بأنهم ينوون الاستغاثة بجيش الرومانيين على المشاغبين أو تسليم المدينة لهم. وأوضح لهم أنّ عمل المشاغبين نفسه يُضعف قوّة الأئمة ويسرّ للرومانيين القهر لها. أما الأدوميون فكانوا يقاطعون الخطيب بصراخهم، ويُعدّون اغلاق أبواب المدينة في وجههم عاراً عليهم وإهانة لهم. وقام أحد رؤسائهم في مكان عالٍ، وأخذ يوثب حنان ويشوع الخطيب ووجهاء الشعب على حصرهم في الهيكل من يذبّون عن

حرية الأُمّة على اغلاقهم أبواب المدينة التي يحق لكل واحد من الأُمّة الدخول إليها. وختم كلامه قائلاً إنّنا مصمّمون على الدفاع عن وطننا وقهر كل عدو اجنبياً كان أو أهلياً. وسوف نستمر محاصرين لكم إلى أن يأتي الرومانيون فينقذوكم أو ترعوا عن غيكم.

وفي الليلة التالية ثارت عاصفة وهطلت السماء وفطرت كبد الجو بروق متألقة وعود قاصفة. وحدث زلزال مرجف وتطير كل بهذه الأحداث، ولقى منها الأدوميون الأثمين، واجتمع المشاغبون يتفاوضون بوسيلة ينقذونهم بها من مناوأة الأنواء لهم. ففتحوا أبواب الهيكل واندفعوا منها والخفراء غافلون مطمئنون إلى خفارة السماء وانتهوا إلى أبواب المدينة. ففتحوها ودخلوا مع الأدوميين إلى أورشليم فقتلوا بالسيف كل من وجدوه، وعظم الصراخ والوالوال، وتراكم الشعب بسلاحهم يظنون أنهم يقاتلون المشاغبين، ولما وجدوا الأدوميين في المدينة فارقت الشجاعة أكثرهم. ولم يبق في ساحة القتال إلا بعض الشبان ولا منجد لهم فقتلوا الأدوميون والمشاغبون كثيرين. وتعجل بعضهم الموت لأنفسهم إذ كانوا يلقون نفوسهم من أعلى الأسوار، وجرى الدم من كل جهة حول الهيكل. ولما أسفر الصباح كُشف عن ثمانية آلاف وخمسمئة جثة مجندلة على العفراء. وكان ذلك في شهر شباط سنة ٦٨ م. ولم يكتفِ الأدوميون بهذا بل صرفوا حقهم إلى الكهنة والوجهاء خاصة، وقتلوا كثيرين منهم، ولم ينجُ حنان رئيس الكهنة ويشوع المار ذكره. ومنعوا من دفنهما ثم عادوا إلى ذبح سفلة الشعب وقبضوا على بعض الشرفاء والقوهم في السجن آمليْن أن يستميلوهم إليهم. فأثر هؤلاء الموت على مجارة المشاغبين في خراب وطنهم فقتلوه جميعاً. وقتلوا زكريا بن باروخ في الهيكل وطرحوا جثته في الوادي القريب منه.

على أنّ أحد المشاغبين سئمت نفسه هذه الفظائع فكشف الأدوميين برقع انخداعهم وزيف التهم التي اصطنعها رفقاؤه بأنّ الكهنة والشعب كانوا يريدون تسليم المدينة إلى الرومانيين. وأبان أنّ لا يئنة لهم على ذلك ولا دليل، وإنّ المشاغبين إنّما هم الذين عثوا في المدينة ومكروا بالأدوميين أيضاً. فبدأ الأدوميون يندمون على انقيادهم للمشاغبين وخلوا سبيل ألفي نفس كانوا التجأوا إلى سمعان رئيسهم. وأخذوا في الجلاء عن المدينة فشرّ السكان بانصرافهم لتشطير أعدائهم

وطُرب له المشاغبون أيضاً إذ أنه لم تعد لهم حاجة بهم؛ ولأنَّ انصرافهم أطلق لهم حريتهم تامة ليقدّموا على ما شاءوا من الفطائع دون مراعاة لأحد. ولما كان وجهاء المدينة غرضاً لِبغضهم ملأوا حينئذ المدينة من القتلَى منهم. ولم يعودوا يشفقون على أحد ممن قاومهم بل اعتدوه جانياً جناية لا تُغتفر، ومن انقطع عنهم أوقعوا عليه شبهة المناوأة لهم. ومن تزلف إليهم حسبوه جاسوساً ولم يكن غير القتل عقاباً لكل من وجدوا حجّة عليه. وانسلَّ بعض اليهود إلى معسكر الرومانيين فراراً من جور المشاغبين فوصلوا أبواب أورشليم وأكثروا الحرس في أزقتها وكانوا يقتلون كل من وقعت لهم عليه شبهة الهرب ولم يكن منجياً إلا المال فهرب كثيرٌ من الأغنياء.

لقد تقدّم قادة الجيش الروماني إلى فسبسيان يلحّون عليه بأن يغتنم فرصة انقسام اليهود ويباغتهم بجنوده. فأجابهم بخطبة بليغة إنَّ السداد أن يترك اليهود يقتتلون يوهنون قوّتهم، وأن يُريح جنوده من الكفاح، وإنَّ مجد الظفر لا يتوقف على القتال بل على حسن العاقبة، والفخر واحد إن قاتل المرء أعداءه أو برّ على أن يقتلوا نفوسهم. ووقع الانقسام بين المشاغبين فإنَّ يوحنا الجشي كان يتوق إلى الرئاسة وأخذ مقاليد السلطة وتبعه بعضهم خوفاً وبعضهم حباً لأنهم جليليون. فحازبه السواد الأعظم من المشاغبين لرجحانه على غيره من رؤسائهم ذكاءً وشجاعةً ودهاء. واستمر فريق من المشاغبين على الانقياد لرؤسائهم فانقسموا إلى قسمين واتصلوا أحياناً إلى مناوشة بينهم، ولكن كان لُجْل همّ الفريقين مصروفاً إلى مناصبة الشعب.

وكان رجل آخر اسمه سمعان بن جيورا انضمَّ إلى لصوص كانوا ضبطوا قلعة ماسدة. وأووها وأخذوا ينهبون ويقتلون في القرى المجاورة لها، ثم رأسوه عليهم وأذاع أنه يحرر الأرقاء. ويجزي من يتجنّد معه الأحرار حتى صار يصحبه عسكر لا يقل عن العشرين ألفاً. وخشي المشاغبون انبساط سطوته فخرجوا عليه جمّاً غفيراً فبرز لملاقاتهم وقتل منهم كثيرين وهزم الباقين. وزحف على الأدوميين يريد تذليلهم قبل أن يحاصر أورشليم ففتك بهم وأتبعه كثيرون حتى ربا عسكره على خمسين ألفاً ونهب وخرب في أدوم. فارتاع منه المشاغبون ولم يجسروا أن يناوئه حرباً وقطعوا الطرق عليه فقبضوا على امرأته وبعض خدامه، وأتوا بهم إلى أورشليم آمليين

أن يكونوا رهينة لكفّه عن سطوه، فهبّ إلى أبواب أورشليم وطفق يقبض على كل من خرج منها لحاجة فيضربه حتى يميته. وقطع أيدي بعضهم وأرسلهم إلى المدينة يقولون إنه آلى بالله أن يدخل المدينة ويعامل كذلك كل من وقع بيده أو يردوا عليه امرأته. فردّوها عليه وخمد غضبه وعاد يُتم تنكيله بالأدوميين حتى أرغم كثيرين منهم على الفرار إلى أورشليم. وتبعهم إلى أبوابها فكان سمعان في الخارج يرّوع أكثر من الرومانيين والمشاعين. وكان المشاعون في الداخل يرّعون الشعب أكثر من سمعان والرومانيين، لأنّ يوحنا الجشي أطلق لحازيه أن يصنعوا ما شاءوا فلم يدعوا جريمة إلّا وأقدموا عليها من نهب وسلب وقتل واعتداء على النساء. وكان الأدوميون من حزب يوحنا فبعثتهم فظائع أصحابه الجليليين على المناصبه له ولهم. وقتلوا بعضهم والتحم القتال فظهر الأدوميون واشياعهم على محازبي يوحنا وتبّعوا آثارهم إلى القصر الذي كان حالاً فيه، ثم أرغموهم على الفرار إلى الهيكل، وانضمّ إليهم المشاعون فعظم الأمر على الشعب والأدوميين، فخافوا أن يخرج أتباع يوحنا والمشاعون ليلاً فيحرقوا المدينة. وزيّن لهم خوفهم أن يستدعوا سمعان بن جيورا ويُدخلوه بجنده إلى المدينة لإنقاذهم. فخرج إليه ماتيا الكاهن فلبّى دعوته ودخل المدينة في شهر نيسان سنة ٦٨م، وأقام الحصار على الهيكل حيث كان ويوحنا الجشي والمشاعون. وطال القتال بينهم ثم انقسم حزب المشاعين لأنّ اليعازر بن سمعان أحد المشاعين انفصل عن الجشي بحجّة أنه لم يعد يطبق اعتسافه. والحقيق أنه كان يريد الرياسة لنفسه وتبع اليعازر قوم من المشاعين. وتخصّصوا في داخل الهيكل فأصبحت الأحزاب المحاربة ثلاثة: سمعان بن جيورا في المدينة، والجشي في أعالي الهيكل، واليعازر وصحبه في داخل الهيكل؛ وبيناهم على هذه الحال قدم طيطوس إلى أورشليم كما سترى بعد أن نستوفي الكلام في أعمال فسبسيان في اليهودية. واقامته ملكاً (ملخص عن ويسيفوس في تاريخ حرب اليهود ك ٤ في فصول عديدة).

عد ٤٩٠

أعمال فسبسيان في اليهودية واقامته ملكاً

بينما كان فسبسيان في الجليل أو بعد قدومه إلى قيصرية انتهى إليه أن بعض

اليهود الثائرين والذين فزوا من المدن التي افتتحها أقاموا في يافا التي كان غلّوس أحرقها من أمد قريب، واصطنعوا سفناً يسطون بها في البحر وعلى شواطئ فينيقية وسورية. فأرسل إليهم فريقاً من فرسانه ومشاته ودخلوا يافا ليلاً إذ لم تكن محصنة. ففرّ سكانها إلى سفنهم وثار في الصباح ريح زعازع كسر بعض السفن على الصخور فقتل من فيها أو قتلهم الرومانيون. وأبعد بعضهم في البحر فارتفعوا على جبال الأمواج ثم انحطوا عنها فابتلعتهم المياه بسفنهم، وبعضهم ألقوا نفوسهم في البحر فغرقوا أو قتلهم الرومانيون حتى كان عدد القتلى أربعة آلاف ومئتي نفس. وأكمل الجنود تدمير مدينتهم (يوسيفوس ك ٣ في الحرب فصل ٢٩). إن الذين فزوا من جور المشاغبين إلى معسكر الرومانيين سألوا فسبسيان أن يُنقذ من بقوا في أورشليم من شرّ هؤلاء العتاة فأخذته الشفقة عليهم. وعزم أن يدنوا من أورشليم لا ليحاصرها وقتل بل ليستحوذ على المحال المجاورة لها. ويكون في مأمن من سكانها عند إقامة الحصار حول أورشليم. وكان أعيان مدينة كادارا^(١) وأثريائها يرغبون في السلم والمحافظة على أموالهم. فأوفدوا خفية إلى فسبسيان ليسلموا إليه مدينتهم التي كانت مهمة فمضى إليها في بعض جيشه ولم يعلم محبو الثورة بذلك إلا عند إقباله. فتشفوا بقتل رجل حسيب اسمه دلوزوس كان سبب الوفادة. وانهزموا من المدينة وخرج الأهلون إلى لقاء فسبسيان بمزيد الاحتفاء وأقسموا له يمين الأمانة بل نقضوا أسوار مدينتهم أيضاً ليثبتوا له استمرارهم في ما بعد على الطاعة للرومانيين. فأقام عندهم حرساً فرساناً ومشاة يؤمنونهم اعتداء المشاغبين. وأرسل بلاشيد وخمس مئة فارس وثلاثة آلاف راجل في اثر الثائرين الذين فزوا، وعاد فسبسيان بباقي جنده إلى قيصرية.

أما بلاشيد فتعقّب الفارين وتحصّنوا في قرية اسمها بيت هنبر (لا يُعلم
 (١) المعروفة في أيامنا بأَم قيس في عبر الأردن شرقي جسر المجامع وعلى ستة عشر ميلاً من طيبارية في الجنوب الغربي منها. وقال كثير من مفسري الانجيل أنّ كادارا هي التي شفى المخلص فيها المنتشيطن الذي خرج الشياطين منه ودخلوا في الخنازير، فعرفت في بحر طيبارية. واسندوا قولهم إلى أنّ الانجيليين الثلاثة متى ومرقس ولوقا سموا الحبل كورة الكادارين. على أنه ورد في العربية كورة الجرجسين أو كورة جراسا وكادارا بعيدة عن البحر ويفصلها عنه واد عميق ونهر اليرموق المسمى هناك الآن شريعة المندور. وعليه رجح بعضهم أن تكون الآية حدثت في جراسا المعروفة الآن بخرسا في شرقي البحيرة التي تتصل أرضها بها (كاران في الجليل مجلد ١ صفحة ٣٠٦).

موقعها) وانضمَّ إليهم غيرهم من المشايخين والحموا القتال مع بلاشيد فتقهقر أمامهم إلى محل أصلح للدفاع. ثم كثر عليهم وأحرق فرسانه بهم فقتل كثيرين منهم. وأسرع الفرسان بمنعهم من الدخول إلى القرية فلم يدخلها إلا القليلون وفتحها بلاشيد وقتل من فيها وأحرقها وهرب من بقوا أحياء نحو أريحا. فتتبعهم فرسان الرومانيون إلى الأردن ولم يتمكن اليهود من العبور لطغيان الماء فقتل الرومانيون منهم خمسة عشر ألفاً وأسروا ألفين وستين وغرّقوا بعضهم. وأخذوا كثيراً من الجمال والبقر والحمير والغنم واستولى بلاشيد على مكان في عبر الأردن وأقام فيه خفراء من اليهود الذين استسلموا إلى الرومانيين (يوسيفوس ك ٤ في الحرب فصل ٢٥).

وقام فسبسيان بجيشه من قيصرية فحلَّ في انتيتيريس (كفرسابا أو مجدل بابا كما مَ). وأخرب وأحرق القرى المجاورة، وكذلك فعل في ناحية تمه (تبنة) وزحف إلى اللدَّ ويمنيه فاستسلما له، فنقل إليهما من اعتقد أمانتهم من سكان باقي المدن. وأتى عمواس وأقام جنوده على الممر الذي يؤدي إلى أورشليم، وحصَّن بأسوار معسكراً ترك فيه الكتيبة الخامسة من جيشه. وسار بياقيه إلى بيت ليأووت (هي مدينة في سبط شمعون ورد ذكرها في سفر يشوع فصل ١٩ عد ٦ في طرف جنوبي فلسطين. وقال بعضهم إنها في جنوبي أورشليم معجم الكتاب لفيكرور) فأحرقها وأحرق كل ما في جوار أدوم ولم يستبق منها إلا بعض قلاع حصَّنها وأقام فيها حامية، ثم دخل بلاد الأدوميين وافتتح بعض مدنها وقتل فيها ألفي رجل، وأخذ نحواً من ألف أسير باعهم أرقاء. وهزم سائر الشعب وترك ثمة حامية من جنده تنكل بسكان الجبال، وعاد إلى عمواس بياقي جنده وسار منها إلى السامرة بطريق نابلس. ثم أتى إلى أريحا فانهزم سكانها إلى الجبال التي تجاه أورشليم وقتل بعض من جددهم في المدينة. وبنى حصوناً في أريحا وغيرها من الأماكن القريبة إلى أورشليم وأقام فيها خفراء. وعاد إلى قيصرية ليزحف بجملته جنده إلى أورشليم. وقد بلغ فسبسيان حينئذ نعي نيرون الملك فإنَّ الندوة حطَّتْ عن أريكة الملك فانتحر بعد أن ملك ثلاث عشرة سنة وثمانية أيام فاستوى على عرش الملك سنة ٥٤ م ومات سنة ٦٨ م فتوقَّف فسبسيان عن الأعمال الحربية. وبلغه أنَّ غلبا سماه الجنود في اسبانيا ملكاً فأرسل إليه ابنه طيطوس ييدي خضوعه له ويستطلع

أوامره. وصحب اغريبا طيطوس ولكن لم يتجاوزا بلاد اليونان إلا واتصل بهما أن غلبا قتله أتون أحد المقربين إليه. فلم يملك إلا سبعة أشهر وسبعة أيام فعاد طيطوس إلى أبيه. وواصل اغريبا إلى روما ثم أقام الجنود في جرمانيا فيتلوس ملكاً فنازع أتون الملك. وكانت وقعة بين جيشهما في افرنسة فاستظهر جيش فيتلوس وقتل أتون نفسه سنة ٦٩ م ولم يملك إلا ثلاثة أشهر ويومين. فأسرع فيتلوس إلى روما فقبله أهلها مرحبين. ولم يشأ فسبسيان أن ينقطع عن مهام حربه زماناً طويلاً فزحف في الخامس من حزيران سنة ٦٩ م من قيصرية يريد اخضاع ما بقي من اليهودية. فأخذ مدينة بيت إيل (بيت اين) وأفرائم (الطيبة في شرقي بيت اين) وأقام فيها حامية وقصد أورشليم وقتل في طريقه كثيراً من اليهود وأخضع قواده سائر مدن اليهودية وأدوم. ولم يبق إلا ثلاث قلاع خارجة عن أورشليم وهي ماكرون في الشمال الشرقي من بحيرة لوط، وماسدة في غربيها، وهيروديون في جبل الفريديس في الجنوب الشرقي من أورشليم. فتحصن المشاغبون فيها ولم يبق لفاسبسيان إلا أن يفتتح أورشليم. وبلغه حينئذ أن جنود فيتلوس بعثوا الشعب الروماني على مقتله باعتدائهم على الرومانيين فاستاء من ذلك وأجمع جنوده على اقامته ملكاً سنة ٦٩م، وطربت كل أعمال آسيا لانتخابه، وأتى من قيصرية إلى بيروت فالتقاه فيها موشيان والي سورية ووفود من أكثر مدن الشرق ييثون له سرورهم بملكه ويحققون انقيادهم له. وتذكر حينئذ نبوة يوسفوس له في حياة نيرون أنه سيخلفه في الملك، فاستدعاه إليه وأطلق له حريته وكسر أغلاله حسب رغبة طيطوس إشارة إلى تبرئة ساحته وعوده إلى كرامته وشرفه. ثم أرسل موشيان والي سورية وأصبحه بقسم وافر من الجيش إلى روما فافتتحها، وقتل سفلة الشعب فيتلوس فيها وسار فسبسيان إلى اسكندرية فمكن ولاية الرومانيين فيها ثم مضى إلى روما فاستتب له الملك. وترك ابنه طيطوس وجيشاً كبيراً ليتّم فتح أورشليم والانتقام من اليهود (ملخص عن الكتاب ٥ في حرب اليهود ليوسيفوس في فصول عديدة).

ودونك صورة له مأخوذة عن تمثال له وُجد في ضواحي روما



عد ٤٩١

حصار طيطوس أورشليم وفتحها وخراب الهيكل

قد مرَّ أنَّ رجال الحرب في أورشليم كانوا منقسمين إلى ثلاثة أحزاب. وبلغ من غباوتهم أنهم أحرقوا مقداراً كبيراً من المؤن في إحدى منازعاتهم. أما طيطوس فبعد وداع أبيه في اسكندرية عاد إلى قيصريّة، وحشد جنوده ولم يكن عددهم يقلّ عن ثمانين ألفاً، وبلغ أورشليم في شهر آذار سنة ٧٠م. ولما شعر أصحاب الأحزاب بدتو الخطب العظيم وافق بعضهم بعضاً، وازدادوا في تحصين أسوار أورشليم، وأحلّ

طيطوس جنوده في شمال المدينة على بعد ألف وثلاث مئة متر. وقبل أن يأخذ في حصارها طلب إلى سكانها أن يفتحوا له الأبواب ولم يفترض شروطاً إلا أن يخضعوا لسلطان الرومانيين ويدفعوا الخراج كما كانوا يدفعونه قبل الثورة. فأبوا الاذعان وآلوا أن يذبوا عن مدينتهم ولو قُرضوا عن آخرهم. واستعدَّ الرومانيون لاقامة الحصار. وقطعوا جميع الأشجار التي في شمالي المدينة وغربيها لتلا تعوق حركاتهم الحربية. وتقدَّم طيطوس مع بعض فرسانه إلى السور الشمالي ليعاين المواقف. فوثب عليه اليهود من أحد الأبواب، وفصلوا بينه وبين فرسانه. ولولا بسالته وجهد فرسانه لأخذه أسيراً فتفاعل الأورشليميون بهذه الحادثة وحسبوا ميمناً.

وفي اليوم الثاني بينما كانت الفرقة العاشرة تعدّ معسكرها على جبل الزيتون باغتتها اليهود فانهزمت ولم تستطع أن تكمل ما بدأت فيه، فهذه المناوشات لم تأتْ بأمر ذي بال لأنَّ اليهود كانوا يضطرون دائماً أن يهرعوا إلى داخل المدينة. وقد تمكَّن الرومانيون أن يقيموا جنودهم في ثلاث نقط حربية وأن يصوِّبوا آلات حصارهم على السور الخارجي. وبُدئ في الحصار في عيد الفصح سنة ٧٠م. وظنَّ طيطوس أنَّ العيد يوقف اليهود عن المعارضة له بإحكام آلات حصاره، ولكن حالما رأى اليهود نصب الأدوات خرجوا عليهم من المدينة، وحطَّموا الأدوات وبددوا العاملين بها ثم عادوا إلى داخل الأسوار ولم يكن هؤلاء من المشاغبين فقط بل من جميع سكان المدينة كل من استطاع أن يحمل سلاحاً رجلاً أو نساءً. فأنهم كانوا من أعلى السور يلقون على الرومانيين الحجارة أو يصبون على رؤوسهم زيتاً غالباً. وكان الرومانيون يزدادون بسالة حتى أرغموا اليهود بعد خمسة عشر يوماً أي في ٧ أيار سنة ٧٠ م أن يغادروا السور الخارجي. واشتدَّ بعد ذلك القتال على السور الثاني الذي كان المحاصرون بنوه خلف الأول، ولم يقوَ الرومانيون أن يستحوذوا عليه وعلى بيت زيتا إلا بعد أيام. على أنَّ ذلك لم يُنهِ القتال بل زاده اشتداداً. وصرف الرومانيون سبعة عشر يوماً في بناء أربعة بروج تجاه قلعة انطونية المار ذكرها، فدخل يوحنا الجشي مع بعض جنوده في سرداب تحت الأرض. وألقى النار تحت الأبراج فاحترقت، ثم انسل ثلاثة رجال من حزب سمعان بن جيورا فأحرقوا ما بقي منها. وكان كلما عظم الخطب ازداد اليهود بسالة. وأرسل طيطوس يوسيفوس ليقنع اليهود بالارعواء والتسليم فلم تثن فصاحته أحد المشاغبين عن عزمه. وأيقن المحاصرون أنه لم يبقَ لهم إلا الظفر أو الموت لأنهم رأوا طيطوس منذ بادئ

بدء الحصار صلب خمس مئة شخص من الأسرى في يوم واحد وأرسل بعضهم إلى أورشليم بعد أن قطع أيديهم.

وقد كان لطيطوس حليف شديد وهو الجوع فإنه أحاط المدينة بسور طوله نحو سبعة آلاف متر ليمنع المحاصرين من أن يمتاروا لهم طعاماً. فقلَّ الزاد وسطت المجاعة أولاً على الفقراء لقلَّة مؤنهم. وأخذت الفاقة نار الشفقة فامتألت البيوت والأزقة من الموتى. واضطرَّ الجوع كثيرين أن يستسلموا إلى العدو لكنهم لم يلقوا هناك إلاَّ عذاباً أليماً. ودار في خلد السوريين والعرب المتطوعين في جيش الرومانيين أنَّ هؤلاء الفائرة ابتلعوا قطعاً من الذهب سداً لعوزهم في أسرهم لأنهم رأوا أحد اليهود تغوَّط والتقط ذهباً. فطفقوا يفتحون بطونهم ليفتشوا عن الذهب الخفي فحنق طيطوس من هذا الصنيع وتشدَّد بالنهي عنه. ورأى المشاغبون توفَّر عدد الفارين فأكثروا من القساوة على كل من وقعت لهم شبهة عليه. وعلم ابن جيورا أنَّ ثلاثة من ضباط جنده توامروا بأن يفرَّوا إلى معسكر الرومانيين فعاقبهم دون شفقة. وقطع رأس ماتيا عظيم الكهنة وثلاثة من أبنائه على مرأى من جنود الرومانيين غامطاً نعمته، لأنه هو الذي أدخل بن جيورا إلى أورشليم كما مرَّ. ولم يقوَ المشاغبون أن يمنعوا أصحاب الرومانيين من اليهود أن ييوحوا إليهم بأسرار مدينتهم. فكانوا يلصقون على نصالهم أوراقاً يثَّون فيها أسرار قومهم وعلى ما كان الثائرون عليه من الجوع واقتضاح أسرارهم لم يألوا جهداً في مناصبة الرومانيين، وتعطيل أعمال حربهم. فلم يدعهم يبنون برجاً يستحكمون منه ضرب قلعة انطونية إلاَّ بعد واحد وعشرين يوماً. وبعد اتمامه كرَّ يوحنا الجشي ليحرقه فزُدَّ خائباً. فدكَّت مناجق الرومانيين هذه القلعة دكّاً في ١ تموز سنة ٧٠ م.

وارتاع الرومانيون كثيراً إذ رأوا من وراء تلك القلعة سوراً آخر فهاجموه مرات وذعروا وباغتوا المدينة ليلاً فدُحروا بعد اقتتال استمر إلى صباح اليوم التالي. ولكن بقيت قلعة انطونية في يدهم فجعلها طيطوس قاعاً صفصفاً وبطلت حينئذ أي في ١٧ تموز الذبائح اليومية إذ لم يبقَ ما يُذبح. وطلب طيطوس يومئذ أن يستسلموا إليه فلا يمسَّ الهيكل. فأجاب يوحنا الجشي أنَّ مدينة الله لا تُخرب ومستقبل الأمور في يد الله. وبعد تدمير انطونية اقتصر اليهود على الدفاع عن الهيكل. وحاول الرومانيون الوثوب عليه ليلاً فزُدَّوا مدحورين. ثم نصبوا مناجقهم يضربون أسوار الهيكل فاضطرَّ اليهود أن يهدموا الرواق الذي كان موصلاً بين الهيكل وقلعة

انطونية، وأن يتذرعوا بكل ما يمكن اصطناعه من الحيل؛ منها أنهم أضرموا ناراً على بعض شُرف الهيكل وأظهروا أنهم منهزمون فتسلَّق الرومانيون على الجدران وقتل اليهود منهم كثيرين بالسيف أو بالنار، ولكن التهمت النار الناحية الغربية من أسوار الهيكل والأعمدة الجميلة التي كانت هناك. وكانت هذه الأحداث من ٢١ تموز إلى ٢٨ منه.

واشتدَّ الجوع كثيراً وعمَّ كل صنف من أغنياء أو فقراء ولم يعد للفضة قيمة إذ لا تساوي كسرة من الخبز. وكان الناس يقتتلون على قليل من القش أو فلذة من الجلد. وأكل الناس الكلاب والجرذان والحشرات وقد رأوا مرتا الغنية امرأة يشوع عظيم الكهنة تدور في الأزقة، باحثة عن قوت قذر تخدم به سغبها بعد أن كانت تبسط الطنافس من دارها إلى الهيكل لتلا تمسَّ الأرض بمواطئ رجلها. وكانت امرأة اسمها مرياند فرّت من عبر الأردن إلى أورشليم بعثها الجوع على أن ذبحت ابنها وأكلت لحمه. وكثرت جثث الموتى جوعاً وقتلاً في الأزقة وأنتنت وأفسدت الهواء، فكان الوباء ثالثة الأثافي مع المجاعة وقتك الأعداء. ومع هذا لم تخدم حمية اليهود ولم يعل صبرهم، بل كانوا يجاهدون طاويي البطن غير مبالين بالوباء أو الموت أو صولة الرومانيين حتى أذهلوا أعداءهم أنفسهم، وقيل أنَّ بعضهم تهوّد لرؤيتهم ثبات اليهود وتشبههم بعري دينهم واعتقادهم أنَّ إلههم يُنشئ فيهم هذه الحمية الخارقة سنن الطبيعة ويكلأ مدينتهم.

واستمرَّ الرومانيون يرمون أسوار الهيكل بمناجقهم وباقي أدوات حصارهم من ثاني شهر آب إلى الثامن منه فخرقوا الأسوار ولم يتمكنوا من هدمها. وعزم طيطوس حينئذ أن يترك الهيكل وأضرم النار في أبواب السور الخارج. وبقيت تتسكّر به يوماً كاملاً ثم أمر باطفائها وفتح مجال ليضرب جنوده الهيكل. وعقد لجنة مشورة يستشير أعضائها أينقض الهيكل أم يُبقي عليه؟ وارتأى بعضهم أن ينقضه لأنه كان منشأً للثورات دائماً وصرّح هو بالبقاء عليه حباً ببرنيكة أخت اغريبا. ووافق بعضهم فجزم على الاستيلاء على الهيكل دون نقضه. وخرج اليهود في التاسع من آب على الرومانيين فدحروا لكنهم لم يتشتتوا. وفي اليوم التالي حاولوا أن يخرجوا عليهم ثانية، فاستظهر الرومانيون عليهم وتبعوا آثارهم فمزّقوا شملهم كلّ ممزّق، وأخذ أحد الرومانيين مقبساً من النار واستعلى كتف أحد أصحابه وألقى المقبس من إحدى النوافذ إلى داخل الهيكل، فاشتعل الخشب الذي وقع عليه،

وانتشر اللهب وارتفع الدخان، فارتاع كل كتي وفارقه شجاعته، ووقف كل قتال وأسرع طيطوس وأمر أن يُطفئوا النار فلم يكن من يسمع. وتهافت الرومانيون إلى داخل الهيكل ينهبون ويقتلون من لم يفرّوا. وطيطوس نفسه دخل إلى قدس الأقداس وعُجب برونقه وزخرفته واستمر هناك إلى أن أخرجه الدخان واللب.

على أن القتال لم ينتهِ فإنّ صياح الرومانيين الظافرين وعويل اليهود وانتحابهم على خراب الهيكل ودوي أجيج النار لم يوقف المحاربين عن استئناف القتال بل اقتحم جثم غفير ساحته. وقد سئمو الحياة بعد خراب الهيكل ومكث ألوف من رجال ونساء وأطفال تحت الرواق الجنوبي من الهيكل غير مبالين بدنو الأعداء والنار. وكان بعض الانبياء الكذبة يؤملونهم بالنجاة ولو أمسوا على حافة الهلاك. فانقضّ الرومانيون عليهم كالصاعقة وبددوا شمل المحاربين وذبحوا المغترّين بقول الانبياء الكذبة. وقد انتقض الهيكل برمته إلّا أسسه وبعض عضائد في الحائط الغربي، وكان كثير من الكهنة لجأوا إلى أسوار الهيكل، وأقاموا هناك متحملين السغب واللغب إلى أن استسلموا، فأمر طيطوس بذبحهم قاتلاً يلزم الكهنة أن يهلكوا مع هيكلمهم. وقدّم الجيوش المظفرون ذبائح لآلهتهم على أنقاض الهيكل، وسموا طيطوس امبراطوراً وهو لقب بمعنى غازي كانوا يُطلقونه على قواد جيوشهم الظافرين. ومن الإتفاقات الغريبة أنّ الهيكل دُمّر هذه المرة في مثل النهار الذي دُمّر فيه بختنصر العاشر من آب سنة ٧٠ م.

ثم أمر طيطوس بحرق كل من كان من المدينة في يد الرومانيين فاجتمع رؤساء المشاغبين في المدينة العليا وهي صهيون مع من بقي معهم من الجنود. وضايقهم الرومانيون فيها فطلب يوحنا الجشي وسمعان بن جيورا أن يستسلما إلى طيطوس بشرط أن يترك لهما سلاحهما ليخرجا بأهلتهما من المدينة، ويذهبا إلى البرية، فقال أنّ عليهما أن ينقادا دون شرط فلم يذعنا واستأنف القتال في ٢٠ آب. وأخذ الرومانيون يبنون أبراجاً ليرموا من فوقها على المدينة العليا فلم تُكمل أبراجهم إلّا في ٧ أيلول. ودافع المشاغبون دفاع الأبطال وانقاد الأدوميون إلى طيطوس فقتل بعضهم وسجن بعضهم. وخارت أخيراً قوى المشاغبين للجوع والجهاد فتسلّق الرومانيون على الجدران وتهافتوا على المدينة العليا، فأبسلوا كل من وجدوا وفي ٨ أيلول أحرقوا صهيون ودكّوا أسوارها ولم يُبق طيطوس منها إلّا ثلاث دور ذكراً لانتصاره،

وهي المعروفة بدور مريمنا وفازائيل واييكون. فهكذا ما كان بقي لليهود من استقلالهم السياسي تحت أخربة أورشليم والهيكل.

وقال يوسيفوس (ك ٦ في الحرب فصل ٤٥) إنّ عدد القتلى في هذا الحصار كان مليون نفس ومئة ألف نفس وأكثرهم من خارج اليهودية كانوا أتوا إلى العيد والجهاد. وأرى أنّ قول يوسيفوس هذا لا يخلو من المبالغة على عادته وقال إنّ عدد الأسرى كان سبعة وتسعين ألفاً سلّمهم طيطوس إلى أحد حاشيته اسم فرنطون يتصرّف بهم كيف شاء. فأما منهم اللصوص والمشايين الذين كانوا يشكون بعضهم بعضاً. وأبقى من كانوا شباناً أقوياء حسني المنظر ليكونوا شهوداً على الظفر. وأرسل من كان منهم عمره سبع عشرة سنة وما فوق للأشغال الشاقة في مصر. وباع من كانوا دون السابعة عشرة بأبخس الأثمان. وأرسل طيطوس كثيرين منهم إلى بعض المدن في اليهودية وسورية يستخدمهم في المشاهد كما سيحجى. فهذا جزاء الأئمة التي غمطت نعمة ربها وصلبت مخلصها وتمت بخراب أورشليم والهيكل نبؤات المخلص والأنبياء.

وأنبأنا يوسيفوس (ف ٣١ ك ٦ في الحرب) إنه قد ظهر في أورشليم قبل خرابها آيات وعلامات منذرة بالدمار منها أنه ظهر نجم ذو ذنب فوق أورشليم واستمر سنة، وبينما كان الشعب قبل الحرب مجتمعاً في الثامن من نيسان لعيد الفصح ظهر من الساعة التاسعة من الليل نور ساطع فوق مذبح الهيكل فدام نصف ساعة وعاد الظلام. ومنها أنه في الساعة السادسة من الليل فُتح باب الهيكل الشرقي من نفسه وكان موصداً وهو من نحاس وثقيلاً حتى يعسر فتحه على عشرين رجلاً. وكان بعد ذلك في السابع والعشرين من أيار ما قال يوسيفوس إنه كان يتردد في ذكره مخافة أن يُحسب حكاية لو لم يشهد له به أناس عاينوه، وهو أنه ظهرت عند مطلع الشمس عجالات في الجو ملأى من المحاربين تدور حول المدينة كأنه لتوصدها. ومن ذلك أنّ الكهنة كانوا في عيد البنديكستي مجتمعين ليلاً في داخل الهيكل، فسمعوا ضجيجاً ثم صوتاً يقول مرات فلنخرج من هنا. ومنه أنّ رجلاً قروياً اسمه يشوع بن حنان أتى أورشليم في عيد المظال قبل الحرب بأربع سنين، وأخذ يطوف ليلاً نهاراً في أزقة المدينة هاتفاً: صوت من المشرق، صوت من المغرب، صوت من الأرياح الأربع، صوت على أورشليم، صوت على الهيكل، صوت على المتزوجين والمتزوجات حديثاً، صوت على الشعب كلّ، فأخذه

بعض الأكابر وجلدوه لتطيرهم بكلامه وشكوه إلى البين والي اليهودية، فضربه حتى سال دمه فلم يفه بكلمة، ولم تسلم من عينيه دمة، بل كان يقول على كل ضربة الويل لأورشليم! الويل للهيكل! فحسبه مجنوناً وخلّى سبيله ولم يعد يقول شيئاً إلى أن تسعرت نار الحرب. فعاد يطوف قائلاً الويل لأورشليم! الويل للشعب! الويل للهيكل! ولما حوصرت أورشليم أخذ يزيد على قوله الويل لي الويل لي! وأصابه حجر شجّ رأسه ومات (ملخص عن الكتاتين الخامس والسادس ليو سيفوس في الحرب).

عد ٤٩٢

تتمة أخبار الحرب

إنّ فسبسيان جعل اليهودية ملكاً خاصاً به وأمر العمال الرومانيين أن يبيعوا أراضيها بالمزاد. فكان له من ذلك ثروة عظيمة وكان يؤثر المال على الشرف. وأمّا ابنه طيطوس فعاد بعد خراب أورشليم إلى قيصرية فلسطين، وأقام لأصدقائه حفلات دموية تفاخراً بظفره. فأتى إلى المحفل بوحوش ضارية وأرغم كثيرين من أسرى اليهود أن يصارعوها فظفرت بهم الوحوش وافترستهم . ثم أقام عيداً لمولد أخيه دوميطيان في ٢٤ تشرين الأول وأدخل الأسرى إلى المشهد وأرغمهم أن يقتتلوا حتى أهلك بعضهم بعضاً فضرع ألفان وخمسمائة شاب من ذوي الحسب. ثم أتى طيطوس إلى قيصرية فيليبوس (بانياس) وكان هناك أغريبا واخته برنيكة فأمر الأسرى والوحوش الضارية أن تتصارع وتعترك فهلك كثيرون من شبان اليهود على مرأى أغريبا واخته. ثم مضى إلى بيروت وكان أهلها جالية رومانية بمعنى أنّ لأهلها الحقوق التي يتمتع بها سكان رومة، وكان منهم جم غفير من المتقاعدين من الجنود الرومانيين، وأقام عيداً لمولد أبيه في ١٧ تشرين الثاني فأهلك كثيرين من اليهود بمثل هذه المصارعات.

أمّا يوحنا الجشي فاختم في كنيف وضايقه الجوع وضاق ذرعه عن تحمله فخشع سائلاً العفو من الرومانيين، فحكم عليه بالسجن المؤبد. وأمّا سمعان بن جيورا فبينما كان الرومانيون متشاغلين بالنهب دخل مغارة لا يعرفها إلا قليلون، وأخذ بعض أصدقائه الأمناء، وحفّارين معهم أدوات الحفر والخرق وشيئاً من الزاد.

وطفق يحفر سرداباً ينتهي به إلى خارج المدينة. ولكن حال دون مراده صخر صلد تمسح خرقة. وفرغ الزاد فاضطرو أن يستسلم وخرج من مخبئه إلى أخربة الهيكل متدثراً بثوب أبيض ومتشجاً بيرفير، فراع الخفراء الرومانيين مرآه بغتة، وقال خذوني لرئيسكم رفوس، فأتى رئيسهم وقال أنا سمعان بن جيورا فكبله بالحديد وأرسله إلى طيطوس، وأخذ يوحنا وسمعان إلى رومة وكانوا في حفلات الظفر يأتون بهما وبغيرهما من الأسرى مكبلين بالحديد، ويعنقهم حبال يجرؤونهم بها ويحملون أمامهم آنية الهيكل ومنارة الذهب والمائدة الذهبية ولقافة من التوراة. وكانوا يعرضون لمنظر العامة صور حروب أورشليم وخرابها. وأخيراً ألقوا سمعان من على صخر فمات وبقي يوحنا الجشي في أحد السجون إلى أن قضى.

ومضى طيطوس إلى أنطاكية فخرج الشعب برمته إلى استقباله، وسأله أن ينفي اليهود من مدينتهم، فقال لم يبق لهم موطن فنفيهم حرام، ولم يرض أن يلغى عهد المدينة الرومانية الذي كانوا أعطوه في أنطاكية، ولا أن يكسر الصفيحة النحاسية التي دوّن عليها هذا العهد. ثم عاد طيطوس إلى أورشليم وأسف على خرابها. ثم سافر إلى الاسكندرية ومنها إلى رومة حيث قوبل بعظيم الاحتفاء كما لو كان عاملاً. وأجروا له حفلات الظفر وأقاموا له قوس الانتصار المعروف باسمه إلى اليوم في رومة. وبقي اليهود في رومة سنين متطاولة يتحامون المرور من تحت تلك القوس. وحفظت الآنية التي أخذت من هيكل أورشليم في هيكل السلم في رومة ولقافة التوراة في قصر الملك.

وبقيت القلاع الثلاث المار ذكرها وهي: هيروديون في جبل الفريديس، وماكرون في الشمال الشرقي من بحيرة لوط، وماسدة في غربيها. فأمر فسبسيان بسوس الذي جعله والياً على اليهود أن يستحوذ عليها، فمن كانوا في هيروديون دانوا له لأوّل بلاغ أنفذه إليهم. وأما ماكرون فدافع من كانوا فيها أوّلاً شديد الدفاع، ثم استسلم أليعازر رئيسهم فهم بسوس أن يصلبه. ولما رأى قومه ذلك أخذتهم الشفقة عليه، فكاشفوا بسوس بأنهم يستسلمون إليه إن أبقى على رئيسهم حياً فوعدهم بذلك ولم يخلف وعده. وكان قوم في أسفل الجبل لم يعمهم العفو فقتل منهم ألف وسبع مئة رجل، وباع النساء والأطفال أرقاء وعاجل الموت بسوس قبل أن يأخذ ماسدة. فسيلفا خليفته حاصر هذه القلعة الحصينة فأبدى من كانوا فيها آيات البسالة بالدفاع. على أن مناجق الرومانيين أسقطت سورها الأوّل، وكان

لها سور آخر من خشب أحرقه الرومانيون. ولما يئس المحاصرون أقنعهم ألبعازر بن يائر رئيسهم بأن الانتحار أشرف لهم من الوقوع بيد الأعداء فقتلوا أولاً نساءهم وأولادهم ثم انتحروا. وكان ذلك في اليوم الأول من الفصح سنة ٧٣ م. واستمر الرومانيون أعواماً يضربون سكة عليها صورة العاهل من جهة وفي الوجه الآخر صورة امرأة حزينة قائمة تحت نخلة مكبلة اليدين، وقد كتب عليها اليهودية المقهورة أو المأسورة، وقد أمر فسبسيان أن الدرهمين اللذين كان اليهود يدفعونها للهيكل يؤدونها فيما بعد لهيكل المشتري في رومة.

إن الذين تمكنوا من النجاة في اليهودية تشتتوا في كل قطر، وبعضهم لجأوا إلى اخوانهم في ما بين النهرين وبلاد العرب. وأوشكوا أن يحدثوا ثورة في الاسكندرية لو لم تتداركهم الحكومة وبعض عقلائهم. وأمر فسبسيان حينئذ بهدم هيكلهم الذي كان في مصر. وأغريبا واخته برنيكة تركا موطنهما وأقاما في رومة. ويوسيفوس صاحب طيطوس عند مضيه إلى رومة وكان معزراً عند العاهل وابنه، وملكه فسبسيان أملاكاً خصبة في اليهودية، وأقامه في بلاطه. وكان لأسرة فلافيوس الرومانية عناية كبرى به ولذلك سمى نفسه فلافيوس يوسيفوس (ملخص عن الكتاب السابع في الحرب ليوسيفوس).

(ذيل)

عد ٤٩٣

بعض مشاهير الكتّاب السوريين الدنياويين في القرن الأول

لم نعر على أخبار أحداث مدنية مهمة في المدة التي خلت من خراب أورشليم إلى نهاية القرن الأول. وكانت فيها أحداث دينية سيأتي ذكرها في القسم الثاني فنجتزئ بتذييل هذا الجزء بذكر الكتّاب الدنياويين الذين كانوا في هذا القرن أو قبله. من هؤلاء الكتّاب نقولا الدمشقي وقد وُلد في دمشق سنة ٧٤ ق.م. واستمر حياً في صدر القرن الأول بعد الميلاد وكان صديقاً لهيرودس الكبير. وقد كتب باليونانية روايات ومآسي ومقالات فلسفية، وترجمتي هيرودس الكبير واغوستوس قيصر، وتاريخاً عاماً في مئة وأربعة وأربعين كتاباً فصيح العبارة، سهل المأخذ، ولم تُبقِ الأيام من تأليفه إلا فقراً أذاعها كوارى في باريس سنة ١٨٠٤ م.

واردللي في برلين سنة ١٨١١ م في ثلاث مجلدات عنوانها فَرَّ التاريخ اليونانية. وقد كشف له أخيراً عن فَرَّ من ترجمة قيصر ترجمها إلى الافرنسية ديدوت وطبعت سنة ١٨٤٩ م وسنة ١٨٦٢ م.

ومنهم يوسيفوس الذي أوردنا إلى الآن كثيراً من أقواله وهو ابن ماتيا من النسل الكهنوتي. ويتصل نسب أمه بفرع من المكابيين وقد كتب بيده ترجمة حياته. وهي معلقة في صدر تأليفه الموسوم بحرب اليهود مع الرومانيين. وقد وُلد في السنة الأولى لغايوس وهي سنة ٣٧ للميلاد واقتبس العلوم وقال عن نفسه إنَّ الله أولاه ذاكراً جَوَّادة وعقلاً كافياً. وأتبع شيعة الفريسيين وزار روما سنة ٦٣ م وهي السادسة والعشرون من عمره ونال حظوة كبرى لدى بوية امرأة نيرون إذ شفعت له أمام العاهل في اطلاق الكهنة أصدقائه الذين كان فيلكس والي اليهودية أرسلهم إلى روما، وأتحفه بهدايا نفيسة. وسنة ٦٧ م سماه مجمع اليهود في أورشليم والياً على الجليل. فحارب الرومانيين وحاصروه في مدينة يوتاباط (جفت) إلى أن أكره على التسليم لهم كما مرّ. فأعزه فسبسيان وطيطوس ابنه الذي صحبه إلى روما وقال عن نفسه إنَّ دوميطيان الملك ابن نيرون أيضاً زاد في اكرامه وقطع رؤوس اليهود الذين تجنّوا عليه، وأعفى أملاكه في اليهودية من الخراج وقد أدركته الوفاة نحو سنة ١٠٠ بعد الميلاد.

وقد كتب يوسيفوس تاريخ أمته في عشرين كتاباً ثم كتب تاريخ حرب اليهود مع الرومانيين في سبعة كتب دَوَّنَها أولاً بالسريانية لغة أمته حينئذٍ. ثم ترجمها إلى اليونانية كما قال عن نفسه في ترجمته. وردّ مزاعم ايون وطعنه بأئته في كتابين علّقهما على تاريخ الحرب. وأفرد كتاباً لمديح الشهداء المكابيين السبعة وقد تُرجمت تأليفه إلى اللاتينية والافرنسية وغيرهما وطبعت مرات.

ومنهم يوستوس الطبراني (من طيبارية) وهو يهودي مذهباً، كتب كتاباً في تاريخ حرب اليهود سنة ٧٣ م ليثبتهم به يوسيفوس أنه كان عدواً للرومانيين. وحمل الجليليين على الثورة عليهم ليسخط الرومانيين عليه. ولذا ترى يوسيفوس في ترجمة حياته يُخطئه في ما كتب ويؤنّبه على تحامله عليه. ويبيّن له أنه هو الذي كان رئيس الثائرين. وسطا على بعض مدن السوريين وانتهبها. وشكاه أهلها إلى فسبسيان ولولا أن يشفع فيه اغريبا وأخته برنيكة لقتله. ثم لم يكن أميناً لأئته أيضاً

إذ جعل أهل وطنه طليارية يستسلمون إلى الرومانيين. وقد توفر الانتقاد بينهما في طعن أحدهما في الآخر. وقد أُلقي يوستوس في السجن مرتين ولولا وساطة برنيكة لحُكم عليه بالموت. وبعد أن أعفا اغريبا عنه في المرة الثانية اتخذه كاتباً لسره وقد أغضى يوسيفوس عن بعض هفوات الملك في ابان الحرب. فأذاعها يوستوس كاتب سرّه في تاريخه الذي لم يشهره إلا بعد نحو من عشرين سنة، إذ علم أنّ دوميطيان الملك أعزّ يوسيفوس ورخص له بإذاعة تاريخه، ولم نعر إلى الآن على ما يثبت لنا أنّ تاريخ يوستوس باقٍ برمته أو بقيت فقرات منه.

ومن هؤلاء فيلون اليهودي وكان من النسل الكهنوتي، لكنه وُلد في الاسكندرية في نحو سنة ٣٠ قبل الميلاد، وتعمّق في درس فلسفة اليونان على مذهب أفلاطون، وكان يسمى في حياته أفلاطون اليهودي. وقد جعله اليهود الاسكندريون رئيس الوفد الذي أرسلوه إلى غايوس الملك في أثناء ثورة اليونان عليهم، منتهزين فرصة غضب الملك على اليهود لتمنّعهم عن وضع تمثاله في هيكل أورشليم كما مرّ. فأتمّ فيلون وفادته وكتب تاريخها في كتاب انطوى على ثمانية عشر فصلاً ذيل به تاريخ يوسيفوس في طبعته في باريس سنة ١٧٠٠ م. وتبيّن منه أنّ غاريوس لم يُجب سؤالهم بل غايطهم وعادوا بخفي حنين. وقد كتب فيلون تأليف عديدة في اللاهوت على مذهب العبرانيين، وفي التاريخ والفلسفة وأهمها كتبه في خلق العالم بحسب نصّ موسى. وفي ترجمة موسى، وفي السيرة النظرية، وفي العالم. ففي اللاهوت يجدّ في تفسير الكتاب بالمعنى الرمزي والمجازي. وفي الفلسفة يتبع تعليم أفلاطون، ويحاول أن يوفّق بينه وبين مذهب اليهود. وقد تُرجمت تأليفه وطُبعت مع ترجمة لاتينية لها في لندرة سنة ١٧٤٢ م، وفي لبسبك سنة ١٨٤٣ م، وأخيراً في باريس سنة ١٨٦٧ م عدا طبعات أخرى.

وكان في هذا القرن أو القرن السابق فيلودومر الايكوري في كادارا المعروفة اليوم بأَم قيس في عبر الاردن (طالع عد ٤٨٩). ومضى إلى روما وكان له فيها تلاميذ وقد كتب في الأدب والفصاحة والموسيقى. وقد كُشف في هركولانو (على مقربة من نابولي) عن فقرات من تأليفه. وأُذيعت في جملة ما كُشف عنه في هذه المدينة. وقد كشف العالم كروس فقرة له في صناعة الخطابة عنوانها فصاحة فيادومر وعلّق عليها شروحاً في باريس سنة ١٨٤٠ م، وأشهر له سوب في المانيا سنة ١٨٥٣ م فقرة في الرذائل والفضائل. وكان أيضاً من هذه المدينة منيب الفيلسوف

أقام في الصعيد ولم يتصل إلينا شيء من تأليفه. وكان في عسقلان تليودور العسقلاني الخطيب الشهير. وقال استرابون (ك ١٦ فصل ٧٥٧) إنه لم يبقَ حينئذٍ في صور وصيدا فينيقيون يضربون في الآفاق للتجارة بل كان كثيرون من أصحاب علم الهيئة والعلوم والرياضة، والخطباء والفلاسفة، ومدارس تقتبس فيها كل فروع العلوم البشرية إلى أن قال: «إنَّ صيدا في أيامنا نشأ فيها كثير من الفلاسفة منهم بواتيوس تلميذنا وديودوت أبوه. ونشأ في صور انتيباتر وقبله ابولون الذي نظم جدول الفلاسفة الزينونيين وتأليفهم». قلنا وكان في اباميا (قلعة المضيق) فيلسوف يسمى بوسيدونيوس كان شيشرون يسمع خطبه في رودس سنة ٧٨ ق.م وكتب كتاباً منها تاريخ حُفظت منه بعض فقرات. وكان أيضاً في سورية في القرن الأول كتاب آخرون من الهراطقة سيأتي ذكرهم في القسم التالي.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الأول

الفصل الأول

العهد الجديد والمخلص له المجد

عد ٤٩٤

العهد الجديد

لما كان العهد الجديد أساً للدين المسيحي ومحوراً يدور عليه كلامنا في هذا القسم ودعماً لكل التاريخ الديني، تحتم علينا أن نطرف قراء كتابنا بكلام مجمل في أسفار هذا العهد وعددها وصحتها وتنزهها عن التحريف إلى غير ذلك مما رأيناه نافعاً متابعة لمساق كلامنا في أسفار العهد القديم.

إنَّ العهد الجديد مؤلف من سبعة وعشرين سفرًا حسبما عدّها المجمع التريدينيني سنة ١٥٤٦م وحتم باعتقادها منزلة وموحاة من الله. وتقدمه في ذلك مجمع فلورنسا سنة ١٤٤١م، ومجمع قرطاجنة الثالث سنة ٣٩٧م، ومجمع ايونا سنة ٣٩٣م. وهذا المجمع حضره اساقفة افريقيا كلهم والقديس اغوستينوس. وتلك الأسفار هي: الأناجيل الأربعة، وكتاب أعمال الرسل، وأربع عشرة رسالة لبولس الرسول، ورسالة يعقوب الرسول. ورسالتان لبطرس زعيم الرسل، وثلاث رسائل ليوحنا الرسول، ورسالة ليهوذا الرسول، ورؤيا يوحنا وهي منظومة على مئتين وستين فصلاً وعلى ٧٩٥٩ آية. وقد كتبها ستة رسل وهم متى يوحنا ويعقوب وبطرس

ويهوذا وبولس وتلميذان وهما مرقس ولوقا. ونرجئ الكلام في ما كتبه كل منهم إلى حين الكلام فيه. وقد نزل المؤمنون منذ صدر النصرانية ما كتبوه منزلة أسفار إلهية، وأذيع سريعاً في الكنيسة كلها. وقبل أن يكتبوها كان الرعاة يعلمون المؤمنين الحقائق المشتملة عليها. فيعتقدون بها كما نعتقد اليوم. وتلك بيئة دامغة على البروتسنت إنكارهم التقليد.

إن الذين كتبوا هذه الأسفار ما كان يمكنهم أن يخدعوا ولا أن يخدعوا غيرهم ولو أرادوا، فلا أن يخدعوا لأنهم جميعاً كانوا شهوداً عيانين أو كاليانيين لما كتبوه. والأناجيل أس الباقي موضوعها أمور محسوسة كاقامة موتى أو أبرياء مخلّعين أو مرضى، أو ردّ البصر لعميان أو تسكين أمواج البحر أو المشي على مياهه. وهلمّ جزاً من الآيات التي كانت تتم بحضرة الرسل أو جموع من الناس على فور كلام الخلّص، دون توسّط دواء أو مضي وقت أو وسيلة أخرى. وبولس كان واقفاً على كل ما أجراه الخلّص أو جرى عليه. ومرقس لقّنه بطرس إنجيله ولوقا وإن لم يكن رسولاً فكان تلميذاً للمخلّص. فإذا لم يكن ممكناً أن يخدعوا وهم كثيرون.

ثم إن كتبة العهد الجديد لم يكن في مقدورهم أن يخدعوا غيرهم ولو أرادوا لأنهم كتبوا أموراً جرت جهاراً. ونادوا بها علانية أمام من شهدوا آيات الخلّص أو آلامه، فكيف يمكن أن يكون ما دوّنوه كاذباً ولا يثور الجمهور عليهم لاختلافهم أكاذيب تقضي على اليهود، وتعيب الكتبة والفريسيين وتذلّ الولاة ورؤساء الكهنة؟ فلو كان تلاميذ الخلّص أربعة أو خمسة فقط لاستحال عليهم الاتفاق على الضلال والثبات فيه حتى الممات. فكيف وقد كانوا ألوفاً؟ وقد وُجد منهم في القرن الأول كثيرون في اليهودية، وآسيا الصغرى وبلاد اليونان، ومصر وروما وغيرها. ثم ما الفائدة لهم من نشر الضلال؟ وهم يوقنون بل قد رأوا أنّ ما وراء ما بشروا به وكتبوه إلاّ الامتهان والعذاب وفقد الحياة؟ أيضاً وأية عائدة لهم في أن ينقطعوا إلى عيشة قشفة مضنكة وأن يقاسوا نصباً واضطهاداً وموتاً لمجرد خدعة الناس بأقاصيص لا حقيقة لها؟ وكيف أمكن مع ذلك أن يؤمن الناس بكلامهم في كل صقع وفي أسرع وقت حتى أفحموا مضطهديهم أيضاً؟ فإن كذب الكفرة بصحة هذه الأسفار فأتى لهم أن يكذبوا بأن الإيمان بالمسيح طبق ما في هذه الأسفار قد انتشر منذ حياة الرسل في كل صقع. وقد أثبت ذلك كثير من المؤلفين العالمين منذ القرن الأول نفسه والعقليون (وهم من لا يصدقون إلاّ ما يثبت العقل) لا ينكرون جميع

أسفار العهد الجديد، بل يسلمون ببعضها ومن جملتها رسائل بولس الأربع الأولى. على أنَّ هذه الرسائل نفسها تثبت تعليم الأناجيل وتؤيد أكثر العقائد المسيحية. إنَّ العقليين وغيرهم من الملحدّين يزعمون أنَّ اختلاق أسفار العهد الجديد وتصديق الناس بها كان في القرن الثاني، على أنَّ زعمهم هذا مستحيل فهم وكثير من المؤرخين العالمين يقرّون أنَّ المسيح كان في القرن الأول. وتبعه كثيرون وصحبه رسل وتلاميذ ونجد أسماءهم معلقة على أسفار العهد الجديد. فكيف يسوغ أن يقول إنه انقضى القرن الأول ولم يكتبوا شيئاً. وقد رأيت أنَّ العقليين يسلمون ببعض رسائل بولس. وهب أنهم لم يكتبوا شيئاً في القرن الأول فأهل هذا القرن لم يموتوا جميعاً في آخره. ولا أقل من أنه قد بقي في افسس وبطمس، وأورشليم وازمير كثيرون عاصروا يوحنا الرسول الذي توفاه الله في آخر القرن الأول. فلو سلّمنا مجازة أنَّ هذه الأسفار اختلفت في القرن الثاني فكيف يمكن التسليم بأنَّ الناس يصدّقونها وجميع المؤمنين الشيوخ في روما وانطاكية واليهودية في القرن الثاني كانوا رأوا الرسولين بطرس وبولس وسمعوا ارشادهما وتلقوا تعليمهما إذ نالا اكليل الشهادة سنة ٦٧م؟ فكيف يصدّقون ما يخالف الإيمان الذي تلقّوه عنهما أو أرشدهم إليه تلاميذهما. ولم لم يحتجّوا عليه؟ وكثيرون من أهل قرنتية وغلاطية وتسالونيكي وغيرهم ممن كتب بولس الرسول رسائله اليهم كانوا وُلدوا أو شبوا في القرن الأول. فكيف يقبلون رسالة مقفلة باسم بولس وهم لم يذكروها ولم يخبرهم آباؤهم بها وتخالف ما علّمهم إياه هذا الرسول؟

ولنا على صحة هذه الأسفار بينات أخرى قاطعة مفحمة كل الملحدّين مأخوذة عن ترجمات هذه الأسفار المقدسة. واستشهاد الآباء الأولين بها وشهادة الهرطقة والكتب المخطوطة القديمة. فبعض الترجمات القديمة قد وُضعت في آخر القرن الأول أو أوائل القرن الثاني. منها الترجمات اللاتينية التي كانت قبل القديس ايرونيموس. وقد قال فيها القديس اغوستينوس (في كتابه التعليم المسيحي فصل ٢) إنها منذ أزمنة الايمان الأولى. «أي تتصل بعصر الرسل والترجمة المعروفة بالإيطالية. وهي لا تتجاوز سنة ١٥٠م. والترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة والأظهر أنها ترجمت بقلم تادي الرسول بعناية أبجر ملك الرها على ما روى أكثر العلماء السريان. ذكر ذلك ابن العبري والسمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٣ صفحة ٣١٤). وطالع مقدماتي على تفسير الأناجيل في الترجمة السريانية ولا أقل من أن تكون تُرجمت في القرن

الثاني. وتوجد ثلاث ترجمات قبطية أو مصرية أنشئت في القرن الثالث. والترجمة الحبشية في القرن الرابع فهي معاصرة لنشر الإيمان في الحبشة على يد القديس فرومنسيوس بن ميروبيوس الفيلسوف الصوري المعروف عندهم بأبي سلامة. والترجمة الغططية سنة ٣٦٠ م والترجمة الأرمنية في القرن الخامس وضعها الراهب مسروب الذي أوجد الحروف الهجائية للغة الأرمنية (وتوفي في ١٩ شباط سنة ٤٤١ م). وكل هذه الترجمات متطابقة جوهراً ومعنى إلا في بعض الأمور العرضية.

وقد استشهد الآباء والمؤلفون البيعيون في القرون الأربعة الأولى بهذه الأسفار المقدسة. ولم تتصل إلينا تأليف جميعهم ومع ذلك يمكن أن يُعد منهم نيف ومئتا مؤلف من آخر القرن الأول إلى آخر القرن الرابع من يونان ولاتينيين وسريان من آسيا الصغرى، وإيطاليا وإفريقيا، وسورية وجميعهم يستشهدون الأسفار المقدسة. وكثيرون منهم يوردون ويفسرون أسفاراً عديدة منها. منهم في القرن الأول القديس اكليمنضوس البابا تلميذ بطرس الرسول وخليفته (توفي سنة ١٠٠ أو سنة ٩٨ م). والقديس برنابا نسيب مرقس الإنجيلي ورفيق بولس الرسول في تبشيريه (استشهد على الراجح في سلامينا في قبرص سنة ٦٣ م). وفي القرن الثاني القديس يوستينوس، والقديس إيريناندوس، والقديس تاوافيلا الانطاكي. وفي القرن الثالث اكليمنضوس الاسكندري، وترتوليانوس، وأوريجانوس. وفي القرن الرابع القديس ايلاريوس في بواتيا في افرنسا، والقديسون غريغوريوس نيصص، وغريغوريوس النزميزي، واثاناسيوس، وكيرلوس الأورشليمي، وايرونيوموس وفم الذهب وغيرهم.

ثم إنَّ الهرطقة الذين كانوا في القرون الأولى لم ينكروا التاريخ الإنجيلي ولم يبنذوا قسماً كبيراً من اسفار العهد الجديد. ولم يدَّعوا أنها مزورة أو مختلقة بل كانوا يستشهدون بها أحياناً. فشرّدون وقد كان من سنة ١٣٠ إلى سنة ١٤٠ م أقرّ على ما ذكر اوسابيوس في تاريخه (ك ٤ فصل ١١) بأنَّ أسفار العهد الجديد كلها موحة. ومرقبون الذي أتى روما سنة ١٤٠ م كان يسلم بإنجيل لوقا وبعشر من رسائل بولس الرسول (يوستينوس في محاماته الأولى واوسابيوس في تاريخه ك ٤ ف ١٤). وتاسيان الذي ادركته الوفاة سنة ١٨٠ م ألّف كتاباً سنة ١٦٠ م في توفيق الأناجيل الأربعة وكان كتابه ذاتاً في سورية وما بين النهرين. وقد نشر السيد شياسكا ترجمة عربية له في روما سنة ١٨٨٩ م عن نسخة مخطوطة في المكتبة الواتيكانية. وممتانوس الذي كان في النصف الثاني من القرن الثاني كان

يسلم بالأسفار المقدسة دون استثناء كما روى ايفان عند ذكره بدعته وباسيليد الذي كان من سنة ١١٣ م إلى سنة ١٣٨ م، ويورد في الأربعة والعشرين كتاباً التي كتبها في الإنجيل شهادة القديس لوقا، والقديس بولس الرسول في رسائله إلى الرومانيين والقرنثيين والأفسسين، ويقول عن نفسه إنه كان تلميذاً لكليوشياس كاتب بطرس الرسول، وأنه كانت له مراسلات مع ماتيا الرسول (رواه كليمنطوس الاسكندري ك ٧ في اللقيف). والثاني الذي شخص إلى روما سنة ١٣٥ م كان ينسب تعليمه إلى ثيوداس تلميذ بولس وكان يكثر من إيراد شهادات يوحنا الرسول ويقرّ بجميع الأسفار المقدسة (كما روى القديس ايريناوس ك ٨ فصل ٩). وهرقليون شريكه أو تلميذه كتب نحو سنة ١٥٠ م أو سنة ١٦٠ م تفسير بشارتي لوقا ويوحنا (كما روى اوريغانوس في تفسير بشارة يوحنا) وهلمّ جراً في غيرهم من الهرطقة.

بل إنّ اليهود والوثنيين في القرون الأولى كانوا يعزّون الأنجيل وباقي الأسفار المقدسة إلى تلاميذ المسيح الأولين، ولا يشكّون في حقيقة أصلها وإن نددوا بها أو تأولوها بغير معناها الصحيح. فتريفون في جداله مع القديس يوستينوس في القرن الثاني قال إنه يعرف الأنجيل وأنه طالعها مرات لكنه لا يقبل تعليمها لثلاثينكر موسى والانبياء (كما هو بيّن في محاوراة القديس المذكور معه). وشلسوس الذي كان في القرن الثاني ينّدد بالخلّص وتلاميذه، ولكن تنديده واعتراضاته نفسها على سيرة الخلّص وتعليمه تبينّ جلياً معرفته بالأنجيل الأربعة. ويدّعي وجود المناقضة فيما كتب عن قيامة الخلّص ويقول إنه اقتبس اعتراضاته عن كتب النصارى ليحاربهم بسلاحهم، وأنه عالم بكتبتنا المقدسة وبكل ما نعتقد ويخطئ الهرطقة في بعض التحريف (ذكر كل ذلك اوريغانوس في رده مزاعم شلسوس). ويكفي أن رنان نفسه مدحه بأنه استاذ في تفسير «الكتاب» وكذلك يقال في اعتراضات برفير العديدة، فإنه يثبت الأسفار المقدسة وحقيقة نسبتها إلى تلاميذ المسيح بانتقاده نفسه وتخطئته لها، حتى قال القديس يوحنا فم الذهب (في تفسيره رسالة بولس الأولى إلى القرنين خطبة ٦) إنّ ما كتبه هذان الكافران يكفيان مؤونة البرهان على صحة اسفارنا المقدسة وحقيقتها وعدم اختلافها. فإذا كل من كتبوا في القرن الثاني مؤمنين كانوا أو كفاراً أو هرطقة مجمعون على حقيقة هذه الأسفار. وزد على ذلك أنّ الخلاف بين المؤمنين والهرطقة والكفرة منذ القرنين الأول والثاني كان

بالعناية الربانية مانعاً كل فريق منهم عن الزيادة أو الحذف أو التحريف لهذه الأسفار، وبينة قاطعة على حقيقتها، فلا بينة تساوي اتفاق الخصوم على أمر مع اختلافهم فيه. ولذلك كلما وجدت الأسفار مزورة أو تحريف أو حذف كشف الأمر ونبذ المعتل وصحَّ الصحيح.

إذا لم تُبَيَّنْ الأيام لنا على أصل هذه الأسفار التي كتبها تلاميذ المسيح فقد بقيت لنا نسخ مخطوطة عنها متفاوتة قدماً. وقد عدَّ سكولتس منها نحواً من ألف ومئتي نسخة مشتملة على أسفار العهد الجديد كلها أو بعضها. منها ٦٧٥ للأناجيل و ٢٠٠ لأعمال الرسل و ٢٥٠ لرسائل بولس ونحو خمسين للرؤيا. وأما الآن فبلغ عديدها إلى ألفين والمهم منها نسختان كُتبتا في القرن الرابع لإحدهما في الواتيكان منذ سنة ١٤٧٥ م والثانية وُجدت في جبل سينا سنة ١٨٥٤ م وطبعها تيشاندرف سنة ١٨٦٣ م، ونسختان خطتا في القرن الخامس لإحدهما تسمى الاسكندرية وهي في المتحف البريطاني. وهذه النسخ يونانية. والثانية تسمى النسخة الملكية وهي سريانية في مكتبة الأمة في باريس وقد أذيعت سنة ١٨٤٣ م. ونسخة واحدة خُطت في القرن السادس وتسمى نسخة بيزا أو نسخة كمبريدج كانت في ليون فأخذها البروتستانت سنة ١٥٦٢ م، ووهبها بيزا لمكتبة كمبريدج سنة ١٥٨١ م، وتوجد نسخة أخرى مشتملة على رسائل بولس خُطت في القرن المذكور كانت في كارمون وهي الآن في مكتبة الأمة في باريس، وباقي النسخ مشتتة وأقدمها يتصل إلى القرن التاسع. فدونك بينة أخرى حاصلة من هذه النسخ تثبت صحة هذه الأسفار في الأعصر الأولى مؤيدة ما أوردناه من البينات وحيث أنَّ أسفار العهد الجديد ورد فيها متواتراً استشهاد أسفار العهد القديم فتكون هذه البينات مثبتة حقيقة أسفار العهد القديم أيضاً.

عد ٤٩٥

سنة مولد المخلص وتبشيريه وموته

قد ذكرنا في عد ٤٧٣ الخلاف بين الآباء والمؤرخين على سنة مولد المخلص من سني خلق الانسان ومن سني تاريخ روما، ولخصنا شيئاً عن التاريخ العامي. ورأينا الآن قبل الكلام في حياة المخلص وتبشيريه وموته أن نبسط الكلام في السنين

التي وُلد واعتمد وبشّر ومات فيها ليحيط المطالعين علماً بالخلاف الحاصل بين الآباء والمؤرخين والمفسرين على ذلك.

إنَّ التاريخ المسيحي الذي يستعمله المسيحيون أجمع لم يكن سلفاً لهم في الأعصر الأولى يستعملونه بل كانت كل أمة تؤرّخ بسني مملكتهم أو ملوكهم، إلى أن رأى دانيس الصغير أحد كهنة كنيسة روما (توفي سنة ٥٤٠ م) إنَّ الخلق بالمسيحيين أن يؤرخوا بسنة مولد المخلص، وأذاع رأيه سائلاً المتابعة له عليه. ونرى بيذا المكرم (توفي سنة ٧٣٥ م) اتّبع هذا المذهب في تدوينه تاريخ انكلترا. وباين وكرلوس الكبير ملكي فرنسا استطرقاه في تاريخ أعمال حكومتهم. ثم عمّ استعماله على أنَّ دانيس ابتداء سنته من أول كانون الثاني مكان أن يبتدئها من ٢٥ كانون الأول. وأجمع المؤرخون على أنه لم يُصب بتعيين سنة المولد فقال بعضهم إنه بدأ في تاريخه بعد أربع سنين من المولد، وقال غيرهم بعد ست منه أو أكثر أيضاً، لأنه افترض أنَّ المسيح وُلد في السنة ٧٥٤ لتاريخ روما مع أنه مؤكد من مراعاة تاريخ موت ارشيلالوس وفيلبوس ابني هيرودس ومدة ولاية كل منهما إنَّ أباهما هيرودس توفي سنة ٧٥٠ لروما (يوسيفوس في تاريخ اليهود ك ١٧ فصل ١٥ وك ١٨ فصل ٦). فالمسيح إذاً لم يولد سنة ٧٥٤ بل سنة ٧٤٩ قبل موت هيرودس بسنة. ويُحتمل أنه وُلد سنة ٧٤٧ لأنَّ هيرودس أمر بعد ذهاب المجوس بقتل أطفال بيت لحم من ابن سنتين فما دون (متى فصل ٢ عد ١٦). وكان لدانيس عذر بخطأه لأنه اعتمد على قول لوقا البشير (فصل ٣ عد ١ وعد ٢٣): «في سنة خمس عشرة من ملك طيباريوس قيصر... وإذا صار يسوع ابن نحو ثلاثين سنة» وظنَّ أنَّ كلام البشير يُراد به ثلاثون سنة بالحصص مع أنه لم يقصد به أن يبيّن إلّا أنَّ المخلص لم يباشر الكرازة والتبشير إلّا في السن التي عينته السنّة لمباشرة خدام الكهنوت. إذ جاء في سفر العدد (فصل ٤ عد ٣) «من ابن ثلاثين سنة فصاعداً إلى ابن خمسين كل من يدخل الجيش يعمل عملاً في خباء المحضر». وعليه فقد حمل بعض المؤلفين استنادهم إلى التقليد بأنَّ المسيح عاش ثلاثاً وثلاثين سنة، وإلى أنه وُلد قبل التاريخ العامي بأربع سنين على أن يقولوا أنَّ المسيح مات في سنة تسع وعشرين من التاريخ العامي. لئلا يتجاوز حدّ الثلاث والثلاثين سنة من عمره. فيزعمون أنه بدأ في كرازته سنة ٢٦ أو في آخر سنة ٢٥ ومات سنة ٢٩ م. ولكي يوفقوا بين قولهم هذا ونصّ لوقا إنَّ المخلص اعتمد في السنة

الخامسة عشرة لطيطاريوس يحسبون ملك طيطاريوس لا من سنة استتباب الملك له بعد موت اغوستوس بل من سنة مشاركة اغوستوس في الملك له قبل موته بثلاث سنين. على أنَّ كثيرين من المؤرخين والمفسرين لاعتمادهم على أنَّ سني ملك طيطاريوس لا تُحسب إلا بعد وفاة اغوستوس أثبتوا أنَّ المخلص أخذ يبشر في آخر سنة ٢٩ م وإنه مات في سنة ٣٣ م للتاريخ العامي. وهذا يقضي عليهم بأن يقولوا إنه مات وعمره ست وثلاثون أو ثمانى وثلاثون سنة وبعض أشهر متابعة لقولهم أنه وُلد سنة ٧٤٩ أو سنة ٧٤٧ لتاريخ روما أعني قبل التاريخ العامي بأربع سنين أو ست. وهذا المذهب قال به كثيرون وهو الأظهر، وأتبعه الأب فيكورو في الموجز الكتابي (مجلد ٣ عد ٤٦ إلى ٤٨) وعنه لخصنا ما مرَّ من كلامنا.

قد أيد نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الأول مقالة ٢) هذا المذهب بحجج عديدة مع شيء من التغيير، لأنه قال إنَّ المسيح وُلد في السنة الخامسة قبل التاريخ العامي وأنه تعمَّد في سنة ٣٠ منه والسادسة عشرة لملك طيطاريوس. وصرَّح بأنه مات سنة ٣٣ للتاريخ العامي والسابعة والثلاثين من عمره. وأقام على ذلك حججاً وأدلة أولها نبوة دانيال (فصل ٥) على أنه يكون من صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعاً (أي تسعة وستون اسبوعاً). وفي نصف الأسبوع السبعين تبطل الذبيحة والتقدمة قائلاً إنَّ ارتحششتا الملقَّب ذا اليد الطولى أصدر أمره ببناء أورشليم في سنة ٢٠ للملك كما يظهر من سفر نحميا (فصل ٢) وهي سنة ٣٥٥٠ للعالم. فإن أُضيف إليها مدة التسعة والستين اسبوعاً وهي كناية عن ٤٨٣ سنة كان مجموع سني العالم ٤٠٣٣ سنة. (على قول من قالوا أنَّ المولد كان سنة ٤٠٠٤ للعالم). فتوافق سنة ٣٠ لتاريخ الميلاد العامي التي ابتدأ المسيح كرازته فيها، وفي نصف الأسبوع السبعين أي بعد ثلاث سنين ونصف بطلب الذبيحة والتقدمة بموت المخلص. فيكون موته سنة ٣٣ أو ٣٤ للتاريخ العامي وهي السنة السابعة والثلاثون من عمره مراعاة للفرق بين التاريخ العامي والحقيقة.

والدليل الثاني من كسوف الشمس الذي حدث عند موت المخلص، فقد جاء في الكرونيكون (التاريخ) الاسكندري في سنة ١٩ لطيطاريوس ما نصّه: «بل إنَّ المؤلفين الوثنيين خصّوا هذه السنة بالذكر وأثبتوا أنه حدث فيها زلزال. ونخص

بالذكر منهم فليغون (هو مؤرخ يوناني كان في القرن الثاني). فهذا قال في المجلد الثالث عشر إنه في الأولمبية (تاريخ يؤرخ بها اليونان ابتداءً فيه الأولينيون سنة ٧٧٦ ق.م ويجعلون كل اولمبية أربع سنين) ٢٠٢ في السنة الرابعة منها حدث كسوف عظيم لم يحدث مثله قبله فكان الظلام في الساعة السادسة من النهار شديداً حتى ظهرت الكواكب في السماء. وكان زلزال قوي في الأرض في جهات بيتنيا فهذا ما قاله فليغون الذي عرف أن هذا الكسوف كان خارقاً للطبيعة وغير معتاد. وقد ذكر ذلك اسايوس في الكرونيكون الذي ترجمه القديس ايرونيوس إلى اللاتينية مورداً شهادة فليغون. وقد ذكره من القدماء القديس ديونيسيوس الأروباچيتي ويوليوس الافريقي، واوريغانوس في الكتاب الثاني من رده مزاعم شلسوس. واستشهد ترتوليانوس (في محاماته فصل ٢١) تواريخ عبدة الأوثان لكسوف الشمس عند موت الخلص. ولما كان فليغون وهؤلاء المؤرخون والعلماء قد صرحوا بأن هذا الكسوف كان في السنة التاسعة عشرة لطيطاريوس، وهذه السنة توافق الثالثة والثلاثين من التاريخ العامي كانت النتيجة صريحة بأن الخلص مات سنة ٣٣ للتاريخ العامي وفي بدء السابعة والثلاثين من عمره وذلك طبق قول لوقا البشير أن يوحنا المعمدان ابتدا بكرازته في السنة الخامسة عشرة لطيطاريوس.

الدليل الثالث قد صرح الإنجيليون واعتقد جميع المؤمنين أن المسيح مات في الخامس عشر من بدر نيسان يوم الجمعة بعد أن كان في الرابع عشر منه يوم الخميس أكل الفصح مع تلاميذه. والحال أنه من جميع السنين الواقع الخلاف في أيها مات المسيح أي من سنة ٣١ إلى سنة ٣٥ من التاريخ العامي لا توجد سنة يقع فيها الرابع عشر يوم الخميس والخامس عشر يوم الجمعة إلا سنة ٣٣ من هذا التاريخ. فكبرى هذا الدليل ما من مؤمن بالإنجيل يقيم عليها نكيراً وصغراه واضحة من الجداول الفلكية. فسنة ٣١ للتاريخ العامي استهل هلال الفصح في ١٢ آذار في الساعة السادسة بعد نصف الليل يوم الاثنين. فوقعت الرابعة عشرة منه يوم الأحد في ٢٥ من آذار والخامسة عشرة يوم الاثنين في ٢٦ منه. وسنة ٣٢ طلع هلالها في ٣٠ آذار يوم الأحد فكانت ليلة بدرها السبت في ١٢ نيسان والخامسة عشرة منه الأحد في ١٤ منه، وسنة ٣٤ هل هلالها في ٨ آذار يوم الاثنين وأبدر بدرها يوم الاثنين أو الثلاثاء ٢٢ أو ٢٣ منه، وسنة ٣٥ بدا هلالها يوم الاربعاء في ٧ نيسان وتم في ٢١ منه الاربعاء، فلا يبقى إذاً إلا سنة ٣٣ تم بدرها يوم

الجمعة. وكان الفصح أي الرابع عشر منه يوم الخميس. فتعيّن أن تكون السنة التي مات المخلص فيها لأنه أكل الفصح يوم الخميس وُصِّل ومات يوم الجمعة.

هذا ولا يُخفى أنّ كثيرين من الآباء قالوا إنّ المسيح لم يكن له من العمر عند موته إلا ثلاثون سنة. وقال القديسان إيريناوس والذهبي الفم (في تفسير بشارة يوحنا) إنّ المخلص مات وله من العمر لا أقلّ من أربعين سنة وربما خمسون اعتماداً إلى ما رواه يوحنا (فصل ٨ عد ٥٧) من أنّ اليهود قالوا له: «إلى الآن لم تبلغ الخمسين سنة وقد رأيت ابراهيم». ولا تسهّ عما ذكرناه مرات أنّ الكنيسة لا تعتد بشيء من هذه الاعداد. وأطلقت لكل أن يعتمد على ما يراه صواباً فيها دون أن تصم عقيدته بخل.

عد ٤٩٦

نسب المسيح بما أنه انسان

قد ذكر متى في الفصل الأول من بشارته ولوقا في الفصل الثالث نسب المخلص فبدأ متى من ابراهيم نازلاً إلى يوسف رجل مريم التي وُلد منها يسوع. وذكره لوقا صاعداً من يوسف إلى هالي إلى ناثان بن داود إلى آدم الذي من الله. وهذا النسب مأخوذ عن الأسفار المقدسة إلا بعض الآباء الذين من القرون الخمسة أو الستة الأخيرة. فإنّ اسماءهم مأخوذة عن الأنساب التي كانت محفوظة في الهيكل تحت حراسة الكهنة كما يظهر من قول عزرا (فصل ٢ عد ٦٢) في بني برزلاي وغيرهم إنّ «هؤلاء بحثوا عن كتابة انسابهم فلم توجد فخلعوا من الكهنوت». ومن قول نحميا (فصل ٧ عد ٥) ألقى إلهي في قلبي أن أجمع العظماء والولاة والشعب للانتساب فوجدت سفر نسب الذين صعدوا أولاً. فاليهود كانوا يحرصون على أنسابهم محافظة على الميراث بينهم. فحثة النبية لم تكن تجهل أنها من سبط أشير واليصابات كانت تعلم أنها من بنات هارون كما ذكر لوقا البشير. ونرى يوسفوس اليهودي ذكر نسبه في ترجمة حياته نقلاً عن السجلات العامة. وكان نسل داود خطبة معلوماً إلى أيام المخلص. وقد رأينا بعض العميان والمتشيطنين ينادون المخلص يا ابن داود، بل بقي هذا النسب معلوماً بعد أيام المخلص أيضاً. فقد أنبأنا هاجيسبوس الذي توفي سنة ١٨١م أنه وشي البعض من

نسل داود إلى دوميطيان الملك فأتى بهم إلى روما. وعليه فيظهر أنَّ الإنجيليين أخذوا الانساب التي لم يذكرها «الكتاب» عن السجلات العامة، وحققت الكنيسة هذه الانساب إذ أبقت عليها في الأسفار المنزلة.

إنَّ بعض الملحنين قد انتقدوا النسب الذي ذكره الإنجيليان بأنَّ أحدهما يخالف الآخر فيه فقالوا إنَّ الانساب التي ذكرها متى من سليمان إلى يوسف غير الأنساب التي ذكرها لوقا من يوسف وهالي إلى داود. ومتى قال إنَّ يوسف بن يعقوب، ولوقا قال إنه ابن هالي. وقد ردُّ الآباء والعلماء زعم الملحنين فقالوا إنَّ الخلاف بين متى ولوقا من جهة الأنساب التي بين يوسف وسليمان وبين يوسف وهالي إلى داود لا يُحفل به، لأنَّ متى أوصل نسب المسيح إلى داود بذكره سليما ورجعاً إلى يوسف. ولوقا أوصله إليه بذكر ناتان بن داود إلى هالي ويوسف. ومرجع النسبين إلى داود وهذا غرض الإنجيليين. وأما الخلاف بينهما بأنَّ متى جعل يعقوب ابن يوسف. ولوقا جعله ابن هالي فتوترت في توقيعه أقوال الآباء والعلماء. فقال القديس اغوستينوس (ك ٢ في توفيق الأناجيل فصل ١٣) إنَّ يوسف كان ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً بالذخيرة لهالي. إلّا أنَّ القديس اغوستينوس نفسه ارتجح عن رأيه هذا. وقال القديسان ايلاريوس وامبروسيوس (في تفسير هذه الآيات) إنَّ متى ذكر نسب المسيح الملكي، ولوقا ذكر نسبه الكهنوتي. وهذا فيه من الغموض والتعسف ما لا يُخفى. وأشهر الأقوال في هذا الشأن ثلاثة: أحدها قال به كثيرون من القدماء منهم يوليوس الافريقي واوسابيوس الدمشقي وكثيرون غيرهما، حتى يمكن أن يقال إنه القول العام إلى القرن الخامس عشر. ومؤداه أنَّ يوسف كان ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً شرعياً لهالي. فقد رسم في سفر التثنية (فصل ٢٥ عد ٥) إنه إذا مات أخ ولا أولاد له فليتخذ أخوه امرأته ويقيم زرعاً لأخيه. فعسقة تزوجت بمطات فولدت منه هالي. ثم مات مطات فتزوجت بماتان وولدت يعقوب. وتزوج هالي فلم يلد ولداً فأخذ يعقوب أخوه امرأته وولد منها يوسف. فكان يوسف ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً شرعياً لهالي كما ذكر لوقا.

والقول الثاني أنَّ ماتان ولد يعقوب أبا يوسف وحنة زوجة هالي، وهو القديس يواكيم والد العذراء. فمتى ذكر جدود المسيح نازلاً من داود إلى سليمان إلى ماتان ويعقوب ويوسف الذي كان يُعتبر أباً للمسيح لأنه كتب إلى اليهود، ولوقا ذكر جدوده من جهة أبي أمه صاعداً من هالي وهو يواكيم ومطات إلى ناتان ابن داود

لأنه كتب إلى الأمم. وكان ذكر أن المخلص وُلد من عذراء ولا أب طبيعي له، وأُيد هذا القول ذوره بأن الترجمة اللاتينية روت قول لوقا هكذا: «إن يسوع كان كما يُظن ابن يوسف الذي لهالي» فقالوا إن كلمة الذي إن كانت وصفاً ليوسف فيكون المعنى ابن يوسف الذي هو صهر لهالي أو ابن لهالي بمعنى صهره. وقد ورد مثل هذا التعبير في «الكتاب» مرات. وإن كانت وصفاً ليسوع فيكون المعنى أن يسوع كان يُظن أنه ابن يوسف لكنه كان لهالي أي ابن ابنته مريم ويواكيم والياقيم وهالي بمعنى واحد.

وذكر الحجري في تفسير هذه الآية وجهاً آخر وهو أن النسب الذي ذكره الإنجيليان ينتهي بمريم، لأنه قال إن يعقوب أبا يوسف كان أبا حنه زوجة هالي أي يواكيم وأم العذراء. فمتى ذكر جدود المسيح لأبيه وأمه نازلاً من داود وسليمان إلى ناتان أبي يعقوب (وحنه). وانتهى بذكر يوسف بن يعقوب رجل مريم التي وُلد منها المسيح وهي ابنة حنه. ولوقا ذكر يوسف أباه الشرعي وبدلاً من أن يذكر جده لأبيه وهو يعقوب ذكر جده لأمه وهو هالي أي يواكيم. صاعداً من هالي ومطات إلى ناتان بن داود. وغرض الإنجيليين واحد أن يثبت أن مريم من نسل داود أباً وأماً. وبالنتيجة أن للمسيح ابنها حق الحبرية التي يظهر أنها انتقلت إلى ذرية ناتان بن داود من جهة هالي. وحق الملك من جهة يوسف وحنه إذ يتصل نسبهما بسليمان وداود، يوسف كان أباً شرعياً ليسوع. وأُيد هذا الوجه الأب دومكس في كتابه في نسب المسيح الذي أذاعه سنة ١٨٩٠م. ويظهر لي أن هذا الوجه لحل المشكل هو الأوجه. (طالع بهذا الشأن ما ذكرته في تفسير الانجيل في فصل ٣ من بشارة لوقا عد ٢٤).

ومما يلزم مراعاته في النسب الذي ذكره متى أنه أسقط ثلاثة من الملوك في ذكر نسبهم، لأنه قال (فصل ١ عد ٨) «يورام ولد عزوريا». والذي في سفر الملوك أن يورام ولد احزيا وأحزيا ولد يواش ويواش ولد امصيا وامصيا ولد توزيا الذي يسمى أيضاً عزوريا. فيظهر أن أسماء هؤلاء الملوك الثلاثة كانت ساقطة في الجداول الرسمية رعايةً لقضاء الله على نسل آحاب وايزابل. فإن يورام كان متزوجاً بعثلية ابنتهما فأسقطوا بينهما إلى الجيل الرابع وتابعهم الأنجيلي على ذلك. وكذا قال متى: (عد ١١) «ويوشيا ولد يوخانيا واخوته في سبي بابل». والذي في «الكتاب» أن يوشيا ولد يواقيم واخوته ويواقيم ولد يوخانيا في سبي بابل فالأظهر أن سقوط

يواقيم في هذه الآية من غفلة النساخ، مع أنَّ ذكره لازم ليكون عدد الآباء من داود إلى سبي بابل أربعة عشر جيلاً كما يقول الأنجيلي.

عد ٤٩٧

حياة المخلص منذ البشارة به إلى ظهوره للتبشير

في الخامس والعشرين من آذار في السنة الخامسة أو السابعة قبل التاريخ العامي (طالع عد ٤٩٤) أرسل الله جبرائيل رئيس ملايكته إلى مريم العذراء يحييها من قبل الله تحية لم يفز بها بشر قبلها بل كانت محفوظة لمريم (كما قال القديس أمبروسيوس في تفسير بشارة لوقا) قائلاً: «السلام لك يا ممتلية نعمة، الرب معك مباركة أنت في النساء، قد وجدت نعمة عند الله، فتقبلين حبلاً وتلدن ابناً وتدعين اسمه يسوع» إلى آخر ما جاء في بشارة لوقا فصل ١ عد ٢٦ إلى عد ٣٨. ومن عقائد الإيمان أنَّ مريم لبثت دائماً عذراء. والتقليد وقولها للملاك كيف يكون هذا؟ وأنا لا أعرف رجلاً مؤذنان بأنَّها نذرت حفظ البتولية قبل زواجها بيوسف على ما قال القديس أغوستينوس؛ أو بعد زواجه بها على ما قال القديس توما. وذهب المفسرون القدماء إلى أنَّها كانت عند حبليها بيسوع مزوجة، وقال بعض الحداثاء إنَّها كانت مخطوبة فقط ليوسف، وقال بعضهم الآخر إنَّها كانت مزوجة لكنَّها استمرت في نيت أبيها في الناصرة على عادة اليهود أن تكون غالباً الخطبة وعقد الزواج في وقت واحد، وتؤجَّل حفلة العرس وأخذ العروس إلى وقت آخر. والكتاب لم يقطع بذلك صريحاً إذ سماها تارة مخطوبة وتارة زوجة، وسمى يوسف رجل مريم وبعليها وخطيبها. وصرَّح الكتاب بأنَّ المخلص تجسَّد في حشائها كاملاً في حال بشارة الملاك لها. إذ جاء في إنجيل متى (فصل ٢ عد ٢٠): «لأنَّ الذي ولد بها هو من الروح القدس» فقد حبل به وتنفس وتقدَّس واتَّحد الأَقنوم الإلهي بناسوته في وقت واحد. قال القديس أغوستينوس (في ردِّه على النصف أريوسيين): «إنَّ ابن الله لم يتَّخذ جسداً بمعنى أنَّه خلقه أولاً ثمَّ اتَّخذه بل خلقه بنفس اتَّخذه له».

قد ولد المخلص في الخامس والعشرين من كانون الأوَّل في السنة السابعة قبل التاريخ العامي تبعاً لمن قالوا إنَّ الميلاد كان قبل التاريخ العامي بست سنين. وفي

آخر الخامسة قبله على مذهب من قالوا إن كان قبله بأربع سنين لأن دانيس ابتداء تاريخ سني المخلص من أول كانون الثاني. وقد فصل لوقا (فصل ٢ من عد ١ إلى ع ٢٠ خبر مولده. وقد قدمنا في ع ٤٦٦ التوفيق بين قول الإنجيلي إن الميلاد كان في مدة ولاية قورينوس بسورية وبين أقوال المؤرخين في ولايته. وقد ختن المخلص في الثامن بعد مولده اتماماً للسنة. ودعي اسمه يسوع أي المخلص أو الإله المخلص. والمسيح وصف له أي الممسوح وكان الملوك والأخبار يسبحون بالزيت إشارة إلى فيضان النعمة.

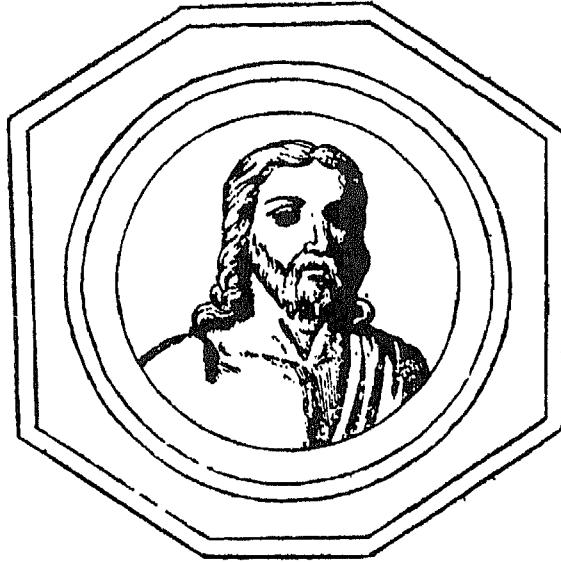
وأنبأنا متى (فصل ٢ عد ١ وما يليه) إن مجوساً وافوا من المشرق إلى بيت لحم يهديهم نجم فسجدوا له وقدموا له القرابين ذهباً ولباناً ومرأ. وقال بعضهم إن هؤلاء المجوس كانوا من بلاد العرب. وقال غيرهم إنهم كانوا من فارس أو بلاد الكلدان وكانوا أمراء أو ولاة، والتقليد العام أن سجودهم للمسيح كان قبل تقدمته إلى الهيكل، وعادة الكنيسة أن تعيد لذلك في اليوم الثالث عشر بعد الميلاد هي منذ صدر النصرانية، فضلاً عن أن هذا ينطبق خير انطباق على قول متى: «فلما ولد يسوع في بيت لحم... وإذا بمجوس وافوا من المشرق» على أن كثيرين من العلماء بل من الملافة القدماء منهم القديس لاون البابا. والقديس أيفان وأمونيوس. استمسكوا بأن المجوس لم يبلغوا بيت لحم إلا بعد سنة. وربما بعد سنتين من مولد المخلص واحتجوا له أولاً بأمر هيرودس بقتل الأطفال «من ابن سنتين فما دون حسب الزمان الذي تحققه عن الصبي من المجوس»، ثانياً بعدم خوف القديس يوسف والعذراء من الذهاب إلى أورشليم. وتقدمة الرب علانية في الهيكل بعد مولده بأربعين يوماً ولو كان سجود المجوس، وتخبيرهم لهيرودس على أثر مولده لقتله هيرودس، ولم يجسروا أن يذهبوا به إلى الهيكل. ثالثاً إن أوسابيوس في تاريخه وأيفان (في هرطقة ٣٠) وأغوستينوس قالوا: إن قتل الأطفال كان وعمر المسيح خمسة عشر شهراً. وإن صح هذا الرأي كان مؤكداً لمذهب من قالوا إن المسيح ولد قبل موت هيرودس بسنتين أو ثلاث. وإن غلط دانيس في التاريخ العامي كان ست سنين لا أربعاً فقط، على أن أصحاب الرأي الأول يقولون إن هيرودس قد مد أمره إلى قتل ابن سنتين تحوطاً وتحوصاً على قتل المسيح بينهم. وبعضهم يجعل قتل الأطفال بعد تقدمه الرب إلى الهيكل ولكن في سنة مولده نفسها.

أنبأنا متى (فصل ٢ عد ١٤) إن ملاك الرب أمر يوسف أن يهرب بالمسيح

وأُمّه إلى مصر لئلا يقتله هيرودس. وهرب بهما أمّا من بيت لحم وأورشليم أمّا من الناصرة بحسب اختلاف الأقوال المار ذكرها آنفاً. واختلف أيضاً في مدّة اقامة المسيح في مصر من سنتين إلى ثماني. ومن التقليد أنّ الخُلصّ أقام في مصر في اليوبولي (أي مدينة الشمس) في مصر السفلى على مقربة من المطرية. ولمّا علم يوسفوس أنّ أرشيلالوس ولي اليهودية مكان أبيه كما مرّ أتى الجليل، وسكن الناصرة ودعي ناصرياً. وقرأ بعضهم ناذرياً أي نذيراً لله، والصحيح ناصرياً نسبة إلى الناصرة. وأنبأنا لوقا (فصل ٢ عد ٤٢ وما يليه). إنّه لما كان عمره اثنتي عشرة سنة وهي السنة السادسة للتاريخ العامي صعد مع يوسف ومريم كعادتهم إلى العيد في أورشليم. ولما انتهت أيام العيد مكث في أورشليم وكان يوسف ومريم يظنانه مع المرافقين. وبعد أن سارا مسافة يوم لم يجدها فعادا إلى أورشليم يطلبانه، ووجداه بعد ثلاثة أيام جالساً في الهيكل وسط العلماء يسمع منهم ويسألهم وكان كل من يسمعه يتعجّب من حكمته واجابته. وأراد الخُلصّ بذلك أن يبدي شعاعاً من حكمته الإلهية ليهيئ الناس إلى استماع تبشيره، ولا يدهشوا إذا ظهر بغتة، ولا يسمعوا قبلاً شيئاً عنه. ولم يطرّفنا الإنجيليون بشيء من أخبار الخُلصّ في باقي عمره إلى أن اعتمد من يوحنا إلّا بقول لوقا أنّه كان يطيع يوسف وأُمّه.

وفي سنة ٢٨ أو ٢٩ للتاريخ العامي أتى يوحنا المعمدان من البرية إلى البلاد التي على عدوتي الأردن يكرز بمعمودية التوبة لغفران الخطايا، وينذر باقتراب ملكوت الله، فأتى الخُلصّ سنة ٢٩ للتاريخ المذكور الثالثة والثلاثين أو الخامسة والثلاثين لمولده طالباً من يوحنا أن يعمّده. فتمنّع تهيّياً قائلاً أنا المحتاج أن أعتمد منك، وأنت أتيت إليّ، فقال له يسوع دع الآن فهكذا ينبغي لنا أن نكمل كلّ البر (متى فصل ٣ عد ١٤ و ١٥) أي أنّ دعوتك ودعوتي تقضيان عليّ وعليك أن نعلم الناس التواضع والتوبة والطاعة. ولمّا اعتمد يسوع انفتحت له السماء وحلّ روح القدس عليه مثل حمامة وسمع صوت من السماء يقول هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت. وتلك آية شهد الله بها لارسال ابنه وكشف بها عن ثالوثه فإنّ الأب بصوته شهد لابنه أنّه موضوع كل مسرّة له. والروح حلّ عليه بهيئة حمامة والابن أعدّ نفسه لتكملة مشيئة الله وفداء العالم.

وخرج يسوع بعد حلول روح القدس عليه إلى البرية القريبة من أريحا عاكفاً على الصلوات، والتأملات الروحية صائماً أربعين يوماً كما صام موسى قبل تنزيل الشريعة عليه. وكما صام إيليا قبل منجاته الله ليكفر عن خطايا العالم التي حملها على نفسه. ويستعد إلى ما ألقاه الله عليه كما كان الانبياء يستعدون، ويحارب الشيطان الذي تعمّد ابادة ملكه. والشيطان لم يكن على جليلة من أمره فأراد أن يمتحنه ليعلم أهو ابن الله ليقعه إذا استطاع بأحبولة النهم أو الكبرياء أو الطمع بمال الدنيا ومجدها (كما روى متى فصل ٤ عد ١ وما يليه). وسمح له المخلص أن يأتيه بهذه التجارب ليظهر ظفره به ويعلمنا مقاومة التجارب، ويذلّ ابليس ولم تكن تجارب المخلص داخلية وناشئة في نفسه كما تكون فينا. ولم يكن إيراد الإنجيلي لها على سبيل المجاز لأنّ ذلك يخالف نص الإنجيل الصريح وتفسير الآباء والمفسرين الكاثوليكين أجمعين ومعتقد المسيحيين بأسرهم.



واليك صورة للمخلص وجدت في مخبأ القديسة دومتيلا في رومة مصورة هناك منذ القرن الثاني للميلاد.

اللغة التي تكلم المسيح بها

رأينا ان نلخص قبل الكلام في تبشير المخلص شيئاً من البحث في اللغة التي بشر بها المسيح. فهذا المبحث مهم لأنه إذا عرف معرفة أكيدة ما كانت اللغة التي تكلم المسيح وأنصاره فيها ترتب على ذلك فوائد جمة وبيانات حديثة على حقيقة أسفار العهد الجديد، وعلى عقائد كثيرة. فليس من يقيم نكيراً على أن أسفار العهد الجديد سمّت اللغة التي كان أهل فلسطين يتكلمون بها في أيام المخلص عبرانية. من ذلك قول يوحنا (فصل ٥ عد ٢): «وكان هناك في أورشليم محل للغسل يسمى بالعبرانية بيت حسدا» أو بيت صيدا وقوله: (ف ١٩ عد ١٣ وعد ١٧). «وجلس (بيلاطوس) على المنبر في موضع يدعى رصيف الحجارة وبالعبرانية غفيفتا... واخرجوه حاملاً صليبه الى موضع يسمى الجمجمة وبالعبرانية الجلجلة». وفي اعمال الرسل (فصل ٢١ عد ٤٠): «وقف بولس على الدرج... ونادى باللغة العبرانية قائلاً: وبعد ذلك (فصل ٢٢ عد ٢) فلما سمعوه يخاطبهم باللغة العبرانية ازدادوا هدوءاً. «وفي محل آخر (فصل ٢٦ عد ١٤) وسمعت صوتاً يكلمني ويقول باللغة العبرانية شاوول شاوول لم تضطهذي» إلى غير ذلك. وقد اجمع العلماء على أن هذه اللغة سمّيت عبرانية لأنها كانت لغة العبرانيين في تلك الايام. وهي تختلف عن العبرانية التي تكلم بها موسى وداود ومن كتبوا أسفار العهد القديم بالعبرانية. على أن هذه اللغة القديمة امست بعد الجلاء الى بلاد الكلدان منسية ميتة وخلفتها اللغة الآرامية التي كانت لغة الآراميين في سورية وبلاد الكلدان والآشوريين. ولما كانت اللغة العبرانية قريية من الآرامية وكان المسييون من بني إسرائيل إلى بلاد الكلدان أقل عدداً من الوطنيين فيها اضطرتهم الحال أن يتعلموا لغتهم. ومن ولدوا في مدة الجلاء اقتبسوها من مواطنيهم وندر من بقي حياً ممن استمروا هناك سبعين سنة. ولذا كان كلامهم بعد عودهم إلى فلسطين بهذه اللغة التي سمّيت كلدانية لأنها لغة الكلدان، وعبرانية لكلام العبرانيين بها. ولا جرم أن المسيح كلّم سامعيه بلغتهم.

ومع هذا لم يخلُ هذا المبحث من خلاف فإن فرندرف كتب مقالة حاول أن يثبت بها أن المخلص تكلم باللاتينية سنداً إلى أن بعض اسماء المكابيل والنقود في

العهد الجديد لاتينية. ولا يُحفل بهذا الزعم خاصةً لأنَّ الرومانيين كانوا يلون البلاد، ومن البديهي أن تدخل الفاظ كهذه في لغة أهلها كما ترى الآن في لغتنا بعد مخالطة الأجانب.

وزعم بعض العلماء أنَّ المسيح تكلم باليونانية، وأول من قال بذلك إسحق فوسيوس زاعماً أنَّه أصاب اليهودية ما أصاب غيرها من الأقاليم التي افتتحها إسكندر الكبير وخلفاؤه، فإنَّها استعملت لغة الفاتحين، واستنتج من ذلك أنَّ أهل فلسطين لم يكونوا يتكلمون إلَّا باليونانية بعد الفتح المكدوني على أنَّ مقدمات فوسيوس كاذبة فإذا صحَّ أنَّ دوائر قادة إسكندر الذين صاروا ملوكاً في سورية ومصر كانوا يتكلمون ويكتبون أوامرهم الرسمية باليونانية، فيصح مع ذلك أنَّ الشعب بقي يتكلم القبطية في مصر، والآرامية في سورية.

وقد تابع دومينيك ديورتي فوسيوس على مذهبه. وأذاع كتاباً في نابولي سنة ١٧٦٧ م قال فيه إنَّ المسيح والرسول تكلموا باليونانية فردَّ زعمه العالم برنردس دي روسي في مقالة عنوانها في لغة المسيح، والعبرانيين في فلسطين منذ ازمنة المكابيين، ونشرها في رومية سنة ١٧٧٢ م مثبِّتاً أنَّ العامة في فلسطين لم يكونوا يعرفون اللغة اليونانية. وأنَّ الخلفاء ومواطنيه كانوا يتكلمون بفرع من فروع اللغة السامية يسمَّى السرياني الكلداني أو الآرامي. وبعد إذاعة هذه المقالة انشأ في ألمانيا العالم كتلوب بولس رايأ متوسطاً. فأقرَّ أنَّ لغة عامة اليهود في فلسطين في بدء التاريخ المسيحي كانت فرعاً آرامياً، لكنَّ اللغة اليونانية كانت منتشرة في البلاد لا سيَّما في الجليل وأورشليم، بنوع أنَّ الخلفاء وتلاميذه نطقوا بها في خطبهم في الجمهور كلِّما رأوا ذلك ملائماً. على أنَّ رأي بولس هذا قد فنَّده العالم سيلفسترس دي ساسي وأيد رأي دي روسي، ولم ينكر أنَّه قد يمكن أن يكون المسيح وتلاميذه استطاعوا أن يتكلموا وقتاً ما باليونانية، لكنَّه يثبت بالحجج الراهنة أن لا بيَّنة على أنَّهم تكلموا بها فعلاً، بل أنَّ اللغة التي كان أهل فلسطين يتكلمون بها إمَّا هي اللغة الآرامية. والذي يعوَّل عليه الآن جمهور العلماء والمحققين إمَّا هو قول دي روسي ودي ساسي. ومع هذا قد ذاع العالم روبر الإنكليزي سنة ١٨٦٤ م مقالة أيد قول بولس المشار إليه إلَّا أنَّ حججه منمَّقة لكنها غير سديدة.

وقد جرى مثل هذا البحث في بلادنا بين حبرين عالِمين فاضلين هما المرحومان

مكسيموس مظلوم بطريك الطائفة الملكية الكاثوليكية وبولس مسعد بطريك الطائفة المارونية، فقد أيد السيد مظلوم زعم فوسوس، فردّه السيد مسعد رداً مسهباً في كتابه الموسوم بالدر المنظوم رداً على الاسئلة والاجوبة المضاة باسم السيد البطريرك مكسيموس مظلوم. وجد السيد مظلوم ثانية في اثبات رأيه بمقالة أخرى مؤرخة في غاية تموز سنة ١٨٤٦ م ففتّنها السيد مسعد في نبذة ألحقها بكتابه الدر المنظوم.

واليك بعض الحجج المثبتة أنّ المخلص وتلاميذه لم يتكلموا باليونانية بل باللغة الآرامية التي كانت لغة اليهود في فلسطين بعد العود من الجلاء. نورد هذه الحجج بياناً لحقيقة هذا المبحث المهم كما مرّ لا تشيخاً لأحد الفريقين.

أولاً أنّ لغة المسيح وتلاميذه واهل فلسطين في أيامهم لم تكن اللغة اليونانية بل فرعاً من اللغة السريانية، لأنّ اسفار العهد الجديد التي ذكرنا آنفاً بعض آياتها نسميها عبرانية لتكلم العبرانيين بها، لا يونانية وإن كان بعض العلماء والوجهاء في المدن الكبيرة في فلسطين كأورشليم وقيصرية وطيبارية وصفورية يتكلمون باليونانية. إلا أنّ لغة العامة كانت اللغة السريانية التي اقتبسوها من بلاد الكلدان. ولم تكن اللغة اليونانية حينئذٍ إلّا كاللغة الافرنسية او الانكليزية اليوم في القسطنطينية والقاهرة واسكندرية وبيروت. او كاللغة اللاتينية في ممالك اوربا في الكتب العلمية والبيعية. ولا بينة في كتب المؤلفين القدماء على أنّ ملوك اليونان في سورية ومصر اجبروا رعاياهم على التكلم باللغة اليونانية. ولا على أنّ الجاليات اليونانية ربت على السكّان الاصليين حتى تغلبت في البلاد اللغة اليونانية.

وعليه فلم تكن لغة المخلص وتلاميذه إلّا لغة مواطنيهم في فلسطين وهي اللغة الآرامية. وهذا تؤيده حجج راهنة مأخوذة من العهد الجديد ومن الآثار العلمية اليهودية المكتوبة نحو القرن الاول من تاريخ الميلاد، فلنا من الأنجيل المقدسة بيّنات عديدة على ما نحن مثبتون مأخوذة من الاعلام، او من بعض العبارات المحفوظة فيها على اصلها ومن نوع التعبير نفسه. فمن الاعلام اسماء يسوع ومريم ويوسف ويعقوب ويوحنا وسمعان وحنه إلى كثير غيرها، ثم كلّ الاسماء المبتدئة بكلمة بر منها بارابا وبرتولماوس وبريونا وبرنابا ورسابا وبرطميا. فكلّ هذه الكلمات آرامية، لأنّ بار تأويلها ابن، وفي العبرانية بن. ومنها أيضاً اسماء توما أي التوأم، وقيفا أي الصخر أو الانحدار، وسافيرا أي الجميلة، ومرتا أي السيدة، وطايطا أي

الغزالة وكيفا أي الصخرة، وبوانرجس أي أبناء الرعد. وقد ورد بعض أسماء يونانية منها فيلبوس ونيقوديموس واسطفانوس ونيكانور. ولاتينية مثل مرقس ولوقا لكن هذه الاسماء مأخوذة عن لغة الظافرين أي اليونان والرومانين. فما مثلها إلا مثل اميل والبر وفردينان في ايامنا فلا يعتد بها.

ونرى المخلص لقب سمعان كيفاً أي الصخرة بياناً لمقامه في الكنيسة أي ليكون بمنزلة الاساس لها. فلم يسمه بطروس باليونانية بل كيفاً بالآرامية، ولم يقل له انت تدعى كيفاً أي الصفا. وكذا سمي ابني زبدى بوانرجس أي أبناء الرعد وهذا اللفظ آرامي لا يوناني، بل إن لقب المسيح نفسه ماسيا او مשיحا المترجم باليونانية خريستوس، وفي اللاتينية كريستوس هو لفظ آرامي بحت. فاذا لم يتكلم المسيح باليونانية بل بالآرامية. وكذلك اسماء الاماكن فمن البديهي أن الاسماء القديمة استمرت على حالها واما الاسماء الجديدة فزها مأخوذة عن اللغة السريانية. منها في اورشليم كغولتو **ܡܠܟܐ** أي الجمجمة. وبيت حسدا **ܚܡܬܐ** أي محل الشفقة. وغاباتا او غيفيتا **ܡܠܟܐ** أي رصيف الحجارة أو المرتفعة، وحقل دما **ܡܠܟܐ** أي حقل الدم. فكل هذه الاسماء يظهر لأول وهلة أنها آرامية. وفضلاً عن أسماء الاعلام المعنية اشخاصاً أو اماكن تجد في أسفار العهد الجديد الفاظاً كثيرة تبين لنا أن لغة أهل فلسطين في القرن الأول كانت سامية، من ذلك ان الرسل دعوا المخلص متواتراً رابي **ܪܒܝ** وقد حفظت الترجمات هذه الكلمة على اصلها ومعناها ربي وسيدي وهي سريانية بلا مراء. ومثلها كلمة ربوني **ܪܒܝܢܝ** التي ذكرها يوحنا (فصل ٢٠ عد ١٦) «فالتفت (مريم المجدلية) وقالت له ربوني الذي تفسيره يا معلم» ومن هذا الباب كلمة أوصانا أو اوشعنا التي ذكر الانجيليون أن الجمع الغفير كان يترنم بها عند دخول المخلص اورشليم راكباً أتاناً، فهي كلمة آرامية فسرها فيكورو (في كتابه العهد الجديد والاكتشافات صفحة ٢٧) بمعنى «أسألك أن تخلص».

ثم ان كتبة العهد الجديد قد استعملوا بعض الفاظ خاصة باليهود ولا مرادف لها باليونانية. فاضطروا ان يبقوها على اصلها منها كلمة مسكر في قول لوقا (فصل ١ عد ١٥): «لا يشرب خمرأ ولا مسكرأ» فلو كان أبقى كلمة سكرأ الآرامية ومنها كلمة ساتون أي كيل أوصاع الواردة في بشارة متى (فصل ١٣ عد ٣٣). وفي بشارة لوقا (فصل ١٣ عد ٢١) بقولهما: «يشبه ملكوت السما خميراً اخذته امرأة

وخبأته في ثلاثة اكيال دقيق». فباليونانية حفظت كلمة ساتا الآرامية وفي العبرانية صاع كالعربية. وكذلك كلمة **ܫܡܡܐ** الفصح فهي بلا نكير سريانية انتحلتها اليونانية واللاتينية بما يقارب لفظها. وكلمتا الفريسيين والصدوقيين سريانيتان، ولفظة ساتان الشيطان سريانية ايضاً ابقتها اليونانية واللاتينية على أصلها. ومن ذلك كلمة أمين أي حقاً التي تلفظ بها المخلص متواتراً. وكررها في يوحنا ست وعشرين مرة قائلاً: الحق الحق أقول لكم. وحفظتها الترجمات على أصلها الذي نطق به المخلص، ومثلها كلمة راقا الواردة في بشارة متى (فصل ٥ عد ٢٢). «من قال لأخيه راقا» لا شك في أنها سريانية وهي في العبرانية ريق وتأويلها بليد أو الخالي من الذكاء، ووردت في التلمود بمعنى الوغد، وحفظت في الترجمات على أصلها. وكلمة جهنم منحوتة من جي ابن هينم أي وادي بن هينم وهو الوادي الكائن في شرقي أورشليم وجنوبيها. كانوا يحرقون فيها المحكوم عليهم ويقدمون الأطفال ضحايا للملك الصنم، وحفظتها جميع الترجمات على أصلها. وكذا كلمة قربان الواردة في بشارة مرقس (فصل ٧ عد ١١) بمعنى هدية. وكلمة أبّا الواردة في هذه البشارة (فصل ١٤ عد ٣٦): «ويقول أبّا أيها الآب» فهي سريانية **ܐܒܐ** الآب، ومثلها كلمة افتتح **ܐܦܬܚ** أي افتتح الواردة في بشارة مرقس (ف ٧ ع ٣٤). ولفظتا طاليتا قومي **ܬܠܝܬܐ ܩܘܡܝ** أي أيتها الصبية قومي (مرقس فصل ٥ عد ٤١). وجملة الوهي الوهي لمنوشقتن **ܐܝܬܐ ܐܝܬܐ ܠܡܢܘܫܩܬܝܢ** أي إلهي لماذا تركتني (متى فصل ٢٧ عد ٤٦ ومرقس فصل ١٥ عد ٣٤)، فكل هذه الألفاظ آرامية وحفظت على أصلها في جميع الترجمات، وهي تقضي بأن المخلص تكلم بالآرامية.

ثم أن الآثار الباقية من القرن الأول توافق الأناجيل ببيانها أن اللغة التي كان يتكلم بها أهل فلسطين في القرن الأول كانت الكلدانية أي الآرامية. فيولس الرسول حفظ لنا في رسالته الأولى إلى القرنين (فصل ١٦ عد ٢٢) من كلامهم عبارة مرانا اتا **ܡܪܢܐ ܐܬܐ** أي ربنا أتى. والمعنى فليكن محروماً إلى مجيء ربنا. ثم أن يوسيفوس كان معاصراً الرسل وقد أنبأنا في فاتحة كتابه في تاريخ حرب اليهود مع الرومانيين قائلاً: «هذا ما دعاني أن أكتب باليونانية ارضاء للأمم الخاضعة للمملكة الرومانية ما كتبه أولاً بلغتي الطبيعية (أي التي ولدت فيها) ليحيط باقي الأمم به علماً» وقال أنه في مدة الحرب مع الرومانيين كان يخاطب جنوده بالعبرانية

أي الآرامية لغة العبرانيين. ولأنه في مدة حصار أورشليم كان يترجم بين اليهود والرومانيين. وشهد أن اليهود الذين كانوا يتكلمون بالآرامية الشرقية كانوا يفهمون كلام السريان الذين كانوا يتكلمون بالآرامية الغربية. ومع أنه كان أقره رجال أمته وأذكاهم فقد أنبأنا عن نفسه في آخر كتابه تاريخ اليهود أنه صرف زماناً في تعلّم اليونانية. وأنه لم يكن يحسن التلقظ بها قائلاً: «لا أشكو من اضاغة الزمان الذي صرفته في تعلّم اللغة اليونانية وإن كنت لا أحسن التلقظ بها كما ينبغي. وهذا يعسر علينا كثيراً لأننا لا ننكب على هذا الدرس انكباً كافياً، فإن قومنا لا يقدرّون من يتعلّم لغات كثيرة حق قدره، فلا يعتبرون هذا إلا درساً عالمياً يصلح للأرقاء والأحرار، ولا يحسبون حكيماً إلا من نبغ في معرفته السنن والأسفار المقدسة وعني بتفسيرها». فكل ذلك بينات دامغة على أن لغة العامة في فلسطين في ذلك العصر لم تكن اليونانية بل كانت الآرامية.

ويؤيد ذلك أن التراجم (الترجمات) وفصول التلمود القديمة كتبت بالسريانية الكلدانية، فمنذ عود بني إسرائيل من الجلاء كان الكهنة يترجمون للشعب الأسفار المقدسة من العبرانية إلى الكلدانية كما في سفر نحemia (فصل ٨ عد ٨) أصح التفسيرات. وتوجد كتب مخطوطة تجد فيها كل آية عبرانية تليها ترجمتها بالكلدانية. فإن اليهود شعروا حينئذ بمسيس الحاجة إلى ترجمة العهد القديم إلى لغة يفهمها الشعب. فترجموه إلى الكلدانية لليهود في سورية وإلى اليونانية لليهود الذين في مصر. وكانت هذه الترجمة أولاً شفاهية إلى أن استودعت الصحف وبعضها باقٍ إلى الآن بالكلدانية. ومنها ترغوم يوناتان بن عوزيل الذي كان تلميذ هيلال على ما في التلمود، وعليه فيكون معاصراً للمخلص. ثم أن مجمع اليهود أقام في يمينه (أي بينة) بعد خراب طيطوس أورشليم. وكان يرأسه يوحنا ويصحبه سبعة من مشاهير علمائهم. وخلف يوحنا غملائيل الثاني حفيد غملائيل الأول أستاذ بولس الرسول. وعني بجمع الأحكام والشرع التقليدي مكتوبة فكانت بذلك بداية التلمود، وخلف غملائيل الثاني ابنه سمعان وخلف سمعان ابنه الربّي يهوذا. ويلقبه اليهود القديس وكان من سنة ١٧٠ إلى ٢٢٥ م وهو الذي وضع المثنى (أي تشية الشريعة)، ومدار التلمود عليه وهو تلمودان بابلي وأورشليمي. وكلاهما ألف بالكلدانية وتتخلله ألفاظ وجمل من لغة العامة وهي آرامية وإن اختلفت لفظاً أو ببعض الحروف عن لغة الربيين والعلماء. ونبه الكاتب القارئ إلى هذه الألفاظ

بقوله: «كما تقول العامة أو كما يقول الشعب وما أشبه. وقد جاء في المثنى أنه كان في هيكل أورشليم آنية كتب عليها باللغة الآرامية. ومن تقليداتهم أن يوحنا المار ذكره سمع صوتاً سموياً خارجاً من القدس يقول بالآرامية: «إنَّ الشبان الذين اقتحموا وطيس الحرب مع أنطيوخس سيكونون ظافرين». وأقدم الصلوات التي كان يستعملها اليهود عدا التساييح التي في الكتاب إنما هي آرامية. والرسائل التي كتبها غملائيل لأهل الجليل في شأن تعيين استهلال الهلال كتبت بهذه اللغة أيضاً. فكل ما مرَّ ذكره من هذه الآثار الباقية من صدر النصرانية يثبت اثباتاً قاطعاً إنَّ لغة أهل فلسطين في أيام المخلص والرسول كانت آرامية وتقدّست بضم المخلص ورسله (ملخص عن فيكورو في العهد الجديد والاكتشافات).

إنَّ العلامة فيكورو لم يقتصر على ما لحّصناه من الحجج في اثبات هذا المبحث، بل أطل وأجاد باقامة الأدلة على أنَّ أسفار العهد الجديد حتى ما كتب منها باليونانية يتبيّن من تصوّرات كاتبها، وعباراتهم وبعض ألفاظهم، ونظم تعبيرهم وسبك جملهم، أنَّ لغتهم آرامية. من ذلك مثلاً إنَّك ترى العبارة اليونانية تؤدي المعنى المقصود لكنّها ساذجة عاطلة لا يحليها شيء من أنواع الفصاحة. ولو كان الكاتب ضليعاً باليونانية لأليسها حلّة غيرها تبدو به، فهي كصورة فوتوغرافية تهییء الموضوع لكنها لا تزينة بالألوان. وترى الكاتب أحياناً يتوصّل إلى تأدية المعنى بغير اللفظ الموضوع له في اليونانية لقصر لغة فلسطين حينئذٍ واتساع اليونانية. فترى مثلاً كلمة ابن مستعملة في هذه الأسفار لمعانٍ لا تعد منها بنو أورشليم وبناتها بمعنى سكانها. وابناء هذا الجليل بمعنى العائشين فيه وابن السلام بمعنى السليم والمسالمة. وابن الأثم بمعنى الأثيم. وابناء النور بمعنى المستنيرين. وابناء القيامة بمعنى ما قاموا أو يقومون. وابناء جهنّم بمعنى الهالكين. وابن الهلاك بمعنى الهالك. وابناء الغضب بمعنى المغضوب عليهم وهلمّ جرّاً. ولو كان الكتاب يونانياً لأدّى هذه المعاني بالفاظ اليونانية الموضوع لها.

ومن ذلك تعبير كتبة العهد الجديد عن الجسد بكلمة بسر كس اليونانية. ومعناها اللحم فما ذلك إلّا ترجمة كلمة **σάρξ** أو **حشا** بسر أو بسرا السريانية لافتقار لغتهم. وكلمة سوما اليونانية التي يعبر بها عن الجسد تراها مستعملة في بشائر متى ومرقس ويوحنا بمعنى الجثة أو الجسد الميت. وترى بولس ولوقا لمعرفتهما اليونانية أكثر من غيرهما يعبران عن الجسد وطوراً بسوما على الأصل، وطوراً بسر كس على

اصطلاح باقيهم. وتجدهم أيضاً يستعملون كلمة بسيكا النفس في اليونانية مترجمين بها كلمة **نفس** (نفس) السريانية. وتدل بهذه اللغة على الانسان المؤلف من نفس وجسد وعلى الحياة التي هي نتيجة اتحاد الجسد والنفس. ومدلولها هذا الآخر إنما هو خاص بلغة الساميين ومع ذلك تراه متواتر الورد في أسفار العهد الجديد اليونانية. من ذلك «قد مات الذين يطلبون نفس الصبي (متى فصل ٢ عد ٢٠). «لا تهتموا لنفوسكم بما تأكلون» متى فصل ٦ عد ٢٥). «الراعي الصالح يذلل نفسه عن خرافه» (يوحنا فصل ١٠ عد ١١). ففي كل هذه الآيات وكثير غيرها يعبر عن النفس ببسيكا اليونانية. وليس لها هذا المعنى إلا لوضعهم لها موضع نفس السريانية، بل قد استعمالوها أيضاً بدلاً من الضمير كما في فاتحة تسبحة العذراء «تعظم نفسي للرب» أي أعظم أنا وهلم جرا إلى اسماء وأفعال استعمالها كاتبو العهد الجديد مأخوذة عن اللغة التي كانت لغتهم وهي السريانية. ومن أحب مزيد بيان فليراجع كتاب فيكورو المذكور لاسيما الفصلين الثاني والثالث من مقالته في لغة المسيح ورسله. وكل ذلك بينات دامغة على أن المخلص ورسله كانت لغتهم آرامية لا يونانية. ومن ذلك أيضاً دليل وضاح على صحة أسفار العهد الجديد، وسترى أن كثيراً من الخطوط التي كتبت في تدمر وحوران وعبر الأردن في القرون الأولى هي سريانية مع أن بعض كاتبها عرب أصلاً.

عد ٤٩٩

حياة المخلص وأعماله بحسب الأناجيل

قد روى الانجيليون أعمال المخلص وأقواله وقلما غبنوا وقت حدوثها. واتفق الانجيليون في ذكر أمور، وانفرد بعضهم برواية أمور لم يروها سواه. فالجأت الحال منذ صدر النصرانية إلى وضع كتاب في أعمال المخلص، وأقواله منسوقة بحسب زمان حدوثها. وفي توفيق روايات الانجيليين وذكر المؤرخون كتابين في هذا الشأن ألفا في القرن الثاني: أحدهما للقديس تاووفيل سابع بطاركة أنطاكية بعد القديس بطرس (توفي سنة ١٨٦). والثاني لناسيان (الذي توفي سنة ١٧٣) ألفه قبل انفصاله عن القديس يوستينوس ولحاقه إلى مرقيون الارائيكي، وهو أشهر وأقدم من الكتاب الآخر. ثم وضع امونيوس الاسكندري (توفي سنة ٢٢٠) كتاباً آخر في

صدر القرن الثالث ففاق الكتابين اشتهاً. ومنذ القرن السابع عشر توفر عدد التأليف في هذا الشأن على أن تناسق كل هذه الأقوال والأعمال بحسب زمان وقوعها يحول بينه وبين التوكيد وصعوبات عديدة، أخصها كثرة هذه الأقوال والأفعال وعدم تعيين الانجيليين زمان وقوعها. فالمؤكد منها ما نص الانجيليون أو أشاروا بقرينة إلى زمان حدوثه، والباقي لا يتفاوت درجة من الاحتمال.

واليك جدولاً يتبين منه أقوال المخلص وأفعاله كما رواها الانجيليون منسوقة كما نسقها مشاهير العلماء. ونعتمد منهم على فيكتور في الموجز الكتابي مجلد ٣.

أقوال وأفعال		متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
		ف	عد	ف	عد	ف	عد	ف	عد
مولد الكلمة الأزلي								١	١
بشارة زكريا						٥	١		
بشارة العذراء						٢٦	١		
زيارتها البصايات						٣٩	١		
مولد يوحنا						٥٧	١		
هواجس القديس يوسف		١٩	١						
مولد المخلص						١	٢		
ختانته						٢١	٢		
سجود المجوس له		١	٢						
تقدمته إلى الهيكل						٢٢	٢		
هربه إلى مصر		١٣	٢						
نسب المخلص				١	١	٢٣	٣		
عوده من مصر				١٩	٢	٤١	٢		
وجوده بين العلماء						٤٢	٢		
حياته في الناصرة						٥٠	٢		
انذار يوحنا المعمدان وتعميده				١	١	١	٣	٢٨	١
شهادة يوحنا للمخلص				١١	١	٧	٣	١٥	١

أقوال وأفعال

اعتماده

صومه وتجربته في البرية

شهادة يوحنا الثانية للمخلص

ظهور المخلص للتبشير

شهادته الثالثة له

اول من اتبعه من التلاميذ

صنعه الآية الأولى في قانا

اعتزاله في كفرناحوم

الفصح الأول

مضي المخلص إلى أورشليم

طرده الباعة من الهيكل

أقواله وأعماله بعد ذلك

مخاطبته لنيقوديمس

شهادة المعمدان الرابعة له

القاء المعمدان في السجن

كلام المخلص مع السامرية

عوده إلى الجليل

الآية الثانية في قانا ابراء ابن القائد

رجوعه إلى كفرناحوم

تبشيره في المدن التي حولها

تبشيره في مجمع الناصرة

ابراؤه المجنون في كفرناحوم

شفاؤه حماة بطرس

يوحنا		لوقا		مرقس		متى	
ف	عد	ف	عد	ف	عد	ف	عد
		٢١	٣	٩	١	١٣	٣
		١	٤	١٢	١	١	٤
١٩	١						
٢٩	١						
٣٥	١						
١	٢						
١٢	٢						
١٣	٢						
١٤	٢						
١٨	٣						
١	٣						
٢٣	٣						
		١٩	٣	١٧	٦	٣	١٤
٤	٤						
٤٣	٣	١٤	٤	١٤	١	١٢	٤
٤٦	٤						
				٢٢	١	١٣	٤
		١٤	٤			١٧	٤
		١٦	٤				
		٣١	٤	٢٣	١		
		٣٨	٤	٢٩	١	١٤	٨

أقوال وأفعال

متى	مرقس	لوقا	يوحنا
ف	عد	ف	عد
٤	٢٣	٤	٤٢
٨	١٩	٩	٥٧
٤	١٨	١	٥
٨	٢٣	٤	٢٢
٨	٣٨	١	٢٦
٩	١	٢	١
٩	٢	٢	١٨
٩	٩	٢	٢٧
٩	١٨	٥	٤٠
٩	٢٧		
٩	٣٢	١١	١٤
١٢	١٨	٦	١
١٢	٩	٦	٦
١٢	١٥	٧	
	٣	١٣	١٢
٥	١	٦	١٢
٨	٢	٥	١٢
٨	٥	٧	١
		٧	١١
١١	١	٧	١٨
		٧	٣٦
		٨	٢

عوده إلى الجليل

تنبيه تلاميذه في شأن اتباعه

آية صيد بطرس السمك

تسكينه العواصف

ابراؤه المجنون الذي كان فيه لجاون

عوده إلى كفرناحوم

شفاؤه المفلج

دعوة متى العشار

ابراؤه ابنة يائرس والمبتلاة بنزيف الدم

ابراؤه اعميين

ابراؤه المجنون الأخرس

الفصح الثاني

ابراء المفلج على بركة الضان

فرك تلاميذه السنابل يوم السبت

ابراؤه اليد اليابسة يوم السبت

ابراؤه مرضى كثيرين ووداعته

اختياره رسله

خطبته على الجبل

ابراؤه الأبرص

ابراء عبد قائد المئة

اقامة ابن الأرملة في نائين

مجيء تلاميذ يوحنا إلى المخلص

المخلص وسمعان والمخاطبة

بذل بعض النساء المال في خدمته

أقوال وأفعال

متى	مرقس	لوقا	يوحنا
ف عد	ف عد	ف عد	ف عد
٣ ٢٠			
١٢ ٢٢	٣ ٢٢	١١ ١٤	
١٢ ٣٠			
١٢ ٣٩			
١٢ ٤٢			
١٢ ٤٣			
١٢ ٤٥		٨ ٢٠	
١٣ ٣	٤ ٢	٨ ٤	
٥ ١٥	٤ ٢١	٨ ١٦	
١٣ ٢٤			
١٣ ٣١	٤ ٣٠		
	٤ ٢٦		
١٣ ٣٣			
١٣ ٤٤			
١٣ ٥٣	٦ ١		
٩ ٣٥	٦ ٧	٩ ١	
١٤ ١	٦ ١٤	٩ ٧	
١٤ ١٣	٦ ٣٠	٩ ١٠	٦ ١
١٤ ٢٢	٦ ٤٥		٦ ١٦
			٦ ٢٢
١٥ ١	٧ ١		
١٥ ٢١	٧ ٢٤		
	٧ ٣٢		

خروج ذويه ليمسكوه
 ابرأؤه المجنون الأعمى والأخرس
 التجديف على الروح القدس
 ذكره آية يونان النبي
 ذكره أهل نينوى ومملكة سبا
 الروح النجس اذا خرج من الانسان
 قول المرأة له طوبى للبطن الذي حملك
 مثل الزرع
 قوله لا يوقد سراج ويوضع تحت مكيال
 مثل الزوان
 مثل حبة الخردل
 الزرع الذي يطول
 مثل الخمير
 مثل الكنز والدرّة والشبكة
 رجوع يسوع إلى الناصرة
 خطابه للرسلى وارسالهم
 موت يوحنا المعمدان
 تكثير الخبزات الخمس
 هرب المخلص من التكريم ومشيه على الأمواج
 وعده بالاونخاريسيا

الفصح الثالث (يوحنا ٤٦)

الطهارة تقتضي ان تكون داخلية
 خبر الكتعانية في نواحي صور
 ابراء الأصم الأخرس

أقوال وأفعال							
متى	مرقس	لوقا	يوحنا	متى	مرقس	لوقا	يوحنا
ف عد	ف عد	ف عد	ف عد	ف عد	ف عد	ف عد	ف عد
١٥ ٣١	٨ ١			١٥ ٣١	٨ ١		
١٦ ١	٨ ١١			١٦ ١	٨ ١١		
١٦ ٥	٨ ١٤			١٦ ٥	٨ ١٤		
	٨ ٢٢				٨ ٢٢		
١٦ ١٣	٨ ٢٧	٩ ١٨		١٦ ١٣	٨ ٢٧	٩ ١٨	
١٦ ٢١	٨ ٣١	٩ ٢٢		١٦ ٢١	٨ ٣١	٩ ٢٢	
١٧ ١	٩ ١	٩ ٢٨		١٧ ١	٩ ١	٩ ٢٨	
١٧ ١٤	٩ ١٣	٩ ٣٧		١٧ ١٤	٩ ١٣	٩ ٣٧	
١٧ ٢١	٩ ٢٩	٩ ٤٤		١٧ ٢١	٩ ٢٩	٩ ٤٤	
١٧ ٢٣				١٧ ٢٣			
١٨ ١	٩ ٣٢	٩ ٤٦		١٨ ١	٩ ٣٢	٩ ٤٦	
١٨ ٦	٩ ٤١			١٨ ٦	٩ ٤١		
١٨ ١٢		١٥ ١		١٨ ١٢		١٥ ١	
١٨ ١٥				١٨ ١٥			
١٨ ٢١				١٨ ٢١			
		٩ ٥١	٧ ٢			٩ ٥١	٧ ٢
		٩ ٥٢				٩ ٥٢	
		١٧ ١٢				١٧ ١٢	
			٧ ١١				٧ ١١
			٨ ١				٨ ١
			٨ ٢				٨ ٢
			٩ ١١				٩ ١١
			١٠ ١				١٠ ١
		١٠ ١				١٠ ١	
		١٠ ٢١				١٠ ٢١	
١١ ٢٥				١١ ٢٥			

أقوال وأفعال			
متى	مرقس	لوقا	يوحنا
ف عد	ف عد	ف عد	ف عد
		٢٥ ١٠	
		٣٨ ١٠	
		١ ١١	
		٣٧ ١١	
		١ ١٢	
	١ ١٣		
٣٧ ٣٣		٢٣ ٣	
		١ ١٤	
			٢٢ ١٠
	١ ١٦		
		١٩ ١٦	
		٢٠ ١٧	
		١ ١٨	
١ ١٩	١ ١٠	١٨ ١٦	
١٣ ١٩	١٣ ١٠	١٥ ١٨	
١٦ ١٩	١٧ ١٠	١٨ ١٨	
٢٧ ١٩	٢٨ ١٠	٢٨ ١٨	
١ ٣٠			
			١ ١١
			٤٦ ١١
١٧ ٢٠	٣٢ ١٠	٣١ ١٨	

أقوال وأفعال							
متى	مرقس	لوقا	يوحنا				
ف عد	ف عد	ف عد	ف عد				
٢٠ ٢٠	٣٥ ١٠			طلب ابني زبدي ان يجلسا عن يمينه			
٢٩ ٢٠	٤٦ ١٠	٣٥ ١٨		ويساره في ملكه			
		١ ١٩		ابراؤه الأعمى في أريحا			
		١١ ١٩		دخوله بيت زكا وإيجابه الخلاص له ولأهل بيته			
	٣ ١٤	١ ١٢		مثل الامنان			
٦ ٢٦	٣ ١٤		٢ ١٢	مضى يسوع إلى بيت عنيا عند العازر			
				وليمة سمعان له			
١ ٢١	١ ١١	٢٩ ١٩	١٢ ١٢	دخول يسوع أورشليم يوم الأحد من			
١٧ ٢١	١١ ١١			سبت الآلام			
١٧ ٢١	١٢ ١١			رجوعه إلى بيت عنيا			
١٢ ٢١	١٥ ١١	٤٥ ١٩		الاثنين عوده إلى أورشليم ولعنه التينة			
	١٩ ١١			طرده الباعة من الهيكل			
٢٠ ٢١	٢٠ ١١			عوده إلى بيت عنيا			
٢٣ ٢١	٢٧ ١١	١ ٢٠		يوم الثلاثاء رؤيتهم التينة يابسة			
٢٨ ٢١				سؤالهم له بأي سلطان يفعل هذا			
٢٣ ٢١	١ ١٢	٩ ٢٠		مثل الابنين اللذين طلب ابوهما ان يذهبا إلى			
				الكرم			
١٥ ٢٢	١٣ ١٢	٢ ٢٠		مثل عملة الكرم			
٢٣ ٢٢	٢٨ ١٢			مثل المدعويين إلى العرس			
٣٤ ٢٢	٣٥ ١٢	٤١ ٢٠		سؤال الهيروديسين له عن اداء الجزية			
٤١ ٢٢	٣٨ ١٢	٤٥ ٢٠		سؤال الصدوقيين في امرأة أخذا سبعة أخوة			
١ ٢٣				وكلامه في القيامة			
				تعليمه ما أعظم الوصايا			
				قوله ان المسيح بن داود ورثه			
				توبيه الكتبة والفريسيين			

أقوال وأفعال			
متى	مرقس	لوقا	يوحنا
ف عد	ف عد	ف عد	ف عد
	١٢ ٤١	٢١ ١	
٢٤ ١	١٣ ١	٢١ ٥	
٢٥ ١			
٢٥ ١٤			
٢٥ ٣١			
			١٢ ٢٠
٢٦ ١			
٢٦ ٣	١٤ ١	٢٢ ١	
٢٦ ١٤	١٤ ١٠	٢٢ ٣	
	١٤ ٧	٢٢ ١٤	١٣ ١
٢٦ ٢٦	١٤ ٢٢	٢٢ ١٩	
٢٦ ٣١	١٤ ٨	٢٢ ٢١	١٣ ٢١
		٢٢ ٤٢	١٣ ٢٣
			١٣ ٣١
٢٦ ٣١	١٤ ٢٧	٢٢ ٣١	١٣ ٣٦
			١٤ ١٦
			١٧
٢٦ ٣٦	١٤ ٣٢	٢٢ ٣٩	١٨ ١

كلامه في الأرملة وفلسيها
نبوته على خراب أورشليم
مثل العذارى العشر
مثل الوزنات
كلامه في الدينونة الأخيرة
رغبة بعض اليونان ان يروا المخلص
نبوه المخلص عن دنو موته
الاربعاء المؤامرة على المخلص
وعد يهوذا بتسليمه

الفصح الرابع

الخميس اكله خروف الفصح
غسله أقدام رسله
ابداعه الاوخرارستيا
قوله ان واحداً منهم يسلمه
كشف المسيح عنه بالخبز المبلول
مجادلة الرسل في أيهم الأكبر
وصيته الجديدة ان يحب بعضهم بعضاً
هرب الرسل وانكار بطرس
خطبته بعد العشاء السري
صلاته لأجل الرسل

آلامه

خروجه إلى بستان الزيتون

أقوال وأفعال		متى		مرقس		لوقا		يوحنا	
		ف		ف		ف		ف	
صلاته وعرقه دماً		٢٦	٣٧	١٤	٣٢	٢٢	٤١		
القبض عليه		٢٦	٤٧	١٤	٣٣	٢٢	٤٧	١٨	٢
أخذه إلى حنان								١٨	١٣
اشخاصه أمام قيافا		٢٦	٥٧	١٤	٥٣	٢٢	٥٤	١٨	١٥
سؤاله ولطمه								١٨	١٩
الشهود الكذبة عليه		٢٦	٦٠	١٤	٥٥				
قوله أنه ابن الله والحكم عليه		٢٦	٦٣	١٤	٦١				
إنكار بطرس وتوبته		٢٦	٦٩	١٤	٦٦	٢٢	٥٥	١٨	٢٥
ما قاساه مدة الليل						٢٢	٦٣		
الجمعة تشاور رؤساء الكهنة والشيوخ ليقتلوه		٢٧	١	١٥	١	٢٢	٦٦		
اقتياده إلى بيلاطوس		٢٧	٢	١٥	١	٢٣	١	١٨	٢٨
خنق يهوذا نفسه		٢٧	٣						
سؤال بيلاطوس له وجوابه		٢٧	١١	١٥	٢	٢٣	٢	١٨	٢٩
أخذه إلى هيرودس						٢٣	٦		
تفضيل بارابان عليه		٢٧	١٥	١٥	٦	٢٣	١٣	١٨	٣٩
جلده وتكليمه بالشوك		٢٧	٢٦	١٥	١٥			١٩	١
قول بيلاطوس هوذا الرجل								١٩	٤
سؤال بيلاطوس ثانية له								١٩	١٢
الحكم عليه		٢٧	٢٦	١٥	١٥	٢٣	٢٢	١٩	١٣
تسخير سمعان القيرواني		٢٧	٣٢	١٥	٢١	٣٢	٢٥		
النساء اللواتي أتبعنه						٢٣	٢٧		
صلبه		٢٧	٣٢	١٥	٢٢	٢٣	٣٣	١٩	١٧
وقوف مريم عند صليبه مع النسوة		١٩	٢٥						
الشتائم له		٢٧	٣٩	١٥	٢٩	٢٣	٢٥		
إيمان اللص الصالح به						٢٣	٤٠		

أقوال وأفعال

متى	مرقس	لوقا	يوحنا
ف عد	ف عد	ف عد	ف عد
٢٧ ٥٠	١٥ ٣٧	٢٣ ٤٦	١٩ ٢٨
٢٧ ٤٥	١٥ ٣٣	٢٣ ٤٤	
٢٧ ٥٤	١٥ ٣٩	٢٣ ٤٧	
٢٧ ٥٧	١٥ ٤٢	٢٣ ٥٠	١٩ ٣٨
٢٧ ٦٢		٢٣ ٥٦	
	١٦ ١		
٢٨ ١	١٦ ٢	٢٤ ١	٢٠ ١
٢٨ ٢	١٦ ٥	٢٤ ٤	
		٢٤ ١٢	٢٠ ٣
	١٦ ٩		٢٠ ١١
٢٨ ٣			
٢٨ ١١		٢٤ ٣٤	
	١٦ ١٢	٢٤ ١٣	
		٢٤ ٣٦	٢٠ ١٩
			٢٠ ٢٤
			٢١ ١
٢٨ ١٦			
	١٦ ١٤	٢٤ ٤٤	

أنفاسه وكلماته الأخيرة

حصول الظلام والآيات الأخرى

ما كان من القائد وغيره

طعن جنبه بالحرية

دفنه

حراس القبر

شراء النساء الطيبوب

السبت راحة ومشترى النساء الطيب مساءً

(تمجيده)

أحد القيامة وذهاب النساء إلى القبر

ظهور الملائكة

ذهاب بطرس ويوحنا إلى القبر

ظهوره للمجدلية

ظهوره للنسوة

الحراس ورؤساء الكهنة

ظهوره لبطرس

ظهوره للمنطلقين إلى عمواس

ظهوره للرسل العشرة

ظهوره لتوما ولعشرة من الرسل

ظهوره على بحيرة طبرية وتقليده الرئاسة

لبطرس

ظهوره على جبل في الجليل

ظهوره في أورشليم وكلامه الأخير

صعوده إلى السماء

كراسة الرسل

خاتمة بشارة يوحنا

		١٥ ٢٤	١٩ ١٦	
		٢٠ ١٦		
٣٠ ٢٠				
٢٤ ٢١				

فمن هذا الجدول يستبين ما قاله المخلص وعمله مما ذكره الإنجيليون. وذلك من بدء سنة ٣٠ للتاريخ العامي إلى سنة ٣٤ منه على الأظهر، فإنه قد اعتمد بعمودية يوحنا في ٦ كانون الثاني سنة ٣٠ م وقد اعتادت الكنيسة من أقدم الأعصر أن تعيد لذلك في اليوم المذكور. وقد مرّ على كرازته أربعة أعياد للفصح كما رأيت وضُلب في الرابع منها. فأسلوب نسقها يبيّن زمان حدوثها باحتمال لا توكيد.

عد ٥٠٠

شهادة أعداء يسوع المسيح له

قد شهد الله ليسوع المسيح أنه ابنه ورسوله إلى العالم بالنبوات التي فاه بها رجال الله من أقدم الدهر، وبالآيات التي أجراها على يده والتي يستحيل على البشر صنعها لا سيما آية قيامته من بين الاموات، وبالمعجزات التي صنعها رسله وأنصاره. وقد أثبتنا حقيقة هذه الآيات باثباتنا صحة أسفار العهد الجديد المشتملة على أخبارها. ومن هذه الآيات تبديل هيئة العالم وهداية الناس إلى الإيمان الصحيح بواسطة اثني عشر صياداً أميين اندروا العالم بأمور جرت من أمٍ قريب. وكان لها كثيرون شهدوا عيانين فانتصروا على ملوك وأراكنة وولاة وشعوب، وجعلوهم يتركون عبادة الأوثان المتأصلة فيهم وتقليدات آبائهم وأجدادهم التي تملكت فيهم ليتشبثوا بدين يكفهم عن ملاذهم وأميالهم وأرباحهم، ويأمرهم بما تنفر منه الطبيعة كمحبة الأعداء ومجانبة الانتقام والانقطاع إلى الله بالتقشّف والورع، وكبت الأهواء النفسانية حتى ضحى ملايين منهم بحياتهم حباً بهذا الدين. كل ذلك شهادة صريحة من الله بأنّ المسيح ابن الله ورسوله ومصلح العالم ومخلصه. ولم يكتفِ الله بهذه الآيات بل نرى أعداء المخلص أنفسهم اضطرتهم الحقيقة إلى

التصريح بها منها شهادة بيلاطوس التي تكلمنا فيها بإسهاب في عد ٤٧٨، وأثبتنا صحتها بشهادة كثيرين من الآباء والعلماء وبسطنا نسخة منها ونزيد ذلك الآن بياناً.

فلا مراء أن كتب بيلاطوس لطيباريوس ما كان في أمر المسيح عملاً بعادة الولاية الرومانيين بل كل الولاية أن يطلعوا حكومتهم على ما يحدث من الأمور المهمة، فالقديس يوستينوس كتب محاماته الأولى بعد مئة سنة من موت المخلص. وأورد فيها شهادة بيلاطوس بنوع دال حقيقة على تلك الشهادة كانت بيده، وإنها مثبتة حقيقة دعواه. ويظهر أن بيلاطوس ذكر فيها آيات المخلص، وأسرار حياته لأن هذا القديس أوردتها ليثبت تمام نبوءات الانبياء على المسيح قائلاً لعمال المملكة هذا لا شك فيه ويمكنكم الاطلاع عليه في العرائض المرفوعة في أيام بيلاطوس البنطي. وأعاد بعد ذلك كلامه قائلاً: «ويمكنكم الاطلاع على أنه فعل هذه الآيات في العرائض المرفوعة في أيام بيلاطوس البنطي». واستشهد بها تروتوليانوس (في محاماته الأولى) أيضاً محققاً صحة هذه العرائض على سعة اطلاعه قائلاً: «إن كل هذه الأمور المقالة في المسيح رفع بيلاطوس أخبارها إلى طيباريوس، وكان بيلاطوس مسيحياً في ضميره». وذكر اوسابيوس هذه العرائض (في تاريخه البيعي ك ٢ فصل ٢) فقال: «لما كانت العادة القديمة أن يُنبئ عمال الأقاليم العاهل بكل ما يحدث في ولايتهم لئلا يُخفى عليه شيء، أخبر بيلاطوس الملك بقيامه مخلصنا يسوع المسيح، وباشتعار أمره في فلسطين كلها مبيئاً أنه سمع أخبار آياته من أفواه كثيرين. وبما أنه عاد إلى الحياة بعد موته فآمن كثيرون بأنه إله. وذكروا أن طيباريوس رفع رسالة بيلاطوس إلى الندوة... إذ كان للرومانيين سنة قديمة بأن لا يعتبروا إلهاً إلا من تصادق الندوة على اعتباره كذلك. فلم تحل الندوة رسالة بيلاطوس محل القبول إلا أن طيباريوس استمر على رأيه حتى يقال إنه لم يُبد ما يصد انتشار تعليم المسيح في المملكة كلها». وعليه فإن كانت عرائض بيلاطوس الأصلية قد سطا عليها كرور الأيام، فما رواه يوستينوس وتروتوليانوس يقوم مقامها ويُحسب كخلاصة صحيحة لها.

ومن شهادة الخصوم نذكر شهادة يوسفوس الحبر اليهودي على أتمته في كتابه الثامن عشر (فصل ٤) حيث قال على ما ترجم القديس ايرونيμος في كتابه في المشاهير البيعيين، وكما ترى في كتابه الآن «كان في هذا الزمان يسوع الذي كان

رجلاً حكيماً هذا إن ساغ أن نعتبره رجلاً بالاطلاق (كأنه يقول يلزم أن نسميه إلهاً) لأنه كان يعمل أعمالاً عجيبة ومعجزة. وكان يعلم من أحبوا أن يعلموا الحق فتنبعه كثير من اليهود بل من الأمم أيضاً، وآمنوا أنه المسيح. فشكاه بعض وجهاء أمتنا حسداً أمام بيلاطوس فصلبه. ومن كان تبعه في حياته لم يتركه بعد مماته لأنه ظهر لهم حياً. وقد قام في اليوم الثالث كما تنبأ، وعن الانبياء القديسين، وعن أنه يصنع معجزات أخرى كثيرة، والمسيحيون الذين تراههم الآن قد أخذوا اسمهم عنه ونُسبوا إليه».

وقد أثبت كثير من القدماء والمتأخرين أن هذه الشهادة خطتها يد يوسفوس منهم اوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين الذي ذكر هذه الشهادة مرتين في تأليفه التي كتبها بعد يوسفوس بقرنين. والقديس ايرونيموس الذي ترجمها في كتابه في المشاهير البعدين. ثم بولينوس وسيستوس السيني والكردينالان بارونينوس وبلرمنينوس واوسبيوس وغيرهم. ولم يبق على صحة هذه الشهادة نكير إلا في القرن السابع عشر إذ نكرها بعض البرتستانت والجاحدين، وزعموا أن المسيحيين القدماء دسوها في كتاب يوسفوس. وقد رد نطاليس اسكندر (في آخر المجلد الثاني من تاريخ العهد القديم) زعم هؤلاء بحجج راهنة وأدلة قاطعة منها أن هذه الشهادة نراها ثابتة في جميع نسخ كتب يوسفوس مخطوطة كانت أو مطبوعة. ومنها أن كتب يوسفوس لم تكن في أيدي المسيحيين وحدهم بل في أيدي اليهود والأمم أيضاً، فأنتى يتيسر لهم هذه الزيادة عليها ولا ينكشف أمرها. ومنها أن يوسفوس حقق ودقق في إيراد تاريخ زمانه، وذكر كل ما كان مهماً فيه، فلا يغفل عن ذكر يسوع الناصري وقد ملأت أعماله وأخباره اليهودية، وانتشر تعليمه في الأقاصي بواسطة رسله وتلاميذه. وقد ذكر يوسفوس يوحنا المعمدان ويعقوب الرسول فلا يصدّق أنه أغفل ذكر المسيح. ومنها أن سياق كلامه وذكره بيلاطوس، ومطابقة ألفاظ تعبيره وأسلوبه في هذه الشهادة لباقي كلامه لا تدع محلاً للريب في أن هذه الشهادة مدسوسة في كلامه. بل قد خطتها يده كما أثبت عدا من ذكرنا آنفاً القديس ايسيدورس الفرمي في ك ٤ رسالة ٢٢٥ وشدرانوس في مختصر تاريخه ونيكوفورس كاليستوس ك ١ راس ٣٩ وسويدا في المعجم في كلمة يوسفوس. وقد رد نطاليس اسكندر في المحل المذكور كل الحجج التي تدرّع بها من أنكروا صحة هذه الشهادة، هذا في شهادة يوسفوس. ونجتزئ من شهادات المؤلفين

الوثنيين بذكر ما يأتي: قال سواتونيوس في ترجمة الملك كلود (فصل ٢٥ أنه نفى من روما اليهود الذين كانوا يبدون القلق بسبب المسيح. وقال تاسيتوس (في ك ١٥ من تاريخه راس ٤٤): «إنَّ المسيح حكم عليه ييلاطوس البنطي بالعذاب على عهد طيباريوس الملك» وكذا قال بلين في رسالته إلى ترايانوس ولمبريديوس في ترجمة اسكندر ساويروس.

عد ٥٠١

شهادة الآثار القديمة للمسيح وتعليمه

لا مشاحة أنه حيث وُجد مسيحيون وُجدت كنائس ومعابد بعضها يتصل بالقرن الأول ولا تخلو كنيسة مما يدل على آلام المسيح كصليب. او على ابداعه سرّ اوخارستيا كصورة كأس. وفي روما مخابئ عديدة تحت الأرض تجد فيها معابد كان المؤمنون في القرون الأولى يختبئون فيها للصلوة، والاجتماعات الدينية، وعليها شهادات ناطقة بأنَّ المسيحيين وقتئذ كانوا يعتقدون أنَّ المسيح ابن الله، ويباشرون الأسرار التي رسمها. واليهودية وأورشليم خاصة مملأت من تذكارات الخلص منها المغارة التي وُلد فيها، والجلجلة التي صُلب عليها، وبستان الزيتون الذي صلّى فيه. وقد اعتاد المؤمنون من صدر النصرانية إلى اليوم أن يحجّوا إلى هذه الأماكن من كل قطر. فمنذ أيام بولس الرسول كان يأتي أناس من المؤمنين إلى أورشليم (ابركسيس فصل ٢٠ عد ٣ و ٤). وفي سنة ٢١٢ أتى فرميليان أسقف قيصرية الكبادوك واسكندر أسقف فلادلفيا لزيارة أورشليم، واوريجانوس اعتزل في اليهودية سنة ٢١٥، والملكة هيلانة تولّت سنة ٣٢٦ على الأماكن المقدّسة باسم قسطنطين، وجددت فيها المعابد العظيمة. والقديس ايرونيμος قضى سنين فيها أي من سنة ٣٨٥ إلى سنة ٤٢٩ ولم تنقطع العبادة بالحجّ إلى الأماكن المقدّسة إلى اليوم. فليقل الجاحدون لأي الحقائق بيّنت في المعمور كله، وفي كل عصر مثل الإيمان بالمسيح وصدق إنجيله الكريم وليخجلوا بكفرهم وجنونهم.

قد أتخفتنا المعابد والمخابئ التي تحت الأرض في روما وغيرها بيّنت لا ترد على صحة الدين المسيحي وصدق تعليم المسيح، من ذلك أنَّ في مقبرة كنيسة القديس بروتستا في روما صورة اعتماد الخلص من يوحنا تمثّل منذ القرن الثاني المسيح

والمعمدان واقفين وحمامة على شجرة متحفزة لتطير نحو المخلص. (ذكر ذلك بارات في مخابئ روما مجلد ١ صفحة ٨٠ وكاروشي في تاريخ الصناعة المسيحية مجلد ٢ صفحة ٣٩ عد ١) وفي مخبأ كنيسة القديسة لوسيا صورة أقدم من الأولى تمثل المخلص خارجاً من مياه الأردن والحمامة تستقر على رأسه، والمعمدان آخذاً بيده ليسعه على الخروج من النهر. وفي مخبأ كنيسة القديس بروتستا أيضاً صورة النازفة نُقشت في القرن الثاني تمثل هذه المرأة وقد لامست طرف ثوب المسيح وهي جاثية، ويسوع واقف بين تلاميذه. (ذكرها كاروشي في كتابه المذكور صفحة ٣٨ عد ٢). وكان المسيحيون الأولون يعرفون يونان لذكر المسيح له كما روى متى ولوقا. ولذلك نرى صورته في مخابئ كنيسة القديسة لوسيا نُقشت منذ القرن الأول أو منذ بدء القرن الثاني. (كاروشي في كتابه المذكور مجلد ٢ صفحة ٢ دي روسي في روما تحت الأرض مجلد ١ صفحة ١٣). وتجد صورة سجد الجوس للمخلص في مخبأ دوميتيل منقوشة في القرن الثاني (ذكرها كاروشي أيضاً مجلد ٢ صفحة ٣٠). وفي مخبأ القديس سيرياك صورة العذارى العشر الخمس الحكيمات والجنس الجاهلات تمثل المسيح واقفاً وعليه ثوب أبيض ووشاحا ويمناه مرتفعة يظهر أنه يستدعي الحكيمات الخمس ليأتين إليه ومصايجهنّ مُشعلة، وعن شماله الجاهلات الخمس ومصايجهنّ منطفئة وهنّ حزينات، والمخلص لا يلتفت إليهنّ. وهذه الصورة منذ القرن الرابع، ولكن وُجدت كذلك صورة أخرى من القرن الثاني في مخبأ كنيسة القديسة اغنيسا. وقد ذكر ذلك دي روسي (في خلاصة الأمور القديمة المسيحية في تشرين الأول سنة ١٨٦٣). ولافور (في مجلد الأشياء القديمة في كانون الأول سنة ١٨٨٠). وكاروشي (في كتابه المذكور مجلد ٢ صفحة ٦٤).

وفي مخبأ كنيسة القديس كاليستوس صورة تمثل المسيح في وسط العلماء كما ذكر لوقا ترى فيها المخلص جالساً على كرسي، ويمناه مبسوطة كمن يتكلم وفي يسراه سفر يقلبه، والعلماء من حوله. وترى صورة تحويل المخلص الماء خمراً في عرس قانا كما ذكر يوحنا، منقوشة على ألحاد قديمة في مقبرة للمسيحيين في اسكندرية مصر (ذكرها دي روسي في المجلة المذكورة في تشرين الأول سنة ١٨٦٥). وتجد صورة السامرية في حائط مخبأ دوميتيل تمثل هذه المرأة واقفة على بئر وحدها. وصورة أخرى في مخبأ كنيسة القديس بروتستا تمثلها مقدمة للمخلص الواقف أمامها صحناً طافحاً بالماء، والصورتان منذ القرن الثاني. وذكرهما بوتادي

في التماثيل والصورة المقدسة (مجلد ٢ صفحة ٦١ ولافور في المجلة المذكورة في أيلول سنة ١٨٨٠).

وقد وُجد لقيامة العازر من القبر نحو عشرة صُور، وجميعها من القرون الأولى. ومن شاء زيادة على هذه البيّنات الدامغة فليطالع في تأليف الأب فيكورو في العهد الجديد، والاكتشافات الحديثة للآثار القديمة الكتاب الرابع برمته.

على أننا لا نشاء أن نهمل ذكر كرة من عقيق نُقش عليها منذ القرن الثاني رموز كتابية عديدة. وقد شرح ما فيها الأب كاروشي سنة ١٨٥٧ م في مجلة التمدن الكاثوليكي وإليك مثلاً منها.



فترى في اليمين صورة المخلص الراعي الصالح حاملاً على منكبيه النعجة الضالّة. وفي الوسط صورة الصليب على هيئة حرف التاء في اليونانية واللاتينية. وفي أعلى الصليب حمامة بقمها غصن الزيتون إشارة إلى البشرى بالقيامة مأخوذة عن تبشير الحمامة نوح بانقضاء الطوفان. والصليب مركّز على حمل رمز إلى المسيح حمل الله. وإلى المؤمن الذي هو الحروف الذي ينشده المخلص وبين الراعي الصالح والصليب صورة سفينة نوح رمزاً إلى الكنيسة. وفي أعلاها الصليب على شبه حرف التاء، وفي الشمال صورة مرساة رمزاً إلى الرجا الذي قال الرسول إنه المرسى الأمين، وبجانبه سمكتان إشارة إلى المسيح اس رجائنا. وعلى دائرة الكرة حروف يونانية تتألف منها كلمة يخنوس، ومعناها السمك. والكناية عن المسيح بالسمك، وبهذه الحروف كانت مطروقة كثيراً من المؤمنين في العصر الأول. فإنَّ

الحروف الخمسة المؤلفة منها الكلمة إذا جعل كلاً منها أول كلمة تألف منها خمس كلمات يونانية يسوس خريستوس ثاو ايوس أي المسيح ابن الله المخلص.

ومن شواهد الآثار الصليب الحقيقي الذي صُلب عليه المخلص وقد وجدته الملكة هيلانة. وشهد بذلك كثير من الآباء والعلماء منهم القديس كيرلس الأورشليمي الذي كان معاصراً هذا الاكتشاف، لأن القديسة هيلانة الملكة تولت الأماكن المقدسة سنة ٣٢٦ م والقديس كيرلس شهد لهذا الاكتشاف في كتابه في التعليم المسيحي سنة ٣٤٧ م ثم في رسالته إلى الملك قسطنس بن قسطنطين سنة ٣٥١ م والقديس امبروسوس (الذي توفي سنة ٣٩٧ م في كلامه على وفاة توادوسوس). وفم الذهب (توفي سنة ٤٠٧ م) في تفسير بشارة يوحنا وروفينوس (توفي سنة ٤١٠ م) في تاريخه البيعي ك ١ وسليسيوس ساويروس (توفي سنة ٤١٠ م) في تاريخه البيعي (ك ٣ ف ٣٤) والقديس بولينوس (توفي سنة ٤٣١ م) في رسالته ٣١ وسقراط (توفي سنة ٤٤٠ م) في تاريخه ك ١ ف ١٧ وسوزومانوس (توفي سنة ٤٥٠ م) في تاريخه ك ٢ ف ١ وتاودوريطوس (توفي سنة ٤٥٨ م) في ك ١ ف ١٨ إلى غيرهم من الملافنة. وقد أنبأنا روفينوس والقديس كيرلس الأورشليمي وغيرهم أنه منذ سنة ٣٧٩ م كان يحتفل في كنيسة الجلجلة في أورشليم لتذكّر وجود الصليب المقدس في ١٣ ايلول ومنذ وجدان هذا الكنز الثمين أخذ المؤمنون في كل صقع يغنمون الذخائر منه ويبدون له مزيد الاجلال إلى اليوم.

ومن هذه الآثار الفرجة (أو الشق) التي تُرى إلى اليوم في صخر الجلجلة. وقد نُزّلها القديس كيرلس الأورشليمي منزلة بيّنة قاطعة على صحة ما جاء في الأناجيل عن تشقق الصخور لدن موت المخلص قائلاً (في التعليم): «لا تنكر المصلوب وإن كابرت أبكمتك الجلجلة، وهذه الفرجة المقدسة الظاهرة إلى اليوم، والمثبتة حتى الآن كيف تصدّعت الصخور لموت المخلص»، وقد ذكرها القديس لوسيان الكاهن الانطاكي الذي فاز باكليل الشهادة في أيام ديوكليتيانوس. وعاش هذا القديس من سنة ٢٢٠ إلى سنة ٣١٢ م. وروى شهادته روفينوس (في تاريخه البيعي ك ٩ فصل ٦) وأوسابيوس (في تاريخه ك ٩ فصل ٢). وإليك ما قال في هذا الشأن بعض الجواله في هذا العصر من المشهود لهم بالعلم وأصالة الرأي. قال السيد ميزلن في كتابه الأماكن المقدسة (مجلد ٢ فصل ٢٣) إن في القرب من مركز الصليب فرجة واسعة عميقة ممتدة في الصخر إلى أسفل الجلجلة. وقال مندرل البروتستنتي

الشهير بصدقه: أما كون هذه الفرجة حدثت عند موت المخلص فالتقليد وحده أن يشبهه، وأما كون الصناعة أو أيدي البشر لا تقدر على ذلك فيكفي أن يكون للإنسان عينان فيتيقنه» وروى أديسون Adisson العالم الإنكليزي الشهير (في كتابه الموسوم بالدين الطبيعي مجلد ٢) إن رجلاً إنكليزياً كان يجد في أن يندد بما يعلمه الكهنة الكاثوليكيون في شأن الأماكن المقدسة. فأتى أورشليم ولما أخذ يتفحص الفرجة المذكورة بتدقيق وتروى فحص عالم بالعلوم الطبيعية قال لأحد أصحابه قد ابتدأت أكون مسيحياً. ففحصي الطبيعي والهندسي أداني إلى التيقن بأن هذه الفرجة وهذا التشقق يخالفان شرائع الطبيعة، وعليه فأرى رأياً جلياً وعلمياً أن لا يمكن أن ينشأ ذلك إلا عن آية ليس للطبيعة أو للصناعة أن تأتي بمثلها. وأشكر الله الذي ساقني إلى هنا لأعتقد لاهوت المسيح (ذكره كاران في كتابه في الأرض المقدسة) ولعل هذا الإنكليزي هو مندرل الذي ذكره ميزلن.

وقال العلامة دي سولسي (في معجم الأمور القديمة): «إني تقصيت في هذه الفرجة بمعظم الجدد فوجدتها عمودية وهي بهيئة خط متعرج من الشرق إلى الغرب ومعظم اتساعها خمسة وعشرون سنتيمتراً، ومن الظاهر للعيان أنها ليست عرقاً طبيعياً بين طبقتين متوازيتين، وتضيق تدريجاً من أعلى إلى أسفل». وقال الكاتب الشهير بوجولا: «إنني ممن هم أهل ليشهدوا أن الفرجة التي في صخرة الجلجلة ليست طبيعية، بل تخالف العروق والشقوق التي تكونها الطبيعة». فأين السبيل إلى إنكار تاريخ المخلص مع كل ما أشرنا إليه من الحجج والشواهد والآثار؟ قال القديس كيرلس ما انتحله بعده شاتوبريان: «إن امتري أحد في الأناجيل في أورشليم فلا يبقى شيء أياً كان مصداقاً.

فما أتينا به في الكلام على صحة الأسفار المقدسة وحقيقتها وعلى شهادة أعداء المسيح له وما ذكرناه هنا من هذه الآثار، كل ذلك بينات قاطعة دامغة علمية تبكم كل ملحد، وتفحم كل مكابر في حقيقة الدين المسيحي، وكل أسفار العهد الجديد. وهل من حقيقة تاريخية أو دينية أو علمية يقام على اثباتها أكثر وأجلى واوكد من هذه الأدلة الساطعة؟ لعمرك أنه يستحيل على كل دهري أو معتزلي أو عقلي أو كافر، أياً كان نوع كفره إذا خلا إلى نفسه أن لا يرى جلياً حقيقة ما نحن له مثبتون، إلا أن يكونوا ممن قيل فيهم لهم عيون ولا يبصرون وعقول ولا يفهمون وآذان ولا يسمعون.

الفصل الثاني

العدراء والرسل

عد ٥٠٢

العدراء والدة الله

قد مرّ في عد ٤٩٦ أنّ مريم العدراء هي من سبط يهوذا من نسل داود كيوسف. واعتمدنا هناك قول من أثبتوا أنّ مريم بالنسبة إلى حنه أمها هي بنت حنه بنت ماثان إلى سليمان بن داود. وبالنسبة إلى أبيها يواكيم المسمى أيضاً هالي هي بنت هالي بنت مطات إلى ناتان بن داود. وقد جاء في الإنجيل المعروف بإنجيل ميلاد العدراء وليس هو من الأسفار القانونية أنها قدمت إلى الهيكل منذ نعومة أظفارها، وترتّب فيه وإنّ الكهنة زوجها بيوسف وكان شيخاً مكرماً اختاروه لها بآية أنّ عصاه أزهرت كما أزهرت عصا هرون، فأثر الزواج بها ليكون حارساً لبتوليتها لا ليعيش معها كرجل مع امرأته. فهذه الأخبار لا يمكن تحقيقها على أنه مما لا رية فيه أولاً أنّ الله عصم العدراء منذ الحبل بها من لحاق الخطيئة الأصلية بها. وهذا ثابت بآيات من الكتاب وباجتماع الكنائس الغربية والشرقية عليه بتقليدات ابتدأت منذ صدر النصرانية، ودامت غير منقطعة إلى هذه القرون إلى أن جعل بيوس التاسع هذه القضية من عقائد الإيمان الكاثوليكي بعد استشارة رؤساء الكنيسة غرباً وشرقاً. ثانياً إنّ العدراء نذرت عفتها متبتلة إلى الله ومن عقائد إيماننا الكاثوليكي أنها استمرت بتولاً. وقد قالت للملاك: «كيف يكون هذا وأنا لا اعرف رجلاً». فكأنها تقول قد نذرت وآليت أن لا أعرف رجلاً فكيف أحبل وألدي؟ ثالثاً إنّ لا مرية ولا يجوز الشك في زواجها بيوسف ولكن تساءل الآباء والعلماء أمخطوبة كانت أم مزوجة عند تجسّد المسيح في حشائها. فأيات الكتاب دعته تارة

خطيبة وتارة زوجة وقد وردت فيه أحياناً كلمة خطيبة بمعنى زوجة وبالعكس. فلم ينجل لنا من هذه الآيات القول المفصل. وأما المفسرون فغير مجمعين على قول. قال عامة المفسرين القدماء أنها كانت مزوجة قبل التجسد. وفسروا قول الإنجيل: «قبل أن يتعارفا وُجدت حبلى من الروح القدس» بمعنى «دون أن يتساكنا مساكنة زواجية وُجدت حبلى». وقال بعض الحدباء أنها كانت مخطوبة ولم يُعقد الزواج إلا بعد قول الملاك ليوسف: «لا تخف من أن تأخذ مريم امرأتك». وعندهم أنَّ الآية قبل أن يتعارفا بمعنى قبل أن يسكنوا في بيت واحد. وذكرنا آنفاً قولاً آخر أنَّ العذراء كانت مزوجة قبل التجسد لكنها كانت باقية في بيت أبيها.

زعم بعض الهرطقة منهم امونيوس والبيديوس واتباع سوشينوس أنَّ مريم لم تستمر عذراء بعد ميلاد المخلص، وتمحلوا لزعمهم حججاً منها أنَّ الانجيليين ذكروا ليسوع أخوة وقالوا إنَّ هؤلاء أبناء آخرون ليوسف ومريم. لكن الكنيسة حرمت ضلالهم والآباء والعلماء الكاثوليكيون أجمعوا على مخالفتهم وتزييف مزاعمهم، والتقليد العام والمتصل من صدر النصرانية إلى أيامنا محق غوايتهم والآيات المنزلة لا تخالف هذا التقليد بل تثبته، وكل من له أقل المام باللغة العبرانية أو السريانية يعلم أنَّ كلمة أخ عند اليهود لا تنحصر دلالتها على الشقيق بل تشمل الأقارب الأذنين وذرية الرجل الواحد. فلكلمة **إخوة** (أخ أو أخت) السريانية تأتي أحياناً مرادفة لكلمة نسيب أو قريب في العربية. وقد جاء ذكر أخوة يسوع وأخواته في اثنتي عشرة آية من العهد الجديد ولم يسم أحدهم في أحدها ابن مريم أو ابن يوسف. وبالعكس قد تواترت تسمية يسوع ابن مريم وابن يوسف وتسمية مريم أم يسوع. وقول المخلص من على صليبه: «يا يوحنا هذه أمك ويا امرأة هذا ابنك». صراحةً بأنَّه لا ابن لها إلا يسوع وليست أم يعقوب ويهوذا وسمعان (مرقس ف ٦ ع ٣) الذين يدعون أخوة يسوع، وإلا لأوصاهم بها ولم تكن حاجةً إلى توصية يوحنا ولا إلى أن يوحنا يأخذها إليه. هذا وقد رأينا الإنجيل يثبت أنَّ يعقوب ويوسف أو يوسى أمهم مريم أخرى غير العذراء؛ وفي بشارة متى (ف ٢٧ ع ٥٥ وما يليه) «وكان هناك نساء كثيرات ينظرن عن بعد... وبينهن مريم المجدلية ومريم أم يعقوب ويوسى». وجاء في بشارة يوحنا (فصل ١٩ عد ٢٥) وكانت واقفة عند صليب يسوع أمه وأخت أمه مريم اكلاوبا. وفي رواية أخرى ومريم اكلاوبا) أي حلفى. فهذه هي أم يعقوب ويوسى فليسا ابني العذراء. وقوله أخت أمه معناه

نسيبتها فهو برهان آخر مستقل عن البرهان بأنَّ يعقوب ويوسى هما ممن سماهما العهد الجديد اخوة يسوع. والظاهر من الآيتين المذكورتين أنَّهما ابنا مريم حلفتى لا مريم أم يسوع. ويؤيده أنَّ يعقوب سمِّي مرات بن حلفتى. وورد مرات أنَّ يهوذا أخوه. وجاء في مرقس (فصل ٦ عد ٣)، وفي متى (فصل ١٣ عد ٥٥) أنَّ يوسى وسمعان هما أخوان ليعقوب ويهوذا وهؤلاء الأربعة هم المسمون اخوة يسوع وهم ابنا حلفتى. فإذا ليسوا ابنا مريم ولا ابنا يوسف وربما كان حلفتى أختا يوسف أو نسيبه أو نسيب مريم من جهة أبيهما أو أمهما. فالواضح إذاً من الأناجيل نفسها أنَّ مَنْ تسميهم أخوة يسوع ليسوا إلاَّ انسابه من جهة أبيه أو أمه، وطاش منهم الملحدون.

ومما تذرعوا به لانكار تبطل العذراء قول متى (فصل ١ عد ٢٥): «ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعت اسمه يسوع». لكن هذا التعبير مطروق كثيراً في الأسفار المقدسة ويراد به ديمومة فعل في زمان لا ينقضي بانقضائه. فمن ذلك قول «الكتاب» في الغراب الذي سرحه نوح من السفينة أنه: «لم يعد حتى نشفت المياه». أي لم يعد البتة وقوله (في سفر الملوك الثاني فصل ٦ عد ٣٣) في ميخال ابنة شاوول أنها: «لم تلد حتى ماتت». وقوله في الزبور (مزمو ٩): «اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك تحت موطئ قدميك». فميخال لم تلد بعد موتها ولا بطل جلوس المسيح عن يمين الآب بعد أن وضع أعداءه تحت موطئ قدميه، وكذلك لم يعرف يوسف مريم بعد أن ولدت ابنها. على أنَّ بعضهم لم يفهم كلمة يعرف بمعنى يضاجع، بل بالمعنى الموضوعه له، أي أنَّ يوسف لم يعرف مريم بما هي عليه من رفعة المقام، واختيار الله إياها أمّاً لابنه حتى ولدت ابنها، ودعته يسوع. وأما وصف ابنها بالبكر فلا ينولهم مأرباً فالكتاب يدعو بكرّاً من يولد أولاً، وإن كان وحيداً. وقد أمر في سفر الخروج (فصل ١٣ عد ٣) ان يقدم لله كل بكر، ولا غرو أنَّه يدخل في ذلك الوحيدون أيضاً. وانما أراد الانجيلي بهذا الوصف أن يبين أنَّ ليسوع كل الحقوق التي كانت للأبكار في العهد القديم.

إنَّ العذراء بعد بشارة الملاك لها ذهبت مسرعة إلى زيارة اليصابات أم يوحنا المعمدان نسيبتها، وفي هذا النسب يُحتمل أن تكون أم اليصابات من نسل داود عمة العذراء أو خالتها أو ابنة عمها، ويُحتمل أن تكون حنة أم العذراء من نسل هرون على قول القديس اغوستوس. (في توفيق الأناجيل فصل ٤) ليكون المسيح

من نسل الكهنة والملوك. والسنة (في سفر الأخبار فصل ٢١ عد ١٤) لم تحظر على الكهنة الزواج إلا بمن كان والداها غير عبرانيين. وعندما سمعت الیصابات سلام العذراء ارتكض الجنين في حشاها، وأوحى روح القدس إليها بحبلها بالخلص. فقالت مباركة أنت في النساء ومباركة ثمرة بطنك. من أين لي أن تأتي إلي أم ربي. فنطقت مريم بتسبحتها تعظم نفسي للرب الخ. ثم عادت إلى الناصرة قبل أن تلد الیصابات (لوقا فصل ١ عد ٣٩ وما يليه). ويظهر أن يوسف لم يصحبها بهذه الزيارة لأن الإنجيلي لم يأت يذكره لا عند ذهابها ولا عند أیابها. ولو سمع سلام الیصابات وكلامها لعلم شيئاً من سر التجسد، ولم تأخذه الهواجس ویهتم بتخليتها سراً ولم يحتج أن يكشف له الملاك هذا السر (متى فصل ١ عد ١٩). على أن القديس برنردس رأى يوسف أراد تخلية العذراء تهيباً هاجساً في ضميره، إنه لا يستحق أن یحسب أباً لعمنویل المتجسد في حشاها، وكأنه يقول ما قال بطرس الرسول للمخلص: «تباعد عني يا رب لأنني رجل خاطئ» (لوقا ف ٥ عد ٨). لكن هذا يفترض علمه بسر التجسد وعامتهم ترى أنه كان یجهله حينئذ.

قد ولدت مريم المخلص في ٢٥ كانون الثاني في السنة السابعة أو الخامسة قبل التاريخ العامي بناءً على ما مرّ. وسجد له الرعاة والمجوس بحضرتها. وختنته في اليوم الثامن بعد ميلاده. وقدمته بعد أربعين يوماً إلى الهيكل حيث أنبأها سمعان بروح نبوي ما يكون من سقوط وقيام الكثيرين به، وما سوف تقاسيه من الحزن على آلامه. ثم هربت به إلى مصر فأقامت هناك لا أقل من سنتين وعادت إلى الناصرة. وكانت تمضي به كل سنة في عيد الفصح إلى اورشليم، ولما كان عمره اثنتي عشرة سنة تخلف عنها وعن يوسف، ومضى إلى الهيكل یسمع العلماء ويسألهم. فعاداً یطلبانه ثلاثة أيام متوجعين إلى أن وجدها. أشرنا إلى هذه الأخبار المصروفة في الأناجيل تمة لتاريخ العذراء. ويظهر أن القديس يوسف بعلمها توفاه الله قبل أن يأخذ المخلص في الكرازة إذ لم يذكره الإنجيليون عند ذكر مريم في خبر عرس قانا. ولا ذكر اتيان أمه واخوته إليه وقد أوصى المخلص عند موته یوحنا بأمه. ولو كان يوسف حياً لما احتاج هذه التوصية. وبعد أن أخذ المخلص في التبشير كانت العذراء تصحبه في بعض أسفاره. وكانت معه في العرس الذي دُعي إليه في قانا الجليل. ولما رأت أنه یعوزهم الخمر، شفتت عليهم وأتت قائلة: لا خمر عندهم. فقال لها يسوع: «ما لي ولك يا امرأة لم تأت ساعتي بعد» فقال

بعضهم إنَّ مريم خالَج قلبها وقتلَ فكر افتخار، ولذلك استخشنوا جواب يسوع لها. والصحيح ما قالته عامتهم أنَّ مريم لم تحملها إلَّا الشفقة على أهل العرس لتقترح على ابنها صنع آية، والمسيح أراد أن يعلم تلاميذه أن لا يدعوهم حب الأهل، وتحريضهم على عمل الخير بل يحملهم عليه مجد الله، والرفق بالناس، وشاء أن يبيِّن أنَّ صنعه المعجزة من خواص لاهوته فلا علاقة له بوالدته بالجسد. وكلمة امرأة في العبرانية كاليونانية تُشعر بالتكريم لا بالتحقير وبالملاينة لا بالخاشنة. وقد رأينا المُخلَّص خاطبها بهذه الكلمة نفسها في معرض التعزية والملاينة لها من على الصليب: «يا امرأة هذا ابنك».

إنَّ العذراء صحبت يسوع عند شخوصه إلى أورشليم في الفصح الأخير، وقاست بقلبيها الآلام التي قاساها يسوع بجسمه المقدَّس. وقد رافقته إلى الجلجلة ووقفت حذاء صليبه بشجاعة تليق بأُم الله، ولا جرم أنَّ المُخلَّص ظهر لها بعد قيامته قبل انصاره كلهم فهي أحق من جميعهم بهذه التعزية. وكانت مع الرسل عند صعود المسيح إلى السماء. واستمرت معهم في أورشليم منتظرين حلول الروح القدس (أعمال الرسل فصل ١ عد ١٤). وأقامت بعد ذلك في بيت يوحنا الإنجيلي. وكان هذا الرسول يعزها ويجلُّها اجلاله لأمه كما روى ابيغان (في بدعة ٧٨) وكيرلس الاسكندري (في تفسير بشارة يوحنا في ك ١٢). ويُظن أنه أخذها معه إلى أفسس. وفي الجمع الأفسسي التبيلي رسالة يتبيَّن منها أنَّ بعض الناس كانوا في القرن الخامس يعتقدون أنها ماتت ودُفنت في أفسس، على أنَّ هذا المعتقد لم يكن عاماً فإننا نرى بعض من كتبوا في القرن الخامس نفسه يعتقدون أنها توفيت ودُفنت في أورشليم. فقد أنبأنا يوحنا الشماس (في خطبته ٢ في صعود العذراء) ونيكوفر (ك ٢ فصل ٢٣) إنَّ الملك مرقيان والملكة بلوشارية افرغا قصارى الجهد في الحصول على جسم السيدة الطاهر ليكون ذخيرة في كنيسة أقاماها في القسطنطينية، وكتبا إلى يوفينال أسقف أورشليم وقتلَ فأجابهما أنَّ مدفنها في الجسمانية، وإنَّ مرقيان استحضر نعشها من أورشليم إلى القسطنطينية وهو من حجر عليه صورة للعذراء بديعة. وقال اندراوس الاكرتي (خطبة ٩) وبقي الناس من ذلك الزمان يدلون على مدفن العذراء في الجسمانية في كنيسة مكرسة لذلك. وقال القديس يوحنا الدمشقي (في خطبة ٢ في رقاد العذراء) إنَّ الرسل لدن موت العذراء كانوا متفرقين في الآفاق للبشارة فحملوا بمعجزة إلى أورشليم ليشهدوا

انتقال العذراء. وبعد أن فاضت نفسها دفنوا جسماً المبارك في الجسمانية وظلوا ثلاثة أيام يسمعون ثم ترانيم سموية. وابطأ توما ثم حضر وأحب أن يرى ذلك الجسد الطاهر ففتح التلاميذ المدفن ولم يجدوا الجثة. قتيقنوا أن الله أقامها قبل القيامة العامة. على أنه لا سبيل في تحقيق هذه الروايات. وقال القديس ايفان (بدعة ٧٨) إنه لا يستطيع أن يقول أنها ماتت أو استمرت غير مائة وأنها دُفنت أو لم تُدفن، وأنه لا يمتري في أنها إذا كانت ماتت فموتها كان سعادة. وقال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة مريم) إن رأي الكنيسة الآن أنها ماتت واختلف العلماء في ما إذا كانت قامت أو ينتظر جسدها القيامة العامة، وفي ما إذا كانت دُفنت في افسس أو في أورشليم أو في محل آخر، ولم يتحقق كم كانت سني حياتها ولا في أية سنة ماتت. وفي رؤيا لإحدى العابدات في هذا العصر تسمى كاترينا اماريك أنها ماتت في افسس مع دلائل للإهتداء إلى مدفنها. وقد بوشر الحفر في المحل المعين وهو في جنوبي افسس على ثلاث ساعات منها. ووجدت بعض الدلائل المرشدة إلى مدفنها في محل يسمى بناكيا قبولي أي باب الكلية القداسة. وقد طالعنا مقالة مشبعة للأب دي لابرداز مثبتة في المجلة الموسومة بالدروس في نشرتها المؤرخة في آب سنة ١٨٩٧ م عن مؤلفها بالبحث عن هذه الرؤيا وصحتها، والمتحصّل من كلامه أن العذراء لم تأت إلى افسس لأنها رقدت بالرب على ما في الرؤيا سنة ٤٨ أو سنة ٥٢ للمخلص على ما في غيرها. ويوحنا الرسول لم يأت إلى افسس إلا بعد ذلك بسنين كثيرة. وفي تلك الحقبة كان بولس الرسول ينذر في افسس ويتردّد إليها لا يوحنا الرسول كما يظهر من كتاب أعمال الرسل نفسه. ويختتم كلامه بأن انتقال العذراء لا شك فيه وإن لم يكن من عقائد الإيمان. وإن أساقفة كثيرين رفعوا عريضة لبيوس التاسع في المجمع الواتيكاني ليجعل انتقال العذراء من عقائد الإيمان. وقد طالعنا فصلاً مثبتاً في المجلة الموسومة بالتمدّن الكاثوليكي (في نشرتها الصادرة في ١٦ نيسان سنة ١٨٩٨) جلّ غرض مؤلف ذلك الفصل أن يثبت أن دفن العذراء في افسس ما برح من الآراء المحتملة غير الأكيدة إذ لم يقدّم عليه الآن دليل قاطع، وإن رؤيا كاترينا اماريك لا يمكن القطع بصحتها لاحتمال أن كاتب رؤياها كان يعرف المحل المذكور الذي في ناحية ازميز، ولخالفتها رؤيا أخرى للعابدة مريم اكرادا التي قالت إن مدفن العذراء كان في أورشليم. على أن دفن العذراء في أورشليم لم يذكره أحد المؤرخين الثقة قبل القرن

الخامس. وما ورد في المجمع الافسوسي صحيح، المراد منه أنه كان في هذه المدينة معابد للعدراء وليوحنا الإنجيلي لا أنهما مدفونان هناك، وأنه يلزم التفريق بين بيت العدراء ومدفنها، فقد يكون لها بيت في افسس ولا يكون مدفنها هناك. والحاصل أن هذا المبحث لا يمكن القطع به حتى الآن.

قيل أن لوقا الإنجيلي صوّر صورة العدراء ولها صوّر في مواضع عديدة يقال أنها أخذت عن صورة لوقا، على أن القدماء لم ينبئوا بأن لوقا صوّر العدراء بل ذكروا أن تاودوريوس قارئ كنيسة القسطنطينية الذي كان في القرن السادس. روى أن اودكسية أرسلت من أورشليم إلى بلوشارية الملكة في القسطنطينية صورة العدراء. صوّرها لوقا وصرّح نيكافور كاليست (في ك ٢ فصل ٢٣ من تاريخه) إن لوقا صوّر صورة العدراء لكنه كان في القرن الرابع عشر ذكر القديس برنردس في خطبته (في مزمور ٩٠) إن العدراء كتبت رسالة للقديس اغناطيوس الشهيد، وهذا القديس كتب إليها، وأهل مسينا يحفظون تقليداً بأن العدراء كتبت إليهم، وعندهم كنيسة يسمونها سيدة الرسالة. وقد ذكرت ذلك في كتابي سفر الأخبار وكذا يدعي أهل فلورنسا في إيطاليا على أن هذه التقليدات لا سبيل إلى تحقيقها.

على أنه وإن لم تتصل إلينا صورة العدراء التي صوّرها لوقا أو أرتيب في أنه صوّرها فلنا صوّر من أقدم الأعصر كُشف عنها في الخبايا والمعابد التي تحت الأرض في روما وغيرها، تمثل العدراء وتبكم الملحدين عن التكذيب بالكتاب، منها صورة بشارة الملاك للعدراء نُقشت في القرن الثاني على حائط في مخبأ كنيسة القديسة بريسلا، ترى فيها الملاك جبرائيل بهيئة شاب منتصب أمام العدراء جالسة، ومرآها ناطق بتعجبها ودهشتها واضطرابها، ذكرها يوسوس في كتابه الموسوم «بروما تحت الأرض» (صفحة ٥٤١) وبوتاري (صفحة ١٧٦)، ومنها صورة سجود الحجوس للمخلّص نُقشت في الخبأ الكائن حذاء كنيسة القديسين مرشليوس وبطرس، وصورة أخرى لهذا السجود في مخبأ دوميتيل ذكرها كاروشي في كتابه في الصناعة المسيحية.

ودونك مثلاً لهذه الصورة فإنك ترى العدراء جالسة على كرسي ويسوع في حضنها وثلاثة رجال يقدمون له هداياهم.



وفي مخبأ كنيسة القديسة بريشلا صورة أخرى منذ القرن الثاني تمثل العذراء حاملة المخلص في حضنها وفوق رأسها نجم ساطع واشعيا يدل على هذا النجم. ذكرها بوتاري (صفحة ١٧٦).

وحقق بعضهم أنَّ العذراء في هذه الآثار نحواً من خمسين صورة وجميع الصور التي في مخبأ كنيسة القديسة بريشلا صُنعت في مبادئ القرن الثاني وقد وضعنا صورة للعذراء واشعيا عند كلامنا في هذا النبي.

عد ٥٠٣

الرسل اجمالاً

أنبأنا القديس لوقا الإنجيلي (فصل ٦ عد ١٣) إنَّ يسوع: «دعا تلاميذه واختار منهم اثني عشر وسماهم رسلاً سمعان الذي سماه بطرس، واندراوس أخاه ويعقوب ويوحنا وفيلبوس وبرتلماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وسمعان المدعو الغيور، ويهوذا أخا يعقوب ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه». وقد أطلق اسم رسول على غير هؤلاء كبولس الرسول وبرنابا كما جاء في أعمال الرسل (فصل ١٤ عد ١٤). وسمى بولس في رسالته إلى الرومانيين (فصل ١٦ عد ٧) اندرونكس ويونياس رسولين مشهورين بين الرسل، وسمى تيموتاوس وسيلفا رسولين أيضاً، وأفصح مرقس (فصل ٣ عد ١٤) بذكر غرض المسيح من اختيار هؤلاء الاثني عشر من بين

تلاميذه قائلاً «وعينّ منهم اثني عشر ليكونوا معه، وليرسلهم للكراسة، وأعطاهم سلطاناً أن يشفوا المرضى ويُخرجوا الشياطين وجعل لسمعان اسم بطرس». ويتّ القديس بطرس (في أعمال الرسل فصل ١ عد ٢١) ما يطلب من الرسول وما هي غاية رسالته قائلاً: في اختيار خلف ليهوذا «فينبغي إذاً أن يعينّ واحد من الرجال الذين اجتمعوا معنا في كل الزمان الذي فيه دخل وخرج الرب يسوع بيننا منذ المعمودية يوحنا إلى اليوم الذي فيه ارتفع عنا ليكون شاهداً معنا بقيامته».

وقد كان الرسل اثني عشر ليكون عددهم مقابلاً عدد أسباط بني إسرائيل الاثني عشر. إذ أرسلهم إليهم كخراف ضلّت من بني إسرائيل، وليدينوا في الحياة الأخرى أسباط إسرائيل الاثني عشر وكما انقسم سبط يوسف إلى فرعين فكذلك دخل في مكان يهوذا الإسخريوطي رسولان متيا وبولس، وقد اختار المسيح هؤلاء الرسل من عامة الشعب. وكان بينهم رسولان مختلفا النزعة والغرض، فمتى كان عشراً من أعوان الحكومة، وسمعان كان من الغيورين (وهم قوم كانوا حمسين في مناصبة الرومانيين دعوانهم أنفاً المشاغبين) ولذلك وصفه بالغيور، وكان الرسل أجمعين أميين لا إلمام لهم بالعلوم إلّا متى العشار. وأما بولس فلم يختره في حياته وكانوا صرفوا حياتهم في الأعمال الشاقة، ومنهم أربعة أو أكثر صيادون، وكانوا جميعهم إلّا يهوذا سليمي القلب طيبي السريرة فاختار المسيح جهلاء العالم ليخزي حكماءه، وضعفاءه ليخزي أقوياءه لا بحكمة الكلام لئلا يتعطل صليب المسيح كما قال الرسول، وقد سموا في بشائر متى ومرقس ولوقا باسمائهم دون خلاف إلّا يهوذا أخا يعقوب فإنّ متى سماه لابي، ومرقس سماه تادي على أنّ كلمة لابي بمعنى القلب، وتادي بمعنى الصدر. فالاسمان دالان على كرم الخلق والشجاعة. ولم يدعه المسيحيون الأولون يهوذا مقتاً ليهوذا الغاش، ولم ينسّق الإنجيليون اسماء الرسل نسقاً واحداً بل قدّم أحدهم بعضاً كما يتبيّن من الجدول الآتي:

متى	مرقس	لوقا	أعمال الرسل
فصل ١٠ عد ٢	فصل ٣ عد ١٦	فصل ٦ عد ١٤	فصل ١ عد ١٣
بطرس	سمعان بطرس	بطرس	بطرس
اندراس	يعقوب	اندراس	يعقوب

متى	مرقس	لوقا	أعمال الرسل
فصل ١٠ عد ٢	فصل ٣ عد ١٦	فصل ٦ عد ١٤	فصل ١ عد ١٣
يعقوب	يوحنا	يعقوب	يوحنا
فيلبوس	اندراس	يوحنا	اندراس
برتلماسوس	فيلبوس	فيلبوس	فيلبوس
توما	برتلماسوس	برتلماسوس	توما
متى العشار	متى	متى	برتلماسوس
يعقوب بن حلفى	يعقوب بن حلفى	يعقوب بن حلفى	يعقوب بن حلفى
لاي	تادي	سمعان المدعو الغيور	سمعان المدعو الغيور
سمعان القانوني	سمعان القانوني	يهوذا أخو يعقوب	يهوذا أخو يعقوب
يهوذا الإسخريوطي	يهوذا الإسخريوطي	يهوذا الإسخريوطي	يهوذا الإسخريوطي

فترى في هذا الجدول اسم بطرس قبل جميعهم في الأناجيل الثلاثة وأعمال الرسل، ويرجح أن برتلماسوس هو نتائيل الذي اقتاده فيلبوس إلى المخلص. وقد سُمي متى في بشارة مرقس (فصل ٥ عد ٢٧) لاوي فكأن هذا كان اسمه قبل أن يدعوه المسيح. وسمي بعد أن دعاه متى، وتفسير هذا الاسم هبة الله. ويوصف أحد اليعقوبين بالصغير إما لقصر قامته، وإما لأنه كان أصغر من يعقوب أخي يوحنا. ونرجى الكلام في ما صنعه كل من الرسل إلى أن نفرد لكل منهم فصلاً براسه. وكان الرسل جميعاً يخدمون المخلص، ويتمون ما يأمرهم به، ويسمعون تعاليمه، ويصغون لارشاده. ليفهموا ما يلزم للكنيسة الله على أن فهمهم كان قاصراً. وقد وُثِّبهم المخلص على ذلك مرات، وكان يفسر لهم في الخلوة ما قاله جهاراً، وكان يعلمهم بمثله. وقد وهبهم السلطان على صنع الآيات واعداً لهم بارشاد الروح القدس في ما يقولونه. وأقامهم كهنة في العشاء الأخير وتبددوا وقت آلامه وظهر لهم مرات بعد قيامته، وكانوا مجتمعين والتلاميذ لدى صعوده كل ذلك بين في الأناجيل.

جاء في أعمال الرسل (فصل ١ عد ١٢ وما يليه) إنَّ الرسل رجعوا بعد صعود المخلص من جبل الزيتون إلى أورشليم، وكانوا مواظبين على الصلاة مع النساء ومريم أم يسوع وغيرهم من التلاميذ وإنَّ بطرس قام في وسطهم. وكان عدد المجتمعين نحواً من مئة وعشرين، وخطبهم في اختيار رسول بدلاً من يهوذا الذي شنق نفسه، فقدَّم التلاميذ اثنين يوسف المسمى برسبا ومتيا فصلوا ثم ألقوا القرعة بينهما. فوَقَّعت علي متيا فأحصي مع الرسل الأحد عشر، واستمروا مواظبين على الصلاة إلى أن حلَّ الروح القدس عليهم في اليوم الخمسين بعد قيامته، فحدث بغتة صوت من السماء كصوت ريح شديدة، وظهرت لهم ألسنة كأنها من نار واستقرَّت على كل واحد منهم فامتلأوا من الروح القدس، وطفقوا يتكلمون بلغات أخرى. وكان حينئذٍ في أورشليم رجال من اليهود المشتتين في كل قطر في آسيا وأفريقيا وأوروبا والجزر كانوا اجتمعوا في عيد الفصح، وظلُّوا في أورشليم إلى عيد البنديكستي. فهؤلاء لما سمعوا الصوت اجتمعوا ودُهِشُوا، لأنَّ كلاً منهم كان يسمعهم ينطقون بلغته. وقال بعضهم إنهم شربوا سلافة وسكروا فقام بطرس خطيباً فيهم مبشراً أنهم ليسوا بسكارى بل أنَّ هذا ما تنبأ به الانبياء، ومبشراً أنَّ من صلبه اليهود هو المسيح الرب. وقد أقامه الله أبوه من بين الأموات فأثَّر كلامه في كثيرين وآمن في ذلك اليوم نحو من ثلاثة آلاف نفس واعتمدوا.

قال بعض المفسرين في موهبة الكلام باللغات التي وهبت لهم أنَّ الرسل ظلُّوا يتكلمون بلغتهم التي كانوا يتكلمون بها قبلاً، لكن السامعين الأجانب كانوا يفهمون كلامهم كأنه بلغتهم؛ على أنَّ جمهور المفسرين أثبتوا أنَّ الله أولى الرسل معرفة اللغات، وكانوا يفهمونها ويتكلمون بها كلما اقتضت ذلك خطبتهم الرسولية، ولا موجب للعدول عن تفسير الجمهور. ويؤيد ذلك أنَّ معنى آيات الكتاب التي جاءت في هذا الشأن ظاهر وبديهي سواء كانت الآيات التي وعد بها المخلص بهذه الموهبة كما جاء في مرقس (فصل ١٦ عد ١٧): «وينطقون بلغات جديدة»، أم الآيات الواردة في أعمال الرسل كقوله (فصل ٢ عد ٤): «وظفَّقوا يتكلمون بلغات أخرى كما أتاهاهم الروح القدس أن ينطقوا»، وكلما ذُكرت هذه الموهبة بعد البنديكستي عبَّر الكتاب عنها بهذا الأسلوب نفسه. من ذلك ما جاء في أعمال الرسل (فصل ١٩ عد ٦) عن التلاميذ الذين كانوا في أفسس «ووضع بولس يديه عليهم فحلَّ الروح القدس عليهم وطفَّقوا ينطقون بلغاتٍ» وقال بولس لتلاميذه

(قرنثية أولى فصل ١٤ عد ١٨): «اني أشكر الله أني أنطق بالألسنة أكثر من جميعكم. فهو إنما يشكر الله على علم أولاه اياه لا على علم وُهب لهم ليفهموا كلامه إذ تكون على ذلك الموهبة لهم لا له. ولا جرم أن تفسير الجمهور أنسب للغرض الذي تعهده المسيح بتنويله الرسل هذه الموهبة. فلو انحصرت الآية على أن يفهم السامعون كلام الرسل لفات المقصود الذي لا يتم إلا بأن يفهم الرسل أيضاً كلام من يبشرونهم، ولا يكفي أن يدرك السامعون كلام الرسل فقط، ولا تسع المجال لاولئك السامعين ليحسبوا أن الموهبة أعطيت لهم لا للرسل. فالصحيح إذاً أن المخلص خول رسله موهبة معرفة اللغات الأجنبية والكلام بها كلما اقتضته خطة رسالتهم لا سيما في المجتمعات الدينية، وقد كانت هذه الآية في العلية مقابلة لآية بابل فببللة الألسن هناك أوجبت تفرق البشر واختلاف الشعوب، وآية العلية أوجبت اتحاد الشعوب في الإيمان والحبة واقامة جماعة روحية معدة لأن تضم النوع البشري بأسره إلى حظيرة الخلاص.

قد تبدلت حالة الرسل بعد حلول الروح القدس عليهم. وبعد أن كانوا أميين جنباء قلقين أصبحوا حكماء شجعاء ثابتين، وضعوا أسس الكنيسة أولاً في أورشليم ثم تفرقوا في الآفاق بحسب أمر المخلص لهم أن يعلموا جميع الأمم، وفتح بطرس باب الإيمان للأمم بتعميده كرنيليوس وذويه، واتسع لبولس المجال حتى سمي رسول الأمم، وانخرط كل منهم في صقع فأناروا العالم وبسطوا فيه بشارة الإنجيل فكانت اساً للخلاص وللتمدن الحقيقي.

قد شرع المسيحيون الأولون من صدر النصرانية يصوّرون صور الرسل ووجدت في الخائبيء والمدافن وعلى التوابيت صور كثيرة لهم؛ منها صورة وُجدت على تابوت في مدينة ارل في فرنسا نُقشت عليها صور الرسل الاثني عشر، يظهر منها أنهم كانوا يلبسون قميصاً طويلاً يتصل إلى أرجلهم. ورداء فوقه والآثار التي وُجدت في المغرب في القرون الثمانية الأولى تراها تمثل الرسل وقوفاً أو جلوساً عن يمين المخلص ويساره، وبعضهم ملتج وبعضهم دون لحية، ويدهم اليمنى كتاب أو درج ملفوف رمزاً إلى كلام الله الذي كانوا يبشرون به. وترى يدهم أحياناً اكليلاً رمزاً إلى الظفر والمكافأة السماوية لهم. ويصوّرون أحياناً صوراً رمزية بهيئة اثني عشر نعجة ست عن يمين المخلص وست عن يساره رابضات على صخر تجري من تحته أربعة أنهر الفردوس؛ كناية عن الأناجيل الأربعة. واعتاد المصوّرون أن يسمّوا

كلاً من الرسل بسمه تميزه. فيصوّرون بطرس ويده المفاتيح وبولس ويده سيف. واندراوس ويده صليب. ويوحنا ويده كأس وحية خارجة منه. ويعقوب الصغير ويده كتاب أو عصاً. وفيلبوس ويده صليب وفي أعلاه عقد كالقصب. ويعقوب الكبير ويده هراوة مسافر. وبرتلماوس ويده كتاب أو مديّة. وتوما ويده بركار. ومتى ويده حربة. وسمعان ويده منشار. ويهوذا ويده دبوس. ومثيا ويده فأس. تلك رموز إلى طريقة رسالتهم أو إلى نوع استشهادهم. ويعزى إلى الرسل قانون الإيمان مقسوماً إلى اثني عشر جزءاً؛ وهذه النسبة صحيحة ولا أقلّ من أن يكون الرسل اتفقوا على هذا القانون قبل تفرقهم إلى الآفاق وسلموه إلى المؤمنين، إن لم يكن خطأ فتقليداً شفاهياً. وقد أثبت ذلك أبريناوس (ك ١ ضد الهرطقات فصل ٢) وترنوليانوس في كتابه في سقوط دعوى الهرطقة، والبابا شالستينوس الأول في رسالته إلى نسطور، ثم الجمع الأفسسي في عريضته إلى الملك تاوادوسيوس وغيرهم. ويُنسب إلى الرسل أيضاً خمسة وثمانون قانوناً، ولكن هذه النسبة لا صحة لها ولم تقبل الكنائس الشرقية هذه القوانين إلّا في مبادئ القرن السادس. ولم يثبت في الكنيسة اللاتينية منها إلّا خمسون قانوناً أو خمسة وثلاثون إلّا في بداية القرن السادس. ويُنسب إليهم كتاب المراسيم الرسولية مترجمة من اليونانية إلى اللاتينية، ولكن هذه النسبة أيضاً غير صحيحة نظراً إلى الرسل أو إلى البابا اكليمنطوس الروماني بل أنها ألّفت بعد عصر الرسل والبابا المذكور بزمان مديد.

عد ٥٠٤

بطرس الرسول

إنّ بطرس الرسول هو ابن يونا وأخو اندراوس الرسول وُلد في بيت صيدا^(١)

(١) تأويل بيت صيدا في الآرامية محل الصيد وهي قرية أو مدينة في جانب بحيرة جاناشر (بحيرة طيبارية) جاء ذكرها في الاناجيل متواتراً. وقال يوسفوس (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٢) أنّ فيليبوس رئيس الربع زاد في أبينتها وحصنها حتى صارت مدينة وسماها يولية باسم ابنة اغوسطوس، وكانت على بحيرة طيبارية وأنّ فيليبوس مات ودفن فيها في قبر أعده لنفسه. وقال في تأليفه في الحرب (ك ٣ فصل ١٠) انها كانت عند مصب الأردن العلوي وقال هناك (ك ٢ فصل ٩) انها كانت في الجولان السفلى وسماها بلين في تاريخه يولية، وقال انها كانت في شرقي بحيرة طيبارية وذكرها بتولمايس (في الجغرافية)

في الجليل وكان اسمه أولاً سمعان، فسماه المخلص عند دعوته إلى الرسالة كيفاً. وهي كلمة سريانية معناها الصخرة وكان بطرس مزوجاً، وكانت امرأته وحماته وبيته في كفرناحوم. وقد أثبت اوسابيوس (ك ٣ فصل ٣ من تاريخه) واكليمنضوس الاسكندري وفم الذهب أنه ترك امرأته منذ لحق المسيح أو عاش معها كأخت. وقد دعا المخلص أولاً أخاه اندراوس فالتقى بأخيه سمعان وقال له: قد وجدنا مشيخ الذي تأويله المسيح (يوحنا فصل ١ عد ٤٢). ولما رآه يسوع قال له: أنت سمعان بن يونا أنت تدعى كيفاً الذي تأويله الصفاة (الصخرة) وبقي عند المخلص يوماً ثم انصرف مع أخيه إلى تعاطي مهنة الصيد، وهذه كانت الدعوة الأولى لبطرس في أوائل السنة الأولى من تبشير المخلص. ثم رآه في أواخرها على شط بحيرة جنشار مشغولاً مع أخيه اندراوس بغسل شباكهما فركب في سفينتهما. وقال لبطرس تقدّم إلى العمق والقوا شباككم فقال له بطرس: قد تعبنا الليل كله ولم نصطد شيئاً ولأجل كلمتك ألقى الشبكة، فضبطوا سمكاً كثيراً جداً حتى كادت شبكتهم تتمزق، واحتاجوا إلى أن يعاونهم رفقاؤهم في نقل السمك حتى امتلأت السفينتان. فخرّ بطرس عند قدمي يسوع قائلاً: أسألك يا سيدي أن تتباعد

بين مدن الجليل. ولم يرد في الاناجيل إلا ذكر بيت صيدا واحدة اهي بيت صيدا يولية التي ذكرها المؤرخون المشار إليهم أم وجدت مدينتان تسميان بيت صيدا إحداهما في شرقي الاردن والاخرى في غريبه. فهذا مبحث اشغل العلماء منذ ثلاثة قرون ولم يقل فيه القول الفصل إلى الان. فادريكومبوس وكورازميوس من المتقدمين وردبنيسوت وسقفلاي وكاران من علماء هذا العصر وغيرهم كثيرون اثبتوا ان بيت صيدا يولية غير بيت صيدا بالإطلاق. فالأولى في شرقي الاردن والاخرى في غريبه. على ان ليختفوت وكياير وسوشان وغيرهم ايضاً ذهبوا إلى ان بيت صيدا واحدة ولكل من الفريقين حجج لا محل لتفصيلها هنا. ومثل هذا الخلاف بينهم في تعيين موقع بيت صيدا في غربي الاردن أو شرقيه فمن ذهبوا إلى انها في غريبه قال بعضهم إنها كانت بين كفرناحوم والاردن حيث القرية المسماة الان ابو زينة، وقال غيرهم انها كانت في محل خان المنية وهو رأي عامتهم الان. ومن ذهبوا إلى انها في شرقي الاردن قال بعضهم انها كانت في محل القرية المسماة الان الثل على كليومتر من الاردن شرقاً وعلى كليومتريين من البحيرة شمالاً. وقال بعضهم انها كانت في المسعدية وهي قرية على نحو من مئتي خطوة على شاطئ البحيرة الشرقي وفي المحل المعروف الان بالعراج على نحو كليومتر من المسعدية. والتقليد المسيحي على ان بيت صيدا كانت في أحد هذين المحلين طالع معجم الكتاب لفيكورو في كلمة بيت صيدا.

عني لأنني رجل خاطئ. فقال يسوع لسمعان لا تخف فإنك من الآن تكون صياداً للناس، وقد لزمه بطرس بعد هذه الدعوة الثانية (لوقا فصل ٥ عد ٢ وما يليه). وبعد أيام أتى يسوع كفرناحوم فشفى حماته من الحمى، وقبل فصيح السنة التابعة عاد يسوع إلى الجليل فاخترار رسله الاثني عشر، وقد ذكر بطرس في مقدمتهم في كل موضع. ورأى بطرس يسوع ماشياً ليلة ما على أمواه بحيرة جنشار فسأله أن يأمره أن يأتي إليه على المياه فقال له! تعال فنزل بطرس من السفينة، ومشى على المياه ولما رأى شدة الريح خاف، وأوشك أن يغرق، فمدَّ يسوع يده وانتشله وقال له يا قليل الإيمان لماذا شككت؟ وخطب يسوع في تلاميذه قائلاً إنه يعطيهم جسده ليأكلوه ودمه ليشربوه، فرجع كثير من تلاميذه إلى الوراء لاستصعابهم تصديق كلامه. وقال يسوع للاثني عشر ألعلمكم أنتم أيضاً تريدون أن تمضوا؟ فقال له بطرس يا رب إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية هو عندك. وكان يسوع ذات يوم في قيصرية فيلبوس وسأل تلاميذه قائلاً من تقول الناس أنني أنا؟ فأجابه بطرس: أنت ابن الله الحي. وتقدم الجميع في اقراره الصريح بلاهوت المخلص، فقدمه على جميعهم قائلاً له طوبى لك يا سمعان بن يونا فإنه لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك لكن أبي الذي في السماء. وأنا أقول لك أنك أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ولك أعطي مفاتيح ملكوت السماء، وكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السماوات. (متى فصل ١٦ عد ١٣ وما يليه) ولما تجلّى يسوع بعد أيام على الجبل أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا. وأراهم معجده فذهش بطرس بما رآه وقال للمخلص حسن لنا أن نمكث هنا ونصنع ثلاث مظال: لك واحدة ولموسى وإيليا واحدة وإيليا واحدة. متى (فصل ١٧ عد ١ وما يليه). ولما كان يسوع ماضياً إلى كفرناحوم والتلاميذ يتشاجرون فيما بينهم في أيهم هو الأكبر، وسبقهم يسوع وبطرس إلى كفرناحوم، ودنا جباة الجزية إلى بطرس قائلين أما يؤدي معلمكم الدرهمين؟ أمره يسوع أن يمضي إلى البحر، ويلقي الشص، وأول سمكة يرفعها يفتح فاهها فيجد استاراً (قيمته أربعة دراهم) فيأخذه ويؤدي الجزية عن المخلص وعنه.

وكان يسوع ذات يوم يتكلم في الفصح عن الإهانات. فسأله بطرس كم مرة يخطئ إليّ أخي فأغفر له إلى سبع مرات؟ فقال له يسوع لا أقول لك إلى سبع

مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات (متى فصل ١٨ عد ٢١). وكان يسوع في وقت آخر يتكلم عن المال والغنى، فقال له بطرس هوذا نحن قد تركنا كل شيء واتبعناك فماذا يكون لنا؟ فأجابه يسوع أنتم الذين أتبعتموني إذا جلس ابن البشر على كرسي مجده تجلسون أنتم على اثني عشر كرسيًا، وتدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر، وكل من ترك بيتاً أو اخوة... أو حقولاً لأجل اسمي يأخذ مئة ضعف. ويرث حياة الأبد (متى فصل ١٩ عد ٢٧).

وفي نهار الثلاثاء قبل الآلام قال للمخلص ها إن التينة التي لعنتها قد ييسست. فبين له يسوع عظمة قوّة الإيمان (مرقس فصل ١١ عد ٢١). وفي النهار التالي لما كان يسوع جالساً في جبل الزيتون سأله بطرس ويعقوب ويوحنا واندراوس متى يكون خراب الهيكل؟ (مرقس فصل ١٣ عد ٣) ويوم الخميس قبل الآلام أرسل يسوع بطرس ويوحنا ليعدا له الفصح (لوقا فصل ٢٢ عد ٨) وبعد العشاء ترك يسوع ثيابه وأخذ يغسل أقدام رسله ليعلمهم التواضع. وتمنّع بطرس قائلاً أنت يا رب تغسل لي قدّمي؟ وكرر الممانعة فقال له يسوع إن لم أغسل لك فليس لك معي نصيب. فأذعن بطرس قائلاً لا تغسل رجلي فقط بل يدي ورأسى أيضاً. (يوحنا فصل ١٣ عد ٦). وبعد ذلك قال له يسوع هوذا الشيطان سأل أن يغربلكم مثل الخنطة لكنني صليت من أجلك لئلا ينقص إيمانك. وأنت متى رجعت فثبتت اخوتك (لوقا فصل ٢٢ عد ٣١). وبهذا إشارة إلى جحود بطرس وتوبته ووعده بمزية يمتاز بها على اخوته، وهي أنه يثبتته بمنزلة رئيس لهم.

وقال له بطرس إنه مستعدّ أن يمضي معه إلى السجن، وإلى الموت، فأعلمه يسوع أنه سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك. ولما جاء يسوع بعد ذلك إلى بستان الجسمانية أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا ومضى يصلّي، ثم جاء إليهم فوجدهم نياماً. فقال لبطرس هل أنت نائم أو لم تقدر أن تسهر ساعة واحدة؟ (مرقس فصل ١٤ عد ٣٧) ولما أتى يهوذا مع الجنود للقبض على يسوع انتضى بطرس سيفه وقطع اذن ملخوس عبد عظيم الكهنة فقال له يسوع أردد سيفك إلى غمدته فمن اخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ، وردّ إلى ملخوس أذنه (يوحنا فصل ١٨ عد ١٠) وتبع بطرس يسوع إلى بيت قيافا. فسألته الجارية البوابة أما أنت من تلاميذ هذا الرجل؟ فقال ما انا منهم. ثم وقف يصطلي مع العبيد والخدام فقالوا له ألسنت أنت من تلاميذه؟ فقال لست منهم. وقال له واحد من عبيد رئيس الكهنة

أما رأيك أنا في البستان معه؟ فأنكر أيضاً. وللوقت صاح الديك والتفت يسوع إلى بطرس كأنه يذكره، فانتبه بطرس وأخذ يبكي بكاءً مرّاً على إنكاره (يوحنا فصل ٨ عد ١٧ وما يليه ومتى فصل ٢٦ عد ٦٧). وقد سمح يسوع بسقطته ليكون في رياسته شفوفاً على من ياثمون.

واختبأ بطرس باكياً بعدئذٍ على جحوده سيّده يومَي الجمعة والسبت. ولما أتت مريم المجدلية الأحد باكراً إلى القبر، ولم تجد جسد يسوع أسرعت حالاً فأخبرته ويوحنا، فعمّلاً إلى القبر (يوحنا فصل ٢٠ عد ١ وما يليه ولوقا فصل ٢٤ عد ١٢) ولما ظهر يسوع للنسوة بعد قيامته قال لهنّ أن يقلنّ لتلاميذه ولبطرس خاصة أنه قام وأن يسبقوه إلى الجليل (مرقس فصل ١٦ عد ٧). وفي اليوم نفسه ظهر لبطرس أيضاً (لوقا فصل ٢٤ عد ٣٤). كأنه ليعزيه ويحقق له أنه تقبّل توبته. (فم الذهب في تفسيره رسالة قرنتية الأولى خطبة ٣٨). وبعد أيام عاد بطرس إلى الجليل بحسب أمر المخلص، وذهب بصطاد مع بعض الرسل في بحيرة طيبارية، فظهر لهم يسوع على الشاطئ. وأمرهم أن يلقوا شبكتهم من جانب السفينة الأيمن فوجدوا سمكاً كثيراً حتى لم يقدروا أن يجذبوا الشبكة من كثرة السمك. وقال يوحنا لبطرس هذا هو الرب فائتر بطرس بثوبه، وطرح نفسه في البحر، وتبعه الآخرون في السفينة وهم يجرون الشبكة ثم صعد بطرس وجرّ الشبكة إلى الأرض، وفيها مئة وثلاث وخمسون سمكة؛ ومن بعد أن تغدوا قال يسوع لبطرس يا سمعان بن يونا أتجنّبي أكثر من هؤلاء؟ فقال له نعم يا رب أنت تعلم أنني أحبك. قال له إرّع خرافي. وأعاد السؤال عليه فأجابه كالأول فقال له إرّع غنمي. ثم قال له ثالثة: يا سمعان بن يونا أتجنّبي؟ فقال له ربي أنت تعلم كل شيء، فتعلم أنني أحبك فقال له: إرّع نعاجي التي يريد بها الرعاة والرؤساء كما سيجي. ثم أعلمه أي مية يموت قائلاً: الحق أقول لك أنك إذ كنت شاباً كنت تشدّ حقوك، وتذهب حيث تشاء، فإذا شخت فتبسط يديك وآخر يشدّ لك حقوك، ويذهب بك حيث لا تشاء (يوحنا فصل ٢١ عد ١ وما يليه).

وبعد أن صعد يسوع إلى السماء بحضرة تلاميذه عاد بطرس والتلاميذ إلى أورشليم ينتظرون حلول الروح القدس كما وعدهم المخلص. فقام بطرس في تلك الأثناء في وسط الاخوة، وسألهم أن يختاروا رسولاً مكان الذي شق نفسه معيّنًا لهم شروط الانتخاب. فقدّموا يوسف المسمى برسبا ومتيا. ومن بعد الصلوة

القوا القرعة فوقعت على متيا. (أعمال الرسل فصل ١ عد ١٥ وما يليه). وفي اليوم العاشر بعد صعود المخلص حلّ الروح القدس على التلاميذ، وأولاهم بين باقي مواهبه موهبة التكلم باللغات. فتحير الجمهور الغفير الذي سمعهم ينطقون بلغاتهم على اختلافها. وقال بعضهم أنهم شربوا سلافة وسكروا. فقام بطرس خاطباً فيهم مبيناً أنه والتلاميذ ليسوا سكارى بل إنّ هذا اتمام النبؤات على المسيح وتلاميذه وكان لكلامه شديد الوقع، حتى نصر بطرس يومئذ نحو ثلاثة آلاف نفس (أعمال الرسل فصل ٢).

وبعد أيام صعد بطرس ويوحنا إلى الهيكل ليصليا الساعة التاسعة، وكان على باب الهيكل رجل أعرج من بطن أمه فسألها صدقة، فقال له بطرس ليس لي فضة ولا ذهب ولكنني أعطيك ما عندي باسم يسوع الناصري قم وامش. فوثب وقام وطفق يمشي، ودخل معهما الهيكل، فدهش الجمهور لما رأوه، واجتمعوا حول بطرس، ويوحنا فخطب بطرس فيهم قائلاً ليس بقوتنا وتقوانا جعلنا هذا يمشي بل باسم يسوع المسيح الذي صليتموه إلى آخر خطبته (أعمال الرسل). فأمن منهم حينئذ خمسة آلاف. واقبل عليهم الكهنة والصدوقيون مشتمزين من ندائهما بيسوع فالقوهما في الحبس، وفي الغد اجتمع عليهما الرؤساء والشيوخ والكتبة وحنان رئيس الكهنة وقيافا. وأقاموهما في الوسط، وسألوهما بأية قوة أو بأي اسم صنعنا آية ابراء الأعرج؟ فأجاب بطرس إنّه باسم يسوع الناصري الذي أتم صليتموه، والله أقامه من بين الأموات وقف هذا الأعرج أمامكم متعافياً، وإذ نظروا الرجل الذي شفى واقفاً لم يكن لهم ما يقولون، فأمروهما أن لا ينطقا البتة باسم يسوع. فقال لهم بطرس ويوحنا احكموا أنتم ما العدل أمام الله ألكم نسمع أم لله؟ فتهددوهما وصرفوهما إذ لم يجدوا سبيلاً لمعاقبتهم (أعمال الرسل ف ٤).

وكان المؤمنون حينئذ يبيعون ما يملكون، ويلقونه عند أقدام الرسل فيوزع لكل حسب احتياجه. وكان رجل اسمه حننيا وامرأته اسمها صافيرا باعا عقاراً، واستبقيا بعض ثمنه وأتى حننيا بالباقي إلى الرسل. فقال له بطرس لماذا ملأ الشيطان قلبك فاختلست من ثمن العقار فهو كان لك قبل بيعه وأما بعده فباختلاسك من ثمنه لم تكذب على الناس بل على الله. فعند سماعه هذا الكلام سقط ميتاً. وبعد مدة نحو ثلاث ساعات دخلت امرأته وهي لا تعلم ما جرى لزوجها، فقال لها بطرس قولني لي ابهذا الثمن بعثما العقار؟ قالت: نعم بهذا بعناه. قال لها بطرس اتفقتما

على تجربة روح الرب ها ان أقدام الذين دفنوا رجلك بالباب وهم يحملونك، فسقطت عند قدميه ميتة ووقع خوف عظيم على الجميع (أعمال الرس فصل ٥ عد ١ إلى ١١). وكان عدد المؤمنين يزداد يوماً فيوماً، وتجري على أيدي الرسل آيات كثيرة حتى كان الناس يخرجون بالمرضى إلى الشوارع ليقع ولو ظل بطرس عند اجتيازه على بعضهم فيبرأون من كل علة. والقى رئيس الكهنة والصدوقيون أيديهم على الرسل، وسجنوهم، ففتح ملاك الرب أبواب السجن ليلاً وأخرجهم. وقال امضوا وقفوا في الهيكل وكلموا الشعب فدخلوا الهيكل نحو الفجر، وطفقوا يعلمون فانطلق الوالي مع الشرط واحضروهم لا قهراً مخافة أن يرجعهم الشعب. وقال لهم رئيس الكهنة في المحفل أمرناكم أن لا تعلموا بهذا الاسم وها قد شحنتم أورشليم من تعليمكم. فأجاب بطرس والرسل قائلين إن الله احق من الناس بأن يطاع (أعمال الرسل فصل ٥ عد ١٢ وما يليه).

ومن بعد استشهاد القديس إسطفانوس ذهب فيلبوس أحد الشمامسة السبعة إلى السامرة فأمن كثير من السامريين واعتمدوا. ولما كان فيلبوس شماساً لا كاهناً لم يكن له أن يمنح هؤلاء سر التثبيت فمضى بطرس ويوحنا فمناحاهم هذا السر. وكان ممن آمنوا واعتمدوا سيمون الساحر. ولما رأى أن الروح القدس يعطى بوضع أيدي الرسل عرض عليهما نقوداً سائلاً بطرس ويوحنا أن يعطياه هذا السلطان. فقال له بطرس لتذهب فضتك معك إلى الهلاك لأنك ظننت أن موهبة الله تقتنى بالنقود فتب من شرك إلى الرب عسى أن يغفر لك. فقال توسلاً أتنمأ إلى الرب من أجلي (أعمال الرسل ف ٨). وقد أنبأنا أوسايبوس في تاريخه (ك ٢ راس ٤). والقديس أيرونيموس (في كتابه في المشاهير) إن سيمون بعد توبيخ بطرس له عاد إلى سحره واغواء الناس به، ومضى إلى رومة في أيام نيرون وبسحره جعل شيطانين يحملانه نحو السماء فصلى بطرس وبولس فترك الشيطانان سيمون فوق على الحضيض ومات.

ولما خمدت جذوة الاضطهاد خرج بطرس من أورشليم يفتقد المؤمنين مدينة فمدينة، وبلغ لدة وهي المعروفة باللد فصادف رجلاً اسمه أيناياس مخلصاً منذ ثماني سنين فقال له بطرس قد أبرأك يسوع المسيح قم وامش. فقام للوقت وراه جميع الساكنين في اللد وجوارها فرجعوا إلى الرب. وكان في يافا تلميذة اسمها طايطا ومعناه ظبية فمرضت وماتت فغسلوها ووضعوها في عليّة، وسمع التلاميذ أن بطرس

في اللد فأرسلوا إليه رجلين يسألانه أن يقدم إليهم، فأتى وأخرج الجميع وجثا وصلى والتفت إلى الجثة وقال يا طاييطا قومي ففتحت عيناها. ولما أبصرت بطرس جلست (أعمال الرسل ف ٩ ع ٢٣ وما يليه).

وكان في قيصرية فلسطين رجل اسمه كرنيلوس قائد مئة رجل وكان تقياً يخشى الله، فرأى في رؤيا جليلة ملاك الله داخلاً عليه يقول له أن يرسل إلى يافا فيطلب بطرس وهو يقول له ماذا ينبغي أن يعمل. وكان بطرس في يافا صعد على السطح ليصلي فرأى رؤيا أن السماء انفتحت وسماطاً عظيماً مدلى على الأرض، وكان فيه كل ذوات الأربع ودبابات وطيور وسمع صوتاً يقول له قم اذبح وكل. فقال بطرس حاشا يا رب لم آكل قط نجساً. فخاطبه الصوت ثانية ما طهره الله لا تجسه أنت. وحدث هذا ثلاث مرات ورفع السماط إلى السماء. وبينما كان بطرس متحيراً في مغزى الرؤيا التي رآها إذا بالرجال المرسلين من قبل كرنيلوس وقفوا على الباب. فقال له الروح هوذا ثلاثة رجال يطلبونك قم انزل وانطلق معهم لأنني أنا أرسلتهم. فنزل بطرس إلى الرجال فقالوا له أن كرنيلوس قائد مئة رجل صديق أوحى إليه ملاك أن يستحضرك إلى بيته، ويسمع منك كلاماً. ولما دخل بطرس إلى كرنيلوس خرّ ساجداً عند قدميه. فأنهضه بطرس قائلاً قم فإنني أنا أيضاً انسان. فأخبره كرنيلوس برؤياه، وكان جمع عنده أنسبائه وأخصّ أصدقائه، فبشرهم بطرس بإيمان المسيح فأمنوا، وحل الروح القدس على جميعهم، وكانوا يسمعونهم يتكلمون بلغات ويعظمون الله، ثم أمر بطرس أن يعتمدوا (أعمال الرسل فصل ١٠).

وصعد بطرس بعد ذلك إلى أورشليم فلامه أهل الختان قائلين إنك دخلت على رجال قلف، وأكلت معهم. فقص عليهم بطرس ما كان له. ولما سمعوا ذلك سكتوا، ومجدوا الله لأنه أعطى الأمم موهبة التوبة التي تقتادهم إلى الخلاص كما أعطى اليهود. وكان الذين تبددوا من أجل الضيق الذي حصل، ورجم إسطفانوس، مضوا إلى فينيقية وقبرص وأنطاكية. فأمن عدد كثير في هذه المدينة وبلغ الخبر مسامع الكنيسة التي في أورشليم، فأرسلوا برنابا إلى أنطاكية فانضم إلى الرب جمع كثير، وخرج برنابا إلى طرسوس في طلب بولس، ولما وجده أتى به إلى أنطاكية وترددا معاً سنة كاملة في هذه الكنيسة، وعلما كثيرين وأخذ المؤمنون هناك يسمون مسيحيين. ويظن أن بطرس أتى حينئذ إلى أنطاكية، وأقام كرسيه فيها فكان أسقفها

الأول. وقال بعض الآباء إنه بقي في هذه الكنيسة ست أو سبع سنين أي من سنة ٣٥ أو سنة ٣٦ للتاريخ العامي إلى سنة ٤٣ ولم يكن يقيم هناك دائماً بل كان يتردد إلى أورشليم وأعمال آسيا الصغرى وبيتينيا والكبادوك وبنطوس كما روى أوسابيوس (ك٣ فصل ١ من تاريخه البيعي)، وكما يظهر من رسالته التي أنفذها إلى المؤمنين في هذه البلاد. بعد ذلك قال القديس ايرونيموس إن لوقا لم يذكر في أعمال الرسل إقامة بطرس في أنطاكية لأن ذلك كان معلوماً عند الجميع في أيامه. وقد ذكره بعد ذلك كثير من الآباء ثم ترك أنطاكية مستخلفاً فيها له القديس أوديس، ومضى إلى رومة يقيم كرسيه في عاصمة المملكة كما تقتضيه رسالته ولعله فعل ذلك بإلهام من الله. قال أوسابيوس (ك٢ من تاريخه فصل ١٤) إن بطرس أتى إلى رومة في أيام كلود وكان ذلك سنة ٤٢ للتاريخ العامي، وقد أثبت ذلك القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير). وقد اعتقد المؤمنون منذ الأعصر الأولى أنه استمر على كرسي رومة خمساً وعشرين سنة، وذكر أوسابيوس في تاريخه (ك٣ فصل ١) إن بطرس إذ كان في رومة في أيام كلود صادق فيلون اليهودي الاسكندري وكانت بينهما مفاوضات.

وعاد بطرس إلى أورشليم سنة ٤٤ للتاريخ العامي وكان هيردوس أغريبا أخذ يضطهد المسيحيين، وقتل بالسيف القديس يعقوب الكبير أخا يوحنا، ولما رأى ذلك يرضي اليهود قبض على بطرس أيضاً، وألقاه في السجن عازماً أن يقدمه للشعب بعد الفصح ليقتلوه، وكان المؤمنون يصلون إلى الله من أجله، وبينما كان نائماً بين جنديين مقيداً بسلسلتين وقف به ملاك الرب، فضرب جنبه وأيقظه قائلاً قم سريعاً. فسقطت السلسلتان من يديه واتباع الملاك ظاناً أنه يرى رؤيا، ولما انتهيا إلى باب الحديد الذي يفضي إلى المدينة انفتح لهما ذاته وقطعا زقاقاً واحداً، وفارقه الملاك فعلم أن الرب أرسل ملاكه وأنقذه من يد هيردوس، وتوجه إلى بيت مريم أم يوحنا مرقس ففرح المؤمنون به، وقص عليهم ما كان له فمجدوا الله وهو خرج ومضى إلى موضع آخر (أعمال الرسل ف١٢).

ولا نعلم أين انطلق بطرس حينئذ وما الذي صنعه في تلك المدة إلى أن عاد إلى أورشليم لعقد مجمع الرسل سنة ٥١. والأظهر أنه مضى إلى رومة ثانية ومنها كتب رسالته الأولى نحو سنة ٥٠ للتاريخ العامي. وقد كتب أنه دونها في بابل والمراد بها رومة كما فسر كثير من القدماء منهم أوسابيوس في تاريخه (ك٢).

ف ١٥)، وإيرونيμος (في كتابه المشاهير فصل ٨). وقد أنفذها إلى المؤمنين في بيتينيا وبنطوس وغلاطية والكبادوك، وجعل كلامه فيها موجهاً إلى اليهود المنتصرين، وإن تكلم عن الأمم المؤمنين أيضاً. وقد كتبها باليونانية وأرسلها على يد سلوانوس ويظهر أنه هو المسمى سيلا في أعمال الرسل. وفي سنة ٥١ طرد بطرس مع اليهود من رومة بأمر كلود الملك فأتى أورشليم، وعقد مجمعاً مع الرسل، وكان الداعي إليه قلق حصل في أنطاكية لأن المؤمنين من اليهود كانوا يريدون أن يكرهوا المنتصرين من الأمم على أن يختنوا ويلتزموا بحفظ سنة موسى، ولما عرض بولس وبرنابا هذا الأمر على الرسل عقد المجمع تحت رئاسة بطرس، واجتمع فيه الرسل والكهنة وجرت مباحثة طويلة. فقام بطرس وقال إن الله اختاره لتسمع الأمم من فمه كلمة الإنجيل، وقد أعطوا الروح القدس كما أعطيناه ولا موجب لوضع نير على رقاب التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحتمله. ثم قام يعقوب قائلاً قد شرح سمعان كيف افتقد الله الأمم وإنه يرى ألا يثقل على من يرجع إلى الله منهم بل أن يرسل إليهم أن يمتنعوا من نجاسات الأصنام والزنى والخنوق والدم. فأجمع رأيهم على ذلك وكتبوا كتاباً إلى المؤمنين من الأمم في أنطاكية وسورية وكيليكية حاوياً قرار مجمعهم، وخلاصته أنه قد رئي للروح القدس ولنا أن لا نضع عليكم ثقلاً فوق هذه الأشياء التي لا بد منها، وهي أن تمتنعوا مما ذبح للأصنام ومن الدم والخنوق والزنى، فإذا صنتم أنفسكم من هذه أحسستم فيما فعلتم كونوا معافين. وأرسلت هذه الرسالة الجمعية على يد يهوذا وسيلا وتوجها مع بولس وبرنابا إلى أنطاكية، وأذاعا الرسالة ففرح المؤمنون بها (أعمال الرسل ف ٥١).

ولم تكن وصية الامتناع عن الدم والخنوق إلا موقته أمر بها الرسل حينئذ ليتيسر تأليف الكنيسة من أمم ويهود، وبعد مدة أتى بطرس إلى أنطاكية وكان يأكل ويشرب مع الأمم ولا يمتنع عن الأطعمة التي حظرتها سنة موسى. ثم أتى أورشليم أناس من اليهود المؤمنين، فاعتزل بطرس عن الأكل مع الأمم مخافة أن يعيبه اليهود، وخشي بولس الرسول أن يتأول الأمم عمل بطرس بمعنى أن يكره الأمم على أن يتهودوا، ويخضعوا لنير السنة، وهذا يعود بالنقض على ما رسموه في المجمع الأورشليمي. وأنابنا بولس أنه وثب بطرس على ذلك قائلاً: «فلما تقدم كيفاً إلى أنطاكية قاومته مواجهة لأنه كان ملوماً» (غلاطية فصل ٢ عدد ١١) وعلل ذلك بما مرّ.

قد رأى بعض المفسرين أن كيفا الذي وثبه بولس هو غير بطرس المسمى كيفا أو الصفا، ورأى آخرون أن الخلاف بينهما كان ظاهرياً ليثبتا للأمم محافظتهما على ما سنه مجمع أورشليم، على أنه وإن حسبنا تونيبي بولس لبطرس على ظاهره، وعلى إطلاقه فلا يمس رياسته بشيء، ولا يظهر منه أن بطرس أثم بذلك بل أن بولس لأنه شريكه في التبشير وفي المحاماة عن الإيمان نبهه إلى أن تصرفه في ذلك يفضي إلى تأويلات سيئة من جانب الأمم، وقد أراد الله أن ينبه بطرس هذه المرة بفهم شريكه في البشارة مكان أن ينهيه إلى ذلك بالرؤيا كما كان في يافا. وبطرس تقبل هذه النصيحة بالتواضع ولم يرد أن يعتمد على سلطته في تبرئة عمله. وقال البابا بيلاجيوس إن الكنيسة كلها تحترم التواضع الذي أذعن به بطرس لتونيبي بولس. وكان بين القديسين أغوستينوس وإيرونيμος مباحثة طويلة في شأن تونيبي بولس لبطرس لا محل لتفصيلها هنا.

ولم يثبتنا الكتاب ما عمله بطرس منذ سنة ٥١ التي عقد فيها مجمع أورشليم إلى سفره الأخير إلى رومة قبيل استشهاده. فقد عرف حينئذٍ بوحى أن زمان موته قريب. فكتب إلى المؤمنين الذين تنصروا على يده رسالته الثانية مذكراً لهم بالحقائق التي أرشدتهم إليها، وأن يثبتوا بها ويمتدح فيها رسائل بولس، ويقول إنها لا تخلو من غموض. وقد بلغ بطرس وبولس إلى رومة كأنه في وقت واحد نحو سنة ٦٥ وصنعا آيات كثيرة وأمن على أيديهما كثيرون وروى القديس أمبروسيوس (خطبة ٦٨) إن الوثنيين استاءوا كثيراً مما أجراه بطرس على سيمون وصمموا أن يقتلوه. فألح المؤمنون على بطرس أن يخرج من رومة ويخرج، ولما انتهى إلى باب المدينة ظهر له المسيح داخلاً في الباب، فسأله أين تمضي ياسيدي؟ فأجابه أتيت رومة لأصلب ثانية. ففهم بطرس أن المسيح يريد أن يمجده بموته، فعاد وقصّ على المؤمنين رؤياه، وقُبض عليه بأمر نيرون وأودع السجن الذي يدل على محله في رومة. ويقال إنه بقي فيه تسعة أشهر وأخيراً صلب في رومة في الـ ٢٩ من حزيران سنة ٧٦ وفي ذلك اليوم قطع رأس بولس في الحبل الذي صلب فيه بطرس. وحقق أوسابيوس في تاريخه (ك٣ فصل ١)، وفم الذهب (في خطبة ٦٦) وغيرهم أن بطرس علق على الصليب منكساً بحسب طلبه من صاليه. وقال القديس أمبروسيوس إنه سأل ذلك مخافة أن يظن أنه يتطلب الفخر بصلبه كالمسيح، وليزيد

ألم عذابه. وقال بعضهم أنه دفن أولاً في مدافن بعيدة عن رومة ميلين ثم نقل جسده إلى الواتيكان.

عد ٥٠٥

رئاسة بطرس على الرسل والكنيسة جمعاء

إنَّ كل من تبصَّر في ما روينا في ترجمة بطرس عن الأنجيل، وكتاب أعمال الرسل يباصرة لم يعثها العناد، وبصيرة لم يستغوها الضلال، قضى بأنَّ المسيح أقام بطرس رئيساً لرسله وللكنيسة التي أنشأها في العالم. فإذا استقرينا كلام الأنجيل في الرسل نراه ذكر قبل جميعهم مع أنه لم يكن أكبر سنّاً، ولا أقدم دعوة من جميع الرسل، ونراه مقدامهم في كل عمل خطير عملوه، ولا نرى المخلص طوّب غيره من الرسل أو عامله كما عامل بطرس في مواقع عديدة. ورغبة في الإيجاز نقصر على أربع فقر من الأنجيل تثبت رئاسة بطرس هذه اثباتاً قاطعاً، ولا يمكن صرفها إلى غير هذا المعنى إلا بتعسف ظاهر، ومكابرة ذميمة. فأولى هذه الفقر تغيير المخلص اسم بطرس وتسميته منذ دعوته إلى الرسالة كيفاً أي الصخرة. فلم لم يغيّر اسم غيره من الرسل؟ ولم سمّاه صخرة أو صفا لا باسم آخر؟ فما ذلك إلا لينبئنا منذ حينئذ أنه سيختاره ليكون صخراً يؤسس عليه كنيسه. وقد أتّم ذلك كما يظهر من الفقرة الثانية التي هي الآيات الواردة في بشارة متى (فصل ١٦) حيث سأل المخلص تلاميذه قائلاً من تقول الناس أنّ ابن البشر هو؟ فقالوا قوم يقولون يوحنا وآخرون إيليا وآخرون ارميا. وقال لهم وأنتم من تقولون؟ أجاب بطرس قائلاً أنت هو المسيح ابن الله الحيّ. فقال له يسوع: «طوبى لك يا سمعان ابن يونا فإنه لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك بل أبي الذي في السماء، وأنا أقول لك أنك أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، ولك أعطي مفاتيح ملكوت السماء، وكل ما ربطته في الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما حللته في الأرض يكون محلولاً في السماء».

ففي هذه الآيات استعارات ناطقة بأنَّ المخلص أراد أن يجعل بطرس رئيساً لكنيسه أولاًها استعارة الصخرة. فإنَّ المخلص لم يشأ أن يضرب أطناب مظلة أو أن ينصب خباء، بل شاء أن يقيم بناءً راسخاً على صخر مؤبداً لا ترعزه الأيام. وهذا

البناء معنوي لا مادي فاستعار كلمة صخرة لبطرس الذي جعله أساساً لهذا البناء الأبدى قائلاً أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي مدينة الخلاص، فلا يقوى عليها المقاومون من كفرة أو هراطقة عبّر عنهم بأبواب الجحيم. والثانية استعارة المفاتيح إذ قال له: «ولك أعطي مفاتيح ملكوت السماء». فملكوت السماء هو كنيسته، وقد تواتر تعبيره عنها بذلك. وما معنى تسليم مفاتيح دار إلى رجل أو تسليم مفاتيح مدينة إلى ملك أو والٍ غير تسليطهما عليهما وإطلاق التصرف لهما بهما؟ ولم يفهم القدماء ولا الحداث ولا يفهم الآن كل منصف بتسليم هذه المفاتيح إلّا هذا المعنى، وهذا بديهي يأبى كل تأويل. والاستعارة الثالثة هي استعارة الحل والربط لسلطة بطرس في ملكوت المسيح الذي هو الكنيسة بحيث أنّ كل ما يربطه بطرس فيها يكون مربوطاً في السماء، وكل ما يحلّه فيها يكون محلولاً في السماء. أجل إنّ المخلص عبّر بهذه الاستعارة نفسها أيضاً عن السلطة التي منحها لرسله، ليحلّ كلّ منهم ويربط في الكنائس الخصوصية التي يدبّرونها على أنّ قوله لهم شامل بطرس أيضاً إذ وجهه إلى جميعهم؛ أما قوله لبطرس فلا يشملهم لأنه خصّه به، والمقام يقتضي أن يزيده شيئاً عليهم مكافأة له على اقراره بلاهوته دونهم، فلا يستقيم معنى هذا الاختصاص إلّا بأنه منحه سلطة الربط والحلّ العليا على جميعهم وعلى الكنيسة كلها. ولم لا نراه قال مثل ذلك لغيره منفرداً؟ فضلاً عن تأييد لاستعارتين الأولى والثانية لهذا المعنى الذي أجمع عليه الآباء والعلماء والمفسرون الكاثوليكيون.

وما أبطل تمحلّ بعض الهراطقة وجهاً ليغشوا سطوع هذه الآيات بقولهم أنّ المخلص قال لبطرس على ما في اليونانية، واللاتينية أنت هو بطرس وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي. وإنه يريد بالصخرة نفسه فكيف يلتحم هذا التأويل مع باقي كلام المخلص الذي أراد أن يكافئ بطرس على اقراره بلاهوته. وما يكون معنى قوله أنت بطرس أحتاج بطرس أن يعلم أنه بطرس؟ ولم عنى المخلص قوله بأنه الصخرة إنّما هي نفسه أضاقت عليه المذاهب في التعبير عن هذا المعنى؟ وهب تمحلهم للاستعارة الأولى صحيحاً فما يصنعون بالاستعارة الثانية؟ لك أعطي مفاتيح ملكوت السماء هذا وإنّ المخلص خاطب بطرس بالسريانية **ܐܢܬ ܕܐܬܝܬ ܥܠܝܗ ܕܐܬܝܬ ܥܠܝܗ** (أنت كيفاً وعلى هادا كيفاً ابنا لعيدات) ولم

بَدَل اسمه وسماءه كيفاً؟ وحفظت جميع الترجمات هذه اللفظة على أصلها مفسّرة إياها بصخرة أو صفاة.

الفقرة الثالثة ذكرها لوقا (فصل ٢٢) وهي أَنَّ الرب قال لسمعان: «هوذا الشيطان سأل أن يغربلكم مثل الحنطة لكني صليت لأجلك لئلا ينقص إيمانك. وأنت متى رجعت فثبت اخوتك». وفي هذه الآية يبتتان دامتان: الأولى أنه صلي لأجل بطرس لئلا ينقص إيمانه فلم يخضه بالصلاة لئلا ينقص إيمانه إلا لأنه جعله راساً للرسل والكنيسة؟ وحتى إذا ثبت الرأس والأساس أمن على الأعضاء من الزيفان، وعلى البناء من السقوط كما فسّر أشهر الآباء. وهب أنه أشار بذلك إلى جحود بطرس له كما فسّر بعض الهرطقة خاصة فيبقى البرهان على ثباته وقوّته. فلم هذه العناية بأنه لا ينقص إيمانه إلا لأنه أس الكنيسة ويهمه أمره وأمرها، وهو وإن جحد المخلص بلفظه فلم يجحده بقلبه ولم يكن بعد رأس الكنيسة، وجحوده لم يجعل المسيح يخلف وعده له؟ وقد رأينا بعد ذلك قبيل صعوده يقول له: ارع خرافي ارع نعاجي. والبيّة الثانية قوله: «وأنت متى رجعت فثبت اخوتك» فلمن من الرسل قال المخلص مثل هذا الكلام؟ ولم يأمره أن يثبت اخوته إن لم يكن أقامه رئيساً لهم؟ وقد قال له هذا وهو ينذره بجحوده ويرى ما يستحوذ عليه من الضعف. فلو لم يكن عازماً أن يجعله الرئيس بعده لكان الأولى أن يقول مثل هذا الكلام ليوحنا أو غيره من الرسل الذين لم يجحدوه.

وبقيت الفقرة الرابعة وهي بيّة جليّة مفحمة رواها يوحنا الذي رأى بطرس يدبر الكنيسة مدة نحو من ثلاثين سنة، وعاش بعده نحواً من ثلاثين سنة أخرى. ورأى خليفته الأوّل والثاني يدبران وهما في روما الكنيسة كلها. فإنه روى (في الفصل ٢١ وهو الأخير من بشارته) إنّ المسيح ظهر قبل صعوده لرسله وهم يصيدون في بحيرة طيبارية وأمرهم أن يلقوا شبكتهم من جانب السفينة الأيمن وضبطوا سمكاً كثيراً. ولما علم بطرس أنه الرب طرح نفسه في البحر آتياً إليه وبعد أن تغدوا سأل يسوع بطرس ثلاثاً: يا سمعان أتجنّبي أكثر من هؤلاء؟ فأجابه بطرس ثلاثاً نعم يا رب أنت تعلم أنني أحبك فقال له يسوع في المرة الأولى: «ارع خرافي». وفي الثانية «ارع غنمي». (على ما في نسختنا السريانية وفي اللاتينية. ارع خرافي أيضاً) وفي الثالثة «ارع نعاجي». فالمسيح أنجز بقوله هذا وعده لبطرس أن يجعله راساً للكنيسة بنوع لا يحتمل زيادة في التصريح. فلم سؤاله له ثلاثاً إن كان يحبه أكثر من باقي

تلاميذه إلا لبيان أهمية ما يوليه إياه، كما يسأل الكاهن المعتمد ثلاثاً هل يعترف بالله؟ وكما يأمر المتناول أن يقرّ ثلاثاً أنه ليس أهلاً لتناول جسد ابن الله. وفشّر بعضهم أنه سأله ثلاثاً إن كان يحبه ليمحو جحوده ثلاثاً، ويعدّه لقبول الموهبة العظمى أن ينوب عنه في تدبير شؤون الكنيسة بعد صعوده. قال القديس امبروسيوس (في تفسيره بشارة لوقا فصل ١٠): «إنه لم يسلم إليه خرافه فقط كما في المرة الأولى، ولا غنمه فقط كما في المرة الثانية بل نعاجه أيضاً. وهذا يبيّن أنه ليس راعياً للخراف فقط بل راعي الرعاة أيضاً». وكذلك أجمع الآباء والمفسرون الكاثوليكيون على أنّ المراد من ذكر المسيح الخراف والنعاج إنما هو أن يبيّن أنّ المؤمنين أجمعين من رؤساء ومرؤوسين خاضعون لرياسة بطرس وسلطته.

وإذا أضفت إلى الآيات السالفة ما جاء في أعمال الرسل عن اهتمام بطرس باختيار خلف ليهوذا، وافتتاحه باب الإنذار لليهود، وعن الرؤيا له ليفتح باب الإيمان للأمم، وتقدمه في مجمع الرسل في أورشليم، وتصدّره أبداً في الكلام، ومجئ بولس إليه بعد ارتداده ليزوره، وإقامته عنده خمسة عشر يوماً، ولم يرّ غيره من الرسل إلا يعقوب (غلاطية فصل ١ عد ١٨). وعوده إليه بوحى ليطلعه مع غيره من الرسل على البشارة التي ينادي بها لثلاث يكون سعى عبثاً (غلاطية فص ٢ عد ٣) علمت أنّ هذا المبحث من أوضح المباحث في «الكتاب»، وإنّ هذه العقيدة التي هي من أسس التعليم المسيحي ثابتة فيه ثبوت أساس وضعه الله ليقم عليه كنيسته. وقد أجمع عليها الآباء والعلماء الكاثوليكيون الغربيون والشرقيون من القرن الأول إلى الآن، ولا ينكر الهراطقة المنفصلون عن وحدة الكنيسة صحة تعليم الآباء والعلماء الذين تقدّموا ظهور بدعتهم أو انفصالهم، بل ينزلون أقوالهم منزلة القواعد والدعائم للدين الصحيح. وهم يصرّحون ويحققون رياسة بطرس على الرسل والكنيسة كلها. وكل ما أدى المنفصلين تنقيهم في كتب هؤلاء الآباء والعلماء إنما هو وجدانهم في بعضها عبارات قليلة ملتبسة أو تتحمل معنيين أو تقبل التعسف، فردّ الكاثوليكيون مزاعمهم بعبارات أخرى صريحة لأولئك الآباء أنفسهم تبين حقيقة تعليمهم وتخجل المتعنتين.

إنّ بعض البروتستانت المتأخرين لما ضاقت بهم الحيل عن إنكار رئاسة بطرس لجأوا إلى زعم خالفهم فيه كل من تقدّمهم من الكاثوليكين وهراطقة ووثنيين أيضاً. فإنهم زعموا أنّ بطرس الرسول لم يمضِ إلى روما، ولم يقم كرسيه فيها، وينقض

زعمهم هذا زعماءهم أنفسهم نخص بالذكر منهم كلونيوس (في مؤلفه شرح تعليمه ك ٤ جزء ٦ فصل ١٥)، لبنيس (في المذهب اللاهوتي). ويثبت هذه الحقيقة الكتاب والتقليد والآثار. أما «الكتاب» فقد صرح لنا أنّ بطرس كتب رسالته الأولى في بابل (بطرس آ فصل ٥ عد ١٣). ولا يمكن أن يكون المراد ببا بل هذه عاصمة الكلدان إذ لم يكن فيها مسيحيون ولا كنيسة في القرن الأول. بل حقق سترابون (ك ١٦) وبلين (ك ٦ فصل ٢١) إنها كانت حينئذ خربة وكأنها أرض قفار. وأنبأنا يوسفوس (ك ١٨ من تاريخ اليهود فصل ٩) إنّ نفراً من اليهود أرادوا الإقامة فيها في تلك الأثناء، فطردوا منها ولا يراد بها بابل في مصر لأنّ هذه لم تكن مدينة ولا قرية بل حصناً للجنود الرومانيين، ولا أثر ولا شاهد على أنّ بطرس بشّر في الإنجيل في مصر أو في بلاد الكلدان. فتعيّن إذاً أن يكون المراد ببا بل روما عاصمة الرومانيين. سماها الرسول بهذا الاسم تحزّزاً في إبان الاضطهاد ولمضارعتها بابل في عظمتها وترفها وشرّها، كما سماها يوحنا بابل في رؤياه (فصل ١٤ عد ١٨ وفصل ١٦ عد ١٩ وفصل ١٧ عد ٥ وفصل ١٨ عد ٢)، ودلّ عليها دلالة واضحة بقوله فصل ١٧ أنّها على سبعة جبال، وأنها المدينة العظمى السائدة على جميع ملوك الأرض، وأنها سكّرى من دم القديسين ودم شهداء يسوع. وكما احترز بولس في تعبيره عن نيرون بالأسد بقوله: «نجوت من فم الأسد» (تيموتاوس ٢ فصل ٤ عد ١٧).

أما التقليد المثبت هذه الحقيقة فهو عام شرقاً وغرباً عند المسيحيين وغير المسيحيين، ومتّصل بأيام الرسل، ومجمع عليه إلى الأيام التي تمحل البروتستانت فيها هذا الزعم الواهن. فالقديس اكليمنضوس البابا يذكر القرنين في رسالته الأولى التي كتبها إليهم بعد ثلاثين سنة من موت بطرس وبولس بالشهداء العديدين الذين نالوا الاكليل في روما وفي مقدمتهم بطرس وبولس والقديس اغناطيوس الذي صار اسقفاً على انطاكية ٦٨ يذكر الرومانيين بمثل ذلك في رسالته إليهم. وبايضا تلميذ يوحنا الرسول وهاجيسبوس (وقد كان في أواسط القرن الثاني)، والقديس ديونسيوس اسقف قرنتية (كان في عهد مرقس اوريليوس في القرن الثاني)، كتب إلى الرومانيين أنّ القرنين والرومانيين شركاء في سماع بشرى الإيمان من بطرس وبولس، فكلاهما دخلا مدينتنا قرنتية، وأرشدانا بازرين بزور تعليم الإنجيل ثم مضيا معاً إلى روما؛ وإذ كانا يرشدانكم كذلك تجرعا مرّ الاستشهاد في وقت واحد.

ذكر ذلك أوسايبوس (في تاريخه ك ٢ فصل ٢٥) وقال إنّ قتل الرسولين بطرس وبولس في روما تثبته اثباتاً قاطعاً آثارهما الواضحة التي ترى في مدافن روما إلى الآن. والقديس ايريناوس تلميذ بوليكر بوس واسقف ليون زار في القرن الثاني روما، وعرف بعض المعاصرين لبطرس الرسول، وأثبت لنا هذه الحقيقة (في ك ٣ فصل ١). وغايوس الذي كان في مبادئ القرن الثالث. قال في كتابه في ردّ مزاعم بركليوس أنه يمكنه أن يدلّ على مدفني الرسولين في روما (ذكره اوسايبوس في تاريخه ك ٢ ف فصل ٢٥). وترتليانوس الذي زار روما سنة ٢٠٤ صرّح بقتل نيرون الرسولين في روما في كتابه في سقوط دعوى المخالفين (فصل ٣٦). واكتفى بذكر هؤلاء الآباء الذين كانوا في القرنين الأول والثاني ومبادئ الثالث عن ذكر شواهد غيرهم من الآباء والعلماء التي لا تحصى ولا سيما هذا الكتاب، بل إنّ المؤرخين المسلمين صرّحوا بذلك منهم ابن خلدون (ك ٢ صفحة ١٤٧) حيث قال: «إنّ الذي بحث من الحواريين بطرس ومعه بولس» إلى أن يقول: «أما بطرس كبير الحواريين وبولس اللذان بعثهما عيسى صلوات الله عليه إلى روما» وقد نال بطرس اكليل الشهادة سنة ٦٧ على الأصحّ عمره سبعون أو خمس وسبعون سنة. ومن الآثار في الحمامات المعروفة بحمامات نوفاتوس بن بودنس أحد رجال الندوة كانوا يدفنون فيها الشهداء خفية، ثم أقيمت فوقها كنيسة على اسم القديستين براكسيديا وبردنتيانا بنتي بودنس الشهيدتين. وتحت أرضها معبد يسمى معبد الراعي الصالح يحقق التقليد أنه كان ثمة مخدع بطرس الرسول. وهناك ينبوع ماء يقولون أنّ الرسول كان يعمّد بمائه، ومذبح صغير من خشب قديم كُتب عليه «على هذا المذبح كان القديس بطرس يقدّم جسد الرب ودمه لأجل زيادة عدد المؤمنين». (ذكره كبريانوس دورات في تاريخ الآثار درس ٦) ومن الآثار الموقرة في روما من أقدم الأيام الحبل المعروف قديماً بسجن مار مرتين حيث الآن كنيسة سجن القديس بطرس. ويدل هناك على الحائط الذي كان الرسول يستند إليه وهو مغلل وعلى بركة الماء التي كان يستقي منها. وقد عمّد بمائها بروشاس ومرتينيانوس؛ ومن أشهر هذه الآثار مدفن الرسولين بطرس وبولس المقامان على محل استشهادهما خارجاً عن أسوار روما. وكانت جثتهما أولاً فيهما ثم نُقلتا إلى الواطيكان. وهناك أيضاً مدفن القديسة بطرونة ابنة القديس بطرس بالتبني على الراجح لأنه وإن كان مزوجاً قبل اتباعه المخلص فلا يُظن ولا يتيّن على أنه أخذ أهله إلى روما؛ وهذا مدفن

بنته دوميتلاً الغنيّة التقية تلميذة بطرس الرسول، ودُفنت فيه بعد استشهادها (ذكر كل ذلك كبريانوس السابق ذكره). وكل هذه الأماكن يحجّ إليها المؤمنون ويتبرّكون بها منذ صدر النصرانية.

وقد وُجدت صورة على زجاج نُقشت في القرون الأولى ترى فيها رسم الرسولين بطرس وبولس يسندان الكنيسة من جانبيها ممثلة بعمود كما سماها بولس عمود الحق. وفي أعلاها شعار المسيح الذي هو الصليب. فبولس على الشمال ويده كتاب رسائله وبطرس على اليمين ويده ملفّة وتجاهه ملفّة أخرى يشار بهما إلى رسالتيه.

وقد اتحفتنا مخائى روما بكثير من صوّر الرسولين بطرس وبولس وأعلمتنا بما كانت هيئتهما، فإنّ نوطاً من الصفر نُقشت عليه صورتا الرسولين في القرن الثالث وكثيراً من الصوّر المنقوشة على زجاج مذهب دلتنا بموجب حكم مصوّرين خبيرين على ما كانت سمات هيئتهما. فكان بطرس طويل القامة مستقيماً ورأسه وذقنه مكسوين بشعر مجعّد قصير، ووجهه مستديراً، وحاجباه مقوسين وأنفه طويلاً أقنى، وأما بولس فكان قصير القامة، وفيها حدة أسلع الجبهة، طويل اللحية، يضاوي الوجه مستقيم الأنف طويله. وقد ورد في كتاب تراجم القديسين عند الروم وعند طائفتنا المارونية ذكر مثل هذه السمات لهيئة الرسولين.

عد ٥٠٦

بولس الرسول

إنّ بولس وكان اسمه أولاً شاوول هو من سبط بنيامين وُلد في ترسيس، وروى القديس ايرونيμος أنّ أصل أهله من الجش في الجليل. وقد امترى في ذلك كاران في كلامه على الجش استمسكاً بأنّ بني بنيامين كانت مواطنهم في اليهودية لا في الجليل حيث الجش، على أنه مما لا يتردد فيه أنّ بني إسرائيل لا سيما بعد عودهم من الجلاء لم يحفظ اسباطهم مساكن أجدادهم الأولى. فيوسف ومريم كانا من سبط يهوذا ومساكن آبائهم اليهودية. وقد صرّح الإنجيليون أنهما كانا يسكنان الناصرة في الجليل. وقد وُلد بولس قبل ميلاد الخلّص بستتين أو ثلاث على القول أنه ناهز السبعين عند استشاده. وكانت له المدنية الرومانية لأنّ اغوستوس منح

هذا الحق لوجهاء ترسييس بمكافأة عن ميلهم إليه. وقد أرسله والده منذ صبوته إلى أورشليم حيث درس الشريعة لدى جمليئيل (ابركسيس فصل ٢٢ عد ٣) العالم الشهير. فنبغ في دروسه وكانت سيرته لا لوم فيها مستمسكاً بطريقة الفريسيين (ابركسيس فصل ٢٦ عد ٤ و ٥). وكان شديد الغيرة يقاوم الكنيسة مجدفاً على المسيح مضطهداً المسيحيين (تيموتاوس أولى فصل ١ عد ١٣). ولما كان اليهود يرحمون اسطفانوس كان يحرس ثياب الراجمين (ابركسيس فصل ٧ عد ٥٧). وكان ذلك سنة ٣٣ للتاريخ العامي بعد موت المخلص ولما ثار الاضطهاد بعد ذلك على المؤمنين كان شاوول من أكبر المضطهدين لكنيسة الله كما شهد على نفسه في رسالته إلى (غلاطية فصل ١ عد ١٣). وكان يدخل البيوت ويجر الرجال والنساء ويسلمهم إلى السجن (ابركسيس فصل ٨ عد ٣ وفصل ٢٢ عد ٤). وقد طلب من قيافا رئيس الكهنة وشيوخ اليهود رسائل إلى اليهود المتوطنين في دمشق ليقبض على المسيحيين فيها. ويسوقهم موثقين إلى أورشليم.

وفيما هو منطلق وقد قُرب من دمشق أبرق حوله بغثة نور من السماء فسقط على الأرض. وسمع صوتاً يقول له: شاوول، شاوول لِمَ تضطهدين؟ فقال من أنت يا رب؟ قال أنا يسوع الذي أنت تضطهده إنه لصعب عليك أن ترفض المهماز. فقال له وهو مرتعد يا رب ما تريد أن أصنع؟ فقال له قم وادخل المدينة وهناك يقال لك ما تصنع. فنهض وعيناه مفتوحتان ولا يُبصر فاقتاده الرجال الذين معه إلى دمشق. ولبت ثلاثة أيام لا يبصر ولا يأكل ولا يشرب إلى أن أوحى الله إلى تلميذ بدمشق اسمه حننيا أن قم انطلق إلى شاوول في الرقاق المسمى القويم. فقال حننيا للرب قد سمعت من كثيرين كم من الشرّ صنع. هذا الرجل بالقدسين. فقال له الرب انطلق فإني جعلته إناءً مختاراً ليحمل اسمي أمام الأمم والملوك وبني إسرائيل. فمضى حننيا إليه ووضع يديه عليه فعاد بصره وقام واعتمد وأخذ طعاماً وتقوى (ابركسيس فصل ٩ عد ١ فصاعداً).

إنّ بولس بعد أن بقي أياماً في دمشق يكرز في المجامع مضى إلى بلاد العربية القريبة من دمشق ثم عاد إلى دمشق (غلاطية فصل ١ عد ١٧). وكان يتردد بين دمشق وبلاد العرب التي يرجح أنّ المراد بها حوران (بوجولا في تاريخ أورشليم). مدة ثلاث سنين يستعدّ فيها لمقاومة أعداء الرب مختلياً تارة كموسى وإيليا، وواعظاً تارة. ولما رأى اليهود نجاحه في التبشير وارتداد الكثيرين إلى الإيمان على يده ائتمروا

على قتله. واتفقوا مع والي دمشق عليه وكانوا يرصدون الأبواب نهاراً وليلاً ليقتلوه. وكُشفت مكيدتهم فأخذه التلاميذ ليلاً ودلوه من السور في سلّ وكان ذلك لسنة ٣٧ للتاريخ العامي. وقد ذكر ذلك في رسالته الثانية إلى قرنتية (فصل ١١ عد ٣٢). فقال: «كان الحاكم في دمشق تحت أمرة ارتياس (الحارث) الملك (أي ملك النبطيين) يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض عليّ، فدُلّيت من كوة في زنبيل من السور ونجوت من يديه». وبعد أن نجا انطلق إلى أورشليم ليزور بطرس وأقام عنده خمسة عشر يوماً. ولم يَزْ غيره من الرسل سوى يعقوب أخِي الرب كما قال عن نفسه في رسالته إلى الغلاطيين (فصل ١ عد ١٨ و ١٩). وأما باقي الرسل فكانوا يخافون منه ولم يصدقوا أنه تلميذ إلى أن أخذه برنابا ودخل به عليهم وبيّن لهم ما أصابه في طريق دمشق وكيف آمن وبشّر فيها بجرأة ففرحوا به.

وأخذ بولس بعد ذلك يبيّش اليهود والأُمم وكان كلامه شديداً مفحماً. فالتمس اليونانيون أن يقتلوه فأحدره المؤمنون إلى قيصرية ثم أرسلوه إلى طرسوس. (ترسيس) موطنه (ابركسيس فصل ٩ عد ٢٧) ولبت هناك مبشراً نحواً من خمس أو ست سنين أي من سنة ٣٧ إلى سنة ٤٣ م. ولما كان الرسل أرسلوا برنابا إلى انطاكية ووجد عدد المؤمنين كثيراً فمضى إلى ترسيس وأتى ببولس إلى انطاكية ومكثا فيها سنة كاملة يعلمان المؤمنين (ابركسيس صفحة ١١ عد ٢٥). ولما حصلت مجاعة شديدة في اليهودية جمع المسيحيون في انطاكية ما تيسّر لهم خدمة لاختوتهم في اليهودية، وأرسلوا ذلك إلى أورشليم على أيدي برنابا وشاؤول (ابركسيس صفحة ١١ عد ٢٨).

وعاد شاؤول وبرنابا إلى انطاكية وأخذا معهما يوحنا الملقّب مرقس. ولم يمضِ زمان إلّا وأعلمهما الروح القدس بواسطة الانبياء والمعلمين الذين كانوا في هذه المدينة منهم برنابا وسمعان الملقّب بالأسود، ولوقيوس القيرواني ومناين أن يمضيا ليبيشرا في مجال أخرى، فأخذ المؤمنون يصومون فأوحى إليهم الروح القدس أن يفرزوا شاؤول وبرنابا للعمل الذي دعاهم إليه. فصاموا حينئذٍ وصلّوا ووضعوا أيديهم عليهما وصرفوهما لبيشرا حيث يلهمهما الروح القدس. قال فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٤ عد ٥١٦) ما ملخصه: «إنّ وضع اليد على بولس وبرنابا لم يكن سرّ التثبيت لأنّ هذا السرّ كان يُعطى عادة بعد المعمودية، ولم يكن يمكنهما أن يعظا ولا أن يقدموا ذبيحة أو يشتركا فيها كما كانا يصنعان إن لم يكونا مثبتين،

وحاصلين على الدرجات المقدسة. ولم يكن ذلك أيضاً الرسالة أو الدعوة لأنّ الرسالة ليست درجة. والدعوة لا تكون إلا من الله، وبولس قد كان نال ذلك قبلاً من الله، فإذا لم يكن وضع الأيدي عليه وعلى برنابا في انطاكية إلاّ ليحوزا الأسقفية أي السلطان الأسقفي، الذي كانا يحتاجان إليه لتثبيت المؤمنين واقامة الكهنة والأساقفة». وقال كلمت (في معجم الكتاب) ويظهر أنه نحو هذا الزمان أي نحو سنة ٤٤ م خُطف بولس إلى السماء الثالثة فرأى ما لم تزه عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر كما قال في رسالته الثانية إلى قرنتية (فصل ١٢ عد ٢ وما يليه).

فانحدر شاوول وبرنابا أولاً إلى سلوقية (سويدية) ومن هناك أقبلوا إلى قبرص. فانتھيا إلى سلامينا وبشّرا بكلمة الرب في مجمع اليهود. وكان معهما يوحنا مرقس يخدمهما ثم اجتازا في الجزيرة كلها إلى بافس (الباف) فصادفا رجلاً ساحراً اسمه بريشوع مع الوالي سرجيوس بولس. وكان هذا رجلاً ذكياً أديباً فاستحضر برنابا وشاوول وطلب أن يسمع كلمة الله فقاومهما الساحر. وحاول أن يصرف الوالي عن الإيمان فقال له شاوول يا ممتلئاً من كل مكر وخبث وعدو كل برها يد الرب عليك فتكون أعمى لا تُبصر الشمس إلى حين. فوقع عليه في الحال ظلمة وطلق يَجول ملتمساً من يقوده بيده، ولما رأى الوالي ذلك آمن متعجباً من تعليم الرب (ابركسيس فصل ١٣ عد ١ إلى ١٣).

قد ندّد بعض الجاحدين قبلاً بالقديس لوقا كاتب سفر أعمال الرسل بوصفه سرجيوس بولس بكلمة انتيباتوس اليونانية بمعنى والٍ مع أنّ الرومانيين كانوا قسموا أقاليم المملكة بين العاهل والندوة. فالولاية في الأقاليم المختصة بالعاهل يسمّون يوسباتوس. والولاية في الأقاليم المختصة بالندوة يسمّون انتيباتوس. وقالوا إنّ قبرص كانت تخصّ العاهل فقد غلط لوقا بوصفه واليها بانتيباتوس وكان حقه أن يصفه بيوسباتوس. على أنّ الاكتشافات الحديثة صححت رواية لوقا، وأخرجت المنددين إذ وُجدت في قبرص مصكوكات نُقش عليها اسم يوليوس كردوس واسم اتيوس باسوس والي قبرص سنة ٥١ و ٥٢ حين زيارة الرسول قبرص. والواليان يوصفان بانتيباتوس. وُجدت قطعة أخرى نُقش عليها من جهة في اللاتينية اسم كلود قبصر ومن الجهة الأخرى «سكة القبرصي في أيام كومينيوس بركلوس انتيباتوس. وأقوى من ذلك أنّ العالم شسنولا وجد في قبرص صفيحة من رخام نُقش عليها: «تذكرة

ابولوس لأبيه وأمه في أيام بولس انتيباتوس». فبولس هذا هو سرجيوس بولس نفسه
تمجّد الله. وقد جاء في التنقيب في كتب القدماء أنّ ديون كاسيوس قال (في ك
٥٣ فصل ١٥) إنّ اغوستوس قيصر أعطى قبرص لرجال الندوة والشعب وأخذ
دلماسيا بدلاً منها، فلم يبقَ في هذا المبحث إلى الريب من سبيل (فيكورو العهد
الجديد والاكتشافات).

ظنّ بعضهم أنّ شاوول ابتدأ حينئذٍ يسمى بولس لأنّ لوقا سماه بولس عند
ذكر ما تقدّم ولم يعد يسميه شاوول بعد ذلك. وإنه سُمي بولس ذكراً لتنصّره
سرجيوس بولس على يده. وقال القديس استر (خطبة ٨) إنه غيّر اسمه عند تنصّره
في دمشق. قال فم الذهب خطبة ٢٨ في الأبركسيس إنه غيّر اسمه عند وضع اليد
عليه في انطاكية وارتقائه إلى الأسقفية. وقال غيرهم إنه لم يُسمَ بولس وهو لفظ
لاتيني إلّا بعد أن أخذ ينذر الأمم لا سيما الرومانيين. وقال آخرون إنه كان يسمى
دائماً شاوول بولس. كما كان لكثير من اليهود اسمان أحدهما عبراني والآخر
لاتيني. ومهما يكن من هذا الخلاف فلا نرى الكتاب سماه بولس إلّا بعد تنصّره
سرجيوس بولس الذي كان سنة ٤٥ م.

ثم ألق بولس ومن معه من بافس وأتوا إلى برجه (تسمى الآن اسكى قلعة
سي أي القلعة القديمة) بمغيلة. وفارقهما يوحنا مرقس عائداً إلى أورشليم ثم تركا
برجه وانطلقا إلى انطاكية بيسيدية (بيسيدية من أعمال آسيا الصغرى في شمالي
بمغيلة). ودخلا المجمع وكلفهما رؤساؤه أن يتكلما. فقام بولس وألقى فيهم خطبة
طويلة أبان فيها أنّ يسوع هو المسيح الذي بشر به الانبياء ويوحنا المعمدان وأماته
اليهود ظلماً وقام بعد ثلاثة أيام. فصغى إليه السامعون وكلفوه أن يكلمهم ثانية في
السبت الآخر. ولما انقضى المجمع تبع بولس وبرنابا كثيرون من اليهود والدخلاء
فوعظاهم أن يشبّثوا في نعمة الله. وفي السبت أتى أكثر أهل المدينة لسمعوا كلمة
الله فامتلاً اليهود حسداً، وجعلوا يقاومون ما قاله بولس. فقال لهم بولس وبرنابا إنه
كان يلزم أن يُنذر بكلمة الله لكم أولاً، وبما أنكم رفضتموها فها نحن نتوجّه إلى
الأمم. ولما سمع ذلك الأمم فرحوا ومجدوا كلمة الله وآمن كل من أعدّ للحياة
الأبدية وانتشر الإيمان في تلك الناحية. أما اليهود فأثاروا اضطهاداً على بولس وبرنابا
وطردوهما من تخومهم فنفضا عليهم غبار أرجلهما وأتيا إلى ايقونية (ابركسيس
فصل ١٣ عد ١٣ إلى ٥١).

ولما بلغا إلى أيقونية دخلا إلى مجمع اليهود وتكلما فآمن جمهور كثير من اليهود واليونانيين على أنّ من لم يؤمنوا من اليهود أثاروا الأثم وأوغروا صدورهم على المؤمنين. ومكث بولس وبرنابا زماناً طويلاً هناك والرب يشهد لصحة تعليمهما بآيات وعجائب. وانقسم أهل المدينة بعضهم مع اليهود وبعضهم مع الرسولين. وتوالت الأثم واليهود عليهما ليشتموهما ويرجموهما فهربا إلى لسترة ودربة من مدن ليكاوية (لسترة تسمى الآن خاتون سراي إلى سراي السيدة وهي شرقي قونية. ودربة تسمى الآن امبر راس وهي قرية من لسترة. وليكاونية من أعمال آسيا الصغرى وهي في شمالي بيسيدية وغربي الكبادوك).

وكان في لسترة رجل مقعد من جوف أمه ففترس فيه بولس وقال له قم على رجليك منتصباً فوثب ومشى. ولما رأى ذلك الجموع رفعوا أصواتهم قائلين إنّ الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا. وسموا برنابا زوسا وبولس هرمس لأنه كان المقدم في الكلام. وأتى كاهن زوس بشيران وأكاليل وأراد أن يقدمهما مع الجموع تكريماً لهما، فمزق برنابا وبولس ثيابهما ووثبا نحو الجمع قائلين أيها الرجال لم تصنعون هذا نحن بشر نقبل الأثم مثلكم ونبشركم أن تتردوا عن هذه الأباطيل إلى الله الحي. ولم يكف الجموع عن أن يذبحوا لهما إلّا بجهد جاهد. ثم أتى يهود من انطاكية بيسيدية وايقونية واغروا الجموع. فرجموا بولس وجروه إلى خارج المدينة وظنّوه قد مات. غير أنه بينما كان التلاميذ محيطين به قام ودخل المدينة وانطلق في الغد مع برنابا إلى دربه فبشرا فيها وتلمذا كثيرين ورجعا إلى لسترة وايقونية وانطاكية يشبتان قلوب التلاميذ، وأقاما لهم كهنة في كل كنيسة، ثم اجتازا في بيسيدية ورجعا إلى بمفلية، وبشرا بكلمة الرب في برجه ثم انحذرا إلى أناليا (اضاليا)، ومن هناك أقلعا إلى انطاكية سورية من حيث كانا سافرا السنة السالفة وجمعا الكنيسة وقصا عليهم كل ما صنع الله معهما. وإنه فتح للأثم باب الإيمان (ابركسيس فصل ١٤). وكان عودهما إلى انطاكية سنة ٤٧ أو سنة ٤٨ م (فيكوررو في الموجز الكتابي مجلد ٤ عد ٥١٥) وهذا هو سفر بولس الأول من انطاكية وعوده إليها.

إنّ لوقا لم يذكر ما عمله بولس بعد عوده إلى انطاكية إلى سنة ٥١ م التي حضر فيها مجمع الرسل في أورشليم، بل اقتصر على قوله أنّ بولس وبرنابا لبثا في انطاكية مع التلاميذ مدة غير قصيرة. وعقب ذلك بذكره المنازعة التي جرت بين

بولس وبرنابا وبين القوم الذين أتوا من اليهودية على لزوم الختان. ثم ارسل بولس وبرنابا إلى أورشليم من أجل هذه المسألة وعقد مجمع الرسل هناك كما مرّ عد ٥٠٣ وعود بولس وبرنابا إلى انطاكية يعلّمان ويبشّران إلى أن قال لوقا، وبعد أيام قال بولس لبرنابا أن يرجعا ويفتقدا الأخوة الذين بشّراهم في آسيا الصغرى. ورأى برنابا أن يأخذا معهما يوحنا مرقس، وخالفه بولس لأنّ يوحنا لم يذهب معهما للعمل. فأقلع برنابا إلى قبرص موطنه وأخذ معه يوحنا مرقس، واختار بولس سيلا وانطلق به فطاف سورية وكليكية يثبت الكنائس ويسلم إليهم وصايا الرسل (ابركسيس فصل ١٥).

ولما انتهيا إلى دربه ولسترة وجدا تلميذاً اسمه تيموتاوس ابن امرأة يهودية مؤمنة لكن أباه يوناني. وكان مشهوداً له من المؤمنين في لسترة وإيقونية فأخذه بولس معه بعد أن ختنه أحد اليهود. قال فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٤ عد ٥٢٥) لم يكن ختان تيموتاوس مخالفاً لرسم مجمع أورشليم لأنّ هذا المجمع أعفى الأمم من الختان. وأثبت أنه ليس ضرورياً للخلاص لكنه لم يمنع اليهود حينئذٍ من الختان إن رغبوا فيه تعبداً أو لسبب آخر. وتيموتاوس كانت أمه يهودية وكان مزعماً أن ينذر اليهود. وطاف بولس وبرنابا فريجية وغلطية مثبتين الكنائس في الإيمان ومزيدين عدد المؤمنين كل يوم. والهمهما الله أن يغادرا آسيا فأنحدرا إلى تراوس (المعروفة باسكى اسطيمبول القديمة بين الدردنيل وازمير). وظهرت لبولس رؤيا أن وقف به رجل مكدونني يسأله أن يعبر إلى مكدونية ويغيثهم، فأيقنا بأنّ الرب يدعوهمما للتبشير في أوروبا فأقلعنا من تراوس تَوّاً إلى سموتراكية المعروفة الآن بساموتراقي. وفي الغد إلى نابلس المعروفة الآن بكافيلّا في مكدونية وسارا منها إلى فيليبي (وهي فيليبية حصّنها فيلبوس الثاني ملك مكدونية وسماها باسمه). وقال لوقا: «إنها أول مدينة في أرض مكدونية وهي كولونية (أي جالية رومانية) ودلّت الآثار على أنها كما وصفها لوقا أعمر مدينة في مكدونية في تلك الأيام. وقد وُجدت سكة لهذه المدينة على وجهها الأول صورة كلود الملك. كُتب عليها كلوديوس قيصر. وعلى وجهها الثاني صورة هذه المدينة مكتوباً حولها كولونية يولية غالية الفيليبين. ووجد هور وغيره صفائح أخرى من رخام تنبئ بتفصيلات أخرى كثيرة لهذه الكولونية وهي التي كتب بولس بعداً إلى أهلها. وأمنت على أيدي بولس وسيلا ليديّة بياعة الأرجوان واعتمدت هي وأهل بيتها. وأتت جارية بها روح عرافة كانت تكسب

مواليها مالاً جزيلاً بعرافتها. وطفقت تمشي في أثر بولس وتصيح هؤلاء الرجال هم عبيد الله العليّ وهم يبشرونكم بطريق الخلاص. وصنعت ذلك أياماً فضجر بولس وقال للروح المستحوذ عليها إني أمرك باسم يسوع المسيح أن تخرج منها فخرج في الحال. ورأى مواليها أنه ضاع رجاء كسبهم منها فقبضوا على بولس وسيلا وقدّموهما إلى الولاة قائلين إنّ هذين الرجلين يبلبلان مدينتنا وهما يهوديان. فقام الجمع عليهما وأمر الولاة أن يُضربا بالعصي فأثخنوهما جراحاً وألقوهما في السجن مخפורين بتحرز. وعند نصف الليل كان بولس وسيلا يصلّيان فحدثت بغتة زلزلة شديدة زعزعت أسس السجن فانفتحت الأبواب كلها. وانفكت قيود الجميع وظنّ السجّان المساجين هربوا. وهمّ أن يقتل نفسه فناده بولس قائلاً لا تفعل بنفسك سوءاً فإننا جميعنا هاهنا. فخرّ لبولس وسيلا مرتعداً وآمن هو وأهل بيته وذووه أجمعين وأخذ الرسولين إلى بيته وأدب لهما مبتهجاً. ولما كان النهار أرسل الولاة يقولون أطلق ذينك الرجلين. فقال بولس لقد جلدونا جهاراً من غير أن يُقضى علينا ونحن رومانان والقونا في السجن أفالآن يخرجونا سرّاً؟ فليأتوا هم أنفسهم ويخرجونا. ولما سمع الولاة أنهما رومانان خافوا وأقبلوا إليهما متضرعين أن يتحوّلا عن المدينة فذهبا ودخلا بيت ليدية وعزيا المؤمنين وانطلقا (ابركسيس صفحة ١٦).

قد انتهى بولس وسيلا من فيليبية إلى تسالونيكى، وكان هناك مجمع لليهود فدخله بولس على عادته، وبشّرهم ببشارة المسيح ثلاث سبوت متتالية. فأمن بعض اليهود وانضمّ جمهور كبير من اليونانيين ومن النساء الشريفات إلى بولس. فأخذت باقي اليهود الغيرة الكاذبة، واتخذوا رجالاً أشراراً من أهل السوق، وبلبلوا المدينة وهجموا على بيت ياسون الذي كان الرسولان فيه طالبين أن يُخرجوهما إلى الشعب. ولما لم يجدوهما جرّوا ياسون وبعض المؤمنين إلى ولاة المدينة يصيحون أنّ هؤلاء الذين فتنوا المسكونة قد حضروا إلى هنا يقولون بملك آخر غير قيصر. فأخذ الولاة كفالة على ياسون والباقيين وأطلقوهم. وأرسل المؤمنون بولس وسيلا ليلاً إلى بيرية (وهي فارية الآن في ولاية تسالونيك). إنّ قول لوقا أنّ الثائرين جرّوا ياسون وبعض المؤمنين إلى ولاة المدينة هو في اليونانية إلى بوليترك المدينة، وهذه الكلمة لا وجود لها في كتب المؤلفين القدماء بهذا المعنى. وكان وضعها يحسب غلطاً لفظياً إلى أن جاءت الاكتشافات الحديثة مثبتة صحة رواية لوقا. فقد وُجدت في سالونيك ست صفائح قديمة وبعضها في أيام الرسول تعبر عن حكام هذه المدينة

بكلمة بوليترك نفسها التي عثر بها لوقا عنهم. ومن شاء التفصيل في شأن هذه الصفائح فليطالع كتاب فيكورو في العهد الجديد والاكتشافات.

ولما وصل بولس وسيلا إلى بيرية دخلا إلى مجمع اليهود وكان هؤلاء اسمح أخلاقاً من أولئك فإنهم قبلوا كلمة الله بابتهاج، وكانوا كل يوم يفحصون الكتب وآمن كثيرون منهم وعدد ليس بقليل من اليونان من كرام الرجال والنساء. وبلغ اليهود الذين في تسالونيكي ذلك ووافوا إلى بيرية فأثاروا الجموع عليهما فصرف المؤمنون بولس وصحبه بعضهم إلى أثينا وتبعه سيلا وتيموتاوس. ودخل بولس المجمع في أثينا وهذا المجمع آثاره باقية ومكتوب على أحد أبوابه آية المزمور ١١٧: «هذا هو باب الرب والأبرار يدخلون به». وكان يذاكر اليهود والمتعبدين ومن يوجد في السوق كل يوم. وبأحثه قوم من الفلاسفة الايبكوريين والرواقيين وجاء به بعضهم إلى محفل باغس الباقية أطلاله إلى الآن. وهناك صخر يمكن الوقف هناك أن يحقق أنه واقف موقف الرسول وكان أولئك يسألونه ما هذا التعليم الذي يتكلم به. فوقف بولس في المحفل وقال يا رجال أثينا إني في مروري ومعايتي لمناسككم صادفت مذبحاً مكتوباً عليه للإله المجهول (ذكر كثيرون غير الرسول هذه العبارة للإله المجهول منهم فيلوسترات في ترجمة ايلانيوس وبوسانياس). فهذا الإله الذي تعبدونه وأنتم تجهلونه به أنا أبشّر. وهو الذي صنع العالم وكل ما فيه وقد صنع من واحد جميع أُمم الناس، ولا يحلّ في هياكل مصنوعة بالأيدي ولا تخدمه أيدي البشر كأنه محتاج إلى شيء وهو مولى الجميع حياة ونفساً، وبه نحيا ونتحرك ونوجد كما قال بعض شعرائكم أيضاً أننا نحن ذريته. فسخر منه بعضهم وقال غيرهم سنسمع منه ثانية، وآمن بعضهم منهم ديونيسيوس الارويياغي (أي من علماء المحفل المعروف باريوس باغس). وصار بعد اسقفاً ورسولاً في افرنسة كما يظهر من السنكساري الروماني، ومن كتاب في أعمال الشهدا كُتب منذ القرن الخامس. وآمنت أيضاً امرأة اسمها داماريس وآخرون (ابركسيس فصل ١٧). ولما قدم تيموتاوس من بيرية إلى أثينا أنبأ الرسول بالاضطهاد المثار على المؤمنين في تسالونيكي. فاضطرّ الرسول أن يوجه به إلى مكدونية ليثبت المؤمنين ويعزيهم كما قال في رسالته إلى تسالونيكي (فصل ٣ عد ٣).

وخرج بولس بعد ذلك من أثينا وجاء إلى قرنتية (فصادف يهودياً اسمه اكيلا كان قد قدم منذ قريب من ايطاليا. وكان مع برسكّة امرأته صانعي خيام فأقام

بولس عندهما وكان يعاونهما لمعرفة بهذه الصناعة. وكان يباحث في المجمع كل سبت ويحجّ اليهود واليونانيين لكنهم كانوا يقاومونه ويجدّون على المسيح. فنفض ثيابه وقال لهم دمكم على رؤوسكم أنا بريء وهأنذا ماض إلى الأمم، وانتقل إلى بيت رجل اسمه تيطس يُستس وآمن حينئذٍ على يده كرسبس رئيس المجمع هو وكل أهل بيته وأتبعهم كثيرون. وقال في رسالته الأولى إلى قرنتية (فصل ٩ عد ١٤ إلى ١٧) إنه لم يعمّد منهم سوى كرسبوس وغيوس وأهل بيت اسطفانا لأنّ المسيح لم يرسله للتعديد بل للتبشير، وهو اصطلاح عبراني يراد به أنه يفضّل التبشير على التعديد على نحو قوله أريد رحمة لا ذبيحة. وقال له الرب في الرؤيا لا تخف بل تكلم ولا تسكت لأنّ لي في هذه المدينة شعباً كثيراً. فلبث سنة وستة أشهر يبشّر بين ظهرائهم بكلام الله، واتى إليه في هذه الأثناء سيللا وتيموتاوس وعزياه كثيراً بما قضا عليه من حالة المؤمنين في تسالونيكي. فكتب عندئذٍ رسالته الأولى إلى التسالونيكين وبعد مدة كتب إليهم رسالته الثانية.

ولما كان بولس في قرنتية أتى إليها جليون والي اخائيا فأشخص اليهود بولس إلى محكمة الوالي قائلين إنّ هذا يستميل الناس إلى عبادة الله تخالف الناموس، فلم يستمع جليون شكواهم قائلاً إنه لا يريد ان يتداخل بمباحث كهذه خارجة عن خطته. فأخذ اليهود رئيس المجمع وضربوه قدام المحكمة ولم يبال جليون بشيء من ذلك. قال فيكورو في الموجز الكتابي (مجلد ٤ عد ٥٣١) إنّ جليون هذا كان أخا سينكا الفيلسوف وعم لوقا الشاعر. وسمي والياً على اخائية اعتباراً لأخيه ومات سنة ٦٥ م. ولبث بولس هناك أياماً كثيرة ثم ودّع المؤمنين، وأقلع إلى سورية ومعه اكيلا وامراته برسكّلة. ولما انتهوا إلى افسس تركهما هناك، وأقلع من افسس إلى قيصرية فلسطين، وسار إلى اورشليم وسلّم على المؤمنين، وقصّ عليهم ما أجراه الله على يده ففرحوا به. ثم مضى إلى انطاكية (ابركسيس فصل ١٨ ألى عد ١٣). وهذا هو سفره الثاني من انطاكية وعوده إليها وقد مضى به نحو ثلاث سنين أي من سنة ٥١ إلى آخر سنة ٥٣ م.

وأقام بولس في انطاكية نحواً من سنتين وأخذ في سفره الثالث سنة ٥٥ م واستمرّ به نحو ثلاث سنين أي إلى سنة ٥٨ م فإنه طاف في غلاطية وفريجية مدينة فمدينه مثبتاً المؤمنين وانتهى إلى افسس. وكان قدم إليها رجل يهودي اسمه ابولس من الاسكندرية وكان غيوراً على التبشير بالمسيح. وهو لا يعرف إلّا معمودية

يوحنا. فشرح له اكيلا وبرسكلّة تعليم الرب أتم شرح ووجد بولس أنّ ابولس عمّد بعض التلاميذ في افسس بمعمودية يوحنا المعمدان، فعمّدهم باسم الرب يسوع أي بمعمودية يسوع الذي علّم بأن تكون باسم الآب والابن والروح القدس. ووضع يديه عليهم فطفقوا ينطقون بلغات ويتنبأون وكانوا نحو اثني عشر رجلاً. ولبث بولس في افسس ثلاثة أشهر يعظ ويعلم، ولما قست قلوب البعض اعتزل عنهم، وفرز التلاميذ منهم وكان كل يوم يعلم في مدرسة رجل اسمه تيرنس، وأقام على ذلك سنتين والله يجري على يديه آيات عظيمة حتى كانوا يأخذون عن جسمه مناديل ومآزر إلى المرضى فتفارقهم الأمراض وتخرج منهم الأرواح الشريرة.

وأخذ بعض اليهود يعزمون على المسوسين قائلين عزمت عليكم بيسوع الذي يكرز به بولس. وكان لسكاوي رئيس كهنة اليهود سبعة بنين يصنعون ذلك فأجابهم الروح الشرير أنني أعرف يسوع وبولس أما أنتم فمن تكونون؟ ووثب الرجل المسوس على معزمين فأثنخنها جراحاً ومزّق ثيابهما. فهربا عريانين مجرحين وانتشر الخبر عند اليهود واليونانيين في أفسس، فخافوا وعظم اسم الرب وآمن كثيرون. وكانوا يأتون معترفين ومخبرين بأعمالهم. لقد أثبت بلرمنيوس وغيره من مشاهير المفسرين أنّ المراد بهذا الاعتراف الاعتراف السري. ولم يكن هؤلاء المعترفون من الموعوظين بل من المؤمنين، ومن كانوا يسحرون أتوا بكتبهم وأحرقوها أمام الجميع وحسب ثمنها فوجد خمسين ألفاً من الفضة ولا بدع، لأن الكتب لم تكن حينئذ إلا مخطوطة. وكانت كتب السحر نادرة وثمينة. وقال في رسالته الأولى إلى القرنيتين (فصل ١٥ عد ٣٢): «إن كنت أنا لئما حاربت الوحوش في أفسس بحسب البشرية فما المنفعة لي؟ وظنّ بعض الآباء إنّه ألقي في هذه المدينة للوحوش لتفترسه فأجابه الله منها، والأوجه أنّه يريد. بالوحوش خصومه في هذه المدينة بدليل أنّه لم يذكر طرحه للوحوش، إذ عدّد مصائبه وبلاياه (قرنثية ٢ فصل ١١). وكانت مدينته الرومانية تعصمه من مثل هذا العذاب. وقد كتب وهو في أفسس رسالته إلى الغلاطيين نحو سنة ٥٦ م. وعزم أن يزابل أفسس ويمر بمكدونية وأخائية ليعود إلى أورشليم قائلاً: «بعد مصيري إلى هناك ينبغي أن أرى رومة أيضاً».

وبلغه حينئذ خبر القلق في قرنثية وانقسام أهلها على بعضهم. فكتب إليهم رسالته الأولى، وما برح من أفسس إلا نشأ فيها شغب شديد على الدين، فإنّ

ديميتريوس الصائغ كان يصنع لارطاميس معبودتهم تماثيل صغيرة ويبيعهها ممن يحج إلى هيكلها في أفسس الذي كان يعد من عجائب الدنيا السبع. وكان يكسب الصناعات كسباً جزيلاً، فجمع حرفاءه وقال قد علمتم أن يسارنا إنما هو من صناعتنا، ورأيتم أن بولس هذا أزاغ جمعاً كبيراً في أفسس معلماً أن مصنوعات الأيدي ليست بآلهة. فحف الخضر بمرتزقنا وبعظمة أرطاميس فثار سامعوه، وطفقوا يصيحون عظيمة أرطاميس إلهة الأفسسيين. وعم الشعب المدينة ووثب الجم الغفير إلى المشهد واختطفوا غايوس وارستركس رفيقي بولس. وهم بولس أن يدخل بين الشعب فلم يدعه التلاميذ وعلت الضوضاء، وعظم البلبال في الحشد، وأكثروا من الهتاف نحو ساعتين عظيمة أرطاميس الأفسسيين. فقام كاتب من أعوان الحكومة فقال من من الناس لا يعلم أن مدينة الأفسسيين متعبدة لأرطاميس العظيمة ولتمثالها الذي هبط من زوس؟ ولما كان هذا لا يختلف فيه لزمكم أن تكونوا على سكينه، وإن كان لديميتريوس وحرفاءه دعوى على أحد فإنها تقام أيام القضاء بحضرة الولاة، وإن كنتم تطلبون امراً فيفصل بينكم في محشد شرعي، وإلا فتشكون بفتنة ولا حجة لكم في هذا التجمع. ولما قال هذا أرفض الحشد (ابركيس فصل ١٩). إن العالم فود الانكليزي عنى منذ سنة ١٨٦٣م باستقصاء الآثار في محل هيكل ارطاميس (المسماة ديانا أيضاً) في افسس. ودام على ذلك منفقاً مالا جزيلاً فوفق إلى أن يجد آثاراً كثيرة ثبت اثباتاً علمياً واضحاً ما رواه لوقا في هذا الفصل من أعمال الرسل. فقد آذاه تنقيبه إلى الكشف لا عن عظمة الهيكل فقط بل عن تماثيل كثيرة لهذه المعبودة وعن صفائح عديدة مشعرة بالعبادة لها يسمي من كتبوها أنفسهم فيلارتميس أي محبي ارطاميس أو المتعبدين لها. ويقدمون التقادم لها ويحتفلون أعياداً لها منها عيد مولدها. ويفردون شهراً لعبادتها يسمونه ارتاميسيون. وفي هذه الصحف تسمى ارطاميس العظيمة بنفس اللفظ الذي وصفها لوقا به، وبعضها بين أن بعض الافسيين وقف على هيكلها أملاكه عند موته، وجعلها وارثة له. وبعضها أن رجالاً منهم قدّموا لهيكلها تماثيل وصوراً وغيرها مما قال لوقا إن ديميتريوس وحرفاءه كانوا يصنعونه. وفي هذه الآثار اسماء الوالي والكاتب باللفظ نفسه الذي ذكره لوقا وتعاطيها الأعمال على نحو ما ذكره البشير. وانه كان لهم أيام للقضاء بحضرة الولاة وأيام يجتمعون فيها في محشد شرعي. كما ذكر البشير حتى أن الكلمة اليونانية التي استعمالها البشير للدلالة على تعبد الافسيين

لارطيميس، وهي تاكوروس ولم تكن معروفة قبل اكتشاف فود قد وجدت على صفائح من التي عثر عليها. ويراد بها من يكتس الهيكل بنوع أنّ هذه الآثار جاءت مصداقاً لما رواه البشير لا من حيث المعاني فقط بل من حيث الألفاظ أيضاً.

ولما سكن البلبل دعا بولس التلاميذ فوعظهم ثم ودعهم وانطلق إلى مكدونية. ثم أتى بلاد اليونان واخائية واقام هناك ثلاثة أشهر ثم زار المؤمنين في قرنتية وجمع صدقاتهم. وكتب رسالته إلى الرومانيين وعاد إلى مكدونية عازماً أن يشخص إلى اورشليم في عيد البندكستي واقام أياماً في فيليبية وصنع الفصح هناك. وأتى إلى تراوس (تراوادا اسكى اسلامبول) واقام هناك اسبوعاً واجتمعوا لكسر الخبز، وكان بولس يخطب فيهم إلى نصف الليل. وكان شاب اسمه اوتيكنس غلب عليه النوم فسقط من الطبقة الثالثة إلى أسفل وحمل ميتاً، فنزل بولس وانطرح عليه وعانقه، فقام حياً ثم صعد بولس وكسر الخبز واكل وأطال الحديث إلى الفجر، وأتى إلى جزيرة ميتلانة المسماة الآن كسترو. واقلع منها فبلغ في الغد إلى قباله كيوس (ساقس) ووصل في اليوم الآخر إلى صامس، وفي اليوم التالي إلى ميلتس (مدينة في آسيا الصغرى في جنوبي افسس). فاستدعى كهنة افسس ووعظهم وأعلمهم بأنه سائر إلى اورشليم ولا يدري ما سيعرض له هناك، إلا أنّ الروح القدس يشهد له أنّ قيوداً ومضايق معدة له لكنه لا يخشى من هذا شيئاً. وحسبه أنّه تمّ سعيه وخدمة الكلمة التي قبلها من الرب، وأنّه عالم أنّهم لا يعاينون وجهه بعد. ويظهر أنّه كان بين هؤلاء الكهنة اساقفة إذ قال لهم الرسول: «احذروا لأنفسكم وللجميع القطيع الذي أقامكم فيه الروح القدس اساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه» ثم شيعوه إلى السفينة باكين (ابركيس فصل ٢٠).

ومضى من هناك إلى كيوس الجزيرة المعلومه وانتهى في الغد إلى رودس ثم إلى باترا. ووجد سفينة تعبر إلى فينيقية فركبها وتبين قبرص ولم يحل فيها بل انتهى إلى صور، وصادف بعض التلاميذ فيها فمكث عندهم سبعة أيام، وكانوا يشيرون عليه أن لا يصعد إلى اورشليم، ثم شيعه المؤمنون أجمع حتى النساء والأولاد إلى خارج المدينة. وأقبل إلى عكا ومكث عند المؤمنين يوماً واحداً ووافى قيصرية ودخل بيت فيلبوس أحد الشمامسة السبعة. فأتى إليه نبي من اليهودية اسمه أغاباس وهو مسيحي من اليهودية يحتمل أنّه كان من تلاميذ الخالص وحائز موهبة النبوة، وكان قد تنبأ على مجاعة في اليهودية، فكانت في السنة الرابعة لكلود الملك. وشهد

يوسيفوس (ك ٢٠ من تاريخ اليهود فصل ٥) إنَّها أضرت بفلسطين كثيراً فأخذ أغابس منطقة بولس وأوثق بها يديه ورجليه، وقال إنَّ الرجل صاحب هذه المنطقة سيوثقه اليهود هكذا في أورشليم. فسأله لوقا الذي كان يصحبه وأهل المكان أن لا يصعد إلى أورشليم فقال ما بالكم تبكون؟ إني مستعد لا للوثاق فقط بل للموت في أورشليم لأجل اسم الرب يسوع. ثم صعد إلى أورشليم ومعه تلاميذه من قيصرية فقبلهم الاخوة بفرح.

وفي الغد دخل إلى يعقوب اسقف أورشليم ، وكان الكهنة كلهم حاضرين فقص عليهم بولس كل ما صنع الله بين الأمم بخدمته. فمجدوا الله وقد حذره يعقوب قائلاً إنَّ اليهود الذين آمنوا بلغهم عنه أنَّه كان يعلم اليهود الذين بين الأمم أن يتركوا سنَّة موسى ولا يختنوا بنهم. وأشار عليه أن يوقفهم على الحقيقة في اجتماعهم لديه. وقال إنَّ عندنا أربعة رجال عليهم نذر وكان النذرون لا يحلقون رؤوسهم فخذهم وطَّهر نفسك معهم. وأنفق عليهم ليحلقوا رؤوسهم فيعرف الجميع أنَّ ما بلغهم عنك ليس بشيء، وأنتك كنت تسلك محافظاً على الناموس. فأتمَّ بولس كل ما أشار عليه به يعقوب إلا أنَّه رآه في الهيكل اليهود الذين من آسيا فهيجوا الجمع عليه وألقوا عليه أيديهم صارخين، أنَّ هذا الرجل يعلم جميع الناس في كل مكان ما يخالف الناموس. وقد أدخل يونانيين أيضاً إلى الهيكل، ودنَّس هذا الموضع الطاهر فهاجت المدينة كلّها، وتبادروا إلى بولس فأمسكوه وجروه إلى خارج الهيكل، وأغلقوا الأبواب وكانوا يريدون قتله. قد روى يوسيفوس في كتابه في الحرب، وفي تاريخ اليهود أنَّ اليهود كانوا يعلقون دُفوفاً على السور الثاني للهيكل مكتوباً عليها باليونانية واللاتينية أنَّ الوثنيين ممنوعون أن يدخلوا داخل ذلك السور تحت عقوبة القتل. وقد وجد كارمون كابو ترجمان قنصلية افرنسة في أورشليم سنة ١٨٧١ م دُفأ من هذه الدفوف وهو الآن محفوظ في متحف الأستانة، وهذه ترجمة ما كتب عليه: «لا يدخلن أحد الأجانب إلى داخل السور المحقق بالمكان المقدس، ومن تجرأ على ذلك فلومه على نفسه في ما يجري عليه من عقاب الموت». فهذا مصداق لما روى لوقا البشير. ولما بلغ الخبر إلى قائد كتيبة الجند التي في أورشليم بأنَّ المدينة قد بلبت عاد من ساعته بجند، وقواد إليهم، فكفوا عن ضرب بولس، وأمر القائد أن يوثق بسلسلتين وطفق يستخبر من هو وما صنع؛ فكان بعضهم يصيح بشيء وبعضهم بآخر حتى لم يعلم القائد حقيقة الأمر.

ولما بلغ إلى الدرج حمله الجند مخافة أن يسطو الجمع عليه. ولما قارب بولس أن يدخل المعسكر قال لقائد الألف هل لي أن أكلمك؟ فأجابه هل تعرف اليونانية أو لست أنت ذلك المصري الذي أثار هيجاناً وخرج إلى البرية بأربعة آلاف رجل من القتلة؟ فقال بولس: أنا رجل يهودي طرسوسي أسألك أن تأذن أن أكلم الشعب فأذن له. ووقف بولس على الدرج وأشار بيده إلى الشعب فسكتوا فخطب فيهم باللغة العبرانية (أبركسيس فصل ٢١).

ولما سمعوه يخاطبهم باللغة العبرانية ازدادوا هدوءاً فبين لهم أنه رجل يهودي ولد في طرسوس، وربي في أورشليم، ودرس الناموس لدى جمليل. وكان غيوراً على ناموس الله كما هم الآن جميعاً، وكان يضطهد المؤمنين رجالاً ونساءً. وقص عليهم ما أصابه في طريقه إلى دمشق، وكيف آمن وما أمره الرب به إلى أن قال: «انطلق سأسلك إلى الأمم بعيداً فسمعوا له إلى هذه الكلمة» ورفعوا أصواتهم قائلين ارفع عن الأرض مثل هذا لأنه ليس بجدير أن يحيا. وأكثروا من الصراخ ونزع ثيابهم وتذرية الغبار إلى الجو. فأمر قائد الألف أن يمتحن بالجلد لكي يعلم لم يصيحون عليه هكذا. ولما ربطوه بالسيور قال لقائد المئة أيجوز لكم أن تجلدوا رجلاً رومانياً غير مقضى عليه؟ فأخبر قائد المئة قائد الألف بأن هذا الرجل روماني فدنا إليه قائد الألف وقال: أروماني أنت؟ قال بولس نعم. وقال القائد إني بمال كثير اقتنيت هذه الرعوية. فقال بولس أما أنا فولدت فيها فكف عنه للحال من أزمعوا أن يجلدوه وخاف القائد من أنه أوثقه. وفي الغد أراد أن يعلم ماذا يدعي عليه اليهود فحله وأمر روساء الكهنة والحفل أن يجتمعوا، وأخرج بولس وأقامه لديهم (أبركسيس فصل ٢٢).

فتفرس بولس في الحفل وقال أيها الرجال الاخوة لقد تصرفت أمام الله بكل نية صالحة إلى هذا اليوم. فأمر حننيا رئيس الكهنة القائمين إلى جانبه بأن يضربوه على فيه. فقال بولس سيضربك الله أيها الحائط المبيض أتجلس لتحكم في أمري بمقتضى الناموس، وتأمر أن أضرب بخلاف الناموس. وحننيا هذا قد قتله أحد أعدائه سنة ٦٧ م كما روى يوسيفوس (ك ٢ في الحرب فصل ١٧) فتم ما أنذره به الرسول. وقال الحاضرون لبولس: أتشتم رئيس كهنة؟ فقال ما علمت يا اخوتي أنه رئيس الكهنة. فقد كتب لا تلعن رئيس شعبك. وفشّر بعضهم أن بولس قال إنه لا يعلم أنه رئيس كهنة لأنه اتخذ الرئاسة بوسائل غير شرعية، وبعضهم لأن

كهنوت هرون كان انتسخ بسنة المسيح. والأولى أن يقال إن بولس لتغييه عن أورشليم لم يكن يعلم من كان حيثئذ رئيس الكهنة أو أن من أمر بضربه كان حننيا. ولما علم بولس أن بعض رجال المحفل صدوقيون وبعضهم فريسيون صاح قائلاً أنا فريسي ابن فريسي وعلى رجاء قيامة الأموات أحاكم. فوقع خلاف بين الفريسيين والصدوقيين وثار صياح عظيم، وطفق كتبة من الفريسيين يخاصمون قائلين أننا لا نجد في هذا الرجل شراً. ولما اشتد الخلاف أشفق قائد الألف أن يفسخوا بولس فأمر الجند أن يختطفوه من بينهم ويأتوا به إلى المعسكر.

وفي الليلة التالية ظهر الرب له وقال ثق فإنك كما شهدت لي في أورشليم ينبغي أن تشهد في رومة أيضاً. ولما كان النهار تحالف أكثر من أربعين رجلاً من اليهود إنهم لا يأكلون ولا يشربون حتى يقتلوا بولس. وسألوا رؤساء الكهنة والشيوخ أن يشيروا على قائد الألف أن يخرجهم للتدقيق في فحص أمره فيقتلونه قبل أن يقترب. وعرف ابن أخت بولس بهذه المكيدة فدخل المعسكر وأخبر بولس، فأرسله مع أحد قواد المتين إلى قائد الألف، فانفرد به فأخبره الغلام أن اليهود تعاهدوا أن يسألوه ليخرج بولس غداً إلى المحفل؛ وفي عزمهم أن يكمن له أكثر من أربعين رجلاً فيقتلوه قبل أن يبلغ إليك. وصرف قائد الألف الفتى وأوصاه ألا يخبر أحداً بأنه أطلع على مكيدتهم، وأعدّ مئتي جندي وسبعين فارساً ومئتي رامح، وأحضر دواباً ليركبوا بولس، وسيرهم في الساعة الثالثة من الليل إلى فيلكس الوالي (تقدم خبره في قسم التاريخ الديني). وكان اسم قائد الألف كلود ليسياس فكتب رسالة إلى الوالي فحواه أن اليهود أمسكوا هذا الرجل وأزمعوا أن يقتلوه، فأنقذته لما علمت أنه روماني. ووجدت أنهم يشكونه بمسائل من ناموسهم وليس عليه شكوى توجب الموت أو القيود. ونبت بمكيدة منهم عليه فوجهته إليك وأمرت الشاكين بأن يقولوا لديك ما لهم عليه. فأخذ الجند بولس ومضوا به ليلاً إلى أنثيبتريس (كفرسابا أو مجدل بابا طالع عد ٤٨٦) وفي الغد ترك الجند الفرسان يمشون معه، ورجعوا إلى المعسكر وبلغ الفرسان به قيصرية. ودفعوا الرسالة إلى الوالي وقال لبولس ساسمع منك متى حضر خصومك وأمر بحفظه في قصر هيرودس (أبركسيس فصل ٢٣).

وبعد خمسة أيام انحدر حننيا رئيس الكهنة مع بعض الشيوخ وخطيب اسمه

ترتولوس طفق يشكو بولس أمام الوالي مفتتحاً بالتملق له، ومستخلصاً بقوله أنا وجدنا هذا الرجل مفسداً ومثير فتنة بين جميع اليهود الذين في المسكونة وإماماً لشريعة الناصريين. وقد حاول أن ينجس الهيكل فأمسكناه، وأردنا أن نحاكمه بحسب ناموسنا، فأقبل لسياس وانتزعه من أيدينا، وأمر خصومه أن يأتوا إليك. وإذا فحصته تحققت ما نشكوه به. فأوماً الوالي إلى بولس أن يتكلم فقال أعلم أنك قاض لهذه الأمة منذ سنين كثيرة ويسرني أن أجيب عن نفسي أمامك. ويمكنك أن تعلم أن ليس لي أكثر من اثني عشر يوماً أتيت أورشليم للعبادة، ولم يجدوني في الهيكل أفاوض أحداً ولا أهيج الجمع في الجامع أو في المدينة، ولا بينة لهم على ما يشكونني به الآن على أنني أقرُّ إني بحسب الطريقة التي يسمونها شيعا أعبد إله آبائي مؤمناً بكل ما كتب في الناموس والانبياء. إلى أن قال أو ليقُل هؤلاء ماذا وجدوا في من أثم وأنا قائم أمام المحفل سوى هذا القول أني على قيامة الأموات أحاكم فأمهلهم الوالي قائلاً؛ متى انحدر لسياس قائد الألف إني أتُحقق دعواكم وأمر قائد المئة أن يحرس بولس ويلطف به ولا يمنع أحداً من ذويه عن خدمته. وبعد أيام استدعى فيلكس بولس وسمع منه عن الإيمان بالمسيح بحضرة امرأته دروسلة فخطب له بولس في البر والعفاف والدنيونة الآتية حتى ارتاع الوالي وقال لبولس اذهب الآن وإذا حصلت على فرصة استدعيتك، وكان يؤمل أن يعطيه بولس رشوة فبقي الرسول سنتين في السجن، وخلف فستس فيلكس وأراد فيلكس أن يرضي اليهود فترك بولس مقيداً (أبركسيس فصل ٢٤).

وصعد فستس من قيصرية إلى أورشليم فسأله رؤساء الكهنة وأعيان اليهود أن يمين عليهم باستحضار بولس إلى أورشليم ليجيب على شكواهم عليه، وأبطنوا أن يكمنوا له في الطريق ليقتلوه، فأجابهم أن بولس مخفور في قيصرية، وأنه هو مزمع أن يعود إليها سريعاً فلينحدر معه المقنطرون منهم، وليشكوا هذا الرجل. وعاد بعد ثمانية أو عشرة أيام إلى قيصرية وجلس على المنبر، وأمر بإحضار بولس فحضر فأحاط به اليهود الذين نزلوا من أورشليم، وتجنوا بشكاوى كثيرة لم يقدرُوا أن يشتوها لتبرئة بولس نفسه من كل جريمة. وأراد فستس أن يرضي اليهود فقال لبولس أتريد أن تصعد إلى أورشليم فتحاكم هناك؟ فأجاب أنا واقف لدى منبر قيصر وأمامه ينبغي أن أحاكم، إني ما ظلمت اليهود بشيء وإن كنت صنعت شيئاً

يوجب الموت فلا أستعفي منه، وإن لم يثبت عليّ شيء مما يشكونني به فما أحد يستطيع أن يدفعني إليهم إني إلى قيصر رافع دعواي. ففاوض فستس أهل مشورته وقال إلى قيصر رفعت دعواك فإلى قيصر تنطلق.

وبعد بضعة أيام أقبل أغريبا وبرنيكة اخته ليسلما على فستس، فقصّ عليهما خبر بولس وما كان من أمره إلى رفعه دعواه إلى قيصر، فقال أغريبا كنت أحب أن اسمع هذا الرجل فقال غداً تسمعه. وفي الغد أقبل أغريبا وبرنيكة وفستس إلى دار القضاء، وأحضر بولس فقال فستس إنّ هذا الرجل سعى إليّ به جمهور اليهود في أورشليم يصيحون أنّه لا ينبغي أن يحيا، أما أنا فلم أجد شيئاً يوجب الموت. ورفع دعواه إلى أغوستوس فقضيت بأن أرسله إليه. وقد أحضرته أمامك أيّها الملك أغريبا وأمام هذا الحشد حتى يكون لي بعد الفحص ما أكتبه بشأنه، لأنني أرى من الجهل أن أبعث أسيراً ولا أبينّ الدعاوى التي عليه (أبركسيس ص ٢٥).

فقال أغريبا لبولس مأذون لك أن تجيب عن نفسك، فقال إني أحسب نفسي سعيداً أيّها الملك أغريبا لأنني أحتج اليوم أمامك. وأنت خير بكل ما لليهود من سنن ومسائل. أنّ سيرتي منذ صباي يعرفها من عرفني من اليهود، وقد عشت فريسياً على مذهب ديننا الأقوم، وأنا واقف أحاكم على رجاء وعد الله للآباء أفيحسب عندكم غير مصدق أنّ الله يقيم الموتى؟ وقد كنت ارتأيت أن أقاوم جهدي اسم يسوع الناصري، وقد حبست كثيرين من القديسين في أورشليم عندما فوّض إليّ السلطان من روساء الكهنة، وكنت ممن يرون قتلهم، واضطهدتهم في مدن أخرى وانطلقت إلى دمشق لاضطهادهم بأمر روساء الكهنة وقص ما عرض له في طريقه، وكيف ضربه الله بالعمى، وردّ عليه بصره إذ آمن وقال فمن ثم لم أكن أيّها الملك أغريبا معاصياً للرؤيا السماوية بل بشرت أولاً في دمشق وأورشليم وأرض اليهودية كلها، ثم انطلقت إلى الأمم منذراً لهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الله عاملين أعمالاً تليق بالتوبة. فأمسكني اليهود في الهيكل وحاولوا أن يقتلوني لكنني بقيت حياً إلى الآن لا أقول شيئاً غير ما قاله الانبياء وموسى من أنّ المسيح سيأتى ويكون أوّل من قام من بين الأموات، فيبشّر بالنور للشعب والأمم. فقال فستس قد جنت يا بولس إنّ كثرة الدروس تصير بك إلى الجنون. فقال لست مجنوناً يا فستس العزيز بل أنطلق بأقوال الحق والحكمة والملك الذي أنا بين يديه عارف بهذه الأمور ولا أظن أنه يخفى عليه شيء منها لأنّ ذلك لم يحدث في زاوية. والتفت إلى

أغريبا فقال هل تؤمن بالانبياء أيها الملك أغريبا؟ أنا أعلم أنك تؤمن بها. فقال أغريبا إنك بقليل تقنعني أن أصير مسيحياً. قال بولس أتمنى لك ولجميع الذين يسمعونني أن يصيروا على ما أنا عليه ما خلا هذه القيود. فنهض الملك والوالي وبرنيكا والجالسون معهم وكانوا يقولون إن هذا الرجل لم يصنع شيئاً يستوجب الموت أو القيود. وقال أغريبا لفستس كان يمكن إطلاقه لو لم يكن رفع دعواه إلى قيصر (أبركسيس فصل ٢٦).

وأمر فستس بارسال بولس إلى إيطاليا وسلمه وأسرى آخرين إلى قائد مئة اسمه يوليوس، ولما بلغت السفينة صيدا عامل يوليوس بولس برفق وأذن له أن يذهب إلى أصدقائه، ثم سارت السفينة بهم في شرقي قبرص لأنَّ الرياح كانت مضادة. وعبروا بحر كيليكية وبمغيلية. وذكر لوقا كاتب أعمال الرسل ورفيق بولس في أكثر أسفاره في الفصل ٢٧ منها أحوال هذا السفر، والمخاطر التي ألمت بهم ومهاب الأرياح واسماء الجزر، والمدن التي مروا بها على وجه يثبت صحة ما كتبه ثيوتا علمياً لا يبقى فيه للانتقاد من سبيل. وقد ثارت عليهم زوايع شديدة قطعت لهم كل رجاء في النجاة، وظهر لبولس ملاك قائلاً له لا تخف الله لا بد لك أن تقف قدام قيصر وها قد وهبك الله جميع السائرين معك منقذاً لهم من الغرق من أجلك. فطيب بولس نفوس رفاقه، وسألهم أن يتناولوا طعاماً لأنَّه لا تهلك من راس أحدهم شعرة. وأخذ خبزاً وشكر الله أمام جميعهم، وكسر وطفق يأكل فطابت نفوسهم. وتناولوا طعاماً وكان عدد المسافرين في السفينة مئتين وستة وسبعين نفساً إلى أن بلغوا مالطة. ودفعوا السفينة إلى الشاطئ فنشب مقدمها لا يتحرك وتفكك موخرها من شدة الأمواج، وأراد الجند أن يقتلوا الأسرى لئلا يسبح أحدهم فيهرب فمنعهم القائد من ذلك لينجي بولس، وأمر القادرين على السباحة أن يرموا نفوسهم في الأمواج والباقي أن يعبروا على ألواح أو قطع من السفينة فنجوا بأجمعهم (أبركسيس فصل ٢٧).

وأظهر لهم أهل مالطة الذي سماها الكتاب برابرة (كما كانوا يسمون كل من لا يعرف اليونانية أو اللاتينية) ما جاوز المعتاد من المؤانسة، فإنَّهم أضرموا ناراً وتلافوهم من المطر الذي أصابهم والبرد. فجمع بولس كثيراً من الخطب ووضعه على النار فخرجت أفعى وانتشبت في يده، فقال البرابرة لا جرم في أنَّ هذا الرجل قاتل فأنَّه بعد أن نجا من البحر لم يدعه العدل أن يحيا، أما هو فنفض الحيوان إلى

النار ولم يمسه أذى. فقالوا إنه إله وأضافهم والي الجزيرة المسمى بوليوس ثلاثة أيام، وكان أبوه ملقى قد أخذته الحمى والزحار، فصلى بولس ووضع يديه عليه فأبرأه. وكان بعد ذلك أن سائر الذين بهم أمراض في الجزيرة كانوا يأتون إليه ويشفون. ولذلك أكرموا المسافرين أكراماً جزيلاً وزودوهم ما يحتاجون إليه. وأقلعوا من مالطة بعد أن أقاموا فيها ثلاثة أشهر. فارسلت سفينتهم في سراكوسا (في صقلية) ومكثوا هناك ثلاثة أيام داروا وأقبلوا إلى راجيون (وهي المسماة الآن راجيو في كلابريا في إيطاليا). وهبت ريح الجنوب فوصلت سفينتهم في اليوم التالي إلى بوتبول (وهي بوصول على خليج نابولي قرية من بومباي). وكان هناك مسيحيون فسألوا بولس أن يمكث عندهم سبعة أيام، ثم انطلقوا إلى رومة براً وأقاموا في هذا السفر في قيصرية إلى بوتبول ستة أشهر، ولما سمع المؤمنون في رومة بقدوم بولس خرجوا للقاءه إلى سوق أبيوس على تسعة فراسخ من رومة، وإلى الحوانيت الثلاثة وهي على بعد أربعة فراسخ منها. وظهر من الآثار التي وجدت في بومباي (التي غطتها المواد المتقدة من الفاسوف سنة ٧٩) أنه كان فيها مسيحيون في ذلك الوقت. ويتبين من رسالة بولس إلى الرومانيين التي كتبها قبل سفره ببضع سنين أنه كان في عاصمة الملك وفي إيطاليا عدد كبير من المسيحيين ولما رأى بولس هؤلاء المسيحيين شكر الله وتشجع (أبركسيس فصل ٢٨ إلى عد ١٦).

إن يوليوس قائد المئة سلم بولس إلى رئيس حرس نيرون ولا جرم أنه أخبره بما رآه منه في سفره، وأوصاه به، ولذلك لم يُلَق بولس في السجن كما كان في قيصرية بل أذن له أن يقيم وحده مع جندي يحرسه كما كان هيرودس أغريبا في أيام طيباريوس على ما روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٨ فصل ٦). ولذلك قال الكتاب (أبركسيس فصل ٢٨ عدد ١٧) وبعد ثلاثة أيام دعا بولس وجوه اليهود إليه وقص عليهم ما أجراه عليه يهود أورشليم حتى اضطروا بسبب مقاومتهم أن يرفع دعواه إلى قيصر، فقالوا إنها لم تبلغهم كتب من اليهودية في أمره ولا قدم أحد من هناك يكلمهم عنه بسوء، وقالوا إنهم يرومون أن يسمعو منه ما يراه جهة هذا المذهب الذي يعلمون أنه يقاوم في كل مكان، وعينوا له يوماً فاجتمع إليه في منزله قوم كثيرون، وطفق يشرح لهم عن ملكوت الله ويحجهم في يسوع من الناموس والانبياء من الصباح إلى المساء فأمن بعضهم، ولم يؤمن الآخرون. فاكتفى بولس أن يقول لمن لم يؤمنوا حسناً كلم الروح القدس آباءكم على لسان أشعيا

قائلاً انطلق إلى هذا الشعب وقل لهم سمعاً تسمعون ولا تفهمون ونظراً تنظرون ولا تبصرون إلى آخر قول أشعيا. وقال فليكن معلوماً عندكم أن خلاص الله أرسل إلى الأمم وهم يسمعون. فخرجوا من عنده ولهم مباحث كثيرة فيما بينهم». وأقام سنتين كاملتين (أي سنة ٦١ و ٦٢) في بيت استأجره وكان يقبل جميع الذين يأتون إليه ويبشرون بملكوت الله، ويعلم ما يختص بالرب يسوع بكل جرأة ولا يمنعه أحد. هكذا ختم لوقا كتاب أعمال الرسل ولم ينبئنا بما كان بعد ذلك من أمر بولس. فربما كان ذلك لأن لوقا كتب هذا السفر في السنة الثانية بعد بلوغهم إلى رومة. وقضى عليه أن يتوجه إلى محل آخر فتعجل إذاعة سفره لما حواه من تأييد بشرى الإنجيل ومعاونته على نشر الإيمان. ومهما يكن فختام هذا السفر الأثر دليل واضح على صحته فلو دون في القرن الثاني كما يزعم الجاحدون لما أغفل كاتبه أن يتكلم في ما كان من أمر بولس إلى استشهاده مع بطرس وذلك من الزم الأمور لغرضه.

وأما باقي أعمال الرسول فتنبئنا بها رسائله، وزعم بعضهم أنه بقي مخفياً ثم مسجوناً إلى مماته وجعلوا استشهاده سنة ٦٤م. على أن القول الأعم والأثبت أن نيرون خلى سبيله أولاً سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ م ولا يعلم كيف كانت تخلية سبيله، والظاهر أن خصومه لم يجسروا أن يلاحقوا دعواهم عليه أمام قيصر إذ لا بينة لهم عليه، والذي عليه الجمهور أنه عاد بعد ذلك إلى أسفاره الرسولية وأنه مضى إلى إسبانية بحسب ما كان وعد في رسالته إلى الرومانيين (فصل ١٥ عد ٢٨) إذ قال: «فإذا قضيت هذا الأمر وختمت لهم هذا الثمر مررت بكم إلى إسبانية» مجتازاً في افرنسة وأنه عاد إلى المشرق. وأقام أياماً في ميلتس (تيموتاوس ثانية فصل ٤ عد ٢٠)، وفي كولوسايس (فيلمون فصل ٣ عد ٢٢)، وفي تراوس (تيموتاوس ثانية فصل ٤ عد ١٣)، وفي جزيرة اكريت (طيطس فصل ١ عد ٥)، وفي مكدونية (تيموتاوس ثانية فصل ١ عد ٣)، وفي قرنتية (تيموتاوس ٢ فصل ٤ عد ٢٠) ثم عاد إلى رومة فقبض عليه مع القديس بطرس. وبعد إلقائهما مدة في السجن قطع رأسه في المحل المعروف بطريق أستيا. ويتبين من رسالته إلى أهل فيبيبة إنهم قد بعثوا إليه وهو مخفور في رومة أبفرديتس أسقفهم ليوصل إليه نقوداً ويخدمه. فمرض حتى قارب الموت في رومة ثم ابل من مرضه فبعث إليهم برسالته إلى الأفسسيين والكولسيين وإلى فيلمون.

ويظهر أنَّ تبشيريه في رومة نجح كثيراً حتى أنَّه كسب نفوساً من بيت قيصر نفسه، إذ نراه في رسالته إلى الفيلبيين يقول: «يسلم عليكم جميع القديسين ولاسيما الذين هم من بيت قيصر». وروى فم الذهب (في خطبة ٢٦ في أعمال الرسل) أنَّه يقال إنَّ بولس ذهب يزور ساقى نيرون وسرية له ليردها إلى الإيمان، فارتدت السرية وكان نيرون مغرمًا بها فقبض على بولس وألقاه في السجن المرة الأخيرة.

وروى بارونيوس (في تاريخ سنة ٦٦) أنَّه كان بين بولس وسينكا مراسلات وداعية على أنَّ هذه الرسائل التي تروى الآن لا تعد صحيحة وإن اعتدها كذلك القديس أغوستينوس (في رسالته ٥٤). والقديس إيرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٢١) حتى عد سينكا من الكتبة البيعيين.

فكل ما مرَّ يؤيِّد رأي من قالوا إنَّ بولس خُلي سبيله أولاً، وعاد إلى تبشيريه وإنذاره وأنَّه مضى من رومة إلى إسبانية. ويؤيِّد ذلك أنَّ رسائله الثلاث الرعوية إلى أهل فيليبية وأفسس وكولوسائس لا يمكن تعيين وقت لكتابتها إلَّا سنيه الأخيرة. وإنَّه توجد أمور لا مخرج لها إن كان الرسول بقي سجيناً في رومة أربع سنين أو خمساً. منها قوله لتيموتاوس (في رسالته ٢ فصل ٤ عد ١٣): «أحضر معك عند قدومك الرداء الذي تركته في تراوس عند كربوس والكتب وخصوصاً صحف الرق» فكيف يصدق ذلك إذا كان الرسول مرَّ في تراوس قبل بست سنين أو سبع؟ ومن البيانات على ذلك أنَّ الرسول قال ثلاث مرات في رسائله (أي رومية فصل ٥ عد ٢٤ وفيلبية فصل ١ عد ٢٥ وعبرانيين فصل ١٣ عد ٢١) إنَّ له الثقة بأن يخلَّى سبيله وأن يكمل ما بقي من خدمته. فلو قال هذا الكلام أحد أفراد الرجال لأمكن حمله على التمني والأمل، ولما كان قائله كاتباً يلهمه الله تعيين حمله على سبيل النبوة، وقد تمت بلا مراء. هذا وأنَّ الرسول كتب إلى تيموتاوس (رسالته الثانية فصل ٤ عد ١٦ و ١٧) «عند احتجاجي الأوَّل لم يحضر معي أحد بل تركني الجميع لأحاسبهم الله على ذلك، إلَّا أنَّ الرب قد وقف معي وقواني لتكمل بي الكرازة وتسمع الأمم كلها إنني نجوت من فم الأسد» يريد به نيرون كما مرَّ. وقد شهد كثير من الآباء القدماء بمضي الرسول إلى إسبانية منهم أكليمنضوس تلميذه (في رسالته الأولى)، والقديس إيرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٥)،

والقديس إيبوليتس في كتابه في الرسل، والقديس كيرلس الأورشليمي (في تعليم ١٧)، وفم الذهب (خطبة ٧ في متى)، والقديس أيفان (في هرطقة ٢٧)، وأوسابيوس في تاريخه (ك ٢ فصل ٢٢). وغيرهم كثيرون (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكورو مجلد ٤ عد ٥٥٨).

من لنا بلسان بليغ يصف لنا أتعاب هذا الرسول وجهاده خير منه فقد عرض بذكر ذلك في رسالته الثانية إلى القرنثيين (فصل ١١ عد ٢١ إلى ٣٠) وإليك ما قال: «أقول بنقص الرأي أن كل ما يجترئ أحد عليه. فأنا أجترئ عليه أيضاً. فإن كانوا عبرانيين فأنا أيضاً عبراني. وإن كانوا إسرائيليين فأنا أيضاً إسرائيلي. وإن كانوا من نسل ابراهيم فأنا أيضاً كذلك. وإن كانوا خدام المسيح فأقول كناقص الرأي إنني في ذلك أفضل منهم بالكد، أفضل منهم بالضربات، أفضل منهم بالوثق، أفضل منهم وبالمت وماتت كثيرة. وجلدني اليهود خمس مرات أربعين غير جلدة واحدة (أي تسعاً وثلاثين بمقتضى الناموس). جلدت بالقضبان ثلاث مرات، ورجمت مرة واحدة وانكسرت بي السفينة ثلاث مرات، وكنت في البحر بغير سفينة ليلاً ونهاراً. وكنت في الأسفار مرات كثيرة وفي بلية من الأنهار، وفي بلية من اللصوص، وفي بلية من امتي، وفي بلية من الشعوب، وفي أخطار في المدن، وفي أخطار في القفر، وفي أخطار في البحر، وفي أخطار من قبل الاخوة الكذبة، وفي تعب وكد وسهر كثير وجوع وعطش، وأصوام كثيرة وبرد وعرى وأشياء كثيرة. ما عدا الاجتماع الذي كان عليّ كل يوم واهتمامي بأمر الكنائس كلها، فمن كان يمرض ولا أمرض أنا، أو من كان يشكك ولا أحترق أنا. فإن كان لا بد من الافتخار فأنا أفخر بأمراضي وجهادي.

وقد ولد الرسول في بدء التاريخ المسيحي أو قبله بستتين وآمن في المسيح سنة ٣٤ أو سنة ٣٥ م وأخذ في الإنذار في غير اليهودية ودمشق، وبلاد العرب سنة ٤٥ م وقبض عليه في أورشليم سنة ٥٨ م وشخص إلى رومة المرة الأولى سنة ٦٠ م وخلي سبيله سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ م وعاد مبشراً في المشرق والمغرب إلى سنة ٦٦ م، ورجع إلى رومة فقبض عليه نيرون وقطع رأسه سنة ٦٧ م وكان عمره ٦٧ سنة، على قول بعضهم، وقد ناهز السبعين على قول آخرين. وكنيستنا المارونية تعيد لبطرس وبولس في ٢٩ حزيران وللرسل اجمالاً في ٣٠ منه.

رسائل بولس الرسول

إنَّ رسائل بولس التي تعتقد الكنيسة الكاثوليكية أنَّها منزلة أربع عشرة رسالة كتب جميعها باللغة اليونانية، إلَّا رسالته إلى العبرانيين فإنَّه كتبها بلغتهم. ولم يتَّصل إلينا نصُّها الأصلي فهي في السريانية الآن مترجمة عن اليونانية. وقد كانت اللغة اليونانية حينئذٍ كأنَّها عامة في المملكة، وكانت وحدة اللغة تسهل نشر الدين المسيحي. وقد ضُمَّت هذه الرسائل إلى بعضها منذ القرن الأوَّل، نسقت على النسق الذي نراها عليه الآن وروعي في نسقها على هذا المنوال أولاً مقام الرسالة إليهم، ثانياً أهمية المباحث، ثالثاً إسهابها أو إيجازها. وقد بدأ الرسول في كتابتها سنة ٥٢ م وانتهى سنة ٦٦ م. وأما تعيين الوقت الذي كتب كلاً منها فيه فليس بالأمر اليسير وقد أجهد المفسرون أنفسهم في جمع الآيات التي يستدل منها على شيء من ذلك فكانت نتيجة أبحاثهم كما سترى. ولم يكن خلاف بينهم إلَّا على الرسالة إلى طيطس والرسالة الأولى إلى تيموتاوس لتعسر الاستدلال على حين كتابتهما.

وليك جدولاً يتبيَّن منه زمان كتابة كل من هذه الرسائل على الراجح غير المقطوع به. فقد كتب الرسول ستاً من رسائله في ست سنين إبان أسفاره أعني رسالته الأولى إلى التسالونيكين تتضمَّن خمسة فصول كتبها من قرنيثية في سفره الثاني سنة ٥٢ م.

رسالته الثانية إليهم تشمل على ثلاثة فصول كتبها في السنة والمدينة المذكورتين.

رسالته الأولى إلى القرنتيين تحوي ستة عشر فصلاً كتبها في سفره الثالث سنة ٥٦ م من أفسس.

رسالته الثانية إليهم تنطوي على اثني عشر فصلاً كتبها سنة ٥٧ م من فيليبية.

رسالته إلى الغلاطيين ضمَّنها ستة فصول وكتبها سنة ٥٧ م من قرنيثية.

رسالته إلى الرومانيين تشتمل على ستة عشر فصلاً كتبها سنة ٥٨ م من قرنيثية.

وقد كتب أربع رسائل في أواخر أسره الأولى أي سنة ٦٢ م من رومة.

رسالته إلى الفيلبيين وهي منقسمة إلى أربع فصول.
رسالته إلى الأفسسيين في ستة فصول.
رسالته إلى الكولسيين ذات أربعة فصول.
رسالته إلى فيلمون وهي فصل واحد.
وكتب ثلاث رسائل بين أسره الأول، والثاني وهي رسالته إلى العبرانيين
منقسمة إلى ثلاثة عشر فصلاً كتبها سنة ٦٣ م من إيطالية.
رسالة إلى طيطس ذات ثلاثة فصول كتبها سنة ٦٤ م من مكدونية.
رسالته الأولى إلى تيموتاوس تحوي فصول كتبها في السنة والمدينة المذكورتين
ثم كتب رسالة واحدة في مدة سجنه الأخير سنة ٦٦ م في رومة وهي رسالته
الثانية إلى تيموتاوس حاوية أربع فصول. وأما نسقها الآن بمراعاة ما مرّ وكما كانت
منسوقة منذ صدر النصرانية إلا رسالة العبرانيين التي اختلف في وضعها فهو: رسالته
إلى الرومانيين ثم رسالته الأولى إلى القرنتيين. ثم الثانية إليهم ثم رسائله إلى
الغلاطيين، ثم إلى الأفسسيين، ثم إلى أهل فيليبية، ثم إلى أهل كولوسائس، ثم
رسالته إلى طيطس، ثم إلى فيلمون وأخيراً رسالته إلى العبرانيين. ونسب بعضهم إلى
الرسول رسالته إلى أهل اللاذقية ولكن لم تعتقد الكنيسة صحة نسبتها إلى بولس
الرسول.
أما صحة نسبة هذه الرسائل إلى بولس الرسول فحقيقة لا مرية فيها، ولا
يتخالف الكاثوليكين ولا الهراطقة شك في صدقها، بل لم يتر العقليون أنفسهم
فيها لاسيما الرسائل الأربع الأولى منها، وهي أهمها وحاوية كل ما في باقيها من
أمر ذي شأن. وقد امتدحها بطرس الرسول في رسالته الثانية (فصل ٣ عد ١٥)
قائلاً: «كما كتب إليكم أيضاً أخونا الحبيب بولس على حسب الحكمة التي أوتيها
كما في رسائله كلها أيضاً متكلماً فيها على هذه الأمور». وقد انطوت عليها
ترجمات الأسفار المقدسة التي وضعت منذ القرن الأول والثاني. وقد أثبت آباء
الكنيسة من شرقيين وغربيين من القرن الأول فصاعداً أنها قسم من العهد الجديد.
وحققوا نسبتها إلى بولس الرسول ونقتصر على ذكر قليل من أقوال بعضهم. قال
تروتيانوس سنة ٢٠٧ (في رده مزاعم مرشيون): «الأحق، ما كان أقدم ولا أقدم مما

تلقيناه عن الرسل، ولا جرم أن ما تلقيناه عن الرسل إنما هو ما اعتقدته كنائسهم مقدساً، وإلهياً فهلّمّ ننظر في ما يعتقدوه المؤمنون في هذه الكنائس، وما يتلوه المسيحيون في قرنتية وغلاطية وفيليبية وسالونيكى ورومة». وقال أوريجانوس (سنة ٢٣ في تفسيره سفر يشوع بن نون: «إنّ ربنا يسوع المسيح قد ضرب مدينة العالم المرموز إليها بأريحا، ودُمّرها وأمر رسله وكهنته أن يبشروا في كل صقع بالكلمة المقدسة، فكان متى أوّل من أخذ بيده البوق الإنجيلي، وعقبه مرقس ولوقا ويوحنا، ثم بطرس برسائليه، ثم يعقوب ويهوذا، ثم يوحنا برسائله ورؤياه، ولوقا بسفر أعمال الرسل، واخيراً من سمى نفسه آخر الرسل فإنّه برسائله الأربع عشرة نقض قلعة عبادة الأوثان حتى أسسها ودك بناء الفلسفة الدنياوية المتشامخ». وقال القديس كيرلسي الأورشليمي (سنة ٣٤٧ في التعليم ال٩): «قد حسن للروح القدس أن يكتب باقي الرسل غير بولس رسائل قليلة، وأراد أن يكتب بولس أربع عشرة رسالة ولمّ ذلك؟ لأنّ بولس ابتداءً يضطهد الدين المسيحي. وأحقّ تعليم ما شهد له الأعداء والمضطهدون».

إنّنا لا نطيل الكلام في اثبات رسائل بولس لأنّ الهراطقة والعقلين لا يجحدون صحتها ونكتفي بما بسطناه من البرهان في عد ٤٩٣ في اثبات أسفار العهد الجديد كلها، على أنّ الرسالة إلى العبرانيين قد أمّتري أولاً في نسبتها إلى الرسول، ولذلك عدت من الأسفار القانونية المتأخّرة، ووضعت في آخر رسائله على أنّه قد ثبت من أقدم الدهر كونها منزلة، وقد كتبها بولس الرسول ونكتفي لاثبات ذلك بما مرّ بك قبيله من شهادة أوريجانوس وكيرلس الأورشليمي إذ جعلنا عدد رسائل بولس أربع عشرة رسالة.

عد ٥٠٨

يوحنا الرسول

إنّ يوحنا الرسول هو ابن زبدي وصالومي ولد في بيت صيدا (راجع ما ذكرناه في عد ٥٠٣ عن هذه المدينة). وكان صياداً وظن بعضهم منهم فم الذهب وأيفان أنّه تتلمذ أولاً ليوحنا المعمدان قبل أن يتبع المخلص ولا حجة راهنة لهذا القول، وكان أخا يعقوب الكبير وقد سماه المخلص مع أخيه يوانرجس أي ابني الرعد لشدة

غيرتهما وعظم إيمانهما. وقال بعضهم منهم بولينوس وإيرونيموس إن يوحنا كان أصغر الرسل ولم يكن عمره حين أتبع المخلص إلا خمساً وعشرين سنة أو ستاً وعشرين. وظنَّ بعضهم أنَّه كان العروس في العرس الذي شهده المخلص في قانا. والأصح أنَّه عاش متبلاً إلى الله عمره كله. وكان للمخلص انعطاف خاص إليه. وقد سمى نفسه في الإنجيل التلميذ الذي كان يسوع يحبه وقد أظهر له المخلص حبه بأخذه ليرى تجليه، وبأثكائه على صدره في العشاء السري، وكشف المخلص له عَمَّنْ يسلمه واعتماداً على محبة المخلص له طلبت أمُّه إلى المخلص أن يجلسه وأخاه في ملكه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. فسألها المخلص أتستطيعان أن تشربا الكأس التي أشربها؟ قالا نعم نستطيع. فأجابهما المخلص أنَّ الكأس التي أشربها تشربانها وأنا جلوسكما عن يميني ويساري فهو لمن أعدَّه الأب له (متى فصل ٢٠ عد ٢٢). وقد أخذ المخلص بطرس ويعقوب ويوحنا إلى بستان الزيتون ليشهدوا حزنه وكآبته. ولم يهرب يوحنا عندما قبض الجنود على المخلص بل يظنُّ أنَّه إنما هو الذي تبع المخلص إلى بيت قيافا، وجعل بطرس بعد ذلك يدخل إلى هناك (يوحنا فصل ١٨ عد ١٥). وقد رافق يسوع إلى المحل الذي صلب فيه ولما رآه قال لأُمِّه يا امرأة هذا ابنك. وقال له يا يوحنا امك (يوحنا ف ١٩ عد ٢٦)، وبعدئذٍ اتَّخذ يوحنا العذراء بمنزلة أمِّه واهتمَّ بها وبحاجاتها حتى انتقالها. وبعد القيامة مضى يوحنا وبطرس وغيرهما من التلاميذ يصطادون في بحيرة طبرية. فظهر لهم المسيح على الشاطئ وعرفه يوحنا أولاً وقال لبطرس هذا هو الرب. وبعد أن تغدَّوا سأل بطرس يسوع وما يكون لهذا؟ فأجابه يسوع إن شئت أن يثبت هذا إلى أن أجيء فماذا لك أنت اتبعني. وقال يوحنا عن نفسه: «ذاعت هذه الكلمة فيما بين الاخوة إنَّ ذلك التلميذ لا يموت ويسوع لم يقل إنَّه لا يموت بل أن شئت أن يثبت إلى أن أجيء فماذا لك؟» (يوحنا فصل ٢١ عد ٢٠) وظنَّ كثيرون بعد ذلك أيضاً أنَّ يوحنا لم يميت على أنَّ هذا يخالف رأي الجمهور والآثار البيعية. وبعد أن قبل الرسل الروح القدس مضى بطرس ويوحنا إلى الهيكل، فأبرأ الخلع من بطن أمِّه (أعمال الرسل فصل ٣ عد ١). فكانت هذه الآية سبباً لالقاء بطرس ويوحنا في السجن، لكنهم أخرجوهما في الغد (أعمال الرسل فصل ٤ عد ٣). ولما لم ينفكا ييشران ألقوهما ثانية في السجن مع باقي الرسل ففتح ملاك الرب أبواب السجن وأخرجهم فعادوا يعلمون في الهيكل. فاجتمع عليهم محفل اليهود، فجلدوهم

وأمرهم أن لا يتكلموا باسم يسوع. وأطلقوا فخرجوا فرحين ولم يفتنوا مبشرين (أبركسيس فصل ٥). وأرسل بطرس ويوحنا إلى السامرة لتثبيت من كان فيلبوس الشماس ردهم إلى الإيمان وعمدهم (أعمال الرسل فصل ٨ عد ٥). وظنَّ بعضهم أنَّه مضى يبشِّر البرتين. وذكرت رسالته الأولى مسماة رسالة إلى البرتين، وزعم بعضهم أنَّه بشَّر في الهند على أنَّ الأرجح والأمثل أنَّه بشَّر في آسيا، وأنَّه أقام مدة طويلة في أفسس وما جاورها. وأخذ العذراء معه إلى هناك ولا يعلم في أية سنة مضى إلى هناك. والمعلوم أنَّه لم يبق هناك مستمراً قبل سنة ٦٦ م التي قبض فيها على بولس في رومة. ولما أثار دومطيان الملك الاضطهاد على الكنيسة سنة ٩٥ م نفى يوحنا في أفسس واقتيد إلى رومة حيث ألقوه في مرجل زيت يغلي فلم تمسه مضرة. ذكر ذلك ترتوليانوس في كتابه في سقوط دعوى الهرطقة (فصل ٣٦)، وإيرونيموس في كتابه ضد يوفينيان (ك ١ راس ١٤). ثمَّ نفى إلى جزيرة بطموس وهناك كتب رؤياه، ولما قتل دوميطان سنة ٩٦ م وخلفه نرفا وأعاد المنفيين إلى أوطانهم عاد يوحنا إلى أفسس سنة ٩٧م، فسأله الأساقفة والمؤمنون في آسيا أن يكتب لهم إنجيلاً بما رأى وسمع من الخلص، فأجاب سؤالهم بعد أن فرض عليهم صوماً وصلوات وجعل دأبه في إنجيله أيراد ما يثبت لاهوت المسيح خلافاً للهرطقة الذين كانوا حينئذ. وعاش يوحنا عمراً مديداً حتى لم يعد يمكنه أن يحضر في مجتمعات المؤمنين. فكان تلاميذه يحملونه إليها ولا أن يخطب خطبة طويلة فكان يقتصر على القول أبنائي فليحب بعضكم بعضاً فسُئمت نفوسهم هذا التكرار. فقال هذا ما يأمركم به الرب وإذا عملتم به كان كافياً وفاضت نفسه في أفسس، (اغوستينوس خطبة ٢٥٣) سنة ١٠٠ للتاريخ العامي. واختلف في عمره بين أن يكون من ٩٤ إلى ١٠٦ بل إلى ١٢٨ أيضاً ودفن في جانب افسس (ايرونيموس في المشاهير راس ١٩). وقد مدح الجمع الأفسسي هذه المدينة لاحتوائها على رفات هذا اللاهوتي الالهي. وحض البابا شالنتينوس اباء هذا الجمع أن يتبعوا تعليم يوحنا الرسول الذي من حظهم أن تكون ذخيرة جسده قريبة منهم. وروى بوجولا في مراسلاته في المشرق أنَّ جبل بربون الذي في جانب افسس كان المسيحيون منذ الأعصر الأولى يحجون إليه لأنَّ فيه مدفني تيموتاوس ويوحنا الرسول. وكنيستنا المارونية تعيد لِنجاته من تعذيب دومطيان في ٨ ايار. وتسميه عيد الورد لتزين الكنائس بالورد عوضاً عن الزيت الذي عذب فيه، ثم تعيد لانتقاله في ٢٩ ايلول.

ويقال في ترجمته إنه دخل قبره حياً فحجبه نور فلم يرَ تلاميذه له عيناً ولا أثراً فالأولى اصلاح ذلك لمخالفته ما مرَّ من نص المجمع الافسسي.

أما حقيقة نسبة انجيل يوحنا إليه فثابتة بكل ما ورد في الكتب المخطوطة القديمة. وفي القوانين التي تحصى الأسفار المقدسة، وفي التقليد الذي حفظه لنا تاوافيل اسقف أنطاكية (توفي في سنة ١٨٠م)، والقديس ايريناوس (توفي في سنة ٢٠٢م)، واكليمنضوس الاسكندري (توفي سنة ٢١٧م)، وترتوليانوس (سنة ١٩٠م)، فكل هؤلاء ذكروا إنَّ هذا الانجيل للرسول الحبيب. وذكر ايريناوس (ك ٢ فصل ٢٢): إنه كتبه في افسس حيث بقي حياً إلى ايام تريانوس (الذي ملك من سنة ٩٨ إلى سنة ١١٧م). بل أنَّ الهراطقة أنفسهم شهدوا بحقيقة نسبة هذا الانجيل إلى يوحنا. فتاودوت ذكر يوحنا ستاً وعشرين مرة في فقر تأليفه التي أوصلها إلينا اكليمنضوس الاسكندري. وهرقليون فسر انجيل يوحنا ورد اوريغانوس تفسيره بل أنَّ ذلك ثابت من نص الانجيل نفسه. فانك ترى يوحنا لم يصرح باسمه احتشاماً حيث كان يلزم التصريح كقوله: «واشار بطرس إلى التلميذ الذي كان يسوع يحبه» الخ وقوله: «هذا هو التلميذ الذي شهد لهذا وكتبه». ولم يسم نفسه رسولاً بل تلميذاً، ويؤيده أنَّ واضح أنَّ كاتب هذا الانجيل كان يهودياً ومن جملة الرسل ولقته سريانية. حتى ذكر آمين آمين أي الحق الحق أقول لكم خمساً وعشرين مرة في انجيله والحاصل أنَّ هذا مما لا يتردد فيه.

ومن البين أيضاً أنَّ هذا الانجيل كتب بعد الاناجيل الثلاثة لأنَّ كاتبه ترك أموراً كثيرة اعتماداً على أنَّها كتبت قبله. فقلَّ ما كتب شيئاً عن انذار المسيح في الجليل. ولم يذكر ابداع المسيح الاوخارستيا مع أنَّه ذكر خطبته في هذا السرِّ بأثر تكثيره الخبز. ولم يذكر أيضاً قول المخلص لبطرس أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي. وأهمل ذكر ابراء المعترين من الشيطان. وهلمَّ جرَّاً في أمور لم يرغب عن ذكرها إلَّا لأنها كتبت في الأناجيل الثلاثة. وتراه قد أشار مرات كثيرة إلى ما كتب في الأناجيل الأخرى مثلاً قد ذكر في الفصل الأول إنَّ يوحنا المعمدان قال عن المسيح: «وأنا رأيت الروح مثل حمامة قد نزل من السماء واستقر عليه». فهذا يفترض العلم بتبشير يوحنا الذي ذكره متى ومرقس. وفي الفصل السادس قال أنَّ العازر كان من بيت عنيا قرية مريم ومرتا مع أنَّه لم يتكلم عن هاتين الأخنتين. ولم يشتر بشيء إليهما معتمداً أنَّ القارئ يعلم ذلك من الأناجيل الأخرى. وبالجمله أنَّ

المتأمل في انجيله يرى إنه تعمد أمرين: أن لا يعيد ما قاله غيره، أو أن يثبت ما كتبه الانجيليون الآخرون بإيراد قرائن وتفاصيل حديثه كما ترى في خبر الأعمى الذي فتّح المخلص عينيه (فصل ٩). وأما سمو انجيله فيّين من فاتحته: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، والله هو الكلمة هذا كان في البدء عند الله كلُّ به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» الخ.

إن ليوحنا أيضاً ثلاث رسائل كتبها في آخر حياته الأولى كتبها سنة ٩٥م وحقق نسبتها إليه الآباء الأولون ونفسها مطابق نفس انجيله. بل قال بعضهم إنه كتبها تمهيداً لاداعته الانجيل، وتعتبر كخلاصة له. وقال بعض الآباء القدماء إنه بعث بها إلى اليهود المنتصرين في بلاد البرتين كما مرّ، على أنه لا حجة للاستمسك بهذا القول. فالأولى أنه كتبها للكنيسة كلها وهي منقسمة إلى خمسة فصول. وأما رسالتاه الثانية والثالثة فنسبتهما إليه محققة كما مرّ، وإن لم تشتملا على اسمه ففي الثانية يهنئ السيدة المصطفاة، وإنبائها بمعرفتهم الحق وثباتهم فيه، ويحضهم على الثبات في الايمان والمحبة والأعمال الصالحة، ويحذره من المضلين. وأما من تكون تلك السيدة المصطفاة فزعم بعضهم أنها امرأة مسماة مصطفاة سنداً إلى أنه ذكر في آخر رسالته اختاً لها مسمّاة مصطفاة أيضاً. والكثيرون على أن المراد إحدى الكنائس ككنيسة أفسس أو رومة. فقالوا إن المصطفاة وصف لا علم. وقال آخرون إن السيدة علم بمعنى مرتا **هذه** ألسريانية والمصطفاة وصف، وجهل الرسول رسالته احتراساً من أن تقع في يد أحد المضطهدين. وأمّا الرسالة الثالثة فوجهها إلى غايوس يظهر له بها حبه وسروره بصدقة وكيفية سلوكه بالحق. ويحذره من ديوتريوس المتكبر الذي لم يكن يقبل الاخوة ويطرد من الكنيسة من يقبلونهم. وقال في الرسالتين إن أموراً كثيرة لم يحب أن يكتبها بقلم ومداد، لكنه يرجو أن يبلغهم إياها مشافهة. وليوحنا أيضاً سفر الرؤيا وسنفرده للكلام فيه العدد التالي.

عد ٥٠٨ (تابع)

رؤيا يوحنا

كان مستلزماً أن يكون في العهد الجديد قسم نبوي كما كان في العهد العتيق، وأن يكون للكنيسة في مهدها وحي من الله مبين ما سيكون لها ليشجع المؤمنين على تحمّل الاضطهاد الآتي. وكما افتتح العهد القديم بخبر خلق العالم كان

لازماً أن يختتم العهد الجديد بخبر نهاية العالم، وملك الخُلص الأبدى. فجاءت رؤيا يوحنا متممة ما كان لازماً. وقد أجمع الآباء على حقيقة نسبة هذا السفر إلى يوحنا الرسول. ولم يجحد ذلك العقليون أنفسهم فقد ثبت ذلك بالترجمة الإيطالية سنة ١٥٠م، وفي قانون موراتي للأسفار المقدسة سنة ١٧٠م. وقد وضع هذا السفر قبل رسائل بولس وبشهادات هرمس في أواسط القرن الثاني، وإيبوليطوس (الذي توفي سنة ٢٥٠م في كتابه في المسيح والدجال)، وترتوليانوس (في رده مرشيون سنة ٢٠٧)، وقبريانوس (رسالته ٢٦ في سنة ٢٥٦م). وأعظم من كل ذلك شهادة القديس يوستينوس الذي ولد في نابلس وبُشر في أفسس بعد نحو ثلاثين سنة فقط من موت يوحنا فيها. وذكر في جداله مع تريفون الرؤيا بمنزلة سفر مقدس معلوم عند الجميع. ومن شاء الاطلاع على البيانات المثبتة ذلك فليطالع الموجز الكتابي لفيكورو (مجلد ٤ عد ٩٠٢) إنَّ يوحنا الرسول كتب هذه الرؤيا في منفاه في بطموس أو بعده دون مهلة. وقد نفى في آخر ملك دومطيان على ما روى القديس إيرونيموس. فتكون كتابتها سنة ٩٥م وقد قسم هذا السفر إلى ثلاثة أقسام.

أولها يشتمل على فصوله الثلاثة الأولى متضمنة فاتحة كلامه، وتنبهات إلى أساقفة سبع كنائس في آسية وهي: أفسس، وأزمير وبرغاموس وتيتيرا، وسرديس، وفيلادلفية، واللاذقية حيث يؤتب بعض هؤلاء الأساقفة ويمدح بعضهم. ويحذره جميعاً من خطرين الهرطقة في الحال والاضطهاد في الاستقبال؛ والقسم الثاني يتدئ من الفصل الرابع وينتهي في الفصل التاسع عشر متضمناً رؤى نبوية ظهرت ليوحنا منها أنه رأى عرشاً موضوعاً في السماء ومنظر الجالس عليه كحجار ثمين، وحوله أربعة وعشرون عرشاً عليها أربعة وعشرون شيخاً، وحول العرش أربعة حيوانات ممتلئة عيوناً من قدام ومن وراء يراد بالعرش عرش الله في السماء. والأربعة والعشرين شيخاً اثنا عشر من قديسي العهد القديم والاثنا عشر رسولاً في العهد الجديد. والمراد بالحيوانات الأربعة الإنجيليون الأربعة. وقال إنَّه رأى كتاباً مكتوباً من داخل ومن خارج ومختوماً بسبعة ختم. ولما فتحت هذه الختم خرجت أفراس. ورأى المقتولين لأجل كلمة الله وحدثت زلزلة عظيمة، ثم تراءى له ملائكة يريدون الاضرار بالأرض، وقد أعطوا سبعة أبواق وعند نفخ كل منهم في بوقه حصلت ضربة في الأرض. وظهرت في السماء امرأة ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر، وعلى رأسها اكليل من اثني عشر كوكباً، وهي حبلى تتمخض. وظهرت لهن سبعة

رؤوس وعشرة قرون، وعلى رأسه سبعة أكاليل. ووقف قبالة المرأة المشرفة على الولادة ليتلع ولدها وهربت المرأة إلى البرية. ورأى وحشاً طالعاً من البحر وله سبعة رؤوس وعلى قرونيه عشرة أكاليل والحمل قائماً على جبل صهيون ومعه مئة ألف وأربعة وأربعون ألفاً يسبحون تسبحة جديدة. وملاكاً يطير في وسط السماء ومعه الإنجيل الأبدي وتبعه ملاك آخر يقول سقطت بابل العظيمة التي سقت جميع الأمم من خمر غضب زناها، وتبعهما ملائكة ينزلون في الأرض ضربات ويصيبون جامات غضب الله عليها. ثم جاء أحد الملائكة وأراه دينونة الزانية العظيمة وهلاكها وفشر له بعض هذه الرموز.

وقد اختلف في تفسير هذه الرموز وللمفسرين فيها أربعة مذاهب. فمن قائل إنها تشير إلى الحروب والاضطهادات التي تكون للكنيسة إلى نهاية العالم. ومن قائل إنها نبوات على أحداث تكون في آخر الزمان تتقدم وترافق مجيء المسيح الأخير. ومن قائل إنها تشير إلى ما يكون في القرون الأولى من الاضطهاد للمسيحيين، وانتصار الكنيسة على الوثنية ومن قائل إن بعضها يشير على ما يكون في القرون الأولى. وبعضها إلى ما سيكون في نهاية العالم. وأن الاضطهادات التي أنزلها الملوك الرومانيون بالمسيحيين وانتهت بخراب رومية تمثل الاضطهادات التي يجريها الدجال وتعقبها نهاية العالم. فالمفسرون مجمعون على أن هذه الرموز تشير إلى ظفر الخُلص بأعدائه، وعلى أن المراد ببابل رومة مركز الوثنية حينئذ لكنهم يختلفون في الزمان والمواقع. والأظهر والذي عليه الجمهور الآن من هذه المذاهب أن هذه الرموز تشير إلى معاقبة الوثنية، واضطهادها الدين المسيحي في القرون الأولى. وليس الكلام النبوات قريب، وإن الله أمره أن يعجل إذاعتها ولأن الغرض منها تعزية المؤمنين وتشجيعهم على تحمّل الاضطهاد، ولا شيء منهما إن كان لا انتصار ولا راحة إلا في نهاية العالم. وقد أفصح كاتب الرؤيا بأنه سيكون زمان راحة وسلم طويل عبر عنه بألف سنة، ولأنه يستحيل على مفسر ذي رأي سديد أن يفهم غير رومة ببابل التي وصفها يوحنا بأنها سكرى من دم القديسين، وإنها مبنية على سبعة جبال إلى غير ذلك من وصفه لها. فإذا المراد بالوحش ذي القرون السبعة ملوك رومانيون اضطهدوا المسيحيين. وبالمراة الملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر، وعلى رأسها اثنا عشر اكليلاً الكنيسة والمسيح شمسها والاثنا عشر رسولاً أكاليلها وهي منتصرة على غير العالم واضطرابات. ويشار إلى ذلك بوضع القمر

تحت قدميها ويشار بالختوم إلى قضاء الله على المضطهدين، وبالأبواق إلى إذاعة هذا الأمر المقضى، وبالجمادات إلى تنفيذه بخراب أورشليم، واستيلاء البربر على رومة. وقلّ الآن من يتردّد في صحة هذا التفسير أي أنّ المراد بنبوء الرؤيا ظفر المسيح بالوثنية، وخراب رومة وقرض المملكة المضطهدة بعد أن جعله بصويت الشهير ومن تابعه بمعزل عن الشك.

وأما القسم الثالث من هذا السفر الذي يشتمل عليها الفصل العشرون إلى آخر الثاني والعشرين فموضوعه الكلام في ما يتقدّم القيامة العامة والدينونة الأخيرة، وانتصار المسيح والقديسين الأخير، ووصف السماء. ثم خاتمة قال فيها يوحنا: «من زاد شيئاً على هذه يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. ومن أسقط من كلمات كتاب هذه النبوءات يسقط الله نصيبه من سفر الحياة، ومن المدينة المقدسة ومما كتب في هذا الكتاب».

عد ٥٠٩

متى الرسول

إنّ متى الرسول ولد في الجليل، وكان يهودياً مذهباً، واسم أبيه حلفى (غير حلفى أبي يعقوب). وكان عشاراً يجبي العشر على ما ذكره مرقس (فصل ٢ عد ١٤). وسماه باقي الانجيليين لاوي ولكن سمّى نفسه متى. وقال إنّ المسيح رآه جالساً عند مائدة الجايين فقال له اتبعني، فقام وتبعه (متى فصل ٩ عد ٩). فذكر مهنته تعظيماً لنعمة الخلاص واحسانه إليه. وكان موطنه كفرناحوم. وقد أولم فيها للمخلص وأتى كثيرون من العشارين والخطأة، واتكأوا مع يسوع فقال الفريسيون لتلاميذه: ما بال معلمكم يأكل ويشرب مع العشارين والخطأة؟ فأجابهم يسوع: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب.

قد وهم بعض القدماء واكثر اليونان إنّه أخو يعقوب الصغير ابن حلفى استناداً إلى وصفه بابن حلفى. ولكن ذلك مردود وغير صحيح وروى عنه اكليمنضوس الاسكندري (ك ٢ فصل ١) إنّه لم يكن يأكل لحماً بل كان يقتصر على القوت بالثمار والبقول. واختلف في مكان تبشيره فقال بعضهم منهم بولينوس (في قصيدة ٢٦). وايرونيوس (في تفسير المزمور ٤٥) إنّه بشر ونال اكليل الشهادة في بلاد

فارس. أو في بلاد البرتين أو في قرمانية الخاضعة لهم وقتئذ. وقال غيرهم منهم روفينوس (ك ١٠ فصل ٩)، وسقراط (ك ١ راس ١٩) إنه بشر ومات في الحبشة وهو المعول عليه في موجز تراجم القديسين لبولس كاران في ٢١ ايلول. ومما ورد ان ملك الحبشة والملكة آمنة بالمسيح على يده وإن ابنتهما افحاني نذرت بتوليتهما لله حتى ظن بعض العلماء أنه منشئ طريقة الرهبانية للأناث. واختلف في ميته أيضاً. فروى اكليمنضوس الاسكندري (في ك ٤ في اللقيف) إنه لم يغادر هذه الحياة شهيداً بل قضى حتف انفه. وتابعه على ذلك بعض الآباء الشرقيين على ما يظهر. وقال نيكوفور (ك ٢ راس ٤١) إن المضطهدين اضرموا حوله ناراً فطفئت بصلاته ثم مضى إلى ربه بدون عذاب. وقال ادون وكثير من الغربيين ان استأثر به شهيداً. وفي تراجم القديسين أن أحد ملوك الحبشة ارسل جنوداً قتلوه وهو يقدر لمنعه افحاني المذكورة عن التزوج به. والكنيسة اللاتينية تحتفل بعيده في ٢١ ايلول وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٦ تشرين الثاني وتعمّده شهيداً فاز باكليل الشهادة سنة ٩٠م.

وروى بارونيوس في تاريخ سنة ٩٥٤م. إن رفاته نقل من الحبشة إلى بريطانيا أو بيتينيا ثم إلى سالرن في ايطاليا سنة ٩٥٤م وكان مخفياً وجد سنة ١٠٨٠ فاقام الدوق روبر كنيسة كبيرة على اسمه نقلت ذخيرة جسده إليها في عهد البابا غريغوريوس السابع. كما يظهر من براءة لهذا البابا إلى إلغان اسقف هذه المدينة ومن براءة اكليمنضوس البابا (ك ٨ فصل ٢٥). روى اوسابيوس (في ك ٣ من تاريخه راس ٢٤) إن المؤمنين في فلسطين رغبوا إلى القديس متى أن يكتب لهم قبل أن يمضي إلى التشير عند غيرهم ما انذرهم به مشافهة. وعن اوسابيوس وايريناوس أن الرسل سألوه ذلك أيضاً، فكتب انجيله في اللغة السريانية لغة اليهود يومئذ. واختلف في تاريخ كتابته الانجيل والظاهر الذي رواه فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد ٣ عد ٥٢) إن ذلك بين سنة ٤٥ وسنة ٤٨م إذ أخذ الرسل في التفرق إلى الآفاق. واجمع الآباء على أنه كتب في العبرانية لغة اليهود حينئذ. وهي السريانية الكلدانية. ومن ذكروا ذلك اوسابيوس القيصري في محال عديدة منها ما ذكرناه آنفاً (ك ٢ فصل ٢٤). وقال القديس ايريناوس إن متى كتب انجيله إلى العبرانيين بلغتهم الخاصة. وقال (في ك ٥ فصل ١٠) متكلماً في بتانوس الفيلسوف إنه روى عنه إنه انتهى إلى الهند فوجد انجيل متى عند أهل هذه البلاد قبل وصوله

اليهم لأنّ برتلمائوس أحد الاثني عشر رسولاً بشر هناك كما هو الشائع. وترك لهم انجيل متى مكتوباً بالاحرف العبرانية. وقال إنّّه كان محفوظاً إلى تلك الأيام. واستشهد (ك ٦ فصل ٢٥) قول اوريجانس في الأسفار المقدسة: «الذي تلقيناه عن التقليد انما هو ان الاناجيل في الكنيسة أربعة لا غير وليس من يخالجه الشك في قبولها وأولها الانجيل الذي كتبه متى الذي كان أولاً عشاراً، ثم رسولاً ليسوع المسيح. وكتب هذا الانجيل باللغة العبرانية واذاعه على اليهود المتنصرين. وكذا قال القديس كيرلس الأورشليمي (في التعلم ١٤)، والقديس ايرونيμος (في المشاهير فصل ٢) وغيرهم كثيرون من الآباء. ولنا بينات قاطعة من هذا الانجيل نفسه على أنّ متى كتبه لليهود المتنصرين في فلسطين، بدليل كثرة استشهاده العهد القديم. وذكره نسب المسيح في الجسد بحسب أسفاره، وتسميته ابن داود، وتسميته أورشليم المدينة المقدسة، واكثاره من ايراد شهادات الانبياء. وقوله مرات ليم ما قيل بالنبى، وكما هو مكتوب، وليتم الكتاب. ولو كتبه إلى الأمم لاستعمل أسلوباً آخر ولما كان دأبه استشهد العهد القديم، ولكانت له طرائق أخرى في كلامه اليهم ولفسر الشرائع وعادات البلاد التي ذكرها. فإذا لم يكتب انجيله إلّا إلى اليهود المتنصرين أو إليهم بالنوع الأخص. وقد أثبتنا بالاسهاب أنّ لغتهم العامة في فلسطين كانت في أيامه السريانية الكلدانية (طالع عد ٤٩٦) فيتحتّم أنّه كتب بهذه اللغة. على أنّ النص السرياني لم ينتشر كثيراً لأنّ هذا الانجيل ترجم إلى اليونانية منذ القرن الأول. ولا يعلم مترجمه حتى جهله القديس ايرونيμος وبايبا. وقال بعضهم إنّ متى نفسه ترجمه إلى اليونانية كما ترجم يوسيفوس مؤلفه في حرب اليهود من لغة أمته إلى اليونانية. وعزا بعضهم هذه الترجمة إلى يعقوب الصغير اسقف أورشليم. وبعضهم إلى يوحنا الانجيلي أو بولس الرسول أو لوقا البشير أو برنابا. وقد فُقد الأصل السرياني كما فُقدت أصول أسفار طوييا ويهوديت وسفر الكاينيين الأول المكتوبة بالسريانية، ولكن قد بقي إلى القرن الخامس انجيل يُعرف بانجيل العبرانيين أو انجيل متى العبراني، افهذا هو انجيل متى السرياني الأصلي أم هو انجيل آخر؟ فقال كثير من علماء الكنيسة إنّّه نص متى السرياني على أنّ الفقر الباقية منه في كتب ايرونيμος واوريجانس واوسابيوس واييفان تختلف كثيراً عن ترجمة انجيل متى اليونانية لا من حيث الألفاظ وأساليب التعبير، بل من قبل زيادات وحذف وتغيير مهم. وقد أشار القديس اييفان إلى ذلك (بدعة ٢٩) إذ قال إنّ الانجيل العبراني

كانت تستعمله شعبتان من المتهودين الناصريين، والأيوبيين فيظهر أنَّ هؤلاء الهراطقة الذين كانوا يريدون أن يكونوا يهوداً ومسيحيين معاً حرقوا هذا الانجيل. وحذفوا منه وأرادوا تطبيقه على مبادئهم وهذا يبين سبب الخلاف بين الآباء. فإنَّ بعضهم كان يعتمد على الانجيل العبراني وبعضهم لا يعتدُّ به إلى أن نبذت الكنيسة هذا الانجيل ولم يعد يظهر له أثر بعد القرن الخامس. ونسب بعضهم إلى القديس متى كتباً أخرى منها كتاب طفولة يسوع المسيح، وحرَّمه البابا جيلاسيوس وليتورجية في الحبشة لكنها غير صحيحة النسبة إليه.

عد ٥١٠

يعقوب الرسول بن حلفى

إنَّ يعقوب هذا غير يعقوب بن زبدي أخى يوحنا الرسول، ويسمى الصغير أمَّا لقصر قامته أمَّا لأنَّه كان أصغر سنّاً من يعقوب بن زبدي كما مرَّ. ويسمَّى أخا الرب لأنَّه كان نسيباً للمخلص من جهة حلفى أبيه، أو من جهة مريم أمّه. وزعم بعضهم أنَّ يعقوب بن حلفى غير يعقوب أخى الرب. وأسقف أورشليم على أنَّ زعمهم هذا منقوض برأى الجمهور وبما أشار إليه لوقا في كتاب أعمال الرسل (فصل ١٥ عد ١٣ وف ٢١ ع ١٨)؛ من أنَّه كان أسقف أورشليم وتصريح الرسول (في رسالته إلى غلاطية ف ١ ع ١٩) بأنَّ يعقوب هذا هو أخو الرب إذ قال: «ولم أرَ غيره (أي غير بطرس) من الرسل سوى يعقوب أخى الرب». وروى عن أكليمنضوس الاسكندري وهجيسبس ذكرهما أوسايبوس (في تاريخه ك ٢ راس ١) إنَّه كان قدوة يقتدى بقداسته وبره حتى لقب بالصدِّيق. وقال أييفان (بدعة ٧٨) إنَّه كان كاهناً للرب ونذيراً له من حشاء أمه لا يشرب خمرًا ولا مسكراً ولا يخلق شعره. وممَّا رواه هؤلاء عنه أنَّه استنزل المطر من السماء بصلاته عند احتباسه مدة طويلة. وجاء في التلمود أنَّه صنع آيات كثيرة حيث يسميه يعقوب تلميذ يسوع النجَّار. وقد تراءى له وحده المسيح بعد قيامته كما ذكر الرسول قرنتية ١ ف ١٥ ع ٧) قائلاً: «ثم تراءى ليعقوب ثمَّ لجميع الرسل». وظنَّ كثيرون أنَّ المسيح أقامه حينئذٍ أسقفًا على أورشليم. من هؤلاء أوسايبوس في تاريخه (ك ٢ ف ١)، وفم الذهب (في تفسير بشارة يوحنا)، وأييفان (في بدعة

٧٨). لكنه لم يباشر أسقفيته على أورشليم إلا بعد براح بطرس والرسل منها. ولما أتى بولس المرة الأولى من دمشق إلى أورشليم زار يعقوب أخا الرب بعد زيارته بطرس كما رأيت في قوله السابق ذكره، وقد أبدى رأيه في مجمع أورشليم كما جاء في أعمال الرسل (ف ١٥ ع ١٣)، وعده الرسول بين أعمدة الكنيسة في رسالته إلى الغلاطيين (ف ٢ ع ٩).

ويظهر أنَّ القديس يعقوب أقام على كرسي أورشليم نحواً من ثلاثين سنة على ما روى القديس إيرونيμος في كتابه في مشاهير المؤلفين البيعيين. وكان يجله الجميع لحكمته وفضيلته حتى غير المؤمنين أيضاً كما روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٢٠ ف ٩). على أنَّ هذا لم يقه شرَّ الخبثاء منهم وحسدهم فقد ذكرنا (عد ٤٨١) نقلاً عن يوسيفوس أنَّ حنان بن حنان (الذي كان في عهد المخلص) رئيس الكهنة انتهاز فرصة وفاة فستس والي اليهودية، وتأخَّر البيِّن خليفته عن الوصول إلى أورشليم. فجمع مجمعاً وأشخص يعقوب. إليه وشكاه بمخالفة السنَّة، وقضى عليه بالرجم فأصعدوه على إحدى شرفات الهيكل واستنطقوه في شأن المسيح، فقال إنَّ يسوع المسيح الذي تقولون إنَّه ابن انسان هو جالس الآن عن يمين العظمة بما أنَّه ابن الله وسوف يأتي على سحب السماء ليدن العالم. فطرحوه من شرفة الهيكل فلم يمت بل جثى على الأرض يصلي من أجل أعدائه. فأخذ الكتبة والفريسيون يرمونه بالحجارة بمقتضى حكم حنان. وروى أكليمنضوس الاسكندري وأوسايبوس وأييفان إنَّه دنا منه أخيراً قصَّار فضربه بهراوة على رأسه، ففاضت روحه القدوسة. وروى أوسايبوس (ك ٢ ف ٢٢) من تاريخه، وإيرنيμος (في المشاهير ف ٢) إنَّه دفن في جانب الهيكل في محل شهادته، فأقام المؤمنون له هناك مدفناً استمرَّ إلى أن أخرب الرومانيون أورشليم. وكانت وفاته سنة ٦٢ أو ٦٣ م للمخلص وساء قتله بعض اليهود أيضاً فأرسلوا يخبرون أغريبا والبيِّن بجسارة حنان واغتياله يعقوب، وعزله أغريبا من رئاسة الكهنوت ونصب فيها غيره كما مرَّ (في عد ٤٨١). وقد ذكر هجيسبس خبر يعقوب هذا كما رويناه عن يوسيفوس أيضاً. وكان هجيسبوس نحو سنة ١٢٠ م للمخلص وهو يهودي أصلاً. وروى أقواله أوسايبوس في تاريخه (ك ٢ ف ٢٣) ومما قاله إنَّ المؤمنين في أورشليم قد حفظوا حرمة ليعقوب الكرسي الذي كان يجلس عليه. وكانت باقية

إلى أيامه (وقد كان أوسابيوس من سنة ٢٦٥ إلى سنة ٣٤٠ م) والكنيسة اللاتينية تعيد لذكراه في شهر أيار. وكنيستنا المارونية في ٩ تشرين الأول؛ وقد نقلت عظامه المباركة إلى رومة. والملك كرلس الكبير ملك فرنسة نقل قسماً منها إلى تولون (موجز تراجم القديسين في ١ أيار).

وليعقوب الرسول رسالة يظهر أنه كتبها سنة ٦٢ م قبيل وفاته إذ يؤخذ منها أنه دوّنوها بعد أن بارح بطرس الرسول اليهودية. وربما بعد أن كتب رسالته إلى المؤمنين في آسيا الصغرى وبعد أن كتب بولس رسالته إلى الرومانيين والغلاطيين. وفشّرهما بعضهم بغير معناها الصحيح، فإنّ كلام يعقوب في لزوم الأعمال الصالحة لا يظهر له سبب إلّا تأوّل هؤلاء بعض أقوال الرسول بغير المعاني الموضوعة لها، ولا مرأى في أنه كتبها في أورشليم لأنّه لم يغترب عنها؛ على أنّ هذه الرسالة وإن كانت من الأسفار القانونية المتأخّرة لامتراء بعضهم أوّلاً في قانونيتها، فقد أجمع الآباء بعداً على أنّها منزلة وموحاة. ونراها مثبتة في الترجمة السريانية التي وضعت في القرن الأوّل، وفي الترجمة الإيطالية التي وضعت في القرن الثاني. وأثبت قانونيتها من الآباء القدماء القديس أكليمنضوس (في رسالته ١ إلى القرنين)، والقديس إيريناوس (ك ٤ ف ١٣)، وأكليمنضوس الاسكندري على ما روى أوسابيوس (ك ٢ من تاريخه ف ٢٣)، وتورتوليانوس (في كتابه ضد اليهود ٢) وأوريجانوس (رواه أوسابيوس ك ٣ ف ٢٥). ولم ينبذها البروتستانت في هذه الأيام ولا العقليون. ولم يسقطها لوتر من عداد الأسفار المقدّسة إلّا لخالفاتها صراحة زعمه أنّ الأعمال الصالحة لا نفع منها. وهذه الرسالة منقسمة إلى خمسة فصول حض المؤمنين بها على الثبات في الإيمان، وعلى الإحسان إلى الفقراء، وعلى عمل الأعمال الصالحة وعدم الاكتفاء بالإيمان المجرّد عن العمل. وأنبّ معلّم الضلال وأبان فروض بعض طبقات الناس، وأثبت أنّ مسحة المرضى سر من أسرار الكنيسة، وأشار إلى الاعتراف السري، ويعزى إليه نافور القداس المعروف باسمه في جميع فروع الكنيسة السريانية كاثوليكية كانت أم غير كاثوليكية. وحسبه العلماء أوّل نافور في الكنيسة، وإن لم يكن هذا الرسول دونه فلا أقل من أنّه مشافهة إلى الكهنة فحفظ تقليداً إلى أن كتب.

إنَّ أندراوس الرسول هو بن يونا وأخو بطرس نشأ في بيت صيدا، وكان صياداً وتلمذ أولاً ليوحنا المعمدان. ولما سمع معلمه يقول عن يسوع هوذا حمل الله تبع يسوع مع تلميذ آخر وأتيا مع المخلص إلى حيث أقام. فكان أندراوس أول من دعاهم المسيح لاتباعه. وبعد أن مضى من عنده وجد أخاه سمعان فقال له قد وجدنا المسيح، وجاء به إلى يسوع ولما رآه سماه كيفا أي الصفا كما رأيت. على أنَّ أندراوس وبطرس لم يلازما يسوع بعد ذلك على شاطئ بحيرة طيبارية فدعاهما إلى ملازمته قائلاً إنَّه سيجعلهما صيادي الناس، فتركا شباكهما واتباعه (متى فصل ٣ عد ١٨ ومرقس فصل ١ عد ١٦ ولوقا فصل ٥ عد ٢). ولم يكن اندراوس متزوجاً بل كان يقيم ببيت أخيه في كفرناحوم، ولم يذكر اندراوس في الانجيل إلا ثلاث مرات إذ سأل فيلبس من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ فقال اندراوس إنَّها هنا غلاماً معه خمسة أرغفة من شعير وسمكتان (يوحنا فصل ٦ عد ٥ وما يليه). وإذا أتى اناس من الأمم وسألوا فيلبس أن يروا يسوع فجاء فيلبس وقال لأندراوس، واندراوس وفيلبس قالوا ليسوع (يوحنا فصل ١٢ عد ٢١)، وإذا سأل يسوع مع غيره من التلاميذ عن خراب الهيكل قائلين له: متى يكون هذا؟ (مرقس ص ١٣ عد ٣).

لم يذكر لنا كتاب أعمال الرسل شيئاً عن اندراوس إلا ما ذكره عن الرسل اجمالاً. ولم يأت ذكره في رسائل بولس والذي أنبأنا به التقليد وأقوال الآباء والعلماء القدماء إنَّه بشر في بلاد التتر بعد أن اجتاز مبشراً الجبال اليونانية على شاطئ البحر المتوسط إلى بوغاز الدردنيل وفي هرقلية وترايزوند. وأقبل إلى بيزنطية وهي القسطنطينية، وعبر من هناك إلى بلاد اليونان (القديس ايرونيμος في رسالته ٥٩ إلى مرسلوس)، وتاوادوريطس (في مزمور ١١٦) ونيكوفورس القسطنطيني في تاريخه، ونيكوفورس كاليستوس (ك ٣ فصل ٣٩). وقال بعضهم إنَّه هو مؤسس كنيسة القسطنطينية، وإنَّه أقام فيها أسقفاً اوسطاكبيوس الذي سماه بولس الرسول حبيبته؛ على أنَّ البابا نيقولاوس الأول أثبت أنَّ هذه الكنيسة لم يؤسسها رسول من الرسل بل أقام أسقفاً في هرقلية كما ذكر البابا جلاسيوس في رسالته إلى اساقفة

الدردنيل. ونال اندراوس اخيراً اكليل الشهادة مصلوباً في اخائيا في بلاد اليونان في مدينة بتراس، ولم نعثر حتى الآن على تاريخ يعين سنة استشهاده. ودفن في بتراس ثم نقلت رفاته إلى القسطنطينية حيث صنع آيات كثيرة كما روى كوميفينيوس في كتابه في كاتبي الأسفار المقدسة، وفي موجز تراجم القديسين المذكور مراراً (في ٣٠ تشرين الثاني) إنّ وفاته كانت سنة ٦٢ م، وأنّ جسده نقله إلى القسطنطينية الملك قسطنطين الكبير، وأنّ ذلك يظهر من خطبة فم الذهب في أنّ المسيح إله. وكنيستنا المارونية تعيد لذكره في ٣٠ تشرين الثاني كاللاتينية بمنزلة شهيد على الصليب.

يعقوب الكبير هو ابن زبدى وصالومي، وأخو يوحنا الانجيلي وكان من بيت صيدا، وكانت حرفته صيد السمك مع أخيه وأبيه. وقد وجدهم المخلص يصلحون شباكهم في السفينة فدعا يعقوب ويوحنا أخاه، فتركا أباهما في السفينة مع الأجراء واتباعه (مرقس فصل ١ عد ١٩)، وكانا شاهدين لتجليه كما روى (متى فصل ١٧ عد ٢). ولما دخل يسوع قرية للسامريين ولم يقبله أهلها سأله يعقوب ويوحنا قائلين اتريد ان نطلب أن تنزل نار من السماء وتأكلهم؟ فزجرهما قائلاً لستما تعلمان من أي روح أنتما (لوقا فصل ٩ عد ٥٣). وظن بعضهم أنّ هذا هو الوجه لتسميتهما بوانرجس أي ابني الرعد. وروى ايرونيμος في كتابه في المشاهير فصل ٢٥ أنّه بشر اسباط إسرائيل الاثني عشر المتشتتين في الآفاق ولكن هذا لا يمكن فهمه على اطلاقه؛ فالأوجه ما جاء في موجز تراجم القديسين أنّه بشر اليهود في فلسطين وسورية. وبموجب تقليد العلماء الآسيويين وغيرهم انه بشر اليهود في اسباط أيضاً، وعاد إلى أورشليم. وقد جاء في أعمال الرسل (فصل ١٢ عد ١) أنّ اغريبا المسمى هيرودس قبض عليه، وقتله بحد السيف في أورشليم سنة ٤٢ م أو سنة ٤٤ م للمخلص كما مرّ (في عد ٤٧٨)، ودفن جسده في أورشليم، ثم نقله تلاميذه الذين من اسبانيا إلى كاليب في هذه المملكة. والكنيسة اللاتينية تعيد له في ٢٥ تموز، وكنيستنا المارونية في ٣٠ نيسان، وتذكر تبشيريه في اسبانيا وعوده إلى أورشليم.

فيليبوس الرسول ولد في بيت صيدا ودعاه المسيح فاتبعه، ثم وجد فيليبوس تتنايل فقال له إنّ الذي كتب عنه موسى في الناموس والانبياء قد وجدناه وهو يسوع بن يوسف من الناصرة (يوحنا فصل ٤٣ وما يليه). قال اكليمنضوس

الاسكندري (ك ٣ في اللفيف) إنَّ فيليبوس هو الذي قال للمخلص عندما دعاه ليتبعه ائذن لي يا رب ان امضي أولاً فادفن أبي؛ فاجابه المخلص دع الموتى تدفن موتاهم (متى فصل ٨ عد ٢١). وقال ترتوليانوس (في المعمودية فصل ١٢) لا شك في أنَّ من قال هذا رسول. على أنَّ الانجيليين لم يشيروا إلى من قاله ويوحنا الذي ذكر دعوته لم يأت بما يدل عليه. ولما اراد المخلص أن يقري الخمسة آلاف رجل سأل فيلبس ليجربه من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء؟ فأجاب فيلبس إنَّه لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأكل كل واحد منهم شيئاً يسيراً (يوحنا فصل ٦ عد ٥).

ولما اراد بعض الوثنيين أن يروا يسوع قبل آلامه أتوا إلى فيلبس قائلين نريد أن نرى يسوع. فأتى هو واندراوس وقالوا ليسوع (يوحنا فصل ١٢ عد ٢٠). وفي العشاء الأخير سأل فيلبس يسوع قائلاً يا رب ارنا الآب وحسبنا فقال له يسوع من رأيي فقد رأى الآب (يوحنا فصل ١٤ عد ٨). فهذا كل ما جاء عن فيلبس في الأناجيل. وروى أوسابيوس (ك ٣ فصل ٣٠) إنَّ فيلبس كان مزوجاً وكان له بنات كثيرات. وروى (في فصل ٣١) إنَّه مات في هيرابولي مع بنتيه اللتين استمرتتا عذريين، وبنته الأخرى التي انقطعت للسيرة الروحية دفنت في أفسس. وقال بقوله بوليكرات واكليمنضوس الاسكندري وبابا وغيرهم. على أنَّ الأظهر أنَّ فيلبس الذي كان له أربع بنات ليس فيلبس الرسول بل فيلبس أحد الشمامسة السبعة، إذ جاء في أعمال الرسل (فصل ٢١ عد ٨): «وفي الغد خرجنا ووافينا إلى قيصرية ودخلنا بيت فيلبس المبشِّر... وكان له أربع بنات أبكار يتنبحن.

وأما أين بشرَّ فيلبس وأين مات فقال تاوادريطوس (في تفسيره مزمر ١١٦)، وأوسابيوس (ك ٣ راس ٣١) إنَّه بشرَّ في فريجية ودفن في هيرابولي. وقال بارونيوس (في تاريخ سنة ٥٤ م إنَّ فيلبس الرسول بينما كان يبشِّر في هيرابولي في آسيا الصغرى علّق على الصليب، ورجم بالحجارة مسنداً ذلك إلى قول لاوسابيوس في الكرونيكون، على أنَّ قول أوسابيوس هذا ساقط في نسخ كثيرة مخطوطة. وجاء في كتاب تراجم القديسين الروماني؛ إنَّه علّق على الصليب في هيرابولي، ورجم بالحجارة. وقد يكون ذلك متحلاً عن قول أوسابيوس الذي لم يتحقّق أنّه له. وكذلك جاء في تراجم القديسين لبولس كاران؛ وإنَّه حصل عند صلبه زلزال في هيرابولي في فريجية دمر كثيراً من البيوت، وابتلعت الأرض كثيرين. وقال كثيرون إنَّه رقد بالرب في فريجية حتف أنفه. ويظن أن استأثرت

رحمة الله به سنة ٨٠ م، ويقال إنه كان عمره حينئذ سبعة وثمانين سنة، ودفنه المؤمنون باكرام ثم نقلت رفاته في القرن السادس إلى رومة فوضعت في كنيسة الرسل، وأخذ قسم منه إلى القسطنطينية. وعند تجديد كنيسة الرسل في رومة وجدت سنة ١٨٧٢ م ذخائر الرسولين فيلبس ويعقوب الصغير تحت المذبح الكبير في تابوت من رخام فريجي. وبعد التحقيق الدقيق أعلن الكردينال بطريركي نائب قداسه بمنشور مؤرخ ف ١٩ نيسان سنة ١٨٧٣ م صحة ذخائر هذين الرسولين (موجز تراجم القديسين). وكنيستنا المارونية تعيد لذكره في ١٤ تشرين الثاني ويقال في ترجمته: ان الوثنيين علقوه على صليب وحصل زلزال يوم صلبه.

إن برتلماس (أي ابن تلماس) كان من الجليل كباقي الرسل. ويظهر أنه كان من قانا الجليل. لم يتبين من قول يوحنا الآتي (هذا إن صبح أنه نتائل) ولم يرد في الإنجيل إلا اسمه، وظن كثير من أنه نتائل. وأسندوا ظنهم هذا إلى حجج الأولى أن الأناجيل لم تذكر دعوة برتلماس إلا أن يكون نتائل الذي ذكر يوحنا (فصل ١ عد ٤٥) دعوته إذ قال إن فيلبس وجد نتائل كما مر قبيله، وقال له قد وجدنا المسيح فقال له نتائل أمن الناصرة يخرج شيء فيه صلاح؟ ولما أتى إلى يسوع قال هذا إسرائيلي لا غش فيه فقال له نتائل، من أين تعرفني؟ فقال له: قبل أن يدعوك فيلبس، وأنت تجت التينة رأيتك. فاعترف نتائل أنه ابن الله وقال له يسوع إنك ستعين أعظم من هذا. ثانيها أن الإنجيليين الذين ذكروا برتلماس لم يذكروا نتائل ويوحنا الذي ذكره لم يأت بذكر برتلماس. ثالثها أن اسم برتلماس ليس علماً بل معناه ابن تلماس وعلمه نتائل. رابعها أن يوحنا يظهر أنه ذكره في مصاف الرسل إذ قال (يوحنا فصل ٢١ عد ٢) قد كان اجتمع سمعان بطرس، وتوما الذي يقال له التوأم، ونتائل الذي من قانا الجليل، وابنا زبدى، واثان آخران من تلاميذه. وقال السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٣ قسم ٢ صفحة ٣ و ٤): إن السريان وشعوب المشرق اعتمدوا هذا القول باجمعهم، وقال هناك برتلماس يعده السريان من رسلهم، وذكر منهم مادي بن سليمان في ترجمة أدى المبشر، وعبد يسوع الصوباوي في كتاب الدر ف ٤، ومختصر القوانين قسم ٩ ف ١ وسماه مادي المذكور نتائل بن تلمي. ولكن أنكر القديسان أغوستينوس وغيغوريوس وغيرهم صحة هذا القول في تفسيرهم آية دعوة نتائل.

وقال كثيرون من السريان وغيرهم إنه بشر في الهند، وأنه أخذ معه إلى هناك

إنجيل متى مكتوباً في العبرانية أي السريانية الكلدانية، وإنَّ القديس بنتانس الفيلسوف المار ذكره (في الكلام على متى) وجد هذا الإنجيل هناك بعد مئة سنة. وممن ذكروا ذلك أوسابيوس (ك ٥ ف ١٠) لكنّه لم يحقّقه إذ قيد قوله بعلى ما يقال أو بحسب الإشاعة. وقال آخرون إنّه بَشَّر في العربية السعيدة وفي بلاد فارس. وذكر بعضهم الحبشة أيضاً ولكن قال كلمت (في معجم الكتاب) إنَّ هذا غلط، والصواب أن يقال في أرمينية المتاخمة لبلاد فارس. ولا علم أكيد لنا بأَيَّة ميتة مات، ولا في أي زمان، ولا في أي مكان اخترمته المنية. ولكن أجمع علماء اليونان المتأخرون واللاتينيون على أنّه مات في مدينة باتولي على بحر الخزر في أطراف أرمينية. وهذه البلاد سماها بعض القدماء الهند. وروى نيقيطا وتبعه نيكوفورس كاليستوس، وكثيرون أنّه مات مسلوحاً معلقاً على الصليب. وهذا ما اعتمدته صاحب موجز تراجم القديسين مفصلاً خبر سلخه وصلبه. وقال غيرهم: إنّه مات مقطوع الرأس، وعن بعضهم أنّه قضى نحبه سنة ٧١ في أرمينية.

أمّا توما الرسول (تفسير اسمه التوأم) فلا شك في أنّه جليلي كسائر الرسل وإن لم يعلم مكان مولده. ذكرت دعوته للرسالة في بشارة لوقا (ف ١ ع ٣) وذكر يوحنا (في ف ١١ ع ١٦) أنّه لما أراد المخلّص أن يمضي ليقم إليعازر وقال توما للتلاميذ: «لنذهب نحن أيضاً لنموت معه» لأنّه كان يعلم شدّة حنق اليهود على المخلّص. وقد سأل يسوع في العشاء الأخير قائلاً أنا هو الطريق والحق والحياة (يوحنا ف ١٤ ع ٥). وقد ظهر المسيح بعد قيامته للرسل وتوما غائب، ولما قصوا عليه الخبر قال إن لم أنزل يدي في جنبه، وأضع إصبعي في موضع المسامير لا أؤمن، فظهر لهم يسوع بعد ثمانية أيام وتوما معهم. وقال هات إصبعك إلى هنا وضعها في يديّ. وهات يدك وانزلها في جنبي ولا تكن غير مؤمن. فقال ربي وإلهي! قال له يسوع لأنك رأيتني آمنت، طوبى لمن لم يروني وآمنوا (يوحنا ف ٢٠ ع ٢٤ وما يليه). وكان توما في جملة التلاميذ إذ ظهر لهم يسوع، وهم يصيدون في بحيرة طيبارية وأكل أمامهم، وسلّم إلى بطرس خرافه ونعاجه (يوحنا ف ٢١). وصرّح القديس أفرام أنّ توما يسمى يهوذا أيضاً ذكره السمعاني (مجلّد أوّل في المكتبة الشرقية صفحة ١٠٠).

وبعد تفرّق الرسل في الآفاق بَشَّر توما البرتيين والماديين والفرس وغيرهم من القبائل الخاضعة للبرتيين وقتل، وأثبت ذلك أوريغانوس على ما روى أوسابيوس (في

كثيرون منهم. وكان لهم أساقفة مرجع أمرهم إلى ميريوبوليت بلاد فارس. ولما اضطهدهم الملوك الوثنيون هرب كثير من المؤمنين إلى جبال الملابار، وإنهم قد اتبعوا ضلال نسطور إلى أن عاد بعضهم إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية. وقال (في المجلد المذكور صفحة ٣ وما يليها) إن السريان والكلدان بشرهم الجوس الذين زاروا الخلص عند مولده، ثم الرسل بطرس وتوما وبرتلماوس (الذي سماه كثير من علمائهم نثنائيل بن تلمي) ومتى ولابي (وهو يهوذا بن يعقوب). ثم ادي أو تادي من الاثنين والسبعين مبشراً وتلميذاه مادي واجي وإن توما بشّر في الهند أيضاً. بل قال بعضهم إن توما الرسول بشّر في الصين، وأسندوا ذلك إلى كتاب رحلة كتبه في القرن التاسع رجالان عريان. وترجم إلى الافرنسية وطبع في باريس سنة ١٧١٨ م وإلى أنه قيل في فرض السريان: «إن ظلمة ضلال الوثنية انقشعت في الهند بتبشير القديس توما، وتبشيره اهتدى الصينيون والأحباش إلى معرفة الحق وبعنايته اتصل ملكوت السماء إلى الصين» وقالوا إن توما اجتاز من الصين إلى الهند وهناك نال اكليل الشهادة بحسب تقليد كنائس الملابار في مدينة كلامينا. وقال بعض البرتوغاليين إنهم وجدوا عظام هذا القديس في مدينة مليابور ولذلك سموها مدينة القديس توما. على أن زينودر رد قول من قالوا إن توما بشّر في الصين أيضاً (راجع السمعاني في مجلد ٣ صفحة ٤٣٥) حيث أورد كل ما يعتمد عليه القائلون بأن توما بشّر في الصين أيضاً من الآثار والشهود وفند كل ذلك بحجج راهنة، وقال إن توما لم يبشّر في الصين ولم يمض إليها بنفسه بل مضى إليها تلاميذه في حياته بعد مدة، وهذا هو المرجح والأظهر عند السمعاني. ومن شاء مزيد لإسهاب فليطالع ما كتبه بكل فقاهاة في المحل المذكور. وروى السمعاني أيضاً (في مجلد ١ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٩٩) عن التاريخ الرهاوي أن عظام هذا الرسول نقلت سنة ٧٠٥ م يونانية إلى الرها إلى الكنيسة المشيدة على اسمه في أيام قورش أسقفها. وقال إن روفينسون قال بذلك أيضاً (ك ٢ ف ٥). وإن إيرونيμος يؤيده. وقال باجيوي في تاريخ ٣٢٧ إن هذا يبين كذب مقال نساطرة الهند أن جسده كان باقياً عندهم إلى هذه القرون المتأخرة وكنيستنا المارونية تعيد له ٦ تشرين الأول.

أمّا القديس سمعان القانوني الملقب بالغيور فالأظهر في وصفه بالقانوني أنه كان من قانا الجليل خلافاً لمن زعموا أن وصف متى ومرقس له بالقانوني مرادف لوصف

لوقا له بالغيور، ولهم في هذا الوصف له قولان: فمن قائل إن لوقا وصفه بالغيور لشدة غيrote، ومن قائل إنه وصفه به لأنه كان من شيعة الغيورين، وهم أقوام كانوا في ذلك العصر يبدون الحماسة في مخالفة الرومانيين. وقد سميناهم عند الكلام فيهم بالمشاغبين. ولا نرى في الأناجيل وكتاب أعمال الرسل ذكر قول أو عمل لسمعان. وقد اختلف في مكان تبشيره وموته فذهب نيكوفور كاليستوس والمتأخرون من علماء اليونان إنه بشر في مصر والقيروان وغيرهما من أصقاع افريقية وفي جزر بريطانيا، وأنه صنع الله على يده آيات وقاسى اتباعاً شاقة نال اكليل الشهادة على الصليب. وذهب بيداً (في تفسير أعمال الرسل وعبدياس (ك ٦) إلى أنه بشر في ما بين النهرين ومات شهيداً في بلاد فارس بشغب أثاره عليه كهنة الأصنام، فقتلوه مع القديس يهوذا الرسول الآتي ذكره. والكنيسة اللاتينية تعيد لهما في ٢٨ تشرين الأول والكنيسة اليونانية في العاشر من حزيران وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٠ أيار.

إن القديس يهوذا الرسول ويسمى تادي ولاي كان ابن حلفى، وأخا يعقوب الصغير، ويظهر أنه كان مزوجاً وله أولاد. إذ روى هجيسبس (ذكره أوسابيوس في تاريخه ك ٣ فصل ٢٠) إنه كان له أحفاد أشخاصوا أمام دوميطيان الملك. وقد جاء في إنجيل يوحنا (فصل ١٤ عد ٢٢) إنه سأل المخلص قائلاً يا رب كيف أنت مزعم أن تظهر نفسك لنا للعالم؟ فأجابه يسوع «من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحبه وإليه نأتي الخ». وقد روى القديس بولينوس (قصيدة ٢٦) إنه بشر في ليبيا في افريقية. وروى القديس إيرونيموس (في تفسير الفصل ١٠ من بشارة متى) إنه أرسل بعد صعود المخلص إلى أبجر ملك الرها. ولكن قال نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الأول من أعمال الرسل) إن تادي الذي أرسله المسيح إلى أبجر على ما يزعمون إنما هو أحد السبعين مبشراً لا تادي الرسول أي يهوذا، فلم يميز إيرونيموس أحدهما عن الآخر. وقال السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٣١٩ إن تادي المرسل إلى أبجر لم يكن من الاثني عشر رسولاً بل من الاثني والسبعين تلميذاً. وإن هذا رأي السريان العام. وقال كثيرون من علماء اليونان المتأخرين ومن السريان بشر في الرها وما بين النهرين وأرمينية وبلاد فارس ومات في بلاد فارس مرشوقاً بالسهام. ومن تقليدات علماء السريان التي رواها عمر بن سليمان أن تادي الرسول بشر في طرسوس واللاذقية.

وللقديس يهوذا الرسول رسالة عامة إلى المؤمنين ذات فصل واحد قد ذكرت في عداد الأسفار المقدسة الذي وضعه موراتورى. وفي قانونها الذي ذكره مجمع اللاذقية سنة ٣٦٣م، وفي مجمع أيبونه سنة ٣٩٣م، وقد استشهد بها ترتوليانوس سنة ٢٠٠م، وأكليمنضوس الاسكندري في الليف في أواخر القرن الثاني، وأوريجانس (في تفسير بشارة متى فصل ٢٣)، وقد نحا بها يهوذا نحو بطرس الرسول في رسالته على الأظهر، ومن ذلك يظهر أنه كتب رسالته هذه بعد استشهاد بطرس سنة ٦٧م، وقد جاءت في هذه الرسالة آيتان كانتا موضعاً للانتقاد والخلاف: إحداهما قوله (عد ٩) إنَّ ميخائيل رئيس الملائكة لما خاصم ابليس وجادله من جهة جثة موسى لم يجسر أن يحكم عليه حكم لعنة، بل قال له ليزجرك الرب. وقد جاءت إشارة إلى ذلك في رسالة بطرس الثانية (فصل ٢ عد ١١). فقال المنتقدون إنَّ هذا القول منتحل عن كتاب غير صحيح وهو الموسوم بارتفاع موسى. وقد ذهب المفسرون الكاثوليكيون في تفسير هذه الآية مذهبين: فقال بعضهم إنَّ الكتاب المذكور لا يخلو من بعض الحقائق، ويهوذا استطاع بإشارة الروح القدس له بأن يميز ما كان صحيحاً منها. وقال القديس أغوستينوس (في مدينة الله فصل ٢٤): «إنَّ الكتب غير الصحيحة لا تخلو من حقائق». وقال آخرون إنَّ قول يهوذا ليس منتحلاً عن الكتاب المذكور بل مسنده التقليد أو وحي خاص، أو يشار به إلى نبوة زكريا (ف ٣ ع ١ و ٢) حيث قال: «وأراني يشوع الكاهن العظيم واقفاً أمام ملائكة، والشيطان عن يمينه فقال الرب للشيطان لينتهرك الرب يا شيطان لينتهرك الرب الذي اختار أورشليم». ومما قالوا إنَّ كتاب ارتفاع موسى لم يؤلف إلا بعد خراب أورشليم.

والآية الثانية قوله (ع ١٤): «وقد تنبأ على ذلك أحنوخ سابع آدم حيث قال هوذا يأتي الرب في ربوات قديسيه». فقال المنتقدون وهذا القول أيضاً مقتبس من سفر أحنوخ وهو غير صحيح، وأجاب كثيرون من المفسرين الكاثوليكيين إنَّه يمكن إسناد قول يهوذا إلى سفر التكوين في كلامه على أحنوخ. وجعل هذا الكلام بمنزلة نبوة عزاهها إلى أحنوخ يشار فيها بخوفه الله واثقيائه له إلى دينونة الله لجميع الناس، وحكمه على المنافقين. وقال غيرهم إنَّ الهراطقة الذين كانوا في أيام يهوذا كانوا يسلمون بصحة هذا السفر الذي كتب في القرن الثالث قبل الميلاد، فأورد يهوذا شهادته على سبيل المصادرة للخصم بما يسلم به. وكذا قال

بعضهم في رد الآية الأولى أيضاً. وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٩ حزيران.
ماتيا الرسول كان أولاً من مصاف تلاميذ المخلص وصحب يسوع منذ عَمْدَه
يوحنا إلى صعوده كما يتبين من كتاب أعمال الرسل (فصل ١ عد ٢١). ويظهر
أنه كان من الاثني والسبعين مبشراً على ما روى أكليمنضوس الاسكندري (في
اللفيف ك ٤)، وأوسابيوس (بتاريخه ك ١ ف ٢) وغيرهما. ولما اجتمع التلاميذ في
أورشليم بعد صعود المخلص منتظرين حلول الروح القدس، وقف بطرس في الوسط
وكلفهم أن يختاروا رسولاً بدلاً من يهوذا الخائن. واقترعوا على أحد اثنين يوسف
المسمى برسابا، وماتيا وصلوا إلى الله فأصابتهما القرعة ماتيا هذا. وانضم إلى الأحد
عشر رسولاً واختلف في مكان تبشيره وميته. ففي بعض كتب تراجم القديسين أنه
بشّر أولاً في اليهودية ثم مضى إلى تدمر وطاف ما بين النهرين والعربية الجنوبية.
وذهب يفتقد توما الرسول في الهند. وعاد إلى اليهودية موطنه. ثم قضى مرجوماً
ودفن في بيروت. وقال ابن العبري أيضاً في تاريخه البيعي إن تادي دفن في
بيروت وكذا قال بعض علماء اليونان إنه رقد بسلام في بيروت على ما روى
كلمت في معجم الكتاب، لكن هذا مما لا يمكن تحقيقه إذ قال علماء آخرون إنه
استشهد في بلاد فارس. وفي موجز تراجم القديسين إن ملك بابل الذي كان قد
تنصر أتى برفاته ورفات سمعان إلى بابل، ووضعها في كنيسة بناها لآكرامهما ثم
نقلت ذخائرهما إلى رومة ووضعت في كنيسة القديس بطرس.

وقال آخرون إنه انطلق إلى تبشير الأمم، واتصل تبشيره إلى الحبشة فنصّر
كثيرين من الوثنيين. رواه القديس صفرونيوس أو بترتوس الكاسيناوي في خطبته في
هذا الرسول، ونيكوفورس كاليستوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٤٠)، وجاء في
ميناون اليونان أنه بشّر في الحبشة الخارجة. أمّا استشهادة فقال أوبترتوس المذكور إنه
كان باقندائه بالمسيح وجهاده المتصل، وتقشفاته الدائمة قائلاً مع الرسول لا فخر لي
إلا بصليب المسيح الذي به صلب لي العالم وأنا صلبت للعالم. ولكن جاء في
كتاب تراجم القديسين أن اليهود والوثنيين ثاروا عليه فقتلوه مرجوماً، وإن بعضهم
قال إنهم صلبوه ثم أنزلوه عن الصليب، فقطعوا رأسه. وإن رفاتة نقلتها القديسة
هيلانة أم قسطنطين إلى رومة، وإن بعض عظامه الآن في كنيسة مريم الكبرى.
ووهبت هذه الملكة ذخيرة منها لمطران تراف (في ألمانيا) ووضعها في كنيسة جعلها
على اسمه، ثم أقيم هناك دير وجاء في ترجمته التي نشرها راهب من هذا الدير

مترجمة عن أصل عبراني أو سرياني، كتب في القرن الثاني عشر أنه قبض عليه رئيس كهنة اليهود في الجليل، وحكم عليه بالرجم على أثر مقتل يعقوب الصغير في أورشليم فرجم، وقطع رأسه. على أن كثيرين من فحول المؤرخين لم يقطعوا بصحة هذه الرواية وهي مثبتة في ترجمته في سكارنا في ٩ آب وأن استشهاده كان سنة ٦٠ للميلاد.

الفصل الثالث

التلاميذ والمبشرين

عد ٥١٢

التلاميذ اجمالاً

جاءت في العهد الجديد كلمة التلميذ بمعنى المؤمن بالمسيح كقوله ولما تكاثرت التلاميذ (أعمال الرسل فصل ٦ عد ١) وكان في دمشق تلميذ اسمه حننيا (ف ٩ عد ١٩) وكان شاوول يضطهد تلاميذ الرب (فصل ٩ عد ٢١). كل ذلك بمعنى المؤمنين بالمسيح. وجاء التلميذ بمعنى الرسول متواتراً في الأناجيل. على أن المراد بالتلاميذ بالخصوص من اتبعوا المسيح، وأرسلهم للتبشير وعددهم اثنان وسبعون تلميذاً أو مبشراً. وقد ذكر لوقا (فصل ١٠ عد ١ فصاعداً) إن المسيح عين أو أفرز سبعين آخرين وأرسلهم اثنين اثنين إلى كل مدينة ازمع أن يدخلها. وقال لهم إن الحصاد كثير والفعلة قليلون إلى آخر ما ألقاه إليهم من الارشاد. وقد وجد لاسيما في الكنيسة اليونانية جداول تنطبق على اسماء هؤلاء المبشرين على أنها ليست قديمة ولا أكيدة. وقد أنبأنا أوسايوس ك ١ من تاريخه فصل ١٢) الذي كان في القرن الرابع أنه لم يكن في أيامه جدول أكيد لاسمائهم، ولكن يمكن أن يعد من مصافهم برنابا وستانيس وماتيا الذي صار رسولاً، وبرسابا وتادي أخو توما

والشمامسة السبعة وهم أسطفانوس وفيلبس وبركوروس ونيقانور وطيمون وبرمناس ونيقولاوس الدخيل الأنطاكي. وذكر الرسول (رومة فصل ١٦ عد ٧) نسيين له قائلاً: «سلموا على اندرنكس ويونياس نسيي المأسورين معي المشهورين بين الرسل الكائنين في المسيح قبلي». ثم سيلا وسمعان الأسود ولوقيوس القيرواني، ومناين الذي ترثي مع هيرودس رئيس الربيع، وشاؤول (كما في أعمال الرسل فصل ١٣ عد ١) ومناسون القبرصي التلميذ القديم (أعمال الرسل فصل ٢١ عد ١٦)، وحننيا الذي عمّد بولس. وذكر بابيا أريستيون ويوحنا الكاهن روى ذلك عنه أوسايوس (ك ٣ فصل ٣٩ من تاريخه). وعد بعضهم مرقس ولوقا في جملة التلاميذ الاثني والسبعين، وخالفهم آخرون ولاسيما في لوقا، والأظهر أنّ هذا الإنجيلي لم ير المخلص ولم يسمع كلامه كما يظهر من فاتحة إنجيله (طالع فيكوروس في الموجز الكتابي مجلد ٣ عد ٦٤) على أنّهما إن لم يكونوا من التلاميذ الذين اختارهم المخلص فقد كانا من أعظم المبشرين به فلا بد من الكلام فيهما.

عد ٥١٣

مرقس الإنجيلي

ذهب كثيرون من العلماء إلى أنّ مرقس الإنجيلي هو غير يوحنا مرقس الذي ورد ذكره مرات في أعمال الرسل، على أنّ مذهب الجمهور إنهما واحد خلافاً لما رويت في كتابي تحفة الجليل في تفسير الأناجيل في المقدمة على بشارة مرقس. وأثبت بابيا (ذكره أوسايوس في تاريخه ك ٢ فصل ١٤)، والقديس إيريناوس (ك ٣ ف ١) وأكثر القدماء والحدثاء إنه كان تلميذاً لبطرس الرسول، وترجماناً أو كاتباً له كما قال القديس إيرونيموس (رسالته ١٢٠)، وإنه هو من سماه بطرس في ختام رسالته الأولى ابنه؛ حيث قال وقد مضى بعد خروجه من سجن هيرودس إلى بيت أمه حيث وجد كثيرين مجتمعين يصلون أعمال الرسل فصل ١٢ عد ١٢). وبعد أنّ صحب بولس مدة افترق عنه في أنطاكية، وسار مع برنابا إلى قبرص (أعمال الرسل ف ١٥ عد ٣٩). ثم لزم بطرس الرسول وانطلق معه إلى رومة ولم يعد يسمى يوحنا مرقس بل مرقس فقط لأن هذا الاسم لاتيني. وهناك كتب انجيلية بتلقين بطرس له ولا أقل من أنّ يكون أثبته، وأمر بتلاوته في الكنائس بل سمى ترتوليانوس (ك ٤

ضد مركيون) ما كتبه مرقس لإنجيل بطرس؛ وقد كتبه في إحدى السنين التي بين السادسة والأربعين والخمسين بعد أن كتب متى إنجيله. فقد سمي كثيرون إنجيل مرقس موجز لإنجيل متى، والأمر ظاهر بمعارضة الإنجيليين أحدهما مع الآخر ويمثل مرقس بالأسد لأنه أفتتح إنجيله بقوله: «صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب». ولم يذكر بشارة العذراء ولا مولد المخلص، ولا سجود المجوس له ولا تقدمته إلى الهيكل، ولا هربه إلى مصر. وهذا مما يشعر بأنه لم يكتب إنجيله إلى اليهود بل إلى الأمم لا سيما الرومانيين، ولذا لا تراه يسمي المخلص ابن داود بل ابن البشر، وابن الله. ويظهر من إنجيله نفسه إن كاتبه كان يهودياً معاصراً للرسل لكثرة استعماله الاصطلاحات السريانية الكلدانية، وإدخاله كثيراً من كلمات هذه اللغة التي كان يتكلم بها اليهود في أيامه، ولمعرفته بعادات أهل اليهودية واصطلاحاتهم، ولدقته بذكر قرائن أخباره، من ذلك وصفه يائرس برئيس الجمع. والمرأة الكنعانية بأنها كانت يونانية من فينيقية سورية، والأعمى الذي أبرأه المخلص في أريحا بأنه كان برطيما أي ابن طيما إلى غير ذلك. وذهب بعضهم إلى أن مرقس كتب إنجيله باللاتينية لأنه كتبه للرومانيين، ولأنه علق بعض نسخه الخطوط أنه كتب باللاتينية، وكذلك على بعض النسخ السريانية والعربية. وكذا رأى بارونيوس (في تاريخ سنة ٤٥) وغيره. والأظهر إنه كتبه باليونانية على ما أثبت القديس إيرونيموس في مقدمة الأناجيل والقديس أغوستينوس (ك١ في توفيق الأناجيل). لأنه كتبه ليمضي به إلى الاسكندرية. ووفق بعضهم بأنه كتبه أولاً في رومة باللاتينية ثم ترجمه في الاسكندرية إلى اليونانية والله أعلم.

ذهب بعض الحداثاء إن بطرس أرسل مرقس أولاً إلى أكويلا في النمسا. فاستمر هناك سنتين وتسعة أشهر، وأقام لهم كنيسة توفر عداد المؤمنين فيها على إن القدماء لم يثبتوا ذلك، ولكن أجمع القدماء والحداثاء على إن بطرس أرسله إلى مصر وأتى الاسكندرية، ونما بتبشير عداد المؤمنين، وقد تساموا بورعهم وانكبابهم على مباشرة الفضائل، ونقاوة سيرتهم. وقد أثنى عليهم الثناء فيلون اليهودي (في كتابه في السيرة العقلية) مسمى إياهم الثيرابوتين أي عباد الله. وقد قال كثيرون من القدماء إنما هؤلاء مسيحيون، ولكن جعلهم فيلون فرقة من اليهود تعظيماً لأمتهم، ومن هؤلاء كان النساك والزهاد الأولون. وقد بدأ القديس مرقس هذه الطريقة ولذلك دعاه أوسايبوس وإيرونيموس وغيرهما مبدأ النساك ورئيسهم الأول. ونما

عديدهم ونمّ عرف فضلهم، وملأوا براري مصر والصعيد، وعندهم أخذت الطريقة الرهبانية. ثم أقام مرقس المدارس في الاسكندرية ونبع فيها كثير من العلماء والأجبار والشهداء. وقد زهت هذه المدارس خاصة حين رأسها ببتانوس الفيلسوف في أواخر القرن الثاني، ثم خلفه اكليمنضوس الاسكندري. ومن تلامذتها أوريجانس وغريغوريوس الملقب بالأعجوبي وأتياناغورا، واثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس النريزي فكل هؤلاء وغيرهم تلامذة مدارس القديس مرقس.

وقد حنق الوثنيون على مرقس لنسخه عبادة آلهتهم وردّه الناس عنها. فرأى من الصواب أن بتغيب عن الاسكندرية فزايها مدة ربما مضى فيها إلى رومة. إذ جاء في التاريخ الاسكندري إنه شهد مقتل الرسولين فيها سنة ٦٧م ثم عاد إلى الاسكندرية وطرب إذ رأى نمو المؤمنين عدداً وفضلاً، ولكن اشتدت ضغائن الوثنيين عليه وتلهّبت نار بغضائهم له وهاج هائجهم فوثبوا عليه نهار الأحد في ٢٥ نيسان سنة ٦٨م على أحد الأقوال فوضعوا حبلاً في عنقه وأخذوا يجرونه النهار بطوله في الأزقة، وأودعوه السجن مساءً ثم استأنفوا التنكيل به في اليوم التالي كالسابق إلى أن فاضت روحه القدوسة. وقال كثيرون إنه قضى نحبه بالنار. ولعلّ المراد إن أعداءه أحرقوا جثته بعد موته. ونقلت رفاته إلى البندقية سنة ٨٢٧م على التقليد الذي حفظه أهل هذه المدينة؛ وتعيد له كنيسة المارونية في ٢٥ نيسان وتذكر استشهاده كما مرّ آنفاً.

عد ٥١٤

لوقا البشير الانجيلي

إنّ للقديس لوقا ولد في انطاكية، وكان طبيباً كما يظهر من قول الرسول (كولوسايس فصل ٤ عد ١٤): «يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب». ومن وصف لوقا في إنجيله الأمراض التي أبرأ المخلص الأعداء منها وصفاً طبياً، ولم يكن يهودياً على الأصح بل وثنياً آمن بالمسيح على يد بولس الرسول في أنطاكية. ثم صحبه في التبشير بالمسيح كما يظهر من قول الرسول: «ومعي لوقا وحده» (تيموتاوس ٢ فصل ٤ عد ١١). وقوله: «يسلم عليك أبغراس ولوقا معاوني» (فيليمون فصل ٣ عد ٢). ولكن متى صحبه؟ وأين كان معه؟ فذهب بعضهم انه صحبه مذ آمن

على يده ولزمه أبداً، وذهب بعضهم إلى أنه لم يصحبه إلا مذ كان في تراوس وعزم أن ينطلق إلى انطاكية كما في كتاب أعمال الرسل (ف ١٦ ع ١٠). فأتا نرى لوقا مذ حيث أخذ يتكلم عن أسفارهم بضمير المتكلمين قائلاً: «ولما رأى الرؤيا طلبنا للوقت أن نسير إلى مكدونية». وظن الكثيرون إنه كان مصوراً؛ وأدعى بعضهم إن صور العذراء في أماكن عديدة إنما هي من صنعه أو منقولة عما رسمه، على أن القدماء لم يذكروا إنه كان يحسن هذه الصناعة، وأول من وصفه بها إنما هو نيكوفور الذي كان في القرن التاسع. وذهب القديس أييفان (في بدعة ٥١) إنه بشر بالأنجيل في دلماسيا وفرنسة وإيطاليا ومكدونية.

وذهب سمعان متفرست أنه بشر في مصر وليبيا والصعيد عدا تبشيريه مع بولس الرسول. ويظن أنه ناهز الثمانين أو الرابعة والثمانين من عمره، واختلف في محل موته ونوعه. فروى القديس إيرونيموس (في تراجم المشاهير) إنه قضى نحبه في أختايا. وروى نيكوفور (ك ٢ فصل ٤٣) إنه توفاه الله في تاب من بلاد اليونان. وإنه كان في أيامه مدفن يحسب إنه ضريح لوقا. ورأى هيبوليتوس إنه اخترمه الموت مصلوباً في آلية في المورة. وقال آخرون إنه مضى إلى ربه في أفسس. وقال القديس غريغوريوس النزينزي وغيره إنه نال اكليل الشهادة؛ وعن حدثاء اليونان إنه صلب على شجرة زيتون، وعن أليا الأكرتي (في خطبة ٣) إنه مات حتف أنفه. وقال كلمت (في معجم الكتاب) هذا هو رأي كثير من العلماء الحدثاء وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٨ تشرين الأول.

وقد كتب لوقا الأنجيل الثالث المعروف به، وكتاب أعمال الرسل، وقد كتب الأنجيل أولاً كما يظهر من فاتحة كلامه في كتاب الأعمال إذ قال: «أنشأت الكلام الأول ياتافليس في جميع الأمور التي عملها يسوع». وقد فرغ من تدوين كتاب أعمال الرسل في سنة ٦٢ وسنة ٦٣ للميلاد على ما يظهر من أن آخر أخباره فيه إنما هو بلوغ بولس إلى رومة لرفع دعواه إلى قيصر، والتفريج عنه واجتماع اليهود إليه والجمهور على إن هذا كان سنة ٦٢ أو سنة ٦٣ م. وعليه فالأظهر أنه كتب الإنجيل في إحدى السنين من الخامسة والخمسين إلى الستين بعد إنجيل مرقس بنحو من ثماني سنين، وبعد إنجيل متى بنحو من خمس عشرة سنة، ولم يرَ لوقا المخلص كما يظهر من قوله الآتي بل انتحل ما كتبه عن إنجيلي متى ومرقس. وتلقى أخبار المخلص وكلامه عن بولس الرسول معلمه، ورفيقه في أسفاره. وفي سجنه في قيصرية

ورومة. وكان المسيحيون الأولون يعتقدون أنَّ بولس لقن لوقا إنجيله، وأخذ أيضاً كثيراً من أخبار المخلص عن يعقوب الصغير أسقف أورشليم كما يظهر مما كتبه في أعمال الرسل (فصل ٢١ عدد ١٨). وعن بطرس الرسول وغيره من الرسل وبرنابا الذي كان يبشر في أنطاكية حيث تعلم لوقا مبادئ التعليم المسيحي؛ وقد لقنته العذراء خاصة وأقرباء يوحنا المعمدان ما كتبه في كتاب الفصول الأولى من إنجيله عن بشارة زكريا وبشارة العذراء، ومولد المخلص ونسبه وتقديمه إلى الهيكل ووجدانه فيه. وإلى هؤلاء جميعاً وأشار في مقدمة إنجيله بقوله: «لأجل إنَّ كثيرين راموا أنَّ يكتبوا قصص الأمور التي نحن بها عارفون حسبما عهد إلينا أولئك الذين كانوا منذ القديم (أو منذ البدء) معانين، وكانوا خدام الكلمة رأيت أنا إذ كنت قريباً من كل ذلك بالاجتهاد أنَّ أكتب إليك كل شيء حسب ترتيبه أيها الشريف تاوافيلا».

أما تاوافيلا أو تاوافيلس الذي كتب إليه فذهب بعضهم إلى انه رجل حسيب ذو منصب رفيع في رومة أو أختايا. وقال القديس اكليمنضوس الروماني (في ك ١٠) إنه كان في أنطاكية وآمن بالمسيح على يد بطرس الرسول، وأقام بطرس كرسيه الأول في داره. وذهب غيرهم منهم أوريجانوس والقديس أمبروسوس أنَّ تاوافيلا ليس علماً معيناً رجلاً بل يراد فيه محب الله أيّاً كان، لأن تأويل تاوافيلا باليونانية محب الله. ويظهر من إنجيل لوقا أنه لم يكتبه لليهود لأنه لم يكتب كلمة من كلام المخلص بالسريانية كما ذكر غيره من الانجيليين، بل يسمي الأمكنة مشيراً إلى ما تسمى به بلغة العبرانيين كقوله: «إلى مدينة تدعى الناصرة»، «عند الجبل المسمى جبل الزيتون»، «إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم». بل كتبه إلى الوثنيين كما يظهر من تسميته غير اليهود خطاة لا أمماً كما يسميهم متى، ولانفراده بذكر كثير من الوثنيين الذين أحسن المسيح إليهم كلص اليمين، والابن الشاطر، والمرأة الخاطية، وتفضيله العشار على الفريسي، والسامري على الكاهن واللاوى، وصلاته عن صالبيه إلى آخر ما أشبه ذلك.

وأما كتاب أعمال الرسل فقد كتبه لوقا بعد إنجيله كما مر منطبقاً على أخبار أعمال الرسل لا سيما بطرس وبولس، وانتشار الإيمان في مدة الإيمان نحو ثلاثين سنة بعد موت المخلص. تلقى ما كتبه في الستة عشر فصلاً الأولى عن العذراء والرسل وبعض التلاميذ، ودون ما كتبه في الاثني عشر فصلاً الأخيرة عن التعليقات التي كان يعدها في جولانه مع بولس الرسول، وكتب سفره باليونانية وكلامه

فيهما أفصح من كل ما كتب باليونانية من أسفار العهد الجديد لخبرته بهذه اللغة.

عد ٥١٥

الشمامسة السبعة

أنبأنا كتاب أعمال الرسل (فصل ٦ عد ١ وما يليه) باختيار هؤلاء الشمامسة إذ جاء فيه أنه: «في تلك الأيام لما تكاثرت التلاميذ حدث تضرع من اليونانيين المتنصرين على العبرانيين بأن أراملهم كن مهملات في الخدمة اليومية (أي في إعطائهن نصيبهن من الأموال المشتركة بين المؤمنين). فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يحسن أن نترك كلمة الله ونخدم الموائد؛ فاختاروا أيها الأخوة سبعة رجال منكم يشهد لهم بالفضل، وقد ملأهم الروح والحكمة فنقيمهم على هذه الحاجة؛ ونحن نواظب على الصلوة وخدمة الكلمة. فحسن الكلام لدى جميع الجمهور، فاختاروا أسطفانس رجلاً ممتلئاً من الإيمان والروح القدس، وفيلبس وبركوروس ونيقانور وطيمون وبرمناس ونيقولوس الدخيل الانطاكي، وأقاموهم أمام الرسل فصلوا ووضعوا أيديهم عليهم».

قد أثبت كثيرون من الآباء والعلماء الكاثوليكين إن خدمة هؤلاء الشمامسة السبعة التي أقامهم الرسل بها باختيار التلاميذ، إنما هي خدمة روحية لتوزيع الأسرار، ومرتبهم درجة مقدسة، وإن قارنها الإهتمام بتوزيع النفقات على المؤمنين. واستدلوا على ذلك أولاً باشتراط الرسل أن يكون المختارون مشهوداً لهم بالفضل ممتلئين من الروح القدس، والحكمة وبصلاتهم، ووضع أيديهم عليهم. ولو اختيروا لخدمة الموائد غير المقدسة لما كان محل الاشتراط الصفات المذكورة، ولا لتلاوة صلوة ووضع اليد عليهم. ثانياً بمنح هؤلاء الشمامسة سر المعمودية بطقس حافل بمقتضى درجتهم؛ فان فيلبس أحدهم عمد خصي كنداكة ملكة الحبشة، وكثيرين من أهل السامرة كما جاء مصرحاً في كتاب أعمال الرسل (فصل ٨). ثالثاً بأن الشمامسة كانوا في صدر النصرانية يناولون المؤمنين جسد المسيح ودمه عند غياب الكاهن أو يأمره كما روى القديس يوستينوس الشهيد (في محاماته ٢). وجاء صريحاً في مجمع قرطاجنة الرابع (قانون ٣٨) وفي المجمع النيقوي الأول التيبلي (قانون ١٨). ومن الآباء الذين أثبتوا أن خدمة الشمامسة خدمة روحية، ومقدسة إيرونيموس (في رسالته ٤٨ إلى

سرساينيان)، وأمبروسيوس (ك ١ في الفروض)، وقبريانوس (في رسالته ٦٥) وأغناطيوس تلميذ بطرس وخليفته في كرسي أنطاكية (في رسالته إلى التريالانيين فصل ٧). ومن شاء مزيد إسهاب في ذلك فعليه بمطالعة تاريخ نطاليس اسكندر (في القرن الأول مقالة ٧ وحاشية يوحنا منسى المعلقة في آخر كلامه هناك).

أما أول هؤلاء الشمامسة إسطفانس (لفظ يوناني تأويله اكليل) فكان يهودياً آمن بالمسيح واختير شماساً. وجاء في كتاب أعمال الرسل (في فصل ٦ عدد ٨) إنه كان مملوءاً نعمة وقوة وكان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب. فنهض قوم من مجمع المعتقين (الأظهر أن هؤلاء كانوا من أبناء من أسرهم بمبايوس من اليهودية، وجعلهم أرقاء ثم أعتقوا فسموا المعتقين)، ومن القيروانيين والاسكندريين والكيليكين والأسيوين اليهود المجتمعين في أورشليم؛ يباحثون أسطفانوس فافحمهم. ففسوا رجلاً يقولون إنهم سمعوه جدف على موسى والله، ويقول إن يسوع الناصري سينقض المكان المقدس والناموس ويبدل السنن التي سلمها موسى إليهم. وهيجوا الشعب والشيوخ والكتبة، فقبضوا عليه وأتوا به إلى المحفل، فنفّس فيه الجالسون فرأوا وجهه وجه ملاك. فخطب فيهم إسطفانس خطبة أنيقة مسهبة مثبتة في الفصل السابع من كتاب أعمال الرسل أبان فيها إنه لم يقل شيئاً على موسى، ولا على خراب الهيكل، بل هم يقاومون كل حين الروح القدس، كما فعل أبائهم إذ قتلوا الانبياء، وهم قتلوا المخلص فاستشاطوا عليه، وصرفوا باسنانهم. أما هو فتفرس في السماء وقال هاأنذا أرى السماوات مفتوحة وابن البشر قائماً عن يمين الله. فصرخوا بصوت عظيم، وسدوا أذانهم ووثبوا عليه وأخرجوه خارج المدينة ورجموه وهو يقول أيها الرب يسوع اقبل روحي ثم جثا على ركبتيه، وصرخ يا رب لا تقم عليهم هذه الخطية. ورقد في الرب وكان شاوول بولس موافقاً على قتله ويحرس ثياب من رجموه. وكان اسطفانس أول الشهداء لأن رجمه في سنة ٣٣م. أو في السنة التالية لها. وتعيد الكنيسة اللاتينية لذكره في أ ٢٦ من كانون الأول وكنيستنا المارونية في أ ٢٧ منه.

أما فيلبس الشماس فقيل إنه كان من قيصرية فلسطين، ويؤيده ما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل ٢١ عدد ٨). «وافينا إلى قيصرية ودخلنا بيت فيلبس المبشر الذي هو أحد السبعة، وأقمنا عنده وكان له أربع بنات يتبنأ». وبعد رجم أسطفانس وتشنت التلاميذ من أورشليم، وبقاء الرسل فيها مضى فيلبس يبشر في

السامرة (أعمال الرسل فصل ٨ عدة)، ويصنع الآيات كإخراج الشياطين من المسوسين، وإبراء الخلعين والعرج. فأمن من على يده كثيرون وعمدهم. ولما لم يكن للشمامسة أن يمنحوا سر التثبيت المعبر عنه بنوال الروح القدس أتى بطرس يوحنا فثبتا المؤمنين الذين عمدهم فيلبس، ولم يتنبأ سيمون الساحر الذي كان فيلبس عمده لأنه عرض عليهما نقوداً ليعطياه السلطان أن يثبت بل انتهزه بطرس قائلاً لتذهب فضتك معك إلى الهلاك.

ثم كلم ملك الرب فيلبس قائلاً قم فانطلق إلى غزة، فانطلق وإذا برجل حبشي خصى ذي منزلة عظيمة عند كنداكة أوقنداقة ملكة الحبشة، وقد جاء ليسجد في أورشليم، وكان راجعاً وهو جالس في مركبته يقرأ في أشعيا النبي فالهم الروح فيلبس أن أدن من المركبة والزمها، ففعل وسمع الخصي يقرأ قد سيق كالحمل إلى الذبح، وكان صامتاً كالشاة أمام الجزار لا يفتح فاه، فسأله فيلبس هل تفهم ما تقرأ فقال كيف يمكنني أن أفهم إن لم يرشدني أحد، فأخذ فيلبس يشره يسوع وهما منطلقان في المركبة فأمن وانتهيا إلى ماء. فقال الخصي هوذا ماء فما المانع أن أتمد فنزل كلاهما إلى الماء، وعمده فيلبس وخطف الروح فيلبس فلم يعد الخصي يعاينه وسار في طريقه فرحاً (أعمال الرسل فصل ٨).

فمن هي كنداكة هذه وأين مملكتها؟ فاسم الحبشة في عهد كتابة أعمال الرسل كان يطلقونه على كل البلاد التي في جنوبي مصر، والأحباش النصارى يتفاخرون بأن كل ما ورد في الكتاب عن الكوشيين والأحباش يراد به أجدادهم، ومن ذلك زعمهم إن كنداكة مملكتهم، والخصي المذكور أول مبشر لهم بالمسيح كما حقق الجواله في بلادهم، على أن زعمهم هذا لا أس تاريخي له، والذي أثبتته أهل العلم في تواريخ الحبشة إن كنداكة لم تكن ملكة الحبشة بالاطلاق، بل كانت ملكة ميرا الواقعة عند مجتمع النيل ونهر وطفاسي، وكان القدماء يظنون هذه البلاد جزيرة، وقد وجدت فيها صفيحة كتب عليها في الهيروكليفية اسم كنداكة الملكة على ما أثبت لبيسوس وبروغش. وقد روى استرابون (ك ١٧ فصل ١) إنه كان بين العصاة على الرومانيين في أيام أغوستوس قيصر «قادة عساكر الملكة كنداكة التي كانت في أيامنا تلي الأحباش، وكانت امرأة شجاعة وقد فقدت إحدى عينيها». وقد أدركها بترونيوس القائد الروماني في قصبة ملكها نباتا تحت ميروا. وروى بلين (في التاريخ الطبيعي ك ٢ فصل ٣٥) إنه كان

في ميروا امرأة ملكة اسمها كنداكة، وهذا الاسم قد تغلب من زمان طويل على ملكات هذه البلاد.

وروى أوساييوس (في تاريخه ك ٢ فصل ١): «إنَّ النساء في الحبشة حيث ملكت كنداكة كنَّ في أيامه يلين البلاد»، والحاصل من ذلك أنَّ ميروا كانت حكومتها في القرن الأول للميلاد لنسوة يسمين كنداكة، وعليه فيثبت إنَّ كنداكة التي ذكرت في كتاب أعمال الرسل كانت ملكة هذه البلاد، واما خصيها فالأرجح أنه لم يكن خصياً حقاً بل كان هذا اسم منصب عند الملوك القدماء في آسيا ومصر، وإنه كان يهودي الأصل بدليل تلاوته سفر أشعيا، وكان اليهود يحجون إلى اورشليم من كل صوب. وقد أثبت أوساييوس (في المحل السابق ذكره) وإيرونيموس في تفسير نبوة أشعيا) إنَّ هذا الخصي كان رسول الحبشة. وأورد صفرونيوس تقليداً يتبين منه إنَّ هذا الخصي بشر بالانجيل في العربية السعيدة حتى جزيرة سيلان حيث قضى نحبه، على أنَّ هذا يعسر تحقيقه (معجم الكتاب لفيكورو في كلمة كنداكة). ولم يتنبأ الكتاب ما كان لفيلبس بعد ذلك وعن علماء اليونان الחדاء. وفي مناوونهم في ١١ تشرين الأول أنه مضى إلى قرال (المسماة الآن سلطان حصار) في آسيا الصغرى حيث بشر بالانجيل وأقام كنيسة ووقد بالرب. وعن العلماء اللاتينيين تبعاً لإزوارد وأدون إنه لقي ربه في قيصرية فلسطين (عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة فيلبس الشماس).

أما بروكورس فلا نعلم من أخباره إلا أنَّ المؤرخين اليونان يقولون إنه صار أسقفاً على نيكومدية (المعروفة الآن باسميد في آسيا الصغرى)، وإنَّ أدون وبعض اللاتينيين يرون إنه أستاذ في انطاكية في ٦ آب بعد أنَّ اشتهر بآيات ومعجزات. ونيقانور لم يتصل بنا من خبره إلا أنه ورد في السنكسار الروماني إنه نال اكليل الشهادة في جزيرة قبرص في العاشر من كانون الثاني. ويعتد اليونان له في ٢٧ من آب مع القديسين بروكورس وطيمنون وبرمناس الشمامسة رفقائه. وروى دوروتاوس إنه نال اكليل الشهادة مع كثيرين غيره يوم مقتل أسطفانس في اورشليم.

وطيمنون أيضاً لا علم لنا من أخباره إلا بان اليونان يعيدون له في ٢٨ تموز ويقولون إنه صار أسقفاً على بصرى في بلاد العرب ومات محروقاً بأمر الكفرة. وروى بعض المؤرخين اللاتينيين إنه قضى نحبه في قرنية في التاسع عشر من

نيسان. ويقولون إنه بشر في بيرية وأتى إلى قرنتية، فطرحه اليهود والوثنيون في النار ولما نجا منها سالماً بقوة الله علقوه على صليب ففاضت روحه. وبرمناس ليس لنا العلم الأكيد أين بشر ولا كيف توفاه الله سوى إنَّ بعض المؤرخين اليونان رأوا إنه رقد بالرب في حضرة امام الرسل. وروى أدون وغيره من اللاتينيين أنه نال اكليل الشهادة في فيليبية في مكدونية في عهد تريانوس الملك في الثالث والعشرين من كانون الثاني.

وبقي نيقولاوس الذي وصفه الكتاب بالدخيل الأنطاكي لأنه كان وثنياً من أنطاكية. فأمن بالمسيح وأبدى من الورع والغيرة على الدين المسيحي ما أهله أن يكون من جملة هؤلاء الشمامسة السبعة الذين شهد الكتاب إنه كان مشهوداً لهم بالفضل، وقد ملأهم الروح والحكمة إلا إنه قد وجد في القرن الأول هراطقة سموا النيقولاويين، وكانوا يتفاخرون بانهم تتابع نيقولاوس هذا؛ وأقوال الآباء متضاربة في ما إذا كان نيقولاوس هذا رئيساً لبدعتهم، أو استعذروا لنسبتهم إليه بوسيلة من قبله أو هو برأ منها؛ في كل حال روى القدماء إنه كان متزوجاً بامرأة بديعة الجمال، ولما تجند لخدمة المسيح باينها اقتداء بأفاضل التلاميذ والمؤمنين الأولين. وروى أييفان إنه استغواه جمالها فائنثى عن عزمه وردّها إليه. ولكي يرر عمله علّم ما يخالف الحق والعفاف، فكان بذلك مبدئاً بدعة النيقولاويين، واعتد القديس أييفان في قوله هذا على شهادات القديس إيرونائوس (في ك ١ ف ٢٧)، وترتوليانوس (في سقوط دعوى الهراطقة راس ٢٧)، والقديس إيوليتوس (ذكره فوتيوس)، والقديس إيلاوريوس (في تفسير بشارة متى ف ٢٥)، والقديس غريغوريوس نصيص (ك ٢ في أنوميس)، والقديس إيرونيموس (في رسالته الأولى) والقديس غريغوريوس الكبير (في خطبة ٢٨ في الأناجيل) وغيرهم. على إنَّ أكليمنضوس الاسكندري أثنى (في ك ٢ من الليفيف) كثيراً على نيقولاوس هذا. وروى قصته خلافاً لما رواه الآباء المذكورون فقال إنَّ الرسل لاموا نيقولاوس على افراطه في الغيرة على امرأته فاشخصها أمام الجمهور. وقال فليتخذها من شاءها ففرط إليهم منه هذا القول الذي لم يقصد منه إلا بيان قلّة تعلقه بها وميله إليها. وحقق اكليمنضوس المذكور أنه تركها بعدئذٍ ولم يقارن امرأة أخرى البتة وإنَّ بنيه وبناته عاشوا متبتلين إلى الله (ملخص عن معجم الكتاب لكلمت).

وقد أفرد نطاليس اسكندر المقالة التاسعة في تاريخ القرن الأول ليثبت إنَّ

نيقولاوس براءً خلاء من أنَّ يكون موجداً بدعة النيقولاويين، ومن حججه إنَّ من قال الكتاب إنه مشهود له بالفضل ومملوء من الروح القدس والحكمة لا يصدق عليه إنه ابتدع بدعة النيقولاويين القدرة واستشهد باكليمنضوس المار ذكره، وبارسابوس (في تاريخه ك٣ ف٢٩)، وتوادوريطس (في ك٣ في أقاصيص الهراطقة ف٢٣)، وكلاهما أورد قول أكليمنضوس الاسكندري. واعتمد عليه ثم جد نطاليس في رد أقوال الآباء الذين أشرنا إليهم أو تأويلها، وصرفها إلى معنى آخر لكننا لن نراه بلغ شأوه من تبرئة نيقولاوس بل رأينا يوحنا منسا محشي تاريخه يقول الحق أولى أنَّ يقال إنَّ تبرئة نيقولاوس ليست بالأمر اليسير. فان دافع عنه اكليمنضوس وتابعه أوسابيوس وتوادوريطس فقد وصمه كثيرون من الآباء كما رأيت وإن كان أولاً من الشمامسة المشهود بفضلهم فلا نعلم ما كانت العاقبة، ولم نر اليونان ولا اللاتين ولا كنيسة من الكنائس يكرمون ذكره فان صح خبر سقوطه كان مثلاً لنعمل عمل خلاصنا بالخوف والرهبة.

عد٥١٦

لعازر وأختاه مرتا ومريم

أنبأنا الإنجيل إنَّ لعازر كان يسكن بيت عنيا من ضواحي أورشليم مع أختيه مرتا ومريم، وإنَّ المخلص كان يضيفهم عند اتيانه إلى هذه المدينة. وفصل يوحنا (في ف١١ من إنجيله) خبر إقامة المخلص له من القبر بعد ان مكث فيه أربعة أيام، وزعم بعض اليونان إنه قضى نحيبه بعد قيامته في مدينة شيسيا (لأنركة) بقبرص، وإنه كان يدل على مدفنه في خارج أسوار هذه المدينة، وإنه كان في هذه الجزيرة معابد كثيرة مقامة على اسمه. وروى زاناراس (في ك٥) إن الملك لاون الملقب بالحكيم أقام في القسطنطينية نحو سنة ٨٩٠م كنيسة على اسم القديس لعازر وأخذ رفاته من قبرص ضمن تابوت من رخام ووضعها في الكنيسة المذكورة، ولكن روى كثير من العلماء أنَّ اليهود بعد موت المخلص قبضوا على لعازر وأختيه، ويوسف الذي من الرامة وغيرهم وألقوهم في سفينة ناخرة لا شراع فيها وسيروها في البحر المتوسط، فاستقذفهم مهبَّ الأرياح بعناية الله إلى نواحي مرسلية فنشر لعازر وأختاه الأناجيل هناك، وآمن بتبشيرهم كثيرون، وصار لعازر أسقفاً على مرسلية ورأس كنيستها

نحواً من خمسين سنة، وقضى شهيداً، وأما أخته مرتا ومريم فانطلقتا إلى تراسكون وقتلتا أحد الوحوش الضارية، وكان التراسكونيون يعيدون للقديسة مرتا ولذكر هذه المعجزة. والحاصل إنَّ أهل جنوبي أفرنسة كانوا شديدي التمسك بهذا التقليد إنَّ لعازر وأخته بشروهم بالمسيح وأمنوا على أيديهم خاصة من القرن الحادي عشر الذي وجدت فيه ذخائر لعازر ومرتا ومريم إلى القرن السابع عشر، إذ أخذ في الانتقاد على مثل هذه التقاليد. فأول مؤرخ ندد بهذه التقاليد إنما هو لونوا الذي كان من سنة ١٦٠٣ إلى سنة ١٦٧٨م ولقب بالمنقب على القديسين. وقال كلمت (في معجم الكتاب في كلمتي لعازر ومرتا) الذي أخذنا عنه ما مرَّ من كلامنا إن راعينا الشهود وكثرة الشهادات الموردة رأيناها مؤيدة صحة هذه الروايات على إننا لا نجد أحداً من مؤرخي الأعصر الأول كسلفيان وكسيان وفيكتور من مرسيلية وقصر من أرل أتوا بشيء من هذه الأخبار. وغرابتها تقضى بأن تقام عليها أدلة قاطعة وبيانات راهنة، وقد عدَّ كثير من علماء هذا العصر هذا التقليد من الأقاصيص إذ لم يروه القدماء، على إنَّ نطاليس اسكندر أفرد المقالة السابعة عشرة من تاريخ القرن الأول ليثبت فيها إنَّ لعازر وأخته مرتا ومريم ساقتهن عناية الله إلى فرنسة وبشروا في مرسيلية وغيرها من مدن الجنوب، وأقام على ذلك حججاً وبيانات عديدة من جملة كتاب خط سنة ٥٧٢م قيل فيه: «إنَّ اليهود بعد رجهم القديس إسطفانس ضايقوا التلاميذ، فوضعوا مريم المجدلية ومرتا مع مرسلّة خادمتهما ولعازر ومكسيمينوس وقيدون الذي ولد أعشى، وكثيرين غيرهم في سفينة لا شرع لها لتغرقهم الأمواج فاوصلتهم عناية الله سالمين إلى مرسيلية فبشروا في هذا الاقليم وآمن أهلهم على أيديهم بالمسيح. وذكر أيضاً كتاباً آخر حُط على ما رأى في القرن التاسع، وقد حوى ما يثبت تبشير هؤلاء في جنوبي أفرنسة إلى غير ذلك من الأدلة والبيانات التي أقامها لكنها مأخوذة عن آثار القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ورد كثيراً مما يرد على ذلك من الاعتراضات، ودافع في قضية أخرى عن تكريم ذخائر لعازر وأخته والقديس مكسيمينوس في مرسيلية وتراسكون وغيرهما من جنوبي أفرنسة.

وقد أسهب وأجاد في اثبات صحة هذا التقليد روهربخر في تاريخه البيعي (مجلد ٤ طبعة ٣ صفحة ٤٧٩ وما يليها). وأكثر من إقامة الأدلة والحجج على أنَّ لعازر وأخته وغيرهم بشروا بالمسيح. في جنوبي فرنسة، وقال إنه قبل قرنين كان

الجميع يعتقدون إنَّ لعازر بشر في مرسيلية، وكان أسقفاً عليها وإنَّ أختيه مرتا ومرم
المجدلية والقديس مكسيمينوس أحد الاثنين والسبعين بشروا هناك، وكان
مكسيمينوس أسقفاً على أكس إلى انه في آخر القرن السابع عشر قام عالم
اسمه لونوا موصوم باتباعه اليانسانيين، وتابعه غيره فزعموا إنَّ هذا التقليد غير
صحيح بل مستنبط في القرن العاشر ولا أثر له قبل ذلك في كتب العلماء والآباء،
وتغلب هذا الرأي في فرنسا حتى غيرت بعض صلوات في الكتب البيعية إلى إنَّ
قام سنة ١٨٤٨م كاهن افرنسي يسمى فيليون Faillion من جمعية سان سليس،
وأكثر من إيراد حجج وبيانات لم تكن معروفة إلى حينئذٍ وهي مثبتة إنَّ هذا التقليد
قديم وصحيح، وإن تهافت العلماء على اتباع زعم لونوا لم يكن من السداد في
شيء، ومن أدلته أولاً انه وجدت ترجمة حياة للقديسة المجدلية كتبت في القرن
الخامس أو السادس، ونسخها في القرن التاسع القديس رابان مور رئيس أساقفة
مايس تثبت وجود هذا التقليد برمته حينئذٍ. ثانياً إنه اكتشف عن آثار أقدم من
الترجمة المذكورة وهي مدافن وجدت في مقبرة القديسة المجدلية، وأحدها مدفن
القديس مكسيمينوس. وأثبت إنَّ هذا المدفن يبين حقيقة التقليد القديم، وإنَّ
المسيحيين في القرون الأولى وربما قبل تأمين قسطنطين الكنيسة كانوا يكرمون
القديس مكسيمينوس بمنزلة رسول لهم من الاثنين والسبعين مبشراً. ثالثاً وجود
مدفن القديسة المجدلية وهو ناطق بصحة الترجمة المذكورة، وبأن المسيحيين في
الأعصر الأولى كانوا يكرمون ذخائر المجدلية الوارد ذكرها في الإنجيل. رابعاً إنَّ
المسيحيين قبل استيلاء المسلمين على جنوبي أفرنسة كانوا يحجون إلى القرية المعروفة
بسنت بوم في جنوبي فرنسا بمنزلة محل كانت المجدلية تختلي به، وإلى معبد
الخلص الكائن في مدينة أكس كمعبد تقدس بصلابة القديس مكسيمينوس،
والقديسة المجدلية فيه. خامساً إنَّ تاريخ استشهاد القديس اسكندر في براشيا في
إيطاليا يثبت أن القديس لعازر كان في أيام الملك كلود أسقفاً على مرسيلية، وإنَّ
القديس مكسيمينوس كان أسقفاً على أكس وإنَّ محبس القديس لعازر في مرسيلية
إن هو إلاَّ أثر قديم يثبت رسالته، واستشهاده فيها وإنَّ مدفن القديسة مرتا في
تراسكون كان مكرماً في القرنين الخامس والسادس، وإنَّ كلوفيس الأول ملك فرنسا
اعتراه مرض فزار هذا المدفن، وبل من مرضه. وإنَّ هذه القديسة كان المؤمنون قبل
استيلاء المسلمين يكرمونها بمنزلة مبشرة في مدينة أفينيون، وإنَّ تراجم الشهداء

القديمة في المغرب تثبت رسالة لعازر وأختيه في جنوبي فرنسا إلى غير ذلك من
البيانات التي أوردها روهريخر في المحل المذكور مصححة هذا التقليد والله أعلم.
واما هل مريم المجدلية هي أخت لعازر ومرتا أو هي مريم أخرى؟ فقال فم
الذهب: إنه كانت مجدليتان. وقال أوريجانس وغيره لهن كن ثلاثاً إحداهن
ذكرها لوقا في الفصل السابع عد ٣٧ وسماها امرأة خاطئة، والثانية دهنت المسيح
بالطيب قبل يومين من آلامه ذكرها متى فصل ٢٦ عد ٧. والثالثة أفاضت الطيب
على رأس المخلص قبل الفصح وآلامه بستة أيام ذكرها يوحنا فصل ١٢. والأصح ما
ذهب إليه أغوستينوس (في ك ٢ في توفيق الأناجيل فصل ٧٩) وقبريانوس
وغريغوريوس الكبير وغيرهم وهو إنَّ المجدلية واحدة أخت لعازر ومرتا، وقد دهنت
المسيح بالطيب مرتين كما ذكر متى ولوقا ويوحنا وهو القول الأعم لقول يوحنا
(فصل ١١ عد ٢). «ومريم هذه هي التي دهنت الرب بالطيب ومسحت قدميه
بشعرها، وكان لعازر المريض أخاها». واعتمد فيكورو هذا المذهب (في الموجز
الكتابي مجلد ٣ عد ٣٧٠) قائلاً: إنَّ مريم الخاطئة التي ذكرها لوقا ومريم المجدلية التي
أخرج منها سبعة شياطين، ومريم أخت مرتا هنَّ واحدة بعينها وإنَّ هذا هو رأي
العلماء والآباء القدماء وقد أيدته الكنيسة الرومانية دائماً في كتبها البيعية وكنيستنا
المارونية تعيد لمريم في ٢٢ تموز ولمرتاً في ٢٩ منه ونروي في ترجمتهما إنهما نفيتا
مع لعازر إلى مرسيلية.

عد ٥١٧

تادي رسول أبجر

روى أوسابيوس (في تاريخه ك ١ فصل ١٣) إنه لما أشتهرت آيات المخلص في
كل صوب أمه كثير من الوثنيين واليهود المتوطنين في بلاد شائعة للبرء من أمراضهم
وأوجاعهم، وكان أبجر ملك الأمم في عبر الفرات مصاباً بمرض عضال أعبى الاساة
شفأؤه وسمع بآيات يسوع، فارسل إليه رجلاً اسمه حنانيا مصحوباً برسالة إليه
يسأله فيها أن يأتي إليه فيبرئه. فاجابه المخلص برسالة إنه سيرسل إليه أحد تلاميذه
فيشفيه، وينقذ جميع أسرته وأصحابه. وقد أنجز وعده بعد صعوده فان توما أحد
الاثني عشر أرسل بالهام الله تادي أحد السبعين تلميذاً إلى الرها مدينة أبجر مبشراً

الأمم، بالإنجيل وينجز وعد المخلص للمكهم. وقال أوسابيوس إنه أخذ هذه الأخبار عن سجلات الحكومة المحفوظة في مدينة الرها ونسخ عنها رسالة أبجر إلى المسيح، وجواب المخلص وإنه ترجمها بكل دقة وأمانة عن اللغة السريانية المدونة بها وإليك ترجمتها عن كتاب أوسابيوس.

ترجمة رسالة أبجر الملك إلى يسوع أرسلها إليه إلى أورشليم مع رسوله حنانيا من أبجر حاكم الرها إلى يسوع المخلص الصالح الذي ظهر في نواحي أورشليم. السلام انتهى إليّ أمرك، وما تصنعه من الشفاء دون عقاقير وأدوية، فقد ذاع إنك تبرئ العميان والمخلعين، وتطهر البرص وتطرد الشياطين والأرواح الردية، وتشفي المرضى أمراضاً عضالة وتقيم الموتى. فلما بلغتنى هذه الأمور عنك رأيت في نفسي إنك إما إله حقيقة هبط من السماء وصنع هذه الآيات وإما إنك ابن الله حقاً ولذلك كتبت إليك سائلاً: أنّ لا تأنف من أن تزورنا وتبرئ أمراضنا. قد سمعت إنّ اليهود يشنأونك ويحاولون قتلك فلي مدينة جميلة وإن صغيرة فتكفيني وتكفيك».

وروى أوسابيوس جواب المخلص لأبجر نقلاً عن تلك السجلات كما يأتي. جواب يسوع إلى أبجر الملك مرسلًا مع حنانيا وافده.

«طوباك يا أبجر لأنك آمنت بي دون أنّ تراني، فقد كتب عني إنّ من يروني لا يؤمنون بي، ومن آمنوا ولم يروني فلهم الحياة. قد كتبت إليّ أنّ آتي إليك ولكن يلزمني أن أكمل كل ما أرسلت من أجله، وإذا تمت ذلك عدت إلى من أرسلني وبعثت إليك حالاً واحداً من تلاميذي يبرئ مرضك، ويوليك وجميع ذويك الحياة».

قال أوسابيوس إنه أضيف إلى الرسالتين المذكورتين باللغة السريانية ما يأتي ملخصاً. وبعد صعود يسوع المسيح أرسل يهوذا المسمى تادي الرسول أحد السبعين إلى أبجر وذاع خبر مجيئه والآيات التي كان يصنعها، فقبل لأبجر إني رسول يسوع على ما وعدك في رسالته، فاستدعاه إليه وبعد كلام طويل بينهما قال أبجر آمنت بالمسيح وأبيه، ووضع تادي يده عليه باسم ربنا يسوع المسيح، فبرئ لوقته من مرضه، وصنع تادي آيات أخرى حتى قال أبجر له إنّنا متيقنون إنّ كل ما تصنعه من الآيات إنما هو مصنوع بقوة الله، وسأله أن يقص عليهم كيف أتى يسوع وبأية

قوة كان يصنع كل ما سمعوه عنه، فأخذ تادي يث إليهم أخبار المخلص وآياته وصلب اليهود له، وصعوده إلى أبيه إلى السماء. فأمر أبجر أهل مدينته أن يجتمعوا في الغد جميعاً، ويسمعوا تبشير تادي فآمنوا، وأراد الملك أن يعطيه ذهباً وفضة فأبى قائلاً إننا تركنا ما لنا فكيف نأخذ ما لغيرنا. هذا ما قاله أوسابيوس إنه ترجمه من تلك السجلات المكتوبة باللغة السريانية.

أما وجود ملك اسمه أبجر في الرها في أيام المخلص فما عليه من نكير، وقد وجدت مسكوكات باسم أبجر ملك الرها وقد دام ملك هؤلاء الملوك نحواً من ثلاثة قرون أعني من سنة ٩٩ قبل الميلاد إلى سنة ٢١٧ بعده على ما روى دونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه المعلق في المكتبة الشرقية (مجلد أول صفحة ٤١٧ وما يليها). وكانت قصبة ملكهم الرها واشتهر أهلها منذ صدر النصرانية بالآيمان المسيحي حتى سُميت الرها المقدسة أو الرها المباركة. وقد سمي كثير من ملوكها باسم أبجر وعد دونيسيوس المذكور تسعة وعشرين منهم بهذا الاسم وقال إن الذي كان في زمان المخلص كان أبجر الخامس وأنه ملك في الرها من سنة ١٣ إلى سنة ٥٠ للميلاد. وروى بركوب في كتابه حرب الفرس (ك٢ ف٢) إن أبجر هذا زار رومة ونال حظوة عند أغوستوس. وعن ابن العبري في تاريخه البيعي إن كلمة أبجر معناها الأعرج، وأبجر هذا يلقب أوخمواي الأسود من باب التسمية بالاضداد لأن مرضه كان البرص وجسمه كله أبيض.

وأما هل رسالة الأبجر إلى المسيح ورسالة المسيح إليه صحيحتان؟ ففي ذلك خلاف. روى موسى الخوراني المؤرخ الشهير الذي كتب تاريخ أرمينية رسالتي الأبجر والمسيح كما رواهما أوسابيوس وزاد على ذلك أن وافد أبجر إلى المسيح أتى إليه من أورشليم بصورة المخلص، وإن هذه الصورة كانت في أيام المؤرخ (أي في القرن الخامس) في الرها، وقيل إنها نقلت بعد ذلك إلى القسطينية ثم إلى رومة إلى كنيسة القديس سليستروس أو إلى جانوا، ونقل كثير من المؤرخين اليونان رسالتي المسيح وأبجر عن أوسابيوس والتقليد المنتشر في المشرق، وقد كشف في هذه السنين الأخيرة عما يدل على ذلك ولم يكن معروفاً قبلاً في أوروبا، فقد وجد في مكتبة الأمة في باريس ترجمة أرمينية لتعليم أداي تشتمل على تاريخ تادي التلميذ المرسل إلى الرها، وعلى ما يتعلق بهذا المبحث. فترجم هذا التعليم ترجمتين عني باحدهما يوحنا رافائيل أمين وهي مثبتة في المجلد الأول من مجموع التواريخ القديمة

الأرمنية لفيفكتور لنكلوا (صفحة ٣١٥) وعنوانها «لروينا الرهاوي تاريخ أبجر وتبشير تادي مترجماً المرة الأولى عن الكتاب المخطوط في المكتبة الملكية في باريس سنة ١٨٦٧م». والترجمة الثانية عنى بها اليسهان وهي أكمل من الأولى وعنوانها رسالة أبجر أو تاريخ تنصر أهل الرها كتبه لأبولينا الكاتب المعاصر للرسول وقد ترجم عن النسخة الأرمنية المخطوطة في القرن الخامس». وقد طبع هذه الترجمة الرهبان الميكيتاريون في البندقية سنة ١٨٦٨م وهذه الترجمة الأرمنية أُخذت عن الأصل السرياني الذي وجد وأذيع. وفي المتحف البريطاني في لوندرا نسخة منه طبعها كيراتون في لوندرا سنة ١٨٦٤م إلا أن تخلو عن الرسائل التي ذكرها أوسايبوس لسقوط الأوراق الأولى منها. على إنَّ هذا الكتاب وجد كاملاً في المكتبة الملكية في بطرسبرج مكتوباً بالأحرف السرنكالية في القرن السادس وطبعه جرج فيليب في لوندرا سنة ١٨٧٦م.

وإذ عورضت رسالة أبجر المثبتة في هذا الأثر السرياني برسائلته التي ترجمها أوسايبوس إلى اليونانية لم يظهر بين الرسلتين فرق يعتد به، وأما جواب المخلص لأبجر الذي روى أوسايبوس إنه كان رسالة مخطوطة ففي الآثار الشرقية المذكورة أنه لم يكن إلا بلاغاً شفاهياً مستجمعاً معنى الرسالة، والناج من ذلك أن المخلص لم يكتب إلى أبجر رسالة، وإنَّ أوسايبوس روى ما دون في سجلات الرها رواية صحيحة، لكنه ظن البلاغ الشفاهي رسالة مكتوبة، ويلزم تصديق أهل الرها بأن جواب المخلص لم يكن برسالة وإلا لتفاخروا بأن المسيح كتب رسالة إلى ملكهم. وأما رسالة أبجر التي هي واحدة في رواية أوسايبوس وفي الآثار الشرقية، فقد أثبت كثير من العلماء الكاثوليكين أنها صحيحة منهم بارونيوس وتلمون وأودين والبولانديون وفلت والسمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ٣١٨) مورداً قول يعقوب السروجي بل تابعهم على ذلك كثيرون من علماء البروتستانت منهم كاف وكراب ودينك. وقال تلمون (في مجلد ١ صفحة ٦١٧): «لاندعي إنَّ تلك الرسائل صحيحة حقاً ولكن نسأل من ينكرون صحتها أن يسمحوا لنا بأن نتمسك بالقاعدة أن لا نرفض ما أبانه لنا القدماء إلا أن توجد حجج قوية لما يخالفه». فهل وجدت في هذا البحث هذه الحجج القوية؟ فلا شك في وجودها نظراً إلى رسالة المسيح. وأما رسالة أبجر، فأكثر أهل النقد في هذه الأيام على إنَّ الحجج الواردة عليها قوية وكافية لرفضها، ويستندون في ذلك إلى إنَّ كتاب تعليم أداي لم يكتب في أيام أبجر الخامس الذي

كان في أيام المخلص إذ حوى أبحاثاً في أعمال الرسل، ورسائل بولس الرسول، وفي وجدان الملكة بروتونيكه الصليب الحقيقي. ولذلك قال ليسيوس (في كتابه المطبوع سنة ١٨٨٠م إن الآثار التاريخية في كنيسة الرها التي هي أهل للتصديق لا تتجاوز أبجر الثامن الذي كان من سنة ١٧٦ إلى سنة ٢١٣م. وعد المكاتبه بين أبجر والمخلص من الأفاقيص، والسيهان وفيلبس اللذان شهرا الأثر السرياني المذكور لم يثبتا صحة تعليم أداي برمته. وقالوا إنه أدخل عليه زيادات وتغيرات. على أنه لا يقرب من الصواب ما زعمه ليسيوس من أن انتشار الدين المسيحي في الرها تأخر إلى أواخر القرن الثاني، ولكن نرى من جهة أخرى إن الكنيسة في الأعصر الأولى لم تثبت هذه المراسلة بين أبجر والمخلص، وإن البابا جيلاسيوس الذي كان سنة ٤٩٢م قال في مرسومه في الكتب التي يلزم قبولها: «إن رسالة أبجر إلى المخلص غير صحيحة ورسالة المسيح إلى أبجر غير صحيحة. (ملخص عن معجم الكتاب لفيكورو في كلمة أبجر) بمعنى أنه لا يلزم قبولها بين الكتب المقبولة في الكنيسة. ومن العلماء الذين أنكروا صحة هذه المراسلة في القرون السالفة نطاليس اسكندر، فإنه أفرد المقالة الثالثة في تاريخ القرن الأول ليثبت إن هذه المراسلة بين أبجر والمخلص غير صحيحة، وأورد لإنكار صحتها ست حجج منها رسم البابا جيلاسيوس المذكور في مجمع عقده مع سبعين أسقفاً في رومة، ومنها أن قول المسيح في هذه الرسالة طوباك يا أبجر لأنك آمنتم بي ولم ترني، منتحل عن الإنجيل. ومنها تعليم بعض الآباء إن المخلص لم يكتب شيئاً، ورد نطاليس ما يرد على مذهبه ومن جملته شهادة القديس افرام في وصيته قائلاً إن هذا القديس وأوسايوس وغيرهما لم يفحصوا عن صحة سجلات الرها كما فحص عنها جيلاسيوس، وخالف كرايوس نطاليس اسكندر في زعمه، فتعقبه يوحنا مانسي في حواشيه على تاريخ نطاليس، ففي هذا الاختلاف بين مشاهير العلماء يظهر إن هذا المبحث لم يقطع فيه إلى الآن بصحة هذه الرسائل أو عدم صحتها، والذي يظهر لنا إن الأرجح في رسالة المسيح إلى أبجر إنها لم تكن مكتوبة بل قال المخلص لوفاده ما هو بمعناها، فبعد عود الوافد كتب المسجلون ما سمعوه منه بصفة رسالة. وأما رسالة أبجر إلى المخلص فترجع صحتها لتدوينها في سجلات الرها، ورواية أوسايوس لها وورودها في الآثار الشرقية المشار إليها وقول أكابر من العلماء بها.

وهذا هو رأي أستاذنا العلامة السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٤) حيث ذكر الخلاف بين العلماء على صحة الرسالتين، وأبان ما أورده كل فريق لتأييد مدعاه واستخلص بقوله: «ولذا أرى أنَّ أقوال العلماء المتضاربة يمكن توفيقها بقولنا أنَّ المخلص لم يكتب هذه الرسالة بل تلقاها وافد أبجر من فمه الأقدس وبعد عوده واتيان تادي إلى الرها وإيمان أبجر، دونها المسجلون في سجلات الملك ولم تحسب بين الكتب المنزلة لأن كاتبها لم يكن ملهماً، واما رسالة أبجر إلى المخلص فاني على يقين بأنه ليس من دليل يخالف صحتها، وأنَّ علماء السريان مجمعون على أنَّ أبجر أرسل رسولاً إلى المخلص، وأيد ذلك كثيرون من اليونان واللاتينيين وعادتهم المستمرة أن يرسلوا مع الوافد رسالة.

اما صورة المسيح التي زعم المؤرخون اليونان إنها صورت بأية على منشفة كان المخلص يتمسح بها فلم يذكرها أوسابيوس، وذكرها ثابت في تعليم أداي إلاَّ أنه لم يقل فيه إنها صورت بأية بل أنَّ حنانيا رسول أبجر صوَّرها لأنه كان يحسن التصوير، فلا ريب إذاً في وجود صورة المخلص مكزَّمة في الرها من أقدم الدهر وأما من صوَّرها فالله أعلم به.

وأما تادي فروى ابن العبري في تاريخه البيعي (مجلد ٣ صفحة ١٤) إنه بعد أنَّ شفى أبجر، وآمن هو وشعبه وبنى بنفخته كنيسة في الرها، مضى هو وتلميذاه أجي ومادي إلى المشرق يبشرون بالإنجيل. ثم عادوا إلى الرها وكان أبجر قضى وخلفه ابنه، وكان وثنياً ييغض المؤمنين فقتل تادي في ٣٠ تموز، ودفن في البيعة التي كان بناها في الرها. وقال أبالوس ولامي مترجماً تاريخ ابن العبري إنَّ تادي بشر في المشرق ١٢ سنة وعن بعضهم عشرين سنة، وإنَّ في كتاب تعليم ادي الذي أشرنا إليه أنَّ تادي مات بمرض في ١٤ من أيار، ويعيد السريان له في ذلك اليوم. وقال العلامة السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٣ صفحة ٦١١) إنَّ تادي بعد رجوعه من التبشير توفي في السنة ١٢ بعد صعود المخلص وكان أبجر حياً. ودفن باحتفاء في الكنيسة الكبرى في الرها. هذا ما رواه مادي وعمرو وخالفهما ابن العبري بقوله إنَّ تادي قتله ابن أبجر في ٣٠ تموز على أنَّ ما رواه ابن العبري نُسبه مادي إلى أجي تلميذ تادي».

خلفاء بطرس في كرسي أنطاكية في القرن الأول

إنَّ بين المؤرخين خلافاً في من خلف بطرس في كرسي أنطاكية أوديس أم اغناطيوس؟ والأوجه والذي قال به الأكثرون إنَّ أوديس هو الذي خلفه أولاً وذلك بين من رسالة اغناطيوس ١٢ إلى الأنطاكيين حيث يقول: «أذكروا أوديس الطوباوي أبائكم الذي هو أول من دبر كنيسةكم بعد الرسل». على أنَّ هذه الرسالة لم يتحقق أنها لاغناطيوس ولكن أياً كان كاتبها فلا تخلو من البرهان على صحة ما نحن مثبتون. وقال أوسابيوس (في ك ٣ من تاريخه فصل ٢٢): «ولما كان قضى في أنطاكية أوديس الذي كان أقيم الأسقف الأول (بعد بطرس) على هذه المدينة خلفه الأسقف الثاني اغناطيوس الذي كان شهيراً» وقال القديس إيرونيموس (في المشاهير البيعيين): «إنَّ اغناطيوس الأسقف الثالث بعد بطرس في كرسي أنطاكية». يريد أنَّ بطرس هو الأول وأوديس الثاني واغناطيوس الثالث، على أنه يظهر من خطبة يوحنا فم الذهب في تأمين اغناطيوس أنه هو الذي خلف بطرس في كرسي انطاكية، وعن تاودوريطس أنه نال الأسقفية من يد بطرس ومثل ذلك في رسالة من البابا فليكس الثالث إلى الملك زينون، وخزج نطاليس اسكندر (مقالة ١٤ في تاريخ القرن الأول) أقوالهم بمعنى أنَّ بطرس أقام أوديس واغناطيوس أسقفين معاً على انطاكية حين الاختلاف بين المنتصرين من اليهود والوثنيين، ولما زال نقل اغناطيوس إلى أسقفية أخرى، واستمر أوديس في انطاكية ولما قضى نحبه خلفه اغناطيوس وقال إنه رأى ما يؤيد ذلك في الكتاب السابع من الرسوم الرسولية والله أعلم. وعن موجز تراجم القديسين في ٦ أيار أنَّ أوديس توفي شهيداً على عهد الملك غلبا سنة ٦٨م والذي في سنكسار طائفتنا أنه خلف بطرس السليح في كرسي انطاكية وجاهد في بشارة الإنجيل. فقبض عليه الوثنيون وعاقبوه عقوبات شديدة حتى نال اكليل الشهادة سنة ٧١م ويعتد له في ١١ آب. لكن الذي في كتب أكثر المؤرخين أنه استأثرت به رحمة الله سنة ٦٨م. وحيث أنَّ الرأي العام إنَّ بطرس ترك انطاكية سنة ٤٢م فيكون أوديس أقام في كرسي انطاكية ستاً وعشرين سنة على القول الثاني أو تسعاً وعشرين على القول الأول».

أما القديس اغناطيوس أسقف أنطاكية الثالث فكان تلميذاً لبطرس ويوحنا الرسولين، ويسمى تاوافورس أيضاً وتأويل الكلمة حامل الله أو المحمول من الله، وقد زعم لذلك بعض علماء اليونان أنه كان الطفل الذي حمله يسوع وقال: «إن لم تصيروا مثل هذا الطفل لا تدخلون ملكوت السماء». والأوجه المعنى الأول أي أنّ اغناطيوس كان حاملاً لله أي بمنزلة هيكل له لأنه جاء في قصة استشهاده القديمة جداً أنّ تريانوس قال: «نأمر أنّ يأخذ الجنود إلى رومة العظمى اغناطيوس الذي يقول إنه حامل المصلوب في نفسه». فهذا صار أسقفاً على أنطاكية سنة ٦٨ أو سنة ٧١م كما مرّ ودبرها بكل قداسة إلى أيام تريانوس الذي رُقي إلى منصة الملك سنة ٩٨م. وقد ذكر أوسابيوس (ك٣ من تاريخه فصل ٣٦) أخباره ورسائله فقال ما ملخصه إنه أقتيد من أجل إيمان المسيح من سورية إلى رومة وطُرح فيها للوحوش، وفيما كان مجتازاً في آسيا مخفوراً بالجنود بكل تحرز كان كلما دخل مدينة خطب في المؤمنين محرّضاً إياهم على الثبات في الإيمان والتمسك بعروة التقاليد الرسولية، ومحذراً إياهم من الإنخداع بأقوال الهرطقة الحديثي النشأة حينئذ، وأتى أزمير وكان فيها بوليكر بوس فكتب رسالة إلى كنيسة أفسس وأخرى إلى كنيسة مانيزيا وأخرى إلى كنيسة ترال (المعروفة الآن بسلطان حصار في آسيا الصغرى). ورسالة إلى الرومانيين وبعد أنّ زایل أزمير وأتى نروادا كتب رسالة إلى أهل فيلادلفية، ورسالة إلى كنيسة أزمير ورسالة إلى بوليكر بوس أسقفها أوصاه فيها برعيته في أنطاكية وقال أوسابيوس أيضاً إنّ القديس إيريناوس ذكر استشهاده القديس اغناطيوس ورسائله. وما رواه إيريناوس عن قوله: «إني حبة حنطة لله فيلزم أنّ تطحنني أنياب الوحوش لأكون صالحاً على مائدة الله».

على أنه يعزى إلى اغناطيوس رسائل أخرى منها ثلاث رسائل أحداها إلى العذراء، واثنان إلى يوحنا الإنجيلي لكن هذه الرسائل الثلاث لا صحة لنسبتها إليه، ومنها خمس رسائل أخرى إلى امرأة اسمها مريم وإلى أهل ترسيس وأنطاكية وفيليبية وإلى هيرون، وهذه أيضاً ليست له لأن فيها ذكر أمور لم تكن إلا بعد أيامه، أما رسائله السبع التي ذكرها أوسابيوس وإيريناوس والتي نشرها مطبوعة باليونانية إسحق فوسيوس مأخوذة عن كتب محفوظة عثر عليها في المكتبة الماديشية ثم نشرها في اللاتينية أوساديوس مأخوذة عن نسختين مخطوطتين عثر عليهما في مكاتب إنكلترا.

فقد أثبت نطاليس اسكندر (في الفصل ١٦ من تاريخ القرن الأول وفي المقالة ٢٣ من هذا القرن) إنها صحيحة، وهذا القديس منشعها ولم يطرأ عليها تحريف ولا تزيف خلافاً لسلماسيوس ودالوس وغيرهما من الكلونيين. وكنيستنا المارونية تعيد لهذا القديس في ٢٠ ك وتروى خبره كما ذكره أوسابيوس وأنه نال اكليل الشهادة في رومة سنة ١٠٩م.

عد ٥١٩

سمعان خليفة يعقوب الرسول في أورشليم في القرن الأول

قد مرّ (في عد ٥١٠) إنّ يعقوب الصغير بن حلفى كان اسقفاً على أورشليم وقضى شهيداً، وروى أوسابيوس (في ك ٣ من تاريخه فصل ١١) إنّ الرسل والتلاميذ اجتمعوا في أورشليم بعد استشهاد يعقوب الرسول مع بعض أنسباء المخلص ليختاروا أسقفاً لأورشليم مكان الشهيد، فأجمعوا على اختيار سمعان بن حلفى الوارد ذكره في الإنجيل (مرقس فصل ٦ عد ٣)، ويظن إنّ سمعان هذا كان نسبياً للمخلص لأن حلفى كان أخا يوسف على ما روى هجيسبس. ويؤخذ من قول أوسابيوس (ك ٣ فصل ٣ من تاريخه) إنّ سمعان كان من جملة التلاميذ الاثني والسبعين، ويظهر أنه اعتزل مع المؤمنين في بالا في عبر الأردن ابان محاربة اليهود والرومانيين. وعاد إلى أورشليم بعد خرابها على ما روى أييفان وأوسابيوس، وتوفرت حينئذ آيات الله في كنيسة وتكاثر عداد المؤمنين وتفاقم الاضطهاد لهم وأمر ترائانوس بمزيد التقصي عنهم والتنكيل بهم فوشى بعض الهراطقة بسمعان إلى أيكس والي فلسطين أنه مسيحي ومن نسل داود، فاقتيد إليه وأذاقه أمر أنواع التعذيب أياماً حتى عجب الوالي والجنود والناظرون من تحمله كل هذا التبريج وعمره مئة وعشرون سنة. فأمر الوالي أخيراً بصلبه فجاد نفيه على الصليب كسيده سنة ١٠٧م (روى ذلك أوسابيوس في تاريخه ك ٣ فصل ٣٢ نقلاً عن هجيسبس)، وبما إنّ يعقوب سلفه استشهد سنة ٦٢ أو سنة ٦٣م فيكون سمعان قد دبر كنيسة أورشليم مدة أربع وأربعين أو خمس وأربعين سنة، ويعتد اللاتينيون له في ١٨ شباط واليونان في ٢٧ نيسان وخلفه يوستوس في أسقفية أورشليم.

بعض أساقفة في مدن سورية في القرن الأول

إنَّ سورية كانت مهد النصرانية فقد بشر فيها المخلص وآمن به كثيرون، ونشر الرسل والتلاميذ بشارة الإنجيل فيها قبل تفرقهم إلى الآفاق، وتوفرت فيها الكدس وقام فيها أساقفة كثيرون ولم يبق لنا في آثار القدماء ذكر جميعهم. فنذكر منهم من تيسر لنا العلم بهم منهم في دمشق حنايا الذي عمد بولس الرسول، وأثبت العلماء الشرقيون واليونان المتأخرون إنه كان من الاثني والسبعين مبشراً، وصار أسقفاً على دمشق وأن ورد في المراسيم الرسولية أنه لم يكن كاهناً. وقال بعضهم إنه كان شماساً، وقال القديس اغوستينوس (ك٢ رأس ٤٠ من المباحث) إنه كان كاهناً لأن المسيح أرسل إليه بولس لينال سراً لم يخول منحه إلا للكهنه، وقد استشهد حنايا في دمشق ودفن فيها ويعتد له اللاتينيون في ٢٥ كانون الثاني والروم وطائفتنا المارونية في ١ تشرين الأول وذكر كثير من المؤرخين أنَّ اغناطيوس تلميذ حنايا كان أسقفاً على هذه المدينة في القرن الأول.

اما بيروت فلم يرد اسمها في الأسفار المقدسة ولكن مما لا يعترى فيه أنَّ الرسل اجتازوا بها مراراً عند مضيهم من قيصرية إلى أنطاكية وعند تطوافهم في مدن فينيقية كما جاء في كتاب أعمال الرسل (فصل ١١ عد ١٩ وفصل ١٥ عد ٣) ييشرون بالإنجيل الجالية الرومانية واليهود المقيمين فيها، وقد نشر البولنديون في ترجمتي الرسولين بطرس وبولس كتيباً في هذين الرسولين لا يعلم مؤلفه، ومما جاء فيه أنَّ بطرس الرسول بعد أنَّ أخرجه الملاك من السجن في أورشليم مضى إلى قيصرية وصيدا ثم إلى بيروت وأقام فيها أسقفاً أحد رفقائه، ثم سار إلى جبيل وأطرفنا مؤلف الخطب المنسوبة إلى القديس اكليمنضوس الأول البابا ببعض أخبار عن اقامة بطرس في بيروت. فقال حدث زلزال أثناء بلوغ بطرس إلى بيروت فهرع الناس إلى الرسول يطلبون غوثه، وكان سيمون الساحر فز من وجهه من صيدا إلى بيروت فاغتنم الفرصة ليهيج الشعب على بطرس قائلاً: لم تحل بهم هذه الداهية إلاَّ لحلوله مدينتهم وإنَّ أبطأوا في طرده تتالت المصائب عليهم، وعرف بطرس ففضح مكر المضل ورفقائه فثار الشعب عليهم وطفقوا يضربونهم إلى أنَّ أبعدوهم عن المدينة، وعادوا يأتون بالمرضى والسقماء إلى الرسول فيبرئهم، فآمن كثيرون منهم

فعمدّهم وثبتهم وأقام مدة عندهم، ثم ترك لهم أحد رفقائه الكهنة أسقفاً لهم. وقال بعض العلماء اليونان منهم مؤلف الكتاب المنسوب إلى دوروتاوس وإيوليوس في كتابه في الاثني والسبعين تلميذاً إنّ هذا الأسقف كان اسمه كوراتس وهو من الاثني والسبعين تلميذاً وقد ورد اسمه في رسالة بولس الى الرومانيين (ف ١٦ عد ٢٣) حيث قال: «يسلم عليكم... كوراتس الأخ» وروى البولنديون (في ٣ ت ٢ مجلد ٦١ صفحة ٥٨٥) إنّ السنكسارات اليونانية واللاتينية توجب التكريم للقديس كوراتس. وروى هنري موندري في رحلته من حلب إلى أورشليم من نحو قرنين أنه كان في إحدى كنائس بيروت خطوط يونانية ناطقة باسم «كوراتس أول أسقف على بيروت» كل ما مرّ يحتمل الصدق ولا دليل على خلافه على أنه غير كاف للقطع بصحته وتوكيده كل التوكيد للاستناد فيه إلى كتب لا يعلم مؤلفها أو إلى شهود ليس ما ينزههم عن الغلط.

زعم بعضهم أنّ يوحنا مرقس كان أول أسقف في بلاد جبيل، وإنه سندا إلى هذا التقليد بنيت فيها على اسمه كنيسة في أيام الصليبيين لكن هذا يخالف ما رويانه عن ثقة المؤرخين بأن يوحنا مرقس الإنجيلي الذي كان مرافقاً لبطرس إلى رومة وأقامه أول أسقف في اسكندرية. وروى لوكيان (في مجلد ٣ صفحة ٨٢١ من المشرق المسيحي) إنّ بطرس الرسول اجتاز في طرابلس عند مضيه إلى أنطاكية فأقام فيها أسقفاً وأثنى عشر كاهناً وكان اسم هذا الأسقف مارتوس كما في ٧ ك ١ رأس ٤٥ من المراسيم الرسولية. وكان في بانياس قيصرية فيلبوس ارست أول أسقف على زعم بعض المؤرخين اليونان ولا بيّنة راهنة على ذلك، وكان في قيصرية فلسطين زكي أول أسقف اختاره بطرس الرسول في السنة الأولى بعد صعود المخلص، ثم خلفه تاوافيوس من أنطاكية ثم كرنيليوس ذكرهم بياجوس في كتابه الموسوم بسورية المقدسة، وجاء في هذا الكتاب أنّ لوقيوس تلميذ الرسل كان أول أسقف على اللاذقية وهو الذي جاء ذكره في رسالة بولس إلى الرومانيين (فصل ١٦ عد ٢١). وقد ذكره أيضاً لوكيان في المشرق المسيحي أول أسقف على السويدية (وهي سلوقية سورية) دوستناوس ذكره لوكيان في المشرق المسيحي، وعدّ خمسة عشر أسقفاً من أساقفتها لأن أهلها آمنوا بالمسيح عند اجتياز بولس وبرنابا من أنطاكية إلى قبرص (أعمال الرسل فصل ١٣ عد ٤). وعن دوروتاوس أسقف صور أنّ زيناس معلم الناموس الوارد ذكره في رسالة الرسول إلى طيطوس (فصل ٣ عد

١٣٠) كان أسقفاً على الله، وذكره بياجوس أيضاً. وفي تراجم القديسين في ٢٢ تشرين الثاني أنّ فيليمون تلميذ بولس بشر في غزة وكان أول أسقف عليها ثم عاد إلى كولوسايس التي كان منها فنال اكليل الشهادة مع أبغية امرأته، ولكن في كتاب المراسيم الرسولية أنّ بولس الرسول أقامه أسقفاً على كولوسايس. وقد كانت مدن أخرى كثيرة أسقفية في سورية في القرن الأول ولكن لم يتسنّ لنا العلم باسماء أساقفتها.

عد٥٢١

المبتدعون الذين كانوا في سورية في القرن الأول

إنّ أول المبتدعين في كنيسة الله كان سيمون الساحر وقد مرّ في كلامنا على بطرس الرسول أنّ سيمون هذا كان من السامرة، وقد آمن بالمسيح على يد فيلبس الشماس، ولما أتى بطرس ويوحنا إلى السامرة ليثبتا المؤمنين أراد أنّ يعطي بطرس فضة ليمنحه السلطان على إعطاء الروح القدس أي على منح سر التثبيت، فازدجره الرسول قائلاً لتذهب فضتك معك إلى الهلاك لأنك ظننت أن موهبة الله تقتنى بالنقود. فمرق من الدين، وأخذ يعلم غوايات وكان يضل الشعب ببعض تأثيرات فلكية فسمي ساحراً، واتخذ امرأة بغيّاً من صور كان يعزو إليها شيئاً من الألوهية وخلق العالم، وكان يطوف البلاد معها حتى انتهى إلى رومة واستطاع بشعوذاته أنّ يغوي كثيرين ويكسب احتفاء القوم وائناسهم حتى أقاموا له تمثالاً، وقد ونب الرومانيين على ذلك القديس يوستينوس الشهيد في محاماته الأولى قائلاً: «سيمون نزل منزلة اله في مدينتكم الملكية وأقيم له تمثال كأنه اله»، وقد حاول ذات يوم أنّ يرتفع إلى الجو بسحره وكان القديس بطرس في رومة فخشع إلى الله مصلياً فسقط التعيس على الحضيض فانحطمت ساقاه وحمل إلى محل آخر ولم يتحمل الألم المبرح والحجل الفاضح، فألقى بنفسه من شاهق فانقضت أنفاسه التعيسة، روى ذلك من القدماء أرنيوبيوس (في ك٢ ضد الأمم) والقديس كيرلس الأورشليمي (تعليم) وأوسابيوس في تاريخه (ك٢ رأس ١٢) والقديس أبيقان (في بدعة ٢١) والقديس أغوستينوس (في كتابه في البدع) وغيرهم فضلاً عن كثيرين من المؤرخين الحديثين. أما الغوايات التي بثها سيمون فأخصها أولاً أنّ الملايكة خلقوا العالم. ثانياً إنّ

النفوس بعد موت الجسد تجتاز إلى أجساد أخرى، ولو كان ذلك صحيحاً لتذكرت ما كان لها من الأجساد الأولى لأن قوى النفس ملازمة لها ولا تنفك عنها (فمن ذكروا هذا البرهان القديس إيريناوس ك٢ في البدع فصل ٥٨). ثلثاً إنّ لا حرية للإنسان وأنّ الأعمال الصالحة ليست بلازمة للخلاص، وهذا الضلال جدده لوتاروس وأشياعه. رابعاً كان يدعي أنه الآله الذي أنزل السنّة على موسى وأصلح العالم وأنه روح القدس. وروى القديس إيريناوس وتاودوريطس أنه كان يزعم أنّ من أحسن رجاء به وبهيلانة معشوقته لا يلزمه أنّ يعبأ بوصايا السنّة ولا يخشى التهديدات الواردة فيها، بل يطلق له أنّ يصنع ما شاء إلى غير ذلك من الأضاليل التي لا يحفل بردها ولا تستوجب اضاعة الوقت في تفنيدها.

وكان أيضاً في هذا القرن مينندروس وكان من السامرة وتلميذاً لسيمون وأخذ في سنة ٧٤ للميلاد يدافع عن أضاليل سيمون، ويزيد عليها أنه أرسل من السماء مخلصاً للعالم (رواه إيريناوس ك١ فصل ٢١ وأوسابيوس في ك٣ من تاريخه فصل ٢٠) وإنه لا خلاص لأحد أنّ يعتمد بمعمودية ويعد من آمن بتعليمه واعتمد بمعمودية بأنه لا يدركه الموت ولا يشيخ (رواه إيريناوس وأوسابيوس في الحال المذكورة والقديس يوستينوس الشهيد في محاماته ٢ وترتوليانس في كتابه في النفس فصل ٥٠) ولم نثر على ما يبين لنا كيف كانت نهاية أنفاسه وأنى كانت فهي أكبر مفند لغوايته.

وخلف مينندروس كيرنتوس وقد تعلم الفلسفة في مصر وكان يناصب الرسل في أورشليم وقيصرية وأنطاكية. وروى أئيفان (في بدعة ٢٨) إنه هو الذي حرّش بين اليهود والأمم بمسئلة الختان وحفظ سنة موسى التي عقد الرسل مجمع أورشليم لفصلها، ومضى إلى آسيا الصغرى فبث أضاليله التي منها أنّ الله لم يخلق العالم بل أبدعته بعض سلطات لا تعرف الله، وإنّ حفظ سنة موسى غير لازم مع الإنجيل لينال الانسان الخلاص، وإنّ يسوع انسان ولد كعامة الناس من يوسف ومريم وحلّ عليه المسيح بشبه حمامة عند اعتماده في الأردن، وكان أشياعه يحرفون إنجيل متى وينبذون رسائل بولس الرسول وكتاب أعمال الرسل، وزعم أن سيكون بعد القيامة العامة ملك أرضي ليسوع المسيح يتمتع الناس فيه بالملاذ البدنية في أورشليم ألف سنة، وأنبأنا القديس إيريناوس (ك٣ فصل ٤) أنّ كيرنتوس دخل الحمام يوماً ورآه يوحنا الرسول ففرّ قائلاً للحاضرين هلموا نذهب من هنا لئلا يسقط الحمام علينا

ولم يفرغ من كلامه إلا تداعى الحمام وسقط بزلزال فدفن كيرنتوس تحت أنقاضه قبل أن يموت.

وكان في هذا القرن أيضاً أيون وروى كثير من القدماء أن يوحنا الرسول كتب إنجيله ليفند ضلال هذا المبتدع، ومن غواياته أن المسيح كان بشراً ولده يوسف ومريم لكنه أحرز الفضائل فاختره الله ابناً لله، وسلم بعض أتباعه أن العذراء حبلت به بفعل الروح القدس لكنهم أنكروا كونه مساوياً للآب، وكان يعلم بلزوم الجمع بين سنة موسى والدين المسيحي، ولم يكن الأيون يسلمون إلا بإنجيل متى ويسمونه إنجيل العبرانيين ويسقطون منه فصلين ويحرفونه في آيات كثيرة. روى القديس إيرونيموس أن المعمودية كان يمنحها الأيون لم يرذلها الكاثوليكيون، وقد أذاع أيون ضلاله أولاً في سورية وبلاد موآب ثم في آسيا الصغرى ورومة أيضاً وقد فند القديس إيريناوس (في ك ٣ فصل ٢٤ وما يليه) ضلاله بأن المسيح ولد من يوسف والعذراء ولا نعلم متى وكيف قضى أجله.

وكان أيضاً ساتورنينوس وقد نشأ في أنطاكية والذي في التواريخ البيعية أنه بثّ ضلاله في أوائل القرن الثاني، ولكن ذكرناه هنا لأنه كان تلميذاً لمينندروس وقد تابعنا على ذلك نطاليس اسكندر. ومن أضاليله أنه وجد أب يجهله كل واحد وهو خلق الملائكة، فأبدع سبعة منهم العالم والانسان إذ رأوا نوراً سماوياً أرادوا إمساكه فتواري عنهم، فخلقوا انساناً على شبهه قائلين لنصنع انساناً على صورتنا ومثالنا، لكن هذا الانسان أمسى كدودة لا تطيق أن تفعل شيئاً، فشفت القدرة السامية على صورتها وأحلت فيها نطفة فيها فاحتيتها، وهذه النطفة تطير نحو السماء من الجسد عند انحلاله. وقالوا إن إله اليهود واحد من هؤلاء السبعة الملائكة عصا أباه فأرسل المخلص بصورة بشرية ليرد هذا الملاك إلى الطاعة، ويخلص من يؤمنون به بإزالة نطفة الحياة فيهم وكان ينهي عن الزواج والولادة بما أن الشيطان اخترعهما، ويزعم أن الملائكة خلقوا البشر وبعضهم صالح طبعاً وبعضهم ردي طبعاً، وإن المخلص أتى إلى العالم ليساعد الصالحين ويكث الأرياء مع الشياطين الذين كانوا يسعفونهم إلى غير ذلك من الغوايات، روى ذلك القديس إيريناوس (ك ١ فصل ١٣) وأييفان (في بدعة ٢٣) وأوسايوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٦) وغيرهم.

وكان في هذا القرن أيضاً باسيليدي لكنه لم يكن من سورية بل من

الاسكندرية وبثّ ضلاله في مصر إلا أنه أخذه عن سيمون وميندروس وزاد على تعليمهما خرافات أخرى لا تحفل بذكرها لأنها لا عبرة بها ولم تنتشر في سورية. وبقي النيقولايون وكان من ضلالهم أنهم كانوا يتزوجون النساء سفاحاً أي دون سنة ولا كتاب ويبيحون الزواج بايتهنّ كانت مزوجة أو عذراء، ويزعمون أنّ أبا يسوع المسيح لم يخلق العالم، ويتشدقون بغوايات أخرى منها أنّ الظلمات اقترنت بالروح القدس فولدت زانية ثم ولدت أربعة أيوني (أي أرواح أو مخلوقات أعلى من الناس)، ومن هؤلاء الأيوني الإله الشرير فهذا ضاجع تلك الزانية فولد منها الآلهة والملائكة، والناس وسبعة أرواح الشياطين روى ذلك القديس إيريناوس (ك ١ فصل ٢٧) وأييفان (بدعة ٢٥) وفيليمستريوس (في كتابه في البدع فصل ٥) وغيرهم.

وقد ذكر يوحنا في رؤياه هؤلاء النيقولاوين بقوله (فصل ٢ عدد ٦) إنك تمقت أعمال النيقولاوين التي أمقتّها أنا أيضاً، وكان هؤلاء الهراطقة يتباهون بانتسابهم إلى نيقولاوس الأنطاكي أحد الشمامسة السبعة وقد استوفينا الكلام في ما إذا كان من صحة لهذه النسبة أو تسبب بها نيقولاوس بذريعة ما (طالع عد ٥٠٥).

الباب الثاني

في تاريخ القرن الثاني

القسم الأول

التاريخ الدنيوي

تمهيد

عد ٥٢٢

لمحة في تاريخ الملوك الرومانيين في هذا القرن

ترايان ويسمى أوليوس نرفا ترايان ولد في إسبانيا سنة ٥٣ للميلاد وكان والياً في سورية سنة ٧٦م، وتقلب في غير ذلك من مناصب الحكومة إلى أن صار قنصلاً سنة ٩١م وأوفدته الحكومة إلى إسبانيا ثم إلى جرمانيا سنة ٩٦م لمهام جلّى، وتبناه نرفا الملك سنة ٩٧م وخلفه بعد وفاته سنة ٩٨م وأتى رومة سنة ٩٦م بعد أن أمّن شطوط الران مزيلاً الشغب منها. وفي سنة ١٠١م شرع في محاربة أهل داشيا وهي المجر وبعض جوارها فقهرهم ودانوا للمملكة الرومانية وبنى جسراً من حجر على الدنوب سنة ١٠١ إلى سنة ١٠٤م واعتمد في بنائه على أبولورد الدمشقي المهندس الشهير. وأذلّ كرنيلوس بلما قائد جيشه العرب سنة ١٠٥م وحارب بنفسه البرتين وأخضع أرمينية وإيبارية، وافتتح قطيسفون وسلوقية وسيس وجعلها وغيرها من مدن ما بين النهرين اقليماً رومانياً سنة ١١٥م. واتصل بغزواته إلى الهند سنة

١١٦م ونشأت ثورة في بلاد العرب أرغمته على الإسراع لاختماد لظاها إلى أن أدركته المنية في صقلية سنة ١١٧م. وقد ساد العدل في أيامه وعنى بتقدم الزراعة وأقام معاهد لتربية الأيتام وأحسن نظام تدبير الأقاليم، وأنشأ للملكة آثاراً تذكر فتشكر، منها العمود والمنتدى المعروفين باسمه في رومة ومينا في شيفينا فاكيا، وأخرى في أستيا وطرقات في افريقية وغيرها. وكان في أيامه بلين الصغير ولم يكن اضطهاده للمسيحيين شديداً، ومع ذلك حكم على القديس اغناطيوس أسقف أنطاكية بالموت فريسة للأسد.

وخلف تريان أديان وشمي اليوس أديانوس وكان من أنسابه الأدين وتبناه وجعله أولاً حاكماً في سورية، ولما مات خلفه في الملك سنة ١١٧م ومن أعماله أنه بنى على الدنوب قلاعاً عديدة، وأكثر من التطواف في مملكته فزار افرنسة سنة ١١٨م وعنى بعمل مرفأ مدينة كارد ومضمار مدينة نيم، وأتى بريطانيا وأقام أسواراً بجانب مدينة كاليدوني، ثم جال في إسبانيا وافريقية وعاد إلى رومة، فأقام فيها مدة ثم أقبل إلى المشرق وأقام فيه من سنة ١٢٢م، إلى سنة ١٢٥م. ثم أتى بلاد اليونان سنة ١٢٥م وعاد إلى رومة سنة ١٢٦م ثم أم افريقية سنة ١٢٨م وتجول في آسيا وصحراء تدمر وبلاد العرب وفلسطين، وحارب اليهود وأقام في أورشليم هيكلًا وثنيًا على أطلال هيكل أورشليم، وسمى المدينة الياكايتولينا نسبة إليه وإلى هيكل المشتري في رومة وانتصر على بركوكبا الذي كان قد آثار هذه الحرب ثم قضى أجله سنة ١٣٨م.

وخلفه أنطونيوس المسمى طيطس أورليوس فولفوس ثم طيطس اليوس أديان أنطونيوس أغوستوس ويوصف بيبوس أي التقى. ولد سنة ٨٦م للميلاد وتبناه أديان وخلفه سنة ١٣٨م ويحسب من أحسن الملوك الرومانيين. حافظ على السلم في المملكة وأنشأ رسوماً وقوانين تتكفل بمنفعة القصر والنساء، وضمها إلى الناموس الروماني، وأحمد دون مشقة حرباً ثارت في مصر سنة ١٤٧م، وكف الاضطهاد عن المسيحيين.

وفي أيامه كتب القديس يوستينوس محاماته على الدين المسيحي ومات مأسوفاً عليه أسفاً عاماً سنة ١٦١م بعد أن عين مرقس أورليوس خليفة له، وأقامت الندوة الرومانية عموداً تكرامة له. وله كتاب سماه Itinerarium Provinciarum دليل

الأقاليم، قد أذيع مراتٍ مترجماً إلى لغاتٍ عديدة ونشره برتاي أخيراً في برلين سنة ١٨٤٨م وهو نافع في الجغرافية القديمة ويظن أنه اقترحه على أحد علماء عصره ولم يؤلفه بنفسه. وذكر واديتكتون خطأً وجد في السويدية وهو في عد ١٨٣٦ بين الخطوط التي ذكرها كأنه كتب تحت نصب أقيم له كتب فيه «للملك اليوس قيصر أدريان أنطونيوس بيوس العاهل وذكر خطأً آخر (١٨٨١) كتب على عمودين في هيكل بعلبك وملخص ترجمته: «للآلهة العظام البعلبكيين لسلامة وظفر مولانا أنطونيوس بيوس فيليكس أغوستس وأمه يولية أغوستا أقام أورليوس أنطونيوس لنجينوس قائد الفرقة الأولى الأنطونية هذين العمودين من ماله مسروراً». وعثر على خط آخر في الطريق من تدمر إلى سلمينا عد ٢٦٣٢ كتب فيه: «العاهل القيصر طيطوس اليوس أدريان أنطونيوس أغوستس بن أدريان المتألّم وحفيد ترايان قاهر البرتين وابن حفيد نرفا».

وخلفه مرقس أورليوس ويسمى اليوس أورليوس فاروس أنطونيتوس ويوصف بالفيلسوف ولد في رومة سنة ١٢١م من أسرة شريفة وسماه أدريان والياً على رومة على صغر سنه حينئذٍ، واشترط على أنطونيتوس الذي عينه خلفاً له أن يتبنى مرقس فكان كذلك، وخلف أنطونيتوس سنة ١٦١م وكانت بواكير ملكه سيئة إذ طغى النهران تيبير وبو فأحدث طغيانهما ما لا يقدر من المضار، وحصلت مجاعة وثقلت وطأة الطاعون واثرت ثورة في بريطانيا، وهاجت بعض القبائل في ألمانيا، والبرتيون في آسيا. فاحمد قواد جيشه ثورة البريطانيين، وأرسل لوشيوس فاروس أخاه بالتبني وشريكه في الملك على البرتين، وتدارك عود القحط باقامة أهراء للحكومة يجمع الأقوات فيها. ثم زحف بنفسه لمحاربة القبائل الجرمانية سنة ١٦٧م فمات فاروس في هذه الحرب سنة ١٦٩م ولم يتخذ لنفسه إلا لقب نائب الملك إذ لم تعرف الندوة إلا ملكاً واحداً، وانتصر الملك على البربر في وقائع عديدة ولم يكفه عن استئصال شأفتهم إلا خبر ثورة أفيدوس كاسيوس والي سورية عليه، فأسرع الملك بجيوشه إلى المشرق فأثاه بعض خلصائه برأس الثائر عليه، فزار بعدئذٍ أقاليم المشرق وأمنها بحلمه، وعاد إلى رومه فاستقبل بها باحتفاء الانتصار سنة ١٧٧م. وفي السنة التابعة استأنف الزحف نحو جرمانيا فأذل قبائلها، على أن طعنه في السن ومشاقه وحروبه وأمراضه نهكت قواه فمات بعيد ذلك في فيانا سنة ١٨٠م. ومما عييه تسامحه في اضطهاد المسيحيين في ليون سنة ١٦٣م. وقد كان

محباً للفلاسفة الرواقين وله مؤلف ينطوي على اثني عشر كتاباً حاوية ملاحظات وحقائق أدبية مأخوذة عن تعليم هؤلاء الفلاسفة، وذكر ودينكتون خطأً لاتينياً وجد في قرية أم الجمال في حوران وهو ٢٠٥٧ من خطوطه مشعر بأنه أقيم لهذا الملك أثر هناك إذ كتب في الخط المذكور «للعاهل القيصر مرقس أورليوس أنطونيتوس أغوستوس قاهر الأرمن والبرتيين...» وورد ذكره أيضاً في خط ١٩٦٩ الذي وجد في صهوة الخضر في حوران أيضاً، وفي الخط ٢٠٧١ الذي عثر عليه في شهاب المسماة فيليبولي نسبة إلى الملك فيلبس العربي. وفي خط آخر في المشنف عد ٢٢١٣.

وخلف مرقس أورليوس كومود ابنه سنة ١٨٠م وعمره عشرون سنة، واستوزر رجالاً ساءت سيرتهم وقبحت سريرتهم ففقد صلحاً مذلماً موجباً للعار مع القبائل الجرمانية، وسمح للبرابرة أن ينخرطوا في سلك الجندية الرومانية، وأقدم على الاعتساف والحقاقة وعكف على الملاذ لا يلويه عنها وازع، فثار قومه عليه فازداد حمقاً وجوراً وأما لوشيلا أخته، وكربينا امرأته، وسلفيوس يوليانس القانوني الشهير، وعدداً كبيراً من رجال الندوة، إلى أن هلك سنة ١٩٢م إذ دست له مرسيا معشوقته سماً قضى به. وقد وجد ودينكتون في السويدية في حوران خطأً يونانياً عد ٢٣٠٨ مؤذناً باقامة أثر تكربة للملك كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والي العربية ذكراً لجلبه الماء إلى المدينة وضواحيها في سنة ٨ لكومود وهي سنة ١٨٧م. ووجد رنان أيضاً في أرواد خطأً آخر مشعراً بأن الأروادين أقاموا تمثالاً للملك كومود ولكنه محطم. وقال (في بعثة فينيقية صفحة ٣٠) إن العالم أجر كتب له أن عنده نسخة كاملة لهذا الخط يتبين منها أن الأروادين كتبوا هذا الخط تحت تمثال أقاموه له، وأن الآثار الدالة على كومود نادرة لسوء مسعاه.

وخلف كومود برتينكس ويسمى سلفيوس ولد في ليكورية سنة ١٢٦م وكان أبوه أسيراً فعتق واشتهر بحذاقته في الأمور الجندية في جرمانيا في أيام مرقس أورليوس الذي جعله من رجال الندوة وقنصلاً، وتقلب في مناصب الولاية في ميسيا وداشيا وسورية ثم أقيم حاكماً على رومة، ولما مات كومود أقامه رجال الندوة ملكاً في ١١ سنة ١٩٣م وعنى بالإصلاح والمحافظة على النظام الجندي (العسكري)، على أنه أسخط جنوده لذلك فهاجوا عليه وقتله قواد الجيش في ٢٨ آذار من تلك السنة نفسها، وعرضوا الملك ليولوه من يدفع لهم أكثر فكان ذلك من نصيب ديدوس.

ديديوس ويسمى يوليانس ساويروس ولد في ميلان سنة ١٣٣م. وتقلب في مناصب الحكومة على عهد الملك كومود، وبعد مقتل برتينكس شري الملك الذي كان عرضه أمراء الجيش للبيع، فلم يتسن له أن يكتسب رضى شعب رومة ولا تمكن من مقاومة ساويروس الذي زحف إليه بفريق من الجيش فقتله جنوده أنفسهم في ٢ حزيران سنة ١٩٣م. بشنيوس نيجر كان أولاً من قادة الجيش الروماني، وولي سورية وأحسن تدبير شؤونها، ولما بلغ جنوده مقتل ديدوس أقاموه ملكاً سنة ١٩٣م بينما كان جيش إيليريا أقام سبتيموس ساويروس ملكاً فكانت بينهما حرب استظهر فيها سبتيموس على نيجر وأكرهه على الفرار، فانهزم إلى بلاد البرتين فقتله جنوده سنة ١٩٤م. فخلفه البينوس ويسمى كلوديوس سبتيموس كان قائداً للجيش الروماني في بريطانيا، وعند مقتل برتينكس سنة ١٩٣م ببيع بالملك حين ببيع به سبتيموس ساويروس، وتلظت نار الحرب بين الملكين فاستظهر ساويروس على البينوس وأخذه أسيراً سنة ١٩٧م ثم قطع رأسه. فحكم بعده سبتيموس ساويروس الذي ولد في افريقية وتقلب في مناصب الحكومة ثم ولي قيادة جيش إيليريا، وعند مقتل برتينكس أقامه جنوده ملكاً وحارب مزاحميه على الملك كما مرّ، وأهلكهم واستتب له الملك. وأجرى حينئذ شديد القسوة ليوطد أركان ملكه، ولما كان البرتيون انتهزوا فرصة اختلاف هؤلاء الملوك وتخطوا حدود المملكة في ما بين النهرين، فزحف إليهم سبتيموس بجيشه واستظهر عليهم مرات، واستعاد من يدهم بابل وسلوقية وقطيسفون سنة ١٩٩م، ونظم أحوال المشرق وأقام فيه أربع سنوات، وزار مصر وعاد إلى رومة فأقيم له قوس انتصار بقيت آثاره إلى الآن وجمع إليه كثيراً من العلماء في القوانين، وأذاع بعض رسوم حورت بعض الشرائع وسهلت نوع المحاكمات. وكان عالماً وكتب بعض مذكرات، وعني بتقديم الصنائع، وأقام بعض أبنية استعملت أنقاضها في بناء كنيسة القديس بطرس. واضطهد المسيحيين سنة ٢٠٢م وعزز الجنود وأقام حرساً ملكياً اصطفاه من الجيوش وأدركته الوفاة سنة ٢١١م. وذكر ودينكتون خطأ وجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير دالاً على محطة جنديّة (وهو في عدد ١٨٣٨) كتب فيه ما ملخص ترجمته: «لوشيش سبتيموس ساويروس بن مرقس أنطونيوس بيوس أخو كومود حفيد أنطونيتوس بيوس ابن ابن أدريان ابن ابن ابن ترايان ونرفا القيصر والعاقل الروماني». وفي دير القلعة على الصخر الذي في جانب البئر خط ذكره ودينكتون

في عد ١٨٥٨ وقرأ فيه: «لسلامة مولانا الملك القيصر لوشويس سبتيموس ساويروس أوغسطوس أقام هذا النصب بومبايوس أبنجيوس نذراً للمشتري» وسنأتي على ذكر بعض أعمال هؤلاء الملوك في سورية.

فصل

ذكر بعض أحداث في سورية على عهد هؤلاء الملوك

عد ٥٢٣

بعض الأحداث في أيام ترايان

كان الرومانيون قد استحوذوا مذ فتح بمبايوس سورية على دمشق وما جاورها إلا أنه بقي بعض الاستقلال لدمشق وبصرى وجرزا المعروفة الآن بحرسا على شاطئ بحيرة طيبارية شرقاً وربة عمون التي سماها اليونان فيلادلفيا وهي معروفة الآن بعمان. ثم بترأ وهي مدينة حجر في بلاد العرب وكانت عاصمة ملك النبطيين الذي كانت حكومته تمتد إلى دمشق، وكانت هذه البلاد مستوعرة يكثر فيها السلب والنهب وقطع الطرق على أبناء السبيل وسلب القوافل، فأرسل ترايان قائد جيشه كرنيليوس بلما فاستحوذ على هذه المدن سنة ١٠٥م وجعلها اقليماً رومانياً مسمى إياها العربية، وجعل بصرى في حوران مقراً لفيلق من الجنود حمى هذه البلاد وتوفرت ثروة أهلها وكثر عديدهم، وأصبحت بترأ محطاً للتجارة وغدا القوم الرحل يرغبون في الصنائع، ورقوا في مدارج الحضارة حتى زينوا مدنهم بآثار تدهش الآن رؤية أطلالها الجواله. قال دوري في تاريخ اديان إن هذه المدن استفادت بمصايب ما جاورها من البلاد فإن كثيراً من اليونان الذين كانوا تتبعوا خطى اسكندر الكبير وخلفائه إلى أقاصي آسيا اكرهوا على العود من تلك الأقاصي عند تغلب الوطنيين على الولاة الأجانب، فكانت أول محطة أمنية لهم سورية ولا سيما جهات حوران وعبر الأردن. وبعد قهر طيطوس اليهود ظعن جم غفير من غربي الأردن

إلى شرقه الذي كان حينئذ تحت ولاية ملك النبطيين، وبعضهم مضى إلى دمشق وبعليبك. وتدمر حيث وجدت آثار دالة على إقامة جماعات من اليهود هناك. وحقق ذلك دي فوكوي بكشفه عن خطوط قديمة آرامية في تدمر لا سيما الخط ٦٥، وقد هاجر قوم من العرب الحميريين اليمن، واتوا فاستوطنوا حوران والبلقاء، وكانوا يرغبون في الحراثة فحموا بلادهم من العرب الرّحل، وأصبحت بصرى قصبتهن محطة للتجارة في هذه البلاد. وعاون على زيادة تقدمها تأمين تريان وادريان لها، وميل العرب واليونان والسريان واليهود إلى التجارة زاد في أسعار هذه البلاد. وذكر ودينكتون خطأ يونانياً عثر عليه في إحدى قرى البشية وهو بين خطوطه في عد ٢٢٩٦ وعد ٢٢٩٧ يشعر باقامة أثر تكمة لكرنيليوس بلما بجزءه الماء إلى الكرك في حوران، وقد وجد خطأ آخر في السويدية في حوران عد ٢٣٠٥ مؤذن بذلك ايضاً، ويؤخذ هذا ايضاً من الخط ٢٤١٢ الذي عثر عليه في الكرك.

قد انبأنا أوسايوس في تاريخه البيعي (ك٤؛ فصل ٣) إنّ اليهود هاجموا في قبرص ومصر والقيروان فقتلوا كثيرين من اليونان والوثنيين غير مبالين بسطوة تريان الملك ووجوده حينئذ في المشرق وظفره بالبريتين والسريان، بل أبدو حينئذ من القسوة والهمجية ما يكاد أنّ لا يصدق. فقد انبأنا ديون كسيوس^(١) إنّهم كانوا يأكلون من لحوم من قتلوههم، ويشربون من دمهم، ويحترمون بامعائهم، ويلتفون بجلودهم، وقد شطروا كثيرين من رأسهم إلى أسفل، وارغموا كثيرين أنّ يصارع بعضهم بعضاً، ويتجالدون بالسيوف إلى أن يهلك بعضهم بعضاً مريدين أن يثأروا بدم آبائهم الذين قضوا على هذا النحو بعد خراب أورشليم في أيام طيطوس. وبالع بعضهم في ذكر من قتلهم هؤلاء الأوغاد فقالوا إنّ عددهم في لبيية والقيروان مئتان وعشرون ألف قتيل، وفي جزيرة قبرص مئتان وأربعون ألفاً. فلم يتحمل تريان ولا الشعب هذه الفظائع فقتل سكان الاسكندرية كل من وجدوا فيها من اليهود، واثخن قادة تريان والقبرصيون في اليهود في جزيرتهم، وطرّدوا كل يهودي منها وسنوا شريعة حظروا بها على كل يهودي الدخول إلى جزيرتهم، وكانوا يقتلون كل من أقبل عليها ولو ضالاً عن طريقه أو مدفوعاً بعاصف. وأرسل تريان مرسبوس

(١) وهو عالم يوناني ولد في فينيقية سنة ١٥٥ وتقلب في المناصب الرومانية منها الولاية في اسيا الصغرى وافريقية، وكتب تاريخ الرومانيين إلى عصره في ٨٠ كتاباً، والباقي منها ١٩ كتاباً طبعت أخيراً في باريس سنة ١٨٤٥ إلى سنة ١٨٦٠ م.

تربو إلى ليبيا ومصر بجيش في البحر والبر، فأهلك منهم جمّاً غفيراً، وأنفذ إلى ما بين النهرين لوشوش كوياتس أحد مشاهير قادة جيشه، فأوقع بهم ملاحم وكافأه الملك على إزالة الهرج والشغب مما بين النهرين بأن سماه والياً على فلسطين. ويظن أنّ كثيرين من المسيحيين بادوا في هذه الوقائع قتلهم إما اليهود لبغضهم لهم، وإما الوثنيون لأنهم لم يميزوهم عن اليهود (ملخص عن روهربخر في تاريخ الكنيسة ك٢٧ عن أوسابيوس وعن ديون كاسيوس).

ومن الأحداث في أيام تريان أنه بعد انتصاره على البريتين وتدويخه ما بين النهرين وانتهائه إلى خليج العجم، عاد إلى أنطاكية ليمضي فصل الشتاء الذي بين سنة ١١٤ وسنة ١١٥م، فحدث زلزال أخرج أكثر أبنية المدينة ومات تحت الردم خلق كثير، وكاد تريان أيضاً يدفن حياً تحت الردم. ونسب الوثنيون هذا المصاب إلى سخط الآلهة على المسيحيين، فاستشهد حينئذ القديس اغناطيوس أسقف هذه المدينة كما مرّ. ومن الآثار لهذا الملك في بلادنا خط وجد في فتقا فوق طبرجة في كسروان عثر عليه رنان وأرسل الصفيحة المنقوش عليها إلى متحف اللوفر (في باريس)، وقد كتب عليها ما ملخصه «في سنة ١٤ لنرفا تريانوس أقام ديوجان بن إسباتيوس سور هذا الهيكل رغبة في التعبد».

عد ٥٢٤

أحداث في سورية في أيام ادريان الملك

إنّ هذا الملك أقام في المشرق من سنة ١٢٢ إلى سنة ١٢٥م وعاد إليه أيضاً سنة ١٢٩م، واصلح ونظم أموراً كثيرة فيه وبنى آثاراً عديدة ونعلم منها أنه شرع في بناء هيكل الشمس في بعلبك، وكملّه خليفته انطونيوس وبنى هناك سبتيموس ساويرس هيكل المشتري. وهؤلاء الملوك هم الذين بنوا أيضاً الرواق القائم على الأعمدة الهائلة والباقية بعض آثاره حتى يومنا. وليس المراد بذلك أنهم ابتدأوا في بناء بعلبك العجيب كما زعم بعض العلماء، بل أظهر أنّ هذا الاثر كان قبلهم فجددوا فيه هذه الهياكل والأروقة، فإنّ صحوره الثلاثة الضخمة التي طول كل منها عشرين متراً وعرضه خمسة أمتار وعلوه كذلك هي أقدم من أيام الرومانيين، والأولى نسبتها إلى الفينيقيين أو الآراميين. قال رنان (في كتابه بعثة فينيقية

صفحة ٣٢٠): «لا شك إنه كان في بعلبك هيكل قبل عصر الرومانيين لأن مؤلف المقالة في الآلهة السورية أثبت أنه كان في بعلبك معبد لإله مصري، وقد كتبت هذه المقالة قبل أن بنيت ثم الهياكل الرومانية». وقد مضى أدریان إلى تدمير سنة ١٣٠م ووجدت هناك صفيحة يتبين منها أنه أقيم نصب له حينئذ في نيسان سنة ١٣١م. ذكر ذلك دى فوكوي في الصفيحة ١٦ وودنكتون في خط ٢٥٨٥. وقد بلغ أدریان إلى هناك مع فرقة من الجنود العملة ولا علم لنا بما صنعه هناك، ولكن لا بد من أن يكون أحدث شيئاً في هذا الموقع المهم حرباً وتجارة. وقد ذكر كثير من الجواله أن في الطريق المؤدية من دمشق إلى تدمر ومن تدمر إلى الفرات اطلال اثنين وأربعين حصناً أو قلعة يبعد كل منها عن الآخر مسافة ثلاث ساعات، ولا يحتمل أن جنود الرومانيين اقاموا في هذه المعازل كلها ولكن لا شك في اقامة الحرس الروماني في بعضها. ولما كان ترایان قد اتى المشرق لحرب هائلة ولم ينته منها إلا وادركته المنية لم يكن له وقت للحيلة على الأمان بهذه الحصون، فبقى أن أدریان هو الذي أنشأ هذه المعازل، ولا يبعد إنه أحدث شيئاً من الأبنية التي جددت في تدمر في ذلك العصر، وهو الذي منح هذه المدينة أن تكون لها الحقوق التي للإيطاليين، وأن تكون جالية رومانية. وقد وجد في بعض الآثار أن هذه المدينة تسمى ادريانبل فما ذلك إلا نسبة إليه لما جاد عليها به. وذكر جرج روبنسون أنه عثر على خط قرب باب مدينة جبيل مؤذن بأن أدریان أصلح هذا الباب. وقال رنان (في بعثة فينيقية صفحة ٢١٤) إن أدریان جدد بناء مدينة جبيل، وقد يكون غير هيئتها كلها لأننا لم نجد من آثارنا الكنعانية إلا بعض المدافن، والأثر الذي كشفنا عنه في جانب القلعة، ولم نجد خطأ جيئلاً قديماً يكافئنا على أتعابنا.

قد مرَّ أن بَلما قائد جيش الملك ترایان أخضع بلاد العرب لروما سنة ١٠٥م. وسنَّ لها ترایان نظاماً سنة ١٠٦م، ولكنه لم يكن من الزمان ما يكفي لتنظيم كل شي فما بقي لازماً أتمه أدریان، وقد وُجدت مسكوكات في هذه البلاد كتب عليها لمنظم أو مصلح العربية. وبترا قصبتها تسمت باسمه ومسكوكات جراز (وهي خرسا الآن) كتب عليها اسمه. وقد ضُربت في دمشق سكة كُتِب عليها: «إلى الاله أدریان» تملقاً له ورسمت على وجهيها صورته وصورة الملكة، ومن هذه المسكوكات ما هو مؤرخ بسنة ١٢٧م وبسنة ١٢٩م. وقد أسعد ترایان بصرى

باقامته فيها فيلقاً من الجنود فبقيت هذه المدينة تضرب سكتها وقتاً ما دون اسم تريان ولا اسم أدريان كي لا تجحد فضل الأول.

لا جرم أن قد عنى أدريان بتمهيد طريق القوافل القديمة المؤدية من دمشق إلى بتر، ورصف جنوده الذين كانوا يحسنون مثل هذه الأعمال طرقات جنديّة في محلات عديدة، تشاهد آثارها الآن حتى في صحراء مواب على ما روى العالم راي في كتاب سياحته في حوران. واصبحت بصرى عاصمة حوران محطاً لتجارة كبيرة تأتي إلى دمشق بتمر الحجاز وطيوب اليمن، وتجلب إلى العربية الحبوب والزبيب من وادي الأردن، والسلع من آسيا الصغرى.

وكانت فرقة من الجنود من الفيلق العاشر حائلة في أورشليم في محل أخربة الهيكل، فأشغلها أدريان بتمهيد المحلة وبنى هناك هيكلًا للمشتري، واسكن جالية رومانية في جبل صهيون وسمى المدينة الياكابتولينا نسبةً إليه وإلى هيكل المشتري في روما. وقال بعضهم منهم سبرتيان إنه منع اليهود ايضاً من أن يخذلوا أولادهم فهاج اليهود وماجوا وتناسوا ما حلّ بهم في أيام تريان، وحملت زمر منهم السلاح في محلات عديدة، وهمت الحكومة بكبتهم فازدادوا جسارة، وقام بينهم رجل اسمه بركوكبا أي ابن الكوكب وحسبوه المسيح الذي كانوا ينتظرونه، وقالوا هذا هو الكوكب الذي يشرق من يعقوب، وسلّمه أحد رؤسائهم المدعو أخبيا صولجان السلطة باحتفاء على مشهد رؤوس الأمة، وامطى بركوكبا جواد الحرب، واخذوا يبدون الشغب والاعتداء حتى على الجنود، فلم يحفل الرومانيون أولاً بهذه الثورة إذ أدلّوهم في مثلها مرات، على أنهم فسحوا للعصاة بذلك سبيلاً واملكوهم زماناً يكثر في عديدهم ويُعدّون عددهم، وانضم إليهم كثير من اخوانهم المتشتتين في الآفاق وجمهور من اللصوص والراغبين في النهب، فانتبه الرومانيون حينئذ إلى أهمية هذه الثورة، فهب إليهم أولاً تينوس روفوس والي اليهودية، فقتل منهم كثيرين رجالاً ونساءً واطفالاً، على أن ذلك لم يكن إلاّ تحريشاً وابسلاً لأنفسهم لتستحب الموت.

فأرسل حينئذ أدريان يوليوس ساوير روس حاكم بريطانيا الكبرى وقتئذ وسير معه من الجنود جيشاً مختاراً فلم يشأ هذا القائد المشهور في عصره أن يقتحم العصاة دفعة واحدة، بل أخذ يضرب محلاً محلاً مضيقاً عليهم وقاطعاً موارد

الرزق عنهم، ودام على ذلك سنتين دمر فيهما نحواً من تسع مئة قرية، وافتتح ونقض خمسين حصناً. وكان عدد القتلى خمس مئة وثمانين ألفاً عدا من هلكوا جوعاً أو سقماً ومن حرقوا في البيوت والقلاع، حتى استعظم اليهود مصابهم هذا على مصابهم في حصار طيطوس، وفي حملة بختنصر على أورشليم، وكان بركوكبا رئيسهم من جملة القتلى. وأمات الجنود علماء السنّة الذين كانوا محاصرين في قلعة بيتير (لم يُعيّن محلها ويُحتمل أن تكون في محل بيت جالا الآن وهي آخر القلاع التي بقيت بيد الثائرين) باعذبة مبرحة. فاخبيا مزقوا لحمانه بأسنة محمّاة بالنار، واخذ الرومانيون منهم كثيراً من الأسرى، فباعوا بعضهم بأبخس الاثمان في سوق تراييتا وفي سوق غزة، ومن لم يجدوا له شارباً أرسلوه إلى مصر وبعثوا إلى رومة كثيرين من هؤلاء الأسرى، وغذوا الأسود بلحمانهم في ملاعب روما، وحظّروا على اليهود الدخول إلى أورشليم إلّا يوماً في السنة يؤذن لهم فيه أن يدخلوا إليها لينوحوا على خراب مدينتهم، ويدفروا دموعهم على أطلال مجدهم وفخرهم. ولم يسمح لهم الرومانيون بذلك إلّا بعد دفع غرامة جسيمة. وقد استمروا على عاداتهم هذه ينوحون على أورشليم إلى زمان القديس إيرونيموس حيث قال ما ملخصه: «إنه يحظّر على اليهود دخول أورشليم إلّا لينوحوا على اخرة المدينة التعيسة ولا يرخص لهم في ذلك ما لم يدفعوا مبلغاً من الفضة. فبعد أن شروا دم المخلص يضطرون أن يشتروا دموعهم، فيأتون رجالاً ونساءً وشيوخاً أذلال صاغرين بثياب رثة ينوحون على مدينتهم ومجدهم، وهم يرون الجبلجة حيث صلبوا المخلص زاهية بالمجد، ومحل القيامة تنبعث منه الأنوار وعلم الصليب يخفق على جبل الزيتون فيالتعاسة هذا الشعب».

على أنّ ظفر الرومانيين لم يكن دون مشقات كبيرة وخسائر جسيمة، وهلك من جنودهم كثيرون. ومما يستدل به على ذلك أن الملك في رسالته إلى الندوة في هذا الشأن اهمل السلام المعتاد واعتاض عنه بقوله: «إن كنتم واولادكم على احسن حال فنحن والجيش كذلك». فلم يشأ أن يقول عن الجيش الذي تناقص عديده كثيراً إنه في أحسن حال (ملخص عن دورى في تاريخ الرومانيين وروهربخر في تاريخ الكنيسة العام عن ديون في تاريخ ادریان وغيره من القدماء). والأظهر أنّ هذه الحرب كانت سنة ١٣٢م. من الغريب جداً كثرة الآثار الدالة على اسم هذا الملك في عمليّ البترون وجبيل وبعض كسروان في لبنان، فتراها في أماكن عديدة من

صنين إلى جبة بشري في أعالي الجبل وفي وسطه حتى عدّ رنان منها ما ينيف على ثمانين خطأ خلا ما محته الأيام أو لم يَزْهْ، وقلّ من الجوّالة من اهتدى إلى شيء من ذلك ونذكر بعض هذه الأماكن منها خط في غوما حذاء اسمر جبيل كُتب فيه: «العاهل أدريان أغوسطوس». وفي وادي كور على صخر وفي الوادي تحت بسبينا وفي وادي صغار وجربتا وساقية شاريا، وفي فرشح وفي تولا وشبطين وقرب مشمس، وعند درجة الميحال وفي محال عديدة في جوار تنورين وعين القسيس وفم القبور وفوق دير حوب، وفي أماكن عديدة في العاقورة وقرطبة وفي رأس عقبة جنة وفي بقعاتا فوق المشنقة وعلامات وفي جبل موسى في كسروان في المحل المسمى قرنة عنتر، وفي الجبل الصغير والجبل الكبير هناك وفي قرنة الدير وفي الجبل بين فاريا وافقا وفي عين بحر فوق افقا وفي الجريد تجاه صنين.

ولرنان في هذه الخطوط رأيان: أحدهما أنّ البلاد التي فوق جبيل شهيرة بغاباتها من اقدم الأيام وأنّ أدريان اراد أن يصنع نظاماً لقطع هذه الغابات فكتبت اوامره في محال عديدة منها حفظاً لنظامه، ويؤيد ذلك كون بعض هذه الخطوط كتب فيها: «أربعة أنواع من الأشجار والأشجار المملوكة». فكأن المراد لا تقطعوا أربعة أنواع من الشجر والشجر المملوك. والراي الثاني أن أدريان أقام سنين متطاولة في سورية قبل ملكه وبعده، والمشهور عنه أنه كان مولعاً بزيارة المعابد فيحتمل أنه طاف هذه الأماكن لزيارة الهياكل المقامة فيها وترك أثراً لتطوافه في كل محل منها والله اعلم.

ومن اخبار أدريان أنه لما كان في انطاكية صعد ليلاً إلى جبل كاسيوس المعروف بالجبل الأقرع، وعلوه ألف وخمسمائة متر ليرى بزوغ الشمس من المشرق عند الغلَس وصنع كذلك في صعوده إلى جبل اثنا. قال دوري في تاريخ أدريان تفضّل العالم دوسولسي بأن بحث لي في مجموع السكك النادرة الذي احرزه عن الآثار التي تركها أدريان في فلسطين، فذكر لي سكة ضربت في أورشليم يُرى على وجهيها صورته وصورة سايينة امرأته، فقد ضُربت قبل سنة ١٣٦م التي ماتت الملكة فيها، ثم سككاً في قيصرية وعسقلون لا تاريخ لها، وسكة في دورة أيّ الطنطورة تاريخها سنة ١٢٢م وأخرى في طيبارية تاريخها سنة ١٢١م، وسكة في غزة سنة ١٢٨م.

وفي هذه الأثناء شرع الربيون من علماء اليهود يكتبون كتابهم المعروف بالتلمود ليكون جامعة معنوية لأمتهم إذ لم تعد لها جامعة وطنية لتشتتهم في كل صقع. وقد أخذ في كتابته علماء مدرستهم في طيبارية فجمعوا فيه تقليداتهم، وفتاوي علمائهم ورسوم رؤسائهم وما استطرقوه من عاداتهم، وهو مقسوم إلى قسمين: المثنا ومعناه الشريعة الثانية أو تثنية الشريعة وهو النص، والكومار أي التكميل وهو تفسير أو شرح له. ولهم تلمودان يسمى الأول الأورشليمي، وقد بُدِئ في كتابته في القرن الثاني ثم زيد عليه إلى أن تكامل في القرن الرابع، والثاني التلمود البابلي الفه بعض الربيين بعد مهاجرتهم إلى بابل في أثر ما أنزله بهم الملك أدريان، ولم يكمل إلا في القرن الخامس أو السادس. والتلمود غامض تعمّد الربيون هذا الغموض فيه كي لا يظهر المعنى الصحيح لبعض النبوات. ولكنهم لم يستطيعوا حجب انوار الحقيقة وهو مفعم بمزاعم وأقاصيص أشبه بأقاصيص القدماء من الوثنيين، وهم يفضلون التلمود على سنّة موسى. وقد قيل فيه: «إنّ الأهتمام بالتوراة قد يكون له استحقاق وقد لا يكون، واما الأهتمام بالمثنا فيستحق الجزاء والمكافأة، على أن الأهتمام بالكومار فضيلة ليس أعظم منها». والمثنا قد كُتب في لغة عبرانية صحيحة قلما فيها من الفاظ لغة أخرى، واما الكومار فقد كتب في لغة عبرانية يخالطها الفاظ كثيرة كلدانية. وقد طبع لأول مرة كاملاً في البندقية في اثني عشر مجلداً سنة ١٥٢٠م. وقد ترجمه إلى الافرنسية الاب شياريني سنة ١٨٣١م. وقد طبع مراتٍ واخيراً سنة ١٨٥٩م وما يليها في باريس.

عد ٥٢٥

ما كان في أيام انطونينوس بيوس في سورية

لم تكن في سورية أحداث مهمة في أيام هذا الملك بل رتعت المملكة كلها في أيامه رتعة الأمن والسلم، وقد قال. بعض المؤرخين إنّه حصل في أيامه ثورة في مصر وهياج في اليهود، على أن ثورة مصر لم تكن ذات بال، وهياج اليهود غير صحيح. وقال كثير من المحققين إنّه لا يُصدّق أنّ من أذلّهم تريان وادريان وتشتتوا في الآفاق يقدمون على هياج أو عصيان على الحكومة بعد مدة وجيزة، على أن موارد الأخبار في مدة هذا الملك قليلة ناضبه فلم يخلف القدماء ولم يبق في الآثار ما ينجلي به تاريخه كغيره.

ومجلّ ما يمكن ايراده من تواريخ سورية في أيام هذا الملك ذكر العريضة التي رفعها القديس يوستينوس إليه وإلى أبنائه والندوة والشعب الرومانيين. فالقديس يوستينوس هذا كان من نابلس، وقد برع في الفلسفة وتضلع في مذاهبها قبل أن يتنصّر وبعد تنصّره رأى المسيحيين في أسوأ حال يقاسون مر الاضطهاد في كل جهة وصقع، فرفع عريضة إلى الملك انطونينوس إليك ديباجتها: «إلى الملك طيطوس اليوس أدريان انطونينوس ييوس قيصر اغوسطس وإلى ابنه فريسيم الفيلسوف ولوشيوس الفيلسوف ايضاً ابن قيصر بالطبيعة وابن ييوس بالتبني، وإلى الندوة المباركة والشعب الروماني، رفعت هذه العريضة محاماة على اناس من كل طبقة حاق بهم الاضطهاد ظلاماً. انا يوستينوس بن بريسكس بن باكيوس من جالية نابلس في سورية فلسطين احد هؤلاء المضطهدين».

لا ارى بأساً في أن الخُص بعض فقرات من محاماة هذا القديس فمما قاله فيها لا جور افطع من الطريقة التي يعامل بها المسيحيون فيتجنى عليهم جنايا فظيعة والحقيقة، إنهم لا يعاقبون إلاّ على الاسم الذي يسمون به، وعلى تصرّيحهم بانهم مسيحيون. فان انكروا أنهم مسيحيون خلي سبيلهم للحال، وإن اعترفوا بانهم كذلك عوقبوا دون فحص، على أنّ النظام والعدل يقضيان بالفحص الدقيق عن عمل كل مشكوك، ويعاقب المرء أو يُخلّى سبيله بحسب اعماله، فيسموننا كفرة ونحن كذلك كفرة بالآلهة الكذبة لا بالاله الحق ابي العدل والطهر، ومصدر كل فضيلة، والمنزّه عن كل رذيلة. فيقال إنه وُجد من المسيحيين من كان مجرمّاً وهذا ممكن، فإنّ اسم مسيحي كاسم فيلسوف يشمل كثيرين من الناس، وليس لجميعهم شئمة واحدة ومسعى واحد، فمجلّ ما نسأله ان يحاكم هؤلاء لا من حيث اسمهم بل من حيث عملهم، فإن وُجدوا مجرمين فليعاقبوا لا بما انهم مسيحيون بل بما انهم ارتكبوا جريمة، وإن ظهرت براءتهم فليُخلّ سبيلهم. واما من يوشون بنا فنسامحهم ولا نطلب عقابهم، فسوء صنيعهم وجهلهم أكبر معاقب لهم.

وما كلامنا لكم على هذا النحو إلاّ حباً بكم، ولا شيء ايسر لنا من أن ننجو من اضطهادكم، فيكفينا أن ننكر كوننا مسيحيين فتعفون عنا وتعزّوننا، لكننا لا نريد أن نحيا بالكذب ونحن نتوقع المجازاة بحياة أبدية. إن افلاطون نفسه كان يعلم أنّ الأشرار سيحاكمون ويعاقبون، ونحن نعتقد نظيره أنّ هذه المحاكمة أو الدينونة لا بد منها، ولكن الذي يجريها إنما هو المسيح الذي يرّد النفوس إلى اجسادنا، ويعاقبها عقاباً ابدياً. فيقول بعضكم إنّ هذا ضلال ولكن أجناية هو على أحد. اننا لا

نسجد للآلهة التي تقيمونها في هياكلكم تفادياً من أن نسمي الصُور الميتة حية ونسخط الاله الحق، وهذه الصُور قبل أن يصنعها صانع لم تكن إلا متاعاً دنيأً، ولا تمثل بعد صنعها إلا أرواحاً خيالية. كثيراً ما يقال لكم إننا نتوقع ملكاً فتظنونه حالاً ملكاً بشرياً، وما هذا إلا خطأ بين، فلو كنا نتوقع ملكاً كهذا لتحاشينا الموت ضناً بحياتنا لتنتعم به، والامر بالعكس إنكم تروننا نتحمل العذاب بفرح لأن امانينا ليست في هذه الأشياء الحاضرة، والملك الذي نتوخاه إنما هو ملك الله، إننا نعاون على حفظ النظام العام اكثر من كل احد بتعليمنا أن الأثيم والبار لا يختلفان على الله، بل ينال كل منهما عقاباً ابدياً أو ثواباً سرمدياً، فلا يمكن سننكم ولا تعذيبكم أن تروّع الأثمة وتكفّهم عن اثمهم، فهم يعلمون أنه يمكنهم أن يختفوا عليكم لأنكم بشر، ولو اعتقدوا وجود اله لا تخفى عليه خافية لا فعل ولا فكر، لكان خوفهم منه اعظم وازع لهم عن الشر. فهل من سبيل إلى انكار هذا؟ ولكن يظهر أنكم تخافون أن يحسن كل واحد سيرته ولا يكون لكم أن تعاقبوا احداً، فهذه مزية تليق بجلاد لا بملك صالح.

ولعمر الحق أننا إذ نقول إنّ الله خلق ونظّم العالم لا نقول إلا ما قاله افلاطون. وإن قلنا أنّ بعد الموت حياة أخرى يعاقب فيها الاشرار ويثاب الابرار فلا نقول إلا ما قاله شعراؤكم وفلاسفتكم. وإن قلنا إنه لا يلزم أن نسجد لعمل الالدين فذلك قول شاعركم مينندر، وإذا قلنا أنّ الكلمة وابن الله البكر قد تجسد بنوع خارق الطبيعة وعلّق على الصليب ومات ثم قام وصعد إلى السماء، فلا يحق لكم أن تستغربوا هذا المقال لأنكم تعزّون مثل هذه الأمور إلى من تدعون إنهم ابناء المشتري وإلى بعض ملوككم. إنّ جميع الناس يدعونك ايها الملك تقياً وفيلسوفاً ومحامي العدل ومحب العلم، فيلزمنا أن نرى كذلك. فغيرنا من المشكى عليهم لا تعاقبهم إلا بعد أن تفحمهم بذنبهم، واما نحن فاسمنا وحده يكفي للحكم علينا ولعقابنا دون رحمة، فلا نسأل إلا أن تفحص عن اعمال من يوشى به إليك، وتعاقب المجرم وتخلي سبيل البار. إلى أن ختم هذا الخطيب المصقع والكاتب المجيد والصنديد الباسل كلامه بقوله: «فإن ظهر لكم هذا الكلام مطابقاً للعقل والحق فامتثلوه، وإن حسبتموه بهرج كلام فاذدروه إن شئتم، ولكن لا تقضوا بالموت على من لم يصنع شراً، وقد كان لنا أن نسأل أن نحاكم بمقتضى الامر الصادر من ايكم اديان قيصر العظيم والشريف (أن لا يقضي بالموت على مسيحي دون محاكمة). على أننا لا نريد أن نسند ملتسنا إلا إلى عدالة دعوانا.

ومع ذلك فمقدمون لكم مع عريضتنا هذه نسخة من هذا الامر لتروا بهذا ايضاً
إننا لا نفوه إلاً بالحق».

إنَّ محاماة هذا القديس لم تخلُ من نتيجة حسنة فقد روى تلمون وباجي
واورسي رسالة كتبها هذا الملك إلى ديوان المشورة العام في آسيا. ومما قاله فيها.
«إنكم لا تنكفون عن أنْ تنعتوا هؤلاء الناس وتشكوهم بأنْ تعليمهم كفري.
وتتجنون عليهم بأمور لا بيّنة لكم عليها فاحذروا من ذلك فانكم بدلاً من أنْ
تجعلوهم يغيّرون رأيهم تصيرونهم أكثر تشبهاً به، فانهم يؤثرون الموت حباً يالاهم
على الحياة، ويفضّلون بذل حياتهم على مطاوعتكم في ما تطلبون منهم فيصبحون
هم الظافرين، ويظهر الآن أنكم لا تعرفون الآلهة وتتقاعدون عن الأمور المقدسة،
وتجهلون طريقة العبادة لله، وتعنفون من يكرمونه كما ينبغي وتضطهدونهم حتى
الموت، إنَّ كثيرين من حكام الأقاليم كتبوا إلى ابي المتألّه في شأن هؤلاء فاجابهم
أنْ لا يزعمونهم بشيء إلاً إذا رأوهم يحاولون عثياناً في المملكة الرومانية، وكثيرون
كتبوا إليّ ايضاً في هذا الشأن وأجبتهم أجوبة مطابقة لنيّة ابي فإن بقي أحد
يختلف دعاوى على أحد من هؤلاء بما أنه مسيحي فليخلّ سبيل المشكو ولو ظهر
أنّه مسيحي حقيقة وليعاقب الشاكي بحسب الأصول».

على أنّه وإنّ كانت هذه اوامر الملك فلنا بيّنات عديدة على أنّ الاضطهاد لم
ينقطع عن المسيحيين، لكن انطونيوس بيوس وادريان كانوا اكثر رفقاً بهم من
غيرهم من الملوك المضطهدين.

عد ٥٢٦

ذكر احداث في سورية في أيام مرقس اورليوس

مات انطونيوس بيوس سنة ١٦١م كما مرّ وفيها خلفه مرقس أورليوس الذي
كان تبناه واشترك في الملك مع لوشبيوس فاروس اخيه بالتبني، فكانت هذه أول مرة
قام فيها عاهلان معاً في رومة. ومن الأحداث في سورية في أيامهما أنّ البرتين
حملوا عليها وقهروا جنود الرومانيين فيها، فأرسل مرقس أورليوس جيشاً كثيفاً إلى
سورية أمّر عليه اخاه فاروس شريكه في الملك فبلغ إلى انطاكية، واقام فيها بامر
اخيه ليمنع أهل الأعمال المجاورة لها عن الاشتراك مع الثائرين، وارسل قادة الجيش
يحاربون الأعداء. وكان بين هؤلاء القادة رجل اسمه افيدبيوس كاسيوس سوري

الأصل، وابوه كان والياً على مصر في أيام ادریان وانطونينوس، وكان افيدیوس متكبراً قاسياً على الجنود حتى أنه عاقب بالصلب رئیس فرقة ضرب دون امره شرذمة من الأعداء، وانتصر عليها قائلاً له من كان كافلاً لك النصر؟ فقد كان يمكن أن يكون الأعداء تعمّدوا بهذه الحركة حيلة حربية للغدر بنا.

وقد كتب مرقس اورليوس إلى أحد عماله في شأن افيدیوس هذا قائلاً قد اقمته بمعية أخي على جيش سورية العائش بالملاذ والترف في دفنة (بلدة على العاصي في الجنوب الغربي من انطاكية). وأنت تعرفه فهو أصرم من كل صارم فيعيد التهذيب العسكري إلى أصله ولا خير في جيش دون هذا التهذيب. فأجابه ذلك العامل أن اختيارك لافيدیوس كان بغاية السداد فلا بدّ من قائد شيمته الصرامة وبه الكفاءة ليوصد بوجه هؤلاء الجنود ابواب الحمامات، ويتترع منهم الزهور التي يزيتون بها رؤوسهم واعناقهم وصدورهم. ولدى استلامه قيادة هؤلاء الجنود اقصى عنهم كل ما يشعر بترف أو تخنّت، وجعلهم يدأبون كل يوم على التعليم العسكري. وقد نجحت غزوة الرومانيين هذه واستردوا المدن والأعمال التي كان البرتيون استحوذوا عليها، وكان افيدیوس كاسيوس تأمر في أيامه على انطونينوس، ووقع لفاروس شبهة بالمؤامرة عليه في مدة حرب سورية، فكتب إلى اخيه قائلاً: «حذار منه فكل ما نعمله لا يرضيه ويصرف قصارى جدّه في استمالة الجنود إليه، وفي اكتساب اصدقاء، وأن يحطّ من قدرنا امام الجنود، فيسميك أنت شيخاً متفلسفاً، ويسميني تلميذاً لاهياً». فأجابه اخوه قائلاً: «إن شكوك من كاسيوس لا تليق بعاهل ولا بحكومتنا، فان قيّض الاله له أن يكون ملكاً فلا مناص لنا من ملكه، وإما قولك أن أستحيط في مصلحة أبنائي بقتله فلا يغريني عن إثارة هلاكهم إذا اقتضى خير المملكة أن يحيا هو ويموتوا هم».

على أن فاروس كان مصيباً بتحذيره أخاه فإنّ مرقس اورليوس أمّر كاسيوس على الجيش الشرقي الذي كان يقاوم البرتيين، فعمت ولايته كل ما كان من جبل امانوس (اللكام) إلى مدخل مصر، ونشأت ثورة في مصر فسلط كاسيوس على أن يدخل هذه البلاد، فدخلها وخمد الثورة وأنفاس الثائرين سنة ١٧٠م. وكان الملك مشغلاً بالدفاع عن الحدود على الدانوب فسوّلت لكاسيوس نفسه أن يقيمه الجنود ملكاً، وكان على ثقة من عسكره وشعب انطاكية ومصر حيث كان ابوه والياً عليه مدة طويلة. وقال في نفسه لاجددن تاريخ فسبسيان وأشاع الخبر بأنّ مرقس اورليوس مات، فنادى به بعض جنوده ملكاً، وعند سماع الندوة هذا اعلنت أن كاسيوس عدو

للمملكة، وضبطت ماله من الأملاك، فروّع هذا الخبر الجنود الذين اقاموا كاسيوس ملكاً، وقلب له كثيرون ظهر المجن. وتركوه ومن كان ابدى الصرامة عليهم انتهزوا هذه الفرصة، فقطعوا رأسه، وأرسلوه إلى الملك. ولما رآه أسف على أنّ الحكومة خسرت بموته قائداً باسلاً، وخسر هو فرصة أن يبدي حلمه بالعفو عنه. فقال له بعضهم لو انتصر كاسيوس أكان يعفو عنك؟ فقال إن اتقاء الآلهة وصنعنا المعروف إلى الناس كانا يضمنان لنا الظفر. وردّ على ابناء كاسيوس نصف املاكهم ولم يحظر ترشيحهم إلى المناصب بل قضى ان لا ينصب وال على بلد ولد فيها، فكان ذلك سنة من سنتهم القديمة، وقد رأى العاهل أنّ زيارة الأعمال الشرقية من شأنها أن توطّد النظام وسطوة الحكومة، فتجسّم هذا السفر وزار انطاكية وجل ما عاقب به اهلها منعهم عن دخول المشاهد والاحتفاء بالأعياد مدةً ما. واتى الاسكندرية وكان يتردد فيها دون بطانة ولا خفر ولا حرس متردياً ثوب فيلسوف منادماً الفلاسفة. وقد مرّ أنه قضى سنة ١٨٠م بعد أن أشرك ابنه كومود في الملك معه. ومن آثاره في سورية خط نقش في جنوبي جسر المعاملتين دال على المحطة ١١ من بيروت كتب فيه: «للقيصر مرقس اورليوس انطونينوس اغوسطوس بن انطونينوس وحفيد ادريان الخ» (ذكره ودنكتون عد ١٨٤٢م). وأهم من هذا خط نقش على احد صخور نهر الكلب يتبيّن منه أنّه وسّع الطريق هناك، فقد كتب فيه ما ملخصه: «للقيصر مرقس اورليوس انطونينوس بيوس اغوسطوس لأنه مهد الجبال المشرفة على النهر ليكوس (نهر الكلب)، ووسّع الطريق بعناية الفيلق الثالث الافرنسي»، الذي كان في سورية في ذلك العصر (ودنكتون عد ١٨٤٥). وهناك خط آخر (عد ١٨٤١) حاو الدعاء للملك انطونينوس بيوس اغوسطوس بأن يملك سنين عديدة ظافراً. وقد وجد ودنكتون عدة خطوط في حوران نقشها افيدوس كاسيوس المذكور آنفاً تكرمة للملك مرقس اورليوس في مدة ولايته على سورية، وقبل ثورته وعصيانه على هذا الملك. وقال ودنكتون يظهر أنّ السوريين كانوا يحبون كاسيوس إذ لم يحطموا اسمه كما محوا اسم غيره من الملوك والولاة.

عد ٥٢٧

ذكر ما كان من الأحداث في سورية في عهد سبتيموس ساويروس قلّ ما كان من الأحداث في سورية في أيام الملك كومود بن مرقس اورليوس أو لم يتصل إلينا خبرها، ومثل ذلك في عهد الملك برتينكس خليفة كومود المذكور

لأنه لم يملك إلاّ مدة وجيزة، ولكن اتحفنا المؤرخون بكثير من أخبار وطننا في أيام سبتيموس ساويروس الذي كان متزوجاً بامرأة من سورية اسمها جولية دمنه، وكان قبل ارتقائه منصة الملك قائد فرقة من الجيش في سورية، وأقام فيها مداتٍ وخاصة من سنة ١٨٢م إلى سنة ١٨٤م. وكان عارفاً بحالة هذه البلاد وحاجاتها، وبذل جهده في محافظة الجنود على نظامهم العسكري، وفي راحة البلاد وتأمين الطرقات، وتعويد الشعب على العيشة بالسكينة والأمن، وقد كشفت لنا الصفائح والآثار عن كثير من أخباره كان التاريخ ضئلاً علينا بالأنباء بها. ووُجد على مقربة من بيروت صفيحة أُقيمت تكرامة له حاوية الدعاء بسلامته وسلامة ابنائه وامراته، وإليك ملخص ما كتب عليها: «لسلامة الملك القيصر لوشوس سبتيموس ساويروس ومرقس اورليوس انطونينوس (اسما كركلا) ابنه، وجولية دمنه أغوستا أمه (امرأة سبتيموس)، وسائر اهل بيته» (رواه ودنكتون عد ١٨٤٣)، ونُقشت الصفيحة سنة ١٩٦م. وكُشف عن خط آخر في جنوبي بيروت دال على المحطة الأولى من بيروت إلى صيدا خلاصة ما كتب عليه: «قد جدّد الملك سبتيموس ساويروس اغوستوس وابنه الملك مرقس اورليوس انطونينوس اغوستوس الطرق الجنديّة بعناية فيديوس روفوس والي سورية، وفينيقية» (ودنكتون عد ١٨٤٤). وتاريخ هذا الخط سنة ١٩٨م. وكانت آسيا الرومانية في أيامه مقسومة إلى اثني عشر عملاً أو اقليماً وكان العمل السابع منها قبرص، وقصبتها بافوس (الباف)، والثامن والتاسع سورية وعاصمتها انطاكية، وكانت الندوة الرومانية تركت مدة ما بعض الإمارات قائمة بنفسها، ينوب الحاكم فيها مناب الشعب الروماني، ويخدم الحكومة بجباية الأموال الاميرية لكنها ضمت كل هذه الامريات الصغيرة على التعاقب إلى اقليم سورية، فضمت سورية الكومجانية سنة ٧٢م وكاشيس (وهي قنسرين) (أو كاشيس الاخرى وكانت في موقع عنجر في لبنان الشرقي) في أيام دوميتيانوس، والابلية (وكانت قصبتها سوق وادي بردا سنة ٤٨م). وحمص في أيام فلافيانوس ودمشق، وجمهورية تدمر سنة ١٠٦م عند أخذ العربية الحجرية، وكان العمل العاشر منها اليهودية، وكان ولايتها بصفة نواب يرجعون في الامور المهمة إلى ولاة سورية. فكان ذلك من سنة ٦ إلى سنة ٤١م ومن سنة ٤٤م إلى سنة ٧٠م حين دمرها طيطوس. وجُعِلت حينئذٍ اقليماً يحكمه معتمد روماني، ويضبطه فيلق من الجند، ثم جعلت جالية رومانية مسماة أليا وقصبتها قيصرية بدلاً من أورشليم.

اما ساويروس فقسم سورية إلى قسمين وجعل القسم الأول إلى الشمال وفيه سورية الكومجانية، وسورية المجوفة أي السهول التي على ضفتي العاصي إلى انطاكية والبحر، وما بين اللكام ولبنان، والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان إلى وسط البرية، ومنه بعلبك وحمص ودمشق وتدمر، ونصب حاكماً في القسم الأول ماريوس مكسيموس من احسن قواد جيشه. ولا علم لنا بمن اقام في القسم الثاني من قادة جيشه المحنكين. وكان اهل انطاكية حازبوا اعداءه فعاقبهم بصرامة، إذ كانت الصرامة من شيمته، ولكن ما برحت هذه المدينة تُعدّ من اعظم مدن الرومانيين في المشرق، على أنّه عند عوده من ما بين النهرين اقام فيها مدة لا ليتنعم بمنتزهات دفة وملاذ سكانها، بل ليمحو اثر قسوته الحديثة على اهلها، وقد ألبس ابنه فيها سنة ٢٠١م الرداء الرجلي وسماه في السنة التابعة قنصلاً. وكان ذلك مُشعراً باعتداده انطاكية عاصمة، وهذه الحفلات والاعياد التي تبعثها حملت اهل المدينة على أن يتزلفوا إلى الدولة الجديدة. واتمّ ساويروس المصالحة مع الانطاكيين بينائه هناك حمامات عظيمة. روى ذلك اوسابيوس والقديس ايرونيوس في الكرونيون في تاريخ سنة ٢٠٢م.

واما في سورية الفينيقية فصنع ساويروس اصلاحات مهمة، فقد وجد في الطريق المؤدية من صور إلى صيدا أربع صفائح دالة على الأُميال في الطريق ومؤرخة في سنة ١٩٨م، ومؤذنة بأنّ نائب هذا الملك عنى بإصلاح الطرق بين هذه المدن، وكشف ايضاً عن صفيحة أخرى كُتِب عليها اسم ساويروس في جوار اللاذقية، وهذا دال على أن هذه الاصلاحات عمّت القسم الثاني من سورية ايضاً، رواه وادنكتون في تفسيره الخطوط القديمة في سورية خط ١٨٣٨. واما البلاد التي على البحر المتوسط فكانت من زمان طويل حاصلة على ما كان يمكن التمدن القديم أن يوليها من الحضارة. فإنّ اسكندر وخلفاءه بثوا التمدن اليوناني عند سكانها الذين اصلهم من الفينيقين أو الآراميين والجاليات الرومانية التي اقامت هناك، والحامية التي كانت تخفر هذه الأعمال أدخلوا تمدّنهم ونشروا لغتهم اللاتينية التي كان يلزم الجنود أن يتكلموا بها، وكان بعض جنود نيجر أحرقوا صور، فجدد ساويروس بناءها وأسكن فيها القدماء من الفرقة الثالثة المسماة كليكا (الفرنسية)، وخولها الحقوق الايطالية أي أن تُحسب جالية رومانية. وأما بيروت التي كانت فيها ذرية من جنود اغوستوس فكانت حاصلة على هذا الحق منذ زمان مديد، وكان فيها مدرسة كبرى لتعليم الشرع الروماني. واشتهر فيها حيثيّ باينيان واولبيان وكثيرون غيرهما

من مشاهير الفقهاء. وقال بعضهم إنّ اولبيان كان من صور، وكان من اهل بيروت جاهروا اولاً بالمناصبة لساويروس، ولا نعلم أعاقبهم على مناوأتهم له أم خمد بابينيان جذوة سخطه عليهم، والذي نعلمه أنهم ازدلفوا إليه دون ابطاء.

فقد وُجد في جوار بيروت صفيحة كُتب عليها سنة ١٩٦م ما يؤذن بمودة أهل بيروت له، إذ كُتب عليها أنه أقيم نصب نذراً لسلامة ساويروس وابنه كركلا وجولية دومنه امرأته، رواه ودنكتون في خطوط سورية القديمة خط عد ١٨٤٣، وقد مرّ ذكره بأكثر تفصيل وفي دير القلعة صخر في جانب البعر كتب عليه: «إنّ بمبايوس (ربما كان والياً في بيروت إذ وجد اسمه في بعض الخطوط التي عثر عليها فيها) اقام نصب المشتري لسلامة مولانا الملك لوشويس سبتيموس ساويروس (ودنكتون عد ١٨٥٨). ووجد ودينكتون خطأً آخر فوق شبك في الدير المذكور كتب فيه: «إنّ الجالية يولية اغوسطة فيليكس البيروتية اقامت من مالها تمثالاً للملك القيصر لوشويس سبتيموس ساويروس بيوس برتينكس اغوسطوس».

وكان على الرومانيين بذل عناية كبرى في ما وراء الاردن. فكانت حوران واللجاء قبل تريان على ما كانتا عليه من امد غير قديم أي كانتا صحارى، لا يسكنها إلا رُحّل همج يرتعون ماشيتهم في سهولها وحزونها، وينتهبون ما وصلت إليه يدهم ويستعصمون في صخورها. فإننا نعلم أن الملك اغريبا اليهودي كان يقول لسكانها إنكم تعيشون كوحوش في عرينها. رواه يوسفوس في تاريخ اليهود (ك ١٤ فصل ١٥). فترايان وادريان أدخلتا النظام والحضارة في هذه البلاد حيث اقامتا مدناً كبيرة زاهية، وساويروس أتم عملهما. ورغبة في أن يمحو أثر كل ثورة في بلاد العرب شخّص إليها بنفسه. وقد وجدت في هذه البلاد آثار لرؤساء عشرات من الجنود يسمون سبتيمين، وما ذلك إلا نسبة إليه. وتوجد اطلال مدن كان سكانها يستعملون لغة روما ومقاييسها وحسابها وكثيراً غير ذلك من عاداتها، وذلك دليل ناطق بأن سيادة روما أدخلت كل ذلك في هذه البلاد، وقد اثبت ذلك ودنكتون في خطوط سورية القديمة خط عد ٣١٣٦ وما يليه. وقد كتب احد العمال الملكيين إلى العرب الذين لا يمكن الجواله في أيامنا أن يتوغلوا في بلادهم إلا ويحدّق بهم خطر فقدان الحياة، كأنه يكتب إلى الولاة في اسبانيا أو افرنسة ليؤمن بعض المسافرين. وإليك نص ما كتب: «إذا اراد جندي أو مسافر أن يدخل عليكم جبراً فاكتبوا إليّ فتالون ترضية كافية، انتم لا تحتاجون إلى غريب لأنّ لكم منازل

تحتلون فيها ولا يقدر أحد أن يكرهكم على فتح أبواب منازلكم، علّقوا هذه الرسالة على محل في مدينتكم حيث يَسر لكل أحد أن يطالعها، ولا يمكن أحد أن يعتذر بأنه يجهل ذلك». رواه العالم واد في خطوط سورية القديمة خط عد ٢٥٢٤. وذلك دليل صريح على أنَّ الحكومة الرومانية كانت تبدي في هذه التخوم القاصية ما تبديه من العناية في الاقاليم الدانية. وفي بصرى عاصمة الاقليم العربي كانت كتابة المسكوكات يونانية في ايام ترايان، فاصبحت لاتينية بعد ولاية ساويروس ببعض سنين رواه واد ايضاً في المحل المذكور.

وأما الاثنان والاربعون حصناً التي على الطريق ما بين دمشق وتدمر، وقد أشرنا اليها فلا نعلم أأدريان بانيها ام ساويروس؟ ولا أقلّ من أنَّ ساويروس حافظ عليها وكفأها مؤونة الرجال والزاد، لأننا إن لم نجد أثراً مؤكداً له في الطريق إلى تدمر، ونجد آثاره واضحة في تدمر نفسها. وعلى مقتضى الخريطة التي رسمها باتنجر إن الطريق من دمشق إلى تدمر مئتان واثنان عشر ميلاً. وقال بولتر إنَّ المسافة بين المدينتين اربعين ساعة. وقد وجد دي فوكوي وودنيكتون مخافر للجنود الرومانيين على الطريق بطولها من بصرى إلى تدمر، على أنهما لم يجدا لها تاريخاً يبينها بمن اقامها (الخطوط القديمة في سورية خط ٥٢٢). وكانت تدمر كباقي المدن تجارية جامعة اناساً من قبائل عديدة، فكان فيها جماعات من البرتيين والارمن والرومانيين واليونان، وجالية يهودية مهمة كان بعض افرادها يساون اوجه الوطنيين غنى ووجاهة، رواه دي فوكوي (في الخطوط السامية عد ٧ و ١٦ و ٦٥). وعليه فكان لها مجالس مختلطة كما في مصر الآن تفصل الدعاوي بين هؤلاء الأجانب رواه ودينيكتون (في خطوط سورية القديمة خط ٢٦٠٦). وكان لأسرة اذينة في تدمر المحل الأول في الوجاهة، وأحد افراد هذه الأسرة المسمى حيران عاون ساويروس كثيراً بإهدائه إلى المواضع، وبتقديمه المؤن لفرق الجنود حتى حمل الملك أن يرخص له ان يسمى باسمه سبتيموس، فكان قطب هذه الأسرة التدمرية وذلك على مثال ما نعلمه من أن اغوستوس رخص لهيودس الكبير أن يزيد على اسمه اسم يوليوس تقريباً من اسرة القياصرة، رواه ودينيكتون ايضاً في المحل المذكور. ولما سمى أحد اسرة اذينة بعد ستين سنة ملك الملوك كان يحامي الملك الروماني في المشرق. وزيادة سبتيموس على اسمه تذكرنا بالزمان الذي لم يكن اجداده إلا من اتباع ساويروس. ذكر ذلك دي فوكوي في الخطوط السامية خط ٢٨. واصبحت تدمر جالية رومانية لها الحقوق الايطالية، وكان فيها اعضاء بلدية ومجتمعات للندوة

والشعب حتى كنت تحسبها نظراً إلى آثارها ابنة أثينا، ونظراً لنظامها ابنة روما.
وكان من سكانها من كانوا من فرسان الرومانيين أو من رجال ندوتها.

وكان الرّجل حينئذٍ يضطرون كما يضطرون الآن أن يسوقوا ماشيتهم مدة الصيف إلى ينايع تدمر أو إلى مراعي جبل حوران، ويكثرون من السطو. ولما استتبّت ولاية الرومانيين في هذه الصحارى أمنوها، واقاموا الخفراء فيها حتى أصبحت على أتمّ ما يلزم من الراحة والأمن، وفي اطراف حوران إلى الشرق جبل فولكاني عند سفحه مخفرة لعسكر روماني، عرض اسوارها متران وعليها ابراج وامامها حفرة فيظهر أنّه كان هناك خفراء رومانيون يصدّون عرب البريّة عن التعدي، وفي قمة هذا الجبل مخفرة مطلة على هذا السهل الفسيح، ويُرَى هناك اخربة حمامات وبيوت. رواه دي فوكوي في كلامه على سورية الوسطى وقال لم يطرق هذه البرية قبلنا احد من الأوربيين على أنّ الرومانيين اتوا إليها وجلبوا معهم الحراثة والأمن. وأمّنوا هذه البلاد المسماة بلاد العطش واقاموا فيها مدناً، وبنوا أقنية لجّر الماء من الجبال. وأول خط رواه واد من خطوط سورية القديمة ناطق بالشكر لترايان على أنّه جرّ الماء إلى قناتا (قنوات). وكان اول ما عنى به كرنيليوس بلما فاتح العربية جره الماء لاستقاء رعايا الرومانيين الحدثاء. والخطوط القديمة تنبئنا بمخافر للجنود وبمقامات لرؤساء العشرات في اماكن لم يعد يسمع فيها إلاّ عواء الثعالب. وتشاهد من الأماكن العالية صفائح وسيعة منسّقة بجانب بعضها على صفيّين فهذه طرقات رومانية أنبأتنا بعد سبعة عشر جيلاً بأنّ شعباً كثيراً اجتاز من هناك. قال ودينكتون بقي كثير من آثار الطريق من بصرى إلى دمشق ومسكوكات سبتيموس هي كثيرة في هذه البلاد، واطلال بعلبك وهي أحسن آثار المشرق واعظمها كان بناؤها في هذا العصر، وهيكل المشتري هناك بناء سبتيموس ساويروس، وهيكل الشمس الذي خربه تاوادوسيوس كان ادریان وانطونينوس اقاماه (مجلة الأمور القديمة في نيسان سنة ١٨٧٧م).

اما فلسطين فكانت وقتئذٍ كما كانت في اكثر اوقاتها مضماراً للاختلافات الدينية، وساحة للهرج والشغب والسطو، فكان مستلزماً لضبط الاحكام فيها أنّ يشعر العاثون أنّ من فوق رؤوسهم سيف حاكم شديد البأس لا يقلق ضميره استعمال أشدّ القسوة. وكذلك كان سبتيموس يصنع بسكان فلسطين فلم يكن ليغضي على اقل مخالفة للنظام الذي وضعه لفلسطين عند تجوّله فيها كما روى سبرت في ترجمته. وقال فيه اورليوس فيكتور إنه كان هائماً باستئصال ذوي

المفاسد وليته لم يحسب المسيحيين منهم. وعاد في أيامه اليهود والسامريون إلى منازلهم التي استطرقوها، فأمر الجنود بضربهم وقتل كثيرين منهم. وجاء في الكونيكون لأوسابيوس ان ثارت الحرب بين اليهود والسامريين أو استؤنفت سنة ١٩٩م. وذكر ابو الفرج بن العبري في تاريخه أنّ هذه الحرب كانت سنة ١٩٣م. وقال إنها كانت شديدة. وكيف كانت فقد خمد ساويروس لظاها حتى أرادت الندوة الرومانية أن تعتدها ظفراً مبيناً، واقامت لابنه كركلا حفلة لظفر ابيه باليهود وإحسانه تدير امور سورية كما روى سبرت أيضاً في ترجمة ساويروس.

الفصل الثاني

ما يؤخذ عن الآثار من تاريخ سورية في القرن الثاني والثالث

عد ٥٢٨

ما يؤخذ من ذلك عن آثار تدمر وخطوطها القديمة

إننا نتأوه كثيراً لبعثنا عن مكاتب اوروبا وقصر يدنا عن تقليب اساطير العلماء الذين نقبوا عن آثار سورية، وعلقوا عليها الشروح المسهبة، فلا يتيسر لنا الاطلاع في بلادنا إلا على نزر مما كتبوا، ويعز علينا الاستقصاء في متون الكتابات القديمة، فنضطر إلى أن نروي بالطل لا بالهطل على أنّ ما لا يدرك كله لا يترك جله فنروي ما اتصل الينا العلم به.

أولاً - إنّ اللغة التي كانت عامة سكان سورية تتكلم بها في القرن الأول وما يليه إنما هي اللغة الآرامية، وترى الخطوط القديمة (ما عدا قليلاً منها) وجدت بهذه اللغة. وهذه بيئة دامغة لما قلناه في الكلام على لغة المسيح ورسله إنها كانت سريانية آرامية، وإن سميت عبرانية نسبة إلى العبرانيين الذين كانوا يتكلمون فيها. وقال دي فوكوي في كتابه في سورية الوسطى وفي الخطوط السامية: «إنّ جميع الخطوط التي وفقنا إلى الكشف عنها لا تتجاوز القرن الأول قبل تاريخ الميلاد، واللغة التي كان شعوب سورية يتكلمون بها كانت اللغة الآرامية إلا ما ندر، وجميع الخطوط التي عثرنا عليها في تدمر وحوران وبلاد النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السريانية.

ثانياً - إن الظاهر من آثار كثيرة أنَّ قبائل من العرب بني سبأ ارتحلوا إلى سورية في القرون الأولى من التاريخ المسيحي. فإنَّ دي فوكوي قال في المحل المذكور إنَّ الخطوط التي كُشف عنها في صحراء الصفا، وفي جنوبي دمشق وشرقيها يظهر إنها فرع من الخطوط الحميرية، ويلزم أن تكون نقشتها قبائل بني سبأ التي هاجرت من العربية الجنوبية إلى سورية في القرون الثلاثة الأولى، وسمى هذه الخطوط سبئية. وكذا قال العالم وستون الذي كان قنصلاً لبروسيا في دمشق، ونقب عن الخطوط القديمة، ونسخ منها مئتين وستين خطأً عن صخور جبل الصفا، واشهر بعضها في كتاب سنة ١٨٦٠م مثبِتاً أن تلك الخطوط إنما كتبها قبائل هؤلاء العرب السبئيين الطاعنين إلى سورية. وقد انقسم هؤلاء إلى فصيلتين ظننت احدهما إلى ما بين النهرين فاقامت هناك مملكة الحيرة وتتالى ملوكهم بها. والفصيلة الأخرى اقامت في سورية في عصر ولادة المخلص، واحتلت انحاء دمشق، وسمي اهلها تنوخيين، وآخوا سكان البلاد الاصليين واستقطع بعض رؤسائهم الرومانيين. فولوهم على بعض الأعمال، وعقب هؤلاء قبيلة الصالحيين، وعزا هذا العالم إلى امرائها بناء بصرى في حوران سنة ١٠٦م وعاونوا الرومانيين على تأمين الصحراء.

ثم أتت على أثرهم في اواخر القرن الثالث فصيلة من بني ازد وسموا غسان نسبةً إلى ماء نزلوا عليه، وكانت منهم دولة اتفقت مع حكومة الرومانيين، وتولت جميع البلاد التي في عبر الاردن إلى ظهور الاسلام، وكان امراؤها يذبون عن تخوم البلاد مانعين سطو البرتيين والفرس وعرب الحيرة، ثم تنصروا وعنوا بتقدم العلم، والصناعة حتى كثرت آثارهم في حوران والجولان. وذكر دي فوكوي كثيراً من آثارهم في هذه البلاد وعدد وستون كثيراً من الأديرة والكنايس واقنية جر الماء المنسوبة إليهم. ووجد وديكتون خطأً يونانياً دالاً على ذلك هو الخط ٢١١٠ من الخطوط التي ذكرها، وكانوا يزيّدون على اسم ملوكهم المنذر، ويعزى إلى احدهم بناء قلعة البيضاء كشفت فيها عن خطوط كثيرة تؤيد ما مرّ. فبنو سبأ إذا استفحل امرهم في هذه البلاد وتركوا على صخوره خطوطاً دالة على ظعنهم إليها، واقامتهم الحصون والآثار فيها، وهذا يحقق ما رواه بعض المؤرخين المسلمين. قال ابو الفدا: «ملوك غسان كانوا عمالاً على عرب الشام وأصل غسان من اليمن من بني الازد بن الغوث، نزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا إليه، وكان قبلهم بالشام قبيلة يقال لهم الضجاجة... وكان ابتداء ملك غسان قبل الاسلام بما يزيد على

اربع مئة سنة وقيل اكثر من ذلك». ثم عدّد ملوكهم إلى ظهور الاسلام وقال في احدهم عمرو إنّه بنى بالشام عدة ديورة منها دير حالى ودير ايوب ودير هند. ثم قال في ابن ثعلبة إنه بنى صرح الغدير في اطراف حوران ومثل ذلك قال ابن خلدون عند كلامه في بني غسان.

ثالثاً - إنّ اهل هذه البلاد كانوا يؤرخون سنيهم بتاريخ السلوقيين وهي تبتدي في اول تشرين الأول من سنة ٣١٣ ق م، وكثيرون من العلماء يحسبون ابتداها في سنة ٣١١ ق م غير ملتفتين إلى الثلاثة الاشهر التي تسبق السنة المسيحية تسهيلاً للتوفيق بينهما وجميع الخطوط القديمة التي وجدت في تدمر وحوران وانطاكية وغيرها من اعمال سورية تراها مؤرخة بهذا التاريخ اليوناني.

رابعاً - يظهر من الخطوط التي وجدت في تدمر مدوّنة في القرون الأولى أنه كان للتدمريين ندوة كندوة رومة، فتراهم يعزّون آثارهم في اكثر خطوطهم إلى الندوة.

خامساً - يظهر من هذه الآثار أنّ التدمريين كانوا يعبدون ملاكبل، وهو اله شمسي وتيمي وتأويله النجاح أو الحظ، وكان العرب يقولون تيم الله أي عبدالله ثم اترغات معبودة السريان مقترنة مع هدد وشمس أي الشمس واللات معبودة العرب التي كان مقامها في الطائف، وهذا ظاهر من خطوط عديدة ذكرها دي فوكوي في المحل المذكور وخصصها الخط الثالث من خطوط تدمر الذي وجده على صفيحة في مدفن الاسلام حيث قيل: «هذا التمثال لاستالي بن حيران اقامته له الندوة لأنه دفع دخلاً سنوياً للذبائح لتقدّم إلى ملاكبل، وتيمي واطرغات الآلهة الصالحين، وكان قيام ذلك في شهر تموز سنة ٤٥١ (يونانية توافق سنة ١٤٠ للميلاد)، ومن الخط الثامن الذي وجده على اعمدة هناك حيث يقال اقيم هذا التمثال لفلان الذي اقام ستة اعمدة ولوّنها تكرمةً لشمس (الشمس)، واللات حملته على ذلك عبادته للآلهة الصالحين اقيم في آذار سنة ٤٤٠ (يونانية توافق سنة ١٢٩ للميلاد).

سادساً - كان لتدمر في تلك الايام تجارة واسعة منبسطة إلى جهات عديدة موصلة بين المشرق والمغرب، فكانت محطة لسلع التجارة الآتية من بلاد الفرس والهند وكانت قوافلها تسير لذلك في دجلة والخليج العجمي، ثم توزّع هذه السلع في المشرق والمغرب، وكانت طريق القوافل في البرية كما هي اليوم، فكان يلزمهم أن يستأجروا أو يسترضوا قبائل العرب الرحّل المنتشرة في تلك الصحارى، وان يتألب

احتياطاً عدد غفير من الرجال والجمال ليعاونوا هذا السفر مدة شهرين، وكان لهم طريقان: الأولى شمالية مؤدية إلى سلوقية التي في ما بين النهرين، ثم تجتاز في ارض البرتيين اعداء الرومانيين الالداء. والثانية جنوبية تمتد في بلاد العرب لا تحف بالمسافرين فيها الأخطار التي تحفهم في بلاد البرتيين. ولهذا كان التدمريون يراعون مرضاة الشعبين المتنازعين أي الرومانيين والبرتيين، ويخضعون ساستهم لما تقتضيه مصالح تجارتهم حتى كانوا يسرون آمنين في الطريق الشمالية. ولذلك قال فيهم ابيان المؤرخ ناقماً منهم إنّ هؤلاء تجّار يستأثرون من عند الفرس بضائع الهند والعربية ويبيعونها للرومانيين. وقال بلين (في التاريخ الطبيعي ك ٢٢) إنّ مال تجارتهم مع روما وحدها لا يقل عن مئة مليون دينار. وكانوا يجلبون رؤساء القوافل ويعظمون قدرهم، حتى كانوا ينصبون لهم التماثيل مكافأة لهم وانشاطاً لنيرهم. ومما يدلنا على ذلك الخطوط الكثيرة التي اكتشف عنها دي فوكوي في تدمر مبيّنة أنّ التدمريين اقاموا تماثيل لكثيرين منهم امتازوا بتسييرهم القوافل وتأمينهم لها بحذاقتهم منها الخط الرابع مما ذكره العالم المذكور حيث كُتب على تمثال: «إنّ هذا التمثال اقيم لليونوس اورليوس زبيدة مكافأة له على تسييره القافلة التي سار معها إلى فولوجزيا (مدينة بناها على الفرات فولوجز الأول ملك البرتيين). تجلة استحقها في شهر نيسان سنة ٥٥٨ يونانية توافق سنة ١٤٧ للمسيح). والخط الخامس الذي كُتب فيه: «هذا التمثال اقامه لمرقس اسكندر رجال القوافل الآتية من كرك لأنه ترأس عليهم في شهر آب سنة ٤٦٦» (يونانية توافق سنة ١٥٥). والخط السابع الذي كتب فيه هذا التمثال اقامته الندوة والشعب تكرمة لليونوس اورليوس سالمالات لأنه سَير القافلة مجاناً على نفقته سنة ٥٦٩ (يونانية توافق سنة ٢٥٧ أو سنة ٢٥٨ مسيحية).

سابعاً - وكان من عادة عامة التدمريين الموسرين أن يقيموا أعمدة لزينة مدينتهم، فكانت هذه العادة جارية ايضاً في مدن سورية الكبيرة المبنية في هذا العصر. ويُستدل على ذلك بعدة خطوط ذكرها دي فوكوي في كتابه المذكور منها الخط الذي قيل فيه أنّ هذا التمثال لفلان اقامه بنو فلان (الاسم محطم) تكرمة له لأنه نصب ستة اعمدة، وزينها بالالوان تكرمةً لشمس (الشمس)، والللات في آذار سنة ٤١٠ (يونانية توافق سنة ١٢٩م)، والخط الحادي عشر الذي كُتب فيه أنّ هذا التمثال نصبتة الندوة لسوراكو بن حيران تجلة له، لأنه اقام فوق هذه الرفات سبعة اعمدة مع زينتها ودربزونات من الصفر في آذار سنة ٤٩٠ (يونانية توافق سنة ١٧٩ للميلاد).

ثامناً - إنّه كان في تدمير في هذا القرن جماعة من اليهود أنبأنا بذلك المؤرخون إذ قالوا: إنّه بعد خراب أورشليم ارتحل كثير من اليهود إلى تدمير واقاموا فيها وتوفر عددهم وثروتهم، وجاءت الآثار مثبتة ذلك منها الخط الثالث عشر من الخطوط المذكورة حيث قيل هذا التمثال لمرتا بنت بادا بن وهيلات بن سمعان اقامه سوراىكو بن حيران زوجها بعد وفاتها تكرمة لها في شهر آذار سنة ٤٩٠ (يونانية توافق سنة ١٧٩م)، فاسما مرتا وسمعان دالان بلا مرء على أنّ هذه الاسرة يهودية، والخط الخامس والستون حيث كتب أن هذا المدفن والمسكن الأبدي مع زخرفه كله بناء زبيدة، وصموئيل بن لاوي بن يعقوب بن صموئيل تكرمة للاوي ابيهم ولا نفسهم، واولادهم واولاد اولادهم في شهر نيسان سنة ٥٢٣ (يونانية توافق سنة ٢١٢). ولا شك في أنّ هذه الاسماء يهودية واستمر اليهود قروناً بعد ذلك في تدمير، فقد روى بنيامين من دي تودل في كتاب رحلته فصل ١١ أنه زار تدمير سنة ١١٧٢م ووجد فيها من اليهود نحو ألفي نفس والخط المذكور مؤذن بأن اليهود كانوا حينئذ اغنياء وكانوا في الحقوق اسوة سكان تدمير.

تاسعاً - أنبأنا آثار تدمير ايضاً بأسرة أذينة التي ملكت في هذه المدينة وانيسط ملكها إلى مصر ايضاً في ايام اذينة الثاني، وزوجته زبيدة أو زينب مفصلة افراد هذه الاسرة. فقد جاء في الخط ٢١ من الخطوط المذكورة: «إنّ هذا المدفن بناء اذينة رجل الندوة ابن حيران بن وهيلات بن نصور لنفسه وابنائهم وابنائهم». وفي الخط الثاني والعشرين: «هذا التمثال لسبتيموس حيران بن اذينة رجل الندوة الشريف وامير تدمير اقامه له اورليوس فيليسوس.... رئيس الجنود في بصرى تكرمة له في شهر تشرين سنة ٥٦٣» (يونانية توافق سنة ٢٥١م). وفي الخط الثالث والعشرين: «هذا التمثال لسبتيموس أذينة الرجل القنصلي الشريف، ومولانا اقامه له جماعة الصياغ الذين يشتغلون بالذهب والفضة تكرمة له في شهر نيسان سنة ٥٦٩» (توافق سنة ٢٥٨م). وفي الخط الثامن والعشرين: «تمثال لسبتيموس اذينة ملك الملوك الذي اسف على فقدته الوطن بجملته، اقامه له سبتيموس زبدى القائد العام وزباى قائد تدمير بما أنه مولاهما في شهر آب سنة ٥٨٢ (يونانية توافق سنة ٢٧١م) وفي الخط التاسع والعشرين «تمثال لسبتيموس بتزينة (وهي زينب الشهيرة) الملكة البارة والعادلة، اقامه لها سبتيموس زبدى القائد العام وزباى القائد في تدمير تكرمة لمولاتهما في شهر آب سنة ٥٨٢» (يونانية توافق سنة ٢٧٢م).

فكان المتحصل من هذه الآثار أنَّ آل اذينة كان جدُّهم الأول في هذا القرن الثاني نصُّور ثم وهبلات، وحيران الذي ذكرنا آنفاً أنه عاون سبتيموس ساويروس في حربه مع البرتيين، فجعله عاملاً على بعض البلاد في اواخر القرن الثاني، ثم ابنه سبتيموس اذينة الأول ثم اذينة الثاني التي كانت امرأته بتريينة، وهي زبيدة أو زينب. فبعد إن رفع سبتيموس ساويروس مقام حيران وولاه ورخص له أن يتسمى باسمه سبتيموس في آخر القرن الثاني رُقي اله في أيام اسكندر ساويروس إلى مقام رجال الندوة، واثَّروهم الرومانيين على تدمر وما يليها وحاول سبتيموس اذينة الأول سنة ٢٥٠م أن يخلع نير ولاية الرومانيين فقتله روفينوس قائد جيش الرومانيين، ولكن حالقهم ابنه سبتيموس حيران سنة ٢٥١م فتركوه والياً على تدمر، ولما مات سنة ٢٥٨م سمو ابنه سبتيموس اذينة الثاني خلفاً له ملقباً بالرجل العظيم القنصلي، وقد انتصر على الفرس سنة ٢٦٠م واخذ يسمى ملكاً، واقتر له كاليان الملك بملكه سنة ٢٦٤م فاخذ لقب ملك الملوك على عادة الشرقيين، ولقب امبراطور على عادة الرومانيين إلى أن قتله معونيوس احد انسابائه سنة ٢٦٦م واتبع به ابنه البكر المسمى هيرودس. وفي ١٩ آب سنة ٢٦٦م رقى ابنه وهبلات واثنين مع امهم زينب إلى عرش الملك فانبسط حكمهم واستفحل امرهم، واستحوذوا على مصر سنة ٢٦٧م بواسطة قائد جيشهم سبتيموس زبدى. وسنة ٢٧٠م استولى اورليان على منصة الملك في رومة واقرو وهبلات في مصر وسورية بصفة رجل قنصلي وامبراطور، وقائد الرومانيين. وسنة ٢٧١م حصلت النفرة بين اورليان وهبلات فلقلب هذا نفسه باغسطسوس ولكن ادركته المنية في تلك السنة، فاخذت زبيدة الملك باسم ابنيها هيرانيانوس وتيمولاولوس وفي الحريف سنة ٢٧٢م تأججت نار العداوة والحرب وكسر جيش زبدى في مصر وفي سنة ٢١٢م انكسرت عساكر زبيدة وسبتيموس زباى في حمص، واستظهر اورليان عليهما وفي سنة ٢٧٣م حاصر تدمر وافتحها واخذ زينب إلى روما ذكرنا كل هذا هنا بياناً لتاريخ هذه الأسرة. وسنزيده بياناً في كلامنا على تاريخ القرن الثالث.

عاشراً - يترجَّح الرأي بوجود مسيحيين في تدمر في القرن الثاني. فقد وجد فيها خط كتب فيه صورة حرف X في اليونانية واللاتينية مرتين قبل فقرة التاريخ وبعدها خلواً من أن يكون له علاقة بالكلام أو يقتضيه معنى من المعاني، وهذا الخط هو السادس والسبعون من الخطوط التدمرية التي ذكرها دي فوكوي وهذه ترجمته: «لمن فليكن اسمه مباركاً إلى الابد اقام هذا المذبح سلمون بن نيزا بن

تصديداً بن باراق لخلاصه وخلاص اولاده X في شهر نيسان سنة ٤٤٧ X (توافق سنة ١٣٥م) ولما كانت صورة هذا الحرف أشبه بصورة صليب ويتنديء به اسم خريستوس المسيح في اليونانية استعملها المؤمنون في المغرب من اقدم الدهر للدلالة على تكريمهم للصليب، وعلى أنهم مسيحيون ولجانبهم المجاهرة بذلك تفادياً من الاضطهاد، وهذا ليس من يمتري فيه وقد أثبت العالم دي روسي في تفسيره الخطوط المسيحية في قرطجنة أن علامة الصليب كانت أول علامة استعملها المسيحيون قبل القرن الرابع اخفاءً لتعبدهم للمصلوب، وأورد لذلك أمثلة عديدة مأخوذة عن الخياي أو منقوشة على رخام المدافن أو على كلس جدرانها، وكل تاريخ الكنيسة في الأعصر الأولى يبين لنا أن كل ما في المغرب من أشعة الدين وكثير من الألفاظ الكنسية انتقلت إليه من المشرق، ونرى علامة الصليب في كثير من آثار سورية بعد القرن الرابع دالة على ما مرّ. وقد اورد العالم روسي كثيراً من الآثار المسيحية في سورية يتبين منه أن المسيحيين فيها كانوا يستعملون هذه العلامة للدلالة على مذهبهم، فكل ما مرّ يحملنا على القول بنوع من التوكيد أن هذه العلامة استعملت للدلالة على المعنى المذكور لولا في سورية، وانها في الخط المذكور للدلالة عليه والعبارة الأولى منه وهي: «لمن فليكن اسمه مباركاً إلى الأبد». تساوى قول الكتاب فليكن اسم الرب مباركاً وإن امكن أن يستعمل هذه العبارة اليهود والوثنيون ايضاً، وقد ورد مثلها في أكثر الخطوط التي ذكرها دي فوكوي مأخوذة عن المذابح والمقامات الدينية مزاداً عليها الإله الرحيم الصالح، ويستفاد من ذلك أن وصف الله بالرحمن الرحيم كان قبل الإسلام ايضاً.

عد ٥٢٩

ما يؤخذ من تاريخ هذا القرن عن الآثار في حوران وما يليها قد وجد في السويداء خط نقش بالآرامية واليونانية على الواجهة الشرقية من مدفن كبير فيها ذكره دي فوكوي في صدر الخطوط التي عثر عليها في حوران وهذه ترجمته: «اثر لكمرة (أو لحمرة أقامه لها اذينة بعلمها». وفوق المدفن المذكور قبة كبرى محلاة بأعمدة وكان فوقها هرم لم يبق منه إلا اسافله، ويظهر من هيئة البناء أنه قديم حتى ظن دي فوكوي: إنه بنى في أيام هيرودس الكبير، ورجح ودينكتون أن بناءه كان في أيام اغريبا (خط ٢٣٠٨)، وأما من هو اذينة هذا الذي بنى هذا الأثر الجميل لامرأته. اثبت دي فوكوي أنه ليس امير تدمر، وروى كوسان

دي برسفال (في تاريخ العرب قبل الاسلام مجلد ١ صفحة ٢٣): إن اذينة هو رئيس بني السميزع وأنه كان ذا دولة صغيرة على تخوم سورية والبرية في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد وارتأى ودينكتون (في خطوط سورية خط ٢٣٠٨) إن باني هذا المدفن هو رئيس بني السميزع الذي كان في القرن الأول من التاريخ المسيحي، ويؤيد ذلك خط آخر كشف عنه هذا العالم في اخربة السويداء كتب باليونانية في أيام كمود الملك في القرن الثاني، يتبين منه أنه كان بين سكان هذه المدينة بطن أو اسرة تسمى بني السميزع، والكلمة اليونانية تقرب كثيراً من كلمة بني سميزع في العربية، ومنها في الآرامية وكانت السويداء موطن هذه الأسرة. وقد تبين قيام آل السميزع في هذه الناحية بخط آخر يوناني عثر عليه ودينكتون في اذرع اللجا، وهو الخط ٢٤٩٥ من خطوطه وكلماته باليونانية تقرب من هذه الكلمات العربية «حبيبة السميزعة بنت نعم»، فكل ذلك مؤذن بان هذه المرأة ومن بنى قبرها كانا من فصيلة السميزع العربية، وجعلها بعضهم اصلاً لبني اذينة الذين سماهم العالم كوسان دي برسفال (ك٢) في تاريخ العرب ذرية السميزع وقد حكم بنو السميزع زماناً طويلاً على تخوم الأملاك الرومانية، على أن استعمال اللغة الآرامية في هذا الخط لا العربية لا ينتج منه ما ينفي كون اصل القبيلة عربياً فإن المهاجرين الأولين من العرب إلى سورية وجدوا لغة عامة سكانها آرامية ولغة خاصتهم يونانية فاستعملوا اللغتين في الكتابة على آثارهم التي أرادوا تخليد ذكركم بها، وتلك بيئة اخرى قاطعة بأن لغة عامة السوريين في القرون الأولى كانت آرامية، ولما توفر عدد المهاجرين من العربية إلى سورية لا سيما بعد الإسلام خلفت لغتهم العربية لغة الوطنيين الآرامية.

يتبين من الآثار والخطوط التي كشف عنها في حوران واللجا وما يليهما أن هذه البلاد كان يليها ملوك من النبطيين في القرن الأول قبل الميلاد، وفي القرن الأول ومبأدي الثاني وبعده وأول هؤلاء الملوك هو حارثة أو ارتياس فيلالين وحكم من سنة ٩٥ إلى سنة ٥٠ ق.م وكان مركز ولايته دمشق، ووجد له مسكوكات يونانية في هذه المدينة، وقد تداخل في المنازعات التي كانت بين الاميرين المكابيين هركان وأرسطوبولس متشيعاً للأول منهما حتى أتى، وحاصر أورشليم وردة عنها توسط الرومانيين، وقبض بمبايوس على هذا الملك في مدينة بترا (حجر) في العربية سنة ٦٥ ق.م ثم جدد الثورة، فانتصر عليه سكورس نائب بمبايوس سنة ٦٢ ق.م وطبع صورة انتصاره على الدنانير الرومانية التي ضربها بالفضة التي اخذها من

حارثة المذكور، وقام بعده ملك اسمه ملك ويكتب اسمه ملكوس أو ملكيوس إلى الصيغة اليونانية واللاتينية واستمر ملكه من سنة ٥٠ إلى سنة ٢٢ قبل المسيح. وكان معاصراً لهيرونس الكبير، وكانت بينهما حروب طويلة كان الظفر فيها تارة لملك وتارة لهيرونس، وتداخل في المنازعات التي كانت بين القواد الرومانيين طلباً لمصلحته فكان منجداً لبمبايوس ثم لقيصر ثم لمركس أنطونيوس واكتاف اغوستوس وقد وجد دي فوكوي خطأً في بصرى في حوران منقوشاً على مذبح فيها: وهو الخط الرابع من الخطوط النبطية قيل فيه «اقام هذا المذبح نترال بن نترال للإله كاسيوس في السنة ١١ للملكيوس الملك».

وخلف ملكاً اوباداس أو عوباد ودام ملكه من سنة ٣٣ إلى سنة ٧ق. م لكنه كان غفلاً، ترك تدبير المملكة لوكيل له يسمى سيلوس فأوقع الخصومة بين مولاه وهيرونس، وأتى إلى رومة يسأل أغوستوس أن يجعله ملكاً على بترا فحبط سعيه إذ ناصبه نيقولوس الدمشقي سفير ملك اليهود، ولم يعثر حتى الآن على خط أو سكة لعوباد، ويظهر أنه في أيامه بنى مليكة الهيكل لبعل شمآيم الباقية اطلاله في سياح على مقربة من قنوات فنصب لهما بنو عبيسة سكان هذه المدينة تمثالين رأسهما الآن في متحف اللوفر في باريس، ونصب أحد آل عبيسة ايضاً تمثالاً لهيرونس الكبير الذي مدّ ولايته إلى حوران فكسر المسيحيون في القرون الأولى هذا التمثال، ووجد دي فوكوي الخطوط الثلاثة المؤذنة بما تقدم وذكرها بين الخطوط التي عثر عليها في حوران.

وخلف عوباد ابنه حارث أو حارثة ويسميه اليونان ارياس ودام ملكه من سنة ٧ق م إلى سنة ٤٠ م بعده وكان له امرأتان صلدة وصقيلة وكان حما هيرونس انتيباس رئيس الربع في الجليل، وقد أشهر ارياس الحرب على هيرونس لزواجه على ابنته بهيرونديا وانتصر عليه، فأرسل طيباريوس فيتيليوس لنجدة اليهود على أن وفاة طيباريوس سنة ٣٧م غيرت سياسة الرومانيين. فإن كاليكولا رضى عن ارياس ووسع تخوم ملكه وأعطاه دمشق. وكان يدبر هذه المدينة بواسطة نائب عنه عند هرب بولس منها سنة ٣٩م وعزا إليه دي فوكوي خطأً وجد في صيدا على صفيحة من رخام قيل فيها: «هذه الصفيحة قدمها... الحاكم ابن زويلا للإلهة دوزارا (ربة كان يعبدها العرب لا سيما في حجر واذرعات وبصرى) في شهر... سنة ٣٢م لأرياس (لحارثة).

وخلف أرياس ابنه ملك أو ملكوس الثاني ودام ملكه من سنة ٤٠ إلى سنة ٥٧ بعد المسيح، ويظهر أنه ابن أرياس من خط ذكر دي فوكوي أنه وجد مكتوباً

على صفيحة فوق باب كنيسة سرخد قيل فيه: «هذا الأثر أقامه رواهو بن ماتابو... للات ربتهم المستقرة في سرخد... في شهر آب سنة ١٧م للمكوس ملك نباط بن حارث ملك نباط المحب لشعبه». ودام على كرسي الملك لا أقل من ثلاث وثلاثين سنة كما يظهر من بعض المسكوكات وهو الذي أتى بجيش لنجدة فسبسيان في حربه مع اليهود سنة ٦٧م. وخلفه ابنه، دابل أوزابل وبقي في الملك من سنة ٧٥ إلى سنة ١٠٥م وكانت وصية عليه أولاً أمه المسماة صقيلة ثم اشترك في الحكم مع امرأته المسماة جميلة، ودام حكمه لا أقل من خمس وعشرين سنة كما يظهر من خط وجدده دي فوكوي منقوشاً على صفيحة فوق شبايك كنيسة سرخد قيل فيه: «أقامه قصيو ابن أذنية... لامرأته وغدة في السنة ٢٥م للملك دابل» ولعله كان الملك الأخير من النبطيين الذي أذل أمام كرنيليوس بلما، إذ اخضع العربية للملك تريان سنة ١٠٥م كما مرّ. قال دي فوكوي: هذه سلسلة الملوك النبطيين على ما ظهر لنا من خطوطهم، ونحن بها موقنون إلى أن يظهر الخلاف. وعقب ذلك هذا العالم بقوله وكان هؤلاء النبطيون يتكلمون باللغة الآرامية كما يظهر من الخطوط التي ذكرناها، ولم يبق محل للجدال أو الامتراء في هذه المسألة بعد ما تبين من الآثار وما ذكره مشاهير العلماء، منهم العلامة كترمار في الجريدة الآسيوية سنة ١٨٣٥م وقد كان لهؤلاء الملوك أهمية كبرى في سورية الوسطى، وبلاد العرب في القرنين اللذين قبل الميلاد وفي القرن الأول ومبادئ الثاني بعده.

وكانوا ذوي دولة وسطوة وتجارة منبسطة في الآفاق ولهم خطوط كثيرة وآثار عديدة في مدينة بترا ثم انقرض ذكرهم من العالم وإن وجد بعض أفراد يسمون باسمائهم في القرون الوسطى. وقد اختلف في أصلهم فذهب العلامة كترمار وشلصون إلى أن أصلهم قديم جداً، وأنهم ليسوا إلا فصيلة من الآراميين هاجرت من المشرق إلى المغرب في أيام بختنصر، إلى أن قال دي فوكوي لا أريد الدخول في هذا المبحث لأن الخطوط التي عثرنا عليها لم تنوّره بشيء واجتزىء بالقول: إنه لا يلزم التعجيل في نسبة شعب إلى الأصل الآرامي سنداً إلى أنه يتكلم باللغة الآرامية لأنه لو صحّ ذلك لصحّ أنه لم يبق في المشرق إلا شعوب ارامية فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد إلى ظهور الاسلام كانت اللغة الآرامية هي اللغة التي يتكلم بها عامة جميع الشعوب الساكنين بين بلاد فارس ومصر واليهود والساميين المتوطنين في مصر وآسيا الصغرى أُنْتُج من ذلك أن هؤلاء الشعوب كلهم آراميون؟ لعمري لا تصح هذه النتيجة إلا إذا صحّ أن سكان مصر والبربر كلهم عرب لأنهم من عشرة

قرون يتكلمون اللغة العربية لا في سورية وبين النهرين فقط بل في شمال افريقيا أيضاً. والذي اراه أن النبطيين الغربيين اصلهم من العرب فان صورة اسماء الاعلام عندهم واسماء معبوداتهم واستعمالهم ال حرف التعريف وتسمية يوسفوس لهم عرباً تبين كون اصلهم كذلك، وقد اخذوا تدريجياً يتكلمون الآرامية كحيرانهم في سورية واليهودية لتغلب هذه اللغة في هذه البلاد، بل كانوا يكتبون اليونانية ايضاً لتغلبها عند العلماء وفي الكتابات الرسمية عند مواطنيهم.

عد ٥٣٠

آثار أخرى في القرن الثاني في أنحاء عديدة من سورية

إن في بصرى في حوران مشهد قديم لا يمتاز في إنشائه في القرن الثاني لتاريخ الميلاد وهو على جانب كبير من العظمة، وقد حفظ خارجه بنوع أنه لو رفع البناء الذي استحدث فيه لظهرت للعيان الهيئة الداخلية للمشهد القديم، وقد حوله السلاطين الايوبيون إلى قلعة، وبنوا فيه أبراجاً نقلوا إليها الحجار التي كانت في المشهد، وهي ضخمة حتى كان طول بعضها خمسة أمتار. والخطوط العربية المنقوشة عليه تبين أن هذا التحويل كان في النصف الأول من القرن السابع للهجرة. ثم إن في الطريق الرومانية المؤدية من دمشق إلى بصرى مخفرة رومانية في قرية اسمها مسمية في اللجا، فهذه المخفرة بنيت في أيام الملكين مرقس اورليوس ولوشيوس فاروس من سنة ١٦٠ إلى سنة ١٦٩م في ولاية افيديوس كاسيوس نائب سورية الشهير بثورته كما مرّ، وإدارة أنتيسيوس فوسقوس قائد مئة في الفرقة الثالثة المسماة افرنسية، وكل ذلك بين من خطوط منقوشة على حجارة هذا الاثر وذكرها ودينكتون في عد ٢٥٢٤ و ٢٥٣٧ من الخطوط التي ترجمها، ويظهر أنه استحدث فيها شي جديد بعد بنائها في ذلك العصر، وقد تحولت بعد ذلك هذه المخفرة إلى كنيسة مسيحية فأحدث ذلك التغيير في هيئتها الأولى.

إن في قرية شقة في حوران أثر يسمى قيصرية شقة، ولا ريب في أن هذا الأثر كان مقراً للعامل الروماني، فإن هيئته تبين أنه لم يكن بيتاً للسكن بل مجموع ردهات معدة للاجتماع ولقضاء مهام الحكومة، وابواب هذا المحل وشبائكه وكل ما فيه من الاغلاق في الداخل هو من الحجارة كعامة الأبنية القديمة في حوران، وهيئة البناء والنقوش في هذا الاثر كهيئتها في باقي الابنية التي أنشئت في سورية في عهد الملوك الرومانيين، وكهيئتها في بعلبك وتدمر مع بعض تغيير في دقة النقش لصلاية

الحجر في حوران، ولهذا يعزى بناء هذا الاثر إلى القرن الثاني أو مبادئ الثالث، إلا أنه في القرن الرابع تحول هذا البناء إلى معبد مسيحي، ومحي منه بعض الاشعة الوثنية ونقش عوضها حرف X لدلالة هذا الحرف على الصليب بهيئته، ولأنه صدر كلمة خريستوس (المسيح في اليونانية). وتوجد آثار أخرى ككنيسة شقة المذكورة ودير فيها وكنيسة في قرية نفخة، وكنيسة ما جرجس في اذرع، فجميع هذه المحال أصل بنائها روماني ومحولة في القرن الرابع أو الخامس إلى كنائس ومعابد.

وفي قرية سيس في الصفا قلعة وحولها اسوار يظهر إنها كانت من المخافر التي أقامها الرومانيون في القرن الثاني على تخوم البرية منعاً لمهاجمات الرحل عن السطو على املاكهم. وقد مر ذكرها وقول دي فوكوي في مجلد ١ صفحة ٧١ في كلامه في هذه القلعة إنها كانت آخر ما انتهى إليه في برية سورية وإنه لم يصل قبله أوروبي إلى هذه الاقاصي.

ومن آثار هذا القرن مدفن في الجبل الاعلى في قرية اسمها بشيدلايا على جانب من العظمة، وقد كتب عليه: «طيباريوس كلوديوس أقام لطيباريوس سوزندروس أبيه ولكلوديا كياروس أمه هذا الشاهد على تقواه، وحسن ذكره سنة ١٨٢ في ٢٧ من شهر ديستروس استودعك الله يا أبي سوزندروس». ومثل هذه الكتابة على صفيحة في أعلى عمود من حجر واحد علوه سبعة امتار مقام في جانب هذا الاثر أن التاريخ المنقوش عليه هو التاريخ الأنطاكي ويوافق ٢٧ نيسان من سنة ١٣٤ للمخلص. وهناك ايضاً مدفن آخر في قرية اسمها خاتورة أقيم لعامل روماني اسمه أميليوس رجينوس ومن حوله اعمدة مزدوجة وقد كتب عليها خط يتبين منه أن هذا المدفن اقيم في ٢٠ تموز سنة ١٩٥.

عد ٥٣١

ذيل في مشاهير سورية الدنياويين في القرن الثاني

من هؤلاء بولورد ولد في دمشق لنحو سنة ٦١ للميلاد. وكان مهندساً شهيراً في أيام تريان، وهو الذي بنى له الجسر على نهر الدانوب، وأقام عمود تريان وغيره في رومة من الآثار التي تنزل المنزلة الأولى في غريب الصناعة، وقد حدثه تريان يوماً في هندسة بناء فتطفل أدريان مبدياً رأيه، فسخر منه أبولورد قائلاً له اذهب فاشتغل في تصوير يقطينك. وقد كان رأي ادريان يوماً ما مشتغلاً بتصوير

اليقطين، فلما ارتقى أدريان إلى منصة الملك نفاه ثم قتله سنة ١٣٠م ونقض كثيراً من الآثار التي كان بناها.

ومنهم إميل بابينيان وكان من بيروت وأستاذاً في مدرسة الفقه فيها في القرن الثاني، وهو من أشهر الفقهاء الرومانيين وكان سبتيموس الملك من رفقائه في المدرسة. ويروى أنه كان نسيباً للملكة دمنيا بنت كاهن حمص، وقرينة هذا الملك ولذلك اعزّه وقربه إليه، ورفع منزلته عنده بعد أن كان مرقس أورليوس أقامه محامياً لدعوى الحكومة، ثم رئيساً على الحرس مع ولاية القضاء سنة ٢٠٣م وبقي في هذا المنصب إلى سنة ٢١٢م حين حكم عليه كركلا الملك بالموت، وذلك أن سبتيموس ساويروس أوصى بابينيان عند موته بابنيه كركلا وجيتا فقتل كركلا أخاه، وأراد أن يجبر بابينيان على أن يؤلف خطبة يبرئ بها ساحة القاتل من هذا القتل، وأن يتلوها بحضرة رجال الندوة والشعب فأجابه بابينيان: «إن اقتراف معصية القتل لا يسر من التبرئة منها، واتهام البريء بعد قتله إنما هو قتل آخر له». فاسخط هذا الجواب كركلا، فأمر بقطع رأسه ونفذ أمره سنة ٢١٢م. وله تأليف وتصانيف عديدة أهمها سبعة وثلاثون كتاباً في المباحث وتسعة عشر كتاباً في الأجوبة ابتداءً فيها في أيام كركلا وجيتا وربما لم يكملها، وكان له بعد موته اعتبار سام وشهرة طائفة في الآفاق حتى عده واضع الشرائع سنة ٤٣٦م في أيام توادوسيوس بين الخمسة الفقهاء الذين تنزل أقوالهم منزلة شريعة، وإذا تعارضت أقوالهم فالعمل بقوله. على أن تأليفاته لم تصل إلينا كاملة، ولكن وجد منها خمس مائة واحد وتسون فقرة في شرائع يوستينيانوس المسماة دي جستني، وثلاث وأربعون فقرة في كتاب قديم في الفاتيكان. ووجد بعض فقرات من الكتاب الخامس في الأجوبة في كتاب قديم كتب على رقي عثر عليه حديثاً في مصر، ذكر ملخصها في منشورات الأكادمية في برلين سنة ١٨٧٩ وسنة ١٨٨٠م.

ومنهم أولبيان وهو من الفقهاء الرومانيين أيضاً. وذهب بعضهم أن مولده بيروت وغيرهم أنه صور. وقد ولد في القرن الثاني وتوفي في القرن الثالث سنة ٢٢٨م. وكان معاوناً لبابينيان في رئاسة الحرس، ويظهر أنه نفى سنة ٢٢٢م بأمر الملك اليوكبل، ثم استرده اسكندر ساويروس دون إبطاء، وأقامه أولاً في منصب فحص الدعوى ثم عضواً في ديوان مشورة الملك ثم رئيساً على الحرس، وولاية القضاء، واستمر في هذا المنصب الأخير من أول كانون الأول سنة ٢٢٢م إلى أن قتله الحرس سنة ٢٢٨م. وقد

الف كثيراً من الكتب واهمها تفسيره بعض الشرائع وكل ما امكن معرفة تاريخه من تأليفه ألف من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٧م، أي في مدة الخمس السنين التي ضبط فيها كركلا زمام الملك. وتوصف تأليفه بالبتات والوضوح على أن تعجيله في إنشائها اوقعه في نقائص عديدة، تعقبه بها العالم برئيس سنة ١٨٨٥م. وفي شرائع يوستينيانوس ٢٤٦٢ فقرة من تأليفه التي لم يبق لنا منها كتاب كامل إلا كتابه الموسوم بالكتاب المفرد في القواعد، وقد كان منه نسخة قديمة في المكتبة الفاتيكانية فطبعها العالم دي تيلت سنة ١٥٤٩م لكنها غير صحيحة النقل.

ومنهم يوليوس بولس وهو من الفقهاء الرومانيين ذهب بعضهم أن منشأه صور، وغيرهم بادوا في إيطاليا وكان معاوناً لبابينيان في رئاسة الحرس أيضاً وعضواً في ديوان مشورة الملك سبتيروس ساويروس. فقد نفاه الملك اليوكبل ولكن أعاده الملك اسكندر ساويروس ونصبه رئيساً للحرس. وقد فاق جميع الفقهاء الرومانيين بكثرة التأليف التي وضعها وقد ربت مصنفاته على الثمانين كتاباً، وأكثرها مطول جداً ككتابه في تفسير الشرائع، ومن تأليفه في شرائع يوستينيانوس ألفان وثمانون فقرة، وقد ترجم منها بإيجاز كتاب موسوم بالخمسة الاسفار في الأحكام، وقد وصل إلينا هذا الكتاب بين كتب شرائع الرومانيين في أيام الفيزيكونت أي الغطط الغريين.

ومنهم مكسيموس الصوري وهو فيلسوف أفلاطوني، ولد في صور في القرن الثاني وطاف في العربية وفريجية، واتى رومة في أيام كمود الملك وأنهى حياته في بلاد اليونان، وظن بعضهم أنه كان من المريين لمقس أوليوس، وله ٤١ مقالة في المباحث الفلسفية والادبية ونفسه فيها جلي عذب، وقد نشرها دانيال هنسيوس مع ترجمتها إلى اللاتينية سنة ١٦١٤م في لايد ثم طبعت في لبيسيك سنة ١٧٧٤م وترجمتها إلى الافرنسية كمبدونو سنة ١٨٠٢م. وقد ذكر اوسابيوس في الكرونيكون إنه كان شهيراً في هذا القرن، وذكر ايضاً أنه كان في هذا القرن فيلسوف آخر من بيروت اسمه تورس لم نعر على شيء من ترجمته وكان ايضاً في منتصف هذا القرن تريفون اليهودي، فقد كان مّر في فلسطين في مدة الحرب الاخيرة، وتوطن بلاد اليونان مقيماً في قرنتية وانعكف على درس الفلسفة كما يظهر من كلامه في جداله مع القديس يوستينوس الآتي ذكره، وقال اوسابيوس فيه إنه اشهر اليهود في عصره.

ومنهم لوسيان السميساطي ولد في سميساط في سورية سنة ١٣٧م وعلى رواية أخرى سنة ١٢٠م وسماه بعضهم فولتر عصره تعلم أولاً صنعة نقش التماثيل ثم درس الفقه، وصار محامياً للدعوى. ثم انكب على درس الفصاحة والفلسفة، وطاف في آسيا وبلاد اليونان وفرنسة وإيطاليا، وأقام في أثينا وعمره نحو أربعين سنة يدرس الفلسفة على ديمونكس الفيلسوف، وكتب كتباً كثيرة يندد فيها بعادات الناس وأوهام معاصريه، وأقامه مرقس أورليوس عاملاً في مصر فشكاه مسودوه وبرأ ساحته بحماة توصلت إلينا، وله غيرها نحو ثمانين تأليفاً أشهرها مباحثه في الآلهة وفي الموتى، وفي نسق كتابة التاريخ. وقد أكثر في كتبه من الهزل والتهكم ولم يكن من الدين على شيء، وكان يتهم على مدارس الفلاسفة وعلى الأديان حتى الدين المسيحي الذي قل ما كان يعرف منه، وقد أتى بمؤلفاته من القسطنطينية إلى إيطاليا سنة ١٤٢٥م، وقد طبعت لأول مرة في فرنسا سنة ١٤٩٦م وترجمها غيره من بعده. وآخر طبعات كتبه كان في باريس سنة ١٨٨٨.

وكان في هذا العصر على الأرجح فيلون الجبيلي الشهير الذي اذاع كتاباً في تاريخ الفينيقيين قائلاً إنه ترجمة لكتاب وضعه سنكونياتون البيروتي، على أن بعض أئمة العلم في هذا العصر يرون إن كلمة سنكونياتون منحوتة من ثلاثة الفاظ فينيقية، فذهبوا إلى أن كتاب فيلون مجموع من تقليدات عديدة المصادر، وقد بقي لنا في كتاب اوسابيوس في الاستعداد الانجيلي فقر من ترجمة فيلون أو تأليفه المنسوب إلى سنكونياتون، وقد كتب فيلون ايضاً مقالة في تاريخ الملك اديان لكنها لم تبلغ إلى ايماننا. وقد جمع فقرات فيلون العالم اورلي وطبعها في لبسيك سنة ١٨٢٦م وأثبتها مولر بين فقر التاريخ اليونانية كما ترى في المكتبة اليونانية التي طبعها ديودت سنة ١٨٤٩م. وقد ذكرنا في عدد ١٤٤ من تأليفنا هذا إن فيلون الجبيلي كان في أيام خلفاء اسكندر، لكننا الآن نرجح قولنا هذا على قولنا هناك.

وذكر رنان في بعثة فينيقية (صفحة ٢٠٧) عالماً آخر في جبيل كان في هذا القرن اسمه اسباسيوس وكان خطيباً ومؤرخاً، ووجد مدفن عليه خط كتب فيه هذا الاسم لكنه قال إن صاحب المدفن كان في أيام اغوستوس وهو الذي بنى هيكلأ في بلاط في جنوبي جبيل، واسباسيوس هذا كان في أيام اديان.

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن الثاني

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم وبعض الأساقفة في سورية في هذا القرن

عد ٥٣٢

بطاركة انطاكية في القرن الثاني

قد مرّ في عد ٥١٨ ذكر بطاركة انطاكية في القرن الأول وهم القديس بطرس الرسول، والقديسان اوديوس واغناطيوس، وقد خلف اغناطيوس هرون سنة ١٠٧م على الرأي العام وعن الحواشي التي علقها السيدان ابلوس وتوما لامي على تاريخ ابن العبري. إنّ المؤرخين ليسوا على وفاق في السنة التي استشهد بها اغناطيوس، واقيم هرون مكانه، فقال ايليا النصيبيني إنّ استشهاد اغناطيوس واقامة هرون مكانه كانا سنة ٤٢١ يونانية التي توافق سنة ١١٠ أو سنة ١١١ للتاريخ المسيحي. وقد ذكر هرون هذا اوسابيوس في تاريخه (ك٣ فصل ٣٦ وك٤ فصل ٢٠). وروى في الكرونيكون أنه استمر على الكرسي الانطاكي عشرين سنة. وقال ابن العبري في تاريخه المشار اليه إنّ هرون هذا كان في ايام بليئوس الثاني الذي قتل كثيراً من المسيحيين، ولما هاج الشعب عليه كتب إلى ترايان قائلاً في المسيحيين: «إنّ هؤلاء فضلاً عن انهم لم يسجدوا للاصنام يكرون كل يوم فيسجدون للمسيح بمنزلة آله على اننا لم نجد فيهم شراً، فانهم ينهون عن القتل والسرقة وما اشبه». فامر ترايان أنّ لا ينقب على هؤلاء المسيحيين وإذا شكوا نُظر في امرهم.

وخلف هرون كرنيليوس وذكره اوسابيوس في الكرونيكون، وفي تاريخه ك٤ فصل ٢٠، وفي الحواشي المشار اليها نقلاً عن ايليا النصيبيني أن كورنيليوس رقي إلى الكرسي الانطاكي سنة ٤٤٢ يونانية توافق سنة ١٣١ أو سنة ١٣٠ مسيحية. ويظهر من الكرونيكون إنه استمر في البطريركية ثلاث عشرة أو اربع عشرة سنة لأنه جاء فيه أن اورس خليفته صير بطريكاً سنة ١٤٣م. وقال ابن العبري إنه ظهر في زمان كورنيليوس هذا في قرنية رجل هرطوقي اسمه كرنيتوس، كان يتباهى أن الملائكة ظهوروا له في الرؤيا، وانباؤه بانه سيكون بعد القيامة ملك للمسيح على الارض يتنعم فيه الناس الف سنة بالماكل والمشارب والزواج.

وخفّ كرنيليوس اورس ذكره اوسابيوس ك٤ فصل ٢٠ وقال في الكرونيكون إنه استمر في البطريركية ثماني وعشرين سنة، وحيث إنه اقيم بطريكاً سنة ١٤٣م فتكون وفاته سنة ١٧١م. وسماه ابن العبري اودس، وقيل في حواشيه يظن أن هذه التسمية زلة من قلم الناسخ لأن عامتهم تسميه اورس، وكذا رواه ديونسيوس بن صليبا على ما روى السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٣٢٣.

وخلف اورس تاوافيلوس سنة ١٧١م وقد ذكره اوسابيوس في المحل المذكور، وروى في الفصل ٢٤ أنه بقي من كتبه ثلاثة كتب تنطوي على رسوم الايمان وله كتاب آخر في رد هرطقة هرموجانوس اورد فيه شهادات من رؤيا يوحنا، وله كتب اخرى تشتمل على شرح مبادئ ايماننا. وذكر له هذه الكتب القديس ايرونيوس في جدول المؤلفين البيعين، وزاد عليها أنه كتب مقالات موجزة بليغة في تهذيب الكنيسة. وقال قرأت كتاباً في تفسير الاناجيل وسفر الامثال معزواً اليه ويظهر لي أنه منحط في فصاحة عبارته عن كتبه الاخرى. (عن لاكويان في بطاركة انطاكية في مجلد ٣ من كتابه المشرق المسيحي). وذكر ابن العبري ايضاً أنه وضع كتاباً تؤيد الايمان الكاثوليكي، واقام في البطريركية ست سنين على ما في الكرونيكون إذ ورد فيه أن خلفه مكسيمينوس صير بطريكاً سنة ١٧٧م. وسيأتي من كلام لاكويان أن خلفه رقي إلى البطريركية سنة ١٨٦م فيكون اقام في البطريركية ١٥ سنة.

وخلف تاوافيلوس مكسيمينوس على ما سماه اوسابيوس (ك٤ فصل ٢٤) ولاكويان في المحل المذكور. وسماه ابن العبري مكسيموس، وقال إنه بقي في البطريركية ثماني عشرة سنة. قال لاكويان إنه رقي إلى كرسي انطاكية على ما روى اوسابيوس في الكرونيكون سنة ١٧٧م، ويظهر لي أن الصحيح أنه رقي إلى الاسقفية

سنة ١٨٦م. وحيث إنّ اوساييوس يقول إنه استمر في البطريكية ثلاث عشرة سنة فتكون وفاته سنة ١٩٩م، وعلى ما في الكرونيكون سنة ١٩٠م. قال ابن العبري: «وقد ظهر في زمانه يوستوس (الصحيح يوستينوس فهو زلة من النساخ) الفيلسوف المسيحي من نابلس، ومضى إلى رومة فقدم محاماة للدين المسيحي ولما تدبر انطونيوس الملك حججه اوقف الاضطهاد عن المسيحيين وقد اشرنا قبلاً إلى ذلك. وخلف مكسيمينوس سراييون قال لاكويان في المحل المذكور ما ملخصه: «روى اوساييوس في الكرونيكون أنه صُير بطريكاً في السنة الحادية عشرة للملك كمود أي سنة ١٩٠م واستمر بطريكاً ١٢ سنة (في تاريخه كـ ٥ ف ١٩). وذكر تأليفه لا سيما رسائله ضد ابولينار والكتافريجين، وانتحل القديس ايرونيμος قوله على علاقته لأن الصحيح إنه رُقي إلى كرسي انطاكية في السنة السابعة أو الثامنة لسبتيموس ساويروس، وهي سنة ١٩٩ أو سنة ٢٠٠م لا في السنة الحادية عشرة لكمود. وجاء في جدول بطاركة انطاكية المنسوب إلى نيكوفورس القسطنطيني: إنّ سراييون استمر في البطريكية احد وعشرين سنة، وإنه في أيامه اجتمع الاساقفة في أورشليم في مسألة الخلاف على تعييد الفصح التي سنأتي على ذكرها. ومما مرّ يظهر اختلاف الاقوال في سنة اقامة هؤلاء البطاركة وسني تدبيرهم البطريكية، ولا يمكن تحقيق احد هذه الاقوال أو ترجيحه، والامثل الاعتماد على ما رواه اوساييوس، والقديس ايرونيμος لقربهما من عصر هؤلاء البطاركة ولمزيتهما في التدقيق.

عد ٥٣٣

بطاركة أورشليم في القرن الثاني

مرّ في عد ٥١٨ أن يعقوب الرسول خلفه سمعان الشهيد الذي انتقل إلى ربه سنة ١٠٧م وكان الثالث من اساقفة أورشليم يوستوس ويسمى يهوذا ايضاً. على أن الاكثرين أن علمه يهوذا ويوستوس وصف له لأن تأويل الكلمة باللاتينية البار أو العادل، وقد رُقي إلى الاسقفية بعد استشهاد سمعان سنة ١٠٧م. واقام فيها ثلاث سنين على ما يستلمح من رواية اوساييوس في الكرونيكون، لأنه ذكر قيامة خليفته في سنة ١١٠ أو سنة ١١١م. وقوله هذا احق بالاتباع من زعم من قالوا إنه استمر في البطريكية ١٧ سنة أو ٧ سنين. وجاء في كلام مكملتي كتب البولنديين إنه يهودي اصلاً، وبار فعلاً وإنه آمن بالمسيح عند سماعه انذار يعقوب الرسول، وعمده

سالفه سمعان، ورد كثيراً من اليهود والامم بانذاره وآياته. وذكر هؤلاء أن موته سعيدياً بالرب كان سنة ١١٣م.

وخلفه ذكا أو زكريا وهو الرابع من هؤلاء البطارقة والخامس طوييا، والسادس بنيامين، والسابع يوحنا، والثامن ماتيا أو متى، والتاسع فيلبوس. وقد جاء في الكرونيكون عداد اسمائهم على هذا النمط، ويظهر من كلامه أن اسقفيات هؤلاء لم تدم إلا إلى سنة ١٢٤م، إذ ذكر أن خليفة فيلبوس رُقي إلى كرسيه سنة ١٢٤م.

قال اوسابيوس في الكتاب المذكور في تاريخ سنة ١٢٤: «اقيم على كرسي أورشليم بعد فيلبوس الذي هو التاسع سينكا وهو العاشر، ومن بعده يوستوس وهو الحادي عشر ثم خلفه لاوي وهو الثاني عشر، ثم افرس أو افرام وهو الثالث عشر، ثم يوسا أو يوسف وهو الرابع عشر، ثم يهوذا وهو الخامس عشر. وهؤلاء جميعاً كانوا من ابناء الختان أي يهوداً، واستمروا إلى حين خراب اديان أورشليم». وكان هذا الخراب في سنة ١٣٤ أو سنة ١٣٦م على ما روى لأكويان عند ذكر هؤلاء البطارقة، وقد مرّ ما قاله القديس ايرونيموس من أنه حُظر من ذلك الزمان على اليهود أن يدخلوا إلى أورشليم، فتشتوا في كل صقع. وقال اوسابيوس في ك٤ من تاريخه فصل: «وأما كم سنة اقام كل من هؤلاء الاساقفة في أورشليم فلم استطع أن أجده في محل، وكل ما ذكره أن كلاً منهم اقام مدة وجيزة، وما عرفته من آثار المؤلفين القدماء انما هو أنه قام على اسقفية أورشليم خمسة عشر اسقفاً متخلفاً احدهم للآخر إلى أن خرب اديان أورشليم وشتت اليهود، وكان هؤلاء الاساقفة جميعاً عبرانيين متشبثين بعري ايمان المسيح خير تشبث، حتى اثبت من هم اهل للحكم بهذه الامور انهم كانوا على غاية الاهلية للاسقفية. وكان جميع المؤمنين في كنيسة أورشليم حينئذٍ من اليهود، واستمروا فيها من ايام الرسل إلى خرابها الذي اشرنا اليه، وكان هؤلاء الاساقفة جميعاً من ابناء الختان». ثم عد هؤلاء الاساقفة في تاريخه كما روينا عن الكرونيكون، ويؤخذ من كلام اييفان في هرطقة ٦٦م أن يهوذا الاخير من هؤلاء الاساقفة بقي حياً إلى السنة الحادية عشرة من ذلك من ملك انطونيوس بيوس وهي سنة ١٤٨م.

وخلف يهوذا المذكور مرقس وهو السادس عشر ذكره اوسابيوس في الكرونيكون مبيناً أن ارتقاءه إلى الكرسي كان سنة ١٣٧م إلى الـ ٢٠ لادريان إذ قال وكان اول اسقف في أورشليم من الامم مرقس، واستمر ١٦ سنة فتكون وفاته

سنة ١٥٣م. ولكن روى تلمون (مجلد ٢ من تاريخ الملوك) إن ترقيته إلى الاسقفية كانت سنة ١٣٣م وأنه استمر في البطريركية إلى سنة ١٦ لانطونيوس وهي سنة ١٥٣ للميلاد، فيكون الخلاف في سنة ارتقاؤه والوفاق في سنة وفاته، وهو محسوب بين القديسين، وتعيد الكنيسة الرومانية لذكره في ٢٢ تشرين الأول.

وخلفه كسيانوس وهو السابع عشر ثم بوليوس وهو الثامن عشر، وخلفه مكسيموس وبعضهم يسميه مكسيمينيانوس أو مكسيمينوس وهو التاسع عشر، ثم يوليانوس وهو العشرون، ثم غايانوس وهو الحادي والعشرون، ثم سيمانخوس وهو الثاني والعشرون، ثم غايوس وهو الثالث والعشرون، ثم يوليانوس وهو الرابع والعشرون، ثم اغايطس وهو الخامس والعشرون. كذا ذكر هؤلاء اوسابيوس في الكرونيكون في تاريخ سنة ١٦١م، وكذلك ذكرهم في الكتاب الخامس من تاريخه فصل ١٢ قائلاً إن سلسلة هؤلاء الاساقفة كانت محفوظة في خزائن كنيسة أورشليم، ويظهر من كلامه أن اغايطس الاخير من هؤلاء بقي إلى سنة ١٨٥م، وفي تاريخ بارونيوس أنه ادركته الوفاة سنة ١٨٧م.

ثم خلف اغايطس مكسيموس الثاني وهو السادس والعشرون، ثم انطونيوس وهو السابع والعشرون، ثم والس وهو الثامن والعشرون، ثم دولكيانوس وهو التاسع والعشرون، ثم نرسيس وهو الثلاثون، ثم ديوس وهو الحادي والثلاثون، ثم جرمانيوس وهو الثاني والثلاثون، ثم كرديانوس وهو الثالث والثلاثون، ثم نرسيس ثانية وهو الرابع والثلاثون. وكذا ذكرهم اوسابيوس في الكرونيكون وقال إننا لم نستطع أن نعلم مدة اقامة كل من هؤلاء الاساقفة في أورشليم. فاننا لم نجد ذكراً في محل بطريركيته. وذكر اييفان هؤلاء الاساقفة في كلامه في البدعة ٦٦ مع بعض الخلاف لما يتحصل من كلام اوسابيوس عن سني حبريتهم. وقال اوسابيوس (في تاريخه كذا فصل ١٢) في نرسيس إنه كان رجلاً فاضلاً اشتهر في خطبه حتى ايامنا. ثم قال فيه (ك٦ فصل ٩) ما ملخصه: «إنه ثار عليه قوم حسد وبغضاء له وتجنوا عليه بثهم فاضحة، واتوا بشهود زور عليه حلف كل منهم عند اداء شهادته سائلاً الله إن يبلية بالحريق أو الوباء إن كان كذب. فإنكاد نرسيس واعتزل لا يدري احد محله واصاب كلاً من الشهود ما طلبه لنفسه. وخلف نرسيس في هذه المدة ديوس وجرمانيوس وكرديانوس، ثم ظهر نرسيس فارغمه المؤمنون على العودة إلى اسقفية فعاد اليها، وعقد مع توافيلس اسقف قيصرية وغيره مجمعاً للبحث في

مسألة يوم تعيد الفصح سنة ١٩٨م، واستمر في الاسقفية إلى سنة ٢١٢م، وعلى رواية ابيفان إلى سنة ٢٢٢م. وقد بلغ من العمر ١١٦ سنة.

عد ٥٣٤

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الثاني

قلما بقي لنا في حطام المؤلفين القدماء من ذكر الاساقفة في سورية في القرون الثلاثة الأولى، واما في القرن الرابع وما يليه فيتيسر لنا العلم بكثير منهم بالاطلاع على تواقعهم في الجامع التبيلية أو الاقليمية الكاثوليكية والارائكية، ومن نعرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن الثاني توافيلس أسقف قيصرية فلسطين. فقد انبأنا اوسابيوس (في تاريخه ك٥ فصل ٢٥) إذ قال في مسألة يوم تعيد الفصح: «اما اساقفة فلسطين الذين ذكرناهم أي نرسيس (رئيس اساقفة أورشليم) وتوافيلوس (اسقف قيصرية) ومعهم كاسيوس اسقف صور وكلاروس اسقف بتلمايس (عكا)، ومن اجتمع معهم من الاساقفة، فبعد إن تفاوضوا في التقليد الذي تلقوه من ايام الرسل بسلسلة كتبوا رسالة ضمنوها اموراً كثيرة واختموها بقولهم: «اجتهدوا في أن تذيبوا رسالتنا في جميع الكنائس لئلا يعزو الذنب الينا من يسهل لهم الزيغان عن جادة الحق، ولكي يعيد عيد الفصح في اليوم الذي يعيد في الاسكندرية، وقد تبادلت الرسائل بيننا وبين رؤساء المؤمنين هنالك». وسنأتي بالتفصيل الكافي لهذا المبحث.

ثانياً كاسيوس اسقف صور، وثالثاً كلاروس اسقف عكا، وهما اللذان ذكرهما اوسابيوس في قوله الآنف ايراده، رابعا اغايطس اسقف دمشق جاء ذكره في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة للعلامة بياجيس ترسي، إذ قال واما الرعاة الذين ائتمنوا على رعية هذه الكنيسة (الدمشقية)، فأول من ذكره المؤلفون بعد حننيا إنما هو اغايطوس تلميذه، خامساً تاوادرطس اسقف بعلبك إذ جاء في الكتاب المذكور عن تاوادرطس إن أفدكسية الامراة الشريفة من بعلبك هذبا في مبادي الايمان، ومنحها سر العمداء المقدس تاوادرطس اسقفها في السنين الاخيرة من ملك ترايان الملك. سادساً ابوليناريس اسقف ايرابوليس قد ذكره كثيرون ومنهم اوسابيوس في تاريخه في محال عديدة وعدد تأليفه (في ك٤ فصل ٢٧) إذ قال عزا اليه كثيرون كتباً عديدة ولكن ما بلغ الينا منها انما هو محاماة المسيحيين التي رفعها إلى الملك فاروس انطونينوس، وخمسة كتب ضد الامم وكتابين في الحقيقة وكتابين ضد

اليهود إلى كثير غير ذلك لا سيما ما كتبه رداً على الهرطقة الكتافريجين، على أن ابوليناريوس هذا لم يتحقق لنا اكان اسقفاً في ايرابوليس التي في شمالي سورية الواقعة في محل كركميش مدينة الحثيين، ام كان اسقفاً في ايرابوليس التي هي في فريجيا في آسيا الصغرى، والارجح الثاني. فهؤلاء من تيسر لنا عرفانهم من الكتب القليلة التي وصلت اليها يدنا لا سيما كتاب المشرق المسيحي للاكويان المرسوم بسورية المقدسة لباجيوس ترسي.

الفصل الثاني

من نعلمهم غير هؤلاء من المشاهير الدينيين في سورية في القرن
الثاني

عد ٥٣٥

القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد

ولد هذا القديس في سنة ١٠٣م في مدينة نابلس واسم ابيه برسكس باكوس، وكان اولاً وثنياً متضلعا في الفلسفة على مذهب افلاطون، وخبيراً في مذاهب باقي الفلاسفة، وكان له نديم مسيحي ذكره ولم يسمه، فارشده إلى الفلسفة الحقيقية وانكب على مطالعة الاسفار المقدسة، ونبوات الانبياء فتتصّر، وتعمّد في سنة ٣٠ من عمره ثم اتى إلى رومة، وافتتح مدرسة للفلسفة المسيحية، ورفع حينئذٍ إلى الملك انطونينوس بيوس عريضة يدافع بها عن المسيحيين لخصنها بعضها عد ٥٢٥ عند الكلام في الاحداث التي كانت في ايام هذا الملك، ثم اتى من رومة إلى آسيا الصغرى. وبينما كان في افسس صادف فيها تريفون اليهودي مع جماعة من اصحابه اليهود، وتعرف على القديس يوستينوس وكان بينهما الجدل المثبت في تأليف هذا القديس، ويظهر منه أن يوستينوس افحم تريفون بحقيقة مجيء المسيح وصحة الدين المسيحي حتى ابكمه وجماعته، لكنهم كابروا واصبروا على غيهم، ثم

عاد إلى رومة وكان فيها حينئذ كراشان الفيلسوف الشهير بخلاصته وبخله، والذي كان مع ذلك متزلفاً إلى مرقس اورليوس، واخذ يناصب القديس يوستينوس ويعنفه فاستدعاه القديس إلى جدال مشتهر بحضور عدد عديد من الشهود، فافحمه القديس بحججه الراهنة وبياناته الدامغة حتى تبين للشهود أنه لم يعد لكراشان مناص من أن يقر بما بانه يجهل تعاليم المسيحيين اما بانه معاند مكابر. ثم استؤنف هذا الجدال مرات. ورفع حينئذ القديس عريضة محاماته الثانية للمسيحيين إلى الملك مرقس اورليوس والندوة والشعب الرومانيين، وعرض فيها بذكر جداله مع كراشان. لم تكن هذه المحاماة الثانية اقل فصاحة أو بلاغة من محاماته الأولى، ومما قاله فيها: «رب قائل يقول لنا إن كنتم تتوقفون إلى لقاء آلهكم واييكم فانتحروا واكفونا شرّكم واريحونا منكم، فانا أُبين لِمَ لا نصنع هذا؟ ولمَ إذ سئلنا جاهرنا علانية بايماننا. فالله خلق العالم ليكون مسكناً للجنس البشري، ولا يمكن أن تستوي لديه تعالى اعمالنا، فهو يحب من يصنع خيراً، ويثني من يصنع الشر، فان قتلنا انفسنا كنا مخالفين لارادة الله، ونكون ساعدنا على اباداة النوع البشري، ومنعنا الانتفاع بنا لمعرفة الحق والتعاليم الالهية، فنحيا ونموت إذا لنشهد للحق إذا سئلنا عنه، ولنردكم عن سؤ معتقديكم، وجوركم إن امكن. ومن اقواله فيها: «لا يحسبن احد ما نقوله عن النار التي تعذب الاشرار كلاماً باطلاً وتهويلاً، لأنه إذا لم يكن جحيم فلا يكون اله أو يكون الاله غير مميز بين الخير والشر، ومن كان كذلك لم يكن الهاً ثم لا تكون فضيلة ولا رذيلة، ويكون المشترعون جائزين بمعاقبهم من يخالف الشرائع العادلة». إلى أن يختتم هذه المحاماة بقوله: «نسألكم أن تذيبوا محاماتنا هذه واردفوها بما شئتم من الخواشي والشروح، ليعلم غيركم ما نحن، ويتاح لنا التملص من هذه الاوهام الكاذبة التي تجعلنا عرضة للعذاب، ففي الطبيعة البشرية نفسها القوة على التمييز بين ما هو صالح وما هو سيء، ولا يعلم الناس اننا ننبد مثل هذه التهم التي يتمحلونها لنا، واننا لذلك نردري آلهتهم الذين يعزون اليهم شراً من الفضائع التي يعزونها الينا. وإذا امرتم بذلك عرضنا على اعين الجمهور حقائق معتقدنا ليرعوا عن ضلالهم إن امكن، وهذا جلّ غرضنا مما نكتبه. فتعليمنا إذا تدبره ذو ذوق سليم لم يلقيه معيماً بل بقضي بانه ارفع من كل فلسفة بشرية، ولا اقل من أن يكون احسن كثيراً مما يكتبه الايكوريون. ومن الاشعار المملوءة سفاهة والروايات الدنسة التي تمثل ويقرأها كثيرون بحرية تامة». ومما قاله في هذه المحاماة إنه يتوقع يوماً فيوماً الموت

محروقاً حياً أو مطروحاً فريسة للوحوش بمكائد الفلاسفة ولا سيما كراشان.

وجاء في قصة استشهاد الموثوق بصدقها أن والي رومة المسمى روستيك قبض على يوستينوس مع غيره من المسيحيين، ولما مثلوا لديه حرّض يوستينوس أولاً أن يطيع الآلهة ويدعن لاوامر الملوك، فاجابه القديس إنَّ من يطيع وصايا مخلصنا يسوع المسيح لا يعاب ولا يشجب، وإن شجب وابسل في هذه الحياة فله حياة خالدة في الاخرى. فسأله الوالي اين يجتمع المسيحيون، فاجابه القديس كل يجتمع حيث اراد أو حيث استطاع فاله المسيحيين ليس بمتحيز في مكان بل هو غير منظور، ويملاً السماء والارض فيسجد له المؤمنون في كل مكان ثم التفت الوالي نحو رفقائه يسأل كلاً منهم أنت مسيحي؟ فيجيبه نعم بنعمة الله، وبعد أن افرغ جهده على غير طائل ليحملهم على الجحود، ورأى الثريا اقرب من ذلك منالاً حكم عليهم بالجلد اولاً ثم بالموت، فقيدوا إلى محل العذاب وهم يترنمون بالتسايح لله إلى أن قطعت رؤوسهم سنة ١٨٥م، وعلى رواية سنة ١٦٨م. ويعيد لذكر يوستينوس في ١٣ نيسان. واسماء رفقاء القديس يوستينس خريطون واولبيست وهياركس ويون وامرأة اسمها كاريثان.

قال اوسابيوس (ك٤ فصل ١٨ من تاريخه) قد خلف لنا هذا القديس تأليف عديدة ذات فوائد عظيمة، ومما اتصل الينا العلم به من هذه الكتب محاماته عن المسيحيين التي رفعها إلى الملك انطونينوس بيوس، ثم محاماته الثانية لهم التي رفعها إلى الملك انطونينوس فاروس، وله تأليف آخر يرد به مزاعم الامم، جمع به مباحث عديدة مما استغرق الفلاسفة الوثنيون والمسيحيون المناضلة به، وله كتاب آخر ضد الامم سماه الرد أو التنفيذ. وقد اتصل هذا الكتاب الينا وله سفر آخر في ملكوت الله جمع فيه لاثبات غرضه شهادات الاسفار المقدسة بل شهادات المؤلفين الوثنيين ايضاً، وسفر آخر موسوم بالمرتل وصاحب الزبور وكتاب آخر في النفس اورد به ايضاً آراء الفلاسفة الوثنيين، ووعد بانه سيكتب كتاباً آخر يرد به مزاعمهم المخالفة لرأيه، وله ايضاً جداله مع تريفون اشهر يهود عصره ابان فيه ارتداده بنعمة الله إلى الايمان المسيحي، وانكبابه قبل ذلك على درس الفلسفة، وجده في البحث عن الحق. ووضح ايضاً أن اليهود حرفوا وحذفوا واختلقوا اموراً كثيرة عن المسيح والمسيحيين. وقال في هذا السفر ايضاً إن موهبة النبوة ما زالت في الكنيسة إلى ايامه، واورد شاهداً لذلك رؤيا يوحنا، والاحوية التي كانت اليه، وصرح بان يوحنا الرسول كتب هذا السفر وله اسفار اخرى تتداولها ايدي المؤمنين عندنا. وكان

لكتبه عندهم منزلة رفيعة من الاعتبار والتوقير، وقد اعتمد ايريناوس على كثير من اقواله مستشهداً به. فهذا ملخص ما جاء به اوسابيوس في الفصل المذكور.

وعند نطاليس اسكندر تأليف هذا القديس والفيلسوف الشهيد ومحاماته الأولى والثانية، وكتبه ضد الامم، وكتابه في ملكوت الله وكتابه الموسوم بالمرتل أو صاحب الزبور، وكتابه في النفس. وقال في هذه الكتب الثلاثة الاخيرة إنَّ الدهر حسدنا عليها فاضاعها بحدثائه وجداله مع تريفون. وهو مثبت بين كتبه، وكتابه في رد مزاعم مرثيون وقد ذكره القديس ايريناوس في كتابه الخامس ضد الهرطقة، ثم كتابه في تنفيذ جميع الهرطقات وقد ذكره يوستينس نفسه في محاماته الأولى. على أن هذه التصانيف الاخيرة لم تسلم من نوب الدهر. وقال إنَّ القديس ايرونيμος ذكر كتب يوستينوس هذه ايضاً في كتابه في مشاهير المؤلفين البيعيين، وعد كتباً اخرى كثيرة تعزى إلى هذا القديس، لكنه اثبت أن نسبتها اليه غير صحيحة. وقد طبع ما بقي من كتب يوستينس في اليونانية واللاتينية في باريس سنة ١٧٤٢م وطبعها اخيراً اطو في يانه سنة ١٨٤٧ أو سنة ١٨٥٠م وقد ترجمها حديثاً إلى الافرنسية الابوان شانو وكورسي. وللسيد فرييل الافرنسي مقالة ضافية الديول في القديس يوستينس اذاعها في باريس سنة ١٨٦٠م.

عد ٥٣٦

غير يوستينوس من العلماء في سورية في هذا القرن

إنَّ من العلماء في سورية بهذا القرن تاسيان وكان تلميذاً للقديس يوستينوس وفيلسوفاً افلاطونياً، ولد في سورية سنة ١٣٠م على ما في المعجم التاريخي الجغرافي لبوليا (في طبعته الحادية والثلاثين)، ثم تنصر وكتب كتاباً عنوانه خطاب لليونان، ونشره جسنر سنة ١٥٤٦م ثم اطو سنة ١٨٥١م في يانه. على أنه بعد موت القديس يوستينوس توحل بغوايات النيوستيكيين، وصار من رؤساء بدعة القنوعين الذين كانوا يمينعون من شرب الخمر وعقد الزواج. وقال فيه نطاليس اسكندر أنه كتب كتباً عديدة ولم يبق منها إلا كتابه في رد مزاعم الامم وهو معلق على تأليف القديس يوستينوس في المجلد الأول من مكتبة الآباء اليونانية اللاتينية. وقال فيه روهر بخر أنَّه كان مستعداً للاستشهاد حباً بالمسيح على أنه لم ينل هذا الحظ. وروى أنه كان يقول: «اني لا اهتمام لي بان اكون غنياً، وأنف من تطلب

الكرامات في المناصب وانفر من الفحشاء، ولا اعرض نفسي لاختطار البحر طمعاً بكسب المال، ولا اتوق إلى اكليل الابطال، ولا ابغى المجد والشرف، ولا ابالي بالموت وانا مترفع عن الضجر من الامراض ولا تضنك بالحزن نفسي، ولو كنت عبداً لتحملت العبودية بصبر واذا كنت حراً فلا افتخر بحريتي». ومما قاله فيه هذا المؤرخ أنه الف كتاباً في توفيق الاناجيل دس فيه غوايات كثيرة، وإن توادوريطس اسقف قورش وجد في ابرشيته نحو مئتي نسخة من هذا الكتاب فالتفها، ومنع من استعماله. كان يظن أن هذا الكتاب انقطع وجوده إلى أن عثر العلامة السمعاني على ترجمة عربية له في المشرق اتى بها إلى رومة.

وكان في هذا العصر ايضاً من المشاهير الدينين توافيلس بطريرك انطاكية، وقد مرّ معنا ذكره، وعداد تأليفه في الكلام على بطاركة انطاكية، وكان بعده سرايون من هؤلاء البطاركة ايضاً، وقد ذكرنا تأليفه نقلاً عن لاكويان. وقال نطاليس اسكندر (في الفصل الرابع من تاريخ القرن الثاني الجزء الخامس) إنه كتب رسائل إلى بنطس وكارينوس راداً هرطقة منتانوس وكتاباً ندد به بدمنوس لأنه انحاز إلى اليهود في زمان الاضطهاد، وكتاباً في الانجيل المنسوب إلى بطرس، انفذه إلى بعض المسيحيين الذين كانوا مالوا إلى الضلال بتلاوته، وذكر اوسايبوس (ك٦) من تاريخه (رأس ١٠) بعض فقرات من كتابه. وذكره ايضاً القديس ايرونيμος بين المشاهير المؤلفين البيعيين فصل ٢٥.

ومن كانوا في هذا القرن القديس هجيسبس اصله يهودي فتنصر، وقد وُلد في القرن الأول إذ عده المؤرخون بين المؤلفين الذين كانوا في امد قريب من ايام الرسل وسموه الرجل الرسولي. وقال فيه اوسايبوس (ك٤) من تاريخه فصل ٨) إنه كان شهيراً بين المؤلفين، وقد اعتمدنا على شهادته متواتراً في كتبنا السابقة، واثقين به وباخباره في ايراد الاحداث التي كانت في زمان الرسل. فانه كتب تاريخ انذار الرسل في خمسة كتب بنفس ساذج». وقال فيه في كتابه المذكور (رأس ٢٢) أن هجيسبس خلف لنا في اسفاره الخمسة التي بلغت الينا ادلة وشهادات واضحة لايماننا إذ كتب أنه عند سفره إلى رومة شافه في طريقه كثيرين من الاساقفة وسمع من جميعهم تعليماً واحداً، وبعد أن ذكر شيئاً من رسالة اكليمنطسوس إلى القرنثيين قال أن كنيسة القرنثيين استمرت على ايمانها إلى ايام بريموس اسقفها الذي تلقاني بالانس، وفافوضني ملياً إذ كنت مسافراً إلى رومة، واقمت اياماً عند القرنثيين تبادل التعزية باستمساكتنا بالايان القويم. ولما اتيت رومة لبثت عند انيشاتوس الحبر اياماً،

وكان لديه شماس اسمه الوتارس، وبعد موت انيشاتدس خلفه سوتر ثم الوتارس هذا فقد بقي ثابتاً بتتالي الاساقفة في كل المدن ما ورد في الشئ والانبيا، وما بشر به مخلصنا. ثم ذكر مبادي الهرطقة الذين كانوا إلى ايامه إلى أن قال اوسايوس أن هجيسبس كتب اموراً كثيرة اوردنا بعضها في محالها، وأنه اورد شهادات من انجيل العبرانيين السرياني، ومن اللغة العبرانية. ومن هذا يتبين واضحاً أنه كان من اليهود واعتنق الايمان المسيحي. انتهى كلام اوسايوس. والظاهر من كلامه أنه كان في ايام الملك اديان الذي كان على منصة الملك من سنة ١١٧م إلى سنة ١٣٨م. ويظهر منه ايضاً أن هجيسبس اقتداءً بفلاسفة اليونان الذين كانوا يطوفون في ايطاليا ومصر وغيرهما من اقاليم المشرق تجول هو في سفره إلى رومة متفقداً الكنائس، ومستقصياً عن التقاليدات التي عند اهلها ولكن جلّ غرضه من سفره كان أن يشخص إلى رومة مركز الدين من حيث تنبعث الانوار إلى جميع الكنائس. وفي اقامته في المدينة العظمى انكب على تأليف كتابه في خلافة الاساقفة لا سيما الاحبار الرومانيين من ايام بطرس إلى ايام انيشاتوس، ونأسف كل الاسف على فقدان كنز كتبه التي يظن أنه جمع فيها كل ما كان من الاحداث في الكنيسة منذ آلام المخلص إلى ايامه. ويعيد له في الكنيسة الرومانية في ٧ نيسان.

عد ٥٣٧

من عاصر العلماء المذكورين من العلماء غير السوريين

إننا نرغب في توفر الفوائد نلحق بذكر هؤلاء المشاهير في سورية من عاصريهم في غيرها بما يمكن من الايجاز لخروج الكلام فيهم عن دائرة غرضنا، فمن هؤلاء بابيا اسقف ايرابولس في فريجية. قال بعضهم أنه كان تلميذاً ليوحنا الرسول وهو غير صحيح، إذ قال اوسايوس (ك٣ من تاريخه فصل ٣٩) إنه كان تلميذاً ليوحنا الشيخ أي الكاهن لا الرسول، الف خمسة كتب في تفسير خطب المسيح قائلاً أنه تلقى اقوال الرسل عمن عاشروهم. وقال إن القديس ايروناوس ذكر كتب بابيا هذه وقال إنه كان تلميذاً ليوحنا وصديقاً لبوليكرسوس، على أن بابيا قال في مقدمة كتبه هذه إنه لم يكن تلميذاً للرسل ولا مشاهداً لهم بل اخذ ما كتبه عمن عاشروهم. انتهى كلام اوسايوس ملخصاً. على أن كتبه المذكورة لم تبق منها عبر الايام إلا فقرات. ويقال: إن الألفيين اخذوا منها مجالاً لزعمهم أن المسيح سيملك على

الارض بعد القيامة الف سنة. وقد توفي بابا في سنة ١٥٦م وتعيد له الكنيسة الرومانية بمنزلة قديس في ١٢ شباط.

ومنهم كوادراتوس اسقف اثينا الف محاماة عن المسيحيين، ورفعها إلى الملك اديان سنة ١٣٢م وذكره اوسابيوس (ك٤ من تاريخه فصل٤) وقال إن كتاب محاماته هذه تتداولها ايدي كثير من الاخوة. ولدينا نسخة منه وذكر منه فقرة قال فيها: «إن أعمال مخلصنا كانت دائماً بينة ثابتة لأنها كانت حقيقية، فان من ابرأهم من الامراض أو اعادهم إلى الحياة بعد الموت كان الجميع يرونهم، لا إذ برئوا أو قاموا من الموت بل بعد ذلك في زمان ايضاً، فان بعضهم استمر حياً في مدة تردد مخلصنا في الارض بل بعد صعوده إلى السماء ايضاً، بل بقي بعضهم حتى ايماننا». وقد ذكره ايضاً القديس ايرونيμος في جملة المؤلفين البيعيين، ووهم نطاليس اسكندر أن كوادراتوس هذا غير كوادراتوس اسقف اثينا على أن يوحنا منسي اصلح خطأه في حواشيه على كتاب تاريخه.

ومن هؤلاء ايضاً ارستيد وهو فيلسوف من اثينا اعتنق الدين المسيحي ورفع إلى الملك اديان كتاباً دافع به عن المسيحيين سنة ١٢٥م. وقال فيه اوسابيوس (ك٤ فصل٣): «ارستيد الرجل الامين والمتشبه بعري ديانتنا رفع إلى اديان قيصر كتاب محاماة عن ايماننا. وهذا الكتاب تتداوله ايدي كثيرين». وقد ذهبت به الايام بعدئذ. ومنهم ميليتون اسقف سرد في آسيا الصغرى كان في ايام الملك انطونينوس فاروس، ورفع اليه كتاباً يدافع به عن المسيحيين ولم يبق منه إلا فقر ذكرها اوسابيوس في الكتاب الرابع من تاريخه فصل ٢٦ وعدد كتبه. فقال إنه كتب كتابين في الفصح وكتاباً في الانبياء، وطريقة الحياة بالاستقامة وكتاباً في الكنيسة وآخر في يوم الاحد وآخر في طبيعة الانسان، وكتاباً آخر في النفس والجسد والعقل، إلى غيرها من الكتب، وينسب اليه كتاب في انتقال العذراء ولكن اثبت نطاليس اسكندر أن هذه النسبة غير صحيحة.

وكان منهم ايضاً فيلبوس القورثي ذكره القديس ديونسيوس القورثي في رسالته إلى كنيسة اكرت، وقد كان في ايام انطونينوس فاروس والملك كمود وذكره اوسابيوس (في ك٤ من تاريخه فصل٢٤) والقديس ايرونيμος في جملة مشاهير المؤلفين البيعيين (فصل٤١).

ومنهم ايضاً ديونسيوس اسقف قرنثية الذي طار صيت فصاحته ومحبته للكنيسة كلها حتى كان يحسب اسقفاً عاماً بغيرته على جميع الكنائس، كاتباً رسائل عديدة إلى كثير منها، وقد عد له اوسابيوس (ك٤ من تاريخه فصل ٢٣) ثماني رسائل وذكر فقر من بعضها. ويجدر بنا أن نروي ما ذكره من رسالته إلى الرومانيين: «قد استطرقتم العادة منذ بادىء بدء النصرانية أن تمدوا الاخوة جميعاً بانواع عديدة من الاحسان، وترسلوا إلى كثير من الكنائس المقامة في المدن ما تحتاج اليه من المساعدات... وسوتر اسقفكم الطوباوي لم يحافظ على هذه العادة فقط بل زاد فيها كثيراً موزعاً بسخاء الحسنات المعينة للقديسين، ومعزياً الاخوة المضنوكين بخطبه الغراء بمنزلة أب تناهى حبه لأولاده وتباً لغير الدهر التي حرمتنا فرائد تعاليمه».

ومن هؤلاء العلماء ايضاً اثيناغورا الاثيناوي موطناً، والفيلسوف المسيحي مذهباً، كان في ايام الملكين مرقس اورليوس وابنه كمود، ورفع اليهما كتاباً دافع فيه عن المسيحيين، شاكياً باسم نصارى بلاد اليونان ما يعانونه من الجور والاعتساف من قبل الحكام، وذكر روهز بخر قسماً كبيراً من هذه المدافعة، وكتب كتاباً آخر في قيامة الموتى مفحماً كل معاند في هذه العقيدة. وقد طبعت كتبه هذه بين كتب الآباء مرات عديدة.

ومنهم ايضاف القديس ايريناوس ولد سنة ١٤٠م في آسيا الصغرى في ازмир أو ضواحيها، وتلمذ للقديسين بايلا وبوليكر بوس اسقف ازмир، ومضى إلى فرنسا نحو سنة ١٧٧م وكان كاهناً أولاً عند القديس يوتينوس اسقف ليون، وارسله إلى البابا الوتارس كما ذكر اوسابيوس (في تاريخه ك٥ فصل ٤) من قبل الشهداء الذين كانوا يقاسون في ليون العذابات المبرحة. ولما توفي القديس يوستينوس خلفه ايريناوس في كرسي ليون، ومما كتبه خمسة كتب رداً على الهراطقة قد دونها في اليونانية، ولكن لا يوجد منها في اليونانية إلا ثمانية عشر فصلاً من الكتاب الاول ذكرها ايفان في هرطقة ٣١. وظن بعضهم أن القديس ايريناوس نفسه ترجم كتبه إلى اللاتينية، ولكن نطاليس اسكندر خطأً ظن هؤلاء بدليل أن القديس اغوستينوس استشهد (في كتابه الاول ضد يوليانوس البيلاجي) بفقرتين من كتاب ايريناوس تختلف ترجمتها عن الترجمة المعروفة في ايامنا. ولو ترجم ايريناوس كتابه إلى اللاتينية لذكر اغوستينوس كلماته. وقد قضى القديس ايريناوس شهيداً في ايام سبتيموس ساويروس نحو سنة ٢٠٢م وذكره القديس ابرونيموس بين

مشاهير المؤلفين البيعيين رأس ٤٦ واوساييوس في تاريخه (ك ٥ فصل ٦).

ومنهم بنتانوس وكان فيلسوفاً من مذهب الرواقيين تنصّر وكان ضليعاً في علم الاسفار المقدسة مضطرباً في الغيرة على نشر الايمان، جال في امصار عديدة من المشرق حتى بلغ الهند، إذ جعله البطريك ديمتريوس الاسكندري رسولاً للامم الشرقية، ثم صير سنة ١٧٩م رئيس المدرسة المسيحية في الاسكندرية وكان من تلاميذه اكليمنضوس الآتي ذكره. وقال فيه اوساييوس (ك ٥ من تاريخه ف ١٠) ما ملخصه إنه كان شديد الغيرة على نشر الدين المسيحي حتى اتصل إلى الهند، وقد ذكرت أن كثيرين من المبشرين بلغوا إلى هناك، وإن بنتانوس وجد هناك انجيل متى مكتوباً بالسريانية، إذ كان انذر هناك برتلمائوس احد الاثني عشر، وترك لهم على ما يقال انجيل متى مكتوباً بهذه اللغة، وبقي محفوظاً إلى تلك الايام. ثم عاد بنتانوس إلى الاسكندرية، وصير رئيساً على مدرستها حيث كان يكشف عن كنز العقائد الالهية تارة بالكلام، وطوراً بالكتابة. انتهى كلام اوساييوس وقد بقي بنتانوس حياً إلى سنة ٢١٦ ويعد من آباء الكنيسة، ويعيّد لذكره في ٧ تموز.

ومن هؤلاء ايضاً اكليمنضوس الاسكندري ولد وثنياً، وانكب على العلوم الفلسفية على مذهب افلاطون ثم تنصّر بارشاد القديس بنتانوس، وخلفه بالرياسة على المدرسة المسيحية في الاسكندرية. ولما ارغمه على تركها اضطهاد سبتيموس ساويروس مضى يبشر بالايمان في اورشليم وانطاكية والكبادوك، ويفحم الفلاسفة الوثنيين، ثم عاد بعد سنين إلى الاسكندرية مثابراً على جهاده في التعليم وتدير المدرسة إلى أن لقي ربه سنة ٢١٧م. وكان جامعاً بين الفلسفة والعلوم فاستخدم الفلسفة للمدافعة عن الدين. ومن تأليفه كتاب في حضّ الوثنيين على الايمان وتفنيد الوثنية، ومؤلف انطوى على ثمانية كتب جمع فيه تعاليم شتى فلسفية ولاهوتية وتاريخية سماه باليونانية ستراماتس. ونرى أن نترجم الكلمة اليونانية باللفيف اشارة لجمعه اشياء مختلفة. ومما قاله فيه بهذا المعنى: «ليس كتابي كجنة غرست اشجارها منظمة بل هو اشبه بغابة حوت كل نوع من الشجر على غير انتظام. وكتب ايضاً ثلاثة كتب عنونها بدكوكس أي المعلم ابان فيها لزوم المسيحيين بتعليم اولادهم، وكيفية التربية والاستسارة بالسيرة المسيحية في المأكل والمشرب والملبس وغيره، وندد بالتزوين والزهو الباطل وافراط العناية في جمع المال. وكتب ايضاً ثمانية كتب سماها ايوتوزون أي الارشادات ضمنها الآيات المشككة في العهدين القديم والحديث، تعقبه

فوتيوس في كثير منها. ولكن قال روهز بخر: إن كتاب اكليمينضوس الذي امتدحه اوساييوس وايريونيوس هي غير الكتاب الذي ندد به فوتيوس أو حرفه الهراطقة، ثم كتب كتاباً في الفصح، وآخر في الصوم وآخر في الحظ على الصبر، وكتاباً للمعتمدين حديثاً وكتاباً في القوانين الكنسية رداً على من يتبعون ضلال اليهود، وكتاباً في من يلخص من الاغنياء، ذكر كل هذه الكتب اوساييوس (ك٦ من تاريخه فصل ١٤). والباقي من كتبه انما هو الاولى أي الحظ للام وكتبه الثلاثة الموسومة بالمعلم، وكتبه الثمانية المعروفة باللفيف واحسن طبعة لكتبه انما هي طبعة بوتر باليونانية واللاتينية في اكسفورد سنة ١٧١٥م. وطبعة مين في مكتبة الآباء. وقد ترجم كتبه إلى الفرنسية جنود سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٤٣م وكان كثيرون يعتدونه قديساً بل وجد ذكره في بعض كتب تراجم القديسين معيداً له في ٤ كانون الاول على أن بناديكتوس الرابع عشر في مقدماته على كتاب تراجم القديسين لم ير من الصواب تبجيله بوصف قديس ولا ذكر له في كتاب تراجم القديسين الروماني.

ومنهم ترتوليانوس وقد ولد في قرطجنة سنة ١٦٠م وثنياً ثم تنصر وابانت لنا تأليفه العديدة الآتي ذكرها ما كان عليه من الفصاحة، وتوقد الذكاء، ومن الغيرة في المدافعة عن مذهبه المسيحي. وقد مضى إلى رومة سنة ٢٠٤م وشهد الملاعب البربرية التي تمثل بها، فحمله اشمئزاه منها على أن رفع إلى سبتيموس ساويروس مقالة ضافية الذبول يبين بها قباحة المشاهد، ومضارها بالآداب، ولكن الاكليروس الروماني استهجن افراط صرامته. وعاد إلى قرطاجنة ولسوء البخت تشبث بغوايات منتانوس الاراتيكي. وبث في تأليفه غوايات اخرى كثيرة واصر عليها إلى أن توفي سنة ٢٤٥م. واما تأليفه فهي عديدة فمنها كتاب مدافعته عن التعليم المسيحي، وكتاب ضد اليهود، وآخر ضد مرقيون الاراتيكي، وآخر ضد براسيا الاراتيكي ايضاً، وكتاب في جسد المسيح، وآخر في قيامة الجسد، وكتاب سماه بروسكريسيون اعتادوا أن يترجموه في الكتب البيعية بلفظة استحلال، والاولى أن يسمى المنع من الدعوى، فتلك لفظة فقهية يراد بها أن الخصم لا يحق له الدخول بالدعوى مثلاً لمضي الزمان، أو لأنه لا يصلح خصماً. ويريد ترتوليانوس بها أن الهراطقة لا يحق لهم الدخول بدعوى مع كنيسة المسيح، إذ كانت قبلهم من ايام الخلفاء إلى ايامهم. وكتابين إلى امرأته، وكتاب في التحريض على العفاف، وآخر في المعمودية، وآخر في التوبة وكتاب في الصلوة، ومقالته في نبذ المشاهد، وكتاب في الوثنية

وفي اكليل الشهداء، وكتاب في زينة النساء إلى غيرها. والكنيسة تقبل وتعتمد كل
أما كان منها كاثوليكيًا وتنبد كل ما كان من اقواله اراتيكيًا. وكل ما بقي من كتبه
طبع مرات واخيراً في طبعة الاب مين لمكتبة الآباء.

عد ٥٣٨

الشهداء في سورية في القرن الثاني

قد كان من الشهداء في سورية في مبدأ هذا القرن القديس اغناطيوس بطريرك
انطاكية، والقديس سمعان بن حلفى اسقف اورشليم والقديس يوستينوس، وقد مرَّ
ذكرهم في كلامنا السابق. وجاء في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أنَّ فيلون
شماس كنيسة ترسيس، واغاييتوس شماس كنيسة انطاكية وشي بهما انهما اتبعا
القديس اغناطيوس إلى رومة، واحضروا بعد استشهاد ذخائره إلى انطاكية فاقتادهما
والي المدينة وأجرى عليهما اعذبة مبرحة حتى نالا اكليل الشهادة سنة ٢٠٩ في
ايام ترايان الملك.

وكذا جرى على فوقاً بطريق انطاكية فانه وشى به أنه يهيج ويشجع
المضطهدين فاستدعاه والي المدينة، واجرى عليه اعذبة متنوعة لقي ربه بها مكللاً
باكليل الشهادة سنة ١١٤ م. وجاء في الكتاب المذكور ايضاً صفحة ٨٢ نقلاً عن
بروكوبيوس أنَّ يوستينيانوس الملك اقام في طرابلس كنيسة عظيمة على اسم
لاونسيوس القديس الشهيد الذي نال اكليل الشهادة في طرابلس مع ايباسيوس
وتريبوتوس وتوادولوس في ايام الملك اديان.

وقد نال اكليل الشهادة في اباميا القديسان غايوس واسكندر في ايام الملك
انطونينوس، وقد جاء في هذا الكتاب المذكور في كلامه في دمشق أنه قد نال
اكليل الشهادة فيها حنيا الذي عمد بولس الرسول، ويعتبره الشريون اول اسقف
على دمشق، ثم استشهد فيها قيصر وداشيوس ورفقاؤهما الخمسة في اواخر سني
نيرون الملك، ثم حاز اكليل الشهادة فيها في اوائل القرن الثاني بولس وتاتا امرأته
مع اربعة من انسبائهم، وهم ساينيانوس ومكسيموس وروفوس واوجانيوس، ومن
هؤلاء الشهداء في سورية القديسة اودكسية من بعلبك ذكرها توادوريطس بين
الشهداء الذين فازوا باكليل الشهادة في بعلبك، وقال فيها إنها كانت امرأة شريفة

في المدينة المذكورة نالت سر العماد المقدس من يد تيودولوس اسقفها في اواخر سني الملك تريان، وحازت اكليل الشهادة في الاضطهاد الذي جرى في ايام هذا الملك على المسيحيين.

ليس هؤلاء كل الشهداء في سورية في القرن الثاني بل من اتصل بنا العلم بهم من الكتب القليلة بين ايدينا، فان المسيحيين كانوا في صدر النصرانية عرضة للاضطهاد واول اضطهاد لهم اثاره شاوول بولس الذي صيره المسيح بعد ذلك الاناء المختار ونال اكليل الشهادة وقتل اسطفانوس اول الشهداء، وتشتت المسيحيون الذين كانوا في اورشليم كما يظهر من كتاب اعمال الرسل. والثاني اثاره هيرودس اغريبا وقتل فيه يعقوب الرسول، وسجن بطرس رئيس الرسل كما مر. والاضطهاد الثالث اثاره نيرون. ومن قتلهم فيه الرسولان بطرس وبولس. والرابع اثاره دوميسيان لا على المسيحيين فقط بل على اليهود من سبط داود ايضاً، إذ روى اوسابيوس (ك٣ فصل ١٥ من تاريخه) عن هجيسب إنه قبض على انسباء يهوذا المسمى اخا الرب، وفي هذا الاضطهاد ألقى يوحنا الرسول في مرجل زيت يغلي في رومة ثم نفي إلى جزيرة بطمس حيث كتب رؤياه، ونال اكليل الشهادة كثيرون. والاضطهاد الخامس اثاره تريان وقتل فيه كثيرون في جهات عديدة. ولما كتب بلين والي بيتيا حينئذ إلى تريان أن المسيحيين يقتلون عفواً دون أن يخالفوا السنة بشي. اجابه لا يلزم التنقيب عن هؤلاء. ومن نالوا اكليل الشهادة في هذا الاضطهاد القديس سمعان بن حلفى اسقف اورشليم، والقديس اغناطيوس اسقف انطاكية كما مر، وقد خمد جذوة هذا الاضطهاد الملك ادريان إذ كتب اليه احد عماله يشكو الجور الجاري على المسيحيين دون موجب فكتب الملك إلى والي آسيا آمراً أن لا يعاقب احد المسيحيين بالموت إلا إذا اثبت عليه المخالفة للسنة كما يظهر من محاماة القديس يوستينوس التي اشرنا اليها. والاضطهاد السادس اثاره مرقس اورليوس ولوشيوخس فاروس ونال فيه القديس بوليكر بوس اسقف ازمير وغيره من هذه المدينة اكليل الشهادة كما هو بين من رسالة كنيسته إلى كنيسة فيلادلفيا وغيرها من الكنائس.

وقد روى اوسابيوس قسماً كبيراً منها في تاريخه (ك٤ فصل ١٥). وفيه ايضاً حاز هذا الاكليل القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد كما رأيت. ومن الشهداء

في هذا الاضطهاد من ذكرناهم من شهداء سورية. ثم بوتينوس اسقف ليون في افرنسة وكثيرون غيره من اوجه هذه المدينة وكهنتها كما يظهر من رسالتي كنيستي فيانا وليون إلى كنيستي آسيا وفيجيا التي ذكرها اوسايبوس في الكتاب الخامس من تاريخه (فصل ١ و ٢ و ٣) وسنأتي على ذكر باقي الاضطهادات.

عد ٥٣٩

من كان من المبتدعين في سورية في هذا القرن

اول هؤلاء شردون قال فيه نطاليس اسكندر إنه اتى من سورية إلى رومة على عهد البابا هيجينوس، واستشهد لذلك اوسايبوس في تاريخه (ك ٤ فصل ١٠) حيث قال ما ملخصه: «إنّ القديس ايريناوس روى أنه شخص إلى رومة في ايام البابا هيجينوس والتينوس المبتدع وشردون منشئ غواية المرقيونيين. ثم ذكر اوسايبوس (فصل ١٦) كلمات ايريناوس وملخصها: «إنّ والتينوس اتى إلى رومة في ايام حبرية هيجينوس وبقي في زمان بيوس والي عهد انيشاتوس، واما شردون الذي تقدم مرقيون (وفي رواية اخرى الذي كان استاذ مرقيون) فاتى في ايام حبرية هيجينوس ايضاً، وافر بضلاله لكنه لم ينفك عنه، وكان يثبه تارة خفية وطوراً يقر بانه ضلال ولذلك اقصى من جمعية الاخوة». أي حرم هذا ما قاله ايريناوس في كتابه الثالث رداً على البدع وقال فيه في كتابه الاول: «إن شردون شخص إلى رومة في ايام حبرية هيجينوس وعلم أن الله الذي أنذرت به الستة والانبياء ليس هو ابا سيدنا يسوع المسيح لأن هذا معروف، وذاك مجهول وهذا عادل وصارم وذاك صالح ورحوم. ثم اتى بعده مرقيون من بنطوس مذيعاً ضلاله ومجدفاً شراً منه». انتهى ما رواه اوسايبوس عن ايريناوس. ومن اضاليل شردون انكاره أن المسيح ولد من العذراء، وزعمه أنه ظهر بشبه الناس فقط واهماً أن المسيح نزل من السماء ليزيل ملك خالق هذا العالم وجوره. روى ذلك ابيفان في بدعة ٤١ ولم يكن يسلم من الانجيل إلا بالانجيل لوقا حاذفاً منه بعض فصول، وكان ينبذ رسائل بولس كلها وكتاب اعمال الرسل، ورؤيا يوحنا. وقد ذكر هذا الهرطوقي القديس اغوستينوس وقال إن القديس ابولنيوس اسقف قرثية ردّ مزاعمه وحرّمها في مجمع شرقي.

والثاني منهم والتينوس ولا يعرف منشأه ولكن قال فيه روهر بحر إنه كان هائماً في الحصول على اسقفية في قبرص، فأثار عليه الاهلون شخصاً قضى بعد ذلك شهيداً، فحنق والتينوس ولحق بمذهب النيوستيكيين، وهم هراطقة شرقيون كانوا في هذا العصر ليسوا مسيحيين حقيقة ولا وثنيين حقاً بل كانوا يريدون أن يؤلفوا مذهباً جامعاً بين الوثنية والمسيحية، وان يوفقوا بين اقايصص الآلهة وما جاء في الاسفار المقدسة، وكانوا يسمون انفسهم نيوستيكسسن أي مستنيرين وعلماء. فتابع والتينوس هؤلاء على مذهبهم، وبعد أن بثه في مصر اتى رومة في ايام البابا هيغينوس كما مرّ مُظهراً أنه كاثوليكي، فقبل في شركة المؤمنين في رومة، ولكن افترض ضلاله في ايام حبرية البابا بيوس، ونفى من الكنيسة فخرج من رومة محتدماً، واتى جزيرة قبرص واخذ يثث غواياته متمادياً فيها زاعماً أن ثلاثين ايوناً (يريد بالايون روحاً متألهاً لكنه احط من الآله السامي آخذاً ذلك عن شعراء اليونان) خلقوا العالم وما فيه إلى غير ذلك من خزعبلاته، وكان يقسم الانسان إلى ثلاثة: ارضي وحيواني وروحي. ويقول أنه واهل بدعته من الروحانيين.

والثالث منهم تاسيان وقد مرّ معنا ذكره في الكلام على علماء سورية، وإنه كان تتلمذ للقديس يوستينوس وبعد موته جحد الايمان، وعلم غوايات منها أنه اخذ عن والتينوس حكاية الايونيين، واعتبر الزواج بمنزلة فساد، ومنع من شرب الخمر لزعمه أنه يضاد القناعة، وحكم على آدم بانه هالك ولم يكن اتباعه يستعملون في مباشرة الاسرار منه إلاّ الماء فقط حتى سموا مائيين. والف انجيلاً من الاناجيل الاربعة واسقط منه نسب المسيح، وكل الآيات المؤذنة بانه من نسل داود. وقد ذكر اضاليه القديس ايريناوس (ك١ فصل ٣١) واوسابيوس في تاريخه (ك١ ف٢٧)، والقديس ابيفان (في بدعة ٤٦ و٤٧ وتوادورويطس (ك١ في اقايصص الهراطقة فصل ٢٠ وغيرهم).

والرابع برديسان السرياني نشأ في الرها (ارفه)، وكان شهيراً في الكنيسة بعلمه ومدافعتة عن الايمان، وقال فيه اوسابيوس (ك٤ فصل ٣٠) إنه لما كثر عدد الهراطقة في ما بين النهرين عنى برديسان العلامة بلغته السريانية، والعدو اللد لمريون وغيره من اصحاب المذاهب المختلفة بان كتب كتباً عديدة في لغة وطنه ترجمها تلامذته (وقد كان له تلامذة كثيرون لأنه كان يدافع عن ايماننا) من اللغة السريانية إلى اللغة اليونانية، ومنها كتاب في المقدر انفذه إلى الملك انطونيوس وهو من الفصاحة والبلاغة على غايتها. ويقال أنه الف كتباً كثيرة يبين بها جور الاضطهاد الجاري في

ذلك الزمان على أنه اتبع أولاً مذهب والتينوس ثم فند تعليمه، واثبت أنه ينطوي على اقصيص كثيرة. والذي رآه من نفسه إنه سلك سراطاً مستقيماً لكنه لم يرحض تعليمه من فساد الضلال». انتهى كلام اوسايبوس، وروى القديس ايبفان إنه انكر قيامة الموتى وقد فند اضاليه القديس افرام السرياني. وقال نطاليس اسكندر يأسف كثيراً على سقوط هذا الرجل العظيم لأنه افاد الكنيسة كثيراً بمصنفاته العديدة.

وكان في هذا العصر في غير سورية هراطقة كثيرون. منهم كربوكرات الاسكندري الذي زعم أن يسوع ولد من يوسف ومريم كباقي الناس، ولكن فاقهم فضيلة وحكمة منهم النيوستيكيون المار ذكرهم، ثم مرقيون من بنطوس واخص ضلاله أنه علم بوجود الهين اله للخير، وآله للشر، وقد وجد ودنكتون في المحل المعروف الآن بدير علي على مسافة يوم من دمشق جنوباً خطأ يونانياً وهو ٢٥٥٨ من خطوطه كتب على معبد مقام على اسم هذا المبتدع سنة ٦٣٠ يونانية توافق سنة ٣١٨ للميلاد. وقال ودنكتون إن هذا الخط مهم لدلالته على اقامة معبد لأحدى البدع قبل اقامة معابد مشتهرة للمسيحيين لأن قسطنطين لم يكن سنة ٣١٨ تولى المشرق بل المغرب فقط، وكان ليشنسيوس حينئذ قابضاً على زمام ملك المشرق كله. ومن الهراطقة في هذا العصر متنانوس من فريجية في آسيا الصغرى. ومن اضاليه أنه جعل نفسه البارقليط الذي وعد المخلص الرسل به وحرّم الزواج ثانية زاعماً إنه فسق، وفرض اصواماً اخرى زاعماً انها ضرورية للخلاص، ومنهم توادوطس من بيزنطية انكر المسيح في وقت الاضطهاد ولما ونه المسيحيون قال إنه لم ينكر آلهاً بل انساناً، فاخذ يعلم بان المسيح انسان لم يولد من الآب منذ الازل. ومنهم ايضاً هايل وكان تلميذاً لمرقيون ومن اضاليه أن ابن الله نزل من السماء فاخذ جسداً من العناصر الاربعة، ولما صعد إلى السماء رده إلى حيث اخذه. ومنهم مبتدعون يسمون الادميين كانوا في اجتماعاتهم يخلعون عذار كل حياء ويتعرون من ملابسهم زاعمين انهم يتشبهون بآدم، ويستبيحون الفحشاء. ومنهم هرموجانوس وكان من الفلاسفة الرواقين، ومن اضاليه زعمه أن المادة غير مخلوقة ومساوية لله في الازلية. إلى غير هؤلاء من المبتدعين الذين لا اهمية لبدعهم.

خاتمة هذا الباب

عد ٥٤٠

المبحث الذي كان في كنائس سورية في يوم تعييد الفصح

لما كان اكثر المؤمنين في صدر النصرانية من اليهود اعتادوا أن يعيدوا الفصح والقيامة في اليوم الذي يعيد فيه اليهود، ويظهر أن القديس بطرس عند اقامته كرسيه في رومة رأى أن يعيد للقيامة يوم الاحد الذي قام فيه المخلص، فاستطرق المؤمنون في رومة واوروبا التعييد كما سلم اليهم الرسول، واما كنائس آسيا الصغرى وما جاورها فاستمروا يعيدون الفصح على عادة اليهود في اليوم الرابع عشر من مستهل نيسان أي يوم وقع من السبّة. وكثر البحث في هذا المعنى وتوفرت مكاتبات الاساقفة، وعقدت مجامع عديدة. ولما اتى القديس بوليكر بوس اسقف ازمير إلى رومة بذل البابا انيشاتوس قصارى جهده ليقنعه بتعييد عيد الفصح كما تعيده كنائس رومة وغيرها، فما انفك القديس بوليكر بوس متشبهاً بالعمل بعادة الآسيويين حرمة لما سلمه اليهم يوحنا الرسول، ولم يثلم السلم حينئذ بين البابا وهذا القديس. ويظهر من رسالة القديس ايريناوس إلى البابا فيكتور ليسترضيه عن اساقفة آسيا (المثبتة بين تأليفه).

إن سوتر والوتاروس خليفتي انيشاتوس عنيا كثيراً بيت هذا المبحث وأن سلفاءه وهم بيوس واوجينوس وتلسفور وسيتوس تسامحوا مع الآسيويين حرمة لما سلمه يوحنا الرسول وغيره من الرسل الذين شهد بوليكر بوس انهم كانوا يوافقون اليهود بحفلة عيد الفصح، لأن القديس ايريناوس يذكر البابا فيكتور بمثال انيشاتوس وسلفائه ولا يأتي بذكر خليفته سوتر والوتاروس، على أنّ الاحبار الرومانيين الذين جدوا بابطال هذه العادة راعوا أن الكنائس الاخرى تركت الطقوس اليهودية بعد أن زالت الاسباب التي كانت تضطر الرسل إلى المجازاة في هذا التعييد على عادة اليهود، فان كنيسة أورشليم قبل تخريب ادریان اليهودية كان اكثر المؤمنون فيها من اليهود وكان اساقفتهم من هذه الامة ايضاً، فوافقوا اليهود في تعييد الفصح كغيره من الامور. ولكن لما تغلب عدد المنتصرين من الامم نبذوا الطقوس اليهودية، ووافقوا الكنيسة الرومانية وغيرها من

الكنائس في هذا الامر، وقضى هؤلاء الاحبار أنه يلزم أن يكون كذلك في كنائس آسيا لأنه لما ربا عدد المنتصرين في القرن الثاني من الامم على عدد اليهود كان لازماً أن الكنيسة الآسيوية تنكف عن المجارة لليهود في طقوسهم كما انكفت كنيسة أورشليم.

وكان الاحبار الاعظمون يخشون من أن تشبث المسيحيين الآسيويين بعاداتهم القديمة يكون ناشئاً عن زعمهم أن الانجيل يأمر بتعيد الفصح على عادة اليهود، وإن من خالف ذلك وصية آلهية. وكان بعض الآسيويين اتى إلى رومة وحاول أن يدخل في الكنيسة الرومانية عاداتهم في آسيا أن يعيدوا الفصح بحسب شريعة موسى أي في الرابع عشر من الشهر الاول، وهذا ما جعل البابا الوتاروس أن يوقن أو يظن أن هذا التشبث ناشئ عن الضلال المذكور. ولما طال هذا الانقسام عزم البابا فيكتور أن يزيله ويبت هذه المسألة ويؤحد رأي الكنائس، فعقد مجمعاً في رومة ودعا اليه اساقفة ايطاليا وحثم فيه أن لا تكون نهاية الصوم واعياد الفصح إلا نهار الاحد المعين من زمان الرسل ذكراً لقيامه المسيح، وأن يمنع المخالفين عن التعيد بحسب عادة اليهود. وكتب البابا فيكتور رسالة مجمعية إلى اساقفة الاقاليم ينبئهم بما كان القطع به، فعقد توافلس اسقف قيصرية مجمعاً دعا اليه اساقفة فلسطين وجمع القديس ايريناوس اسقف ليون، اساقفة افرنسة، وبشيل اسقف قرنثية، اساقفة اخائيا، وديميتريوس اسقف اسكندرية، اساقفة مصر. وتلما اسقف ابستريس اساقفة بنطوس. واثني هؤلاء الاساقفة في جميع هذه المجامع على اوامر الحبر الروماني حاقمين بالعمل بها، وكتبوا رسائل إلى البابا يثنون اليه بها متابعتهم على ما حكم به وانهم اتخذوا ذلك دستوراً للعمل.

اما بوليكرات اسقف افسس فجمع اساقفته كالباقين، وتلا عليهم رسالة البابا فيكتور والمجمع الروماني، فبدلاً من أن يذعنوا لأمر رومة، ويتابعوا باقي الكنائس اخذوا يدافعون عن عاداتهم القديمة متشبثين بمثال القديس فيلبس، والقديس يوحنا الرسولين، والقديس بوليكرات اسقف ازمير وغيرهم من الاساقفة الذين كان بعضهم شهداء. وكتب بوليكرات في جوابه إلى البابا أن هؤلاء القديسين جميعاً احتفلوا للفصح بحسب ما جاء في الانجيل، ولم يخلوا بشي بل حافظوا على قاعدة الايمان. وتفاخر بان سبعة اساقفة من اسرته لم يكونوا يعيدون هذا العيد إلا على عادة اليهود. وختم رسالته بقوله إن التهديدات لا تروعه ولا تثنيه عن المدافعة عن هذه الحقيقة وأنه يلزم الطاعة لله اكثر من الناس، وكان جميع اساقفته يرون رأيه وإن لم يوقعوا رسالته، إذ روى اوسابيوس (كه فصل ٢٤) إنهم لدى تلاوتها اقروها باجماعهم.

فسر البابا فيكتور برسائل باقي الجامعات وغم برسالة بوليكرات، ولاضطرامه بالغيرة جزم أن يفصل كنائس آسيا من شركة المؤمنين ويحرمهم على ما روى اورسي (ك٥)، على أن نطاليس اسكندر (مقالة رابعة من تاريخ القرن الثاني) اورد بينات عديدة على أن البابا فيكتور لم يحرم الاساقفة الآسيويين، ولم يفصلهم عن شركة المؤمنين بل تهددهم تهديداً في رسائله، إلى أن كان القديس ايريناوس وسيطاً بتسوية هذا الخلاف. على أن الاساقفة الآسيويين اقروا بخطئهم لاعتقادهم تعيد الفصح في الرابع عشر من المستهل بمنزلة وصية آلهية افترضها المسيح في الانجيل، والبابا سمح لهم بالبقاء إلى وقت على عاداتهم التي هي طقسية محضاً ولا تمس المعتقد بشيء. على أن هذه العادة لم يلبث أن انتسخت، وتابح الآسيويون سائر الكنائس على التعيد للفصح والقيامة في الاحد الواقع بعد الرابع عشر من شهر نيسان عند اليهود، ثم حكم الجمع النيقاوي حكماً باتاً بان يعيد للفصح والقيامة في الاحد الاول الواقع بعد الرابع عشر من المنتصف الربيعي. ووضع لذلك ضوابط وحافظت الكنيسة بعد هذا الجمع كل المحافظة كي لا يكون خلل في تعيد الفصح في اليوم المعين. ولما ظهر هذا الخلل من المراقبات الفلكية الدقيقة اصلى البابا غريغوريوس الثالث عشر هذا الحساب، ووضع لذلك ضوابط هي المعروفة بالحساب الغريغورياني وبقيت بعض الكنائس الشرقية على الحساب القديم إلى اليوم.

ويجدر بنا أن نورد هنا ما كتبه العلامة منسي في حواشيه على تاريخ نطاليس اسكندر. «قال: استمسك الرومانيون بتعيين يوم عيد الفصح سندا إلى تقليد رسولي واستمسك الآسيويون بعاداتهم أن يعيدوا له في يوم عيد اليهود سندا إلى تقليد نقلوه عن يوحنا الرسول. اختلف الرسل وقال كل منهم بشي يخالف الآخر؟ كلا! والذي اقدره أن الرسل ما داموا مجتمعين في اليهودية اوجبوا التعيد للفصح على عادة اليهود كما اغضوا عن غيرها من رسومهم الشرعية، واما بعد أن تفرقوا في الآفاق ومضى بطرس إلى المغرب واقام كرسيه في رومة، ورأى اكثر المؤمنين من الامم، وكان هؤلاء ينفرون من اليهود فعلم المؤمنون أن يعيدوا للفصح والقيامة في الاحد التالي الرابع عشر من المستهل لا كعادة اليهود، فجرت هذه العادة مجرى شريعة مسيحية من رومة إلى باقي الاقاليم. واما باقي الرسل الذين اندروا في آسيا وكانت كنائسهم مؤلفة من اليهود على الاكثر فاستمروا محافظين على عادة التعيد كما كانت في اورشليم قبل تفرقهم.

الطران يوسف الزبيدي

تاريخ سورن

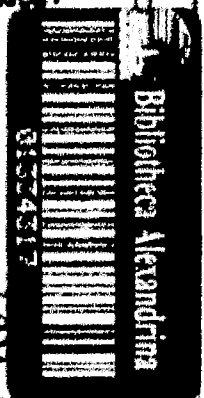
الديويدي

تاريخ سورن في القرن الثاني وما يليه
الى فتح الخلفاء الراشدين لها في القرن السابع

إشراف
مفتي مصر محمد

رابعه ودقته
الدكتور مكارون رعد

مكتبة



الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف
رقم السجل	٤/٥٦٧٥ ٧٠

تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ السوربة

الدينى والدنىوى

الجزء الرابع

تارىخ سوريا فى القرن الثانى وما يليه
الى فتح الخلفاء الراشدين لها فى القرن السابع

إشراف

نظير عبود

راجعه وطققه

الدكتور مارون رعد

ولر نظير عبود

فهرس

صفحة

عدد

الباب الثالث

تاريخ سورية في القرن الثالث

القسم الأول في تاريخها الديني

٥٤١ تمهيد في ذكر الملوك الرومانيين في هذا القرن ١٧

الفصل الأول

ما كان في سورية من الأحداث في أيام هؤلاء الملوك

- ٥٤٢ ما كان فيها من الأحداث في أيام كركلا وماكرين واليوكل . ٢٥
- ٥٤٣ ما كان من الأحداث في أيام اسكندر ساويرس ٣١
- ٥٤٤ استحواذ سابور ملك الفرس على سورية وانتصار اذينة امير
تدمر عليه في ايام فالريان ٣٦
- ٥٤٥ زينب (زبيدة) ملكة تدمر ومحاربة اورليان لها ٣٨
- ٥٤٦ ملوك بني غسان في دمشق وما يليها ٤٤

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدنيويين في القرن الثالث

٥٤٧	برفير الفيلسوف الصوري	٤٩
٥٤٨	لنجين ويوليوس	٥١

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في سورية في هذا القرن

٥٤٩	بطاركة انطاكية في القرن الثالث	٥٤
٥٥٠	بطاركة اورشليم في القرن الثالث	٥٨
٥٥١	من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الثالث	٥٩

الفصل الثاني

المشاهير والشهداء في سورية بهذا القرن

٥٥٢	اوريجانوس	٦٦
٥٥٣	بمقيل ودوروتاوس وملكايون	٧٢
٥٥٤	من عاصر هؤلاء المشاهير في سورية من الأباء والعلماء	
	في غيرها	٧٦
٥٥٥	الشهداء في سورية في القرن الثالث واولئ الرابع	٧٩

الفصل الثالث

ما كان من المباحث الدينية والبدع والمجامع في سورية في القرن الثالث

- ٥٥٦ ما كان من المباحث الدينية في سورية في هذا القرن ٨٥
٥٥٧ المتبدعين والبدع في سورية في القرن الثالث ٨٩
٥٥٨ المجامع التي عقدت في سورية في القرن الثالث ٩١

الباب الرابع

تاريخ سورية في القرن الرابع

القسم الأول

تاريخها الديني

الفصل الأول

الملوك الرومانيين والقسطنطينيين في هذا القرن واعمال بعضهم

في سورية

- ٥٥٩ الملوك الرومانيين في القرن الرابع وفي قسطنطين الكبير ٩٤
٥٦٠ قسطنطين الكبير وابنائهم ٩٥
٥٦١ يوليانس الجاحد ٩٩
٥٦٢ يوفيان الملك ١٠٥
٥٦٣ والتنتيان ١٠٧
٥٦٤ والنس الملك ١١٠
٥٦٥ غراسيان والتنتيان الثاني الملكين ١١٤
٥٦٦ توادوسيوس الملك ونقضه هياكل الاصنام وشرائعه الدينية ١١٧
٥٦٧ ثورة اهل انطاكية على توادوسيوس الملك ١٢٠
٥٦٨ مقتلة سالونيك وما كان بسببها للملك توادوسيوس مع
القديس امبروسيوس ١٢٥

- ٥٦٩ ما بقي من اخبار توادوسيوس الملك إلى وفاته ١٢٨
 ٥٧٠ مشاهير العلماء الدينيين في القرن الرابع ١٣٠

الفصل الثاني

اطوار السوريين في القرون الاربعة الاولى

- ٥٧١ الادارة السياسية في سورية بهذه الحقبة ١٣٣
 ٥٧٢ الزراعة في سورية في القرون الأولى ١٣٧
 ٥٧٣ الصناعة في سورية في القرون الاولى ١٣٩
 ٥٧٤ التجارة في سورية في القرون الأولى ١٣٩

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في القرن الرابع

- ٥٧٥ بطاركة انطاكية بهذا القرن ١٤٤
 ٥٧٦ بطاركة اورشليم في القرن الرابع ١٥٥

الفصل الثاني

اساقفة سورية في القرن الرابع

- ٥٧٧ اوساييوس اسقف قيصرية فلسطين ١٦٠
 ٥٧٨ اوساييوس اسقف حمص ١٦٣
 ٥٧٩ القديس ايفان اسقف سلمينا في قبرص ١٦٥
 ٥٨٠ القديس يوحنا فم الذهب ١٧٠
 ٥٨١ اساقفة آخرون في سورية ١٧٨

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء الاساقفة في سورية من مشاهير الاساقفة والعلماء في غيرها

١٨٨ مشاهير علماء السريان في هذا القرن	٥٨٢
١٩٣ مشاهير العلم في مصر في القرن الرابع	٥٨٣
١٩٨ مشاهير الابرار والعلماء في اسيا في هذا القرن	٥٨٤
٢٠٣ مشاهير الابرار والعلماء من اللاتينيين في هذا القرن	٥٨٥

الفصل الرابع

المجامع التي عقدت في سورية إلى القرن الرابع

٢٠٧ المجامع التي عقدت في انطاكية	٥٨٦
٢١١ المجامع التي كانت في اورشليم	٥٨٧
٢١٣ باقي المجامع التي عقدت في سورية	٥٨٨

الفصل الخامس

اشهر الكنائس التي انشئت في سورية في هذا القرن

٢١٤ كنيسة القيامة في اورشليم	٥٨٩
٢١٨ كنيسة صعود المخلص في جبل الزيتون	٥٩٠
٢٢٠ كنيسة مغارة المولد في بيت لحم	٥٩١
٢٢١ كنيسة صور القديمة	٥٩٢
٢٢٢ كنائس اخرى في سورية في هذا القرن	٥٩٣

الفصل السادس

القديسون الذين كانوا في القرن الرابع في سورية من شهداء ومعترفين

٢٢٥ القديس جيورجوس	٥٩٤
٢٢٧ القديسان سرجيوس وبكخس	٥٩٥

٥٩٦	القديس ايلاريون	٢٢٨
٥٩٧	القديس ملخس	٢٣٠
٥٩٨	توادورس الكاهن وتوادورس الشاب ويوليانس الانطاكيون	٢٣٢
٥٩٩	شهداء آخرون في ايام يوليانس	٢٣٤

الفصل السابع

ما كان من البدع والمبتدعين في سورية في القرن الرابع

٦٠٠	اريوس وبدعته	٢٣٦
٦٠١	مكدونيوس عدو الروح القدس	٢٣٩
٦٠٢	ابولينار وغيره من المبتدعين	٢٣٤

الباب الخامس

تاريخ سورية في القرن الخامس

القسم الأول

تاريخ سورية الديوي في هذا القرن

ذكر الملوك القسطنطين الذين تولوا سورية في القرن الخامس

٦٠٣	اركاديوس الملك	٢٤٤
٦٠٤	الملك توادوسيوس الصغير	٢٤٤
٦٠٥	بلوشاريا ومرقيان الملك	٢٤٧
٦٠٦	الملك لاون الكبير وحفيده لاون الثاني	٢٤٨
٦٠٧	الملوك زينون وباسيليك ولاونس	٢٥٠
٦٠٨	انسطاس الملك	٢٥٤

الفصل الثاني

بعض الاحداث في سورية في هذا القرن

- ٦٠٩ الحرب التي كانت بين الاسود احد ملوك الحيرة وبني
غسان ملوك الشام ٢٦٠
٦١٠ غزوة معاوية لفينيقية وفلسطين وحرب ابنها المنذر مع آل غسان ٢٦٢

الفصل الثالث

مشاهير العلماء الدينيين في سورية ومن عاصروهم في غيرها

- ٦١١ سوزومانس المؤرخ ٢٦٥
٦١٢ ايناي الغزي ومارينس الدمشقي وغيرهما ٢٦٧
٦١٣ من عاصر هؤلاء العلماء في غير سورية من مشاهير العلم ٢٦٨

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

- ٦١٤ بطاركة انطاكية في القرن الخامس ٢٧١
٦١٥ بطاركة اورشليم في القرن الخامس ٢٧٩

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الخامس

- ٦١٦ توادوريطس اسقف قورش ٢٨٣
٦١٧ توادورس اسقف المصيصة ٢٨٦
٦١٨ اسكندر وقورش واخسنيا اساقفة منبج ٢٨٨

٦١٩	ايريناوس اسقف صور	٢٩٢
٦٢٠	باقي اساقفة صور في هذا القرن غير ايريناوس	٢٩٥
٦٢١	من نعرفهم من اساقفة صيدا وبيروت وجبيل بهذا القرن	٢٩٧
٦٢٢	من نعرفهم من اساقفة البترون وطرابلس وعرقا وارتوسيا وارواد	
٦٢٣	في القرن الخامس	٣٠٠
٦٢٣	من نعرفهم من اساقفة جبلة واللاذقية والسويدية وحلب	
٦٢٤	في القرن الخامس	٣٠٢
٦٢٤	من نعرفهم من اساقفة دمشق وحمص وما يليهما بهذا القرن	٣٠٣

الفصل الثالث

غير هؤلاء البطارقة والاساقفة من المشاهير في سورية في القرن الخامس

٦٢٥	القديس سمعان العمودي	٣٠٦
٦٢٦	القديس اسحق الكبير	٣١٠
٦٢٧	القديس اوتيميوس وبعض تلامذته النساك	٣١٢
٦٢٨	القديس سابا	٣١٤
٦٢٩	برصوما الارشيمندريت	٣١٦

الفصل الرابع

من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم في غير سورية

٦٣٠	القديس اوغسطينوس	٣١٩
٦٣١	القديسان كيرلس الاسكندري وايسيدورس الفرمي	٣٢١
٦٣٢	القديس ماروتا اسقف ميفرقين	٣٢٣
٦٣٣	رابولا وايهيبا اسقفا الرها	٣٢٦
٦٣٤	بعض المشاهير الغربيين	٣٢٨

الفصل الخامس

البدع والمبدعون بسورية في القرن الخامس

٦٣٥	بيلايوس وبدعته	٣٣٠
٦٣٦	نسطور وبدعته	٣٣٣
٦٣٧	اوطيخا	٣٣٧

الفصل السادس

المجامع التي عقدت في سورية أو شهدها سوريون في القرن الخامس

٦٣٨	المجمع الافسي المسكوني	٣٤٢
٦٣٩	مجمع افسس المنعوت باللصي	٣٤٧
٦٤٠	المجمع الخلكيديوني العام	٣٥٠
٦٤١	المجامع الخاصة التي عقدت في سورية في هذا القرن	٣٥٧

ملحق

في تاريخ الموارنة

٦٤٢	القديس مارون الناسك	٣٦٢
٦٤٣	تلامذة القديس مارون	٣٦٧

الباب السادس

تاريخ سورية في القرن السادس

القسم الأول

تاريخها الديني

الملوك القسطنطينيون في هذا القرن وما كان بسورية في أيامهم

٦٤٤	الملك يوستينس	٣٧٠
-----	---------------	-----

٦٤٥	خرب انطاكية في ايام يوستينس	٣٧٣
٦٤٦	يوستينيانس الملك	٣٧٥
٦٤٧	حملة كسرى ملك الفرس على سورية في ايام يوستينيانس	٣٧٨
٦٤٨	ثورة السامريين وخرب مدن سورية بالزلزال في ايام يوستينيانس	٣٨١
٦٤٩	يوستينس الثاني	٣٨٣
٦٥٠	طيبار الملك	٣٨٧
٦٥١	موريق الملك	٣٨٩

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية ومن عاصرهم بغيرها في القرن السادس

٦٥٢	المشاهير الدنيويين بسورية في هذا القرن	٣٩٢
٦٥٣	بعض من عاصر هؤلاء خارجاً عن سورية	٣٩٤

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية

في هذا القرن

٦٥٤	بطاركة انطاكية في القرن السادس	٤٠١
٦٥٥	بطاركة اورشليم في القرن السادس	٤٠٧
٦٥٦	من نعرفهم من اساقفة سورية بهذا القرن	٤١١

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدينين غير البطارقة والاساقفة

٦٥٧	يوحنا الابامي وتلميذه يعقوب	٤١٦
٦٥٨	بروكوب الغزي ولانتوس البيزنطي الاورشليمي ودوتاوس الرئيس	٤١٧
٦٥٩	يوحنا الانطاكي البطريرك القسطنطيني والقديس يوحنا الرحوم	
٦٦٠	ويوحنا السلمي	٤١٨
٦٦٠	القديس يعقوب السروجي	٤٢٠
٦٦١	سمعان الفارسي اسقف بيت ارشم ويوحنا سابا واسحق النينوي	٤٣٠
٦٦٢	يعقوب البرادعي	٤٣٣
٦٦٣	يوحنا اسقف اسيا	٤٣٧

الفصل الثالث

المجمع الخامس المسكوني وما كان في سورية من المجمع والبدع في هذا القرن

٦٦٤	الفصول الثلاثة	٤٣٩
٦٦٥	المجمع المسكوني الخامس	٤٤٣
٦٦٦	المجامع التي عقدت في سورية في القرن السادس	٤٤٩
٦٦٧	البدع بسورية في القرن السادس	٤٥١

ملحق

في تاريخ الموارنة في هذا القرن

٦٦٨	انتشار رهبان القديس مارون في سورية وتسمية متابعيهم	
٦٦٩	موارنة نسبة إليهم	٤٥٤
٦٦٩	مناضلة الرهبان الموارنة عن الإيمان الكاثوليكي وما عانوه	
٦٦٩	من الاضطهاد لذلك	٤٥٨

الباب السابع
تاريخ سورية في القرن السابع

القسم الأول
تاريخها الديني في هذا القرن

فصل في الملوك الرومانيين في هذا القرن وما كان بسورية
في أيامهم

٦٧٠	فوقا الملك وما كان في أيامه بسورية	٤٦٣
٦٧١	ثورة اليهود في سورية ونهاية ملك فوقا	٤٦٦
٦٧٢	هرقل الملك وحملة الفرس في أيامه على سورية	٤٦٧
٦٧٣	حرب هرقل مع الفرس وانتصاره عليهم واسترداده خشبة الصليب المقدس	٤٧٠
٦٧٤	تتمة تاريخ هرقل	٤٧٣
٦٧٥	جدول في أسماء الملوك الرومانيين وسني تملكهم ووفاتهم	
	أو عزلهم	٤٧٧

الباب الثالث

تاريخ سورية في القرن الثالث

القسم الأول

تاريخها الديني

عد ٥٤١

تمهيد في ذكر الملوك الرومانيين الذين كانوا في هذا القرن

مرّ في أول الباب السابق أنّ سبتيموس ساويروس استوى على منصّة الملك سنة ١٩٣م واستمرّ عليها إلى السنة ٢١١م التي فيها خلفه ابنه كركلاً المسمى مرقس اورليوس انطونينوس باسيانوس وجيتا، فكركلاً ولد لسبتيموس في ليون سنة ١٨٨م من امرأته يولية (جوليانة) دُمّنة ابنة كاهن (معبد) حمص. ويقال أنه عجل موت أبيه وما لبث إذ تسّم أريكة الملك أن قتل أخاه جيتا في حضن أمه، وألحق به كل من كان لائئلاً بعقوته، ولم يُبق على ذلك الفقيه الشهير بايينيان البيروتي، وأمر بنهب الإسكندرية لمجرد الوشاية له بأنّ أهلها لم يكونوا مائلين له، وكان يعظّم قدر اسكندر الكبير ويحب أن يقتدي به، فاتخذ رجلاً اسمه فستوس كما كان افيسون عند اسكندر ثم أماته مسمماً لبيكيه كما بكى اسكندر نديمه، ولقّب نفسه الجرمانى والبرتي لأنه حارب الجرمانيين والبرتين مع أنّ محاربته لهم عادت بالعار والوبال عليه إلى أن قتله مكرين رئيس الحرس سنة ٢١٧م وأراح المملكة منه. وقد ذكر وادنيكتون خطّين عثر عليهما في عثيل في حوران عد ٢٣٧٤ ينبئ أولهما بإقامة

نصب تكربة للملكين كركلا وجيتا ويلزم أن يكون أقيم في المدة الوجيزة التي كانت بين وفاة سبتيروس ساويروس ومقتل جيتا، والثاني حوى اسم كركلا وحده فكأنه نُقش بعد قتل أخيه. ووجد خط آخر في الجرين في حوران عد ٢٤٥٥ مؤذن بأن أهل هذا المحل أقاموا أثراً تكربة للملك كركلا وآخر في أذرع عد ٢٤٧٩ دال على إقامة أثر هناك أيضاً لسلامة الملك وانتصاره، إلا أن هذا الأثر قد يكون تكربة لمقرس اورليوس، فإن ألفاظه غير صريحة. وعثر رنان على خط في فتقا بكسروان كُتب عليه باليونانية ما مؤداه: «في السنة الأولى للقيصرين مقرس انطونيوس وجيتا مولينا أقيم في هذا الهيكل الناووس والمذبح». ويلزم أن يكون هذا الخط كُتب سنة ٢١١م إذ لم يملك الملكان معاً إلا سنة واحدة.

وخلف كركلا مكرين المذكور وسمي مقرس اورليوس مكريوس وُلد سنة ١٦٤م في قيصرية نوميديا وبعد قتله كركلا أو معاونة القاتلين على قتله نادى به الجنود ملكاً. على أن صرامته المفرطة لم تلبث أن أثارت الجنود عليه وأقام الفيلق الذي كان في حمص أليوكبل عاهلاً وقتل مكرين في الكبادوك سنة ٢١٨م. أما أليوكبل هذا فسمى فاريس افيتوس باسيانوس أليوكبل، وحسبه بعضهم ابناً لكركلا سومياس ابنة خالته، وكان كاهناً لأليوكبل (وتأويله إله الجبل أو الإله الجابل أي الخالق) وهو حجر أسود كان أهل حمص في سورية يعبدونه ويريدون به الشمس. وبعد أن سمي أليوكبل عاهلاً سنة ٢١٨م انتصر على عسكر مكرين في تلك السنة، وأمنت في أيامه تخوم المملكة من جهة الجرمانين والبرتين. لكنه أقدم في روما على فظائع وغرائب منها أنه أخذ من حمص الحجر الاسود وأقام له هيكلًا في روما وقدمه على سائر آلهتهم، وأنشأ ندوة من النساء وجعل أمه رئيسة عليها. وكان يتزينا أحياناً بزّي النساء ويذّر خزينة الملك على معاصيه. ورغب إليه بعض ذويه أن يتبى نسيبه اسكندر ساويروس فهم أن يهلكه حسداً منه، فأثر بعض عماله أن يقتلوا أليوكبل ويخلفوا اسكندر له فكان كذلك سنة ٢٢٠م.

أما اسكندر ساويروس هذا (وفضّل بعضهم أن يسميه ساويروس اسكندر). فسمي بعد ملكه مقرس اورليوس ساويروس اسكندر، وكان وُلد في فينيقية (ويقال في عرقا) سنة ٢٠٩م وكانت أمه يولية ممّا أخت سومياس المذكور فكان نسيباً لأليوكبل. ولما أقيم عاهلاً، كان عمره أربع عشرة سنة واختار رئيساً للحرس اولبيان البيروتي الفقيه الشهير. وأصلح بعض العادات السيئة وعنى بتقديم العلوم وأظهر

الإنعطاف إلى المسيحيين، ووضع صورة ابراهيم ويسوع بجانب تماثيل آلهة الوثنيين. وجيش على أرتخششتا ملك الفرس ولكن لم تكن حملته عليه عائدة تذكر. وعزم أن يحارب الجرمانيين فثار عليه جنوده وقتلوه بدسياسة مكسيمينس الذي خلفه في منصّة الملك سنة ٢٣٥م. وسنأتي على ترجمة ساويروس بأكثر تفصيل لأنه سوري.

أما مكسيمينس فسمي بعد أن تبوأ سرير الملك غايوس يوليوس فاروس مكسيمينس، وُلد في تراسة، وبعد مقتل الجنود اسكندر ساويروس نادوا به ملكاً في معسكر جرمانيا. وأقام جنود الفيلق الذي في افريقية كورديان الأول واشترك في الملك مع ابنه كورديان الثاني فقتل مكسيمينس كليهما. وفي رواية أنّ كورديان الأب انتحر عندما بلغه أنّ قائد جيش مكسيمينس ظهر على ابنه في قرطجنة، وأقامت الندوة حينئذٍ بايان ولبان، فزحف مكسيمينس بجيوشه لمحاربتهم فقتله جنوده على أسوار أكولايا التي كان محاصراً لها سنة ٢٣٧م، وعثر ودينكتون على خط عدد ٢٣٩٩ في كفرلحي في حوران مؤداه أنّ أهل الحبل المذكور أقاموا أثراً تكرمه للملك مكسيمينس وابنه مكسيموس، وأما بايان ولبان فلم يملكا إلا بعض أشهر وقتلهم رؤساء الحرس سنة ٢٣٨م وأقاموا مكانهما كورديان الثالث ابن بنت كورديان الأول وعمره ثلاث عشرة سنة. ورتعت المملكة في أيامه بالراحة والأمن وتزوج سنة ٢٤١م ابنة ميزينا قائد الجيش، وانتصر على الألبين (شعب من التتر) والغطط (شعب من البربر أصله من سكنديناوية انتصروا على البندالة وأقاموا نحو القرن الثالث في جنوبي روسيا وسموا استروكوت أي الغطط الشرقيين وفيزيكوت أي الغطط الغربيين بالنظر إلى موقع إقامتهم في البلاد التي حلوها ويسمى المؤرخون العرب القوط) سنة ٢٤٢م. على أنه قضى سنة ٢٤٣م متسماً على ما يقال بسعي نائبه فيليبوس العربي. وقد عثر ودينكتون على خط في بترأ عد ١٩٠٨ مؤداه أنّ أهل هذه المدينة أقاموا نصباً لسلامة الملك مرقس انطونيوس كورديان في سنة ١٣٤م في تاريخ بترأ يوافق سنة ٢٣٩م، وقد كان ملك سنة ٢٣٨م كما رأيت. وقد وُجد أثر آخر لتكرمته عند ينبوع ماء في قرية عيون بحوران خط ١٩٦٨، وُجد خط في عطني إحدى قرى دمشق منبئ بإقامة أثر نذراً لسلامة الملكة ساينا اغوسطا قرينة الملك كورديان (خط ٢٥٦٢ من خطوط ودينكتون).

أما فيلبس العربي هذا فسمي مرقس يوليوس فيلبس، وكان مولده بصرى ببلاد حوران التي كان الرومانيون جعلوها قصبة الإقليم العربي فهو سوري. إنّ ودينكتون

عند ذكره خط ١٩٠٧ الذي عثر عليه في كنيسة بصرى حاوياً اسم فرونتو و
والياً في العربية في النصف الأول من القرن الثاني استطرد إلى الكلام في ت
بصرى فكتب فيه فصلاً مشبعاً نلخصه هنا قال: «إن صورة هذا الاسم السامية
خطت في بعض الخطوط التي عثر دي فوكوى عليها في تدمر مطابقة لاس
بالعربية بصرى أو بصرا كما سماها أبو الفدا في تاريخه، على أن البحث عما
كانت بصرى هذه وباصر أو بصر. المذكورة في «الكتاب» واحدة أنشأ خلافاً
أقوال العلماء فذهب اوساييوس والقديس ايرونيوس (في كلمة باصر) أن بص
في بلاد العرب هي باصر مدينة اللجا في شرقي الأردن في نصيب سبط رأو
ويرد على هذا القول بأن نصيب سبط رأوين لم يكن ممتداً إلى الشمال -
يشمل بصرى لأن نصيب رأوين، كان فيه ميدبا وحشبون ونصيب جاد ومنسى
يكونا يتجاوزان بحيرة طبرية والجلولان وبصرى بعيدة عن هذه المواقع».

ثم إن بصرى الوارد ذكرها في نبوة ارميا (فصل ٤٨ عد ٢٤) بقوله «قرى
وبصرة وسائر مدن ارض مواب» لا يمكن أن تكون بصرى هذه لأن أرض
ومواب لم تكن تمتد شمالاً حتى تدخل فيها بصرى وكذلك قل في بصرة وب
الوارد ذكرهما في سفر المكايين الأول (فصل ٥ عد ٢٦ وغيره) بقوله «إن كتب
منهم قد حصروا في بصرة وباصر». لأن الكتاب صرح هناك أن هاتين المدي
كانتا في جلعاد أي في الجبال الممتدة في شرقي الأردن لا في السهول كما
بصرى. وصرح أيضاً أن يهوذا المكابي كان حليفاً وصديقاً للنبطيين فلا يأخذ
تخصّهم. واختتم ودينكتون كلامه بأنه لا يظن أن بصرى كانت في أيام
إسرائيل بل هي أحدث عصرًا منهم. وإن أقدم مؤلف ذكرها إنما هو شيشرون ال
ذكر في سنة ٤٥ ق م أن شخصاً من بصرى راسل الرومانيين، وربما كان ذلك
أيام عروة بمبايوس. وإن هذه المدينة بناها النبطيون وهي في حوران، وأنه وجد
خطوطاً كثيرة نبطية وكثيراً من سكة الملوك النبطيين من نحاس. وإن هذه الم
أخذها كورنيليوس بلما قائد جيش ترايان وأقام فيها والي هذا الإقليم من الممل
وقد جعلها هذا الملك بأبنية وسماها في بعض سكاته بصرى الحديثة التريا
ومجعلها اسكندر ساويروس جالية رومانية. وكان منها الملك فيلبس المذكور وب
أسقفها الآتي ذكره، وعقد فيها الجمع الذي شهده اوريجنس كما سترى. على
كون الملك فيلبس وُلد في بصرى غير مجمع عليه، وربما يكون وُلد في ش

(شهباء) التي حقق ودينكتون في خط ٢٠٧٢ أنها فيليبون القديمة في اللجا. وقال أن فيلبس وُلد فيها أو في قرية أخرى من اللجا قرية منها، ولذلك جعلها مدينة وسماها باسمه وخولها حق الجاليات الرومانية. ويظهر من الخط المذكور أن أباه كان يسمى مارينوس. وعن الخط ٢٠٧٧ أنه كان له أخ اسمه برسيكوس قد أقامه فيلبس أميراً على جنود المشرق، ولكن يظهر من خط في روما أنه كان في عهد هذا الملك رئيساً للحرس يسمى برسيكوس، وكان قبلاً والياً على ما بين النهرين فيحتمل أن برسيكوس أخا فيلبس سماه أخوه بعد تسنّمه أريكة الملك رئيساً للحرس بعد أن كان والياً في ما بين النهرين كما يظهر من الخط ٢٠٧٧ في شهباء. ويظهر من خط عُثر عليه في دمر عد ٢٥٦٢ أن فيلبس كان له ابن سمي قيصر، وتاريخ هذا الخط سنة ٢٤٥م. وحقق ودينكتون في كلامه في الخط ٢٤٦٣ أن تاريخ بصرى يتندي سنة ١٠٥م إذ فتح كرنيليوس بلما هذه البلاد وقرض دولة النبطيين، وبقي التعامل بهذا التاريخ إلى ما بعد ظهور الإسلام.

وترقى فيلبس بشجاعته إلى المناصب الأولى في الجندية واشتهر ببسالته في حرب الرومانيين مع الفرس، وبعد مقتل كورديان في ما بين النهرين لُقّب عاهلاً سنة ٢٤٤م. وصالح الفرس تاركاً لهم ما بين النهرين، وعاد إلى روما سنة ٢٤٧م ليحتفل بمعظم الحفاوة بعيد الألف سنة لتأسيس روما. وثار بعض المزارعين له منهم يوتيبان في سورية، وباكتيان في فرنسة، وماريوس في ميسيا من آسيا الصغرى. فأرسل فيلبس داشيوس لمحاربة ماريوس، فسماه جنوده ملكاً. وعاد على فيلبس فقتله في فرونا (بايطاليا) سنة ٢٤٩م. ويُظن أن هذا الملك كان مسيحياً. وكتب العالم اوب مقالة في أن الملك فيلبس كان مسيحياً. وقال اوسايوس في الكرونيكون في تاريخ سنة ٢٤٦م أنه أول من صار مسيحياً من جميع الملوك الرومانيين. وجاء في تاريخ روهربخر في كلامه في القديس ايوليطس «أنه كتب رسالة أو إرشاداً إلى الملكة ساويرا، ويظن بصواب أنها امرأة الملك فيلبس. وفي هذه الرسالة على ما يظهر من فقرة منها ذكرها توادوريطس يتكلم ايوليطس في سرّ التجسّد وقيامه الموتى. فجاء ذلك مثبتاً ما رواه بعض القدماء أن الملك فيلبس وأسرته كانوا مسيحيين. أما داشيوس فسمي ماسيوس كوينوس ترايانوس، وكان وُلد سنة ٢٠١م في آسيا الصغرى، وصار والياً على ميسيا وارتقى المناصب في طريقة الجندية، وأقامه

الجنود ملكاً سنة ٢٤٩م وأقرّ الرومانيون بملكه بعد قتله الملك فيلبس. واشتهر بانتصاراته على الغطط الذين كانوا دخلوا المملكة الرومانية وأكثروا فيها من المضار، وظلّ إلى أن قُتل في حربٍ أخير معهم في تراسة سنة ٢٥١م. واشتهر بإثارته الاضطهاد على المسيحيين وقد ابتدأ به في السنة الأولى للملكه.

وخلفه غلّوس وكان قائداً للجيش في ميسيا، ويقال أنه هو الذي غدر بالملك داشيوس وقتله في حربه مع الغطط، وجعل الجنود يسمونه ملكاً في سنة ٢٥١م المذكورة. واشترك في الملك معه أولاً اوسيليان بن داشيوس لكنه ما لبث أن قتله، واشترك مع ابنه فوليسيان في الملك وابتاع من الغطط صلحاً مدلاً ومعيماً له. وزاحمه اميليان في الملك فساق جنوده عليه فقبلوا للمكهم المجن وقتلوه في اميريا في ايطاليا ٢٥٤م. وخلفه اميليان المذكور وسمي اميليوس اميليانوس وكان مولده في موريتانيا سنة ٢٠٦م، ونُصب والياً على ميسيا في أيام غلّوس سنة ٢٥٣م، فلم تقرّ له الندوة بالملك بل أقرّت به لفالريان، فانقلب عليه الجنود وقتلوه سنة ٢٥٤م.

أما فالريان فسمي ليشينيوس فالريانوس، وكان قد وُلد سنة ١٩٠م وتقلّب في مناصب الجندية وأقامه جيش فرنسا وجرمانيا ملكاً بعد مقتل غلّوس سنة ٢٥٣م، وشارك ابنه غاليان في الملك وانتصر على الغطط وعلى اذينة ملك تدمر. وزحف لمحاربة سابور ملك الفرس، وبعد استظهاره عليه انكسرت جنوده في جانب الرها بخيانة مكريان أحد المتقربين إليه سنة ٢٦٠م، وأرغم أن يستسلم إلى سابور فأماتته بعد أن عذّبه سنين عديدة. وفالريان من جملة الذين أثاروا الاضطهاد على المسيحيين سنة ٢٥٧م. وبعد وفاة فالريان خلفه ابنه غاليان وسمي ليشينيوس اغناطيوس غاليان وكان وُلد سنة ٢٣٠م وشاركه أبوه في الملك سنة ٢٥١م. ولما أسر سابور أباه سنة ٢٦٠م لم يحفل بنجاة أبيه من الاسر بل صرف جهده ليقرّ له بالملك، فأقرّ به كل إقليم لواليه، فكان حينئذٍ ما يسميه المؤرخون حكومة الثلاثين مستبداً. وحاول غاليان على ضعفه وانكبابه على ملاذه أن يخضعهم لسلطته فانتصر على المجانوس في ايليريا وعلى بسطون في فرنسا. ولكن قتله أحد المتآمرين عليه إذ كان محاصراً اورولس في ميلان سنة ٢٦٠م. وقد كان الفرنك سنة ٢٥٥م حملوا على المملكة فاضطّروا إلى مناصبتهم العداء وأن يدفع الغطط عن داشيا. وأما الثلاثون مستبداً المار ذكرهم فالمعروف من اسمائهم سبعة عشر، ولكن سماهم

المؤرخ ترابليوس يوليوس ثلاثين فأخذوا عنه تسميتهم كذلك وأخضعهم الملوك على التعاقب. وعند موت غالين نادى الجنود بكلود الثاني ملكاً سنة ٢٦٨م وسمي مرقس اورليوس كلود، ولُقّب بالغططي لانتصاره على الغطط، وكان وُلد في دلماسيا سنة ٢١٥م وأخضع بعض المستبدين المذكورين وطرد الالمان من تخوم ايطاليا. وظهر على الغطط سنة ٢٦٩م ثم مات بالوباء بعد أن ملك سنتين فقط ولُقّب بترايان الثاني لشجاعته وعدله وحلمه.

وخلف كلود الثاني كنتلوس أخوه وسمي مرقس اورليوس كلود، أقامه الجيش الذي كان يقوده في اكويلايا عند وفاة أخيه، ولكن انقلبوا عنه عندما عرفوا بانتخاب اورليان في روما فانتحر هو ولم يملك إلا سبعة عشر يوماً.

وكان كلود الثاني عيّن اورليان للخلافة له، فخلفه سنة ٢٧٠م وسمي لوشوس دوميسوس اورليان، وكان وُلد في آسيا الصغرى سنة ٢١٢م وأبوه من عامة القوم، فترقى بحذاقته في المناصب حتى سماه فالريان قنصلاً سنة ٢٥٨م، واستظهر على الغطط والبندالة وغيرهم وقهر زينوية أي زبيدة ملكة تدمر سنة ٢٧٣م وأخذها أسيرة إلى روما. وأخضع سنة ٢٧٤م أيضاً تتركوس الذي كان قد استبدّ في حكومة فرنسا سنين عديدة وقوبل بحفلة الإلتصار عند عوده. واستتبّ له الأمر وجُمّل روما ببعض البنايات، وحط من الأموال الأميرية وأجرى إصلاحات نافعة وسنّ شرائع محكمة إلى أن غدر به أحد معتقيه سنة ٢٧٥م.

وخلف اورليان تاسيت وسمي مرقس كلود تاسيت أجبرته الندوة على قبول الملك في سنة ٢٧٥م وعمره سبعون سنة، فنجح وأفلح ودفع حملات الغطط والأنيين وانتصر على الفرس وهم بأن ينظّم الجندية، ولكن فاجأه غادر فقتله في نيسان سنة ٢٧٦م. وكان يدّعي أنه من نسل تاسيت المؤرخ وأقام تمثاله وتأليفه في المكاتب، وبعد مقتله خلفه فلوريان وكان أخا تاسيت لأمه وسمي مرقس انطونيوس فلوريان، وأقرّت له الندوة بالملك على أنه لم يملك إلا شهرين وهاج عليه جنوده فقتلوه إذ كان زاحفاً إلى بروبس الذي أقامه الفيلق الذي في سورية ملكاً.

إنّ الجنود الخميمين في سورية لما بلغهم خبر مقتل تاسيت أقاموا بروبس ملكاً وسمي مرقس اورليوس بروفس. وكان قد وُلد في آسيا الصغرى سنة ٢٣٢م وترقى بشجاعته في المناصب في أيام اورليان وتاسيت. وبعد أن استوى على أريكة الملك

دفع الصرمطيين (قوم منشأهم البلاد الواقعة بين البلتيك وبحر قزوين في جوار الترس) وأمن مصر ونجى فرنسا من غزوات الجرمانيين فيها، وذلك ساتورنينوس وبونوزوس وبروكولس من المستبدين المذكورين. ودخل إلى روما بحفلات النصر سنة ٢٨١م وكان يشغل الجنود بالأشغال النافعة للجمهور ليقبهم سوء غائلة البطالة. فجفف بعض المستنقعات وافتتح طرقاً وأقنية وكان يناظر بنفسه على تلك الأعمال وحسب الجنود تلك الأعمال حاطة من قدرهم فثاروا عليه وقتلوه سنة ٢٨٢م، واستحق أن يلقب برويس أي التقى أو الفاضل وأجرى إصلاحات عديدة.

وخلف برويس في الملك كاروس وسمي مرقس اورليوس كارس وكان رئيس الحرس ووُلي القضاء في أيام برويس فاختره الجنود خليفة له بعد مقتله، واسترد ما بين النهرين من الفرس مع سلوكية وقطيسفون، لكن عاجلته المنية في هذه المدينة سنة ٢٨٣م. قال بعضهم أنّ صاعقة انقضت عليه، وقال غيرهم أنّ بعض الخونة اغتاله. وخلفه بعد موته كاران ونمران ابناه اللذان كان قد سماهما قيصرين فاقسما الملك بينهما، وكان نصيب كاران ايطاليا وإيليرية وفرنسا وإسبانيا وإفريقية وكان قاسياً لكنه شجاع، فاستظهر على يوليانس الذي كان قد استبدّ في حكومة بنونيا وظفر أولاً على ديوكلتيان، لكن تغلب ديوكلتيان عليه في ميسيا. وبعد انكسار جيشه فترك به ذروه سنة ٢٨٥م. وأما نمران أخوه فقتله ألبس صهره بعد ثمانية أشهر من ملكه فقتل ديوكلتيان ألبس المذكور.

أما ديوكلتيان المذكور فوُلد في ديوكلية في دلماسيا سنة ٢٤٥م ويقال أنه كان ابن رقي فدخل الجندية وسمي في أيام برويس قائداً لجيش ميسيا، ثم سمي قنصلاً سنة ٢٨٣م وسماه نمران رئيس خدمة القصر سنة ٢٨٤م، وقتل بيده قاتل نمران كما مرّ، ونودي به ملكاً في نيكوميديا بالرغم من معارضة كاران أخي نمران. وبعد مقتل كاران استتب له الملك واستبدّ به إلى أن شارك فيه سنة ٢٨٦م مكسيميان هرقل وأمره على الجيش في المغرب فأمن بريطانيا التي كانت ثائرة، ورأى ديوكلتيان الملك فسيح الأرجاء منبسطاً فعول أن يقسمه بين أربعة أمراء. ففي سنة ٢٩٣م سمي كالر وقسطنس قيصرين بعد أن تنابها وزوج كالر ابنته وسمى نفسه ومكسيمياس عاهلين، وحفظ ديوكلتيان لنفسه تراسية وآسيا ومصر، وجعل نكوميدية عاصمة له. وقد ذكر ودينكتون خطأً عثر عليه في تدمير ٢٦٢٦ كتب فيه لمصلحي العالم المدافعين عن النوع البشري مولينا ديوكلتيان ومكسيميان العاهلين الظافرين

وقسطنس ومكسيميان (كأنه لقب كالر) القيصرين الشريفين بنيت هذه القلعة بعناية سوسيانس هياكلوريوس الوالي». وقد حارب ديوكليتيان الفرس وانتصر عليهم بمعاونة كالر له سنة ٢٩٤م وأخذ منهم بلاد ما بين النهرين العليا وأخضع مصر الثائرة عليه. وأراد أن يغيّر نظام المملكة وأدخل فيها عادات الملوك الشرقيين من وضع تاج على رأسه، وحظّره أن لا يكلمه أحد إلا وهو جاثٍ ولا يكلمه إلا بضمير الغيبة، وفصل بين المناصب الجنديّة والمناصب الملكيّة وجعل رئاسة الحرس لأربعة رؤساء. وزاد عدد الأقاليم من سبعة وثمانين إلى مئة وعشرين إقليمًا. وكان ديوكليتيان يأنف من الاضطهاد ومع ذلك حمّله كالر على إبراز منشور سنة ٣٠٣م نهى به المسيحيين عن الاجتماعات العامة. وكان يعاقب المخالفين بالموت واضغطت المشاق ديوكليتيان فاعتزل الملك سنة ٣٠٥م، ومات في سالون بدلماسيا وكانت أطلال قصره فيها باقية إلى القرن السادس عشر.

الفصل الأول

ما كان في سورية من الأحداث في أيام هؤلاء الملوك

عد ٥٤٢

ما كان فيها من الأحداث في أيام كركلاّ وماكرين وأليوكبل

لم نعثر إلى الآن على شيء من الأحداث التي كانت في سورية على عهد كركلاّ إلاّ تكملة أبنية أبيه في بعلبك، فهو الذي انشأ الرواق والعرصة أمام هيكل المشتري على ما روى دوري في تاريخ الرومانيين عن ديون كاسيوس المعاصر لهذا الملك.

أما ماكرين فكان قد شخص إلى المشرق ليبيكت ملك الفرس الذي كان استحوذ على ما بين النهرين، فلم يستطع إزاحته عن هذه البلاد بل صالحه وأطلق الأسرى الذين كان قد أخذهم من جنوده ودفع إليه خمسة عشر مليوناً من الدراهم، فارتضى بها ارتابان ملك الفرس، وتخلّى عن البلاد. وذلّ ماكرين أيضاً الملك الأرمني المسمى تريدان وردّ عليه أمه التي كان كركلاً قد سباه، وتخلّى له عن بعض الأرضين في الكبادوك وأتى ماكرين يقيم في انطاكية، وكتب منها إلى ذويه في روما يقول إنه لم يقم في انطاكية ليشاهد الراقصين ويسمع المغنين بل ليردّ الجنود من المشرق الذي أتمنه إلى المحال التي استوتوا منها.

وكان من وغادة هذا الملك أنه بعد وفاة دمنة الحمصية امرأة سبتيموس ساويروس وأم كركلاً نفى إلى حمص أختها ميزا وبنيتها سومياس أم افيتوس باسيانوس وهو أليوبكل، ومما أم اسكندر الذي صير بعد عاهلاً وسمي اسكندر ساويروس. وكانت هؤلاء النسوة ذكيات ماكرات وكنّ على جانب كبير من الثروة ولم يكن يذخرن المال في سبيل نيل المراتب، وكانت سومياس بديعة الجمال غير ضنينة بشرفها، وكان اتصال نسبهنّ بالأسرة الملكية معانواً لهنّ على الفوز برغائبهنّ، ولم يكن باقياً من أسرة باسيانوس كاهن هيكل حمص إلا هؤلاء النسوة الثلاث والابنات المار ذكرهما وسومياس ومما أرملتان، وكنّ مجاورات هيكل الشمس في حمص، وكان السوريون يجلبون هذا الهيكل عظيم الاجلال ويقرون له بحق الملجأ بمعنى أنّ من لجأ إليه لم يمسّه أحد بضراً، فاستودعنّ مالهنّ وانفسهنّ لهذا المعبد وأرسل ماكرين بوغادته فرقة من الجنود تقيم حذاء هذا الهيكل ومفاتيحه بيد ميزا وبنيتها اللاتي تعمدنّ حط العاهل وتنصيب غيره، وأقمنّ أكبر الابنتين وهو افيتوس كاهناً في هيكل حمص وارثاً لأسرة باسيانوس، وختنّه عملاً بعادة البلاد ومنعنه من تناول لحم الخنزير، وتظاهرنّ بالتقوى والورع حتى وجد خط قديم يسمى «ميزا الكليّة القداسة». ووُجدت مسكوكات تمثل سومياس بالزهرة الكوكب المعروف. ومما كانت تراسل اوريغانس على ما روى اوساييوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٢١) وكان لافيتوس باسيانوس حينئذٍ من العمر أربع عشرة سنة وكان جميل المنظر يتشّح برفير معلّم بالذهب، ويخرج على رأسه إكليل مرصّع بالحجار الكريمة، وإذا شخص إلى الهيكل ليكمل الخدم الكهنوتية، شخصت الأبصار إليه وتناولت الأعناق وازدحمت الأقدام لرؤيته. وكان الجنود الخثيمون في جانب المدينة يأتون ويعجبون

بالخير الشاب ويجلونه. وكانت العامة تسميه أليوكيل باسم معبودهم. ويدعوه بعض
الحشم في قصر أمه ابن كركلاً. ووجد اسمه كذلك في أحد خطوطه فما كانت
هؤلاء النسوة يذرنه من المال ويدينه من المواعد، حمل كل راغب في نفعه على
التصديق. وكانت ميزا تؤثر التاج الملكي على كل مال. وفي حكم سومياس أن
البرفير يغطي كل عيب والجنود يؤثرون نفعهم المالي على شأن مملكتهم.
وهذا مثال لمما أم اسكندر ساويروس مأخوذاً عن تمثالها في متحف اللوفر.



ففي ذات ليلة أتى أليوكبل إلى معسكر حمص ومن ورائه مركبات تقلّ أكياساً من الذهب، ولم يسفر النهار إلّا ونودي به ملكاً، وسمي مرقس اورليوس انطونينوس أليوكبل. وكان ذلك في السادس عشر من أيار سنة ٢١٨م. وكان اولبيوس يوليانس أحد الحرس الملكي في جوار حمص، فأسرع مع بعض الفرسان إلى المعسكر وحاول أن يفتح أبوابه، فدفع وهاجم ثانية فلم ينل بغية، ولما رأى جنود يوليانس ارفاقهم يرونهم من أعلى الاسوار من يسمونه ابن كركلاً وأكياس الذهب التي أتت بها ميزا، قلبوا ظهر المجن لقائدهم وقتلوا رؤساءهم وانضمّوا إلى جيش أليوكبل وخفقت أعلام العسكريين معاً.

أما مكرين فلم يعتد لأول وهلة هذه الثورة إلّا حركة نساء يسر له تخميدها دون تكلف، وإذ وافاه رسول من معسكر حمص قائلاً أبشر فقد أتيك برأس أليوكبل وطرح الرأس أمامه، فإذا هو رأس يوليانس قائده، فأقلقت مكرين جسارة الثائرين عليه بإرسال هذا الرأس، ودُهِشَ بيسالة هذا الجندي الذي أحضره ولجأ إلى الوسيلة الكبرى للنجاة وهو الذهب، فوعد كلاً من جنوده بخمسة آلاف درهم ينقد كلاً منهم ألفاً منها معجلاً بحجّة أنه يريد أن يمنح ابنه لقب اغوستوس، فلم ينجع بالجنود هذا السخاء الناشيء عن الخوف بل أخذ بعضهم في كل يوم يغادرون محلاتهم ويأتون معسكر حمص. وكانت فرقة في اباميا فأُتت برمتها وانضمّت إلى عسكر أليوكبل حتى أصبح جيشه يطمع بالإستظهار على مكرين والتقى الجيشان على تخوم سورية وفينيقية، وكان خصمي لمّا اسمه كانيس أمرته على جيش أليوكبل، فأخذ استحكامات حصينة للحرب، وتقدّمت ميزا وسومياس وأليوكبل في طلائع جيشهم ليزيدوه شجاعة، فتولّى الرعب مكرين ورؤعه الصراخ والهتاف وخيانة بعض جنوده. فانهزم تاركاً رؤساء الجيش في الوقعة يدافعون عن شرف جيشهم إلّا أنهم لما رأوا ندالة ملكهم وسمعوا مواعيد أليوكبل بأنه يُقي كلاً منهم على مقامه وشرفه غادروا سلاحهم واستسلموا إليه فأصبح كاهن هيكल الشمس عاهلاً للرومانيين في ٨ حزيران سنة ٢١٨م. ويقال أنّ أليوكبل بنى ذكراً لانتصاره هذا مدينة شيتوبولي في فلسطين في محل عمواص على ما روى اوسايوس في الكرونيكون (في تاريخ سنة ٢٢٤م).

أما مكرين فأرسل مبشراً إلى انطاكية بانتصاره ولدى وصوله إلى ضواحيها جرّ

شعره وحلق لحيته وتنكر وجده مسرعاً في طريق بيزنطية واوروبا، فجاوز آسيا الصغرى ولم يعارضه أحد، على أن مشقة السفر واحتياجه إلى المال أجبراه أن يتوقف في إحدى ضواحي خلکیدونية. وكتب رقعة إلى عمال الخزينة ليمده بمال فعرف وقبض عليه ودفع إلى جنود أليوكبل الذين كانوا يتبعون خطاه منذ فراره من إنطاكية، وكان قد كلف بعض الأمناء له أن يأخذوا ابنه إلى الفرس الذين كان قد حالفهم حديثاً. فأدرك فرسان أليوكبل الشاب قبل أن يجتاز الفرات، فقتلوه وبلغ الأب خبر مقتل ابنه وهو مسوق إلى الظافر، فطرح نفسه من مركبته فانحطمت كتفه فأكمل الجنود قتله وكان له من العمر أربع وخمسون سنة. ومن الملك أربعة عشرة شهراً ولا يُعرف لمكرين أثر إلا قوس انتصار أقامه له أهل مدينة زانا في الجري لأنه كان من تلك الأنحاء، وغُثر على خط في تلك المدينة مؤذن بذلك.

ومن بعد ظفر أليوكبل هذا اتخذ لنفسه كل الألقاب الملكية دون أن ينتظر أن تقره الندوة في الملك كما كانت العادة. وسافر من حمص مصطحباً معه الحجر الاسود الذي كان يعبد فيها كغيره من الحجارة في مدن أخرى في المشرق، وأتى انطاكية وأراد أن يجعل ما فيها غنيمة لجنوده، فافتدى الأهليون نفوسهم وأموالهم بدفعهم لكل جندي خمس مئة دينار، وأرسل من هناك رسائل إلى روما يعد بها أنه يدبر الحكم كمرقس اورليوس، ويهدد كلاً من رجال الندوة إذا تشيعوا لسلالة مكرين.

ودخل أليوكبل روما متشحاً بثوب من البرفير معلماً بالذهب، وبجيده عقد من جواهر كريمة، ووجهه مخضب على عادة الشبريين، وميزا وبتاها من ورائه مع غيرهن من النساء. ومن أعماله في روما أنه أقام ندوة للنساء وجعل أمه رئيسة لهذه الندوة التي كان من خصائصها أن تعين الأزياء ومقدار الذهب والحجار الكريمة التي تتحلّى بها كل امرأة بحسب حالها، وكيفية زين الخيل والمركبات إلى غير ذلك. وأما ممّا أم اسكندر فكانت معتزلة مهتمة بتربية ابنها، وكان لهذا الملك خلاعات وفضائع تحطّ من شرفه وقدره، على أن إخلاص الجنود له في الطاعة وبعض بواكير أعماله أكسبته هبة وسلطة وانبسط الأمن في المملكة، وتهدّئ الجرمانيون فلم يتخطّوا حدود المملكة. وكان للفرس مشاغل تصدّهم عن السطو على الرومانيين، وأما سكان روما فكانوا يشمئزون من فضائع أليوكبل ويأنفون من تقديم الحجر الاسود

على آلهتهم. وكان الملك يني له في كل سنة هيكلاً في ضواحي روما ينقله إليه بمعظم الاحتفاء، وكان يأذن لأصحاب كل مذهب أن يصنعوا طقوس مذهبهم في هيكل إلهه يهوداً كانوا أو سامريين أو مسيحيين أيضاً، قاصداً أن يعرف كهنة أليوكبل سر كل مذهب، وزاد على ذلك أنه دفع أعظم مناصب المملكة إلى سفلة القوم.

أما ميزا جدته فكانت ترى عاقبة تصرفه وخيمة تعود عليه بالوبال، فحملته على العزم بأن يسمي اسكندر ابن خالته قيصر، ويتخذها ابناً له فيعاونه في أعياده وفي خدمة الآلهة وتدير المملكة. ولم يكن لاسكندر حينئذ من العمر إلا اثنتا عشرة سنة، لكنه كان ذكياً لئن العريكة طلق الوجه حزواً حتى كانت جدته وأمه تتوقعان منه نجاح أسرتهما. وأقامت له أمه مهذين يلزمونه دائماً ويعصمونه من كل فساد ورذيلة. وأكثرت من عطاياها إلى الحرس فمال الجمهور إليه وسخط عليه أليوكبل، وأخذ يبحث عن ذريعة يهلكه بها. وكانت ممّا يقظة على سلامته تمنعه من كل طعام أرسله الملك إليه. وأقامت له خداماً تثق باخلاصهم فأشاع يوماً ما سنة ٢٢٠م خبر موت اسكندر ليعلم ما يعمل الجنود إذا قتله، وعرفوا أنّ الخبر غير صادق فصاحوا طالبين أن يروه واستدعوا الحرس الذين كانوا يرسلونه كل يوم إلى القصر وأقاموا في معسكرهم مهددين، فاضطر أليوكبل تخميذاً لثورتهم أن يمضي مع اسكندر ليروه، وتبعتهما أمه وممّا أم اسكندر تثير كل منهما الجنود على واحد منهما فعلا الهتاف واتصل الحشد إلى العراق، فقتل الجنود أصدقاء أليوكبل ووزراءه وسومياس أمه نفسها واضطر أليوكبل أن يختفي في مرحاض المعسكر. فقتل هناك وجرت جثته في الاسواق، ثم طُرحت في نهر التيبر وألقوا به إلهة أي الحجر الاسود. وكان ذلك في ١١ آذار سنة ٢٢٢م، ونادى الجيش بابن خالته اسكندر ملكاً وسمي مرقس اورليوس اسكندر. وزاد الجنود عليه اسم ساويروس ذكراً لمن كان بعضهم يظنه جدّاً له. فكان هذا الملك الشهير من سورية أيضاً. انتهى ملخصنا عن فيكتور دوري في تاريخ الرومانيين عن ديون كاسيوس وهروديان وغيرهما. ومن الآثار الخط الذي عثر عليه ودينكتون في قنوات بحوران عد ٢٣٣٢ مؤذن بإقامة أثر لسلامة الملك أليوكبل وجدته يولية ميزا. وقال ودينكتون أنّ اسم ميزا كُتب غالباً في الآثار مع اسم أليوكبل حفيدها.

واليك مثلاً للملك أليوكبل مأخوذاً عن أحد متاحف فرنسا.



عد ٥٤٣

ما كان من الأحداث في أيام اسكندر ساويروس

قلّ ما كان من الأحداث في سورية في عهد هذا الملك، على أننا نطيل الكلام فيه لأنه سوري ، ونرى السوريين دبروا شؤون المملكة في ذلك العصر نيفاً وأربعين سنة متتالية، فكل ضليع بالتاريخ يعلم ما كان لدمنة ابنة كاهن حمص عقيلة الملك سبتيموس ساويروس من الكلمة النافذة بل من السلطة القاطعة عند هذا الملك، وما كان لها من الاجتماعات بالفلاسفة وأعيان المملكة، حتى كان لها امتدى خاص لذلك. وإنّ باينيان البيروتي واولبيان الصوري أو البيروتي ويوليوس بولس الصوري كانوا رؤساء الحرس عند هذا الملك، وكان لهذا المنصب المقام الأول في المملكة

بعد الملك، إذ كان من خصائصه الرياسة على أخص الجنود المقرين إلى الملك وحرسه والقضاء في جميع الدعاوى الجزائية والمدنية أيضاً. وبعد وفاة سبتيموس ساويروس وخلافة كركلاً وجيتا ابنيه له، كان لأمههما دمنه النفوذ الكبير في تدبير المملكة. وبقي بعض الرؤساء المذكورين على رياسة الحرس في أيام كركلاً. وإن نفى أليوكيل بعضهم فقد استرجع اسكندر ساويروس المنفيين دون إبطاء كما ذكرنا. وفي أيام أليوكيل كان تدبير المملكة بيد ميزا جدته أخت دمنه وبيد أمه سومياس وخالته ممّا بنتي ميزا. ولما استوى اسكندر على أريكة الملك كانت أمه مدبرة له وللملك يساعدها في ذلك اولبيان البيروتي رئيس الحرس. واستمرت الحال على ذلك إلى وفاة هذا الملك سنة ٢٣٥م وقد رأيت أنّ سبتيموس ساويروس ملك سنة ١٩٣م فتكون هذه المدة سنة ٤٢ تخللها مدة ملك مكرين ١٤ شهراً وفي النيف والأربعين سنة كان تدبير المملكة بيد السوريين.

وكانت ميزا جدة الملك اسكندر معروفة بالحكمة والسداد وأمه ممّا مشهورة بعلو المدارك وحسن الآداب، فأقامت لابنها أفقه المعلمين وأفضلهم حتى قال هروديان (ك ٦ فصل ١) إنه كان لهذا الملك عند استوائه على العرش كل ما يليق بملك من وزراء وحاشية وحشم، لكن كان مدار تدبير المملكة موكولاً إلى الأميرتين جدته وأمه، وصرفتا قصارى جهدهما في العود إلى الخصال المدحوة والرصانة القديمة، فانتخبنا من رجال الندوة ستة عشر رجلاً ممن حنكهم الدهر وشهدت لهم العامة بالفضل، وألفنا منهم ديوان مشورة للملك فلم يكن أمر ينفذ إلّا برأيهم. فشّر الشعب والجنود والندوة بهيئة هذه الحكومة وحظرت ممّا أن يدخل قصر ابنها كل من كان معروفاً بالسفه أو سوء الخصال لتقيه التلطّخ بالردايل وركب مطية الغرور خيفة أن تسوقه إلى ذلك السلطة المطلقة واراغة الشبيبة وعشرة هؤلاء. وفي الجملة لم تأل جهداً في جعل ابنها صالحاً للملك واستدعت إليها اولبيان ابن وطنها الفقيه الشهير وأقامته رئيساً على الحرس متولياً القضاء. وكان هذا المنصب يجعله الثاني بعد الملك ولكن كان المقام الأول لاولبيان بالنسبة إلى سن الملك، فلم يكن أحد يقابل الملك بغير حضرته، وهو كان يرفع إليه دعاوى الناس ويلقنه كيف يتصرف بها. وعليه فكان اولبيان مديراً أمور الملك بجملتها، فانبسطت العدالة وعمّ الأمن والراحة وكان كل من أثقل الشعب أو اعتسف أو جار في القضاء لقي جزاء عمله وعوقب بما جنت يده، فلم يكن من يهضم حقه أو يحكم عليه دون مراعاة دقيقة.

وأصلح كثيراً من الشرائع وعدّل بعضها وفاز بتمام الحرية كل من عُرف من الرعية بالطاعة وحسن السريرة. وأقام لجنة مؤلفة من أربعة عشر قنصلاً تقضي مع والي روما في جميع الدعاوى في الأربعة عشر حياً من المدينة. فكان ذلك مجلساً بلدياً لعاصمة الملك مانعاً من استبداد واليها إلى غير ذلك من الرسوم العائدة لخير المملكة وتحبيب الملك إلى الشعب. وقد قال كاتب ترجمة هذا الملك أنه كان من أقلّ الملوك تمسكاً بالوثنية، وكأنه مسيحي بما كان يبدي من حميد سجايه وحسن أدابه والإقتصاد في عيشه وملبسه حتى كان نافعاً بمثله أكثر من نفعه بسننه. وقد كتب على باب قصره ما ورد في الإنجيل: «لا تصنع بغيرك ما لا تريد أن يصنعه غيرك بك». وكان يمضي في كل يوم إلى المحل المقامة فيه صور من كان يسميهم المحسنين إلى الانسانية من أمراء وفلاسفة ومُنشئي ممالك أو ديانة. وكان يُكثر المطالعة في كتاب أفلاطون في الجمهورية، ومقالات شيشرون في الفروض، ورسائل أوراس ليقتبس منها قواعد يستسير بموجبها. وكان كل سبعة أيام يمضي إلى الكبيتول ويزور معابد المدينة، ولم يكن يكثر من التقادم إليها بل كان يقول أنّ الآلهة يسوّون بممارسة الفضائل ولا يحتاجون إلى الذهب، لكنه كان جواداً على الفقراء وأصدقائه ومن أتمّ فروضه من عماله. وزاد الضرائب على مصنوعات البدخ وعلى صانعي الحلوى الذهبية والفضية والأفرية، وحطّ من الخراج على غيرها. وكان يتأوه لو أمكن إلغاء الأموال الأميرية برمتها، ومنع المتمولين من أن يقرضوا مالهم بأكثر من ثلاثة في المئة. ووضع نظاماً على الأزياء وعلى ملابس الصيف والشتاء ليكتفي كل من الرعايا بما تمكنه منه حالته. ولما كان هذا يشتّم منه رائحة الصبوة أوقف اولبيان وبولس مديراه بعض هذه المراسيم، وكان إذا أراد أن ينصب عاملاً أذاع اسمه وكلف الأهلين أن يعلموه بما إذا كان من اختاره ارتكب جناية أو أقدم على ما يجعله غير أهل للمنصب. وإنّ من افتري كذباً على أحد هؤلاء يعاقب شديد العقاب إن لم يثبت شكواه بالبيّنة القاطعة. وقد مرّ أنه وضع صورة المسيح وصورة ابراهيم بين صور آلهة الوثنيين ومشاهيرهم. على أنّ بعض المؤرخين يشكون هذا الملك بأنه لم يكن شديد العزيمة قوي البأس. على أنّ لمبريد قال في ترجمة هذا الملك «إنّ الجنود سمّوه ساويروس أي صارماً أو قاسياً لصرامته على الجنود، ومما أورده من الأدلّة على ذلك أنّ الشعب كانوا عند ممّر الجنود في الاسواق يتراکضون لرؤيتهم لتهيئهم الجنود كأنهم رجال الندوة. ومما قاله أنّ أحد رجال الندوة أتى يوماً

يحيي الملك وهو في الإسطبل فصاح به بقول شيشرون في كاتلينا «يا للزمان وبا لسوء الخصال أحيى أو يأتي إلى الندوة». ومن الآثار الدالة عليه في سورية الخط ٢١١٤ الذي عثر عليه ودنيكتون في العيت في البثنية وقد كُتب فيه: «في سنة ١٣ لاسكندر ساويروس بنى ادوروس وفاروس هذا الصرح وكان الوالي اركليتوس». ومن التاريخ بسني الملك كسائر خطوط البثنية وهوران في القرن الثاني وبعض الثالث يظهر أنّ تاريخ بصرى لم يكن استعماله حينئذ عاماً.

وحصلت بعض ثورات في ما بين النهرين وفي المغرب فتداركها بحكمة، ومن هؤلاء نائر في روما استدعاه الملك وأخذه إلى الندوة وأشغله بأعمال فيها، ثم إلى المعسكر وعهد إليه بأشغال أخرى، فلم تمض أيام حتى أعياه التعب وأضرب عما كان يرغب فيه. وسأل الملك أن يعود إلى بيته ليعيش مستريحاً غفلاً وأتى سورية لمحاربة الفرس الساسانيين وكانت أمه ممّا معه. واختلفت الروايات في ما كانت نتيجة الحرب، فمن قائل أنّ الحرب كانت سجالاً فلم يظفر أحد الفريقين بالآخر حق الظفر. والظاهر من خطبته في الندوة في ٢٥ ايلول سنة ٢٣٣م أنه انتصر على الفرس وأخذ منهم ثلاث مئة فيل، وقتل مئتي فيل، وأتى إلى روما بشمانية عشر فيلاً منها. وأنه استظهر على مئة وعشرين ألف فارس وقتل عشرة آلاف منهم وأخذ كثيرين من الاسرى وباعهم، وأنه استردّ كل البلاد الواقعة بين النهرين، وأنه هزم ارتخششتا ملكهم إلى آخر ما ذكره في خطابه من أخبار ظفّره الذي عيّد الرومانيون له في اليوم التالي وأقاموا الملاعب.

وثار الجرمانيون وقطعوا الطريق المؤدية إلى فرنسا وتهددوا المملكة بالحملة عليها. ففي سنة ٢٣٤م سار بجيشه إلى فرنسا تصحبه أمه، وخيّم في منينس على الراين وعنى أولاً بأن يتنكب الحرب ويسترضي الثائرين بمال وهدايا، فعزّ على الجنود الرومانيين أن يعطي غيرهم هذا المال. وكان من قوادهم رجل اسمه مكسيمينوس من تراسة حمل الجنود على الانقلاب على الملك عائثاً بينهم بأنّ مدة ملكه طالت وأنه استفرغ خزينته في نفقات الحرب الأخيرة، وأنّ أمه البخيلة لا تترك مفتاح ما بقي من المال، فألقى الجنود إليه ذات يوم البرفير الملكي وساروا به متدججين بسلاحهم نحو محلة الملك، فأمر الحرس بالقبض عليهم. ثم أضرب عن ذلك وقال دعوهم يدخلوا، فدخلوا وفتكوا به وبأمه في ١٩ آذار سنة ٢٣٥م.

فملك اسكندر ١٣ سنة ولكن لم يبلغ من العمر إلا ستاً وعشرين، واعتباره للمسيح وابراهيم ومراسلات أمه واوريجانس وَقَّت اليهود والمسيحيين في أيامه من كل اضطهاد. وكان خصام في أيامه بين كنيسة روما وبين بعض الخمارين على أرض فقضى للمسيحيين بها قائلًا الأولى أن تكون هذه الأرض محلاً للصلاة من أن تكون محلاً للدعارة. وقال لمريد أنه عزم أن يبني هيكلًا للمسيح ليقمه في مصاف الآلهة فصرفه عن عزمه الكهنة عالمين أن ذلك يؤول إلى هجر باقي المعابد. وزعم بعضهم أن أمه ممّا كانت مسيحية وأنكر ذلك غيرهم وقالوا بل كانت هائمة فقط بأن تقف على أسرار هذا الدين الحديث كما كان ابنها وكثيرون في ذلك العصر. انتهى ملخصاً عن تاريخ فيكتور دوري عن ديون ولمريد وغيرهم من المعاصرين لهذا الملك أو القريين من عصره.

دونك مثلاً للعاهل اسكندر ساويروس مأخوذاً عن تمثاله في متحف الواتيكان



استحواذ سابور ملك الفرس على سورية وانتصار اذينة امير تدمر عليه في أيام فالريان

إنّ سابور الأول ملك الفرس هو ابن ارتخششتا الأول، تسنّم اريكة الملك سنة ٢٣٨م إلى سنة ٢٧١م. وقد استحوذ أولاً على ما بين النهرين سنة ٢٤٢م إلى أن ظهر عليه كرديان ملك الرومانيين، على أنه أرسل بعض أعوانه فقتل كسرى ملك ارمينية وعاد إلى محاربة الرومانيين في أيام فالريان الملك فاستردّ ما بين النهرين. واستمرّ الرومانيون في مدينة الرها يصدّون الفرس عن التقدّم إلى آسيا الصغرى وسورية. وأتى فالريان إلى انطاكية وسار بجيشه إلى الرها التي كان الفرس يحاصرونها، فوجد أنّ الوباء أتلّف كثيرين من جنوده، واستظهر عليه سابور في وقعة فعمد إلى طلب الصلح، وأبى سابور مقابلة رسله طالباً أن يتشافها فاغتّر فالريان ووافاه بقليل من الجند، فقبض عليه فرسان سابور في طريقه واشخصوه إلى ملكهم أسيراً سنة ٢٦٠م. وأقام فالريان في أسره ست سنين يقاسي مرّ التبريح والتذليل. هذا ما رواه زوزيموس (ك ١ فصل ٣) وعن زونارا (ك ١٢ فصل ٢٢) أنه أسر في أثر وقعة دارت عليه الدوائر فيها وثار جنوده عليه فاستسلم إلى سابور، فأذله حتى كان يظاً على ظهره ليتسلّق على جواده ثم أماته مسلوخاً. وبعد أن قبض سابور على فالريان زحف إلى سورية فافتتح انطاكية وانهبها جنوده.

عمّ الرعب باقي الأعمال فدانت له، وقال بعضهم أنّ حمص وقاها إلّهما من فظائع جنود سابور، وهذا محمول إما على أنه لم يطرق حمص إلّا شرذمة من الجنود الذين كان معظمهم في الشمال، إما على أنّ سابور احترام هيكل حمص سياسة لاجلال السوريين له. ثم انصرف سابور إلى آسيا الصغرى فافتتح كيليكية وأخذ قيصرية عاصمة الكبادوك وغيرها.

وبعد انصراف سابور عن سورية، جمع مرقيان نائب الملك فالريان وباليسا الذي كان رئيس الحرس الملكي من بقي من جيش الرها وتحصّنا في سميساط. ومضى باليسا إلى قبرص فألب بعض الجنود وأركبهم بعض السفن، وكان يشنّ الغارة بهم على سواحل كيليكية ظافراً. على أنّ المعين الأقوى للرومانيين أتاها من

حيث لم يكونوا يتوقعونه. فقد كان التدمريون في حاجة كبرى إلى مصادقة سابور لرواج تجارتهم، فأرسلوا إليه عند استحواذه على سورية وفوداً وهدايا نفيسة راغبين في موالاته. فألقى سابور الهدايا في النهر ومزق الرسالة التي دفعها الوفد إليه، وقال أنه لا يريد موالاة بل خضوعاً مطلقاً لسلطته. وكان أمير تدمر حينئذ سبتيموس اذينة الذي مرّ ذكره فاستشاط من معاملة سابور لوفده، وبث بين قومه أنّ الحرب ضربة لازب لإصلاح شأنهم وإلحام ثلثة شرفهم. واستدعى شيوخ العرب وذكرهم بتخريب سابور عطره مدينتهم، وأفصح لهم في بيان ضياع حريتهم وثروتهم إن قويّ سابور على تقلص سلطة الرومانيين عن سورية. وللعرب ميزتان: التشبث بالدين والنخوة، فماآوه وتألّبوإ إليه وتضافروا على حرب الفرس. وكان في تدمر حامية رومانية فضمّها اذينة إلى رجاله وإلى جيش العرب ولحق بهم كل من فر من سورية، حتى كان لاذينة جيش عرمرم زحف به نحو معسكر الفرس من جهة الجنوب، وكان باليستا ومن بقي من حامية الرها يضايقون الفرس من جهة الشمال، فوجس سابور وسار بجيشه نحو الفرات تاركاً وراءه حاميات أبادها اذينة بجحافلها. وبلغ جيش الفرس الفرات فقطع الطريق عليه جيش روماني معسكر في الرها. فأرغم الفرس أن يبتاعوا ممرّهم بكل ما غنموه من سورية من ذهب وفضة ونفائس. وكان اذينة مجدداً في لحاق الفرس والرجال من بدو وحضر يزدحمون إليه من كل فج رغبة في الغنيمة والفتك بالأعداء، إلى أن ضمّ باليستا إليه. وسوّلت له نفسه أن يسترد ما بين النهرين فنال ما أمل، وتتبع آثار ترايان وسبتيموس ساويروس إلى قطيسفون حيث كانت له وقعة مع الفرس استحوز بها على جانب من خزائن سابور. وسبى بعض حرمه على أنه لم يستطع أن ينقذ فالريان من الاسر، لكنه أسر كثيرين من ولادة الفرس وأرسلهم إلى روما. فسرّ بهم كاليان الذي كان متناسياً أباه وأقام حفلات لهذا الظفر أجرى فيها معظم الاحتفاء به.

وعاد اذينة من هذه الغزوة أعظم من أن يبقى أميراً. فسماه قومه والعرب ملكاً، وسماه كاليان غازياً ورئيس الجيش الملكي في تلك الأنحاء، بغية أن يستمر خادماً نصوحاً نافعاً له، وكان ذلك في أوائل سنة ٢٦٢م. وبعد أن قام بعبء خدمات لدولته أقوّر له بلقب اغوستوس. هذا ما رواه بعض المؤرخين على أنّ دي فوكوى (في كتابه في الخطوط السامية صفحة ٢٩ وما يليها) أبان أنّ تسمية اذينة اغوستوس أنكرها كثيرون وهي مخالفة لنص الآثار، وإنّ الراجح أنّ العاهل

الروماني سمي ملك تدمر امبراطوراً أي غازياً. وقال ودينكتون (في كتابه في الخطوط السورية) إنّ كتاب تدمر لم يكونوا يحفلون بالتدقيق في ترجمة كلمات المناصب الرومانية. ومن هذا القبيل تسميتهم زينب (زبيدة) في أحد الخطوط اغوسطا بما أنها كانت أرملة ملك سمي اغوسطوس، وقد قضى اذينة هذا الثاني بهذا الاسم سنة ٢٦٦ أو سنة ٢٦٧م على ما روى دي فوكوى في المحل المذكور، طالع ما ذكرناه في عد ٥٢٨ .

عد ٥٤٥

زينب (زبيدة) ملكة تدمر ومحاربة اورليان لها

إنّ زينب أو زبيدة كانت تدعى اتصال نسبها بالبطالسة ملوك مصر، وأنها من سلالة قلوبطرة، وهي بنت أمير عربي متوطن في ما بين النهرين. وقد عثر ودينكتون على خط في تدمر وهو ٢٥٩٨ من خطوطه كتب فيه على عمود اسم زينويوس وتجاهه عمود آخر كتب عليه اسم زينوية، فظهر أنّ العمودين أقيما تذكرة لهما، وإنّ اسم ايها زينويوس. ويقال أنها كانت بديعة الجمال ذات عفة فإنّ تطلبها المعالي والمجد أغفلها الملاذ البدنية. وكانت تفقه جميع اللغات التي يتكلّم بها أهل تدمر وأثينا إلى غيرها من اللغات حتى اللاتينية. وقال بعضهم أنها ألّفت تاريخاً موجزاً لاسكندر والمشرق. وكانت مولعة بمطالعة كتب اوميروس وافلاطون، وكانت تباحث لنجين الفيلسوف في مباحث الفلسفة والفصاحة، وتفاوض بولس السميساطي بطريك انطاكية في المباحث اللاهوتية. وقد تزوّجت بأذينة ملك تدمر المار ذكره وشاركته في ملكه. وكانت مرافقة له في صيده وحربه، وقهرت الفرس معه وحاولت أن تتولى مصر من دونه. وقد شكّاها بعضهم بأنها مالأت على قتله. وتلك تهمة لم يقدّم الشاكرون عليها دليلاً بل تخالف الواقع. فإنّ اذينة قتله ابن أخيه مونيوس ليأخذ ملكه لا ليدفعه إلى الملكة. ومما ذكره زونارا (ك ١٢ فصل ٢٤) في ذلك أنّ مونيوس خرج يوماً مع عمه الملك إلى الصّيد ولما أبصرا قنيصاً رماه مونيوس بسهامه قبل الملك فقتله. وكان ذلك يخالف احترامهم للملوك، فانتهره الملك على أنّ رغبته في كسب الشهرة بالنص حرمة الفطنة، فلم يرع حرمة الملك بل عاود رمي سهامه قبله. ولما كانت الإهانة مشتهرة لم يغض الملك عليها وأنزله عن جواده وكان ذلك بمثابة حطّه

عن منصبه، فحملت الشاب حدة الصبا أن يهدد الملك، فألقاه في السجن ثم عفا عنه. وأكمن مونيوس الضغينة على الملك وتآمر عليه مع بعض الأشقياء إلى أن فتك به وبابنه هيروديس في حفلة. فلم يكن لزينب مدخل بهذه الفعلة بل أثارت الجنود على الغادرين وبعثتهم على تسمية ابنها وهبلات (وهب اللات) ملكاً وتسمية ابنتها الآخرين قيصرين، وعرضتهم على الشعب والجنود متشجين بالبرفير الروماني، وحفظت لنفسها حقيقة تدبير الملك مسماة ملكة، وفي عرف التدمريين اغوسطا. وكان يلذ لزينب ذكر قلوبطرة فتأتي بذكرها متواتراً، وكانت أشبه بها في جمالها واقتدارها لكنها لم تضارعها في إبداء بسالة الرجال في آخر أيامها، فإن قلوبطرة أثرت موتها على استسلامها إلى خصمها، وزينب تحملت أسر اورليان لها صاغرة. وكانت هيئة حكومتها أشبه بهيئة الملوك الرومانيين فكانت تركب جوادها وتشمر عن ساعديها والخودة برأسها وتخطب في جنودها بصوت جهير، وتكرّر معهم تارة على جواد وطوراً مترجّلة. وقد نطق اورليان بالحق إذ قال فيها «إنّ من يقولون أنني انتصرت على امرأة لا يعلمون من كانت تلك المرأة، ولا ما أحكمها في آرائها، وأثبتها في أحكامها، وأبسلها مع جنودها، ولا ما أحلمها وأقساها بحسب ما تقتضيه ظروف أحوالها. فلولاها ما انتصر اذينة على الفرس ولم ينكف العرب والسراكسة والأرمن عن إثارة الفتنة إلّا خيفة من بسالتها (رواه ترييليوس بوليون).

وقد عازمت زينب أن تضمّ إلى ملكها مصر وآسيا الصغرى فأرسلت إلى مصر جيشاً استحوذ على الإسكندرية. وقد رغب أهل آسيا الصغرى الانضواء إلى ولايتها ولم يأبها إلّا أهل بيتينيا، فكان ذلك وبالاً عليها. فإنّ بيتينيا المجاورة للبوسفور كانت ممراً للجنود من أوروبا إلى آسيا، فاستمرت هذه الطريق مفتوحة لاورليان. وعن زوزيموس المؤرخ أنّ جيش زينب المرسل إلى مصر كان سبعين ألف رجل، وأنهم استحوذوا على هذه البلاد كلها، ولا أقل من استيلائهم على الأعمال الشمالية منها، وأرسلت حكومة روما جيشاً إلى المشرق يقوده رجل اسمه بروبس، فحلّ في مصر السفلى وضمّ إلى جنوده بعض المتطوعين وضرب جنود زينب فانتصروا عليه عند منف وقبضوا عليه فانتحر. وظلّت زينب تلي مصر السفلى، وقد وجدت نقود مضروبة في الإسكندرية وعليها رأسا اورليان وابن زينب كأنهما قرينان في الولاية. وآخر ما وجد منها مؤرخاً في السنة السابعة لوهبلات يظهر منه أنّ هذه الحال دامت إلى سنة ٢٧٢ م.

وفي ربيع السنة المذكورة زابل اورليان ايطاليا يصحبه جيش جرار لإصلاح شؤون آسيا، وبلغ إلى بيتينيا فقبله أهلها بالترحاب بمنزلة منقذ، ثم توغل في البلاد إلى كيليكية وبلغ انطاكية وكانت زينب هناك مع فريق من فرسانها، واضطربت نار الوغى بين الجيشين فافتتح جيش الرومانيين انطاكية فتقهقر التدمريون نحو كلشس وهي قسرين مدينة في الجنوب الغربي من انطاكية. وخاف كثير من سكان انطاكية أن يعاملهم اورليان معاملة المتشيعين للملكة زينب، فلاحقا بعسكرها فأرسل الملك منادياً يؤمنهم على حياتهم وأموالهم فعاد أكثرهم إلى مواطنهم.

وبعد أن دبر اورليان شؤون انطاكية جدّ في لحاق الأعداء، فأدرك ساقتهم (أي الحفر الأخير منهم) على مقربة من قسرين فأزاحهم عن راية كانوا عليها. وسار التدمريون لا يلوون على محل إلى أسوار حمص وألّبت زينب هناك سبعين ألف رجل وأقامتهم في حصون وأمامهم سهل فسيح يتسع به المجال للفرسان. واتقدت نار الحرب بين الجيشين يدافع فيها الرومانيون عن مجدهم القديم والتدمريون عن مجدهم الحديث. وكان اورليان وجساً لأول وهلة لانقراض أكثر فرسانه، فحمل حملة شديدة على قلب جيش التدمريين فزحزحه من مواقفه واستبشر بالظفر. لكنه خسر خسائر كبيرة حتى لم يستطع لحاق العدو، ولدى حمي الوطيس في معمعان القتال نذر أن يبني هيكلًا للشمس وهي كانت أعظم معبودات التدمريين. وحكى بعض المؤرخين الوثنيين أنهم رأوا الإله يعني بجمع صفوف الجند المشتتة دلالة على أن هذا المعبود ترك شعبه، وقد كثرت مثل هذه الحكايات في تواريخهم.

وأما زينب فعقدت لجنة مشورة مع قادة جيشها في حمص فأجمعوا على الإنصراف إلى تدمر، واهمين أنه تعثر على الجيش الروماني اجتياز بلاد العطش متعرضاً لمقاومة الرحل له في طريقه. ولكن خاب ظنهم، فإنّ الجيش الروماني سار في أثرهم إلى عاصمة البرية التي كانت محصنة بخليج وأسوار تتراكم عليها آلات الحرب حتى لم يكن اورليان يحسب أنّ أعداءه يدافعون هذا الدفاع الشديد. فكتب إلى زينب رسالة هذه ترجمتها «من اورليان عاهل العالم الروماني وغازي المشرق إلى زينب ومن يلوذ بها، أنه كان يلزمكم أن تصنعوا من أنفسكم ما أنا أمر به برساتي هذه، وأمري لكم أن تستسلموا إليّ وأنا أعدكم بأنني ابقىكم أحياء. وأما أنت يا زينب فتعزّلين مع أسرتك إلى المحل الذي أعيتك لك بعد مشورة رجال الندوة، وتتخلّين إلى خزينة روما عما تملكينه من نفائس وذهب وفضة وحرير وخیل

وجمال وتبقى للتدميريين حقوقهم سالمة». (ذكر هذه الرسالة فويسكوس في ترجمة اورليان فصل ٢٦).

فأجابته زينب بما ترجمته «من زينب ملكة المشرق إلى اورليان اغوستس، لم يجسر أحد أن يطلب ما طلبته برسالتك والحرب تقضي بيني وبينك في كل شيء فأنت تريد أن استسلم إليك وكأنك جاهل أن الملكة قلوبطرة أثرت الموت على أن يبقَ عليها ملك بالحياة، وإنني أتوقع نجدة الفرس لي دون إبطاء، وقد لاذ بي السراكسة والأرمن، وإذا كان لصوص سورية أنزلوا الوبال بجنودك فما تكون حالك يا اورليان؟! إذا وافانا المدد الذي نتظره من كل فج، فلا جرم أنك تستبدل حينئذ لهجة الصلف هذه التي بها تطلب خضوعي لك كان جنودك منتصرون في كل محل». (روى فويسكون هذه الرسالة في المحل المذكور فصل ٢٧).

ولم يبقَ بعد هذه الرسائل المهيجة إلا افتتاح المدينة عنوة وإما التضييق عليها ليستسلم أهلها لجوعهم. فأحاط الجيش الروماني بالمدينة وكانت زينب تعتمد على الفرس وتتوقع إنجادهم لها. على أن هؤلاء كانوا في أسوأ حال من جري الاختلافات الأهلية بينهم حتى بدلوا في ثلاث سنوات ثلاثة ملوك. وأما العرب والسراكسة والأرمن فتولاهم الرعب أو رشاهم الرومانيون لينكفوا عن نجدة زينب. فبقيت وحدها لا منجد لها من محالفيها، وقد رأت أن الأقوات غير كافية لقومها مدة طويلة فيهلكون جوعاً. فعزمت أن تفرّ إلى بلاد فارس آملة أن تستحثهم على إرسال نجدة تعود بها لمعاونة جنودها الذين كانت ترجو ثباتهم زماناً، فركبت الهجين مجدة في سيرها، ولكن أدركها الفرسان الرومانيون عند الفرات فقبضوا عليها وبلغ الخبر إلى تدمر فأوقع الليلال بين جنودها، ورام بعضهم أن يواصل الدفاع، ويئس الأكثرون وتركوا سلاحهم وفتحوا أبواب المدينة، فلم يغيّر اورليان شيئاً من الشروط التي كان عرضها عليهم وعامل الأهلين بالحلم والرفقة وترك لهم حقوقهم، واكتفى بأن يأخذ خزينة زينب.

وعاد اورليان إلى حمص وأقام محكمة للحكم على زينب ووزرائها. ولدى سؤالها كيف جسرت أن تزري بعظمة الملوك الرومانيين، أجابت أقرّ لك بأنك عاهل روماني لأنك تعلم أن تغلب وتقهر ولم يكن كاليان وغيره كذلك، ولا يخفى في كلامها من التملق له، وهي صادقة بتفضيله على سواه. وقال بعضهم أنها ألقت

مسئولية الحرب على مستشاريها وتلك تهمة أو حيلة اصطنعها اورليان ليعفو عن الملكة ويقتل بعض خدامها. فقضى القضاء بقصر الجناية على أولئك الخدام، فصدر الأمر بقتلهم وكان بينهم لنجين وزيرها الفيلسوف الآتي ذكره، وقد تقدّم إلى العقاب غير مضطرب ولا وجل، وكان ذلك سنة ٢٧٣م. أما زينب فأرسلها اورليان إلى روما. وعند الاحتفاء بانتصاره بدت مغللة بقيود من ذهب وأقامها في حديقة بديعة في تيفولي حيث أدركتها المنية. وعن اوسايوس في الكرونيكون أنه كان في روما في أيامه اسرة تسمى زينويا نسبةً إليها. ويُنسب إلى هذه الملكة آثار كثيرة في سورية ولبنان من جسور وأقنية ماء وغيرها. ولا يظهر أنّ مدة ملكها الوجيزة كانت كافية لإنشاء مثل هذه الآثار. وروى بعض المؤرخين العرب أنه بعد انقراض دولة زينب تولّى قبائل العرب بعض ملوك أو ولاية من ذرية أمير اسمه ملك. وذكر ودينكتون أنه وجد في قرية في البشنة خطأ دالاً على إقامة العرب الرّحل أثراً لادريان سعيد ملك خط ٢١٩٦، فكأنّ الجد سمي ادریان باسم الملك ادریان لأنه كان في أيامه.

ودونك مثلاً لزنب مأخوذاً عن تمثال لها في متحف الواتيكان.



وقد كان اورليان ترك سورية عائداً إلى روما مطمئناً لكنه لم يبلغ تراسة إلا وبلغه الخبر بأنّ التدمريين ثاروا على حامية الرومانيين وقتلوهم وأقاموا رجلاً اسمه انطيوخس ملكاً. فأرسل اورليان إليهم جيشاً. وعن ممسن (في تاريخ الرومانيين) أنّ اورليان عاد إليهم هو بنفسه وقد وجد ودينكتون في تدمر خطأ وهو ٢٥٨٥ من خطوطه يتبيّن منه أنّ انيساوس بعث التدمريين بعد أسر زينب على الثورة وتمليك انطيوخس. ووجد ذكر انطيوخس هذا أيضاً في خط ٢٦٢٩. ويوصف بأنه نسيب زينب ولم تبلغ إلينا أخبار حملة اورليان هذه، ولكن علمنا من إحدى رسائله إلى قائد اسمه شيونيوس باسوس أنّ الجنود فتكوا بالتدمريين فتكاً ذريعاً لأنه يقول له لا يلزم أن يواصل الجنود العمل بسيوفهم. فقد قتلوا كثيرين من التدمريين، فلم نشفق على امهات وقد قتلنا الأطفال وذبحنا الشيوخ وأبدنا سكان القرى، فإلى من نترك البلاد ومن يسكن المدينة. فيلزم استحياء العدد اليسير الذي بقي من السكان. وقد اتعظوا بما أصابهم من العذاب وأريد أن يجدد هيكل الشمس الذي انتهبه الجنود.



اورليان الملك مأخوذاً عن تمثال له في متحف الوايكان

وعندك من خزينة زينب ثلاث مئة ليبرا ذهب وألف وثمان مئة ليبرا فضة من أملاك التدمريين، وعندك المجوهرات الملكية. فاصرف كل هذه الأموال في زينة الهيكل فتصنع بذلك ما يرضي الأله ويرضيني. وسأكتب إلى الندوة لترسل جبراً يدشن الهيكل، ولم تنهض تدمر من خرابها إلى هذا اليوم. ومن الآثار في بلادنا لهذا الملك ما جاء في الخط ٢١٣٧ الذي نسخه ودينكتون عن حجر في قرية شقه (في البشنة) كُتب فيها «ذوتيسوس إلى اورليان التقي السعيد اغوسطوس الجرمانى العظيم (يريدون قاهر الجرمانين) الغططي العظيم أبي الوطن القدير الحليم الظافر بالألمانيين» وهذا مثال لأورليان الملك مأخوذاً عن تمثال له في متحف الواتيكان (راجع الصفحة السابقة).

عد ٥٤٦

ملوك بني غسان في دمشق وما يليها

رأينا قبل الكلام في ملوك بني غسان في سورية أن نمهد له توفيراً للفائدة وبياناً لأصل هؤلاء، ليعلم القارئ من أية طبقة من العرب كانوا. أجمع المؤرخون على قسمة العرب إلى ثلاث طبقات، العرب البائدة أي من باد ذكرهم إلا خمس قبائل أو ثلاث ذكرهم المؤرخون وهي عاد وثمود وطسم وحديس وجرهم. فعاد هو ابن عوص بن آرام بن سام بن نوح وثمود بن عابر بن آرام بن نوح وطسم هو ابن لود ابن آرام بن سام بن نوح وحديس هو ابن عابر أخو ثمود وجرهم ابنه. لم يذكر أبو الفداء من أباء العرب البائدة إلا عاد وثمود وجرهم. وذكر ابراهيم الحاقلي (في تاريخ العرب صفحة ١٥٠) أربع قبائل فقط وهنّ عاد وثمود وطسم وحديس. وكانت مواطنهم في اليمامة في بلاد العرب إلى أن انقرضوا وبادوا. وذكر اربولوتيسوس (في مكتبته الشرقية صفحة ١٢٠) علّة انقراضهم وهي إما انتقام الله منهم لأنه أرسل إليهم أنبياء فلم يسمعوا لهم، أو طوفان محلى يسمونه سيل العرم (وهو نهر هناك أو سدّ له) كما عرض لطسم وحديس، أو عداوات أهلية بينهم على عادتهم. وقد ذكر الجغرافي النووي بقاء بقايا من عاد وثمود إلى أيامه. ووجدت قبيلة أخرى تسمى جرهم مواطنها العربية الحجرية. حالفهم اسماعيل وتزوج امرأة منهم سماها الكتاب (تكوين فصل ٢١ عد ٢١) مصرية ونسبها المؤرخون المسلمون إلى جرهم.

وأما العرب العاربة فارتأى كثير من المؤرخين أنَّ أصلهم قحطان أو يقطان بن عامر بن شالح. وذكر بعض المؤرخين المسلمين أنَّ أصلهم قحطان بن حميدة بن نبايوت بن اسماعيل بن ابراهيم. كذا قال هشام بن كلب وشرف بن كتم على ما روى الحاقلي في كتابه المذكور صفحة ١٥٢، وقالوا إنَّ قحطان هو من سماه القرآن هود، وأنه هو جد العرب الذين توطنوا في العربية البرية والحجرية المسمين بجرهم. وأما قحطان الآخر ابن عامر فهو أبو العرب الذين يسكنون العربية السعيدة ويسمون يمينيين. وهذا القول الأخير يوافق ما جاء في التوراة. قال السمعاني لا أماري بأنه وجد قحطان آخر يُنسب إلى اسماعيل، ولكنه أنكر قحطان وهوداً واحداً. ولا سيما لأنَّ المؤرخين العرب مجمعون أنَّ العرب الذين أصلهم من اسماعيل أو من قحطان حفيده هم غرباء عن العرب وبعدهم زماناً، وهم المسمون العرب المستعربة.

وقد وُلد لقحطان بن عابر ثلاثة عشر ابناً هم أجداد العرب اليمينيين ومنهم سبا الذي كان جدّاً لخمس فصائل من العرب اليمينيين وهي حمير وكهلان وعمرو واشعر وعاملة. فحمير بكر سبا أبو الحميريين كان أصلاً لثلاث فصائل تبَّع وقهناعة وتسمى قضاة وشعبان. أما كهلان بن سبا الثاني فكان من ولده ازد وطى ومزحج وهمدان وكندة. وازد ولد عمراً والاوز والخزرج وخزاعة وأربعة بنين آخرين، ومن ولد عمرو بن ازد فصيلة غسان التي طعنت من اليمن إلى سورية في القرن الثاني للميلاد على ما يظن. ونزلوا على ماء في الشام يسمى غسان تُسبوا إليه. ولذلك قال حسان ابن ثابت الأنصاري.

أما سألت فأنا معشر نجب «الأزد نسبتنا والماء غسان»

وظعن مع بني غسان بنو عاملة بن سبا مع سبعة أحياء أخرى وتوطنوا في دمشق ونواحيها، وأقام بنو عاملة في جبل هناك يسمى إلى الآن بجبل عاملة. وأما العرب المستعربة فجدهم اسماعيل بن ابراهيم من امرأته هاجر، ووُلد له بنون منهم اسماعيل الذي ولد له نبايوت جد النباطيين وقيدار الذي ذكره المؤرخون المسلمون. وقد ورد في الكتاب مرات اسم قيدار ونبايوت وغيرهما من ولد اسماعيل. وقد كان العرب بنو غسان الذين كلامنا فيهم مسيحيين (ملخص عن السمعاني في المكتبة الشرقية المجلد الرابع في مقالته في السريان النساطرة الصفحة ٥٧٠).

يظهر أنَّ بلوغ بني غسان إلى الشام كان في القرن الثاني للميلاد أو بدء القرن الثالث. فإنَّ ودينكتون في كلامه في خط ٢٣٩٣ الذي عثر عليه في دير اللبن في حوران حيث ذكر بني ازد أنَّ هؤلاء تركوا اليمن وانتجعوا سورية نحو سنة ٢٠٥م وكان رئيسهم جفنة والاوز وغيرهم. ثم عاد بعضهم نحو سنة ٣٠٠ إلى الحجاز وبقي الآخرون في سورية وهم المعروفون في التاريخ ببني غسان. انتهى كلام ودينكتون ملخصاً. وكان قبل غسان في سورية عرب يقال لهم الضجاعة من بني سليح من بطون نذار وعدنان فأخرجوهم عن ديارهم، وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم، وسمى قومهم رؤساءهم ملوكاً وكانوا عمالاً للملوك الرومانيين في دمشق والجولان والبلقا. وعن أبي الفدا في تاريخه أنَّ ابتداء ملكهم كان قبل الإسلام بما يزيد على أربع مئة سنة، وقيل أكثر من ذلك. وعن ابن خلدون عن ابن سعيد عن صاحب تواريخ الأمم إنَّ جميع ملوك بني غسان إثنان وثلاثون ملكاً ومدتهم ستمائة سنة. وقد استمر ملكهم إلى أيام خلافة عمر بن الخطاب وقالوا أنَّ أول ملك عليهم كان يسمى جفنة بن عمر بن ثعلبة. وعن أبي الفدا وغيره أنه بني بالشام عدة مصانع (أي قرى وقصور وحصون) إلى أن يقول أنه خلفه ابنه عمرو وبني بالشام عدة ديورة منها دير حالي، ودير أيوب ودير هند. وملك بعده ابنه ثعلبة وبني صرح الغدير في أطراف حوران، ثم ملك الحارث ثم جبلة ابنه ثم الحارث بن جبلة، وكان مسكنه بالبلقا فبنى الخفير ومصنعه أي قصره وكانت أمه تسمى مارية ذات القرطين، وكان يُضرب بقرطبيها المثل في التنافس. وفيها وفيهم يقول حسان بن ثابت الأنصاري.

لله در عصابة نادماتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية المعمر المخول

والحارث هذا هو أبو المنذر الأكبر والنعمان وجبلة والايهم وعمر الذين تتابعوا على الملك بعده إلى أن ملك جفنة الأصغر ابن المنذر الأكبر وهو الذي أحرق الحيرة، فسموا ولده آل محرق. ويقال أنَّ أخاه النعمان الأصغر خلفه وأنه تملك بعده النعمان بن عمر بن المنذر. وهو الذي قال فيه:

عليّ لعمر نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب

وبنى النعمان قصرأ يسمى السويداء، وآخر يسمى قصر حارب. ولا يمكن
 التوصل إلى معرفة السنين التي ملك فيها كل من ملوك غسان، وقد ذكر بعضهم
 شيئاً من ذلك لكن لا يمكن القطع به. وقد عثر ودينكتون على خط يوناني في
 قرية من قرى البثية وهو ٢١١٠ بين خطوطه كُتب فيه «بنى فلافيوس البانوس وابنه
 البانوس هذا الصرح من أسه إلى أعلاه في أيام المنذر البطريق سنة ٤٧٣». لتاريخ
 بصرى تبدي هذه السنة في ٢٢ آذار سنة ٥٧٨ للميلاد. وقال ودينكتون في أثر
 ذلك ما ملخصه أن المنذر هذا من آل غسان الذين حكموا في العرب في حوران
 وبرية سورية إلى ظهور الإسلام. وهو ابن الحارث الخامس الذي تولّى على رواية
 كوسان دي برسفال (تاريخ العرب ك ٥ صفحة ٢٣٣) من سنة ٥٢٩م إلى سنة
 ٥٧٢م. وروى توفان أن الحارث هذا أتى إلى قسطنطينية سنة ٥٦٣م ليقدم إلى
 الملك يوستينانوس ابنه الذي سيخلفه، لكنه لم يذكر اسم الابن ولم نجد ذكراً
 للحارث. بل روى ميناندر ابنه كان سنة ٥٦٧م ملكاً على العرب خاضعاً للملك
 القسطنطيني. ويظهر من الخط الذي ذكرناه أنه كان باقياً في ولايته سنة ٥٧٨م.
 وقد ذكر المنذر هذا ابن العبري في تاريخه، ويوحنا الأفسسي (في تاريخه الذي
 وُجد عن قرب وطُبع سنة ١٨٦٢م). وقد لجأ بطريك اليعاقبة إبان اضطهاد ملته
 إلى المنذر. هذا على ما روى ابن العبري وذكره السمعاني في المجلد الثاني من
 المكتبة الشرقية في كلامه على ابن العبري. وقد حارب المنذر قابوس ملك الحيرة
 وظهر عليه فلم يحسن الملك يوستينوس مجازاته. فانقلب على الرومانيين وانقطع في
 البرية، وترك عرب الحيرة يشنون الغارة على إقليم انطاكية ثلاث سنين. ثم صالح
 الرومانيين وغزا الحيرة ثانية واتفق مع موريق قائد جيش الرومانيين وحارب الفرس
 وانتصر عليهم وعلى الغرب معاً انتصاراً يبتاً بعد مبارحة موريق له (يوحنا الأفسسي
 ك ٦ فصل ٣ وما يليه). وكان ذلك في أواخر ملك يوستينوس الملك وبدء ملك
 طيباريوس سنة ٥٧٨ أو سنة ٥٧٩م. وأدركت الوفاة المنذر بعد ذلك وهو الذي
 كتب اسمه في خط ٢٥٦٢ من خطوط ودينكتون على برج في حوران حيث قيل
 ما ملخصه: «أقام المنذر هذا البرج وهو يشكر الله لذلك». وخلفه الحارث السادس
 أخوه. ومن بواكير أعماله محاربته المنذر الرابع ملك الحيرة وظهره عليه سنة ٥٨٣م
 على ما روى كوسان دي برسفال (صفحة ٢٤٢). ولم يذكر المؤرخون العرب
 المنذر هذا بل نصّوا على أن الحارث السادس خلف الحارث الخامس والخط المذكور

يسدّ هذا الخلل ويوجب إضافة اسم المنذر هذا إلى جدول ملوك غسان. ولقب البطريق كان لأبيه أيضاً. وقد عُثر على خط آخر على مقربة من بحيرة هجانة (على مسافة ست ساعات شرقاً من دمشق). انتهى كلام ودينكتون ملخصاً.

وكان أحد ملوك غسان في صدر الإسلام يسمى جبلة بن الإيهم وهو الخامس بهذا الاسم. وقد أسلم لما افتتح المسلمون الشام وهاجر إلى المدينة. وأحسن عمر ابن الخطاب نزله وأكرم وفادته حتى إذا كان يوم التطواف بالبيت وطئ رجل من بني فزارة طرف إزاره فانحل عنه فغضب جبلة ولطم الفزاري لطمة هشّم أنفه. فشكاه الفزاري إلى عمر فقال لجبلة: دعه يلطمك كما لطمته. فقال جبلة أيقاد في دينكم للسوق من الملوك؟ فقال عمر أجل هما في الحق سواء وإن أبيت ضربت عنقك. فقال جبلة إذن أرجع عن دينكم. وصبر إلى الليل حتى اجتمع بغلماناه وخرج بهم حتى الشام، ثم سار منها إلى قيصر في القسطنطينية، ولم يزل فيها حتى مات سنة عشرين من الهجرة (ملخص عن تاريخ ابن خلدون وتاريخ أبي الفداء). ويظهر أنّ بني غسان كانوا أبداً مخلصين في الطاعة للرومانيين، فلم نعثر على خبر نفار أو حرب بينهم وبين مواليتهم، إلا ما رويناه عن المنذر.

الفصل الثاني

من عرفهم من مشاهير سورية الدنيويين في القرن الثالث

عد ٥٤٧

برفير الفيلسوف الصوري

وُلد برفير في صور سنة ٢٣٣ أو سنة ٢٣٢ للميلاد. وكان اسمه ملكو أو ملك، فسمي في اليونانية برفير. ودرس الفصاحة في اثينا على لنجين الفيلسوف السوري أيضاً. وانكبّ على درس الفلسفة في روما على بلوتين الفيلسوف المصري، وصحبه من سنة ٢٦٣ إلى مماته سنة ٢٧٠م. وكان برفير ضليعاً بجميع العلوم المعروفة في تلك الأيام. وكتب في أكثرها ممتازاً بسرعة الخاطر وسهولة الانشاء أكثر من تعمّقه النظر في أحكامه. وبعد وفاة استاذه بلوتين علّم الفلسفة والفصاحة في روما. وقد أثنى العلماء حتى الآباء القديسون على غزارة علمه وطول بابه. فقد سماه القديس اغوستينوس (في كتابه الموسوم بمدينة الله ك ١٩ فصل ٢٢) «اعلم الفلاسفة» ودعاه في محل آخر «الفيلسوف الوثني الشريف». ونفسه في تأليفه جلي منسجم لكنه يخلو غالباً من تحليته بضروب الفصاحة. وقد أدركته المنية سنة ٣٠٥، وعلى رواية أخرى سنة ٣٠٤م في روما. وروى القديس ايرونيوس (في تفسيره نبوة حزقيال) أنه توفي في صقلية. وقد جمع العالم سميت في معجمه التاريخي في تراجم اليونان والرومان كل ما يقال في برفير، وكتب اوساب من القدماء ترجمته في جملة تراجم الفلاسفة.

أما تأليفه فكثيرة اتلفت غير الأيام بعضها. وما بلغ إلينا منها كتاب في ترجمة بلوتين استاذه ترجمه إلى الإفرنسية ليوسك دي بوربي. ثم ترجمه بيتاغوروس حاوية تاريخاً فلسفياً في أربعة كتب آخر طبعاتها في لبسيك سنة ١٨١٣م، ثم مقالة في القناعة والإمتناع عن أكل اللحم. كلامه فيها كلام زاهد ورع يردد صدى كلام

الانجيل في عبارات عديدة . فيحضر الانسان أن يقتدي بالله قائلاً هذا هو الخير الحقيقي والوحيد، وإنَّ الكمال قائم في قمع الأميال النفسانية، وإنه لا ينبغي الكلام بالفلسفة مع الفلاسفة ومع من يفقهون أنَّ السعادة قائمة في التشبه بالله. وهؤلاء يلزمهم أن يضخّوا بكل شيء حتى حياتهم في سبيل إتمام فروضهم. ومن أقواله قد رأينا كثيرين من السريان واليهود آثروا الموت على مخالفة سننهم. فلم لا نرى مثل هذه البسالة عند اليونان. وهذه المقالة قد ترجمها إلى الإفرنسية ليوسك دي بوريني وطبعها سنة ١٧٤٧. ولبرفير أيضاً رسالة إلى انبيون الكاهن المصري في الآلهة والشياطين طُبعت في أكسفرّد سنة ١٦٧٨ وله كتاب على سبيل المقدمات لمقالات ارسطو يتبيّن منه آراء القدماء في ماهيات الكليات ترجمه برتلمي سان ايلار وأذاعه مع منطق ارسطو. وكتاب في مبادئ المعقولات ضمّنه خلاصة تعليم المدرسة الأفلاطونية الحديثة أذاعه أولاً هولستان في روما سنة ١٦٣٠م، ثم ترجمه إلى الإفرنسية العالم لافاك مع فقر أخرى كثيرة لبرفير. وقد وُجدت له رسالة لامرأته مرسلّة نشرها العالم ماي في ميلان سنة ١٨٤٦م.

وأما كتبه المفقودة فمنها تنقيحه وإذاعته تأليف استاذ بلوتين وكان هذا الكتاب منقسماً إلى أربع وخمسين مقالة، فجمعها برفير في ست مقالات ينطوي كل منها على تسعة فصول، وسماها انياداس أي التسعية. ومنها وأشهرها كتابه الموسوم بخطبه في ردّ مزاعم المسيحيين. فهذا الكتاب قد ألفه برفير في صقلية سنة ٢٩٠ إلى سنة ٣٠٠م، وقد قتّده كثير من الآباء القديسين وأحرقه الملك توادوسيوس الثاني. فلم يصل إلينا كتابه برمتة ولم تبق لنا الأيام على كل ما قتّده به الآباء. فجل ما اتصل بنا فقر من الكتاب ورده يظهر منها أنَّ برفير كان عالماً بالكتاب المقدس في العهدين القديم والحديث وكان يحاول التنديد به أحياءً لمذهبه الوثني الذي كان يراه جينثيّ على حافة وهدة الإضمحلال. وقد ادّعى أن يخطيء اوريغانس في تفسيره بعض آيات الكتاب بالمعنى الرمزي، وقال إنه عرف في صباه اوريغانس وأثنى على تأليفه. ذكر ذلك اوسابيوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ١٩) وقد قسّم تأليفه هذه إلى خمسة عشر كتاباً. وقد قتّده من الآباء القديس متوديوس أسقف صور (الذي توفي سنة ٣١١م) ولكن لم يبق لنا من كتابه إلا فقرات رواها يوحنا الدمشقي. ثم اوسابيوس في تاريخه وابولينار والقديسون اغوستينس وايرونيوس وكيرلس الأورشليمي ثم توادوريطس وغيرهم. وكان برفير يسلم

كأستاذه بلوتين بنوع من الثالث مقرأ بأن فيه ثلاثة أقانيم يسمى الأول منها اون وهو الله بنفسه دون صفاته والثاني نوس وهو الفهم أو الحكمة والثالث بسوكي أي الروح. ويقول أن أول هذه الأقانيم أكملها والأقنومين الآخرين منبثقان منه.

عد ٥٤٨

لنجين ويوليوس

هو كاسيوس لنجين وقد ذكر المؤرخون أنه سوري وأنه كان في القرن الثالث، ولم نر منهم من ذكر مكان مولده ولا سنته. وقد ذكره اوسابيوس في تاريخه (ك ٦ فصل ١٩). درس لنجين الفلسفة على بلوتين في الإسكندرية، ثم افتتح مدرسة في اثينا يدرّس فيها الفلسفة الأفلاطونية، وكان برفير من تلامذته. وسمعت زينب (زبيدة ملكة تدمر) بأخبار شهرته فاستقدمته إليها وأقامته أولاً استاذاً في بلاطها ثم استوزرته فكان كبير وزرائها. وعند افتتاح اورليان تدمر أمر بقتله فتحمل العذاب المبرح باسلاً جلدأ لا يهزه وجل أو ارتعاد كما مرّ. وقد ألّف كتباً عديدة في الفصاحة والفلسفة لم يتوصل إلينا منها إلا مقالة في أسلوب الكلام السامي من أحسن ما ألّف في انتقاد الكلام. على أن بعضهم في هذه الأيام يعزو هذه المقالة إلى بلوترخ أو إلى ديونسيوس الأليكرناسي. وقد طبعت هذه المقالة مرات، ومن طبعاتها الأخيرة طبعة وايسك في أوكسفرّد سنة ١٨٢٠م، وطبعة أجر في باريس سنة ١٨٣٧م ومن ترجموها إلى الإفرنسية العالم بوجولا سنة ١٨٥٣م.

أما يوليوس فولد وثنيأ ثم تنصّر، وقد وصفه اوسابيوس (في الكتاب ٦ من تاريخه فصل ٣١) بالإفريقي وتابعه على ذلك كثيرون من المؤرخين، على أن اوسابيوس لم يذكر محل مولده ووصفه بالإفريقي يتحمل المعنى أن أسرته كانت في افريقية. ثم هاجر اجداده إلى فلسطين وسموا فيها الأفريقيين كما يسمى الآن مثلاً البيروتي من ظعن أهله من بيروت وأقاموا في طرابلس. وقد قال اوسابيوس في المحل المذكور أنه ألّف كتباً عنوانها بكلمة جستنا معناها امور عديدة أو متفرقات أو لفيف. وجاء في حواشي تاريخ اوسابيوس (في طبعة مين) ما ملخصه أن عبارته هذه يلزم اسقاطها إذ خلت عنها ترجمة روفينوس. ولا ذكر لهذا الكتاب في تأليف

ايرونيوموس. ولأنّ الجستا كتاب في التطيّب بالأعشاب والمعادن والرقوات وهذا يترفع عنه مؤلف مسيحي، ولأنّ يوليوس الإفريقي الذي كتبه هو غير الإفريقي المؤرخ، فالأول وُلد في ليبيا كما شهد شويدا وغيره، والثاني وُلد في فلسطين في قرية عمواص كما قال اوسايوس في الكرونيكون. وكان هذا مسيحياً والأول وثنياً كما يظهر من كتاب الجستا. فهذه خلاصة ما جاء في الحواشي المذكورة وعليه فنود أن نحسب يوليوس الإفريقي سورياً، وإن لم يكن سورياً مولداً فلا جرم أنه سوري موطناً، لأنّ المؤرخين الذين يعتدونه افريقياً يصرّحون بسكناه في فلسطين. والذي رواه روهريخر وغيره أنه كان من عمواص. أما الكتب التي ألفها يوليوس هذا فقد ذكرها اوسايوس في المحل المذكور وغيره من المؤرخين، وهي خمسة كتب في التاريخ ضمنها ذكر الأحداث التي كانت من بدء العالم إلى مجيء المسيح. ثم خلاصة تاريخ كل ما كان من مولد المخلص إلى أيام مكرين. وكتب رسالة إلى اوريغانس في تاريخ سوسنة الذي كان يزعم أنه غير قانوني لخلو النص العبراني عنه ولعدم مطابقته لهذا النص. وروى اوسايوس أنّ اوريغانس أجابه جواباً مشبعاً على هذه الرسالة. وله أيضاً رسالة إلى اريستيد يوفق بها بين نسبي المسيح اللذين ذكرهما متى ولوقا، ويحلّ ما يرد على ذلك من الاعتراضات. وقد أتبع القديس اغوسطنس أولاً قوله أنّ يوسف خطيب مريم كان ابناً طبيعياً ليعقوب وابناً شرعياً لهالي. وعن نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث فصل ٤ جزء ثالث) أنه لم يبقَ من تأليف يوليوس الإفريقي إلا رسالته إلى اوريغانس وبعض فقر من باقيها رواها اوسايوس في تاريخه، والقديس ايرونيوموس في كتابه في المشاهير البيعيين. وقد كان يوليوس من العملة التي أرسلها أهل عمواص إلى الملك أليوكبل ووكل إليه هذا الملك تجديد مدينتهم التي كانت أحرقت. وسمى الرومانيون هذه المدينة نيكوبولي أي مدينة النصر. هذا وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي يوليوس الإفريقي هذا في قصيدته التي يعدّد فيها المؤلفين ووصفه بأسقف عمواص (ولم نر من وصفه بهذا الوصف غيره). وإليك ترجمة قوله عن السريانية: «الطوباوي الإفريقي اسقف عمواص تفسيرات في العهد الجديد وكرونيكون (تاريخ). وقال العلامة السمعاني في حواشيه المعلقة على هذه القصيدة (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ١٤) «اشتهر الإفريقي في عهد الملكين أليوكبل واسكندر ساويروس وعزا إليه موسى بركيفا في كتابه في الفردوس (كما رويت مجلد ٢ صفحة ١٢٩) كتاب تفسير

بشارة يوحنا وذكر ذلك فبريشيوس أيضاً (في المكتبة اليونانية صفحة ٢٧٠). وقد أخذ ديونسيوس بطريرك اليعاقبة أخباراً كثيرة عن تاريخ الإفريقي مما لم يجد له ذكراً في كرونيكون اوسابيوس. وله مقالة في تاريخ سوسنة مثبتة مع رسالة اوريجانس إليه في هذا الشأن في الكتاب المخطوط اليوناني في المكتبة الواتيكانية. وأشارت إلى هذا الكتاب في آخر المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣. انتهى قول السمعاني.

مثال ليولية (الجوليانية) دمنة عن تمثال لها وُجد في روما وهو الآن في متحف الواتيكان.



القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في سورية
في هذا القرن

عد ٥٤٩

بطاركة انطاكية في القرن الثالث

قد مرّ في تاريخ القرن الثاني أنّ سراييون رُقيّ^١ إلى الكرسي الأنطاكي في أواخر القرن المذكور. وبعد وفاته خلفه اسكلاياد سنة ٢١٣م على ما روى اوسابيوس في الكرونيكون. وجاء في كتاب ايليا النصيبيني أنه ترقّى الكرسي الأنطاكي في السنة ٥٢٣ اليونانية الموافقة سنة ٢١١ أو سنة ٢١٢م. وقال فيه اوسابيوس (في تاريخه ك ٦ فصل ١١) «وبعد موت سراييون في انطاكية رقي اسكلاياد إلى اسقفية هذه المدينة، وجاهر في الإيمان في أبان الاضطهاد وفاز بمجد باذخ. وقد ذكر ترقّيته اسكندر الأورشليمي في رسالته إلى الأنطاكيين قائلاً: «من اسكندر عبدالله وأسير يسوع المسيح إلى كنيسة الإنطاكيين السعيدة السلام، قد كان لي تعزية من الله في أيام رياستي إذ علمت أنّ اسكلاياد الرجل الكثير النفع للإيمان، قد رقي بالعناية الإلهية إلى اسقفية كنيستكم المقدّسة». وقد أرسل اسكندر رسالته هذه إليهم مع

كاهن كان اسمه اكليمينضس امتدحه كثيراً بعلمه وتقواه. وقد استمرّ اسكلاياد في الاسقفية إلى سنة ٢١٨م على ما روى اوسايوس في الكرونيكون.

وخلف اسكلاياد في السنة المذكورة فيلبس كذا سماه اوسايوس في الكرونيكون. لكنه سماه في تاريخه (ك ٦ فصل ٢١) فيلانس، وكذا سماه نيكوفورس (ك ٥ فصل ٢٦)، واستمرّ في البطيركية إلى سنة ٢٣٠م وخلفه زابينوس في تلك السنة. ذكره اوسايوس في الكرونيكون وفي تاريخه (ك ٦ فصل ٢٣) ولكن في كتاب ايليا النصيبيني إنّ ترقيه إلى الاسقفية كان السنة ٥٤٠ اليونانية الموافقة لسنة ٢٢٨ أو لسنة ٢٢٩ للميلاد. ولم يذكر اوسايوس مدة بطيركيته، ولكن قال نيكوفورس أنه بقي فيها ثماني سنين ثم توفي. وخلفه بابيلا ولم يذكر اوسايوس في الكرونيكون إقامة بابيلا، لكنه ذكر فيه استشهاده في تاريخ سنة ٢٥٤، وقال فيه في تاريخه أنه مات في السجن مغلاً بالقيود. وقال فيه ابن العبري في تاريخه أنه دبر البطيركية ثماني سنين وأنه منع يوماً والي المدينة عن الدخول إلى الكنيسة فحنق لذلك وقتل كثيراً من المسيحيين والاسقف نفسه مع ثلاثة أحداث من تلامذته. وروى لاكويان أنّ نيله لإكليل الشهادة كان في السنة الثانية لداكيوس وهي عنده سنة ٢٥١م. لكن الذي في الكرونيكون أنّ داكوس استوى على منصة الملك سنة ٢٥٤م واستمرّ عليها سنة وثلاثة أشهر. وذكر في تاريخ تلك السنة أنه قام فيها في انطاكية فايوس إلى أن ذكر إقامة دمترانوس في تاريخ سنة ٢٥٨م. والذي عليه المحققون الآن أنّ داكوس رقي اريكة الملك سنة ٢٤٩م وتوفي سنة ٢٥١م. وروى ابن العبري في فايوس أنه نال لإكليل الشهادة مع كثيرين في أيام داكوس. ولكن قال معلقو الحواشي على تاريخ ابن العبري أنهم لا يعلمون أنّ أحداً غير ابن العبري قال باستشهاد فايوس، وإنّ لاكويان لم يأت بذكر شيء من ذلك في المشرق المسيحي (مجلد ٢٠ صفحة ٧٥٠). وذكر القديس ايرونيμος (في جدول المشاهير البيعيين) فايانس بدلاً من فايوس. وذكر اوسايوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٤٣) رسالة مطوّلة من كرنيليوس الحبر الروماني إلى فايوس هذا في شأن من يجحدون الإيمان في وقت الاضطهاد، ثم يرفعون ثابتين إلى الكنيسة وأنه لا يلزم نبذهم. وينبئ بما كانت نتيجة الجمع الذي عقده في روما وما ورد من اساقفة العالم من الرسائل في هذا الشأن. ولم يبقَ في البطيركية إلا سنة وبعض أشهر على ما روى اوسايوس في تاريخه في الفصل المذكور. وخلفه

ديمتريناس سنة ٢٥٨م على ما في الكرونيكون. وذكره اوسايوس في تاريخه أيضاً (ك ٦ فصل ٤٦) وأقام في البطيركية إلى سنة ٢٦٣م. فتكون مدة إقامته على ذلك خمس سنوات وروى آخرون سبعاً وعن نيكوفورس أنه أقام أربع سنين.

وخلف ديمتريناس بولس السميساطي، فهذا وُلد في سميساط من والدّين فقيرين واستباح التوسّل إلى الغنى بوسائل منهج عنها، ولا يُعلم بأية ذريعة توصّل إلى أن يخلف ديمتريناس في الكرسي الأنطاكي بين سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٦٣م على اختلاف الأقوال. وبعد أن ارتقى إلى البطيركية كان همه مصروفاً إلى زيادة ثروته وغناه، وإلى الإنهماك بالملاذ. وكان يصحب معه أين أقام أو رحل امرأتين جميلتين يقضي معهما أكثر أوقاته. وكان شديد العناية بتعظيم نفسه فيوجه أكثر خطبه حتى ما يلقيه منها في الكنائس لمدح نفسه والتنديد بغيره من الرؤساء، ويحضّ ذويه على الإطراء له في المحافل، وأدخل في الكنائس بعض أناشيد منظومة تقريضاً له. وكانت له حظوة كبرى عند زينب (زبيدة) ملكة تدمر حتى وكلت إليه جباية الخراج في ولاية انطاكية. وكان حرصه على القيام بفروض هذا المنصب أشد منه على إتمام فروض البطيركية. وأمن بذلك من مقاومة اكليروس رعيته وشعبها له فتمادى بشره واعتسافه حتى اتصل إلى إبداع بدعة زعم فيها أنّ ابن الله لم يكن من الأزل، ولم يكن قبل مريم بل حلّ فيه كلمة الله وحكمته عندما وُلد من العذراء، وكان الحاصل من ذلك ضلاله الآخر أنه كان في المسيح أقنومان وابنان لله. أحدهما بالطبيعة، والآخر بالتبني. وتابع بذلك سايليوس المبتدع الآتي ذكره على إنكار الثالوث الأقدس، كما يظهر من رسائل القديس ديوتسيوس البطيريك الإسكندري إليه. فإنّ هذا القديس إذ بلغته أخبار ضلال السميساطي أنفذ إليه رسائل عديدة يبيّن له غواياته ومخالفاتها لنصوص الكتاب وشهادة الآباء. وقد جاوبه بولس على بعض هذه الرسائل موارباً وموارياً ضلاله. ثم اجتمع كثيرون من الاساقفة في انطاكية لإفحامه وإبكامه في ضلاله آملين ارعواؤه عنه.

وكان من مشاهير هؤلاء الاساقفة القديس غريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة، وأخوه اتيودورس، وفرمليانس أسقف قيصرية الكبادوك، وهيلانس أسقف ترسيس، ونيكوماس أسقف قونية، وهيمانس رئيس أساقفة اورشليم، وتيوتانس أسقف قيصرية فلسطين، ومكسيمينس أسقف بصرى. ولم يتمكن القديس ديونيسيوس الإسكندري من أن يشهد هذا الجمع لمرضه وشيخوخته، ولكنه كتب رسالة مشبعة يبيّن بها رأيه

وغواية السميساطي. وبعد أن تفحص الآباء عن الأمر وأكثروا من الجدل مع السميساطي ليدعن للحق فلم يفعل، كتبوا رسالة إلى البابا الروماني وإلى مكسيمس البطريك الإسكندري (الذي كان خلف ديونيسيوس الذي توفي وقتل) وأذاعوها في كل محل يبينون فيها معائب السميساطي وإصراره على ضلاله. وإذا ما فتى مصرأ مروغاً تارةً بأنه مستغيث من حكم هؤلاء الاساقفة، وطوراً بإنكاره ما يعزى إليه من الضلال عقد في انطاكية مجمع آخر حضره أساقفة أكثر عدداً من الأولين، وحطوا السميساطي عن رتبته، وخلعوه من البطريكية، وأقاموا مكانه دمنوس الآتي ذكره، فاستعصى في دار البطريكية معتمداً على حماية زينب له. فلجأ الاساقفة إلى الملك اورليان فحكم بأن تكون الدار لمن يحكم بها حبر روما وأساقفة إيطاليا، فكان ذلك شهادة من ملك وثني لرئاسة أحبار روما على الكنيسة كلها. وكان ذلك لسنة ٢٧٠م وإن قيل أنه كان لسنة ٢٧٢م. روى ما لخصناه هنا اوساييوس في تاريخ (ك ٧ فصل ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠) وكثيرون من المحققين.

خلف بولس السميساطي دمنوس كما يظهر من رسالة آباء المجمع الإنطاكي إلى البابا ديونيسيوس حيث ذكروا معائب السميساطي وفضائل دمنوس وانتخابهم له. والظاهر من الكرونيكون أن دمنوس لم يتبوأ كرسي البطريكية إلا أربع سنين أم خمساً. إذ روى اوساييوس ثمة أن تيموتاوس خلفه سنة ٢٧٤م بعد أن ذكر انتخابه سنة ٢٧٠م، وعن نيكوفورس أنه استمر في البطريكية سنتين لعله لأنه قال رقيها سنة ٢٧٢م وخلف دمنوس تيموتاوس. ذكره اوساييوس في تاريخه أيضاً (ك ٧ فصل ٣٢) إذ قال: «وولّى حينئذ تيموتاوس الكنيسة الإنطاكية بعد دمنوس». ويظهر من الكرونيكون أنه استمر في البطريكية ثمانين سنين أو تسعاً إذ روى إقامة خليفة له في تاريخ سنة ٢٨٢م. وعن نيكوفورس أن مدة بطركيته عشر سنين وخلفه كيرلس على ما في الكرونيكون. وفي التاريخ لأوساييوس (ك ٧ فصل ٣٢) حيث قال أنه كان في أيامه دوروتاوس كاهن انطاكية العلامة (الذي سنأتي على ذكره). وإن هذا البطريك بقي حياً إلى أيامه، وأنه استمر في الحبرية عشرين سنة أي إلى سنة ٣٠٣م. وعن نيكوفورس إن لم يبق بطريكاً إلا خمس عشرة سنة. وقد ذكر ابن العبري جميع هؤلاء البطاركة على النمط الذي ذكرناهم به.

بطاركة أورشليم في القرن الثالث

قد مرّ عد ٥٣٣ نرسيس البطريك الأورشليمي استمرّ في البطريكية إلى سنة ٣١٢م والذي في الكرونيكون في تاريخ سنة ٢١٥م أنّ اسكندر أقيم وقتل أسقفاً على أورشليم، ونرسيس جيئ مدير الكنيسة معه. وقال اوسايوس في تاريخه أيضاً (ك ٦ فصل ١١) أنّ نرسيس لما أعجزه كبر سنه عن القيام بأعباء الاسقفية أوحى الله إلى اسكندر الذي كان أسقفاً في الكبادوك أن يأتي إلى أورشليم ويعاون نرسيس في تدبير كنيستها، فأثابها بغية التعبد وزيارة الأماكن المقدسة، فأقامه نرسيس معاوناً له في حياته وخلفاً بعد مماته. وقد بقيت إلى الآن رسالة من اسكندر علّقت على آخرها «يقريكم السلام نرسيس الذي دبر هذه الكنيسة قبلي وهو متحد معي»، وروى عنه اوسايوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٢٠) «إنه أنشأ مكتبة في أورشليم جمع فيها كثيراً من كتب العلماء ورسائلهم وأنه (أي اوسايوس) أخذ عنها مادة غزيرة لتأليفه. وقال فيه في الكتاب المذكور (فصل ٢٧) إنّ اسكندر أسقف أورشليم وتيوكتيستوس أسقف قيصرية كانا يكثران التردد إلى اوريجانس ليسمعا كلامه. وقد قلّده وحده تفسير الكتاب المقدس وشرح تعليم الكنيسة للشعب. وقال في الكتاب المذكور (فصل ٣٩) إنّ اسكندر أسقف أورشليم اقتيد مرة أخرى إلى محكمة الوالي (في أيام داكوس) فجاهر بالإيمان بالمسيح غير وجل، وألقي في السجن في قيصرية حيث قضى حباً بالإيمان، وخلفه مازابان في أسقفية أورشليم. روى اوسايوس أيضاً (ك ٦ فصل ١٣) إنّ اكليمنضس الإسكندري وجه إليه كتابه في دستور الكنيسة رداً على من يستمسكون بأضاليل اليهود. وذكر له (في ك ٦ فصل ١١) رسالته إلى الإنطاكيين التي مرّ معنا ذكرها في عد ٥٤٨ في اسيكلاياد بطريك انطاكية. وفي (فصل ١٩) رسالته الأخرى إلى ديمتريوس الإسكندري في شأن اوريجانس. وذكر في محل آخر (فصل ١٤) رسالته إلى اوريجانس، ويتبيّن منها أنّ اسكندر كان صديقاً وعشيراً لبنتانوس الفيلسوف الشهير، ولاكليمنضس الإسكندري. وقد دبر اسكندر الكنيسة الأورشليمية ثمانين وثلاثين سنة من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢٥٠م على ما روى اوسايوس. وتعيّد لذكره كنيسة الروم في ١٦ أيار وفي ٢٢

كانون الأول، والكنيسة اللاتينية في ١٨ آذار على ما في المشرق المسيحي للكويان، (ك ٧ فصل ٥) وخلف مازابان اسكندر سنة ٢١٥٠م وقد ذكره اوسايبوس (ك ٦ فصل ٣٩) أنه خلف اسكندر. والذي في الكرونيكون أنّ استشهاد اسكندر وخلافة مازابان له كانا في سنة ٢٥٤م واستمرّ مازابان في البطريركية ست عشرة سنة على ما روى ايرونيوس، وتوفي سنة ٢٦٦م والذي في الكرونيكون لأوسايبوس أنّ هيميناوس صير بطريكاً على أورشليم سنة ٢٦٩م.

أما هيميناوس خليفة مازابان فقال فيه اوسايبوس (ك ٧ من تاريخه فصل ١٤) «وبعد وفاة مازابان رُقي هيميناوس إلى الكرسي الأورشليمي واشتهر في أيامنا بفضائله المستوجبة الثناء. وروى لأكويان في المشرق المسيحي أنه شهد المجمعين اللذين عُقدا في انطاكية كتباً لبولس السميساطي: الأول سنة ٢٦٥م والثاني سنة ٢٧٢م. ولا يتفق القول بحضوره في المجمع الأول سنة ٢٦٥م وهو أسقف مع القول بأنه صير أسقفاً سنة ٢٦٦م إلا بأن حضر ذلك المجمع وهو كاهن، أو أنّ المجمع كان بعد سنة ٢٦٥م ويظهر أنه استمر في البطريركية من سنة ٢٦٦ إلى سنة ٢٩٨م أي اثنتين وثلاثين سنة على ما روى القديس ايرونيوس. وعن لأكويان في المشرق المسيحي والذي في الكرونيكون لأوسايبوس أنّ خلفته زبدى أو زبداس لم يرتق المقام البطريركي إلا في سنة ٣٠٣م. وقال القديس ايرونيوس في زبدى خليفة هيميناوس أنه رقي إلى الاسقفية سنة ٢٩٨م كما مرّ. وعن نيكوفورس أنه أقام في الاسقفية عشر سنين، والذي رواه القديس ايرونيوس أنه لم يقم فيها إلا إلى سنة ٣٠٢م أي أربع سنين والذي قال اوسايبوس (في ك ٧ فصل ٣٢) فهو: «أما في أورشليم فبعد وفاة هيميناوس، تولّى تدبير هذه الكنيسة زبداس ومات بعد أمد قليل. وروى في الكرونيكون أنّ خلفته هرمون رُقي إلى الاسقفية سنة ٣٠٦م».

عد ٥٥١

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن الثالث

من نعرفهم من أساقفة صور في هذا القرن الأول مارينس، ذكره ديونسيوس البطريرك الإسكندري في رسالته إلى اسطفانوس الحبر الروماني في جملة الاساقفة الذين تولاهم السرور بحصول كنائس المشرق على السلم والطمأنينة بعد زوال

الاضطهاد وتضارب الآراء بشأن بدعه نوفاتوس، وعادوا يرون رأياً واحداً قوياً شاكرين الله. وقد روى هذه الرسالة اوسايبوس في تاريخه (ك ٧ فصل ٥).

والثاني تيرانيوس ذكره اوسايبوس (ك ٨ في تاريخه فصل ١٣) في عداد الشهداء الذين قاسوا أعذبة اليمّة في اضطهاد ديوكلتيان حباً بالإيمان المسيحي. وإنّ المعذّبين طرحوا هذا الاسقف أخيراً في البحر ففاضت نفسه القدوسة ويعيّد لذكره في السنكسار الروماني في ٢٨ شباط.

والثالث متوديوس كان أولاً في اولبيا وباتارا ببلاد اليونان، ثم نُقل إلى أسقفية صور. وقد نُفي بسعاية الأريوسيين إلى أن نال إكليل الشهادة سنة ٣١٢م. وذكره القديس ايرونيμος في جدول المؤلفين البيعيين، وألّف كتاباً في تفسير سفر التكوين ومقالة في الحرية وله قصائد نحو من عشرة آلاف بيت يرد فيها مزاعم برفير الصوري وغيره. ولم يبقَ من تأليفه إلا مقالة موسومة بعيد العذارى طُبعت في باريس سنة ١٦٥٧م مع ترجمتها إلى اللاتينية وبعض فقر جمعها الأب كمباليس وعلقها على آخر تأليف امفيكلّوس وتعيد له الكنيسة الرومانية في ١٨ أيلول.

والذين نعرفهم من أساقفة اللاذقية في هذا القرن أولهم تلميذ درس. فقد روى اوسايبوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٤٦) أنّ ديونسيوس الإسكندري كتب رسالة إلى الأخوة الذين في اللاذقية وكان يتولّى أمرهم تلميذ درس الاسقف. ثم ذكر اوسايبوس (ك ٧ فصل ٥) رسالة أخرى بعثها ديونسيوس إلى اسطفانوس الحبر الروماني. ومما قاله فيها أنّ اليودورس خلف تلميذ درس في أسقفية اللاذقية في هذا القرن والثالث منهم سقراط ذكره اوسايبوس (ك ٧ فصل ٣٢) قائلاً: «وكان في اللاذقية اوسايبوس بعد وفاة سقراط أسقفها» وأما اوسايبوس المذكور وهو الرابع من أساقفة اللاذقية في هذا القرن فقال فيه اوسايبوس في المحل المذكور «إنه كان من الإسكندرية وقد زایل موطنه آتياً إلى سورية بداعي بدعة بولس السميساطي فأمسكه من كانوا مغرمين بالأمر السماوية عن العود إلى وطنه وصير أسقفاً على اللاذقية، وكان على ما نتذكر كنزاً شهياً للدين كما يظهر من كلام ديونسيوس الاسكندري. وقد ذكر اوسايبوس (ك ٧ فصل ١١) كلام ديونسيوس من رسالة له إلى دوميسيوس وديديموس حيث قال: «وأما اوسايبوس الذي قوّاه الله من بدء الاضطهاد وحمله على خدمة المعترفين الملقين في السجون وعلى تلافي شؤونهم.

فكان يدفن جثث الشهداء الطوباويين معرضاً نفسه لخطر قطع رأسه». وعقب أوساييوس ذلك بقوله أنّ أوساييوس هذا الذي يسميه ديونسيوس شماساً، قد أُقيم بعيد ذلك أسقفاً على اللاذقية في سورية وذكر له (ك ٧ فصل ٢٢) مآثر مثل هذه في اتّان الحرب بين الإسكندرانيين والجنود الرومانيين قائلاً: إنّ أوساييوس كان يتقبّل جميع الجرحى كأب وطبيب وينذل قصارى العناية في مداواتهم وسدّ اعواضهم. وقال أوساييوس في الكرونيكون أنّ أوساييوس هذا كان على عهد اورليان الملك وصير أسقفاً سنة ٢٧٦م.

الخامس اناطوليوس وكان من الإسكندرية أيضاً. وأتى إلى سورية فرقاه تيوتكنوس أسقف قيصرية في فلسطين إلى المقام الاسقفي ليكون خليفة له. ثم أتى انطاكية ليشهد المجمع الذي عُقد فيها لمقاومة بولس السميساطي. ومَرَّ في اللاذقية وكان أوساييوس أسقفها لقي ربه. فأمسكه المؤمنون فيها وجعلوه أسقفاً عليهم فكان خير خلف لخير سلف. وقال فيه أوساييوس (ك ٧ فصل ٣٢) أنه كان له بلا مرء المحل الأول بين علماء عصرنا في الفلسفة والرياضيات وغيرهما. وقد بلغ قَمّة الكمال في علوم الحساب والهندسة والفلك والفصاحة والطبيعات وغيرها من العلوم والفنون. ولذلك رغب إليه أهل مدينة الإسكندرية أن يجدد عنهم مدرسة ارسطو. وقد أجمعوا على تنويله أول رتبة بين أشرافهم، وله بينهم مكرمة تُذكر فثُشكر إذ بعث ندوتهم بسديد برهانه على أن يتركوا العجز والنساء والأطفال ينحازون إلى معسكر الرومانيين حين محاصرتهم الاسكندرانيين لينجو أولئك من الموت جوعاً أو اسبالاً. ويبقى زادهم قوتاً لرجال الحرب. إلى أن قال أوساييوس في المحل المذكور، وقد بقي لنا من تأليفه الدالة على فصاحته وطول بابه مقالة في الفصح ويوم التعييد له والمطابقة بين الحساب القمري والشمسي. وله أيضاً عشرة كتب في الحساب والهندسة فضلاً عما له من الآثار في العلوم المقدسة. هذا ملخص ما ذكره أوساييوس في تاريخه. ويظهر من كلامه في الكرونيكون أنه صير أسقفاً على اللاذقية سنة ٢٨٠م ولم يبقَ إلى أيامنا من تأليفه إلا مقالة في الفصح طُبعت في مجموعة بوغاريوس سنة ١٦٣٤م وبعض فقر. وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ٣ تموز.

السادس اسطفانوس خلف اناطوليوس. وقال فيه أوساييوس (ك ٧ فصل ٣٢) أنه صير أسقفاً على هذه الكنيسة قبل الاضطهاد (في أيام ديوكليتيان) وكانت له

شهرة كبرى بعلم الفلسفة وفنون اليونان، على أنه لم يكن متمكناً كثيراً في الدين كما ظهر عند ثوران الاضطهاد، لأنه كان إذ ذاك وغداً جباناً لا فيلسوفاً حقيقياً. ولكن لم تمس الكنيسة بجحوده وتدارك الله لإصلاح شؤونها بإقامة توادوطوس أسقفاً على هذه المدينة. فكان توادوطوس السابع من أساقفة اللاذقية في هذا القرن. وقال فيه اوسابيوس في المحل المذكور أنه قام حق القيام بأعباء منصبه وبالمدافعة عن الحق. وكان أبرع أطباء أيامه في مداواة أمراض الجسد أيضاً. ولم يكن له نظير في علاج أدواء النفوس. وقد تفرد بمحبته الإنسانية وخلوص الطوية ولين العريكة والرحمة والغيرة على إسعاف كل ذي حاجة. وكان فقيهاً ضليعاً في العلوم الإلهية. هذا ملخص ما رواه اوسابيوس عنه، وقيل في ترجمته في السنكسار الروماني في الثاني من تشرين الثاني توادوطس أسقف اللاذقية بسورية كان مجتهداً بحلي الفصاحة والفضائل. ولا نعلم متى كانا هذان الاسقفان أفي أواخر القرن الثالث أم في بداية الرابع؟ فلم يذكرهما اوسابيوس في الكرونيكون ولم نر في غيره ما نعتمده في بيان مدة اسقفيتهما. ولا شك في أنهما كانا في أيام ديوكليتيان. وهو تبوأ منصة الملك في سنة ٢٨٤ إلى سنة ٣٠٥م.

ومن أساقفة صيدا في هذا القرن نعلم زينوبيوس. فقد روى توفان أن زينوبيوس الذي نال إكليل الشهادة في أيام ديوكليتيان كان أسقفاً على صيدا. ولكن قال اوسابيوس (ك ٨ فصل ١٣) إن أشهر الشهداء في فينيقية من رعاة القطيع المسيحي تيرانيوس أسقف صور وزينوبيوس الكاهن في صيدا.

ومن أساقفة جبيل في هذا القرن نعلم اوتاليوس. روى لاکويان (مجلد ٢ من المشرق المسيحي صفحة ٨٢٠) أنه جاء في مناوون الروم وفي السنكسار الروماني في ١٣ من حزيران ذكر القديسة اكلينا التي نالت إكليل الشهادة في أيام ديوكليتيان، وكان عمدها اوتاليوس أسقف جبيل كما ورد في ترجمتها في كتب البولنديين. ونعلم من أساقفة عكا في هذا العصر يوحنا جاء ذكره في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أنه كان في أيام البابا مرشيلنوس الذي استوى على السدة الرسولية من سنة ٢٩٥ إلى سنة ٣٠٣م.

ومن أساقفة حمص في هذا القرن سلوانس الوارد ذكره في الكتاب المذكور أنه أول أسقف على هذه المدينة. وبعد تعذيبه أربعين يوماً مع بطلين من صناديد الإيمان

في أيام مكسيميان طارت روحه مكلّلة بإكليل الظفر إلى مقرّ الراحة والمجد. وقد ذكره اوسابيوس (ك ٩ من تاريخه فصل ٦) قائلاً ما ملخصه: «إنه كان في جملة من نالوا إكليل الشهادة في أيام مكسيميان ثلاثة أبطال في مدينة حمص في فينيقية جاهدوا بإيمانهم فطرحوا فريسة للوحوش، منهم سلوانس الأسقف الشيخ الذي كان قد خدم في المقام الكهنوتي أربعين سنة. وذكره اوسابيوس أيضاً في كتابه في شهداء فلسطين (فصل ٧) قائلاً: إنه كان كاهناً ومجاهداً في قيصرية فلسطين، وروقي بعد ذلك إلى الاسقفية إلى أن لقي ربه شهيداً مع بعض رفقائه بعد أن غلّهم الوالي بالقيود ثم حكم بإرسالهم.

ومن أساقفة غزة في هذا القرن سلوانس، ذكره اوسابيوس (فصل ١٣ من كتابه في شهداء فلسطين) قائلاً ما ملخصه إنّ والي فلسطين بعد أن قبض على جم غفير من المعترفين وقضى عليهم بالنفي والأشغال الشاقة في قبرص ولبنان، عذب من أعجزهم سنّهم أو ضعفهم أو مرضهم عن المسير إلى المنفى. وأخصّ هؤلاء سلوانس أسقف غزة وكان رجلاً يقتدى بكماله وفضله في الدين المسيحي. وقد عانى العذاب والتنكيل منذ أول يوم من الاضطهاد إلى آخره. فكان خاتمة جهاد المجاهدين في هذا الاضطهاد. ونعلم من أساقفة قيصرية فلسطين تيوكتيستوس. ذكره اوسابيوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٢٧) قائلاً أنّه كان يسمع مع اسكندر أسقف أورشليم خطب اوريغانس متواتراً بمنزلة استاذ، وإنهما خصّاه وحده بتفسير الاسفار المقدسة وشرح التعليم المسيحي للشعب. وروى (في الكتاب المذكور فصل ٤٦) إنّ ديونيسيوس الاسكندري قال في رسالته إلى كرنيليون الحبر الروماني أنّ تيوكتيستوس أسقف قيصرية وغيره من الاساقفة استدعوه إلى الجمع الأنطاكي. وروى (ك ٧ فصل ٥) إنّ ديونيسيوس في رسالته إلى اسطفانوس الحبر الروماني ذكر تيوكتيستوس في جملة الاساقفة الذين سُروا باستحواذ الأمن والسلم في الكنيسة وزوال الخلاف الذي كان بسبب بدعة توفاس. ثم ذكر اوسابيوس (ك ٧ فصل ١٤) وفاة هذا الاسقف فقال: «وإما في قيصرية، فبعد وفاة تيوكتيستوس خلفه دمنوس» وقال فيه (ك ٦ فصل ١٩) إنه كتب رسالة إلى ديمتريوس أسقف الاسكندرية يعتذر بها عن الترخيص لأوريغانس بأن يخطب في الكنائس بحضرة الاساقفة، قبل أن يكون كاهناً ويبيّن أنّ لا بأس بذلك. ويورد له أمثلة من التواريخ. وأما دمنوس خليفته فلم نعثر له على خبر إلا في قول اوسابيوس المار ذكره هنا.

ولعلّه لأنه لم يعيش إلا قليلاً إذ عقب اوساييوس قوله بقوله «وبعد زمن وجيز زایل هذه الدنيا وخلفه تيوتكنوس الذي بقي حياً إلى أيامنا». ويقال أنه كان من تلامذة اوريجانوس.

وقد ذكر اوساييوس (ك ٧ فصل ٢٨ وفصل ٣٠) تيوتكنوس بين مشاهير أساقفة المشرق في ذلك العصر. وروى أنه شهد الجمع الأنطاكي الذي عُقد لمناسبة بولس السميساطي. وكان الرابع بين الستة عشر أسقفاً الذين كتبوا رسالة مجمعية إلى ديونسيوس الحبر الروماني، ومكسيمس أسقف الاسكندرية، وإلى جميع أساقفة المسكونة وكهنتها وشمامستها، يبيّنون فيها معائب السميساطي ورذلهم تعليمه. وروى أيضاً (فصل ٣٢ من الكتاب المذكور) إنه رقى اناطوليوس إلى درجة الاسقفية ليكون معاوناً له في حياته وخليفته بعد مماته. على أنّ اناطوليوس انتقل بعدئذٍ إلى أسقفية اللاذقية كما مرّ.

وخلف تيوتكنوس في قيصرية اغاييوس ذكره اوساييوس (ك ٧ فصل ٣٢) قائلاً وبعد وفاة تيوتكنوس الذي دبر هذه الكنيسة بكل اجتهاد خلفه اغاييوس الذي أكثر من الجهاد والعناية بخير رعيته وتدارك جميعهم، ولا سيّما الفقراء بسخائه وجوده على ما نعلم.

ايبوليطوس أو هيوليطس اختلف في مكان أسقفيته، فمن قائل إنه كان أسقفاً في بروتوس بروما على نهر التير، ومن قائل إنه كان أسقفاً على مدينة في بلاد العرب. ويرجح عندنا هذا القول الثاني لشهادة اوساييوس والبابا جيلاسيوس الأول الذي كان قريباً من عصره. وقد ذكره اوساييوس (ك ٦ فصل ٢٠ من تاريخه) بعد ذكره بريل أسقف بصرى. وذكر في فصل ٢٢ تأليف ايبوليطس التي توصلت إلى أيامه قائلاً وفي هذا الزمان (أي زمان الملك اسكندر ساويروس) ألف ايبوليطس كتاباً في الفصح وهو من جملة الآثار الدالة على حذقه. وضع فيه ضوابط ودستوراً لمعرفة يوم تعيد الفصح في مدة كل ست عشرة سنة. وابتدأ فيه من السنة الأولى لاسكندر ساويروس. ومن باقي تأليفه بلغ علمنا إلى كتابه في الستة الأيام التي خلق الله العالم فيها وما صنعه بعدها. وكتابه في ردّ مزاعم مركيون، وتفسيره سفر نشيد الانشاد وبعض فصول من نبوة حزقيال. وكتاب تفنيده جميع البدع، وغيرها كثير، وقد وصفه جيلاسيوس الأول الحبر الروماني في كتابه طبعني المسيح قائلاً:

«ايوليپس الشهيد والاسقف في قصبة بلاد العرب» وهي بصرى حينئذ. وقد نال إكليل الشهادة سنة ٢٣٥م. وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ٢١ آب. ونشر فبريشيوس مؤلفاته في همبرج سنة ١٧١٦م وكتابه في تنفيذ البدع عُثر عليه في جبل اثوس سنة ١٨٤٢م، وطبع في أكسفورد سنة ١٨٥٢م، وفي لندرة وباريس سنة ١٨٥١م. وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته قائلاً: «القديس ايوليپس الاسقف الشهيد ألف كتاباً في سرّ التجسّد وتفسيراً لسفر دانيال الصغير (وهو المتضمّن خبر سوسنة وصلوة عزريا وتسبحة الفتية الثلاثة وخبر بعل والتنين) ومقالات ردّاً لمزاعم غايوس المبتدع ومدافعة عن صحة رؤيا يوحنا وإنجيله». وصوّب السمعاني في شرح هذه القصيدة (في مجلد ٣ صفحة ١٥) انه كان أسقفاً في بلاد العرب لا في ايطاليا. وقال أنه اشتهر سنة ٢٢٠م وأن مكاريوس أحد قسس دير القديس مكاريوس جمع ٢٤٠ قانوناً عربياً وعزاها إلى ايوليپس. وانه عثر على ذلك في كتاب خط سنة ١٣٧٢م في المكتبة الواتيكانية. وإنّ أبا البركات ذكر هذه القوانين في كتابه في القروض الألّهيّة فصل ٧. وذكرها فبريشيوس أيضاً مع كتاب آخر له موسوم بتدبير الرسل. وهذا الكتاب عثر عليه السمعاني في مجلد سرياني في المكتبة الواتيكانية، وأشار إليه في ذيل مجلد ٢ صفحة ٤٠٨، وعثر على مقالات له في المسيح الدجّال، وفي مجيء المسيح الثاني، ونهاية العالم في كتاب مخطوط يوناني عد ١٢ في المكتبة الواتيكانية، وعلى تفسير لنشيد الإنشاد في اليونانية، وعلى كتاب في تراجم الرسل الاثني عشر، والسبعين مبشراً، وعلى فقرات له في تفسير الحيوانات الأربعة التي ذكرها ارميا، وفي الموالد الخمسة التي أضرب متى عن ذكرها في نسب المسيح. وأشار إلى كل هذه الكتب في فهرست الكتب الواتيكانية الذي علّقه في آخر كل مجلد من مكتبته الشرقية.

وكان من أساقفة هذا القرن في سورية بريل أسقف بصرى. وقد قال بعض العلماء اللاتينيين أنّ هذه المدينة في العربية والصحيح أنها كانت قصبة بلاد أدم. وهي في حوران الآن. ثم جعلها الملك تريان قصبة لإقليم العربية. وهذا مما حمل المؤلفين اللاتينيين على قولهم المذكور، مع أنها ضمن تخوم سورية، وهي على مئة وثلاثين كيلومتراً من دمشق جنوباً. وقد اشتهرت بأنها كانت مولد الملك فيليبس الروماني. وكان فيها أساقفة، منهم بريل المذكور في أواسط القرن الثالث، فهذا الاسقف قال فيه اوسابيوس (ك ٦ فصل ٢٠) وكثير من المؤرخين أنه كان أسقف

بصرى، وأنه ألّف كتباً كثيرة شاهدة بحذقه وطول باعه، خلا رسائله وشروحه العديدة. ثم قال فيه (فصل ٣) من كتابه المذكور أنه خالف إيمان الكنيسة وابتدع تعليماً حديثاً مناقضاً المعتقد الكاثوليكي، زاعماً أنه لم يكن ليسوع المسيح قيام قبل أن يتجسّد. وإنه ابتدأ يكون إلهاً بعد أن ولدته العذراء. ولم يكن إلهاً إلا لأن الآب كان حالاً فيه حلوله في الأنبياء. فقاومه كثير من الاساقفة ليرعوي من غوايته، وظلّ مصرّاً عليها. فاستدعوا إليه اوريجانس وجامله ولاطفه إلى أن استطلع كنه رأيه، ثم أخذ يبيّن له متلطفاً ضلاله ويفتد مذهبه بالحجج القاطعة والأدلة الساطعة، حتى أفحمه وأبكمه، وأقرّ بريل بخطئه وارعوى معترفاً بالإيمان القويم. وكانت بينه وبين اوريجانس بعد ذلك مراسلات عديدة، وقال اوسايوس هناك أنّ جدال اوريجانس مع بريل والمناقشات التي جرت بينهما في المجمع الذي عُقد لهذا الداعي وحجج اوريجانس وبيّناته وكل ما جرى حيثئذ كانت محفوظة إلى أيامه، وعن نطاليس اسكندر أنّ هذا المجمع عُقد في بصرى سنة ٢٤٧ أو سنة ٢٤٩م.

الفصل الثاني

المشاهير والشهداء في سورية بهذا القرن

عد ٥٥٢

اوريجانس

لم يكن اوريجانس سورياً لأنه وُلد في الإسكندرية لكنه توطّن سورية مدة متطاولة، وصار كاهناً وألّف فيها كثيراً من كتبه ومات في صور. فقد وُلد هذا النابغة في الاسكندرية سنة ١٨٥م. وعن اوسايوس (في الكرونيكون) سنة ١٨٤م وأبوه لأنيد توفي شهيداً في سنة ٢٠٢م وقد انكبّ اوريجانس على العلم منذ نعومة أظفاره، وكان استاذة اكليمنضوس الإسكندري في مدرسة الإسكندرية. وخلف

استأذه في تدبير هذه المدرسة الشهيرة. وقد دَوَّن اوساييوس ترجمته في فصول عديدة من الكتاب السادس من تاريخه آخذاً بعضها عن رسائله، وبعضها عن تلامذته الذين بقوا أحياء إلى أيام هذا المؤلف. قال إنّ لانيد أباً اوريجانس أقام ابنه منذ حدائته في مدرسة الإسكندرية وأمره أن يدرس الاسفار المقدسة، فعكف عليها حتى كان يقرأها عن ظهر قلبه ويردها كل يوم. وكان اوريجانس يحسن طاعة أبيه في ذلك. فنشأ وقلبه مفعم بحب الدين والغيرة عليه وبه وجد وهيام إلى نيل إكليل الشهادة حباً بالمسيح. حتى عرض نفسه مرات ليكون في عداد الشهداء في الاضطهاد الذي أثاره سبتيمس ساويروس على المسيحيين ولا سيما في الاسكندرية. وكانت أمه تمانعه من ذلك، واتصلت ذات يوم إذ كان أبوه في السجن لأجل الإيمان أن تنزع عنه ثيابه لئلا يمضي فيشتري مع أبيه في العذاب، ولما لم يتمكن من الذهاب كتب إليه رسالة يحضه فيها على الثبات، ومما قاله فيها: «حذار يا أبت أن يغيّر العذاب رأيك في دعوانا». ثم لقي أبوه ربه تاركاً له أمه وستة أخوة أصغر منه. وضبطت الحكومة ما يملكون فأمسى اوريجانس في أشد الفاقة فشفت عليه امرأة غنية شريفة وأقامته لديها. ولكن كان في بيتها رجل اراتيكي تبنته اسمه بولس، وكان في انطاكية. أفرغ اوريجانس قصارى جدّه ليرده عن ضلاله فلم يقلع عنه ولم يطاوع اوريجانس في إقامة الصلوة فزایل دار المحسنة إليه.

وإذ كان في الثامنة عشرة من سنه أقيم مديراً لمدرسة الإسكندرية، وكانت الناس تتقاطر لسماع كلامه، حتى الوثنيون. وكان من هؤلاء بلوترخس الذي نصره ثم قضى شهيداً شهيراً. ثم أخوه هركلياس الذي رُقّي الكرسي الاسقفي في الإسكندرية بعد وفاة ديمتريوس أسقفها، وولّى الاسكندرية رجل اسمه اكويلا فأكثر من الاضطهاد على المسيحيين. وكان اوريجانس يتفانى في تشجيعهم وحضهم على الثبات وقضاء حاجاتهم. فبالغ الوثنيون في السعاية به وحاولوا القبض عليه وإنزاله السوء به. ولما كان يخطب في الإسكندرية كان الرجال والنساء من كل رتبة وسنّ يتسارعون لسماع كلامه. وكان حريصاً على عقته وطهارة ذيله. ويخشى أن يرشقه خصماؤه وحشاده بنبال اغتيالهم. فخصا نفسه مفسراً كلمة خصوا من قول المخلص «خصيان خصوا نفوسهم من أجل ملكوت السماء» بمعناها الحقيقي وهي بالمعنى المجازي، أي انقطعوا عن الملاذ البدنية متبتلين حباً بالله. وقد تعجّب ديمتريوس أسقفه من فعلته هذه، ثم تذرّع بها للإعتراض على ترقية تيوتكتسيوس أسقف قيصرية

واسكندر أسقف أورشليم له إلى المقام الكهنوتي كما سيجئ. ثم مضى اوريجانس إلى روما يزور سافرينس حبرها، ثم عاد إلى الإسكندرية وعاود التعليم في مدرستها بإلحاح ديمتريوس الأسقف عليه. لكن لم يَز نفسه كفوعاً وحده للتعليم فيها وإدارة مهامها فأشرك تلميذه هركلياس في قسم منها وقلّده تعليم الموعوظين والمعمدين حديثاً؛ ونبغ في هذه المدرسة في أيامه علماء وشهداء كثيرون ذكرهم اوسايوس في الفصل الرابع من كتابه المذكور، وتعاضم غيظ الوثنيين وضغائنهم عليه حتى لم يَز نفسه آمناً في الاسكندرية، فهاجرها إلى فلسطين فقبله اسكندر أسقف أورشليم وتيوكتيستوس أسقف قيصرية مرحبين به. ولما كان بلغهما من شهرة علمه وكانا يسمعان خطبه وقلّده شرح التعليم المسيحي وأصول ديانتنا للشعب فشق ذلك على ديمتريوس أسقف الإسكندرية، وكتب إليهما عاتباً كما مرّ. ولما رأيا جهاده في خير الدين وتفردّه بالعلم بين أهل عصره رقاہ تيوكتيستوس في قيصرية إلى درجة الكهنوت. فأخذ ديمتريوس أسقف الأسكندرية يندّد به ويبيّن أنه لم يكن أهلاً للكهنوت لا سيما للجنابة التي اقترفها بخصي نفسه. وأذاع هذا الأمر في كل ناحية وبين المؤرخين خلاف في ما إذا كان حق لديمتريوس أن يعارض رسامة اوريجانس كاهناً بحجة خصاء نفسه. وهل خصاء الرجل نفسه مانع قانوني عن ترقّيته درجة الكهنوت. فأوجب ذلك بارونيوس وغيره سنداً إلى أنه جاء في سفر التثنية (فصل ٢٣) منع الخصيان من أن يكونوا كهنة، وإلى أنه جاء في القوانين المنسوبة إلى الرسل مثل هذا المنع. وأنكر نطاليس اسكندر كون ذلك مانعاً لأوريجانس وأسند قوله إلى ما جاء في تاريخ اوسايوس (ك ١ فصل ٨) من أنّ ديمتريوس لم يعب اوريجانس أولاً بخصاء نفسه بل زاد في كرامته. وإذا كان عابه به بعداً فلحسد وحنق منه واستشهد نطاليس بالقديس ايرونيμος أيضاً (فصل ٦٥) في جدول الكتاب البيعتين حيث يخطئ ديمتريوس بإذاعة خصاء اوريجانس نفسه ومعارضته له في كهنوته. ورد ما يرد على ذلك في سفر التثنية بأنّ وصايا السنّة القديمة لا يلتزم بها أهل السنّة المسيحية، وبأنّ القوانين المنسوبة إلى الرسل أُلّفت بعد زمان اوريجانس.

وقد انكبّ اوريجانس على درس الفلسفة في مذهب بيتاغورس وأفلاطون ليستعين بذلك على رد مزاعم اولي البدع وعلى تفسير الكتاب. وكان صديقاً لامونيوس الفيلسوف المسيحي، إذ كان في الإسكندرية. وقد أبكم بريل أسقف

بصرى في المدافعة عن ضلاله حتى رده عنه ورد أيضاً بعض العلماء العرب عن غواية كانوا استمسكوا بها. وجعل رجلاً شريفاً غنياً اسمه امبروس يقطع عن ضلال والتتيناوس (على ما روى اوسايوس ك ٦ فصل ١٨) أو عن ضلال مرقيون على ما روى ايرونيوس في كتابه المذكور. فكان ايرونيوس هذا صديقاً صدوقاً لأوريجانوس يجري الرزق عليه وينفق على ما يؤلفه من كتبه. وزار اوريجانوس المؤمنين في اخاثيا (ببلاد اليونان) يرشدهم ويشبثهم في الإيمان ويحضهم على تحمل الاضطهاد من أجل المسيح بالصبر الجميل. وأتى إلى انطاكية فدعته إليها ثم والدته الملك اسكندر ساويروس وأجلته وأكرمت مثواه وأقام أياماً عندها وكتب إلى الملك فيلبس (الذي يقال أنه كان مسيحياً) وإلى والدته رسائل ذكرها القديس ايرونيوس.

ولم ينج اوريجانوس من الاضطهاد والعذاب من أجل المسيح. فقد روى اوسايوس (ك ٦ فصل ٣٩) إنه قاسى في اضطهاد داكايوس أعذبة أليمة مبرحة، فإن ابليس أفرغ قواه في إثارة الظالمين عليه ليقوّض دعامة الإيمان. فألقي في السجن (في صور) وغُلّت رجلاه بالقيود وجرت عليه أعذبة متنوعة. ولكن لم يقض عليه القاضي بالقتل. وتبين من خطبه ورسائله التي كتبها بعد ذلك كم احتمل وكم عانى من العذاب والضيق. وجاء في كتاب القديس اييفان في البدع (بدعة ٦٤) إن اوريجانوس نجا من التعذيب بتقديمه بخوراً للأصنام، واضطره إلى ذلك الوالي بأن أدخل عليه حبشياً يقتصره على صنع الفحشاء ووضع في يده بخوراً وأمامه مجمرة، وخيّر في صنع أي الأمرين شاء. وكان اوريجانوس شديد الحرص على عقته فأثر أن يلقي البخور في المجرمة على اقتراف المنكر. على أن اييفان لم يعين زمان سقوط اوريجانوس ولا مكانه. ولذلك قال كثيرون من المحققين منهم هوتيوس العالم الشهير إن هذا لم يكن في اضطهاد داكايوس الذي ذكر اوسايوس تعذيب اوريجانوس به لأنه كان حينئذ في فلسطين بل كان في اضطهاد سبتيمس ساويروس، إذ كان اوريجانوس في الاسكندرية وبين مشاهير المؤرخين خلاف كبير في صحة هذا الخبر، فأنكره بارونيوس أمام المؤرخين سنداً إلى أن اعداء اوريجانوس زادوا هذه الحكاية على كتاب اييفان، وأنه يظهر من كلام اييفان نفسه في كتابه في المكايل والموازن ما يخالف تلك الرواية. وإنه لو صحّ ذلك في اوريجانوس لما غفل ديمتريوس البطريك الاسكندري عن ذكره في مقاومته لأوريجانوس وتعمييه بخصاء نفسه كما مرّ. ولما أهمل ذكره برفيريوس عدو المسيحيين الألد الذي نقب عن زلات كثيرين

من علمائهم، ولما صمت عنه اوسايوس وغيره من الآباء والعلماء إلا من اغتربوا بالحكاية الواردة في كتاب ايفان. على أن نطاليس اسكندر أفرغ جده في إثبات هذا الخبر مستمسكاً بقول ايفان المذكور، وبمقالة ليوستيناس في اغلاط اوريجانوس، ومستشهداً لأونيتوس في كتابه في البدع، ونيميسيوس الاسقف الفيلسوف في كتابه في الطبع البشري، ونيقيطا في الكتاب الرابع من كنز الإيمان، وانسطاس صاحب المكتبة إلى غير هؤلاء. وتابع العلامة يوحنا منسي نطاليس على تأييد رأيه في حواشيه على تاريخه. لكن غيره ممن علقوا الحواشي لهذا التاريخ فتدوا زعمه وقالوا إن جميع من قالوا بسقوط اوريجانوس اغتربوا بما رواه ايفان، وإن حجج بارونيوس هي أشد وأشد وإن ساخ لنا أن نبدي رأياً بين هؤلاء الفطاحل قلنا يظهر لنا أن أدلة من كذبوا هذا الخبر أظهر وأقوى وأفضل. وقال كثير من المؤرخين إن اوريجانوس أسمى بعد هذا التعذيب أكسح من قبل الجراح التي انزلتها القيود برجليه. وإنه عاش بعد ذلك نحواً من أربع سنين غير منكفٍ عن جهده في التأليف والمكاتبات والخطب إلى أن توفاه الله سنة ٢٥٦م. وعن اوسايوس في الكرونيكون سنة ٢٥٥ وعمره سبعون سنة وكانت وفاته ودفنه في مدينة صور.

وأما ما كتبه نادرة ذلك العصر فكثير نذكر جلّه عن اوسايوس في الكتاب السادس من تاريخه، كان جلّ عناية اوريجانوس مصروفة إلى إثبات الاسفار المقدسة وتفسيرها، فقد نشر الكتاب المقدس أولاً مؤلفاً من أربع ترجمات: الأولى الترجمة السبعينية، والثانية ترجمة اكيولا، والثالثة ترجمة سيماخوس، والرابعة ترجمة تيودوسيوس. قاسماً صفحات كتابه إلى أربعة مقاطع واضعاً في كل مقطع ترجمة. وسمى هذه النسخة الرابعة أي ذات المقاطع الأربعة. ثم أذاع نسخة أخرى ذات ستة مقاطع سماها السادسة زاد فيها على الترجمات الأربع المذكورة ترجمة كانت وجدت في نيكوبولي ببلاد اليونان وأخرى وجدت في محل آخر. ثم اشتهرت نسخة ذات ثمانية مقاطع زاد فيها على النسخة الثانية ترجمة كانت وجدت في أريحا في أيام الملك كركلا بن سبتيمس ساويروس، وأضاف في أولها النص العبراني. ثم عكف على تفسير الاسفار المقدسة ففسّر أكثرها وأخصّها ثلاثة مجلدات في تفسير سفر التكوين وتسعة مجلدات في غيرها. فضلاً عن خطبه في تفسير الزبور وله في العهد الجديد كتاب في تفسير بشارة متى، وكتب في تفسير بشارة يوحنا، وكتاب خطب في تفسير رسالة بولس إلى العبرانيين. وله كتاب في

المبادئ، وكتابان في القيامة، وعشرة في موضوعات مختلفة سماها الليف، وثمانية كتب في ردّ مزاعم شلسيون الفيلسوف الوثني وهي أحسن ما ألّف في المدافعة عن المسيحين والدين المسيحي، وكتاب في الإستشهاد أرسله إلى امبروسيوس وبرتوكتانوس، ورسائل لا تُعدّ منها رسالة إلى الملك فيلبس وساويرا الملكة ورسالة إلى يوليوس الإفريقي يبيّن بها صحة خبر سوسنة، وأعمال مجمع بصرى، وجداله بريل، وأعمال المجمع الذي أفحم به العلماء العرب الذين كانوا ينكرون خلود النفس، وكتاب في ترجمة بمفيليوس، وآخر إلى فايوس الحبر الروماني وغيره من الاساقفة. وتعزى إليه كتب أخرى لم يتفق المؤرخون في نسبتها إليه. وكان امبروسيوس المذكور أقام له سبعة كتّاب يملي اوريغانس عليهم متعاقبين (لا يلقيهم معاً كما يتوهم البعض) ما خلا الناسخين والناسخات الذين كانوا يدوّنون بخطوط جميلة ما كتبه اولئك (رواه اوسابيوس ك ٦ فصل ٢٣) وقد بقي إلى أيامنا كثير من تأليف اوريغانس طُبعت مرات وأخرها طبعة مين في باريس في مكتبة الآباء الذين كتبوا باليونانية.

قلّ ما حاز رجل من الشهرة والاجلال ما حاز اوريغانس في عصره، وندر من لقي المقاومة والتعنيف ما لقيه هذا النابغة في حياته وبعد مماته. ففي حياته ناصبه كثيرون حتى ديمتريوس أسقفه مشتمّاً له حتى في رسالته العامة إذ كان أساقفة فلسطين يحلونه ذرى المجد والجلال. وبعد مماته انقسم العلماء حتى الآباء إلى فريقين فبعضهم أثبت عليه الابتداع والضلال وبعضهم عظّم قدره وأجلّه، وبسط عذراً من أغلاطه مؤلاً كلامه لمعانٍ تطابق الايمان القويم، وإما مفترضاً أنّ أعداءه أدخلوا على كتبه ما يدلّ على ضلال. فمن حكم عليه من القدماء ديمتريوس أسقف الاسكندرية، وتاوفيلس أسقف انطاكية والقديسون ايفان وايرونيوس وكيرلس الإسكندري وغيرهم. ومن برأوه اوسابيوس أسقف قيصرية وروفينوس وغيرهما. والذي عليه المعول إنّ بعض كتب اوريغانس تضمّنت أغلاطاً مخالفة الايمان، أخصّها ما يأتي أولاً تعليمه أنّ النفوس خلقت قبل الأجساد. ثم تُرسل إليها تعاقباً لتسجن فيها لجرائم ارتكبتها ثانياً. إنّ الشياطين والهالكين سينتفعون من آلام الخلّص. بل إنّ الخلّص سيصلب ثانياً لأجل الشياطين. ثالثاً إنّ عذاب الهالكين ليس أبدياً وسعادة الطوباويين ليست خالدة بل يمكن تبدّل حال الفريقين. رابعاً إنه سلم بقيامة النفوس لفظاً فقط وأنكر قيامة الأجساد قطعاً إلى غير ذلك مما يعزى إليه من

الأضاليل التي حرمها بعض الأبحار الأعظمين ولا سيما البابا انسطاسيوس، وتُبدت في بعض المجامع ولا سيما المجمع الخامس المسكوني. إلا أنَّ شخص اوريغانس لم يحرم ولم تصدر الكنيسة حكماً باتاً أهالك هو أم خالص، لأنه كان يكتب ما كتبه مخضعاً لإياه لسلطة الكنيسة ولقرائه من العلماء. ولم يبتّ في حياته إلى ضلاله وأصرّ عليه ولا تنبذ الكنيسة الكاثوليكية كتبه التي لا ضلال بها بل تنزلها منزلة رفيعة من الاجلال وتعتمد على شهادته بها، ولا تعتد اراتيكياً من دافع عن اوريغانس بأنه لم يكتب هذه الأضاليل أم لم يقصد بها معنى مخالفاً الإيمان بل تحسب اراتيكياً من استمسك بما في كتبه مما تحسبه الكنيسة ضلالاً. وما برح الخلاف على أقوال اوريغانس بين العلماء إلى هذه القرون الأخيرة، فقد ضلّه نطاليس اسكندر (في تاريخه) زاعماً أنه أنكر الثالوث الأقدس ولاهوت الابن ولزوم نعمة المسيح. وبرأ ساحته من الضلال بها روهربخر في تاريخه البيعي مورداً من أقواله ما يدرأ عنه شبهة الضلال بها. ونختم كلامنا بما كتبه القديس ايرونيμος (رسالة ٦٥) إذ كان يقاوم شديد المقاومة الأوريجانيين. «وافقونا على أنَّ اوريغانس انخدع في بعض الرسائل فلا يبقى لي ما أقول وإن اعترضنا من يحسدونه على فخره ببعض أغلاط له فليعلموا أنَّ الخطأ من شيم كبار الرجال فلا نتشبه بزلات من لا نستطيع مباراته في فضائله».

عد ٥٥٣

بمفيل ودوروتاوس وملكيون

أما بمفيل فلم يذكر اوسايبوس من تاريخه إلا ما صنعه بعد أن كان كاهناً في قيصرية. وقد عثرنا في تاريخ روهربخر (ك ٣٠) على ترجمته كاملة فقال إنه وُلد في بيروت من أسرة حسية، وانكبّ على العلوم فيها منذ صباه. وصار حاكماً في بيروت ثم ترك كل شيء وانكبّ على درس الاسفار المقدسة ثم مضى إلى الإسكندرية. ويقال إنه خلف اوريغانس في تدبير مدرستها ثم أتى قيصرية فلسطين وأنشأ مدرسة فيها وكأنه رقي من ثم إلى المقام الكهنوتي لأنّ اوسايبوس يصرّح بأنه كان كاهناً إذ قال فيه (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٢) وكان في هذا الزمان (أي إذ كان اغايبوس أسقفًا على قيصرية فلسطين) بمفيل الخطيب المصقع والفيلسوف

الحقيقي في سيرته وأعماله وقد ترقى المقام الكهنوتي في هذه الكنيسة. ويجدر بنا أن نبين ما كان عليه هذا الرجل الكبير من الفضل والعلم إلا أننا أفردنا كتاباً مخصوصاً للكلام في سيرته والمدرسة التي انشأها وما عاناه من جهاد البسلاء في إبان الاضطهاد وفوزه أخيراً بإكليل الشهادة.

وعن القديس ايرونيوس في جدول المؤلفين أن اوسايوس كتب ثلاثة كتب في ترجمة بمفيل. وإن بمفيل أنشأ مكتبة في قيصرية. وعن ليسيدورس الفرسي إن هذه المكتبة اشتملت على ثلاثين ألف كتاب وإن كثيراً منها خطته يده. وقد أشار اوسايوس إلى إنشائه هذه المكتبة في الكتاب السادس من تاريخه (فصل ٣٢) وقال فيه في كتابه الثامن (فصل ١٣) متكلماً في بعض الشهداء «ولا ينبغي أن نغفل في تعداد هؤلاء عن ذكر فخر كنيسة قيصرية ومجدها الباذخ بمفيل الكاهن الذي أصبح لدى كل أهل عصرنا غرضاً للتعجب. وسنأتي على ذكر بسالته وأعماله المجيدة».

وقال فيه في الفصل السابع من كتابه في شهداء فلسطين «وكان في جملة هؤلاء الشهداء الذين عذبهم الوالي وألقاهم في السجن، بمفيل أعز رفقاءه إليّ من أحرز قصبات السبق على جميع شهداء عصرنا بما أبداه من البسالة الغرية وبما ناله من الفخر والثناء».

وذكر (في الفصل ١١ من هذا الكتاب) خبر استشهاد مع إثني عشر شهيداً مفصلاً، وهاك ملخص ما قال: «قد حان لنا أن نتكلم في ذلك المشهد المفجع المشهور الذي نال فيه إكليل الشهادة بمفيل الذي يعز عليّ ذكره مع رفقاءه الإثني عشر الذين كان هو أمامهم. وكان وحده كاهناً بينهم، وكان قد صرف حياته كلها مثابراً على ممارسة كل نوع من الفضائل، كهربه من مجد العالم واحتقاره له وجوده على الفقراء، واستخفافه بالكرامات الدنيوية التي كان على غاية الأهلية لها، وعيشته الفلسفية المنزهة عن كل سمعة ولوعه في مطالعة الاسفار المقدسة أكثر من أهل عصرنا طراً. وعزيمته الشديدة، وجدّه الذي لا يكلف في كل ما ينوي أن يديه من الأعمال الصالحة، وغوثه كل من لجأ إليه في أي الأمور كان».

وقد كتبنا ترجمته في ثلاثة كتب أبناً فيها فضائله وأعماله الخطيرة التي تقتصر عنها خطبة ولو مسهبة. فمن أحب زيادة إسهاب فليطالع كتبنا المذكورة (لم نظفر

بمطالعتهم) ثم وصف كلاً من رفقاءه على حدة إلى أن قال إلى الوالي المسمى فيرميليانوس بعد سجنهم مدة طويلة، وأجرى عليهم أعذبة متنوعة ورأهم مبهيجين بما قاسوه من أجل أن إيمانهم استحضرهم إليه، وسألهم قائلاً أما تطيعون بعد كل هذا العقاب أمر الملك؟ فلم يسمع منهم إلا كلمة ايثارهم الموت على مخالفة إيمانهم. فأمر بقتلهم ، وقد علّقوا بمفيل على خشبة وأضرموا النار عليه فبشّ وهشّ وكل ما سُمع من كلامه «يا يسوع ابن الله كن معيني واسلم روحه القدوسة» وكان ذلك في أيام الملك مكسيمينس بعد أن أقام في السجن سنتين أي من سنة ٣٠٧ إلى سنة ٣٠٩م والكنيسة الرومانية تعيد لذكره في اليوم الأول من حزيران. وقد خلف من التأليف نسخة في الكتاب المقدّس وكتاباً في تفسير كتاب أعمال الرسل. وكتاباً في المدافعة عن اوريجانوس ألفه بالإشتراك مع اوسابيوس كما ذكر هذا في الكتاب السادس من تاريخه (فصل ٣٣) حيث قال في اوريجانوس أنّ من يرغبون في الوقوف على حقيقة حاله «عليهم أن يطالعوا كتاب المدافعة الذي وضعته مع شهيد عصرنا بمفيل القديس محاماة عنه مما يغتابه به بعض الشّاكين الأردباء».

أما دوروتاوس فقال فيه اوسابيوس (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٢) وخلف في كرسي انطاكية كيرلس تيماس، وقد عرفنا في أيامه دوروتاوس كاهن كنيسة انطاكية العلامة وكان ضليعاً جداً في الاسفار المقدّسة وتعلّم اللغة العبرانية ومهر فيها. وقد جتله الله بعقل ثاقب وكان فقيهاً في العلوم الدنيوية بارعاً فيها. ووُلد خصياً، وتعرّف الملك به واستغرب خصائه من حشا أمه كأعجوبة. وقَرّبه إليه وأقامه قهرماناً على أملاك له في جهة صور، وقد سمعناه يفسّر الاسفار المقدّسة في الكنيسة تفسيراً فصيحاً بليغاً.

وكان في صور كاهن اسمه دوروتاوس أيضاً قضى شهيداً. وتعيد له الكنيسة الرومانية في الخامس من حزيران، وقد حسب بارونيوس (في حواشيه المعلقة على السنكسار الروماني) دوروتاوس الإنطاكي، ودوروتاوس الصوري واحداً. وتعقبه بلوندلس في مدافعتة عن رأي ايرونيوموس. وقال محشّي تاريخ اوسابيوس (في المحل المذكور) خطأ بلوندلس بارونيوس فوقع في خطأ أكبر إذ حسب دوروتاوس الكاهن الأنطاكي الذي تكلم اوسابيوس فيه هنا دوروتاوس خصي الملك ديوكلتيان الذي ذكر اوسابيوس استشهاداه في الكتاب الثامن واحداً. ولا امتري في أنهما إثنان لا

دالة واضحة منها أنّ دوروتاوس الكاهن الأنطاكي لم ينل إكليل الشهادة إذ لم يذكر ذلك اوساييوس هنا ولا في كتابه الثامن حيث عدد الشهداء. وأتى بذكر لوشيانس الكاهن الإنطاكي لا دوروتاوس ولا محل ليغفل عنه وكان استاذاً للوشيانس ومنها أنّ دوروتاوس الكاهن كان من أشرف القوم وتقلّب في مناصب الحكومة قبل أن يكون كاهناً. ودوروتاوس خصي الملك كان من سفلة القوم كعادة الخصيان ومنها أنّ دوروتاوس الكاهن كان في أيام كيرلس البطريك الأنطاكي الذي استوى على هذا الكرسي في السنة الرابعة للملك بروبوس واستمرّ عليه إلى السنة السابعة عشرة لديوكليان.

فإذا كان دوروتاوس كاهناً في أيام ديوكليان، فلا يمكن أن يكون خصياً له أو خادماً في مخدعه وهو كاهن. والمتحصل مما مرّ، أنّ دوروتاوس الكاهن غير دوروتاوس الخصي الشهيد. وهذا مما لا أرى وجهاً للريبة فيه. وأما هل دوروتاوس الكاهن الصوري الشهيد غير دوروتاوس الكاهن الإنطاكي خلافاً لما رواه بارونيوس أمام المؤرخين، فهذا عندي فيه نظر ولا سيما لأنّ اوساييوس ذكر أنّ دوروتاوس الإنطاكي جعله الملك قيماً على ملكه في ناحية صور. فقد يمكن أن يكون قضى هناك شهيداً. وسماه بعضهم صورياً فتلقى بارونيوس هذه التسمية عنهم.

وأما ملكيون فكان عالماً بارعاً وخطيباً مصقفاً في انطاكية، وكان رئيساً لمدرسة الجدليين فيها، ولاستمسাকে الشديد بعروة الإيمان الوثقي، رُقي إلى المقام الكهنوتي في انطاكية. وأعظم ما اشتهر فيه جداله بولس السميساطي بحضرة الاساقفة المجتمعين في المجمع الإنطاكي، حيث أفحم هذا المبتدع وأبكمه، وفاق الجميع بالكشف عن أفكاره ومخادعته وموارباته وتزييف أقواله. ذكره اوساييوس (ك ٧ من تاريخه فصل ٢٩). وقال إنّ نصّ هذا الجدل الذي دوّنه كتبة المجمع باقٍ إلى الآن. واستشهد لاونتيوس (في ك ١ من رد مزاعم نسطور) بفقرة منه، وقال توادوريطس (ك ٢ في حكايات الهرطقة) إنّ ملكيون فاز بفخر ومجد عظيمين من تفنيده ضلال بولس السميساطي حتى استحق أن يعيّد له في ميناوون الروم في اليوم الثامن والعشرين من تشرين الأول.

من عاصر هؤلاء المشاهير في سورية من الآباء والعلماء في غيرها

إننا رغبة في توفير الفوائد نذكر من كان في هذا القرن من مشاهير الآباء والعلماء في غير سورية أيضاً، على أننا نؤثر الإيجاز في كلامنا على هؤلاء لخروجهم عن دائرة غرضنا. وأولهم القديس كبريانوس وُلد في قرطاجنة في مبادئ القرن الثالث من والدين حسييين غنيين. وكان فصيحاً علّم الفصاحة مدة متطاولة وكان أولاً وثنيّاً فردّه إلى الإيمان المسيحي كاهن من مواطنيه اسمه شيتيليوس. ثم انتُدب أسقفاً على قرطاجنة سنة ٢٤٨، وقد لقي مَرَّ الاضطهاد في أيام الملك داكْيوس، حتى أرغم أن يزاول قرطاجنة إلّا أنه عاد إليها بعد أمدٍ وجيز ليخدم جذوة شقاق ثار فيها في إبان غيبته، وكان بينه وبين البابا اسطفانوس الحبر الروماني جدال عنيف في صحة تعميد المبتدعين والمشايق. وكان كبريانوس يرى أنّ تعميدهم باطل وأنهم إذا عادوا إلى الكنيسة لزم تعميدهم ثانية. ويخالفه الحبر الروماني مشبّطاً أنّ تعميدهم صحيح ثابت. واتسع نطاق هذا المبحث إلى كثير من أساقفة المشرق والمغرب إلى أن أذعن كبريانوس ومحازبوه من الشرقيين لرأي الحبر الروماني. ثم نُفي كبريانوس من كرسيه سنة ٢٥٨ وبعد أمدٍ قليل نال لإكليل الشهادة وكتب لانتْيوس شماسه ورفيقه في منفاه إلى يوم استشهاده ترجمته وخبر موته. وتعيّد لذكره الكنيسة الرومانية في ١٦ ايلول. وأخصّ مؤلفاته كتابه في من جحدوا الإيمان في اضطهاد داكْيوس، وكتابه في وحدة الكنيسة، وكتابه في الصلوة الربية واحدى عشرة خطبة، واحدى وثمانون رسالة، وكتابه في اليهود الذين صلبوا المسيح. وقد عزا إليه بعضهم كتباً أخرى عديدة ولم يتحقق أنها له، وقد طُبعت مؤلفاته مرات وآخرها طبعة مین في مكتبة الآباء اللاتينيين، وقد تُرجم بعض كتبه إلى الإفرنسية.

ومن هؤلاء أيضاً مونيوس الفيلسوف المسيحي الإسكندري استاذ بلوتين واوريغانس ولنجين وغيرهم في مدرسة الإسكندرية، وقد تشبث بعرى الدين المسيحي خلافاً لما زعمه برفير من أنه جحد لإيمانه. وقد برأ ساحته من هذه التهمة اوسايوس في الكتاب السادس من تاريخه (فصل ١٣) والقديس ايرونيموس في كتابه في المشاهير (فصل ٥٥) قائلاً فيه: «إنّ من الآثار العديدة التي خلفها دالة

على حذقه وطول باعه كتاباً ألفه في التوفيق بين موسى والمسيح، وكتاباً في القوانين الإنجيلية اتبعه فيه بعد ذلك اوسايوس القيصري وقد اتهمه برفير أنه حجد المسيح وصار وثنياً ولا مراة في أنه ظلّ متشبهاً بعري الدين المسيحي إلى وفاته». وله أيضاً في توفيق الأناجيل كتاب ولتاسيان السرياني كتاب بهذا العنوان فلم يميّز بعضهم بين الكتّائين والمؤلفين، فعزوا كتاب تاسيان إلى امونيوس وكتاب امونيوس إلى تاسيان وأدركت الوفاة امونيوس سنة ٢٤١م.

ومنهم أيضاً القديس غريغوريوس الملقب بصانع العجائب لكثرة ما صنع الله على يده من المعجزات. وقال فيه القديس ايرونيμος في كتابه في المشاهير (فصل ٦٥) إنه إذ كان شاباً شخص من الكبادوك إلى بيروت طالباً العلوم اليونانية واللاتينية، ثم مضى إلى قيصرية فلسطين مع أخ له يسمى اتنادوروس. وكان اوريجانس فيها فرأى فيهما ملامح الذكاء والحدة وأغراهما بدرس الفلسفة فلزاماه خمس عشرة سنة، وأكسبهما العلم واعتناق الدين المسيحي وعادا إلى وطنهما. وانتدب غريغوريوس إلى أسقفية قيصرية الحديثة في بنطوس سنة ٢٤٠. ويُروى أنه لم يكن في قيصرية حين ارتقائه إلى الاسقفية إلا سبعة عشر مسيحياً، ولم يبق فيها عند موته إلا سبعة عشر وثنياً. وقد شهد المجمع الإنطاكي الذي نبذ تعليم بولس السميساطي، وقد عانى عذاباً أليماً في اضطهاد داكبوس لكن الله نجّاه من الموت بأعجوبة وقد لقي ربه في ١٧ ت ٢ سنة ٢٦٥م. وفي رواية أخرى سنة ٢٧٠م. وكتب ترجمته القديس غريغوريوس النيصصي، وذكره اوسايوس في تاريخه (ك ٦ فصل ٣٠) والقديس باسيليوس في كتابه الروح القدس (فصل ٢٩) وقد ألف كتاباً في شرح عقائد الايمان. روى النيصصي في ترجمته أنه كتبه بوحي العذراء مريم ويوحنا الإنجيلي. وقد وصف القديس ايرونيμος (في كتابه المشاهير فصل ٦٥) هذا الكتاب بأنه موجز لكنه كثير الفائدة، وقال إنّ له عدة رسائل أخرى يعرفها الجمهور ومقالة في المدافعة عن اوريجانس تلاها على حشد من الناس بحضرته. وذكر له القديس باسيليوس (في رسالة ٦٤ إلى أهل قيصرية المذكورة) مقالة أخرى في شرح الايمان تدرّج السايليون بفقرة منها ليزعموا أنه كان يرى رأيهم. فأثبت القديس باسيليوس أنّ لكلام غريغوريوس معنى غير ما تحلوه له. وقال آخرون إنّ هذه المقالة ليست له بل عزاها السايليون إليه أو حرّفوها، وأثبت نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث) إنّ له رسالة مشتملة على قوانين في نوع التصرف مع من

يأكلون من الذبائح المقدّمة للأوثان أو يقتربون إثمًا آخر بإغراء الوثنيين. وقال أجمع الشرقيون والغريون على صحة نسبة هذه الرسالة إلى غريغوريوس.

ومن هؤلاء أيضاً القديس ديونيسيوس الإسكندري ذكره القديس إيرونيموس بين المشاهير (فصل ٦٩)، وقال إنه أشهر تلاميذ أوريجانس، وإنه دبر مدرسة التعليم المسيحي في الإسكندرية في أيام هرقل سالفه في الاسقفية، ثم ارتقى المقام الاسقفي في الكنيسة الإسكندرية، واستمر في من سنة ٢٤٨ إلى سنة ٢٦٥ م. وقد ذكره اوسابيوس في فصول عديدة من الكتاب السادس من تاريخه. وكان ممثلاً القديس كبريانوس ومجمعه الإفريقي في لزوم إعادة تعميد الهراطقة رواه القديس ايرونيموس في الفصل المذكور. وقال إنه أنفذ رسائل عديدة إلى كثيرين في هذه المسألة وغيرها وإنّ هذه الرسائل كانت باقية في أيامه منها رسالة إلى فاييوس أسقف انطاكية في التوبة، ورسالة إلى الرومانيين انقذها بيد ايوليپس كاهنه، ورسالتين إلى فوستوس الذي خلف البابا اسطفانوس، ورسالتين إلى فيلومان وديونيسيوس كاهني الكنيسة الرومانية، ورسالة إلى ديونيسيوس هذا بعد أن رقي إلى عرش الحبرية. وكتب رسالة إلى نوفاسيانوس (في تاريخ اوسابيوس إلى نوفاتوس وصحح بعضهم رواية ايرونيمس) الذي كان أحدث شقاقاً في روما يؤنبه فيها ويبيّن له بطلان اعتذاره بأن يفعل ما يفعل مجبراً من محازبيه. وله عدا هذه الرسائل وغيرها مقالة في الفصح وأخرى في السبت. وكتابان في رد مزاعم نيبوتي الاسقف الذي زعم أنّ المسيح سيملك ملكاً جسدياً ألف سنة بعد القيامة. وأربعة كتب رفعها إلى ديونيسيوس الحبر الروماني إلى غير ذلك من الكتب والمقالات والرسائل التي ذكرها القديس ايرونيموس في المحل المذكور وقد قبّض عليه في الاضطهاد الذي أثاره داكبوس وقصّ ما عرض له حينئذٍ من الضنك في رسالته رداً على جرمانوس. وروى كلامه فيها اوسابيوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ١١). وتوفي ديونيسيوس سنة ٢٦٥ م. وفي رواية أخرى سنة ٢٦٤ م. وكان في هذا القرن أيضاً القديس ديونيسيوس الحبر الروماني وله رسالة في تنفيذ ضلال الساييليين لم يبقَ منها إلاّ فقرة ذكرها القديس اتناسيوس في كتابه في رسوم المجمع النيقوي. وتعزى إليه رسالتان أخريان الأولى إلى اوربانس الوالي والثانية إلى ساويروس الاسقف، وليستا له حقيقة (عن نطاليس اسكندر في تاريخ القرن الثالث).

وكان أيضاً في هذا القرن القديس كرنيليوس الحبر الروماني قال فيه القديس

ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٦٦) إنّ القديس كبريانوس كتب، إليه ثمانى رسائل، وكتب هو رسالة إلى فاييوس (وفي رواية أخرى فاييانوس) أسقف انطاكية في ما كان في المجامع الروماني والإيطالي والإفريقي (في شأن إعادة عماد المبتدعين). وأنفذ إليه رسالة ثانية في شأن نوفسيانوس ومن جحدوا في زمان الاضطهاد. ووجه إليه رسالة ثالثة في ما كان في المجمع الروماني (سنة ٢٥١م)، ورسالة رابعة مسهبة تشتمل على ما حمل نوفاسيانوس على إبداع بدعة وعلى طعنه بالحرم. وقد دبر الكنيسة سنتين وقضى شهيداً (سنة ٢٥٢ أو سنة ٢٥٣م) في عهد الملكين غلوس وفولوسيان. انتهى كلام ايرونيموس وقد روى اوسابيوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٤٣) قسماً كبيراً من رسالة كرنيليوس الرابعة إلى فاييوس الإنطاكي. وكان أيضاً حينئذٍ مينوشتيوس فيلكس وكان من مشاهير محامي الدعاوى في روما، وله محاماة عن إيمان المسيح على طريقة جدلية بين مسيحي ووثني ذكره القديس ايرونيموس (في فصل ٥٨ من كتابه في المشاهير) وكان أيضاً غايوس كاهن الكنيسة الرومانية في عهد البابا زافيرينوس ثم أُقيم أسقفاً على الأمم ولم تعين له أبرشية خاصة. وله محاوراة مشبعة في تنفيذ مزاعم بركلس أحد أتباع منتانس ذكره اوسابيوس (في ك ٢ من تاريخه فصل ٢٤ وفي محال أخرى) والقديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٥٥).

عد ٥٥٥

الشهداء في سورية في القرن الثالث وأوائل الرابع

لا جرم أنّ الشهداء من أفضل المشاهير. فإن اشتهر العلماء بأتباعهم في تأليفهم، فقد اشتهر الشهداء بسفك دمهم حباً بدينهم. على أنّ توفر عدد الشهداء في سورية في هذا القرن يقضي علينا بأن نوجز الكلام في أخبارهم. قد ذكرنا في عد ٥٣٨ من الاضطهادات التي أثارها الملوك الرومانيون على المؤمنين إلى الاضطهاد السادس. والآن نقول إنّ الاضطهاد السابع أثاره الملك سبتيمس ساويروس في أواخر ملكه سنة ٢٠٤م. وفي جملة الشهداء في هذا الاضطهاد لاؤنيدي ابو اوريجانس. والاضطهاد الثامن أثاره الملك مكسيمينس سنة ٢٣٧م بغضاً لآل الملك اسكندر ساويروس الذين كان من رجال دولتهم كثيرون من المسيحيين. والتاسع أثاره الملك

داكيوس نحو سنة ٢٥٠م. ومن نالوا إكليل الشهادة فيه القديس فايانوس الحبر الروماني، واستمر هذا الاضطهاد في أيام الملك غلّوس وفولوسيان. ومن استشهدوا فيه القديس كرنيليوس الحبر الروماني والعاشر أثاره الملكان فالريان وكليان سنة ٢٥٩م. ومن نالوا إكليل الشهادة فيه القديسان اسطفانوس وسيستوس الحبران الرومانيان. والحادي عشر أثاره الملك اورليان سنة ٢٧٢م (على رواية بارونيوس) وقد استشهد فيه كثيرون. وإن قال اوسابيوس (ك ٧ فصل ٢٤) أنه كفّ عن هذا الاضطهاد إذ أيسس الله يد كاتبه حين كان يدوّن أمره باضطهاد المسيحيين. والثاني عشر هم اقساها وأطولها زماناً وقد أجراه الملكان ديوكليان ومكسيميان سنة ٣٠٢ أو سنة ٣٠٣م، وفيه هُدمت الكنائس وأُحرقت الاسفار المقدّسة، وتوقّف عِداد الشهداء على أنّ اوسابيوس في الكرونيكون وغيره لا يعدون من هذه الاضطهادات إلّا عشرة لإسقاطهم الاضطهادين الأولين اللذين كانا في أيام الرسل.

إنّ الشهداء والشهيدات في سورية في هذه الاضطهادات أكثر من أن يحصوا فنجتزئ بذكر بعضهم، ذكر منهم مؤلف الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة في صيدا زنبويوس الكاهن في أيام الملك مكسيميان. وفي بانياس نيكوستراتس وانطيوخس ورفقاؤهما وتوادوسيا أو بروكويوس الشهيد مع إثنتي عشرة امرأة من أعيان هذه المدينة في عهد ديوكليان. وفي اطرابلس نال إكليل الشهادة أولاً لاونيوس في أيام أدريان. وروى بروكوب أنّ الملك يوستينان أنشأ فيها على اسمه كنيسة بديعة. وصحبه في استشهاده ايباتوس وتريونوس وتوادولس. واستشهد فيها في أيام ديوكليان لوشيان ومتروبيوس وبولس وزينوبيوس وتباتينس ودورسس وفي اباميا على العاصي استشهد في أيام انطونينوس القديسان اسكندر وغايوس وفي اضطهاد ديوكليان القديس مكسيمس من أعيان هذه المدينة.

وفي دمشق فاز بإكليل الشهادة في أيام داكيوس القديسون ساينس ويوليانس ومكسيمس ومكريوس وكاسيوس وبولس مع عشرة آخرين من أبطال الدين المسيحي. وفي حمص استشهد القديس سلوانس أسقفها كما مرّ في الكلام عليه ونال الإكليل معه صنديدان من أبطال الإيمان في مدينته. ومن بيروت القديسة مرشيانا فازت بإكليل الشهادة في قيصرية في اضطهاد ديوكليان. وكان في أيام الملك يوستينان كنيسة بديعة في بيروت تكرم فيها عظام القديس كوارنس أسقفها الأول وأخرى من عظام القديسة مرشيانا هذه.

وفي انطاكية نال إكليل الشهادة في هذا القرن القديس ايوليپس كاهن هذه المدينة الذي كان يدافع عن الإيمان مخالفاً النوفاسيانيين. وكان استشهاده في اضطهاد داكوس سنة ٢٥٠م. وتبعه القديس نيكوفورنس بموته حباً بالإيمان في اضطهاد فالريان سنة ٢٦٠م والقديسان نيقيا وبولس وبخا والي انطاكية على قسوته فرفعهما ضحية لله سنة ٢٨٥م. والقديس بارولا سأله الوالي وهو حدث عن معتقده فأجابه أنه لا يعبد إلا إله المسيحيين فقطع رأسه غير مراعاة حداته سنه والقديسون انطونيوس الكاهن ويوليانس وانسطاس وشلسس ومرشوتيلاً وإخوتها السبعة وباسيليا العذراء أريق دمهم حباً بالله في اضطهاد ديوكليان سنة ٣٠٢م إلى غير هؤلاء في انطاكية.

وقد خلف لنا اوسايبوس القيصري كتاباً برمته في شهداء فلسطين ينطوي على ثلاثة عشر فصلاً. قال في فاتحته في السنة التاسعة عشرة للملك ديوكليان في شهر نيسان أذاع افلايانس والي فلسطين أمراً من الملك فحواه أن تُنقض الكنائس وتُحرق الاسفار المقدسة، ويُنزع أصحاب الرتب من رتبهم ويُخلع من كان في منصب عن منصبه إذا تشبثوا بالدين المسيحي وبعد إذاعة هذا الأمر نشروا أمراً آخر مؤداه أن يُطرح جميع رؤساء الكنائس في الجن ويُرغمهم بكل نوع من التنكيل على تقديم الذبائح للآلهة» ثم ذكر في الفصل الأول استشهاد لأكويوس وكان من أورشليم ومتوطناً باسان وقارئاً في كنيسة يترجم إلى الشعب ما يتلى في الكنيسة من الاسفار المقدسة باليونانية إلى لغتهم السريانية. ثم رفيقه في استشهاده وهما حلفى وزكى من مدينة كادارا (المسماة الآن أم قيس في عبر الأردن) فهؤلاء بعد أن عذبهم عذاباً مبرحاً أمر بقطع رؤوسهم في قيصرية فلسطين. وذكر في الفصل الثاني القديس رومانس الشهيد وكان شماساً في كنيسة قيصرية فلسطين. ومضى إلى انطاكية وذهب يوماً ومعه كثير من النساء والأطفال إلى هيكل الوثنيين وهم مجتمعون فيه للذبيحة، فلم يطق أن يرى هذا المشهد صامتاً بل بعثته غيرته على توبييهم والسخرية منهم فقبضوا عليه وأشخصوه أمام الوالي فحكم عليه أولاً أن يُحرق فأذعن للحكم باشاً وأراد الوالي أن يقطع لسانه فلبى تنفيذ الحكم عليه ودلعه طائعاً. وروى فم الذهب في خطبتين له في هذا الشهيد واوسايبوس في محل آخر أنه بقي يتكلم بعد أن قُطع لسانه بقوة الله كما كان يتكلم قبله، وبعد أن ساموه صنوفاً من العذاب أماتوه مشقوقاً إلى نصفين. وذكر في الفصل الثالث تيموتاوس

من غزة أماتوه محروقاً بالنار، واغاييوس وتقلا امرأته طرحوهما في غزة للوحوش الضارية، وثمانية شهداء آخرين منهم ديونيسيوس من اطرابلس واسكندر من غزة أماتوهم بقطع رؤوسهم في قيصرية.

وذكر في الفصل الرابع استشهاد القديس ايفانيوس ويسمى امفانيس أيضاً قائلاً ما ملخصه إنه كان في مدينة باكاس في ليشيا (بآسيا الصغرى) ابن والدين حسيين طلب علم الفقه وتعلّم اللغة اللاتينية في بيروت، وأقام فيها سنين مثابراً على إتمام فروض ديانته، حريصاً على عقّته لا تستغويه ملاذ الشيبية ولا عشرة الأرياء الكثيرين في هذه المدينة. وبعد أن أكمل دروسه عاد إلى وطنه فلم يُطلق الإقامة مع والديه وأنسابه لتقاعدهم عمّا تقتضيه العيشة المسيحية فغادرهم غير مبالٍ بفروغ يده من النفقة اللازمة في سفره، وقادته العناية الربانية إلى قيصرية حيث كانت قد أعدت له الإكليل، وأصدر حينئذٍ مكسيمينس أمره بجمع الأهلين في كل مدينة ليضحوا للآلهة الوثنيين. وكان الجنود يستاقون الناس لذلك فمضى ايفانيوس من تلقاء نفسه وخفية عنا إذ كنا في بيت واحد وشخص أمام الوالي يحضّبه أن يرعوي عن ضلاله ويكفّ عن اضطهاد المسيحيين، فوثب عليه أعوان الوالي كالوحوش الضارية وأثخنوه جراحاً وألقوه في السجن مغللاً. ثم استاقوه في اليوم التالي إلى القاضي وحاول إكراهه على التضحية للأوثان فتحملّ تباريح أليمة وانثر لحمه حتى ظهرت عظامه، وهو لا ينثني عن ثباته، فأمر الوالي المعذّبين أن يصبّوا زيتاً على رجليه وأطراف ثيابه ويلقوا النار عليه فأحرقت النار ثيابه ولحماته وبقي فيه رمق، فكلفه الوالي أن يذعن لأمره فأبى، فأمر أن يُغرقه في البحر بعيداً عن الشاطئ فاضطرب البحر وعصفت أرياح زعازع وتزلزلت قيصرية ومادت وقذفت الأمواج جثة الشهيد إلى باب المدينة. قال اوسايوس كاتب هذه الترجمة لو لم أر بعيني هذه الآية وأتذكرها حق التذكر، ولو لم يكن شهود عيان كثيرون لما دوّنتها تذكرة للخلف. وذكر في الفصل الخامس اوليانوس واوسيوس قائلاً إنهما كانا أخوين من صور وأشخصا أمام الحاكم أحدهما بعد الآخر، ولما أنكرا عليه التضحية للأصنام عذبهما شديداً فلم ينفكا عن ثباتهما فغرقهما في البحر.

وذكر في الفصل السادس اغاييوس الشهيد (غير اغاييوس المار ذكره) وقال إنه كان في السجن من أجل إيمانه وأتى مكسيمينس الملك إلى قيصرية يحتفل بعيد مولده بعظيم الاحتفاء على عادتهم. وأراد أن يرى الحشد مشهداً غريباً فأشخصوا

اغاييوس أمام الملك وتملقه وتهذده ليجحد إيمانه فصرّح بعزمه أن يتحمّل كل عذاب مسروراً ولا يكفر بربه. وكان حيثُذ في هذا المشهد رجلٌ قتل مولاه فعفا الملك عنه وأمر أن يُطرح بطل الدين للوحوش الضارية، فتسارع الشهيد إلى لقاء الدب الذي أطلقوه عليه فمزّق لحمانه، وبقي فيه رمق فأعادته إلى السجن. ولما استمر إلى الغد حياً علّقوا برجله حجراً وطرحوه في البحر فقضى نحبّه.

وذكر في الفصل السابع توادوسيا العذراء ودومنينوس واوكسانيوس الشهداء. أما توادوسيا فكانت من صور وكانت في الثامنة عشرة من سنّها فأُتت قيصرية ومضت يوم أحد القيامة تزور المسجونين من أجل الإيمان وتشجعهم وتسلّمهم أن يذكروها إذا لقوا ربهم. فشكاها السجّان إلى الوالي فاحتضرها وأمر بجلدها حتى انتثر لحمها وظهرت عظامها، ورآها مسرورة يتحملها العذاب من أجل إيمانها فأمر أن تُغرق في البحر فطارت نفسها من اللجة إلى لقاء ربها في السماء. وعاد الوالي إلى التنكيل بغيرها من السجناء. وكان بينهم رجل حسيب اسمه دومنينوس يعرفه كل أهل فلسطين بشدّة عزمه وصدق مقاله (ولم يذكر من أين هو) ولما لم يثن عن إيمانه بوعد أو وعيد أمر أن يحرقه حياً فكانت النار لإكليل نور لنفسه. وكان من السجناء اوكسانيوس وكان شيخاً فأمر أن يطرحوه إلى الوحوش فافترت جثته ونجت نفسه إلى المجد الخالد. وقد ذكر اوساييوس في هذا الفصل أيضاً سلوانس الاسقف وبمفيل اللذين مرّ معنا ذكرهما.

وذكر في الفصل الثامن والتينيا وامرأة أخرى وبولس، أما والتينيا فقال إنها كانت من غزة فقبض عليها مع غيرها من الكنيسة، ولما أشخصوها أمام الوالي وبخّته على قسوته معترفة بإيمانها. فأمر بجلدها جلدًا قاسياً وبين كان الجنود يعذبونها إذ صاحت امرأة من بين الحشد (ذكر اوساييوس أنها من قيصرية ولم يذكر اسمها ويؤخذ عن ميناوون الروم في ١٥ تموز انه كان اسمها ثيا) قائلة: «والآم تعذبون أختي هذه؟» فأمر الوالي بالقبض عليها. ولما يمّس من استمالتها بوعد أو وعيد لتضحى للآلهة أمر بأن يعذبوها بأمشاط من حديد حتى تنائر لحمها، ثم أمر بربط المرائين معاً وإضرام النار عليهما حتى أبادتهما. وعلى أثر استشهادهما أتوا برجل يسمى بولس (لم يذكر اوساييوس من أين هو) وحكموا عليه بقطع الرأس. فسأل سيّاف الوالي أن يمهلّه قليلاً ريثما يصلّي وأخذ يتضرّع إلى الله أولاً من أجل كنيسته، ثم من أجل اليهود والسامريين ليقبلوا في الإيمان، ثم من أجل الملك

والوالي والقاضي والسيّاف. فاغرورقت عيون الحاضرين بالدموع ولم يلب قلب الوالي فضرب السيّاف عنقه.

وذكر في الفصل التاسع انطونينوس وزاينا وجرمانس وايناتا العذراء. أما انطونينوس فكان كاهناً وزاينا كان من بيت جبرين، وجرمانس لم يذكر محله. فهؤلاء الثلاثة اشخصوا أمام الوالي في حين شدّة الاضطهاد إذ كان يضحي للآلهة وإذا سُئلوا أجابوا أنهم مسيحيون وأنّبوا الوالي على تكريمه لغير الإله الحق، فأمر بقطع رؤوسهم. وفي ذلك اليوم أحضر الشرط امرأة عذراء اسمها ايناتا من باسان، وإذا لم تدعن للوالي جلدوها أولاً ثم طوفوها في قيصرية عريانة ثم أمر الوالي بحرقها.

وفي الفصل العاشر ذكر خبر احراق الظالمين رجلاً اسمه اريس وقطعهم رأساً ببروبوس وايليا واحرقهم بطرس الراهب من بيت جبرين، واسكلايوس الذي يقال إنه كان أسقف المرقيونيين. وروى في الفصل الحادي عشر خبر استشهاد القديس بمفيل ورفاقه. وقد مرّ معنا ذكره. وفي الفصل الثاني عشر ذكر خبر بعض الرؤساء الذين لم يكونوا أهلاً للرئاسة، فبحكم الله العادل جزاهم الظالمون بأن جعلوهم ساسة لحيل الملك أو لرعاية مواشيه، فضلاً عن أنّ الإهانات التي كان نواب الملك أو مديرو النواحي ينزلونها بهم.

وفي الفصل الأخير ذكر استشهاد سلوانس أسقف غزة بعد جهاد مديد، إذ قطع رأسه بأمر الملك مكسيمينس مع أربعين شهيداً. منهم رجل اسمه يوحنا كان الظالمون قد فقأوا عينيه ثم كروه في محلهم، وكان يتلو في الاجتماعات فصولاً برمتها من التوراة أو نبوّات الأنبياء أو الأناجيل، إذ كان يحفظ الاسفار المقدّسة عن ظهر قلب حتى قال اوسابيوس إنه هُش به لأول مرة سمعه يتلو فصولاً من الكتاب، وتُحِيل له أن يقرأ في كتابه، ودنا منه فقضى العجب العجائب من قوة ذاكرته وجودة بصيرته مع فقدان باصرته. وقد كشف العالم كوراتون الإنكليزي عن كتاب عنوانه اوسابيوس القيصري في شهداء فلسطين. وتُثر عليه بين الكتب المخطوطة في المتحف البريطاني عدد ١٢١٥٠ منها مؤرخ في السنة ٧٢٣م للسلوقيين الموافقة للسنة ٤١١ أو للسنة ٤١٢ المسيحية. وهو مكتوب باللغة السريانية من أقدم الكتب المخطوطة فترجمه كوراتون إلى الانكليزية وأذاعه في لندرة

سنة ١٨٥١م. والمرجح عند العلماء أنّ هذا الكتاب كتبه اوساييوس مطولاً بلغة شعب فلسطين السريانية حينئذ. ثم ترجمه بإيجاز إلى اليونانية في الكتاب المثبت بين كتبه المعروفة الآن. وقد ذكر السمعاني في المكتبة الشرقية بعض فقر من ترجمة الشهداء المذكورين فيه تطابق هذه النسخة السريانية (ملخص عن مجلة التمدن الكاثوليكي في نشرتها المؤرخة في ١٦ ت ١ سنة ١٨٩٧).

الفصل الثالث

ما كان في المباحث الدينية والبدع والمجامع في سورية في القرن الثالث

عد ٥٥٦

ما كان من المباحث الدينية في سورية في هذا القرن

كان من المباحث ذات الأهمية في الكنيسة في هذا القرن، المبحث في ما إذا كان تعميم الهرطقة صحيحاً أو باطلاً. وإذا رجع احدهم إلى الكنيسة الكاثوليكية أيعاد تعميده أم يُحسب معمداً؟ ولم ينشأ هذا المبحث في سورية بل اشترك فيه كثير من أساقفتها وغيرهم من الاساقفة الشرقيين. وكان أول من قال بأنّ تعميم الهرطقة باطل وإنّ من رجع منهم لزم تعميده ثانية اغريينوس أحد أسلاف القديس كبريانوس في أسقفية قرطاجنة، وعقد لذلك مجمعاً أثبت فيه قوله نحو سنة ٢١٥م كما يظهر من رسالتي كبريانوس الحادية والسبعين والثالثة والسبعين، ومن قول القديس اغوستينوس (في ك ٢ في المعمودية). ولم ينحصر هذا الخطأ في افريقية بل امتدّ إلى أقاليم المشرق ووجد من يدافع عنه من مشاهير الشرقيين علماً وقداًسة. نخصّ بالذكر فرميليانس أسقف قيصرية في الكبادوك والقديس ديونيسيوس أسقف الإسكندرية. وتابع هؤلاء كثيرون من أساقفة سورية على هذا الخطأ، وكان القديس

كبريانوس أسقف قرطاجنة شديد المدافعة عنه. وقد عقدت مجامع عديدة لتأييد هذا القول في نوميديا سنة ٢٥٦م حكم فيها بلزوم تعميد الهراطقة، كما يظهر من رسالة ٧٠ لكبريانوس. ثم عقد القديس كبريانوس تلك السنة نفسها مجمعاً في قرطاجنة فأثبت المجتمعون فيه الحكم المذكور وحكموا أيضاً أنّ من نال الدرجات المقدسة في الكنيسة ثم اتبع بدعة ثم رجع عنها فلا يقبل إلا في مصاف العامة. وكتب القديس كبريانوس مع أساقفة هذا المجمع رسالة إلى اسطفانوس الحبر الروماني ينبئه بما كان في المجمع ويسأله بالحاج أن يثبت أعمال المجمع ويؤيده بسلطان. وأنفذ رسائل أخرى إلى أساقفة آخرين، ثم عقد تلك السنة نفسها مجمعاً آخر في قرطاجنة حضره سبعة وثمانون أسقفاً أفريقيون، وأيدوا الحكم ببطلان تعميد الهراطقة. فلم يثبت الحبر الروماني المذكور آنفاً حكمهم بل نبذه وحكم بأنّ تعميد الهراطقة صحيح إن باشرها متممين شرائطه. ولم يحسن قبول الوفود الذين انفذهم إليه فرميليانس وغيره من الاساقفة الشرقيين المستمسكين بهذا القول. والصحيح أنه أفصح لهم في بيان الحقيقة مورداً لهم الحجج القاطعة المخالفة لرأيهم. ولعله هدّد بالحرم من يبقى بعد ذلك مصرّاً على رأيه. أما القديس كبريانوس فتردّد أولاً في الإذعان لما حكم به الحبر الروماني، وكتب رسائل أخرى يحتجّ فيها لرأيه إلى أن امثل أخيراً هو وسائر الاساقفة الشرقيين ما قضت به أم الكنائس ومعلمه. وزال الخلاف وأساقفة افريقية الذين كانوا حكموا مع القديس كبريانوس بتعميد الهراطقة نقضوا حكمهم بحكم آخر كما روى مصرّحاً القديس ايرونيموس (في ليوسفور فصل ٨). والخمسون أسقفاً الشرقيون الذين كانوا أيدوا الخطأ المذكور في مجمع قونية رجعوا عنه في مجمع آخر كما صرّح بذلك القديس باسيليوس (في رسالته ٩٩ إلى امفيلكيوس). ومن المعلوم أنّ المبحث في مواد التهذيب لا في العقائد. فمكابرة بعض الاساقفة في التشبّث برأيهم أولاً لا توصم بضلال مخالف الإيمان ولا تمسّ سلطة الحبر الروماني بل كان من ذلك بيّنة على أنّ القول قوله وقد أذعن له الاساقفة طراً في المشرق والمغرب.

وقد نشأ في قرطاجنة أيضاً في منتصف القرن الثالث مبحث آخر اتصل إلى أكثر الكنائس الشرقية والغربية. وهو أيقبل في شركة المؤمنين من جحدوا الإيمان في زمان الاضطهاد دون أن يكفّروا عن زلتهم؟ فإنّ كثيرين ممن جحدوا الإيمان في اضطهاد داكوس بتقديمهم البخور للاصنام أو باشتراكهم في الضحايا المقدّمة لها أو

برشوتهم الظالمين وأخذهم شهادة منهم بأنهم فعلوا مثل ذلك كانوا يتطلبون بعد نجاتهم أن يقبلهم المؤمنون في شركتهم عفواً دون أن يعانون توبة ظاهرة. وبعضهم كانوا يتوسلون إلى الشهداء بوسائل متنوعة فينالون منهم كتاب توصية إلى الاسقف ليعفو عنهم. فكان المؤمنون يجلبون وصايا الشهداء بعد وفاتهم ويحرصون على العمل بها. وكان في جملة هؤلاء الجاحدين خمسة كهنة في قرطاجنة جعلوا أنفسهم بين هؤلاء الجاحدين، فتألب إليهم كثيرون منهم وانضم إليهم بعض أهلهم وأنسبائهم وأخذوا يتعنتون الاساقفة والكهنة ليقبلوهم في مصاف المؤمنين التائبين. فأبى القديس كبريانوس أن يقبلهم دون أن يصنعوا توبة ظاهرة عن إثمهم لئلا يسوّى بين الجاحد والثابت في الإيمان، وينهج سبيلاً إلى التراخي في المحافظة على الدين. وكان الكرسي الروماني فارغاً بعد وفاة القديس فابيان، فأنفذ رسالة إلى الإكليريوس الروماني (الذي كان يدبر الكنيسة إلى أن ينتخب خلفاً له) فصوبوا ما عمله كبريانوس، وأرجأوا الجزم في هذا المبحث إلى أن تخدم جذوة الاضطهاد ويقام رئيس للكنيسة أو يُعقد مجمع لذلك. وأمروا أن يصنع هؤلاء التوبة المعتادة في الجرائم الكبيرة، وإذا أتموها قبلوا في الكنائس بوضع يد الاساقفة والكهنة. وجرت المصالحة فأبى الجاحدون قبول هذا الشرط فأمر الإكليريوس الروماني تفادياً من الشقاق أن يحل في مرض الموت من كان من هؤلاء نال توصية من الشهداء. فأكثر الجاحدون من الهرج ومضى نوفاتوس أحد هؤلاء الجاحدين إلى روما فأثار القلق هناك منضمّاً إلى الجاحدين فيها. واتسع نطاق هذا القلق إلى أقاليم عديدة منها سورية أيضاً كما يظهر مما سيأتي. ولما قتل الملك داكوس وعاد الأمن إلى الكنيسة ورجع القديس كبريانوس إلى كرسيه الذي كان غادره، وأقيم كرنيليوس حبراً في الكرسي الروماني، عُقدت مجامع خاصة في شأن هؤلاء في محال عديدة وحُكم بالاجماع أنّ من قدموا بخوراً للأصنام لزمته أن يصنعوا توبة كاملة، وقُبِلوا بين المؤمنين بعد إتمامها. وإن طرأ عليهم خطر حلوا قبله من إثمهم. ومن كان يدهم كتاب توصية من الشهداء اقتصر لهم على ما صنعوه من التوبة من تلقاء أنفسهم في مدة ثوران الاضطهاد وصالحتهم الكنيسة.

وكان في روما حينئذ كاهن اسمه نوفاسيان هائماً بأن يكون حبراً رومانياً وكان مضطرباً بفلسفة الرواقيين وفصيحاً. ولما انتخب كورنيليوس أورد عليه مع مريديه شكاوى فحص الاساقفة عنها فألفوها كاذبة، فخدع نوفاسيان ثلاثة أساقفة

أميين فرسموه أسقفاً على روما، فكان أول حبر دخيل على الكرسي الروماني. وما علمه من الضلال أن ليس للكنيسة أن تصالح من جحدوا الإيمان لدن الاضطهاد مهما صنعوا من التوبة، ولا يحل البتة الإشتراك معهم. وأنفذ دعاة ورسائل إلى كثيرين من الاساقفة يخبرهم بارتقائه إلى أسقفية روما بحسب العادة، ويحضّهم جميعاً أن لا يقبلوا الجاحدين في شركة المؤمنين، بل يغروهم بالتوبة ويتركوا الحكم لله. فتعاطم القلق في الكنيسة وتوفرت الرسائل والمحادثات بين الاساقفة، من ذلك رسالة كتبها ديونيسيوس البطريرك الإسكندري إلى فاييوس البطريرك الأنطاكي أسهب فيها الكلام على توبة من جحدوا في زمان الاضطهاد، وبين لزوم حلّهم عند ساعة الموت، ولو لم يطلبوا الحل إلا حينئذٍ (ذكر هذه الرسالة مطوّلة اوساييوس في ك ٦ من تاريخه فصل ٤٤). وكتب البابا كرنيليوس إلى فاييوس البطريرك المذكور رسالتين في حرم نوفاسيان، ورسالة ثالثة أسهب بها في بيان جرائم هذا المبتدع ورجوع الجاحدين الذين كانوا قد أغواهم، وعدّد له الاساقفة ونوابهم الذين اجتمعوا في روما لهذا الغرض، وأعلمه أنّ الكرسي الرسولي بتّ هذا المبحث بلزوم توبة الجاحدين، وقبولهم بعدها وحلّهم عند احتضارهم دون توقف. ورذل هذا الشقاق واختلاف الآراء ونرى ديونيسيوس البطريرك الإسكندري كتب إلى البابا اسطفانوس سنة ٢٥٢ أو سنة ٢٥٣م رسالة يشرّه بها باستتباب الراحة والوفاق في الكنيسة الشرقية ومنها قوله: «فليكن معلوماً لديك أنّ جميع الكنائس التي كانت متضاربة الآراء أصبحت الآن متّحدة. فإنّ كنائس المشرق وما وراءه أيضاً وجميع الاساقفة على وفاق تام، وهم على غاية السرور بهذا السلام العام الذي لم يكونوا يأملونه. أخصّ بالذكر منهم ديمتريوس أسقف انطاكية، وتيوكيستوس القيصري، ومزابان الأورشليمي، ومارينوس الصوري، واليودر اللاذقي، والانوس الطرطوسي، وجميع كنائس كيليكية، وفرميليان القيصري، وكل كنائس الكبادوك اقتصرت على ذكر مشاهير الاساقفة لثلاث تملّ بمطالعة رسالتي». روى هذه الرسالة اوساييوس (في تاريخه ك ٧ فصل ٢ و ٥) وذكر بعضهم أنّ ديمتريوس البطريرك الإنطاكي عقد مجعماً سنة ٢٥٣م في مدينته نبذ فيه تعليم نوفاسيان. ويظهر من كل ما مرّ أنّ بحث الجاحدين وانشقاق نوفاسيان اتصل بسورية أيضاً.

المبتدعون والبدع في سورية في القرن الثالث

كان من المبتدعين السوريين في هذا القرن بريل أسقف بصرى في حوران ولكن أبان له اوريجانس ضلاله وأبكمه في المدافعة عنه، فغادره عائداً إلى الايمان الصحيح سنة ٢٤٧ أو سنة ٢٤٩م، وقد ذكرنا ذلك بأكثر تفصيل في عد ٢٥١. وكان حينئذ بعض العلماء من العرب أنكروا خلود النفس وقالوا بموتها مع الجسد وقيامتها معه. فردّ اوريجانس زعمهم في مجمع عُقد في السنة المذكورة. وعن بعضهم أنه شاهده أربعة عشر أسقفاً، وأظن أنه عقد مجمع واحد في بصرى وجرى فيه البحث عن ضلال هؤلاء وغواية بريل، وإن هؤلاء العلماء الذين ستمّاهم المؤرخون عرباً لم يكونوا من اليمن والحجاز بل كانوا من ولاية بصرى التي سماها الرومانيون قصبة بلاد العرب.

كان من المبتدعين في سورية في هذا القرن أيضاً بولس السميساطي البطريرك الأنطاكي، وقد ذكرنا ضلاله ونبذه في مجمعين في انطاكية في عد ٥٤٩ وكان في هذا القرن في سورية سيماخوس، وكان سامرياً ولم يكن مبتدعاً بل منتصراً لايبون في بدعته في كتاب وضعه لهذا الغرض حتى سُمّي أتباع لايبون سيماخوسيين. وكان في كتابه هذا يجهد نفسه ليثبت أن إنجيل متى الذي تعترف به الكنيسة محرّف ولا سيما الفصل المشتعل على نسب المخلص، لأنّ الأيونيين حرّفوا إنجيل متى كما سبقت الإشارة إلى ذلك ذريعة لإثبات ضلالهم بأنّ المسيح ليس إنساناً ولده يوسف والعذراء، وإنّ حفظ سنّة التوراة ما برح لازماً، وسيماخوس هذا هو صاحب ترجمة الاسفار المقدّسة إلى اليونانية المعروفة باسمه والمثبتة في نسخة اوريجانس. وقد قال فيها أنه أخذ ترجمة سيماخوس لبشارة متى وباقي الاسفار المقدّسة من امرأة اسمها يوليانا اتصلت إليها هذه الكتب بطريقة الإرث (ملخص عن اوسابيوس في الكتاب السادس من تاريخه فصل ١٧ وعن حواشيه).

وكان في هذا القرن البدعة التي أنشأها في خارج سورية من أنكروا الثالوث الأقدس وزعموا أنّ الأقانيم الثلاثة في الله أقنوم واحد. كما هم ذات واحدة وأوّل من أنشأ هذه البدعة رجل من آسيا اسمه براكسيا، ثم تابعه على ضلاله رجل اسمه نواطوس من افسس. على ما روى القديس ايفان او من ازмир على ما روى

توادوريطوس. وأشهر من علم هذا الضلال وتُسبت هذه البدعة إليه إنما هو سايليوس من تيبايس في مصر، أخذ ينشرها في مصر سنة ٢٥٧م وقد قاومه القديس ديونيسيوس الإسكندري وكتب في شأنه رسالته الثانية إلى سيستوس الحبر الروماني في المعمودية المثبت قسم منها في تاريخ اوسايوس (ك ٧ فصل ٦٥). ومن شاء الإطلاع على تنفيذ هذا الضلال فليطالع كتاب تاريخ البدع مع دحضها للقديس الفونس ليكوري الذي ترجمته إلى العربية وطبعته.

ومن أشهر البدع في هذا القرن بدعة المانويين قال فيها اوسايوس في الكرونيكون في تاريخ سنة ٢٨١م «وظهرت بدعة المانويين المضرة بالنوع البشري في السنة الثانية لبروبس الملك، وسنة ٣٢٥م لتاريخ الإنطاكيين، وسنة ٤٠٢م لتاريخ الصوريين، وسنة ٣٢٤م لتاريخ اللاذقيين، وسنة ٦٨٧م لتاريخ الرهاويين، وسنة ٣٨٠م لتاريخ العسقلانيين. إنَّ في منشيء هذه البدعة اقوالاً نرى أظهرها مارواه نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث فصل ٣ جزء ٩) وروهربخر (ك ٢٩ من تاريخه). وهو أنَّ أول من أنشأ هذه البدعة رجل اسمه شيتيان من السراكسة (قبيلة في بلاد العرب) مارس التجارة فأيسر، ومضى إلى مصر فانكبَّ على درس علوم اليونان ولا سيما الفلسفة، وتزوج بامرأة مثرية وألف أربعة كتب بَتَّ فيها ضلاله بوجود مبدئين أي إلهين، إله الخير وإله الشر. ثم زایل مصر وأتى إلى اليهودية لا في زمان الرسل كما يستلمح من قول القديس ايفان بل بعد انقضاء القرن الثالث كما يظهر من مقاومة كهنة الكنيسة الأورشليمية له وعدم تمكنه من إغواء المؤمنين. وقد صعد إلى شرفة بيت وطرح نفسه من أعلى لينخدع الناظرون بسحره فهلك. وكان له تلميذ يسمى تريلوس ورث ماله وكتبه وبدعته. وإذ رأى افتضاح أمر معلمه في أورشليم ولم يكن في مأمن فيها فزَّ إلى بلاد فارس وسمى نفسه بودا فناصبه كهنتهم العداء. وكانت بينهم وبينه جدالات عنيفة. وأراد أن يبدي آية يفحم بها خصماءه، فصعد إلى سطح بيت عال وطرح نفسه عن جداره ففاضت نفسه التعيسة كمعلمه. وكان نزيراً عند امرأة اسمها اسوس فأخذت ماله وكتبه وشرت رقيقاً فارسياً اسمه كريك اعتقته وتبنته وعينت بتعليمه علم الفرس، وجعلته وارثاً للمال والكتب المذكورة. وسمته ماني او مانىكاوس وتأثر به معطى المن أو المانح. فاقتبس من تلك الكتب الضلال المذكور وجد بنشره مترجماً كتب معلمه. ومرض ابن الملك فوعد أبوه أن يجيز من إبراه خير جائزة. فحاول ماني أن يشفيه فمات

الولد، فطرح الملك ماني في السجن مغلولاً بالقيود، فرشا السجّان وفرّ إلى أطراف ما بين النهرين. وأرسل دعاة إلى أصقاع عديدة يندرون بتعليمه الفاسد، وسمي نفسه يسوع المسيح، ثم البارقليط أي روح القدس. وأرسل ملك الفرس في طلبه فقبض عليه بعض أعوانه وأمر بسلخه حياً. وبعد أن قضى ترك جثته للكلاب والطيور وحشا جلده تبنأ وعلّقه على أبواب المدينة، واستمر إلى أيام القديسين كيرلس الأورشليمي واييفان كما شهدا بذلك.

قد وُلد ماني سنة ٢٣٩م، وعن ايليا النصيبيني أنه وُلد سنة ٥٥١ اليونانية الموافقة سنة ٢٤٠م. وطفق يث ضلاله سنة ٥٧٩ الموافقة سنة ٢٦٨م وكانت وفاته سنة ٢٧٤م وقال ابن العبري فيه (في تاريخ بطاركة انطاكية) «إنه كان في زمان دمنوس البطريرك الأنطاكي، وإنه كان يتفاخر أولاً بأنه مسيحي وكاهن. ويفسر الاسفار المقدسة ويجادل اليهود والوثنيين، ثم دعا نفسه المسيح واختار له أثني عشر تلميذاً. وأرسلهم يعلمون بالمبدأين أي الإلهين: أحدهما صالح والآخر شرير» إلى غير ذلك من الغوايات التي ذكرها نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الثالث فصل ٣). منها عدا ما مرّ زعمه مع اتباعه أن الجسد تُخلق من المادة والمادة خلقها الإله الشرير. ولذلك زعموا أنّ المسيح لم يكن ذا جسد حقيقي بل خيالي، ولم يمت ولم يقم حقيقة. ومنها أنهم كانوا يحرمون الزواج ولا يمنعون أنفسهم من مباشرة النساء إلى غير ذلك من الغوايات التي ذكرها نطاليس اسكندر عن القديس اغوستينوس في كتابه في البدع (فصل ٤٦)، وعن القديس اييفان في بدعة ٦٦، وعن توادوريطوس في كتابه في حكايات المبدعين فصل ٢٦. وكان لماني جدال طويل مع ارشيلالوس أحد أساقفة ما بين النهرين ذكره روهريخر في المحل المذكور ملخصاً، ومنه يتبيّن أنّ ماني أفحم وأبكم واضطر إلى الفرار.

عد ٥٥٨

المجامع التي عقدت في سورية في القرن الثالث

مما نعلمه من المجامع التي عُقدت في سورية في هذا القرن المجمع الذي عُقد في بصرى من أعمال حوران بداعي الضلال الذي علمه بريل أسقف هذه المدينة. وشهد اورييجانس هذا المجمع، وأفحم بريل فأقلع عن غوايته، وكان ذلك لسنة ٢٤٧

أو سنة ٢٤٨م. وأظن أنه في هذا المجمع نفسه بحث عن بدعة بعض العرب الذين زعموا أنّ النفس تموت مع الجسد وتقوم بقيامته. ورد اوريجانس زعمهم بالحجج الساطعة والبيّنات الدامغة وقد سبقت الإشارة إلى كل ذلك.

ومنها مجمع عُقد في انطاكية سنة ٢٥٣م فإنه لما ظهر انشقاق نوفيّان باختلاسه الرئاسة على الكرسي الروماني ومناصبته البابا كرنيليوس الحبر الشرعي العداء، وابتداعه الضلال بأنه ليس للكنيسة السلطان على حلّ من جحدوا الايمان في زمان الاضطهاد، ولا على مغفرة الجرائم المقترفة بعد المعمودية. وكاتب رؤساء الكنيسة في المشرق والمغرب مبشراً بتسنمه كرسي الحبرية الرومانية وملماً إلى تعليمه. فعقد القديس كبريانوس مجمعاً في قرطاجنة نبذ فيه رئاسته وتعليمه. وكذا عقد ديمتريوس البطريرك الأنطاكي مجمعاً في مدينته أجمع فيه الاساقفة على رذل نوفيّان ونوفاتوس الذي كان تابعه على ضلاله، وعلى نبذ تعليمهما وتحريمه.

ومنها مجمعان آخران عقدا في انطاكية أيضاً لتدارك ضلال بولس السميساطي بطريرك هذه المدينة، فإنه لما ظهر ضلاله بأن المسيح لم يكن إلّا انساناً كعامة الناس، اجتمع الاساقفة في انطاكية لردعه كذّاب عن القطيع، واستدعوا ديونيسيوس البطريرك الاسكندري ليأتي إلى انطاكية، فأعاقه مرضه وشيخوخته عن المسير إليهم، وأنفذ إليهم رسالة مشبعة بيّن بها رأيه في هذا المبحث. وأشهر الاساقفة الذين شهدوا هذا المجمع فرميليانوس أسقف قيصرية في الكبادوك، وغريغوريوس واثنادورس أخوه الاسقفان في بنطس، وهيلانس الترسيبي، ونيكوما أسقف قونية، وهيمانوس أسقف أورشليم، وتيوتكنس أسقف قيصرية فلسطين، ومكسيموس أسقف بصرى وغيرهم كثيرون، عدا الكهنة والشمامسة. وأجمع هؤلاء على نبذ ضلال السميساطي فأنكر هو احداثه هذا الضلال، فأثبت عليه كهنة كرسية تجديفه على المسيح وبث غوايته، فأظهر الارعواء عن غلطه، ووعد بازالة العثار الذي تسبب به. فوثق الآباء بكلامه ولم يحطّوه عن مقامه. وكان هذا المجمع سنة ٢٦٤م، وفي روايات أخرى سنة ٢٦٥ أو سنة ٢٦٦م.

على أنّ السميساطي ما انفك يبتّ ضلاله ويزيد العثار بسيرته السيئة. فاجتمع الاساقفة مرة أخرى في انطاكية وكان عددهم يزيد كثيراً على عدد المجتمعين أولاً وزيفوا تعليمه. ومن امتازوا حينئذ ببيان الحقيقة وافحام بولس بضلاله ملكيون كاهن

كنيسة انطاكية العلامة المفضال، وأجمع الآباء الملتزمون - ولا مخالف على نبذ
ضلال بولس السميساطي - وحطّوه عن الاسقفية، ودوّنوا رسالة عامة إلى
ديونيسيوس الحبر الروماني ومكسيموس البطريرك الاسكندري (إذ كان توفي
ديونيسيوس سالفه في هذه الفترة). وجميع الاساقفة والكهنة والشمامسة في العالم
الكاثوليكي أبنوا بها ضلال السميساطي ومعائب سيرته وحرّمهم له، وحطّوه عن
مقامه الاسقفي. وذكر اوسابيوس هذه الرسالة مطوّلة في تاريخه (ك ٧ فصل ٣٠).
وعنه لخصنا ما مرّ من كلامنا هنا. وكان هذا المجمع الثاني سنة ٢٧٢م وعن
بعضهم سنة ٢٧٠م، وقد مرّ أنّ السميساطي حاول أن يبقى على كرسيه اعتماداً
على حماية زبيدة ملكة تدمر له إلى أن خُلعت هي من ملكها وأخذها اورايان
أسيرة إلى روما.

الباب الرابع

تاريخ سورية في القرن الرابع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

الفصل الأول

الملوك الرومانيون والقسطنطينيون في هذا القرن واعمال بعضهم
في سورية

عد ٥٥٩

الملوك الرومانيون في القرن الرابع وفي قسطنطين الكبير

مرّ في عد ٥٤١ أنّ ديوكليتيان اعتزل الملك سنة ٣٠٥م تاركاً فيه مكسيميان
هرقل وقسطنس كاور وكالر، وسمّى ديوكليتيان لدن اعتزاله ساويروس فلافيوس
قيصر ثم سماه كالر عاهلاً سنة ٣٠٦م. وتولّى ايطاليا وافريقية وحمل على
مكسنس بن مكسيميان هرقل الذي سمى نفسه عاهلاً في ايطاليا عند وفاة قسطنس
كاور، فانتصر مكسنس عليه في رفنا وقتله. وفي رواية أنه انتحر في السنة ٣٠٦م
المذكورة. وأما مكسنس فهزم كالر مع ابيه مكسيميان هرقل الذي كان اعتزل الملك

عند تخلي ديوكليان عنه سنة ٣٠٥م، لكن عاد إليه سنة ٣٠٦م فأرغم ابنه مكسنس أن يفرّ إلى إفرنسة، ثم عاد منها إلى روما مبدئاً شديد القسوة خاصة على المسيحيين. فحمل عليه قسطنطين واستظهر عليه عند أسوار روما وغرق مكسنس في نهر التير سنة ٣١٢م، وكان ديوكليان أيضاً سمي مكسيميان دايا أو داذا قيصر، وقسم ولاية المشرق بينه وبين كالر. ولما أدركت الوفاة كالر سنة ٣١١م استبدّ مكسيميان بولاية المشرق، لكن كان ليشينيوس بن كالر بالتبني يزاحمه في هذه الولاية إلى أن انتصر ليشينيوس على مكسيميان في وقعة في ادريانبل وفرّ من وجهه وانتحر متسماً في ترسيس سنة ٣١٣م.

عد ٥٦٠

قسطنطين الكبير وأبناؤه

إنّ قسطنس كاور خرمته المنية سنة ٣٠٦م وكان له ولد اسمه قسطنطين من امرأته هيلانة وُلد لهما سنة ٢٧٤م، وكان متزلفاً إلى ديوكليان عزيزاً لدى الجنود. وتزوَّج بابنة الملك مكسيميان هرقل فلقّب باغوسطوس عند وفاة والده. ونادى باسمه الفيلق الذي كان في بريطانيا، وبعد أن نشر بساط الأمن في إفرنسة توغّل في حروب أهلية ألجأته إلى قتل حميه الملك مكسيميان هرقل سنة ٣١٠م، وحمل على مكسنس بن مكسيميان الذي كان أقيم ملكاً في روما. وفي مدة هذه الحرب رأى في الجو علامة الصليب مكتوباً عليها «بهذه العلامة تنتصر على أعدائك». وإليك رواية اوسابيوس هذه الآية (في ك ١ في ترجمة قسطنطين فصل ٣).

«إنّ قسطنطين طفق يلتبس عون الله ويصليّ خاشعاً إليه ليعرفه بذاته المقدسة ويمده بغوثه في أعماله. فظهرت لهذا الملك وهو يصليّ ويتضرّع آية في السماء، ولو أنبأنا بها رجل أياً كان لتعسّر على السامعين تصديقه. على أنّ هذا الملك الظافر نفسه قصّ هذا الخبر على كاتب هذا التاريخ بعد زمان إذ ساعدنا الحظ على التعرف إليه ونيل الخطوة لديه، فروى ذلك لنا مشفعاً إياه باليمين على صحته، فمن يخامره بعد هذا الشك في صدق هذه الرواية لا سيما أنّ ما عقب ذلك كان مصداقاً لشهادته. ذلك أنه ظهر له عند الزوال في كبد السماء صورة صليب مؤلف

من أشعة الشمس، ورأى بعينه مكتوباً عليه بهذا تنتصر. وقد أبصر هذه الآية هو وجميع الجنود الذين كانوا يتبعونه. ودُهِشُوا كثيراً وأخذ قسطنطين يفكر في ما يكون المشهد الذي رآه. ولما كان الليل ظهر له المسيح في منامه مع العلامة التي كان قد شاهدها في الجوّ، وأمره أن يصنع أعلام جيشه على مثالها فتكون له منجدة في حروبه. ولما استيقظ صباحاً أعلم أصحابه بما كان له ليلاً وصنع أعلام جنوده على حسب المثال الذي رآه». وبعد انتصار قسطنطين على مكسنس ودخوله روما ظافراً، أقامت الندوة والشعب الرومانيون قوس انتصار ما برحت أطلالها في روما مكتوباً عليها «أقامت الندوة والشعب الرومانيون قوس الانتصار هذه للملك قيصر فلافيوس قسطنطين العظيم السعيد لأنه انتقم للحكومة ووقاها من الظالم ومحازبيه مدفوعاً إلى ذلك من قبل الإله وعزة نفسه ومصحوباً بجنوده». ونصب له سكان روما تمثالاً من ذهب كالآلهة. وقد أراد هو أن يمثل ويده صليب طويل مكان الحربة، وأن يكتب على أسفله «بهذه العلامة الخلاصية سمة الشجاعة الحقيقة عتقت مدينتكم من نير الجور والاعتساف ورددت الندوة والشعب إلى فخارهم القديم».

قد أجهد فيكتور دوري نفسه في كلامه على قسطنطين لينكر هذه الآية ويزيف قول اوسايوس بها. وقد طالعت متأنياً فصله المتطاول في هذا الشأن فلم أجد فيه حجة راهنة تؤيد زعمه وتنديده بكلام اوسايوس ابي التاريخ في العهد الجديد، إلاّ تهمة له بدون بيّنة بأنه عمد إلى كذب يخطاله نافعاً للدين. وإلاّ زعمه أنّ لا مدخل للآيات في التاريخ، وأنّ زيف قول اوسايوس فما يقول في أقوال كثيرين من الآباء القريين من ذلك العصر. وقد ذكروا هذه الآية وبشهادة الآثار التي أوردنا بعضها فهو لا يؤمن بالآيات فلا يحق له أن ينبذ أقوال من يؤمنون بها دون حجة قاطعة.

وبعد أن استظهر قسطنطين على مكسنس وأحزابه دانت له ايطاليا وافريقية وأكثر اوروبا. وبقي ليشينوس الذي سمي ملك المشرق بعد ظفره بمكسيميان دايا. فترلّف أولاً إلى قسطنطين فزوجه اخته قسطنطة. وملك لوشينوس في المشرق، ثم وقعت النفرة بينهما فانتصر قسطنطين عليه بعد وقائع سنة ٣١٤م وأرغمه على صلح مدلل له. ثم تلظّت الحرب بينهما ثانية فظهر عليه قسطنطين في ادريانبل سنة ٣٢٣م ونفاه إلى تسالونيك ثم قتله سنة ٣٢٤م واستبدّ قسطنطين في الملك وحده

واستتبت الراحة في المملكة. واذاع قسطنطين أمرين: الأول سنة ٣١٢م والثاني سنة ٣٢٤م بهما أباح الكاثوليكين مباشرة فروض دينهم واقامة كنائسهم وقبولهم لها التقادم والهبات. وفرض شرائع نافعة للمسيحيين منها أن ترد على المسيحيين الكنائس والمدافن والعقار وكل ما ضبطته الحكومة وهو لهم. ومنها أن يعود المنفيون بسبب الدين المسيحي إلى أوطانهم، وأن ينكف كل اضطهاد لهم ومنها أن الشهداء والمعترفين الذين لم يبق لهم وارث تحسب الكنيسة وارثاً لهم. ولم يكن ينصب والياً في بلاد كثر المسيحيون فيها إلا أن يكون مسيحياً، ومن كان منهم وثنياً حظّر عليه أن يقدم الذبائح للآلهة. وبنى في أورشليم بطلب والدته الملكة هيلانة كنيسة بديعة على قبر المخلص، وأخرى في بيت لحم فوق مغارة مولده، وأخرى في جبل الزيتون. ونقد كثيراً من معابد الأصنام منها هيكل الزهرة في افقه الذي كان ماحوراً ومجلساً للعواهر، وجعل البيزنطية عاصمة للملكه، وباسمه سمّيت قسطنطينية نحو سنة ٣٢٦م. وحضر مجمع نيقية بنفسه وعاون الاساقفة على تأييد عقائد الدين خلافاً لاريوس المبتدع الذي نفاه كما سيجي. وقد كتب إلى اوسابيوس القيصري أن يستنسخ له خمسين نسخة من الاسفار المقدسة بأحسن الخطوط وأن يعنى بضبطها. وأمر خازن الحكومة أن يدفع له كل ما شاء من النفقة عليها. فأتم اوسابيوس ذلك كما روى في ترجمة قسطنطين (ك ٤ فصل ٢٩). وبنى في القسطنطينية كنائس عديدة منها كنيسة على اسم الرسل جعل مدفنه فيها. ويقال أنه هو الباني للكنيسة المعروفة بأجيا صوفيا أي الحكمة المقدسة. وقد عاب زوزيموس واطرُوب والقديس ايرونيμος قسطنطين بأنه اغتال ليشينيوس بعد أن أتمنه ونفاه إلى تسالونيك. والتمس سقراط عذراً له بأنّ ليشينيوس أخذ يهيج خصوم الملك عليه ولم يأت اوسابيوس ببنت شفة في هذا الأمر. وأشنع من ذلك قتله ابن ليشينيوس بعد ابيه وهو ابن اخته. ولم يكن له من العمر إلا احدى عشرة سنة. ثم اغتياه بكره كريسبوس بسعاية امرأته فوسطا. وقد ظهر له بعد ذلك براءته ومكر فوسطا ربييته فأماتها ببخار الحمام. وقد صمت اوسابيوس عن كل هذه الأحداث ربما لأنه غالى بمدح قسطنطين وقد خرمت المنية الملك قسطنطين سنة ٣٣٧م بعد أن نال سرّ العمد المقدس قبل وفاته بأيام قليلة على الأظهر. وقد جاء في كتاب أعمال البابا سلبستروس المنسوب إليه أنّ البابا عمّده قبل بضع سنين من المجمع النيقوي. ومن الآثار التي جاءت فيها اسماء قسطنطين وابنائيه في بلادنا عمود من الحجر المحبب

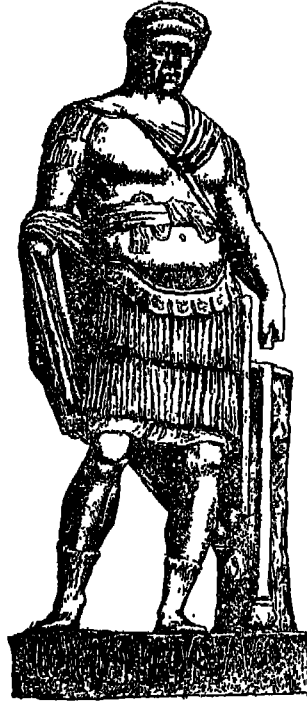
وُجد ساقطاً في أعلى الرأس الذي عند نهر الكلب كان دالاً على الميل التاسع من بيروت. ذكره وادنيكتون خط ١٨٤٧ ورنان في بعثة فينيقية صفحة ٣٤١ كتب عليه «للملك القيصر فلافيوس قسطنطين العظيم الغازي المنتصر أبداً اغوستوس ولفلافيوس كلوديوس قسطنطين وفلافيوس يوليوس قسطنس وفلافيوس يوليوس قسطنس أبناءه القياصرة الشرفاء» وهذا الخط نُقش بين سنة ٣٣٣ وسنة ٣٣٧ م.

وترك قسطنطين الملك مقسوماً بين أبنائه قسطنطين وقسطنس وقسطنس فكان نصيب قسطنطين بعد موت أبيه سنة ٣٣٧ م افرنسة واسبانيا وبريطانيا الكبرى. ونصيب قسطنس المشرق وبلاد اليونان ونصيب قسطنس ايطاليا وافريقية. وأراد قسطنطين أن يستحوذ على نصيب أخيه قسطنس، فحشد جيشاً وسار فيه إلى ايطاليا. فظهر عليه أخوه وشتت شمل جيشه وقتله في وقعة في اكويلايا سنة ٣٤٠ م فلم يملك إلا ثلاث سنين. واستبدّ قسطنس في ملك المغرب وانغمس في الفواحش وصال وجار فثُلّ منينس عرشه وقتله سنة ٣٥٠ م.

أما قسطنس ملك المشرق فهبّ إلى المغرب بعد مقتل أخيه قسطنس. وظهر على منينس واستبدّ في الملك شرقاً وغرباً لكنه أكثر من الانتقام والجور والاعتساف والاضطهاد للمسيحيين وسمي غلوس ابن اخي قسطنطين قيصر في المشرق سنة ٣٥١ م فانتصر على الفرس. لكنه أجرى مظالم لا تقدر في سورية فاستدعاه قسطنس وحكم عليه بقطع رأسه سنة ٣٥٤ م واستمرّ هو على جوره حتى حمل الجنود على اقامة يوليانس ملكاً مكانه فحمل على يوليانس وبينما هو في طريقه أدركته المنية في سفح جبل طورس في ت ٢ سنة ٣٦١ م وبعد أن نال سرّ العمداد من يد اوزويوس البطريك الانطاكي الاربوسي. وكانت أيام ملكه موعبة بالحروب مع الفرس وبالمشاحنات الدينية بين الاربوسيين والكاثوليكين. وكان يؤثر الاربوسيين واضطهد القديس اثناسيوس البطريك الاسكندري كما سيجئ. وكان فلافيوس دوميسيوس لاونتيوس والي المشرق تحت أمرة قسطنس وسمي قنصلاً سنة ٣٤٤ م فأقام له أهل بيروت تمثالاً للشهادة باستشهاله وقد وُجدت صفيحة من رخام في بيروت أقامها البيروتيون تحت التمثال وهذه الصفيحة نُقلت من بيروت إلى قنصلية المانيا في أورشليم يتبيّن منها ما ذكرناه وبين شرائع توادوسيوس شرائع سنة ٣٣٨ و ٣٤٢ و ٣٤٣ و ٣٤٤ م موجهة إلى فلافيوس المذكور. وروى رنان (في بعثة فينيقية صفحة ١٠٥) عن شدرانوس في مختصر التاريخ، وعن توفان في الكرونيكون أنّ

قسطنس جدّد بناء انتيرادوس (طرسوس) وسماها قسطنسية. وقد عثر على خط في قلعة يحمور تُقرأ فيه أحرف قسطن ولا يُعلم أقسطنس أم قسطنطين هو المراد بهذا الاسم.

وهذا مثال لقسطنطين الكبير مأخوذاً عن تمثال وُجد في حمامات قسطنطين في روما.



عد ٥٦١

يوليانوس الجاحد

إنّ يوليانوس كان ابن عم قسطنس ووُلد في القسطنطينية سنة ٣٣١م، ولما اغتال قسطنس أبناء عمه استبقى يوليانس لصغر سنه، لكنه أبعده إلى آسيا الصغرى. ثم رخص له أن يمضي إلى أثينا طلباً للعلم. ثم استدعاه إلى بلاطه وسماه قيصرًا

وعهد إليه بالولاية على افرنسة وأقام في باريس واشتهر بغزواته للجermanيين وظهوره عليهم في ستراسبورغ سنة ٣٥٧م، وبني قلاعاً وحصوناً على تخوم المملكة في تلك الناحية. ولما كان قسطنس متضيقاً في حربه مع الفرس أرسل إلى يوليانس وفداً ورسالة يطلب إليه أن يوجه نخبة من جنده لنجدة جيش الملك. فأظهر يوليانس الامتثال لأمره وأوعز سراً إلى الجنود أن يأبوا تلبية، فنبذوا الطاعة ونادوا باسم يوليانس ملكاً فكتب إلى قسطنس رسالتين اعتذر في احدهما عن تسمية الجنود له ملكاً. جبراً عليه. وتهذه في الثانية إن لم يجاره على قسمة الملك بينهما وذكره باغتياله أهله. فأجابه قسطنس مؤنباً منكراً عليه سؤاله، فزحف بجيش كثيف انتهى به إلى قسطنطينية. وسار قسطنس بجيشه من حيث كان لمحاربة الفرس فأدركته المنية في الطريق سنة ٣٦١م كما مرّ واستبد يوليانس في الملك.

وكان يوليانس اولاً مسيحياً واستمرّ كذلك إلى أن أدرك العشرين من عمره. وكان كثير التردد إلى الكنائس والاديار، وكثيراً ما قام في رتبة قارئ في الكنيسة كما قال عن نفسه في أحد كتبه. إلا أنّ معاشرته الاساقفة والعلماء الاريوسيين الذين أنكروا لاهوت المسيح جعلته يجحد الايمان المسيحي اولاً في باطنه ثم يجاهر بكفره وانحيازه إلى الوثنية ولا سيما بعد أن استوى على أريكة الملك. ولذلك لُقّب بالجاحد. وبعضهم يسميه العاصي. وقد أجرى اضطهاداً قاسياً على المسيحيين في امكنة كثيرة وأتى انطاكية سنة ٣٦٢م في شهر تموز فخرج الشعب إلى لقيه واستقبله الوثنيون بمنزلة إله. وكانوا يسمونه كوكب السعد الطالع في المشرق، لكنه كان يسمع بين أصوات التهليل أنين النساء الوثنيات باكيات على ادونيس إذ كان عيده يومئذٍ. فتشاءم من ذلك. وقد زار في هذه المدينة جميع معابد الأوثان بل مرتفعاتهم أيضاً التي على الاكام والجبال. وقد تسلّق على جبل كاسيوس المعروف اليوم بالجبل الأقرع ليزور معبداً للمشتري في قمته. وأسرع إلى الاحتفاء بعيد ابلون في دفنة القرية من انطاكية وقدم الذبائح والبخور. وقال رنان (في بعثة فينيقية ٢٨٧) إنّنا نعلم أنّ قسطنطين كان أبطل عبادة ادونيس في افقا بنقضه هيكل الزهرة الذي كان هناك، ونقله سكان افقا إلى بعلبك. ولكننا نرى الهيكل المذكور قد مجدّد فيحتمل أنّ يوليانس أمر بتجديده. ونرى أنه جرى كذلك في هيكل المشنقة الذي روى اوسابيوس أنّ قسطنطين نقضه، ثم مجدّد في أيام يوليانس. وأنبأنا سوزيتوس الذي كان في القرن الخامس أنّ الوثنيين كانوا يجتمعون في أيامه في

افقا. ويختلق كهنة هيكلها معجزات (سوزيموس ك ١ فصل ٥٨). وهذا يؤيد ما مرّ من أنّ يوليانس جدّد بناء الهيكلين على أنهما نُقضا مرة أخرى في أيام اركاديوس. ولعله أشار إليهما في أمره الذي أصدره سنة ٣٩٩م حيث قال: «إذا وُجدت هياكل في الحقول فلتنقض دون معاونة الجنود ودون ضوضاء. فإذا نُقضت انتسخت عادة العبادة الباطلة». وقد نشر المسيحيون حيثُذ في انطاكية أشعاراً منظوية على السخرية منه والتهكم عليه لطول لحيته وقصر قامته وسخف عقله بجحوده دينه. فسخط من هذا التهكم شديد السخط، وأذاع اشعاراً سماها ميزوبركون أي عدو اللحية، يسخر بها من الانطاكيين ويعيّرهم برذائلهم. فزادوا عليه وأخذوا يعيرونه بأنه أثار الحرب على كي وكيا مع أنهما لم يصنعا به شراً. بل غمراه بأيديهما، ويريدون بكّي كريستوس أي المسيح، وبكيا قسطنطين وأولاده. ولكي يثار منهم ألف كتاباً يتهكم فيه على القياصرة. روى ذلك اميان مرسلان (في ك ٢٢ فصل ١٤) الانطاكي الذي كان معاصراً له بل مرافقاً له في حربه مع الفرس.

إنّ يوليانس عزم أن يجدّد هيكل أورشليم زاعماً أن ثبت بذلك كذب المسيح بقوله أنه لا يبقى في الهيكل حجر على حجر. وكذب الأنبياء الذين تنبأوا بأنه يبقى خرباً إلى الأبد. فينقض العهدين القديم والحديث. وكتب رسالة إلى اليهود غالى فيها بمدح أمّتهم والثناء لتشتتهم والخصّ لهم على استئناف بناء هيكلهم في أورشليم. ليكون جامعة لهم كما كان قبلاً. ولم يقتصر على هذه الرسالة بل استدعى بعض وجهائهم وسألهم لِمَ لا يقدّمون ذبائح لآلهتهم؟ فأجابوه للحظر علينا أن نقدّم ذبيحة خارجاً عن هيكل أورشليم. فقال: إنه لدى بحثه في أسفارهم المقدّسة تبين له أنّ مدة سبيهم قد انقضت. وأنه يلزمهم العود إلى أوطانهم والمحافظة على سنّتهم. ثم كشف لهم عن عزمه، وأمر بارسال العمّلة من كل صوب إلى أورشليم. وأمر خزّانه أن يعدّوا المال اللازم لهذا البناء. وأقام اليبوس الذي كان يدعوه اخاه العزيز قيماً على البناء. ووجهه إلى أورشليم. وكانوا يعاونون بأيديهم ومالهم تجهيز ما يلزم للبناء. وكانت نساؤهم يدفعنّ حليهنّ وكل ما يملكنّ من نفيس لفقّة البناء، وبعضهنّ ينقلنّ التراب والكلس بثيابهنّ أيضاً. وأخذ العمّلة أولاً ينقضون أسس البناء القديم ويعدّونها للبناء الحديث. وأتمّوا نبوة المسيح بأنه لا يبقى هناك حجر على حجر. ولما أراد البناؤون وضع الحجر في الاساس، انبعثت منها لهبات نار التهمت العمّلة وكل ما كانوا أعدّوا من الاخشاب. وحاولوا مرات أن

يأخذوا في العمل فصدهم شوب النار عن الدنو إلى المحل، فغادروه خجلين. رونا كل هذا بكلمات اميان مرسلان نفسها (ك ٢٣ فصل ١) وهو مؤرخ مدقق أمين وثني كان خادماً ليوليانس ومقرباً إليه. ومن روى هذه الآية من المسيحيين القديس امبروسوس (رسالة ٤٠) والقديس يوحنا فم الذهب (خطبة ٥ في اليهود) والقديس غريغوريوس النريزي (خطبة ٤) وروفيوس (ك ١ فصل ٣٧) وسقراط (ك ٣ فصل ٢٠) وسوزومان (ك ٥ فصل ٢١) وتوادوريطوس (ك ٣ فصل ٢٠). وكل هؤلاء كانوا في القرن الخامس، وتكلموا في هذه الآية كأمر معلوم مشهور لا سبيل إلى انكاره. بل ذكر هذا الحدث أحد مشاهير الربيين اليهود في القرن التالي قائلاً: «روت تواربخنا أنه لنحو سنة ٤٣٤٩ للعالم حدث زلزال عظيم في الأرض كلها فقوّض الهيكل الذي كان اليهود بنوه بنفقات وافرة بأمر يوليانس الجاحد. وفي اليوم التالي انحدرت نارٌ من السماء فأذابت كل ما كان فيه من الحديد وأهلكت كثيرين من اليهود (جنابل وربرتون) وما لنا وكثرة الشهود لهذه الآية، فيوليانس نفسه شهد لها مجبراً. فإنَّ هيكل ابولون في دفنه كان احترق فاعترضه بعضهم قائلاً: إنَّ ابولون الإله العظيم لم يعلم أن يبنى أو يتدارك احتراق هيكله فأجاب بما ملخصه: «لا يدعي أحد بأن يعترضنا بالسفسطات أو يرهنا بكلامه بالعناية الربانية فلا غرو أنَّ انبياء اليهود قد تهددونا بمثل هذه التوازل، ولكن ما يقولون هم أنفسهم في هيكلهم الذي انتقض ثلاث مرات ولم يُنَّ حتى الآن... وقد اردت أن أجدد بناء هذا الهيكل تكرمة للإله المعبود فيه. ولم أذكر هذا المثال إلاَّ لأبيّن أنَّ ليس شيء ثابتاً في الأمور العالمية» (فقرات يوليانس صفحة ٢٩٥) فيوليانس أقرَّ إذاً بتجديد بناء الهيكل وأنَّ النار منعتة من ذلك. وأنَّ هذه النازلة تنبأ بها الأنبياء.

قد صرف يوليانس الشتاء سنة ٣٦٣م في انطاكية يعدُّ العدد ويحشد الجنود لمحاربة الفرس. وكانت مملكة الفرس حينئذٍ فسيحة الأنحاء تنطوي على ثماني عشرة ولاية. حتى عدَّ اميان مرسلان الصُّين من جملتها. وكان سابور ملكهم يسمى ملك الملوك واخا الشمس والقمر. ومع هذا عرض على يوليانس الصلح وحكمه بوضع شروطه. فنبذ يوليانس رسالته وقال إنه يذاكره بالصلح مشافهةً معتمداً على استشارتها الآلهة والعرافين. وكان ينوي استئصال النصراني من مملكته بعد عوده من الحرب. وأقام في انطاكية قبل سفره والياً مقلقاً قاسياً جائراً قائلاً: إنه يعلم أن هذا الرجل ليس أهلاً للولاية لكن أهل انطاكية أهل لأن يولّى عليهم. وزايل هذه

المدينة في آذار سنة ٣٦٣م بعد أن قدّم الضحايا للأوثان. وبلغ في اليوم التالي إلى حلب وتلبّث فيها يوماً مقدماً ضحية للمشتري. وخطب في منتدى المدينة حاضراً على عبادة الأصنام. فتملّقه الكثيرون ولم يدعن لخطابه أحد. وكان رئيس مجلس حلب ساخطاً على ابنه لتركه دينة وتدبّته بمذهب الملك. وقد حرّمه ارثه وطرده من داره. فمضى الابن يشكو أمره إلى يوليانس ويسأله انصافه. فوعده أن يصلح بينه وبين أبيه. وأدب يوليانس لوجهاء المدينة وأجلس هذا الأب إلى جانبه وقال له: لا أشاء أن يكره أحدٌ غيره على دينة فلا تطلبنّ من ابنك أن يتبع دينك. فأجابه الأب: أتعني هذا الأثيم الرذيل الذي آثر الكذب على الحق؟ فسأه الملك جوابه لكنه تحلّم وقال: دعنا من القدر. والتفت إلى الشاب فقال له اتخذني أباً إذ قد تركك أبوك.

وبارح حلب فرمّ ببطنه مدينة بالجنوب الشرقي من ايرابولس تسميها الآثار المصرية بادانا. وانتهى إلى ايرابولس القرية من الفرات. فاستقبله أهلها بمعظم الاحتفاء ولكن سقط رواق على بعض جنوده فقتل منهم خمسون جندياً وجرح كثيرون. واجتاز الفرات ولم يرمّ بأورفه لأنّ أهلها مسيحيون. وبلغ إلى أملاك الفرس واستحوذ على مدن فيها. بعضها استسلم أهلها إليه، وبعضها افتتحها عنوة. وعبر دجلة تجاه سلوقية وقطيسفون وظهر على الفرس بوقعة هناك. فأوفد إليه سابور أحد كبراء دولته عارضاً عليه أن يستبقي لنفسه ما استحوذ عليه، وأن يوقعا على عهدة صلح ومخالفة بينهما. وكان هرمزدا اخو سابور على خلاف مع أخيه فانضمّ إلى يوليانس. فحلّ موفد سابور ضيفاً على هرمزدا وسأله أن يبلغ الملك كلام سابور. فأسرع هرمزدا إلى حضرة الملك فكأنه يبلغه بشرى على أنّ يوليانس لاعتماده على أنواع من الفأل وعلى خزعبلات سفسطي معه اسمه مكسيموس لم يحسن استقبال هرمزدا وأمره أن لا ييوح لأحد بسرّ الوفاة إليه وإلهاماً أنّ مجرد ذكر الصلح يوهن قوى الجنود. وحاصر قطيسفون فلم ييسر له فتحها. فاقصر على تخريب ضواحيها وعزم أن يسير توّاً لمحاربة سابور: وبينما هو مفكر في أي الطرق يسير، أتاه فارسي يخدعه بأنه فرّ من وجه سابور لسخطه عليه، وإنّ الملك يائس واجس من شدّة صولة يوليانس. وإنّ أفضل التدبير أن يترك يوليانس النهر ويتوغّل في البلاد. وإنّ السفن الكثيرة التي كان أدخلها بالفرات إلى دجلة تعرقل نجاحه فالأولى تركها أو حرقها. فصدقه يوليانس بطيشه وأحرق سفنه فسأه الجنود هذا الصنيع وأبعد يوليانس في البلاد وأحرق عمال سابور القرى والمزارع والزرروع التي كانت استحصدت

فتعثر على الرومانيين أن يخطوا إلى الأمام، وتوجسوا من القهقري وعازهم الزاد واستحال عليهم أن يمضوا في وجهة ولا يضايقهم فرسان الفرس، واستحوذ الرعب على الجنود وأخذوا يجددون الأسف على حرق السفن. واستشار يوليانس آلهته فكان أنباؤهم مزيداً من الالتباك. وبينما هم في هذه الحيرة أقبل عليهم جيش الفرس وكان ذلك في الليل بين ٢٥ و ٢٦ حزيران. وتسارع الرومانيون إلى السير لمقابلة أعدائهم، وسار يوليانس في طلائع جنده فنبئ بأن الفرس يضربون ساقة جيشه، فأسرع إلى هناك وقيل له أن الفرس يضربون طلائعه. وهجم فرسان الفرس على ميمنة عسكره فانكسرت. فأمر يوليانس أن يتجدوا الميمنة فقهقر الفرس وعجل يوليانس إلى لحاقهم فأصابه سهم حطّم يده واصمى كبده. وحاول أن ينتزع السهم فقطع أصابعه، وسقط عن جواده وحمل إلى مأمن. وإذا كان بعض ذويه ييكيه قال له ما هذه الوغادة أن تبكوا ملكاً إذا مات ضمّ إلى الكواكب في السماء؟ وأدركته المنية في ٢٧ حزيران سنة ٣٦٣م. هذا ما رواه عن موته اميان مرسلان الذي كان من حرسه. وروى توادوريطوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٢٠) أنه عند جرحه ملأ راحته من دمه وطرحه إلى الجو قائلاً: «انتصرت يا جليلي» يريد المسيح.

وروى سوزومان كذلك (ك ٦ فصل ٢) ولكنه قال هذا: «ما يقوله بعضهم». وعن القديس غريغوريوس النزينزي (خطبة ٤) إن رواية موته مختلف فيها. فمن قائل إن أحد جنوده قتله وإن الفرس عثروا الرومانيين بعدئذ بذلك. ومن قائل إن سركسياً أو فارسياً قتله، وإنه بعد أن جرح حمل إلى دجلة وطرح نفسه في النهر ليخفي عن أعين الناس ويعدّ إلهاً كرامولس وغيره. وقد أمر الملك يوفيان الذي خلفه بنقل جثته إلى ترسيس، فنقلت إليها ودُفنت في إحدى ضواحيها على مقربة من مدفن مكسيمس دايا. وتلا في تلك الأثناء القديس غريغوريوس النزينزي خطبتيه الشهيرتين حيث يبيّن خلاعة هذا الجاحد وجرائمه واضطهاده للمسيحيين. وقد كان تنبأ بذلك لما رآه في أثينا ويحضّ المسيحيين أن لا يثأروا من الوثنيين بل يعاملوهم بالرفقة والرفق والمجاملة ليعلموهم بمثلهم فروض الإنسانية والفضيلة. وقد بقي من تصانيف يوليانس مقالات هزلية في الاثني عشر قيصر، ومقالته الموسومة بعدو اللحية المار ذكرها، وخطب سياسية ودينية ورسائل. وقد جمع سبانهيم تأليفه وطبعها في لبسيك سنة ١٦٩٦م وترجمها تلبوت إلى الافرنسية سنة ١٨٦٣م.

وهذا مثال ليوليانس مأخوذاً عن تمثال في أحد متاحف افرنسة.



عد ٥٦٢

يوفيان الملك

استمرّ الجيش بعد أن هلك يوليانس يحدّق به عساكر الفرس ويمنعون من وصول الميرة والنجدة إليه. واجتمع رؤساؤه يتشاورون باقامة ملك عليهم، فأجمعوا على انتخاب ساكوف رئيس الحرس في المشرق. فأبى الملك لشيخوخته وأمراضه، فانتخبوا يوفيان أحد أركان الحرس وكان عمره يومئذ ٣٢ سنة. وكان الجنود يحبونه ويجلّونه متذكّرين فضل ابيه دارونيان الذي كان رئيساً على الفرقة الأولى من الجنود. وكان طويل القامة متوقّد الذكاء لطيف الأخلاق. وروى توادوريطوس (ك ٤ من تاريخه فصل ١) أنه مذ أُقيم ملكاً جاهر لجنوده بأنه مسيحي، وأنه لا يحب أن يملك على وثنيين. وأنّ الجنود أجابوه بأنهم مسيحيون أيضاً. وأنّ ملك

يوليانس القصير المدة لم ينسهم ما تعلموه في أيام قسطنطين. وشهد له اميان مرسلان (ك ٢٥ عد ١٠) وهو وثني بأنه كان مسيحياً غيوراً. وصرف بواكير اهتمامه لتخليص الجيش من الضيق الذي كان فيه. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير، فإنّ الفرس جدّوا في لحاقهم متتبعين آثارهم من كل صوب، حتى لم يمكنهم أن يسيروا في اليوم الأول إلا ثلاثة أرباع الميل. واستمروا في اليومين التاليين في مواقفهم مدافعين إلى أن يسيروا ببسالتهم وثباتهم المسير. وبلغوا دجلة وحاولوا أن يعبروه على أطواف، فلم يمكنهم منه طغيان النهر. وتداركتهم العناية الربانية بأنّ سابور أرسل وفداً يطلب عقد عهدة مع الرومانيين لهلاك كثير من جنوده وقائدين من قادتهم، ولثورة ارساس ملك الأرمن عليه. فوقع يوفيان على هذه العهدة متخلياً بمقتضاها عن خمسة اعمال في عبر دجلة ومتعهداً بأن لا ينجذ الأرمن. فكانت هذه العهدة مذلة للرومانيين، لكن يوفيان الجأ إليها بقضاء الضرورة (رواه اميان مرسلان ك ٢٥ عد ٩).

وخاف الوثنيون وقلقوا خشية أن يضطهدهم يوفيان لأنه مسيحي، فأمنتهم بأمر أذاعه أن يتركوا ما يدينون به وأن تفتح معابدهم إن كان قد أقفل بعضها بعد وفاة يوليانس. ولم يصدر هذا الأمر إلا سياسة لأنه كان يجاهر بأنه مسيحي. وقد أمر جميع عماله أن يكتنوا المسيحيين من الاجتماع في كنائسهم. وأطلق لكل من أبعدا عن أوطانهم من المسيحيين أن يعودوا إليها. وردّ على الاكليروس والعذارى والأرامل ما خولهم الملوك المسيحيون من الحقوق، وأعاد توزيع الميرة على الكنائس لقوت الأرامل والأيتام. وكان أحد عماله المسمى ماینوس أحرق كنيسة بيروت، فعزم يوفيان أن يقطع رأسه لكن تشقّع فيه بعض المقرين فاقصر الملك على أن يغزّمه نفقة تجديد بناء الكنيسة من ماله (كما يظهر من كتاب شرائع توادوسيوس).

ولما بلغ اثناسيوس البطريرك الاسكندري مقتل يوليانس عاد إلى كرسيه الذي كان قد نفاه منه، وكتب له يوفيان رسالة هذه ترجمتها (نقلاً عن المجلد الثاني من تأليف اثناسيوس) «إلى اثناسيوس محب الله الكلي الورع من يوفيان. لما كنا نَعْجَب كثيراً بقداسة سيرتكم التي يتلأأ بها شبه إله الكون، وغيرتكم على دين المسيح مخلصنا، شئنا أن نتخذك اليوم تحت حمايتنا أيها الاسقف الكلي الاحترام. وأنت أهل لذلك بتلك الشجاعة التي ازدريت بها الأعمال الشاقة واعتبرت المخاطر الجسيمة وصرامة المضطهدين وسيوف المهتدين كشيء لا يعتد به، ضابطاً بيدك دفة

الايان العزيز لديك. وما فتئت تذب عن الحق وتعنى بتعمير الشعب المسيحي الذي يرى فيك مثال الفضائل جمعاء. ولهذا ندعوك الآن ونحضبك أن تعود وتعلم تعليم الخلاص. فارجع إلى الكنائس المقدسة وامن شعب الله. ونتوخى أن الراعي يصلي من أجلنا وهو في مقدمة رعيته. فإننا موقنون أن الله يمن علينا وعلى من كانوا مسيحيين نظيرنا بنعمة خاصة إذا مننتم علينا بغوث صلواتكم». روى ذلك توادوريطوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٢) وبعد أن عاد الملك إلى انطاكية كتب ثانية إلى القديس اثناسيوس يسأله أن يشرح له عقائد الايمان ولا سيما ما خص بدعة آريوس. فلبى القديس سؤاله برسالة مشبعة شفعتها بارساله إليه قانون الايمان الذي وضعه المجمع النيقوي. فلم يجتزئ الملك بهذه الرسالة بل كتب إليه يدعوه إلى انطاكية راجباً في أن يراه ويسمع كلامه مشافهةً. فشخص القديس إلى انطاكية ولم يبلغها إلا وقد انتهى إليها بعض رؤساء الارويسيين ليشكوه إلى الملك. وكثيرون من المؤمنين ليدافعوا عنه، فلم يصغ الملك إلى تهم الارويسيين وتعتهم بل ازدجرهم ساخطاً عليهم فعادوا من انطاكية يائسين.

وقد زایل يوفيان انطاكية قاصداً القسطنطينية وشرع سكانها يعدون حفلات الاحتفاء بدخوله إليها. وسافرت الملكة شاريتون عقيلته للقياء يصحبهما كثيرون من الاعيان ونسائهم. وإذ كانوا على مقربة من موعد اللقاء فاجأت المنية الملك في الليلة بين ١٦ و ١٧ شباط سنة ٣٦٤م في محلة دارستان في آسيا الصغرى. ومن قائل أنه فطس ببخار الفحم، ومن قائل أنه اعتراه فالج، ومن قائل أن الحصيان دسوا له سمّاً في طعامه كما يظن اميان مرسلان (ك ٢٥ عد ١٠) وحقق فم الذهب (خطبة ١٥) فانقلب سرور الملكة والكنيسة إلى حزن ونوح وبدلت مطارف الفرح بأطمار الحداد ولم يكن عمره حينئذ إلا ٣٣ سنة وفي الشهر الثامن بعد ملكه.

عد ٥٦٣

والنتينان

استمرت الملكة بعد وفاة يوفيان ستة أيام خلواً من ملك، واجتمع اقطاب المملكة وأركان الجنود في نيقية. وروى سوزيموس أنهم عرضوا على سالوست أن يرتقي منسبة الملك، فأبى لشيخوخته، ولم يشأ أن يتولاه ابنه لصغر سنه، فأجمعوا

على انتداب والتتنيان وكان رئيس فرقة من الحرس. فشّر الجنود بانتخابه فنادوا به ملكاً في ٢٦ شباط سنة ٣٦٤م، وأخذ يخطب في الجنود. فصاح بعضهم سائلين أن ينتخب له من يشاركه في الملك مخافة أن يبقوا يوماً ما دون ملك كما عرض قبله مرتين. فقال أيها الجنود إنّ لكم أن تنتخبوني ولكن إذا ارتضيت الملك لم يبق لكم أن تقضوا بما يعود على المملكة بالنفع، فلا أكره أن يكون لي شريك على أنه لا بدّ لي في انتخابه من زمان اتدبر الأمر فيه. فصمتوا وتهيبوه عالمين أنّ لهم ملكاً غيوراً على سلطته. وبعد ثلاثة أيام جمع أركان جيشه ليستشيرهم في انتداب شريك له. فقال له أحد القادة دون حياء (أيها العاهل المعظم إن أحببت أسرتك فاختر أخاك، وإن أحببت المملكة فابحث عمن كان أكثر أهلية). فوارى الملك استياءه من هذا الكلام ورقى قائله بعدئذٍ إلى مقام القناصل (رواه اميان ك ٢٦ عد ٢ و ٤). وفي ٢٨ آذار تلك السنة جعل أخاه والنس شريكاً له في الملك وكان عمر والتتنيان حينئذٍ ٤٣ سنة عمر أخيه ٣٦ سنة. وكان ابوهما غراسيان غير حسيب لكنه ترقى في المناصب إلى أن كان والياً في افريقية ثم في بريطانيا. واقتسم والتتنيان والنس الملك فأخذ الأول المغرب والثاني المشرق في أول ملكه.

أما والتتنيان فأباح جميع المسيحيين والوثنيين ممارسة فروض دينهم وحظّر على الوثنيين استعمال السحر وتقديم الضحايا ليلاً. ثم منعهم من تقديم الذبائح وأباحهم تقديم البخور. وسنّ شريعة حظّر بها على المانويين والدوناتيين وسائر الهراطقة الاجتماعات الدينية. وعاد بعد ذلك يرعى حرمة الكهنة الوثنيين ويحافظ على امتيازاتهم فكان كثير التقلّب (اميان ك ٣ فصل ٩) وروى سوزومانس (ك ٦ فصل ٧) أنّ بعض أساقفة المشرق أرسلوا إليه ايباسيان أسقف هرقلية يسألونه أن يرخص لهم بعقد مجمع لاصلاح تعليم الايمان فأجابهم: «إني من مصاف العامة فلا مدخل لي في هذه الأمور التي هي من خاصات الاساقفة. فلهم أن يجتمعوا حيث شاءوا». وروى القديس امبروسيوس (رسالة ١٣) عنه أنه قال: «إنه لا يصلح أن يكون قاضياً بين الاساقفة». وقد سنّ شرائع عادلة ونافعة للمسيحيين منها تجديد أمر قسطنطين بالامتناع عن الاعمال القضائية أيام الآحاد. وزاد عليه أنه حظر على العمال والقضاة تعقّب المسيحيين في تلك الايام. وأمر تكرمة لعيد الفصح أن يخلّى سبيل جميع المجرمين في هذا العيد ما خلا أصحاب الجرائم الكبيرة كالقتل والجوسية والمتطاولين على الملك. وقد كان ميالاً إلى القسوة أكثر من الحلم. ومن أوامره أنّ الاكليريكيين

لا يحاكمهم إلا الكليريكيون من مصافهم. فلا يحاكم الاسقف مثلاً إلا أسقف نظيره. وإن ما يحكم به على الكليريكي من الغرامة يُدفع إلى الفقراء لا إلى خزينة الحكومة. وكان قسطنطين وابنه قسطنس اعفيا عقار الكنائس وأشخاص الكنسيين من كل ضريبة غير عادية أو وازعة من قدر الكليريكيين كالسخرة. فنقض هذه الشريعة يوليان وجددها والتتيان. وكان الكليريكيون يعفون من جميع التكاليف الشخصية، لكن عقارهم اسوة غيره في الخراج العام. ويظهر أنّ اعفاء الاشخاص المكرسين للعبادة من التكاليف الشخصية مأمور بشريعة طبيعية. فإننا نجد عند الشعوب طرّاً.

وكانت هذه الشرائع عامة في المغرب والمشرق وقد اتفق الملكان عليها. وقهر والتتيان الالمانيين الذين كانوا قد استحوذوا على افرنسة وغيرهم من القبائل في اوروبا وافريقيا. وقضى بسورة حنق انزلت به فالجاً سنة ٣٧٥م وله ابنان غراسيان وواللتيان الثاني. وذكر ودينكتون خطأ لاتينياً في ام الجمال (في حوران) وهو في عد ٢٠٥٨ كُتب فيه ما ملخصه «لسلامة موالينا والتتيان ووالنس وغراسيان الملوك الظافرين ابدأ قد بنى هذا البرج يوليوس الكنت الشهير معلم الجنود الفرسان والمشاة في قنصلية مولانا غراسيان اغوسطوس وبروبوس الرجل الشهير». وهذا مثال لواللتيان الأول مأخوذ عن تمثال يظن أنه له في متحف اللوفر.



أما والنس فجعل عاصمة ملكه القسطنطينية وكان مطوعاً لامراته وكانت اريوسية، فعنده اودكسيوس البطريك القسطنطيني أحد أقطاب الاريوسيين وحمله عند تعميده على أن يقسم أنه يؤيد بدعة هؤلاء المارقين فتشبت بها واضطهد الكاثوليكين ولا سيما الاساقفة. من ذلك أنه لدن زيارته (فيومي) مدينة التتر أراد أن يحض ونزيتون أسقف هذه القبيلة أن يشترك مع الاريوسيين. ودخل الملك إلى الكنيسة وكان الاسقف شديد التمسك بقانون المجمع النيقوي، فترك الملك في الكنيسة ومضى إلى كنيسة أخرى، وتبعه الشعب ولم يبق إلا الملك وحاشيته، فاستاء من عمل الاسقف ونفاه لكنه أرغم أن يسترده من منفاه مخافة أن يثور التتر عليه. وبينما كان ماضياً إلى انطاكية توفي اوكسيوس بطريك القسطنطينية، فانتخب الاريوسيون ديموفيل مكانه. والكاثوليكون القديس افاغريوس. فنفي والنس هذا القديس وأثبت انتخاب الاسقف الاريوسي فأرسل الكاثوليكين إليه وهو في نيكوميديا وفداً ثمانين اكليريكيًا، فأمر مورست رئيس حرسه أن يقتلهم عن آخرهم. فلم يشأ أن ينقذ الأمر مجانبه للقلق بل أظهر أنه يريد نفيهم ووضعهم في سفينة. ولما أبعد البحارة عن البر ألغوا ناراً في السفينة وانحدروا هم إلى زورق، فلقى هؤلاء الشهداء ربهم من بين النار والماء (سقراط ك ٤ فصل ١٦ وسوزومانوس ك ٦ فصل ١٤). وقد اضطهد القديسين باسيليوس وغريغوريوس النزينزي، واثناسيوس كما سترى في ترجمتهم.

وافى والنس إلى انطاكية فنفي القديس ملاطيوس أسقفها إلى ارمينية وطرد الكاثوليكين من كنائسهم، فتألبوا في سفح جبل قريب من انطاكية حيث مغاور يقال أن القديس بولس الرسول اختبأ فيها. وكانوا هناك يسبحون الله متحملين البرد القارس والثلج أيام الشتاء والحر الشديد أيام الصيف. فأرسل الملك جنوداً طردوهم من هناك. فاجتمعوا على شاطئ العاصي وطردوهم من هناك أيضاً فتألبوا في الساحات التي يتمرّن فيها الجنود، فأمات كثيرين منهم بأعذبة متنوعة ولا سيما بتغريقهم في العاصي. وبينما كان يوماً جالساً على شرفة قصر انطاكية رأى شيخاً متدثراً أطماراً رثة، وقيل له أنه الراهب افرهات الذي يجله الشعب كثيراً، فاستدعاه الملك وأخذ يسأله في شأن خروجه من ديريه فأجابه افرهات لو كنت بتناً متحصنة

في بيت أبيها ورأت النار تشبّ فيه آبقى جالساً في مخدعي متفرجاً على التهام النار له أم أهرع إلى الماء فأصبّه لأخمد لظاها؟ فأنت ألقيت النار في بيت أبي فنتسارع لإطفائها. فصمت الملك، على أنّ أحد الخصيان هدّده بالقتل فلم يلبث أن سقط في رجل ماء يغلي فهلك. وكان الملك قد نوى نفي افرهات فعدل عنه. وكان افرهات فارساً حسيباً فآثر النسك والعزلة عن العالم وأتى انطاكية يعاون المسيحيين المضطهدين (توادريطوس ك ١ من تاريخه فصل ٢٥ و ٢٦). وذكره عبد يشوع الصوبايوي في قصيدته في المؤلفين البيعين. وقال أنه ألّف مجلدين في الحث على التقوى وصلوات نسقها على أحرف الهجاء (السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٨٥).

هذا شيء من مظالم والنس للكاثوليكين. وأما أعماله السياسية فمنها أنه آثر في بادئ بدء ملكه أن يأتي إلى سورية ليرقب عن قرب حركات سابور ملك الفرس، إذ لم يكن يثق بخلوصه بعد عهدة الصلح. وبينما كان في قيصرية الكبادوك، بلغه أنّ بروكوب أحد أنسباء يوليانس الجاحد أنتهز فرصة غيابه عن القسطنطينية فجعل بعض الجنود يسمونه ملكاً، واستحوذ على العاصمة فقلق والنس ووجس لأنه كان وغلاً جباناً. ولكن حملة أركان جيشه إلى المدافعة فأرسل فرقتين من الجند لكبت الثائرين على أنّ بروكوب أغوى قائديهما واستمالهما إليه. فنكس الجنود أعلامهم وانحازوا إلى بروكوب قاسمين بالمشتري يمين الأمانة له. وآثر بروكوب على جيشه رجلاً وغداً اسمه ايباركيوس. وكان لوالنس قائد آخر اسمه اديتنا. فاستمال جنود ايباركيوس إليه وبعثهم على أن يقبضوا عليه ويأتوه به ففعلوا وانضموا إلى جيشه. واستمرت الحرب ثمانية أشهر إلى أن خان بروكوب قائدان من قاداته وغادره جنوده فقبض القاتدان عليه وأتوا به إلى والنس، فقطع رأسه ورأسيهما (اميان مرسلان ك ٢٦ عد ٦ وسقراط ٤ فصل ٢).

وكان لوالنس شبهة في أنّ بارا ملك ارمينيا يؤثر الفرس على الرومانيين فاستدعاه إليه إلى انطاكية بحجة أن يحدثه في أمور لازمة، وهو ينوي امساكه لديه واقامة ملك آخر. ودرى بارا وهو في ترسييس بمكيدة الملك فعاد إلى ارمينيا محافظاً على أمانته للرومانيين. فكتب الملك إلى ترايان قائد جيشه على تخوم ارمينيا فدعا القائد بارا إلى مأدبة أكثر فيها من الاحتفاء ببقياه، ولما صار في حوزته اغتاله وخلفه وارزادات أحد أنسبائه.

وفي سنة ٣٧٧م استظهر الهونيون (قبيلة أصلها على الراجح من الصين) على الغطط (وقد مرّ تعريف هذه القبيلة) فاستحوذ هؤلاء على تراسة واتصلوا إلى أبواب القسطنطينية، فقلق والنس وعدل عن اضطهاد الاساقفة والرهبان وزايل انطاكية في مبادئ سنة ٣٧٨م، وبلغ قسطنطينية في ٣٠ أيار منها. وكان والنس حارب سنة ٣٦٩م هؤلاء الغطط وانتصر عليهم، ثم أبرم الصلح بين الفريقين على شريطة أن لا يتجاوز الغطط نهر الدانوب، وأنّ ملكهم المسمى اتاناريك يأخذ جعلاً من العاهل، على أنّ الهونيين ارغموهم، في سنة ٣٧٦م أن يسألوا الرومانيين أن يرخصوا لهم بعبور النهر والاقامة في أرضهم. فارتضى والنس بذلك مشروطاً أن يسلموا سلاحهم إلى عمّاله، وأن يقدموا له بعض صبيانهم ليكونوا رهينة له في آسيا. وكان رئيس الوفد الذي أرسله الغطط اولفيلاس أسقفهم، إذ كان جمّ غفير منهم مسيحيين. بل كان من هؤلاء شهداء أيضاً أشهرهم القديس سابا الذي أرسلت كنيسة الغطط ذخائره إلى القديس باسيليوس كما هو بيّن من رسالته ١٥٥ وغيرها. وتوافيل أسقفهم شهد الجمع النيقوي ووقع عليه. وخليفته اولفيلاس وضع للغتهم الغلطية الأحرف الهجائية آخذاً إياها عن اليونانية، وترجم الاسفار المقدسة إلى هذه اللغة. وقد وُجد قسم من هذه الترجمة، وهذه اللغة أشبه باللغة الألمانية وفيها كثير من الألفاظ الفارسية. وقد صرّح القديس ايرونيوس (في رسالته ١٠٦) بأنّ الترجمة الغلطية تفضّل على الترجمات اليونانية.

على أنّ العمال والجنود الرومانيين أساءوا معاملة الغطط عند عبورهم الدانوب وتقاعدوا عن العمل بالشرط الذي وضعه الملك، وبدلاً من أن يأخذوا سلاح الغطط كانوا يأخذون منهم مالهم وكل ما استحسنوه من متاعهم، ويسبون نساءهم ويضيقون عليهم بامتيار طعامهم. فعبر الغطط النهر بسلاحهم واليأس مستحوذ عليهم، وكان من غباوة لوييسان قائد الجيش الروماني أن يدفعهم بجنوده ليعبدوا عن شاطئ الدانوب ويتوغلوا في البلاد، آملاً أن يضعفهم أو يهلكهم متفرقين. ودعا فرتيجرن ملك فصيلة أخرى منهم إلى مأدبة وقتل حرسه وتملّص الملك منتصباً سيفه، ولما أدرك جنده أصلى نار الحرب على الرومانيين، فجنّدل السواد الأعظم من جنودهم، فأرسل والنس جيشاً آخر مؤمراً عليه تريان. وتسعرت نار الحرب من الصباح إلى المساء، وتراكم القتلى من الجيشين وبلغ حينئذ والنس من انطاكية إلى القسطنطينية. وكان الغطط يشنون الغارة في البلاد إلى أبواب هذه المدينة. وآلب

جيشاً منه فرقة من فرسان السراكسة^(١) كان أصحابهم من انطاكية. وعزل تريان عن إمارته على الجنود مؤنباً له. فقال هذا القائد له: «لم أغلب بل أنت غلبت أيها الملك لأنك حاربت الله وذيبت عن أعدائه البرابرة. ألا تعلم أنّ هؤلاء إنما هم من طردتهم من الكنائس ومن أسلمتهم إليهم» (رواه توادوريطوس ك ٤ فصل ٣٣). وكان تارنس أحد قادة جيشه قد سمعه مثل هذا التأييد إذ عاد إلى أرمينيا ظافراً. وسأله الملك ما تريد جائزة؟ فرفع إليه عريضة سأله فيها أن يهب الكاثوليكين كنيسة. فمزق الملك عريضته قائلاً: أسأل شيئاً غير هذا. فجمع تارنس فلذ عريضته وقال: «لا أسأل غير هذا وربك رب النيات». (توادوريطوس في الكتاب المذكور فصل ٣٢).

وكثر التذمر على الملك في قسطنطينية، وإذ كان مشاهداً للملاعب في ١١ حزيران هتف الشعب اعطونا سلاحاً فنمضي نحن للقتال. فحنق الملك وأسرع إلى الخروج مع جيشه مهدداً الأهليين بأنه سيعود ويدمر مدينتهم. فالتقاء على أبواب المدينة ناسك اسمه اسحق فصاح به «أين تمضي أيها الملك وقد أثرت الحرب على الله؟ فهو لا يعينك بل أثار البرابرة عليك. فاكفف عن محاربتك له وإلا فلا تعود». فسخط الملك وأمر أن يلقي في السجن إلى أن يعود، وقال له: لأعودن وأقتلك عقاباً على نبوتك الكاذبة. فقال اسحق بأعلى صوته: «اقتلني إن وجدتني كاذباً». (توادوريطوس ك ٤ فصل ٣٤ وسقراط ك ٦ فصل ٤٠).

وعهد والنس بامارة الجيش إلى الكونت سابستيان الذي كان مغوياً بعقيدة ماني، ونال بعض الظفر أولاً، فزينت له نفسه الفوز التام. وكان غراسيان ابن ملك

(١) يراد بالسراكسة العرب ولكن لم سموا كذلك ففيه اقوال فمن قائل انه سموا بذلك نسبة الى سارة امرأة ابراهيم وهذا غير صحيح لان العرب ينتسبون الى هاجر واسماعيل لا الى سارة. وزعم بوخرت ان هذا الاسم من كلمة سرق العربية لاعتقاد العرب السرقة، وهو غير صحيح لانهم لا يسمون انفسهم به بل يسميهم به جيرانهم. والاقرب الى الصواب ارتأه اسطقانوس البزنطي في كتابه في المدن انهم سموا كذلك بنسبة الى محل اسمه سراكا في بلاد النبطيين في العربية الحجرية، ويسمى في الكتاب بالمقدس مسريفة (تكوين فصل ٣٦ عد ٣٩) ويسميه العرب مسريقاً. وقد اخذ اسم سراكسة عن نسبة هذا الاسم في اللغات الاعجمية، وكان يسمى به اولاً سكان العربية الحجرية ثم اطلق على العرب جميعاً (عن السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٤)

المغرب أخيه والنس قد ظفر بالألمانيين. وكتب إلى عمه يقول أنه آتٍ لإنجاده فلينتظره. فمجل والنس وقائده سابستيان بإصلاء نار الحرب قبل وفوده لثلا يفوتهما فخر الانتصار أو يشترك غراسيان معهما فيه. وفي ٩ آب سنة ٣٧٨م التحمت الحرب على مقربة من ادريانوبولي فكانت وقعة لم يكن لها مثال بعد وقعة كان مع انييال، فترك الملك قتلى جيشه وخمسة وثلاثين قائداً مجندلين على العفراء وهلك الملك نفسه. وما ذكره كثير من المؤرخين هو أنه لمجرح وسقط عن جواده وحمله بعض ذويه إلى كوخ، ثم أتت شرذمة من الغطط وألقت النار في الكوخ فأهلكت كل من كانوا فيه إلا أحد الحرس الذي تمكن من الفرار، وقص الخبر. وبعد مقتل والنس تبادى الغطط إلى أن بلغوا أبواب قسطنطينية، فردّهم عنها الفرسان السراكسة الذين كانوا قد أتبعوا المذهب الكاثوليكي رغم إرادة الملك وقد حموا العاصمة. والغطط الذين جعلهم الملك يعتنقون بدعة آريوس قد غدروا به وقتلوه وحاولوا الاستيلاء على ملكه لو لم يكتهم السراكسة.

عد ٥٦٥

غراسيان والتنتيان الثاني الملكان

بعد وفاة والتنتيان سنة ٣٧٥م خلفه ابنه غراسيان الذي كان قد شاركه في الملك منذ سنة ٣٦٧م، وبعد مقتل والنس أصبح مالكا في المشرق والمغرب. وأشرك في الملك معه أخاه والتنتيان الثاني، مع أنه لم يكن له من العمر عند وفاة أبيه إلا أربع سنين. وفي رواية أخرى عشر سنين. فأقام مع أمه يوستينا أولاً في ميلان بايطاليا، ثم في سرميوم في المجر. وأما غراسيان فكان عمره يوم ملك سبع عشرة سنة، ولم يكن له في بدء ملكه رجال محنكون بالسياسة والخبرة بالحرب. وكان الكونت توادوسيوس من أكبر رجال أبيه، وقد خمد ثورة بريطانيا الكبرى ومدّ بساط الأمن فيها ثم أمّن افريقيا في بدء ملك غراسيان ببسالته وحكمته. ولا نعلم بأية دسيسة أمر هذا الملك بقطع رأسه بعد انتصاره على أعداء المملكة. ولم يطلب هذا الكونت وقتله إلا فرصة زمان لينال فيه سرّ المعمودية، ثم مدّ عنقه للسياف فاعتزل ابنه المسمى توادوسيوس أيضاً في اسبانيا موطنه عاكفاً على تقدّم فن الزراعة بين مواطنيه. على أنّ غراسيان قد علم بعد سنتين فظاعة جنايته، واهتدى إلى

اصلاح ما فرط منه. فإنه لما أُنيط به بعد مقتل عمه والنس تدبير المملكة كلها استقدم توادوسيوس من اسبانيا وأقامه ملكاً على المشرق وشريكاً له في الملك مسمىاً إياه عاهلاً. وجعل بلاد اليونان ومكدونية والايبر وغيرها قسماً من مملكته. وسيأتي الكلام فيه. وقد صالح غراسيان الغطط وسمح لهم أن يقيموا بالمملكة سنة ٣٨٠م.

وقد جاهر غراسيان بتشبثه بعري الدين الكاثوليكي، وأمر مذ تسنّم أريكة الملك أن يعود الاساقفة المنفيون إلى كراسيهم، وأن تُردّ الكنائس على من كانوا خاضعين للحبر الروماني البابا داماسوس (كما روى توادوريطوس ك ٥ فصل ٢). ووجد بعض الاساقفة الكاثوليكين بعد عودهم أساقفة اريوسيين يلون كراسيهم فأحبوا أن يبقى هؤلاء الاساقفة على رئاستهم بشرط أن يستمسكوا بالدين الكاثوليكي. ومنهم اولاليوس أسقف اماسيا، فإنه عرض على الاسقف الاريوسي أن يبقى مترسماً بحيث يتّحد مع الكنيسة الرومانية فأبى مع أنه لم يكن في المدينة إلا خمسون اريوسياً، فغادره ذووه واتحدوا بالكاثوليكين، وأرسل الملك مفوضاً من قبله إلى انطاكية ليصلح شؤونها الدينية. وسنعود إلى الكلام في ذلك عند ذكر بطاركة انطاكية.

ولما أراد غراسيان أن يسافر إلى المشرق لنجدة عمه والنس اقترح على القديس امبروسيوس أن يؤلف له مقالة في لاهوت المسيح ليحجّ بها ذوي التعاليم الفاسدة في المشرق. فألف القديس حيثليّ كتابيه في الايمان. وكتب غراسيان إلى اكويلان نائب روما بتوقيعه وتوقيع أخيه والتتيان الثاني أمراً فحواه أن الملكين يأمران بتنفيذ الاوامر السابقة بأن يبعد مئة ميل عن روما من يحكم عليه مجمع أساقفة بأنه مقلق. ومثل ذلك أن يبعد من المدن من كان مشاغباً. وإنه يلزم الولاة أن يُرسلوا إلى روما تحت الخفر كل من ضبط كنيسة خلافاً لحكم البابا داماسوس مع خمسة أساقفة أو ستة أو لحكم غير هؤلاء من الاساقفة الكالكيين، وكل من دُعي إلى المحاكمة عند الاساقفة، وأبى الحضور حتى لو كان المتمرد متربوليطاً لزمهم أن يكرهوه على أن يشخص إلى روما دون تأخر، أو أن يحضر أمام القضاة المعينين من الحبر الروماني. وإن أصحاب الأخلاق السيئة المعروفين بالسفّه والغيبة لا تُقبل شكاوهم ولا شهادتهم على الاساقفة. على أنه لما كان كل انسان لا يتبرأ من نقيصة كان غراسيان مولعاً بالصّيد ويؤثره أحياناً على مهام الملك تاركاً وزرائه يعتسفون الرعية. واستخدم كثيرين من الجرمانيين المشهورين بفن الصّيد وأكرم مشواهم عنده وأدناهم إليه، وكان يتزيا بزيهم فأسخط جنوده الرومانيين القدماء وكان

له قائد لجيشه في بريطانيا الكبرى يسمى مكسيموس سؤلت له نفسه أن يثّل عرشه ويخلفه في الملك. وبعث الجيش الذي تحت أمرته يسميه ملكاً فلبتوا لدعوته. وأسرع إلى افرنسة، فهبّ غراسيان لمناصبته والتقى الجيشان على مقربة من باريس. واحتال مكسيموس على تأخير الحرب أياماً، وأخذ يغري جنود الملك بتركه. فغادره السواد الأعظم منهم حتى رأى من نفسه العجز عن مصافاة خصمه فأثر الهرب بثلاث مئة فارس تركه أكثرهم أيضاً. وأغلقت كل المدن أبوابها في وجهه، فتنكر جائلاً من محل إلى آخر وفرسان مكسيموس تتعقبه. وبلغ إلى ليون فخانته رجل كان يأكل على مائدته وقد غمره باحسانه. فقد دعا هذا الخائن الملك إلى مأدبة، فتمتّع أولاً خيفة الغدر به، ولكن أقسم الخائن بالإنجيل أنه لا يدع ضراً يمسّه. فانقاد لدعوته. وبعد تناوله الطعام وثب عليه غادر فاغتاله وقد أكثر الملك حينئذ من ذكر القديس امبروسيوس حتى كانت آخر كلمة فاه بها اسم هذا القديس. وقد روى ذلك القديس ابرونيوموس نفسه والدموع تذرف من عينيه في تأبينه والتنتيان وقال إنه لا ينسى هذا الملك ما حيي، ولا ينفك عن ذكره في صلواته إلى الله. وكان يطرأ تقواه وفضائله في كل موقع. وقد ملك غراسيان بعد وفاة والده سبع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام. وكان مقتله في ٢٥ آب سنة ٣٨٣ م.

وكان مكسيموس من بريطانيا على القول الراجح. وقد اجتاز كثيرون من بريطانيا إلى افرنسة واستوطنوا العمل المسمى الآن بريطانيا. وكان والتنتيان الثاني وأمه يوستينا في ميلان ينتظران أخبار ظفر غراسيان، فورد لهما منعاه. وايطاليا خالية من الجنود وتوادوسيوس في المشرق، ولا معين ولا مشير. فلجأت يوستينا إلى القديس امبروسيوس على مقتها له لأنها اريوسية. وأقامت ابنها بين يديه سائلة له بدموعها أن يهتم بهذا الملك الصغير ونجاة المملكة. فمضى القديس امبروسيوس إلى افرنسة يسعى بالوفاق والصلح بين مكسيموس والتنتيان، ولم يغفل عن توثيق مكسيموس على غدره بمولاه وإراقته دماً ذكياً. وقد نجح بوساطته إذ وقّع على عهدة صلح يكون بمقتضاها مكسيموس ملكاً على افرنسة واسبانيا وبريطانيا. ويبقى والتنتيان ملكاً على باقي المغرب. وكان الشعب ينتظر مكافأة كبرى للقديس امبروسيوس من قبل يوستينا وابنها على هذا الصنيع. على أنّ هذه الملكة الاريوسية غمطت النعمة واضطهدت هذا الاسقف لأنه لم يشأ أن يعطي الاريوسيين كنيسة في ميلان. وكادت تهلكه وتخرب المدينة بالشغب الذي حصل فيها. لذلك لولا

خوفها من مكسيموس الذي كتب إلى والتنتيان أن يكفّ عن هذا الاضطهاد. ثم وقعت النفرة بين مكسيموس ووالثنتيان وزحف مكسيموس بجيش جرار إلى إيطاليا ففرّ والتنتيان وأمه وهرع يستنجد توادوسيوس ملك المشرق. ولم يبلغ والتنتيان إلى تسالونيك إلاّ واتقاه توادوسيوس. وزحف بجيشه إلى إيطاليا وقبض على مكسيموس حياً ونزع التاج عن رأسه. وكان يريد أن يستيقه في الحياة لكن بعض أمراء جيشه أخرجوه من المعسكر وتوادوسيوس غافل، فقطعوا رأسه في ٢٨ تموز سنة ٣٨٨م بعد أن ملك نحو خمس سنين. وردّ توادوسيوس ملك المغرب إلى والتنتيان الثاني، فدبره من سنة ٣٨٨ إلى سنة ٣٩٢م وقتله اربوكست أمير الجند غير الرومانيين، وكان مؤيداً للدين المسيحي وإن سطت أمه الارويسية على أفكاره أحياناً.

عد ٥٦٦

توادوسيوس الملك ونقضه هياكل الأصنام وشرائعه الدينية

قد مرّ أنّ توادوسيوس هو ابن الكونت توادوسيوس الذي قتله غراسيان سنة ٣٧٦م ثم سمي ابنه توادوسيوس هذا ملكاً في المشرق سنة ٣٧٨م، وقد رأيت أنه قهر بعد ملكه الغطط وأباحهم أن يتوطنوا في تراسة ٣٨٦م بشرط أن يخدموا المملكة. وإنه انتصر لوالثنتيان الثاني وقتل مكسيموس خصمه. وسترى أنه بعد مقتل والتنتيان سنة ٣٩٣م حارب اربوكست قاتل هذا الملك واوجان الذي نصبه ملكاً واستظهر عليهما واستبدّ في الملك غرباً وشرقاً. وكان توادوسيوس كاثوليكياً يدافع عن الايمان الكاثوليكي، وقد عُني بعقد مجمع في القسطنطينية سنة ٣٨١م انتخب فيه القديس غريغوريوس النزينزي على الكرسي القسطنطيني ، وحرّم بدعة مكدونوس وناصب الارويسيين. وقد أمر توادوسيوس بنقض هياكل الوثنيين وأبطل جعل كهنتهم، ومنع عبادة أصنامهم حتى قلّ من بقي منهم في غير القرى والمزارع المسماة باللاتينية باجي (وعنها أخذ اسم pagani وبالافرنسية païens المراد به الوثنيين).

أما نقض الهياكل الوثنية فقد حمل توادوسيوس عليه هياج أحدثه الوثنيون في الاسكندرية لرؤيتهم تغلّب الدين المسيحي على الوثنية. فثاروا على المسيحيين وقتلوا

كثيرين منهم. فكانوا يقبضون على بعض النصارى ويكلفونهم أن يضحوا للآلهة ومن خالفهم علّقه على صليب وحطموا ساقيه أو أجروا عليه عذاباً آخر. والكنيسة تعيد لكثير من هؤلاء الذين آثروا الموت على الجحود. وعرض الأمر على توادوسيوس فأثنى في جوابه أعظم ثناء على المسيحيين الذين فازوا بإكليل الشهادة في هذه الأحداث. وقال أنه لا يريد أن يمزج دم القاتلين بدم الشهداء بل يعفو عنهم رجاء أن يفقهوا أنّ الدين الذي يضطهدون أهله كان علّة بقائهم أحياء. لكنه يأمر بنقض هياكل الاسكندرية التي كانت منبعاً للفساد والمكاييد. وعهد إلى تاوافيولوس بطريك الاسكندرية بتنفيذ هذا الأمر. وأمر الوالي أن يمتنّ الاسقف من ذلك. وأن يُدفع إلى الكنائس كل ما كان في هياكل الأصنام من الزينات والتماثيل لتباع ويُفق ثمنها على سدّ فاقة الفقراء. فابتدأ تاوافيولوس في نقض هيكل سرايس وكان أجّل معبود في الاسكندرية، وحطّم تمثال هذا الإله الذي كان في هيكله وأحرقه. ولم يدع تاوافيولوس هيكلًا في الاسكندرية إلّا ودمره، ولا تمثال إلّا وكسره أو أحرقه. وأتبع بذلك هيكل كانوب وهي أبو قير وغيره من الهياكل في مصر. وكتب إلى سائر أساقفة مصر فاقتدوا بغيرته وسقطت الوثنية في مصر مع هياكلها وأصنامها، وأقبل كثيرون من الوثنيين إلى الايمان في تلك الاثناء.

وأما في سورية فأبى أهل كثير من المدن الطاعة لأمر الملك، منهم أهل غزة فإنهم عزموا أن يضحوا بنفوسهم فداء لمعبودهم مرناس. فاجتزئ الوالي بأن يقفل معابدهم، وأهل رافيا في فلسطين آلوا أن لا يطيعوا أمر الملك ولو قتلهم عن آخرهم فأغضى الوالي طرفه عنهم.

وأما في دمشق فحوّل هيكل الأوثان إلى كنيسة وكذلك هيكل الشمس الشهير في بعلبك إلى كنيسة بعد أن ذبّ عنه الوثنيون بالقنا والقواضب. ولما سمع أهل اباميا بأمر توادوسيوس هاجوا وماجوا واستدعوا رجالاً وثنيين من الجليل وصمموا على المدافعة عن هياكلهم. على أنهم لما رأوا حاكم المشرق في مدينتهم يصحبه قضاة وجنود عدلوا عن المقاومة. فذمرت هياكلهم إلّا هيكل المشتري فإنّ بناءه كان متيناً وحجارته ضخمة مرتبطة بعضها ببعض بحديد ورمصاص. فحاول الحاكم نقضه وكان تعب جنوده عبثاً. فأشار عليه القديس مرسل أسقف المدينة أن ينتقل إلى نقض غيره من الهياكل. وأخذ هذا القديس يصلي إلى الله ليهديه إلى وسيلة لنقض هذا البناء. وكان الهيكل على رابية تحديق به من الجهات الأربع اروقة

قائمة على أعمدة محيط كل منها ست عشرة ذراعاً وصخرها صلد قلماً تؤثر الآلات به. فوفد على القديس رجل لا يعرف صناعة البناء قائلاً أنه يتكفل بهدم الهيكل بنفقة يسيرة. وأخذ الرجل يحفر في جانب ثلاثة أعمدة فوجد أنها قائمة في أسسها على قطع من خشب الزيتون. فأضرم النار عليها فاحترقت ولما لم يبق للأعمدة الثلاثة أس ترسخ عليه تداعت وسقطت وجذبت معها باقي الأعمدة، وأتبعها باقي البناء فمجد المؤمنون الله. وكان في إحدى نواحي اباميا هيكل كبير يسمى اولون فمضى إليه الاسقف مع الجنود والشرط لأنّ الوثنيين كانوا تألبوا للمدافعة عنه. واستمر مرسل الاسقف بعيداً عن ساحة القتال، فاستحوذ الجنود على الهيكل وخرج بعض الوثنيين ، ولما وجدوا الاسقف وحده وثبوا عليه وألقوه في نار لقي ربه بلظاها، وعزم ابنأوه أن يثأروا به بقتل قاتليه. فعقد الاساقفة مجمعاً اقليمياً نهاهم عن ذلك. والكنيسة اللاتينية تعيد للقديس مرسل أسقف اباميا في ١٤ من شهر آب (روى ذلك توادوريطوس ك ٥ فصل ٢١ وسوزومانوس ك ٧ فصل ١٥).

وكان توادوسيوس يقيم في تسالونيك، ولدى تفحصه عن حالة الدين في مملكته اتضح له أنّ جميع مسوديه في المغرب إلى مكدونية مجمعون على الايمان الصحيح بسرّ الثالوث الأقدس. وأما سكان المشرق فمنقسمون إلى بدع عديدة ولا سيما في القسطنطينية فأصدر في ٢٨ شباط سنة ٣٨٠م شريعة مفتوحة بكلمة *conctos populos* (أي جميع الشعوب) وهاك نصها:

«من غراسيان ووالنتيان وتوادوسيوس الملوك إلى شعب مدينة القسطنطينية، إننا نرغب في أنّ جميع الشعوب الخاضعين لولايتنا يتشبثون بالايمان الذي أرشد القديس بطرس الرسول الرومانيين إليه. كما يظهر من أنّ هذا الايمان حُفظ في روما إلى الآن، ويلزم أن نتابع عليه داماسوس الحبر الروماني وبطرس أسقف الاسكندرية المتّصف بالقداسة الرسولية. فإننا نعتقد بحسب إرشاد الرسل وتعليم الإنجيل أنّ للآب والابن والروح القدس لاهوتاً واحداً وعزّة متساوية في ثالوث مقدّس. ونأمر أنّ من يدعون لهذه السنّة يسمون مسيحيين وغيرهم ممن نعتقدهم حمقى يسمون هراطقة . وإنّ مجتمعاتهم لا تسمى كنائس وندع عقابهم إلى انتقام الله أولاً ثم إلى ما يلهمنا الله إليه». وقد وجه هذه الشريعة إلى القسطنطينية عاصمة الملك ليتيسر اذاعتها في باقي أعمال المملكة. وذكر بطريك الاسكندرية دون غيره من البطارقة، لأنّ كرسيه أقامه مرقس تلميذ بطرس. ولم يذكر بطريك انطاكية لأنّ

هذا الكرسي كان حينئذٍ يتنازعه ملاتيوس وبولينوس. وفي تلك السنة نفسها أصدر
شريعة حظّر بها على القضاة أن يتعقبوا المجرمين في أيام الصوم لأنها أيام طلب
المغفرة من الله كما يقول في شريعته. وأوقف ملاحقة الدعاوي في سبتي الفصح
وأيام الآحاد في السنة كلها. ومنع في هذه الأيام فتح المشاهد والملاعب والحضور
فيها إلى غير ذلك من شرائعه المحكمة والمؤذنة برسوخه في الدين.

عد ٥٦٧

ثورة أهل انطاكية على توادوسيوس الملك

وفي سنة ٣٨٧م أراد توادوسيوس أن يحتفل لمضي السنة الرابعة وابتداء الخامسة
لتمليك ابنه اركاديوس معه، ولكي يزيد هذا العيد بهجة واحتفاءً، ضمّ إليه حفلات
بلوغه السنة العاشرة من ملكه. وكان من عادتهم أن يكرموا في هذا المعرض الجنود
بمال، فاضطرّ توادوسيوس أن يفرض على المملكة ضريبة غير عادية للقيام بالنفقات
اللازمة لهذه الحفلات وللحرب التي كان يرى أن لا مناص منها. ولما بلغت أوامره
إلى انطاكية لم يفرغ واليها من تلاوة منشوره، إلّا هاج الحاضرون وماجوا وهتفوا أنّ
هذا العبء لا يُحتمل. وإنه لو باعته الحكومة وما ملكت يدهم لم يكونوا كفوّاً
لوفاء هذه الضريبة. وانتشروا في المدينة يصيحون: «يا للخراب يا للدهية الدهماء»
وانضمّ إليهم من كان في مدينتهم من الأجانب والأرقاء والأشقياء، وأخذوا يطوفون
في المدينة ويحطمون تماثيل الملك التي كانت كثيرة فيها وتماثيل الملكة وبناتها،
وشدوا عنق بعض التماثيل بحبال وكانوا يجرونها في الأزقة، وكسروا بعضها ودفنوا
أفلاذها إلى الاحداث ليصنعوا بها كذلك. ثم استفاق هؤلاء الجهلة من سورة
حنقهم فارتاعوا وهرب بعضهم واختبأ غيرهم، وكفى الجنود في تشتيت شمل
الباقين تصويب بعض الاسهم إليهم. وأدرك الأهلون عاقبة صنيعهم الوخيمة،
فارتعدت فرائصهم، ووجسوا لما سيحلّ بهم من العقب. وعزم أكثرهم على مهاجرة
وطنهم. وأخذ الأغنياء يدفنون أموالهم أو ينقلونها بعيداً. وفي الصباح غصّت
الشوارع بالرجال والنساء والاطفال والشيوخ هارين من وجه رجال الحكومة ولا
هربهم من الحريق. وانتشروا في الجبال والغابات والمغاور وصرف الوالي قصارى
جلده في توقيف رجال الندوة عن الفرار من المدينة. وفي الغد جلس القضاة على

كراسيهم في المحكمة وأخذوا يحكمون بالعذاب والسجن على كل من قبض الجنود عليه. ولو لم تكن له جريمة إلا تقاعده عن منع هذه الثورة. وكثر العويل وولولة النساء وانطراحن على أقدام الجنود ليكنوهن من معاناة أولادهن أو معاونتهن لهم. ولما سدل الليل ستره فتح باب المحكمة وخرج كثيرون من وجوه انطاكية مكبلين بالقيود مشعين بجراحهم يحدق بهم صفان من الجنود يستاقونهم إلى محل تنفيذ قضاء الموت عليهم. وتتبعهم نساؤهم وبناتهم وأمهاتهم حاسرات نائحات وقد غُمي على كثيرات منهن عند ابسال أهلتهن. وحُملن إلى بيوتهن فوجدت مقفلة بأمر الحكومة وقد ضُبط كل ما كان لأزواجهن من مال أو عقار أو متاع. واستمرت المحاكمة خمسة أيام على هذا النمط.

وكان أهل انطاكية في ذلك العصر منصبين على الترف والخلاعة وكان القديس يوحنا فم الذهب يعظ منذ سنتين على منابرهما، وهو كاهن وكان أهلها نحواً من مئتي ألف نفس أكثر من نصفهم نصارى. ولم تكن فصاحته العسجدية تجذب لسماع كلامه إلا قليلين، إذ كان الكثيرون منهم يؤثرون أن يشهدوا الملاعب والمراقص وترويح النفس بالجنائن على سماع كلام الله. وأما بعد حلول هذه المصائب، فأصبحت انطاكية كلها كأنها دير، تغصّ معابدها الفسيحة بالزائرين وتزدحم فيها الأقدام. واستمر يوحنا منذ يوم الجمعة ٢٦ شباط يوم حصول الثورة إلى يوم الخميس التالي صامتاً لا يقول شيئاً. وكانت الحكومة قد جرّت أخصّ المجرمين. وعاد إلى المدينة من أقصاهم روعهم عنها، فألقى فم الذهب حيثث في مدة الصوم عشرين خطبة تزرّي بخطب فصحاء أثينا وروما. وكان يقيم بها سامعيه بين رجاء العفو من الملك واحتقار الموت ويصرف أفكارهم عن خيرات هذه الأرض إلى الرجاء بنيل نعيم ملكوت السماء.

وكان رجال الحكومة قد أرسلوا سعاة إلى الملك توادوسيوس ينبئونه بما كان في انطاكية. وأحبّ أهلها أن يوفدوا إليه من يشفع بهم فلجأوا إلى افلايانوس بطريركهم وكان هرمأ معزراً عند الملك، فلم تقعه شيخوخته ولا احتضار اخته الوحيدة العزيرة لديه، ولا مشاق السفر الطويل عن تلبية دعوتهم. فمضى مسرعاً إلى قسطنطينية وكان السعاة قد سبقوه إليها فاستشاط الملك غيظاً لاختبارهم، وأمر لأول وهلة بدك المدينة كلها ودفن أهلها تحت أنقاضها. ثم خمدت جذوة حدّته وأمر أن يتوجّه هلييكوس القائد وقيصريوس أحد وزرائه ليفحصوا عن المجرمين

ويجزوهم بما ينطبق على العدل. وأمرهم أن يقفلوا المشاهد والمتدييات والعامه. وأن يجردوا المدينة من امتيازاتها ويلغوا تسميتها عاصمة أو قصبه حتى إسوة إحدى القرى، وأن تصير اللاذقية عاصمة سورية. فالتقى المفوضان بافلايانوس في الطريق فزاده غمًا على غمه إذ أنبأه بما أمرهما الملك، وبلغ الملك إلى انطاكية في ٢٩ آذار سنة ٣٨٧م وغصت الطرق بمن خرجوا ومن محامد توادوسيوس انتخابهما من أفضل وزرائه وأكثرهم نزاهة وأشخصا في اليوم التالي جميع رجال ندوة المدينة، وأباحا كلاً منهم أن يدا نفسه. ولم يكونا يتمالكان من ذرف الدموع عند بكاء المدعى عليهم أو ولكن دون أن تحجب شفقتهم بما يقتضيه العدل. وأقاما المحكوم عليهم عند ضمن سور مخפורين وكان أكثرهم من الوجهاء والأغنياء. وفي اليوم أخرجاهم باكرًا لإعلان الحكم وتنفيذه عليهم. فتولت الكآبة سكان انطاكية العويل واشتد النحب وتسارع الناس من كل صوب، ورأى المفوضان أنه بهما جثم غفير صفر الوجه هزلى الأجسام سود الملابس، وكان هؤلاء الحبس ضواحي انطاكية قد تألبوا حول المفوضين، ومدوا أعناقهم قائلين اقتلونوا نحن من هؤلاء. أو أرسلونا إلى الملك فنحن موقنون أنه مسيحي ورع فينعطف إلى تضرعنا إليه. ولا نسمح لكم أن تلطخوا أيديكم بدم اخوانكم أو نموت معهم. المفوضان في أن يتملصا منهم قائلين ليس في مقدورنا العفو عن هؤلاء ولا أمر الملك، وإلا فنكون نحن مؤاخذين كشعب انطاكية. وسارا في طر فالتقاهما شيخ قصير الثامة، متشح بخلقان رثة، فأمرهما أن ينزلا عن جواد فاستغربا جسارة هذا الشيخ وأرادا دفعه فقبل لهما أنه مكدونوس الشهير في ا. حيثل بنسكه وفضائله، فترجل المفوضان وسألاه أن يغفر لهما ويعذرهما بتنفيذ مولاهما. فقال لهما قولاً للعاهل أنت لست ملكاً فقط بل أنت انسان أيضاً على من يساوونك طبعاً، والطبع البشري خلُق على صورة الله ومثاله فلا صورة الله، ومن أتلف المصنوع أسخط الصانع، فالملك وأنتما ساطون وقعت على تمثال من نحاس، أوليس التمثال الحي المتنفس العاقل أعظم من تمثا نحاس؟ فييسر لنا أن نقدّم للملك مكان التمثال عشرين تمثالاً، ولكن إذا واحداً استحال عليه أن يحيي شعرة واحدة من رأسه. فكان لكلامه وقع شديد قلب المفوضين ووعده أن يبلغا الملك ما قال. وبلغ المفوضان أبواب الحكمة

اقتادوا المجرمين فاعترضهما الكهنة والاساقفة الذين كانوا في انطاكية يومئذ، وأوقفوهما معلنين لهما أنّ لا بدّ لهما من أحد أمرين: إما أن يدخلوا المحكمة على جثثهم، إما أن يعدا بالعفو عن المقبوض عليهم. وأصروا على منعهما من الدخول، فحار المفوضان في أمرهما أيسخطان الملك بمخالفة أوامره أم يديان القسوة على هذا الحشد، ولا سيما الاساقفة والكهنة والرهبان، وأشارا إلى الجمع بأنهما يجيبان سؤالهم. فهتف الجمهور هتاف السرور والشكر، وانطرح كثيرون على المفوضين يقبلون أيديهما وأرجلهم. ودخل والشعب والكهنة إلى المحكمة ولم يتمكن الخفراء من صدّهم، وتعاضم صراخهم إلى القضاة أن يرفعوا الأمر إلى الملك فاغرورقت أعين الحاضرين والقضاة بالدموع، وعزموا أن يؤجلوا تنفيذ الحكم إلى صدور أمر آخر من جانب الملك توادوسيوس. وأتفق المفوضان أن يبقى هلييكوس في انطاكية ويمضي قيصاريوس إلى قسطنطينية فيوقف الملك على جلّية ما كان. ورفع الكهنة والنسك عريضة للملك واستمر المجرمون في سجن دون تضييق عليهم.

ومضى قيصاريوس مسرعاً إلى قسطنطينية لا يصحبه إلاّ خادمان، فبلغ إليها بعد سبعة أيام ودخل على الملك ورفع إليه عرض ما كان من أسباب الثورة وعقاب بعض الجانين وما كان معهما، فذرفت دموع الملك واستولى الحنان على قلبه ولم يكن افلاييانوس قابل الملك بعد إما لظنه أنّ الملك ما برح محتدماً، إما لأنّ الملك لم يسمح له بمقابلته. ومضى إلى القصر بعد بلوغ قيصاريوس وأذن له الملك بالامثال أمامه. فوقف بعيداً مطرقاً الطرف باكياً كأنه حامل على نفسه جرائم مواطنيه. فاقترب الملك إليه متلطفاً وأخذ يذكره بما صنعه إلى أهل انطاكية، ويختتم كل عبارة من كلامه بقوله أهذا ما استحققت بسببه الاهانة من أهل انطاكية؟ وافلاييانوس لا يتكلم إلاّ بذرفان دموعه وتنفس الصعداء. ولما فرغ الملك من كلامه قال ما ملخصه: «مولاي لا نجهل ما لك من العطف إلى موطننا وما يزيدنا حزناً أن نكون أسأنا إلى من أحسن إلينا وغمطنا نعمته، فاخرب أحرق أقتل إفعل ما شئت بنا فتكون جريتنا بأقل مما نستحق، لأنّ الشرّ الذي اتيناه أشنع من ألف موت. ولو دمرّ البرابرة بلدنا لكان مصابنا أخفّ من اسخاطنا اياك لأنّ وجودك يجدد وطننا ويردّ علينا ما خسرنا وقد أسخطنا أحلم مولى وأحقّ أب، فأني ملجأ بقي لنا وخجلنا عظيم حتى لا نجسر أن ننظر إلى نور الشمس... قد أقلب بعض الجهلة تمثالك فييسر لك أن تقيم تماثيل أئمن منه في قلوب رعيك وقلوب كل من عاش

على الأرض من البشر. فإنّ كل من عرف حلمك عجب بك وأحبك. رشق بعضهم تمثال قسطنطين بالحجارة فأعزاه بعض ذويه بالانتقام منهم قائلين قد شجوا رأسك فوضع يده على رأسه وقال مبتسماً لا تخافوا فلا خدش في رأسي. فنسي الناس انتصارات هذا الملك وما برحت هذه الكلمة تتناقلها أفواه الناس وهي راسخة في قلوبهم. وما لي أذكرك بمثل الآخرين فأنت قلت في أمرك الذي عفوت به في عيد الفصح عن المجرمين وخليت سبيل المسجونين إنك تتمنى لو كان لك سلطان على إقامة الموتى فتبعنهم، فالآن يسهل عليك صنع هذه الآيّة، فما انطاكية اليوم إلاّ مدفن، وما أهلها إلاّ جثث فيها، فقد ماتوا قبل أن ينزل بهم العقاب الذي استحقوه، فكلمة واحدة من فيك تحييهم.

أنظر مولاي غير مأمور أنّ الغرض ليس هذه المدينة وحدها بل مجدك وفخر الدين المسيحي أيضاً. فقد عرف اليهود والوثنيون والبرابرة ما كان وهم ينتظرون أن يروا ما تصنع. فإن ظهر لهم حلمك وعفوك قال بعضهم لبعض ما أشدّ قوة الدين المسيحي إذ يجعل الملك القدير المطاع الأمر أحلم وأحكم من انسان يعسر عليه الانتقام لنفسه، وما أعظم إله النصارى إذ يصير بعض الناس ملائكة ويرفعهم إلى ما فوق الطبع البشري. لا تصنع مولاي إلى من يقولون أنّ الفصح لهؤلاء يزيد غيرهم جسارة فإنما هذا يصدق على ما إذا صفحت عن عجز. وها هم أموات بجزعهم ويتوقعون العذاب الاليم في كل ساعة ولو قطعت رؤوسهم لكان عذابهم أخفّ. ولا أزيدك علماً بأنّ بعضهم افترستهم الضواري وهم تائهون في الغابات. وبعضهم قضوا أياماً وليالي ترتعد فرائصهم في المغاور وهم رجال وأحداث ونساء شريفات مخدرات، وقد أذاق عمالك كثيرين منهم مرّ العذاب. ليس أيسر للملك من التتكيل بعبيده المجرمين واما صفح الملوك عن الإهانات وهم قادرون على العقاب فمن أندر الفضائل وأعظمها. فدونك الآن فرصة تبدي فيها مثلاً يقتدي به الأجيال المقبلة، وتشترك منذ اليوم بكل ما ينشأ عن ذلك من أعمال الانسانية والحلم المشرفة. وكم يكون لك من الفخار إذا قيل فيما بعد أنّ مدينة كبرى اسخطت ملكها فارتاع سكانها ولم يجسر ولائها ولا قضاتها ولا شعبها أن يفوها بينت شفة إلاّ شيخاً موسوماً بكهنوت الله امثل أمام الملك واستنطف حنانه ورأفته، فكفاه للنفو عن أهلها انتصابه أمامه وإلقاؤه على مسمعه خطبة بسيطة. فلم يوفدني قومي إليك إلاّ لتيقنهم بأنك تجلّ كهنة الله وإن حقيرين مثلي. على أنني ما أتيتك من

قَبِلَ الشَّعْبُ وَحْدَهُ بَلْ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ لِأَقُولَ لَضَمِيرِكَ النَّقِيَّ الْوَرَعَ الشَّفِيقِ إِذَا تَرَكْتَ لِلنَّاسِ زَلَاتِهِمْ، تَرَكَ لَكَ أَبُوكَ السَّمَاوِيَّ زَلَاتَكَ. فَإِنْ كَانَ لَكَ زَلَةٌ تَرُغِبُ فِي أَنْ تَكْفُرَ عَنْهَا فَكَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ فَيْكِ كَافِيَةٌ لِحَوْهَا مِنْ أَسْفَارِ اللَّهِ. غَيْرِي مِنَ الْوُفُودِ يَا تَيْكَ بِذَهَبٍ وَفُضَّةٍ وَتَقَادِمٍ وَأَمَّا أَنَا فَلَا أَقْدَمُ لَكَ إِلَّا سَتْنَا الْمُقَدَّسَةَ مُحَرِّضًا إِيَّاكَ أَنْ تَقْتَدِيَ بِمُخْلَصِنَا الَّذِي لَا يَنْكَفُ عَنْ أَنْ يَتَحَفَّنَا بِنِعَمِهِ وَخَيْرَاتِهِ وَلَوْ أَثْمَنًا إِلَيْهِ كُلِّ يَوْمٍ. فَلَا تَخَيِّبْ آمَالِي وَتَجْعَلْنِي أَخْلَفَ وَعُودِي لَشَعْبِكَ، وَكُنْ مَوْقِنًا أَنَّكَ إِذَا عَفَوْتَ عَنْ مَدِينَتِنَا عَدْتَ إِلَيْهَا شَاكِرًا مَطَرِيًّا أَحْسَانَكَ. وَإِنْ لَمْ تَعَفُ عَنْهَا فَلَا أَرَيْنَ أَرْضَهَا وَاتْبَرًا مِنْهَا مَا دَمْتُ حَيًّا.

وَلَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْفِيَ مَا كَانَ لِهَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْوَقْعِ الشَّدِيدِ فِي قَلْبِهِ وَلَمْ يَفْرَغِ الْإِسْقَفُ مِنْهُ إِلَّا وَذَرَفَتْ عَيْنَا الْمَلِكِ بِالْذُمُوعِ وَقَالَ أَيُّ عَجَبٍ فِي أَنْ نَغْفِرَ لِلنَّاسِ وَنَحْنُ بَشَرٌ مِثْلَهُمْ وَمُخْلَصُ الْعَالَمِ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ وَصَارَ عَبْدًا لِأَجْلَانَا وَنَحْنُ إِلَيْهِ آثِمُونَ. وَصَلَبَهُ مِنْ غَمَرِهِمْ بِأَحْسَانِهِ وَهُوَ يَصَلِّيُ إِلَى أَبِيهِ مِنْ أَجْلِهِمْ. وَالتَفَتَ إِلَى أَفْلَايَانُوسَ قَائِلًا عَدَّ يَا ابْنِي مُسْرِعًا إِلَى شَعْبِكَ وَاثْمَنَ انْطَاكِيةَ فَقَدْ عَفَوْتَ عَنْهَا وَعَنْ كُلِّ مَنْ أَهْلَهَا. وَسَأَلَهُ الْإِسْقَفُ أَنْ يَرْسِلَ إِلَيْهَا ابْنَهُ أَرْكَادِيُوسَ فَأَجَابَهُ: تَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ لِيُخْلَصِنِي مِنَ الْحَرْبِ الَّتِي تَهْدِدُنَا، فَتَرَانِي بِنَفْسِي هُنَاكَ دُونَ بَطْءِ فَعَادِ أَفْلَايَانُوسَ مُسْرِعًا وَأَرْسَلَ سَعَاءَ يَجِدُونُ السَّيْرَ لِيُبَلِّغُوا أَمْرَ الْمَلِكِ إِلَى هَلِيُكُوسَ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى بَيَانِ مَا كَانَ لِهَذِهِ الْبَشَرَى فِي انْطَاكِيةَ مِنَ السَّرُورِ وَالْبَهْجَةِ وَالْإِحْتِفَاءِ. وَلَا مَا كَانَ لِأَفْلَايَانُوسَ عِنْدَ قُدُومِهِ مِنْ حَفَلَاتِ الْمُتَلَقِّيِّ وَالْإِكْرَامِ. وَقَدْ أَنَا لَهُ اللَّهُ التَّعْزِيَةَ بِأَنَّ أُخْتَهُ حَيَّةٌ بَعْدَ أَنْ تَرَكَهَا مُحْتَضِرَةً. وَبِأَنَّ يَحْتَفِلَ بِعِيدِ الْفَصْحِ بَيْنَ شَعْبِهِ. وَكَانَ إِذَا سَأَلَهُ أَحَدٌ عَمَّا كَانَ لَهُ مَعَ الْمَلِكِ أَجَابَ أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا وَإِنَّ اللَّهَ صَنَعَ كُلَّ شَيْءٍ بِتَخْمِيدِهِ غَضَبَ الْمَلِكِ. وَعَطَفَ قَلْبَهُ إِلَى الشَّفَقَةِ عَلَى رَعِيَّتِهِ كَمَا شَهِدَ فَمَ الذَّهَبَ فِي خُطْبَتِهِ ٢١ وَأَقَامَ أَهْلَ انْطَاكِيةَ تَمَثَّالِينَ تَكْرِمَةً لِهَلِيُكُوسَ وَقِيصَارِيُوسَ.

عد ٥٦٨

مقتلة سالونيك وما كان بسببها للملك توادوسيوس

مع القديس امبروسيوس

كانت سالونيك في ذلك العصر قصبة ايليريا وقد توفر عدد شعبها وثروتهم

وعكوفهم على الترف والملاذ وشغفهم بحضور الملاعب والمشاهد ولا سيما سباق العجلات. وكان أحد الساقية المشهورين في هذا الفن مسجوناً، فأتى بعض جهلة القوم يسأل الوالي التفريج عنه ليشترك في السباق، فأبى الوالي تخليه سبيله فهاج كثيرون وأدّى بهم الحمق إلى قتل رجال الحكومة ورجم الوالي بالحجارة. وكان الملك توادوسيوس وقتئذ في ميلان (بايطاليا) فاستشاط غيظاً وأمر أولاً بخراب المدينة والتنكيل بأهلها. فحمد القديس امبروسيوس والاساقفة الذين كانوا ملتجئين في هذه المدينة جذوة غضبه، ووعدهم أن يلزم جادة العدل والانصاف. على أن بعض عماله والمقرين إليه أغروه بلزوم كبح الثائرين والتنكيل بهم تأدياً لهم وإرهاباً لأمثالهم. ولم يعسر عليهم اتقاد النار التي لم تكن طُفئت. فأخلف وعده وجزم أن يُنزل بعامة السالونيكين عقاباً رادعاً، وأوصى ذويه أن يكتموا على امبروسيوس ما جد له من العزم. وأنفذ أوامره بقتل كثيرين من سالونيك وزايل ميلان حذراً من أن يكشف السرّ ويؤذنه القديس امبروسيوس على إخلاف وعده. وبلغ أمره إلى والي سالونيك فأعلن بأنه سيكون في اليوم التالي سباق المركبات. فأقبل جم غفير من الشعب إلى ساحة السباق غير مباينين. وكان الجنود محدقين بالساحة فأوعز الوالي إليهم أن يفتكوا بالقوم ، فاندفعوا يقتلون كل من وصلت يدهم إليه غير مميزين بين رجل وامرأة أو طفل أو شيخ أو بين بارّ ومجرم أو وطني وأجنبي. حتى كان عدد القتلى سبعة آلاف نفس. وعن بعضهم خمسة عشر ألفاً. وما روي أن أباً رأى ولدين له بيد الجنود فتضرّع إليهم أن يقتلوه بدلاً من ولديه فيدفع لهم كل ما يملكه من ذهب وفضة فأخذتهم الشفقة عليه وقالوا اختر واحداً من الولدين فتركه ونقتل الآخر. فوقف الأب يجيل بنظره في كلي منهما ويكي ولم يتمكن من التفريق بينهما فقتلتهما الجنود بحضرته ثم أتبعوه بهما. أما توادوسيوس الملك فندم بعد مضي الساعة، وأرسل سعاة آخرين ينقض أمره الأول فلم يبلغ هؤلاء إلا بعد المقتلة. وبلغت أخبار المقتلة إلى ميلان فسألت القديس امبروسيوس والاساقفة، لكنهم لم يريدوا أن يأتوا إلى الملك قبل أن يستفيق من فظاعة إثمهم. وقبل يومين أو ثلاثة من عود الملك إلى المدينة خرج القديس امبروسيوس إلى البرية بحجّة انحراف صحته، وكتب إلى الملك رسالة بخط يده ليؤكد له أنه لم يعلم بها غيره، وما قاله له فيها: «إنّ ضميري يكتني متذكراً قول النبي إذ لم ينصح الكاهن الأثيم فيموت يائمه، ويأثم الكاهن لتقاعده عن النصيح فلا أنكر أيها الملك ما لك من الغيرة على الايمان

وما بقلبك من خوف الله على أنك ذو طبع متحفّز للغضب، وإذا حلمك أحد عدت سريعاً إلى الحلم فاسأل الله أن لا يكون لك من يهيجك إذا لم يكن لك من يحملك على الحلم». ثم يبيّن له فظاعة ما جرى في سالونيك مستشهداً برغبته في نقض أمره الأول ومفصّحاً له عمّا تولّى الاساقفة من الظلم والكدر إلى أن يقول إنّ اشتراكى معك لا ييرثك من الاثم بل يثقلني بخطيتك. ولا يبقى لك ناصح لتتوب إلى الله ليتوب عليك. ويذكره بأمثال الملوك الذين تابوا ولا سيما داود قائلاً: أنت انسان عُرضت لك تجربة فانتصر عليها، فالاثم لا يُمحى إلا بالدموع. والله لا يغفر إلا لمن تاب. ولا يستطيع ملك ولا رئيس ملائكة أن يغفر الخطايا إلا بالتوبة. فأشير عليك وأنضّرَ إليك وأحرّضك وأنصحك أن تتوب فلا أجسر أن أقدم الذبيحة إذا رغبت في أن تشهدا فإنّ ذلك منحطور على من أراق دم بريء واحد فما ترى في من أراق دماء كثيرين؟ فأنا أحبك وأجلّك وأصلّي من اجلك فإن وثقت بذلك فارعو بالتوبة إلى الله، وإن لم تثق بصدق كلامي فاعذرني إذا فضّلت الله عليك (رسالة ٥١).

ومع هذا أصرّ الملك توادوسيوس بعد عوده إلى المدينة على أن يأتي إلى الكنيسة، فالتقاه القديس امبروسيوس إلى خارج الرواق وأبان له فظاعة المقتلة التي أجراها قائلاً: «كيف ترفع إلى الله يدان ما زالتا تقطران دماً أرقته جوراً؟ وكيف تقبل على هاتين اليدين جسد الرب المقدّس وتناول دم الرب الكريم أنت الذي بسورة غضبك سفكت دماء الابرياء؟ فاعتزل من هنا ولا ترد إثماً على إثمك الفظيع». وأراد الملك أن يلتمس له عذراً بمثل داود الذي أقدم على الفسق والقتل فأجابه القديس: اقتديت بإثمه فاقتديت بتوبته. فانصرف الملك وأخذ يياشر أعمال التوبة بحسب نظام الكنيسة في ذلك العصر مدة ثمانية أشهر أي من شهر نيسان سنة ٣٩٠م إلى عيد الميلاد تلك السنة، فأرسل الملك حينئذ روفينوس أحد المقربين إليه يكشف الاسقف بحله من إثمه. ونهض آتياً بأثره إلى الكنيسة قائلاً أمض وإن أنزل بي إهانة استحقها. ولم يدخل الكنيسة بل مضى إلى ردهة الاستقبال في جانبها متضرعاً إلى الاسقف أن يحله من إثمه، فقال له القديس امبروسيوس إنّ اتيانه على هذا النحو يخالف سنّة الكنيسة. فقال له الملك: أنا أحترم هذه السنن ولم أدخل رواق الكنيسة محافظةً عليها بل آتيت توّاً إليك راجياً أن تحلّي من هذا الوثاق عملاً برأفة مخلصنا، ولا توصل بوجهي باباً مفتوحاً لكل تائب. فأجابه

امبروسيوس: أية توبة صنعت بعد إثمك الفظيع، وبأي دواء عالجت جراح نفسك؟ فقال الملك أعلمني بما يلزمني فأتممه. فأجاب القديس علمت أنّ سرعة احتدامك بعثتك على هذه المعصية الكبرى، فعليك أن تروّض ميلك إلى الغضب وأن تفترض سنة أن لا تنفذ الاحكام بالقتل وضبط الاملاك إلا بعد شهر من صدورها. فكتب هذه السنة لساعته ووقع عليها بيده، فحلّه القديس امبروسيوس حيثنّ ودخل الملك إلى الكنيسة ولم يصل جاثياً أو منتصباً بل مكتباً على الحضيض مكرراً قول النبي داود: «لصقت نفسي بالتراب فأحيني حسب كلمتك». وكان يذرف الدموع وإذا رآه الشعب في هذه الحال شاطره الصلوات والبكاء. روى هذا الخبر كثير من المؤرخين ولا سيما توادوريطوس (ك ٥ فصل ١٧) وسوزومانوس (ك ٧ فصل ٢٥). ولا نعلم أيهما أحقّ بالاطراء القديس امبروسيوس على غيرته المتقدمة التي لا تهاب سطوة الملوك، أم الملك توادوسوس على ورعه وتذله لرئيس دينه وإبدائه مثلاً صالحاً يُقتدى به.

عد ٥٦٩

ما بقي من أخبار توادوسوس الملك إلى وفاته

قد مرّ أنّ اربوكست اغتال الملك والتنتيان سنة ٣٩٢م وخشي أن يرتقي إلى منصّة الملك وهو من البرابرة أي غير روماني. فاختر اوجان الذي كان كاتب سرّ الملك، وكان مشتهراً بفصاحته، فأوفده إلى الملك توادوسوس يكشفه برضاه عنه ويعرض عليه الاتفاق إذا أحبّ أن يشاركه في الملك. فأمسك توادوسوس وفود اوجان أياماً عنده ثم صرفهم بعد أن اتّحفهم بتقادم واسمعهم كلمات طيبة. وأخذ يستعدّ للحرب إذ رأى أنّ شرفه وأمنيته يقضيان عليه أن لا يسالم خونة، بل أن يثأر منهم بدم والتنتيان نسيبه. ومن جملة معداته لهذه الحرب التجاوّه إلى الله بالصلوات وطلبه المؤمنين الاتقياء أن يصلّوا من أجله. ولدى عوده إلى المشرق جدّد اهتمامه برّد الكنائس على الكاثوليكين وضاعف جوده بالنفقات على بناء كنائس وأديار جديدة وعلى تزيينها. وروى البطريق اسطفانوس الدويهي في تاريخه أنّ الملك توادوسوس هذا هو الذي بنى دير قنوين كرسي بطيركية الموارنة، وجعل له الرئاسة على أديرة لبنان كلها. ومما سنّه في سنة ٣٩٢م شريعة حكم بها بالنفي

على من يلقي الشغب مमारياً في الايمان الكاثوليكي. وشريعة نهى بها الوثنيين أين كانوا عن تقديم الذبائح والبخور والخمر للاصنام. وكان اوجان يستعد للحرب أيضاً. وفي سنة ٣٩٤م زایل توادوسيوس قسطنطينية عاهداً بتدبير مهام المملكة في المشرق إلى ابنه اركاديوس وانوريوس الذي كان قد سماه اغوستس في ١٠ ك ٢ سنة ٣٩٣م، وبلغ ايطاليا وجاوز جبال الالب وقتل فلافيان قائد جيش اوجان الذي كان يخفها. وكانت له وقية مع اوجان في سهول اكويلايا دامت النهار بطوله. وكانت الحرب سجلاً، وظنّ اوجان أنه قهر توادوسيوس، وأنّ الحرب انقضت فأخذ يوزّع الجوائز على قادته وجنوده. وأما توادوسيوس فقضى ليله متهجداً في معبد في معسكره. وفي الغداة زحف بجيشه إلى العدو، ولما التحم القتال ترجّل عن جواده وانتضى بثأره ووثب على الاعداء. فارتاع جنوده للخطر الذي عرّض نفسه له. وأسرعوا إلى اتباعه، ولم يبلغ إلى مرمى السهم إلاّ ادلهتم الظلام في الجو، وسمع دوي قاصف، وثارت ریح زعازع في وجه جيش لوجان انتزعت الخوذ عن رؤوسهم والسلاح من ايديهم، وأكسبت جنود توادوسيوس قوّة، فدعّر الاعداء وتشتتوا وقد حسب مؤرخو ذلك العصر حتى الوثنيين منهم هذا الحدث آية سماوية. وتهافت بعض جنود اوجان ففرقوا في نهر كان هناك، وفرّ بعضهم، ومن بقي منهم رمى سلاحه واستسلم إلى توادوسيوس، فلاطفهم وأمرهم أن يأتوه باوجان فتسارعوا إلى القمة التي كان عليها. وظنّ أنهم أتوه بيشري الانتصار فأوثقوه وأشخصوه إلى توادوسيوس فربّخه على اغتيال والتتيان وتسببه بهذه الشرور وقضى عليه بالموت. فأبسله أحد جنوده، وعاد سائر جنوده إلى تهنة توادوسيوس بظفره واستبدّ له الملك شرقاً وغرباً. وأما اربوكست فانهزم مذعوراً. ودرى أنّ الجنود يجدّون في لحاقه من كل صوب فانتحر. وعفا توادوسيوس عن اولاد اوجان واربوكست وغيرهم من المجرمين.

قد انهكت هذه المتاعب المتصلة توادوسيوس وشعر بدنو منيته لفالج أصابه. ولم يكن قد بلغ الخمسين من عمره فدعا ابنه انوريوس من قسطنطينية وأقامه ملكاً في المغرب، وجعل ابنه اركاديوس ملكاً في المشرق، ونصب روفينوس معاوناً له في تدبير مملكته. ولم تكن وصيته إلاّ يئنة أخيرة على تقواه وورعه ومحبه لمسوديه. فقد حرّض ابنه على اتقاء الله والغيرة على حفظ نواميسه. ووقف أوقافاً على بعض الكنائس، وعفا عفواً عاماً عن كل من حاربوه أو أساءوا إليه. وأمر بنيه بالخط من

مال الخراج. وفرض نظاماً لذلك. وبعد أن فرغ من هذه الوصايا التي أكسبته شرفاً أعظم من انتصاراته شعر براحة، فشهد صباحاً بعض ملاعب الفرسان، ولكن عاودته نوبة من مرضه بعد غذائه فلقى ربه في الليل التابع في ١٦ من كانون الثاني سنة ٣٩٥م بعد أن ملك ست عشرة سنة إلا يومين، وقد أثبت القديس امبروسوس معدداً فضائله السامية ومناقبه الغراء. نرجى الكلام في اركاديوس إلى تاريخ القرن الخامس.

عد ٥٧٠

مشاهير العلماء الدنيويين في القرن الرابع

تغلّب الدين المسيحي على الوثنية منذ بداية هذا القرن، فنذر فيه وجود العلماء الوثنيين، ووفر عداد العلماء المسيحيين وهم بطارقة وأساقفة وكهنة أو من العامة لكن جلّ كتبهم دينية. فالتاريخ الديني أحق بالكلام فيهم، ومن نعرفهم من المؤلفين الدنيويين الوثنيين ليبانيوس وهو أشهرهم. وقد وُلد في انطاكية سنة ٣١٤م ودرس العلوم في أثينا ثم علّمها في قسطنطينية ونيكوميدية (وهي المعروفة الآن باسيميدي في آسيا الصغرى) وفي انطاكية. وكان من تلاميذه القديس باسيليوس والقديس يوحنا فم الذهب. وكان ليبانيوس يهنئ عصره لأنه نشأ فيه خطيب مصقع كيوحنا تلميذه. ولما احتضر سأله تلاميذه من يرى أهلاً ليخلفه في كرسي تعليم الفصاحة والخطابة. فقال لكنت أفضل يوحنا على كل من سواه لو لم يخطفه النصارى من يدنا. وكان ليبانيوس في انطاكية عند ثورة أهلها وارتياحهم من سطوة الحكومة كما مرّ. وأبان فصاحته بخطبة في النازلة. وكان جلّ ما يأسف عليه إنما هو انقطاع القوم عن ملاهيهم وملاذهم ومشاهدهم، وكان بعضهم يعزو إليه علّة هذا المصاب. لكنه برأ ساحته أمام القضاة بعذب كلامه وذرف دموعه. وقد أبان لنا كل مرّ في ترجمة حياته التي كتبها بنفسه (مجلد ٢ من تأليفه) وقد ألّف خطبة ليتلوها بحضرة الملك توادوسيوس ليستعطفه بها إلى الحلم والعفو عن أهل مدينته. وخطبة أخرى ليشكر له على عفوّه. وخطبتين يطرئ فيهما مفوضي الملك. وكان صديقاً للملك يوليانس المجاهد ولم يكن على شيء من الغلو في دينه بل كان دمث الخلق ليّن العريكة، لكنه لم يخلُ من حسّاد وشوا به أنه ساحر فثقي سنة ٣٤٦م إلى مدة ما. وقد أدركته الوفاة في انطاكية سنة ٣٩٠م وله من التأليف خطب أحسن طبعة

لها كانت في التنبورك سنة ١٧٩١م، ورسائل في لبسيك سنة ١٧١١م وفقرات أشهرها باسمه الجلوماي وغيره. وكتب ترجمته اوناب العالم الطبيب الذي كان معاصراً له.

والثاني اميان مرشيلينوس وُلد في انطاكية سنة ٣٣٠م، ودخل الجندية وتقلّب في مناصبها وحارب في جرمانيا وفرنسة، ورافق الملك يوليانس الجاحد في غزوته للفرس، ثم ترك الجندية وأقام في رومية مكباً على كتابة تاريخ الملوك الرومانيين في اللاتينية من نرفا سنة ٩٦ إلى أيام والنس سنة ٣٧٨م وينطوي على واحد وثلاثين سفرًا منها الثلاثة عشر سفرًا الأولى ابادتها غير الأيام، وهي حاوية تاريخ هؤلاء الملوك من سنة ٩٦ إلى سنة ٣٥٣م، وبقي منها ما هو أهم حيث يتكلّم على أحداث كانت في عصره من سنة ٣٥٣م إلى سنة ٣٧٨م. ولكلامه جزيل الاعتبار لأنه كان شاهد عيان لهذه الأحداث. وإن كانت عبارته اللاتينية منحطة لاستعماله ألفاظاً ليست لاتينية بحته، ونراه لزم حدود الاعتدال في كلامه على الدين المسيحي والوثنية، فيظهر منه أنه مشرك منزّه عن التطرف والغلو، وقد طبع تأليفه لأول مرة في روما سنة ١٤٧٤م، وطبع أخيراً في برلين سنة ١٨٧١م، وترجمه سلفت إلى الافرنسية وطبع ترجمته ١٨٤٨م. وكان من المعاصرين لهذين العالمين تامستيوس وُلد في بفلاغونيا نحو سنة ٣١٧م، وطاف في مدن المشرق مشهوداً له بفصاحته، ثم أقام في قسطنطينية يدرس الفصاحة، وكان معزراً لدى الملوك وسمي في أيام توادوسيوس سنة ٣٨٤م والياً على قسطنطينية. وكان المسيحيون يجلونه لترفعه عن الغلو في دينه الوثني، وقد خدم كل الملوك الذين تتالوا في أيامه، وكان يقرظ جميعهم إلى أن توفي في أيام اركاديوس وله ٣٤ خطبة، أشهرها خطبته للملك يوفيان مدحاً وشكراً له على تنويله الشعب حرية التمسك بالدين، وخطبته للملك يوفيان متضمنة نصائح له في سياسته. وله شروح على بعض تأليف ارسطو طُبعت في لبسيك في مجلدين سنة ١٨٦٦م. وأحسن طبعة لخطبه طُبعت في المدينة المذكورة سنة ١٨٣٢م.

وكان في هذا العصر أيضاً ايماريوس وُلد في بورسا واتقن العلوم في أثينا في أيام يوليانس الجاحد. وكان من تلاميذه في تعليم الفلسفة القديسان باسيليوس وغريغوريوس النريزي. وله خطب أشهرها تقرظه ليوليانس الملك وقد طُبعت في

جانتك بروسيا سنة ١٧٩٠م مع ترجمتها إلى اللاتينية وترجمة حـ
علماء الوثنيين.

ومنهم اوناب وُلد في هذا القرن في سرد بناحية ازمير، وأت
وعاد إلى وطنه يمارس صناعة الطب. وكان صديقاً للملك يوليا:
له وعدواً للمسيحيين. ومن تأليفه كتاب في تراجم الفلسفة حو:
تاريخ الفلاسفة والاطباء والخطباء الذين كانوا في أيامه. وقد طُبِ
في انفر في البلجيك سنة ١٥٦٠م، وطُبِع أخيراً بين كتب مك
لديدو سنة ١٨٤٩م، وله أيضاً كتاب تاريخ القياصرة في أربعة عـ:
الثاني سنة ٢٦٨م إلى اركاديوس سنة ٤٠٧م. ولم يبقَ منها إلّا
كتابه تراجم الفلاسفة في امستردام سنة ١٨٢٢م. وقد شكّا فـ:
تاريخ الرومانيين في هذا القرن) من ندور العلماء الوثنيين في هذا
العلماء في هذا العصر ولم يكن من الخطباء إلّا من يتملّق الحكا،
والفقه في روما نفسها أمست مشوّهة من حيث اللغة أيضاً، وأصب
فرقة عبارات تربو فيها الالفاظ على المعاني فتغمضها.

ونبغ في آخر هذا القرن ثلاثة علماء وهم: سيماخوس (ـ:
الحكومة والياً في روما وهو خطيب مصقع). وكلوديان (وكا:
وأقام في روما وكان شاعراً أقام له الرمايون تمثالاً وشبهوه
وروتيلوس (كان والياً في روما أيضاً ونظم أشعاراً ضمنها أخبار رـ:
افرنسة). فأعادوا إلى اللغة اللاتينية شيئاً من رونقها لكنه كان سرّ
الكنيسة وحدها ازدهرت في هذا القرن بكثير من العلماء والخطب
لكن تعليم هؤلاء كان نافعاً للسماء أكثر من نفعه للأرض. «انتهى
مؤيد لقولنا بندور العلماء الدنيويين في هذا القرن على كثرة الـ

الفصل الثاني

أطوار السوريون في القرون الاربعة الأولى

نريد بأطوار السورين أحوالهم من قبيل الحضارة والتجارة وغيرهما ونعتمد في كلامنا في ذلك على ما كتبه العلامة مومسن الألماني المدقق في كتابه تاريخ الرومانيين (مجلد ١١).

عد ٥٧١

الادارة السياسية في سورية بهذه الحقبة

بعد أن استحوذ بمبايوس على سورية سنة ٦٤ ق.م. أقام فيها اميليوس سكاودورس والياً، ثم خلفه الولاة الذين ذكرناهم في عد ٤٦٧ على أنه ترك بعض الحكام القدماء على مناصبهم تحت أمرة الوالي الروماني. من هؤلاء الملوك النبطيون الذين كانوا يلون دمشق وما جاورها من البلاد. واغتتم فرصة النزاع الذي كان بين ارسطوبولس وهركان اميري اليهود على الولاية فأسر ارسطوبولس وابنيه اسكندر وانتيكون، وأخذهم إلى روما، وأقام هركان ملكاً على اليهودية تحت أمرة الرومانيين كما رأيت في عد ٤٦٣ و ٤٦٤، إلى أن أقام مرقس انطونيوس هيرودس ملكاً على اليهودية ووسّع تخوم مملكته، إذ ألحق بها ما وراء الأردن إلى جوار دمشق وإلى صحراء العربية. وقد أوصى هيرودس عند وفاته أن يُقسم ملكه بين ثلاثة من أبنائه. وأثبت الملك اغوسطوس قيصر وصيته فكان ارشيلوس ابنه والياً في اليهودية حتى السامرة شمالاً، وبلاد الادوميين جنوباً، وهيرودس المسمى انتيباس والياً على الجليل وعبر الأردن أي الجولان جنوباً. وفيلبوس أخوه على الجيدور واللجا، وكانت أمرة ليسانياس تلي الابلية (وهي المعروفة اليوم بسوق وادي بردى) وما جاورها من

البلاد. أما ارشيلوس فلم يحسن مسعاه حتى اضطر اغوستوس أن يعزله عن و
في السنة التاسعة أو العاشرة للميلاد وأن يجعل اليهودية إقليماً رومانياً. وكان ا
الرومانيون يقيمون ولايةً عليها إلى بيلاطس البنطي كما رأيت ذلك طبق ما جا
بشارة لوقا (فصل ٣) حيث قال: «في السنة الخامسة عشرة من ملك طيبار
قيصر حين كان بيلاطس البنطي والياً على اليهودية، وهيرودس رئيس ربع
الجليل، وفيلبوس أخوه رئيس ربع على ايطورياه (الجيدور) وكورة انطرخون (اللا
وليسانوس رئيس ربع على الابلية» وأما هيرودس وفيلبوس فاستمرا يديران ولا
إلى وفاتهما. وقد ضُمَّت الولايتان إلى واحدة في أيام اغريبا الاول ابن ارسطوب
بن هيرودس الكبير، وفي أيام اغريبا ابنه الثاني الذي استمر على الولاية إلى
القرن الأول. وكان لوالي سورية بعض الامر على هؤلاء الحكام وعلى ا
اليهودية. وبقي لرؤساء كهنة اليهود حق إدارة مهامهم الدينية.

وقد قسمت أقاليم المملكة في أيام اغوستوس بين العاهل والندوة. فاستد
سورية اقليماً ملكياً كافرنسة. وكانت هذه الولاية مذ بادئ بدئها أهم الولا
وكانت تحت أمرة واليها أربعة فيالق من الجنود. وقد ضُمَّت إلى ولايته ولاية س
الكومجانية وامريات لبنان. على أن ادريان في القرن الثاني خصّ والي فلس
بفيلق من فيالق سورية الاربعة. ولما أراد جنود سورية وأهلها في أيام ساويروس
يقيموا بنجر ملكاً ذلّهم ساويروس وقسم سورية إلى ولايتين جعل احدهما
الشمال وسماها سورية المجوفة، وأقام فيها فيلقين من الجنود، والثانية في الجذ
وسماها ولاية سورية فينيقية، وأقام فيها فيلقاً واحداً. وكانت هذه الفيالق منق
إلى كتائب أو فرق تقوم كل فرقة في مدينة أو حصن. وقد وجد الباحثون
الآثار خطوطاً عديدة دالة على هذه الفرق أو حاوية اسماء رؤسائها مع ما أتوه
المشروعات. وكان يفرّق بين الكتائب المقيمة في المدن حيث يسود الأمن ا
الكتائب المقيمة في الحصون على التخوم لتأمين البلاد من غزوات الرّحل وغيره
من المعتدين. وكانوا أولاً يعهدون بهذه المحافظة إلى أمراء العربية واليهودية، ثم
الكتائب المقيمة في الاقليم العربي بعد أن جعلوه اقليماً رومانياً قصبته بص
بحوران، وإلى حكام تدمر ولا سيما قبل أن يستحوذوا على ما بين النهرين ليص
مهاجمات البرتين مع الاستعانة بجنود سورية عند الاقتضاء. ولا نستطيع أن
محل الثكنات العسكرية في تلك الايام على أن يوسيفوس (في ك ٧ فصل ١

مؤلفه في حرب اليهود) أنبأنا أنّ الكتيبة العاشرة في أيام نيرون كانت مقيمة في رافانا في الجنوبي الغربي من حماه (وقال هناك ك ٢ فصل ١٨) وأنّ الكتيبة الثانية عشرة كانت في انطاكية أو ما جاورها، وأنّ كتيبة أخرى أو أكثر كانت تخفر الفرات. وأنبأنا تاشيت (في ك ٢) أنّ الكتيبة السادسة كانت في أيام طيباريوس مقيمة في حماه أو في ضواحيها. وعن بتلميس (ك ٥ فصل ١٥) أنّ الكتيبة من الجند كانت بعد ذلك مقيمة في سميساط. وكان كثير من الجنود في الاعمال الواقعة بين دمشق وبصرى لتأمين هذه البلاد التي يكثر القلق فيها. يعاون هؤلاء الجنود والي سورية ووالي العربية على استتباب الراحة والامن.

وكان الجنود يقومون مقام رجال الشحنة في المدن أيضاً، ولا سيما في انطاكية والاسكندرية. ولذلك كان الجيش السوري أحط منزلة في حفظ النظام العسكري من الجيش في المغرب. فإنّ التجول في المدن كان يفسد آدابهم ويغفلهم التمرين الجندي. ولذلك نرى الملوك احتاجوا غالباً في حروب سورية إلى أن يستدعوا الجنود المقيمين في المغرب لسدّ الخلل الحاصل من قبل الجنود المقيمين في مدن سورية.

والحاصل أنّ الرومانيين بعد استحوادهم على سورية، عهدوا بتدبير شؤون بعض أعمالها إلى ولاية رومانيين يقيمهم الملوك. وأبقوا في بعض الاعمال الأخرى على ولاية من الاسر التي كانت تليها قبلاً. إلى أن نسخوا ولايتهم على التعاقب فأبقوا على هذا النحو في اليهودية ولاة من ولد هركان من نسل أمراء المكايين، ثم ولوا هيرودس، ثم بنيه ارشيلالوس وهيرودس وفيلبوس، ثم اغريبا الأول ابن ابنه ارستوبولس، وبعده ابنه اغريبا الثاني. وقرضوا ولايتهم في أوائل سني القرن الثاني. وأبقوا في دمشق الولاية تحت أمرتهم للملوك البنطيين، منهم اريتاس (اوارتاس) الذي ورد ذكره في رسالة بولس الثانية إلى القرنين (فصل ١١ عد ٣٢) حيث قال: «كان الحاكم في دمشق تحت أمرة ارتاس يحرس مدينة الدمشقيين ليقبض عليّ». وقد سمى اليونانيون هذا الملك ايرتاس واسمه في لغة قومه حارثة أو حارث، وهو ابن عبيدة الذي كان خاضعاً للرومانيين في أيام اغوستوس كهيرودس. وقد نجد الجنود الرومانيين في حملتهم على جنوبي العربية فأقاموه على محافظة تخوم سورية من دمشق إلى ما يليها شرقاً وجنوباً. وكان يسطو على ملك اليهودية فسخط عليه اغوستوس لذلك وعلى ابنه حارثة (اريتاس) بعد وفاته، لأنه خلف أباه دون أن ينتظر أمر العاهل. وكان اغوستوس يريد انتزاعه من الملك وتسليمه إلى هيرودس،

على أنّ سوء تصرف هيرودس جعله يترك عزمه، فأثبت حارثة في ملكه سنة ٧ قبل الميلاد. وبعد نحو من أربعين سنة أعلن الحرب على هيرودس انتيباس صهره لأنه طلق ابنته كما مرّ. فانتصر عليه وأمر طياريوس والي سورية أن يزحف إلى حارثة وينكل به. ولكن مات طياريوس حينئذ سنة ٣٧ وعايوس خليفته لم يكن راضياً عن انتيباس فعفا عن حارثة الذي مات فخلفه ملكيو أو ملك، ونجد الرومانيين في عهد نيرون وفسبسيان في حربهم مع اليهود. وبعد وفاته خلفه ابنه رابل، وكان في أيام ترايان وهو آخر الملوك النبطيين لأنّ كرنيليوس بلما قائد جيش ترايان أخضع قسماً من العربية للرومانيين فجعلوه اقليماً رومانياً وألحقوا به قسماً من ولاية سورية. وأقاموا حكومته في بصرى بحوران سنة ١٠٦ أو سنة ١٠٥ م واستغنوا عن النبطيين. ومما يثبت ذلك أنه وجدت سكة في دمشق مكتوب عليها في اليونانية الملك اريتاس. وقد كُشف في دمر في جوار دمشق خط نبطي مؤرخ في شهر أيار سنة ٤٠٥ للسوقيين. وفي سنة ٢٤ للملك رابل المذكور فيوافق ذلك ٢٤ أيار سنة ٩٤ بعد الميلاد. فكان ذلك مثبتاً بقاء الملوك النبطيين على ولاية هذه البلاد تحت أمرة الرومانيين إلى أن جعلها الرومانيون ولاية مستقلة باسم ولاية العربية.

ويظهر أنّ الرومانيين اعتمدوا بعد ذلك في ولاية دمشق وما جاورها على بني غسان فكانوا يستعملونهم في هذه البلاد مسمين ملوكاً. ولما كان هؤلاء طوعاً بيدي الرومانيين فاستمروا على ذلك إلى ظهور الاسلام وفتح الخلفاء لدمشق.

وكذا أبقوا في لبنان الشرقي وما جاوره على أسرة بتلميس بن مينا أي على ليسانياس الاول وابنه زينودر وعلى ليسانياس الثاني الوارد ذكره في بشارة لوقا كما مرّ آنفاً ولاية على كلشيس (عنجر في لبنان الشرقي) والابلية (سوق وادي بردى) وما يليهما. ولم نثر على غير اسم هؤلاء من هذه الاسرة فكان الرومانيون نسخوا ولايتهم بعد موت ليسانياس الثاني.

وقد استعمل الرومانيون في تدمر وما يليها آل اذينة كما رأيت في الكلام عليهم في القرنين الثاني والثالث، إلى أن قرضوا دولتهم بأسرهم زبيدة ملكتهم سنة ٢٧٢ م.

وكانت للسوريين في مدنهم الكبيرة ندوات ومجالس بلدية تعنى بمهامها الداخلية، وتصلح شؤونها وتهتم بتوسيع نطاق تجارتها وتجميل أبنيتها. فكذا كان في

انطاكية ودمشق وتدمر وغيرها. وقد أثقل الرومانيون أهل اليهودية بالخراج بعد افتتاح مبابيوس لها، على أنّ يوليوس قيصر أبطل بعد استبداده بالولاية تلك الضرائب، وأعفى اليهود من أداء الخراج على أرضهم والخدمة في الجندية. وردّ على اليهود يافا التي كان الرومانيون قد أخذوها منهم شريطة أن يدفع أهلها ربع غلال أرضهم في صيدا للرومانيين، وأن يعطي لهركان في مقابلة ذلك في صيدا أيضاً ٢٠٦٧٥ كيلاً من البر كل سنة، ويأخذ هركان من أهل يافا عشر غلال أرضهم أيضاً وهذا ظهر من أمر يوليوس قيصر الذي ذكره يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٤ فصل ١٧).

عد ٥٧٢

الزراعة في سورية في القرون الاولى

أعظم ما تباهى به السوريون في عصر السلوقيين والرومانيين هو الحراثة والزراعة. وكانت لهم وللمصريين المنزلة الاولى في أعمال المملكة الرومانية في الصناعة والتجارة. وكان السوريون يفضّلون فيهما على المصريين أيضاً في بعض الاحوال. وبلغوا في اتقان الزراعة في تلك الايام شأواً يكاد فن الزراعة في البلاد المتمدنة الآن يقصر عنهم، وعاونهم على ذلك خصب أراضيهم في محال كثيرة منها كمرج ابن عامر والجولان والارض الواقعة على ضفتي العاصي والسهول الواقعة على شاطئ البحر المتوسط من السويدية إلى غزة. وكانت هذه السهول والجبال المشرفة عليها كثيرة العمران. ووصف مومسن أهل هذه البلاد بكونهم شديدي الذراع عاليي الهمة متوقدي الذهن. وقد أثبتت لنا الآثار أنّ مدينة اباميا حيث قلعة المضيق الخربة الآن كان فيها من السكان في أيام قورينوس الذي باشر الاحصاء في سورية ابان مولد الخُلص مئة وسبعة عشر ألفاً من الاهلين الاحرار. ولا ريب في أنّ جميع الارضين الواقعة على ضفتي العاصي من ينبوعه إلى انطاكية كانت كخمائيل تبسق فيها الاشجار وينضّر فيها كل نبات. والصحراء التي في شرقي حمص حيث لا تجد الآن ورقة خضراء ولا قطرة ماء كانت جميعها شجراء (كثيرة الشجر) معدّة للزراعة. وقد وُجد في شرقي حمص في جهة قرقلس أكثر من عشرين رحى من الارحاء الضخمة لعصر الزيتون. ومن شاء الآن أن يسير من حمص إلى تدمر لزمه أن يقل الماء على ظهر الجمال وهو يرى مسيرة آثار الجنات والخمائيل وأطلال المدن

والقرى والمزارع. فقد عثر يوسف شرنيك المهندس النمساوي على أطلال وأخربة في أماكن شتى من الفلاة التي بين حمص وتدمر. وكشف العالم ساش عن كثير من أكنية الماء في الطريق المؤدية من دمشق إلى تدمر.

وما لجيش أن يقتحم الآن ما اقتحمه جيش اورليان في لحاقه زبيدة من حمص إلى تدمر. وترى فيافي فسيحة مما يسمى الآن برية أو مفازة ما آلت إلى هذه الحال إلا لعدم وجود العملة فيها. وقال كاتب الجغرافية في منتصف القرن الرابع «تكثرت جداً في سورية اغلال من الحبوب والخمر والزيت». وقد توافر ارسال خمر دمشق إلى فارس وخمر اللاذقية وعسقلان وغزة إلى مصر ثم إلى بلاد الحبشة والهند. وكان الرومانيون يقدرون خمر جبيل وصور وغزة حق قدره. ولم تكن غوطة دمشق وجناتها في تلك الايام أقل نضارة وخصباً منهما في هذا العصر، حتى كانت تسمى لؤلؤة عقد سورية، كما سماها بعضهم شامة الدنيا. وتربة حوران واللجاء والحمرات ذات خصب يقل لها النظير. ومع ذلك كانت هذه البلاد قبل ولاية الرومانيين متوعدة خربة بعيدة عن الحضارة مستغرقة بالهمجية لا يأهلها إلا الرّحل ولا يستغلون من أرضها إلا مرعى مواشيهم، وهم على نزاع مستمر بينهم وبين هذه المراعي. وأما بعد ولاية الرومانيين فقد أمنوا هذه البلاد وأكثروا من إقامة مخافر للجند فيها. وقد أنبأنا الآثار والخطوط القديمة بذلك إذ جروا المياه لارواء كثير من أرضها. يستدل على ذلك بالقناة الموصلة الماء إلى كرك وبالقناة الاخرى الموصلة ماء الجبل إلى البلدة المعروفة اليوم بالراحة. والراجح أن ذلك كان في عهد تريان. وهناك رواب ركمت فيها الحجارة البركانية التي كانت تغطي الحقول. وما ذلك إلا دليل على عناية حكومة وهي حكومة الرومانيين. وما يُرى إلى الآن من آثار العمران في فلسطين وفي ما وراء الأردن يكفينا مؤونة البيان لما كانت عليه هذه البلاد من تقدّم الزراعة التي هي أس الثروة والعمران. فبينما كان أهل المدن الساحلية مكبيين على التجارة والصناعة كان أهل الجبال والسهول منصبيين على الزراعة وعلى استثمار أرضهم المشهورة بخصبها وجودة تربتها. وفي فلسطين وفي ما وراء الأردن خاصة، آثار عديدة دالة على ما كان للرومانيين من العناية في تقدّم ثروة هذه البلاد بتمهيد طرقاتها وتسهيل وسائل النقل والمحافظة على الأمن فيها. وليس من يقيم نكيراً على أن هذا من أنفع الوسائل للزراعة.

الصناعة في سورية في القرون الاولى

قد اشتهر السوريون في تلك الاعصر في اتقان الصنائع وتوفيرها عندهم خلافاً لما نراه اليوم من ندورها وقلة أحكامها. فقد كانت هذه البلاد منشأ لكثير من الصنائع ولا سيما الكتان والبرفير والحرير وصنع الزجاج. فنسج الكتان الذي بُدئ فيه في بلاد الكلدان قد تطرق إليه السوريون في أقدم الدهر. فقد قال كاتب الجغرافيا في منتصف القرن الرابع: «إنَّ باسان واللاذقية وجبيل وصور وبيروت كانت ترسل أنسجتها إلى العالم كله». وجاء في شريعة ديوكلتيان التي أشهرها سنة ٣٠١ م مبيّناً فيها أثمان ما يُباع وأجرة العمّلة. إنَّ مصنوعات المدن الثلاث الاولى كانت من أحسن المنسوجات لا تقلّ قيمة عن منسوجات ترسيس ومصر، بل تُفضّل عليها. ومما لا يحتاج إلى برهان أنَّ البرفير السوري استمر حائزاً الافضلية على كل ما سواه، وقد وفّرت المعامل التي أنشئت لمباراته. وقد اشتهرت أيضاً معامل أخرى بسورية في أصبغتها ونسجها للبرفير في صرّند والطنطورة وقيصرية فلسطين واللّد. وكانوا يأتون حينئذٍ بالحرير غير منسوج من الصّين فتصبغه وتنسجه معامل سورية ولا سيما معامل بيروت وصور. ومعامل الزجاج في صيدا قد بقيت على شهرتها في أيام الملوك الرومانيين. وتجد في متاحف اوربا كثيراً من الآنية الزجاجية منقوشاً عليها اسم عاملها في صيدا. وروى رنان (في بعثة فينيقية صفحة ١٥٤) عن شريعة ديوكلتيان المشار إليها أنَّ مدينة جبيل أحرزت ثروة كبرى من تجارتها بالمنسوجات.

التجارة في سورية في القرون الاولى

قد اشتهر السوريون بالتجارة من أقدم الدهر وما برحوا مكبين عليها في القرون الاولى بعد الميلاد. فكانوا يشحنون مصنوعاتهم وغلالهم إلى الافاق ولا سيما إلى الغرب. ويتلقون سلع التجارة من باقي أقطار المشرق فيرسلونها إلى المغرب. على أن غلال العربية والهند كانت تنقل إلى المغرب في طريق مصر. لكن تجارة ما بين

النهرين وكل ما يتصل إلى فرض الفرات كانت تتداولها ايدي السوريين، وتقلها قوافل تدمر خاصة إلى مرافئ سورية. ومما يدل على أهمية هذه التجارة بين سورية والبلاد التي تليها من جهة المشرق استواء أثمان المسكوكات في أملاك الرومانيين في المشرق وأملاك الفرس في البلاد البابلية. وكانت الحكومة الرومانية تسكّ الفضة في سورية والكبادوك على مثال السكة الفارسية مخالفة لسكتها الملكية في أوروبا. وكانت مادة المصنوعات السورية ولا سيما الانسجة الصوفية والحريرية تؤخذ من خلال البلاد البابلية. وكان السوريون يوصلون إلى إيطاليا وسائر أنحاء العرب أكثر أصناف البضائع الشرقية كالانسجة الحريرية والفراء والطوب والبهار والرقيق الشرقي. ومما امتاز به التجار السوريون عن غيرهم أنهم لم يكونوا يبيعون سلع تجارتهم من الاجانب فقط كما يصنع المصريون، بل كانوا ينقلونها بأنفسهم إلى الآفاق. وكان ربانو السفن في سورية جوفة كثيرة العدد شريفة، دلّ على ذلك كثير من الخطوط القديمة. وقلما خلت مدينة شهيرة في المغرب في أيام الملوك الرومانيين من تجار سوريين ومحال تجارية لهم على نحو ما كان في العصر العريقة بالقدم التي يتكلم فيها أومر. فكان للصوريين محلات تجارية في أعظم فرض إيطاليا ولا سيما اوستيا وبوزولي من أعمال نابولي. وقد وصف كاتب الجغرافية المشار إليها آنفاً صور بأنها أعظم محطة للتجارة في المشرق. ويتبيّن من مجموعة الخطوط القديمة (خط ٥٨٥٣ من الخطوط اليونانية وخط ١٦٠١ من الخطوط اللاتينية) أنه كان لهذه المحال التجارية السورية في إيطاليا غرض ديني أيضاً، هو أن ينشر السوريون دينهم عند الاجانب. وكان بعض هؤلاء التجار مسيحيين، وبعضهم وثنيين. وكان لهم في اوستيا ضريبة يستوفونها من المسافرين والتجار السوريين وينفقونها في سبيل الغرض المذكور، ويدفعون منها كل سنة ألف دينار مساعدة لجمعيتهم في بوزولي التي لم يكن دخلها وافياً بالمقصود.

وروى اوسترايون (ك ١٦ فصل ٢) في كلامه على صور وارواد أنّ منازلهم كانت رفيعة جداً مؤلفة من طبقات كثيرة، وكان لبيروت ودمشق وغيرهما من مدن سورية وفينيقية محلات تجارية في مراسي إيطاليا. فقد وُجد خطان لاتينيان (مجموعة الخطوط اللاتينية عد ١٦٣٤ وعد ١٥٧٦) في بوزولي يتبيّن منهما إقامة نصبتين للمشتري الاعظم البيروتي وللمشتري الاعظم الدمشقي. وُجد في المجموعة المذكورة (خط ٢٢٧١) اسم جمعية هرقلية صورية واسم جمعية أخرى بيروتية.

وقد وجدت آثار للتجار السوريين في أيام الملوك الرومانيين لا في مدن كثيرة من إيطاليا فقط بل في سالونا بدماسيا، وفي اسكولي (على الادرياتيك)، وفي ملاكا (اسبانيا)، وفي جرمانيا وفرنسة ولا سيما في بوردو وليون وباريس واورليان وترف. وكان المسيحيون من هؤلاء التجار يجلبون معهم أزياءهم من بلادهم ويتكلمون في اجتماعاتهم بلغتهم.

وقد روى القديس غريغوريوس أسقف طور (ك ٨ فصل ١) أنه لما أتى الملك كونتران بن كلوتر الاول إلى اورليان خرج الشعب لملاقاته، وكانوا يجأرون بالدعاء له بالعبرانية والسريانية واللاتينية. وروى أيضاً (ك ١٠ في تاريخ القرنك فصل ٢٦) أنه توفي في تلك الايام أسقف باريس فخلفه أحد التجار السوريين وأقام على تدبير منزله الاسقفى جماعة من أبناء وطنه. وقال القديس ايرونيموس (في تفسير نبوة حزقيال فصل ٧): «ما برح السوريون حتى الآن على ما فطروا عليه من الولوع بالتجارة فيطوفون في المعمور بأسره كلفاً بالريح، وقد حملهم هوسهم بالاتجار على أن يسعوا في طلب الكسب بين السيوف المرهفات المجردة الآن في المملكة الرومانية (كتب ذلك في أواخر القرن الرابع ابان حرب توادوسيوس في المغرب) فيقتحمون الاختطار فراراً من الفقر». ويلحق بذلك ما ورد في الخطوط القديمة في المغرب عن السوريين فلا وجه لاقامتهم في اوربا حيث دلت آثارهم عليهم إلا الاتجار كما يظهر من تلك الخطوط التي عُثر عليها في مقبرة مدينة كونكورديا (بايطاليا الشمالية). فالاجانب المدفونون هناك جميعهم سوريون والسواد الاعظم منهم أصلهم من اباميا (مجموعة الخطوط اللاتينية ك ٥ صفحة ١٠٦٠). ومثلها الخطوط اليونانية التي وُجدت في مدينة تراف (بفرنسة) فهي دالة على أناس سوريين (مجموعة الخطوط اليونانية خط ٩٨٩١ و ٩٨٩٢ و ٩٨٩٣). وهذه الخطوط مؤرخة بالطريقة التي يؤرخ بها السوريون وبفرع اللغة اليونانية الذي كان يستعمله بعض السُوريين وقتئذ. وكان اكثر هؤلاء السوريين المشتتين في المغرب مسيحيين لا من اليهود الذين تشتتوا في العالم بل هم أعلى منزلة منهم.

وروى ثقة أن شرفاء انطاكية كان بعضهم أصحاب معامل وبعضهم تجار، وعامة الشعب عملة وبحارة. وكان عدد العملة في نسج الحرير في حمص نحواً من ثلاثة آلاف عامل. وكان القسم الاكبر من المال المكتسب حينئذ بالاتجار مع المغرب يذخر في صور واباميا، كما أمسى بعد ذلك أكثر المال المكتسب في المشرق يذخر في جنوا

والبندقية. وكانت المكوس المضروبة تلك الايام على الداخل والخارج قليلة، وبلاد التجارة فسيحة. وكان السوريون يتجرون لا بغلال بلادهم ومصنوعاتهم فقط بل بأصناف شتى من السلع والبضائع الاجنبية. فقد عُثر على خط في ضواحي ليون (ذكره دلمانوس خط ٢٤٩٨) كتب فيه أنَّ رجلاً اسمه ثاموس يوليانس بن ساتي من عتيل قرية في جانب قنوت (بحوران) كان يتجر بمصنوعات اكويتانيا أو غلالها بائعاً مجملاً، وهذا ناطق بأن السوريين لم يكونوا يتجرون ببضائع وطنهم فقط بل كان منهم من يستثمر رأس ماله وخبرته ببضائع البلاد الاجنبية أيضاً.

إنَّ آثار العمران والثروة في سورية ظاهرة في أطلال المدن الخربة بل في السباسب السائبة أيضاً ولا سيما التي على ضفة العاصي اليمنى من اباميا (قلعة المضيق) إلى منعرج النهر نحو البحر التي طولها من مئة وخمسين إلى مئة وثمانين كيلومتراً. فهناك إلى الآن أطلال نحو من مئة بلدة تعرف أزقتها وهي مبنية بالحجارة المنحوتة، وبيوت السكنى محاطة بأعمدة مزينة بشرف وأبوابها وشبابيكها مزخرفة بنقوش، وفيها حمامات وغرف للعب، وفي أسفلها معاصر للخمر والزيت، وفي جانبها جنات، وهناك أيضاً مدافن كبيرة منقورة في الصخور ملأى من التوابيت يدخل إليها بدهاليز قائمة على أعمدة وقصور منفردة لمصيف التجار وأصحاب معامل الصناعة من أهل اباميا وانطاكية دالة على وفرة ثروة اصحابها وعلى ترفهم. وكل هذه المدن المشبه بعضها بعضاً يظهر أنها بُنيت في أواخر ملك الرومانيين في هذه البلاد. فجلبها أنشيء في بداية القرن الرابع وأحدثها في نحو منتصف القرن السادس. ولا شك في أنَّ ساكنيها كانوا نصارى إذ وُجد فيها كثير من شعائر الدين المسيحي، ومن آيات الكتاب المقدس، بل وُجدت كنائس ومعابد كثيرة. ويظهر أنَّ هذا العمران بُدئ فيه قبل عهد قسطنطين الملك لكنه كُتل وتوطد في أيامه. ولم يكن العمران في تدمر وضواحيها وثروة أهلها وتجارتهم أقل مما كانت عليه هذه البلاد من النجاح. طالع ما مرَّ في تاريخ القرن الثاني في تدمر وقوافلها.

أما يهود فلسطين فكان كثيرون منهم قد هاجروا من هذه البلاد قبل خراب الهيكل وأورشليم. وأقامت جاليات منهم في اسكندرية وانطاكية وغيرهما. وكان لهم نصيب كبير في تجارة المدن التي حلَّوا فيها، على أنَّ الضغائن التي كانت بينهم وبين النصارى وحروبهم مع الرومانيين ومع مواطنيهم أضرت بتجارتهم، وكان الدين جامعة للتجار السوريين الذين كانوا في البلاد الاجنبية، ولم يكن بنو إسرائيل

ينضمون إلى النصارى أو الوثنيين. وبينما كان الدين المسيحي يزداد انتشاراً في خارج سورية، كان اليهود يزدادون انفصلاً عن المسيحيين في كل محل، قال ذلك إلى نفع غيرهم من السوريين. وكان اليهود يؤثرون أن يعاملوا بني ملتهم على أن يعاملوا غيرهم ولو كانوا من مواطنيهم في سورية. فعاد ذلك بالوبال على تجارتهم وخسروا ما كان لهم من الثقة وحسن المعاملة في اسكندرية وانطاكية وغيرهما. على أن اليهود الذين كانوا في المغرب لم يكونوا جميعاً من المهاجرين للتجارة، بل كان جم غفير منهم من أسرى الحرب أو أولاد الأسرى. فكانت حالهم ولا سيما في روما حالة الصعاليك أو المتسولين. ولم يكن رأس مالهم إلا رزم عشب يجمعونها من الحقول، أو سلّة ضيّت سلعاً بخسة الثمن. وعليه فكانوا في المغرب في أيام الملوك الرومانيين على أسوأ حال، ووحدة الدين سوّت بين المهاجرين وبين المسيبيين منهم بقضاء الله العادل.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع

نعتمد في هذا القسم على شهادات القديس ايرونيμος في كتابه في المشاهير الدينيين، وفي ترجمته الكرونيكون لاوسايوس القيصري، ثم على تواريخ سقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس، لأن هؤلاء جميعاً كانوا شهوداً عيانين لبعض ما كتبوا، وأخذوا ما بقي من كلامهم عن شهود عيانين. فإنّ القديس ايرونيμος كان في هذا القرن في فلسطين وسقراط وتوادوريطوس وُلدا في أواخره. وسوزومانوس وُلد في فلسطين في بدء القرن الخامس. وقد كتبوا تاريخ القرن الرابع وبعض الخامس على سبيل تكملة لتاريخ اوسايوس القيصري المكتب بأبي التاريخ الديني. ولم نغفل عن مراعاة ما تعقبهم به المتأخرون ما أمكن استيثاقاً لكلامنا ورغبة في الاعتماد على الاصول، لأنّ كتب هؤلاء أصول تواريخ هذه الايام، فالاسناد إليها أولى من كلام المتأخرين.

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن الرابع

عد ٥٧٥

بطاركة انطاكية في هذا القرن

قد مرّ في تاريخ القرن الثالث أنّ كيرلس بطريرك انطاكية استمر في حبريته إلى سنة ٣٠٣م، وخلفه تيرانوس. ذكره اوسابيوس القيصري في الكرونيكون وقال إنه كان في سنة ١٩ لديوكلتيان وقال فيه في تاريخه (ك ٧ فصل ٣٢) وخلف تيرانوس كيرلس في كنيسة انطاكية. واشتدت في أيامه وطأة الاضطهاد على الكنائس. وقد ذكره أبو الفرج ابن العبري في تاريخه البيعي وايليا النصيبيني. وعن سعيد ابن البطريق أنه بقي في البطريركية ١١ سنة. وعن نيكوفوروس أنه استمر فيها ١٣ سنة. وعليه فقد أدركته الوفاة سنة ٣١٤ أو سنة ٣١٦م وخلف فيتاليوس تيرانوس في بطريركية انطاكية على ما روى القديس ايرونيموس في الكرونيكون. وذكره ابن العبري في تاريخه المذكور وقال إنه في أيامه حرم القديس بطرس بطريرك الاسكندرية آريوس الشمس فتمادى في شرّه وأخذ يث بدعته. وروى نيكوفورس وتوفان أنه بقي في كرسي انطاكية ست سنين. وعليه فيكون توفاه الله سنة ٣٢٠م. قال لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية) إننا وجدنا توقيعه في مجمعي الكورة وقيصرية الجديدة سنة ٣١٤م.

وخلفه فيلوكنيوس، وروى القديسان ايرونيموس وفم الذهب أنّ بدعة آريوس فشت في آخر أيامه، وكان مناصباً لها لما كان انليكوس أسقف طرابلس ومكاريوس أسقف أورشليم. وقال ابن العبري أنه في أيامه صالح اكيلاً خليفة بطرس البطريرك الاسكندري آريوس، ورقاه إلى درجة الشماسية. ولما لم ينفك عن بث غوايته حرمه

ثانية. وتعقب ابن العبري السيدان ابالوس ولامي مترجما تاريخه بقولهما أنّ اكيلاً رقى آريوس إلى درجة القسوس لا إلى درجة الشمامسة التي كان رقي إليها قبلاً. وقال توادوريطوس (في تاريخه ك ١ فصل ٢) «أما في انطاكية فخلف فيتالوس تيرانوس بعد أن استحوذ الأمن في الكنيسة، وبني فيتاليوس في باليا (في ضواحي انطاكية) الكنيسة التي كان الظالمون قد دمروها. ثم خلف فيلوكنيوس فيتاليوس في تدبير هذه الكنيسة. وأكمل بناء الكنيسة المذكورة، وكان متسامياً في الغيرة على المحاماة عن الحق في أيام ليشينيوس» عدو قسطنطين الملك. وقال لكويان (في المحل المذكور يظهر أنّ فيلوكنيوس قضى نحبه سنة ٣٢٣ أو سنة ٣٢٤م).

وخلفه في الكرسي الانطاكي بولينوس، وذكره القديس ايرونيμος في الكرونيكون مبيناً أنه خلف فيلوكنيوس، وكان بولينوس أولاً أسقفاً في صور وله فيها أعمال مبرورة مشكورة سنأتي على ذكرها عند الكلام في أساقفة هذا القرن. ولم يمكث طويلاً في أسقفية انطاكية بل توفاه الله سنة ٣٢٤م، لأنّ خليفته اوسطاتيوس حضر في المجمع النيقوي الذي عُقد في السنة التالية. وقال نيكوفوروس وتوفان وسعيد البطريرك الاسكندري أنه استمر على الكرسي البطريركي خمس سنين، وقولهم مردود بدليل أنه لم تمض فترة طويلة بين ظهور بدعة آريوس والتمام المجمع النيقوي. فقد ظهرت البدعة في أيام فيلوكنيوس كما مرّ. ولا مراء في أنّ المجمع النيقوي عُقد سنة ٣٢٥ وأنّ اوسطاتيوس شاهده (لكويان في المشرق المسيحي في بطارقة انطاكية). أما اوسطاتيوس الذي خلف بولينوس فكان من بمفيلية. وقال فيه القديس ايرونيμος (في كتابه في المشاهير) «إنه كان أولاً أسقفاً على حلب ثم دبر كنيسة انطاكية وألف كتباً عديدة يقاوم بها غوايات الاريوسيين. وقد نُفي في أيام قسطنطين (أو قسطنس) إلى ترايانوبلي في تراسة حيث دُفن. ومن تأليفه كتاب في النفس وآخر في رد مزاعم اوريجانس ورسائل تشدّد عن العبد». وقال فيه سوزومانوس (ك ١ من تاريخه فصل ٢) «ولما اجتمع الآباء في نيقية وكانوا يقدّرون اوسطاتيوس حق قدره من قبيل سيرته الصالحة وعلمه السامي، قضوا بأنه أهل لأن يترأس على الكرسي الرسولي، ولذلك نقلوه من أسقفية حلب إلى كرسي انطاكية». وعن توفان إنّ آباء المجمع النيقوي أثبتوا هذا النقل الذي كان قد حصل قبل المجمع. وقد قرظ اوسطاتيوس الملك قسطنطين في المجمع. ولما كان من أكابر الآباء علماً وأبهة ساعد كثيراً على نبذ بدعة آريوس وانزال الحرم به.

ولذلك تصدّى الاريوسيون لمناصبته شديد المناصبه حتى نفاه الملك من انطاكية. وقال توادوريطوس (ك ١ راس ٢٠ من تاريخه) في ذلك ما ملخصه: «إنّ اوسايوس أسقف نيكوميديّة كان قد تغلّب على كرسي القسطنطينية وجدّ في استرضاء الملك عنه وتعزيز نفسه لديه، فأثى إلى انطاكية يصحبه بعض الاساقفة محازييه فقبلهم باحتفاء اوسطاتيوس بظل الايمان العظيم، وأكرم مثاهم عنده. ثم توجهوا إلى زيارة الاماكن المقدسة فوجدوا على شاكلتهم اوسايوس أسقف قيصريّة، وبتروفيلوس أسقف باسان، واكسيوس أسقف اللد، وتوادوطوس أسقف اللاذقية. ورجع هؤلاء معهم إلى انطاكية وأثى إليهم أساقفة آخرون بحجة التهئة لهم بعودهم. وعقدوا مجمعا، ودخيلة الامر أن يشجبوا اوسطاتيوس فيه. وأتوا بامرأة جميلة وأدخلوها غرفة الاجتماع وعلى ساعديها طفل رضيع، وأخذت تنهم البطريك أنه ضاجعها فعلمت منه وأنّ الطفل ابنه. فسأل اوسطاتيوس وهو على يقين من أنه براء من هذه التهمة أن تأتي المرأة أو ذووها بدليل على ما تدّعي، فأجيب أنّ لا بيّنة ولا دليل. فحكم القضاة الجائرون بأن تحلف الزانية يميناً فحلفت وحكموا على البطريك بارتكاب الفحشاء متناسين قول الرسول الصريح «بأن لا تقبل الشكوى على القسيس إلّا بشاهدين أو ثلاثة شهود عدل». وأبى غير هؤلاء من الاساقفة المطاوعة على هذا الحكم الجائر، ورفع الجائرون الامر للملك وزيّنوا له لزوم نفي اوسطاتيوس ولو لمجانبة الانقسام بين الاساقفة، فنفي بطل الشهامة والتقوى والعفاف إلى مدينة في تراسه. وقد أنبأنا توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ٢١) أنّ تلك المرأة التعيسة اعترافا مرض عضال فباحث بأنّ بعض الكهنة حملوها على تلك التهمة برشوة ودفعوها إليها. ولم تكن يمينها كاذبة على الاطلاق لأنّ ذلك الرضيع كان ابن رجل فلاح اسمه اوسطاتيوس. وروى سقراط (ك ١ فصل ٢٤ من تاريخه) أنه قد عقد مجمع في انطاكية وخط فيه اوسطاتيوس بدعوى قورش أسقف حلب عليه بأنه يؤيد ضلال سايليوس أكثر من رسم الجمع النيقوي. وقال بعضهم أنه خطّ الجرائم تخالف تبثله على أنهم لم يأتوا بيّنة على ذلك. وقد اعتاد الائمة أن يعنّفوا الاساقفة بمثل هذه التهم دون أن يثبتوها. وقال جيورجيوس أسقف اللاذقية بسورية أنّ قورش أسقف حلب شكاه بضلال سايليوس على أنه قال في محل آخر أنّ قورش هذا نفسه ثبت عليه اتباع هذا الضلال وعزل بسببه. فكيف يتفق أن يكون قورش تابعا هذا الضلال، ويشكو اوسطاتيوس به. على أنّ

فالسيسيوس في حواشيه على تاريخ سقراط أثبت أنّ الاريوسيين إنما كانوا يتّهمون الاساقفة الكاثوليكين باتباع سايليوس لتعليمهم أنّ الابن مساوٍ للآب جوهرًا، وأنّ القديس اثناسيوس أثبت في رسالته إلى النساك أنّ قورش أسقف حلب واوسطاتيوس أسقف انطاكية كانا من جملة الاساقفة الذين عزلهم الاريوسيون. ثم إنَّ عزل اوسطاتيوس عن كرسيه أفضى إلى قلق كبير في انطاكية. وعظم الانقسام والخلاف حتى أو شك أهل المدينة أن يبيد بعضهم بعضًا، وكان فريق منهم يريد نقل اوسابيوس القيصري إلى كرسي انطاكية، والفريق الآخر يريد رد اوسطاتيوس إليه. فاعتفى اوسابيوس من الازدحام لهذا النقل ومدحه قسطنطين الملك على ترفعه عن قبوله هذا المنصب وتلافيه الخلاف، ودعاه سعيداً قائلاً له إنه أهل لأسقفية هذه المدينة بل لأسقفيات العالم كله. ومضى اوسطاتيوس إلى منفاه. انتهى كلام سقراط ملخصاً. ومثل ذلك قال سوزومانوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٨ و ١٩) قال لكويان (في المشرق المسيحي في بطارقة انطاكية) اختلف في سنة نفي اوسطاتيوس بين إن كان سنة ٣٢٧ أو سنة ٣٣١ أو سنة ٣٤٠ م فبكل منها قائل.

وأما متى توفي اوسطاتيوس فقد روى سقراط (ك ٤ من تاريخه فصل ١٣) أنّ يوفيان استدعاه من منفاه وأتى إلى القسطنطينية يحضّ الكاثوليكين على الثبات في الايمان. ولما مات اودكسيوس بطريرك هذه المدينة أقام الاريوسيون مكانه دموفيلوس. وانتخب الكاثوليكون افاغريوس فرقا اوسطاتيوس إلى أسقفية القسطنطينية، وتابعه سوزومانوس (ك ٦ في تاريخه فصل ١٣) في ايراد هذا الخبر، وزاد عليه أنّ الملك لحوفه من حصول قلق في العاصمة أرسل جنوداً فقبضوا على اوسطاتيوس، ونفاه إلى قرية اسمها بيزدا في تراسة، ونفى افاغريوس إلى مكان آخر. وقال لكويان (في المشرق المسيحي في بطارقة انطاكية) إنّ الملك يوفيان دعاه من منفاه في القسطنطينية، وكان يخطب فيها في مساواة الابن للآب جوهرًا، وقد عاش طويلاً. ويظهر أنه مضى إلى ربه سنة ٣٨٠ م. ولكن قال فالسيسيوس (في حواشيه على تاريخ سقراط) إنّ بارونيوس في تاريخ سنة ٣٧٠ م تعقب سقراط وسوزومانوس قائلاً إنّ اوسطاتيوس كان قد توفي من مدة طويلة في أيام قسطنطين الملك. وإنّ القديس ايرونيوس روى في كتابه في المشاهير أنه توفي ودُفن في تريانبولي حيث كان منفياً. ولا يمكن أن يكون اوسطاتيوس عاش إلى أيام يوفيان لأنه شهد المجمع النيقوي الذي التأم سنة ٣٢٥ م. فلو فرضنا أن كان له من العمر حينئذ خمس

وأربعون سنة ومن أيام هذا المجمع إلى السنة الثالثة من ولاية يوفيان خمس وأربعون سنة فيكون عمره يوم رقي افاغريوس إلى الاسقفية تسعين سنة وهذا يعسر تصديقه. وتحصيه الكنيسة إلى مصاف القديسين وتعيّد له الكنيسة اللاتينية في ١٦ تموز. اولاليوس اختاره الاريوسيون بعد نفي اوسطاتيوس، فقد جاء في كرونيكون اوسايوس الذي ترجمه القديس ايرونيμος «إنّ الاريوسيين استحوذوا على هذا الكرسي فأقاموا اولاليوس واوسايوس وبلاشلوس واسطفانوس ويولنتيوس وادكسيوس وملاطيوس واوزويوس ودوروتائوس ثم ملاطيوس ثانية ولم أذكر سني كل منهم لاعتقادي أنهم أعداء المسيح لا أساقفة».

ويُستثنى من هذا الصف ملاطيوس لما ستراه. أما نحن فنذكر من تاريخهم ما عثرنا عليه في كتب المحققين. وقد ذكر توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ٢١) اولاليوس قائلاً: «أقام الاريوسيون مكان اوسطاتيوس اولاليوس ولم يعش إلا قليلاً. فهموا بأن ينقلوا اوسايوس من أسقفية قيصرية إلى انطاكية فتمنّع من هذا الانتقال ولم يرضه الملك». وذكر اوسايوس ذلك (في ك ٣ من ترجمة قسطنطين). ولم يذكر سوزومانوس اولاليوس بل قال سقراط أنّ كرسي انطاكية استمر ثمانين سنين دون بطرك. فردّ له قوله فالسيوس في حواشيه على تاريخه. أما افرونيوس فاختره الاريوسيون بعد أن تمنّع اوسايوس عن قبوله نقله إلى انطاكية. وقال فيه توادوريطوس في المحل المذكور، فأقام الاريوسيون افرونيوس لكنه توفي بعد سنة وبعض أشهر من ارتقائه إلى هذا الكرسي، وذكره سقراط (في ك ١ من تاريخه فصل ٢٤ ثم في ك ٢ فصل ٩). وقال فيه سوزومانوس (ك ٢ فصل ١٩) ولما علم الملك (قسطنطين) أنّ افرونيوس أحد كهنة الكبادوك وجيورجيوس كاهن ارتوسيا معروفان بصحة عقيدتهما أمر أن يرقوا إلى كرسي انطاكية أحد هذين الكاهنين أو غيرهما ممن يروونه أهلاً، فاختروا افرونيوس ورقّوه إلى أسقفية انطاكية. ويظهر أنّ افرونيوس توفي سنة ٣٣٣م فانتخب الاريوسيون بلاشلوس (وسماه توادوريطوس فلاشوس) بعد وفاة افرونيوس سنة ٣٣٣م على الراجح إذ نراه شهد مجمع صور سنة ٣٣٥، وحاول مع الاريوسيين الحكم على القديس اثناسيوس وأساقفة مصر. وقد ذكره توادوريطوس في المحل المذكور، وقال إنّ هؤلاء الاساقفة كانوا متلطحين بغواية اريوس لكنهم لم يكونوا يجاهرون بها، ولذلك كان كثيرون من الاكليروس والعامة يأبون الاشتراك معهم ويعلمون فروضهم الدينية على انفراد.

وروى سوزومانوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٥) إنّ بلاشيوخ رأس المجمع الذي عُقد في انطاكية في أيام قسطنس الملك ودشن كنيسة انطاكية وحكم على القديس اثناسيوس ثانية. وروى لكويان (في المشرق المسيحي) إنه كان من جملة الاساقفة الذين دشّنوا في أورشليم كنيسة القيامة التي كان الملك قسطنطين قد بناها. وعن نيكوفورس وتوفان انه استمر في البطيركية اثنتي عشرة سنة بدؤها سنة ٣٣٣ م.

وخلفه اسطفانوس انتخبه الارويسيون بعد وفاة بلاشيلوس، مع أنه كان قد حُطّ عن درجة الكهنوت لردائله، ولم يكن اوسطاتيوس ليرضى برده إليها. وقد دُعي إلى مجمع عُقد في سرديكا (وهي المسماة اليوم صوفيا قصبة البلغاريين) لنبد ضلال الارويسيين. فانحاز عن المجمع مع الاساقفة اشياخ اوساييوس أسقف نيكوميدي (اسميد) في فيلولوبولي، ووقعوا على رسالة يخالفون فيها هذا المجمع. على أنّ هؤلاء الاساقفة الاوسايين أنفسهم خلعه بعد ثلاث سنين من بطيركيته. وقد أنبأنا بذلك توادوريطوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٩) حيث ذكر بعض فظائع وقعت في انطاكية، منها أنّ اوناخر الرئيس على فصيلة من الجند استدعى امرأة إلى نزل الاسقف اوفراتاس وأدخلها إلى مخدعه وهو نائم. واستدعى صلبه لتفريق الاسقف وإقامة الشكوى عليه. ولدى البحث في حضرة القضاة أقوت المرأة بما كان معها ولم ينكر اوناخر فعلته، وأثبت اسطفانوس بعثه عليها. وقد ذكر هذا الخبر ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية مسمى الشاب المذكور افاغريوس فافتضحت جريمة اسطفانوس ومكيدته، وحطّه الاساقفة من مقامه وطرده من الكنيسة. وعن نيكوفورس وتوفان انه استمر في البطيركية ثلاث سنين ثم خلع منها سنة ٣٤٨ م.

واختار الاساقفة الارويسيون لاونتيوس خلفاً له، فكان على شاكلته أو شراً منه. فقد روى سقراط (ك ٢ فصل ١٦) «انه لما كان كاهناً حُطّ عن درجته لولوعه بمعاشره امرأة اسمها اسطوليا وقد خصى نفسه بغية أن ينفى عن رية الفحش معها ويثابر على معاشرتها دون ظنة. ورغب الملك قسطنس بعد ذلك أن يرقى إلى أسقفية انطاكية فرقى إليها بعد وفاة اسطفانوس». وذكر توادوريطوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٩) هذه الشائبة فيه وأردفها بتعداد غيرها من مساوئه وفساد تعليمه. وعن لكويان (في المشرق المسيحي) إنه قضى سنة ٣٥٧ م.

ولما بلغ اودكسيوس أسقف مرعش نعي لاونتيوس هبّ إلى انطاكية وتغلّب على كرسيها سناً إلى تأييد بعض حاشية الملك له. ولكن ناصبه جيورجيوس أسقف اللاذقية ومرقس أسقف ارتوسيا (التي كان موقعها عند مصبّ نهر البارد، رنان في بعثة فينيقية). وكان جيورجيوس ومرقس من أشهر أساقفة سورية في تلك الايام، وتابعهم على مناصبته كثيرون من الاساقفة فلم يرتضوا أن يرقوه إلى الكرسي البطريركي. ومع ذلك عقد مجعاً في انطاكية مع محازبيه من الاساقفة وكان منهم اكاشيوس أسقف قيصرية فلسطين، واورانيوس أسقف صور، ونبذوا أن يقال في الابن أن مساوي للآب جوهراً كما حتمّ الجمع النيقوي (وفي حواشي فالسيوس أنّ هذا الجمع عُقد سنة ٣٥٧م وعن بارونيوس أنّ عقده كان سنة ٣٥٦م). وكتب جيورجيوس أسقف اللاذقية رسالة مشبعة إلى القديس باسيليوس وغيره يبيّن بها مساوي اوكسيوس وضلاله، وطرد اودكسيوس من انطاكية كثيرين من الاساقفة المقاومين له، فاجتمعوا في انكوره ورفعوا عريضة إلى الملك قسطنس يشكون اودكسيوس فيها. فأجابهم برسالة اثبتها سوزومانوس (في ك ٤ من تاريخه فصل ١٤) ومن فحواها أن لا يصدقوا قول اودكسيوس أنّ الملك أرسله إلى انطاكية، وأنه يأمر بطرده منها مع المتشيعين له، وأن يعقد مجمع في نيقية لتقرير أمور الايمان. وكان من دسائس الاريوسيين أن يعقدوا مجعاً ثانياً في نيقية ينقض ما سنّه الجمع الاول فيها. فأبطل الله مكيدتهم إذ حدث زلزال في هذه المدينة روع الاساقفة المجتمعين فيها فانصرفوا كلّ إلى بلده. ثم عُقد الجمع في سلوقية بيسوريا فعزل اودكسيوس بأكثرية أصوات الاساقفة (سوزومانوس في الكتاب المذكور فصل ١٢ و ١٣ و ١٤ وسقراط ك ٢ من تاريخه فصل ٣٧ و ٤٠ وتوادوريطوس ك ٢ فصل ٢٠ و ٢١ و ٢٢) ولم يقم في بطريركية انطاكية إلا سنتين على أنه عندما عزل مكدونينوس من كرسي القسطنطينية تغلّب اودكسيوس بامداد الاساقفة الاريوسيين على هذا الكرسي (توادوريطوس وسقراط في الحال المذكورة). وقد جاء في الكرونيكون الاسكندري في تاريخ سنة ٣٦٠م وفي هذه السنة في ١٥ شباط كرّست الكنيسة الكبرى في القسطنطينية (اجيا صوفيا التي كان الملك قسطنطين قد بدأ في بنائها). وتخلع مكونيوس أسقف هذه المدينة عن كرسيه لجرائمه الكثيرة. وأقيم مكانه اودكسيوس في ٢٧ حزيران بحضرة ٧٢ أسقفاً إلى أن توفي في أيام الملك والتتيان الثاني بعد أن استوى على الكرسي

القسطنطيني تسع عشرة سنة (سقراط ك ٤ فصل ١٤) فتكون وفاته نحو سنة ٣٨٨ م.

قد انتخب الاساقفة الكاثوليكيون انانيوس بعد عزلهم اودكسيوس في مجمع سلوقية. وكان من كهنة كنيسة انطاكية، ولكن قاومه تباع اكاشيوس الاريوسيون وسلموه إلى مفوضي الملك في المجمع، فأمسكاه مخفوراً ثم أرسلاه إلى المنفى على ما روى سقراط (ك ٢ فصل ٤٠) وسوزومانوس (ك ٤ فصل ٢٢). وقد ذكر ابن العبري (مجلد ١ من تاريخه في بطارقة انطاكية) هؤلاء البطارقة الاريوسيين كما ذكرناهم، وأسقط منهم انانيوس لأنه لم يتمكن من تدبير هذا الكرسي لما مرّ من نفيه كما قال ابلوس ولامي مترجماً تاريخ ابن العبري إلى اللاتينية في حواشيهما عليه. وعن لكويان (في المشرق المسيحي) أنّ نيكوفورس وتوفان عداه من بطارقة انطاكية، وقالوا إنه استمر في البطريركية أربع سنين.

وبعد نفي انانيوس انتخب الاساقفة الاريوسيون والكاثوليكيون معاً القديس ملاتيوس. وقد أنبأنا توادوريطوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٢٧) إنّ قسطنس الملك بعد عوده من حرب الفرس أتى إلى انطاكية ودعا الاساقفة إليه للمذاكرة بعقائد الدين، فسأله بعضهم أن يقام أولاً أسقف على كرسي انطاكية إذ لم يكن ثمّ أسقف بعد نفي انانيوس. وكان ملاتيوس أسقفاً على مدينة في أرمينيا (هي سبسطية) فسأته غلاظة أطباع أهلها وعدم امثالهم أوامره فتركهم وأقام في محل آخر. وكان الاريوسيون يظنونه مشايحاً لهم فسألوا الملك أن يقام اسقفاً على انطاكية، وكان الكاثوليكيون على يقين من صحة عقيدته وسمو فضيلته، فاستدعاه الملك وخرج للقياء الاساقفة والكهنة والاعيان بل اليهود والوثنيون أيضاً. وكلف الملك ملاتيوس وغيره من الاساقفة أن يخطبوا في الشعب مبينين عقائد الدين، فكان لخطبة ملاتيوس أحسن وقع في النفوس. وسأله الشعب أخيراً أن يوجز ما أسهب في خطبته فأشار بثلاث أصابع ثم طوى اصبعين وترك الثالثة منبسطة وقال نعتقد بثلاثة ونقرّ بأنهم واحد. فامتعض منه الاريوسيون لمخالفته تعليمهم وتصدّوا لمقاومته حتى نفوه إلى أرمينيا. وكذلك روى سقراط (في ك ٢ من تاريخه فصل ٤٤)، لكنه زعم أنّ ملاتيوس بعد أن ترك اسقفية سبسطية في أرمينيا صار أسقفاً على حلب، ومنها نُقل إلى كرسي انطاكية فتعقبه فالسيوس في حواشيه قائلاً إنّ هذا يعسر تصديقه لأنّ توادوريطوس وسوزومانوس وقبلهما ايرونيمس رَوّوا أنه نُقل من

ارمينيا إلى كرسي انطاكية ولم يأتوا بذكر حلب. فقد يكون أنه بعد تركه سبسطية أقام في حلب، ولكنه لم يدبر كنيستها. وقد خطأً بارونيوس سقراط في روايته هذه (في تاريخ سنة ٣٦٠م) وظن أنّ ملاتيوس كان أولاً أسقفاً في حلب ثم في سبسطية ثم في انطاكية. قال فالسيوس ولا أرى ظن بارونيوس صحيحاً إذ لم يذكره توادوريطوس ولا سوزومانوس.

أما الارويسيون فأقاموا بعد نفي ملاتيوس اوزايوس أسقفاً على انطاكية، وكان اوزايوس هذا من أخصّ المشايخين لاريوس وخطاً معاً عن درجتهما. وجاهر ببدعته بعد أن تستم الكرسي الانطاكي فاضطر تباع ملاتيوس أن يفصلوا عن الارويسيين ويجانبوا الاجتماع معهم في الكنائس ولم يكونوا قبلاً يعاملونهم كذلك لعدم مجاهرتهم ببدعتهم ولأنّ ملاتيوس رقاہ الاساقفة الارويسيون والكاثوليكيون معاً إلى الاسقفية، فانقسم سكان انطاكية إلى فرقتين، وإن كان الشعب على وفاق في عقيدة الايمان (سقراط ك ٢ فصل ٤٤ وسوزومانوس ك ٤ فصل ٢٨ وتوادوريطوس ك ٢ فصل ٢٧) وعلى خلاف في التشييع لرؤسائهم. وتوفي الملك قسطنس سنة ٣٦١م وخلفه الملك يوليانس الجاحد. فرخص للاساقفة المنفيين أن يعودوا إلى كراسيهم، فعاد ملاتيوس من منفاه فلم يتبعه إلا محازبوه لداعي الانقسام المشار إليه. وكان يقيم الصلوات معهم ويوزع الاسرار عليهم في كنيسة باليا في خارج المدينة. وكان اوسايوس من أساقفة ايطاليا، ولوشيفر من أساقفة سردينيا منفيين في الصعيد، ولما رخص يوليانس للاساقفة المنفيين بالعود إلى كراسيهم مرّاً في انطاكية وبذلا قصارى جهدهما في إزالة الخلاف فلم يتيسر لهما أن يعيدا الوفاق بين تباع اوسطاتيوس وتباع ملاتيوس. وكان بولينوس الكاهن رئيس حزب اوسطاتيوس فرقاه لوشيفر إلى الاسقفية كيلا يقي مريدوه دون أسقف. فأمسى للكاثوليكيين أسقفان هما ملاتيوس وبولينوس. واستمر هذا الخلاف منذ بدئه في أيام اوسطاتيوس إلى نهايته في أيام اسكندر الآتي ذكره خمساً وثمانين سنة.

وقد سعى الارويسيون بملاتيوس لدى الملك والنس ففناه ثانية إلى ارمينيا سنة ٣٧٠م ولم يعد إلى كرسيه في انطاكية إلا في أيام غراسيان سنة ٣٧٨م (توادوريطوس ك ٣ فصل ٢ وسقراط ك ٥ فصل ٥) ونشأ حينئذ في انطاكية حزب ثالث لابولينار اللاذقي الذي كان يزعم أنّ المسيح أتى بجسده من السماء ولم يأخذ نفساً بشرية. وفي تلك الاثناء أرسل الملك غراسيان معلم جيشه المسمى

سابور إلى انطاكية رغبةً في تدبير شؤونها والتوفيق بين أهلها على الكنائس وغيرها، وفي إذاعة منشوره المار ذكره (في الكلام عليه). وكان بولينوس يدّعي أنه محافظ على الايمان الروماني، وابولينار يدّعي كذلك، وملاطيوس صامت يزدرى دعواهما. فنهض افلابيانوس أحد كهنة انطاكية وقال لبولينوس «إذا كنت تشترك مع داماسوس الحبر الروماني فاعترف بأنّ للثالوث ذاتاً واحدة وثلاثة أقانيم وخذ الكنائس». ثم التفت إلى ابولينار وقال: «أنت تعلم يقيناً أنّ داماسوس يعلم بأنّ الآله الكلمة أخذ الطبع البشري كاملاً وأنت تزعم أنه لم يأخذ نفساً، فإن كانت الشكوى كاذبة فاعترف اليوم بتعليم حبر روما وخذ الكنائس». وقال ملاطيوس لبولينوس متلطفاً (إذا كانت رعيتنا تعتقد إيماناً واحداً فلنجتمع في حظيرة واحدة، وإن كان الكرسي الاسقفي علّة خلافنا فلنضع الإنجيل المقدّس في الوسط ويجلس كلّ منا في جانب في مقدمة مصاف الكهنة، ومن بقي منا حياً بعد وفاة الآخر تولّى تدبير الرعية). فرضي مريدو ملاطيوس هذا التوفيق وأبى بولينوس وذووه أن يرضوه شريكاً له موردين حججاً باطلة. فحكم سابور مفوض الملك بعد أن تدبّر الامر بتسليم الكنائس إلى ملاطيوس. هذا ما رواه تودوريطوس (في ك ه من تاريخه فصل ٣) على أنّ القديس امبروسيوس الذي كان معاصراً هذه الاحداث صرّح (في رسالته ١٣) في المجمع الذي عُقد في ايطاليا بأنّ الاساقفة أصحاب بولينوس في المغرب اقترحوا عليه هذا الوجه للتوفيق. وروى سقراط (ك ه فصل ٥ وسوزومانوس ك ٧ فصل ٣) أنّ أصحاب بولينوس حملوه على التسليم بطريقة التوفيق المذكورة. وأقسم ستة من الكهنة الذين كانوا أهلاً للاسقفية علّ أنهم يخضعون لمن يبقى حياً من الاسقفين، ولا يرضى أحد منهم أن يرتقي إلى الاسقفية في مكان الميت منهما، واتفق على ذلك الشعبان.

وفي سنة ٣٧٩م عُقد مجمع في انطاكية وقّع فيه ملاطيوس واوسايوس أسقف سميساط وكثيرون من الاساقفة الشرقيين على دستور ايمان كان البابا داماسوس قد أرسله إليهم مصرحاً فيه بمساواة الابن للآب جوهرأ، وبلاهوت الروح القدس. ونبذ ضلال ابولينار اللاذقي. وفي سنة ٣٨١م مضى ملاطيوس إلى القسطنطينية ليشهد المجمع الذي عُقد فيها السنة المذكورة. فاعتراه هناك مرض عضال أدّى به إلى الموت. وابّنه القديس غريغوريوس النيصصي أخو القديس باسيليوس، ونقل ذروه جثته إلى انطاكية ودُفنت في جانب مدفن بابيلا الشهيد. ويقال إنّ الناس كانوا

يخرجون بمقتضى أمر الملك خارج كل مدينة مرّت الجنازة بها مرغين بالتسايح والمزامير ويدخلون نعشه المدن خلافاً لعادة الرومانيين (سقراط ك ٥ فصل ٩ وسوزومانوس ك ٧ فصل ١٠) وكنيسة الروم تعيدّ لذكره في ١٢ شباط.

على أنّ أتباع ملاتيوس أبوا بعد وفاته الطاعة لبولينوس وأقاموا افلايانس أحد كهنة ملاتيوس مكانه. ورقاه إلى الاسقفية ديودوروس أسقف ترسيس، واكاشيوس أسقف حلب، فعاد الانقسام إلى كنيسة انطاكية، لا من جهة الايمان بل من جهة التشيع للرؤساء. فانفصل كثيرون عن الاشتراك مع افلايانس (سقراط ك ٥ فصل ٩) بل اتّسع نطاق هذا الخلاف. فإنّ الاساقفة المصريين والعرب والقبرصيين كانوا يؤيدون جانب بولينوس، وأساقفة سورية وفلسطين وفينيقية والكبادوك وغلاطية وبنطوس يناصرون افلايانس. وأما الخبر الروماني وسائر أساقفة المغرب فاستاءوا من ترقية افلايانس خلافاً لشروط الاتفاق، وأنفذوا رسائلهم إلى بولينوس منزله منزلة بطريك انطاكي. ولم يشاءوا أن يكتابوا افلايانس بل تمتّع ديودوروس واكاشيوس الاسقفان اللذان رقيه إلى الاسقفية من المخالطة له (سوزومانوس ك ٧ فصل ١١). واجتمع الاساقفة الشرقيون في القسطنطينية وقضوا بصحة ترقية افلايانس. وتوفي افلايانس سنة ٣٨٨م ومابرح الخلاف في انطاكية لأنّ بولينوس لما شعر بدنو المنيّة اختار افاغريوس خليفة له. وقبل إنه رقه وحده دون أن يشاركه في ذلك أسقف آخر خلافاً لقانون الكنيسة. ومع ذلك تشبّث بالطاعة له محازبو بولينوس. وحضر افاغريوس مجمعاً عُقد في كابوا (بايطاليا) سنة ٣٩٠م عازماً أن يقيم دعواه على افلايانس إن حضر الجمع فلم يحضر. وقد قبل الخبر الروماني وأساقفة المغرب افاغريوس في شركتهم لكنه توفي سنة ٣٩٢م واستمرّ أساقفة المغرب يقاومون افلايانس فاستقدمه توادوسيوس ليرسله إلى روما. فقال: «مولاي إن وقعت لمخالفتي شبهة في صحة ايماني أو ظنّة بما يعيب سيرتي الكهنوتية فاقبل أن يكون الشاكرون لي قضاة في دعواي وأذن لحكمهم، وإن نازعوني الكرسي الاسقفي فلا أنازعهم إياه ولا أعارض من يهواه، بل اتخلّى عنه، فاعطه من شئت. فأعجب الملك كلامه وأمره أو يعود إلى انطاكية لتدبير كنيسته. ومضى الملك توادوسيوس إلى روما وأرسل افلايانس إليها جملة من الاساقفة والكهنة وانشمامسة الانطاكيين، وفي مقدمتهم اكاشيوس أسقف حلب الشهير. فاسترضوا الخبر الروماني بوساطة الملك أيضاً عن افلايانس. وعاد السلم إلى الكنيسة وعمّ الوفاق أساقفة مصر أيضاً بعد أن

استمرّ الخلاف سبع عشرة سنة (رواه تودوريطوس ك ٥ فصل ٢٧) وذكره ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية. وروى بلاديوس في ترجمة فم الذهب أنّ هذا القديس أصلح بين افلايانس وأساقفة المغرب ومصر وقبله في شركته وشركة الكنيسة الرومانية. وبعد أن قضى افلايانس ٢٣ سنة في تدبير رعيته أدركته الوفاة سنة ٤٠٤م. وقد رأيت ما كان من وفادته إلى الملك توادوسيوس وخطبته بحضرته ليستعطفه على العفو عن الانطاكيين بعد ثورتهم. ولم يذكر افاغريوس خلفاً له. واوزايوس الاسقف الاريوسي قد حرّمه المجمع القسطنطيني وحطّه عن مقامه على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية، وبعد وفاته انتخب الاريوسيون دوروتاوس (سقراط ك ٤ فصل ٣٥).

عد ٥٧٦

بطاركة أورشليم في القرن الرابع

إنّ آخر من ذكرناهم من بطاركة أورشليم في القرن الثالث إنما هو زبدي، فهذا خلفه هرمون، وقال فيه اوسابيوس (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٢): «إنه كان الاخير ممن امتطوا كرسي يعقوب الرسول المحفوظ إلى الآن في أورشليم قبل الاضطهاد الذي صار في أيامنا»، أي اضطهاد ديوكليتيان. والذي وجدناه في الكرونيكون أنه ارتقى إلى كرسي أورشليم في سنة ٣٠٦م، وإنّ مكاريوس خلفه سنة ٣١٨ وهي الثامنة لقسطنطين الملك. فتكون مدة بطيريكته ١٢ سنة. وروى لكويان (في مجلد ٢ من المشرق المسيحي في بطاركة أورشليم) عن نيكوفوروس وتوفان إنه استمر في البطيركية تسع سنين وإنه يعيّد لذكره في ميناون الروم في ٧ آذار، ويقال إنه أرسل أساقفة إلى أمم كثيرة.

وخلف هرمون بعد وفاته القديس مكاريوس سنة ٣١٨م على ما في الكرونيكون كما مرّ. وعن هذا الكتاب في طبعة سكاليجر أنه توفي سنة ٣٢٥ أو سنة ٣٢٦م، وسترى ما يخالف هذا القول. وقد عدّه اريوس في رسالته إلى اوسابيوس أسقف نيكوميديّة من جملة خصومه. وترى هذه الرسالة مثبته في تاريخ تودوريطوس (ك ١ فصل ٤). وكان مكاريوس من جملة الآباء الذين التأموا في

الجمع النيقوي (سوزومانوس ك ١ فصل ١٧). وفي أيامه أتت الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين الكبير إلى أورشليم وكشفت عن آلات آلام الخُلص سنة ٣٢٦ أو سنة ٣٢٧م، وقد عاونها مكاريوس في الكشف عن هذا الكنز الثمين. وقد أنفذ إليه الملك قسطنطين الكبير رسالة ضمنتها شكره العظيم لله على هذه الآية، وعزمه أن يبني كنيسة على مدفن الخُلص تفوق كل ما سواها من الكنائس. ويكل إليه النظر في اختيار أجود الاعمدة والرخام اللازم لذلك. وقد أثبت هذه الرسالة برمتها توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ١٦)، واوسايوس القيصري في ترجمة قسطنطين (ك ٣ فصل ٣٠ و ٣١ و ٣٢). ويظهر أنَّ مكاريوس توفي سنة ٣٣١م، ومكسيموس خلفته شهد الجمع الذي عُقد في صور سنة ٣٣٥م ويعتد له في السنكسار الروماني في ١٠ آذار. ولا ذكر له في ميناون الروم (لكويان مجلد ٢ من المشرق المسيحي في بطاركة أورشليم).

وخلف القديس مكاريوس بعد وفاته القديس مكسيموس الثاني، وقال فيه سوزومانوس (ك ٢ فصل ٢٠) ما ملخصه: «إنَّ مكاريوس رقى مكسيموس إلى أسقفية ديسبولي (وهي اللد) لكن أهل أورشليم أمسكوه عندهم لما عُرف به من الفضل والعلم، وأضمرُوا أن يخلف مكاريوس بعد وفاته، وشقَّ عليهم أن يغادرهم رجل خبروا فضيلته، ويتعزَّضوا بعده للخلاف في انتخاب أسقف لهم، فالأولى أن يعاون مكاريوس في حياته ويخلفه بعد موته. ومن دققوا في الخبر رأوا أنَّ مكاريوس ندم على ترقيته مكسيموس إلى أسقفية اللد. وآثر امساكه لديه كلفاً باخلاص خدمته وغيرته على الدين القويم، وخيفة أن يختار الاساقفة الارويسيون بعده من كان مشايعاً لهم. فخلفه كما أحب سنة ٣٣١م. وروى لكويان (في المشرق المسيحي عن توادوريطوس ك ٢ فصل ٢٦) إنَّ مكسيموس قُتعت عينه وقُطعت ابهامه اليمنى لانتصاره للدين القويم. وقال سوزومانوس (ك ٢ فصل ٢٥) إنَّ مكسيموس شهد ٣٣٥م مجمع صور الذي عقده الارويسيون ليحكموا على القديس اثناسيوس بالعزل عن كرسيه. ولما رأى بفنوتيوس تحاملهم على القديس اثناسيوس أمسك مكسيموس بيده وأنهضه قائلاً هلمَّ نذهب فلا يليق بنا فقد قُتعت عينانا وقُطعت ابهامنا حباً بالايمان أن نجالس مثل هؤلاء الاشرار المارقين. على أنَّ سوزومانوس روى (ك ٣ فصل ٦) أنَّ مكسيموس خدعه الارويسيون في مجمع صور فمالأهم على حطِّ اثناسيوس وكذلك قال سقراط (ك ٢ فصل ٨). ولكن روى بعضهم قوله بمعنى أنَّ الارويسيين ضيَّقوا عليه ليمالئهم على

حطه. ولذلك لم يحضر إلى مجمع انطاكية الذي عقده بعد ذلك لندامته على ما فرط منه في ممالأة الاربوسيين. على ما قال المؤلفان المذكوران أو لتحاشيه عن مضايقتهم على القول الثاني. وأنبأنا القديس اثناسيوس (في محاماته ٢) إنه بعد عوده من مجمع سرديكا (صوفيا) سنة ٣٤٧م عقد مجعاً في فلسطين ودعا مكسيموس إليه. فوَّع قبل الجميع على الرسالة التي أنفذها هذا المجمع إلى أساقفة افريقيا. وزعم بعض المؤرخين أنَّ الاربوسيين خلعوا مكسيموس من أسقفية سنة ٣٤٩ أو سنة ٣٥٠م وأقاموا مكانه كيرلس الآتي ذكره. ولم يذكر القديس ايرونيموس في الكرونيكون هذا الخلع بل كل ما قاله في تاريخ سنة ٣٥٣م: «مات مكسيموس خليفة مكاريوس في الكرسي الأورشليمي وتغلَّب بعد ذلك الاربوسيون على هذه الكنيسة فقام كيرلس واوطيخوس ثم كيرلس ثانية ثم ايرانيوس وبعده كيرلس مرة ثالثة ثم ايلاريون ومن بعده كيرلس مرة رابعة.

إنَّ القديس كيرلس وُلد في أورشليم سنة ٣٥١م ورُقِّي إلى كرسي بطريركية أورشليم سنة ٣٥١م على الراجح. وقد اشتبه أولاً بصحة عقيدته لترقية اكاشيوس أسقف قيصرية الاربوسي له إلى الاسقفية. وقد أثنى توادوريطوس على كيرلس ودعاه المحامي الباسل عن التعليم الرسولي. ومهما يكن من أمر ترقيته إلى الاسقفية فقد محا وصمة الشبهة بمناصبته للاربوسيين ومغالبتة لهم، حتى نفوه ثلاث مرات. وعاد من منفاه غالباً موقراً، ويرجح استواؤه على الكرسي البطريركية سنة ٣٥١م، ورفع هذه السنة في شهر أيار رسالة إلى الملك قسطنس قال له فيها أنها أول رسالة كتبها، وأنبأه بآية جرت في أورشليم في ٧ أيار من تلك السنة، وهي أنه ظهر نور باهر أكثر بهاء من نور الشمس، واستمر أياماً ممتداً من كنيسة القيامة إلى جبل الزيتون. وقد رآه كل من كانوا في أورشليم من المؤمنين واليهود والوثنيين ذكوراً وإناثاً. وتسارعوا إلى الكنيسة المذكورة مدهوشين من هذه الآية، وقد آمن حينئذٍ كثيرون. وذكر أيضاً هذه الآية سوزومانوس (ك ٤ فصل ٥) والكرونيكون الاسكندري صفحة ٢٩٢ (على ما روى لكويان في المشرق المسيحي في ترجمة هذا البطريرك)، وآخرون كثيرون. وفي سنة ٣٥٧م تحامل اكاشيوس أسقف قيصرية على القديس كيرلس وعني بحطه ونفيه لاسباب منها أنَّ كيرلس بعد ارتقائه إلى الكرسي الاورشليمي ادعى على اكاشيوس أسقف قيصرية أنَّ له حق التقدّم عليه لأنه خليفة يعقوب الرسول. فاستاء اكاشيوس من ذلك لأنَّ التقدّم كان قبلاً

لأسقف قيصرية، وأخذ يخلق تهماً على القديس كيرلس. وحصلت حينئذٍ مجاعة في فلسطين فأنفق كيرلس كل ما كان يملكه على المعوزين، حتى باع بعض آنية الكنيسة ومنذوراتها، ووجدت بغيةً متشحة بحلة من هذه المنذورات فاتّهم كيرلس بأنه وهبها لها. ولدى البحث عن ذلك أقرت المرأة بأنها ابتاعت الحلة من التاجر، وأقرّ التاجر بأنه شراها من الاسقف، ومع ذلك تيسّر لأكاشيوس أن يعزل كيرلس متدرباً بمثل هذه التهم (روى ذلك سوزومانوس ك ٤ فصل ٢٥)، وأقام الاريوسيون مكانه كاهناً اسمه اوطيخوس أو اوطاخى.

ثم عُقد مجمع في سلوقية بآيسورية سنة ٣٥٩م شهدته كيرلس واستأنف دعواه على أكاشيوس، فدعي هذا مراراً وأبى الحضور فحكم المجمع عليه بالعزل (سقراط ك ٢ فصل ٤٠). ويظهر أنّ كيرلس عاد حينئذٍ إلى كرسيه ولكن إلى مدة وجيزة لأنّ أكاشيوس أغرى الملك قسطنس بعقد مجمع في القسطنطينية، وشايه كثير من الاساقفة فعزلوا كيرلس سنة ٣٦٠م (سقراط ك ٢ فصل ٤٢ وسوزومانوس ك ٤ فصل ٣٠) وأقام الاريوسيون مكانه ايرانيوس الذي مرّ ذكره في كلام ايرونيوموس كأّن اوطاخى كان قد توفي. ولما مات قسطنس وخلفه يوليانس الجاحد وأمر بعود الاساقفة المنفيين إلى كراسيهم، رجع كيرلس إلى كرسيه في سنة ٣٦٢م لأنه يظهر أنه كان في أورشليم لما أخذ يوليانس يجدّد الهيكل. إذ روى روفينوس (ك ١ من تاريخه فصل ٣٧) أنّ كيرلس قال حينئذٍ يستحيل على اليهود مهما جدّوا أن يضعوا حجراً على حجر في الهيكل، فخرجت نار ومنعتهم عن العمل. ومات أكاشيوس سنة ٣٦٥م ولم ينكفّ الاريوسيين عن اضطهاد كيرلس، فإنهم سعوا لدى الملك والنس فأذاع أمراً فحواه أنّ الاساقفة الذين عُزلوا في أيام الملك قسطنس ورُدّوا إلى كراسيهم على عهد الملك يوليانس يلزم عزلهم ثانية. وبمقتضى هذا الامر عُزل كيرلس للمرة الثالثة، وأقام الاريوسيين مكانه ايلاريون كما رأيت في كلام القديس ايرونيوموس، وكما يظهر في كلام ايفان في بدعة ٦٦. ولم يعد كيرلس إلى كرسيه إلا بعد وفاة والنس الملك سنة ٣٧٨ أو سنة ٣٧٩م على ما روى سقراط (ك ٥ فصل ٣). وقد شهد كيرلس المجمع القسطنطيني المسكوني سنة ٣٨١م (توادوريطوس ك ٥ فصل ٨). وقال سوزومانوس (ك ٤ فصل ٣٠): «انه بعد عزل كيرلس خلفه من الاساقفة الاريوسيين ايرانيوس، وهذا خلفه هرقل ثم خلف ايلاريون هرقل على ما اتصل بنا». وتعقبه فالسيوس في حواشيه قائلاً: «إنّ

هرقل هذا كان القديس مكسيموس قد عيّنه عند وفاته خليفة له، ولكن جنح الارويسيون إلى كيرلس وانتدبوه بطريركاً واحتالوا بمكرهم على هرقل حتى ترك الاسقفية وعاد كاهناً كما قال ايرونيμος في الكرونيكون». وهذه عبارة ايرونيμος في الكرونيكون: «ومن شرّ الارويسيين أنهم زَيّنوا بحلى عديدة لهرقل الذي كان مكسيموس قد أقامه عند احتضاره خلفاً له أن يترك الاسقفية ويعود كاهناً».

وقد أدركت المنية كيرلس سنة ٣٨٦ أو سنة ٣٨٧م ويعيّد لذكره في الكنيسة اللاتينية في ١٨ آذار: وأخصّ تأليفه كتبه في التعاليم وهي منقسمة إلى ٢٣ تعليماً حاوية شروحاً مشبعة في عقائد الايمان والتقليدات القديمة. وقد طُبعت مرات، وآخر طبعاتها عني بها الأب مين سنة ١٨٥٧ إلى سنة ١٨٦٠م في مكتبة الآباء.

وخلف يوحنا الثاني كيرلس على ما روى سوزومانوس (ك ٧ فصل ١٤) وسقراط (ك ٥ فصل ١٥)، وكان راهباً وكاهناً في كنيسة أورشليم، وكان عمره عند ارتقائه إلى الكرسي الاورشليمي نحواً من ثلاثين سنة، وكان صديقاً لثاوفيلوس البطريرك الاسكندري. وعده القديسان ايفان وايرونيμος من المغوين بضلال اوريجانوس. وكان بينه وبين هذين القديسين جدال عنيف استمر من سنة ٣٩٤ إلى سنة ٣٩٧م التي صالح فيها ايرونيμος. وقد انتصر يوحنا لدعوى يوحنا فم الذهب فكتب إليه رسالته الثامنة والثمانين سنة ٤٠٤م.

وقد خدعه ييلاجيوس سنة ٤١٥م في مجمع ديوسبولي (اللد) وخدع غيره من الاساقفة فأيدوا بدعته. وأرسل إليه القديس اغوستينوس كتابه في الطبيعة والنعمة ثم رسالته في بدعة ييلاجيوس وهي ٢٥٢ من رسائله. وسماه المؤرخون اسماء عديدة، ولقي ربه سنة ٤١٧م بعد أن قضى ثلاثين سنة في الاسقفية. وقد ذكره من الاحبار الرومانيين انسطاس وزوزيموس، ومن الآباء اغوستينوس وبولينوس وفم الذهب وايرونيμος وتودوريطوس. وكلامهم مؤذن بالتوقيير له، ولم يعزُ إليه ايرونيμος وغيره إلا كتاب محاوراته مع ايفان وايرونيμος على ما روى تلمون في تاريخه، مجلد ٢ صفحة ٣٤٢. وقد لخصنا كل ذلك عن لكويان في المشرق المسيحي (مجلد ٢ في سلسلة بطاركة أورشليم).

الفصل الثاني

أساقفة سورية في القرن الرابع

عد ٥٧٧

اوساييوس أسقف قيصرية فلسطين

وُلد اوساييوس نحو سنة ٢٧٠م وعشق العلوم منذ حداثته، وآخاه القديس بمفيل العالم الشهير الذي كان أتقن العلوم في مدارس بيروت كما مرّ، حتى تسمى باسمه فيسمى اوساييوس بمفيل. وربما زار بمرافقته النساك في مصر والصعيد، وترقى في مراتب الكهنوت حتى صار أسقفاً على قيصرية سنة ٣١٥م، وانكبّ على الاشتغال بالعلوم ولا سيما التاريخ حتى سُمّي أبا التاريخ الديني، كما سموا هيرودت أبا التاريخ القديم الدنيوي. وكان صديقاً حميماً للملك قسطنطين الكبير، وقد كتب ترجمته كما سيأتي. وكان من جملة الآباء الذين شهدوا مجمع نيقية سنة ٣٢٥م بل هو الذي أنشأ قانون الايمان الذي وضعه هذا المجمع ونقحه آباؤه، وزادوا عليه كلمات منها مساوٍ للآب في الجوهر كما هو بيّن من الرسالة التي كتبها اوساييوس نفسه إلى أبناء ابرشيته من هذا المجمع. وقد ذكرها توادوريطوس (في تاريخه ك ١ فصل ١١ وسقراط ك ١ فصل ٨). وقد انتخبه بعض الاساقفة عند عزل اوسطاتيوس بطريرك انطاكية ليكون خليفة له، فتمتّع من قبول هذه البطريركية كما مرّ. وقد ذكر اوساييوس هذا الخبر (ك ٣ من ترجمة قسطنطين الملك فصل ٦٠). وروى رسالة الملك إلى الاساقفة بهذا الشأن على أنه قد ملأ الاساقفة الاربوسيين في مجمع انطاكية على عزل القديس اوسطاتيوس عن كرسيه الانطاكي، وأغرى قسطنطين الملك بنفي القديس اثناسيوس وإعادة اربوس من منفاه في مجمعي قيصرية وصور سنة ٣٣٥م، بل قد اتهمه بعضهم بأنه تابع الاربوسيين

على تعليمهم على أنّ تلك تهمة لم تثبت بدليل، ولعلّها نشأت من تباهي الارويسيين به. وقد برّاه منها سقراط مفرداً لذلك فصلاً من تاريخه (ك ٢ فصل ٢١)، مورداً كثيراً من أقواله التي هي نصّ في تأييد العقيدة الكاثوليكية بالوهيّة الابن ومساواته للآب جوهرأ، وفي نقض بدعة اريوس نقضاً يتيّناً. ومثل ذلك فعل توادوريطوس إذ أفرد الفصل الحادي عشر من الكتاب الاول من تاريخه لايراد رسالة اوسايبوس من المجمع النيقوي إلى أبرشيته، مضمّناً إياها قانون الايمان الذي أنشأه والقانون الذي عوّل عليه آباء المجمع بعد اصلاحات لا أهمية لها (وسايتي ذكر هذه الرسالة بين جملة تأليف اوسايبوس).

ورد في الفصل الثاني عشر من الكتاب المذكور مزاعم الارويسيين بأقوال اوسايبوس نفسها، ومنها أنّ كلمة مساوٍ جوهرأ لم يخلقها آباء هذا المجمع حيثيّد لوصف الابن بل كانت قبلهم، وبالجملة قد كان اوسايبوس ذاهية عصره وأعلم علماء عصره وقد توفاه الله نحو سنة ٣٣٨م (عن السمعاني في المكتبة الشرقية عن دينسيوس في الكرونيكون سنة ٣٤٠م). وقد ألّف وصنّف كثيراً من الكتب التاريخية والدينية والعلمية، منها تاريخه الديني ضمّنه في عشرة كتب تكلم فيها على الاحداث ومشاهير الرجال والمسائل الدينية من أيام الخلّص إلى السنة العشرين لقسطنطين الملك، وهي السنة ٣٢٦ للميلاد. ومنها ترجمة قسطنطين الملك تنطوي على أربعة كتب شرح فيها أعمال هذا الملك التقوية، وضمّنها مراسيمه وأوامره الدينية. وألحقه بكتاب خاص ضمّنه نصائح إلى جماعة القديسين أي الكنيسة. عزاها إلى هذا الملك يبيّن فيها بعض أسرار الدين المسيحي وعقائده في ستة وعشرين فصلاً. وأتبعها بمقالة في مدح قسطنطين الملك ذات ثمانية عشر فصلاً. وله كتابه الموسوم بالاستعداد الإنجيلي جمع فيه كل ما كان مقدمة وبرهاناً على مجيء الخلّص. ونشر إنجيله من الاسفار المقدّسة والآثار القديمة، ومن جملتها فقر سنكونياتون البيروتي. ومن تأليفه أيضاً الكرونيكون أي تاريخ السنين بدأ فيه من تاريخ خلق العالم إلى سنة ٣٣٠ للميلاد، متكلماً فيه في الآباء والملوك والمشاهير والاحداث المهمة بايجاز إلى أيامه. وأصل هذا الكتاب اليوناني مفقود، والموجود الآن ترجمة لاتينية له وضعها القديس ايرونيوس ملحفاً به تاريخاً حدا به حذوه إلى سنة ٣٨٢م وهو مقسوم إلى كتابين. وله أيضاً مقالة في استشهاد القديس بمفيل ورفقائه مأخوذة عن كتبه في ترجمة هذا القديس. وقد صرّح اوسايبوس بأنه كتب

في هذه الترجمة ثلاثة كتب لكنها لم تصل إلينا. وهذه المقالة ملحقة فـ (مجلد ٢٠ من مكتبة الآباء اليونان). بكتبه في الملك قسطنطين. كتاب في شهداء فلسطين ينطوي على ثلاثة عشر فصلاً نشره مير المذكور من مكتبة الآباء المذكورة. وقد وُجدت أخيراً نسخة من هذا المتحف البريطاني، وقد نُشرت مرات مكتوبة في السريانية وأكثر إسها المعروف. وتضاربت الأقوال في هذه النسخة، وأصح ما رأيته في بعض الأقوال في شأنها أنَّ اوسايوس كتب هذا الكتاب أولاً في السريانية وأسهب المقال تعميراً لشعبه بمثال هؤلاء الشهداء. ثم ترجمه موجزاً الكتاب الذي تتداوله أيدينا الآن. ونُشر له هناك أيضاً فقراً من كتاب الاقدمين وعشرة شهداء مصريين ورسالتين، احدهما إلى أبناء أبرشيته النيقوي، والثانية إلى الملكة قسطنسية. وله أيضاً تأليف في المدافعة عن كتبه مشتركاً فيه مع القديس بمفيل. وقد أشار إلى ذلك في تاريخه (٣٦) إذ قال بعد أن عدَّ مصنفاته: «وترى البيئات القاطعة على ذلك السادس من محاماته الذي كتبناه نحن للمدافعة عنه». فالتأليف المذكور ستة كتب. وقال في محل آخر أنَّ بمفيل شاركه في تأليف هذا الكتاب ولاوسايوس أيضاً كتب في جغرافية اليهودية ومواقع الاما واسمائها. فقد قال القديس ايرونيμος في مقدمة كتابه في مواقع الاما واسمائها ما ملخصه: «إنَّ اوسايوس بمفيل القيصري بعد العشرة الكتب في التاريخ البيعي، وبعد الكرونيكون الذي ترجمناه إلى اللاتينية، وش التي كان العبرانيون يستعملونها، وبعد كتابته جغرافية اليهودية وتبيين ما من الاسباط من أرضها، وشروحه عن أورشليم والهيكل، اعتكف على في مواقع الاماكن العبرانية واسمائها ذاكراً في المدن والجبال والانهر كانت اسماءها، وما طراً على بعضها من التغيير. فأحببنا ترجمة هذا ا حاذين حذو الرجل العجيب في نظام كتابه».

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي في قصيدته في المؤلفين اوسايوس وعدَّ له من التأليف بعض ما ذكرناه له، وزاد عليه كتاباً في حلّ المد الإنجيل مع عشرة قوانين لتفسيره. وقال السمعاني (مجلد ٣ من الم صفحة ١٨ في شرح هذه القصيدة) يريد الصوباوي بهذه القوانين

اوساييوس في رسالته إلى كبريانوس ، ولذا اعتادوا أن يعلقوا هذه القوانين على كتاب توفيق الاناجيل لامونيوس، ونراها معلقة بالسريانية والعربية على نسخ الاناجيل المتناهية في القدم. وذكرها ابن صليبا وابن العبري في مقدمتهما على الاناجيل. وقال الصوباوي أيضاً أنّ لاوساييوس كتاباً في تاريخ الشهداء الغربيين أي الشهداء في سورية وفلسطين ومصر. وقال السمعاني يعزو السريان إلى اوساييوس مثل هذا الكتاب. وقد أتى من عهد قريب إلى المكتبة الواتيكانية بكتاب سرياني حوى تاريخ كثير من الشهداء وعدّ منهم نحو ثمانين شهيداً. وقال أترك لغيري الحكم أوساييوس كتب أخبار كل هؤلاء الشهداء أم غيره؟ وقد رأيت في دير القديسة مريم في الاسقيط كتابين مشتملين على تراجم كثيرين من القديسين، ومن المؤكد أنّ كثيراً منها لا يمكن أن يعزى إلى اوساييوس. وذكر الصوباوي أيضاً خطبة لاوساييوس في احتباس المطر. وقال السمعاني فيها لم أر من عزاها من اليونان أو اللاتينيين إلى اوساييوس.

عد ٥٧٨

اوساييوس أسقف حمص

أنبأنا سقراط في تاريخه (ك ٢ فصل ٩) نقلاً عن جيورجوس أسقف اللاذقية الذي أفرد كتاباً لترجمة اوساييوس الحمصي وكان عشريناً له إنّ اوساييوس هذا كان من أسرة شريفة من الرها. ومنذ حادثة سنه تعلّم الاسفار المقدسة، حتى كان يقرأ فصولاً منها عن ظهر قلبه. وهذا كان دأب كثيرين من أهل الرها في تلك الايام. ثم انكبّ يدرس العلوم على أستاذ ماهر في مدينته. وأخذ تفسير الكتاب عن اوساييوس أسقف قيصرية، وبتروفيل أسقف باسان. ثم أتى إلى انطاكية وكان حينئذ أنّ قورش أسقف حلب شكّا القديس اوسطاتيوس بطريرك انطاكية بأنه مغوي بغواية سايليلوس. فعزل وأقيم مكانه افرونيوس كما مرّ. فعاش اوساييوس معه متآلفين متوادّين. وعرض عليه أن يرقى إلى درجة الكهنوت فأبى لاحتسابه نفسه غير أهل لهذا الشرف. ومضى إلى الاسكندرية فانصبّ على درس الفلسفة. ثم عاد إلى انطاكية فعاش مع بلاشلوس خليفة افرونيوس بسلام. وعقد حينئذ مجمع في انطاكية فراه اوساييوس بطريرك القسطنطينية إلى درجة الكهنوت،

ورغب في أن يرسله إلى الاسكندرية لتدبير كنيسة في مدة اثنا عشر سنة عنها متيقناً أنّ ما تجمل به من القداسة، وما تفرّد به من المصريين ما كانوا يرونه من ذلك في القديس اثنا عشر سنة. فأبى هذا حتى الاسكندريين عليه، فأرسل أسقفاً إلى حمص، ولكن ثار الشعب اللاذقية فلقية جيورجوس أسقفها صديقه بالترحاب. فأقام عنده مد انطاكية وأعيد إلى كرسيه في حمص. فسعى به حساده أنه سايليوس، ولكنه كان معزراً عند الملك قسطنس، وكان يستصحب وروى عنه جيورجوس أسقف اللاذقية المذكور أنّ الله صنع على يده انتهى كلام سقراط عن جيورجوس اللاذقي. وروى مثل ذلك : (ك ٣ فصل ٦) وعن السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ٣ ص ١٠) اوسابيوس توفي في انطاكية سنة ٣٦٠ م. وروى كثيرون منهم : ولكويان في المشرق المسيحي وقبلهما القديس ايرونيموس في الكرو ١٠ لقسطنس أنه كان اريوسياً بل من أقطاب الاريسيين. وقا ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٩١): «اوسابيوس أسقف البلاغة والفصاحة ألف كتاباً تشد عن العد كان لها أحسن الشعب. وانكب على التاريخ خاصة، وكان كل من أحب الخط بكل رغبة، وأخصّها كتبه الحاوية رده على اليهود الوثنيين واتب وعشرة أسفار في تفسير رسالة بولس إلى الغلاطيين. وله مقالا الاناجيل موجزة لكنها كثيرة. وقد اشتهر ومات في عهد قسطنس انطاكية». وقد ذكره عبد يشوع الصوبايي أيضاً في قصيدته «اوسابيوس الحمصي ألف كتاباً رداً على اليهود ومباحث في العهد اسطفانوس». وقال السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة المباحث في العهد القديم لم نر من عزاه إليه إلا الصوبايي. وز استشهد في مقالته في تجسد أحد أقانيم الثلاث، وتأمله بأقوا الحمصي مأخوذة عن كتابه في الايمان، وعن خطبته في التغييرات خطبته التي تلاها في بيروت. انتهى كلام السمعاني على أنّ المقالة الاناجيل وإن كانت معزوة فقد أنكر نطاليس اسكندر أن تكون له . لاتيني سنداً لشهادة بعض الفقهاء، وإلى أنّ عبارتها نفسها مشعر

باللاتينية وباليونانية ولا أقل من أن خمسين مقالة من الباقي منها هي لمؤلف لاتيني على ما أثبت بارونيوس وبلرمينوس وغيرهما من المؤرخين.

عد ٥٧٩

القديس ايفان أسقف سلمينا في قبرص

أبنأنا سوزومانوس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٣٢) بأخبار ايفان قائلاً إنه وُلد في قرية في ناحية بيت جبرين بفلسطين، وربى منذ حداثته في أديار النساك الذين نما عرف فضلهم في تلك الناحية. ثم مضى إلى مصر وأقام فيها طويلاً بين نساكها يقتبس منهم الفلسفة الرهبانية فمهر فيها. وكان عالماً بخمس لغات وهي اليونانية والعبرانية والسريانية والمصرية واللاتينية على ما روى القديس ايرونيμος في محاماته ٢ رداً على روفينوس. وانتشر صيت قداسه وعلمه في مصر وسورية وقبرص أيضاً. فانتخبه القبرصيون رئيس أساقفة لجزيرتهم، وكان كرسيه في قسطنسة المسماة سلمينا، فتضوعت تلك الأرجاء بشدا فضيلته وانبث فضله في كل صقع. فإن تفانيه في خير رعيته وتساميه بالفضيلة والعلم لم يحتجبا وهو مقيم في فرضة بحرية كثر تردد الخاضعة والعامة إليها. وأبنأنا سوزومانوس أيضاً (ك ٧ فصل ٢٧) أنه كان جواداً على المعوزين وأصحاب الفاقة حتى أنفق في هذا السبيل المبرور كل ما يملكه. وكان إذا نفذ ما بيده أنفق على الفقراء من مال كنيسته، وكانت كنيسته تتألى التقادم إليها من كل صوب. وقد تيقن الناس بأنه موزع حكيم يجود بما وصل إلى يده في سبيله بحسب نية المحسن وطلبه. فكان كل ذي مبرات يرسل إليه ما يجب، وكثيرون يوصون عند احتضارهم لكنيسته بمبالغ من النقود أو بعقار. وقال المؤرخ المذكور أن الله شاء أن يصنع على يده آيات منها أن قيّم الكنيسة أناه يوماً يلومه على فرط سخائه على الفقراء، وأنه لم يبق بيده ما ينفذ بإعطائه أوامره، فصرفه قائلاً إن الله لا يضرّ على إخوة المخلص بما يسدّون فاقتهم. ومضى القيّم إلى مخدعه ففاجأه شخص يقلّ كيساً مملوءاً من النقود الذهبية، ولم يعلم القيّم من المعطي ولا من المرسل. ولما كان من خارق العادات أن يكتم المحسن تبرعه بمثل هذه الهبة الجزيلة قضى كل سامع أن هذه الهبة إن هي إلا آية سماوية. ومنها أن ايفان كان سائراً ذات يوم في طريقه فأبصره عن بعد متسولان، ولطمعهما في أن

يجزل عطاءه لهما جعل أحدهما نفسه ميتاً، ووقف الآخر بجانبه يبكي ويد صدقة لينفق على دفنه، فرحم اييفان على الميت ودفع إلى الحي ما ينفقه على صاحبه. وقال له صبراً يا ابني فادفن ميتك وكفّ البكاء فهو لا يقوم الآن، وقد الله ما قضى، فتحمله بالتآسي. ومضى القديس في طريقه فقال الواقف للمضجع فقد أحسنت وأجدت يتشخيصك فقد نجحت حيلتنا وتعال نقض يومنا فرحين. يكن من يسمع فوخزه برجله وجزه وصاح به فلم تكن حياة لمن ينادي. فسعى اثر اييفان باكياً، ولما أدركه خثر على وجهه منتحياً أسفاً على ما تعمداه من ا. سائلاً إياه أن يعيد صاحبه حياً. فصرفه القديس محرضاً له على الصبر ومحذراً من المكر بالله وبأوليائه.

وقد زار القديس اييفان أورشليم سنة ٣٩٤م وحلّ فيها ضيفاً على أسقفها، وكان يوحنا ممن يجلّون اوريغانس واييفان ممن يقلونه. ومضيا ذات إلى بيت لحم فخطب اييفان مندداً بالاوريغانيين فساء ذلك يوحنا، ودرى ا. فأقام في دير بيت لحم وحرض القديس ايرونيموس (الذي كان حينئذ في الدير) الرهبان أن يخالفوا البطريرك في رأيه هذا. ثم رقى اييفان يولينيان القديس ايرونيموس إلى الشمامسة والكهنوت، فجاهر البطريرك بالشكوى من حرمة ولايته، فكتب إليه اييفان رسالة طويلة يعتذر بها عن فعلته بعادتهم في قب ويشير إلى أنّ ما ساء البطريرك لم يكن ترقيته يولينيان بل تبنيه له إلى أن ي. عن مدح اوريغانس، وبجانب أغلاطه التي حصرها في ثمانية رؤوس. فالبطريرك يجب على هذه الرسالة بل كتب محاماة عن اوريغانس رسالة أرسلها توافيلوس الاسكندري الذي كان حينئذ ممن يجلّون اوريغانس.

وأنبأنا سقراط (ك) ٦ من تاريخه فصل ١٠ وسوزومانوس ك ٨ فصل ١٤ يليه) إنّ أيفان كان يشاحن توافيلوس البطريرك الاسكندري لانحرافه عن . الايمان القويم بتعليمه أنّ الله هيئة وأعضاء بشرية. وكان توافيلوس مخلصاً لي. فم الذهب بطريرك القسطنطينية ويرغب في عزله عن كرسيه. وأراد أن يع. باييفان على تنفيذ مأربه، فتزلف إليه برسالة يبيّن بها عدوله عن رأيه وإقراره بأنّ منزّه عن كل صورة بشرية، ويسأله أن يحرم تلاوة كتب اوريغانس لأنها ك. علّة للتشبه بهذا الضلال. وكان اييفان ممن ينددون باوريغانس وبعض كتبه مزّ، فعقد مجمعاً مع أساقفة جزيرته وحرم تلاوة كتب اوريغانس، وكتب ر.

إلى كثيرين من الاساقفة وإلى يوحنا فم الذهب ينبئهم بما كان في مجمعه، ويحرضهم على عقد مجامع، وحظر من تلاوة كتب اوريجانوس. فشرّ تاوافيولوس بذلك لعلمه بأنّ فم الذهب لا يرضى هذا التحريم، فعقد مع أساقفة مصر مجمعاً وصنع ما صنعه ابيفان وكتب إلى فم الذهب، فازدري فم الذهب عمل ابيفان وتوافيلوس ولم يجب على رسالتيهما.

وكان لفم الذهب خصوم أقوياء كما سيأتي في ترجمته. فسعوا لدى الملك بأن يعقد مجمعاً في القسطنطينية، فانتهز تاوافيولوس هذه الفرصة وأمر أساقفته أن يمشوا للحال إلى القسطنطينية، وكتب إلى ابيفان وغيره من أساقفة المشرق أن يلبوا الدعوة دون إبطاء. فمضى ابيفان مسرعاً إلى القسطنطينية والتقاء فم الذهب يحفّ به جمهور كهنته، ولم يتمالك ابيفان من أن يصرح بجنوحه إلى تصديق الوشايات الواردة على فم الذهب. وكلف أن يحلّ في المنازل الاكليريكية فأبى واعتذر من أن يدخل مع فم الذهب إلى منزله. وكان يدعو الاساقفة الذين كانوا في القسطنطينية يريهم على انفراد ما رسمه في مجمعه من تحريم كتب اوريجانوس سائلاً إياهم أن يوقعوا على ذلك. فأذعن له بعضهم وأبى كثيرون متابعتهم على ذلك، بل لام بعضهم ابيفان على إهائته علماً توفي منذ سنوات متطاولة، وعلى نبذه ما أثبتته القدماء. فاستمر فم الذهب يجمال ابيفان ويكلفه بأن يقّس معه وينزل في داره. وابيفان يقول له إنه لا يدخل داره ولا يصلّي معه إن لم يحرم كتب اوريجانوس ويطرده من عنده رهباناً كان توافيلوس قد حرّمهم ولجأوا إلى فم الذهب فقبلهم. وكتب إلى توافيلوس أن يحاكمهم، وفم الذهب يجيب أنه لا يستطيع أن يصنع ذلك إلّا بعد حكم قانوني. وزاد ابيفان على ذلك أنه رقى شماساً إلى الدرجات المقدّسة في كنيسة القسطنطينية دون استئذان فم الذهب. ودعا أعداء فم الذهب ابيفان أن يأتي إلى حفلة في كنيسة الرسل في القسطنطينية ويخطب في تحريم كتب اوريجانوس، ولزوم مجانبه أولئك الرهبان لتمسكهم بأقواله. ولما أقبل ابيفان في اليوم الثاني على الكنيسة التقاه سراييون من قبل فم الذهب الذي كان مترساً على الحفلة، فقال له قد أقدمت على أمور كثيرة تخالف القوانين، فباشرت الترقية إلى الدرجات المقدّسة في الكنائس الخاضعة لولايتي، وأقمت قداسات احتفالية في هذه الكنائس دون علمي، وقد دعوتك أولاً أن تأتي إليها فأبيت، والآن تجيز لنفسك أن تأتي إليها وتخطب فيها. فحذار من أن تنشئ قلقاً في الشعب فتعرض نفسك

للخطر، وتكون مؤاخذاً بعملك: «فلما سمع اييفان هذا الكلام ارتاع، وبعد وقت وجيز برح القسطنطينية عائداً إلى قبرص. وقال بعضهم أنه قبل سفره أرسل يقول لفم الذهب رجوت أنك لا تموت أسقفاً. وأنّ فم الذهب أجابه رجوت أنك لا تبلغ إلى وطنك». قال الراوي وهو سقراط، هل صدق من نقل هذا الكلام؟ لعمرى لا أستطيع أن أوجب صدقه، على أنّ كلاً منهما أصابه ما دعا الآخر عليه به. فإنّ اييفان مات في سفره قبل أن يبلغ إلى قبرص. وفم الذهب عُزل بعداً عن كرسيه ونُفي. انتهى. وقد كذب كثيرون من المؤرخين رواية دعاء هذين القديسين أحدهما على الآخر. وعدّها بارونيوس من الاقاصيص التي يسخر منها. واحترز سقراط من إعارتها جانب الصدق ولم يشبتها كما رأيت. أقول أنّ كلاً يرى أنها لا تليق بقديسين كاهنين، وأظنها مختلقة بعد الوقوع، أي بعد موت اييفان ونفي فم الذهب ولم أذكرها إلاً لمفاكحة.

قال بارونيوس في تاريخ سنة ٤٠٢م إنّ هذه المشاحنة بين فم الذهب واييفان كانت في السنة المذكورة. ولم يتابع سقراط وسوزومانوس على أنّ وفاة اييفان كانت في هذه السنة بل قال إنّ سنة وفاته مجهولة. قال فاليسيوس (في حواشيه على تاريخ سقراط) أعجب ببارونيوس إذ وافق سقراط وسوزومانوس في رواية هذه المشاحنة بين هذين القديسين، وخالفهما في سنة وفاة اييفان مع أنّ سوزومانوس كان من سلمينا أبرشية اييفان، وسقراط كان في القسطنطينية، وكانا كلاهما معاصرين لاييفان أو قريبين من عصره. فالمعول إذاً على شهادتهما وأنّ اييفان توفي في آخر سنة ٤٠٢م أو في بداية السنة التابعة.

قال القديس ايرونيوس (في كتابه في المشاهير فصل ١٤) اييفان أسقف سلمينا في قبرص ألف كتاباً في جميع البدع. وكتباً أخرى كثيرة يصبو إلى مطالعتها العلماء للحقائق المنطوية عليها. وعامة الناس لفصاحة ألفاظها وهو حي إلى الآن. وصنّف في شيخوخته مصنفات كثيرة. وذكره عبد يشوع الصوبواوي في قصيدته في المؤلفين قائلاً: «اييفان وضع كتاباً في الظهور الإلهي (ربما كان في ميلاد الخلص وتجسده. والظاهر أنّ المراد مقالته في تجسد الخلص وظهوره للعالم أو كتابه الموسوم بالمراسة الآتي ذكره. على ما قال السمعاني في شرح هذه القصيدة. مجلد ٣ من مكتبة الشرقية صفحة ٤٣) وله كتاب في البدع منذ البدء إلى أيامه». وعدّ نطاليس اسكندر (في تاريخ القرن الرابع فصل ٦ جزء ٢٩) مؤلفاته فقال هي

كتابه الذي عنوانه الدرياق في البدع وقسمه إلى ثلاثة أسفار. ولم يكتفِ بأن يذكر تاريخ البدع بل يبيِّن كل ما يقتد به كل منها. وكتابه الموسوم بالمرساة عنوانه كذلك لأنَّ غرضه منه توطيد النفس في تعليم الايمان ورسوخها فيه كما ترسخ السفينة بالمرساة. وعزا إليه القديس ايرونيμος (في رسالته ٢٨ إلى قابولا) وبثافيوس وغيرهما كتاباً في الحجارة (أو في الاثني عشر حجراً كما سترى في رواية السمعاني وأظنها الاثني عشر حجراً كريماً التي في أسس المدينة المقدسة وأبوابها، كما في رؤيا يوحنا (فصل ٢١). قال فيه ايرونيμος أنه جزيل النفع للمطالعين. وعزا إليه فوتيوس كتاباً في الموازين والمكايل، ولم ينكر أحد أنه له. ويعزى إليه كتاب في ترجمات الأنبياء وليس له حقيقة لكثرة ما فيه من الاغلاط. وتعزى إليه ثمانى خطب أو مقالات، أي خطبتان في عيد الشعانين، وخطبة في دفن المسيح، وأخرى في قيامته، ثم في صعوده، وفي مديح العذراء، وفي عدد الاسرار. لكن يظهر من نفسها ونسقتها وأدلة أخرى أنها لايفان آخر. إذ كان كثيرون من الكتاب يسمون بهذا الاسم. وله رسالة إلى يوحنا البطريرك الأورشليمي كما مرَّ آنفاً. ولكن ورد في آخر هذه الرسالة أنَّ اييفان مَرَّق ستاراً في احدى كنائس فلسطين كانت عليه صورة المخلص أو صورة قديس، ونهى عن مثل هذه الصور. فأثبت الكردينالان بارونيوس وبلرمينوس أنَّ هذه الفقرة مزيدة على رسالة اييفان بيد عاثٍ لاحتوائها على ما يخالف عقيدة تكريم الصور والتماثيل. ولكن تأول نطاليس ما فيها من ذلك بمعنى كاثوليكي، فهذا خلاصة ما رواه نطاليس في مؤلفاته.

وقال السمعاني في المحل المذكور من المكتبة الشرقية أنَّ في الكتب اليونانية التي في المكتبة الواتيكانية خطبة له في عيد الشعانين (في الكتاب ١١ من مكتبة بيوس الثاني) وأخرى (في الكتاب ١٣ من الكتب المذكورة) وخطبة في الاثني عشر حجراً (في الكتاب ٣٩ من الكتب المذكورة)، وخطبة في دفن جسد المسيح، وفي يوسف الرامي (في الكتاب الاول من الكتب التي أتى بها ابراهيم مسعد الماروني إلى المكتبة الواتيكانية وفي الكتابين ٩ و ١٢ منها)، وأخرى في والدة الله القديسة (في الكتاب ١٠ من الكتب المذكورة)، وأخرى في ميلاد الرب وظهوره (في الكتاب العاشر أيضاً)، وأخرى في رقاد العذراء (في الكتاب ١٢ من الكتب المذكورة). وفي المكتبة الواتيكانية بين الكتب السريانية فقر من كتابه في ترجمة الانبياء، ومن كتابه في الموازين والمكايل، ومن كتابه في النقط وتفسير الحروف...

وإن كتابه الموسوم بالمرساة منه نسخ لاتينية ويونانية وسريانية وعربية. وإن المصريين يسمونه كتاب الهوجل أو كتاب المرسى. على ما ذكر أبو البركات (في كتابه في الفروض الإلهية فصل ٧) ولا نرى السمعاني تعرض لنسبة الخطب المذكورة إلى غير القديس ايفان ولا نراه أيضاً أثبتها له نصاً.

عد ٥٨٠

القديس يوحنا فم الذهب

وُلد يوحنا في انطاكية نحو سنة ٣٤٧م من والدين حسيين، وقد سموا أباه ساكوندوس، وكان رئيساً في الجندية، وسموا أمه اننوزا، وكانا كلاهما مسيحيين. ومات أبوه وهو حدث فربته أمه خير تربية، ودرس الفصاحة والخطابة متتلمذاً للبيانوس الانطاكي الشهير واستمر صديقاً له. ثم اعتكف على درس الشريعة فنبغ فيها واشتهر بمحاماته في الدعاوي. ولم تكن العلوم العالمية تلذ له، فرغب عنها وانصب على درس الاسفار المقدسة على كريتاريوس وديودوس الذي صار بعد أسقفاً على ترسيس. ثم اعتزل العالم منفرداً في أحد جبال سورية. وهناك كتب كتابه في سيرة المتوحدن. وحمل اثنين من رفقاءه في درس العلم على أن يحذوا حذوه: أحدهما توادوروس الذي صار بعد أسقفاً على المصيصة، و ثانيهما مكسيموس الذي صار بعد أسقفاً على سلوقية بايسورية. ثم عاد يوحنا إلى انطاكية سنة ٣٨١م فرقاه القديس ملاتيوس بطريرك انطاكية إلى درجة الكهنوت سنة ٣٨٥م، وعهد إليه أن يخطب في الكنائس. فطارت شهرة فصاحته و سطعت أنوار غيرته، وألقى وقتئذ كثيراً من خطبه الغراء، مواعظه خلاصة العقول. وكتب كثيراً من مقالاته البليغة. فكان في مدة الخلاف بين ملاتيوس وبولينوس بعيداً عن التشييع لأحدهما ومريضاً لكليهما. ولما توفي نبطار البطريرك القسطنطيني واختلفت آراء الاكليروس والشعب في اختيار خليفة له، اجتمع المنتخبون والملك اركاديوس بأن يؤتى بيوحنا من انطاكية ويقام بطريركاً في القسطنطينية. فاستدعاه الملك و رقي إلى المقام البطريركي سنة ٣٩٨م بحضرة كثير من الاساقفة حتى توافلوس البطريرك الاسكندري الذي بذل قصارى جهده ليقم أحد كهنته مقام يوحنا فتعثر عليه إدراك شأوه.

وظفق يوحنا يجاهد في إتمام فروض مقامه غير مراعاة في ذلك كبيراً أو غنياً أو صاحب سلطة أو أسقفياً أيضاً. وصرف جدّه في استئصال بعض العادات السيئة التي كان بعض الاكليريكيين استطرقوها. منها اعتياد بعضهم أن يعيشوا مع نساء تقيّات يتخذونهنّ أخوات لهم، وكتب في ذلك كتابين. وقد ندّد تنديداً عنيفاً بطمع الكهنة في خطبه في رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس التي كان يلقيها في القسطنطينية، حيث كان يقرّع أيضاً أصحاب الخصال الذميمة. وكان شديد القسوة على كهنته أملاً أن تصلح القسوة حالهم أكثر من الحلم والرقة. ولاعتماده على برارته وحسن طويته لم يكن يبالي بمسيء ولو عظم قدره، ولا يغضي على زلة أياً كان فاعلها. فكثّر مبغضوه ومخالفيه، وكان لديه شماس سراييون يحثه على الصرامة في تدبير كهنته، وقال له ذات يوم بحضرة كثير منهم، لا تستطيع أن تسوسهم إلا بقضيب من حديد، فحنق السامعون على أسقفهم. وبعد مدة قطع كثيرين من شركة الكنيسة لأسباب متنوعة، فتأمروا عليه وطفقوا ينمّون به للشعب. ولم يقتصر فم الذهب على مغالطة الكهنة بل جافى كثيرين من الكبراء أيضاً غيراً على سنة الله. من ذلك أنه كان عند الملك اركاديوس خصمي اسمه اوترب رفيع المنزلة، نافذ الكلمة حتى كانوا يسمونه أبا الملك، فهذا بعث الملك على أن ينسخ الشريعة الآمرة باحترام الكنائس، وأن يبطل التجاء المجرمين إليها، ولكن بقضاء الله العادل تغيّر الملك عليه وأراد قتله، فهرب اوترب إلى الكنيسة لاجئاً إليها، فعارض فم الذهب الملك بإخراجه منها، وألقى على مسمع اوترب خطبة عنّفه بها وأبان له سوء تصرفه، فشقّ على بعض السامعين معاملته كذلك في حين محنته وأسخط الملك.

وأتى في تلك الاثناء إلى القسطنطينية انطيوخس أسقف عكا، وكان خطيباً فصيحاً خطب في كنائس العاصمة فحشد مبلّغاً من المال وعاد إلى عكا. ولما سمع ذلك سفريانوس أسقف جبلة شخص إلى العاصمة وكان فصيحاً أيضاً لكنه لم يكن يحسن الكلام باليونانية بل إذا تكلم بها خالط كلامه ألفاظ سريانية، على ما روى سقراط (ك ٦ فصل ١١). فرحب به فم الذهب وأكرم مثواه، وأطال سفريانوس مكثه في القسطنطينية، وتزوّف إلى الملك وكبراء العاصمة فأحبوه وأكرموه، واشتهر بخطبه على ما في ألفاظه من الركاكة. ومزّ سفريانوس يوماً وسراييون شماس فم الذهب جالس فلم يقدّم له ولم يبدِ اماراة الاحترام بل استمر جالساً على كرسيه، فلم يتحمّل سفريانوس هذه الاهانة بل قال إن مات سراييون مسيحياً فالمسيح لم

يتجسّد. فشكا سراييون سفريانوس إلى فم الذهب وأخفى عليه عبارته الأولى وهي إن مات سراييون مسيحياً، وادّعى أنه قال إنّ المسيح لم يتجسّد. وأورد شهوداً من المحازبين له شهدوا أنّ سفريانوس نطق بهذه العبارة. فطرد فم الذهب أسقف جبلة من القسطنطينية، فعظّم الأمر على خلّانه ومريديه ولامت الملكة اودكسية فم الذهب لوماً شديداً على فعلته هذه. فاستدعت سفريانوس فعاد من خلكدونية إلى العاصمة وقاطعه فم الذهب إلى أن أخذت الملكة ابنها توادوسيوس وهو حديث متضرعاً إلى فم الذهب ليصالح سفريانوس فاصطلحا. وبقيت في قلب أسقف جبلة حزازات من حنقه على فم الذهب. فكان من أعدائه عند مصابه كما سترى. وقد رأيت ما كان له مع اييفان أسقف قبرص وعلمت أنه قبل الرهبان المصريين الذين أتوا إلى العاصمة يشكون بطيريكهم توافيلس الاسكندري.

قد مرّ أنّ الملك اركاديوس كان قد استقدم الاساقفة للاجتماع في العاصمة فتسارع إليها توافيلس البطريك الاسكندري مع أساقفته عازماً على عزل فم الذهب من كرسيه. وكان بعض الاساقفة يشايعونه في ذلك منهم بعض أساقفة من آسيا كان قد عزلهم، واكاشيوس أسقف حلب، وسفريانوس أسقف جبلة، وانطيوخس أسقف عكا المشار إليهما آنفاً. وثلاثة من كبراء الدولة كان توافيلس قد رشاهم وبعض الاكليروس القسطنطيني الذين كان فم الذهب قد أدبهم لاصلاحهم وثلاث أرامل غنيات كان قد اتّبهنّ على إسرافهنّ وسوء سيرتهنّ، وفوق هؤلاء اودكسية الملكة التي كانت قد استاءت من خطب فم الذهب في ذمّ النساء وبهرجتهنّ وإسرافهنّ. فجميع هؤلاء عاونوا توافيلس الاسكندري على أنّ الملك يرخص بعقد مجمع على فم الذهب. فالتأم المجمع وكان فيه ستة وثلاثون أسقفاً من بطيركية توافيلس. ودعا فم الذهب إليه فأجاب أنه يحضر بشرط أن يخرج من المجمع من سماهم من أعدائه. ولا أقل من أن يكونوا فيه بمنزلة شاكين لا بمنزلة قضاة. وبعد جوابه هذا دُعي ثانية، وإذ لم يحضر حكموا عليه حكماً غيبياً. وقد كان الاساقفة خصومه يرغبون في حمل الملك على مجازاته جزاء المعتدين على الملك لأنه شبه الملكة في إحدى خطبه بإيزابل، فاقصر الملك على نفيه. ولما بلغه الأمر قال إنه لا يريد أن يذعن له إلّا مكرهاً بالقوة. فأقنع خصومه الملك أن يرغمه على المسير، وأرسل بعض عماله فأنزلوه في سفينة ليلاً وأوصلوه إلى محل في عبر البوسفور. على أنه لم يبق منفياً إلّا يوماً واحداً لأنّ الشعب عندما سمع خبر نفيه أبدى

من الهياج ما لا مزيد عليه. وعلت الضوضاء والصراخ في الكنائس والساحات والأزقة، وحدث في الليل زلزال قوّض كثيراً من أبنية المدينة وغرفة الملك نفسها. فارتفعت الملكة وسألته أن يستدعي للحال فم الذهب. وكتبت إلى البطريرك ما نصّه: «لا يخالّنّ لقداستكم أنني دريت بشيء مما كان. فأنا بريئة من دمك. إنّ بعض الأشرار العائين نصبوا لك هذه الاحبولة والله شاهد لدموعي التي ذرفتھا محرقة له من أجلك، وهل أنسينّ أنّ يدك المقدستين عمدتا أولادي». وتقدمت إلى الملك باكية قائلة لا وسيلة لنا لنجاة المملكة من الدمار الذي يهددها إلّا بإعادة فم الذهب. فأرسل الملك عمالاً تبعاً فلم يهتد إلى موضعه إلّا بربزون أحد حاشية الملك. ولما دنا من المدينة هبّ الشعب رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً للقياء حتى غطّت السفن وجه البوسفور. وكان الجمهور يرثم ترانيم ألّفت لذلك. وانتهوا به إلى كنيسة الرسل يصحبه أكثر من ثلاثين أسقفاً، وكلفوه أن يرقى إلى المنبر داعياً بالسلام للشعب على عاداتهم. فتمنّع من ذلك قبل أن يبرئه مجمع آخر يربو أساقفته على عدد أساقفة المجمع الذي حطّه، بل لم يشأ أولاً أن يدخل القسطنطينية ووقف في إحدى ضواحيها المسماة مريان، ولكن أكرهه إلحاح الشعب على أن يلقي خطبة موجزة شبّه بها كنيسته بسارة، وتوافيلس بملك مصر الذي حاول أن يمسّ عفافها فمنعه ملاك من ذلك. وشكر الله على أنه منّ بعوده، ولم يغفل ذكر معرفته جميل الملكة لمساها بذلك. وأكثر الشعب من إبداء أدلة استحسانهم لكلامه حتى ما تمكّن من تكميله، ويظهر أنّ هذا كان سنة ٤٠١ م.

وسأل فم الذهب الملك بعد ذلك أن يستدعي أساقفة أكثر من الأولين ليفحصوا دعواه، فكتب إلى كل جهة يستدعي الاساقفة. ولما درى توافيلس بذلك خاف أن يثبت عليه ما كان ضميره يؤنبه عليه فبرج العاصمة ليلاً لا يعلم إلّا أساقفته الذين سافروا معه، فلم يبق في القسطنطينية إلّا أصحاب فم الذهب. على أنّ فرار توافيلس كان بيّنة كافية لبراءة فم الذهب. لكنه لم يكتف بها ولم يكفّ عن سؤال الملك أن يستدعي الاساقفة إلى المجمع. فأمر الملك توافيلس أن يعود ليجيب على ما صنع. فاعتذر ولكن عاد انطيوخس أسقف عكا وسفريانوس أسقف جبلة. ويظهر أنه لم يُعقد مجمع حافل ولكن الاساقفة الكثيرين الذين اجتمعوا حيثنّ في القسطنطينية وقّعوا على قرار فحواه أنهم يعترفون بأنّ فم الذهب إنما هو الاسقف الشرعي لهذه المدينة ولا عبرة لشيء مما جرى قبلاً.

على أنَّ الراحة لم تستتب زمناً طويلاً في العاصمة بعد عود فم الذهب. فقد أُقيم حينئذٍ تمثال من فضة لاودكسية الملكة على باب الندوة، وفي جانب كنيسة القديسة صوفيا. وعند تدشين هذا التمثال جاوز الشعب حدَّ الوقار والادب بالرقص والغناء والملاهي، فلم يتحمَّل فم الذهب حصول مثل هذا التهتك والخلاعة تجاه باب الكنيسة، وشكا من ذلك بخطبة أطلال فيها لسانه مندداً بالعاملين والآخرين بمثل هذه الخلاعات، فاستشاطت اودكسية من هذا التنديد وعزمت أن تعقد مجمعاً حديثاً على البطريرك، فلم يبال فم الذهب بسخطها عليه ولم يجبن، بل ألقى خطبة أخرى صرَّح فيها بكلامه على الملكة، واستهلها على ما روى سقراط (ك ٦ فصل ١٨) بقوله: «عادت هيرودية ترقص حنقة متطلبة رأس يوحنا على طبق» فنشأت مكيدة أخرى على فم الذهب وكتب خصومه إلى توافيلس الاسكندري يسألونه أن يأتي فيدبرهم أو يشير عليهم بما يصنعون. فلم يأت بل أرسل ثلاثة أساقفة وسلَّم إليهم قانوناً كان الاساقفة الاريوسيين قد وضعوه في دعوى القديس اثناسيوس في مجمعهم في انطاكية سنة ٣٤١م، وفحواه «إنه إذا عزل أسقف في مجمع ثم عاد إلى كرسيه من تلقاء نفسه فيستمر معزولاً أبداً ولا يُسمح له بأن يبرأ نفسه». وهذا القانون كان مجمع سرديكا (صوفيا البلغار) سنة ٣٤٧م قد نقضه.

فاجتمع الاساقفة من كل صوب ولم يقاطع فم الذهب خصمائه لئلا يرد شهادتهم بالعداوة. وأتى عيد الميلاد فلم يحضر الملك إلى الكنيسة بحسب عادته وأرسل يقول للبطريرك أنه لا يشترك معه في العبادات إلى أن يبرأ ساحتة. وفتح المجمع وتشبث خصوم البطريرك بالقانون الذي كان توافيلس قد أرسله إليهم فأجاد فم الذهب برده، ثم انتصب البيديوس أسقف اللاذقية (بسورية) مثبتاً للملك أنَّ فم الذهب لم يُعزل عزلاً قانونياً في المجمع الاول، وإنَّ هذا القانون سنَّه الهراطقة ونقضه مجمع سرديكا. وإنَّ يوحنا لم يعد إلى كرسيه إلاَّ بأمر الملك نفسه ومع هذا قد حمل انطيوخس أسقف عكا ومحازبه هذا الملك الضعيف الجبان على لزوم إبعاد البطريرك عن كرسيه قبل عيد الفصح. وأرسل الملك يقول للبطريرك أنه يلزمه أن يخرج من الكنيسة دون إبطاء كما حكم عليه في مجمعين. فأجابه: «إنَّ الله سلَّم إليَّ هذه الكنيسة للعناية بخلاص شعبها، فلا يمكنني تركها والمدينة لك، فإن شئت أن لا أقيم فيها فاطردي مكرهاً منها لتكون لي معذرة قانونية» وكان هذا في أيام الصوم سنة ٤٠٤م. وفي نهار السبت اعظم أرسل إليه الملك بلاغاً آخر،

فلم يمثل له. فاستدعى الملك اكاشيوس أسقف حلب، وانطيوخس أسقف عكا، وسألهما ما ينبغي أن يصنع فقالا ما قاله رؤساء اليهود عن المخلص: «عزله على رؤوسنا» وبقي اثنان وأربعون أسقفاً يناصرون البطريرك ومضوا لمقابلة الملك والملكة في كنيسة الشهداء. وخشعوا إليهما باكين ليستعطفوهما على تدارك كنيسة المسيح وراعيها فأعاراهم أذنأ صماء. فهتد أحدهم الملكة بغضب الله قائلاً: «خافي أيتها الملكة الله واشفقي على بنيك ولا تدنسي عيد قيامة المخلص بإراقة الدم». وعاد الاساقفة يمسين فقضى كل منهم فروض تلك الايام المقدسة في منزله بالكآبة والدموع. أما الكهنة الأمناء لبطريركهم فجمعوا الشعب في متدى فسيح تلوا فيه الاسفار المقدسة كالعادة وأخذوا يعمدون الموعوظين. فطلب اكاشيوس وانطيوخس وسفريانوس إلى المحافظ أن يفرق جموعهم لئلا يأتي الملك إلى الكنائس فيجدها فارغة ويتأكد ميل الشعب إلى فم الذهب. فاعتذر بأن الجمع غفير والوقت ليل فيخشى غائلة طردهم، وألحوا عليه فأرسل فريقاً من الجند وأوصى رئيسه أن يفرق الجمع ملايناً لهم أو يكلفهم أن يأتوا إلى الكنيسة. فرشا خصوم البطريرك الرئيس ورشوا جنوده ليفتكوا بالجمع إن لم يمثلوا بالملاينة، فانتضوا سيوفهم ووثبوا على ذلك الجمع، وانتهى الرئيس إلى محل التعميد فأقلب آنية الماء ورفس حامل الميرون فأراقه وعلا صراخ النساء المتعريات لقبول العماد، وفر الكهنة بملابسهم الكهنوتية وجرح بعض، ودخل الجنود إلى محل التقديس، ودنسوا الاسرار المقدسة، وقبضوا على كثيرين من الكهنة والشمامسة واددعوهم السجن.

وكتب فم الذهب إلى البابا اينوشنسيوس يسأله أن يتدارك هذه الشؤون بسلطانه ويكف المعتدين عن خرق قوانين الكنيسة، ويأمر إذا شاء بمحاكمته مع خصومه محاكمة قانونية. وكذلك كتب الاثنان والاربعون أسقفاً المناصرون له وأوفدوا بهذه الرسائل أربعة أساقفة وشمامسين. وكان توافيلس قد رفع عريضة للحبر الروماني ينبئه بها بعزل البطريرك القسطنطيني، ولم يين لذلك سبباً، ولا من كان الحاكم عليه. فتردد البابا في الجواب لتوافيلس، ولما بلغ الوفد القسطنطيني وأطلعه على كل ما كان أجابه قائلاً: «إنك وأخانا يوحنا البطريرك القسطنطيني في شركتنا وقد كتبنا ونكتب إليك كل ما خاطبتنا أننا إذا تفحصنا بحسب القانون كل ما جرى بالمشاحنة فلا يمكننا أن نُخرج يوحنا من الشركة دون حجة. فإن كنت على ثقة من حكمك عليه، فاحضر إلى المجمع الذي سيعقد قريباً إن أحب

الله، ويبنّ شكاويك بحسب قانون مجمع نيقية. فالكنيسة الرومانية لا تعرف قانوناً غيره» يريد أنها لا تعرف قانون مجمع انطاكية الذي أوردوه على البطريرك.

وحاول بعض الائمة الغدر بالبطريرك فأقام الشعب خفراء ليلاً ونهاراً لحراسته. وتذرع الاساقفة المناصبون له بهذا ليلحقوا على الملك بنفيه تفادياً من الشعب بين الشعب. فأرسل الملك أحد عماله في ٢٠ حزيران سنة ٤٠٤م يبلغ البطريرك أمره القاطع بأن يخرج من الكنيسة، فرأى فم الذهب أنّ لا مناص من تحمّل الجور، فقال للاساقفة مناصريه تعالوا نصلي في الكنيسة، ولم يبح بسرّه إلا لقليلين منهم. وفي آخر الصلوة قال امكثوا هنا ريثما أستريح قليلاً. وخرج من الكنيسة من الباب الشرقي، والشعب ينتظره عند الباب الغربي، وانسلّ خفية مع مفوض الملك، وركب سفينة عبر بها إلى نيقية. ولما علم الشعب براحه هاجوا وماجوا حتى في الكنيسة، وألقى واحدا النار في العرش الاسقفي وامتدّ اللهب حتى دمر الكنيسة وما حولها من البيوت. وهبّت ريح من الشمال فقلّدت النار إلى القصر الذي كان يجتمع فيه رجال الندوة في جنوب الكنيسة، فالتهمته واتصلت إلى قصر الملك المتاخم المنتدى. واتّهم رجال الحكومة أصحاب البطريرك بهذه الجريمة، فعذبوا كثيرين ولم يظهر الفاعل. وعجلوا في إبعاد البطريرك فأخذ من نيقية في ٤ تموز سنة ٤٠٤م إلى قيصرية الكبادوك. واستكدّوه جرياً ليلاً ونهاراً، فأنهكه التعب ولم يسترح هناك قليلاً إلا ناصبه برانيوس أسقف تلك المدينة حسداً منه لتقاطر الكبراء والوجهاء لزيارته. وبلغ كوكوز المحل المعين لنفيه في ارمينيا بعد سبعين يوماً من سفره، وأصابته حمى شديدة كادت تهلكه. وكتب إليه البابا اينوشنسيوس يعزيه ويشجعه على تحمّل مصابه بالصبر الجميل. وتناالت التعزيات عليه من كل فجّ برسائل الاساقفة والوجهاء والفضلاء، منها رسالة من القديس مارون الناسك أبي طائفتنا. وقد أجابه عليها في رسالة هي ٣٦ بين رسائله. وسوف نذكر ترجمتها بحروفها عند ذكر القديس مارون، وعنوانها إلى مارون الكاهن الراهب. وتواترت ضربات الله على خصمائه. ففي ٣ ايلول من تلك السنة نزل حب الغمام على القسطنطينية وجوارها كل حبة كالحجزة. وماتت الملكة اودكسية نفساء. ومات شيرين أسقف خلكدونية وكان من كبار مضادي فم الذهب وغيره.

واشتهر فم الذهب في منفاه بمبراته وفضائله وكده في استرداد غير المؤمنين إلى حظيرة الكنيسة، وعنايته في خير المؤمنين. فاهتمّ أعاؤه بإبعاده إلى بلد شاسع خوفاً

منه وإن منقياً. فالتمس سفرينانوس أسقف جبلة وبرفير بطريرك انطاكية وغيرهما من الملك أن يعده إلى بنينونت على شاطئ البحر الاسود. فأخذ بعنف في هذا السفر الشاق الذي يلزمه ثلاثة أشهر فلم يصل إلى كومان في بنطوس إلا ووهنت قواه ولم يبق إلا رمق فأخذ يصلي، وعند قوله آمين في آخر صلاته بسط رجله وفاضت روحه المقدسة. ودُفنت جثته حذاء جثة القديس باسيليوس أسقف تلك المدينة الشهيد. وكان ذلك في سنة ٤٠٧م ثم نُقلت جثته في أيام توادوسيوس ابن الملك اركاديوس إلى القسطنطينية ووضعت مع ذخائر الرسل. وانتصر له الخبر الروماني بعد وفاته كما انتصر له في حياته. فلم يسمح لبطاركة القسطنطينية واسكندرية وانطاكية أن يقبلوا في شركته إلا بعد أن ذكروا بالتكريم فم الذهب، وأعادوا الاساقفة الذين كانوا قد نفوهم بسبب دعواه. كل ما مَرَّ ملخص عن بلاديوس في ترجمة فم الذهب، وسقراط وسوزومانوس في تاريخهما البيعي في فصول شتى. وأما ما أُلّفه هذا العلامة الذي يسمونه الخطباء فكثير يشدّ عن العذ. فله مقالات كثيرة في العقائد الدينية، وكتب في تفسير أكثر الاسفار المقدسة، وكتاب في الكهنوت، وكتاب في سيرة النساك، وخطب ومواعظ في مواد متعددة، ورسائل إلى كثيرين، ونافور للقداس بالسريانية فاتحته إليها الرب الاله القدير على كل شيء. ذكر السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٦٢) إنّ منه نسخة في المكتبة الواتيكانية. وذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي بين النوافير الكاثوليكية في كتابه المناثر العشر. وترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية (مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية ٢٤٢). وقد طبع في كتاب القداس لطائفنا المارونية سنة ١٥٩٤م نافور آخر معزو إليه. ولكن حقق السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٦) أنّ هذا النافور ليوحنا أسقف حاران ونصيبين. وله نافور آخر سرياني مترجم ترجمة حرفية عن اليونانية يستعمله السريان الملكيون، ونسخة منه في المكتبة الواتيكانية بين الكتب السريانية في عد ٣٧ و ٤٠ .

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي فم الذهب في قصيدته. فقال: «فم الذهب له تفسير بشارة متى وتفسير بشارة يوحنا كل منهما في مجلدين، وتفسير رسائل بولس الرسول، وكتاب في الكهنوت، وكتاب في المعمودية، ومقالة في الرد على اليهود، ومقالة في رهبان مصر، وكتاب في التعزيات، ورسالة في التوبة، ورسالة إلى يوستينيانس»، وقال السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٦ و ٢٧) في

شرح ذلك. أما تفسير بشارتي متى ويوحنا فله فيهما أربعة مجلدات: أي في بشارة متى تسعون مقالة، وفي بشارة يوحنا ٨٨ مقالة. وكثيراً ما استشهد بها علماء السريان. وأما في تفسير رسائل مار بولس الرسول فله ٢٤٥ مقالة. وكتابه في الكهنوت مقسوم إلى ستة أسفار. وأما في المعمودية فلا أعرف إلا مقالة في اعتماد المخلص. ولعل الصوباوي عزا إليه كتابين في المعمودية وهما لباسيليوس الكبير. وله في الرد على اليهود ستة كتب. وأما مقالته في رهبان مصر فرجّح السمعاني أن تكون المقالات في أصل الرهبان الاولين المنسوبة إلى يوحنا أسقف أورشليم. وكتاب التعزيات هو كتاب وجهه إلى امرأة شريفة اسمها اولبياد تحملت كثيراً من الضرّ بسبب دعواه. وافتتحه بقوله: لا يضرّ الانسان إلا نفسه. ورسالته في التوبة كتبها إلى توادوروس الذي كان قد ترك التبتل وتزوج. وأما الرسالة إلى يوستينيانس فقال السمعاني فيها أنّ لا رسالة له إلى يوستينيانس، بل له رسالتان إلى البابا اينوشنسيوس. فذكر يوستينيانس خطأ من عبد يشوع أو من الناسخ. وقد طُبعت كتب فم الذهب مرات، وقد طبعها الاب مين في باريس بين كتب مكتبة الآباء اليونانية. وروى السمعاني أنّ في المكتبة الواطيكانية كثيراً من تأليفه مترجمة إلى القبطية والعربية والسريانية.

عد ٥٨١

أساقفة آخرين في سورية

من أساقفة سورية في هذا القرن تريفيليوس أسقف نيكوسيا في قبرص، وقد قال فيه القديس ايرونيموس (في كتابه في المشاهير فصل ٩٢): «تريفيليوس أسقف نيكوسية في قبرص كان من أفصح أهل عصره واشتهر في عهد قسطنس. وقد طالعت كتاب تفسيره لنشيد الانشاد ويقال أنه صنّف كتباً أخرى كثيرة لم أعثر عليها». وقد ذكره سوزومانوس (ك ١ من تاريخه فصل ١١) وقال فيه إنه كان خطيباً مصقلاً، وأنه أقام مدات متطاولة في بيروت طلباً لاقتباس علم الشرائع الرومانية. وأنه كُلف ذات يوم أن يخطب في حضرة سيبريدون أسقف تريميتو (لمسون في قبرص أيضاً) ولزمه أن يورد قول المخلص: «قم فاحمل سريك واذهب». فقال قم واحمل مضجعك واذهب. فلامه سيبريدون قائلاً أنت أشرف أو أفصح

ممن قال سريرك لتأنف أن تستعمل لفظه. فنزل تريفيليوس من المنبر وعلى مرأى الشعب، وقال سوزومانوس في سبيريدون هذا أنه كان أسقفاً في تريميتو بقبرص، وكان متناً في الفضل والفضيلة وإن الله صنع على يده معجزات كثيرة. وسمي في ميناون صاحب العجائب.

وخلفه في هذه الاسقفية اوسطاتيوس ثم تيوجيو من أساقفة المجمع القسطنطيني الاول. وكان في حماطوسيا (بقبرص أيضاً) القديس فيلون وقد رقاہ اييفان إلى أسقفية هذه المدينة. وكان في تمباسو ليكون أسقفاً شهد المجمع القسطنطيني الاول. وكان في الباف كيرلس وقع على المجمع النيقوي الاول. وكان في ارسينوا ارستوكليد شهد المجمع القسطنطيني الاول. وفي لايتوموسي شهد المجمع الذي عقده اييفان عن يياجيو في سورية المقدسة. هؤلاء من عرفناهم من أساقفة قبرص في القرن الرابع.

وكان من أساقفة فلسطين استيريوس أسقف اللد وقد ذكره القديس ايرونيوس في كتابه المذكور (فصل ٩٤) وقال إنه كان اريوسياً. وفي عهد الملك قسطنس (من سنة ٣٣٧ إلى سنة ٣٦١م). وقد ألف كتاباً في تفسير رسالة بولس الرسول إلى الرومانيين، وفي الاناجيل والزبور وكثيراً غير ذلك. وكان مشايحوه يرغبون في مطالعة تأليفه. ومنهم أيضاً اكاشيوس أسقف قيصرية فلسطين ذكره ايرونيوس أيضاً في الكتاب المذكور (فصل ٩٨) قائلاً إنه كتب سبعة عشر كتاباً في سفر يشوع بن سيراخ، ومقالات أخرى كثيرة. وقال فيه سقراط (ك ٢ فصل ٤) إنه خلف استاذہ اوسايوس القيصري في أسقفية قيصرية. وألف كتباً كثيرة أخصها كتابه في ترجمة اوسايوس سالفه، وقال (في فصل ٢٩) إنه كان في مجمع سلوقية (بايسورية) رئيساً من رؤساء الحزب الاروسي مع جيورجيوس أسقف اسكندرية، واورانيوس أسقف صور يتابعهم ثلاثون أسقفاً، وألف في هذا المجمع قانون ايمان ملتبساً لا ينبذ فيه صريحاً ضلال اريوس ولا يصح بمساواة الابن للآب جوهرًا. وانقطع أخيراً مع مشايحيه عن الحضور في هذا المجمع فغزل عن كرسيه ومعه اورانيوس أسقف صور وغيرهما من الاساقفة المخالفين، وقد توفي سنة ٣٦٥ أو سنة ٣٦٦م.

وخلف اوزايوس اكاشيوس في أسقفية قيصرية وكان اريوسياً أيضاً. وذكره ايرونيوس (في فصل ١٣٠ من كتابه المذكور) استطراداً. وفي الكتاب الموسوم

بسورية المقدسة أنه زاد في عدد كتب مكتبة قيصرية وفي اتقانها. ولما
توادوسيوس عزله عن كرسيه لشربه وتشبثه بدعة اريوس. وقام بعده
الاسقفية جلاسيوس. قال فيه القديس ابرونيموس في المحل المذكور يقال إن
خطبة أنيقة نفيسة ولم يشهرها، وكان كاثوليكياً صالحاً وغيوراً على الايمان
سنة ٣٩٤ م.

ونعرف من أساقفة صور في هذا القرن بولينس وهو الذي نُقل من
صور إلى بطريركية انطاكية كما مرّ في الكلام على بطاركة انطاكية. وقد
اوسابيوس القيصري في مقدمة الكتاب العاشر من تاريخه، وقدم هذا الكتاب
وأنبأنا أنه جدد بناء كنيسة صور بعد خمود نار الاضطهاد في أيام د
وجعلها كنيسة بدعية لم يكن لها مثيل حينئذ في كنائس سورية. وروى (في
٤ من الكتاب المذكور) صورة خطبته عند تدشين هذه الكنيسة، فإذا هي
غراء مسهبة فريدة في بابها. وقد تفاخر اريوس في رسالته إلى اوسابيوس
نيكوميدية (التي رواها برمتها توادوريطوس (في ك ١ من تاريخه فصل
بولينس من المشايين لضلاله، وتفاخره غير صحيح لأن بولينس لم يقم نك
صحة ايمانه. وإن كتب آريوس إليه رسالة مسهبة أثبتتها توادوريطوس في
المذكور. وقد وصفه اوسابيوس (في كتابه ١ رداً على مرشلس فصل ٤)
الطوبى والعجيب الذي دبر كنيسة صور تديراً بدعياً. وخلفه في أسقفية صور
ويسمى زينون الاول على ما روى لكويان (في المشرق المسيحي مجلد
أساقفة صور)، وقد شهد المجمع النيقوي المسكوني سنة ٣٢٥ م. وروى ايضاً
بدعة ٦٩) إنّ اسكندر أسقف الاسكندرية رغبة في مقاومة بدعة اريوس
رسائل إلى سايبوس القيصري وإلى زانس الشيخ أسقف صور. ويظهر من ذ
كان شيخاً عندما شهد المجمع النيقوي. ومن أساقفة صور أيضاً بولس كان
على صور لما عُقد المجمع فيها للحكم في دعوى القديس اثناسيوس سنة
وادعى الارويسيون على اثناسيوس أنه قطع يد رجل اسمه ارسانيوس، و
بولس عن ارسانيوس وأحضره إلى المجمع ففضح كذب المفتريين. روى ذلك ا
اثناسيوس (في محاماته ٢). وقام بعد بولس ويتاليس وانحاز إلى حزب الار
الذين تجنّوا على القديس اثناسيوس، ووقع بالاتفاق معهم على الرسالة التي
في مجمع سردিকা (صوفيا البلغار) سنة ٣٤٧ م وكان بعد ويتاليس اورانيوس

مَرَّ أَنَّهُ كَانَ مَعَ جِيورجِيوس البطريرك الاسكندري واكاشيوس أسقف قيصرية من رؤساء الاريوسيين. ووقعوا على قانون الايمان الذي أنشأه اكاشيوس في مجمع سلوقية (بايسورية) فعزله آباء هذا المجمع مع اكاشيوس وغيره. وروى ذلك ايفان (في بدعة ٧٣) والقديس اثناسيوس (في كتابه في مجتمعي اريمن وسلوقية) وسقراط (ك ٢ فصل ٤٠). وقال لاكويان (في المشرق المسيحي مجد ٢ في أساقفة صور) لا نعلم أترك أسقفية صور بعد عزله أم كابر واستمر فيها.

ومن أساقفة صور أيضاً زانس أو زينون الثاني وديودورس. أما زينون فقد أنبأنا سوزومانوس (ك ٦ فصل ١٢ من تاريخه) أنه اجتمع مع اوسايوس أسقف قيصرية الكبادوك، وبلاجيوس أسقف اللاذقية، وبولس أسقف حمص في انطاكية في عهد الملك يوفيان، وحكموا بوجوب التمسك بعقيدة مساواة الابن للآب بالجهر. وتلوا رسائل البابا ليباريوس وأساقفة المغرب، وكتبوا إلى سائر الكنائس أن يقرأوا تلك الرسائل. وقد وقع زينون على أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١ م. ولما كان زينون قد رقاہ إلى أسقفية صور أحد بطاركة انطاكية الموصومين ببذعة اريوس رقى بولينس البطريرك الانطاكي الكاثوليكي ديودورس إلى أسقفية صور. وقد مدحه تيموتاوس البطريرك الاسكندري في رسالة كتبها إليه سنة ٣٨١ م. ومما قال له فيها: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَمْنَعْ عَلَيْهِ بِأَنْ يُؤْمِنَ بِالْمَسِيحِ فَقَطْ، بَلْ أَنْ يَتَأَلَّمَ بِسَبَبِهِ أَيْضاً».

ومن أساقفة صيدا عرفنا توادورس بتوقيعه في أعمال المجمع النيقوي، ثم امفيون ذكره نيقيطا كونيانس (في كتابه المسمى الكنز فصل ٧). قال لكويان (في المشرق المسيحي) لا نعلم أقبل تودورس كان امفيون أم بعده؟ ونرى في أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١ م توقيع بولس أسقف صيدا.

ومن أساقفة عكا ترى توقيع انياس أسقف عكا على أعمال المجمع النيقوي الاول سنة ٣٢٥ م، وعلى أعمال مجمع انطاكية الذي عُقد سنة ٣٤١ م، وتوقيع نكتايوس أسقف عكا على أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١ م. وقد مَرَّ بِكَ أَنَّ انطيوخس أسقف عكا كان من خصوم فم الذهب متابعاً لأكاشيوس أسقف حلب، وسفريانس أسقف جبلة على مناصبة هذا القديس. وقد طلبوا إلى الملك اركاديوس أن ينفه قبل عيد الفصح. روى ذلك بلاديوس في ترجمة فم الذهب وسقراط (ك ٦ فصل ١١). وعن لكويان أَنَّ هذا الاسقف توفي سنة ٤٠٨ م.

ومن أساقفة بيروت اوساييوس قطب الارويسيين الشهير، فإنه كان اولاً أسقفاً على بيروت ثم تركها وانتقل إلى أسقفية نيكوميديّة (ازميد) وهناك شايح اريوس، بل كان رئيساً في مشايحيه، ثم دخيلاً على الكرسي القسطنطيني. وقد ذكره توادوريطوس (في تاريخه ك ١ فصل ١٩) والقديس اثناسيوس في محاماته الثانية. وتواتر ذكره في تاريخ سقراط وسوزومانوس، وخلفه غريغوريوس، وكان على شاكلته في تشييعه لاريوس، بل قد حسبه اريوس في جملة المدافعين عن بدعته كما يظهر من رسالته التي أثبتتها توادوريطوس (ك ١ من تاريخه فصل ٥). وقد حسب معه من مشايحيه بولينس أسقف صور (طالع ما م٢)، واثناسيوس أسقف عين زربة، واتيوس أسقف اللد. وقد شهد غريغوريوس المجمع النيقوي. وقام بعد غريغوريوس مكدونوس وكان اريوسياً، ووقع مع الاساقفة الارويسيين على الرسالة التي كتبوها في فيليببولي بعد خروجهم من مجمع سردিকা (صوفيا قسبة البلغار) سنة ٣٤٧م. ومن أساقفة بيروت أيضاً في هذا القرن تيموتاوس وقد حضر المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. قال لكويان (في المشرق المسيحي مجلد ٢ في أساقفة بيروت) لعلّ تيموتاوس هذا هو تيموتاوس تلميذ ابولينار الاراتيكي. وقد بقي بعض فقرات من كتبه.

ومن أساقفة جبيل في هذا القرن باسيليوس، نرى توقيعه على أعمال المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م.

ومن أساقفة اطرابلس عرفنا هليوكس إذ رأينا توقيعه على رسوم المجمع النيقوي في جملة أساقفة فينيقية. ويظهر من رسالة القديس اثناسيوس إلى النساك، أنّ الارويسيين وشوا به فنفي. وقام بعده توادوسيوس في أسقفية اطرابلس، وقد ذكره القديس اثناسيوس في رسالته المار ذكرها. وكان من بعده في أسقفية أطرابلس ايريناوس وكان متابعاً لجيورجيوس بطريرك الاسكندرية، واكاشيوس أسقف قيصرية وغيرهما من الارويسيين. ووقع معهم على قانون غير صحيح للايمان في مجمع سلوقية. وذكره اييفان في بدعة ٧٣.

ومن أساقفة عرقا لوشيانس نرى توقيعه في آخر اسماء الاساقفة الذين وقّعوا على رسالة رفعوها من مجمع انطاكية إلى يوفيان الملك في شأن إصلاح شؤون الايمان الكاثوليكي في المشرق. ثم توقيع اسكندر أسقف عرقا في جملة تواقيع

أساقفة فينيقية على رسوم المجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨١م. وأنبأنا سقراط (ك ٧ من تاريخه فصل ٣٦) إن أفرنسيوس كان أولاً أسقفاً على عرقا فثقل إلى أسقفية صور.

ومن أساقفة ارواد تيموتاوس أنبأنا عنه القديس اثناسيوس (في رسالته إلى النساك) إنه كان أسقفاً على هذه الجزيرة وعلى طرطوس في أيام قسطنس الملك. وقال القديس في محاماته التي رفعها إلى الملك قسطنس أن الأريوسيين خلعوا هذا الاسقف من أسقفية مع غيره من الاساقفة في مجمعهم في انطاكية لأنهم كانوا كاثوليكين. ونرى في المجمع القسطنطيني الأول توقيع موشيموس أسقف ارواد.

ومن أساقفة جبلة في هذا القرن يوليوس ويرى توقيعه على رسوم المجمع النيقوي الأول سنة ٣٢٥م، ثم ساويروس وكان أريوسياً، ويرى توقيعه على صك اتفاق دوتنه فرقة من الأريوسيين. ثم اوسابيوس وكان في جملة أساقفة سورية الذين شهدوا المجمع القسطنطيني الأول، ويرى توقيعه عليه اوسابيوس أسقف جبلة. وخلفه سفريانس الذي مرّ ذكره في ترجمة يوحنا فم الذهب، فإنه كان قد شخص إلى القسطنطينية متطلباً الربح بخطبه، فتلقيه فم الذهب بالترحاب، لكن انضم بعيد ذلك إلى خصمائه، ولما عاد فم الذهب من منفاه الأول أصلحت اودكسية الملكة بينه وبين فم الذهب، فتصالحا وعاد سفريانوس إلى سورية، واتفق مع بعض الاساقفة فرّقوا برفيرسوس إلى الكرسي الانطاكي خلافاً للقوانين. وقيل أنه أخذ رشوة على ذلك فحنق الشعب عليه وهرب من انطاكية إلى مدينته جبلة. روى ذلك بلاديوس في ترجمة فم الذهب وسقراط (ك ١ فصل ١٠) وسوزومانوس (ك ٨ فصل ١٠ وما يليه).

ومن أساقفة اللاذقية جيورجسوس وكان كاهناً اراتيكياً في الاسكندرية. وأورد القديس اثناسيوس رسالتين كتبهما إلى اسكندر بطريرك الاسكندرية موعبتين من كفر اريوس، فحطه اسكندر عن درجة كهنوته، وأتى سورية فرّقه الاساقفة الأريوسيون إلى كرسي اللاذقية. وقال فيه القديس اثناسيوس (في محاماته الثانية) إنه كان شراً من الباقيين، وقد عزله آباء مجمع سريديكا (صوفية) عن أسقفية سنة ٣٤٧م وقضى سنة ٣٦٣م وهو الذي كتب ترجمة اوسابيوس الحمصي كما مرّ. وقام من بعده بلاجيوس وكان صحيح المعتقد، وإن رّقه إلى الاسقفية اكاشيوس أسقف قيصرية لأنه أقّر بمساواة الابن جوهرراً للآب. وقد وقّع على رسالة المجمع

الانطاكي إلى الملك يوفيان كما روى سقراط (ك ٢ فصل ٢٥). وقد شهد المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م وأثبتته الآباء في أسقفينه (سقراط ك ٥ فصل ٨). وجاء ذكره في السنكسار الروماني في ٢٥ آذار. وقام بعده ابولينار على ما روى لكويان (في المشرق المسيحي) عن روفينوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٢٠) فكان كاهناً في كنيسة اللاذقية، ثم رقي إلى أسقفية هذه المدينة، فاتبع هرطقة اريوس. وخلفه البيديوس. قال فيه توادوريطوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٢٧) إنه كان معاصراً لملاطيوس بطريرك انطاكية وكان يدبر كنيسة اللاذقية في أيام الملك اركاديوس. وروى بلاديوس في ترجمة فم الذهب أنه كان عالماً بقوانين الكنيسة ومحباً للملك اركاديوس.

ومن أساقفة سلوقية سورية (السويدية) زنوبيوس او زينون، كان من جملة الآباء الذين وقّعوا على المجمع النيقوي. وقام من بعده اوسايبوس فشهد المجمع الذي عُقد في سلوقية (بايسورية) في عهد الملك قسطنس. ذكره ايبفان (في بدعة ٧٢)، ثم ييزوس وحضر المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م، ثم المجمع الذي عقده بعد ذلك افلايوس في انطاكية. ثم قام بعده مكسيمس، وكان تلميذاً ليوحنا فم الذهب ومعاصراً لافلايانس البطريرك الانطاكي. ذكره توادوريطوس (في ك ٥ من تاريخه فصل ٢٧). وخلفه دوستينانس الثاني. ذكره سقراط (في ك ٧ فصل ٣٦) فلم يقبله أهل المدينة فنُقل إلى ترسيس ولعله كان في القرن الخامس.

ومن أساقفة حلب في هذا القرن اوسطاتيوس الذي نُقل إلى بطريركية انطاكية كما مرّ، وخلفه في حلب قورش فطرده الملك قسطنس من كرسيه لمدافعته عن الايمان القويم، كما ذكر القديس اثناسيوس في محاماته التي رفعها إلى هذا الملك حيث يقول: «كيف لا تنوح انكورة على مرشلس وحلب على قورش». ونقل بعده ملاطيوس أسقف سبسطية إلى حلب على ما ذكر سقراط (ك ٢ فصل ٤٤). وقد مرّ عند ذكر ملاطيوس في جملة بطاركة انطاكية في هذا القرن أنّ بعضهم خطأ سقراط بذكر نقل ملاطيوس من سبسطية إلى حلب، وأثبتوا أنه نُقل من سبسطية إلى الكرسي الانطاكي، وهو الاظهر. ومن أساقفة حلب في هذا القرن اناطوليوس وكان من جملة الاساقفة الذين اجتمعوا في انطاكية ورفعوا عريضة إلى الملك يوفيان يشبتون فيها قانون المجمع النيقوي. وقد أثبت سقراط (ك ٣ فصل ٢٥) هذه الرسالة برمتها واسماء من وقّعوا عليها، ومنهم اناطوليوس أسقف حلب. وقام بعده

توادونس، وكان في أيام والنس الملك الاريوسي على ما يظهر من رسالة باسيليوس الكبير العاشرة، حيث يثني كثيراً على توادوطس. هذا وقام بعده اكاشيوس ورقاه إلى الاسقفية اوسايبوس أسقف سميساط. وذكر عنه سقراط (ك ٦ فصل ١٨) إنه كان من المحامين لفم الذهب، وأثنى عليه سوزومانوس (ك ٧ فصل ٢٨) بأنه لم يترك عيشته الرهبانية النسكية بعد أن صار أسقفًا، وإنّ بابيه كان مفتوحاً دائماً لكل محتاج. وقال القديس باسيليوس (في رسالته ١٤٤) إنه تعلّم منه أموراً كثيرة. وجاء عنه في رسالة أساقفة المشرق إلى توادوسوس الملك أنه عاش مئة وعشر سنين مناضلاً فيها عن تعليم الانجيل. وشهد مجامع كثيرة واستمر في الاسقفية خمسين سنة.

ومن أساقفة أباميا (قلعة المضيق) في هذا القرن يوحنا وقّع على رسوم المجمع القسطنطيني الاول، والقديس مرشلس وكان في عهد الملك توادوسوس وقتله الوثنيون لأنه عني بتدمير هيكل المشتري كما مرّ في الكلام عن هذا الملك. وخلفه القديس يوليانس (كتاب سورية المقدسة).

ومن أساقفة حمص في هذا القرن اناطوليوس، كان من آباء المجمع النيقوي ويسمى في النسخ اللاتينية لهذا المجمع انطونيوس، وهو خطأ لأنه شهد أيضاً المجمع الانطاكي سنة ٣٤٠م وترى توقيعه فيه، اناطوليوس أسقف حمص لا انطونيوس. وكان أيضاً اوسايبوس أسقف حمص وقد قدمنا ترجمته لأنه من جملة المؤلفين الشهيرين. وقام بعده بولس الاول متشيعاً لجيورجيوس البطريك الاسكندري واكاشيوس القيصري وغيرهما من الاريوسيين. ووقّع معهم على قانون ايمان وضعوه، وخلفه غاسيوس وكان كاثوليكياً وصديقاً مخلصاً للقديسين باسيليوس وجرغوريوس النريزي، وقد ذكراه في بعض كتبهما. وقام بعده شيرياكس وكان من المناصرين لفم الذهب. فنفاه الملك اركاديوس إلى بلاد الفرس. ذكره بلاديوس في ترجمة فم الذهب.

ولم نعلم من أساقفة بعلبك في هذا القرن إلّا أسقفاً ذكر عنه اوسايبوس أنه كان في بعلبك في أيام قسطنطين الكبير ولم ينبئنا ما اسمه (عن لكويان في المشرق المسيحي). وكذلك لم نعرف من أساقفة تدمر في هذا القرن إلّا مارينس الذي يُرى توقيعه على المجمع النيقوي، مارينس أسقف تدمر. وكذلك جناديوس أسقف يبرود.

وعرفنا من أساقفة دمشق في هذا القرن مانيوس. شهد المجمع النيقوي ووقع عليه، والمجمع الانطاكي الذي التأم سنة ٣٤٠م. ثم فيلبس حضر المجمع القسطنطيني الاول ووقع عليه. ومن أساقفة بانياس في القرن الرابع فيلوكالس شهد المجمع النيقوي ووقع عليه. ثم مرتيريوس كان في أيام يوليانس الجاحد وتكلم عليه كثيراً ساخراً منه فأماته الملك محروفاً. ثم بارانس شهد المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م ووقع عليه (عن لكويان في المشرق المسيحي في كلامه عن كنائس هذه المدن).

ومن أساقفة حوران وما يليها ميكوما أسقف بصرى، وبطرس أسقف خرساء، وشيريون أسقف فيلادلفيا وهي عمان، وقّعوا على رسوم المجمع النيقوي، واورانيوس أسقف اذرعات وقّع على المجمع القسطنطيني الاول.

ولا ينبغي أن نغفل في هذا المقام عن القديس اوسابيوس أسقف سميساط الذي كان مضطرباً بالغيرة المقدسة على المدافعة عن الايمان ومناضلة الاريسيين. وقد زار بأمر الحبر الروماني كنائس سورية وفينيقية وفلسطين متنكراً بزّي جندي. وأقام كهنة وأساقفة في أماكن شتى من هذه البلاد حيث وجد حاجة إلى ذلك. فلم يتحمل الاريسيون مناصبته لهم وسعوا به لدى الملك والنس فأمر بنفيه إلى تراسة. ولما بلغ إليه منفذ أمر الملك مساءً، حوّصه أن يكتنم سرّ وفادته لئلا يطرحه الشعب في النهر لخنقهم. وبعد أن أقام صلاة المساء مع كهنته واستولى الظلام، انسلّ خفيةً ومعه خادم يحمل له قليلاً من الزاد وكتاب فرضه. وركب سفينة من الفرات إلى زغما (مدينة على الفرات) ولما عرف مسودوه في اليوم التالي سفره أكثروا من الاسف والحسرات على براح راعيهم، وركب جثم غفير منهم السفن وأدركوه في زغما، فتوسلوا إليه بدموع سخية ألا يغادرهم فريسة للذئاب، فتلا عليهم أقوال الرسول الآمرة بالطاعة للملوك. ولما رأوا أنه لا يمكنهم ردّه عن عزمه قدّموا له ذهباً وفضة وملابس وخداماً فاقتصر على قبول شيء يسير من أخصائيه، وحزّضهم على التشبث بعري الايمان القويم، ومضى في طريق منفاه. فعين الاريسيون مكانه اونوميوس وكان معروفاً برقة الاخلاق والدعة فلم يشأ أحد من سكان سميساط أن يراه بل كان يوماً يستحم وأتى بعضهم إلى المحل فلم يشأوا أن يستحموا في الماء الذي كان فيه قبل أن بدلوه بغيره. فترك مدينتهم. فأرسل الاريسيون مكانه لوشيوس وكان معروفاً بغلاظة الاطباع فلم يدن منه أحد بل بينما كان يوماً في الشارع راكباً أتاناً

واولاد يلعبون بالكرة، مَرَّتْ كرة أحدهم بين رجلَيَّ الاثنان فصرخ الاولاد، وأضرَموا ناراً طَهَرُوا الكرة بها قبل أن يلعبوا بها. فنفى لوشيوس كثيرين من أجلَاء كَهْتَمهم. (روى ذلك توادوريطوس ك ٤ من تاريخه فصل ١٣ و ١٤ و ١٥ والقديس باسيليوس في رسالته ١٦٨).

وكان في هذا القرن في بينة مدينة فلسطين الاسقف بطرس، شهد المجمع النيقوي، واليان شهد المجمع القسطنطيني الاول. وكان في اللدّ (عدا استيريوس السابق ذكره) اتيوس شهد المجمع النيقوي، ودينسيوس شهد المجمع القسطنطيني الاول. وكان في عمواص لنجينس، وقَّع على المجمع النيقوي، وروفس على المجمع القسطنطيني الاول. وفي نابلس جرمانس كان من آباء المجمع النيقوي وتوقيعه بعد البطريرك الأورشليمي. وروفس من آباء المجمع القسطنطيني الاول. وكان في السامرة مارينس من آباء المجمع النيقوي، وبرستيانس وقَّع على المجمع القسطنطيني الاول. وكان في حبرون وهي الخليل مكريوس وقَّع على المجمع النيقوي. وفي اريحا جنارس من آباء المجمع النيقوي. ومكروس من آباء المجمع القسطنطيني الاول. وفي أشدود الاسقف سلوان نرى توقيعه على المجمع النيقوي. وفي عسقلان كان ساينس الذي روى توادوريطوس أنَّ يوليانس الجاحد اضطهده وكان من آباء المجمع النيقوي. وفي غزة بعد القديس سلوانس الذي استشهد في عهد ديوكلتيان قام اسكلابيوس وشهد المجمع النيقوي وكان ميالاً إلى الاريسيين، لكنه ارعوى عن ذلك واتهمه الاريسيون في مجمعهم في صور بأنه ارتيكي. وقد أعلن مجمع انطاكية ومجمع سرديكا سنة ٣٤٧م أنه كاثوليكي. وحنق عليه الاريسيون فعزلوه عن كرسيه. فلجأ إلى الحبر الروماني يوليوس الاول، فردّه إليه. وبعد وفاته خلف ارميا وكان في أيام الملك توادوسيوس. وكان في باسان بتروفيلس وكان اريوسياً وشهد المجمع النيقوي مشايحاً الاريسيين وكان في مجمع صور كذلك، وقالوا إنه كان استاذ اوسابيوس أسقف حمص المذكور فأرضعه سَمَّ البدعة وعُزل عن أسقفيته في مجمع سلوقية (بايسورية) وخلفه سقراط سنة ٣٥٩م ثم سافرنيس، وقد شهد المجمع القسطنطيني الاول. كل ما مرّ ملخّص عن الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة لباجيوس في كلامه عن هذه الكنائس.

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء الاساقفة في سورية من مشاهير الاساقفة والعلماء في غيرها

إننا رغبةً في توفير الفوائد وإرضاءً لمطالعي كتابنا لا تقتصر على ذكر الاساقفة والعلماء غير السوريين، على أننا نوجز الكلام في هؤلاء لخروجه عن دائرة غرضنا. ونستهلّ بذكر مشاهير السريان في هذا القرن لأنهم الاقرب إلينا، ونعتمد في ترجماتهم خاصةً على أقوال الاستاذ والعلامة السيد يوسف سمعان السمعاني في المكتبة الشرقية، ونعمّ المعتمد.

عد ٥٨٢

مشاهير علماء السريان في هذا القرن

فالاول من هؤلاء في هذا القرن القديس يعقوب النصيبيني، وُلد في نصيبين ودأب منذ حداثته في السيرة القشفة النسكية، واشتهر في أيام الملك مكسيمينس بمناضلته عن الايمان القويم، وبصنع الله على يده آيات ومعجزات. ورقى إلى أسقفية مدينته قبل الجمع النيقوي. وأتى إلى هذا الجمع مع القديس افرام تلميذه، وكان فيه بطلاً صنديداً في المدافعة عن الايمان الكاثوليكي. وقد حاصر في أيامه سابور ملك الفرس مدينته نصيبين سنة ٣٣٨م وحوّل مياه النهر الجاري هناك إلى أسوارها فقوّضها. وبينما كان يأمل أن يدخل المدينة في اليوم التالي آمناً رأى في الغد الاسوار بصلوات الاسقف القديس قائمة على ما كانت عليه. فبُعث من فتحها، وتيقن أنّ الله يدافع عنها، فانصرف عن المدينة. روى هذه الآية بإسهاب توادوريطوس (في ك ٢ من تاريخه فصل ٢٨)، وفيلوسترجيوس (ك ٣ عد ٢٣)

وذكر له توادوريطوس آيات أخرى عديدة في كتابه المعنون فيلوثاوس (أي محب الله). ولقي يعقوب ربه في تلك السنة نفسها أو سنة ٣٣٨ على ما روى ديونيسيوس بطيريك اليعاقبة في الكرونيكون، ومؤلف تاريخ الرها، ويعتد لذكره في الكنيسة الرومانية في ١٥ تموز. وفي كنيسة الروم في ٣١ من تشرين الاول. وفي كنيسة الموارنة في ١٣ ك ٢. (ملخص عن السمعاني في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧). وقال السمعاني (في المحل المذكور صفحة ١٩) لم نر القديس ايرونيμος ذكر القديس يعقوب النصيبيني في عداد المؤلفين البيعيين، ولم يقل توادوريطوس في كتابه فيلوثاوس أو في تاريخه أنه كتب شيئاً. وقد عظمه علماء السريان ولم يشرروا إلى شيء من التأليف له، ولم يستشهدوا بشيء من أقواله، ومع هذا عزا إليه جناديوس (في كتابه في عداد المؤلفين) تأليف مقسم إلى ستة وعشرين كتاباً في الايمان وفي الرد على المبتدعين، وفي المحبة العامة إلى غيرها. وقال هذا المؤلف إن كان ايرونيμος لم يذكر يعقوب بين المؤلفين فذلك لأنه كان يجهل اللغة السريانية. وقد مدح كتب القديس افرام اليونانية، ولم يذكر تأليفه السريانية. على أن السمعاني ردّ قول جناديوس هذا وخرجه على أنه لم يميز بين يعقوب السروجي ويعقوب النصيبيني. وقال عزا إليه الحاقلي (في شرحه قصيدة الصوباوي) نافوراً للقداس والصحيح أن هذا النافور للسروجي أيضاً. أقول أن في مكتبة بطيريكيتنا كتاب خطب للقديس يعقوب النصيبيني ترجمه عن الارمنية إلى اللاتينية نيقولاوس انطونلي وطُبع في روما سنة ١٧٥٦م إذ كان السمعاني فيها. ولم أر السمعاني أتى بذكره في مكتبته. فادع لمن أسعدهم الخُط أن ينقبوا في مكاتب اوروبا أن يقضوا أهو ليعقوب حقيقة أم لغيره. وقد أنبأني أحد أساقفة الارمن أن هذا الكتاب من أفصح ما كُتب بالارمنية.

القديس افرام السرياني وُلد في مدينة نصيبين في أيام الملك قسطنطين، والظاهر أن والديه كانا وثنيين. ومنذ ترعرع ترك أباه أو طرده أبوه من بيته لأنه خالفه في عبادة آلهته. فلجأ إلى الكنيسة إلى القديس يعقوب المار ذكره. واعتنق الدين المسيحي فعَمَّده الاسقف وأصبحه إلى نيقية ليشهدا لجمع النيقوي. ولما توفي القديس يعقوب سنة ٣٣٨م كما مرّ، هاجر افرام إلى الرها واتخذ السيرة الرهبانية بين الرهبان المتنسكين في الجبال القريبة من هذه المدينة. ثم مضى إلى مصر يتفقد حالة النساك في الاسقيط فأقام بينهم ثمانين سنين منافساً لهم في

أعمال الفضيلة ومعلماً ومرشداً إلى سواء السبيل في الايمان والتقوى، ومناضلاً من تلمذوا ببدعة آريوس. ثم عاد إلى الرها وانضوى إلى اكليرسها، وأتم القديس باسيليوس الكبير في قيصرية الكبادوك فاستقبله بالتجلة والتكريم ورقاه إلى المرتبة الشماسية، وعاد إلى الرها معلماً الشعب بخطبه وتفسيره الاسفار المقدسة وتأليفه الترانيم الروحية على أوزان بعض الاغاني العالمية، وتعليمها للشبان والشابات ليرغوا بها في الكنائس ويستجلبوا المؤمنين إليها. وكان يناضل هرطقة زمانه كالاريوسيين، ويقاوم بخطبه وأبحاثه زنباع بن ديصان المشهور. وجاء في ترجمته التي أثبتها السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٥ وما يليها) نقلاً عن بعض الكتب السريانية المأثري بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية إن الله شرفه بصنع آيات شتى على يده منها أن رجلاً اسمه افرام أيضاً كان قنديلته في الكنيسة شغف بينت أحد رؤساء المدينة وزانها فحملت، ولقنها أن تقول لأهلها إذا سألوها أن افرام الراهب خدعها فعلقت منه، ثم سألها أبوها فقالت ما تلقنت. ولما ولدت أتى أبوها بالولد واستدعى افرام أمام الاسقف والكهنة وقال له خذ ابنك فربّه. فبكى افرام بكاءً مرّاً وأخذ الطفل متضرعاً إلى الله بمدايح سخية أن يفرج ضيقه، ويزيل العثار الذي سيكون من هذه التهمة له. وفي ذات يوم بينما كان الاسقف والكهنة والشعب في الكنيسة دخل افرام إليها والطفل على ذراعيه واستأذن الاسقف أن يصعد على المنبر، فصعد وقال للطفل علانية أقسم عليك أيها الرضيع بسم يسوع المسيح خالق السماء والارض أن تقول الحق ابن من أنت؟ فصاح الولد على مسمع الشعب افرام قنديلته الكنيسة أبي. وأعاد ذلك ثلاث مرات، ومات الطفل لساعته فمجد الاسقف والحاضرون الله.

ومما جاء في هذه الترجمة أنه مرّ يوماً على النهر المسمى ديصان فوجد نسوة يغسلن ثيابهنّ، وأخذت احداهنّ تحدّق به بلا خجل فقال لها اطريقي في الارض. فأجابته عليك أنت الرجل أن تنظر في الارض لأنك منها أخذت في البدء ويجعل بي أن أنظر إليك لأنني منك أخذت، فعجب بحكمتها. وروى سوزومانوس أيضاً هذه القصة قائلاً إن هذه المرأة أتت تراوده عن نفسه أو مرشوة من غيرها وأشرفت عليه من نافذة فجرى بينهما ما مرّ من الحديث. وإن افرام كتب بعد ذلك كتاباً مخصوصاً بهذا المعنى ذكره السريان بين كتبه. وقد عُرض عليه أن يرقى إلى الاسقفية فأظهر على نفسه أنه جنّ فراراً منها. وقد أدركت

المنية هذا القديس العلامة في ١٥ حزيران أو في ٩ منه سنة ٣٧٢ أو سنة ٣٧٣ م. قد أثبت السمعاني (صفحة ٥٥ من المجلد المذكور) إنه كان يعلم من اللغات العبرانية واليونانية والمصرية عدا لغته السريانية التي هو استأذها. فيتضح من تفسيره الاسفار العبرانية أنه كان خبيراً بهذه اللغة. ومن استشهاده بالترجمة السبعينية، وبأقوال الآباء الذين كتبوا باليونانية أنه كان خبيراً باليونانية. ومن استشهاده بترجمة القديس انطونيوس الكبير التي كتبها القديس اثناسيوس بالمصرية أنه كان يعلم هذه اللغة أيضاً وكتب شيئاً فيها.

وقد لقّبه العلماء السريان بملفان البيعة، وكنارة روح القدس ونبي السريان. وقال فيه القديس ايرونيμος (في كتابه في المشاهير فصل ١١٥): «افرام شماس كنيسة الرها ألف كتباً كثيرة في اللغة السريانية، وقد اتصل من الشهرة والتوقير إلى أن بعض الكنائس تتلو ما كتبه على الشعب في الكنائس بعد تلاوة منتخبات الاسفار المقدسة. وقد طالعت في اليونانية كتابه في الروح القدس مترجماً عن السريانية، ووجدت فيه قمة الذكاء السامي في الترجمة أيضاً. وقضى نحبه في أيام والنس الملك» وقال فيه أحد الآباء القديسين: «إنني أعجب بهذا الرجل الذي عاش على ضفة الفرات وكان ضليعاً بتعاليم الكنيسة الرومانية حتى نحسبه عاش على ضفة نهر تيبير في روما». وقد أثنى عليه ثناءً جزيلاً سوزومانوس في تاريخه (ك ٣ فصل ١٦) ومما قال فيه: «إنه أرفع من كل ثناء. وقد زين الكنيسة الكاثوليكية أفخر زينة وفاق الكتاب اليونانيين بحكمته وروث كلامه وأصاله رأيه وسداد برهانه. فإذا ترجمت كتبهم إلى السريانية أو غيرها من اللغات أضاعت رونقها وانحطت عن مقامها. وأما كتب افرام فقد تُرجم بعضها من السريانية إلى اليونانية وما برح بعضها يُترجم إلى الآن، ويقضي قارئها باليونانية بالعجب من فصاحتها وانسجامها ودقة معانيها كمن يقرأها في أصلها السرياني الذي كُتبت فيه. وباسيليوس أسقف قيصرية الكبادوك قد دُهِش بهذا الرجل، وتخيّر بما أوصله إلى هذه الفصاحة السامية. انتهى كلام سوزومانوس ملخصاً.

وأما ما كتبه هذا النادرة فيشدّ عن العد. فقد عزا إليه السريان اثني عشر ألف قصيدة، والقبط أربعة عشر ألف قصيدة. فقد جاء في كتاب تراجم القديسين عندهم في ١٧ ايب: «ووضع مقالات وميامر كثيرة جداً، وقد وُجد في بعض

النسخ أنّ الذي قاله بروح القدس أربعة عشر ألف قول». وقد فسر أسفار العهد القديم والحديث تفسيراً موجزاً سديداً. على أنّ السمعاني قال إنّ تفسير العهد الجديد الذي ذكره ابن صليبا وابن العبري لم يبلغ إلى يدنا. وذكر القديس ايرونيموس كتابه في الروح القدس كما رأيت، وعد العلامة السمعاني خمس عشرة قصيدة في تجسّد الخلص، وخمس عشرة قصيدة في الفردوس، واثنين وخمسين قصيدة في الكنيسة، واحدى وخمسين قصيدة في التبتل، وسبعاً وثمانين قصيدة في الايمان، وستاً وخمسين قصيدة في الردّ على البدع، وخمساً وتسعين مرثية وانشودة في الموتى والصلوة عليهم، وخمس عشرة قصيدة في الحثّ على التوبة، واحدى وثلاثين خطبة في موضوعات شتى. وذكر أنّ له مقالات وصلوات وافرة العدد في العربية مترجمة عن السريانية بلغ عدداً إلى ست وخمسين مقالة. وإنّ له في اليونانية أربعة عشر كتاباً مخطوطة في المكتبة الواتيكانية لم تُطبع بعد. وذكر من كل هذه القصائد أو المقالات فاتحتها أو بعض فقرات منها. وقد طُبِعَ من مؤلفاته في روما ست مجلدات، ثلاثة منها في اليونانية ترجمها إلى اللاتينية العلامة الأب بطرس مبارك اليسوعي الماروني إلى أواسط المجلد الثالث. وترجم الباقي منه العلامة الآخر المطران اسطفان عواد ابن أخت السيد يوسف سمعان السمعاني. وقد وجد له السيد لامي أستاذ كلية لوفان (في البلجيك) في المتحف البريطاني وغيره قصائد ومقالات أخرى ضمّنها في ثلاث مجلدات أخرى، ومنها رواية في يوسف ويبيع اخوته له من أحسن ما ينظم في هذا العصر من الروايات. وقد ذكرت في مقدماتي التي علقتها على طبعة كتاب صلواتنا الاسبوعية بعض تأليفه، وما دخل منها في كتب فرضنا وفرض الملكيين الكاثوليكين تبارك الله الخالق.

وكان من علماء السريان في هذا القرن اسحق الشيخ تلميذ القديس افرام غير القديس اسحق السرياني الشهير. فإنّ هذا كان تلميذ زنوبيوس تلميذ افرام ويظهر أنّ اسحق الشيخ هذا كان قد اشتهر في سنة ٣٨٠م وأنه ألف كتاباً في ثلاثة أقانيم الثالوث الاقدس وفي تجسّد الرب على ما رجّح السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٦٥). وكان منهم أيضاً بالاي السرياني، ويظهر أنه كان في أيام اسحق المتقدم ذكره، وقد ذكره ابن العبري في الادبيات (قسم ١ فصل ٢٥) والسمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ١٦٦)، وله قصائد وأناشيد ذكر السمعاني خمساً منها في المحل المذكور. ومنهم أيضاً زنوبيوس وهو تلميذ القديس

افرام، وذكره هذا القديس في وصيته، ووصفه يوحنا برشوشان بمعلم القديس اسحق. وقال فيه عبد يشوع الصوباوي من قصيدته « زنويوس كتب رداً على مرقيون وعلى بمفيليوس ورسالة أنفذها إلى اسيدورس ولوشيلس وابراهيم ويعقوب ».

عد ٥٨٣

مشاهير العلم في مصر في القرن الرابع

ومن المصريين القديس اثناسيوس الاسكندري، وُلد سنة ٢٩٦م واشتهر في الجمع النيقوي سنة ٣٢٥م بمناصبته الارويسيين، وصير أسقفًا وبطيريكاً على اسكندرية في ٢٧ كانون الاول سنة ٣٢٦م. على أنَّ مناصبته الارويسيين جعلته هدفاً لأسهم بغضائهم له، فحطّوه عن كرسيه أربع مرات وعاد إليه ظافراً. فقد شكوه أولاً إلى الملك قسطنطين بأنه علّة قلق في الكنائس، وأنه أثقل مسوديه بضرائب، وأنه مشترك مع أعداء الملك في مؤامرة عليه فافتضح كذبهم بهذه الشكاوى. فعادوا يلحّون على الملك بعقد مجمع لتوفيق الاساقفة، ويضمرون عزل اثناسيوس في ذلك الجمع. فأمر الملك بعقده فعُقد في صور سنة ٣٣٥م وأتى إليه أساقفة كثيرون وأكثرهم من الارويسيين، وأوردوا عليه شكاوى عديدة منها أنهم أحضروا بغياً في وسط الجمع تدّعي أنها متبلة لله وأنّ اثناسيوس افتضّ بكارتها مكرهاً لها. فنهض شماس اثناسيوس وقال لها أنا حللت عندك وافتضضتك؟ ومتى كان ذلك؟ فأجابته مشيرة إليه نعم أنت ضاجعتني في ليلة كذا ومكان كذا. فضحك أصحاب اثناسيوس وخجل شاكوه وافتضح كذب التهمة، فقفوه بتهمة أخرى وهي أنهم أخرجوا يد رجل مقطوعة وقالوا ها هي يد ارسانيوس الاسقف الذي قتله اثناسيوس فهي تقضي عليه. وكانوا قد اتفقوا مع ارسانيوس أن يتغيّب في تلك المدة، فندم على مطاوعته لهم وأتى إلى اثناسيوس ليلاً (وفي رواية إلى بولس أسقف صور) يخبره عما كان، فأخفى القديس في محل عنده ولما أوردوا عليه هذه الشكاوى أرسل خادمه فأشخصه ملفاً إلى الجمع. وسأل اثناسيوس الاساقفة هل تعرفون ارسانيوس؟ قال كثير منهم نعم نعرفه. ولما وصل سألهم أهذا ارسانيوس؟ قالوا نعم. وكان ملتحفاً بردائه فكشف القديس عن يمينه، فقال بعض خصمائه يسراه المقطوعة، فانتزع الرداء عنه فظهرت يداه سالمتين. فالتحف خصومه بالخلجل وصاح بعضهم أنه ساحر،

وبعضهم فّر من الجمع، وبعضهم وثبوا عليه ليقتلوه، فأنقذه مقوض الملك من بين أيديهم وأرسله ليلاً إلى الاسكندرية. وكان خصومه قد أرسلوا بعض المشايخين لهم للفحص عن شكاوى أخرى في الاسكندرية فللق هؤلاء ما شاءوا من البيّنات عليه وعادوا إلى زملائهم في صور، فحكموا بأكثرية الاصوات على اثناسيوس بالعزل عن كرسيه، ورفعوا عريضة بذلك إلى الملك قسطنطين يسألونه أن يعده عن الاسكندرية تحوطاً من القلق. وبعثوا برسائل إلى باقي الاساقفة يحذرونهم من الاشتراك معه ومن قبوله. أما القديس اثناسيوس فمضى إلى القسطنطينية يشكو أمره للملك فلم يسمع له أولاً، منخدعاً بما كتبه إليه أساقفة مجمع صور فاقصر سؤاله على أن يستدعيهم الملك إليه ويسمع بنفسه شكواهم عليه بحضرته. فأمر الملك أن يحضروا جميعاً، فلم يحضر إلا خمسة منهم: اوسابيوس القيصري، واوسابيوس النيكوميدي. ولفقوا تهمة أخرى عليه بأنه حاول أن يمنع شحن المؤن من مصر إلى العاصمة. وشغفوا ذلك باستئنائهم باقي التهم مستشهداً بعضهم بعضاً فحكم الملك قسطنطين على اثناسيوس بالنفي إلى تراف في بروسيا، إما منخدعاً بمزاعم هؤلاء الاساقفة، وإما لحرصه على حياة اثناسيوس لئلا يقتلوه، مضمراً أن يرده إلى كرسيه بعد زوال القلق. فمضى القديس اثناسيوس إلى تراف راضياً صابراً.

وقد توفي الملك قسطنطين في ٢٠ أيار سنة ٣٣٧م وكان قد أمر بعود اثناسيوس إلى كرسيه، فعاد إليه سنة ٣٣٨م بعد أن قضى في منفاه سنتين واربعة أشهر، فلاقاه شعبه باحتفاء عظيم ومسرة لا تقدر. فعظم حقن الاربوسيين عليه وشكوه بتهمة أخرى، أنه باع لمنفعة نفسه المؤن التي تبرّع بها الملك قسطنطين على الارامل والاكليريكين في مصر، ورفعوا شكواهم هذه إلى الملوك أبناء قسطنطين. فعقد اثناسيوس مجمعاً في مصر شهدته نحو مئة أسقف من مصر وما يليها، ورفع هذا المجمع عريضة إلى يوليوس الحبر الروماني، وشفعوها ببيّنات ناطقة ببراءة اثناسيوس ومكائد خصائمه. وأرسل اوسابيوس أسقف نيكوميدي وفداً إلى روما، ولما رأى هؤلاء أنهم لم يتمكنوا من استمالة الحبر الروماني إليهم سأله أن يأمر بعقد مجمع يحضر فيه اثناسيوس وشاكوه، فأجاب سؤالهم وكتب إلى اثناسيوس يكلفه إلى ذلك. ورأى الاربوسيون أنه لا يتيسر لهم نيل ما يبتغون إذا كان الحبر الروماني قاضياً في المجمع. فآثروا أن يكونوا هم قضاة في ما يدعون على اثناسيوس بالخط عن كرسيه بحجة أنه إذا عاد إليه دون مجمع بعد أن كان عُزل عنه في مجمع

واختاروا اوسابيوس الحمصي ليكون في أسقفية اسكندرية كما مرّ. فأبى لعلمه بتشيع الاسكندريين لاثناسيوس، فاختراروا غريغوريوس الكبادوكي ورقوه في انطاكية، وسعوا لدى الملك فسمي في الاسكندرية والياً كبادوكياً أيضاً. فأدخل غريغوريوس على كنيسة الاسكندرية بالعنف والقسوة والاضطهاد حتى جرح كثيرون وسجن كثيرون وقتل البعض أيضاً. واضطر اثناسيوس لتخفيف مصاب شعبه أن يفرّ ويترك الكنائس للارويسيين ويختبئ في مكان مجاور للاسكندرية، وكتب حينئذ رسالة مسهبة لجميع الاساقفة ينبئهم فيها بما كان من الاضطهاد على شعبه، ويستفز غيرتهم إلى تدارك الشرّ والابتعاد عن غريغوريوس الدّعي المضطهد، وسافر إلى روما ليشهد المجمع الذي كان الارويسيون أنفسهم سألوا الحبر الروماني عقده. وقد أنبأنا سقراط (في ك ٢ من تاريخه فصل ٥) وسوزومانوس (في ك ٣ فصل ٨) والمؤرخان يونانيان أنّ يوليوس الحبر الروماني نظر في دعاوي اثناسيوس ومرشلس أسقف انكورة، واسكليباس أسقف غزة وغيرهم من أساقفة تراسة وسورية وفينيقية، وأمر بحسب السلطان المختصّ بكرسيه الروماني أن يعود كلّ منهم إلى كرسيه، فعادوا مستندين إلى الاوامر السامية التي أصبحهم بها. وكتب البابا إلى الاساقفة الارويسيين أن يحضروا إلى المجمع الذي سألوه هم عقده، فأجابوا مقرّين بسلطته العامة على الكنيسة، ومتقاعسين عن الحضور بحجّة الحرب مع الفرس. ثم عُقد سنة ٣٤٧م مجمع سرديكا (وهي صوفيا مدينة البلغار) فبرأ ساحة اثناسيوس من كل تهمة، وحكم بإعادته إلى كرسيه، واستدعاه قسطنس الملك مكرراً الدعوة فامثل لديه في انطاكية فأكرمه وأمر بعوده إلى كرسيه، فكان عوده مدعاة لمسرة الشعب والاساقفة المصريين.

على أنّ انتصار اثناسيوس في مجمع سرديكا وعزل بعض الاساقفة الارويسيين فيه زاداهم تهيجاً على اثناسيوس، فبذلوا قصارى جدّهم في تغيير قسطنس عليه بوشايات منها أنه كان ينم فيه لأخيه قسطنط، وأنه كان محازباً لما ينس عدو هذا الملك. وكتب له رسالة ومنها أنه دشّن كنيسة في الاسكندرية دون رخصة الملك، مع أنّ الملك كان قد تبرّع بنفقة بنائها حتى أوغروا صدره عليه. وأرسل كاتب سرّه وبعض عماله أمراً قائد جيشه أن يقبض على اثناسيوس الذي طلب الاطلاع على أمر الملك فلم يعجبه على سؤاله، بل بينما كان في الكنيسة وهي غاصّة بالشعب احتاط الجند الكنيسة وأخذوا يرمون الشعب بالنبال، فقتل وجرح كثيرون وتسارع الباقون للفرار، والقديس جالس على كرسيه إلى أن حمله ذووه رغماً عليه وأخفوه

في محل. ولما تيسر له الفرار خرج إلى البرية يزور النساك والمتوحدين، وكان ذلك سنة ٣٥٦م وأذاع حينئذ كتب دفاعه عن نفسه، ورفعها إلى قسطنس الملك وتوغل في البرية متفرغاً لانتفاذ رسائله لشعبه وبعض الاساقفة مفنداً فيها ضلال الاريسيين. ثم توفي الاسقف الذي نصبه الاريسيون فعاد القديس اثناسيوس إلى كرسيه، وعقد مجعماً شهده كثيرون من الاساقفة الذين كانوا منفيين. ونبذ ضلال الاريسيين وغيرهم من أصحاب البدع، ووضع طريقة لقبول الهراطقة المرتدين إلى الايمان الكاثوليكي. وأثبت البابا ليباريوس ما سنه مجمع الاسكندرية، وارتد كثيرون من الهراطقة والوثنيين أيضاً إلى الايمان القويم. فشق ذلك على الملك يوليانس الجاحد فكتب إلى أهل الاسكندرية رسالته السادسة والعشرين أمر اثناسيوس بها أن يخرج من الاسكندرية يوم علمه بهذه الرسالة وإلا فيجزى شرّ الجزاء. فرفع الاسكندريون جميعاً إليه رسالة يسألونه فيها أن يبقى اثناسيوس في مدينتهم، فأجابهم برسالته الحادية والخمسين ساخراً منهم ومهدداً لهم، وأمر بأن يخرج اثناسيوس من مصر كلّها بل أمر بعداً بقتله. فازدحمت الاقدام في داره ليكون، فقال لهم إن هذه أيضاً إلا سحابة سريعة الانقشاع. وركب سفينة سار بها بالنيل نحو الصعيد يتعقبه المأمور بقتله. ونبه اثناسيوس إلى ذلك فترك صحبه واثني نحو الاسكندرية، وسأل المأمور رفقته أين تركتموه؟ فقالوا هو قريب منك. فجذّ في سيره إلى الامام والقديس إلى الورا، ثم خرج إلى البرية. ولما مات يوليانس ظهر اثناسيوس بغتة في الاسكندرية وتسارع شعبه إلى الاحتفاء بقدومه. وكتب إليه الملك يوفيان رسالة يبجله ويثني عليه فيها أطيب الثناء. ثم كتب إليه ثانية يسأله أين يبين له ايمان الكنيسة الكاثوليكية الصحيح فأجابه برسالة مسهبة مدارها على أنّ قانون المجمع النيقوي هو أس الايمان القويم. وعاش القديس اثناسيوس بعد ذلك مستريحاً منكباً على التأليف النافعة للايمان الكاثوليكي إلى أن لقي هذا الجهد الهتمام والبطل المغوار ربه في الثاني من أيار سنة ٣٧٣م بعد أن استمرّ في الاسقفية ٤٦ سنة (ملخص عن توادوريطوس وسقراط وسوزومانوس وغيرهم).

وأما ما ألفه من الكتب والرسائل، فأشهره تفسيرات الاسفار المقدسة، وكتابه في تجسد يسوع المسيح، وكتابه في لاهوت الروح القدس وانبثاقه، وكتابه في الاستحالة ووجود جسد المسيح حقيقة في القربان المقدس، وكتاب دفاعه عن نفسه رفعه إلى الملك قسطنس، ورسائل ومقالات تشدّ عن العدّ، وكتابه في ترجمة

القديس انطونيوس الموصوف بالكبير والمكتنى بأبي الرهبان. وروى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٠) إنّ في المكتبة الواتيكانية نسخة سريانية من كتابه في التجسد خطت سنة ٥٦٤م، وإنّ له نافوراً سريانياً فاتحته، «أيها الرب القوي» ذكره الدويهي في عد ١١، وإنّ له في المكتبة المذكورة كتاباً بالعربية ضد اليهود، وإنّ هذا الكتاب العربي النفيس هو نفس الكتاب اليوناني المعنوّ أسئلة اليهود والهراطقة وأجوبة المسيحيين عليها. ويرجح القول الاول. وأثبت نطاليس اسكندر أنّ له كتاباً في البتولية. وقال إنه تعزى إليه كتب ومقالات أخرى كثيرة ليست له حقيقة (ومن شاء الاسهاب في ذلك فليطالع الفصل ٦ من تاريخ نطاليس اسكندر في القرن الرابع). وإليك ما ذكره القديس ايرونيوموس (في كتابه في المشاهير فصل ٨٧) من كتب القديس اثناسيوس «رووا أنّ له كتابين ضد الامم وكتاباً ضد فانس وارشاسيوس، وكتاباً في البتولية، وكتباً كثيرة في اضطهادات الاريوسيين، وفي عنوانات الزبور، وكتاباً في ترجمة القديس انطونيوس الراهب، ورسائل ومقالات يطول الكلام في مجال تعدادها».

وكان في مصر أيضاً انطونيوس الكبير معلّم السيرة الرهبانية، وُلد سنة ٢٥١م في قرية بمصر العليا اسمها كوما (أو قوما) من أسرة غنية، وباع ما كان يملكه واعتزل في البرية متنسكاً متهجداً وعمره عشرون سنة. وقام أولاً في البلاد المعروفة اليوم بالفَيّوم، ثم توغل في البرية وانضوى إلى تديره تلامذة كثيرون، كان مدبراً لهم في السيرة النسكية الملكية. وأقام أدياراً كثيرة يضمّ إليها تلامذته، واضعاً لهم دستوراً واحداً يستسير جميعهم بموجبه. وترك عزلته آتياً إلى الاسكندرية مرتين، الاولى سنة ٣١١م ليشجّع المسيحيين في اضطهاد الملك مكسيمينس، والثانية سنة ٣٥٥م ليدافع عن الايمان الصحيح مفنداً ضلال الاريوسيين. وكان يؤثّر جميع الناس حتى الوثنيين، ويجلّه الملوك. ورقد بالرب سنة ٣٥٦م وعمره مئة وخمس سنين. على ما روى القديس ايرونيوموس (في كتابه في المشاهير فصل ٨٨). وكتب القديس اثناسيوس كتاباً برمته في ترجمة هذا القديس مورداً تجارب ابليس له وانتصاراته عليها، ويصوّره المصوِّرون وبجانبه خنزير فكأنه رمز إلى الشيطان. والباقي من تأليفه سبع رسائل وقانون للسيرة الرهبانية وخطب كثيرة مثبته في مكتبة الآباء وقد كتبها باللغة المصرية، ثم تُرجمت إلى اللغة اليونانية وغيرها. وتعيّد لذكره الكنيسة اللاتينية وكنيستنا المارونية في ١٧ ك ٢ .

وكان في مصر أيضاً سراييون ذكره القديس ايرونيμος (في كتابه في المشاهير فصل ٩٩) قائلاً: «إنه كان ناسكاً في الصعيد فصير أسقفاً ولُقب لتوقّد ذكائه بالجدلي. وكان القديس انطونيوس يحبه كثيراً، وألّف كتاباً بديعاً فند به ضلال المانويين، وكتاباً آخر في عنوانات الزبور، وله رسائل عديدة مفيدة وتشرف بالاستشهاد في أيام الملك قسطنس». ويظهر أنّ القديس اثناسيوس رقاّه إلى الاسقفية سنة ٣٤٠م، ويعتدّ لذكره في كتاب تراجم القديسين الروماني في ٢١ آذار. وقد أثنى عليه القديس اثناسيوس في كتابه في الروح القدس.

ومن هؤلاء ديديمس قال فيه القديس ايرونيμος (في كتابه في المشاهير فصل ١٠٩) «ديديمس الاسكندري فقد باصرته منذ حداثته وتعلّم الفلسفة بل الهندسة أيضاً التي تحتاج إلى النظر أكثر مما سواها، وتكامل بالعلوم والفنون حتى كان أعجوبة لكل ناظر إليه. وقد ألّف كتاباً عديدة بديعة فكتب تفسيراً لكل الزبور، ولانجيلي متى ويوحنا. وكتاباً في عقائد الدين وكتابين فند فيهما ضلال الاروسيين وكتاباً في روح القدس ترجمته أنا إلى اللاتينية (هذا المؤلف في ترجمة ايرونيμος مقسوم أربعة كتب)، وعشرة كتب في تفسير نبوة اشعيا، وثمانية في نبوة هوشع، وبعث إليّ بثلاثة كتب في تفسير آيات من الاسفار المقدسة، وكتب خمسة كتب في نبوة ذكريا قد اقترحتها عليه، وفسّر سفر ايوب في غير ذلك... وهو حيّ إلى الآن وقد جاوز الثالثة والثمانين من عمره» وقد كتب ايرونيμος سنة ٣٩٢م وتوفي ديديمس سنة ٣٩٦م.

عد ٥٨٤

مشاهير الآباء والعلماء في آسيا في هذا القرن
القديس باسيليوس

ومن كانوا في هذا القرن في آسيا الصغرى القديس باسيليوس الكبير أسقف الكبادوك، وُلد سنة ٣٢٩م في قيصرية الكبادوك وهو أخو القديس غريغوريوس النيصصي، ودرس أولاً الفلسفة في القسطنطينية وأثينا، وكان صديقاً للقديس غريغوريوس النيزي الذي ذكره، وللامير يولييان إذ كان كاثوليكياً، وهو الذي تسّم

بعداً اريكة الملك وجحد الايمان فلُقب بالجاحد. ثم انتقل باسيليوس إلى انطاكية فتعلّم الفصاحة والخطابة عند ليان الخطيب الانطاكي المار ذكره. وعلم بعد ذلك الفصاحة في قيصرية، وباشر مدة مهنة محامي الدعاوي، على أنه هجر العالم سنة ٣٥٨م، ولزم العزلة في بركة بنطس، وأقام هناك ديراً بُنيت على مثاله أكثر أديار الرهبان في المشرق. ثم رقي إلى الاسقفية على مدينته قيصرية سنة ٣٧٠م، وعكف بغيرة متّقدة على الذب عن عقائد الدين الصحيح مناصباً كثيرين من المبتدعين، وبذل قصارى عنايته في ايجاد السلم والوفاق في الكنيسة. ولم يهب الملك والنس ولم ترعه تهديداته له ليتبع ضلال الاروسيين. وهمّ الملك بنفيه واضطرّ أن يحجم عنه لموت ابنه واعتقاد الجمهور أنّ الله عاقبه بذلك لمصادرتة الاسقف. ولقي القديس باسيليوس ربه في سنة ٣٧٩م، وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ١٤ حزيران. وقد ذكره وأثنى عليه أطيب الثناء سقراط (ك ٤ فصل ٢٦) وسوزومانوس (ك ٦ فصل ١٦ وما يليه).

وقد عد القديس ايرونيμος (في كتابه في المشاهير فصل ١١٦) مؤلفاته قائلاً: «صنّف كتباً يفند فيها مزاعم اونوميوس وكتاباً في الروح القدس وتسع مقالات في تفسير ستة أيام الخليقة، وخطباً ومقالات وافرة العدد». وذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته في المؤلفين (فصل ١٣). «فقال باسيليوس الكبير ألف كتاباً في تفسير ستة أيام الخليقة وأسئلة وأجوبة كثيرة وخطباً ورسائل مسهبة». ومما قاله السمعاني في شرح هذه القصيدة (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠) أنّ للقديس باسيليوس نافوراً (رتبة قداس) بالعربية، ومنه نسخة في المكتبة الواتيكانية في عد ١٦٩ من الكتب العربية، ومنه نسخة في القبطية في عد ١٢ وعد ٢١ من الكتب القبطية. وله نافور مترجم عن اليونانية إلى العربية مثبت في الكتاب ٤٢ و ١٥٧ من الكتب العربية في هذه المكتبة. وتجد فيها نافوراً له بالسريانية فاتحته: «أيها الرب الازلي الذي خلقت الانسان منذ البدء» ترجمه رينودوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في النوافير الشرقية. وطبع ثانية الترجمة التي كان وضعها منصور شلق الماروني سنة ١٦٠٤م لنافور باسيليوس عن العربية. وأما النافور الآخر المترجم من اليونانية إلى السريانية والذي كان المليون في سورية يستعملونه قبلاً. فقد ذكرته في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٦١٥، وقد ذكر الدويهي نافورات باسيليوس في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكية عد ١٥ من كتابه المناير العشر. وله

في العربية كتاب محاورة بينه وبين غريغوريوس النزينزي وهو في عدد ١٧٠ من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية مترجماً عن كتابه في اليونانية الموسوم بالاسئلة والاجوبة بين باسيليوس وغريغوريوس اللاهوتي. وله أيضاً اثنا عشر قانوناً، ثم مئة وستة قوانين مأخوذة عن رسائله الثلاث في القوانين المنفذة إلى امفيلكتس. منها ٢٢ قانوناً في الكتاب العربي عد ٦٩، ومن أهم ما كتبه كتابه في التهذيب الرهباني وعنوانه «أسئلة الرهبان لباسيليوس الكبير أسقف قيصرية الكبادوك في التهذيب الرهباني» وهو مقسوم إلى ٣٤٠ سؤالاً شرح في أجوبته عليها ما يلزم الراهب في سيرته الروحية. وعنها أخذ كثير من الرهبانيات قوانينها في المشرق والمغرب كما أخذ كثير منهم أيضاً القوانين التي وضعها القديس انطونيوس الكبير. انتهى ملخصاً عن السمعاني في الحقل المذكور.

غريغوريوس أسقف نيبص

هو أخو القديس باسيليوس وأصغر منه سناً، وُلد في سبسطية (الكبادوك) سنة ٣٣٠م وعلم الفصاحة، وكان متزوجاً ثم ترك امرأته برضاها وتجنّد لله. وُقي إلى درجة الكهنوت، ثم صير أسقفاً علي نيبص أو نيبسا (في الكبادوك) وطرده الاريوسيون من كرسيه، ولم يعد إليه إلا بعد وفاة والنس الملك. وشهد الجمع الذي عُقد في انطاكية سنة ٣٧٩م، ثم الجمع المسكوني الثاني وهو القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م. وانتقل إلى دار البقا في سنة ٣٩٦م وألّف كتباً كثيرة دالة على سمو مداركه وفصاحته كلامه، على أنها مشعرة بأنه منطقي أكثر من أن يكون خطيباً. والمشهور منها مقالات في تكوين الانسان، وفي المقدار، وفي البتولية، وفي الكمال المسيحي، وخطب في سفر يشوع بن سيراخ، ونشيد الانشاد، والصلاة الربية، ومقالة شهيرة في الربا، وخطب وتقاريط منها تقريظ لأخيه القديس باسيليوس، وتآيين ومقالة في تراجم القديسين، ومقالات في شرح أيام الخليفة أحط من مقالات أخيه بهذا المعنى. وقد طُبعت كتبه هذه مرات، ومنها طبعة الأب مين في مكتبة الآباء سنة ١٨٥٨. وقال فيه القديس ايرونيوس (في المشاهير فصل ١٢٨) إنه «أخو باسيليوس القيصري وقد أطلعني منذ بضع سنوات وأطلع غريغوريوس النزينزي

على كتبه رداً على أونوميوس. ويقال إنه كتب كتباً أخرى وهو مشغول في تأليف غيرها». وقال فيه عبد يشوع الصوباوي في قصيدته (فصل ٢١٤) غريغوريوس النيصصي له كثير من المباحث (لعل المراد كتبه رداً على أونوميوس وهو ثلاثة عشر كتاباً) وتفسير للصلوة الربية والتطويات الانجيلية وكتاب كبير في الخطب. ومقالة في القيامة، وأخته، (كتبها عند موت أخته القديسة ماركينة وعنوانها في النفس والقيامة) وكتاب في تكوين الانسان، وكتاب في الطبيعيات (وصحيح المراد كتابه في شرح ستة أيام الخليفة المار ذكره) وكتاب ضد الوثنيين وآخر في تفسير نشيد الانشاد، وقسمه إلى مجلدين، وكتاب في النفس (غير كتابه في النفس والقيامة). وروى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٢) إن له في السريانية (أي مترجم إليها) كتاباً أتى به من بركة مصر إلى المكتبة الواتيكانية. وقد خط سنة ٩٣٢ للميلاد ثم حوى رسالة إلى توافيلس الاسكندري رداً على ابولينار وخمس خطب في تفسير الصلاة الربية، وثمان خطب في التطويات. وكتاب في تكوين الانسان موجه إلى أخيه بطرس، وتفسيره نشيد الانشاد، وإن له نافوراً للقداس في السريانية غير نافورات أخيه. وإن له في العربية في المكتبة الواتيكانية خمسة قوانين من قوانين الكنيسة في المجلد الثاني منها، وتقريظاً للقديس افرام وقرأ أخرى في بعض الكتب القديمة.

القديس غريغوريوس النزينزي

وُلد في نزينزو في الكبادوك سنة ٣٣٨م ودرس العلوم في قيصرية فلسطين والاسكندرية. ثم مضى إلى مدارس أثينا وكان فيها مع صديقه القديس باسيليوس. وركب إلى درجة الكهنوت ثم إلى الاسقفية على مدينة سازيما في الكبادوك. ثم صير أسقفاً معاوناً لأبيه الذي كان أسقفاً على نزينزو ويلقب بالثاولوغس أي اللاهوتي. وقد مضى إلى القسطنطينية سنة ٣٧٥م وردّ كثيراً من الاريوسيين إلى الايمان القوي، ثم ورقي بعناية الملك توادوسيوس الكبير إلى البطريركية القسطنطينية وأثبت انتخابه لجمع المسكوني الذي عُقد فيها سنة ٣٨١م. على أن الملك تغيّر عليه وعتقه، فتنزّل عن البطريركية، وآثر العزلة في الكبادوك موطنه، وعكف على تأليف

الكتب العديدة الدالة على طول باعه وعلو مداركه وبلاغة كلامه. وقد لقي ربه سنة ٣٨٩م وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ٩ إيار.

وأما كتبه المشهورة فهي كتاب الخطب مؤلفاً من خمسين خطبة. وكتاب قصائد شعرية مؤلفاً من مئة وثمانين قصيدة منها قصيدة يصف بها تقلّب الدهر عليه ويعزى إليه مأساة (تراجديا) في آلام المسيح. وقد طبعت مؤلفاته مرات. وطبعها الأب مين في مكتبة الآباء اليونان في أربعة مجلدات وله كتب أخرى سيأتي ذكرها. وقال فيه القديس ايرونيوس (في المشاهير فصل ١١٧) «غريغوريوس أسقف سازيما ثم نزينزو رجل تناهى بالفصاحة، وهو استاذي فقد تعلمت منه تفسير الاسفار المقدسة. وقد بلغ ما ينظمه إلى ثلاثين ألف بيت من الشعر. ومن ذلك رثاؤه لأخيه قيصارىوس ومدايحه للمكايين، وكبريانس، واثنايوس، ومكسيمس الفيلسوف. وله كتاب في التبتل والزواج، وكتاب في الرد على اونوميوس، وكتاب في الروح القدس، وكتابان يندد فيهما بالملك يوليان. وأتبع طريقة بوليمون (اللاذقي) في الخطابة، وأقام في حياته أسقفاً بدلاً منه وعكف على السيرة الرهبانية. وقد توفاه الله من نحو ثلاث سنين (وفي نسخة سنتين) في أيام توادوسيوس الملك» كتب ايرونيوس هذا سنة ٣٩٢م فتكون وفاة غريغوريوس سنة ٣٨٩م.

وقال فيه الصوباوي (فصل ١٥): «غريغوريوس الكبير أسقف نزينزو له خمس مجلدات اشعاراً، ومباحث لقيصارىوس، (أي حلّ بعض مباحث مهمة عزاهها بعضهم إليه وكثيرون إلى قيصارىوس أخيه)، وكتاب مأساة (تراجديا) في آلام المسيح، وكتاب وضعه رداً على مؤلمي الإله (أي ابولينار). وقال السمعاني في شرح هذه الايات (المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٣) إنّ له في السريانية مئة وثلاثين، قصيدة اشتمل عليها كتاب خطه على رق موسى النصيبيني سنة ٩٣٢م لدير الاسقيط وهو الآن في مكتبة الواتيكان. ونافور فاتمته: «أيها الإله الكلي الطوبى» وهو في مكتبة الواتيكان. وذكره الدويهي في الفصل الثاني عد ١٦ في كتاب المناير العشر. وله كتاب أسئلة وأجوبة وهو في هذه المكتبة أيضاً. وقال ابن العبري إنّ تأليف النزينزي عند السريان في مجلدين يشتملان على سبع وأربعين خطبة واحدى وثلاثين رسالة. وجعل يعقوب الرهاوي خطب النزينزي عند السريان خمساً وتسعين خطبة. ومما قاله السمعاني في المحل المذكور «إني قد رأيت في دير القديسة مريم للسريان في الاسقيط، ثلاثة كتب قديمة أولها كتب سنة ٨٤٥م في أيام

ديونسيوس بطريرك اليعاقبة، والثاني نُحِط سنة ٧٩٠م، والثالث لا تاريخ فيه. ففي الكتاين الاولين القسم الاول من مؤلفات التريزي يشتمل على ثلاثين خطبة ترجمها من اليونانية إلى السريانية بولس أسقف قبرص سنة ٦٢٤م، والكتاب الثالث ينطوي على القسم الثاني من تأليفه وهو مقسوم إلى اثني عشرة خطبة وثلاثين رسالة من الرسالة السادسة والستين إلى السادسة والتسعين. والظاهر من ذلك أنَّ السريان ترجموا من رسائل التريزي أكثر ما ذكر ابن العبري.

عد ٥٨٥

مشاهير الآباء والعلماء من اللاتينيين في هذا القرن

القديس ايلاريون

ومن مشاهير آباء الكنيسة اللاتينية نذكر اولاً القديس ايلاريون، وُلد في بواتيا في افرانسا سنة ٣٠٠م من والدين شريفيين وثنيين. وتنصّر بعد أن تعمّق في البحث عن الدين المسيحي. وقد انتدبه مواطنوه أسقفاً فُرقي إلى الاسقفية سنة ٣٥٠م، وكان من أفصح المدافعين عن الايمان. وقد شهد مجمع مديولان سنة ٣٥٥م، وامتاز بعلمه ورسوخه في معرفة عقائد الدين. فهاج عليه الاريوسيون الذين كان يناصبهم، ونفوه إلى فريجية بآسيا الصغرى. وشهد مجمع سلوقية بایسورية سنة ٣٥٩م يخاصم الاريوسيين أيضاً. ثم عاد إلى كرسية، وادركته الوفاة سنة ٣٦٧م وقد كتب في اللاتينية اثني عشر كتاباً في الثالوث الاقدس يفند فيها مزاعم الاريوسيين، ومقالة مسهبة في الجامع، وتفسيراً لبشارة متى ورسائل بولس الرسول وللزبور. وله ثلاث مقالات كتبها إلى الملك قسطنس وكتاب اشعار دينية. وقد طُبعت تأليفه مرات. وذكره القديس ايرونيμος (في كتابه في المشاهير فصلی ١٠٠) وذكر له كتباً أخرى، ولقبه برون (اسم النهر) الفصاحة اللاتينية.

القديس امبروسيوس أسقف مديولان

هو أحد أقطاب الكنيسة اللاتينية وُلد في تراف (بروسيا) سنة ٣٤٠م، وكان أبوه أحد الولاة الرومانيين في افرنسا. وكان هو نفسه والياً في ليكوريا واميليا في غربي ايطاليا، وقد وُلد وثنياً لكنه آمن بالمسيح، وكان من مصاف المرتشدين لقبول المعمودية. وأنبأنا سقراط (ك ٤ فصل ٣٠) إنه بعد وفاة اكستتيوس أسقف مديولان (ميلان) حصل نزاع شديد بين أهل المدينة من اريوسيين وكاثوليكين على اختيار خلف له. واشتدَّ الشغب بينهم في الكنيسة فأسرع امبروسيوس إليها، فحمد نار الفتنة بمهابته وارشاده وسلب عقولهم بفصاحته، واستمال قلوبهم بغيرته حتى اجمعوا على انتخابه أسقفاً عليهم. وقضى الاساقفة الذين كانوا هنالك إنّ عناية الله أنشأت هذا الاجماع على انتدابه فعمّده فقبل هذا السرّ مسروراً، ولكنه أبى أن يكون كاهناً وأسقفاً وحاول بأساليب عديدة الفرار من هذا المقام، واختبأ أخيراً. واضطرَّ الاساقفة أن يرفعوا الامر إلى الملك والتتنيان فأجابهم أنه يرى ما رأوا، إنّ يد الله في انتدابه. وأكثروا من الالحاح عليه حتى أذعن متيقناً بأدلة عديدة أنّ هذه هي إرادة الله. فرقي إلى درجة الكهنوت ثم الاسقفية سنة ٣٧٤م فشرّف الاسقفية بغيرته على الايمان القويم ومناصبته كل من يخالفه أو يتقاعد عن اتمام فروضه، وعقد مجعماً في اكويليا حرّم فيه الاروسيين وعزمت الملكة يوستينا (التي كانت تدافع عن الاروسيين) أن تكرهه على تسليم كنيسة في مديولان إليهم، وهدّته بالقتل إن لم يذعن لها، ترغّب، فقاومها بشجاعة واستمال إليه من أرسلتهم للقبض عليه. وقد رأيت (في الكلام على توادوسيوس الملك) كيف أجبره على عمل التوبة المشتهرة كفارة عن قتل أهل سالونيك بأمره. وقد ردّ القديس اغوستينس إلى الايمان وعمّده. فقد قال فيه اغوستينس (ك ١ ضد يوليانس فصل ٣) «من أعده أياً لي لأنه ولدني ليسوع المسيح بالانجيل ونلت من يده صبغة المولد الثاني، أعني الطوباوي امبروسيوس من سيرت بنفسي جهاده وثباته واتعابه بخطبه وأعماله واقتحامه المخاطر من أجل الايمان الكاثوليكي. وكل هذا يشهد له به معي العالم الروماني بكامله». وقد أدركت الوفاة امبروسيوس سنة ٣٩٧م والكنيسة اللاتينية تعيّد له في ٧ كانون الاول.

وقد ألّف كثيراً من الكتب أشهرها كتابان في الايمان، اقترحهما عليه الملك غراسيان عند مضيه إلى المشرق ليحجّ بتعليمه الهرطقة والمخالفين. وثلاثة كتب في البتولات جمع فيها خطبه في شأنهنّ اقترحتها عليه أخته مرسلين البتول. وكتاب في الارامل حمله على تأليفه زيجة ارملة كان يحزّضها على التأسّي لوفاة رجلها فتزوّجت ولها بنات مزوجات. ثم صنّف مقالة في التبتل ردّاً على من كان يخطئه بإغرائه البنات بحفظ عفافهنّ ويمنع من نذرت العفّة عن الزواج. وزاد بعد ذلك على كتابيه في الايمان ثلاثة كتب أخرى تكملة لرده كل مدعيات الاريوسيين. وله كتاب في الاسرار يظنّ أنه ألّفه عند تعميده القديس اغوستينس وصديقه اليبوس وابنه ٣٨٧. وقد وجد له الكردينال ماي شرحاً لقانون الايمان ألّفه لارشاد المتنصّرين حديثاً. ورسالة إلى القديس ايرونيوس في الايمان كتبها إليه وهو في بيت لحم، إذ يذكره فيها بما كان عنده في بيت لحم من آيات سرّ التجسّد، وتعزى إليه كتب أخرى عديدة أثبت نطاليس اسكندر (فصل ٦ جزء ٢٧ في تاريخ القرن الرابع) أنّ بعضها ليست له حقيقة وبعضها يمتري في صحة نسبتها إليه.

القديس ايرونيوس

هو أشهر آباء الكنيسة اللاتينية وُلد في دلماسيا أو في انغريه (الحجر) من والدين غنيين سنة ٣٣١م، وتعلّم في روما لدوناتس، وسافر مرات إلى افرنسا وآسيا والاماكن المقدّسة، وراقه بولينس بطريرك انطاكية إلى درجة الكهنوت. وعند عوده من المشرق إلى روما سنة ٣٨٢م اتخذ البابا داماسس معاوناً له في أعماله، وعهد إليه أن يترجم الاسفار المقدّسة وأن يفسرها للشعب. وبعد أن لحق البابا داماسس بأسلافه، أثر العزلة في دير بيت لحم فطرده الهرطقة منه، ولقي ربه بعيد ذلك سنة ٤٣٠م وعمره تسع وثمانون أو تسعون سنة.

وأما تأليفه فليس أولى في تعدادها من انتحال كلامه في خاتمة كتابه في مشاهير المؤلفين قال: «أنا ايرونيوس اوسايوس ايرونيوس» بن اوسايوس وُلدت في قرية ستريدون المتاخمة دلماسيا وانغريه والتي دمرها الغلط، وكتبت إلى السنة الحاضرة وهي الرابعة عشرة لملك توادوسيوس الملك (توافق سنة ٣٩٢م) ما يأتي

ترجمة بولس الراهب، وكتاباً مشتملاً على رسائل لكثيرين، ورسالة تحريض لهيلودور (هي من جملة رسائله المذكورة وأفردها بالذكر لأنها بمنزلة مقالة في مديح السيرة الرهبانية)، ومحاورة بين اتباع لوشيفورس الاراتيكي والكاثوليكين وكرونيكون أي تاريخاً سنوياً (يريد به ترجمة كرونيكون اوسايوس من اليونانية إلى اللاتينية وبسطه إلى سنة ٣٧٨م) وترجمت من اليونانية إلى اللاتينية ثمانين وعشرين مقالة لاوريجانوس في تفسير نبؤتي ارميا وحزقيال. ورسالتين في الساروفيم واوشعنا (انقذهما إلى البابا داماسس) ورسالة في الابتنى المقتصد والمبذر (الشاطر المذكورين في الانجيل) ورسالة (إلى داماسس البابا) في ثلاثة مباحث في الشريعة القديمة، ومقالتين في نشيد الانشاد (قدمهما لداماسس) مترجمتين إلى اللاتينية عن كتب اوريجانوس، ومقالة في أنَّ العذراء استمرت عذراء رداً على البيديوس، ورسالة إلى اسطاكبيوس في لزوم حفظ العقّة. وكتاب رسائل إلى مرشلا (حاوياً ست عشرة رسالة ورسالة تعزية إلى باولا بفقد ابنتها)، وثلاثة كتب في تفسير رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية، وثلاثة كتب في تفسير رسالته إلى أهل افسس، وكتاباً في تفسير رسالته إلى طيطس، وكتاباً في تفسير رسالته إلى فيلومون، وتفسيرات في سفر الجامعة، وكتاباً في المباحث العبرانية في سفر التكوين، وكتاباً في الاماكن العبرانية، وكتاباً في الاسماء العبرانية، وكتاباً في الروح القدس ترجمته إلى اللاتينية عن ديدميس، وتسعاً وثلاثين خطبة في بشارة لوقا، وسبع مقالات في الزبور من المزمور العاشر إلى المزمور السادس عشر، وترجمة ملخص الراهب الاسير، وترجمة ايلاريون الطوباوي، وترجمة العهد الجديد عن اليونانية والعهد القديم عن العبرانية (وهذه هي الترجمة المعروفة باللاتينية بالعامية *volgata* التي أثبتتها المجمع التريدينيني) وأما رسائلي إلى باولا واسطاكبيس فلا أعلم عددها إذ تستجد لي كل يوم رسائل إليها. وقد دوت أيضاً كتابين في تفسير نبؤة ميخا، وكتاباً في تفسير نبؤة صفيانيا، وكتاباً في تفسير نبؤة نحوم، وكتابين في تفسير نبؤة حبقوق، وكتاباً في تفسير نبؤة حجاجي. وأنا مشغول في كتابة تفسير نبؤات غير هؤلاء من الانبياء ولم أفرغ منها بعد، وكتبت كتابين رداً على يوفنيانس، وكتاب محاماة إلى باماكبيوس. وذكر في محل آخر كتابه في المؤلفين البيعين معنوناً *de viris illustribus* وهو الذي استشهدنا هنا به في محال عديدة وقد اعتدنا أن نعبر عنه بكتابه في المشاهير.

وكان في هذا القرن غير ما ذكرنا من الاساقفة والعلماء اكتفينا بأن نذكر منهم هؤلاء المشاهير.

الفصل الرابع

المجامع التي عُقدت في سورية في القرن الرابع

عد ٥٨٦

المجامع التي عُقدت في انطاكية

المجمع الاول: زعم بعضهم أنَّ الرسل عقدوا مجمعاً في انطاكية سنة ٥٧م، وعزوا إليه تسعة قوانين قائلين أنهم أخذوها عن كتاب قديم قيل فيه أنَّ القديس بمفيل الشهيد عثر عليه في مكتبة اوريجانوس، على أنَّ العلماء المحققين أنكروا صيرورة هذا المجمع. وأقاموا على انكارهم حججاً راهنة منها أنه لم يرد ذكر لهذا المجمع في كتاب أعمال الرسل، ولا في كتب الآباء الاولين، ولا في الآثار القديمة. ومنها أنَّ في القوانين التسعة التي عزوها إلى هذا المجمع ما هو كاذب ومخالف للحقائق المجمع عليها. وعليه فأول مجمع عُقد في انطاكية إنما كان سنة ٢٥٣م بأمر البابا كرنيليوس لنبد ضلال نوفاسيان في مجمع وقد ذكرناه في عد ٥٥٨ .

المجمعان الثاني والثالث: عُقدا سنة ٢٦٤ أو سنة ٢٦٥م في انطاكية لداعي كبت بولس السميساطي، وقد مرَّ ذكرهما في عد ٥٥٨ أيضاً.

الرابع: واما في القرن الرابع فعُقد في انطاكية مجمع نحو سنة ٣٣٢م دعا إليه بعض الاساقفة الاروسيين ليعزلوا القديس اوسطاتيوس بطريرك هذه المدينة عن كرسيه، وأدخلوا فيه بغياً تتهم القديس بأنه باضعها، واستغنوا بيمينها عن بيته فعزلوه عن كرسيه وسعوا به لدى الملك فنفاه (طالع عد ٥٧٥).

الخامس: قد عُقد مجمع آخر في انطاكية سنة ٣٣٩م تداعى إليه الاساقفة الاروسيون لتأييد مذهبهم، وأقاموا فيه بستس الكاهن (الذي كان القديس اسكندر بطريرك الاسكندرية طرده من الكنيسة لأنه اريوسي) بطريركاً على الاسكندرية بدلاً

من القديس اثناسيوس فقاومهم الاساقفة الكاثوليكيون ونبذوا بستس وحرموه، فلم يتمكن من أن يلي البطريركية (روى ذلك القديس اثناسيوس في المدافعة عن نفسه وفي رسالته العامة إلى الاساقفة).

السادس: تألب في انطاكية مجمع آخر سنة ٣٤١م دعا إليه الملك قسطنس ابن الملك قسطنطين الكبير لتدشين الكنيسة التي كان أبوه قد أخذ بينها. وشهده تسعون أو سبعة وتسعون أسقفاً أكثرهم كاثوليكون، وقد اظهر فيه الاساقفة الاريسويون أنهم بمعزل عن اريوس وضلاله. وأنشأوا دستوراً للايمان يتحمل معنى المعتقد الكاثوليكي، وإن لم يطرحوا فيه بمساواة الابن للآب جوهرأ معتمدين خدعة الاساقفة الكاثوليكين ليوافقوهم على عزل القديس اثناسيوس من الكرسي الاسكندري. وبعد تهذيب ذلك الدستور وإيجازه، وقّع عليه آباء المجمع بالاتفاق ووضعوا خمسة وعشرين قانوناً مثبتة في كتب القوانين. وعزا بعضهم هذه القوانين إلى مجمع انطاكية الذي التأم سنة ٣٣٢م والاطهر أنها وضعت في هذا المجمع كما أثبت العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية). وبعد أن انصرف الاساقفة الكاثوليكون أو أكثرهم وبقي في انطاكية الاساقفة الاريسويون مع الملك قسطنس الذي كان يجنح إليهم، أخذوا يتداولون في مسألة القديس اثناسيوس، ولما كانوا شاكين وقضاة معاً أوردوا عليه التهم التي كانوا تجنّوا بها عليه قبلاً، وحرفوا قانونين من القوانين التي كانوا وضعوها، حتى جعلوا معناها أنه إذا عُزل أسقف في مجمع ولو ظلماً فلا يسوغ له العود لكرسيه إلا بأمر مجمع آخر، وخصّصوا ذلك بالقديس اثناسيوس، وقضوا عليه بالخطّ عن كرسيه ونفيه وصمّوا أن يقيموا بدلاً منه اوسابيوس الحمصي، ولما تمتّع من ذلك اختاروا غريغوريوس الكبادوكي كما مرّ (في الكلام على القديس اثناسيوس). وبعضهم يجعل اجتماع هؤلاء الاساقفة الاريسويين مجعماً مستقلاً عن الاول كان في سنة ٣٤١ أو سنة ٣٤٢م.

السابع: عُقد في انطاكية مجمع آخر على رواية منسى، تألب فيه الاساقفة الاريسويون نادمين على انشائهم دستور الايمان الذي وضعوه قبلاً، تملقاً للاساقفة الكاثوليكين. فأنشأوا دستوراً حديثاً لم يدخلوه إلا ما وافق غرضهم من كلمات الاسفار المقدسة، ونفوا عن الابن كلمة مساوٍ للآب جوهرأ، وحكموا على مرسل أسقف انكورة بالعزل عن كرسيه متهمين له باتباع بدعة سايليوس لتعليمه أن الاقانيم الثلاثة في الله متساوون ذاتاً وجوهرأ كما روى سرزومانوس (ك ٣ فصل ١١).

الثامن: قد عُقد سنة ٣٤٨ أو سنة ٣٤٥ م على رواية منسي مجمع آخر في انطاكية، فإن قسطنط الملك أراد تنفيذ الحكم الذي أبرمه مجمع سرديكا (صوفيا) فأرسل إلى أخيه قسطنس ملك المشرق فנסان أسقف كابو وافرانتاس أسقف كولونيا، وكان قسطنس في انطاكية وكان اسطفانوس بطريرك انطاكية قد عزله مجمع سرديكا عن كرسيه، فرشا اوناجر أحد رؤساء الجند وأدخل بغياً إلى مخدع الاسقف اوفرانتاس ليلاً واتهمه بالفحشاء، ولدى فحص الملك عن الحقيقة ظهر من اقرار اوناجر والمرأة أنّ البطريرك هو المتسبب بهذه الفظيعة (كما مرّ في عد ٥٧٥) فاجتمع الاساقفة في انطاكية فحرموا اسطفانوس وعزلوه. فهذا الاجتماع سماه منسي مجمعاً انطاكياً.

التاسع: اجتمع في سنة ٣٥٤ م ثلاثون أسقفاً من الارويسيين في انطاكية وحكموا على القديس اثناسيوس مرة أخرى بالعزل.

العاشر: عقد اودكسيوس الدخيل على بطريركية انطاكية مجمعاً فيها سنة ٣٥٨ م، وعلى رواية منسي سنة ٣٥٦ م شاهده الاساقفة الارويسيون المشايعون له، وأعلنوا قبولهم لدستور الايمان الذي أنشأوه في سيرميوس (مدينة في المجر دُمرت في القرن السادس ولم يجدد بناؤها)، وكان من هؤلاء الاساقفة اكاشيوس أسقف قيصرية واورانيوس أسقف صور.

الحادي عشر: استدعى الملك قسطنس سنة ٣٦١ م بعد عوده من حرب الفرس إلى انطاكية الاساقفة لعقد مجمع فيها تأييداً لمذهب الارويسيين، فلما تألب الاساقفة وكان كرسي انطاكية فارغاً من بطريرك، سألوه أن يرخص لهم بأن يهتموا باقامة بطريرك لهذا الكرسي قبل الدخول في مباحث الدين. وكان الانقسام الديني في هذه المدينة أمسى داءً مزمناً. وكان الفريق الكاثوليكي ينتخب بطريركاً، والفريق الارويسيين يقيم غيره. فأجمع الفريقان هذه المرة على انتخاب ملاتيوس، فالارويسيون كانوا يظنونونه مشايعاً لهم، والكاثوليكون كانوا يوقنون أنه صحيح الايمان غيور على حفظه (طالع ما قلناه في هذا البطريرك في عد ٥٧٣)، وجاهر بمعتقده في أول خطبة ألقاها بحضرة الملك. فامتعض الارويسيون منه وشكوه أمامه بأنه مغوي بغواية سايليوس منكر لسرّ الثالوث الاقدس. وكان قسطنس سريع التقلب عجولاً، فلم يمض ثلاثون يوماً إلّا وطرده من انطاكية، وأقام الارويسيون مكانه اوزويوس تلميذ

اريوس وقرينه في حرمه، فتسّمرت نار الخصام وانقضى هذا الجمع ولا وفاق بين الاساقفة. على أنّ الاساقفة الاربوسيين عادوا إلى الاجتماع ثانية في هذه المدينة في أواخر سنة ٣٦١م نفسها، وفي مقدمتهم اوزويوس البطريك الحديث. فغيّروا دستور الايمان وحذفوا منه أيضاً كلمة مشابه للآب موصوفاً بها الابن. وكانوا قد اصطلحوا عليها في دستور سابق، وجأهروا في هذا الجمع بتشبههم بتعليم اريوس حتى زعموا أنّ الابن خلقه الله من العدم، ولذا سماهم الكاثوليكيون عديمين.

الثاني عشر: اجتمع في انطاكية سنة ٣٦٢م تسعة أساقفة من تباع مكدونيوس الذي أنكر أنّ الروح القدس إله. وكان اوزويوس البطريك الانطاكي من المشايخين لهم، فنبذوا الرسائل التي أنفذها أساقفة المغرب إلى أساقفة المشرق.

الثالث عشر: اجتمع في انطاكية سنة ٣٦٣م سبعة وعشرون أسقفًا كان منهم ملاتيوس البطريك الانطاكي بعد عودته من منفاه، والقديس اوسابيوس السميساطي، والقديس بيلاجيوس أسقف اللاذقية (بسورية)، واناطول أسقف حلب، وطيطس أسقف بصرى في حوران، وايرانيوس أسقف غزة. وكان الاساقفة المكدونيون قد رفعوا عريضة إلى الملك يوفيان ليستميلوه إليهم، فأجابهم أنه يمقت الخصام أشدّ المقت، ويؤدّ مَنْ يبدلون وسعهم في طريق الاتحاد والوفاق، وأنه يؤثر الاعتقاد بمساواة الابن للآب جوهرًا على كل معتقد غيره. وكان اكاشيوس أسقف قيصريّة فلسطين ينقلب في ايمانه كما تنقلب ارادة الملوك. فما اطلع على جواب الملك يوفيان شافه ملاتيوس وتابعه على القرار بمساواة الابن للآب. وقد بقي لنا من هذا الجمع نسخة من العريضة التي رفعها الاساقفة إلى الملك يوفيان أثبتتها بحروفها كثيرون ممن كتبوا تاريخ الجامع أقرأوا فيها بأنّ دستور الايمان يلزم أن يكون ما سنّه الجمع النيقوي، وأولوا كلمة مساوٍ للآب جوهرًا بمعنى لا يبعد عن أن يكون كاثوليكيًا. ويظنّ أنّ اكاشيوس القيصري وغيره ممن تصدق عليهم ظنة الخلاف لم يوقعوا على هذه العريضة إلا إرضاءً للملك ورغبةً في الازدلاف إليه.

الرابع عشر: وفي سنة ٣٧٩م في شهر تشرين الاول اجتمع في انطاكية الاساقفة الكاثوليكيون الذي كانوا قد عادوا بأمر الملك غراسيان من المنفى إلى كراسيهم كما روى القديس غريغوريوس في رسالته إلى اولمبيوس الراهب، وكان هذا القديس في مجملهم الذي شهدته مدة ستة وأربعين أسقفًا. وكان جلّ

غرضهم إيقاع السلم في الكنيسة ولم شعث أساقفتها في المشرق. وعلى ما كان عليه هذا المجمع من الرونق والانتظام لم يبقَ لنا من آثاره إلا العلم بأنّ الاساقفة الذين اجتمعوا فيه صادقوا على الرسالة الجمعية التي أنفذها إليهم البابا داماسس والاساقفة الغربيون من مجمعهم المنعقد في روما سنة ٣٧٨م حاوية الاعتقاد بسرّ الثالوث الاقدس والاقرار بلاهوت الابن والروح القدس، ونبذ ضلال ابولينار الذي غوى بأنّ المخلص أتى بجسده من السماء.

الخامس عشر: وفي سنة ٣٨٣م وفي رواية سنة ٣٩٠م عقد افلايانس بطريرك انطاكية مجمعاً شهده بعض الاساقفة وثلاثون كاهناً وشماساً حرّم فيه بدعة المصلّين. وقد قسم القديس ايفان المصلّين إلى قدماء وحديثين. فالقدماء كانوا وثنيين يعتقدون وجود آلهة كثيرين ويعبدون واحداً منهم يسمونه القدير على كل شيء. وأما الحديثون فكانوا مسيحيين نشأوا في القرن الرابع، وكانوا يتألبون فرقاً فرقة من رجال ونساء يطوفون الازقة والحقول مترنمين بصلوات، ويعتقدون أنّ كل انسان يرافقه شيطان منذ مولده ويحمله كل وقت على الشرّ ولا تنجيه المعمودية منه بل يُطرد منه بالصلوة. ولذلك يلزم الانسان أن يعكف كلّ حين على الصلاة إلى غير ذلك من الترهات، ويضاف إلى هذه المجمع مجمع عقده بعض أساقفة بطريركية انطاكية فيها سنة ٣٨٨ أو سنة ٣٨٩م بداعي قتل الوثنيين القديس مرسل أسقف اباميا عند صدور أمر الملك توادوسيوس بنقض هياكل الاصنام وتدمير مرسل هياكل اباميا وغيره من هياكل الاوثان، وقد كان بنوه أرادوا أن يثأروا بدمه منهم فأبأ هذا المجمع نهوا في مجمعهم المؤمنين عن الانتقام من الوثنيين. انتهى ملخصاً عن معجم المجمع لبلتيا في طبعة الأب مين.

عد ٥٨٧

المجامع التي كانت في اورشليم

إنّ أول مجمع عُقد في هذه المدينة إنما هو المجمع الذي عقده الرسل سنة ٥١م ورأسه القديس بطرس زعيمهم. وقد استوفينا الكلام فيه عند كلامنا في الرسل وقد حسب بعضهم اجتماع الرسل سنة ٣٣ لانتخاب خلف ليهوذا الاسخريوطي مجمعاً أولاً اورشليمياً. واجتماعهم لانتخابهم الشمامسة السبعة مجمعاً ثانياً، واجتماعهم

الذي نوهنا به مجمعاً ثالثاً، والمجمع الرابع هو المعروف بالمجمع الفلسطيني الذي عُقد سنة ١٩٦ أو سنة ١٩٧م في قيصرية فلسطين على الاظهر. ولكن نسبه بعض كاتبي تواريخ المجمع إلى أورشليم، وحكم الاساقفة الذين اجتمعوا فيه لزوم متابعة الخبر الروماني على تعييد عيد القيامة في يوم الاحد الواقع بعد الرابعة عشرة من بدر نيسان.

والمجمع الخامس: عُقد في ١٣ من أيلول سنة ٣٣٥م، فإنَّ الملك قسطنطين استدعى الاساقفة من كل صقع لتكريس كنيسة القبر المقدس التي أنشأها في أورشليم. فأتى إلى هذا المجمع الاساقفة الارويسون الذين كانوا قد عزلوا القديس اثناسيوس في مجمع صور. ولما رأوا كثيرين من الاساقفة على شاكلتهم، انتهزوا هذه الفرصة واجتمعوا بعد تكريس الكنيسة، وقضوا بقبول آريوس في شركة الكنيسة وكان آريوس أعيد من منفاه ولكنه ما برح موثقاً بالحرم الذي أوثق به بطريرك الاسكندرية، وأنزله به مجمع نيقية. وأنفذ هؤلاء الاساقفة رسالة مجمعية إلى كنيسة الاسكندرية وسائر الكنائس يثبتون حكمهم وينبئون أهل الاسكندرية بعزل القديس اثناسيوس عن كرسيه. وقضوا أيضاً في هذا المجمع بالعزل على مرسل أسقف انكورة لأنه قاومهم في عزل اثناسيوس، ولم يشأ قبول آريوس في شركة المؤمنين. ثم استدعى الملك قسطنطين هؤلاء الاساقفة إلى القسطنطينية ليبرثوا ساحتهم مما أجروه على القديس اثناسيوس، فلم يلبَّ الدعوة إلا خمسة منهم كما مرّ.

والمجمع السادس: عُقد في أورشليم سنة ٣٤٩ أو سنة ٣٥٠م على رواية نطاليس اسكندر أو سنة ٣٤٦م على رواية منسي. والباعث على عقده أنَّ الملك قسطنس كان قد رخص للقديس اثناسيوس بالعود إلى كرسيه ومرّ بأورشليم وسأل مكسيمس بطريركها أن يعقد مجمعاً اقليمياً، فاجتمع ثمة ستة عشر أسقفاً من فلسطين وسورية قضوا ببراءة القديس اثناسيوس وقبلوه في شركتهم، وكتبوا إلى شعب الاسكندرية وأساقفة سورية ومصر يثبون إليهم حكمهم للقديس اثناسيوس، وقد حفظ جواب المصريين على هذه الرسالة وهو مفعم بالعبارات الدالة على ابتهاجهم وسرورهم، والشكر لله على هذه المنّة، وقد وقّع عليه ستة عشر أسقفاً.

والمجمع السابع: عُقد سنة ٣٥٠م وكان الغرض منه على ما روى لآبائي عزل الارويسين القديس مكسيمس وإقامتهم القديس كيرلس مكانه، لظنهم أنَّ القديس

كيرلس مشايح لهم. على أنَّ المعلوم عند عامتهم أنَّ القديس مكسيمس توفي سنة ٣٥٠م وخلفه القديس كيرلس. وقال بعضهم أنَّ مكسيمس عزله الاريوسيون وخلفه القديس كيرلس بانتخاب جرى بحسب دستور الكنيسة. وأقام الاريوسيون أساقفة منهم (طالع ما ذكرناه في عد ٥٧٦) فيظهر أنَّ هذا المجمع كان لتلافي هذه الشؤون.

والمجمع الثامن: عُقد في أورشليم سنة ٣٩٩م دعا إليه يوحنا الثاني بطريرك هذه المدينة الذي كان يدافع عن اوريجنس. وكانت مناقشات بينه وبين القديسين ايفان وايرونيموس في شأن اوريجنس. وترى في كتب القديس ايرونيموس رسالة يوحنا هذا إليه، ويظهر منها أنَّ هذا المجمع أثبت رسالة توافيلس البطريرك الاسكندري التي كتبها في المجمع الذي عقده في السنة المذكورة في اسكندرية في شأن اوريجنس.

عد ٥٨٨

باقي المجمع التي عُقدت في سورية

عُقد في قيصرية فلسطين مجمع سنة ٣٣٤م أمر بالتسامه قسطنطين الملك، للبحث عن صحة الشكاوى الموردة على القديس اثناسيوس، فأبى هذا القديس أن يحضر إليه لتشيع اوسابيوس القيصري لخصائمه، ولأنَّ أكثر الاساقفة الذين أتوا إليه كانوا من الاريوسيين، فلم يتمَّ عقده بل أمر الملك أن يجتمع الاساقفة في صور فاجتمعوا فيها سنة ٣٣٥م في شهر آب. وكانوا من سورية وآسيا ومكدونية ومن مصر وليبيا حتى كان عديدهم ستين أسقفاً عدا أساقفة مصر. وتمتَّع القديس اثناسيوس أن يأتي إليه أولاً لأنه رأى السواد الاعظم من المجتمعين اريوسيين أو ممن يمالئوهم، وخاف أن يغيروا شيئاً مما قضى به المجمع النيقوي. وكان في مقدمة هؤلاء اوسابيوس أسقف قيصرية، واوسابيوس أسقف نكومدية، وفلاشيل البطريرك الانطاكي. فأرسل الملك يهدد القديس اثناسيوس إن لم يأت إلى المجمع، فأثنى ومعه تسعة وأربعون أسقفاً من مصر وليبيا حتى صار عدداً لاساقفة مئة وتسعة أساقفة، وكان أكثرهم اريوسيين، وكان في مقدمة الاساقفة الكاثوليكين عدا القديس اثناسيوس مكسيمس البطريرك الأورشليمي، ومرسل أسقف انكورا، واكلياس أسقف غزة. فأورد الاساقفة الاريوسيون على القديس اثناسيوس كثيراً من التهم أهمها ما

ذكرناه في ترجمته فافتضح كذبتها. وأرسلوا ستة أساقفة ممن قبحت سيرتهم وساءت سريرتهم ليفحصوا في الاسكندرية ومصر عن غيرها من الوشايات. ورأى مفوض الملك أن حياة القديس اثناسيوس يحف بها الخطر من قبل مكائد خصمائه، فأرسله ليلاً إلى الاسكندرية في سفينة سار بها القديس توّاً إلى القسطنطينية ليرفع أمره إلى الملك. وعاد من مصر الاساقفة الفاحصون وعلى ما حوى ما لفقوه عليه من الوهانة والزيف.

قضى الاساقفة الاربوسيون عليه بالخطّ عن مقامه وبحظره عن البقاء في الاسكندرية تفادياً من الشغب والقلق في الشعب، وكتبوا إلى الملك أن يأمر بنفيه، وأنفذوا رسائل إلى جميع الاساقفة أن لا يقبله أحدهم في شركته. وأبى الاساقفة الكاثوليكيون التوقيع على الحكم وهذه الرسائل، لكنهم كانوا أقلّ عدداً. ثم أمر الملك أن يحضر إليه جميع الاساقفة الذين قضوا على القديس اثناسيوس فلم يلبّ دعوته إلا خمسة منهم، ومع ذلك نفاه الملك تحوطاً (طالع ترجمته).

الفصل الخامس

أشهر الكنائس التي أنشئت في سورية في هذا القرن

عد ٥٨٩

كنيسة القيامة في أورشليم

أنبأنا اوسايوس (ك ٣ فصل ٢٥ وما يليه)، وسقراط في الكتاب الاول من تاريخه (فصل ١٧)، وسوزومانوس في الكتاب الثاني من تاريخه (فصل ١)، وتوادوريطوس في الكتاب الاول من تاريخه (فصل ١٧). وكان اوسايوس معاصراً لقسطنطين ومن ندمائه، وسقراط وتوادوريطوس وُلدا في أواخر القرن الرابع، وسوزومانوس في بدء القرن الخامس، فكان هؤلاء الثلاثة في عهد قريب مما روه وثقة يتيسر لهم أخذ الخبر عن المعاصرين. وقد اتفقت رواياتهم معنى وقلما اختلفت

لفظاً، وهاك ملخص ما أنبأونا به: «إن هيلانة والدة الملك قسطنطين شخصت إلى أورشليم رغبة في التعبد، وقد ناهزت الثمانين من عمرها، وكانت أورشليم خربة بحسب نبوءات الأنبياء، وكان الوثنيون قد أقاموا في الجلجلة هيكلاً للمشتري، وتمثالاً للزهرة ليمتنع المسيحيون من اداء فروض تعبدهم هناك خشية أن يُظنّ أنهم يكرمون الزهرة بسجودهم. فلما بلغت الملكة المدينة المقدسة انتقت محل الجلجلة بنقضها أرجاس الوثنيين، وأخذت تنقب آملة أن تعثر على الخشبة التي عُلق الخُصص عليها، فحالت دون مرامها مصاعب، ولكن ما شاء الله كان مفعولاً فقد أداها جدّها وصلوات القديس مكاريوس بطريك أورشليم حينئذٍ إلى الاهتداء إلى مغارة وجدت بها ثلاثة صليبان، صليب الخُصص، وصليبي اللصين اللذين صُلبا على يمينه ويساره. وبقي اللبس في أيها هو صليب الخُصص؟ فأخذ مكاريوس يضرع إلى الله ليزيل اللبس ويبيّن بآية أيها هو صليب المسيح. وكانت هناك امرأة شريفة مريضة مرضاً عضالاً يئس الأطباء من برئها منه، وكانت حينئذٍ محتضرة، فوضع مكاريوس الصليب الاول والثاني على رأسها فلم يظهر دليل على ابلالها من دائها، وما وضع الصليب الثالث انتعشت وفتحت عينيها وعاودتها العافية في محضر البطريك والملكة وجمهور من الناس، فمجد جميعهم الله مدهوشين شاكرين. ووجدت الملكة هناك الدف الذي علّقه ييلاطس على أعلى صليب الخُصص مكتوباً عليه باللاتينية واليونانية والعبرانية يسوع الناصري ملك اليهود. والمسامير التي سُمرت فيها يده ورجلاه. ووضعت جزءاً من الصليب في صوان من فضة تركته في أورشليم ليكرمه الزائرون، وأرسلت الجزء الآخر إلى ابنها قسطنطين فوضعه في تمثاله الذي أقامه على عمود من رخام في الشارع المسمى شارع قسطنطين. قال سقراط الذي كان عائشاً في القسطنطينية أنّ أكثر سكان هذه المدينة يؤكدون صحة هذا الخبر. وصاغ قسطنطين من أحد المسامير حكمة لجواده كان يستعملها ابان الحرب.

وقد كتب حينئذٍ الملك قسطنطين إلى القديس مكاريوس بطريك أورشليم رسالة أثبتتها بحروفها توادوريطوس في تاريخه (ك ١ فصل ١٦) نلخصها هنا. قال: «أشكر الله على الآيات التي صنعها باهدائه إلى صليبه الذي كان مخفياً تحت التراب منذ سنين متطاولة، وقد انتقم لعبيده باهلاك العدو لجميعهم وخولهم الحرية في مباشرة فروض دينهم. فتلك نعمة لو اجتمع حكماء المعمور بأسره في محل واحد وأجهدوا قرائعهم زماناً طويلاً لما وفوا جزءاً من حق اداء الشكر عليها. فإنها

تفوق مدارك البشر فوق الامور السماوية للأمور البشرية. ولذلك طالما فكرت في أنه كما أنّ الله يؤيد الايمان الصحيح بآيات متواترة، فكذلك يلزمنا أن نجد في رعاية سنته المقدسة والعمل بفروضه باتفاق وبهجة. وأراني ملتزماً أن أبذل قصارى عنايتي في اجلال المحل المقدس الذي جرى منه ينبوع خلاصنا. وقد كان بسماح الله علته أقدار الوثنية، وعليه فيجدر بحكمكم أن تبذل كل ما في الوسع لإعداد كل ما يكون لازماً لإنشاء كنيسة ملكية تفوق بجمالها واتقانها وزخرفتها على كل ما بُني من المعابد في المعمور اليوم، وتكون أبدع كنيسة تُبنى في المدن. ومأمولنا من قداستكم أن تبين لنا بعد محادثة من كانوا أهلاً لهذه الأمور كيف يلزم أن تكون الجدران والاعمدة، وما هو الرخام اللازم، ومن أين يُستأى أجوده، وعلى أية هيئة تُبنى الكنيسة، وكم يلزم من الذهب لزخرفتها. فإنّ هذا المعبد يقتضي أن لا يكون في العالم أبدع منه. فاسرع في تعريفنا كل ما ذكر وأدامك الله سالماً أيها الأخ الأعزّ.

وقد عهد قسطنطين بالنظارة على العمل إلى دريشليانس الوالي وبإدارة الفعلة إلى كاهن من القسطنطينية اسمه اوستاط. وبُدئ في البناء سنة ٣٢٦م وأنجز في سنة ٣٣٥م وقد خلف لنا اوسابيوس (في ك ٣ في ترجمة قسطنطين فصل ٣٤ وما يليه) بيان هيئة هذه الكنيسة وملخصه أنه كان أمامها رواق قائم على أعمدة وتليه عرصة فسيحة، والكنيسة ذات خمس حنايا، ومدخلها من جهة المشرق لاقتضاء المحل، ذلك وفي وسطها قبة مستديرة مخيمة على قبر المخلص وتحت الحنية الجنوبية الجبلية حيث رُكز الصليب، وتحت العرصة معبد تحت الأرض في محل المغارة حيث وُجدت خشبة الصليب. وكل ذلك متقن بغريب الصناعة مزدان بأثمن المعادن وبأفخر الرخام وأندرته. والقبر في وسط الكنيسة محلي بأثمن الحلي. وأنبأنا القديس كيرلس بطريرك أورشليم (تعليم ١٤) الذي كان في ذلك القرن أنّ القبر كان منقوراً في صخر وعلى مدخله رواق اقتضى تزوين المحل نقضه كما اقتضى بناء المعبد على الجبلية تمهيد الصخر المبني المعبد عليه. وقد كرسّت هذه الكنيسة سنة ٣٣٥م واستدعى قسطنطين لتكريسها الاساقفة من كل صوب، فشهد هذه الحفلات جم غفير منهم وألوف من الكهنة وربوات من الناس. ويجدر بنا أن نستقري تاريخ هذه الكنيسة إلى اليوم. إنّ هذه الدرّة اليتيمة في عقد جيد النصرانية سحقته ومحقتها يد حدثان الزمان سنة ٦١٥م فإنّ كسرى الثاني ملك الفرس حمل على أورشليم بجحفل جرار تلك السنة فافتتحها، وانتهبها، وأحرقها، ودمّر

كنيستها، وأخذ ما كان فيها من خشبة الصليب. على أنَّ كسرى اغتاله ابنه بعد عودته من أورشليم واستظهر هرقل ملك قسطنطينية على ابن كسرى، وأرغمه أن يرّد عليه تلك الذخيرة بل الكنز الروحي الثمين، فأعاده باحتفاء عظيم إلى أورشليم في الرابع عشر من ايلول سنة ٦٢٩م، وأقامه في الكنيسة التي كان مودست مؤسس الدير المعروف بدير توادوسيوس قد جدد بناءها. وصير مودست بعداً بطريكاً على أورشليم. على أنَّ هذا الراهب لم يكن له غنى قسطنطين ولا وسائله لاغناء الكنيسة وتحليلتها فلم يستطع أن يردها إلى رونقها وعظمتها السالفة بل اقتصر على أن يبني هناك أربع كنائس صغيرة احداها في جانب الاخرى يجمعها سور وبينها عرصة مبلّطة بالرخام. وأولاهها كنيسة القيامة وفيها القبر المقدّس. والثانية كنيسة الجلجلة مبنية على محل الصليب. والثالثة كنيسة خشبة الصليب أي حيث وُجدت هذه الخشبة الكريمة. وكان يسميها الحجاج غالباً مرتبريون أي الشهادة على آلام المخلّص وموته. والرابعة كنيسة العذراء لم يعيّن محلها بتوكيد. ولكن قال دي فكواري أنها كانت مبنية على الصخرة التي دُهن عليها جسد المخلّص بالطيب. ولم تكن جحافل كسرى محقت أسس كنيسة فلسطين بل بقي منها ما استعان به مودست على تجديد بنائها.

وفي سنة ٦٣٧م دخل عمر بن الخطاب المدينة المقدّسة فكان اسمح وأكرم خلقاً من ملك الفرس، فترك النصارى وما يدينون، ولم يتعرّض بسؤ لهم أو لكنائسهم أو مالهم، بل بنى على أطلال هيكل سليمان الجامع المنسوب إليه المعروف بالجامع الأقصى. وفي نحو سنة ٨٠٠م أرسل كيرلس الكبير ملك افرنسة كثيراً من الصدقات إلى أورشليم، وأجزل النفقات على اصلاح الكنائس، وأنشأ نزلاً لمن يحجّ إلى الاماكن المقدّسة من اللاتين، فأرسل إليه الرشيد مفاتيح القبر المقدّس عربوناً لمخالفته له. على أنَّ الكنائس الاربع التي بناها مودست قد دُمرت سنة ١٠١٠م بأمر الحاكم بأمر الله أحد الخلفاء العباسيين في مصر. ولكن في نحو سنة ١٠٤٧ استؤنف بناؤها بأمر الملك قسطنطين التاسع الملقّب بمونوماك. ولما استحوذ النصارى الغرييون في ١٥ تموز سنة ١٠٩٩م على أورشليم، لم يتيسّر لهم في بادئ بدء فتحهم لمضايقتهم بالحروب أن يهتموا بالكنائس. ولما استتبّ لهم الأمر في القرن الثاني عشر جددوا ناء الكنائس وجمعوا ثلاثة من الكنائس (خلا كنيسة العذراء) إلى كنيسة واحدة. وقلّما غيروا شيئاً في كنيسة وجدان خشبة الصليب، فإنّ موقعها تحت الأرض أنجأها من الدمار الذي عا غيرها في القرون السالفة. حتى

يظهر أنَّ أعمدتها البيزنطية بقيت في عصر مودست، فكانت كنيسة القرن الثاني عشر مؤلفة من كنيسة مستديرة مخيَّمة على القبر المقدَّس، ومن ثلاثة معابد صغيرة في جوانبها (على ما روى غوليلمس الصوري في تاريخه ك ٨ فصل ٣).

ولما استحوذ الملك صلاح الدين الأيوبي على أورشليم سنة ١١٨٧م أشار عليه بعض حاشيته على ما روى عماد الدين أن يدمَّر هذه الكنيسة ويجعلها قاعاً صافصفاً كي لا تبقى وسيلة للنصارى ليحتجوا إليها. وخالفهم غيرهم من رجال مشورته مذكِّرين له بما عمله عمر بن الخطاب، وقائلين أنَّ النصارى لا ينفكون عن زيارة الجلجلة وقبر المسيح ولو لحقت الأرض بالسماء. فعفا الملك عن كنيسة القبر المقدَّس، وكان يخدم في هذه الكنيسة أولاً لاتينيون ثم كهنة سوريون إلى أن وهبها البابا غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٠م للربان الفرنسيين. ثم أثبت البابا اكليمنضس السادس سنة ١٣٤٢م حق التولِّي على هذه الكنيسة للربان الفرنسيين. وفي أواخر القرن الخامس عشر نال فيلبس دوك بركونيا الرخصة من ملك مصر باصلاح شيء في هذه الكنيسة. وفي سنة ١٥٥٥م جدد الأب بونيفاس الراكوزي حافظ دير جبل صهيون القبر المقدَّس بتقادم بعض الملوك الكاثوليكين. وفي أوائل القرن السابع عشر صنعت بعض اصلاحات في الكنيسة نفسها. وفي سنة ١٧١٩م أصلح اللاتينيون القبة الكبرى وبعض المعابد برخصة سنية استحصلها لهم المركي بوناس سفير افرنسة في قسطنطينية. وفي سنة ١٨٠٨م في ليلة الثاني عشر من تشرين الاول استعرت بغتة نار في معبد الأرمن، وانتشرت متلظية في ما جاورها فالتهمت القبة وأسقطتها، وتحطمت الاعمدة القائمة عليها، وأضرَّت بغيرها من المعابد. فجددت القبة بعد ذلك تجديداً لم يكن محكماً لأنها سنة ١٨٦٢م تداعت للسقوط. وفي سنة ١٨٦٣م أخذ في تجديد بنائها على نفقة الدولة العلية وفرنسة وروما. وكان الفراغ من تجديدها سنة ١٨٦٨م. انتهى ملخصاً من الكتاب الموسوم بالأرض المقدَّسة للعالم فيكتور كاران.

عد ٥٩٠

كنيسة صعود المخلص في جبل الزيتون

قد روى المؤرخون سقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس الذين ذكرنا أقوالهم في

العدد السالف، أنَّ القديسة هيلانة سكة لم تهتم ببناء كنيسة القبر المقدس بل أنشأت بأمر ابنها الملك قسطنطين كنيسة أخرى في محل صعود المخلص إلى السماء. وكنيسة ثالثة في بيت لحم على مغارة المولد. وقال اوسابيوس القيصري (في كتابه في تقيظ قسطنطين فصل ٩): «لأنَّ الملك اختار ثلاثة أماكن شُرفت بثلاثة أسرار، وجُمِّلها بانشائه فيها ثلاث كنائس فسيحة بديعة. فالأولى أنشأها تكرمه لأول ظهور المخلص في العالم على مغارة المولد في بيت لحم. والثانية تجلَّة لآخر ظهوره في العالم عند صعوده إلى السماء على قمَّة جبل الزيتون. والثالثة ذكراً لجهاده وانتصاره في تخليص العالم بين الكنيستين على الجلجلة والقبر» وقد ذكر الزائر الذي من بوردو (بفرنسة) كنيسة الصعود في رحلته إلى الأماكن المقدسة سنة ٣٣٣م فقال: «وتصعد من هناك إلى جبل الزيتون حيث علَّم المخلص تلاميذه قبل ألامه فهناك أقيم بأمر الملك قسطنطين كنيسة بديعة في جمالها». ولم يصف لنا غير اوسابيوس وزائره من بوردو هذه الكنيسة وهما اقتصرنا من وصفها على قولهما أنها فسيحة وبديعة. على أنَّ القديس ابرونيموس (في كتابه في أسماء الأماكن العبرانية في كلمة جبل الزيتون) أنبأنا بأنَّ هذه الكنيسة كانت مستديرة وأنَّ أثر قدمي المخلص لدى صعوده إلى السماء استمر ظاهراً إلى أيامه. وهاك قوله: «جبل الزيتون في شرقي أورشليم وبينهما وادي قدرون، وهناك يدل على آخر أثر طُبع على الأرض لقدمي المخلص وعلى تقاطر المؤمنين كل يوم إلى هناك قد استمر، ذلك الأثر المبارك على حاله القديمة. وقد بُنيت هناك كنيسة جميلة مستديرة، لكن آثار المخلص في قمَّة الاكمة بقيت مكشوفة».

إنَّ كنيسة قسطنطين هذه قد دُثرها كسرى ملك الفرس سنة ٦١٤م وجدد بناءها الراهب مودست الذي جدد كنيسة القيامة كما مرّ. وقد وصف لنا هذه الكنيسة بعد تجديدها جواله اسمه اركولف طاف في فلسطين سنة ٦٧٠م ووضع كتاباً في رحلته اعتمد عليه الكونت دي فكواي في كتابه في كنائس الأرض المقدسة، فرسم هيئة هذه الكنيسة مفصلة. على أنها نُقِضت بأمر الحاكم بأمر الله في مبادئ القرن الحادي عشر. ثم جددها النصارى الغربيون في القرن الثاني عشر وجعلوها ذات ثماني زوايا، كما يظهر من أسس أعضادها الباقية إلى الآن. وكان فيها رواق من داخل قائم على أعمدة تعلوها قبة مدوّرة. ثم خربت هذه الكنيسة في القرن الثالث عشر. وقد أفضل علينا المسلمون بابقائهم الصخر الذي عليه أثر

قدمي المخلص، بل باحاطته بجدار وجعله معبدًا. ولم يبقَ الآن إلا أثر قدم واحدة وهي اليسرى وأما اليمنى فإما أنها حُطمت أو نُقلت إلى محل آخر.

عد ٥٩١

كنيسة مغارة المولد في بيت لحم

إنّ هذه الكنيسة أيضاً قد بُنيت بأمر الملك قسطنطين كما مرّ في سنة ٣٢٧م إلى سنة ٣٣٣م، وهي ذات خمسة حنايا أيضاً يفصل احداها عن الأخرى صف من الاعمدة، وعلى جدارها صور من الفسيفساء بقي بعضها إلى الآن. وفي أسفلها المغارة التي وُلد المخلص فيها. وفي جوانبها مغاور أخرى تعزى إلى قديسين وقديسات نسكوا فيها. ومنها مغارة القديس ايرونيوس. إنّ بين العلماء خلافاً على ما إذا كان البناء القديم تُقضى واستحدث في مكانه بناء آخر، فقال كثيرون من أهل العلم بفن البناء أنّ الحنايا الموجودة الآن من بقايا الكنيسة القديمة، وأنّ الخورس كان غير كافٍ فنُقض في أيام الملك يوستينيانس الذي ملك من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥م وأقيم مكانه الخورس الحالي. وقال آخرون إنّ الكنيسة القديمة لم يبقَ لها أثر. والكنيسة القائمة الآن أحدثها الملك يوستينيانس إلّا السقف الذي جُدد مرات، وإلّا بعض الجدران الخارجية التي رُمّت مرات أيضاً، وإلّا الفسيفساء الباقي بعضها فإنها لا تتجاوز عصر الافرنج. على أنّ الكونت دي فكواي خالف (في كتابه كنائس الارض المقدسة صفحة ٥٤) القول الاول مبيّناً أنّ تناسب أجزاء الكنيسة وموافقة بعضها لبعض دليل ينفي القول بأنها بُنيت في وقتين مختلفين، وإنّ وجود المغارة التي من أجلها بُنيت الكنيسة في وسط هذه الكنيسة دون خلل يثبت أنّ الخورس الاول لا يختلف عن الخورس القائم الآن. وخطأ دي فكواي أصحاب القول الثاني لوجدانه بناء كنيسة بيت لحم لا ينطبق على هيئة الابنية التي أنشأها يوستينيانس في أماكن أخرى. واختتم كلامه مستنتجاً أنّ هذا البناء من أيام قسطنطين إلّا بعض المرمات فيه والزيادات عليه. وقال العالم كاران (في كتابه الموسوم بالارض المقدسة صفحة ١٦٦) بعد ايراده الاقوال المذكورة. وأما أنا فأجرح إلى متابعة الأب ميشون على قوله أنّ الكنيسة الاولى لم يكن فيها إلّا حنية أو قبة واحدة من جهة الشرق، وأما الحنيتان اللتان في فسحة الكنيسة فزيدتا عليها في أيام يوستينيانس. انتهى ملخصاً عن الكتاب الموسوم بالارض المقدسة لكاران.

كنيسة صور القديمة

قد أنبأنا اوساييوس القيصري أنّ القديس بولينس أسقف صور الذي رقي بعداً إلى كرسي بطريركية انطاكية أنشأ في صور كنيسة فسيحة بديعة تفوق في عظمتها جميع الكنائس التي في فينيقية. وكان اوساييوس في جملة الاساقفة الذين شهدوا تكريسها، وألقى حينئذٍ خطبة بليغة غزاء أثبتتها في الكتاب العاشر من تاريخه (فصل ٤) وصف فيها ما كانت عليه هذه الكنيسة من العظمة والاتقان والزخارف، وأطنب في وصف أعمدتها الرخامية وفساحة عرصاتها وكثرة أروقتها ومئانة جدرانها وجمال داخلها ونفاسة مذابحها وثمين أثاثها. وكان يستلفت أبصار الحضور للاندھاش بكل ما فيها، وقد شبهها بهيكل سليمان بل خصّها بقول النبي: «إنّ مجد هذا البيت يكون أعظم من مجد البيت الاول». وعرض بذكر أخشاب الأرز التي كانت فيها. وقال كاران (في كتابه في الارض المقدسة في كلامه على صور) إنّ موقع هذه الكنيسة كان قريباً من الزاوية الجنوبية الشرقية من السور القائم الآن، ورؤية هذه الكنيسة القديمة تحمل كل ناظر على العجب. ويظهر أنّ بولينس بنى هذه الكنيسة على أنقاض كنيسة كانت قبلها فدمرت بأمر الملك ديكلتيان سنة ٣٠٣م. ولما انبسط الامن والسلم في أيام قسطنطين الكبير أسرع بولينس إلى إنشاء هذه الكنيسة البديعة. وفي القرن الحادي عشر كان أهل صور يدلون على مدفن اوريجانس فيها. ويقال أنّ الملك فريدريك برباروسا (ذا اللحية الحمراء) دُفن فيها سنة ١١٩٠م. وقد نقب الدكتور ساب الالماني سنة ١٨٧٤م بأمر حكومته في أطلال هذه الكنيسة طامعاً أن يكشف عن شيء من رفات هذا الملك، واشترى أرض الأخربة التي هناك من المتأولة، وأخذ يحتفر فيها فكشف عن مدافن عديدة ولكنه وجدها كلها مكسرة من ذي قبل، ولم يعثر على خط أو علامة أخرى دالة على مدفن الملك فريدريك أو على مدفن اوريجانس، بل وجد قطعاً كبيرة من الحجر منحوتة دالة على أسس الكنيسة القديمة، وفي جانبها قطع أصغر منها موزنة بتجديد البناء في أيام النصارى الغربيين، وأعمدة ضخمة من صخرة واحدة من الحجر المحبب وبعض قطع من المحبب الأحمر والسنجاني. ويظهر أنّ هذه الأعمدة كانت في هياكل صور القديمة الوثنية فُنقلت إلى هذه الكنيسة، ويُقدّر أنّ هذه

كنيسة بوليس كانت على هيئة صليب، وأنّ طولها كان خمسة وسبعين متراً وعرضها خمسة وثلاثين متراً.

عد ٥٩٣

كنائس أخرى في سورية في هذا القرن

من الكنائس المشهورة التي أنشئت في سورية في هذا القرن الكنيسة التي شرع الملك قسطنطين في بنائها في انطاكية سنة ٣٣١م، وقد ذكرها القديس ايرونيμος في الكرونيكون في السنة الثانية والعشرين لقسطنطين الملك قائلاً: «بدأ في بناء المعبد في انطاكية الذي يسمونه الذهبي» لكثرة ما كان فيه من الذهب. وقال اوسابيوس (ك ٣ من ترجمة قسطنطين فصل ٥٥) وأقام قسطنطين في انطاكية عاصمة المشرق كنيسة ثلاثم عظمة هذه المدينة باتساعها وزخرفها، وأحاط الكنيسة وما بجوانبها بسور، ورفع جدران الكنيسة إلى علو شاهق جعلها في هيئة مثمنة، وأنشأ حولها غرفاً ومخادع وجمل هذه الكنيسة الملكية بكثير من الذهب والنحاس وغيرهما من المعادن النفيسة. على أنّ هذه الكنيسة لم يُفرغ من بنائها إلا بعد وفاته، واستدعى ابنه قسطنس الاساقفة لتكريسها سنة ٣٤١م، فاجتمع حينئذ في انطاكية تسعون أو سبعة وتسعون أسقفاً، وعُقد حينئذ مجمع انطاكية (طالع ما ذكرناه في مجامع انطاكية).

وقد روى اوسابيوس القيصري في مؤلفه في ترجمة قسطنطين (ك ٣ فصل ٥٨) إنّ الوثنيين كانوا يجتمعون في بعلبك ويطرغون في وحول الفواحش، ويطلق الرجال لنسائهم وبناتهم عنان شهواتهم تكرمة لمعبودهم الزهرة، ففرض الملك قسطنطين رعاية للأدب سنّة نهى بها عن الاجتماع هناك وأبطل تلك العادة السيئة، وبنى كنيسة وأقام فيها أسقفاً وكهنة. وروى ذلك سقراط أيضاً (ك ١ من تاريخه فصل ١٨) وزاد على ذلك أنّ تلك العادة السيئة كانت أفضت بالوثنيين هناك إلى أن يعتدوا نفوسهم شركاء في النساء كما هم شركاء في الماء والكلاء، حتى لم يعد الاولاد غالباً يعرفون أبناء من هم. فاقامة هذه الكنيسة والاساقفة والكهنة وعناية الملك بتنصرهم بدلت حال تلك المدينة. ومثل ذلك ذكر اوسابيوس (ك ٣ فصل ٥٥ في ترجمة قسطنطين) إنّ قسطنطين انتهى إليه أنه يوجد معبد آخر للزهرة لا في مدينة أو شارع بل في وادي في أعالي لبنان يسمى أفقا يجتمع الناس فيه

. كمدرسة يتعلمون فيه الفساد والفحشاء، ويعكفون على ذلك في المعبد نفسه بمنزلة محل معصوم من الشريعة، ولا رئيس ولا ناظر فيه ينهي عن الشر، فأمر بدّكه وتحطيم التماثيل التي كانت فيه ونهى عن الاجتماع هنالك لأية علّة كانت. وروى رنان (في كتبه بعثة سورية صفحة ٣٠٨) إنّ قسطنطين نقل سكان أفقا إلى بعلبك وأنه يُحتمل أن يكون هذا المعبد جده يوليانس الجاحد بعد نقض قسطنطين له، وعاد الوثنيون يجتمعون فيه على عادتهم إلى أن نُقض ثانية في أيام اركادىوس الملك. فإننا نراه قال (في أمر أصدره سنة ٣٩٩م) إذا وُجدت هياكل في البراري فلتنقض دون جنود وضوءاء، فإذا نُقضت لم يبق محل للعبادة الباطلة. فالقول عن هياكل في البراري يصدق في لبنان ولا سيما في أفقا والمشتقة. قال رنان بعد ذلك إنّ سوزومانوس روى (في ك ١ من تاريخه) أنّ الناس كانوا يجتمعون في أفقا إلى أيامه (في القرن الخامس) وكان الكهنة يتمحلون صيرورة معجزات، وهذا يدل أنّ المعبد مجدّد بناؤه في أيام يوليانس، ثم نُقض ثانية وثبت مكانه كنيسة، إما في زمان تواودسيوس عند أمره بنقض هياكل الاصنام، وإما في زمان يوستينيانس الملك. فإنّ اوسابيوس لم يقل أنّ قسطنطين بنى كنيسة في أفقا كما قال أنه بنى كنيسة في بعلبك.

وهذا مثال للزهرة مأخوذ عن تمثال كشف عنه في سورية، وهو الآن في متحف افرنسة ومطابق لما وُصف به مكروب تمثال الزهرة في لبنان.



وأنبأنا اوسابيوس أيضاً (في ك ٣ فصل ٥١ من ترجمة قسطنطين) إنَّ هذا الملك بنى كنيسة في جانب بلوطة ممرا (في جهة الخليل) ذكراً لظهور الله لابراهيم ولوعوده له في هذا المحل، وكتب رسالة إلى مكاريوس بطريرك أورشليم وسائر أساقفة فلسطين أثبتتها اوسابيوس في الكتاب المذكور (فصل ٥٢ وما يليه) يلومهم الملك فيها على اغضائهم على أن يبنى الوثنيون مذبحاً وقيمون أصناماً ويجتمعون لاقتراف المعاصي في هذا المحل الذي تقدس بتجلي الله فيه لابراهيم مرات كثيرة. ويأمر والي فلسطين أن يدك المذبح دكاً ويحرق الاصنام وقيم هناك كنيسة، ويسأل الاساقفة أن ينبئوه إذا حصل تقاعس عما أمر به أو خلاف له، ليذيق المخالف شديد العقاب. وروى ذلك سقراط أيضاً (ك ١ من تاريخه فصل ١٨) وذكره سوزومانوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٤) بأكثر إسهاب قائلاً ما ملخصه: «إنه كان يقام هناك سوق تقاطر الناس إليه من فلسطين وفينيقية والعربية للبيع والشراء، وكل من المجتمعين يجلس هذا المحل ويؤدي فيه عواطف عبادته على اختلاف مذاهبهم. فاليهود لاعتقادهم أنَّ الله تجلّى في المحل لابراهيم أبيهم، والوثنيون لقولهم أنَّ الملائكة أو الآلهة ظهروا في هذا المحل، والنصارى لتيقنهم أنَّ من ظهر لابراهيم في هذا المحل كان رمزاً إلى كلمة الله الذي تجسّد في حشاء العذراء، وكان كل فريق يقدّم ذبائح هناك تجلّة للمحل أو خشية الانتقام منه. ويؤدي كثيرون أنواعاً عديدة من الاعتقادات الفاسدة، وكانت النساء يتبهجن ويخطرُن بين القوم بأفخر الزينة والحلى. وقد حدث أنَّ حماة قسطنطين (أو أمه) حجّت إلى هذا المحل ورأت ما يكون فيه العثار، فأنفذت رسالة إلى قسطنطين الملك تنبئه بما رأت، فأمر بما ذكره اوسابيوس وبناء كنيسة في هذا المحل.

ولما أمر الملك توادوسيوس بدك معابد الاصنام في سورية كما مرّ قد تحولت معابد كثيرة إلى كنائس. ويُظن أنه في هذه الحقبة حوّل معبد بزيزا (بيت عزيزا) في كورة طرابلس إلى كنيسة بقي شيء من آثارها إلى اليوم. ومعبد المشتري الذي كان عند عين الحلوة في جهة عمشيت إلى كنيسة على اسم القديس جيورجيوس، وعلى مقربة منه كنيسة القديسة صوفيا وبنتها. وكشف العالم رنان هناك عن خط كُتب على مدفن من بنى المذبح للمشتري في هذا المحل. وكذا يُظن أنَّ كنيسة بلاط (بيلاد جبيل) محوالة عن هيكل للمشتري العظيم، ومثلها كنيسة حبوبة وادة (جبيل) حيث كان معبد لأدونيس. رواه رنان في بعثة فينيقية، وكاران ني الأرض المقدسة (صفحة ٩٨).

وذكر دي فكواي (في الخطوط السامية في سورية الوسطى) عدّة كنائس
محوّلة عن معابد اللاوثان أو قلاع في هذا القرن، منها كنيسة نفخة في حوران
(ذكرها في صفحة ٥٧) وكنيسة قنوات حوّلت عن معبد في القرن الرابع
وأصلحت في القرن الخامس (صفحة ٥٩) وكنيسة خربة حاس في النصف الثاني
من القرن الرابع (صفحة ١٠٠) وكنيسة حاس في القرن الرابع (صفحة ١٠٢).

الفصل السادس

القديسون الذين كانوا في القرن الرابع في سورية من شهداء
ومعترفين

قد ذكرنا كثيرين من القديسين في كلامنا على بطاركة انطاكية وأورشليم
وعلى أساقفة سورية وعلمائها فنذكر الآن من نعرفهم من غير هؤلاء.

عد ٥٩٤

القديس جيورجوس

اختلف في منشأ القديس جيورجوس، فذهب بعضهم إلى أنه وُلد في مدينة
اللدّ في فلسطين، وذهب غيرهم إلى أنه وُلد في الكبادوك. وبعد وفاة والده مضت
به أمه إلى فلسطين حيث كانت لهم أملاك. واتفق أكثرهم على أنه وُلد سنة ٢٨٠
للميلاد وعلى أنّ استشهاده كان في أيام الملك ديوكليان سنة ٣٠٣م، وعلى أنّ
أباه كان من رؤساء الجند في أيام ديوكليان، وأنه ترقى بعد أبيه إلى المناصب في
الجنديّة حتى صار رئيساً على ألف من جنود حرس الملك. وأجمعوا على أنّ
مجاهرته في الدين المسيحي ومدافعته عن المسيحيين بعثا ديوكليان على أن ينزل به

أعذبة أليمة عديدة. ولكن بالغ بعضهم في وصفها حتى جعلوا شيئاً منها في جملة الاقاصيص، وغمضوا حقيقة ترجمته حتى تعمّر القطع بالصحيح منها، ونبذ ما كان فيه مغالاة أو غير صحيح. ولا مراء في معاناته صنوفاً من الاعذبة الاليمة، وفي تقوية الله له على تحملها، إلى أن قُطع رأسه ونال اكليل الشهادة. ويصوّره المصورون بهيئة فارس ويده رمح يطعن به تينياً لينجي ابنة يصورونها في صورته من افتراس التنين لها. ولذلك نوع من الرمز والحجاز لا حقيقة تاريخية، فالتنين فيها كناية عن عبادة الاوثان، والبت كناية عن دافع منهم من المسيحيين وقت الاضطهاد ووقاهم من فساد الوثنية وافتراس تينيتها لهم. أو أنّ ذلك رمز إلى أنه انتصر بجهاده على الشيطان الذي سماه الكتاب تينياً، وقالوا إنّ قتل القديس جيورجيوس للثنين كان في مدينتنا بيروت، وأظن نسبة حصول هذه الآفة في بيروت نشأت عن أنّ سكان هذه المدينة كانوا من أقدم الايام شديدي التبعّد للقديس جيورجيوس.

وقد ذكر ودينكتون (في كتابه في الخطوط اليونانية واللاتينية في سورية) أنّ عبادة القديس جيورجيوس منتشرة كثيراً في سورية عند النصارى والمسلمين أيضاً الذين يسمونه الخضر. وإنه عُثر على خط يوناني نُقش على باب كنيسة على اسمه في صهوة الخضر (بحوران) وهو الخط ١٩٨١ بين خطوطه وفحواه: «إنّ باني هذا المعبد يتضرّع إلى القديس جيورجيوس أن يتقبّل تقدمته ويسعفه بصلواته ويشفع براحة نفس أخيه كوميس». وإنّ المسلمين والنصارى يحجّون إلى هذا المعبد من أقدم الدهر. وإنّ هذا القديس استشهد في أيام ديوكليان الملك في اللدّ على الراجح. وإنّ الزيادة في التبعّد له شوشت ترجمته، وأنه وجد خطوطاً كثيرة دالة على عبادته منها الخطوط: ٢٠٣٨ و ٢٠٩٢ و ٢١٤٦ و ٢١٥٨، وإنّ ذخائره نُقلت إلى كنيسة مبنية على اسمه في اللجا كما يظهر من الخط ٢٤٩٨ الذي كُتب فيه: «إنه في سنة ٤١٠ لتاريخ بصرى (توافق سنة ٥١٥ للميلاد) ظهر القديس جيورجيوس بيوحنا بن ديومادا أحد وجهاء زروا ظهوراً حقيقياً لا بالحلم وأمره بوضع ذخيرته في الكنيسة. وقد اتصلت عبادة القديس جيورجيوس من المشرق إلى المغرب ولا سيما إلى روسيا وانكلترا، وجعل الروسيون القديس جيورجيوس وتينيه شعاراً لهم، واتخذوه الانكليز والجنوبيون شفيعاً لهم.

القديسان سرجيوس وبكخس

روى ودينكتون في شرح الخط ١٩١٥ من خطوطه أنّ سرجيوس كان من رصافة بين تدمر والفرات، وبكخس من بربليس في سورية الكوماجانية، وأنهما نالا اكليل الشهادة في أيام كالر مكسيميان، وأنه يعيد لهما في جميع كتب تراجم القديسين في ٧ من تشرين الاول، وإنّ العبادة لهما منتشرة في المشرق منذ القرن الرابع فصاعداً. فسنة ٣٥٤م أقيم لهما معبد في عيتا في البثنية كما يظهر من الخط ٢١٢٤، وأنشيء معبد آخر في اللجا سنة ٥١٧م كما يظهر من الخط ٢٤٧٧، وآخر في حوران كما يظهر من الخط ٢٤١٢. وقد بنى لهما يوستينيانس كنيسة في القسطنطينية ذكرها بروكوب (في ك ٤ في الابنية) وكنيسة أخرى في عكا على اسم سرجيوس (ك ٥).

والمؤكد من تاريخهما أنهما كانا من فرسان الجيش الروماني في أيام الملك مكسيميان، وعرف هذا الملك أنهما مسيحيان، وسألهما عن ذلك فجأها بمعتقدهما فتملقهما ثم هددهما ليجحدا ويقربا الذبائح للاوثان، فلم يذعنا فعزلهما من منصبيهما وألبسهما ثياب النساء وطوفهما في شوارع المدينة فلم يشثيا عن عزمهما، فأرسلهما الملك إلى انطيوخس والي المشرق حيثئذٍ أمراً اياه أن يعذبهما ليكفرا أو يسلهما. وحاول انطيوخس جهده ليجعلهما يقدمان ذبيحة للوثن فلم يذعنا وسخرا منه، فأسلم بكخوس إلى أربعة جلادين وأمرهم أن يجلدوه جلداً مبرحاً، فأماتوه بنثر لحمائه. وأما سرجيوس فأمر أن يلبسوه حذاء وقد رزّوا فيه مسامير حادة واستكدوه جرياً أمام مركبة الوالي، فتهشمت رجلاه لكنّ الله أبرأه من جراحه، ويمس الوالي من حيدانه عن معتقده فأمر بقطع عنقه فتكلل بدمه. والكنيسة الرومانية وكنيستنا المارونية تعيدان لذكر سرجيوس وباخوس في ٧ من ت^١. وفي كتاب تراجم القديسين عندنا أنّ شهادتهما كانت سنة ٣٠٦م وفي روما من أقدم الايام كنيسة على اسم هذين القديسين.

قد دَوّن القديس ايرونيμος ترجمة هذا الكتاب (في المجلد الثاني من تأليفه في طبعة الأب مين) فقال ما ملخصه وُلد ايلاريون في قرية اسمها طباتا أو طبات على نحو من خمسة أميال من غزة غرباً، وكان والداه وثنيين، وقد أرسلاه إلى اسكندرية لاقتباس العلوم فنبغ وذاع خبر ذكائه وحسن سجاياه على حداثة سنّه، وأحبه الناس وأجلّوه فتنصّر، وكان يؤثر التردد إلى الكنائس على ترويح نفسه بالمساهد والملاعب والمتزهات، وسمع بأخبار انطونيوس الكبير فأمه إلى البرية فدهش بسيرته وبذل زيّه وأقام عنده شهرين أو ثلاثة متأملاً بنسكه ومعجباً بفضائله. ثم عاد مع بعض الرهبان إلى موطنه فوجد والديه درجا بالوفاة فدفع إلى اخوته ما خصّهم من الارث، ووزع نصيبه على الفقراء غير مبقٍ لنفسه على شيء. واعتزل في برية يكثر فيها اللصوص غير مبالٍ إلا بمِرْضاة ربه. وعكف على العيشة القشفة والصوم، فكان يطوي النهار كله ولا يقات إلا بقليل بعد مغرب الشمس. وكانت التجارب تطرقه فينتصر عليها قامعاً أمياله متسلحاً على ابليس بالخشوع لله. وأقام أولاً أربع سنين في كوخ يقيه الحرّ والمطر، ثم ابتنى له صومعة علوها خمس أقدام وطولها أكثر قليلاً لتكون أقرب إلى هيئة قبر من هيئة بيت. وقال القديس ايرونيμος أنها كانت باقية إلى أيامه، وكان فراشه من تبن ومأكله في بعض سني نسكه من العدس نقيعاً، وفي بعضها من الخبز اليابس مع الملح والماء، وفي بعضها من الاعشاب. وكان يحفظ الاسفار المقدّسة عن ظهر قلبه ويتلو صلواته كأنه مائل أمام الله. وذكر القديس ايرونيμος كثيراً من الآيات التي أجراها الله على يده، منها أنّ لصوصاً أتوه ليلاً فأضلّهم الله طريقهم حتى لم يهتدوا إليه الليل كله، ولما طلع النهار وجدوه فقالوا أما تخاف اللصوص؟ فقال: لِمَ يخافهم العريان. قالوا أما تخشى أن يقتلوك؟ قال: لا أخشى لأنني مستعد أن أموت. فعجبوا من شجاعته وأقروا له بأنّ الله أعماهم عنه ووعدوه باصلاح سيرتهم. ومن آياته أنّ امرأة شريفة عاقراً جسرت أن تدنو إليه ففرّ منها فقالت لِمَ تهرب من سائلة؟ أنظر إلى بائسة وُلد من جنسها المختّص الذي قال إنّ الأصحاء لا يحتاجون إلى طبيب بل الأعلاء. فسألها عن علّة اتيانها إليه وبكائها فلم تكتمه أمرها، فرفع عينيه إلى السماء وباركها، فززقت بعد ذلك ابناً.

ومنها أيضاً أنّ امرأة البيديوس الذي نصب بعداً رئيساً على الحرس الملكي مضت لزيارة انطونيوس مع زوجها وثلاثة بنين لها، ولما بلغت غرة مرض ابنائها ويثس الأطباء من شفائهم فأمت ايلاريون قائلة له أستحلفك يسوع الجزيل الرأفة، ونشدتك بصليبه ودمه أن تردّ عليّ أبنائي. فقال لم أعتد دخول المدن ولا القرى. فألحت إليه مذرفة الدموع السخية ولم تنصرف إلى أن وعدها أن يأتي إلى بيتها بعد مغرب الشمس، فأتى ودعا باسم يسوع فطفحت أجسام الغلمان بالعرق وانتعشوا وطلبوا القوت وعاودتهم العافية وشكر الجميع الله. إلى كثير غير ذلك من الآيات التي ذكرها ايرونيμος في ترجمته. وكانت بينه وبين القديس انطونيوس مكاتبات، وكان إذا لجأ بعض السوريين إلى انطونيوس قال لهم لِمَ تتجشمون المشقات بالاتيان إليّ وابني ايلاريون عندكم.

وزادت أخبار آياته فتقاطر الناس إليه من كل فجّ، وآمن كثيرون منهم بالمسيح، وسأله كثيرون أن يتخذوا الطريقة الرهبانية تحت تدبيره. قال ايرونيμος ولم تكن أديار في فلسطين ولم يعرف أحد إلى حينئذ راهباً في سورية، فكان ايلاريون مؤسس هذه الطريقة في هذا الاقليم. وكان لله انطونيوس الشيخ في مصر وايلاريون الشاب في فلسطين. وانشأ ايلاريون أدياراً كثيرة وكان يتعهدا ويشجع النساك فيها ويحضّهم على الكمال. ولما كان يجتاز في القرى كان الناس حتى الوثنيون يتراكمون لطلب بركته ويجثون صارخين بلغتهم السريانية «بارخ» أي بارك (هذه بيّنة أخرى على أنّ لغة الشعب في فلسطين كانت سريانية). ولما كثر ازدحام الناس إليه فرّ من وجههم واعتزل تنكباً لمجد العالم. فمضى إلى صقلية فلم تخفّ مدينة مبنية على جبل. وتقاطر الناس إليه وصنع الله على يده معجزات، ثم فرّ إلى روما. ولما عرف هناك بما هو عليه برح المدينة متكرراً وأتى إلى قبرص معتزلاً مخالطة الناس. ومع ذلك صنع الله على يده هناك آيات أخرى. وقد أدركته المنية في هذه الجزيرة ودُفن فيها. وأتى تلميذه هاستكيوس وطلب أن يقيم في البستان الذي دُفن فيه، فسرق جثته المباركة بعد عشرة أشهر من دفنها، ونقلها إلى دير القديس في فلسطين. ولم يكن الفساد عراها ولا طراً عليها ولا على ملابسه تغيّراً. وقد أجرى الله معجزات بشفاعته بعد موته في المحلين أي في قبرص حيث دُفن وفلسطين. انتهى كلام القديس ايرونيμος ملخصاً وموجزاً. وعن غيره من المؤرخين أنّ ايلاريون وُلد سنة ٢٩٢م وكانت وفاته نحو سنة ٣٧٢م

القديس ملخس

قد دَوَّن القديس ايرونيμος أيضاً ترجمة هذا القديس واعتدَّ العلماء كلامه فيها من منتخبات أقواله فصاحة وبلاغة. وقد ترجمها لافنتان إلى الافرنسية نظماً. فكانت من أبدع شعره. قال ايرونيμος أتيت سورية إذ كنت شاباً وأقمت في قرية اسمها مارونية بعيدة عن انطاكية نحو ثلاثين ميلاً شرقاً. قلت. هذا لأبني كيف اتصلت إلي معرفة ما سأكتبه. فكان هناك شيخ اسمه ملخس وتأويل اسمه ملك، وكانت امرأته قد شاخت ودنت من الاجل، وكانا بارين كزكريا واليصابات، ولكن لم يكن لهما يوحنا، فسألتهما أبروح الله كان زواجهما أو بروح العالم؟ فقال لي ملخس: قد وُلدت في نصيبين وكنت وحيداً لوالدي وكان أبي يهددني وأمي تتملقني لأتزوج بغية لحفظ نسلها وأخذ ارثهما، وكنت أجييها أي أؤثر أن أكون راهباً. ولما ألحاً علي بالتزوج هربت من البيت ولم أستطع الفرار نحو المشرق لتوقد الحروب بين الفرس والرومانيين، فسرت إلى كلشيس (وهي قنسرين) بين ايماس (لعلمها حمص) وحلب، فوجدت رهباناً أقمت عندهم طالباً قوتي بعمل يدي، وبعد سنين هاجني الشوق إلى العود إلى وطني لأعزي أُمي على فقد والدي، وبعث ما كنت قنيتة وهو نزر يسير فوهبت شيئاً منه للدير وشيئاً للفقراء، ولا أخجل من أن أقول إنني استبقيت لنفسني شيئاً لأنفقه في سفري، فصاح بي رئيسي هذه تجربة ابليس وهذا عود الكلب إلى قيه. وكان هو ورهبانه يؤنبونني مذكرين لي بأمثلة من الاسفار المقدسة، فلم أذعن لرأيهم لزعمي أنَّ غرضهم نفعهم بمالي لا فائدة نفسي. فسافرت من حلب نحو الرها وكانت الطريق محفوفة بالمخاطر، فلا يجسر أحد أن يسافر منفرداً. وكان صحبنا نحواً من سبعين نفساً، وإذا بكنتية على ظهور الخيل والجمال وثبت علينا فابتزّت أزودتنا وكل ما معنا حتى ملابسنا، واستاقنا هؤلاء إلى أماكن كثيرة ثم اقتسمونا فكنت أنا مع امرأة في نصيب مولى واحد، وبعد أن انتهينا إلى منزل مولانا في أقصى البرية أقامنا في خدمته وخدمة عياله. وتعلمت هناك أن أعيش عرياناً ليس عليّ إلاّ مئزر يستر ما يستحي بكشفه. وأقامني مولاي على رعاية غنمه فذكرتني حالتي بيعقوب وموسى، وكان قوتي اللبن والجبن، وسلواي الصلوة والترنم بالمزمورات التي تعلمتها في الدير. ويلدّ لي أسري فأشكر الله على لطفه بي لأنني وجدت في البرية ما فقدته في موطني.

ولكن يا لدهاء ابليس ويا لشدة مكروه، فقد حسدني على حالتي التعيسة، فإنّ مولاي رأى نمو قطعانه برعايتي وتيقن أمانتي إذ كنت عاملاً بوصية الرسول أن نخدم الموالي كخدمة الله، فأراد مكافأتي بتزويجي بالاسيرة التي كانت رفيقتي في أسري، فجاهرته بأني مسيحي لا يحلّ لي أن أتزوج بامرأة زوجها حي (لأنه كان معنا فوق في أسر مولى آخر) فاستشاط مولاي وانتضى سيفه، ولولا أنني تنحيت لسفك دمي. وترك لي المرأة وكلانا يأنف الدنو من الآخر، فأحسست حينئذ بأسري، وندبت نفسي، وبكيت من جرا ما آلت إليّ حالي وقلت لنفسي لا مناص لك من الهلاك أو الظفر، فأخذت مدية أظعن بها جسدي مفضلاً هلاك الجسد على هلاك النفس. وقلت للمرأة دونك شهيداً لا زوجاً. فانطرحت على قدمي قائلة أستحلفك يسوع المسيح والضيّق الذي نحن فيه في هذه الساعة أن لا تريق دمك من أجلي، وإن لم تثني فاقتلني أولاً وأقسم لك بأني أحفظ العفاف الذي عودني عليه الأسر ولو عاد إليّ رجلي، وإني أؤثر الموت على تزوجك بي، فاتخذني إذاً عروس العفاف ولتكن بيننا محبة النفس لا محبة الجسد، فيظنك مولانا زوجي ويعرفك المسيح أخي. فذهشت بهذه المرأة وأحببتها أكثر من زوج لي وعشت معها وما نظرت جسمها، ولا مست جسدي، وبقينا على ذلك أياماً طوالاً.

وقد سئمت نفسي الأسر وجدّ بي الوجد إلى العيشة في الأديار، ورأيت النمل وحركتها في معاونة بعضها بعضاً، وذكرني قول الحكيم أنظر إلى النملة وتعلّم طرقها. فصرت في المساء إلى الخباء كهيئاً فسألني المرأة ما علّة حزني؟ فكأشفتها بأمر تعويلي على الفرار فطاوعتني عليه، فذبحت كبشين جعلت جلودهما قربتين وأعددت لحمهما زاداً للطريق. ولما جن الليل سرت معها. ويصف ما حاق بهما من المخاطر وما تجشماه من المشاق وما تولاهما من الخوف إذ جدّ مولاها في طلبهما. واختبأ في مغارة خرج منها أسد فافترسه وغلامه ونجا هو والمرأة إلى أن عاد إليّ ديره فوجد رئيسه قد درج بالوفاة. وردّ نفسه على رهبانه، وعاشت المرأة بين العابدات المتبتلات. واختتم ايرونيوس بقوله هذا ما نصّ عليّ ملخص الشيخ وأنا حدث وأقصّه الآن وأنا شيخ ليكون مثلاً للعفاف، وتذكرونه لمن يخلفكم ليعلموا أنّ من اتقى الرب يسوع لا تبعده عن العفاف السيوف ولا الصحارى ولا الأعداء، ويستطيع الموت ولا يسهل مغالته. وكنيستنا المارونية تعيد لذكر ملخص في ٢١ من تشرين الأول

توادورس الكاهن وتوادورس الشاب ويوليانس الانطاكيين

أما توادورس الكاهن فقد أخبرنا عنه سوزومانوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٨) وتوادورس أيضاً (ك ٣ فصل ٨ و ٩) إنه كان كاهناً في كنيسة انطاكية على عهد الملك يوليانس الجاحد. وقد عهد إليه أسقفه بحفظ آنية الكنيسة الثمينة، وأمر الملك يوليانس بأن تؤخذ تلك الآنية إلى خزينته وأن تُقفل الكنائس. فهرب الكهنة وبقي توادورس لالتزامه بالمحافظة على آنية الكنيسة ممانعاً من نقل الملك لها. فقبض عليه أعوانه وأذاقوه مَرَّ العذاب، فما انفك مجاهراً بتشبثه بعرى إيمانه، فأمر يوليانس أحد أنسباء الملك بقطع رأسه وأخذ آنية الكنيسة وجلس على بعضها متلفظاً بشتائم للمسيح ودينه، فأصيب بمرض في مقعده وسافلته حتى نتن وتهرأ وكثر الدود فيه ولم ينجح به دوا فهلكت.

وأما توادورس الشاب فقد أخبرنا عنه سوزومانوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٢٠) وسقراط (ك ٣ فصل ١٩) وتوادوريطس (ك ٣ فصل ١٠) فقالوا ما ملخصه إنَّ يوليانس الجاحد مضى إلى دفنه عند انطاكية يستمبح مشورة ابلون صنمها، فسمع صوتاً يقول له أنه أبكم بعد أن وُضعت عظام بابيلا الشهيد (هو بطريك انطاكية الذي ذكرناه في تاريخ القرن الثالث) على مقربة منه. ولنا في كتب ليبانيوس الفيلسوف الوثني المعاصر ليوليان بيّنة على صدق هذا الخبر. فقد قال ليبانيوس (في خطبة ٦) إنَّ يوليان أنجى ابلون من جوار أحد الموتى الذي كان يزعمه، فإنَّ الملك قد أمر بنقل تابوت جثة الشهيد، وعرف المسيحيون في انطاكية ذلك فخرجوا رجالاً ونساءً واولاداً يحتفلون بنقل رفات الشهيد، ويترنم المسبحون بمزمورات والشعب يجيب من ورائهم بقول المرتل تخزي من يعبد المنحوتات. فاستشاط يوليانس من هذا الصنيع المهين له وأمر بتعذيب المسيحيين الذين أقدموا عليه. فقبض الوالي على كثيرين منهم وطرحهم في السجن، وكان في جملتهم شاب اسمه توادورس عذبه أعذبة متنوعة، وهشَّم جسده وأثخنه جراحاً حتى تيقن أنه لا يعيش بعداً. ولم يفه توادورس بكلمة تضرع إلى الوالي ولا بشكوى من الآلام بل كان متجلداً صابراً مسروراً، فأطلقه الوالي وبه رمق فشفاه الله من جراحه وعاش بعد ذلك طويلاً. وأخبرنا روفينس (ك ١ فصل ٣٦) أنه رآه وسأله كيف

تحمّل ما أصابه من التبريح، فأجابه أنه لم يكن يشعر إلا بقليل من الوجع، وكان يرى شاباً يمسح عرقه ودمه السائل ويشجعه حتى كان تعذيبه مدعاة لسروره أكثر من ضنكه. وقد عاد الوالي إلى يوليانس متعجباً من تجلّد توادورس، وأخبره بما كان وحقق له أنه لو لم ينكفّ عن تعذيب هؤلاء لجعل نفسه والملك سخرة لهم ومنقصة وعاراً في أعينهم.

وأما يوليانس فكان في أيام والنس الملك وقال فيه توادوريطوس (ك ٤ فصل ٢٤) إنه كان راهباً ناسكاً في البرية، ثم عرف قداسته فضوّع تلك الانحاء. ولما تبادى الاريوسيون بشرّهم في انطاكية استدعاه رؤساء الكاثوليكين أن يأتي إلى المدينة وينذر الشعب ويفتد ضلال المارقين ويثبت المؤمنين في إيمانهم فأتى. وأجرى الله على يده آيات شتى في المدينة وفي طريقه وعند اتيانه إليها وعوده منها، ذكرها توادوريطوس مفصلاً في كتابه الموسوم بفيلوتائوس (أي محب الله فصل ٢). وقال في المحل المذكور من تاريخه إنّ هذه الآيات شهد لها أعداء الحق أنفسهم. وقد ضارع بذلك القديس انطونيوس إذ ترك عزلته في البرية، وأتى اسكندرية يعظ الناس أن يتشبثوا بعروة دين الحق الوثقى. وذكر السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ١٥٤) بين مقالات القديس افرام العربية المقالة ٤١ في يوليانس الراهب إلى أن قال: «نبت العلامة بارونيوس في كلامه في ٩ حزيران وفوتيس (كتاب ٢٦٨) أنّ يوليانس هذا غير يوليانس سابا الشيخ الذي ذكره توادوريطوس (في المحل التي ذكرناها)، وورد ذكره في السنكسار الروماني في ١٤ كانون الثاني، وغير يوليانس الآخر الذي جاء ذكره في ١٨ تشرين الأول. على أنّ سوزومانوس ذكر يوليانس (في ك ٣ من تاريخه فصل ١٤)، وذكره أيضاً نيكوفورس (ك ٩ فصل ١٥) فظهر من شهادتهما أنه إنما هو من ذكر القديس افرام أعماله في مقالته المذكورة. وقد استشهد فيلوكسانس (في كتابه في أحد أقانيم الثالث الذي تجسّد وتألّم صفحة ١٣٣) بمقالة القديس افرام المذكورة. وصرّح بأن اسمه يوليانس سابا لأنّ كلمة سابا في السريانية تأويلها الشيخ. ونراهم وصفوا بها كثيرين من النساك الأفاضل» انتهى كلام السمعاني ويرجّح منه أنّ يوليانس الذي روي بعض ترجمته عن توادوريطوس هو يوليانس الذي ذكره القديس افرام.

شهداء آخرون في أيام يوليانس

من هؤلاء الشهداء كيرلس البعلبكي أخبرنا عنه توادوريطوس (ك ٣ فصل ٣) قائلاً من يستطيع أن يقصّ ما جرى من الجور على كيرلس البعلبكي ولا تهطل دموعه؟ فهذا كان شماساً في كنيسة هذه المدينة وحطّم كثيراً من أصنامها غيرَةً للرب في أيام الملك قسطنطين. فأكمن له الوثنيون الضغينة والحقد ولما ملك يوليانس وثبوا عليه وقتلوه. ولم يكتفوا بقتله بل انتزعوا أمعاءه وقطعوا جسده ارباً على أنّ من لا يخفى عليه شيء انتقم من كل من اشترك في قتله نقماً متنوعة. فبعضهم فقتت أعينهم، وبعضهم ثلّيت ألسنتهم إلى غير ذلك من المضار. وأخبرنا سوزومانوس (ك ٥ فصل ١٠) أنه كان في بعلبك عذراوان محصنتان قبض عليهما الوثنيون وأقاموهما عاريتين في محل معرض لنظر المارة، ثم قطعوا رأسيهما، وشطروا كلاً منهما إلى نصفين وطرحوا لحومهما قوتاً للخنازير.

ومنهم القديسان يوفنتينس ومكسيمينس وقد أنبأنا توادوريطوس (في الكتاب المذكور فصل ١١) بشهادتهما، فقال إنّ يوليانس الملك بلغ من شرّه أن ينجس عيون الماء التي في انطاكية ودفنه بدم الذبائح التي تقدّم للأوثان، وبما خبث منها وأن ينضح من دم هذه الذبائح على الخبز واللحم والثمار والأعشاب ليأنف المسيحيون من أكلها. وكان هذان القديسان من أكابر جنود الملك ودُعيا يوماً إلى وليمة فجاهرا بمذمة الملك على هذا الصنيع واستهجنانه، فوشى بهما أحد من كانوا في المأدبة فاستدعاهما الملك إليه وسألهما، فلم يخجلا من أن يجيباه نحن ربينا أيها الملك في التقوى وعملنا بالشرائع المطهرة التي ستها قسطنطين وأبناؤه، ونشمئز الآن ونشكو من أن نرى كل مأكّل ومشرب منجساً بدم الذبائح الخبيثة الذي يراق عليه. فهذا ما نشكوه في أيام ملكك. فلما سمع الملك كلامهما نزع برقع الحلم الذي كان يتظاهر به واستشاط، وأمر الجند بضربهما وتعذيبهما شديد العذاب، حتى لقيا ربهما ونالا اكليل الظفر. وأخذ يعلن بأنه لم يقتلها لتقواهما أو لأنهما مسيحيان بل لتجاسرهما وتناولهما عليه، كيلا يكرهما المسيحيون بمنزلة شهداء. أما المسيحيون الانطاكيون فاعتدوها من الابطال الذين دافعوا عن الايمان، وأقاموا لهما مدفناً عظيماً. وما يرحوا إلى اليوم يعيدون لذكرهما كل سنة.

ومن هؤلاء الشهداء اوسايوس ونستاب وزينون من غزة. فقد أنبأنا بخبر هؤلاء سوزومانوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٩) فقال إنّ هؤلاء كانوا اخوة مسكنهم غزة، وكان الوثنيون من أهل هذه المدينة ييغضونهم، فوثبوا عليهم في بيتهم وطرحوهم في السجن وجلدوهم، ثم اجتمعوا في محفلهم، وأخذ بعضهم يهيج بعضاً على الانتقام منهم لأنهم جدّوا بوقت ملائم لهم في نقض معابدهم ونسخ عبادة معبوداتهم. ثم تسارعوا إلى السجن فأخرجوهم منه، وربطوهم بحبال وأخذوا يجرّونهم في الشوارع، وبعضهم يرحمهم بالحجارة وبعضهم يقرعهم بالسياط أو بالعصي، وبعضهم يصبّ عليهم ماءً غالياً، فخطمت عظامهم، وشجّت رؤوسهم شجّات دامغة حتى سال دماغهم. ثم أخرجوهم من المدينة إلى الموضع الذي تلقى فيه جيف الحيوانات وأضرموا ناراً أحرقوا جثثهم فيها، وما لم تبده النار من عظامهم ألقوها بين عظام الجمال والحمير كي لا يهتدى إليها. على أنّ الله ألهم امرأة تقيّة أن تجمع هذه العظام ليلاً وتدفعها إلى نسيب للشهداء اسمه زينون. وأقام بعد ذلك أسقف غزة في أيام الملك توادوسيوس كنيسة في خارج هذه المدينة ونصب مذبحاً وضع تحته عظام هؤلاء الشهداء.

إنّ عدد الشهداء في هذا القرن في سورية ولا سيما في اضطهاد ديوكلتيان في بدء القرن الخامس واضطهاد قسطنس ويوليان الجاحد ووالنس، ولكننا نقتصر ممن نعرفهم على ذكر هؤلاء تحاشياً عن ملل القارئ. ومن أحب الوقوف على أخبار شهداء وقديسين آخرين فعليه بمطالعة تراجم القديسين المعروفة بالسكسار. وكتب البولاندين، وكتاب مروج الاخيار الذي طبعه الآباء اليسوعيون من بضع سنين في بيروت.

الفصل السابع

ما كان من البدع والمبتدعين في سورية في القرن الرابع

عد ٦٠٠

أريوس وبدعته

لم يكن أريوس سورياً بل مصرياً، لكن بدعته أقلقت سورية وسائر المشرق بل المغرب أيضاً. فقد وُلد أريوس في ليبيا وبعد أن تعلّم بعض الرياضيات والعلوم الدنيوية مضى إلى اسكندرية طامعاً بنيل المراتب البيعية . وكان ليّن العريكة لطيف المعاشرة لكنه محب للفخفة والمجد، عشاق للمعالي. وتزوّف إلى القديس بطرس أسقف اسكندرية فرقاه إلى الدرجة الشماسية ثم علم بأنه من المشايخين لميليسيوس أسقف نيكوبولي الذي كان القديس بطرس قد عزله عن كرسيه لجرائم فظيعة وكثيرة، فطرده من الاسكندرية. وروى بارونيوس (في تاريخ سنة ٣١٠م) إنّ أريوس أخذ يحتال على القديس بطرس ليرده إلى شركته، فظهر له المسيح وعليه ثوب ممزق وقال أنّ أريوس قد مزّق ثوبي هذا فحذار من أن تقبله. وقد شك نطاليس اسكندر (مقالة ٩ في القرن الرابع) في صحة الرؤيا. لكن حجته عليها ليست بقاطعة فقد أثبتتها كثيرون، وذكرت في كتاب الفرض في عيد القديس بطرس المذكور وفي ترجمته القديمة. على أنّ اكيلاس الذي خلف القديس بطرس في كرسي اسكندرية صالح أريوس ورقاه إلى درجة الكهنوت (اييفان في بدعة ٦٩). ولما درج اكيلاس سوّلت لأريوس نفسه أن يخلفه في البطريركية، ففضّل عليه القديس اسكندر ذا الحكمة الباهرة والحامد العاطرة. فشرع أريوس يعيّه في سيرته الحميدة بل في تعليمه أيضاً قائلاً إنه يعلم أنّ الكلمة ابن الله مساوٍ لأبيه

جوهرًا. وقضى بأن هذا التعليم يشف من بدعة سايليوس الذي غوى بانكاره الثالث الاقدس. وزعم اريوس أيضاً أنّ الكلمة أخذ في تجسده الجسد دون النفس، وأنه كان يمكنه اقتراف المآثم كباقي الناس، لكنه تسامى بالفضائل فعصمه الله منها (القديس اثناسيوس ورسالة المجمع النيقوي المجمعية). وأخذ اريوس يثّ تعليمه أولاً خفية ثم ازداد قحة وطفق يشرّ به علانية، فنصحه القديس اسكندر فلم ينتصح، وتهده فلم يرعو، فجمع مجمعاً في اسكندرية نحو سنة ٣٢٠م شهدته نحو مئة أسقف ودعي اريوس إليه، ولم يخجل من أن يكابر متشبثاً بضلاله، فطعنه آباء المجمع بالحرم له ولكل من شايعه، فلم يبال وتمادى في نشر ضلاله. واتخذ اوسايبوس أسقف نيكوميديّة محامياً عنه. وكان اوسايبوس هذا أسقفاً على بيروت ثم دخل دعياً على أسقفية نيكوميديّة، وكتب إلى القديس اسكندر يسأله أن يرّد اريوس إلى شركة المؤمنين فلم يجب سؤاله، بل أبعد اريوس عن اسكندرية مع غيره من محازبيه (سقراط ك ١ فصل ٦ وغيره كثيرون).

فمضى اريوس إلى فلسطين فاغوى كثيرين فيها حتى بعض الاساقفة، منهم غريغوريوس أسقف بيروت، وتوادوطس أسقف اللاذقية. وجنح إلى تعليمه اوسايبوس أسقف قيصرية الشهير. فأنفذ القديس اسكندر بطريرك اسكندرية رسائل إلى كثيرين من الاساقفة فأجفلوا عن اريوس الذي لجأ إلى صديقه اوسايبوس النيكوميدي. وهناك نظم كتابه المعنون تاليا، ينطوي على أشعار مشحونة من الخزعبلات والترهات ليضلّ السذج. وقد ظفر الملك قسطنطين في تلك الاثناء بخصمه ليشينيوس فسوّ باستتباب السلم في مملكته، وغمّ عند سماعه في نيكوميديّة بأخبار الخلاف بين الاساقفة في المشرق. ولقّنه اوسايبوس بأنّ المباحث المختلف فيها ليست ذات بال، ويكفي صدور أمره للفريقين بالصمت عن هذا المجال. فانخدع الملك وكتب إلى اسكندر بطريرك اسكندرية أنه لا يجمل به أن يُقلق الكنيسة بمثل هذه المباحث. وأرسل إليه اوسايبوس أسقف قرطبا (أو إنّ البابا سلبسترس أرسله على قول آخر أعم) فعقد اوسايبوس واسكندر مجمعاً آخر في اسكندرية جددوا به حرم اريوس (فلورى ك ١٠ فصل ٤٣ واورسي ك ١٢ فصل ٢١ وغيرهما).

ورفع اريوس بعد ذلك عريضة إلى الملك يدافع فيها عن نفسه فتأكد الملك ضلاله، وأجابه برسالة مسهية مفنداً ضلاله مؤنباً له، وأمر باذاعة رسالته فحنق اشياعه لذلك وخدشوا صورة وجهه في تمثاله، وحرضه أعوانه على الانتقام منهم

فمست وجهه قائلاً لا أشعر بخدش في وجهي. وهم بعقد مجمع عام في نيقية فاجتمع فيه من الاساقفة الغربيين والشرقيين ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفًا. وأرسل إليه سلبسترس الحبر الروماني اوسبيوس أسقف قرطبا ليرأس المجمع نيابة عنه، وفيتون وفنشنس الكاهنين بمنزلة قاصدين من لدنه. وافتتح المجمع في ١٩ حزيران سنة ٣٢٥م ودعي اريوس إليه فلبى الدعوة ولم يخجل من المدافعة عن ضلاله الوخيم. وشايعة اولاً اثنان وعشرون أسقفًا ثم انقاد بعضهم مدعين للتعليم الكاثوليكي. ولم يبق منهم أخيراً إلا أسقفان مكابران. وأجمع سائر الآباء على نبذ ضلال اريوس، وحرمة. واوسابيوس القيصري نفسه أنشأ قانون الايمان كما مر في الكلام عليه. وامتاز القديس اثناسيوس الذي كان حينئذ مرسلًا من بطريركية القديس كيرلس بالمناضلة عن الايمان. ولذلك أبغضه الاريوسيين واضطهدوه عمره كله. واصطلح الآباء حينئذ على أن يضيفوا إلى قانون الايمان لكلمة اوموسيون «أي مساو للآب بالجوهري» منعاً لكل تأويل. وشهد الملك قسطنطين المجلس الأخير من هذا المجمع ورفع إليه بعض الاساقفة عرائض يشكو بها أحدهم الآخر. فأمر أن تلقى تلك العرائض بالنار. وقال ذلك القول الشهير الذي رواه كثير منهم روفينوس (ك ١ من تاريخه فصل ١) وتوادوريطوس (ك ١ فصل ١١)، وهو: «لأن الله أقامكم أساقفة لتحكموا علينا في أمور الدين، ولذا حق الحكم لكم علينا لا لنا عليكم، وقد أعطيتكم لنا آلهة من لدن الله، ولا يحلّ للانسان أن يحكم على آلهته». ثم وقّع الاساقفة على المجمع ما خلا اثنين تيوناً أسقف مرمريكا وسكوندس أسقف عكا، على أن بعض من وقّعوا عادوا إلى غيهم ولا سيما اوسابيوس النيكوميدي، وتوني أسقف نيقية. ووضع المجمع دستوراً لتعديد الفصح والقيامة في الأحد الواقع بعد الرابع عشر من مستهل نيسان كما مر. وانصرف الاساقفة بعد أن أولم لهم الملك قسطنطين وأكرم جميعهم.

وأما اريوس فقد تمكّن اوسابيوس أسقف نيكوميديّة من أن يجعل الملك يرضى عنه ويرده إلى اسكندرية، فعاد إليها ولكن أثار مشايعوه شغباً وقلقاً فاستدعاه الملك إلى القسطنطينية، وسأله هل يعترف بدستور الايمان الذي سنّه آباء المجمع في نيقية، فقال أعترف به. قال الملك أكتب اعترافك خطأ واقسم على صحته ففعل مخادعاً ومتأولاً كلامه بحسب مذهبه. فأمر الملك بقبوله في شركة المؤمنين وشق ذلك على الكاثوليكين ولا سيما القديس كيرلس بطريرك القسطنطينية الذي مضى إلى

الكنيسة متضرراً لله قائلاً اللهم إما خذني من هذا العالم وإما خذ اريوس منه لئلا يدمر كنيستك. وطاف باريوس ذروه في الشوارع متفاخراً بظفره، وبلغ ساحة المدينة فشعر بمغص أليم فانحاز إلى مرحاض خرجت فيه مع روثه امعاؤه ونفسه الخبيثة (روى ذلك سقراط ك ١ فصل ٣٧ واييفان بدعة ٦٩ وتوادوريطوس وغيرهم كثيرون) وكان ذلك سنة ٣٣٦م وما برح محازبوه يقلقون الكنيسة زماناً طويلاً كما رأيت.

عد ٦٠١

مكدونيوس عدو الروح القدس

إن مكدونيوس كان كاهناً اريوسياً وأرسله سنة ٣٣٥م الاساقفة المجتمعون في صور لعزل القديس اثناسيوس قاصداً من قبلهم إلى الملك قسطنطين، ولما توفي القديس كيرلس البطريرك القسطنطيني كان الارويسيون يرغبون في أن يخلقه وفاز الكاثوليكيون بانتخاب بولس بطريركاً، لكن الملك قسطنس عزله عن كرسيه وأدخل عليه اوسابيوس أسقف نيكوميديّة. ثم عاد بولس إلى كرسيه فانتخب الارويسيون مكدونيوس سنة ٣٤٣م، وأمر الملك أحد أعوانه أن يمكنه من تعاطي رئاسته فأدخله المدينة محفوفاً بالجند، فكان شغب بين الكاثوليكين والارويسيين وقتال سقط فيه نحو من ثلاثة آلاف قتيل. وأخذ مكدونيوس يضطهد الكاثوليكين ومن يتمون إلى بولس البطريرك الشرعي معذباً اياهم وقتلاً بعضهم أيضاً ومخرباً كنائسهم. حتى روى بعض الثقات من المؤرخين أنه أرسل أناساً فخنقوا القديس بولس سالفه في منفاه، ثم تغيّر عليه الملك قسطنس لأنه نقل جثة أبيه قسطنطين من مدفن إلى آخر. فأمر بطرده من كرسيه فطُرد منه سنة ٣٦٠م. على أنه لما كان أسقفاً لم يكن يعلم من الضلال إلاّ تعليم اريوس. وأما بعد عزله فأراد أن يكون مبدعاً بدعة حديثة، وكان اريوس قد أنكر أن يكون المسيح إلهاً فأنكر مكدونيوس أن يكون الروح القدس إلهاً، وبثّ ضلاله في كثيرين وعاملته نعمة الله في منفاه. ولكن لم تنته بدعته بموته، بل غادر أتباعاً كثيرين منهم مرتينيو تلميذه أسقف نيكوميديّة، وامتدّت بدعته في أديار كثيرة للرهبان (سقراط ك ٢ فصل ٦ وغيره وسوزومانوس ك ٣ فصل ٣ وغيرهما كثيرون).

وانتشرت بدعة مكدونوس في تراسه وبيتنيا، وكان الكاثوليكيون يسمون مشاييحه أعداء الروح، ونبذت هذه البدعة وحرمت في مجامع عديدة منها مجمع في اسكندرية سنة ٣٦٢م عقده القديس اثناسيوس، ومجمع في ايليريا سنة ٣٧٦م، ومجمع عقده القديس داماسس البابا في رومية سنة ٣٧٣م، وأخيراً في المجمع القسطنطيني الذي عُقد سنة ٣٨١م شهده مئة وخمسون أسقفاً من الشرقيين. ولم يُحسب هذا المجمع من المجامع المسكونية إلا بعد أن عقد البابا داماسس مجمعاً آخر في روما سنة ٣٨٢م دعا إليه الاساقفة الغربيين فصادقوا وأثبتوا ما سنّه المجمع القسطنطيني وأيده بالسلطان الرسولي.

عد ٦٠٢

ابولينار وغيره من المبدعين

قد أنبأنا سقراط (ك ٣ من تاريخه فصل ٤٦) وسوزومانوس (ك ٥ فصل ١٨) أنه كان في اللاذقية بسورية رجلان يسميان ابولينار أحدهما ابن الآخر، وكان الأب كاهناً والابن قارئاً، وكلاهما عالماً بأداب اللغة اليونانية. وكان الأب يعلم نحو هذه اللغة والابن الفصاحة فيها. وأصل الأب من اسكندرية أتى بيروت فعلم فيها ثم هاجر إلى اللاذقية وتزوج فولد له ابنه ابولينار. وكانا معاصرين اييفان السفسطي الوثني وملازمين له صداقة. وخشي توادوطس أسقف اللاذقية أن تبعثهما شدة ملازمتهم له على الانحراف عن المذهب الكاثوليكي، فنهاهما عن التردد إليه فلم يدعنا له. ثم توفي توادوطس وخلفه جيورجيوس في أسقفية هذه المدينة فاهتم أيضاً بابعادهما عن السفسطي المذكور. فلم ينشيا ففصلهما عن شركة المؤمنين. وشق ذلك على ابولينار الصغير فأبدع البدعة المنسوبة إليه، وقال بعضهم أن علة الخلاف بينهما وبين أسقفهما كانت أنهما رأياه تارة يقول أن ابن الله يشبه الأب، وتارة يقول مقال اريوس، فانشقا عنه وعلمّا تعليماً حديثاً أن ابن الله أخذ جسد البشر لكنه لم يأخذ نفساً بشرية لأن اللاهوت ناب عنها. ثم أظهرها التوبة والارعواء عن ضلالهما الاول. لكنهما ما انفكا عن الضلال لأنهما قالوا إن المسيح أخذ النفس لكن دون قوتها العاقلة لأن اللاهوت ناب عنها.

ودونك ما جاء عن ابولينار وابنه في التاريخ السرياني الماروني الذي نشره في هذه السنة ١٨٩٩م الأب نو استاذ كلية باريس الكاثوليكية مأخوذاً عن كتاب مخطوط في مكتبة لندرة عد ١٧٢١٦ معزو إلى قيس الماروني. قال المؤلف: «وظهر في هذا الزمان (في القرن الرابع) ابولينار وهو اسكندري أصلاً كان يدرس العلوم الدنيوية، ثم جاء من اسكندرية وصار معلماً في بيروت، ثم انتقل إلى اللاذقية بسورية فتزوج هناك ورزق ابناً سماه باسمه ابولينار، وصار قسيساً وابنه قارئاً في أيام توادوطس أسقف هذه المدينة، وكانا يعلمان العلوم اليونانية. يعلم الأب النحو، وابنه الفصاحة. وكانا يكثران من التردد إلى ايفان السفسطي الوثني فمنعهما توادوطس عن معاشرته لئلا توقعهما في الوثنية. فأظهرا الامتثال لأمر الاسقف. ومات توادوطس وخلفه جيورجيوس وظلا يلازمان ايفان حتى عند تقدمه الذبائح للارثان. فعني جيورجيوس بكفهما عن ذلك وأبيا إلا ملازمة السفسطي فأقصاهما عن شركة المؤمنين. فاستاء ابولينار الشاب وأبدع اعتماداً على سفسطه بدعة حيثة، ومضى إلى بعض أساقفة محرومين ورقوه إلى أسقفية دون أن يعيتوا له مدينة. وأخذ هو وأبوه ييثان بدعتهما فكانا يعتقدان بطبيعة اللاهوت كما نعتقد، لكنهما يسميان الآب الاعظم والابن الافضل والروح الاوفر. وإن الكلمة تجسد واتخذ نفساً لكنها لم تكن ناطقة بل حيوانية لأن اللاهوت ناب مناب النفس الناطقة». فهذا ما جاء في هذا الكتاب وهو مطابق لما رويناه عن سقراط وسوزومانوس وذكرناه لتأكيد الخبر وتعريف القراء بهذا الأثر.

ولما أمر يويانس الجاحد المسيحيين أن يتفقهوا بعلوم اليونان نظم ابولينار بعض الاسفار المقدسة شعراً في اللغة اليونانية. وروى القديس غريغوريوس النيصصي (في خطبته في القديس افرام) أن ابولينار لما شاخ ودع كتاب ضلاله عند احدى تلميذاته في انطاكية، فاستعار القديس افرام الكتاب من المرأة وألصق أوراقه إلى بعضها بغري وردّه عليها. والتقى بابولينار فأخذ يجادله، ولما عجز عن الجواب طلب كتابه ليحجبه به وأراد أن يفتحه فوجده قطعة واحدة لا تنفصل صفحة عن أخرى، فطرحه في الارض وولّى هارباً. وقد حُرمت بدعته في المجمع الذي عقده القديس اثناسيوس في اسكندرية سنة ٣٦٢م، ثم في المجمع الذي عقده البابا داماسس في روما سنة ٣٧٣م، ثم في المجمع القسطنطيني الاول سنة ٣٨١م.

وكان في انطاكية في هذا القرن ايريس انشق عن اوسطاتيوس البطريك وتبع

الاريسيين وزاد على ضلالهم أنه كان يزعم أنّ لا فرق بين الكهنة والاساقفة، وأنّ الصلوات عن الموتى لا تفيدهم، وأنّ الصوم والاعیاد حتى الفصح أيضاً لا منفعة منها. وكان في هذا القرن أيضاً المصلّون وقد المعنا بذكر بدعتهم في ما مرّ. وكان هراطقة يسمون أعداء مريم وهم فرع من الابوليناريين زعموا مع البيديوس أنّ العذراء لم تلبث بتولاً، بل ولدت أولاداً آخرين من يوسف، وقدّ القديس ابيفان ضلالهم برسالة مسهبة أنفذها إلى المؤمنين. (انتهى عن كثير من ثقة المؤمنين).
هذه صورة ماكرين الملك مأخوذة عن تمثال له في الكابيتول بروما.



الباب الخامس

تاريخ سورية في القرن الخامس

القسم الاول

تاريخ سورية الديوي في هذا القرن

الفصل الاول

ذكر الملوك القسطنطينيين الذين تولوا سورية

في القرن الخامس

نصف هؤلاء الملوك بالقسطنطينيين لأنه بعد أن أقام الملك قسطنطين في بيزنطية وسّع أبنيتها وعظّمها وسماها قسطنطينية نسبةً إليه. وقسم مملكة الرومانيين بين أبنائه، وجعل القسطنطينية عاصمة مملكة المشرق. واستمر ملوكها يلون سورية إلى أن تقلّصت سلطتهم منها بفتح الخلفاء المسلمين لها من سنة ٦٣٤م إلى سنة ٦٣٨م ويسمون ملوك الروم البيزنطيين أو القسطنطينيين أو الرومانيين أيضاً. ويسمى الافرنج ملكهم الملك السافل لكثرة ما كان فيه من المكر والخلاعة وأفعال السفلة كما سترى.

اركاديوس الملك

قد مرَّ أنَّ الملك توادوسيوس لقي ربه سنة ٣٩٥ م وخلفه ابنه انوريوس في مملكة المغرب واركاديوس في مملكة المشرق. وكان اركاديوس بكر أبيه وتسّم منصّة الملك مستقلاً وعمره نحو من ثماني عشرة سنة. وكان جباناً فاطر العزيمة ترك أزمة الملك لروفينس رئيس حرسه الذي كان أبوه قد جعله مدبراً له. وكان كثير الانقياد لادوكسية زوجه من ذلك مطاوعته لها في اضطهاد القديس يوحنا فم الذهب ونفيه. وقد أيد الآريوسيين، ولم يحسن مقاومة الخوارج من الغطط (هم الذين يسميهم المؤرخون العرب قوط) وغيرهم في انتشارهم في المملكة وسطوهم عليها، ومات سنة ٤٠٨ م. روى سقراط (ك ٦ من تاريخه فصل ٢٣) أنَّ اركاديوس كان ملكاً حليماً رضيعاً وقد حسبه الناس في آخر عمره عزيزاً لدى الله لأنه كان في جانب قصره شجرة جوز يقال أنَّ اكاشيوس الشهيد غُلّق فيها ونال اكليل الشهادة. فبنى الملك كنيسة على اسمه حذاء تلك الشجرة، ودخل إليها ليراها فأدركته المنية هناك. فتسارع أهل المدينة ليشهدوا الحفلة وتراكموا على أسطحه القصر فسقطت ولم يهلك أحد منهم، فصاح الجمهور أنَّ صلاة الملك وقّت من سقطوا التهلكة. وقد ملك اركاديوس مع أبيه ثلاث عشرة سنة، وملك وحده أربع عشرة سنة، وجملة عمره احدى وثلاثون سنة.

الملك توادوسيوس الصغير

خلف اركاديوس ابنه توادوسيوس الثاني ويوصف بالصغير تمييزاً له عن جده توادوسيوس الموصوف بالكبير. ولم يكن حينئذٍ له من العمر إلاّ ثماني سنين. وكان انيمس رئيس حرسه وأحكم أهل عصره يدبر الملك. وكان لتوادوسيوس أربع أخوات فلاشلا وبلوشاريا واركاديا ومارينا وآثر بلوشاريا على أخواتها فسمهاها اغوسطا أي سلطانة، إذ لم يكن لها من العمر إلاّ ١٥ سنة، وقد نذرت أن تتبتل لله وبعثت أخواتها على أن يقتدين بها، وأتحفت كنيسة القسطنطينية بمائدة للمذبح

من ذهب ورصعتها بالدرر الثمينة، ودربت أخاها وأخواتها في طريق الفضيلة والتقى، حتى كان قصرهم يُظن ديراً. وكان توادوسيوس جلوداً على العمل أكثر من الصوم ولا سيما يومي الأربعاء والجمعة، ويحفظ الاسفار المقدسة عن ظهر قلبه، ولم يضرب بأحد، بل لم يره أحد مغضباً. وسأله أحد أعوانه يوماً لِمَ لم يقتل أحداً ممن جنوا عليه فقال ليتني أستطيع أن أبعث الموتى. وكان يجلب الكهنة، وأبطل صراع الرجال والضواري، وعوّد الشعب مشاهد أنيسة. وقد تزوج وعمره عشرون سنة باتنيدا ابنة لاونس الفيلسوف اختارتها له أخته بلوشاريا، وكانت جميلة عالمة عمّدها اتيكس بطريرك القسطنطينية، وسماها اودكسية وحارب الفرس سنة ٣٢٤م، فانتصر عليهم بعون الله وأخذ منهم سبعة آلاف أسير، فباع اكاشيوس أسقف آمد أنية كنائسه وعالهم وافتداهم وزودهم بثمانها، فدهش بذلك ملك الفرس إذ رأى الرومانيين يقهرون عدوهم بالحرب والاحسان إليه (طالع ما رواه سقراط مسهباً الكلام في توادوسيوس وفضائله في ك ٧ فصل ١٨ إلى فصل ٢٣ وسوزومانوس ك ٩ فصل ١). وسنّ توادوسيوس شرائع نهى بها عن استخدام الوثنيين في الجندية والمناصب الملكية (شريعة ٢١ من شرائعه) وأمر بنفيهم وأخذ أملاكهم إذا تجاهروا بتقدمة الضحايا لأصنامهم (شريعة ٢٢). ومنع اليهود من بناء مجامع حديثة (شريعة ٢٧) وفرض مثل هذه الشرائع على أشياح المبتدعين (شريعة ٥٩ و ٦٠ و ٦١) وعنى بالتثام المجمع الافسسي لمقاومة نسطور المبتدع، وحظّر تلاوة كتبه، وأمر بنفيه، وأجهد نفسه في تقدّم العلم، وقرب إليه العلماء وأكرم المعلمين، ونهى عن حضور الملاعب والملاهي أيام الآحاد وأعياد ميلاد المخلص واعتماده وآلامه وفصحته وقيامته وحلول روحه وأعياد الرسل قائلاً للتعبّد وقت، وللهم وقت (شريعة ٥). وأمر بعصمة الكنائس ونهى عن أن يدخلها أحد بسلاح (شريعة ٢٤ في من يلجأون إلى الكنائس) وجمع مشاهير الفقهاء فوضعوا مجموعة الشرائع المنسوبة إليه سنة ٤٣٥م وأذاعها سنة ٤٣٨م، وهي أول مجموعة للقوانين، وقد هذبها ونقحها يوستينيانس كما سيجئ. وكان كثير الاجلال لذكائهم القديسين فقد أمر بنقل رفات القديس يوحنا فم الذهب إلى القسطنطينية، وقبّل عينيه وجبهته وجثا خاشعاً لله أن يغفر بشفاعته لوالديه اللذين أساءا إليه (توادوريطوس ك ٥ من تاريخه فصل ٣٦). ونقل أيضاً رفات الاربعين شهيداً (الذين نالوا اكليل الشهادة في سبسية في أيام ليشينس) إلى كنيسة القديس نرسس الشهيد في ضواحي القسطنطينية باحتفاء

واجلال بعناية بلوشاريا وبروكلس بطريك القسطنطينية. روى ذلك سوزومانوس ٩ من تاريخه (فصل ٢) مفصلاً خبر وجود هذه الذخائر ونقلها، وقال أنه شاهداً عياناً وشهد حفلة نقلها.

وروى نيكوفورس (ك ١٤ فصل ٤٤) إنه في أيام الملك نُقلت رفات القديس اغناطيوس بطريك انطاكية من روما إلى القسطنطينية، ثم سمح الملك بنقلها انطاكية بحفلة كبرى. وروى كثيرون منهم فوتيوس في المكتبة (ك ٣ وسنكسار الروم في ٤ من آب و ٢٢ من تشرين الاول أنه وجد في توادوسيوس الشهداء السبعة الذين كان الوثنيون في أيام داكْيوس قد سدوا في مغارة، ووثقوا أبوابها واستمروا فيها راقدين نحواً من قرنين، وأنهم هبوا رقادهم في أيام توادوسيوس، على أن بارونيوس إمام المؤرخين (في حواشيه السنكسار الروماني في ٢٢ تموز) وغيره أنكروا صحة رقادهم وهبوبهم منه بعد الزمان المستطيل، وأبدوا انكارهم بحجج قاطعة منها أن من كتبوا ترجمة هذا لم يذكروا هذا الحدث العجيب، ولو كان صحيحاً لما غفلوا عنه. وكذلك لم ذكره في الجمعين الافسسي والخلكيدوني. وقد تصدى السمعاني (في الما الشرقية مجلد ١ صفحة ٣٣٥ إلى ٣٣٨) لردّ حجج بارونيوس في انكاره قيا من الموت. والحق أقول إنني لم أر ذلك الرد كافياً لخطئة بارونيوس، فالأظهر يقال إن رفاتهم وُجدت في أيام هذا الملك كما وُجدت رفات الاربعين شهيداً تكن جثثهم بالية، فشاع على ألسنة الناس أنهم استمروا أحياء كأنهم راقدون ر وكان توادوسيوس يغالي في احترام الدين والكهنة. فقد روى توادوريطوس (١ من تاريخه فصل ٣٦) إنه أتاه راهب يسأله حاجة وألح في سؤاله مرات فلم الملك إليه، فحرمه الراهب وقلق الملك ولم يشأ أن يذوق طعاماً قبل أن يرسل إلى البطريك يسأله أن يأمر الراهب بحلّه من وثاق الحرم، فأجابه أن يطلق لكل اكليريكي أن يطعن بالحرم، وما عليه أن يعأ بذلك، فلم ينفك تشبّهه حتى عاد الراهب فحلّه، وكان سهل التصديق لما يُقال له. وروى المؤر عنه أموراً من هذا القبيل تكاد لا تُصدق، وقد أضرت سهولة تصديقه ببعض الكنييسة. وكان زلزال في القسطنطينية في أيامه، فخرج يصحبه البطريك والشعب يتهلل لله في خارج المدينة، ورفعت الملائكة طِفلاً في الجو وسه يترنمون قائلين قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت. فأمر برو

البطريك الشعب أن يترنم كذلك فزال الزلزال. وروى ذلك نيكوفورس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٤٦) وشدرانس في مختصر تاريخه. وقد أدركت الوفاة توادوسيوس في ٢٨ تموز سنة ٤٥٠م وملك مع أبيه اركاديوس سبع سنين وثلاثة أشهر، وبعد وفاة أبيه اثنتين وأربعين سنة وبعض أشهر.

عد ٦٠٥

بلوشاريا ومرقيان الملك

وخلفت توادوسيوس بلوشاريا اخته بعد وفاته، ومّر أنه كان قد سماها ملكة منذ بواكير ملكه. وعند استوائها على منصّة الملك أمرت بمحاكمة كريساف الخصي وزير أخيها على جنائياته، فحكم عليه بالموت، ونفذ الحكم بابساله بردان الذي كان هذا الخصي قد قتل أباه. على أنّ هذه الملكة رأت أنه لا بدّ لتدبير الملك وكبح المعتدين عليه من رجل يقوم بمهامه ويرأس جيشه. وكانت قد نذرت أن تتبتّل لله وكان في الجيش قائد يسمى مقيان حائزاً على رتبة سناتور (أحد رجال الندوة) معروفاً بالفضل والتقوى، فاخترته أن يكون قريناً لها على شريطة أن لا يمسها رعاية لندرها، وكان عمره وقتئذٍ ثمانين وخمسين سنة، فاستدعته الملكة إليها وكاشفته بما فكرت وصرّحت له بشرطها أن يصون عذريتها فوعده بذلك وأقسم عليه. فدعت البطريك ورجال الندوة ورؤساء بلاطها وأمرأء الجيش وأخبرتهم بعزمها، فصوّبوا جميعاً رأيها. وكان مرقيان من تراسة مستمسكاً بالدين الكاثوليكي متقلّباً في مناصب الجندية. ومما روي عنه أنه يوم عزم أن يدخل الجندية عثر في طريقه على جثة قتيل حملته الشفقة على أن يدفنها، فقبض رجال الشحنة عليه وأحضره إلى المحكمة. ولما كانت قرينة وجدانه يدفن الجثة قوية لحكم عليه بالموت، ولكن قبل تنفيذ الحكم وجد الجاني وأقرّ بجنايته، فخلّى سبيله، وتراقى في مدارج الجندية بشجاعته وعفافه وتقواه حتى بلغه استيهاله رتبة رجال الندوة ومنصب قائد كبير في الجيش. وبعد أن رقي إلى أريكة الملك كان مثلاً للحكم والعدل والغيرة على الدين. وكانت وبلوشاريا على أتمّ الوفاق مع البابا لاون الكبير، فكانت بذلك مصلحة الكنيسة والملك معاً. وعُقد باتفاقهم الجمع الخلكيديوني سنة ٤٥١م، وتُبذ فيه تعليم اوطيخا الذي زعم أنّ المسيح طبيعة واحدة كما سيجيئ. وعاون مرقيان بلوشاريا

كثيراً على اتفاق الاساقفة في عقائد الايمان الكاثوليكي. ولقيت بلوشاريا ربها في شهر تموز سنة ٤٥٣م، ومضت تنال الثواب على ما صنعت في حياتها من المبرات. فإنها بنت كنائس شتى، وأقامت كثيراً من الاديار والمستشفيات والمآوي للفقراء والعجّز والشيخوخ ومقابر للموتى منهم. وتكرّم الكنيسة ذكرها في ال ١٠ من ايلول. أما مرقيان فاستمر يدبر الملك بعدها كما كان يدبره معها حتى يحسب عصره العصر الذهبي في المشرق. فقد أشبه قسطنطين بغيرته على الدين، ولكن لم يعبه شيء مما عاب قسطنطين. وحاكى توادوسيوس بحلمه وكرمه، وتنزّه عن نقائصه وثورات غضبه. وكان يكافئ أصدقاءه بالذهب الرنان ويجزي أعداءه بالصقيل البتار. وقد رُوّع اثيلا ملك الهونيين الغازي الساطي على مملكة المغرب فلم يجسر أن يناويه. وروى بعض المؤرخين أنه كان يعد حملة على جنساريك ملك البندالة الذي كان قد استحوذ على قرطاجنة وبعض أعمال افريقية وإيطاليا، ولكن فاجأت المنية مرقيان في ٢٦ كانون الثاني ٤٥٧ وعمره ٦٥ سنة بعد أن ملك ست سنين وستة أشهر فأسف عليه القديس لاون الكبير الحبر الروماني صديقه، وأوجب أن يكرم تكريم قديس. وكنيسة الروم تعيد لذكره ولذكر بلوشاريا في ١٧ شباط، وكنيستنا المارونية تعيد لهما في ال ١٠ من ايلول.

عد ٦٠٦

الملك لاون الكبير وحفيده لاون الثاني

قد أجمع رؤساء الجيش والأمة بعد وفاة مرقيان على انتخاب لاون ملكاً. وكان لاون من تراسة وقد تراقى في مناصب الجندية إلى أن صار من القادة العظام. وكان من رؤساء الجيش وقتئذ رجل اسمه اسبار غططي أصلاً اريوسي مذهباً، لم يطمع حينئذ أن يرقى إلى منصبة الملك، وإن هائماً بها، بل عني بترقية لاون إليها على شريطة أن يسمى أحد أولاده الثلاثة قيصرًا معه. وقد تسنّم لاون أريكة الملك في ٧ من شباط سنة ٤٥٧ ووضع اناطوليوس البطريرك القسطنطيني التاج على رأسه، فكان أول ملك كليله أسقف. وقد أجمع المؤرخون على أنه كان كاثوليكيًا مخلصاً. وظنّ اسبار أنّ الملك سيكون طوع يديه فأخطأ ظنه، لأنه سأله يوماً انجاز وعده ومسك طرف برفيره قائلاً لا يليق بمن عليه هذا البرفير أن يخلف وعده، فأجابه

الملك ولا أن يجعل نفسه رقاً، ولا سيما في ما يؤول لمصلحة المملكة. ولم ينفك اسبار ملتحاً على الملك بانجاز وعده، ولم يكن للملك ابن وكان لعقيقته واريناً أخ اسمه باسيليك يطمع في الملك وهو غير أهل له، وكان للملك ابنة اسمها ارتيرنا زوجها بزنيون الايسوري، وكان بصره يطمع إلى الملك أيضاً، فكان مريدو الملك في دولة لاون ثلاثة ولكل منهم مريدون ومشايعون. وعمد كل منهم إلى الخيانة والغدر. وأعدّ الملك اسطولاً كبيراً ليحمل على جنساريك ملك البندالة الذي كان قد استحوذ على المغرب، وأزمع أن يلحق به المشرق، وأمر على الاسطول باسيليك أخا الملكة، وأمره أن يضرب جنساريك في افريقية، فخشي اسبار وبنيه أن يعتز الملك بامتلاكه افريقيا فينفيه من مملكته. وكانوا يتوددون إلى جنساريك لأنه كان اريوسياً مثلهم، فزينوا لباسيليك بأنهم يعاونونه على ارتقائه إلى منصّة الملك إذا لم تنجح حملته على افريقيا، فتقاعد عن اصلاء نار الحرب، وطلب جنساريك إليه أن يهادنه خمسة أيام ليقرر معه شرائط الصلح، فأجابه إلى سؤاله. وبث جنساريك بين اسطول لاون حراقات ألقت النار في سفنه، فأحرقت كثيراً منها وابدت كثيرين من شجعانها، وقفل باسيليك إلى القسطنطينية، وخشي سخط الملك فلجأ إلى كنيسة القديسة صوفيا، ولكن شفعت به أخته فرضي الملك عنه. وقد نصب الملك صهره زينيون قائداً لجيش المشرق سنة ٤٦٩م وأرسله إلى تراسة لكبت بعض المعتدين، وحسده اسبار وهيج الجنود عليه فتأمروا على قتله، ففرّ إلى سرديكا وهي صوفيا قسبة البلغار. ودرى الملك أنّ اسبار ينشيء هذه المكاييد فأراد أن يسترضيه بإقامة أحد أبنائه قيصر، وأثر بطريسيوس أحدهم على أخويه، وعهد إليه بهذا المنصب وخطب له ابنته الثانية لاونية، فهاج أهل قسطنطينية، وصرّحت الملكة للملك باستيائها، وأهان الشعب بطريسيوس، وأقبل البطريك والكهنة والرهبان وجمّ غفير من الاهلين إلى القصر يصيحون إلى الملك أن ينصب قيصراً كاثوليكيّاً صحيح العقيدة لا اريوسياً كما كان ابن اسبار، وأن لا يعرض الكاثوليكين لسوء المعاملة والاضطهاد كما كان في أيام قسطنس ووالنس، فأبان الملك لهم أنّ بطريسيوس ارعوى عن ضلاله، وأنه سيبيّن للجمهور صحة عقيدته فاطمأنوا إلى كلامه. وكان اسبار وبنيه قد فرّوا إلى خلکیدونية عندما رأوا هذا الهياج، فمضى البطريك يؤمنهم ليعودوا فأبوا إلا أن يأتي الملك بنفسه فيرجعهم آمين، فأتى وصحبوه إلى قصره وأكرم مثواهم. وظنّ الراحة استتبّت لكن اسبار العاتي حسب عفو الملك عنه اهانة

حديثه له، فلم يرح عاتياً فسئمت نفس الملك صلفه، فاستدعاه وبنه إليه واغتاله وابنه اردابور أحد الخصيان، وطرح بطريسيوس مشخناً بجراحه، ثم لم يظهر إلا في أيام الملك انسطاس. وفرّ هرمنار ابن اسبار الثالث إلى ايسوريا واستراح الملك من شرّ اسبار وبنه سنة ٤٧١م.

ورزق الملك لاون ابناً لكنه مات حدثاً، فهمّ أن يقيم زينون الايسوري صهره خلفاً له، فهاج شعب القسطنطينية لمقتهم كل ايسوري، وقتلوا كثيرين من الايسوريين. وكان زينون ذميم المنظر وخلقه متناهياً في شناعة الخلق، فأضرب الملك عن اقامة زينون وأقام سنة ٤٧٣م ابنه المسمى لاون حفيد الملك (ابن بنته) ولم يكن له من العمر إلا أربع سنين. فرضي الشعب عن هذا الامير رعاية لجده الملك لا لأبيه زينون. إلا أنّ الملك لاون لم يعيش بعد ذلك إلا قليلاً لأنّ المنية أدركته في شهر كانون الثاني سنة ٤٧٤م، وكان هذا الملك ورعاً مدافعاً عن الايمان الكاثوليكي ورسوم المجمع الخلكيدوني ضد الاوطاخيين. وسنّ شرائع محكمة نافعة للدين والتقوى منها شريعته الآمرة بالامتناع عن الاعمال الخدمية أيام الآحاد والاعياد، وشريعته الناهية عن الارتقاء إلى المراتب البيعية بالرشوة والمال. وبعد دفنه أخذت لاون الصغير أمه وجدته إلى احدى ساحات المدينة وأجلسته بحضرة الشعب على العرش، وتقدّم أبوه زينون إليه على سبيل التهنتة له، فوضع له التاج على رأسه وأعلن أنه شريكه في الملك كما لقنته جدته وأمه. إلا أنّ لاون الصغير لم يعيش بعد تملكه إلا نحو تسعة أشهر. وظنّ كثيرون أنّ أباه دسّ له سمّاً فقضي في شهر تشرين الثاني سنة ٤٧٤م (افاغريوس ك ٢ من تاريخه فصل ١٧ ونيكوفورس ك ١٥ فصل ٢٨).

عد ٦٠٧

الملوك زينون وباسيليك ولاوس

لم يرق زينون إلى منصّة الملك إلا وقد تمرّغ بأحوال فحشائه وملاذه حتى كان يحسب عاراً عليه أن يستتر عنه اتيانه المعاصي ويستحل كل محرّم. وكان في عقيدته اوطاخياً ويؤيد أصحاب هذه البدعة. وكان جباناً وغداً جاهلاً يدبر كل شيء بحسب ميوله لا بالعدل والسداد. وقد أثقل مسوديه بالخراج والضرائب منها أنّ خراج مصر كان خمسين ليبرة من ذهب فجعله خمسمائة ليبرة. وكان يستشير

القديس دانيال العمودي لكنه يستشير السحرة أيضاً ويعمل بمشوراتهم الخبيثة. وكان له من امرأته الاولى ابن على شاكلته في فحشائه جزم أن يجعله خليفة له فعاجلته المنية. وكان له أخوان فاقه أحدهما في قسوته ورعونته وفاقه الآخر في تفاحشه، وكلاهما جعلاً أعمال المملكة في أسوأ حال وصلاً على المال والعرض والدم.

وكانت واريناً حماته التي أحلته على منصّة الملك تظن أنها تنال كل ما تسأل، ولما سأله يوماً حاجة ما أنكرها عليها، فكأيدته وأنشأت محالفة خفية عليه وعزمت أن تثل عرشه، وتجلس عليه أخواها باسيليك واثقة بأنه لا مناص من سقوطه إذا قاطعته. ولما تمّ عقد الائتثار على خلعه أرسلت تنبهه إليه فراعته الخبر وانهزم إلى خلکیدونية ثم إلى ايسورية. فاستراح الشعب من هذه الجائحة وحملوا على الاربوسيين الذين كانوا كثيرين في القسطنطينية، فقتلوا منهم جثّاً غفيراً ونودي في هذه المعمعة باسيليك ملكاً. ووضعت واريناً أخته التاج على رأسه وسمي هو امرأته زينونيدة ملكة، وابنه مرقس قيصرًا ثم امبراطورًا.

على أنّ باسيليك جعل الناس بسوء أعماله يأسفون على خلع زينون، فإنه كان أقبح منه سيرة وسريرة أثار عليه بيخله وطمعه أعوان القصر والجنود والشعب، فكان يحلل بالمال أفظع ما حرّمته الشرائع، ويطلب من الاساقفة ما يبهظهم من مبالغ المال، ويثقل العملة الصعاليك بضرائب يعجزون عن اداؤها. ودرى باسيليك أنّ أخته واريناً أرملة زينون متيّمه بحب شاب اسمه بطريسيوس من مقدمي قصرها، وخاف أن تتزوج به وتجلسه على التخت بدلاً منه فقتله. وآلت واريناً أن تتأثر بدمه وتهلك أخواها وتعيد زينون إلى الملك، وكانت زينونيدة امرأة باسيليك اوطاخية وغير أمينة لله ولا لزوجها، فأشربته ضلال اوطيخا، فاستدعى تيموتاوس النمّس الذي اختلس بطريكية اسكندرية من منفاه، فأتى القسطنطينية كظافر، واستقدم بطرس القصار الدخيل على بطريكية انطاكية من مخباه في دير منذ ثماني سنوات فأتى متشامخاً. وكلاهما بعثا الملك على ابراز منشور يأمر به الاساقفة والكهنة والرهبان أن يحرموا البابا لاون والمجمع الخلکیدوني، فأذعن بعض الاساقفة لأمره، على أنّ اكاشيوس القسطنطيني نبذه وجمع الكهنة والرهبان في كنيسة قسطنطينية، وغشى المذبح وعرشه الاسقفي بستائر الحداد، وأقاموا الحجة على منشور الملك وكتبوا إلى الخبر الروماني القديس سمبليشيوس ينبئونه بما كان.

فكتب سنة ٤٧٦م أربع رسائل إلى الملك والبطريرك وكهنة القسطنطينية ورؤساء أديارها يذكر الملك بما كان عليه مرقيان ولاون سالفيه، ويشدد البطريرك والاكليريكيين في المناضلة عن الايمان القويم والمناصبه للنمس والقصار. واستمر الملك مصبراً وخاف أن يدبر عليه زينون فيخلعه من الملك ويعود إليه. فأرسل ايلس أحد عماله إلى ايسوريا يقتل زينون. فكتبت وارينا وأخصّ رجال الندوة إليه أن لا يعمل بأمر الملك بل أن يعاون زينون، فأثر العمل بمرضاتهم على مرضاة الملك. وانضمّ بجنده إلى زينون ولحق بهم كثيرون من مريديه، فهبّ زينون إلى القسطنطينية بجيش كثيف. وعلم باسيليك بذلك فأثى إلى الكنيسة يعتذر عن أعماله جهاراً، وينقض أمره السالف ويحرم نسطور واوطيخا وكل المبتدعين، ويأمر برعاية الايمان الكاثوليكي واستمراره دون تغّيّر على ما كان عليه من أيام الرسل، وألّب من بقي من الجنود في القسطنطينية وتراصة وما جاورهما، وأمر على الجيش ارماتايوس خليل امرأته بعد أن أقسم ايماناً معظماً أنه يرضى الامانة. فالتقى الجيشان حذاء نيقية، وكادت الدوائر تدور على زينون، وأوشك أن ينهزم لو لم يمكنه ايلس مبيتاً له أنه يتيسر له كسب ارماتايوس. ومضى ايلس إلى معسكر ارماتايوس متنكراً، ووعده بأن يجعله رئيس الحرس الملكي ما دام حياً، وبأن يسمي ابنه قيصرأ له حق الخلافة بعد وفاة الملك. فأنست هذه الوعود ارماتايوس ايمانه ووجهه لزيونيدة امرأة باسيليك، ولكي يستر خيائنه مضى في غير الطريق التي سار بها زينون إلى القسطنطينية، فوصل زينون إليها وأبوابها مشرّعة فدخلها آمناً فالتقاه رجال الندوة والشعب ولا سيما وارينا الملكة، فتسارع باسيليك ولجأ إلى كنيسة القديسة ايرينا مع حرمة وأولاده، ونزع التاج عن رأسه ووضع على المذبح، فلم يجسر زينون أن ينتهك حرمة هذا الملجأ بل أرسل إليه ارماتايوس يؤكد له أنه لا يقطع رأسه ولا يريق دم امرأته ولا أولاده إذا خرج من الكنيسة. وجمع زينون رجال الندوة ومن وجد من الاساقفة في القسطنطينية يستشيرهم في ما يفعل، وحكم على باسيليك بالنفي مع امرأته وأولاده إلى الكبادوك، على أنّ زينون أمر أن يلقوه مع عائلته في جبّ لا ماء فيه، ووثق بابه وأقام عليه الجنود كيلا يأتيهم أحد بقوت. وبعد أيام وُجدوا موتى لشدة الجوع وقرص البرد معانقاً أحدهم الآخر. وحسب زينون أنه برّ يمينه بأنه لم يقطع رأسه ولم يرق دم ذويه. وعن بعضهم أنّ زينون نفاه إلى الكبادوك بحسب الحكم عليه وأماته هناك جوعاً، وكان ذلك سنة ٤٧٧م (افاغريوس ك ٣ فصل ٧).

ولم يخلف زينون وعده لارماتايوس بل سماه رئيس الحرس الملكي، وسمى ابنه قيصرًا. على أنه بعد مدة قتل ارماتايوس وهم أن يلحق به ابنه، ولكن شفعت به الملكة فاكثفى بأن يجزّده من منصبه، ويكرهه على أن يصير اكليريكياً، وصار بعد ذلك أسقفًا على مدينة شيزيك (بأسيا الصغرى) وقام بأعباء مقامه كأنّ الله دعاه إلى ذلك. وانكفّ زينون عن معاصيه مدّة، وكافأ رجال الندوة وشعب القسطنطينية على ما صنعوه إليه، فغالوا في مدحه وأقاموا له التماثيل، ومضى يزور مع الملكة القديس دنيال العمودي ويعزو عوده إلى صلواته. وكتب إلى البابا شمبليشيوس يشكر له ارتياحه إلى عوده إلى الملك، ويعد بأن يستأصل ضلال اوطخيا ويناصب تابعيه، ويعني بأن يرعى الجميع رسوم الجمع الخلكيدوني، وأن يرد على الاسكندريين أسقفهم الشرعي. فأجابه البابا في ٨ تشرين الاول سنة ٤٧٧م مبدياً سروره بعوده إلى منصّة الملك، ومؤكداً له أنّ أعداء ملكه هم أعداء الله، وأنّ عليه أن يقابل احسان الله إليه بمدافعتة عن كنيسته، وعن رسوم الجمع الخلكيدوني، وبابعاد تيموتاوس النمى عن كنيسة الاسكندرية. وقد نقض زينون كل ما أمر به باسيليك مما يعود على الايمان والكنيسة بالضرر، وعمل برغائب البابا بأن غثي في عقد مجمع في الشرق حط فيه بطرس القصار يوحنا أسقف اباميا وبولس أسقف أفسس عن أسقيتهما. وكان الملك يريد أن يطرد النمى من الاسكندرية، وقيل له أنه هرم وأنه سيموت عما قليل. وقد مات بعيد ذلك ويقال أنه تناول سمّاً كيلا يطرد من كرسيه، وانتخب مشايعوه بطرس الالغ وكان رئيس الشمامسة في كنيسته، ورقاه إلى الاسقفية أسقف واحد ليلاً، فطرده الملك وردّ على الاسكندرية أسقفها الشرعي المسمى تيموتاوس سولوفاسيال، وأمر الاساقفة بطاعته (افاغريوس ك ٣ فصل ٨ وما يليه).

وكان للغبط ملكان اسم أحدهما تيودوريك امال، واسم الآخر تيودوريك لوش. ولدى تنازع باسيليك وزينون الملك كان امال من جهة محازبي زينون ولوش من محازبي باسيليك، فكافأ زينون امال بأن سماه بطريقاً وقائداً لحرس القصر، وأرسله يخضع لوش إلى سلطانه. ونوى أن يهلكه فاستلمح امال نيّة الملك وواتق لوش وحملًا معاً على زينون في القسطنطينية، وأعلن زينون الحرب عليهما فأغناه هذا الاعلان عن جيش جرار، لكنه انغمس بترفه وملاذه وأهمل جنوده فحققوا عليه وهتموا بأن يقيموا ملكاً عليهم، ففرّق شملهم وعقد صلحاً مع الغبط، فكانت وغادته داعياً للثورة عليه.

وفي سنة ٤٨٤م عملت واريننا أرملة الملك لاون على اهلاك ايلس المذكور آنفاً، فنجاه زينون من مكيدتها، وحجر عليها في قصر يسمى بابيريوس في ايسوريا. ثم كادت له اريدنا ارملة زينون، فجمع ايلس جيش المشرق ونادى بلاونس ملكاً وكان لاونس سورياً وُلد في قنسرين وضليعاً في العلوم وصناعة الحرب، وقائداً في جيش تراسة. ومضى ايلس ولاونس يزوران واريننا في محبسها فأقنعهاا بالوعود وأخذهاا إلى ترسيس، وجعلهاا تضع التاج على رأس لاونس بحضرة الجيش، وتكتب رسالة عامة إلى جميع حكام المشرق ومصر وليبيا تقول فيها تعلمون أنّ الملك لنا، وإننا بعد وفاة قريننا رفعنا إلى منصبه زينون وكنا نؤمل أن يسعد شعبنا ويرقيه في مدارج التقدم، فأخطه وأثقله بطمعه وبخله، ولذلك رأينا لازماً أن نولي عليكم ملكاً ميسحياً حقاً يدبر الملك بحسب قواعد الدين والعدل ويصلح شؤون المملكة المتداعية للخراب ويكبح أعداءها، فتوّجنا لاونس المعروف بالفضل والتقوى، فأقّروا له بالملك واخلصوا في الطاعة له، ومن خالفه عُذّ عاصياً. فتقبّل الاكثرون هذه الرسالة بالمسرة والاذعان ودان أكثر مدن سورية للاونس. ولما رأى ايلس أنه لم تعد حاجة في واريننا ردها إلى محبسها في ايسوريا حيث أدركتها المنية بعيد ذلك. وأما لاونس فأرسل إليه زينون تيودريك (لعله أحد ملكي الغطط المشار إليهما آنفاً) فقتله بعد أن ملك ثلاث سنين وأتبع به ايلس. وبعد أن تشاغل زينون بشؤون الكنيسة على غير هدى كما سيجئ في القسم الديني، أدركته المنية في شهر نيسان سنة ٤٩١م. وقال بعض المؤرخين اليونان الحدباء أنه دُفن حياً. وقال قداماؤهم أنه أصابه فالج قضى به. وكان يريد أن يترك الملك لأخيه لنجين وهو غير أهل له فسعت امرأته اريدنا مع رجال الندوة فملكوا انسطاس.

عد ٦٠٨

انسطاس الملك

إنّ انسطاس وُلد في درانش دورازو (مدينة على شاطئ الادرياتيك شرقاً) سنة ٤٣١م، وتقلّب في المناصب إلى أن صير رئيس الحرس المكلف بملازمة الصمت في القصر. وكان متقلّباً في آرائه ما زانته فضيلة إلاّ عابته رذيلة. وبعد وفاة زينون حاول أخوه لنجين أن يأخذ الملك فقاومه رجاء الندوة، واريننا ارملة زينون

والشعب، وآثروا عليه انسطاس سنة ٤٩١م. وتزوجت اريدنا به بعد وفاة زوجها بأربعين يوماً، وكان جانحاً إلى ضلال اوطيخا فلم يشأ اوفيموس بطريرك قسطنطينية أن يتوجه إلى أن جحد ضلاله، وأعلن أنه مذعن لرسم الجمع الخلكيدوني، ودون اقراره بصك امضاه بيده، ووقع عليه وحفظ في خزانة كنيسة قسطنطينية. وكان انسطاس ورعاً يكر إلى الكنيسة فلا يخرج منها إلا بعد انصراف الشعب، ويكثر من الاصوام والصدقات، ولذلك أكثر الشعب من الاحتفاء بتمليكه والتهاتف عند ظهوره لأول مرة بالمطارف الملكية املك كما عشت. على أن أمه كانت تدافع عن المانويين وخاله كلارك يؤيد جانب الاريوسيين فأثر ذلك بآدابه. ولما علم البابا فلكس بارتقائه إلى منصة الملك كتب إليه مهتئاً حاثاً له على الذب عن المذهب الكاثوليكي. ولم يصرح له بقبوله في شركة الكنيسة قبل أن يرى ما يكون من أعماله. ثم أدركت الوفاة هذا الحبر في ٨ شباط ٤٩٢ وخلفه البابا جلاسيوس، فكتب إلى انسطاس الملك يشره بارتقائه إلى السدة الرسولية. على أن هذا الملك لم يرع تعهده بالمحافظة على الايمان الكاثوليكي وأخلف وعده الذي دونه لأنه عزل ونفى البطريرك اوفيموس الذي توجه، وأمل أن يكون مكدونوس البطريرك الجديد أكثر ممالأة له. وقد مالأه البطريرك أولاً على توقيعه المنشور المعروف بالهانوتيكن (أي منشور الاتحاد الذي كان زينون قد أصدره) إلا أنه أنكر عليه أن يرّد له الصك الذي تعهد به بالمحافظة على رسوم الجمع الخلكيدوني، بل عقد البطريرك مجعماً فأيد ما أمر به هذا الجمع خطأ، فأظهر الملك رضاه عن ذلك لانشغاله بما هو أهم منه وهو خروج قباد ملك الفرس على ارمينيا وما بين النهرين واستحواذه على مدينة امد. وبعد نهاية هذه الحرب التي دامت ثلاث سنين إلى سنة ٥٠٥م عاد انسطاس إلى محاربة الكنيسة، فقد صوّر في معبد قصره صوراً قبيحة تشير إلى خزعات اخترعها المانويون، فقلق الشعب لاعتياده أن لا يرى في المعابد إلا الصور الباعثة على التقوى، وهاجوا على الملك وانتهز الهراطقة هذه الفرصة ليسيطوا على الكاثوليكين، فدفعهم هؤلاء بحدة وعظم الخطب، وكان من عادة الملوك أن يحضروا في الكنائس كعامة الشعب، وخشي انسطاس الغدر به فلم يحضر إلى الكنيسة إلا مخفوراً برئيس حرسه وكتيبة من جنده، فاستطرت هذه العادة، وزاد القلق باستدعائه اخسينا المانوي الذي كان بطرس القصار قد رقه إلى أسقفية ايرابوليس (وهي منبج في شمالي سورية)، وأثار أهل سورية على افلايانس

بطريرك انطاكية فأسخط قدومه الاكليرس والشعب في القسطنطينية، حتى اضطر الملك أن يعده سراً عن المدينة. وكان مكدونئوس بطريركها يناصب الملك في هذه الشؤون، فرشا رجلاً أثيماً ليغتاله فأخطأت رميته البطريرك، وعرف البطريرك الغادر فلم يطلب جزاءه بجنايته بل احتضنه بحمايته، وأوصل الرزق إليه وإلى عياله، فلم تش هذه الشفقة الملك عن عزمه على اهلاك البطريرك وابطال المجمع الخلكيدوني، وأثار عليه جحفاً من الهرطقة فحاولوا الوثوب على داره، فتألب حشد كبير من الكاثوليكين وأخذوا يطوفون أزقة المدينة هاتفين ها هوذا زمان الاستشهاد أيها المسيحيون فلا تتركن أباناً، ويقذفون الشتائم للملك ويسمون مانوياً غير أهل للملك، حتى ارتاع ووثق أبواب قصره وأعدّ سفناً ليهرب. وبعد أن كان في الامس آلى أن لا يرى البطريرك أرسل يرجو منه أن يأتي إليه، فأتى متبسلاً مؤنباً الملك على أنه عدو لكنيسة الله، فراوغه الملك واعدأ بأنه سيعضد الكنيسة. وبعد مدة أرسل إليه خطاً يصرح به أنه مدعن لما رسم في المجمعين النيقوي والقسطنطيني، وصمت عن ذكر المجمعين الافسسي والخلكيدوني، ففرط من البطريرك أن يثبت خطه، لكنه انتبه للحال إلى غلظه ومضى إلى دير، فكتب رسالة عامة صرح فيها باعتقاده كل ما رُسم في المجمع الخلكيدوني، وبتنزيله منزلة الهرطقة كل من لم يعتقد كذلك.

وكان انسطانس هائماً في أن يسترد خطه الذي أبان فيه اعتقاده بالايان الكاثوليكي، فأرسل شلر مدير بلاطه يطلبه فتمتع البطريرك من تسليمه، وأخذ الصك وضمه في صوان، وختمه ووضعته تحت المذبح. فلم يجسر شلر أن يختطفه من هناك، لكن ابتزه أحد خدمة الكنيسة ليلاً ودفعه إلى الملك، فشقه شقاً وطرحه في النار، وطفق يكيد للبطريرك. فرشا ماكرين وثلبا البطريرك بأنه ارتكب الفحشاء أمامهما، فدفع تهماتهما بأنه خصي، فشفع الشعب ورجال الندوة والملكة في البطريرك، فأغارهم أذنأ صماء ونفى البطريرك مكدونئوس، وأقام في اليوم التالي تيموتاوس خازن الكنيسة في كرسي قسطنطينية على ما كان عليه من التهتك وقلة المبالاة بالدين أو بالشرف. وكان تارةً يقرّ بما رسمه المجمع الخلكيدوني، وطوراً ينكره. وطرح كثيرين من الاكليريكيين في السجون، وفر من جوره كثيرون بعضهم إلى فينيقية وبعضهم إلى روما. وحمل بعض الاساقفة المتلقين له على أن يحكموا على مكدونئوس البطريرك دون أن يسمعوا له أو يروه. فعظم الشغب في الكنيسة والمملكة وزاده انسطانس بأنه كتب كتاباً أكثر فيه من الطعن في القديس سيماخس

البابا. فأجابه البابا بكتاب مسهب زيف فيه تهماته وكشف عن غواياته وأتبه على عداوته لله وكنيسته. وكان افلايوس بطريك انطاكية وايليا بطريك أورشليم يناصبان الملك في عزل مكدونئوس بطريك قسطنطينية. فسخط الملك عليهما وأمر بعقد مجمع في صيدا سنة ٥١١م طامعاً أن يجبرهما على مخالفة المجمع الخلكيدوني فلم ينولاه مأربه. واشتدّ سخطه عليهما وعزم أن يعزلهما فأرسل إلى انطاكية اخسنيا المانوي أسقف ايربوليس، فجمع رهبان سورية الاولى (في شمالي سورية) وأتى بهم إلى انطاكية متملقين متقحين عازمين أن يكرهوا افلايوس على أن يحرم المجمع الخلكيدوني. فشقّ على البطريك صنيعهم وثار الشعب على أولئك الرهبان فقتلوا بعضهم وألقوا جثثهم في العاصي. وسمع رهبان سورية الثانية (في وسط سورية) فأتوا للمدافعة عن البطريك فتذرع الملك بذلك ونفى افلايانس إلى العربية وأقام مكانه ساويروس. وأرسل بعض عماله إلى انطاكية ليمكنوه في كرسيه ويخمدوا جذوة غضب الشعب، فنفوا كثيرين عن عليّة الاكليروس وأجلسوا ساويروس على كرسي انطاكية سنة ٥١٢م، وأصدر منشوراً حرم به المجمع الخلكيدوني فلم يقبله أهل فلسطين بل طردوا مذييعه. وأما الاساقفة فانخدع بعضهم وأذعن بعضهم مكرهين، ومزق بعضهم المنشور ولم يقبلوه. ومن هؤلاء يوليان أسقف بصرى، وايفان أسقف صور. وبعضهم تركوا كنائسهم واعتزلوا في أديار فلسطين. ومن هؤلاء بطرس أسقف دمشق. وبعضهم حكموا على ساويروس بأنه منحط عن مقامه وأرسلوا إليه حكمهم. ومن هؤلاء قرما أسقف حماه وسوريان أسقف ارتوسيا (كان موقعها عند مصبّ نهر البارد. رنان في بعثة فينيقية) فأمر الملك والي فينيقية أن يطردهما من كراسيهما، فأجابه أنه لا يمكن طردهما دون اراقة دم كثير لتشجيع شعبهما لهما فرغب عن ذلك.

وعلم ساويروس أنّ ايليا بطريك أورشليم لم يقبل منشوره فأرسله إليه سنة ٥١٣م مع بعض الاكليروس وعمال الملك ليكرهوه على قبوله، فأتى القديس سابا من البرية مصحوباً برؤساء الاديار واجتمع حشد من الرهبان والعامّة، فطردوا من المدينة حاملّي المنشور واجتمعوا حول الجلجلة يصيحون فليكن محروماً ساويروس ومن اشترك معه. وأراد ساويروس أن يستميل إليه المنذر أحد ملوك الحيرة من بني غسان، وكان قد سطا على ملك الرومانيين في العربية وفلسطين، ولما رأى معجزات القديس سابا تنصّر واعتمد فأرسل إليه ساويروس أسقفين من أشياعه ليستغويه

بضلاله، فقال المنذر لهما أتنبي رسائل تنبي بأن ميخائيل زعيم الملائكة قد مات. فقال الاسقفان هذا محال مضحك فالملك لا يموت. فقال المنذر إن صبح قولكما فكيف مات المسيح وهو إله إذا لم تكن له طبيعة بشرية. فخجلا وانصرفا من عنده كئيبين. رواه توادورس القارئ (ك ٢ من تاريخه).

ولما علم انسطاس الملك أن ايليا بطريرك أورشليم لم يدعن لساويروس بطريرك انطاكية أرسل اوليمبيوس والي فلسطين إلى أورشليم، فاحتال في طرد ايليا من كرسيه وابعاده منفياً إلى ايلة على البحر الاحمر. وأقام مكانه يوحنا بن مرشيان في ٣ ايلول سنة ٥١٧م لأنه وعد بأن يوافق ساويروس. ولما علم القديس سابا وسائر رؤساء أديار فلسطين بعثوا يوحنا على اخلاف وعده الاثمي. ودرى الملك بذلك فاستشاط غيظاً وأرسل إلى أورشليم انسطاس بن بمفيل بدلاً من اوليمبيوس الوالي. فقبض على يوحنا البطريك وألقاه في السجن. فقال له يوحنا أخرجني من هنا لهذا يقال إنني عملت بمرضاة الملك مكرهاً ونهار الاحد أصنع ما تأمر. فرضي الوالي عنه وأخرجه من السجن. فاستدعى البطريك رهبان فلسطين إلى أورشليم فحضروا إليها ورثا عددهم على عشرة آلاف على ما يقال، واجتمعوا نهار الاحد في كنيسة القديس اسطفانس فأخذ الشعب يصيح احرموا الهراطقة، أيّدوا الجمع الخلكيدوني. فهتف الآباء المجتمعون ورؤساء الاديار فليكن محروماً نسطور واطاخي وساويروس الانطاكي وكل من لا يدعن للمجمع الخلكيدوني ومن لا يقبل المجمع الاربعة كالاناجيل الاربعة فليكن محروماً. فذهش الوالي وارتاع من حشد الرهبان ففرّ إلى قيصرية، واتصل الخبر بانسطانس فتمزق غيظاً وعزم أن ينفي البطريك يوحنا ورفع إليه القديس سابا ورؤساء أديار فلسطين عريضة يؤنبونه بها على اطلاق الكنائس، ولا سيما كنيسة أورشليم، ويسألونه أن ينكف عن هذا التعرض لمسائل الدين. وكان حينئذ ويتاليان أحد قادة الجيش ورئيس عصابة الكاثوليكين يثير الحرب عليه لاضطهاده الكاثوليكين فرغب الملك عن نفي البطريك يوحنا الاورشليمي.

أما ويتاليان المذكور فكان من أحفاد اسبار وزير الملك لاون الكبير وقائداً في جيش الملك، فأقامته عصابة من الكاثوليكين من بلاد التتر وتراسة وغيرها رئيساً لها. فحمل سنة ٥١٥م على انسطاس بجيش جرار وخيّم حول العاصمة، فارتاع انسطاس وطلب عقد الصلح، فطلب ويتاليان من جملة شروطه أن يرد مكدونوس بطريك قسطنطينية إلى كرسيه، وافلايانس بطريك انطاكية إليها، وأن يعقد مجمعاً

يرأسه الحبر الروماني لمنع الاضطهاد عن الكاثوليكين، فرضي الملك هذه الشروط ووقع عليها وأقسم على اتمامها. وكتب إلى البابا هرمزدا يسأله عقد هذا الجمع وأن يحضره بنفسه في أول تموز سنة ٥١٥م، فأجابه البابا مبدياً سروره، وأرسل إليه وفداً من الاساقفة أصحابهم بارشاد مهم يمكن الاطلاع عليه برمته في تاريخ روهربخر (ك ٤٣). على أن انسطاس لم يكن غرضه إلا المخادعة والتسويق، فأرجع الوفد إلى البابا متذرعاً بحجج واهية يعتذر بها عن عقد الجمع حينئذ. وفي سنة ٥١٧م أرسل البابا إلى القسطنطينية وفداً آخر، على أن انسطاس جامل الوفد الاول وأكرم مثواه خوفاً من ويتاليان. وأما الوفد الثاني فحاول أن يرشيه بالمال ليمالكه على رغائبه، ولما لم ينل منهم مأرباً أصرفهم مهانين، وأنزلهم في سفينة مخفورين، وحظر عليهم أن يحلوا في مدينة في طريقهم. واجتمع بعض الاساقفة في هرقلية فخادعهم الملك ولم يدعهم يبتون شيئاً، وفي أثر ذلك كتب رؤساء أديار سورية الثانية رسالتهم الشهيرة إلى البابا هرمزدا التي سنأتي على ذكرها برمتها في الكلام على رهبان القديس مارون.

وفي سنة ٥١٧م أخرج الغلط مكدونية واتصلوا إلى تساليا والايبر وأخذوا كثيرين من الاسرى، ولم يتمكن انسطاس من اقتنائهم. وفي سنة ٥١٨م حمل ويتاليان ثانية على الغلط، وحصلت زلازل شديدة في تراسة أخرجت كثيراً من المدن. وفي ليلة الاول من شهر تموز حصلت رعود وبروق حول قصر انسطاس فارتاع وأخذ يفر من غرفة إلى أخرى، ثم وُجد ميتاً في مخدع صغير، ويُظن أنه أصيب بصاعقة وكان عمره ٨٨ سنة، ودام على منصبة الملك ٢٧ سنة (ملخص عن تاريخ روهربخر ك ٤٣ وعن افاغريوس وتوفان وشدرانس في مختصر تاريخه وبارونيوس وغيرهم). اسأل القراء معذرة لشرودي عن كتب التاريخ الديوي إلى الكلام في التاريخ الديني، فانسطاس وزينون أثرا العناية بأمور الدين وتديير الكنيسة كما يحبان على العناية بشؤون المملكة وكبت أعدائها، فلم يكن لانسطاس ما يذكر في جانب مصلحة المملكة إلا رد عماله في فلسطين وسورية العرب عن سطوهم على هذه البلاد، واسترجاع قادة جيشه بعض مدن ما بين النهرين وارمينية من يد الفرس. وقد صالحهم صلحاً مذللاً له بل شراه بثمان فاحش. وفي الجملة قد عمل على قهقرة المملكة واقلاق شعبها والقاء عصا الشقاق بينهم فأضر بها وبالكنيسة وب نفسه.

الفصل الثاني

بعض الاحداث في سورية في هذا القرن

عد ٦٠٩

الحرب التي كانت بين الاسود أحد ملوك الحيرة وبني غسان ملوك الشام

قلّ ما عثرنا في ما لدينا من الكتب على أخبار أحداث دنيوية مهمة في سورية في هذا القرن. فقد أغفلت المسائل الدينية ولائها وشعبها الاهتمام بغيرها. وقلّ من كان فيها من المشاهير العلماء غير الدينيين. وأهمّ ما ذكره المؤرخون العرب من الحروب في سورية في هذا القرن إنما هو الحرب التي كانت بين الاسود بن المنذر ابن النعمان من الملوك اللخميّين في الحيرة بقرب الكوفة، وبين الامراء آل غسان ولاة الشام. وقد روى أخبار هذه الحرب كثيرون من المؤرخين العرب ومنهم أبو الفدا في الكتاب الاول من تاريخه(في كلامه على الملوك اللخميّين في الحيرة)، فقال إنّ الاسود انتصر على غسان عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم وأراد أن يعفو عنهم. وكان له ابن عم يقال له ابو أذينة قد قتل آل غسان له أخاً في بعض الوقائع، فقال أبو أذينة في ذلك قصيدته المشهورة يغري الاسود بقتلهم فمنها:

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا	ولا يسوّغه المقدار ما وهبا
وأحزم الناس من أنّ فرصة عرضت	لم يجعل السبب الموصول منقضبا
وانصف الناس في كل المواطن من	سقى المعادين بالكاس الذي شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم	بحد سيف به من قبلهم ضربا
والعفو إلا عن الاعفاء مكرمة	من قال غير الذي قد قلته كذبا

قتلت عمراً وتستبقي يزيد لقد
 لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها
 هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً
 إن تعف عنهم يقول الناس كلهم
 هم اهله غسان ومجدهم
 وعرضوا بفداء واصفين لنا
 ايحلبون دماً منا ونحلبهم
 علام تقبل منهم فدية وهم
 رأيت رأيا يجر الويل والحربا
 إن كنت شهماً فاتبع رأسها الذنبا
 واوقدوا النار فاجعلهم لها حطبها
 لم يعف حلماً ولكن عفوه رهبا
 عالٍ فإن جادلوا ملكاً فلا عجبها
 خيلاً وإبلاً تروق العجم والعربا
 رسلاً لقد شرفونا في الورى حلبا
 لا فضة قبلوا منا ولا ذهبها

قال أبو الفدا قد نقلت ذلك من مجموع بخط القاضي شمس الدين بن
 خاكان ورأيت في تاريخ ابن الاثير خلاف ذلك إن الاسود قتله غسان وانتصرت
 عليه غسان. ثم قال ابن الاثير وقيل غير ذلك، انتهى كلام ابي الفداء. ومما قاله
 المؤرخون العرب أيضاً أن النعمان بن امرئ القيس الثاني من هؤلاء اللخمين الذي
 ملك في هذا القرن، غزا الشام مراراً كثيرة، وأكثر المصائب في أهلها، وسبى وغنم
 كثيراً من الاموال وهو الذي نهض بثأر رجل من بني غسان يقال له الضيزن. وأخذ
 ديته مئة ألف دينار ممن كان في زمانه من ملوك الروم. وهذا الملك هو الذي بنى
 الخورنق والسدير القصرين الشهيرين في الحيرة. ويروى أنه كان يقول:

وإذا سكرت فإنني رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإنني رب الشويهة والبعير

وإنه اعتزل الملك وتزهد فملك مكانه المنذر ابنه، ثم خلف المنذر ابنه الاسود
 الذي قدمنا ذكر حربه مع آل غسان لأهميته. ويقال إن الاسود ملك سنة ٤٧٣م
 ولم يكن القطع بصحة تاريخ السنين في ملك هؤلاء الملوك.

غزوة ماوية لفينيقية وفلسطين وحرب ابنها المنذر مع آل غسان

ماوية هي المعروفة في كتب المؤرخين العرب بماء السماء لحسنها، وهي على قولهم بنت عوف بن جشم من ملوك الحيرة. وقد ذكر سوزومانس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٣٨) هذه الغزوة فقال ما ملخصه مات في تلك الاثناء (أي في أيام والنس الذي ملك من سنة ٣٦٤م إلى سنة ٣٧٩) ملك السراكسة (يريد بهم العرب وهنا ملوك الحيرة) فانحلت موثيق المعاهدة بينه وبين الرومانيين، وكانت امرأته ماوية تدبر الملك فحملت على مدن فينيقية وفلسطين، وضربت فيها ونكلت بأهلها واتصلت إلى تخوم مصر. وكانت هذه الحرب شديدة هائلة وإن مع امرأة، حتى استدعى قائد جيش فينيقية رئيس الرجالة والفرسان المقيمين في المشرق لنجدته، فسخر منه الرئيس وحظر عليه أن يدخل في المحاربة معها، ولما تلظت نار الوغى بين الجيشين اضطر الرئيس أن يدخل المعركة مع ماوية التي كانت تقود جنودها، وأرغم على الفرار وتولاه الخنجل من قائد الجيش الذي كان سخر منه. أما القائد فلما رأى الرئيس محفوفاً بالخطر، قضى أنّ من الحق أن يبقى خارجاً عن ساحة القتال كما أمره الرئيس، فأسرع لنجدته ولقى العدا فصدهم عن لحاقه، وبسط سجافاً يصون الرئيس من ايصال نبال الاعداء إليه. ويذكر هذا كثيرون من سكان تلك الانحاء، ويترنم العرب بأغاني موزنة به. ولما طالت مدة الحرب وأعضلت الرومانيين أرسلوا وفداً إلى ماوية يلتمسون هدنة فأنكرتها عليهم، إلا أن يعنوا باقامة ناسك في البرية القريبة منهم أسقفاً على أمتها، وكان ذاك الناسك اسمه موسى، وقد نما عرف فضله وتضوّعت تلك الاقطار بذكر الآيات التي كان الله يصنعها على يده. فأخبر رؤساء الجيش الملك بذلك وحملوا موسى إلى لوشبوس بطريك الاسكندرية وكان اريوسياً، ولما مثل موسى أمامه وأمام اعوانه والشعب المتسارع إلى هناك قال للأسقف لست أهلاً للارتقاء إلى مقام الاسقفية، وإذا أراد الله ذلك وأنا غير أهل له فبالله خالق السماء والأرض لا أطيق أن تضع عليّ يدين ملطختين بالقتل ودم القديسين، فقال له الاسقف ليس من العدل أن تثلبني ايماني قبل علمك به، وإن كنت قد سمعت من بعض عذالي فاسمع الآن مني وكن قاضياً عدلاً في ما قيل لك، فأجابه موسى أنّ ايمانك بيّن لي، ولي عليه يثبت

دامغة في الاساقفة والكهنة والشمامسة الذين حكمت عليهم في النفي أو الشغل في حفر المعادن، وأقسم أنه لا يقبل الكهنوت إذا كان لا بدّ للوشىوس من أن يضع عليه يده. ولما سمع ذلك رؤساء الجيش الروماني أخذوه إلى بعض الاساقفة المنفيين فرّقوه درجة الاسقفية ومضى إلى الحيرة يدبر شعبها وأمرائها المنتصرين.

وكان لماوية ابن يسمى المنذر ملك بعدها وكانت بينه وبين الحارث أحد ملوك غسان ولاية الشام حروب، واحداها من أيام العرب المشهورة يقال لها يوم عين أباغ. قال أبو الفدا في ذلك (ك ١ صفحة ٨٤) كان هذا اليوم بين غسان ولخم، وكان قائد غسان الحارث الذي طلب ادراع امرئ القيس من السموأل، وقيل غيره وكان قائد لحم المنذر بن ماء السما بغير خلاف، وقتل المنذر في هذا اليوم وانهزمت لحم، وتبعتهم غسان إلى الحيرة، وأكثروا فيهم القتل. وعين اباغ بموضع يقال له ذات الخبار. انتهى قول أبو الفدا. وإن صحّ قوله أنه كان قائد لحم المنذر بن ماء السما بلا خلاف، فتكون هذه الحرب في أوائل القرن الخامس لأنّ أمه ماء السما كانت في أواخر القرن الرابع كما روينا عن سوزومانوس. وأما الحارث قائد بني غسان فإن صحّ قوله هنا فيه كان الحارث بن الايهم أخوا النعمان، لكنه قال في ذكره ملوك غسان أن جبلة بن النعمان هو الذي قاتل المنذر بن ماء السما. وأما وصفه الحارث بالذي طلب ادراع امرئ القيس فيشير به إلى قصة السموأل الذي يُضرب فيه المثل في الوفاء والأمانة، وذلك أنّ امرأ القيس بن حجر ملك كندة لما قتل بنو أسد أباه استنجد ببيكر وتغلّب من قبائل العرب فأنجذوه. وهربت بنو أسد منهم، ثم تخاذلوا عنه وتطلبه المنذر بن ماء السما المذكور، ففترقت جموع امرئ القيس وخاف هو أيضاً من المنذر، وصار يدخل على قبائل العرب حتى قصد السموأل بن عاديا اليهودي فأكرمه، وأقام امرؤ القيس عنده أياماً وأشير عليه أن يقصد قيصر ملك الروم (يظن سنداً إلى ما مرّ أنّ قيصر هذا هو توادوسيوس الثاني أو اركاديوس أبوه) وأودع أذراعه عند السموأل وكانت مئة درع، ومات امرؤ القيس لدن عوده من عند قيصر، فسار الحارث بن أبي شمر الغساني إلى السموأل وطالبه بأدراج امرئ القيس فتمنع من تسليمها إليه. وكان الحارث قد أسر ابن السموأل فقال له الحارث إما أن تسلم إليّ الأدرع ولما قتلت ابنتك. فأبى أن يسلمها وقتل ابنه قدامه. فقال السموأل في ذلك آياتاً منها:

وفيت بأذرع الكندي إني إذا ما ذم أقوام وفيت
وأوصى عادياً يوماً بأن لا تهدم يا سموأل ما بنيت
وقد لهج الشعراء بوفاء سموأل. وذكر الأعشى هذه الحادثة فقال:

كن لسموأل إذا طاف الهمام به في جحفل كسواد الليل جرار
فشكّ غير طويل ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جاري
وأما المنذر الذي كان قد سطا على فينيقية وفلسطين في أيام الملك انسطاس،
وأرسل إليه ساويرس الانطاكي أسقفين وهو في فلسطين ليستغويه بضلاله، فهو غير
المنذر بن ماء السما المذكور ولكنه من خلفائه.

وكانت بين بني غسان ولادة الشام وبين بني لحم ملوك الحيرة حروب أخرى في
هذا القرن، منها الحرب المعروفة بيوم مرج حليلة من أيام العرب، وكانت الجيوش
فيه قد بلغت من الفريقين عدداً كثيراً، واشتدّ القتال في ذلك اليوم واختلف في
النصر لمن كان من الفريقين (ذكره أبو الفدا ك ١ من تاريخه صفحة ٨٤).

هذا ما عثرنا عليه من الأخبار عن أحداث سورية المهمة في هذا القرن. ولم
يكن سطو هذه القبائل على سورية إلا على سبيل غزوة وأخذ غنيمة أو تشقي بئار.
ولم يكونوا يملكون البلاد التي سطوا عليها، بل ينكلون بأهلها ويأخذون الغنائم ثم
يقفلون إلى بلادهم.

الفصل الثالث

مشاهير العلماء الدنيويون في سورية ومن عاصرهم في غيرها

عد ٦١١

سوزومانوس المؤرخ

نعتد سوزومانوس من العلماء الدنيويين لأنه لم يكن من أهل الكهنوت، بل كان فقيهاً يحامي الدعاوى، وإن كان القسم الأكبر من التاريخ الذي دونه دينياً. وقد وُلد سوزومانوس ويسمى هرمياس في قرية اسمها بيتاثل في جانب غزة، غير بيت ايل المعروفة الآن ببيت اين في ناحية نابلس. وقال هو في قرية هذه (ك ٥ فصل ١٥): «إنها من قرى غزة توافر فيها عدد السكان، وكثرت الهياكل. وإنه كان فيها هيكل (بتأون) جُمعت فيه تماثيل الآلهة. وُثني على أكمة مصنوعة على هيئة قوس. وأرى أنَّ هذا الاسم بهذا الموضع أخذه اليونان عن لغة السريان. (لأنَّ بيت ايل معناها بيت الآلهة). وقال في أهله، أنَّ جده آمن بالمسيح بواسطة القديس ايلاريون، وذلك أنَّ رجلاً من قرية وربما كان من أنسابه أيضاً اسمه آلافيون اعتراه الشيطان فلم يستطع اليهود بتعزيمهم ولا الأطباء بأدويتهم أن يبرئوه. فأتى ايلاريون فشفاه بمجرد دعوته باسم الله. فآمن آلافيون وأهله كلهم وآمن جد سوزومانوس واعتكف على درس الاسفار المقدسة وتفسيرها، حتى أصبح ماهراً في تفسيرها إذ كان لودعياً ذكياً، وكان ضليعاً في الرياضيات أيضاً وعزيراً لدى المسيحيين في غزة وعسقلان وما جاورهما. وكانوا يلجأون إليه في حلِّ مشكلات الاسفار المقدسة فيحلّها لهم ويزيل غموضها. واشتهرت ذرية آلافيون بقداسة السيرة، وتساموا بالفضيلة والتقى ومحبة الفقراء، وبنوا أدياراً وكنائس، وكان منهم رجال قديسون

عاشرهم وهو شاب، وذكر منهم (في ك ٦ من تاريخه فصل ٣٢) سلمان وفسكون وملكيون وكرسبيون، وكانوا اخوة تتلمذوا للقديس ايلاريون في السيرة الرهبانية. وقال (في ك ٨ راس ١٤) إنّ أحدهم كرسبيون كان رئيس الشمامسة عند القديس اييفان أسقف سلمينا في قبرص. ويظهر من كلامه أنه كان بينه وبين آل آلافيون نسابة وأنه تربى بين الرهبان الذين كانوا في هذه الاسرة النقيّة.

وقد انكبّ سوزومانوس على درس علم الشريعة في مدرسة بيروت الشهيرة، ثم أتى إلى قسطنطينية يتعاطى مهنة محاماة الدعاوى كما يظهر من كلامه (ك ٢ فصل ٥ من تاريخه)، على أنه يظهر أنّ شغله لم يكن كثيراً لأنه ألّف تاريخه أثناء اقامته في القسطنطينية، وقد ضمّن هذا التاريخ في تسعة كتب. وألّف أيضاً كتابين آخرين اشتملا على تاريخ كل ما كان من صعود الخُلص إلى حطّ ليشينس عن الملك. لكن هذين الكتابين لم يبلغا إلينا، ونفسه في كتب تاريخه ليس سامياً ولا سافلاً بل متوسطاً بينهما. وهذا أخرى بمن كتب أموراً دينية وكان معاصراً لسقراط المؤرخ، وكانا معاً في القسطنطينية وبين كلاميهما مضاربة، فلا بدّ من أن انتحل أحدهما كلام الآخر، ويعسر الحكم في أيهما استرق كلام رصيفه، إذ كتب كلاهما في السنين الأولى من ملك توادوسيوس الصغير. على أنه يظهر أنّ سوزومانوس انتحل بعض كلام سقراط لأنه كتب بعيدة وإن في عصر واحد، بدليل أنه زاد شيئاً على ما روى سقراط وأصلح بعض أخطائه. وإنّ أكثر المؤرخين قدموا ذكر سقراط على ذكر سوزومانوس والله أعلم. انتهى ملخصاً عن ترجمة سوزومانوس المعلقة على كتب تاريخه في طبعة الأب مين سنة ١٨٦٤م.

وقد بدا سوزومانوس في تاريخه بخبر تنصّر قسطنطين، وختمه بموت انوريوس ملك المغرب أي سنة ٣١٤ إلى سنة ٤٣٩م، ولم أعثر على من ذكر سنة مولده وسنة وفاته. والمعلوم أنه وُلد في أواخر القرن الرابع أو أوائل القرن الخامس، وتوفي في أواسط هذا القرن. وقد عابه القديس غريغوريوس الكبير (في رسالته ٣١) ولا سيما بتقريظه توادورس المصيبي بأنه كان إلى يوم وفاته من أعظم علماء الكنيسة، مع أنه لم يكن كذلك. على أنّ كتب سوزومانوس الباقية إلى الآن لا أثر فيها لتعظيم توادورس المصيبي، وقد انتقد كلام سوزومانوس في محال عديدة.

ايناي الغزي ومارينس والدمشقي وغيرهم

كان ايناي هذا فيلسوفاً تابعاً مذهب افلاطون وُلد في غزة في القرن الخامس، وأدركته الوفاة سنة ٥٢١م، وكان مسيحياً وتلميذاً لهيرونقلس الفيلسوف الذي علّم الفلسفة في الاسكندرية في هذا القرن. وما نعلمه من تأليف ايناي إنما هو سبع وعشرون رسالة أشهرها مانوق بين الرسائل اليونانية التي عني بطبعها سنة ١٤٦٩م. وله محاوراة في خلود النفس وقيامة الأجساد، ألفها لما رأى الشهداء الذين اذاقهم البندالة مَرَّ الأعذبة في افريقية. وقد طُبعت في زوريك سنة ١٥٥٩م وترجمها إلى اللاتينية امبروسيوس لى كمالدول Le Comal Dole منذ سنة ١٥١٦م. ثم أذاع بواسوناد Boissonade نسخة أخرى منها مع ترجمة امبروسيوس اللاتينية لها في باريس سنة ١٨٣٦م، ونشر لافاك خلاصتها وشرحاً لها في الافرنسية في باريس سنة ١٨٥٩م.

أما مارينس فهو فيلسوف أفلاطوني وُلد في سورية في هذا القرن الخامس، وأخذ العلوم في أثينا عن بروقلس، ثم خلفه في منصبة التعليم سنة ٤٨٥م ولم تُبق لنا الايام من تأليفه إلا ترجمة بروقلس أستاذه نشرها فبريشيوس مع ترجمتها إلى اللاتينية مذيّلة بحواشي سنة ١٧٠٠م في همبرغ. وقد طبعها أيضاً بواسوناد في لبسيك سنة ١٨١٤م ثم جدد طبعها في مجموعة ديدو.

وأما الدمشقي ويسميه الافرنج داماشيوس فوُلد في دمشق نحو سنة ٤٨٠م وكان فيلسوفاً على مذهب الفلاسفة الذين لم يقيّدوا أنفسهم بمذهب لسلفائهم، بل كانوا يختارون ما حسن لهم. ويمكن تسميتهم بالاحرار. وكان الدمشقي تلميذاً لمارينس المار ذكره، وكان يعلم في أثينا لما أمر يوستينانس باقفال مدارس الوثنيين سنة ٥٢٩م، ففرّ إلى كسرى ملك الفرس مع بجليشيوس الفيلسوف الاسكندري شارح كتب أرسطو، وخمسة فلاسفة آخرين فلم ينالوا في بلاد فارس الحرية التي كانوا يتطلبونها. ولكن لما عقد كسرى الصلح مع الملك يوستينانس سنة ٥٣٣م نال لهم الرخصة منه بأن يعودوا إلى وطنهم. ومما كتبه هذا الدمشقي تاريخاً لعمدة الفلاسفة الاحرار أوصل إلينا فوتيوس بعض فقر منه ثم مقالة في المبادئ والأصول نشر العالم كوب القسم الأول منها في فرنكفورت سنة ١٨٢٦م

في اليونانية. وللعالِم روال الافرنسي مقالة في الدمشقي نشرها سنة ١٨٦١م وكان في هذا القرن أيضاً هرون ابن أشير من فلسطين، وكان من الربيين الذ استنبطوا وضع النقط والحركات في اللغة العبرانية. وروى أغاثيا محامي الدعاوى تاريخه (ك ٢ عد ٣٠) إنه كان في آخر هذا القرن وفي القرن السادس هرمي وديوجان القينقيان وايسودورس الغزي وشبههم بأزهار في عصره، ولم نعثر لـ على ترجمة.

عد ٦١٣

من عاصر هؤلاء العلماء في غير سورية من مشاهير العلم الأول من نذكرهم من هؤلاء المشاهير سقراط، وُلد في القسطنطينية فقد شهد ف تاريخه (ك ٥ فصل ٢٤) إنه وُلد في هذه المدينة وأخذ فيها أولاً أصول اللغة، وهو ياء مترعرع عن هيلاديوس وأمونيوس النحويين اللذين هاجرا من اسكندرية إلى قسطنطينية لما دُمرت هياكل الأصنام في مصر بأمر توادوسيوس الملك. وعليه فيكون مولد سقراط في أواخر القرن الرابع، ثم انكبّ على درس الفصاحة على تروايلو الذي كان مشهور له بالفصاحة في قسطنطينية، وانصبّ بعدئذ على درس الشرائع ليحسن محام الدعاوى. وبعد أن مارس مهنة المحامي مدة اعتزل عنها وأخذ يكتب تاريخه الشه متحريراً الصدق، ويتدقيق وسهولة العبارة وسلاستها. وضمن تاريخه في سبعة كتـ وبدأ به من تاريخ تنصّر الملك قسطنطين الكبير إلى سنة ٤٣٩م.

وزعم بارونيوس في تاريخه وفيلبس لاباي في كتابه في المؤلفين الكنسيين أ سقراط كان من اتباع بدعة نوفاسيانس سنداً إلى أنه ذكر رؤساء النوفاسيانيين في قسطنطينية، وقرظ بعضهم وجنح إلى بعض ما علموه في القناعة والامسك على أ توادورس القارئ الذي كان قريباً من أيامه في القسطنطينية وغيره من المؤرخي الصادقين برأوا ساحته من الضلال، واستشهدوا ببعض أقواله التي هي في مقاوـ النوفاسيانيين، ويحصيهم فيها بين الهرطقة كالأريوسيين والبلاجيين.

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي (في فصل ٢٨ من قصيدته) سقراط وتاريخه وزاد على ذلك أنه كتب تاريخ قسطنطين ويوفيان، وقال السمعاني (في المكتـ

الشرقية مجلد ٣ صفحة ٤١٦) لم أرَ أحداً غير الصوبايي نسب هذا الكتاب إلى سقراط، واعلم أنَّ عند السريان كتاباً في تاريخ قسطنطين ويوفنيان مجهول المؤلف، فأظن الصوبايي عزاه تقديراً إلى سقراط. وقد ذكر كثيرون من القدماء سقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس أسقف قورش الآتي ذكره، وسموهم مكملّي تاريخ اوسابيوس القيصري أبي التاريخ، فإنما هؤلاء مع القديس اييفان أسقف قبرص عمدة المؤرخين من أيام قسطنطين أي من أوائل القرن الرابع إلى أواسط القرن الخامس.

الثاني سريانس وهو فيلسوف من أصحاب المذهب الأفلاطوني الحديث، وُلد في الاسكندرية سنة ٣٨٠م وأدركته الوفاة سنة ٤٥٠م ودرس العلوم في أثينا على بلوترك الفيلسوف الأفلاطوني. ثم خلف أستاذه في رئاسة مدرسة أثينا، وكان من تلاميذه بركلس وقد عيّنه للرئاسة بعده. والباقي من مؤلفات سريانس شروحه المعلقة على كتب أرسطو في ما وراء الطبيعة. وقد طبع بوكاليني منها ثلاثة كتب مع ترجمتها إلى اللاتينية في البندقية ١٥٥٨م، وله كتاب في فصاحة هرموجان. وكانت له شروح على كتب أفلاطون وأومر لكنها لم تصل إلينا.

الثالث بروكلس أو بروفلس وهو فيلسوف أفلاطوني وُلد في قسطنطينية سنة ٤١٢م وتوفي سنة ٤٨٥م واقتبس العلوم في اسكندرية ثم في أثينا، ثم أكمل علومه بأسفاره. وخلف سريانس الفيلسوف في رئاسة مدرسة أثينا، وكان ضليعاً في الفلسفة والرياضيات، وعني بأن ينهض الوثنية بعد سقوطها مفسراً بعض عقائدها بمعنى رمزي أو سري. وكان يكرم آلهة قبائل عديدة على اختلافها، وأحسن مزية له أنه جعل للمذهب الفلاسفة الاسكندرانيين نظاماً نهائياً. وخلف تأليف كثيرة هلك بعضها بغير الزمان، وأخصّ الباقي منها مقالات في العناية الربانية، وفي الحرية، وفي الشرّ، وكتاب في العقائد اللاهوتية، وكلام في اللاهوت على مذهب أفلاطون، وشروح لأقواله، وأغاني ومقالات في الحركة وفي الكرة الأرضية وفي الأوضاع الفلكية، وشرح على كتاب اقليدس. وقد طُبعت بعض تأليفه وترجماتها مرات في مواضع كثيرة وآخرها في باريس سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٥م.

الرابع امونيوس بن هرميا كان فيلسوفاً من الفلاسفة الأحرار في أواسط القرن الخامس، ومن تلامذة بروكلس. له شروح كثيرة الفائدة على كتب شروح أرسطو

طُبعت في البندقية سنة ١٥٠٣م، ثم سنة ١٨٤٦م. وله كتاب في المقدر طبعه أورلي في زوريك سنة ١٨٤٤ ملحقاً به مقالات أخرى له، وهو غير امونيوس الفيلسوف الاسكندري الذي كان في القرن الثالث.

هذه صورة كرديان الملك الروماني عن تمثال له في الكايتول بروما.



القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ٦١٤

بطاركة انطاكية في القرن الخامس

إنَّ آخر من ذكرناهم من بطاركة انطاكية في تاريخ القرن الرابع هو افلايانس وقد لقي ربه سنة ٤٠٤م، فخلفه برفيريوس وكان مخالفاً للقديس يوحنا فم الذهب، ووقع على الحكم عليه على ما روى بلاديوس في ترجمة فم الذهب. ولذلك انفصل كثيرون في سورية عن كنيسته وعامل بقسوة بعض مسوديه واكليروسه. وقال سوزومانوس (ك ٨ فصل ٢٤) خلف برفيريوس افلايوس في كرسي انطاكية، ولما كان قد وقع على الحكم بنفي فم الذهب انقطع كثيرون من سكان سورية عن الاشتراك معه. وكانوا يقيمون الصلوات والقداسات معتزلين عنه فقاموا محناً ومشاق كثيرة، فإنَّ آل البلاط الملكي سنوا شريعة حياً بارسانيوس البطريرك القسطنطيني، وبرفيريوس هذا، وتوافلس البطريرك الاسكندري بأن من لا يشترك مع هؤلاء يُطرد من الكنيسة. على أنَّ توادوريطوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٣٥) قال في برفيريوس أنه كان حكيماً فطناً وخلف آثاراً شتى دالة على رأفته وحلمه.

وروى العلامة باجيوس أنَّ برفيريوس خرمته المنية سنة ٤١٣م، فيكون قد أقام على منصبة البطريركية تسع سنين.

وخلف اسكندر برفيريوس سنة ٤١٣م وقال فيه توادوريطوس (في المحل المذكور آنفاً) إنه كان مثابراً على الرياضات الروحية محباً للفقراء طلق اللسان فصيحاً. وقد جعله الله بكثير غير ذلك من مواهبه، وقد أزال بارشاده واغرائه ذاك الخلاف الذي كان بين الكاثوليكين في انطاكية من أيام اوسطاتيوس، ولم يتسن لبولينس وافاغريوس إزالته. وأقام لذلك عيداً حافلاً، وأثبت باجيوس أنّ اسكندر استمر على البطريركية إلى سنة ٤٢٠ أو سنة ٤٢١م، وتوجد رسائل منفذة من البابا اينوشنسيوس الأول إليه. ولكن روى نيكوفورس أنه مضى إلى ربه سنة ٤١٨م (عن لاكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية) وعن ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية أنّ اسكندر استمر في البطريركية عشر سنين.

وخلف توادوتس اسكندر سنة ٤٢٠ أو سنة ٤٢١م، وقال توادوريطوس في رسالته الأولى إلى ديوسقورس الاسكندري أنّ هذا البطريرك كان شهيراً بسيرته المثلى وتضلعه بالعلوم الإلهية، وأنه بقي على الكرسي البطريركي إلى سنة ٤٢٧م أو سنة ٤٢٨م. وصرّح بأنه استمر بطريركاً ست سنين ونيفاً. وروى افاغريوس (ك ١ من تاريخه) إنه كان حياً لما انتخب نسطور بطريركاً لقسطنطينية سنة ٤٢٨م. فهذه الأقوال يظهر أنها أصح من قول نيكوفورس أنه استمر في البطريركية أربع سنين فقط. وأنبأنا الفونس الثوري (في الحواشي التي علقها على الكتاب الثالث من المراسيم الرسولية) إنّ توادوتس هذا كتب مقالة يفند بها زعم الابوليناريين (ملخص عن لاكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية). وقال ابن العبري في تاريخ بطاركة انطاكية أنه في أيام هذا البطريرك نشر الفتية السبعة الذين كانوا قد أودوا إلى مغارة أو كهف في جهة أفسس هرباً من اضطهاد داكبوس الملك، فأمر الملك بسد باب المغارة عليهم ودفنهم أحياء، ثم بعثوا في أيام توادوسيوس الصغير بعد مئة وثمانين سنة، ودخل أحدهم المدينة ليشتري لهم طعاماً إلى آخر هذه القصة المعروفة. أو قال السيدان أبولس ولامي (في حواشيهما على تاريخ ابن العبري) إنّ ما رواه ابن العبري يوافق لما رواه يعقوب السروجي، وجرغوريوس التوروني، وللآثار السريانية التي شهرت حديثاً. وإنّ ايليا النصيبيني روى إنّ بعث هؤلاء الفتية كان سنة ٧٤٨ يونانية (توافق سنة ٤٣٧ م) مورداً شهادة من تاريخ يوحنا يعقوبي قال فيها: «في هذه السنة بعث الفتية الذين في مدينة أفسس بعد أن رقدوا في المغارة مئة وثمانين سنة». هذا ما روى هؤلاء العلماء ونجح إلى أن نرى الأولى

الاعتماد على أقوال بارونيوس (في جواشيه على السنكسار الروماني في ٢٢ تموز) ونطاليس اسكندر (فصل ٧ في تاريخ القرن الخامس) وروهربرخ وغيرهم الذين أنكروا صحة هذا الرقاد المستطيل وبعثهم منه. وإنّ الأظهر أنّ رفاتهم وُجدت في تلك الأيام (طالع ما ذكرناه في عد ٦٠٣ في هذا الشأن).

وخلف يوحنا الأول توادوتس بعد وفاته سنة ٤٢٨م على الأظهر، وكان قد تربى في دير القديس اومبرايوس القريب من انطاكية. وكان في جملة زملائه هناك توادوريطوس الذي صار بعداً أسقفاً على قورش، ونسطور المبتدع الذي صار بطريكاً على القسطنطينية، وعُقد في أيامه المجمع الأفسسي لنبد ضلال نسطور، وكان يوحنا مشايحاً له مع غيره من الاساقفة الشرقيين. ولما حصحص الحق ونبد نسطور ارعوى يوحنا وآثر الصواب وصالح كيرلس البطريك الاسكندري مرسلأ إليه بولس أسقف حمص مصحوباً بدستور ايمانه، فأثبتته كيرلس وسائر أساقفة الكنيسة. وتابع يوحنا على ذلك غيره من الاساقفة الشرقيين تباعاً، ولم يبق إلا الاساقفة المصرون المكابرون (عن لكويان في المحل المذكور). وفصل ابن العبري خبر محازية يوحنا هذا لنسطور وارعائه إلى الصواب بقوله إنّ يوحنا تبطأ في قدومه إلى أفسس. وكان نسطور يحتج بأنه لا يحضر المجمع قبل بلوغه إليه. ولما طال الانتظار حكم المجمع بحطّ نسطور، وبلغ يوحنا بعد ذلك ومعه ستة وعشرون أسقفاً موافقون جميعاً لرأيه. إلا رابولا أسقف الرها واكاشيوس أسقف حلب، فلام يوحنا كيرلس على اسراعه بحطّ نسطور وعدم انتظاره قدومه للبحث معه عن أمره. وأعلن يوحنا أنه مشايح لنسطور، فحطّه كيرلس والمجمع. فاجتمع هو والاساقفة المخازبون له وحكموا على كيرلس البطريك الاسكندري وممنون أسقف أفسس بالحطّ عن مقامهما. فاستدعى الملك يوحنا والاساقفة محازبيه وأمر باجتماعهم مع باقي الاساقفة للبحث الدقيق. فاجتمع الفريقان في القسطنطينية، فظهر محازبو كيرلس على يوحنا وأصحابه بايراد شهادات ساطعة من الاسفار المقدسة، فأذعن يوحنا ومن أتبعه للصواب بأمر الملك، وعاد كل من الاساقفة إلى أبرشيته. وكان أخصّ هؤلاء يوحنا الانطاكي، وتوادوريطوس أسقف قورش، واندراوس أسقف سميساط، واسكندر أسقف منبج، وايريناوس أسقف صور وغيرهم. انتهى كلام ابن العبري ملخصاً. وقضى يوحنا نحبه سنة ٤٤١م بعد أن دير كنيسة انطاكية ثلاث عشرة سنة.

وخلف دومنس يوحنا الأول خاله سنة ٤٤١م، وكان دومنس من رهبان

القديس اوتيميوس في فلسطين. ولما سمع أخبار جنوح خاله إلى ضلال نسطور سأل القديس اوتيميوس أن يرخص له الانطلاق إلى انطاكية ليقنع خاله بالانقلاع عن هذا الضلال، فمضى إليه وأقام عنده إلى يوم وفاته وخلفه بعدها على ما روى كاتب ترجمة القديس اوتيميوس. وقد شهد سنة ٤٤٩م مجمع أفسس الموصوف باللصبي وكان مشايحاً لأوطاخي المبتدع الذي زعم أن في المسيح طبيعة واحدة، ووقع على مراسيم هذا المجمع مخالفاً القديس افلايانوس البطريرك القسطنطيني والاساقفة الكاثوليكين على أن ديوسقورس البطريرك الاسكندري انقلب عليه، وقضى عليه بالعزل عن بطريركية انطاكية بعد أن دبرها ثمانين سنين على ما روى نيكوفورس. فعاد دومنس إلى فلسطين وقضى ما بقي من حياته معتزلاً مخالطة الناس. هذا ما رواه لكويان في المشرق المسيحي (في بطاركة انطاكية). ولكن قد وجدت في عهد قريب في المتحف البريطاني نسخة سريانية من أعمال مجمع أفسس اللصبي، وقد تُرجمت إلى الانكليزية والالمانية. وقد ترجمها إلى الفرنسية أحد أصدقاء الأب مرتينس كاهن كنيسة القديسة جنيفاف في باريس. وطبع ترجمته في هذه المدينة سنة ١٨٧٥م، فالذي في هذه الترجمة أن دمنس لم يشهد هذا المجمع بل شكاه إليه كاهن اسمه سيرياك، وقدم كتاباً ضمّنه فقرات من رسائل دمنس أو خطبه يتبيّن منها أن المخلص ذو طبعين إلهي وبشري. فتأول مبغضوه كلامه بأنه يقول بأقنومين فيه. وتوافرت الرسائل بينه وبين ديوسقورس بطريرك اسكندرية الذي كان مترساً على المجمع اللصبي. وأخيراً حكم عليه هذا المجمع بالعزل عن كرسيه، وترى كل ذلك مثبتاً في ترجمة أعمال هذا المجمع من صفحة ١٣٢ إلى صفحة ١٧٥. قال الملك يوستينانوس في مرسومه في الفصول الثلاثة (التي هي لتوادويطوس أسقف قورش وتودورس أسقف المصيصة وايهيا أسقف الرها وسنأتي على ذكرها). إن دمنس أسقف انطاكية طعنه المجمع الخلكيدوني بالحرّم بعد وفاته لأنه جسر أن يكتب أن حروم القديس كيرلس الاثني عشر يلزم الصمت عنها، لكن أعمال هذا المجمع لا أثر فيها لهذا الحرّم بل قال افاغريوس (ك ٢ فصل ٣٠) الذي نقب عما كتبه هذا المجمع ونشر خلاصته أنه لا يعلم ما كان لدمنس بعد مجمع أفسس اللصبي (ملخص عن لوكيان في المحل المذكور في المشرق المسيحي)، بل يؤخذ عن المجمع الخلكيدوني (في مجلس ١١) أن مكسيمس خليفة دمنس طلب إلى قضاة المجمع أن تقرض نفقة من بطريركيته

لدمنس سالفه، فأجابه المجمع إلى ذلك وترك تعيين مقدار النفقة لاختياره في مجمع اقليمي يستشيريه في ذلك.

وخلف مكسيمس دمنس سنة ٤٤٩م، ورقاه إلى البطريركية اناطوليوس بطريرك قسطنطينية. فإنّ ديوسفورس بطريرك اسكندرية زيّن للملك توادوسيوس وأغراه بأنّ البطريرك الانطاكي يلزم أن يرقه البطريرك القسطنطيني لمظنة الضلال في الاكليرس الانطاكي. وكان ذلك مخالفاً لقوانين الكنيسة، ولرضى الاكليرس والشعب في البطريركية الانطاكية، على أنّ المجمع الخلكيدوني والابا لاون صتّحا ترقية مكسيمس إلى كرسية. ولهذا البابا رسائل كثيرة ناطقة بأنّ ترقية البطريرك القسطنطيني للبطريرك الانطاكي شذوذ عن قوانين الكنيسة. وكان في المجمع الخلكيدوني خلاف بين مكسيمس هذا ويوفينال البطريرك الأورشليمي، إذ حاول يوفينال أن يفصل فينيقية الثانية والعربية عن بطريركية انطاكية ويلحقها ببطريركية أورشليم. فدافع مكسيمس عن حقه ولم يصوّب الآباء المجتمعون دعوى يوفينال (مجلس ٧)، وحكموا بأن تبقى فينيقية وبعض أعمال العربية لبطريركية انطاكية، وأن يكفي يوفينال بأعمال فلسطين الثلاثة، أي اليهودية والسامرة والجليل. وعن نيكوفورس أنّ مكسيمس تنزّل عن البطريركية بعد أن دبرها أربع سنين. ولا دليل على صحة قوله في آثار المؤرخين بل يظهر من رسالة البابا لاون ال ١١٨ أنّ الملك مرقيان ذكر أنّ باسيليوس خلف مكسيمس سنة ٤٥٦م فيكون قد دبر انطاكية سبع سنين.

وخلف باسيليوس مكسيمس سنة ٤٥٦م إذ نرى البابا لاون قال في رسالته المذكورة أنه اطلع في رسائل الملك مرقيان على أنّ باسيليوس خلف مكسيمس تلك السنة. وفي سنة ٤٥٧م أنشبت المنية أنياها بالملك مرقيان وخلفه الملك لاون. وعرض حينئذٍ مقتل بروتوريوس البطريرك الاسكندري، فأنفذ الملك رسائل إلى أساقفة آسيا وإلى القديسين سمعان العمودي وبردات، فرفع القديسان جوابهما إلى الملك على يد باسيليوس البطريرك كما أنبأنا افاغريوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٠) مثبّتا رسالة القديس سمعان إلى باسيليوس البطريرك، ولقي هذا البطريرك ربه سنة ٤٥٨م فلم يبقَ في البطريركية إلا سنتين وبعض أشهر.

وخلفه اكاشيوس على ما روى نيكوفورس ولم يقيم على الكرسي البطريركي

إلا سنة وأربعة أشهر. وروى أفاغريوس (ك ٢ فصل ١٢) أنه في أيامه عرض زلزال أخرج انطاكية، وكان حدوثه في السنة الثانية للملك لاون في الرابع عشر من ايلول نحو نصف الليل. وقد أسقط ابن العبري اسمي باسيلوس واكاشيوس من عداد بطارقة انطاكية لأنهما كانا كاثوليكيين. وذكر بعد مكسيمس مرتيريوس الآتي ذكره.

وخلف مرتيريوس اكاشيوس ٤٦٠م وجاء في موجز تاريخ نيكوفورس وفي جداول تاوفان أنه أقام على الكرسي البطريركي ثلاث عشرة سنة أي إلى سنة ٤٧٣م. قال لكويان (في المحل المذكور) لا صحة لهذا الزعم لأن مرتيريوس تخلى عن البطريركية للقلق الذي أثاره بطرس القصار في انطاكية في أيام جناديوس بطريك قسطنطينية. ومما لا مرية فيه أن جناديوس أدركه الوفاة سنة ٤٧١م. وقد روى توفان نفسه (في تاريخ ٤٦٨) ما ملخصه: «إن بطرس القصار استمال إليه بعض المشايخين لابلينار وأثار قلقاً وشغباً على مرتيريوس مخالفاً له في عقائد الايمان، ورشق بالحرم من لا يقول إن الإله صلب وزاد على التقديسات الثلاثة يا من صُلبت لأجلنا. وانقسم الشعب إلى حزبين، فمضى مرتيريوس إلى الملك لاون فأعزّه وأكرم مثواه بعناية جناديوس بطريك قسطنطينية، وعاد إلى انطاكية، ولما رأى الشعب ما برح مصرأ متقسماً خطب في الكنيسة قائلاً إني متخل عن هذا الاكليس غير المطيع، وعن هذا الشعب المعتت، وهذه الكنيسة التي عابها الرجس، ومستبقى لنفسى المقام الكهنوتي. ولزم العزلة فاغتصب بطرس القصار كرسيه وانتهت أخبار هذه الشؤون إلى جناديوس بطريك قسطنطينية، فرفعها إلى الملك فأمر بنفي بطرس القصار». انتهى ما قاله توفان. وعليه. فلم يبق مرتيريوس على الكرسي البطريركي إلى سنة ٤٧٣م بل غادره قبلها. وأما بطرس القصار فلما علم أمر نفيه انهزم واختفى في أحد الأديار، وكان بطرس هذا راهباً في أحد الأديار في ضواحي قسطنطينية وكانت مهنته غسل الثياب فلُقّب بالقصار.

فاختار المؤمنون باجماع الكلمة يوليانس، وعُقد مجمع اقليمي سنة ٤٧١م حطّ فيه بطرس القصار عن مقام الاسقفية، إلا أن يوليانس قضى نحبه سنة ٤٧٦م فهبّ القصار من مخبئه فاغتصب الكرسي الانطاكي ثانية، وكان حينئذ أن الملك باسيلسكس أثلّ عرش زينون الملك وتولّى الملك مكانه كما مرّ. وكان تيموتاوس البطريرك الاسكندري الملقّب بالنمس عزيزاً لدى باسيلسكس الملك، ومن القائلين

بالطبيعة الواحدة في المسيح كالقصر فاستمال الملك إلى القصر فثبت مدة في الكرسي الانطاكي إلى أن تغلب زينون على باسيلسكس، وعاد إلى الملك كما مر بك. فنفي بطرس القصر إلى بنطس على ما روى توفان، وكان القصر قد رقى إلى الاسقفية كاهناً اسمه يوحنا وأرسله ليكون أسقفاً في أباميا فلم يقبله أهلها، فأقام عنده في انطاكية، ولما نفى القصر اغتصب كرسيه وسمي يوحنا الثاني، لكنه لم يلبث عليه إلا ثلاثة أشهر على ما روى نيكوفورس، فاختير بعده اسطفانوس، وكان كاثوليكيًا. وجاء في كتاب يوناني في المجمع أن المجمع الذي عزل القصر أقام مكانه اسطفانوس هذا، لكنه توفي بعد ترقيته إلى البطريركية فاختير مكانه اسطفانوس آخر على أن نيكوفورس روى في تاريخه أن اسطفانوس الأول استمر في البطريركية ثلاث سنين وتابعه في ذلك توفان في جداوله فتكون وفاته سنة ٤٨١م.

وبعد وفاته خلفه اسطفانوس الثالث وقد ورد ذكره في كتاب المجمع المذكور وفي تاريخ نيكوفورس. وقال فيه توفان في تاريخ سنة ٤٨٠م: «أدركت الوفاة في هذه السنة اسطفانوس بطريك انطاكية فاختير بايعاز زينون الملك اسطفانوس آخر وكان كاثوليكيًا، فحنق عليه أعداء الايمان متشيعين لبطرس القصر وأماتوه بنخس قصب بروه كالسهم وطرحوا جثته في العاصي». وروى كذلك يوحنا ملاس ولم يلبث اسطفانوس هذا في البطريركية إلا سنة واحدة على ما روى توفان ونيكوفورس.

وبعد مقتل اسطفانوس أمر زينون الملك اكاشيوس بطريك القسطنطينية أن يقيم بطريكاً على انطاكية فاختار كاهناً اسمه كالنديون ورقاه إلى البطريركية. وقبل أن يعلم الانطاكيون بترقيته أعادوا يوحنا الثاني المار ذكره إلى الكرسي الانطاكي. روى ذلك توفان بعد ذكره مقتل اسطفانوس على أن يوحنا ارعوى بعدئذ إلى جادة الحق فنقله كالنديون البطريرك الانطاكي الكاثوليكي إلى كرسي صور الذي كان الكرسي الأول بعد الكرسي البطريركي في انطاكية. وقد ارتقى كالنديون كرسي انطاكية سنة ٤٨٢م فرحب به الانطاكيون. وعُني بتضميد جراح رعيته، ولكي يوقف الخلاف الذي كان بينهم على الترنيم بالتقديسات الذي زاد القصر عليه: «يا من صُلبت لأجلنا» أدخل عليه عبارة أيها المسيح الذي صُلبت لأجلنا لتدل على توجيه الكلام إلى المسيح الاله المتجسد لا إلى الثالوث الأقدس. على أنه لم يقم في البطريركية إلا أربع سنين على ما روى نيكوفورس في موجز تاريخه، وتوفان في

جداوله، لأنّ زينون الملك نفاه وأعاد بطرس القصار إلى كرسي انطاكية للمرة الثالثة. وكان كاشيوس بطريك قسطنطينية علّة هذه الحن والشرور كلها.

ولما رأى البابا فاليسكس الثالث تعاظم الشرّ في المشرق عقد مجمعاً في روما طعن فيه القصار بالحرم سنة ٤٨٥م، وحطه عن بطريركية انطاكية فطفق القصار يضطهد من يعتقدون ما رُسم في المجمع الخلكيدوني، فأحمد الله أنفاسه سنة ٤٨٨م على ما روى توفان في جداوله، ونيكوفورس في موجز تاريخه. وفي تلك السنة نفسها عاجلت المنية اكاشيوس بطريك قسطنطينية، وكان القصار علّة لتأصل مذهب الطبيعة الواحدة ورسوخه في انطاكية حتى أعى استئصاله البطارقة والملوك الكاثوليكين مدة طويلة.

وبعد وفاة بطرس القصار أُقيم على الكرسي الانطاكي بلاديوس سنة ٤٩٠م، وقال توفان في جداوله ونيكوفورس في تاريخه أنه استمر في البطريركية عشر سنين. قال لكويان (في المشرق المسيحي) الأظهر أنه أقام ثماني سنين فقط لأنّ توفان نفسه قال في تاريخه أنّ خليفته افلايانس رقي البطريركية سنة ٤٩٨م، وكان بلاديوس اراتيكاً لأنه كان مشايعاً لبطرس المعروف بالاثغ وخلفائه الهرطقة في كرسي اسكندرية.

وبعد وفاة بلاديوس خلفه افلايانس الثاني سنة ٤٩٨م باختيار الملك انسطاس له، وكان راهباً في أحد أديار سورية الثانية، وكان مخالفاً لمراسيم المجمع الخلكيدوني. ومنذ ارتقائه إلى البطريركية حازب يوحنا بطريك اسكندرية المخالف لهذا المجمع، لكنه أفاق من ضلاله وأقلع عن محازبة يوحنا المذكور. واتفق مع مكدونوس بطريك قسطنطينية وايليا بطريك أورشليم، وكانا على جادة الايمان الصحيح. وعقد في سنة ٥٠٩م مجمع في انطاكية صرح فيه باعتقاده المجمع الثلاثة العامة الأولى، أي النيقوي والقسطنطيني والأفسسي وُحمت عن المجمع الخلكيدوني مطاوعة لأمر زينون الملك. وحرم توادورس الترسيبي، وتوادورس المصيبي، وتوادوريطوس القورشي وايهيا الرهاوي (جميعهم أساقفة) وغيرهم ممن كان فيلوكسانس أسقف منبج الارتيكي يعتدهم نسطورين لاعتقادهم بالطبعين في الخلق. فكان افلايانس هذا متقبلاً يناصر طوراً الاوطاحيين وطوراً الكاثوليكين. ويظهر أنه ارعوى أخيراً ولزم الايمان الكاثوليكي، ولذلك نفاه الملك انسطاس إلى

بلاد العرب سنة ٥١٨م، ومات سنة ٥٢١م (لخصنا ترجمة هؤلاء البطارقة عن لكويان في المشرق المسيحي مجلد ٢ في بطارقة انطاكية وزدنا عليه بعض فرائد عثرنا عليها).

عد ٦١٥

بطارقة أورشليم في القرن الخامس

كان الفراغ من كلامنا في بطارقة أورشليم في القرن الرابع بذكرنا ترجمة يوحنا الثاني الذي لقي ربه سنة ٤١٧م وخلفه في تلك السنة براليوس. وقد ذكره توادوريطوس في خاتمة الكتاب الخامس من تاريخه في عداد بطارقة أورشليم. وجاء في كتاب تراجم القديسين أنه كان خورياً أسقفياً في أيام يوحنا الثاني سالفه حتى ظنّه تلمون يوحنا نفسه لتسمية يوحنا اسماء متعددة. وقد خدع ييلاجيوس الاراتيكي براليوس البطريك فكتب إلى البابا زوزيمس يشهد له بأن ييلاجيوس صحيح المعتقد كما يظهر من رسالة البابا المؤرخة في ١٧ ايلول سنة ٤١٧م التي أثبتها بارونيوس في تاريخه. على أنّ براليوس أفاق من غلظه بعد ذلك وأصلح خطأه كما يتبين من تاريخ ماريوس المعروف بمركاتور (أي التاجر فصل ٣). واختلف في سنة وفاته في ما إذا كانت سنة ٤١٨ أو سنة ٤٢٢ أو سنة ٤٢٥م.

وخلفه يوفينال واختلف في سنة خلافته للاختلاف في سنة وفاة سالفه، وربما كان بطريكاً منذ سنة ٤١٨م. وقد شهد سنة ٤٣١م المجمع الأفسسي، وتاريخ القديس كيرلس وسائر الاساقفة على حرم هرطقة نسطور وحطّه عن مقامه. ويظهر من رسالة البابا لاون ال ٩٢ المنفذة في مكسيمس البطريك الانطاكي أنّ يوفينال أفرغ قصارى جده في هذا المجمع ليمدّ سلطة بطريركيته إلى بعض مدن فينيقية والعربية، فلم يجاره أساقفة المجمع على سؤاله، لكنهم لم يروا أن يصدوه عنه بعنف خشية أن يزيغ عن الايمان، فلم يئأس من الفوز لأننا نراه استأنف طلبته في المجمع الخلكيدوني. وكان من جملة الاساقفة الثمانية الذين أرسلهم المجمع الافسسي إلى الملك توادوسيوس الثاني لكبت محاولات أصحاب نسطور. وفي سنة ٤٤٩م شهد مجمع أفسس الموصوف باللصّي وشايع ديوسقورس بطريك انطاكية، ثم تصحب

اللاوطاخي المبتدع، ووقع على الحكم بعزل افلابيوس البطريك القسطنطيني وغيره من الاساقفة الارثوذكسيين مجازاة لدمنس بطريك انطاكية، لكنه استغفر عن سوء تصرفه. هذا سنة ٤٥١م في المجمع الخلكيدوني، وصرح باعترافه بالايمان القويم فقبل في المجمع بعد أن كان قد مُنع منه كغيره من الاساقفة الذين حازبوا ديوسقورس في المجمع اللصبي، ومنهم اوسطاتيوس أسقف بيروت. فهؤلاء الاساقفة ارعوا من رأيهم الأول ووقعوا على مراسيم المجمع الخلكيدوني وعلى رسالة البابا لاون. وأصلح آباء المجمع بين يوفينال وبين مكسيمس البطريك الانطاكي، على أن بطريك اورشليم يلي أعمال فلسطين الثلاثة وهي اليهودية والسامرة والجليل، وبطريك انطاكية يلي العربية وفينيقية الأولى والثانية. وأجاز سفراء الحبر الروماني هذا الوفاق، وكان كثيرون من رهبان فلسطين قد أتوا إلى المجمع الخلكيدوني يرأسهم توادوسيوس أحد رؤساء الأديار، فأناروا قلقاً في المجمع لمشايعتهم لاوطاخي، ثم سبقوا يوفينال إلى فلسطين فهيجوا الرهبان والشعب على المجمع الخلكيدوني وأقاموا توادوسيوس بطريكاً على اورشليم. وعاد يوفينال إليها فلم يمكنه أن يردعهم، فقلل خفية إلى الملك مرقيان، ودخل توادوسيوس ومحازبوه اورشليم فارتكبوا فظائع وحرقوا بيوتاً. وكانت اودكسية أرملة توادوسيوس الصغير تناصر هذا الدخيل على البطريكية، فاضطهد اتباع المجمع الخلكيدوني في اورشليم بل في فلسطين كلها مدة عشرين شهراً إلى أن أمر الملك مرقيان دوروتاس والي فلسطين أن يعث بتوادوسيوس إليه، ففرّ إلى جبل سينا وعاد يوفينال إلى كرسيه، وهمّ باصلاح شؤون رعيته، وعقد مجمعاً في سنة ٤٥٤م لتأييد الايمان القويم إلى أن توفاه الله اليه سنة ٤٥٨م بعد أن دير هذه البطريكية ٣٥ أو ٤٠ سنة.

وخلف انسطاس يوفينال، وكان انسطاس تلميذاً للقديس بساريون الراهب، ثم خازناً في كنيسة القيامة ثم خورياً أسقفياً. وأجمع شعب اورشليم على اختياره سنة ٤٥٨م. وروى افاغريوس (في ك ٣ من تاريخه فصل ٥) إن ذكريا ملالا قد اتهمه بأنه وقع على رسالة من الملك باسيلسكس تخالف المجمع الخلكيدوني، على أن افاغريوس قد هذه التهمة ودحضها أيضاً بارونيوس في تاريخ سنة ٤٧٦م، وتلمون (في مجلد ١٦ من تاريخه صفة ٣٠٢) حيث روى أن الهراطقة أدخلوا عليه الانبا جيورجيوس وسموه بطريكاً، ففعل شراً مما فعله توادوسيوس في أيام يوفينال سالفه. وتلك بيّنة قاطعة لبراءة انسطاس البطريك. فلو وقع على رسالة مخالفة للايمان

منفذة من الملك باسيلسكس لم يقاومه الهرطقة بل كانوا راضين عنه، وقد نشبت المنية أظفارها فيه سنة ٤٧٨م بعد أن دبر بطريركية أورشليم ١٩ أو ٢٠ سنة.

وخلف مرتيريوس انسطاس سنة ٤٧٨م وقد أنبأنا كيرلس أسقف شيتوبولي (هي باسان) في ترجمة القديس اوتيمس، ومكملو تاريخ البولنديين في ترجمة هذا القديس أنّ مرتيريوس أتى من الصعيد يصحبه ناسك آخر اسمه ايليا، واعتزلا مع القديس اوتيميوس للنسك في فلسطين. ولما لقي اوتيميوس ربه نسك مرتيريوس وايليا في أريحا. وبعد وفاة انسطاس اختير مرتيريوس خلفاً له. قال افاغريوس (ك ٣ فصل ١٦) إنّ هذا البطريك بعث رسالة إلى بطرس الالغ بطريك اسكندرية. ويؤخذ من ذلك أنه قبل رسالة منه أيضاً وهو من الاوطاخين الخمسين. فإن صحّ خبر هذه المراسلة تبينّ منها أنّ بطرس الالغ أخفى ضلاله وأظهر صحة عقيدته فكاتبه مرتيريوس. ولما افتضح ضلاله ومكره قاطعه وناذره لأنّ افاغريوس قال بعد ذلك أنّ مرتيريوس وغيره من الاساقفة نابذوا بطرس الالغ لأنه حرم الجمع الخلكيدوني علانية. وقال كيرلس أسقف باسان (في ترجمة القديس سابا) إنّ مرتيريوس مضى إلى ربه بعد أن أقام في البطريركية ثمانين سنين فتكون وفاته في سنة ٤٨٦م.

وخلف سالوستيوس مرتيريوس سنة ٤٨٦م روى كيرلس المذكور. قال بعضهم إنّ هذا البطريك وقّع على أمر الملك زينون المعروف بهانتيكون (أي مرسوم الاتحاد) وكان يواد اثناسيوس خليفة بطرس الالغ في اسكندرية، بل قال سعيد ابن البطريق إنه كان يعقوبياً. على أنّ الصحيح أنّ مرسوم زينون المذكور لم يحوِ ضلالاً بيّناً فقد يكون هذا البطريك وقّع عليه كلفاً باتحاد الكنائس كما كان مصرحاً فيه أنّ الملك أذاعه لهذا الغرض، وقد امتدح كيرلس أسقف باسان هذا البطريك كثيراً ولا سيما بصحة عقيدته. وقد توفاه الله سنة ٤٩٣م على ما في كتاب البولنديين. والأظهر أنه توفي سنة ٤٩٤م.

وخلف ايليا الأول سالوتيوس سنة ٤٩٤م، وكان عرياً أصلاً ورفيقاً لمرتيريوس في نسكهما في الصعيد، ثم اتيانهما إلى القديس اوتيميوس في فلسطين كما مرّ. وقال فيه كيرلس أسقف باسان المذكور (في ترجمة القديس سابا) أنه لم يكن يأكل لحماً ولا يشرب خمرأ حتى بعد أن رقي إلى البطريركية، وبني ديراً في جانب

مقامه البطريركي أسكن فيه النساك. وكانت الكنيسة الشرقية في أيامه على أسوأ حال بسبب هرطقة اوطاخي. فقد كان بطاركة اسكندرية وبلاد يوس بطريك انطاكية مشايخين له، ولم يبق صحيح العقيدة إلا ايليا هذا، واوفيموس بطريك قسطنطينية. وعزل الملك انسطاس اوفيموس عن كرسيه سنة ٤٩٥ ونصب مكانه مكدونوس. وظهر لايليا من رسائله أنه على سراط مستقيم في الايمان فأخاه وتودّد إليه. ومات بلاد يوس بطريك انطاكية وخلفه افلايانس فالتحم مع ايليا ومكدونوس، وشق على الملك انسطاس اتفاقهم فنبذهم واضطهدهم. فنفي أولاً مكدونوس سنة ٥١١م وأقام مكانه تيموتاوس. ورغب إلى افلايانس وايليا أن يصوّبا صنيعه ويؤدّاه فأنكرا المصادقة على عزله مكدونوس. فحنق الملك عليهما، وكان من ذلك قلق كبير في بطريركي انطاكية وأورشليم. وأرسل ايليا القديس سابا رئيس النساك سنة ٥١٢م إلى الملك ليسترضيه فلم يكن ليكفّ سخطه، بل أمر بنفي ايليا إلى ايلة على شاطئ البحر الأحمر سنة ٥١٣م، وأقام مكانه يوحنا بن مرقيان لوعده بأن يوافق ساويروس الذي كان الملك قد أقامه بطريكاً على انطاكية بعد أن نفى افلايانس منها إلى بلاد العرب. وحصل في فلسطين بعد نفي ايليا مجاعة وغشيتها الجراد. وقد مضى ايليا للقاء ربه وهو في منفاه سنة ٥١٨م. وتوفي في تلك السنة افلايانس بطريك انطاكية، وهلك انسطاس الملك قبل وفاة ايليا بعشرة أيام. وقد أوحى الله بذلك إليه وقصّه على القديس سابا الذي كان قد مضى لزيارته في منفاه. روى ذلك جميعه كيرلس أسقف باسان في ترجمة القديس سابا وغيره (إنّ كلما ذكرناه في بطاركة أورشليم ملخّص عن لكويان في المشرق المسيحي مع شيء من الزيادة عليه).

الفصل الثاني

مَنْ نعرفهم من أساقفة سورية في القرن الخامس

عد ٦١٦

توادوريطوس أسقف قورش

وُلد توادوريطوس نحو سنة ٣٨٧م في انطاكية من والدين حسييين، وقد كتب هو نفسه شيئاً من ترجمته مكرهاً عليه بحسد خصومه وتهمات شائنية وأعداء الكنيسة. فإليك ما قال في رسالته ٨١ إلى نونس القنصل: «إِنَّ والدَيَّ نذراني لله قبل أن يُحبِل بي، وبرّا نذرهما بعد أن وُلدت، فعشت في الدير قبل أن أصير أسقفاً ولم أقبل الاسقفية إلا مكرهاً، وعشت في هذا المقام خمساً وعشرين سنة ولم تُقم عليّ دعوى من أحد ولا شكوت أحداً، ولم يشهد أحد من الكليريكيين المنضوين إلى ولايتي محكمة في هذه السنين كلها، ولم أتقبل هدية ولا ثوباً من أحد، ولم يأخذ أحد من خدامي رغيماً أو بيضة واحدة من أحد، ولم أشأ أن يكون لي من المقتنى إلا الثوب المؤتزر أنا به. أنشأت مأوى عمومية من دخل الكنيسة، وبنيت جسرين، وأقمت حمامات عامة، وجلبت الماء في المدينة فكفيتها ماءً، ورددت إلى الصواب ثمانى قرى وضواحيها، وكان أهلها مغوين بضلال مرقيون وأنرت بنور الحق قرية كان أهلها معمين بغواية اونوميوس، وقرية أخرى كان أهلها متسكعين بديجور ضلال اريوس، ولم يبقَ عندنا بنعمة الله أثر لبدعة، ولم يتهياً لي صنع هذه الأمور دون خطر، بل ريق من دمي مرات، وزُجمت مرات، وطُردت مرات إلى أبواب منزلي. ها قد صرت جاهلاً بافتخاري لكن الضرورة إنما هي التي دعتني إلى ذلك لا حبي الافتخار».

وقد روى كثيرون من المؤرخين أنه بعد وفاة والديه باع كل ما خصَّ به من ارثهما، ووزعه على الفقراء واعتنق السيرة النسكية في أحد الأديار حيث كان يصرف أكثر يومه بالصلوات ويعكف في باقيه على العلوم الدينية. وقد تتلمذ توادوريطوس في حدثاته لتوادورس المصيبي وليوحنا فم الذهب. ورقاه البطريك برفيريوس المار ذكره إلى درجة المرتل ثم صيَّره اسكندر خليفة برفيريوس شماساً، إلى أن رقاه توادوطس خليفة اسكندر إلى الاسقفية على مدينة قورش في سورية الشمالية سنة ٤٢٠م على رواية كرنريوس وعلى رواية بارونيوس خلفاً لايسدورس أسقف قورش الذي توفي وقتئذٍ. وقد شهد توادوريطوس المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م، وقاوم مع يوحنا بطريك انطاكية وغيرهما من الاساقفة الشرقيين القديس كيرلس الاسكندري وغيره من الاساقفة المجتمعين في أفسس في دعوى نسطور. وعاد أيضاً إلى الوفاق معهما. ولما عُقد مجمع أفسس اللصبي سنة ٤٤١م حطَّ فيه ديوسقورس بطريك اسكندرية توادوريطوس عن مقامه الاسقفي. على أنَّ المجمع الخلكيدوني الذي عُقد سنة ٤٥١م رده إلى أسقفيته بعد أن صرَّح بحرمه نسطور وتعليمه. وقد تمادى توادوريطوس بما كتبه خلافاً للقديس كيرلس والمجمع الأفسسي في حين الجدل على تعليم نسطور. وقد توفي سنة ٤٥٨م. وقد حرم المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م ما كتبه في تخطئة القديس كيرلس المدافعة عن نسطور. ولم يحرمه هو على أن أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة يشنَّون توادوريطوس وينبذون ذكره، واليعاقبة يمتقونَه إلى اليوم. حتى أنَّ المتقدم منهم إلى الدرجة المقدسة يلزمه أن يصرَّح في دستور الايمان الذي يتلوه عند ترقيته أنه يحرم توادوريطوس القورشي. وبعكس ذلك النساطرة فإنهم يجلُّونه لأنه جنح إليهم وقتاً. ما رواه السمعاني (في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠) وقد قال فيه الكردينال اورسي (مجلد ٢ من تاريخه فصل ٤٩): «إنه لولا مقاومته وقتاً ما للقديس كيرلس الذي كان بطلاً صنديداً للايمان ضد نسطور لما كان اسمه الآن أقلَّ توقيراً من اسم باسيليوس وفم الذهب وغريغوريوس إذ لم يكن أقلَّ علماً وفضيلة منهم».

واليك خلاصة ما جاء في أعمال مجمع أفسس اللصبي عن نسختها التي وُجدت في المتحف البريطاني بشأن عزل توادوريطوس. إنَّ بيلاجيوس كاهن انطاكية قال إنَّ لديه كتاباً في توادوريطوس ودمنس يسأل المجمع أن يأمر بتلاوته، فقال يوفينال بطريك أورشليم إنه ينبغي قبول هذا الكتاب وتلاوته، فتلا رئيس

المسجلين أولاً رسالة ييلاجيوس المذكور التي رفعها إلى المجمع، ثم أرفدها بتلاوة كتابه الذي ضمّنه البرهان على أنّ توادوريطوس خالف المجمع الأفسسي وقدم كتاباً أنشأه في التنديد على هذا المجمع، ورسالة كتبها توادوريطوس إلى بعض الرهبان طعنوا بالقدّيس كيرلس وتنديداً بحرومه. ثم قرأ فقرات من أحد كتب توادوريطوس يتبيّن منها مدافعتة عن آراء توادورس المصيصي وغيره من المختلي العقيدة، ويظهر منه جنوحه إلى تعليم نسطور، فقال ديوسقورس بطريك اسكندرية يظهر من ذلك أنّ توادوريطوس كان وما برح مدافعاً عن ضلال نسطور فيلزم نفيه من شركة المؤمنين وخلعه من المقام الكهنوتي. وتلاه غيره من الاساقفة ومنهم اوسطاتيوس أسقف بيروت موجبين الحكم بالعزل على توادوريطوس، إلى أن قال ديدبان المجمع أنّ الحكم على توادوريطوس عادل فاطردوا الهرطقة، جميعنا نقول كذلك فكلنا راضون بعزل توادوريطوس.

أما ما ألفه هذا الجهيد فهو أولاً تاريخ يعي ضمّنه في خمسة كتب ابتداءً فيه من سنة ٣٢٦م وانتهى سنة ٤٣٩م، وهو جلي ولا يخلو من الفصاحة أيضاً، وقلّ ما كان فيه محل للانتقاد إلّا في تاريخ بعض السنين. ثانياً تاريخ سماه دينياً أو تقوياً جمع فيه تراجم خمسين ناسكاً منهم القدّيس مارون. ثالثاً كتاب تفسير لرسائل القدّيس بولس كلها، وله أيضاً كتاب في تفسير نبوّات الأنبياء الصغار الاثني عشر وفي نبوّات أشعيا (ذكره السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٤٠ ومجلد ١ صفحة ٦٠٥). رابعاً كتابه في انتقاد حروم القدّيس كيرلس الاسكندري الاثني عشر لنسطور وليت هذا الكتاب لم يكن. خامساً كتاب يخطئ به اوريجانس أنكره عليه كافاليس، وأثبت عبد يشوع الصوباوي والسمعاني في شرحه لها. سادساً كتابه في التجسّد ذكر ماريوس مركاتور فقرأ منه في اللاتينية. سابعاً كتاب في تفسير نبوة دانيال ذكره عبد يشوع في قصيدته المذكورة. ثامناً كتاب سماه عبد يشوع «محاماة لأبائنا» النساطرة. وقال السمعاني الصحيح أنّ المراد بهذا التأليف خمسة كتب كتبها توادوريطوس في تجسّد الكلمة يندد بها بالقدّيس كيرلس وآباء المجمع الأفسسي محاماة لنسطور بطريك القسطنطينية ويوحنا بطريك انطاكية وغيرهما من الاساقفة الشرقيين، وذكر ماريوس مركاتور فقرأ منها. تاسعاً كتاب له سماه عبد يشوع رداً على الفلاسفة وهو كتابه المعروف بمعالجة أميال اليونانيين منظوياً على اثني عشر سفرأ، كتبه مقاوماً له الملك يوليانس الجاحد.

عاشراً وأخيراً رسائله وهي مئة وست وأربعون رسالة، وأذاع كرنوريوس خمس عشرة رسالة أخرى. وقال نيكوفورس (ك ١٤ فصل ٥٤) إنه كان لديه منها ما ينيف على خمسين رسالة. وله أيضاً مقالات شتى جزيلة الفائدة (ملخص عن السمعاني في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠ و ٤١).

عد ٦١٧

توادورس أسقف المصيصة

لم يكن توادورس هذا أسقفاً في سورية بل كان سورياً وُلد في انطاكية في منتصف القرن الرابع، وكان من اقران فم الذهب في اقتباس العلوم. وكان نسطور وتوادوريطوس من تلاميذه. وقد قاوم أولاً أتباع ابولينار شديد المقاومة فجوزي بأن رقي إلى أسقفية المصيصة في كيليكيا. وقد قرظه تلميذه توادوريطوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٣٩) واصفاً اياه بمعلم الكنيسة كلها، من ناصب جميع البدع ظافراً بها، لكنه تهوّر في أضاليل كثيرة ولا سيما ضلالي بيلاجيوس ونسطور. ويسميه النساطرة أباهم، ويخصّصه السريان باسم المفسر لأنه اشتهر بتفسيره كثيراً من الاسفار المقدسة. وقال ريناودوسيوس (في مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٦٢٢) في تفسيراته: «إنها وإن كانت لرجل فسد ايمانه بغوايات نسطور، لم يأنف الكاثوليكيون من الاعتماد عليها، ولذلك تجد فقراً كثيرة منها في تفاسير الآباء اليونانيين» وجاء في كرونيكون (تاريخ السنين) الرخا: «إنه في سنة ٧١٤ (يونانية توافق ٤٠٣ للميلاد) أخذ توادورس المصيصي يفسر الاسفار المقدسة» وكانت هذه السنة هي التاسعة من حبريته، وعليه فيكون رقي إلى الاسقفية سنة ٣٩٤م كما حقق السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٤٠٠) لا سنة ٣٩١م كما وهم بعضهم، ولا سنة ٣٩٧م كما زعم ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه، لأنّ توادوريطوس قال في (ك ٥ فصل ٣٩ من تاريخه): «إنه دبر كنيسة المصيصة ستاً وثلاثين سنة». وقد أدركته الوفاة سنة ٤٢٩م لأنه كان حياً سنة ٤٢٨م إذ سمي نسطور بطريركاً على قسطنطينية. فقد جاء في تاريخ افاغريوس (ك ١ فصل ٢): «إنّ نسطور مرّ بالمصيصة عند سفره إلى العاصمة واجتمع بتوادورس أسقفها وإذا سمع تعليمه زان عن محبّة التقوى».

وقد كتب توادورس مؤلفاته باليونانية وترجمت في تلك الأيام إلى السريانية، وعني بترجمتها ايهيبا أسقف الرها لأننا نرى كهنة الرها وهم صمويل وقورش ومادا واولوجيوس يشكون أسقفهم بهذه الترجمة في المجمعين اللذين عُقدَا في بيروت وصور، كما يظهر من المجلسين التاسع والعاشر من المجمع الخلكيدوني. واهتم ايهيبا بإذاعة هذه الترجمة فاعتمدها النساطرة في مجامعهم وتأليفهم بمنزلة دستور لمعتقدهم. كما حقق ابن العبري في تاريخه السرياني في ترجمة معاني جاثليق سلوقية. وعَدَّد عبد يشوع الصوباوي في قصيدته مصنفاته (السمعاني في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠) فقال إنها منظوية في واحد وأربعين مجلداً حاوية خمسين كتاباً كما يظهر من تعدادها. فوضع أولاً في تفسير سفر التكوين ثلاثة مجلدات. وروى فوتيوس في مكتبته (ك ٣٨) إنّ الأول من هذه المجلدات منقسم إلى سبعة كتب. ثانياً فسّر زبور داود في خمسة مجلدات، ونسب بعض علماء اليعاقبة إليه المزمور المثبت في فروض طائفتنا وهو **دَقَمَوا بَوْدَمَ حَلَّوَمَحَا** وقد أثبت السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٦٠) أنّ هذا المزمور ليس له بل للقديس افرام السرياني مورداً بذلك أدلة قاطعة، منها ثبوت هذا المزمور في كل نسخة القديمة معزواً صراحةً إلى القديس افرام. ومنها أنّ سريانيته فصيحة بحتة، وتوادورس كتب باليونانية. ثالثاً كتب تفسير نبؤات الاثني عشر نبياً في مجلدين. رابعاً سفر صمويل أي السفرين الأولين من أسفار الملوك في مجلد واحد. خامساً فسّر سفر أيوب في مجلدين أرسلهما إلى البطريك كيرلس الاسكندري العدو الألد لنسطور. ولذلك ذكر عبد يشوع اسمه مصغراً. سادساً فسّر سفر الجامعة بكتاب واحد. سابعاً فسّر نبؤات أشعيا وحزقيال وارميا ودانيال في أربعة مجلدات لكل نبؤة مجلد. ثامناً أسفار العهد القديم كلها في اثنتي وعشرين مجلداً وأسفار العهد الجديد بتسعة كتب. تاسعاً له كتاب في الاسرار، وكتاب في الايمان أي شرح دستور الايمان، وكتاب في الكهنوت، وكتابان في الروح القدس، وكتاب في التجسد، وكتابان في الردّ على اونوميوس، وكتابان في الردّ على من زعم أنّ الخطيئة ملازمة للطبيعة، وقد أثبت ماريوس مركاتور أنّ توادورس وضع هذين الكتابين رداً على عقيدة الخطيئة الأصلية، وعلى القديس اغوستينس أو على القديس ايرونيوس اللذين دافعا عنها. ولذلك نزل توادورس منزلة أب للبيلاجيين. ونعلم أنّ النساطرة لا يحسنون إلى الآن الاعتقاد بهذه العقيدة. عاشراً له كتابان في الردّ على الجوس أي

على مذهب الفرس، وكتاب إلى الرهبان، وكتاب في غموض الكلام وآخر في كمال السيرة، وخمسة كتب في الردّ على المجازين أي على اورييجانس وأتباعه الذين يفسرون الكتاب بالمعنى المجازي لا بالمعنى الحقيقي، وكتاب محاماة للقديس باسيليوس لاونوميوس، وكتاب في الآخذ والمأخوذ رداً على ابولينار الذي زعم أنّ المسيح أتى بجسده من السماء، وكتاب الفرائد أو الدرر جمعت فيه رسائله، وأخيراً كتابه في الاشتراع وهو خاتمة كتبه. انتهى ملخصاً عن قصيدة عبد يشوع الذي هو نسطوري فأطال كلامه في هذا الامام للنسطورية.

قال السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠) وعندنا في المكتبة الواثيكانية من هذه الكتب التي أثبت الصوباوي وجودها عند السريان النساطرة ليتورجية (أي رتبة القداس) لتوادورس المصيصي معلقة في الكتاب القديم السرياني عد ١٨ من الكتب السريانية في المكتبة المذكورة، وقد ذكرتها في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٨١ و ٥٨٣، ثم كتاب مباحث في الاسفار المقدسة ذكرته في المجلد الثاني صفحة ٤٨٧، وكتاب في مباحث وأجوبة في الاسفار المقدسة أشرت إليه في المحل المار ذكره، وقصيدة أشرت إليها في المجلد ٢ صفحة ٤٨٨. وقد ترجم الليتورجية المذكورة إلى اللاتينية رينودوسيوس (مجلد ٢ من الليتورجية الشرقية صفحة ٦١٦) وفاتحتها: «أيها الرب الإله القوي» وقال أبو البركات (في كتابه في الفروض فصل ٧) ماحرفيته: «توادورس المفسقان (أي المفسر) من ملافة السريان، له شرح لبعض الرسائل البولسية والقصص السليحية، وللمذكور عند طائفته مزية كثيرة في عمله».

عد ٦١٨

اسكندر وقورش واخسنيا أساقفة منبج

أما اسكندر فكان صديقاً لنسطور وعدواً للدّ للقديس كيرلس الاسكندري، حتى أنه بعد أن صالحه يوحنا الانطاكي ومناصروه من الشرقيين لم يشأ اسكندر أن يشترك مع يوحنا بطريكه، وقد اشتهر سنة ٤٣١م، وذكره الصوباوي في قصيدته (فصل ١٣٠)، وقال انه كتب كتاباً يضاد فيه يوليانس الجاحد. وذكر له كافايوس (في تاريخه مجلد ١ صفحة ٢٣٣) كتباً أخرى.

أما قورش فأصله يوناني رقي إلى أسقفية منبج في سورية الشمالية واستمر في هذه الاسقفية إلى نحو سنة ٤٨٥م. ولما توفي أقام بطرس القصار البطريك الانطاكي خلفاً له اخسنيا المسمى أيضاً فيلوكسينس. وكان قورش نسطورياً كما يظهر من أنَّ خليفته اخسنيا الذي كان اوطاخياً حرمه مرات مع توادورس المصيبي ونسطور وتوادوريطوس وايهيا وغيرهم. وله في التأليف مقالة في تقسّم الأديان والبدع وله خطب عديدة. روى ذلك الصوباوي في قصيدته (فصل ٢٤)، والسمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٣ صفحة ٣٨). وروى هناك أنه كان في هذا العصر عالِم آخر اسمه قورش كان طبيباً وفيلسوفاً فصار راهباً سنة ٤٦٠م. وذكره جناديوس في جملة المؤلفين البيعين (فصل ٨١)، وقد كتب مقالات فصيحة سديدة في تخطئة نسطور على أنَّ حدّته في الجدل مع النساطرة أوقعته في ضلال اوطيخا، فنبد ما رسمه المجمع الخلكيدوني.

أما اخسنيا خليفة قورش في كرسي منبج فقد كتب السمعاني ترجمته مطوّلة في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية (صفحة ١٠) فنوجز ما أسهب. قال إنه فارسي الأصل ابق من عند مولاه من فارس وأتى إلى سورية وترلّف إلى بطرس القصار فرقاه حتى درجة الاسقفية في منبج. والظاهر من رسالة أنفذها إلى رهبان دير سنون بعد منفاه إلى تراسة سنة ٥١٨م إنه رقي إلى الاسقفية سنة ٤٨٥م لأنه قال في هذه الرسالة أنه دبر كنيسة منبج أربعاً وثلاثين سنة. فإن أسقطنا هذه السنين من سنة ٥١٨م كان الحاصل أنه رقي الاسقفية سنة ٤٨٥م أو سنة ٤٨٤م، وبعد أن صير أسقفاً لم يأل جهداً في مقاومة المجمع الخلكيدوني ومناصبه من يذعنون لمراسيمه. وحمل افلايانس بطريك انطاكية على قبول أمر زينون المعروف بهانتيكون (أي منشور الاتحاد) على ماروي افاغريوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٣١).

وقد مضى مرتين إلى القسطنطينية ليغري الملك انسطاس بمقاومة الكاثوليكين ومطاوعة الاوطاخيين كما يتبيّن من رسالته إلى الرهبان المذكورين. وقد عني بعقد مجمع في صيدا، فأمر الملك انسطاس بعقده ورأس عليه سوتوريكس أسقف قيصرية في الكبادوك، واخسنيا أسقف منبج لمناصبتهما المجمع الخلكيدوني، وتصحبهما لاوطيخا وديوسقورس، على ما روى القديس كيرلس أسقف باسان في ترجمة القديس سابا. فعقد المجمع في صيدا سنة ٢٠ لانسطاس وهي سنة ٥١٠ أو سنة ٥١١م على ما روى توفان وديونيسيوس بطرك اليعاقبة، وانتهى في بدء سنة ٥١

على ما حَقَّق باجيوس. على أَنَّ الهراطقة لم يقضوا من هذا المجمع وطراً لمقاومة ايليا بطريك أورشليم لهم معتضداً بافلايانوس بطريك انطاكية. ونرى انسطاس الملك يشكو من هذا الأمر إلى القديس سابا الذي كان البطريك أوفده إليه كما يظهر من ترجمة القديس سابا التي نشرها كوتلريوس (مجلد ٣ صفحة ٣٠٠). ولذلك كتب اخسنيا وسوتوريكس رفيقه إلى الملك أنه إذا لم يُبعد افلايانوس وايليا عن كراسيهما، فيسمي جميع المؤمنين مدافعين عن المجمع الخلكيدوني. وعلى هذا النحو تسبب اخسنيا بعول هذين البطريكين كما مرّ. ولما عزل الملك افلايانوس عن بطريكية انطاكية وأدخل عليها ساويروس سنة ٥١٢م على ما روى افاغريوس (ك ٣ فصل ٣٣) رأس اخسنيا المجمع الذي رقى ساويرس إلى البطريكية كما يظهر من كلام كاتب ترجمته في الكتاب القديم السرياني في عد ١٣ من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية. وقد اضطر اخسنيا الكاثوليكين في أيام ساويرس البطريك كما يظهر من رسالة رهبان سورية الثانية إلى البابا هرمزدا وإلى يوحنا ومثا بطريكي قسطنطينية، وإلى المجمع الخامس المسكوني وان لم يصرّحوا باسم اخسنيا، فلا ريب في أنه باتفاقه مع ساويرس كان علّة تلك المحن والشؤون في بيعة الله.

وروى دونيوسيوس بطريك اليعاقبة في الكرونيكون أَنَّ ساويرس واخسنيا عقدا مجمعا في صور بأمر الملك انسطاس سنة ٨٢٦ يونانية (سنة ٥١٥ للميلاد)، وشهده كثيرون من أساقفة المشرق وفلسطين وفينيقية لبنان والعربية حرموا فيه المجمع الخلكيدوني. ولكن قال السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٩) أنه لا أثر لهذا المجمع في كتب المؤرخين اليونان واللاتين. وقد ذكر أنه كان فيه نواب من قبل ايليا بطريك أورشليم الذي نُفي من كرسيه سنة ٥١٣م، وعليه فيظهر أَنَّ ديونيوسيوس لم يميّز بين هذا المجمع ومجمع آخر عُقد في صور سنة ٥١٨م بعد هرب ساويرس تأييداً للإيمان الكاثوليكي كما روى بارنيوس وباجيوس.

إنّ العناية الربانية لم تدع أعداء الكنيسة الكاثوليكية يتمادون بشرهم إلى زمان طويل، فخرمت المنية الملك انسطاس سنة ٥١٨م، وتسلّم منصّة الملك يوستينس الكبير. وأنبأنا افاغريوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٤) وتوفان إنّ هذا الملك نفى ساويرس البطريك الانطاكي واخسنيا هذا أسقف منبج المسمى فيلوكسينس وبطرس

أسقف اباميا وغيرهم من المصايين بأدواء الضلال. ويظهر من الكتاب القديم السرياني المأتي به من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية (عد ٢٧ من هذه الكتب) والمنطوي على رسالة اخسنيا إلى رهبان دير سنون أنه نُفي إلى فيلوبولي في تراسة، إذ كتب هذه الرسالة منها ثم نُقل منها إلى كنكرا في بغلاغونية، وهناك هلك مقتولاً بالدخان. فقد جاء في ترجمته المثبتة في الكتاب السرياني القديم عد ١٣ في المكتبة الواتيكانية: «إنه بعد أن أفعم البيعة بالتعاليم الإلهية وتفسير الكتب، وقد معتقد النساطرة بكتبه نفوه إلى مدينة كنكرا حيث خنقوه بالدخان». ويظهر أن ذلك كان سنة ٥٢٢ أو سنة ٥٢٠م، ويعتد اليعاقبة لذكره في ١٠ من كانون الأول. وفي ١٨ من شباط ويعدونه شهيداً. وقد كتب ما كتبه باللغة السريانية، وعده يعقوب الرهاوي من أفصح ما كتبوا بهذه اللغة. وفضلاً عن ضلاله في تعليمه أن في المسيح طبعاً واحداً قد أنكر انبثاق الروح القدس من الابن كما يظهر من مقالة له في التجسد مثبتة في الكتاب القديم عد ٢٥ بين الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية. وقد أنكر جواز تكريم الصور ولا سيما إذا كانت لمن لا جسم له كصورة الله والروح القدس والملائكة.

وأما تأليفه فقد ذكرها السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٣) فقال هي أولاً تفسيره الأسفار المقدسة. وما ذكره منها ديونيسيوس بن صليبا وابن العبري ويوحنا أسقف دارا إنما هو تفسير الأناجيل. ثانياً ترجمة الأناجيل المقدسة من اليونانية إلى السريانية على ما شهد توما الحرقلي في حاشيته على نسخة من هذه الأناجيل سُحِطت سنة ٦١٦م، وهي محفوظة في مكتبة دير القديس اغوستينس في روما.

وأما تاريخ ترجمة اخسنيا لها فيؤخذ عن كتاب سرياني قديم في مكتبة باريس الملكية قد سُحِطَ على ورق سنة ١١٩٢م، ودُيِّلَ بحاشية كتب فيها على ما روى ديونيسيوس (مجلد ٢ من الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٨٩): «هذا كتاب الأناجيل الأربعة المقدسة الذي ترجم من اللغة اليونانية إلى السريانية بتعب جليل وتديق، أولاً في مدينة منبج سنة ٨١٩ لاسكندر المكدوني (توافق سنة ٥٠٨ مسيحية) في أيام القديس فيلوكسينس المعترف أسقف المدينة المذكورة». وقد مدح

هذه الترجمة كاتب دستور الايمان عند اليعاقبة في الكتاب القديم العربي المحفوظ في مكتبة مدرسة الموارنة في روما (صفحة ٤١٤). فقال «فيلوكسينس المنبجي مفسر الإنجيل إلى اللغة السريانية الذي يستعمله من يقرأ الإنجيل بالسرياني من الملكية واليعاقبة والنساطرة والموارنة، وأما نحن السريان فعندنا نسخة المحرقل لتوما الحرقلي». قال السمعاني قد كذب الكاتب اليعقوبي لأن الطوائف الأربع التي ذكرها لا تستعمل ترجمة فيلوكسينس بل الترجمة التي يدعونها **حَمَمُ** أي البسيطة. وقد انتشرت في الكنيسة السريانية منذ أيام الرسل، واليعاقبة وحدهم يستعملون الترجمة التي وضعها أولاً فيلوكسينس، ثم أصلحها وهذبها الحرقلي. وقد جعل ابن العبري ترجمة فيلوكسينس وترجمة الحرقلي واحدة، وهو خطأ يبين لأن فيلوكسينس مات نحو سنة ٥٢٠م، والحرقلي هذب ترجمته سنة ٦١٦م. ولعلّ كلام ابن العبري شوهته زلّة من قلم كاتبه.

ثالثاً لآخسنيا نافور مثبت في الكتابين الثالث والرابع من الكتب المأثي بها من الاسقيط، وفتحتة: «أيها الرب الإله غير المدرك». وذكره البطريرك اسطفانس الاهدني في مؤلفي النافورات الهراطقة فصل ٧، ويُعزى إليه نافور آخر فتحتة: «إيها الإله الذي هو حياة ونور لكل شيء» والصحيح أنّ هذا النافور لسمعان الفارسي. رابعاً لآخسنيا صلوة مترجمة من السريانية إلى العربية ومثبة في كتاب ٥٢ من الكتب العربية التي في المكتبة الواتيكانية. خامساً له رتبة لمنح سرّ المعمودية يستعملها اليعاقبة في كتب طقسهم. سادساً له ثلاث مقالات في الثالث والتجسد. سابعاً له عشر مقالات في أنّ أحد أقانيم الثالث الأقدس وُلد وألم. ثامناً له مقالة في الايمان ورسائل شتى منها رسالة إلى الملك زينون. تاسعاً له محاوراة مع عالم نسطوري ومقالة في النساطرة والاطواخين وأخرى في العقّة. ومن شاء تفصيلاً أكثر في ترجمته ومصنّفاته فليراجع المكتبة الشرقية للعلامة السمعاني (مجلد ٢ من صفحة ٤٦) الذي لخصنا كل ما مرّ عن أقواله.

عد ٦١٩

ايريناوس أسقف صور

إنّ ايريناوس هذا كان كنعاناً من كبراء دولة الملك توادوسيوس الصغير. وقد أرسله سنة ٤٣١م إلى الجمع الأفسسي نائباً عنه فيه، فشاع نسطور وانتصر له في

الجمع وبعده. فعزله الملك من منصبه ونفاه إلى مدينة حجر في العربية، واستمر في منفاه اثنتي عشرة سنة كما يظهر من أعمال مجمع أفسس اللصبي التي وُجدت من عهد قريب في المتحف البريطاني كما مرّ. حيث يقال في ايريناوس: «إنّ دمنس (البطريك الانطاكي) وضع يده عليه، وإن كان متزوجاً بامرأتين وعاش خارجاً عن شركة الكنيسة المقدّسة اثنتي عشرة سنة أي مذ طُرد نسطور من كرسيه إلى أن صير (ايريناوس) أسقفاً». وأما كيف عاد من منفاه وبأية وسيلة فيظهر من رسالة كان بعضهم يعزوها إلى توادوريطوس، وقد تحقق الآن أنها لدمنس البطريك الانطاكي. إنّ دمنس لم يرقّه إلى الأسقفية إلّا برأي جميع أساقفة فينيقية وقرطلة كثيراً. وإليك كلامه (في رسالة ١١٠): «قد أنقذت برأي أساقفة فينيقية أعزاء الله إلى أن أرقى إلى الأسقفية ايريناوس عزيز الله، وإذ تبيّنت لي غيرته وعزة نفسه ومحبته للفقراء وسائر فضائله وصحّة عقيدته، ونعلم أنه لم يأت البتّة أن يدعوا العذراء والدة الله وأنه لم ير رأياً مخالفاً للتعاليم الانجيلية». ومن ذلك يظهر جلياً أنه أفلح عن غلظه وجحد ضلاله قبل أن يرقى إلى الأسقفية. وأما سنة ترقّيته إلى الأسقفية فلا يمكن القطع بها، لأنّ قول المجمع اللصبي المورد آنفاً أنه قام اثنتي عشرة سنة في المنفى لا يُعلم أبدؤها سنة ٤٣١م التي عُزل بها نسطور، أم سنة ٤٣٥م التي صدر فيها أمر الملك ضد النساطرة، فإن صحّ الأول كانت ترقّيته ٤٤٣م أو الثاني فسنة ٤٤٧ أو سنة ٤٤٦م وقد رجّح الأب مرتيس الثاني.

وهاك ما كان في أمره في مجمع أفسس اللصبي نوره ملخصاً على علاّته: «قال يوحنا خوري اسكندرية ورئيس المسجلين يترتب علينا أن نخبر مجمعكم الطوباوي المسكوني أنّ ايريناوس أنحصّ المعاضدين لضلال نسطور والمساعد لهذا المبتدع على نشر غوايته قد قُضي عليه بالنفي، وأُرسل إلى المحل الذي عيّنه له ملوكنا الصالحون محبو المسيح. ولا أعلم كيف أمكن أن يرقى إلى كرسي صور ولم يكن أهلاً لذلك لأنه كان متابعاً لنسطور على تعاليمه السقيمة فضلاً عن أنه كان متزوجاً بامرأتين، ولم تكن سيرته حميدة في شبابه، ولهذا كان للصوريين ذنباً خاطفاً. بدلاً من أن يكون راعياً وهو متردّ بثياب حمل ولم يكن وضع اليد إليه مطابقاً للقوانين. فغُزل وحطّ عدلاً وأقيم مكانه فوتيوس الذي تروونه الآن في مصاف قداستكم في هذا المجمع. فالعدالة تقضي علينا بل الضرورة تلزمن أن يبرز هذا المجمع حكماً قانونياً ومجمعياً خشية أن يتصل هذا الداء بغيره فيُفسد الكثيرين».

فقال ديوسقورس بطريك اسكندرية قد اطلع هذا المجمع المقدس على سؤال يوحنا رئيس المسجلين ورأى اجابة سؤاله لاثقة وعادلة ومطابقة للقوانين. وإن هذا المجمع المقدس يلزمه أن يؤيد حطّ ايريناوس المجدّف وذي الزوجين، ولهذا فأنا أول من يحطه عن شرف الكهنوت ويحظر عليه الاشتراك مع عامة الناس أيضاً.

وقال تلاميوس أسقف قيصرية يكفي لحطّ ايريناوس عن المقام الكهنوتي أنه ثبت عليه تشبّه بضلال نسطور فضلاً عن أنه ثبت عليه الزواج بامرأتين خلافاً للقوانين، ولهذا اعتده معصياً عن الكهنوت وعن شركة المؤمنين.

وقال اسطفانس أسقف أفسس أنا كنت مخالفاً منذ البدء لترقية ايريناوس إلى الأسقفية لأنه رقى إلى الكهنوت خلافاً للقوانين والنظام الكنسي، ولهذا أرى لزوم إجابة سؤال رئيس المسجلين بإقصائه عن الأسقفية وشركة المؤمنين.

وقال اوسابيوس أسقف انكورة فليكن ايريناوس المتزوج بامرأتين والمشكو بمشايعة نسطور منحطاً عن مقامه الأسقفي. وقال غير هؤلاء من الأساقفة مثل ذلك إلى أن قال اوسطاتيوس أسقف بيروت إنه بمكر الشيطان أصبح الانسان مضطراً إلى تجسّد ابن الله فأراد ابليس أن يضربنا فكان نافعاً لنا بتدارك رحمة الله لنا، وعلى هذا النحو الناس الأشرار فإنهم يهيئون لكنيسة الله الوسائل لبذ التهم الواردة عليها، فإذا استؤصلت جرائمهم أتت الأشجار الباقية في جنة الله بشمار وافرة، فايريناوس الذي دافع قبلاً عن ضلال نسطور الوخيم حطّته طوباويكم عدلاً عن مقامه، فليكن محروماً من الاشتراك في الأسرار المقدسة لأنه كان سبباً لشرور كثيرة بعد نسطور.

وقال أخيراً أحد الأساقفة: «باسم المجمع إننا جميعنا نقول كذلك وباجماع كلمتنا ننذ الهراطقة. قد أصاب ملوكنا بما صنعوا إنّ كل ما عمله ايريناوس يلزم نبذه لأنه رقى الاسقفية بوسائل رديئة، وكل أعماله ممقوتة وحكم المجمع عليه عادل كحكم الملوك».

ومن بعد هذا الحكم على ايريناوس عُزل بأمر الملك توادوسيوس الصغير عن كرسيه. ولا مرية في أنّ ايريناوس شايع نسطور في المجمع الأفسسي وفي أنه كان متزوجاً قبل أسقفيته بامرأتين. ولكن أكان بعد أسقفيته متشّبهاً بضلال نسطور. فما رويانا أنفاً من رسالة بطريركه دمنس ينفي هذه التهمة عنه ويبرئ ساحته، ولكن يظهر مما قال رئيس المسجلين أنه كان قد عُزل قبل المجمع اللصبي، وأقيم فوتيوس

مكانه. واليعاقبة يعتدونه من الهراطقة النسطوريين في دستور الايمان الذي يتلوه المتقدم إلى الأسقفية عند ارتقائه إليها.

إن إيريناوس بعد أن عزله الملك عن كرسي صور، انكبّ على كتاب تاريخ لأيامه ضمّنه خمسة كتب. وقال فيه عبد يشوع الصوبواوي (في قصيدته المذكورة فصل ٢٥): «إيريناوس الصوري وضع خمسة كتب في التاريخ البيعي على اضطهاد نسطور وكل ما جرى في ذلك الزمان». والمعلوم أنّ تاريخه هذا هو مجموع أوامر من الملوك وأحكام الجامع ورسائل من أساقفة ذلك العصر. وله رسالة إلى الأساقفة الشرقيين كتبها سنة ٤٣١م. وله أيضاً مأساة كتبها في منفاه ببلاد العرب ولا نعلم مضمونها إلّا من تخطئة له فيها معنونة الرد على مأساة إيريناوس. ذكره منسى في مجموع الجامع وتلمون (في مذكرة ١٤ صفحة ٦٠٥).

عد ٦٢٠

باقي أساقفة صور في هذا القرن غير إيريناوس

كان قبل إيريناوس قورش أسقفاً على صور، وشهد المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م، وكان فيه مشايخاً لنسطور، واختاره أصحابه ليكون في جملة الأساقفة الذين أوفدوهم إلى الملك توادوسيوس لإقامة الحجّة على هذا المجمع. لكنه مرض فاستتاب عنه مكاريوس أسقف اللاذقية. وقد وقّع على كل ما كتب مدافعة عن نسطور فخلعه المجمع الأفسسي من مقامه الأسقفي كباقي رفقائه كما هو بيّن في أعمال هذا المجمع. ولا نعلم ما كان منه بعد ذلك.

وخلفه برونيسيان، ونعلم أنه كان من الساعين للصالح بين القديس كيرلس البطريك الاسكندري وبين الأساقفة الشرقيين للاتفاق على نبذ ضلال نسطور وعملاً برغبته. كتب القديس كيرلس أنه يلزم الأساقفة الشرقيين جميعاً أن يحرموا نسطور وينزلوا تجديفه على المسيح منزلة تجديف سيمون الساحر كما يظهر من رسالة القديس كيرلس إلى ارسطولانس.

وخلف إيريناوس المذكور برونيسيان، وبعد عزل إيريناوس من كرسيه كما مرّ خلفه فوتيوس، وقد عهد إليه الملك توادوسيوس وافلايانس بطريك قسطنطينية أن

يفحص مع اوسطاتيوس أسقف بيروت عما كتبه أو قاله ايھيا أسقف الرھا. وكان ذلك سنة ٤٤٨م على ما روى بارونيوس أو سنة ٤٤٩م على ما روى باجيوس الذي قصّ علينا هذا الخبر كما يأتي ملخصاً: «إنّ بعض الاكليريكيين من الرھا شكوا أسقفھم ايھيا إلى دمنس بطريرك انطاكية، وكان صديقاً لايھيا فلم يحفل بالشكوى، فرفعوا شكواھم إلى الملك توداوسيوس وإلى افلايانس بطريرك قسطنطينية فأمر توداوسيوس داماشيوس أحد القضاة في ٢٦ تشرين الأول سنة ٤٤٨م أن يمضي سريعاً إلى فينيقية ويهتم بالفحص عن دعوى ايھيا بحضرة القضاة المفوض إليھم بسماعھا. وأرسل افلايانس مع داماشيوس اولوجيوس الشماس، وكان القضاة المفوضون فوتيوس ميريوليت صور، واوسطاتيوس أسقف بيروت، واورانيلوس أحد الأساقفة الخاضعين لرئيس أساقفة الرھا، فدعا فوتيوس رفقاءه القضاة وايھيا وشاكیھ إلى صور. فأذاع الشاكون فيها أنّ ايھيا قال لا أحسد المسيح على أنه صار إلهاً لأنه يمكنني أن أصير مثله إذا كان له ولي طبع واحد. ولما علم فوتيوس أنّ هذا التجديف يكون معثرة للصوريين أمر أن يخرجوا من صور، فانتقل القضاة إلى بيروت وأرسل ايھيا أحد شمامسته من بيروت إلى الرھا ليأتيه برسائل من اكليروسھا يشهدون فيها أنه لم يفه بهذا الكلام تبرئة لساحته. فأرسل إليه الاكليرس رسالة يبرئونه فيها من هذه التهمة، ويسألون فوتيوس واسطاتيوس القاضيين أن يسرعا بارجاع ايھيا إلى رعيته ولا سيما لدنو عيد الفصح. ولما لم تظهر صحّة الشكوى بذل القضاة قصارى جهدهم في اصلاح ذات البين بين ايھيا وشاكیھ. ورأوا أنّ هذا الصلح لا يبعد أن يكون، فعادوا إلى صور وهناك جرى الصلح ووقع على صكّه بحضور كثيرين في صور في ٢٥ شباط سنة ٤٤٩م. وترى صكّ هذا الصلح مع التوقيع عليه في أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ٩) على أنّ الشاكين على ايھيا استأنفوا شكواھم في مجمع أفسس اللّصبي فحطّه هذا المجمع عن مقامه.

وقد شهد فوتيوس هذا المجمع اللّصبي كامراً. ثم أتى إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م وأثبت أعماله وذكر في المجلس التاسع منه ما تصرف به في دعوى ايھيا. وكان اوسطاتوس أسقف بيروت قد اعتدى عليه باتخاذ السلطة المتربوليتية في بعض المدن الخاضعة لأسقفية صور سنداً إلى جعل الملك تودورسيوس بيروت مدينة متربوليتية. فدافع فوتيوس عن حقه ففاز بدعواه إذ حكم هذا المجمع أن تبقى كنائس المدن المتربوليتية على حقوقھا، ولو أحدث الملوك مدناً أو لقبوها ألقاباً

مشرفة. وقد وُقِع فوتيوس على جميع مراسيم الجمع الخلكيدوني كما يظهر من أعماله.

وخلف دوروتاوس فوتيوس والذي علمناه من أمره أنَّ الملك لاون كتب إلى كل من ميريوليتية الكنائس الشرقية أن يعقد كل منهم مجمعاً اقليمياً في كنيسته ويصرِّح برأيه في شأن الجمع الخلكيدوني فنرى دوروتاوس عقد مجمعاً وأوفد إلى الملك رسالة ووقَّع عليها باسمه دوروتاوس ميريوليت صور (لكويان في المشرق المسيحي في أساقفة صور).

ومن أساقفة صور بعد ذلك يوحنا كودوناتس مشايحاً لبطرس القصار في انطاكية، فصيّره أسقفاً على اباميا فلم يقبله أهلها. وبعد أن قتل أعداء الجمع الخلكيدوني اسطفانس الثالث بطريرك انطاكية أقاموا يوحنا هذا مكانه. إلا أنَّ اكاشيوس البطريرك القسطنطيني أقام كاندليون بطريركاً على انطاكية بأمر زينون الملك. ولما أتى انطاكية ورحَّب به أهلها جعل يوحنا أسقفاً على صور كما مرَّ (في الكلام على بطاركة انطاكية) هذا ما رواه توفان في تاريخ السنة السابعة لزينون. ولكن جاء في موجز تاريخ الاوطاخيين أنَّ بطرس القصار رقى يوحنا هذا إلى أسقفية اباميا، ولما عاد القصار إلى انطاكية ولم يقبله أهلها، أخذ يوحنا كرسيه الانطاكي فحرم اكاشيوس البطريرك القسطنطيني كليهما، أي القصار ويوحنا فجعل البطريرك الاسكندري ويوحنا أسقفاً على صور (ملخص عن المشرق المسيحي).

عد ٦٢١

من نعرفهم من أساقفة صيدا ويروت وجبيل في القرن الخامس

نعرف من أساقفة صيدا في هذا القرن دميانس، ونرى توادوريطوس وجّه إليه رسالة هي في عدد أربعين من رسائله، وإنه كان من الأساقفة الذين وقَّعوا على الحكم في دعوى اثناسيوس أسقف بيريا^(٢) في الجمع الذي عقده دمنس بطريرك

(١) حاشية ويسمىها الافرنج PERRHA واظنها البادية التي في ناحية ادلب وريحا إلى الجنوب من ريحا على مسافة نصف مرحلة وهي مشهورة باطلال الهياكل والأديار والدور التي كانت فيها.

انطاكية سنة ٤٤٥م، فإنّ اثناسيوس كان أسقف ييريا الخاضعة لولاية ميريوليت منبج، وقد شكى بجرائم ثقيلة، فعقد دمنس مجمعاً في انطاكية في السنة المذكورة ودُعي اثناسيوس ثلاثاً ليبرئ نفسه فلم يلبِ الدعوة، فحكم المجمع بعزله وأقيم مكانه ساينيان، فأرجع ديوسقورس في المجمع اللصبي اثناسيوس إلى كرسيه وحطّ ساينيان عنه. وقد لجأ ساينيان إلى المجمع الخلكيدوني فنظر في دعواه في مجلس ١٤ وحكم ببقائه في أسقفيته، إلّا أن يبرئ اثناسيوس نفسه من كل جريمة في مدة ثمانية أشهر، فيعود إلى كرسيه يكون ساينيان معاوناً له. وقد شهد دميانس المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١ ووقع على مراسيمه. ونعرف أيضاً ما كان أسقف هذه المدينة، مستدلين عليه بتوقيعه على رسالة رفعها مجمع عُقد في فينيقية إلى الملك لاون سنة ٤٥٨ أو ٤٥٩م في شأن مقتل بروتوريوس أسقف الاسكندرية ونبد تعاليم الاوطاخيين.

ومن أساقفة عكا نعرف الاديس ويتبين من أعمال المجمع الافسسي إنه كان موافقاً فيه ليوحنا بطريك انطاكية وغيره من الأساقفة الشرقيين في الدفاع عن نسطور، فاستحق معهم أن يحطّه هذا المجمع عن أسقفيته. ونعرف منهم أيضاً أن بولس شهد المجمع الذي عقده دمنس بطريك انطاكية في دعوى اثناسيوس أسقف البادة، وقد حضر أيضاً في المجمع الخلكيدوني ووقع على مراسيمه.

ومن أساقفة بيروت في هذا القرن اوسطاتيوس المار ذكره، وقد كلّفه افلايانس البطريك القسطنطيني أن يفحص مع فوتيوس أسقف صور عن شكوى كهنة الرها أسقفهم ايهيا فأتى ذلك في مجالس عقداها في صور وبيروت وأصلحاً بين ايهيا وكهنته كما مرّ. وشهد اوسطاتيوس بعد ذلك مجمع أفسس اللصبي، وكان فيه محازباً لديسقورس بطريك اسكندرية، وقد نال من الملك توادوسيوس مرسوماً سمى فيه بيروت مدينة ميريوليتية، ونازع فوتيوس أسقف صور سيادته على بعض مدن فينيقية إلى أن حكم المجمع الخلكيدوني أن يبقى مطران صور على سيادته كما كان قبل هذا النزاع، وقد حضر اوسطاتيوس إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م ومحا وصمة العار التي تلطّخ بها في المجمع اللصبي إذ جحد ضلال اوطاخي وديوسقورس، ووقع على مراسيم المجمع الخلكيدوني، وقد بنى في بيروت كنيسة بديعة يقال أنّ آثارها باقية إلى اليوم في أحد المعابد. وكتب إليه الملك لاون رسالة في مقتل القديس بروتاريوس أسقف اسكندرية، ونرى توقيعه في الجواب المرفوع إلى

هذا الملك من أساقفة فينيقية مثباً بعد توقيع دوروتاوس أسقف صور. وقد قاوم تيموتاوس المعروف بالنمس الدخيل على بطيركية اسكندرية. وفي مكتبة مدرسة الآباء اليسوعيين في باريس فقرات من كتاب له يفنّد بها هراطقة كثيرين.

وقد جاء في سنكساري الأحباش في ٢٤ من نيسان ذكر اريستس أسقف بيروت، إلا أنه يقال أنّ المراد باريستس اوسطاتيوس المار ذكره، الذي كان محازباً لديوسقورس بطريك اسكندرية في المدافعة عن غوايات اوطاخي المتسكع الأحباش فيها. وجاء في ميناوون الروم في ١٩ من شباط أنّ القديس رابولا أسقف سميساط أتى فينيقية في أيام زينون الملك، وكان يصحبه ناسك اشتهرت فضائله فبنى في وسط الجبل (لعلّ المراد جبل لبنان) ديراً كبيراً بعناية الملك زينون ومساعدة يوحنا مطران بيروت.

ونعرف من أساقفة جبيل في هذا القرن بناتس، ويرى توقيعه في جملة اسماء الأساقفة الذين شهدوا مجمع انطاكية سنة ٤٤٥م في أيام دمنس، وحكموا على اثناسيوس أسقف البادة كما يظهر من أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ١٤). ومن أساقفة جبيل اكويلينس حط عن أسقفيته وحُرم في مجمع أفسس اللّصبي بما أنه نسطوري، وإليك ما كان في حطّه ملخصاً عما جاء في أعمال المجمع اللّصبي المذكور: «قال فوتيوس أسقف صور إنّ ايريناوس الذي قضى عليه بالخطّ إنما هو الذي رقى اكويلينس إلى أسقفية جبيل وإن كان شراً من نسطور وأكثر حماقة من ايريناوس. وقد استحق المذبح والكنيسة والكهنوت وفضّل عليها صداقة شريكه في الهرطقة، وقد دعوته مراراً ليأتي إليّ أو إلى البطريك دمنس فاجتبت، وكتب إليّ دمنس يسألني أن أقيم أسقفاً بدلاً منه ولم تأخر عن العمل بأمره إلاّ لأننا دُعينا إلى هذا المجمع المقدّس المسكوني. فقال ديوسقورس بطريك اسكندرية أنّ اكويلينس الذي كان أسقفاً على جبيل قد أثبت على نفسه أنه ليس أهلاً لشرف الكهنوت بإصراره على مخالفة النظام المفروض، وإثاره أتباع ايريناوس رفيقه في الضلال، كما أبان رئيسه فوتيوس التقي. فليكن له إذا نصيب ايريناوس، فإنه لم يشأ البركة فتباعدت عنه. فليكن معزولاً من أسقفيته وليكن معلوماً أنه إذا ظهر أنّ أحداً من أساقفة فينيقية الخاضعين لفوتيوس المتريبوليت مصاب بالضلال ومتشبث بتعاليم نسطور فيلزم المتريبوليت ومجمعه أن يحطوه عن مقامه. فالمتريبوليت هو المطالب بتنفيذ ما يأمر به هذا المجمع. وسأل المتريبوليت أن يذيع ذلك، ويرفع عرض كل ما

يكون إلى العرش الاسمي (أي الملك). فقال فوتيوس سأبذل جهدي في أن لا يبقى أسقف أو كاهن في فينيقية جانحاً إلى بدعة نسطور، واتوخى إنَّ مجعني الاقليمي يجاريني على رغائبي هذه العائدة لمجد المسيح وشرف هذا المجمع.

وقال يوفينال بطريرك أورشليم قال الرسول إذا أراد غير المؤمن أن يذهب فليذهب، وحيث أنَّ اكويلينس دُعي مرتين أو ثلاثاً ولم يشأ أن يمثّل كما أفاد فوتيوس البار فيكون هو حطّ نفسه عن الكهنوت. فقد قال الرسول أيضاً أهرب من الاراتيكي بعد أن نبهته مرتين أو ثلاثاً، وقال اسطفانس أسقف أفسس أنَّ اكويلينس الذي كان أسقفاً على جبيل قد حطّ نفسه بتركه الكنيسة المسلّمة إليه، وتفضيله عليها صداقة ايريناوس الأثيم الذي رماه إلى كرسىها، وعليه فأرى أن يُحكم عليه كما يُحكم على ايريناوس. وبعد أن قال كذلك تلاميوس أسقف قيصرية، واوسابيوس أسقف انكورة، ويوحنا أسقف سبسية في ارمينيا، واوسطاتيوس أسقف بيروت، قال مقدم المجمع إننا جميعاً نقول كذلك ونحطّ اكويلينس ونزله عن أسقفية.

ومن أساقفة جبيل أيضاً روفينس شهد المجمع الخلكيدوني ونرى توقيعه على أعماله: روفينس أسقف جبيل.

عد ٦٢٢

من نعرفهم من أساقفة البترون وطرابلس وعرقا وارتوسيا وارواد
في القرن الخامس

نعرف من أساقفة البترون في هذا القرن برفيريوس وقد شهد المجمع الخلكيدوني ووقع على مراسيمه إلّا المجلس السادس عشر، فقد وقع عليه فوتيوس أسقف صور بالنيابة عنه.

ونعرف من أساقفة طرابلس كومدس أتى مع يوحنا بطريرك انطاكية إلى المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م، واعتزل في هذا المجمع مع غيره من الأساقفة الشرقيين، ووقع معهم على الاحتجاج على هذا المجمع فجوزي بأن ينفيه المجمع مع أصحابه من شركة الكاثوليكين. ونعرف أيضاً توادورس أسقف طرابلس حضر إلى المجمع

الخلكيديوني، ووقع على مراسيمه سنة ٤٥١م، ثم وقع على رسالة مجمع اقليمه سنة ٤٥٨م إلى الملك لاون في شأن مقتل القديس بروتوريوس بطريك اسكندرية. ومن أساقفة هذه المدينة في هذا القرن اسطفانس جاء ذكره في ترجمة القديس اوتيميوس التي نشرها كوتيلوريوس (مجلد ٢ من الآثار البيعية) وأنه كان كاثوليكياً صحيح العقيدة. وجاء في هذه الترجمة أنّ اسطفانس هذا خلف لاونتيوس وكان من أنسابه.

ومن أساقفة عرقا في هذا القرن نعرف مرشيلنس، وإنه حضر في المجمع الأفسسي قبل أن يصل إليه يوحنا البطريك الانطاكي وغيره من الأساقفة الشرقيين. وكان في جملة من سألوا القديس كيرلس الاسكندري أن لا يفتح المجمع قبل أن يبلغ يوحنا البطريك ومن يصحبه إلى أفسس، وقد وقع على أعمال المجمع ورسائله كما هو بين من الكتاب الموسوم بالرد على مأساة ايريناوس (فصل ١٣ و ٢٨). ومن أساقفة عرقا أيضاً ايفان شهد المجمع الانطاكي في أيام دمنس، وكان في جملة قضاته في دعوى اثناسيوس أسقف البارة كما مرّ. ومنهم أيضاً اركلينس إذ نرى في أعمال المجمع الخلكيديوني اللاتينية توقيع فوتيوس أسقف صور نيابة عن بطرس أسقف جبيل واركليثس أسقف عرقا. على أننا نرى توقيع نفسه على رسالة مجمع أساقفة فينيقية سنة ٤٥٨م إلى الملك لاون في شأن مقتل بروتوريوس بطريك اسكندرية.

ومن أساقفة ارتوسيا (وهي بلدة كانت عند مصب نهر البارد على ما روى رنان في بعثة فينيقية) نعلم فوسفورس، شهد المجمع الانطاكي الذي حكم فيه اثناسيوس أسقف البارة، ثم كان في المجمع الخلكيديوني ووقع على مراسيمه إلاّ المجلس السادس عشر، فقد وقع عليه فوتيوس مطران صور نائباً عنه. ومنهم في هذا القرن نونس الذي نرى توقيع على رسالة أساقفة فينيقية إلى لاون الملك في شأن مقتل القديس بروتوريوس الاسكندري. ومنهم أيضاً نيلس، رقا إلى الاسقفية لاونتيوس أسقف اطرابلس، وكان متلمذاً في دير القديس اوتيميوس في فلسطين كما يظهر من ترجمة هذا القديس.

ومن أساقفة جزيرة أرواد وانترواد وهي طرطوس موسى، ورد اسمه في أعمال المجمع الأفسسي في جملة الأساقفة الذين وقعوا على الحكم الذي قضى به مجمع

الشرقيين على القديس كيرلس بطريرك اسكندرية، ومنون أسقف أفسس، ثم على رسالتهم الجمعية إلى الكنيسة الانطاكية. وبعد أن أصطلح الأساقفة الشرقيون والقديس كيرلس ارعوى موسى عن المدافعة في دعوى نسطور، وأنفذ إليه القديس كيرلس الرسالة المثبة في فصل ٢١١ من الردّ على مأساة ايريناوس الصوري. ونعرف من هؤلاء الأساقفة أيضاً بولس، ونرى توقيعه على أعمال المجمع الانطاكي في أيام دمنس مسمياً نفسه أسقف انثرواد، (طرطوس). ونرى في المجمع الخلكيدوني توقيع بولس أسقف ارواد واسكندر أسقف انثرواد فظهر أنه كان حينئذٍ لكل من المدينتين أسقف. ونعرف منهم أيضاً اتيكس وترى توقيعه في رسالة أساقفة فينيقية إلى الملك لاون في شأن مقتل القديس بروتوريوس.

عد ٦٢٣

من نعرفهم من أساقفة جبلة واللاذقية والسويدية وحلب
في القرن الخامس

نعرف من أساقفة جبلة ماراس وقد أنبأنا خبره قزما الكاهن الذي كتب ترجمة القديس سمعان العمودي. وقال السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٢٤٠) إنّ نسخة من هذه الترجمة محفوظة في المكتبة الواتيكانية بين الكتب المخطوطة. فقال قزما فيها أنه كان لسمعان اخوة كثيرون وأحدهم المسمى شمشي أراد الاقتداء بأخيه فراقه إلى الدرجات الصغار ماراس أسقف جبلة، وعكف على السيرة الرهبانية. وعليه فماراس خلف سفريانس الذي مرّ ذكره بين أساقفة جبلة في القرن الرابع. ونعرف أيضاً بطرس أسقف جبلة ونرى توقيعه بين تواقع أساقفة سورية على المجمع الخلكيدوني. ونعرف أيضاً فالايانس ونرى توقيعه على الرسالة الجمعية التي أنفذها أساقفة سورية إلى الملك لاون في شأن المجمع الخلكيدوني ومقتل بروتوريوس.

ومن أساقفة اللاذقية عرفنا مكاريوس ويظهر من أعمال المجمع الأفسسي أنه كان موافقاً ليوحنا البطريرك الانطاكي وغيره من أساقفة المشرق في مقاومة القديس كيرلس الاسكندري والمجمع الذي حرمه مع رفقائه. وقد شهد سنة ٤٣٢م المجمع الذي عُقد في انطاكية لتوطيد السلم بين الكنائس. وكان من جملة الأساقفة الذين

أرسلهم المجمع الانطاكي سنة ٤٤٠م على الأظهر إلى القسطنطينية في دعوى توادورس أسقف المصيصة وقد شهد المجمع الخلكيدوني ووقع على أعماله ولا سيما المجلس السادس. ويظهر أنه رقي إلى الأسقفية سنة ٤٢٩م لأن اسمه ذكر في آخر أسماء الأساقفة الذين وقّعوا على الرسالة المنفذة إلى نسطور من المجمع الأفسسي سنة ٤٣١م. وقد عرفنا من هؤلاء الأساقفة مكسيمس أيضاً، ونرى توقيعه بين أسماء الأساقفة على رسالة أساقفة سورية المذكورة مراراً إلى الملك لاون. ومنهم أيضاً بيسيان، وكان اراتيكياً مخالفاً للمجمع الخلكيدوني وموافقاً لآخسنيا أسقف منبج. ذكره افاغريوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٣١).

ومن أساقفة السويدية عرفنا دوسيتاوس الثاني ذكره سقراط (في ك ٧ من تاريخه فصل ٣٦) قائلاً إنّ اسكندر بطريرك انطاكية نقله من كرسي السويدية إلى كرسي ترسيس في كيليكيا. ومنهم جيرنتس شهد المجمع الأفسسي اللصبي ووقع على أعماله على أنه ألقع عن ضلاله في المجمع الخلكيدوني ووقع على مراسيمه ولا سيما المجلس السادس ثم على رسالة أساقفة سورية إلى الملك لاون.

ومن أساقفة حلب عرفنا أنّ تواكليستس خلف سنة ٤٣٨م اكاشيوس الذي مرّ بنا ذكره في تاريخ القرن الرابع، وكتب إليه توادوريطوس رسالته الـ ٣٥ والـ ١٣٥. وشهد المجمع الخلكيدوني ووقع على كل مراسيمه. وقد عرفنا منهم انطونينوس أيضاً. وروى ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه أنه كان من جملة الأساقفة الذين نبذوا مراسيم المجمع الخلكيدوني فنقاهم الملك يوستينس سنة ٥١٨م (طالع المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٣٢٧).

عد ٦٢٤

من نعرفهم من أساقفة دمشق وحمص وما يليهما في القرن الخامس

نعرف من أساقفة دمشق في هذا القرن يوحنا الأول شهد المجمع الأفسسي مع يوحنا بطريرك انطاكية، وكان على شاكلته لأنه وقع على كل ما كتبه مخالفو القديس كيرلس وأساقفة المجمع المستقيمي الرأي. وكان في جملة الوفد الذي أرسله المخالفون إلى قسطنطينية للاحتجاج أمام الملك على أعمال المجمع.

وعرفنا أيضاً توادورس خلف يوحنا المذكور، وذكر يوحنا البطريك الانطاكي ترقية إلى الأسقفية في رسالته إلى بروكلس البطريك القسطنطيني. وقد شهد المجمع الانطاكي سنة ٤٣٥م في أيام دمنس بطريك انطاكية حيث حُكم على اثناسيوس أسقف البارة وعُزل عن كرسيه. ثم حضر توادورس إلى المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م ووقع على مراسيمه ولا سيما المجلس السادس. وخلفه يوحنا الثاني، وقد كتب الملك لاون عند سماعه بمقتل بروتوريوس بطريك اسكندرية يسأله كما سأل غيره من الأساقفة ما يرون في هذه الجناية الشنعاء وفي شأن المجمع الخلكيدوني. وقد وقع على رسالة الجواب إلى الملك ويظهر منها صحة عقيدته.

ومن أساقفة حمص في هذا القرن بولس الثاني، وكان متابعاً يوحنا الانطاكي وغيره من الأساقفة الشرقيين في مقاومة القديس كيرلس الأورشليمي. ثم أرسله يوحنا الانطاكي ومجمعه إلى الاسكندرية سنة ٤٣٢م، وأراد أن يكون وسيط الصلح والسلم في الكنائس. وخطب في كنيسة اسكندرية فأكثر الشعب من التصفيق له عند كلامه في الايمان واتحاد الكنائس. وقام بعده على كنيسة حمص بمباوس وشهد سنة ٤٣٥م المجمع الانطاكي في أيام دمنس. وجاء ذكره في أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ٤)، وكتب إليه توداوريطوس رسالته الـ ٣٦، وخلفه اورانيوس. ولم يشهد المجمع الخلكيدوني بل أرسل برفوريوس الشماس نائباً عنه. وكتب إليه توداوريطوس رسالته الـ ١٢٢ والـ ١٢٣ عند عزله عن كرسيه في قورش بحكم مجمع أفسس اللصبي، وأمر الملك توادوسيوس ووقع اورانيوس بعد ذلك على رسالة الأساقفة الشرقيين إلى لاون الملك.

ومن أساقفة بعلبك في هذا القرن يوسف، شهد مجمع انطاكية في أيام دمنس للحكم في دعوى اثناسيوس أسقف البارة وقام بعده بطرس، وُرى توقيعه في الرسالة التي رفعها مجمع أساقفة فينيقية الثانية إلى لاون الملك.

ومن أساقفة الالبية (وهي المعروفة الآن بسوق وادي بردا) جردان وقد شهد مجمع انطاكية الذي حكم على اثناسيوس أسقف البارة. وأعمال هذا المجمع مثبتة في المجلس الرابع عشر من المجمع الخلكيدوني، وترى في أعمال هذا المجمع توقيع بترينس خوريه الأسقف نائباً عنه. وقام بعده يوحنا، ترى توقيعه في رسالة أساقفة فينيقية الثانية إلى لاون الملك في شأن مقتل بروتوريوس بطريك اسكندرية.

ومن أساقفة يبرود عرفنا اوسابيوس إذ نرى توادورس ميريوليت دمشق وقع على أعمال المجلس السادس من الجمع الخلكيدوني نائباً عن الأساقفة الغائبين الخاضعين لولايتهم، وفي جملتهم اوسابيوس أسقف يبرود.

ومن أساقفة تدمر عرفنا يوحنا الأول إذ وقع توادورس أسقف دمشق بالنيابة عنه على أعمال المجلس السادس في الجمع الخلكيدوني. ثم وقع بنفسه على رسالة مجمعه الاقليمي إلى الملك لاون في شأن مقتل القديس بروتوريوس. ونعلم من أساقفة بانياس اولمبيوس أنه شهد الجمع الخلكيدوني ووقع على مراسيمه.

وكان في هذا القرن اندراوس أسقف سميساط وقد أمره يوحنا بطريرك انطاكية أن يدافع عن نسطور مخالفاً القديس كيرلس الاسكندري، فوضع كتاباً في ذلك نحو سنة ٤٢٩م وذكر كيرلس هذا الكتاب ونشر لوبوس له ثمانى رسائل بين رسائل الجمع الأفسسي. وذكره الصوباي في قصيدته في المؤلفين (فصل ١٣٥) وقال أنه كتب بعض تفسيرات للأسفار المقدسة وكتاباً في المعارضة. ولعل المراد كتابه الذي عارض نسخ حروم القديس كيرلس (طالع مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠٢).

ونضرب عن ذكر أساقفة فلسطين وعبر الأردن فراراً من ملل القارئ ولقطة ما يترتب على ذلك من الفائدة مكتفين بمن ذكرنا من بطاركة انطاكية وأورشليم ومشاهير الأساقفة.

الفصل الثالث

غير هؤلاء البطارقة والأساقفة من المشاهير في سورية

في القرن الخامس

نضمّن هذا الفصل الكلام في من اشتهروا في سورية بالقداسة أو العلم أو تأليف الكتب كاثوليكين كانوا أم غير كاثوليكين

عد ٦٢٥

القديس سمعان العمودي

قد كتب توادوريطوس ترجمة القديس سمعان العمودي (في فصل ٢٦ من كتابه في النساك) وكتبها أيضاً انطونيوس أحد تلامذته بإيجاز. على أنّ قزما الكاهن من فير إحدى قرى سورية المجوفة دونها بأكثر تدقيق وتحقيق، إذ كان عشيراً للقديس سمعان. وأثبت السمعاني هذه الترجمة في المجلد الأول من المكتبة الشرقية (صفحة ٢٣٩) آخذاً عن الكتاب الأول من الكتب التي أتى بها هو من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. وقد خطّ هذا الكتاب سنة ٤٧٤م أي بعد وفاة القديس سمعان بخمس عشرة سنة فقط. فإنّ هذا القديس لقي ربه سنة ٤٥٩م والكتاب خطّ سنة ٤٧٤م كما هو بيّن من الحاشية المعلقة على خاتمته. وعليه فيظهر أنّ يد قزما خطّته أو نسخ عما خطّته يده بعد حين قريب من اذاعة هذا الكتاب الذي حوى أيضاً رسالة أنفذها قزما المذكور وأهل قريته فير إلى القديس سمعان يبجلونه فيها، ويعدون ويقسمون على أنهم يستسيرون بحسب ارشاداته بخوف الله والتقوى ومجانبة كل حيف وضرر. وإليك ملخص ما كتبه قزما: «وُلد الطوباوي سمعان في قرية سيسان من بلاد قورش، وكان له اخوة كثيرون وأحدهم يسمى شمشي اقتدى

بأخيه ورقاه ماراس أسقف جبلة إلى درجة المرتل، وعكف على السيرة الرهبانية. وقد أدركت الوفاة والديه قبل أن يدخل الرهبانية. ثم ماتت عمّة له وجعلته وارثاً لثروتها، فترك هو العقارات لأخوته، وباع الأثاث والملابس وتصدّق بأثمانها على الفقراء والأديار. وكان من حادثته يرعى غنماً قبل أن يترهب وقد تعشّق الكمال الرهباني لدن ترداده إلى الكنائس وسماعه المشورات الانجيلية وتفسيرها وحصول رؤية سماوية له. فأتى إلى دير في قرية اسمها تولادا فدفع إلى الرئيس ما كان استصحبه ودخل إلى الدير الذي كان فيه أحد انسبائه، وكان في الدير المذكور مئة وعشرون راهباً. وعكف على التقشّفات منها أنه كان يصوم السنة كاملة، ويحترم بحزم من أوراق النخيل، وأنه احتفر لنفسه حفرة في زاوية من البستان قضى فيها مدة الصّيف في سنتين، ومنها أنه قضى أيام الصوم في قبر فطرده رئيس تولادا من دير لافراطه في التقشّفات المضرة بصحته، فخرج تائهاً إلى أن هداه الله إلى دير ماريس بن يرعوتون في قرية تسمى تل نشين (أي تل النساء)، فأفرد الرئيس لسمعان قلاية يقضي فيها الصوم الأربعيني، وأغلق باس البرديوط بابها عليه، وترك له ستة أرغفة وكوز ماء، وبعد انقضاء الأربعين يوماً فتح باس الباب فوجد الخبزات الست كاملة وكوز الماء لم ينقص شيئاً، ولقي سمعان جاثياً يصلّي فناوله القربان الأقدس.

وبنى له باس وماريوس محبسة في جانب قرية تل النساء، فأقام في قلاية حرجة عشر سنين قبل أن يصعد على عموده. ولما انقضت ثلاثة أسابيع من الصوم رأى من نافذة قلايته التي كان يتناول القربان المقدّس منها رجلاً مجللاً بنور ساطع جاثياً على صخر يصلّي تارةً باسطاً ذراعيه وطوراً ضاماً إياها إلى صدره، ثم وقف على الصخرة ثم عاد يصلّي، واستمر ثلاثة أيام يترنم بالتسبيح لله، تارةً جاثياً وتارةً منتصباً، فعلم سمعان أنّ ذاك الرجل ليس إلّا ملاك يعلمه أن يقيم على صخر متعبداً لله. ولما أكمل صومه وفتح باب قلايته سأل أن يسوّى ذاك الصخر ليقوم عليه، واستمر متهجداً عليه ثلاثة أشهر. ثم سأل فأقيمت له أعمدة قصيرة ثم رفيعة إلى أن كان العمود الأخير أربعين ذراعاً. وأنبأنا قزما أنّ مجمل حياته في السيرة النسكية كان ستاً وخمسين سنة، كان منها في الدير تسع سنين متقشفاً متهجداً. وفي محبسة تل النساء وعلى الأعمدة سبعاً وأربعين سنة منها في المحبسة عشر سنين، وعلى الأعمدة القصيرة سبع سنين، وعلى العمود الأخير ثلاثين سنة. ومن أعلاه لقي ربه في الثاني من ايلول يوم الاربعاء في الساعة التاسعة سنة ٤٥٩م، وقد

ناهر السبعين من عمره لأنه وُلد نحو سنة ٣٩٠م. وقد ذكر قزما من الآيات التي صنعها الله على يده أربعاً وثلاثين آية. واقتصر السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٤٦) على أربع منها. ونقتصر نحن على ذكر آيتين منها: الأولى أن بعض أهالي لبنان أتوا إلى القديس سمعان يسألونه أن يقيهم بعض الضواري قائلين قلما خلت قرية من قراهم لا تفترس هذه الضواري منها كل يوم شخصين أو ثلاثة، وكان أهل تلك القرى وثنين (ربما صدق ذلك على القرى الآتي ذكرها في أعالي لبنان) فأجابهم القديس أنّ العلاج الفعال لنجاتهم أن يغادروا الوثنية، وينالوا سر المعمودية، ويدينوا بالدين المسيحي، ويقيموا في جهات كل قرية من قراهم أربعة صلبان، فوعده بأن يتموا ما أمر به، ولما انجزوا وعدهم انقطعت عنهم رؤية هذه الضواري. قال السمعاني عند إirاده هذا الخبر أنّ الموارنة سكان تلك الجهة قد أخذوا خبر هذه الآية الباهرة عن قدمائهم، بل يدلون على الحجارة التي أقاموها وعليها صورة الصلبان. وقال عن نفسه قد رأيت أحدهذه الحجارة المرسومة عليها صور الصلبان في حصرون. والثاني في أرض بشري (لعله عند الينوع المسمى ينوع ماري سمعان) والثالث فوق اهدن والرابع في قيطو (أيطو).

والآية الثانية رواها قزما نقلاً عن انطيوخس ساينس والي دمشق. قال انطيوخس إنّ النعمان أمير العرب أتى يوماً إلى بركة دمشق ودعاني إلى وليمة، ودار الحديث بين المدعوين على القديس سمعان. فقال لي النعمان أحب أن أعلم إلهاً تظنون سمعان هذا أم بشراً؟ فأجبت: كلاً بل هو خادم الله. فقال إليك ما دعاني إلى هذا السؤال. لما ذاع سيط سمعان في العربية أخذ الناس يتقاطرون إليه، وخشيت أن ينتصر العرب، فأصدرت أمراً نهيت فيه عن المضى إلى سمعان متهدداً من يخالف بقطع الرأس، وبينما كنت راقداً في الليلة التالية، ظهر لي رجل بهيئة بديعة ومن ورائه خمسة رجال ظننتهم جنوداً، فارتعدت من هذا المنظر وسقطت على رجليه، فقال لي مغضباً أتجسر أن تنهي شعب الله أن يأتي إليّ؟ وأوعز إلى جنوده فأوثقني أربعة منهم بيدي ورجلي وطفق الخامس يجلدني، ولم يكن من يشفع بي أو يتجني من هذه الهلكة. ولما لم يبق لي إلا رفق أمر أن يحلوني من وثاقي وهددني قائلاً حذار أن تمنع الناس من الذهاب إلى سمعان. وقد حكمتني التجربة. ففي الغد جمعت وجهاء الشعب وأذعت أمراً أن لا يعترض أحد من يريدون الذهاب إلى سمعان أو من يريدون أن ينتصروا. ولولا خضوعي لملك الفرس

لمضيت أنا إليه وتنصّرت. ومن بعد أمري هذا قد توافر عدد الكنائس في ولايتي يتردد إليها كثير من الاساقفة والكهنة دون معارض. قال السمعاني في الحاشية أنّ ترداد جم غفير من العرب إلى القديس سمعان، وتنصّر كثيرين منهم على يده ذكره توادوريطوس أيضاً في ترجمة القديس سمعان. وأما النعمان أمير العرب فليس هو النعمان ابن المنذر الذي تنصّر في أيام موريق الملك كما روى افاغريوس (ك ٦ فصل ٢٢)، بل يظهر أنه النعمان الذي قتله قواد ملك الفرس سنة ٥٠٣ م كما يظهر من تاريخ يشوع العمودي (المثبت في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٦٦ وما يليها).

وبعد وفاة القديس سمعان تخاف تلاميذه أن ينزلوا جثته من على العمود فيختطفها الجم الغفير المحقق بها، فأبقوها إلى أن يعين الاسقف محل دفنه. ولما انتشر خبر موته تسارع إلى عموده الاساقفة والكهنة والرهبان وشعب يشدّ عن العدد من جميع القرى والمدن القريبة إليه، وأتى قائد الجيش الشرفي وكثير من الأشراف والحكام، فحمل الاساقفة والكهنة جثته إلى قرية شيخ البعيدة عن العمود أربعة أميال، فوضعوها هناك في مركبة وساروا أمامها بالشموع والبخور مترنمين بالزمورات والتسابيح والطرق غاصّة بالملاقين والمشيّعين إلى أن بلغوا بها إلى كنيسة انطاكية التي أنشأها الملك قسطنطين فدفنوها. وكان البطريك والكهنة يجتمعون كل يوم على ضريحه مرتلين الزبور وموقدين الشموع، ولم يكن مثل ذلك لأحد ممن تقدموا سمعان في القديسين. ولم يُدفن في الكنيسة الملكية أحد قبله. وأجرى الله آيات كثيرة عند مرور جثته إلى انطاكية.

وما نعرفه مما كتب القديس سمعان أربع رسائل كتبها بالسريانية، الأولى إلى الملك توادوسيوس الصغير يؤنبه بها على أنّ الشبياد الوالي يحاول أن يرد على اليهود المجامع التي أخذت منهم. ذكر هذه الرسالة افاغريوس (ك ١ فصل ١٣) ونيكوفورس (ك ١٤ فصل ٥١). وأثبتها قزما في ترجمته. وإليك فقرة منها: «قد ترفع الآن قلبك ونسيت الرب إلهك الذي منّ عليك بتاج الوقار ومنصة الملك، فصرت صديقاً وشريكاً لليهود ومحامياً لهم، فسينفذ بك دون مهلة قضاء عدل الله ويدرك كل من مالأك على ذلك. فترفع يدك إلى السماء وتقول عند ضيقتك لا غرو إن حلّ بي هذا المصائب لأنني كذبت على الرب إلهي». وقد كتب القديس

سمعان رسالتين إلى المجمع الخلكيدوني أثبت افاغريوس (ك ٢ فصل ١٠) نسخة منها. وذكرهما نيكوفورس (ك ١٥ فصل ١٩)، وروى في هذا الكتاب (فصل ١٣) رسالة أنفذها إلى الملكة اودكسيا، وذكر فقرأ منها وتعزى إليه (في مكتبة الآباء مجلد ٧) خطبة في خروج النفس من الجسد.

قد زار العالم دي فكواي الجبل المعروف اليوم بجبل سمعان، وتعهّد آثار الدير والقلعة المنسوبة إلى هذا القديس. وأتخفنا (في كتابه في ابنية سورية الوسطى صفحة ١٤١) بفوائد نلخص منها ما يأتي إنّ هذا القديس أتى سنة ٤١٢م إلى دير تل النساء المعروف الآن بدير سمعان، وتوافر عدد المساكن في حياته وبعد وفاته حول العمود الذي نسك عليه، وإنه وجد هناك أطلالاً عديدة مثبتة رأيه. وأنه بعد عهد قريب بُنيت كنيسة على العمود، وأخذ الناس يحجون إليها تبركاً، وأقام رهبان كثيرون في ظل تلك الكنيسة، وأطلال مساكنهم باقية إلى الآن، وإنّ التاريخ لم يعيّن الوقت الذي أنشئت الكنيسة فيه، على أنّ افاغريوس زار هذا المعبّد سنة ٥٦٠م ووصف هيئة بنائه، وأطلال الكنيسة الباقية إلى الآن والتي صوّر دي فكواي مثالها توافق ما وصفها به افاغريوس، فلزم أن يكون بناء هذه الكنيسة على أثر وفاة هذا القديس سنة ٤٥٩م. ومما وجده هناك دي فكواي ورسم مثاله العمود الذي نسك عليه هذا القديس مزيداً عليه شيئاً في أوقات مختلفة.

عد ٦٢٦

القديس اسحق الكبير

كان اسحق هذا كاهناً في انطاكية في أيام الملكين توادوسيوس الصغير ومرقيان، أي في منتصف القرن الخامس. وقد تتلمذ لزينوبيوس تلميذ القديس افرام كما يظهر من الحاشية التي علقها يوحنا ابن شوشان بطريك اليعاقبة على ذيل الكتاب الرابع من الكتب السريانية التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية، وأثبتته القسّ ابراهيم الماروني، وذكره السمعاني، وهو بين مما كتبه القديس اسحق في ردّ مزاعم النساطرة واللاوطاخيين، وخاصة من قصيدته في خراب انطاكية الذي كان سنة ٤٥٩م. وكل ما مرّ يثبت أنّ اسحق لم يكن تلميذاً للقديس افرام الذي لقي ربه سنة ٣٧٣ أو سنة ٣٧٨م، بل لزينوبيوس تلميذ افرام خلافاً لابي

البركات ابن كبار (في فصل ٧ في المؤلفين البيعين) ولأبي الفرج ابن العبري في تاريخ الدول، وابن الراهب في التاريخ الشرقي الذي ترجمه ابراهيم الحاقلي الماروني إلى اللاتينية، ولجيورجوس بن عميد. ولم يفرق مرهج بن نيرون الباني الماروني (في كتابه افوليا أي سلاح الايمان صفحة ٤٧) بين القديس اسحق هذا الذي كان بعيد المجمع الخلكيدوني سنة ٤٥١م، واسحق أسقف الرها الذي كان في القرن السادس (روى كل ذلك السمعاني في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠٧). وقال ابن العميد أنّ منشأ القديس اسحق الرها، وقال ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون أنه كان من آمد، ولا خلاف في أنه كان كاهناً في انطاكية. وقال مؤلف تاريخ الرها أنه كان رئيس دير لم يعين محله، ولكن يظهر أنه كان في جهات انطاكية إذ سماه أكثر المؤرخين كاهناً انطاكياً. وترى في الكتاب الحادي عشر في الكتب السريانية التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية رسالة من القديس يعقوب السروجي إلى صمويل رئيس دير القديس اسحق في جبلة. وصحح السمعاني في المحل المذكور أنّ المراد بجبلة هذه مدينة فينيقية في جنوبي اللاذقية لا جبلة التي هي قرية في ما بين النهرين، وجبال جبلة تتصل بانطاكية. وقد مضى القديس اسحق إلى لقاء ربه سنة ٤٦٠م لأنّ خراب انطاكية بالزلزال كان سنة ٥٠٧م للتاريخ الانطاكي. وهذا التاريخ يتندي بحسب قول المحققين قبل التاريخ المسيحي بثمانى وأربعين سنة. فيكون حصول هذا الزلزال سنة ٤٥٩م. وقد عاش اسحق بعده إذ نرى له قصيدة في هذا المصاب. وقد سماه علماء السريان العلامة والكبير تمييزاً له عمن تسموا باسمه، ولأنه فضلهم بكثرة تأليفه. وقد كتب جميعها باللغة السريانية الفصيحة البحتة. ولا مراء في أنه كان كاثوليكياً صحيح العقيدة. وقد أثبت القديس يوحنا مارون (في كتاب رده على النساطرة والاطاخيين) بأربع شهادات من كتبه أنّ في المسيح أقنوماً واحداً وطبيعتين مأخوذة عن خطبة في الايمان الصحيح وفي قانون الايمان، وفي مركبة حزقيال وفي التجسد. ولا يحفل بكون اليعاقبة يجلّونه أيضاً كابن العبري وابن الراهب وابن العميد لأنهم يكرمون القديس سمعان العمودي مع مقاومته ضلالهم برسائله إلى المجمع الخلكيدوني. ومن عادة الهرطقة الشرقيين ولا سيما النساطرة واليعاقبة أن يحبوا ويكرموا من اشتهروا بالفضل والعلم، وأن يكونوا من المشايخين لهم. ويعتد لذكر القديس اسحق جميع السريان، فيعتد له في طائفتنا في ٢٠ تشرين الثاني.

وعنده عند اليعاقبة في ١٤ تشرين الأول، وعند النساطرة في يوم الجمعة من السبة الخامسة بعد الدنح، وهو عيد عام لجميع ملائنة السريان. قال جناديوس مكمل كتاب القديس ايرونيوس في المشاهير (فصل ٦٦) في مؤلفات القديس اسحق: «إنَّ اسحق كاهن كنيسة انطاكية كتب باللغة السريانية كتباً كثيرة في مدة زمان طويل وأخصها ما فُتد به مزاعم النساطرة والاطاخيين. وقد رثا خراب انطاكية بقصيدة طويلة بوزن القصيدة التي رثا بها افرام الشماس خراب نيقومدية». وقد انتحل مرشلينس في تاريخ سنة ٤٥٩م كلام جناديوس برمته. قال السمعياني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢١٤) أما كتب اسحق الجدلية فقلَّ ما بقي لنا منها لاغفال النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة نسخها لتفنيدها ضلالهم. وأما كتبه الروحية والأدبية فكثرت تداول الايدي لها. ثم ذكر ما وجده منها في الكتب القديمة في المكتبة الواتيكانية، فكان عددها مئة وأربع قصائد أو خطب، منها ستون خطبة أو قصيدة أخذها عن الكتاب الرابع من الكتب السريانية التي أتى بها من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية، وقد ذكر فواتحها في المجلد الأول من المكتبة الشرقية (من صفحة ٢١٤ إلى صفحة ٢٢٩). وهذه الكتب خطت سنة ١٥٢١ يونانية (توافق ١٢١٠ مسيحية)، والباقي عن الكتاب الخامس من هذه الكتب. وإليك مثلاً لكلامه مأخوذاً عن خطبته التاسعة في الايمان: «رأيت قصعة على مائدته فإذا هي ملأى من الدم بدلاً من الخمر، وفي وسطها جثة موضع الخبز، أبصرت الدم فارتعت وغشيتني الاضطراب، وأوعز إليَّ الايمان أن كلَّ واصمت واشرب ولا تفحص» إلى أن قال: «أراني (الايمان) جسداً قتيلاً وادخل جزءاً منه في شفتي وناجاني متلطفاً أن أبصر ما تأكل، ودفع إليَّ قلم الروح وأمرني أن أكتب، فأخذته وكتبت معترفاً أنَّ هذا هو جسد الله. وكذلك تناولت الكأس فشربت من مآدبه وفاح بي رائحة الجسد الذي تناولت منه وما قيل في الجسد أنه جسد الله قلته في الكأس أنها دم مخلصنا».

عد ٦٢٧

القديس اوتيميوس وبعض تلامذته النساك

وُلد القديس اوتيميوس لوالدين حسييين في ملاطية بأرمينيا نحو سنة ٣٧٥م، ونبغ في الفضيلة والعلم حتى عُذَّ أهلاً للارتقاء إلى درجة الكهنوت ولتدبير أديار

الرهبان والنساك التي كانت في ملاطية، على أنه أثر العزلة والانفراد على الانهماك بهذه المهام، فانساب خفية ميمماً أورشليم. وبعد أن روى غليله بزيارة الأماكن المقدسة، مضى يتعهد النساك في برية اليهودية، فزادته سيرتهم شوقاً إلى الانفراد، ووجد صومعة فاحتبس فيها يطوي الاسبوع كله لا يذوق طعاماً إلا يوم الأحد. ويقضي ليله متهجداً لا يعلم طعم الوسن. وتعرّف إلى راهب يسمى تيوكتيست فكانا يخرجان إلى البرية بعد عيد الدنح فيتفرغان للصلوة والتأملات الروحية مقتاتين بالنبات، ولا يعودان إلى مأواهما إلا في أحد الشعانين. وبعد أن استمرا على ذلك خمس سنين اعتزلا في مغارة بعيدة أربع فراسخ عن أورشليم إلى جهة أريحا. وقد انكشف أمرهما وضاع عرف فضلهما فأمرهما راهبان من برية فاران اسم أحدهما مارين واسم الآخر لوقا، فتتلمذا لهما، وتوافر عداد المنضوين إليهم. وكان منهم توادوسيوس الذي صار رئيساً على النساك، وأنشأ أدياراً كثيرة في فلسطين منها دير في بيت لحم.

أما اتيميوس فتخلّى لرفيقه تيوكتيست عن العناية بقبول الطلبة وإرشادهم وتدير الدير أثراً الاختلاء والصمت، مجترياً بإرشاد من أتى إليه من اخوته كاشفاً ضميره سائلاً أن يعالجه بما يرى. ولم يكن يسمح للحدثاء في الرهبانية بالافراط من الصوم والتقشف أكثر مما استطرقة القدماء لتكون فضيلتهم مستترة كما علم الإنجيل. وأخذ الناس يتقاطرون من كل فجّ لزيارة هذا الناسك والاستشفاء من أمراضهم، بل كثر ترداد العرب والوثنيين إليه لمثل ذلك فصنع الله على يده معجزات شتى. لكنه كان هائماً بالانفراد، ففرّ إلى البرية المسماة الآن برية الأربعين للتقليد بأنّ المخلص اعتزل صائماً فيها أربعين يوماً. ومضى يزور في عين جدي المغارة التي اختبأ فيها داود من وجه شاوول. وصنع الله هناك على يده آية ابراء ممسوس، فأمسكه أهل تلك القرى وبنوا له ديراً، ففرّ من هناك مع تلميذه دومطيان نحو ديره، ووجد على مقربة منه محلاً صالحاً للخلوة فاخترى به. وعرف به تيوكتيست فألح عليه أن يعود إلى الدير فأبى إلا أن يزور اخوته كل أحد عند اجتماعهم. وكان من رهبانه دنمس ابن أخت يوحنا بطريرك انطاكية. ولما علم أنّ خاله مشايح لنسطور استأذن اوتييميوس أن يمضي إليه فيرده عن غيّه فمانعه عن سفره قائلاً له لا خير لك في هذا السفر، فلم يتعظ ومضى فمات خاله وخلفه، لكنه حطّ عن بطريركيته بعد بضع سنين. فعاد إلى اوتييميوس نادباً سوء منقلبه وقضى عمره في الدير. وكان اوتييميوس متقدماً بنار

الغيرة على الايمان الصحيح يناضل ويناصب هراطقة أيامه، حتى أنّ بعض الاساقفة لم يوقعوا على أعمال المجمع الخلكيدوني إلّا بعد استشارته. على أنّ راهباً اسمه ديونيسيوس أغواه ابليس فلم ينقد لرسم هذا المجمع، واستمال الملكة اودكسية إليه، وغصب بطريركية أورشليم فأمست كنائس فلسطين في أسوأ حال. ولم يبق إلّا القديس اوتيميوس ورهبانه يدافعون عن الايمان، ويأبون الاشتراك مع هذا البطريرك الدخيل. ولدى احتضاره سأل رهبانه من يحبون أن يرأسهم بعد وفاته قالوا دومطيان. قال لا يعيش بعدي إلّا سبعة أيام وكذلك كان. فاخترأوا مكانه ايليا، وكان منشأه من أريحا. ومضى اوتيميوس ينال إكليل جهاده سنة ٤٧٣م في ٢٠ كانون الثاني وعمره سبع وتسعون سنة. وكان من تلامذته مرتيريوس وايليا وقد ارتقيا إلى بطريركية أورشليم كما مرّ. وهما اللذان أويا جثته التراب في مغارة نسكه. ثم نُقلت في السنة التالية في ٧ أيار إلى كنيسة جميلة بناها بطريرك أورشليم على اسمه. وأخذ المؤمنون يعيدون له كانطونيوس وايلاريون، ودومطيان تلميذه لحقه إلى جنة الأبرار بعد سبعة أيام كما أنبأه. وكان من تلاميذه القديس سابا الآتي ذكره. وكنيستنا المارونية تعيد لذكره في ٢٠ من كانون الثاني. وقد كتب ترجمة اوتيميوس كيرلس أسقف باسان أحد تلاميذه وعنه أخذ كل ما طالعنا أخباره في كتبهم من المؤرخين.

عد ٦٢٨

القديس سابا

قد كتب كيرلس أسقف باسان المار ذكره ترجمة القديس سابا هذا وكان معاصراً له، فقال إنه وُلد في قرية مصابفة لقيصرية الكبادوك سنة ٤٣٩م، ودخل منذ حداثة ديراً قريباً من بلده، ثم استأذن رئيسه بأن يحجّ الأماكن المقدسة في فلسطين، فأثى أورشليم وصرف فصل الشتاء في دير القديس بساريون ثم مضى إلى القديس اوتيميوس فتتلمذ له منضوياً إلى رهبانه. ولما لقي اوتيميوس ربه اعتزل سابا في مغارة ناسكاً إلى أن انضم إليه كثير من التلامذة، فابتنى لهم الدير المعروف باسمه إلى اليوم في الجنوب الشرقي من أورشليم عند الطريق المؤدية منها إلى البحر الميت قريباً من الوادي المسمى وادي التار، ويسمى وادي الراهب. وقام سابا يدبر هؤلاء الرهبان بل جميع النساك في مغاور تلك الناحية وكانوا كثيرين.

وعلى هيامه بالصمت والخلوة اضطرَّ أن يغادر عزلته مرات ويمضي إلى المدن للمدافعة عن الايمان الصحيح وتقوية الكاثوليكين. فخرج إلى أورشليم سنة ٥١٣م مناصباً جنود الملك انسطاس الذي كان يؤيد الهراطقة القائلين بطبيعة واحدة في المسيح، وأن يحرم جهرة من يشون هذه البدعة خلافاً لما رسمه المجمع الخلكيدوني. وفي سنة ٥٣٠م ثار السامريون في نابلس في أيام الملك يوستينانس على المسيحيين فقتلوا كثيرين منهم وأحرقوا كنائسهم، فأرسل الملك إليهم جحفاً يردع سطوهم ويجزيهم على ما جنت أيديهم، فأثخن الجنود فيهم، ومضى ارسانيوس أحد مناصريهم إلى القسطنطينية يستعطف الملك يستنياس إلى الشفقة عليهم. ومما قاله أنَّ النصراني كانوا علّة لهذه الشؤن. فسأل المسيحيون القديس سابا أن يذهب إلى الملك ليدافع عنهم، فهبَّ للحال إلى القسطنطينية على هرمه وعمره وقتل نيف وتسعون سنة، فتهيَّبه الملك وأجلّه وأولاه كل ما سأل لمصلحة النصراني، إلّا أنه برح دار الشقا إلى عالم البقاء بعيد عوده من هذا السفر فاكنت كنائس فلسطين مطارف الحداد وعمّت الكآبة رهبان دير. وأجرى الله على يده آيات عديدة، وكنيستنا المارونية تعيّد لذكره في ٥ من كانون الأول. على أنَّ الذي في بعض نسخ كتاب تراجم القديسين أنه توفي في سنة ٤٢٤م وهو خطأ أظنه زلة من قلم الناسخ. والصواب أن يقال أنه توفي سنة ٥٣٠ أو سنة ٥٣١م. أما دير فقد انتهبه جنود كسرى ملك الفرس عند حملته على الأرض المقدّسة ٦١٤م وقتل بعض رهبانه، ثم حلّ به مثل هذا المصائب سنة ٧٩٦م، ثم سنة ٨١٢م بعد وفاة هرون الرشيد الذي كان يحمي حمى النصراني تجلّة لصدافته مع كرلس الكبير ملك افرنسة. وعند اتيان النصراني من المغرب إلى الأرض المقدّسة وجدوا فيه أربعين راهباً من رهبانية القديس باسيليوس، ثم دُمّر بعد ذلك مرات، ولكن مجدّد بناءه بعد ولاية سلاطين العثمانيين العظام. وأوى إليه كثير من الرهبان، وأصلح نقتاريوس بطريرك الروم أسواره سنة ١٦٦٤م إلى سنة ١٦٦٨م، لكنها لم تصدّ العرب سنة ١٨٣٤ عن مهاجمته والسطو على رهبانه. وفي سنة ١٨٤٠م رُمّم بناء هذا الدير وزيد فيه بعناية دولة روسيا. انتهى ملخصاً عن كاران في المجلد ٣ في اليهودية صفحة ٩٩ و ١٠٠.

كان برصوما من سميساط في ناحية الفرات في سورية، وقد ذكره ديونيسيوس بطريرك البعاقية في تاريخه سنة ٤٣٥م، ووجد السمعاني (مجلد ٢ صفحة ١ من مكتبته الشرقية) ترجمته في الكتاب السادس عشر من الكتب السريانية التي أتى بها من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. وأورد فقرات من ترجمته في كتاب تراجم القديسين عند القبط. والمستحصل من ذلك أنه فرّ من عند والديه ونسك في مغارة عند نهر الفرات، وانضوى إليه كثيرون وأخذوا عنه السيرة الرهبانية. وقد عظم المؤرخون الاوطاخيون قدره وعزوا إليه آيات ومعجزات كثيرة، ومما قالوا فيه أنه أقام في محل صنعه لنفسه أربعة وخمسين عاماً لم يجلس فيها، وإذا نام نام منتصباً، وأنه كان يصوم أسبوعاً أسبوعاً، ولذلك دعوه برصوما وتأويله في لغتهم السريانية ابن الصوم لأنه ربي صائماً. وقالوا أنه زار القديس سمعان العمودي وتبارك أحدهما بالآخر، على أنّ رياء برصوما بصنعه مثل هذه العبادات والتقشفات كان شديد الضرر بالكنيسة السريانية، ومهدداً لبثه ضلال اوطاخي. فإنّ أهل المشرق بعد حرم نسطور في الجمع الأفسسي انقسموا إلى فرقتين فدافع بعضهم عما سنّه الجمع الأفسسي وفي مقدمتهم رابولا أسقف الرها، وكيرلس بطريرك اسكندرية، وانتصر بعضهم الآخر لنسطور وفي رأسهم يوحنا بطريرك انطاكية لبغضه للقديس كيرلس المذكور. على أنّ هذا الفريق انقسم بعد ذلك إلى قسمين، فبعضهم أصّر على المناصرة لنسطور، وبعضهم صالح القديس كيرلس، ومنهم البطريرك يوحنا المذكور. وكان الرهبان على شاكلة أساقفتهم في هذا الانقسام، وكان برصوما وقتئذٍ راهباً خامل الذكر على شاطئ الفرات، على أنه اشتهر في سورية بمقاومته للنسطوريين، لكنه خدشهم والكاثوليكين معاً بتطرفه في القول بأنّ في المسيح أقنوماً واحداً خلافاً لتعليم نسطور، إلى القول إنّ فيه طبعاً واحداً طبق لتعليم اوطاخي. فأغوى برصوما السريان كما أغوى اوطاخي اليونان، وكان الأوطاخيون يعتدون نسطورياً كل من لم يكن اوطاخياً. ويظهر من كلام الجمع الحلكيدوني (في مجلد ١) أنّ برصوما صرّح في مجمع أفسس اللّصّي بمتابعته اوطاخي على ضلاله، إذ قال في توقيعه على أعمال هذا الجمع: «إني متابع بمنزلة ابن للآباء ومصادق على شهادة الارشيمندريت

اوطاخي الكلي القداسة والتقوى للآيمان الكاثوليكي وموافق له، وأهنته برده إلى درجته الكهنوتية وخدمته المقدسة» وقد صرح بذلك ابن العبري (في كتابه الموسوم **ΔΕΥΤΕΡΙΑ** «أي بكتاب الأشعة») ولا بدع فهو اوطاخي أيضاً.

وقد شهد برصوما مجمع أفسس اللصبي فقد خدع الملك توادوسيوس بتظاهره بالعبادة والورع، فرخص له بأن يحضر في هذا المجمع. وقد ورد في المجمع الخلكيدوني ذكر ثلاث رسائل أنفذها هذا الملك إلى مجمع أفسس اللصبي، أحداها لبرصوما المذكور، والثانية لديسقورس بطريرك اسكندرية، والثالثة ليوفينال بطريرك أورشليم. وفي رسالته إلى برصوما يأمره أن يكون نائباً عن رؤساء الأديار. والذي يظهر من أعمال المجمع اللصبي التي ثلثت في المجمع الخلكيدوني أنّ برصوما لم يتابع اوطاخي على غوايته فقط، بل قد تسبب بقتل القديس افلايانس بطريرك قسطنطينية، وقد حرم في المجمع الخلكيدوني. ومشايعوه يعظمون اعتبار الملك مرقيان له. ويروون عنه أقاصيص لا تصدق. وقد أدركته الوفاة سنة ٧٦٩ يونانية (توافق سنة ٤٥٨ مسيحية) على ما يظهر من ترجمته في الكتاب ١٦ من الكتب السريانية التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. ويعتد له الأرمن في اليوم الأول من شباط يوم وفاته. واليعاقبة في اليوم الثالث منه يوم دفنه.

وقد عني ديوسقورس بن ضو أسقف اليعاقبة المقيمين في أورشليم بإدخال عبادة برصوما عند الموارنة في لبنان، فإنّ موسى المسمى ابن عطية، ونوح البقوفاوي وقسوساً يعاقبة أرسلهم موسى المذكور إلى المقدم عبد المنعم والي ناحية بشري الذي كان قد تعلّم عند قسيس من اليعاقبة، فأغوا بعض أهل بشري بضلالهم، فبنى المقدم في القرية المذكورة معبداً على اسم برصوما لهؤلاء القسوس، كما روى البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٧م. وقد ذكر عبد المنعم نفسه هذا المعبد في ما علّقه على كتاب الإنجيل في السريانية والعربية الذي كان في مكتبة مدرسة الموارنة في روما صفحة ٩ فقال: «لما كان في سنة ١٧٧١م (توافق سنة ١٤٥٩) من سني اسكندر اليوناني ابن فيلبس وقف هذا الإنجيل الطاهر المقدمان عبد المنعم ابن زين، وبدر بن قمر عن أنفسهما وأنفس والديهما وأولادهما، وعن نفس المقدم رزق الله وولده يعقوب وقفاه للقديس برصوما الفاضل الطاهر الكائن في قرية بشري. كتبه عبد المنعم ابن زين». وقد كانت وفاة عبد المنعم هذا سنة ١٤٦٩م على ما قال الدويهي في تاريخه لتلك السنة، وسماه عبد المنعم ابن

سيفا بن يعقوب. وقد كان معبد برصوما بُني في قرية بشري سنة ١٤٥٩م كما يظهر مما رويناه عن عبد المنعم بخطه المار ذكره، فلم يكن إذاً صحيحاً قول الدويهي في تاريخه على سنة ١٤٨٧م أنّ هذا المعبد بناه عبد المنعم أيوب الذي روى أنه توفي سنة ١٤٩٥م. ومثل ذلك انخدع ميخائيل الرزي بطريك الموارنة، إذ ظنّ أنّ المعبد الذي بُني في بشري لم يكن على اسم برصوما الاراتيكي بل على اسم برصوما الشهيد، إذ ذيل كتاب الأناجيل المذكور بحاشية علّقها على الصفحة الثالثة قال فيها: **مَعْبَدُ الْبَرصُومَةِ هُوَ الْمَعْبَدُ الْمَذْكُورُ فِي الْبُحَارِيَّةِ** **وَمَعْبَدُهُمَا** لما كان تاريخ سنة ١٨٨٢م من سني اسكندر اليوناني (توافق سنة ١٥٧١م) نُهبت قرية بشري، وأُخذ إنجيل كنيسة ماري برصوما وبقي سنة إلى أن اشتراه القس سركيس ابن الخوري هارون من القرية المذكورة بمبلغ أربع مائة (غرش) ووقفه للقديس المذكور. وكل من أخذه يكون ماري برصوما خصمه». على أنّ الصحيح أنّ برصوما بُني له المعبد في بشري، إنما هو برصوما الراهب الاراتيكي لا برصوما الشهيد الرهاوي. وهذا يبيّن مما ذكره الدويهي في تاريخه، وجبرائيل القلاعي في رسائله إلى أهل لبنان. ومما رواه من يدافعون عن اليعاقبة ومن يخالفونهم. ومن كتاب فرض الصلوة في عيد برصوما الذي تركه اليعاقبة في جبل لبنان.

وقال اليعاقبة أنّ مقدمهم هذا كتب رسائل عديدة إلى أبناء ملته تتداولها أيديهم في ما بين النهرين إلى الآن. قال السمعاني وقد أخبرني صديقي العلامة المطران اسحق رئيس أساقفة نينوى السرياني الذي أتى روما لاضطهاد اليعاقبة له لا قلاعه عن بدعتهم واعتناقه المذهب الكاثوليكي، إنه قرأ بعض كتب روحية لبرصوما، لكنه في رية هل هي له حقيقية أم لا لأنّ قدامهم عظموا قداسه وبالغوا في ذكر معجزاته، لكنهم لم يصفوه بالعلم وتأليف الكتب (ملخص عن المكتبة الشرقية للعلامة السمعاني مجلد ٢ صفحة ١ وما يليها).

الفصل الرابع

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم في غير سورية

نضمّن هذا الفصل ذكر من اشتهروا في القرن الخامس بالعلم والقداسة في غير سورية تعميماً للفائدة، وجرياً على ما اعتدنا في تاريخ القرون السابقة، موجزين ما أمكن لخروج الكلام في هؤلاء عن دائرة غرضنا.

عد ٦٣٠

القديس اغوستينس

إنّ القديس اغوستينس أعظم الآباء القديسين اللاتينيين، وُلد في سنة ٣٥٤م في مدينة تاكست في بلاد النوبة. وكان أبوه وثنياً وأمه مسيحية تسمى مونيكا وهي من مصاف القديسات. وبعد أن صرف أيام شبابه لاهياً متهتكاً تلبك بمذهب مانبي المضلّ، وأقام على ذلك تسع سنوات. وعلم الفصاحة في تاكست مدينته، ثم في قرطاجنة وروما، وأخيراً في مديولان (بايطاليا) حيث استدعته مواعظ القديس امبروسوس إلى اعتناق الدين المسيحي سنة ٣٨٦م. فاعتمد هناك وعاد إلى تاكست مدينته، فوزّع مقتناه على الفقراء، وعكف على الزهد والصوم والصلاة فرقاه فالريوس أسقف هيبون سنة ٣٩٢م إلى درجة الكهنوت. ثم خلفه في أسقفية هذه المدينة سنة ٣٩٥م فعاش عيشة مشتركة مع اكليروس كنيسته الذي كان يعدّه لدرجة الكهنوت المقدّسة، فوضع بذلك طريقة المدارس الاكليريكية، وناصب هراطقة أيامه بخطبه ومؤلفاته الغزاة، وأرشد شعبه بمواعظه الخالصة العقول. وكان بمنزلة أب للفقراء، وغني بالمحافظة على التهذيب البيعي عاقداً لذلك مجامع عديدة، إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٣٠م، بينما كان البندالة محاصرين هيبون مدينته الاسقفية.

أما مؤلفاته فأحسنها وأكملها، مؤلفه الموسوم بمدينة الله ينطوي على اثنين وعشرين سفرًا، ومقالاته في النعمة والحرية التي أكسبته لقب ملفان النعمة. ومقالات في الله والنفس البشرية، وكتاب دعواه ارعوى فيه عن أقوال وآراء كان قد كتبها في شبابه، وكتاب في اعترافاته يعدد فيه سقطاته وغواياته، ويذكر اقلعه عنها بآيات صنعها الله إليه بصلوات أمه، وله مقالات جدلية يردّ فيها مزاعم أصحاب البدع في أيامه أي المانويين والدوناتيين والبيلاجيين والبريشيلانيين والارويسيين وتلاميذ اوريغانس. وكتب كتباً في الاسفار المقدسة وتفسيراً للزبور، وثلاث مئة وثلاثة وستين خطبة روحية موعبة بالنوافذ الخارقة. وله من الرسائل ما يشدّ عن العبد، وبعضها طويل حتى نسّقها بعضهم بين مقالاته ومدار أكثرها على المباحث الدينية التي كانت في ذلك العصر ولا سيما الاعتراف. وقد عُثر في مكاتب فيرنسا ومون كاسيان بايطاليا على بعض خطب له لم تكن معلومة قبلاً، فأذاعها الأب كاليان مطبوعة سنة ١٨٤٢م. وقد كشف الكردينال ماي عن خطب أخرى فنشرها في كتابه الموسوم بمكتبة الآباء الحديثة سنة ١٨٥٢م وسنة ١٨٥٣م. وقد امتاز القديس اغوستينس بسعة معارفه وطول باعه في العلوم، مع أنه كان يجهل اللغة العبرانية، ولا يُحسن معرفة اليونانية. وقد حاز قصبات السبق بفصاحته وتورّعه. وانتقده بعضهم بدقة كلامه وغموض بعضه وتلهّب مخيلته وافراطه في المعارضة والمقابلات. ومذهبه في الفلسفة مذهب أفلاطون يرجّحه على كل ما سواه، ويعتمد عليه في مباحث عديدة. وأما في علم اللاهوت، فكان يعتمد على علم النفس البشرية وسقوطها عن حال البرارة، وعلى النعمة حتى تذّرّع اتباع يانسانيوس في القرن السابع عشر ببعض أقواله للمدافعة عن تعليمهم. وأحسن طبعة قديمة لمؤلفاته هي طبعة الآباء الدومينيكيين سنة ١٦٧٩م في ١١ مجلداً. وأحسن الطبعات الحديثة طبعة الآب مين بين مكتبة الآباء اللاتينيين في مجلد ٣٢ إلى مجلد ٤٧. وقد تُرجمت بعض مؤلفاته إلى الفرنسية. وترجم كتاب مناجاته إلى العربية الخوري أنطون آصاف، وعوّبه المثلث الرحمة المطران جرمانس الشمالي إذ كان كاهناً. والكنيسة الرومانية وكنيستنا المارونية تعيدان له في ٢٨ آب.

القديسان كيرلس الاسكندري وايسيدورس الفرمي

أما القديس كيرلس فكان ابن أخت توافيلس بطريرك اسكندرية على ما روى سقراط (في ك ٧ من تاريخه فصل ٧)، أو ابن أخيه على ما روى توادوريطوس. ورجح فالسيوس (في حواشيه على كتاب سقراط) أنه ابن أخته، وزعم بعضهم أنه انضوى إلى رهبانية الكرملين. على أنَّ بارونيوس إمام المؤرخين أنكر هذا الانضواء. ومن أعظم حججه عليه أنَّ من عاصروا كيرلس كالقديس ايرونيوس وبلاريوس وافاغريوس وكاسيانس وتوادوريطوس وغيرهم لم يفوهوا بينت شفة عنه. وبعد وفاة توافيلس عم كيرلس أو خاله سنة ٤١٢ أو سنة ٤١٣م خلفه في الكرسي الاسكندري في ١٨ تشرين الأول، مفضلاً على تيموتاوس رئيس شمامسة هذا الكرسي، وطفق يناصب أصحاب البدع وأولاً النوفاسيانيين. فإنه أقفل كنائسهم في اسكندرية واستولى على آنيثها وأثاثها على ما روى سقراط في المحل المذكور. ثم أمر بطرد اليهود قاطبة من اسكندرية، فكان من ذلك قتال وشغب إذ قتل اليهود كثيرين من النصارى في كنيسهم، وحمل النصارى على اليهود في مجمعهم فطردوهم منه ومن المدينة أيضاً. فشق ذلك على اورست والي مصر وكتب إلى الملك فيين له كيرلس اعتداء اليهود على المسيحيين. ويظهر أنَّ الملك مالأ النصارى على عملهم فلم يعد اليهود إلى اسكندرية بعد أن كانوا قد توطنوا منذ أيام اسكندر الكبير الذي بناها. وعظم الخصام بين كيرلس والوالي وأرسل البطريرك إليه يطلب الصلح معه مستحلفاً اياه بالإنجيل الذي أرسله إليه فأبى الوالي المصالحة. وطال النزاع بينهما أياماً.

ولما افتضح نسطور ببدعته وأمر البابا شالستينس الأول بعقد المجمع الأفسسي لنبد ضلاله، رأس القديس كيرلس هذا المجمع سنة ٤٣١م نيابةً عن الحبر الروماني. وكتب حينئذ كتابه متضمناً اثني عشر حرماً لضلال نسطور، وخالفه في ذلك أولاً يوحنا بطريرك انطاكية وغيره من الاساقفة الشرقيين منتصرين لنسطور، لكن يوحنا وغيره من أولئك الاساقفة عادوا إلى الوفاق مع القديس كيرلس كما رأيت. وقد روى سقراط (في ك ٧ من تاريخه فصل ١٤) أنَّ رهبان الاسقيط علموا ما كان بين البطريرك كيرلس واورست الوالي من النزاع فأثى اسكندرية منهم خمس مئة

راهب وألقوا بالوالي في طريقهم، فأهانوه وضربه أحدهم المسمى امونيوس بحجر فشج رأسه فحكم الوالي عليه بالقتل، ونقذ حكمه، فاستحضر البطريك جثته إلى الكنيسة فأبته وسماه شهيداً. على أن المحققين لم يثبتوا صحة رواية سقراط هذه واعتدوها من البيئات على انتصاره للنوفاسيانيين الذين كان كيرلس يناصبهم، وقد مر ذكر ما أجراه عليهم وعلى أسقفهم. وكذلك اتهمه الدمشقي المؤلف الوثني بأنه تسبب بقتل ايباسية ابنة تيبون الفيلسوف الشهيرة بفلسفتها وعلمها. على أن المحققين أثبتوا أن القديس كيرلس براء من هذه التهمة أيضاً ولا مصدر لها إلا ما كان بين البطريك والوالي من الشحنة. وقد لقي القديس كيرلس ربه سنة ٤٤٤م بعد أن دبر بطريركية اسكندرية اثنتين وثلاثين سنة. وقد وُصف في كتاب تراجم القديسين في كنيسة الروم بالرجل العلامة والمناضل الصنديد عن الايمان الكاثوليكي وفخر الكهنة أجمعين وجهذ الآباء، وفي السنكسار الروماني بأشهر المناضلين عن الايمان الكاثوليكي، وأشرف من اتصفوا بالعلم والقداسة. وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٨ كانون الثاني، ولكن في السنكسار أنه رقد بالرب سنة ٤٣٢م ونظن ذلك زلة من قلم الناسخ فالصحيح ما رويناه. أما الكتب التي ألفها فأولها كتاب حرومه الاثني عشر ضمّنه الشرح لسرّ تجسّد كلمة الله، وأثبتته الكنيسة في الجمع الأفسسي، وردّت مطاعن توادوريطوس وغيره من الشرقيين عليه، والثاني تفسيره أنجيل يوحنا ضمّنه في عشرة أسفار. قال نطاليس اسكندر (في كلامه فيه في تاريخ القرن الخامس) إنّ الاسفار الخامس والسادس والسابع والثامن كانت مفقودة، فنسج كليكتوفافوس اللاهوتي البريسي على منواله هذه الاسفار فعزاها بعضهم إلى كيرلس، ثم عُثر على السفريين الخامس والسادس برمتهما، وعلى فقر من السابع والثامن فطُبعت في باريس بعناية يوحنا أوبرنس. ويُعزى إليه كتاب في الثالوث الأقدس على أن المحققين أنكروا نسبة هذا الكتاب إليه لاشتماله على الكلام أن في المسيح مشيئتين وفعلين. وهذا المبحث لم يكن إلا بعد قرنين من عصر كيرلس. فالأوجه أن هذا الكتاب للقديس يوحنا الدمشقي، والاثنان عشر فصلاً الأولى إنما هي من الكتاب الأول من كتب الدمشقي. والثالث كتابه الموسوم بالكنوز وهو له حقيقة لشهادة القدماء بصحة نسبته إليه. والرابع مؤلفه في آثار الدين المسيحي أثبت به حقائق الدين، وردّ به مزاعم يوليانس الجاحد وغيره من الوثنيين منقسماً إلى عشرة أسفار. وله أيضاً ستون رسالة أو مقالة نشرها مع تفسيره لبشارة يوحنا الأب سميث في

اللغة السريانية في أكسفرّد سنة ١٨٢٢م، وأحسن طبعة لكتبه هي التي نشرها الأب
مين سنة ١٨٥٩م بين كتب مكتبة الآباء الشرقيين.

أما القديس ايسدورس المعروف بالفرمي فولد في اسكندرية نحو سنة ٣٧٠م
وآثر السيرة الرهبانية في دير فرما المعروفة عند القدماء ببالوز فتُنسب إليها. وقد رقي
إلى درجة الكهنوت المقدّسة، وكان الاساقفة يعزونه ويثنون عليه. وكان تلميذاً
للقدّيس يوحنا فم الذهب، واشتهر في أيام الملكين اركاديوس وتوادوسيوس الصغير.
وقد أطراه افاغريوس (في ك ١ من تاريخه فصل ١٥) فقال إنه كان طائر الشهرة
بفصاحته وعلمه وتقشفاته حتى عاش في الأرض عيشة ملكية، وصنّف كتباً عديدة
موعبة بالفوائد، وأنفذ بعضها إلى القديس كيرلس الاسكندري. وهذا مؤذن جلياً
بأنه كان في أيامه. وقال فيه نيكوفورس كاليستس (ك ١٤ فصل ٥٣) ما ملخصه:
«إنه كتب رسائل كثيرة في مواضيع متنوعة يفسر في أكثرها آيات الاسفار المقدّسة
ويهذّب أخلاق الناس، وهي تشهد له بطول الباع وبسعة الاطلاع، وبما كان عليه
من الحمية والغيرة على التقوى ومحاماة الكنيسة، وكثيراً ما وتّب من لا يحسنون
التصرّف بالمقام الاسقفى والسيرة الرهبانية، وكان شديد المدافعة عن أستاذه فم
الذهب. وقد أكثر من العتاب للملك اركاديوس ولكيرلس الاسكندري ولعمه
توافيلس البطريرك لعدم تقديرهم فم الذهب حق قدره» ورسائله ١٥٢ إلى
سيماخس، ورسائله ٣١٠ و ٣٧٠ تبين كم كان شديد المحبة لفم الذهب، وكم
كان له من الحمية في المدافعة عنه. وقد لقي ايسدورس ربه نحو سنة ٤٤٠م مخلفاً
مقالات شتى لاهوتية ذات نفع جليل. وقد جمعت رسائله فكانت خمسة
مجلدات ونفسه في هذه الرسائل سام منسجم سهل المأخذ. وكنيستنا المارونية تعيّد
لذكره في ٤ شباط. ولم نر في نسخة السنكسار التي لدينا تاريخ سنة وفاته.

عد ٦٣٢

القديس ماروتا أسقف ميافرقين

إنّ ماروتا اشتهر في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس. ولم يبنينا قدماً
المؤرخين من اللاتينيين والروم بأي المدن كان أسقفاً. ولكن صرّح المؤرخون السريان
أنه دبر كنيسة تكريت، على أنهم سموا هذه المدينة اسماء كثيرة أي تكريت

وميافرقين ومدينة الشهداء. وكان يزدرج ملك الفرس يضطهد المسيحيين في مملكته فدعته شفقتهم عليهم أن مضى إلى قسطنطينية يسأل الملك أن يُعنى بنجاتهم، فأرسله الملك توادوسيوس الصغير إلى ملك الفرس يطلب إليه أن يكفّ سخطه عن المسيحيين ويوالي الرومانيين. وأنبأنا سقراط (ك ٧ من تاريخه فصل ٨) بما كان له في بعثته هذه فقال: «إنّ ملك الفرس كان يعلم ما كان تحلّى به ماروتا من التقوى والورع فأجلّه ورحّب به، وعظّم مثواه فحسده المجوس الذين كان لهم مكانة رفيعة عند الملك، ووجسوا بأنه يصير مسيحياً، ولا سيما لأنّ ماروتا أبرأه من صرع كان مستحوذاً عليه فعمدوا إلى الحيلة، وكان الفرس يعبدون النار وكان للملك عادة أن يتعيّد للنار المضرمة في أحد البيوت، فأخفوا رجلاً في مخبأ احتفروه تحت البيت ولقّوه أن يصيح على مسمع الجميع بحضرة الملك اطرودوا الملك من هنا لأنه أحبّ كاهناً مسيحياً. ولما سمع الملك هذا الصّياح فكّر في أن يسرّج ماروتا من عنده، فكشف له خدعة المجوس وأسّر إليه أن يحفر تحت البيت، ففعل وتبيّن له مكر المجوس فعذبهم، وأطلق لماروتا أن يُنشئ كنائس ومعابد حيث أراد. فوفر انتشار الدين المسيحي في بلاد فارس. وعاد ماروتا إلى قسطنطينية فأوفده الملك ثانية إلى فارس فكاد له المجوس بأن ألّقوا جثة متنتة في طريق الملك وقالوا أنّ النصرانيّ ألّقوها، وتبيّن للملك بعد البحث أنّ تلك مكيدة أخرى اصطنعها المجوس، فعذب كثيرين منهم أيضاً وزاد في اكرام ماروتا ووالى الرومانيين على يده، وأوشك أن يتنصّر لكن عاجله الموت». انتهى كلام سقراط ملخصاً.

وأنبأنا ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه لسنة ٧٢٥ (يونانية الموافقة لسنة ٤١٤ م) إنّ ماروتا عقد تلك السنة مجمعاً في قطيسفون في أيام يهب الله أسقف هذه المدينة، وأتبع فيه الفرس دستور الجمع النيقوي. وقال السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ١٧٦) إنّ المراد بهذا، الجمع الثاني الذي عقده ماروتا في فارس، لأنه عقد مجمعاً آخر في بعثته الأولى إلى هذه البلاد في أيام اسحق أسقف سلوقية وقطيسفون، ذكره رينودوسيوس (مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٢). وعن فوتيوس (في ك ٥٢ من مكتبته) أنّ ماروتا شهد الجمع الانطاكي الذي عُقد في أيام افلايانس وحرّم مع باقي الآباء الذين شهدوا هذا الجمع ضلال المضلين الهرطقة. وعن ماري وعمرو النسطوريين أنّ ماروتا حضر الجمع القسطنطيني الأول سنة ٣٨٢ م. وكذلك روى ابن العبري في تاريخه السرياني قسم

٣ في ترجمة اسحق المذكور. وروى عمرو في ترجمة فيوما أنّ ماروتا كان طبيباً ماهراً. ويظهر من كلام السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧٨) إنّ الموارنة والملكية كانوا يعيدون لذكر ماروتا في ١٦ شباط. ولم نجد له ذكراً في السنكسار الذي نستعمله الآن. ولم نعلم في أية سنة وُلد ويظهر أنه توفي بعد سنة ٤٢١م لأنه ذكر قصة استشهاد يعقوب المقطّع، وقال إنه حاز اكليل الشهادة سنة ٧٢٢ يونانية التي توافق سنة ٤٢١ م.

وأما تأليف ماروتا فقد ذكرها السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧٩) وأولها نافور للقداس وُجد مثبتاً في كتب كثيرة مخطوطة، وطُبع في هذا الكتاب قداسنا في روما سنة ١٥٩٤م. وقال فيه العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني (في مؤلفي النوافير «ماروتا رئيس كهنة تكريت الذي كان صديقاً ليوحنا فم الذهب... ألّف النافور الذي فاتحته **للهما موحداً حمداً** ايها الإله الصالح طبعاً». وثانيها تفسير الإنجيل قال فيه السمعاني (في المجلد المذكور) إنه لم يعثر عليه برمته ولكن عُثر على فقر منه ذُكر بعضها. وثالثها تاريخ للشهداء الذين استشهدوا في بلاد فارس وترانيم مشتملة على تقاريط لهم. وكثير من هذه الترانيم مثبت في كتب فروض السريان أي الموارنة واليعاقبة والنساطرة مختلطة بترانيم افرام واسحق السريانيين وغيرها. ولم نعثر حتى الآن على كتاب ترانيم ماروتا لنعلم أي هذه الترانيم له. وأما تاريخه للشهداء فجزآن: الأول منهما حوى تاريخ الشهداء الذين نالوا الإكليل في الاضطهاد الأول على عهد الملك سابور. والثاني تاريخ من استشهدوا في أيام يزجرد وفاراران في الاضطهاد الثاني. والجزء الأول يشتمل عليه الكتابان الأول والثاني من الكتب المخطوطة التي أتى بها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية. وأما الجزء الثاني فقال فيه السمعاني إنه لم يعثر منه إلا على قصة شهادة مرسابور وقصة يعقوب المقطّع في الكتاب الثاني من الكتاين المذكورين. وإنّ شهادتهما كانت في السنة الثانية لفاراران وهي سنة ٧٣٣ أو سنة ٧٣٢ يونانية (الموافقة سنة ٤٢١ أو سنة ٤٢٢ م). والرابع من الكتب التي وضعها ماروتا يشتمل على القوانين التي سنّها في المجمع الذي عقده في سلوقية وقطيسفون مع اسحق أسقفها، وهي مثبتة في كتاب مخطوط في مكتبة فرنسا ذكره رينودسيوس (في مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٢)، وقال إنّ هذه القوانين جميعها موضوعها التهذيب البيعي إلا القانون الثاني فإنه حاوٍ شرح دستور الايمان مع رسالة

من ماروتا يقال فيها أنها كُتبت لدن اجتماع أربعين أسقفاً في بلاد فارس بحضرة اسحق رئيس أساقفة تلك المدن وأخيه ماروتا. والخامس تاريخ الجمع النيقوي ترجمه ماروتا من اليونانية إلى السريانية مع قوانين هذا الجمع. وأسف السمعاني لضياح هذا الكتاب النفيس. وهذه القوانين هي ٧٣ قانوناً ويليها عشرون قانوناً تُرجمت بعد ذلك. وهذه القوانين سماها العلماء اللاتينيون العربية لأنها تُرجمت إلى اللاتينية عن نسخة عربية، وشرحها ابراهيم الحاقلي الماروني بعد أن عارضها بست نسخ منها. وقد ذكر عبد يشوع الصوبواوي في قصيدته هذه الكتب لماروتا (فصل ٥٧) انتهى ملخصاً عن السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٧٤ وما يليها).

عد ٦٣٣

رابولا وايهيا أسقفَي الرها

أما رابولا فارتقى إلى كرسي الرها سنة ٤١٢م، إذ جاء في تاريخ هذه المدينة: «في سنة ٧٢٣ يونانية (توافق سنة ٤١٢ م) صير رابولا أسقفاً على الرها، وبنى بأمر الملك كنيسة القديس اسطفانس وكانت مجمعاً لليهود». واستمر على هذا الكرسي إلى سنة ٤٣٥م إذ جاء في التاريخ المذكور: «في سنة ٧٤٦ يونانية توافق سنة ٤٣٥ م) برح رابولا هذا العالم في ٨ آب وخلفه ايهيا». وقال توادوسيوس القارئ (في ك ٢ من تاريخه): «إن رابولا كان أعمى وقد شكّا اندراوس أسقف سميساط بأنه ردّ حروم كيرلس الاسكندري الاثني عشر». وكان رابولا أولاً من أتباع يوحنا بطريرك انطاكية، وبند الحروم التي أعدها كيرلس ليعتمد عليها المجمع الأفسسي، إلا أنه ارعوى عن رأيه ودافع عن القديس كيرلس شديد الدفاع، وعقد مجمعاً في الرها وأبى فيه الاشتراك مع يوحنا الانطاكي ومن تابعه من أساقفة المشرق. وبند كل ما كتبه توادوريطس واندراوس السميساطي رداً على القديس كيرلس وأحرق كتبهما. وبعد أن اصطالح يوحنا الانطاكي مع كيرلس استمر رابولا يخالف توادوريطس واندراوس السميساطي مدافعاً عن كيرلس، وقد قاوم بدعة نسطور شديد المقاومة كما يظهر من إحدى رسائل كيرلس إليه، وكان يعتف برسائله ديودورس أسقف ترسيس وتوادورس أسقف المصيصة حتى شكاه اندراوس أسقف سميساط لمتريولييه اسكندر رئيس أساقفة منبج بأنه يضطهد توادورس المصيصي،

وقد جعل نفسه عدواً للأساقفة الشرقيين كما يظهر من رسالة اندراوس هذه مثبتة في فصل ٤٣ من كتاب الجامع.

ونعلم مما كتبه رسالة إلى القديس كيرلس وهي مثبتة في المجلد الخامس من كتاب لاباي في الجامع (صفحة ٤٦٩)، وقد تلى في المجمع الخامس (مجلس ٥) جواب كيرلس لرابولا. وقد ذكر ابن العبري مرات في كتابه الموسوم بكتاب اليهود القوانين التي فرضها رابولا في مجمع الرها، وهي مثبتة في كتاب سرياني مخطوط في المكتبة الماديشية الخاصة. ذكره رينودوسيوس (في مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٢). انتهى ملخصاً عن السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ١٩٧ وما يليها).

وأما ايهيا (تأويل اسمه الموهوب أو هبة الله) فخلف رابولا في كرسي الرها سنة ٤٣٥م كما مرّ. وجاء في تاريخ هذه المدينة: «إنه بنى كنيسة حديثة هي المسماة اليوم كنيسة الرسل». ولما كان كاهناً كان يقاوم أسقفه رابولا في نبذه كتب توادورس أسقف المصيصة كما يظهر من رسالة اندراوس أسقف سميساط إلى اسكندر رئيس أساقفة ايرابولي (منبج) المار ذكرها، ولهذا لما صار أسقفاً ناصبه أصدقاء رابولا، وشكاه صموئيل وقورش ومادا واولوجيوس كهنة الرها إلى الملك توادوسيوس الصغير، وبركلس بطريرك قسطنطينية بأنه القى الفتنة بين أساقفة المشرق وأساقفة مصر، وأنه ترجم كتب توادورس المصيصي إلى اللغة السريانية وأذاعها في كل المشرق، إلى غير ذلك من الشكاوى. وقد مرّ أنّ هذه الشكاوى بُحث عنها في مجمع صور وبيروت، وأصلح بينه وبين خصومه (طالع ما ذكرناه في عد ٦٢٠)، ثم شكوه ثانية في مجمع أفسس اللّصّي فحطّه هذا المجمع عن أسقفيته كما يظهر من أعمال المجمع الخلكيدوني (مجلس ١٠)، وأقام مكانه نونس فاستمر في الاسقفية سنتين كما يتبيّن من تاريخ الرها أي إلى أن أعاد المجمع الخلكيدوني ايهيا إلى أسقفيته سنة ٤٥١م، واستمر فيها إلى بدء سنة ٤٥٨م حين أدركته الوفاة. فقد جاء في تاريخ الرها: «في سنة ٧٦٩ يونانية (توافق سنة ٤٥٨ م) في ٢٠ من تشرين الأول توفي ايهيا أسقف الرها وخلفه نونس» المذكور.

واليعاقبة لنبذهم الخلكيدوني يعتبرون ايهيا نسطورياً، ويحرمونه في دستور الايمان الذي يتلوه المتقدّم إلى الدرجة المقدّسة بحضرة الاسقف كما يظهر من

الكتاب المخطوط في المكتبة الواتيكانية، وهو الرابع بين الكتب المعزوة إلى ابراهيم الحاقلي الماروني. وما اشتهر من تأليفه رسالته إلى ماري الفارسي في ابّان الخلاف بين الاساقفة الشرقيين والمصريين، وكان ايهيا متابعاً يوحنا بطريرك انطاكية فيؤنّب في رسالته كيرلس الاسكندري وسالفه رابولا، ويندد بالجمع الأفسسي، ويشي على نسطور، ويجهد نفسه باثبات تعليمه. ورسالته هذه مثبتة في المجلد الخامس من مجموعة الجامع للبتاي (صفحة ٦٦١) وقد نبذها وحرّمها آباء الجمع الخامس المسكوني سنة ٥٣٦م بعد موت ايهيا مع ما كتبه في هذ الشأن توادوريطوس أسقف قورش وتوادورس أسقف المصيصة. وهذه المقالات تسمى الفصول الثلاثة وقد طال الجدل والخلاف فيها بين العلماء الشرقيين في القرن الخامس إلى أن حرمت في القرن السادس في الجمع الخامس المذكور، وهو القسطنطيني الثاني كما سوف ترى. على أنّ العلامة الكردينال بارونيوس (في تاريخه لسنة ٥٣٦م) أثبت جلياً أنّ الجمع الخامس حرم رسالة ايهيا لا شخصه لأنه جحد البدعة النسطورية في الجامع الأربعة التي عُقدت في انطاكية وصور وبيروت وخليدونية، وأقام بيّات على أنّ تلك الرسالة ليست له بل زوّرها باسمه خصماًؤه. انتهى ملخصاً عن السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٩٩ وما يليها).

عد ٦٣٤

بعض المشاهير الغربيين

ساويرس سوليبيوس وُلد سنة ٣٦٣م في اكويتانيا من أسرة شريفة غنية، وقد هاجر العالم نحو سنة ٣٩٢م بعد وفاة امرأته واعتزل للسيرة الروحية. ثم أقام في دير بمرسيليا سنة ٤٠٩م إلى أن توفاه الله سنة ٤٢٥م. وله تاريخ منقسم في كتابين بدأ فيه من خلق العالم إلى سنة ٤١٠م. وله أيضاً ترجمة القديس مرتينس صديقه وهو مؤلف روجي منبئ بحالة السيرة الروحية في تلك الأيام. وتعزى إليه عشر رسائل ثلاث منها لا مرّة في أنه مؤلفها، وسبع يختلف في صحة نسبتها إليه. وترى تأليفه بين كتب الآباء في طبعة الأب مين في باريس.

اوروز وُلد في اسبانيا في أواخر القرن الرابع، وكان تلميذاً للقديس اوغسطينس وقد سافر إلى فلسطين سنة ٤١٥م وصرف عنايته بمناسبة بدعة البيلاجيين، وحضّ

القديس اغوسطينس على تزييف هذه البدعة. ووضع كتاباً يدافع به عن حرية الانسان على أنَّ ما خلد ذكره إنما هو كتاب تاريخه للدين المسيحي مقسوماً إلى ثمانية أسفار، قاوم به الوثنيين وضمنه تاريخاً من خلق العالم إلى سنة ٤١٧ للميلاد، وقد به مزاعم من كانوا يعززون تقهقر المملكة الرومانية إلى دخول الدين المسيحي فيها. وقد طُبِع كتابه في لايد سنة ١٧٣٨م وله ترجمتان انكليزية وفرنسية.

يوحنا كاسيان وُلد في افرنسة على الأظهر ودخل منذ صباه ديراً في بيت لحم، ثم زار النساك في برية تيبايس، ثم مضى إلى قسطنطينية فاستخدمه القديس يوحنا فم الذهب في كنيسة إلى أن انتقل إلى مرسيليا وأنشأ فيها الدير المعروف بدير القديس فيكتور، وأدركته الوفاة سنة ٤٥٠م. ويظنه كثيرون منشيء بدعة البيلاجيين المتوسطين كما يسمونهم. وكان من أكبر خصوم القديس اغوسطينس وله مؤلف في الرسوم الرهبانية اشتمل على اثني عشر كتاباً، ثم أربعة وعشرون خطاباً مع آباء البرية أي رهبان مصر. أخذ عنها ارنولد كتاب تراجم آباء البرية ووضع مقالة في تجسد المخلص منقسمة إلى سبعة أسفار، وكتب مخالفاً نسطور سنة ٤٣٠م. وذكر له جناديوس في جدول المؤلفين كتباً أخرى مفقودة. وقد أذاع الأب مين تأليفه في مجلد ٤٩ من مكتبة الآباء.

القديس بطرس كريسولوجس وُلد في ايطاليا لوالدين حسيين ورقاه البابا سيستس الثالث إلى مقام الاسقفية على مدينة رافانا نحو سنة ٤٣٠، فدير رعيته أحسن تدبير، ولقي ربه سنة ٤٤٩ أو سنة ٤٥٠م. وكان خطيباً مصقفاً، وقد أكسبته فصاحته لقب غريسولوجس وتأويله العسجدي النطق. وله ١٧٦ خطبة قد طُبِعَت في اغوستا سنة ١٧٥٩م.

القديس بروسبر وُلد في اكويتانيا سنة ٤٠٣م وأدركته المنية سنة ٤٦٣م وكان من اكليس مرسيليا مشهوراً بعلمه وفصاحته. وكانت له مراسلات عديدة مع القديس اغوسطينس، وآلف قصائد لاتينية مسهبة يندد بها بالبيلاجيين المتوسطين، ويردّ مزاعمهم ويسميهم ناكري الاحسان لغمطهم فضل نعمة الله. وله أيضاً تاريخ يعتمد عليه وقد ترجم قصائده اللاتينية إلى الافرنسية شعراً لامستر دي ساسي سنة ١٦٤٦م. وتعيّد الكنيسة اللاتينية لذكره في ٢٥ حزيران.

وكان في هذا القرن أعظم من هؤلاء جميعاً البابا لاون الأول الملقب بالكبير.

وُلد في روما وتسلّم منصّة الخيرية العظمى سنة ٤٤٠م، واستمر يدبر كنيسة الله إلى سنة ٤٦١م. قد رذل ما أجراه مجمع أفسس اللّصبي سنة ٤٤٩م، وأمر بعقد المجمع الخلكيدوني المسكوني سنة ٤٥١م، وحرّم به اوطيخيا ومشايغيه والبيلاجيين. وصدّ اتّيلا ملك الهونيين عن مهاجمته روما سنة ٤٥٢م، لكنه لم يتسنّ له أن يوقف عنها جنساريك سنة ٤٥٥م. وله مواظ كثيرة كان يلقيها في الكنيسة وهي آية في الفصاحة والبلاغة والفقاهة وله رسائل تشدّد عن العدّ للمناضلة عن العقائد الكاثوليكية واصلاح التهذيب البيعي وشؤون الكنائس، وردع مخالفتي القوانين المقدّسة. وقد نشر الأب كوسنال تأليفه كلها سنة ١٦٧٥م في باريس، وأذاعها الأب كاشياري في روما سنة ١٧٥١م. ويعيّد لذكر هذا البابا العلامة في روما في ١١ نيسان، وفي باريس في ١٠ تشرين الثاني. وكنيستنا المارونية تعيّد له في ١٨ من شهر شباط. انتهى وكل ما في هذا العدد خلاصة أخذناها عن كثيرين من المؤرخين الموثوق بصدقهم.

الفصل الخامس

البدع والمبدعين بسورية في القرن الخامس

عد ٦٣٥

بيلاجيوس وبدعته

كان بيلاجيوس بريطانياً كما يتبيّن من محاماة اوزور ومن رسالة القديس اغوسطينس ال ١٠٦، وكان يستسير السيرة الرهبانية في بيته متقشفاً متورعاً. ولذلك قال فيه القديس اغوسطينس أنه كان أشبه براهب ولم يرقّ إلى الدرجات المقدّسة كما يتبيّن من رسالة البابا زوزيمس إلى اورليوس حيث يصفه بالرجل العامي. وقد أتى روما وعرف فيها بالفضل، إلّا أنّ صداقته لكاهن سرياني يدعى روفينس أوقعته في ضلال يخالف الاعتقاد بنعمة الله. وكان هذا الضلال منبثاً في المشرق، وقد

تورط فيه توادورس أسقف المصيصة ناسباً إياه إلى اوريغانس وكان روفينس قد أتى إلى روما سنة ٤٠٠م ولم يجسر أن يذيع هذا الضلال بنفسه، فاستخدم ييلاجيوس لبثه سنة ٤٠٤ او سنة ٤٠٥م، فاشمأز السامعون من غواياته وأنكروها عليه فأخذ يروغ ويحتال ليفلت من تحریم ضلاله، وأخى راهباً اسمه شالستيوس كان أكثر جرأة منه، ففلق يث ضلالهما علانية، واضطرا أن يفرا من روما وأتيا قرطاجنة فافتضح شرهما، وشرع القديسان ايرونيوس واغوستينس يزيغان هذا الضلال ويفتدان مزاعم من يقول به، فبرح ييلاجيوس افريقيا وأتى إلى فلسطين وخادع يوحنا بطريرك أورشليم، فعقد مجمعاً في هذه المدينة سنة ٤١٥م. وبدلاً من أن يحرم تعليم ييلاجيوس أمره وخصمائه أن يلزموا الصمت عن العقائد المختلف فيها إلى أن يحكم عليها الحبر الروماني (اورسي ك ٢٥ وفلوري ك ٢٣) وقد شهد اوروز المار ذكره هذا المجمع إذ كان القديس اغوستينس قد أرسله إلى القديس ايرونيوس في فلسطين، ويُن في المجمع أنَّ ضلال ييلاجيوس حرم في أفريقية سنة ٤١٢م فرفع الأمر إلى البابا اينوشنسيوس الأول. وذكر كل ذلك اوروز في محاماته مع بيان ما كان في ذلك المجمع الذي ذكره القديس اغوستينس أيضاً (في كتابه في أعمال ييلاجيوس فصل ١٤). ثم عُقد مجمع آخر في تلك السنة في ديوسبولي المعروفة الآن باللد، وشهده اروس ولازورس من أساقفة افرنسة (وفي رواية لم يشهده لمرض أحدهما) مع أربعة عشر أسقفاً من فلسطين، فخدع ييلاجيوس هؤلاء الاساقفة إذ تظاهر بأنه يقبل العقائد الكاثوليكية المخالفة لضلاله، فرخصوا له أن يشترك مع الكاثوليكين، فاستغنى هذه الفرصة ليزيد في بث غواياته، ولذلك دعا القديس ايرونيوس (في رسالته ٧٩) مجمع ديوسبولي مجمعاً تعساً، إلا أنَّ القديس اينوشنسيوس البابا لم يصدق تمويهات ييلاجيوس وأبى أن يرخص له بالاشتراك مع المؤمنين. وزاد ييلاجيوس قحّة فكتب راداً مقالات القديس ايرونيوس في أربعة كتب عنوانها بالاختيار المعتوق (في القديس اغوستينس في كتابه في أعمال ييلاجيوس فصل ٣٣)، وعقد في افريقيا مجمعان آخران حرما تعليم ييلاجيوس ومشايحيه سنة ٤١٦. وفي سنة ٤١٧م أئد البابا اينوشنسيوس أحكام هذين المجمعين وحرّم ييلاجيوس ومحازبيه. وقال القديس اغوستينس (في خطبته ١٣١) أنه بعد حكم الحبر الروماني بهذه الدعوى لم يعد من سبيل للجدال فيها. ولما علم ييلاجيوس وشالستينس حكم البابا عليهما استغاثا بحكمته السامية من حكم أساقفة

افريقيا عليهما وأكثر من التمويه، وكان البابا اينوشنسيوس مضى للملاقاة ربه حيثئذ، وخلفه القديس زوزيمس البابا. فبعد امعان النظر في دعواهما حرم تعليمهما ثانية (اورسي ك ٢٦ فصل ١٦) فعاد بيلاجيوس إلى فلسطين التي كان يحبها آملاً أن يقبل فيها، ولكن قد كان الخفاء برح عن ضلاله فطرد من هناك ولا يُعلم بما كان له بعد، ويُظن أنه عاد إلى بريطانيا موطنه يندر زوان تعليمه، فأرسل أساقفة افرنسة القديس جرمانوس أسقف اكس لمقاومته.

أما ضلال بيلاجيوس ومتابعيه فكان أنهم زعموا أولاً أنَّ آدم وحواء خلقهما الله مائتين، ولم يضرّر اثمهما بذريتهما بل بنفسيهما لا غير، وهو جحد لعقيدة الخطية الأصلية. ثانياً أنَّ نعمة الله ليست ضرورية للانسان لي عمل بوصايا الله وينتصر على التجارب ويبلغ الكمال الروحي، بل يكفيه اختياره المعتوق أي حريته الطبيعية، وهو جحد لعقيدة نعمة الله. ومن هذين الاصلين فرع بيلاجيوس ومشايعوه أضرال أخرى منها أنَّ الانقياد للشهوة ليس اثمًا ولا شرًا، وإنَّ الفضائل هي مواهب طبيعية لا مدخل لنعمة الله فيها، إلى غير ذلك من الترهات. إنَّ الجدل الذي كان بين البيلاجيين وبين القديس اغوسطينس الذي ردّ مزاعمهم في كتب كثيرة أنشأ بين الكاثوليكين ضلالاً آخر، ذلك أنَّ البعض المعروفين بالتقوى والعلم من الكاثوليكين آثروا أن يوققوا بين تعليم اغوسطينس وبيلاجيوس بايجادهم حداً متوسطاً بينهما. فقالوا إنَّ القديس اغوسطينس قد تخطى بنسبته إلى النعمة، الحركة الأولى في عمل الخير. وبيلاجيوس تجاوزه بإنكاره لزوم النعمة مطلقاً، فزعموا أنَّ مبدأ الخلاص والفضيلة إنما هو منا لا مدخل للنعمة فيه، وإنَّ الثبات في عمل الخير والانتخاب للمجد نستطيع الحصول عليهما بالقوى الطبيعية واذا، وجعلنا أنفسنا أهلاً لذلك، وإنَّ النعمة تساعدنا على ذلك مساعدة غير لازمة. وإنَّ بعض الأطفال يموتون قبل المعمودية أو بعدها لعلم الله السابق بالخير أو الشر الذي يصنعونه لو بقوا أحياء، فشمي هؤلاء نصف بيلاجيين أو البيلاجيين المتوسطين. وكان منهم يوحنا كاسيان الذي مرّ معنا ذكره في العدد السابق. لكن الكنيسة الكاثوليكية اعتدت تعليم هؤلاء أيضاً مخالفاً الايمان الصحيح فحرمته. إنَّ التعليم الكاثوليكي بضرورة النعمة مؤسس على أنَّ الوسائط يلزم أن تكون مطابقة للغاية الموجهة إليها، وغاية لانسان الخلاص الأبدي، وهو يقوم بالتتعم بالله، وهو أمر فوق الطبيعة، فيلزم أن تكون الوسائل المبلغة إليه وهي الاعمال الصالحة صادرة عن مصدر فائق الطبيعة وهو نعمة الله.

وأي الاسفار المقدسة المثبتة ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: «لا أحد يقدر أن يأتي إليّ ما لم يجتذبه الآب الذي أرسلني» (يوحنا فصل ٦ عد ٤٤) «أنا هو الكرمة وأنتم الأغصان... لأنكم بدوني لا تستطيعون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا فصل ١٥ عد ٥) إنّ الله هو الذي يعمل فيكم ان تريدوا وان تكملوا (فيلبسيوس ٢ فصل ١٢ عد ١٣) وهلمّ جراً.

وإن شئت الاطلاع على ما يزيدك بياناً فطالع كتاب البدع ودحضها للقديس الفونس ليكوري الذي ترجمته إلى العربية وطبعته في مطبعة الرهبان اللبنانيين في دير طاميش سنة ١٨٦٤م.

عد ٦٣٦

نسطور وبدعته

وُلد نسطور في مرعش ونشأ في دير القديس اوبريوس في نواحي انطاكية، ورفقي إلى درجة الكهنوت، وأقامه أسقفه على شرح عقائد الدين للطلابين، والمدافعة عنها ضدّ الهرطقة، فجذّ في مقاومة الاريوسيين والابوليناريين والاوريجانيين راغباً في التشبه بقم الذهب والافتداء به، فذاع صيت علمه وفصاحته وورعه إذ كان الناس يرونه نحيف الجسم أصفر اللون مرتدياً اطماراً اخلاقاً. وقد توفي وقتلّ سيسينيوس بطريك قسطنطينية، وكثر الخلاف في انتداب خلف له فآثر الملك توادوسيوس الصغير أن ينتخب للبطريركية كاهناً لم يرشّحه أحد لها، فاستدعي نسطور من انطاكية وعني بترقيته إلى كرسي قسطنطينية، فسّر الشعب بانتخابه. وقال هو في خطبة تبوّه الكرسي البطريركي للملك: «سلمني أيها الملك الأرض منقاة من الهرطقة فأسلمك السماء. استأصل معي أصحاب البدع فأستأصل معك الفرس» وكلامه يشف عن غيره، لكنه مشعر بكبريائه. وكانت بواكير أعماله تعقّبه أصحاب البدع، على أنه ظهر بعداً أنه لم يصنع ذلك إلّا لينتهج السبيل إلى بدعته وحدها. فقد صحبه من انطاكية كاهن اسمه انسطاس. وقال في خطبة ألقاها كيف تدعون مريم أم الله وهي خليفة، ومن أين للخليقة أن تلد إلهاً. فتسارع الجَم الغفير إلى البطريرك يسألونه ردع كاهنه عن هذا التجديف. فصعد نسطور إلى المنبر والشعب يؤمل إزالة العثار فقال: «كيف يكون لله أم، فإن صحّ ذلك كان معذرة

للوثنين باتيانهم بأمهات آلهتهم إلى هياكلهم وذكرهم أقاصيصهم. كلا إن مريم لم تلد إلهاً، فلا يلد الجسد إلا جسداً وما يلد الروح فهو روح، لا تستطيع الخليقة أن تلد الخالق بل ولدت انساناً هو آله الله». فعظم الخطب على السامعين، وعمّ القلق المدينة وقضوا بأنّ راعيهم أمسى ذنباً، فهددوه بأنهم يقتلونه ويلقونه في البحر فلم ينعو، بل أنكر ذات يوم ميلادي كلمة الله الأزلي والزماني، فقال له اوسابيوس (الذي صار بعداً أسقفاً على دوريل) في وجهه وبحضرة الجمهور، ليس الأمر كما تزعم بل إن كلمة الله المولود من الآب منذ الأزل هو هو نفسه وُلد من العذراء في الزمان. فحق نسطور من هذا الكلام وأوسع قائله إهانات داعياً إياه تعساً وشريراً وانتشرت أقاويل نسطور في المشرق واتصلت إلى أديار الرهبان في مصر، ووفرت المشاحنات، ودرى بها القديس كيرلس البطريك الاسكندري فأنفذ رسالة إلى رهبان مصر يرشدهم بها إلى الايمان الصحيح. وبلغت رسالته إلى قسطنطينية فأثنى عليها كثيرون من رجال دولة توادوسيوس شاكرين للبطريك. وامتنع نسطور وحمل رجلاً اسمه فوتيوس على أن يرّد تلك الرسالة مندداً بكاتبها، فكتب القديس كيرلس إلى نسطور رسالته المشهورة، ومما قال له فيها: «إنّ هذا القلق لم تحدّثه رسالتي بل ما قلته أنت وكتبته بنفسك أو بواسطة غيرك، وهو ما دعاني إلى معالجة هذا الداء القتال بيلسم رسالتي، فاصلح ما قلت وازل العثار، وادعُ مريم أم الله، وكن موقناً إنني لا أخشى في هذا لومة لائم، بل إنني متأهب لتحمل كل ما يرد عليّ، وإن سجناً أو موتاً حباً بايمان المسيح». ولم يكن جواب نسطور إلا ايضاح استيائه من رسالة كيرلس وتهديده له، فخاب أمل كيرلس من اصلاح نسطور، ورأى ضلاله يزداد انتشاراً، فرفع عريضة إلى القديس شالستينس الحبر الروماني منبأً له بكل ما كان، وأنفذ رسائل مطوّلة إلى الملك توادوسيوس والاميرات أخواته (ذكرت في المجمع الأفسسي). وجسر نسطور أيضاً أن يكتب إلى الحبر الروماني مغالياً بذكر متاعبه في مناصبة أصحاب البدع، وأردف ذلك بقوله إنّ البعض يدعون العذراء أم الله مع أنه لا يمكن أن تدعى إلا أم المسيح، وإنّ هذا ما حمّله أن يرسل إليه بعض ما كتبه (أثبت هذه الرسالة بارونيوس في تاريخ سنة ٤٣٠م). وبعد أن اطلع البابا على رسالتي كيرلس ونسطور، عقد مجعلاً في روما سنة ٤٣٠م فحرم تجاديف نسطور، وأمر أن يُحطّ عن مقامه إذا لم يقلع عن ضلاله علانية بعد تبليغه هذا الحكم بعشرة أيام، وعهد إلى القديس كيرلس بتنفيذ هذا الحكم. فعقد القديس

كيرلس مجمعاً في اسكندرية دعا إليه أساقفة مصر، وبلغ نسطور حكم الحبر الروماني ورسالة من هذا المجمع تبين له أنه إذا انقضت العشرة الايام ولم يُقلع عن غواياته علانية بجانب أولئك الاساقفة الاشتراك معه، ويقبلون في شركتهم كل من حطهم نسطور أو حرمهم. وأرسل القديس كيرلس حكم البابا وهذه الرسالة مع أربعة أساقفة من مصر، وأنفذ معهم رسالتين احدهما إلى اكليروس قسطنطينية وشعبها، والأخرى إلى رؤساء الأديار. فبلغ هؤلاء الاساقفة إلى قسطنطينية في ٧ كانون الأول سنة ٤٣٠م وبلغوا نسطور الحكم والرسالة. ومضت الأيام العشرة واستمر نسطور مصراً، وكان الملك توادوسيوس عني قبل وصول الوفد الاسكندري بعقد مجمع عام للحكم بهذا الخلاف، فكتب القديس كيرلس إلى البابا يكشفه في ذلك، وفيما إذا ارعوى نسطور عن ضلاله هل يُباح للمجمع قبوله بصفة أسقف أو ينفذ فيه الحكم عليه. فأجابه الحبر الروماني أمراً بعقد المجمع ومؤجلاً عزل نسطور رجاء أن يُقلع عن ضلاله.

وأمر البابا شالستينس أن يترأس القديس كيرلس على هذا المجمع نائباً عنه، وأرسل إليه من لدنه اركادايوس وبروكتس الاسقفين وفيلبس الكاهن، وعين محل المجمع في أفسس، واجتمع الآباء هناك في ٧ حزيران سنة ٤٣١م وربما عدد الاساقفة على المئتين. وأمر القديس كيرلس بعقد المجلس الأول في حزيران في كنيسة العذراء التي كانت أكبر كنائس أفسس. واستدعى نسطور في ٢١ منه ليحضر المجمع، فرفع إليه عريضة يحتج بها على افتتاحه قبل وصول الاساقفة المنتظر حضورهم، فأبى القديس كيرلس والسود الأعظم من الاساقفة إلّا الاجتماع في اليوم المعين. وقبل الشروع في المداولة استدعى الاساقفة نسطور ثانياً وثالثاً فلم يلق الاساقفة المرسلون إليه إلا الاهانة والتهديد من الجند الذين أقامهم نسطور لحراسته. وافتتح الآباء المجمع قثليت أولاً رسالة القديس كيرلس الثانية وجوابه عليها. ثم حكم البابا شالستينس على نسطور بالحط عن مقامه إن أصرّ على ضلاله بعد تبليغه الحكم بعشرة أيام. وبعد البحث الطويل أبرز آباء المجمع على نسطور الحكم الذي ترى نصّه عند الكلام في هذا المجمع. ووقع مئة وثمانية وتسعون أسقفاً على هذا الحكم، واستمر المجلس منعقداً من الصباح إلى ما بعد مغيب الشمس على طول النهار في ذلك الفصل. وفي اليوم التالي بلغ نسطور الحكم وأذيع، وعاد بعض الاساقفة الذين رفعوا الاحتجاج مع نسطور فوقعوا عليه، على أن يوحنا بطريك

انطاكية لم يبلغ إلى أفنس إلا بعد ابراز الحكم، فشقّ عليه أنّ باقي الاساقفة لم ينتظروه، وأن يرى نسطور صديقه وابن وطنه محروماً. فعقد مجمعاً آخر في أفنس ومعه أربعون أسقفاً فعزلوا القديس كيرلس بطريرك انطاكية ومانون أسقف أفنس عن منصبهما، إلا أنّ القديس كيرلس لم يعبأ بهذه الجسارة واستدعى يوحنا ورفقاه إلى المحاكمة، وهددهم بانزال الحرم بهم، إلى أن جرى الصلح بعدئذ بين كيرلس ويوحنا البطريركين، وعاد أكثر الاساقفة الذين شاركوا يوحنا إلى الوفاق، ووقعوا على حرم المجمع لنسطور. ولجأ نسطور إلى الملك وساعده بعض محازبيه من أعوانه فحال دون انفاذ حكم المجمع عقبات ومكائد على الاساقفة الحاكمين إلى أن برح الخفاء، وتيقن الملك صحة حكم المجمع، فأمر بحشر نسطور في دير القديس اويريوس في ضواحي انطاكية حيث كان أولاً، على أنه ما انفك يبتّ ضلاله ففاه الملك إلى افريقيا حيث أدركته المنون. واختلف في منيته، فمن قائل إنه استحوذ عليه اليأس فكسر رأسه، ومن قائل إنه خسف في الأرض، ومن قائل إنه أصابته آفة في لسانه فأكله الدود وهو عقاب يستوجه اللسان الذي جدّف على الخلّص وأمه العذراء.

وأما أضاليه فأخصها أولاً أنّ الانسان الذي تجسد في حشا العذراء هو غير كلمة الله الوحيد، وما التجسد إلا حلول كلمة الله في ذلك الانسان بمنزلة هيكل له، وعليه فالله لم يولد ولم يتألم ولم يموت، والمسيح ليس إلهاً بل هيكل الله. وكان فيه اقنومان إلهي وبشري لا أقنوم واحد. ثانيها وهو مأخوذ من الأول أنّ العذراء لا تدعى أم الله بل أم المسيح، إذ لم تكن أم الله الذي يتجسد على زعمه بل أمّا لذلك الانسان الذي حلّ الله فيه. انتهى ملخصاً عن كثيرين من مشاهير المؤرخين، منهم بارونيوس ونطاليس اسكندر واورسي وأعمال المجمع الأفسسي. ويؤخذ من كلام السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٠٣) إنّ هرطقة نسطور نشأت أولاً في سورية، ابتدعها بولس السميساطي بإنكاره أنّ المسيح إله حقيقة. وتوسل بنشرها توادورس المصيبي وتوادوريطوس القورشي وايهيبا الرهاوي بمقاومتهم القديس كيرلس الاسكندري ومكّن جرائمها نسطور. وكان في الرها مدرسة للفرس تشبّث أساتذتها وتلاميذهم بهذا الضلال، فعاونوا كثيراً على نشرها في ما بين النهرين وبلاد فارس، فناصرهم رابولا أسقف الرها، لكنهم تقووا في أيام ايهيبا قبل اقلاعه عن ضلاله. ولم يستطع نونس خليفته أن يردعهم، واستمروا يعثون

إلى أن قام على كرسي الرها قورش، فأقل هذه المدرسة ونُفي من كان فيها إلى فارس سنة ٤٨٠م، فأضلّوا نصارى هذه البلاد وبلاد الكلدان، وانبسط هذا الضلال إلى بعض أقاليم الهند واستمرت هذه الشيعة إلى الآن، وهم المعروفون بالنساطرة والنسطوريين. ومن عاد منهم إلى حظيرة الايمان الكاثوليكي الكلدان الكاثوليكيون.

إنّ بدعة نسطور تبطل سرّي التجسد والفداء وتدلّك إسنّ محبة الله السامية للبشر، فإنه إذا كان المسيح ليس إلهاً بل بشراً حلّ الله به كحلولة في غيره من القديسين وإن بنوع اسمي، فلا يكون الكلمة تجسّد ولا الله افتدانا بابنه الوحيد بل أرسل إلى العالم رسولاً كأحد الرسل أو الانبياء، ويكون استحقاقه ومحبته ووساطته بين الله والبشر متناهية عادية. وهذا يقلب تصوّر المسيحية برمّته، وآي الاسفار المقدّسة بيّنة جليّة مؤيدة التعليم الكاثوليكي. منها قول يوحنا (فصل ١ عد ١٤) «والكلمة صار جسداً» أي بشراً وإنه «واضع نفسه آخذاً صورة العبد» (فيلبسيوس فصل ١ عد ١٦)، بهذا تعرف محبة الله لأنه بذل نفسه دوننا (رسالة يوحنا فصل ٦٣) ولو عرفوا لما صلبوا ربّ المجد (قرنثية ١ فصل ٢ عد ٨) إنّ الله لم يشفق على ابنه الوحيد بل بذله عن جميعنا (روما فصل ٨ عد ٣٣) وهلمّ جرا. ومن شاء زيادة بيان فليطالع كتابي ترجمة تاريخ البدع ودحضها للقديس ألفونس ليكوري.

عد ٦٣٧

اوطيخا

كان اوطيخا (ويسميه بعضهم اوطاخني) راهباً كاهناً رئيس دير في ضواحي قسطنطينية اشتمل على عدد غفير من الرهبان، وكان يناصر نسطور بطريقه في ضلاله، وقد مضى بنفسه إلى المجمع الأفسسي فشهد على إلحاده، واعتده القديس كيرلس الاسكندري من الصناديد المناضلين عن الايمان الصحيح. وقد أنفذ رسالة إلى القديس لاون الحبر الروماني في شأن بدعة نسطور، فأجابه البابا مثبّثاً على غيرته ومشجعاً إياه على جهاده، إلّا أنّ حدّته في الجدل مع أصحاب نسطور أوقعت في ضلال آخر مخالف لتعليمه، فهم كانوا يزعمون أنّ المسيح انسان حلّ فيه اللاهوت فكان فيها أفتومان. وزعم هو أنّ الطبعين الألهي والبشري في المسيح امترجا فكان فيه طبيعة واحدة وأقنوم واحد، وعليه فلم يعد انساناً كاملاً، فكان عند التجسّد ذا

طبيعتين، وأما بعده فصار ذا طبيعة واحدة. وقد عزا البابا لاون (في رسالته ١٣ إلى بلوشاريا الملكة) ضلاله إلى جهله لا إلى خبثه، وكان اوسابيوس أسقف دوربلا بفريجية صديقاً لاوطيخا فدرى بمعاشرته له أنه يتخطا الحدود في مقاومة نسطور معلماً ضلالاً آخر، فأفرغ مجهوده في نصحه وردّه إلى الصواب فلم يذعن له. فبعثته غيرته على أن يشكوه إلى القديس افلايانس بطريرك قسطنطينية الذي عقد في تلك الأثناء مجمعاً في قسطنطينية لفصل خلاف بين بعض أساقفته، فرفع اوسابيوس أسقف دوربلا عريضة إلى المجمع يشكو بها اوطيخا بأنه يتفوّه بتجديف على المسيح، ويعلم ضلالاً يغوي الشعب به، وسأل أن يدعى إلى المجمع ليثبت عليه بدعته. وكلف افلايانس اوسابيوس أن يعيد النصح على اوطيخا علّه يرعوي فقال إنه يش من اقلاعه عن غيّه، وعيّن المجمع كاهناً وشماساً ليدعوا اوطيخا ليأتي إلى المجمع ويبرئ نفسه فأبى أن يحضر، وكرروا الدعوة له فاعتذر بأنه لم يخرج قط من ديريه وبأنه مريض، إلى أن أكره أن يأتي في المجلس السابع، فأتى محتفياً بكتيبة من الجند وجماعة من الرهبان وكثيرين من الاعيان، ولم يدعه هؤلاء يدخل المجمع إن لم يعدهم الاساقفة برده إليهم. فأقام رئيس مجمع اوطيخا واوسابيوس شاكيه في الوسط، وتلوا رسالة القديس كيرلس إلى الاساقفة الشرقيين حيث صرح بأنّ في المسيح طبيعتين، فقال اوسابيوس أنّ اوطيخا لا يعتقد هذا. فسأله افلايانس اسمعت ما قال شاكيك فما تقول؟ قال أعتقد بطبعين. فسأله اوسابيوس أعتقد بطبعين بعد التجسد، وإنّ المسيح مساوٍ لنا من حيث الجسد، فأجاب ما جئت لأجادل بل لأصرّح بما أفكر وقد كتبت في هذه الورقة، فكان كلامه فيها ملتبساً غامضاً. فقال له افلايانس أعتقد الآن أنّ في المسيح طبيعتين؟ فأجاب قد قرأت في كتب القديسين كيرلس واثناسيوس أنّ المسيح كان قبل التجسد ذا طبيعتين، وأما بعده فهما لا يقولان بطبعين بل بطبع واحد. وكان في كلامه هذا بدعتان، بدعته وضلال اوريجانس بقوله إنّ النفوس خلقت قبل الأجساد. فجذّ الآباء في اقناعه واقلاعه عن ضلاله فلم يُقلع عنه، فحكم عليه المجمع بالخطّ عن كهنوته وورثاسة ديريه وياقصائه عن شركة المؤمنين لتلا يضلّهم، ووقع على الحكم عليه اثنان وثلاثون أسقفاً وثلاثة وعشرون رئيساً من رؤساء الأديار. وكان ذلك لسنة ٤٤٨م.

وكتب اوطيخا إلى القديس بطرس غريسولوجس أسقف رافنا (بايطاليا) متشكياً

من حكم افلايانس عليه، وسأله أن يعاونه لدى الملك والتتبيين وأمه بلاشيدا اللذين كانا يقيمان غالباً في رافنا. فأجابه أنه لم ير رسالة من افلايانس ولم يسمع حججه، وأشار عليه أن يدعن لما يقوله البابا لاون الحبر الأعظم. وكتب اوطيخا وافلايانس إلى البابا لاون الأول استغاثة مما أجراه عليه مجمع قسطنطينية. والثاني أنبأ بالاسباب العادلة التي دعت إلى حطّ اوطيخا وحرمه. وكان اوطيخا سأل ديوسقورس بطريرك انطاكية أن يرغب إلى الملك توادوسيوس أن يعقد مجعماً لفضّ الخلاف. فانقاد الملك لمطلوبه وأمر بعقد مجمع في أفسس رأس ديوسقورس عليه. فأجرى فيه على الاساقفة الكاثوليكين من الجور ما لم يسمع بمثله في مجمع حتى دُعي بصواب مجمع أفسس اللّصبي وسنأتي على ذكره. وقد أيدّ ديوسقورس حينئذٍ ضلال اوطيخا وردّه إلى شركة المؤمنين مع رهبانه الذين كان افلايانس قد حرّمهم. وحطّ افلايانس واوسابيوس أسقف دوريلّا عن مقامهما مكرهاً الاساقفة حتى بالضرب على امضاء حكمه عليهما. ولما قال افلايانس إنه مستغيث بالبابا لاون رفسه ولطمه وكان علّة لموته لأنه طرحه في السجن ثم أرسله إلى المنفى فمات في طريقه. وأما اوسابيوس ففرّ من روما وكان ذلك سنة ٤٤٩م.

فلما طرقت هذه الأخبار المحزنة مسامع البابا لاون، أنفذ رسالة إلى الملك توادوسيوس يسأله فيها ردع الاوطاخيين عن تعدياتهم واصلاح شؤون الكنيسة، فلم يحفل بذلك، بل أعاد اوطيخا إلى مقامه، إلّا أنّ هذا الملك توفي السنة التالية أي سنة ٤٥٠م نادماً على ممالئته الاوطاخيين وورقي مرقيان إلى منصّة الملك.

وكان الملك مرقيان والملكة بلوشاريا صالحين ورعين فكتبنا إلى البابا لاون أن يعقد مجعماً يترأس عليه بنفسه أو بقصاده ليخمد جذوة الاضطراب المتّقدة في الكنيسة. فسّر البابا كل السرور بهذا السؤال، وأرسل خمسة قصاد من لدنه لينوبوا عنه في هذا المجمع الذي عُقد في خلكيدونية سنة ٤٥١م فحرم آباء المجمع ضلال اوطيخا وصرحوا في حكمهم: «بأنّ في سيدنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد طبيعتين ودون تقسّم ولا تغيّر ولا امتزاج. وإنّ اتحاده بالجسد لم يزل اختلاف الطبيعتين، بل استمرت خواص كل طبيعة سالمة في أقنوم واحد وشخص واحد». أما اوطيخا فكان الملك نفاه سنة ٤٥٠م إلى محل قريب من قسطنطينية وبعد اعلامه بما قرّره المجمع ما انفكّ يغوي زائريه ومعاشره، فكتب البابا لاون إلى القديسة بلوشاريا والملك مرقيان أن يُبعدا اوطيخا إلى مكان قفر، فنفي إلى مكان بعيد حيث مات

مينة سيئة يستحقها اصراره. انتهى ملخصاً عن أكابر المؤرخين كبارونيوس ونطاليس واورسي وأعمال المجمع القسطنطيني المذكور والمجمع الخلكيدوني.

على أنّ تحرّم ضلال اوطيخا وموته لم يوقفا هذه البدعة عن الانتشار، فإنّ يعقوب البرادعي الآتي ذكره بثّها بين السريان حتى سمي القائلون بها منهم يعقوبيين أو يعاقبة نسبةً إليه. وبرصوم نشرها بين الأرمن حتى سمي من اتبع هذا الضلال منهم برصوميين أو براصمة. وديوسقورس أذاعها في مصر وتابعه على ذلك بعد وفاته تيموتاوس النمسي، ثم بطرس اللاثغ اللذان اغتصبا بطريركية اسكندرية فسمي الاوطاخيون في مصر ديوسقوريين، ويشتمل جميعهم اسم مونوفيزيتين (لفظ يوناني تأويله القائلون بطبع واحد في المسيح). أما في سورية فلم يخضع بعض الرهبان في فلسطين لما رسم في المجمع الخلكيدوني وحرشوا غيرهم مشيعين أنّ المجمع الخلكيدوني بحتمه أنّ في المسيح طبيعتين أيّد ضلال نسطور، وكان في مقدمة هؤلاء رجل اسمه توادوسيوس كان أسقفه قد طرده من ديرهِ لفواحشه ولم يخلع زيّهِ الرهباني، فاغتنم هذه الفرصة وضلّل رهباناً كثيرين. ولما عاد يوفينال البطريك الأورشليمي إلى كرسية لم يتسنّ له ردّهم بل حاولوا أن يكرهوا البطريك على حرم المجمع الخلكيدوني والبابا لاون. ولما لم يطاوعهم جمعوا جمهوراً من السفلة والأشرار فدخلوا أورشليم عنوة وأحرقوا بيوتاً وقتلوا كثيرين، وفتحوا السجون وأخرجوا السجناء، وانتدبوا توادوسيوس رئيسهم أسقفاً على أورشليم، فحاول قتل البطريك يوفينال ففرّ البطريك إلى القسطنطينية، فقتل من أرسلهم القديس سفيان أسقف باسان إذ فاتهم قتل البطريك فاستمر توادوسيوس يضطهد كل من يقاومه، فعذب البعض وأحرق بيوت غيرهم، وطرد بعض أساقفة من كراسيهم، وأقام توادوس الشرير أسقفاً على يافا. وبلغت هذه الشؤون الملك مرقيان فعني بإزالة الشغب والجور مهدداً من أصرّ على شرّه وغافراً لمن ارعوى عن غيّه. ورأى توادوسيوس شمله انفض عنه فقرّ خفية ومضى إلى جبل سينا يستأمن بين النساك، فلم يقبلوه فانساب في بلاد العرب. وعاد يوفينال البطريك إلى كرسية سنة ٤٥٣ م (ملخص عن افاغريوس ك ٢ من تاريخه فصل ٥ والكردينال اورسي مجلد ١٤ ك ٣٣). وزاد هذا الضلال انتشاراً في سورية بطرس القصار الذي غصب بطريركية انطاكية سنين متطاولة كما رأيت.

على أنّ ضلال اوطيخا ومشايغيه ظاهر البطلان لأنه إذا كانت الطبيعة الالهية

ابتلعت الطبيعة البشرية فلا يبقى المسيح انساناً. وعليه فيلزم إما انكار آلام المسيح وموته والتكذيب بكل ما ورد في العهد الجديد عن ذلك، واما الزعم أنّ اللاهوت تألم ومات وهذا مستحيل ويأبى العقل البشري التسليم به، وتعم الآلام والموت الآب والروح القدس لأنّ اللاهوت واحد. ثم إذا لم يكن في المسيح إلا طبيعة واحدة فلا يخلو، إما أن تكون الطبيعة الالهية ابتلعت الطبيعة البشرية أو استحالت البشرية إليها وهذا منقوض بما مرّ. أما أن تكون الطبيعة الالهية استحالت إلى بشرية وهذا محال لأنّ اللاهوت أزلي ولا يتغيّر. وإما أن تكون الطبيعتان امتزجتا وقام عنهما طبيعة ثالثة ولم يبق المسيح إلهاً ولا بشراً بل شيئاً آخر ثالثاً. ثم أن هذا الضلال يخالف آيات عديدة صريحة من الاسفار المقدسة منها كل ما ذكره الانجيليون من ميلاد المخلص ونموه وتعبه وصومه وجوعه وآلامه وموته وتسميته نفسه ابن الانسان إلى غير ذلك، معارضاً بأقوالهم إنه والآب واحد، وإنّ كل ما يعملها الآب يعملها الابن وإنّ كل ما هو للآب هو له، وإنه كان قبل أن يكون ابراهيم، وإنه إن كان ابن داود فكيف يدعوه ربه. فكل هذه الآيات وغيرها مما يشدّ عن العدّ لا يمكن أن تدرك دون أن يكون في المسيح طبيعتان، طبيعة هو بها والآب واحد، وطبيعة هو بها ابن الانسان ينمو ويتعب ويتألم ويموت. ولا يحتمل المقام أكثر من هذا البيان الموجز لأننا نكتب تاريخاً لا مبحثاً لاهوتياً. ومن شاء الاسهاب في رد هذا الضلال فليطالع كتاب ترجمتنا لتاريخ الهرطقات ودحضها للقديس القونس ليكوري.

الفصل السادس

المجامع التي عُقدت في سورية أو شهدها سوريون في القرن الخامس

عد ٦٣٨

المجمع الأفسسي المسكوني

لم يكن هذا المجمع في سورية بل شهده كثيرون من أساقفتها. فقد التزم للبحث عن ضلال نسطور سنة ٤٣١م، وقد ضرب ميعاد افتتاحه اليوم السابع من حزيران الذي كان واقعاً فيه عيد العنصرة، وكان قائماً فيه مقام القديس شالستينس الحبر الأعظم الروماني القديس كيرلس البطريك الاسكندري. وقد أرسل إليه أيضاً الحبر الروماني اركاديوس وبرويكتس الاسقفين، وفيلبس كاهن الكنيسة الرومانية. وكان الملك توادوسيوس الصغير قد دعا إليه القديس اغوستينس، لكن لقي ربه قبل ابلاغه الدعوة، فأرسل خليفته نائباً عنه وعن أساقفته إلى المجمع. وأتى نسطور البطريك القسطنطيني إلى المجمع مصحوباً بالكنت ايريناوس، والكنت كنديديان رئيس حرس الملك، وتحت أمرتهما كتبية من الجند للمحافظة على السلم في المجمع. وقدم إليه القديس كيرلس يصحبه خمسون أسقفاً من مصر، ثم يوفينال بطريك أورشليم ومعه أساقفة فلسطين. وجمع ممنون رئيس أساقفة أفسس نحواً من أربعين أسقفاً من آسيا الصغرى وغير هؤلاء من أساقفة بلاد اليونان وقبرص حتى ربا عدد الاساقفة على الميتين. وأبطاً يوحنا بطريك انطاكية وأساقفته بالقدوم، وكان ينتظر قدوم بعض أساقفة ايطاليا فمضى بعد يوم الأجل المضروب لافتتاح المجمع ستة عشر يوماً، وأخذ بعض الاساقفة يتشكى من هذا التباطؤ لمرضه، وبعضهم لعازته إلى النفقة. وكان يوحنا

بطريرك انطاكية قد أرسل يقول للقديس كيرلس، ابتدئ في أعمال الجمع إذا استبطناني فافتح الجمع في اليوم الثاني والعشرين من حزيران في كنيسة العذراء في أفسس على مخالفة نسطور لافتتاحه بحجة انتظار باقي الاساقفة المجتمعين في المجلس الأول مئة وتسعين أسقفًا، وأرسلوا أربعة أساقفة يستدعون نسطور إلى الجمع فأبى أن يحضر، ثم كرروا الدعوة ثلاث مرات فلم يلقَ المرسلون إلاّ الاهانة من حاشيته. فأخذ الآباء يتلون رسالة القديس كيرلس إلى نسطور وجواب نسطور له، ثم تلوا رسالة القديس شالستينس البابا إلى كيرلس، ثم رسالة أخرى كان القديس كيرلس قد كتبها إلى نسطور ليلغيه أمر البابا بأنه إذا بقي عشرة أيام مصرًا بعد بلوغ حكم الحبر الروماني عُذَّ منحطًا عن كرسيه. ثم قرأ المسجلون بعض فصول ورسائل للآباء المتقدمين تؤيد التعليم الكاثوليكي. وبعد المفاوضة والتحري النهار بطوله أصدروا الحكم التالي: «لما كان نسطور قد أبى تلبية دعوتنا وقبول الاساقفة المرسلين إليه من قبلنا فضلاً عن مخالفات أخرى اضطررنا أن نباشر البحث عن غواياته، فثبت عليه برائله وبما كتبه وفاه به في خطبه في هذه المدينة ومن عهد قريب، وبشهادات شهود عدل أنه ارتأى وعلم ضلالاً مبيناً فقصت علينا القوانين المقدسة ورسالة أيينا الأقدس شالستينس حبر الكنيسة الرومانية أن نبرز عليه هذا الحرم، وأعينا ذارفة الدموع السخية. فسدنا يسوع المسيح الذي جُدِّف عليه قضى بواسطة هذا الجمع أنه منحط عن كل مقام أسقفى، ومقصي عن كل اجتماع يعي». ووقع على هذا الجمع الاساقفة الحاضرون وكان عددهم مئة وثمانية وتسعين أسقفًا. وأكثر الشعب من الاحتفاء والابتهاج بهذا الحكم والثناء على الاساقفة. وبلغ هذا الحكم إلى نسطور في اليوم التالي، وأذيع في شوارع المدينة. وكتب آباء الجمع إلى اكليرس قسطنطينية ينبئونهم بهذا الحكم، ويحرصون حاشية البطريرك على الاحتفاظ بكل ما خصّ الكنيسة إلى قيام بطريرك آخر. وحالت دون تنفيذ الحكم على نسطور عراقل من منفذي الملك إلى الجمع تشيخاً لنسطور.

وفي اليوم السابع والعشرين من حزيران بلغ يوحنا بطريرك انطاكية إلى أفسس مع أربعة عشر أسقفًا، وعلموا بحكم جميع الاساقفة على نسطور، ف عقدوا مجمعاً وأدخلوا معهم الكنت كنديديان منفذ الملك، وانضمَّ إليهم أساقفة آخرون حتى صار عديدهم ثلاثة وأربعين أسقفًا، وقضوا على القديس كيرلس وممنون رئيس أساقفة أفسس بالحط عن كراسيهما. ووقع الاساقفة المذكورون على الحكم وكتبوا أمره

إلى وقت. وخرج يوحنا البطريك إلى مكالمة الاساقفة الموفدين إليه من قبل المجمع، ولما بلغوه ما كلفهم آباء المجمع أن يشتوه له طوى كشحه عنهم ولم يجبههم بكلمة، وأهانهم أصحابه بل ضربوا بعضهم أيضاً فعادوا إلى القديس كيرلس يشكون مما أصابهم من الاهانة والضرب. فأخذ المجمع شهادتهم وحلفهم اليمين على صحة ما روه من سوء المعاملة لهم. وفصل الآباء يوحنا من الاشتراك معهم، وبلغوه حكمهم وأذاعوا صورته معلقة في الشوارع، وقد دروا بما قضى به يوحنا على كيرلس وممنون فلم ينكفأ في اليوم التالي عن مقدمة ذبيحة القديس، وعلم بذلك يوحنا البطريك فسأل الكنت كنديديان أن يكفهما عن ذلك ففعل قائلاً إنه يلزم انتظار أمر الملك. فلم يعبأ كيرلس وممنون بكلامه إذ لا سلطة ليوحنا عليهما. ومكر بتوادوسيوس الملك منفذوه وأوصلوا إليه رسائل يوحنا وأصحابه مشفوعة بمصادقهم عليها، وأعاقوا رسائل كيرلس وأصحابه فلم يحصحصص له الحق، وكتب إلى المجمع مبيتاً سخطه وعدم اعتباره لشيء مما كان إلى وقتئذ، وحظر على كل منهم الخروج من أفسس إلى أن يفحصوا جميعاً ويبتوا الخلاف في الايمان، وأوفد إليهم معتمداً آخر يسمى بلاد، فكتب كل فريق منهم إلى الملك ما يؤيد رأيه ويصوب عمله. وكان محازبو نسطور في قسطنطينية يمسون رسائل الكاثوليكين عن أن تصل إلى الملك إلى أن كتب كيرلس رسالة إلى بعض الرهبان الفضلاء في قسطنطينية ضمّنوها الأخبار عن كل ما هو جارٍ ووضعوها في قصبة حملها فقير متسول، فمضى جمهور من الرهبان إلى الملك وفي مقدمتهم دلماس أحد رؤساء الأديار، فاطلع الملك على حقيقة ما جرى فشكر الله لبراح الخفاء وأظهر رضاه عما عمله المجمع، ورتخص لخمسة أساقفة أن يأتوا إليه من قبل المجمع كما كانوا قد سألوه.

وفي العاشر من شهر تموز بلغ قصاد البابا إلى أفسس وعقد بحضرتهم المجلس الثاني من المجمع في دار الاسقف، وتليت رسائل البابا شالستينس التي كان قد أصحبهم بها بعد ترجمتها من اللاتينية إلى اليونانية، فضج الآباء بالثناء على البابا وصبرحو باذعانهم لكل ما أجراه في مجمعه في روما، وما ضمّنه في رسائله. وطلب القصاد إلى المجمع أن يطلعوهم على ما رسموه في المجلس الأول ليصادقوا عليه. وفي النهار التالي ١١ تموز عُقد المجلس الثالث في دار الاسقفية، واطلع القصاد على أعمال المجلس الأول وعلى الحكم بحط نسطور، فجاهروا بأن كل ذلك كان مطابقاً للقوانين المقدسة، وطلبوا أن تعاد تلك الأعمال على الآباء، فتلاها

بطرس كاهن كنيسة الاسكندرية رئيس كتاب المجمع، فأثبتوا الحكم على نسطور وقالوا إنّ هذا إلّا حكم جميع الكنائس، فإنّ جميع أساقفة المشرق والمغرب شهدوا معاً هذا المجمع بأنفسهم أو بواسطة نوابهم، وأضيف ما جرى في هذا المجلس إلى باقي أعمال المجمع، ووقع عليها القديس كيرلس والقصاد والاساقفة. وكتب آباء المجمع إلى الملك ينبئونه بنهاية مجمعهم وحرّمهم نسطور وعزله عن كرسيه وسألوه أن يرتخص لهم بالانصراف، ووقع على هذه العريضة القديس كيرلس وجميع الاساقفة الذين حرموا نسطور ويربو عديدهم على مئتي أسقف. ولم يذكر الاساقفة في هذه العريضة شيئاً عما صنعه يوحنا بطريرك انطاكية من خطّه القديس كيرلس وممنون أسقف أفسس معتقدين أنّ الأولى ازدراء عمله لمخالفته القوانين، ولأنه لا سلطة له على خطّهما. وليس له أن ينفرد بمجمع عام في مثل هذا الخطّ دون أن يستدعي المحكوم عليهما ويسمع حججهما. على أنّ القديس كيرلس لما درى أنّ يوحنا رفع حكمه الباطل إلى الملك كتب هو وممنون رسالة إلى الملك يشكوان بها من عمل بطريرك انطاكية، واستدعيا الاساقفة إلى الاجتماع في مجلس رابع في ١٦ تموز. ولما ثلّيت رسالتهم استحسن الاساقفة أن يدعى يوحنا البطريرك إلى ذلك المجلس ليجيب عن نفسه، وأرسلوا إليه ثلاثة أساقفة فوجدوا داره يحدق الجنود به، فلم يكتنهم من أن يروه أو يكلموه، فرأى المجمع أن يردهم ثانيةً إليه عملاً بالقانون، فعادوا فوجدوا الجنود مستلّين سيوفهم، وكان هناك بعض كهنة صاحوا بهم أن يبلغوا المجمع أنّ البطريرك لا يريد أن يتعاطى مع رجال محرومين. وطلب كيرلس إلى المجمع أن يحكم ببطلان حكم يوحنا عليه وعلى ممنون، فقالوا إنهم سيقروون ذلك لا محالة بعد أن يستدعوا يوحنا للمرة الثالثة. وأذاع يوحنا في الشوارع اتهمه لكيرلس وممنون ببدع وعزله لهما وحرّمهما.

واجتمع الاساقفة في اليوم التالي ١٧ تموز في المجلس الخامس، وأبان القديس كيرلس أنّ تمتّع يوحنا وأصحابه من الحضور إلى المجمع يتنة قاطعة على أنه ليس لهم حجة في اتهمهم له، وأقام هو الحجة على أنه لم ينجح إلى شيء من الضلال الذي عمله ابولينار أو امونيوس وحرّم صراحة أمام المجمع هؤلاء المبدعين، وساييلوس وفوتينس وبولس السميساطي والمانونين وبيلاجيوس ونسطور وكل المبدعين، وطلب أن يستدعى يوحنا وأصحابه كيلا تبقى لهم حجة عليه، وإذا أبوا أن يحضروا لا تبقى صعوبة في الحكم بكونهم مفترين، فأرسل المجمع إليهم ثلاثة أساقفة ومسجلاً،

فأبى يوحنا أن يكلمهم، فأرسل إليه رئيس شمامسته ورقة تمنع الوفد من قبولها، فاحتدم آباء الجمع غيظاً من تصرف يوحنا هذا، وأرادوا أن يعزلوا يوحنا وأصحابه وأن يحرموهم كما فعلوا هم بكيرلس وممنون، لكنهم آثروا أن يؤجلوا ذلك إلى أن يحكم الحبر الروماني في هذه المسألة واقتصروا على أن يمنعوهم من التصرف بسلطانهم الاسقفي ومن الاشتراك معهم في الروحيات إلى أن يعرفوا خطأهم ويأتوا إلى الجمع ويبرئوا ساحتهم. وذكر الجمع اسماءهم فكانوا خمسة وثلاثين أسقفاً (لأنّ بعضهم ارعوى) منهم توادوريطوس أسقف قورش. وحكم الجمع أيضاً ببطلان دعاويهم وأحكامهم على كيرلس وممنون وكتب الآباء إلى الملك ينبئونه بذلك كله.

ثم عقد الجمع المجلس السادس في ٢٢ تموز وأثبت فيه قانون الجمع النيقوي مع الزيادة عليه «إنّ الكنيسة الرسولية تحرم كل من يقول أنه كان زمان لم يكن فيه ابن الله أو أنه خلّق من العدم أو أبدع من جوهر آخر» ونبذ الجمع قوانين أخرى غرّضت فيه. ثم عُقد الجمع السابع وهو الأخير في اليوم الحادي والثلاثين من شهر تموز على الأصحّ فُحصت فيه دعوى بعض أساقفة قبرص الذين شكوا من أنّ بطريك انطاكية سطا على حقوقهم بترقية بعض أساقفة في جزيرتهم. مع أنّ سلفاءه من بطارقة انطاكية لم يتدخلوا في رسامة الاساقفة في هذه الجزيرة، والعادة مستمرة، إنّ أساقفة هذه الجزيرة يجتمعون فيرقون الاسقف الحديث إلى الكرسي الفارغ من أسقفه. فحكم الجمع بعد البحث أن يبقى أساقفة قبرص على ما كانوا عليه من عادتهم. ولم يستحسن أن يدعو يوحنا بطريك انطاكية ليورد ما له من الحجج خيفة أن لا يلبي الدعوة كما فعل. ثم وضع الجمع ستة قوانين مدارها على من يتبع بدعة نسطور أو انشقاق يوحنا الانطاكي.

وكان الملك توادوسيوس قد أرسل الكنت يوحنا لإزالة الخلاف الذي كان بين الاساقفة فبلغ إلى أفسس في غرة شهر آب فزار كل فريق من الاساقفة منفرداً، ثم طلب أن يجتمعوا لديه، فاجتمعوا وطلب الاساقفة الكاثوليكيون أن يبعد الكنت نسطور عن الاجتماع معهم لأنه محروم. وطلب المنشقون ابعاد كيرلس فأبعد الكنت نسطور وكيرلس لكنه لم يتمكن من التوفيق بين الطرفين. فرفع عريضة إلى الملك بما كان وكتب كل من الفريقين إلى محازبيه في قسطنطينية ما يؤيد دعواه، فأمر الملك أن يخفر على نسطور وكيرلس وممنون وأن يرسل إليه مفوضون من قبل كل فريق. فأرسل الكاثوليكيون فيلبس الكاهن أحد قصاد البابا وسبعة أساقفة،

وأرسل المشاقون ثمانية أساقفة منهم يوحنا بطريرك انطاكية، ويوحنا أسقف دمشق وبولس أسقف حمص، ومكاروريوس أسقف اللاذقية، وتوادوريطوس أسقف قورش، فأمر الملك أن يتلبثوا في خلکیدونية ثم حضر إليها ومثلوا أمامه مرات فلم تكن من وسيلة لتوقيفهم. وكان الختام أنه أمر نسطور أن يتوجه حيث يشاء إلا قسطنطينية، فمضى إلى الدير الذي تربى فيه في ضواحي انطاكية، ورخص لكيرلس أن يعود إلى كرسيه في اسكندرية، ولمنون أن يبقى في كرسيه بأفسس. واستدعى الاساقفة الكاثوليكين أن يأتوا إلى قسطنطينية ويرقوا إلى كرسيها بطريركاً مكان نسطور، وانصرف كل من آباء المجمع إلى محله. ملخص من معجم المجامع للأب بالتيا طبعة الأب مين.

عد ٦٣٩

مجمع أفسس المنعوت باللصبي

قد رأيت في الكلام على اوطيخا أنه بعد أن حرمه مجمع قسطنطينية لجأ إلى ديوسقورس بطريرك اسكندرية، فسأل الملك توادوسيوس أن يعقد مجمعاً فأمر بعقده سنة ٤٤٩م في أفسس، والتمس برصوما رئيس أحد الأديار المار ذكره أن يرخص الملك له بأن يشهد هذا المجمع نائباً عن سائر رؤساء الأديار، فرخص له، وكان هذا أيضاً مغوياً بغواية اوطيخا، وأرسل البابا لاون الكبير قصداً إلى هذا المجمع، ورخص الملك للأساقفة الذين حرّموا اوطيخا في مجمع قسطنطينية أن يشهدوا المجمع، وحظر أن يكونوا قضاة فيه لأنه سيكون الكلام على حكمهم. ورأس ديوسقورس على هذا المجمع فافتتح في اليوم الأول من آب سنة ٤٤٩م وكان الاساقفة الملتثمون فيه مئة وثلاثين أو خمسة وثلاثين أسقفًا، وطلب الاساقفة أن يبحثوا أولاً في عقائد الدين، فأنكر ذلك ديوسقورس وأراد أن يبحث في شكوى اوطيخا، وأدخله إلى المجمع، فقدم كتاب شكواه على القديس افلايانس يقول فيه إنه على علمه أنه لا يخرج من ديره طلبه أن يأتي إلى المجمع ظاناً أنه لا يأتي فيحكم عليه حكماً غيبياً. ولما أتى وصرح بأنه يؤمن بكل ما رسم في المجمعين النيقوي والأفسسي أراد افلايانس أن يزيد على ذلك شيئاً، ولما تمتع من الزيادة عملاً بالقانون، حرّمه وعزله، فطلب افلايانس أن يدخل اوسابيوس أسقف دورिला الذي شكّا اوطيخا، فأجابه

الييد منفذ الملك أنه لم يبقَ محل لدخول اوساييوس بهذه الدعوى لأنه نال ما ابتغى بشكواه اوطيخا، وبقي على من حكم أن يجيب عن حكمه. وأراد قصاد الخبر الروماني أن تتلى رسائله في المجمع فإنه لم يكتبها إلا بعد أن استوضح دعوى اوطيخا. فقال اوطيخا إن لم يعد له ثقة بقصاد الخبر الروماني لحلولهما عند خصمه افلايانس. وقال ديوسقورس الأولى أن تتلى أعمال المجمع القسطنطيني الذي شجب اوطيخا ثم يصار إلى تلاوة رسائل خبر روما التي لم تُتْلَ في المجمع قط. فثليت أعمال المجمع، ولما بلغ القارئ إلى تلاوة شهادة من كتب القديس كيرلس يقول فيها أن في المسيح طبيعتين، نهض اوسطاتيوس أسقف بيروت فقال إن كيرلس قال في محل آخر أن في المسيح طبيعة واحدة لئلا يكون قول كيرلس بيّنة لاوساييوس. ولما قرأ أن اوساييوس أسقف دوريل طلب من اوطيخا أن يعترف أن في المسيح طبيعتين صاح كثيرون من الاساقفة احرقوا اوساييوس احرقوه حياً شقوا شطرين من قال إن في المسيح طبيعتين؟ ولم يكتفِ ديوسقورس بهذا الهتاف بل طلب أن يحرم الاساقفة كل من يقول بطبيعتين، فصاحوا فليكن محروماً. وسألهم أن ييدي كل رأيه منفرداً، فقال يوفينال بطريك أورشليم أن اوطيخا صرّح دائماً بأنه متمسك بقانون المجمعين النيقوي والافسسي، فمعتقده إذاً صحيح ويلزم أم يعود لتدبير ديره. وقال دمنس بطريك انطاكية إنه صادق على رسالة مجمع قسطنطينية المتضمنة حرم نسطور، ولكنه الآن يرى رده إلى مقامه لأنه صرّح باعتقاده ما رسم في المجمعين النيقوي والافسسي، وتابعهم على ذلك أساقفة المجمع إلا قصاد الخبر الروماني. ورفع بعض رهبان اوطيخا عريضة إلى المجمع يشكون فيها افلايانس أنه منعهم من مناولة الاسرار لمجرد محبتهم لاوطيخا، فحلّهم المجمع دون أن يسأل افلايانس عن أمرهم وهو في المجمع.

ثم أمر ديوسقورس أن يُتلى ما رُسم في المجمع الأفسسي الأول في شأن الايمان، فتلى وكان هذا المجمع ينهى تحت عقوبة الخطّ والحرم من يؤلف أو يستعمل دستوراً للايمان غير دستور المجمع النيقوي، فقال ديوسقورس من حيث أن افلايانس واوساييوس أسقف دوريل أحدثا شيئاً خلافاً لنهي مجمع أفسس الأول، وكان عملهما معثرة في جميع الكنائس فنحكم عليهما بالخطّ والحرم. فقال افلايانس إنني مستغيث من حكمك عليّ، فنهض كثير من الاساقفة وانطرحوا على ركب ديوسقورس سائلينه أن لا يقتحم هذا الأمر الذي سيكون مستغرباً في العالم. ولما

رأى ديوسقورس تكاثر عدد الاساقفة الذين يأبون عزل افلايانس صرخ أين الجنود؟
فدخل مرخصو الملك وكتيبة من الجند إلى الكنيسة وقد سلّ بعضهم سيوفهم،
وشرع بعضهم عصيهم، ولم يكن يُسمع إلا الهتاف «حطّوا، اعزلوا، انفوا كل من
يخالف ديوسقورس». ووقف هو على منبره ورفع يده قائلاً: «كل من لم يوقع على
الحكم فليعلم أنه يضادني حذار من الخلاف». فروّية الجنود، وتهديد الرهبان المحدثين
بيرصوما، والخوف من العزل والنفي أرعب الاساقفة، فوقّعوا على عزل افلايانس
واوسايوس على ورقة بيضاء. ولم يبقَ إلا قصّاد البابا فهؤلاء أقاموا الحجّة على هذا
التعدي والجور. وأراد بعض الغلاة اجبارهم على التوقيع واهانتهم ففرّوا من المجمع.
وبعد أن أجرى ديوسقورس هذا الحكم الجائر على افلايانس قد تسبب بموته. فقد
روى كثيرون من المؤرخين أنه تقدّم إليه ولطمه على وجهه ورفسه برجله فاقلبه
وداس في بطنه ثم اقتاده الجند إلى المنفى حيث مات في طريقه بعد ثلاثة أيام.
والمجمع الحلكيدوني يعزو موت افلايانس إلى ديوسقورس. وأما اوسايوس فتكمن
من الفرار ومضى إلى روما. انتهى ملخصاً عن معجم المجمع المذكورة.

قد عُثر في المتحف البريطاني على نسخة سريانية لأعمال مجمع أفسس
اللصّي في عد ١٤٥٣٠ قديمة العهد قد أذاعها السيد باري مع ترجمتها الانكليزية
في لندرة سنة ١٨٦٧م. ثم نشرها العالم هفمان في اللغة الألمانية. وعني الأب
مرتّين الافرنسي أحد كهنة كنيسة القديسة جنيفاف في باريس بترجمتها ونشرها في
اللغة الافرنسية سنة ١٨٧٥م. وأضاف إليها مقالات وشروحاً طامية بالفوائد
التاريخية والعلمية وأهدى إلينا نسخة من كتابه هذا. على أنّ نسخة الأعمال
المذكورة خلت من أعمال المجلس الأول الذي بُرّئ فيه اوطيخا وحكم فيه على
القديس افلايانس. وجلّ ما انطوت عليه أمر الملكين توادوسيوس الثاني ووالنتينيان
الثالث بافتتاح المجمع وجعل ديوسقورس رئيساً فيه. ثم حكم المجمع في مسألة ايھيا
أسقف الرها، وعزل دانيال أسقف شار، وايريناوس أسقف صور، واكليّس أسقف
جبيل، ومحاكمته صفرونيوس أسقف ثلة، وعزل توادوريطوس أسقف قورش
وحكمه على دمنس بطريك انطاكية. وحلّ بعض الاكليريكيين من التآدييات المطلقة
عليهم، وشرح الحكم على دمنس المذكور. وأمر الملك توادوسيوس في اثبات هذا
المجمع ورسالة ديوسقورس العامة إلى الاساقفة، وقد استشهدنا بشيء من هذه
الأعمال في كلامنا على بعض الاساقفة السوريين في هذا القرن.

المجمع الخلكيدوني العام

لما رأى القديس لاون الحبر الروماني أنه لا بدّ من عقد مجمع مسكوني تلافياً للخلل في الايمان الذي أحدثه مجمع أفسس اللصبي، وللمعائر التي وضعها، سأل الملك توادوسيوس الصغير أن يُعنى بالثام مجمع عام لإزالة هذه الشؤون، وأدركت النية في هذه الأثناء الملك المذكور، وخلفته الملكة بلوشاريا، واختارت مرقيان للملك معها، فكتب الملك والمملكة إلى البابا لاون يسأله عقد مجمع وأن يرأسه بنفسه إن أمكن. فأجابهما البابا برسالة في ٧ حزيران سنة ٤٥١م أنه كان سأل الملك توادوسيوس عقد هذا المجمع، وإنّ القلق السياسي الحاصل في المغرب لا يؤذن للأساقفة الغربيين بمزاولة كنائسهم إلى أن اتفقا على عقد هذا المجمع في المشرق. وكان البابا قد أوفد لوشنتيوس أسقف اسكولي وباسيليوس الكاهن إلى أناتوليوس بطريرك قسطنطينية ليعاونه على إعادة الاتحاد والسلام، وأردف معهما بسكاسينس أسقف ليبيا، وبونيفاس كاهن الكنيسة الرومانية ليكون الأربعة قصداً من قبله في المجمع. ودفع إلى بونيفاس مذكرة ترشدهم إلى ما يتصرفون به في المجمع، وأوصاهم أن يتساهلوا مع من يرغب في إصلاح نفسه حقيقة، وأن يبنذوا ويعزلوا من أصرّ على ضلاله، وأن لا يتسامحوا في أن يكون ديوسقورس بين القضاة في المجمع بل يلزم أن يكون بين المشكوكين، وأن يترأسوا هم على المجمع نيابةً عنه. واجتمع الاساقفة في خلكيدونية (قاضي كوي) في شهر أيلول سنة ٤٥١م وكان عددهم نحواً من ستمائة أسقف جميعهم من مملكة المشرق إلّا قصاد البابا وأسقفين من أفريقيا. وكان أول مجلس في ٨ تشرين الأول في كنيسة القديسة اوفيميا الشهيدة. وكان هناك تسعة عشر شخصاً من كبراء دولة الملك مرقيان. وما من قائل أنّ الملك شهد بنفسه هذا المجلس الأول ولكن لا شك في أنه شهد المفاوضات له، لأنه ورد أنّ توادوريطوس أسقف قورش رفع إليه عريضة يبيّن له فيها ما قاساه من الجور والضغط عليه، فأمر أن يدخل المجمع ولا مرأى أيضاً أنّ الملك شهد المجلس السادس. ولما التأم الاساقفة في المجلس تقدّم بسكاسينس القاصد إلى الوسط فقال للقضاة إنّ البابا لاون أسقف روما رئيس الكنائس جمعاء أمره ولسائر القصاد أن لا يلبثوا في المجمع إذا لم يخرج منه ديوسقورس. فسأل القنّاة هل من شكوى خاصة على

ديوسقورس، فأجاب القصاد أنه يلزمه أن يرى ساحتَه من طائِلَة حكمه في أفسس حيث جعل نفسه قاضياً، وجسر أن يعقد مجمّعاً خلافاً لسلطان الكرسي المقدّس. هذا لم يسبقه إليه غيره، ولم يكن مسموحاً به. قال وليس لنا أن نخالف أمر البابا ونتجاوز قوانين الكنيسة. وبعد منازعات أمر القضاة ديوسقورس أن يقوم في الوسط مقام مشكو أو مدّعى عليه. ونهض اوسابيوس أسقف دورِلا وسأل أن تُتلى عريضته التي رفعها إلى الملك مبيّناً فيها جور ديوسقورس وضلاله، وكان الملك أرسلها إلى المجمع فأمر القضاة بتلاوتها، وأجلسوا اوسابيوس في الوسط مجلس المدعي. وكان من فحوى عريضته أنّ ديوسقورس نبذ الايمان الصحيح، وأيّد بدعة اوطيخا، وأنه حكم على اوسابيوس حكماً جائراً في مجمّع أفسس، وطلب أن تُتلى أعمال هذا المجمع بياناً لصحة دعواه فوافقه ديوسقورس على هذا الطلب. ولكن لما أخذ المسجلون يتلون هذه الأعمال طلب ديوسقورس أن يبحث المجمع أولاً في الايمان، فلم يعبأ القضاة بسؤاله. فقرأوا رسالة الملك توادوسيوس المؤدّنة بفتح المجمع اللّصّي حيث كان ينهى عن حضور توادوريطوس فيه، وكان القضاة قد أدخلوه في مجمّع خلّكيدونية بناءً على أمر الملك مرقيان، فصاح الاساقفة المصريون المحازبون لديوسقورس أخرّجوا كيرلس وتوادوريطوس فحضورهما ينافي قوانين الكنيسة، وصاح مخالفوهم الأولى طرد ديوسقورس وهؤلاء القتلة، فانهم أعداء الايمان وخصوم افلايانس. فقال القضاة أن يبقى توادوريطوس في المجمع في مقام شاكّ، فقام في الوسط بجانب اوسابيوس أسقف دورِلا واستؤنفت تلاوة أعمال المجمع اللّصّي، فقال ديوسقورس أنه لم ينفرد بالحكم فيه بل شاركه يوفينال بطريك أورشليم، وتلاسيوس أسقف قيصرية، فإنّ الملك كتب إليهما ما كتبه إليه فلم يلتفت الشرقيون لكلامه، بل شكوه بما أجراه عليهم من العنف والضعط. فقالوا هُذدنا بالنفي وضغط علينا الجنود بعصيّهم وسيوفهم حتى وقّعنا على ورقة يضاء، فأجابهم ديوسقورس ساخراً منهم كيف تسنّى لكم أن توقّعوا على ما لم تستوضحوه؟ وشكوه أيضاً بأنه أبعد أحد قصاد البابا عن المجمع ولم يشأ أن تُتلى رسائل الحبر الروماني، مع أنه وعد ست مرات بأنه سيأمر بتلاوتها. وسأل القضاة ديوسقورس عما يجيب فلم يكن منه إلّا المراوغة ونسبته بعض أعماله إلى البيد مفوّض الملك. وبعد الفراغ من تلاوة أعمال مجمّع أفسس قرأت أعمال مجمّع قسطنطينية، فأجمع الاساقفة على معتقدهم أنّ في المسيح أقنوماً واحداً، ثم ثلّي تقرير قدّمه

اوسطاتيوس أسقف بيروت، فكان من فحواه أنه يلزم الاعتقاد أنّ في المسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين، فصاح الاساقفة هذا ما يقوله اوطيخا وديوسقورس. فقال القضاة هل يتفق هذا مع قول القديس كيرلس في رسالته التي تُليت في المجمع. فقال أسقف بيروت أنّ كيرلس قال في كتاب آخر ما قاله هو أنّ افلايانس قال قوله، فقال له القضاة لِمَ عزلته إذاً عن منصبه؟ وصرح مستقيموا الراي باعتقادهم بأنّ في المسيح طبيعتين، فانتقل يوفينال بطريرك اورشليم من جهة قصاد البابا وحدوا حذوهم أساقفة اخائيا ومكدونية والايير وكثيرون غيرهم. ورأى ديوسقورس نفسه منفرداً فقال لي اسوة بالآباء الذين طردوا يعني اثناسيوس وغريغوريوس وكيرلس، وقد اعتقدوا ما اعتقدت أنّ في المسيح بعد التجسد طبيعة واحدة. وكان المتحصّل من تلاوة أعمال المجمع اللصبي أنه ظهر علانية الاعتساف والجور الذين أجراهما ديوسقورس ليثبت ضلال اوطيخا ويعزل القديس افلايانس. وبانت للقضاة براءة هذا القديس الشهيد، واوسابيوس أسقف دوريل، وقالوا إنّ في عزمهم أن يحكموا على ديوسقورس بالعزل عن منصبه ويتبعوا به شركاءه في مجمع أفسس أي يوفينال بطريرك اورشليم وتلاسيوس أسقف قيصرية، واوسابيوس أسقف انكورة، واوسطاتيوس أسقف بيروت، وباسيليوس أسقف سلوقية. فصاح الشرقيون إنّ هذا الحكم عادل، إنّ يسوع المسيح يأمر بحطّ ديوسقورس وعزل القاتل، ولم يقولوا شيئاً في الآخرين. وأرجأوا البحث في الايمان إلى المجلس الآتي، وسألوا الاساقفة أن يدوّن كلّ منهم ما يراه في شأن المعتقد.

وعُقد المجلس الثاني في ١٠ تشرين الأول وطلب فيه القضاة إلى الاساقفة أن يقرروا حقيقة الايمان فأجابوا أنّ في دستور الايمان الذي وُضع في مجمع نيقية غنى عن دستور حديث، وإن لزم زيادة شيء عليه رداً لبدعة اوطيخا ففي رسالة الحبر الروماني إلى افلايانس بيان كافٍ لذلك، ووقعوا جميعاً على هذه الرسالة وهتف الاساقفة هذا هو معتقد الآباء، هذا هو تعليم الرسل، فليكن محروماً من لم يعتقد كذلك. إنّ بطرس تكلم بفم لاون وأرفض الاساقفة. ثم عُقد المجلس الثالث في ١٣ تشرين الأول واستدعي ديوسقورس ثلاثاً لتكملة محاكمته فأبى تلبية الدعوة متمحلاً أعتذاراً واهنة. وقد تقدّم حينئذٍ إلى المجمع بعض اكليرسه في اسكندرية يشكونه بجرائم فظيعة. ولما يؤس الآباء من جلبه إلى المجمع حكموا عليه بالعزل عن مقامه الاسقفي، وبالحطّ عن كل خدمة كهنوتية لظهور ما أجراه من الجور والاعتساف في

مجمع أفسس ولقبوله اوطيخا في شركته. وقد حرّمه أسقفه لإصراره على الضلال الذي أيّده في ذلك المجمع، ولمنعه من تلاوة رسائل الحبر الروماني. ووقع القصاد والاساقفة على هذا الحكم وبلغوه إلى ديوسقورس، وأذاعوه في قسطنطينية وخلكيديونية، ونفاه الملك إلى كنكر في بفلغونيا حيث عاجلته المنية سنة ٤٥٤م.

وقد التأم الاساقفة في المجلس الرابع في ١٧ تشرين الأول، وفيه سأل القضاة القصاد مايرون من أمر دستور الايمان فقال بسكاسينس أنّ المجمع يعتمد على الدستور الذي وُضع في مجمعي نيقية وقسطنطينية، وعلى ما شرّحه القديس كيرلس في المجمع الأفسسي، وما كتبه القديس لاون دحضاً لبدعتي نسطور واطيخا. فقال الاساقفة كذلك نرى جميعاً. وقُدّم مئة وخمسون أسقفاً ورقة متابعتهم على ذلك، وصرّح الباقون بمثل ذلك مشافهةً، واعتنم بعض الاساقفة فرصة حصول هذا الاجتماع فسألوا القضاة في رد يوفينال ورفقائه المعزولين إلى مناصبهم، فتوقّف القضاة عن مجاراتهم في ذلك إلى أن يروا ما يحسن لدى الملك. فقال أولئك الاساقفة أنّ الملك قوّض إلينا الحكم في كل شيء، فرخص ليوفينال ورفقائه بالدخول إلى المجمع فدخلوا وجلسوا في مصاف الاساقفة، وفي هذا المجلس فصل الاساقفة الخلاف الذي كان بين فوتيوس أسقف صور واطسطاتيوس أسقف بيروت، ذلك أنّ فوتيوس كان يدّعي أنه وحده ميريوليت فينيقية الأولى، ويشكو من أنّ اوسطاتيوس أسقف بيروت نال من الملك توادوسيوس الصغير بواسطة ديوسقورس أمراً بأن تكون بيروت مدينة ميريوليتية، وبقوّته اتخذ الولاية على جبيل والبترون واطرابلس وارتوسيا وعرقا وطرطوس، وأخذ يرقّي أساقفة فيها مع أنّ أمر الملك لا ذكر فيه لهذه التجزئة بل صنعها مجمع قسطنطينية سنة ٤٤٩م. وأراد اوسطاتيوس أن يؤجل بتّ هذا الخلاف فقال إنه يلزم التوقيع على دستور الايمان قبل كل ما سواه. وثليت صورة دعوى فوتيوس فسأله اوسطاتيوس كيف تريد حسم الخلاف؟ أبحسب قانون الكنيسة أم بحسب الأوامر الملكية؟ فأجابه بحسب قانون الكنيسة. وقال القضاة إنّ الملك أمر أنّ مشاغل الاساقفة تُقضى بحسب دستور الكنيسة دون التفات إلى غيره. وعليه حكموا بناء على القانون الرابع من مجمع فينيقية، إنّ فوتيوس أسقف صور مسلّط أن يرقّي في جميع مدن فينيقية الأولى، وأنّ اوسطاتيوس لا يكسبه أمر الملك حقاً على غيره من أساقفتها. وإنّ الاساقفة الذين رقاهم فوتيوس وعزلهم اوسطاتيوس يردون إلى مناصبهم، ولم يقل المجمع شيئاً في شأن من رقاهم اوسطاتيوس.

وعُقد المجلس الخامس في ٢٢ تشرين الأول، ودار الكلام فيه على وضع دستور للآيمان وكان خلاف على وضع بعض عبارات فيه. وأجمع الآباء على تفويض اثنين وعشرين أسقفًا لإنشاء هذا الدستور، فاجتمعوا مع القضاة في معبد فوضعوا الدستور الآتي ذكره ملخصاً «فذكروا أولاً الدستور الذي وُضع في مجمعي نيقية وقسطنطينية، ثم قالوا إنّ هذا الدستور كافٍ لمعرفة حقيقة الآيمان على أنّ أعداء الحق أدخلوا عليه بعض عبارات بعضهم لانكارهم سر التجسد وتسمية مريم العذراء أم الله، وبعضهم لاثبات زعمهم أنه لم يكن في المخلص للجسد واللاهوت إلا طبيعة واحدة، وإنّ الطبيعة الإلهية في ابن الله خاضعة للآلام والموت، ولهذا أراد آباء هذا المجمع المسكوني اصلاحاً لهذا الخلل أن يعلنوا أولاً أنّ الدستور الذي وُضع في مجمع نيقية يستمر مرعياً سالماً، ومثله ما رسمه المجمع القسطنطيني في شأن الاعتقاد بلاهوت الروح القدس وأما في عقيدة سر التجسد فهذا المجمع يعتمد على رسالتي القديس كيرلس إلى نسطور وإلى الشرقيين، فإنهما داحضتان ضلال نسطور ومفسرتان لمعنى الدستور الحقيقي. وكذلك يعتمد على رسالة الحبر الروماني القديس لاون إلى افلايانس في تفنيد ضلال اوطيخا، وعليه فنحكم باجماع الآراء أنّ سيدنا يسوع المسيح هو واحد كامل في اللاهوت وكامل في الناسوت، إله حقاً وإنسان حقاً ذو نفس ناطقة وجسد مساوٍ لأبيه جوهراً بحسب اللاهوت، ومساوٍ لنا جوهراً بحسب الناسوت ما عدا الخطيئة. مولود من الآب قبل كل الدهور من حيث اللاهوت، ومولود في الزمان من العذراء أم الله من حيث الناسوت، وهو مسيح واحد وابنٌ وحيد لله ذو طبيعتين دون اختلاط ولا تغيير ولا تقسّم ولا انفصال. ودون أن يزيل الاتحاد الفرق بين الطبيعتين، بل حفظت كل طبيعة خواصها الجوهرية مجتمعتين في أفنوم واحد» ونهى المجمع عن أن يعلم أحد أيّاً كان ما يخالف هذا الدستور، ومن خالف إن كان أسقفاً أو اكليريكياً فيُعزل عن منصبه، وإن راهباً أو عالماً فيكون محروماً. وتُلي هذا الدستور في المجمع فأثبته الاساقفة جميعاً.

وفي ٢٥ من تشرين الأول بينما الاساقفة مجتمعون في المجلس السادس أقبل الملك مرقيان يحفّ به القضاة وحاشيته، فخطب في الاساقفة باللاتينية لغة المملكة، ثم اليونانية مبيّناً أنه لم يكن له نيّة بدعوتهم إلى المجمع إلاّ للحفاظ على الآيمان، وإنه لم يرد أن يشهد المجمع اقتداء بالملك قسطنطين إلاّ تأييداً للآيمان لا لمباشرة شيء من سلطته. ثم تُلي بحضرته دستور الآيمان الذي أنشئ في المجلس السابق

ووقع عليه ثلاث مئة وخمسون أسقفاً في مقدمتهم قصاد البابا. وقال الملك كل من جاهر من اليوم فصاعداً بخلاف يمس عقائد الايمان يُنفى من قسطنطينية، وإن كان ذا منصب روحي أو عالمي يُعزل عن منصبه. فشكر له الجمع هذا الأمر واقترح عليهم بعض قوانين مدارها حفظ نظام الكليريكين البيعي والمدني ومجانبة المعائر في تصرفهم، فوضعها الاساقفة وأثبتوها باتفاق الكلمة. وفي ٢٦ من الشهر المذكور عقد الجمع المجالس السابع والثامن والتاسع. ففي المجلس السابع أثبتوا الاتفاق الذي حصل بين مكسيمس بطريك انطاكية ويوفينال بطريك اورشليم. على أن فينيقية الأولى والعربية تستمران تحت ولاية بطريك انطاكية. وأعمال فلسطين الثلاث أي اليهودية والسامرة والجليل تستمر تحت ولاية بطريك اورشليم. وفي المجلس الثامن ردّ توادوريطوس إلى أسقفيته بعد أن حرم نسطور ونبد ضلاله ووقع على دستور هذا الجمع، وكان قد وقع على رسالة البابا لاون إلى افلايانس. وفي التاسع سأل ايهيا أسقف الرها أن يلغي الجمع الحكم الغيايبي الذي أصدره عليه مجمع أفسس اللصبي، وأن يُردّ إلى كرسية، فتلى الحكم الذي أصدره فوتيوس أسقف صور واسطاتيوس أسقف بيروت في ٢٥ شباط سنة ٤٤٨م في صور. وظهر منه أن ايهيا صرح بايمانه الصحيح وغفر لمن شكوه. وفي المجلس العاشر الذي عُقد في ٢٧ تشرين الأول ثلثت أعمال الجمع الذي عُقد في بيروت في ١ ايلول سنة ٤٤٨م، فظهر منها أن ايهيا سقطت عنه الدعوى وحكم بعوده إلى كرسية، وطلب القضاة أن يُتلى ما كُتب في مجمع أفسس عليه، فعارض قصاد البابا هذه التلاوة لأنّ الخبر الروماني ألغى وأبطل كل ما كُتب في هذا الجمع إلا ترقية مكسيمس أسقفاً على انطاكية لأنّ البابا قبله في شركته، وارتأوا أن في ما قرأوه من البيّنات ما هو كافٍ لردّ ايهيا إلى مقامه، فطلب القضاة أن يحرم ايهيا نسطور واوطيخا، فحرمهما للحال، وأجمع الآباء على رده إلى كرسية. وعُقد المجلس الحادي عشر في ٢٩ تشرين الأول والثاني عشر والثالث عشر في ٣٠ منه. ونظر الاساقفة في هذه المجالس باختلافات كانت بين باسيان واسطفانس أسقفّي أفسس، وبين اونوميوس أسقف نيكومديا وانسطاس أسقف نيقية، فنضرب عن ذكرها خشية من ملل المطالع السوري. وأما المجلس الرابع عشر الذي عُقد في ٣١ من تشرين الأول، ففُحص فيه عن دعوى سابتيان أسقف البارة (في شمالي سورية) ذلك أن سابتيان كان أساقفة اقليمه رقه إلى أسقفية البارة عوضاً عن اثناسيوس الذي عُزل عن الكرسي لجرائم

فظيعة، ثم ردّه مجمع أفسس اللّصبي إليه. وطُرد سابنيان فدافع اثناسيوس عن نفسه بأنّ دعواه حكم بها القديس كيرلس والقديس بروكلس بطريرك قسطنطينية. ولكن بعد موت كيرلس استدعاه دمنس بطريرك انطاكية ليحضر إلى مجمع في انطاكية لفحص دعواه فلم يحضر لأنّ دمنس كان عدواً له. وثليت أعمال مجمع انطاكية في هذه الدعوى وسأل القضاة هل لم يكن أحد من الاساقفة الحاضرين في خلكيدونية وقتل شاهدأ مجمع انطاكية؟ فقال توادورس أسقف دمشق وستة أساقفة آخرون أنهم شهدوا مجمع انطاكية وأنّ اثناسيوس دُعي ثلاثاً فلم يلبّ الدعوة، فحكم القضاة بأنّ الحكم على اثناسيوس بالعزل كان عادلاً، وأن يبقى سابنيان على كرسيه. وألغوا حكم مجمع أفسس عليه بالعزل وأبطلوا حكمه لاثناسيوس بالعود إلى كرسي البارة. وعهدوا إلى مكسيمس بطريرك انطاكية أن يدقق في هذه الدعوى في مدة ثمانية أشهر، فإذا تحقق أنّ اثناسيوس ارتكب ولو جريمة واحدة مما شكى به لا يُحطّ فقط عن الاسقفية بل يُجزى بحسب الشريعة. وإذا مضت ثمانية أشهر ولم تلاحق الدعوى أو لم يثبت جرم عليه فيعود إلى كرسيه ويكون سابنيان معاوناً له بجعل لا يتجاوز تحمّل كنيسة البارة وأثبت المجمع هذا الحكم.

وعند نهاية هذا المجلس طلب بعضهم أن ينظر في دعوى تتعلق بالكرسي القسطنطيني، فقال القضاة إنّ البابا لم يأمرهم بشيء من ذلك. وقال القضاة إنّ المجمع لا ينظر في شيء خلواً من القضاة. وخرج القضاة والقضاة من المجمع فوضع من بقي فيه من الاساقفة قانوناً مفاده أنّ أسقف قسطنطينية التي أصبحت روما حديثة يكون له التقدّم في الجلوس على جميع الاساقفة إلّا أسقف روما، وأن تبسط ولايته على ميريوليتية بنطس وآسيا الصغرى وتراسة. فلم تسلّم الكنيسة الرومانية بهذا القانون إلّا في بداية القرن الثالث عشر في المجمع اللاتراني الرابع في أيام البابا اينوشنسيوس الثالث. ووضع المجمع الخلكيدونى في مجالسه المذكورة سبعة وعشرين قانوناً وزيد عليها القانون الثامن والعشرون وهو الذي نؤنها به ها. انتهى ملخصاً عن معجم المجامع المذكورة.

المجامع الخاصة التي عُقدت في سورية في هذا القرن

عُقد في أورشليم في هذا القرن مجمعان الأول سنة ٤١٥م ويظهر أنه لم يكن فيه من الاساقفة إلا يوحنا أسقف أورشليم. وكان من جملة الكهنة الذين شهدوه اوروز المار ذكره رسلاً من القديس اغوستينس إلى القديس ايرونيوس للمذاكرة في بدعة بيلاجيوس الذي كان أتى فلسطين بيتّ ضلاله كما مرّ. فاستدعى بيلاجيوس ودخل المجمع فشكاه اوروز بأنه علّم أنّ الانسان يستطيع أن يكون دون خطيئة، ويستر له حفظ وصايا الله إن أراد. فلم ينكر بيلاجيوس أنه علّم ويعلم كذلك. فقال اوروز إن هذا إلا الضلال الذي حرّمه مجمع افريقية، ونبذه اغوستينس مشمئزاً، ودحضه ايرونيوس في رسالة إلى قطسفون، فطلب يوحنا البطريك أنّ اوروز ومن ماله يدعو دعوى رسمية على بيلاجيوس ويفحّمونه أمامه بضلاله. فقالوا يكفيننا أن نبيّن أنّ هذا الضلال مخالف للآيمان القويم ولتعليم آباء الكنيسة المتعلمين لا المعلمين. وكان يوحنا يعجنح إلى تبرئة بيلاجيوس لولا معارضة اوروز، واتفقا أخيراً على أن يرفعا الدعوى إلى البابا اينوشنسيوس وينتظرا حكمه، وأمر البطريك بيلاجيوس بالصمت عن بثّ تعليمه، وأمر خصومه أن لا يعتدوه مبدعاً قبل حكم الحبر الروماني وانتهى المجمع.

أما المجمع الثاني ففقد سنة ٤٥٣م ورأسه يوفينال بطريك أورشليم وشهده أساقفة فلسطين. وكان الداعي لعقده أنّ راهباً اسمه توادوسيوس حرّش بين رهبان فلسطين وحملهم على التشييع لاوطيخا، وعلى انتخابه بطريكاً على أورشليم قبل عودة يوفينال من المجمع الخلكيدوني. نحطّ هذا المجمع توادوسيوس عن المقام الذي غصبه، وكتب رسالة إلى الكهنة ورؤساء الأديار ورهبان فلسطين يفتدّ بها تهم توادوسيوس للمجمع الخلكيدوني، ويبيّنون عدالة هذا المجمع بحكمه على اوطيخا.

وعُقد في ديوسبولي وهي اللد مجمع في ٢٠ كانون الأول سنة ٤١٥م بدعوى بيلاجيوس أيضاً شهده أربعة عشر أسقفاً من فلسطين، وفي مقدمتهم الوجيوس أسقف قيصرية. واتفق أن كان هناك وقتئذٍ أسقفان من افرنسة وهما اروس أسقف ارل ولازار أسقف اكس، فرفعا إليه مذكرة في الاضاليل التي بثّها بيلاجيوس وتلميذه شلستوس في كتبهما، على أنّ أحد الاسقفين الافرنسيين دهمه

مرض عضال، فلم يتمكن أن يشهدا المجمع فمكر بيلاجيوس بياقي الاساقفة وراخ ومؤه حتى ظنوه لا يخالف الايمان الصحيح بشيء، ولا سيما أن تلك المذكرة كانت باللغة اللاتينية وهم لا يفهمونها، وبيلاجيوس يحسن الكلام باليونانية، وأقرّ بفهمه ما كان يجحده بقلبه، فانخدع أولئك الاساقفة بأنه كاثوليكي مستقيم الايمان وقبلوه في شركتهم، ولكنهم حرّموا الاضاليل التي كان يتبرأ منها. ولهذا قال القديس اغوستينس (في كتابه في أعمال بيلاجيوس): «إنّ أساقفة هذا المجمع برأوا رجلاً كان ينكر البدعة ولكنهم حرّموا البدعة التي كان يثبها».

وعُقد في انطاكية في هذا القرن تسعة مجامع الأول سنة ٤١٨م والظاهر سنة ٤٢٤م عقده توادوتس أسقف انطاكية لتفنيد ضلال بيلاجيوس. ولا يعلم علماً أكيداً أفني سنة ٤١٨م كان عقده كما روى منسي أم في سنة ٤٢٤م كما في مجموعة المجمع للباي . وأيد هذا القول الأخير باجيوس وغيره ممن قالوا أنّ توادوتس لم يرقّ إلى كرسي انطاكية إلا في سنة ٤٢٠ أو سنة ٤٢١م بعد وفاة اسكندر سالفه التي كانت سنة ٤٢٠م كما في المشرق المسيحي للكويان (مجلد ٢ صفحة ٦٧٩)

والثاني عقده سنة ٤٣١ أو سنة ٤٣٢م يوحنا بطريرك هذه المدينة وتوادوريطوس وغيرهما من أساقفة بطريركية انطاكية، وحكموا فيه مرة أخرى بعزل القديس كيرلس الاسكندري، ومنعوا رابولا أسقف الرها من شركتهم وحظّروا على أساقفة اقليمه الاشتراك معه إلى أن يحكم بالدعوى عليه حكماً قانونياً. فإنّ رابولا كان محازباً يوحنا المذكور ثم خالفه، وتابع كيرلس الاسكندري على تعليمه، وكتب الاساقفة إلى الملك أنّ الاكليرس والشعب الانطاكي مستمسكون برسوم المجمع النيقوي، ويشمّزون من حروم كيرلس ويسألونه أن يؤيد تعليمهم الصحيح. والثالث عُقد سنة ٤٣٥ أو سنة ٤٣٦م ورأسه يوحنا الانطاكي. وكان الغرض منه الانتصار لتوادورس أسقف المصيصة إذ أرسل بروكلس بطريرك قسطنطينية إلى يوحنا بطريرك انطاكية كتاباً يندد فيه بتوادورس المذكور. وكتب الاساقفة المجتمعون ثلاث رسائل احداها إلى الملك توادوسيوس والثانية إلى القديس كيرلس الاسكندري والثالثة إلى بروكلس بطريرك قسطنطينية يدافعون بها عن توادورس المذكور. والمجمع الرابع عُقد سنة ٤٤٠م لداعي أنّ بعض الرهبان من ارمينيا رفعوا ملخصاً من كتب توادورس إلى بطريرك قسطنطينية، ونشأ عن ذلك قلق في الشعب، فكتب بطريرك

قسطنطينية إلى يوحنا الانطاكي فعقد هذا المجمع. قال منسي إلى هذا المجمع الأخير تعزى الرسائل الثلاث المنوّه بها، وقد أسند منسي قوله إلى كتاب ليبارتس شماس قرطاجنة الموسوم بموجز تاريخ النساطرة والاطاخييين. والخامس التأم سنة ٤٤٥م فإنّ دمنس بطريك انطاكية دعا كثيرين من أساقفته للنظر في الدعوى على اثناسيوس أسقف البارة في شمالي سورية بجرائم عديدة، ودّعي هو فلم يأت ليبرئ نفسه فحكم المجمع عليه بالعزل عن كرسيه، وأقيم مكانه ساينيان. على أنّ ديوسقورس أعاد اثناسيوس إلى منصبه في مجمع أفسس اللّصّي سنة ٤٤٩م فرفع ساينيان دعواه إلى المجمع الخلكيديوني سنة ٤٥١م ففضى بها في المجلس ١٤ كما رأيت في العدد السابق.

والسادس عُقد في انطاكية سنة ٤٤٨م بعد الفصح، فإنّ بعض كهنة الرها شكوا أسقفهم ايهيبا المار ذكره مرات أنه يؤيد ضلال نسطور، وأوردوا عليه شكاوى أخرى عديدة، فجمع دمنس بطريك انطاكية بعض أساقفته وأخذ في سماع الدعوى، على أنّ الكهنة الشاكين توهّموا أنّ دمنس تحمله محبته لايهيبا أن لا يقضى لهم عليه. فمضى بعضهم إلى قسطنطينية ورفعوا الدعوى إلى الملك توادوسيوس وافلايانس البطريك بسماع الدعوى إلى فوتيوس أسقف صور واسطاتيوس أسقف بيروت كما سترى في الكلام على مجمع صور وبيروت. والمجمع السابع الانطاكي عُقد سنة ٤٧٢م اجتمع فيه بعض الاساقفة الكاثوليكيون وعزلوا بطرس القصار الذي كان قد غصب الكرسي الانطاكي سنة ٤٧١م، وكان قد عقد مجمعاً وزاد فيه على التريصاجيون (أي قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت) «يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا» تمكيناً لضلال اوطيخا أنه ليس في المسيح إلّا طبيعة واحدة. وهذه الزيادة مشعرة واضحاً بأنّ الثالوث الأقدس صُلب نعوذ بالله من هذا الكفر. والمجمع الثامن عُقد سنة ٤٧٨م أمر بعقده زينون الملك فأثبت الاساقفة المجتمعون ما رسمه المجمع الخلكيديوني، وحرّموا بطرس القصار ونفاه الملك، وأقاموا مكانه رجلاً فاضلاً اسمه اسطفانوس على أنه لم يعيش إلّا قليلاً، ومضى إلى لقاء ربه. فانتخبوا للكرسي الانطاكي بطريكاً آخر سمي اسطفانوس أيضاً. والتاسع عُقد سنة ٤٨٢م فإنّ الأوطاخييين قتلوا البطريك اسطفانوس المذكور تلك السنة، فكلف الملك زينون اكاشيوس بطريك قسطنطينية أن يختار خلفاً له، فاختار كالنديون ورقاه إلى الاسقفية. ولكن اجتمع الاساقفة في انطاكية فرقوا إلى

كرسيها يوحنا كندوناتس. وأتى كالنديون إلى انطاكية وأثبت صحّة ترقّيته أمام مجمع من الاساقفة واتفق معهم أن يكتب إلى البابا سمبلشس فصّح الخبر الروماني ترقّيته. وأقام كالنديون كندوناتس مزاحمه ميريوليتاً على صور ترضيّة له. وعُقد مجمع في صور وبيروت سنة ٤٤٨ فقد مرّ بك أنّ بعض كهنة الرها شكوا أسقفهم ايهيبا أنه مغوي بغواية نسطور. وبعد أن أقيمت الدعوى عند دمنس بطريرك انطاكية، لجأ بعض الشاكين إلى الملك توادوسيوس وافلايانس بطريرك قسطنطينية، فعهدا بسماع الدعوى إلى فوتيوس أسقف صور واسطاتيوس أسقف بيروت، وكان معهما اورانيوس أحد أساقفة ايهيبا وكان الشاكون يروون عن ايهيبا من الضلال ما خشي فوتيوس أن يكون معثرة لشعبه في صور، فنقل المجمع إلى بيروت وبرأ ايهيبا ساحته من الضلال، وسعى بالصلح بينه وبين خصومه، ورأوا أنّ الفريقين يجنحان إليه فعادوا إلى صور وهناك وقّعوا على الحكم ببراءته، وصلّح الصلح بينه وبين خصومه. طالع ما مرّ بك في عدد ٦٢٠ وعد ٦٣٣ وعد ٦٤٠.

ملحق في تاريخ الموارنة

قد عزمنا أن نلحق بتاريخ هذا القرن الخامس وما يليه تاريخ طائفتنا المارونية، فنفرد في آخر تاريخ كل قرن ملحقاً نتكلم فيه في تاريخها الديني والدنيوي بقدر ما تمكننا الحال من التوصل إلى معرفته، على بعدنا من كنوز المعارف التي أحرزتها المكاتب والمتاحف الأوروبية. حتى إذا أتاح الله لنا انجاز هذا التاريخ تيسّر أن يؤخذ عنه تاريخ وافٍ لهذه الطائفة يُعلم منه ما كانت عليه من حين نشأتها منفصلة عن غيرها من الطوائف إلى اليوم، وما تقلّب عليها من الأحوال، وما كان بطايركتها وأساقفتها وعلمائها وحكامها إلى غير ذلك من أخبارها. وما الموارنة إلا جماعة من السريان السوريين دانوا بالدين المسيحي مذ كان في مهده، واستمروا متشبثين بعري الدين الكاثوليكي لدى ثوران عواصف البدع في سورية بارشاد القديس مارون ورهبانه الأفاضل. ولذلك نفتتح تاريخهم بذكر القديس مارون الذي يُعتبر أباً لهذه الطائفة وقد اتخذته شفيحاً.

القديس مارون الناسك

نروي خبر القديس مارون عن توادوريطوس أسقف قورش الذي كان معاصراً ومجاوراً له ولا يبعد أن يكون عشيراً له. فإنّ توادوريطوس قال في مقدمة كتابه في النساك حيث تكلم في القديس مارون: «وكان يلدّ لي أن أطوف في براري قورش وأنعم عيناً بهذه الأزهار العجيبة التي يزري عرفها بأفخر الطيوب». ومن المؤكد أنّ توادوريطوس رقي إلى كرسي أسقفية قورش سنة ٤٢٣م والقديس مارون كان كاهناً في أوائل القرن الخامس كما يظهر من رسالة فم الذهب إليه من منفاه وسنأتي على ترجمتها. وفم الذهب توفي سنة ٤٠٧م وإذا كان القديس مارون لقي ربه نحو سنة ٤٣٣م على قول بعضهم فيكون عاشر توادوريطوس أسقفاً، وإن كانت وفاته سنة ٤١٠م على قول آخرين فيكون عاشره كاهناً. فشهادة توادوريطوس للقديس مارون إذاً لا مرد لها ولا معترض عليها، لأنهما كانا في عصر واحد وبلد واحد وتوادوريطوس ثقة. وإليك ترجمة ما قاله في كتابه في النساك فصل ١٦ .

«سبيلي أن أذكر بعد هذا (أي شيسيماس) مارون، فإنّ هذا أيضاً جمل عقد القديسين الإلهي، فإنه عزم على أن يصرف حياته في البرية لا يأوي منزلاً، فتسلّق إلى قمة جبل (في قورش)، وكان هناك هيكل للوثنيين يعبدون فيه الأبالس فكّرسه لله، وكان يتردد إليه. ونصب لنفسه مظلة حقيرة قلّ ما أوى إليها. وكان يجهد نفسه في الاعمال اليدوية التي اعتادها النساك، بل استنبط زيادة عليها حاشداً ثروة الحكمة واثقاً بأنّ المجاهد يزداد نعمة ما ازداد عملاً. فمنّ عليه الله الجوّاد بموهبة شفاء الأمراض سابعة، حتى ذاعت شهرته في كل قطر، واستأنت إليه الزائرين من كل فج. فكان يحقق خبرهم الخبير، وكنت ترى الحمى تزول بظّل بركته والأبالس ينهزمون من المسوسين والمبتلين بأي نوع كان من المرض بعلاج واحد. فللأطباء في كل داء دواء وأما القديسون فلهم دواء واحد في كل الأدواء، وهو الصلاة. ولم يكن يشفي الأمراض الجسدية فقط بل كان يبرئ أيضاً النفوس المعلقة فيشفي هذا من داء البخل، وذاك من مرض الغضب، معلماً هذا القناعة وشارحاً لذاك وصايا العدل والبرّ حائثاً البعض على العفاف والطهارة ومحرضاً غيرهم على الدعة والتواضع. وقد انكبّ على الحراثة الروحية فغرست يده اغراساً كثيرة مونة فيها

ثمار الحكمة، وهذه اللجنة المخضلة المزهرة الآن في قورش إنما هي الله من صنع يديه. ومن ثمار هذه الحراثة يعقوب الكبير (يريد يعقوب تلميذ مارون الآتي ذكره) الذي حق له أن يخص به القول النبوي. «الصدى كالنخل يزهر ومثل أرز لبنان ينمي» وغيره ممن سنأتي على ذكر كل منهم أن شاء الله. وبينما كان منصباً على هذه الحراثة في كرم الرب شافياً النفوس والاجساد، دهمه مرض خفيف فقضى به منتقلاً إلى ربه. فكان نزاع شديد بين مجاوريه على جثته، ولما كان أهل البلد الأقرب إليه أكثر عدداً وقد أتوا جميعهم هزموا الباقين واختطفوا هذا الكنز النفيس وبنوا له هيكلًا عظيمًا وينتفعون إلى اليوم بمعونته، ويكرمون هذا البطل الظافر بحفلات عامة، وأما نحن فننعم ببركاته وإن كنا بعيدين عنه، ويغنيا ذكره عن قرب ضريحه إلينا» انتهى مترجماً عن كتاب توادوريطوس في النساك الموسوم بالتاريخ الديني عن طبعة الأب مين (مجلد ٨٢ من مكتبة الآباء الشرقيين).

وكان القديس مارون صديقاً صدقاً للقديس يوحنا فم الذهب، يجمعهما ولاء مستديم وحب قديس، تدل على ذلك رسالة كتبها إليه فم الذهب في منفاه وهي السادسة والثلاثون من رسائله التي نشرها الأب مين (في المجلد ٥٢ من مكتبة الآباء الشرقيين) وإليك ترجمتها بما أمكن من الدقة.

«إلى مارون الكاهن الراهب

أما بعد، فإنّ علاقات المودة والمعروف التي تضمنا إليك تجعل أبصارنا شاخصة إليك كأنك قائم هنا، فإنّ آواصر المحبة من طبعها أن لا يحجبها بعد المسافات ولا يوهنها طول الزمان. وكان في ودنا أن تكون مكاتباتنا إليك متتالية، ولكن يحول دون ذلك مشقة الاسفار وندور المسافرين. والآن نهدي إليك طيب السلام ونسألك أن تتيقن أننا نذكرك كلّ حين وأنّ لك في فؤادنا منزلة أينما حللنا. فاهتمّ أنت إذاً بأن تواتر إلينا أنباء عافيتك، فإنّ أخبار صحتك على بعدنا بالجسد تولينا عظيم السرور وتخولنا تعزية كبرى في غربتنا ووحدتنا، ويلد لنا كثيراً أن نعلم أنك متعافٍ وجلّ ما نسألك إياه أن تصلي وتبتهل لله من أجلنا».

وهذه الرسالة لم تكن مؤرخة، ولكن لا بد من أنها كتبت في إحدى السنين من سنة ٤٠٤ إلى سنة ٤٠٧م التي كان فيها فم الذهب في المنفى. وقد أنبأنا

العلامة البطريك اسطفانس الدويهي الأهدني (في كلامه في تاريخ الموارنة على القديس مارون) أنّ هذا القديس لم يقتصر على الإماتات والتقشّف والعكوف على الصلوات وهو منتصب على قدميه، بل باشر أعمال الرسالة. فإنه كان يجول أحياناً متعهداً النساك والمجاهدين حاضاً لهم على تحمّل مشاق سيرتهم وعلى التقدّم في الكمال والحكمة الروحانية، ويطوف في القرى والمدن مستملاً الكفرة والأئمة إلى سواء السبيل، حاثاً المؤمنين على مجانبة الرذائل والجدّ في السير في طريق الفضيلة، داعياً الموسرين إلى مباشرة أعمال الرحمة معزياً البائسين إلى غير ذلك من أعمال الرسالة.

أما سنة وفاة القديس مارون فلم يذكرها توادوريطوس ولم نثر في كتب القدماء على ما يعبّئها. والذي رواه العلامة البطريك بولس مسعد (في كتابه الدرّ المنظوم صفحة ١٣١) أنه لقي ربه سنة ٤١٠ م. وجاء في المعجم التاريخي الجغرافي لبوليا (في طبعته الحادية والثلاثين التي صححها وهذبها عمدة من العلماء) «القديس مارون ناسك ورع كان في سورية في القرن الخامس رقي إلى درجة الكهنوت سنة ٤٠٥ م وأدركته الوفاة سنة ٤٣٣ م، وقد نسك على جبل قريب من قورش، واستدعى إليه جمعاً كبيراً من التلامذة، فأنشأوا أدياراً عديدة. ويعتد لذكره في ٩ و ١٤ شباط». وحبذا لو كان مؤلف هذا المعجم أو مصححوه أنبأونا عن من القدماء أخذوا رواية تاريخهم لترقي القديس مارون إلى الكهنوت ولوفاته. أما المعبّد الذي أُقيم على ضريحه ثم صار ديراً لرهبانه فلم يذكر توادوريطوس محله ولا اسم البلد الذي أهله اختطف جثة القديس مارون لأنّ ذلك كان معلوماً عند ذلك الجيل. والذي عليه المحققون، أنّ المعبّد والدير كانا على شاطئ العاصي بين حماه وحمص كما حقق السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٧) مفسراً كلام توادوريطوس، ومستشهداً باجيوس (في تاريخ سنة ٤٠٠ عد ١٩) الذي قال: «إنّ هذا الدير نزله الجميع منزلة أول الأديار في سورية الثانية كما يتبيّن من أعمال الجمع الخامس المسكوني الذي شهدته بولس الشماس ويوحنا الكاهن ووقعاً على رسائل رهبان ذاك الاقليم إلى يوستينانس الملك، وإلى منّا بطريك قسطنطينية بمنزلة نواب دير القديس مارون أول أديار سورية الثانية».

وقد أخذ المؤمنون يعبّدون للقديس مارون بعد وفاته كل سنة بحفلات عامة كما رأيت في كلام توادوريطوس. وتعتد الكنيسة الرومانية له في ١٤ شباط ومثل

ذلك كنيسة الروم وتسميه مارونيوس بحسب صيغة نهاية الاسماء اليونانية. وكان الموارنة قديماً يعيدون له في الخامس من كانون الثاني وهو اليوم الذي كُرس فيه القديس يوحنا مارون كنيسة دير كفرحي باسمه في أواخر القرن السابع. قال العلامة البطريك اسطفانوس الدويهي (في تاريخ الموارنة) تشهد للتعديد للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني نسخ الشحيم المخطوطة احداها خطها الشماس الياس بن داود من بلاد اطرابلس سنة ١٨٠٥ يونانية توافق سنة ١٤٩٤م، وأخرى خطها جرجس البردوط ابن يوحنا بن بشارة التحومي سنة ١٥٣٣م في قبرص بقرية قرباسية. وكان الموارنة يعيدون للقديس يوحنا مارون البطريك في ٩ من شباط وصاروا يحتفلون لذكر القديس مارون ويوحنا مارون في يوم واحد كما يظهر من فهرست أعيادنا المطبوع في روما. وفي سنة ١٧٨٧م نقل البطريك يوسف اسطفان عيد القديس يوحنا مارون إلى الثاني من آذار واستمر عيد القديس مارون في ٩ شباط إلى اليوم (ملخص عن الدر المنظوم وتاريخ الأهدني).

وأما الأديار التي بُنيت على اسم القديس مارون فكثيرة، منها الدير المذكور الذي بُني في محل مدفنه بين حماه وحمص بالرسن. ويقال أنه كان فيه ثمانمائة راهب، وكان يسمى دير البُور. ومنها دير قريب من مخرج نهر العاصي ويسميه أبو الفدا مغارة الراهب، وقد نُقِرت مخادعه كلها في صخرة صماء. ومنها دير على مقربة من دمشق قال الدويهي فيه: قد استدللنا برسومه وأطلاله الباقية إلى الآن على عظمتهم وحسن رونقهم. وقد ذكره ابن الحريري المؤرخ في كلامه على الملك الحاكم بأمر الله في تاريخ سنة ٣٨٦ للهجرة الموافقة لسنة ٩٩٥ م حيث قال: «إنَّ الملك كان ينزل بمكان يقال له الدكة بين نهر يزيد وتورا، وقيل هي فوق نهر يزيد قرب دير مارون». ومن أدياره الشهيرة دير بناه القديس يوحنا مارون في بلاد البترون في شرقي قرية كفرحي، فإنَّ هذا البطريك لما فرَّ من وجه جيش يوستينيانس الأخرم سنة ٦٩٤م سار على ما قيل من انطاكية إلى دير الرسن، فأخذ هامة القديس مارون ولما استقرَّ في كفرحي بنى هيكلاً وديراً على اسم القديس مارون ووضع هامة هنالك. وسمي ذلك الدير ريش مارو **وَمَهْمَدُ** أي راس مارون أو **وَمَهْمَدُ** (ريش مَارَن) أي راس سيدنا. وأمر أن يعيد للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني كما مرَّ ذكراً لنقل هامته إلى هذا الدير.

قال العلامة الدويهي (في تاريخ الموارنة). روى لودوفيكس بن يعقوب في

كتاب له جمع فيه تراجم القديسين الموجودة ذخائرهم في مدينته فولينيو بايطاليا أنه في سنة ١١٣٠م قدم الشام أحد رهبان القديس مبارك وطاف في الأماكن المقدسة، وبعد أن أتمّ زيارته جال في لبنان وظفر بهامة القديس مارون، ففرح بها فرحاً عظيماً وأخذها إلى وطنه، وطفق يخبر الشعب بفضائل هذا القديس وبالمعجزات التي أجراها الله على يده والأمة المنتمية إليه، فبنى له أهل فولينيو كنيسة ووضعوا فيها هامة القديس مارون في ١٨ آب، فانتشر ذكره في تلك الأصقاع وكثر عداد من يحجون إلى كنيسته، وفرضوا عيداً سنوياً له. ومنح أحد الاحبار الرومانيين غفران منتي يوم لمن زار كنيسته يوم عيده. ثم إنّ لوقا أسقف فولينيو نقل سنة ١١٩٤م راس القديس مارون من هذه الكنيسة إلى كنيسة الاسقفية وعمل له المؤمنون صواناً من فضة ويعتدون له كل سنة في العاشر من آذار، ويطوفون به أمام الشعب بالتجلة والاحتفاء.

هذا ما رواه العلامة الدويهي ونقله عنه العلامة البطريرك بولس مسعد، وقد تسنى لي مدة اقامتي في روما سنة ١٨٨٧م أن قابلت أسقف فولينيو وحدثته في هذا الشأن، فحقق لي أنّ التقليد عندهم ينطبق على ما رويته. وإنه ما برح في كنيستهم شيء من هامة القديس مارون يعطون منه المؤمنين ذخائر، فسألته أن يتحفني بشيء منها فأهدى إليّ خمساً منها، فكنت له شاكراً لهدية أثمن عندي من الذهب والجواهر.

وقد تعطف الحبر الأعظم الروماني البابا اكليمنضس الثاني عشر ومنح في براءته المؤرخة في ١٥ نيسان سنة ١٧٣٤م، وفي براءة أخرى مؤرخة في ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٤٠م غفراناً كاملاً يغنمه من اعترف بخطاياها، وتناول القربان الأقدس، وزار احدى كنائس الرهبان أو الراهبات اللبنانيين أو رهبان القديس أشعيا في ٩ شباط الذي يعتد به الموارنة للقديس مارون. ثم عمّم العلامة البابا بناديكس الرابع عشر في براءته المؤرخة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م هذا الغفران الكامل لكل من يزور أية كنيسة كانت من كنائس الطائفة المارونية المبنية وقتلذ، والتي سوف تُبنى يوم عيد القديس مارون في ٩ شباط. ومن شاء الاطلاع على هذه البراءة فليراجعها في كتاب الدر المنظوم للمثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد صفحة ١٣٣.

تلامذة القديس مارون

قد أشار توادوريطوس في كلامه في القديس مارون إلى أنه الغارس والحارث لجنّة الله في قورش كما رأيت. وإنه قد أُنِع من هذه الجنّة ثمار شهية ذكر منها يعقوب معيناً، وقال إنه سيأتي على ذكر الباقيين مفصلاً. وعليه فيظهر أنّ أكثر النساك الذين ذكرهم بعد مارون إنما هم بأجمعهم تلاميذه أو متابعوه في طريقته. وقد صرّح توادوريطوس في كلامه على كثيرين منهم بأنهم من تلاميذ القديس مارون، أخصّ هؤلاء أولاً يعقوب الناسك الذي وصفه توادوريطوس بالكبير. وقل إنه زاره وقد كان مضى على جهاده نحو من ثماني وثلاثين سنة، فرأى منه ما يُدهش العقول، وإنه يُروى عنه لا ما رواه له غيره بل ما رآه بنفسه من جهاده وتقشفه ولبسه المسح، واثقاله نفسه بالحديد، وتعرّضه لحَرّ الشمس صيفاً، وللبرد القارس والعواصف والثلج والجليد شتاءً، واقتيائه بقليل من العدس المبلول، وصرفه أكثر نهاره وليله بالصلوة والتأمل. وإنّ الله قد مَنَّ عليه بموهبة صنع المعجزات. وقصّ توادوريطوس أخبار كثير منها، وفي جملتها اقامه ابن فلاح من الموت. وقال هذا المؤرخ عند ذكره هذه الآية: «إني رأيت بنفسي هذا الغلام وسمعت أباه يخبر بهذه الآية الرسولية، وذكرتها لكثيرين عالماً بما يكون من الفائدة من هذا الخبر. وجاء في سنكسار طائفتنا في ٢٠ شباط أنّ هذا القديس أقام ابنة فلاح من الموت. ولا شك في أنّ ذلك زلّة من قلم الناسخ لأنّ توادوريطوس المعزو خبر الآية إليه قال إنّ المنبعث ابن لا ابنة. ومن آيات القديس يعقوب التي رواها هذا المؤرخ العلامة الثقة مساعدته له في مضايقه بنوع عجيب، وبراؤه كثيرين من المرضى أمراضاً عضالة، وإخراج الأبالس من الممسوسين وطرده الشيطان إذ تراءى له بصورة وحش ليخرجه من الجبل الذي كان ناسكاً عليه، وإذ تراءى لأحد تلاميذه بهيئة معلمه وكان يأخذ من يده الماء الذي استقاه له، ويريقه على الأرض ليعذب القديس بالظمأ. فتقاطر الناس إليه من كل صوب حتى أنّ الجبل الذي كان خامل الذكر قبل نسكه عليه أصبح يؤمه الناس من كل طبقة، ويأخذون من ترابه ويتهادون به تبركاً وطلباً للشفاء.

ومن تلامذة القديس مارون القديس تلاميوس المسمى ليمينائوس أيضاً، وقد

كتب توادوريطوس ترجمته في الفصل ٢٢ من كتابه المذكور قائلاً إِنَّ ما رواه عنه رآه بنفسه، إذ اجتمع به وأنس بحديثه العذب مرات. وإنه أتى إلى مارون العظيم إذ كان عنده يعقوب المار ذكره. ثم نسك في جبل قورش قريباً من القرية المدعوة جرجلة أو ترجلة، وأقام له حظيرة من حجر وحبس نفسه فيها لا يخرج منها ولا يُدخل أحداً إليها. بل يخاطب الناس من كوة في جدارها، ولم يفتح بابها لأحد إلا لتوادوريطوس عند زيارته له. وقد شابه الرسل بآياته فكان يُرى المرضى، ويشفي المسوسين. وقد اعتراه المرض المعروف بالقولنج، فلم يعالجه إلا بالصلوة. وداس في طريقه أرقم فلدغه عشر لدغات في يديه ورجليه فتحمل من ذلك آلاماً مبرحة صابراً. وسمح الله بمصابه تبيناً لصبره الجميل، ولم يتداو إلا بطلية محال للدغات بمرهم الصليب والصلوة. ورأى كثيرين من العمي يستعطون الصدقة فابتنى لهم مخادع حوله، وكان يُنفق عليهم من صدقات المؤمنين ويعلمهم التسبيح لله. واستمر على جهاده كييعقوب ثمانين وثلاثين سنة. ويعيد لذكره في ٢٢ شباط.

وذكر توادوريطوس بعد هذين يوحنا الناسك الذي انفرد في جبل شمالي قورش وأقام به خمساً وعشرين سنة غطاؤه الجوف و فراشه الأرض وطعامه الخبز والملح ولباسه المسح مسخرة به صفائح من حديد ثقيلة. ثم موسى الناسك الذي صرف سنين متطاولة في قمة جبل شامخ حذاء قرية تدعى راماص. ثم انطيوخس وانطونيوس اللذين زهدا في شيخوختهما وعكفا على الصلاة والسهر والصوم المديد. ثم زايينا الشيخ الذي كان القديس مارون يحبه حباً شديداً ويجلّه لتقدمه عليه سناً، ويدعوه أباً ومعلماً له. وكان يرسل إليه من يقصدونه ليستمدوا البركة منه. حتى أرسل إليه تلميذه يعقوب المار ذكره ليلبسه اللباس الشعري. ولما كان زايينا توفي قبل مارون، أوصى مارون تلاميذه أن يدفنوه في قبر زايينا. ومن هؤلاء أيضاً بوليكرونيوس، وموسى آخر، ودميانس، ويعقوب آخر، ذكر جميعهم توادوريطوس، وأخذ عنه العلامة الدويهي (في تاريخ الموارنة) موجز تراجهمهم.

ومن مشاهير هؤلاء بردات ويسميه السريان ܒܪܕܬܐ (باز هُذْدُ) ذكره توادوريطوس في الفصل السابع والعشرين. ووصف جهاده ونسكه العجيب، وقد اشتهر هو ويعقوب الكبير المار ذكره بفضائلهما بل بعلمهما أيضاً. حتى أنبأنا افاغريوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٩): «إِنَّ الملك لاون كتب رسائل عامة إلى جميع أساقفة المسكونة وإلى مَنْ تساموا في السيرة الرهانية يسألهم عما يرون في شأن

الجمع الخلكيدوني وترقية بطرس الأثغ إلى كرسي اسكندرية». ومن هؤلاء سمعان العمودي... وبردات الراهب ويعقوب السريانيان. وروى كذلك توفان في تاريخ سنة ٤٥٢م قائلاً إنّ الملك لاون كتب أيضاً إلى القديس سمعان العمودي وبردات الراهب ويعقوب صانع العجائب، واستحلفهم ليجيوا كأنهم يؤدون لله حساباً عما يرون في هذه المسائل المختلف فيها. وقد ذكرهما أيضاً افرام البطريك الانطاكي، كما أثبت فوتيوس (في مكتبته ك ٢٢٨) حيث قال أنّ افرام هذا كتب رسالة ومما قاله فيها: «إنه يلزم الاقتداء بسمعان (العمودي) وبردات ويعقوب الذائع صيت فضائلهم في المسكونة كلها. وقد صرفوا حياتهم برمتها في السيرة الرهبانية». وقال (في ك ٢٢٩) في افرام أيضاً «إنّ هذا كان مبشراً باسلاً بالجمع الخلكيدوني الذي أثبتته ثلاث مئة وسبعون أسقفاً بتوقيعهم، وأيّد هذا الايمان سمعان ويعقوب وبردات العجيبة سيرتهم». ونرى رسالة بردات الجواب للملك معلّقة في ذيل الجمع الخلكيدوني عدد ٦١. طالع المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ٢٥٥ وصفحة ١٩).

ولم يكن للقديس مارون تلاميذ فقط بل كانت له تلميذات أيضاً، منهنّ مارانا وكورة، فهاتان كانتا من حلب من أسرة شريفة فتركنا مجد العالم وزهو وحبستا نفسيهما في غرفة حجرة، ولم تتركا منفذاً فيه إلّا كوة صغيرة تتناولان الطعام منها. وعكفتا على الورع والتهجد والصلوة، واقتدتا بايليا النبي بصومهما أربعين يوماً. ولم تكونا تكلمان أحداً إلّا في الخمسين يوماً من أحد القيامة إلى أحد العنصرة، بل مارانا وحدها كانت تكلم الزائرين والمسترشدين، وكورة لم يسمعها أحد تتكلم. وكان لباسهما خشناً وثقلانه بالحديد حتى حذبت كورة لضعف جسمها. وقال توادوريطوس أنه زارهما وقد قصدتا زيارة الأماكن المقدسة ومضيتا ماشيتين لم تذوقا زاداً في سفرهما. ولما أتمتا زيارتهما تناولتا قوتاً ثم عادتا صائمتين إلى حلب. هذا ما وجدته في نصّ توادوريطوس (في طبعة الأب مين)، وأراه أصبحّ مما روي في تاريخ الدويهي المطبوع حديثاً، وفي سنكسار طائفتنا في ٢٨ شباط من أنهما لم يأكلا شيئاً في سفرهما ذهاباً وإياباً. وقال العلامة الدويهي «إنّ منزلهما في حلب كان معروفاً إلى أيامه بدار كورة».

ومن هؤلاء التلميذات دمنينا قال توادوريطوس فيها (فصل ٣٠) إنها اقتدت بالقديس مارون في نسكها، وكانت ابنة والدين حسيين غنيين. ولما توفيا ضربت كوخاً من هشيم الذرة في بستان أمها، وكانت تقضي يومها كله مصليّة باكية على

ذنوبها وتبّل فراشها الشعري بدموعها. وكان طعامها العدس النقيع. وكانت تنفق من مال أمها على من ذكر من النساك والمعوزين. قال توادوريطوس إنّ كثريرات من النساء أحببن هذه الطريقة فأثر بعضهنّ السيرة المنفردة، وبعضهنّ العيشة المشتركة حتى ربا عدادهنّ إلى نحو مئتين وخمسين عابدة يأكلنّ طعاماً واحداً، ويرقدنّ على الحصر، ويغزلنّ الكتان، وأفواههنّ تترنم بالتسايح لله. انتهى

الباب السادس

تاريخ سورية في القرن السادس

القسم الأول

تاريخها الديني

الفصل الأول

الملوك القسطنطينيون في هذا القرن وما كان في سورية

في أيامهم

عد ٦٤٤

الملك يوستينس

مرّ في الباب السابق أنّ انسطاس الملك استمر على منصّة الملك إلى سنة ٥١٨، وقد خلفه بعد وفاته يوستينس الملك، وكان قد وُلد في تراسة سنة ٤٥٠م وأصله من قبيلة الصقالبة، وكان في حدّاته راعياً للمواشي أو عاملاً في الأرض إلى

أن أتى قسطنطينية في أيام الملك لاون، وتجنّد وترقى في مناصب الجندية حتى ضمّه الملك إلى حرسه، وجعله الملك انسطاس من رجال الندوة، ثم أمّره على الحرس الملكي. ولما خربت المنية انسطاس نادى به الجند والشعب ملكاً في ٩ تموز سنة ٥١٨م. وروى بركوب المؤرخ المعاصر له أنه لم يكن يحسن القراءة ولا كتابة اسمه. وربما كان المراد أنه لم يكن يحسن كتابة اسمه باللاتينية، لكنه كان منصفاً حليماً كريماً راسخاً في الايمان الكاثوليكي. وما روى عنه أنّ رجلاً اسمه اولاتيوس كان موسراً فذهب ماله وأوصى لدى احتضاره أن يكون الملك وارثاً له ليربي ثلاث بنات له، ويجهزهنّ ويفي دينه، فتقبلت الملك الوصية وأتمّ كل ما دونه الموصي بها.

وما كان في أيامه أنه كان بين الحميريين في اليمن كثير من المسيحيين، لكن الملك كان يهودياً اسمه دميون، فسطا على قافلة لتجار رومانيين عند مرورها ببلاده إلى الحبشة، فوقف دولاب التجارة مع الحبشة واستاء يوستينس وملك الحبشة من هذا الصنيع، فحمل ملك الحبشة بامداد يوستينس على دميون فقتله، وانهب بلاده وأقام مكانه ملكاً مسيحياً. وكان ملك الحبشة وثياً اسمه اليسبان وقد نذر أن يتنصّر إن عاد ظافراً، وأرسل بعد عودته رجلين من شرفاء بلاده إلى يوستينس يسأله أن يرسل أسقفاً وكهنة لينصّروه، وهذا مؤذن بأنّ الوثنية تغلبت على النصرانية عند الأحباش بعد وفاة فرومنسيوس الذي كان قد نصّره في أيام الملك قسطنطين والقديس اثناسيوس. فكتب الملك يوستينس إلى والي مصر أن يتفق مع البطريك الاسكندري الذي حقق السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٣٨٢) إنه كان كاثوليكياً واسمه استريوس، فأرسل إلى الحبشة يوحنا بعد أن رقاها إلى الاسقفية على مدينة أكسوم عاصمة الحبشة حينئذ. فعهد الملك وكثيرين من كبراء دولته وشعبه، وانفشر الدين المسيحي ثانية في الحبشة بعناية الملك يوستينس. على أنّ الملك المسيحي الذي أقامه ملك الحبشة في حمير لم يعيش إلّا قليلاً، وانتهاز اليهود فرصة الشتاء بين سنة ٤٢٣ و٤٢٤م فأقاموا ملكاً يهودياً اسمه دونان، وقتلوا جمّاً غفيراً من النصارى، وحولوا كنائسهم إلى مجامع، وقتل دونان مئتين وثمانين كاهناً، وألحق بهم كل من بقي في اليمن من الأحباش، ومضى إلى نجران بجيش لا يقلّ عن مئة وعشرين ألف مقاتل. فدخل المدينة بحيلة وانهب كل ما فيها وأحرق الكنيسة بمن لجأ إليها من الكهنة والشعب، وأخرج عظام القديس بولس أسقفها الذي كان قد توفي منذ سنتين، فأحرقها وأبسل كل من لم يعجد دينه من

أطفالهم ونسائهم. وكان أميرهم اسمه حارث وكان له من العمر خمس وتسعون سنة، فأماته مع امرأته رحمة، وبناته، وثلاث مئة وأربعين رجلاً من أعيان نجران. والكنيسة الرومانية تعيد لذكر هؤلاء الشهداء في ٢٤ من تشرين الأول. وكنيستنا المارونية تعيد في ذلك اليوم للشهيد حارث المذكور. ويقال أنّ استشهاد كان في أيام الملك يوستينيانس لأنّ السريان يسمون أحياناً يوستينس ويوستينيانس كما حقق العلامة السمعاني (في المجلد المذكور).

إنّ كل ما مرّ خلاصة رسالة كتبها سمعان أسقف مدينة تسمى بيت أرشم في بلاد فارس إلى سمعان رئيس دير جبلة في سنة ٨٣٥ يونانية الموافقة لسنة ٥٢٤ للميلاد، ذكرها السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٦٤) بحروفها عن يوحنا أسقف آسيا عن ديوانيسوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون. ومآل هذه الرسالة إلى سمعان الأسقف كاتبها سافر من حيرة النعمان في ٢٠ كانون الثاني سنة ٨٣٥ يونانية (سنة ٥٢٤ م) مع ابراهيم القس ابن افردس المرسل من الملك يوستينس إلى المنذر ملك السراكسة (غير المنذر الذي كان قد تنصّر في أيام الملك انسطاس) ليسعى بتأمين النصارى في بلاد الحميريين، وأنهما بلغا إلى المنذر في المحل المدعو رمله بعد عشرين يوماً من سفرهما. فتلا المنذر عليهما رسالة وردت إليه من دونان ملك حمير اليهودي يقصّ عليه كل ما أجراه على النصارى في ملكه، ويحثه على اهلاك النصارى في ولايته. وقد ضمّن سمعان في رسالته رسالة دونان بحروفها. وعنها لخصنا ما رويناه آنفاً. وفي تلك الرسالة ما يستنزف الدموع اشفاقاً على هؤلاء الشهداء ولا سيما النساء والأطفال منهم، وما يدهش العقول من ثباتهم وشجاعتهم. والرسالة مسهبة لا يُسمح القيام باثباتها هنا.

ثم إنّ يوحنا أسقف آسيا ينجز أخبار هذه الأحداث، ويروى ديوانيسوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون كلامه الآتي ملخصاً: «لما عرف ملك الحبشة ما أجراه دونان واليهود على النصارى في اليمن احتدم غيظاً وجيش جحفاً زحف به دونان، فقبض عليه وقتله وبذد عسكره، وأثخن باليهود، وأقام ملكاً مسيحياً على اليمن اسمه ابراهيم، فاجتمع إليه النصارى المبددون، وبنى ملك الحبشة لهم كنيسة». وكان الملك يوستينس قد كتب إلى استريوس بطريرك الاسكندرية ليحث ملك الحبشة على حجب دماء النصارى في اليمن، فكتب اليسبان ملك الأحباش إلى استريوس يشره بهذا الظفر، فأخبر الملك يوستينس بما كان، وأرسل أسقفاً إلى

اليمن هو القديس كراجنتيوس، فكرّس الكنيسة وجمع شمل النصارى المبددين، وريح غيرهم من اليهود والوثنيين، وأقام كهنة وشمامسة. ومضى اليسبان إلى نجران وأقام كنيسة جمع إليها عظام أولئك الشهداء وعاد إلى أكسوم عاصمة ملكه. والقديس كراجنتيوس جادل علماء اليهود أمام الملك جدالاً استمر أربعة أيام، فأفحمهم وأبكمهم فتنصّر كثيرون منهم.

نقول استطراداً إنّ ما مرّ هنا وما رواه السمعاني في محال عديدة من المكتبة الشرقية وغيره من المحققين عن أساقفة العرب وكراسيهم في هذه القرون يبيّن بطلان زعم كثيرين من العلماء الاوروبيين أنه لم يكن نصارى في العربية قبل ظهور الاسلام. فقد كان من العرب قبل ظهور الاسلام أساقفة كثيرون وكنايس مزهرة وشهداء صناديد كمن ذكرناهم، وعلماء وشعراء مسيحيون، ولهم اشعار ذكروا فيها الصليب وعيد الفصح والقدّاس والقربان. ومن مشاهير شعرائهم امرؤ القيس والأخطل، وليس من يقيم نكيراً على كونهما مسيحيين.

ومن أعمال يوستينس الملك أنه طرد ساويرس من بطريركية انطاكية، وأخسبنا من أسقفية منبج، وبعنايته أدخل في شمالية القداس ذكر الجامع الأربعة المسكونية أي التيقوي والقسطنطيني والأفسسي والخلكيدوني. وكان ذلك سنة ٨٣٠ يونانية أي سنة ٥١٩ م على ما في تاريخ كنيسة الرها. وقد عُقد صلحاً مع تيودريك ملك الغطط، وحارب الفرس وظهر عليهم، وأقام باليصار الآتي ذكره والياً في دارا، وكانت له أيادي تذكر فتشكر عندما خربت انطاكية بالحريق والزلازل كما سترى في العدد التالي. وقد لقي هذا الملك الصالح ربه في العاشر من شهر آب سنة ٨٣٨ يونانية الموافقة لسنة ٥٢٧ م كما في التاريخ الرهاوي وعمره سبع وسبعون سنة بعد أن ملك تسع سنين.

عد ٦٤٥

خراب انطاكية في أيام الملك يوستينس

قد خربت انطاكية بالزلازل مرات أشهرها الزلزال الذي كان في أيام تريان الملك سنة ١١٥ م على ما روى بارونيوس. ثم الزلزال الذي كان في أيام الملك لاون بين سنة ٤٥٧ أو سنة ٤٥٨ أو سنة ٤٥٩ م على اختلاف الأقوال، وأظهرها

أنه كان سنة ٤٥٩ م على ما حقق السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢١١ وما يليها) سنداً إلى أقوال افاغريوس (ك ٢ من تاريخه فصل ١٢)، ويوحنا ملالا وديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون حيث قال: «سنة ٧٧٠ (يونانية توافق سنة ٤٥٩ م) حدث زلزال شديد خربت به انطاكية المرة الرابعة في الساعة الثالثة من ليل الأحد». وقد رثاها حينئذ القديس اسحق الكبير بمراثيته الشهيرة. أما الزلزال الذي فيه كلامنا الآن فكان سنة ٥٢٦ م وإليك ما قيل فيه بالتاريخ الرهاوي: «في سنة ٨٣٧ يونانية (الموافقة سنة ٥٢٦ م) في التاسع والعشرين من أيار في الساعة السابعة من يوم الجمعة كان زلزال شديد عنيف أقلب أكثر أبنية انطاكية، وطمر بنيتها وخنق سكانها، ومات بهذا الزلزال افراسيوس بطريركها مطموراً تحت الانقاض. ويقال أنه استمر اليوم كله يصيح من تحت الردم، ولم يكن له من مغيث». وقد وصف هذه النازلة افاغريوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٥ و ٦)، وبيروكوب (ك ٢ فصل ١٤)، وتوفان ويوحنا ملالا بما ملخصه أنه قد وقع حريق في كنيسة القديس اسطفانس وارتفع اللهب حتى انتشر في وقت وجيز في محال كثيرة، وأتلف كثيراً من البيوت، فأرسل الملك يوستينس ألفي ليرة ذهباً اغاثة للمصايين. وما انقضت هذه النازلة إلا تلتها أخرى أشد منها، وهي زلزال مرعب قلب أبنية المدينة مبتدئاً من جهتها الغربية وجعلها أكواماً من الانقاض. ولما كانت النار مشتعلة في أكثر مواقد المدينة لاعداد طعام الغذاء أحيائها الزلزال فشبت في البيوت، ومدّ الهواء لهيبها فالتهم بيوتاً أخرى. واجتمعت البليتان الزلزال من أسفل والنار من أعلى وقتل من تمكن من الفرار. وزاد في الطين بلة اكمان بعض الأشقياء للفارين فكانوا يسلبونهم ما حملوا ويسلون من قاومهم، وكان أسعد حظاً من هؤلاء من سقطت عليهم بيوتهم فلم تهرسهم. وقد كشف عن بعضهم أحياء وبعضهم استمر تحت الردم عشرين يوماً وأكثر، وبقي في بعضهم رفق ولكن مات أكثر هؤلاء عند استنشاقهم الهواء، ورووا أنّ بعض الحبالى ولدن تحت الردم وأرضعن، وأنّ بعضهم تمكن من الاقتيات بشيء من المون التي كانت في بيوتهم. واستمر هذا الزلزال على شدته ستة أيام وخربت به دفته وسلوقية (السويدية) أيضاً. إنّ هذه الرزية اصممت قلب يوستينس الملك، فأوقف المشاهد المحاضر في قسطنطينية وترك تاجه وبرفيره ولبس مسحاً، وحثا الرماد على رأسه لأنه كان يحب انطاكية، وقد أقام فيها وهو جندي. وكان في سبت العنصرة يمضي كل يوم إلى

الطواف في الكنائس مع رجال الندوة والشعب وعليه ملابس الحداد، ويستمطر بدموعه غوث الله لشعبه. وأرسل أولاً الكنت كارينس ومعه خمسة آلاف ليرة ذهباً لثنفق على من كانوا أشدّ احتياجاً، ثم أرسل البطريرقين فوقاً واستريوس وزودهما مبلغاً كبيراً من المال ليجددا بناء البيوت وأقنية الماء وجسور العاصي. وبالع بعض المؤرخين فقال أنّ ما أنفقه يوستينس لتدارك هذه النازلة هو خمسون مليوناً من الليرات، وإن قُدّر أنّ كل ليرة قيمتها عشرون فرنكاً كانت النفقة ملياراً من الفرنكات. وكان والي انطاكية واقليمها حينئذ رجل اسمه افرام بالغ في تحقيق ويلات الأهلين وسدّ اعوازهم والرفق بهم. وكان تقياً ورعاً عالماً فاختراره بطريركاً خلفاً لاوفراسيوس، فكان بطريركاً صالحاً نفع الكنيسة بعلمه وعمله كما كان حاكماً عادلاً حليماً. انتهى ملخصاً عن افاغريوس وبركوب وتوفان في الحال المذكورة آنفاً.

عد٦٤٦

يوستيناس الملك

كان يوستيناس ابن أخي يوستينس الملك، وقد وُلد سنة ٤٨٣م، واشتهر في دولة عمه ثم خلفه بعد وفاته سنة ٥٢٧م، فكان أولاً ملكاً عادلاً ورعاً حليماً يحب العلم والعلماء، وعند تسلمه منصبة الملك تخلى عن كل ما كان يملكه لبعض الكنائس. وكان يصرف أيام الصوم كما يصرفها أحد النساك. وأنشأ كثيراً من الكنائس والأديار والمعابد، وقد بنى وحصّن نحواً من عشرين مدينة، وعدد كل ذلك ووصفه بروكوب أحد رجال دولته في كتابه في الأبنية، من ذلك تجديد بناء الهيكل المعروف بأجيا صوفيا الذي كان قسطنطين الكبير قد بناه في قسطنطينية، ودير القديس مارون على العاصي الذي كان الملك انسطاس قد نقضه وقتل رهبانه، وكنيسة مغارة المولد في بيت لحم على بعض الأقوال. إلا أنه عاب نفسه بدعواه أن يحكم في بعض المسائل اللاهوتية وهو ليس ابن بجدها، من ذلك حكمه على اوريجانس بحرم شخصه، واتباعه بدعة من زعموا أنّ جسد المسيح كان غير قابل الآلام ولا الانفعالات الجسدية كالجوع والعطش، ونفيه بعض الاساقفة لأنهم لم يطاوعوه على أغلاطه، وعابه أيضاً انقياده في كل شيء لرغائب الملكة توادورا عقيلته على ما كانت عليه من الميل إلى الاوطاخيين والتهتك. وأهم أعمال

يوستينيانس العلمية التي أشغلته في أكثر أيام حياته إنما هو تأليف كتب الشريعة. ففي منشوره الذي أنفذه إلى رجال الندوة في ١٣ شباط سنة ٥٢٨م صرح بعزمه على أن يجمع في مجلد واحد جميع الشرائع التي تضمنتها الكتب التي جمعها من تقدمه، أي غريغوريوس وهرموجنيان وتوادوسيوس الملك وأن يضم إليه ما سنّه الملوك بعد كتاب توادوسيوس، واختار تريونيان البمفيلي الفقيه الشهير، وجعل تحت أمرته تسعة فقهاء معروفين بالفضل والاجتهاد وسعة الاطلاع، وسمح لهم أن يحذفوا من تلك الشرائع ما كان مكرراً أو مناقضاً لغيره أو أبطله الزمان أو أجرى الاعتماد على خلافه، وأن يسقطوا المقدمات وكل ما كان فضلة لا لزوم له، وأن يزيّدوا ما رأوه لازماً للتدقيق أو زيادة البيان، وأن يجمعوا في باب واحد ما كان منشوراً ومشتتاً. فبذل هؤلاء الفقهاء قصارى جهدهم فلم تمض سنة إلا وأبرزوا كتاباً ينطوي على اثني عشر سفرًا مشتملاً على جميع الشرائع التي سنّها الملوك في أيام أديان فصاعداً، فوقّع عليه الملك أمراً أن يعتمد عليه، وذلك من منشوره المؤرخ في ٧ نيسان سنة ٥٢٩م، على أنه أذاع بعد خمس سنين نسخة أخرى موجزة عن الأولى وهي التي تتداولها الأيدي الآن وهي المعروفة بكود يوستينيان. إلا أنه بقي أن يوضع كتاب آخر يشتمل على آثار الفقه القديم وسنن القدماء من الرومانيين وفتاوى ائمتهم. فعهد الملك إلى تريونيان أيضاً بهذا المهم وأباحه أن يختار من يعاونونه عليه، فاختار أحد القضاة الذين ساعدوه في المؤلف الأول وأربعة من مدرّسي الشرائع اثنين من قسطنطينية واثنين من بيروت، وأحد عشر عالماً من محامي الدعاوي فأمرهم الملك أن يسلكوا مسلك الأولين في أن يبدّلوا أو يحذفوا أو يزيّدوا، وأن يبتّوا الخلاف في المسائل المشبهة أو الغامضة أو المعترض عليها. وإن كل ما يقطعون به يثبت كأنه بارز من فمه. وكان يُظن أنه يقتضي لتكملة هذا التأليف عشر سنين فأكمله هؤلاء الفقهاء في ثلاث سنين، فجاء كتاباً شاملاً جميع الفتاوى التي كان ألّفها الرومانيون، يطبقون فيها المسائل الخاصة على قواعد الشرائع العامة، أو على الاستقامة الطبيعية. وسمي هذا التأليف في اللاتينية ديجستا أي المنظّم لنظام مواده ووضع كل مادة في بابها، وسمي في اليونانية بندكتس أي الشامل أو الحاوي كل شيء. وأثبتته الملك يوستينيانس في ١٦ كانون الأول سنة ٥٣٣م، على أن العجلة بتأليفه لم تخله من الخلل والشوائب، وبينما كان هؤلاء الفقهاء منصبين على تأليف الديجستا أمر الملك تريونيان وتوافلس من أساتذة

مدرسة قسطنطينية ودوروتاوس من أساتذة مدرسة بيروت أن يقتطفوا من كتب الفقهاء والقدماء الضوابط الأولى لعلم الشريعة والقواعد الأصلية، وأن يجمعوها في أربعة أسفار تيسيراً لتعليم الشريعة، فأتموا ذلك قبل الفراغ من الديجستا، وسموه انستيتوتس أي الرسوم والمراسيم وهو أكمل هذه الكتب وأصحها. وأثبته يوستينيانس بمنشوره في ٢١ تشرين الثاني سنة ٥٢٣م. وكتب يوستينيانس هذه مُفَتَّحة بهذه الفاتحة البديعة: «باسم ربنا يسوع المسيح كان محتماً أن يستهل باسم من هو السلطان الحقيقي والمشرع الحق، أعني باسم من قال بي تملك الملوك، وبي يفترض المشرعون الشرائع العادلة. وقال أيضاً قد أعطيت كل سلطة في السماء وعلى الأرض» الخ. فكتب يوستينيانس هذه هي أس لكل شريعة وجدت بعدها، وعليها مبني كل نظام إلا ما اقتضته حالة بعض الممالك أو ظروف الأيام. والكنيسة تعتمد إلى الآن على ما أدخلته منها في شرائعها البيعية. وتستشهد بمواد الديجستا أو البندكتس والانستيتس. وله شرائع أخرى سماها السنن الحديثة.

إن يوستينيانس صرف مدة ملكه في الحروب فحارب الفرس لتأمين مملكة المشرق أولاً من سنة ٥٢٨ إلى سنة ٥٣١م، فانتصر باليصار قائد جيشه عليهم في دارا، وتقهقر في غيرها. ثم حاصر الفرس الرها سنة ٥٢٩م فوقع كسرى خليفة قباد ملكهم ويوستينيانس على عهدة سموها الصلح الدائم سنة ٥٣١م. إلا أن الحرب تسعرت ثانية بين الملكتين من سنة ٥٤٠ إلى سنة ٥٤٢م واستحوذ الفرس في هذه الحرب على قسم من سورية، وردهم باليصار عنها. وسنفرد لذكر أخبار هذه المحاربة الفصل الآتي. وعاد الفرس ثالثاً إلى محاربة يوستينيانس من سنة ٥٦٠ إلى سنة ٥٦٢م لانتصاره للآزبين (قبيلة في نواحي قوه قاف) إلى أن وقع كسرى على عهدة الصلح مشروطاً بدفع جزية له مدة خمسين سنة. وكان ليوستينيانس حروب عديدة في إيطاليا مع الغطط أسفرت عن استحوذه على هذه البلاد وجعلها اقليماً بيزنطياً، وتوليته نرسيس أحد قادة جيشه عليها سنة ٥٥٤م. ولكن انتزعها اللمبرديون من يد ملوك قسطنطينية سنة ٥٦٨م. وكانت له حروب أيضاً مع البنداة في افريقيا حيث انتصر باليصار قائد جيشه على جاليمر ملك البندالة، واسترد قرطاجنة منه سنة ٥٣٣م. وحروب أخرى مع البلغار واليونان. وثار الهونيون ووثبوا على قسطنطينية فردهم عنها باليصار سنة ٥٥٩م.

وشكا باليصار حساده إلى يوستينيانس بأنه خان المملكة والمملك، فانتزع أملاكه

وحطّه عن مقامه وأودعه السجن في ٥ كانون الأول سنة ٥٦٣م، واستمر فيه إلى تموز سنة ٥٦٤م، فتحقق من براءته وخلقى سبيله وردّ عليه ماله وكرامته، ولكن ما جرى عليه من القسوة أنحلّه وأدركته المنية في شهر آذار سنة ٥٦٥م فضبط الملك أمواله. على أنّ يوستينيانس لم يعيش بعده طويلاً لأنه توفي في شهر تشرين الثاني سنة ٥٦٥م بعد أن أصدر منشوراً يدافع به عن ضلاله المار ذكره. وأراد اكراه بعض الاساقفة على المصادقة عليه فأنكروها. فعزل بعضهم ونفى بعضهم، منهم افثيشيوس بطريك قسطنطينية، وانسطاس بطريك انطاكية. وهكذا ترك هذا العاهل الشهير هذه الدنيا منطخاً شرفه بتحزّنه في المسائل اللاهوتية والدينية، وهو ليس ابن بجدها، وبتسامحه مع امرأته العاهرة إلى غير ذلك من المعائب التي ذكرها بروكوب في كتابه الموسوم بالتاريخ السري حيث يندد بهذا الملك والملكة وزوجه وبعض حاشيته.

عد ٦٤٧

حملة كسرى ملك الفرس على سورية في أيام يوستينيانس

إنّ كسرى ملك الفرس كان واجساً من استفحال أمر يوستينيانس وظفره بالبندالة في افريقية، وتعقبه الغطط في أوروبا فكاشفه فيتيجس ملك الغطط في إيطاليا أن يوائمه على مناوأة يوستينيانس. فلبّى كسرى دعوته وكان حينئذٍ أنّ الأرمن ثاروا على الرومانيين فانتصر كسرى للعصاة وأخذ يعدّ العُدَد والرجال للحرب. ثم زحف إلى سورية سنة ٥٤٠م فحاصر أولاً صورة (المسماة رصافه وسرجيوبولي أي مدينة سرجيوس لأنه قال إنّ القديس سرجيوس منها) على عدوة الفرات. ولما كان أهلها قليلي العدد أرسلوا أسقفهم كنديس ليكاشفه بأمر الصلح على أن يدفعوا للغازي كل ما ملكت أيديهم فدية، فوعد كسرى الاسقف باجابة سؤاله بعد أن يستطلع رأي رجال مشورته. وأصبحه عند عوده بكتيبة من أحسن جنوده مظهراً الاجلال له، ففرح الأهلون وفتحوا أبواب المدينة ولم يشأ الجنود أن يدخلوها. بل لما أراد الأهلون اغلاقها عارضوهم وألقوا صخرة في وسطها. وتبع كسرى آثارهم فدخل المدينة وانتهب البيوت وقتل كثيرين من سكانها وأخذ الباقي أسرى وأحرق المدينة. وكانت بين الاسرى امرأة جميلة فتزوجها وأراد أن يبدي كرمه على مواطنيها الاسرى وكانوا نحو اثني عشر ألفاً، فطلب إلى كنديس الاسقف أن

يشتريهم منه بمئتي ليرة ذهباً فاعتذر بأن لا مال له. فقال الملك يكفيني أن تعد وتقسم على دفع هذا المبلغ بعد سنة ففعل، وخلق الملك سبيل الاسرى ولكن مات أكثرهم من الجراح وسوء المعاملة التي حلت بهم. وانقضت السنة فعاد الاسقف صاغراً إلى الملك يسأله عفواً إذ أعجزته الحال عن اداء المبلغ ففعله الملك وجلده. وسأله الاسقف أن يرسل إلى المدينة فيأخذ كل ما كان في الكنيسة، فأرسل من أحضر إليه كل ما وُجد فيها، وأبقى الاسقف مكبلاً في السجن. ثم يمّ غير هذه المدن واجتاز في جانب منبج ولم يشأ أن يحاصرها لأنها كانت حصينة فتعيقه، واجتراً من أهلها بألفي ليرة فضة فدية. وبلغ إلى حلب فغزّم أهلها بما شاء، وأرسل يطلب من أهل انطاكية ألف ليرة ذهباً ليعفو عنها. ولم يكن هذا المبلغ يُذكر بجانب وقاية مدينتهم من الخراب، وأحبّ الأهليون دفعه لكن أعوان الملك حسبوا هذا الافتداء عاراً في جانب المملكة والملك فجعلوهم يرغبون عن الاداء. وزحف كسرى بجيشه من حلب إلى انطاكية وخيّم على عدوة العاصي، واستأنف طلب الألف ليرة لينصرف عنهم، فأجابه الشعب باهانة رسله ورجمهم بالحجارة، فاستشاط كسرى وأمر فريقاً من جيشه بضرب المدينة من جهة النهر، وسار بفريق آخر إلى أعلى المدينة حيث كانت صخور يتيسر الوصول منها إلى أسوار المدينة. ولو كان على هذه الصخور ثلاث مئة رجل لصدّوا ألفواً عن مهاجمة المدينة. ولكن لم يكن في انطاكية أحد من رجال الحرب المحنكين ليعلم أن يتخذ وسيلة للدفاع، ففسلق كسرى مع جنوده على تلك الصخور ودنا من الاسوار ونضد بجانبها منصّات من خشب ليرمي عنها الجنود فتحطمت لتراكم الرجال عليها وكان لسقوطها دويّ هائل في المدينة، حتى طُرّن أنّ الاسوار هُدمت ففرّ المدافعون وانتشر الخبر لساعته في المدينة وتولّى الرعب سكانها، وغصّت الشوارع بالفارين حتى كان بعضهم يطأ بعضاً فمات كثيرون. وتسلقّ الفرس على الاسوار ولم يتوغّلوا أولاً في المدينة خيفة الوقوع في مكمن، بل صبروا على الفارين وأخلوا لهم الطريق المؤدي إلى دفته، فازدحموا في الخروج منه، ثم دخل جنود الفرس في المدينة، وكانت عصابة من الشبان تآلبوا في احدى ساحاتها مستبسلين، فوثبوا على أولئك الجنود وثبة الاسود، وأبدوا آيات الحماسة والصولة فظهروا على أولئك الجنود. وكان كسرى يشرف على المعركة من أعلى برج فدُهِش ببسالة هؤلاء الصناديد، وهم أن يأمر بكفّ القتال عنهم واسترضائهم، لولا أن يصرفه أحد رجال حاشيته عن هذا

الهوس إلى الأمر بإرسال نجدة من نخبة جيشه لجنوده المتقهقرين، فقضى أولئك الأبطال وسلاحهم بيدهم، وانتشر الفرس في المدينة فقتلوا كل من لم يفرّ واتهبوا كل ما وجدوا فكانت لهم غنيمة عظيمة. وحفظ لنفسه أسلاب الكنيسة الكبرى وكانت نفيسة من ذهب وفضة وجواهر كريمة، وأمر بحرق المدينة إلا الكنيسة التي غنم منها بتلك النفائس.

وكان يوستينانس قد أرسل مفوضين إلى كسرى يكشفانه أمر الصلح فلم يشأ كسرى أن يقابلهما قبل أن يتشفى بخراب انطاكية. ولدن المقابلة طلب أن يؤديه الملك كل سنة مبلغاً لا على سبيل الجزية إذ لا يريد أن يذلّ ملكاً رومانياً بل على سبيل الجعل، كما يؤدي الهونيون والعرب للمحافظة على تخوم المملكة. ورضي المفوضان أن يدفع له يوستينانس تلك السنة خمسة آلاف ليرة ذهباً، وفي كل سنة بعدها خمس مئة ليرة، فوعد كسرى بأن ينصرف عن المملكة متى وقّع يوستينانس على هذا الشرط، وقّدم الضمانات اللازمة على دفع هذه الغرامة. وقد شاء كسرى أن يزور بعض مدن سورية قبل انصرافه فمضى إلى سلوقية (السويدية) ولم يمشها بضراً، وإلى دفة وعجب بموقعها البهيج وغاباتها وجناتها الغناء وينابيعها المتدفقة، وإلى أباميا (قلعة المضيق) وطلب من أهلها عشرة آلاف ليرة فضة، وابتزّ من كنيسة كل ما كان فيها من النفائس، وأخذ من قنشرين مئتي ليرة ذهباً، ودفع له أهل الرها مثل هذا المبلغ. وبينما كان هناك بلغه أنّ يوستينانس وقّع على العهدة وسلّم الرهائن إلى مفوضيه، وأراد حينئذ أن يبيع الأسرى الذين أخذهم من انطاكية، فأبدى أهل الرها وقتل من النخوة والمروءة والمعروف ما يحق أن يخلد ذكره، والشكر لهم عليه، فقد تضافروا على جمع مبلغ يفتدون به هؤلاء الأسرى، وجاء كل منهم بما وصلت يده إليه حتى قدم بعض الفقراء نعجة أو خروفاً لم يكن لهم سواهما، واقتدوا هؤلاء الأسرى جميعاً. أما بوزاس والي الرها الذي كان أسيراً لبخله فأمسك مبلغ الفدية لنفسه محتجاً بأنه يستبدله في مهام أهم من افتداء أسرى انطاكيين، فأخذ كسرى الأسرى وانصرف إلى بلاده، وعاملهم فيها بأكثر مما كانوا يرجون من الرفق والاعزاز، وبنى على مسافة مرحلة من قطيسفون مدينة سماها انطاكية كسرى. وبينما كان كسرى ينشيء انطاكية الحديثة كان يوستينانس يجدد بناء القديمة ويقتلع الصخور التي توسل بها كسرى لفتح المدينة وينظم شوارعها، ودام في

هذا الاصلاح اثنى عشرة سنة، فعادت المدينة إلى رونقها وعظمتها. (ملخص عن المؤرخين المذكورين في العدد السابق).

عد ٦٤٨

ثورة السامريين وخراب مدن سورية بالزلزال في أيام يوستينيانس

قد أصدر يوستينيانس الملك منشوراً سنة ٥٣٠م أمر به الوثنيين واولي البدع أن يرفعوا عن ضلالهم ويدينوا بالدين المسيحي الصحيح، فامتل كثيرون أمره حقيقة وآخرون مرأين. على أن السامريين سكان القرى جاھروا بالعصاة وثاروا وسموا رجلاً اسمه يوليانس ملكاً، وكان عددهم نحواً من خمسة آلاف رجل، ووثبوا على مدينة باسان وأحرقوا كنائسها واستحوزوا على نابلس، وأبسلوا كثيرين من أهلها، وقتلوا أسقفها وكهنتها وأخربوا القرى المجاورة لها. فأرسل توادورس أمير الجيش في فلسطين حيثئذ سعاة إلى قسطنطينية يخبر الملك بما كان. وجمع جنوده وزحف بهم إلى نابلس، فانهزم يوليانس من وجهه فتعقبه وظفر به، وشتت شمل جنوده، وقبض عليه وقطع رأسه وأرسله إلى الملك مع تاجه، وأهلك من السامريين نحواً من عشرين ألفاً، ومن بقي منهم فرّ إلى الجبال. فبلغت أخبار الثورة وتخمين جذوتها إلى قسطنطينية في وقت واحد. وسخط الملك على باسوس والي فلسطين لعدم تداركه هذه الشؤون، فعزله من منصبه وأمر بقتله وولّى على فلسطين ايرينائوس، ففتت آثار السامريين في الجبال وأمات كثيرين منهم، وحكم على الباقيين بأعذبة أليمة. وثار أهل باسان لأنفسهم فقتلوا سليفان أحد شرفاء بلدتهم وكان عدواً ألد للمسيحيين. فمضى ابنه الكنت ارسان إلى قسطنطينية يشكو إلى الملك ما حلّ بأسرته من الجور، وأخذ معه امرأته وكانت تعتمد على صداقة الملكة توادورا، فزينا للملكة أن النصارى إنما هم المعتدون والمتسببون بما أصابهم من الضر. فحملت الملكة يوستينيانس على الانتقام من نصارى فلسطين، وأشعر النصارى بذلك، فأرسل بطرس بطريرك أورشليم القديس سابا الناسك الشهير إلى الملك فأجلّه الملك كثيراً وأدخله إلى قاعة الملكة توادورا، فسأله أن يضرع إلى الله ليرزقها ابناً فأجابها: «أسأل إله المجد أن يحفظ مملككم بالتقوى والمجد» فحزنت لأنه لم يجب سؤالها، ولما سأل القديس بعض مرافقيه لم لم يجب سؤالها فقال أخشى أن يخرج من هذا البطن من

يرتضع لبن المدافعة عن ساويروس فيكون أشبه بانسطاس الملك. وأجاب يوستنيانوس القديس سابا إلى كل من سأل وأمر أن لا ييني السامريون فيما بعد مجامع، وأن يحظر عليهم نيل شيء من المناصب. وأراد أن يمتن على أدياره باحسانه فقال لا حاجة لنا إلى شيء لأنّ الرب نصيبنا. وسأله أن يترك الخراج عن النصارى وأن ييني الكنائس التي أحرقتها السامريون ويعوّض بكرمه النصارى مما نُهب من بيوتهم، ويتم بناء كنيسة العذراء التي شرع في بنائها البطريك ايليا في أورشليم، وييني مستشفى للغرباء في أورشليم، وقلعة قرب ديرهِ لتصدّ وثبات السراكسة عنهم، فأجابهُ الملك إلى كل ما سأل (عن ترجمة القديس سابا).

وقد جاء في تاريخ يوحنا أسقف آسيا (عن العلامة السمعاني في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٨٩) إنه «في سنة ٨٦٤ يونانية (توافق سنة ٥٥٣ م) في شهر حزيران خَرَبَ زلزال مدن فينيقيا: بيروت واطرابلس وصور وصيدا وصرند وجبيل وانطرطس وغيرها». وجاء في هذا التاريخ بعد ذلك «في: سنة ٨٦٨ يونانية (توافق سنة ٥٥٦ م) زلزلت مدن فينيقية وسقط في البترون من الراس المعروف بوجه الحجر قسم كبير في البحر فتكوّن منه مرفأ ترسو به السفن، ولم يكن لهذه المدينة قبلاً مرفأ». قال السمعاني روى توفان ذلك بحروفه، لكنه قال إنّ هذا حدث في ٩ من شهر تموز في السنة ٢٤ ليوستنيانس (وهي سنة ٥٥٢ م) ورواه باجيوس في تاريخ سنة ٥٥١ م، وفي التاريخ المذكور أيضاً «سنة ٨٧٠ يونانية توافق سنة ٥٥٩ م) سقطت أبنية بيروت مدينة فينيقية بزلزال مع غيرها من مدن الجليل وفلسطين والعربية وفينيقية وتقهقر البحر إلى وراء ألفي خطوة... وسنة ٨٧٦ (سنة ٥٦٥ م) خربت مدن فينيقية وفلسطين والعربية بزلزال في شهر حزيران»^(١) فيظهر من ذلك أنّ الزلازل تواترت تلك السنين في سورية وما جاورها. وإليك ما قاله

(١) انتهى ما روينا عن يوحنا اسقف اسيا الذي كان معاصراً ليوستنيانس وما يلزم الانتباه اليه. وقد صرح به العلامة السمعاني (في المحل المذكور صفحة ٨٥) ان يوحنا هذا يخالف غيره من علماء السريان في حساب سني السلوقيين المعروفة بالتاريخ اليوناني، فهم يحسبون هذا التاريخ متقدماً على التاريخ المسيحي بثلاث مئة سنة وتسع سنين او احدى عشرة او اثني عشرة سنة وهو يخالفهم في ذلك اذ جعل موت يوستنيانس سنة ٨٨٥ الموافقة لسنة ٥٧٥ او سنة ٥٧٤ مع ان عامتهم تصرح بان وفاته كانت سنة ٥٦٥، ومثل ذلك في باقي ما ذكره في ايام يوستنيانس.

اغاثيا محامي الدعاوي (في تاريخه ك ٢ عد ١٥ عن كتابه في مكتبة الآباء اليونان): «في هذه الأثناء (في منتصف القرن السادس) في فصل الصيف حدث زلزال في البيزنطية وغيرها من مملكة الرومانيين وأخرب مدناً كثيرة في الجزر واليابسة، وأهلك سكانها. وبيروت تلك المدينة الجميلة قد شوّه جمالها وسقطت فيها تلك الأبنية الباذخة البديعة الصناعة، وهلك فيها كثيرون من سكانها والغرباء المتقاطرين إليها، وجمّ غفير من الشبان الشرفاء والفقهاء الذين كانوا يؤمنونها لتعلم شرائع الرومانيين، إذ كان لها هذا الانعام المشرف. وانتقل معلمو الشريعة إلى صيدا لقربها منها ريثما يتجدد بناء بيروت، لكنها لم تعد إلى ما كانت عليه من قبل بل إلى ما يشبهه». وعن توفان أنّ هذا الخراب عمّ اللاذقية والسويدية، فقد دمر الزلزال من كل مدينة نصفها ومات في كل منها تحت الردم سبعة آلاف وخمس مئة نفس، وبلغت هذه الأخبار قسطنطينية فأحزنت الجمهور ولجأوا إلى الصلوات العامة، وأرسل الملك مبالغ من المال لترميم هذه المدن وعفا أهلها من الخراج ثلاث سنين . وبذل اسم انطاكية بتسميتها تيوبولي أي مدينة الله برأي القديس سمعان الملقّب بالعجبي. فسّر الأهلون بهذا الاسم وأخذوا يسمون مدينتهم به. إنّ كل ما مرّ في هذه الفصول الثلاثة ملخص أكثره عن كتب بروكوب في حرب الفرس والغطط والبندالة، وفي أبنية يوستينيانس وتاريخه السري. وكان بروكوب هذا كاتب باليصار قائد جيش يوستينيانس، ثم عضواً في الندوة، ثم والياً في القسطنطينية. فهو ثقة وشاهد عيان لما كتبه.

عد ٦٤٩

يوستينس الثاني

لم يكن للملك يوستينيانس ابن فأوصى أن يخلفه يوستينس ابن أخته فيجيلانس، وكان وقتئذ رئيس البلاط الملكي، وكان قد تزوج بصوفية ابنة أخت الملكة توادورا. وبعد وفاة يوستينيانس نودي به ملكاً سنة ٥٦٥م فلم يكن له منازع ولا معترض، وقد توجّه والملكة يوحنا بطريك قسطنطينية، وخطب في الأعيان والشعب، على أنه لم يفرغ من خطابه إلّا أحدق به حشد من النساء يصرخن إليه أن يخلي سبيل السجناء، فضجّ الحشد بهتاف المسرة والحبور يتخلله أنين وشكوى،

فإنَّ يوستينيانس كان قد استنزف ثروة العامة ليقوم بنفقة أبنيته، واقترض مبالغ جسيمة من الخاصة ودفع إلى الدائنين سفايج وصكوكاً موهورة باسمه، فأخذ حينئذ كثيرون يرفعون إلى الملك صكوكهم طالبين وفاء دينهم، فأمر الملك أن يسكتوا، وخطب فيهم معذراً عما كان من سوء التصرف في شيخوخة سالفه وأمر بوفاء القيم المبيّنة في تلك الصكوك، فردّ على كل حقه، وأجار كل من أصابه جور. وهم بتوطيد السلم في الكنيسة فاستدعى الأساقفة المنفيين من مناهم، وأصدر منشوراً إلى جميع المسيحيين يحضّهم به على الاتحاد بالكنيسة. ويصرّح بمعتقده الصحيح ومخالفته للمبدعين، فتقبّل الكاثوليكيون هذا المنشور بمعظم المسرة، وقد ساعد كثيراً على الاتحاد، وأوفد فوتينس نسيب البصار إلى مصر ليؤمن كنائسها.

على أنّ هذه البواكير الحسنة لم يعقبها إلّا كباثر فظيعة، فإنَّ يوستينس عكف بعد ذلك على الملاذ متهتكاً، وأباح مذ السنة الأولى للملكة الطلاق، وكان يوستينيانس قد نهى عنه مفترضاً غرامة مالية على الزوج الذي يطلق امرأته ويتزوج غيرها. وأمسى يوستينس بخيلاً جائراً يزري الفقراء ويسلب الأغنياء أموالهم، يبيع كل شيء حتى المناصب البيعية متجراً بها تجارة نفاق، وكان له نسيب اسمه يوستينس أيضاً اتفق معه قبل ملكه على أنّ أيهما صار ملكاً أوى الآخر المنصب الثاني بعده. فأبدى له أولاً الصداقة ثم أنف منه بسعاية زوجته صوفيا به فولاه على مصر. ودسّت الملكة من قتله وأرسل إليها رأسه فتشفى يوستينس وامرأته منه إذ كانا يدوسانه. وكان نرسيس أحد قادة جيش يوستينيانس أخضع إيطاليا واستمر فيها مروّعاً كل ثائر وعدو، وكان له أعداء في القصر بعثوا الملكة على أن تجعل الملك يأمره بأن يرسل إلى قسطنطينية ما يجمعه من خراج إيطاليا، فأجابه نرسيس أنه مستعد لتنفيذ أمره على أنه يخطر على باله أنه إذا لم يبقَ في إيطاليا مال كافٍ لنفقة الجنود والحفاظة على الحصون فيفسح مجال إلى البرابرة الذين حولها ليطمعوا في استردادها. فلم يحفل الملك بمشورته الصالحة بل توهّم أنه يريد أن يستقل في إيطاليا. وكتبت إليه صوفيا «هلمّ إلى قسطنطينية عاجلاً فأنصبك عاملاً على نسائي العاملات فلا تصلح لغير ذلك». وأرسلت إليه مع رسولها عرناساً ومغزلاً. ولما فضّ الرسالة وقرأها حملق في الرسول وقال: «قل لمولاتك سأغزل لها كبة لا تقدر أن تحلّها». وأخذ فيه احتدام صدره كل مأخذ، وأمسى يتنازعه عاملان، سورة غضبه للانتقام، ومناخس ضميره إن خان مولاه والمملكة. ولم يتمالك عن أن يكتب إلى

البوان ملك اللومبردين أن يحمل على ايطاليا فيتبشر له فتحها. واعتزل في نابولي يتخالجه الهمم والغم والندم. وبينما هو على هذه الحال أتاه البابا يوحنا الثالث فأرجعه إلى روما، وكتب إلى البوان أن يرغب عن حملته إلى ايطاليا. وكان قد جيش جيشه فلم يقتلع عن عزمه. ومات نرسيس بعد أيام متنصفاً، ولا جرم أنه أساء لكن من حملته على هذا المنكر كانت أكثر إساءة، وأخذ ملك اللومبردين حينئذ أكثر ايطاليا.

ومن مظالم يوستينس أنه طرد القديس انسطاس بطريك انطاكية من كرسيه بحجة أنه يبذر مال كنيسته. وقد وشى به أن لما سُئل لِمَ هذا الاسراف أجاب خيفة أن يختلسه يوستينس وباء النوع البشري (رواه افاغريوس ك ٥ فصل ١ إلى ٥).

وعقد يوستينس مع خان التتر عهدة تجارية في جملة موادها الاتجار بالحرير الذي كان إلى حينئذ قليلاً في المملكة الرومانية، فسألت هذه العهدة كسرى ملك الفرس وأرسل مفوضاً من قبله إلى يوستينس يطالبه بالثلاثين ألف دينار التي كان يوستينانوس قد تعهد بدفعها كل سنة إلى ملك الفرس، فأجابه يوستينس أن في عزمه أن لا يدفع شيئاً وإذا أراد الفرس اشعال نار الحرب فهو مستعد أن ينجي بلاد فارس من ملك ظلوم متشامخ، فاحتدم صدر كسرى غيظاً، وأخذ يتأهب للحرب وأرسل يوستينس مرقيان القائد لكنه لم يصحبه بجيش ولا عدد، بل ألّب إليه في طريقه عسكرياً من الأهليين واجتاز بهم الفرات على حين غفلة، وأخذ ينكل بالفرس ويخرب ويحرق قراهم التي على التخوم. ولما أكمل كسرى معدات حربه زحف من قطيسفون بمئة ألف من الجنود، وأما يوستينس فبدلاً من أن يجد قائد جيشه استدعاه إلى قسطنطينية وأمر مكانه رجلاً فظاً متشامخاً قاسياً أسخط الجنود وقادتهم فازدروه وغادروه ولم يجد كسرى في طريقه معارضاً ففرّق جنوده في الاعمال التي على عدوة الفرات ينهبون ويحرقون حتى بلغوا انطاكية. ولو عرفوا ما حاق من الرعب بقلوب سكانها وما كانت عليها حصونها من الوهن لاستحذوا عليها، ولكنهم توهّموا أنّ أسوارها حصينة وأهلها أشداء فانصرفوا عنها إلى اباميا (قلعة المضيق) ففتحوها وأحرقوها وأسروا كثيرين من أهلها، وعاد كسرى يحاصر دارا في ما بين النهرين، وكانت قصبة الرومانيين حينئذ فافتتحها بعد ستة أشهر من حصارها بعد أن قتل أكثر سكانها في المدافعة، وترك فيها حامية وعاد إلى مملكته.

ولما اتصلت هذه الأخبار بالملك يوستينس اعتراه نوع من البله أعجزه عن تدبير الملك، فقبضت صوفيا الملكة على أزمنة سياسة المملكة، وشرت من كسرى بخمسة وأربعين ألف دينار ذهباً الهدنة سنة. وزينت للملك أن يختار له معاوناً أهلاً لتحمل أعباء المملكة ووقايتها من الانخزال، فاختار طييار وكان مؤسراً عزيزاً على الملك ورئيساً لحرسه، ومجماً بالفضائل والخلال الحسنة. وكانت الملكة أيضاً تحبه ووقع في قلبها أن تشترك معه في الملك بعد أن يتوفى الله الملك. وعرف طييار ما كتبه ضميرها فأخفى عليها زواجه، وتبناه الملك وسماه قيصر، فأوجبت هذه التسمية مسرة الجمهور، وأصلح بها يوستينس بعض ما أضرب به، فصرف طييار عنايته للمحافظة على ما بقي للمملكة في إيطاليا، ولم يطمع باستردادها لوجسه مما يدبره كسرى في المشرق، وجل ما تمكن منه أن يجعل كسرى يطيل مدة الهدنة إلى ثلاث سنين بالغ فيها بلم شعث المملكة والاستعداد للحرب إلى أن تسمرت نارها بين الفرس والرومانيين في أرمينيا. وكان جيش الرومانيين نحو مئة وخمسين ألفاً من الرجالة عدا الفرسان، وأمر عليه طييار رجلاً اسمه يوستينانس، فظهر على كسرى، وشنت جيشه وغنم خزائنه وأخذ منه ثمانين فيلاً أرسلها مقلّة خزائن كسرى إلى قسطنطينية، وتوغل يوستينانس في بلاد فارس ظافراً فأخرب وأحرق وأسر كثيرين حتى كان يبيع الأسير بدينار (يساوي ١٣ أو ١٤ فرنكاً)، واضطر كسرى أن يُدّل له طالباً الصلح، واستمر طييار يدبر شؤون المملكة بحكمة وسداد وحلم أربع سنين في حياة يوستينس. ولما شعر هذا الملك بدنو المنية جمع البطريك واكليرس قسطنطينية ورجال الندوة وكبراء الدولة وأقام طييار ملكاً خلفاً له. وتوفي بعد ثمانية أيام وملك ثلاث عشرة سنة فكانت وفاته سنة ٥٧٨م. والظاهر من كلام توفان أن اذلال الفرس في هذه الواقعة كان بعد أن تبوأ طييار منصبة الملك.

إن بعض المؤرخين يعزون ما كان من الجور والاعتساف على الرعية في أيام يوستينس إلى ضعف جسمه وسوء تصرف عماله وأعوانه ويمتدحون حسن نيته وسلامة طويته. ومن هؤلاء المؤرخين شدرانس في موجز تاريخه فإنه في كلامه على هذا الملك قال ما ملخصه أنه كان نحيف البنية، كثير الأمراض، قل ما يتمكن من الخروج من بلاطه. وكان أعوانه يهضمون حقوق الرعية ويتلغ الأقوياء مال الضعفاء. وخرج يوماً إلى الكنيسة فأحاط به جم من المظلومين يصيحون ليرحمهم فجمع عماله وخطب فيهم قائلاً: «كنت أظنكم جميعاً تخافون الله وتقنعون بالرزق

الذي يجري عليكم، ولا تجورون على أحد الفقراء، ويظهر لي أنكم تسخطون الله وتظلمون عباده وتضرون بالمملكة، فنشدتكم الله أن تكفوا عن الحيف والاضرار بالناس ولا سيما الفقراء». فلم ينجع هذا الكلام بالكبراء واستمروا باغين. وخرج الملك ثانية فضجّ البائسون سائلين انقاذهم من الظلم، فجمع الندوة وقال إن كنتم توقنون أنّ الله أولاني الملك فطيعوا أوامري وتنكبوا المضرة بالفقراء، فإنما الاسماك وحدها يأكل كبيرها صغيرها، فإن لم تمتلوا أوامري اختاروا لكم ملكاً آخر يتساهل لكم بظلم رعيته، فلا أريد أن أبقى ملكاً على بغاة. فأجابه أحد الوجهاء ولّني على المدينة وأجبنني إلى ما أسأل، وإن بقي شكّ فمر بقطع رأسي. فولاه على العاصمة وفي الغد أتت أرملة تشكو من أنّ أحد الحكام اختلس أموالها، فأمر الوالي ذلك الحاكم أن يحضر للمحاكمة معها، فازدرى أمره وأرسل إليه أحد سعاته ولم يلب دعوته، وعلم أنّ ذلك الحاكم دعاه الملك إلى مأدبة فحضر إليها الوالي أيضاً وقال للملك مولاي ان كنت ثابتاً في ما وعدتني من انفاذ كلمتي في من يظلمون الفقراء فأنا مقيم على عهدي، وإن اخلفت وعدك ودعوت إلى مأدبتك أحد هؤلاء البغاة فلا أواخذ أنا بنقض عهدي. وقصّ عليه الأمر فسخط الملك على الحاكم فأخذه الوالي وأمر بضربه ثم أركبه حماراً عرياناً وطوّفه في شوارع المدينة واستردّ منه كل ما اختلسه من الأرملة، فلم يعد أحد يجسر أن يلحق اهانة بأحد أو يمس غيره بضرب.

عد ٦٥٠

طيار الملك

لم يكن طيار من أسرة حسية لكنه ترقى في المناصب بذكائه وخلال له الحسنة حتى صار رئيساً للحرس الملكي، ثم اختاره يوستينس الثاني معاوناً وسماه قيصرًا كما رأيت سنة ٥٧٤م، فأحسن القيام بأعباء المملكة أربع سنين إلى أن توجه يوستينس ملكاً سنة ٥٧٨م. وكان طيار طويل القامة جميل المنظر حتى يعدّ أجمل رجال جيله. لطيفاً وديعاً حليماً لا بكلامه ومعاملته الناس فقط بل في خلقه وقلبه أيضاً، يحب شعبه كأب، ويعدّ سعادة رعيته كنزاً له. وقد أعفاهم من اداء الخراج السنة الأولى للملكه. وكان يجزل عطاياه للفقراء. وقد أجمع القدماء والحداث على الاعتراف له بهذه السجايا المشرفة.

وأتى يوماً يشهد الملاعب فضجّ الحشد بالدعاء له والترحيب به، وسأله أن يريهم الملكة. فحضرت تصحبها بنتاها قسطنطية وشريتون، وكانت صوفيا أرملة يوستينس هنالك ولم تكن تعلم أنه مزوّج بل كانت متهمّة في أن يتزوجها، فذهشت لذهول ووله، وافرط طيار في تكريمها وتعزيتها، وبنى لها قصراً في أجمل محل في المدينة، وزادها على ما كانت عليه من الأجلال والحرمة الملكية، فلم يكن ما ينسبها ولها وحزنها. هذا ما رواه المؤرخون اليونانيون توفان وشدرايس وزوناراس (في كلامهم على هذا الملك)، لكن القديس غريغوريوس أسقف تور أنبأنا (في ك ٥ من تاريخه فصل ٣١) إنّ هذه الملكة لم تكتفِ بغيتها بل عمدت إلى الانتقام من طيار. وتأمّرت مع بعض الأعيان ورؤساء الجيش على أن تثلّ عرش الملك وتقيم يوستينانيس أحد قادة الجيش ملكاً. ودرى طيار بالمكيدة وهو في ضواحي المدينة وعاد إلى الكنيسة توّاً يشكر الله لافتضاح سرّ المؤامرة. وجمع البطريك والندوة وأعلمهم بما كان. ولم يجز صوفيا الملكة إلّا بانتزاع شيء من خزائنها التي كانت وسيلة لمكرها، ولأ بتغيير خدامها. وأما يوستينانيس فانطرح على قدمي الملك صاغراً مستغفراً فعفا عنه، وبعد أن وثّبه أبقاه على منصبه وكرامته.

لم يكن من الأحداث التي تستحق ذكراً في أيام طيار إلّا محاربته للفرس واذلالهم. فإنّ كسرى ملك الفرس كان قد توفي سنة ٥٧٩م وخلفه ابنه هرمزدا وكان جائراً قاسياً سفاكاً للدم. وهّم أن يسعر نار الحرب بينه وبين الرومانيين فأرسل إليه طيار وفداً يكشفه بأمر الصلح، فلم يشأ هرمزدا أن يقابلهم بل طردهم من بلاده، فأوفد إليه طيار مفوضين آخرين ومعهم هدايا نفيسة وجماً غفيراً من الاسرى الفرس. فشّر أهلهم ومواطنوهم بتخلية سبيلهم. وزاد هرمزدا فظاظة واهماً أنّ ذلك دليل على ضعف خصمه، وأوقف المفوضين شهرين إلى أن صرفهم وأصبحهم بمن يضلهم الطريق، فلم يتحمل طيار هذه الاهانات فأمر على جيشه موريق وأرسله إلى ما بين النهرين، فشنت الفرس وطردهم من هذه البلاد، واستمر هرمزدا يبغي الحرب فكانت وقعة هائلة بين موريق وعساكر الفرس في بلادهم، فذهب هؤلاء شذر مذر، وألقى قائدهم نفسه بين صفوف الرومانيين، فكان الساعي على حتفه بظلفه. فتوغل الرومانيون في فارس ثم عاد موريق إلى قسطنطينية ظافراً. وأجرى طيار حفلات الظفر ليمحو آثار انخزال الرومانيين في أيام أسلافه. وكان طيار على شبابه معتلاً برثته، واتصل سقمه إلى درجة لا يرجى شفاؤه، وكان يعلم ما يحفّ بالملكة من

الأخطار والمصاعب، وما تكون من غوائل وفاته فعمد بعد أن تروى ملياً على أن يسمي موريق قيصرأ، وخطب له ابنته قسطنطية في ٥ آب سنة ٥٨٢م. وشعر بعد ذلك بدنو المنون فاستدعى رؤساء بلاطه والندوة والقضاة والبطريك وعلية الاكليرس وأعيان الشعب، فتلا يوحنا كاتبه خطبة باسمه أقام بها موريق عاهلاً وخلفاً له في الملك. وأطال في الوصايا والنصائح له ليتقي الله ويعلم أنه تلقى الملك منه، وأنه مطالب له بكل ما يعمل، وأن يتشبث بأهداب العدل ويسوي الرعية في الحقوق. ولولا خشية ملل المطالعين لأثبتنا هذه الخطبة التي يجدر أن تُكتب بالتبر لا بالمداد. ولم يبقَ أحد ممن سمعوها إلا وفاضت عيناه بالدموع لهفاً وأسفاً على فقد هذا الملك الصالح المغرم بخير رعاياه وسعادتهم في حياته وبعد مماته. وتناول التاج ويده لترتجفان لنحوه فتوّج به رأس موريق، وأخذ البرفير فوشّحه به تجاه هذا الحشد الحافل، ثم حمل بسريره إلى بلاطه حيث لقي في الغد ربه في ١٤ آب سنة ٥٨٢م، فأُسف عليه كل من عرفه (افاغريوس وتوفان وشدرانس في كلامهم في هذا الملك).

عد ٦٥١

موريق الملك

موريق (أو موريس) وُلد في الكبادوك سنة ٥٣٩م وتراقى في المناصب الجندية إلى أن أُمّر طيار على جيشه لمحاربة الفرس، ثم سماه قيصرأ وخطب له ابنته وجعله خليفة له في الملك قبيل وفاته في ١٣ آب سنة ٥٨٢م. وقد تزوج بخطيبته بُعيد تنويجه بحفلات دعا إليها كبراء مملكته، كما يدعى الأنساء والأصدقاء فأكثر الشعب فيها مظاهر البهجة والسرور. على أنه لم يوفق في بواكير حروبه، فإنَّ القائد الذي أرسله لمواصلة الحرب مع الفرس، ظهوروا عليه وتصدوا للسطو على بلاد ما بين النهرين، فعزله وأمر مكانه فيليبك وزوجه أخته، فكسر الفرس جيشه أولاً ثم استظهر عليهم في وقعة حتى كاد يظن أنها القاضية الفاصلة، لكن الفرس لما شعث جيشهم واستعانوا بالأهلين فتقوا على الرومانيين، واضطر فيليبك أن ينهزم مذعوراً، فاستدعاه الملك إليه وأمر غيره. ولم يمه هذه الحرب إلا ثورة فارام أو بارام قائد جيش هرمزدا ملك الفرس عليه، وثلَّ عرشه والقائه في السجن، وتمليك أعيان مملكته ابنه كسرى عوضه. على أنَّ فارام أرغم كسرى هذا أيضاً أن يفرّ ويلجأ إلى موريق

الملك سائلاً إياه ان ينجده على عدوه، فتقبل الملك لجوئه مسروراً متفاخراً وأطلق جباً به من كان عنده من أسرى الفرس، ووعدته بأن ينجده، وأقرضه مالاً يستعين به على خصمه فارام الذي كان قد سمي ملكاً. ولكنه قد أثار عليه قومه لفظاً وأخلاقه وشراسة طبعه، فتيشّر لكسرى بهذا وينجدة موريق له بجنوده أيضاً أن يعود إلى ملكه، وأن يتعقب الثائر ويظفر به ببسالة جنود موريق وقائدهم نرسيس، حتى لم يعد يعرف مقرّ لفارام. وعاد كسرى من ملاحقته فكتب إلى موريق رسالة يبين بها امتنانه له ومحافظته على صداقته طول حياته، ويسأله أن يقي عنده ألف جندي من الرومانيين فأجابه موريق إلى كل من سأله، وقد ذكر شدرانس هذه الأحداث في تاريخ السنة الثامنة لموريق. وعليه فيكون وقوعها في سنة ٥٩٠م.

وكانت لموريق حروب متواترة مع الأفاريين وهم شعب من التتر سطا عليهم الصّينيون فأخرجوهم من بلادهم سنة ٥٥٢م، فحلوا على شواطئ الدانوب فحاربوا موريق واستحوذوا على بعض أملاكه وانتشروا في جرمانيا حتى ايطاليا. وكان موريق قد اعتاد الترف بعد ملكه فلم يخرج لحربهم ولا تيشّر له أن يختبر قواد جيشه ليولي من كان منهم أكثر أهلية ومهارة، فازداد هؤلاء الأعداء جرأة وأرغموه أن يؤدديهم كل سنة جعلاً وافراً، وكلما رأوه متضايقاً طالبوه بالزيادة عليه وهددوه بفتح عاصمته، وقد فتكوا بجنوده نحو سنة ٦٠٠م، وأخذوا منهم اثني عشر ألف أسير، فأكره موريق أن يطلب الصلح من ملكهم، فأباه أولاً ثم أخذ يتساهل حتى عرض بتخلية سبيل الأسرى على شريطة أن يقتدي كلاً منهم بمبلغ زهيد لا يتجاوز الفرنكين في نقود أيامنا، فأبى موريق دفع هذه الفدية إما لبخله إما لحنقه من وغادة جنوده. فاحتدم ملك الافاريين وقتل الأسرى جميعاً، فبعث سوء تصرف موريق هذا شعبه وجنوده على الثورة عليه، ولا سيما بعد أن علموا أنه دفع إلى الافاريين زيادة في جعلهم عشرين ألف دينار ذهباً، وأفضت هذه الثورة بعد سنتين إلى ثلّ عرشه. على أنّ موريق لم يصبر طويلاً على اللدّ، وتحيّن أول فرصة فأمر بريسكس على جيشه، فانتصر على الافاريين في خمس وقائع وأهلك نخبة شبانهم، ولتهب أموالهم. ولسبب يعلمه الله استدعى موريق بريسكس وعزله وولّى مكانه على جيشه أخاه بطرس. وكان الجنود يزدرونه لجهله قيادة الجيش، فخلعوا نير طاعته وعصوا أوامره وهددوه فخاف وانهزم، وأقام الجنود فوقاً قائداً لهم. وكان فوقاً من أصغر رؤساء الجند، لكنه كان جسوراً شرساً، وكان قبل سنتين تطاول على الملك نفسه

مؤنباً إياه على سوء. واتصلت أخبار ثورة الجنود إلى العاصمة فكان لها صدى شديد. وجاهر مبغضو الملك بالعداوة وزحف فوقاً بجنوده إلى القسطنطينية، فأرسل موريق بعض رؤساء قصره يندرونهم بالطاعة فازداد فوقاً جرأة، وأراد الملك أن يمنعهم من الدخول إلى المدينة وأقام بعض الجنود والأهلين على أسوارها، ولكن انتشرت الثورة في أحياء المدينة وتقدم الثائرون من الخارج، فتنكر موريق وألقى نفسه في سفينة مع امرأته وأولاده وما تيسر له أخذه من خزائنه، لكنه لم يصل إلى البر من جهة آسيا إلا واعتراه مرض منعه من المسير، وأرسل ابنه توادوسيوس إلى كسرى ملك الفرس يستنجد به في ضيقه كما نجده هو من قبل، ولكن بعد المزار. ولما علم الشعب فرار موريق خرجوا إلى لقاء فوقاً بالبهجة والاحتفاء، وأقرت الندوة والأعيان والبطريك نفسه لفوقاً بالملك، وأرسل هو فقبض على موريق وأسرته وقتل ابنه أمامه ليزيده عذاباً ثم قتله. وكان ذلك في ٢٧ تشرين الآخر سنة ٦٠٢م، وكان عمر موريق حينئذ ثلاثاً وستين سنة، وقد ملك عشرين سنة. وطُرحت جثته وجثث بنيه في البحر وأوتي برؤوسهم إلى فوقاً. وكان موريق طلب ابنه توادوسيوس فعاد من طريقه فأبسل مع اخوته على رواية. وعلى رواية أخرى وهي أظهر من الأولى أن جنود فوقاً التفتوا به فقتلوه بمعزل عن اخوته. هذه خلاصة أخذت عن تواريخ توافان وشدرانس وزوناراس في كلامهم على موريق.

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون في سورية ومن عاصرهم في غيرها في القرن السادس

عد ٦٥٢

المشاهير الدنيويون في سورية في هذا القرن

قلّ من كان من المشاهير الدنيويين في سورية في هذا القرن أيضاً، فقد عرفنا منهم الري هرون ابن أشير، كان في أوائل هذا القرن أو آخر القرن السالف في فلسطين، وقد عاون على استنباط وضع النقط والحركات في اللغة العبرانية، وقد ذكرناه في تاريخ هذا القرن الخامس. وعرفنا أيضاً دوروتاوس أحد معلمي مدرسة الشريعة في بيروت كان في جملة العلماء الذين استدعاهم الملك يوستينانس لتنقيح الشرائع وضمّها إلى مؤلف واحد، فعني مع تريونيان رئيس هذه اللجنة في وضع كتاب الشريعة المنسوب إلى هذا الملك، والمعروف بالديجستا *dicestae* وهي كلمة لاتينية معناها الشرائع المنظمة أو نظام الشريعة. وقد أثبتته هذا الملك في ١٦ كانون الأول سنة ٥٣٣م، وقد اختاره يوستينانس لوضع كتاب في القواعد والضوابط الأولى لهذا العلم تيسيراً لتعلّمه. فأتمّ هذا المؤلف مع تريونيان المذكور، وتوافلس أحد معلمي مدرسة الشريعة في القسطنطينية، وهو الكتاب المسمى باللاتينية *INSTITUTOS* انستيتيتس أي الرسوم أو المراسيم. وأثبتته هذا الملك بمنشوره المؤرخ في ٢١ تشرين الثاني سنة ٥٣٣م. وعلمنا أيضاً أنه كان مع دوروتاوس عالم آخر من معلمي الشريعة في بيروت في تأليف كتاب الديجستا المذكور، ولكننا لم نعر على اسمه في كتب المؤرخين التي لدينا، مع أنهم أجمعوا على أنّ من وضعوا

هذا الكتاب كانوا تريبونيان ومعلمين من معلمي مدرسة قسطنطينية، ومعلمين من معلمي مدرسة بيروت مع أحد عشر عالماً من محامي الدعاوي.

على أنّ من فاق هؤلاء شهرة إنما هو فاغريوس المؤرخ الشهير الذي استشهدنا بكلامه متواتراً في هذا الكتاب، فقد وُلد سنة ٥٣٦م في حماه التي سماها القدماء ايفانيا نسبةً إلى الملك انطيوخس ايفان، وأقام مدة في انطاكية يتعاطى محاماة الدعاوي، ثم انطلق إلى قسطنطينية. وكان مكرماً معزراً لدن الملكين طيبار وخليفته موريق، ورقياه إلى مناصب رفيعة. ولم تكن هذه المناصب لتشغله عن خدمة العلم ونفع الناس به، فقد ألّف كتاباً تاريخياً دينياً دنيوياً مقسوماً إلى ستة كتب، ابتداءً فيه من حيث انتهى توادوريطوس وسقراط من تاريخهما أي من سنة ٤٣١م وانتهى به إلى سنة ٥٩٤م. وقد صرّح فوتيوس (في ك ٢٩ من مكتبته) بأنه فاق غيره من المؤرخين في ايراد الحقائق، وقد ترجم تاريخه من اليونانية إلى اللاتينية العالمان مسكولس كريستفورس، وادر دي فالوا وطبع مع تأليف اوسابيوس وسقراط وسوزومانوس وتوادوريطوس سنة ١٥٤٤م في باريس. وترجمه إلى الافرنسية العالم كوزان المعروف بالرئيس، وطبع الأب مين تاريخه في جملة مكتبة الآباء الذين كتبوا في اليونانية سنة ١٨٦٠م في باريس.

وقد روى أغاثيا (ك ٢ عد ٣٠ من تاريخه) الذي كان في أيام الملك يوستنيانوس، وكتب تاريخه من سنة ٥٥٣ إلى سنة ٥٥٩م في خمسة كتب أنه كان في أيامه في سورية من العلماء هرميا وديوجان الفينيقيان، وديسيدورس الغزي، ووصفهم بأنهم كانوا أزهاراً في أيامه ولم نطلع في كتب غيره على شيء من تراجم هؤلاء. وذكر أيضاً (في ك ٢ عد ٢٩ من تاريخه المذكور) اورانيوس الصوري فقال إنه أتى بيزنطية (أي قسطنطينية) يتعاطى صناعة الطب وكان يدّعي أنه فيلسوف أفلاطوني ويماحك في الجدل. وهذا أيضاً لم نطلع في ما لدينا من الكتب على شيء من ترجمته فاجتزأنا بهذه الإشارة. لعلّ أحداً يأتي بعدنا فينقب في حطام القدماء عن هؤلاء العلماء فيبعثهم للحياة في عالم العلم.

بعض من عاصر هؤلاء خارجاً عن سورية

نعرف من مشاهير العلماء الدنيويين في هذا القرن خارجاً عن سورية أولاً بروكوب، وهو مؤرخ يوناني وُلد في قيصرية الكبادوك نحو سنة ٥٠٠م، وقد افتتح مدرسة يعلم فيها الفصاحة بقسطنطينية، ثم صحب باليصار قائد جيش يوستينيانس في حروبه في آسيا وأفريقيا وإيطاليا إذ كان كاتباً له، إلى أن جعله يوستينيانس من رجال الندوة، ثم نصّبه والياً في قسطنطينية سنة ٥٦٢م إلى أن أدركته الوفاة نحو سنة ٥٦٥م، ويُظن أنه كان مسيحياً. ومن مصنفاته كتاب في الحروب مع الغلط والفرس والبندالة يقدر يوستينيانس وحاشيته فيه حق قدرهم من الحرمة والاجلال. ولكن له كتاب عنوانه إنكودت (أي السري) أكثر فيه من الغيبة والطعن بيوستينيانس وباليصار ولا سيما بالملكة توادورا، حتى رأى بعض المحققين أن يعزو هذا الكتاب إلى غير بروكوب. وله أيضاً كتاب حوى ست مقالات في الابنية التي أحدثها يوستينيانس الملك تنطوي على فوائد عديدة جغرافية وصناعية قد طبعت تأليفه هذه باليونانية مع ترجمتها بعناية الأب ملترا في المجموعة الموسومة بالمكتبة البيزنطية سنة ١٦٦٢م، ثم طبعها دندرف في مدينة بون سنة ١٨٣٣م. وقد ترجم العالم مرتينس فوما كتابيه في التاريخ والأبنية إلى الافرنسية وطبعهما في باريس سنة ١٥٨٧م. وترجم العالم ايزمير تاريخه السري وطبعه سنة ١٨٥٦م وعلّق عليه حواشي مفيدة. ومن هؤلاء اغاثيا المار ذكره آنفاً وهو مؤرخ يوناني وُلد في ميرينا بآسيا الصغرى، وكتب تاريخ الملك يوستينيانس من سنة ٥٥٣ إلى سنة ٥٥٩م في خمسة كتب تكمله لتاريخ بروكوب، وطبع في جملة الكتب التي اشتملت عليها المجموعة البيزنطية سنة ١٦٦٢م، وقد ترجمه من اليونانية إلى الافرنسية العالم كوزان المعروف بالرئيس. وله قصائد شعرية وقد طبع مؤلفاته كلها برونك سنة ١٧٧٩م، ويعقوب سنة ١٧١٣م في لبسيك، وطبع تاريخه الأب مين في جملة كتب العلماء الذين كتبوا في اليونانية نحو سنة ١٨٦٠م.

وكان من علماء السريان الدنيويين في هذا القرن سرجيوس أو سركيس الرشعيني (نسبة إلى بلدة اسمها رشعين أو راس العين) ببلاد ما بين النهرين. واشتهر بأنه كان أوّل من ترجم الكتب الفلسفية والطبية من اللغة اليونانية إلى السريانية.

وقد ذكره أبو الفرج ابن العبري في تاريخه فقال: «وكان من السريان أطباء ماهرون منهم سركيس الرشعيني، وهو أول من ترجم الكتب الفلسفية والطبية من اليونانية إلى السريانية واثناسيوس الآمدي وفيلاغريوس» (عن السمعاني مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣١٥). وقال فيه ابن العبري أيضاً: «إنه في أيام افرام الآمدي (بطريك انطاكية) مضى سركيس الرشعيني إلى انطاكية ليشكو اسكوليوس أسقف محله إلى افرام، وكان سركيس رجلاً فصيحاً ضليعاً في علوم السريان واليونان وطبيباً حاذقاً جداً، وكان قد خصى نفسه طائعاً على ما شهد فرولوغس، لكنه كان ذا سيرة سيئة متهتكاً ومتهماً بمحبة المال، فوعده افرام بأن يدفع له كل ما يسأل إذا أراد أن يمضي إلى روما برسالة إلى اغايطس الخبر الروماني. فارتضى سركيس وسار إلى روما وأتى بأغايطس إلى قسطنطينية (عن السمعاني في المحل المذكور صفحة ٣٢٣) وكان غرض اغايطس من قدومه إلى قسطنطينية أن يصلح ما بين يوستينانوس وتيوداتس ملك الغطط. وقال السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٨٧). «لا يمكنني أن أقطع بكون سركيس هذا هو سركيس المترجم نفسه الذي كان في أيام كسرى ملك الفرس ويوستينانوس الملك. واشتهر بترجمته إلى اليونانية سلسلة ملوك الفرس وأعمالهم بطلب اغاثيا (المار ذكره)، على أن العصر الذي كانا فيه واحد، والمكان واحد وكل منهما كان عالماً وضليعاً بمعرفة اللغات». وعليه فيرجح أنهما سركيس واحد لا سركيسان. وقد ذكر سركيس هذا عبد يشوع الصوباوي في قصيدته (فصل ٦٤) وقال إنَّ له شروحاً في المنطق والبيان.

ذيل

مشاهير شعراء العرب النصارى في هذا القرن السادس

رأينا أن نُطرف قراء كتابنا بشيء ولو قليلاً من أخبار شعراء العرب في هذا القرن جرياً على ذكرنا بعض المشاهير من غير سورية، فشعراء العرب أولى بهذا الذكر من أوجه، وقد اعتمدنا في ما نلخصه من تراجمهم على مجموعة الأب

لويس شيخو اليسوعي في شعراء النصرانية التي جمعها بتعب جليل من أشهر كتبهم، وصححها وطبعها في بيروت سنة ١٨٩٠م.

فمن هؤلاء الشعراء امرؤ القيس وهو ابن حجر بن الحارث بن عمرو المقصور من قبيلة كندة، وأمه أخت كليب والمهلهل التغلبيين، وُلد لنحو سنة ٥٢٠م، وكان ذكياً متوقداً للفهم. ولما ترعرع أخذ يقول الشعر، وقيل إنَّ خاله المهلهل لقَّنه هذا الفن حتى قدم على سائر شعراء عصره. وغضب عليه أبوه لقوله الشعر لأنه كان أمير قبيلته. وكان الملوك يأنفون من ذلك فطرده، فكان امرؤ القيس يسير في أحياء العرب ومعه أخلاط منهم، وقال حينئذٍ معلقته المشهورة ومطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وما برح مع صعاليك العرب حتى بلغه مقتل أبيه حجر، فألى أن لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يُدهن بدهن ولا يلهو بلهو حتى يدرك بثأر أبيه. وكانت له حروب شديدة مع بني أسد قاتلي أبيه، وقتل منهم كثيرين، ولم ينكف عن القتال حتى خذله العرب الذين كان استنجدهم فنجدوه، فمضى يحرش غيرهم على بني أسد، وخاصمه المنذر (ابن ماء السماء على مذهب المؤرخين العرب) أحد ملوك الحيرة. ولجأ لما ضاق ذرعه عن مناوأة كل من أثارهم عليه إلى قيصر الروم، وكان حينئذٍ يوستينيانس (على مذهب المؤرخين العرب)، ويقال أنه قلَّده أمرة فلسطين، ولم ينجده لإعادة ملكه، فضجر وعاد إلى بلده فمات في طريقه سنة ٥٦٥م. ولأمرئ القيس في كل هذه المواقع قصائد رنانة يمكن مطالعتها في ديوانه أو في الكتاب المار ذكره. وكان مسيحياً وقد مرَّ لنا كلام فيه وفي الاسهم التي استودعها السموأل (في عد ٦١٠).

إننا نرى خلافاً بين المؤرخين العرب وغيرهم في زمان ماوية ماء السماء، فقد ذكرها سوزومانوس وتوادوريطوس في أواخر القرن الرابع وملك بعدها المنذر بن ماء السماء في أوائل القرن الخامس. والمؤرخون العرب يقولون إنَّ المنذر هذا كان يناوئ امرأ القيس حتى اضطره إلى الفرار، وجعلوا المنذر هذا في أيام كسرى انوشروان الذي ملك من نحو سنة ٥٣٠ إلى سنة ٥٧٧م في القرن السادس، وأتبعهم في ذلك صاحب المجموعة الذي لخصنا هنا ما كتبه في ترجمة امرئ القيس، وهو يخالف ما ذكرناه في عد ٦١٠. فأتبعنا هنالك رأيهما إذ ذكرا قصة ماء السماء

وابنها في القرن الخامس وتاريخهما لا يمتد إلا إلى أواسط القرن الخامس. وروينا هنا ما جاء في المجموعة المذكورة نقلاً عن المؤرخين العرب، والذي نراه الآن أنَّ رواية توادوريطوس وسوزومانوس أنَّ ماء السماء وابنها المنذر كانا في آخر القرن الرابع وأول الخامس هي أحق بالاتباع لأنهما ثقة. وكانا معاصرين لهذه الملكة وابنها. وأما امرؤ القيس والمنذر الذي ناصبه فكانا في القرن السادس. ولم يكن المنذر هذا ابن ماء السماء بل من ذريتها وقد غرتنا تسمية المؤرخين له ابن ماء السماء حتى تكمننا عن امرؤ القيس والسموأل في تاريخ القرن الخامس في عد ٦١٠م.

ومن مشاهيرهم حنظلة الطائي وهو ابن عفراء بن النعمان بن حبة إلى الغوث بن طي. ورووا أنه بسببه تنصّر المنذر بن ماء السماء، وذلك أنَّ المنذر جعل له يومين، يوم نعيم ويوم يؤس، فأول من يطلع عليه يوم يؤسه يقتله ومن جاءه يوم نعيمه أغناه. وكان حنظلة قد آوى المنذر يوم خرج إلى الصّيد وضلّ طريقه وقرّاه بحليب ناقته ولحمها. وقال له المنذر عند انصرافه يا أخاطي أنا المنذر فاطلب ثوابك. وأصابته حنظلة مصيبة وساءت حاله فمضى إلى المنذر وكان يوم يؤسه فقال له أبشر بقتلك. فسأله أن يؤجله سنة ليرجع إلى أهله ثم يصير إليه في الأجل، وطلب كفيلاً فكفله رجل اسمه شريك بن عمر، وحلّ الأجل ولم يأت حنظلة، فأمر المنذر بقتل شريك فتهياً للقتل، ووقف السيّاف بجانبه فلم يشعر إلاّ براكب قد ظهر فإذا هو حنظلة، فقال له الملك ما الذي جاء بك وقد أفلت من القتل؟ قال: الوفاء. قال: وما دعاك إلى الوفاء؟ قال: إنّ لي ديناً يمنعني من الغدر. قال: وما دينك؟ قال: النصرانية. قال: فاعرضها عليّ، فأعرضها فتنصّر المنذر. قال الميداني وتنصّر معه أهل الحيرة أجمعون. قال الأب شيخو إنّ هذه القصة تعزى للنعمان بن المنذر لكنه استخار رواية كتاب الأغاني فعزاها إلى المنذر. قلت، وقد تكون القصة من الأقاليم المدخلة فلا يمكن القطع بصحتها لأنّ ماوية المسماة ماء السماء وابنها المنذر كانا قبل حنظلة بنحو قرن كامل كما مرّ، وكانا مسيحيين. ويشتم من الرواية رائحة الاستنباط والحكايات: ومهما يكن من أمرها فحنظلة باع ما ملك وبني ديراً قريباً من شاطئ الفرات، وترهب فيه ويسمى دير حنظلة. وقال فيه عبدالله بن محمد الأمين:

ألا يا دير حنظلة المفدى لقد أورثتني سقماً وكداً

وتوفي حنظلة في هذا الدير سنة ٥٩٠م وهو من شعراء الجاهلية. لم يبق إلا القليل من شعره، ومنه ما رواه أبو الفرج ابن الطيب النصراني:

مهما يكن من ريب دهرٍ فإنني أرى قمر الليل المعذب كالفتى
يهلّ صغيراً ثم يعظم ضؤه وصورته حتى إذا ما تمّ استوى
وقرب يخبو ضؤه وشعاعه حتى يستسرّ فما يرى

ومنهم حاتم الطائي وهو ابن عبدالله بن سعد إلى الغوث ابن طي. ولهم في كرمه وجوده روايات كثيرة غريبة تلحقها بالأقاصيص، وأحسبها مبالغت تعمد بها الرواة حتّ الناس على الكرم. وسلکوا فيها مسلك شعراء العرب بالمبالغة والغلو على أنها لا تخلو من الحقيقة حتى ضربت الأمثال بجلود حاتم طي. وكان حاتم شاعراً مجيداً يكرر في قصائده ذكر الجود والكرم. ويتفاخر بهما الناس ويحتّ الناس عليهما، ومن ذلك قوله:

وقد علم الأقوام لو أنّ حاتمًا أراد شراء المال كان له وفر
ولاني لا آلو بمال صنيعة فأوله زاد وآخره ذخّر
يفك به العاني ويوكل طيباً وما أن تعريه القداح ولا الخمر
عنينا زماناً بالتصعلك والغنى كما الدهر في أيامه العسر واليسر
فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر
فقدماً عصيت العاذلات وسلّطت على مصطفى مالي أنا ملي العشر
وقال من قصيدة أخرى:

ولا اشتري مالاً بغدر علمته ألا كل مال خالط الغدر انكد
إذا كان بعض المال رباً لأهله فإنني بحمد الله مالي معبد
يفك به العاني ويوكل طيباً ويعطى إذا منّ البخيل المطرّد
ولذلك لهج الشعراء بمدحه فقال أحدهم:

وحاتم طي إن طوى الموت جسمه فنشر اسمه في الجود عاش مخلداً
وعن المجموعة المذكورة إنّ وفاة حاتم طي كانت سنة ٦٠٥م.

ومنهم كليب وأخوه المهلهل وهما ابنا ربيعة بن الحارث بن زهير إلى تغلب.
وكليب اسمه وأهل المهلهل اسمه عدي. وكانت بين بني ربيعة وملوك اليمن
حروب مشهورة، وكان كليب رئيس قومه فأذلّ جموع اليمن وهزمهم، وساد بقومه
واستطال وبغاء، وتزوج جلييلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان، وكان أخوها جسّاس له
خالة اسمها البسوس نزلت عليه، وكانت لها ناقة تسمى سراب خرق كليب
ضربها وقتل فصيلة إذ رآها ترعى في مرعاه، فغار جسّاس لخالته وأنف من بغى
كليب فقتله. فهبّ المهلهل أخوه يثار بدمه من بني مرة فكانت بين الفريقين
الحروب المعروفة بحرب البسوس. وكانت هذه الحرب في أواخر القرن الخامس، فإنّ
كليلاً قُتل على ما في المجموعة المذكورة سنة ٤٩٤م وأخوه عدي وهو المهلهل قُتل
سنة ٥٣١م. ولكليب أشعار قليلة، ولمهلهل أشعار كثيرة ولا سيما في رثاء أخيه
والادراك بثاره، وحروبه وقتله، بل له ديوان تتداوله أيدي العامة، لكنه قد كثر فيه
اللحن والخطأ من جهل النساخ. قال صاحب المجموعة المذكورة لا شك أنّ المهلهل
كان يدين بالنصرانية فإنّ قبيلته كانت قد تنصّرت منذ أوائل القرن الرابع، وفي
شعره ما يدل على إيمانه بالله وبالبعث، وفي أسرته كثيرون قد ثبت تنصيرهم.

وكان منهم السفاح التغلبي وقد توفي سنة ٥٥٥م، والأخنس بن شهاب وتوفي
سنة ٥٥٦م، وجابر بن حنى التغلبي سنة ٥٦٤م، وعميرة التغلبي سنة ٥٦٨م،
وعمر بن كلثوم صاحب المعلقة المشهورة، وتوفي سنة ٦٠٠م وقس بن ساعدة
الشهير، وتوفي أيضاً سنة ٦٦٠م، وعبد المسيح بن عسلة سنة ٥٩٢م والحارث بن
عباد سنة ٥٥٠م، وطرفة بن العبد سنة ٥٦٤م، والمتلمس سنة ٥٨٠م إلى غير
هؤلاء.

هذه صورة كاليان الملك الروماني عن تمثال له في الكايتول بروما



القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٦٥٤

بطاركة انطاكية في القرن السادس

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن الخامس بذكر افلايانس الثاني الذي توفاه الله سنة ٥١١م وخلفه ساويرس، وكان مغوياً بغواية اوطيخا، وقد وُلد في بلاد فارس وثنياً، ودرس العلوم في بيروت، وتنصّر في اطرابلس بفينيقيا، وعمّده أسقف كاثوليكي، وأثر السيرة الرهبانية فانضوى إلى دير قريب من غزة ثم مضى إلى مصر، فشايح بطرس الالغ البطريك الاسكندري مناصباً تيموتاوس البطريك الكاثوليكي. ولما أذعن الالغ لمنشور زينون المعنّون هنيوتيكون أي منشور الاتحاد اعتزل ساويرس عن شركته، لأنّ المنشور لم يصرّح بنبد رسوم المجمع الخلكيدوني، وأتى في مقدمة جمهور من الرهبان إلى قسطنطينية مهتجاً بين القوم المخالفة لرسوم المجمع، وأغضى انسطاس الملك على شرّه لمناصبته هذا المجمع حتى اتصل ساويرس إلى عزل مكدونينوس البطريك القسطنطيني واقامة تيموتاوس خازن الملكة بطريكاً مكانه، وقد عاون تيموتاوس ساويرس لدى الملك انسطاس على طرد افلايانس بطريك انطاكية

من كرسية وانتخاب ساويرس مكانه، فُقي إلى هذا الكرسي ٥١٢م. وفي يوم ارتقائه إليه حرّم المجمع الخلكيدوني ورسالة القديس لاون البابا. وأُوفد رسائله إلى كل من كانوا متشبثين بمراسيم المجمع الخلكيدوني. وأبى ايليا بطريرك أورشليم أن يشترك معه وظلّ ساويرس يدبر مهام البطيركية الانطاكية بالعنف والاعتساف خمس سنين وبعض أشهر إلى أن عاجلت المنية انسطاس الملك، وخلفه يوستينس الصالح سنة ٥١٧م، فأمر بعقد مجمع في قسطنطينية، وأجمع الاساقفة الملتصمون فيه على تأييد مراسيم المجمع الخلكيدوني، وحرّموا ساويرس. وأمر الملك يوستينس بالقبض عليه وقطع لسانه، ففرّ من انطاكية (روى ذلك لكويان في المشرق المسيحي في كلامه على ساويرس عن افاغريوس ك ٤ من تاريخه فصل ٤). وخلاصة ما رواه افاغريوس في المحل المذكور وفي محل آخر (ك ٣ من تاريخه فصل ٣٧) أنّ ساويرس رقي إلى البطيركية في شهر تشرين الثاني سنة ٥٦١ للتاريخ الانطاكي الموافقة سنة ٥١٢ للتاريخ المسيحي العامي. وفرّ من انطاكية في شهر أيلول سنة ٥٦٧ للتاريخ الانطاكي الموافقة سنة ٥١٨م، فيكون استمر في البطيركية خمس سنين وعشرة أشهر. وكذلك روى توفان أنّ فرار ساويرس كان لسنة ٥١١م على مذهبه في تاريخ السنين، وهي سنة ٥١٨م على مذهب عامة المؤرخين.

قال لكويان (في المشرق المسيحي في كلامه على ساويرس) أنّ ساويرس بقي حياً إلى سنة ٥٣٦م التي فيها عُقد المجمع القسطنطيني. فقد ذكر افاغريوس (في ك ٤ فصل ١١) أنه كتب رسائل إلى الملك يوستينانوس وتوادورا الملكة وتوادوسيوس البطيريك الاسكندري قال فيها إنه يحب أن يأتي إلى قسطنطينية ويجعل بطيركها انتمس يرعوي عن مخالفته المجمع الخلكيدوني، وانتمس هذا كان بطيركاً سنة ٥٣٦م. وروى السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٣٢١) عن ابن العبري في تاريخه أنّ ساويرس «في السنة السابعة لأسقفية ترك انطاكية وفرّ إلى الاسكندرية فأقيم مكانه بولس، واستمر سنة واحدة واوفاسيوس، وبقي سبع سنين وافرام الأمدي واستمر اثنتين وعشرين سنة. وأتى ساويرس من مصر إلى قسطنطينية معتمداً على حماية توادورا الملكة... وطُرد منها بأمر أغايطس البابا فعاد إلى مصر بزّي راهب إلى أن قضى نجه في المحل المدعو سخا في الاسكندرية في ٢٨ شباط سنة ٨٥٠ يونانية» الموافقة لسنة ٥٣٩م. انتهى كلام ابن العبري. وعقبه السمعاني بقوله في المحل المذكور أنه جاء في تاريخ بطاركة اسكندرية لرينودوسيوس (صفحة

١٣٨) إنّ ساويرس صرف بعد أن نال بطريركية انطاكية ثلاثين سنة مقاوماً التعليم الكاثوليكي أنّ في المسيح طبيعتين، وقد أدخله الملك انسطاس على بطريركية انطاكية سنة ٥١٢م على ما حقق الكردينال نوريسوس وباجيوس العلامتان. وعليه فتكون وفاته سنة ٥٤٢ لا سنة ٥٣٩م كما قال ابن العبري. على أنّ السمعاني روى (في المجلد ٢ المذكور صفحة ٥٤) عن يوحنا بن افثونيوس رئيس دير قنشرين المعاصر لساويرس أنه توفي في ٨ شباط سنة ٨٤٩ الموافقة لسنة ٥٣٨ م. انتهى.

والذي نعرفه من كتب ساويرس هو ما ذكره العلامة السمعاني (المكتبة الشرقية مجلد صفحة ٤٦) حيث قال ما ملخصه «إنّ بولس أسقف قليقية (ما بين النهرين) لما طرده الملك يوستينس من كرسيه لنبذه الجمع الخلكيدوني أتى إلى الرها وترجم كتب ساويرس من اليونانية إلى السريانية كما يظهر من الذيل المعلق على الكتاب ٢٩ من الكتب المأتمني بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية وهو «كان الفراغ من هذا الكتاب في شهر نيسان سنة ٨٣٠ يونانية (توافق سنة ٥١٩ م) في مدينة الرها ببلاد ما بين النهرين بعناية ماري بولس أسقف قليقية الذي ترجم من اليونانية إلى السريانية هذه الكتب التي ألفها الطوباوي الورع مار ساويرس البطريرك، وهي الكتاب الكبير رداً على مزاعم يوليانس (الالبيكرناسي) والرد على الزيادات وعلى المانويين وفيلالائيس». وله أيضاً مئتان وخمس وتسعون قصيدة في الأوزان الثمانية قد ترجمها بولس الاسقف المذكور إلى السريانية، ونقحها كما يظهر من الكتاب المخطوط السرياني في عد ١٥ في المكتبة الواتيكانية حيث قال فيه: «إنّ مئتين وخمسة وتسعين قصيدة من القصائد المشتمل عليها هذا الكتاب هي للقديس مار ساويرس». وذكر له السمعاني أيضاً (في المجلد المذكور صفحة ٨٠) بعض كتب ورسائل نقلاً عن بطرس القصار البطريرك الانطاكي. وقال فيه ابن العبري (في بطارقة انطاكية) أنه ألّف كتاباً عنوانه محب الحق (وربما كان الكتاب الموسوم بفيلالائيس) شرح فيه مباحث الطبيعتين في المسيح، وفُسر منشور زينون الملك.

وخلف بولس ساويرس في بطريركية انطاكية، ولكنه لم يرقَ إلى المقام البطريركي على فور انهزام ساويرس سنة ٥١٨م، بل مضى بعد ذلك سنة فرقي في سنة ٥١٩م. وأمر البابا هرمزدا أن لا يرقى في قسطنطينية بل في انطاكية، فرقي فيها. ومذ تبوأ كرسيه أخذ يعظ مؤيداً رسوم الجمع الخلكيدوني، بل روى ابن العبري (في تاريخ بطارقة انطاكية) أنه جمع الاساقفة وأكرههم على بثّ الرسوم

المذكورة. فمن اعتراهم الفشل وطاعوه لبثوا في كراسيهم، ومن خالفوه غُزلوا. وسمى ابن العبري بولس هذا يهودياً واثاء الغضب لأنه كان مخالفاً لبدعته. وكذا سماه يوحنا أسقف آسيا لأنه كان من أصحاب الطبيعة الواحدة. على أنَّ هذا البطريك لم يستمر على كرسيه إلا نحواً من ثلاث سنين واعتزل، كما يظهر من ذكر توفان ترقيته سنة ٥١٢م وخلافة اوفراسيوس له سنة ٥١٥ (لا تسه عن أنَّ توفان يخالف رأي عامة المؤرخين بسبع سنين، فعلى رأيهم أنَّ ترقيته كانت سنة ٥١٩م واعتزاله سنة ٥٢١). وذكر يوحنا ملالا علّة هذا الاعتزال فقال قد أمر بولس أن تكتب اسماء الست مئة وثلاثين أسقفاً الذين شهدوا المجمع الخلكيدوني في التذكارات في الكنائس فلم يطاوعه جميع أساقفته، فأثر العزلة على البقاء في البطريكية مع هذا الخلاف. وعن ديوانيسيوس بطريك اليعاقبة أنه استمر في البطريكية سنة واحدة ومات، ولكن تعقبه العلامة السمعاني (في مجلد ١ من مكتبته صفحة ٢٩٩) بأنّ قوله هذا منقوض بقوله في محل آخر أنَّ بولس صار بطريكاً سنة ٨٣١ يونانية (سنة ٥٢٠ م) وأنّ يعقوب السروجي توفي سنة ٨٣٣ (سنة ٥٢٢) وأنّ بولس رقى خليفته موسى في سروج بعد وفاته. فإن كان قام في البطريكية سنة ٥٢٠م واستمر سنة واحدة فكيف يرقى موسى سنة ٥٢٢م بعد وفاته بسنة.

وخلف اوفراسيوس بولس سنة ٥٢١م وكان من أورشليم، وقال فيه توفان في تاريخ سنة ٥١٣م (على مذهبه) أنه محا أولاً من التذكارات في الكنائس اسماء آباء المجمع الخلكيدوني والحبر الروماني، لكنه ندم بعد ذلك وأذاع أعمال المجمع المسكونية الأربعة، وقسا على مخالفي المجمع الخلكيدوني، وسماه ابن العبري ابن الملاح، وقال أنه في أيامه أمر الملك يوستينس بأنه يلزم المؤمنين جميعاً أن يذعنوا لما رسمه المجمع الخلكيدوني، ومن لا يذعنون يحسم رزقهم ويحطون من مناصبهم، وإنّ الملك قتل حيثلّ بعض أعوانه لأنهم لم يذعنوا لأمره. وقد توفي اوفراسيوس تحت أنقاض داره في انطاكية بالزلزال الذي أصاب هذه المدينة سنة ٥٢٦م. روى ذلك افاغريوس عن يوحنا ركتور (الخطيب أو الفصيح) الذي كان شاهد عيان لهذا الحدث. وقد ذكرناه آنفاً نقلاً عن الكرونيكون (تاريخ السنين) الرهاوي.

وخلف افرام الآمدي اوفراسيوس سنة ٥٢٧م وكان والياً في انطاكية لما دمرتها الزلازل. وما أبداه حيثلّ من الشفقة على المصابين والعناية بهم والسخاء عليهم

حمل أهل انطاكية على انتخابه بطريركاً كما مرّ. وكان شديد التمسك بعري
الايمان الكاثوليكي، وكتب مقالات شتى دافع بها عن المجمع الخلكيدوني، وأتى سنة
٥٣٧م إلى فلسطين حيث عُقد مجمع مُحَرمت فيه تعاليم اوريجانس التي كان بعض
رهبان فلسطين يدافعون عن صحتها (لكويان في المشرق المسيحي في بطاركة
انطاكية). وقال ابن العبري (في بطاركة انطاكية) إنه كان حكيماً ورعاً لكنه كان
مغوياً بضلال أصحاب الطبيعتين، وأنزل بخصمائه مضار كثيرة بحيله واستماله
الملك إليه. فأخرب أدياراً كثيرة ونقض مذابح شتى، واضطهد المؤمنين ثمانى عشرة
سنة، ولا يخفى ما حمل ابن العبري على هذا الكلام إنما هو تشييعه لأولي بدعته.
وروى فوتيوس في مكتبته (ك ٢٢٨) إنّ افرام هذا كتب رسالة إلى من شدّوا عن
الايمان في قليقية محضاً اياهم أن يصطلحوا مع الكنيسة، وميئاً لهم أنها براء من
كل وصمة بدعة (رواه السمعاني مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ١٩). وجاء
ذكر افرام هذا في كرونيكون الرها حيث قيل أنه بعد اوفرسيوس (يسميه
الكرونيكون اوفرس) صار أسقفاً على انطاكية افرام الآمدي الذي كان والي
المشرق». ويؤخذ عن تاريخ نيكوفور وجداول توفان أنه استمر في البطريركية ثمانى
عشرة سنة، وتوفاه الله سنة ٥٤٥م. وعن تاريخ ابن العبري أنه أقام سنة ٥٢٢م
(على ما روى السمعاني مجلد ٢ صفحة ٣٢١). ومن بعد افرام هذا رغب ابن
العبري عن ذكر البطاركة الكاثوليكين إلى ذكر البطاركة اليعقوبيين، فذكر بعد افرام
سرجيوس الذي أقامه اليعاقبة بعد موت ساويرس، واستقرى الكلام في خلفائه.

أما الكاثوليكين فأقاموا بعد وفاة افرام دمنس الثاني ويسمى دومينس أيضاً في
آخر سنة ٥٤٥ أو بدء سنة ٥٤٦م. وكان كاثوليكياً رشحه يوستينانس الملك على
ما جاء في ترجمة القديس سمعان العمودي الصغير. وشهد المجمع الخامس
المسكوني سنة ٥٥٣م ووقع عليه مع سائر الاساقفة. وعن تاريخ نيكوفور وجداول
توفان أنه استمر على منصبة البطريركية أربع عشرة سنة أي إلى سنة ٥٦٠م.

وخلف انسطاس دمنس وكان راهباً من أديار فلسطين، وأطراً افاغريوس (ك ٤
فصل ٣٩) فضائله، ومنها شجاعته في مقاومة يوستينانس الملك في متابعتها بدعة
من زعموا أنّ جسد المسيح لم يكن قبل قيامته أيضاً محلاً للفساد أو التأثيرات
الجسدية كالجوع والعطش. ولما فشا هذ الضلال في قسطنطينية توقّع القوم أن يبدي
انسطاس رأيه فيه لأنه كان علامة عصره، فنبذ هذه الغواية وقتدها، فأمر الملك بنفيه

مع كهنته ولكن عاجلته المنية سنة ٥٦٥م فلم ينفذ حكمه. على أن يوستينس الثاني الذي خلفه لم يكن أرفق منه بالبطريك، فإنه عزله بمكيدة كادها حشاده إذ سعوا به لدى الملك بأنه بذّر خزية كنيسة، وأنه لما سُئل عن هذا التبذير أجاب إني عمدت إلى ذلك لئلا يبتزّ يوستينس آفة الدنيا مال كنيسة. والصحيح أن علّة عزله مارواه توفان في تاريخ سنة ٥٦٢م (على مذهبه وهي سنة ٥٦٩) وهو أن يوحنا بطريك قسطنطينية رقى إلى الاسقفية يوحنا بطريك اسكندرية ولا سلطة له على ذلك، فأتب انسطاس من رقى ومن ارتقى في رسالة مجمعية، فبعثنا الملك على عزله. وهو ظاهر أيضاً من رسالة القديس غريغوريوس الحبر الروماني إلى بطاركة المشرق وإلى انسطاس، هذا وكان عزله في آخر سنة ٥٦٩م على ما روى نيكوفور في تاريخه، وتوفان في جداوله (عن لكويان في المشرق المسيحي في بطاركة انطاكية). وجاء في تاريخ يوحنا أسقف آسيا (الذي أوصله إلينا ديونيسيوس بطريك اليعاقبة) عداد مشاهير المونوفيزيين ومشاهير الخلكيدونيين أي الكاثوليكين سنة ٨٨٢ يونانية الموافقة لسنة ٥٧١ للميلاد. فكان في مقدمة الكاثوليكين فيجيليوس الحبر الروماني، وانسطاس البطريك الانطاكي (المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٩٠)، وإن كان فيجيليوس توفاه الله قبل ست عشرة سنة من التاريخ المذكور كما لاحظ العلامة السمعاني في المحل المذكور.

وبعد عزل انسطاس عن كرسيه أمر يوستينس الثاني أن يرقى إليه غريغوريوس. وقد أثنى افاغريوس (ك ٥ من تاريخه فصل ٦) على غريغوريوس هذا. ومما قاله فيه أنه كان شهيراً بصناعة الشعر، وقد امتاز عمن سواه بثلاث فضائل الصدقة، والصفح عن المساوئ والدموع، وكان شفوفاً على الخطأة، وقد شكاه رجل عالمي إلى الحاكم الدنيوي بجرائم كبيرة فعقد عليه مجمع في قسطنطينية شهد به البطريك الأورشليمي والاسكندري وكثيرون من الاساقفة. وبعد البحث الدقيق حكموا ببراءته، فأمر الملك بجلد الشاكي ونفيه. وبعد أربعة أشهر من عود غريغوريوس إلى انطاكية حدث فيها سنة ٥٧٩م زلزال آخر دمر جانباً من بيوتها، وبعد خمس سنين أدركته المنية سنة ٥٨٤م. حققه باجيوس اعتماداً على كتاب مخطوط باليونانية عُثر عليه في مكتبة قيسرية، ولا يقرب من الصدق ما جاء في موجز تاريخ نيكوفور وجداول توفان أن غريغوريوس استمر في البطريكية أربعاً وعشرين سنة لتكون وفاته سنة ٥٩٣م (لكويان في المحل المذكور من المشرق المسيحي).

ولما توفي غريغوريوس عاد انسطاس إلى بطريركية انطاكية سنة ٥٨٤م وعند بعضهم سنة ٥٩٠م. وكتب إليه البابا غريغوريوس الكبير رسالة يحضه فيها على أن يقاوم دعوى البطريك القسطنطيني بأن يسمي نفسه بطريركاً مسكونياً، فتعاطى الأمر بحكمة متذكراً ما جرى عليه قبلاً، إذ وثب يوحنا البطريك القسطنطيني على ترقيته البطريك الاسكندري، ثم توفاه الله سنة ٥٩٨ أو سنة ٥٩٩م. وبعضهم لم يميز بينه وبين انسطاس السينسوي كاتب المحاورات رداً على المونوفيزيين، مع أن هذا كان راهباً لا بطريركاً. وعاش بعد ظهور الاسلام أي بعد انسطاس البطريك بسنين (لكويان في الحل المذكور من المشرق المسيحي).

وقام بعد انسطاس الاول انسطاس الثاني سنة ٥٩٩ أو سنة ٦٠٠م ومنذ تبوأ الكرسي البطريكي أنفذ رسائل إلى البابا غريغوريوس (والجواب له مثبت في أعمال هذا البابا) وإلى البطاركة الشرقيين. وقد دبر كنيسة في أوقات صعبة أيام الحروب بين فوقا ملك الرومانيين وكسرى ملك الفرس، وناصر اليهود الذين هاجوا على النصارى في انطاكية، فقبضوا عليه وجروه في المدينة حتى لقي ربه. فأرسل فوقا فنكل بهم وقتل كثيرين منهم. وروى توفان هذا الخبر في تاريخ السنة السابعة لفوقا وهي سنة ٦٠٩م. وعن التاريخ الاسكندري إن ذلك كان في أيام هرقل خليفة فوقا سنة ٦١٠م. وكان انسطاس هذا ضليعاً في اللغتين اللاتينية واليونانية، وله ترجمة كتاب البابا غريغوريوس من اللاتينية إلى اليونانية. وقد فرغ كرسي انطاكية بعد وفاته من بطريك مدة اثنتين وعشرين سنة، وعلى رواية أخرى ثمانين وعشرين أو ثلاثين سنة لتواتر سطو الفرس على سورية (لكويان في الحل المذكور من المشرق المسيحي).

عد ٦٥٥

بطاركة أورشليم في القرن السادس

كان ختام كلامنا في تاريخ بطاركة أورشليم في القرن الخامس، أن الملك انسطاس نفى ايليا البطريك إلى ايله على شاطئ البحر الأحمر، وأقام مكانه سنة ٥١٣م يوحنا بن مرقيان الذي كان كاهناً في كنيسة القيامة.

ولما ماتت امرأته رقاها ايليا إلى أسقفية سبسطية (وهي السامرة) ورقي ابنه انطونيوس إلى أسقفية عسقلان، وجعل ابنه الآخر يوحنا هذا شماساً في كنيسة

القيامة. فبعد نفي ايليا صير يوحنا هذا أسقفاً على أورشليم، وشرط عليه الوالي أن يشترك مع ساويرس بطريك انطاكية وينبذ المجمع الخلكيدوني. وعرف القديس سابا وغيره من النساك أنّ الوالي شرط على البطريك هذا الشرط، فأجمعوا ورفعوا إلى البطريك عريضة يعلنون بها أنهم لا يشتركون البتة مع ساويرس، وأنّ عزمهم أن يبذلوا نفوسهم في جانب تأييد المجمع الخلكيدوني، فلم يعمل البطريك بما شرطه عليه الوالي، وبلغ الملك انسطاس ما كان، فاستشاط غيظاً، وعزل اولمبيوس الوالي، وولّى مكانه بمفيلوس على فلسطين، وأمره أن يكره يوحنا على متابعة ساويرس وعلى نبذ المجمع الخلكيدوني وإن أبى عزله. فباغت الوالي البطريك وألقاه في السجن، ودخل عليه خفية رجل اسمه زكريا من قضاة قيصرية وأشار عليه أن يرسل رسولاً يقول للوالي أنّ كل ما يعمل مكرهاً لا يعتد به، فليخرجه من السجن ويمهله يومين ليتدبر ما يعمل، فأخرجه واستدعى البطريك ليلاً جميع الرهبان، فأثاه جثم غفير منهم حتى لم تسعهم كنيسة، فاجتمعوا في كنيسة القديس اسطفانس أول الشهداء، وازدحم الشعب هناك، وأتى الوالي وزكريا فصعد البطريك على المنبر ومعه توادوسيوس وسابا رئيسا الأديار فهتف الرهبان والشعب طويلاً قائلين احرموا اولي البدع، أيّدوا المجمع الخلكيدوني. فصاح البطريك والرئيسان نحرم نسطور ونحرم اوطيخا، نحرم ساويرس وكل من لا يقبلون المجمع الخلكيدوني. وعند نزولهم من على المنبر قال توادوسيوس الرئيس كل من لا يقبل المجمع الأربعة كالأناجيل الأربعة فليكن محروماً. فارتاع الوالي مما رآه وفرّ إلى قيصرية، وكان ذلك سنة ٥١٤م. وعرف انسطاس الملك ما كان في أورشليم فاحتدم صدره وعزم أن ينفي البطريك والرئيسين، فاجتمع الرهبان في أورشليم وأنفذوا رسالة إلى الملك يسألونه أن يعدل عن عزمه وإلاّ فهم يؤثرون الموت على الانفصال عن رؤسائهم. ورأى انسطاس شدة عزم الرهبان وسكان أورشليم فرغب عن عزمه ولزم الصمت.

وقد خرمت المنية انسطاس سنة ٥١٨م وخلفه الملك يوستينس الأول، وكان من بواكير أعماله أنه أمر أن يرجع من المنفى كل من أبعدهم انسطاس، وأن يكتب اسم المجمع الخلكيدوني كباقي المجمع في التذكارات التي تتلى في الكنائس. فاجتمع في أورشليم جثم غفير من الرهبان والشعب وأقاموا عيداً لذلك في السادس من شهر آب، وأذاعوا أمر الملك بالابتهاج. وأوعز البطريك إلى القديس سابا أن يطوف في البلاد ناشراً أمر الملك ففعل مسروراً. وقد استمر يوحنا على كرسي

أورشليم إلى سنة ٥٢٤م ورقد بالرب (روى ذلك لكويان في المشرق المسيحي في كلامه على بطاركة أورشليم عن كيرلس أسقف باسان في ترجمة القديس سابا) ورواه أيضاً توفان في تواريخ سنة ٥٠٥م وما بعدها وغيرهما.

وخلف بطرس يوحنا المذكور كما روى كيرلس أسقف باسان. وكان بطرس من بيت جبرين، وكان في أيامه قلق كبير ونزاع شديد بين رهبان فلسطين، لأنّ بعضهم كان يصوّب تعاليم اوريجانس وبعضهم يعتنقها ضللاً مخالفاً للإيمان، ولم يخلُ البطريرك من شائبة الجنوح إلى رأي الأولين وإلى محاماة انثيموس الدخيل على البطريركية القسطنطينية والمتشبث بغواية اوطيخا، فكتب إليه البابا اغايطس سنة ٥٣٦م رسالة يلومه بها وينصحه بها أن يستمسك بتعليم الكنيسة وتقليدها القديم. ويظهر أنه انتصح لأنه عقد مجمعاً في أورشليم دعا إليه أساقفة فلسطين في ١٩ ايلول سنة ٥٣٦م ووقع مع الاساقفة المجتمعين على ردل انثيمس البطريرك القسطنطيني وساويرس البطريرك الانطاكي وغيرهما من اولي البدع. وذكر لباي هذا المجمع، وقال أنه كان فيه ثمانية وأربعون أسقفًا. واستمر بطرس على كرسي أورشليم إلى سنة ٥٤٤م فكانت مدة رئاسته عشرين سنة (لكويان في بطاركة أورشليم في المشرق المسيحي). وروى توفان أنّ السنة الأولى لبطريركية بطرس هذا كانت سنة ٥٣٨م والسنة الأولى لخليفته مكاريوس كانت سنة ٥٤٨م وأظن ذلك من جملة ما يعاب به في تعيين سني تاريخه مع الاقرار له بصحة روايته.

وخلف بطرس بعد وفاته مكاريوس سنة ٥٤٤م لكنه لم يلبث أن عُزل عن الكرسي الأورشليمي لمقاومة الملك يوستنيانوس له وللمنظمة بأنه متشبث بضلال اوريجانس. ورقى بعد عزله اسطوكيوس على ما روى افاغريوس (ك ٤ من تاريخه فصل ٣٧) حيث قال أيضاً أنّ اسطوكيوس طرد كثيرين من رهبان أديار فلسطين لدفاعتهم عن غوايات اوريجانس. فتشتتوا في أماكن كثيرة وحازبهم غيرهم، وانتصر لهم توادورس أسقف قيصرية بالكبادوك. وكان يوستنيانوس الملك يثق به ويسمع مشوراته فأسخطه على اسطوكيوس، فأرسل هذا البطريرك إلى الملك بعض رؤساء الرهبان وعلية الاكليروس، وبينما هم يكلمون الملك في أمر اوريجانس وافاغريوس وديديمس سأله توادورس الكبادوكي النظر أيضاً في أمر توادوريطوس أسقف قورش وتوادورس المصيبي وايهيا الرهاوي. وعن كيرلس أسقف باسان (في ترجمة القديس سابا) أنّ يوستنيانوس الملك أمر حيثن بعقد المجمع الخامس في قسطنطينية،

وأرسل إليه اسطوكيوس ثلاثة أساقفة ينيون عنه، فحرم آباء المجمع تعاليم اوريجانوس الفاسدة، ومقالات توادورس المصيصي وافاغريوس (غير افاغريوس المؤرخ) وديديمس، وأرسل الملك أعمال هذا المجمع إلى أورشليم فأثبتها اسطوكيوس ووقع عليها، وتابعه مع ذلك أساقفة فلسطين ما خلا اسكندر أسقف ابيلا (سوق وادي بردا) فعزل لذلك عن كرسيه وأرسل إلى قسطنطينية حيث توفي بزلزال. وبذل اسطوكيوس قصارى جده ليرعى الرهبان المارقون عن غيهم، ومن لبثوا مصرين طردهم من أديارهم وأدخل غيرهم من الرهبان الأفاضل. وكان ذلك لسنة ٥٥٥م.

قال لكويان (في المشرق المسيحي) هذا ما رواه افاغريوس وكيرلس الباساني على أن يؤخذ من قوليهما من أن المجمع الخامس حرم غوايات اوريجانوس وافاغريوس وديديمس فيه نظر، لأن أعمال هذا المجمع اللاتينية لا ذكر فيها لاوريجانوس وديديمس بل لتحريم مقالات توادوريطوس القورشي، وتوادورس المصيصي، وايهيبا الرهاوي. والأوجه أن تحريم غوايات اوريجانوس وديديمس كان في مجمع عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٨م قبل المجمع الخامس المسكوني الذي عُقد سنة ٥٥٣م. وربما أرسلت أعمال المجمعين معاً إلى فلسطين ووقع عليها اسطوكيوس وأساقفة فلسطين في وقت واحد. فأجمل افاغريوس وكيرلس الباساني كلامهما ولم يفصلا، واستمر اسطوكيوس تسع عشرة سنة في بطريركية انطاكية على الأظهر، وعُزل عنها سنة ٥٦٣م، ولا يُعلم سبب عزله، ولا كيف أو متى كانت وفاته.

وعاد مكاريوس إلى بطريركية أورشليم بعد أن عزل اسطوكيوس على ما يظهر من رواية كيرلس الباساني في ترجمة القديس سابا. وقد برأ مكاريوس ساحته من المظنة بحرمه اوريجانوس وافاغريوس وديديمس. وجاء في كتاب تراجم القديسين في ٢ من تشرين الثاني أن مكاريوس لقي ربه سنة ٥٧٠م وأنه كان قديساً. على أن الترجمة المذكورة لا يركن إليها كل الإركان، والأظهر مارواه افاغريوس (ك ٥ من تاريخه فصل ١٦) أنه لم يتوفه الله قبل سنة ٥٧٤م.

وخلف يوحنا الرابع مكاريوس المذكور سنة ٥٧٤م وكان راهباً، على ما روى افاغريوس (في المحل المذكور)، وعن نيكوفورس أنه استمر في البطريركية اثنتين وعشرين سنة، والأوجه ما جاء في جداول توافان أنه بقي عشرين سنة فقط من سنة ٥٧٤ إلى ٥٩٤، وخلفه عاموص وكان راهباً ورئيس دير. ويظهر من رسالة

أنقذها البابا غريغوريوس إلى اسحق خليفته في كرسي أورشليم أنه توفي سنة ٦٠٠م أو سنة ٦٠١م، وهذا يطابق ما جاء في جداول توفان وتاريخ نيكوفورس (ملخص عن لكويان في المشرق المسيحي عن كلامه في بطاركة أورشليم).

عد ٦٥٦

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن السادس

نعرف من أساقفة حلب في هذا القرن انطونينس وقد ذكره ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه، وعده في جملة الاساقفة الذين لم يدعنوا لمراسيم المجمع الخلكيدوني، فنفاهم الملك يوستينس سنة ٥١٨م. وقد ذكره السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٧) نقلاً عن تاريخ ابن العبري في بطاركة اليعاقبة، ثم ميكاس، وقد كان في جملة الاساقفة الذين شهدوا المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦م في أيام متا بطريركها. وكان قد وقّع على الرسالة التي رفعها أساقفة المشرق إلى البابا اغايطس تشكياً إليه من ساويرس البطريرك الانطاكي وبطرس أسقف اباميا.

ونعلم من أساقفة سلوقية وهي السويدية نونس وكان أسقفاً على آمد، فاضطهده توما الذي خلفه في هذه الاسقفية، فاضطر أن يترك آمد، فنقله افلايانس البطريرك الانطاكي إلى السويدية في أوائل هذا القرن. على أنه مალأ ساويرس متابعاً له على التسليم بضلال اوطيخا، فغُزل بأمر الملك يوستينس سنة ٥١٩م وعاد إلى آمد مدينته. ولما توفي توما الذي كان قد خلفه في كرسي آمد عاد نونس إلى كرسيه، لكنه لم يبق عليه إلا مدة وجيزة، وتوفاه الله (ملخص عن لكويان في المشرق المسيحي، وعن السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٤٨ و ٤٩ و ٥١ نقلاً عن يوحنا أسقف آسيا).

ومنهم قسطنطين وكان اوطيخا كتب رسالة إلى الملك انسطاس يدّعي أن يفقد بها المجمع الخلكيدوني. ثم ديونيسيوس وهو الذي رقى سمعان العمودي الصغير إلى درجة الكهنوت، وشهد المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م. ثم انطونيوس الذي يظهر من ترجمة القديس سمعان المذكور أنه كان تلميذاً له ثم راهباً وقساً ثم رئيساً

ثم أسقفاً على سلوقية. هذه (عن لكويان في أساقفة سلوقية بسورية في المشرق المسيحي).

ومن أساقفة اللاذقية عرفنا قسطنطين وكان اوطاخياً، وقد حرّمه البابا فيجيليوس في رسالته الرابعة والخامسة إلى يوستيناس الملك ومثا البطريك القسطنطيني، وعدّه ديونيسوس بطريك اليعاقبة في الكرونيكون وابن العبري في تاريخه في جملة زعماء بدعتهم، وقد عزله يوستينس الأول الملك عن كرسيه سنة ٥١٨م ويعتد له اليعاقبة في ٢٦ جزيران. وقد نبذ مؤلفاته المجمع اللاتراني الذي عُقد في أيام البابا مرتينس الأول في أواسط القرن السابع. وقد روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٣٢٧) أنّ ابن العبري عدّه في تاريخ بطاركة اليعاقبة في جملة الاساقفة الذين أقاموا في قسطنطينية يتزلفون إلى الملك ويحضون الملكة على الرفق والحماية لأصحاب بدعتهم. وكان في هذا القرن في اللاذقية اسطفانس الثاني شهد المجمع المسكوني الخامس سنة ٥٥٣م، ويُرَى توقيعه في أعماله اسطفانس أسقف اللاذقية (عن لكويان في المحل المذكور).

ومن أساقفة جبلة عرفنا يوحنا، شهد المجمع الذي عُقد في قسطنطينية في أيام مثا سنة ٥٣٦م، وكان قد وقّع على الرسالة التي رفعها الاساقفة الشرقيون إلى البابا اغايطس شكاية من ساويرس بطريك انطاكية وبطرس أسقف اباميا وغيرهما، ويُرَى توقيعه بالسريانية. وعزا إليه لكويان كتاباً في ترجمة ساويرس المذكور ورجوعه. وكان أيضاً في جبلة في هذا القرن رومانس يُرى توقيعه في أعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م.

ومن أساقفة أرواد عرفنا توادورس أسقف انترود (وهي طرطس وكان لها ولأرواد غالباً أسقف واحد) قد أدركته الوفاة سنة ٥١٨م، وكان كاثوليكياً مقاوماً لساويرس بطريك انطاكية شديد المقاومة. وعرفنا أيضاً افرينكراتيوس أسقف أرواد شهد المجمع الخامس المسكوني ووقّع على أعماله.

ومن أساقفة ارتوسيا (وكان موقعها في جانب النهر البارد) عرفنا اسطفانس وكان اراتيكياً مشايحاً لساويرس الانطاكي، وهو رقاہ إلى أسقفية هذه المدينة، وتوادوسيوس أسقفها الشرعي حي، فشكا أساقفة فينيقية من هذا التجنّي إلى البطريك القسطنطيني، وتليت رسالتهم في المجلس الخامس من المجمع الذي عُقد في

أيام متاً في قسطنطينية سنة ٥٣٦م. وقد علمنا أنه كان في عرقا في هذا القرن أسقف شديد الاستمسك بعري الايمان الكاثوليكي، وأن ساويرس بطريرك انطاكية أفرغ جهده ليقناده إلى بدعته، فلم يقض وطراً منه، لكنه استمال إليه بعض كهنته بعد أن ناصبوه مدة طويلة. كل هذا أنبأنا به اييفان أسقف صور في رسالة كتبها من مجمعه إلى توافيلس أسقف هرقلية ومجمعه. وقد ثلثت هذه الرسالة في المجلس الخامس من المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦م في أيام متاً بطريركها. ولم يُذكر في الرسالة اسم هذا الاسقف.

وأما في طرابلس فقال لكويان أننا وجدنا في بعض الآثار القديمة أنه كان أسقف يسمى ارسانيوس أسقف اطرابلس. ولم نتحقق أفي أطرابلس فينيقية أم في غيرها كان أسقفاً. وقد عرفنا من أساقفة البترون في هذا القرن الياس، وكان مغوياً بيدعة اوطيخا مشايحاً لساويرس الانطاكي، ولهذا حُرم في مجمع صور الذي عقده اييفان اسقفها كما يتبين من الرسالة التي أنفذها هذا المجمع إلى توافيلس أسقف هرقلية، وقد ثلثت في المجلس الخامس من المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥٣٦م. وقام بعده اسطفانس وكان كاثوليكياً، وشهد المجمع الخامس سنة ٥٥٣م ويُرى توقيعه على أعماله.

ومن أساقفة جبيل في هذا القرن عرفنا توادوسيوس، وقد شهد المجمع الخامس المسكوني ويُرى توقيعه على أعماله توادوسيوس أسقف جبيل. وعرفنا من أساقفة بيروت في هذا القرن مارينس، وكان مستمسكاً بعري الايمان الكاثوليكي لكنه اضطر مكرهاً أو خائفاً أن يقبل رسائل أنفذها إليه ساويرس بطريرك انطاكية المضلّ. وكانت هذه الرسائل تشتمل على نبد المجمع الخلكيدوني وحرم من يقول بطبيعتين في المسيح (روان لكويان عن افاغريوس ك ٣ فصل ٣٣) وعرفنا أيضاً تلاميوس إذ رأينا توقيعه على كتاب أرسله أساقفة المشرق إلى البابا اغايطس شكاية من ساويرس بطريرك انطاكية وبطرس أسقف اباميا وزعورا (هو ناسك أقلق الكنيسة في أيام يوستنيانوس وحرم في مجمع قسطنطينية سنة ٥٣٦ في أيام متاً) وتلى هذا الكتاب في المجمع الذي عُقد في أيام متاً. وشهد تلاميوس هذا المجمع ووقع عليه في المجلس الخامس هكذا «تلاميوس أسقف بيروت أثبت مارسم هنا وأحرم اولي البدع ساويرس وكتبه، وبطرس أسقف اباميا، وزعورا ومحازيهم المصّرّين على ضلالهم».

ومن أساقفة صيدا عرفنا اندراوس ونرى توقيعه على رسالة المجمع الذي عقده ايفان أسقف صور لمناسبة ساويرس الانطاكي ومشايخه المار ذكرهم. وقد ثلثت هذه الرسالة في مجمع من المذكور مراراً. وعرفنا من أساقفة صور في هذا القرن ايفان الذي كررنا ذكره، فإنه كان شديد الغيرة على الايمان الكاثوليكي فلم يذعن لساويرس الانطاكي ونبذ رسائله الجمعية. ولما أمّن يوستينس الملك الكنيسة جمع ايفان الاساقفة وكتبوا رسالة ضمتها بيان كل ما صنعه ساويرس من الشرور، وأنفذوها إلى المجمع القسطنطيني في أيام منّا البطريك، فثلثت في المجلس الخامس من هذا المجمع موقعاً عليها من أساقفة فينيقية. وعرفنا أيضاً اوسايوس إذ نرى توقيعه على أعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م. وكان من الاساقفة الذين استدعوا البابا إلى هذا المجمع فيجيليوس.

ومن أساقفة عكا في هذا القرن عرفنا يوحنا كان في جملة من وقّعوا على الرسالة الجمعية التي أنفذها ايفان أسقف صور إلى المجمع القسطنطيني سنة ٥٣٦م للشكوى من ساويرس ومحازبيه كما ذكرنا مراراً. وقام بعده جيورجيوس يُرى توقيعه على أعمال المجمع الخامس المسكوني سنة ٥٥٣م.

ومن أساقفة دمشق في هذا القرن بطرس الأول، وكان في أيام انسطاس الملك شديد الغيرة على الايمان الكاثوليكي، ولما عظم جور ساويرس الانطاكي على الكاثوليكين، فرّ إلى فلسطين كما يتبيّن من رسالة كتبها لرهبان فلسطين إلى الشيلسيون أسقف نيكوبولي (عمواص) أثبتتها افاغريوس (ك ٣ من تاريخه فصل ٣٣) ولا نعلم ما كان له بعدئذ. وأقام ساويرس بعد فراره توما وكان شديد الاستمسك ببدع اوطيخا، فنفاه الملك يوستينس من دمشق سنة ٥١٨م لأنه أبى الاذعان لرسم المجمع الخلكيدوني. وقد ذكره السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٧ نقلاً عن ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة).

ومن أساقفة الابلية (سوق وادي بردى) اسكندر، روى ديونيسوس بطريك اليعاقبة أنّ الملك يوستينس نفاه من كرسيه سنة ٥١٨ لمشايعه ساويرس الانطاكي. ومن أساقفة يروود توما، وهذا أيضاً أبعد يوستينس الملك في السنة المذكورة عن كرسيه لمتابعته ساويرس أيضاً. ومثله يوحنا الثاني أسقف تدمر. ذكر السمعاني كل

هؤلاء وابعاد يوستينس لهم عن كراسيهم في مقالته في المونوفيزيتين نقلاً عن ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في الكرونيكون.

ومن أساقفة اباميا (قلعة المضيق) بطرس. وقد ذكرنا أنه كان مشايحاً لساويرس بل مغوياً له في اضطهاد الكاثوليكين.

ومن أساقفة مرعش توما وكان اوطاخياً، وكان في جملة الاساقفة الذين نفاهم يوستينس الملك كما يظهر من تاريخ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة حيث قال: «اسماء الاساقفة الذين طُردوا من كراسيهم في أيام يوستينس الكبير سنة ٨٢٩ يونانية (توافق سنة ٥١٨ للميلاد) توما أسقف مرعش ومات في سميساط» وقال السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٢) أنه بقي حياً إلى سنة ٥٣٣م وأسند ذلك إلى ما رواه في صفحة ٨٩ من المجلد المذكور عن امينوشنسيوس أسقف مارونيا في كلامه على مباحثة كانت بين الكاثوليكين والساويرين في قسطنطينية في أيام يوستينانوس الملك سنة ٥٣٣م، وكان فيها من الساويرين ستة أساقفة منهم سرجيوس أسقف قورش، وتوما أسقف، مرعش وفيلوكسينس أسقف دلوك (قال السمعاني مجلد ٢ في مقالته في المونوفيزيتين إنها مدينة في سورية تبعد عن سميساط واحد وأربعين ميلاً) وهذا الأخير قد رجع بهذه المباحثة إلى الايمان الكاثوليكي كما صرح بذلك امينوشنسيوس المذكور. وقد شكّا من ذلك ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة حيث قال: «وبعضهم أذعنوا لبدعة القائلين بطبيعتين كفيلوكسينس الصغير ابن أخت فيلوكسينس المنبجي، فإنه بعد أن توفي خاله بكنكرة أذعن للمجمع (الخلكيدوني) لعلّة أصمت عن ذكرها، وعاش بعدئذٍ في قبرص (طالع المجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٢٦).

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدينيين غير البطاركة والاساقفة

عد ٦٥٧

يوحنا الأباامي وتلميذه يعقوب

وُلد يوحنا هذا في اباميا على العاصي وأخذ السيرة الرهبانية في أحد الأديار التي كانت كثيرة هناك. ولم يذكره توادوريطوس في ترجمات النساك والرهبان في القرن الخامس، فتبيّن من ذلك أنه كان بعده في القرن السادس، ولا سيما لأنّ يوحنا هذا ذكر خسوستس الذي يصفه علماء السريان بأنه بابا روما. وهو صاحب النافور المطبوع في كتاب قداسنا سنة ١٤٩٥م، وخسوستس كان في القرن الخامس. وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي يوحنا الابامي في قصيدته في المؤلفين (فصل ٤٧) «فقال يوحنا الابامي ألف ثلاثة كتب، كتاباً ضمّنه رسائل في التدبير الروحي، وكتاباً في أميال النفس، وكتاباً في الكمال» وقد حرم تيموتاوس بطريرك النساطرة تلاوة كتبه على ما أثبت السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٥٠ و ٨١). وقال (في مجلد ٢ صفحة ٤٣١) أنه يظهر من نفسه ونسق عباراته أنه كتب بالسريانية لا باليونانية. وذكر له سبع خطب اشتمل عليها الكتاب التاسع عشر من الكتب المأتمني بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية، وعنوان عشرين فصلاً من فصول التعليم، وخمس رسائل الأولى في التتليت والتجسّد، والثانية في التوبة، والثالثة والرابعة في الايمان، والخامسة منفذة إلى رجل اسمه لاونتيوس في الاشتراك الروحي الذي سيكون لنا مع الله في بلاد الأحياء. وذكر خسوستس ووصفه بالخبر الروماني كما وصفه غيره من علماء السريان لمشابهته اسمه لاسم كثيرين من الاحبار الرومانيين. والذي رجّحه السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٠) أنه أحد أساقفة السريان الكاثوليكين، وأنّ نفسه في النافور المعزوّ إليه مؤذن بأنّ المؤلف سرّاني. وأما يعقوب تلميذه فذكره

الصوبابوي بعد معلمه يوحنا الابامي، وهذا مؤذن أنه كان في القرن السادس أيضاً. وقال إنّ له من التأليف تفسيرات لبشارة متى ولسائل بولس الرسول ونبوة ارميا النبي وتفسيره مسهب.

عد ٦٥٨

بروكوب الغزي ولانتيوس البيزنطي الأورشليمي ودوتاوس الرئيس

وُلد بروكوب في غزه بفلسطين في أواخر القرن الخامس وعكف على درس العلوم ولا سيما الدينية، واشتهر بها في أيام الملك يوستينس الأول. وقال فيه فبريشيوس أحد طابعي كتبه: «لم يكن بروكوب خطيباً مصقلاً بل كان علامة في العلوم اللاهوتية، وضيعاً في معرفة الاسفار المقدسة حتى يعد عجباً في هذه العلوم وفي فصاحته. وكان مجملأً بالخلال الحميدة والخصال الصالحة حتى لم يكن ينقصه إلا الثوب ليكون كاهناً صالحاً، بل قد ردّ بصلاته كثيرين إلى السراط المستقيم». ولم نثر على ما ينبئنا في أية سنة توفاه الله. وقد ذكره فوتيوس (في مكتبته كتاب ١٦٠ و ٢٠٦ و ٢٠٧) والمشهور من تأليفه تفسيره أسفار التكوين والخروج والاحبار والعدد وثنية الاشتراع وسفر يشوع بن نون وسفر القضاة وأسفار الملوك الأربعة وسفري الايام وسفر أمثال سليمان ونشيد الانشاد ونبوة اشعيا. وقال في فاتحة كلامه أنه كان قد شرع في تفسير هذه الاسفار بذكره أقوال من تقدمه من الآباء والمفسرين كلاً على حدة، إلا أنه رأى ذلك طويلاً المجال مملاً فعدل عنه إلى أن يذكر ما اتفقوا عليه دون أن يعزو إلى أحدهم، ويبيّن اختلاف الأقوال في ما لم يجمعوا عليه. وله مئة وأربع رسائل طبعها مع باقي تأليفه الأب مين في مكتبة الآباء اليونانية. وذكر له فوتيوس (في كتاب ١٦٠) خطباً كثيرة في موضوعات متنوعة، وهو غير بروكوب القيصري الكبادوكي المؤرخ الشهير.

أما لاونتيوس فقد وُلد في بيزنطية (قسطنطينية) وكان فقيهاً يمارس مهنة محاماة الدعاوى. ثم ترك العالم وانقطع لخدمة الله فأتى أورشليم وانضمّ إلى رهبان القديس سابا في ديرهم القريب من أورشليم. وعكف على اقتباس العلوم الدينية فنبغ وألّف وصنّف كتباً كثيرة، والمشهور منها كتاب في البدع والمجمع الحلكيدوني وثلاثة

كتب ردّ فيها مزاعم الاوطاخيين والنساطرة، وكتاب في كشف خداع الابوليناريين، وكتاب تفنيد الحجج ساويرس وغيره. وكان في أيام يوستينس الصغير وطيبار الملكين.

عد ٦٥٩

يوحنا الانطاكي البطريرك القسطنطيني والقديس يوحنا الرحوم ويوحنا السلمي

إنّ يوحنا الانطاكي وُلد في انطاكية في بدء القرن السادس وعكف على درس العلوم والفنون، ومارس أولاً فن محاماة الدعاوى في انطاكية، ثم غادر مشاغل العالم وانصبّ على درس العلوم الدينية، ورقى إلى درجة الكهنوت، وأرسله بطريركه الانطاكي إلى قسطنطينية ووكل إليه قضاء مهامه وحاجاته في العاصمة. وعني حينئذ بتأليف مجموعة للقوانين البيعية تراها مثبتة في التأليف الموسوم بمكتبة الناموس القانوني (مجلد ٢). وبدلاً من أن ينسّق قوانين كل مجمع تباعاً قد يؤبّ لهذه القوانين وضّمّ إلى كل باب أو مادة كل ما فرض في شأنها. وسمي تلك الأبواب عنوانات، فجمع كل القوانين في خمسين عنواناً. وفي العنوان السادس عشر أثبت الحقوق المقررة في مجمع سرديكا (صوفيا بيلغاريا) للحبر الروماني بقبول الاستغاثة من جميع الاساقفة، واستئناف الأحكام المبرزة منهم، ولزوم انتظار حكمه النهائي. ثم أوجز يوحنا مؤلفه وسمي موجزه خلاصة القوانين Nomocanos ، وأضاف إلى كل عنوان ما ينطبق عليه من شرائع يوستينيانس المعروفة بالسنن الحديثة Novellos. ولما عزل يوستينيانس الملك القديس افثيشيوس البطريرك القسطنطيني لعدم مطاوعته على بدعته أقام يوحنا بطريركاً سنة ٥٦٤م فلم يطاوع الملك على ضلاله. ويعرف بالسكولاستيك أي الفقيه أو محامي الدعاوى، وبقي يدبر كنيسة قسطنطينية ثلاث عشرة سنة. وهو الذي توجّج الملك يوستينس الصغير إلى أن خرّمته المنية في ٣١ آب سنة ٥٧٧م، فعاد حينئذ افثيشيوس إلى كرسيه.

أما يوحنا الملقّب بالرحوم فقد وُلد في اماتوث أو حماتو أي حماء (مدينة بناها الفينيقيون أو الحثيون بقبرص، وسموها كذلك باسم مدينتهم حماء، وترى أطلالها

في الشرق الشمالي من لاميسون) وكان أبوه يسميه بعضهم أييفان، ويقولون أنه كان حاكماً في هذه الجزيرة، وقد حمّله والداه على أن يتزوج على كرهه للزواج ورزق اولاداً لكنّ الله أراحه منهم ومن امرأته لأنه أعدّه لما هو أعظم من ذلك، فعكف على السيرة الروحية والعلم. ولتتأهيه في فضيلة الرحمة ومحبة الفقراء لقّب بالرحوم، ويظهر أنّ أسقفه رقاّه إلى درجة الكهنوت نحو سنة ٥٦٠م، فتفاضل بأعمال الرحمة الروحية والجسدية وذاع صيت فضائله وصدقاته فتصوّعت بأرجه الأرجاء في مصر وسورية أيضاً. ولما توفي توادورس بطريرك اسكندرية أجمع الكاثوليكيون في مصر على انتخابه خلفاً له، وأرسلوا وفدّاً إلى الملك هرقل يسألونه أن يُعنى باقامة يوحنا بطريركاً عليهم، فاستدعاه الملك فأبى وحاول الفرار والتملّص من هذا العبء الثقيل، لكنه ألجئ أن يذعن فرقي إلى بطريركية اسكندرية نحو سنة ٦٠٦م وصرف همه أولاً إلى اقتلاع أشواك البدع والذائل من كرم الرب، فكلّل الله أتعا به بالفوز والنجاح حتى يقال أنه دخل الاسكندرية وفيها سبع كنائس وغادرها ماضياً إلى ربه وفيها سبعون كنيسة ومعبداً. وكان حريصاً على أن لا يدخل أحداً من الكهنة إلى كنيسة إلا بباب الاستحقاق والاهلية، وكما كان ضنيناً بالتسامح مع الأئمة كان سمحاً مع الفقراء الاتقياء. ومما رُوي أنه كان من عادة بعض الكسالى أن يخرجوا من الكنيسة بعد تلاوة الانجيل في القداس، ويقيموا خارجاً يتحدثون فترك ذات يوم المذبح وأتى إليهم قائلاً: لا تعجبوا يا بني من عملي فيلزم الراعي أن يكون حيث تكون خرافه. فخرجوا وعادوا إلى الكنيسة، فنسخت هذه العادة السيئة. وأخصّ ما امتاز به إنّما هو فضيلة الرحمة. وكان يسمي الفقراء أسياده لأنهم هم الذين ينزلونه الملكوت السماوي، وليس لسيّد غيرهم أن ينزله مثل ذلك. وبنى مستشفيات للنساء والرجال والكهنة. وأغاث رعيته بكل ما ملكت يده في عام قاحط، وفي سنة فشا فيها وباء في مصر حتى قيل عنه أنه لم يصرف في زمانه فقيراً خائباً. وكان الله يعوّضه بما يبذله بأضعاف من مثّه وكرمه. ولم يكن اشتغاله بالفقراء يقعه عن شيء من فروضه الاسقفية من وعظ وتعليم ومناضلة اولي البدع وبناء كنائس وتهذيب كهنة، ولا كل هذا ينقص شيئاً من تورّعه وتقشفاته. وأمر أن يؤخذ في بناء مدفن له وهو حي، وأمر أحد خدامه أن يذكره في أوقات الطعام والراحة بأن قبره لم يُكمل بعد لكنه لم يُدفن به لأنّ الملك هرقل استقدمه إلى قسطنطينية ليباركه، ويدعو له قبل ذهابه لحرب الفرس، فمرّ بقبرص وشعر بدنو

منيته فعرّج إلى موطنه وكتب وصيته. ومما قاله فيها مخاطباً الله: «أشكرك اللهم لأنك جعلتني أهلاً لأن أقدم لك ما مننت عليّ به ولم يبق لي الآن من مال الدنيا إلا ثلث دينار، فأريد أن يُعطى لاختوتي الفقراء، ولما دعنتني عنايتك إلى أسقفية اسكندرية وجدت فيها نحواً من ثمانية آلاف دينار، وكثيراً من تقادم أهل المبرت وحشدت مالاّ أوفر منها كثيراً وإذا كان ذلك كله ملكاً لابنك يسوع المسيح فقد دفعته لوجهك الكريم. والآن أسلم إليك نفسي». قال هذا وفاضت روحه القدوسة سنة ٦١٩م على رواية بارونيوس. وسنة ٦١٦م على رواية غيره. والكنيسة اللاتينية تعيّد لذكره في ٢٣ من كانون الثاني، وكنيستنا المارونية في ١٢ تشرين الثاني، ويقال في ترجمته في سنكسارنا أنه رقد بالرب سنة ٦٢٠م.

أما القديس يوحنا السلمي فوُلد في فلسطين نحو سنة ٥٢٥م واعتزل العالم ناسكاً في بيرة سينا تسعاً وخمسين سنة إلى أن رقد بالرب سنة ٦٠٥م، وقد ألّف كتباً روحية أحصّها الكتاب الذي عنوّنه بسلم الفضائل وقسمه إلى ثلاثين درجة، وهو عجيب في معانيه حتى نُسب إليه فيسمى يوحنا السلمي وقد ترجم إلى لغات كثيرة. وتعيّد له كنيسة المارونية في ٣٠ آذار، لكنه يقال في ترجمته أنه لا يعرف من أي بلد هو وأنه رقد بالرب سنة ٦٠٠م.

عد ٦٦٠

القديس يعقوب السروجي

نعمد في ترجمة القديس يعقوب هذا مادوّنه السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٢٨٣ وما يليها) نقلاً عن ترجمة سريانية له عثر عليها في الكتاب ١٥ من الكتب السريانية التي أتى بها إلى المكتبة الواتيكانية، وهي مطابقة لخطبة التأيّن التي ألّفها جيورجوس تلميذ هذا القديس عند وفاته، وهي مثبتة في الكتاب ٥ (صفحة ١٤٠) من الكتب المأّتي بها من بيرة الاسقيط إلى المكتبة المذكورة. قال وُلد القديس يعقوب في قرية قرتم على ضفة الفرات من والدين مسيحيين، وكانت أمه عاقراً قد رُزقته بعد نذر نذرته لله، وكان ميلاده سنة ٤٥٢م فدرس العلوم، ومذ سنة ٤٧٢م أخذ يؤلّف خطبه ويذيع مؤلفاته، ورقي في سنة ٥٠٣م إلى درجة

الكهنوت، وفي سنة ٥١٩م رقي إلى أسقفية بطنه بسروج. وبعد أن أثار المؤمنين بتعاليمه الخلاصية وانتشرت مؤلفاته وتفسيراته للأسفار المقدسة في البسيطة رقد بالرب ودُفن باحتفاء عظيم في سروج مدينته الاسقفية سنة ٨٣٣ يونانية الموافقة لسنة ٥٢٢م، وله من العمر سبعون سنة وستة أشهر قبل الاسقفية وستان وستة أشهر بعدها. ويلقبه علماء السريان بالملفان والعلامة ويطرأون كثيراً فضائله ويثنون على قداسته، بل يعيد لذكره السريان الكاثوليكيون واليعاقبة. فقد روى السمعاني (في المحل المذكور) إن الموارنة يعيدون له في ٥ نيسان واليعاقبة في ٢٩ تشرين الأول و ٢٩ حزيران و ٢٩ تموز. ويذكرونه في صلواتهم الفرضية وفي رتبة القديس. ففي صلوة الصبح يوم السبت من فرضنا الاسبوعي يذكر الآباء القديسون والرعاة الصادقون الذين قوضوا أركان البدع باسيليوس، وغريغوريوس، واثناسيوس... وفم الذهب والقديس افرام المختار، والقديس يعقوب، والقديس مارون، **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** وليس المراد بيعقوب النصيبيني وإلا لذكره المؤلف قبل افرام، لأن افرام تلميذ يعقوب فضلاً عن أنَّ السمعاني أنكر أن يكون النصيبيني كتب شيئاً يؤهله أن يُحصى بين ملائكة البيعة الذين قوضوا أركان البدع كباسيليوس واثناسيوس وفم الذهب وافرام. وأما القديس مارون فالمراد به يوحنا مارون البطريك لا القديس مارون الناسك الذي تحصيه الكنيسة في جملة علمائها المناضلين عن الايمان بل من جملة قديسيها النساك الافاضل، وكذلك يقال في مقدمة الباعوث اليعقوبي في صلوة المساء في كل يوم **وَصَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** أي نذكر الانبياء الشهداء من جاهد بفلاحة كرم الرب نذكر مار يعقوب، نذكر مار مارون، نذكر رفقاءه مع مار افرام كنارة روح القدس. فالمراد يعقوب هنا أيضاً يعقوب السروجي، ومارون يوحنا مارون وفي رتبة قداس اليعاقبة **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** **صَلِّ لِحَقِّهِمْ صَلِّ لِحَقِّهِمْ** ومار يعقوب ومار افرام الافواه الناطقة وأعمدة بيعتنا المقدسة.

زعم بعضهم أنّ القديس يعقوب السروجي لم يكن صحيح المعتقد، بل كان من القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح، وتلك بدعة اوطيخا واليعاقبة، على أنّ العلامة السمعاني أثبت (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية من صفحة ٢٩٠ إلى ٢٩٩) يبيّنات قاطعة دامغة صحة معتقده وبرأئه من كل ضلالة، وفنّد زعم خصومه ونقض كل حجة أوردها على زيغانه عن جادة الايمان القويم. ويجدر بنا أن نلخص كلامه قال إنّ صحة معتقد السروجي ثابتة بأدلة كثيرة، أولاً يؤخذ عما كتبه السروجي في خطبته في اقامة العازر، وقد استشهد القديس يوحنا مارون بهذه الخطبة في مقالته رداً على النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة في المسيح كما هو بيّن من الكتاب الرابع عشر (صفحة ٤٣) من كتب الحاقلي الموجودة في المكتبة الواتيكانية، حيث يقول السروجي بلسان مريم أخت العازر ما ترجمته «أومن يا رب أنّ فيك طبيعتين احدهما من العلى والأخرى من جنس البشر، فليك طبيعة الأب الروحانية وطبيعة بنت داود الجسمانية، طبع من الآب وطبع من مريم بلا تقسّم، طبع من الروح، وطبع من الجسد بغير مشاحنة. أومن أيضاً أنّ الآب ليس بأقدم منك وأنا موقنة بأنك أقدم من والدتك» أيتحمل هذا الكلام تأويلاً يخرج منه معتقد الكنيسة الكاثوليكية. وقال السروجي أيضاً في قصيدته المفتحة **ܕܡܪܝܡ ܕܥܙܪܐ** أي دخلت الكنيسة العذراء إلى المحاكمة مع المنددين ما ترجمته «إني مثبت بأنّ في عمنويل خاصتين أعني أنه إله حقيقي وإنسان حقيقي فإنّ كلمته عمن (أي معنا) تدلنا على الطبيعة التي أخذت منا. وكلمة ايل (الله) تدلنا حقاً على اللاهوت دون تقسّم. فقولك عمنويل كقولك البشر إله لا لأنه أختلط أو امتزج كلا، بل هو كامل في خواص الطبيعتين». فمن كان كلامه هذا كيف يصدق عليه أن يقول بطبيعة واحدة. ومثل هذه الأقوال مستفاض في كلام السروجي في خطبه في التجسد والفداء وصوم الخللص.

ومن الحجج القاطعة لصحة معتقد السروجي شهادة القدماء له، فيشوع العمودي المعاصر للسروجي دعاه مبعلاً، وأثنى عليه كثيراً (طالع المكتبة الشرقية مجلد ١ في يشوع هذا صفحة ٢٧٥) واسحق الذي كان أسقفاً على نينوى ثم اعتزل العالم وانفرد للنسك في بركة الاسقيط في أواخر القرن السادس يطريء يعقوب هذا بمنزلة مؤلف كاثوليكي كما هو ظاهر في كتابه بطلان العالم (قسم ٢ خطبة ١١ من الكتاب ٢٠ من الكتب المأثري بها من الاسقيط إلى المكتبة

الروائيكانية)، وتيموتاوس القس القسطنطيني الذي كان في القرن السادس أيضاً صرّح (في كتابه في قبول الهرطقة رواه كوتيلاريوس في آثار الكنيسة اليونانية مجلد ٣ صفحة ٣٩٦) بأنّ السروجي كاثوليكي قائلاً: «الاولاخيون وزعيمهم ديوسقورس وساويرس ويعقوب لا ذاك السروجي الذي هو أرثوذكسي (أي مستقيم الايمان) بل يعقوب آخر وغيرهم». والقديس يوحنا مارون في مقالته في ردّ مزاعم النساطرة وأصحاب الطبيعة الواحدة استشهد بفقرة من كلام السروجي لاثبات عقيدة الطبيعتين في المسيح، والموارنة على عداوتهم المستمرة لليعاقبة اعتقدوا دائماً أنّ السروجي كاثوليكي بل قديس.

ومن هذه الحجج ما يؤخذ من العصر والاماكن والحال التي كان فيها السروجي، فهو قد كان في ما بين النهرين قبل أن يضلّ يعقوب البردعي أهل هذه البلاد. وكان كاهناً إذ كان في انطاكية افلايانس الكاثوليكي بطريركها، وإذ كان الاساقفة في تلك الاعمال كاثوليكين إلا فيلوكسينس أسقف منبج وربما قليلين غيره. وقد رقي السروجي إلى الاسقفية إذ طرد الملك يوستينس ساويرس من انطاكية وفيلوكسينس من منبج وغيرهما من الهرطقة من سورية وما بين النهرين. وقد ذكر ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة اسماءهم (في تاريخ سنة ٨٢٩ يونانية الموافقة سنة ٥١٨ م) ولو كان السروجي من اولي البدعة كما كانوا لئاله ما نالهم. ولا نجد أثراً لشيء من ذلك.

ومن هذه الحجج أيضاً صمت جميع الآباء والعلماء الذين كتبوا في ذلك العصر عن ذكر السروجي بين الهرطقة الذين ذكروهم وقتدوا مزاعمهم. ومن هؤلاء العلماء ليبارتس الشماس ويوحنا أسقف قيصرية وانسطاس السينوي وغيرهم. ولو عيب السروجي بضلال لما غفلوا عن ذكره أو عن ردّ ضلاله، ولم يكن هو غفلاً ليختفي عليهم، بل كان مشتهراً بمؤلفاته ومصنفاته الكثيرة. وقد نُشرت أعمال المجامع ورسائل الاساقفة والرهبان. وكتب علماء ذاك العصر اسماء ساويرس واخسينا وبطرس الابامي وزعورا السرياني وموسى الفارسي وغير هؤلاء ممن لم تكن لهم شهرة السروجي، فما الذي أغفلهم ذكره مع انبساط شهرته، ولم نرَ أحداً من الكاثوليكين في القرون الخامس والسادس والسابع شان السروجي بضلال أو عابه بعيب إلى أن أتى في هذه الأعصر دينودسيوس (مجلد ٢ من الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٦٧) يشكوه أولاً بأنّ اليعاقبة يحصونه بين علمائهم في دستور

الذي خلّصت العالم بشدة بأسك نَجَّ يبعثك من عبودية الكافرين باسمك. إلى أن يقول في المجمع الخلكيدوني **ΠΟΛΙΤΕΥΟΜΕΝΟΙΣ ΤΟΙΣ ΔΕ ΔΕΘΕΟΛΟΓΟΙΣ**. **ΠΟΛΙΤΕΥΟΜΕΝΟΙΣ ΤΟΙΣ ΔΕ ΔΕΘΕΟΛΟΓΟΙΣ**. هذا هو المجمع الخلكيدوني الذي جمعه المتشيطنون، وكان الابالس أصحاب المشورة فيه وثانيهما أنه وُجدت للسروجي رسالة منقذة إلى رئيس دير القديس اسحق في جبلة، وهي مثبتة في الكتاب الحادي عشر من الكتب التي أتى بها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية. ومما قاله السروجي فيها متكلماً في نسطور: «إنه جسر أن يقول إنّ في المسيح بعد الاتحاد طبيعتين منفصلتين ولكل طبيعة أقنوم يقوم بها منفصلة عن الأخرى»: وإنه ورد مثل ذلك في قصيدته الثانية في العذراء والدة الله المثبتة في الكتاب الخامس من الكتب السريانية المأتي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية. وقد ردّ السمعاني هذين الاعتراضين مثبتاً أولاً أنّ القائلين بالطبيعة الواحدة قد أخذوا مذ عهد المجمع الخلكيدوني يحرفون ويصحفون الكتب. وأورد لك أمثلة واستشهد له افاغريوس (ك ٣ فصل ٣١ من تاريخه) الذي كان قريباً من عصر السروجي. وردّ الاعتراض الأول بأنّ نسبته هذه القصيدة إلى يعقوب السروجي غير صحيحة لأنه ذكر في العنوان اسم يعقوب مجرداً من الوصف بالسروجي، فلا تثبت نسبتها إليه ولأنّ نفس هذه القصيدة سافل منحط كثيراً عن فصاحة السروجي كما يظهر لمن يعارض هذه القصيدة بشيء من أقواله، ولأنّ قوله في مطلعها «نَجَّ يبعثك من عبودية الكافرين باسمك» دليل واضح على أنها ألّف بعد السروجي، فإنّ اليعاقبة كانوا يسمون الملوك الكاثوليكين المناصبين لهم هراطقة لا كفرة. ولا وراء في أنّ كاتب الكتاب المثبتة القصيدة فيه يعقوبي لأنه ذُتله بحاشية قال فيها إنه كتبه في دير السريان بالاسقيط، وصرّح بأنّ سكانه يعاقبة. وقد أثبت فيه أيضاً قصيدة السروجي في العازر، وأسقط منها عمداً الآيات التي استشهدنا بها آنفاً. وقال ابن القلاعي في هذا الشأن «اتهموا الملفان مار يعقوب وهو من قول آخر مكتوب. من قول ساويرا المغضوب والبرادعي والنصيباني».

وردّ الاعتراض الثاني بقوله أنّ السروجي لم ينكر في تلك الرسالة وجود الطبيعتين في المسيح انكاراً مطلقاً بل أنكر أنّ فيه طبيعتين تقوم كل منهما بأقنوم خاص بها منفصلة عن الطبيعة الأخرى.

وهذا يبين من كلامه ومن شرحه له في كلامه التالي في هذه الرسالة نفسها حيث قال: «إنَّ من خواص الطبيعة الإلهية أن لا تُرى ولا يُحبل بها ولا تحلَّ بامرأة ولا تولد كالناس... ولا ترضع ولا تأتي لتعتمد ولا تُصلب على خشبة بل هي محتجبة ومنزَّهة عن كل ما عمله المخلَّص بنوع يفوق المدارك البشرية، ولو حُفظت خواص الطبيعة البشرية على ما هي عليه لم يكن لها أن يُحبل بها دون زواج ولا أن تستدعي المجوس بظهور النجم ليسجدوا لها، ولا أن تحيل الماء خمرًا، ولا أن تمشي على الأمواج، ولا أن تقيم الميت بعد أن انتن. فيلزم أن يخصَّ بالله ما هو لله وبالإنسان ما هو للإنسان ليظهر جلياً من هذا التعليم أنَّ الله واحد منزَّه عما كان في الجسد، وأنَّ الإنسان واحد مولود من ابنة البشر لا شركة له بطبعه في الآيات والمعجزات التي صنعها وحيد الله في العالم». أقول أنَّ السروجي يفنِّد بهذه الرسالة زعم نسطور أنَّ في المسيح طبيعتين تقوم كل منهما بأقوم منفصلة ومستقلة عن الأخرى توسلاً لضلاله أنَّ في المسيح أقنومين. وكلام السروجي لا ينفي الطبيعتين كما تعتقد الكنيسة الكاثوليكية بل يثبتهما مبيَّناً خواص كل طبيعة منهما كما رأيت ليثبت لزوم وحدة الأقنوم في المخلَّص. وإنَّ هذا الأقنوم هو أقنوم ابن الله الوحيد، وهو مصدر تلك الأعمال الإلهية والبشرية، والجامع بين تلك الأعمال المتناقضة. وعليه فما يحجنا به الخصوم هو حجة لنا عليهم لا لهم علينا، ومثل هذا كلامه في القصيدة الثانية في العذراء والدة الله.

وبقي من هذه الاعتراضات أنَّ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة روى في تاريخه أنَّ بولس بطريرك انطاكية استدعى إليه يعقوب السروجي ليسأله عن صحة إيمانه، فمضى إليه ولكن أوحى إليه في طريقه أنَّ البطريرك يعتقد بالطبيعتين في المسيح فأبى يعقوب الاشتراك معه في الروحيات، وسأل الله أن يميتَه أو يعصمه عن الضلال، فعاد إلى مدينته ومات بعد وصوله إليها بيومين. على أنَّ ديونيسيوس ينقض روايته هذه بغيرها من أقواله، فقد قال في تاريخ سنة ٨٣١ م يونانية (الموافقة سنة ٥٢٠ م) «إنَّ بولس صير بطريركاً على انطاكية سنة ٨٣١ م ولبثت انطاكية بعد خروج ساويرس منها سنة واحدة خالية من بطريرك. وبعد ذلك انتُخب بولس وأُرسل إليها» فساورس طُرد من انطاكية في السنة الأولى ليوستينس الكبير أي في آخر سنة ٨٢٩ م (أي في آخر سنة ٥١٨ م) كما صرَّح بذلك ديونيسيوس نفسه، وفرغ كرسيها سنة واحدة أي سنة ٨٣٠ م كلها وانتُخب بولس في بدء سنة ٨٣١ م. وقد

صرّح ديونيسيوس أنّ بولس مات بعد سنة أي في آخر سنة ٨٣١ أو بدء سنة ٨٣٢م، وإنّ يعقوب السروجي توفاه الله سنة ٨٣٣م! بعد عودته من انطاكية إلى كرسية بيومين. وعليه فكيف كان ممكناً أن يستدعي بولس السروجي إليه سنة ٨٣٣م وبولس كان قد توفي سنة ٨٣١ أو بدء سنة ٨٣٢م وكيف أمكن بولس أن يرقى إلى أسقفية سروج موسى بعد موت يعقوب، وهو قد مات قبل ذلك بسنتين. فيظهر أنّ ديونيسيوس انخدع بأخبار أحد اليعاقبة أنّ السروجي أبى الاشتراك مع بطريكه لتعليمه بالطبيعتين، فأدخل في تاريخه هذه القصة الملققة. وقد أذاع العلامة المونسنيور ابالوس استاذ كلية لوفان (بالبلجيك) كتاباً عنوانه «ترجمة القديس يعقوب السروجي أسقف بطنان بسروج» وتألّفه وطبعه في لوفان سنة ١٨٦٧م أثبت فيه صحة معتقد السروجي مؤيداً رأي السمعاني. على أنّ الأب مرتينس كاهن كنيسة القديسة جنيفاف في باريس نشر فصلاً في المجلة الموسومة بمجلة العلوم الكنسية في نشرتها ٢٠١ و ٢٠٢ سنة ١٨٧٩م ادعى فيه أن يثبت أنّ السروجي كان يعقوبياً معتمداً على ما ذكرنا تفنيد العلامة السمعاني له، وعلى رسالتين قال إنه عشر عليهما في المتحف البريطاني في عد ١٤٧٣٣ منفذتين إلى اليعازار رئيس دير مار باسوس. فالأولى منهما لا تخالف التعليم الكاثوليكي بشيء كما أقرّ الأب مرتينس نفسه بل تثبته نصاً.

وأما الثانية فلا تصلح أن تكون حجة على يعقوب السروجي لأنها غير مذيّلة بتوقيعه كما أقرّ مرتينس نفسه، ولأنّها مخالفة لرسالته الأولى ظاهراً، وكل من طالعهما قضى أنه لا يمكن أن يكون كاتب الرسالتين واحداً لأنّ الأولى كاثوليكية، والثانية يعقوبية، مع أنّ موضوعهما واحد وهما منفذتان إلى شخص واحد وفي وقتين متقاربتين. ولم يطرأ على كاتبهما ما بعثه على تغيير معتقده، وقد استوفينا الكلام على ذلك في المقدمات التي علقناها على كتاب فرضنا الكبير (صفحة ١٥) الذي طبعناه في مطبعتنا العمومية في بيروت سنة ١٨٩٠م.

وقد طالعنا الكتاب الذي أذاعه هذه السنة ١٨٩٩م الأب نو الكاهن الباريسي العلامة متضمناً ايضاح الايمان للقديس يوحنا مارون فوجدناه يقول فيه (صفحة ٩) إنّ السمعاني كان يظن يعقوب السروجي كاثوليكياً لكنه عرف بعد ذلك (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية ولم يعيّن الصفحة) إنه ليس كذلك فقد طالعنا كل الصفحات

التي ذكر السمعاني في الفهرست أنه جاء فيها ذكر السروجي فلم نجد أثراً لتغيير السمعاني رأيه في أرثوذكسيته، بل وجدناه يفتد في المجلد الثالث (صفحة ٣٨٧) قول عمر بن متى ودينودسيوس أنه كان كاثوليكيّاً ثم انحاز إلى ضلال انسطاس شديد التفنيد ويصفه بالكلي القداسة. وأظن الأب نو ومن قالوا قوله خصّوا بالسروجي سهواً ما قاله السمعاني في يعقوب الرهاوي (في مجلد ٢ صفحة ٣٣٧) وهو أنّ ما يظهر من كلام ابن العبري في تردد الرهاوي بين اليعاقبة وسكناه في أديارهم إن صحّ فيكون مخالفاً لما أثبتته في المجلد الأول من المكتبة الشرقية (صفحة ٤٧٠) مع أنه أرثوذكسي أي مستقيم الايمان.

وأما مؤلفات السروجي فقد ذكر منها كاتب ترجمته وتلميذه جيورجوس تفسيره أسفار العهدين القديم والجديد ثم قصائده وهي سبع مئة وثلاث وستون قصيدة في موضوعات شتى. وله أيضاً تأليف أخرى غير شعرية ذكرها السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٠٠ وما يليها) أولها نافور فاتحته **اللها** مثبت في الكتاب الثالث من الكتب المأني بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٦٠. وفي الكتاب الخامس من كتب الحاقلي صفحة ٨٠ وقد ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية (مجلد ٢ من الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٥٦)، وذكره أيوب لودلفوس في جملة النوافير الحبشية ولا بدع لأنه كان للأجباش منزل في أورشليم من أقدم الأيام كما حقق كثير من الجوّالة. وكان لهم ديران في لبنان أحدهما على اسم القديس يعقوب في اهدن، والثاني على اسم القديس جيورجوس في وادي قنوبين على مقربة من حدشيت كما حقق ذلك البطريك اسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٨م وكل منهما يسمى إلى الآن دير الأجباش. وعزا هذا البطريك السروجي نافور آخر بدؤه **اللها** **اللهو** **وچلا** أيها الإله الصانع كل شيء. ولكن رجّح السمعاني أنّ هذا النافور الثاني ليس للسروجي بل لساويرس الانطاكي ولا سيما لأنّ الدويهي ذكر لساويرس نافوراً في جملة نافورات الهرطقة مطلعته كمطلع النافور الذي يعزو إلى السروجي في النوافير الكاثوليكية.

وثانيا رتبة المعمودية المقدّسة قال السمعاني (في المحل المذكور) إنها مثبتة في كتاب رتب كنيسة الموارنة معنونة «رتبة المعمودية المقدّسة ألفها مار يعقوب أسقف

ان في سروج العلامة» بدؤها «أيها الرب إلها الذي أتيت إلى الهيكل مع مريم
 لتكمل ستة الأربعين يوماً» وقال إنَّ الموارنة يستعملون هذه الرتبة والرتبة المنزوعة
 القديس يعقوب الرسول، ورتبتين آخرين لباسيليوس الكبير وليعقوب الرهاوي،
 الثالث رسالة مسهبة إلى صموئيل رئيس دير القديس اسحق في جبلة في الثالث
 دس وتجسد الكلمة وهي مثبتة في الكتاب الحادي عشر من الكتب التي جمعها
 معاني في المكتبة الواتيكانية صفحة ٩٣ ومنها فقر في الكتاب ١٥ من الكتب
 ريانة في هذه المكتبة. والرابع رسالة أنفذها إلى اسطفانس بن طواريلي الرهاوي
 منها البرهان من الاسفار المقدسة والأدلة العقلية على أبدية الفردوس وجهنم، وهي
 في الكتاب ١٥ السرياني في المكتبة الواتيكانية. والخامس رسالة إلى يعقوب
 من دير الرها المسمى دير النفوس، وهي مثبتة في الكتاب ٦ من الكتب السريانية
 ، جمعها السمعاني في المكتبة الواتيكانية صفحة ٣٨٧. وفي الكتاب العاشر منها
 حة ٥٥ حاوية تفسير بعض آيات من الاسفار المقدسة. والسادس رسالة روحية
 التواضع والحب الألهي مثبتة في الكتاب ٦ من الكتب السريانية في المكتبة
 نيكانية صفحة ٣٨٤. والسابع رسالة روحية إلى رجل شريف مثبتة في الكتاب
 كور يرثي بها الطبيعة بعد سقطتها، إذ تحب الفضيلة وتنقاد إلى الرذيلة. والثامن
 ي مقالة في مولد الخلص مثبتة في الكتاب العاشر من كتب السمعاني مع خمس
 لات أخرى في الايفانيا أي ظهور الخلص للتبشير، وفي صومه وأحد الشعانين
 مه وقيامته. وأما قصائده فذكر منها السمعاني ميتين واحدى وثلاثين قصيدة مبيّناً
 لع كل قصيدة منها وموضوعها وما حوت من التعاليم الخطيرة. ومن هذه
 عبائد في كتاب فرضنا الباعوت (أي الصلوة أو الطلبة) الذي في آخر صلوة
 اعة الثالثة من يوم الاربعاء المفتتح **خدا دينا لا ناينا**
ن مهادنا أي أسألك اللهم أن لا أقصى من رعتك والباعوت الذي
ختام صلوة الستار يوم السبت المبتي **لوه دملو دينا مامنا**
١١ ودا لا رجم أي إني لتائق ربي أن يتداركني غفرانك وجميع الباعوتات
 ، من النغم اليعقوبي في الوقفة الأولى من صلوة الليل في كل يوم.

واختتم السمعاني كلامه بقوله كل هذه القصائد أخذت عن الكتب الواتيكانية،
 ي باسمه قصائد أخرى كثيرة في كتب الطقوس والصلوات السريانية لم نتعرض
 كرها مفصلاً لأنها مقاطع غير كاملة، أو لأنها على النغم اليعقوبي وهي لغيره.

وقد ذكر له العلامة الدويهي (في ك ٣ من مدافعه عن الموارنة) مقالة في منفعة ذبيحة القديس للموتى الذين يقدمها الأحياء لراحة نفوسهم. وذكر له أيضاً مقالات أخرى في كتاب مدافعه، وفي كتابه المناثر العشر.

أطلقنا الكلام في القديس يعقوب السروجي وإن لم يكن سورياً لأنه من آباء الكنيسة السريانية، ولأنّ البحث في صحة عقيدته من المباحث العصرية. وكان ليعقوب تلميذ اسمه جيورجيوس بقي من تأليفه تقرّظ لمعلمه استند السمعاني إليه في ترجمة السروجي ولم يحقق من أين كان ولا أي مقام كان له.

عد ٦٦١

سمعان الفارسي أسقف بيت ارشم ويوحنا سابا واسحق النينوي

أما سمعان فكان من بلاد فارس وقد صير أسقفًا على المدينة التي يسميها السريان بيت ارشم أي مدينة أرسم وهو أحد ملوك الفرس أبو دارا الذي سمي هذه المدينة باسمه. وقد دبر سمعان كنيستها من سنة ٥١٠ إلى سنة ٥٢٥ م على ما روى ديونيسيوس بطريرك اليقاقبة (صفحة ٩٠ و ١٢٠ من النسخة الواتيكانية). وكان مناضلاً بأسلاً عن الايمان الكاثوليكي وردّ إليه كثيرين من الفرس عن عبادة الأوثان، وقاوم انتشار بدعة نسطور في تلك الأصقاع على أنه اضطّر أن يقبل منشور الملك زينون المعروف بهنوتيكون أي مرسوم الاتحاد، فعابه بعضهم بالجنوح إلى بدعة اوطيخا، لكن السمعاني برأ ساحته من الزيفان عن الايمان القويم بأدلة قاطعة، ولا سيما لأنّ المنشور المذكور لم يحوِ ضللاً يتيئلاً. وجلّ ما فيه الصمت عن ذكر الجمع الخلكيدوني ورسالة القديس لاون البابا. وكان افلايانس بطريرك انطاكية وايليا بطريرك اورشليم قد قبلاه أيضاً. والمشهور من تأليفه نافور ذكره له البطريرك اسطفانس الدويهي في جملة النوافير الكاثوليكية فاتحته **ܠܟܡܐ ܕܡܡܐ ܕܥܠܐ ܕܡܡܐ ܕܥܠܐ** أي الأله حياة كل شيء ونوره. ورسالة من برصوما أسقف نصيبين. وبدعة النساطرة ذكرها السمعاني برمتها (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٤٦)، ثم رسالة إلى سمعان رئيس دير جبلة في القديس حارث ورفقائه الشهداء الحميريين وهي مثبتة في الكتاب ٢٤ من الكتب السريانية في

المكتبة الواتيكانية (صفحة ٩١) ومعلقة في كرونيكون ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة، وقد أثبتتها السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٦٤) مقدماً عليها ثلاث فصول أخذها ديونيسيوس عن يوحنا أسقف آسيا في أحوال مملكة الحبشة وحمير قبل الاضطهاد الذي أجراه دونان اليهودي ملك الحميريين على النصارى. وقد لخصنا فحوى هذه الرسالة الحاوية فوائدها كثيرة، وما جاء فيها عن القديس حارث ورفقائه الشهداء الحميريين، وعن حالة كنيسة حمير والحبشة في تلك الأيام في عد ٦٤٤ فطالعه.

أما يوحنا سابا فقد ذكر السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٣) ترجمته فقال إنه وُلد في نينوى نحو أواسط القرن السادس، لكنه رجّح في المجلد ٣ من المكتبة المذكورة (صفحة ١٠٣) إنه وُلد في قرية في غربي الفرات تسمى الدالية ولذا يسموه الدالي. وأخذ الطريقة الرهبانية وسماه السريان سابا أي الشيخ بلغتهم، ويعتد لذكره السريان في ١٥ من شهر آذار على ما في الكتاب ٢٦ من الكتب السريانية الواتيكانية. وقد ذكره ابن العبري في أدبياته، وذكره عبد يشوع الصوباري في جملة المؤلفين الذين ذكرهم، وقال إنه كتب كتابين ورسائل خشوعية في طريقة الرهبانية. وعن السمعاني (في المحل المذكور) أنَّ مؤلفاته هذه مثبتة في كتابين قديمين في مكتبة كنيسة القديس بطرس في جبل الذهب بروما بالعربية، وهي في السريانية مثبتة في الكتابين ٢١ و ٢٢ من الكتب المتأني بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية. ويظهر من المقدمة المعلقة على الكتاب ٢٢ المذكور أنَّ هذه المؤلفات جمعها أخو يوحنا المذكور إذ كان يكتب بعضها إليه ليعزّيه، وبعضها كان أخوه يقترحها عليه، ولم يكن يوحنا يعلم أو يريد أن يشهر أخوه ما يكتبه فراراً من المجد الباطل. وذكر السمعاني (مجلد ١ من مكتبته الشرقية صفحة ٤٣٥ وما يليها) له ثلاثين خطبة مأخوذة عن كتبه السريانية في المكتبة الواتيكانية، وعن كتبه العربية في مكتبة كنيسة القديس بطرس في جبل الذهب. ثم ذكر له (صفحة ٤٤١ وما يليها) ثمانين رسالة وما كان منها باللغة العربية هو مترجم إليها من السريانية. وقد حرم تيموتاوس بطريرك النساطرة تلاوة كتب يوحنا سابا مدعياً أنها تشف عن ضلال سايليوس. ولكن قال السمعاني (مجلد ٣ صفحة ١٠٤) قد قلبت كتبه العربية والسريانية فلم أعثر على شيء يخالف التعليم الكاثوليكي في سرّ الثالوث الأقدس بل لقيته يصريح متواتراً باعتقاده بالآب والابن والزّوج القدس كما

يعتقد الكاثوليكيون، فثبت عندي أنّ تيموتاوس اتهمه ببدعة سايليلوس لأنه لم يكن
نسطورياً.

أما اسحق النينوي فقد أتحفنا السمعاني أيضاً (مجلد ١ من المكتبة الشرقية
صفحة ٤٤٤ ومجلد ٣ صفحة ١٠٤) بترجمته فتلخصها عنه. قال إنه كان
سريانياً وترهب مع أخ له في دير القديس متى في ضواحي نينوى، فاختر أخوه
لرياسة الدير واعتزل اسحق في صومعة بعيدة عن الدير ولزم الصمت والاختلاء.
ولما اشتهرت فضائله رقي إلى أسقفية نينوى فأثى إليه رجلان يتحاكمان، فادّعى
أحدهما على الآخر ديناً، وطلب أن يوفيه اياه، فأقر المدعى عليه بالدين وسأل
المدعي أن يمهله، فأبى وقال أن لم تقن ديني الآن شكوتك إلى الحاكم. فقال له
اسحق قد جاء في الانجيل من طلب رداءك فلا تمنعه منه. فلا أقل من أن تصبر
عليه. فأجاب المدعي دع عنك كلام الانجيل ومره يقضني ديني. فقال له اسحق
إن كنتم لا تسمعون ما يقول الانجيل فما أنا صانع بينكم. ونبد الاسقفية فقضى
حياته ناسكاً مجاهداً وبلغ قمة الكمال، ووضع أربع كتب على غاية البلاغة في
الطريقة الرهبانية وقال كاتب ترجمته في المقدمة المعلقة على كتبه باللغة العربية
والحروف السريانية أنه كان في أول الألف السابع من سني العالم. قال السمعاني
إنّ هذه السنة توافق سنة ٥٠٠ للميلاد، لأنّ اليونان والسريان يجعلون ميلاد
المخلص في نحو سنة خمسة آلاف وخمسة مئة لخلق الانسان، فبدء الألف
السابع يكون في سنة ٥٠٠ للميلاد، لكنه صحح أنّ اسحق اشتهر في أواخر
القرن السادس سناً إلى حجج راهنة، ولا سيما لأنه وجد في كتبه رسالة إلى
القديس سمعان العمودي الصغير الملقب بالعجيب، لأنه نسل على عمود في
الجليل العجيب القريب من انطاكية، وسمعان هذا كان في أيام الملكين يوستينانوس
ويوستينس الصغير، وانتقل إلى ربه في ٢٤ أيار سنة ٥٩٣م على عهد الملك
موريق كما حقق افاغريوس (ك ٦ من تاريخه فصل ٢٣).

وقد ذكر عبد يشوع الصوباوي اسحق هذا في قصيدته (فصل ٧٠) في جملة
المؤلفين: «فقال اسحق النينوي وضع سبعة مجلدات في التدبير الروحي والاسرار
الإلهية والاحكام والسياسة الروحية» وقد ترجمت كتبه من السريانية إلى العربية بل
ترجمت خطبه إلى اليونانية أيضاً. وفي المكتبة الواتيكانية منها كتاب واحد في
السريانية وأربعة كتب في العربية. والكتاب الأول منها علق عليه كاتبه هذه الحاشية

«كتب هذا الكتاب الراهب ايوانيس من قرية المنصورية سنة ١٨٢٧ يونانية» الموافقة سنة ١٥١٦م، والكتب الستة الباقية علّق عليها كاتبها حاشية في السريانية قال فيها «قد كُتبت هذه السطور سنة ١٨١٢م (سنة ١٥٠١ م) في بيرة الاسقيط كتبها رجل شر من جميع الخطاة يسمى باسم من نجي بني إسرائيل من عبودية مصر» أي موسى.

وذكر السمعاني له الكتاب الأول بالعربية في الافراز (أي الفطنة) الطبيعي متضمناً ثمانين وعشرين خطبة، والكتاب الثاني بالسريانية في التهذيب الرباني وفيه خمس وأربعون خطبة، والكتاب الثالث في محبة الله بالسريانية حاوياً أربعاً وأربعين خطبة، والكتاب الرابع في المعارف والعلوم في العربية والسريانية مشتملاً على احدى وعشرين خطبة. وقال السمعاني (مجلد ١ صفحة ٤٦١) إنه كان في مكتبة مدرسة الموارنة في روما كتاب سرياني مخطوط مقسّم إلى تسع مقالات عنوانه كتاب عام لجميع الأمم في علّة كل العلل قد نسخه في روما عن نسخة قديمة يوسف بن داود الماروني من قرية بسلوقيت في جبل لبنان سنة ١٦٢٨م وأثبت مرهج بن نمرون الباني في كتابه في افوليا (سلاح) الايمان (قسم ثالث صفحة ٣٦٥ و ٣٦٨) إنه من مؤلفات اسحق النينوي، لكنه وصف اسحق هذا بأنه تلميذ القديس افرام وهذا غير صحيح لأنّ افرام كان في القرن الرابع واسحق هذا كان في القرن السادس كما مرّ. وقال أعلم أيضاً أنّ كثيرين عزوا كتاب علّة جميع العلل إلى اسحق، لكنهم لم يثبتوا أهو اسحق النينوي أم غيره، ولا أستطيع القطع في مسألة غامضة كهذه إلى أن رجح أخيراً أنّ هذا الكتاب ليس للنينوي.

عد ٦٦٢

يعقوب البردعي

كان يعقوب هذا راهباً في دير بالرها ورقي إلى أسقفيتها بعد وفاة أداي أسقفها سنة ٨٥٢ يونانية (سنة ٥٤١ م) كما يتبيّن من سلسلة أساقفة الرها المأخوذة عن تاريخ هذه المدينة. وقد أثبتها السمعاني في المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ٤٢٤) وكان شديد الغيرة على الدفاع عن بدعة أصحاب الطبعة الواحدة، وكانوا قد

انقسموا إلى فرق شتى، فلمْ شعْثهم وضَعْهم إلى أُمَّة واحدة فسموا يعاقبة باسمه. وكان حينئذٍ في مقدمة الكاثوليكين افرام الأمدى بطريرك انطاكية، وفي رأس أصحاب الطبيعة الواحدة سرجيوس الذي انتخبوه بطريركاً على انطاكية بعد وفاة ساويرس. ولما مات سرجيوس ٥٥٠م اجتمعوا ورأس مجمعهم يعقوب البردعي وحملهم على انتخاب بولس بطريركاً لهم لأنَّ السريان الذين انفصلوا عن البطريرك الانطاكي الشرعي، جعلوا كرسي الرها أول كراسي ما بين النهرين. وقد روى عنه ماري بن سليمان وعمرو بن متى من علماء النساطرة ما هو أولى أن يُعد من الاقاصيص، فقالا إنه رقى جيورجيوس وغريغوريوس رفيقيه إلى الاسقفية فرقياهما إلى البطريركية، وكان يكثر من ترقية الكليريكين أين ارتحل أو حلَّ حتى قيل إنه رقى ثمانين ألف كاهن وشماس في مدى حياته التي كانت ثلاث وسبعين سنة. ومما يحمل على العجب أنَّ رينودوسيوس أخذ عنهما هذه الأخبار الكاذبة وأثبتها في كتابه في الليتورجيات الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٣٤٢)، وأغرب من ذلك ماورد في كتاب عربي كان في مدرسة الموارنة بروما عنوانه مدح اليعاقبة وایمان السريان وهو بحروفه أنَّ يعقوب سار في الدنيا كلها، ودخل إلى بلاد الشرق وكرز فيها قسوس كثير وشماسة، ومضى أيضاً إلى بلاد الشام وكرز لهم مطران على السواحل كلها، وكان المطران يسمى في كرازته ديوسقورس... وأيضاً دخل إلى بلاد القبط وكرز لهم قسوس كُثُر وشماسة وبطريرك لانطاكية، ودخل أيضاً بلادالنوبة وإلى بلاد الحيشة، وجملته ما كرز من الكهنة والشماسة مائة ألف قسيس وشماس وعشرين أسقف ومطران وبطركين. وبعد ذلك تنبَّح في برية الاسقيط بي القديسين». إلى غير ذلك من أحاديث خرافة فمن يصدِّق أنَّ رجلاً سريانياً لم يك قط بطريركاً ورقى كل هذا العدد الكثير إلى درجات الكهنوت والاسقفية والبطريركية.

وقد أدركته الوفاة سنة ٥٧٨م بعد أن استمر على أسقفية الرها سبعاً وثلاثين سنة على ما روى ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه. ويعتد له اليعاقبة في ٢٨ تشرين ٢ و ٢١ آذار و ٣١ تموز، ويلذكرونه في رتبة القداس وفي دستور الايمان الذي يتلوه المتقدمون إلى الدرجات المقدسة، ويحصبونه في مصاف الآباء، وعلماء الكنيسة يتفاخرون بأنه أبو ملتهم وأنهم سموا يعاقبة نسبةً إليه كما ترى في الكتاب الثالث السرياني من الكتب المأني بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية (صفحة ١٥٣). وفي الكتاب القديم السرياني الذي هو السادس والعشرون من الكتب

السريانية في المكتبة المذكورة حيث يقال «يعقوب البردعي الذي سمينا باسمه» وكذلك قال كثيرون من العلماء القدماء والحدثاء غير اليعاقبة، ولا يحفل بقول بعض اليعاقبة أنهم سمو بهذا الاسم نسبةً إلى يعقوب الرسول أخي الرب كما روى مرهج بن نمرون الباني في كتابه الموسوم بافوليا (سلاح) الايمان (صفحة ٤٠) على أنَّ جيورجيوس ابن العميد قال «إنهم سموا يعاقبة لأنَّ ديوسقورس كان اسمه يعقوب في العلمانيين فكان يكتب إلى المؤمنين وهو في المنفى، ويوصيهم أن يثبتوا على أمانة المسكين المنفي يعقوب. وقيل إنَّما كان له تلميذ اسمه يعقوب وكان وهو في المنفى يرسله إلى الشعب ليثبتهم على الامانة فنسبوا إليه، وقيل إنَّ يعقوب كان تلميذاً لساويرس بطريك انطاكية، وكانت أمانته موافقة لأمانة ديوسقورس . فكان الأب ساويرس يرسل يعقوب تلميذه إلى المؤمنين ويثبتهم على أمانة ديوسقورس فنسبوا إليه» وقد أورد ابن العميد قول سعيد بن بطريق البطريك الاسكندري ورده حيث قال (صفحة ٣٩١ من كتابه) «قال سعيد بن بطريق وكان لساويرس تلميذ اسمه يعقوب البرادعي فكان يطوف البلاد ويردُّ الناس إلى مقالة ديوسقورس وساويرس، وقال إنَّ اليعاقبة منسوبون إلى يعقوب هذا وليس الأمر كما قال لأنَّ اليعاقبة سمَّوا يعاقبة من عهد ديوسقورس، وقد شرحنا ذلك متقدماً» وكل ذلك خطأ لأنك لا ترى أثراً في كتب المونوفيزيتيين أو كتب الكاثوليكين لتسمية أصحاب الطبيعة الواحدة يعاقبة قبل يعقوب البردعي.

وقد سماه العلماء اليونان زلزال كما روى نيكوفورس (ك ١٨ فصل ٥٢) وقال إنَّ الكلمة بمعنى ضعيف أو ذليل أو حقير وسماه السريان **ܕܝܘܣܩܘܪܝܐ** أي البردعي لأنه كان يلبس بردعة وهي ذئ الأصهل العربي الحلس يُلقى تحت الرجل على دواب الحمل فتوسعوا بها إلى رداء يلبسه الرجل. وقال ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة «إنَّما سمي البرادعي للمبسه الساذج وعدم تأنقه فيه». وقال داود الاسقف الماروني في كتاب الفرائض وهو في جملة الكتب العربية التي في المكتبة الواتيكانية (فصل ١) «ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى البردعة، ولذلك يقال له يعقوب البرادعي». ولكن قال السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٦٧٠) إنَّ مدينة بردعة بُنيت بعد يعقوب بمدة طويلة نحو سنة ٧٠٥م في أيام عبد الملك ابن مروان كما روى جلال الدين الاسيوطي في كتاب تاريخ الخلفاء وهو في جملة الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية عد ٤٦

صفحة ٨٠ حيث يقول «وفي سنة خمس وثمانين (للهجرة) بُنيت مدينة اردبيل ومدينة بردعة بناهما عبدالعزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي.

ومن مؤلفات البردعي نافور ذكره الدويهي (في كتاب المناثر العشر فصل ٧ عد ٩) حيث قال «يعقوب البردعي أسقف الرها ومنه نُسبت الملة يعقوبية، له نافور بدؤه **«السلام الكلي القداسة»** وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب المأني بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية (صفحة ١٥٣) وقد ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية (مجلد ٢ في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٣٣) وقد عزا ابراهيم الحاقلي ومرهج ابن نمرون الباني المارونيان إلى يعقوب البردعي كتاب تعليم اليعاقبة الذي هو دستور معتقد ملتهم وأثمه. وأورد كلاهما في مصنفاتهما فقراً من هذا الكتاب الذي كان في مكتبة مدرسة الموارنة بروما مكتوباً بالخط الكرثوني وعنوانه «هذه أمانة اليعاقبة الذين يسمون السريان» وفتحته «قال القديس مار يعقوب البرادعي رأس أساقفة اليعاقبة السريان والقبط والحش بعد ما وقعت الاختلافات بين النصارى». ويلحق لهذا الكتاب (صفحة ٣٦) تقرّظ لليعاقبة عنوانه «ميمر على الامانة السريانية» وفتحته «بديت أشرح أمانة اليعاقبة» وفي هذا الكتاب أيضاً (صفحة ٣٧٠) خطبة عربية في بشارة مريم العذراء عنوانها «ميمر من القديس مار يعقوب البرادعي صاحب الملة اليعقوبية قاله على البشارة المجيدة... وأرسله إلى انطاكية كرسي الرسول العظيم» ومطلعها «باسم الآب البسيط والآن وهو الوسيط، وباسم الروح القدس الفارقليط الإله الواحد» على أنّ العلامة السمعاني أنكر أنّ هذا الكتاب بما اشتمل عليه من مؤلفات البردعي وأيد رأيه أنّ الخطبة في العذراء ليست له بحجج منها هذه الخطبة مدبجة بعربية فصيحة وعبارات بليغة منظومة على وزن شعري حتى لا يصحّ القول أنّها مترجمة من السريانية إلى العربية. ويعقوب رجل سرياني عاش في وسط بلاد السريان إي في الرها، وإنما كتب بالسريانية لا العربية التي لم يتكلم بها أهل سورية وما بين النهرين إلّا بعده بمدة مديدة. وناهيك من أنّها مفتوحة بالدعاء باسم الله وذكر صفاته. وهذا دأب العرب بعد ظهور الاسلام، ولا نرى له مثلاً في كتب علماء السريان القدماء. ثم إنه قال في مقدمة كلامه أنه يتضمن توحيد الطبيعة (في المسيح) ولا نرى في الخطبة أثراً أو كلمة مؤذنة بهذه البدعة

بل نراها تضمنت الاعتراف يعقيدتي الثالث والتجسد كما تعلم الكنيسة الكاثوليكية دون زيغان. وهذا يتت قاطعة على أنّ هذه الخطبة لعالم كاثوليكي وليست ليعقوب البردعي.

وكذلك أثبت السمعاني أنّ تقرّظ اليعاقبة آي الميمر في ايمان السريان ليس للبردعي بدليل أنه كتب بالعربية الفصاحة وأنه جاء فيه في صفحة ١١٦ مباحث تتعلق بمارون والموارنة، وفي صفحة ٤٥ ثناء على يعقوب البردعي، وشيء من ترجمته. وفي صفحة ٥١ ذكر يوحنا بن شوشان بطريرك اليعاقبة الذي كان في أواخر القرن الحادي عشر، وعليه فمؤلف هذا التقرّظ كان في القرن الثاني عشر وليس للبردعي. ومثل ذلك في كتاب تعليم اليعاقبة فإنه ليس للبردعي لأنه جاء صفحة ٢٥ ذكر يعقوب الرهاوي، وهو قد كان بعد البردعي بقرن كامل، وقيل فيه في صفحة ٣٣ أنّ غرة وعسقلان وغيرهما من مدن فلسطين تخصّ بطريركية انطاكية، وهذا إنما أحدثه اليعاقبة المتأخرون خلافاً لقوانين الكنيسة القديمة التي كانت بمقتضاها هذه المدن مختصة ببطريركية أورشليم. وذكر هذا التعليم توما البياتيني في مؤلفه في الاهتمام برجوع جميع الأمم (ك ٧ فصل ١٥) فقال: «إني مورد بايجاز الأضاليل التي تستى لي جمعها من كتاب تعليم اليعاقبة الذي عثرت على نسخة منه بروما في مكتبة كردينال كنيسة القديسة ساورينا مخطوطة بالعربية واللاتينية» وجملة الأضاليل التي أخذها عنه ستة وثلاثون ضللاً تشتمل عليها أيضاً نسخته التي في مكتبة مدرسة الموارنة. قال السمعاني ذكرت هذا ليعلم رينودوسيوس أنّ هذا الكتاب لم يستنبطه الموارنة إذ يظهر من كلامه في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية (صفحة ٢٣) أنه يتهم مرهج بن نمرون الباني الماروني أنه اخترع هذا الكتاب. فإنه قال في يوحنا بن شوشان «أثبت نمرون أنّ هذا الكتاب لا وجود له إلّا في مكتبة الموارنة، ولا يركن البتّة إلى صدقه» انتهى ملخصاً عن مجلد ٢ من المكتبة الشرقية من صفحة ٦٢ إلى ٦٩.

عد ٦٦٣

يوحنا أسقف آسيا

قد استشهدنا متواتراً بأقوال يوحنا هذا وهو كان في هذا القرن، فيجدر بنا أن

نذكر هنا شيئاً من ترجمته. فقد قال عن نفسه أنه كان في مدينة آمد وروى قوله ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه (صفحة ١١٩) وهو: «قد حان لنا الآن أن نتكلم في الرزية التي حلت بمدينة آمد التي ربينا فيها مع غيرها من المدن المجاورة لها» وكانت تلك الرزية الطاعون. وكان مغوياً بيدعة أصحاب الطبيعة الواحدة في المسيح، وهذا ظاهر من تنديده بالجمع الخلكيدوني. ومن أقواله ولا سيما قوله في تاريخ سنة ٨٧٤ يونانية الموافقة (لسنة ٥٦٣ م) إذ كلفه الملك يوستينانس أن يستدعي رهبان أديار سورية ليأتوا إلى قسطنطينية لايجاد السلم. في الكنائس فقال: «وقد أخذ (هذا الملك) يحضّ حقارتي أنا يوحنا أسقف آسيا أن استدعي الرهبان في أديار سورية، فأبيت أن أكون وسيطاً في هذا الأمر وخادماً له خيفة من لعنة هؤلاء الرجال الأفاضل ودعواتهم عليّ».

ولم ينبئنا ديونيسيوس لماذا سمي أسقف آسيا، ولا أية كنيسة رأس. والظاهر أنه لم يكن أسقف مدينة مخصوصة بل كان أسقف المونوفيزيين في آسيا الصغرى كلها، فقد اعتاد أصحاب البدع متى كان عددهم قليلاً أو يقيموا أسقفاً واحداً في اقليم أو مملكة بكاملها. فقد أنبأنا يوحنا هذا نفسه أن اوتروبيوس كان أسقفاً لليوليانين في آسيا وسرجيوس أسقفاً في مملكة الحميريين. وقد كتب يوحنا تاريخاً ابتداءً فيه من أيام توادوسيوس الصغير إلى أيام يوستينانس الملك. وقال فيه ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه (صفحة ١٢٢): «إنّ القديس يوحنا أسقف آسيا كتب تاريخاً من أيام يوستينانس الملك، أعني إلى سنة ٨٨٥ يونانية» توافق سنة ٥٧٤ م. وقد اشتمل تاريخه على أمور كان غيره قد كتبها أو أشار إليها قبله. وقد اعتمد فيه على تاريخ الاسكندرین كما يظهر من نصّه على أنّ يوستينانس توفاه الله سنة ٨٨٥ يونانية (سنة ٥٧٤ م)، ولو اتبع رأي العلماء السريان في أنّ تاريخ اسكندر يتقدّم على التاريخ المسيحي العامي بثلاث مئة وتسع أو احدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة لقال إنّ وفاة يوستينانس كان سنة ٨٧٥ يونانية (سنة ٥٦٤ أو سنة ٥٦٥ م)، وكذلك تراه أرّخ كل أعمال يوستينانس بعد عشر سنين من السنة التي عيّنها غيره من المؤرخين السريان. وقد أورد السمعاني أمثالا من تواريخه في أيام يوستينانس من سنة ٨٥٣ إلى سنة ٨٨٥ يونانية، سلك بتاريخه فيها ما مقتضى مذهبه المذكور، وقد استشهدنا ببعض أقواله في تاريخ هذه السنين، ولا سيما عند ذكرنا الزلازل التي أخرجت

بيروت وغيرها من مدن فينيقية في هذا القرن، فيلزم الانتباه إلى الفرق الذي بينه وبين غيره من المؤرخين في تعيين السنين. انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية (مجلد ٢ صفحة ٨٣ وما يليها).

الفصل الثالث

المجمع الخامس المسكوني وما كان في سورية من المجمع والبدع في هذا القرن

لما كان الغرض من عقد المجمع الخامس المسكوني وهو القسطنطيني الثاني النظر في ما سموه الفصول الثلاثة، وهو ما كتبه توادورس أسقف المصيصة معلم نسطور مما يؤيد ضلال تلميذه، وما كتبه توادوريطوس أسقف قورش رداً على حروم القديس كيرلس الاسكندري، ورسالة ايهيبا أسقف الرها إلى ماري الفارسي، تحتم علينا أن نفتح هذا الفصل بذكر هذه الفصول الثلاثة أو المقالات الثلاث، وما كان في الكنيسة بسببها لا في سورية فقط بل في المشرق والمغرب أيضاً من القلق الذي دعا إلى عقد هذا المجمع.

عد ٦٦٤

الفصول الثلاثة

كثر البحث في هذا القرن عن تعاليم اوريجانس فلم يخلُ بعد مماته من مندد ومؤيد كما كان له في حياته، وقد حرم مجمع عُقد في قسطنطينية ما وجد في كتبه من الضلال فحمل بعض المنتصرين له على أن يطلبوا تحريم مقالات توادوريطوس وايهيبا وتوادورس أسقف قيصرية بالكبادوك ودومطيانس أسقف انكورة وغيرهما يدافعون شديد المدافعة عن صحة تعليم اوريجانس، فهتجوا رهبان دير القديس سابا في فلسطين وغيرهم من الرهبان والاكليريكين على الانتصار لاوريجانس وخالفهم غيرهم، وعظم الخلاف والقلق ورفع هؤلاء عريضة إلى الملك

يوستينيانس يبيّنون فيها غوايات اوريجانس ويشكون من يدافعون عنه، وعاونهم على نيل ما رغبوا بللاجيوس الشماس سفير الحبر الروماني في قسطنطينية، ومثا بطيريكها. وكان يوستينيانس يلذ له التحرش في الأمور الدينية فأصدر منشوراً نبذ فيه اوريجانس وأضاليه، وأثبت منشوره بللاجيوس سفير الحبر الروماني، ومثا البطريك، وكل من كان في العاصمة من الاساقفة. وكتب الملك إلى البابا فيجيليوس وإلى سائر البطارقة فصوّبوا عمله. وقد كان ذلك سنة ٥٤٤م على ما روى لياراتس (فصل ٢٣) أو سنة ٥٤٨م على ما روى بارونيوس.

فاستاء توادورس أسقف قيصرية من هذا التحريم، وكان يصرف أكثر أوقاته في قسطنطينية تاركاً رعيته ومتزلفاً إلى الملك، فمضى إليه مع بعض مشايخه وقال مولاي عبثاً تعنى نفسك بمشاق كتابة المناشير ولك وسيلة سهلة ترضي بها كل فريق، هي أن تنبذ من تعاليم اوريجانس الفصول الثلاثة. وكان توادورس ينوي في ذلك تخديش الجمع الخلكيدوني لأنّ هذا الجمع قبل ايهيا مكفّي منه بأن يحرم نسطور، وردّ توادوريطوس أسقف قورش إلى كرسيه، وأغضى على مدح توادورس المصيصي. ولم يصرح بحرم مقالاتهم فانقاد الملك لمشورته طامعاً بحصول السلم والوافق، وأصدر منشوراً نبذ فيه الفصول الثلاثة المذكورة، وأرسله إلى البطارقة ليوّقّعوا عليه. فوقّع عليه مثا البطريك القسطنطيني مشروطاً اثبات الحبر الروماني لهذا النبذ، وأثبتته زويلس البطريك الاسكندري، وافرام البطريك الانطاكي، وبطرس البطريك الأورشليمي خوفاً من الملك. وتردّد بعض الاساقفة في أن يصوّبوا رأي الملك إلى أن يثبت الحبر الروماني. وخالفه أساقفة المغرب وافريقيا وامتنع البابا فيجيليوس من تصويب منشور الملك لئلا يتذرّع به الهراطقة لمقاومة الجمع الخلكيدوني. فعزم الملك أن يأمر بعقد مجمع في العاصمة، واستدعى إليه البطارقة الشرقيين بل فيجيليوس الحبر الروماني أيضاً. فزایل البابا روما وأتى إلى صقلية وأقام فيها نحواً من سنة يكاشف الملك في عقد المجمع في هذه الجزيرة لتيشر سفر الاساقفة إليها من المشرق والمغرب وافريقيا. ولما لم يدعن الملك لمشورته أتى إلى قسطنطينية سنة ٥٤٧م على الراجح فقبله الملك بالتجلّة والاحفاء وأذاع هنالك منشوراً نبذ فيه تعليم الاشافلين (أي من لا رئيس لهم، وهم هراطقة كانوا يخطئون الجمع الخلكيدوني ولا يصوّبون تعليم اوطيخا وديوسقورس) مع علمه بأنّ الملكة توادورا مؤيدة لهم (كما يظهر من رسالة البابا غريغوريوس الكبير ال ٣٦ إلى أساقفة

استريا) وتمنع من مخالطة منّا البطريرك القسطنطيني في الروحيات لأنه أكره بعض الاساقفة على قبول منشور الملك، ثم قبله في شركته لالحاح الملكة توادورا بذلك.

وألح الملك على البابا أن يعقد مجعاً مع نحو من سبعين أسقفاً كانوا حينئذ في قسطنطينية للبحث في الفصول الثلاثة، فأجاب البابا سؤاله لكنه رأى ما سيكون من الخلاف بين الاساقفة لدن اجتماعهم، فأثر أن يستطلع رأي كل منهم على انفراد مخطوطاً، فأبرز حكماً باسمه في ١١ نيسان سنة ٥٤٨ أثبت فيه تحريم الفصول الثلاثة مصرحاً بأن هذا التحريم لا يمسّ المجمع الخلكيدوني ولا يضاده بشيء. ونهى الجميع عن التحرش بهذا المبحث قولاً أو خطأً آملاً أن هذا التسامح القانوني يؤول لحفظ السلم مع الاساقفة الشرقيين ولا سيما لأنّ المبحث لم يكن دينياً لاتفاق الجميع على المعتقد بنفسه، وحصر الاختلافات على أشخاص أصحاب الفصول الثلاثة، وعلى معاني كلامهم. على أنّ أساقفة افريقيا وايليريا ودلماسيا أبوا الاذعان لحكمه، بل انقطعوا عن شركته وغادره شماسان كان شديد الثقة بهما والاركان إليهما، يسمى أحدهما روستيك والثاني سبسطيان. وبعد أن كانا قد أغرياه سنة ٥٤٨م بابرار حكمه خالفاه به سنة ٥٤٩م، وأذاعا أنه لم يرغ حرمة المجمع الخلكيدوني، وكتبا إلى كثيرين من الاساقفة يشكونه بذلك، حتى اضطر أن يثبت لكثيرين منهم أنه لم يمس حرمة المجمع الخلكيدوني، وعزل شماسيه عن مقاميهما. وصورة حكمه عليهما معلقة على أعمال المجمع الخامس (مجلس ٧) ورأى البابا والملك أنه لا يطفئ جذوة القلق إلاّ عقد مجمع مسكوني، فعولاً عليه لكنهما اختلفا في مكانه. فأحب البابا أن يُعقد في إيطاليا أو صقلية استرضاءً وتيسيراً لأساقفة المغرب، وتشبث الملك بعقده في قسطنطينية. واسترجع البابا حينئذ حكمه السابق بحرم الفصول الثلاثة وأوقفه ناهياً تحت طائلة الحرم عن الجدل في شأنها إلى أن يثبت المجمع المقبل هذا المبحث. وكتب الملك يستدعي الاساقفة إلى الاجتماع في عاصمة ملكه فلم يمثّل أمره الاساقفة الغربيون. ولم يشأ البابا أو يقضي أمراً دون رضاهم. وأذاع الملك منشوره بتحريم الفصول الثلاثة معلقاً إياه في كنائس قسطنطينية وغيرها. فساء هذا الصنيع البابا وجمع الاساقفة الشرقيين ومن وجد منهم من الغربيين وحضّهم أن يسألوا الملك لينكف عن منشوره، ويلزم ما جرى الاتفاق عليه من انتظار حكم المجمع. وإن لم يثنّ هو عن عزمه، وأذعنوا هم لأمره فيفصلهم من شركته. فمضى توادورس أسقف قيصرية مع الاساقفة محازيه

في الغد إلى احدى الكنائس المعلق المنشور فيها، فأقام القداس غير مبالٍ بل محا اسم زويلس البطريك الاسكندري من سجل التذكارات البيعية، وأدخل مكانه اسم ابولينار الدخيل على الكرسي الانطاكي فامتنع الحبر الروماني عن الاشتراك مع الاساقفة الشرقيين بل عن مقابلتهم أيضاً.

وقد احتدم الملك غيظاً من مناصبة البابا منشوره، وأمر بالخفر عليه في منزله، فلجأ إلى كنيسة القديس بطرس في قسطنطينية، وأرسل الملك بعض أعوانه مع الجنود للقبض عليه، فدخلوا الكنيسة مجردين سيوفهم، وحاولوا اخراج البابا منها مكرهاً، فاعترضهم الجَمّ الغفير الذي ازدحم هناك، ولما لم ينكف الملك عن اضطهاد البابا فر إلى خلکیدونية وأقام في منزل كنيسة القديسة اوفيميا. وبلغت هذه الأخبار ايطاليا وأساقفة المغرب فأحدثت قلقاً كبيراً. أما الملك فأرسل إلى البابا في ٢٨ كانون الثاني سنة ٥٥٢م بالبصار وغيره من حاشيته يسألونه أن يعود إلى قسطنطينية، فأجابهم البابا اني معتزل إلا لتدارك العثار الحاصل في الكنيسة، فإن أراد الملك أن يعيد الوفاق والسلم إلى الكنيسة عدت للحال إلى العاصمة، وإن لم يجب سؤالي فاعتزالي أولى بي فلا أخرج من هذا المقام. وقصّ عليهم ما كان بعد أن علّق الملك منشوره في الكنائس، وختم كلامه مستحلفاً وفد الملك أن يبلغوه من قبله أنه يأتّم ائماً ثقيلاً إذا اشترك مع من حرّمهم، ولا سيما توادورس أسقف قيصرية. وفي الرابع من شباط أرسل إليه الملك بطرس أحد أعوانه يسأله متى يريد أن يحضر إلى قسطنطينية، ويضمن له الملك راحته فيها. فأجابه البابا أن يبلغ الملك أنه لم يشخص إلى القسطنطينية مذ سبع سنوات إلا لايقاع السلم في الكنيسة ولا يريد سواه. وإنه يأمل أن لا يسمح الملك لأي كان أن يشوّشه ولا سيما توادورس علّة كل هذه الشرور الذي حرّمه وحطّه عن مقامه مذ ستة أشهر، ولم يتوقف عن اشهار حكمه إلا رعايةً لخاطر الملك وطمعاً بارعواء توادورس عن سوء صنيعه. وأرسل إلى الملك مع مفوضه داسيوس أسقف ميلان وبعضاً من بطانته ليكاشفوه بايجاد السلم في الكنيسة، وإنه إذا بقي متلوماً في بتّ الأمر قضى به البابا بسلطانه المطلق. وفي اليوم التالي أذاع البابا منشوراً مبيّناً فيه ما قاساه حباً بخير الكنيسة ومفنداً التهم التي كان خصومه يغتابونه بها كما هو بيّن في رسالته الخامسة عشرة. وكانت نتيجة ثبات البابا فيجيليوس أنّ الملك نقض منشوره وارتضى أن يطلق للمجمع المقبل أن يبحث في الفصول الثلاثة بطواعيته التامة، وإنّ الاساقفة الملتزمين

رفعوا إلى البابا عريضة صرحوا فيها بأنهم يعتقدون كل ما رُسم في المجامع الأربعة المسكونية وفي رسائل الأبحار الرومانيين، ووعدوا بأنهم يسلكون دون زيغان بمقتضى كل ما رسم فيها بالاتفاق مع قصاد الكرسي الرسولي ونوابه الذين ترأسوا على تلك المجامع نيابةً عن أبحار روما (هذه هي عبارات أساقفة الروم أنفسهم كما رواها لباي مجلد ٣ صفحة ٣٣٧) واستماحوا أخيراً الغفران من البابا عما كان منهم في ما مضى.

واختتموا عريضتهم بقولهم ولما كنا مجتمعين على كل ما ذكر جئنا نلتمس أن تعطف قداستكم على أن ترأسنا لنبحث في أمر الفصول الثلاثة أمام الإنجيل، ومتى انتهى المبحث توطد السلم في الكنيسة. وقدم للبابا هذه العريضة بطاركة قسطنطينية واسكندرية وانطاكية وغيرهم من الاساقفة في ٦ كانون الثاني سنة ٥٥٣م (لباي في المحل المذكور) وعاد البابا إلى العاصمة وأثنى على الاساقفة لما تضمنته رسالتهم إليه وأثبت العزم على عقد مجمع قانوني مع باقي الاساقفة المتحدين معه للبحث في الفصول الثلاثة. وسأل البابا الملك أن يعقد المجمع في ايطاليا أو صقلية وأن يستدعي إليه أساقفة افريقيا والاساقفة اللاتينيين إذ جلّ غرض البابا في هذا التصرف الحكم، إنما هو أن يجانب الانقسام بين الاساقفة الغربيين والشرقيين فلم يرضَ الملك. وجلّ ما جرى الاتفاق عليه أنّ البابا يعيّن للملك اسماء الاساقفة اللاتينيين الذين يحدثونه وإنّ عدد الاساقفة الذين يبحثون في المسألة يكون سوياً بين اليونان واللاتينيين على أنّ الملك لم يقف عند هذا الاتفاق بل أسرع للحال إلى اذاعة منشور يستدعي به البطاركة والاساقفة الذين كانوا في العاصمة وحدهم إلى عقد المجمع الذي التزم في قسطنطينية كما سترى في العدد التالي (كل ما مرّ في هذا الفصل عن رسائل البابا فيجيليوس وعن كتب بعض المعاصرين وعن مجموعة المجامع للباي).

عد ٦٦٥

المجمع المسكوني الخامس

قد افتتح هذا المجمع في ٤ أيار سنة ٥٥٣م وكان الاساقفة المجتمعون فيه مئة وواحد وخمسون أسقفًا، في جملتهم خمسة أساقفة في افريقيا اختارهم الملك. وفي

المجلس الأول تلى منشور الملك المتضمن الدعوة إلى الجمع ثم العريضة التي رفعها الاساقفة إلى البابا فيجيليوس كما مرّ، وجوابه عليها المؤذن بعقد الجمع. وأرسل الاساقفة وفداً إلى البابا بطاركة قسطنطينية واسكندرية وانطاكية الثلاثة وستة عشر أسقفًا يسألونه باسم الجمع إن يأتي فيبحث معهم مسألة الفصول الثلاثة كما كان قد وعد أفتشيوس بطريك قسطنطينية (خليفة منّا الذي توفي في تلك المدة) برسائلته إليه. فأجابهم البابا أنه لا يستطيع أن يصرّح للحال بعزمه لتشوش صحته، وإنه سيصرّح به في الغد. فأرفض الاساقفة في ذلك اليوم ولا جرم أنّ البابا فيجيليوس إنما هو الذي رغب في عقد الجمع تداركاً لمرضاة الاساقفة الغربيين الذين ساءهم تسامحه برذل الفصول الثلاثة إرضاءً للأساقفة الشرقيين، فلو تسامح بأن يرأس الجمع غير مبالٍ بغيوبتهم لتسبب بشقاق بين الكنيسة الغربية والشرقية، والغرض من الجمع حصول اتفاق، ولهذا أجاب الاساقفة في الغد مصرّحاً بأنه لا يستطيع الاتيان إلى مجملعهم الذي يحسب شرقياً لوفرة عدد الاساقفة الشرقيين، لا عائماً لقلّة عدد الاساقفة الغربيين فيه خلافاً للاتفاق مع الملك أن يكون عدد الاساقفة من الفريقين سوياً، لكنه سيبيّن رأيه مكتوباً ويرفعه إلى الملك. فلم يكن في المجلس الثاني إلّا سماع الاساقفة جواب البابا وارجاء البحث إلى مجلس آخر، ثم ألحّ الاساقفة مرة أخرى على البابا وأوفد الملك بعض بطانته يسأله أن يأتي إلى الجمع فوعد أنه سيبلغ الملك بعد مدة وجيزة ما يراه في هذا الشأن. وفي التاسع من أيار عقد الاساقفة المجلس الثالث، واقتصروا فيه على أن يعلنوا استمساكهم بكل ما رُسم في المجامع الأربعة المسكونية، ورذلهم كل ما يضادها أو يخلّ بحرمتها. وإنهم مقتفون آثار الآباء القديسين وأرجأوا الكلام في الفصول الثلاثة إلى يوم آخر.

وفي اليوم الثاني عشر من أيار عقدوا المجلس الرابع وأخذوا الفحص عن أقوال توادورس أسقف المصيصة، وتلوا احدى وسبعين فقرة مأخوذة عن مؤلفاته ومشعرة بالضلال. وفي السابع عشر من أيار تلوا في المجلس الخامس ما كتبه الآباء في شأن توادورس هذا وما جاء في التواريخ عنه. وبحثوا في ما إذا كان الحكم على الأموات جائزاً. وأثبت بعضهم ذلك سنداً إلى أقوال بعض الآباء وإلى مثال تحريم كتب اوريجانوس من عهد قريب. وانتقلوا إلى البحث عن أقوال توادوريطوس أسقف قورش فتلوا فقرأ من كتبه تبين أنه قاوم القديس كيرلس ودافع عن توادورس المصيصي ونسطور، وتلوا في المجلس السادس الذي كان في ١٩ أيار رسالة ايهيبا

أسقف الرها إلى ماري الفارسي.

وكان في الفترة التي بين المجلس السادس والسابع أنَّ الملك يوستينانوس أكثر من الالتحاح على البابا فيجيليوس أن يشهد المجمع ويبحث الاساقفة في الفصول الثلاثة أو يصرح بمدافعتة عن ضلال كاتبيها، فأبرز البابا براءة أنفذهما إلى الملك ضمنها شرح كل ما كان في هذا المبحث والحكم فيه وإليك ملخصها: «قد استهلَّ الحبر الروماني كلامه بذكره دستوري الايمان اللذين رفعهما إليه البطريركان القسطنطينيان متاً وأفثيشيوس خليفته، وقال قد سألنا جلالتكُم أيها الملك المبجل أن يعقد في ايطاليا أو صقلية المجمع الذي طلب عقده البطاركة والاساقفة في دستوري ايمانها، وأن يدعى إليه أساقفة افريقيا والأقاليم اللاتينية فلم ترَضْ جلالتكُم هذا، وطلبتم أن نقدّم لعظمتكم اسماء الاساقفة من هذه الأقاليم اللذين نرغب في أن يذاكروكم وأنكم تستقدمونهم، فرضينا هذا الاتفاق كلفاً بايجاد السلم في الكنائس، ثم أمرتم بالاتفاق مع الاساقفة المقيمين الآن في هذه العاصمة أن يكون عدد الاساقفة من الشرقيين والغربيين متساوياً، وإننا نتباحث حينئذ في الفصول الثلاثة بمقتضى دستوري الايمان المشار إليهما آنفاً. وبينما كنا مهتمين باعداد كل مايلزم لنهاية هذا المجمع بما يؤلّ لخير الكنيسة والسلم فيها، أرسلت جلالتكُم إلينا توادورس رئيس بلاطها يلخّ علينا أن نرفع الجواب إليكم في شأن الفصول الثلاثة، وضايقنا كبراء دولتكم لنقدّم الجواب للحال ودون مهلة، فلم ننكفَ عن اجابة مسؤولكم لكننا طلبنا مهلة عشرين يوماً لنبلّ من مرضنا الذي عرفه الجميع لتتمكن من ابراز حكمنا بعد التروي اللازم. وسألتمونا أن نبلغ اخوتنا الاساقفة مثل هذا الجواب فبلغناهم اياه بلسان ولدنا بلاجيوس الشماس، وأمرناهم أن لا يحدثوا شيئاً قبل ابراز حكمنا بعد ابلالنا من مرضنا لئلا يكون ذلك وسيلة لتجديد العثار، بينما نحن عاملون على ازالته». ويظهر أنَّ البابا لم يشأ مطلقاً أن يذكر الملك هنا يتهافته على اذاعة منشوره.

وبعد هذا البيان الشافي أخذ البابا في الكلام على المبحث نفسه فقال: «قد تدبرنا أقوال المجامع ومراسيم أسلافنا في الكرسي الرسولي، وما قاله الآباء الموثوق بهم في هذا المبحث، قد طالعنا أيضاً الكتاب الذي رفعه إلينا أخونا باتينيوس أسقف هرقلية من قبلكم، فإذا هو مفعم بالتجاديف والمزاعم المناقضة للايمان الكاثوليكي فحرمناه». ثم أورد البابا ستين فقرة مأخوذة عن مؤلفات توادورس المصيصي وهي

من الفقرات نفسها التي كان المجمع قد أخذ سبعين فقرة منها، ويبيّن البابا خطأ الكاتب في كل فقرة منها وحرّمها ونهى تحت طائلة الحرم عن أن يتذرع أحد بذلك لاهانة أحد آباء الكنيسة أو علمائها، إذ لم يكن الكرسي الرسولي أصدر حكمه عليها. إلى أن قال (ثم تفحصنا ما قاله الآباء في توادورس هذا فوجدنا القديس كيرلس كتب إلى يوحنا بطريرك انطاكية أنّ المجمع الأفسسي نبذ دستور الايمان المعزى إلى توادورس، ولم يأتِ بذكر شخصه تحوطاً. ومما قاله أيضاً أنه يلزم التحاشي عن اهانة الموتى، وألفينا بروكلس بطريرك قسطنطينية صنع كذلك حرم أغلاط توادورس ولم يأتِ بذكر اسمه، ولم نجد في المجمع الخلكيدوني ذكراً لتوادورس المصيبي إلا في رسالة يوحنا الانطاكي إلى الملك توادوسيوس حيث قيل أنه لا يلزم حرم توادورس بعد موته. ثم يحثنا عما إذا كان أسلافنا في الكرسي الرسولي حكموا على الأموات بشيء لم يحكموا عليهم به في مدة حياتهم، فوجدنا أنّ الحبرين لاون وجيلاجيوس شهدا بما يخالف ذلك». وذكر أمثلة أخرى إلى أن قال «فنحن إذاً لا نجسر أو نحرم توادورس بنفسه ولا نسمح لأحد أن يحرمه».

أما توادوريطوس أسقف قورش فنرى أنه لا يمكن الحكم عليه بل نتعجب ممن يدعون أن يحكموا على أسقف شهد المجمع الخلكيدوني مذنب ومئة سنة، ووقع دون تردد على أعماله وعلى رسالة البابا لاون، وإن قال حينئذ ديوسقورس والاساقفة المصريون أنه اراتيكي، فأباء ذلك المجمع قد تفحصوا أمره بالدقة ولم يطالبوه إلا أن يحرم نسطور وتعليمه، فأتمّ ذلك لساعته بحضرة آباء المجمع كلهم. فلا يمكن الحكم بعد ذلك بأنه نسطوري خلواً من أن يحكم على آباء المجمع الخلكيدوني بالكذب والرياء، ولا يُظن أنّ هؤلاء الآباء جهلوا تنديده بحروم القديس كيرلس بل لا مراء في أنهم اقتفوا آثاره إذا صفح حباً بالسلم عن كل ما كتبه الاساقفة الشرقيون رداً عليه، ولا سيما أنّ توادوريطوس أقرّ في رسائله التي ثلّيت في المجمع الخلكيدوني بأنّ كيرلس أصاب في ما كتب، وأثنى على من كان يظنه منخدعاً. وعليه فنحن ننهي كل أحد أياً كان عن أن يحكم على توادوريطوس، وعلى هذا النحو نرعى حرمة شخصه ونحرم كل ما عزي إليه من الأقوال المؤيدة ضلال نسطور أو أي مبتدع كان» ثم أطلق خمسة حروم للخمسة أغلاط المأخوذة عن مؤلفات توادوريطوس. ثم أخذ بعد ذلك في الكلام على ايهيبيا أسقف الرها فقال: «وأما رسالة ايهيبيا أسقف الرها فنرى المجمع الخلكيدوني بعد تلاوتها برأ

كاتبها وحكم بأنه صحيح المعتقد، بل أعلن إنّ الرسالة بنفسها لا تحوي ما يخالف الايمان لأنها تشتمل على ما اتفق عليه القديس كيرلس ويوحنا البطريرك الانطاكي بالعقائد. وجلّ ما رأوه فيها أنها لا تخلو من عبارات حاطة من قدر القديس كيرلس فعالن ايهيا المجمع نقضه كلامه السابق معترفاً بأنه كان يفهم كلام كيرلس بغير المعنى المراد منه، وصرح باعتقاده واذعانه لحكم مجمع أفسس، وبأنه إذا كان نبذ حروم القديس كيرلس الاثني عشر فلسوء فهمه، لأنه كان يظنها ناقضة لعقيدة الطبعيتين في المسيح. ولما انجلى له معناها الصحيح أذعن لها. وكان اوطيخا وديوسقورس يثيان على القديس كيرلس لظنهما أنّ كلامه مؤيد لبديعتهما التي كان ايهيا يخالفهما بها في مجمع أفسس اللّصبي، ولذلك عزلاه في هذا المجمع عن كرسيه، وردّه إليه المجمع الخلكيدوني، ولهذا نأمر بأن يستمر حكم المجمع الخلكيدوني على قوته بكمالها بالنظر إلى رسالة ايهيا وكل ما سواها». واحتتم البابا كلامه ناهياً أياً كان وفي أي مقام كان عن أن يحكم بما يخالف ذلك. فهذه خلاصة براءة البابا فيجيليوس بشأن الفصول الثلاثة وهي مؤرخة في ١٤ أيار سنة ٥٥٣م (عن لباي في مجموعة المجامع مجلد ٥ صفحة ٣٣٧م وما يليها).

وفي الخامس والعشرين من أيار استدعى البابا بعض حاشية الملك وثلاثة من الاساقفة وأطلعهم على براءته، ورغب إليهم أن يبلغوها إلى الملك، فطالعوها واعتذروا عن رفعها إلى الملك قبل أن يرخص لهم بذلك. وبعد عودهم لقنهم الملك أن يجيبوا البابا من قبله أننا دعوناك لتشهد مجمع الاساقفة فأبيت، والآن تقول أنك كتبت شيئاً في شأن الفصول الثلاثة، فإن كان لتحرمها فلا حاجة لنا إلى ذلك إذ لدينا منك ما هو كافٍ لتحريمها، وإن كان لتبدي ما يخالف ذلك فلا نقبل ما تنقض به كلامك الأول وتحكم به على نفسك، وبهذا الطيش أبى يوستينانس الملك قبول براءة البابا بعد أن ألح بطلبها مرات. وفي اليوم التالي ٢٦ أيار أرسل إلى المجمع مفوضاً من قبله ويده بعض رسائل كان البابا قد كتبها إليه أو إلى بعض الاساقفة يعد فيها بتحريم الفصول الثلاثة أو يحرمها. وكان غرضه من اطلاعهم عليها ألا يتوقفوا عن تحريم الفصول الثلاثة. ولو لم يشهد البابا المجمع وأصح الأقوال في تمتع الملك من قبول براءة البابا إنما هو أن يبقى اخلاف وعده مرات مكتوماً، وأن لا يُذاع بين الجمهور حثه. فتلا الاساقفة في مجلسهم هذا السابغ تلك الرسائل وأثنوا على الملك وأرجأوا اصدار حكمهم على الفصول الثلاثة إلى المجلس

المقبل. وقد روى بعض المؤرخين أنَّ مفوض الملك بلغ الاساقفة في هذا المجلس رسالة من الملك يأمرهم بها أن يرفعوا من التذكارات البيعية اسم البابا فيجيليوس. وقد وُجدت نسخة من هذه الرسالة معلقة على بعض نسخ من أعمال المجمع لكنها مؤرخة في ١٤ تموز والمجمع كان قد انتهى مذ ٢ حزيران فتبين من ذلك أنَّ هذه الرسالة لم تكن صحيحة.

وفي الثاني من حزيران سنة ٥٥٣م عُقد المجلس الثامن الأخير ولم تؤخذ أصوات الاساقفة منفردين بل تلا قارئ المجمع الحكم الذي كانت خلاصته ايراد مأجراه الاساقفة من البحث في الفصول الثلاثة. ودحض موجز لما يقال في المدافعة عنها، يلي ذلك قول الاساقفة أننا نقبل ونجل المجمع الأربعة المسكونية المنعقدة في نيقية وقسطنطينية وأفسس وخلقيدونية. ونعلم ما علمه ونعتد من لا يقبلونها منفصلين عن الكنيسة الكاثوليكية، ونحرم توادورس المصيبي وما كتبه مما يخالف الايمان والاغلاط التي دَوَّنها توادوريطوس أسقف قورش مخالفاً حروم القديس كيرلس محاماة عن توادورس ونسطور ورسالة ايهيبا أسقف الرها. وعليه فنحرم الفصول الثلاثة ومن يدافع عنها من الآن فصاعداً. وصرحوا بأن البابا فيجيليوس قد حرم هذه الفصول مرات قولاً وخطاً وألحقوا بهذا الحكم أربعة عشر حرماً مؤيدة للايمان الكاثوليكي ومناقضة لأضاليل النساطرة والأوطاخيين. وكان عدد الاساقفة الذين وقَّعوا على هذا الحكم مئة وخمسين أسقفاً (لاباي في مجموعة المجمع مجلد ٥ صفحة ٥٦٢ وغيره). وعن بعضهم مئة وستين أو مئة وخمسة وستين.

وقد روى انسطاس المكتبي (يوصف بهذا الوصف لأنه كان ناظراً على المكتبة الواتيكانية في القرن التاسع) في ترجمة البابا فيجيليوس والكونت مرسلين وفكتور دي تونون أنَّ الملك يوستينانوس نفى البابا فيجيليوس مع حاشيته بعد هذا المجمع، ثم أرجعهم من المنفى بطلب نرسيس والي روما وتابعهم على ذلك كثيرون من المؤرخين اللاتينيين، على أنَّ المحققين من اولي النقد لم يثبتوا هذه الرواية بل الثابت هو أنَّ البابا فيجيليوس أبرز في ٨ ك ١ سنة ٥٥٣ منشوراً أنفذه إلى افثيشيوس بطريك قسطنطينية أثبت به أعمال المجمع الخامس وتحريمه للفصول الثلاثة. ونهى تحت طائلة الحرم عن المدافعة عنها فيما بعد. ثم أصدر في ٢٣ شباط سنة ٥٥٤م براءة أخرى مثبتاً فيها تحريم هذه الفصول ومبيّناً أنَّ تحريمها في المجمع الخامس لم يمس حرمة المجمع الخلكيدوني. ومما قاله فيها أنَّ الرسالة المنسوبة إلى ايهيبا أسقف

الرها ليست له حقيقة بل زورها النسطوريون باسمه، وقد حرمت في المجمع الخلكيدوني، وتبرأ إيهيا منها، فاثبات البابا فيجيليوس حكم المجمع الخامس بهذا المنشور وهذه البراءة جعلاه يحسب من المجمع المسكونية مع أنه لم يكن كذلك في بدئه إذ لم يدع الخبر الروماني إليه ولا رأسه بنفسه ولا بنوا به. ولم يكن فيه أساقفة المغرب. وبعد اثبات الخبر الروماني له أخذ أساقفة المغرب يدعون لحكمه على التعاقب فحكمه البابا فيجيليوس وقت الكنيسة حينئذ من شقاق بين الغربيين والشرقيين ولو مهما قال عداله والمنددون به. وقد توفاه الله في صقلية عائداً إلى روما سنة ٥٥٥م.

وبين العلماء خلاف في ما إذا كان المجمع الخامس حرم غوايات اوريغانس أو حرمت قبله. فمن قائل أنه حرّمها ويعزو إليه خمسة عشر قانوناً وجدت معلقة على أعمال هذا المجمع في اليونانية تحرم أضاليل اوريغانس. ولم توجد أعمال هذا المجمع عند اللاتينيين في أصلها اليوناني بل وجدت ترجمة لاتينية قديمة لها. ربما كانت الترجمة التي قدمت إلى البابا فيجيليوس ولا وجود لهذه القوانين فيها، ولا ذكر لأضاليل اوريغانس إلا كلمة واحدة في الحرم الحادي عشر، ربما زادتها يد حديثة على أعمال هذا المجمع. ولذلك رأى أكثر المحققين أنّ المجمع الخامس لم يتعرض لتحريم أضاليل اوريغانس إذ كانت حرمت قبله، أما في مجمع عُقد في القسطنطينية سنة ٥٤٣م في أيام منّا بطريكها كما قال كثيرون، أو في سنة ٥٤٤م على رواية ليبارتس، أو سنة ٥٤٨م على رواية بارونيوس كما مرّ في عد ٦٦٤. انتهى ملخصاً عن نطاليس اسكندر وروهربخر ومعجم المجمع للأب بلتيا في طبعة مين.

عد ٦٦٦

المجمع التي عُقدت في سورية في القرن السادس

روى ابن العبري (في تاريخ بطاركة انطاكية) أنّ بولس بطريك انطاكية عقد مجمعاً فيها نحو سنة ٥٢٠م أثبت فيه رسوم المجمع الخلكيدوني وأمر أساقفته بيشها. وشدد عليهم برعايته، ومن خالف وأصرّ منهم عزله عن كرسيه. ثم عقد في انطاكية أيضاً سنة ٥٤٢م مجمّع آخر رأسه افرام الأمدي بطريك انطاكية للنظر في

غوايات اوريجانس التي اشتد الخلاف فيها حينئذ، ولا سيما بين رهبان فلسطين كما أشرنا إلى ذلك آنفاً. وحرّم افرام والاساقفة الذين اجتمعوا معه غوايات اوريجانس التي أخذت من كتبه وقد مرّ ذكرها في الكلام عليه.

وعُقد في أورشليم سنة ٥١٨م مجمع اجتماع فيه ثلاثة وثلاثون أسقفاً من أعمال فلسطين الثلاثة. فحرموا فيه اتباع ساويرس واوطيخا وأيدوا رسوم المجمع الخلكيدوني، وكل ما كان قد تقرر في مجمع عُقد في قسطنطينية في ١٥ تموز تلك السنة من اثبات تذكارات المجمع الأربعة المسكونية في التذكارات البيعية. وحرّم ساويرس البطريرك الانطاكي، ثم عُقد مجمع آخر في أورشليم سنة ٥٣٦م بداعي أنّ مَثَا البطريرك القسطنطيني أرسل إلى بطرس بطريرك أورشليم أعمال المجمع الذي عقده في قسطنطينية تلك السنة. فجمع بطرس أساقفته في أورشليم في ١٩ ايلول فأيدوا ما كان قد حكم به مجمع مَثَا من حرم انتيمس الدخيل على بطريركية قسطنطينية وساوويرس البطريرك الانطاكي، وبطرس أسقف اباميا وزعورا الراهب السرياني. وعُقد في أورشليم أيضاً مجمع آخر سنة ٥٣م لاثبات ما حكم به المجمع الخامس المسكوني من تحريم الفصول الثلاثة كما مرّ. فإنّ البطريرك الأورشليمي لم يتيسّر له أن يشهد هذا المجمع بنفسه فأرسل إليه نوابه كما مرّ. فعند عودهم إليه دعا أساقفته وأثبت بالاتفاق معهم على ما حكم به في هذا المجمع من تحريم الفصول الثلاثة. وقد قيل في مجمع أورشليم أنهم أثبتوا أيضاً تحريم تعاليم اوريجانس المضلّة وقد رأيت أنّ الأظهر في المجمع الخامس لم يحرم غوايات اوريجان، وعليه فيظهر أنّ نواب البطريرك أتوا أيضاً بأعمال مجمع مَثَا سنة ٥٤٣م الذي حرمت فيه غوايات اوريجانس فأثبت مجمع البطريرك تحريم هذه الأضاليل أيضاً.

وعُقد في صور مجمع سنة ٥١٨م عقده اييفان رئيس أساقفتها دعا إليه أساقفة فينيقية. وقد ذكرنا في عد ٦٥٦ اسماء كل من عرفناهم من أساقفة فينيقية الذين وقّعوا على أعمال هذا المجمع وعلى الرسالة التي أنفذوها إلى بطريرك قسطنطينية، وقد ثلّيت رسالتهم هذه في المجلس الخامس من المجمع الذي عقده مَثَا بطريرك قسطنطينية سنة ٥٣٦م وقد ذكر لاباي (في مجموعة المجمع مجلد ٥) مفصلاً ما كان في صور حينئذ. ونقله عنه روهريخر (ك ٤٣ من تاريخه) قال أنّ المجمع الذي عُقد في قسطنطينية سنة ٥١٨م كتب إلى اييفان أسقف صور ينبّه ما كان فيه من

حرم المبدعين، وتأييد الجمع الخلكيدوني فمضى ايفان يوم الأحد في ١٦ ايلول سنة ٥١٨م إلى الكنيسة وتليت الرسائل المنفذة من العاصمة، فضجّ الشعب متلهلاً بالدعاء للملك يوستينس ولرئيس أساقفتهم ايفان، وصاحوا إلهما الله هو الذي دبر الله واحد الايمان، واحد اصنعوا ما صنع مجمع قسطنطينية احرموا ساويرس اخرموا أعوانه اطردها الاساقفة الهرطقة. فرقي ايفان إلى المنبر وقال إننا لا تعلم إلا التعليم الذي بشر به الرسل وأخذ آباؤنا عنهم، وأثبتوه لنا في مجامع نيقية وقسطنطينية وأفسس وخلكيدونية، فنحرم اولي جميع البدع. وصرّح باسماء كل من خالفوا عقيدة التجسد، ونحرم ساويرس الشرير. فصاح الشعب ها هو الايمان الحق نحرم يوحنا (كان من أعوان ساويرس سلّم إلى اتباعه كنيسة العذراء في صور) الجاحد تلميذ ساويرس وجميع أصحاب البدع، فليحل عليهم حرم الآب والابن والروح القدس امين. فصاح الشعب امين امين امين. وتلاه يوحنا أسقف عكا حارماً ساويرس والباقيين كما حرمهم ايفان. وطلب الشعب أن يقيموا الصلوة في كنيسة العذراء التي كان الهرطقة قد استحوذوا عليها، فأرجأ ايفان ذلك إلى يوم آخر وعيّن له الأحد المقبل، ثم دوّن الاساقفة رسالة الجواب إلى الجمع القسطنطيني التي ذكرناها آنفاً.

وروى يياجوس مؤلف الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أنّ الملك انسطاس أمر بعقد مجمع في صيدا سنة ٥١٢م جمع فيه ثمانين أسقفاً آملاً أن يحملهم بتحريضاته على حرم الجمع الخلكيدوني فناصره في ذلك افلايانس بطريرك أورشليم، ويوحنا أسقف بالتو (يظنها المؤلف مدينة ساحلية في شمالي سورية) فنفاهما انسطاس إلى العرية حيث توفي افلايانس، وعاد يوحنا بعد وفاة انسطاس إلى كرسية.

عد ٦٦٧

البدع بسورية في القرن السادس

إنّ أكثر اولي البدع بالشرق في هذا القرن كانوا اوطاخيين أو فروعاً منهم. وأشهر هذه الفروع الاشافليون، فهؤلاء كانوا مشايخين لاوطيخا بزعمهم أنّ في المسيح طبيعة واحدة، لكنهم اختصوا مع بطرس الملقب الاثني الذي كان غصب

الكرسي الاسكندري، فانفصلوا عنه ولم يشؤوا أن يوافقوا الكاثوليكين فسموا اشافليي أي لا رأس لهم. وكان أشهرهم ساويرس بطريرك انطاكية، وبطرس أسقف اباميا، وزعورا الراهب السرياني، وتوادورس أسقف قيصرية الكبادوك. وانقسم هؤلاء إلى فروع عديدة شأن الغصون المنفصلة من أصلها يقلبها الهواء كلّ منقلب، ومنهم اليعاقبة الذين نسبوا إلى يعقوب البردعي الذي مرّ ذكره. وكانوا يزيدون على ضلال اوطيخا أضاليل أخرى. فكانوا يعيدون للفصح يوم تعيد اليهود له، ولم يكونوا يسجدون للصليب إن لم يعمدوه أولاً كالناس، ويرسمون إشارة الصليب باصبع واحدة للدلالة على الطبيعة الواحدة، ولا يستعملون مزج الماء بالخمر في الكأس للتقديس، ويدوفون ملحاً وزيتاً في خبز التقديس إلى غير ذلك من عوائدهم المخالفة عادات الكاثوليكين، ومنهم البراصمة وهم الأرمن الذين اتبعوا برصوم الارشمندريت في ضلال اوطاخي، وزادوا عليه ضللاً آخر هو أنهم أنكروا أن كلمة الله أخذ جسداً من مريم العذراء، وزعموا أنه استحال إلى جسد واجتاز في بطن العذراء اجتيازاً فقط (كوتي في الدين الحقيقي مجلد ٢ فصل ٧٦ جزء ٦).

ومن الاوطاخين أيضاً فرقة يسمون الانبوتيين أي الجهليين، وكان رئيسهم تاميسيون الشماس الاسكندري الذي كان اوطاخياً، وزاد على ضلاله زعمه أن المسيح بما أنه ذو طبيعة واحدة كان يجهل أموراً منها جهله يوم الدينونة إذ قال: «أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد ولا ملائكة السماء ولا الابن إلا الآب». وكان يقول إن هذا الجهل يليق به كما لاق به الجوع والعطش والالام (رواه فلوري مجلد ٥ ك ٣٣ ونطاليس اسكندر في تاريخ هذا القرن فصل ٣) وقد تعامى عن وجه يهتدى به إلى تفسير هذه الآية من الوجوه الكثيرة التي ذكرها الآباء والمفسرون، منها أنه لم يعرف يوم الدينونة بقوة ناسوته، وإن عرفه به بقوة لاهوته، ومنها أنه عرفه بنفسه ولم يعرفه ليعرف الناس به ليكونوا دائماً متيقظين للموت كما صرح بذلك في كلامه التالي. وكان من الاوطاخين فرقة أخرى يسمون الثلاثيين وكان رئيسهم الغرامطقي الاسكندري الملقب فيلوبونس (أي الكثير التعب) وكان يحاج الكاثوليكين بأن اعتقادهم بطبيعتين في المسيح يدعوهم إلى الاعتقاد بأقنومين فيه، ولما أفحموه بأن الطبيعة شيء والأقنوم شيء آخر تسكع بضلال آخر، فزعم أن في الثالوث الأقدس ثلاث طبائع لأن فيه ثلاثة أقانيم، فاعتقد بثلاثة آلهة ولذا سمى اتباع بدعته الثلاثيين (فلوري ونطاليس اسكندر في المواضع

المذكورة).

ونشأ عن بدعة اوطيخا بدعتان أخريان متناقضتان، دُعيت الأولى بدعة الفساديين لزعم اتباعها أنَّ المسيح لم يتحمل الجوع والعطش والآلام باختياره لأنه أراد بل تحملها مكرهاً، لأنَّ جسده فاسد كجسدنا، ودُعيت الثانية بدعة غير الفساديين أو التخليين لزعم تباعها أنَّ جسد المسيح كان غير قابل الفساد ومعصوماً من الآلام بنوع أنه لم يتحمل تعباً أو عطشاً أو جوعاً أو آلاماً إلاّ تخيلاً فقط. وكان رئيس الفساديين توادوسيوس الراهب ورئيس التخليين يوليانس أسقف اليكارنسو بآسيا الصغرى. وعظم الخلاف في الاسكندرية بين اولي البدعتين إذ كتب علماء كل فريق مايؤيد بدعته به واتصل الخلاف إلى عامة الشعب وأدى إلى قتال وقتل وحريق منازل (روى ذلك نطاليس اسكندر في تاريخ القرن السادس فصل ٣ جزء ٣ وكوتي مجلد ٢ فصل ٧٦ جزء ٦ وغيرهما). وقد تسكع يوستينانس الملك ببدعة التخليين في آخر حياته كما مرّ في آخر الكلام عليه.

ملحق

في

تاريخ الموانة

اقتصرنّا في تاريخ الموانة في القرن الخامس على ذكر القديس مارون وتلامذته الأبرار، ونبيّن في تاريخهم في هذا القرن السادس توافر عدد رهبان القديس مارون وانتشارهم في أديار كثيرة، ومناضلتهم عن الايمان الكاثوليكي المقدّس، ودفاعهم عن المجمع الخلكيدوني، وتسمية متابعيهم موانة نسبةً إليهم، وما عانوه لذلك من

الاضطهاد والتعنيف حتى استشهاد كثيرين منهم حباً بالايان الكاثوليكي.

عد ٦٦٨

انتشار رهبان القديس مارون في سورية وتسمية متابعيهم

موارنة نسبةً إليهم

قد مرّ قبلاً ذكر توافر عدد تلاميذ القديس مارون والأديار التي بُنيت على اسمه. فأولئك النساك المتوحدون في حياة القديس مارون قد انضوا بعده إلى رهبانية واحدة يضمها قانون واحد، وأقاموا لهم أدياراً كثيرة يعيشون فيها العيشة المشتركة، ومحابس للمتوحدين، ومدارس لاقتباس العلوم، ومنازل يأوي إليها الغرباء والفقراء. واقتنوا حقولاً ومزارع لتقوم بأود الرهبان والمتسكين والمتعلمين والزائرين، حتى يظهر أنه كان لهم دير في قسطنطينية عاصمة الملك نفسها. فإنّ الرسائل التي رفعها مريان رئيس دير القديس دلماتيوس وغيره من رؤساء دير قسطنطينية إلى الملك يوستينيانس، ومثا البطريك القسطنطيني سنة ٥٣٦م تشفعاً بالرهبان الذين قدموا من سورية للتشكي على ساويرس بطريك انطاكية، يتبيّن منها أنه كان في ضواحي قسطنطينية دير على اسم القديس مارون، ونعلم أنّ رئيس هذا الدير شهد الجمع الخامس المسكوني، وقد دوّن توقيعه في الرسائل المذكورة (توادورس القس برحمة الله رئيس دير القديس مارون وقعت وتضرعت (رواه البطريك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة). وقد ذكرنا قبلاً أنّ ديرهم الأكبر كان على ضفة العاصي بين حمص وحماه، وأنه كان فيه نحو من ثمان مئة راهب، وأنه كان له الرئاسة على أديار سورية الشمالية كلها، وإنهم كان لهم دير عند منبع العاصي وآخر في جوار دمشق. ويظهر من رسالتهم الآتي ذكرها أنهم أخذوا دير القديس سمعان العمودي ووسعوا مبانيه حتى كان يسع مئآت من الرهبان، كما يدل ما بقي من أطلاله التي ذكرها دي فوكواي في كتابه في آثار سورية (مجلد ١). ولا مراء في أنه كان لهم أديار أخرى نجهل مواقعها ولا نشكّ في وجودها إذ نرى في رسالتهم المذكورة توقيع خمسة وعشرين رئيساً.

إنّ رهبان دير القديس مارون لم يكونوا يقتصرون على النسك والتكامل بالفضيلة وتخليص نفوسهم فقط، بل كانوا يباشرون الرسالة والاهتمام بخلاص الآخرين أيضاً، فيطوفون المدن والقرى منادين بكلام الله ومحرضين الشعب على

اقتفاء الفضائل والتحاشي عن الرذائل، ولا سيما الكفر بالدين، ويناصبون أصحاب البدع والآراء الفاسدة ولا سيما التساطرة والساويريين واللاوطاخيين بخطيئهم ومكاتباتهم وجدالهم، فكان رؤساؤهم كقادة جيش يدافعون عن الدين القويم، ورهبانه جنوده الباسلون وكماته الظافرون، وأديارهم كقلاع حصينة يلجأ إليها كل من ضايقه المارقون، ويؤمها كل من عازه سلاح العلم الصحيح لناوأة الجاحدين، يستعين بهم الاساقفة والرعاة على حفظ خرافهم في حظيرة الدين القويم، ويستنجدهم الكهنة واولو الغيرة لارشاد الضالين وتقوية الضعفاء. وقد كان في المشرق من أقدم الأيام ما نراه إلى اليوم أنّ عامة الشعب يتبعون آثار رؤسائهم الروحانيين وينتمون إليهم، ويسترشدونهم ويكلون إليهم أمورهم الدينية والدينية، وكأنه رسخ في طبعهم الميل إلى الشيوكراسي أي الانقياد إلى السلطة الروحية. وعلى هذا النحو كان جميع المتشبهين بالدين الكاثوليكي في ذلك العصر ينقادون إلى رهبان القديس مارون، ويصغون لتعليمهم وينتمون إليهم، وهم يقيمون بناصرهم ويدافعون عنهم، وما جرى عليهم من الاضطهاد بحرق أديارهم وقتل جثم غير منهم كما سترى زاد الشعب علاقة بحبهم واجلالاً لهم ذلك حظ كل مضطهد ظلماً، فأخذ خصومهم ازدراء بهم يسمونهم مارونيين أو موارنة نسبةً إلى هؤلاء الرهبان، وإلى القديس مارون أبيهم على نحو ما يسمي بعض السفهاء والمارقين في هذا العصر يسوعيين من ينقادون إلى ارشاد الآباء اليسوعيين الأفاضل. فهذا كان أصل هذه التسمية وبداءتها وهم لم يكونوا يأنفون منها، وتمكنت فيهم وجعلوها شعاراً لهم بعد أن انفصلوا عن اولي البدع، وأقيم لهم القديس يوحنا مارون من رهبان القديس مارون بطريقاً عليهم.

ولنا على قولنا هذا الأخير أدلة جلية قاطعة أولها أنّ كثيرين من الأخبار الرومانيين سمو القديس مارون الرئيس أبا الطائفة المارونية، منهم بناديكتس الرابع عشر في براءته في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م التي بها «منح غفراناً كاملاً لكل من يزور كنيسة من كنائس الطائفة المارونية في اليوم التاسع من شهر شباط الذي يحتفل فيه الموارنة كل عام بعيد القديس مارون أبي طائفتهم الخصوصي من مساء مدخل العيد إلى مغرب الشمس يوم العيد». وقال هذا الخبر العلامة في رسالته إلى البطريرك سمعان عواد في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥م: «لا شك في أنّ قاصدنا الأب ايسيدورس حقق لاختوتك كم لنا من الغيرة والمحبة لك أيها الأخ المحترم وللإخوان

المطارين الموقرين وسائر الأبناء الأعزاء بني ملّتك الجليلة والطائفة المارونية كلها التي تفتخر باقرارها بأنها أخذت عن القديس مارون بالخصوص الايمان الكاثوليكي، وإن ثباتها فيه ونموّه فيها من نتائج تشفعه بهم». وقد سمى القديس مارون أبا الطائفة المارونية في رسالته أيضاً إلى نيوقولاوس لركاري في ١٨ ايلول سنة ١٧٥٣م. ونرى مثل ذلك في براءات غيره من الأخبار الرومانيين. ثم إنّ المحققين من العلماء أثبتوا أنّ الموارنة سموا بهذا الاسم نسبةً إلى القديس مارون. تقتصر منهم على ذكر لكويان في كتابه الموسوم بالمشرق المسيحي في الفهرست الملحق بالمجلد الثالث حيث قال: «إنّ الموارنة سموا بهذا الاسم في القرنين الرابع والخامس نسبةً إلى مارون الكلي القداسة، ومن البعيد عن الصواب أن يكون هذا الاسم مشعراً بيدعة بل إنه دال على المعتقد الكاثوليكي خلافاً لبدعتي نسطور واولي الطبيعة الواحدة في المسيح، إذ كان كل من يهمهم حفظ الايمان الكاثوليكي يتقاطرون إلى دير القديس مارون فيرشدتهم رهبانه إلى الايمان الصحيح والثبات فيه. وعليه فكانوا يسمون موارنة كأنهم تابعون أخصاء لايمان رهبان القديس مارون». ونذكر أيضاً شهادة الأب بريسيسوس الكبوشي في مختصر تاريخ بارونيوس في الحاشية على تاريخ سنة ٤٠٧م حيث قال: «وقد سُمي باسم هذا القديس مارون لا أبناؤه الرهبان فقط بل جمهور وافر العدد أيضاً قد اتبعوا في تلك الاصقاع دين الحق وتشبثوا بقوانين المجامع الستة التي انتصر لها تلاميذه الرهبان». وتحرير هذا المبحث أنّ اسم موارنة أُطلق على الرهبان الذين تتلمذوا للقديس مارون أو طرّقوا طريقته، كما سُمّي انطونيون من تتلمذوا للقديس انطونيوس أو عملوا بدستوره، إلى غيرهم من الرهبانيات التي تنسب إلى واضعي طريقها. ثم أطلق خصوم رهبان القديس مارون هذا الاسم على من رأى رأي هؤلاء الرهبان في الايمان الصحيح من عامة الناس فسموهم موارنة نسبةً إلى هؤلاء الرهبان وإلى أبيهم القديس مارون. وهم لم يأنفوا من هذا الاسم بل تمكن ورسخ فيهم عندما انفصلوا عن أولي البدع واختار أساقفتهم بطريركاً على ملّتهم يوحنا مارون الذي اتخذ اسم مارون لأنه كان من رهبان القديس مارون. فمرجع هذه التسمية إذّا إلى القديس مارون لا إلى مارون اراتيكي كما وهم افثيشيوس المعروف بسعيد بن بطريق بطريك الملكيين الاسكندري عن حسد وضغينة. وانتحل كلامه غوليلمس أسقف صور اللاتيني، وتابعهما على وهمهما جمهور من العلماء مغترين بشهادتهما، وخالفهم كثيرون من العلماء

لحقيقين المدققين، بل كثيرون من الأخبار الرومانيين الأعظمين. ونكتفي الآن لرد هذا وهم بقول سعيد بن بطريق نفسه فهو قال: «كان في عصر موريق ملك الروم اهب اسمه مارون قال إنّ لسيدنا يسوع المسيح طبيعتين ومشية واحدة وأفسد قالة الناس ... فسمي التابعون لدينه مارونيين نسبةً إلى مارون. ولما مات مارون سى أهل حماه ديراً سموه دير مارون... وقورش بطريك الاسكندرية وسرجيوس بيرس أسقف قسطنطينية ومكدونيوس ومكاريوس أسقفا انطاكية وانوريوس بابا ومية وهرقل الملك كانوا مارونيين». فكل من له أقل المام بالتاريخ يهتجه هذا كلام للضحك ويزدرجه. فمما لا يمتري فيه أحد المؤرخين أنّ القديس مارون الذي نى أهل حماه الدير على اسمه كان في عهد توادوسيوس الكبير واركاديوس ابنه لذي رقي سنة ٣٩٥م وتوفي سنة ٤٠٨م، وإنّ موريق استوى على ريكة الملك سنة ٥٨٢م وتوفي سنة ٦٠٢م، فبين موريق ومارون نحو من قرنين. مما أجمع عليه المؤرخون أيضاً أنّ بدعة المشية الواحدة في المسيح نشأت في سطنطينية سنة ٦٢٨م فكيف ابتدعها مارون وقد مضى إلى ربه قبل ظهورها بنيف قرنين، وإن قال أنه عني يوحنا مارون فيكذبه قوله أنّ أهل حماه بنوا ديراً على سمه، ولا جرم أنّ الذي بُني الدير على اسمه هو القديس مارون لا القديس يوحنا مارون، فضلاً عن أنّ يوحنا مارون لم يكن وُلد عند ظهور بدعة المشية الواحدة سنة ٦٢٨م أو كان حدثاً ليس في مقدوره أن يدع بدعة، فقد أجمعوا على أنه قي إلى أسقفية البترون نحو سنة ٦٧٥م، وإلى بطركية انطاكية سنة ٦٨٥م وتوفي سنة ٧٠٧م. فإن كان قد بلغ الثمانين من عمره فيكون مولده سنة ٦٢٧ أو سنة ٦٢٨م سنة ظهور هذه البدعة. ولا خلاف في أنّ قورش وسرجيوس وبيرس مكدونوس ومكاريوس هم مبدعو هذه البدعة وأنصارها، ولم ينسبها إلى مارون لا ابن البطريق. ومن لا يسخر من قوله أنّ انوريوس بابا روما وهرقل الملك كانا مارونيين وهو لم يسند قوله إلى أحد، ولا ترى خطة تشير إليه في كل ما كتب مدة ثلاثة قرون (أي مذ نشأة هذه البدعة إلى أيامه)، ولا في المجامع التي عُقدت تحريمها، ولا في كتب العلماء الذين ناصبوا أو دافعوا عنها، ولا في آثار المؤرخين الذين تقدموه، فرعمه إذاً مردود بنفسه ويقضي كل عالم أنه هذيان. وأما قول نوليلمس الصوري فيقنده قوله نفسه في مقدمة تاريخه: «وقد اعتمدنا خاصة على شهادة الرجل المحترم سعيد بن بطريق البطريرك الاسكندري» فقله مبني إذاً على

باطل، وكل مبني على باطل فهو باطل وكذا قل في كل من تابعهما على قولهما. وسنعود إلى رد هذه التهمة في ما بعد بأكثر اسهاب. فنكتفي الآن ببرهان آخر هو أننا إذا سلمنا بقول ابن البطريق وغوليلمس ومن تابعهما وردت علينا معضلة أكثر اشكالاً من هذا التسليم، فالأخبار الرومانيون اثبتوا أن مارون قديس، وقد أفرد بناديكتس الرابع عشر رسالته إلى نيقولاوس ليركاري المار ذكرها لاثبات قداسته، ومنح البابا اكليمنضس الثاني عشر غفراناً كاملاً لمن يزور كنيسة من كنائس رهبان الموارنة يوم عيده في ٩ شباط. ثم عمم بناديكتس الرابع عشر هذا الغفران إلى زيارة جميع كنائس الموارنة. وقد ترك الأخبار الرومانيون كلهم الموارنة يسمون بهذا الاسم بل هم سموهم به كلما أتوا بذكرهم، فهل سموهم باسم مبتدع؟ ونراهم لم يتركوا السريان الكاثوليكين يسمون يعاقبة ولا الكلدان ليسمو نساطرة ولا الأرمن ليسمو براصمة فإذا تسليماً بقول ابن بطريق يضطرنا إلى أحد أمرين: إما أن نقول أن الأخبار الرومانيين ضلوا أو غلطوا، وإما أن ابن البطريق ضل أو غلط، وأي عالم منصف يؤثر أن يصم بالضلال الأخبار الاعظمين على أن يصم به ابن البطريق الذي شحن تاريخه بالأفاصيص والخرافات، وتعقبه بها كثير من العلماء الاعلام، وسوف نبين بعضها وليت كتاب هذا العصر عصر الانتقاد ولا سيما الاورباوين منهم يتدبرون هذين البرهانين اللذين اقتصرنا الآن عليهما كيلا يتهافتوا إلى رشق الموارنة بأسهم الاتهام مغترين بما كتبه سعيد بن بطريق أو غوليلمس أسقف صور أو غيرهما من المتابعين لهما، كبرجياه في معجمه اللاهوتي وكايتانس مورووني في معجمه التاريخي، ويوليا في معجمه التاريخي الجغرافي وغيرهم، ولو أكثروا من المطالعة كما يلزم كتاب التاريخ خاصة لوجدوا كثيرين من المحققين الاورباوين أنفسهم، منهم: يوحنا منسي، ويوحنا بلما، ورنكاليا، وباجيوس، أثبتوا ما يخالف زعمهم ولوقوا أنفسهم من الخطأ والموارنة من الاتهام.

عد ٦٦٩

مناضلة الرهبان الموارنة عن الايمان الكاثوليكي وما عانوه من الاضطهاد
لذلك لا نرى أجدر بهذا المقام من ايراد الرسالة التي رفعها هؤلاء الرهبان إلى
الحبر الروماني البابا هرزدا الذي تبوأ السدة الرسولية من سنة ٥١٤ إلى سنة

٥٢٣م، وأنفذوها إليه مع يوحنا وسرجيوس من اخوتهم، وقد أثبتتها لاباي (في مجموعة المجامع مجلد ٤) ونقلها عنه روهريخر في تاريخه (ك ٤٣) ورواها البطريرك اسطفانس الدويهي الأهدني في تاريخ الموارنة (صفحة ٤١) وهذه هي الرسالة مترجمة عن ترجمتها الافرنسية.

«إلى بطريرك المسكونة كلها الخبر هرمزدا الكلي القداسة والطوبى الجالس على كرسي بطرس زعيم الرسل تضرّع وخشوع يرفعهما إليه أحقر رؤساء الأديار في سورية الثانية وغيرهم من رهبانها. أما بعد، فلما كانت نعمة الله مخلص جميعنا تدعونا أن نلجأ إلى طوباويتكم كما يلجأ إلى مرفأ لدن مهاب العواصف، فأتيناكم موقنين أننا ننجو مما يحف بنامن المخاطر، فإننا وإن قاسينا الاضطهاد فتتحمله مسرورين، ولما كان المسيح إلّنا قد أقامك رئيساً للرعاة ومعلماً للنفس وطبيباً لها، أنت وملكك الصالح كان لازماً أن نرفع إليك شرح ما حلّ بنا من الاضطهاد ونعلمك بالذئاب التي تفترس رعية المسيح لتقصيهم عن الخطيرة بعضا سلطانك، وتبرئ النفوس بكلمة تعليمك، وتضمد جراحها بلسم صلواتك، فهؤلاء المضطهدون المفقون أسهمهم علينا إنما هم ساويرس وبطرس اللذان لا يعدان في عداد المسيحيين لأنهما يحرمان كل يوم علانية الجمع الخلكيدوني المقدّس، وأبانا لاون الحبر الأقدس غير مبالين بدينونة الله المرهية، بل قد وطئا قوانين الآباء ورقيا إلى الاسقفية بسطوة الملك، وأذاقانا أعذبة مبرحة ليكرهانا على الاحتقار للمجمع المقدّس المنوّه به. فبعض الناس ماتوا بتعذيبهم لهم، وقد قتلوا جمّاً غفيراً منا لأننا بينما كنا ذاهبين إلى دير القديس سمعان (العمودي) قد أكمّن لنا في طريقنا بعض الخبثاء الأشرار ووثبوا علينا وقتلوا منا ثلاث مئة وخمسين راهباً، وأثخنوا الجراح في كثيرين وأبسلوا في جانب المذبح من لجأوا إليه، وأحرقوا أديارنا وأرسلوا ليلاً جماعة من الأشرار ورشومهم بدراهم فنهبوا ما بقي ولم يبقَ إلّا شيء يسير. ويتيسر لطوباويتكم أن تقف على تفصيل هذه الأمور بمطالعة المذكرة التي يرفعها اليكم أخوانا المحترمان يوحنا وسرجيوس اللذان كنا قد أرسلناهما إلى قسطنطينية آمليّن انصافنا ومنع هذا الجور عنا فلم يتنازل الملك إلى سماع شكواهما بل أمر بطردهما فعلمنا ما كان يلزمنا أن نعلمه من ذي قبل أنه هو علّة كل هذه الشؤون والأمر بها. فنبتهل إليك أيها الأب الأقدس أن تأخذك الشفقة على كلوم الجسد فإنك أبو الجميع، وأن تثار للآيمان والقوانين والآباء والجمع، فقد أولاك الله سلطان الربط والحلّ فهلّم أيها الأب الأقدس لخلاصنا، واقتديّن بربنا الذي نزل من السماء إلى

الأرض ناشداً الخروف الضال وتأمل بيطرس زعيم الرسل الذي تشرف كرسيه وبولس الاناء المختار فقد طافا المسكونة لينيراها، والكلمة الكبيرة تحتاج إلى أدوية عظيمة. إنَّ المستأجرين إذا رأوا الذئب مقبلة تركوا الخراف لكنك أنت الراعي الحقيقي الذي سلّمت إليه الخراف، فإذا نجت الخراف من الوحوش الضارية مشيت قدامك وعرفت راعيها وأتبعته صوته، كما قال ربنا إنَّ خرافي تعرف صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني. فلا تهملنا إذا أيها الأب الأقدس نحن الذين تسطو علينا الوحوش الضارية في كل يوم، وبارشاد ملكك القدوس نحرم باستغاثتنا هذه منزلينها منزلة دستور الايمان لك من يبندهم كرسيك الرسولي، ونحرمهم أي نستطو واوطيخا وديوسقورس وبيطرس الالغ وبيطرس القصار واكاشيوس وكل من يدافع عن أحد من هؤلاء الهرطقة». وقد ذكر البطريك اسطفانس الدويهي في ذيل هذه الرسالة توابع من وقّعوا عليها بخط أيديهم كمايلي:

- ١ أنا اسكندر برحمة الله قسيس ورئيس دير القديس مارون أتضرّع
- ٢ شمعون برحمة الله قسيس ورئيس
- ٣ يوحنا برحمة الله قسيس ووكيل
- ٤ بروكوب برحمة الله قسيس ورئيس
- ٥ بطرس برحمة الله قسيس
- ٦ اوجان برحمة الله قسيس
- ٧ جيلاد برحمة الله قسيس
- ٨ بسوس برحمة الله قسيس
- ٩ رامولس برحمة الله قسيس
- ١٠ اورشال برحمة الله قسيس
- ١١ ملخس برحمة الله قسيس

وبعد هؤلاء توابع كثيرين وجملتهم مئتان وعشرة، منهم مئة واثنان وخمسون قسيساً وثلاثة وثلاثون شماساً وخمسة وعشرون رئيساً وهؤلاء الرؤساء ستة قسوس وثمانية شمامسة والباقيون دونهم درجة.

فلما وقع البابا على رسالتهم هذه أجابهم في ١٠ شباط سنة ٥١٨م برسالة

ذكر روهربخر ملخصها في تاريخه (ك ٤٣)، وذكره أيضاً البطريك اسطفانس الدويهي (في تاريخ الموارنة صفحة ٤٤) عن لاباي (في مجموعة المجامع مجلد ٥)، وكلامه في هذه الرسالة المنفذة إليهم شامل جميع الكاثوليكين في المشرق، فيشجعهم على الثبات في الايمان القويم قائلاً إنّ هلاك الأبدان في سبيل الايمان لا يُعدّ خسراناً بل ربحاً وافراً بالنظر إلى الثواب الأبدي، وإلى أنّ المسيح يزيدهم في هذه الحياة أيضاً أبداً بنعمته. ويذكرهم بمثل المكايين قائلاً إنّ كانوا قاسوا ما قاسوه حباً بظل الحقيقة فكم يكون أولى بنا أن نتحمل الاضطهاد حباً بالحقيقة نفسها، وإنه يلزمهم أن يتجنبوا مخالطة ذوي الضلال ويرعوا أوامر الجمع الخلكيدوني ورسائل القديس لاون البابا، وأن ينبذوا لا مبدعي البدع فقط بل متابعيهم عليها أيضاً. وأشار إلى الملك انسطاس فقال إنّ سلطة الناس شيء وخدمة الأخبار شيء آخر، فلو اقتصر عوزيا على تدبير المملكة لما أصابه البرص الذي اعتراه لأنه أراد أن يجمع بين الملك والكهنوت خلافاً لارادة خادمي الهيكل فخرس الملك والكهنوت معاً. ولم تغفل نحن عن شيء مما هو لازم في هذه الحن، فأرسلنا وفدين واستخدمنا التضمرعات الدلية وإيراد البراهين المعقولة والتصريح بالأوامر الخلاصية، ولا يوقفنا الاصرار عن السلوك في جادة العدل فمن لا يروعون عن طريق الاثم سوف يهلكون دون أن يمسونا بضرر.

وبعد أن قضى الله على انسطاس الملك سنة ٥١٨م وخلفه الملك يوستينس، وأمر بأن يرجع الاساقفة المنفيون إلى كراسيهم، واستمر بطرس أسقف أباميا على غيّه واضطهاد الكاثوليكين، أخذ رؤساؤهم في انطاكية ورهبان القديس مارون يرفعون الرسائل إليه وإلى يوحنا بطريك قسطنطينية متشكين من بطرس المذكور واتباع ساويرس. فعقد البطريك القسطنطيني مجمعاً في هذه المدينة شهده ثلاثة وأربعون أسقفاً، فحرموا ساويرس وبطرس المذكورين وأرسلوا رسالة مجمعية إلى بطريركيتي انطاكية وأورشليم، فعقد في أورشليم وصور المجمعين اللذين ذكرناهما في كلامنا على المجمع، وأرسل اكليس انطاكية وصور إلى يوحنا البطريك القسطنطيني ومجمعه رسالة مسهبة ذكرها البطريك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة (صفحة ٤٥) وقد اشتملت على عبارات كثيرة من العبارات الواردة في رسالة رهبان القديس مارون السالف ذكرها إلى البابا هرمزدا. وفي جملة تواقعها تواقع كثيرين من رهبان القديس مارون، وذكر الدويهي منهم يوحنا راهب دير القديس مارون. يعقوب راهب دير الرجل الصالح. قسطنطين راهب وقاصد دير

استيرس ذي الذكر الصالح. نونيس شماس دير القديس بولس. سليمان راهب دير القديس اغاييطس. سرجيوس راهب دير القديس سمعان. حلفى راهب دير القديس يعقوب. سعيد راهب دير القديس يوحنا. سمعان راهب دير القديس بولس. بولس راهب دير القديس ليسيكس. عبد الأحد راهب دير القديس دوروتاوس. فلما علم الملك يوستينس بهذه الرسالة ألقى بطرس أسقف اباميا وأخسنيا أسقف منبج في السجن، وسمع ساويرس بذلك فولّى هارباً كما مرّ في كلامنا عليه.

وتوجد رسائل معلقة في ذيل المجمع الخامس من رهبان القديس مارون وهي ناطقة بما كان لهم من الحمية والغيرة على الايمان الكاثوليكي والمجمع الخلكيدوني، وما كان لهم من الاجلال للبابا لاون القديس الذي أمر بعقد هذا المجمع. ويتبيّن منها أيضاً أنه لما قدم البابا اغاييطس إلى قسطنطينية أنفذوا إليه وفداً من أخوتهم ليرفعوا إليه فروض الطاعة والشكر لعزله انتميس بطريرك قسطنطينية عن كرسيه لزيغانه عن الايمان الصحيح. ولما عقد ممثلاً خليفة انتميس المذكور مجعماً سنة ٥٣٦م كتب إليه رهبان القديس مارون رسالة وأنفذوها مع يوحنا القسّ سفيرهم ويرى توقيعه هكذا: «يوحنا برحمة الله القسيس راهب سفير دير القديس مارون المترئس على جميع الأديار والرهبان في سورية الثانية، والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار والرهبان الذين في سورية هذا كتبت» ورفعوا رسالة أخرى إلى الملك يوستيناس وأوفدوا إليه بها بولس الشماس وتوقيعه: «بولس الشماس برحمة الله سفير دير القديس مارون المقدم على جميع الأديار الموقرة في سورية الثانية والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار التي في سورية المذكورة تضرعت وقدمت» (عن تاريخ البطريرك اسطفانس الدويهي صفحة ٤٩).

إنّ دير القديس مارون على العاصي الذي أشار رهبانه في رسالتهم المثبتة آنفاً إلى حرقه في أيام الملك انسطاس ودك أسواره، قد جدده الملك يوستيناس الكبير كما أنبأنا بروكوب الكبادوكي (في مؤلفه في ابنية يوستيناس ك ٥ فصل ٩). وكان بروكوب في دولة يوستيناس وكاتباً لباليصار وقائد جيشه، ثم والياً في العاصمة كما رأيت آنفاً، فهو شاهد عيان. فعاد هذا الدير مزهراً برهبانه ومناضلتهم عن الايمان والمجمع الخلكيدوني إلى سنة ٦٩٤م التي فيها دخلت جنود يوستيناس الثاني الملقب بالأخرم إلى سورية فدكوه دكاً وجعلوه قاعاً صفصفاً انتقاماً من رهبانه الذين لم ينقادوا إليه في الاعتقاد بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح (طالع الدر المنظوم للمثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد صفحة ١٣١).

الباب السابع

تاريخ سورية في القرن السابع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

فصل

الملوك الرومانيون في هذا القرن وما كان بسورية في أيامهم

عد ٦٧٠

فوقا الملك وما كان في أيامه بسورية

قد مرَّ أنَّ فوقا كان قائداً لفريق من الجيش في أيام موريق فنأدى به ملكاً سنة ٦٠م، وزحف إلى قسطنطينية فقتل موريق وأبناءه الأربعة وتبوأ أريكة الملك، ولم ين فيه ما يؤهله له إلا جسارته وقحته وميل أمثاله إليه. فإنه كان جاهلاً خلاء من سجاغة وعزة النفس سكيراً غضوباً متهتكاً، وكان منظره سوياً لخصاله، ولم تكن مملكه إلا سلسلة رزايا منعقدة على الجور والاعتساف، وعرف كسرى الثاني ملك رس بسوء حال المملكة الرومانية فانتهاز الفرصة ليتخطى عهدة الصلح التي كانت ، المملكتين، وشاع أنَّ توادوسيوس بن موريق لم يقتل فأذاع كسرى أنه لديه حلف إلى أملاك الرومانيين متدرباً بأن يرث الملك إلى ورثه الشرعي، وفوقا منغمس هذه لاه بحفلات تمليكه. وفي فصل الربيع سنة ٦٠٣م غشت جيوش كسرى بلاد بين النهرين فشتتوا جنود الرومانيين شذر مذر واستحوذوا على تلك البلاد

وانتهبوها، فاستفاق فوقاً وحشد على عجل جيشاً أُمّر عليه رجلاً لم يشهد حرباً، فانتصر كسرى عليه وأهلك فريقاً من جيشه، ثم أبسل كل من وقعوا في يده فكانت هذه الحرب على الرومانيين أشأم الحروب بينهم وبين الفرس، ودامت أربعاً وعشرين سنة، فالثماني عشرة سنة الأولى منها لم تكن إلا سلسلة رزايا متتابعة متواصلة، فإن كسرى رأى الرومانيين خلاء من القادة المحنكين فواظب على الفتح والقتل وحرق المدن والقرى، فلم تكن آسيا الصغرى من دجلة إلى البوسفور إلا مشهداً للفتك والتدمير والحريق حتى أصبح الفرس يحسبون الرومانيين خرافاً وهم الجزارون.

وقد كان حينئذٍ من القادة الماهرين نرسيس، وكان قد عاون كسرى كثيراً على ارتقائه سدة الملك، على أنه كان قد أبدى استيائه بموريق فاستقدمه فوقاً إليه واعداً أن يقربه إليه، ولما صار في حوزته أحرقه حياً. وقد ائتمر عليه بعضهم سنة ٦٠٦م وكان لامرأة موريق وبناتها ضلع من المؤتمرين فافتضح الأمر وفرت قسطنطينة أرملة موريق وبناتها إلى كنيسة أجيا صوفيا، وحاول فوقاً اخراجهنّ رغماً من الكنيسة فعارضه البطريرك سيرياك، ولم يسمح باخراجهنّ إلا بعد أن أقسم الملك على أن لا ينزل بهنّ سوءاً، وخرجنّ فحشرهنّ في دير وأمات كثيرين ممن وقعت له ظنة بالاشتراك معهنّ. وأكره فيليبس صهر موريق على أن يصير راهباً، وجرمانس أحد قاداته أن يصير كاهناً. على أنه تولاه الخوف والرعدة بعد ذلك فكان يخال له السيف الذي قتل موريق به معلقاً فوق رأسه، ويخشى من أن أقرب المقرين إليه يطعنه يوماً بمديّة في حشائه. وكان له رجل اسمه كريسبوس يعتمد عليه ويجلّه وقد أولاه رتبة بطريق وجعله رئيساً لحرسه وزوجه سنة ٦٠٧م بابنته دومنسيا، واحتفل الأهلون بزفافه ووضعوا صورة العروسين في إحدى الساحات بعد صورتي الملك والملكة، فاستاء فوقاً من ذلك وأحضر من ارتكبوا هذه الجريمة الكبرى، وأمر بقطع رؤوسهم، فاحتشد جمّ غفير يجاهرون بالشكوى من هذا الجور ويهددون الملك بالثورة عليه، فرغب عن تنفيذ أمره لكنه أورث صهره ضغينة لا تمحوها الأيام من صفائح قلبه.

ونشأت حينئذٍ أي سنة ٦٠٧م ثورة أخرى فإن قسطنطينة أرملة موريق كانت تظن ابنها توادوسيوس حياً، وكان جنود فوقاً قد قتلوه في طريقه إلى كسرى فأخذت تحيك وهي في الدير محشرها أحبولة تقنص بها فوقاً، ومالها على ذلك كثير من كبراء الدولة لحنقهم من أعماله، ووفر لفيهم وانبسطت في أقاليم

المملكة محالفتهم، ولكن كشفت امرأة مؤامرتهم فقبض فوقاً على كثيرين من المؤتمرين وأذاقهم أعذبة مرة، فكان يقطع ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم ويفقئ أعينهم ويطرحهم في أتون. وأما قسطنطينة وبناتها الثلاث فقطع رؤوسهن حيث قطع رأس موريق في خلکیدونية وأتبع بهن جرمانس المذكور. وضاحت السجون عن أن تسع من كان فوقاً يزجهم فيها كل يوم، وكان الفرس في كل سنة يجتازون الفرات ويشنون الغارة على أملاك الرومانيين إلى فينيقية وفلسطين أيضاً بعد أن استحوذوا على كل ما بين النهرين حتى الرها. وكان الأهليون يفرون من وجه الفرس فيتراكمون في القلاع والحصون فلا يحاصرههم جنود الفرس بل يطلقون العنان لمطامعهم فينتهبون المنازل في المدن والقرى، ويحرقون الزروع والغلات ويقبضون، على من وقع في يدهم فيأسرونه، وحيث لم تكن حرب كانت الرعية فريسة لجور الحكام والقضاة وسطو الأشرار والصوص. وفي سنة ٦٠٩م زحف كسرى إلى آسيا الصغرى بعسكر جرار فبَدَد من لقيه من جنود الرومانيين واجتاز ارمينيا الصغرى وانتهى إلى الكبادوك، وكان دومنتيول أخو فوقاً يقود الجيش الروماني فيها فروّعه اسم الفرس ولم يجسر أن يقف أمامهم فانتهبوا هذه البلاد المثيرة وتوغلوا في غلاطية وبفلاغونيا وبيتينيا إلى أن خيّموا على شاطئ البوسفور في خلکیدونية. وبعد أن شعبوا وترووا من الفتك والغنائم عادوا إلى بلادهم غانمين. وتواترت في أيام فوقاً الرزايا والوباء والقحط والعواصف وموت البهائم أيضاً (ملخص عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم).

عد ٦٧١

ثورة اليهود في سوريا ونهاية ملك فوقاً

كان الشعب في أنحاء المملكة كلها يثنون من جور فوقاً، ولم يجسر أحد أن ييدي حراكاً إلا أن اليهود في انطاكية جاھروا بالعصيان على الحكومة، وبدلاً من أن يناصبوا رجالها، وثبوا على المسيحيين وقبضوا على انسطاس بطريرك انطاكية فقتلوه وجروا جثته في شوارع المدينة، ودخلوا منازل بعض الأعيان فأماتوهم وحرقوا بيوتهم، فأخذت الغيرة فوقاً على ما كان عليه من التهتك والحيف، فأصدر أمراً أن يعتمد اليهود ولو مكرهين. وأرسل أحد عماله إلى أورشليم حيث كثر عدد اليهود، فجمع اليهود في أورشليم وأطلعهم على أمر الملك، ولما لم يذعنوا له طائعين

عمّدهم مكرهين فاندفعوا إلى شغب ومعارك في أورشليم وانطاكية واسكندرية فقتل
فوقاً منهم كثيرين وفرّ الباقيون، ولكن لم تطفأ جذوة الثورة بل انتشر لظاها في
أعمال المشرق، واتصل إلى العاصمة حتى أعان بعضهم فيها الملك نفسه، لكنهم
لقيوا منه الأمرين وأشربهم أمرّ الحين.

وضاق ذرع كريسبوس المذكور صهر الملك عن تحمّل اعتساف حميه ولم ينس
ما أنزله به من الاهانة يوم زفافه، فكاشف هرقل الذي كان بطلاً اشتهر بشجاعته
في حروبه مع الفرس في أيام موريق. وكان يومئذ والياً في افريقية وكان يخجل من
أن يكون عاملاً لملك جائر باغ كفوفاً. وكان قد انكف عن أن يرسل الغلال من
أفريقيا ومصر إلى قسطنطينية في السنين الجذباء، فعظمت المجاعة وأعدت النفوس
للثورة، لكنه أبى الملك لشيخوخته ورضيته لابنه وأخذ يعدّ العدد والرجال لثّل فوقاً
من عرشه، ولما تكاملت معداته سار ابنه المسمى هرقل أيضاً في أسطول بحراً ميمماً
قسطنطينية، وزحف ابن أخيه نيقيطا براً بجيش من الفرسان، ولم يكن كريسبوس
جسر أن ييوج بسرّه لكبراء القصر، وكانوا جميعاً قد عيل صبرهم على تحمّل
اعتساف الملك فائتمروا على خلعه واقامة توادورس رئيس الحرس ملكاً، فكشفت
مؤامرتهم وذاق المتآمرون مرّ العذاب. وأما هرقل فكان مجاهراً بالعداوة لا يخشى
ثلاًباً ولا مغتاباً، ولم يدرِ فوقاً بحملته عليه إلا إذ دنا أسطوله من العاصمة فأخذ
يستعد للدفاع، وكان كريسبوس صهره والياً في قسطنطينية فكان يظهر مزيد
الاهتمام بتنفيذ أوامر الملك ويعرقل خفية على نفوذها. وبعد وقعة على مدخل
البوسفور رسا أسطول هرقل على مقربة من أسوار العاصمة يوم الأحد في ٤ تشرين
الأول ٦١٠م فهاج كثيرون في المدينة وكانوا ينادون بهرقل ملكاً وانضمّ كريسبوس
إليهم. وفي غد ذلك اليوم خرج بفرقة من الجنود أحد رجال الندوة، وكان فوقاً قد
سطا على امرأته وتسارعوا إلى القصر، فقبضوا على فوقاً وكتفوه واجتازوا به المدينة
وأشخصوه إلى هرقل في سفينته، فازدجره قائلاً: «أهكذا تدبر الملك أيها التعيس»
فأجابه فوقاً بقحته: «أتدبره أنت أحسن» فاستشاط هرقل ورفسه برجله وقطع يديه
ورجليه وديره ثم رأسه على مشهد جمّ غفير. وأمر بوضع ما قطعه من أعضائه على
طبق، وأن يطاف بها في شوارع المدينة فيها، وجرّ ما بقي من جثته وحرّقها كلها
أخيراً. وألحق بفوقاً دومنتبول أخاه وكثيرين من المقرّين إليه نسباً أو صداقة (ملخص
عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم).

هرقل الملك وحملة الفرس في أيامه على سورية

قد نزل هرقل بعد حرقه جثة فوقاً من سفينته يصحبه كريسبوس والشعب يضجّ بالتهليل والترحيب فسار تَوّاً إلى القصر الملكي، وألحّ على كريسبوس أن يقبل البرفير قائلاً إنه لم يأت إلا ليأثر من فوقاً بدم موريق وأبنائه وعياله. ولما أبى كريسبوس الملك تَوّج سرجيوس البطريك القسطنطيني هرقل في ٥ تشرين الأول سنة ٦١٠م وأقام كريسبوس والياً على الكبادوك، لكنه لم يكن أميناً لمولاه كما لم يكن أميناً لحميه «لكل امرئ من دهره ما تعود» فالجئ أن يترك الولاية وأن يقضي ما بقي من عمره في المنفى. وقام القوم يترجون أن يصلح هرقل أحوال المملكة ويلتئم شعثها ويكتب أعداءها. فتقاعد معتكفاً على ترفه لاهياً بملاذه حتى كان يخال أنه موافق للفرس على خراب المملكة، لأنهم ظلّوا عشر سنين يجتاحون المملكة ويخربون مدنها وقراها، وليس من دفاع يذكر. ففي سنة ٦١١م أخذوا الرها ثانية وانتهبوا وأخربوا أباميا وكل ما كان منها إلى انطاكية. واعترض مسيرهم بعض الجنود، ولكن على غير انتظام ولا قوّة كافية، فبدد الفرس شملهم وتملكوا انطاكية وكل ما يليها من المدن حتى بلغوا دمشق ونهبوها وأسروا كثيرين من أهلها. ولم يستفق هرقل من غفلته، وثار اليهود في صور وحاولوا أن يتولوا على هذه المدينة لكثرة عددهم فيها ويخرجوها عن الطاعة لهرقل. وأرسلوا خفية سعاة إلى قبرس ودمشق وأورشليم يدعون بني ملتهم لحمل السلاح والخروج، وافتضح تأمرهم ونالهم شر الجزاء لفعلتهم على غير تروّ في عاقبة شرهم.

وفي سنة ٦١٥م حمل جيش عرمرم يقوده سربار إلى فلسطين فغشوا الجليل وضفتي الأردن إلى بحيرة لوط فدمروا وأحرقوا ونهبوا، فولّى الأهلون هارين ولم يبق إلا بعض الرهبان والنسك العجّز فقتلهم الفرس عن آخرهم. وحمل سربار على أورشليم فدخلها كأنها مدينة في فارس إذ ترك الحرس المدينة وانهزموا، وقبض سربار على سكان المدينة الرجال والنساء والأطفال واستاقهم مكبلين ليأخذهم إلى ما وراء دجلة، ولم يضرر باليهود بل أسّرهم بأن يروا خصومهم النصارى على هذه الحال، وقد افتدوا كل من تيسر لهم أن يفتدوهم لا شفقة عليهم بل ليتشفوا بذبحهم. ويقال أنهم ذبحوا منهم ثمانين أو تسعين ألف نفس. وكان أثمن ما سلبوه ما كان

في أورشليم من خشبة الصليب المقدس، فأخذها سربار معه إلى فارس وأخذ البطريك زكريا أسيراً وحرق كنيسة القبر المقدس وغيرها من الكنائس، وسلب الآنية المقدسة وكل ما كان فيها ثميناً من التقدّم المتراكمة هناك منذ ثلاثة قرون. وعثر نيقيطا ابن أخي هرقل على الاسفنجة التي أذناها اليهود من فم المخلص على الصليب، وعلى الحربة التي طعنوا جنبه بها، فشراهما بمبلغ جسيم من أحد جنود الفرس وأرسلهما إلى قسطنطينية.

ووثب العرب قبل أخذ أورشليم بثمانية أيام على دير القديس سابا فهرب رهبانه وبقي منهم أربعة وأربعون راهباً أقعدتهم الشيخوخة والتقشف عن الفرار، وكان بعضهم لم يخرج من الدير من نحو خمسين أو ستين سنة، فلم يشاءوا أو لم يقدروا أن يغادروا ديرهم فقبض المعتدون عليهم وأذاقوهم أعذبة متنوعة أملين أن يهدوهم إلى خزينة أو كنز. ولما خاب أملهم ذبحوهم جميعاً فحملوا الاستشهاد فرحين شاكرين لله لأنه أهلهم له، وبقيت جثثهم أياماً لم يأوها أحد التراب إلى أن عاد الرهبان المتشتتون بعد انصراف العرب، فجمع مودست رئيس دير القديس توادوسيوس جثث هؤلاء القديسين بالاجلال وذرف الدموع ودفنها في مدفن أسلافهم بعد أن صلّى عليها كالعادة. والكنيسة الرومانية تعيد لهؤلاء القديسين في ١٦ من أيار (كما في تراجم القديسين في ذلك اليوم).

وكان مودست في غياب البطريك زكريا حينئذٍ يدبر كنيسة أورشليم ويهتم بالمدينة والأبرشية والأديار التي في البرية. وقد مرّ في الكلام على كنيسة القبر المقدس أنه اهتم بمرمّة هذه الكنيسة وغيرها من الكنائس والأديار، وكان يعاونه في النفقة على ذلك يوحنا الرحوم البطريك الاسكندري الذي مرّ ذكره، وصار مودست بطريكاً على أورشليم بعد وفاة زكريا كما سوف ترى. ومن انهزموا من فلسطين مضى السواد الأعظم منهم إلى اسكندرية فقبلهم البطريك يوحنا الرحوم بالترحاب والاكرام، وكان ينفق على جميعهم ما يحتاجونه كل يوم من قوت وملبس ومأوى. وأرسل رجلاً إلى أورشليم وزودوه مبلغاً من المال والحنطة والملابس ليعاون بها من مكثوا في أوطانهم. وبعث أيضاً بمال ورجال ليفتدي بعض من أسروا، وشكا إليه بعض من أقامهم على توزيع حسناته أنّ بعض الموزّع عليهم غير فقراء فقال أن كنتم وكلاي أو وكلاء المسيح فاعملوا بأمره، أن نحسن إلى كل من سألنا فلا يريد هو ولا أريد أنا وكلاء مستبدّين فلو كان ما أعطيه ملكاً لي لكان

لي الخيار في صرفه، ولكن ما أعطيه إنما هو لله فيلزم تنفيذ أمره في إعطاء ماله. وفي السنة التابعة أي سنة ٦١٦م أو سنة ٦١٧م زحف الفرس إلى مصر فأخذوا اسكندرية وانهبوا وتوغلوا في البلاد إلى الحبشة مخربين ناهبين، وحمل جيش آخر منهم على آسيا الصغرى فاجتازها ناهياً مخرباً دون معارض، واتصل إلى خلکیدونية (قاضي كوي) ولم يبقَ بينه وبين العاصمة إلا البوسفور، فاستحوذ الرعب واليأس على سكانها ففاق حيثئذ هرقل من غفلته وأرسل وفداً إلى الفرس يسألهم الصلح، فقبضوا على رسله وأودعوه السجن ثم قتلوه. ولحق بهذه الرزايا مصيبة أخرى فإن اجتياح الفرس مصر حال دون نقل المؤن منها ودون زرع أراضيها، فثقل القحط في قسطنطينية وغلّت أسعار المؤن وبيت المال فارغ، ولزم الحكومة أن تزيد في الخراج والضرائب فوقّ التذمّر التشكي، ولو لم يكن هرقل محبوباً لأفضى الأمر إلى ثورة عليه. فضاق ذرعه عن تحمل هذه المصائب والمصاعب فعزم على الفرار والعزلة في افريقيا، بل شحن كل ما كان نفيساً في سفن وأمر أن تمخر قرطاجنة. فثار عاصف شديد غرق بعض هذه السفن وكسر بعضها. وذاع خبر عزم الملك على الاعتزال فاحتشد جم غفير حول القصر، وكان بعضهم يصبح إليه بالاً يفادهم، وبعضهم يهدده بقتله إن أصّر على عزمه، فرقّ الملك لهم، وكان لما أبدوه من التعلّق به وقع شديد في قلبه، فاستدعى البطريق إليه وسار معه إلى كنيسة القديسة صوفيا فحلف هناك ميمناً على أنه لا يغادر عاصمة ملكه، فجأر الشعب بالدعاء له وأكثروا من مظاهر السرور التي أنستهم إلى وقت تراكم المصائب عليهم (مخلص عن توافان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم).

عد ٦٧٣

حرب هرقل مع الفرس وانتصاره عليهم واسترداده خشبة الصليب المقدّس

قد استمر هرقل على تقاعده وتوانيه بملاذه عشر سنين بعد ملكه، واستفاق أخيراً من رقاد غفلته وهمّ أن يقي بلاده غزوات الفرس وتخريبهم لها، وكان يخشى أن يثب الافاريون (أو الاباريون وهم قبيلة من التتر كانت قد ظعنّت إلى المغرب) على قسطنطينية في مدة غيابه واشتغاله في حرب الفرس، فراسله ملكهم

أن يشافهه لتوطيد علاقات السلم بينهما، وفي نيته أن يقبض عليه ويتولّى على قسطنطينية فأجابه هرقل إلى سؤاله ومضى لملاقاته، وشعر في أثناء طريقه بمكيدة عليه، ولم ينجح منها إلا فراره متكرراً. وفكك الأفاريون بعسكره وحاشيته ثم عاد بعد سنة ييدي لهرقل ندامته وأسفه مما كان ويعتذر عنه بطمع قومه بالغنائم فلم يركن هرقل إلى كلامه ولم يقاطعه بل تخلّى عن بعض أعمال ملكه لثلاث قبائل حديثة، أعني الصقالبة والخرواطيين والسريين ليسكنوها ويكونوا فاصلاً بين مملكته والأفاريين. وفي ٤ نيسان سنة ٦٢٢م صمم على السفر لمحاربة الفرس. وروى شدرانس وزوناراس (في تاريخهما) أنه اقترض مالا من الأديار والكنائس وأخذ بعض آنيها الذهبية والفضية فسكها نقوداً قائلاً إنّ ضمانته ثمنها خير الكنائس من أن ينتهبها الأعداء. وأقام ابنه هرقل قسطنطين وكان عمره عشر سنين نائباً للملك يديره البطريرك سرجيوس والبطريق بنوز. وعند سفره مضى إلى كنيسة القديسة صوفيا فجثا خاشعاً مناجياً الله بقوله: «اللهم لا تسلمنا إلى أعدائنا جزاءً لآثامنا بل ارفق بنا وأولنا الظفر لينكف الأشرار عن الاعتداء على ميراثك». والتفت إلى البطريرك وقال: «إنني أدع عاصمة ملكي وابني لحراسة الله والعذراء القديسة وعنايتك». وتناول بيده صورة قديمة للمخلص وخرج بها إلى البوسفور فعبّر إلى آسيا وصرف الأشهر الأولى في تدريب جنده وإعادة الحمية والشجاعة إلى قلوبهم، ومن كلامه لهم: «اخوتي وأبنائي إنكم ترون أعداء الله توطأوا بلادنا، وغادروا مدناً خراباً، وأحرقوا معابدنا، ودنسوا مذابحنا، وملأوا من الأقدار كنائسنا إذ جعلوها مأوى لجنودهم» وأخذ بيده صورة المخلص المذكورة وأقسم بها على أنه يحارب معهم كواحد منهم إلى مماته، وإنه يشاطرهم المخاطر التي تحف بهم ويكون متحداً بهم كأب بينيه وقد برّ يمينه (توافان وشدرانس).

ومضى أولاً إلى أرمينيا وظهر على الفرس في مواقع كثيرة وأظهر أنه يريد أن يصرف فصل الشتاء في بنطس خدعة لأعدائه، وسار إلى بلاد فارس وتوغّل فيها وفكك بجيش كبير واستحوذ على معسكره، وأحرز جنوده غنائم، واستمر يغالب الفرس في بلادهم وجوارها ست سنين. وفي سنة ٦٢٦م قسم كسرى رجال حربه من وطنيين ومستأجرين إلى ثلاثة جيوش. فأمر سربار على أحدها وأرسله إلى خلكيدونية يحاصر قسطنطينية، وأخلف ملك الأفاريين وعده وحاصرها من جهة أخرى. على أنّ سكانها والحامية التي كانت فيها أبدوا آيات البسالة والدفاع فارتدّ

الفرس والأفاريون على أعقابهم خاسرين. وأرسل كسرى جيشه الثاني إلى أرمينيا فظهر عليه توادورس أخو الملك هرقل وبدد شمله، وحمل بالجيش الثالث على نينوى حيث كان هرقل فتأججت نار الوغى من الصباح إلى المساء فهلك قائد جيش كسرى الأكبر، وثلاثة قواد كانوا تحت أمرته ونصف جنوده. ولم يُقتل من جنود هرقل إلا قليلون، وكثر الجرحى ولكن عناية هرقل بهم جعلت عدد موتاهم يسيراً. فزحف هرقل من نينوى إلى قطيسون وحرق في طريقه إليها كل ما كان من القصور ومنازل الفرس بعد أن غنم جنوده كل ما كان فيها. وفرّ كسرى من مدينة إلى أخرى وهرقل يتبعه، وقد عرض عليه في بداية سنة ٦٢٨م الصلح فأباه، وعظم حنق الفرس عليه وضاق بالنجاة ذرع كسرى، ولم يجد له من وسيلة إلا أن يستقدم إليه سربار الذي كان باقياً في خلکیدونية، فكتب إليه أن يأتي مسرعاً، فقبض جنود هرقل على رسوله وأتوا به إلى هرقل، فأخذ رسالة كسرى وكتب إلى سربار غيرها قال له فيها حذار أن تأتي إليّ إلا ويديك مفاتيح خلکیدونية. واستبطأ كسرى سربار وسخط عليه لتقاعده عن العمل بأمره، فكتب إلى نائبه أن يبطش بسربار الخؤون ويأتي بالجيش إليه، فوقع هذا الرسول بيد الجنود الرومانيين فأتوا به إلى قسطنطينية، فطلب ابن الملك سربار ليأتي إليه مسرعاً وأتمته، فأتى ودفع إليه رسالة كسرى إلى نائبه فاستشاط على كسرى وأخذ الرسالة وزاد عليها أن يقتل أيضاً أربع مئة رجل من رؤساء الجيش. وعاد إلى معسكره واستدعى رؤساء الجيش وتلا عليهم الرسالة. وسأل النائب الموجهة إليه ما يريد أن يصنع. فصاح الرؤساء بأجمعهم لا عدو لنا إلا كسرى، فهلّموا بنا نهلك هذا الظالم العاتي. ووافق سربار ابن الملك وقدم له رهينة ابنه وابني نائبه على حفظهما الأمانة لهرقل. وسارا بالجيش إلى فارس. وكان كسرى قتل أباه هرمزدا ليأخذ ملكه فسلط الله عليه ابنه فعامله بما عامل أباه به، فقد أصاب كسرى مرض ظنه مميتاً له فأوصى أن يخلفه في الملك ابنه مرداس، فحنق ابنه البكر المسمى شيرويه (ويسميه العرب قباذ أيضاً) لتفضيل أبيه أخاه الأصغر عليه. واستمال كبراء البلاد والجنود إليه فسموه ملكاً، وقبض على أبيه، وأتى به إلى قطيسفون في ٢٤ شباط سنة ٦٢٨م، وطرحه في سجن مظلم مغلاً بالقيود. وكانت باكورة أعماله الحكم على أبيه أن يموت جوعاً قائلاً فليأكل الذهب الذي خرب العالم لحشده، وأمات كثيرين جوعاً من أجله. وأمر بقتل أخيه مرداس وأبنائه بحضرته، وأنفذ وفداً إلى هرقل يشره بارتقائه إلى

منصة الملك، ويكاشفه بأمر الصلح والعهدة بينهما. فأرسل هرقل رسالته إلى قسطنطينية فثليت على منبر الكنيسة فيها يوم العنصرة في ١٥ أيار سنة ٦٢٨م. وعقد شيرويه صلحاً محكم العرى مع هرقل، وردّ إليه جميع النصارى الذين كانوا أسرى في بلاده، وفي جملتهم زكريا بطريك أورشليم وخشبة الصليب المقدّس التي كان سربار أخذها من أورشليم منذ أربع عشرة سنة. وعاد هرقل ظافراً غانماً إلى قسطنطينية وبالغ الشعب في مظاهر المسرة والاحتفاء بعوده. وفي السنة التالية أي سنة ٦٢٩م أتى إلى أورشليم ليشكر الله على ما قيص له من النصر، ويردّ الذخيرة التي لا يعادلها ثمن إلى محلها، وكانت قد بقيت في صوانها كما أخذت، وتفحص البطريك وكهنته ختموها فإذا هي سالمة لم تفض. وفتح الصوان بمفتاحه وبارك الشعب بالخشبة المقدّسة، فكان مشهد باهر عظمت فيه البهجة وطمع الدموع سروراً. والكنيسة الرومانية وكنيستنا المارونية تعيدان لذكر ردّ خشبة الصليب إلى أورشليم في ١٤ من ايلول. وكانتا تعيدان في هذا اليوم لذكر ظهور الصليب للملك قسطنطين فصارتا إلى اليوم تعيدان للذكرين معاً. وطرد هرقل اليهود من أورشليم وأمر أن يستمروا بعيدين عنها ثلاثة أميال. وردّ إلى الكاثوليكين كنيسة الرها التي كان كسرى قد سلمها إلى النساطرة، وفرض جعلاً لكنيسة قسطنطينية الكبرى يُدفع لها كل سنة وفاءً لما اقترضه منها ومن الأديار لنفقة الحرب (ملخص عن توفان وشدرانس وزوناراس في تواريخهم للسنين المذكورة).

عد ٦٧٤

تمة تاريخ هرقل

إنّ هرقل عاد بعد انتصاره على الفرس إلى ترفه وانغماسه بملأذه، وأتى حمص التي كان يؤمها يومئذٍ محبّو الترف وترويح القلوب. وكان ذلك في بداية خلافة أبي بكر الصديق. وكان العرب يشنون الغارة على سورية فيزدريهم هرقل ويحسب أنهم لا يطمعون بمناوأة من قهر الفرس. ورأى أبو بكر فتح سورية متيسراً فجهز عسكرياً وخطب فيهم عند سفرهم قائلاً: «إذا لقيكم العدو فقاتلوه مستبشرين والموت أولى بكم من القهقري، وإذا انتصرتكم فلا تقتلوا الشيوخ ولا النساء ولا الأطفال ولا

تقطعوا النخيل ولا تحرقوا الزرع ولا تذبحوا من الماشية إلا ما كنتم في حاجة إليه لقوتكم. وامنوا من دُل لكم ورغب في اداء الجزية ولا تخلفوا وعدكم ولو لأعدائكم. وسترون في طريقكم رجالاً متوحدين ناسكين فاحتفظوا بهم ولا تمسوا أديارهم بضراً، واهلكوا اليهود إلا أن يسلموا» وأمر أبا عبيدة على الجيش وكان عشرين ألف مقاتل، ولما سمع هرقل أخبار حملة العرب أتى إلى دمشق وبعث سرجيون والي قيصرية بخمسة آلاف جندي ليوقف العرب عن المسير ويقاثلهم إذا اضطروا إلى قتالهم. فلم يكن مفر من قتالهم وسحق العرب جنوده القلائل وأخذوه أسيراً ثم أماتوه وأحرزوا غنائم وعادوا.

فتهايج العرب برؤية هذه الغنائم لفتح سورية، وتألَّب جمٌّ غفير منهم، فأمر أبو بكر عليهم عمرو بن العاص واستمر أبو عبيدة على جيشه، ثم استدعى أبو بكر خالد بن الوليد من العراق وأمره على الجيشين فكانت وقعة اليرموك الشهيرة التي كانت سبب فتوح الشام على ما قال أبو الفدا. ثم قصدوا بصرى في حوران وكانت حاميتها اثني عشر ألف فارس فلم يقووا على الدفاع، فاستحوذ عليها أبو عبيدة وخالد سنة ٦٣٥م ثم فتحا تدمر وحاصر عمرو غزة فافتتحها، وجمع خالد جيشه كله وكان نحواً من خمسة وأربعين ألف مقاتل، وحاصر دمشق فخاف هرقل ومضى من حمص إلى انطاكية، وأرسل منها خمسة آلاف مقاتل لنجدة دمشق، فكانت هذه النجدة معثرة للدمشقيين، لأنَّ قائد هؤلاء الجنود نازع والي المدينة الأمانة فيها، وأبى الوالي الاذعان لدعواه، فنشأ بينهما مباراة ومعارضة فلم يحكما عملاً. وتقدَّم خالد إلى الاسوار فصاح بالدمشقيين أن يبرزوا إليه من يقاثلته، فبرز القائد المذكور فقتله خالد بأول سهم رماه به وأخذه أسيراً. وبارزه والي المدينة ولم يكن أسعد حظاً.

ورأى هرقل أنَّ فتحهم دمشق منذراً بخسارة سورية كلها، فجمع كل ما كان له من الحامية في مدن سورية، وأمر على الجيش أخاه توادورس ليزحف إلى دمشق، فأرسل خالد فريقاً من جيشه ليعارضه بمسيره فقوي الرومانيون عليه وأسر قائده، فهبَّ خالد بفريق آخر من الجيش فأوقع بالرومانيين وبدد شملهم. وتوالت كتيبة من فرسان العرب على الجنود الذين كانوا يحرسون قائدهم الاسير فانتزعوه منهم وأتوا به إلى معسكر خالد. وعاد توادورس إلى انطاكية مدحوراً خجلاً، فعنقه الملك هرقل أخوه وأنبه على سوء تصرفه وأرسله إلى قسطنطينية، وأما الدمشقيون فطلبوا

الأمان من خالد فلم يعطوه، وطلبوه من أبي عبيدة الذي كان على جهة أخرى من المدينة، فأمنهم على أن يدفعوا الجزية ويتركهم وما يدينون، وأخذ منهم رهائن ودخل المدينة بمئة رجل وهو لا يعلم أنّ خالداً أنكر الأمان عليهم. ودخل خالد المدينة من جهة أخرى عنوة وعتب أبا عبيدة على ما صنع دون علمه. وخيّر أهل المدينة بين أن يبقوا فيها مسلمين أو يؤدوا الجزية صاغرين، وبين أن يرتحلوا عنها في مدة ثلاثة أيام، فارتحل بعض وأقام بعض. وكان فتح دمشق في خلافة عمر بن الخطاب.

ولما علم هرقل بفتح دمشق علا على نشز من الأرض والتفت إلى الشام وقال: «السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده». وعزم أن يعود إلى قسطنطينية لكنه أراد أن يمضي أولاً إلى أورشليم فذهب إليها وأخذ منها خشبة الصليب المقدس لئلا تقع في أيدي أعدائه، وعاد إلى عاصمته برأ منكباً ما أمكن عن رؤية الناس خجلاً. ومضى أبو عبيدة بجيشه فذلت له حمص وأداه أهلها الجزية، وكذلك حماه وقنسرين وبعليك وغيرها. وكان الغزاة يعاملون الأهليين باللين والحلم حتى خلع أهل بعض الأعمال ولاتهم واستسلموا للظافرين. وحاول هرقل مرة أخرى أن يوقف سيرهم في مملكته، فجمع جنوده من أوروبا وآسيا وألف منهم جيشاً كثيفاً أمر عليه قائداً اسمه عمانويل، ولقيه أمير مسيحي يسمى جبلة انضوى إلى لوائه وسار معه رجال هذا الأمير يسرون في طلائع الجيش. وخيّم جيش المسلمين على شاطئ نهر اليرموك يقوده أبو عبيدة. واستعرت نار الحرب هناك ثلاثة أيام، وكانت الحرب سجلاً على أنّ بعض رؤساء جيش الروم أتوا أمراً فظيماً عاد عليهم بالهلاك. فقد دخل هؤلاء بيت رجل مسيحي موسر في اليرموك وسطوا على امرأته. ولما صدّهم صراخ طفلها عن بغيتهم قطعوا رأسه، فأخذت المرأة رأس الطفل إلى قائد الجيش تسأله انصافها فلم يسمع لها. وعمد زوجها إلى اهلاك جيش الروم فخدعهم بأخبار كاذبة، وكشف لأبي عبيدة أسراراً لهم يشرت له الظفر بهم حتى أخذ عمانويل أسيراً وقتله وفتك بجيشه الكثير. واضطر جبلة أن يسلم ولعله جبلة آخر ملوك غسان الذي ذكرنا خبره في الكلام على هؤلاء الملوك أنه أسلم ثم ارتد وهرب إلى قسطنطينية.

ومضى جيش المسلمين إلى أورشليم سنة ٦٣٦م فحاصروها وعرضوا على أهلها أن يسلموا أو يؤدوا الجزية صاغرين، فلم يجيبوهم أولاً، ودام الحصار نحو من أربعة

أشهر، ولما لم يز الأهلون من منجد عولوا على التسليم وشرطوا أن يكون على يد الخليفة عمر بن الخطاب فأتى متواضعاً مستصغراً، ورأى كثيرين عليهم ملابس من حرير كانوا قد غنموها فضربهم بالسوط وأمر بتمزيق الثياب. وكان بطريق أورشليم حينئذ صفرونيوس اللبناني فأحبه الخليفة وأبرم معه شرائط الصلح التي كانت مثلاً لكل صلح جرى بعده. وإليك نص هذه العهدة مترجماً عن الافرنسية إذ لم نظفر بنسخة من الأصل العربي.

«بسم الله الرحمان الرحيم من جانب عمر إلى سكان اليا (هو اسم أورشليم سمّاها به اليوس ادريان بعد أن جدد بناءها) أمرنا أن تكون لهم من قبلنا الحماية والصيانة لأنفسهم وأموالهم. ولا تنقض كنائسهم ولهم وحدهم قضاء عباداتهم فيها، ولكن ليس لهم أن يمنعوا المسلمين من الدخول إليها نهاراً أو ليلاً، ولهم أن يفتحوا أبوابها للمارة والمسافرين وليس لهم أن يقيموا فوقها صلباناً أو أن يقرعوا أجراساً أو أن يبنوا كنائس حديثة في المدينة أو خارجاً عنها. ولا يجبرون على أن يعلموا أبناءهم القرآن، ولا يسوغ لهم أن يغروا المسلمين باتباع دينهم. ولا أن يمنعوا أهلهم عن تركه لاتباع دين المسلمين وعليهم حرمة المسلمين، وأن لا يتزينوا بأزيائهم ولا يلبسوا قبعاتهم وعمائمهم. ولا يفرقوا شعوردهم كما يفرقها المؤمنون، ولا يستعملوا اللغة العرية، ولا يركبوا الخيل مسرجة، ولا يحملوا سلاحاً ولا يبيعوا الخمر ولا يستخدموا من خدم مسلماً، ويؤدّون الجزية دون هضم شيء، ويكونوا أمناء للخليفة أمانتهم لحبرهم، ولا يدوا شيئاً مخلاً بخدمته تعمداً أو بوسيلة».

ودخل الخليفة بعد التوقيع على هذه العهدة إلى المدينة وبجانبه البطريق صفرونيوس، وطاف في الكنائس وحان وقت الصلوة وهو في كنيسة القبر المقدس فجثا في الرواق وصلى. وسأله البطريق لِمَ لم يصل في الكنيسة فقال حباً بكم لئلا يأتي المسلمون بعدي فيصلّون حيث صلّيت. واختار محل هيكل سليمان فبنى فيه جامعاً للمسلمين وهو المعروف بالجامع الأقصى.

وقد قسم عمر سورية إلى قسمين، فولّى أبا عبيدة على كل البلاد الكائنة بين حوران وحلب وأمره بتكملة الفتح، وولّى يزيد على فلسطين وشواطئ البحر، وأعدّ عمرو بن العاص لغزوة مصر بعد فتح سورية. وعاد عمر إلى المدينة فاستحوذ قواده على السامرة ونابلس واللّد ويافا وسائر مدن فلسطين. ثم جمع يزيد وأبا عبيدة

جنودهم ومضوا لحصار حلب، وكان فيها من الحامية اثنا عشر ألفاً خرجوا لمناوأة العرب فتقهقروا ذلك اليوم. وكان سكان المدينة تهمهم تجارتهم أكثر من تأييد ملك الروم ودينهم، فراسلوا يزيد وأبا عبيدة واستسلموا إليهما، ودرى الوالي فقتل كثيراً من الأهلين، وعزم أن يصنع كذلك بجيش المسلمين. ووفد حينئذ خالد بن الوليد فهاجم المدينة بجيش المسلمين فافتتحها وحصر الوالي والحامية في قلعة حلب، واستمروا فيها أربعة أشهر يدافعون إلى أن تسلق المسلمون ليلاً على أسوارها ولم يعد من فتحها مناص، فأسلم الوالي وكثيرون من الجنود. وكان بين انطاكية وحلب قلعة حصينة في عزاز، فسار والي حلب ومعه مئة مسلم يزي جنود الروم، ولم يكن اسلامه معروفاً فدخل بهم القلعة وفتحوا أبوابها لغيرهم من جنود المسلمين فقتلوا الحامية الذين كانوا فيها، وزحفوا إلى انطاكية وكان فيها وإل شجاع، ولكن الرعب كان قد أخذ في قلوب جنده كل مأخذ، فخرج للقيام وتسمرت نار الحرب فظهر جيش المسلمين عليهم وقتلوا منهم كثيرين، وتشتت الباقون، واستحوذ على المدينة، ولم يترك يزيد الجيش فيها إلا ثلاثة أيام لئلا تفسد أخلاقهم بأسباب الترف والخلاعة التي كانت متوافرة في هذه المدينة. وكان هرقل الملك أرسل ابنه قسطنطين بأسطول إلى السويدية لينجد انطاكية، فلم يقدر أن يصنع شيئاً مذكوراً، بل أرسل غادراً يغتال الخليفة عمر في المدينة، ولما رآه رجفت يده فلم يقدر أن يأتي بضر، وأقرّ باثمه، فغفا عنه عمر وخلق سبيله، فكسب فخراً يذكر إلى اليوم مكان أن يسليه الغادر الحياة، وأخذ المسلمون اللاذقية وطرطوس واطرابلس.

ولم يبقَ من مدن سورية الحصينة إلا قيصرية فلسطين فسار إليها عمرو بن العاص بجيش كثيف، ومضى قسطنطين بن هرقل بأسطوله إلى مرفأها، وأحب أن يقابل أمير جيش المسلمين فأجابه عمرو إلى ذلك. فسأله قسطنطين بأي حق تملكون سورية فأجابه عمرو بالحق الذي أولانا إياه الخالق، فللرب الأرض بكمالها فيولي عليها من شاء، وظفرنا دليل ناطق على ارادته. والتفت إلى الرومانيين وقال: لكم وسيلتان للنجاة إما أن تسلموا، وإما أن تخضعوا وتؤدوا الجزية. فقالوا نحن في غنى عنهم. فأجابهم الحرب إذاً فاصلة بيننا. وقام من المجلس يستعد للقتال وحمي وطيس الحرب فدُعر الرومانيون، وانسل قسطنطين إلى سفنه وأقلع بها إلى قسطنطينية. فاستحوذ المسلمون على قيصرية وذلل لهم كل من بقي في سورية فخر الرومانيون في ست سنين سورية كلها التي تولوها سبع مئة سنة. فابتدأت

الحرب سنة ٦٣٣م وانتهت سنة ٦٣٨م وتوفي هرقل في ١١ شباط سنة ٦٤١
وانبسط حكم الخلفاء في زمان وجيز إلى مصر وما يليها والعراق وما بين النهرين
وبلاد فارس كما سنبين في الجزء الثالث من هذا التاريخ.

عد ٦٧٥

جدول في اسماء الملوك الرومانيين وسني تملكهم ووفاتهم أو عزلهم

اسماء الملوك	سنة تملكهم	سنة وفاتهم أو عزلهم
١ اغوستوس قيصر	٢٩ ق م ١٤	للميلاد
٢ طيباريوس	١٤ للميلاد	٣٧
٣ كاليكولا	٣٧	٤١
٤ كلود الأول	٤١	٥٤
٥ نيرون	٥٤	٦٨
٦ غلبا	٦٨	٦٩
٧ اوتون	٦٩	٦٩
٨ ويتاليوس	٦٩	٦٩
٩ فسبسيان	٦٩	٧٩
١٠ طيطس ابنه	٧٩	٨١
١١ دوميسيان	٨١	٩٦
١٢ نرفا	٩٦	٩٨
١٣ ترايان	٩٨	١١٧
١٤ ادریان	١١٨	١٣٨
١٥ انطونينس بيوس	١٣٨	١٦١
١٦ مرقس اورليوس		

۱۶۹	۱۶۱	ولوشیوس فاروس
۱۸۰	۱۶۹	۱۶ مرقس اورلیوس وحدہ
۱۹۳	۱۸۰	۱۷ کومود ابنہ
۱۹۳	۱۹۳	۱۸ برتینکس
۱۹۳	۱۹۳	۱۹ دیدیوس یولیانس
۱۹۵	۱۹۳	۲۰ نیجر
۱۹۷	۱۹۵	۲۱ البینس
۲۱۱	۱۹۷	۲۲ سبتیمس ساویرس
۲۱۲	۲۱۱	۲۳ کرکلا وجیتا ابنہ
۲۱۷	۲۱۲	۲۴ کرکلا وحدہ
۲۱۸	۲۱۷	۲۴ مکرین
۲۲۲	۲۱۸	۲۵ آلیوکبل
۲۳۵	۲۲۲	۲۶ اسکندر ساویرس
۲۳۷	۲۳۵	۲۷ مکسیمینس الأول
۲۳۷	۲۳۷	۲۸ کردیان وابنہ کردیان
۲۳۸	۲۳۷	۲۹ مکسیمس بویان ولبین
		۳۰ کردیان الثالث
۲۴۴	۲۳۸	الملقب التقي
۲۴۹	۲۴۴	۳۱ فیلیس العربی
۲۵۱	۲۴۹	۳۲ داشیوس أو داکیوس
۲۵۳	۲۵۱	۳۳ غلوس وفولوسیان
۲۵۳	۲۵۳	۳۴ امیلیان
۲۶۰	۲۵۳	۳۵ فالریان
۲۶۸	۲۶۰	۳۶ غالیان

٢٧٠	٢٦٨	٣٧ كلود الثاني
٢٧٥	٢٧٠	٣٨ كوينتلس
٢٧٦	٢٧٥	٣٩ اورليان
٢٧٦	٢٧٦	٤٠ تاسيت
٢٧٦	٢٧٦	٤١ فلوريان
٢٨٢	٢٧٦	٤٢ بروبس
٢٨٤	٢٨٢	٤٣ كارس
٢٨٤	٢٨٤	٤٤ كارين ونومريان
٣٠٥	٢٨٤	٤٥ ديوكليتيان
٣٠٥	٢٨٦	٤٦ مكسيميان هرقل
٣٠٦	٣٠٥	٤٧ قسطنس كلور
٣٠٥	٣٠٥	٤٨ كالر
٣٠٨	٣٠٦	٤٩ هاويرس
٣١٣	٣٠٨	٥٠ مكسيمينس
٣٢٣	٣٠٧	٥١ ليشينيوس
		٥٢ قسطنطين الكبير الأول
٣٢٣	٣٠٦	مع غيره
٣٣٧	٣٢٣	:: قسطنطين وحده
٣٦١	٣٣٧	٥٣ قسطنس ابنه في المشرق
٣٦٣	٣٦١	٥٤ يوليانس الجاحد
٣٦٤	٣٦٣	٥٥ يوفيان
٣٧٩	٣٦٤	٥٦ والنس
٣٩٥	٣٧٩	٥٧ توادوسيوس الكبير
٤٠٨	٣٩٥	٥٨ اركاديوس

٤٥٠	٤٠٨	٥٩ توادوسيوس الثاني
٤٥٠	٤٥٠	٦٠ بولشارية وحدها
٤٥٣	٤٥٠	٦١ مرقيان مع بلوشارية
٤٥٧	٤٥٣	:: مرقيان وحده
٤٧٤	٤٥٧	٦٢ لاون الأول
٤٧٤	٤٧٤	٦٣ لاون الثاني
٤٧٥	٤٧٤	٦٤ زينون المرة الأولى
٤٧٧	٤٧٥	٦٥ باسيليسكس
٤٩١	٤٧٧	:: زينون ثانية
٥١٨	٤٩١	٦٦ انسطاس
٥٢٧	٥١٨	٦٧ يوستينس الأول
٥٦٥	٥٢٧	٦٨ يوستينيانس الأول
٥٧٨	٥٦٥	٦٩ يوستينس الثاني
٥٨٢	٥٧٨	٧٠ طيباريوس الثاني
٦٠٢	٥٨٢	٧١ موريق
٦١٠	٦٠٢	٧٢ فوقا
٦٤١	٦١٠	٧٣ هرقل

فعمد هؤلاء الملوك الذين تولّوا سورية ثلاثة وسبعون ملكاً، ومدة ولايتهم فيها من بدء ملك اغوستس قيصر إلى تقلص ولايتهم سنة ٦٣٨م في أيام هرقل ستة مئة وسبع وستون سنة. وقد كانوا تولّوها من فتح بمبايوس لها سنة ٦٤ قبل الميلاد إلى تمليك اغوستس سنة ٢٩ ق. م. خمساً وثلاثين سنة فتكون كل مدة استحوادهم على سورية سبع مئة سنة وستين. اه

الطرائف يوسف الزبيدي

تاريخ مصر

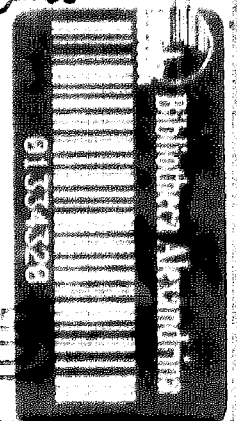
الزبيدي

في أيام الخلفاء
من بداية القرن الحادي عشر

رسم
من قبل

راجعه وكتبه
الدكتور كاريون

الطرائف



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء الخامس

في أيام الخلفاء
إلى نهاية القرن الحادي عشر

إشراف

نظير عبود

رأىحه ودققه

الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود

فهرس

صفحة

عد

الفائمة ١٩

القسم الأول

تمة التاريخ الديوي في القرن السابع

الفصل الاول

ذكر الخلفاء الراشدين وبعض بني أمية الذين ملكوا سورية

في هذا القرن

٢١ ذكر ابي بكر الصديق	٦٧٦
٢٣ ذكر عمر بن الخطاب	٦٧٧
	فتح مصر وغيرها من البلاد وما كان من الاحداث	٦٧٨
٢٦ في ايام عمر بن الخطاب	
٢٩ خلافة عثمان بن عفان	٦٧٩
٣٣ ذكر اخبار علي بن ابي طالب	٦٨٠
٣٥ ذكر مقتل علي بن ابي طالب	٦٨١
٣٧ ذكر خلافة معاوية	٦٨٢
٣٨ ذكر خلافة يزيد بن معاوية	٦٨٣
٤٠ ذكر معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم	٦٨٤
٤٢ ذكر اخبار عبد الملك بن مروان	٦٨٥

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن السابع

٦٨٦	جبر	٤٨
٦٨٧	الفرزدق	٤٩
٦٨٨	الأخطل	٥١
٦٨٩	زهير بن ابي سلمى المزني	٥٣
٦٩٠	النابعة الذبياني	٥٥
٦٩١	عترة العبيسي	٥٧

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

٦٩٢	بطاركة انطاكية في القرن السابع	٦١
٦٩٣	بطاركة أورشليم في القرن السابع	٦٥

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن السابع

٦٩٤	توما الحرقلي اسقف مرعش	٧٠
٦٩٥	يوحنا اسقف بصرى بحوران وسرجيوس رئيس اساقفة قبرص	٧٢
٦٩٥م	اسطفانوس اسقف دورة ويوحنا اسقف فيلادلفيا وغيرهما	٧٤
٦٩٦	يعقوب الرهاوي	٧٦

الفصل الثالث

بدعة المشيئة الواحدة والجامع التي حرمتها

٦٩٧	منشئو هذه البدعة وانتشارها	٨٦
-----	----------------------------	----

- ٦٩٨ المجمع السادس المسكوني الذي حرّم بدعة المشيئة الواحدة ٨٧٦
٦٩٩ مجامع أخرى حرّمت بدعة المشيئة الواحدة ٧٦٥

ملحق

تاريخ الموارنة في هذا القرن السابع

الفصل الاول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

- ٧٠٠ سطوة المردة أي الموارنة في هذا القرن ١٠٣
٧٠١ امراء الموارنة والاثني عشر ألفاً المجلّون منهم ١٠٩
٧٠٢ حرب الموارنة وعسكر الملك يوستينيانس الاخرم ١١٥
٧٠٣ الانقسام بين الموارنة والملكية ١١٨

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون واسقفيته وبطريركيته وتآليفه

- ٧٠٤ منشأ القديس يوحنا مارون ١٢٢
٧٠٥ اسقفية القديس يوحنا مارون ١٢٤
٧٠٦ بطريركية القديس يوحنا مارون ١٢٧
٧٠٧ مؤلفات القديس يوحنا مارون ١٣٥
نافور أي رتبة القديس ١٣٥
كتاب ايضاح الايمان ١٣٦
كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة ١٤٠
رسالة في التريصاجيون ١٤٠
كتابه في الكهنوت ١٤١
كتابه في شرح رتبة القديس ١٤٢
٧٠٨ هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة ١٤٥
٧٠٩ قداسة يوحنا مارون ١٥٠

الفصل الثالث

براءة المارونيين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

٧١٠	براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة	١٥٨
٧١١	اثبات البابا بناديكتس الرابع عشر قداسة القديس مارون	١٦٣
٧١٢	براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة	١٧٠
١٧٠	شهادة الاحبار الاعظمين	١٧٠
١٧٢	الدليل بسيرة يوحنا مارون وتأليفه	١٧٢
١٧٤	شهادة اعداء يوحنا مارون لبراءته من البدعة	١٧٤
١٧٤	شهادة العلماء المحققين	١٧٤
١٧٧	بطلان ما يرد على ذلك	١٧٧
٧١٣	براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة	١٧٩
١٧٩	شهادات الاحبار الاعظمين	١٧٩
١٨٧	براهين تاريخية	١٨٧
٧١٤	تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة ...	١٩١

الباب الثامن

تاريخ سورية في القرن الثامن

القسم الاول

تاريخ سورية الديوي في هذا القرن

الفصل الاول

الحلفاء الذين تولوا سورية في القرن الثامن

٧١٥	الوليد بن عبد الملك بن مروان	١٩٤
٧١٦	سليمان بن عبد الملك بن مروان	١٩٦
٧١٧	عمر بن عبد العزيز	١٩٧

٧١٨	يزيد بن عبد الملك بن مروان	١٩٩
٧١٩	هشام بن عبد الملك	٢٠٠
٧٢٠	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	٢٠١
٧٢١	يزيد بن الوليد الاول	٢٠٢
٧٢٢	ابراهيم بن الوليد الاول بن عبد الملك	٢٠٣
٧٢٣	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	٢٠٤
٧٢٤	ابو العباس السفاح اول الخلفاء العباسيين	٢٠٧
٧٢٥	ابو جعفر المنصور	٢٠٨
٧٢٦	خلافة المهدي	٢١١
٧٢٧	خلافة الهادي	٢١٣
٧٢٨	خلافة هرون الرشيد	٢١٤

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثامن

٧٢٩	بعض المشاهير الدينيين بسورية في هذا القرن	٢١٧
٧٣٠	مكحول الشامي	٢١٧
	الامام الاوزاعي	٢١٨
	ديك الجن الشاعر	٢١٨
	من عاصر هؤلاء المشاهير خارجاً عن سورية	
	وأولاً الفقهاء السبعة	٢١٩
٧٣١	ائمة الفقه اصحاب المذاهب الاربعة	٢٢١
٧٣٢	ائمة النحو في هذا القرن	٢٢٣
	سبيويه	٢٢٥
	الكسائي	٢٢٦
	الأخفش	٢٢٦

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الثامن

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية
في هذا القرن

٧٣٣	بطاركة انطاكية في القرن الثامن	٢٢٨
٧٣٤	بطاركة أورشليم في القرن الثامن	٢٣٠
٧٣٥	من عرفناهم من أساقفة سورية في القرن الثامن	٢٣٣

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون السوريون ومن عاصروهم في القرن الثامن

٧٣٦	القديس يوحنا الدمشقي وغيره من السوريين	٢٣٨
٧٣٧	القديس توفان المؤرخ	٢٤٣
٧٣٨	جيورجوس سنشلس الملازم وبولس الشماس	٢٤٤
٧٣٩	بيدا المكرم	٢٤٥

الفصل الثالث

بدعة محاربي الصور والمجمع السابع المسكوني

٧٤٠	بدعة محاربي الصور	٢٤٨
٧٤١	المجمع السابع المسكوني وهو النيقوي الثاني	٢٥٢

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

٧٤٢	حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن	٢٥٨
-----	-------------------------------------	-----

٢٦٠	بطاركة الموارنة في القرن الثامن	٧٤٣
٢٦٢	توافيلس الرهاوي الماروني	٧٤٤
٢٦٤	رد ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على الموارنة	٧٤٥

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع

القسم الأول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء في القرن التاسع وما كان من الأحداث في أيامهم

٢٦٩	الامين بن هرون الرشيد	٧٤٦
٢٧١	المأمون بن هرون الرشيد	٧٤٧
٢٧٣	المعتصم بن هرون الرشيد	٧٤٨
٢٧٥	الواثق بالله بن المعتصم	٧٤٩
٢٧٧	المتوكل على الله بن المعتصم بالله	٧٥٠
٢٧٨	المنتصر والمستعين والمعتز	٧٥١
٢٨٠	المهتدي والمعتمد على الله	٧٥٢
٢٨١	أحمد بن طولون وولده اصحاب مصر وسورية	٧٥٣
٢٨٥	تنمة أخبار المعتمد وخلافة المعتضد	٧٥٤

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون بسورية وما جاورها في القرن التاسع

٢٨٦	أبو تمام صاحب الحماسة	٧٥٥
٢٨٨	البحتري	٧٥٦
٢٩١	بعض مشاهير العلم غير السوريين في القرن التاسع	٧٥٧

٢٩١	قطرب
٢٩١	الفراء
٢٩٢	الأصمعي
٢٩٣	أبو نواس
٢٩٤	المازني
٢٩٤	حنين بن اسحق الطبيب
٢٩٦	الميرد
٢٩٧	الرجاج

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

٢٩٨	بطاركة انطاكية في القرن التاسع
٣٠٠	بطاركة أورشليم في القرن التاسع
٣٠٣	من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن التاسع

الفصل الثاني

مشاهير العلم الديني في القرن التاسع

٣٠٥	ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة
٣٠٧	يوحنا الداراي وموسى بركيفا
٣٠٩	أنسطاس المكتبي وسمعان متفرست

الفصل الثالث

الشقاق الذي كان في كنيسة قسطنطينية في القرن التاسع

٣١١	فوتيوس والقديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني وما كان بينهما
-----	---

٧٦٥	المجمع الثامن المسكوني	٣١٦
-----	------------------------------	-----

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع

٧٦٦	بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر	٣٢١
٧٦٧	قيس الماروني	٣٢٣

الباب العاشر

تاريخ سورية في القرن العاشر

القسم الأول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن العاشر

٧٦٨	المكتفي بالله	٣٢٦
٧٦٩	المقتدر بالله	٣٢٩
٧٧٠	غزوات المهدي العلوي لمصر وغيرها	٣٣١
٧٧١	خلافة القاهرة بالله	٣٣٣
٧٧٢	ذكر خلافة الرازي بالله	٣٣٥
٧٧٣	ولاية الأخشيذ وابن رائق في سورية	٣٣٧
٧٧٤	خلافة المتقي بالله	٣٣٩
٧٧٥	خلافة المستكفي بالله والمطيع لله	٣٤١
٧٧٦	غزوات سيف الدولة أمير حلب في بلاد الروم وغزوات الروم	
	في بلاد المسلمين	٣٤٣
٧٧٧	ما رواه المؤرخون النصارى من هذه الحوادث	٣٤٥
٧٧٨	ذكر حوادث أخرى في سورية	٣٤٨
٧٧٩	الطائع لله والقادر بالله	٣٥١

٧٨٠	الخلفاء العلويون الفاطميون في سورية والعزير خاصة	٣٥٢
٧٨١	الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي	٣٥٤
٧٨٢	بقية أخبار الحاكم بأمر الله	٣٥٧

الفصل الثاني

مشاهير العلم السوريين في القرن العاشر

٧٨٣	القاضي التنوخي وابنه الحسن	٣٦١
٧٨٤	أبو القاسم سليمان الطبراني وأبو الرقعمق	٣٦٣
	محمد أبو الفرج الوأواء الدمشقي	٣٦٤

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

٧٨٥	المشاهير بالفقه والطب والتاريخ وغيرها من العلوم	٣٦٥
	الطبري	٣٦٥
	أبو بكر الرازي	٣٦٦
	أبو نصر الفارابي	٣٦٦
	المسعودي	٣٦٨
	العبادي الطيب	٣٦٨
٧٨٦	بعض المشاهير في الخطابة والإنشاء	٣٦٩
	ابن نباتة	٣٦٩
	بديع الزمان الهمذاني	٣٧٠
٧٨٧	بعض المشاهير في اللغة والشعر	٣٧٠
	ابن سهل	٣٧٠
	ابن دريد	٣٧١
	النحاس النحوي	٣٧٢
	أبو الطيب المتنبي	٣٧٣
	النامي الشاعر	٣٧٤
	الجرجاني	٣٧٥

الازهري	٣٧٦
السيرافي النحوي	٣٧٧
أبو علي الفارسي	٣٧٨

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن العاشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم وأساقفة سورية في هذا القرن

بطاركة انطاكية في القرن العاشر	٣٧٩	٧٨٨
بطاركة أورشليم في القرن العاشر	٣٨١	٧٨٩
من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن العاشر	٣٨٥	٧٩٠

الفصل الثاني

المشاهير الدينيين في القرن العاشر

نيقولاوس بطريك قسطنطينية وسعيد بن البطريق بطريك اسكندرية	٣٧٩	٧٩١
جيورجوس متروبوليت اربل والموصل وغيرهم من مشاهير هذا القرن	٣٩٠	٧٩٢
اكومانيوس	٣٩١	
اريتاس	٣٩١	
جيورجوس الراهب	٣٩٢	
لاون الشماس	٣٩٢	
سويدا	٣٩٤	

ذيل

ما كان عند نهاية القرن العاشر	٣٩٤	٧٩٣
-------------------------------	-----	-----

ملحق

تاريخ الموارنة

٧٩٤ رد مزاعم من اتهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر ٣٩٧

الباب الحادي عشر

تاريخ سورية في القرن الحادي عشر

القسم الاول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الاول

الخلفاء العلويون الذين تولوا سورية في القرن الحادي عشر
وما كان في أيامهم من الاحداث

- ٧٩٥ الظاهر لاعزاز دين الله ٤٠٠
٧٩٦ المستنصر بالله وبعض ما كان في أيامه بسورية خاصة ٤٠٣
٧٩٧ تنمة أخبار المستنصر بالله العلوي وما كان في أيام ملكشاه
السلجوقي بسورية ٤٠٨
٧٩٨ ما كان من الاحداث في أيام خلفاء ملكشاه السلجوقي
والمستعلي بالله خليفة مصر ٤١٣

الفصل الثاني

المشاهير في العلم في سورية ومن عاصروهم في القرن الحادي عشر

- ٧٩٩ المشاهير السوريون في هذا القرن ٤١٧
٤١٧ ابو العلاء المعري
٤١٩ عبد المحسن الصوري
٤٢١ مخلص الدولة صاحب قلعة شيزر
٤٢٢ العسقلاني
٤٢٣ ابن حيتوس الدمشقي

٤٢٤	ابن الخياط الدمشقي
٨٠٠	من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم غير السوريين
٤٢٥	البستي الشاعر
٤٢٦	الرئيس ابن سينا
٤٢٩	الثعالبي صاحب اليتيمة
٤٣٠	ابو اسحق الشيرازي

الفصل الثالث

ملوك الروم إلى آخر هذا القرن والخلفاء العباسيون فيه

٨٠١	ملوك الروم من بعد هرقل إلى آخر القرن الحادي عشر
٨٠٢	الخلفاء العباسيون في القرن الحادي عشر

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الحادي عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن عرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن

٨٠٣	بطاركة انطاكية في القرن الحادي عشر
٨٠٤	بطاركة أورشليم في القرن الحادي عشر
٨٠٥	من عرفهم من اساقفة سورية وجوارها في هذا القرن

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الحادي عشر بسورية وغيرها

٨٠٦	ابو الفرج عبدالله بن الطيب
٨٠٧	ابن بطلان
٨٠٨	توافيلكتس وشدرانس

- ٨٠٩ بعض مشاهير الآباء اللاتينيين في هذا القرن ٤٥٨
 القديس بطرس دميانس ٤٥٨
 القديس انسلمس اسقف كنتورباري ٤٥٩
 القديس انسلمس اسقف لوكا ٤٦١

الفصل الثالث

ما كان من البدع والشقاق في القرن الحادي عشر

- ٨١٠ البدع في هذا القرن ٤٦٢
 الشقاق الذي احدثه ميخائيل شيرولاريوس البطريرك القسطنطيني ٤٦٤

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الحادي عشر

- ٨١٢ المطران داود الماروني ٤٧٢

الفاتحة

يتضمّن هذا الجزء الخامس تاريخ سورية من تقلّص دولة الرومانيين عنها سنة ٦٣٨م إلى فتح سلاطين بني عثمان لها في بدء القرن السادس عشر. ونسلك في كلامنا في هذا الجزء مسلكنا في ما تقدّم من الأجزاء؛ فنردّ أولاً التاريخ الديني، ثم نعقبه بالتاريخ الديني، على أنّنا استعنا في كلامنا في الجزء الأول لبسط الأخبار وتأكيدا بالإكتشافات الحديثة وما حلّ من رموز الخطوط الهيروغليفية والمسمارية، وفي الجزء الثاني بما نقّب عنه العلماء من الخطوط القديمة والكتب المتقدمة العهد. وقلّ ما يتيسّر لنا شيء من ذلك في هذا الجزء وما بعده، فنعتمد فيه على أقوال المؤرخين المدققين، والعلماء المحققين، متحاشين عن كل غرض إلا الحق، متنبّكين عن التملّق، متجانين التشعّيث من أحد، أو التنديد به. فتلجّنا هذه الحال إلى الإضراب عن ذكر بعض المناقص، لكنها لا تنطقنا بغير الحق، ولا تسلكنا في غير جادته. ونسأل الله أن يعصمنا من الخطأ. فبه نعتصم. وأن يقينا الزلل فنتقيه بمئه وكرمه.

القسم الأول

تتمة التاريخ الدنيوي في هذا القرن

قد اعتدنا أن ندون ، في فاتحة تاريخ كل قرن من القرون السالفة ، تاريخ الملوك الذين تولوا سورية فيه ، وما كان فيها من الأحداث في أيامهم . فجرباً على عادتنا ومساق تاريخنا نفتح كلامنا في تتمة تاريخ هذا القرن السابع بذكر الخلفاء الكرام فيه ، وما كان في أيامهم من الأحداث الخطيرة .

الفصل الأول

ذكر الخلفاء الراشدين وبعض بني أمية الذين ملكوا سورية في
هذا القرن

عد ٦٧٦

ذكر أبي بكر الصديق

قال الفرمانى (في كتاب أخبار الدول وآثار الأول) في وصفه : « هو خليفة رسول الله صلعم أيام مرضه ، وابن عمّه الأعلى ، وصهره ، ووزيره ، وخير الخلق بعده ، وكان كبير الشأن ، زاهداً ، خاشعاً إماماً ، حليماً ، وقوراً ، شجاعاً ، صابراً رؤوفاً . اسمه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر . . . واجتمعت الأئمة على تسميته بالصدّيق لأنّه بادر إلى تصديق النبي صلعم ولازم الصدق » . وقال أبو الفدا (في تاريخه صفحة ١٦٤) « لما قبض الله نبيه قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : من قال : إنّ رسول الله صلعم مات غلوت رأسه بسيفي هذا ولأما ارتفع إلى السماء . فقرأ أبو بكر : وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ فرجع القوم إلى قوله وبادروا سقيفة بني ساعدة . فبايع عمر أبا بكر رضي الله عنهما وانثال الناس عليه يبايعونه في العشر الأوسط من ربيع الأول سنة إحدى عشرة للهجرة^(١) ، خلا جماعة من بني هاشم والزيبر ،

(١) إنّ تاريخ الهجرة يبدأ فيه من اليوم الأول من شهر محرم الموافق ليوم الخميس في ١٦ تموز سنة ٦٢٢ للميلاد . قال روهربخر (في تاريخه ك ٤٨) الصحيح أنّ محمداً لم يهجر مكة إلّا في ١٢ ايلول سنة ٦٢٢ ولم ينته إلى المدينة إلّا في الثامن والعشرين منه . وفي التوفيق بين السنة الهجرية والمسيحية يزداد على الهجرية سنة ٦٢٢ واعتادوا ان يحطوا من كل مئة سنة من سني الهجرة ثلاث سنين رعاية للفرق بين السنة الشمسية والقمرية . فالخلاص بعد ذلك هو التاريخ المسيحي .

وعتبة بن أبي لهب . . . ومالوا مع علي بن أبي طالب» إلى أن يقول : « ثم إنَّ أبا بكر بعث عمر بن الخطاب إلى علي ، ومن معه ليخرجهم من بيت فاطمة (بنت محمَّد) رضي الله عنها . وقال : إنَّ أبوا عليك فقاتلهم . فاقبل عمر بشيء من نار على أن يضرم الدار ، فلقيته فاطمة رضي الله عنها وقالت إلى أين يا ابن الخطاب . أجيئت لتحرق دارنا ؟ قال : نعم ، أو تدخلوا فيما دخل فيه الأمة . فخرج علي حتى أتى أبا بكر فبايعه . كذا نقله القاضي جمال الدين ابن واصل وأسنده إلى ابن عبد ربه المغربي . وروى الزهري عن عائشة قالت : لم يبايع علي أبا بكر حتى ماتت فاطمة ؛ وذلك بعد ستة أشهر لموت أبيها .

وقد كثر حيثيذ الشقاق والردة عن الإسلام على ما رواه كثيرون ؛ ومنهم : ابن خلدون (في تاريخه في تنمة الجزء الثاني صفحة ٦٥) حيث قال : « وقد ارتدت العرب . إما القبيلة مستوعبة (أي كلُّها) . وإما بعض منها ونجم النفاق ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفلتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجور بفقد نبهم » . وقال رجال يدعون النبوة منهم مسيلمة الكذاب وكان مقامه في اليمامة ، فأسلم ثم ارتد : « وأدعى النبوة ؛ استقللاً ثم مشاركة مع النبي » على ما روى أبو الفداء وكان الخليفة مأموراً بأن يواصل الفتح فتجشَّم أبو بكر هذه المشاق ، وذلت له هذه المصاعب ، وكان من أوَّل ما اعتمده إنفاذ بعث اسامة بجيش المسلمين إلى الشام ، وأوصاه بما ذكرناه مترجماً عن الإفرنسية ع ٦٧٤ ، وعبَّر عن النشاك في تلك الوصايا بقوله على ما رواه ابن خلدون : « وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » . وعبَّر عن اليهود بقوله : « وإذا لقيتم أقواماً فحسبوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها قتل العصاب فاضربوا بالسيف ما فحسبوا عنه » . ومضى أسامة وبعث الجنود في بلاد قضاعة (الشام) ، وأغار على أُبني بناحية البلقاء فسبى وغنم ورجع لأربعين يوماً ، وقيل لسبعين (عن ابن خلدون) .

ثم بعث أبو بكر خالداً بن الوليد إلى مسيلمة الكذاب فجری بينهما قتال شديد ، وفي آخره انتصر المسلمون ، وهزموا جيش مسيلمة وقتلوه . وكذا قاتل خالد ، بأمر أبي بكر ، طليحة الذي كان أسلم ثم ارتدَّ وأدعى النبوة . فهزم خالد قوم طليحة وهو نجا بنفسه وامرأته إلى الشام . وكذا ذلَّ أبو بكر من كانوا قد ارتدُّوا عن الإسلام في قبائل العرب : بني عامر ، وتميم وربيعة ، وغيرهم . ولما استتبَّ له الأمر في بلاد العرب والعراق والحيرة بعث خالد بن سعيد بن العاص في

الجنود إلى الشام في أول سنة ثلاث عشرة (وهي سنة ٦٣٥ م) . وقيل إنه بعثه إلى الشام لما بعث خالد بن الوليد إلى العراق أول السنة التي قبلها ، ثم امده بخالد بن الوليد ، وبعث عمرأ بن العاص إلى فلسطين وأمر يزيد بن أبي سفيان على جمهور ، وأمر أبا عبيدة على الجميع وعيّن له حمص . فكانت مناوشات بينهم وبين عساكر الروم في محال كثيرة وكتبوا إلى أبي بكر فأجابهم أن اجتماعهم أولى بهم لكثرة عدوهم وقلة عديدهم ، فاجتمعوا في اليرموك ورووا أن عسكر المسلمين كان ستة وثلاثين ألفاً أو أربعين ، وأن عسكر الروم كان يربو على مئتي ألف ، ودام القتال بين الطرفين أياماً ، وأخّره استظهار عسكر المسلمين كما روينا في عد ٦٧٤ (ملخص عن ابن الأثير في الكامل ، وابن خلدون ، وأبي الفداء في تاريخهما) .

ومات أبو بكر قبل ظهور المسلمين في اليرموك ، وكان موته على ما ذكروا مساء ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادي الأخرى سنة ثلاث عشرة للهجرة (سنة ٦٣٥ م) وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ، وعمره ثلاث وستون سنة اختلف في سبب موته فقليل إن اليهود سمته في أرز . وقيل إنه اغتسل وكان يوماً بارداً فحمّ خمسة عشر يوماً أدركته المنية في آخرها (أبو الفداء في تاريخه وابن الأثير في الكامل) . وقال أبو الفداء : إن أبا بكر « أمر بجمع القرآن من أفواه الرجال وجريد النخل والجلود ، وترك ذلك المكتوب عند حفصة بنت عمر زوج النبي صلعم . ولما تولى عثمان ورأى اختلاف الناس في القرآن كتب من ذلك المكتوب الذي كان عند حفصة نسخاً وأرسلها إلى الأمصار وأبطل ما سواها » .

عد ٦٧٧

ذكر عمر بن الخطاب

قال ابن خلدون (صفحة ٨٥ من بقية الجزء الثاني) : « لما احتضر أبو بكر عهد إلى عمر رضي الله عنهما بالأمر من بعده ، بعد أن شاور عليه طلحة وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم ، وأخبرهم بما يريد فيه ، فأثروا على رأيه » . وفي جملة ما كتبه في عهده له : « إني استعملت عليكم ابن الخطاب ولم آل لكم خيراً فإن صبر وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه ، وإن جار ويدل فلا علم لي بالغيب والخير أردت ولكل امرئ ما اكتسب » . (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) .

وروى أبو الفداء (في تاريخه صفحة ١٦٨): «إِنَّ أَوَّلَ خطبة خطبها (عمر) قال : يا أيُّها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى أخذ الحق له ، ولا أضعف عندي من القوي حتى أخذ الحق منه . ثم أَوَّلُ شيء أمر به أن عزل خالد ابن الوليد عن الامرة وولى أبا عبيدة على الجيش والشام وأرسل بذلك إليهما وهو أَوَّل من سمي بأمير المؤمنين . وكان أبو بكر يخاطب بخليفة رسول الله صلعم ثم سار أبو عبيدة ونازل دمشق ، وكانت منزلته من جهة باب الجابية ونزل خالد من جهة باب توما وباب شرقي . ونزل عمرو بن العاص بناحية أخرى وحاصروها قريبا من سبعين ليلة . (وقيل ستة أشهر عن ابن خلدون) . وفتح خالد ما يليه بالسيف . فخرج أهل دمشق ، وبذلوا الصلح لأبي عبيدة من الجانب الآخر ، وفتحوا له الباب فأمنهم ودخل والتقى مع خالد وكتب أبو عبيدة بالفتح إلى عمر ، وفي أيامه فتح العراق . ثم دخلت سنة أربع عشر (سنة ٦٣٦ م) وفيها في المحرم أمر عمر ببناء البصرة فاخترت . وقيل : في سنة خمس عشرة ... ثم دخلت سنة خمس عشرة فيها فتحت حمص بعد دمشق بعد حصار طويل ، حتى طلب الروم الصلح ، فصالحهم أبو عبيدة على ما صالح أهل دمشق ، ثم سار إلى حماه ... وكانت هي وشيزر من أعمال حمص . وكانت حمص كرسي مملكة هذه البلاد ... ولما وصل أبو عبيدة إلى حماه خرجت الروم التي بها يطلبون الصلح فصالحهم على الجزية لرؤوسهم ، والخراج على أرضهم ، وجعل كنيستهم العظمى جامعا ؛ وهو جامع السوق الأعلى من حماه . ثم جدد في خلافة المهدي من بني العباس ، وكان على لوح منه مكتوب أنه جدد من خراج حمص . ثم سار أبو عبيدة إلى شيزر فصالحه أهلها على صلح أهل حماة وكذلك صالح أهل المعرة ؛ وكان يقال لها معرة حمص ثم قيل معرة النعمان بن بشير الأنصاري لأنها كانت مضافة إليه مع حمص في خلافة معاوية ، ثم سار أبو عبيدة إلى اللاذقية ففتحها عنوة وفتح جبلة ، وأنطارطوس . ثم سار أبو عبيدة إلى قنسرين ؛ وكانت كرسي المملكة المنسوبة اليوم إلى حلب . وكانت حلب من جملة أعمال قنسرين . ولما نازلها أبو عبيدة وخالد بن الوليد كان بها جمع عظيم من الروم فجرى بينهم قتال شديد انتصر فيه المسلمون ، ثم طلب أهلها الصلح على صلح أهل حمص ، فأجابهم على أن يخربوا المدينة فخرّبت . ثم فتح بعد ذلك حلب وأنطاكية ومنبج ودلوك وسمرين وتزوين وعزاز ، واستولى على الشام من هذه الناحية ثم سار خالد إلى مرعش ففتحها

وأجلى أهلها، وأخربها، وفتح حصن الحدث. وفي هذه السنة لما فتحت هذه البلاد وهي سنة خمس عشرة وقيل: ست عشرة أيس هرقل من الشام وسار إلى قسطنطينية من الرها» انتهى كلام أبي الفداء.

وعن ابن الأثير (في الكامل ك ٢ صفحة ٢١٠): «لما استخلف أبو عبيدة يزيد بن أبي سيفان على دمشق، وسار إلى فحل، سار يزيد إلى مدينة صيدا، وعرقا، وجبيل وبيروت؛ وهي سواحل دمشق وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقا معاوية بنفسه في ولاية يزيد. ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها، ثم رمها، وشحنها بالمقاتلة، وأعطاهم القطائع. ولما ولي عثمان الخلافة، وجمع لمعاوية الشام وجه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس؛ وهي ثلاث مدن مجتمعة. ثم بنى في مرج على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان، وقطع المادة عن أهلها من البر والبحر وحاصروهم، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدّهم، أو يبعث إليهم بمراكب يهربون فيها إلى بلاد الروم، فوجه إليهم مراكب كثيرة ركبوها فيها ليلاً وهربوا، فلما أصبح سفيان وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه ثم يغدو على العدو وجد الحصن خالياً فدخله، وكتب بالفتح إلى معاوية، فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود وهو الذي فيه المينا اليوم ثم بناه عبد الملك بن مروان وحصّنه، ثم نقض أهله أيام عبد الملك ففتح ابنه الوليد في زمانه». انتهى كلام ابن الأثير.

ولما قصد أبو عبيدة حمص وما وراءها، أرسل شرحبيل وعمراً بن العاص إلى بيسان، فقاتلوا أهلها، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً. ثم صالحهم من بقي على صلح دمشق، وبعث أبو عبيدة بالأعوار إلى طبرية فصالحه أهلها على صلح دمشق أيضاً، واجتمع عسكر الروم باجنادين وغزة وعليهم قائد سماء المؤرخون العرب اربطون فسار عمرو وشرحبيل إليه، واقتلوا كيوم اليرموك المارّ ذكره. فانهزم اربطون إلى بيت المقدس وفتح عمرو غزة وقيل: كان فتحها في خلافة أبي بكر. ثم فتح سبسطية وهي؛ السامرة ونابلس ولد وعمو وبيت جبرين ويافا ومدن الأردن (عن ابن الأثير وابن خلدون ملخصاً) وقد ذكرنا فتح أورشليم وما كان فيه في عد ٦٧٤ وكذا انتهى فتح سورية كلها في سنة ١٦ للهجرة وهي سنة ٦٣٨ م وعلى

قول بعضهم سنة ٢٠ للهجرة وهي سنة ٦٤٢م. ويرجح الأول لأن المعتمد عليه أن بدء فتحهم مصر كان سنة ٦٣٨م وأما قصدوا مصر بعد أن دانت لهم سورية .

عد ٦٧٨

فتح مصر وغيرها من البلاد وما كان من الأحداث في أيام عمر بن الخطاب

لما فتح عمر بيت المقدس استأذنه عمرو بن العاص في فتح مصر فأغراه ، ثم أتبعه الزبير بن العوام ، فساروا وفي سنة مسيرهم كان الخلاف الذي ألعنا إليه آنفاً ، لأن ابن خلدون قال : « ساروا سنة عشرين أو احدى أو اثنتين أو خمس وعشرين » والأظهر أنها سنة ١٦ هجرية أي سنة ٦٣٨ م وكان قورش ، بطريك الإسكندرية قد وضع لهم ذريعة لهذه الغزوة ؛ لأنه منذ سنة ٦٣٥م رأى أن المسلمين سيحملون على مصر بعد أن يفتتحوا سورية ، فعاهد عمراً بن العاص دون مشورة هرقل الملك على أن المصريين يؤدون للخليفة كل سنة مئتي ألف دينار ذهباً ، على شريطة أن لا يغزو مصر ، وأرسلوا إلى الخليفة مبلغاً من الجزية التي جرى الإتفاق عليها ، ولما تعسر على البطريك جمع ما بقي منها اضطر أن يعلم الملك بجلية الأمر ، زاعماً أن تلك ماثرة صنعها في جانب المملكة ، وأن له رأياً في مشاركة المسلمين السلاح لا يوح به إلا أن يأمره الملك ببيانه . فاستشاط الملك غيظاً من البطريك وأرسل جيشاً يصد العرب عن الدخول إلى مصر ، وأمر عليه رجلاً أرمنياً اسمه عمانوئيل . وكان عمرو انتهى إلى تخوم مصر فأرسل عمانوئيل يسأله ما الداعي لغزوته مصر ؟ فأجابه عمرو جئت لأجبي الجزية التي فرضتموها عليكم لنا ، فكتب إليه عمانوئيل يقول لست أعزل كقورش البطريك لأفئك الجزية صاغراً بل قائد جيش متدجج في سلاحه ، فزحف عمرو إليه فبدد جيشه في المطرية ، وألجأ عمانوئيل إلى أن يفر إلى إسكندرية بنفر من رجاله ، فأرسل هرقل قائداً آخر على جيش آخر ولكن دارت على هذا أيضاً الدوائر ، وقتل في ساحة الحرب ، فحاصر عمرو مصر وافتتحها عنوة ، وصالح من بقي من أهلها على أن يدفع كل منهم كل سنة دينارين ما خلا الشيوخ والنساء ومن كان دون الثالثة عشرة من عمره ، وتملكوا غيرها من المدن والقرى ولم يبق إلا

اسكندرية فحاصروها سنة ٦٤٠ م. وسأل هرقل قورش البطريك أن ييدي رأيه الذي أشار إليه في متاركة المسلمين السلاح فأجابه قورش أن رأيه أن يزوج إحدى الأميرات بناته بعمره فينكف عن الحرب ويتنصر، فاستدعى الملك البطريك إلى قسطنطينية وشكاه بحضرة الشعب أنه سلم مصر إلى المسلمين، فأجاب قورش يبرئ نفسه من الخيانة انه لو عمل برأيه في اداء الجزية لما كان مما كان ونسب الخيانة إلى الوالي فانتبه الملك على سوء تصرفه وعلى مشورته عليه بأن يزوج ابنته بقائد جيش المسلمين، وهذده بالقتل وطرحه في السجن. وبلغ الملك اشتداد الحصار على اسكندرية فأعاد البطريك إليها مفوضاً إليه أن يتعاطى الصلح مع عمرو، على أن يدفع المصريون الجزية المتفق عليها قبلاً بحيث أن يخرجوا من مصر. ولما سمع عمرو كلام البطريك، وكان قبالتها عمود كبير قال له هل لك أن تبتلع هذا العمود قال البطريك لا، فأجابه عمرو ولا نحن نستطيع أن نخرج من مصر. ودام الحصار على اسكندرية أربعة عشر شهراً (رواه روه ربحر ك ٤٨ من تاريخه عن توفان ونيكوفور في تاريخهما) وعن أبي الفداء أن الجامع المعروف بمصر بجامع عمرو بن العاص بُني حيث ضرب هذا الغازي فسطاطه وعن ابن خلدون أن العهد الذي أعطاه عمرو بن العاص لأهل مصر كان من مواده أنه إن نقص نهرهم (النيل) من غايته رفع عنهم من الجزية بقدر نقصه.

وكان عمرو يحب العلم والعلماء، وأعجبه عالم اسمه يوحنا فيلوبون (أي محب العمل)، فطلب منه يوحنا الكتب التي كانت في مكتبة اسكندرية، إذ لا نفع للمسلمين منها. فقال إن ليس له أن يتصرف بها إلا بأمر الخليفة عمر. وكتب إليه فأجابه عمر على ما يقال إن كان ما اشتملت المكتبة عليه من الكتب مطابقاً لكتاب الله فقيه غنى عنه، وإن كان مخالفاً للقرآن فلا حاجة لنا به. فوزع عمرو تلك الكتب على أفران اسكندرية فكفتها مؤونة الخبز شهراً. روى هذه القصة كثير من المؤرخين النصارى، وبعض المسلمين أيضاً، على أن المدققين لم يقطعوا بصحتها.

قال ابن خلدون: « ولما تم فتح مصر والإسكندرية أغزى عمرو العساكر إلى النوبة فلم يظفروا. فلما كانت أيام عثمان وعبد الله بن أبي سرح على مصر، صالحهم على عدة رؤوس في كل سنة، ويهدي إليهم المسلمون طعاماً وكسوة. فاستمر ذلك فيها ». على أنهم إذا لم تنجح حينئذ غزوتهم في النوبة، فقد ظفروا،

وَأَتَمُّوا اسْتِحْوَاذَهُمْ عَلَى الْجَزِيرَةِ (مَا بَيْنَ النَّهْرَيْنِ) سَنَةَ ٦٣٨ م فَتَمَلَّكُوا الرِّهَاحَ وَحِرَانَ وَنَصَبِيَّينَ وَأَمَدَ وَكَانَ وَالْيَهَا الرُّومَانِي قَدْ صَالَحَ الْمُسْلِمِينَ سَنَةَ ٦٣٧ عَلَى أَنْ يُؤَدِّبَهُمْ فِي كُلِّ سَنَةٍ مِئَةَ أَلْفٍ دِينَارٍ عَلَى شَرِيطَةٍ أَنْ لَا يَعْبُرُوا الْفَرَاتَ ، فَغَضِبَ الْمَلِكُ هِرَقْلُ عَلَى الْوَالِيِّ وَعَزَلَهُ وَنَفَاهُ وَنَصَبَ غَيْرَهُ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ إِيقَافَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ فَتْحِ الْجَزِيرَةِ بَلْ اسْتَوْلَوْا عَلَيْهَا وَبَنَوْا الْكُوفَةَ وَالْبَصْرَةَ فِي بِلَادِ الْكِلْدَانِ سَنَةَ ٦٣٨ وَسَنَةَ ٦٣٩ م . وَعَنْ ابْنِ الْأَثِيرِ وَابْنِ خُلْدُونَ (فِي تَارِيخِهِمَا) أَنَّ عُمَرَ عَرَفَ أَنَّ وَخُومَةَ الْبِلَادِ غَيَّرَتِ الْمُسْلِمِينَ وَأَوْهَنْتِ قَوَاهِمَ فَكَتَبَ إِلَى عَمَالِهِ أَنْ يَخْتَارُوا مَحَلًّا صَالِحًا لَهُمْ ، فَاخْتَرُوا الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ وَبَنَوْا فِيهِمَا أَوَّلًا بِالْقَصْبِ ، ثُمَّ وَقَعَ الْحَرِيقُ بِالْقَصْبِ فَاسْتَأْذَنُوا عُمَرَ فِي الْبِنَاءِ بِاللِّبْنِ فَقَالَ إِفْعَلُوا وَلَا يَزِيدُ أَحَدٌ عَلَى ثَلَاثَةِ بِيُوتٍ وَلَا تَطَاوَلُوا فِي الْبِنَانِ فَكَانَ بِنَاءُ الْبَصْرَةِ وَالْكُوفَةِ وَسِيلَةً لِفَتْتَاحِ مَمْلَكَةِ الْفَرَهْمِيِّ الَّتِي أَتَمُّوا فَتْحَهَا بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ أَيْ نَحْوَ سَنَةِ ٦٤٥ م . وَافْتَتَحُوا بَعْدَ الْجَزِيرَةِ أَرْمِينِيَا وَهَمْدَانَ وَآذَرِييجَانَ وَخِرَاسَانَ وَغَيْرَهَا .

وَكَانَ فِي أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ سَنَةَ ١٨ (سَنَةَ ٦٤٠ م) قَحْطٌ شَدِيدٌ وَجَدِبَ أَعْقَبُ جُوعًا مَعَ طَاعُونَ سَمَّوْهُ طَاعُونَ عَمَوَاسَ ، رَجِمَا لِأَنَّهُ فَتَكَ بِأَهْلِهَا وَحَلَفَ عُمَرَ أَنْ لَا يَذُوقَ السَّمْنَ وَاللَّبْنَ حَتَّى يَحْيِيَ النَّاسَ . وَكَتَبَ إِلَى عَمَالِهِ بِالْأَمْصَارِ يَسْتَمْدُهُمْ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ . فَجَاءَ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنَ الشَّامِ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ رَاحِلَةٍ مِنَ الطَّعَامِ ، وَأَصْلَحَ عُمَرُ بْنُ الْعَاصِ بَحْرَ الْقَلْزَمِ وَأَرْسَلَ فِيهِ الطَّعَامَ مِنْ مِصْرَ ، فَرَخَّصَ السَّعْرَ ، وَهَلَكَ بِالطَّاعُونَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مِنْ مَشَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ : أَبُو عُبَيْدَةَ ، وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ وَالْيَ دِمَشْقَ ، وَالْحَرْثُ بْنُ هِشَامَ . وَلَمَّا تَوَفَّى يَزِيدُ الْمَذْكُورَ وَلَّى عُمَرَ عَلَى الشَّامِ مَكَانَهُ أَخَاهُ مَعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ ، وَلَمَّا فَحَشَ الطَّاعُونَ بِالشَّامِ سَارَ عُمَرُ إِلَيْهِ لِيَقْسِمَ مَوَارِثَ الْمُسْلِمِينَ وَيَتَطَوَّفَ عَلَى الثَّغُورِ . انْتَهَى مَلْخَصًا عَنْ ابْنِ الْأَثِيرِ وَابْنِ خُلْدُونَ . وَرَوَى تَوَافَانُ أَنَّ عُمَرَ أَمَرَ بِإِحْصَاءِ كُلِّ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، فَأَحْصَوْا لَا النَّاسَ فَقَطْ بَلِ الْمَوَاشِيَ وَالْأَشْجَارَ أَيْضًا .

وَفِي سَنَةِ ٢٣ (سَنَةَ ٦٤٥ م) كَانَ مَقْتَلُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، وَقَدْ فَضَّلَ ذَلِكَ ابْنُ خُلْدُونَ فَقَالَ : « كَانَ لِلْمَغِيرَةِ بْنِ سَفِيَةِ (وَالْيَ الْكُوفَةِ) مَوْلَى مِنْ نَصَارَى الْعَجَمِ اسْمُهُ فَيْرُوزُ وَكُنْيَتُهُ أَبُو لَوْلُؤَةَ ، وَكَانَ يَشُدُّ عَلَيْهِ فِي الْخُرَاجِ ، فَلَقِيَّ يَوْمًا عُمَرَ فِي السُّوقِ فَشَكَا إِلَيْهِ وَقَالَ : إِنَّ الْمَغِيرَةَ يَثْقُلُ عَلَيَّ فِي الْخُرَاجِ دَرَاهِمِينَ فِي كُلِّ يَوْمٍ قَالَ وَمَا صَنَاعَتُكَ ؟ قَالَ : نَجَّارٌ ، حَدَادٌ ، نَقَّاشٌ . فَقَالَ : لَيْسَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ عَلَى هَذِهِ

الصنائع، وقد بلغني أنَّك تقول أصنع رحي تطحن بالريح فاصنع لي رحي، فقال اصنع لك رحي يتحدث الناس بها أهل المشرق والمغرب وانصرف. فقال عمر توعّدني العلاج. فلما أصبح خرج عمر إلى الصلاة واستوت الصفوف، ودخل «أبو لؤلؤة» في الناس ويده خنجر برأسين نصابه في وسطه، فضرب عمر ست ضربات؛ إحداها تحت سترته وقتل كليلاً ابن أبي البكير الليثي وسقط عمر. وكان مقتل عمر في غاية ذي الحجة ودفن في غرة محرم سنة ٢٤ وهي سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ وكانت مدة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام (أبو الفداء) وبويع بالخلافة بعده عثمان بن عفان.

عد ٦٧٩

خلافة عثمان بن عفان

قد بويع عثمان بالخلافة لثلاث مضين من المحرم سنة ٢٤، وقام في المنبر خطيباً فحمد الله وأرج عليه فقال إنَّ أوَّل كل أمر صعب وإن أعش فسأتىكم الخطب على وجهها. وفي أيامه فتحت إفريقية فتحها عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر بعد عزل عمرو بن العاص، واستعفى عمير من ولاية حمص وقنسرين فضمها عثمان إلى معاوية، والي دمشق ومات عبد الرحمن بن أبي علقمة والي فلسطين فضم عثمان عمله إلى معاوية فاجتمع الشام كله لمعاوية لستين من إمارة عثمان رواه ابن خلدون (صفحة ١٣٠ من الجزء المذكور) وقال: «كان معاوية يلح على عمر في غزو البحر وكتب إليه في شأن قبرص وهو في قرية من قرى حمص إنَّ أهل تلك القرية يسمعون نباح كلاب قبرص وصياح دجاجهم (مبالغة في قرب قبرص من سورية) فكتب عمر إلى عمرو بن العاص صف لي البحر وراكبه. فكتب إليه: «هو خلق كبير يركبه خلق صغير، ليس إلَّا السماء والماء، ان ركد فلق القلوب، وإن تمزك أزاع العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة وراكبه دود على عود إن مال غرق وإن نجا برق (في الكامل خرق). فكتب عمر إلى معاوية والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أنَّ بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض فيستأذن الله كل يوم وليلة أن يغرق الأرض، فكيف أحمل الجنود على هذا الكافر، وبالله لمسلم واحد أحب إليَّ مما حوت الروم

فإياك أن تعرض لي في ذلك»... ثم كاتب عمر ملك الروم وقاربه وأقصر عن الغزو. ثم أُلحَّ معاوية على عثمان بعده في غزو البحر فأجابه على خيار الناس وطوعهم. فاختر الغزو جماعة من الصحابة: أبو الدر وأبو الدرداء وشداد بن اوس... وساروا إلى قبرص وجاء عبدالله بن أبي سرح من مصر فاجتمعوا عليها وصالحهم أهلها على سبعة آلاف دينار لكل سنة ويؤدون مثلها للروم ولا منعة لهم على المسلمين ممن أرادهم ممن سواهم وأن يكونوا عيناً للمسلمين على عدوهم ويكون طريق الغزو للمسلمين عليهم. وكانت هذه الغزوة سنة ٢٨ وقيل: سنة ٢٩، وقيل: سنة ٣٣، وهي سنة ٥٠ أو سنة ٥١ أو سنة ٥٤ وذكر ابن الأثير أيضاً ذلك كما مرَّ بحروفه.

وذكر ذلك توفان في تاريخ السنة الثالثة لعثمان وهي سنة ٢٨ و ٢٩ للهجرة، كما ذكر المؤرخون المسلمون. ومما قاله إنَّ أسطول معاوية كان ألف وسبعماية سفينة وإنَّه فتح مدينة قسطنسية واستحوذ على الجزيرة كلها. ولما سمع بقدم جنود الرومانيين عليه تحول إلى جزيرة أرواد فحاصرها. فلم يتمكن حينئذٍ من فتحها ودنا فصل الشتاء فتركها وعاد إلى سورية ثم استأنف الحصار لها في السنة التالية فاستحوذ عليها، وصالح أهلها على أن يسكنوا حيث شاءوا وخرب المدينة ولم تزل خربة. انتهى كلام توفان. على أنَّ أعظم الفتوحات في أيام عثمان إنما هي فتح بلاد فارس فقد كان للمسلمين حروب كثيرة مع الفرس دامت سنين، وآخرها أنَّ ابن عامر والي البصرة خرج منها إلى فارس، وكانت له وقعة هائلة مع يزدجرد الثالث آخر ملوكهم، فالجئ ملك الفرس أن يفرَّ من جور إلى مرو وأوى إلى بيت رجل ينقر الأرحاء، فلما نام قتله ورماه في النهر. وفي مقتله روايات أخرى كثيرة لكنها مجمعة على أنَّ مقتله كان في سنة ٣٠ وهي سنة ٦٥٢ أو سنة ٦٥١م وكذا قرض المسلمون هذه الدولة التي غالبت الرومانيين قروناً فلم يتيسر لهم قرضها، واستحوذ المسلمون على كل تلك البلاد إلى الهند وفتحوا طرابلس الغرب وتونس إلى مراكش (عن ابن الأثير في الكامل وابن خلدون في تاريخه).

ومما كان في أيام عثمان (ما رواه أبو الفداء وغيره) أنَّه بلغه سنة ٣٠ ما وقع في أمر القرآن من أهل العراق. فأنهم يقولون، قرأنا أصبح من قرآن أهل الشام لأننا قرأنا على أبي موسى الأشعري، وأهل الشام يقولون قرأنا أصبح لأننا قرأنا على المقداد بن الأسود وكذلك غيرهم من الأمصار: فأجمع رأي عثمان ورأي الصحابة

على أن يحمل الناس على المصحف الذي كتبه في خلافة أبي بكر رضي الله عنه وكان مودعاً عند حفصة زوج النبي صلعم ويحرق ما سواه من المصاحف التي بأيدي الناس ففعل ذلك ...

وكان الذي تولى نسخ المصاحف العثمانية بأمر عثمان: زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام الخزومي. وقال عثمان: «إن اختلفتم في كلمة فاكتبوها بلسان قريش فانه نزل القرآن بلسانهم».

وروى توفان (في تاريخه) في تاريخ سنة ٦٤٥ م (على مذهبه وهي سنة ٦٥٢ م على المذهب العام والسنة السابعة لعثمان) أنَّ معاوية فتح رودس هذه السنة وانتزع تمثالها الشهير الذي كان قد أقيم من ألف وثلاثمائة وستين سنة، فاشتره يهودي من الرها وحمل من المعدن المصنوع منه تسع مائة جمل.^(١) وروى توفان أيضاً في تاريخ سنة ٦٤٦ م وهي سنة ٦٥٣ م والثامنة لعثمان) أنَّ معاوية أمر في هذه السنة باعداد الجنود والعدد في طرابلس ليحمل على قسطنطينية فأخذت الجسارة من شاوين مسيحيين كل مأخذ فمضيا إلى السجون التي كان فيها كثيرون من محازبي الروم فكسروا أبوابها وحملوا مع السجناء على والي المدينة فقتلوه، وتسارعوا إلى الأسطول فحرقوه وأخذوا سفينة انهزموا فيها إلى شواطئ البحر في آسيا الصغرى حيث كانت بقية من الروم. على أن حرق السفن لم يثن معاوية عن عزيمته بل جهز غيرها وسيرها بحراً وسار هو بجيشه براً حتى انتهى إلى الكبادوك

(١) في نصب هذا التمثال الذي بعد من عجائب الدنيا السبع وفي نقضه خلاف بين العلماء فروى بعضهم ان كارس من مدينة لندس من هذه الجزيرة صنعه، وقالوا ان كارس كان في القرن الثالث قبل الميلاد وان التمثال نقض بزلزال سنة ٨٦ للميلاد ومن هؤلاء بويليا في معجمه التاريخي الجغرافي. وقال كثيرون ان الروديسين صنعه من غنائمهم في حرب ديمتريوس لهم كما قدمنا في المجلد الثالث، وان زلزالاً اقلبه بعد نصبه بست وخمسين سنة وبقي مطروحاً في البحر. وترى توفان يقول هنا ان معاوية نقضه بعد ان كان قد اقيم من الف وثلاثمائة وستين سنة. وقال يعقوب كوار في حواشيه على تاريخ توفان ان توفان اخذ ذلك من مكمل تاريخ جيورجوس سنشلس، وانه اذا اسقطنا ٦٥٥ سنة من التاريخ المسيحي الذي ذكره توفان من سنة ١٣٦٠ كان الحاصل ان هذا التمثال صنع سنة ٧١٥ قبل الميلاد الموافقة لسنة عشرين من ملك حزقيا، لان سنة ٦٤٥ في مذهب توفان هي سنة ٦٥٢ في مذهب عامتهم فتأمل.

وبلغ قسطنط الثاني ملك الروم فجهز أسطولاً وسار به بنفسه فالتقى الأسطولان تجاه لىسيا (أداليا) فكان أولاً بعض النصر للروم، على أن المسلمين اندفعوا بسفائهم دفعة واحدة على الروم فقتلوا كثيرين منهم وعطلوا أكثر سفنهم ووثبوا وثبة شديدة على سفينة الملك فتكر بزي جندي، ولولا أن يحمله أحد الشاين الطرابلسيين المار ذكرهما إلى سفينة أخرى لأسره المسلمون أو قتلوه. وقد قتلوا حامل ثوبه وظنوه الملك فسكن جأشهم. وانتهاز الملك هذه الفرصة ففرّ إلى قسطنطينية على أن أخبار الثورة إلى عثمان في تلك الأثناء جعلت معاوية يضرب عن لحاق الروم على عاصمة بلادهم.

وما رواه كثيرون في الانقضاء على عثمان وقتله أن جماعة من أهل الكوفة أخذوا يتكلمون في حق عثمان بأنه ولي جماعة من أهل بيته لا يصلحون للولاية، وولى عبدالله بن أبي سرح على مصر ومكث عليها سنين فثار عليه بعض أهلها، وفي سنة ٣٥ (سنة ٦٥٦ م) قدم جمع من مصر وجمع من الكوفة والبصرة يشكون أمورهم إلى عثمان، فغالظهم فثاروا عليه وتآلب معهم جماعة وحاصروا عثمان في داره إلى أن اتفق علي بن أبي طالب مع عثمان على ما تطلبه الناس منه من عزل مروان عن كتابته وعبدالله بن أبي سرح عن مصر، فأجاب عثمان إلى ذلك وفرق علي الناس عنه، ثم اجتمع عثمان بمروان فردّه عن عزمه، ثم اضطرتّه الحال إلى عزل ابن أبي سرح عن مصر وتولية محمد بن أبي بكر، وتوجه محمد إلى ولايته فيناهم في أثناء الطريق وإذا بعد علي هجين بجهد، فقالوا له إلى أين؟ قال إلى العامل بمصر فقالوا هذا عامل مصر يعنون محمد بن أبي بكر فأمسكوه وفتشوه فوجدوا معه كتاباً مختوماً بختم عثمان يقول إذا جاء محمد بن أبي بكر، ومن معه بأنك معزول فلا تقبل، واحتل بقتلهم، وابطل كتابهم، وقر في عملك. فرجع محمد بن أبي بكر ومن معه إلى المدينة وجمعوا الصحابة وأوقفوهم على الكتاب، وسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بالخطم وخط كاتبه، وحلف بالله أنه لم يأمر بذلك، فطلبوا منه مروان ليسلمه إليهم فامتنع، فازداد حنق الناس على عثمان وجددوا في قتاله، فأقام علي ابنه الحسن يذب عنه، وأقام الزبير ابنه عبدالله، وطلحة ابنه محمد يذبون عنه بحيث خرج الحسن وقد انصبغ بالدم، ثم تسوروا على عثمان من دار لزنق داره، ونزل عليه جماعة فيهم محمد بن أبي بكر فقتلوه وكان صائماً يتلو في المصحف، وكان مقتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة

سنة خمس وثلاثين سنة ٦٥٦، وكانت خلافته اثنتي عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً (عن أبي الفداء صفحة ٣٨). وأخبرني في رومة ثقات من المقامين على المكتبة الواتيكانية ان في هذه المكتبة نسخة المصحف التي كان عثمان يتلو فيها عند مقتله، وقد بقي عليها أثر تلطخها بالدم، ولم أر تلك النسخة، وليس الآن لديّ فهرست الكتب العربية في هذه المكتبة لأحقق على ذلك.

عد ٦٨٠

ذكر أخبار علي بن أبي طالب

قال القرماني في وصف عليّ: «اسم أبيه أبو طالب عبد مناف بن عبد المطلب، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم... وهو ابن عم رسول الله صلعم وصهره علي فاطمة سيدة نساء العالمين، وأحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العلماء الربانيين والشجعان المشهورين، والزهاد المذكورين، والخطباء المعروفين، وأحد من جمع القرآن». وقد بويع بالخلافة يوم قتل عثمان. فقد أتاه طلحة والزبير وغيرهما من الصحابة وسألوه البيعة له، فقال لا حاجة لي في أمركم من اخترتم رضيت به، أن أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً، فأتوه عليه وبايعوه في المسجد وقيل في بيته. وأبى غيرهم المبايع له واتهموه بأنه مالأ على قتل عثمان. وقال طلحة والزبير بعد ذلك إننا بايعناه خشية على نفوسنا، ثم هربنا بعد أربعة أشهر من المدينة إلى مكة وكانت عائشة فيها، ولما بلغها قتل عثمان أعظمت ذلك ودعت إلى الطلب بدمه وساعدها على ذلك طلحة والزبير، واتفقوا أن يسيروا إلى البصرة للإستيلاء عليها، وأرسل مخالفو علي قميص عثمان الملطخ بدمه وأصابع امرأته إلى معاوية بالشام، فكان معاوية يضعها على المنبر ليحرض الناس على قتل علي وأصحابه، وكلما رأى أهل الشام ذلك ازدادوا غيظاً، ونصب عليّ عماله في الجهات فكان لكل منهم مريدون ومخالفون. ولما بلغ عليّ مسير عائشة وطلحة والزبير إلى البصرة وكانوا قد استولوا عليها سار نحوهم في أربعة آلاف من أهل المدينة، واجتمع إلى عليّ من أهل الكوفة جمع، واجتمع إلى عائشة وطلحة والزبير جمع وسار بعضهم إلى بعض، فالتقوا بمكان يقال له الخريبة في النصف من جمادي الآخرة سنة ٣٦ (سنة ٦٥٧م) فكانت بينهم وقعة سموها وقعة الجمل لأنّ عائشة كانت فيها راكبة

جمالاً ودارت الدائرة في هذه الواقعة على طلحة. والزيير وقتل طلحة ويقال إنه قتل في هذه الواقعة ثلاثة آلاف رجل من الفريقين وقيل عشرة فقط، وأما الزيير ففرّ عائداً إلى المدينة فقتله في طريقه عمرو بن جرموز المجاشعي، وأمر علي عائشة بالرجوع إلى المدينة وأن تقر في بيتها فسارت وجهازها علي بما احتاجت إليه، وسير معها أولاده مسيرة يوم، واستعمل علي على البصرة عبدالله بن العباس وانتظم له الأمر بالعراق ومصر واليمن والحرمين وفارس وخراسان، ولم يبقَ خارج عنه إلا الشام وأهلها ومعاوية.

فأرسل عليّ إلى معاوية يسأله الدخول في ما دخل الناس فيه من مبايعته فمأطله. وكان عمرو بن العاص في فلسطين فقدم إلى معاوية، واتفقا على قتال علي. وشرط عمرو على معاوية أن يوليه مصر إن ظفروا بعلي. وبلغ ذلك علياً فسار من الكوفة إلى جهة معاوية، وسار عمرو ومعاوية من دمشق بأهل الشام إلى جهة علي حتى التقى الجيشان بمحل يسمى صفين في أطراف سورية قريباً من الفرات سنة ٣٧ هـ (سنة ٦٥٨) وطالت بين عليّ ومعاوية المراسلات، ولم ينتظم الأمر بينهما فكانت بينهما وقعات كثيرة بصفين، حتى قيل إنها تسعون وقعة، وأن عدد القتلى من أهل الشام خمسة وأربعون ألفاً، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفاً، ولم يظهر أحدهما على الآخر. ولما رأى ذلك عمرو بن العاص قال لمعاوية هلمّ نرفع المصاحف على الرماح، ونقول هذا كتاب الله بيننا وبينكم ففعلوا، ولما رأى أهل العراق ذلك قالوا لعلي ألا نجيب إلى كتاب الله؟ فقال ما رفعوها إلا خديعة ومكيدة، فألحوا بترك القتال، فألجئ إلى الإذعان. ولما كفوا عن القتال سألوا معاوية لأي شيء رفعت المصاحف فقال لتنصبوا حكماً منكم وننصب حكماً منا، ونأخذ عليهما أي يعمل بما في كتاب الله، ثم تتبع ما اتفقنا عليه. فوقعت الإجابة من الفريقين إلى ذلك، واضطر علي إلى إجابتهم باختيار أبي موسى الأشعري، واختار معاوية عمراً بن العاص، واجتمع الحكمان عند علي، وكتبنا صك التحكيم بحضرته، ثم لدى مذاكرتهما دعا عمرو بن العاص أبا موسى إلى جعل الأمر إلى معاوية، فأبى ودعا زميله إلى جعل الأمر إلى عبدالله بن عمر بن الخطاب، فأبى عمرو وقال ما ترى أنت فقال أن نخلع علياً ومعاوية معاً ونجعل الأمر شورى بين المسلمين، فأظهر له عمرو أن هذا هو الرأي ووافقه عليه ثم أقبلوا على الناس وقد اجتمعوا، فقال أبو موسى اتفقنا على أمر نرجو به صلاح الأمة فقال عمرو صدق وكلف أبا موسى

أن يبدأ في الكلام فقال أبو موسى اتفقنا على أن نخلع علياً ومعاوية ونولي هذه الأمة، من أحبوا ثم تنحى، وقام عمرو مقامه وقال إن هذا قد قال ما سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان، والطالب بدمه، وأحق الناس بمقامه. فقال له أبو موسى ما لك لا وفقك الله غدرت وفجرت، وركب أبو موسى ولحق بمكة حياء من الناس، وانصرف عمرو وأهل الشام إلى معاوية فسلموا عليه بالخلافة، ومن ذلك الوقت أخذ أمر علي في الضعف وأمر معاوية في القوة.

ولما عاد علي إلى الكوفة حض الناس على المسير إلى قتال معاوية، فتقاعدوا وقالوا نستريح ونصلح عدتنا. وفي سنة ٣٨ هـ (سنة ٦٥٩ م) جهز معاوية عمراً بن العاص بعسكر إلى مصر وكان علي أقام عليها محمد بن أبي بكر فكتب إليه يستنجد، فأرسل إليه الأشر، فلما وصل إلى القلزم سقاه رجل عسلاً مسموماً فمات منه. فقال معاوية إن الله جنداً من عسل. ولما وصل عمرو بن العاص إلى مصر قاتله أصحاب محمد بن أبي بكر فهزمهم، وفر محمد فقبض البعض عليه وأتوا به إلى معاوية فقتله وألقاه في جيفة حمار وأحرقه، ودخل عمرو مصر وبايع أهلها لمعاوية، وبث معاوية سراياه بالغارة على أعمال علي فنهبوا وهزموا من في أعمال كثيرة. وكان علي يخطب الناس الخطب البليغة، ويجهد بحضهم على الخروج إلى قتال معاوية فيتقاعد عنه عسكره، واستمر الأمر على ذلك إلى سنة ٤٠ هـ (سنة ٦٦١ م) وفيها سار معاوية بشر بن ارطأة في عسكر إلى الحجاز، فأتى المدينة وبها أبو أيوب الأنصاري عاملاً لعلي، فهرب ولحق بعلي ودخل بشر المدينة وسفك فيها الدماء، واستكره الناس على البيعة إلى معاوية، ثم سار إلى اليمن وقتل ألوفاً من الناس فهرب منها عبيد الله بن العباس عامل علي وكان له ابنان فذبحهما (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير في الكامل وعن ابن خلدون وأبي الفداء في تاريخهما).

عد ٦٨١

ذكر مقتل علي بن أبي طالب

قالوا اجتمع ثلاثة من الخوارج: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، وعمرو بن بكر التميمي، والبرك بن عبدالله التميمي ويقال إن اسمه الحجاج. فذكروا إخواناً

لهم قتلوا بالحروب وقالوا لو قتلنا أئمة الضلالة ارحنا منهم البلاد. فقال ابن ملجم أنا أكفيكم علياً، وقال البرك أنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر أنا أكفيكم عمرواً بن العاص، وتعاهدوا أن لا يغير أحد منهم عن توجهه إليه، وتواعدوا لسبع عشرة ليلة تمضي من رمضان من سنة ٥٤٠ المذكورة. واتفق مع ابن ملجم رجلان، يقال لأحدهما وردان وللآخر شبيب ووثبوا على عليّ وقد خرج إلى صلاة الغداة، فضربه شبيب، فوضع سيفه في الطاق وهرب هو، ونجا في غمار الناس، وضربه ابن ملجم في جبهته ضربة قاضية وفر وردان وأمسك القاتل وألقي في السجن، ولما مات عليّ أخرجه من السجن فقطعوا يده ثم رجله وكحلت عيناه بمسمر محمى وقطع لسانه وأحرق. وأما البرك فوثب على معاوية في تلك الليلة وضربه بالسيف فوقع في التيه، وأمسك البرك فقال له إني أبشرك فلا تقتلني. فقال بماذا فقال إن رفيقي قتل علياً هذه الليلة فقال معاوية لعله لم يقدر فقال بلى إن علياً ليس معه من يحرسه فقتله معاوية. وأما عمرو بن بكر فإنه جلس تلك الليلة لعمر بن العاص فلم يخرج إلى الصلاة بل كان قد أمر خارجة بن أبي حبيبة صاحب شرطة أن يصلي بالناس، فظنه عمرو بن بكر أنه عمرو بن العاص فقتله وأخذته الناس وأتوا به إلى عمرو فقال: من هذا؟ قالوا: عمرو بن العاص فقال أردته وأراد الله خارجة فقتلوه وكان مقتل عليّ لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة ٥٤٠ (سنة ٦٦١) وكانت مدة خلافته أربع سنين وتسعة أشهر على المشهور.

ولما مات عليّ بايع أصحابه ابنه الحسن بالخلافة، وقد قالوا إن أبا بكر لما رأى الرسول محتضراً أرسل إليه علياً يقول لمن الخلافة من بعدك يا رسول الله؟ فقال للسائل؟ فقال أصحاب عليّ إنما السائل من سأل فعلاً وهو عليّ، لا الأمر وهو أبو بكر الصديق. وأنكروا صحة خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وأدعوا أن علياً إنما هو الخليفة حقاً، ثم خلفه ابنه الحسن، ثم ابنه الحسين، وسمي هؤلاء الشيعة. وهم من يسمون الآن المتأولة لأنهم توالوا علياً وأهل بيته، وكانت أخص منازلهم في العراق وفارس، وانفصلوا عن معاوية الذي بويج بالخلافة بعد مقتل عليّ في سورية ومصر وإفريقيا وبلاد العرب وغيرها على التعاقب. ولعلي خطب بليغة غراء تشهد بطول باعه وسموّ مداركه؛ ومنها كتابه المعروف بنهج البلاغة.

ذكر خلافة معاوية

معاوية هو ابن صخر بن حرب بن أمية، استعمله عمر بن الخطاب على دمشق، ثم ولاه عثمان على سائر أعمال سورية كما مرّ. وكانت له الفتوحات التي أشرنا إليها، ثم بويع بالخلافة بعد مقتل علي واستوعبها بعد تسليم الحسن بن علي الأمر إليه كما سيأتي؛ وهو أصل خلفاء بني أمية المقيمين في الشام، وعددهم أربعة عشر خليفة، ومدة خلافتهم نحو من تسعين سنة، وسوف نذكر كلاً منهم. وأهم الأحداث بعد خلافة معاوية وتسليم الحسن بن علي الأمر إليه بعد أن بايعه أصحاب أبيه بالخلافة بعد مقتله، وذلك أن الحسن بلغه مسير أهل الشام إلى قتاله مع معاوية فتجهز بجيش كان أبوه قد أعده لقتال معاوية قبل مقتله وسار عن الكوفة إلى لقاء معاوية وبلغ المداين فجرى في عسكره فتنة حتى نازعوه بساطاً كان تحته، وازداد عسكره بغضاً وذعراً، وسئمت نفسه القتال في هذه الحال فكتب إلى معاوية واشترط عليه شروطاً جلّها أن يعطيه ما في بيت مال الكوفة وخراج بعض أعمال فارس، وأن لا يُشتم أباه على مسمعه، فأجابته معاوية إلى ذلك ودخل الكوفة، فبايعه الناس، فلم يل الحسن الخلافة إلا نحواً من ستة أشهر.

ومن أهم أخبار معاوية أنه بعد استوائه على منصة الخلافة سَير سنة ٤٨ هـ (سنة ٦٦٩ م) جيشاً كثيفاً مع سفيان بن عوف إلى قسطنطينية، فأوغلوا في بلاد الروم وحاصروا القسطنطينية. وعن ابن خلدون أن هذه الحملة كانت سنة ٥٠ هـ (سنة ٦٧١ م) ثم سَير نجدة لهم مع ابنه يزيد فلم يظفروا بفتحها، بل عاد يزيد والعساكر إلى الشام. وفي سنة ٥٠ هـ بنيت بأمر معاوية القيروان في إفريقية بناها عقبة ابن نافع والي إفريقية، وكان قد وضع السيف في أهل إفريقية، لأنهم كانوا يرددون إذا فارقه العسكر، وكان مقام الولاة بزديلة وبرقة، فرأى عقبة أن يتخذ مدينة بتلك البلاد تكون مقراً للعسكر واختار موضع القيروان، وكمل بناءها في خمس سنين (أبو القداء صفحة ١٩٧) فتسمية العمل القيروان قديمة، وأظن المراد هنا المدينة المسماة باسم العمل. ومن الأحداث في أيامه ما ذكره توفان في تاريخ سنة ٦٦٩ (على مذهبه وهي سنة ٦٧٦ على مذهب عامتهم وذكره شدرانس في تاريخ السنة الثامنة والتاسعة لقسطنطين ملك الروم) من الصلح بين معاوية وملك

الروم على شرط أن يمنع الملك سطو المردة على سواحل سورية من السويدية إلى تخوم المدينة المقدسة، ويدفع له الخليفة مبلغاً من المال وتقادم. وسوف نذكر ذلك في الملحق المعلق بآخر هذا الباب.

وقد أدركت الوفاة معاوية في شهر رجب سنة ٥٦ هـ (وهي سنة ٦٧٥ م) وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً منذ اجتمع له الأمر وبايعه الحسن بن علي بن أبي طالب، وكان عمره خمساً وسبعين سنة. وقيل سبعين سنة، وقيل غير ذلك. وكان قد عهد بالخلافة له إلى ابنه يزيد فخلفه.

عد ٦٨٣

ذكر خلافة يزيد بن معاوية

هو الثاني من خلفاء بني أمية، بويع بالخلافة لما مات أبوه ولما استقر بالخلافة أرسل إلى عامله بالمدينة، بإلزام الحسين وعبدالله بن الزبير وابن عمر بالبيعة، فترددوا فيها، فأرسل عامل المدينة جيشاً مع عمرو بن الزبير على أخيه عبدالله الذي كان شديد العداوة له، فانتصر عبدالله على أخيه عمرو، وهزم الجمع الذي كان معه وأمسكه وحبسه حتى مات في حبسه. وأما الحسين بن علي بن أبي طالب فوردت عليه مكاتبات من أهل الكوفة يحثونه على المسير إليهم ليبايعوه، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ البيعة عليهم، فبايع الحسين بها نحو من ثلاثين ألف رجل. وكان العامل حينئذ على الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري وبلغ يزيد عنه ما لا يرضيه، فعزله وولى على الكوفة عبدالله بن زياد، فخطب أهلها وحثهم على طاعة يزيد، واجتمع إلى مسلم بن عقيل من كان بايعه للحسين، وحاصروا عبيدالله الوالي في قصره، فأمر رجاله أن يشرفوا من القصر، ويعدوا أهل المعصية الطاعة ويتوعدوا، ففرق الناس عن مسلم، فانهزم واستتر، ثم قبض عليه واتي به إلى عبدالله فضرب عنقه، ورمى جيفته من القصر، وقطع رأس هاني بن حرزة أحد محاربيه، وبعث برأسيهما إلى يزيد، وأخذ الحسين بالمسير من مكة إلى العراق، ونصح ابن عمه عبدالله بن العباس أن يسير إلى اليمن، فان بها شيعة لأبيه فلم ينتصح بل سار واجتمع عليه جمائع من العرب، وبلغه في طريقه مقتل ابن عمه

مسلم فتخاذل الناس عنه والتفاه صاحب شرطة عبدالله الوالي بألفي فارس مأموراً أن لا يفارقه حتى يوصله إلى الكوفة، وأرسل ابن زياد أربعة آلاف آخرين يمدون صاحب شرطته، ولم يكن مع الحسين إلا اثنان وثلاثون فارساً وأربعون رجلاً فسألهم الحسين أن يُمكن إمّا من العود من حيث أتى، وإمّا من الإنطلاق إلى يزيد الخليفة، وإمّا من أن يلحق بالثغور فكتبوا إلى ابن زياد في ذلك فأجابهم أن يقاتلوا الحسين ويقتلوه، فحملوا على الحسين واستمرّ القتال إلى وقت الظهر. واشتد بالحسين من العطش فنزل ليشرب فقتله رجال ابن زياد واحتزوا رأسه، وأرسله ابن زياد إلى يزيد الخليفة مع نسائه وأطفاله، وقتل مع الحسين من أولاد علي أربعة وهم عباس وجعفر ومحمّد وأبو بكر، ومن أولاد الحسين أربعة. وأمر يزيد بإرسال النساء والأطفال إلى المدينة، ولما وصلوا إليها لقيهم نساء بني هاشم حاسرات وفيهنّ ابنة عقيل بن أبي طالب أخت مسلم المذكور، وهي تبكي وتقول:

ماذا تقولون إن قال النبي لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي منهم أسارى وصرعى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحت لكم أن تخلفوني بسوء في ذوي رحمي

وكان قتل الحسين سنة ٦١ هـ (وهي سنة ٦٨١ م). انتهى ملخصاً عن ابن الأثير في الكامل، وأبي الفداء في تاريخه.

وأما عبدالله بن الزبير المذكور فانه استمر بمكة ممتنعاً عن الدخول في طاعة يزيد ابن معاوية، واتفق أهل المدينة على خلع يزيد، وأخرجوا نائبه عثمان بن أبي سفيان منها، فجهز يزيد جيشاً أمّر عليه مسلماً بن عقبة، وأمره أن يقاتل أهل المدينة، وإذا فرغ من المدينة يسير إلى مكة فسار مسلم المذكور في عشرة آلاف فارس من أهل الشام، وأصبر أهل المدينة على قتاله وعملوا خندقاً واقتلوا، فقتل من أهل المدينة جماعة من الأشراف ودام قتالهم، ثم انهزم أهل المدينة، وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام يقتلون فيها الناس وينتهبون ما بها من الأموال، ويفسقون بالنساء، وكان القتلى سبع مئة من وجوه الناس، وعشرة آلاف من غيرهم، وباع مسلم من بقي من الناس على أنهم خول (أي خدم) وعبيد ليزيد بن معاوية. وكانت هذه الواقعة لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هجرية (وهي سنة ٦٨٣ م) عن أبي الفداء في تاريخه (صفحة ٢١٣).

ولما فرغ مسلم من المدينة سار إلى مكة فدهمته المنية في مسيره وأقام على الجيش مقامه الحصين بن نمير فقدم مكة، وحاصر عبدالله بن الزبير أربعين يوماً. وعن ابن الأثير أنَّ أهل مكة والحجاز كانوا قد بايعوه بالخلافة واجتمعوا عليه ولحق به المنهزمون من أهل المدينة، وخرج ابن الزبير إلى لقاء أهل الشام، فحمل هؤلاء حملة انكشف منها أصحاب ابن الزبير، وأقاموا في القتال بقية من الحرم وصفر كله، حتى إذا مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤هـ (سنة ٦٨٤ م) رموا البيت بالحجانيق وحرقوه بالنار وقيل إنَّ الكعبة احترقت من نار كان يوقدها أصحاب ابن الزبير حول الكعبة، وأقبلت شرارة هبت بها الريح فاحترقت. والأول أصح لأنَّ البخاري قد ذكر في صحيحه أنَّ ابن الزبير ترك الكعبة ليراها الناس محترقة ليحرضهم على أهل الشام، وأقام أهل الشام يحاصرون ابن الزبير حتى بلغهم نعي يزيد بن معاوية. وعن أبي الفداء أنَّ الحصين لما علم بموت يزيد قال لعبدالله بن الزبير من الرأي أن ندع دماء القتلى بيننا، وأقبل لأبايعك، وأقدم إلى الشام. فامتنع عبدالله من ذلك فارتحل الحصين راجعاً إلى الشام، ثم ندم ابن الزبير على عدم الموافقة وسار مع الحصين من كان بالمدينة من بني أمية وقدموا إلى الشام، وأمَّا يزيد فقد تخرمته المنية لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة ٦٤هـ (سنة ٦٨٤ م) ومدة خلافته ثلاث سنين وستة أشهر. وعن ابن الأثير أنَّه توفي «بحوران من أرض الشام» وعن أبي الفداء «بحوارين من عمل حمص».

عد ٦٨٤

ذكر معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم

لما توفي يزيد بن معاوية، بويع بالخلافة معاوية الثاني ابن يزيد بن معاوية الأول، فكان الثالث من بني معاوية، لكن مدة ولايته لم تكن إلا ثلاثة أشهر، وقيل أربعين يوماً، ومات وعمره إحدى وعشرون سنة. على أنَّ المبايع لم تستوعب الأمة لأنَّ أهل مكة بايعوا عبدالله بن الزبير بعد موت يزيد وكان مروان بن الحكم من بني أمية بالمدينة فقصده المسير إلى ابن الزبير ليبياعه، فعارضه بعض أصحابه، وسار مع من توجه من بني أمية إلى الشام، وكان عبيدالله بن زياد بالبصرة، ولما بلغه مبايعه ابن الزبير بمكة هرب إلى الشام فبايع أهل البصرة ابن

الزبير، واجتمعت له العراق والحجاز واليمن، وبعث إلى مصر فبايعه أهلها، وبايعه في الشام سراً الضحاك بن قيس، والنعمان بن بشير الأنصاري بحمص، وزفر بن الحارث الكلابي بقنسرين. وبايع سائر الناس بالشام مروان بن الحكم المازّ ذكره، فكان الرابع من بني أمية. واجتمعت إليه بنو أمية وصار الناس بالشام فرقتين اليمينية مع مروان، والقيسية مع الضحاك بن قيس، وهم يبايعون لابن الزبير وكثر الشعب والمقاتلات.

ثم التقى الفريقان بمرج راهط في غوطة دمشق واقتتلوا قتالاً شديداً، وعن ابن الأثير أنَّ القتال دام عشرين يوماً، وكانت الكرة على الضحاك والقيسية وانهزموا شر هزيمة، وقتل الضحاك وقتل معه ثمانون رجلاً من أشرف أهل الشام، وقتل كثيرون من أصحاب مروان. وكانت هذه الواقعة في المحرم سنة ٦٥هـ وقيل بل كانت في آخر سنة ٦٤هـ (بين سنة ٦٨٤ أو سنة ٦٨٥م). ولما بلغ خبر مقتل الضحاك النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص المار ذكره خرج هارباً بامرأته وأهله، فأتبعه أهل حمص وقتلوه وردوا رأسه وأهله إلى مدينتهم. وأمّا زفر بن الحارث والي قنسرين أحد المحازبين لابن الزبير فلما بلغه خبر الهزيمة فرّ من قنسرين وأتى فرقيسيا والجزيرة وغلب عليها بحيلة ذكرها ابن الأثير هي أنَّه سأل واليها عياض الجرشي أن يدخل الحمام، وحلف له بالطلاق والعناق أنَّه متى خرج من الحمام لا يقيم بها، فأذن له فدخل المدينة وغلب عليها وتحصن بها ولم يدخل حمامها فاجتمع عليه القيسية، وكان نائل بن قيس الجذامي والياً في فلسطين محازباً لابن الزبير، فلما بلغه انهزام القيسية لحق بابن الزبير إلى مكة فدانت أعمال الشام كلها لمروان، ثم مضى إلى مصر وأرسل قبله عمرأ بن سعيد بن العاص فدخل مصر وطرده عامل ابن الزبير وبايع أهلها مروان وعاد إلى الشام. ولما دنا من دمشق بلغه أنَّ ابن الزبير بعث إليه أخاه مصعباً في جيش فأرسل إليه مروان عمر بن سعيد قبل أن يدخل الشام فقاتله وانهزم مصعب وجيشه، فاستقرّ مروان في دمشق واستتب له الأمر في الشام ومصر وابن الزبير في العراق والحجاز واليمن. وكان ذلك لسنة ٦٥هـ (سنة ٦٨٥م) (عن ابن الأثير في الكامل وأبي الفداء في تاريخه).

إنَّ مروان لم تكن مدة خلافته إلا تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً وتوفي في رمضان سنة ٦٥هـ (سنة ٦٨٥) وكان تزوج بأُم خالد بن يزيد بن معاوية لخوفه من

خالد، وقالوا إِنَّ أُم خالد خنقته وصاحت مات فجأة، ودفن بدمشق. ومما يذكر من أعمال ابن الزبير حينئذ أَنَّهُ في سنة ٦٤ هـ (سنة ٦٨٤ م) هدم الكعبة وكانت حيطانها قد مالت من ضرب المنجنيق، فهدمها وحفر أساسها وأدخل الحجر فيها وأعادها إلى ما كانت عليه قبلاً (عن أبي الفداء).

عد ٦٨٥

ذكر أخبار عبد الملك بن مروان

لما مات مروان بويج ابنه عبد الملك بالخلافة في ثالث رمضان سنة ٦٥ هـ (سنة ٦٨٥ م) وهو الخامس من خلفاء بني أمية، وقيل إِنَّهُ لما أُنْتُه الخلافة كان قاعداً والمصحف في حجره، وقال هذا آخر العهد بك (عن أبي الفداء صفحة ٢٠٥). وقال فيه القرماني (في تاريخ الدول) «هو أَوَّل من سمي بعبد الملك في الإسلام، وأَوَّل من ضرب الدينار والدراهم بسكة الإسلام، كتب عليها آي القرآن وكتب فيها ضرب بمدينة كذا والتاريخ. وكان على الدينار نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية. وهو أَوَّل من غدر في الإسلام، وأَوَّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء، وأَوَّل من نهى عن الأمر بالمعروف. وكان قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً فقيهاً واسع العلم وكان يلقب بحمامة المسجد» ومن أَوَّل الأحداث في أيامه خروج المختار بن أبي عبيد الثقفي بالكوفة طالباً بئار الحسين بن علي بن أبي طالب، واستولى على الكوفة وبايعه الناس بها وتجرّد لقتال قتلة الحسين فقتل شمر بن ذي الجوشن الذي حارب الحسين، وخولى الأصبحي الذي قطع رأسه، وعمر بن سعد الذي أمر أن يداس ظهر الحسين وصدره بالخليل. وأتخذ المختار كرسياً وأدعى أَنَّ فيه سراً وأنه لهم مثل الثابت بن لبي إسرائيل، وكان ذلك لسنة ٦٧ هـ (سنة ٦٨٧ م). وفيها أيضاً أرسل المختار جنوده لقتال عبيد الله بن زياد وكان قد استولى على الموصل، فانتصر جنود المختار على ابن زياد وقتلوه. ورأى ابن الزبير الخليفة في مكة استفحال أمر المختار في العراق فأرسل إليه أخاه مصعباً وجمع المختار جموعه والتقى واقتلا قتالاً شديداً فانهمز المختار وانحصر في قصر الإمارة بالكوفة، وما زال يقاتل حتى قتل ونزل أصحابه من القصر على حكم مصعب بن الزبير، فقتلهم جميعهم وكانوا سبعة آلاف. واستمرَّ مصعب عاملاً لأخيه في العراق (عن الكامل لابن الأثير وعن تاريخ أبي الفداء).

وعزم عبد الملك بن مروان أن يستريح من ابن الزبير وأن يستبد بالخلافة على الأمة كلها فتجهز سنة ٧١هـ (سنة ٦٩١ م) وسار إلى العراق وتجهز مصعب للقتال واقتتل الجمعان، وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك فتحلوا عن مصعب، فقاتل مصعب حتى قتل هو وولده، واستوسق ملك العراقيين لعبد الملك. ثم جهز في سنة ٧٢هـ (سنة ٦٩٢ م) جيشاً أمر عليه الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال عبدالله ابن الزبير في مكة، ونزل الحجاج بجيشه في الطائف وكانت بينه وبين أصحاب ابن الزبير وقعات كانت الكرة فيها على أصحاب ابن الزبير، وآخر الأمر أنه حصر ابن الزبير بمكة ورمى البيت الحرام بالمنجنيق، ودام الحصار سبعة أشهر وابن الزبير يقاتل حتى قتل في جمادى الآخرة سنة ٧٣هـ (سنة ٦٩٣ م) وكانت مدة خلافته تسع سنين لأنه بويح له سنة ٦٤هـ، لما مات يزيد بن معاوية وبعد مقتل ابن الزبير بويح لعبد الملك بالحجاز واليمن واجتمع الناس على طاعته، واستمر الحجاج أميراً على الحجاز. ومن أعماله أنه هدم الكعبة وأخرج الحجر عن البيت وبنى البيت على ما كان عليه قبل أن يضرب بالمناجق (عن الكامل وتاريخ أبي الفداء).

وفي سنة ٧٥هـ (سنة ٦٩٥ م) ولي عبد الملك الحجاج على العراق، فسار من المدينة إلى الكوفة، وخرج عليه في أيام ولايته شبيب الخارجي، وكثرت جموعه، وجرى له مع الحجاج حروب كثيرة آخرها أن جموع شبيب تفرقت وتردى به فرسه من فوق جسر فسقط في الماء وغرق. وكذلك خرج على الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وتولى على خراسان وسار على الحجاج وغلب على الكوفة وكثرت جموعه وقويت شوكته، فأمد عبد الملك الحجاج بالجيوش من الشام فتفرقت جموع عبد الرحمن وانهزم ولحق بالترك، فأرسل الحجاج بطلبه منهم مهدداً بالغزوات، فقبض ملك الترك عليه وعلى أربعين من أصحابه وبعث بهم إلى الحجاج، فألقى عبد الرحمن نفسه من سطح في طريقة فمات (عن تاريخ أبي الفداء).

قد مرّ في كلام القرماني أن عبد الملك إنما هو أوّل من ضرب الدنانير والدراهم بسكة الإسلام. وقد روى ذلك أيضاً ابن الأثير وابن خلدون قالا: كان عبد الملك قد كتب في صدر كتابه إلى ملك الروم، قل هو الله أحد، وذكر النبي مع التاريخ وأنكر ذلك ملك الروم، وقال أتركوه وإلا ذكرنا نبيكم في دنانيرنا بما تكرهون. فعظم ذلك عليه واستشار الناس، فأشار عليه خالد بن يزيد بضرب السكة وترك

دنائير الروم ففعل، ثم نقش الحجاج فيها قل هو الله أحد فكره الناس ذلك لأنه قد يمسها غير طاهر أو حائض وفيها آية القرآن، ثم بالغ في تخلص الذهب والفضة من الغش وزاد ابن هبيرة عليه في أيام يزيد بن عبد الملك ثم زاد خالد القسري عليهم أيام هشام، ثم أفرط يوسف بن عمر من بعدهم في المبالغة وامتحان العيار فكانت الهبيرة والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية. ثم أمر المنصور أن لا يقبل في الخراج غيرها... وكانت دراهم العجم مختلفة بالصغر والكبر فكان منها مثقال وزن عشرين قيراطاً واثنى عشر، وعشرة قرايط، وهي أنصاف المثاقيل. فجمعوا قرايط الأنصاف الثلاثة فكانت اثنى وأربعين، فجعلوا ثلثها وهو أربعة عشر قيراطاً وزن الدرهم العربي فصار وزن كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل. انتهى كلام ابن الأثير وابن خلدون ونرى في تاريخ توفان لسنة ٦٨٢ م أن الملك يوستيناس «أبى أن يقبل في الخراج الدراهم التي أحدثها عبد الملك بهيئة لم تر إلا حيث». وقال بعد ذلك إن عبد الملك لدى المذاكرة بعهدة الصلح مع هذا الملك طلب إليه أن يقبل الدراهم التي ضربها في جملة ما جرى الإتفاق أن يدفعه كل سنة، وحيث أنه تعين وزنه ذهباً فلا تمس الروم مضرة من ذلك.

قد كان لعبد الملك غزوات وحروب أخرى في خراسان والعراق وحرب الأزارقة والخوارج، وغير ذلك مما هو خارج عن دائرة غرضنا ولا فائدة كبرى لقراء كتابنا، فنضرب عن ذكره معاضين عنه بما ذكره المؤرخون الذين كتبوا بالسريانية أو اليونانية. ولم نجد له ذكراً في ما لدينا من كتب المؤرخين المسلمين.

فمن كتبوا بالسريانية صاحب كتاب التاريخ السرياني الذي عثر عليه حديثاً الأب نو الافرنسي كما مرّ قبلاً، وأذاعه مع ترجمته الإفرنسية هذه السنة ١٨٩٩م في باريس، ويظن انه قيس الماروني الذي ذكره المسعودي. فهذا المؤلف قال في سنة ٩٧٠ (يونانية توافق سنة ٦٥٩م) وهي السابعة عشرة لقسطنت الملك. يوم الجمعة من شهر حزيران في الساعة الثانية حدث في فلسطين زلزال شديد خرب كثيراً من القرى، وفي هذا الشهر من السنة المذكورة أتى اساقفة اليعاقبة توادورس (وهو الذي كان بطريكاً على اليعاقبة من سنة ٦٤٩ إلى سنة ٦٦٧م)، وسبكوت (اسقف قنسرين) إلى دمشق، وجادلوا الموارنة بحضرة معاوية على الايمان، وغلب اليعاقبة ففرض عليهم معاوية أن يدفعوا عشرين ألف دينار، وامرهم أن يلزموا السكينة. واستمر الاساقفة اليعاقبة يدفعون كل سنة هذا المبلغ إلى معاوية كي لا ينكف عن

حمائهم، ولا يضطهدهم ابناء الكنيسة (أي الموارنة)، ومن يسميه اليعاقبة بطريركهم كان يوزع هذا المبلغ على الاديار والرهبان والراهبات وغيرهم من المؤمنين ويقدمه كل سنة لمعاوية ليطيعه اليعاقبة هيبة من الخليفة. وفي التاسع من هذا الشهر الذي كان واقعاً يوم الاحد وحصل فيه الجدل مع اليعاقبة حدث زلزال.

ومن كتبوا باليونانية توافان فقد روى (مجلد ١٠٨ صفحة ٧٣٤ من طبعة الأب مين) في تاريخ سنة ٦٧٦م (وهي على مذهبه السنة الاولى لعبد الملك) انه كان في هذه السنة قحط ووباء شديداً في سورية وملك عبد الملك في أمته، وتوافرت غزوات المردة حول لبنان، فأرسل وفداً إلى ملك الروم يطلب تجديد العهدة التي كانت قد عقدت مع معاوية سالفة على أن يدفع كل سنة ثلاث مئة وخمسة وستين ألف دينار ذهباً وبقدرها عبيداً، ومثلها خيولاً جياداً. وقال يعقوب كوار في حواشيه على هذا التاريخ ان هذه الاعداد طراً عليها غلط من النساخ ولا سيما أن قوله «وبقدرها عبيداً ومثلها خيولاً جياداً يفهم منه ثلاث مئة وخمسة وستين ألف عبد ومثلها من الخيل وهذا غير معقول وبمعزل عن قصد المؤلف، وإلا لاستوعب الرومانيون في سنين قليلة كل ما عند العرب من العبيد والخيول. قلت وهذا ظاهر من كلام المؤلف في تاريخ سنة ٦٧٨م حيث قال «في هذه السنة ارسل عبد الملك إلى يوستينانس وفداً لاثبات العهدة فعقد الصلح على الشروط الآتية ان يصّد الملك جموع المردة الخارجين من لبنان ويمنعهم من السطو، ويدفع له عبد الملك كل يوم ألف ذهب وعبيداً وفرساً، وقال في هذا الشأن شدرانس (في تاريخ السنة الاولى ليوستينانس الاخرم مجلد ١٢١ صفحة ٨٤٦ من طبعة الأب مين) «ان عبد الملك ارسل في السنة الاولى لولايته إلى الملك وفوداً يطلب اثبات عهدة الصلح، فوقع الاتفاق على ان الملك يصد غزوات المردة في لبنان ويمنع سطوهم ويدفع إلى الرومانيين في كل يوم ألف ذهب وعبيداً وفرساً، فأرسل الملك إليه بولس ماجستريانس للتوقيع على العهد ووثقوا ذلك بالخط والشهود، وبناءً عليه ارسل الملك فأخذ اثني عشر ألفاً من المردة، فكانت في ذلك مضرة كبرى لسطوة الرومانيين، إلى أن يقول ومضى يوستينانس في السنة الثانية إلى ارمينية فأتى إليه المردة سكان لبنان ونقض السور النحاسي». وقال كوار في حاشيته على هذا الكلام أن عسكر المردة كان بمنزلة سور نحاسي يصد غزوات السراكسة فنقضه بسوء تصرفه. وسوف نذكر ذلك بأكثر تفصيل في الملحق المعلق بآخر هذا الكتاب.

وقال زوناراس مثل ذلك (في كلامه على الملك يوستينيانس الأخير مجلد ١٢٤ صفحة ١٢٩٨ من طبعة الأب مين) وزاد عليه : « أنَّ يوستينيانس جند من الصقلية ثلاثين ألفاً ونقض عهده مع العرب متوسلاً إلى ذلك بانهم ارادوا ان يؤدوه الجزية سكة عربية حديثة ليست عليها صورة الملوك الرومانيين، وبأنه لا يسوغ ان ينقش على الدنانير الذهبية إلا صورة الملك الروماني، وعالئهم بالحرب لا اعتماداً على الجنود الرومانيين بل على من كان جندهم من الصقلية. فسأله العرب أن لا ينقض العهدة ولا يخل بالشروط التي كتبوها واشهدوا الله عليهم لرعايتها وسألوه تعالى أن ينتقم ممن يخالفها أو ييدي سبباً للحرب، فتصام الملك عن سماع سؤالهم وصمم على حربهم. وكان جنودهم اثنان الحرب يرفعون صك العهدة بمنزلة علم لهم، وانحاز دون ابطاء عشرون ألفاً من اولئك الصقلية إلى معسكر العدو، فاضعفوا قلوب الجنود الرومانيين وعرقلوا مسعاهم، وزادوا في عدد العدو وكانوا سبباً لظفر العرب وجدوا في أثر الرومانيين فأسروا كثيرين وقتلوا جموعاً منهم ولم يبق ليوستينيانس منجاة إلا بالهزيمة، وبلغ الحل الذي كان قد اقام فيها قبيلة الصقلية فقتلهم عن آخرهم ورمى جيفهم في البحر.

وكان في جملة شروط الصلح بين الملك يوستينيانس وعبد الملك أن يقتسما ما بينهما قسمة عادلة سوية خراج قبرص وارمينيا واياريا، وقد صرح بذلك توفان (في المجلد المذكور صفحة ٧٣٨ في تاريخ سنة ٦٧٨) حيث قال : « ويقسم الملكان ما بينهما قسمة عادلة متوازية خراج قبرص وارمينيا واياريا، فارسل يوستينيانس بولس ماجستريانس إلى عبد الملك للتوقيع على عهدة الصلح فوقع عليها بحضرة الشهود، وعاد ماجستريانس مكرماً إلى الملك وأبرز الملك أمراً بنقل اثني عشر ألفاً من المردة من محلاتهم فعوّه بذلك سطوة الرومانيين. فإن جميع المدن الجبلية (وفي حواشي كوار في جميع المدن المتاخمة بدلاً من الجبلية) التي يسكنها العرب من المصيصة إلى ارمينيا الرابعة كانت واهنة القوة خالية من السكان، من جرى غزوات المردة الذين كبتهم بهذه الوسيلة فطمعت، بذلك البلايا والحن من كل نوع على املاك الرومانيين من ذلك اليوم إلى الآن ».

وقد روى توفان في تاريخ سنة ٦٨٢ (صفحة ٧٤٢ من المجلد المذكور) : « انه بلغ من حماقة يوستينيانس ان ينقض عهده على عبد الملك، وعزم أن ينقل سكان قبرص إلى محل آخر دون أن يكون لذلك داعٍ معقول وكان يطرح الاهلين

مكرهين في السفن، ففرق منهم جموع كثيرون وتولت الامراض كثيرين أيضاً وعاد من بقي منهم إلى قبرص. وعرف بذلك عبد الملك فأظهر التذلل له خاشعاً إليه أن لا ينقض عهد الموالاة بينهما، فظن يوستينيانس تذله وخشوعه له مخافة من سطوته، ولم يفتن أن تلك مداينة له كي لا ينكف عن كبت المردة وجلاء رجالهم الأشداء وقد أتم هذا الشرط بعداً». إلى أن يقول في تاريخ سنة ٦٨٣ م إنه كتب إلى العرب أنه لم يعد في وسعه أن يعمل بشرائط الصلح التي وقع عليها، وزحف بجيشه مع الفرسان الصقالبة الذين كان قد جلاهم إلى الكبدوك وبنطس واستمرّ العرب يظهرهم بالتشبث بالعهد واستحرامهم نقضها وهو يلح بايقاد نار الحرب، فتسعر لظاها ورفع العرب عهدة الصلح المكتوبة على صحيفة من نحاس على رأس رمح بمنزلة علم لهم (كما رأيت أيضاً في ما رويناه من كلام زوناراس) وتقهقر العرب أولاً وكان قائدهم اسمه محمد، فكاشف قائد أولئك الفرسان ثم رشاه فانحاز ومعه عشرون ألفاً إلى العرب، فارتاع الجنود الرومانيون وانهزموا وانتقم الملك من بقية قبيلة هؤلاء الصقالبة.

ثم توفي عبد الملك منتصف شوال سنة ٨٦هـ (سنة ٧٠٦ م أو سنة ٧٠٧ م) وكان قد استبدّ بالخلافة بعد قتل ابن الزبير ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبعة ليال. ومذ بويج بالشام إلى وفاته احدى وعشرين سنة، وكان عمره عند وفاته ستين سنة، وقيل ثلاثاً وستين. وأوصى بنيه فقال أوصيكم بتقوى الله فانها أزين حلية وأحصن كهف ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير حق الكبير، ولا تدب بينكم العقارب، وكونوا للمعروف مناراً فإن المعروف يبقى أجره وذخره وذكره، وتعهدوا ذنوب أهل الذنوب فإن استقالوا فأقبلوا وإن عادوا فانتقموا (عن ابن الأثير في الكامل وابن خلدون في تاريخه).

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن السابع

قلَّ من كان من المشاهير الدنيويين بالعلم بسورية في هذا القرن، فكان عصر حرب وتقلُّص دولة واستحواذ أخرى، فقلَّ مَنْ يتفرَّغ فيه للعلم على أنَّه قد كان في سورية بعد الإسلام وفي العربية شعراء مجيدون نصارى ومسلمون فنجتريء بذكر مشاهيرهم.

عد ٦٨٦

جرير الشاعر المشهور

قال ابن خلكان « هو أبو حرزة جرير بن عطية . . بن مرة التميمي الشاعر المشهور كان من فحول شعراء الإسلام وكانت بينه وبين الفرزدق مهاجاة ونقائض، وهو أشعر من الفرزدق عند أكثر أهل العلم بهذا الشأن، واجتمعت العلماء على أنَّه ليس في شعراء الإسلام مثل ثلاثة جرير والفرزدق والأخطل » فجرير والفرزدق مسلمان والأخطل مسيحي، وكان جرير ابن عم الخليفة عبد الملك بن مروان كما يتبيَّن من قوله :

إنَّ الذي حرم المكارم تغلباً جعل الخلافة والنبوة فينا
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خزر^(١) تغلب من أب كائينا

(١) يا خزر جمع اخزر مثل احمر وحمير واصفر وصفير وهو الذي في عينه ضيق وصفير وهذا وصف العجم فكأنه نسبته إلى العجم واخرجه من العرب.

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إليّ قطينا^(١)

ومن شعر جرير قصيدته لعبد الملك بن مروان يوم دخل عليه وأولها
أتصحو أم فؤادك غير صاح عشية همّ صحبتك بالرواح
تقول العاذلات علاك شيب أهذا الشيب يمنعني مزاحي

ومنها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح
سأشكر إن رددت إليّ ريشي وأنبت القوادم^(٢) في جناحي

قال جرير فلما انتهيت إلى هذا البيت كان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال
من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو فليسكت، وأجازه بمائة ناقة وصحيفة من
ذهب وقد ذكروا كثيراً من النقائص. والملح والنكت التي جرت بين جرير
والفرزدق لا يسمح هذا المقام بسردها وربما استنبطها المتأخرون وعزوها إليهما. ولما
مات الفرزدق وبلغ خبره جريراً بكى وقال أما والله إني لأعلم أني قليل البقاء
بعده. ولقد كان نجماً واحداً وكل واحد منا مشغول بصاحبه، ولما مات ضد أو
صديق ألا وتبعه صاحبه وكذلك كان. وتوفي الفرزدق سنة ١١٠ هـ (وهي سنة
٧٢٩ م) قال أبو الفرج ابن الجوزي كانت وفاة جرير في سنة ١١١ وكانت وفاته
باليمامة وعمره نيف وثمانون سنة (ملخص عن كتاب وفيات الأعيان لابن
خلكان).

عد ٦٨٧

الفرزدق الشاعر المشهور

هو همام بن غالب بن صعصعة إلى أن يتصل نسبه بمروة التميمي وكنيته أبو
فراس ويعرف بالفرزدق وضبطه ابن خلكان بفتح الفاء والراء وسكون الزاي وفتح

(١) القطين الخدم والاتباع.

(٢) القوادم جمع قادمة وهي عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش والخوافي صفاره.

الدال وبعدها قاف، وهو لقب غلب على همام المذكور واختلف في تلقيبه به، فقال ابن قتيبة في كتابه في أدب الكاتب والفرزدق قطع العجين واحدها فرزدقة، لُقّب به لأنّه كان جهم الوجه فقد أصابه جدري فبقي وجهه جهماً متمغضناً. وقال في كتابه في طبقات الشعراء إنّما لُقّب بالفرزدق لغلظه وقصره شبه بالقنينة وهي الفرزدقة، وقيل أنّه منحوت من فرز ودق لأنه رقيق قد أفرز منه قطعة. وقد قال فيه ابن خلكان في وفيات الأعيان أنّه كانت لأبيه غالب مناقب مشهورة ومحامد مأثورة ذكر منها عقره نوقه لقومه في زمان مجاعة. وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه فما جاء أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه. ومما حكاه المبرد عنه أنّ عجزاً جاءت إليه وقالت إني استجرت بقبر أهلك وأنت منه بحصيات، فقال ما شأنك فقالت إنّ تميم بن زيد خرج بابن لي معه ولا قرة لعيني ولا كاسب عليّ غيره، فقال لها وما اسم ابنك فقالت خنيس فكتب إلى تميم:

تميم بن زيد لا تكونن حاجتي	بظهر ^(١) فلا يعيا عليّ جوابها
وهب لي خنيساً واحتسب فيه منة	لعبرة أم لا يسوغ شرابها ^(٢)
أتنتي فعاذت يا تميم بغالب	وبالحفرة السافي ^(٣) عليّ ترابها
وقد علم الأقبام أنّك ماجد	وليث إذا ما الحرب شب شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك في الاسم فلم يعرف اخنيس أم حبيش فسأل فوجد ستة رجال أسماؤهم ما بين خنيس وحبيش فوجه بالسته إليه. قال ابن خلكان اختلف أهل المعرفة بالشعر في الفرزدق وجريز والمفاضلة بينهما. والأكثر على أنّ جريزاً أشعر منه وكان بينهما من المهاجاة والمعاداة ما هو مشهور، وقد جمع لهما كتاب يسمى النقائض وهو من الكتب المشهورة.

ومن شعره قصيدة مدح بها زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولما سأله رجل من أهل الشام (وقيل إنّ السائل هشام بن عبد الملك وأنّه

(١) أي لا تنسها أو تجعلها وراء ظهرك.

(٢) أي لا يهناً لها شراب ولا اكل وابنها بعيد عنها.

(٣) يريد الذري عليه أو المحمول إليه ترابها، وهو إشارة إلى ما أتته به العجوز من حصيات قبر أبيه.

سأل متجاهلاً) عند الطواف في الكعبة من هذا الذي هابه الناس هذه الهيئة فقال :
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحرمُ
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
إذا رآته قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُنمى إلى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عربُ الإسلام والعجم
ومنها :

يغضي حياءً ويغضي من مهابته فما يُكلم إلا حين يبتسم
ينشق نور الهدى من نور غرته كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم
وهي طويلة وكانت زوجة الفرزدق ابنة عمه وهي النوار ابنة أعين بن ضبيعة
وله معها أخبار ونوادر شرحها، وقد طلقها فندم على ذلك وله فيها أشعار منها
قوله :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نواز
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرائ
وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هجرية (سنة ٧٢٩ م) وقيل سنة ١١١ أو
سنة ١١٢ وقد قارب المائة .

عد ٦٨٨

الأخطل

وهو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ... إلى أسد وريعة ونزار وهو من
فحول الشعراء، وكان مسيحياً عاش في أيام الخلفاء في هذا القرن وبقي حياً في
أوائل القرن الثامن كما يظهر من قصيدته التي مدح بها الوليد وبني أمية، وكان
يزدلف إلى هؤلاء الخلفاء كما يظهر من قصيدته المذكورة، ومن قصيدته التي مدح
فيها خالد بن يزيد بن معاوية ومطلعها :

رأيت قريشاً حين ميّز بينها تباحت أضغانٍ وطعن أمور
علتها بحور من أمية ترتقي ذرى هضبة ما فرعها بقصير

وقصيدته في مدح بني أمية ويخصّ بشر بن مروان ومطلعها
أقفرت البلخ من عيلان فالرحب فالمجلبيات فالخابور فالشعب^(١)
فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأنهم من بقايا أمية ذهبوا
وقصيدته في مدح عبدالله بن معاوية بن أبي سفيان ومطلعها:
صدع الخليط فشاقني أجواري ونأوك بعد تقارب ومزار
وكأنما أنا شارب جادت له بصرى بصافية الأديم عقار^(٢)
وكانت بينه وبين جرير الشاعر مهاجاة كما يظهر من قصيدته التي هجاه بها
ومطلعها:

كذبتك عيناك أم رأيت بواسط^(٣) غلس الظلام من الرباب^(٤) خيالا
وتعرضت لك بالأباطح بعد ما قطعت بابر^(٥) خلة ووصالا
وله قصيدتان في مدح يزيد بن معاوية وقصيدة مدح فيها عبد الملك بن
مروان، فقال له لِمَ لا تسلم يا أخطل، قال إن أنت أحلت لي الخمر ووضعت
عني صوم رمضان اسلمت، فقال له عبد الملك إن أنت اسلمت ثم قصرت في
شيء من الاسلام ضربت الذي فيه عنقك. فقال الأخطل شعره المشهور
ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بأكل لحم الاضاحي
ولست بقائم ابدأ انادي كمثل الغير حي على الفلاح
ولكنني ساشربها شمولاً وأسجد عند منبلج الصباح

فقال له عبد الملك: وما بلغ منك الشراب؟ قال: يا أمير المؤمنين إذا شربتها
فالموت أهون عليّ من شسع نعلي. فقال قل فيه شعراً ولأا ضربت عنقك فقال
الأخطل.

(١) كلها اعلام اماكن في الجزيرة والعراق والخابور نهر في الجزيرة.

(٢) الخمر السريعة الاخذ.

(٣) اسم مدينة في الجزيرة.

(٤) اسم امرأة.

(٥) اسم مكان.

إذا ما نديمي علني ثم علني ثلاث زجاجات لهن هدير
جعلت اجرّ الذيل مني كأني عليك امير المؤمنين امير

وقد عيره جرير بذلك في قصيدة فردّ عليه الأخطل فقال

تعيرني شراب الشيخ كسرى ويشرب قومك العجب العجيبا
وذكره بقصة متناهية بالفحش والسفالة وقال ان هذا احق من المدامة بأن
تعييه .

وقد طبع الأب انطون صالحناني اليسوعي ديوان الأخطل في المطبعة الكاثوليكية
للآباء اليسوعيين في بيروت سنة ١٨٩١م، وعلق عليه حواشي آخذاً اشعار الأخطل
عن نسخة لها نسخها المرحوم رزق الله حسّون في ١٠ تموز سنة ١٨٦٧م في
بطرسبورغ عن الأصل المحفوظ في خزانة كتبها الملكية .

عد ٦٨٩

زهير بن أبي سلمى المزني

وكان شعراء النصرانية في هذا القرن بالعربية كثيرين نخص بالذكر منهم زهير
بن أبي سلمى المزني ، والنابعة الذبياني ، وعنترة العبسي ، ونزوي تراجهمهم عن
الكتاب الموسوم بشعراء النصرانية الذي جمع الأب لويس شيخو اليسوعي تراجهمهم
فيه عن كتاب الأغاني، وكتاب شرح المعلقات للتبريزي، وكتاب العقد الفريد
 وخمسة دواوين العرب، وكتاب طبقات الشعراء وغيرها .

أما زهير فهو ابن ابي سلمى واسم ابي سلمى ربيعة بن رباح المزني (ويروى
رياح بالياء) بن قرة بن الحارث إلى مضر بن نزار من قبيلة مزينة، وهو احد الثلاثة
المقدمين على سائر الشعراء وهم: امرؤ القيس وزهير والنابعة الذبياني ولا اختلاف
فيهم وإنما الخلاف في تقديم احد الثلاثة على صاحبيه. واخبر احمد بن عبد العزيز
الجوهري أن عُمر بن الخطاب دعا ابن العباس وقال هل تروي لشاعر الشعراء. قال
ومن هو. قال: الذي يقول :

ولو ان حمداً يخلد الناس اخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلدٍ

فقال ابن عباس ذاك زهير فقال عمر ذاك اشعر الشعراء فقال ابن عباس وبم كان كذلك. فقال لأنه كان لا يعاقل في الكلام وكان يتجنب وحشي الشعر ولم يمدح احداً إلا بما فيه. وقال ابن سلام اخبرني ابو قيس العنبري أنه قال لأبيه من اشعر الناس فقال إذا ذكرت الجاهلية فزهير اشعر أهلها، وإذا ذكر الاسلام فالفرزدق نبعة الشعر. وسأل معاوية الأحنف بن قيس عن اشعر الشعراء فقال زهير ومن قصيدته في مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف من بني مرة قوله :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش	ثمانين حولاً لا ابا لك يسأم
واعلم ما في اليوم والامس قبله	ولكنني عن علم ما في غدٍ عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب	تمته ومن تخطئ يعمراً فيهرم
ومن هاب اسباب المنايا ينلنه	ولو رام اسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف في غير اهله	يكن حمده ذماً عليه ويندم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه	ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم

وله قصائد كثيرة في هرم المذكور وكان هرم يجزل عطاياه له. واخبر الجوهري والمهلي. قال عمر لابن زهير ما فعلت الحلل التي كساها هرم اباك، قال ابلاها الدهر. قال لكن الحلل التي كساها ابوك هرمأ لم يُبلها الدهر.

وقد ذكر الهيثم بن عدي ان عائشة خاطبت بهذه المقالة بعض بنات زهير وربما انتحل عمر وعائشة هذه المقالة عن قوله

وانك ان اعطيتني ثمن الغنى	حمدت الذي اعطيه من ثمن الشكر
وان يبق ما تعطيه في اليوم او غدٍ	فان الذي اعطيك يبقى على الدهر

وقال ابن الاعرابي كان لزهير في الشعر ما لم يكن لغيره، وكان ابوه شاعراً وخاله شاعراً واخته سلمى شاعرة، وابناه كعب وبجير شاعرين، واخته الخنساء شاعرة. واخبر ابو خليفة عن محمد بن سلام قال من قدّم زهيراً احتج بأنه كان احسنهم شعراً وابعدهم من سخيف واجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ واشدهم مبالغة في المدح واكثرهم امثالاً في شعره. من ذلك قوله من قصيدة يمدح فيها حصن بن حذيفة بن بدر.

اخى ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكنك قد يهلك المأل نائله^(١)
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي انت سائله
وذو نسب ناءٍ علي وصيته بعيد وما يدري بانك واصله
ومن أقواله

الود لا يخفى وان اخفيته والبغض تبديه لك العينان
ولم نر من ذكر سنة مولده وسنة وفاته، والظاهر من القرائن أنه كان في اوائل
هذا القرن السابع .

عد ٦٩٠

النابعة الذبياني

هو زياد بن معاوية بن ضباب إلى ذبيان وإلى قيس عيلان بن مضر ويكنى ابا
امامة، ولقب بالنابعة لأنه قال كثيراً من الشعر أو لقوله :

وحلت في بني القين بن جسر فقد نبغت لهم منا شؤون

وهو من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء، واما زمانه فقد ذكر الأب
لويس شيخو الذي جمع الكتاب المذكور سنة ١٩٠٤م واطنّها سنة وفاته. ومهما
يكن فالظاهر من انه كان من ندماء النعمان ملك الحيرة وأهل انسه، ومن قصائده
له ومن هربه إلى ملوك غسان بالشام ومدحه لهم في قصائده أنه كان في اوائل
القرن السابع قبل الاسلام، فإن هؤلاء لم يبقوا على مجدهم بعده وربما أدرك
الاسلام. وقد روى أنّ عمر بن الخطاب سأل معشر غطفان من الذي يقول :

اتيتك عارياً خلقاً ثيابي على خوفٍ تظن به الظنون ؟

قالوا النابعة قال ذاك اشعر شعرائكم . وعن الشعبي قال عمر من اشعر الناس،
قالوا انت اعلم يا امير المؤمنين. قال من الذي يقول :

(١) النائل: العطا. فيقول انه لا يتلف ماله بشرب الخمر بل يتلفه بالعطا .

الا سليمان إذ قال الاله له قم في البرية فأحدها عن الفند^(١)
وخبر الجن اني قد اذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا النابغة . قال فهو اشعر العرب . وكان يضرب له قبة من ادم بسوق عكاظ
فتأتيه الشعراء فتعرض عليه اشعارها . وأول من أنشدته الأعشى ، ثم حسان بن ثابت
ثم أنشدته الشعراء ثم أنشدته خنساء بنت عمرو بن الشريد . ومن شعره قصيدته
في مدح عمرو بن الحارث الأصغر من امراء غسان بالشام ومطلعها

كليني لهم يا اميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب^(٢)
تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بأث^(٣)

ومنها قوله المشهور

عليّ لعمر نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب^(٤)
ومنها أيضاً

لهم شئمة لم يعطيها الله غيرهم من الجود والاحلام غير عواذب^(٥)
محلّتهم ذات الاله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب^(٦)

(١) الكفر بالنعمة ويروى عن العند .

(٢) يقول دعيني وهمي المتعب وليلي البطيئة كواكبه فلا تنيب ولا ينقضي الليل .

(٣) الذي اراه ان أثب هنا ليست من آب بمعنى رجع من سفره أو ورد الماء ليلاً، بل من قولهم
آب بيده إلى سيفه ليستله، وإلى سهمه ليرمي به، وإلى فرسه لينزع به (اس البلاغة) فكأنه
يقول تطاول ليلي حتى خلته ليس بمنقض ومن يرعى النجوم ليس له ان يؤوب بيده إلى
سيفه ليستله، أو إلى سهمه ليرمي به، أو إلى فرسه لينزع به . والذي قال به كثيرون ان
المعنى هو ان من يرعى النجوم لا يعود عند المساء كما يعود من يرعى الابل .

(٤) يريد ان نعمته ونعمة والده لا يكدرهما من ولا اذى بل هي هنيئة سهلة .

(٥) ارى ان الاحلام يريد بها الاناة والرصانة ويقول انها غير عواذب، أي لا ينكفون عنها أو
لا تبعد عنهم .

(٦) محلّتهم مسكنهم وذات الاله يعني بيت المقدس وناحية الشام ويروي مجلّتهم . قال في
اللسان مجلّتهم في قول النابغة بمعنى الانجيل لانهم كانوا نصارى، ومن روى محلّتهم
بالحاء اراد الارض المقدسة .

وله في النعمان احد ملوك الحيرة قصائد كثيرة، يمدحه في بعضها ويعتذر إليه في غيرها، ويزدلف إليه بعد أن يتغير عليه .

ومن أقواله في الحكم :

واستبق ودك للصديق ولا تكن قتباً يعرض بغارب ملحاحاً^(١)
فالرفق يمنُّ والاناة سعادة فتأنّ في رفق ينلك نجاحا
واليأس مما فات يعقب راحة ولربّ مطعمة تعود ذباحا
وله أيضاً

المرء يأمل أن يعيش م وطول عيش قد يضرة
تفنى بشاشته ويبقى م بعد حلو العيش مره
وتخونه الايام حتى م لا يرى شيئاً يسرة
كم شامت بي ان هلكت م وقائيل لله دزة

وله في توبيخ نفسه :

تعصي الإله وانت تظهر حبه هذا لعمرك في المقال بديع
لو كنت تصدق حبه لأطعته ان المحب لمن يحب مطيع

عد ٦٩١

عنتره العبسي

المشهور أنّه عنتره بن شداد بن عمرو بن معاوية إلى عيلان ومضر . ويلقب بعنتره الفلحاء لتشقّق شفتيه، وكانت أمه حبشية يقال لها زبيبة، وكان لها وُلد من زوج غير شداد فكانوا اخوته لأمه، وكان شداد نفى عنتره مرة من بنوته، ثم

(١) القتب سنام البعير والملحاح الذي يعقر ظهره فيجعله يلح بسيره شبه الصديق الذي يؤذي صديقه بالقتب الملحاح .

اعترف به وكانت العرب تستعبد بني الاماء فان أنجب اعترفت به وإلا بقي عبداً.
وكان عنترة قبل أن يعترف به أبوه قد حرشت عليه امرأة أبيه، وقالت أنه يراودني
عن نفسي فغضب أبوه لذلك غضباً شديداً وضربه ضرباً مبرحاً، واستل سيفه
ليسله فوقعت عليه امرأة أبيه وكفته عنه. ولما رأت ما به من الجراح بكت وكان
اسمها سمية أو سهية فقال عنترة :

أمن سمية دمع العين مذكورف أم منك ذلك قبل اليوم معروف
كأنها يوم صدت ما تكلمني ظبي بعسفان ساجي الطرف مطروف
تجللتني إذ أهوى العصا قبلي كأنها صنم يعتاد معكوف
المال ما لكم والعبد عبدكم فهل عذابك عني اليوم مصروف

وقالوا في اعتراف أبيه به . كان بنو طي قد أغاروا على بني عبس فأصابوا
منهم وقتلوا انفاراً من الحي وسبوا نساءً، وكان عنترة معتزلاً عنهم في ناحية في
ابله على فرس له، فمر به أبوه وقال ويك يا عنترة كز فقال العبد لا يحسن الكز
وإنما يحسن الحلب والصر. فقال أبوه كز وأنت حرّ فكزّ وحده وهبت في أثره
رجال عبس فهزم الأعداء واستنفذ الغنيمة وقال في ذلك :

عقاب الهجر أعقب لي الوصالا وصدق الصبر أظهر لي المحالا
عتبت الدهر كيف يذلّ مثلي ولي عزم أقدّ به الجبالا
أنا الرجل الذي خبرت عنه وقد عاينت من خبري فعالا
غداة أنت بنو طي وكلب تهز بكفها السمر الطوالا

إلى أن يقول :

صدمت الجيش حتى كلّ مهري وعدت فما وجدت لهم ظلالا
وراحت خيلهم من وجه سيفي خفافاً بعد ما كانت ثقالا
تدوس على الفوارس وهي تعدو وقد أخذت جماجمهم نعالا
ولما كانت أمّه حبشية كان أسود اللون وكثيراً ما عرض بذكر ذلك في أشعاره
منها قوله :

لئن أكَ أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني كبعد الأرض من جو السماء

ومنها قوله :

وإن كان جلدي يرى أسوداً فلي في المكارم عزٌّ ورتبه
ولو صلّت العرب يوم الرغى لأبطالها كنت للعرب كعبه
ولو أنّ للموت شخصاً يرى لصلت عليه وأكثر رعبه

وقد خطب عبلة بنت مالك نسيته فتراه يذكرها ذكراً متواتراً في أشعاره من ذلك قوله في مطلع قصيدته التي أخذنا منها الأبيات السالف ذكرها

ترى هذه ريح أرض الشربة أم المسك هب مع الريح هبه
ومن دار عبلة نار بدت أم البرق سل من الغيم غضبه
أعبلة قد زاد شوقي وما أرى الدهر يدني إليّ الأحبه
وكم جهد نائبة قد لقيت م لأجلك يا بنت عمي ونكبه
فلو أنّ عينيك يوم اللقا ترى موقفي زدت لي في المحبة

وقال في قصيدته لما أخذ أسيراً في حرب كانت بين العرب والفرس وكانت عبلة من جملة السبايا :

فخر الرجال سلاسل وقيود وكذا النساء مخانق وعقود

إلى أن يقول :

فالقتل لي من بعد عبلة راحة والعيش بعد فراقها منكود
يا عبلاً قد دنت المنية فاندبني إن كان جفنك بالدموع وجود
يا عبلاً ان تبكي عليّ فقد بكى صرف الزمان عليّ وهو حسود
يا عبلاً إن سفكوا دمي ففعالي في كل يوم ذكرهنّ جديد
لهفي عليك إذا بقيت سبية تدعين عنتر وهو عنك بعيد

ومعلته من الملقات المشهورة ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعياءك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأصم الأعجم
وقد رأيت أن عترة كان رقيق الشعر لا يأخذ مأخذ الجاهلية في ضخامة
الألفاظ وخشونة المعاني . وأما زمانه فالأظهر أنه اشتهر في أواخر القرن السادس
وأوائل القرن السابع وقد أرخه الأب شيخو في كتابه الذي نأخذ عنه بسنة ٦١٥م
وأظنها سنة وفاته . فلا ذكر في أشعاره للإسلام بل له قصائد في مديح كسرى
أنوشروان ، وذكر وقائع للعرب غير المسلمين مع الفرس ، فلم يدرك الإسلام على ما
أظن .

قيل ونشأ في مصر من أفاضل الرواة رجل يقال له الشيخ يوسف بن اسماعيل
وكان يتصل بباب العزيز في القاهرة ، فاتفق أن حدثت ربة في دار العزيز لهجت
الناس فيها ، فسأ ذلك العزيز وأشار إلى الشيخ يوسف أن يطرف الناس مما يشغلهم
عن هذا الحديث ، فأخذ يكتب قصة لعترة ويوزعها على الناس ، فأعجبوا بها
وأشغلوا بها عما سواها ، وقسمها إلى اثنين وسبعين كتاباً ، والتزم في آخر كل
كتاب أن يقطع الكلام عند معظم الأمر الذي يشتاق القارئ إلى الوقوف على
نهايته فلا يفر عن طلب الكتاب الذي يليه إلى نهاية القصة . وقد أثبت في هذه
الكتب ما رواه الرواة عن عترة غير أنه لكثرة تداول الناسخين لها فسدت روايتها
بما وقع فيها من الخطأ المكرر بتكرار النسخ

وكان في هذا القرن من شعراء النصرانية الأسود بن يعفر ويقال إنه كان سنة
٦٠٠م ، وسلامة بن جندل ويقال أنه كان سنة ٦٠٨ ، وإياس بن قبيصة سنة
٦١٢ ، وأوس بن حجر سنة ٦٢٠ ، وعلقمة الفحل سنة ٦٢٥م وذو الأصبع
العدواني سنة ٦٠٢ ، والحسين بن حُمام سنة ٦٢٣ ، وكعب بن سعد الغنوي سنة
٦١٧م ، ودريد بن الصمة سنة ٦٠٣م ، وعروة بن الورد سنة ٦١٦م ، وي زيد بن عبد
المدن سنة ٦١٦م أيضاً ، وأميه بن أبي الصلت سنة ٦٢٤م ، وقيس بن زهير سنة
٦٣٢م . روينا هذه التواريخ عن مجموعة الأب لويس شيخو اليسوعي في شعراء
النصرانية ، ولا يتاح لنا البحث عن صحة كل تاريخ منها وإن صح ذلك كان
هؤلاء الشعراء يعاصر بعضهم بعضاً ، وكان عصرهم عصر الذهب للعربية .

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ٦٩٢

بطاركة أنطاكية في القرن السابع

أنهينا الكلام في بطاركة أنطاكية في القرن السادس بذكر أنسطاس الثاني ووفاته سنة ٦٠٩ أو سنة ٦١٠م، وقد خلا كرسي أنطاكية من بطريك بعد ذلك اثنتين وعشرين أو ثمانين وعشرين أو ثلاثين سنة (على اختلاف الروايات)، وزعم بعضهم أنه أقيم بعد ذلك بطريك لأنطاكية يسمى أثناسيوس، ولكن تردد لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) في صحة هذا الزعم قائلاً روى توفان في تاريخ سنة ٦٢٩م أن اثناسيوس بطريك اليعاقبة حدثه الملك هرقل في شأن التسليم بالمجمع الخلكيدوني، ووعدته بأنه يصيره بطريكاً على أنطاكية إن أذعن له. فسأل الملك إذا سلمنا بطريعتين في المسيح فهل يلزمنا أن نعتقد أن فيه مشيئتين وفعالين أو مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فاستشار الملك سرجيوس بطريك قسطنطينية وقورش الذي صار بعداً بطريكاً على اسكندرية فقالوا مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فتشأت من ذلك بدعة المشيئة الواحدة. على أن كيميبيسيوس عد هذه الحادثة بين الملك واثناسيوس من الأقاصيص، ولم نجد من قال إن اثناسيوس صير بطريكاً على

أنطاكية غير توفان في روايته المذكورة وقد عثر على رسالة لراهب كان في ذلك العصر يتبن منها أنَّ أهل أنطاكية سمعوا بأنَّ أثناسيوس يرغب في أن يكون بطريكاً عليهم فسأهم هذا الخبر. لكن كلُّ هذا لا يثبت أنَّه صير بطريكاً فيبقى هذا الخبر مشكوكاً في صحته. انتهى كلام لكويان ملخصاً.

ولكن روى شدرانس في تاريخ سنة ٢٠ لهرقل هذا الخبر كما رواه توفان وذكره كثيرون في تاريخ بدعة المونوتيليتيين (القائلين بمشيئة واحدة في المسيح)، فيرجح خبر محادثة هرقل الملك وأثناسيوس بطريك يعاقبة كما رواه توفان وشدرانس، وأما إقامة أثناسيوس بطريكاً على سكان بطريكية أنطاكية فلا يبرح مشكوكاً فيه. فلا رية في أنَّه كان بطريكاً على يعاقبة وبطاركتهم ينتسبون إلى أنطاكية، وقد ذكره العلامة السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٤)، وروى عن ديونيسيوس بطريك يعاقبة انه صير بطريكاً عليهم سنة ٦٠٤ م إلى سنة ٦٤٤ م، ورد قول باجيوس أنَّه لم يكن بطريكاً عليهم، ثم ذكره في صفحة ٥٠٧ في جملة مبدعي بدعة المشيئة الواحدة. وذكره ابن العبري في تاريخه على أنَّه السادس بين بطاركة يعاقبة بعد انفصالهم. وكل ذلك يثبت أنَّه كان بطريكاً أنطاكياً على يعاقبة، ولكنه لا يثبت أنَّه صار بطريكاً عاماً على سكان بطريكية أنطاكية.

ونحو سنة ٦٤٠ م أقيم مكدونوس بطريكاً على كرسي أنطاكية، وكان مونوتيليتياً وقد اختاره سرجيوس بطريك قسطنطينية وهو الذي رقاها إلى هذه المرتبة. ويظهر أنه كان حياً لما عقد البابا مرتينس مجمع لاتران سنة ٦٤٩ م لأننا نرى هذا البابا كتب حيثيذ رسالة إلى يوحنا أسقف فيلادلفيا (وهي عمان) ببلاد العرب يهدد مكدونوس ويبين أنه اختلس البطريركية، وأنَّ الكنيسة لا تعرفه أسقفاً. وقد جعل البابا مرتينس يوحنا هذا نائباً له في بطريكتي أنطاكية وأورشليم ليتدارك شؤونهما ويقيها امتداد بدعة المشيئة الواحدة فيهما، وهو الذي رقى يوحنا مارون إلى أسقفية البترون كما سيحيي. ويظهر من رسالة كتبها مكاريوس خليفة مكدونوس أنَّ مكدونوس استمر حياً في أيام بطرس بطريك قسطنطينية وشهد مجمعه الذي نبذ فيه التعليم الكاثوليكي أنَّ في المسيح مشيئتين، فإنَّ مكاريوس قال في هذه الرسالة «بطرس الكلِّي القداسة البطريرك المسكوني وسالف حقارتي مكدونوس السعيد الذكر» وبطرس رقي إلى بطريكية قسطنطينية سنة ٦٥٥ م واستمر فيها إلى سنة ٦٦٦ م. وعليه فمكدونوس بقي حياً إلى سنة ٦٥٥ م. وهذا يبين خطأ سعيد بن

بطريق البطريرك الاسكندري إذ زعم أنَّ مكدونئوس صير بطريكاً سنة ٦٤٠م، واقام في البطريركية ثمانى سنين أو تسعاً، وقد لزم مكدونئوس وخلفاؤه الاقامة في قسطنطينية ولم يقيموا في انطاكية خشية من سطو العرب .

قد روى سعيد بن بطريق أنَّ جيورجئوس خلف مكدونئوس بعد وفاته وكان مونوتيليئياً ورقي في قسطنطينية، واستمر فيها خمس سنين ولم يأتِ إلى انطاكية ومات في قسطنطينية ودفن فيها، وأنَّ خلفته لمكدونئوس كانت في السنة الثالثة لخلافة عثمان. على أنَّ هذه السنة توافق سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ للميلاد، وقد كان مكدونئوس حياً في تلك السنة بموجب اقرار ابن بطريق نفسه كما رأيت آنفاً فهذا من اغلاطه ومناقضاته لنفسه وسترى كثيراً من أمثال ذلك . ولم يذكر بعضهم جيورجئوس بين بطاركة انطاكية في هذا القرن .

وخلف مكاريوس مكدونئوس (أو جيورجئوس ان ثبت أنه كان بطريكاً) . وقال فيه سعيد بن بطريق: « في السنة العاشرة لعثمان (وهي سنة ٦٥٥ أو سنة ٦٥٦م) صير مكاريوس بطريكاً انطاكياً، ورقي في قسطنطينية واقام فيها ثمانى سنين، لم يأتِ إلى انطاكية بل مات في قسطنطينية ودفن فيها». وهذا من اغلاط ابن بطريق الفاحشة، فإن كان مكاريوس قد صير بطريكاً سنة ٦٥٦م ومات بعد ثمانى سنين فتكون وفاته سنة ٦٦٤م وقد أجمع ثقة المؤرخين على أنَّ مكاريوس بقي حياً سنة ٦٨٠ وسنة ٦٨١ اللتين كان فيهما الجمع السادس المسكوني وشهد هذا الجمع، وحُرم فيه لاصراؤه، وخلع من اسقفيته، وارسل بأمر الملك إلى روما ومات فيها مصراً على غيه. ويظهر من رسالة الملك قسطنطين اللحيايى إلى البابا دونس (أو دمنس) المثبتة في صدر الجمع السادس أنَّ مكاريوس كان في قسطنطينية سنة ٦٧٨م. فكيف يتفق كل ذلك مع زعم ابن البطريق أنَّ مكاريوس توفي سنة ٦٦٤م .

وقد أقام الجمع السادس توفان بطريكاً على انطاكية بعد عزله مكاريوس المذكور، وانتخبه من كان من الاكليروس الانطاكي حينئذٍ في قسطنطينية، وشهد توفان المجلس الرابع عشر من هذا الجمع كما يتبين منه، ووقع على باقي أعماله كما يظهر من المجلس الأخير، وهو الثامن عشر. وقد حقق البطريرك اسطفانس الدويهي (في تاريخ الموارنة) والسمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١) أنَّ توفان

خرمته المنية في سنة ٦٨٥، فأقام الموارنة حينئذ القديس يوحنا مارون بطريركاً عليهم كما سترى في الملحق المعلق على آخر هذا الباب .

قال السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٢) روى انسطاس المكتبي أنّ البابا قنون أقام قسطنطين شماس كنيسة سيراكوزا على كرسي انطاكية دون أن ينتخبه اكليروس هذه الكنيسة، لكنه عرف بعد ذلك أنه رجل سيء السيرة والسريرة محب للخصام فقبض عليه عمال الملك بأمر هذا البابا واودعوه السجن، ولهذا لم يحصه أحد من المؤرخين الشرقيين في عداد بطاركة انطاكية. وروى انسطاس أيضاً أنّ توادورس بطريرك قسطنطينية أقام في البطريركية ثلاث سنين وكان معاصراً لاسكندر بطريرك انطاكية، على أنّ اسكندر هذا لم يتحقق أنّه كان بطريركاً ولم يذكره سعيد بن بطريق بل قال في جملة ترهاته البسباس أنّ توما صير بطريركاً على انطاكية واستمر في البطريركية عشرين سنة، وقام بعده جيورجيوس الثاني في السنة الأولى لخلافة مروان عبد الملك إلى سنة ٦٨٤م. فمروان بن الحكم بويع بالخلافة ولم يستمر فيها إلا تسعة اشهر وتوفي في رمضان سنة ٦٥هـ وهي سنة ٦٨٤م فبويع ابنه عبد الملك بالخلافة بعد وفاته كما رأيت (في عد ٦٨٤ و ٦٨٥) وقد رأيت أنفاً أنّ مكاريوس بقي على بطريركية انطاكية إلى أن عزله المجمع السادس سنة ٦٨١م وأقام مكانه توفان فاستمر إلى سنة ٦٨٥م. فمن أين أتى ابن بطريق بتوما وفي أي زمان كان بطريركاً. على أنّ جيورجيوس الذي ذكره بعد توما وردت اشارة إليه في أعمال المجمع السادس. ولكن قال لكويان في المشرق المسيحي (في بطاركة انطاكية) يظهر أنّ الألفاظ المتضمنة هذه الاشارة زيدت على أعمال هذا المجمع بعد انحلاله من يد كاتب آخر، وقد ارتأى كثيرون انه أخذها عن التواقيع الملحقة بأعمال مجمع قصر الملك الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٩١م. والحاصل أنّ هؤلاء البطاركة يمتري في بطريركتهم ولا يمكن القطع بها. ومما لا يعرفه ريب أنّ انطاكية بعد أن افتتحها المسلمون سنة ٦٣٧م لم يجلس فيها بطريرك إلى سنة ٧٤٢م بل كان بطاركتها يقيمون في قسطنطينية. وفي مدة الاربعين أو الخمسين سنة الأخيرة لم يقم لها بطريرك قطعاً. فقد روى توفان في تاريخ السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤٣م، ان كنيسة انطاكية لم يقم فيها راع مدة اربعين سنة، وأنّ الخليفة حينئذ اطلق لهم أن يختاروا بطريركاً راهباً اسمه اسطفانس كان يعزه ويجله . وروى

توافيلكتس إنَّ كرسي انطاكية استمر خمسين سنة خالياً من بطريك، وتابعه على ذلك ادوارد برنردس في سلسلة بطاركة انطاكية .

إنَّ كل ما مرَّ في هذا العدد اعتمدنا فيه على لكويان في كتابه الموسوم بالمشرق المسيحي ملخصاً مع زيادة عليه وشرح له من كلام العلامة السمعاني وغيره .

عد ٦٩٣

بطاركة أورشليم في القرن السابع

قد مرَّ في الباب السابق أنَّ عاموص كان بطريكاً على أورشليم وتوفاه الله سنة ٦٠٠ أو سنة ٦٠١م، فخلفه اسحق واستمر في البطريركية ثمانين سنين على ما روى نيكوفور وتوفان. وجاء في الكرونيكون الاسكندري أنه توفي في السنة السابعة لفيوفا وهي سنة ٦٠٩م، وقد كتب عند ارتقائه إلى الكرسي الاورشليمي إلى القديس غريغوريوس الكبير الحبر الروماني، فأجابه برسالة مثبتة في رسائله في تاريخ سنة ٦٠١م يطري ايمانه القويم ويحضه على نبذ بعض العادات السيئة منها أخذ شيء من المال ممن يرقون إلى الدرجات المقدسة .

وخلف زكريا اسحق المذكور في السنة السابعة لفيوفا وهي سنة ٦٠٩م على ما روى توفان وانسطاس المكتبي وكان خازناً للآنية المقدسة في كنيسة قسطنطينية. وفي السنة السادسة لبطريركيته غزا كسرى ملك الفرس سورية وافتتح أورشليم وقبض على المسيحيين وباعهم لليهود بابخس الأثمان، فاماتوا كثيرين منهم بأنواع من التعذيب، وأخذ البطريرك زكريا وخشبة الصليب إلى فارس وقتل كثيرين من الرهبان والراهبات كما جاء في التاريخ الاسكندري وتاريخ توفان للسنة الخامسة لهرقل. واشتهر حينئذ القديس يوحنا الرحوم بطريك اسكندرية بصدقاته على السوريين الذين فروا إلى مصر كما مرَّ وروى بارونيوس في تاريخ سنة ٦٢٧م أنَّ كسرى على كفره أجلَّ خشبة الصليب المقدس ولم يفتح الصوان الذي كانت الخشبة فيه لينظر إليها، ووضع الصوان في أحد هياكلهم كما كان في أورشليم. وقد أثبت ذلك مودست خليفة زكريا وسويدا وغيرهما. وتالت ضربات الله على الفرس وكسرى ملكهم وقد انتصر عليه هرقل الملك وثار عليه أكبر ابنائه المسمى شيرويه وملك مكانه، وصالح هرقل وخلي سبيل الأسرى الرومانيين وزكريا بطريك

أورشليم ورد خشبة الصليب المقدس كما يظهر من رسالة هرقل الملك التي أثبتتها باجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٢٧م، وأتى هرقل بخشبة الصليب إلى أورشليم سنة ٦٢٩م أو سنة ٦٢٨م على رواية بارونيوس، وأعادها إلى مكانها بكل احتفاء واجلال، وطرد اليهود من أورشليم . وجاء في صلوات الفرض الروماني في ١٤ ايلول أن هرقل كان حاملاً هذه الذخيرة الثمينة وهو رافل بحلل مرصعة بالذهب والجواهر، ولما انتهى إلى مدخل جبل الجلجلة نبهه زكريا البطريرك أن يخلع تلك الحلل لأنَّ الخُلص وطئ تلك الأرض حاملاً تلك الخشبة مهاناً، فأطاعه وبقي ما حيي مكتفياً بلبس غير ثمين . ولم يعيش زكريا بعد ذلك طويلاً، فقد روى توفان أنَّ مدة بطريكته ٢٢ من سنة ٦٠٩م إلى سنة ٦٣١م، وقال بعضهم أنَّ وفاته كانت سنة ٦٣٣م ويعيد له في ميناون الروم في ٢١ من شباط .

وخلف مودست زكريا وكان زكريا قد أقامه مقامه عند نفيه سنة ٦١٥م، وكان رئيساً لدير القديس توادوسوس في فلسطين، ورقى إلى الأسقفية في حياة زكريا وعنى بعد خراب أورشليم بتجديد كنيسة القيامة وغيرها كما مرّ، وبإغاثة المصابين وانقاذ الرهبان من اضطهاد اليهود على ما روى أنطيوخس الراهب في رسالة أثبتتها بارونيوس في تاريخ سنة ٦١٦م، وعمّد أنسطاس أحد جنود الفرس الذي تنصّر ومات شهيداً سنة ٦٢٨م، إذ أذاقه كسرى اعذبة مبرحة في قيصرية فلسطين، كما روى بارونيوس في تاريخ سنة ٦٢٨م عن ترجمة له يظن أنَّه كتبها أنطيوخس الراهب المذكور أو القديس صفرونيوس خليفة مودست في بطريركية أورشليم . ولما توفي زكريا سنة ٦٣١م أو سنة ٦٣٣م خلفه مودست بصفة بطريك على أورشليم وذكروا أنَّه لم يقم في البطريركية إلا سنة على رواية نيكوفور أو سنتين على ما روى توفان . وقال سعيد بن بطريق أنَّه لم يستمر على البطريركية إلا تسعة أشهر، وإنَّ كرسي أورشليم خلا بعد ذلك ست سنين من بطريك، وهذا من أغلاطه الكبيرة. فقد أجمع المؤرخون على أنَّ صفرونيوس خليفة مودست رقى إلى البطريركية سنة ٦٣٤م فأين الست السنين ؟ .

وخلف صفرونيوس مودست سنة ٦٣٤م وكان على ما روى لكويان (في المشرق المسيحي في بطارقة أورشليم) من دمشق، واسم أبيه بلنتاس واسم أمه ميرو . وجاء في سنكساري طائفنا أنَّه ولد في دمشق وترى في بصره أو بشري بجبل لبنان، وكان شديد الرغبة في العلوم وقد أدرك منها شأواً بعيداً، ثم أثر السيرة

الرهبانية، ويظن أنه مؤلف الكتاب الموسوم بالبستان الروحي مع يوحنا مسكس الآتي ذكره، وقد أشار إلى ذلك القديس يوحنا الدمشقي في آخر كتابه في الصور، وأخى صفرونيوس يوحنا موسكس في مصر وعاوناً كثيراً القديس يوحنا الرحوم البطريك الإسكندري في مناضلة الهرطقة والتصديق على الفقراء، وزارا معاً أديار المشرق وتوطنا في دير القديس توادوسيوس في فلسطين، ثم انطلقا إلى قبرص ومنها إلى رومة، فمات فيها موسكس وعاد صفرونيوس إلى ديره في فلسطين، وعكف على تأليف الكتب ومنها كتابه في ترجمة مريم المصرية وتهذيب الفروض البيعية. وعزا إليه باجيوس مجموع تراجم القديسين، فاستعمل أولاً في كنيسة أورشليم ثم عم استعماله في سائر الكنائس. وجدَّ صفرونيوس بمناسبة بدعة المونوتيليتيين مذ حادثة نشأتها، وشهد بنفسه الجمع الذي عقده قورش بطريك اسكندرية في هذه المدينة سنة ٦٣٣م لنشر هذه البدعة. وناضل فيه عن الإيمان الكاثوليكي مناضلة الأبطال، وكان حينئذ راهباً كما يتبين من رسالة سرجيوس بطريك قسطنطينية إلى البابا انوريوس التي ذكرها بارونيوس في تاريخ سنة ٦٣٣م، ثم مضى صفرونيوس إلى قسطنطينية طامعاً في أن يبعث سرجيوس بطريكها على مخالفة قورش بطريك اسكندرية في بدعة المشيئة الواحدة، فلم ينجح فيه كلامه السديد وحججه الدامغة فعاد إلى أورشليم وتوفي حينئذ مودست بطريكها، فاختر صفرونيوس خلفاً له سنة ٦٣٤ أو سنة ٦٣٥م ولم يبطئ أن عقد مجعاً في أورشليم وحرّم فيه بدعة المشيئة الواحدة ومن تشبث بها، وأرسل أعمال هذا الجمع ورسالة مجمعية إلى البابا انوريوس وإلى بطاركة المشرق، وقد تليت هذه الأعمال والرسالة في الجمع السادس المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٨٠م.

وقد حفت الأخطار والأهوال بسكان سورية كلها في مدة بطريكية صفرونيوس، فإن المسلمين هزموا وقتل جنود الرومانيين من سورية واستحوذوا عليها. ولما حاصروا أورشليم سنة ٦٣٦م ورأى صفرونيوس أن لا مناص من فتحها أشار على سكانها أن يستسلموا على يد الخليفة عمر بن الخطاب لما كان يعرفه من عدله وحلمه، فأثنى عمر إلى أورشليم وأمن أهلها ودخلها مستصغراً رحوماً ولم يمس أهلها بضر، حتى لم يشأ أن يصلي في كنيسة القيامة. ولما سأله البطريك لم تصل في الكنيسة أجابه متلطفاً لئلا يأتي المسلمون بعدي فيقولون هنا صلى عمر. وأعطاهم كتاب الأمان الذي ذكرناه في عد ٦٧٣م. فَوَقَّتْ مجاملة البطريك عمر

والمسلمين من تخريب ما كان باقياً من كنائسهم وأديارهم وقتل رجالهم إلى غير ذلك من غوائل الحرب، ومضى صفرونيوس إلى لقاء ربه ونيل ثواب مبراته في هذه الأثناء. فروى بارونيوس أنه توفي سنة ٦٣٦م، وقال باجيوس توفاه الله سنة ٦٣٧م ولكن قال لكويان (في المشرق المسيحي مجلد ٢ في بطاركة أورشليم) الأظهر أنه لم يستمر في البطريركية أقل من سبع سنين فتكون وفاته سنة ٦٤٢م، بل قد يكون بقي في الحياة إلى سنة ٦٤٤م إذ ذكره ييرس بطريك قسطنطينية في جداله مع القديس مكسيمس سنة ٦٤٥م. فقال « صفرونيوس الذي توفي من عهد قريب ». وذكر بارونيوس هذا الجدل بين ييرس ومكسيمس، وأثبت أنه كان سنة ٦٤٥م ويعيد الروم واللاتينيون للقديس صفرونيوس في ١١ آذار وتعيد له كنيسة المارونية كذلك .

قال لكويان (في المجلد المذكور) ولم يكن في كرسي أورشليم بعد صفرونيوس بطريك آخر سنين متطاولة بل دبر شؤون هذه البطريركية أولاً اسطفانس أسقف دورا (المعروفة الآن بالطنطورة)، وكان صفرونيوس قد أرسله إلى البابا انوريوس وأصبحه بأعمال مجمعه الأورشليمي ورسالته الجمعية في نبذ بدعة المشيئة الواحدة، ثم عاد اسطفانس بعد وفاة صفرونيوس إلى رومة سنة ٦٤٩م عند انعقاد المجمع اللاتراني الأول ورفع تقريراً في حالة الكرسي الأورشليمي بعد وفاة صفرونيوس ووقع عليه « أسطفانس برحمة الله أسقف دورا ورئيس مجمع بطريركية أورشليم ». وما قاله إن سرجيوس أسقف يافا غصب النيابة على كرسي أورشليم بعد وفاة صفرونيوس ورقى بعض كهنة إلى أسقفيات في بطريركية أورشليم قبل أن يثبت في نيابته. ولمعرفة هؤلاء بطلان ترفيتهم لجأوا إلى بولس بطريك قسطنطينية مثبتين خطأ بدعة المشيئة الواحدة التي كان بولس يدافع عنها. فأقام القديس مرتينس الأول الحبر الروماني أسطفانس نائباً بطريركياً في أورشليم إذ لم تكن الحال تؤذن بإقامة بطريك، فحط أولئك الأساقفة الذين رقاهاهم سرجيوس. وكل ذلك بين في رسالة البابا المثبتة في المجلد الثالث من مجموعة المجمع للباي صفحة ٤٣، ثم شكوا بعض إكليروس أورشليم أسطفانس إلى المجمع اللاتراني، وخشي البابا أن يقاومه الشاكون في تعاطي نيابته وإن برأ نفسه من شكوايهم، فعهد بهذه النيابة في بطريركية أورشليم إلى يوحنا أسقف فيلادلفية (وهي عمان)، ولما كان مكديونيوس ومكاريوس لطخا بطريركية أنطاكية ببدعة المشيئة الواحدة مد نيابته إلى بطريركية أنطاكية. أيضاً

وهذا بيّن من رسالة أخرى لهذا البابا مثبتة في المجلد السادس المذكور من مجموعة الجامع للباي، وقد فوض إليه أن يرقى الأساقفة والكهنة في بطريركيّتي أنطاكية وأورشليم، ويدبر الإكليرس والأديار والشعب (وفي جملة من رقاهم القديس يوحنا مارون إلى أسقفية البترون) واستمرّ على ذلك سنين كثيرة ولا يعلم متى توفي. إلّا أنّنا نرى في أعمال الجمع السادس المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٨٠م أنّ توادورس نائب بطريركية أورشليم أرسل إلى هذا الجمع نائباً عنه جيورجوس الكاهن ونرى بين توقعات آباء هذا الجمع توقيع جيورجوس الكاهن نائباً عن توادورس نائب الكرسي الأورشليمي الرسولي، ونرى الملك قسطنطين اللحياني لما طلب إليه آباء الجمع أن يبلغ رسوم الجمع إلى الكراسي البطريركية يقول في أمره أن ترسل هذه الرسوم إلى الكرسي الأورشليمي على يد جيورجوس الكاهن إلى توادورس نائب هذه البطريركية، ولا نعلم كم سنة استمرّ توادورس في هذه النيابة. والظاهر أنه لم يقم بعد صفرونيوس بطريك على أورشليم إلّا في بدء القرن الثامن ولم يذكر المؤرخون بطريكاً على أورشليم في السنة الأولى بعد عود يوسنيانوس الأخرم إلى الملك وهي سنة ٧٠٥م.

ولكن ذكر سعيد بن بطريق البطريرك الإسكندري أنّ يوحنا صير بطريكاً على أورشليم في السنة الثامنة لخلافة معاوية وهي سنة ٦٦٤م، إلّا أنّ ذلك من أغلاطه لتصريح توفان أنّ يوحنا هذا صير بطريكاً على أورشليم سنة ٧٠٥م وهي السنة التي ذكر فيها وفاة عبد الملك بن مروان وخلافة ابنه الوليد له وهي سنة ٧٠٥م بعد خمسين سنة من الزمان الذي عينه ابن بطريق. وقد حقق ذلك السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٠٤)، وورد في أعمال مجمع قصر الملك الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٩٢م توقيع انسطاس بطريك أورشليم، لكنّ هذا التوقيع غير صحيح، وقد أدخله الروم في أعمال هذا الجمع الذي نبذته الكنيسة الرومانية. وقد حقق بارونيوس في تاريخ سنة ٦٩٢م نقلاً عن انسطاس المكتبي أنّ هذا الجمع لم يشهده أحد بطاركة اسكندرية أو انطاكية أو أورشليم. انتهى ملخصاً عن لكويان في كتابه الموسوم بالمشرك المسيحي مجلد ٣ في كلامه في بطاركة أورشليم مع زيادات عليه.

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن السابع

عد ٦٩٤

توما الحرقلي اسقف مرعش

روى السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٠) ترجمة توما هذا عن الكتاب السادس عشر من الكتب السريانية المخطوطة في المكتبة الواتيكانية، فقال إنه كان من قرية حرقل في فلسطين، وروى بعضهم أن حرقل كانت بين انطاكية واباميا، وغيرهم أنها كانت في سفح جبل طورس، ورجح السمعاني رواية الكتاب الواتيكاني أن موقعها في فلسطين. وبعد أن تهذب في احد الأديار صير اسقفاً على جرمانيقية وهي مرعش على الصحيح لا منبج كما فسر كاتب الكتاب الواتيكاني، وكان توما يعقوبياً وصرف عنايته وجده في ترجمة الاناجيل وغيرها من الاسفار المقدسة من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية في دير الانطونيين (في اسكندرية) سنة ٩٢٧ يونانية (توافق سنة ٦٦١م)، بعد أن كان اخسنيا وضع مثل هذه الترجمة قبل نحو من مئة سنة. وجاء في الكتاب الواتيكاني أن توما هذا نفاه الخلكيدونيون أي الكاثوليكيون وتوفي في سميساط، ولكن حقق السمعاني أن توما اسقف مرعش الذي نفاه الملك يوستينس سنة ٥١٨م هو غير توما الحرقلي هذا.

ثم ذكر السمعاني مؤلفات توما الحرقلي فقال إن له نافوراً ذكره الدويهي في فصل ٧ في مؤلفي النوافير من اولي البدع قائلاً «توما الحرقلي ... الف نافوراً رتب صلواته على احرف الهجاء فاتحته **ܬܡܐ ܠܚܪܩܠܝ ܐܝܬܐ ܕܡܪܥܫܐ ܕܡܪܥܫܐ ܕܡܪܥܫܐ**» (ايها الأزلي السرمدى المحتجب) وهو مثبت في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي المخطوطة التي في المكتبة الواتيكانية صفحة ٩٤، وذكره ابراهيم الحاقلي في حواشيه

على قصيدة الصوباوي، لكنه سماه توما الجرمقي بدلاً من المرعشي، وقد ترجم رينودسيوس هذا النافور إلى اللاتينية واثبت في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٨٣. وما امتاز به هذا النافور عن غيره من نوافير اليعاقبة إنما هو فصاحة عبارته والتزام مؤلفه ترتيب الصلوات والمزمورات فيه منسقة على أحرف الهجاء، ثم خلوه من كلمات التقديس، في نسخة المخطوطة، وفي ترجمة رينودسيوس إلى اللاتينية لا لأن توما كان يعتقد ما اعتقده بعض الروم المتأخرين من أن التقديس يكمل بدعوة الروح القدس لا بكلمات التقديس بل لأن النساخ اليعاقبة المتأخرين حذفوا منه كلمات التقديس توسلاً لنشر ضلالهم الحديث بأن التقديس يتم بدعوة الروح القدس كما أشار رينودسيوس إلى ذلك في كتابه المذكور (صفحة ٣٩٠). هذا وقد ترجم توما الحرقلي من اليونانية إلى السريانية نافورات غريغوريوس الزينزي، وباسيليوس الكبير، وغريغوريوس النيصصي، وديونيسيوس الاروباجتي، ويوحنا فم الذهب على ما روى أغناطيوس بطريرك اليعاقبة.

مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية) حاشيته فوهم أن ترجمة الحرقلي كانت سنة ٥١٥م فتعقبه السمعاني مبيناً اغتراره .

وقد تواتر ذكر المؤلفين السريان ولاسيما اليعاقبة لترجمة الحرقلي هذه وقد استعملها اليعاقبة في كتب قداسهم وصلواتهم الفرضية كما أثبت كاتب الكتاب العربي في تعليم الإيمان الذي كان في مكتبة مدرسة الموارنة في رومة حيث يقول (صفحة ٤١٤): «وأما نحن السريان فعندنا نسخة المحرقل لتوما الحرقلي» وليس قوله صحيحاً لأن جميع السريان خلا اليعاقبة يستخدمون في كنائسهم الترجمة السريانية المعروفة بالبيسطة المذاعة في الكنيسة السريانية منذ أيام الرسل، واليعاقبة وحدهم استعملوا أولاً النسخة التي ترجمها فيلوكسينوس المسمى أخسنيا أسقف منبج في القرن السادس ثم صححها توما الحرقلي في القرن السابع كما أثبت العلامة السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٤). وقد ذكر ابن العربي ترجمة الحرقلي مراراً في كتبه ويظهر من أحد أقواله أنه لا يميز بينها وبين ترجمة فيلوكسينوس بل يجعلها واحدة على أن السمعاني عزا هذا الخطأ في قول ابن العربي إلى غفلة الناسخ وتعقب بوكوكيوس ورينودسيوس في جهلها من هو توما الحرقلي وفي أي عصر كان وما هي ترجمته مع أن ذكر توما الحرقلي وترجمته مستفيض في كتب المؤلفين السريان . انتهى ملخصاً عن العلامة السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٠ إلى صفحة ٩٥) .

عد ٦٩٥

يوحنا أسقف بصرى بحوران وسرجيوس رئيس أساقفة قبرص

قد ذكر السمعاني (مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٩٧) ترجمة يوحنا هذا أيضاً فقال إنه كان أسقفاً على بصرى ببلاد العرب، وذلك أن الرومانيين جعلوا بصرى هذه الواقعة بحوران قصبة لبلاد العرب منذ استحوذوا عليها في أيام أديان الملك في بداية القرن الثاني، وقد اشتهر يوحنا من السنة ٩٢٨ إلى السنة ٩٦١ (أي من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٥٠ م) وقد ذكره ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة في تاريخه وكان أسقفاً على العرب المنتصرين في حيرة النعمان، كما روى السمعاني أيضاً (مجلد ١ صفحة ١٦٧) وأدركته الوفاة في آمد سنة ٦٥٠م ودفن فيها في كنيسة القديس يوحنا المعمدان على ما روى رينودسيوس المذكور في تاريخه حيث قال

« وفي هذه السنة (أي سنة ٩٦١ لاسكندر الموافقة لسنة ٦٥٠ م) توفي القديس مار يوحنا أسقف العريية ودفن في كنيسة القديس يوحنا المعمدان في آمد» وقد ألّف نافوراً ترجمه رينودسيوس وأثبتته في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٢١، وفاتحته ايها الإله واهب المحبة والاستقامة. ويتبين من هذا النافور أنّه يعقوبي إذ قال فيه متكلماً في المسيح «لم يكن ذا طبيعتين أو أقنومين بل كان واحداً أحداً ابناً واحداً مسيحاً واحداً أقنوماً واحداً طبيعة واحدة». وذكر البطريك أسطفانس الدويهي نافوره في الفصل السابع في كتابي النوافير غير الكاثوليكين قائلاً «ويوجد غير هذه النوافير ألفها ديوسقورس أسقف جزيرة قردو والبرقيتي وساويرس أسقف قنسرين ويوحنا أسقف بصرى (أي بصرى)».

ويظهر من كلام يعقوب أسقف ميافرين المسماة مدينة الشهداء أنّ يوحنا أسقف بصرى كتب شيئاً في تفسير الأسفار المقدسة، فأنّه قال بكتابه الموسوم بكتاب الكنوز (قسم ٤ فصل ١) في الملائكة ما ملخصه «ذهب يعقوب السروجي وأفرام في تفسير خلق العالم وأيفان وغيرهم إنّ الملائكة خلقوا مع السماء والأرض وذهب غريغوريوس التزينزي، وغريغوريوس نيصص، ويوحنا فم الذهب، ويوحنا أسقف بصرى ويعقوب الرهاوي، وموسى بركيفا إلى أنّ الملائكة خلقوا قبل هذا العالم».

أما سرجيوس رئيس أساقفة قبرص فقد عرفناه من رسالة كتبها إلى البابا تيودورس أثبتها لابي (في مجلد ٦ من مجموعة الجامع صفحة ١٢١) عنوانها «إلى سيدي الكلي القداسة والطوبى أبي الآباء والرئيس العام للأساقفة السيد تيودورس من سرجيوس الحقير بين الأساقفة السلام بالرب أنّ المسيح إلّهنّا وضع أساً غير متزعزع وأقام عموداً يوطده الله نفسه وما ذلك إلّا كرسىكم الرسولي فأنت بطرس بموجب كلام الله وأنت الأسّ الموطدة عليه أعمدة الكنيسة وأنت الذي سلمت إليه مفاتيح ملكوت السماء ولك أعطي سلطان الربط والحل في السماء والأرض وأنت مبيد البدع الباطلة لأنك صاحب الأمر ومعلّم الإيمان القويم النقي من كل دنس فهلّم يا أبا الآباء واجزر الاضطراب النائر على الإيمان من قبل بعض المبدعين واقشع الظلام بنور تعليمك الإلهي». ويعد هذه المقدمة يقيم الحجة على أنّه متشبهت أبداً بتعليم الحبر الروماني ومناسب لتعاليم ذوي البدع وحارم لهم ومجّد في اقتفاء آثار عمه (أو خاله) أركاديوس، وأنّ هذا رأي كل سكان إقليمه.

أسطفانس أسقف دورة، ويوحنا أسقف فيلادلفية وغيرهما

قد رأيت أنَّ أسطفانس أسقف دورة وهي المعروفة الآن بالطنطورة كان القديس صفرونيوس بطريك أورشليم قد أرسله إلى البابا أنوريوس، وأصبحه بأعمال مجمه الذي عقده في أورشليم، ورسالته الجمعية ثم عاد إلى رومة سنة ٦٤٩م، فشكا إلى الحبر الروماني القلق الذي أحدثه في فلسطين أصحاب بولس بطريك قسطنطينية المبتدع. وفي جملة شكاويه أنَّ سرجيوس أسقف يافا جعل نفسه بعد موت صفرونيوس نائباً في بطريكية أورشليم خلافاً للقوانين واعتماداً على السلطة العالمية، ورقى بعض الكهنة إلى أسقفيات في بطريكية أورشليم قبل أن يثبت هو نائباً، ولعلم هؤلاء بيطان ترقيتهم لجأوا إلى بولس بطريك قسطنطينية وأثبتوا خطأ الضلال الذي كان بولس مغوياً به، وهو بدعة المشيئة الواحدة أملين أن يصحح بولس أسقفيتهم، فأقام الحبر الروماني أسطفانس نائباً له في فلسطين وفوض إليه برسالة أن يصلح شؤون كنيسة أورشليم وأن يحط الأساقفة الذين رقامهم سرجيوس أسقف يافا إن لم يرعوا عن غيهم، فتمم أسطفانس ما أمره به الحبر الروماني، ولم يقبل إلا من أقنعوا عن ضلالهم، على أنَّ بعض أصحاب المآرب سرقوا براءة البابا الأذنة له بأن ينتدب ويرقي أساقفة بدلاً ممن عزلهم وأن يقيم كهنة وشمامسة، فاستمرت كنائس كثيرة لا رعاة لها (لاباي في مجموعة المجامع مجلد ٦ صفحة ١٢١ إلى ١٢٦ والجمع اللاتراني مجلس ٢). ثم أنَّ من سرقوا براءة البابا أرسلوا يشكون أسطفانس إلى الحبر الروماني وكان حينئذ البابا مرتينس الأول فأمر بالفحص عن تلك الشكاوى فلم يثبت شيء منها كما يتبين من رسالة هذا البابا إلى منبتاليون حيث يقول أنَّ أسطفانس أمر بما أمر به لأنَّ سوء الحال في سورية وقتئذ لم يمكن الكرسي الرسولي من إقامة بطريك في أورشليم. وتوجد رسالة أخرى منفذة من البابا مرتينس إلى جيورجيوس رئيس دير القديس توادوسيوس في فلسطين يشكر بها عنايته وعناية رهبانه في المدافعة عن أسطفانس أسقف الطنطورة قاصد الكرسي الرسولي، ويحضهم على الإنقياد ليوحنا الفيلاذلفي الذي أقامه نائباً في بطريكيته أنطاكية وأورشليم (لاباي مجلد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ٢٠ وما يليها).

أما يوحنا أسقف فيلادلفية (وهي ربة عمون القديمة وعمان الآن) فقد أقامه القديس مرتينس الأول البابا بعد أسطفانس المذكور نائباً له في المشرق ولاسيما بطريركتنا أنطاكية وأورشليم ليقم فيهما أساقفة وكهنة وشمامسة، وأن يقبل من أراد أن يرعوي من أصحاب البدع بعد أن يصرحوا خطيئاً بإقلاعهم عن ضلالهم، وأن يرد من كان منهم في مرتبة إلى مرتبته إذا لم يكن ثمة مانع من قبل قوانين الكنيسة. ومما قال في هذا الشأن إننا مدافعون عن هذه القوانين ومحافظون عليها ومأمورون أن لا نغضي على مخالفتها، ونهاه عن أن يتسامح مع من اغتصبوا المقامات البيعية ومن لم يكن انتخابهم مطابقاً لهذه القوانين، وعين له في جملة هؤلاء مكدونوريوس بطريرك أنطاكية الذي كان قد انتخب في قسطنطينية لا في أنطاكية خلافاً لرضى الإكليروس والشعب، وقد انتدبه المبدعون جزاءً لجرائمه، ثم بطرس بطريرك الإسكندرية الذي لم ينتخبه أصحاب البدعة إلا لتقوية المشايخين لهم، وأمر أيضاً أن من يردعون إلى الكنيسة الكاثوليكية يلزمهم أن لا يقتصروا على نبد بدعة المشيئة الواحدة بل يحتم عليهم أيضاً أن يحرموا توادورس أسقف فاران، وقورش بطريرك اسكندرية، وسرجيوس بطريرك قسطنطينية وكل من شايعهم وأعلمه بأنه أرسل أعمال مجمع لاتران الذي عقده ورسالة عامة إلى قسطنطينية واسكندرية وأنطاكية على يد توادورس سفيره، وعلى يد الرهبان يوحنا واسطفانس ولاونس، وأنه كتب إلى توادورس أسقف حشبون عاصمة الموابين، وأنطونوريوس أسقف بقعة (لا يعلم موقعها ليكونا معاونين له في مهامه. (كل ذلك بين في رسالة هذا البابا إلى يوحنا الفيلادلفي التي أثبتنا لآبائي في مجلد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ٢٠).

ويظهر من رسالتي هذا البابا إلى توادورس أسقف حشبون وأنطونوريوس أسقف بقعة حثه لهما على الاتفاق مع يوحنا الفيلادلفي. ويمدح توادورس لمجاهرته بمقاومته بدعة المشيئة الواحدة باذاعته دستور إيمانه مكتوباً، واطرائه أنطونوريوس لمغادرته مذهب المبتدعين وإرساله إلى الكرسي الرسولي صك إرعوائه عن ضلالهم قائلاً إن الإغترار من خواص الضعف في البشر، والإقلاع عنه من مفاعيل نعمة الله وقد رده إلى مقامه الأسقي. ولهذا البابا رسالة أخرى إلى رجل شريف اسمه بطرس ذي سلطة عالمية في البلاد يوصيه فيها بيوحنا الفيلادلفي نائبه في المشرق، ثم رسالة عامة منفذة إلى جميع الأساقفة والكهنة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيي أنطاكية وأورشليم يقول فيها إنه بالسلطان الذي أولاه الله إياه بما أنه خليفة القديس

بطرس قد أقام يوحنا الفيلاذلفي نائباً له في المشرق ويناشدهم أن يحسنوا الطاعة له، وأن يجانبوا الهرطقة ولاسيما مكدونوس الذي اغتصب كرسي أنطاكية، وبطرس الذي تدخّل على كرسي اسكندرية وأعلمهم بحرمه بدعة المشيئة الواحدة في مجمع لاتران، وأنه أرسل إلى يوحنا الفيلاذلفي نسخة من أعماله ليطلعهم عليها. (وكل هذه الرسائل تراها مثبتة في مجلّد ٦ من مجموعة المجامع للاباي من صفحة ٢٩ إلى صفحة ٤٠)، وقال في رسالته إلى يوحنا المذكور أسرع إلى إصلاح كل ما كان إصلاحه لازماً، وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة كرسي أنطاكية وأورشليم، إننا نأمرك بذلك بالسلطان الرسولي الذي أولانا الله إياه بواسطة بطرس زعيم الرسل (براءة مرتيلس الأوّل المثبتة في المجلّد ٦ المذكور من تأليف لاباي).

قد مرّ أن يوحنا الفيلاذلفي هذا رقى القديس يوحنا مارون إلى أسقفية البترون نحو سنة ٦٧٥م في جملة من رقاها إلى الأسقفية، ولم نعر على ما ينبئنا بغير ذلك من أعمال يوحنا هذا ولا متى توفاه الله، ولا نعرف غير هؤلاء من أساقفة سورية في هذا القرن، وغير توادورس أسقف سلوقية أي السويدية ذكره لأكويان نقلاً عن يوحنا مسكس (في كتابه الموسوم بالمرج الروحي فصل ٧٩) آخذاً عنه خبر آية صنعت بسر القربان الأقدس. فإنّ الإضطرابات السياسية التي كانت حينئذٍ في سورية بسبب فتح الخلفاء لها ولسائر البلاد أوقفت اجتماعات الأساقفة وكتاباتهم الهامة التي تؤخذ عنها أسماؤهم وأخبارهم، حتى أنّ المجمع السادس العام الذي عقد في قسطنطينية سنة ٦٨٠ وسنة ٦٨١م لم يجتمع فيه أولاً إلّا نحو من أربعين أسقفًا، ولم يكن فيه أساقفة بل كهنة ينيبون عن بطريك اسكندرية وبطريك أورشليم كما سترى، ولذلك قلّ من عرفنا من أساقفة سورية أو من مشاهيرها في هذا القرن فنقتصر على ترجمة يعقوب أسقف الرها.

عد ٦٩٦

يعقوب الرهاوي

أنبأنا ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة أنّ يعقوب هذا ولد في بلاد أنطاكية ودرس اللغة اليونانية في دير قنسرين، ومضى إلى اسكندرية ثم عاد إلى سورية إلى أن رقى إلى أسقفية الرها، وذكر ترجمته بإسهاب العلامة السمعاني (في المجلّد الأوّل

من المكتبة الشرقية صفحة ٤٦٨ فنلخصها عنه). قال إنه منذ حدوثه هجر العالم وكراماته وغناه وأخذ السيرة الرهبانية، ثم رقي إلى الأسقفية على مدينة الرها سنة ٩٦٢ يونانية (الموافقة لسنة ٦٥١ م) على ما يتبين من تاريخ ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة، وشهد الجمع الذي عقده يوليانس بطريرك اليعاقبة سنة ٧٠٦ م وأدركته الوفاة سنة ٧١٠ م على ما في تاريخ ديونيسيوس المذكور، أو سنة ٧٠٨ م على ما في تاريخ ابن العبري، ويكرم ذكره السريان الموارنة واليعاقبة. وقد استشهد بأقواله في تفسير الأسفار المقدسة في شرح الليتورجيات من العلماء السريان موسى بركيفاء، وديونيسيوس بن صليبا، وغريغوريوس بن العبري وأسطفانس الدويهي بطريرك الموارنة وغيرهم، وأثنوا عليه ثناءً جميلاً وقد اغترّ بعضهم فلم يفرق بينه وبين يعقوب النصيبيني معلم القديس أفرام وبين القديس يعقوب السروجي، ومن هؤلاء مرهج بن نمرون الباني في كتابه الموسوم بافوليا (أي سلاح) الإيمان.

وأهم من كل ما مرّ المبحث في صحة إيمان يعقوب الرهاوي أكاثوليكيّاً كان أم يعقوبيّاً، فقد قضى رينودوسيوس (في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٠٨) بأنّه كان مونوفيزيتياً أي من القائلين بطبيعة واحدة في المسيح، وأورد لحكمه عليه الأدلة التي أوردتها لزعمه في يعقوب السروجي (وقد أشرنا إليها في كلامنا فيه). وذكر من حججه على يعقوب الرهاوي «إنّ اليعاقبة يستعملون النافور الذي ألفه ويكتبونه في كتبهم مع نافورات ساويرس وفيلوكسينس وغيرهما من علماء بدعتهم، ولا نجد نافوراً لأحد الكاثوليكين الذين كانوا بعد الجمع الخلكيدوني قال السمعاني ولكن كان على رينودوسيوس أن يثبت أنّه لا يوجد نافور لأحد الكاثوليكين ألف بعد الجمع الخلكيدوني بدلاً من أن يجعل مجرّد زعمه حجة، فما قوله هذا إلّا زعمه أنّ يعقوب هذا غير كاثوليكي لأنّه كان بعد الجمع الخلكيدوني وكتب بعده، فقياسه يساوي هذا القياس الفاسد أنّ يعقوب غير كاثوليكي لأنّه لم يكن كاثوليكيّاً فكان عليه لإثبات زعمه هذا أن يثبت أنّه لم يبق بعد الجمع الخلكيدوني من إيمان كاثوليكي في سورية وبين النهرين، ولا من أسقف كاثوليكي يؤلف كتاباً، لكنه لم يثبت هذا الأمر ولن يستطيع البتة أن يثبته. ولنا الأدلة الدامغة على أنّه بعد انتشار بدعة الطبيعة الواحدة استمرّ في سورية وبين النهرين كثيرون من الأساقفة الكاثوليكين، وهذا بين من ذكر المؤلفين الكاثوليكين الذين ذكرناهم آنفاً، وهم لاون وقسطنطين وجيورجيوس التكريتي وغيرهم. وواضح

من أعمال المجمعين العامين الخامس والسادس وتوقعات الأساقفة الكاثوليكين عليها تبكم رينودوسيوس عن التلفظ بهذا الزعم. ولربما قال إنه وجد بعد المجمع الخلكيدوني أساقفة سريان ومؤلفون كاثوليكيون ولكن لم يجد من كتب نافوراً فأجيبه أنه وجد من اليعاقبة من كتب نافوراً وهم: فيلوكسينس وتوما الحرقلي وموسى بركيفاء، وديونيسيوس بن صليبا، وغريغوريوس بن العبري الذين ترجم رينودوسيوس نافوراتهم، لم يوجد كذلك من الكاثوليكين، وكتابة النوافير في المشرق كانت مستفيضة بين رؤساء الكاثوليكين وأولي البدع ولم تزل كذلك إلى اليوم، فمن ينكر أن كثيرين من الأساقفة الكاثوليكين ألفوا بعد المجمع الخلكيدوني صلوات حديثة لأعياد شهداء ومعترفين وأدخلوا بين تراجم القديسين ترجماتهم، وصنّفوا نافورات أيضاً: نخسّ بالذكر من هؤلاء القديس يوحنا مارون الذين ألف نافوراً في القرن السابع، ويوحنا اللحفدي بطريرك الموارنة ألف نافوراً في القرن الثاني عشر، وليت شعري لِمَ جاز لرؤساء الروم مثل باسيليوس وفم الذهب أن يكتبوا نافورات وصلوات حديثة، ولم يجز لرؤساء السريان مثل ذلك والأمر واضح.

وأما كتابة اليعاقبة نافور الرهاوي بين نافوراتهم فلا ينتج منها أنه كان يعقوبياً كما زعم رينودوسيوس، وإلا لاضطررنا أن نقول إن نافور يعقوب الرسول الذي يستعمله اليعاقبة، ونافور الرسل الذي يستعمله النساطرة؛ هما من مؤلفات اليعاقبة أو النساطرة مع أن رينودوسيوس أثبت (في المجلد المذكور صفحة ٥٦٩ و١) أن مؤلفي هذين النافورين كاثوليكيان. ولا يؤيد زعم رينودوسيوس احتجاجه بأن مؤلفي هذين النافورين كانا قبل ظهور بدعة الطبيعة الواحدة والرهاوي بعده، لأننا أبنا قبلاً أن أصحاب الطبيعة الواحدة لم يجلوا القديسين الذين تقدموا بدعتهم فقط، بل يكرمون كثيرين من القديسين الذين كانوا بعدها، حتى ممن اشتهروا بالمناضلة عن الايمان الكاثوليكي وبالمخالفة لهم. ومن هؤلاء القديس سمعان العمودي الذي خالفهم بمدافعته عن المجمع الخلكيدوني برساليته إلى باسيليوس بطريرك انطاكية وإلى الملك لاون، كما أثبت افاغريوس (ك ٢ فصل ١٠). وشهد فوتيوس (في ك ٢٢٩ من مكتبته) ان الهرطقة الشرقيين ولا سيما اليعاقبة والنساطرة يجلون ويحبون من اشتهروا بالعلم والتقوى في العالم ولو لم يكونوا من اصحاب بدعتهم، بل نرى الكاثوليكين انفسهم يستخدمون في صلواتهم أقوال المبدعين التي لا ضلال فيها؛ كاستخدام الكنيسة الرومانية بعض أقوال اوريجانس في كتاب الفرض القديم، ونرى

الروم الكاثوليكين يستعملون صلوات الفرض التي يستعملها الروم غير الكاثوليكين، فما الذي يمنع اليعاقبة الذين يكرمون كثيرين من خصومهم الألداء ويصفونهم بقديسين من أن يستخدموا نافور الرهاوي ولا ذكر فيه لطبيعة أو طبيعتين في المسيح؟ ثم ذكر رينودسيوس فقرة من نافور الرهاوي عن كتب اليعاقبة قيل فيها في تذكر الملافنة: « اذكر الآن يا رب الملافنة المستقيمي الايمان ... ولا سيما اغناطيوس وديونيسيوس وباسيليوس وغريغوريوس وكيرلس وساويرس وفيلوكسينس ويعقوب وسائر الملافنة الذين اقتفوا آثارهم ». وقال بأثر ذلك: « كفى بهذه الفقرة وحدها أن تزيل كل ريب في أن يعقوب الرهاوي كان يعقوبياً لأنها ناطقة بأنه يعتقد أن ساويرس وفيلوكسينس وبطرس القصار من ملافنة الايمان القويم المناضلين عنه ». قال السمعاني أعجب من العلامة رينودسيوس كم عظم هذه الفقرة حتى جعلها مزيلة كل اشكال في بدعة الرهاوي، ولم يخطر على باله أن الجواب عليها سهل ولا ريب فيه، وقد ذكر هو نفسه فقرات مثل هذه في نافورات أخرى، ولم يكن له أن يمتري في أنها مدخلة على تلك النافورات. فإن اسم الملافنة في نافور الرهاوي وكثير من النوافير لم يشتهر مؤلفو تلك النوافير بل من نسخوها. واقتصر في بيان ذلك على ذكر نافورين أثبتتهما رينودسيوس نفسه: الأول نافور القديس ماروتا الذي أثبتته في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٢٧٠، وشهد بأن ماروتا اشتهر سنة ٤١٢م أي قبل كل ذكر لبدعة الطبيعة الواحدة. ففي هذا النافور قيل في تذكر الملافنة الذي رواه رينودسيوس صفحة ٢٦٦ ما يأتي: « اذكر يا رب جميع آبائنا المستقيمي الايمان الذين علمونا الايمان القويم ولا سيما ساويرس البطريرك وفيلوكسينس ويعقوب البردعي ». فهل يعزو رينودسيوس ذكر هؤلاء إلى ماروتا، وقد كان قبل أن يكونوا بسنين متطاولة؟ والنافور الثاني نافور يعقوب البردعي الذي ترجمه رينودسيوس وأثبت ترجمته في كتابه المذكور في صفحة ٢٣٨ ففي تذكر الملافنة فيه قيل: « اذكر يا رب جميع رعاة الكنيسة القويمة الايمان وملافتها ... ولا سيما القديس يعقوب البردعي » أيرى رينودسيوس أن البردعي ذكر اسمه في نافوره؟ كلا بل صرح بعد ذلك بأن الناسخ زاده فلم لا يرى كذلك في نافور الرهاوي؟

لم يقتصر رينودسيوس على طعنه بيعقوب الرهاوي بل تخطاه ليقدهح بالموارنة، فقد قال (في صفحة ٣٨٣ من كتابه المذكور): « فإن كان اسمه (أي اسم

يعقوب الرهاوي) مثبتاً في فهرست أعياد الموارنة فهم يشهدون بأن قدماءهم كانوا يعاقبة، وهم يريدون أن ينزلوهم منزلة أنوار في سماء الكنيسة السريانية ومنزلة متحامين عن الايمان القويم». وقال في صفحة ٣٨٠: «لا نحفل باسطفانس الاهدني بطريك الموارنة الانطاكي الذي استشهد به نيرون الباني، ولا بجميع من هم موارنة الآن أو قبلاً ولو لم يجاوز حبههم حدود الحق لجعلنا حب الوطن عذراً لهم، ولكن مخادعة القراء في التاريخ الكنسي لا عذر لها إذ قلّ من لهُ المام بهذه الأمور ويسر انخداع الباقين اجمع فيها». فقال السمعاني لا محل هنا لرد كل ما يتحمل به رينودوسيوس على ابناء ملتي ولكنني لا أطيق أن أغضي على ما يطعن به الاهدني ونيرون الباني، فلا اشفق على الموارنة ولا اعذر الاهدني والباني إن بين لي رينودوسيوس أو غيره أيّاً كان انهم يخادعون من يقرأ كتبهم، ولكنه لم يتكرم هو أو غيره بهذا البيان حتى الآن ولن يستطيع أن يأتي به، فلذلك يستمر الحكم صحيحاً ثابتاً بأن اسطفانس الاهدني البطريك الانطاكي وسيع الاطلاع طويل الباع بتاريخ السريان، واسأل رينودوسيوس أن يتحفني بفهرست مؤلفات الموارنة أو ذكر اسماء مؤلفيها في الزمان العابر أو الحاضر، لئلا يؤنب على طعنه بقوم لا يعرف مؤلفاتهم بل ولا اسماءهم. ويتهافت على القول أنه لا يحفل بجميعهم من كانوا قبلاً أو من لم يزلوا أحياء الآن، فأعجب كل العجب من رجل ليس بجاهل يستييح لنفسه الطعن بقوم يجهلهم كل الجهل.

وقال في المحل المذكور: «إنه لا يمكن الحكم بأن السروجي والرهاوي كاثوليكيان وأنّ ليس في كتبهما ما يخالف الإيمان، إلّا أن يكون من يبرز هذا الحكم عالماً بكتبهما أو في الأقل عارفاً بعنواناتها». والقارئ ينتظر بعد كلامه هذا أن يراه يورد من كلام الرهاوي دليلاً على مخالفته الإيمان الكاثوليكي أو عنوان فصل أو كتاب يؤيد زعمه، فلم يأتنا بشيء من ذلك مع أنّه كان متحتماً عليه وضربة لاذب، ولألا لأطلق لكل كاتب أن يغتاب ويشكو دون دليل أيّاً كان من العلماء ولو عظمت شهرة قداسته وعلمه وحكمته.

إنّ الاهدني والباني من أشهر العلماء الراسخين ومن أكبر الثقة الذين يعتمد على شهادتهم، وقد تابعهما عبد يشوع الصوباي في قصيدته في المؤلفين إذ ذكر الرهاوي وبعض تأليفه في فصل ١٦٥، ويؤيد شهادتهما كل ما وقفت عليه من كتب الرهاوي التي سأتيك بفهرستها ولا تجد فيها البتة ما يشم منه رائحة بدعة

الطبيعة الواحدة ، بل تراه في كلامه على المسيح يعترف بلاهوته حقاً وبناسوته حقاً ويصرح بأن كلمة الله قد اتحد بالنفس والعقل والجسد اتحاداً لا يعرفه فساد، وأنه تألم بالجسد لا باللاهوت ؛ وكل ذلك جلي في تفسيره التوراة المثبت في الكتاب الثالث من الكتب السريانية في المكتبة الواثيكانية صفحة ٤٦ و ٥١. وأما يعقوب السروجي فقد فندنا بشهادات العلماء السريان واليونان اغتياب رينودوسيوس له واعتمدنا خاصة على كتاب قصائده الروحية الذي عثرنا عليه في مكتبة البطريك أسطفانس الإهدني، ووجدنا في آخره فهرساً مدققاً خطته يد البطريك المذكور الذي زعم رينودوسيوس أنه لم يكن ليعلم ولا عنوانات كتب السروجي والرهاوي، وقد وجدناه استشهد بهما مراراً كثيرة في تأليفه وأثبت نافوريهما في جملة النوافير الكاثوليكية في كتابه المناثر العشر.

على أن الموارنة وإن أثمهم بعض العلماء ببدعة المشيئة الواحدة ، فمما لا ريب فيه أنهم أنفوا دائماً من بدعة الطبيعة الواحدة واشمأزوا منها، ويحقق ذلك انفصالهم المتناهي في القدم عن اليعاقبة ، واعتراف اليعاقبة أنفسهم بأن الموارنة أمة تخالف امتهم معتقداً ورعاة . وممن قال بذلك من علمائهم ديونيسيوس بن صليبا في كتابه في البدع، وأبو الفرج بن العبري في تاريخ الدول في سنة ١٦٩ للهجرة (سنة ٧٨٥ م) حيث شهد بأن توافيلس الرهاوي كان يدين بدين الموارنة سكان لبنان، ويؤيد ذلك أيضاً أن يوحنا مارون البطريك الأول على الموارنة ، الذي في أيامه كان الانفصال بين الملكية والمردة وهم الموارنة ، قد كتب كتاباً يفند به بدعة الطبيعة الواحدة ؛ وهذا الكتاب مثبت في المجلد ١٤ من كتب الحاقلي في المكتبة الواثيكانية. وقد أذاع الأب نو الإفرتسي نسخة منه عن كتاب قديم في المكتبة الملكية في باريس ، وقد ذكره اليعاقبة في ترجمة يعقوب البردعي، ووصفوه بالعدو الألد لأمتهم. وسنأتي بشهادتهم عند الكلام في يوحنا مارون .

وعليه فلو كان الرهاوي يعقوبياً لنبذه الموارنة كما نبذوا غيره من اليعاقبة ، ولا يوقفهم عن نبذه علمه السامي، فساويرس الأنطاكي وفيلوكسينس المنبجي كانا أعلم من الرهاوي ولم يغتر الموارنة بعلمهما ليحصبوهما بين العلماء الكاثوليكين، كما لم يطمعوا بأن يعتدوا العلماء المتأخرين من السريان كيوحنا الداراوي وموسى بركيفا وديونيسيوس بن صليبا وغريغوريوس بن العبري في مصاف الكاثوليكين، ثم أن السريان الملكيين الذين كانوا دائماً أعداء أصحاب الطبيعة الواحدة كانوا يستعملون

قدماً رتبة التعميد التي ألفها يعقوب الرهاوي كما سيأتي ؛ وذلك دليل على أنهم لم يعتدوه يعقوبياً. هذا ونعرف كثيرين من العلماء الكاثوليكين الذين كانوا في عصر الرهاوي وتعقبوا الهرطقة في عصرهم من أصحاب الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة أو النساطرة ، منهم : يوحنا الدمشقي ، وغريغوريوس التكريتي ، وقسطنطين ولاون الحارثيان، ولا نرى أحداً منهم شكاً الرهاوي ببدعة أو عدّه بين المبدعين وقد كان يهتمهم دحض ضلاله لو كان ضالاً ، لأنّه كان مشهوراً عند السريان بعلمه ومقامه، ونرى الدمشقي تصدّى لرد مزاعم إيليا الأسقف اليعقوبي مع أنّه كان غفلاً وقل من عرفه من أمته أيضاً، فلم غفل عن رد مزاعم الرهاوي إن كان ذا غواية على ما كان عليه من الشهرة والعلم ؟ (وقد كان في أيامه لأنّ الدمشقي ولد سنة ٦٧٦م .

إنّ العلامة السمعاني بعد أن أورد كل هذه الحجج لتنفيذ زعم رينودوسيوس عاد بما تحلى به من الإستقامة والنزاهة عن الأغراض وحبّ الحق ، فذكر ثلاثة مشاكل في سبيل إثبات صحة إيمان الرهاوي، وأردفها بحلها تاركاً الحكم في ذلك للعلماء . قال إنّ ما يحدث رية في صحة إيمان الرهاوي إنّما هو: أولاً أنّه ترجم مقالات ساويرس إلى اللغة السريانية وهي مشوبة بأغلاط أصحاب الطبيعة الواحدة ولم يصلح ولم يفند تلك الأغلاط ولا وصمها بوصمة سوداء. ثانياً أنّه دعا فيلوكسينس أحد أئمة هذه البدعة قديساً وساواه بأباء الكنيسة . ثالثاً إنّ اليعاقبة دعوه إلى مجمع في أيام يوليانس بطريركهم وأجلسوه في محل ممتاز . ورد الأول بقوله إنّ ترجمة الرهاوي مقالات ساويرس لا ينتج منها أنّ إيمانه غير صحيح ما لم يظهر ضلاله من وجه آخر، فإنّ كثيرين ترجموا كتب أوريغانس ونسطور وتوادورس المصيصي وغيرهم ولم يوتّب أحد لذلك في صحة إيمانهم، ورد الثاني بقوله أنّ الرهاوي لم يدعُ فيلوكسينس قديساً بل قدّم على اسمه كلمة **كُنْ** السريانية وتأويلها سيدي وقد استعملها السريان للدلالة على المقام الأسقفي لا على القداسة، وأورد قوله بحروفه حيث سواه بغيره من الأساقفة بتقديم كلمة **كُنْ** على أسمائهم . وردّ الثالث بقوله إنّ الأساقفة الهرطقة كان من عادتهم أن يدعوا الأساقفة الكاثوليكين في إقليمهم إلى مجامعهم ولم يكن ذلك أمراً حديثاً ولا نادراً، ولاسيما إذا كان مدار الكلام في هذا المجمع على أمور طقسية وتهذيبية وأمثال ذلك كثيرة من جهة الهرطقة والكاثوليكين ؛ منها حضور أناسيوس وإيلاريوس في مجامع مبدعين ، وحضور كثير من الأساقفة الكاثوليكين بدعوة

ديوسقورس في مجمع أفسس اللصي ، ودعوة مكاريوس بطريك أنطاكية إلى المجمع السادس، وزد على ذلك حضور صفرونيوس الأورشليمي مجمع سرجيوس بطريك قسطنطينية المونوتوليتي كما مرّ.

على أنّ السمعاني أورد (في المجلّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٣٣٦) فقرة من تاريخ ابن العبري لبطاركة البعاقبة بين فيها أنّ يعقوب الرهاوي ولد في كومية في بلاد أنطاكية ، ودرس اللغة اليونانية في دير قنشرين ، ومضى إلى الإسكندرية ثم عاد إلى سورية وأقيم أسقفاً على الرها ، ثم ترك الأسقفية لإفلاق بعض الإكليريكين له، ودافع كثيراً عن حفظ القوانين البيعية ، مخالفاً البطريك يوليانس يعقوبي وغيره من الأساقفة الذين كانوا يريدون التساهل بحفظ القوانين تبعاً لمقتضيات الزمان، ولما لم يذعنوا له جمع كتب القوانين امام باب الدير الذي كان البطريك حالاً فيه وصاح هأنذا محرق القوانين التي وطئتموها ولم توجبوا حفظها، ومضى فسكن دير القديس يعقوب في قيصوما ، وأقيم على الرها مكانه حبيب الاسقف، وأخذ رهبان دير اوسيونا يعقوب الرهاوي ، واستمر عندهم إحدى عشرة سنة يعلم الزبور وقراءة الكتب باليونانية، ثم مضى إلى دير تل عدا وأقام هناك تسع سنين يصحح اسفار العهد القديم، ثم مات حبيب اسقف الرها فمضى سكان هذه المدينة يسألون البطريك اعادة يعقوب إليهم، فأعاده ومضى ليحضر كتبه من الدير، فأدركته المنية سنة ١٠١٩ يونانية (توافق سنة ٨٠٨م) في ٥ حزيران .

فبعد أن روى السمعاني كلام ابن العبري الذي لخصناه قال إذا صحّ ما رواه ابن العبري عن تردد يعقوب الرهاوي بين البعاقبة وسكنائه المديد بأديارهم المتسكع سكانها بضلال الطبيعة الواحدة، فيظهر أنه مؤيد لما يخالف ما ذكرته عن صحة إيمانه في المجلد الأول .

ومما مرّ يظهر أنّ السمعاني لم يقطع بنفي صحة إيمان يعقوب الرهاوي، وبأولى حجة لم يحكم عليه بأنه يعقوبي ، وكلامه هذا الأخير ناطق بنزاهته عن التعصب لمذهبه لكنه غير ناقض لما أتى به من الأدلة والحجج على صحة إيمان الرهاوي . وقد ترك المبحث ليقضي به المجتهدون بالعلم ، كما ترك اعتراضاته السالفة وحلها. ومن اين لنا أن نحكم بمثل هذه المشاكل الغامضة ولا سيما أنّ ايدينا لا تتصل إلّا إلى قليل من الكتب العامة . والذي يلوح لفكرتي القاصرة إنما

وذكر الدويهي نافور الرهاوي في فصل ٢ عد ٢٤ في مؤلفي النوافير من الكاثوليكين. وللرهاوي أيضاً رتبة للتعديد مثبتة في كتب الطقوس عند السريان والموارنة، وكان الملكية يستعملونها كما روى عالم يعقوبي في كتابه المشتمل على تنبيهات للكهنة والإكليزيكيين المرشحين للكهنة، وكان هذا الكتاب في مكتبة مدرسة الموارنة برومة، حيث يقول (صفحة ٤١٤): «ومار يعقوب الرهاوي صاحب كتاب عماد الموارنة والملكية». وله أيضاً كتاب حوى قوانين بيعية ذكر بعضها ابن العبري في كتاب ادبياته، وفي كتاب الهداية، ورسالة إلى جيورجيوس أسقف سروج قرأتها في الكتاب القديم السرياني في دير الاسقيط، وله مقالة في الكتاب المذكور محتوية على شرح الضمائر واجناس الاسماء والأزمنة، وله رسالة إلى بولس الكاهن الانطاكي ذكرها ابن العبري في كتاب غرامطيقه الكبير المسمى **مَحْتَمًا** (صمحا أي الاشعة والأنوار)، وله رسالة أخرى في الكتابة والنقط والحركات السريانية معلقة على كتاب مقالات ساويرس، وهو الحادي والثلاثون من الكتب المأني بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية، وقد ذكرها ابن العبري في غرامطيقه الشعري.

ومن أهم رسائله رسالته إلى توما الكاهن في شرح رتبة القداس القديمة عند السريان من عهد الرسل إلى ايامه، وقد ذكرها ابن صليبا في شرح رتبة القداس فصل ٣، والبطريك اسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب المناثر فصل ٧، وابراهيم الحاقلي في حواشيه على قصيدة الصوباوي واثبتها السمعاني برمتها عن ابن صليبا (مجلد ١ من المكتبة الشرقية في صفحة ٤٧٩ إلى صفحة ٤٨٦)، وهي موعبة بالفوائد، وله أيضاً رسالة إلى يوحنا العمودي، وقد بقيت فقرة منها في رتبة مباركة الماء في ليلة ظهور الرب (أي الغطاس) في كتاب رتب اليعاقبة، وهو الرابع من كتب الحاقلي في مكتبة الواتيكان، وأثبت فيها قدم هذه الرتبة، وله أيضاً رسالة إلى اوس الكاهن وهي مثبتة برمتها في الكتاب القديم جداً في المكتبة الماديشية على ما روى رينودوسيوس في كتابه المذكور (صفحة ٣٨١ من المجلد الثاني). ويقال فيه إن يعقوب كتبها سنة ٩٩٨ ي (توافق سنة ٦٨٧ م)، ورسالة إلى دانيال ومنها فقرة في الكتاب الثالث من كتب السمعاني السريانية في المكتبة الواتيكانية، وله كتاب موسوم بكتاب الكنوز وهو مقالة في الاسرار أي المعمودية والقداس والماء المبارك، وله عشر قصائد في عيد الشعانين وهي مثبتة في الكتاب الخامس عشر من كتب

السمعاني السريانية المذكورة . وله أيضاً كتاب في تفسير الأسفار المقدسة ، ذكر ابن العبري فقراً منه من العهدين القديم والحديث ، واستشهد ابن صليبا بتفسيراته للاناجيل . وقال السمعاني لدينا في الكتاب الثالث من كتبنا السريانية في المكتبة الواتيكانية من كتبه تفسير موجز لثمانية أسفار من الأسفار المقدسة ، أي : كتب موسى الخمسة ، وأسفار أيوب ويشوع بن نون ، والقضاة . وله أيضاً مقالات في الأسفار المقدسة مثبتة في الثالث من كتبنا المذكورة ، وذكر السمعاني فقرات كثيرة من هذه المقالات . وله أيضاً ترجمة بعض مقالات أرسطو وشروح عليها مثبتة في الكتاب ٣٦ من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية ، وتفسير الإيساغوجي أي كتاب المنطق لبرفيريوس مثبت في الكتاب المذكور من كتب المكتبة الواتيكانية ، وترجمة مقالات ساويرس البطريرك الانطاكي من اليونانية إلى السريانية منقسمة في ثلاثة مجلدات . وقال السمعاني يظهر أنّ ليس ترجمة كل هذه المقالات للرهاوي بل أكثرها لغيره كما يتبين من نفس الترجمة واختلاف العبارة .

الفصل الثالث

بدعة المشيئة الواحدة والمجامع التي حرمتها

عد ٦٩٧

منشئو هذه البدعة وانتشارها

لم تكن بدعة المشيئة الواحدة في المسيح إلّا فرعاً من جرثومة بدعة الطبيعة الواحدة فيه ، أو نتيجة لازمة من مقدماتها . فالزعم أنّ في الخلق طبيعة واحدة يلزم منه أنّ فيه مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ، فليست المشيئة وليس الفعل إلّا من الخواص الملازمة للطبيعة ، وحيثما وجدت طبيعة واحدة وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد لا مشيئتان وفعالان ، ولا تنسب المشيئة والفعل إلى الأتوم وإلّا للزم أن نقول أنّ في الثالوث الاقدس ثلاث مشيئات وثلاثة أفعال لأنّ فيه ثلاثة أقانيم ، بل نقول أنّ للأقانيم الثلاثة مشيئة واحدة وفعلاً واحداً لأنّ لهم طبيعة واحدة ، وعليه فبدعة

المشيئة الواحدة أحدثها اصحاب الطبيعة الواحدة فكانوا هم السواد الأعظم ممن تشبث بها وقتل من استمسك بها ممن اعتقدوا طبيعتين في المسيح، وهذا بديهي وقد أثبتته العلامة السمعاني (في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١١) واليك ملخص قوله: «قد ندر في سورية وبين السريان أن يكون من يعتقد المشيئة الواحدة ولا يعتقد الطبيعة الواحدة، فما بدعة المشيئة الواحدة إلا فرع من أصل بدعة الطبيعة الواحدة وقد ابتدعها اصحاب الطبيعة الواحدة أعني بولس الرهب أحد اتباع ساويرس الذي كان في ارمينية، واتناسيوس بطريرك اليعاقبة الذي كان في ما بين النهرين، وسرجيوس بطريرك قسطنطينية الذي كان من سورية، وكان والداه يعقوبيين واستغوى قورش بطريرك اسكندرية وغيره بهذا الضلال. وهذا قد حققه المجمع السادس المسكوني والقديس مكسيموس الذي ناصب هذه البدعة. بل أثبتته سرجيوس البطريرك القسطنطيني نفسه في رسالته إلى البابا انوريوس، ثم توافان وشدرانس وزاناراس على أن ائمة هذه البدعة المذكورين وإن تظاهروا بالاذعان للمجمع الخلكيدوني، والاقرار أن في المسيح طبيعتين فلم يكن هذا التظاهر إلا إلى وقت ، ولما أيقنوا تمكن ضلالهم الحديث بان في المسيح مشيئة واحدة وفعل واحدًا خلعوا ثوب الرياء وعادوا ينشرون ضلالهم القديم بأن في المسيح طبيعة واحدة، ويتوسلون بالضلال الحديث إلى بث الضلال القديم. وأورد السمعاني دليلاً على ذلك ما روينا (في عد ٦٩٢) من محادثة هرقل الملك واتناسيوس بطريرك اليعاقبة نقلاً عن تاريخ توافان لسنة ٢٠ لهرقل، حيث يقول أن اثناسيوس تظاهر بالاذعان للمجمع الخلكيدوني واثنى سائلاً الملك إذا سلمنا بطبيعتين فهل يلزمنا أن نقول بمشيئتين أو بمشيئة واحدة، فالملك لجهله ما يجيبه به سأل سرجيوس بطريرك قسطنطينية ولما كان هذا سورياً ووالداه يعقوبيين أجاب الملك بأنه يلزم الاعتقاد بمشيئة واحدة وفعل واحد، وسأل الملك قورش الذي صار بعداً اسقفاً على اسكندرية فقال كذلك فوجد الملك أن رأي سرجيوس وقورش يوافق رأي اثناسيوس فاغتر الملك . وسترى أنه كان بين هؤلاء مفاوضات سابقة إلى أن قال السمعاني فيظهر من ذلك أن ائمة هذه البدعة الأولين داروا بدعتهم بالطبيعة الواحدة إلى وقت موقنين انه حيث وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد وجدت طبيعة واحدة وقد وُجد بين اليونان من دافع عن هذه البدعة معلماً أن في المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعل واحدًا، وفي جملة هؤلاء من القدماء قورش بطريرك اسكندرية،

ويرس بطريك قسطنطينية ومكاريوس بطريك انطاكية، ومن الحدثاء توما اسقف كفرطاب ومن قال بقوله. إلا أنّ السريان القدماء والحدثاء قد تابعوا اتناسيوس بطريك اليعاقبة وسرجيوس وبولس بطريكي قسطنطينية فلم يفصلوا بين بدعة الطبيعة الواحدة وبدعة المشيئة الواحدة بل جمعوا بين البدعتين، كما يظهر من كلام توفان المار ذكره، ومن ملازمة احد الضلالين للآخر ضرورة. وعليه فلا تجد احداً من اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة، قبل القرن العاشر تصدى لرد بدعة المشيئة الواحدة أو أتى بذكرها. انتهى كلام السمعاني ملخصاً.

قد رأيت أنّ سرجيوس بطريك قسطنطينية كان والداه يعقوبيين وأشباه هذا الضلال، فكان أول من جدّ بنشر بدعة الطبيعة الواحدة بوسيلة التعليم بمشيئة واحدة، ولم يذخر حيلة ولا خدعة في هذا السبيل. فقد زيف رسالة عزاهها إلى متا بطريك قسطنطينية منقذة إلى البابا فيجيليوس وضمنها التصريح بأنّ في المخلص مشيئة واحدة وفعلاً واحداً وارسلها إلى توادورس اسقف فاران (المعروفة الآن بوادي فيران) بالعربية، فأجابه إنه يعتقد كذلك أنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً. وكل ذلك بين في المحاوراة التي كانت بين القديس مكسيمس ويرس خليفة سرجيوس في الكرسي القسطنطيني، وقد ذكرها لاباي (مجلد ٥ من مجموعة المجامع) بل تمكن سرجيوس أن يعترض بالملك هرقل على نشر هذا الضلال. فهذا الملك كان يعتمد على سرجيوس البطريك حتى عهد إليه بتدبير مملكته وتدريب ابنه حين سفره لمحاربة الفرس، فلم يكن يعسر عليه أن يشربه ضلاله. ولما كان الملك سنة ٦٢٢م في ارمينيا حدث الراهب بولس الذي كان من اتباع ساويرس (وقد اشرنا إليه) بأنّ في المسيح فعلاً واحداً، فكتب بولس إلى سرجيوس ينبئه بما حدثه الملك فأجابه البطريك مرسلًا إليه رسالة متا التي كان قد زيفها ومتابعة توادورس اسقف فاران له على رأيه، واطلع بولس الملك على جواب البطريك فازداد جرأة، وكتب إلى اركاديوس متروبوليت قبرص ناهياً عن أن يزعم احد أنّ في المسيح فعلين بعد اتحاد الطبيعتين، واثبت سرجيوس منشور الملك خطياً فلم يمتثل اركاديوس أمر الملك واستمرّ محافظاً على الإيمان الكاثوليكي. (روى كل ذلك لاباي في مجموعة المجامع مجلد ٥) ثم باحث الملك قورش أسقف فاسيدايا وأطلعه على منشوره لاركاديوس فلم يذعن، فأراه الملك جواب سرجيوس وإثباته المنشور المذكور، فصمت قورش وكتب إلى سرجيوس يسأله كيف يمكن إثبات هذا الزعم

بشهادة الأسفار المقدسة والمجامع المسكونية فأجابه سرجيوس أنَّ المجامع لم تبحث عن هذا المبحث لكنني أعلم أنَّ كثيرين من الآباء صرَّحوا بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلًا واحدًا، وأرسل إليه رسالة منا المزيفة وقرأ من كلام بعض الآباء حتى جعله يرى رأيه. وفي هذه الأثناء حدث الملك هرقل اتناسيوس بطريرك اليعاقية كما رأيت فاتفق هؤلاء جميعاً على هذا الضلال وأخذوا يثبته سنة ٦٢٨م. وحدث في سنة ٦٣٠ أن قد توفي جيورجيوس بطريرك اسكندرية وخلفه قورش أسقف فاسيدايا المار ذكره، فاستعان بتوادورس أسقف فاران على نشر هذه البدعة، وعني بأن يضم إليه التوادوسيين (فرقة من الأوطاخيين) فوافقوه وكتبوا صك الإئتفاق مؤرخاً في ٤ أيار سنة ٦٣٣م متضمناً تسع مواد، وفي السابعة منها الحرم لكل من يقول إنَّ في المسيح فعلين ومشيتين. واتفق أنَّ القديس صفرونيوس (إذ كان راهباً) أتى حينئذٍ إلى اسكندرية فسلمه قورش تلك المواد ليفحصها ولما رأى ما فيها سقط على قدمي البطريرك متضرعاً إليه بدموع سخينة أن لا يذيعها لأنَّها تخالف الإيمان القويم، فلم يعبأ قورش بكلامه ولم تثنه دموعه عن عزمه، بل أذاع صك الإئتفاق على ما كان عليه وأرسل يخبر سرجيوس بما كان. أما صفرونيوس فلما رأى خيبوبة أمله من قورش مضى مسرعاً إلى قسطنطينية آملاً بأنَّ سرجيوس يصغي لحججه القاطعة وأدلتها الساطعة، فوصل إلى العاصمة، وبلغت سرجيوس رسالة قورش وكان من أخباره فيها أنَّ صفرونيوس حاوره في مسألة الفعلين والمشيتين في المسيح وأنَّه أورد لمدعاه شواهد من كلام كثيرين من الآباء القديسين (لاباي مجلد ٦ صفحة ٢٦٣)، فلم يشأ سرجيوس أن يذعن لحجج صفرونيوس بل كابر وتعنَّت وأجاب قورش مثبتاً تلك المواد ومصرحاً بلزوم الإعتقاد بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلًا واحدًا، أما صفرونيوس فعاد إلى أورشليم ودعته العناية الإلهية إلى بطريرك أورشليم سنة ٦٣٣م أو سنة ٦٣٤م ليكون مقاوماً البطارقة الثلاثة في هذه البدعة التي أنشأها سرجيوس بطريرك قسطنطينية، وعاوناه على نشرها قورش بطريرك اسكندرية وتابعهما مكدونوس بطريرك أنطاكية (لاباي في مجلد ٦ من مجموعة المجامع وغيره كثيرون).

عقد صفرونيوس مجمعاً في أورشليم جمع فيه كثيرين من الأساقفة، وحرم بدعة المشيئة الواحدة، وجمع في مجلدين ست مئة شهادة من أقوال الآباء القديسين ليفحم بها أصحاب هذه البدعة ويردِّهم إلى سواء السبيل، وأرسل

أسطفانس أسقف دورا (الطنطورة) إلى الحبر الروماني عارضاً عليه كل هذه الأمور. وعرف سرجيوس ما صنعه صفرونيوس فكتب رسالة مسهبة إلى البابا أنوريوس بلغته قبل رسالة صفرونيوس ولم يدّخر سرجيوس حيلة ولا كذباً ليخدع أنوريوس ويستميله إلى رأيه. وقد أثبت روهربخر (في ك ٤٨ من تاريخه) قسماً كبيراً من هذه الرسالة عن لابي (في مجلد ٦ من مجموعة المجامع) ورأى سرجيوس من نفسه الجهل بهذا المبحث، وأن لا ضلع له فيه، وأقام الحجة على أنه لا يرى إلا ما يراه الحبر الروماني، وأرسل إليه رسالة مثا سالفه التي كان قد استنبطها. وقال إنه يرى كثيرين من الآباء لم يقولوا بفعلين في المسيح بل بفعل واحد، وإن القول بالمشيئين من شأنه أن يكون معثرة للسذج والأمين فيظنون أن في المخلص مشيئين تضاد إحداهما الأخرى كما تضاد مشيئة الجسد فينا مشيئة الروح. وقال في جملة كذبه أنه اتفق مع صفرونيوس إذ صير بطريكاً على أورشليم أن لا يتكلم في هذا المبحث لئلا يكون معثرة للأرطاقة الذين ردهم قورش في اسكندرية عن ضلالهم إلى الإيمان القويم، واتفقوا أن لا يتحرشوا في المبحث بما إذا كان في المسيح فعلاً ومشيئتان أو فعل ومشيئة، وأخفى على أنوريوس كل ما كان قد كتبه إلى الأساقفة أو إلى الملك، وسأله أن يأمر بسلطانه السامي أن لا يتحرش أحد في هذا البحث الذي لا طائلة له بأمر الدين بل هو لغوي بحث.

انخدع البابا أنوريوس بكلام سرجيوس وحيلته وتلفيقه، وأجابه مثنيّاً على مسعاه بنبد ما يمكن أن يعثر به الأميون. ومما قاله في جوابه: «إن اللاهوت لم يكن ممكناً قطعاً أن يتحمل الآلام البشرية بل تحملها الجسد المتحد به بنوع أن الفصل بين الطبيعتين استمر قائماً، فنعتقد إذاً أن في المخلص مشيئة واحدة لأن كلمة الله لم يأخذ خطيئتنا بل طبيعتنا كما خلقت وقبل أن فسدت بالخطية. فلم يتخذ طبيعتنا المدنسة بالإثم بل أتى ليخلصها، ولم تكن فيه قط سنة أخرى لأعضائه تسببه إلى سنة الخطية كما هي فينا، ولا مشيئة مخالفة أو مضادة لمشيئته المقدسة لأنه أرفع من الطبيعة البشرية. وحيث قال ما اتيت لأصنع مشيئتي بل مشيئة من أرسلني لا يريد بهذا القول مشيئة مخالفة أو مضادة فيه بل أراد مشيئة الناسوت الذي اتخذه، وإذا كان أحد قد قال متلثماً بفعل أو فعلين كيلا يعثر الأميون بكلامه فلا ينبغي جعل ذلك عقيدة دينية في الكنيسة؛ لأنه يظهر أن الأسفار المقدسة والمجامع لم تقطع بذلك بل صرحت جلياً بأن يسوع المسيح هو الفاعل للأفعال الإلهية والأفعال

البشرية على أنه يلزمنا أن لا نتوغل في هذه الأبحاث الحديثة لئلا يعتدنا الأميون نساطرة إذا قلنا بفعلين، أو يحسبونا أوطاخيين إذا قلنا بفعل واحد، فنعترف إذاً ببساطة بأن يسوع المسيح الواحد هو الفاعل في الطبيعة الإلهية وفي الطبيعة البشرية. والحاصل أننا نحثكم على أن تتجنبوا التصريح الحديث بفعل أو فعلين وأن تعظوا الشعب كما نصنع نحن بان يسوع المسيح الواحد هو الفاعل في الطبيعتين ما خص اللاهوت، وما خص الناسوت». فهذه خلاصة جواب البابا أنوريوس لسرجيوس بطريرك قسطنطينية نقلاً عن لابي (مجلد ٦ صفحة ٩٢٨).

قد تذرّع الهرطقة بجواب البابا أنوريوس هذا فزعموا أنه أثبت ضلال أصحاب المشيئة الواحدة، وأتخذوا ذلك حجة لانكارهم عصمة الأبحار الرومانيين من الغلط في عقائد الإيمان، ولكن قد فُتد العلماء الكاثوليكيون زعمهم هذا وزيفوا أقوالهم، ونقتصر مما برأوا به ساحة أنوريوس من الضلال على إثباتهم الجلي أن كل ما كتبه هذا البابا بهذه الرسالة وغيرها هو مطابق للمعتقد الكاثوليكي بمعناه الظاهر ظهور النهار لذي عينين، فقد علمت الكنيسة الكاثوليكية وتعلم الآن وإلى الأبد أنه لم يكن في ناسوت المخلص مشيئة في جسده تخالف مشيئة روحه ولا سنة في أعضائه تخالف سنة ضميره وتسببه إلى سنة الخطية كما هو فينا لفساد طبعنا البشري بخطية آدم، وأن الفاعل في المسيح هو واحد لكنه يفعل فعلين فعلاً إلهياً وفعلاً بشرياً لأنه أقنوم واحد ذو طبيعتين. ولا يؤخذ من كلام أنوريوس غير هذا المعنى مهما تعسف الهرطقة والمخالفون كما رأيت في كلامه الذي أوردنا منه كل ما يهم هذا المعنى، وكما فُشره البابا يوحنا الرابع خليفته في رسالته إلى الملك قسطنطين الليحاني حيث يقول: «إن البعض كانوا يعتقدون أن يسوع المسيح الإله الكامل والإنسان الكامل أتى ليصلح فساد الطبيعة البشرية فحبل به وولد دون خطية، ولذلك لم تكن فيه مشيئتان متضادتان، ومشيئة جسده لم تضاد مشيئة روحه كما هو فينا بسبب الخطية التي كسبناها من آدم». على أننا لا ننكر أن أنوريوس انخدع بحيل سرجيوس البطريرك القسطنطيني، ونهى عن التوغل في البحث عما إذا كان في المسيح فعل أو فعلان، وكان عليه أن ينتبه إلى أنه قد يكون لسرجيوس غرض غير الظاهر من كلامه، ويتدارك الأمر حتى لا يؤخذ من كلامه ما يستعين به المارقون بمكرهم على بث ضلالهم على أن هذا خطأ شخصي بتصرفه، وليس ضلالاً في إيمانه، ولا يجدي المارقين نفعاً زعمهم أن المجمع السادس حرم أنوريوس

لأنَّ بارونيوس إمام المؤرخين حقق أنَّ اسم أنوريوس أدخله بعض الهراطقة في جملة أسماء المحرومين في هذا المجمع، ولا وجود له في النسخ الصحيحة من أعماله. وهب أنَّ آباء هذا المجمع حرموه حقيقة كما ذهب نسطاليس اسكندر وغيره من الكاثوليكين، فلم يحرموه لضلاله في الإيمان بل لتغاضيه عن كشف خدعة سرجيوس ووضعه له وسيلة يتذرّع بها لبثه بدعته كما صرّح بذلك البابا لاون الثاني في رسالته إلى الملك قسطنطين اللحياني، التي أثبت بها المجمع السادس حيث ذكر من حرمهم المجمع واتباع بهم أنوريوس قائلاً إنَّ المجمع حرمه لا لمتابعته لهم على معتقدهم الكاذب بل لتغاضيه عن المقاومة لهم. وقال هذا البابا في رسالته إلى أساقفة إسبانيا «إنَّ المجمع حرم توادورس وقورش ... مع أنوريوس الذي لم يخدم بالسلطان الرسولي كما كان لازماً نار البدعة إذ كانت في بدء تسعورها، بل نفخ فيها بتغاضيه». والحاصل أنَّ أنوريوس أخطأ بتصرفه الشخصي ولم يضل في إيمانه وهذا لا يعيب الكرسي الرسولي، ولا حجة منه للمارقين في إنكار عصمة الأحرار الأعظمين.

وبعد وفاة البابا أنوريوس سنة ٦٣٨م ازدادت بدعة المشيئة الواحدة انتشاراً لأنَّ الملك هرقل أذاع سنة ٦٣٩م منشوراً عنوانه «اكتسى» هي لفظة يونانية تأويلها الشرح أي شرح عقائد الإيمان، وكان سرجيوس قد ألّف هذا الشرح وصرّح فيه بأنّه يلزم الاعتقاد بأنَّ في المسيح مشيئة واحدة فأثبت سرجيوس مثنيّاً على الملك واتباعه على ذلك قورش بطريرك اسكندرية (لاباي مجلّد ٦ من كتابه المذكور صفحة ٢٠٣)، ولكن حرمه البابا يوحنا الرابع سنة ٦٤٠م، وعقد في رومة مجمعاً نبذ فيه بدعة المشيئة الواحدة. ولما علم بذلك هرقل الملك كتب إلى البابا وممّا قاله: «إنَّ الاكتسى لم انشئه ولم أمر به بل الذي ألّفه هو سرجيوس البطريرك وبعد عودي إلى قسطنطينية حملني على أن أوقع عليه وأذيعه، فأنقذت لإجابة سؤاله وإذ رأيت الآن أنّه كان علة لمحاورات دينية فأصرّح لكل أحد أنّي براء من هذا المنشور ولاني لم أكن مؤلفه» (روى ذلك باجيوس في تاريخ سنة ٦٤٠م).

ومات سرجيوس بطريرك قسطنطينية وخلفه ييوس وكان معنوياً بهذا الضلال لكنه اعتزل البطريركية لمخاصماته مع الشعب، ولبت متشبهاً بهذا الضلال، وجرت محاورة شهيرة بينه وبين القديس مكسيمس الذي كان في قسطنطينية فأبكمه فيها، وأقلع عن ضلاله لدى الحبر الروماني إلّا أنّه عاد إليه وإلى كرسي قسطنطينية سنة

٦٥٥م. وفي مدة اعتقاله أقيم مكانه بولس ومات الملك هرقل سنة ٦٤١م، وخلفه ابنه قسطنط الثاني فحمله بولس البطريك على أن يذبح سنة ٦٤٨م منشوراً سماه: «تيب» أي صورة نهى به عن الجدل في المشيئة الواحدة أو المشيئتين مفترضاً عقوبات ثقيلة على من يخالف منشوره فعقد البابا مرتينس مجمعاً في رومة سنة ٦٤٩م وحرم بدعة المشيئة الواحدة ونبذ منشور الملك فاضطهده قسطنط حتى نفاه ومات في منفاه سنة ٦٥٤م وقام في قسطنطينية بعد بولس بطريك اسمه بطرس كان على شاكلة سلفائه وأجرى قسطنط مظالم فظيعة على الكاثوليكين إلى أن عاجلته نعمة الله واغتاله أحد خدامه في الحمام سنة ٦٦٨م، وخلفه ابنه قسطنطين الملقب بالبحياني لطول لحيته، وكان صالحاً ورعاً حليماً عادلاً اتفق مع الحبر الروماني على عقد المجمع السادس المسكوني في قسطنطينية سنة ٦٨٠م، استصلاً لبدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد.

عد ٦٩٨

المجمع السادس المسكوني الذي حرّم بدعة المشيئة الواحدة

قد كتب الملك قسطنطين رسالة إلى البابا دمنس مؤرخة في ١٠ آب سنة ٦٧٨م يسأله فيها أن ينفذ من قبله بعض علماء ضليعين في معرفة الأسفار المقدسة للمذاكرة مع الرؤساء في المشرق في عقائد الإيمان حسماً للإختلافات التي طال أمرها، فلم تبلغ هذه الرسالة إلى رومة إلا في سنة ٦٧٩م، وكان البابا دمنس قد توفاه الله وخلفه البابا أغاثون فسر برسالة الملك وأعلم بها أساقفة المغرب، وأرسلوا وفوداً إلى رومة فعقد البابا فيها مجمعاً في ٢٧ آذار سنة ٦٨٠م حيث اجتمع مئة وخمسة وعشرون أسقفاً ليختاروا من يوفدونهم إلى قسطنطينية ويعدوا المواد التي يلزم البحث فيها بحضرة الملك، وكتب البابا حينئذ رسالتين إلى الملك قسطنطين وأخويه هرقل وطيبار، إحداهما باسمه والثانية باسم كنائس المغرب جمعاء، وضمّن الرسالة التي باسمه مقالة طويلة في شرح المسألة المبحوث عنها، وأنفذ إليه توادورس وجيورجيوس الكاهنين، ويوحنا الشماس لينبوا عنه في المجمع، ويوحنا أسقف بُرتو، وأبو نندتيوس أسقف بالسترين ويوحنا أسقف راجيو لينبوا عن الأساقفة المجتمعين في رومة، وعقد المجلس الأوّل في ٧ تشرين الثاني سنة ٦٨٠م بحضرة

الملك ولم يكن الأساقفة المجتمعون في هذا المجمع أولاً الا قليلين، ولم يشهده بطريركا اسكندرية وأورشليم للقلق المستحوز في فلسطين ومصر، فانابا الكهنة عنهما وشهده جيورجيوس بطريرك قسطنطينية ومكاريوس بطريرك أنطاكية. وقام في هذا المجلس الملك في الوسط والإنجيل أمامه، ووقف أحد نواب البابا واستهل كلامه إلى الملك قائلاً ما ملخصه أنه من نحو ست وأربعين سنة أدخل سرجيوس بطريرك قسطنطينية وغيره تعليماً حديثاً في الكنيسة زاعمين أن ليس في المخلص إلا مشيئة واحدة وفعل واحد، وأقلق هذا الزعم الكنيسة فنبذه الكرسي الرسولي المقدس وحض القائلين به على الإرعواء عنه فلم يرعوا، فنسأل الآن جلالتكم أن تأمر من هم معنا من قبل كنيسة قسطنطينية أن يبينوا لنا من أين أتوا بهذا التعليم الحديث. فأمر الملك جيورجيوس بطريرك قسطنطينية ومكاريوس بطريرك أنطاكية أن يجيبا، فقالا لم نعلم إلا ما تعلمناه من المجامع المسكونية والآباء الموثوق بهم ولاسيما سرجيوس وبيرس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية، وقورش بطريرك اسكندرية الذين اعتقدوا ما نعتقد، ونحن مستعدون لإثبات مقالنا فرخص الملك لهما أن يثبتا ما يقولان. فسأله مكاريوس أن يأمر حافظ سجلات الكرسي القسطنطيني أن يأتي بكتاب المجامع من الخزانة البطريركية فأتى به، وأخذ مكاريوس كتاب المجمع الأفسسي وطقق يقرأ خطاب القديس كيرلس للملك توادوسيوس ووقف عند قوله: «إن مسند ملكك إنما هو يسوع المسيح الذي به تملك الملوك، ويقضي الحكام بالعدل، لأن إرادته قديرة على كل شيء». وقال إليكم البرهان على أن في المسيح مشيئة واحدة، فصاح نواب البابا وغيرهم ما هذا التعسف؟ إن كلام القديس كيرلس في إرادة المسيح الإلهية والأمر يتفانه وصفها بقديرة على كل شيء، وليس غرضه بيان عدد الإرادات في المسيح. وبعد أن أكملوا تلاوة أعمال المجمع الأفسسي فض الملك المجلس قائلاً: ستلى في المجلس التالي أعمال المجمع الخلكيدوني.

وعقد المجلس الثاني في ١٠ من تشرين الثاني وأخذ في تلاوة أعمال المجمع الخلكيدوني، ولما انتهى القارئ إلى قول القديس لاون البابا في رسالته إلى البطريرك افلايانس وهو: «إن كل طبيعة في المسيح تفعل ما خصها بالإشتراك مع الطبيعة الأخرى. فالكلمة يفعل ما خص الكلمة، والجسد يفعل ما خص الجسد. فاحدهما متسام بآياته والآخر متحثل سوء المعاملة». قال نواب البابا ها هو هذا البابا لاون يثبت أن في المسيح فعلين طبيعيين دون اختلاط ولم تقسم، والمجمع الخلكيدوني

سجعل كلامه دعامة للإيمان الكاثوليكي ومفنداً لكل بدعة. فقال مكاروريوس بطريرك أنطاكية إن البابا لاون أراد بهذا الكلام الفعل الإلهي البشري. فسل ما المراد بالفعل الإلهي البشري؟ فلم يستطع مكاروريوس أن يبينه وأتموا تلاوة أعمال المجمع الخلكيديوني وقرروا أن تتلى أعمال المجمع الخامس في المجلس التالي .

وعقد المجلس الثالث في ١٢ ت^٢ وبدئ فيه بتلاوة خطبة منّا بطريرك قسطنطينية إلى فيجيليوس الحبر الروماني في أن ليس في المسيح إلا مشيئة واحدة، فقال نواب البابا إن هذه الخطبة مزورة ومخرعة ، وسألوا الملك العدول عن تلاوتها، وأقاموا الدليل على أنها مخرعة من أن منا توفي في السنة الأولى ليوستيناس، والمجمع الخامس لم يلتم إلا في السنة ٢٧ للملكه، وكان حينئذ افثيشيوس بطريركاً على قسطنطينية، ففحص الملك والقضاة في كتاب أعمال المجمع الخامس فوجدوا أنه زيد في أوله ثلاثة كراريس غير مضبوطة بالأعداد والتواريخ المعتادة وإن الخط فيها يخالف خط باقي الكتاب فنبذوا خطبة منّا، وأمر الملك بتلاوة مقدمة المجمع الخامس وأعماله إلى المجلس السابع، فوجدوا ثمة كتابين للبابا فيجيليوس أحدهما إلى الملك يوستيناس والثاني إلى الملكة توادورا، وفيه هذه الكلمات: «فليكن محروماً توادورس أسقف المصبصة إذ لم يعترف أن في المسيح أقنوماً واحداً وفعلاً واحداً» فأثبت نواب البابا أن الكتابين ليسا لفيجيليوس حقيقة بل اخترعهما المبدعون، وقالوا لو كان رأى فيجيليوس في أن في المسيح فعلاً واحداً، وأن المجمع أثبت هذا الرأي لما استغنى عن إشارة إليه في دستور الإيمان الذي أنشأه، فتلّيت أعمال المجمع برمتها فلم يوجد أثر فيها لهذا المعنى. وطلب نواب البابا أن تراجع رسائل فيجيليوس ليظهر الصحيح منها فأرجأ الملك البحث في ذلك إلى المجلس الآتي. وسأل الملك هل قدم مكاروريوس بحسب وعده حججه على أن في المسيح مشيئة واحدة؟ فقالوا: لم يقدم شيئاً. وطالب مكاروريوس بانجاز وعده فطلب مهلة، وسأل جيورجيوس بطريرك قسطنطينية أن تتلى رسالة البابا اغاتون إلى المجمع، فأرجئت إجابة سؤاله إلى المجلس التالي .

وعقد المجلس الرابع في ١٥ تشرين الثاني . وكان ديوجان كاتب الملك قد ترجم رسالتي البابا اغاتون إلى اليونانية فاستوعبت تلاوتهما مدة المجلس كلها، وقد ضمنهما البابا ومجمعه في رومة كثيراً من آيات الأسفار المقدسة وشواهد الآباء، والجامع المثبتة أن في المسيح مشيئتين وفعلين مع الحرم لهذه البدعة. وعقد المجلس

الخامس في ٧ كانون الأول، فأبرز مكاريوس بطريرك أنطاكية كتابين ضمّنهما شواهد من كتب الآباء، ثم قدّم في المجلس السادس الذي التأم في ٢ شباط سنة ٦٨١م كتاباً آخر لإثبات زعمه، فأخذ نواب البابا يبينون في المجلسين أنّ الشواهد التي أوردها مكاريوس لا تثبت غرضه، ولا تؤيد أنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً، وأنّه حرّف أكثرها أو حذف منها ما يدل على أنّ الكلام في الثالث الأقدس الذي ليس فيه إلا مشيئة واحدة وفعل واحد، وسألوا الملك أن يحضر الكتب المأخوذة تلك الشواهد عنها لتعارض بنقل مكاريوس، فأحضرت وافتضح تزيف مكاريوس وتعسفه لها. وقال نواب البابا لدينا كتاب حوى من شهادات الآباء ما يثبت أنّ في المسيح مشيئتين وفعلين، ومن شهادات المبدعين ما يتبيّن منه أنّهم زعموا كمكاريوس أنّ في المسيح مشيئة واحدة، فنسأل أن يتلى الكتاب في هذا الجمع، فقال الملك سوف يتلى في المجلس التالي.

وعقد المجلس السابع في ١٣ شباط وتلى فيه الكتاب الذي قدّمه نواب البابا فسألهم الملك أليكم شيء آخر؟ قالوا نكتفي بهذا الآن لئلاّ تملوا، ونسأل الملك أن يأمر بطريركي قسطنطينية وأنطاكية أن يجيبا: أيذعان لما جاء في رسالتي البابا أغاثون ومجمعه أم يخالفان؟ فطلب البطريركان نسخة من الرسلتين ليحققا صحة الشهادات قبل أن يجابوا فأعطياها. وفي المجلس الثامن الذي عقد في ٧ آذار سأل الملك البطريركين أتوافقان على ما تضمّنته رسالتا البابا، فأجابه جيورجوس بطريرك قسطنطينية قد عارضت الشهادات الواردة فيهما بأصولها فوجدتها مطابقة لها، ولذلك اعتقد ما يعتقد البابا أغاثون. وصرّح توادورس أسقف أفسس أنّه يعتقد بمشيئتين وفعلين في الخلص، وتابعهما على ذلك سبسين أسقف هرقلية وأساقفة كثيرون، ولكن قدّم توادورس أسقف ملاطيا في أرمينيا مذكرة باسمه واسم ثلاثة أساقفة وغيرهم من الكهنة يسألون الجمع فيها أن لا يحرم من قال بفعل أو فعلي، لأنّ المجمع العامة لم تصرّح بحكمها بهذا البحث، فأنكر الأساقفة الثلاثة أن يكونوا قدّموا تلك المذكرة ولم يصر على ما طلب فيها إلاّ أسطفانس تلميذ البطريرك الأنطاكي، وعاد القضاة يطلبون آراء باقي الأساقفة الخاضعين للبطريرك القسطنطيني. فقالوا نرى ما رآه الحبر الروماني ونحرم من لا يعتقدون في المسيح مشيئتين وفعلين. ونسأل الجمع الملك أن يأمر مكاريوس بطريرك أنطاكية أن يصرّح باعتقاده المشيئتين في المسيح، فقال لا أعتقد ذلك، فأمر أن يقف في وسط الجمع ليبرئ

نفسه من ضلاله، ونهض حينئذ خمسة من أساقفته وصَّروا بأنهم مدعون لتعليم الحبر الروماني ويعتقدون المشيختين في المسيح. وأمر الملك أن يؤتى بالكتب الثلاثة التي كان مكارْيوس قد قدَّمها، وسأله لِمَ جمعت هذه الشواهد؟، فقال لأثبت بها أنَّ الله الآب ولربنا يسوع المسيح وللروح القدس مشيخة واحدة فقال له الملك صرِّح بمعتقدك بيسوع المسيح: أمشيخان فيه أم مشيخة؟ فأجابه قدَّمت لجلالتك دستور إيماني فطالعه فأمر الملك بتلاوته فإذا هو قد صرِّح فيه بأنَّه لا يعتقد في المخلص إلا مشيخة واحدة وفعلًا واحدًا، فحتَّم عليه أن يعترف المشيختين. فقال لا أعترف بمشيختين وفعلين ولو قطعت قطعاً، وأخذ الجمع بمعارضة الشهادات التي أوردها بأصولها، فألفوها محرقة أو مزيفة أو مقطوعة، فحكم الجمع عليه بالحرم والخط عن مقامه الأسقفى .

وعقد المجلس التاسع في ٨ آذار ولم يكن فيه ولا في ما تلاه إلى المجلس الرابع عشر مكارْيوس ولا أحد من تبعته، واستكمل الجمع معارضة الشواهد التي أتى بها مكارْيوس بأصولها فلم يجدوا شهادة منها تطابق أصلها لفظاً ومعنى، وعقد المجلس العاشر في ١٨ آذار وقد أتى إليه إثنا عشر أسقفًا لم يشهدوا المجالس السابقة، فتلا الآباء الشواهد التي اشتمل عليها الكتاب الذي قدَّمه نواب البابا وعارضوها بكتب أصولها التي كانت في خزانة البطريركية بقسطنطينية فوجدت مطابقة لأصولها الطباق التام، وعارضوها بما جاء في ذلك الكتاب من أقوال المبدعين فألفوها مطابقة لكتيبهم المحرَّمة. وعقدت الجلسة الحادية عشرة في ٢٠ آذار وكان نحو من ثلاثين أسقفًا قد أتوا حديثاً إلى الجمع، فتليت في هذا المجلس رسالة القديس صفرونيوس البطريرك الأورشليمي إلى سرجيوس بطريرك قسطنطينية، وكتاب كان مكارْيوس البطريرك الأنطاكي قد قدَّمه إلى الملك واحدى خطبه إليه، وشكا توفان رئيس أحد الأديار من أنَّ مكارْيوس أرسل هذه الخطبة إلى سردينيا ورومة وغيرهما قبل أن تتلى في الندوة، وكانت هذه الخطبة موعبة بالضلال مصرحة أنَّ ليس في المسيح إلا مشيخة واحدة وفعل واحد، وحقق الملك أنَّه لا علم له بهذه الخطبة. ثم تلا غير ذلك من مقالاته وأمر قضاة الجمع أن يؤخذ من أقوال المبدعين الواردة في كتاب نواب البابا ما يشابه أقوال مكارْيوس لتعارض بأقواله أحكاماً للقضاء عليه، واعتذر الملك عن حضوره مع الآباء في المجالس الآتية لما تدعوه إليه مشاغله، ولم يعد يشهد إلا المجلس الأخير .

وعقد المجلس الثاني عشر في ٢٢ آذار وكان المجتمعون فيه نحواً من ثمانين أسقفاً وتلوا فيه مجموعة الشهادات التي كان مكاريوس قد قدّمها للملك، وعارضوا هذه الشهادات بالكتب المأخوذة عنها التي كانت محفوظة في خزانة بطريركية قسطنطينية. فانجلي بطلان شهادته واعتسافه فيها، فأرسلوا إليه مسجلي الجمع وثلاثة أساقفة ينبئونه بما ظهر للمجمع. وسأل القضاة الأساقفة هل يمكن رد مكاريوس إلى كرسيه إذا ارعوى عن ضلاله. فبعد المذاكرة وإيراد ما ثبت عليه من الجرائم والضلال أجابوا لا يمكن رده إلى الأسقفية بل طلبوا إلى القضاة أن يسألوا الملك أن ينفيه من قسطنطينية وكل من يقول بقوله. وتقدّم حينئذ أساقفة بطريركية أنطاكية وكهنتها وسألوا القضاة أن يقام بطريرك على أنطاكية كيلا تلبث مترملة فوعدوا بإجابة طلبهم.

وفي ٢٨ آذار عقد المجلس الثالث عشر وتليت فيه رسائل سرجيوس وأنوريوس فوجدها آباء المجمع مخالفة لتعليم الرسل والمجامع والآباء، فحرموا سرجيوس وقورش وبيرس وبولس وبطرس لتسكعهم بضلال المشيئة الواحدة، وحرموا أنوريوس لأنّ رسالته كانت وسيلة للتشبث بهذا الضلال، وتلوا رسالة صفرونيوس البطريرك الأورشليمي فألفوها مطابقة للإيمان القويم ونافعة في الكنيسة فحتموا بوضع اسمه في جملة تذكارات الآباء في القديس، وكلفوا أساقفة بطريركية أنطاكية أن ينتخبوا بطريركاً مكان مكاريوس فانتخبوا قبل نهاية المجمع توفان الذي كان قد أبدى شديد المدافعة عن الإيمان القويم كما مرّ في المجلس الثامن، فرقي إلى بطريركية أنطاكية، وطالعوا رسائل سرجيوس وقورش وبيرس وباقي أصحابهم، ولما حققوا ضلالهم أمروا بإزالة أسمائهم من التذكارات البيعية وحرموا رسائلهم المذكورة.

وعقد المجلس الرابع عشر في ٥ نيسان وبحث الأساقفة فيه في خطبة منّا إلى البابا فيجيليوس، ورسالتي فيجيليوس إلى الملك يوستينان، وتوادورا الملكة المعلقة على أعمال المجمع الخامس، وأتوا بنسختين من هذه الأعمال احدهما كتبت على رق والأخرى على ورق فألفوها متطابقتين. وأراد الأساقفة النظر في أعمال المجلس السابع من ذلك المجمع فألفوا خطبة منّا ورسالتي فيجيليوس مدخلة على أعمال هذا المجلس ولم تكتب في أيامه وعارضوا النسختين المذكورتين بنسخ أخرى قديمة وكثيرة واحدهما كانت في مكتبة البطريركية، فلم يجدوا أثراً لخطبة منّا أو لرسالتي فيجيليوس فقصوا بإزالتها من النسختين، وبالحرمان أدخلهما. وبلغهم أنّ الراهب

جيورجىوس إنما هو الذي كتب بخط يده تلك الخطبة والرسالتين فأشخص في المجمع، فأقرَّ أنه دون ذلك بطلب أسطفانس تلميذ مكاريوس بطريرك أنطاكية. وقبل لهم إن بولس بطريرك قسطنطينية ألحق مثل هذه الزيادة على نسخة لاتينية من أعمال المجمع الخامس بخط كاهن اسمه قسطنطين، فاستنطقوه فأقرَّ أنه كتب هذه المقالات بأمر بولس البطريرك وعاونه سرجيوس الشماس. وسئل هذا الشماس فأقرَّ أيضاً فحرم حينئذ الأساقفة خطبة منا ورسالتى فيجيليوس المذكورة، ومن اخترعها ومن كتبها ومن زيف أعمال المجمع الخامس. ولم يلتزم المجلس الخامس عشر إلا في ٢٦ نيسان لعطلة عيد الفصح، وشكى فيه بوليكرن الراهب الكاهن بأنه يؤيد ضلال مكاريوس، فدعى وأمر أن يصرح بإيمانه فقال أنه يثبت عقيدته بإقامة ميت، فأجابه المجمع أن يقيم ميتة بحضرة الجمهور، فكتب دستور إيمانه ووضعه على جثة ميت ونادى الميت ساعات فلم تكن حياة لمن ينادى، فحكم الآباء على هذا الكاهن بالخط عن درجته وأطلق الأساقفة الحرم عليه.

وانقطع الآباء عن الاجتماع نحواً من ثلاثة أشهر، فلم يعقدوا المجلس السادس عشر إلا في ٩ آب، وكان بعض الأساقفة البعيدين عن قسطنطينية قد قدموا إليها في هذه المدة، فاستدعي قسطنطين كاهن كنيسة اباميا قسبة سوريا الثانية وسئل عن إيمانه فقال أعترف بطبيعتين بحسب تعليم المجمع الخلكيدوني وبخاصتين لهما، ولا أحاور في مسألة الفعلين بل أقر بمشيئة واحدة في أقنوم الكلمة. فسئل هل تختص هذه المشيئة الواحدة بالطبع الإلهي أو البشري؟ فقال بالطبع الإلهي. وسئل أليس للطبع البشري مشيئة؟ فقال كانت له مشيئته إلى أن مات على الصليب، وأما بعد القيامة فتعزى من الجسد المائت وترك المشيئة البشرية واللحم والدم. وأنه أخذ ذلك عن مكاريوس بطريرك انطاكية. ولما كان من المبادئ المجمع. عليها أن ما أخذه كلمة الله مرة لن يتركه أبداً وأصرَّ قسطنطين على زعمه حرمة المجمع وعقد المجلس السابع عشر في ١١ أيلول ولم يكن فيه إلا الإتياف على إنشاء دستور الإيمان الذي تلي حينئذ ثم أعيدت تلاوته في المجلس الأخير الذي هو الثامن عشر الذي التأم بحضرة الملك في ١٦ أيلول، وكان عدد الأساقفة فيه مئة وستين أسقفاً. وهذه خلاصة دستور الإيمان الذي وضعه هذا المجمع فإنه أثبت المجمع الخمسة المسكونية السابقة وحرم من جسروا أن يحدثوا الضلال الحديث وهم: توادورس الفاراني، وسرجيوس، وبيرس، وبولس، وبطرس بطاركة قسطنطينية، وقورش البطريرك الإسكندري، ومكاريوس

البطريك الأنطاكي، وتلميذه اسطفانس، وألحقوا بهم أنوريس بابا رومة لتغاضيه عن هذا الضلال وعدم تداركه نشره، وأثبتوا رسالتى البابا أغاثون المشار إليهما، وحكموا بأنَّ في المخلص مشيئتين طبيعيتين وفعلين، وأنَّ المشيئة البشرية خاضعة للمشيئة الإلهية ولا خلاف بينهما، ونهوا عن أن يعلم أحد ما يخالف هذا التعليم تحت عقوبة الحط إن كان المخالف اكليريكاً، وعقوبة الحرم إن كان المخالف علمانياً. ووقع على أعمال المجمع نواب البابا الثلاثة أولاً، وبعدهم جيورجوس البطريك القسطنطيني، ثم بطرس الكاهن نائب بطريك اسكندرية، ثم توفان البطريك الأنطاكي، وجيورجوس الكاهن نائب بطريركية أورشليم، ثم سائر الأساقفة، ثم سألهم الملك أرضيتكم جميعكم طوعاً بدستور الإيمان الذي وقعت عليه فصاحوا متفقين هذا معتقد جميعنا، ونحرم كل من قال أو يقول بمشيئة واحدة. ثم تلا احد الاساقفة خطبة اثنى فيها على غيرة الملك وتقواه، وعلى البابا اغاثون ورسالته ورسالة مجمعه الروماني، وسأل الاساقفة الملك أن يوقع دستور الايمان فوق بعد الاساقفة جميعاً، وأمر أن تؤخذ خمس نسخ من هذا الدستور فرسل نسخة للحبر الروماني واربع نسخ للبطريركات الاربع. ووقع الاساقفة على عريضة للبابا اغاثون ينثونه فيها ما وفقهم الله إليه بانفاسه، وبرز الملك منشوراً أمر به بالامثال لرسم المجمع ونهى عن مخالفتها متهدداً بعقوبات شديدة. وسأله مكاريوس الذي حطَّ عن بطريركية انطاكية وتلميذه اسطفانس وبوليكرون المذكورون وغيرهم أن يرخص لهم بالانطلاق إلى رومة للمدافعة عن انفسهم فرخص لهم، فارعوى هناك بعضهم عن ضلاله وبعضهم اصرَّ عليه إلى موته. ومن هؤلاء مكاريوس انتهى ملخصاً عن معجم الجامع للأب بلتيا من طبعة الأب مين.

عد ٦٩٩

مجامع أخرى حرمت بدعة المشيئة الواحدة

عقد القديس صفرونيوس البطريك الأورشليمي سنة ٦٣٥ م مجمعاً في أورشليم دعا إليه أساقفة فلسطين فحرموا هذه البدعة في أول نشأتها وكتبوا رسالة مجمعية أذاعوها في أبرشياتهم وأرسلها القديس صفرونيوس مشفوعة بمقالة ضمنتها آيات الكتاب وشهادات المجامع والآباء المثبتة أنَّ في المسيح مشيئتين وفعلين، إلى البابا أنوريس مع اسطفانس أسقف الطنطورة، ثم أرسل مثل ذلك إلى سائر بطارقة المشرق.

وروى بعضهم أنه عقد مجمع في قبرص نبذ فيه هذا الضلال، وإن صحَّ ذلك كان عقد هذا المجمع لما كتب الملك هرقل إلى أركاديوس متروبوليت هذه الجزيرة أمراً أن لا يعتقد أحد إلا مشيئة واحدة في المسيح، وصادق سرجيوس بطريك قسطنطينية على منشور الملك فلم يحفل أركاديوس بمنشور الملك ولا بمصادقة سرجيوس عليه واستمرَّ محافظاً على الإيمان الكاثوليكي كما مرَّ في عد ٦٩٧. فإن ثبت التمام هذا المجمع الذي لم نلف له ذكراً في معجم الجامع كان أركاديوس عقده حينئذٍ صيانةً لشعبه من هذا الضلال، ولئلاَّ ينفرد بمقاومة منشور الملك.

وعقد مجمع في رومة سنة ٦٤٦م دعا إليه البابا توادورس، فنذ فيه هذا الضلال، ومنشور الملك قسطنط المار ذكره، ثم عقد القديس مرتينس البابا سنة ٦٤٩م مجمعاً آخر شهده أسطفانس اسقف الطنطورة إذ عاد ثانيةً إلى رومة بعد أن كان القديس صفرونيوس الأورشليمي أرسله المرة الأولى إلى البابا أنوريوس، وحرّم هذا المجمع بدعة المشيئة الواحدة ورفع إليه أسقف الطنطورة تقريراً مبيناً حالة بطريكية أورشليم فأقامه البابا مرتينس نائباً له في فلسطين، إذ لم تؤذن الحال بإقامة بطريك لأورشليم كما رأيت في عد ٦٩٣، وعقد مجمعان أحدهما في مديولان بإيطاليا سنة ٦٧٩م والآخر في رومة في بداية سنة ٦٨٠م حرم فيهما هذا الضلال على سبيل المقدمة للمجمع السادس المسكوني المار ذكره. وأرسل مجمع رومة نواباً عنه إلى المجمع السادس المذكور مع نواب البابا أغاثون كما رأيت في العدد السابق وقد عقدت في إفريقيا أربع مجامع غني بعقدها القديس مكسيمس لمناسبة بيروس بطريك قسطنطينية ومن قال بقوله من أصحاب هذه البدعة.

ثم عقد في قسطنطينية سنة ٦٩٢م المجمع المعروف بمجمع قصر الملك لاجتماع الأساقفة في قصر الملك هناك وكان عقده في أيام الملك يوستيناس الثاني الملقّب بالأخرم لجذع أنفه، وكان قد استوى على أريكة الملك سنة ٦٨٤م بعد وفاة أبيه قسطنطين اللحياني، وكان عدد الأساقفة المجتمعين في هذا المجمع مئتين واحد عشر أسقفًا، فجأهروا بأنهم متشبثون بكل ما سنته الجامع الستة السالفة وأنهم يحرمون الأضاليل والأشخاص الذين حرمتهم هذه الجامع، وعليه فقد حرّموا بدعة المشيئة الواحدة وجميع من حرّمهم المجمع السادس المسكوني، والروم يحصون هذا المجمع في جملة الجامع المسكونية لكن الكنيسة اللاتينية تنبذه. ولم يشأ البابا سرجيوس أن

يشتبه مع شدة إلحاح الملك يوستينيانس عليه باثباته، وقد انفرد الملك يوستينيانس بالدعوة إليه ولم يكن فيه نائب عن الحبر الروماني، ولا أسقف من أساقفة الكنيسة الرومانية. وجل ما روى بلسامون أن صحت روايته أنه شهد هذا المجمع أسقف كورين بجزيرة اكريت، وأسقف رافنا. وقد فرض هذا المجمع مئة قانون وقانونين اتخذتها بعض الكنائس الشرقية بمنزلة دستور للتهذيب البيعي، وقد أثبتوا الخمسة والثمانين قانوناً المنسوبة إلى الرسل والكنيسة الرومانية، ولا تعدد هذه النسبة إلى الرسل صحيحة حتى الآن، وقد أخذوا أكثر القوانين التي جمعوها عن المجمع القديمة ولكن بتصرف، ووضعوا قوانين حديثة. ولذلك لم يثبت الكرسي الرسولي هذا المجمع.

فهذه بعض المجمع المشهورة التي حرمت هذه البدعة ولا يجمل بنا أن نفرغ من الكلام عليها دون أن نذيل كلامنا بتفنيد موجز جرياً على ما صنعنا في كلامنا على غيرها من البدع المشهورة. فالإيمان الكاثوليكي يعلم أن المسيح إله كامل وإنسان كامل ذو أقنوم واحد وطبيعتين كاملتين، والإرادة والفعل في الله والإنسان من الخواص اللازمة غير المنفكة، فإن لم يكن في المسيح إلا إرادة واحدة أو فعل واحد فلا يكون إلهاً كاملاً ولا إنساناً كاملاً لأنه إن كانت المشيئة التي فيه إلهية بطل أن يكون إنساناً كاملاً وإن كانت بشرية وليس للاهوته مشيئة بطل أن يكون إلهاً لخلو الناسوت أو اللاهوت من خاصية لازمة غير منفكة وهي المشيئة والفعل، ثم إن المشيئة والفعل من خواص الطبيعة لا من خواص الأقنوم، ففي الثالوث الأقدس ثلاثة أقانيم وليس لهم إلا إرادة واحدة وفعل واحد، لأن ذات الله أو طبيعته واحدة في المسيح أقنوم واحد وطبيعتان إلهية وبشرية فيلزم أن يكون فيه مشيئتان وفعلان لكل طبيعة مشيئة وفعل، وإن كان الأقنوم الفاعل واحداً فإن الذي أقام الموتى والذي مات على الصليب واحد وهو ابن الله وابن مريم لكن الإله لا يموت والإنسان لا يقيم الموتى، فيلزم أن ننسب كلياً من الفعلين إلى طبيعة: فموته إلى الطبيعة البشرية وإقامته الموتى إلى طبيعته الإلهية. وآيات الكتاب المثبتة هذه العقيدة كثيرة فمنها قوله تعالى « لا أطلب مشيئتي بل مشيئة من أرسلني » (يوحنا فصل ٥ عد ٣٠) « ونزلت من السماء لا لأعمل مشيئتي بل مشيئة من أرسلني » (يوحنا ٦ عد ٣٨) « يا أبتاه إن كان يستطيع فاعبر عني هذا الكأس ولكن ليس كإرادتي بل كإرادتك » (متى ٢٦ عد ٣٩) « أيها الآب أجز عني هذا الكأس ولكن ليس كما

أريد أنا بل كما تريد» (مرقس ١٤ عد ٣٦) ففي كل هذه الآيات يريد بمشيئته
مشيئة ناسوته وبمشيئة من أرسله أي الآب مشيئة لاهوته التي هي واحدة مع مشيئة
الآب لمساواته له جوهرًا. وتغنينا هذه الآيات عن ذكر غيرها وعن إيراد شهادات
المجامع والآباء التي لا يكفيها مجلد ونحن نكتب تاريخاً لا كتاباً في علم
اللاهوت. ومن أحب زيادة في البيان فليطالع كتاب تاريخ البدع وردها للقديس
الفونس ليكوري الذي ترجمناه إلى العربية وطبعناه كما مرّ .

ملحق

تاريخ الموارد في هذا القرن السابع

الفصل الأول

حالة الموارد الدنيوية في هذا القرن

عد ٧٠٠

سطوة المردة أي الموارد في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارد - في القرنين الخامس والسادس - القديس مارون
وتلاميذه، وتكاثر رهبانهم، وأديارهم، وتوافر الجمهور المنتمي إليهم والمسمى
باسمهم . ونذكر في هذا العدد طورهم الدنيوي في هذا القرن؛ وذلك درس نلقيه
إلى أبناء ملتنا وجميع مواطنينا نحذرهم به من التهور في مهواة المناوأة للسلطة
السائدة فيهم بوسوسة أصحاب الأغراض البعدين عنهم. فمن المعلوم أن الخلفاء
الراشدين صرفوا اهتمامهم عند أخذهم سورية وطردتهم ملوك الروم منها إلى فتح
مدنها، ولم يكثرثوا لسكان جبالها لقلّة أهميتها وعدم المنفعة منها، ولتعتسر مسالكها

وأن ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها، وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبكوا أمرها ولا تستقيم حالها، ليتيسر لهم العود إليها كما حاولوا مرات فلم يظفروا. فمن ذلك أنهم وسوسوا للموارنة وكانت مساكنهم حيثئذ في الجبال من جبال الجليل إلى جبال انطاكية، فلبكوا حكومتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطر بعض الخلفاء أن يعقد صلحاً مع ملوك الروم على شرائط سيأتي ذكرها؛ ومنها أن ييكترو الموارنة الذين تلقبوا عندئذ مرده، ويصدّوهم عن غزواتهم. وكانت النتيجة حيثئذ أن هؤلاء الملوك البيزنطيين أنفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيجوهم على مخالفة رضى حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الأمرين ومكروا بهم، فسبوا اثني عشر ألفاً من نخبة شبانهم وأبعدوهم عن أوطانهم وجيشوا عليهم وأخربوا أكثر بلادهم، وحرقوا أديارهم، وعمدوا إلى القبض على بطيريركهم. واتصلوا إلى طرابلس على مقربة منه. ولو لم يتدارك الله أمرهم بالنصر على الجيش البيزنطي لأبادوهم عن آخرهم. فهذه هي الأمثلة التي نريد أن يتمثل بها أبناء ملتنا ومواطنونا ليخلصوا في الطاعة للحكومة السائدة عليهم. وإليك تفصيل هذه الأحداث.

قد روى كثيرون من علماء أمتنا أنه كان للموارنة في القرن السابع سطوة وصوله حتى ضبطوا كل ما كان من انطاكية إلى أطراف الجليل، على أننا نؤثر أن نزوي أخبار هذه الأحداث عن كتب المؤرخين القدماء التي أخذ علمائنا عنها هذه الأخبار، لأنها أبعد مجالاً عن مظنة الغرض والغلو والتعصب لأمتهم. قال توفان المؤرخ الشهير (في تاريخ السنة التاسعة للملك قسطنطين اللحياني): «في هذه السنة خرج المردة من لبنان^(١) فضبطوا كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف اليوم بالجبل الأقرع فوق السويدية) إلى المدينة المقدسة (أورشليم) واستحوذوا على قمم لبنان، وانضم إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبح عددهم في مدة وجيزة ألفاً كثيرة، وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبته حتى فكروا بأن الله محام عن مملكة الرومانيين، وأرسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح ويعدون بوفاء جزية كل سنة. فتقبل الملك وفدهم بالإعزاز

(١) قال العالم يعقوب كوار محشي تاريخ توفان في حاشية علقها على هذا المحل ان ابراهيم الحاقلي الماروني يتفاخر بأنه لبناني ومن نسل هؤلاء المردة.

والتكريم وأجابهم إلى سؤالهم ، وأوفد معهم إلى سورية البطريق يوحنا المستى بتسيكود وكان من رجال الندوة في حكومته ، ومتصفاً بالخبرة والحكمة وبحسن التعاطي والمداولة مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح . ولما بلغ سورية قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته . وبعد المداولة بشروط الصلح قرأ رأيهم على كتابة عهده موثقة باليمين على أن يدفع العرب كل سنة إلى الرومانيين ثلاثة آلاف ذهب ، وثمانية آلاف أسير ، وخمسين جواداً من الخيل الجياد . وأبرم الصلح بين الرومانيين والعرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة ، ودوّنت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريق نسخة . وعاد ذاك الرجل الشهير البطريق يوحنا المتواتر ذكره إلى الملك بهدايا نفيسة جداً . وقال توفان أيضاً في تاريخ السنة الأولى لعبد الملك بن مروان : « في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سورية ، وولّى عبد الملك في أمته ، وتواترت غارات المردة في جوار لبنان ، وثقلت وطأة الطاعون . فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد أبرمت في أيام معاوية ، وأرسل وفوداً إلى الملك واعداداً أن يدفع كل سنة ثلاث مئة وخمسة وستين ديناراً . وكذلك من العبيد ، وليس بأقل من ذلك من الخيل الجياد »^(١) . وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانوس الملك : « في هذه السنة أرسل عبد الملك رسلاً إلى الملك لإبرام عهدة الصلح فعقد الصلح على الشروط الآتية : وهي أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصدّ غزواتهم ، وعبد الملك يدفع إليه في كل يوم ألف دينار وفسراً ومملوكاً ، وأن الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وأرمينيا وإيبيريا قسمة عادلة سوية . وأرسل الملك بولس ماجيسترانوس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكّها ووقع عليه أمام الشهود . وعاد ماجيسترانوس مكزّماً إلى الملك . وأبرز الملك أمراً بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن أوطانهم ، وقد أضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لأنّ جميع المدن المجاورة لبنان من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كانت كانت ضعيفة وكانت خالية من السكان بسبب غارات المردة الذين كبتهم الملك . وقد توالى من ذلك اليوم إلى الآن الحزن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطو العرب » . وقال في تاريخ السنة الثانية ليوستينيانوس : « إنّ الملك مضى

(١) قد لاحظ محشي تاريخ توفان المذكور ان عدد ثمانية الآلاف اسيراً في الفقرة الاولى كثير جداً وعدد الثلاثماية والخمسة والستين ديناراً في هذه الفقرة قليل جداً فلا بد من غلط من النساخ في ذكر هذه الاعداد . وسترى ان المؤلف يخالف ذلك في الفقرة التالية .

في هذه السنة إلى أرمينيا فقابل هناك عسكر المردة الذي كان قبلاً في لبنان بمنزلة سور نحاسي لمملكته فذكره بيده». وقال في تاريخ السنة الخامسة للملك المذكور: «في هذه السنة نقض الملك يوستينيانس لطيشه عهدة الصلح المبرمة مع عبد الملك». وذكر ما رويناه في الكلام على عبد الملك من أمره بنقل سكان قبرص وتعتته في قبول الدنانير الحديثة التي صكها عبد الملك إلى أن قال ما ملخصه: «ولما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يسأل يوستينيانس أن لا ينقض العهدة المبرمة بينهما فظنّ يوستينيانس أن عبد الملك يخاف سطوته ولم يتبته إلى أنّ العرب يتطلّبون بعد كبت المردة علة لنقض عهدة الصلح، فكتب يوستينيانس إليهم أنه لا يريد العمل بالشروط المتفق عليها فأجابوه هم أنهم متشبثون بها وأنه إذا نقضها وأرغمهم على الحرب فيكون هو علة لنقضها. والتقى جيش الملك وجيش العرب في الكبدوك، فأرسلوا يسألونه أن لا يخالف العهد الوثيق الإبرام بينهما باليمين، وإلا فينتقم الله من المخالف فأعارهم أذنًا صمًا واقتحم جيشهم فعلّقوا الصحيفة المكتوبة عليها عهدة الصلح على رمح بمنزلة راية لهم. فدارت الدوائر على يوستينيانس وجيشه» - كما رأيت قبلاً. فهذا ما ترجمناه بما أمكن من الدقة عن تاريخ توفان.

وإليك ما قاله شدرانس في موجز تاريخه: «في الستين الثامنة والتاسعة (لقسطنطين اللحياني) دخل المردة لبنان فاستحوذوا على كل ما كان من الجبل الأسود (الجبل الأقرع) إلى المدينة المقدسة، وضبطوا أعالي لبنان، وتألّب إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبحوا في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة. فوجس منهم معاوية ومن معه وفكروا بأنّ الله يحامي بعونه مملكة الرومانيين، فأرسلوا رسلاً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح فأرسل الملك بيساكود إلى السراكسة واتفق معهم على الصلح ودوّنوا صكّه في صفائح على شريطة أن يدفع السراكسة كل سنة إلى الرومانيين عشرة آلاف ذهب. (وفي كتاب زوناراس ثلاثة آلاف) ومائة عبد وخمسين جواداً أصيلاً. ولما علم ذلك سكان المغرب طلبوا هم أيضاً الصلح. وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانس: «في السنة الأولى للملك أرسل إليه عبد الملك رسلاً لإثبات الصلح واتفقا على أنّ الملك يحصر عسكر المردة في لبنان ويمنعهم عن الغارات، ويدفع العرب إلى الرومانيين في مقابلة ذلك في كل يوم ألف دينار وجواداً وعبدًا، فأرسل الملك بولس ماجستريانس إلى عبد الملك لإبرام العهد فوقع على العهدة أمام الشهود، وأرسل الملك قائداً فأبعد اثني عشر ألفاً من

المردة فأضُرَّ ذلك بمصلحة المملكة الرومانية . فكل ما يستحوذ عليه العرب الآن من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كان واهناً لا قوة فيه وخالياً من السكان بسبب غزوات المردة، فكبتهم أنزل بالمملكة الرومانية مضارَّ كبيرة إلى اليوم . فيوستينيانس لم يكن حينئذٍ أكمل السادسة عشرة من عمره فتصرّفه كان على غير هُدى . وقال في تاريخ السنة السادسة ليوستينيانس : « في هذه السنة نقض يوستينيانس بحماقة عهدة الصلح مع عبد الملك لأنه أراد أن يأخذ جالية من قبرص لغير داع ، وأنف من أن يأخذ من عبد الملك الدنانير التي صكّها حديثاً، ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقلية (من اسكلافونيا) نقض المعاهدة المذكورة وزحف بهذا العسكر بكتائب من الفرسان إلى آسيا الصغرى، وأكره العرب بطيشه على نقض المعاهدة . ولما التقى الجيشان أقام العرب الحجة عليه ودعوا إلى الله أن ينتقم من نقض العهد، فلم يقف الملك بل سارع إلى تسعير نار الحرب، فعلق العرب صفيحة المعاهدة على علمهم ووثبوا على الجيش الروماني . وكان قائدهم يسمّى محمداً فتهقّر العرب أولاً ثم تغلبوا على الجنود الرومانيين وقتلوا كثيرين منهم، وقرض الملك من بقي من الصقلية مع أطفالهم ونسائهم »

وقال زوناراس (في ك ١٤ من تاريخه في كلامه على يوستينيانس) : « قد استوى يوستينيانس على منصّة الملك وعمره ست عشرة سنة ، وكان يدبّر جميع مهام المملكة على هواه . فأوقع المملكة في مهالك كثيرة ؛ منها أنّ شعباً يلقّب بالمردة كان قد استحوذ على مشارف جبل لبنان في أيام قسطنطين اللحياني، وكان العرب يخشون صولتهم حتى حملوهم على طلب الصلح من ملوك الرومانيين كما مرّ . (كان زوناراس قد ذكر عقد هذا الصلح قبيل كلامه هذا كما روينا عن غيره) . ولما كان معاوية قد توفي وخلفه عبد الملك أرسل رسلاً إلى الملك الذي ولي حديثاً سائلاً إياه تجديد الصلح وأن يبعد المردة عن لبنان . وإذا رضي هذا الشرط يدفع هو إلى الرومانيين في كل يوم ألف دينار ومملوكاً وجواداً من الجياد . ولما أبرما هذه العهدة أبعد الملك اثني عشر ألف مقاتل من المردة عن لبنان، فاطمأنّ العرب، ولم يبقَ ما يخشونه فأنزلوا بالمملكة الرومانية مصائب شتى . وأرسل يوستينيانس لأنتيوس بجيش فأخضع إيباريا والبانيا وغيرها لسلطته ونقض عهده مع البلغار، ولم يرضَ أن يفوه الجزيرة بل غزا الأمصار الغربية وألب منها جيشاً من ثلاثين ألفاً من نخبة الشبان، وأعزّهم وسقامهم الشعب المختار

فعظم سروره بهم. واعتماده عليهم حتى أراد أن ينقض عهده للعرب أيضاً، متمحلاً لذلك سبباً بأنهم يؤدونه مال العهدة دنانير ليست عليها صورة الملوك الرومانيين بل دنانير عربية حديثة، مدّعياً أنه لا يسوغ صكّ الدنانير إلا وعليها صورة الملك الروماني، وأعلن عليهم الحرب معتمداً لا على جيش الرومانيين بل على شعبه المختار الحديث. وسأله العرب بإلحاح أن لا ينقض العهد ويخالف صكّه الموثق باليمين بالله وهو ينتقم لمن يتسبب بشبوب نار الحرب فصمّ أذنيه عن سماعهم، وأقدم على الحرب فعلق العرب صفيحة العهد على رايتهم وألحموا القتال فانهز عشرون ألفاً من أولئك المستنّين بالشعب المختار إلى العرب فتغلّبوا على الرومانيين وتبعوا آثارهم وقتلوا منهم كثيرين، وفرّ الملك بنفر قليل مدحوراً، وأمر يقتل من بقي من أولئك الجنود وإلقاء جثثهم في البحر وعاد إلى بيزنطية خجلاً. وروى ذلك أيضاً انسطاس المكتبي في تاريخ السنين الأولى والسابعة والثامنة ليوستينيانس. وروى الاهدني أنّ بولس الشماس قال ما قاله هؤلاء وذكر مقاله فإذا هو مطابق لما رويناه. ولم نثر على كتابه لكن الاهدني ثقة في كل ما نقل، بل أشار ابن خلدون إلى ذلك (جزء ٣ صفحة ٧٠) إذ قال: «اشتدّ القتال أيام عبد الملك واجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام، فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين». وذكر ذلك ابن العبري أيضاً في تاريخ الدول (صفحة ١٩٤ من طبعة بيروت) فقال: «استجاش يوستينيانس ملك الروم على من بالشام من المسلمين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار وقيل كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً». هذا ما ذكره هؤلاء المؤرخون القدماء وقد تابعهم عليه كثيرون من الحدّثاء منهم بارونيوس إمام المؤرخين في تاريخ السنين المذكورة، وديلارو في موجز تاريخ الملك السافل في كلامه على قسطنطين اللحياني ويوستينيانس الأخرم، ونطاليس اسكندر في كلامه عليهما في تاريخ القرن السابع، وروهر بخر في الكتاب الخمسين من تاريخه العام وكثيرون غيرهم.

إن سطوات الموارنة المارّ ذكرها وحربهم مع عساكر يوستينيانس التي سنروي أخبارها أكسبتهم لقب مرّة الذي سّمّاهم به المؤرخون القدماء المذكورون. وهذا مما لا يمتري فيه عالم بالتأريخ أو مطالع لأقوال المؤرخين التي روينها مترجمة بحروفها، إذ صرّحوا بأنّ المردة سكان لبنان خرجوا من لبنان فاستحوذوا على ما

جاوره وضبطوا مشارف وأعالي لبنان إلى غير ذلك مما يدلّ صراحة على أنّ هؤلاء المردة إنما هم الموارنة سكان لبنان وجواره، وإلا فمن أين أتى هذا الشعب النفير الباسل إلى لبنان ومتى هاجر إليه ولم لا نرى في كتب المؤرخين القدماء والحدثاء خطة تشير إلى مهاجرة شعب أوطانه وتوطّنه في لبنان وجواره مكان أولئك المسيحيين المنتمين إلى القديس مارون ورهبانه، أو تنبئنا بأنّ أحد الملوك جلا شعباً غفيراً فأحلّه في لبنان وتغلّب على سكانه الأصليين. على أنّ الحدثاء من المؤرخين ولاسيما من ذكرناهم آنفاً وهم بارونيوس وديلاروك ونطاليس اسكندر وروهر بخر يسمون هؤلاء المردة الموارنة ويصوّحون بأنهم إنما لقّبوا مردة لتمرّدهم على الحكومات المارّة ذكرها ومحاربتهم عساكر يوستينيانس الأخرم. ونقتصر من إيراد أقوالهم على ذكر قول ديلاروك في كلامه على قسطنطين اللحياني قال: «إنّ الأئمة المارونية أشبه بالمواد الخفيفة. فلم يكن لتيار القبائل التي غشت سورية أن يغرقها وما برحت كذلك إلى اليوم ومساكنها لبنان العسر المسالك، وأهلها شديدو الحرص على دينهم وشرفهم وكانوا جنوداً كماءة يحسنون الرمي وتفويق السهام، وفرسانهم أحسن الفرسان ورجالهم أشجع رجال المشرق. وقد أخذوا (في أيام قسطنطين اللحياني) يشنّون الغارات على الأعمال المجاورة لهم واستحوذوا على قسم كبير من سورية وأنزلوا الرعب بالسكان من جهة إلى أورشليم، ومن أخرى إلى دمشق وتخوم بلاد العرب. وكانت أهم أعالي لبنان قلاعاً حصينة وابتنوا فيها مدناً كبيرة فوجس معاوية من غزواتهم وغاراتهم» إلى آخر كلامه. إلا أنّ هذه الغارات والسطوات التي كان ملوك الروم يحملونها عليها كانت عليهم وبالأخصّ بمكر هؤلاء الملوك كما رأيت. فإنّ يوستينيانس الأخرم أبعد اثني عشر ألفاً من نخبة رجالهم. وسترى تفصيل ذلك في العدد التالي وترى في ما يليه إنفاذ جيشه إليهم وحرق أديارهم وتدمير قسم كبير من بلادهم.

عد ٧٠١

امراء الموارنة والاثني عشر ألفاً المجلّون منهم

قد روى العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٠١) نقلاً عن البطريك اسطفانس الدويهي الاهدني عن كتاب سرياني حُطّ سنة ١٦١٦

يونانية الموافقة سنة ١٣١٥م ، ترجم الدويهي ما استشهد به من هذا الكتاب إلى العربية هكذا: « في بداية دولة العرب كان يوسف ملكاً على جبيل ، وكسرى على الداخلة التي من اسمه تكتت كسروان، ثم في خلافة عمر بن ابي طالب (هنا سهو من الكاتب والصحيح عمر بن الخطاب) كان أيوب متولي قيسارية فيلبس وبيت المقدس وبعد أيوب تخلف الياس . ولما توجه هرقل الملك إلى بلاد الشام كان ينجده بجيشه، ثم أنّ بعد هؤلاء تولى الملك يوسف تدبير جبيل وجبل لبنان وبعد وفاته تخلف عليه الملك يوحنا . إنّ العرب والسريان اعتادوا غالباً أن يسموا كل متول ملكاً ومن ذلك تسمية هؤلاء ملوكاً والمراد والي أو أمير كما كان قديماً لكل قبيلة أو فصيلة أمير يدبر مهامها، وله الكلمة النافذة فيها، وتنقاد إلى أمره. فالظاهر من العبارة المذكورة أنّ يوسف وكسرى كانا يليان جبيل وكسروان عند استفحال دولة العرب في العربية، ولما أخذوا يغالبون ملوك الروم على سورية في خلافة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب . كان أيوب في خلافة عمر متولياً على قيصرية فيلبس ، وهي بانياس إلى القدس ، فقتل ايوب في الحروب الاولى في فلسطين أو توفي في أثناءها ، فخلفه الياس في الامارة على الموارنة ، فساعد هرقل في الحروب الأخيرة في خلافة عمر بن الخطاب ، ثم توفي ، فخلفه في هذه الامارة يوسف آخر (على ظاهر العبارة) . كان يلي جبيل وجبل لبنان ، وبعد وفاته خلفه الامير يوحنا ؛ وأما يوحنا هذا فقال السمعاني (في المحل المذكور) نقلاً عن الاهدني عن الكتاب السرياني المذكور ما ترجمته: « وقام بعد يوسف ملك (أمير) اسمه يوحنا واستحوذ على الأرض المقدسة (فلسطين) وخرج من لبنان ماضياً إلى الكرمل ومعه جم غفير، وأراد أن يمضي إلى أورشليم فخرج عليه لصوص كثيرون من محل الرغيزين (لم يبيّن السمعاني ولا الاهدني من المراد بهؤلاء فيظهر أنهم ينتسبون إلى محل اسمه رغيز في تلك النواحي، أو الكلمة كناية عن اناس أشرار لأنّ معناها اللغوي المغضوب عليهم) ، وأحاقوا به فوق برج الغرباء فقتلوا من جماعته ثلاثة آلاف بالسيف، فجمع شمل قومه ووثب على الرغيزين وبلدهم ، وقتل منهم تسعة آلاف، وغنم منهم مالا وحيوانات ونساء وأطفالاً، وعاد إلى محله وسكن في بسكتنا وتوفي شيخاً » . وروى الاهدني أنّ في جملة أعمال الامير يوحنا هذا أنّه جهز اثني عشر الف فارس وذهب بهم إلى البقاع فحلوا في قب الياس ، وشرعوا يغزون الجبل الشرقي ويشنون الغارات، فقطعت الطرق وسدت المسالك، فكان من ذلك ضيق شديد وصحبه طاعون وغلاء .

فهذه التعدييات وما أشبهها حملت معاوية على مراسلة الملك قسطنطين اللحياني بطلب الصلح، فعقد بينهما كما رأيت من أقوال المؤرخين التي اثبتناها آنفاً، ولم ينفك هؤلاء الامراء وجماعتهم عن السطو والغزو وشن الغارات بوسوسة ملوك الروم أنفسهم أملاً بأن يستردوا سورية إلى ولايتهم، حتى أكرهوا الخليفة عبد الملك ابن مروان أن يكشف يوستينانس الثاني الملقب بالآخرم طالباً إليه منع هؤلاء الجماعة الذين سموهم لذلك مردة عن غزواتهم وصولاتهم، ومتعهداً أن يدفع له كل يوم الف دينار ومملوكاً وجواداً إن جلا عسكر هؤلاء المردة عن بلادهم لإيهان قوتهم، فانقاد يوستينانس لطيشه وحدثت سنة فجلا من الموارنة اثني عشر ألفاً من نخبة شبانهم، كما تبين من أقوال المؤرخين المذكورين. على أن هؤلاء المؤرخين لم يفصلوا كيف توصل يوستينانس إلى ابعاد هؤلاء الشبان عن مواطنهم ولا بأية وسيلة توصل إليه فجلاً ما ذكره بعضهم أنه توصل إلى ذلك بمكر ومكيدة وأنه أضر مملكته بإبعاد هؤلاء على أن علماءنا قد نقبوا عن هذه الأمور وانبأونا بما علموه من تفاصيل هذه الاحداث فنزويهم عنهم.

وروى العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٠٢) عن البطريك اسطفانس الدويهي الاهدني (فصل ٩ في تاريخ الموارنة) أن يوستينانس جهز جيشاً وسيره إلى سورية وأشاع أنه حامل على العرب، ودفع إلى قائد جيشه خلعاً سلطانية ورسالة مشرفة ليسلمها إلى أمير لبنان، وأمره أن يقابل هذا الامير منفرداً وإذا سنحت له الفرصة قتله. وعند بلوغ القائد إلى البقاع مضى إلى يوحنا أمير المردة بنفر قليل إخفاءً لمكيدته، وقابله في قب الياس ودفع إليه الرسالة والخلع السلطانية ولم يُلفِ متحذراً، بل قابله الامير يوحنا بالترحاب والإجلال، وأخذ القائد يستشير في محاربة العرب ويستجده عليهم ثم دعاه إلى مؤاكلته. وبينما هم على المائدة أشار القائد إلى جنوده فوثبوا على الأمير وقتلوه. ودرى بذلك عسكر المردة فسعر نار الحرب على القائد وجيشه فاقتتلوا طويلاً وظهرت جيوش القائد المستعد للقتال على عسكر الامير الذي اندفع إليه بغته. وإلى ذلك أشار الاسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في ازجاله في كسروان حيث قال :

سكن الامير في بسكنتا وارسل عساكر في بغته

نهب البقاع بفرد نكته وقتل رجاله مع النسوان
 طلع سكن في قب الياس وارسل عساكر مع حراس
 والبقاع تحت حوافر خيله انداس طلع خبره للسلطان
 بعث له خلعة مع قصاد تظمن واكل معهم زاد
 عساكر وراهم تتجرد كبسوه في ساعة اطمئنان
 قتلوه وانقتل معه العسكر وانقتل كثير من الاوחר

وجاء في تاريخ الموارنة المطبوع حديثاً في بيروت (صفحة ٧٤) بأثر ما مرّ من تاريخ الدويهي: « ولما قتل أمير المردة أمّروا عليهم سمعان ابن أخت المقتول ، وكان رجلاً شجاعاً فمشى في اثني عشر ألفاً إلى جهة أرمينية وهدم السد النحاسي ومن هناك اجتاز إلى بلاد تراكية ». فهذه الرواية غير صحيحة ولا تلتحم مع ما تقدّمها وكلمة هدم السد النحاسي مأخوذة من كلام المؤرخين أنّ يوستنيانوس بإبعاده عسكر المردة نقض بيده السد النحاسي الذي كان للمملكة في لبنان . ولا أشك في أنّ النسخة التي اعتمد عليها المعلم رشيد الشرتوني طابع الكتاب المذكور غير صحيحة، بل يظهر أنّ العلامة البطريك بولس مسعد قد اغترّ أيضاً بهذه النسخة غير الصحيحة حتى قال مثل هذا القول في درّه النظم صفحة ٩٦ . والصحيح ما رواه السمعاني (في المحل المذكور أنفاً) من كلام الدويهي وهو: « اما جيش الملك فمن بعد هذه المقاتلة أخذ يخمد جذوة غيظ سكان لبنان ويجامله ويعتذر عن سوء صنيعه، ويقول إنّ قسطنطينية محفوفة بمخاطر شديدة من جراء حملات العرب والفرس عليها، وهي في أقصى الحاجة إلى انجادهم ، ومعاونتهم وأنّه يلزم تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، واكثر من الوعود بأنّ الملك يجزل المكافآت الملكية لمن يطيعه وينجده ، وبعد العناء الشديد ، المديد حملهم على أن يقيموا سمعان ابن أخت الامير يوحنا القتييل قائداً لهم، فمضى قائد يوستنيانوس به وبائني عشر ألفاً منهم إلى ارمينيا (حيث قابلهم الملك يوستنيانوس كما رأيت في كلام توفان الذي رويناه أنفاً) ثم إلى تراكية ». فهذا ما رواه السمعاني من كلام الدويهي وعليه الاعتماد. ويظهر من ذلك ما أشرنا إليه أولاً من أنّ ملوك الروم كانوا يوسوسون للمردة ليخرجوهم عن طاعة الدولة السائدة بهم حتى صار للمردة ضلع مع هؤلاء

الملوك ، ولولا ذلك لما صدقوا وعود قائدهم ولما أغضوا على قتل أميرهم. ويتبين لي أنهم راعوا من جهة اسخاطهم لدولتهم بتعدياتهم، ومن جهة أخرى أنهم إذا عصوا ملوك الروم أيضاً لم يكن لهم طاقة على معاندة الدولتين معاً، فآثروا مطاوعة القائد والمسير معه على بقائهم في أوطانهم عرضة لتنكيل الدولتين بهم، وكانوا يرجون أنّ يوستينيانس ينتفع بخدمتهم ويعيدهم إلى وطنهم، ولم يدروا باتفاق الدولتين على ابعادهم إلّا بعد حلول المصائب بهم. ولا غرو ان عيالهم لحقت بهم ويظهر أنّ ذلك كان سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٨٦م، إذ روى المؤرخون المذكورون أنّ ذلك كان للسنة الثانية ليوستينيانس الاخرم، وحينئذٍ أمر الموارنة عليهم ابراهيم ابن أخت بطريكهم القديس يوحنا مارون كما سيأتي .

وأما ما كان للاثني عشر الفاً المجلولين بعد مضيهم إلى ارمينيا ثم إلى تراكية وأين هي تراكية التي حلوا فيها؟ فقد كان لعلمائنا في ذلك أقوال مبناها على الحُدس والتخمين ولم ينبئنا السمعاني بشيء من ذلك في المكتبة الشرقية التي تتداولها أيدينا، ولما كنت في روما سنة ١٨٦٧م بخدمة المثلث الرحمة العلامة البطريرك بولس مسعد لحضور حفلات العيد القرني للقديسين الرسولين بطرس وبولس ولتطويب بعض القديسين، وكنت مهتماً بتأليف كتابي الموسوم بسفر الاخبار في سفر الاخبار، أخذت اتفقد بعض كتب مكاتبتها لالتقط منها ما أضْمِنُهُ كتابي المذكور، فعثرت في مكتبة مجمع انتشار الايمان على كتاب العلامة السمعاني الموسوم بمكتبة الناموس الديني والمدني وهو نادر ولا يوجد إلّا في اوروبا في بعض المكاتب الشهيرة، ولا أعلم أن في الشرق نسخة منه فأخذت عنه بعض تعليقات ضَمَمْتُها كتابي سفر الاخبار ودونك خلاصتها .

قال العلامة السمعاني في المجلد الرابع من المؤلف المذكور المطبوع في رومة سنة ١٧٦٤م (فصل ٣٥ صفحة ٦٢٠) ما ملخصه : « إنّ توافان المؤلف الرومي الذي ذكر خبر ابعادهم لم ينبئنا أين اقاموا وجلّ ما قاله أنّ يوستينيانس إذ سافر إلى ارمينيا التقى هناك بعسكر المردة الذي أمر بإخراجه من لبنان، ودكّ بذلك السور التحاسي الذي كان لمملكته، إلّا أنّ قسطنطين بروفيروجنات (هو قسطنطين السابع أحد ملوك الروم في قسطنطينية وبروفيروجنات لقب كان أبناء هؤلاء الملوك الذين يولدون لهم في مدة ملكهم يلقبون به وتأويل الكلمة المولود بالبرفير، إذ كانت القابلة تقبل الطفل بالبرفير أو تفرش غرفة الولادة بالبرفير». ابن لاون الحكيم (هو لاون السادس أحد

الملوك المذكورين) قال في كتابه الموسوم بتدبير الملك المطبوع في باريس (فصل ٥٠ صفحة ١٣٧) أنّ المردة نقلوا إلى بمفيلية، وقام قائدهم في مدينة اضاليا. وذكر في كتابه الاول في اعمال المملكة (فصل ١٤) عمل بمفيلية وفيه المردة الذين جلوا من لبنان يليهم قائد لهم وقد استمروا هناك من عهد يوستينانس إلى أيامنا أي أيام المؤلف الذي كان في منتصف القرن العاشر. وقد أسهب هذا المؤلف الكلام فيهم في الفصل الخمسين من كتابه المذكور، ومما قاله ان ملك قسطنطينية كان يُنصب للمردة والياً منهم في اضاليا يسمى قبطاناً، وأنّ الملك أباه نصّب لهم والياً اسمه استوراشيوس بلاتين، وادف السمعاني كلام قسطنطين بقوله يظهر مما قيل أنّ المردة كانوا في بمفيلية في عهد الملك لاون الحكيم وأخيه اسكندر وابنه قسطنطين صاحب التأليف المذكور - أي في سنة ٩٥٠م إلى أن قال كان الملك ينصب لهم قاضياً يسمى قاضي اضاليا. وفي سنة ١٠٧٤م في أيام الملك ميخائيل السابع من ملوك الروم كان أحد هؤلاء القضاة اسمه ميخائيل الف كتاباً في الناموسين الديني والمدني طبع في فرنكفورت سنة ١٥٩٦م، وكان في قسطنطينية مرتبة لكبير المردة من ايام الملك ميخائيل المذكور إلى أن أخذت قسطنطينية من ملوك الروم سنة ١٤٥٣م. ويستشهد السمعاني لصحة ذلك كتاباً لغريغوريوس كودونيوس كوروبالات الذي كان حياً عند افتتاح العثمانيين قسطنطينية حيث ذكر كبير المردة في قسطنطينية، ومما قاله إنّه كان يحمل عكازاً من فضة مموهاً بالذهب. واستشهد أيضاً متى جاتر الراهب الكاهن في كتابه في مراتب القصر القسطنطيني حيث روى أنّ الرتبة السابعة عشرة بعد الملك كانت لكبير المردة. واستشهد أيضاً كتاباً آخر مجهول المؤلف. فالنتج من كل ذلك أنّ الموارنة المجلولين استمروا في بمفيلية ولهم ممثل في قسطنطينية إلى أن أخذت الدولة العثمانية قسطنطينية سنة ١٤٥٣م .

وأما تراكية التي أقاموا فيها فالصحيح أنّها قسم من كيليكيا وهي الآن ولاية اذنه، ومن المعلوم أن كيليكيا مقسومة إلى قسمين سهلية وجبلية فالسهلية قاعدتها اذنه وترسيس، والجبلية من مدنها سلوقية كيليكيا، وكان القدماء يسمونها تراكية أي الحجرية أو المحجرة، والآن يعبرون عنهما بكيليكيا الاولى. وكيليكيا الثانية. وبمفيلية متاخمة لتراكية غرباً. وهذا يؤيد ما رواه السمعاني وليست تراكية تراسة أي الروملي كما فسر بعض علمائنا .

وأما ما كان من أمرهم بعد ذلك فلم نطلع إلى الآن على شيء أكيد منه قال

بعضهم: ان المرديت المقيمين الآن في البانيا هم المردة الموارنة ارتحلوا من بمفيلية إلى هناك وروى بعضهم أنّ بعض هؤلاء المرديت حقق أنّ عندهم تقليداً يؤيد ذلك وكان المرحوم واصه باشا متصرف لبنان من هؤلاء المرديت، إلا أنه لم يكن يقر بصحة هذا التقليد، فقد سأله عنه فانكر صحته والله أعلم بأمرهم .

عد ٧٠٢

حرب الموارنة وعسكر الملك يوستينيانس الاخرم

إنّ يوستينيانس الأخرم لم يقصر على تدبير مملكته بطيشه وسوء تصرفه بل أراد أن يدبر كنيسة الله كذلك ، فعني بعقد مجمع بقصره وهو المعروف بمجمع قصر الملك دون أن يعلم الخبر الروماني به، وأدخل الأساقفة في ذلك المجمع قوانين لا تسلم بها الكنيسة الكاثوليكية ، وطلب الملك إلى البابا أن يثبت ذلك المجمع فلم يجبه إلى سؤاله ، وتسكع يوستينيانس ببدعة المشيئة الواحدة وطقى يؤيد أصحابها ويضطهد الكاثوليكين، فناصره البابا سرجيوس الحبر الروماني ، وناضل البطريرك يوحنا مارون وشعبه الموارنة عن المعتقد الكاثوليكي بالمشيئين ، فبلغ من حمق يوستينيانس ان ارسل قائداً من قادة جيشه إلى رومة ليشخص البابا سرجيوس إلى قسطنطينية وقائداً آخر إلى سورية لينكل بالموارنة ويأتي إليه ببطريركهم . أما إرساله الجيش إلى رومة ليأتي إليه بالبابا فقد أثبتته كثير من المؤرخين، ودونك ملخص ما رواه أحدهم روهريخر (في ك ٥٠ من تاريخه) نقلاً عن أنسطاس المكتبي في كلامه على البابا سرجيوس وعن بولس الشماس (في ك ٢ من تاريخه فصل ١١) قال: « إنّ الملك ارسل زكريا أحد أعوانه ليشخص البابا إلى قسطنطينية فاستشاط أهل إيطاليا والمغرب عند سماع هذا الخبر، فزحف الجنود من رافنا وغيرها تبعاً إلى رومية غيرة على دينهم ورئيسه، وشعر زكريا بدنوهم من المدينة ففزع إلى البابا يسأله أن يوصد أبواب المدينة ويقيم الحراس لئلا يقتلوه ، ولم يعأ الجنود بتوصيد الابواب ولا بالحراس وانتهوا إلى قصر لاتران حيث كان البابا ، فأسرع زكريا مرتعداً إلى مخدع البابا يسأله بدموع سخينة ان ينجيه من الموت ، واختبأ تحت سرير البابا مرتعشاً مضيقاً رثده، فسكن البابا روعه وأشرف على الجنود والشعب الغفير المتألب هناك فجاملهم وأسكن جيشانهم ولم ينفكوا حتى طردوا زكريا من رومة مذعوراً مسبواً .

وأما يوحنا مارون البطريك فقد أنبأنا البطريك إسطفانس الدويهي أن الملك عزم أولاً أن يرسل إليه لاون قائد جيشه ليأتي به مكبلاً، فأحجم القائد عن المسير معتذراً بأن البطريك معزز بقومه فلا يمكن الإتيان به إلا بعد حرب شديدة، وكان هذا القائد يحب الموارنة وقد أنجدوه في حربه للعرب . فسخط الملك على لاون وطرحه في السجن، وأمر موريق ومرقيان أن يسيرا بجيش إلى سورية، وأشاع انه سيرهم لقتال العرب ودرى البطريك بما دبره الملك فاستدعى ابن اخته الأمير إبراهيم فأتاه باثني عشر ألف مقاتل، فنقلوا البطريك من دير القديس مارون على العاصي إلى سمر جبيل. وإليك ما رواه السمعاني (مجلد من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠٥) نقلاً عن الدويهي في تاريخ الموارنة في شأن هذه الحملة عليهم: « لما كانت سنة ٦٩٤ بلغ جيش الملك في أواخر الربيع إلى سورية فوثبوا أولاً على دير القديس مارون لأنه علة هذه الحرب وقتلوا من رهبانه خمسمائة راهب، وجعلوا الدير قاعاً صفصفاً وتحولوا من هناك إلى قنسرين والعواصم وضربوا هذين البلدين المهمين في ذلك العمل، وقرض أصحاب المشيئة الواحدة سكانهما عن آخرهم، وتركوا كل ما فيهما غنيمةً للجنود، ولم يتوقفوا عن قتل أحد من اصحاب الإيمان القويم إلى ان انتهى مريق ومرقيان إلى مدينة طرابلس وخرجوا منها، فضرب جيشهما أطناب خيامه في السهول المجاورة المدينة، فالتقاهم سكان الكورة واعدن أنهم يصنعون ما أمر الملك به إذا أعطوهم الامان، فاعطوه بطيبة خاطر بعد أن أقرّوا بالضلال (أي بدعة المشيئة الواحدة)، فحلّ الجيش في السهل الذي بين قرية أميون وقرية النawas الواقعتين في سفح جبل لبنان، فقدم لهم سكان القرى المجاورة ما يحتاجون من الزاد وغيره. وسأل بعض أعيان تلك البلاد مريق ومرقيان القائدين ان يعطيهم هدنة واعدن ان يحملوا قومهم في تلك المدة على الطاعة والخضوع لمولاهم، فهادنوهم وأرسلوا إلى أمراء المردة رسائل يحضونهم بها على العمل بمقتضى أوامر الملك، واستحوذ الرعب على السكان الكاثوليكين لدنو العدو إليهم، وأيقنوا انهم لم يعد لهم منجاة إلا بالالتجاء إلى الله بصلوات خاشعة ودموع هامة، فاستجاب الرب صلواتهم وعزاهم بحدوث حدث لم يكن في حسابانهم، فقد وردت حينئذ رسائل من قسطنطينية من لاون (أولانتس) القائد المذكور آنفاً إلى البطريك يوحنا وإلى سمعان أمير لبنان يشرهما فيها بخلع يوستينيانس من الملك وترقيته هو (أي لاون) إلى منصبه، ويأمرهما بضرب الجيش الذي أرسل إلى سورية بمنزلة عدو للملك،

وذاق هذا الخير بين الكاثوليكين فحمدوا الله وشكروه على هذه المنة واستبشروا بنصر مبين وارتأوا أنه لا يلزم انتظار العدو ليقدم إليهم فاندفقوا من أعالي الجبال اندفاق الماء المنهمر ووثبوا على جيش يوستينيانس وثبة الاسود، حتى ان كثيرين من الاعداء ولوا الفرار قبل وصول الوثنيين إليهم، وتفرقت صفوف العدو وأحاق بهم الموارنة من ورائهم ومن جانبيهم فاثخنوا فيهم وابسلوا كثيرين منهم، ووقع موريق قتيلاً فأخذ أهل الكورة جثته ودفنوها في أميون». وقال السمعاني بعد ذلك أنّ الدويهي استكمل خبر انتصار الموارنة مستشهداً بكتاب تعليم اليعاقبة واشعار البطريك يوسف العاقوري واليك ما اشار السمعاني إليه من مقال الدويهي: «وهكذا اخبر اليعاقبة في كتاب معتقدهم» ولما انتهى الملكية إلى قرية اسمها اميون تميز مويرين (بالتصغير تحقيراً) وابن اخته بريهم من الملكية ولحقوا سمر جبيل وحموا أهلها من اداء الجزية التي فرضها الملكية على من لا يتبع مذهبهم ووافق مارون كل السريان الذين في جبل لبنان ونجوا مما كانوا يخشون». وإلى ذلك أشار الخوري يوسف العاقوري (الذي صار بطريكاً على الموارنة بعد ذلك) في زجلياته التي اخبر بها عن قدوم عسكر الروم إلى لبنان في الميمر الذي الفه سنة ١٦٢٠م.

خرجوا من اسطنبول متفقين	مع جوقة أعداء شياطين
والسيوف على الموارنة مسلولين	خالفوا لمارون وطاعوا الملكية
فيهم من طاع ومن خالف	والسيف فوق رأسه مؤلف
والبعض من الفزع تخلف	وطاعوا إلى الملكية
داموا في الشر مصطدمين	حتى نزل الأمير مسعود والمقدمين
والعساكر في أميون مجتمعين	والقتل وقع في الملكية
انقتلوا القواد في أميون	وانتصر جماعة مارون
والروم على موريق ابتون	كنيسة لليوم مسمية

هذا ما أشار السمعاني إلى ان الدويهي استكمل به خبر إنتصار الموارنة وأردفه بقوله إن الدويهي قال في مريق ومريان عند تفنيده مزاعم سعيد بن بطريق بطريك الإسكندرية: «من البين أن مريق قتل في الحرب التي ذكرناها، ودفنه الملكية في

قرية أميون، وأقاموا على مدفنه كنيسة وجعلوا عيداً لذكره في اليوم ٢٦ من تموز وهو من الأعياد المشهورة عندهم. وأما مرقيان فجرح في وقعة الحرب فحمل إلى قرية شويته في عكار ومات بعد قليل من الزمان، وأقام الملكية له هيكلاً وعيداً» وقد ورد مثل ذلك في مقالة مرهج بن نمرون الباني في أصل الموارنة.

انتهى كلام السمعاني وقد أشرنا أن ننقل عنه كلام الدويهي مترجماً عن اللاتينية من أن ننقل كلام الدويهي العربي؛ أولاً: لأن نقل العلامة السمعاني له يزيده قوة وثباتاً ولا سيما أن السمعاني قد انتقد الدويهي في كل ما كان من كلامه محلاً للنقد كما ستري، وشرح كل ما كان مبهماً أو غامضاً فيه ثانياً، لأن نسخ تاريخ الدويهي التي اعتمد عليها السمعاني في رومة أصح من النسخ العربية التي تتداولها أيدينا في سورية، وقد رأيت آنفاً ما أنباه من الخطأ في النسخة التي اعتمد عليها العلامة البطريرك بولس مسعد وطابع كتاب تاريخ الدويهي، ثالثاً لأننا نظن السمعاني لم يرو ما رواه عن الدويهي إلا معارضاً بنسخ كتابه العربية التي كانت في رومة وبترجمته إلى اللاتينية. وقد أنبأنا (مجلد ١ من مكتبة الشرقية صفحة ٤٠٥) أن العلامة الآخر الأب بطرس مبارك اليسوعي الماروني قد ترجم هذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية، وهذا أيضاً مما يزيد شهادة الدويهي ثبوتاً وثقة بصدقها.

عد ٧٠٣

الإنقسام بين الموارنة والملكية

يشهد الله، ويعلم كل من عاشرني وأطلع على دخيلتي، أنني والحمد لله منزّه عن كل تعصّب طائفي لغير الحق وهائم بالإلفة والوفاق بين كل اصحاب المذاهب الدينية أيها كان، كلفاً بالراحة والتضافر على كل ما به الخير العام والخاص والنجاح والقوة التي لا تقوم إلا بالإتحاد والخضوع للسلطة الشرعية. وعليه فما ذكرته في الفصل السابق، وما سأذكره الآن، لا يحملني عليه وآيم الله إلا بيان الحق كما يحصحص لي ويتجلى عليّ، ولا أشاء أن انتقص ملة أو أحداً أيّاً كان بل أن اكشف عن وجه الحقيقة التاريخية كما أراها في كتب القدماء الموثوق بصدقهم.

روى الدويهي في تاريخه ان بدء الإنقسام بين الموارنة والملكية إنما كان بسبب التحامل على يوحنا مارون وبسبب الواقعة التي كانت بين جيش الروم وأهل الكورة وبين مجاورهم الموارنة . فالذين تبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سموا ملكية نسبة إلى الملك الذي كان من أهل البدعة، والذين ثبتوا على الإيمان وطاعة البطريك يوحنا مارون استمروا يسمون موارنة. وقد أورد السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٧). قول الدويهي كما ذكرناه وقول ابن نمرون الباني الماروني إلا أنّ بعضهم رأى أن تسمية الملكية أقدم من ذلك العصر وقال انهم ينتسبون إلى الملك مرقيان والمجمع الرابع (الخلكيديوني) . وأول من قالوا بهذا القول من السريان على ما اعلم إنما هو ديونيسيوس بن صليبا سنة ١١٦٠م (في الفصل الاول من شرحه رتبة القداس) وهاك قوله «إنما سموا ملكية لانهم تركوا إيمان الآباء واتبعوا رأي الملك مرقيان». وقال مثل ذلك من اليونان نيكوفور كالستس الذي كان مشهوراً في سنة ١٣٣٠م (في تاريخه ك ١٨ فصل ٥٢) وهاك قوله «ظهر في سورية شقاق عظيم في أيام يعقوب (البردعي) هذا الذي كان يدعو إلى بدعة الطبيعة الواحدة، فمن تشبثوا بالإيمان القويم سموا ملكية لأنهم اتبعوا المجمع الرابع المقدس والملك لان ملكو عند السريان تأويلها ملك». ولا أذكر أحداً من المؤرخين اليونان والعرب واللاتينيين الذين كانوا بعد نيكوفور وابن صليبا كساويرس أسقف الاشمونيين، وابن الراهب مؤلف التاريخ الشرقي وجيورجيوس بن العميد الذين اتبع بارونيوس رأيهم لأنهم انتحلوا كلام ابن صليبا ونيكوفور، ولا أحفل بذكر سعيد بن البطريق البطريك الإسكندري وان كتب في القرن العاشر، وذكر الملكية متواتراً (مجلد ٢ صفحة ١٦ و ٣٣، و ٧٩ و ٩٥ و ١٠٠ و ١٠٣) ولم يذكر اصل هذا الاسم بل يتبين من كلامه انه كان مستعملاً قبل مرقيان الملك مراداً به اصحاب الإيمان القويم لأنه قال (صفحة ١٠٠): «وكان مرقيان الملك حسن الامانة وكان يدين ويقاقل عن امانة الملكية» ولا اعبأ ايضاً بقول توما الحارقي اسقف كفرطاب من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة الذي كانت محاوره بينه وبين يوحنا بطريك الملكية سنة ١٠٨٩م، في ان في المسيح مشيئة واحدة اثبت فيها ان الملكية سموا بهذا الاسم لأنهم اتبعوا يارشاد القديس مكسيمس المعترف الملوك: مرقيان وأخاه وموريق سلفاء هرقل، وإليك قوله (عن كتابه الذي هو الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية). «ان مكسيمس مضى إلى الملكيين مرقيان وأخيه وإلى

موريق الذي خلفهما في قسطنطينية فرخصوا له أن يندثر بمشيئتي المسيح في سورية، فمن امتثلوا اوامرهم سموا ملكية». قلت لا أعبا بهذا القول لانه لا شاهد له بل هو مخالف لجميع آثار التاريخ الكنسي التي نصت على ان الملك مرقيان كان قبل موريق الملك بمئة سنة ونيف وانه لم يكن أخ يشاركه في الملك ولم يكن في أيامه ولا في ايام موريق الملك بحث في مشيئتي المسيح بل نشأ هذا البحث في ايام الملك هرقل خليفة فوقا وموريق لنحو سنة ٦٢٨ م .

والذي أراه راجحاً أنّ اسمي الملكية والمردة كانا في عصر واحد وأحدهما يخالف الآخر، ولم يكونا يدلان في أول استعمالهما على دين أو طقس كما ارتأى بعض العلماء الموارنة، بل على غرض أو حزب مدني، وان دلاً على ذلك بعداً أعني لما افرق كل فريق منهما عن الآخر بطوقه ورعائه ومذهبه، لان من عصوا الملك بسورية سموا مردة اي عصاة ومن استمروا على طاعة الملك سموا ملكية، وإنما كان هذا في أيام الملك قسطنطين اللحياني لما استحوذ المردة على كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف بالجبل الاقارع) إلى مدينة اورشليم المقدسة كما أثبت توفان وشدرانس. ويؤيد ذلك صمت جميع الآباء والمؤرخين القدماء عن ذكر الملكية، فقلب ما شئت كتب الآباء في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع فلا تجد ذكراً للملكية، ودقق في مطالعة تواريخ بروكوب وأفاغريوس وتوفان وشدرانس وزوناراس وتوافيلكتس، فلا تلقى أثراً لهذا الاسم في كتبهم بل لا نجد ذكراً للملكية في كتب اولي البدع ايضاً كبطرس القصار، وفيلوكسينس المنبجي، وساويرس، وبطرس الالغ، ويوحنا فيلوبون، والداراوي وغيرهم، بل تراهم سموا الكاثوليكين متواتراً خلکیدونيين او مجمعيين ولم يستمّوهم قط ملكيين. وبالعكس ذلك ترى توفان وشدرانس صريحاً مرات بذكر المردة ولم يصماهم بيدعة وهذا دليل واضح على ان اسمهم دال على غرض أو حزب مدني لا على زيغان عن الدين، ولذلك سمي اعداء المردة ملكيين بلغة موطنهم. ولو أشعرت هذه التسمية بيدعة لكان من كتبوا تاريخ تلك الايام والبدع التي نشأت فيها بسورية وصفوا إحدى الفرقتين باراتيكية ثم ان هذين الاسمين سريانين واول استعمالهما كان في سورية، ويؤيد ذلك اللفظ نفسه، وإقامة المردة والملكية قديماً وإلى الان في سورية. وقد ندر او انقطع وجود الامتين في غيرها، ولهذا لا يعبا بقول باجيوس (في تاريخ سنة ٦٢٢ م) إن اسم ملكية وضع في ايام

مرقيان في مصر ... إذ لم نر مؤرخاً قبل سعيد بن بطريق عزا اسم ملكية إلى مرقيان ولو وضع هذا الاسم في مصر لما سمي الكاثوليكيون ملكية، وهو لفظ سرياني أو عربي بل باسيلين عن لفظ ملك في اليونانية، أو بلفظ آخر من لغة المصريين والامر بين كالنور. فالمصريون لم يستعملوا السريانية قط ولم يتكلموا بالعربية إلا بعد مرقيان، والمجمع الخلكيدوني بقرنين لما فتح عمر بن الخطاب مصر. وأما تسمية العلماء الحدباء الروم المصريين ملكية فلا يحفل بها لأن اسم اليعاقبة لا مراء في انه منسوب إلى رجل سرياني، ووضع في سورية، وقد سمي به بعد ذلك اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في مصر. فإن هذه الاسماء عرضة لتغير مدلولها، يؤيد ذلك اسم الملكية فقد كان أولاً دالاً على السريان الكاثوليكين والآن هو عبارة عن الروم المتحدين وغير المتحدين وعن المصريين اصحاب الطقس اليوناني، واللبنانيون كانوا يسمون في القرن السابع مردة، والآن يسمون موارنة نسبة إلى القديس مارون الذي بني له الدير على العاصي في جانب أباميا، وفيه نشأ يوحنا بطريركهم وقد سمي لذلك مارون». انتهى كلام السمعاني مترجماً بحروفه ولا يتسنى لي أن أزيده بياناً. فعمدة برهان هذا العلامة أن اسمي مردة وملكية يقابل أحدهما الآخر وقد كانا في عصر واحد ونشأ في بلاد واحدة وهي سورية وجل الخلاف في نسبة الملكية إلى مرقيان الملك. وهذه النسبة غير ثابتة إذ لا تجد لها ذكراً في كتاب من جميع كتب العلماء والمؤرخين من القرن الرابع إلى القرن العاشر كاثوليكين كانوا أو هرطقة. وأول من ذكرها هو رجل هائم أن يشرف امته ومعروف بطيشه وكثرة اغلاطه وهو سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري الملكي ومن أخص قواعد الانتقاد أن الاحداث الهامة إذا لم يذكرها مؤرخو القرن الذي حدثت فيه فلا يركن إلى صحتها ومن قالوا كسعيد بن البطريق بصحة هذه النسبة إلى مرقيان الملك يحمل كلامهم على انتحاله عنه أو على المتابعة له على زعمه ولا تصلح شهادتهم لتأخرها قرناً عن هذه التسمية ولم يعزوها إلى مؤرخ معاصر فلا أساس راهن لها، وعليه فهي ساقطة ولو كثر عدد القائلين بها من المتأخرين ولو صدقت هذه التسمية على من اتبعوا المجمع الخلكيدوني والملك مرقيان لكان رهبان القديس مارون أحق بها من سواهم؛ إذ ناضلوا عن هذا المجمع وسفك كثيرون منهم دمهم في الدفاع عنه كما روى كثيرون من القدماء والمتأخرين، وكما تشهد الكنيسة الرومانية بتعبيدها لهم، ولا نرى أحداً دعاهم ملكية. والحق أقول أنني لم

أجد أنا أيضاً في مطالعاتي (وان لم تقس على شيء من مطالعات العلامة السمعاني) قولاً واحداً من أقوال العلماء قبل القرن العاشر يثبت هذه النسبة، واحسبني سعيداً ان ظفرت بشيء من ذلك لأغَيِّر رأيي هذا.

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون واسقفيته وبطريركيته وتأليفه

عد ٧٠٤

منشأ القديس يوحنا مارون

نعمد في ترجمة القديس يوحنا مارون على ما دونه العلامة السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٦ وما يليها) نقلاً عن الكتاب العربي الذي خطه سنة ١٤٩٥م جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي اسقف نيكوسيا بقبرص إلى القس جيورجيوس بن بشاره رداً على اليعاقبة، وقد اذاعه الأب فرنسيس كوراسمس مترجماً إلى اللاتينية سنة ١٦٣٩م في مؤلفه وصف الارض المقدسة (ك ١ فصل ٢٧ صفحة ٩٦)، ونقلاً عن العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب محاماته عن الموارنة (ك ١ فصل ٧ وما يليه).

قال السمعاني في المحل المذكور ولد يوحنا في قرية تسمى سروم موقعها في جبل السويدية على مقربة من مدينة انطاكية، وقد استشهد لصحة ذلك افاغريوس (في ك ٤ من تاريخه فصل ٣٨) وكاتب ترجمة يعقوب البردعي بالسريانية على ما روى الاهدني (في الفصل السادس من تاريخ الموارنة) حيث يقول: «اشتهر يعقوب بحفظ ايمان الرسل الذي تلقيناه من يعقوب أسقف أورشليم الاول، وملاً الكنيسة بأعماله الحسنة، ولذا يلتقي الآن الهراطقة وأصحاب الايمان القويم فيسألهم الهراطقة من أتم ومن تتبعون، فيجيبهم الارثوذكسيون اننا نتبع ايمان

يعقوب اول الرسل الذي سمي اخا الرب بالجسد وهذا الايمان قد أرشدنا إليه يعقوب هذا الإلهي (أي البردعي) . واما المخالفون فيقولون نحن نتبع افرام الآمدي (بطريك انطاكية الذي ذكرنا ترجمته) أو يوحنا السرومي وهو البطريك المخالف لله. ولا مراء في أنّ كاتب هذه الترجمة اليعقوبي يريد بيوحنا السرومي يوحنا مارون الذي كان يناصر اليعاقبة في سورية لا يوحنا السرومي الآخر الذي خلف افتيشيوس بطريك قسطنطينية في أيام يوستينانس الملك كما روى افاغريوس في المحل المذكور، لأنّ هذا السرومي لم تكن له علاقة أو بحث مع سكان لبنان وسورية بل ربما لم يعرفوه ولم يسمعوا باسمه .

وقد جاء في تاريخ البطريك اسطفانس الدويهي أنّ ابا يوحنا مارون كان اسمه اغاتون، وكان اسم أمه انوهاميا، وأنهما كانا حسيين شرفين من نسل ملوك فرنسا. وقد اعتمد في ذلك على كتاب قديم كرشوني كان في كنيسة السيدة بدمشق قيل فيه: « كان رأس الأمة المارونية رجل اسمه يوحنا فاضل عالم مستقيم كثير الفضائل وهو من أصل شريف، اسم أبيه اغاتون واسم أمه انوهاميا واسم جده اليديس ابن أخت ملك فرنسا » وجاء مثل ذلك في ترجمة يوحنا مارون التي كتبها جبرائيل اللحفدي اسقف نيكوسيا إلى القس جرجس بن بشاره سنة ١٤٩٥م كما مرّ. وارتأى الدويهي وابراهيم الحاقلي (في شرحه قصيدة عبد يشوع الصوباوي) أنّ يوحنا مارون هو المراد بقول عبد يشوع **مَهْمَلْ كَدَه قَتْلُكْ** أي يوحنا ابن الافرنج. على أنّ هذه الرواية لا يمكن تحقيقها ولا القطع بصحتها وان كنا لا ننكر أنّ كثيرين من الافرنج كانوا يسكنون وقتئذ في سورية للتجارة وللهرج الذي احدثه الغطط والبندالة وغيرهم في اوروبا في القرنين الخامس والسادس، بل قد اثبت القديس ايرونيμος أنه كان من أيامه كثيرون من الاوروبيين في سورية، وإن كان الدويهي بعد ان روى ان اليديس جد يوحنا مارون كان ابن أخت كارلس الكبير ملك فرنسا، انتبه إلى ما يرد على ذلك من ان هذا الملك كان بعد يوحنا مارون بسنين متطاولة، وحل هذا المشكل بأنّ كثيرين من ملوك فرنسا سموا باسم كارلس وأنّ كارلس المذكور لم يكن ملكاً بل كان أميراً في انطاكية، ودعي ملكاً. جرياً على عادة السريان والعرب أن يسموا كل حاكم أو متولٍ ملكاً إلا أنّ كل ذلك لا يبلغ هذه الرواية إلى درجة التحقيق بل إلى درجة احتمال الصحة فقط، وقد أثبت العلامة السمعاني (مجلد ٢ صفحة ٣٠٦) أنّ الدويهي والحاقلي قد

انخدعا برواية عبد يشوع الصوباوي وصحيح كلامه ، **٥٥٠** **سجل** **حزقيا**
أي يوحنا ابن الفخارين لا ابن الافرنج، فمن ذكره عبد يشوع إذاً ليس يوحنا مارون
فلا يثبت قوله أنّه كان افرنجياً .

إنّ والذي يوحنا سلماه مذ حدائته إلى المدارس لاقتباس العلوم في انطاكية أولاً
ثم في دير القديس مارون، فنبغ في العلوم اللغوية والرياضية والآلهية، ولشدة هيامه
بالعلم سار إلى قسطنطينية فاتقن تعلم اليونانية بفنونها، والفلسفة، وانكبّ على
مطالعة كتب الآباء القديسين وتفسيراتهم، وبلغه نعي والديه فعاد إلى انطاكية
وكانت له شقيقة لها ابنان يسمى احدهما ابراهيم والآخر قورش، وكان ابراهيم
فطناً أدياً شجاعاً فسلم إليه تدبير البيت والأملك وساد بعد ذلك في قومه وأخذ
يوحنا قورش أخاه وصعد به إلى دير القديس مارون الذي على ضفة العاصي زاهداً
في العالم ومجده وكرامته، فليس هو وابن اخته قورش زي الرهبان ونذر يوحنا
نفسه لله ورقى إلى درجة الكهنوت وسمي يوحنا مارون نسبة إلى القديس مارون أو
إلى ديره، وتقانى في حب خلاص النفوس وارشاد الناس إلى الايمان القويم
والفضائل مناضلاً اولى البدع ومناصباً الأشرار، فصنّف كتباً كثيرة ووضع مقالات
شتى سنّاتي على ذكرها، وكان ينمو بالحكمة والنعمة كل يوم ويعظم ثوابه لدى
الله ويرتفع قدره لدى الناس ولم نظفر بما ينبئنا بسنة مولده وقد أجمعوا على أنه
توفاه الله سنة ٧٠٧م، فإن قُدِّر أنّه عاش ثمانين سنة كان مولده سنة ٦٢٧م .

عد ٧٠٥

أسقفية القديس يوحنا ماررون

جاء في ترجمة يوحنا مارون التي ذكرها السمعاني (مجلّد ١ من المكتبة
الشرقية صفحة ٤٩٩) أنّ يوحنا مارون هدى كثيرين إلى الإيمان القويم، وكان
كثيرون يأتون إليه ويعملون بما يشير عليهم به . ولذلك رأى أوجان البرنس (أي
أمير أنطاكية) وجميع الإفرنج المقيمين في أنطاكية أن يقدموا يوحنا إلى الكردينال
سفير الكرسي الرسولي الروماني ليرقيه إلى درجة الأسقفية على مدينة البترون، ليقى
أهل جبل لبنان من الضلال ويشبّتهم في إيمان الكنيسة الرومانية . وقد صرّح اليعاقبة
بإقرارهم بذلك في كتاب معتقدهم الذي كان في العربية بمكتبة مدرسة الموارنة

برومة حيث يقول مؤلف هذا الكتاب : « أنتم كلكم سريان وكان كرسي بلدكم لانطاكية السريان إلّا لما جارت ملوك الروم على السريان وقتلوهم قام مارون ووافق ملك الإفرنج الذي في أنطاكية وكان اسمه أوجان برنس، وقال له يا ملك الزمان نخاف على جبل لبنان أن تستميله أئمة الملكية إلى معتقدهم فقلّ للكردينال الذي عندك وألزمه يكرسني مطراناً حتى أمسك بعض الناس على أمانة الفرنجية، إلّا أمانة يعقوب فلا أذكرها فكرسه مطراناً على البترون » انتهى كلام مؤلف كتاب تعليم اليعاقبة ولا شك في أنّه يريد بمارون يوحنا مارون راهب دير القديس مارون .

ولم نر السمعاني تصدى في المكتبة الشرقية لشرح هذه الفقرة من ترجمة يوحنا مارون، لكننا رأيناه شرحها بإسهاب في الكتاب الرابع من مكتبته في الناموس الديني والمدني في ثلاثة فصول هي : الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرون من الكتاب المذكور حيث أطلال وأجاد في ذكر إقامة يوحنا الفيلاذلفي (أسقف فيلاذلفيا وهي المعروفة اليوم بعمان في عبر الأردن) نائباً للكرسي الرسولي في بطريركيي أنطاكية وأورشليم كما ذكرنا في كلامنا على بطاركتهما في القرن السابع إذ لم تمكن الحال من إقامة بطريركين فيهما، وأورد البراءة التي نصب فيها البابا مرتينس يوحنا الفيلاذلفي في هذه النيابة وما قاله فيها: « ونحرضك على أن تكون نائباً لنا في هذه الأمصار الشرقية في جميع المقتضيات البيعية فأسرع إلى إصلاح كل ما كان إصلاحه لازماً، وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة بطريركيي أنطاكية وأورشليم، إننا نأمرك بذلك بالسلطان الرسولي الذي أولانا الله إياه بواسطة بطرس زعيم الرسل (عن براءة البابا مرتينس التي أثبتتها لاباي في مجلد ٦ من مجموعة المجامع صفحة ٢٠). وقد أنفذ البابا مرتينس أيضاً رسالة أخرى عامة إلى جميع الكهنة والأساقفة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيي أنطاكية وأورشليم قال فيها إنّه بالسلطان الذي أولاه الله إياه قد أقام يوحنا الفيلاذلفي نائباً له في المشرق، ويناشدهم أن يحسنوا الطاعة له وأن يجانبوا الأراطقة ولاسيما مكدونوس الذي غصب كرسي أنطاكية ويطرس الذي تدخّل على كرسي اسكندرية وأعلمهم بحرمة بدعة المشيئة الواحدة في مجمع لاتران، وأنّه أرسل إلى يوحنا الفيلاذلفي نسخة من أعمال هذا المجمع ليطلعهم عليها. وقد ذكر هذه الرسالة أيضاً لاباي في مجموعة المجامع (مجلد ٦ صفحة ٢٩) والسمعاني في مكتبة الناموس (في المحل المذكور آنفاً) .

فأتم الفيلاذلفي ما عهد إليه به البابا مرتينس رغماً عن تشييع الملك قسطنس بن هرقل وبطاركة قسطنطينية لأصحاب بدعة المشيئة الواحدة، وتيسر له العمل بنيابته بعد موت قسطنس وخلافة ابنه قسطنطين اللحياني له، إذ كان حسن المعتقد كثير الغيرة على الإيمان الكاثوليكي؛ وقد رأيت ما كان من السطوة حيثئذ لسكان لبنان وقد كان مكدونوس ومكاريوس بطريركا أنطاكية حيثئذ متشبهين ببدعة المشيئة الواحدة مقيمين في قسطنطينية. فسأل الكاثوليكيون في أنطاكية ولبنان يوحنا الفيلاذلفي أن يرقى القس يوحنا مارون الذي كان اشتهر بعلمه وفضيلته ومناضلته أصحاب البدع إلى أسقفية البترون فرقاه إليها سنة ٦٧٥ أو سنة ٦٧٦ م.

حقق ذلك السمعاني في ك ٢ فصل ٢ من مكتبته في الناموسين وفي مجلد ٢ في مؤلفي تاريخ إيطاليا، والبطريرك يوسف أسطفان قسم ٣ فصل ٦ في قداسة يوحنا مارون، والخوري أنطون قبالة البيروتي في رده كلام القس يوحنا عجمي الملكي الكاثوليكي وروهر بخر في تاريخه لسنة ٦٦٨ م حيث قال: «إنَّ يوحنا الفيلاذلفي الذي أقامه البابا مرتينس نائباً للكرسي الرسولي في المشرق سر بما بلغه من امتداد سطوة الموارنة، ولثلا يفتقروا إلى المساعدات الروحية أقام لهم أسقفاً يوحنا مارون راهب دير القديس مارون». روى كل ذلك البطريرك بولس مسعد في الدر المنظوم صفحة ١٤١.

وجاء في الترجمة التي أثبتتها السمعاني في المجلد المذكور من المكتبة الشرقية أنَّ يوحنا مارون بعد ترقيته إلى أسقفية البترون انتقل من دير القديس مارون إلى فينيقية أي إلى أبرشيته، وتفانى في حراثة كرم الرب، وردَّ إلى الإيمان القويم كثيرين من أصحاب بدعتي الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة من رعيته وغيرها، فمما شعبه وكثر عديدهم، وانبسطت مساكن كثيرين منهم حتى أورشليم وبلاد الأرمن وكان يعضدهم بكثرة الكهنة ورؤساء الكهنة لخلاص نفوسهم، بل أقام لهم أمراء وقادة لجيشهم يذبون عن جماعتهم ويحمون حماهم من كل معتد وكان من أمراء جيشهم ابراهيم ابن اخته الذي مرَّ بنا ذكره، وكانت لهم السطوة والغزوات التي روينها عن توفان وشدرانس وزوناراس وغيرهم حتى ألجأوا معاوية وعبد الملك بن مروان إلى الإنفاق مع ملوك الروم عليهم بشرط أن يصدُّوا غزواتهم ويجلوا عسكرهم كما مرَّ.

وأما دعوى القس يوحنا عجمي الملكي الكاثوليكي برسالته المنفذة إلى الخواجه الياس عبدو الحلبي بأن يوحنا مارون رقاہ إلى الأسقفية مكاربوس بطريرك أنطاكية المتسكع ببدعة المشيئة الواحدة فهي دعوى باطلة لم ينورها صاحبها بدليل راهن أو حجة قاطعة ولم يقل بها مؤرخ صادق، بل هي مخالفة لأقوال المؤرخين المحققين ومضادة لتصريح الأخبار الأعظمين ولاسيما البابا بناديكتس الرابع عشر العلامة، وقد فُتد الخوري أنطون القيارة البيروتي تلميذ مدرسة الموارنة في رومة رسالة القس يوحنا عجمي المذكورة، وأثبت هذا التفنيد المطران ارسانيوس شكري أسقف حلب الماروني وقد طبع في بيروت هذه السنة ١٨٩٩م في كتاب المحاماة عن الموارنة وقديسيهم، فمن شاء زيادة بيان في هذا الشأن فليطالع الكتاب المذكور.

عد ٧٠٦

بطريركية القديس يوحنا مارون

جاء في ترجمة يوحنا مارون التي أثبتتها السمعاني في المحل المذكور من المكتبة الشرقية أنه في السنة الثانية للملك يوستينياس (الأخرم وهي سنة ٦٨٥م) قضى أجل توفان الذي أقامه آباء الجمع السادس بطريركاً على أنطاكية فاجتمع الرؤساء ليختاروا رجلاً صحيح المعتقد ليخلفه، وبعناية الله أجمعوا على انتخاب يوحنا الأسقف بطريركاً على أنطاكية وقُلدوه رئاسة الكرسي الأنطاكي. وروى البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة أنه سار مع قاصد البابا من طرابلس إلى رومة إلى البابا سرجيوس فأحسن استقباله لأنه كان أنطاكي الأصل، ووشحه بدرع الرياسة ودفع إليه التاج والخاتم والعصا وحوّله كل ما كان لأسلافه من المنح وعاد إلى أنطاكية، فأرغمه أصحاب البدع أن يفرّ أولاً إلى دير القديس مارون ومنه انفذ إلى اللبنانيين كتابه الموسوم بإيضاح الإيمان، ثم لم ينبج هناك أيضاً من اضطهاد الملك يوستينياس الآخرم وأولي البدع ففرّ إلى لبنان وأقام أولاً في سمر جبيل، ثم في كفرحى حيث بنى ديراً على اسم القديس مارون ووضع فيه هامته التي كان قد نقلها من ديره على العاصي.

على أن السمعاني ذُيل كلام البطريرك اسطفانس الدويهي بحاشية قال فيه ما ملخصه: «اعتمد اسطفانس الدويهي في بطريركية يوحنا مارون على التقليد العام

عند الموارنة ، وعلى إقرار اليعاقبة الذي مر ذكره ، وعلى مقدّمة كتاب يوحنا مارون الموسوم بإيضاح الإيمان الذي دوّنه وأنفذه إلى سكان لبنان حيث قيل: « ورأى (يوحنا) مارون أنّ الأولى به أن يغير مقام كرسيه ولا يغير الإيمان القويم الذي علمه الآباء الذين اجتمعوا في نيقية وأثبتته باقي المجامع ففر من أنطاكية وأتى إلى دير في جهة اباميا على ضفة العاصي (وهو دير القديس مارون) وكان في ذلك الدير ثمانى مئة راهب أطهار قديسون فأقام كرسيه بينهم، وكتب ثمّ هذا الكتاب وأنفذه إلى سكان لبنان المقدس». وهذه المقدمة تراها في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواثيكانية مدونة بالسريانية والعربية كما روينها إلا في تغيير يسير، وهذا الكتاب قد خط سنة ١٧٠٣ يونانية الموافقة لسنة ١٣٩٢ للميلاد علي أنّ انتخاب يوحنا مارون بطريكاً في مجمع أساقفة في أنطاكية لم يقل به إلا الإهدني ولو انتخب بطريكاً في أنطاكية باجتماع أصوات الأساقفة لذكر المؤرخون الروم واللاتينيون اسمه في سلسلة بطاركة أنطاكية سواء كان كاثوليكياً أو أراتيكياً كما ذكروا أسماء جميع بطاركة أنطاكية الكاثوليكين وغير الكاثوليكين ممن كانوا قبله أو صيروا بعده . ولهذا أظن أنّ الأمثل أن يقال إنّه لم ينتخبه أساقفة الكرسي الأنطاكي الذين كانوا طوع يدي يوستينانس ملك الروم ، بل انتخبه بطريكاً أساقفة المردة أي الموارنة . ويظهر لي أنّه يؤيد هذا اعتياد الموارنة إلى اليوم أن يقيموا لأنفسهم بطاركة بالإنفصال عن الروم واليعاقبة والنساطرة، ولا يصدق أنّ جمهوراً كبيراً من الناس وقد استحوذوا على كلّ ما كان من الجبل الأسود إلى أورشليم كان خلياً من رئيس وراع ، وانضوى إلى أمة واحدة تخالف غيرها في طقوسها وعوايدها دون أن يكون لهم رئيس يجمع شملهم، ولهذا لا ترى المؤرخين الروم واللاتينيين ذكروا أعمال يوحنا مارون لأنّها كانت في جبل لبنان ولم يذكر المؤلفون الروم بطريكته لأنّ رعيته جميعها كانت من السريان وهم لا يذكرون إلى الآن خلفاء يوحنا مارون من بطاركة الموارنة في عداد البطاركة الأنطاكيين . أما ما رواه كوارسمس في ترجمة يوحنا مارون من أنّه أتى إلى رومة وأقامه البابا سرجيوس بطريكاً على أنطاكية فأظن مصدريه أنّ يوحنا مارون والموارنة تشبثوا بعري الكرسي الرسولي الروماني خلافاً لباقي السريان انتهى كلام السمعاني .

وقد انتحل لكويان (في مجلّد ٣ من المشرق المسيحي صفحة ٤٩ في بطاركة الموارنة) كلام السمعاني برمته ولم يزد عليه إلا فقرة من كتاب يوحنا سافريوس في

رحلته إلى أورشليم (فصل ٢٧) نقلها عن مقالة نيرون الباني في الموارنة (صفحة ٣١) وهي : « أنَّ الموارنة لوجودهم بين أصحاب البدع الكثيرة في سورية التمسوا من الحبر الروماني أن يقيم عليهم بطريكاً خاصاً بهم فأجاب سؤلهم وأقام (يوحنا) مارون في المقام البطريكى . . . فعاش مجملأً بالقداسة ومذ ذاك الحين أخذ الموارنة يختارون لأنفسهم دائماً بطريكاً خاصاً » .

والحاصل مما مرَّ أنَّ ترقية يوحنا مارون إلى البطريكية اختلفت فيها الأقوال فمن قائل إنَّ القاصد الرسولي في سورية أخذه بعد موت توفان إلى رومة وكان وقتئذ أسقفأً على البترون فأقامه البابا سرجيوس بطريكاً على أنطاكية . ومن قائل : إنَّ الأساقفة اجتمعوا في أنطاكية وأقاموه بطريكاً واضطروا أن يهرب منها إلى دير القديس مارون ثم إلى لبنان كما روى الاهدني . ومن قائل أنَّ أساقفة الموارنة اجتمعوا في لبنان واختاروه بطريكاً أنطاكياً عليهم كما روى السمعاني . وكل هذه الأقوال نراها محتملة الصحة ولا يتسنى لنا أن نرجح أحدها على الآخر ولا سيما أنَّ العلامة السمعاني لم يقطع بصحة قوله بل عبّر عنه بكلمة أظن ، ولم يقم عليه دليلاً إلا صمت المؤرخين اليونان واللاتين عن ذكر يوحنا مارون وخلفائه في سلسلة بطاركة أنطاكية . وكلّ يعلم أنَّ هذا الدليل وحده ليس بقاطع ولكن بأيّ هذه الأقوال قلنا تبين أنَّ الأخبار الرومانيين أقرّوا ليوحنا مارون بالبطريكية على أنطاكية ولا سيما أنَّ توفان أثبت (في تاريخ سنة ٧٤٣م) أنَّ كنيسة أنطاكية لم يقم فيها راع مدة أربعين سنة، وتوافيلكتس روى أنَّها استمرت حينئذ خمسين سنة خالية من بطريك وتابعه على ذلك إدوار برنردس في سلسلة بطاركة أنطاكية واعتمد لكويان هذه الأقوال (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) ولم يحقق وجود بطريك يقيم في أنطاكية إلا أسطفانس أقيم سنة ٧٤٢م (طالع عد ٦٩٢) ولا تسة عما كانت عليه حال سورية في تلك الأيام من الحروب والتشيع للبدع وما كان للمردة أي الموارنة من السطوة والصولة واستحواذهم على كل البلاد من الجبل الأسود إلى أورشليم . فهل يخطر على بال أنَّ الأخبار الرومانيين تركوا أنطاكية وسورية حلواً من رئيس يعني بأمر المؤمنين وقيهم الضلال ويشتهم في الإيمان الكاثوليكي، ويكفيها مؤونة البرهان في ذلك قول العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر بخطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م حيث قال : « لا يفوتكم أنّه في أواخر القرن السابع عندما فشت بدعة القائلين بمشيئة واحدة في المسيح وأفسدت سكان

البطيركية الأنطاكية، جزم الموارنة حينئذ رغبةً في وقاية طائفتهم سالمة من ذلك الفساد أن يختاروا لهم بطيريكاً يثبت من الحبر الروماني». وقد أجمع كل من ذكروا هذه الأحداث أنَّ البطيريك الذي اختاره الموارنة حينئذ إنما هو البطيريك يوحنا مارون.

وقد ورد في تاريخ أنسطاس المكتبي أنَّه كان في السنة الأولى ليوستينيانس الملك توادورس البطيريك القسطنطيني، واسكندر البطيريك الأنطاكي. ولكن اسكندر هذا قل من ذكره ممن كتبوا تاريخ بطاركة أنطاكية، وأثبت العلامة السمعاني في مكتبة الناموس (مجلد ٥ صفحة ٢٧) أنَّ اسكندر هذا إنما هو جيورجIOS الآتي ذكره وكذلك سماه كثيرون جيورجIOS أو اسكندر وعن لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) أنَّ ابن البطريق لم يذكر اسكندر بل ذكر توما، وقال إنَّه استمرَّ في البطيركية عشرين سنة وقام بعده جيورجIOS في السنة الأولى لخلافة عبد الملك بن مروان، فقال لكويان هذا عن التاريخ الصحيح بمراحل. وأما جيورجIOS فقد جاء اسمه في جملة توقيعات الأساقفة على مجمع قصر الملك الذي عقده يوستينيانس الأخرم سنة ٦٩٢م وقال فيه لكويان (في المحل المذكور) إنَّه يظهر من أعمال المجمع السادس المسكوني أنَّ جيورجIOS هذا كان راهباً كاهناً في سبسطية (السامرة) بفلسطين وكان في جملة نواب بطيركية أورشليم في هذا المجمع، ويظهر من توقيعه على مجمع قصر الملك ان صير بعد ذلك بطيريكاً على أنطاكية، ولكنَّ يتبين من توقيعه أنَّه زيد بعد انحلال المجمع من يد كاتب حديث. وقال السمعاني (في مكتبة الناموس مجلد ٥ صفحة ٣١) ان توقيعه على هذا المجمع، كان على الهامش بهذه الصورة: «الحقير جيورجIOS أسقف أنطاكية وقعت حاكماً بما رسم» وإنَّه هو الذي سماه مكاريوس البطيريك الملكي في فهرست بطاركة أنطاكية، اسكندر وأوجب أنَّه شهد مجمع قصر الملك لكنَّه أثبت أنَّ البطاركة الأنطاكيين مكدونIOS ومكاريوس وتوفان وجيورجIOS هذا ارتقوا إلى بطركية أنطاكية في قسطنطينية، واستمروا فيها إلى يوم وفاتهم إلاَّ مكاريوس فإنَّه توفي في رومة بعد أن عزله المجمع السادس، وحضور جيورجIOS في مجمع قصر الملك الذي نبذه الكرسي الرسولي إلى الآن والذي كان فيه الأساقفة طوع يدي يوستينيانس الأخرم لا يدل البتة على أنَّ جيورجIOS كان صحيح العقيدة، ويظن أنَّه كما اختار

قسطنط الملك مكدونيوس ومكارىوس بطريركي أنطاكية لتشيّعهما لبدعة المشيعة الواحدة كما حقق السمعاني (مجلّد ٤ من مكتبة الناموس فصل ٢٠) هكذا اختار يوستينانس الأخرم جيورجيوس هذا وأقام في قسطنطينية كأسلافه . والحاصل ممّا مرّ أنّ جيورجيوس يشكّ في صيرورته بطريركاً أنطاكياً إذ لا يستدلّ على ذلك إلّا بتوقيعه وتوقيعه يشكّ في صحته على ما رأيت من كلام لكويان والسمعاني ويرجح أنّه لم يكن صحيح العقيدة وإنّ يوستينانس أقامه بطريركاً إن صحّت بطريركيته، ومن المؤكّد أنّه لم يقيم في أنطاكية كما رأيت وقد فرغت بطريركية أنطاكية من بطريك بعد ذلك أربعين سنة أو خمسين كما أثبتنا وقد حققه السمعاني (في مكتبة الناموس مجلّد ٥ صفحة ٢٧ و ٥٠٠ و ٥٠١) وفي مقالته في بطاركة اليعاقبة المعلقة على ترجمته لتاريخ ابن الراهب صفحة ١٧١).

فإذاً الخليفة الشرعي والكاثوليكي لتوفان الذي أقامه المجمع السادس بطريركاً لأنطاكية إنّما هو القديس يوحنا مارون، وفي مدّة أربعين أو خمسين سنة بعد ذلك لم يقيم بطريك على أنطاكية، ولم يكن بطريركها الكاثوليكي إلّا القديس يوحنا مارون، ومن بعده قورش ابن اخته وخلفاؤهما كما سترى. نعم إنّّه كان بطريركاً خاصاً على المواردة ولكن لم يكن في تلك الحقبة بطريك أنطاكي كاثوليكي سواء وكان المواردة السواد الأعظم من سكان هذه البطريركية الكاثوليكيين، وكانوا محتازين كل ما كان من الجبل الأقرع إلى أورشليم كما رويناه عن ثقة من المؤرخين، وكان باقي السكان إما يعاقبة ولهم بطريك خاص بهم ينسب إلى أنطاكية، وإما متسكعين ببدعة المشيعة الواحدة إتباعاً لأكثر ملوك قسطنطينية ورؤسائها، وإما كاثوليكيين ولكنهم مشتتون في أصقاع كثيرة ويمنع الخلفاء من إقامة بطريك في أنطاكية، ولما رخصوا للنصارى بذلك اختاروا أسطفانس المارّ ذكره في أواسط القرن الثامن لكنه لم يكن بطريركاً عاماً لأنّ النساطرة أنشقوا عن بطريركية أنطاكية وأقاموا لهم بطريركية في بابل. واليعاقبة بعد موت ساويرس أخذوا يختارون بطاركة خاصين بهم يسمونهم أنطاكيين والموارنة اعتادوا إقامة بطريك خاص بهم يثبته الكرسي الرسولي ويوليّه حقوق بطريركية أنطاكية كما رأيت وسترى، فلم تكن أهمية للبطريك المقيم في أنطاكية، ولم يكن يلي إلّا الكاثوليكيين القلائل المشتتين عدا المواردة ولم يكن جميع هؤلاء البطاركة كاثوليكيين، ولم يمضِ زمان طويل إلّا عمّ انفصال كنيسة الروم المشرق وأخذوا

يقيمون بطاركة في أنطاكية إلى اليوم، ولما زحف الإفرنج إلى هذه البلاد أقاموا بطاركة على أنطاكية وغيرها ولكن على اللاتينيين وحدهم ولما طردوا من هذه البلاد لم يبق لمن سمي بطريكاً إلا الشرف. وعلى هذا المنوال استمر خلفاء القديس يوحنا مارون البطاركة الشرعيين الكاثوليكين وحدهم لأنطاكية قروناً كثيرة. وفي القرن السابع عشر ارتدَّ بعض الملكية المنفصلين إلى الإيمان القديم فرخص لهم الحبر الروماني في القرن الثامن عشر أن يقيموا بطريكاً خاصاً بهم وأن يسمى أنطاكياً وارتدَّ بعض السريان عن البعقوية إلى الإيمان الكاثوليكي فرخص لهم الحبر الروماني أن يقيموا بطريكاً خاصاً بأمتهم وأن يسمى أنطاكياً أيضاً. فقد كانت هذه البطريركية أشبه بشجرة قصمت بعض أغصانها القديمة ونبت في موضعها فروع حديثة واستمرَّ غصن فيها متمسكاً بالأصل مزهراً مثمراً والحاصل من ذلك أنَّ القديس يوحنا مارون وخلفاءه إلى اليوم هم البطاركة الشرعيون الكاثوليكون لكروسي أنطاكية خلفاء توفان خليفة بطرس في الكرسي الأنطاكي. وإليك إثبات هذه الحقيقة بأقوال الأحرار الأعظمين أنفسهم والقول ما قالوا.

قال البابا أيونشسيوس الثالث في رسالته إلى بطريك الموارنة وأساقفتهم وشعبهم سنة ١٢٠٧م ما ترجمته: «إننا نثبت أيها الأخ البطريرك لكنيستك على اسم العذراء بيانون كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها الخاضعين بحق الرئاسة لك ولخلفائك؛ أي مطرانية مار اسيا تربل المنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقا وتأخذ باليوم درع ملء الخدمة الحبرية بحسب العادة فيسلمه إليك بطريك أنطاكية اللاتيني وكان البابا قد أرسل الباليوم معه إليك من غير ما صعوبة ونثبت لك العوايد الجارية التي كانت لك ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الأنطاكية إلى الآن ونهبها لك ولخلفائك بالسلطان الرسولي». وإنَّ كانت حالة القرون الوسطى لم تؤذ لنا بإيراد أقوال من الأحرار الأعظمين أسلاف أيونشسيوس الثالث فلنا الغنى عنها بقوله نثبت لك العوائد الجارية التي كانت لك ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الأنطاكية ولا نفعل عن أن براءات الأحرار الأعظمين الخمس عشرة التي كان الأسقف جبرائيل القلاعي يذكر البطريرك بأنها موجودة في كرسبه بختومها ورصاصها ما برحت محفوظة في الكرسي البطريركي الماروني وجميعها نسجت على منوال براءة أيونشسيوس الثالث، ومنها براءة من البابا اسكندر الرابع يثني فيها على البطريرك لقبوله في جملة رعيته من تخلفوا في سورية من اللاتين بعد

طرد الصليبيين منها ويسميه بطريكاً أنطاكياً كما صرّح بذلك بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية المكرر ذكرها والبابا لاون العاشر في رسالته إلى البطريرك سمعان الحداثي في ١ آب سنة ١٥١٥م حيث يقول «إننا اطلعنا في براءتي أينوشنسيوس (الثالث) واسكندر (الرابع) الصالحين الذكر أن أرميا الذي يسمى بطريكاً أنطاكياً (هو بطريكنا أرميا العمشيتي) أدى الطاعة كما اعتاد البطارقة تأديتها للكرسي المقدس في مدينة طرابلس بحضرة المطارنة والأساقفة على يد بطرس الكردينال... قاصد الكرسي الرسولي». وكتب البابا أدريانس السادس إلى البطريرك المذكور في ٢٢ تشرين الأول سنة ١٥٢٢م: «أدريانس الأسقف عبد، عبید الله إلى الأخ الموقر (سمعان) بطرس البطريرك الجالس على كرسي أنطاكية». وكذا كتب البابا بولس الخامس إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م، والبابا غريغوريوس الخامس عشر في براءته إلى هذا البطريرك في ١ تموز سنة ١٦٢٢م، والبابا أوربانس الثامن في ٣٠ آب سنة ١٦٢٥م وفي رسالته إلى البطريرك جرجس عميرة في ٣ آذار سنة ١٦٣٥م وأينوشنسيوس العاشر في رسالته إلى البطريرك يوسف العاقوري في ٢٠ أيلول سنة ١٦٤٦م، وفي رسالته إلى البطريرك يوحنا الصفراوي في ١٣ أيلول سنة ١٦٤٩م ومثلهم كتب البابا اسكندر السابع إلى البطريرك جرجس السبعلي في ٩ آذار سنة ١٦٥٩م حيث قال «إن الكنيسة البطريركية الانطاكية التي تخص طائفة الموارنة وكان يدبرها يوحنا الصفراوي بطريك أنطاكية أضاعت تعزيتها براعيها لوفاة البطريرك يوحنا المذكور اذ قضى دين الطبيعة». وكذا كتب البابا اكليمنضس العاشر إلى البطريرك الدويهي في ٦ آب سنة ١٦٧٢م. وفي ١٢ كانون الأول من السنة المذكورة وفي ٢٠ أيار سنة ١٦٧٣م وأينوشنسيوس الحادي عشر في ٢٣ تشرين الآخر سنة ١٦٨٠م والبابا أكليمنضس الثاني عشر في رسالته ١ نيسان سنة ١٧٣٢م إلى البطريرك يعقوب عواد. وفي رسالته في ٢٩ تشرين الآخر سنة ١٧٣٥م إلى البطريرك يوسف درغام الخازن وكل هؤلاء الأبحار الأعظمين كانوا قبل البابا بناديكتس الرابع عشر الذي يدعي خصوم الموارنة أنه أول من سمى بطريكهم أنطاكياً.

ولا حاجة مع شهادة الأبحار الأعظمين إلى شاهد آخر، لكننا نورد شيئاً من شهادات العلماء مقتصرين على قول الأب فرنسيس سوريانس نائب اسكندر

السادس في الأرض المقدسة من رسالته في ٢٥ تشرين الآخر سنة ١٤٩٤م إلى البطريرك سمعان الحداثي: «إلى الأب الموقر (سمعان) بطرس الحداثي الرابع من استحق بنعمة سابقة أن يُدعى بطريرك أنطاكية ومدبر كرسيها من الخادم الحقيق فرنسيس سوريانس رئيس أديار الإفرنج ومدبر الإخوة الصغار في أورشليم ونائب قداسة سيدنا البابا اسكندر في جميع الأرض المقدسة». وقول باجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م: «إنَّ بطريرك الموارنة يسميه الأخبار الأعظمون في براءتهم الرسولية منذ أيام أثنوسنسيوس الثالث بطريرك الموارنة الأنطاكي». وقول ديلاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٣٢) وهو «إنَّ هذه الكنيسة (المارونية) يمكن أن تسمى الكنيسة الأولى في المشرق لكاثوليكيته وللبطريركية: الانطاكية التي هي كرسيها». وقول دومينيكس ماكري في اسم بطريركية وهو «إنَّ في رومة أربع كنائس بطريركية تعين للبطاركة الأربعة إذا عقد مجمع عام في رومة وهي كنيسة مار يوحنا لاتران للبابا، وكنيسة القديس بطرس لبطريرك قسطنطينية وكنيسة القديس بولس لبطريرك اسكندرية، وكنيسة مريم الكبرى لبطريرك أنطاكية وهو وحده الآن كاثوليكي يرؤس ويدبر الطائفة المارونية الشديدة التعلُّق بالكنيسة المارونية الشديدة التعلُّق بالكنيسة الرومانية». طالع كتابنا روح الردود المطبوع مع ترجمته اللاتينية في بيروت صفحة ٢٧٣ إلى صفحة ٢٩٠.

وأما أعمال القديس يوحنا مارون في مدة بطريركيته فقد جاء ذكرها بإيجاز في ترجمته التي أثبتتها السمعاني في المحل المذكور فقال إنَّه بعد أن فرَّ إلى دير القديس مارون على العاصي أمر ابن أخته ابراهيم على جماعته واستدعى إليه سمعان من لبنان، وسار بجيش وافر من دير القديس مارون إلى قلعة سمر جبيل فوق البترون، وقد ذكر ذلك مؤلف كتاب معتقد اليعاقبة إذ قال: «لما وصل تملك الملكية إلى قرية اسمها أميون ارتفع مويرين (مصغراً للتحقيق) وابن أخته بريهم إلى سمر جبيل وحماهم من الجزية التي فرضها الملكية على من لا يتبع دينهم ووافقه كل السريان والذين في جبل لبنان وتبعوا مارون». وبعد أن ظفرت جماعة البطريرك بجيش مريق ومرقيان كما مرَّ واستراح من عواصف الإضطهاد وأخذ يَجول في أعمال لبنان مجاهداً فثبت المؤمنين ويعني برد المخالفين إلى حظيرة الحياة، وينشئ كنائس وأدياراً ويقم لها كهنة وخداماً وينصب أساقفة ويهتم بحالة كراسيهم ويجعل لهم أوقافاً تتكفل بحاجات معاشهم. ولما رأى أنَّ جيش

موريق ومرقيان دك دير القديس مارون وقتل رهبانه وضبط أملاكه » ليستأصل ذكره، أنشأ ديراً آخر على اسمه في شرقي قرية كفرحي من عمل البترون . ويقال : إنه نقل إليه هامة القديس مارون من ديره على العاصي ، وفرض عيداً في الخامس من كانون الثاني الذي كرس في الكنيسة على اسمه ولما أتمَّ جهاده ودبّر قومه تدير الرعاة الصالحين انتقل من دار الشقاء إلى دار البقاء لينال ثواب أعماله الصالحة ومبراته الجزيلة ممن لا يضيع أجر التعمين في كرمه الروحي، وكان انتقاله في التاسع من شباط (سنة ٧٠٧) في دير مارون بقرية كفرحي، فاجتمع الأساقفة والكهنة والرهبان وجمع لا يحيطه العدد من كل بلاد الموارنة ليتباركوا بجسده الطاهر، وحملوه بالمصاييح والبخور والترانيم ودفنوه في الدير المذكور كما جاء في ترجمته أنه مات قديساً ودفن في كفرحي وقال الأسقف جبرائيل اللحفدي في قصيدته في المجامع : « في كفرحي مات ذا المختار » .

عد ٧٠٧

مؤلفات القديس يوحنا مارون

لما كان البطريك أسطفانس الدويهي وابراهيم الحاقلي الماروني قد ظنا أن يوحنا **حنانيا** (ابن الإفنج) والصحيح **حنانيا** (ابن الفخارين) الذي ذكره عبد يشوع في قصيدته هو يوحنا مارون عزوا إلى هذا البطريك الكتب السبعة التي عزاهها عبيد يشوع إلى يوحنا المذكور وأطال في شرحها، ولما كان العلامة السمعاني قد أثبت أنهما انخدعا بهذا الاسم وأن يوحنا ابن الفخاري هو كاتب نسطوري لا يوحنا مارون اقتصر على ذكر مؤلفات يوحنا مارون التي روى السمعاني أنها في المكتبة الواتيكانية وأولها .

نافور أي رتبة القديس

إن فاتحة هذا النافور هي **صامو صلاوا و صلاوا و صلاوا** ١٢٥ أمامك يا ملك الملوك وسيد السادات وهو مثبت في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي

في المكتبة الواتيكانية صفحة ١٠٠، وقد خط في كمبليني بقبرص سنة ١٨٤٦ لاسكندر وهي سنة ١٥٣٥ للميلاد وقد ذكره الدويهي في كتابه المناير العشر (فصل ٢ في مؤلفي النوافير الكاثوليكية) حيث قال «يوحنا المسمى مارون الذي ارتقى بعد توافان بطريرك أنطاكية إلى ذلك الكرسي في سنة ٦٨٥م صنف النافور الذي بدؤه **هو مجموع صلاتها وصلواتها**». وقد نبذ رينودوسيوس (في مجلد ٢ من تأليفه في الليتورجيات الشرقية صفحة ١٥) هذا النافور مع غيره من مؤلفات يوحنا مارون ولم يورد سبباً لنبذه إلا قوله: «لا وجود له في مكتبة وإن توافرت فيها الكتب الشرقية» فكأنه أطلع على جميع المكاتب أو قلب كل الكتب في كل منها أو لم يبق في المشرق أثر لأحد المؤلفين إلا أتى به إلى مكاتب أوروبا. وقد احتج بعضهم على هذا النافور، بحجتين فقال إنه مجموع من نوافير اليعاقبة الكثيرة. كما يظهر لمن يقابل وإن من طبعوا كتاب قداس الموارنة سنة ١٥٩٤م لم يطبعوا فيه هذا النافور فأجبنا في كتابنا روح الردود على الحجة الأولى أن كل النوافير التي يستعملها السريان قل ما يختلف أحدهما عن الآخر ولا يمكن من يعارضها أن يقول إن أحدها لا يشبه الآخر، ولم يبين المعارض أي فقرات هذا الكتاب انتحلت إليه، ومن أي النوافير جمعت فيه، فلا سبيل إلى الإسهاب برد حجته القاصرة. واجبنا على الحجة الثانية بأن النوافير الكاثوليكية التي نعتقد صحتها خمسة وعشرون نافوراً ولم يطبع منها في كتاب قداسنا المذكور إلا أربعة عشر نافوراً فلا يستدل بعدم طبعه مع عشرة نوافير أخرى كاثوليكية على أنه مجموع من نوافير اليعاقبة ولا على أنه كان غير معلوم لأن الكتاب الواتيكاني المذكور المثبت فيه هذا النافور قد خط قبل إحدى وستين سنة من طبع كتاب قداسنا الذي اتخذ حجة.

كتاب إيضاح الإيمان

قال العلامة السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣) إن هذا الكتاب أنفذه يوحنا مارون إلى اللبنانيين من دير القديس مارون وهو مثبت بالسريانية مع ترجمته العربية في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية، وقد خط سنة ١٣٩٢م كما يتبين من الذيل المعلق على آخره وهو: «كان الفراغ

من نسخ هذا الكتاب كتاب إيمان الكنيسة المقدسة سنة ١٧٠٣ (يونانية توافق سنة ١٣٩٢ للميلاد) بيد رجل حقير خاطي اسمه الشمس يوسف غريب من قرية اسمها ثمانية ومئة وثلاثين (يريد **مئة**) بالسريانية وهي حافل موطن ابراهيم الحاقلي) من عمل جبيل ساكن بقرية بان من جبة بشري وكان الفراغ منه في ٢٠ شهر شباط « وقد عثر الأب نوا العالم أحد كهنة باريس الفقهاء على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الأمة في باريس في ٢٠٣ منها خطت سنة ١٤٧٠م ونشرها بالسريانية مع ترجمتها إلى الإفرنسية في هذه السنة في القسم الأول من كتابه الموسوم بكتب مارونية وأهدى إلينا هذا الكتاب. وفي مكتبة بطريركيتنا نسختان منه إحداهما خطها الشدياق موسى وأخوه عيسى أبناء الخوري يوسف من قرية حافل وقد أطلع عليها الأسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي وكتب عليها بعض تعليقات بخطه سنة ١٥٠٣م وقد طالعها مرات، والثانية قدمها بيّن لكتّنها خلّت من تاريخ نسخها لتمزق أولها وآخرها وفتحته مترجمة عن السريانية: « بسم الله نأخذ في تدوين كتاب الإيمان المقدس الذي ألفه مارون المدعو يوحنا وكان بطريركاً على مدينة الله أنطاكية وسائر الشام وسورية وكان تأليفه بدير القديس مارون الطوباوي المُنشَح بالله ». وفتحته ترجمته العربية « بسم الله نبتدي نكتب إيضاح الإيمان المقدس اعتقاد البيعة الرسولية الذي كتبه القديس يوحنا بطريرك أنطاكية في دير مارون على نهر العاصي بلد حماه وحمص وأورد ذلك إلى جبل لبنان ولأجل يسموا أهل الجبل المذكور موارنة على اسم الدير، ويسمى يوحنا المذكور مارون هو أيضاً على اسم الدير ».

قد علّق الناسخ السرياني على هذا الكتاب مقدّمة قال فيها ما ترجمته: « لما أنشأ نسطور وأوطيخا الأبله المعتقد الذي فصم وحدة ربنا وجعل اختلاطاً وامتزاجاً بين طبيعتي ربنا المجدتين والمتحدتين وطفق تلاميذ هذين المبتدعين يدافعون عن ضلالهما أخذ حينئذ يوحنا الذي سمي مارون يؤنّبهم تونياً متصلاً ويرد زعمهم بالشهادات القاطعة الآتي ذكرها، وكذلك فعل برده مزاعم تلاميذ أنتيمس (وعلى الهامش قورش وهو بطريرك اسكندري من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة كأنتيمس) الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملك ذلك الزمان ويوحنا نفسه أرسل هذا الكتاب إلينا ». وقال السمعاني بعد ذكره هذه المقدّمة: « لا امترى في أنّ العبارة، وكذلك فعل برده مزاعم تلاميذ أنتيمس الخ قد أدخلها المترجم العربي

على الاصل لأنَّ يوحنا بطريركنا هذا لم يدافع عن بدعتهم كما جسر هذا المترجم أن يقول في ترجمته العربية ما نصُّه بحروفه: «وعندما نهضت مقالة نسطور الجاعل في تأنس ربنا أقنومين ومن آخر يسمى أوطيخا قال إنَّ خاصَّتِي لاهوت الابن وناسوته تبلبلت واختاطت وصارت واحدة وعندما انقبل قولهم من كثيرين جعل يوحنا مارون يوضح بالبرهان ويردهم إلى الصدق من شهادات الكتب المقدَّسة الأنبياء والآباء. وأيضاً جعل شهادات ترد كثرة مقالات إخوتنا الملكيين أهل الراهب مكسيمس تلك المقالة التي جعلها على يد الملكيين مرقيان وأخيه باعتقاد مشيئتين» فقال السمعاني بعد إيراد هذا القول «ما هذه إلا أضغاث أحلام توما الكفرطابي فليس في كتاب يوحنا مارون كلمة في البحث عن مشيئتي المسيح بل هو برمته في رد مزاعم النساطرة وبدعة الطبيعة الواحدة مثبتاً أنَّ في أقنوم المسيح الواحد طبيعتين كاملتين وقد شهد البطريك أسطفانس الدويهي الإهدني (في ك ٢ من محاماته عن الموارنة) أنَّ توما الكفرطابي إنما هو الذي ترجم هذا الكتاب إلى العربية وحرَّفه وأدخل عليه هذه العبارة وذلك يبيِّن من النفس فإنَّ هذه العبارة هي بنفسها في كتاب توما المقسوم إلى عشر مقالات منفذاً إلى يوحنا بطريرك الملكيين، وهو معلق في آخر كتاب إيضاح الإيمان ليوحنا مارون، وقد أفرغ جهده بإيراد حجج واهنة ليؤيد بها بدعة المشيئة الواحدة طالع ما كتبه في شأنه نيرون الباني في كتابه افوليا (سلاح) الإيمان صفحة ٦٩ ولا عجب من أنَّ توما المغوي بيدعة المشيئة الواحدة يحرف كلام يوحنا مارون ليخدع الموارنة باسمه، وقد بلغ من جهله أن يزعم خلافاً لكل تاريخ صحيح أنَّ مكسيمس المعترف ابتدع بدعة المشيئتين في المسيح في أيام مرقيان وأخيه الملكيين (ومرقيان لم يكن له أخ شاركه في الملك وكان قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بنحو من قرنين) وقد عزا الكفرطابي إلى سفريانس أسقف جبلة أيضاً كلاماً لم يقله ليخدع الناس ببذعته» انتهى كلام السمعاني وقد تابعه عليه لكويان (في مجلَّد ٣ من الشرق المسيحي صفحة ١٨) مبيناً تحريف الكفرطابي ومكره وترى في النسخة القديمة لهذا الكتاب في مكتبة بطريركيتنا أنَّ الأسقف جبرائيل اللحفدي ضرب بقلمه تلك العبارة وهي جعل شهادات كثيرة ترد مقالات إخوتنا الملكيين أهل الراهب مكسيمس «الخ. وكتب بخط يده» من هنا تبرهن أنَّ توما يعقوبي.

أما توما الكفرطابي هذا فقد روى لنا خبره البطريك اسطفانس الدويهي (فصل

١٦ من كتاب تاريخ الموارنة ورد التهم) فقال إن توما مطران كفرطاب الأراتيكي أتى لبنان سنة ١١٠٤م وأقام فيه ست سنين مجدداً في إضلال الموارنة بيدعة المشيئة الواحدة كما يظهر من تأليفه الموسوم بالمقالات العشر رداً على يوحنا بطريرك الملكية الأنطاكي ولرغبته في خدعة الموارنة سمى نفسه مارونياً . وقد ذكره الأسقف جبرائيل اللحفدي القلاعي بقوله وهو بحروفه :

تبعهم توما من حاران من قصته الصدق يبان
في كورة حلب كان مطران وكرسیه ليس هو سمعاني^(١)
قلت لي أنه من مردين زدتنی به رغبة ذا الحين
مردين مسكن الشياطين نسطور ويعقوب سكاني
قلت إنه جاء لجبل لبنان شهدت أنه جاب الطغيان

وقال الإهدني أيضاً إن القلاعي عثر سنة ١٥٠٣م على كتاب المقالات العشر للكفرطابي فكتب عليه بخط يده : « إن توما هذا ما كان مارونياً ولا كان للموارنة أسقف في كفرطاب وأن جماعته اليعاقبة نفوه فصار إلى لبنان وأقر بالطبعين خدعة للموارنة ليضلهم بيدعة المشيئة الواحدة » (وقد طالعت بنفسني ما خطه القلاعي فإن هذا الكتاب ما زال محفوظاً في خزانة بطريركيتنا) إلى أن يقول الإهدني إن البطريرك يوسف الجرجسي والمطران أرسانيوس أسقف العاقورة ناصبا الكفرطابي فلم يغو بضلاله إلا الخوري فرشح في بلاد جبيل ونفراً قليلاً فعاد بخفي حنين نادياً سوء المنقلب، لكنّه ترجم في مدّة إقامته في لبنان كتاب الإيمان ليوحنا مارون فحرّف بعض عباراته وأدخل الزيادة المحكي، عنها وكذا فعل في كتاب القوانين للأسقف داود الماروني الذي سوف يأتي ذكره .

وقد ضمّن القديس يوحنا مارون كتابه هذا شهادات نحو من ثلاثين أباً من آباء الكنيسة الكاثوليكية وبعضهم شهادتين وثلاثاً وأكثر واستشهد أيضاً بأقوال الجامع ولاسيما الأربعة الأولى المسكونية لكنّه لم يستشهد المجمعين الخامس والسادس، أمّا الخامس فلأنّه لم يكن فيه ما يستعين به على إثبات مقصده لأنّ كلّ ما كان في

(١) أي ليس هو ببطرسي أو كاثوليكي .

هذا المجمع إنما هو تحريم الفصول الثلاثة وليس ثم ما يؤيد غرضه، وأما عدم استشهاده بالمجمع السادس فالأظهر فيه عند العلامة السمعاني أن يوحنا مارون كتب كتابه هذا قبل انعقاد هذا المجمع إذ كان أسقفاً أو كاهناً وتسميته بطريكاً في عنوان الكتاب المذكور إنما كتبها الناسخ لا المؤلف الذي لا إشارة في كتابه هذا إلى أنه كان بطريكاً عندما كتبه .

كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة

أما كتابه في ردّ مزاعم أصحاب الطبيعة الواحدة فهو مثبت في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية بعد كتاب إيضاح الإيمان المذكور من صفحة ١٠٣ فصاعداً وفاتحته: « ثم نكتب شيئاً من الأبحاث رداً على أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح وهم من يزعمون أن طبيعة كلمة الله البسيطة قد امتزجت واختلطت بطبيعة ناسوته فكانت فيه طبيعة واحدة » إلى أن يقول: « قولوا لنا أيها الإخوة الأبرار أن هذه الطبيعة التي تعتقدونها بربنا من بعد الإتحاد أهى مساوية للآب جوهرأ أم غير مساوية » أما كتابه في رد مزاعم النساطرة فهو مثبت في كتب الحاقلي المذكور أيضاً صفحة ١١٤ وفاتحته « ثم نكتب قليلاً من كثير في رد مزاعم النساطرة » إلى أن يقول: « قال بولس الرسول إن الله رضي عنا بموت ابنه » .

رسالة في التريصاجيون

ويعزى إلى يوحنا مارون رسالة في التريصاجيون أي التقديسات الثلاثية قدوس الله ، قدوس القوي ، قدوس الذي لا يموت، عنوانها جواب على من يزعمون أننا نعزو الصلب إلى الثالوث الأقدس، إذ نزيد على التقديسات يا من صلبت لأجلنا. وهذه الرسالة مثبتة في كتاب الحاقلي المذكور صفحة ١٢٥ لكنها مكتوبة بخط يختلف عن خط باقي أجزاء هذا الكتاب . ولذلك ارتاب السمعاني في صحة نسبتها إلى القديس يوحنا مارون لوجهين : الأول لأن الكتاب أردفها بمحاوراة بين رجل سرياني ورجل رومي على هذه الزيادة ومؤلف تلك المحاوراة غير معروف في

كتاب الحاقلي لأنه ممزق أو لأنه لم يكتب اسمه ، ولكن قد أنبأنا ابن العبري في كتاب ادبياته ان مؤلف هذه المحاوره إنما هو داود بن بولس من أساقفة اليعاقبة ، والبراهين الواردة في رسالة يوحنا مارون هي البراهين نفسها الواردة في المحاوره. والثاني أنَّ بعض ورقات الرسالة ساقط من الكتاب المذكور وفتحة المحاوره ساقطة أيضاً فأدمج الكاتب الأثرين معاً، ثم إنَّ الغرض من الرسالة والمحاوره واحد والنتيجة واحدة هي أن يثبت الكاتب أنَّ السريان بزيادتهم يا من صلبت لأجلنا على التقديسات لا يعنون أقانيم الثالوث الأقدس بل أقنوم الابن الذي وحده تأنس وصلب، كما لا يعتقدون أن الأقانيم الثلاثة تجسدت هكذا لا يعتقدون أنَّها صلبت وإذا زادوا على التقديسات يا من صلبت يختصون بهذه الزيادة أقنوم الابن الذي تجسد. وقد نشر الأب نو الإفرتسي هذه المحاوره في جملة ما أشهره السنة ١٨٩٩م معنوناً كتب مارونية آخذاً إياها عن كتاب قديم في مكتبة باريس في عد ٢٠٣. ومهما يكن من أمر هذه الرسالة فليوحنا مارون فقرة من كتابه بهذا المعنى في شرح رتبة القداس (فصل ١٩) قال فيها: «إننا نبين لسؤالكم أيها الأبناء الأحباء هل ينبغي أن يترنم بالتقديسات مع الزيادة عليها يا من صلبت من أجلنا ومتى يترنم بذلك، فاعلموا أنَّ هذه التسبحة توجه تارة إلى الثالوث الأقدس وتارة إلى أحد الأقانيم الإلهية فقط فإذا وجهت إلى الثالوث المسجود له لم يسغ البتة أن يلحق بها يا من صلبت، فإنَّ هذا إنما هو ضلال بطرس بطريرك أنطاكية الملقب بالقصار الذي زعم أنَّ الثالوث صلب بجملة أقانيمه وأوجب الألم على طبع أسمى من كل ألم وهذا اثم يرجح على كل اثم ولذا حرم عدلاً وحقاً عن كرسيه على أنَّ التسبحة توجه أحياناً إلى أحد أقانيم الثالوث وهو الابن وذلك بين في نوافير الرسل القديسين وآبائنا الأطهار الذين ذكرناهم آنفاً فمتى وجهت هذه التسبحة إلى الابن فلا مانع أن يزداد عليها ذكر الآلام والصلب والموت والدفن والقيامة وباقي أسرار تدبير مخلصنا إذ لا مراء أنَّ الابن تألم وصلب ومات من أجلنا» .

كتابه في الكهنوت

قال السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٠) في جملة مؤلفات يوحنا مارون : « كتابه في الكهنوت مقسوماً إلى أربعين فصلاً وهو مثبت في

الكتاب ٦٤ من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية وقد خطته يد الحاقلي نفسه ولم يبين عن أية نسخة كتبه . والمحقق عندي أن هذا الكتاب ليوحنا أسقف دارا كما سألني عند الكلام فيه . وقال في المجلد الثاني من هذه المكتبة عند الكلام في الداراي (صفحة ١٢٣) « إن قدم الكتاب (أي كتاب الداراي) الذي أطلعت عليه يثبت إثباتاً كافياً أن ذلك الكتاب هو للداراي لا ليوحنا مارون ومنه إثبات وثلاثون فصلاً مثبتة في الكتاب الذي خطه الحاقلي بيده وعزاه إلى يوحنا مارون » على أنه في كتابه الموسوم بفهرست الكتب القديمة المخطوطة في المكتبة الواتيكانية الذي شاركه في تأليفه ابن اخته المطران أسطفانس عواد السمعاني ذكر كتاب الكهنوت ليوحنا مارون في عد ١٠١ في جملة الكتب التي عزاه إليها وقال إن يوحنا أسقف دارا وديونيسيوس بن صليبا أسقف آمد انتحلا منه أشياء كثيرة فكأنه رجع عن رأيه الذي قال به في المكتبة الشرقية ويؤيد ذلك قول يوحنا مارون في فاتحة كتابه في شرح رتبة القداش (الذي سنثبت صحة نسبته إليه) « بعد أن كتبنا في الكهنوت البيعي بإسهاب ... بقي علينا أن نكتب في الذبيحة غير الدموية » هذا وقد كان يوحنا الداراي بعد يوحنا مارون وكان من عادة القدماء أن ينتحل المتأخر كلام المتقدم فأبي العجب من أن يكون الداراي انتحل كلام يوحنا مارون في كتاب سماه باسم كتابه وأن تكون تلك الفصول التي ذكرها السمعاني انتحلها الداراي عن كتاب يوحنا مارون ولم يأخذها الحاقلي عنه ويعزوها إلى يوحنا مارون .

كتابه في شرح رتبة القداش

قال السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٠) في جملة تأليف يوحنا مارون « كتاب في شرح رتبة القداش وهو مثبت في الكتاب ٦٤ من كتب الحاقلي بعد كتابه في الكهنوت وقد خطه الحاقلي بيده وهو مقسوم إلى خمسين فصلاً واستشهد به نيرون الباني في كتابه الموسوم بسلاح الإيمان، والإهدني في محاماته عن الموارنة وكلاهما أخذوا عن الحاقلي الذي كثيراً ما استشهد هذا الكتاب في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي، ولكن قد ظن رينودوسيوس (في مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٧٤) إن الصحيح أن هذا الكتاب هو لديونيسيوس بن صليبا وسوف أثبت بأدلة سديدة ظنه نظراً إلى هذه

المقالة الأخيرة عند كلامي في ابن صليبا». على أنه يظهر أن السمعاني عدل عن رأيه هذا لأنه لما تكلم في كتاب ابن صليبا في المجلد الثاني من هذه المكتبة صفحة ١٧٦ لم يأت بشيء من الأدلة السديدة التي وعد بها في المجلد الأول ولم يقل إن كتاب يوحنا مارون في شرح رتبة القديس هو لابن صليبا بل عزا إلى ابن صليبا كتاباً موسوماً بهذا العنوان وقال ذكره الإهدني في فصل ٧ في مؤلفي النوافير من الهرطقة قائلاً: «ديونيسيوس هو يعقوب بن صليبا من ملطيني أسقف آمد له شرح لرتبة القديس أنفذه إلى اغناطيوس مطران بيت القدس سنة ١٤٨٠ يونانية (توافق سنة ١١٦٩ م) ليقاوم به الإفرنج الذين كانوا قد تملكوا الأرض المقدسة». إلى أن يقول السمعاني: «ذكره رينودوسيوس في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٥٤ ونيرون في فهرست المؤلفين الذين ذكرهم في كتابه سلاح الإيمان». وفي المكتبة الواتيكانية نسخة له حديثة الخط وهي في عد ٣٦ من كتب الحاقلي، وجزء كبير من هذا التأليف الذي يعزوه السريان إلى ابن صليبا تراه كأنه بألفاظه في المقالة التي عزاها الحاقلي إلى يوحنا مارون كما أشرت في المجلد الأول صفحة ٥٢٠. والمطالع يرى أن لاستشهاد السمعاني بالإهدني والباي إنما هو ليثبت أن لابن صليبا أيضاً كتاباً في شرح رتبة القديس لا يعزو إليه كتاب يوحنا مارون، وقوله إن جزءاً كبيراً منه في المقالة التي عزاها الحاقلي إلى يوحنا مارون يحتمل المعنى أن ابن صليبا انتحل كلام يوحنا مارون عن أن الجزء وإن كبيراً لا يطلق على الكتاب كله.

هذا وقد ذكر السمعاني في فهرست المجلد الأول من مكتبته الشرقية صفحة ٥٧٨ في جملة كتب الحاقلي «عد ٣٦ شرح رتبة القديس لابن صليبا موجهاً إلى اغناطيوس أسقف اليعاقبة قاطني أورشليم خطه يوسف الحصري ابن خاطر سنة ١٦٤٦م». وفي صفحة ٥٨٠ «عد ٦٤ كتابان ليوحنا مارون: الأول في الكهنوت والثاني شرح رتبة قديس السريان مقسوماً إلى خمسين فصلاً صفحة ٢٤٩ خطه الحاقلي». وقد صرح بأن كتاب ابن صليبا ينطوي على عشرين فصلاً فقط وذكر خلاصة كل منها مع ذكره أن كتاب يوحنا مارون يُحوي خمسين فصلاً ثم أن الأب بطرس مبارك الماروني اليسوعي علق مقالتي على ترجمته لكتب القديس أفرام السرياني إلى اللاتينية، واستشهد بكتاب يوحنا مارون هذا مرات منها في صفحة ٨ و ٣٦ و ٤١ و ٤٨ و ٥٠، وكان السمعاني نفسه

الفاحص للمقاتلين والمؤذن بطبعهما كما يظهر مما علّقه عليهما وكان بينهما إخاء، فكان على السمعاني لا أقل من أن ينبّهه إلى أخطائه بعزوه كتاباً يعقوبياً إلى أوّل بطارقة الموارنة. والمجلّد الأوّل من المكتبة الشرقية طبع سنة ١٧١٩م وإجازة السمعاني طبع مقالتي مبارك كان سنة ١٧٤٠م، ثم إن يوسف لويس السمعاني ابن أخي السمعاني الشهير ألف كتاباً في رتب القديس عنوانه *codex liturgicus* أي كتاب الرتبة، وأثبت كتاب شرح رتبة القديس ليوحنا مارون في المجلّد الرابع من تأليفه المذكور مترجماً من السريانية إلى اللاتينية، وقد أيد بأدلة قاطعة أنّ هذا الكتاب ليوحنا مارون وطبعه في رومية سنة ١٧٥٢م بحضرة عمّه السمعاني، فلو لم يكن عمّه ارعوى عن رأيه لنهاه عن طبع كتاب لأحد اليعاقبة معزواً إلى بطريك الموارنة. وقد أثبت البطريرك يوسف أسطفان (في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ٨) إنّ كتاب شرح رتبة القديس هو ليوحنا مارون حقيقة مورداً لتحقيق ذلك حججاً دامغة.

ولنأت إلى القول الفاصل في هذا الجدل! قد عثرت في مكتبة بطريركيتنا على كتاب شرح رتبة القديس ليوحنا مارون، خطّه الخوري بطرس مخلوف (الذي صار بعداً أسقفاً على قبرص) سنة ١٦٧٠م في رومة فعارضته بالفقرات التي رواها السمعاني في كتاب ابن صليبا فألفت الفرق بينهما أظهر من أن يبين، فكتاب ابن صليبا موجّه إلى اغناطيوس أسقف اليعاقبة في أورشليم ولا شيء من ذلك في كتاب يوحنا مارون، وكتاب ابن صليبا ينطوي على عشرين فصلاً وكتاب يوحنا مارون يشتمل على خمسين فصلاً، وفي كتاب يوحنا مارون أمور شتى لا يمكن أن يقولها ابن صليبا وفي كتاب ابن صليبا أمور شتى لا يمكن أن يقولها يوحنا مارون، منها قول يوحنا مارون في فصل ١٦: «وأوحد اللاهوت والنفس والجسد بالأقنوم الإلهي وشوهد بطبيعتين إلهية وبشرية». وقوله في فصل ١٩ في التقديسات: «إذا وجهت إلى الثالوث المسجود له لم يسغ البتة أن يزداد عليها يا من صلبت فإنّ هذا إنّما هو ضلال بطرس بطريك أنطاكية الملقّب بالقصار... ولذا حرم عدلاً وحطّ عن كرسيه» وقوله في هذا الفصل: «كل من لا يعترف بأنّ كلمة الله اتحاد جوهري بالجسد مع حفظ الطبيعتين الإلهية والبشرية خواصهما متّحدتين بأقنوم الكلمة الواحد دون اختلاط... فليكن محروماً». وقوله في فصل ٢١ في تباع ديوسقورس «الذين زعموا في ربّنا طبيعة واحدة

فكيف يمكن أن يكون بطبيعة واحدة إنساناً وإلهاً مائتاً وغير مائت صانعاً ومصنوعاً خالقاً ومخلوقاً أزلياً وزمناً». وقوله في هذا الرأس أيضاً: «حاشا أن نقول إن ابن الله تألم وصلب ومات بطبعه الإلهي... لكنه تألم وصلب ومات بالجسد». وأمثال ذلك كثيرة مما لا يمكن ابن صليبا أن يقوله لأنه نقض صريح لمذهبه. ومما قاله ابن صليبا ولا يمكن يوحنا مارون أن يقوله قوله في فصل ٦: «يلزم أن تكون البرشانات وترأ لا شفعا إلا الإثنتين». وقال يوحنا مارون فصل ١٨ مفنداً هذا الضلال: «أما نحن فنقول إنه يجوز للكهان أن يقدم ما أراد من البرشانات وترأ أو شفعا». وقال ابن صليبا في فصل ٦ أيضاً «يتألف خبز الأسرار من القمح سر المياه ومن الخمير سر الهوى ومن الملح سر الأرض ومن الزيت سر النار هاك الإستقصات الأربع». وقال يوحنا مارون في فصل ١٦: «إن الخبز المقدم على المذبح يلزم أن يكون من القمح ولا شيء غيره». وقال ابن صليبا فصل ٧ «رتب الرسل ما كتب في القانون أن القربان يرفع على المذبح يوم خبزه لا بعد يوم فهذا لا يجوز». وأسهب الكلام في فصل ١٤: «إن القديس يتم بكلمات الرب ودعوة الروح القدس». واستشهد في فصل ١٦ «ساويرس البطريك المسكوني» إلى غير ذلك مما لا يمكن أن يقوله يوحنا مارون أو ممّا صرح بتفنيده. وعليه فلا يبقى محل للإرتياب في أن كتاب يوحنا مارون غير كتاب ابن صليبا الذي كان في أواخر القرن الثاني عشر قد انتحل بعض كلام يوحنا مارون الذي كان في القرن السابع على عادة القدماء، فلا مرية إذاً في أن كتاب شرح رتبة القداس إنما هو ليوحنا مارون، وإذا ثبت ذلك رجح أن نقل ثبت أن الكتاب في الكهنوت أيضاً لهذا البطريك إذ قال في مطلع كتاب الشرح المذكور: «بعد أن تكلمنا في الكهنوت بقي أن نتكلم في الذبيحة غير الدموية» كما مرّ. طالع كتابنا روح الردود من صفحة ١٨٨ إلى صفحة ٢٠٣ من طبعة بيروت.

عد ٧٠٨

هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة

قال السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٠) هل كتب يوحنا مارون شيئاً في مشيئتي المسيح؟ لا اجترأ أن أقطع بذلك فإنني لم أر له إلى الآن

مقالة في هذا الصدد ويظهر في إيضاح الإيمان الذي أنفذه إلى اللبنايين أنه لم يتكلم قط في هذا البحث ولو كان قد كتب شيئاً يؤيد هذه البدعة لالفيناها بلا مراء في هذا الكتاب الذي ترجمه توما الكفرطائي إلى العربية وحرّفه، بل لكان توما المذكور استشهد في كتابه الذي أنفذه إلى يوحنا بطريرك الملكيين (الأنطاكي) ليدافع عن بدعة المشيئة الواحدة حيث أسهب في كلامه على الموارنة والملكية، وبعكس ذلك أن يوحنا مارون لو كان قد فنّد بدعة المشيئة الواحدة لتعقبه توما ونذّر به ولا أقل من أن يغتابه كما اغتاب القديس مكسيمس، ولوجد له في إيضاح الإيمان ما يؤنبه عليه لقوله في المسيح مشيئين، ولو قال شيئاً من ذلك لاستشهد به علماء الموارنة والبابائي والحاقلي وابن القلاعي وغيرهم من القدماء ليرثوا أمتهم من بدعة المشيئة الواحدة. وبما أنني لم أجد أحداً فعل كذلك أرجح أن يوحنا مارون لم يكتب شيئاً في هذا البحث. وقد أورد الباني في مقالته في أصل الموارنة ودينهم وباجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م فقرة من كتاب يوحنا مارون في شرح رتبة القداس قال فيها: «قد كتبنا بإسهاب في هذه الأمور وأثبتنا بشهادات آبائنا الأولين في كتابنا الذي أنفذناه إلى محبتكم رداً على من خلطوا طبيعتي ربنا ومشيئتي». على أنه وإن ثبت أن هذا الكتاب ليوحنا مارون (وسأين رأيي فيه) فلاأظهر عندي أن هذه الفقرة زادها عليه كاتب حديث لأننا لا نرى يوحنا مارون كتب في إيضاح الإيمان شيئاً يثبت المشيئين، وقُلْ مثل ذلك في كل ما أورده الباني في مقالته المذكورة من أقوال يوحنا مارون ولم يكتب يوحنا مارون شيئاً في هذه البدعة. فالذي أراه إما أنه كتب قبل انتشارها، وإما أن اللبنايين الذين كتب إليهم لم يكونوا يبالون بهذه البدعة بل كان كل جدالهم للنساطرة واليعاقبة في وحدة أقنوم المسيح وطبيعته وبدعة المشيئة الواحدة فرع لبدعة الطبيعة الواحدة. (كما مرّ) فاعتقد أن تفنيده بدعة الطبيعة الواحدة هو تفنيد أيضاً لبدعة المشيئة الواحدة وقد يكون كتب إيضاح الإيمان وهو راهب قبل أن تشتهر هذه البدعة ويحرمها المجمع السادس» انتهى كلام السمعاني ملخصاً.

على أن البطريرك يوسف أسطفان قد أثبت (في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ٧ وما يليه) رأي السمعاني أن يوحنا مارون لم يدافع عن بدعة المشيئة ولكن تعقبه في قوله إنه لم يكتب شيئاً يدحضها به، مبيناً أن السمعاني لم يقطع بصحة رأيه بل عبّر عن ذلك بقوله يظهر، ولا اجترأ على القطع بذلك وأرجح. ثم أخذ في نقض أدلته وأولها أنه لو كتب يوحنا مارون رداً على بدعة

الآيات، وبما أنه من العذراء هو إنسان قاسٍ لأنه أراد الصلب والآلام وما أشبه بطبعه البشري . . . فمقابلة الأفعال ببعضها تبين الاختلاف بينها . فهذا نص صريح في إثبات الفعلين في المسيح .

وقد جاء في فاتحة كتاب إيضاح الإيمان بالسريانية أن يوحنا لم يناسب النساطرة واليعاقبة فقط بل أصحاب المشيئة الواحدة أيضاً إذ قيل هناك: « وكذلك فعل برد مزاعم تلاميذ أفتيمس (أو قورش) بطريك اسكندرية الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملك ذلك الزمان ». قلنا إن السمعاني قال إن هذه العبارة أدخلها المترجم العربي على الأصل السرياني لأن يوحنا مارون لم يفه بكلمة في بدعة المشيئة الواحدة، لكنه قال أيضاً إن الكفرطابي هو الذي ترجم هذا الكتاب إلى العربية وعبث به على أن الكفرطابي لا يدخل هذه العبارة المخالفة لزمعه وهي واردة بالأصل السرياني لا بالترجمة العربية . ولم يؤيد السمعاني كلامه هذا بغير دعواه وهي أن يوحنا مارون لم يكتب شيئاً في هذه البدعة وهو موضع البحث فلا يصلح أن يكون كلامه حجة له. وقد أثبت البطريرك يوسف أسطفان أن هذه العبارة مثبتة في نسخ كثيرة غير نسخة السمعاني ولا سيما في الأصل السرياني، وأورد لإثبات رأيه أدلة أخرى كثيرة منها أنه جاء في ترجمة يوحنا مارون في سنكساري الموارنة ما نصّه: « فصبوب الطوباوي يوحنا مارون رأي علماء الكنيسة الرومانية وألف مقالة أثبت فيها المشيئتين والفعلين برنا من الكتب المقدسة والأدلة اللاهوتية ». ومنها أن هذا التقليد كان مستمراً عند الموارنة، ومنها أن يوحنا مارون في كتابه شرح رتبة القداس الذي أثبتناه له في العدد السالف قال في الفصل الحادي والعشرين منه ما ترجمته: « وقد تمصّل بهؤلاء (أي تباع ديوسقورس) من بلبلوا مشيئتي ربنا وفعليه وعزوا ما قاله الآباء عن وحدة الإرادة والقوة والسلطان في الثالوث الأقدس إلى سر تديره الخلاصي وخلطوا ما بين البسيط والمركب، على أننا لما كتبنا في هذه الأمور بإسهاب وحققنا بشهادات آبائنا الأطهار التي جمعناها في كتابنا نقضاً لزمع من يبلبلون طبيعتي ربنا ومشيتيه ويخلطون خواصه وأرسلنا كتابنا إلى محبتكم فلنعد الآن إلى ما كنا في صده » وقال في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب: « كل من لا يعترف ويقول إن ربنا اتحد بالجسد اتحاداً جوهرياً حفظت فيه طبيعتهما بخواصهما الإلهية والبشرية في أقنوم الكلمة الواحد متميزتين بالاتحاد ومتحدتين بالتمييز بلا اختلاط ولا امتزاج فليكن محروماً، لأنه قاص عن

الإيمان القويم وظلوم للحق». وقال في الفصل الثالث والثلاثين من هذا الكتاب: «حاربها قديماً سيمون الساحر فسقط من الجوّ، حاربها آريوس فأفرت كرشه، حاربها مكدونوريوس مجدفاً على الروح القدس فطرح من كرسیه، حاربها نسطور مجدفاً على العذراء والدة الله فتهراً لسانه وانتن، حاربها ديوسقورس الإسكندري وبلبل مع اوطيخا طبيعتي ربنا، وحاربها قورش الإسكندري وأتباعه وبلبلوا مشييتي ربنا وفعلوه فبادوا وتبدّدوا كالدخان في ما زالت ثابتة حتى انقضاء العالم لأنها مبنية على صخرة لا تتزعزع كما وعدنا ربنا» وذكر البطريك يوسف أسطفان بعض ما ذكرناه في إثبات كتاب شرح رتبة القداس ليوحنا مارون واسترسل هذا البطريك العلامة في كلامه إلى إيراد حجج أخرى عدلنا عن ذكرها حباً بالإيجاز إلى أن قال ماذا يا ترى جرى على كتاب يوحنا مارون في المشييتين والفعلين في المخلص، وأجاب أن تقادم الدهر وما شئت من الحروب وما أصاب الموارد من إتلاف كتبهم وتحريف بعضها وإخفاء بعضها حرمتنا وصول هذا الكتاب إلينا كما حرمتنا من التوصل إلى كتب كثيرين من الآباء مع علمنا بها ولاسيما في الأعصر التي لم تكن فيها المطابع. ومن شاء زيادة في البيان فليطالع كتاب المحاماة عن الموارد المطبوع حديثاً حيث يجد كتاب البطريك يوسف أسطفان المذكور برمته وعندي نسخة من هذا الكتاب قد استنسختها في رومة سنة ١٨٩٣م عن نسخة في مدرسة الرهبان الموارد الحليين وهي أصبح من النسخة المطبوعة ولاسيما في الفقرات السريانية التي انسربت بها أغلاط.

ولأن حق لمثلي أن يدي رأياً في هذا الجدل بين هذين الجهذين العلامتين السيد السمعاني والبطريك يوسف أسطفان قلت يظهر لي أن حجج البطريك ترجح على ما ذكره السيد السمعاني من الأدلة بل تبطلها ولا أقل من أن تضعفها كثيراً، وليس من المعقول أن يوحنا مارون وقد ناصب بدعتي نسطور وأوطيخا لم يكتب شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة وكانت السائدة في أيامه، وقد تسكع بها مكدونوريوس ومكاريوس بطريركا أنطاكية وعقد المجمع السادس لنبذها وحرّمها، وقد شهد البابا بناديكتس الرابع عشر أن يوحنا مارون أقيم لوقاية الموارد من فسادها ولاسيما إني موقن اعتماداً على ما قلته آنفاً بأن كتاب شرح رتبة القداس إنما هو ليوحنا مارون، وقد رأيت أقواله فيه وتصريحه بأنه كتب ضد هذه البدعة وأدلة السمعاني الثلاثة سلبية وهي عدم هجو الكفرطابي ليوحنا مارون، وعدم استشهاد الباني والحاقلي

بكلامه وعدم وجود ما يستدل به من كتابه بأنه كتب ضد بدعة المشيئة الواحدة وردّ البطريك على هذه الأدلة سديد وكأنه قاطع إذ قال في الرد على الأول أن الكفرطابي ادّعى أنه ماروني فلا يوافق غرضه أن يهجو يوحنا مارون. وقال في الثاني إن الباني والحاقلي اعتمدا على نسخة حذف الكفرطابي منها كل ما يمكن أن يستشهد به. وقال في الثالث إن السمعاني أيضاً اعتمد على هذه النسخة المعثو بها فلم يجد فيها ما يستدل به. فهذه خلاصة الكلامين وأظن كل متبصّر منصف يرى ما رأيت وأني عجب من علامة كالسمعاني لا يصيب في أمر فله الكمال

ومن ذا الذي ترضي سجاياء كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معائبه وما تسامى به العلامة السمعاني نزاهته عن التعصّب فلا يصرفه عما يراه حقاً حب أمته أو وطنه، وأعظم شاهد لذلك اراؤه هنا في كتب يوحنا مارون في الكهنوت وفي شرح رتبة القداس وفي الرسالة وفي التقديسات، ونفيه كتابه في رد بدعة المشيئة الواحدة. فكذا كذا فليكن العالم والكاظم قدردنا الله أن نكون كذلك.

عد ٧٠٩

قداسة يوحنا مارون

قد أفرد، المطران اسطفانس عواد السمعاني (ابن أخت السيّد السمعاني الشهير كتاباً لإثبات قداسة يوحنا مارون دونه في اللغة الإيطالية وطبعه في رومة سنة ١٧٦٩م، وترى ترجمة عربية له في الكتاب الموسوم بالحمامة عن الموارنة وقديسيهم والمطبوع هذه السنة ١٨٩٩م. وكذلك أفرد البطريك يوسف أسطفان كتاباً آخر لهذا الغرض نفسه كنا قد استنسخناه عن نسخة في رومة سنة ١٨٩٣م وقد طبع الآن في كتاب الحمامة المذكور. والداعي لتأليف هذين الكتاين هو ما ذكره مؤلفاهما أن بعض إخواننا الملكيين الكاثوليكين شرعوا سنة ١٨١٥م يذيعون بين العامة أن القديس مارون الرئيس أبا الطائفة المارونية ليس بقديس حقيقة بل تحتل الكنيسة الرومانية الموارنة يعتدونه قديساً، فشق هذا الأمر على الموارنة ورفع بعض رؤسائهم عريضة إلى الكرسي الرسولي يشكون من هذا التجني ويبينون ما لهم من المستندات في قداسة مارون الرئيس، فوكل الكرسي الرسولي إلى بولس ماري

لوشيني (الذي صار بعداً كردينالاً) الفحص عن هذا الأمر فرفع إلى الكرسي الرسولي حكمه بعد الفحص ومما قاله فيه: «إنَّ قداسة القديس مارون ثابتة وإن لم تكن فيها براءة رسمية ككثيرين غيره من أصفياء الله في القرون الغابرة وإن وضعت قداسته تحت الريب اتَّسع المجال لإنكار قداسة كثيرين من الآباء والنسك والأبرار» فحمد سعي الخصومة لكنه لم يطفأ فإنَّ بعض الملكيين الكاثوليكين حملوا بطريركهم كيرلس تاناس سنة ١٧٥٠م على تمزيق صورة للقديس مارون مطبوعة في رومة مدعياً تبعاً لزعم سعيد بن البطريق أنَّه مبتدع. وبلغت أخبار هذه الأحداث البابا بناديك١٣س الرابع عشر فكتب منشوراً إلى نيقولاوس لاركاراي كاتب مجمع نشر الإيمان المقدَّس مؤخراً في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣ يثبت به قداسة القديس مارون ويبرئه من تهمة البدعة ويؤنب البطريك كيرلس على فعلته وسوف نثبت ترجمة هذا المنشور برمته. وكان يرجى أن يسد باب المناظرة بحكم الكرسي الرسولي بهذا البحث إلّا أنَّ أصحاب تلك الضغائن لما ضاق ذرعهم عن التشبث بآتهام القديس مارون الرئيس ورأوا أنَّهم يعيدون له في ١٤ شباط عدلوا عنه إلى آتهام القديس يوحنا مارون بطريك الموارنة الأوَّل بما كانوا قد آتهموا به القديس مارون وكتب أحد كهنتهم بحلب سنة ١٧٦٥م رسالة باسم طائفته إلى السيِّد أرسانيوس شكري مطران الموارنة بحلب. ومما قاله فيها: «إنَّ الملكية لا يريدون أن يكرموا مارون آخر غير مارون الرئيس الذي كتب ترجمته توادريطس، أمّا يوحنا مارون فيعدونه من القائلين بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح ما لم يعترفه الحبر الروماني قديساً ويعلن قداسته بمنشور رسولي، واتبع ذلك بكثير من الطعن على الموارنة وبالغض من كرامة المطران أرسانيوس وكتب مثل ذلك إلى مجمع نشر الإيمان المقدَّس. وعقد الملكيون مجعماً في حلب حضره رؤسائهم ورؤساء السريان والأرمن واستدعوا إليه رؤساء المرسلين اللاتينيين واليسوعيين والفرنسيسيين والكرمليين والكبوشيين وبعض علماء الموارنة فقضى من شهدوا بالإنِّفاق أنَّ يوحنا مارون قديسٌ يحق له الإكرام الذي يقدمه له الموارنة إلّا الملكيين فإنَّهم كابروا وأبوا الإذعان، وما انفكوا عن مثالبهم فكان هذا الداعي الذي حمل المطران أسطفانس عواد السمعاني وهو في رومة إلى تدوين كتابه في قداسة يوحنا مارون وتبرئته وتبرئة الموارنة من وصمة بدعة المشيئة الواحدة. وكذلك حمل البطريك يوسف أسطفان أن يكتب إلى رئيس مجمع نشر الإيمان رسالة باسمه وباسم أساقفته

ويرد فيها بكتابه في يوحنا مارون. فالكُرسي الرسولي بعد التروّي والتحقيق على عادته أثبت رأي الموارنة، وأكبر شاهد لذلك منح البابا ييوس السابع في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي يوم عيده في ٢ آذار كل سنة، ثم مد هذا الغفران إلى جميع كنائس الأمة المارونية في منشوره في ٢٧ أيار سنة ١٨٢١م وسوف نثبت ترجمة المنشورين. وعن الكتاين المذكورين نأخذ نحن ما سنذكره في هذا الصدد بما يمكن من الإيجاز.

فقد استشهد البطريرك يوسف اسطفان لقداسة يوحنا مارون أولاً علماء الموارنة وهم جبرائيل القلاعي أسقف نيكوسية بقبرص الذي أخذ سنة ١٤٩٥م ترجمة يوحنا مارون عن كتاب قديم عثر عليه وضمها إلى كتابه إلى القس جرجس بن بشارة المار ذكره وقد ترجم الأب كواريسمس الفرنسي هذه القصة من العربية إلى اللاتينية، ونشرها في مؤلفه في وصف الأرض المقدسة، ثم البطريرك أسطفانس الدويهي وقد أخذ ترجمة يوحنا مارون عن كتاب قديم أطلعه عليه القس مخائيل المطوشي قيل فيه: «قد كان رأس الأمة المارونية اسمه يوحنا وكان رجلاً فاضلاً عالماً صالحاً مزيناً بكل الفضائل والمحامد». ثم مرهج بن نيرون الباني وقد أخذ ترجمة يوحنا مارون عن كتاب رآه عند الخوري يوحنا الرزي خوري بيروت ثم السمعاني الشهير وقد رأيت ترجمة يوحنا مارون مأخوذة عنه وقد انتحل كلامه برمته الأب مخائيل لكويان في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي (مجلد ٣ في بطارقة الموارنة). واستشهد هذا البطريرك لذلك أيضاً بترجمة يوحنا مارون في سنكسارى الموارنة وقال إن منه نسختين قديمتين بالعربية والأحرف الكرشونية في مكتبة الواتيكان في عد ٢٧ و ٢٨ وفيها أخباره التي روينها في ترجمته عن أصله وعلومه وترهبه وأسقفيته وبتطريكيته وجهاده ومناضلته المبتدعين ولاسيما أصحاب المشيئة الواحدة، واستشهد أيضاً بالمقدمة المعلقة بالعربية واللاتينية على طبعة كتاب قداس الموارنة سنة ١٧١٦م بعد أن فحصت ورخص بطبيعتها حيث ثناء وافر على هذا البطريرك وقداسته وحيث طبع نافور القداس الذي ألفه معنوناً نافور القديس يوحنا مارون البطريرك الأنطاكي.

ثم أخذ هذا البطريرك في القسم الثاني يخص يوحنا مارون ما أثبت البابا بناديكتس الرابع عشر في المجلد الثاني من تأليفه في تطويب القديسين أنه لازم في التطويب وهو العيد المشهور الإحتفالي وحفظ صورة المطوب في الكنيسة بين صور

القديسين والذكر له في الرتب البيعية والقداس في يوم انتقاله وتعارف الناس إياه طوبواياً وقديساً، وأفرد لكل منهما فصلاً فقال في الأول إنّ الكنيسة المارونية قد عيّنت من أقدم الأيام اليوم التاسع من شهر شباط عيداً للقديس يوحنا مارون كل سنة كما يظهر من فهرست الأعياد السنوية المعلق على كتب القداس وكتب الفروض وخصّ بالذكر الفهرست المعلق على كتاب الشحيم الذي طبع في رومية سنة ١٦٢٤ وسنة ١٦٤٧م بعد أن دقّق النظر فيه بأمر الأخبار الرومانيين بولس الخامس وغريغوريوس الخامس عشر وأدريانس الثامن وجماعة من العلماء منهم الكردينال بلرميلس الشهير. ففي هذا الفهرست «اليوم التاسع من شباط عيد القديس مارون البطريرك» ومثل ذلك فهرست في كتاب قديم في كرسي قنوين وهو الآن في بطريركية الموارنة وفي كتاب آخر قديم في مكتبة الواتيكان في عد ٧ خطاً في نيموسية بقبرص سنة ١٨١٩ يونانية توافق سنة ١٥٠٨م. وفي كتب أخرى كان الموارنة يعيدون للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني كما يظهر من كتاب للشدياق الياس بن داود الطرابلسي خطّ سنة ١٤٩٤م ومن كتاب لجرجس البرديوط خطّ سنة ١٥٢٣م اعتماداً على التقليد بأن يوحنا مارون كرّس في ذلك اليوم كنيسة كفرحي على اسم القديس مارون ووضع فيها هامته ورجّح أن يكون البطريرك يوسف العاقوري قرّر أن يكون هذا العيد مفروضاً في مجمع عقده في دير حراش في ٥ تشرين الأول سنة ١٦٤٤م، ونسخة من أعمال هذا المجمع في المكتبة الواتيكانية في عدد ٣٣ كتب فيها: «مار يوحنا مارون البطريرك في ٩ شباط» وكذلك في الفهرست المعلق على الشحيمة الصغيرة أي كتاب الفرض الأسبوعي المطبوع بأمر البابا أيتوشنسيوس بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٦٤٧م وفي طبعاته التالية إلى سنة ١٧١٣م، إلى أن حسن لدى بطاركة الموارنة أن يفرضوا للقديس مارون ويوحنا مارون عيداً واحداً في ٩ شباط مجانبية لكثرة الأعياد كما يرى في كتاب القداس المطبوع برومية سنة ١٧١٦م. وفي مطبعة روتلي سنة ١٧٦٢م حيث قيل: «٩ شباط عيد القديس مارون رئيس الدير والقديس يوحنا المسمى مارون أيضاً بطرك أنطاكية»، إلى أن أمر البطريرك يوسف أسطفان أن يعيد للقديس يوحنا مارون وحده في الثاني من آذار سنداً إلى التقليد القديم أنّ وفاته كانت في ذلك اليوم. والحاصل من كل ذلك أنّ الموارنة كانوا وما برحوا يعيدون عيداً احتفالياً للقديس يوحنا مارون بعلم الكرسي الرسولي ورضاه وإثباته بل قال برتلماوس بياتسا في كتابه السنكساري الروماني الذي طبع في رومة سنة ١٦٧٦م وسنة ١٦٩٠م ما ترجمته: «في ٩ شباط

جملة قديسيها النساك الأفاضل . وهذه الصلوات في كنيستنا من أقدم الأيام بل لا نعرف لها بدءاً لتوغلها في القدم. وذكر مثل ذلك البطريرك يوسف أسطفان وقال إن مثل هذا التذكار وارد أيضاً في كتاب فروض الأعياد السنوي في صلوة عيد الختانة مع تذكار القديسين باسيليوس وغريغوريوس وفي كتاب خدمة القديس المطبوع في رومة أربع مرات، وإن الموارنة يذكرون في رتبة قداسهم بعد التقديس ستة تذكارات أي لرعاة الكنيسة الأحياء وجميع المؤمنين الكاثوليكين والملوك المسيحيين والعذراء مع القديسين والمعلمين الأبرار والموتى المؤمنين واستشهد الدويهي (فصل ٣ من كتاب الإحتجاج) حيث قال إنه عثر على كتاب خدمة قديم ذكر فيه في تذكار القديسين بولا وأنطونيوس وبخوميوس ومكاريوس وسمعان العمودي ... والقديس مارون الطوباوي». وفي تذكار المعلمين القديسين « نذكر أيضاً المعلمين القديسين: الذين علموا الإيمان الحقيقي وبثوه في أقاصي العالم وهم الكواكب النيرة في البيعة المقدسة أي اقليمس وديونيسيوس وأغناطيوس وايريناوس ... وغريغوريوس ... ويوحنا فم الذهب ... وإسحق ومارون ويعقوب السروجي». فمن لا يرى أن مارون الوارد ذكره في جملة النساك المتوحدين هو القديس مارون الناسك ومارون الوارد ذكره في جملة ملافة البيعة هو القديس يوحنا مارون البطريرك. واستشهد أيضاً بعنوان نافور القديس الذي ألفه يوحنا مارون آخذاً إيّاه عن الكتاب السرياني الذي في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٩ وهو « نافور القديس يوحنا بطريرك أنطاكية ومعلم البيعة المدعو مارون ».

وقال في الدليل الرابع وهو إقامة القديس في يوم انتقال المطوّب ليس عند الشرقيين قداس خاص بكل من القديسين بل في رتبهم طلبات أو أبيات يتلوها الخادم في القديس مدحاً للقديس ففي عيد القديسين مارون ويوحنا مارون في ٩ شباط يترنم خادم القديس بما يلي : « هلمّ نمدح مرشدنا مارون العظيم الذي صاننا من الضلال والبدع ووساوس المحتال ... ويوحنا مارون الفريد بالقداسة والرأي السديد الذي نرجو بطلباته الرضاء والقبول من الفادي المسؤول » وحقق البطريرك أن هذا مدوّن في كتاب الخدمة الذي فحصه الكرسي الرسولي وأثبتته وأمر بطبعه في رومة ونهى أن لا يستعمل سواه وأن فيه ذكراً مبجلاً ليوحنا مارون يقال في كل قداس وإن الكاهن يقول في التذكارات بصوت عال : « ساعدنا وثبتنا في محبتك بصلوات هؤلاء الملافة الذين حملوا بشارتك مجتهدين في المسكونة وثبتوا بيعتك

المقدّسة بإيمان مستقيم لكي نصعد لك المجد معهم وبينهم». فيجيبه الخادم بما هو مثبت في الخدمة المطبوعة برومة (صفحة ٧٣) «وهو أننا لنذكر أيضاً أولئك الذين تقدّموا ورددوا بين القديسين واستراحوا بالقداسة وحفظوا الإيمان الرسولي بغير عيب وإياه سلمونا... ونذكر آبائنا ومعلمينا المتوشحين بالله المستقيمي المجد ذلك الرسول يعقوب أبا الرب وذاك الشهيد ورئيس الأساقفة أغناطيوس وديونيسيوس وأثناسيوس وباسيليوس... والبار المنتخب القديس مارون الأب الطوباوي المقبول في كنيسة رومة المقدّسة الكاثوليكية والبار يعقوب والبار أفرام الأفواه الناطقة وأعمدة يبعثنا المقدّسة». ولا مرأى في أنّ مارون المذكور هنا في جملة ملائكة البيعة هو القديس يوحنا مارون.

وقال في الدليل الخامس على القداسة وهو أن يتعارف الناس المطوّب بقديس وطوباوي، أن تعارف الخاصة والعامة يوحنا مارون بطوباوي أو قديس مستفيض في المشرق والمغرب، فإنّه ينعت بقديس في عنوان كتبه القديمة ولاسيما نافوره المذكور وكتابه إيضاح الإيمان كما ذكرناه في محلّه (في العدد السابق) وفي كثير من كتب الموارنة، وقد أثبتت الكنيسة المارونية اسمه في طلبة القديسين بين الأساقفة والمعلمين القديسين بعد اسمي أثناسيوس وكيرلس كما هو ظاهر في كتاب خط سنة ١٥٨٢م وهو اليوم في مكتبة مدرسة الموارنة وينعت بقديس في الجامع اللبنانية وفي السنكساري وفي كل ما كتبه الأسقف جبرائيل القلاعي ومرهج بن نيرون الباني والبطريك أسطفانس الدويهي والسيد يوسف السمعاني والأب بطرس مبارك اليسوعي وغيرهم ممن كتبوا بالسريانية أو العبرية أو اللاتينية. وأمّا من اللاتينيين فنكتفي بأن نذكر منهم الأب كوارسمس الذي طبع ترجمته باللاتينية في الكتاب الأوّل من تأليفه في وصف الأرض المقدّسة (صفحة ٣٧) ويوحنا شيواربوس في كتاب رحلته إلى أورشليم وقد ذكرنا قوله آنفاً ومما قاله: «إنّ يوحنا مارون سلك كل حياته مسلك الفضل والقداسة». ومنهم عبد الأحد ماكري في رحلته إلى لبنان وكيرلس برتلماوس في كتابه في السنكساري الروماني، والبولنديون فإنّهم لم يذكروا يوحنا مارون إلا مع وصفه بالقديس كما ترى في المجلّد الرابع لشهر تموز صفحة ٣ ومنهم باجيوس في الحواشي التي علّقها على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٣٣م والأب لكويان في المجلّد ٣ من تأليفه الموسوم بالشرق المسيحي (صفحة ١١) حيث قال: «ما أعجب ما فعل يوحنا مارون في سبيل إفادة أمته في أيام

بطريركيته فقد رقى أساقفة وكهنة وأرسلهم إلى أطراف البلاد ووضع كتباً كثيرة يتألق فيها سناء علمه الفريد ويتلأأ إيمانه الصحيح الوطيد». إلى أن يقول: «إنه مات شهيداً بالقداسة ودفن في كفرحي وله في الكنيسة المارونية تذكارات سنوي يقام في ٩ شباط».

ومن هؤلاء أيضاً الأب إيرونيمس دنديني اليسوعي فقد قال في كتاب بعثته إلى لبنان: «إن يوحنا مارون أرسل إلى الحبر الأعظم رقاہ المقام البطريركي ووكل إليه رعاية أولئك المؤمنين الذين ما برحوا امناء و متمسكين أبداً بعروة الدين الكاثوليكي، ولم ينفكوا منذ حينئذ يؤدون الإحترام والطاعة للكرسي الرسولي الروماني ويوحنا المشار إليه سار سيرة الفضلاء والقديسين والموارنة يعدونه من أصفياء الله وقديسيه وينعتونه بالقديس في مقدمة القديسين ويدعون باسمه». ومنهم ديلاروك في رحلته إلى سوريا في المجلد الثالث المطبوع في أمستردام سنة ١٧٢٣م، ومنهم الكردينال أورسي في تاريخه لسنة ١٦٣٦م في المجلد ٢١ صفحة ٣٢٢ من طبعة رومة سنة ١٧٦٧م، وقال لولا خشية ملل القارئ لذكرنا كثيرين غير هؤلاء. انتهى كلام البطريرك يوسف أسطفان ملخصاً وجاء مثله في كتاب المطران اسطفان عواد ولا نرى حاجة إلى الزيادة على ذلك.

الفصل الثالث

براءة المارونين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

عد ٧١٠

براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة

إنَّ براءة القديس مارون الرئيس من بدعة المشيئة الواحدة أصبحت في هذا العصر حقيقة مقررة يخجل كل من كان له أقلُّ إلمام بالتاريخ أن يَتَّهمه بهذه البدعة لثلاث يثبت جهله بهذا الاتِّهام ولا ينقض من كرامة هذا القديس شيئاً. فمن الحقائق المقررة باجماع المؤرخين أنَّ القديس يوحنا فم الذهب توقَّاه الله في أوائل القرن الخامس، وفي جملة رسائله الرسالة السادسة والثلاثون منقولة إلى القديس مارون، وقد ترجمناها بحروفها (في عد ٦٤٢) نقلاً عن أصلها في كتب فم الذهب التي طبعها الأب مين. وفم الذهب كان في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس. ثم من هذه الحقائق المجمع عليها أنَّ توادوريطس أسقف قورش كتب ترجمة القديس مارون في كتابه في الناسك، وقد ترجمنا كلامه بحروفه في العدد المذكور من كتابنا هذا نقلاً عن كتاب توادوريطس في طبعة الأب مين، ومما لا خلاف فيه أنَّ توادوريطس توفاه الله سنة ٤٥٨م، ومن البديهي أنَّ مارون كان قبله وممَّا لا خلاف فيه أيضاً أنَّ بدعة المشيئة الواحدة نشأت في نحو سنة ٦٢٨م أي بعد وفاة القديس مارون بقرنين ونصف. فأَي منصف أو أي عالم يَتَّهمه ببدعة لم يكن لها عين ولا أثر في الكنيسة إلَّا بعده بقرنين؟ نعم وجد من قال بذلك في أعصر الجهل وهو سعيد بن البطريق البطريرك الإسكندري الملكي. لكنَّ روايته نفسها كفتنا مؤونة ردها فكانت مما قال فيه أحد خطباء الفرنسيين إنَّ بعض الأقوال يكفي لرُدِّها ذكرها وحده فإنَّ هذا البطريرك قال: « كان في عصر موريق ملك الروم راهب

اسمه مارون قال إنَّ لسيدنا يسوع المسيح طبيعة ومشية واحدة وأفسد مقالة الناس . . . فسُمِّي التابعون لدينه موارنة نسبة إلى مارون ولما مات مارون بنى أهل حماه ديراً سموه دير مارون». وقد أبتأ بطلان هذا القول من نفسه في عدد ٦٦٨ ولاسيما أنَّ موريق استوى على أريكة الملك سنة ٥٨٢م وتوفي سنة ٦٠٢م وهذا مجمع عليه والقديس مارون قضى نحبه سنة ٤١٠م فيكون بين ارتقاء موريق إلى منصّة الملك ووفاة القديس مارون مئة واثنان وسبعون سنة، وبين وفاة موريق سنة ٦٠٢م وظهور بدعة المشيئة الواحدة سنة ٦٢٨م ست وعشرون سنة. فبطلان قول سعيد بن بطريق بيّن من الوجهين؛ فلا مارون كان في أيام موريق ولا بدعة المشيئة الواحدة ظهرت في أيامه.

إنَّ مثل هذه الأغلاط في تاريخ سعيد بن بطريق كثير متواتر وقد أشار إلى ذلك كثيرون من العلماء منهم لوقا هلستين في رسالته إلى الكردينال أنطونيوس، وارينس حيث قال في تاريخ ابن البطريق: «إنَّ هذا الكتاب طبعه السلداني ويخالف في أشياء كثيرة ما كتبه مؤرخو ذلك القرن، وعندما طالعتّه تبين لي نصّه أعجمياً مفعماً بالخرافات . . . ولا فائدة منه البتة بل يلبّل عقول من اعتادوا تصديق الخزعبلات وإيثارها على شهادة المؤرخين المحققين». وقال الأب فلوري (في مجلّد ١٣ من تاريخه مقالة ٣ عد ٧): «إنَّ تاريخ سعيد بطريك اسكندرية . . . قد كتب فيه أموراً مضحكة، وقد خلا كلامه من التدقيق حتى في ذكره أحداث عصره». وقال الأب لكويان (في الفهرست المعلق بالمجلّد ٣ من تأليفه المشرق المسيحي): «من البين أنَّ تاريخ سعيد هذا لا يستحقّ أقلّ تصديق، فإنَّ تأليفه طام في كل محل منه بخزعبلات وترّهات شنيعة ويشوّش بذلك كل تواريخ القرون التي تقدمته». وقال دومينيكس منسى في حواشيه على تاريخ غرافيزون (مجلّد ٤ مقالة ٥ صفحة ٧٠ إنَّ ترّهات سعيد في التاريخ الإسكندري لم يفضح بطلانها إلا تيوس فقط في ما كتبه على ما أشهره سلدانوس منها بل السمعاني الشهير أيضاً في مكتبته الشرقية مجلّد ١ صفحة ٤٩٨، وقال غرافيزون نفسه في المجلّد المذكور إنَّ تاريخ سعيد مشحون بغوايات وحكايات كثيرة. وقال بروكوكيوس الذي ترجم هذا التاريخ إلى اللاتينية وطبعه السلداني في فاتحة ترجمته: «إنّه يشتمل على خرافات كثيرة في الأخبار القديمة».

على أننا لم نر في كلام هؤلاء العلماء وعلمائنا الموارنة إلّا هذه الأحكام

العامّة، ولم نطلع على أمثلة لهذه الترهات أو الخرافات - كما سموها. وليس لدينا كتاب سعيد بن البطريق لتنقده بنفسنا ونورد مثلاً لأغلاطه. فاجتزأنا أن نأخذ مثلاً لذلك من كلام لكويان في بطارقة أنطاكية وأورشليم حيث ذكر ابن البطريق. قال: «إن جيورجيوس خلف مكدونئوس (في بطيركية أنطاكية) في السنة الثالثة لخلافة عثمان ورقي في قسطنطينية وأقام فيها خمس سنين ولم يأت إلى أنطاكية بل مات في قسطنطينية ودفن فيها». ولم يذكر أحد من المحققين جيورجيوس هذا بل لم يذكروا بطريقاً بين مكدونئوس ومكاريوس اللذين ذكرهما ابن البطريق والسنة الثالثة لخلافة عثمان توافق سنة ٦٤٨ أو سنة ٦٤٩ م لأنه ببيع بالخلافة سنة ٢٤ للهجرة وهي سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ للميلاد. وكان مكدونئوس حياً سنة ٦٤٩ م، والمؤكد أنه توفي سنة ٦٥٥ م وخلفه مكاريوس الذي قال في رسالة: «إن مكدونئوس سالفه كان في أيام بطرس البطريك القسطنطيني وشهد مجمعه الذي نبذ فيه التعليم الكاثوليكي وهذا قوله فيها بطرس الكلي القداسة البطريك المسكوني وسالف حقارتي مكدونئوس ذو الذكر السعيد». والمؤكد أن بطرس هذا رقي إلى بطيركية قسطنطينية سنة ٦٥٥ م واستمر إلى سنة ٦٦٦ م. فإذا مكدونئوس كان حياً في كل المدّة التي قال ابن البطريق إن جيورجيوس كان فيها بطريقاً فضلاً عن انفراده بذكره بين بطارقة أنطاكية. ولذلك عقب لكويان كلامه في هذا المحل بقوله: «إن تاريخ ابن البطريق لا يوثق به».

وقال ابن البطريق في مكاريوس المذكور: «في السنة العاشرة لعثمان (وهي سنة ٦٥٥ م) صير مكاريوس بطريقاً أنطاكياً وأقام في قسطنطينية ثماني سنين ولم يأت إلى أنطاكية ومات في قسطنطينية ودفن فيها». فيظهر من قوله إن مكاريوس توفي سنة ٦٦٣ م. وقد أجمع المؤرخون على أن مكاريوس حضر المجمع السادس سنة ٦٨١ م وأصرّ على ضلاله بيدعة المشيئة الواحدة ولذلك حرم وأرسل إلى رومة ومات فيها بعد ذلك مصرّاً على غيّه هذا. ويظهر من رسالة الملك قسطنطين اللحياني إلى البابا دمنس المعلقة في صدر المجمع السادس أن مكاريوس كان في قسطنطينية سنة ٩٧٨ وابن البطريق يحصيه بين الموتى منذ سنة ٦٦٣ م. فتأمل. قال بعد ذلك وخلف توما توفان: «ومات بعد أن استمر في البطيركية عشرين سنة وقام بعده جيورجيوس في السنة الأولى لخلافة عبد الملك بن مروان» وهي سنة ٦٨٤ أو سنة ٦٨٥ م والمجمع عليه أن المجمع السادس بعد أن عزل مكاريوس سنة

٦٨١م أقام توفان مكانه . وهذا بيّن من أعمال هذا المجمع فمن أين أتى ابن البطريق بتوما هذا . ومن أين العشرون سنة التي استمرّ فيها توما بطريكاً بعد توفان حتى خلفه جيورجيوس سنة ٦٨٥م . فهذه العشرون سنة كان فيها على كرسي أنطاكية مكاريوس وتوفان كما رأيت . ولذلك قال لكويان بعد إيراده قول ابن البطريق هذا عن الصحة بمراحل بالنسبة إلى التاريخ الصحيح . وجيورجيوس الذي ذكره لم يؤكّد المحققون أنّه كان بطريكاً وبه كان حقيقة فابن البطريق قال إنّ استمرّ بطريكاً أربعة وعشرين سنة ، فتكون نهاية بطريكيته على زعمه سنة ٧٠٩م لأنّه صير بطريكاً سنة ٦٨٥م . وقال بأثر ذلك إنّ كرسي أنطاكية خلا من بطريك خمسين سنة ٧٥٩م . وعاد يقول : إنّ أسطفانس صير بطريكاً على أنطاكية في السنة الأولى للآون الايسوري وهي سنة ٧١٧م فمن سنة ٧٠٩م إلى سنة ٧١٧م ثماني سنين فأين الخمسون سنة فتأمل بهذا الخلط . والصحيح أنّ كرسي أنطاكية خلا حينئذٍ من بطريك أربعين أو خمسين سنة وأقيم اسطفانس بطريكاً نحو سنة ٧٤٤م في السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤١م كما حقّق توفان في تاريخه .

وقال بعد ذلك إنّ توادورس الأوّل صير بطريكاً على أنطاكية في سنة ٢٠ لخلافة ابي جعفر وهي سنة ٧٧١م ، وأنّه استمرّ بطريكاً ثلاثاً وعشرين سنة والصحيح ما رواه توفان أنّه صير بطريكاً سنة ٧٥١م . وقال ابن البطريق بعد ذلك : إنّ توادوريطس خلف توادورس المذكور في السنة الثامنة لخلافة هرون الرشيد . والمحقّق أنّ هرون الرشيد رقي منصّة الخلافة سنة ١٧٠ للهجرة الموافقة لسنة ٧٨٧ للميلاد . وكان توادوريطس حينئذٍ بطريكاً لأنّه في هذه السنة كان المجمع النيقاوي الثاني وكان القس توما الراهب نائباً عنه في هذا المجمع . فكيف يصدق قوله إنّ توادوريطوس صير بطريكاً في السنة الثامنة للرشيد وقوله : إنّ توادورس سالفه دبر البطريكية ٢٣ سنة وقد زعم أنّه صير بطريكاً سنة ٧٧١م .

وفي تاريخه لبطاركة أورشليم قال في إيليا بطريكها إنّ صير بطريكاً في السنة السابعة عشرة لهشام وهي توافق سنة ٧٤٠ للميلاد . والصحيح أنّ توادورس سالفه رقي إلى البطريكية سنة ٧٥٢م واستمرّ حياً بعد سنة ٧٦٧م لأنّه كتب في هذه السنة رسالة إلى البابا بولس الأوّل . ولا يعلم كم سنة عاش بعد ذلك ورسالته هذه بلغت بعد وفاة البابا بولس الأوّل إلى البابا قسطنطين الدخيل على الكرسي

الروماني سنة ٧٦٧م فأرسلها إلى يبين ملك فرنسة، وذكر خلاصتها البابا أدريانس الأول في رسالته إلى الملك كرلس الكبير وبتراً هذا البابا توادورس مما طعنه به مخالفو المجمع النيقوي الثاني . فإبن البطريق إذاً ذكر هنا الخلف قبل السلف مشوشاً سنّي التاريخ ، وإيليا الذي زعم أنّه صير بطريكاً سنة ٧٤٠م لا شكّ في أنّه كان حياً سنة ٧٨٧م إذ روى البولنديون في ٢٥ شباط أنّ يوحنا الكاهن أتى إلى نيقية ليشهد المجمع السابع المسكوني نائباً عن إيليا البطريك الأورشليمي وكذا يرى توقيعه على آخر المجلس السابع من هذا المجمع . ورجّح لكوريان أنّ وفاته كانت سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م فإن صحّ زعم ابن البطريق أنّه صير بطريكاً سنة ٧٤٠م كانت مدّة بطريكته سبعاً وخمسين سنة وابتلعت بطريركية توادورس سالفه .

وقال بعد ذلك إنّ جيورجيوس صير بطريكاً سنة ٢٠ لخلافة أبي جعفر المنصور وهي على زعمه سنة ٧٧٢ (وعن باجيوس أنّها سنة ٧٥٤م) ، وأنّه استمرّ على البطريركية ثلاثين سنة . وقد مرّ بك أنّ إيليا سالفه توفي سنة ٧٩٧م . فمن هذه السنة إلى سنة ٨٠٧م التي قام فيها توما خليفته عشر سنين فمن أين العشرون سنة ؟ وارتقاء توما سنة ٨٠٧م إلى بطريركية أورشليم ثابت برسائل منه إلى البابا لاون الثالث .

قال ابن البطريق : « إنّ سلمون صير بطريكاً على أورشليم في السنة العاشرة لخلافة المتوكل على الله واستمرّ بطريكاً خمس سنين » . فالتوكل على الله ارتقى إلى عرش الخلافة في آب سنة ٨٤٦م ؛ فتكون ترقية سلمون إلى البطريركية سنة ٨٥٦م وكان قد قال في سالفه سرجيوس إنّهُ أقيم سنة ٨٤٣م واستمرّ ست عشرة سنة ؛ فيكون سرجيوس بقي على زعمه في البطريركية إلى سنة ٨٥٩م . فضلاً عن أنّ الظاهر من المجمع الثامن المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٨٦٩م أنّ البطريك سرجيوس الأورشليمي كان في جملة من حرموا فوتيوس في هذا المجمع ؛ فيكون خطأ ابن البطريق مضاعفاً أي في تعيينه مدّة سرجيوس ، وفي قوله إنّ سلمون رقي إلى البطريركية سنة ٨٥٦م وتوفي بعد خمس سنين أي سنة ٨٦١م .

قال بعد ذلك : « إنّ إيليا صير بطريكاً على أورشليم في السنة العاشرة لخلافة المهتدي ، وإنّه كان ابن منصور الذي ساعد على فتح دمشق وجلس على الكرسي

٢٩ سنة». قال لكويان : «وأما قول ابن البطريق أنه كان ابن منصور الذي ساعد على فتح دمشق فهو من جملة هذياناته . ففتح دمشق كان سنة ٦٣٥م قبل ارتقاء هذا البطريك بمئتين وثلاث وأربعين سنة .

وقال بعد ذلك : «إنَّ لاون (يسميه اللاتينيون لاونتيوس) صير بطريكاً للسنَّة الثالثة من خلافة المقتدر بالله ابن المقتفي بالله واستمرَّ سبع عشرة سنة» .

وقال ابن العميد (في ك ٢ فصل ١٩) : «إنَّ جعفر أبا الفضل المقتدر بالله بن المعتضد بالله بويج بالخلافة يوم وفاة أخيه المقتفي بالله» . فالمقتدر إذاً أخو المقتفي لا ابنه كما وهم ابن البطريق .

فهذا قليل من كثير من أغلاط ابن البطريق على سبيل المثال ودونك هذا المؤرِّخ الثقة المحقِّق المدقِّق الذي ما برح خصوم الموارنة يحجونهم بحديث خرافة استنبطه وهذى به أنَّ القديس مارون الرئيس أنشأ بدعة المشيئة الواحدة وهو كان قبل إنشائها بقرنين وأكثر كما أثبتنا بينات وحجج دامغة ، ولا يريد بعض من هؤلاء الخصوم أن يقفوا عند التواريخ الصادقة وأن يذعنوا للحجج القاطعة أو يصدقوا الأحبار الرومانيين ، والقول ما قالوا في أمور الدين ، أو أن يلتفتوا إلى أنَّ هذه الخرافة لم يأت بذكرها أحد من كل من كتبوا من أيام مارون إلى أيام ابن البطريق في القرن العاشر بل يكابرون ويتعنتون بانتحال بعض المؤرخين هذه الخرافة في أعصر الجهل عن سعيد بن البطريق قبل عصر الإنشقاق الذي أصلح كثيراً من التواريخ . وقد فنَّد علماء الموارنة وأنا أحقرهم وفي آخرهم هذه التهمة مرات وما برح بعض العدل أو الحسد يعيدون ذكرها دون أن يكلفوا نفوسهم لرد حجج التفنيد لها وعليه يفضي الجدل إلى ما لا نهاية له . والعقل وقواعد الجدل تقضي عليهم أن ينقضوا ما أتى به علماؤنا ، وما أثبتنا به في هذا الكتاب ، وما أوردناه في كتابنا روح الردود بهذا الصدد ، قبل أن يحجوننا بهذه الأقوال الساقطة .

عد ٧١١

إثبات البابا بناديكتس الرابع عشر قداسة القديس مارون

إننا رغبة في إيكام المتعنتين ثبت هنا منشور البابا بناديكتس الرابع عشر العلامة الذي أثبت قداسة القديس مارون الرئيس بداعي أنَّ البطريك كيرلس تاناس مزَّق

صورة هذا القديس، وعرض أمر هذا التجني على قداسته فأنفذ إلى الأب نيقولاوس لركاري كاتب مجمع نشر الإيمان رسالة بنمط منشور هذه ترجمتها عن كتاب براءته (مجلّد ٤ صفحة ٨٦ عن طبعته في رومة سنة ١٧٥٨م) البابا بناديككتس الرابع عشر.

أيها الإبن الحبيب السلام والبركة الرسولية

١- قد وجدنا بين القراطيس التي قدمتها لنا أخيراً عند مثولك لدينا ما يختص بتكريم القديس مارون الرئيس فان ولدنا العزيز الأخ داسيداريوس الراهب الفرنسي من كازاباشيانا الذي كنا قد أرسلناه قاصداً إلى الأخ المحترم بطريك الموارنة كتب إلى مجمع نشر الإيمان أنّ الأخ المحترم كيرلس بطريك الروم الملكيين مرق صور القديس مارون المطبوعة في رومة، وأعلن أنّه لا يجوز إحصاؤه بين القديسين لأنّه عاش هرايكياً، وأنّ هذا أنشأ مخاصمات ومشاجرات بين الموارنة والروم الملكيين، وأنّه يخشى من زيادة هذه الخصومات يوماً فيوماً لأنّه لم يستطع إخماد نار المشاجرة بل بعد أن برح المحل الذي كان فيه مجدداً في إطفائها قال له بعض الكهنة جهاراً إنّ لا سلطان له في فصل هذه المسألة. والحكم بأنّ مارون كان قديساً أو مبتدعاً ولاسيما أنّ بطريركهم كان ينذر أنّه عاش ومات ملطّخاً بالبدعة، ولذلك توجّه إلى دير الخلّص حيث يقيم بطريك الروم الملكيين ليحدثه في هذه المسألة. فلم يفز بمشاهدته وتعذّر عليه أن يلحقه.

٢- فنحن لم نتعجّب فقط بل اغتظنا أشدّ الاغتياظ مما فعله الأخ المحترم كيرلس البطريك بجسارة وعلى غير روية، وكأنّه أراد أن يتباهى بعلمه وبخبرته، فلم يصلح ذات البين بل حاول أن يحكم بسلطانه في هذا الجدل كأن أمره مجهول عندنا وعند المجمع. وأقبح من ذلك أنّه افرغ جهده في أن يحرم من وصف بالقداسة مذ أجيال كثيرة برضى الكرسي الرسولي وإثباته من أن يوصف بقديس أو أن يُقدّم له التكريم الذي يقُدّم للقديسين.

٣- وأنت تعلم أنّ القديس مارون كان في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس وتوادوريطس الذي يمكن أن يسمّى معاصراً له (لأنّه اشتهر في منتصف القرن الخامس) كتب ترجمته، فأثنى على فضائله السامية، وأطراً أفعاله الحميدة.

فتوادوريطس هذا أسقف قورش أُلّف كتاباً في تراجم الآباء عنوانه بمحبّ الله أو التاريخ الديني ؛ ولهذا الكتاب ترجمتان لاتينيتان : إحداهما في كتاب تراجم الآباء الذي وضعه رسفدس ، والأخرى في المجلّد الثالث من مؤلفات توادوريطس التي جمعها جنتيانس هروات وطبعها سيرمنس . فتوادوريطس يثني على قداسة القديس مارون في ستة مواضع من تأليفه كما يظهر من طبعة رسفدس لكتاب تراجم الآباء ؛ أعني فصل ١٦ صفحة ٨٢٧ و ٨٢٨ وفصل ٢١ صفحة ٨٣٢ وفصل ٢٢ صفحة ٨٣٨ وفصل ٢٤ صفحة ٨٤٠ وفصل ٣٠ صفحة ٨٥٠ ، وفي جملة رسائل القديس يوحنا فم الذهب رسالته السادسة والثلاثون إلى القديس مارون الرئيس وقد أطرأ فيها فضائله ، واستغاث بصلواته على أنّ بعضاً من أصحاب التعاليم غير الصحيحة أفرغوا جهدهم في أن يضعفوا شهادة توادوريطس في كتابه تراجم الآباء . ومن هؤلاء : أندراوس ريفيتس في كتابه الرابع الموسوم الإنتقاد المقدّس فصل ٢١ ، وروبرتس كوكس في كتابه الموسوم بانتقاد بعض المؤلفين القدماء صفحة ٣٩٠ ، وفريدريكس سبانهامبوس في كتابه في التاريخ المسيحي للقرن الخامس فصل ١٠ صفحة ١٠٣٠ . فناصر هؤلاء كثيرون من أصحاب العلم السامي والانتقاد الدقيق ، وسدّوا أفواههم بمدافعتهم عن صحة تاريخ توادوريطس وترفعه عن كل شائبة ، وفي جملة هؤلاء لاباي في مقالته في توادوريطس المعلقة على تأليف بلرمينس في الكتبة البيعيين الذي طبع في البندقية سنة ١٧٢٨م صفحة ١٥٥ ، ثم كرنيليوس في مقالته الثانية المعلقة على المجلّد الخامس من كتب توادوريطس المطبوعة في باريس سنة ١٦٨٤م صفحة ١٩٩ ، وتلمون في ترجمة توادوريطس فصل ٤٨ مجلّد ١٥ صفحة ٣٢٩ ، ونطاليس اسكندر في تاريخه البيعي للقرن الخامس فصل ٤ جزء ٢٨ ، ثم الفقيه كلير في تاريخه العام للمؤلفين الملهمين والبيعيين مجلّد ١٤ فصل ١٤ جزء ٢ صفحة ٩٤ .

٤- وأهم من كل ذلك أنّ أدق مؤرخي عصرنا وأوفرهم خبرة وأبعدهم عن الإسراع إلى تصديق كل ما يقال قد اعترفوا بصحّة ترجمة القديس مارون التي كتبها توادوريطس ، وأنثوا على فضائله ، وأطروا أعماله المجيدة كما فعل توادوريطس ، وهذا أكبر دليل على اعتقادهم صحة ما كتبه توادوريطس في ترجمة القديس مارون فطالع كتب البولاندين في اليوم الرابع عشر من شباط في المجلّد الثاني لهذا الشهر ، وبيلايوس في تراجم القديسين في اليوم الرابع عشر المذكور ،

وتلمون في المجلد ١٢ من تاريخه البيعي في ترجمة القديس مارون صفحة ٤١٢ وما يليها . ولا ينبغي أن نسهو عن أنه لما طبع كتاب قداس الموارنة في أيام حبرية البابا اكليمنضس الثامن وكان الكردينال جبرائيل بليوتس محامياً عن هذه الطائفة طلب الرخصة من الحبر الأعظم في طبع الكتاب المذكور فرخص له على شريطة أن تُعلّق على صدر الكتاب ترجمة القديس مارون مأخوذة عن تاريخ توادوريطس . فأتّم ذلك إذعائاً للأمر كما شهد بذلك الكردينال يعقوب برونيوس الشهير حيث قال : « خاطبت سيدنا الكلي القداسة في شأن طبع كتاب القداس للموارنة الذي كان قد طبع قبلاً فأجاب سؤالي ، وأمر أن يعلّق في صدر هذا الكتاب ترجمة القديس مارون مأخوذة عن توادوريطس .

٥- ثم إنّه قد كان دير شهير للقديس مارون - كما يظهر في رسالة رؤساء أديار سورية الثانية إلى هرمزدا الحبر الأعظم سنة ٥١٧م موقعاً عليها من اسكندر رئيس دير القديس مارون ؛ وهذا ظاهر في المجلد الخامس من مجموعة الجمامع للاباي ، المطبوعة في البندقية صفحة ٥٩٨ ، وفي تاريخ بارونيوس لسنة ٥١٧م عد ٥٣ . وقد جاء في أعمال المجمع القسطنطيني الذي عقد ٥٣٦ ذكر لهذا الدير ، وقد وصف دائماً مارون باسم قديس أو طوباوي - كما يظهر للمطالع في المجلد الخامس من مجموعة لاباي المذكورة صفحة ٩٦٧ و صفحة ٩٧٨ و ٩٩٤ و ٩٩٩ و ١٠٧٥ و ١٠٨٣ و ١٠٩٩ و ١١١١ و ١٢٢٣ ثم إنّ باجيوس في تنقيحه تاريخ الكردينال بارونيوس لسنة ٤٠٠م عد ١٧ وما يليه قد أثنى على فضائل القديس مارون ، ثم فاض في الكلام على ديره ، وأطراً كثيراً تشبّث رهبانه بعري الإيمان الكاثوليكي ، وشبّهه بقلعة حصينة للدين الكاثوليكي في المشرق كلّه لمقاومة أصحاب البدع . وذكر استشهاد ثلاثماية وخمسين راهباً من رهبانه تكلّلوا بإكليل الشهادة في أيام الملك أنسطاس ، لمدافعتهم عن المجمع الخلكيدوني . وذكر هؤلاء الأبطال في اليوم ٣١ من تموز في السنكساري الروماني حيث نرى شروحاً علّقها عليه الكردينال بارونيوس . ولا نغفل عن أنّ صورة القديس مارون مقامة على المذبح الكبير في كنيسة مدرسة الموارنة في هذه المدينة العظمى ، ويقدم لها الإكرام العلني ، ويعيد للقديس مارون عيداً احتفالياً .

٦- إنّ هذه الحجج كلّها تثبت إثباتاً قاطعاً قداسة القديس مارون ، وتبيّن إنّنا تصرّفنا تصرفاً محكماً وعادلاً في استجابتنا سؤال الأخ المحترم سمعان عواد بطريرك

الموارنة الأنطاكي واقتفائاً آثار سلفائنا - ولاسيما سالفنا البابا اكليمنضس الثاني عشر؛ إذ منحنا في براءتنا المبرزة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين ذكوراً وإناثاً الذين يعترفون ويتناولون القربان الأقدس في اليوم التاسع من شباط الذي يحتفل به الموارنة بعيد القديس مارون شفيعهم الخصوصي، ويزورون كنيسة من كنائس الرهبان أو الراهبات من جمعية القديس أنطونيوس الكبير أو جمعية القديس أشعيا في جبل لبنان ويصلُّون من أجل الاتفاق بين الملوك المسيحيين واستئصال البدع وارتفاع شأن الأم الكنيسة المقدسة. فكل واحدة من هذه الحجج تبين صريحاً سوء تصرف الأخ المحترم البطريرك كيرلس في مقاومته غير القانونية لتكريم القديس مارون.

٧- ولا يعسر علينا أن نبحث في الأسباب التي حملت الأخ المحترم البطريرك كيرلس على صنيع هذا الأمر؛ فقد أثبت الموارنة أنَّ منشأ تسميتهم عن القديس مارون الرئيس، وأنَّهم لم ينحرفوا قط عن محبة الدين الكاثوليكي، ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك أنَّهم إذا كانوا جدُّوا اتحادهم مع الكنيسة الرومانية وقتاً ما فلا ينبغي أن يتأوَّل ذلك بمعنى أنَّهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا إليه. على أنَّ غيرهم يرون الخلاف ويزعمون أنَّ الموارنة برزوا من مدرسة أصحاب المشيئة الواحدة، وأنَّ مارون رئيسهم نفسه اتَّبع هذه البدعة، وأنَّهم لم يرتجعوا عنها إلَّا في سنة ١١٨٢م على يد ايميريكس الثالث بطريرك أنطاكية اللاتيني. فكل هذه الأقوال يمكن الإطلاع عليها في المعجم العام الافرنسي اللاتيني في المجلد الخامس في كلمة موارنة، وفي معجم موراريوس طبعة باريس صفحة ١٧٤٧ مجلد ٦ في كلمة موارنة.

٨- ثم إنَّ أصحاب الرأي المضاد يوردون شهادة غوليلمس رئيس أساقفة صور الذي روى في كتاب ٢٢ في الحرب المقدسة فصل ٨ ما أشرنا إليه آنفاً على أنَّ شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الرأي المضاد للموارنة، ولربَّما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله. ولذلك عزاه إلى المجلد الثاني من تاريخ سعيد الإسكندري الذي كتب في صفحة ١٩١ هكذا: «وكان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول إنَّ في المسيح طبيعتين ومشية واحدة وفعلاً واحداً وأقنوماً واحداً. ولما مات مارون بنى له سكان مدينة حماه ديراً سموه دير مارون وأتبعوا اعتقاد مارون».

٩- على أنَّ علماء الموارنة لم يألوا جهداً في تبيان الأغلاط التي تسكع بها سعيد المذكور وغوليلمس الصوري وسائر من اتبعهما، وفي تنفيذ هذه الأغلاط وهذا يتن من مقالة مرهج بن نيرون في أصل الموارنة واسمهم ودينهم. ومما أجاد في إباتته بفقاهة سامية ولدنا العزيز يوسف سمعان السمعاني المقدم في بلاطنا في المجلد الأول من مكتبته الشرقية صفحة ٤٩٨، وتابعهما على ذلك باجيوس الافرنسي في تنقيحه تاريخ الكردينال بارونيوس سنة ١١٨٢م. والحق نقول إنَّ بدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح إنما كان أوَّل ظهورها في أيام هرقل الملك؛ وهذا قد أجمع عليه العلماء فكيف أمكن أن يشتهر هذا الضلال في أيام موريق الملك، وكيف يصح ما قاله سعيد من أنَّ الدير أنشئ بعد موت مارون الذي تكلم فيه مع أنَّ هذا الدير قد بني قبل مئتي سنة على اسم القديس مارون الرئيس، وبروكويوس القيصري أثبت في كتابه الخامس في أبنية يوستينانوس الملك أنَّ هذا الملك دمر دير القديس مارون. ومن البين أنَّ الملك يوستينانوس توفي سنة ٥٦٥م وموريق توفي سنة ٦٠٢م.

١٠- إننا لا نطبق أن يقصَّ شيء من محبة الكرسي الرسولي للموارنة وقد جمعنا نحن تقارير سلفائنا لهذه الأمة، وأضفنا إليها ثناءنا عليها في خطبتنا في محفل كرادلة الكنيسة المطبوعة في حاشية كتاب «بولاتنا» مجلد ٢ صفحة ٤٢. وإذا تركنا جانباً كل استمالة إلى الأمة المارونية، وأطلقنا لعلماء الموارنة المقيمين في رومة أن يردُّوا سهام خصومهم ويثبتوا تشبههم الدائم بعرى الإيمان الكاثوليكي إذا دعت الحاجة (ولا نرى حاجة)، ويؤيدوا نسبتهم إلى القديس مارون الرئيس، وافترضنا ما رواه سعيد صحيحاً للحق فلا يمكن أن ينتج من ذلك إلاَّ أنَّه كان مارونان: أحدهما قديس، والثاني هراتيكي. فإنَّ الاسم وحده لا يجعل القديس أراتيكيّاً أو الأراتيكي قديساً، ولا الإكرام المقدم للقديس يحسب مقدماً للمبتدع ومن هذا ينتج نتيجة واضحة أنَّ الأخ المحترم البطريرك كيرلس بنهيه عن تقديم التكريم للقديس مارون لم يتخطَّ حدود سلطانه فقط بل تصرف تصرفاً مخالفاً للتقوى في حق رجل لحسب أجيالاً كثيرة بين مصافِّ القديسين ولم يأت الأخبار الرومانيون أن يغروا الشعب بتقديم الإكرام له بمنحهم الغفرانات المقدم ذكرها.

١١- قد قلنا قبلاً إنَّه وإن سلمنا بصحة ما رواه سعيد لا ينتج من ذلك إلاَّ أنَّه كان مارونان: أحدهما قديس، والآخر أراتيكي. فالأراتيكي إنما هو من تكلم فيه

سعيد وقال إنه عاش في أيام موريق الملك الذي قلنا آنفاً إنه توفي سنة ٦٠٢م،
والقديس إنما هو من اشتهر في أيام الملك أركاديوس الذي دُبر الملك من سنة ٣٩٥
إلى سنة ٤٠٨م، وقد كتب توادوريطس ترجمته وكان توادوريطس معاصراً له
وثقة. وقد أثبتنا أيضاً أن الاسم وحده لا يكون سبباً يجعل القديس أراتيكي أو
الأراتيكي قديساً، أو لاحتساب الإكرام المقدم للقديس تكريماً للأراتيكي؛ وهذا أمر
مقرر وظاهر بالنور الطبيعي ولا حاجة له إلى إثبات. لكننا نورد مثلاً لتسمية اثنين
اسماً واحداً. فقد كان اثنان باسم ريمندس لوليوس، واثنان باسم يوحنا كنتس؛
وقد تكلمنا على هؤلاء في كتابنا في تطويب القديسين. فأحد المسمين ريمندس
كان شهيداً مشهوراً، والآخر تيساً حكم عليه بالموت. وأحد المسمين يوحنا
كنتس هو طوباوي الكرسي الرسولي يثبت الإكرام العلني المقدم له، والآخر كان
من أولي البدعة. ومن ذلك كله يظهر جلياً أن الأخ المحترم البطريرك كيرلس
تصرف تصرفاً مخالفاً للقوانين والتقوى بنهيه عن تقديم التكريم المقدم على زعمه
لمارون الأراتيكي الذي ذكره سعيد مع أنه بالحقيقة قد حرم من هذا الإكرام مارون
الكاثوليكي الذي أثنى عليه توادوريطس، وأن الكرسي الرسولي لم يقصد بمنحه
الغفران إلا تكريم ذلك الطوباوي مارون الرئيس الذي كتب توادوريطس ترجمته
وأثنى على قداسته؛ وهذا يظهر جلياً مما ذكرنا آنفاً أن البابا اكليمنضس الثامن
عمله. فلك إذاً أن تخبر المجمع بكل هذا وتتخذ الوسائل اللازمة والمناسبة وتكتب
بأمرنا وأمر المجمع إلى الأخ المحترم البطريرك كيرلس أن يرعوي عما أقدم عليه ولا
يجسر من الآن فصاعداً أن يحرم من الإكرام الإحتفالي القديس مارون الرئيس،
ويمتنع عن إلقاء الفتنة بين الروم الملكيين والموارنة. وإن رأيت موافقاً أن تبعث إليه
بهذه الرسالة المنفذة إليك ليكون على يقين من معرفة إرادتنا فالإرادة لك بهذا
الخصوص ونمنحك في الختام البركة الرسولية.

أعطي برومة حذاء كنيسة القديسة مريم المعروفة الكبرى في ٢٨ أيلول سنة
١٧٥٣م وهي السنة الرابعة عشرة لحبريتنا.

فهذا المنشور المحضن بهذه الأدلة السديدة والحجج القاطعة لا يزداد تبيناً وتأكيداً
بل نذيله بما كتبه البابا بناديكتس الرابع عشر نفسه بعد إبرازه هذا المنشور إلى
البطريرك سمعان عواد في رسالته إليه في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥م وهو: «إننا لا
نرتاب في أن الأب ايسيدورس قاصدنا المار ذكره حقق لإخوتك ما لنا من الحلم

رسولي والغيرة والمحبة لك أيها الأخ المحترم وللأخوان المطارين المكرمين وسائر أبناء أمتك الجليلة العزيزة أي المواردنة كلهم الذين يتفأخرون بإقرارهم بأنهم تلقوا الاعتقاد بالإيمان الكاثوليكي من القديس مارون بالنوع الأخص وبشفاعته نما وثبت فيهم . ولما كان قلبنا موعباً بهذه المحبة لأمتك قد شقَّ علينا أن بعض الناس لا يحسنون الرأي في قداسة القديس مارون والإكرام المقدم له ، فبرأنا قداسته من التهم وأثبتناها بالسلطان الرسولي ، وقد أخبرنا قاصدنا المذكور أنه كان لذلك وقع حسن ، فسرَّ الجميع به ، وقد جرى في وقت ملائم ونافع . فسررنا نحن أيضاً لسرورهم . ويرى كل منصف أنه لم يبق من مجال للامتراء في قداسة القديس مارون أو للجدال في براءته من بدعة المشيئة الواحدة بعد حكم الكرسي الرسولي بذلك في المنشور المار ذكره وفي مناشير منح الغفران في يوم عيده وبعد كل ما أوردناه من الحجج الدامغة هدى الله المكابرين .

عد ٧١٢

براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة

نجزئ كلامنا في إثبات هذه الحقيقة إلى الإستدلال عليها . أولاً . بشهادة الأحرار الأعظمين . ثانياً . بسيرة يوحنا مارون وتأليفه . ثالثاً . بشهادة أعدائه أنفسهم . رابعاً . بشهادة العلماء المحققين . خامساً . ببيان بطلان ما يرد على ذلك .

شهادة الأحرار الأعظمين

قال البابا بنادكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م: « لا يخفى عليكم أنه في أواخر القرن السابع عندما فشلت بدعة القائلين بمشيئة واحدة بالمسيح وأفسدت سكان البطريركية الأنطاكية جزم المواردنة حيثئذ رغبة في وقاية طائفتهم سالمة من ذلك الفساد أن يختاروا لهم بطريكاً يشبهه الحبر الروماني ». وقد أجمع كل من ذكروا يوحنا مارون أو سلسلة بطاركة المواردنة أن البطريك الذي اختاره المواردنة حيثئذ إنما هو القديس يوحنا مارون . أيتفق أن يكون يوحنا مارون من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة وأن يختاره المواردنة ليقوا

طائفتهم من فسادها؟ أو يعرف هذا البابا العلامة أن يوحنا مارون متلوث بهذه البدعة ويقرظ الموارنة على انتخابه لقيهم فسادها؟

إن البابا بيوس السابع قد منح في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي ببلاد البترون يوم عيده في الثاني من شهر آذار، ثم عمم نيل هذا الغفران لمن يزور أية كنيسة كانت من كنائس الموارنة في ذلك اليوم. وهذه ترجمة صورة منح الغفران: «إن سيّدنا الكلي القداسة بيوس السابع البابا بعناية الله قد منح بواسطتي أنا المدون اسمي أدناه كاتب مجمع نشر الإيمان المقدّس غفراناً كاملاً موبداً يمكن تقديمه إسعافاً للنفوس المعتقلة في المطهر لجميع المؤمنين إفراداً وإجمالاً رجالاً ونساءً الذين يزورون بعبادة كنيسة القديس يوحنا مارون التي بقرية كفرحي في أبرشية البترون في يوم عيد القديس يوحنا مارون المذكور بحيث يكونون نادمين ندامة حقيقية ويعترفون ويتناولون القربان الأقدس ويتهلون لله خاشعين مدة من ذلك اليوم من مشرق الشمس إلى مغيبها من أجل انتشار الإيمان المقدّس. أعطي في رومة من ديوان المجمع المقدّس في اليوم والسنة المذكورين أعلاه مجاناً ودون دفع شيء ولو بأية حجة كانت.

كرلس ماريا بيديشيني - كاتب المجمع

طبع في مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدّس وهذه ترجمة صورة تعميم الغفران في مواجهة سيدنا الكلي القداسة في ١٧ أيار سنة ١٨٢١م.

إن الغفران الكامل المؤبد الممنوح في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م لمن يزورون بعبادة كنيسة القديس يوحنا مارون بطريق الموارنة الأنطاكي يوم عيد هذا القديس في اليوم الثاني من آذار كل سنة من جميع المؤمنين رجالاً ونساءً بحيث يكونون نادمين ندامة حقيقية ويعترفون ويتناولون القربان الأقدس؛ فهذا الغفران قد تعطّف قداسة سيدنا البابا بيوس السابع بواسطتي أنا المدون اسمي أدناه كاتب مجمع نشر الإيمان المقدّس وجعله عاماً لجميع كنائس الطائفة المارونية ولاسيما الكنيسة التي بنيت حديثاً إكراماً للقديس البطريرك المذكور، ويروم قداسته أن يستمر هذا الغفران موبداً مع حفظ كل شيء بحسب قوة المنح السابق وصورته أعطي

برومة من ديوان المجمع المقدس المذكور، في اليوم والسنة المار ذكرهما مجاناً دون دفع شيء بأي حجة كانت .

كرلس ماريا بيديشيني
كاتب المجمع

طبع بمطبعة مجمع نشر الإيمان المقدس

إنَّ خصوم الموارنة يتهمونهم بهذه البدعة سنداً إلى أنَّ مارون أو يوحنا مارون ابتدعاها أو تلوثا بها وعليه فجميع شهادات الأحبار الأعظمين التي أثبتوا فيها أنَّ الموارنة استمروا دائماً متشبثين بالإيمان الكاثوليكي ولم يزيغوا عنه البتة نشبت اتباعاً أنَّ هذين القديسين براء خلاء من هذه البدعة، وجمعنا كثيراً من شهاداتهم في كتابنا روح الردود وسنورد بعضها في العدد التالي وعلى شهاداتهم المعول في أمر الدين ولا يوازيها شاهد أياً كان، ومن قال إنَّ أحدهم منح غفراناً تكرمةً لمبتدع أو ضال كان هو من الضالين .

ثم إنَّ تسمية الأحبار الأعظمين من أقدم الأيام هذه الأمة باسم موارنة دليل ناطق على أنَّهم لم يعتدوا مارون ويوحنا مارون هرايكين لأننا نراهم لم يسموا اليعاقبة الذين رجعوا إلى الإيمان الكاثوليكي يعاقبة بل سموهم سرياناً كاثوليكين وكذلك لم يتركوا الكلدان الذين اتبعوا المذهب الكاثوليكي يسمون نساطرة بل كلداناً كاثوليكين ولا الأرمن براصمة بل أرمناً كاثوليكين، فلو كان أحد المارونين هرايكياً لسموا المنتسبين إليهم سرياناً كاثوليكين لا موارنة . وهذا دليل واضح وقاطع وقد ذكره كثيرون من العلماء اللاتينيين .

الدليل بسيرة يوحنا مارون وتأليفه

إنَّ تاهمي الموارنة يزعمون سنداً إلى اوهام سعيد بن البطريق أنَّ يوحنا مارون ابتدع بدعة المشيئة الواحدة، وهذا يستحيل عليهم إثباته إذ أجمع العلماء على أنَّ هذه البدعة كان أول ظهورها سنة ٦٢٨م وأجمل كل من ذكروا يوحنا مارون أنَّه صير بطريركاً سنة ٦٨٥م وتوفاه الله سنة ٧٠٧م وقد مرَّ أنَّ لو فرضنا أنَّه عاش ثمانين سنة

كان مولده سنة ٦٢٧م قبل ظهور هذه البدعة بسنة واحدة اطفال يدع بدعة؟ وإن قالوا إنه تلوث بهذه البدعة وتشبث بها بعد بلوغه فإليك رد قولهم . إن كل ما أوردناه في عد ٧٠٩ في قداسة يوحنا مارون من شهادات العلماء والكتب القديمة لإثبات قداسته والتعديد له كسائر أصفياء الله القديسين وعرض صورته في الكنائس كصورهم وذكره في الرتب البيعية في جملة أسماء الملافة الكاثوليكين ككيرلس وفم الذهب وأفرام وغيرهم وإقامة القداس يوم عيدته وتعارف الناس والعلماء الكاثوليكين له قديساً وطوباوياً، فكل هذه بل كل واحدة منها تثبت أن يوحنا مارون براء من كل بدعة ولاسيما بدعة المشيئة الواحدة. وقد مرَّ أن كثيرين من المؤرخين أثبتوا أن الملك يوستنيانوس الأخرم المغوي ببدعة المشيئة الواحدة والمحامي عنها قد اضطهد يوحنا مارون وأرسل جنوداً للقبض عليه فأحرقوا دير القديس مارون ودكوه وزحفوا إلى جهات طرابلس للقبض على البطريرك والتنكيل بقومه، فناصبهم الموارنة حرباً بارشاد هذا البطريرك وبقيادة ابن اخته الأمير ابراهيم. وقد ذكر كثيرون من أولئك المؤرخين أن هذه الحرب كانت بسبب الدين ويؤيد ذلك حرق الدير ودكه فكيف يوفق هذا مع كون يوحنا مارون ورعيته من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة التي كان يوستنيانوس يعنى بنشرها وتأيدها . ثم إن كل ما أوردناه في عد ٧٠٧ و ٧٠٨ في تأليفات يوحنا مارون من تحقيقنا قوله في كتابه إيضاح الإيمان: «إن للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية ولهما مشيئتان كاملتان وعلان كاملان» وقوله «إن الذي كان يتألم مثلنا كان له كما لنا أفعال خصوصية طبيعية وبشرية». ومن تصحيحنا ما جاء في فاتحة كتابه المذكور من أنه: «كان يرد مزاعم تلاميذ قورش بطريرك اسكندرية الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملك ذلك الزمان. ومن إثباتنا له كتابه في شرح رتبة القداس وقد قال فيه قد تمثل تباع ديوسقورس من بلبولوا مشيئتي ربنا وفعله .. . وحققنا بشهادات آبائنا الأطهار التي جمعناها في كتابنا نقضاً لزعم من يلبلون طبيعتي ربنا ومشيئتيه ويخلطون خواصه وأرسلنا كتابنا إليكم». وقال فيه أيضاً: «كل من لم يعترف ويقول إن ربنا اتحد بالجسد اتحاداً جوهرياً حفظت فيه طبيعته بخواصهما الإلهية والبشرية .. . فليكن محروماً». وقال أيضاً: «حاربها (أي الكنيسة) قورش الإسكندري واتباعه ولبلوا مشيئتي ربنا وفعله فبادوا وتبدوا كالدخان». فكل هذه الأقوال التي حققنا أن يوحنا مارون كتبها لم تثبت فقط إثباتاً جلياً براءته من بدعة المشيئة الواحدة بل تفنيده لها ومناضلة أصحابها أيضاً.

شهادة أعداء يوحنا مارون لبراءته من البدعة

إنَّ شهادة الخصم لخصمه لا مرد لها وقد أنبأنا الآثار وكتب اليعاقبة أنفسهم أنَّهم كانوا دائماً أعداء ليوحنا مارون والموارنة فشهادتهم لهذا القديس بينة دامغة فقد جاء في كتاب تعليمهم الذي كان محفوظاً في مكتبة مدرسة الموارنة برومة ما نصَّه بحروفه: « قام مارون (لا شك في أنَّ المراد يوحنا مارون كما هو بيِّن من الكلام الآتي) ووافق ملك الفرنج وكان أوجان البرنس وقال له يا ملك الزمان نحن خائفون على جبل لبنان أن تديره طائفة الملكية إلى أمانتهم (يظهر منه أنَّهم كانوا يعتقدون حيثل المشيئة الواحدة) فقل للكردينال الذي عندك أن يكرِّسني مطراناً حتى أمسك هؤلاء الناس على الأمانة الفرنجية والأمانة اليعقوبية لا أذكرها فكرِّسه مطراناً على البترون». وكان هؤلاء اليعاقبة يقذفون يوحنا مارون لأنَّه كان يعتقد طبعتي المسيح ومشيتيه ويهزأون به كأنَّه يدَّعي أنَّه أعلم من السيد المسيح فمن أقوالهم عليه في كتابهم المذكور: « إنَّ مارون كان أعلم من السيِّد المسيح بذاته وبسر اتحاده متى سمعنا السيد المسيح قال إنَّ لي طبيعتين ومشيتين » ويزكرون اسمه مصغراً تحقيراً له فمن أقوالهم في هذا الكتاب: « عندما وصل تملك الملكية إلى قرية اسمها أميون ارتفع ميورين وابن اخته بريهم عن الملكية إلى سمر جبيل وحماهم من الجزية التي فرضها الملكية ». وقالوا في الكتاب المذكور أيضاً « ما رضيت الطوائف أن يؤمنوا حتى قلتُم أنتم يا موارنة طبيعتين ومشيتين » طالع كتابي روح الردود ومن صفحة ١٤٧ إلى ١٥٧) في أقوال اليعاقبة هذه في كتاب تعليمهم وفي مؤلَّف هذا الكتاب الذي أثبتنا أنَّه ليس ليعقوب البردعي تبعاً لما حققه السمعاني في مجلَّد ٢ صفحة ٦٨ من مكتبته الشرقية، ثمَّ عزاه في مجلَّد ٢ من مكتبته الشرقية صفحة ٤٦٨ إلى نوح البقوفاوي اللبناني بطريك اليعاقبة .

شهادة العلماء المحققين

استشهدنا في عد ٧٠٩ لقداسة يوحنا مارون بأقوال الأب كوارسميوس في الكتاب الأوَّل من مؤلفه في وصف الأرض المقدَّسة وشيواربوس في كتاب رحلته إلى أورشليم وكركس برتلماوس في كتابه السنكساري الروماني والبولنديين في المجلَّد

الرابع لشهر تموز والأب لكويان في المجلد الثالث من كتابه المشرق المسيحي والأب ايرونيمس دنديني في كتاب بعثته إلى لبنان ودي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية والكردينال أورسي في تاريخه لسنة ٦٣٦م وباجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٣٣م. فكل هؤلاء شهدوا لقداسة يوحنا مارون وباولي حجة براه من بدعة المشيئة الواحدة ونزید عليهم أيضاً الأب روهـر بخر في تاريخه لسنة ٦٣٨ حيث قال: «إنَّ يوحنا الفلادلفي الذي أقامه القديس مرتينس البابا نائباً للكرسي البطريركي الرسولي في المشرق سرّه ما بلغه من أنَّ الموارنة استحوذوا على جبل لبنان وما كان من أنطاكية إلى أورشليم فلـكي لا يحرموا من المساعدات الروحية أقام له يوحنا مارون راهب دير القديس مارون على العاصي أسقفاً عليهم». وقد برأ علماء الموارنة يوحنا مارون من هذه التهمة بل أثبتوا قداسـته وقد ذكرنا بعضهم آنفاً وأبنا ما اعتمدوا عليه في أقوالهم منهم جبرائيل اللحفدي أسقف نيكوسية بقبرص في محال كثيرة من تأليفه وإبراهيم الحاقلي وجبرائيل الصهيوني الإهدني والبطريك أسطفانس الدويهي في كتاب احتجاجه عن الموارنة ومرهج بن نمرون الباني في كتابه في أصل الموارنة واسمهم ودينهم ويوسف سمعان السمعاني في محال كثيرة من مكتبته الشرقية وفي مجلد ٢ فصل ٢٠ من مكتبته في الناموس ويوسف ولويس السمعاني في كتابهما في الرتب البيعية وأسطفانس عواد السمعاني في كتابه في أعمال الشهداء الشرقيين والغربيين وفي كتابه في قداسة يوحنا مارون والأب بطرس مبارك اليسوعي الماروني والبطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون في فصول شتى والخوري أنطوان قيالة في رده كراسة القس يوحنا عجمي وأخيراً العلامة البطريك بولس مسعد في ردّه المنظوم. وما أحسن ما قاله البطريك يوسف أسطفان (في قسم ٣ فصل ٤ من كتابه في قداسة يوحنا مارون) في دُرّه زعم من يقول إنَّ الموارنة لا تقبل شهادتهم لبطريك طائفـتهم فقد قال ما ملخصه «لَمْ يصدق مؤرخو فرنسة وإسبانيا وإيطالية وأوستريا وبلاد الروم في أخبار بلادهم وقبائلهم ولا يصدق الموارنة في رواية أخبار بلادهم ورؤسائهم، ولو صحَّ مبدأ الخصوم لم يبق تاريخ يعتمد عليه. ونرى المحققين يؤثرون الاعتماد في تواريخ كل قبيلة على ما كتبه علماؤها فضلاً على ما كتبه الأجانب عنها لزيادة الخبرة في الوطني على الأجنبي ولا يتصوّر البتة أنَّ علماء كثيرين كمن ذكرناهم من الموارنة ومنهم أساقفة وبطاركة يتواطئون على نشر الكذب وعلى استنباط أخبار لم يتلقوها

عن قدامائهم وعليه فشهادة علماء الموارنة في تاريخ بطريركهم هي أهل للتصديق كشهادة غيرهم . ولا سيما أننا ذكرنا شهادة كثيرين من اللاتينيين تطابق شهادتهم . إن لنا شهوداً آخرين كثيرين يتبين لأوّل نظرة أنّ شهادتهم سلبية وهي بالحقيقة وضعية موجبة، فإذا حدثت مثلاً جريمة وشهد شاهدان عدل أنّ زيداً اقترفها وشهد مئة شاهد على أنّهم لم يروه اقترفها حكم بشهادة الشاهدين وردت شهادات المئة شاهد لأنّها قامت على السلب أو النفي، لكن الحكم على زيد بأنّه الفاعل تبرئة من الجريمة لكل من سواه وتكون هذه التبرئة وضعية موجبة لا سلبية. وكذلك في مبحثنا فقد عقدت مجامع للفحص عن بدعة المشيئة الواحدة ومبتدعيها وكتب تاريخها وغيرها من البدع علماء كثيرون وقضت تلك المجامع وأولئك العلماء أنّ مبتدعيها إنّما هم سرجيوس وييرس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريك اسكندرية ومكدونيوس ومكاريوس بطريكاً أنطاكية وتوادورس أسقف فاران بيلاد العرب وأثناسيوس بطريك اليعاقبة وبعض الكهنة المحازين لهؤلاء ولا ذكر لمارون أو الموارنة في واحد من كتب تلك المجامع أو أولئك العلماء وهذا تبرئة قاطعة للمارونين والموارنة .

واليك هذا البرهان مبسوطاً قد عقد لنبد بدعة المشيئة الواحدة مجمع في أورشليم سنة ٦٣٤م عقده البطريك صفرونيوس ومجمع آخر فيها سنة ٦٤١م ومجمع في قبرص سنة ٦٤٣م وأربعة مجامع في هذه الحقبة في إفريقية اهتمّ بها القديس مكسيمس لمناسبة بيروس بطريك قسطنطينية ومجمع في رومة سنة ٦٤٦م دعا إليه البابا توادورس ومجمع آخر فيها سنة ٦٤٩م عقده القديس مرتينس البابا ومجمع في مديولان سنة ٦٧٩م ومجمع آخر في رومة سنة ٦٨٠م ثم عقد المجمع السادس المسكوني سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٨١م والمجمع المعروف بمجمع قصر الملك سنة ٦٩٢م ومجمع آخر في قسطنطينية سنة ٧١٢م تاييداً لهذه البدعة ومجمع آخر فيها سنة ٧١٥م دفعاً لها ولا أثر في كتب هذه المجامع كلها كاثوليكية أو غير كاثوليكية لمارون أو الموارنة . وكان من الأحبار الأعظمين مذ نشأت هذه البدعة إلى حين وفاة يوحنا مارون أنوريوس الأول واسفارنيس الثاني ويوحنا الرابع وتوادورس ومرتينس الأول وأوجانيوس وقيتاليوس ودوداتس ودونس وأغاتون الذي عقد المجمع السادس ولاون الثاني الذي أثبتته وبناديكس الثاني ويوحنا الخامس وقانون وسرجيوس الذي أثبت يوحنا مارون بطريكاً ويوحنا السادس ويوحنا السابع الذي

توفي في أيامه البطريك المذكور ولا نرى أثراً في رسائلهم أو براءاتهم أو كتبهم لمارون أو الموارنة وترى فيها متواتراً ذكر مبدعي هذه البدعة وانصارها كما ذكرناهم .

وكان في زمان ظهور هذه البدعة وانتشارها علماء كثيرون منهم القديس مكسيمس المعترف البطل الكمي في مقاومتها والقديس صفرونيوس بطريك أورشليم وقد ذكر في تأليفه أصحاب هذه البدعة ثم أندراوس المعروف بواضع القوانين ويوحنا الفيلاذلفي نائب الكرسي الرسولي في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم وقبله أسطفانس أسقف دورا (الطنطورة). وبعد انتشار هذه البدعة يوحنا الدمشقي وقد عدد في كتبه البدع والمبدعين، وبولس الشماس وتوفان في القرن الثامن وقد ذكر غزوات المردة وسطوتهم، وأنسطاس المكتبي في القرن التاسع وقد ذكر غزوات الموارنة ولانسيوس في القرن العاشر وشدرانس في القرن الحادي عشر وزوناراس في الثاني عشر وقد ذكر صولة الموارنة ونيكوفور كاليستس في الرابع عشر وقد عدد بدع المشرق وغير هؤلاء كثيرون ولا ترى خطة في كتبهم أجمع تشير إلى أن مارون أو الموارنة أبدعوا في بدعة أو تشبثوا بها فإما لأمر عجيب غريب لا يعرف له في التواريخ مثيل أن يبدع مارون أو الموارنة بدعة ولا يظهر لهم أثر يشير إلى ذلك في المجامع أو رسائل الأبحار الأعظمين أو كتب العلماء في قرون كثيرة كما رأيت .

بطلان ما يرد على ذلك

أجل ورد أثر لذلك في كتاب سعيد بن بطريق البطريك الملكي الإسكندري في منتصف القرن العاشر وهو قوله الذي ذكرناه أكثر من مرة وابنا بطلانه ولاسيما أنه زعم أن مارون كان في أيام موريق الملك وهو كان في أيام أركاديوس وبينهما نحو من قرنين، وأن مارون ابتدع بدعة المشيئة وهي لم تظهر إلا في سنة ٦٢٨م، فكان مارون قبلها بأكثر من قرنين بل قد فتد بناديكتس الرابع عشر نفسه قوله كما رأيت في منشوره بالعدد السابق وقد نفعا ابن البطريق بقوله بعد موت مارون بنى أهل حماه ديراً له على العاصي فكان كلامه تبرئة ليوحنا مارون لأن هذا الدير بني

على اسم مارون قبل يوحنا مارون بأكثر من قرنين كما رأيت ذلك في منشور البابا بناديكتس الرابع عشر. وكذا يصدر الله من الشر خيراً فكلام ابن البطريق في مارون فرية وتهمة وقوله الآخر في بناء الدير تبرئة ليوحنا مارون من تلك التهمة .

وورد قول آخر لغوليلمس أسقف صور (في تاريخ الحرب ك ٢٢ فصل ٨) قال فيه إنَّ الموارنة: « تشبثوا بضلال مارون نحو خمس مئة سنة، ثمَّ أقلعوا عنه بالإلهام الإلهي . . . وكان ضلالهم أنَّ في المخلص مشيئة واحدة وفعلاً واحداً كما يظهر من المجمع السادس الذي عقد ضدهم وحرّموا فيه » وقد انتحل غوليلمس هذا الكلام عن سعيد بن البطريق بدليل أنّه قال في فاتحة كتابه « ألفنا تاريخاً ينسب إلى خمس مئة وسبعين سنة . . . واقتفينا بشهادة الرجل المحترم سعيد بن بطريق البطريك الإسكندري » فكلامه إذاً مبني على شهادة سعيد الباطلة وما بني على الباطل باطل ويظهر أنَّ غوليلمس التقف كلام سعيد دون ترو أو تحزُّ يدلُّنا على ذلك قوله إنَّ المجمع السادس عقد ضد الموارنة وقد حرّمهم، ولو طالع أعمال المجمع السادس ولاسيما ترجمتها اللاتينية لأدرك أنَّ المجمع السادس حرم سرجيوس ويبرس إلى آخر من ذكرناهم أنفاً لا مارون أو الموارنة الذين ليس في المجمع المذكور خطة تشير إليهم ويكفيها مؤونة الرد لزعمه قول البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره الذي أثبتناه آنفاً: « إنَّ أصحاب الرأي المضاد (للموارنة) يوردون شهادة غوليلمس أسقف صور (وعين المحل الذي ذكرناه) على أنَّ شهادة غوليلمس لا تكفي لتأييد الرأي المضاد للموارنة ولربما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله، ولذلك عزاه إلى المجلّد الثاني من تاريخ سعيد البطريك الإسكندري، وسوف نسهب الكلام إن شاء الله في رد زعم غوليلمس هذا في تاريخ القرن الثاني عشر. وإلى حينه طالع كتاب الدر المنظوم للعلامة البطريك بولس مسعد صفحة ١٥١ وما يليه . وكتابنا روح الردود من صفحة ١٢٣ إلى صفحة ١٣٢ .

قيل إنّه جاء في ترجمة عربية لأعمال المجمع السادس اسم مارون في جملة من تلوثوا بهذه البدعة؛ فإنَّ صحَّ هذا القيل كان زيادة من زيادات أعداء الموارنة على بعض الكتب ولا عبرة له البتة لأنَّ الأصل اليوناني والترجمة اللاتينية لا أثر فيها لاسم مارون كما حقّق البطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ١ وكذا لا عبرة لأقوال كثيرين من الحدّثاء الذين انخدعوا بقول سعيد بن البطريق وغوليلمس الصوري لعدم ترويه، وقد خالفهم في ذلك كثيرون

من الأبحار الأعظمين والعلماء المحققين. راجع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرن السادس .

عد ٧١٣

براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

إنَّ كل ما ذكرناه في براءة القديسين مارون ويوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة هو حجج قاطعة لبراءة الموارنة من هذه البدعة لأنَّ جميع من اتَّهموا الموارنة بها زعموا أنَّهم تابعوا عليها مارون أو يوحنا مارون، فإذا قوض الأساس أصبح بناء هذه التهمة في الجو ولا أساس له فيسقط لا محالة وكان لنا أن نكتفي بهذه الحجج لكننا لا نكتفي بها بل نزيد عرضنا إثباتاً بشهادة الأبحار الأعظمين والعلماء المحققين وبايراد بعض اعتبارات تاريخية تؤيّد هذه البراءة .

شهادات الأبحار الأعظمين

قد جمعنا في كتابنا روح الردود الذي طبع سنة ١٨٧١م بالعربية واللاتينية كل ما تشنّى لنا الوصول إليه من شهادات الأبحار الأعظمين المثبتة استمسك الموارنة في كل وقت منذ نشأتهم إلى الآن بعرى الإيمان الكاثوليكي وعدم زيغان امتهم عنه، وأوردنا أقوالهم اللاتينية وترجمتها العربية. فنورد الآن بعض هذه الشهادات فمنها رسالة البابا أينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٠٧ إلى بطريرك الموارنة التي يثبت له فيها حقوق البطريركية الأنطاكية، ورسالة البابا اسكندر الرابع في منتصف القرن الثالث عشر التي يوصي بها بطريرك الموارنة ان يعتد الإفرنج الذين لبثوا في سورية كشعبه. وقال البابا لاون العاشر في رسالته إلى البطريرك سمعان الحداثي في ١ آب سنة ١٥١٥م: «إنَّك وشعبك ترون رأياً قوياً في الإيمان بل تجهدون نفوسكم كثيراً بالأصوام والخصال الحميدة والتقشف ومبرة السيرة؛ وهذا قد أطلعنا عليه في رسائلكم التي تولانا بتلاوتها السرور والبهجة وطابت باستماعها نفسنا وملئ فؤادنا فرحاً لا يوصف، ففتحتم علينا أن نحمد الله ونشكره ما قدرنا على ما أسبغه عليكم من نعمة إذ اصطفاكم من بين الكنائس الشرقية لتعبدوه مؤمنين مصونين من الغرق

في لجة الكفر والنواب كما صين الورد من الشوك ليمجد بذلك اسمه القدوس ولتكونوا عبرة صالحة لرجوع غير المؤمنين بمحافظتكم على عادات الكنيسة الجامعة الرومانية ورتبها بنقاوة دون خوف ولم تزيغوا عن محبة الإيمان القويم مع تواتر تيار الضنك والإضطهاد المزمجر به غير المؤمنين والهراطقة والمشايقون باغضوا اسم مخلصنا كما علمنا من رسالتكم ورسالة الأب فرنسيس سوريان (قاصده عند الموارنة) المار ذكره، بل تزدادون قوة وثباتاً في تحمّل المصائب والتعبير حباً بالله) ومما قاله له في هذه الرسالة «إننا فهمنا من براءات اينوشنسيوس (الثالث) واسكندر (الرابع) المذكورين الصالحي الذكر ان أرميا الذي يسمى بطريكاً أنطاكياً أدى فروض الطاعة كما اعتاد البطارقة تأديتها للكرسي المقدس في مدينة طرابلس بحضرة المطارنة والأساقفة على يد بطرس الكردينال كاهن كنيسة القديس مرسلّس ذي الذكر الصالح» .

وقال البابا بيوس الرابع في براءته إلى البطريرك موسى العكاري في ١ أيلول سنة ١٥٦٢م: «قد علمنا من رسالتكم ما لكم من التوقير السامي والتجلة والتعلّق الشديد بكرسي بطرس زعيم الرسل وثباتكم وثبات أمتكم في التشبث بعري الإيمان الذي تعلمه الكنيسة المقدسة الرومانية فنهنيك وأمتك ونسدي الشكر لرأفة الله من صميم فؤادنا لأنّه استبقى له في هذه الأمصار القاصية ألوفاً كثيرة لم تحنّ ركبها لباعال ولم يروّعها ثقل نير غير المؤمنين لتبعد عن الإيمان القويم ولم يعثّ بها قربها من الهراطقة والمشايق ولم يستطع أن يفصلها عن الكنيسة الكاثوليكية». وقال البابا غريغوريوس الثالث عشر في براءة إنشائه مدرسة للموارنة في رومة سنة ١٥٨٣م: «إنّ الملة المارونية القاطنة في جبل لبنان ما فتئت مذقرون شتى متمسكة بالإيمان الكاثوليكي مزدانة بصنوف الطاعة والانقياد للكنيسة الرومانية المقدسة ولو أحدثت بها الملل الأراتيكية وغير المؤمنين». وقال البابا اكليمنضس الثامن في رسالته إلى البطريرك سركيس الرزي في ١ نيسان سنة ١٥٩٥م: «أمّا أنت أيّها الأخ المحترم فنعانقك وأمتك معانقة مودة خاصة وحب فريد لاتحادكم بنا بوثاق المحبة وقيامكم أمامنا بالروح كل وقت مع بعدكم عنا بالجسد بعداً شاسعاً، وقد استحققتم أن تنزلوا عندنا منزلة الأبناء الأعزاء جداً لثبوتكم في الإيمان الكاثوليكي وخضوعكم الفريد للكرسي الرسولي المقدس ولم تبرحوا على عادة أسلافكم الحميدة تجاهرون بالطاعة المتوجبة لامكم وأم جميع المؤمنين ومعلمتهم الكنيسة الرومانية المقدسة

وتحفظون بنعمة الله السابعة عليكم الإيمان الذي أخذتموه عن الكنيسة الرومانية كاملاً سالماً وان احاطت بكم أم غير مؤمنة وبدع المشايق». وكذلك قال البابا بولس الخامس في رسالته إلى البطريرك يوسف الرزي في ١٣ كانون الآخر سنة ١٦٠٦م: «نسأل أبا المراحم الأزلي أن يفيض الخيرات السموية عليكم وعلى سائر الإخوة الأساقفة والأبناء الأعزاء الإكليروس والشعب، لأننا نراكم مزهرين بنعمة الله كالورد بين الأشواك». وقال مثل ذلك في رسالته إلى الموارنة في ٢٨ كانون الأول سنة ١٦٠٨م.

وأجاد بمثل هذا التقريظ البابا اوربانس الثامن في رسالته إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ٣٠ آب سنة ١٦٢٥م قائلاً في الموارنة: «لم يذبل جمال الكرمل ولم يذو معجد لبنان ولو مدَّ العدو الباغي إليه يداً». ومشبهاً إياهم: «بجبل صهيون يزدرون الزعازع إذ وعده الرب أنه لن يتزعزع إلى الأبد». ومثل ذلك قال البابا اكليمنضس الحادي عشر في رسالته إلى البطريرك اسطفانس الدويهي في ٧ شباط سنة ١٧٠٢م وفي رسالته إلى البطريرك جبرائيل البلوزوي في ١٠ حزيران سنة ١٧٠٥م وفي رسالته إلى البطريرك يعقوب عواد في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٧٢١م ومثله كتب البابا اينوشنسيوس الثالث عشر إلى البطريرك المذكور في ١٢ شباط سنة ١٧٢٣م والبابا اكليمنضس الثاني في رسالته إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م مشبهاً الموارنة بوردة بين الأشواك وبصخرة صلبة تزدرى بتيار بحر هذا العالم. وقد أثنى البابا بناديكطس الرابع عشر العلامة على الموارنة في رسائل وبراءات كثيرة نخص منها بالذكر خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م حيث قال: «إنَّ الموارنة كانوا دائماً كما هم الآن كاثوليكيون للغاية مرتبطون بالاتحاد بهذا الكرسي المقدس ومودون الإحترام والطاعة الكاملة لبطريركهم والخبر الروماني». واستطرد إلى ذكر ما قرظهم به أسلافه مما مرَّ بنا ذكر بعضه واجاد بمثل ما مر البابا اكليمنضس الثالث عشر في منشوره إلى الأعيان والإكليروس والشعب الماروني في ١٩ حزيران سنة ١٧٦٧م والبابا اكليمنضس الرابع عشر في رسالته إلى البطريرك يوسف أسطفان في ١٠ تشرين الأول سنة ١٧٧٠م والبابا بيوس السادس في رسالته إلى المطارين والأساقفة والإكليروس والأعيان والشعب في ١٧ تموز سنة ١٧٧٩م والبابا بيوس السابع في رسالته إلى البطريرك يوحنا الحلو وأساقفته في ١ تشرين الثاني سنة ١٨١٦م وفي

رسالته إليهم في ٢٠ أيار سنة ١٨١٩م والبابا بيوس الثامن في رسالته إلى البطريرك يوسف حبش في ١١ ك ٢ سنة ١٨٣٠م والبابا غريغوريوس السادس عشر في رسالته إلى البطريرك المذكور في ١٤ تموز سنة ١٨٣٢م. ومثل ذلك كتب البابا بيوس التاسع في رسائل عديدة إلى البطريرك بولس مسعد وقد كتب إلى حقارتي في ٢٩ آب سنة ١٨٧٢م: «إنَّ إيمان طائفتك الذي لم يشبه دنس وطاعتهم المستمرة لهذا الكرسي المقدس التي دافعت عنها بصواب في محل آخر (أي في روح الردود) وبرأتها من الشبهات ... كل ذلك كان له عندنا أحسن قبول». وفريد عصره وزينة دهره البابا لاون الثالث عشر المالك سعيداً في كثير من رسائله وخطبه، من ذلك ما قاله في خطبته في تثبيت البطريرك يوحنا الحاج وهو: «إنَّ الموارنة منتشرون في أنحاء لبنان ... وهم أمة اشتهرت بالوقائع الجليلة لكنها امتازت خاصة بالثبات الذي حفظت به الإيمان الكاثوليكي صحيحاً سالماً في بهرة امتحانات ومصاعب كثيرة». وقال في رسالته إليه في ١٧ آذار سنة ١٨٩٥م: «إنَّ ما كتبه حديثاً عن إيمانك وإيمان أمتك غير المتزعزع وعن طاعتكم السامية لهذا الكرسي الرسولي قد كان ساراً لنا للغاية فإنَّ هذه الأمور وإن كانت واضحة لدينا من ذي قبل فإعادة ذكرها تطربنا كثيراً». إلى أن يقول: «إنَّ الإيمان الذي حفظته ملتكم الشريفة سالماً كاملاً غير مثلم لا يدعنا نرتاب في أنكم وإن لم تحضروا في اجتماعاتنا مع الإخوة المحترمين البطارقة الشرقيين تدعون لكل ما رسم في الرسائل الرسولية» وقد كتب إلى حقارتي في ٢٢ آب سنة ١٨٧٨م: «قد سررنا بما ابنته أيها الأخ المحترم عن طاعتك وإجلال الموارنة لهذا الكرسي الرسولي فتعلق الموارنة بهذا الكرسي الرسولي في كل وقت كان شديداً وما قاسوه من الحن الثقيلة من أجل هذا السبب بمكر أعدائهم كان عظيماً ولكن أعظم من ذلك عذوبة لدينا ما يبدونه لنا من مظاهر التكريم».

فشهادة كل هؤلاء الأبحار الأعظمين في بحث ديني بحث لا تقوم أمامها شهادة العلماء والمؤرخين أيّاً كانوا، وهي أكثر من كافية، ومع ذلك لا تقتصر عليها بل نورد شهادة العلماء المحققين.

نؤثر أن نورد أولاً شهادات كرادلة الكنيسة الرومانية لتيقن صدقهم ومخبرتهم لقربهم من مركز وحدة الإيمان، فلشهادتهم المحل الثاني بعد شهادة الأبحار الأعظمين. قال الكردينال بنديني في رسالته إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ٣٠

تموز سنة ١٦٢٥م مخبراً عن طبع بعض كتبنا البيعية في رومة: « بعد البحث الجهد في هذه الكتب ومطالعة لاهوتين آخرين لها عرضنا نتيجة فحصها على الآب الأقدس فتولاه سرور لا يوصف لأن الله تنازل بحنوه الوافر أن يحفظ عندكم إيمان الكنيسة الرومانية كاملاً سالماً من الفساد وإن كنتم بعيدين عنها وبينكم وبينها أصقاع وبحور وإن احدث بكم من كل جانب أعداء كثيرون لهذه الكنيسة». وقال الكردينال يوليوس ماريًا دلا صوماليا رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس في رسالته إلى البطريرك يوسف حبش في ١٤ آب سنة ١٨٢٤م: « إن سرور الآب الأقدس البابا لاون الثاني عشر لدى مطالعته إيضاحات طاعتكم الإبنية وتعلقكم الشديد بكرسيه ومظاهر البهجة التي أبدتتموها تهنته له بارتقائه إلى كرسي القديس بطرس كان سامياً وعظيماً كعظمة ثبوت الأمة المارونية على مر الأيام في حفظ ودعة الإيمان من غير دنس وقيامها على الإتحاد بالكرسي الرسولي الروماني المقدس من دون انفصال في وقت من الأوقات» ورغبة في الإيجاز تقتصر على شهادة أخرى حديثة لكنها صريحة وقاطعة وهي شهادة الكردينال لودوكسكي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس الآن في رسالته إلى البطريرك يوحنا الحاج في ١٨ شباط سنة ١٨٩٥م حيث قال إن رسالتكم إلى الآب الأقدس هي: « على غاية من اللياقة بحبر شريف ورئيس الكنيسة والأمة المارونية المجيدة التي كانت متحدة في كل وقت وبكل إخلاص بكرسي القديس بطرس المعصوم من الغلط وقد عرفت أن تحافظ على الإيمان الكاثوليكي المقدس في المشرق وتدافع عنه في كل عصر من أعصر الكنيسة بل ان تساعد مساعدة فعالة على ارتجاع غيرها من الطوائف الشرقية إليه من ذلك على سبيل المثل مساعدتها على رجوع السريان والروم الملكية في القرن الماضي ».

وبعد شهادة الكرادلة تثبت شهادات بعض من أرسلهم الكرسي الرسولي إلى المشرق لمهام دينية أو أدبية وأقاموا سنين متطاولة بين الموارنة فمن هؤلاء الأب فرنسيس سوريانس وقد أقام مدات بين الموارنة قال في عريضة رفعها إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٤م: « إن الموارنة أجمع محافظون بلا ريب على ودعة الإيمان القويم ومتشبثون بعراه ويؤدون كنيسة رومة المقدسة عظيم التكريم كالأبناء الصالحين المتعبدين ولم يزيغوا في وقت من الأوقات عن شيء مما يخص خلاص النفوس». ونسخة من هذه العريضة محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة أتى بها من رومة القس بطرس الماروني رسول البطريرك سمعان الحدثي إلى البابا لاون العاشر.

ومن هؤلاء أيضاً الإلب إبيرونيمس دنديني اليسوعي وقد أرسله البابا اكليمنضس الثامن إلى الموارنة وعقد رؤسائهم بحضرته مجمعهم سنة ١٥٩٥م فهذا قال في فصل ١٩ من كتاب سفارته هذه متكلماً في يوحنا مارون وكان يرى أنه مضى إلى رومة وهذه ترجمة قوله: «وعاد منها بطريركاً على أولئك المؤمنين الذين ما انفكوا أمناً ثابتين في الدين الكاثوليكي وما فتوا من تلك الأيام إلى الآن يؤدون الكرسي الرسولي الروماني فروض طاعتهم». وقال في فصل ٢٧ من هذا الكتاب متكلماً عما يتهم الموارنة به: «قد بذلت أعظم الإهتمام باحثاً عن ذلك بنفسي ومتخذاً وسائل أخرى مدققة فلم أجد ما يدل على ذلك البتة... وأدركت جيداً أن ما ذلك إلا تهمة رشقوا بها وما نسبة ذلك إليهم إلا من أفضع الكذب» ومن هؤلاء الاب عبد الأحد أنطونيوس دي لوكا من رهبان القديس فرنسيس فإنه قال في خطبته في ٦ نيسان سنة ١٧٦٧م بحضرة البابا اكليمنضس الثالث عشر والكرادلة ولغيف من الطوائف الشرقية بمعرض تثبيت البطريرك يوسف اسطفان وهاك قوله: «أيها الأب الأقدس إن ما أثبتته البابا بناديكتس ١٤ سالف قداستكم متكلماً في أصل السريان الموارنة وإيمانهم وهو «إن الموارنة كانوا كل حين كما هم الآن كاثوليكين للغاية ومتحدين أكمل اتحاد بهذا الكرسي المقدس». فهذا يشهد به إخواننا أيضاً وهم ما زالوا يشتغلون بحسب طاقتهم في كرم الرب بسورية وفلسطين منذ زمان أينا الأقدس فرنسيس حتى اليوم وأشهد به أنا أيضاً وقد باشرت الرسالة الرسولية في تلك الأصقاع سنين متطاولة على أنه ما حاجتنا إلى شهود وقد سمعنا في هذا النهار بطرس الرسول الذي أسس الكنيسة الأنطاكية مجتازاً بها وخلف لهذا الكرسي الروماني الرفيع السلطان الرسولي الذي قبله من المختلص متكلماً بقم قداستكم بتقريظ سام ومشرف ليوسف بطرس المنتدب بطريركاً أنطاكياً ولأمتة الموما إليها».

ومن شهادات باقي العلماء والمؤرخين تقتصر على إيراد شهادات من يأتي ذكرهم قال الأب يوسف بيسون اليسوعي في كتابه في سورية المقدسة: «إن الأئمة المارونية كلها مسيحية، كلها كاثوليكية منذ اثني عشر قرناً». يريد بذلك من أيام القديس مارون الذي انتقل إلى ربه في أوائل الخامس إلى القرن السابع عشر الذي كان فيه المؤلف. وقال الأب بريسبوس الكبوشي في حواشيه على مختصر تاريخ بارونيوس لسنة ٤٠٧م وهذا الكتاب طبع في رومة سنة ١٦٥٣م وهاك قوله

ملخصاً: « لا ذكر في التواريخ القديمة للبيعة ولا في الجامع العامة أو الخاصة أنه كان رجل أراتيكي في أحد الأعصار اسمه مارون وليس من عادة الجامع الصمت عن ذكر المبدعين والبدع وحرمها فقد ذكر فيها الأراطقة فرداً فرداً ولم نجد ذكراً لمارون أراتيكي في مجمع أو تاريخ، وليس من دأب المؤرخين أن يغفلوا عن أمر كهذا فقد عدد نيكوفورس المؤرخ في تاريخه اليوناني المبتدعين الشرقيين كافةً واحداً فواحداً ولم يأت بذكر مارون أو الموارنة وإن قيل أن ذلك ورد في الترجمة العربية للمجمع السادس وفي تاريخ سعيد بن بطريق وغيره من الملكية ومن نقل عنهم قلنا تلك زيادة من زياداتهم على الجامع وكذبها بين فاعمال الجامع اليونانية واللاتينية لا خطة فيها تشير إلى ذلك . وقد ترجمت العربية عنها فظهر أن هذا من فضول الملكية المتأخرين » وقال أنطونيوس زنوليني معلّم اللغات الشرقية في مدرسة بادوا في أبحاثه عن اللغة السريانية المعلقة على مجمعه السرياني في صفحة ١٢: « إن الإيمان الذي تلقاه الموارنة عن الرسول حفظوه كل حين سالماً كاملاً لم يعره فساد بعناية القديس مارون وتلامذته واهتمامهم المتواصل فقد روي أن أكثر المشرق ترك هذا الإيمان بحيل المبتدعين فإنهم حاولوا نقض الإيمان الرسولي في المشرق متشيعين لنسطور أو أوطيخا ولهذا حقاً للقديس مارون وتلامذته الذين أقاموا في الأديار التي أنشأوها أن يسميهم جميع السريان الشرقيين أئمة الإيمان الكاثوليكي كما يظهر جلياً من الرسائل المعلقة على أعمال المجمع الخامس المسكوني ». وقال باجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م عدد ١٣: « يظهر من اسم الموارنة نفسه أنهم لم يتخذوا هذا الاسم عن مارون الأراتيكي فالعادة المستمرة في المشرق والمغرب أن الأراطقة إذا رجعوا إلى الإيمان الكاثوليكي فإن كانوا غربيين كتبوا لوتارس وكلوينس سمووا كاثوليكين، وإن كانوا شرقيين فإن يعاقبه دعوا سرياناً وإن نساطرة كلداناً والمراد بهؤلاء جميعاً كاثوليكين . . . ولما كان الموارنة يسمون الآن بهذا الاسم وبطريركهم يدعوه الأبحار الأعظمون في براءتهم منذ أيام اينوشنسيوس الثالث بطريك الموارنة الأنطاكي فينتج نتجاً لازماً أن لفظة ماروني دلّت كل حين على شخص كاثوليكي .

وقال الأب ميخائيل لاكويان في الفهرست المعلق في آخر المجلد الثالث « زعم كثير من المؤلفين الحدباء مستندين خاصة إلى شهادة سعيد البطريك الإسكندري في القرن العاشر، وشهادة غوليلمس الصوري في القرن الثاني عشر أن الموارنة تلمّخوا

في بدعتي الطبيعة الواحدة والمشية الواحدة وانهم جحدوا أخيراً في القرن الثاني عشر بدعة المشية الواحدة التي ابتدعها مارون ما هو عمدة في شيعتهم وكان أحدث كثيراً من مارون الآخر. إلا أنه من الواضح أن سعيد المذكور لا يستحق شيئاً من تصديق أقواله وأن تأليفه مشحون غالباً بخرافات فظيعة وقد شوّش بذلك تاريخ القرون الثلاثة التي كانت قبله. وأما رواية غوليلمس عن رجوع الموارنة في أيامه إلى حظيرة الكنيسة فيلزم قصرها قطعاً على بعض منهم قد تلوّث بالأرطاقة سنين قليلة قبل ذلك». إن برجه صاحب المعجم اللاهوتي كان قد اتّبع بعض المؤلفين الحدّاء في اتهام الموارنة فذيل الأب اكليمنضس بياجوس كلامه بحاشية قال فيها إن المؤلف صدق جاهلاً حالة المؤلفين أعداء السريان الموارنة من كلامه الذي ذكره على أن المؤلف الفقيه صاحب الحمامة عن القديس يوحنا السرومي المسمى مارون أول بطاركة السريان الموارنة الأنطاكي المطبوعة في رومة سنة ١٦٦٩م (وهذه الحمامة هي للمطران اسطفان عواد السمعاني) قد أبان بأدلة لا يشوبها ريب وحجج كثيرة قاطعة أن كنيستهم كاثوليكية مذ وجدت ولم تكن مشاقة أو أراتيكية قط في أحد الأوقات بل استمرت متمسكة دائماً بعري إيمان الكنيسة الرومانية فالإيجاز المندوبون إليه في هذا المعجم لا يؤذن لنا أن نبين كل ما يلزم هنا من الأحداث وأن نكشف عن المكر الذي يستخدمه أعداء كنيسة السريان الموارنة هذه ولا أن نبين مستشعدين بأعمال سامية وفريدة كم للكنيسة الرومانية عند هؤلاء الموارنة من الحرمة والجلال وكم قلوبهم وعقولهم مفعمة بالبساطة المسيحية الحميدة. فنجتزئ بإقامة بعض بينات وثيقة جداً على إيمانهم وهي ثمة الفحص المدقق الذي أجراه الأحرار الرومانيون عن إيمان الموارنة المضطهد والموسع بأقبح التهمات المكزية. فمن هؤلاء البابوات بيوس الرابع في براءته إلى بطريركهم موسى: «وبعدد كثيرين من الأحرار الأعظمين الذين قرظوا إيمان الموارنة إلى أن يقول: «والحاصل إن الأمر المؤكّد جداً والذي لا يشوبه ريب أن كنيسة السريان الموارنة لم تنفصل قط عن الكنيسة الرومانية». وقال مثل ذلك الأب دومينيكس منسى المدقق الشهير في تنقيحه تاريخ نطاليس اسكندر عند ذكره قول تيموتاوس القس القسطنطيني وسنذكر كلامه في الرد على هذا القول، والعلامة يوحنا بلما مدرس التاريخ في مدرسة نشر الإيمان، ومدرسة الاكليروس الروماني في المجلّد الثاني من دروس التاريخ البيعي صفحة ١٦٧. ونعدل اختصاراً عن ذكر كثيرين غير

هؤلاء منهم كانيسيوس اليسوعي في مؤلفه في التعليم المسيحي وأنطونيوس ييصوين اليسوعي في كتابه الاستعداد للإيمان وباجيوس في كتابه الموسم بسورية المقدسة وروهر بوخر في تاريخه البيعي للقرن السابع ومن ذكرنا شهاداتهم آنفاً إثباتاً لقداسة يوحنا مارون، وأضف إلى شهادات كل هؤلاء شهادات العلماء الموارنة الذين ذكرنا أسماءهم وأسماء كثير من مؤلفاتهم في العدد السالف وأبنا أن شهاداتهم لأمتهم ليست أقل قدراً من شهادة غيرهم، وأي بحث تاريخي ورد في إثباته أكثر مما أوردناه من شهادات الأحرار الأعظمين والكرادلة والقصاص وهذا العدد الوافر من العلماء المحققين ونزيد على كل ذلك بعض براهين تاريخية .

براهين تاريخية

أولاً إن كل من اتهموا الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة زعموا أنهم تابعوا على هذه البدعة أحد المارونين أو كليهما والحال أننا قد أثبتنا براءة المارونين منها بكل ما مر من الكلام فيهما ولا سيما شهادة الأحرار الأعظمين التي لا ترد فالموارنة إذاً براء خلا من هذه البدعة فكبرى هذا القياس ثابتة بما أوردناه من قولي سعيد بن بطريق وغوليلمس الصوري وهما وكل من شانوا الموارنة بهذه التهمة لم يسندوها إلا إلى أن مارون كان مبتدعاً ولم يبين أحد المتهمين أصلاً لهذه التهمة إلا هذا، وهذا غير صحيح . فتهمتهم غير صحيحة .

ثانياً: قد مر في عد ٦٩٧ ان ما بدعة المشيئة الواحدة إلا فرع من بدعة الطبيعة الواحدة أو نتيجة لازمة عنها، فالمشيئة والفعل خاصتان لازمتان للطبيعة فحيث وجدت طبيعة واحدة وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد كما في الثالوث الأقدس . وحيث وجدت طبيعتان وجدت مشيئتان وفعلان كما في المخلص، وقد أثبتنا في العدد المذكور أن بدعة المشيئة الواحدة ابتدعها أصحاب الطبيعة الواحدة ولم يكن تسليمهم الموقوت بالطبيعتين إلا خدعة حتى إذا اعتقد غيرهم المشيئة الواحدة خلعوا ثوب الرياء وعادوا يثبتون ضلالهم القديم بأن في المسيح طبيعة واحدة بضلالهم الحديث بأن فيه مشيئة واحدة، وقد حققت بينات لا ترد أن الموارنة أنفوا دائماً من بدعة الطبيعة الواحدة وانفصلوا عن أصحابها لاسيما السريان

منهم أي اليعاقبة وقاسوا الاصطهاد لمدافعتهم عن الطبيعتين والمجمع الخلكيدوني حتى نال إكليل الشهادة ثلثماية وخمسون راهباً من رهبان القديس مارون كما مرّ. ويوحنا مارون كتب كتابه إيضاح الإيمان رداً على أصحاب الطبيعة الواحدة وهذا الكتاب لا ينكره عليه أحد. وقد رأيت أقوال اليعاقبة عليه وعلى الموارنة وقد ذكر كثيرون من علمائهم أنّ أئمة الموارنة تخالف أمتهم منهم ابن صليبا في كتابه في البدع وابن العبري في كتابه تاريخ الدول لسنة ١٦٩ للهجرة وهي سنة ٧٨٥ للميلاد حيث قال إنّ توافيلس الرهاوي كان يدين بدين الموارنة سكان لبنان (صفحة ٢٢٠ من طبعة الآباء اليسوعيين لهذا الكتاب) فلو اعتقد الموارنة المشيئة الواحدة بالمسيح لما أنفوا من اعتقاد الطبيعة الواحدة ولا عاذاهم كل من يقولون بها كل هذه العداوة ويؤيد هذا ما يأتي .

ثالثاً قد عثر الأب نو الافرنسي الذي ذكرناه مرات في لوندرة على كتاب قديم في عد ١٧٢١٦ في التاريخ يعزى إلى قيس الماروني الذي كان في القرن التاسع فأذاعه بالسريانية ثم نشر ترجمته الافرنسية هذه السنة ١٨٩٩م. ومما جاء فيه هذا التاريخ ما ذكرناه قبلاً وهو: « في سنة ٩٧٠ (يونانية توافق سنة ٦٥٩ م) وهي السابعة عشرة لقسطنت الملك ... في شهر حزيران أتى أساقفة اليعاقبة توادورس وسبكوت إلى دمشق وأقاموا جدالاً بحضرة معاوية في الإيمان مع رؤساء بني مارون وأفحم اليعاقبة، فأمر معاوية أن يدفعوا عشرين ألف دينار وأمرهم أن يلزموا الصمت فجرت هذه العادة على أساقفة اليعاقبة كل سنة فكانوا يدفعون هذا الذهب إلى معاوية كي لا يرخي بهم يده فيضايقهم بنو البيعة. ومن كان يسميه اليعاقبة بطريقاً كان يوزع هذا المبلغ على جميع مساكن الرهبان والراهبات وغيرهم من أبناء مذهبه فيقدمونه كل سنة، وجعل نفسه **ܡܠܟܐ** (وفسر الكلمة بالعربية مكتوبة بالأحرف الكرثونية والعربية مرتخص) لمعاوية لكي يطيعه كل اليعاقبة خوفاً منه » انتهى مترجماً عن النص السرياني . فهذا الأمر يتبين منه جلياً أنّ الموارنة كانوا يخالفون اليعاقبة في معتقدتهم وانهم أفحموهم بالجدال على مذهبهم وإنّهم كانوا على الإيمان القويم إذ سماهم المؤلف بنو البيعة أي كاثوليكين، فإذا كان الموارنة كاثوليكين يجادلون الهرطقة في القرن السابع . وقد نشر العالم بروكس في المجلة الأسبوية الألمانية (سنة ١٨٩٦م صفحة ٢٦٩) كتاب تاريخ لعالم يعقوبي من حران أو الرها مجهول الاسم يتّصل تاريخه إلى سنة ٨٤٦م ومما قال فيه: « وبعد أن ملك

أبسيما ثلاث سنين عاد يوستينانوس من المنفى في جيش عظيم وقتل جميع رؤساء الروم فقاموا عليه وقتلوه وابنه طيبارنوس وملكوا فيهم فيليبس سنة ونصفاً، ولما أراد أن يعقد مجمعاً ليؤيد بدعة الموارنة قام عليه الروم وسملوا عينيه وملكوا عليهم أنسطاس (الثاني) ... وقبل هذا في أيام يوستينانوس (الأخرم) وقسطنطين (الليحاني) التي كانت فيها بدعة الموارنة سنة ٩٩٠ (يونانية توافق سنة ٦٨٩ م) في ٣ نيسان حصل زلزال «الخ. فكلام هذا المؤلف اليعقوبي الذي كان في أواسط القرن التاسع بينة حديثة قاطعة على مخالفة الموارنة لليعاقبة في معتقدهم ولو اعتقد الموارنة حينئذ المشيئة الواحدة كما كان اليعاقبة يعتقدون لما سمي مذهبهم الديني بدعة كما رأيت (طالع مجلة الشرق عدد ١٠ من سنة ١٨٩٩م صفحة ٤٥٧) وقد حقق السمعاني (في مقالة في المونوفيزيين) أن بدعة المشيئة الواحدة لم تثبت بعد تحريمها في المجمع السادس إلا عند أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة.

رابعاً إذا نقبنا عن تاريخ القرون التابعة إلى آخر القرن الثاني عشر الذي يزعم الخصوم أن الموارنة رجعوا فيه عن بدعة المشيئة الواحدة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وجدنا آثاراً تنبئ بأنهم كانوا في كل هذه القرون كاثوليكين غير ملوثين ببدعة المشيئة الواحدة فسنذكر بطاركتهم الذين كانوا في القرون التابعة وإن لم يمكننا الغموض المستحوذ على تواريخ هذه القرون من الإطلاع على أعمالهم وأحوالهم وما كان بينهم وبين أخبار رومة من المراسلات ويكفي أن لا يوجد خطة في رسائل الأخبار الرومانيين الذين كانوا في مدة القرون الخمسة وفي أعمال المجمعين العامين السابع والثامن اللذين عقدا فيها تشير إلى أن الموارنة ابتعدوا أو اتبعوا بدعة ولو كان ذلك لما غفلوا عن ذكره، ونعلم من جهة أخرى إنه كان من الموارنة في القرن الثامن توافيلس الرهاوي الماروني وذكر ترجمته السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢١) نقلاً عن أبي الفرج ابن العبري في تاريخ الدول لسنة ١٦٥ للهجرة، وقال إنه كان من مذهب الموارنة سكان لبنان المخالفين لمذهبهم. وكان أيضاً صاحب التاريخ المشار إليه آنفاً الذي ذكره المسعودي وسماه قيساً الماروني وحقق الأب نو وقبله العالم نلدك الانكليزي (الذي نشر قسماً من هذا التاريخ) إن هذا الكتاب لماروني ويتبين منه أنه كاثوليكي. وقد كان في منتصف القرن الحادي عشر المطران داود الماروني وقد ترجم سنة ١٠٥٩م كتاب القوانين ويسمى كتابه الهدى أيضاً وقد ذكره كثيرون من علمائنا وسوف

نذكر ترجمته في محلها وما قاله في هذا الكتاب ما رواه مرهج الباني صفحة ٨٩ من مقالته في أصل الموارنة نقلاً عن نسخة لهذا الكتاب كانت في مكتبة مدرسة الموارنة في رومية وهو: «الملكية يتفقون مع المارونية في نطق المشيئين وقالت المارونية مشيئين للجوهريين الإلهي والانساني» ولا عبرة لبعض التحريف الذي أدخله توما الكفرطابي على هذا الكتاب وقد أثبتنا زيفه في كتابنا روح الردود من صفحة ١٠٠ إلى ١٢٢ .

هذا وقد أشرنا إلى أنَّ توما أسقف كفرطاب أتى إلى لبنان سنة ١١٠٤م وأقام فيه ست سنين يفرغ مجهوده في استغواء الموارنة بدعة المشيئة الواحدة فقاومه البطريرك يوسف الجرجسي الماروني وأرسل ينهائه عن بث هذا الضلال وناصبه ارسانبوس مطران العاقورة الذي كان ساكناً في دير ماري أدنه قريباً من يانوح فأجابه الكفرطابي برسالة يثبت بها ضلاله وكل هذا بين في كتاب الكفرطابي الموسوم بالمقالات العشر حيث يندب سوء حظّه إذ لم يذعن لبدعته إلاّ خوري قرية فرشح في بلاد جبيل ونفر قليل، وأنّه عاد من بلاد الموارنة بخفيّ حنين وهذه بينة قاطعة فلو كان الموارنة يعتقدون حينئذ المشيئة الواحدة لما أتى توما يستغويهم بها ولا قاومه بطريركهم ومطرانهم ولم يتابعه إلاّ كاهن واحد ونفر قليل .

وقد حقّق الأسقف جبرائيل اللحفدي القلاعي في رسالته سنة ١٤٩٤م إلى البطريرك سمعان الحداثي والبطريرك أسطفانس الدويهي في كتاب احتجاجه عن الموارنة أنَّ بطريركهم يوسف الجرجسي أرسل وفداً إلى الحبر الروماني طالباً درع التثبيت فأرسله إليه معهم البابا بسكال الثاني الذي رقي إلى الكرسي الرسولي سنة ١٠٩٩م وأنّ البابا إينوشنسيوس الثاني أرسل إلى المشرق الكردينال غوليلمس سنة ١١٣٠م فجدد بطريرك الموارنة وأساقفة وأعيان ملته إعلان طاعتهم للحبر الروماني بحضرة الكردينال المذكور في مدينة طرابلس فكل ما مرّ كان قبل سنة ١١٨٢م التي زعم أكثر متهمي الموارنة أنّهم رجعوا فيها عن بدعة المشيئة الواحدة .

والحاصل من كل ما أوردناه إلى الآن أنَّ الموارنة كانوا قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة يناضلون عن الإيمان الكاثوليكي والمجمعين الأفسسي والخلكيدوني حتى باراقة دمهم، وعند ظهور بدعة المشيئة الواحدة وانتشارها كانوا يناصبون أصحابها وكان بطريركهم يوحنا مارون يفند مزاعمهم بكتبه وخطبه تحقيقاً لآمال شعبه بأن

يقيهم فسادها كما صرّح العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر وفي الحقبة التي كانت من وفاته إلى سنة ١١٨٢م التي زعم خصومهم أنّهم رجعوا فيها عن البدعة كانوا متشبهين دائماً بعري الإيمان الكاثوليكي كما أثبتناه بكل ما مرّ ولاسيما بهذه البراهين الأخيرة، وإن صَحَّ شيء مما رواه غوليلمس عن ارتجاعهم سنة ١١٨٢م يلزم قصره على أفراد منهم كما أثبت العلامة لكويان في المشرق المسيحي وسوف نبين ذلك في محله إن شاء الله. وأما الأمة بجملتها فكانت في كل وقت كاثوليكية براء خلاء من كل ضلال يخالف الإيمان القويم وسوف نرد دعوى كل معترض عليهم أو متهم لهم في كلامنا عليهم في تاريخ كل من القرون الذي كان لهم فيه متهم أو معترض ولما كان بعضهم يورد عليهم قولاً لتيموتاوس القسطنطيني زاعماً أنّه كان في هذا القرن السابع رأينا أن نرده هنا.

عد ٧١٤

تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة

إنّ لتيموتاوس هذا القسطنطيني مقالة في من يقتربون إلى الكنيسة ألفها وهو قس ونشرها كمييفيسوس في المجلد الثاني صفحة ٤٥٩ من تأليفه فاذا فيها فقرة هذه ترجمتها: «إنّ الموارنة الذين ينبذون الجامع الرابع والخامس والسادس ويزيدون الصלב على التقديسات الثلاثة ويقولون بمشيئة واحدة وفعل واحد بالمسيح سموا موارنة من دير مارون في سورية». فحجّ الموارنة خصومهم بهذه الفقرة وانخدع بها من لم يتروا فيها. وفي العصر الذي كان فيه تيموتاوس ومنهم نطاليس اسكندر في تاريخ القرن السابع وعنه أخذ القديس ليكوري في كتابه تاريخ البدع ودحضها على أنّ المحققين كشفوا عن بطلان هذا الزعم وفندوه بأدلة كثيرة قاطعة أولها أنّ تيموتاوس هذا كان قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بنحو قرن كامل وقبل الجمع بين الخامس والسادس. قال السمعاني (في المجلد الأوّل من المكتبة الشرقية صفحة ٢٩١ في الحاشية): «إنّ تيموتاوس هذا كان قساً في كنيسة قسطنطينية الكبرى، ثم خلف مكدونوس بطريركها سنة ٥١١ كما شهد غوليلمس كافوس مجلّد ٢ من تاريخه للعلماء صفحة ١٠١ وتوادورس القاري ك ٢ صفحة ٥٦٣ وكتابه المعنون في من يقتربون إلى ديننا الطاهر مثبت في كتب

الروم الطقسية وقد ألفه وهو كاهن». وجاء في التاريخ الرهاوي في كلامه في الملك أنسطاس: «إنَّه مكدونوس البطريرك القسطنطيني لأنَّه أبقى أن ينبذ الجمع (الخلكيديوني) وأقام تيموتاوس خلفاً له». (ذكره السمعاني في المحل المذكور صفحة ٤٠٨) ومن البين أنَّ الملك أنسطاس كان في بدء القرن السادس وقال كافوريوس في المحل المذكور إنَّ تيموتاوس كان في أوائل القرن السادس كما يظهر من رسالة كتبها إليه البابا هرمزدا. ومما لا مرية فيه أنَّ هذا البابا كان في أوائل القرن السادس وقد طبع العلامة كوتيلاريوس كتاب تيموتاوس هذا وقال فيه صفحة ٣٧٧: «أظنه كان قبل أن تظهر بدعة المشيئة الواحدة لأنَّه لم يأت بذكرها. فظهر من ذلك جلياً أنَّ تيموتاوس كان في القرن السادس قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بقرن كامل فأنَّى استطاع أن يثبت أنَّ الموارنة توحدوا فيها فهذه الفقرة إذاً زيدت على كتابه بيد أخرى متأخرة عن أيامه.

الثاني إنَّ كوتيلاريوس طبع كتاب تيموتاوس في الكتاب الثالث من تأليفه في آثار الكنيسة اليونانية صفحة ٣٧٧ عن نسخة كرميزارس الذي أثنى عليه كمبيفيسيوس كثيراً ولا ذكر فيه للموارنة، ولذلك قال السمعاني في المحل المذكور صفحة ٥٠٩ أنَّ الكلمات المعزوة لتيموتاوس هي مدخلة في كتابه من يد رويي متأخِّر كما يظهر من نصِّه الصحيح الذي طبعه كوتيلاريوس.

الثالث لا مرية في أنَّ العبارة الأولى من الفقرة المذكورة وهي: «إنَّ الموارنة ينبذون المجامع الرابع والخامس» هي كاذبة ولا يدعنا كل ما أوردناه حتى الآن أن نرتاب بكذبها، وهي أس بني عليه ما تلاها فإن سقطت لم يثبت ما بني عليه. ومما لا شكَّ فيه أنَّ خصوم الموارنة أنفسهم لا يشكونهم ببدعة الطبيعة الواحدة أو بالخالف لرسوم الجمع الخلكيديوني لتشبههم برسومه بل عيروهم بذلك ودعوهم خلكيديونيين، وكان هذا الجمع محور الجدل بين الموارنة واليعاقبة. وقال فيهم ابن العبري في كلامه في توافيلس الرهاوي إنَّه من الموارنة الذين هم إحدى فرق النصرانية أي من غير أمته ولذلك قال السمعاني (في المحل المذكور صفحة ٥٢١) بأثر إيراده قول ابن العبري هذا: «هوذا ما يقوله في الموارنة هذا المؤلف اليعقوبي. وهو دال على كذب تيموتاوس القس أو أياً كان القائل لما رواه كمبيفيسيوس من أنَّ الموارنة ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس فلو كان هذا صحيحاً لما ميزهم ابن العبري عن ملته ولما جعلهم ملة قائمة بنفسها».

وقد ذيل الأب منسي المدقق الشهير قول نطاليس اسكندر بحاشية هذه ترجمتها: «إنَّ قول تيموتاوس هذا في الموارنة وإن كان ثابتاً في طبعة كميفيسوس فلا وجود له في النسخة التي طبعها كوتيلاريوس في آثار الكنيسة اليونانية في المجلد الثالث صفحة ٣٧٧، ولذا يظن أنَّه زيد عليها بيد متأخرة إن صحَّ ظن كوتيلاريوس أنَّ تيموتاوس كان قبل المجمع السادس والنسخ التي يعد فيها الموارنة من أصحاب المشيئة الواحدة يقال فيها: «إنَّ الموارنة الذين ينبذون المجمع الرابع والخامس والسادس ويزيدون الصلب على التقديسات الثلاثة ويقولون بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح». فهذه الكلمات مشكوك فيها كما أشرت لأنَّ بدعة المشيئة الواحدة لم تحرم إلا في المجمع السادس ولا عجب إذا وجدنا هذه العبارة في بعض النسخ لأنَّ كتاب تيموتاوس هذا من جملة الكتب الطقسية التي تلحق بها كل كنيسة زيادات كإثاها على أنَّ السمعاني أثبت في مكتبته الشرقية (مجلد ١ صفحة ٥٢١) أنَّ الموارنة براء من هذه البدعة خاصة». ولما كان القديس الفونس ليكوري اغتر في كتابه تاريخ البدع بقول نطاليس اسكندر المذكور فذيلنا ترجمتنا لكتابه المذكور بحاشية ضمنها بعض ما أوردناه هنا.

الباب الثامن

تاريخ سورية في القرن الثامن

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن الثامن

عد ٧١٥

الوليد بن عبد الملك بن مروان

فرغنا من كلامنا في تاريخ الخلفاء في القرن السابع بذكر وفاة عبد الملك بن مروان وبعد وفاته ببيع بالخلافة الوليد ابنه سنة ٨٦ للهجرة الموافقة لسنة ٧٠٥ للميلاد فكان السادس من خلفاء بني أمية. وقال الوليد بعد دفن أبيه إنّا لله وإنّا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بموت أمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة. قالوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقام عبدالله بن همام السامولي وهو يقول :

الله أعطاك التي لا فوقها وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ويأبى الله إلا سوقها إليك حتى قلدوك طوقها

وبايعه ثم بايعه الناس بعده ومما قاله في خطبته حينئذ: «أيتها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإنَّ الشيطان مع المنفرد». وقد فتحت في أيامه الفتوحات الكثيرة منها فتح الأندلس فتحها طارق بن زياد وقصد أولاً إلى جبل منيف متّصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق إلى اليوم والمضيق الذي هناك مضيق جبل طارق. وولى الحجاج خراسان مع العراقيين فتغلغل في بلاد الترك وتغلغل مسلمة بن عبد الملك في بلاد الروم وفتح محمّد بن القاسم الثقفي الهند وولي الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز المدينة ونزل في دار جده مروان ودعا عشرة من فقهاء المدينة فقال لهم لا أريد أن أقطع أمراً إلاّ برأيكم فما علمتموه من تعدي عامل أو من ظلامة فاعلموني به، فشكروا له وجزوه خيراً ودعا الناس له. وكتب الوليد إليه أن يوسّع بناء المسجد وأن يدخل بيوت أزواج النبي في المسجد ويشترى ما في نواحيه حتى يجعله مئتي ذراع في مئتي ذراع. وقال من أبي أن يعطيك ملكه فقومه قيمة عدل وادفع إليه الثمن فأعطاه أهل الأملاك ما أحبّ منها بأثمانها، وبعث الوليد إلى ملك الروم أنّه يريد بناء المسجد فبعث إليه بمئة ألف مثقال من الذهب ومئة من الفعلة وأربعين جملاً من الفسيفساء فإن صحَّ أنّ ذلك كان للسنة الثانية لخلافة الوليد كان ملك الروم الذي بعث هذه الهدايا يوستينانوس الثاني الأخرم بعد عوده إلى الملك لأنّه استمرّ على منصبه إلى سنة ٧١١ وبني الوليد أيضاً جامع دمشق وهو المعروف بالجامع الأموي فأنفق عليه أموالاً عظيمة تجل عن الوصف. وعن ابن خلدون: «إنّه لما أراد بناء مسجد دمشق كانت في موضعه كنيسة فهدمها وبنّاها مسجداً وشكوا ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال نرد عليكم كنيتكم ونهدم كنيسة توما فإنّها خارج المدينة مما فتح عنوة وبنيناها مسجداً فتركوا ذلك». وعن أبي العباس القرماني في تاريخ الدول أنّ الكنيسة كانت على اسم يوحنا فهدمها وزادها في الجامع. وكذلك روى أبو الفداء وأنّ سليمان أخاه كمل عمارة هذا الجامع وإنّ الوليد أيضاً بنى قبة الصخرة ببيت المقدس، وفي أيامه توفي الحجاج والي خراسان والعراقيين وكانت مدة ولايته عشرين سنة. قال أبو الفداء قيل إنّه احصى من قتلهم الحجاج فكانوا مئة وعشرين ألفاً ثم توفي الوليد سنة ٩٦ للهجرة وهي سنة ٧١٥م وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر ودفن بدمشق خارج الباب الصغير. قال أبو الفداء أيضاً كان الوليد لحناً دخل عليه إعرابي يشكو صهراً له فقال الوليد ما شأنك بفتح النون فقال الإعرابي أعوذ بالله من الشين فقال له سليمان بن عبد

الملك أمير المؤمنين يقول ما شأنك بضم النون فقال الإعرابي ختني (ظلمني) فقال الوليد من ختنتك بالفتح فقال الإعرابي إنما ختني الحجام وليس أريد ذا. فقال سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين من ختنتك بالضم فقال هذا وأشار إلى خصمه. وكان أبوه عبد الملك فصيحاً وعرف بلحن ابنه فقال له إنَّك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب، فمكث الوليد كذلك مدة ولم يستفد (ملخص عن ابن الأثير في الكامل وابن خلدون وأبي الفداء في تاريخهما والقرماني في تاريخ الدول).

عد ٧١٦

سليمان بن عبد الملك بن مروان

هو السابع من خلفاء بني أمية ببيع بالخلافة لما مات أخوه الوليد في جمادى الأخرى سنة ٩٦ للهجرة وهي سنة ٧١٥ للميلاد وأحسن السيرة وردَّ المظالم واتَّخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً وغزا أخوه مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم وفي سنة ٩٦ وهي سنة ٧١٥م خرج سليمان بالجيش لغزو قسطنطينية ونزل بمرج دابق (في جهة قنسرين) وسير أخاه مسلمة إلى قسطنطينية وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها، فشئى مسلمة على قسطنطينية وزرع الناس بها الزرع وأكلوه حتى جاءه الخبر بموت سليمان أخيه فأنصرف عنها (عن أبي الفداء في تاريخه صفحة ٢١١) وقد روى المؤرخون اليونان توافان وشدرانس وغيرهما غزوة مسلمة هذه إلى قسطنطينية وقالوا لما كان الشتاء في تراسة قاسياً شديداً وكان الثلج يغطي وجه الأرض نحواً من مئة يوم اشتدَّ الضيق على العرب وهلك كثير من خيلهم وجمالهم وبغالهم وفي فصل الربيع أتتهم نجدة من مصر وإفريقيا ووثبوا ليلاً على قسطنطينية حتى غطت سفنهم وجه البحر، ولكن هبَّت ريح عاصفة فأتلفت كثيراً من السفن وغرق كثيرون وسطا الروم على جيشهم في البر فتهقروا وكان أهل آسيا يكمنون لهم ويرصدونهم على طريقة المردة (هذه كلمة شدرانس وأنسطاس المكتبي) فيقاتلونهم وأضرَّ بهم القحط وخلوهم من الزاد حتى ألجئوا إلى أكل لحم البهائم. هذا ملخص ما رواه هؤلاء المؤرخون ولربما بالغوا في وصف خسائر العرب ومضارهم. وقد جاء في تاريخ ابن خلدون ما يشعر بذلك إذ قال (صفحة ٧١ من

الجزء الثالث) إنّ مسلمة صاف وشتى محاصراً قسطنطينية وأمر الناس بالزراعة فأتاه القون (يريد لاون الذي صار عندئذ ملكاً وهو لاون الايسوري) فقال له لو أحرقت هذا الزرع علم الروم أنّك قصدتهم بالقتال فتأخذهم باليد وهم الآن يظنون مع بقاء الزرع أنّك تطاولهم فاحرق الزرع فقوى الروم وأصاب الناس الجوع فأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وسليمان مقيم بدابق وحال الشتاء بينهم وبينه . فلم يقدر أن يمدّهم حتى مات . وقد شرح ذلك ابن العبري (في تاريخ الدول ١٩٦) فقال : قالت الروم للاون البطريق ان صرفت عنا المسلمين ملكناك علينا واستوثق منهم وأتى مسلمة . . . ووعدته أن يفتح له المدينة، غير أنه لا يتهيأ ذلك ما لم يتنحّ عنهم ليطمئنوا ثم يكرّر عليهم فتتحى مسلمة ودخل لاون فلبس التاج وقعد على سرير الملك، واعتزل الملك توادوسيوس ولبس الصوف معتكفاً في بعض الكنائس . . . وأصبح لاون محارباً وقد خدع مسلمة خدعة لو كانت امرأة لعييت بها وبلغ الخبر مسلمة فأقبل راجعاً ونزل بفناء قسطنطينية ثلاثين شهراً فشكى فيها وصاف ولقي جنده ما لم يلقيه جيش آخر حتى كان الرجل يخاف أن يخرج من العسكر وحده خوفاً من البلغاريين الذين استجاشهم لاون، ومن الافرنج الذين في السفن، ومن الروم الذين يحاربونهم من داخل وأكلوا الدواب والجلود وأصول الشجر والورق وسليمان مقيم بدابق ونزل الشتاء فلم يقدر أن يمدّهم حتى مات وانصرف مسلمة عن قسطنطينية .

وروى أبو الفداء والقرماني أنّ سليمان كان نهماً كثيراً الأكل وبالغوا بوصف كثرة أكله حتى مات متخوماً وقد اصطنعوا الكنافة في أيامه فكان يتسحر في ليالي رمضان بكثير منها وهو الذي كمل عمارة الجامع الأموي كما مرّ وكانت وفاته في صفر سنة ٩٩ لهجرة وهي سنة ٧١٨ للميلاد وكانت مدة خلافته سنتين وثمانية أشهر .

عد ٧١٧

عمر بن عبد العزيز

هو الثامن من خلفاء بني أمية أوصى إليه بالخلافة سليمان بن عبد الملك لما اشتدّ مرضه، وكان ابن عمه ووزيره وبويع بالخلافة في شهر صفر سنة ٩٩ هـ وهي

سنة ٧١٨ م ومن بواكير أعماله أنه أبطل سب علي بن أبي طالب وكان خلفاء بني أمية يسبونهم على المنابر منذ سنة ٤١ التي خلع الحسن ابنه نفسه من الخلافة وكتب عمر إلى نوابه بإبطاله ولما خطب بدل السب في آخر الخطبة بقراءة الآية « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمَكْرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَلَمْ يَسْبِ عَلِيٌّ بَعْدَ ذَلِكَ وَقَدْ مَدَحَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْخَزَاعِيُّ عَمْرًا فَقَالَ :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف برياً ولم تتبع سجية مجرم
وقلت فصدقت الذي قلت بالذي فعلت فاضحى راضياً كل مسلم

(عن أبي الفداء صفحة ٢١٢ من المجلد الأول). وروى القرماني أنه كان عفيفاً زاهداً ناسكاً ولما استخلف قومت ثيابه فإذا هنَّ يعدلن اثني عشر درهماً، وأنه قال في خطبته بعد مبايعته أيها الناس من أطاع الله تعالى وجبت طاعته ومن يعصو الله عز وجل فلا طاعة له أطيعوني ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم . وكان لامرأته فاطمة بنت عبد الملك جواهر أمر لها بها أبوها فقال لها إنما أن ترددي حليك إلى بيت المال وإنما أن تأذني لي في فراقك فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد. قالت لا بل اختارك عليه وعلى اضعافه فأمر فوضع في بيت مال المسلمين، ولما مات وخلفه يزيد قال لها إن شئت رددت إليك حليك قالت لا والله لا أطيب به نفساً في حياته وارجع إليه بعد موته . قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على عمر بن عبد العزيز اعوده في مرضه الذي مات فيه فإذا عليه قميص مسخ فقلت لفاطمة اختي أغسلي ثوب أمير المؤمنين فإنَّ الناس يعودونه فقالت والله ما له قميص غيره وذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء أنَّ بعض عماله كتب إليه إنَّ مدينتنا خرجت فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمها به فكتب إليه عمر إذا قرأت كتابي هذا فحصّنها بالعدل ونق طرقها من الظلم فأنه مرمتها والسلام .

قال أبو الفداء وتوفي عمر بن عبد العزيز لخمس بقين من رجب سنة ١٠١ هـ وهي سنة ٧٢٠ م وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وعمره أربعين سنة وكانت وفاته بخصاصه ودفن بدير سمعان، وقيل توفي في دير سمعان ودفن به. قال القاضي جمال الدين بن واصل مؤلف التاريخ المنقول هذا الكلام منه والظاهر عندي أنَّ دير سمعان هو المعروف الآن بدير القيعة من عمل معرة النعمان، وأنَّ قبره هو

هذا المشهور وكان موته بالسم عند أكثر أهل النقل. فإن بني أمية علموا أنه إن امتدّت أيامه أخرج الأمر من أيديهم وأنه لا يعهده بعهد إلا لمن يصلح للأمر فعاجلوه وما أمهلوه انتهى كلام أبي الفداء وعن القرمانى وعن ابن عساكر أن عمر شدّد على أقاربه وانتزع كثيراً مما غصبوه فسقوه السم.

عد ٧١٨

يزيد بن عبد الملك بن مروان

هو التاسع من خلفاء بني أمية ببيع بالخلافة لما مات عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ هـ وهي سنة ٧٢٠ م عملاً بعهد أخيه سليمان بن عبد الملك أن تكون الخلافة له بعد عمر وفي السنة الأولى لخلافته خرج عليه يزيد بن المهلب والى خراسان وكان عمر بن عبد العزيز حيس ابن المهلب ففرّ من الحيس لما بلغه خبر مبايعة يزيد ابن عبد الملك، واجتمع إليه جمع فأرسل يزيد بن عبد الملك الخليفة أخاه مسلمة فقاتله وقتله وجميع آل المهلب وكانوا مشهورين بالكرم والشجاعة ولما فرغ مسلمة من حربهم ولاه أخوه يزيد على العراق وجمع له ولاية البصرة والكوفة وخراسان، وفي السنة الثانية لخلافته توفي عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحد الفقهاء السبعة بالمدينة وهم الذين انتشر عنهم الفقه والفتيا وقد نظم بعض الفضلاء أسماءهم فقال:

إلا كل من لا يقتدي بأئمة فقسّمته ضئزى عن الحق خارجه
فخذهم عبد الله عروة قاسم سعيد سليمان أبو بكر خارجه

وسنأتي على ذكر بعضهم في جملة المشاهير (عن أبي الفداء وابن خلدون) وعن القرمانى ان يزيد لما ولي قال خذوا بسيرة عمر بن عبد العزيز (سالفه) وسار بسيرته مدة فدخل عليه أربعون رجلاً من مشايخ دمشق وحلفوا له أن ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب في الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم، وكانت طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك. وأقبل على لذاته حتى قال يوماً إن بعض الناس يقولون إنّه لن يصفو لأحد من الملوك يوم واحد كاملاً من الدهر وإنى أريد أن أكذبهم في ذلك، واختلى مع حباة جاريته وأمر أن يحتجب عن سمعه وبصره

ما يكره فبينما هو على تلك الحال في صفر عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حباية رمانة وهي تضحك فغصت بها وماتت فنكد عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً . (وعن ابن العبري في تاريخ الدول أنَّ حبابه خرجت معه إلى ناحية الأردن يتنزهان فرماها بحبة عنب فاستقبلتها بفيها فغصت بها وشرقت ومرضت بها وماتت . وهو مرض فمات بعدها سنة ١٠٥ لخمس بقين من شعبان وكانت مدة خلافته أربع سنين وشهراً .

عد ٧١٩

هشام بن عبد الملك

إنَّ يزيد عهد بالخلافة بعده إلى هشام أخيه ابن عبد الملك وإلى ابنه الوليد من بعد هشام لأنَّ ابنه كان صغيراً عمره إحدى عشرة سنة فبعد وفاته ببيع أخوه هشام بالخلافة سنة ١٠٥ هـ وهي سنة ٧٢٤م فكان العاشر من خلفاء بني أمية وفي أيامه أي في سنة ١٢١ وقيل سنة ١٢٢ هـ وهي سنة ٧٤٠ أو سنة ٧٤١ م خرج زيد ابن علي بن الحسين بن علي أبي طالب بالكوفة ودعا إلى نفسه وبايعه جمع كثير وكان الوالي على الكوفة من قبل هشام يوسف بن عمر الثقفي فجمع العسكر وقاتل زيدا فأصاب زيدا سهم في جبهته فمات فتطلبه يوسف حتى دل عليه واستخرجه وصلب جثته وبعث برأسه إلى هشام فأمر بنصب الرأس بدمشق ولم تزل جثته مصلوبة حتى مات هشام وولي الوليد فأمر بحرق جثته فأحرقت (أبو الفداء صفحة ٢١٥ من تاريخه). وعن ابن العبري (في تاريخ الدول صفحة ٢٠٠) إنَّ الشيعة تواعدوا بالخروج وجاءوا إلى زيد فقالوا ما تقول في أبي بكر وعمر فقال لا أقول فيهما إلا خيراً فتبرأوا منه ونكثوا بيعته وسعوا به إلى يوسف فبعث في طلبه قوماً فحاربوه وقتلوه كما مرَّ. وعن ابن الأثير في الكامل قيل ضرب رجل نصراني غلاماً لمحمَّد بن هشام فشجه فذهب خصي لمحمَّد فضرب النصراني وبلغ هشاماً الخبر وطلب الخصي فعاذ بمحمَّد ابنه فقال له محمَّد ألم أمرك فقال الخصي بلى والله قد أمرتني فضرب هشام الخصي وشم ابنه وقال عبدالله بن علي ابن عبدالله بن عباس جمعت دواوين بني أمية فلم أرَ ديواناً أصح ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام . . . وتفقد هشام بعض ولده فلم يحضر الجمعة فقال ما

منعك من الصلوة قال نفقت دابتي قال أفعجت عن المشي فمنعه الدابة سنة وقيل له أطمع في الخلافة وأنت بخيل جبان قال ولم لا أطمع فيها وأنا حلیم عقیف . قالوا وكان هشام حازماً عاقلاً ذا رأي ومضاء وعزم وقلة شر وأنه جمع من المال ما لم يجمعه خليفة قبله وفي أيامه غزا مسلمة أخوه إلى آسيا الصغرى حتى قسطنطينية فغنم وعاد .

قد توفي هشام سنة ١٢٥ هـ وهي سنة ٧٤٣م وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وبعض أيام ووفاته في الرصافة على عدوة الفرات ودفن فيها قال توفان (في تاريخه لسنة ٧٣٤ على مذهبه): « في هذه السنة توفي هشام أمير العرب وقد أعاد كنيسة أنطاكية المقدسة إلى حالتها الأولى فإنها خلت من راع لها مدة أربعين سنة فإن العرب كانوا قد نهوا عن انتخاب بطريك لها وكان لهشام صديق راهب اسمه أسطفانس وكان أمياً لكثته شهير بسيرته الصالحة فأباح المسيحيين في الشرق أن يختاروا بطريكاً بشرط أن ينتخبوا هذا الراهب فرأوا أن هذه إرادة الله فاختاروا أسطفانس بطريكاً على مدينة الله أنطاكية واستمروا على عاداتهم هذه إلى اليوم دون أن يمنعهم المسلمون عن انتخاب بطريك » . وكان بين هشام والوليد ابن أخيه الذي خلفه ولما توفي هشام ضبط عياض كاتب الوليد كل ما كان له حتى لم يعطهم ما يسخنون الماء فيه لغسله فاستعاروا من الجيران قممات لتسخين الماء (عن أبي الفداء في المحل المذكور) .

عد ٧٢٠

الوليد بن يزيد بن عبد الملك

هو الحادي عشر من خلفاء بني أمية كان الوليد مقيماً في البرية خوفاً من هشام في أسوأ حال مع أصحابه، ولما اشتد الضيق أتاه الفرج بموت هشام فبوع بالخلافة يوم الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ وهي سنة ٧٤٣ م وعكف الوليد على شرب الخمر وسماع الغناء ومعاشرة النساء واستخف بالدين (عن ابن الأثير وأبي الفداء والقرماني وغيرهم) وضيق على أهل هشام وأصحابه. وكان يقول كلناه بالصاع الذي كاله وما ظلمناه به أصبغاً لكنه لم يخل من المبرات فانه لما ولي أجرى على زماني أهل الشام وعميانهم وكساهم وزاد الناس في العطاء

عشرات ولم يقل في شيء يسأله لا بل التمس بعضهم عذراً له وبرأ ساحته بأنه كان محسوداً في خلاله ومزاحماً بكبار عشيرة بيته من بني عمومته مع لهو كان يصاحبه أوجد لهم به السبيل على نفسه، وكان خلاله قرص الشعر الوثيق ونظم الكلام البليغ. قال يوماً لهشام يعزيه في مسلمة أخيه أن عقبي من بقي لحوق من مضى وعلى أثر ما سلف يمضي من خلف فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى. وقالوا لما تعرض له بنو عمه ونالوا من عرضه أخذ في مكافأتهم فضرب سليمان ابن عمه هشام مائة سوط وغزبه إلى معان من أرض الشام فحبسه إلى آخر دولته، وحبس أخاه يزيد بن هشام وفرق بين ابن الوليد وبين امرأته، وحبس عدة من ولد الوليد فرموه بالفسق والكفر. وقد كان عهد بالخلافة لابنيه الحكم وعثمان مع صغرهما فازدادوا حنقاً عليه وكان أشدهم عليه في ذلك يزيد بن الوليد لأنه كان يتنسك، فكان الناس إلى قوله أميل، وأفسدوا الرعية عليه (ابن خلدون جزء ٣ من تاريخه صفحة ١٠٦).

فثارت الرعية على الوليد وبايعوا يزيد بن الوليد الأول فركب الوليد بمن بقي معه وقاتل قتالاً شديداً ثم انهزم عنه أصحابه، فدخل القصر وأغلقه فحاصروه ودخلوا إليه وقتلوه وأخذوا رأسه وسيروه إلى يزيد بن الوليد فسجد يزيد شكراً لله ووضع الرأس على رمح وطيف به في دمشق. وكان قتله لليلتين بقيا من جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ وهي سنة ٧٤٥ م وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر.

عد ٧٢١

يزيد بن الوليد الأول

هو الثاني عشر من خلفاء بني أمية استقرت له الخلافة بعد مقتل الوليد الثاني في جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ الموافقة لسنة ٧٤٥ م، وقد نقص الجند العشرات التي زادها الوليد سالفه وقرّهم على ما كانوا عليه أيام هشام، ولذلك سموه الناقص. وكان محمود السيرة مرضي الطريقة وقد خالفه أهل حمص وهجموا دار أخيه العباس بحمص ونهبوا ما بها وسلبوا حرمه وأجمعوا على المسير إلى دمشق لحرب يزيد، فأرسل إليهم عسكرياً والتقوا قرب ثنية العقاب فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أهل حمص واستولى عليها يزيد وأخذ البيعة عليهم. ثم اجتمع أهل فلسطين

فوثبوا على عامل يزيد فأخرجوه من فلسطين وأحضرهم يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه عليهم ودعا الناس إلى قتال يزيد الخليفة، فأجابوا إلى ذلك. وبلغ الخليفة خروجهم فأرسل إليهم جيشاً مع سليمان بن هشام بن عبد الملك ووعد كبراء فلسطين ومناهم فتخاذلوا عن صاحبهم، ولما قرب منهم الجيش تفرقوا وقد جيش سليمان في أثر يزيد بن سليمان الخارج فهزمه وسار حتى نزل طبرية وأخذ البيعة بها ليزيد الخليفة ثم سار حتى نزل الرملة وأخذ البيعة على أهلها أيضاً للخليفة المذكور (عن أبي الفداء صفحة ٢١٧)، وكانت أمه اسمها شاه فرند ابنة فيروز بن يزدجرد بن شهريار بن كسرى قال :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصصر جدي وجدي خاقان
وأنا جعل قيصصر وخاقان جدي لأن أمه فيروز كانت ابنة كسرى وأمها ابنة قيصصر وأم كسرى خاقان ملك الترك (عن ابن العبري في تاريخ الدول صفحة ٢٠٤ وعن ابن الأثير في الكامل). ولكن روى البلوي البيت هكذا :

كسرى أبو أمي أبي ابن مروان وقيصصر جدي وجدي خاقان
وهذه الرواية أصح. قال القرطبي في مناقب يزيد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان نقض خاتمه يا يزيد قم بالحق تنصر. وعن ابن الأثير أنه نقشه العظمة لله . وقبل وفاته عهد بالخلافة إلى أخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك وتوفي لعشر بقين من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ وهي سنة ٧٤٥ م وكانت خلافته ستة أشهر وليلتين وقيل خمسة أشهر واثنين عشر يوماً وكان موته بدمشق .

عد ٧٢٢

ابراهيم بن الوليد الأول ابن عبد الملك

هو الثالث عشر من خلفاء بني أمية قام بالخلافة بعد موت أخيه يزيد غير أنه لم يتم له الأمر وكان يسلم عليه بالخلافة تارة، وتارة بالامارة فمكث أربعة أشهر وقيل سبعين يوماً ودخلت سنة ١٢٧ هـ وهي سنة ٧٤٦ م وفيها سار مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم أمير ديار الجزيرة إلى دمشق الشام لخلع ابراهيم بن الوليد ولما وصل إلى قنسرين اتفق معه أهلها وساروا معه إلى حمص، فبايع أهلها مروان وساروا معه أيضاً، ولما قرب مروان من دمشق بعث ابراهيم لقتاله الجنود مع

سليمان بن هشام عبد الملك، وكان جيشهم مائة وعشرين ألفاً وجيش مروان ثمانين ألفاً فاقتتلوا من ارتفاع النهار إلى العصر وكثر القتلى بينهم إلى أن انهزم عسكر ابراهيم ووقع فيهم القتل والأسر وهرب سليمان في من هرب إلى دمشق، واجتمعوا مع ابراهيم واختفى ونهب سليمان بن هشام بيت المال وقسمه في أصحابه وخرج من دمشق (أبو الفداء صفحة ٢١٨ من تاريخه). وعن القرمانى ان ابراهيم جاء بعد ذلك إلى مروان وخلع نفسه من الأمر وسلمه إلى مروان، وباعه طائماً وعاش بعد ذلك إلى سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥١ م وقتل في من قتل من بني أمية في وقعة السفاح الآتي ذكرها.

عد ٧٢٣

مروان بن محمد بن مروان بن الحكم

وهو رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم ببيع بالخلافة في دمشق سنة ١٢٧ هـ وهي سنة ٧٤٦ م ولما استقر له الأمر رجع إلى منزله بحران وأرسل ابراهيم بن الوليد المخلوع من الخلافة وسليمان بن هشام المار ذكره فطلبوا منه الأمان فأمنهما. فقدموا عليه ومع سليمان اخوته وأهل بيته فبايعوه. ومن الأحداث في أيام مروان أن أهل حمص عصوه فسار من حران إليهم فسد أهل المدينة أبوابها فأحرق بها ثم فتحوا له الأبواب وأظهروا طاعته ثم وقع بينهم قتال فقتل من أهل حمص خلقاً كثيراً وهدم بعض سورها وصلب جماعة من أهلها، ولم ينته من إخضاعهم إلا وجاءه الخبر بأن أهل غوطة دمشق ثاروا عليه وولوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحاصروا دمشق فأرسل مروان عشرة آلاف فارس مع أبي الورد بن الكوثر وعمرو بن الصباح ولما وصلوا إلى قرب دمشق حملوا على أهل الغوطة وخرج من دمشق عليهم أيضاً فانهزم أهل الغوطة ونهبهم العسكر وأحرقوا المزة وقرى غيرها. وعقب ذلك خلاف أهل فلسطين وفي مقدمتهم ثابت بن نعيم فكتب مروان إلى أبي الورد المذكور يأمره بالمسير إليهم فسار واقتتلوا وانهزم ثابت بن نعيم على طبرية وتفرق أصحابه وأسر ثلاثة من أولاده فبعث بهم أبو الورد إلى مروان وأعلمه بالنصر ثم سار مروان إلى قرقيسيا فثار عليه سليمان بن هشام المذكور فخلعه. واجتمع إلى سليمان سبعون ألفاً من أهل الشام وعسكر معهم بقنسرين فسار إليه مروان والتقوا بأرض قنسرين وجرى

بينهم قتال شديد إلى أن انهزم سليمان وعسكره وأتبعهم خيل مروان يقتلون ويأسرون وكانت القتلى من عسكر سليمان تزيد على ثلاثين ألفاً . ووصل سليمان إلى حمص فاجتمع إليه أهلها وبقية المنهزمين فلحقهم مروان وهزمهم ثانية وهرب سليمان إلى تدمر ، وعصي أهل حمص فحاصروهم مروان مدة طويلة ثم طلبوا الأمان واستسلموا إلى مروان وسلموا إليه من كان عليهم من الولاة من قبل سليمان فأجابهم إلى ذلك وامنهم (عن أبي الفداء في تاريخه صفحة ٢١٩) .

وفي أيام مروان ظهرت دعوة بني العباس في خراسان وبنو العباس ينتسبون إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم، فالعباس عم النبي وقد دعوا الناس إلى مبايعتهم بالخلافة أولاً سراً فأجابهم الناس إلى ذلك ومكثوا يكتُمون الأمر إلى أن أظهره سنة ١٢٩ هـ وهي سنة ٧٤٨م، وكان منهم رجل يسمى ابراهيم وهو ابن محمّد بن علي ابن عبدالله بن العباس ويلقب بالإمام، وكان مقام ابراهيم الإمام وأهله بالشراسة من الشام بقرية يقال لها الحميمة بينها وبين الشوبك أقل من مسيرة يوم (على ما قال أبو الفداء) وكان يدبر هذه الثورة وكتب أحد عمال مروان له أبيات شعر وهي :

أرى تحت الرماد وميض نارٍ وأوشك أن يكون لها ضرام^(١)
فإن لم يطفها عقلاء قومٍ يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب ليت شعري أليقظ أميَّة أم نيام؟

فأمر مروان عامله بالبقاء أن يسير إليه ابراهيم فشده وثاقاً وبعث به إليه فألقاه مروان بالحبس في حران حتى مات وقيل إنّه مات مسموماً . وكان لما مسكه مروان قد كتب إلى أهله ينعي نفسه ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبي العباس السفاح . فسار السفاح بأهل بيته منهم أخوه أبو جعفر المنصور وغيره إلى الكوفة فأقاموا بها متخفّين .

ثم ظهرُوا في شهر ربيع الأوّل سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥٠ م فسلم الناس على أبي العباس السفاح بالخلافة وعزوه في أخيه ابراهيم الإمام الذي كان قد توفي فدخل دار الامارة بالكوفة صبيحة يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الأوّل ، ثمّ خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس وحضهم على الطاعة ثم عاد إلى القصر

(١) وفي رواية اخرى : ويخشى ان يكون لها ضرام .

وأجلس أخاه أبا جعفر المنصور يأخذ له البيعة على الناس، وكان مروان بحران وبلغته هذه الأخبار فسار منها طالباً أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي المستولي على شهرزور من جهة بني العباس ووصل إلى الزاب وحفر عليه خندقاً وكان في مئة وعشرين ألفاً، وسار أبو عون من شهر زور إلى الزاب بما عنده من الجموع وأردفه السفاح بعساكر مع عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس وعقد مروان على الزاب جسراً وعبر إلى جهة عبدالله المذكور فالتقاه عبدالله وقد جعل على ميمته أبا عون وعلى ميسرته الوليد بن معاوية فاشتد القتال بين الجيشين وداخل عسكر مروان الفشل وصار لا يريد أمراً إلا وكان فيه الخلل حتى تمت الهزيمة على عسكر مروان فانهزموا وغرق منهم عدة كثيرة وكتب عبدالله إلى ابن أخيه السفاح بالفتح وأخذ من عسكر مروان سلاحاً كثيراً وكان ذلك يوم السبت في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥٠ م ومروان هارباً بالموصل فسبّه أهلها، فسار عنها حتى أتى حران وأقام بها نيفاً وعشرين يوماً، حتى دنا منه عسكر السفاح فحمل أهله وخيله ومضى منهزماً إلى حمص وتبعه عبدالله بن علي المذكور، فسار مروان من حمص إلى دمشق ثم من دمشق إلى فلسطين. فكتب السفاح إلى عمه عبدالله باتباعه فسار عبدالله في أثره ووصل إلى دمشق وفتحها عنوة يوم الأربعاء لخمس مضيئ من رمضان في السنة المذكورة وأقام عبدالله في دمشق خمسة عشر يوماً ثم سار إلى فلسطين فورد له كتاب السفاح أمره فيه أن يرسل أخاه صالح في طلب مروان فسار صالح في طلبه وهو منهزم أمامه حتى دخل نيل مصر وأدركه صالح في كنيسة في بو صير من أعمال مصر وانهزم أصحابه فطعنه رجل يرمح فقتله واحتز رجل من أهل الكوفة رأسه وأحضره قدام صالح وأرسله صالح إلى السفاح وكتب إليه :

قد فتح الله مصرأ عنوة لكم وأهلك الكافر الجعدي إذ ظلما

ثم رجع صالح المذكور إلى الشام وخلف أبا عون بمصر وهرب ابنا مروان عبدالله وعبيدالله إلى الحبشة وقاتلهم الأحباش فقتل عبيدالله ونجا عبدالله في عدة من معه وبقي إلى خلافة المهدي فأمسكه عامل فلسطين وبعث به إليه . وكانت مدة خلافة مروان خمس سنين وعشرة أشهر ونصفاً وكان يلقب بحمار الجزيرة لصبره في الحرب وشجاعته فيها وبالجعدي لأنه تعلم من الجعد بن أدهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر (ملخص عن تاريخ أبي الفداء صفحة ٢٢٣) .

وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد أمنه السفاح وأكرمه ثم قتله وقتل عمه عبدالله بن علي المذكور نحو تسعين رجلاً من بني أمية كانوا حضروا عنده وقتل بالبصرة منهم جماعة، وتشتت الباقيون واختفوا في البلاد وهرب بعضهم إلى الأندلس، منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فبايعه أهل الأندلس بالخلافة سنة ١٣٩ هـ وهي سنة ٧٥٧ م وأقام والياً ثلاثاً وثلاثين سنة ثم خلفه هشام بن عبد الرحمن وخلف هذا ابنه الحكم واستمرت دولتهم في الأندلس إلى أواسط القرن الحادي عشر وكانت لهم الحروب الشهيرة مع ملوك أوروبا فكانت مدة خلافة بني أمية في دمشق نحواً من تسعين سنة وعدد خلفائهم أربعة عشر خليفة وانقرضت دولتهم سنة ٧٥٠ أو سنة ٧٥١ م وخلفتهم في ولاية سورية دولة بني العباس المار تعريفهم.

عد ٧٢٤

أبو العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين

قد بويج السفاح بالخلافة بالكوفة سنة ١٣٢ هـ وهي سنة ٧٥٠ م. وعن القرماني أنه كان من أسخى الناس ما وعد عدة قط فأخبرها عن وقتها، وكان سريعا إلى سفك الدماء، وقد بنى مدينة الأنبار وجعلها عاصمة ملكه، وولى على الشام عمه عبدالله بن علي، وعلى مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد (ابن خلدون في الجزء الثالث من تاريخه صفحة ١٧٧) وخلع حبيب بن مرة المري طاعته هو ومن معه من أهل البثينة وحواران وكان حبيب المذكور من قواد مروان، وكان سبب ثورته الخوف على نفسه فسار إليه عبدالله والي الشام وقاتله دفعات، ثم خلع أبو الورد بن الكوثر المذكور آنفاً وهو أحد قواد مروان ولما بلغ عبدالله خروج أبي الورد دعا حبيباً إلى الصلح فصالحه وأمنه ومن معه وسار نحو أبي الورد وكان أبو الورد بعد انهزام مروان قد بايع عبدالله بن علي ثم انتقض عليه ودعا أهل قنسرين إلى الخروج معه فأجابوه إلى ذلك، وعند مرور عبدالله بدمشق للقاء أبي الورد، خلف بها أبا غانم عبد الحميد الطائي في أربعة آلاف، وكان بدمشق أهل عبدالله وأمّهات أولاده وثقله، ولما مضى إلى حمص انتقض له أهل دمشق وساروا مع عثمان بن عبدالله بن علي الأزدي فلقوا أبا غانم فهزموه وقتلوا من أصحابه أناساً

كثيرين وانهبوا ما كان عبدالله قد خلفه من ثقله ولم يعرضوا لأهله واجتمعوا على الخلاف، وكان مع أبي الورد جماعة من أهل قنسرين وكاتبوا من يليهم من أهل حمص وتدمر فقدم منهم ألوف، فوجه عبدالله إليهم أخاه عبد الصمد فقاتلهم وكثر القتل في الفريقين فانكشف عبد الصمد ومن معه وقتل منهم ألوف وانهزم عبد الصمد إلى أخيه عبدالله، فأقبل وجماعة القواد فالتقوا ثانية بمرج الأخرم فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أصحاب أبي الورد، وثبت هو في نحو خمسمائة من رجاله فقتلوا جميعاً، فأمن عبدالله أهل قنسرين وبايعوه ودخلوا في طاعته وانصرف راجعاً إلى أهل دمشق، فلما دنا منهم هرب الناس ولم يكن منهم. قتال فلم يأخذهم بما كان منهم وقيل إن حرب عبد الله وأبي الورد كانت سنة ١٣٣ هـ وهي سنة ٧٥١ م (عن الكامل لابن الأثير مجلد ٥ صفحة ٢٠٦).

وقد ثار أهل الجزيرة (ما بين النهرين) أيضاً على السفاح وقدم عليهم إسحق بن مسلم العقيلي من أصحاب مروان فأرسل السفاح أخاه أبا جعفر فقاتلوه قتالاً شديداً، وأخبره أنه هزمهم وسار إسحق إلى سميساط فتبعه أبو جعفر وكتب السفاح إلى عبدالله والي دمشق أن ينجده، فسار عبدالله إلى سميساط وأقبل إليها أبو جعفر فحاصروا بسميساط سبعة أشهر إلى أن طلب الصلح والأمان وكتبوا إلى السفاح بذلك فأمر أن أمنوهم فخرجوا من سميساط آمنين وولى السفاح أخاه أبا جعفر الجزيرة وأرمينية واذريجان فلم يزل عليها حتى استخلف (ابن الأثير في المحل المذكور) وكان للسفاح حروب وأحداث أخرى خارجة عن دائرة غرضنا فلا نحفل بذكرها وأدركت المنية السفاح بمدينة الأنبار التي بناها وكان موته في ذي الحجة آخر سنة ١٣٦ هـ وهي سنة ٧٥٥ م بمرض الجدري وكانت مدة خلافته أربع سنين من لدن قتل مروان، وكان قد بويع بالخلافة قبل قتله بثمانية أشهر.

عد ٧٢٥

أبو جعفر المنصور

هو ثاني خلفاء بني العباس وأخو السفاح المذكور وقد عهد إليه بالخلافة ثم من بعده إلى ابن أخيه عيسى بن موسى، ولما مات السفاح كان أبو جعفر في الحج فأخذ له البيعة على الناس عيسى بن موسى المذكور وأرسل يعلمه بذلك. ولما قدم أبو جعفر من الحج إلى الكوفة سنة ١٣٧ هـ أي سنة ٧٥٥ م صلى الجمعة بأهل

الكوفة وسار منها إلى الأنبار، فأقام فيها وكان عبدالله بن علي والي الشام قد خرج في الجنود إلى أطراف ولايته فبلغه خبر وفاة عمه السفاح وهو هناك، فأمر منادياً نادى بالصلاة جامعة فاجتمع الجنود عليه فقرأ عليهم الكتاب بوفاة السفاح ودعا الناس إلى نفسه، وأعلمهم أنَّ السفاح حين أراد أن يوجه الجنود إلى مروان دعا بني أبيه وقال من أراد منكم المسير إليه فهو ولي عهدي، وعلى هذا خرجت من عنده وقتلت من قتلت وشهد له بعض القواد بذلك فبايعوه. ثم سار عبدالله حتى نزل حران وكان أبو مسلم عاد من الحج مع أبي جعفر المنصور فأمره بالمسير لحرب عبدالله، وخشي عبدالله أن لا يناصره أهل خراسان لأنَّ أبا مسلم خراساني فقتل منهم كثيرين واستعمل أحدهم حميد بن قحطبة على حلب، وكتب معه كتاباً إلى زفر بن عاصم عاملها يأمره بقتل حميد إذا قدم عليه. وقال حميد في طريقه إنَّ ذهابي بكتاب لا أعلم ما فيه لغر فقرأه، ولما رأى ما فيه اعلم خاصته وسار إلى الرصافة وتبعه كثيرون منهم، ثم سار عبدالله والي الشام إلى نصيبين وخندق عليه، وقدم أبو مسلم وكتب إلى عبدالله إنني لم أؤمر بقتالك ولكن أمير المؤمنين ولأني الشام، فقال من مع عبدالله من أهل الشام له كيف نكون معك وهذا يأتي بلادنا ويقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبي ذرارينا فنعود إلى بلادنا ونمنعه ونقاتله. فقال لهم عبدالله والله ما يريد الشام وما توجه إلَّا لقتالكم فأبوا إلَّا المسير إلى الشام فارتحل عبدالله نحو الشام وتبعه أبو مسلم واقتتلوا خمسة أشهر وأهل الشام أكثر فرساناً وأكمل عدة وكان الفوز في أكثر وقعاتها لعبدالله، ورأى أبو مسلم بعض أهل خراسان يتراجعون فارتجز وقال :

من كان ينوى أهله فلا رجع فر من الموت وفي الموت وقع

وظهر أبو مسلم في آخر الحرب على عبدالله والي الشام فانهزم مع أخيه عبد الصمد فأتى عبدالله أخاه سليمان بالبصرة وأقام عنده متوارياً ومضى عبد الصمد إلى الرصافة فاستأمن له عيسى بن موسى فامنه المنصور وقيل بل أقام بالرصافة فأرسل إليه المنصور عمه من أوثقه وأحضره إليه فأطلقه (ملخص عن الكامل لابن الأثير جزء ٥ صفحة ٢٢١).

وكان المنصور يخشى أبا مسلم ويأخذ عليه أموراً فيعد أن هزم أبو مسلم عبدالله والي الشام كتب إليه المنصور بالولاية على مصر والشام وصرفه عن خراسان

فلم يجب أبو مسلم إلى ذلك، وتوجه إلى خراسان وسار المنصور من الأنبار إلى المدائن وكتب إلى أبي مسلم يطلبه إليه، فاعتذر عن الحضور وطالت بينهما المراسلات وآخر الأمر أن حضر أبو مسلم في ثلاثة آلاف رجل ودخل على المنصور وقبّل يده وانصرف. ولما كان الغد ترك المنصور بعض حرسه خلف الرواق وأمرهم إذا صفق بيديه يخرجون ويقتلون أبا مسلم. وأخذ المنصور يعدد لأبي مسلم ذنوبه وهو يعتذر عنها ثم صفق المنصور فخرج الحرس وقتلوا أبا مسلم وكان ذلك سنة ١٣٧هـ وهي سنة ٧٥٥ م. وكان أبو مسلم من أكبر دعاة بني العباس وكان قد قتل كثيرين في مدة ولايته وفي أيام المنصور خرج قسطنطين الملك (وهو الملقب بالزبلي) فأخذ ملطية عنوة وهدم سورها وعفا عن أهلها فأرسل المنصور فعمر المدينة في مدة ستة أشهر. وفي سنة ١٣٨هـ وهي سنة ٧٥٦ م وسّع المنصور في المسجد الحرام (عن أبي الفداء مجلد ١ من تاريخه صفحة ٢٢٦).

وفي سنة ١٤١هـ وهي سنة ٧٥٩ م خرج الرواندية على المنصور وهم قوم من خراسان على مذهب أبي مسلم الخراساني يقولون بالتناسخ فيزعمون أن روح آدم في عثمان بن نهيك، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو الخليفة أبو جعفر المنصور وأتوا إلى قصر المنصور وقالوا هذا قصر ربنا فحبس المنصور رؤساءهم فغضب أصحابهم وأخذوا نعتاً وحملوه ومشوا به كجنازة حتى بلغوا باب السجن فرموا بالنعش وكسروا باب الحبس وأخرجوا رؤساءهم، ثم قصدوا المنصور وهم نحو ستمائة رجل فتنادى الناس وأغلقت أبواب المدينة وخرج المنصور ماشياً واجتمع إليه الناس وكان معن بن زائدة متخفياً من المنصور فظهر وقاتل الرواندية ففعا المنصور عنه وقتل في ذلك اليوم الرواندية عن آخرهم.

وفي سنة ١٤٥هـ وهي سنة ٧٦٣ م ظهر محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان المنصور قد حبس من بني الحسن أحد عشر رجلاً ورحلهم من المدينة إلى الكوفة فضيق عليهم فيها حتى ماتوا، فاستولى محمد على المدينة وتبعه أهله فأرسل المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى إليه فجرى بين الفريقين قتال آخره ان محمد قتل هو وجماعة من أهل بيته وأصحابه وانهزم من بقي منهم ومحمد هذا كان يلقب المهدي والنفس الزكية وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة فلم ينجح هذا أيضاً. وفي هذه السنة ابتدأ المنصور في بناء بغداد لأنه كره سكنى الهاشمية التي ابتناها أخوه بنوحي الكوفة لما ثارت عليه الرواندية فيها كما

مرء، وكرهها أيضاً لجوار أهل الكوفة وكان لا يأمنهم على نفسه فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه فاختار موضع بغداد لأنها بين أنهار وهي متوسطة بين البصرة والكوفة وواسط الموصل . وفي سنة ١٤٧هـ وهي سنة ٧٦٥ م خلع المنصور ابن أخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد وبايع لابنه المهدي بها (عن أبي الفداء في المجلد ٢ من تاريخه صفحة ٣ إلى ٥ وعن ابن العبري في تاريخ الدول صفحة ٢١٠) ولم نثر على اسم من ولاه على الشام أي سورية بعد خلع عبدالله بن علي عن ولايتها بل وجدنا ابن خلدون يقول في ذكر العمال على النواحي أيام السفاح والمنصور أن المنصور ولي على مصر صالح بن علي وعلى الشام . . . وعلى الهامش في طبعة مصر يياض في الأصل قال القرمانى في ذكر خلافة المنصور « هو أول خليفة كتبت له الكتب السريانية والأعجمية بالعربية ككتاب كليله ودمنة واقليدس قال الذهبي في سنة ١٤١هـ شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير فصنف ابن جريح بمكة، ومالك الموطأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عمريه وحماذ بن سلمة وغيرهما بالبصرة . . . وصنف أبو حنيفة الفقه . . . وفي سنة ١٤٨هـ توطأت الممالك كلها للمنصور وعظمت هيئته في النفوس ودانت له الأقطار ولم يبق خارجاً عنه سوى جزيرة الأندلس فقط، فانها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي وكانت وفاة أبي جعفر المنصور سنة ١٥٨هـ وهي سنة ٧٧٥م بعد أن تولى الخلافة أكثر من عشرين سنة .

عد ٧٢٦

خلافة المهدي

هو ابن أبي جعفر المنصور واسمه محمّد وهو الثالث من خلفاء بني العباس كان أبوه عهد إليه بالخلافة بعد أن خلع من ولاية العهد عيسى بن موسى - كما مر - ومات أبوه في الحج فبايعه الناس في منتصف ذي الحجة سنة ١٨٥هـ وهي سنة ٧٧٥ م وحجّ في السنة التالية وفرق في الناس أموالاً عظيمة. وفي سنة ١٦١هـ وهي سنة ٧٧٨ م تجهز المهدي لغزو الروم وجمع العساكر واستخلف على بغداد ابنه موسى الهادي واستصحب معه ابنه هرون الرشيد ولما وصل إلى حلب بلغه أن تلك الناحية زنادقة فجمعهم وقتلهم، وجهاز ابنه هرون إلى الغزو فتغلغل هرون

في بلاد الروم وفتح فتوحات كثيرة ، ثم عاد سالماً منصوراً وفي السنة المذكورة قتل المقنع الخراساني وكان رجلاً ساحراً ادعى الربوبية وأطاعه جماعة كثيرة وقال إن الله حل في آدم ثم في نوح ثم في نبي بعد آخر حتى حل فيه ، فاجتمع عليه الناس وحصلوه في قلعة كان قد بناها فسقى نساءه سمّاً فمتن به ، ثم تناول منه فمات وقتل ما كان في قلعته . وكان لا يسفر عن وجهه بل أتخذ له وجهاً من ذهب تقنّع به ولذلك سمي المقنّع . وفي سنة ١٦٥هـ وهي سنة ٧٨٢ م أرسل المهدي ابنه هرون الرشيد إلى غزو الروم في جيش كثير فسار حتى بلغ خليج قسطنطينية فغنم شيئاً كثيراً وقتل في الروم وعاد (عن أبي الفداء في المجلد الثاني من تاريخه صفحة ١٠) وعن ابن العبري (في تاريخ الدول صفحة ٢١٨) ان ايرينا امرأة الملك لاون الرابع كانت مدبرة الملك حيثئذ بصفة وصية على ابنها قسطنطين السادس فطلبت الصلح من الرشيد وافدت به مملكتها بسبعين ألف دينار كل سنة . وقد استوزر المهدي رجلاً اسمه يعقوب بن داود بن طهمان وسارت الأمور إليه وتمكن عنده ، فحسده أصحاب المهدي وسعوا فيه فأمسكه وحبسه وبقي محبوساً إلى خلافة الرشيد . وفيه يقول بشار بن برد :

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

وأقام المهدي سنة ١٦٦هـ وهي سنة ٧٨٣ م بريداً بين مكة واليمن بغالاً وإبلأً (عن أبي الفداء مجلد ٢ صفحة ١٠) . وكان المهدي خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد وباع بها ابنه محمداً الهادي . وتوفي عيسى المذكور قبل المهدي سنة ١٦٧هـ وهي سنة ٧٨٣ م وكان قد عهد بولاية العهد لابنه هارون الرشيد بعد أخيه الهادي وفي سنة ١٦٩هـ وهي سنة ٧٨٥ م توفي المهدي واختلف في سبب موته فقيل مات مسموماً من بعض جواريه وقيل حسدت إحدى جواريه الأخرى وأرسلت إليها كمثرى سُمّت منه كمثرأة فاجتاز الخادم بالمهدي وكان يحب الكمثرى فأخذ الكمثرأة المسمومة فأكلها فمات بها . وسمعت الرسالة وكان اسمها حسنة بموته فجاءت تبكي وتلطم وجهها وتقول أردت أن أنفرد بك فقتلتك . وقيل حاز صيداً فدخل وراءه إلى خربة فدق الباب ظهره فكان ذلك سبب موته (ابن خلدون جزء ٣ صفحة ٢١٤ وابن العبري في تاريخ الدول صفحة ٢١٩) .

هو الرابع من الخلفاء العباسيين ويسمى موسى الهادي عهد إليه أبوه بالخلافة بعده ومن بعده لأخيه الرشيد ثم بدا له أن يقدم الرشيد عليه فلم يقدر أن ينجز ذلك قبل وفاته فبيع الهادي بالخلافة في عسكر المهدي يوم وفاته لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩هـ وهي سنة ٧٨٥م، وكان الرشيد مع أبيه بماسبذان حيث توفي فكتب إلى الآفاق ب وفاة المهدي وأخذ البيعة للهادي، واشتد الهادي في طلب الزنادقة وقتل كثيرين منهم وفي السنة الأولى لخلافته خرج الحسين بن علي من ذرية علي بن أبي طالب في المدينة واشتد أمره وجرى بينه وبين عامل الهادي على المدينة وهو عمر بن عبد العزيز من ذرية عمر بن الخطاب قتال فانهزم عمر المذكور وباع الناس الحسين، وأقام هو وأصحابه بالمدينة احد عشر يوماً ثم خرجوا. ووصل الحسين إلى مكة ولحق به جماعة من عبيد مكة، وكان قد حج تلك السنة جماعة من بني العباس فاقتتلوا مع الحسين فانهزم أصحاب الحسين وقتل هو واحتز رأسه وجمع معه من رؤوس أصحابه ما يزيد على مائة رأس. وكان الحسين شجاعاً كريماً قدم على المهدي فأعطاه أربعين ألف دينار ففرقها ببغداد والكوفة وخرج من الكوفة لا يملك ما يلبسه إلا فروة لم يكن تحتها قميص (عن أبي الفداء صفحة ١٢) وقل ما كان في خلافة الهادي من الأحداث. قد توفي الهادي في سنة ١٧٠هـ وهي سنة ٧٨٧م. فلم يبق في الخلافة إلا سنة وثلاثة أشهر واختلف في سبب موته فقيل إنه أصابته قرحة في جوفه (عن القرمانى وابن الأثير). والمشهور من أقوالهم أن أمه المسماة الخيزران عملت على قتله. فإنها كانت تستبد بالأمر دونه، وكلمته يوماً في حاجة ولم يجد إلى إجابتها سبيلاً، فقالت لا بد من الاجابة. فغضب الهادي وقال والله لا قضيتها لك. قالت والله لا أسألك حاجة أبداً. قال لا أبالي. فقامت مغضبة فقال مكانك والله لئن بلغني أنه وقف في بابك أحد من قوايدي لاضررب عنقه. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك أما لك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك؟ فانصرفت وهي لا تعقل ومرض فوضعت جواربها عليه فغمين عليه وجلسن على وجهه فمات وعمره ست وعشرون سنة (عن ابن الأثير وابن خلدون وابن العبري).

خلافة هرون الرشيد

ببيع بالخلافة ليلة مات فيها أخوه الهادي سنة ٧٨٧م وكان عمره حينئذ اثنتين وعشرين سنة وهو الخامس من الخلفاء العباسيين . ومن بواكير خلافته عمارته مدينة طرسوس وهي ترسييس، والمراد تجديد بنائها أو توسيعها وتحصينها ؛ فهذه المدينة أقدم كثيراً من هرون الرشيد. وفي سنة ١٦٧هـ وهي سنة ٧٩٣ م خرج يحيى بن عبدالله بن الحسن من ذرية علي بن أبي طالب بالدليم ، واشتدّت شوكته فجهز إليه الرشيد الفضل بن يحيى البرمكي في جيش كثيف فكاتبه الفضل وبذل له الأمان وما يختاره فأجابه يحيى إلى ذلك وطلب يمين الرشيد بخطه وشهادة الأكابر ففعل الرشيد وحضر يحيى إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأعطاه مالاً كثيراً ثم أمسكه وحبسه حتى مات في الحبس (عن أبي الفداء صفحة ١٤) . وفي هذه السنة كانت فتنة بدمشق بين المضرية واليمانية وكان على دمشق حينئذ عبد الصمد بن علي فجمع الرؤساء وسعوا في الصلح بينهم فأتوا المضرية وكلموهم في الصلح فأجابوهم إليه ، وأتوا اليمانية وكلموهم فقالوا انصرفوا عنا حتى ننظر ، ثم ساروا إلى المضرية وقتلوا منهم نحو ست مئة رجل فاستنجد المضرية بني قضاة وسليحا فلم ينجدوهم ، واستنجدوا بني قيس فنجدوهم وساروا معهم إلى العواليك من أرض البلقاء فقتلوا من اليمانية ثمانمائة وكثر القتال بينهم ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق وولى عليها ابراهيم بن صالح بن علي ودام القتال بين المذكورين نحو سنتين، إلى أن سار جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي إلى الشام سنة ١٨٠هـ أي سنة ٧٩٦ م فسكن هذه الفتنة (عن أبي الفداء وابن الأثير) .

وفي سنة ١٨٧هـ وهي سنة ٨٠٣م أوقع الرشيد بالبرامكة فانه كان قد استوزر جعفر بن يحيى البرمكي وأحبه وعظّم منزلته ثم تغيّر عليه، وذكروا لهذا التغير أسباباً منها أنّه كان للرشيد أخت اسمها عباسة لا يصبر عنها وكان لا يصبر عن جعفر أيضاً فقال لجعفر أزوجك إياها ليحل لك النظر إليها ولا تقرّبها فإني لا أطيق الصبر عنها، فأجابه جعفر إلى ذلك فزوجها منه وكانا يحضران معه ثم يقوم عنهما وهما شابان فحملت من جعفر فولدت غلاماً، وخافت الرشيد فسيّرتة مع حواضن إلى مكة، وكان بين عباسة وبعض جواربها نفرة فانهين إلى الرشيد وبحث عن الأمر

فعلمه فجزم على قتل جعفر. وقيل أيضاً إنَّ الرشيد دفع يحيى ابن عبدالله بن علي بن أبي طالب إلى جعفر ليحبسه فأطلقه جعفر بعد مدة ولما سأل الرشيد عن ذلك قال علمت أنَّه لا مكروه عنده، فقال له الرشيد قتلني الله إن لم أقتلك ثم قتله. وقيل إنَّ جعفر ابنتى داراً أغرم عليها عشرين ألف ألف درهم فرفع ذلك إلى الرشيد وقيل هذه غرامته على دار فما ظنك بنفقاته وصلاته وغيرها. وكان جعفر وأهله البرامكة استكبروا وعظم أمرهم واشتهر كرمهم وأحبهم الناس فكل هذه الأسباب أو بعضها بعث الرشيد على قتل جعفر فأرسل فقتله في الأنبار وأرسل رأسه وجيفته إلى بغداد وأمر بنصب رأسه وقطعة من جثته على جسر ونصب الباقي منها على جسر آخر، وأرسل من أحاط بيحيى أبيه وولده وجميع اسبابه، وأخذ ما وجد للبرامكة من مال ومتاع وضياع وأرسل إلى سائر البلاد بقبض أموالهم ووكلائهم وسائر أسبابهم وفي ذلك يقول الرقاشي، وقيل أبو نواس :

الآن استرحنا واستراحت ركابنا وامسك من يجدي ومن كان يجتدي
فقل للمطايا قد امنّت من السرى وطى الفيافي فدفعاً بعد فددي
وقل للمنايا قد ظفرت بجعفر ولن تظفري من بعده بمسود
وقل للعطايا بعد فضل تعطلي وقل للرزايا كل يوم تجددي
ودونك سيفاً برمكياً مهنداً أصيب بسيف هاشمي مهنداً

وحبس الرشيد يحيى أبا جعفر والفضل أخاه حتى ماتا (ملخص عن الكامل لابن الأثير) وقيل : إنَّ الرشيد بعد قتله البرامكة أمر باخته عباسة فجعلت في صندوق ودليت إلى بئر وهي حية وأمر بابنها أو بابنيها (إذ يقال إنها ولدت توأمين) فأحضرا ونظر إليهما ملياً وبكى ثم أمر بهما فرميا في البئر وطمرهما. وقيل إنَّ البرامكة اسرة فارسية مشهورة كان لهم قبل الاسلام بمائتي سنة رتبة الامامة والكهنوت في بلخ، وكان المنصور قد ولي خالد بن برمك جد جعفر على الموصل واذريجان وولى ابنه يحيى أبا جعفر على أرمينية ووكله المهدي بكفالة الرشيد، ولما ولي الرشيد استوزره ثم استوزر ابنه جعفر المذكور (عن ابن خلدون صفحة ٢٢٣ من الجزء الثالث) .

قد مرَّ أن هرون الرشيد كان قد غزا الروم في ولاية أبيه المهدي وان إيرينا الملكة صاحته وافدت المملكة الرومانية بسبعين ألف دينار تدفعها كل سنة، ولما استوى نيقفور على منصة قسطنطينية سنة ٨٠٢م نفى إيرينا إلى جزيرة لسبوس وكتب إلى الرشيد: «من نيقفور ملك الروم إلى هرون ملك العرب اما بعد فان الملكة إيرينا حملت إليك من أموالها ما كنت حقيقياً بأن تحمل أضعافه إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما أخذت وإلا فالسيف بيننا وبينك». فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب وكتب في ظهر الكتاب: «من هرون أمير المؤمنين إلى نيقفور زعيم (ويروى كلب) الروم. قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ما تسمعه». وسار من يومه حتى نزل على مقربة من قسطنطينية بعد أن دمر وأحرق المدن التي مرَّ بها فارتاع نيقفور وطلب الصلح والأمان متعهداً بأن يدفع جزية كل سنة، فكان أوهن من إيرينا فقفل الرشيد راجعاً ولم يصل إلى بغداد إلا وأخلف نيقفور وعده وأبى دفع الجزية التي تعهد بدفعها، فعاد الرشيد إليه ولم يبال بالثلج والبرد القارص حين عودته فانهب ودمر مواضع كثيرة في آسيا الصغرى وانتهى إلى البوسفور فأخذ الرعب في قلب نيقفور كل مأخذ فتذلل للرشيد كل التذلل ودفع الجزية ووثق باليمين وعده بأن لا يخل في ما يعد بتأديتها فعاد الرشيد ظافراً متفاخراً، على أن بخل نيقفور بعثه على الشجاعة فألب جيشه وسار فيه قاصداً هرون الرشيد وانتهى إلى فريجية فالتقاه الخليفة وكان بين الفريقين هناك قتال شديد فجرح نيقفور وتشتت جيشه وقد قتل منه نحو من أربعين ألف رجل، وأغزى الرشيد جيشه في جهات كثيرة فانهبوا آسيا الصغرى وأحرقوا مدناً كثيرة وسبوا كثيرين، وافترض الرشيد على ملك الروم غرامة ثلاثين ألف دينار كل سنة وقيل إنه اشترط أن يكون على دنانير الغرامة اسمه وأسماء أبنائه الثلاثة واستعمل الرشيد في مدة هذه الحرب حميد بن يعقوب (ويروى معيوف) على سواحل الشام ومصر إلى قبرص فهدم وأحرق وسبى من أهلها سبعة عشر ألفاً فبيعوا وبلغ فداء أسقف قبرص ألفي دينار (روى ذلك كثيرون من المؤرخين المسلمين بل كثيرون أيضاً من المؤرخين النصارى منهم دي لاروك في موجز تاريخ الملك السافل وروهر بخر في تاريخه).

ورغب الرشيد في مولاة كيرلس الكبير (شرلمان) فأرسل إليه وفوداً وهدايا نفيسة فيها ساعات كانت في أعين أهل المغرب وقتئذ من المدهشات وفيلاً كبيراً

وكان يجمعهما عداوتهما لايرينا ولنيقوفور ملك الروم. وقيل إن الرشيد أرسل إليه مفاتيح كنيسة القبر المقدس، وكان هرون الرشيد محباً للعلم والعلماء وعني بترجمة كثير من كتب العلماء من السريانية واليونانية إلى العربية ومات الرشيد ثلاث خلون من صفر سنة ١٩٣هـ وهي سنة ٨٠٩م وكان قد مضى إلى خراسان ولما بلغ إلى جرجان اشتد مرضه وسار إلى مدينة اسمها طوس فمات بها وكانت مدة خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهرين وبعض أيام وعهد بالخلافة بعده إلى أبنائه إلى الأمين أولاً ومن بعده إلى المأمون وإلى القاسم ولقبه المؤتمن بعد المأمون، وجعل أمر استقرار القاسم وعزله إلى المأمون إن شاء استمر به وإن شاء عزله عنه (عن أبي الفداء في تاريخه صفحة ٢٠).

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثامن

عد ٧٢٩

بعض المشاهير الدينيين بسورية في هذا القرن

مكحول الشامي

لم يكن مكحول شامياً أي سورياً أصلاً بل الراجح أنه من كابل بافغان سبي فوقع إلى سعيد بن العاص فوهبه إلى امرأة من بني هذيل فأعتقته . وكان يقيم بدمشق وكان معلم الإمام الأوزاعي. قال الزهري العلماء أربعة سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة ، والحسن البصري بالبصرة ، ومكحول بالشام ولم يكن في زمنه أبصر منه بالفتيا وكان لا يفتي حتى يقول لا حول ولا قوة إلا بالله هذا رأيي والرأي يخطي ويصيب وكان في لسانه عجمة ظاهرة يبدل بعض الحروف بغيره قال نوح بن قيس سأله بعض الأمراء عن القدر فقال أساهر أنا؟ يريد أساهر أنا وكان يقول بالقدر ورجع. عنه وقال معقل بن عبد الأعلى القرشي سمعته يقول

لرجل ما فعلت تلك الهاجة يريد الحاجة. وتوفي مكحول سنة ١١٨ هـ وهي سنة ٧٣٧م، وقيل قبل ذلك (ملخص عن ابن خلكان عن وفيات الأعيان عد ٧٤٩).

الإمام الأوزاعي

ذكر ترجمته ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان فقال ما ملخصه هو أبو عمرو عبد الرحمن بن محمد الأوزاعي إمام أهل الشام ولم يكن بالشام اعلم منه وكان يسكن بيروت وكانت ولادته في بعلبك سنة ٨٨ هـ وقيل سنة ٩٣ أي سنة ٧٠٧ أو سنة ٧١٢ م ومنشأه بالبقيع ثم نقلته أمه إلى بيروت وتوفي سنة ١٥٧ هـ وهي سنة ٧٧٤ م يوم الأحد لليلتين بقيتا من صفر وقيل في شهر ربيع الأول بمدينة بيروت وراثه بعضهم بقوله :

جاء الحيا بالشام كل عيشة قبراً تضمن لحده الأوزاعي
قبر تضمن فيه طود شريعة سقياً له من عالم نفاع
عرضت له الدنيا فأعرض مقلعاً عنها بزهدٍ أيا إقلاع

وقبره في قرية على باب بيروت يقال لها حنتوش وأهلها مسلمون وهو مدفون في قبلة المسجد وأهل القرية لا يعرفونه بل يقولون ها هنا رجل صالح ولا يعرفه إلا الخواص من الناس والأوزاعي نسبة إلى الأوزاع وهي بطن من ذي الكلاع من اليمن وقيل هي بطن من همذان واسمه مرشد بن زيد. وقيل الأوزاع قرية بدمشق على طريق باب الفراديس ولم يكن أبو عمرو من أهلها، وإنما نزل فيهم فنسب إليهم وهو في سبي اليمن، وبيروت هي بلدة بساحل الشام « انتهى ملخصاً عن ابن خلكان » ونرى إلى اليوم بئراً في تلك الناحية يسمى بئر حنتوش.

ديك الجن الشاعر

ذكر ترجمته ابن خلكان (في ٣٩٤ في ترجماته) فلخصه عنه قال: « هو أبو محمد عبد السلام بن رغبان إلى تميم الكلبي الملقب بديك الجن الشاعر المشهور أصله من سلمية ومولده بمدينة حمص وهو من شعراء الدولة العباسية، ولم يفارق الشام ولا رحل إلى العراق ولا إلى غيره منتجعاً ولا متصدياً لأحد، وله مرثي في

الحسين وكان ماجناً خليعاً عاكفاً على القصف واللهو ومتلافاً لما ورثه وشعره في غاية الجودة، وكان مولده سنة ١٦١هـ سنة ٧٧٨م وتوفي سنة ٢٣٦هـ وهي سنة ٨٥١م. وقد اجتاز أبو نواس بحمص قاصداً مصر وسمع ديك الجن بوصوله فاستخفى منه خوفاً أن يظهر لأبي نواس أنه قاصر بالنسبة إليه، فقصده أبو نواس في داره وهو فيها فطرق الباب واستأذن عليه فقالت الجارية ليس هو هنا فعرف مقصده فقال لها قولي له اخرج فقد فتنت أهل العراق بقولك :

موردة من كف ظبي كأنما تناولها من خده فأدارها
فلما سمع ديك الجن خرج إليه واجتمع به وهذا البيت من جملة أبيات منها :
وقم أنت فاحث كأسها غير صاغر ولا تسق إلا خمراً وعقارها
فقام تكاد الكأس تحرق كفه من الشمس أو من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها فتأخذ من أقدامنا الراح ثارها

موردة الخ

وكانت له جارية اسمها دينا اتهمها بغيره فقتلها ثم ندم على ذلك فأكثر من التغزل فيها وقال في ولد كان له منها فمات :

بأبي نبذتك بالعراء المقفر وسترت وجهك بالتراب الأعفر
بأبي بذلتك بعد صون للبلى ورجعت عنك صبرت أو لم تصبر
لو كنت أقدر أن أرى أثر البلى لتركت وجهك ضاحكاً لم يقبر

عد ٧٣٠

من عاصر هؤلاء المشاهير خارجاً عن سورية وأولاً

الفقهاء السبعة

كان في صدر الاسلام بالمدينة سبعة فقهاء في عصر واحد منهم انتشر العلم والفتيا، وقد أشرنا إليهم قبلاً وإلى جمع بعض الشعراء اسمائهم في بيت وهو :
فخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد سليمان أبو بكر خارجة

وأولهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث إلى مخزوم القرشي المخزومي وكان يسمى راهب قريش، ومولده في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة ٩٤هـ وهي سنة ١١٣م. وهذه السنة تسمى سنة الفقهاء وإنما سُميت بذلك لأنه مات فيها جماعة منهم وإنما خصوا بهذه التسمية لأن الفتيا بعد الصحابة صارت إليهم وشهروا بها وكان في عصرهم جماعة من العلماء التابعين ولكن الفتوى لم تكن إلا لهؤلاء السبعة. والثاني هو خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري وكان تابعياً جليل القدر أدرك زمان عثمان بن عفان وتوفي خارجة سنة ٩٩ وقيل سنة ١٠٠هـ وهي سنة ٧١٨ أو سنة ٧١٩م. والثالث هو سالم وكنيته أبو عمر ويقال أبو عبدالله بن عمر بن الخطاب وكان من سادات التابعين وعلمائهم وثقاتهم روى عن أبيه وغيره وتوفي سنة ١٠٦ وقيل ١٠٨هـ وهي سنة ٧٢٥ أو سنة ٧٢٧م. ومما قيل فيه دخل سليمان بن عبد الملك الكعبة فرأى سالماً فقال له سلني حوايجك فقال والله لا سألت في بيت الله غير الله تعالى. والرابع سليمان وكنيته أبو أيوب ويقال أبو عبد الرحمن ويقال أبو عبدالله وهو ابن يسار وكان عالماً ثقة عابداً ورعاً وكان المستغني إذا أتى سعيد بن المسيب يقول له اذهب إلى سليمان بن يسار فإنه أعلم من بقي اليوم وقال قتادة قدمت المدينة فسألت من أعلم أهلها بالطلاق فقالوا سليمان بن يسار وتوفي سنة ١٠٧ وقيل سنة ١٠٠ وقيل سنة ٩٤هـ وهي سنة ٧٢٦ أو سنة ٧١٩ أو سنة ٧١٣ م. والخامس عبيدالله وكنيته أبو عبدالله وهو ابن عتبة بن مسعود إلى مخزوم بن صبح وهو من اعلام التابعين لقي خلقاً كثيراً من الصحابة وقال فيه الزهري سمعت من العلم شيئاً كثيراً فظننت أنني قد اكتفيت حتى لقيت عبيدالله فإذا كاني ليس في يدي شيء وكانت وفاته سنة ١٠٢ وقيل سنة ٩٩هـ وهي سنة ٧٢١ أو سنة ٧١٩م. والسادس عروة الزبير بن العوام إلى كلاب القرشي الاسدي وأبوه الزبير بن العوام أحد الصحابة العشرة وكان عالماً صالحاً أصابته آكلة في رجله وهو بالشام عند الوليد بن عبد الملك فقطعت رجله وعاش بعد قطعها ثمانين سنين. وهو الذي احتفر بئر عروة بين مكة والمدينة وتوفي سنة ٩٣ وقيل سنة ٩٤ للهجرة وهي سنة ٧١٢ أو سنة ٧١٣ للميلاد. والسابع قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وكان من سادات التابعين وروى عن جماعة من الصحابة وروى عنه جماعة من كبار التابعين. وقال يحيى بن سعيد ما أدركنا

أحدًا نفضله على القاسم بن محمد وتوفي سنة ١٠١ هـ أو سنة ١٠٢ هـ وهي سنة ٧٢٠ أو سنة ٧٢١ م (قد لخصنا ترجمة هؤلاء الفقهاء السبعة عن كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان في كلامه على كل منهم).

عد ٧٣١

أئمة الفقه أصحاب المذاهب الأربعة

كان في القرن الثاني للهجرة جماعة من الفقهاء بلغوا من علم الفقه درجة الاجتهاد فسموا أئمة مجتهدين وكانت لهم مذاهب مختلفة في بعض مسائل هذا العلم مصدرها الاختلاف في تفسير كلام السلف. وأشهرها المذاهب الأربعة للأئمة الأربعة الآتي ذكرهم: الأول الإمام أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن زوطا الفقيه الكوفي كان خزازاً يبيع الخبز وجده زوطا من أهل كابل وقيل من أهل بابل وقيل غير ذلك وأدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة وكان عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ونقله أبو جعفر المنصور من الكوفة إلى بغداد وأراد أن يوليه القضاء فأبى وأصرَّ الخليفة على توليته وأمر به إلى السجن. وأراد المهدي أيضاً أن يوليه القضاء في الرصافة فأبى فقال له إن لم تفعل ضربتك بالسياط فقال أو تفعل؟ فقال الخليفة نعم. فقعده في القضاء يومين ثم مرض ستة أيام فمات سنة ١٥١ هـ على الأصح وهي سنة ٧٦٩ أو سنة ٧٦٨ م. ورووا كثيراً من أخبار زهده وورعه وعزوا إليه كثيراً من الحكم. وقال اسمعيل بن حماد بن أبي حنيفة مررت مع أبي بالكناسة (موضع بالكوفة) فقلت يا أبت ما ييكيك فقال يا ابني هذا الموضع ضرب ابن أبي هريرة أبي فيه عشرة أيام كل يوم عشرة أسواط على أن يلي القضاء فلم يفعل.

والثاني الإمام المالك وكنيته أبو عبدالله وهو ابن انس بن مالك بن أبي عامر وأخذ العلم عن ربيعة الرأي ثم افتى معه وكان لا يركب في المدينة مع ضعفه وكبر سنة وكانت ولادته سنة ٩٥ هـ وهي سنة ٧١٤ م وتوفي سنة ١٧٩ هـ وهي سنة ٧٩٦ م وكانت وفاته بالمدينة ودفن بالقيع وقد رثاه أبو محمد جعفر بن احمد بن الحسين بقوله:

سقى جدثاً ضم البقيع بمالك من المزن مر عاد السحائب مبراق

إمام موطّاه^(١) الذي طبقت به أقام به شرع النبي محمّد له سند عالٍ صحيح وهيبة وأصحاب صدق كلّهم علم فسل ولو لم يكن إلّا ابن ادريس وحده

أقاليم في الدنيا فساح وأفاق له حذرّ من أن يضام واشفاق فللكل منه حين يرويه اطراق بهم أيهم أنت سايلت حذاق^(٢) كفاه إلّا أنّ السعادة أرزاق

والثالث الإمام الشافعي وهو أبو عبدالله محمّد بن أدريس بن العباس إلى هاشم ابن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي الشافعي قال ابن خلكان: «يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبد مناف المذكور». ولد بغزة وقيل بعسقلان سنة ١٥٠هـ وهي سنة ٧٦٧م وحمل من غزة إلى مكة وهو ابن سنتين ونشأ بها وقدم بغداد سنة ١٩٥هـ سنة ٨١١م فأقام بها سنتين ثم خرج إلى مكة ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩٨هـ وأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها سنة ١٩٩ وقيل سنة ٢٠١ أي سنة ٨١٥ أو سنة ٨١٧ ولم يزل بها إلى أن توفي سنة ٢٠٤هـ وهي سنة ٨٢٠م، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار بها بالقرب من المقطم قال ابن خلكان: «قد اتّفق العلماء قاطبة من أهل الفقه والحديث والأصول واللغة والنحو وغير ذلك إلى ثقته وأمانته وعدالته وزهده وورعه ونزاهة عرضه وعفة نفسه وحسن سيرته وعلو قدره وسخائه وله أشعار كثيرة منها»:

إنّ الذي رزق اليسار ولم يصب الحمد يدني كل أمرٍ شاسع وإذا سمعت بأنّ مجدوداً حوى وإذا سمعت بأنّ محروماً أتى لو كان بالخيال الغنى لوجدتني لكن من رزق الحجي حرم الغنى ومن الدليل على القضاء وكونه

حمداً ولا أجراً لغير موفق والجد يفتح كل باب مغلق عوداً فائمر في يديه فصدّق ماءً ليشربه فغاض فحقيق بنجوم أقطار السماء تعلقي ضدان مفترقان أي تفرق يؤس اللبيب وطيب عيش الأحق

(١) كتابه الذي سماه الموطّأ.

(٢) ويروى المصراع الثاني هكذا بهم من تسل عنهم يجاوبك حذاق

وفي رواية بيتان آخران وهما :

وأحق خلق الله بالهم امرء ذو همّة يبلى بعيش ضيق
ولربما عرضت لنفسي فكرة فأود منها أنني لم أخلق

والرابع: أحمد بن حنبل وهو ابن محمّد بن حنبل بن هلال إلى شيان بن
ذهل بن ثعلبة خرجت أمّه من مرو وهي حامل به فولدته في بغداد سنة ١٦٤هـ
وهي سنة ٧٨١م، وقيل إنّه ولد بمرو وحمل إلى بغداد وهو رضيع وكان إمام
المحدثين صنف كتابه المسند وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره وكان من
أصحاب الإمام الشافعي ولم يزل مصاحباً له إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر، وقال
في حقه خرجت من بغداد وما خلفت بها اتقى ولا أقفه من ابن حنبل. وأخذ عنه
الحديث جماعة من الأماثل منهم محمّد بن اسمعيل البخاري ومسلم بن الحجاج
النيسابوري ولم يكن في آخر عصره مثله في العلم والورع وتوفي سنة ٢٤١هـ وهي
سنة ٨٥٦م ببغداد وقبره مشهور بها يزار (ملخص عن وفيات الأعيان لابن
خلكان).

عد ٧٣٢

أئمة النحو في هذا القرن

أولهم الخليل هو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي
(نسبة إلى فراهيد وهي بطن من الأزد) الأزدي كان إماماً في علم النحو وهو
الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود وحصر أقسامه في خمس دوائر
يستخرج منها خمسة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً واحداً وسماه الخبب.
وكان له معرفة بالإيقاع والنغم فتلك المعرفة أحدثت له علم العروض فاخترعه من
ممر له بالصفارين (النحاسين) من وقع مطرقة على طست. وقد أمّد سيبويه في علم
النحو بما صنف به كتابه المشهور. وكان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً
وقيل فيه إنّه أقام بخص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه
يكسبون بعلمه الأموال، وكان له راتب على سليمان بن حبيب المهلبّي الأزدي
وكان والي فارس والأهواز فاستدعاه إليه فأجابه الخليل

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنى غير اني لست ذا مال
شحا بنفسي اني لا أرى أحداً يموت هزلاً ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال نعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب فقال الخليل :

إن الذي شقّ فمي ضامن لي الرزق حتى يتوفاني
أحرمتني مالا قليلاً فما زادك في مالك حرمانني

فكتب سليمان إلى الخليل يعتذر إليه وأضعف راتبه فقال الخليل :

بازالة يكثر الشيطان ان ذكرت منها التعجب جاءت من سليماناً
لا تعجبن لخير زلّ عن يده فالكوكب النحاس يسقي الأرض أحياناً

ولللخيل من التصانيف كتاب «العين» في اللغة وهو مشهور وكتاب
«العروض» وكتاب «الشواهد» وكتاب «النقط والشكل» وكتاب «النغم» وكتاب
«العوامل» وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون إن كتاب العين المنسوب إلى الخليل
ليس تصنيفه وإنما كان شرع فيه ورتب أوائله فمات فأكمّله تلامذته فما جاء
عملهم مناسباً لما وضعه الخليل فأخرجوا الذي وضعه الخليل وعملوا أيضاً الأوّل
فلهذا وقع فيه خلل كثير يبعد وقوع الخليل في مثله. ويقال إنّه كان له ولد تخلف
فدخل على أبيه وهو يقطع بيت شعر بأوزان العروض فخرج إلى الناس وقال إن أبي
قد جن فأخبروه بما قال ابنه فقال له :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني إذ كنت تجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت أنّك جاهل فعذرتكا

وكانت ولادة الخليل سنة ١٠٠هـ وهي سنة ٧١٩م وتوفي بالبصرة سنة ١٧٠
وقيل سنة ١٧٥هـ وهي سنة ٧٨٧ أو سنة ٧٩٢م .

سيبويه

هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الملقَّب سيبويه ولد بالبيضاء من أعمال فارس وكان اعلم المتقدمين والمتأخرين بالنحو لم يوضع فيه مثل كتابه وذكره الجاحظ يوماً فقال لم يكتب الناس في النحو كتاباً مثله وجميع الكتب عليه عيال. وأخذ سيبويه النحو عن الخليل بن أحمد المقدم ذكره وعن عيسى بن عمر ويونس ابن حبيب وغيرهم وأخذ اللغة عن أبي الخطاب المعروف بالأخفش الأكبر. وقد ورد إلى بغداد من البصرة والكسائي يومئذ يعلم الأمين بن هرون الرشيد فجمع بينهما وتناظرا، وزعم الكسائي أنَّ العرب تقول كنت أظن العقرب أشد لسعاً من الزنبور فإذا هو إياها. فقال سيبويه ليس المثل كذا بل فإذا هو هي وتشاجرا طويلاً واتَّفقا على مراجعة عربي خالص لا يشوب كلامه شيء من كلام أهل الحضر، وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لأنه معلِّمه فاستدعى عربياً وسأله فقال كما قال سيبويه، فقال أريد أن تقول كما قال الكسائي، فقال إنَّ لساني لا يطاوعني على ذلك فقررُوا معه أن يقول كما قال الكسائي. وحضر العربي فقال الصواب مع الكسائي وهو كلام العرب فعلم سيبويه أنَّهم تجاملوا عليه وتعصبوا للكسائي^(١) فخرج من بغداد وقد حمل في نفسه لما جرى عليه وقصد بلاد فارس فتوفي في قرية من قرى شيراز يقال لها البيضاء سنة ١٨٠ وقيل سنة ١٧٧ هـ وهي سنة ٧٩٧ أو سنة ٧٩٤ م. وعن ابن دريد أنَّ قبره بشيراز وقيل إنَّ ولادته كانت في البيضاء المذكورة وقد كتب على قبره هذه الأبيات وهي لسليمان بن يزيد العدوي

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار فاسلموك واقشعوا
تركوك أوحش ما يكون بقفرة لم يأنسوك وكربةً لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب حفرة عنك الأحبة أعرضوا وتصدعوا

(١) وصوب جمهور النحاة قول سيبويه لانك لو عبرت عن الضميرين بالاسمين الظاهرين وقلت فإذا الزنبور العقرب لم يكن وجه لنصب العقرب لأن إذا من حروف الابتداء فلا يجوز نصب بعدها إلَّا بعد إتمام الكلام ثم لا يمكن القول فإذا هو إياها إلا على سبيل جعل إياها حالاً والحال لا تكون إلَّا بعد تمام الكلام وهو ناقص ولا تكون إلا نكرة وإياها معرفة .

وقال معاوية بن بكر العليمي إنه كان في لسان سيويه حبة ونظرت في كتابه فقلمه أبلغ من لسانه وقال ابن خلكان سيويه لا يقال بالتاء البتة وهو لقب فارسي معناه بالعربية رائحة التفاح وهو مثل نفطويه وعمرويه وغيرهما والعجم يقولون سيؤويه بضم الباء وسكون الواو وفتح الباء لأنهم يكرهون أن يقع في آخر الكلمة ويه لأنها للندبة . وقيل إن والدته لقبته بهذا اللقب لرائحة جسمه . وقيل أيضاً إن المبرد كان يسأل من طلب أن يعلمه هل اجتزت بالبحر يريد هل طالعت كتاب سيويه فإن أجابه نعم قال له لا حاجة لك إلى التعليم وإن قال لا قبله بين تلامذته .

الكسائي

هو أبو الحسن علي بن خمرة بن عبدالله الأسدي أحد القراء السبعة وكان إماماً في النحو واللغة ولم يكن له في الشعر يد حتى قيل ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر، وكان يؤدب الأمين بن هرون الرشيد ويعلمه الأدب ولم يكن له زوجة ولا جارية فكتب إلى الرشيد يشكو الغربة في أبيات منها :
قل للخليفة ما تقول لمن أمسى إليك بحرمة يدلي
ما زلت من سار الأمين معي عبدي يدي ومطيتي رجلي
فأمر له الرشيد بعشرة آلاف دينار وجارية حسناء وخادم وبرزون وقيل إنه سأل معلمه الخليل أين اقتبست علم اللغة فأجابه في بقاع الحجاز فمضى إلى الحجاز وأقام فيها طويلاً وأخذ عن العرب شيئاً كثيراً . وأما سمي بالكسائي لأنه دخل الكوفة وجاء إلى حمزة بن حبيب الزيات وهو ملتف بكساء فقال حمزة من يقرأ فليل له صاحب الكساء فبقي علماً عليه وقيل غير ذلك، وتوفي سنة ١٨٧ هـ وهي سنة ٨٠٥ م بالري وكان قد خرج إليها مع هرون الرشيد ويقال إن الرشيد كان يقول فيه دفنت الفقه والعربية بالري .

الأخفش

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة الجاشعي النحوي البلخي المعروف بالأخفش الأوسط أحد نحاة البصرة والأخفش الأكبر أبو الخطاب وكان نحويّاً أيضاً من أئمة

العربية وقد أخذ عن سيبويه وكان أكبر منه وكان يقول ما وضع سيبويه في كتابه شيئاً وعرضه عليّ وكان يرى أنّه أعلم به مني وأنا اليوم أعلم به منه وهو الذي زاد في العروض بحر الحطب كما سبق، وله من الكتب المصنفة كتاب الأوسط في النحو وكتاب تفسير معاني القرآن وكتاب المقاييس في النحو وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافي وكتاب معاني الشعر وكتاب الملوك وكتاب الأصوات وكتاب المسائل الكبير وكتاب المسائل الصغير وغير ذلك ومعنى الأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما كانت وفاته سنة ٢١٥ و قيل سنة ٢٢١ هـ وهما سنة ٨٣١ أو سنة ٨٣٧ م.

وكان في هذا القرن من المشاهير في النحو يونس أبو عبد الرحمن بن حبيب النحوي ولد سنة ٩٠ هـ وهي سنة ٧١٠ م وتوفي في سنة ١٨٢ هـ وهي سنة ٧٩٨ م ومن تلامذته سيبويه والكسائي والفراء وأبو عبيدة (ملخص عن وفيات الأعيان لابن خلكان).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثامن

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية

في هذا القرن

عد ٧٣٣

بطاركة أنطاكية في القرن الثامن

قد مرّ في الكلام على بطاركة أنطاكية في القرن السابع (عد ٦٩٢) أنّ كرسي أنطاكية خلا من بطريك مدة أربعين أو خمسين سنة ولم يكن في تلك المدة بطريك أنطاكي كاثوليكي إلاّ القديس يوحنا مارون وخلفاؤه . وروى توافان في تاريخ السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤٢م: « في هذه السنة كانت وفاة هشام خليفة العرب وكان هذا قد رد كنيسة أنطاكية المقدسة إلى حالها الأولى وكانت هذه الكنيسة مترملة من راع لها أربعين سنة لمنع العرب لهم عن إقامة بطريك لها وكان راهب اسمه أسطفان عزيزاً لديه وكان أمياً لكنه ورع فاطلق لهم أن يختاروه بطريكاً على مدينة الله أنطاكية موقنين أنّ هذه هي إرادة الله ولم يعد العرب يصدونهم عن إقامة بطريك إلى الآن » ولا ذكر لاسطفانس في كتاب إدوار برنردس في بطاركة أنطاكية بل تابع توافيلكتس على قوله إنّ كرسي أنطاكية استمرّ

فارغاً خمسين سنة وأما سعيد بن البطريق فقال إن أسطفانس رقي إلى بطريركية أنطاكية في السنة الثالثة لخلافة سليمان وهي السنة الأولى للملك لاون الأيسورى أي سنة ٧١٧ للميلاد واستمر في البطريركية ستاً وعشرين سنة وتوفي سنة ٧٤٣. قال لكويان في كلامه على بطاركة أنطاكية في كتابه المشرق المسيحي: «إن تاريخ سعيد بن البطريق مشحون بالغلط فيلزم اصلاح قوله هذا بمقتضى قول توفان فهو ثقة وروايته أمثل» .

وخلف توافيلكتس أسطفانس المذكور روى توفان في تاريخ السنة الرابعة لقسطنطين الزبلي أن مروان الخليفة رخص للنصارى بعد موت أسطفانس أن ينتخبوا توافيلكتس بطريكاً وكان كاهناً من الرها سريانياً مجملاً بالتقوى والزهد واستمر في البطريركية ثمانى عشرة سنة على ما روى إدوار برنردس ولكن قال توفان إنه استمر بطريكاً ست سنين وتوفي سنة ٧٥٠ م .

وخلف توادورس الأول توافيلكتس المذكور وذكر توفان بدء خلافته في تاريخ السنة الحادية عشرة لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٥٠ أو سنة ٧٥١ م وكان توادورس على الصحيح من بلاد المواليين في عبر الأردن وقال سعيد بن البطريق إنه صير بطريكاً في سنة ٢٠ لخلافة أبي جعفر المنصور وهي سنة ٧٧٧ لأن أبا جعفر بويج بالخلافة سنة ١٣٧ للهجرة وهي توافق سنة ٧٥٧ وانه استمر بطريكاً ثلاثاً وعشرين سنة فتكون وفاته على رواية ابن البطريق سنة ٧٩٧. وهذا يخالف كثيراً قول توفان كما رأيت على أن توفان لم يذكر سنة وفاة توادورس بل قال إن العرب نفوه لدعواهم عليه أنه يرأس قسطنطين ملك الروم وأنه رد إلى كرسية بعد سنين والظاهر من كلام إدوار برنردس في بطاركة أنطاكية أنه توفي سنة ٧٩٥ ويظهر مما سيأتي أنه توفي قبل سنة ٧٨٧ م .

وخلف توادوريطس توادورس المذكور ويظهر من أعمال المجمع النيقوي الثاني الذي عقد سنة ٧٨٧ م أن توما الراهب الكاهن كان نائباً عن توادوريطس في هذا المجمع وهذا بين بطلان زعم ابن البطريق في توادوريطس هذا أنه رقي إلى بطريركية في السنة الثامنة لهرون الرشيد واستمر فيها سبع عشرة سنة وهرون الرشيد بويج بالخلافة سنة ١٧٠ هـ وهي توافق سنة ٧٨٧ م وكان توادوريطس حينئذ بطريكاً أنطاكياً كما ظهر من أعمال المجمع النيقوي . وقال ابن العبري في تاريخه السرياني

إنَّ الخليفة أبا جعفر المنصور أمر بأن يلقى في السجن ببغداد جيورجوس بطريرك اليعاقة وتوادوريطس بطريرك الروم ويعقوب بطرك النساطرة ولبثوا فيه تسع سنين إلى أن خلى سبيلهم بوساطة كبريانس أسقف نصيبين النسطوري على ما روى لكويان في المشرق المسيحي (في كلامه على بطاركة أنطاكية). وقد أثبت ابن العبري (في تاريخ بطاركة اليعاقة) أنَّ جيورجوس انتخب بطريركاً سنة ٧٥٨م وعاش سنتين بعد أن خلى سبيله من السجن في أيام المهدي أبي هرون الرشيد إلى أن توفي سنة ١١٠١ يونانية وهي توافق سنة ٧٩٠م وأثبت ذلك العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٣٤٠) فاذاً جيورجوس كان بطريركاً لليعاقة في أيام أبي جعفر المنصور وقد سجن بأمره مع توادوريطس بطريرك أنطاكية وابن البطريق يقول إنَّ توادوريطس صير بطريركاً في السنة الثامنة لهرون الرشيد والظاهر من قول ابن العبري والسمعاني أنَّه كان بطريركاً في أيام جده أبي جعفر فتأمل في خلط ابن البطريق وتشويشه تاريخ القرون التي كتب تاريخها كما قال فيه الكثيرون من المدققين. ويظهر من كلام إدوار برنردس أنَّ توادوريطس توفي سنة ٨١٢ (ملخص عن لكويان في المشرق المسيحي مع زيادة على كلامه وشرح له).

عد ٧٣٤

بطاركة أورشليم في القرن الثامن

قد مرَّ في تاريخ بطاركة أورشليم في القرن السابع أنَّ كرسي أورشليم خلا بعد موت صفرونيوس من بطريرك إلى أوائل القرن الثامن فقد جاء في تاريخ توفان أنَّ يوحنا الخامس أقيم بطريركاً على أورشليم في السنة الأولى بعد عود يوستنيانوس الأخرم إلى الملك وهي سنة ٧٠٥م ودبر كنيسة أورشليم ثلاثين سنة وقد ذكره القديس يوحنا الدمشقي في رسالته إلى جردانس الارشمندريت ولقبه برجل الله وبرأ ساحته من التهمة بأنَّه يزيد: «يا من صلبت لأجلنا» على التقديسات موجهة إلى الأقباط الثلاثة الإلهية وقال الدمشقي عن نفسه إنَّه كان تلميذاً له وروى توفان أنَّه حرم مع أساقفة المشرق ضلال محاربي الصور سنة ٧٢٩م واختلف في سنة وفاته فقد رأيت قول توفان إنَّه دبر كنيسة أورشليم ثلاثين سنة فتكون وفاته سنة ٧٣٥م والذي رواه سعيد بن البطريق ان صدقت روايته أنَّه استمرَّ بطريركاً أربعين سنة فتكون وفاته سنة ٧٤٥م والأظهر أنَّ خليفته توادورس الآتي ذكره لم يرتقِ إلى بطريركية

أورشليم إلا سنة ٧٥٢ أو سنة ٧٥٤م ويحتمل إن كان بين يوحنا هذا وتوادورس المذكور بطريك آخر اسمه يوحنا أيضاً إلا أن نقول أنّ الكرسي الأورشليمي خلا من بطريك مدة ما. قال لكويان (في المشرق المسيحي في كلامه على بطاركة أورشليم) إنّ سوء حال المشرق في هذا القرن حال دون العلم بالبطاركة الذين دبّروا شؤون بطريشيات اسكندرية وأنطاكية وأورشليم في تلك الحقبة ولم يتفرغ للبحث عنهم إلا علماء لاتينيون في القرن الثاني عشر وما يليه فكانت أخبارهم غير مقطوع بصحتها وفاتهم العلم ببعض البطاركة. فقد روى توافان في تاريخ السنة ٢٣ لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٦٤ للميلاد ان قزما أسقف ايفانية (وهي حماه) بسورية شكاه أهل مدينته إلى توادورس بطريك أنطاكية أنّه شايع محاربي الصور فحرمه توادورس بطريك أنطاكية وتوادورس بطريك أورشليم وقزما بطريك اسكندرية ومن خضع لولايتهم من الأساقفة. وروى دي شسن في تاريخ افرنسة (مجلد ٣) أنّ توادورس هذا أنفذ رسالة إلى البابا بولس الأول فبلغت بعد وفاته إلى قسطنطين الدخيل على البابوية سنة ٧٦٧م فأرسلها إلى يبين ملك افرنسة وكان البطريك قد صرّح بها بأنّه هو والبطريك الاسكندري والانطاكي يوافقون اللاتينيين في معتقدهم. وذكر البابا اديانوس الأول خلاصة هذه الرسالة في رسالة وجهها إلى الملك كرلس الكبير سنة ٧٩٤م فتدّ بها ما يطعن به مخالفو المجمع النيقوي الثاني على توادورس هذا. ويظهر مما مرّ أنّ توادورس هذا كان معاصراً لتوادورس بطريك انطاكية ولقزما بطريك اسكندرية على أنّ هذين البطريركين يختلف في مدة ولايتهما فلا يمكن تحقيق بدء بطريكية توادورس. والراجح أنّه لم يصير بطريكاً قبل سنة ٧٥٢ أو سنة ٧٥٤م. ويظهر من حرمة قزما أسقف ايفانية بالاتفاق مع قزما الاسكندري وتوادورس الانطاكي سنة ٧٦٤م كما مرّ أنّ الثلاثة كانوا أحياء حينئذ، ويظهر من رسالته المذكورة إلى البابا بولس الأول سنة ٧٦٧م أنّه استمرّ حياً إلى تلك السنة أيضاً ولا يعلم كم سنة عاش بعد ذلك.

جاء في ترجمة القديس مدلواي الأسقف الافرنسي التي كتبها هوغو في القرن الحادي عشر وأثبتها لابي (مجلد ١ من مجموعته) وباجيوس في تاريخ سنة ٧٧٦م أنّ هذا القديس أتى إلى أورشليم سنة ٧٧٢ أو سنة ٧٧٣م وكان بطريكها حينئذ يسمّى أوسايوس، إلا أنّ جداول بطاركة أورشليم خلّت من أوسايوس هذا ويرى فيها اسم ايليا الثاني خليفة توادورس الأول. ومن أغلاط سعيد بن البطريق

الفاحشة أنَّ ايليا هذا رقي إلى بطريكية أورشليم في السنة السابعة عشرة لخلافة هشام وقد بويج هشام بالخلافة سنة ١٠٦هـ وهي سنة ٧٢٥م فالسابعة عشرة من خلافته هي سنة ٧٤٢م على أنَّ توادورس سالفه رقي إلى بطريكية أورشليم سنة ٧٥٢م وبقي حياً بعد سنة ٧٦٧م كما رأيت . ولا شك في أنَّ ايليا كان حياً سنة ٧٨٧م التي عقد فيها المجمع النيقوي الثاني المسكوني . فقد جاء في ترجمة ترازبوس البطريرك القسطنطيني التي دوَّنها اغناطيوس الشماس ورواها البولنديون في ٢٥ شباط أنَّ ترازبوس أتى من قسطنطينية إلى نيقية ليشهد المجمع المذكور وكان مصحوباً بنواب البطارقة وفي جملةهم يوحنا الكاهن نائباً عن ايليا البطريرك الأورشليمي . وترى توقيع يوحنا المذكور في آخر المجلس السابع من هذا المجمع ولم يشهد البطريركان الاسكندري والانطاكي هذا المجمع لتشوش الراحة وحفيف الأخطار بالطرق . وقد روى لاونس الدمشقي في ترجمة القديس اسطفانس ابن أخي القديس يوحنا الدمشقي أنَّ راهباً اسمه توادورس سعى بالبطريكية ايليا لدى الحاكم مشتعلاً به فنفى إلى بلاد فارس واستمرَّ فيها سجيناً مكبلاً بالقيود زماناً وغضب توادورس المذكور البطريكية إلى أن ردَّ ايليا إلى بطريركيته ولا تعلم سنة رده ولا سنة موته . والأظهر أنَّ وفاته كانت سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م على ما روى لكويان في المحل المذكور .

وخلف جيورجيوس ايليا وكان كاتبه واختاره هو قبل وفاته على ما روى لاونس الدمشقي في ترجمة القديس اسطفانس المذكور . ومن أغلاط سعيد بن البطريق قوله إنَّ جيورجيوس هذا صير بطريكاً في السنة العشرين لخلافة أبي جعفر المنصور وهي توافق سنة ٧٧٥م . وقد مرَّ أنَّ لكويان رجَّح أنَّ ايليا سالفه استمرَّ حياً إلى سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م وقال إنَّ جيورجيوس دبر البطريكية ثلاثين سنة . فمن سنة ٧٩٦م التي توفي فيها ايليا إلى سنة ٨٠٧م التي قام فيها خليفته توما الآتي ذكره إحدى عشرة سنة فمن أين الثلاثون سنة ؟ ويظهر أنَّ هذا البطريرك إنما هو الذي أرسل إلى الملك كرلس الكبير مفاتيح كنيسة القبر المقدس ومحل الجملجة وراية من أورشليم على سبيل التبرك . وكان هذا الملك قد أرسل إليه صدقات لتوزَّع على المسيحيين . روى ذلك اندراوس دي شسن (مجلد ٢ من تاريخ المؤلفين الافرنسيين) . ولعل هذه الرواية أصحَّ من رواية بعضهم أنَّ الخليفة هرون الرشيد أرسل هذه المفاتيح إلى الملك كرلس الكبير . على أنَّ دي شسن لم يذكر اسم

البطريك وسمّاه بعضهم يوحنا . قال لكويان (في المحل المذكور) الأظهر أنّ جيورجىوس هذا ولا نعلم متى كانت وفاة هذا البطريك . ويظهر من تاريخ إقامة توما خليفته أنه مات سنة ٨٠٧ (انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان في بطارقة أورشليم مع زيادة على كلامه) .

عد ٧٣٥

من عرفناهم من أساقفة سورية في القرن الثامن

عرفنا من أساقفة بيروت في هذا القرن اثناسيوس . والراجح أنه هو الذي كتب خبر الآية الشهيرة التي صنعها الله في بيروت سنة ٧٦٣م والتي يحتفل لذكرها في السنكسارى الروماني في التاسع من شهر آب وقد تلي خبرها مفصلاً في المجمع السابع المسكوني وهو النيقوي الثاني في المجلس الرابع . وإليك خلاصة ما رواه أنسطاس المكتبي عن هذه الآية (نقلًا عن مكتبة الآباء اللاتينيين مجلد ١٢٩ صفحة ٢٨٣ من طبعة مين) قال : « كان اليهود كثيرين ببيروت وقد استأجر أحد المسيحيين داراً على مقربة من مجمعهم وكانت في غرفته صورة المصلوب . ولما انتقل إلى دار أخرى غفل عن أن يأخذ تلك الصورة مع أثاثه واستأجر الدار الأولى يهودي وضافه رجل من أمته فأبصر الصورة فقال له كيف وأنت يهودي تدع هذه الصورة في منزلك ؟ وطفق يجذّف على المسيح وخرج فأخبر رؤساء المجمع بما رأى . فاجتمع في اليوم التالي حشد من اليهود يؤتّبون ساكن البيت ويهدّدونه وأنزلوا الصورة من محلّها وقالوا هلّم نصنع بها ما صنع أجدادنا بالمصوّر بها فبصقوا في وجهها ولطموها وأفرطوا بإهانتها، وقالوا سمعنا أنّ أجدادنا ثقبوا يديه ورجليه بالمسامير فلنصنع بصورته كذلك وفعلوا ثم ضربوا رأس الصورة بقصبة وطعنوا جنبها بحربة اقتداء بأجدادهم فجرى منها دم وماء غزيران . فقالوا زعم النصارى أنه صنع آيات كثيرة فهلّم نأخذ شيئاً من هذا الدم والماء إلى المجمع ونستدعي المرضى والأعلاء وندهنهم بهما ونرى إن كان ما يزعمون حقاً . فأدنوا إناءً من محل الطعنة فملأوه وأتوا به إلى مجمعهم ودعوا المرضى وكان أول من دهنوهم مخلّعاً عند مولده يعرفه أهل المدينة كلهم فقفز يعدو وأتوا بعميان فأبصروا للحال وبأعلاء فبرأوا لساعتهم حتى غصّ المجمع بحشد المرضى والناظرين، فاستولت الدهشة على الجميع وهتف الكهنة والشيوخ والرجال

والنساء لا شك في أنَّ المسيح الذي صلبه أجدادنا وصلبنا صورته إله حقاً فلنؤمن به ونسأله أن يغفر لنا ومضى كثيرون منهم إلى الأسقف وأخذوا الصورة معهم فقصّوا عليه خبر ما صنعوا والآيات التي رأوها وسألوه أن يعمّدهم فعلمهم الأسقف وكهنته قواعد الدين المسيحي وشرحوا لهم أسرارهم وأقام الأسقف أياماً يعمّدهم وحوّل مجمعهم إلى كنيسة على اسم المخلص وصنع كذلك في سائر مجامع اليهود ببيروت لإجابة إلى سؤالهم وعظم السرور وتوالت مجالي الأفراح ببيروت لاهتداء اليهود وإبراء المرضى .

هذه خلاصة المقالة التي كتبها اثناسيوس أسقف بيروت على الأظهر وعند تلاوتها في المجمع السابع المسكوني قال قسطنطين أسقف قسطنطينيا بقبرص (على ما روي في أعمال هذا المجمع) إنَّ أعين كثيرين من الأساقفة اغرورقت بالدموع إذ رأوا أنَّ الصور لا يلزم لإجلالها فقط بل إنَّ الله يصنع بها معجزات باهرة فقال ترازبوس بطريرك قسطنطينية إن سأل سائل لِمَ لا تصنع الصور التي لدينا مثل هذه الآية ؟ فنجيبه بقول الرسول إنَّ الآيات يعطاها غير المؤمنين ومن لجأوا من أهل بيروت إلى صورة المخلص كانوا كذلك، فصنع الله هذه الآية أمام أعينهم ليقنوا بهم إلى الإيمان . ومما جاء في المقالة المذكورة إنَّ الأسقف وضع من الدم الكريم في آنية من زجاج ووزّعه في الكنائس وأمر أن يعيّد لذكر هذه الآية في الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني . أقول قد رأيت مرات صورة هذه الآية منقوشة في سقف كنيسة القديس بطرس مغللاً بالسلاسل في مدينة رومة ومما يحمل على اليقين بصيرورة هذه الآية ما كان في الكنيسة في ذلك القرن من بدعة محاربي الصور الذين كانوا ينكرون على القديسين والصليب التكريم لهم وما جسروا عليه من تمزيق صورهم وحرقتها، فتدرك الله هذه العقيدة بصنع هذه الآية وغيرها من الآيات إيكاماً للمخالفين وانتصاراً للحق وقد انتشر خبر هذه الآية مذ حينئذ شرقاً وغرباً والمجمع السابع الذي قضى بصحتها كان عقده سنة ٧٨٧م أي بعد أربع وعشرين سنة من صيرورتها .

قد ذكر هذه الآية الأب ميخائيل جوليان اليسوعي في مقالته التي نشرها في جريدة الرسائل الكاثوليكية التي تطبع في ليون في نشرتها ١٤٢٣ و ١٤٢٤ و ١٤٢٥م في شهر أيلول سنة ١٨٩٦م وعنون مقالته بعض تذكارات مسيحية ببيروت . ومما زاده فيها على ما رويناه ترجيحه أنَّ كاتب المقالة في الآية المذكورة إنما

هو أحد أساقفة بيروت وأنه كان قد توفي قبل المجمع السابع الذي عقد سنة ٧٨٧م وأنَّ لكويان في المشرق المسيحي جنح إلى التيقن بأنَّ كاتب المقالة في الآية إنما هو اثناسيوس أسقف بيروت الذي كانت الآية في أيامه، وأنَّ هذه الآية لم يذكرها انسطاس المكتبي وحده بل ذكرها بارونيوس أيضاً في تاريخه لسنة ٧٨٧م وجاء ذكرها ثلاث مرات في مكتبة الآباء اليونان التي طبعها مين (مجلد ١٨ صفحة ٧٩٥م وما يليها) وأنَّ كنيسة الخُلص التي كانت مجمعا لليهود كان موقعها على مقربة من الجامع المعروف الآن بجامع السراي، وأنَّ الآباء الفرنسيين أقاموا ديرهم ببيروت في منتصف القرن الثالث عشر بجانبها. وقال في هذه المقالة إنه كان ببيروت كنائس أخرى عديدة منها كنيسة الأربعين شهيدا وكان موقعها في الحلة الواقعة بين كنيسة الموارنة الكاتدرائية الآن وبين الكنيسة المسكوية والمسماة الآن محلّة الرجال الأربعين وأنَّ الكنيسة الكبرى التي بناها اوسطاتيوس أسقف بيروت في القرن الخامس كانت على مقربة من الكنيسة الكبرى الحالية أو في محلّها.

وقد روى الأب جوليان أنَّ صورة الخُلص التي سال الدم منها نقلها الملك يوحنا سمسق إلى قسطنطينية عندما غزا بيروت في القرن العاشر وأقامها في كنيسة الخُلص التي بناها في عاصمة ملكه. وقد أسند الأب جوليان روايته هذه إلى لاون الشماس الذي كان في القرن العاشر أيضاً (نقلًا عن مجلد ١١٧ صفحة ٨٩٥ من مكتبة الآباء اليونان في طبعة الأب مين). ويظهر أنَّ المسيحيين أحدثوا مثالا لهذه الصورة بعد أخذها إلى قسطنطينية وأقاموه في كنيستهم. ويظنُّ أنَّ هذا منشأ التقليد الذي استمرَّ في بيروت بالأعصر الحالية بأنَّ هذه الصورة بقيت في كنيستهم وقد ذكر هذا التقليد الأب ناكي اليسوعي في رسالته سنة ١٧٢٠م إلى رئيس جمعيّتهم العام.

وقد عرفنا من أساقفة صيدا في هذا القرن بولس منشأ انطاكية دخل الرهبانية أولاً ثم صير أسقفاً على صيدا ذكره ابراهيم الخاقل في كتابه في اسم البابا وعزا إليه كثيراً من المؤلفات منها محاماة للدين المسيحي اقترحها عليه أحد أصدقائه من المسلمين شرح فيها بعض العقائد المسيحية ولاسيما سرّي التثليث والتجسّد، وقال إنَّ في المكتبة الواتيكانية نسخة من هذه المحاماة وقد ذكرها العلامة السمعاني في فهرست الكتب الواتيكانية. المعلق على آخر المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٥١١ ك ٥٠ من الكتب العربية وبين كتبه وموضوعاتها فقال: «الكتاب الخمسون

لبولس الأنطاكي أسقف صيدا يشتمل على موجز في اللاهوت مقسّم إلى اثنين وعشرين فصلاً. وذكر موضوع كل فصل منها: «وعلى مقالة في مجيء المسيح فنّد بها مزاعم اليهود ورسالة أنفذها إلى أحد المسلمين من صيدا بيّن فيها ما يقوله النصارى في محمد وسنّته وصحّة الدين المسيحي ومقالة في البدع يفنّد فيها آراء المبدعين ومقالة في التثليث والتجسّد أنفذها إلى رجل اسمه أبو سرور وخطبة (لم يرد في هذا الكتاب اسم مؤلفها) في تفسير بعض آيات الإنجيل ولاسيما قوله من نظر إلى امرأة ليشتيتها الخ. وخطبة في الايمان القويم وثمانين مبحثاً في مواد شتى وكتاب في ممارسة الفضائل لم يذكر مؤلفه وإحدى وسبعين قضية مأخوذة عن الأسفار المقدسة والآباء. هذا ما اشتمل عليه هذا المجلد وهو مكتوب على ورق باللغة العربية وأحرفها وعدد صفحاتها ١٦٤ صفحة». انتهى كلام السمعاني وهو لم يذكر من أية طائفة كان هذا الأسقف ويؤخذ من مقالته في البدع أنه كان ملكياً لأنه يدافع بها عن الملكيين.

وعرفنا من أساقفة دمشق بطرس الثاني وكان في أيام القديس يوحنا الدمشقي وهو الذي اقترح على هذا القديس أن يكتب كتيبه الموسوم بالرأي القويم إذ نراه افتتاحه بقوله: «يا أفضل الآباء وأقدس الرعاة أراني يتنازعني عاملاً الخوف الجسيم ومشقة الخطبة فأخشى أن أخالف لك أمراً وأرتعد من أن تبهظني الخطبة الشاقة على أنني أثرت أن أذعن لأمرك». يظهر أنّ الدمشقي كتب هذا الكتاب قبل أن يمضي إلى فلسطين لينضوي إلى الرهبانية وفي مبادي ظهور بدعة محاربي الصور كما يؤخذ عن فقرة في آخره قال فيها: «انبذ كل بدعة إلى البدعة التي نشأت الآن ضد كنيسة المسيح إلهنا المقدسة». وقد كتب الدمشقي هذا الكتاب ليرفعه الياس أسقف يبرود إلى بطرس رئيس أساقفة دمشق المذكور وكتب الدمشقي أيضاً كتابه في ردّ مزاعم اليعاقبة بإيعاز بطرس أسقف المذكور وباسمه وأنفذه إلى أسقف داريا اليعقوبي كما يتبيّن من المقدمة المعلقة على هذا الكتاب وسيأتي لنا الكلام في ذلك. وروى توافان في تاريخ سنة ٧٣٤م (على مذهبه وهي سنة ٧٤٢م على مذهب عامتهم) ما ملخصه: «إنّ بطرس أسقف دمشق هذا جسر أن يؤثّب الحاكم بحضرته فأمر بقطع لسانه ونفيه إلى بلاد العرب وكان مع ذلك يحسن التلقّظ بكلمات قداسه وصلواته كما حقّق من سمعوه بأنفسهم ومات بالعربية». ولا يعلم في أية سنة كانت وفاته. قال لكويان في كلامه عليه بكتابه المشرق

المسيحي « وهو على ما أظنّ بطرس متروبوليت دمشق الذي يعيد له الروم في الخامس عشر من شباط » .

وكان في هذا القرن ايليا أسقف يبرود فجاء في عنوان كتاب يوحنا الدمشقي في الرأي القويم في بعض النسخ مدوّناً هكذا كتاب الايمان الذي دوّنه يوحنا الدمشقي الراهب الكاهن ورفع ايليا أسقف يبرود إلى بطرس متروبوليت دمشق .

وكان في اللاذقية يوحنا تلميذ القديس يوحنا الدمشقي وقد أملى عليه كتابه في المبادي الأولى لإدراك علم اللاهوت كما سيأتي . وذكر الدمشقي قرماً أسقف مايوما وأهدى إليه كتابه الموسوم بينبوع العلم وقد افتتح هذا الكتاب هكذا « إلى الأب الكليّ القداسة والورع المكرّم بالله قرماً أسقف مايوما من الحقيق يوحنا الراهب الكاهن السلام بالرب » . وذكر صاحب الملحق بتاريخ نطاليس اسكندر أنّ قرماً هذا كان من أورشليم وكان ذكياً عالماً وذكره سويدا مطرئاً إياه . وكان أولاً رئيس دير ثم رقي إلى درجة الأسقفية على مدينة مايوما التي كان موقعها على مقربة من غزة كما حقّق كاران في كتابه في اليهودية صفحة ٢١٩ إلى ٢٢١ حيث ذكر قرماً هذا أيضاً وهو ولا ريب غير قرماً معلم يوحنا الدمشقي الآتي ذكره وغير قرماً رئيس آخر ذكره يوحنا موسكس في كتابه المرجح الروحي . أقول الصحيح أنه قرماً رفيق الدمشقي في تعلّمه كما سترى . وهذا ظاهر من المقدمات المعلقة على تأليف قرماً هذا الشعري في مكتبة الآباء اليونان مجلد ٩٨ صفحة ٤٥٧ من طبعة مين من حيث يظهر أنّ قرماً هذا كان من أورشليم وكان رفيقاً للدمشقي في دروسه صديقاً دائماً له وقد تعاونوا على وضع ضوابط الألحان وصير سنة ٧٤٣ أسقفاً على مايوما وكان قبله أسقف عليها اسمه بطرس .

وكان في فلسطين أيضاً في هذا القرن توادورس أبو كارا . والمعلوم أنه كان تلميذاً ليوحنا الدمشقي ثم رقي إلى أسقفية حران في فلسطين على الأظهر سنة ٧٧٠م . وله مؤلفات مثبتة في المجلد ٩٧ من مكتبة الآباء اليونان من صفحة ١٤٤١م فصاعداً من طبعة مين منها كتاب في ردّ مزاعم اليهود وأصحاب البدع وغيرهم ومقالة في التجسّد واتحاد كلمة الله بالجسد .

وقد ذكرنا استطراداً قرماً أسقف ابيفانية أي حماه وحرّم البطارقة له لضلاله وقلّ من نعرف غير هؤلاء في هذا القرن الذي كانت فيه كنيسة سورية في أسوأ

حال من جهة الاضطرابات الداخلية والمنازعات الأهلية ولاسيما من قبل الاضطهاد الذي أجراه ملوك الروم على الكنيسة بسبب تكريم الصور .

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون السوريون ومن عاصرهم في القرن الثامن

عد ٧٣٦

القديس يوحنا الدمشقي وغيره من السوريين

قد ولد هذا القديس بدمشق نحو سنة ٦٧٦م من والدين حسيين وكان أبوه اسمه منصور وكان عزيزاً عند خلفاء بني أمية مرفوع المقام لديهم، ورأى ذات يوم بين الأسرى النصارى راهباً إيطالياً اسمه قزما كان الغزاة قد أسروه من سفينة فسأله عن حاله وعما يحسنه من العلم فأجابه أنه أتقن كل علوم المسيحيين كالرياضيات والفصاحة والفلسفة واللاهوت، وكان منصور يتطلب من مدة طويلة رجلاً عالماً ورعاً يلقن ابنه يوحنا العلم ففكر أن الله أرسل إليه هذا الكاهن، وسأل الخليفة العفو عنه فأجابه إلى سؤاله وأقام قزما في دار منصور يعلم ابنه العلوم فتعلم يوحنا منه نحو اللغة اليونانية والحساب والجبر والهندسة والموسيقى والشعر وعلم النجوم ولاسيما اللاهوت أي علم الدين المسيحي وبرع يوحنا في كلها، وكان رفيقه في هذه الدروس يتيماً من أورشليم اسمه قزما أيضاً ولما أكمل دروسه هجر العالم وأوى إلى دير القديس سابا في ناحية أورشليم واتخذ السيرة الرهبانية إلى أن دعاه الله ليكون أسقفاً على مايوما. واستمرت الصداقة والإخاء بينه وبين يوحنا الدمشقي كما رأيت آنفاً، وأما يوحنا فمات أبوه بعد تكملة دروسه فأقامه الخليفة رئيساً للجنة مشورته وقربه إليه وأعزه ولكن يوحنا آثر الزهد والانفراد على مجد العالم ورفعة المقام ولحق برفيقه قزما إلى دير القديس سابا وقضى حياته هنالك متورعاً متهجداً

منكباً على تأليف كتبه الكثيرة الآتي ذكرها حتى قرأ له كل من عرفه أنه كان زينة عصره وفريد مصر. وفي جملة ما عني به تهذيبه الألحان البيعية ووضعه لها ضوابط عاونه عليها قزما رفيقه الذي رقي إلى أسقفية مايو كما مر فأخذتها عنهما كنيسة الروم وبعض كنائس السريان وأجهد نفسه في مقاومته بدعة منكري إكرام الصور غير مبالٍ بسخط الملوك لاون اليسوعي وقسطنطين الزبلي عليه مع شدة غلوهما في تأييد هذه البدعة واضطهاد مخالفيها حتى بالقتل والنفي والتعذيب. وقد زعم بعض من كتبوا ترجمته في العربية أن الملك لاون الإيسوري زوّر رسالة ووقع عليها بخط يشبه خطّه وأرسلها إلى الخليفة فقطعت يمينه التي كان يكتب بها تفنيد هذه البدعة وأنه أخذ يده المزلومة وخشع إلى صورة العذراء فأعادت إليه يده كما كانت وانتحل عن هؤلاء يوحنا بطريك أورشليم الذي كان في منتصف القرن العاشر هذه القصة وأخذها عنه كثيرون من المؤرخين وأرى تبعاً للمقدمات المعلقة على كتب الدمشقي أن هذه القصة لا يوثق بصحتها ولو صحت لما غفل القديس يوحنا عن ذكر هذه الآية الباهرة في أحد كتبه ولا ذكر لها في نسخة صحيحة من كتبه وأيضاً لما غفل الجمع النيقوي الثاني الذي عقد سنة ٧٨٧م لإثبات تكريم الصور عن الاستعانة بها لتأييد غرضه. وقد أثبتت هذه القصة في سنكسار طائفتنا في ترجمة هذا القديس في اليوم الرابع من كانون الأول كما وردت في غيرها من تراجم القديسين عند بعض الطوائف الشرقية وأرى الأفضل ترك ذكرها. ففي كنيسة الله آيات أخرى لا تحصى فلا حاجة إلى التشبّث بما كان منها غير مؤكد. وكان الدمشقي بين الآباء الشرقيين كما كان القديس توما الأكويني بين الآباء الغربيين فكل منهما جدٌ في مطابقة مذاهب بعض الفلاسفة القدماء على الفلسفة المسيحية وقد توفاه الله في دير القديس سابا. قال العلامة لكويان في مقدماته على كتبه لم تكن وفاته قبل سنة ٧٥٦م. وفي كتب بعض المحققين أنه توفي نحو سنة ٧٥٤م وقد ذكر في سنكسار طائفتنا أن الله توفاه سنة ٧٥٠م وربما كان ذلك زلة من قلم بعض الناسخين فالأولى إصلاحه وتعيين سنة ٧٥٦م لوفاته. وتعيّد لذكره الكنيسة اللاتينية في السادس من أيار والرومية في ٢٩ من تشرين الثاني وفي ٤ كانون الأول. وقد مرّ أن كنيسة الموارنة تعيّد له في الرابع من كانون الأول. (انتهى ملخصاً عن مقدمات كتبه لميخائيل لكويان).

وأما مؤلفاته فكثيرة نذكر منها ما طبع في طبعة الأب مين وهي أجمع مما

سواها، وقد ضمَّنها الأب مين في المجلدات ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ من مكتبة آباء اليونان وأولها سبع مقالات لاهوتية أثبتها الأب مين لا بألفاظها بل منسوقة مع شرح العلامة ميخائيل لكويان لها وثانيها كتابه الذي عنوانه ينبوع العلم مشتملاً على ثلاثة أسفار: الأول في المنطق والمباني الفلسفية يشتمل على ثمانية وستين فصلاً رفعه القديس إلى قزما أسقف مايوما (على مقربة من غزة) المذكور آنفاً. والثاني في المبتدعين وقد عدَّ منهم نحواً من مئة مبتدع. والثالث في شرح الايمان القويم وقد قسمه إلى أربعة أقسام ضمَّن الأول أربعة عشر فصلاً والثاني ثلاثين فصلاً والثالث ثمانية وعشرين فصلاً والرابع سبعة وعشرين فصلاً. والثالث من تأليفه كتاب تفنيده بدعة محاربي الصور وقد قسمه إلى ثلاث خطب مشبعة. والرابع كتابه في الرأي القويم كتبه باسم بطرس رئيس أساقفة دمشق وقد ذكرنا قبلاً فاتحته. والخامس كتابه في ردِّ مزاعم اليعاقبة وقد كتب باسم أسقفه بطرس الدمشقي المذكور مراراً. وجاء في مقدمة هذا الكتاب في طبعة الأب مين: «وأما من كان هذا الأسقف اليعقوبي الذي كتب هذا الكتاب لردِّه إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية فلا يسهل العلم به. فلم يذكر في فاتحته من هو بل قيل هو من الأمة نفسها ويسمى بالاسم نفسه. وهذا يشير إلى أنه من دمشق واسمه بطرس من أنساب بطرس الأسقف أو اسمه يوحنا من أنساب الدمشقي نفسه، ويرجح الأول لأنَّ هذا الكتاب كتب باسم بطرس ويمكنني أن أقدر أنَّ اسمه ايليا لأنَّ كتاب الدمشقي الرأي القويم المارَّ ذكره كان يلزم ايليا أن يعترف به. وأوضح من ذلك كلمة داريا التي وردت في هذا الكتاب فكأنه يقرأ في عنوانه إلى أسقف داريا، وداريا بلدة قريبة من دمشق». أقول إنَّ ما يسرَّ حلَّ هذا المشكل إنما هو ما رواه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٤٦٧) في كلامه على لاون أسقف حاران أنه كتب إليه ايليا بطريك اليعاقبة رسالة بها يذكر القديس يوحنا الدمشقي ويردُّ أقواله ويسخر منه مستمياً إياه بني لا يوحنا. وإليك ألفاظه في الفصل السادس من رسالته: «هكذا كتب بني الدمشقي في الفصل الثاني عشر من فصوله المئة والخمسين التي كتبها مدافعة عن تعليمكم في جداله» إلى أن يقول: «فعلى هذا النحو زعم بني المذكور نفسه في مقالته التي دوَّنها باسم بطرس أسقفه ليقاومنا بها». ورسالة ايليا هذه إلى لاون الحاراني مثبتة في الكتاب المخطوط السرياني المحفوظ في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٤ من الكتب السريانية. ثم ذكر السمعاني (في المكتبة المذكورة مجلد ٢

صفحة ٩٥) ترجمة ايليا هذا فقال بما ملخصه أنه صير بطريركاً على اليعاقبة بعد يوليانس سنة ١٠١٩ يونانية أي سنة ٧٠٨ للميلاد. وكانت مطالعته في كتب ساويرس البطريرك الانطاكي وغيره من أصحاب بدعته قد استغوته فترك الايمان الكاثوليكي ولحق ببدعة أصحاب الطبيعة الواحدة كما أقرّ هو نفسه في كتابه المحفوظ في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٤ من الكتب السريانية وهو الذي ذكرناه آنفاً وعنوانه (رسالة اعتذار ايليا إلى لاون الحاراني القائل بالطبعتين متضمنة بيان ما بعثه على ترك شركة الخلكيدونيين ومشايعته من يقولون إنّ لسيدنا يسوع المسيح كلمة الله المتجسد طبيعة واحدة). ولخص السمعاني فحوى هذا الكتاب إلى أن قال: «قد أثبتنا في المجلد الأول أنّ ايليا صرح بهذا الكتاب أنّ المقالة التي كتبها يوحنا الدمشقي باسم بطرس أسقفه إنما كتبها ردّاً عليه أي على ايليا المذكور». فقد ظهر إذ أنّ الدمشقي وضع كتابه الخامس المذكور ردّاً على ايليا بطريرك اليعاقبة هذا.

والكتاب السادس من كتب الدمشقي محاوره لردّ مزاعم المانويين بين مسيحي ومانوي. ويلحق بهذا الكتاب مباحث بين مسلم ومسيحي ومقالة موجزة في التنين وهو إبليس كل هذا في المجلد الأول من تأليفه في طبعة الأب مين وفي المجلد الثاني منها مقالة موجزة في الثالوث الأقدس وتليها رسالة في التقديسات الثلاثية أنفذها إلى يردانس الأرشمندريت حيث نهى عن أن يُزاد على هذه التقديسات يا من صلبت لأجلنا ارحمنا. وفي بعض نسخ هذه الرسالة ما يشعر بأن الموارنة يستعملون هذه الزيادة في صلواتهم وسوف نفتد ذلك في الملحق في تاريخ الموارنة في آخر هذا الباب ويلي ذلك مقالة في الأصوام المقدسة وأخرى في ثمانية أرواح السوء أي في الخطايا المعروفة بالرأسية لأنّ كلّاً منها رأس لخطايا أخرى وضبطها عامتهم بسبع وعدّها الدمشقي ثمانى وهي: النهم، والطمع، والبخل، والغم، والغضب، والكسل، وحبّ المجد الباطل، والكبرياء. فكلّامه موعظة بليغة للتحاشي عن هذه الخطايا. وله أيضاً مقالة في المبادئ الأولية لإدراك علم اللاهوت أملاها على تلميذه يوحنا أسقف اللاذقية ضمّنها شروحاً في ماهيات الجوهر والطبيعة والصورة والأقنوم والفصل والخواص وما أشبه، ومقالة في الطبيعة المؤلفة ردّاً على الأشفاالي أصحاب الطبيعة الواحدة غير كتابه في ردّ مزاعم اليعاقبة، ومقالة في مشيقتي المسيح ردّاً على أصحاب المشيئة الواحدة، ومقالة في تنفيذ بدعة نسطور. وله بعض فقر في موضوعات مختلفة وضوابط وجدول لمعرفة يوم وقوع عيد الفصح،

ومقالة في من توفاهم الله مؤمنين ، ورسالة في الاعتراف ، وسلطان الحل والربط ، ومقالة في وجوب تكريم الصور رداً على الملك قسطنطين الزبلي وجميع أولي البدع ، ورسالة إلى الملك فيلبس في القديسين ولزوم تكريم صورهم ، ومقالة في الفطير ، ومقالة في جسد المسيح ودمه ، ومقالة في شرح قواعد الايمان . ثم له كتاب في تفسير رسائل بولس الرسول مقتطف من تفسيرات يوحنا فم الذهب ومن أبدع كتبه كتابه في الموازنات المقدسة حيث يورد في كل حقيقة من حقائق الايمان وكل فضيلة من الفضائل المسيحية كل ما جاء إثباتاً لها في جميع الأسفار المقدسة . ويلحق بذلك أقوال الآباء والعلماء . وله خطب كثيرة في تجلي المخلص وفي التينة التي يست والاستعداد لآلام المخلص والسبت المقدس وبشارة العذراء ومولدها وانتقالها وتقريظ للقديس يوحنا فم الذهب وتقريظ للقديسة بربارة . ويظهر منه أنها كانت من بفلاغونيا . وله أشعار وأغاني وله كتاب ترجمة القديسين بلام ويوصاف للذين يعيد في كنيستنا لهما في ٢٧ تشرين الثاني وشرح آلام القديس ارثيموس عن تاريخ فيلوستورجيوس ومحاورة بين يوحنا الأرثوذكسي ومانوي وجدال مسيحي ومسلم . وله ست قصائد شعرية في مدح بعض الآباء والقديسين ورسالة إلى البابا قسطنطين وفقرات في تفسير بشارة متى .

وقد كان في بداية هذا القرن اندراوس أسقف اكريت . فهذا ولد في دمشق وربما كان رفيقاً للدمشقي في تعلّمه ثم مضى إلى اورشليم وأقام في بعض الأديار مدة . ولذلك يستقى الأورشليمي . ثم مضى إلى قسطنطينية واشتهر بتقواه وفصاحته وفرغ كرسي اكريت من أسقفه فرقي إليه وقد جنح أولاً إلى بدعة المشيئة الواحدة لكنه طالع أعمال المجمع السادس فأقلع عن تلك البدعة معتقداً بالمشيئتين كما أقرّ في قصيدة نظمها سنة ٧١٣م . وله خطب كثيرة منها تقريظ بليغ للقديس جيورجيوس الشهيد يبيّن فيه أنّ منشأه الكبادوك ويصف الأعذبة التي أجراها عليه ديوكلتيانوس الملك ويعظم الآيات التي صنعها الله على يده .

ونعلم أسماء كثيرين من العلماء السوريين في هذا القرن ولم نظفر بترجماتهم . من هؤلاء : بطرس ولاونتيوس الدمشقيان واسطفانس كاهن كنيسة اورشليم وانسطاس رئيس دير القديس أوثيموس بفلسطين صاحب التأليف في الردّ على اليهود الذي ترجمه توريان إلى اللاتينية وطبعه كانيزمس في المجلد الثالث من العاديات أشرت إلى ذلك تنبيهاً لحاطر من يريد التنقيب عن مثل هذه الأمور .

القديس توفان المؤرخ

كثيراً ما استشهدنا بأقوال هذا المؤرخ فيجدر بنا أن ندون ترجمته هنا إذ كان في هذا القرن وهو من مشاهير العلماء قد كان كثيرون من العلماء يسمون باسم توفان. فمنهم توفان الميليطي كاتب مواقع مبابيوس القائد الروماني الشهير وتوفان البيزنطي الذي كان في أيام الملك يوستينس الثاني وقد كتب عشرة كتب في تاريخ حرب الفرس وتاريخ الرومانيين وذكره فوتيوس في مكتبته ك ٦٤ وتوفان الملقب بالصغير وكان أسقفاً على نيقية إلى غير هؤلاء. أما توفان الذي ندون ترجمته الآن فقد ولد في قسطنطينية وكان أبوه اسحق من أصحاب الثروة والحسب فمات فرثه أمه وزوجته وعمره اثنا عشر سنة فأغرى عروسه بحفظ العفة وعنته حموه والملك لاون ابن الملك قسطنطين الزبلي وأرسله إلى مدينة شيزيك في آسيا الصغرى مع عروسه فاجتمع في مدينة سيفريانة القرية من هناك برجل اشتهر بالفضل والقداسة اسمه غريغوريوس الشيخ وكان رئيس دير هناك فأنس به وأكثر من التردد عليه ومات حموه والملك لاون بعد ثلاث سنين فأطلق لعروسه أن تدخل برضاها دير راهبات في ذلك البلد وانضوى هو إلى رهبان دير سيفريانة واشتهر بزهده وورعه وفضله وانتدبه الرهبان بعد وفاة الرئيس إلى الرئاسة على الدير وأخذ يناضل عن حقايق الايمان ولاسيما تكريم الصور مقاوماً بدعة محاريبها فحقق عليه الملك لاون المعروف بالأرمني (ارتقى الملك سنة ٨١٣ إلى سنة ٨٢٠م) فألقاه في السجن سنتين معذباً إياه بالجوع والإهانات ثم نفاه إلى جزيرة سمقراط حيث أدركته المنية بعد عشرين يوماً من وصوله إليها ومضى إلى ربه لينال ثواب جهاده ومبراته سنة ٨١٨م على الأظهر. وتعتد له كنيسة الروم في ١٢ آذار وكذلك كنيسة المارونية على أنه قيل في تذكاره أنه بعد دخوله الدير حبس نفسه في قلّاية وأخذ يجاهد الجهاد الحسن بعمل يديه وهو نسخ الكتب. وليس ثم إشارة إلى إجهاد نفسه بالتأليف ولا ذكر لسنة وفاته فنحسن زيادة ذلك على ترجمته.

وأما تأليفه فتاريخ ابتدأ فيه من سنة ٢٨٣م وانتهى فيه سنة ٨١٣م وقد شهد العلماء بصحة روايته الأخبار وتحرير الصديق فيها ولكن كثيراً ما انتقدوه في ذكر السنين، وله مذهب في إيرادها مؤخرة سبع أو ثماني سنين عما ذكره عامتهم مثلاً

جعل وفاة الملك يوستينيانس الأول وخلافة الملك يوستينيانس الثاني له سنة ٥٥٨م وعامتهم تؤرخ ذلك سنة ٥٦٥م . ولعل هذا المذهب كان مطروقاً في أيامه وقد ترجم الأب كوار من رهبان القديس عبد الأحد تاريخه من اليونانية إلى اللاتينية وذوّله بحواشٍ وأعدّه للطبع فعاجله الموت قبل أن ينجز عمله فطبعه عالم آخر من هذه الرهبانية وهو كمفيسيوس الشهير في المطبعة الملكية في باريس مزاداً عليه حواشي آخر ثم طبعه الأب مين في جملة مكتبة الآباء الذين كتبوا باليونانية سنة ١٨٦٣م في المجلد ١٠٨ من هذه المكتبة .

عد ٧٣٨

جيورجيوس سنشلس الملازم وبولس الشماس

كان جيورجيوس هذا راهباً وملازماً^(١) لدى ترازْيوس بطريرك قسطنطينية فكتب في سنة ٧٩٢م تاريخاً ابتداءً فيه من بدء العالم إلى أيام ديوكلتيان ملك الرومانيين سنة ٢٨٣م وكان في عزمه أن يكمله إلى أيامه أي إلى آخر القرن الثامن لكن عاجلته المنية فلم يقدر على تكميله، فأتمه القديس توفان المذكور مبتدئاً من حيث انتهى جيورجيوس أي من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٨١٣م كما رأيت آنفاً. وقال فيه توفان في تاريخه إن جيورجيوس الرئيس ملازم ترازْيوس بطريرك قسطنطينية الكلي القداسة كان متسامياً بالعلم والفقاهاة دوّن كتباً كثيرة من التاريخ ودقّق فيها مجتهداً وابتدأ في تاريخه في آدم إلى أيام ديوكلتيان الملك مضطهد المسيحيين ونقب في أحوال الأعصر وعارض بعضها ببعض وأصلح اخلاصاً في تاريخها واهتدى إلى ما غفل عنه غيره وفصل أخبار الملوك والقبائل والكراسي أي كراسي رومية وقسطنطينية واسكندرية وأنطاكية وأورشليم وأنبا عما كان فيها من عقائد الإيمان ومن تنالي الأخبار وذكر البدع ومبدها إلا أن الموت كفّه عن تكملة تاليه الذي شرع فيه ومضى إلى لقاء ربّه لينال ثواب إيمانه القويم وميراثه، وقضت علينا فروض الصداقة التي كانت بيننا وبينه أن نكمل ما لم يقدر على انجازه وقد ترك لنا

(١) كان الملازم عند بطاركة قسطنطينية اكليريكياً يلزم البطريرك ليشهد على أعماله إلى ان أمسى هذا الوصف اسماً لمرتبة أو مقام عندهم .

ما نستعين به على ذلك وقد توفي جيورجيوس في نحو سنة ٨٠٠ م وقد طبع تأليفه في مدينة بون في ألمانيا سنة ١٨٢٩ م ويظهر أنه اعتمد فيه على تاريخ يوليوس الأفريقي الذي ذكرنا ترجمته وروى روهز بخر (ك ٥٣ من تاريخه) إن محاريبي الصور أجروا عليه أعذبة متنوعة وأن أثارها كانت باقية في جسمه وأن أنسطاس المكتبي أطراه كثيراً وقد قرظه المجمع السابع المسكوني .

أما بولس الشماس ويسمى فرنفريد فكان شماساً في كنيسة أكويلا وكاتباً للملك ديسيداريوس ملك اللومبردين الأخير اسره مع ملكه واشراف دولته الملك كرلس الكبير ملك افرنسة سنة ٧٧٤ م فاعزه وأكرم مثواه عنده ثم وقعت له شبهة بأمانته فنفاه إلى جزيرة ديوميدا ثم فر منها إلى أريكينزو والي بناقتو بايطاليا صهر الملك ديسيداريوس المذكور ثم دخل في رهبانية القديس مبارك ورضي عنه كرلس الكبير وكتب له رسالة شعرية يحقق له فيها محبته ورفعة منزلته عنده ويسأله أن يصلي لأجله وقد أدركته الوفاة سنة ٧٩٠ م وقيل بعد ذلك بسنين حتى أدرك القرن التاسع ومن تأليفه مختصر تاريخ الرومانيين في مجلدات كثيرة وتاريخ اللومبردين في ستة كتب يتضمن تاريخهم من خروجهم من سكاندنفا ويتتهي في سنة ٧٤٤ . وتاريخ أساقفة متر اقترحه عليه انجلرام أسقفها، وترجمة القديس غريغوريوس الكبير، وترجمة القديس كبريانس أسقف قرطجنة وغيرهما من تراجم القديسين والشهداء ومجموعة خطب اقترحها عليه كرلس الكبير وحض على اقتنائها بعد تأليفه، ويقال إنه ألّف له معجماً علمياً لم يطبع بعد وله ترنيم في فرض الكنيسة الرومانية يقال في عيد القديس يوحنا المعمدان. انتهى ملخصاً عن نطاليس اسكندر وروهر بخر في كلامهما عليه في تاريخيهما .

عد ٧٣٩

بيدا المكرّم

كثيراً ما ورد في كتبنا البيعية ذكر بيدا ولاسيما في تراجم القديسين وهو من مشاهير آباء الكنيسة في هذا القرن فافردنا هذا الفصل لترجمته . ولد بيدا في جزيرة سكوتسيا إحدى جزر بريطانيا سنة ٦٧٣ م ومنذ حداثته أقامه والداه في دير فرموت لاكتساب العلم والفضيلة ثم صرف حياته في دير جارو فائقن الفضيلة ونبغ في العلم ودرس الألحان البيعية على يوحنا الذي كان مرغماً في كنيسة القديس بطرس

بالواتيكان، ثم أرسله البابا أغاتون إلى انكلترا مع القديس بناديكتس بسكوب وتعلم اليونانية من توادورس رئيس أساقفة كنتبري والقديس أدريان الرئيس ورقاه القديس يوحنا أسقف هكسام إلى درجة الشماسية سنة ٦٩١م وعمره نحو تسع عشرة سنة وواظب على تكملة علومه إلى سنة ٧٠٢م حين رقاہ الأسقف المذكور إلى درجة الكهنوت وكان اخوته الرهبان يصرفون زماناً كل يوم في عمل اليد فكان يشاطروهم العمل وينكب في ما بقي من وقته على المطالعة والكتابة والصلوة والتأمل، وأخذ مذ صير كاهناً يؤلف الكتب لخير الدين ويعلم رهبان ديري فرموت وجارو وكل من أراد أن يشهد تعليمه من الرهبان حتى ربا عدد تلامذته على الست مئة. وكان منهم أساقفة ورؤساء وعلماء وكان ينكب في أوقات فراغه على التأليف وقد أخبر عن نفسه في موجز تاريخه لانكلترا أنه مذ رقي إلى درجة الكهنوت إلى حين تدوينه الكتاب المذكور (وكان ذلك في السنة ٥٩ من عمره) ألف كتباً كثيرة لمنفعة نفسه ونفع الآخرين وعدد تلك الكتب فكانت جملتها خمسة وخمسين كتاباً وموضوعات أكثرها تفسير أسفار العهد القديم والحديث وقلماً ترك فناً أو علماً ولم يكتب به من فلسفة ولاهوت وتاريخ وفصاحة ورياضيات وجغرافية وعلم هيئة فلكية ونحو شعر إلى غير ذلك فكان دائرة معارف حية ويمكن أن يقال فيه إنه هو الذي فتح كنوز العلوم في انكلترا وفرنسة وألمانيا وله تاريخ موجز عام من خلق العالم إلى أيامه وكتب تراجم القديسين في كل يوم من أيام السنة وتاريخاً مطولاً لكنيسة انكلترا وقسمه إلى خمسة أسفار تكلم فيه على سكان بريطانيا وأطوارهم القديمة والملوك الرومانيين الذين تولوا فيهم واعتناقهم إيمان المسيح ومشاهير أساقفتهم وفرغ من تأليفه هذا سنة ٧٣١م وكان وديعاً لين العريكة لطيف المعاشرة محبوباً فعلمه واتضاعه أكسباه منزلة رفيعة من الوقار وأبعده عن حسد الحاسدين وكتب إليه البابا سرجيوس رسالة أنيقة يستدعيه بها إلى رومية ليأنس بمرآه ويستشيريه في بعض المهام فلم يلبّ دعوته ولم يذكر هو هذه الدعوة ولا سبب إحجامه عن تلبيةها اتضاعاً ولم يكدر يدا من تأليفه إلا كتابه في حقب العالم الست فأنه قسم تاريخ العالم إلى ست حقب كما صنع غيره من المؤلفين أي من آدم إلى الطوفان ومن الطوفان إلى دعوة ابراهيم ومن دعوة ابراهيم إلى داود ومن داود إلى سبي بابل ومن سبي بابل إلى المسيح ومن المسيح إلى نهاية العالم وأتبع في ذلك حساب السنين على موجب الأصل العبراني تاركاً جانباً حساب الترجمة السبعينية على أن

السنين التي خلت من آدم إلى المسيح على موجب النص العبراني هي نحو من أربعة آلاف سنة فقط مع أن الترجمة السبعينية تجعل هذه المدة خمسة إلى ستة آلاف سنة فسخر منه بعض الجهلة واعتدوه مبدعاً وألفوا أغاني للتشنيع به فغمه نسبة البدعة إليه وكتب إلى أحد أصدقائه يعتذر عما قرفوه به ويبين رأيه ويفند زعم من يزعمون تبعاً لبعض اليهود أن العالم سينقضي بعد نهاية ستة آلاف سنة لأن الخُلص صرح بأن ذلك اليوم لا يعلمه إلا الآب .

وقد توفي بيذا سنة ٧٣٥ في ديره بجارو وعمره ثلاث وستون سنة ودفن في الدير المذكور ثم نقل رفاته إلى درهام وقد أطلق عليه وصف المكرم حتى ظن بعضهم سناً إلى هذا الوصف أن بيذا لم تحسبه الكنيسة في مصاف القديسين وليس ظنهم بصائب فإن في كتاب تراجم القديسين في الكنيسة الرومانية يعيد لذكره في ٢٧ أيار ويقال فيه (ذكر وفاة بيذا الكاهن المكرم الشهير بالقداسة والعلم) وقال بارونيوس في حواشيه على هذا الكتاب إن المؤلفين البيعين نعتوه دائماً بقديس واعتقدوا أنه في جملة مصاف القديسين وأحسن ما يقال في تغلب وصف المكرم عليه ما رواه الأب ريكاردي معلّم البلاط الرسولي في كتابه في الطلبات وهو أنه عرض لبيذا ما كان للقديس أفرام السرياني من أن بعض الكنائس أخذت تتلو في فروضها في حياته بعض الصلوات التي ألفها ولا يمكن إطلاق وصف القديس على الانسان ما دام حياً فكانوا يلقبونه بالمكرم فغلب هذا الوصف عليه بعد وفاته أيضاً وقد وصفه كثيرون من العلماء بقديس بعد وفاته كما مر .

الفصل الثالث

بدعة محاربي الصور والمجمع السابع المسكوني

عد ٧٤٠

بدعة محاربي الصور

أثار الوثنيون واليهود والمناويون وبعض أولي البدع قديماً حرباً على الصور على ما جاء في أعمال المجمع السابع المسكوني في المجلسين الأول والخامس على أن من تسبب بمحاربتها في هذا القرن إنما هو رئيس يهودي اسمه سارانتابك مضى إلى يزيد الخليفة ابن عبد الملك بن مروان فأغراه بأن يصدر أمراً ينهي به المسيحيين عن تكريم الصور في معابدهم لأن استعمال الصور محظور بسنة المسلمين فانقاد الخليفة لاغرائه وأصدر أمراً ينهي عن ذلك فقلق النصارى. ولما كان هؤلاء الخلفاء قد اعتادوا ترك النصارى وما يدينون لم يتشبث يزيد بتنفيذ أمره بل أغضى عنه فكان أحلم وأعدل من بعض المسيحيين ولاسيما الملكين لاون الأيسوري وابنه قسطنطين الزبلي اللذين أثاراً حرباً عواناً على الصور ومن يكرمها حتى زادا كثيرين في عداد الشهداء. فان الملك لاون كان قد وعد اليهود بأنه سيصنع كل ما يسألكونه ليعاونوه على ترقية إلى منصة الملك فبعد أن استوى عليها زينوا له أن تكريم الصور ضرب من عبادة الأوثان وقد نهت عنه الأسفار المقدسة في العهد القديم فانحاز إلى رأيهم وكان في ذلك الحين أن قسطنطين أسقف ناكولية بفريجية طردته رعيته من كرسية لآثامه فليجأ إلى الملك لاون وتزلف إليه بمالآته له على رأيه بابطال تكريم الصور فازداد الملك جرأة وأمر برفع الصور عن جدران الكنائس فهاج الشعب وماج فاضطرب الملك إلى أن يخاتلهم بقوله إنه لم يقصد أن ينتزعوا الصور من الكنائس بل أن يرفعوها إلى محل أعلى لا تتسخ من تقبيل الناس لها وعاد يحتال على تمزيق الصور

وحرقتها فناصره القديس جرمانس بطريك قسطنطينية وكتب إلى كثيرين من الأساقفة يحذرهم من ممالأة الملك ورفع رسالة إلى البابا غريغوريوس الثاني ينبهه بسوء نية الملك فأجابه مثنياً على غيرته ومشجعاً له على مقاومة هذا الضلال وثار سكان بلاد اليونان والجزائر على الملك فحاربهم وبدد شملهم وازداد قحة وجسارة واستدعى البطريك جرمانس إليه أملاً أن يستميله إلى رأيه أو يخاتله فذكره البطريك بيمينه عند تكليبه أن لا يغيّر شيئاً من تقاليد الكنيسة ولم يخش أن يقول له إن من يبطل تكريم الصور يعد دجالاً واستدعى الملك كثيرين من الأساقفة سنة ٧٣٠م وجعلهم يحكمون بالإنكفاف عن تكريم الصور غير مميزين بين الاكرام الإضافي والاكرام المطلق ولا بين التعبد الواجب لله وبين التكريم لقديسيه من أجله، وحاول أن يكره البطريك على إثبات حكمهم فأبى وأثر العزلة عن كرسيه على توقيعه على ذلك الحكم وانتزع عنه وشاحه وقال للملك اصنع بي ما بدا واطرحني بالبحر إن حسبتي كيونان فلا أحدث شيئاً يخالف الإيمان إلا بمجمع عام ومضى إلى بلاطه فأرسل الملك جنوداً يطردونه منه فانزوى البطريك في بيت أبيه يعيش بزي راهب وهناك أنهى حياته السعيدة. وتعيّد الكنيسة الرومانية لذكره في الثاني عشر من أيار وتعيّد كنيسة المارونية له في ١٣ منه .

وبعد وفاة القديس جرمانس اختار الملك خليفة له أنسطاس تلميذه الخوّن له وأدخله على كرسيه بالعنف والقسوة واکراه الجنود للرعية وأرسل أحد جنوده المسمى يوفينس يكسر صورة للمسيح على الصليب مقامة على باب بلاط الملك، ويقال إن الملك قسطنطين أمر بصنعها ذكراً للصليب الذي ظهر له في الجو فاسرعت إلى هناك جماعة النساء الفتيات تضرعن إلى يوفينس عن كسر تلك الصورة فأعارهن أذنًا صماء وصعد على سلم وضرب وجه الصورة بفأس كانت بيده فاقبلت النسوة السلم ورجم الجندي بالحجارة حتى مات وذهبن إلى دار أنسطاس يرجمنه بالحجارة ويصحن به يا عدو الحق الشرير قد اختلست الرئاسة لتنقض تكريم الصور. فشقت على أنسطاس هذه الإهانة وشكى النسوة إلى الملك فأماتهن مع عشرة رجال وكنيسة الروم تعيد لذكر هؤلاء في التاسع من آب. وأحرق بعد ذلك مكتبة كان الملوك أسلافه قد جمعوها وأقاموا عليها اثني عشر عالماً يعلمون العلوم المقدسة والشرائع وكانوا يجلونهم ويستشيرونهم في المشكلات فافرج الملك مجهوده باستغوائهم ولما لم يذعنوا لغوايته أحاط دار المكتبة بالخطب ليلاً وأقام

جنوداً على المنافذ إليها وأضرمت النار فايدت المكتبة ومن كان فيها وأمر أن يطلو بالكلس أو بالجص ما كان منها على الجدران فأبى كثيرون إلا المخالفة لأمره فقتل وعوّه كثيرون ونال اكليل الشهادة حيثئذ كثيرون من الاكليروس والعامّة .

وبلغت هذه الأخبار إيطاليا فالتقوا إلى الأرض صور الملك ووطئوها فاحتدم غيظاً وكتب إلى رومة أمراً بانتزاع الصور من الكنائس ومهدداً البابا غريغوريوس الثاني بالعزل والنفي إن مانع من تنفيذ أمره، فكتب الحبر الروماني رسالة عامة إلى جميع المؤمنين يحذرهم بها من هذا الضلال ومن مطاوعة الملك عليه وعزم سكان إيطاليا أن يقيموا ملكاً ويحملوه إلى قسطنطينية فيثّلوا عرش لاون ويملكوه مكانه، وامل البابا ارعواء لاون الملك عن غيه فجعلهم يحجمون عن حزمهم ثم توفي البابا غريغوريوس الثاني وخلفه سنة ٧٣١م البابا غريغوريوس الثالث ونراه أجاب الملك لاون عن رسالة أنفذها إليه وإلى سالفه قبيل وفاته مبيناً له خطأه ومخالفته سنة الكنيسة في تكريم الصور ومما قاله له « أتظن أنك تروعننا بقولك اني أبعث إلى رومة فاكسر تمثال القديس بطرس (هو تمثال قديم شهير كان في رومة) واقتاد البابا غريغوريوس مغلاً بالقيود كما فعل الملك قسطنطس بالبابا مرتينس فاعلم أن أحبار رومة قضاة السلم بين المغرب والمشرق وإننا لا نهرب تهديداً بل لا نبالي به » وكان الملك يهين رسل البابا إليه أو يمنع من بلوغ الرسائل إليه واتصل بحمقه ان جهز أسطولاً وأرسله ينكل باهل إيطاليا ورشا رجالاً من الأئمة ليقتلوا البابا فقيض الله ريحاً عاصفة أغرقت تلك السفن في الأدرياتيك وأحبطت مساعي من تعمدوا اغتيال الحبر الروماني. وتالت المصائب على الملك لاون فحدثت في مملكته مجاعات وأوبئة وحروب أخذ بها الخلفاء العباسيون كثيراً من أعمال ملكه وأصيب بأمراض كانت تعذبه إلى أن سقته كاس الموت سنة ٧٤١م .

وخلف لاون قسطنطين ابنه وهو الملقب بالزبلي (لأنه تغوط في ماء تعميده) فكان على شاكلة أبيه بل شراً منه وثار عليه أرتيياستي والي أرمينية وهو من أنسبائه وطرده من قسطنطينية وأخذ في إصلاح ما أفسد ولكن تغلب قسطنطين ثانياً على الملك فقبض على أرتيياستي وابنيه فسمّل عيونهم وفقاً عيني أنسطاس البطريرك بحكم الله العادل وطوفه في المدينة راكباً حماراً ووجهه إلى الوراء لكنه أعاده بعد ذلك إلى كرسيه إذ لم يجد شراً منه فعاجلته نقمة الله وقضي تعساً، وأراد قسطنطين أن يرى أعماله بسلطة الكنيسة فجمع كثيرين من الأساقفة سنة ٧٥٤م

في قسطنطينية وعقدوا فيها مجمعاً لم يكن فيه نائب عن الحبر الروماني ولا نواب عن بطاركة اسكندرية وأنطاكية وأورشليم وكان كرسي قسطنطينية فارغاً قضوا فيه بدسائس الملك وتهديداته وشر بعض الأساقفة بأنه لا يجوز تكريم صور القديسين والالتجاء إلى شفاعتهم لأن ذلك يحسب عبادة صنمية ولم يبق من أعمال هذا المجمع إلا دستور الإيمان الذي وضعه وقد ذكره المجمع السابع العام وقتله . وبعد هذا المجمع ازداد الملك جرأة وقسوة على الكاثوليكين وقتل وعذب كثيرين ونال كثيرون اكليل الشهادة واختص باضطهاده الرهبان فقر كثيرون منهم من قسطنطينية وما جاورها إلى دير القديس أوكسان في ضواحي نيكوميديا وكان رئيسه أسطفان رجلاً فاضلاً ورعاً فسأله الرهبان ما يصنعون فأجابهم لم يبق ناجياً من هذه البدعة إلا جزيرة قبرص وليسيا السفلى ومن طرابلس إلى صور إلى يافا ونابولي ورومة فأشير إليكم أن تنصرفوا إلى هذه الأصقاع وأنتم تعلمون أن أحبار رومة وبطاركة أنطاكية وأورشليم واسكندرية ينبذون هذا الضلال بل لم ينكفوا عن توبيخ الملك برسائلهم على جحوده الإيمان القويم وتورطه بهذه البدعة ويوحنا الدمشقي الكاهن الحكيم الورع الذي يسميه الملك منصور (باسم أبيه) ما برح يوبخ الملك ويحججه بأدلة السديدة. فهذا الكلام الذي رواه روه روه بخر عن تاريخ توفان يبين لنا أن بدعة محاربي الصور لم تنتشر كثيراً في سورية ومصر وإن الخلفاء المسلمين كانوا أحلم وأنصف من لاون الأيسوري وابنه قسطنطين الزبلي وعاجل الله الملك قسطنطين بنقمة فانه بينما كان ذاهباً لمحاربة البلغار أصابته جمرات في فخذه وقد صحبتها حمى محرقة فمات في طريقه في ١٤ أيلول سنة ٧٧٥ م .

فخلف قسطنطين الزبلي ابنه لاون الرابع فأظهر أولاً تشبّهه بالإيمان القويم تمكيناً للملكه وأباح الرهبان المشتتين العود إلى أديارهم ولما استتب الملك عاد يحذو حذو أبيه وجده إلا أن ملكه لم يستمر إلا خمس سنين وأصابه مرض أشبه بمرض أبيه فقضى به سنة ٧٨٠ م .

وخلف لاون الرابع ابنه قسطنطين الخامس وكان حينئذٍ حدثاً عمره عشر سنين فكانت أمه ايرينا تدبر الملك وكانت مشهورة بالتقوى والورع والتشبت بالإيمان القويم فكتبت باسمها واسم ابنها الملك إلى البابا أديانس سائلة إياه أن يأمر بعقد مجمع مسكوني يشهده بنفسه أو بنوابه لاصلاح شؤون الكنيسة فأجابها الحبر الروماني مثنياً على غيرتها وواعداً بارسال من ينوب عنه في هذا المجمع (كل ما في

هذا الفصل ملخص عن تواريخ توافان وشدرانس وزاناراس وغيرهم نقلاً عن تواريخ نطاليس اسكندر وروهر بخر ومعجم التاريخ (لكاران) .

يجدر بنا أن نذيل هذا الفصل بكلام موجز يبين حقيقة هذا البحث ولزوم نبذ هذه البدعة أن الدين المسيحي والذوق السليم يرشدانا إلى أن العبادة السامية المعبر عنها في اليونانية بلاتريا أي التعبد السامي لا تحق إلا لله خالق السماء والأرض وما فيها على أنهما يرشدانا أيضاً إلى أنه يسوغ لنا أن نكرم بعد الله ولأجل الله بعض المخلوقات التي أبدى بها قداسته وجوده وقدرته كالملائكة والقديسين الفائزين بسعادته بل يقضى علينا الدين والعقل أن نكرم والدينا المحسنين إلينا وملوكنا في الأرض أيضاً وأن في جملة صنوف هذا التكريم أن نصور صورتهم ونكرمها إكراماً يعود إليهم طبعاً لا إلى النسيج أو الورق المصورة عليه الصورة فكيف لا يسوغ إذاً للمسيحي أن يكرم صورة المسيح أو العذراء والدته أو القديسين أصفياه كما يكرم الابن صورة أبيه أو أمه أو المحسن إليه صورة من أحسن إليه أو أحد خدام الملك أو رعيته صوره وما يبدىه الانسان من الإكرام ينظر فيه إلى نيته وندر أن يكون بين أهل الحضارة من يعتقد أن الصورة هي المصور بها نفسه وإن وجد بين أهل الهمجية من هو كذلك لزم إرشاده إلى ما هو معقول لا النهي المطلق عن تكريم الصور الذي لا تنكر منفعته بإيقاظ عواطف العبادة وذكر فضائل المصور، ولم ينه الله بوصاياه عن اتخاذ صورة أو تمثال إلا لنبد عبادة الوثنيين التي كانوا يعتقدون بها أن أصنامهم قوة بنفسها وإن كانت خشباً أو خزفاً أو نسيجاً بل نراه تعالى أمر أن يصنع في مظلة العهد القديم وفي الهيكل كاروبين ونقوشاً وأمر أن تقام الحية النحاسية إلى غير ذلك ومنذ صدر النصرانية استعملت الكنيسة الصور في المعابد ولذلك أمثال كثيرة ذكرها ثقات وقد كشف في مدافن رومة ومخباتها عن كثير منها وقد نقشت قبل ظهور بدعة محاربي الصور بقرون .

عد ٧٤١

الجمع السابع المسكوني وهو النيقوي الثاني

لما بلغت أجوبة البابا أدريانس إلى الملكة والملك وترازيوس بطريرك قسطنطينية حاوية الترخيص بعقد مجمع مسكوني أرسل البطريرك كهنة متكرين إلى بطاركة

أنطاكية وأورشليم واسكندرية يستدعيهم أن يشهدوا الجمع إن استطاعوا أو يوفدوا نواباً عنهم إليه وكان الخلفاء وملوك الروم حينئذ على عداوة مستمرة فاضطرّ رسل ترازبوس أن يتزوا لئلا يحسبوا جواسيس فيعرضوا نفوسهم ومن حلوا عنده للخطر إلى أن دخلوا أحد أديار فلسطين واجتمعوا برهبانه واسرّوا إليهم بغرضهم فارتاع أولئك الرهبان وسألوهم أن يحرصوا على كتم سرهم وأن لا يطعموا في مشافهة البطارقة لئلا يعود ذلك عليهم وعلى المسيحيين بالضرر، فشق على رسل البطريرك أن يعودوا إليه وهم لم يتموا شيئاً مما أراد، وسألوا أولئك الرهبان أن يختاروا منهم من ينوب عن البطارقة في الجمع ويعلموا البطارقة بما صنعوا فاعتذر الرهبان أولاً وألحّ الرسل فاختراروا كاهنين يوحنا وتوما أمّا يوحنا فكان شهيراً بعلمه وفضيلته وكان قبل ترهبه كاتباً لبطريرك أنطاكية وأمّا توما فكان كاتباً لبطريرك اسكندرية ثم ترهب وصار رئيساً لدير القديس أرسانيوس في مصر وكان يوحنا نائباً عن توادوريطس بطريرك أنطاكية، وعن إيليا بطريرك أورشليم وتوما نائباً عن بوليتيان بطريرك اسكندرية ونرى توقيعهما في أعمال الجمع: «يوحنا وتوما نائباً الكراسي الثلاثة الرسولية في المشرق» فكانت البطارقة الثلاثة عهدوا إليهما معاً في ما بعد بالنيابة عنهم وعاد الرسل وهذان النائبان إلى قسطنطينية. هذا ما رواه لاباي مجلّد ٧ صفحة ١٧١ .

وعين اليوم الأوّل من شهر آب سنة ٧٨٦م لافتتاح الجمع في كنيسة الرسل في قسطنطينية وأخذ الأساقفة يجتمعون وكان أكثرهم ملوثاً بيدعة محاربي الصور وكان أكثر الشعب وجنود الحرس على شاكرتهم. وقد وثب الجنود يوم افتتاح الجمع على الكنيسة منتضين سيوفهم مهددين المجتمعين، فرأت الملكة والملك ان الأولى تأخير افتتاح الجمع إلى وقت آخر. وكان قاصدا البابا بلغا إلى صقلية فكتبت الملكة إليهما أن يتوقفا هناك وأمسكت قاصدي بطارقة المشرق في قسطنطينية واستأنت في شهر أيلول جنوداً آخرين من تراسة وابتعدت من العاصمة الجنود الذين كانوا في خدمة حميها قسطنطين الزبلي وقد اشربوا ضلاله، ولما بلغ الجنود المبعدون الأناضول انتزعت سلاحهم وطردهم من الجندية وأرسلت كلاً إلى بلاده وألحقت به عياله، ولما أمنت من الجنود ورؤسائهم أرسلت في شهر أيار سنة ٧٨٧م تستدعي الأساقفة إلى الاجتماع في نيقية بيتينا فاجتمعوا في مدة الصيف وافتتح الجمع في ٢٤ أيلول سنة ٧٨٧م في كنيسة القديسة صوفيا، وكان البابا أدريانس قد أرسل

قاصدين يقومان مقامه في الجمع وهما بطرس رئيس كهنة الكنيسة الرومانية وبطرس رئيس دير القديس سابا برومة وأصبحهما برسالتين: الأولى إلى الملك والمملكة، والثانية إلى البطريرك ترازْيوس.

وقد ذكر في أعمال المجلس الأول اسما قاصدي البابا ثم اسم ترازْيوس البطريرك القسطنطيني ثم أسماء نائبي بطاركة المشرق، وكان في الجمع غير هؤلاء نحو من ثلاثمائة أسقف وكثيرون من رؤساء الرهبانيات والأديار، وكان من قبل الملك مفوضان وطلب أساقفة صقلية أن يفتح ترازْيوس البطريرك الكلام ووافقهم الباقون على ذلك فاستهّل بالشكر لله على ما أولى الكنيسة من الحرية بعناية الملك والمملكة، وحضّ الأساقفة أن ينبذوا كل أمر محدث وأن يتشبثوا بتقليد الكنيسة الصحيح، وسمح لمن كان من الأساقفة في السنة السالفة قد حاد عن جادة الحق بأن يدخلوا الجمع ويوردوا ما لهم من الحجج، ثم تليت رسالة الملك والمملكة إلى آباء الجمع حيث كانا يأمران أن تتلى رسائل الحبر الروماني ليكون معلوماً ما تعتقده الكنيسة الكاثوليكية. ومن بعد تلاوة هذه الرسائل تقدّم باسيليوس أسقف أنكورا وتوادورس أسقف ميرا وتوادوسيوس أسقف امريون (مدينة بغلاطية) وكانوا في السنة السالفة يدافعون عن محاربي الصور فأعلنوا ارعواءهم عن ضلالهم وعودهم إلى التمسك بعقيدة الكنيسة الكاثوليكية، فأمرهم الجمع أن يجلسوا في كراسيهم ثم تقدّم سبعة أساقفة آخرون وصرّحوا بندامتهم على مما لأتهم محاربي الصور وبعد تلاوة قوانين الجامع السالفة وكلام بعض الآباء القديسين في هذا الشأن أمر الجمع هؤلاء الأساقفة أن يقرأوا صك ارعوائهم فقرأوه، فقال ترازْيوس إنّ صكّ دعواهم مستوفٍ وسوف يقبلون في جملة الآباء في مجلس آخر إن لم يكن مانع.

وعقد المجلس الثاني في ٢٦ أيلول وأتى غريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة الذي كان مترئساً في مجمع قسطنطينية سنة ٧٥٤م فأقرّ بغلطه وطلب المسامحة فلامه ترازْيوس على سوء صنيعه في الجمع المذكور، وأجلّ قبوله إلى المجلس المقبل ريثما يرفع إلى الجمع صك ارعوائه، ثم تليت رسائل البابا أدريانس إلى الملك والمملكة حيث كان يثبت تكريم الصور مبيناً أنّ الكنيسة تلقت ذلك من القديس بطرس الرسول، ثم رسالة هذا البابا إلى ترازْيوس البطريرك وسأله القاصدان أن يثبت كل ما انطوت عليه رسالة البابا فأجاب أنّ الحبر الروماني يبيّن في كلتا الرسالتين

بياناً شافياً تقليد الكنيسة في اكرام الصور، وأنه هو فحص بنفسه عن آيات الأسفار المقدسة وأقوال الآباء المؤيدة ذلك، وأنه متيقن لزوم تكريم الصور تكريماً إضافياً والتعبد لله عبادة اللاتريا وتابعه آباء المجمع كلهم على هذا الإيضاح وعلى اثبات رسائل البابا .

وعقد المجلس الثالث في ٢٨ أيلول سنة ٧٨٧ وقرأ غريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة صك ارعوائه وجلس في جملة الأساقفة، وكذلك كان للأساقفة السبعة الذين مرّ ذكرهم في المجلس الأول ثم تليت رسالة ترازبوس إلى البطارقة الشرقيين وجواب هؤلاء إلى البطريرك القسطنطيني، وتبينّ منه أنهم مدعنون للمجامع الستة المسكونية وناشدون مجمع قسطنطينية الذي عقد سنة ٧٥٤م وسماه أصحابه المجمع السابع العام. ومما قالوا في هذا الجواب إن غيبة بطارقة المشرق الثلاثة والأساقفة الخاضعين لهم عن أن يشهدوا المجمع لا ينبغي أن توقف الآباء عن الاجتماع إذ لم تؤذن لهم حالهم السياسية بالمسير إلى أنحاء قسطنطينية كما لم يشهدوا للأسباب المذكورة نفسها المجمع السادس المسكوني، ولم يتوقف هذا المجمع عن بت ما به من عقائد الدين ولا سيما أن الخبر الروماني الأقدس راضٍ عن المجمع وقد أرسل إليه قاصديه وتليت حينئذ رسالة أخرى كان توادورس بطريرك أورشليم أرسلها على سبيل العادة إلى بطريركي اسكندرية وأنطاكية، وبها يصروح بوجود تكريم صور القديسين. وصرّح قاصد البابا بأن هذه الرسائل مطابقة لتعليم البابا أدريانس والكنيسة الكاثوليكية ..

وعقد المجلس الرابع في ١ تشرين الأول سنة ٧٨٧م فأحضر البطريرك ترازبوس كثيراً من كتب الآباء القديسين ليتبين منها تقليد الكنيسة في بحث تكريم الصور وبُدئ في مطالعة آيات الأسفار المقدسة حيث الكلام في الكارويم على تابوت العهد وفي الهيكل، ثم تليت فقرات شتى من كتب الآباء القديسين كيوحنا فم الذهب وغريغوريوس نيبصص النزينزي وكيرلس الاسكندري، ثم تقرير كتبه القديس اثناسيوس في المعجزات التي صنعها الله بواسطة صورة المصلوب في بيروت التي أجرى اليهود عليها الأعذبة التي أجراها قداماؤهم على المسيح كما مرّ في عد ٧٣٥ والمعول عليه الآن أن القديس اثناسيوس كاتب هذا التقرير إنما هو أسقف بيروت وقتئذٍ ثم تلوا فقرات أخرى كثيرة وفي جملتها فقرة من تأليف لاونس أسقف نيوبولي بقبرص يبيّن بها أن تكريم الصور لا يراد به الصورة بنفسها بل المصور بها حيث

قال: « إنَّ يعقوب قَبْلَ قميص يوسف لا حَباً أو تَكْرمة لهذا الثوب بل حَباً بيوسف الذي كان يَحْتَلِّإِلَيْهِ أَنَّهُ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ كَانَ يَقْبَلُ قَمِيصَهُ » .

وعقد المجلس الخامس في ٤ تشرين الأول وتليت فيه فقرات أخرى من كتب الآباء والعلماء يَتَبَيَّنُ مِنْهَا أَنَّ محاربي الصور اقتدوا باليهود والوثنيين والمناوئين باعتقادهم أَنَّ تكريم الصور عائد إلى الصور بنفسها مع أَنَّ الكنيسة الكاثوليكية اعتقدت وتعتقد أَنَّ هذا التكريم عائد إلى القديسين ولاسيما الله الذي أظهر قوته، وجوده فيهم إِذْ مِنْ عَلَيْهِمْ بِنِعْمَةٍ لِيُثْبِتُوا فِي مَحَبَّتِهِ وَيَتَحْمَلُوا مِنْ أَجْلِهِ مَا تَحْمَلُوهُ مِنَ الْمَشَاقِّ وَالْأَعْذَبَةِ أَيْضاً .

وعقد المجلس السادس في ٦ من تشرين الأول وتلي فيه تفنيد دستور الإيمان الذي وضعه مجمع قسطنطينية سنة ٧٥٤م ولاسيما تفنيد زعم أساقفة هذا المجمع بوصف مجمعهم بالمجمع السابع المسكوني مع أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ نَائِبٌ عَنِ الْحَبَرِ الرُّومَانِيِّ وَلَا أَحَدٌ مِنَ إِسَاقِفَةِ الْمَغْرِبِ وَلَا أَحَدٌ مِنَ بَطَارِكَةِ الْمَشْرِقِ أَوْ نَوَابِ عَنْهُمْ وتليت فقرات شتى من الأسفار المقدسة وكتب الآباء تبين وجوب هذا التكريم وقدمه في الكنيسة وبرأته من كل وصمة بعبادة الأوثان والفرق بين اكرام الصور والتعبد لله .

وعقد المجلس السابع في ١٣ تشرين الأول سنة ٧٨٧م وتلي فيه دستور الإيمان ورسم المجمع في شأن الصور أمَّا دستور الإيمان فلم يكن إِلا دستور الموضوع في مجمع نيقية الأول مزيداً عَلَيْهِ الْحَرَمَ لِلْمُبْدِعِينَ الَّذِينَ نَشَأُوا . بعد ذلك ولاسيما نسطور وأوطيخا وديوسقورس وسرجيوس وقورش وغيرهم وأما رسم المجمع للمؤمنين في شأن الصور فملخصه ما يأتي: « إِنَّا بعد أَن بَدَلْنَا الْعَنَاءَ وَالْجِدَّ وَكُلَّ مَا أَمَكُنْ مِنَ التَّدْقِيقِ نَحْكُمُ أَنَّ الصُّورَ سَوَاءٌ كَانَتْ بِالْأَلْوَانِ أَمْ بِمَادَّةٍ أُخْرَى يُلْزَمُ عَرْضُهَا لِتَكْرِيمِ الْمُؤْمِنِينَ لَهَا كَصُورَةِ صَلِيبِ مَخْلَصِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ فِي الْكَنَائِسِ وَعَلَى الْآتِيَةِ وَالْمَلَابِسِ الْمَقْدَسَةِ وَعَلَى الْجُدْرَانِ وَفِي الْبَيْتِ وَالطَّرِيقِ نَعْنِي صُورَةَ سَيِّدِنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَأُمَّهُ الْقَدِيسَةِ وَالْمَلَائِكَةِ وَجَمِيعِ الْقَدِيسِينَ فَإِنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا بِتَوَاتُرٍ يَحْمِلُنَا عَلَى تَذَكُّرِ مَنْ صَوَّرُوا بِهَا وَيُوقِظُ فِي النَّاضِرِينَ عَوَاطِفَ الْحُبِّ وَالْإِجْلَالِ لَهُمْ وَيُلْزَمُ أَنْ يَقْدَّمَ لَهُذِهِ الصُّورَ الْإِكْرَامَ وَالْإِجْلَالُ لَا التَّعْبُدَ الْحَقِيقِيَّ الْمَعْرُوفَ بِاللَّاتَرِيَا الَّذِي يَخْصُ بِهِ الْإِيمَانُ الطَّبِيعَةُ الْإِلَهِيَّةُ وَلَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ لغيرها عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ تَقْدِيمَةُ الْبُخُورِ وَإِسْرَاجِ

الأنوار أمام هذه الصور كما يكرم بذلك الصليب والأنجيل وغير ذلك من الأشياء المقدسة. وكل ذلك مطابق لما مشى عليه القدماء الصالحون. فان تكرم الصورة عائد إلى من صور بها ومن انحنى أمام صورة انحنى أمام من تمثله فهذا هو تعليم الآباء القديسين والكنيسة الكاثوليكية ومن جسر أن يعتقد أن يعلم خلافاً لذلك أو كان ناقضاً كالمبدعين تقليد الكنيسة أو أحدث تعليمًا مضاداً لذلك أو انتزع شيئاً مما يحفظ في الكنائس كالأنجيل والصليب والصور أو ذخائر القديسين الشهداء أو استعمل الآنية المكرسة أو الأديار استعمالاً عالمياً فنأمر أن كلاً من هؤلاء يحط عن مقامه إن كان أسقفًا أو إكليريكياً ويحرم إن كان راهباً أو عامياً» فوقّع قاصد البابا وجميع أساقفة المجمع على هذا المرسوم وكان عدد الأساقفة ثلاثمئة وخمسة أساقفة وفي جملتهم بعض كهنة وشمامسة كانوا نواباً للأساقفة الغائبين وحرّموا أخيراً المجمع الذي عقد في قسطنطينية سنة ٧٥٤م وكتب بعد ذلك ترازبوس البطريرك وأساقفة المجمع رسالتين الأولى إلى الملك والملكة والثانية إلى اكليروس قسطنطينية. فاستدعى الملك والملكة البطريرك والأساقفة إلى قسطنطينية فاجتمعوا في ٢٣ تشرين الأول بحضرتيهما وتلي باحتفاء عظيم دستور الإيمان ورسم المجمع ووقعت الملكة إيرينا ثم ابنها قسطنطين على ذلك وقد فرض هذا المجمع اثنين وعشرين قانوناً موضوعها بعض التهذيب البيعي ورفع ترازبوس البطريرك إلى البابا أدريانس نسخة من أعمال المجمع ورسالة ضمنها الشرح لكل ما كان فيه فاثبت الحبر الروماني هذا المجمع وارسل نسخاً من أعماله مترجمة إلى اللاتينية إلى الملك كرلس الكبير وغيره من ملوك وأمراء الكنيسة اللاتينية.

وفي سنة ٧٩٤م استدعى الملك كرلس كبير أساقفة مملكته إلى الاجتماع في فرنكفرت فاجتمع أساقفة افرنسة وإيطاليا وألمانيا وانكلترا وكانوا نحواً من ثلاثمئة أسقف وشهد الملك بنفسه المجمع فحرم الأساقفة بعض المبتدعين وفرضوا ستة وخمسين قانوناً ونفذوا في القانون الثاني منها المجمع النيقوي الثاني وسموه القسطنطيني مغترين بأن هذا المجمع أوجب للصور التعبد السامي المعروف باللاتريا الذي لا يحق إلا لله ودونك الفاظ هذا القانون: «سئل ما القول في المجمع الحديث الذي عقده الروم في قسطنطينية حيث قيل فليكن محروماً من لا يقدم لصور القديسين الاكرام والسجود للذين يقدمان الثالث الأقدس والجواب أن آباء هذا المجمع مجمعون على نبد هذا التعليم ويحرمون كل نوع من هذا السجود

والتعبد». وما لا يمتري فيه أنَّ الأساقفة المجتمعين في فرنكفرت لم ينبذوا ما حكم به مجمع نيقية من الاكرام للصور إلاَّ لأنَّه قام في ذهنهم غلطاً أنَّ مجمع نيقية أوجب للصور عبادة اللاتريا، مع أنَّ هذا يخالف كل الخلاف لما حكم به في نيقية. فالسواد الأعظم من الأساقفة المجتمعين في فرنكفرت كانوا يجهلون اليونانية والترجمة التي كانت بين أيديهم لم تكن مطابقة للأصل وقد قرأوا فقرة من كلام قسطنطين أسقف قبرص هكذا: «أنا أقبل وأكرم الصور المقدسة والموقرة كما أكرم واعبد الثالوث المحيي والمتساوي جوهرأ» والنص الأصلي الصحيح هو «أنا أقبل باكرام الصور المقدسة والموقرة واقدم تعبد اللاتريا للثالوث الأقدس وحده واحرم من يفتكر أو يقول خلافاً لذلك» وعليه فلم تكن مخالفة مجمع فرنكفرت لمجمع نيقية إلاَّ من قبيل الغلط والخطأ في الترجمة. (انتهى ملخصاً عن معجم الجامع للأب باليا من طبعة الأب مين).

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

عد ٧٤٢

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

إنَّ ابعاد الملك يوستينيانوس الاخرم اثني عشر ألفاً من شبان الموارنة عن لبنان كما مرَّ في تاريخهم في القرن السابع قد اضعف قوتهم وأوهن عزيمتهم وعاد بضرر كبير على مملكة الروم إذ كانوا بمثابة سد من نحاس لها كما قال كثيرون من المؤرخين الروم أنفسهم على أنَّ هذا لا يخلو من نفع، فقد احكمت التجارب الموارنة وعلمتهم أن لا يصغوا لوساوس الأجانب وأن يؤثروا الطاعة والانقياد للحكومة السائدة بهم على المعاندة والمخالفة لها وعلى مرضاة أصحاب السياسة

الذين لا يهمهم إلا أغراضهم ، فإذا قضوا منهم أوطارهم أحرقوا الآلة نفسها التي استخدموها لنيل تلك الاغراض إذا اقتضت ذلك مصلحتهم فتمثل الموارنة بهذه الامثولة وكفوا عن تلك الغزوات ، وشن تلك الغارات ، ولزموا السكينة ، واخلصوا في الطاعة لسلطة الخلفاء الأمويين والعباسيين ، وتفرغوا لحراثة اراضيهم ، وتربية ماشيتهم آمنين ، متحصنين بلبنان. ويظهر أنّ حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان ، وتعذر احراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم ، والمزاحمة لهم في امتلاك اراضيهم وغاباته فعاشوا فيه بهذا القرن وما يليه آمنين محافظين على دينهم وشأنهم ، ويظهر أنّ الخلفاء كانوا يولون عليهم رجالاً منهم أو ولاية مسيحيين ، بل حقق العلامة السمعاني في الكتاب الرابع من مكتبة الناموس صفحة ٣٩٤ أنّ الخلفاء أبقوا حيثث والياً على المردة من ابناء ملتهم كما كانوا قد ابقوا بطرس الشريف المسيحي والياً في بلاد العرب الحجرية وبتلويون في الارض المقدسة والياً على بعض المدن، وعزز السمعاني قوله بشهادة ابي الفرج بن العبري في القسم الأول من تاريخه السرياني. وذكر بعضهم امراء للموارنة بعد ابراهيم ابن اخت القديس يوحنا مارون الذي توفي سنة ٧٢٨م مذ القرن الثامن إلى نهاية القرن الرابع عشر، ولكن لما كنا لا نقدر أن نثبت ذلك بأدلة قاطعة عدلنا عن ذكر هؤلاء الأمراء مقتصرين على القول اننا لا نجد في لبنان أثراً من تلك الاعصر يدل على اقامة حكام أو رعايا من المسلمين في انحاء لبنان قبل القرن الثالث عشر فلا أثر فيها لجوامع أو مآذن قبل القرن المذكور وما لا يمتري فيه المؤرخون أنّ المسلمين المقيمين على الشواطئ البحرية من صيدا إلى طرابلس أو في سفح لبنان الغربي إنما كانت إقامتهم بعد أن طرد الملوك المسلمين الصليبيين من هذه الأمصار فاسكنوا عشائر من التركمان وغيرهم من المسلمين في شواطئ البحر ليكونوا حاجزاً بين الافرنج إن عادوا إلى سورية وبين نصارى لبنان فمن هؤلاء من بقي إلى الآن من المسلمين في كورة طرابلس السفلى والبترون وجبيل وآثار الجوامع في المحلات المذكورة وفي ساحل علما وغيرها إلى صيدا .

على أنّه لا يمكننا أن نصحح ما ورد في تاريخ الموارنة الذي طبع حديثاً في بيروت من أنّه في سنة ٧٥٢م سار المقدم الياس إلى البقاع فنهب تلك القرى وقتل أهلها فأرسل صاحب الشام إليه رسولاً ليعقد معه صلحاً ثم أرسل فكبسه في حين غفلة وقتله، وبعد رجوع عسكر الشام رجعت القرية تسمى قب الياس أي قبر

الياس وأنه أقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن أخت المقتول، فثارت عليه عساكر الشام وكانت وقعة بينه وبينهم في قرية المروج ودامت الحرب مدة طويلة فإن صبح خبر هذه الأحداث فنظئها كانت في أواخر القرن السابع لا في منتصف القرن الثامن هذا وقد روى كثيرون أن اسم قب الياس مكسر عن قبر الياس وإن القرية سميت بذلك لقتل أحد أمراء المردة ودفنه فيها. إلا أن ذلك لم يكن في منتصف القرن الثامن، وأكبر شاهد له ورد بعيد ذلك في الكتاب المذكور نقلاً عن تاريخ ابن القلاعي أن قتل الأمير الياس وولاية ابن أخته الأمير سمعان كانا في أيام عبد الملك بن مروان الذي توفي في أوائل القرن الثامن وفي أيام يوستينيانس الأخرم الذي كانت وفاته سنة ٧١١م. وما يلزم الانتباه إليه الغلط الواقع في خبر الأمير سمعان المذكور إذ بعد أن قيل إنه كان في أيام عبد الملك بن مروان قال إنه مضى يزور يوسف أمير جبيل فلاقاه البطريك غيغوريوس الحلاتي الذي كان في عهد البابا أثنوسيسيوس الثاني الجالس يومئذ سنة ١١٣٠م. فرياسة البطريك غيغوريوس الحلاتي على الموارنة في القرن الثاني عشر لا شك فيها ولكن أين هو من الأمير سمعان الذي كان في أواخر القرن السابع؟ فلا مراء في أن النسخة التي نقل عنها من طبع تاريخ الموارنة لم تكن صحيحة، فروى الطابع ما رواه عنها على علاته ولم يتعرض تأدباً لرد قول رآه معزواً إلى ابن القلاعي، لكننا على يقين أن ابن القلاعي لم يقل ذلك بل الناسخ جمع بين خبر الأمير سمعان وخبر آخر ذكره ابن القلاعي عن أمير جبيل المذكور وبطريك الموارنة في أيامه في القرن الثاني عشر إلى أن نقول إن المراد بالبطريك غيغوريوس لا الحلاتي بل غيغوريوس آخر. فإن الخامس في سلسلة بطاركتنا بعد يوحنا مارون يسمى غيغوريوس أيضاً كما ستري. وحيث يلزم أن يكون الأمير سمعان لا سمعان الذي كان في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن بل سمعان آخر والله أعلم.

عد ٧٤٣

بطاركة الموارنة في القرن الثامن

قد نظم سلسلة بطاركة الموارنة العلامة البطريك أسطفانس الدويهي في مقالة أفردها لذلك وترجمها من العربية إلى اللاتينية يوسف عسكر الكاهن الماروني الحلبي وطبعها في باريس سنة ١٧٣٣م، وقد روى البطريك سمعان عواد الذي دوّن ترجمة

الدويهي أنَّ هذا البطريرك طاف بنفسه أكثر القرى الكبرى التي يسكنها الموارنة وقلب ما كان في كنائسها أو منازل الوجهاء منها من الكتب القديمة وكانت عادة النساخ القدماء أن يذيلوا ما ينسخونه من الكتب باسم بطريرك الطائفة ومطران الأبرشية في أيامهم فاستعان الدويهي بهذه التعليقات على ما دوّنه في مقالته المذكورة .

وقد نظّم العلامة السمعاني أيضاً سلسلة بطاركة أنطاكية الموارنة في مقالة كتبها بالعربية وطبعها القس يوحنا نطين الراهب الحلبي اللبناني سنة ١٨٨١م في رومة بمطبعة مجمع نشر الإيمان المقدّس، ثمّ ذكر السمعاني سلسلة هؤلاء البطاركة في كتاب المجمع اللبناني (الذي هو مؤلفه) من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن الذي عقد المجمع اللبناني في أيامه سنة ١٧٣٦م. وقلّ ما كان من الخلاف بين روايتي الدويهي والسمعاني ونشر المعلّم رشيد الشرتوني الماروني هذه السلسلة فصلاً متتابعة في مجلة «المشرق» في بيروت للآباء اليسوعيين الأفاضل ثمّ ضمّها إلى درج واحد. وقد ذكر العلامة لكويان (في مجلّد ٣ صفحة ٤٩ وما يليها من مؤلفه الموسوم بالشرق المسيحي) سلسلة بطاركة الموارنة معتمداً فيها على مقالة البطريرك أسطفانس الدويهي التي ترجمها يوسف عسكر المذكور إلى اللاتينية ونحن نعتد هنا رواية لكويان لاعتقادنا إياها أصح وأسلم من النسخ المخطوطة وأقرب إلى الأصل الصحيح وتزيدها شهادة لكويان وعسكر تأييداً وتحققاً.

بعد أن توفي الله القديس يوحنا مارون سنة ٧٠٧م اجتمع أساقفة الموارنة فاختروا قورش ابن أخته بطريركاً مكانه فكتب إلى الحبر الروماني يلتمس درع الرئاسة والتثبيت فأرسله إليه، وقد جاء في ترجمة القديس يوحنا مارون (في المكتبة الشرقية مجلّد ١ صفحة ٤٩٨) أنّه عند مضيّه إلى دير القديس مارون أخذ معه ابن اخته قورش فأتشع بالشوب الرهباني. فبعد وفاة خاله جعلوه خليفة له فدبر رعيته تدبير الأبرار المجاهدين إلى حين وفاته التي لا نعلم متى كانت، فاختر الأساقفة خليفة له جبرائيل الأوّل. قال لكويان روى الدويهي أنّه بعد وفاة قورش انتخب جبرائيل من جبل لبنان وهذا وجدناه في بعض الكتب القديمة وأنّ الملكية عادوا بعد موت يوستنيان الثاني إلى الاعتقاد بطبيعتين ومشيعتين بالمسيح وأنهم اختاروا في أيام قسطنطين الزبلي بطريركاً جعل إقامته في دمشق .

وبعد وفاة جبرائيل اختير يوحنا الثاني وشُيِّ مارون أيضاً لأنه كان من رهبان القديس مارون وقد كتب عنه ابن القلاعي في قصيدته في الجامع :

وبعدُ، قام مارون ثانياً من الدير الرباني . معلم شاطر ملفاني . يدعى يوحنا البار . وجاء ليانوح وبطرك كان . ومسكنه في جبل لبنان . وإيمان مارون ما تغيّر . وعندما رأى نفسه قريباً من الموت استدعى الأساقفة والكهنة واختار لهم بطريكاً يدعى يوحنا، وهو الثالث بهذا الاسم وكان من قرية دملصا ببلاد جبيل . قال الدويهي وعنه لكويان إنَّ هذا وجد مدوناً في كتاب قديم كتب فيه خبر وفاة يوحنا الثاني المذكور .

قال لكويان (في المحل المذكور) قال الدويهي إنَّ هؤلاء البطاركة لا شكَّ في أنَّهم توطنوا في جبل لبنان وخلف أحدهم الآخر، ويؤيِّد ذلك رسالة كتبها الأسقف جبرائيل القلاعي إلى القس جرجس بن بشاره فصل ١١ سنة ١٤٩٥م، وقد وجدنا أسماءهم مدونة في صفحة كتبت باللغة السريانية وكانت هذه الصفحة عند سالفنا البطريك جرجس من قرية بسبعل مأخوذة عن كتاب كتبه رجل اسمه داود بن ابراهيم سنة ١٦٢٦ يونانية توافق سنة ١٣١٥ للميلاد، فهو قبل أيام ابن القلاعي بنحو مئة وثمانين سنة واطلعنا أخونا المحترم جرجس حبقوق مطران العاقورة على نسخ كثيرة تذكر هؤلاء البطاركة ولم يتعيَّن بها مدة بطريركيتهم فكتبنا كما وجدنا . اما القس جرجس بن بشاره المذكور فكان مارونياً وانحاز إلى اليعاقبة فكتب له الأسقف جبرائيل القلاعي كتاباً مستقلاً يفنِّد به مذهب اليعاقبة، ويبين له أصل الموارنة وثبوتهم في الإيمان الكاثوليكي .

ولما كنا لا نعلم عدد السنين التي دبر بها كل من هؤلاء البطاركة الأمة المارونية افترضنا أنَّهم كانوا في هذا القرن الثامن تقريباً فوقفنا عند ذكرهم في تاريخ هذا القرن .

عد ٧٤٤

توافلس الرهاوي الماروني

قد أخذ السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلَّد ١ صفحة ٥٢١) ترجمة توافلس هذا عن أبي الفرج بن العبري في تاريخ الدول لسنة ١٦٥ للهجرة، فقال إنَّه اشتهر

سنة ٧٧٠م: «وحكي أنه لما هم المهدي بالخروج إلى ماسبذان تقدم إلى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت إلى توفيل بن توما النصراني المنجم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدي (يراد بالمنجم الخبير بعلم النجوم ولا يخفى ما كان لهم في ذلك العصر من الرغبة في رعي النجوم) قائلة له إنك أشرت على أمير المؤمنين بهذا السفر فجشمتنا سفيراً لم يكن في الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك. فلما بلغته رسالتها قال للجارية التي أتته بها ارجعي إليها وقولي لها إن هذه الإشارة ليست مني، واما دعاؤك عليّ بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تنوهمي أن دعوتك استجيت، ولكن اعدني لنفسك تراباً كثيراً فإذا مت فاجعليه على رأسك. فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعد عشرين يوماً وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى، وله كتاب تاريخ حسن ونقل كتابي أوميرس الشاعر على فتح مدينة ايليون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة». انتهى كلام ابن العبري.

وذيل السمعاني قوله بأن توفيل كان على مذهب الموارنة بحاشية قال فيها: «هذا ما قاله المؤلف اليعقوبي وهو ناطق بالدلالة على كذب تيموتاوس القس القسطنطيني أو الأولى أن نقول ما كتب باسمه في نسخة كمبيفيسوس (مجلد ٢ في المؤلفين صفحة ٤٥٩)» إن الموارنة يبنذون الجوامع الرابع والخامس والسادس «فلو صح هذا الزعم ما ميزهم قط أبو الفرج عن اليعاقبة ولا جعلهم فرقة مستقلة عن سواها من فرق النصارى».

على أن لابن العبري قولاً آخر في توافيلس هذا أكثر بياناً فإنه قال في كتاب تاريخه السرياني الذي طبع في باريس (صفحة ١٢٧) ما ترجمته: «وقد اشتهر في هذا الزمان (أي زمان المهدي) توافيلس بن توما الرهاوي المنجم الماهر الذي كان تابعاً لبدعة الموارنة وله في التاريخ كتاب نفيس بالسريانية وإن طعن فيه على مستقيمي الإيمان وقرعهم» يريد بمستقيمي الإيمان اليعاقبة أهل شيعة ابن العبري، ولذلك سمي مذهب الموارنة بدعة وهذه بينة أخرى قاطعة على براءة الموارنة من بدعة الطبيعة الواحدة والمشية الواحدة.

وأتم السمعاني ترجمة توافيلس بقوله قد توفاه الله على ما روى ابن العبري سنة ١٦٩هـ أي نحو سنة ٧٨٥م وهي السنة التي توفي المهدي بها. وذكر أبو الفرج

تاريخ توافيلس في كتابه المذكور أيضاً صفحة ٦٣. ويتبين مما رواه ان رأى توافيلس أنه كان من خلق العالم إلى بدء ملك اسكندر المكدوني ٥١٩٧ سنة (فاذا أضفت إليها ٣١١ من اسكندر إلى الميلاد كانت جملة السنين من آدم إلى الميلاد على رأيه ٥٥٠٨). وقد حقق الحاقلي (في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي في المؤلفين صفحة ١٨٠) إن رأى جمهور العلماء السريان أن توافيلس الرهاوي إنما هو الذي جعل صورة الحركات السريانية الخمس على شبه صورة الحركات اليونانية في ترجمته كتب أوميرس كيلا تختلف الألفاظ السريانية لاسيما الأعلام التي تكتب في اللغتين بأحرف واحدة عن الألفاظ اليونانية. وقد ذكر السمعاني ذلك في محل آخر أيضاً (المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٦٤) متكلماً في الكتاب السرياني القديم وهو الثالث من الكتب التي أتى بها من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية مشتملاً على تفسير القديس أفرام السرياني لأسفار العهد القديم، وقد خط سنة ١١٧٢ يونانية وهي سنة ٨٦١ م. حيث قال «ومما يلزم الإنباه إليه في هذا الكتاب القديم إنما هو أن صورة الحركات الخمس السريانية فيه هي أشبه بصور الحركات اليونانية ويحققون أن مخترع هذه الصور إنما هو توافيلس الرهاوي الماروني .. فأنه عند ترجمته أشعار أوميرس من اليونانية إلى السريانية ضبطت الألفاظ الملتبسة بالحركات اليونانية فتابعه على كتابة صور هذه الحركات على هذا النحو السريان إلا النساطرة. وكتابة الكتاب المذكور القديم جداً تؤيد هذا الأمر في مواضع كثيرة منه ولاسيما تفسير القديس أفرام لنبوة هوشع في صفحة ١٣٣ و ١٣٤ منه وارد أمثلة لذلك». إلى أن قال «وقد أثبتنا أن هذا الكتاب خط في الرها سنة ٨٦١ م أي بعد وفاة توافيلس بنحو من سبعين سنة ومن نظر في الكتاب المذكور علم أن ناسخ هذا الكتاب إنما هو الذي ضبطه بالشكل».

عد ٧٤٥

رد ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على المواردنة

إن في بعض نسخ كتب القديس يوحنا الدمشقي فقرتين استشهد بهما خصوم المواردنة للطعن فيهم الأولى في رسالته إلى بردانوس الأرشمندريت في التقديسات الثلاثية جاء في بعض نسخها ما يأتي: «إن زيادة يامن صلبت لأجلنا على التقديسات الثلاثة» هي من هذيان بطرس القصار فانه لم يخجل أن يلحق هذه

الزيادة على التقديسات بل أقدم بقحة وجسارة ودون خجل كأنه أعلم من الساروفيم وكأنه ظنّ ذلك ثوباً متسخاً أراد تنظيفه كقصار، فان ترنمنا بالتقديسات الثلاثة موجهة إلى الابن فلا يبقى التباس ونكون زدنا الصلب على التقديسات كما يصنع الموارنة». وفي اليونانية مارونيزمن أي نتمورن .

فنجيب على ذلك أولاً أنّ في المكتبة الملكية في باريس نسختين من هذه الرسالة إحداهما في عد ١٨٢٩ والثانية في عد ٣٤٤٢ وفي كلتا النسختين لا ترى كلمة «مارونيزمن» أي نصنع كالموارنة بل ترى في مكانها «بارونيزمن» أي نصنع كما يصنعه السكارى. وقد طبعت هذه الرسالة في بال والكلمة فيها «بارونيزمن» لا «مارونيزمن». وقد ذكر ذلك الأب ميخائيل لكويان الذي ترجم كتب الدمشقي إلى اللاتينية وذيلها بحواشٍ فصّح في الحاشية التي علقها على الفقرة المذكورة أنّ الكلمة في نسختي المكتبة الملكية المذكورتين وفي طبعة بال «بارونيزمن» لا «مارونيزمن». ومع ذلك تراه في حاشيته المذكورة متردداً في هذا البحث بين أن يصحح ما ورد في بعض النسخ على الموارنة وبين أن يرثمهم من الضلال سنداً إلى أنّ هذه الزيادة تستعمل بمعنى كاثوليكي وقد استعملها الموارنة كذلك، على أنّه لم يبقَ بعداً على هذا التردد بل أثبت في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي بحجج قاطعة وبيّنات دامغة ثبوت الموارنة في كل حين في الإيمان الكاثوليكي كما رأيت في ما أوردناه من كلامه في الباب السابق. وقد طبع لكويان ترجمته لكتاب الدمشقي سنة ١٧١٢م في باريس وكتابه الشرق المسيحي طبع سنة ١٧٤٠م .

ثانياً إنّ كلمة مارونيزمن أي نصنع كالموارنة لا تلتحم بكلام الدمشقي السابق والتابع فهو قد عدد في أحد كتبه جميع المبدعين والبدع من سيمون الساحر إلى بدعة محاربي الصور التي نشأت في أيامه ولم يذكر الموارنة في جملتهم، وتكلم في الجامع الستة العامة وبين من نبذتهم وحرمتهم ولم يأت بينت شقة تدل على الموارنة. ورد مزاعم اليعاقبة في مقالة أفردتها لذلك ولم يشر بخطة إلى متابعة الموارنة لهم على بدعتهم أو على زيادة ذكر الصلب على التقديسات، وقد تكلم في الفقرة المعترض بها على قحة بطرس القصار واقدامه على الزيادة المذكورة فلا يلتحم هذا مع قوله مارونيزمن بل كان الأولى أن يقول نيافيزومن أي نصنع كبطرس القصار المسمى نيافايوس أو ياكوبيزمن أي نصنع كاليعاقبة .

ثالثاً إنّ السريان والروم والعرب لم يكونوا يسمّون في أيام الدمشقي الموارنة موارنة بل مرّدة كما سماهم توفان وشدرانس وزاناراس وغيرهم وكما حقق السمعاني في مكتبة الناموس (مجلّد ٥ صفحة ٤٩٥) ولا عجب من أن يكون أحد خصوم الموارنة بدل حرف الباء من كلمة بارونيزمن بحرف الميم حتى صارت مارونيز من، وقد رأينا أصحاب البدع والأغراض السيئة حرّفوا كثيراً من أقوال الآباء وأدخلوا على بعضها فقرات بل فصولاً برمتها. ونسخة المكتبة الملكية في باريس التي وردت بها كلمة مارونيزمن هي أحدث من النسخ التي وردت فيها كلمة بارنيزمن كما حقق البطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون (فصل ١١).

رابعاً لو سلمنا مجازة أنّ الدمشقي كتب مارونيزمن لم ينتج من ذلك أنّ الموارنة لم يكونوا كاثوليكين إذ لنا يبيّنات قاطعة على أنّ زيادة ذكر الصلب على التقديسات لم تعتدها الكنيسة دائماً أراتيكية فإن القديس أفرام الآمدي البطريك الأنطاكي أثبت في محاماته عن القديس لاون الحبر الروماني والجمع الخلكيدوني أنّ هذه الزيادة يستعملها الكاثوليك في بطريكية أنطاكية بمعنى كاثوليكي، فيسبحون المخلص بقولهم يا من صلبت لأجلنا ارحمنا وأما أهل بطريكية قسطنطينية والغريون فيوجهون هذه التقديسات إلى الثالث الأقدس المتساوي جوهرأ فيأنفون من هذه الزيادة، وعليه فالفريقان أرثوذكسيان: « روى كلامه هذا فوتيس في مكتبته كتاب ٢٢٨ ومثل ذلك قال اولوجيوس البطريك الاسكندري على ما روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٠) والقديس اسحق الكبير في خطبته في الام الكلمة المتجسد والقديس يعقوب السروجي في خطبته في الآلام أيضاً (طالع المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٢٢٣)، وقال القديس يوحنا مارون في كتابه في شرح رتبة القداس الذي اثبتنا نسبته إليه: « نرى أنّه يلزمنا أن نبين لكم هنا إجابة إلى سؤالكم أيها الأبناء الأعزاء إذا كان يجوز استعمال هذه الزيادة ومتى يجوز ذلك فاعلموا أنّ هذا الترنيمة يوجه تارة إلى الثالث الأقدس المسجود له فلا يجوز قطعاً أن يلحق بذلك يا من صلبت لأجلنا لأنّ هذا ضلال بطرس القصار البطريك الأنطاكي الذي كان يزعم أنّ الثالث بجملته صلب، وقد عزا الآلام إلى طبع تنزه عن كل ألم وهو اثم يرجح على كل اثم ولذلك حرم وخط عن كرسيه بكل عدل... وأما إذا خصّ هذا الترنيمة الابن

وحده فلا مانع من أن يزداد على ذلك ذكر الآلام والصلب والموت والدفن وسائر أسرار فداء المخلص لنا لأن ابن الله تألم ومات وصلب حقاً .

إن الأب نو أستاذ كلية باريس الكاثوليكية عثر على كراريس قديمة وأدعاها في السنة السالفة في اللغة السريانية ثم ألحقها بترجمتها إلى الفرنسية في كتابه الذي عنوانه «كراسات مارونية» وفي جملتها كراسة عثر عليها بين الكتب السريانية المخطوطة في باريس في عد ٢٠٣ تشتمل على محاوراة بين سرياني ويوناني في هذا الموضوع، فال يوناني يسأل السرياني قل لي أيها السرياني لماذا تزيدون يا من صلبت لأجلنا عندما تصلون قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت؟ فيجيبه السرياني مبيناً نفع هذه الزيادة إلى أن يقول له اليوناني ألا تعلم أيها السرياني أنك إذ تقول قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت تسبح الثالوث الأقدس، وإذا تريد على ذلك يا من صلبت تصلب الثالوث الأقدس، فأين لي أين وجدتم مكتوباً أن الثالوث صلب، ومن علمكم من آبائكم هذه الزيادة؟ فيجيبه السرياني أقول إن أحد أقانيم الثالوث تجسّد أم الثالوث كلّهُ؟ فقال اليوناني نقول أحد الأقانيم تجسّد لا الثالوث كلّهُ، فأجابه السرياني إن كان واحد من الأقانيم الثلاثة تجسّد لا الثلاثة تجسّد الثالوث كلّهُ، فنحن نقول إن واحداً من الأقانيم الثلاثة صلب لا الثالوث كلّهُ لأن من لم يتجسّد لم يصلب، ونحن أيها اليوناني لا نقول إن الثالوث صلب كما تزعم، بل نعترف أن أحد أقانيم الثالوث صلب لأجلنا فإذا قلنا: قدوس الله الذي صلب لأجلنا لا نقصد ولا نعني الثالوث كلّهُ بل أحد أقانيم الثالوث وهو ربنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور». فهذا أيضاً برهان صريح على أن السريان الكاثوليكين كانوا يفهمون هذه الزيادة بمعنى كاثوليكي وإذا ثبت أن الموارنة استعملوها بهذا المعنى فلا يؤخذ من ذلك أنهم كانوا غير كاثوليكين ولو ثبت أن الدمشقي قال مارونيزمن مع أن ذلك غير ثابت كما رأيت، على أننا لا ننكر أن هذه الزيادة استعملت وقتاً ما في كتب فروضنا ولكن بالمعنى الكاثوليكي الذي أشار إليه القديس يوحنا مارون والذي أثبتته القديس أفرام البطريرك الأنطاكي وغيرهما كما مرّ. ولذلك لما أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر (في رسالته ١٤ شباط سنة ١٥٧٧م) برفع هذه الزيادة من كتبنا البيعية لم يوجب على الموارنة شبهة بدعة بل أثنى عليهم اقتفاءً بآثار سلفائهم وأطراً ثبوتهم كل وقت في الإيمان الكاثوليكي

وقال إنّ هذه الزيادة دخلت في كتبهم دون تعمد وقصد وأمر برفعها ليكونوا متفقين مع الكنيسة الرومانية في كل تقليداتها .

وأما الفقرة الثانية التي يعترض بها على الموارنة من كتب الدمشقي فقد وردت في بعض نسخ كتابه الموسوم بالرأي القويم وقد عنونت بعض نسخه هكذا « كتيب ألفه الدمشقي ليرفعه إيليا الأسقف إلى بطرس مريبوليت دمشق ». ففي آخر هذا الكتيب يقال في بعض النسخ « أقسم بالثالوث الأقدس المسجود له والمتساوي جوهرأ دون مكر ولا مخالطة، إنّ هذا ما أراه ولا أعتقد شيئاً يخالفه ولا أشترك مع أحد ممن لا يعتقدون هذا المعتقد ولاسيما الموارنة ». فهذه الفقرة يمكن ردها بما ردت به الفقرة الأولى من البراهين التي ذكرناها آنفاً لأنّ قوله: « ولاسيما الموارنة » لا وجود له في نسخ كثيرة من هذا الكتاب ولا يتسق مع كلام الدمشقي الذي لم يذكر الموارنة في جملة أصحاب البدع وقد عدّ منهم نحواً من مئة بدعة وذكر في هذا الكتاب نفسه المجامع الستة العامة ومن حرموا فيها ولم يأت بذكر الموارنة فضلاً عن أنّهم كانوا في أيام الدمشقي يسمون مرددة لا موارنة. وكل ذلك يبين أنّ قوله ولاسيما الموارنة رقعة أدخلتها يد حديثة على كلامه أو هو تحريف والأصل « ولاسيما المانويين » الذين كان بعضهم قد جدد بدعتهم في ذلك العصر. وكتب الدمشقي محاوره بين مسيحي ومانوي كما رأيت في جدول كتبه وقد رد هذه التهمة المعزوة إلى الدمشقي العلامة السمعاني في مؤلفه مكتبة الناموس (ك ٥ فصل ٢٠) ومرهج بن نيرون الباني في مقالته في أصل الموارنة وأسمهم ودينهم (صفحة ١٣١) والبطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون (قسم ٣ فصل ١١) والبطريك بولس مسعد في كتابه الموسوم بالدر المنظوم (صفحة ١٤٩)، بل إنّ الأب ميخائيل لكويان الذي كان قد جنح في ترجمته كتاب الدمشقي إلى رأي خصوم الموارنة قد ارعوى عن رأيه هذا في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي وأثبت في مواضع شتى في المجلد الثالث منه براءة الموارنة من كل ضلال، وقد أوردنا كثيراً من أقواله في تاريخ الموارنة في القرن السابع بل نظم سلسلة بطارقة الموارنة من القديس يوحنا مارون إلى البطريك يوسف ضرغام الخازن الذي قال في آخر كلامه إنّهُ البطريك الآن على الموارنة إذا لم يكن قد توفي ولم يقل في أحد منهم إنّهُ ضلّ عن الإيمان بل ذكر جميعهم بمنزلة بطارقة كاثوليكين. طالع أيضاً كتابي روح الردود في الرد على هذه التهمة .

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء في القرن التاسع وما كان من الأحداث في أيامهم

عد ٧٤٦

الأمين بن هرون الرشيد

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن الثامن بذكر وفاة هرون الرشيد سنة ٨٠٩م فبعد وفاته في طوس كما مرّ بايع عسكره ابنه الأمين بالخلافة وكان الأمين في بغداد، فأرسل إليه أخوه صالح خاتم الخليفة والبردة والقضيب وأخذت له البيعة ببغداد وتحول إلى قصر الخلافة وقدمت عليه زبيدة أمّه من الرقة ومعها خزائن الرشيد. ومن الأحداث في أيامه أنّه في سنة ١٩٤هـ وهي سنة ٨١٠م اختلف أهل حمص على عاملهم اسحق بن سليمان فانتقل عنهم إلى سلمية فعزله الأمين واستعمل مكانه عبدالله بن سعيد الحرسى (وعن الكامل لابن الأثير الحرسى بالشين) فقاتل أهل

حمص حتى سألوا الأمانة فأمّنهم . ولم يكن الأمير من أهل السياسة ففي سنة ١٩٥هـ وسنة ٨١١م أبطل اسم المأمون أخيه من الخطبة وكان أبوهما عهد إلى الأمين ثم من بعده إلى المأمون وخطب الأمين باسم ابنه موسى ولقبه بالناطق بالحق . وكان موسى طفلاً صغيراً فأدّى ذلك إلى خلاف بين الأخوين وجهز الأمين جيشاً لحرب أخيه المأمون وأمر عليه علياً بن عيسى بن ماهان، وكان طاهر بن الحسين في الري من قبل المأمون بعسكر قليل فخلع طاهر بيعة الأمين وبايع المأمون واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فانهزم عسكر الأمين وقتل على أميره ورفع رأسه إلى طاهر فأرسله إلى المأمون فأمر المأمون أن يخطب له ويخاطب بأمر المؤمنين . ثم سير الأمين جيشاً آخر أمر عليه أحمد بن مرشد وعبدالله بن حميد لحرب طاهر فاختلفا في طريقهما فرجعا ولم يلقيا طاهراً فتقدّم طاهر قاصداً بغداد وأتبعه المأمون بهرثمة وجيش آخر، فحاصرا بغداد سنة ١٩٧هـ وهي سنة ٨١٣م ومنعا دخول الميرة إليها، فغلت الأسعار ودام الحصار وشدة الحال إلى أن انقضت هذه السنة ثم هجم طاهر على بغداد سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م بعد قتال شديد ونادى مناديه من لزم بيته فهو آمن، وأخذ الأمين أمّه وأولاده إلى عنده بمدينة المنصور وتحصن بها وتفرق عنه عامة جنده وخصيائه، وحاصره طاهر هناك وسدّ عليه المنافذ، فطلب الأمين الأمان من هرثمة وأن يطلع إليه فراجع هرثمة في ذلك إلى طاهر فأباه وخرج الأمين وعليه ثياب بيض وطيلسان أسود، فأرسل إليه هرثمة يقول إني غير مستعد لحفظك فأقم إلى الليلة القابلة، فأبى الأمين إلا الخروج ودعا ابنه وضمهما إليه وقبلهما وبكى، ولما بلغ الشط وجد حراقة (وهي نوع من السفن بها مرامي) هرثمة فصعد إليها فاحتضنه هرثمة وقبّل يديه ورجليه ثم شدّ أصحاب طاهر على حراقة هرثمة حتى غرقوها، فانخرج الملاح هرثمة من الماء وأما الأمين فشقّ ثيابه وسبح إلى الجانب الآخر فأخذه بعض أصحاب طاهر وهو عريان، فحبسه طاهر في بيت وأرسل إليه ليلاً قوماً من العجم فقتلوه وأخذوا رأسه فتصبه طاهر على برج من أبراج بغداد، ثم أرسله إلى المأمون وكتب له بالفتح وأرسل إليه البردة والقضيب . (روى بعضهم أنَّ الأمين فرّ فأدركه بعض الجنود فقطعوا رأسه وأتوا به إلى طاهر) ودخل طاهر المدينة وصلى بالناس وخطب للمأمون وكان قتل الأمين لست بقين من المحرم سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م، وكانت مدة خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة (ملخص عن تاريخ أبي الفداء جزء ثانٍ صفحة ٢٠ وعن تاريخ ابن خلدون وغيرهما) .

ومما قالوا في الأمين إنّه كان منهمكاً في اللذات أرسل إلى جميع البلاد في طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق واحتجب عن اخوته وأهل بيته، وقسم الأموال والجواهر في خواصه وفي الخصيان والنساء وعمل خمس حراقات في دجلة على صورة الأسد وصور الفيل والعقارب والحية والفرس وأنفق في عملها مالا عظيماً. وذكر أبو نواس فقال :

سَخَّرَ اللهُ لِلْأَمِينِ مَطَايَا لَمْ تَسْخُرْ لِمُصَاحِبِ الْحَرَابِ
فَإِذَا مَا رُكَّابُهُ سَرْنَ بَرّاً سَارَ فِي الْمَاءِ رَاكِباً لَيْثُ غَابِ
عَجِبَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْكَ عَلَيْهِ كَيْفَ لَوْ أَبْصُرُوكَ فَوْقَ الْعِقَابِ
ذَاتِ سُرُورٍ وَنَسْرِ وَجَنَاحِينَ م تَشَقُّ الْعِبَابِ بَعْدَ الْعِبَابِ
(ملخص عن الكامل لابن الأثير) .

عد ٧٤٧

المأمون بن هرون الرشيد

استوثق الأمر في المشرق والمغرب للمأمون بعد قتل الأمين سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م وهو السابع من الخلفاء العباسيين وظهر في سنة ١٩٩هـ سنة ٨١٥م ابن طباطبا العلوي وهو محمد بن ابراهيم من ولد علي بن أبي طالب، وكان القيم بأمره أبو السرايا السري بن منصور وبايعه أهل الكوفة فأرسل المأمون إليه الحسن بن سهل بعشرة آلاف مقاتل، فهزم ابن طباطبا لكنه مات فجأة بعد ذلك قيل سمه أبو السرايا ليستبد بالأمر وأقام مكانه غلاماً من ولد علي بن أبي طالب واستولى على البصرة وواسط وكانت بينه وبين عساكر المأمون عدة وقائع آخرها أن انهزم أبو السرايا سنة ٢٠٠هـ سنة ٨١٦م من الكوفة في ثمان مئة فارس وتفرق عنه أصحابه فقبض عليه بعضهم، وقطع الحسن بن سهل رأسه وأرسله إلى المأمون. وكان هرثمة المار ذكره إماماً هو الذي طرد أبا السرايا من الكوفة وكانت بينه وبين الحسن بن سهل عداوة فسعى به لدى المأمون فأمر هرثمة أن يسير إلى الشام والحجاز فقدم على المأمون مخالفاً مرسومه فضربه المأمون وحبسه ثم دس عليه من قتله في الحبس .

وفي سنة ٢٠١ هـ سنة ٨١٧ م جعل المأمون علياً بن موسى بن جعفر من ولد علي بن أبي طالب ولي عهد المسلمين والخليفة من بعده وأمر جنوده بطرح السواد وليس الخضره وكتب بذلك إلى الآفاق، فصعب ذلك على بني العباس فخلعوا المأمون من الخلافة وبايع أهل بغداد بالخلافة لابراهيم بن المهدي وسموه المبارك ولكن مات علي في السنة التالية فكتب المأمون إلى أهل بغداد يعلمهم بموته وقال إنما نعمتم علي بسببه وقد مات فخلع أهل بغداد ابراهيم بن المهدي ودعوا للمأمون بالخلافة، وتخلّى عن ابراهيم اصحابه فاختلفى وكانت مدة خلافته سنة واحدى عشر شهراً وما برح مخفياً إلى سنة ٢١٠ هـ وهي سنة ٨٢٦ م حين أخذ وهو متقب مع امرأتين في زي امرأة فحبسه المأمون ثم أطلقه. وعاد المأمون إلى بغداد بعد خلع ابراهيم وانقطعت الفتن بقدمه وكان لباسه ولباس أصحابه عند قدومه الخضره وكان الناس يدخلون عليه في الثياب الخضر ودام ذلك ثمانية أيام، ثم تكلم بنو العباس وقواد خراسان في ذلك فترك الخضره وأعاد لبس السواد.

وفي سنة ٢١٣ هـ سنة ٨٢٩ م ولي المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر، وفي سنة ٢١٥ هـ سنة ٨٣١ م سار المأمون لغزو الروم ووصل إلى منبج ثم إلى أنطاكية ثم إلى المصيصة وطرسوس (ترسيس) ففتح بعض الحصون في أملاك الروم وعاد إلى دمشق ثم عاد في السنة التالية إلى بلاد الروم فقتل وسبى وفتح عدة حصون وعاد إلى دمشق ثم سار منها إلى مصر وعاد من مصر إلى دمشق سنة ٢١٧ هـ سنة ٨٣٣ م. ومرض المأمون سنة ٢١٨ هـ سنة ٨٣٣ م وقيل إنَّ علّة مرضه افراطه في أكله الرطب ولما شعر بدنو المنون عهد بالخلافة بعده إلى أخيه المعتصم وأوصاه بأولاد عمه وأولاد أعمامه وحمله أخوه المعتصم وابنه العباس إلى طرسوس فدفناه بدار جلعان خادم الرشيد أبيه. وعن ابن خلدون أنَّه توفي بطرسوس وكانت وفاته في رجب من السنة المذكورة وكانت مدة خلافته نحواً من عشرين سنة (ملخص عن ابن خلدون وأبي الفداء وغيرهما).

وقال القرماني في وصفه إنَّه كان عظيم العفو وكان يقول لو يعلم الناس ما أجد في العفو من اللذة لتقربوا إليّ بالذنوب. وكان جواداً بالأموال عارفاً بعلم النجوم وغيره لم يل الخلافة من بني العباس اعلم منه. قال أبو الفرج بن العبري : «قال القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي أنَّ العرب في صدر الإسلام لم تُعَن بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها حاشا صناعة الطب، فإنَّها كانت

موجودة عند أفراد منهم غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس طراً إليها فهذه كانت حالة العرب في الدولة الأموية، فلما أдал الله تعالى للهاشمية وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها وهبت الفطن من ميبتها وكان أول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور. وكان مع براعته في الفقه كلفاً في علم الفلسفة وخاصة في علم النجوم ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبدالله المأمون بن هرون الرشيد أتم ما بدأ فيه جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه منها ما حضرهم فاستجداد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حضّ الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها فكان يخلو بالحكماء ويأنس بمنظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ونخبته من عباده وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا بما يرغب فيه غيرهم من التنافس في دقة الصنائع العلمية والتباهي بأخلاق النفس الغضبية والتفاخر بالقوى الشهوانية إذ علموا أن البهائم تشكرهم فيها وتفضلهم في كثير منها». وذكر ذلك كثيرون من مؤرخي الافرنج في تاريخ سنة ٨٢٦م مبيناً أن الكتب التي ترجمت للمأمون كانت ترجمتها عن كتب يونانية وسريانية وعبرانية.

عد ٧٤٨

المعتصم بن هرون الرشيد

هو الثامن من الخلفاء العباسيين ويكنى بأبي اسحق بويح له بالخلافة بعد موت المأمون أخيه فتشغب الجند ونادوا باسم العباس بن المأمون فاستحضر المعتصم العباس فبايعه وخرج إلى الجند فقال لهم قد بايعت عمي فسكتوا وانصرف المعتصم إلى بغداد ومعه العباس ابن أخيه. وفي سنة ٢٢٣هـ سنة ٨٣٨م خرج توافيل ملك الروم في جمع عظيم فبلغ زبطره وقتل وسبى وبلغ المعتصم ذلك وإن امرأة هاشمية صاحت وهي في أيدي الروم وامعتصماه فاستعظمه وجمع العساكر وتجهز جهازاً لم يعهد قبله مثله، وبلغه أن عمورية هي عين النصرانية وهي أشرف عندهم من قسطنطينية وأنه لم يتعرض أحد إليها مذ كان الاسلام وأرسل عساكره وأمر بحريق القرى وتخريب بلاد الروم حتى وصلوا إلى عمورية فحاصرها خمسة وخمسين يوماً

وافتحها وقتل أهلها ونهبها وهدمها وأحرقها. هذا ما جاء في كتب المؤرخين العرب وجاء في كتب المؤرخين النصارى ولا سيما شدرانس في كلامه عن توافيل الملك أنَّ المعتصم أرسل جيشاً كثيفاً ينكّل بالروم في آسيا الصغرى فهبّ توافيل ملك الروم لطردهم، فكان بين الفريقين وقائع هائلة أوشك الملك في إحداهما أن يأخذه المسلمون أسيراً. ونحو سنة ٨٣٩م غزا توافيل سورية فأخذ سميساط ونهبها وصنع كذلك بزبطرة (بایسوریا الشمالية) فاحتدم المعتصم غيظاً لنهب زبطرة لأنّه كان قد ولد فيها وعزم أن يخرب عمورية (يسمياها الافرنج Amorium وهي مدينة في غلاطية) التي ولد توافيل فيها، فسار بجيش كثيف يخرب وينهب في طريقة وأسرع توافيل إلى تحصين عمورية وقاد جيشه بنفسه، فحاصر المعتصم المدينة وشدّ عليها الحصار وراسله توافيل بطلب الصلح فأمسك الخليفة رسله واستمرّ على رمي المدينة بالمناجق، فهدى أحد سكانها الخونة إلى محل ضعيف فيها فدخلت عساكر المسلمين منه إلى المدينة فذبح سكانها وأحرق دورها وكانت أعمر مدينة في الشرق. وبعد ذلك أطلق المعتصم رسل توافيل وقال لهم قولوا لمولاكم قد أخذت بثار زبطرة. انتهى. وفيما كان عائداً إلى بغداد بلغه أنَّ العباس ابن أخيه قد بايعه جماعة من القواد وهو يريد أن يثب عليه ويأخذ الخلافة منه فدعاه إليه وأمسكه وسلّمه إلى أحد قادته، فلما وصل إلى منبج طلب الطعام فأكل ومنع الماء حتى مات بمنبج.

ومن الأحداث في أيام المعتصم خروج بابك المجوسي واستيلاؤه على جبال طبرستان مدة عشرين سنة وقد عظم أمره وهزم عدة مرار عساكر المعتصم حتى انتدب لقيادة جيشه رجلاً اسمه الافشين خيذر فانتصر على بابك وأخذ مدينته المسماة «ألبذ» وأسره وأحضره إلى المعتصم فقتله، ثم غضب امعتصم على الافشين وحبسه حتى مات في حبسه وصلب جثته ثم أحرقها. وكان الرشيد أبوه قد شرع في بناء مدينة القاطون ولم يتمّها وخربت فجدد المعتصم بناءها وسماها «شُرّ من رأى» فرخمها الناس سامراً وصارت مأوى للوكهم من لدن المعتصم ومن بعده وكان بناؤها سنة ٢٢٠هـ أي سنة ٨٣٦م (ابن خلدون جزء ٣ صفحة ٢٥٧). وخرج بفلسطين رجل اسمه أبو حرب المبرقع اليماني سنة ٢٢٧هـ سنة ٨٤٢م وكان سبب خروجه أنَّ بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب فمنعه بعض نسائه فضربها الجندي فلما رجع إلى داره شكت إليه ما فعل بها الجندي فقتله وهرب، وألبس وجهه برقاً وقصد بعض جبال الأردن فأقام به. وكان يظهر بالنهار

متبرقاً وأظهر الزهد والورع وكان يعيب الخليفة . فاستجاب قوّم من فلاحي تلك الناحية وكان يزعم أنّه من بني أمية. ولما كثر تباعه دعا أهل البيوتات فاستجاب له جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن ييهس كان مطاعاً في أهل اليمن ورجلان من أهل دمشق، ودرى المعتصم بأمره فأرسل إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف رجل فرآه في عالم كثير فكره رجاء مواقته وعسكر في مقابلته حتى كان أوّان الزراعة فتشتت أصحابه وتوفي المعتصم وولى الواثق وثارت الفتنة في دمشق كما سيأتي، فأمر الواثق رجاء بقتال من أراد الفتنة والعودة إلى المبرقع، ففعل ذلك وعاد إلى المبرقع ولما التقى العسكران كثر المبرقع فقال رجاء لجنده أفرجوا له فأفرجوا . وحمل مرة أخرى فأحاطوا به وأخذوه أسيراً . وقيل كان خروجه سنة ٢٢٦هـ سنة ٨٤١م وأنه خرج بنواحي الرملة وصار في خمسين ألفاً، فوجه إليه المعتصم رجاء فقاتله وقتل من أصحابه نحواً من عشرين ألفاً وأسره مع ابن ييهس وحملهما إلى سائرء (عن الكامل لابن الأثير جزء ٦ صفحة ٢١٤) .

وتوفي المعتصم لثماني عشر مضت من ربيع الأوّل سنة ٢٢٧هـ، وهي سنة ٨٤٢م بسامرا وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر، وهو أوّل من أضاف إلى اسمه اسم الله فقيل المعتصم بالله وكان طيب الأخلاق ولكنه إذا غضب لا يبالي من قتل وما فعل. وحكي عنه أنّه انفرد عن أصحابه في يوم مطر فرأى شيخاً معه حمار عليه حمل شوك وقد توحل الحمار ووقع الحمل والشيخ ينتظر من يمر عليه ويساعده، فنزل المعتصم عن دابته وخلّص الحمار ورفع معه الحمل عليه ثم لحقه أصحابه فأمر لصاحب الحمار بأربعة آلاف درهم .

عد ٧٤٩

الواثق بالله ابن المعتصم

هو التاسع من الخلفاء العباسيين وهو ابن المعتصم بن هرون الرشيد واسمه هرون بويح بالخلافة يوم وفاة أبيه لثماني عشر مضين من ربيع الأوّل سنة ٢٢٧هـ وهي سنة ٨٤٢م، وثارت في بدء خلافته القيسية في دمشق وعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم بدمشق فأرسل إليهم الواثق عسكرياً مع رجاء بن أيوب المار ذكره فقاتلهم وكانوا قد اجتمعوا بمرج راهط فقتل من القيسية نحو ألف وخمسمائة رجل وانهزم

الباقى، وصلح أمر دمشق. وذكر بعض المؤرخين العرب أنَّ المسلمين غزوا جزيرة صقلية في أيام الواصل بالله واستحوذوا على مسينا وغيرها، والذي علمناه من أمر هذا الفتح نقلاً عن شدرانس أن أوفيموس والى إحدى المدن بهذه الجزيرة أحب راهبة فخطفها من ديرها وتزوجها فشكا أخوها والى إلى الملك فأمر بقطع لسانه، ففر إلى إفريقية ولجأ إلى الخليفة الأغلبى الذي كان يسكن في القيروان ووعد أن يسلم إليه صقلية إن أرسل معه جيشاً لفتحها، فجهز مئة سفينة وشحنها بعشرة آلاف مقاتل وسبعماية فارس وسمى أوفيموس ملكاً على صقلية فاستحوذوا على بعض مدن الجزيرة وبلغوا إلى سيراكوسا عاصمة الجزيرة فقتل أوفيموس غيلة ولم يتمكن المسلمون حينئذٍ من فتحها كلها. والذي عليه المعول أنَّ هذه الغزوة الأولى كانت سنة ٨٢٧ هـ ثم كرر المسلمون الإفريقيون الحملة على الجزيرة وعاونهم خلفاء بغداد والأندلس إلى أن افتتحوا الجزيرة كلها وتولوها بعد سنين متطاولة وكانوا يشنون الغارة على كالابريا وسائر جنوبي إيطاليا حتى رومة، ولذلك جدد الأخبار الرومانيون بناء أوستيا عند مصب التير وحصنوا رومة، وأصل هؤلاء الأغلبين إبراهيم بن أغلب استعمله هرون الرشيد في إفريقية سنة ٧٨٩م فاستقل فيها وانفصل عن خليفة بغداد وامتدت ولايته من مصر إلى تونس، وداموا في هذه الولاية إلى سنة ٩٠٩م حين انتزعها من يدهم الخلفاء الفاطميون. وكان والى الأول على صقلية من الأغلبين محمد بن عبدالله بن أغلب وكان مقيماً في بلرم ولم يخرج منها، ولكن كان يجهز الجيوش والسرايا ويفتح ويغنم وكانت ولايته على صقلية تسع عشرة سنة وتوفي سنة ٢٣٧ هـ (عن أبي الفداء جزء ٢ صفحة ٣٨).

وفي سنة ٢٣١ هـ سنة ٨٤٦م كان الفداء بين المسلمين والروم عملاً باتفاق جرى بين الفريقين واجتمع المسلمون على نهر الاس على مسيرة يوم من ترسيس، وأتى الروم ومن معهم من الأسرى المسلمين وكان المسلمون يطلقون أسيراً ويطلق الروم أسيراً فيلتقيان في وسط الجسر فاذا وصل الأسير إلى المسلمين كبروا وإذا وصل الرومي إلى الروم صاحوا كيريليسون فكانت عدة أسارى المسلمين ٤٤٦٠ نفساً، ومن النساء والصبيان ٨٠٠ ومن أهل الذمة ١٠٠ نفس.

وفي سنة ٢٣٢ هـ سنة ٨٤٧م توفي الواصل بالله لست بقين من ذي الحجة وكان مرضه الاستقصاء وعولج بالإقعاد في تنور سخن ووجد عليه خفة فعاوده وشد سخوته وقعد فيه أكثر من اليوم الأول فحمي عليه وأخرج منه في محفة

فمات فيها. وكانت مدة خلافته خمس سنين وتسعة أشهر وكسراً وعمره اثنتان وثلاثون سنة، وكان يبالغ في اكرام ولد علي والاحسان إليهم وفوق في الحرمين أموالاً عظيمة حتى لم يبق في الحرمين في أيام الوراق سائل، ولما بلغ أهل المدينة موته كانت نساؤهم يخرجن إلى البقيع كل ليلة ويندبن الوراق لفرط احسانه إليهم . (عن أبي الفداء) .

عد ٧٥٠

المتوكل على الله بن المعتصم بالله

هو عاشر الخلفاء العباسيين وأخو الوراق بالله واسمه جعفر، فلما مات الوراق عزم كبراء دولته على البيعة لمحمد ابنه فألبسوه قلنسوة ودراعة سوداء وهو غلام أمرد قصير فلم يروا ذلك مصلحة فتناظروا ثم أحضروا جعفرأ أخا الوراق فبايعوه بالخلافة يوم مات الوراق فيه وسمي المتوكل على الله وكان عمره حينئذ ستاً وعشرين سنة . ومن بواكير أعمال المتوكل على الله أنه قبض على وزيره محمد بن عبد الملك الزيات لجوره، وحبسه وأخذ أمواله وعذبه بالسهر ثم حطه في تنور خشب فيه مسامير حديد أطرافها إلى داخل التنور يمتنع من يكون فيه من الحركة ولا يقدر علي الجلوس فبقي كذلك أياماً ومات. وكان ابن الزيات هو الذي عمل هذا التنور وعذب به ابن اسباط المضري وأخذ أمواله .

وفي سنة ٢٣٦هـ سنة ٨٥١م أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي بن أبي طالب وهدم ما حوله من المنازل ومنع الناس من اتيانه، وكان شديد البغض لعلي بن أبي طالب وكان يجالس من اشتهر ببغضه مثل ابن الجهم الشاعر وأبي السمط من ولد مروان فغطى ذمه لعلي على حسناته وإلاً فكان من أحسن الخلفاء سيرة. وفي سنة ٢٤٤هـ سنة ٨٥٩م سار المتوكل إلى دمشق وعزم على المقام فيها ونقل دواوين الملك إليها فقال يزيد بن محمد المهلب في ذلك :

أظن أن الشام يشمت بالعراق إذا عزم الإمام على الطلاق^(١)
فان تدع العراق وساكنيه فقد تبكي المليحة بالطلاق

(١) ويرى على انطلاق .

ثم استوبأ المتوكل دمشق فرجع إلى سامراء ولم يكن مقامه بدمشق إلا شهرين وأياماً. وفي السنة المذكورة قتل المتوكل أبا يوسف يعقوب بن اسحق المعروف بابن السكيت صاحب كتاب «اصلاح المنطق في اللغة» وغيره فقليل إن المتوكل سأل من أحب إليك: ابنك المعتز والمؤيد أم الحسن والحسين؟ ففض ابن السكيت عن ابنه وذكر عن الحسن والحسين ما هما أهله، فأمر مماليكه فداسوا بطنه فحمل إلى داره فمات. وقيل إن ابن السكيت أجابه أن قنبراً خادماً علي خير منك ومن ابنك، فقال المتوكل سلوا لسانه من قفاه ففعلوا ذلك به فمات (ملخص عن تاريخ أبي الفداء) .

وعن ابن خلدون أنه في سنة ٢٣٧هـ سنة ٨٥٢م: «وثب أهل حمص بعاملهم أبي المغيث (في محل آخر من كتاب ابن خلدون أبي المغيب بالباء وان وثوب أهل حمص به كان سنة ٢٣٩) موسى بن ابراهيم الرافقي بسبب أنه قتل بعض رؤسائهم فأخرجوه وقتلوا من أصحابه، فولى المتوكل مكانه محمّد بن عبد ربه الانباري فأساء إليهم وعسف بهم فوثبوا به، فأمدّه المتوكل بجند من دمشق والرملة وظفر بهم وقتل منهم جماعة وأخرج النصاري من المدينة وهدم كنائسهم وأدخل منها بيعة في الجامع كانت تجاوره، وعقد المتوكل البيعة لابنه الثلاثة بولاية العهد وولى أحدهم المنتصر العراق والحجاز وثانيهم المعتز خراسان والرّي وثالثهم المؤيد الشام، ثم ندم على عهده لابنه المنتصر وأبغضه لما كان يتوهم فيه من استعجاله الأمر لنفسه وكان يسميه المنتصر والمستعجل، وداخل المنتصر في قتل أبيه وأعدّ لذلك جماعة من الموالي بعثهم مع ولده فابتدروا المتوكل فقتلوه. وألقى الفتح بن خاقان وزيره نفسه عليه ليقيه القتل فقتلوه. وقال المنتصر إن الفتح قتل أبي فقتلته. وبايعه أخواه المعتز والمؤيد وكان ذلك سنة ٢٤٧هـ سنة ٨٢٦م وكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر. وكان في أيام المتوكل حنين بن اسحق الطبيب النصراني العبادي صاحب التآليف والترجمات المشهورة وسنأتي على ذكره .

عد ٧٥١

المنتصر والمستعين والمعتز

أمّا المنتصر وهو الحادي عشر من الخلفاء العباسيين فقد بايعه الناس صبيحة الليلة التي قتل فيها المتوكل بعد أن خرج أحمد بن الخطيب إلى الناس وقرأ عليهم كتاباً. من المنتصر أن الفتح بن خاقان قتل أبي المتوكل فقتلته به، ثم ألح على المنتصر

بعض المقرين إليه أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد من عهد الخلافة ووعده أن يبايعوا ابنه عبد الوهاب ولم يزالوا به حتى خلعهما بالكره منه ومنهما، ثم دعاهما وقال لهما اتراني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ولكن هؤلاء (وأشار إلى سائر الموالي) ألحوا عليّ في خلعتكما، ووُلِّي علي دمشق عيسى بن محمّد النوشري ومات المنتصر لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ سنة ٨٦٣م. وكان كثيرون حين أفضت الخلافة إليه إلى أن مات يقولون إنّما مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه فكانت خلافته ستة أشهر ومات وعمره خمس وعشرون سنة وستة أشهر (عن تاريخ ابن خلدون جزء ٣ صفحة ٢٨٢). ومن بعد موت المنتصر اتفق كبار الدولة على تولية المستعين وهو ابن المعتصم بالله وكرهوا أن يولوا بعض ولد المتوكل لقتلهم أباهم ولئلاً يقتالهم من ولوه منهم فبايعوا بالخلافة المستعين بالله لست خلون من ربيع الآخر من السنة المذكورة وهو الثاني عشر منهم، وفيها شغب أهل حمص على كيدر عاملهم فأخرجوه عنهم فولّى المستعين عليهم الفضل بن قارن فقتلوه، فأرسل المستعين إليهم موسى بن بغا الكبير فحاربوه بين حمص والرستن فهزمهم وافتتح حمص فقتل من أهلها مقتلة عظيمة وأحرقها سنة ٢٤٩هـ سنة ٨٦٤م. وكثر الشغب في أيام المستعين. فشغب الجند الشاكزية والعامّة ببغداد على كبار الدولة لسبب استيلائهم على أمور الدولة، فيقتلون من شاءوا من الخلفاء ويستخلفون من أحبوا من غير ديانة ولا نظر للمسلمين. ثم وقعت فتنة في سامراء من العامّة وفتحوا السجون وأطلقوا من فيها فقتل من العامّة جماعة، وثار الموالي باتاش وزير المستعين فقتلوه ونهبوا من داره أموالاً جزيلة، لأنّ المستعين كان أطلق له ولوالدته (والدة المستعين) التصرف في بيوت الأموال. وظهر يحيى بن عمر من ولد علي بن أبي طالب بالكوفة وكثر جمعه فاستولى عليها وجهز المستعين عليه محمّد بن عبد الله بن طاهر فقتل يحيى وحمل رأسه إلى المستعين وتفرّق أصحابه. وظهر الحسن بن زيد من ولد علي أيضاً وكثر جمعه بطبرستان واستقلّ بملكها وسمي بالداعي إلى الحق وبقي مستولياً إلى سنة ٢٨٧هـ سنة ٩٠١م حين قتل وقام بعده الناصر الحسن بن علي (عن أبي الفداء جزء ٢ صفحة ٤٥).

وفي سنة ٢٥١هـ سنة ٨٦٦م اتفق بغا الصغير ووصيف وزير المستعين وقتلوا أحد وجهاء الدولة، فكان شغب على المستعين وحصره المشاغبون مع وزيره في

قصره بسامراء فهربوا في حراقة وانحدروا إلى بغداد واستقرّ المستعين بها، فأخرج المشاغبون المعتز بن المتوكل على الله وكان في الحبس وبايعوه، واستولى على الأموال التي كانت للمستعين واه بسامراء وأنفق على الجند الذين سيّرتهم مع أخيه طلحة لحرب المستعين في بغداد، وجرى بين الفريقين قتال كثير وأتفق كبراء الدولة ببغداد على خلع المستعين وأكرهوه على ذلك فخلع نفسه من الخلافة سنة ٢٥٢هـ سنة ٨٦٧م، وخطب ببغداد للمعتز بالله بن المتوكل وهو الثالث عشر من الخلفاء، وأقام المستعين بالبصرة، فأمر المعتز بقتله وكتب إلى أحمد بن طولون فلم يقتله بل أخذه وسلّمه إلى الحاجب سعيد بن صالح فقتله، وأرسل رأسه إلى المعتز. وكانت خلافة المستعين بالله إلى أن خلع ثلاث سنين وتسعة أشهر.

وولى المعتز عيسى بن الشيخ بن السليك من ولد جساس بن مرة على الرملة ولما رأى ما كان من الشغب في العراق وبغداد تغلّب على دمشق وأعمالها وقطع ما كان يحمل من الشام إلى الخليفة، واستبدّ بالأموال، وكان ذلك سنة ٢٥٢هـ سنة ٨٦٧م. ثم ولى المعتز أحمد بن طولون على مصر سنة ٢٥٤هـ سنة ٨٦٩م وسترى أنّه عصا الخليفة بالولاية على مصر. وفي سنة ٢٥٥هـ سنة ٨٧٠م اتفق الأتراك والمغاربة والفراعنة على خلع المعتز لأنّهم طلبوا أرزاقهم فلم يكن عند المعتز مال يعطيهم إياه، ونزلوا معه إلى خمسين ألف دينار فأرسل وسأل أمّه وكانت تسمّى قبيحة لحسنها فقالت ما عندي فصاروا إلى بابه وقالوا اخرج إلينا، فقال قد شربت أمس دواء وقد أفرط في العمل، فإن كان لا بدّ من الاجتماع فليدخل بعضكم إليّ فدخل جماعة منهم وجروه برجليه إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس وأقاموه في الشمس فكان يضع رجلاً ويرفع أخرى لشدة الحر ثم سلّموه إلى من يعذبه ومنعوه الطعام والشراب ثلاثة أيام، ثم أدخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات. وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر إلّا سبعة أيام وكشفوا عن مطمور لأمّه قبيحة فوجدوا أموالاً عظيمة وكثيراً من الزمرد والياقوت واللؤلؤ فقالوا عرّضت ابنها للقتل لأجل خمسين ألف دينار وعندها هذه الأموال كلّها (ملخص عن أبي الفداء).

عد ٧٥٢

المهتدي والمعتمد على الله

المهتدي هو الرابع عشر من الخلفاء العباسيين وهو ابن الواثق بالله وقد بويع

بالخلافة بعد خلع المعتز سنة ٢٥٥هـ سنة ٨٧٠م وظهر في أيام المهدي صاحب الزنج وهو علي بن محمد بن عبد الرحيم من ولد عبد قيس وجمع إليه الزنج وكانوا يسكنون في جهة البصرة وأدعى أنه من ولد علي بن أبي طالب وكانت بينه وبين المهدي ومن تبعه من الخلفاء وقائع كثيرة لا محل لذكرها هنا . لم تكن خلافة المهدي إلا أحد عشر شهراً ونصفاً لأنه قصد أن يقتل موسى بن بغا وكان معسكراً قبالة بعض الخوارج وكتب إلى بايكبال أحد مقدمي جنده أن يقتله ويصير موضعه، فاتفقا على قتل المهدي وسارا إليه. ودخل بايكبال عليه فحبسه المهدي ثم قتله وركب لقتال موسى، ففارقه كثير من أصحاب موسى وانقلبوا على المهدي ففرّ ودخل بعض الدور فأمسكوه وداسوا خصيته وصفحوه فمات.

فأخرج كبراء الدولة أبا العباس أحمد بن المتوكل من الحبس وبايعوه بالخلافة سنة ٢٥٦هـ سنة ٨٧١م ولقب بالمعتمد على الله وهو الخامس عشر من خلفائهم واستوزر عبدالله بن يحيى بن خاقان وعزل عيسى بن الشيخ الذي كان والياً في الرملة واستولى على الشام كما مرّ ونهب المال الذي كان مرسلأ من مصر إلى الخليفة وقطع الحمل عن بغداد وولى المعتمد مكان عيسى ماجور على دمشق وأعمالها، وبلغ الخبر إلى عيسى فبعث ابنه منصور في عشرين ألف مقاتل فانهزم وقتل وسار عيسى أبوه إلى أرمينية على طريق الساحل (أبو الفداء وابن خلدون وغيرهما).

وخرج في أيام المعتمد أحمد بن طولون والي مصر فاستقل في الولاية على مصر وسورية، ثم خلفه ابنه خمارويه وابناه فاستبدوا بولايتهم مدة نحو ربع قرن ولذلك أفردنا الفصل التالي للكلام عليهم ثم نعود إلى الكلام في المعتمد وخلفائه.

عد ٧٥٣

أحمد بن طولون وولده أصحاب مصر وسورية

قد مرّ أنّ أحمد بن طولون ولاء المعتز مصر سنة ٨٦٩م، ففي سنة ٢٦٤هـ سنة ٨٧٨م مات ماجور (ويروى أماجور) والي دمشق وسار أحمد بن طولون ولي مصر من القاهرة فملك دمشق ثم حمص ثم حماه ثم حلب ثم سار إلى أنطاكية وكان أميرها يسمى الطويل فدعاه إلى الدخول في طاعته فأبى، فقاتله وقتله وملك

أنطاكية عنوة، ثم سار إلى طرسوس (ترسيس) وعزم على المقام بها للجهاد فغلا بها السمر وقلّ القوت وقلق أهلها فعاد إلى الشام. وقد استبدّ بولاية الشام أي سورية ومصر وكان ابن طولون ولّى غلاماً له اسمه لؤلؤ على حمص وحلب وقنسرين وديار مضر من الجزيرة فخالفه سنة ٢٦٩هـ سنة ٨٨٣م، وكاتب الموفق أخا المعتمد الخليفة في المسير إليه، ثم سار إليه وأمر حيتيذ المعتمد في المسير إليه ثم سار إليه، وأمر حيتيذ المعتمد بلعن أحمد بن طولون على المنابر، ولعن أحمد بن طولون المعتمد على المنابر في جميع أعماله بمصر وغيرها، ولم يأمر المعتمد بلعن ابن طولون إلا مكرهاً لأنّ هواه كان لابن طولون، لأنّ الموفق أخاه كان تغلب على الخلافة ولم يبق لأخيه الخليفة منها إلا اسمها. ولذلك كتب المعتمد إلى ابن طولون سرّاً يشكو إليه حاله من أخيه فأشار إليه ابن طولون باللاحاق به بمصر ووعدته بالانتصار له، وأرسل عسكرياً إلى الرقة ينتظر وصول المعتمد إليهم، وسار المعتمد من بغداد فأمسك اسحق بن كنداج عامل الموصل القواد الذين كانوا مع المعتمد عن المسير معه إلى ابن طولون وأرسلهم إلى بغداد، وتقدّم إلى المعتمد بالعود عن اللحاق بابن طولون ومخالفة أخيه فاضطرّ أن يضرب عن عزمه. وسير أحمد بن طولون جيشاً مع قائدين إلى مكة فوصلوا إليها وجمعوا الخناطين والجزارين وفرّقوا فيهم مالا، وكان عامل مكة هرون بن محمّد، وأرسل الموفق عسكرياً فاقتتل الفريقان فقتل من أصحاب ابن طولون مائتا رجل وانهزم الباقون (ملخص عن ابن الأثير وابن خلدون وابي الفداء وغيرهم).

وفي سنة ٢٧٠هـ سنة ٨٨٤م توفي أحمد بن طولون صاحب مصر والشام، قالوا إنّه لما وصل إلى أنطاكية قدم له لبن جاموس فأكثر منه فأصابه منه تخمة، وكان الأطباء يعالجونه وهو يأكل سرّاً فلم ينجع به الدواء فتوفي وكان حازماً عاقلاً وهو الذي بنى قلعة يافا ولم يكن لها قبل ذلك قلعة، وبنى بين مصر والقاهرة الجامع المعروف به وهو جامع عظيم مشهور هناك، وقيل إنّه كان له سبعة عشر ابناً وسبع عشرة بنتاً وترك أموالاً عظيمة وممالك كثيرين. فخلف أحمد بن طولون خمارويه ابنه وأقام بملكه أحسن قيام ودبره أحسن تدبير وانتقضت عليه دمشق فبعث إليها العساكر وعادت إلى طاعته. وكان يومئذ اسحق بن كنداج والياً بالموصل والجزيرة ومحمّد بن أبي الساج والياً على الأنبار فكاتب الموفق أخا المعتمد الخليفة في المسير إلى الشام واستمداه فأذن لهما ووعدهما بالمدد، فسارا وملكا ما

يجاورهما من بلاد خمارويه واستحوذا على أنطاكية وحلب وحمص وكاتبيهما نائب خمارويه بدمشق ووعدهما بالانحياز إليهما فملكا دمشق أيضاً. وبلغ الخبر إلى خمارويه فسير الجيوش إلى الشام فاستردوا دمشق وهرب النائب الخائن إلى شيزر حيث كان أسحق بن كنداج وابن أبي الساج المذكوران فसार جيش خمارويه من دمشق إليهم فطاولهم ابن كنداج وابن أبي الساج ينتظرون المدد من العراق وهجم الشتاء وأضر بجيش خمارويه ففرقوا في المنازل بشيزر، ووصل عسكر العراق فلم يشعروا حتى كبسهم في المنازل فقتل منهم مقتلة عظيمة وسار من سلم إلى دمشق، فसार المعتضد بن الموفق الذي كان أمير جيش العراق فجلوا عن دمشق إلى الرملة وملك هو دمشق سنة ٢٧١هـ سنة ٨٨٥م وأرسل قائد جيش خمارويه يخبره بما كان فخرج من مصر في عساكره قاصداً الشام.

وسار المعتضد في جيش العراق إلى الرملة وبلغها خمارويه فاجتمع بعساكره على ماء الطواحين، وقد أكنن للمعتضد فانهزم خمارويه أولاً وملك المعتضد خيامه واشتغل أصحابه بالنهب فخرج عليهم الكمين، فانهزم المعتضد إلى دمشق فلم يفتح له أهلها فراح إلى طرسوس، وأمر خمارويه أخاه سعداً على جيش فاستحوذ على الشام كلها، وثار أهل طرسوس بابي العباس واليهيم فأخرجوه وسار إلى بغداد وولوا عليهم ساذيار، فأرسل إليه خمارويه مالاً وهدايا نفيسة فدعا له فانبسطت ولاية خمارويه من مصر إلى طرسوس.

وفي سنة ٢٧٣هـ سنة ٨٨٧م وقعت فتنة بين محمد بن أبي الساج واسحق بن كنداج المار ذكرهما فأرسل محمد إلى خمارويه يستنجد به على اسحق وأرسل له ابنه ليكون رهينة يضمن له طاعته دائماً، فبعث إليه خمارويه مالاً جزيلاً، وسار إلى الشام فاجتمع هو ومحمد لقتال اسحق بن كنداج وكانت بينهما حرب انهزم فيها ابن كنداج، وعبر خمارويه الفرات وقوي أمر محمد بن أبي الساج واستولى على الجزيرة والموصل وخطب لخمارويه فيهما ثم لنفسه من بعده.

على أنه في سنة ٢٧٥هـ سنة ٨٨٩م انتفض ابن أبي الساج على خمارويه فसार من مصر في عساكره نحو الشام والتقاء ابن أبي الساج فكان قتال بين الفريقين في جهة دمشق فانهزم ابن أبي الساج واستبيح عسكره وأخذت الأتقال والدواب التي كانت معه، وكان قد خلف في حمص شيئاً كثيراً فسير خمارويه

عسكراً سبق ابن أبي الساج إليها ومنع اعتصامه بها واستولى على ماله، فمضى ابن أبي الساج إلى حلب ثم إلى الرقة ثم إلى الموصل وخمارويه في أثره فطرده من الموصل، ولما رأى اسحق بن كنداج انقلاب خمارويه على ابن أبي الساج عدوه تزلف إلى خمارويه وعاونه على كبت ابن أبي الساج، وعاد خمارويه بعد أن قهر ابن أبي الساج إلى دمشق، ولما بويع المعتضد بالخلافة أرسل إليه خمارويه هدايا وسأله أن يزوجه ابنته قطر الندى بعلي ابن المعتضد. فقال أنا أتزوجها فزفها إليه. وفي سنة ٢٨٢هـ ٨٩٦م قتل خمارويه في دمشق ذبحه بعض خدامه على فراشه وكان سبب ذلك أنه نقل إلى خمارويه أن جواريه قد أخذت كل واحدة منهنّ خصياً وجعلته لنفسها كالزواج، وقصد خمارويه تقرير بعض الجواري على ذلك فاجتمع جماعة من الخدم وأنفقوا على قتله، وبايع قواد جيشه ابنه جيش وكان صبيّاً وخلعه طغج بن جف أمير دمشق، واختلف جنده عليه لصباه وتقريبه الأراذل وتهديده لقواد أبيه، فثاروا به فقتلوه ونهبوا داره ونهبوا مصر وأحرقوها، ثم أقعدوا أخاه هرون ابن خمارويه في الولاية سنة ٢٨٣هـ سنة ٨٩٧م فلم تكن ولاية جيش إلا تسعة أشهر. وفي أيام المعتمد ظهر بالكوفة قوم يعرفون بالقرامطة نسبة إلى رجل يسمى قرمط ابتدع بدعة وادّعى الألوهية وأرسل اثني عشر داعياً سماهم الخواريين، فانخدع كثيرون وأحدثوا الشغب فكبتهم الولاة وسار بعضهم إلى الشام وجمع جموعاً من الاعراب وأتى دمشق وبها طغج بن جف من قبل هرون بن خمارويه، فكانت بينهم وقعات وحاصروا دمشق فقتل يحيى زعيم القرامطة فولوا مكانه أخاه الحسين فحاصر حمص وفتحها ومضى إلى دمشق فصالحه أهلها على مال وعاد إلى حمص وأخذ حماة والمعة وقتل كثيرين وعاد إلى بعلبك وقتل أكثر أهلها، وسار إلى سلمية فحاربه أهلها ثم طلبوا الأمان فأمنهم ودخل المدينة فقتل كل من بها حتى الأطفال والبهائم. وجيش المكتفي سنة ٢٩٢هـ سنة ٩٠٥م جيشاً مع محمد بن سليمان فانتصر على القرامطة واستولى على دمشق وسار حتى دنا مصر وصاحبها حيثل هرون بن خمارويه ففارقه كثير من قواده ولحقوا بعسكر الخليفة وخرج هرون بمن بقي معه وجرى بينه وبين محمد بن سليمان وقعات، ثم وقع في عسكر هرون خصومة أدت إلى قتال فركب هرون ليسكن الفتنة فزرقه بعض المغاربة بمزراق فقتله، فقام ابن عمه شيان بالأمر ثم طلب الأمان من محمد بن سليمان فأمنه ثم هرب شيان تحت الليل فلم يوجد واستولى ابن سليمان على مصر وأمسك

بني طولون وكانوا بضعة عشر رجلاً واستصفي مالهم وقيدهم وحملهم إلى بغداد.
وكتب إلى المكتفى بالفتح وهكذا انقضت دولة بني طولون في مصر والشام (عن
ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء).

عد ٧٥٤

تمة أخبار المعتمد وخلافة المعتضد

إنَّ المعتمد كان عهد بالخلافة بعده إلى أخيه أبي أحمد طلحة وسمي الموفق
بالله وأرسله إلى حرب الزنج، فاشتغل بمحاربتهم سنين كثيرة إلى أن ظهر عليهم
وقتل رئيسهم وشتت شملهم وأخذ مدينتهم وأحرقها، فتحكم بأخيه المعتمد حتى
لم يبق له أمر وتغلَّب القواد والأجناد على الأمر لقلَّة خوفهم وأمنهم غائلة ما
يفعلونه لاشتغال الموفق بالله بقتال صاحب الزنج ولعجز الخليفة المعتمد على الله
وخلعه ابنه جعفر المسمى المفوض من ولاية عهده وجعل المعتضد ابن أخيه الموفق
ولي عهده. وفي سنة ٢٧٩هـ سنة ٨٩٣م توفي المعتمد فحمل إلى سامراء فدفن
فيها وكان عمره خمسين سنة وستة أيام، وكان أخوه الموفق قد تحكم فيه وضيق
عليه حتى أنه احتاج إلى ثلاث مئة دينار فلم يجدها فقال:

أليس من العجائب ان مثلي يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه
ويروى وما منها يسير في يديه.

وفي صبيحة الليلة التي مات فيها المعتمد بويح لأبي العباس أحمد بن الموفق
بالخلافة ولقب بالمعتضد بالله وهو السادس عشر من الخلفاء العباسيين، وقد تزوج
بقطر الندى بنت خمارويه صاحب مصر والشام ومن أهم الأحداث في أيامه إيقاعه
بالاعراب والأكراد في الموصل وقتله كثيرين منهم وغرق كثيرين، وفتح قلعة
ماردين وكانت لحمدان، ونقله ما كان فيها وهدمها. وفي سنة ٢٨٣هـ سنة ٨٩٧م
سار الصقالبة فحاصروا قسطنطينية وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً فجمع ملك الروم
من كان عنده من أسرى المسلمين وسلحهم فأزاحوا الصقالبة عن قسطنطينية،
وخاف الملك على نفسه من المسلمين فانتزع السلاح منهم وفرقهم في البلاد حذراً

من جنائتهم عليه. وفي سنة ٢٨٩هـ سنة ٩٠٢م انتشر القرامطة بسواد الكوفة، فأخذ رئيسهم وسير إلى المعتضد فعذب وخلعت عظامه ثم قطعت يده ورجلاه وقتل. وفي هذه السنة احتضر المعتضد فأنشد أبياتاً منها:

ولا تأمنن الدهر إنني أمنتَه فلم يبق لي خلاً ولم يرع لي حقاً
قتلت صناديد الرجال ولم أدع عدواً ولم أمهل على بغيه خلقاً
وأخليت دار الملك من كل نازع فشردتهم غرباً ومزقتهم شرقاً
فلما بلغت النجم عزاً ورفعةً وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
رمانى الردى عنه فاحمد جمرتي فهذا أنا ذا في حفرتي عاجلاً ألقى

ثم مات لثمان بقين من ربيع آخر سنة ٢٨٩هـ سنة ٩٠٢م ودفن ليلاً في دار محمد بن طاهر وكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً وخلفه ابنه علي ولقب بالمكتفي بالله وسيأتي الكلام عليه في بدء تاريخ القرن العاشر.

الفصل الثاني

المشاهير الدنيويون بسورية وما جاورها في القرن التاسع

عد ٧٥٥

أبو تمام صاحب الحماسة

هو حبيب ابن أوس بن الحارث وينسب إلى طي ولد سنة ١٩٥هـ سنة ٨٠٦م وقيل سنة ١٨٨هـ وهي سنة ٨٠٠م بجاسم وهي قرية من بلد الجيدور من أعمال دمشق بين دمشق وطبرية ونشأ بمصر. قيل إنه كان يسقي الناس ماءً بالجرة في جامع مصر، وقيل إنه كان يخدم حاكماً ويعمل عنده بدمشق، وكان أبوه خماراً بها، وكان فصيحاً حلوا الكلام فيه تتممة يسيرة. قال الصولي قال قوم إن أبا تمام هو

حبيب بن نذوس النصراني، وغيّر فصير أوساً. وكان واحد عصره في دياجعة فضله ونصاعة شعره وحسن أسلوبه وله كتاب الحماسة التي دلت على غزارة فضله واتقان معرفته بحسن اختياره، وله مجموع آخر سماه (فحول الشعراء) جمع فيه بين طائفة كثيرة من شعراء الجاهلية والخضرمين والاسلاميين وكتاب الاختيارات من شعر الشعراء، وكان له من المحفوظ ما لا يلحقه فيه غيره. ومدح الخلفاء وأخذ جوائزهم وجاب البلاد وقصد البصرة وبها عبد الصمد بن المعدل الشاعر فخاف من قدومه أن يميل الناس إليه فكتب إليه أبياتاً يهجو به، ولما قرأها أبو تمام كتب إليه :

أفني تنظم قول الزور والفند وأنت أنقص من لا شيء في العدد
أسرجت قلبك من غيظ على حنق كأنها حركات الروح في الجسد^(١)
أقدمت ويلك من هجوي على خطير كالعير يقدم من خوف على الأسد^(٢)

فلما قرأ عبد الصمد البيت الأول قال ما أحسن علمه بالجدل أوجب زيادة ونقصاً على معدوم. ولما قرأ البيت الثاني قال الاشرار من عمل الفراشين لا مدخل لها هاهنا. ولما قرأ البيت الثالث عض على شفته وقال قد ذكر ذلك أبو الفتح محمود بن الحسين.

قال العلماء خرج من قبيلة طي ثلاثة كل واحد مجيد في باب: حاتم طي في جوده، وداود بن نصير الطائي في زهده، وأبو تمام حبيب بن أوس في شعره.

وقالوا إنه مدح الخليفة في قصيدته السينية فلما انتهى فيها إلى قوله :
اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم اخنف في ذكاء اياس
قال له الوزير اتشبه أمير المؤمنين باجلاف العرب؟ فاطرق ثم رفع رأسه وأنشد :
لا تنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس
وقد ذكر أبو بكر الصولي في كتاب أخبار أبي تمام أنه لما أنشد القصيدة المذكورة لاحمد بن المعتصم بالله وانتهى إلى قوله اقدم عمرو وقال له أبو يوسف

(١) ويروى اسرجت قلبي من بغضي على حنق اضر من حركات الحجر للجسد
(٢) ويروى اطلت روعك حتى صرت لي غرضاً قد يقدم العير من دعر على الاسد

يعقوب بن الصباح الكندي الفيلسوف الأمير فوق من وصفت فأطرق قليلاً ثم زاد البيتين الآخرين، ولما أخذت القصيدة من يده لم يجدوا فيها البيتين فعجبوا من سرعته وفطنته. وقيل إنَّ الخليفة سأله حيثئذ ما تريد فقال أريد الموصل فأعطاه إياها فتوجه إليها. قال ابن خلكان لا صحة لولايته الموصل بل أنَّ الحسن بن وهب ولاء يريد الموصل فأقام بها أقل من سنتين ثم مات بها. والذي يدل على ذلك أنَّ القصيدة ليست في أحد من الخلفاء بل مدح بها أحمد بن المعتصم، وقيل أحمد بن المأمون ولم يل واحد منهما الخلافة. وتوفي أبو تمام في الموصل سنة ٢٣١ أو سنة ٢٣٢ هـ وهي سنة ٨٤٦ أو سنة ٨٤٧ م ودفن فيها. قال البحراني بنى على مدفنه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة ورأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان والعامّة تقول هذا قبر تمام الشاعر. ورثاه الحسن بن وهب بقوله من قصيدة:

سقى بالموصل القبر الغريباً سحائب ينتحبن له نحيباً
إذا اظلمت أظلمت فيه شعيب المزن يتبعه شعيباً^(١)
ولطمت البروق به حدوداً واشققن الرعود به جيوباً

ورثاه محمّد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم بقوله:
نبأ أتى من أعظم الأنبياء لما أَلَمَّ مقلقل الأحشاء
قالوا حبيب قد ثوى فأجبتهم ناشدتكم لا تجعلوه الطائفي
(ملخص عن ابن خلكان في وفيات الأعيان).

عد ٧٥٦

البحراني

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشاعر المشهور ولد بمنج (بولاية حلب) وقيل بزردفنه وهي قرية من قراها ونشأ وتخرّج بها ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء وخلقاً كثيراً من الأكابر والرؤساء، وأقام ببغداد دهرأ طويلاً ثم عاد إلى الشام وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلب وضواحيها، وكان يتغزل

(١) ويروي هذا المصراع صيب المزن يتبعه صيباً

بها وقد روى كثيراً من شعره أبو العباس المبرد ومحمد بن خلف وأبو بكر الصولي وغيرهم، وقد تشبب في أشعاره بعلوة بنت زريعة الحلبية . وحكى أبو بكر الصولي أنَّ البحتري كان يقول أولى نباهتي في الشعر إنني سرت إلى أبي تمام وهو بحمص وعرضت عليه شعري وكان يجلس فلا ييقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره، فلما سمع شعري أقبل عليّ وترك سائر الناس وقال لي بعد تفرقهم أنت اشعر من أنشدني فكيف حالك، فشكوت خلة فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لي بالحذف وشفع لي إليهم، وقال امتدحهم فصرت إليهم فاكروني ووظفوا لي أربعة آلاف درهم فكانت أول ما أصبته. وقال عن نفسه أول مرة رأيت أبا تمام اني دخلت إلى أبي سعيد محمد بن يوسف فامتدحته بقصيدتي التي أولها :

أفاق صب من هوى فافيقا ام خان عهداً أم أطاع شقيقا

فلما اتممتها سُرَّ بها وقال لي حسن الله إليك يا فتى. فقال له رجل في المجلس هذا شعري علقه، هذا فسبقني به إليك فتغير أبو سعيد وقال لي قد كان في نسبك ما يكفيك أن تزدلف إلينا ولا تحمل نفسك على هذا، فقلت هذا شعري أعزك الله فقال الرجل سبحان الله يا فتى لا تقل هذا، ثم أنشد من القصيدة أياتاً فخرجت متحيراً لا أدري ما أقول حتى ردني أبو سعيد وقال لي أتدري من هذا؟ قلت لا! قال لي هذا ابن عمك حبيب بن أوس الطائي أبو تمام فقم إليه، فقمته إليه وعانقته ثم أقبل إليّ يقرضني ويصف شعري، وقال إنما مزحت معك. فلزمته بعد ذلك وكثر عجبني من سرعة حفظه. وقيل للبحتري إياما أشعر أنت أم أبو تمام؟ فقال جيده خير من جيدي ورديثي خير من رديئه. وكان يقال لشعر البحتري سلاسل الذهب. ويقال إنه قيل لأبي العلاء المعري أي الثلاثة أشعر أبو تمام أم البحتري أم المتنبي فقال حكيمان (أي أبو تمام والمتنبي) والشاعر البحتري .

ومن أخبار البحتري أنه كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمي مات أبوه وخلف له مقدار مئة ألف دينار فأنفقها على الشعراء والزوار في سبيل الله، فقصده البحتري من العراق فقبل له إنه قعد في بيته لديون ركبته فاغتمَّ البحتري لذلك وبعث المدحة إليه، فلما وصلته ووقف عليها بكى ودعا غلاماً له وقال له بع داري فقال تبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس؟ فقال لا بدَّ من بيعها فباعها بثلاث مئة دينار وأخذ صرة وربط فيها مئة دينار وأنفذها إلى البحتري

وكتب إليه معها هذه الأبيات :

لو يكون الحباء حسب الذي أنت لدينا به محل واهل
لحييت اللجين والدر واليا قوت حشواً وكان ذاك يقل
والأديب الأريب يسمح بالعذ ر إذا قصّر الصديق المقل

فلما وصلت الرقعة إلى البحتري ردّ الدنانير وكتب إليه :

بأبي أنت أنت للبر أهل والمساعي بعداً وسعيك قبل
والنوال القليل يكثر إن شا ء مرجيك والكثير يقل
غير إني رددت برك إذا كا ن ربا منك والربا لا يحل

فلما عادت الدنانير إليه حلّ الصرة وضّم إليها خمسين ديناراً أخرى وحلف إنّه لا يردها عليه وسيرها إلى البحتري فلما وصلت إليه أنشأ يقول :

شكرتك ان الشكر للعبد نعمة ومن يشكر المعروف فالله زايد
لكل زمان واحد يقتدى به وهذا الزمان أنت لا شك واحد

ولم يزل شعر البحتري غير مرتّب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما صنعا بشعر أبي تمام . وللبحتري أيضاً كتاب حماسة على مثال حماسة أبي تمام وله كتاب معاني الشعر .

وقد وُلد البحتري في أوائل القرن الثالث للهجرة أي نحو سنة ٨٢٠ للميلاد وتوفي نحو سنة ٢٨٤هـ أي نحو سنة ٨٩٨م وكانت وفاته بمنبج وقيل بحلب . وعبيدالله وأخوه أبو عبادة ابنا يحيى بن الوليد البحتري اللذان مدحهما المتنبي بعدة قصائد هما حفيدا البحتري وكانا رئيسين في زمانهما والبحتري نسبة إلى بحتر أحد أجداده، ومنبج بفتح الميم وسكون التون وكسر الباء بلدة بالشام بين حلب والفرات (ملخص عن وفيات الأعيان) .

قطرب

هو أبو علي محمّد بن المستنير بن أحمد النحوي البصري أخذ الأدب عن سيويه وعن جماعة من العلماء البصريين وكان يكرّ إلى سيويه قبل حضور أحد من التلامذة، فقال له يوماً ما أنت إلا قطرب ليل فبقي عليه هذا اللقب وقُطِرَب اسم ذوية لا تزال تدأب ولا تفتقر وكان من أئمة عصره وله من التصانيف كتاب معاني القرآن، وكتاب القوافي، وكتاب النوادر، وكتاب الأزمنة، وكتاب الفرق، وكتاب الأصوات، وكتاب الصفات، وكتاب العلل في النحو، وكتاب الأضداد. وغيرها. وهو أوّل من وضع المثل في اللغة وكتابه وإن كان صغيراً لكن له فضيلة سبق، وبه اقتدى أبو محمّد عبدالله بن السيد البطليوسي وغيره وقد نسج على منواله المطران جرمانس فرحات الماروني في كتابه الموسوم بالمثلثات الدرية. ومما روه له هذان البيتان :

إن كنت لست معي فالذكر منك معي يراك قلبي إذا عُيِّيت عن بصري
والعين تنظر من تهوى وتفقدته وباطن القلب لا يخلو من النظر

وتوفي قطرب سنة ٢٠٦هـ سنة ٨٢٢ م .

الفراء

هو يحيى بن عبدالله بن منصور الديلمي الكوفي وفي كنيته أبو زكريا ويلقب بالفراء لا لأنّه كان يعمل الفراء أو يبيعها بل أنّه كان يفري الكلام أي يقطعه أو يصلحه. وكان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب وحكي عن أبي العباس أنّه قال: لولا الفراء لما كانت عربية ولولاه لسقطت لأنّها كانت تنازع ويدعيها كلّ من أراد، ويتكلّم الناس بها على مقادير عقولهم وقرائحهم. وقد أخذ النحو عن الكسائي وأتصل بالمأمون بن هرون الرشيد فأمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع بالعربية وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار، وأن يقدّم

له كل ما يحتاج إليه حتى لا تشوق نفسه إلى شيء، وألزمه وراقين أي كتابة يكتبون ما يمليه عليهم فكتب كتابه المعروف بالحدود في سنتين ثم ابتداء في كتابة كتاب المعاني في القرآن وقيل إن كتابه هذا لم يعمل مثله ولا يمكن أحداً أن يزيد عليه. ووكّل المأمون إليه أن يلقن ابنه النحو وقد تنازعا يوماً تقديم نعل الفراء له واصطالحا أن يقدم كل منهما فرداً، وعلم المأمون بذلك فعتبه فقال خشيت أن أدفعهما عن مكّمة سبقا إليها وقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث: تواضعه للسلطان، ووالده، ومعلمه العلم. ومن المشهور قوله: «أموت وفي نفسي شيء من حتى لأنها تخفض وترفع وتنصب». وقُل ما كان من الشعر. وله من التصانيف عدا كتابيه في الحدود والمعاني كتابان في الشكل أحدهما أكبر من الآخر وكتاب البهي، وهو صغير الحجم وكتاب اللغات وكتاب المصادر في القرآن، وكتاب الجمع والتثنية فيه وكتاب الوقف والابتداء وغيرها من الكتب. وقد توفي سنة ٢٠٧هـ سنة ٨٢٣م وعمره ثلاث وستون سنة.

الأصمعي

هو أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك المعروف بالأصمعي الباهلي وكان عالماً باللغة والنحو وإماماً في الأخبار والنوادر والمُلح والغرائب وهو من أهل البصرة وقدم بغداد في أيام هرون الرشيد قال فيه اسحق الموصلي لم أر الأصمعي يدّعي شيئاً من العلم فيكون أحد أعلم به منه، وقد طلبه المأمون بن هرون الرشيد ليصير إليه فاحتجّ بضعفه وكبره، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها. وقد ولد الأصمعي سنة ١٢٢ أو سنة ١٢٣هـ أي سنة ٧٤١ أو ٧٤٢م. وتوفي سنة ٢١٧هـ أي سنة ٨٣٣م على الأظهر وله كثير من المُلح والنوادر. قال أبو العينا كنا في جنازة الأصمعي فجدبني أبو قلابة حيث الجرمي الشاعر فأنشدني:

لعن الله أعظماً حملوها نحو دار البلى على خشبات
أعظماً تبغض النبي وأهل ال بيت الطيبين والطيبات
وجدبني أبو العالية الشامي وأنشدني:
لا در در نبات الأرض إذ فجعت بالأصمعي لقد أبقت لنا أسفا

عش ما بدالك في الدنيا فلست ترى في الناس منه ولا من علمه خلفا
قال فعجبت من اختلافهما فيه . ولالأصمعي من التأليف كتاب خلق الانسان،
وكتاب الأجناس، وكتاب الأنواء، وكتاب الهمز، وكتاب المقصور والممدود،
وكتاب الفرق، وكتاب فعل وافعل، وكتاب الأمثال، وكتاب الأضداد، وكتاب
النوادر، وكتاب أصول الكلام، وكتاب القلب والابدال إلى كثير غيرها .

أبو نواس الشاعر

هو أبو علي الحسن بن هاني المعروف بأبي نواس الشاعر المشهور كان أبوه من
جند مروان آخر ملوك بني أمية وكان من أهل دمشق، وانتقل إلى الأهواز فولد أبو
نواس بالبصرة ونشأ بها ثم خرج إلى الكوفة ثم صار إلى بغداد وأول ما قال من
الشعر وهو صبي :

حامل الهوى تعبٌ يستخفه الطرب إن بكى يحق له ليس ما به لعب
تضحكين لاهيةً والمحـب ينتحب تعجبين من سقمي صحتي هي العجب

وهو من الطبقة الأولى من المولدين وشعره عشرة أنواع وهو مجيد في العشرة
وقد اعتنى بجمع أشعاره أبو بكر الصولي وعلي بن حمزة الأصبهاني وغيرهما.
وقيل إن المأمون كان يقول لو وصفت الدنيا نفسها لما وصفت بمثل قول أبي
نواس :

الا كل حي هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق
فقل لقريب الدار إنك ظاعنٌ إلى منزل نائي المحل سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له من عدو في ثياب صديق

وله قصائد شتى للخلفاء في أيامه ونوادر حسنة ووقائع شتى منها أن محمداً
الأمين بن هرون الرشيد سخط عليه فتهدهه بالقتل وحبسه فكتب إليه من السجن :

بك أستجير من الردى متعوذاً من سطو باسك

وحياة رأسك لا اعو دُ لشلها وحيوة رأسك
من ذا يكون أبا نواسك إذ قتلت أبا نواسك
والمشهور أنه ولد سنة ١٣٦هـ سنة ٧٥٤م . وتوفي سنة ١٩٨هـ سنة ٨١٤م
بيغداد .

المازني

هو أبو عثمان بكر بن محمّد بن عثمان بن حبيب المازني البصري النحوي
كان أمام عصره في النحو والآداب، أخذ ذلك عن أبي عبيدة والأصمعي وأخذ عنه
أبو العباس المبرد وله من التصانيف كتاب ما يلحن فيه العامة وكتاب الألف واللام،
وكتاب التصريف، وكتاب العروض، وكتاب القوافي. وكان في غاية الورع وقالوا
أنفق ان غنت جارية بحضرة الواصل بقول العرجي :

أظلم ان مصابكم رجلاً اهدى السلام تحية ظلم

فاختلف من في الحضرة اعراب رجل فمنهم من نصبه على أنه اسم ان ومنهم
من رفعه على أنه خبرها والجارية مصرة على أن شيخها المازني لقنها إياه بالنصب
فأحضره الواصل وسأله فقال الوجه النصب يا أمير المؤمنين لأن مصابكم مصدر بمعنى
إصابكم والرجل مفعول مصابكم والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول ظلم
فيتم الكلام فالمعنى أن إصابكم رجلاً أهدى السلام ظلم . فاستحسنه الواصل . وقد
توفي المازني سنة ٢٤٨ أو سنة ٢٤٩هـ وهي سنة ٨٦٣ أو سنة ٨٦٤م .

حنين بن اسحق الطيب

هو أبو زيد حنين بن اسحق العبادي قوم من نصارى العرب من قبائل شتى
انفردوا عن الناس واجتمعوا في قصور ابنتوها بظاهر الحيرة وتسموا بالعباد لأن
الكلمة لا تضاف إلا إلى الخالق. وأما العبيد فتضاف إلى الخالق والمخلوق وكان
اسحق والد حنين صيدلانياً وأحب حنين العلم فحضر بغداد وتلمذ ليوحنا بن
ماسويه الطيب النصراني وجعل يخدمه ويقراً عليه، فغضب عليه يوحنا فمضى إلى
بلاد الروم وأحكم اللغة اليونانية والفلسفة ودخل البصرة وبرع في العربية وكان

جبرائيل بن بختيشوع طبيب الخلفاء النصراني أيضاً يجله، ولما سئل في أمره قال والله لئن مدَّ له في العمر ليفضحن سرجيس وهو سركيس الراسعيني او الرشعيني الذي ذكرنا ترجمته وهو ناقل علوم اليونان إلى اللغة السريانية. ولحين مصنفات في الطب وترجمات لكثير من كتب علوم اليونان وأتصل خبره بالخليفة المتوكل بالله فأحضره إليه فأقطعه اقطاعاً وكثرت جوائزه له، وقال له يوماً أن يصف له دواء يقتل به عدواً له فقال حنين ما تعلمت غير الأدوية النافعة فهدده الخليفة وحبسه سنة ثم أعاده إليه وأعاد طلبه فقال قلت لأمر المؤمنين ما فيه الكفاية قال الخليفة فاني أقتلك فقال حنين لي رب يأخذ لي حقي غداً، فتبسم المتوكل وقال له طب نفساً فإننا أردنا امتحانك فقبل الأرض حنين وشكر له. فقال الخليفة ما الذي منعك من الإجابة قال حنين شيان الدين والصناعة. أمّا الدين فأنه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فما ظنك بالأصدقاء. وأمّا الصناعة فأنها موضوعة لنفع الناس ومعالجتهم، وفي رقاب الأطباء عهد موكد بإيمان مغلظة أن لا يعطوا أحداً دواءً قتالاً فقال الخليفة إنهما شرعان جليلان وأمر بالخلع فافضت عليه. وكان الطيفوري النصراني الكاتب يحسد حنيناً واجتمع يوماً في دار بعض النصارى ببغداد وهناك صورة المسيح والتلاميذ وقنديل يشتعل أمامها فقال حنين لصاحب البيت ليس هذا المسيح ولا هؤلاء الرسل وإنما هما صور، فلم تضع الزيت؟ فقال الطيفوري إن لم يستحقوا الاكرام فابصق عليهم فبصق، فاشهد عليه الطيفوري ورفعته إلى المتوكل وسأله بإباحة الحكم عليه بحسب دين النصارى، فبعث إلى الجاثليق والأساقفة فأوجبوا حرم حنين فحرم وقطع زناره. وانصرف حنين إلى داره ومات من ليلته فجأة. وقيل إنّه سقى نفسه سمّاً فمات سنة ٢٦٠هـ سنة ٨٧٤م. وكان لحنين ابنان داود واسحق، أما اسحق فعزّم على الترجمة وأحسن فيها وكانت نفسه أميل إلى الفلسفة، وأمّا داود فكان طبيباً للعامة وكان له ابن أخت يقال له حبيش بن الأعسم أحد الناقليين من اليونانية والسريانية إلى العربية، وقيل إنّه من جملة سعادة حنين صحبة حبيش له فان أكثر ما نقله حبيش نسب إلى حنين (ملخص عن ابن العبري في تاريخ الدول وعن ابن خلكان في وفيات الأعيان).

وقد ذكره عبد يشوع الصوباوي في قصيدته المشهورة فقال حنين بن اسحق الف فصولاً في مخافة الله وكتاباً في قواعد اللغة (غرامطيقاً) ومعجماً. وقال السمعاني في شرحه كلام الصوباوي من (المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ١٦٤)

إنَّ حُنَيْنًا كَانَ نَسْطُورِيًّا وَاتَّهَ تَوْفِي سَنَةَ ٨٧٦، وَرَوَى عَنْ هُوْتَيْنَجْرُوسَ عَنْ ابْنِ الْعَبْرِيِّ أَنَّ حُنَيْنًا أَلَّفَ خَمْسَةَ وَعِشْرِينَ كِتَابًا خِلا مَا تَرَجَمَهُ عَنِ الْيُونَانِيَّةِ إِلَى السَّرْيَانِيَّةِ وَالْعَرَبِيَّةِ، وَنَقَلَ السَّمْعَانِي عَنْ ابْنِ الْعَبْرِيِّ مَا رَوِيَاهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ تَارِيخَ الدُّوَلِ. وَرَوَايَةٌ أُخْرَى فِي كِتَابِهِ فِي جِثَالِقَةِ الشَّرْقِ قَالَ فِيهَا إِنَّ حُنَيْنًا شَكََا الطِّيفُورِي إِلَى الْخَلِيفَةِ بِأَنَّهُ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ فَكَبَسَ الْخَلِيفَةُ بَيْتَ الطِّيفُورِي وَأَتَوْا مِنْهُ بِصُورَةِ الْعِذْرَاءِ، فَقَالَ حُنَيْنٌ هَذَا صَنْمُهُ. فَقَالَ الطِّيفُورِي أَبْصَقْ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ صَنْمًا فَبَصَقَ فَشَكَاهُ إِلَى الْجَائِلِيقِ فَحَرَّمَهُ. وَمِنْ كُتُبِ حُنَيْنٍ كِتَابٌ فِي خِلَاصَةِ فِلْسَفَةِ أَرِسْطُو وَقَدْ اخْتَصَرَهُ ابْنُ الْعَبْرِيِّ وَشَرَحَهُ (طَالَعِ الْمَكْتَبَةُ الشَّرْقِيَّةُ مَجْلَدٌ ٢ صَفْحَةُ ٢٧٠ وَ ٢٧٢).

المبرد

هُوَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْأَكْبَرِ الْأَزْدِيُّ الْبَصْرِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْمَبْرَدِ النَّحْوِيُّ وَلَدَ سَنَةَ ٢١٠ هـ سَنَةَ ٨٢٦ أَوْ سَنَةَ ٨٢٣ م وَتَوَفَّى سَنَةَ ٢٨٦ وَقِيلَ سَنَةَ ٢٨٥ هـ سَنَةَ ٩٠٠ أَوْ سَنَةَ ٨٩٩ م بِبَغْدَادَ وَكَانَ إِمَامًا فِي النَّحْوِ وَلَهُ التَّأْلِيفُ النَّافِعَةُ فِي الْأَدَبِ مِنْهَا: كِتَابُ الْكَامِلِ، وَكِتَابُ الرُّوْضَةِ الْمُقْتَضِبِ وَغَيْرُهُمَا. أَخَذَ الْأَدَبَ عَنْ أَبِي عِثْمَانَ الْمَازِنِيِّ وَأَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ وَقَدْ أَخَذَ عَنْهُ نَفْطُوِيهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَثَمَةِ وَكَانَ الْمَبْرَدُ وَأَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى الْمُلَقَّبُ بِثَعْلَبٍ صَاحِبَ كِتَابِ الْفَصِيحِ عَالِمِينَ مُتَعَاَصِرِينَ وَفِيهِمَا يَقُولُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَبْدِ الْأَزْهَرِ الَّذِي كَانَ فِي عَصْرِهِمَا:

أَيَا طَالِبَ الْعِلْمِ لَا تَجْهَلُنْ وَعِذْ بِالْمَبْرَدِ أَوْ ثَعْلَبِ
تَجِدُ عِنْدَ هَذَيْنِ عِلْمَ الْوَرَى فَلَا تَكُ كَالْجَمَلِ الْأَجْرِبِ
عِلْمُ الْخِلَائِقِ مَقْرُونَةٌ بِهِذَيْنِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ

وَكَانَ الْمَبْرَدُ كَثِيرَ الْأَمَالِيِّ حَسَنَ النُّوَادِرِ فَمِمَّا أَمْلَاهُ إِنْ الْمَنْصُورَ أَبَا جَعْفَرَ وَلِي رَجُلًا عَلَى التَّصَدِّقِ عَلَى الْعَمِيَانِ وَالْأَيْتَامِ وَالْقَوَاعِدِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا أَزْوَاجَ لَهُنَّ فَدَخَلَ عَلَى هَذَا الْمُتَوَلِّي رَجُلًا وَمَعَهُ وَلَدُهُ فَقَالَ لَهُ إِنْ رَأَيْتَ أَصْلَحَكَ اللَّهُ أَنْ تَنْتَبِتَ اسْمِي مَعَ الْقَوَاعِدِ، فَقَالَ الْمُتَوَلِّي الْقَوَاعِدُ نِسَاءٌ فَكَيْفَ اثْبَتَكَ فِيهِنَّ؟. فَقَالَ فِي الْعَمِيَانِ فَقَالَ أُمَّا هَذَا فَنَعَمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى لَا تَعْمَى الْأَبْصَارَ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ. فَقَالَ وَنَتَبْتُ وَلَدِي فِي الْأَيْتَامِ. فَقَالَ وَهَذَا أَيْضًا أَفْعَلُهُ فَمَنْ تَكُونُ أَنْتَ؟

أباه؟ فهو يتيم. وكان المبرد كثيراً ما ينشد في مجالسه :
يا من تلبس أثواباً يتيه بها تيه الملوك على بعض المساكين
ما غير الجل أخلاق الحمير ولا نقش البراذع أخلاق البراذين
ولما مات نظم ابن العلاف فيه وفي ثعلب هذه الأبيات :
ذهب المبرد وانقضت أيامه وليذهبن أثر المبرد ثعلبُ
بيت من الآداب أصبح نصفه خرباً وباقي بيتها فسيخربُ
فابكوا لما سلب الزمان ووطنوا للدهر أنفسكم على ما يسلبُ
وتزودوا من ثعلب فبكاس ما شرب المبرد عن قريب يشربُ
وأرى لكم أن تكتبوا أنفاسه إن كانت الأنفاس مما يكتبُ
واختلف في سبب تلقيه بالمبرد وما روه أنه اختبأ يوماً ما في مزلة وهي
خاية يبرد الماء فيها فلقب بالمبرد بتشديد الراء وفتحها .

الزجاج

هو أبو اسحق ابراهيم بن محمد بن السري بن سهل الزجاج النحوي كان من
أهل العلم بالأدب والدين المتين، وصنف كتاباً في معاني القرآن وله كتاب الأمانى
وكتاب ما فسر من جامع المنطق وكتاب الاشتقاق وكتاب العروض وكتاب القوافي
وكتاب مختصر في النحو وكتاب فعلت وأفعلت، وكتاب ما ينصرف وما لا
ينصرف وكتاب شرح أبيات سيويه وكتاب النوادر إلى غيرها، وأخذ الأدب عن
المبرد وثعلب واختص بصحبة الوزير عبد الله بن سليمان بن وهب وعلم ولده القاسم
الأدب، ولما استوزر القاسم أفاد معلمه مالا جزيلاً. وقد توفي الزجاج سنة ٣١٦هـ
سنة ٩٢٩م وقد اناف عمره على ثمانين سنة (وقد لحصنا أكثر ما في هذا الفصل
عن وفيات الأعيان لابن خلكان).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٧٥٨

بطاركة أنطاكية في القرن التاسع

فرغنا من كلامنا في بطاركة أنطاكية في القرن الثامن بذكر توادوريطس ونقول الآن إن توادوريطس خلفه أيوب وأقام في البطريركية احدى وثلاثين سنة أي من سنة ٨١٢ إلى سنة ٨٤٣ على ما روى إدوار برنردس. وقال سعيد بن البطريق إن أيوب أقيم بطريركاً على أنطاكية في السنة الأولى لخلافة المأمون بن هرون الرشيد، والمأمون بويع له بالخلافة سنة ١٩٨هـ وهي سنة ٨١٣م أو سنة ٨١٤م وأنه استمر على هذا الكرسي احدى وثلاثين سنة فتكون وفاته سنة ٨٤٤ أو سنة ٨٤٥م. والفرق بين الروايتين قليل وهذا ظاهر أيضاً من كتاب يوحنا كوروبلات الذي كتب التاريخ البيزنطي. ومن كتاب مكمل تاريخ قسطنطين بورفيروجانت الذي سماه يعقوب بدلاً من أيوب ومع ذلك ستري أنه لا يمكن القطع بصحة ذلك. وخلف

أيوب بعد وفاته كريستوفر ولا ريب في أنه كان في أيام الملك توافيل لأن هذا الملك كتب رسالة في شأن تكريم الصور إلى أيوب بطريرك اسكندرية وكريستوفر بطريرك أنطاكية وباسيليوس بطريرك أورشليم وهذه الرسالة ذكرها قسطنطين بورفيزوجانت على أن توافيل استوى على منصة الملك من سنة ٨٢٩ إلى سنة ٨٤٢م فيلزم من ذلك أن يكون أيوب سالفه توفي قبل سنة ٨٤٤م خلافاً لما ذكرناه آنفاً. ولذلك قلنا إنه لا يمكن القطع بسنة أيوب سالفه ولا بصحة قول إدوار برنردس وابن البطريق بأنه دبر كنيسة أنطاكية احدى وثلاثين سنة على أن إدوار وابن البطريق لم يذكر أيوب بطريرك اسكندرية وكريستوفر بطريرك أنطاكية في هذا القرن .

وخلف نيقولاوس كريستوفر سنة ٨٤٧م وجاء في المجلس الأول من المجمع الثامن العام الذي عقد في قسطنطينية سنة ٨٦٩م أن كرسي أنطاكية لم يكن فيه حيثيذ بطريرك لأن الخليفة كان قد نفى البطريق تلك السنة على ما روى في المجمع المذكور إيليا نائب البطريق الأورشليمي. وجاء في مختصر أعمال المجمع المذكور الذي ترجم عن اليونانية إلى اللاتينية أن نيقولاوس هذا كان قبل المجمع الثامن قد حرم فوتيوس لغصبه كرسي اغناطيوس البطريق الشرعي على قسطنطينية . وذكر ابن البطريق في تاريخه أن أسطفانس الرابع صُبِّرَ بطريقاً على أنطاكية وجلس على الكرسي يوماً واحداً وتوفي يوم ارتقائه، وقام بعد ذلك توادوسيوس وذكره ادوار برنردس وسماه تادي، وقال إن مدة بطريركيته وطريركية أسطفانس كانت اثنتين وعشرين سنة أي من سنة ٨٦٩ إلى سنة ٨٩١م وعن ابن البطريق أن توادوسيوس استمر وحده ٢٢ سنة وجاء اسم توادوسيوس في أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس في أيام الملك باسيليوس وأنه أرسل كاهناً اسمه باسيليوس إلى مجمع فوتيوس وأن باسيليوس هذا كان نائباً عن إيليا أيضاً الذي كان يدير حيثيذ كنيسة أورشليم .

وخلف اوسطاتيوس توادوسيوس المذكور ولم نعرفه إلا من رسالة أنفذها إليه فوتيوس معنونة إلى اوسطاتيوس بطريرك أنطاكية، ويظهر أن فوتيوس كان بطريركاً لما أرسل إليه هذه الرسالة. وخلف سمعان الأول أوسطاتيوس وقد ذكره ابن البطريق وقال إنه كان ابن زرناسي وجلس على كرسي أنطاكية سنة ٨٩١م وأقام في

البطريكية اثنتي عشرة سنة وكذلك روى إدوار برنردس وقال لأنه توفي سنة ٩٠٣م (ملخص عن المشرق المسيحي للكويان في كلامه على بطاركة أنطاكية) .

عد ٧٥٩

بطاركة أورشليم في القرن التاسع

خلف توما جيورجيوس الذي ذكرناه في تاريخ القرن الثامن وزعم بعض المؤرخين أن فرتوناتس كان قبل توما بطريكاً على أورشليم ولكن أثبت لكويان في صفحات كثيرة أن فرتوناتس لم يكن بطريكاً على أورشليم بل على البندقية، وأن توما اختير بطريكاً بعد وفاة جيورجيوس سنة ٨٠٧م على ما يظهر من ترجمة العشرين شهيداً التي ذكرها البولنديون في اليوم العشرين من شهر آذار. ومما كتبه لاونتسيوس في ترجمة القديس أسطفانس راهب دير القديس سابا. وقد أنفذ توما البطريك سنة ٨٠٩م إلى البابا لاون الثالث رسالتين إحداهما باسمه والأخرى باسم رهبان دير جبل الزيتون في أورشليم في شأن خلاف كان بينهم في عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن أيضاً وأثبت لكويان رسالة هؤلاء الرهبان وجواب الحبر الروماني إليهم مشتملاً على دستور الإيمان وقد أوفد هذا البطريك إلى الملك لاون المعروف بالأرمني توادورس وأخاه توفان راهبي دير القديس سابا ليدافعوا عن عقيدة تكريم الصور، فسخط الملك عليهما وعذبهما ونفاهما. وهذا بين من ترجمتها التي أثبتتها بارونيوس في تاريخ سنة ٨١٧م عن مؤلف لم يذكر اسمه. والظاهر مما رواه باجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس أن توما بقي حياً سنة ٨٢١م وأنه توفي سنة ٨٢٩م التي قام فيها باسيليوس خليفته .

وخلف باسيليوس توما المذكور ولا شك في أنه كان يدبر كنيسة أورشليم في أيام الملك توفيل الذي استوى على منصة الملك سنة ٨٢٩م لأن باسيليوس هذا قد كتب هو وأيوب البطريك الاسكندري وخريستوفر البطريك الأنطاكي إلى هذا الملك محاماة عن تكريم الصور، وهذا ظاهر من المقالة التي كتبها قسطنطين برفيروجانت في نقل صورة المسيح المرسلة إلى أبجر ملك الرها من هذه المدينة إلى قسطنطينية، وهذه المقالة قد نشرها كمبيفيسيوس وأثبتها باجيوس في تنقيح تاريخ

بارونيوس لسنة ٨٣٣م. ولم يجمع العلماء على اسمي أيوب وخريستوفر بل سماها بعضهم بغير هذين الاسمين. ولم يتفقوا أيضاً على الزمان الذي كان فيه هؤلاء البطارقة. وقد ذكر اسم باسيليوس في الجدول اللاتيني لبطارقة أورشليم ولكن لم تعين سنة ارتقائه أو سنة وفاته. ويؤخذ من ارتقاء سرجيوس خليفته إلى البطيركية سنة ٨٤٣م ان باسيليوس توفي تلك السنة.

وخلف سرجيوس باسيليوس وقد ذكر اسمه في الجدول اللاتيني المذكور: وقال فيه سعيد بن البطريق إنّه صير بطريكاً في السنة الثانية لخلافة الوائق بالله واستمر بطريكاً ست عشرة سنة. فالوائق بالله ببيع له بالخلافة في ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ. وقال جرجس بن العميد إنّ بدء هذه السنة الهجرية كان في ٢١ تشرين الأول سنة ٨٤١م، فالثامن عشر من ربيع الأول يوافق ٥ كانون الثاني سنة ٨٤٢م. ولما كان قد رقي في السنة الثانية لخلافة الوائق كانت ترقيته سنة ٨٤٣. قال لكويان عند ذكره ما مرّ هنا هذا ما رواه سعيد بن البطريق وهو كثير الغلط والخطأ، فلا يركن إلى قوله، وكثيراً ما لزم إصلاح خطأه، على أنّه لا يتحتم نبذ كل ما يقوله ولا سيما ما قاله هنا في سرجيوس الذي كان قريباً من عصره. وقد جاء ذكر سرجيوس هذا في صلاة عيد المجمع الثامن المسكوني في جملة البطارقة الذين حرموا فوتيوس وغريغوريوس أسقف سيراكوزا. وجاء ذكره أيضاً في أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩م في أيام الملك باسيليوس والبابا يوحنا الثامن إذ قيل هنالك إنّ إيليا كاتب سرجيوس شهد هذا المجمع نيابةً عنه، لكنّ أعمال هذا المجمع لا يركن إليها ولا يعتمد عليها إذ حقق أهل النقد أنّ فوتيوس أدخل عليها أموراً كثيرة غير صحيحة. وإذا صحّ ما قاله سعيد بن البطريق من أنّ سرجيوس ظلّ بطريكاً ست عشرة سنة فتكون وفاته سنة ٨٥٨ أو سنة ٨٥٩م إذ صير بطريكاً على قوله سنة ٨٤٣م.

وخلف سلمون أو سليمان سرجيوس المذكور وقال فيه ابن البطريق إنّّه صُيّر بطريكاً في السنة العاشرة لخلافة المتوكّل على الله، والمعلوم أنّ المتوكّل ببيع له بالخلافة بعد وفاة أخيه الوائق في ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ وقال ابن العميد إنّ هذه السنة الهجرية كان بدؤها في ٢٨ آب سنة ٨٤٧م، وعليه فخلافة المتوكّل في ذي الحجة توافق أوائل آب سنة ٨٤٨م، والسنة العاشرة لخلافته توافق سنة ٨٥٨م كما مرّ. ويؤيد ذلك أنّ أنسطاس المكتبي قال في رسالته إلى البابا أدريانس الثاني

(المثبتة في المجلد ٨ في مجموعة المجامع للاباي) ما ملخصه: «إنَّ سلمون كان عامياً وما دخل في الإكليريكية إلاَّ وصير بطريكاً وهذا لم يكن له مثيل منذ أيام يعقوب الرسول إلاَّ إذا صير عن عهد قريب فوتيوس بطريكاً بُعيد أن صار أكليريكياً». وفوتيوس صير بطريكاً سنة ٨٥٧، وما ذكرته يخالف بعض الخلاف ما ذكره لكويان في هذا المحل لسهوه في التوفيق بين السنين الهجرية والمسيحية. وقد توفي سلمون قبل انعقاد المجمع الثامن سنة ٨٦٩ وربما كانت وفاته سنة ٨٦٣ أو سنة ٨٦٤.

وخلف توادوسيوس (ويسمى توادورس أيضاً) سلمون وقال فيه ابن البطريق إنَّه صُيِّر بطريكاً في السنة الأولى لخلافة المستعين بالله واستمرَّ بطريكاً تسع عشرة سنة. والمشهور أنَّ المستعين بالله بويج بالخلافة لست خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨ للهجرة. وعن ابن العميد أنَّ هذه السنة كان بدؤها السادس من آذار سنة ٨٦٢م فان صحَّ قول ابن البطريق كان ارتقاء توادوسيوس إلى البطيركية سنة ٨٦٢ أو سنة ٨٦٣م وكانت وفاته سنة ٨٨١ أو سنة ٨٨٢م. على أنَّه يظهر من أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩م أنَّ توادوسيوس كان قد مات قبل ذلك لأنَّ الذي ناب في هذا المجمع عن البطريك الأورشليمي قال مرات في المجمع إنَّ الذي أرسله إنَّما هو إيليا بطريك أورشليم خليفة توادوسيوس الذي توفي من عهد قريب. أجل إنَّ أعمال هذا المجمع لا يركن إليها كما مرَّ ولكن مثل هذا القول لا مصلحة لأحد في إدخاله عليها، فتبيَّن منه أنَّ هذا البطريك توفي سنة ٨٧٩م قبل عقد المجمع لأنَّنا نعلم أنَّ البابا يوحنا الثامن أنفذ إليه رسالة مؤرخة في ٢ أيار سنة ٨٧٩م (ذكرها لاباي في مجلد ٣) ومجمع فوتيوس عقده في شهر أيلول من هذه السنة. ونعلم أيضاً أنَّ توادوسيوس كتب رسالة إلى اغناطيوس بطريك قسطنطينية سنة ٨٦٧م قبل انعقاد المجمع الثامن العام بسنتين وتليت هذه الرسالة في المجلس الأوَّل منه، وكان توادوسيوس يعتذر فيها عن أن يحضر المجمع بنفسه وعن أن يكتب اغناطيوس بطريك قسطنطينية بتواتر خشية من مراقبة الحكومة له، ويقول إنَّه أناب إيليا كاتبه عنه. وقال إيليا هذا في المجلس الخامس من هذا المجمع: «قد بلغنا إلى هنا منذ سنتين قبل بلوغ نواب الخبر الروماني».

وخلف إيليا الثالث توادوسيوس المذكور وإن صدقنا شيئاً من أعمال المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩م ظهر أنَّ إيليا خلف توادوسيوس تلك السنة قبل انعقاد المجمع، وأنَّه كان محازباً لفوتيوس ومحالفاً لاغناطيوس وأنَّ نائب إيليا صرَّح

بأن سالفه توادوسيوس كان على شاكلته. لكن هذا التصريح الأخير تهمة تدحضها رسالة توادوسيوس إلى أغناطيوس التي ذكرناها آنفاً ويفندها نص المجمع الثامن، فالظاهر أن الملك باسيلئوس وفوتيوس استمالا إيليا بطريك أورشليم إلى الرضى برد فوتيوس إلى البطريكية بعد عزله عنها. قال لكويان (في كلامه على هذا البطريك) لما كانت أعمال مجمع فوتيوس لا يمكن الاعتماد عليها لا أجسر أن أحقق أن إيليا شايع فوتيوس في حياة اغناطيوس. وقال ابن البطريق في إيليا هذا إنه صيّر بطريكاً في السنة العاشرة لخلافة المهدي، وأنه كان ابن منصور الذي عاون على فتح دمشق وظلّ بطريكاً تسعاً وعشرين سنة. والمشهور أن المهدي بويج له بالخلافة سنة ٢٥٥هـ، وعن ابن العميد أن هذه السنة كان بدؤها في ٢٠ كانون الأول سنة ٨٧٠م فالسنة العاشرة من خلافته التي صير إيليا بطريكاً فيها كانت سنة ٨٧٩ أو سنة ٨٨٠م. على أن قول البطريق أنه كان ابن منصور الذي عاون على فتح دمشق إنما هو من أغلاطه الفاضحة، فإن فتح دمشق كان سنة ٦٣٥م قبل ارتقاء هذا البطريك بمئتين وخمس وأربعين سنة. ولهذا البطريك رسالة إلى الملك كرلس الصغير ملك افرنسة وإلى أساقفتها وأعيانها يلتمس فيها معاونته على إصلاح كنائس فلسطين. وروى ابن العميد أن الملك لاون أراد أن يتزوج بامرأة رابعة فعارضه نيقولاوس بطريك قسطنطينية زاعماً أن هذا مخالف سنة الشرقيين، فكتب الملك إلى غيره من بطارقة المشرق فأفتوه بأن ذلك حلال فتزوج، ونفى البطريك نيقولاوس، ثم مات إيليا بطريك أورشليم سنة ٩٠٧م ان صحّ قول ابن البطريق. (انتهى ملخصاً عن الشرق المسيحي للكويان).

عد ٧٦٠

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن التاسع

نأسف شديد الأسف على أننا مع تنقيينا في كل ما لدينا من الكتب عن أسماء الأساقفة الذين كانوا بسورية في هذا القرن لم نجد منها إلا نزرأ قليلاً لا لأنه لم يكن أساقفة بل لأن الاضطرابات المتتالية والغزوات المتواترة والغارات التي كان الغزاة المسلمون يشنونها على بلاد الروم وسطو عساكر ملوك الروم على بلاد المسلمين كل ذلك منع الناس والنصارى خاصة عن التفرغ للعلم والانكباب على

التأليف فقلّ ما خلف لنا من عاشوا بسورية في تلك الأعصر ما ننتفع به بمعرفة أخبارهم، أو إذا كانوا خلفوا شيئاً فأتلفته غير الزمان ولم يتصل إلينا. وكانت المراقبة شديدة شأن كل بلد كثر فيه الشغب أو تواتر إليه الغزو فلا يباح رؤساؤه ووجهاءه السعي في سبيل تقدم العلوم والمعارف والخروج من مواطنهم ليعرفهم الأجانب ويدونوا أخبارهم، بل كانوا يحاذرون المكاتبات إلى الأجنيين أيضاً. ولنا مثال لذلك في ما كتبناه عن عجز الأساقفة والبطاركة عن أن يشهدوا المجمع السابع النيقوي في القرن الثامن حتى ناب كاهنان عن ثلاثة بطاركة، وما سندونه عن تعذرهم عن المضى إلى المجمع الثامن في هذا القرن ولو استطاعوا أن يشهدوا هذين المجمعين لتوصلنا بذلك إلى معرفة كثيرين منهم بالوقوف على توقيعاتهم كما عرفنا كثيرين منهم بتوقيع أسمائهم في المجمع السابقة، أو بذكر كلامهم أو الكلام عنهم. فلله الأمر ولا حول ولا قوة إلا به. ومن عرفناهم من أساقفة سورية في هذا القرن إنما هم أولاً أغايوس نقل من كرسي سلوقية ياريا إلى كرسي حلب في أيام الملك باسيلوس الذي ارتقى إلى منصّة الملك سنة ٨٦٨م. ذكره نيكوفور كاليستوس (ك ٩ فصل ٣٩) وعنه لكويان في المشرق المسيحي في أساقفة حلب.

ثانياً توما، وقد ذكر فوتيوس في المجمع الذي عقده سنة ٨٧٩م أنّه شهد المجمع الثامن بمنزلة نائب عن بطريك أنطاكية مع أنّه لم يكن أسقفاً على بيروت ولم يُنبّه بطريك أنطاكية عنه، ونتج من ذلك أنّ رسائل البطاركة الشرقيين الثلاثة إلى المجمع الثامن الذي حرمه كانت مزورة، إلى أن قال فوتيوس، في مجمعه إنّ توما نقل بعد ذلك إلى صور فطلب من البطاركة الاسكندري والأنطاكي والأورشليمي المغفرة والصفح عمّا صنعه في المجمع الثامن مخالفاً به فوتيوس وتليت في المجلس الثاني من مجمع فوتيوس رسالة معنونة توبة توما متروبوليت صور ادّعى فوتيوس أنّ ميخائيل البطريك الاسكندري أرسلها إليها، على أنّ أعمال هذا المجمع ليست بصحيحة ولربّما كانت تلك الرسالة مختلفة.

ثالثاً روى غوليلمس كافوس في تاريخه عند كلامه في فوتيوس القسطنطيني وكتابه في المجمع أنّه أي فوتيوس قال إنّ في مكتبته بين الكتب اليونانية كتاباً موجزاً في المجمع لكنه ليس من تأليفه بل أنّ مؤلفه إنّما هو فوتيوس أسقف صور (ملخص عن لكويان في المشرق المسيحي) وقد طالعنا الفصول التي ينشرها المنسيور شابو في المجلة الموسومة بالمشرق المسيحي نقلاً عن الكتاب القديم السرياني

الذي وجد في الرها معزواً إلى مخائيل الكبير بطريك اليعاقبة، فوجدنا هناك كثيراً من أسماء الأساقفة اليعاقبة الذي رقام بطاركتهم إلى كراسي أبرشياتهم في حلب وحمص وبلبك ودمشق من القرن الثاني عشر، ولكن ليس هناك إلا الأسماء وحدها فضرينا عن ذكرها لقلة الفائدة من معرفة الأسماء مجردة واجتزأنا بهذه الإشارة .

الفصل الثاني

مشاهير العلم الديني في القرن التاسع

لم نعرف أحداً من مشاهير العلم الديني بسورية في هذا القرن فاقصرنا على ذكر بعضهم من غير سورية جرياً على مساق تاريخنا إلى الآن

عد ٧٦١

ديونيسيوس بطريك اليعاقبة

قد استشهدنا مرات بتاريخ ديونيسيوس بطريك اليعاقبة فأفردنا هذا الفصل لذكر ترجمة موجزة فقد اتخذ السيرة الرهبانية أولاً في دير قنسرين ثم انتقل إلى دير القديس يعقوب في كيشوم أو خيشوم (بين حلب والرها)، ولما اجتمع أساقفة اليعاقبة لانتخاب بطريك يخلف فوريتس الذي توفي سنة ٨١٧م ولم يتفقوا على أسقف أهل للبطريركية نهض توادورس الأسقف الذي كان من دير خيشوم فقال لني أرى ديونيسيوس الراهب الذي أقام عندنا في دير خيشوم منذ سنتين أهلاً لذلك فتابعه على رأيه باسيليوس أسقف تكريت، ويوحنا أسقف مرعش، أنسطاس أسقف دمشق وغيرهم من الأساقفة، ووقعوا على صك الانتخاب فاستدعوه ورقوه يوم الجمعة إلى درجة الشماسية ويوم السبت إلى درجة الكهنوت ويوم الأحد في اليوم

الأول من آب سنة ١١٢٩ يونانية (توافق سنة ٨١٨م) إلى المقام البطركي كما أخبر هو عن نفسه على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة. وكان بين اليعاقبة حينئذ شقاق وفي مقدمة المخالفين أسقف اسمه ابراهيم سموه بطريكاً فلم يخضع مع محازبيه لديونيسيوس بل استمروا مخالفين له مدة حياة ابراهيم المذكور، وكثيراً ما أزعجوا الخليفة المأمون بشكاويهم وعدم إذعانهم. واختلف اليهود أيضاً وكان بينهم شقاق على الرئاسة فإنَّ يهود طبرية رأسوا عليهم رجلاً اسمه داود ويهود بابل رأسوا عليهم دانيال من العناية وهم شيعة منهم استبدلوا السبت بالأربعاء ورفعوا دعواهم إلى المأمون فأبرز أمراً فحواه أنه إذا اتَّفَق عشرة رجال من أي مذهب كانوا على إقامة رئيس ساخ لهم سواء كانوا نصارى أو يهوداً أو مجوساً وتوفي ابراهيم البطريك المشاق سنة ٨٣٧م فاختر أصحابه خليفة له أخاه سمعان. وتوفي ديونيسيوس في ٢٢ آب سنة ٨٤٥م (عن ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة).

وقد ألَّف ديونيسيوس تاريخاً ابتداءً فيه من خلق العالم إلى آخر أيامه، ولهذا التاريخ نسختان تتداولهما أيدي السريان إحداها مطولة سلك بها مسلك أوسايوس القيصري وغيره من المؤرخين اليونان، والثانية موجزة حذا بها حذو أوسايوس القيصري المذكور في الكرونيكون، فيذكر السنين ويدون ما كان في كل منها بإيجاز. وقد روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ٩٨) أنه عثر على نسخة قديمة من هذا الموجز في دير العذراء والدة الله في الاسقيط وأنَّ ديونيسيوس كتب هذا الكتاب قبل بطريكته لأنَّه قال لأنَّه كان الفراغ منه في أيام البطريك جيورجيوس الذي كان هو الثالث بعده، ودعا فيه كهنة الدير آبائه الروحيين. وهذا التاريخ ينتهي في نسخة الاسقيط المذكورة سنة ٧٧٥م. وقد قسَّم تاريخه أربعة أقسام تكلم في الأول على ما كان من خلق العالم إلى أيام قسطنطين الكبير واعتمد فيه على تاريخ أوسايوس القيصري، وفي الثاني على ما كان من أيام قسطنطين إلى أيام توادوسيوس الصغير واعتمد فيه على تاريخ سقراط، وفي الثالث على ما كان من أيام توادوسيوس إلى أيام يوستينيانوس الملك واعتمد فيه على تاريخ يوحنا أسقف آسيا، وفي الرابع على ما كان من عهد يوستينيانوس إلى أيامه واعتمد فيه على مطالعته. وقد أرَّخ فيه بثلاثة أعصر: عصر خلق العالم من آدم إلى ابراهيم، وعصر ابراهيم من مولده إلى أيام قسطنطين الكبير، وعصر اسكندر وأرَّخ فيه من

أيام قسطنطين إلى آخر تاريخه وجعل سني التاريخ من آدم إلى الطوفان ٢٢٤٢ سنة، ومن الطوفان إلى ابراهيم ٩٤٢، ومن ابراهيم إلى المسيح ٢٠١٦ سنة. فكان على رأيه ميلاد المخلص سنة ٥٢٠٠ لخلق آدم، وهذا يقرب من التاريخ الذي يؤخذ عن الترجمة اليونانية وقد خطأه السمعاني في مسائل كثيرة من تاريخه (طالع المكتبة الشرقية مجلد ٢ من صفحة ٩٨ إلى ١١٦). وقد ذكر السمعاني أيضاً ترجمته عن ابن العبري في المجلد المذكور (من صفحة ٣٤٤ إلى ٣٤٨)، وقال في هذا المحل الأخير إن تاريخ ديونيسيوس المطول ينتهي في سنة ٨٤٤م، مع أن تاريخ الموجز ينتهي في سنة ٧٧٥م، على ما في نسخته التي عثر عليها في دير الأسقيط، لكنه قال إن آخرها ساقط.

عد ٧٦٢

يوحنا الداراوي وموسى بركيفا

أما يوحنا فكان أسقف دارا في الجزيرة واختلف في العصر الذي كان فيه فمن قائل إنه كان في القرن السادس أو السابع أو الثامن، وقطع السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ١١٨) إنه لم يكن قبل سنة ٧٠٠ للميلاد ولا بعد سنة ٨٥٠م. والأوضح من ذلك ما ذكره في المجلد المذكور صفحة ٣٤٧ نقلاً عن ابن العبري في تاريخ بطاركة اليعاقبة من أن ديونيسيوس بطريركهم المار ذكره كتب في آخر حياته ليوحنا هذا تاريخه يصف له المضايق التي يتحملها وما يقاسيه من الغم والكدر حتى يشتهي الموت وبذلك كانت نهاية تاريخه ومات بعيد ذلك وكان موته سنة ٨٤٥م كما مر، فإذا، كان الداراوي حينئذ حياً. وقد ذكر السمعاني مؤلفات الداراوي نقلاً عن كتاب قديم خط سنة ٩٣٢م وكان من كتب ابراهيم الحاقلي الماروني وهو الآن في جملة الكتب المعزوة إليه في المكتبة الواتيكانية عد ١٦ فقال إن مؤلفاته هي أربعة أسفار في قيامة الأجساد: يشتمل الأول منها على أحد عشر فصلاً والثاني على ١٥ فصلاً والثالث على ٨ فصول والرابع على ٢٤ فصلاً. وسفران في المراتب السموية والبيعية وأربعة أسفار الكهنوت، يشتمل الأول منها على ٨ فصول والثاني على ٢٢ فصلاً والثالث على فصلين والرابع ممتزج آخره والباقي منه سبعة فصول. وقال السمعاني بعد إيراده فحوى كل من هذه الفصول

إن بعضها مثبت في الكتاب الذي خطّه الحاقلي في الكهنوت معزواً إلى القديس يوحنا مارون، وقد استوفينا الكلام على ذلك عند ذكرنا مؤلفات هذا القديس في عد ٧٠٧، وللداراوي أيضاً نافور (أي رتبة القديس) ذكره مؤلف جدول النوافير على ما روى سكولنجيوس (مجلد ٣ صفحة ١٠٦) وهو يعقوبي المذهب.

أمّا موسى بركيفا (أي ابن الصخرة أو ابن بطرس) فقد ذكر السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ١٢٧) ترجمته في جملة تراجمة المؤلفين اليعاقبة، فقال إنه اشتهر في أواخر القرن التاسع وكان في شبابه قد اتخذ السيرة الرهبانية في دير سرجيوس بالجبل المعروف بطورا صهيا (أي الجبل القاحل) على دجلة ثم رقي إلى الأسقفية وسمي ساويرس، ونراه سمي تارة أسقف بيت رمان وطوراً أسقف بيت كينا وحيناً أسقف الموصل، وقد أدركته الوفاة سنة ٩١٣م على ما روى ماسيوس في مقدمته على كتابه في الفردوس. أمّا مؤلفاته فعدّها ماسيوس كما يأتي: وأولها كتابه في ستة أيام الخليقة، والثاني في الفردوس وقد ترجمه أندراوس ماسيوس إلى اللاتينية وطبع في سنة ١٥٦٩م، والثالث يشتمل على تفسير أسفار العهدين القديم والحديث وقد استشهد به أبو الفرج ابن العبري متواتراً في تفسيره آيات الأسفار المقدسة، والرابع نافور ترجمه رينودسيوس إلى اللاتينية (مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٩١)، وقد ذكره البطريرك أسطفانس الدويهي الشهير في كتابه «المنابر العشر» (فصل ٧ في مؤلفي النوافير غير الكاثوليكين عد ١٥) فقال: «ساويروس وهو موسى بركيفا أسقف بيت رمان له نافوران بدء الأول **هذه** **المنابر العشر** **هذه**» (أي أيها الرب الإله النور الأزلي) والثاني ما وقع في يدنا «والخامس شرح النافور السرياني، والسادس في النفس، والسابع في البدع، والثامن في تلييس الثوب الرهباني، والتاسع خطب في الأعياد الاحتفالية، وقد ذكره السمعاني أيضاً في المجلد المذكور من المكتبة الشرقية صفحة ٢١٨ مبيناً نسبه وسيرته وأسقفيته ومؤلفاته نقلاً عن ابن العبري وعن الكتاب القديم الذي هو ٣٢ من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية، وقال إن الكتاب السرياني الذي أرسله حديثاً أندراوس اسكندر الماروني إلى المكتبة الواتيكانية وهو في عد ٣١ يشتمل على تأليفه الآتي ذكرها وهي: كتابه في النفس يحوى ٤٠ فصلاً، وكتاباه في شرح الميرون المقدس وفيه ٥٠ فصلاً، وكتاباه في المعمودية وفيه ٢٤ فصلاً، وكتاباه في صعود الخلق وفيه ٢٠ فصلاً.

ذكرهما وله مجموعة رسائل ومقالات في بدعة أصحاب المشيئة الواحدة جمع أكثرها من كتب يونانية وترجمها إلى اللاتينية. (انتهى ملخصاً عن تاريخ نطاليس اسكندر في القرن التاسع).

أمّا سمعان متفرست فكان ابن والدين حسيين غنيين بقسطنطينية وتراقى في المناصب العالمية فكان رئيس كتبة لاون السادس ملك الروم المعروف بالفيلسوف أو الحكيم الذي ضبط زمام الملك سنة ٨٨٦م إلى سنة ٩١١م وترجماناً له ثم رئيس قصره، وقد وصفه أندراوس أسقف رودس بالرجل الكلي الشهرة في كتبة الروم الذي تتلى أقواله كل يوم في كنائسهم (كما يظهر من المجلس السابع من المجمع الفلورنتيني) وكانوا يسمونه اللاهوتي الحديث. وقد كتب تراجم القديسين جامعاً إياها من خزائن الكنائس والأديار، ثم أشهر راهباً يونانياً اسمه أغايوس موجزاً عن كتابه عنوانه: «كتاب الفردوس أي تراجم القديسين عن سمعان متفرست وقد طبع هذا الكتاب في البندقية سنة ١٥٤١م وعدد الترجمات التي كتبها سمعان مئة واثنان وعشرون ترجمة، وقد أثبتتها البولنديون باليونانية واللاتينية في كتاب أعمال القديسين، وله تاريخ يتدأ من سنة ٨١٣م إلى أيامه نشره كيميبيسيوس مترجماً إلى اللاتينية وقد طبع في بون سنة ١٨٣٨م، وقد انتقد بعض العلماء منهم الكردينال بلرمينس على متفرست بعض أخباره عن القديسين وكلمة متفرست وصف أصبح لقباً له فانها يونانية معناها المترجم والشارح لكتابته تراجم القديسين (ملخص عن نطاليس اسكندر وغيره).

الفصل الثالث

الشقاق الذي كان في كنيسة قسطنطينية في القرن التاسع

عد ٧٦٤

فوتيوس والقديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني وما كان بينهما

وُلد فوتيوس في قسطنطينية نحو سنة ٨١٥م من أسرة حسية غنية وكانت أمه أخت القديس ترازبوس البطريرك القسطنطيني الذي ذكرناه قبلاً، وانكبَّ على العلم منذ حداثة فنبغ فيه وحاز فيه قصبات السبق على اقرانه في عصره وترقى في المناصب في البلاط الملكي فكان رئيس كتبة الملك، وعضواً في ندوة المدينة ثم صير سفيراً للملك في فارس، وله تأليف كثيرة جريئة النفع أولها مكتبته الشهيرة التي عدد بها الكتب التي طالعها وأبدى رأيه فيها وشرح ما احتاج منها إلى شرح، وقد أوصل إلى الخلف فقرأ وتبدأ للسلف لم تكن معلومة عند أهل عصره، وأحسن طبعة لهذا الكتاب النفيس طبعت في جانو سنة ١٦٦٢ باليونانية واللاتينية ثم طبع هذا الكتاب باليونانية في برلين سنة ١٨٢٤م. ولفوتيوس أيضاً مجموع لقوانين الكنيسة ومعارضتها بشرائع الملوك، وقد طبع في باريس سنة ١٥٥١م، ثم طبعه الأب مين في مكتبة الآباء مع باقي كتب فوتيوس سنة ١٨٦٠م، وله معجم للغة اليونانية طبعه هرمان سنة ١٨٠٨م في لبسيك ثم طبع في لوندريه سنة ١٨٢٢م. وله مقالات كثيرة منها مقالته في مخالفة الكنيسة اللاتينية ومقالة في انبثاق الروح القدس ومقالة في رد مزاعم المانويين إلى غير ذلك.

وكان في هذا العصر القديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني فهذا كان ابن الملك ميخائيل كوروبالات، ولما ثل عرش أبيه نفي هو إلى أحد الأديار فاتخذ

السيرة الرهبانية واشتهر بعلمه وفضيلته، ولما توفي متوديس بطريرك قسطنطينية اختير اغناطيوس سنة ٨٤٦م بطريركاً فعمَّ السرور الشعب. على أنَّ شدة غيخته في المحافظة على الإيمان وحقوق البطريركية جعلت له أعداء الداء أولهم غريغوريوس أسقف سيراكوسا الذي كان قد عزله عن أسقفية لجرائم ثبتت عليه. وأخص هؤلاء الأعداء وأقدرهم برداس أخو الملكة توادورا امرأة الملك توافيل، وكان هذا الملك قد أقام برداس وصياً على ابنه ميخائيل الثالث وكان برداس قد طلق امرأته وتسرى بكنته الأرملة، وكان البطريرك ينهاه عن هذا الأثم ويأمره بإزالة هذا العثار وفصله أخيراً من شركة المؤمنين، فحنق عليه برداس وهدده بالقتل وأخذ يطعن به لدى الملك ان تمكن من أن يطرده من كرسيه سنة ٨٥٨م وينفيه إلى جزيرة ترائينثا، وطلق يخادع ويتملق كثيرين من الأساقفة، ويعد كثيرين منهم بالبطريركية إذا عزلوا اغناطيوس. فهذه الوسائل، ومكائد غريغوريوس أسقف سيراكوسا المذكور حملت كثيرين على عزل اغناطيوس فعزلوه متمحلين لذلك علة بأنَّ ترقية إلى البطريركية كانت مخالفة لقوانين الكنيسة، وعزم برداس أن يرقى فوتيوس إلى البطريركية وهو عامي ومن عمال الملك، ولقن كلاً من الأساقفة الذين كان قد وعدهم بالبطريركية أن يتردد عن قبولها أولاً تأدباً واحتشاماً، فأوقعهم باحبولته وانتخبوا فوتيوس ورقوه إلى كل الدرجات المقدسة حتى البطريركية في ستة أيام. وكان الرقي له غريغوريوس أسقف سيراكوسا المنحط عن الأسقفية، فاعترضه غير هؤلاء من الأساقفة وشرطوا عليه لقبوله البطريركية أن يتنازل اغناطيوس عنها بطواعيته وأصروا على نبذهم الطاعة لفوتيوس، فاضطرَّ أن يرفع رسالة إلى البابا نيقولاوس الأول سنة ٨٦٠م مداهناً مخادعاً آملاً أن ينال كلمة في الجواب يتوكأ عليها لعرفانه بطريركاً، وحمل برداس الملك أن يكتب إلى الحبر الروماني أنَّ اغناطيوس قد أعجزه الهرم عن حمل أعباء البطريركية فاستقال منها، وإنَّ فوتيوس أكره على حمل هذا الوقر الثقيل الذي تعجز عن حمله مناكب الملائكة. وكان برداس وفوتيوس في هذه المدة يبدلان قصارى جهدهما في اكراه القديس اغناطيوس والتضييق عليه بالحبس والضرب أيضاً ليدون صك استقالته فلم ينالا منه مأرباً (عن نيقيطا في ترجمة القديس اغناطيوس وعن رسالة فوتيوس إلى البابا نيقولاوس الأول التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ٨٥٩م، وعن رسالة هذا البابا المثبتة في مقدمة أنسطاس المكتبي على أعمال المجمع الثامن، وعن تاريخ شدرانس وغيرهم).

أمّا البابا نيقولاوس فلمّا بلغته رسالتا الملك وفوتIOS لم يَر من السداد أن يصدق كلّما جاء فيهما وآثر أن يسلك محاذراً المكر فأرسل ذكريا أسقف أنانيا، ورودوالد أسقف برتو إلى قسطنطينية وأمرهما أن يفحصا أولاً وينقبا عن حقيقة الحال، وأنفذ معهما رسالة إلى الملك شكّا بها من عزل اغناطيوس دون استمache رضى الكرسي الرسولي. وختمها بقوله إنّه مُرسل قاصدين للفحص فلا يبرز حكمه قبل الوقوف على حقيقة الحال. وكتب إلى فوتIOS يلومه على وثوبه السريع من حالة العامي على أعلى مرتبة في الكنيسة، فأمسك برداس وفوتIOS القاصدين في العاصمة مدة طويلة ولم يرضا بحيلة ولا وسيلة من وعد ووعد وتملّق وتقادم واکرام لنيل رضاها باثبات انتخاب فوتIOS وعزل اغناطيوس في مجمع يعقد بحضرتيهما فعقد هذا المجمع سنة ٨٦١م وشهده جمهور غفير من الأساقفة وأتى إليه الملك بنفسه، وكان فوتIOS قد أخذ من القاصدين رسائل الخبر الروماني لترجم من اللاتينية إلى اليونانية فحرقت بعض عباراتها وطبقت على ما يرام وتليت كذلك في المجمع ودعي القديس اغناطيوس فأتشج بملابسه الخيرية اشعاراً ببراءته، فالتقاء أحد عمال الملك ينهاه من قبله عن أن يحضر في المجمع إلّا بثوبه الرهباني، فتعرى من زينة الجسد وازدان بيسالته وشجاعته، وسأل القاصدين إخراج فوتIOS الغاضب من المجمع أن يرى نفسه ويثبت صحة ترقيته فلم يستمع له، بل ألحوا عليه أن يستقيل ولم يقروا أن يكرهوه على ذلك، لأنّه استغاث بالخبر الروماني ورفع دعواه إليه فأحضروا في المجمع شهوداً كثيرين شهدوا زوراً بأنّه نال المقام البطريركي بقوة السلطة العالمية ودبر الكنيسة بصرامة متناهية وحكموا عليه بالعزل سنداً إلى قانون من القوانين المنسوبة إلى الرسل قيل فيه: «إذا تولى أسقف تدبير كنيسة بقوة السلطة العليا فليعزل». وأجرى أعوان الملك على القديس اغناطيوس كل ما عنّ لهم من الأعذبة والسجن والاهانات ليوقع على حكم المجمع فلم يفعل، فأخذ أحدهم يده ورسم بها شكل صليب وكتب فوتIOS بجانبه ما يشعر باقراره أنّه غصب البطريركية ودبر الكنيسة بصرامة (عن نقيطا في ترجمة القديس اغناطيوس وعن رسالة هذا القديس إلى البابا نيقولاوس الأول، وعن رسائل هذا البابا ٧ و ٨ و ٩، وعن أنسطاس المكتبي في مقدماته على المجمع الثامن) ورفع فوتIOS إلى البابا نيقولاوس رسالة أكثر فيها من التذلل والمداينة له والاعتذار بضرورة الحال التي ألجأته إلى قبول البطريركية لخير الكنيسة، وأصبح ذلك بما شاء من أعمال المجمع والحجج المؤيدة صحة انتخابه وصحة حكم المجمع

على اغناطيوس وكتب إلى البابا مصادقاً على ما عرضه فوتيوس فلم ينخدع البابا الحاذق بهذه الرسائل، وبلغته بعد ذلك الاستغاثة التي رفعت إليه باسم اغناطيوس واسماء الأساقفة والرهبان الذين لبثوا أمناء له، ورفع إليه أيضاً زكريا أسقف أنانيا أحد قاصديه تقريراً يعترف به بخطأه وانخداعه في الجمع الذي عقده بقسطنطينية، فعقد البابا مجمعاً في رومة سنة ٨٦٣م حط فيه فوتيوس عن مقامه الاكليركي وهدده بالحرم إن أصرَّ على طلب البطريركية أو أعاق اغناطيوس عن تدبير كنيسة فلم يذعن فوتيوس لهذا الحكم، ولذلك أطلق عليه البابا نيقولاوس الحرم سنة ٨٦٤م ثم كرَّر إعلان حرمه سنة ٨٦٥م، فبعثت فوتيوس كبرياؤه أن يعقد مجمعاً آخر بقسطنطينية حضره بعض الأساقفة المخازين له فحرموا فيه البابا نيقولاوس وسموا مجمعهم مسكونياً، ولم يكن فيه إلا أساقفة قليلون، فزاد فوتيوس عليه توقيعات كثيرين من الأساقفة والكهنة والشمامسة مع أنَّ السواد الأعظم من هؤلاء لم يعلم بعقد مجمع وأشاعوا أنَّ البابا حرمه مجمع مسكوني. وأنفذ فوتيوس رسائل عامة إلى بطاركة الشرق ينبئهم بها ما كان في مجمعه وينتقد الكنيسة اللاتينية بصوم بنيتها يوم السبت كاليهود وينقصها أسبوعاً من الصوم وأكل بنيتها البياض أيام الانقطاع، وحظرها الكهنة عن الزواج ومنعها الكهنة عن منح سر الشبث، وتحريفها قانون الإيمان بزيادتها عليه ان الروح القدس ينبثق من الآب «والابن» وسمى نفسه في هذه الرسائل البطريرك المسكوني. وكل ذلك بين في رسالة فوتيوس التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ٨٦٣م نقلاً عن كتاب قديم. وأرسل فوتيوس أعمال مجمعه إلى لويس ملك افرنسة وكتب إليه أنَّ أساقفة هذا الجمع كانوا يدعون بتوقيفه وتوفيق الملكة أملاً أن يعاونه ملك الغرب أيضاً على الحبر الروماني. (عن نيقيطا في ترجمة اغناطيوس وأنسطاس في المحل المذكور).

وعاجلت نعمة الله برداس سنة ٨٦٧م، فإنَّ الملك ميخائيل قتله ثم قتل باسيليوس الملك ميخائيل وملك مكانه، فطرد فوتيوس من كنيسة قسطنطينية ونفاه إلى دير بعيد، وأرسل فأخذ القديس اغناطيوس بمركبته الملكية من محل منفاه إلى كرسية والتقاء بالترسيم والاحتفاء، وكتب إلى البابا نيقولاوس يخبره بطرده فوتيوس وإعادته اغناطيوس (كما هو ظاهر من رسالة الملك هذه المعلقة في أعمال المجلس الثالث من الجمع الثامن). وكان البابا نيقولاوس توفي سنة ٨٦٧م فبلغت رسائل الملك إلى البابا أدريانس الثاني خليفته فأجابه مثنياً على غيرته ومثبثاً أعمال سالفه.

وعقد مجعاً في رومة سنة ٨٦٨م أعاد فيه حرم فوتيوس ونبذ رسائله المذكورة، ولما كان فوتيوس ومشايعوه لم ينفكوا عن الشعب ووسوسة الناس عزم البابا أديانس على عقد مجمع في قسطنطينية فعقد فيها سنة ٨٦٩م وسفرد له الفصل التالي. وقد حرم فيه فوتيوس وغريغوريوس أسقف سيراكوسا وكل من شايعهما ولم ينفك فوتيوس مكابراً هائماً بالعود إلى البطيركية ثالباً هذا المجمع وطاعناً بمن كانوا فيه إلى أن انتقل القديس اغناطيوس إلى رحمة الله سنة ٨٧٨م وله من العمر ثمانون سنة. والكنيسة اللاتينية والشرقية تعيدان لذكره في ٢٢ من شهر تشرين الأول.

لم يدخر فوتيوس بعد نفيه حيلة يزدلف بها إلى الملك باسيليوس، من ذلك أنه كتب بأحرف اسكندرية قديمة على ورقة رثة ألصقها بكتاب قديم في المكتبة الملكية وكان ما كتبه مشعراً بأن نسب بيكلاس والد الملك باسيليوس يتصل بتريادات ملك الأرمن، وأن باسيليوس سينيف على جميع ما تقدمه في الملك سعادة ونجاحاً، وأوعز إلي أحد أصدقائه أن يئنه الملك إلى هذه الكتابة القديمة، وإن ليس من يحل رموزها إلا فوتيوس، فاستدعاه الملك ففسر له ما كتب كما أحب فرضي باسيليوس عنه وأقامه على تعليم ابنه قسطنطين ولاون، فلم تمض ثلاثة أيام بعد وفاة اغناطيوس إلا وارتقى فوتيوس إلى كرسي البطيركية. ولهيامه بأن يثبت فيه هذه المرة أخذ يسترضي الأساقفة ويرشو بعضهم ويعد بعضهم ويهدد بعضهم ومن لم تنجح بهم هذه الوسائل عزله أو نفاه أو عذبه، ورفع رسالة إلى البابا يوحنا الثامن قال فيها إنه أكره على العود إلى البطيركية وإنه مستعد لتركها إن لم يرض عنه. وبعث الملك على أن يكتب للبابا مبتهلاً إليه أن يحل فوتيوس من الحرم الذي طعنه به أسلافه والمجمع الثامن ويقبله في شركته، وحمل كثيرين من الأساقفة على أن يوقعوا على عريضة للحبر الروماني بهذا الصدد. وكان البابا يوحنا يحتاج إلى معاونة الملك على صد غزوات العرب في إيطاليا فأجاب البابا الملك أنه يرتضي بقبول فوتيوس بشرط أن ييدي أدلة توبته في مجمع يلتئم بحضرة قصاده بقسطنطينية (كما روى نقيطا في ترجمة اغناطيوس). وقد ندّد بعض المؤرخين بتسامح البابا يوحنا على هذا النحو وعذره بعضهم بأن الضرورة دعتهم إليه. وأرسل البابا من لدنه الكردينال بطرس ليرأس هذا المجمع نائباً عنه مع بولس وأوجانيوس اللذين كانا قاصدين في الشرق. وعند بلوغ الكردينال إلى قسطنطينية أخذ فوتيوس منه رسالة البابا ليترجمها إلى اليونانية فحرّفها وطبقها على ما أحب، واستدعى

الأساقفة فاجتمع كثيرون منهم سنة ٨٧٩م وعقد المجمع الذي يدعوهُ الروم المجمع الثامن المسكوني مع أنَّه لم يكن مسكونياً ولا صحيحاً لأنَّ فوتيوس رأسه ودبَّر كل شيء فيه كما أحبَّ خلافاً لإرادة الحبر الروماني ولرأي قصاده فيه وأثبت نفسه في البطريركية، ونقض رسوم المجمع الثامن الصحيح الذي كان قد عقد سنة ٨٦٩م. وبدلاً من أن ييدي في هذا المجمع أدلة توبته زاد جسارة وبدل عبارات البابا الدالة على وجوب توبته بالتقريظ له وسخر من القصاد، ولما درى البابا يوحنا الثامن بما كان استأنف الحرم لفوتيوس ولجمعه المذكور وأرسل قاصداً آخر إلى قسطنطينية اسمه مارينس أشهر هذا الحرم وكذلك صنع خليفته مرتينس الثاني وأدريانس الثالث. على أنَّ فوتيوس لم يعبأ بحرم الأخبار الرومانيين وجراه على ذلك تغير وقع حينئذ بين الملك باسيلئوس والكرسي الرسولي لأنَّ الملك باسيلئوس شقَّ عليه حرم فوتيوس وطرح مارينس قاصد البابا في السجن ثلاثين يوماً، على أنَّ الملك باسيلئوس قد خرمته المنية سنة ٨٨٦م وخلفه ابنه لاون الملقَّب بالحكيم فنفذ حكم الحبر الروماني على فوتيوس إذ طرده من الكرسي البطريركي ونفاه إلى دير للأرمن في بردي، ويقال إنَّه عاش هناك خمس سنين وتوفي. فإنَّ صحَّ ذلك كانت وفاته سنة ٨٩١م. وقال بعض علماء الروم إنَّه توفي كاثوليكياً في حظيرة الكنيسة الرومانية. ولكن الظاهر من حرم البابا يوحنا الثامن له، ومن استئناف خلفائه هذا الحرم، ومن عدم وجود دليل على ارعوائه أنَّه مات منفصلاً عن الكنيسة الكاثوليكية. ومهما يكن من أمره فلا مزية في أنَّه كان أوَّل متسبب لهذا الانفصال الكائن حتى اليوم بين الكنيسة الرومانية وكنيسة الروم غير الكاثوليكية.

عد ٧٦٥

المجمع الثامن المسكوني

عقد هذا المجمع بقسطنطينية سنة ٨٦٩م إذ سأل الملك باسيلئوس البابا أدريانس الثاني عقد مجمع لإزالة الخلاف الذي كان يومئذ في قسطنطينية، وأوفد البابا إليه ثلاثة قصاد: دونتس أسقف أوستيا وأسطفانس أسقف نابي، ومارينس شماس الكنيسة الرومانية، وصحبهم البابا برسالتين الأولى إلى الملك باسيلئوس والثانية إلى اغناطيوس البطريرك القسطنطيني، فبلغ القصاد قسطنطينية في ٢٤ أيلول سنة ٨٦٩م

وأعلنوا افتتاح المجمع في ٥ تشرين الأول في كنيسة اجيا صوفيا، وجلس القصاد في المحل الأول ومن بعدهم اغناطيوس البطريك، ثم نواب بطاركة الشرق خلا بطريك اسكندرية فإنه لم يُنَبَّ أحداً عنه إلا في المجلس التاسع، وكان في مصاف الأساقفة اثنا عشر أسقفاً ممن عاملهم فوتيوس سوء المعاملة لمدافعتهم عن اغناطيوس البطريك وكان في المجمع من قبل الملك احد عشر رجلاً من أصحاب المناصب في دولته فعقد المجلس عشرة مجالس .

المجلس الأول عقد في ٥ تشرين الأول السنة المذكورة وتلي فيه خطاب الملك المنفذ إلى المجمع، ثم رسالتا الحبر الروماني إلى الملك واغناطيوس البطريك، ورسالة من توادوسيوس بطريك أورشليم إلى اغناطيوس بطريك قسطنطينية، ثم دستور الاتحاد على مثال الدستور الذي كان البابا هرمزدا قد أرسله سنة ٥١٩م لإزالة الخلاف الذي كان في أيامه في كنيسة قسطنطينية .

والمجلس الثاني عقد في ٧ تشرين الأول ودخل إليه عشرة أساقفة ويبد كل منهم صك اعترافه بخطئه في متابعة فوتيوس على مناصبة القديس اغناطيوس يصرحون فيه أنهم ما أقدموا على ذلك إلا خشية من الاضطهاد الذي كان فوتيوس ينزله بمخالفه، فقبلهم المجمع بعد أن وقَّعوا على صك الترضية الذي كان القصاد قد أتوا به من رومة إلى المجمع كل بحسب مقامه، وقبل المجمع أيضاً على الوجه المذكور احد عشر كاهناً وتسعة شمامسة وسبعة شدايقة وهؤلاء كان اغناطيوس أو متوديوس قد رقيهم لكنهم انحازوا إلى فوتيوس، وأشهر القديس اغناطيوس عليهم مما يلزمهم عمله من التفكير .

والمجلس الثالث عقد في ١١ من الشهر المذكور وفيه لم يشأ بعض الأساقفة أن يوقَّعوا على الدستور المؤتى به من رومة، وأمر بتلاوة رسالة الملك باسيليوس ورسالة البطريك اغناطيوس إلى البابا نيقولاوس وجواب البابا أدريانس إلى هذا البطريك .

ثم عقد المجلس الرابع في ١٣ من الشهر المذكور وجرى البحث في شأن أسقفين كان متوديوس قد رقاها، ثم شاركا فوتيوس اسم أحدهما توافيل والآخر زكريا ولم يريد أن يوقَّعاً على التعهد بالمدافعة عن الإيمان الكاثوليكي والادعان لحكم الكنيسة الرومانية في كل شيء، فطردها من المجمع بعد أن قبلا فيه .

والمجلس الخامس عقد في ١٩ من الشهر المذكور واستدعى إليه فوتيوس فسأله

القصاص: «أتدعن لما رسمه البابا نيقولاوس الأول، وما أثبتته أديانيس خليفته؟ وأعيد عليه السؤال مرات فظل صامتاً. فقيل له إن لم تجب حكمنا عليك. فقال لي أسوة بالمسيح فقد حكم عليه صامتاً» فتليت حينئذ في المجمع رسائل الكنيسة الرومانية المنفذة إلى الملك ميخائيل وإلى فوتيوس نفسه، ونهض إيليا نائب توادوسيوس بطريك أورشليم وقال باسمه واسم غيره من نواب الشرق إنه مضى عليه سبع سنين وهو ملازم بطريك أورشليم ويمكنه أن يشهد ويثبت أن كنيسة أورشليم لما تبلغها رسائل من فوتيوس وهي لم تكتابه البتة وكذلك كنيسة أنطاكية، وهذا نفسه يبين أن فوتيوس لم تقبله إحدى الكنائس البطريركية وأنه قد غصب بطريركية قسطنطينية. وقال في الختام أن فوتيوس يلزمه أن يقر بخطأه ويندم عليه ندامة مخلصه، فإذا فعل ذلك ساخ له أن تقبله الكنيسة بمنزلة أحد المؤمنين، فارتأى المجمع أن لا حاجة إلى حكم حديث على فوتيوس بل أن يعتمد على الحكم الذي أبرزه عليه البابا نيقولاوس وأثبتته البابا أديانيس. وألح عليه البطريق باهان (أحد نواب الملك) أن يبرئ نفسه فقال: «إن تبرئني لا تكون في هذا العالم ولو كانت فيه لسمعتموها. فدل هذا الجواب الأساقفة على اضطراب مخيلة فوتيوس وخروجه عن الرشد فأمهلوه إلى مجلس آخر عساه يستفيق».

والمجلس السادس عقد في ٢٥ من شهر تشرين الأول وشهده الملك باسيليوس وأمر أن تتلى مذكرة القصاص حيث كانوا يبينون ما كان في المسألة بايجاز، ويستخلصون بقولهم إن الكنيسة جمعاء ترى نبذ فوتيوس، وأن لا إفادة من استماع مما حركات محازبيه ولم يؤذن لهم بالدخول، بل تليت على مسامعهم رسالتا البابا نيقولاوس الأول إلى الملك ميخائيل وإلى فوتيوس، وقص عليهم إيليا نائب بطريك أورشليم ما كان في عزل اغناطيوس وترقية فوتيوس إلى البطريركية. وأطال الكلام إلى أن قال لا ألوم الأساقفة الذين شهدوا ترقية فوتيوس لأكراه الملك لهم على ذلك، بل ألوم غريغوريوس السيراكوسي الذي رجاه مع أنه كان محطوطاً عن أسقفيته منذ سنين. فأذعن الأساقفة المحازبون لفوتيوس وارعوا عن أخطائهم واستغفروا المجمع فغفر لهم. وأما الأساقفة الذين كان فوتيوس قد رجاهم فأصبروا وكابروا وتحملوا لهم حججاً لنبد سلطة الحبر الروماني وإيراد أمثلة لمخالفة المجمع رسوم الأبحار الرومانيين، فأجابهم متروfan أسقف أزمير أنهم وفوتيوس طلبوا حكم البابا نيقولاوس فلم يبق لهم حق أن يشكوا من حكمه، وإلا فلا يبقى حكم ثابتاً

إذ ما من محكوم عليه يكون راضياً عن الحكم عليه، وردَّ الحجج والأمثلة التي أتوا بها اثباتاً لزعمهم. وختم الملك هذا المجلس بخطبة ألقاها وحضَّ بها الأساقفة المخالفين على الازدعان وأعطى مهلة سبعة أيام ليصرَّح بعدها متروfan والأساقفة المخالفون بعزمهم الأخير.

والمجلس السابع عقد في ٢٩ تشرين الأول وشهده فوتيوس أيضاً وأبى أن يقدم صك ارعائه وتابعه الأساقفة المخازبون له على ذلك فلم يشاءوا أن ينبذوا فوتيوس وأعمال مجامعه وأن يحرموا غريغوريوس أسقف سيراكوزا وأن يخضعوا للبطريك اغناطيوس وأن يعملوا بمراسيم الكنيسة الرومانية، فتلا على فوتيوس وعليهم التنبيه الأخير من المجمع ليرعوا تحت طائلة الحرم من غيهم ويدعنا لما يرسمه المجمع، ولما لم يدعناو حرمهم المجمع.

والمجلس الثامن عقد في ٥ تشرين الثاني فحرقت فيه أوراق شتى كان فوتيوس قد أخذها من كثيرين من الكليروس والعامّة على سبيل التعهّد بلزوم طاعته والانقياد له، وحرقت أيضاً الكتب التي كان فوتيوس كتبها مضاداً بها البابا نيقولاوس وأعمال مجامعه التي نبذ فيها اغناطيوس البطريك وأدخلوا إلى المجمع من شهدوا مجمع فوتيوس ضد البابا نيقولاوس، ومن طعنوا على الكنيسة الرومانية بمقالتهم، ومن حضروا هذا المجمع بصفة نواب عن بطاركة المشرق وغيرهم، فظهر لدى استنطاقهم أنّه لم يشهد أحد منهم ذلك المجمع وأنهم لم يعرفوا شيئاً من أعماله إلّا بهذا الفحص. ولما انفضح هذا المكر والتزوير طلب قصاد البابا أن يتلوا في المجمع القانون الأخير من المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ٦٤٩م الذي يوجب الحرم على من يجسر على مثل هذا التزوير، ثمّ تلي مرسوم البابا نيقولاوس المبرز في المجمع الذي عقد برومة سنة ٨٦٣م على محاريبي الصور وأدخلوا بعضهم إلى المجمع فارعوا عن ضلالهم، وحرموا رؤساءهم، وحرم المجمع بدعة هؤلاء، والمجمع الذي عقده ورؤساءهم وأعادوا حرم فوتيوس.

والمجلس التاسع لم يعقد إلّا في ١٢ شباط سنة ٨٧٠م وقد حضر فيه نائب عن ميخائيل البطريك الاسكندري، وقد استنطق في هذا المجلس من أدوا شهادة كاذبة على اغناطيوس البطريك، ولما أقروا بكذبهم فرضت عليهم كفارة، وأشخصوا أيضاً من كان فوتيوس قد أدخلهم إلى مجمعه بصفة نواب عن البطاركة، وبعض

الأساقفة ليتحقق يوسف نائب بطريرك اسكندرية مكر فوتيوس واحتياه، فأقروا مرة أخرى أن فوتيوس أكرههم على أن يجعلوا نفوسهم نواباً ولكي يكونوا كذلك فصيح الجمع عنهم بسبب ما أنزله فوتيوس بهم من الاكراه .

والجلس العاشر عقد في ٢٨ شباط وشهد الملك باسيلوس وابنه قسطنطين وعشرون بطريركاً من بطاركة المملكة، وسفراء لويس ملك إيطاليا وفرنسة وسفراء ميخائيل ملك بلغاريا، ومائة أسقف ونيق وتلوا حيثيذ سبعة وعشرين قانوناً فرضها هذا الجمع وفي جملتها القانون الرابع قيل فيه: « إن فوتيوس لم يكن أسقفاً وعليه فكل الدرجات التي رقي إليها تحسب باطله ويعاد تكريس الكنائس التي كرسها ». والقانون السادس قيل فيه: « فليكن محروماً فوتيوس لأنه مكر بتسمية نواب من لم يكونوا كذلك واخترع كتابات ضد البابا نيقولاوس وليكن محروماً كل من يقدم في ما بعد على مثل هذه الخدعة والمكر ». وفي القانون ٢٥: « إن الجمع يحط الأساقفة والكهنة والشمامسة الذي رقاها متوديوس أو اغناطيوس إذا استمروا مصرين على المشايعة لفوتيوس، ولا بقي لهم أمل بالعود إلى درجاتهم ». وباقي القوانين تلاحظ التهذيب البيعي وحرمة بدعة محاربي الصور إلى غير ذلك. وبعد تلاوة هذه القوانين تلي دستور الإيمان على مثال الدستور الذي وضع في الجمع السابع، ووقع قصاد البابا على أعمال الجمع أولاً ثم البطريرك اغناطيوس ثم نواب البطاركة . ثم الملك باسيلوس وابناه قسطنطين ولاون ثم رئيس أساقفة أفسس ثم سائر الأساقفة وعدتهم مئة أسقف وأسقفان (انتهى ملخصاً عن معجم المجامع لباليا طبعة الأب مين) .

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع

عد ٧٦٦

بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر

إنَّ البطريرك أسطفانس الدويهي بعد ذكره البطاركة الذين دبروا كنيسة الموارنة إلى يوحنا مارون الثاني كما مرَّ في تاريخ القرن الثامن قال (في كتابه في سلسلة بطاركة الموارنة): «أما باقي بطاركة الموارنة الذين رفقوا إلى الكرسي الأنطاكي وأقاموا في لبنان إلى حين قدوم الافرنج إلى سورية فما أمكننا أن نعرف أخبارهم لقلة من كتبوا في تلك الأيام ولا تلافٍ غيَّر الدهر ما وجد من الكتب واضطرار الناس إلى التنقل متواتراً، وقد حرقت بعض كتبنا وتشتت كثير منها على أُنَّا عثرنا من مدَّة على كتاب قديم يشتمل على رتبة القداس وقد علقت على آخره الصلوات التي يتلوها الخادم في القداس كل يوم، وفي إحدى هذه الصلوات ذكر البطاركة الذين دبروا رعية المسيح في الكرسي الأنطاكي وإليك ترجمة ما جاء في هذه الصلوات عن اللغة السريانية: «نذكر أيضاً جميع الرعاة المحققين والآباء القديسين من بطرس زعيم الرسل وأول جميع الرعاة. واغناطيوس تلميذه إلى توافيلس ويشوع وداود وغيغوريوس ودومييط واسحق ويوحنا الذين خدموا مقام رئاسة الكهنوت في البيعة المقدَّسة الكاثوليكية والرسولية في الكرسي المقدَّس المجيد كرسي مدينة الله أنطاكية فارحمنا اللهم بصلواتهم المقدَّسة». يلي ذلك تذكُّر آخر أطول من الأوَّل كتب فيه ما ترجمته: «نذكر توافيلس وغيغوريوس وأسطفانس ومرقس وأوسابيوس ويوحنا ويشوع وداود وغيغوريوس وتوافيلكنس ويشوع ودومييط واسحق ويوحنا وسمعان وأرميا ويوحنا وسمعان. وسمعان هذا

حبيب الله الذي يديرنا الآن فارحمنا اللهم بصلوات هؤلاء جميعاً». قال العلامة الدويهي حصل عندنا رية في البطارقة الأربعة عشر الذين مر ذكرهم من وجهين الأول إن طقسنا قريب من طقس اليعاقبة فخشينا أن يكون هؤلاء البطارقة يعقوبين. والثاني إنه ندر أن يسمى الموارنة يشوع بطريكاً حرمة لمن فدانا بدمه. لكننا بالوقوف على سلسلة بطارقة اليعاقبة حصلنا على نسختين من كنيستهم في دمشق وحلب فلم نجد فيهما ذكراً لهؤلاء البطارقة الأربعة عشر، فتحققنا أنهم لم يكونوا يعاقبة بل من بطارقة أمتنا المارونية، وأما اسم يشوع فليس إلا عيسى وكثيرون منا يسمون بهذا الاسم». انتهى كلام الدويهي وقد تابعه عليه لكويان في المشرق المسيحي ناقلاً عنه كلامه برمته قلنا إن بطارقة اليعاقبة معروفون الآن جيداً وقد نظم ابن العبري سلسلتهم إلى أيامه في تاريخه البيعي الذي ترجمه السيدان أبولس ولامي أستاذاً كلية لوفان إلى اللاتينية وعلقا على ترجمتها فوائد كثيرة وقد ذكر السمعاني أيضاً سلسلتهم عن ابن العبري في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية وليس منهم البطارقة الأربعة عشر المذكورون.

وجاء في معجمنا اللبناني قسم ٣ فصل ٦ في كلامه على البطريرك والكرسي البطريركي ما يأتي: «وكان الكرسي البطريركي أولاً في دير القديس مارون بكفرحي من أبرشية البترون وجلس عليه من البطارقة من سنة ٦٨٥م فصاعداً يوحنا مارون وقورش وجبرائيل ثم نقل الكرسي إلى دير القديسة مريم بيانوح من أبرشية البترون المذكورة، وجلس عليه بعد جبرائيل المذكور يوحنا الثاني ويسمى مارون أيضاً ثم يوحنا من دملصا وغريغوريوس واسطفانس ومرقس وأمساويوس ويوحنا ويشوع وداود وغريغوريوس الثاني وتوافيلكتس ويشوع الثاني ودوميظ واسحق ويوحنا وسمعان ويوسف الجرجسي إلى سنة ١١٢٠م ونقل الكرسي ثالثاً إلى دير القديسة مريم حذاء ميفوق بوادي ايليچ في أبرشية جبيل».

تداول أيدي الموارنة كتاباً يشتمل على عدة تواريخ منها تاريخ بعض الأسرات وتاريخ بعض أحداث في جبة بشري وتاريخ الرهبنة اللبنانية وفي جملتها سلسلة لبطارقة الموارنة من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف حبيش وبعد أن ذكر أكثر البطارقة الذين ذكرناهم هنا أورد أسماء نحو من أربعين بطريكاً إلى البطريرك يوسف الجرجسي ولم يسند كلامه إلى شاهد ولا نعلم من أين جمع كل هذه الأسماء التي غفل عنها العلامتان البطريرك أسطفانس الدويهي ويوسف السمعاني،

ولذلك لا نرى ما رواه صحيحاً. ويعزى هذا الكتاب إلى الشيخ أنطونيوس أبي خطار من عينطورين الذي كان مشهوراً بحبه المطالعة .

ولا نعجب من عدم التوصل إلى الأخبار المفصلة عن البطارقة الذين ذكرناهم في القرون الأربعة من بدء القرن الثامن إلى آخر القرن الحادي عشر فكل يعلم أنَّ هذه القرون تسمى قرون الجهل وأنَّ التاريخ الشرقي البيعي في هذه القرون ولاسيما تاريخ سورية هو سقيم غامض ومن دونه حنادس جهل لا يهتدي فيه إلى أمور أخرى أكثر أهمية. وقد رأيت ما قاله لكويان في الشرق المسيحي عن بطارقة أنطاكية وأورشليم في هذه القرون أنَّه لم يكن لهم تاريخ غير ما نقب عنه الافرنج بعد استحواذهم على سورية في بدء القرن الثاني عشر وما ظنك ببطارقة الموارنة الذين لم يقيموا في المدن الشهيرة كأنطاكية وأورشليم بل في كفرحي ويانوح بين قمم لبنان الوعرة الصعبة المسالك مؤثرين العزلة في أصعب المحال مسلكتاً على الإقامة في المدن والتعرض للأخطار، وتعوزهم جميع وسائل العلم ويحسبون من السعادة أن يعيشوا مع رعاياهم آمنين ومحافظين على إيمانهم القويم .

عد ٧٦٧

قيس الماروني

جاء في كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي الذي طبع في ليدن سنة ١٨٩٤م صفحة ١٥٢ عند كلامه في مارون: «ولبعض متبعيه من المارونيين ويعرف بقيس الماروني كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأُمم وملوك الروم وغيرهم وأخبارهم وانتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي، ولم أرَ للمارونية في هذا المعنى كتاباً مؤلفاً غيره». انتهى كلام المسعودي. والمعلوم أنَّ المكتفي بويج له بالخلافة سنة ٢٨٩هـ الموافقة سنة ٩٠٢م وتوفي سنة ٢٩٥هـ أي سنة ٩٠٨م وعليه فيكون قيس الماروني عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر على ما ذكر المسعودي ولكن من هو قيس هذا وما هو كتاب تاريخه الحسن؟ فزعم بعضهم أنَّه ليس هو إلَّا توافيلس الرهاوي الماروني الذي ذكرنا ترجمته في القرن الثامن، وهذا الزعم باطل من أوجه أخصَّها أنَّ توافيلس كان في أيام المهدي وتوفي

في أيامه كما أثبتاً في ترجمته، والمهدي توفي سنة ١٦٩هـ الموافقة لسنة ٧٨٦م والمسعودي قال إن قيس انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي وهذا ببيع بالخلافة سنة ٩٠٢م كما رأيت فكان قيس بعد توافيلس بأكثر من مئة سنة فلم يكن إياه .

وقد عثر الأب نو المستشرق الافرنسي في لندره على كتيب سرياني في عدد ١٧٢١٦ من الكتب المخطوطة ونشره في كتابه الذي عنوانه Opusculi Maronites (أي كراسات أو كتيبات مارونية) وطبعه في باريس سنة ١٨٩٩م. ففي صفحة ٣٢ فصاعداً من هذا الكتاب أثبت ما استطاع أن يقرأه من نصه السرياني واسماً إياه بفقر من تاريخ سرياني ماروني، وقد اهدى إليّ الأب نو كتابه المذكور فطلعت فقراته وقد استشهدت ببعضها كما رأيت، وكل أصل هذا الكتيب يشتمل على خمسة عشر صفحة كما أشار الأب نو في نسخة الأصل، وجل ما تضمنه كلام موجز في آدم وبعض الآباء وبعض رؤساء كهنة اليهود وبعض ملوك اليونان وبعض ملوك الرومانيين وكلام في ماني المبتدع وأبو لينار اللاذقي المبتدع، وذكر بعض الزلازل وبعض الأحداث في أيام معاوية. وقد ظنّ نو وغيره أنّ تلك الفقرات مقاطع من كتاب قيس الماروني. وقد ذهب العلامة ريت الذي تكلم في الكتب السريانية القديمة المحفوظة في المتحف البريطاني أنّ ذلك الكتيب قديم العهد واستبدل بصورة كتابته على أنّه حُطّ في القرن الثامن أو التاسع. وقد أطل العلامة نلند (في المجلة الآسيوية-الألمانية) الكلام في هذه الفقر وبين عظم أهميتها وعزاها إلى كاتب ماروني، وذهب إلى أنّ الكاتب كان راهباً أو ناسكاً لكثرة ما ورد في تلك المقاطع من أسماء الأديار والمناسك ولم يقطع بأنّه قيس الماروني .

فالحاصل من ذلك على ما نرى أولاً أن لا ريب في أنّه كان مؤلفاً بين القرنين التاسع والعاشر يسمى قيس الماروني، وأنّه ألّف كتاباً حسناً جامعاً تواريخ كثيرة كما أشار المسعودي الذي هو ثقة في نقله وقريب من عصر المؤلف المذكور ولا غرض له في أن يختلق هذا الخبر. ثانياً إنّّه من المؤكّد أيضاً أنّ قيس الماروني غير توافيلس الرهاوي الماروني لا من قبيل التباين بين عصريهما كما مرّ بل من قبل أوجه أخرى أيضاً، منها أنّ توافيلس كان رئيس منجمي المهدي والمقاطع المذكورة التي يرجّح أنّها من كتاب قيس يظهر منها على ما ذهب إليه نلند أنّ كاتبها كان راهباً أو ناسكاً. ثالثاً إنّ الأرجح عندنا أنّ القطع التي أشهرها نلند أو الكتيب الذي أذاع الأب نو أصله وترجمته الافرنسية ليس هو كتاب قيس برمته حتى ولو أمكن قراءة

كل ما قال نو إنّه وجده ممحواً أو لم يتيسّر له أن يقرأه، لأنّ هذا الأثر لا يشتمل أصله إلّا على خمس عشرة صفحة، والمسعودي قال إنّ كتاب قيس يتضمّن ابتداء الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأُمم وملوك الروم وغيرهم فتاريخ كل ما ذكره لا تسعه خمس عشرة صفحة وإنّ وسّعته فلا يكون كتاباً حسناً في التاريخ كما وصفه المسعودي . رابعاً يظهر لنا أنّ المقاطع المذكورة والكتيب السرياني الذي نشره نو عن الأصل الكائن في المتحف البريطاني إنّما هي جزء من كتاب قيس المذكور أو فقرات منه نسخها غير المؤلّف، إذ شهد من نقبوا عنها أنّ فيها أغلاطاً لغوية مع صحة أخبارها ومطابقتها لما كتبه علماء ذلك العصر الذي لا نعرف فيه من علماء المواردة إلّا توافيلس وقيس المذكور . والله أعلم .

الباب العاشر

تاريخ سورية في القرن العاشر

القسم الأول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن العاشر

عد ٧٦٨

المكتفي بالله

فرغنا من كلامنا في تاريخ الخلفاء في القرن التاسع بذكر وفاة المعتضد بالله ونقول الآن إنه بعد وفاته ببيع ابنه علي بالخلافة سنة ٢٨٩هـ أي سنة ٩٠٢م ولقب المكتفي بالله، وهو السابع عشر من الخلفاء العباسيين. وفي السنة الثانية لخلافته وهي سنة ٩٠٣ اشتدت شوكة القرامطة المار ذكرهم حتى حاصروا دمشق بعد أن هزموا جيش أميرها طفج بن جف ثم اجتمعت عليهم العساكر وقتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ، فأقام القرامطة فيهم أخاه الحسين وتسمى أحمد وأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آيته وكثر جمعه فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه إليه فانصرف عنهم إلى حمص فغلب عليها وخطب له على منابرها وتسمى

بالمهدي أمير المؤمنين، وعهد إلى عمه عبدالله ولقبه المدثر وزعم أنه المدثر الذي في القرآن. ثم سار إلى حماة والمرة وغيرهما فقتل أهلها حتى الأطفال والنساء وسار إلى سلمية فأخذها بالأمان ثم قتل (وفي نسخة كتبت) أهلها حتى صبيان المكتب، ولما اشتد أمر القرمطي خرج المكتفي من بغداد ونزل الرقة وأرسل إليه الجيوش، وفي سنة ٢٩١هـ سنة ٩٠٤م وقعت جيوش الخليفة المكتفي القرمطي صاحب الشامه وأصحابه بمكان يبعد عن حماه اثني عشر ميلاً (وقال بعضهم إنها تمتع وهي قرية من بلاد المرة على الطريق بين حماه وحلب) فانهمز القرامطة وتبعهم عسكر الخليفة يقتلونهم وهرب القرمطي ومعه ابن عمه المدثر المذكور وغلام له رومي فأمسكوا في البرية وأحضروا إلى المكتفي وهو بالرقة فسار بهم إلى بغداد وقتلهم وطيف برأس القرمطي في أسواق بغداد (انتهى عن تاريخ أبي الفداء في صفحة ٦٣ من الجزء الثاني).

وفي سنة ٢٩٢هـ سنة ٩٠٥م بعث المكتفي الجيش إلى الشام فاستولى على دمشق وكان صاحبها حينئذ هرون بن خمارويه بن طولون حتى دنا جيشه من مصر وأميره محمد بن سليمان قاتل هرون المذكور وقتله وأمسك أسرة بني طولون وكانوا بضعة عشر رجلاً واستصفي مالهم وقيدهم وحملهم إلى بغداد كما مرّ وكتب إلى المكتفي بفتح الشام ومصر. على أنه في سنة ٢٩٣هـ سنة ٩٠٦م بعد أن توجه محمد بن سليمان أمير جيش المكتفي عن مصر خرج بها خارجي يدعى ابراهيم الخلنجي من قواد بني طولون وقويت شوكته فسار عليهم عامل دمشق أحمد بن كيغلق وطمع القرامطة في دمشق لغية عاملها فقصدوها ونهبوا وقتلوا، ونهبوا طبرية ثم ساروا إلى جهة الكوفة فسير المكتفي إليهم جيشاً فاقتتلوا وتمت الهزيمة على جيش الخليفة وقتل منهم خلق كثير وغنم القرامطة منهم شيئاً كثيراً. ولكن انتصر عامل دمشق على الخلنجي في مصر بعد حروب متصلة وفرّ واختفى ثم قبض عليه وحمل بمن معه إلى بغداد. وفي سنة ٢٩٤هـ سنة ٩٠٧م وثب القرامطة على الحجاج في طريق العراق وقتلهم عن آخرهم وكان عدد القتلى عشرين ألفاً وأخذوا منهم أموالاً عظيمة، وكان كبيرهم يسمى ذكرويه فجهز المكتفي إليهم عسكراً واقتتلوا فانهمز القرامطة وقتل منهم خلق كثير وأسر ذكرويه كبيرهم مجروحاً ومات بعد ستة أيام وقدم العسكر برأسه إلى بغداد وطيف به (عن أبي الفداء صفحة ٦٥ من الجزء المذكور وابن خلدون صفحة ٣٥٦ جزء ٣).

وروى ابن خلدون (٣٥٧ من الجزء المذكور) أنه في سنة ٢٩٢ هـ سنة ٩٠٥ م أغار الروم على مرعش ونواحيها فخرج أهل المصيصة وطرسوس فأصيب منهم جماعة فعزل المكتفي أبا العشائر عن الثغور وولى عليها رستم بن بردو فكان على يده الفداء وفودي ألف من المسلمين. ثم أغارت الروم سنة ٢٩٣ هـ سنة ٩٠٦ م على موارس (وفي تاريخ الدول لابن العبري قورش) من أعمال حلب وقتلهم أهلها فانهزموا وقتل منهم خلق ودخلها الروم فأحرقوا جامعها وأخذوا من بقي فيها. وفي سنة ٢٩٤ هـ سنة ٩٠٧ م غزا ابن كيغلق من طرسوس فأصاب من الروم أربعة آلاف سبياً واستأمن من الروم بطريقاً، ثم عاود ابن كيغلق الغزو وقتل من الروم خلقاً ثم استأمن البطريق المتولي الثغور من جهة الروم وخرج بمئتي أسير من المسلمين. وشعر ملك الروم بأمره فبعث من يقبض عليه فقتل الأسرى المسلمون من أرسلهم الملك للقبض عليه واجتمع الروم على محاربة هذا البطريق وزحف المسلمون لخلاصه وخلّص من معه من الأسرى المسلمين، فبلغوا قونية وخزّبوها وانصرف الروم (عن ابن خلدون صفحة ٣٥٧ وابن الأثير صفحة ٢١٨ من الجزء السابع).

قد توفي المكتفي في شهر جمادى سنة ٣٩٥ هـ سنة ٩٠٨ م بعد أن عهد بالأمر إلى أخيه جعفر وكان وزيره العباس بن الحسن فاستشار أصحابه في من يوليه فأشار محمد بن داود بن الجراح بعبدة الله بن المعتز ووصفه بالعقل والرأي والأدب، وأشار أبو الحسين بن محمّد بن الفرات بجعفر بن المعتضد بعد أن أطلّ في مفاوضته وبما قال له اتّق الله ولا تولّ إلا من خبرته ولا تولّ البخيل فيضيق على الناس في أرزاقهم ولا الطماع فيشره إلى أموالهم ولا المتهاون بالدين فلا يجتنب المآثم ولا يطلب الثواب ولا تولّ من خبر الناس وعاملهم وأطلّ على أحوالهم فيستكثر على الناس نعمهم واصلح الموجودين مع ذلك جعفر بن المعتضد. فقال الوزير ويحك وهو صبي وما حاجتنا بمن لا يحتاج إلينا ويستبد علينا فمالت نفس الوزير إلى جعفر كما أشار ابن الفرات وكما أوصى أخوه المكتفي وكانت مدّة خلافة المكتفي ست سنين وستة أشهر (عن ابن خلدون وابن الأثير وابن الفداء).

هو جعفر بن المعتضد أخو المكتفي ببيع له بالخلافة بعد وفاة أخيه المكتفي سنة ٢٩٥هـ سنة ٩٠٨م ولقب بالمقتدر بالله وهو ثامن عشر الخلفاء، ولما بيع استصغره الوزير إذ كان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة وكثر كلام الناس فيه فعزم على خلعه. وفي سنة ٢٩٦هـ سنة ٩٠٩م اجتمع القواد والقضاة والوزير فخلعوه وبايعوا عبدالله بن المعتز ولقب المرتضي بالله ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى الدار التي كان مقيماً فيها لينتقل هو إلى دار الخلافة فأجابه سماعاً وطاعة وسأله الامهال إلى الليل، ولما كان الغد جرت بين غلمان الدار المرينين للمقتدر وبين المرينين لابن المعتز حرب كان آخرها أن ابن المعتز انهزم واختفى وفرق أصحابه وحبس ليلتين وقتل خنقاً وأظهروا أنه مات حتف أنفه وأخرجوه إلى أهله. وكان فاضلاً شاعراً وتشبيهاته وأشعاره مشهورة، وأخذ العلم عن المبرد وثعلب ولم يل الخلافة إلا يوماً واحداً. وقال حين تولى قد آن للحق أن يتضح وللباطل أن يفتضح وعاد المقتدر إلى الولاية وأهم ما كان من الحوادث في أيام المقتدر انقراض دولة الأغلبية وابتداء دولة العلويين الفاطميين بافريقية. وقد علمت أن هرون الرشيد ولي ابراهيم بن الأغلب على افريقية سنة ١٨٤هـ سنة ٨٠١م إلى أن أفضت الولاية في ذريته إلى زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن الأغلب. ففي سنة ٢٩٠هـ سنة ٩٠٣م قتل زيادة الله أبا عبدالله لأنه كان حبسه على شرب الخمر فأثقف مع ثلاثة من خدم أبيه الصقالبة على قتله فقتلوه وأحضروا رأسه إلى ابنه زيادة الله وهو في الحبس ولما تولى أمر بهم فقتلوا وهو الذي كان أمرهم بذلك. وانعكف زيادة الله بعد ولايته على اللذات وملازمة المضحكين وقتل كل من قدر عليه من أعمامه واخوته وقوي في أيامه أمر عبدالله الشيعي القائم بدعوة الدولة العلوية الفاطمية بالمغرب، فأرسل زيادة الله لكتبته جميع عسكره وكانوا أربعين ألفاً فهزمهم أبو عبدالله الشيعي، ولما رأى زيادة الله أن لا طاقة له على مقاومة الشيعي جمع ما قدر عليه من المال وسار عن ملكه إلى الشرق فقدم مصر وبها النوشري عاملاً للمقتدر فكتب إلى الخليفة بأمره، وسار زيادة الله إليه فأمره أن يعود إلى المغرب لقتال الشيعي، وكتب إلى النوشري عامله بمصر أن يمدّه بالعساكر والأموال وعاد زيادة الله إلى مصر وخرج لقتال الشيعي فماتله النوشري بالمدد وهو لازم شرب الخمر واستماع الملاهي وطال مقامه وتفريق

عنه أصحابه وتتابع به الأمراض وآيس من النوشري فسار إلى القدس للمقام بها فمات بالرمة ودفن بها ولم يبقَ أحد بالمغرب من بني الاغلب وانقرضت دولتهم سنة ٢٩٦هـ سنة ٩٠٩م. فتكون مدة ملكهم بالمغرب ١٠٨ سنوات فسبحان الذي لا يزول ملكه (عن أبي الفداء صفحة ٦٧ وغيره).

إنَّ الذي كان عبدالله الشيعي يدعو له من العلويين هو عبيدالله بن محمَّد بن عبدالله إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، وقيل هو عبيدالله بن أحمد بن اسماعيل الثاني إلى الحسين. واختلف العلماء في صحة نسبه فصححه بعضهم وأنكر بعضهم صحته بل جعل بعضهم نسبه في اليهود، ومهما يك من ذلك فعبيدالله أول الدولة التي تسمى دولة العلويين لنسبتهم إلى علي بن أبي طالب، ودولة الفاطميين لنسبتهم إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول زوج علي. ولما كان عبدالله الشيعي استحوذ على المغرب وقرض دولة الأغلبة وكان عبيدالله قد فرَّ من وجه المقتدر وعامله النوشري في مصر وقبض عليه في سجلماسة فمضى عبدالله الشيعي وقاتل صاحب سجلماسة وهزمه وأخرج عبيدالله وولده من السجن وأركبهما ومشى ورؤساء القبائل بين أيديهما. وعن القراماني أنَّ أمير سجلماسة كان قد قتل عبيدالله فأخذ عبدالله الشيعي يهودياً كان في السجن وقال للناس إنَّه عبيدالله المهدي الذي كان يدعو له ولما وصل عبيدالله إلى مقر ولايته في افريقية دَوَّن الدواوين وجبى الأموال وبعث العمال إلى سائر بلاد المغرب واستعمل على جزيرة صقلية (التي كانت حينئذٍ من ملك الأغلبة) الحسن بن أحمد بن أبي خنزير وكان ذلك لسنة ٢٩٧هـ وهي سنة ٩١٠م وسمي المهدي، وهو أول دولة الفاطميين التي نازعت العباسيين ولاية مصر وسورية وغيرهما كما سترى. وياشر المهدي الأمور بنفسه ولم يبق حكم لأبي عبدالله الشيعي وأخيه أبي العباس والفظام صعب فنقما على المهدي لسوء صنيعه معهما فدعاهما المهدي وقتلها سنة ٢٩٨هـ سنة ٩١١م على الأصح (عن أبي الفداء وغيره).

أمَّا المقتدر فقبض سنة ٢٩٩هـ سنة ٩١٢م على وزيره أبي الحسين بن الفرات ونهب داره وهتك حرمة وولى الوزارة أبا علي محمَّد بن يحيى بن خاقان فتحكم عليه أولاده فكان كل منهم يسعى لمن يرتشي منه فكان يولي العمل الواحد عدداً من العمال في أيام قليلة، فقبل فيه :

وزير قد تكامل في الرقاعة يولي ثمَّ يعزل بعد ساعة
إذا أهل الرشا اجتمعوا عليه فخير القوم أوفرهم بضاعة

والخليفة مع ذلك يتصرف على مقتضى إشارة النساء والخدام ويرجع إلى قولهم وآرائهم فخرجت الممالك وطمع العمال في الأطراف، ففي سنة ٣١٥هـ سنة ٩٢٦م يس الجند والقواد من اصلاح المقتدر ومنع استيلاء النساء والخدم على الأمور وكثر أخذهم الأموال والضياع ووقعت وحشة بين المقتدر وخدامه مؤنس فاجتمعت العساكر إلى مؤنس وقصدوا دار الخلافة فأخرجوا منها المقتدر ووالدته وخالته وخواص جواريه وأولاده وحملوهم إلى دار مؤنس واعتقلوا بها وأحضروا أخاه محمّد بن المعتضد وبايعوه ولقبوه القاهر بالله وألزموا المقتدر أن يشهد على نفسه بالخلع، ونهبت دار الخلافة واستخرجوا من قبر بنته أم المقتدر ست مئة ألف دينار، وفي اليوم الثالث بعد خلعها حضرت الرجال المصافية بالسلاح إلى دار الخلافة يطالبون بحق البيعة واشتد صراخهم فخرج من عند القاهر من يطيب خاطرهم فوثبوا عليه وقتلوه وهجموا على القاهر فهرب واختفى وتفرقت الناس عنه ولم يبق بدار الخلافة، ثم قصد الرجال دار مؤنس وطلبوا المقتدر منه فأخرجه وسلّمه إليهم فحملوه على رقابهم حتى أدخلوه دار الخلافة واستقرّ المقتدر بالخلافة وسكنت الفتنة (عن أبي الفداء صفحة ٧٨). وفي سنة ٣٢٠هـ سنة ٩٣٣م عظمت الوحشة بين المقتدر ومؤنس الخادم، ومضى مؤنس إلى الموصل فاستولى المقتدر على اقطاعه وماله وأملاكه وأملاك أصحابه وكتب إلى بني حمدان أمراء الموصل بصدّه عن مدينتهم فقاتلوه وانتصر مؤنس على الموصل. واجتمعت العساكر إليه فسار بهم إلى جهة بغداد فرأى المقتدر ضعفه وانعزال العسكر عنه فانحدر من بغداد إلى واسط وأتفق مع من بقي عنده على قتال مؤنس، وخرج لقتاله وبين يديه الفقهاء والقراء منهم فوقف على تل وألح عليه أصحابه بالتقدم فتقدم وانهمز أصحابه ولحق المقتدر قوم من المغاربة فقال لهم ويحكم أنا الخليفة، فقالوا قد عرفناك يا سفلة فضربه واحد بسيفه فذبحوه ثم حفروا له في موضعه وعفى قبره. وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وبعض أيام (عن أبي الفداء صفحة ٨١ وابن الأثير وغيرهما).

عد ٧٧٠

غزوات المهدي العلوي لمصر وغيرها

وفي سنة ٣٠١هـ سنة ٩١٤م سير المهدي العلوي جيشاً مع ولده أبي القاسم محمّد إلى ديار مصر فاستولى على الاسكندرية والقيوم فأرسل إليه الخليفة المقتدر

مع مؤنس الخادم جيشاً فأجلاهم عن مصر وعادوا إلى المغرب على أن المهدي أرسل في السنة التالية أي سنة ٩١٥م جيشاً آخر مع مقدم يقال له جاشه (وفي نسخة هباشة وعن ابن الأثير حباشة) في البحر فاستولى على الاسكندرية، وأرسل المقتدر جيشاً مع مؤنس الخادم فاقتتلوا بين مصر والاسكندرية أربع دفعات انهزمت فيها المغاربة وعادوا إلى بلادهم وقتل من الفريقين خلق كثير.

وفي سنة ٣٠٦هـ سنة ٩١٩م جهز المهدي جيشاً كثيفاً مع ابنه القاسم إلى مصر فوصل إلى الاسكندرية واستولى عليها ثم سار حتى دخل الجيزة وملك أشمونين وكثيراً من الصعيد، وبعث المقتدر مؤنساً الخادم فوصل إلى مصر وجرى بينه وبين القاسم عدة وقعات ووصل إلى الاسكندرية من افريقية ثمانون مركباً نجدة للقاسم وأرسل المقتدر خمسة وعشرين مركباً لقتال مراكب القاسم، فاقتتلت مراكب الفريقين على رشيد واقتتلت عساكرهما في البحر وكانت الهزيمة على عساكر المهدي ومراكبه فعادوا إلى افريقية بعد أن قتل منهم وأسر (عن الكامل لابن الأثير وأبي الفداء).

قد ذكرنا آنفاً أن المهدي العلوي استعمل على صقلية الحسن بن أحمد فبقي مدة يسيرة وأساء السيرة في أهلها فثاروا به وحبسوه وكتبوا إلى المهدي بذلك واعتذروا، فقبل عذرهم واستعمل عليهم علي بن عمر البلوي وكان شيخاً لينا فلم يرض أهل صقلية بسيرته فعزلوه وأبقوه عندهم ولوا على أنفسهم أحمد بن قرهب (وفي نسخ مرهب) ثم رأى من أهل صقلية ما يكره واختلف العسكر عليه وأحرقوا خيمته وأرادوا قتله فمنعهم العرب الساكنون في صقلية فدعا أحمد الوالي الناس إلى طاعة المقتدر الخليفة العباسي فأجابوه إلى ذلك، فخطب له في صقلية وقطع خطبة المهدي العلوي، وجّه جيشاً وأرسله في البحر إلى ساحل افريقية فلقوا هناك أسطول المهدي ومقدمة الحسن بن أحمد الوالي السابق فأحرقوا أسطول المهدي وقتلوا الحسن المذكور وحملوا رأسه إلى ابن قرهب، وسار الأسطول الصقلي إلى سفاقس (صفاقس) فخرّبوها وساروا إلى طرابلس فوجدوا فيها القائم بن المهدي فعادوا، ووصلت الخلع السود (شعار العباسيين) والألوية إلى ابن قرهب من قبل المقتدر الخليفة العباسي فسير ابن قرهب الأسطول ثانية إلى افريقية فخرج عليه أسطول المهدي فبدده فأدير امر ابن قرهب وطمع فيه الناس وعصوا أمره وكتبوا المهدي وثاروا بابن قرهب وأخذوه أسيراً وأرسلوه إلى المهدي مع جماعة من خاصته

فقتلهم على قبر الحسن بن أحمد الذي كان الصقليون قد قتلوه، واستعمل المهدي على صقلية أبا سعيد موسى بن أحمد وسير معهم جماعة كثيرة لأن ابن قهرم كان قد كتب إليه أن أهل صقلية يكثر الشغب على أمرائهم ولا يطيعونهم ولا يزول ذلك إلا بعسكر يقهرهم فخاف أهل صقلية من العسكر فاجتمعوا على واليهم الحديث وقتلوه فظهر عليهم وقتل جماعة من رؤسائهم وأسر جماعة فطلبوا الأمان فأمنهم إلا رجلين هما أثارا الفتنة فرضيوا بذلك وأخذ الرجلين وسيرهما إلى المهدي وأتاه كتاب المهدي يأمره بالعفو عن العامة فاستتبت الراحة بصقلية وتمكنت فيها ولاية المهدي (عن الكامل لابن الأثير في تاريخ سنة ٣٠٠هـ وهي سنة ٩١٣م).

عد ٧٧١

خلافة القاهرة بالله

بعد قتل المقتدر أشار مؤنس الخادم بأقامة ابنه أبي العباس فاعترض عليه اسحق ابن اسماعيل النوبختي بأنه صبي فكان كالباحث على حتفه بظلمه فان القاهرة قتل النوبختي المذكور فيما بعد فأحضروا محمّد بن المعتضد وبايعوه لليتين بقيتا من شوال سنة ٣٢٠هـ سنة ٩٣٣م وسموه القاهرة بالله وهو تاسع عشر من الخلفاء ثم أحضر القاهرة أم المقتدر وسألها عن الأموال فاعترفت بما عندها من المصاغ والثياب فقط فضربها أشد ما يكون من الضرب وكانت مريضة ثم علّقها برجلها فحلفت أنّها لا تملك غير ما أطلعت عليه، واستوزر القاهرة أبا علي بن مقلّة وعزل وولّى وقبض على جماعة من العمال . وفي سنة ٣٢١هـ سنة ٩٣٤م حصلت الوحشة بين القاهرة ومؤنس الخادم، وكان مؤنس أقام ابن بليق حاجباً وجعل أمر دار الخلافة إليه فضيّق على القاهرة واتّفق مع مؤنس الخادم على خلعه وإقامة أبي أحمد بن المكتفي مكانه واتّفق معهما الوزير ابن مقلّة على ذلك، واتّفق القاهرة مع بعض القواد على القبض عليهم وأكمن رجالاً في الدهاليز والممرات وحضر ابن بليق بجماعة وأظهر أنّه يريد الاجتماع بالخليفة بسبب القرامطة وكان قصده القبض على الخليفة، فلمّا دخل دار الخلافة قبض عليه الكامنون له وحضر أبوه فقبضوا عليه أيضاً، وأرسل القاهرة يستدعي مؤنساً فامتنع عن الحضور فحلف له القاهرة أنّه آمن ويريد أن يعرفه ما بلغه من اتفاق بليق وابنه على خلعه، فحضر مؤنس وقبض عليه أيضاً وعزل ابن

مقلة عن الوزارة واستوزر محمّد بن القاسم وجداً في طلب أبي أحمد بن المكتفي فظفر به فبنى عليه حائطاً فمات . وشغب الجنود لحبس مؤنس وطلبوا إطلاقه فعمد القاهر إلى ابن بليق وذبحه ووضع رأسه في طست (في الكامل طشت بالشين) وكان حبسهم متفرقين ثم أحضر الرأس في الطست إلى ابن بليق فأخذ يكي ويطرشف الرأس ثم قتل القاهر وأرسل رأسيهما في الطست إلى مؤنس، فلما رأى مؤنس الرأسين تشاهد ولعن قاتلهما فقتله أيضاً وأطلع الرؤوس الثلاثة فطيف بها في بغداد ونودي هذا جزاء من يخون وجعلت في خزانة الرؤوس على جاري عادتهم وقبض على اسحق النوبختي المار ذكره وحبسه ثم قتل (عن ابن الأثير وأبي الفداء) .

وفي أيام القاهر كان ابتداء دولة بني بويه وهم ثلاثة عماد الدولة عليّ وركن الدولة الحسن ومعز الدولة أحمد أولاد أبي شجاع بويه، يقال إنّ نسبهم يتّصل بآخر ملوك الفرس وكانوا من الديلم ثم خرجوا منها وساروا إلى مرداويع أمير طبرستان فقبلهم أحسن قبول وقتل أحدهم عماد الدولة كرج فاستمال أهلها بالصلوات والهبات فأحبوه وملكوه وقوي جانبه واستولى على أصفهان وارجان أيضاً وأنفذ أخاه ركن الدولة الحسن إلى بعض أعمال فارس فاستخرج منها أموالاً جزيلة وعاد غانماً سالماً. وفي سنة ٣٢٢هـ سنة ٩٣٥م استولى عماد الدولة على شيراز وملكها وسترى ما كان من أمرهم في ما بعد (عن ابن الأثير وأبي الفداء وابن العبري في تاريخ الدول) .

وفي سنة ٣٢٢هـ سنة ٩٣٥م المذكورة كان خلع القاهر فأنه كان قد قبض على طريف السبكري أكبر قواده الذي كان قد اتفق معه على قتل مؤنس وبليق وابنه وأودعه السجن وكان الوزير ابن مقلة الذي عزله مستتراً من القاهر ويجتمع بالقواد ويغريهم به وكان ابن مقلة يظهر تارة بزي عجمي وتارة بزي مكدي وأعطى بعض المنجمين مئة دينار ليقول للقواد إنّ عليهم قطعاً من القاهر وأعطى كذلك بعض معبري المنامات الذي يعبر لسيماء القائد ليعبر له أحد مناماته بما يخوفه من القاهر ففعلوا ذلك واستوحش سيماء القائد وغيره من القاهر وكانوا قد رأوا قسوته وحنثه بإيمانه لمن أمنهم فاجتمعوا عليه وكان القاهر قد بات يشرب أكثر ليلته وهو سكران، وأحدقوا بالدار فاستيقظ مخموراً وأوثقت الأبواب عليه فهرب إلى سطح حمام هناك فنبعوه وأتوا به إلى الموضع الذي فيه طريف السبكري، فأخرجوا طريفاً

وحبسوا القاهر ثم سملوا عينيه وكانت خلافته سنة واحدة وستة أشهر وثمانية أيام وعاش بعد ذلك خاملاً إلى أن مات سنة ٣٣٨ هـ سنة ٩٥٠ م (عن أبي الفداء وغيره) .

قال القرماني في ابن مقلة الوزير المار ذكره « كان كاتباً جواداً وهو الذي عرب الخط الكوفي إلى طريقتنا هذه وذكر أنَّ الكتابة العربية أولاً كانت حميرية يتداولها أهل اليمن وغيرها إلى قبيل الاسلام بمدة ثم نقلت إلى الكوفية على يد شخص يسمى مرامر بن مرة وتكوفت ونسبت إلى الكوفة فشهرت واستعملها الناس، فلما ظهر النبي صلعم استمر الناس يكتبون على هذا القلم وهو طريقة كتابة المصحف العثماني. وفي المائة الثانية استقصى الناس الطريقة العربية لسهولة وحادوا فيها عن تحرير الكوفي وبعد ذلك ظهر أبو علي محمد بن مقلة الوزير فنقل الخط إلى العربي ولم يترك فيه شيئاً يشابه الكوفي فصار في أيامه الخط عربياً فقط . »

عد ٧٧٢

ذكر خلافة الراضي بالله

لما قبض على القاهر كان أبو العباس أحمد بن المعتدر ووالدته محبوسين فأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر وسلموا عليه بالخلافة ولقبوه بالراضي بالله وببيع لست خلون من جمادى الأول سنة ٣٢٢ هـ سنة ٩٣٥ م وهو العشرون من الخلفاء العباسيين وأشار سيما القائد بوزارة ابن مقلة فاستوزره الراضي بالله وراودوا القاهر أن يشهد عليه بالخلع فامتنع وهو في الحبس أعمى. وفي هذه السنة توفي المهدي عبيدالله العلوي الفاطمي بالمهدية التي كان بناها وسماها باسمه، وأخفى ابنه القائم موته لتدبير ما كان له. ولما أظهر ابنه المذكور وفاته بايعه الناس واستقرت ولايته وكانت مدة ولاية المهدي أربعاً وعشرين سنة وشهراً وعشرين يوماً.

وفي سنة ٣٢٣ هـ سنة ٩٣٦ م تولى الأخشيد وهو محمد بن طغج بن جف مصر من جهة الراضي بالله وكان قبل ذلك تولى مدينة الرملة سنة ٣١٦ هـ سنة ٩٢٧ م من جهة المعتدر وأقام بها إلى سنة ٣١٨ هـ سنة ٩٣١ م فوردت إليه كتب المعتدر بولايته دمشق فسار إليها وتولاها، وكان حينئذ المتولي على مصر أحمد بن .

كيغلف فلما تولى الراضي عزل أحمد بن كيغلف وولى الأخشيد مصر وضّم إليها البلاد الشامية فسار الأخشيد من الشام إلى مصر واستقرّ بها .

وفي سنة ٣٢٤هـ سنة ٩٣٦م قبض الحجرية والمظفر بن ياقوت على الوزير ابن مقلة وأرسلوا أعلموا الخليفة فاستحسن ذلك ثمّ اتفقوا على وزارة علي بن عيسى فامتنع فولوا الوزارة أخاه عبد الرحمن ثمّ قبض عليه وولوا الوزارة محمّد بن قاسم الكرخي ثمّ عزّله واستوزروا سليمان بن الحسن . وانقطع بعض الولاة عن حمل المال إلى الخليفة فراسل الخليفة محمّد بن رائق وكان والياً بواسط وقلده إمارة الجيش وأمر أن يخطب له على المنابر فبطلت الوزارة من بغداد وبقي ابن رائق هو الناظر في الأمور جميعها، وتغلّب عمال الأطراف عليها ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها لابن رائق وليس للخليفة حكم . فكانت البصرة في يد ابن رائق المذكور وخروستان في يد البريري ، وفارس في يد عماد الدولة بن بويه ، وكرمان في يد أبي علي محمّد بن الياس ، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشمكير بن زيّاد أخي مردوايج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وريعه في يد بني حمدان ، ومصر والشام في يد الأخشيد محمّد بن طغج المذكور، والمغرب وافريقية في يد القائم العلوي ابن المهدي المار ذكره ، والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمّد الأموي الملقّب بالناصر ، وخراسان وما وراء النهرين في يد نصر بن أحمد بن سامان ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم . والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي (عن ابن الأثير وأبي الفداء صفحة ٨٩ وغيرهما) واستبدّ كل من هؤلاء الولاة بولايته وكثر النزاع بينهم .

وعظم تحكّم ابن رائق بالخليفة فأشار عليه ابن مقلة أن يقبض عليه ويقيم مكانه يُحكم (كذا روى اسمه ابن خلدون ورواه ابن الأثير وأبو الفداء بجكم بالباء والجيم) والي واسط، وعرف ابن رائق بذلك فطلب إلى الخليفة أن يحبس ابن مقلة فحبسه الراضي ثمّ حمّله على قطع يد ابن مقلة فأخرجوه من الحبس وقطعوا يده فعولج وبرا وعاد يسعى بالوزارة وكان يشد القلم على يده المقطوعة ويكتب . وبلغ ابن رائق سعيه وأنّه يدعو عليه وعلى الراضي فأمر بقطع لسانه فقطع وضيق عليه في الحبس، ولم يكن عنده من يخدمه فيه فقاسى شدّة إلى أن مات بالحبس سنة ٣٢٨هـ سنة ٩٤٠م . وفي هذه السنة جهز يُحكم المذكور جيشاً سار فيه من واسط إلى بغداد يريد خلع ابن رائق من إمارة الأمراء، وجهز ابن رائق إليه عسكرياً فهزمهم

يُحكم فهرب ابن رائق إلى عكبرا واستتر، فدخل يُحكم إلى بغداد فخلع عليه الراضي وجعله أمير الأمراء. وكانت إمارة ابن رائق سنة وعشرة أشهر وكان يُحكم بخدمة ابن رائق وانتسب إليه حتى كتب على رامية الرائقي، وسيره ابن رائق إلى الأهواز فاستولى عليها وطرده ابن البريري، ولما استولى ابن بويه على الأهواز سار يُحكم إلى واسط ثم سار إلى بغداد فطرده ابن رائق واستولى على بغداد وعلى حضرة الخليفة، ثم ظهر ابن رائق مع جماعة انضموا إليه ببغداد فخافه الخليفة ويحكم وولياه على حران والرها وقنسرين والعواصم فسار واستولى عليها وسترى أنه تولى بعد ذلك دمشق. وفي سنة ٣٢٩هـ ٩٤١م توفي الراضي بالله في منتصف ربيع الأول وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة وكان أديباً شاعراً ومن شعره من أبيات:

كل صفو إلى كدر كل أمني إلى حذر
أيها الآمن الذي تاه في لجة الغير
أين من كان قبلنا درس العين والأثر
لا در درّ المشيب من واعظ ينذر البشر

قال أبو الفداء وكان الراضي آخر خليفة من العباسيين جالس الجلساء وآخر خليفة كانت نفقته وجراياته وخزائنه ومطابخه وأموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين فأمست بعده الخلافة لتدبير أمور الدين غالباً واستبدّ كل من الولاة بولايته .

عد ٧٧٣

ولاية الأخشيد وابن رائق في سورية

قد مرَّ أنَّ المقتدر كان قد ولي الأخشيد على الرملة سنة ٩٢٧م ثمَّ ولاه دمشق سنة ٩٣١م ولما قام الراضي بالخلافة ولاه مصر وضمَّ إليها البلاد الشامية فاستعمل الأخشيد بدرًا بن عبدالله الأخشيدي على دمشق. وقد مرَّ أيضاً أنَّ ابن رائق تولى حران والرها وقنسرين والعواصم فلما استقرَّ بها حدَّته نفسه بملك الشام فسار إلى حمص فملكها ثمَّ سار إلى دمشق وبها بدر المذكور من قبل الأخشيد والي مصر والشام فملكها وهزم بدرًا منها ثمَّ سار إلى الرملة ومنها إلى عريش مصر يريد ملك

الديار المصرية أيضاً ولقيه الأخشيد محمد بن طغج فانهزم أولاً، وملك أصحاب ابن رائق خيامه ثم خرج كمين الأخشيد فانهزم ابن رائق إلى دمشق، وبعث الأخشيد في أثره أخاه أبا ناصر فعاد إليهم ابن رائق من دمشق والتقوا بالجون على مقربة من الناصرة وهزمهم وقتل أبو نصر فكفنه ابن رائق وحمله مع ابنه مزاحم إلى أخيه الأخشيد بمصر وكتب يعزيه أنه لم يقتل بأمره، وقال إن أحببت فاقتل ولدي مزاحم به فخلع الأخشيد على مزاحم وأعادته إلى أبيه واصطلحا أن تكون مصر للأخشيد من حد الرملة وما وراءها من الشام لابن رائق ويعطي الأخشيد عن الرملة في كل سنة مئة وأربعين ألف دينار (عن ابن خلدون صفحة ٤٠٨ وأبي الفداء صفحة ٩٢).

ثم كتب المتقي بالله الخليفة الآتي ذكره إلى ابن رائق يستدعيه فصار إليه واستخلف بالشام أبا الحسن بن أحمد بن علي بن مقاتل وحارب كوزبكين الذي كان قد استولى على الأمر فظفر به وحبسه، فخلع عليه الخليفة وجعله أمير الأمراء. ثم عاد ابن البريدي سنة ٣٣٠هـ سنة ٩٤٢م فاستولى على بغداد وهرب ابن رائق والخليفة المتقي إلى جهة الموصل، ولما وصلا إلى تكريت كاتبنا ناصر الدولة بن حمدان والي الموصل وديار بكر يستمدانه وقدما الموصل فخرج عنها ناصر الدولة إلى الجانب الآخر فأرسل المتقي إليه ابنه أبا منصور وابن رائق فأكرمهما ناصر الدولة ونثر على ابن الخليفة دنائير، ولما قاما لينصرفا وركب ابن المتقي قال ناصر الدولة لابن رائق تقيم اليوم عندي نتحدث في ما نعمله فاعتذر له بابن الخليفة، فألح عليه ابن حمدان فاستراب ابن رائق به وجذب كفه من يده فقطعه وأراد الركوب فشبه به الفرس فسقط، فأمر ناصر الدولة فقلبه القائد في دجلة وبعث إلى المتقي يقول إنه علم أن ابن رائق أراد أن يغتاله ففعل به ما فعل، فرد المتقي عليه رداً جميلاً وأمره بالمسير إليه فصار فخلع المتقي عليه ولقبه ناصر الدولة وجعله أمير الأمراء وخلع على أخيه أبي الحسين ولقبه سيف الدولة. ولما قتل ابن رائق سار الأخشيد من مصر إلى دمشق وكان فيها محمد بن يزداد من جهة ابن رائق فاستأمن إلى الأخشيد وسلم إليه دمشق فأمره عليها ثم نقله إلى مصر (عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء في تاريخ سنة ٣٣٠).

وفي سنة ٣٣٣هـ سنة ٩٤٥م عاد الأخشيد إلى مصر فصار سيف الدولة علي ابن أبي الهيجاء عبدالله بن حمدان المار ذكره إلى حلب وبها يأنس المؤنسي فأخذها

سيف الدولة منه واستولى عليها وسار من حلب إلى حمص فاستولى عليها ثم سار إلى دمشق فحصرها ثم رحل عنها لأن الأخشيد قصد سيف الدولة ثم التقيا بقنسرين ولم يظفر أحد العسكرين بالآخر ورجع سيف الدولة إلى الجزيرة. ولما رجع الأخشيد إلى دمشق عاد سيف الدولة إلى حلب. وفي سنة ٣٣٥هـ سنة ٩٤٧م مات الأخشيد في دمشق وكان قد سار إليها من مصر وقالوا إنه قبل مسيره من مصر قد وجد بداره رقعة مكتوباً عليها: «قدرتم فأسأتم وملكتم فبخلتم ووسع عليكم فضيقتهم وأدّرت لكم الأرزاق فغنطتم أرزاق العباد. واغترتم بصفو أيامكم ولم تفتكروا في عواقبكم واشتغلتم بالشهوات واغتنم الملهذات... ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم. أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى فكفى بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرح للعالم... افعلوا ما شئتم فانا صابرون وجوروا فانا بالله مستجيرون وثقوا بقدرتكم فانا بالله واثقون وهو حسبنا ونعم الوكيل». وبقي الأخشيد بعد سماع هذه الرقعة في فكر وسافر إلى دمشق فمات وولي الأمر بعده ابنه أبو القسم أنوجور وتفسيره محمود، واستولى على الأمر كافور الخادم الأسود وهو من خدم الأخشيد لأن أنوجور كان صغيراً وسار كافور بعد موت الأخشيد إلى مصر فزار سيف الدولة إلى دمشق وملكها وأقام بها، وأتفق أن سيف الدولة ركب يوماً والشريف العقبي فقال سيف الدولة ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد، فقال العقبي هي لأقوام كثيرين. فقال سيف الدولة لو أخذتها القوانين السلطانية لتبرعوا منها فاعلم العقبي أهل دمشق بذلك فكاتبوا كافور يستدعونه فجاءهم فأخرجوا سيف الدولة عنهم فاستقر سيف الدولة بحلب ورجع كافور إلى مصر وولي على دمشق بديراً الأخشيدي فأقام سنة ثم وليها أبو المظفر بن طغج (عن أبي الفداء وابن خلدون وابن الأثير) وسنأتي على أخبار سيف الدولة.

عد ٧٧٤

في خلافة المتقي بالله

لما مات الراضي بالله بقي الأمر موقوفاً انتظاراً لقدوم أبي عبدالله الكوفي كاتب يُحكم أمير الأمراء من واسط واحتيط على دار الخلافة، فورد كتاب يُحكم مع أبي

عبدالله الكوفي يأمر فيه أن يجتمع مع سليمان بن الحسن وزير الراضي كل من تقلد الوزارة وأصحاب الدواوين والقضاة والعباسيون ووجوه البلد فاجتمعوا وأتفقوا على ابراهيم بن المقتدر بالله وبويع له بالخلافة في العشرين من ربيع الأول سنة ٣٢٩هـ سنة ٩٤١م وعرضت عليه الألقاب فاختار المتقي لله وهو الحادي والعشرون منهم. وفي هذه السنة قتل يُحكم أمير الأمراء فإنه كان قد أرسل جيشاً لقتال أبي عبدالله البريدي وسار من واسط في أثرهم فأتاه الخبر بنصرة عسكره وهرب البريدي فقصده الرجوع إلى واسط فسمع أن هناك أكراداً لهم ثروة عظيمة فشرهت عينه وقصدهم بجماعة قليلة وأوقع بهم فهربوا من بين يديه وجاء صبي من الأكراد من خلفه وطعنه برمح في خاصرته ولا يعرفه فمات من تلك الطعنة فاستولى المتقي على دار يُحكم وأخذ منها أموالاً عظيمة وأتى البريدي الفرج من حيث لا يحتسب وكانت مدة إمارة يُحكم سنتين وثمانية أشهر وأياماً.

وفي السنة التالية أي سنة ٩٤٢م كان استيلاء ابن البريدي على بغداد وقتل ابن رائق كما مرّ، وفي سنة ٣٣١هـ سنة ٩٤٣م دخل تورون التركي بغداد عنوة فخلع المتقي عليه وجعله أمير الأمراء وبقي المتقي خائفاً منه. وفي هذه السنة أرسل ملك الروم يطلب من المتقي منديلاً كان في بيعة الرها يقال إن المسيح مسح به وجهه فصارت صورة وجهه فيه (مرّ لنا كلام في هذه الصورة في عد ٥١٧) وأنه إن أرسله أطلق كثيراً من أسرى المسلمين فأحضر المتقي القضاة والفقهاء واستفتاهم في ذلك فاختلفوا فقال بعضهم دفعه إليهم اطلاق الأسرى أولى. وقال بعضهم إن هذا المنديل لم يزل في بلاد الاسلام ففي دفعه إليهم غضاضة فقال الوزير علي بن عيسى إن خلاص المسلمين من الأسر أولى من حفظ هذا المنديل، فأمر الخليفة بتسليمه إليهم وأرسل من تسلّم الأسرى فأطلقوا. هذا ما رواه المؤرخون المسلمون وقد رواه كثيرون من المؤرخين النصارى منهم الملك قسطنطين برفير وجاء في مقالة أفردتها لتاريخ هذا المنديل وشدرانس في تاريخه. هذان من القدماء المعاصرين ونقله عنهما كثيرون من الحداثاء وقالوا إن هذا المنديل حمل وقتل إلى قسطنطينية وخرج للمقاه البطريك والاكليروس وحشد كبير من الشعب إلى بيتنيا ودخلوا به العاصمة في ١٥ من شهر آب ووضعوه في كنيسة اجيا صوفيا باحتفاء شهده الملك وأسرته ورجال الندوة وحشد لا يحصى من الناس، ثم نقل بعد ذلك إلى القصر الملكي. وقد مرّ في عد ٥١٧ أن الوفد الذي أرسله أبجر ملك الرها إلى الخُلص قد أتى

بهذا المنديل إلى الرها وان الراجح أنَّ ذلك الوفد كان يحسن صناعة التصوير فسوّر صورة المخلص على ذلك المنديل .

وفي سنة ٣٣٢هـ سنة ٩٤٣م استراب المتقي بتورون الذي جعله أمير الأمراء وخشي على نفسه منه، فسار من بغداد إلى جهة ناصر الدولة بالموصل والتقاءه ناصر الدولة إلى تكريت وأصعده إلى الموصل ثم سار الخليفة وبنو حمدان إلى الرقة وأقاموا بها . وظهر للمتقي تضجر بني حمدان منه فكتب إلى تورون يطلب الصلح منه ليقدم إلى بغداد وكان قد كتب إلى الأخشيد صاحب مصر والشام يشكو إليه حاله وما هو فيه فسار الأخشيد إلى حلب ثم إلى الرقة وحمل هدايا عظيمة إلى المتقي واجتهد أن يسير معه إلى مصر والشام فلم يفعل ثم أشار عليه بالمقام بالرقة وخوفه من تورون وأرسل تورون يحلف للمتقي أن يعامله كما أراد فانحدر إلى بغداد سنة ٣٣٣هـ سنة ٩٤٤م ووصل إلى هيت وأرسل يجدد اليمين على تورون فسار تورون للمتقي الخليفة وأنزله في مضربه ثم قبض عليه وسلّمه وأعمى عينيه فصاح المتقي وصاح من عنده من الحرم والخدم فأمر تورون بضرب الدبابد لئلا تظهر أصواتهم ثم أخذ المتقي إلى بغداد وهو أعمى . فكانت خلافة المتقي ثلاث سنين وخمسة أشهر وعشرين يوماً (عن أبي الفداء في تاريخ سنة ٣٣٢ وسنة ٣٣٣) .

عد ٧٧٥

خلافة المستكفي بالله والمطيع لله

لما قبض تورون على المتقي ببيع أبو القاسم عبدالله بن المكتفي بالله بالخلافة ولقب المستكفي بالله وهو الثاني من العباسيين وكانت بيعته في صفر سنة ٣٣٣هـ سنة ٩٤٤م أو سنة ٩٤٥م وفي هذه السنة ولّى سيف الدولة حلب ودمشق كما مرّ وفي سنة ٣٣٤هـ سنة ٩٤٦م مات تورون أمير الأمراء فعقد الأجناد الأمرة عليهم لابن شيرزاد وأرسل إلى المستكفي فاستحلفه، فحلف له بحضرة القضاة وولاه أسرة الأمراء . ولما علم معز الدولة بن بويه والي الأهواز بموت تورون سار إلى بغداد، ولما قرب منها اختفى المستكفي وابن شيرزاد أمير الأمراء فكانت امارته ثلاثة

أشهر. وقدم الحسن بن محمّد المهلبى صاحب معز الدولة إلى بغداد وسارت الأتراك عنها إلى الموصل، فظهر المستكفي واجتمع بالمهلبى وأظهر له السرور بقدم معز الدولة، ثمّ وصل معز الدولة واجتمع بالمستكفي وحلف له وخلع عليه لقبه في ذلك اليوم بمعز الدولة، وأمر أن تضرب ألقاب بني بويه على الدنانير والدراهم، ورتب معز الدولة للمستكفي كل يوم خمسة آلاف درهم يتسلمها كاتبه لنفقات المستكفي ثمّ حضر معز الدولة وعسكره إلى دار الخليفة فاجلس معز الدولة على كرسي فحضر رجلاّن من نقيب الديلم وتناولوا يد المستكفي فظنّ أنّهما يريدان تقييلها فجذباه عن سريره وجعلّا عمامته في عنقه. ونهض معز الدولة فاضطرب الناس وساق النقيان المستكفي ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة. وكانت مدة خلافة المستكفي سنة وأربعة أشهر. ولما بويع المطيع سلم إليه المستكفي فسمله وأعماه وبقي محبوساً إلى أن مات (عن أبي الفداء في تاريخ سنة ٣٣٤ وغيره).

ولما قبض على المستكفي بويع المفضل (ويروى الفضل) بن المقتدر بالله بالخلافة في جمادى الأخرى سنة ٣٣٤هـ سنة ٩٤٦م وسمي المطيع لله وهو الثالث والعشرون منهم وازداد أمر الخلافة ادباراً، وتسلمّ نواب معز الدولة العراق بأسره ولم يبق في يد الخليفة غير ما اقتطعه له معز الدولة مما يقوم ببعض حاجاته. وفي سنة ٣٣٥هـ سنة ٩٤٧م سار ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل إلى بغداد ليأخذها من يد معز الدولة بن بويه واقتتل الفريقان وصالح أخيراً أحدهما الآخر واستمرّ كل منهما على ولايته. وفي هذه السنة أي سنة ٣٣٥هـ توفي القائم بأمر الله محمّد بن المهدي صاحب المغرب وقام بالأمر بعده ابنه اسمعيل وتلقّب بالمنصور بالله. ومات الأخشيد صاحب مصر والشام وتولى دمشق سيف الدولة بن حمدان وأخرجه أهلها منها كما مرّ. وفي سنة ٣٣٩هـ ٩٥١م وما بعدها كانت حروب بين سيف الدولة بن حمدان أمير حلب وقواد ملوك الروم سنفرد لها الفصل التابع. وكانت في السنين التابعة حوادث يطول الكلام بها وهو خارج عن دائرة غرضنا وجله منازعات بعض هؤلاء الولاة لبعضهم فاضربنا عنه مقتصرين على القول إنّ المطيع لله قد طالّت خلافته إلى سنة ٣٦٣هـ سنة ٩٧٤م فاعتراه مرض الفالج وقد ثقل لسانه وتعذرت الحركة عليه فخلع نفسه من الخلافة وسلمها إلى ولده عبد الكريم ولقب الطائع لله وكانت مدة خلافته تسعاً وعشرين سنة وخمسة أشهر.

غزوات سيف الدولة أمير حلب في بلاد الروم وغزوات الروم في بلاد المسلمين

نذكر أولاً أقوال المؤرخين المسلمين ثم نذيلها بأقوال المؤرخين النصارى. قال أبو الفداء في تاريخ سنة ٣٣٨هـ سنة ٩٥٠م: «في هذه السنة غزا سيف الدولة بلاد الروم فأوغل فيها وغنم في عدد يسير». وقال في تاريخ سنة ٣٤١هـ سنة ٩٥٣م: «في هذه السنة ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالها وخرّبوا: المساجد». وفي تاريخ سنة ٣٤٣هـ سنة ٩٥٥م: «في هذه السنة في ربيع الأول غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم فغنم وقتل ووقع بينه وبين الروم وقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين عالم كثير وانتصر فيها سيف الدولة». وفي تاريخ سنة ٣٤٥هـ سنة ٩٥٧م: «سار فيها سيف الدولة بن حمدان إلى بلاد الروم فغنم وسبى وفتح عدة حصون ورجع إلى ادنة فأقام بها ثم ارتحل إلى حلب». وفي سنة ٣٤٩هـ سنة ٩٦١م: «غزا سيف الدولة بن حمدان بلاد الروم في جمع كثير ففتح وأحرق وقتل وغنم وبلغ خرسنه، وفي عوده أخذت الروم عليه المضائق واستردّوا ما أخذه وأخذوا أثقاله وأكثروا القتل في أصحابه، وتخلّص سيف الدولة في ثلاثماية نفس. وكان قد أشار إليه أرباب المعرفة بأن لا يعود على الطريق فلم يقبل، وكان سيف الدولة معجباً بنفسه يحب أن يستبد لئلاً يقال إنه أصاب برأي غيره. وفي تاريخ سنة ٣٥١هـ سنة ٩٦٣م: «سارت الروم مع الدمستق (الكلمة معرب Domesticus ومعناها الخادم لقب لقادة الروم) وملكوا عين زربه بالأمان، فقتلوا الروم على حلب أو في قلعتها وكان قد سار إليها الدمستق ولم يعلم به سيف الدولة إلا عند وصوله، ولم يتيسر له أن يجمع وخرج في من معه وقاتل الدمستق به فانهزم سيف الدولة في نفر قليل وقتل أكثر أصحابه، وظفر الدمستق بداره وكانت خارج مدينة حلب، فوجد الدمستق فيها ثلاثماية بدرة من الدراهم وأخذ لسيف الدولة ألف وأربعمائة بغل ومن السلاح ما لا يحصى، وملك روم الحواضر وحاصروا وثلموا السور وقاتلهم أهل حلب أشد القتال فتأخّر الروم إلى جبل جوش ثم وقع بين أهل حلب ورجالة الشرطة فتنة بسبب نهب كان قد وقع بالبلد، فاجتمع بسبب ذلك الناس ولم يبق على الأسوار أحد فوجد الروم السور خالياً فهجموا البلد وفتحوا

أبوابه وأطلقوا السيف في أهل حلب وسبوا بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا ما لا يوصف كثرة، فلما لم يبق معهم ظهر يحمل الغنائم أمر الدمستق فأحرقوا ما بقي بعد ذلك. وأقام الدمستق تسعة أيام ثم ارتحل عائداً إلى بلاده ولم ينهب قرى حلب وأمرهم بالزراعة ليعود من قابل إلى حلب في زعمه». إلى أن قال: «وفي هذه السنة في شوال أسر الروم أبا فراس الحارث بن سعيد بن حمدان من منبج وكان متقلداً فيها». وفي سنة ٣٥٢ هـ سنة ٩٦٤ م: «قتل الروم ملكهم (سيأتي ذكره) وملكوا غيره وصار ابن شمشيق دمستقاً». وفي سنة ٣٥٤ هـ سنة ٩٦٦ م: «سار ملك الروم إلى المصيصة فحاصرها وفتحها عنوة بالسيف يوم السبت ١٣ رجب ووضع السيف في أهلها ثم رفع السيف وأخذ من بقي أسرى ونقلهم إلى بلد الروم، وكان أهلها نحو مائتي ألف انسان ثم سار إلى طرسوس فطلب أهلها الأمان فأمنهم وتسلم طرسوس وسار أهلها عنها في البر والبحر، وسير ملك الروم معهم من يحميهم حتى وصلوا إلى أنطاكية ... وعمر طرسوس وحصنها وتراجع إليها بعض أهلها وتنصر بعضهم ثم عاد ملك الروم إلى القسطنطينية».

على أنه في السنة المذكورة أي سنة ٩٦٦ م: «أطاع أهل أنطاكية بعض المقدمين الذين حضروا من طرسوس وخالفوا سيف الدولة وكان اسم المقدم الذي أطاعه رشيقاً فسار إلى جهة حلب وقاتل عامل سيف الدولة قرعوبه وكان سيف الدولة بميفارقين فأرسل عسكرياً مع خادمه بشاره فاجتمع قرعوبه، العامل بحلب مع بشاره وقاتلا رشيقاً فقتل وهرب أصحابه ودخلوا أنطاكية» (أيي الفداء أيضاً). وقال في تاريخ سنة ٣٥٥ هـ سنة ٩٦٧ م: «في هذه السنة خرجت الروم ووصلوا إلى آمد وحصروها ثم انصرفوا عنها إلى قرب نصيبين وغنموا، وهرب أهل نصيبين ثم ساروا من الجزيرة إلى الشام ونازلوا أنطاكية وأقاموا عليها مدة طويلة ثم رحلوا عنها إلى طرسوس وفي هذه السنة افتدى سيف الدولة ابن عمه أبا فراس بن حمدان من الأسر وكان بينه وبين الروم الفداء فخلص عدة مسلمين من الأسر». وقد توفي سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان بن حمدون التغلبي الربيعي وكانت وفاته بحلب سنة ٣٥٧ هـ سنة ٩٦٩ م وحمل تابوته إلى ميفارقين فدفن بها وكان مولده سنة ٣٠٣ هـ سنة ٩٠٦ م، وهو أول من ملك حلب من بني حمدان أخذها من حمد بن سعيد الكلبي نائب الأخشيذ، وكان سيف الدولة شجاعاً كريماً وله شعر فمنه ما قاله في أخيه ناصر الدولة:

وهبْتُ لك العليا وقد كنت أهلها وقلت لهم بيني وبين أخي فرقُ
وما كان لي عنها نكول وإنما تجاوزت عن حقي فكان لك الحقُ
أما كنت ترضى أن أكون مصلياً إذا كنت أرضى أن يكون لك السبقُ
ولما توفي سيف الدولة ملك بلاده بعده ابنه سعد الدولة شريف وكنيته أبو
المعالى ابن سيف الدولة بن حمدان . فهذا ما رواه المؤرخون المسلمون .

عد ٧٧٧

ما رواه المؤرخون النصارى من هذه الحوادث

قد روى كثيرون من المؤرخين النصارى أيضاً هذه الأحداث فأحبينا أن نذكر
روايتهم تأكيداً لتاريخ هذه الأحداث وللزيادة في بيانها قالوا إنه بينما كان رومانس
الثاني ملك الروم لاهياً عن تدبير ملكه معتكفاً على لذاته كان القائدان لاون
ونيقفور فوقاً مجدين في اصلاح شؤونها ولم شعثها، فحارب نيقفور المسلمين في
جزيرة كريت وحصروها واستردها من يدهم. وكثرت الوقعات بين المسلمين ولاون
بسورية فقد ظهر عليهم في بعضها وأسر منهم كما روينا عن أبي الفداء وأخذ
الأسرى إلى قسطنطينية، على أن ذلك لم يضعف عزيمة المسلمين وحميتهم وأخذوا
يشنون الغارة على أطراف المملكة فسار لاون في جيش كثيف إلى سورية وافتتح
حصوناً وأتصل بفتحته إلى الفرات ثم عاد إلى الجنوب، فأخذ عين زربه وظهر على
الأمير حمدان أبي سيف الدولة الذي أراد أن يقطع عليه الطريق المؤدية إلى حلب
واستحوذ على داره الذي خارج المدينة، فوجد فيها نحواً من ثلاثماية بكرة من
الفضة وأخذ منه أربعة عشر ألف بغل وكثيراً من الأسلحة، وحاصر حلب فدفعه
السكان عنها، ولكن نشأت فتنة بينهم وبين الشرطة وانتهز هذه الفرصة وثلم السور
ودخل المدينة فقتل كل من وجده وأخذ غنيمة عظيمة وبلغ عدد الأسرى من
الصبيان والصبيات إلى ألفي أسير. ولم يُعن بفتح قلعة حلب لأنه رأى أن فتحها
يحتاج إلى حصار مديد لا تيسر له المحافظة عليها فعاد إلى تخوم المملكة وأخذ
بالمسير إلى قسطنطينية، فبلغه في طريقه خبر وفاة رومانس الثاني ويطن أن امرأته
سمته وكان له ابنان باسيلوس وقسطنطين ففتح نيقفور كريت. وظفره بحلب

وتنكيه بسكان سورية حمل أهل العاصمة أن يلتقوه ملقى ظافراً، فدخل قسطنطينية باحتفاء عظيم وسير أمامه غنائم سورية وسمى القائد العام بجميع جيوش المملكة وأطلقت له السلطة ولم يمض على ذلك مدة إلا ونادى به الجنود ملكاً فسمى أباه برداس قيصر والسمسق ويسمى شوموشقيق أو شمشقيق (وهي كلمة أرمنية معناها قصير القامة) قائداً لجيش المشرق أو دمستقاً، وتزوج بالملكة توافانة أم الملكين باسيل وقسطنطين، وظفر السمسق في حروبه بكيليكية فهزت الملك نيقفور غيرته وارتياحه إلى الحرب فحشد جيشاً سار فيه من قسطنطينية ودخل سورية فخرّب كل ما كان حول خليج أيسوس وهو خليج اسكندرونة، ثمّ عهد إلى أخيه لاون أن يحاصر طرسوس وهو أقام الحصار على المصيصة فاستوليا على المدينتين وظفرا بمن أتى لنجدتهما، وأتلفا أسطولاً مصرية كان يحمل مؤناً لطرسوس. ودك نيقفور القلاع والحصون التي بتلك الجهة وعاد يستريح من قسطنطينية تاركاً أحد قادة جيشه يحاصر جزيرة قبرص التي كان المسلمون تولوها من قرن فأكثر، وعاد في شهر شباط سنة ٩٦٥ إلى سورية يحاول ردها إلى ملكه ففي أوائل آذار أقبل إلى أنطاكية وكانت من أوّل مدن سورية فحاصرها وفتحها وفتح بعدها كل مدن لبنان واستحوذ على كل ما كان من شاطئ فينيقية إلى الفرات فذلت له حلب وطرابلس ودمشق وفتح عرقا ذات الثروات الكبرى بعد حصارها تسعة أيام وأخرب حمص، فاضطرّ المسلمون أن يتركوا هذه المدن ويحتشدوا بأنطاكية فعاد نيقفور إليها على أنّه لم يبق في هذه البلاد ما يقوم بأور جيش الروم لخرابهم المدن والقرى وكثرة هطل الأمطار، وأواحل الطرق حالت دون الحركات العسكرية، فبنى نيقفور قلعة في جهات أنطاكية وترك فيها خفراً كافياً قائده برساز وأمرهم أن يضايقوا ما أمكن أهل أنطاكية ولا يهاجموهم قبل أيام الربيع وعاد في بعض الجيش إلى العاصمة وبعد مضيه كان الخفر يضايقون من بأنطاكية ويدنون من الأسوار، ورشا رئيسهم أحد المسلمين فأعلمه بارتفاع أحد الحصون فاصطنع مراقي وتسلق عليها جنوده في ليلة مظلمة فامتلك الحصن وأرسل يستمد قائد الجيش المشتى في تلك الجهة وكان الملك قد نهاهم عن المهاجمة.

فبقي بطرس قائد ذلك الجيش متردداً بين أن يخالف أمر الملك أو أن يترك أولئك الجنود الباسلين الذين ملكوا الحصن عرضة ليهلكهم أعداؤهم وأثر الخلاف للأمر متيقناً أنّه لا يلزمه في حالة لم يسبق النظر إليها فسار بجنده لنجدة برساز قائد

الجند الذين ملكوا الحصن فوجدهم قد دافعوا ثلاثة أيام ثم خرجوا من الحصن فكسروا أحد أبواب أنطاكية ودخلوها وهزموا أهلها والحامية التي كانت بها وانتهبوها، وكان بطرس وبرساز يتوخيان حسن الجزاء من قبل الملك فكان عكس ما أملا لأنَّ الملك استاء من مخالفة أمره فعزلهما عن قيادتهما فأفضت هذه القسوة التي لم يك لها من مثال إلى مقت الملك والشكوى منه. على أنه كان هائماً باتمام ما بدأ فيه في المشرق فسار في ٢٢ تموز سنة ٩٦٨ من قسطنطينية فاجتاز الفرات وحاصر نصيبين فلم يتمكن من فتحها ولم ينجح في الاستيلاء على آمد بل دخل أرمينيا وخرب البلاد وأحرق الرها فكانت حملته هذه مضرة بأعدائه وغير نافعة للملكه، وكادت عليه امرأته توفانا وأتفقت مع سمسق فقتله في بلاطه واستبدَّ بالملك .

إنَّ سمسق بعد أن تسلَّم زمام الملك أعلن كما كان يعلن نيقوفور فوقاً أنه لا يريد أن يكون إلا شريك الملكين باسيل وقسطنطين في الملك ووصياً عليهما لأنَّ أكبرهما كان عمره احدى عشرة سنة، وطرد من قسطنطينية الملكة توفانا التي كانت حملته على قتل زوجها نيقوفور وحبسها في دير ونفى من كانوا قد شاركوه في القتل، وبعد أن أخضع بولغارية لسلطته عاد إلى العاصمة ظافراً وأقام صورة العذراء في العربة المعدة لاستقباله وهم أن يعيد إلى مملكة الروم رونقها القديم في الشرق وقصد أن يأخذ أورشليم وجميع المدن التي على سواحل البحر المتوسط فجَهَّز جيشاً كثيفاً وأمر عليه دمستق واجتاز الفرات وأراع سكان الجزيرة إلى بغداد واستحوذ على آمد وهي ديار بكر، وسار نحو منبع دجلة وانتهب ميافارقين وعظم نجاحه لضعف ولاية الخلفاء وانقسام ولايات البلاد واستبداد العمال كل ببلاده ومعاداة بعضهم لبعض. ومع ذلك قد توغَّل جيش الروم في البلاد مستخفين فأهلك المسلمون كثيرين منهم، على أنَّ هذا لم يضعف عزيمه السمسق بل نراه في ربيع سنة ٩٧٤ سار بنفسه في مقدمة جيشه فدخل المدن التي كان افتتحها جنوده ومكن سلطته عليها وعاد إلى العاصمة بغنائم عظيمة يشرت له حملاته التالية. ولما كانت المدن التي كان الروم يفتحونها كانت بعد انصرافهم تعود إلى ما كانت عليه قبل الفتح وإذ لم يكن في مملكة الروم من الجنود من يكفي للقتال وللمحافظة على المدن المفتوحة عزم سمسق أن يغيِّر هذا النهج وأن لا يسير من محل قبل أن يطمئن على بقائه طائعاً معاوناً مما يليه من البلاد، وصنع كذلك في أباميا وحمص وبعبك ثم زحف إلى دمشق فدخل واليها في طاعته وفرض عليه جزية سنوية، ثم اجتاز

لبنان وانحدر إلى مدن فينيقية وحاصر طرابلس فأصابه مرض أرغمه أن يسير نحو أنطاكية، فأغلق أهلها الأبواب في وجهه فاستاء من هذه الإهانة كل الاستياء فسار حتى وصل إلى سفح جبل أولبس حيث أدركته المنية في ١٠ كانون الثاني سنة ٩٧٦. وروى بعضهم أنه بلغ قسطنطينية فمات فيها بعيد بلوغه إليها (عن شدرانس وزاناراس ويولس الشماس وغيرهم) .

عد ٧٧٨

ذكر حوادث أخرى في سورية

بعد وفاة سيف الدولة بن حمدان أمير حلب تولاهما بعده ابنه سعد الدولة شريف وكنيته أبو المعالي سنة ٣٥٦هـ سنة ٩٦٧م وفي السنة التالية وهي سنة ٩٦٨م حصلت وحشة بين أبي المعالي أمير حلب وأبي فراس والي حمص وطلبه أبو المعالي فانحاز إلى صدد فأرسل أبو المعالي عسكرياً مع قرعويه أحد قواد عسكريه فكيسوا أبا فراس في صدد وقتلوه وكان أبو فراس خال أبي المعالي وابن عم سيف الدولة وهو الذي ذكرنا قبلاً أسره وافتداه سيف الدولة له. وقال بعضهم إن أبا فراس لما مات سيف الدولة عزم على التغلب على حمص فأتصل خبره بأبي المعالي وغلّام أبيه قرعويه فأرسله إليه فقاتله فقتل في صدد وقيل بقي مجروحاً أياماً ومات وقال بعض الشعراء في مقتله بصدد:

وعلمني الصّد من بعده عن النوم مصرعه في صدد
فسقياً لها إذا حوت شخصه وبعداً لها حيث فيها ابتعد

ثم إن قرعويه استولى سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م على حلب وأخرج منها ابن مولاه أبا المعالي بن سيف الدولة فسار أبو المعالي إلى عند والدته بميفارقين وأقام عندها ثم قصد حماه وأقام بها وقصد جيش الروم حلب فتحصن قرعويه في قلعتها وملك الروم المدينة وحصروا القلعة ثم اصطلحوا على مالٍ يحمله قرعويه إلى ملك الروم كل سنة وكانت المصالحة بحمل المال المقرر على حلب وما معها من البلاد وهي حماة وحمص وكفرطاب والمرة وأباميا وشيزر وما بين ذلك ورفع أهل حلب الرهائن بالمال إلى الروم عن حلب وعاد المسلمون إليها. وكان لقرعويه مولى يقال

له بكجور وقد جعله نائبه فغوى بكجور واستفحل أمره وقبض على مولاه قرعويه وحبسه في قلعة حلب واستولى بكجور على حلب فكتب أهلها أبا المعالي بن سيف الدولة فصار إليهم وأنزل بكجور بالأمان وحلف له أن يولية حمص فنزل بكجور وولاه أبو المعالي حمص واستقر بحلب .

ومما كان في سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م أنه بعد وفاة القائم بن عبيدالله أول الخلفاء العلويين قام بالملك بعده ابنه المعز لدين الله فسير في السنة المذكورة جوهرًا غلام والده في جيش كثيف إلى الديار المصرية وكان أهل مصر بعد موت كافور عبد الأخشيدي قد تفرقت آراؤهم واختلفت أهواؤهم فانتهاز المعز هذه الفرصة وأرسل عساكره إلى مصر فلم يكن من يقاومها، وانهزم الأخشيديون فاستولت عساكر المعز على مصر وأقيمت الدعوة في الجوامع، ولما استقر قدم جوهر بمصر سير جمعاً كثيراً مع جعفر بن فلاج إلى الشام فبلغ الرملة وبها الحسن بن عبدالله بن طنج وجرى بينهما حروب كان الظفر بها لعسكر المعز وأسر ابن طنج وغيره من القواد فسيرهم جوهر إلى المعز واستولوا على تلك البلاد وجبوا أموالها ثم ساروا إلى طبرية فوجدوا أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصول العسكر، فساروا عنها إلى دمشق فقاتلهم أهلها وظفرت عساكر المعز بهم وملكوا دمشق ونهبوا بعضها وأقاموا الخطبة يوم الجمعة للمعز لدين الله وقطعت الخطبة العباسية وكان ذلك لسنة ٣٥٩هـ سنة ٩٧٠م. وجرى فتنة في دمشق بين أهلها وجعفر بن فلاج ووقعت بينهم حرب فقطعوا الخطبة ثم استظهر جعفر عليهم فزال الفتنة واستقرت دمشق للمعز لدين الله العلوي. وخطب له في حمص وحلب وخطب بمكة للمطيع لله العباسي وبالمدينة للمعز .

وفي سنة ٣٦٠هـ سنة ٩٧١م وصل القرامطة إلى دمشق وبلغ خبرهم جعفر بن فلاج (وفي الكامل فلاح بالحاء) نائب المعز لدين الله فاستهان بهم فكبسوه خارج دمشق وقتلوه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها ثم ساروا إلى الرملة فملكوها واجتمع عليهم خلق من الأخشيديين فقصدهم مصر ونزلوا بعين شمس وجرى بينهم وبين المغاربة وجوهر قائد عساكر المعز قتال انتصر فيه القرامطة، ثم انتصر المغاربة، فعاد القرامطة إلى الشام وكان رئيسهم حيثث اسم الحسن بن أحمد بن بهرام ولبهرام هذا شعر منه في المغاربة أصحاب المعز :

زعمت رجال الغرب اني هبتها فدمي إذا ما بينهم مطلول
يا مصر إن لم أسقي أرضك من دم يروى ثراك فلا سقاني النيل
وفي سنة ٣٦١هـ سنة ٩٧٢م انتقل معز الدين من الغرب إلى مصر
واستصحب معه أهله وخزائنه وفيها أموال عظيمة واستعمل على بلاده بافريقية
بلكين بن زيري الصنهاجي وعلى صقلية أبا القاسم علي بن الحسن وعلى طرابلس
الغرب عبدالله بن يخلف الكتامي وبلغ إلى اسكندرية سنة ٣٦٢هـ سنة ٩٧٣م وأتاه
أهل مصر وأعيانها فلقبهم وأكرمهم ودخل القاهرة في خامس شهر رمضان من
السنة المذكورة. وفي سنة ٣٦٣هـ سنة ٩٧٤م سار القرامطة إلى ديار مصر وجرى
بينهم وبين عساكر المعز حروب آخرها أن القرامطة انهزموا وقتل منهم خلق كثير
وأرسل المعز في أثرهم عشرة آلاف فارس فساد القرامطة إلى الاحساء والقطيف
بالعربية وفارقوا الشام فأرسل المعز القائد ظالم بن موهوب العقيلي إلى دمشق
فدخلها وعظمت حاله وكثرت جموعه ثم وقع بين أهل دمشق والمغاربة فتن كثيرة
وأحرقوا بعض دمشق ودامت الفتن بينهم إلى سنة ٣٦٤هـ سنة ٩٧٥م (في الكامل
لابن الأثير ابفتكين).

وفي سنة ٣٦٥هـ سنة ٩٧٦م استولى افتكين على دمشق وكان افتكين هذا من
موالي معز الدولة بن بويه وهزمه عضد الدولة من العراق فساد إلى حمص ثم إلى
دمشق وكان عاملها من جهة المعز لدين الله العلوي ريان (ويروى زيان) الخادم
فاتفق أهل دمشق مع افتكين وأخرجوا ريان الخادم وقطعوا الخطبة للمعز وولوا
افتكين، فعزم المعز على المسير من مصر إلى الشام لقتال افتكين فمات المعز في تلك
الأيام وتملك مكانه ابنه الملقب بالعزیز فجهاز القائد جوهرًا إلى الشام ووصل إلى
دمشق وحصر افتكين فأرسل افتكين إلى القرامطة فساروا إلى دمشق ولما قربوا منها
رحل عنها عائداً إلى مصر فساد افتكين والقرامطة في أثره فعمد إلى صيدا
فحصروها وفيها ابن التنج ومعه المغاربة وكانوا كثيرين وخرجوا إلى افتكين
فاستحرمهم حتى أبعدها ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف، وطمع في أخذ
عكا فتوجه إليها وقصد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا واجتمع إليه
خلق كثير، فلحقوا جوهرًا قرب الرملة ورأى جوهر ضعفه عنهم فدخل عسقلان
فحصروه بها حتى أشرف جوهر وعسكره على الهلاك من الجوع فراسل افتكين

وبذل له أموالاً عظيمة ليطلقه، فرحل افتكين عنه وصار جوهر إلى مصر واعلم العزيز بما كان فخرج العزيز بنفسه إلى الشام فوصل إلى ظاهر الرملة وسار إليه افتكين والقرامطة وجرى بينهم قتال شديد وانهزم افتكين والقرامطة وكثر فيهم القتل والأسر، وجعل العزيز لمن يحضر افتكين مئة ألف دينار. ونزل افتكين بيت مفرج بن دغفل (ويروى دغفل) الطائي وكان صديقاً لأفتكين وحضر مفرج إلى العزيز وأعلمه بأسر افتكين وطلب منه المال فأعطاه ما ضمن وأرسل معه من أحضر افتكين ولما مثل بين يدي العزيز أطلقه ونصب له خيمة وأطلق كل من كان في الأسر من أصحابه واهدى إليه أموالاً وخلعاً ثم عاد العزيز إلى مصر وافتكين صحبته علي أعظم ما يكون من المنزلة وبقي كذلك حتى مات افتكين بمصر. وفي الكامل أن وزير العزيز المسمى يعقوب ابن كلس حسده وسقاه سمّاً فمات فحزن العزيز عليه وأتهم الوزير بقتله فحبسه نيفاً وأربعين يوماً ثم أعاده إلى الوزارة (ملخص عن أبي الفداء وابن الأثير وابن خلدون في تاريخ السنين المذكورة).

عد ٧٧٩

الطائع لله والقادر بالله

بعد أن خلع المطيع نفسه من الخلافة لعجزه ببيع بها ابنه عبد الكريم ولقب بالطائع لله وهو الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين وكان ذلك لسنة ٣٦٣هـ سنة ٩٧٤م وتزوج ابنه عضد الدولة بن بويه. وفي سنة ٣٧٩هـ سنة ٩٩٠م كانت وحشة بينه وبين أخيه أحمد الذي سُمّي فيما بعد بالقادر وسببها أن أحمد كان بينه وبين أخت له منازعة على ضيعة وكان الطائع قد مرض وشفى فسعت بأخيها المذكور إلى الطائع وقالت إن أخي شرع في طلب الخلافة عند مرضك، فتغير الطائع على أخيه أحمد وأرسل ليقبض عليه فهرب واستتر وفي سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م قبض بهاء الدولة بن عضد الدولة أمير العراق على الطائع لله لطمعه في ماله فأرسل إليه يسأله الاذن ليجدد العهد به فجلس الطائع على كرسي ودخل بعض الديلم كأن يريد تقبيل يد الخليفة فجذبه عن كرسيه وهو يقول إنا لله وإنا إليه راجعون. ويستغيث فلا يغاث وحمل إلى دار بهاء الدولة واشهد عليه بالخلع وكانت خلافته سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً. ولما تولى أخوه القادر حمل

إليه الطائع وبقي عنده مكرماً إلى أن توفي سنة ٣٩٣هـ سنة ١٠٠٣م. قال أبو الفداء (في تاريخ السنة المذكورة): «لم يكن في ولايته من الحكم ما يستدل به على حالته وكان في الناس الذين حضروا القبض عليه الشريف الرضي فبادر بالخروج من دار الخلافة. وقال في ذلك أبياتاً من جملتها:

أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء ييكنني

أما القادر بالله هو الخامس والعشرون منهم فكان هارباً من وجه المطيع كما مرّ فلما خلع أرسل بهاء الدولة إلى القادر خواص أصحابه ليحضر ولما قرب من بغداد خرج بهاء الدولة وأعيان الناس لملتقاه فدخل دار الخلافة وبايعه الناس وخطب له سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م. وفي هذه السنة وصل باسيل ملك الروم إلى الشام ونازل حمص ففتحها ونهبها ثم سار إلى شيزر فنهبها ثم سار إلى طرابلس فحاصرها مدة ثم عاد إلى بلاد الروم (عن أبي الفداء). وقلماً وجدنا في كتبهم ذكراً لأعماله فان سورية قد استحوذ عليها الخلفاء العلويون الفاطميون والجزيرة والعراقين وفارس وما جاورها وما وراءها من البلاد استبدّ في كل منها حاكم وكثر النزاع بين هؤلاء الحكام وبقي للخليفة مقامه الديني. قال ابن خلدون (جزء ٣ صفحة ٤٤٧) كانت الخلافة قبل القادر قد ذهب رونقها بجسارة الديلم فأعاد إليها أبهتها وجدد ناموسها وكان له في قلوب الناس هبة. وقد امتاز القادر بطول مدة خلافته فقد بويع بها سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م كما رأيت واستمرّ على سرير الخلافة إلى سنة ٤٢٢هـ سنة ١٠٣٢م فكانت مدة خلافته إحدى وأربعين سنة قمرية وأربعين سنة شمسية.

عد ٧٨٠

الخلفاء العلويون الفاطميون في سورية والعزير خاصة

قد مرّ الكلام في ظهور دولة العلويين الفاطميين في الغرب وابتدائها في عبيدالله المهدي وإن قد خلفه بعد وفاته ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور بالله ثم خلف المنصور ابنه المعز لدين الله الذي استحوذ على مصر سنة ٣٥٨هـ سنة ٩٦٩م ثم على سورية. وقد تكلمنا في عد ٧٧٨ على بعض ما كان في أيامه من الحوادث

في سورية وقد توفي المعز لدين الله سنة ٣٦٥هـ سنة ٩٧٦م وخلفه ابنه العزيز. ومن الأحداث في أيامه أنه في سنة ٣٦٨هـ سنة ٩٧٩م هرب أبو تغلب صاحب الموصل من وجه أخيه عضد الدولة بن حمدان وسار إلى دمشق وكان قد تغلب عليها قسام وهو شخص كان يثق إليه افتكين المار ذكره، وكان يخطب فيها للعزيز، فلما وصل أبو تغلب إلى دمشق قاتله قسام ومنعه من الدخول إلى دمشق فسار إلى طبرية ثم سار سنة ٣٦٩هـ سنة ٩٨٠م إلى الرملة وكان هناك دغفل بن مفرج الطائي وقائد من قواد العزيز اسمه الفضل ومعه عسكر قد جهزه العزيز إلى الشام فساروا لقتال أبي تغلب ولم يبق غير سبعماية رجل، فولّى أبو تغلب منهزماً وتبعوه فأخذوه أسيراً فقتله دغفل وبعث برأسه إلى العزيز. وكانت معه أخته جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان وزوجته بنت عم سيف الدولة فحملها بنو عقيل إلى حلب. وفي سنة ٣٧٢هـ سنة ٩٨٣م سير العزيز بالله العلوي جيشاً مع بكتكين إلى الشام فوصلوا إلى فلسطين وكان قد استولى عليها مفرج بن الجراح وكثر جمعه فجرى بينهم قتال شديد فانهزم ابن الجراح وجماعته وكثر القتل والنهب فيهم ثم سار بكتكين إلى دمشق فقاتله قسام المذكور المتولي عليها فغلبه بكتكين وملك دمشق وأمسك قساماً وأرسله إلى العزيز بمصر واستقرّ بدمشق وزالت الفتن وقد ذكرنا في عدد ٧٧٨ أنّ بكجور مولى قرعويه قبض على أستاذه قرعويه وملك حلب ثم استدعى أهلها أبا المعالي بن سيف الدولة فأخذ حلب من بكجور وولاه حمص. ففي سنة ٣٧٣هـ سنة ٩٨٤م كاتب بكجور العزيز صاحب مصر وسأله في ولاية دمشق فأجابه إلى ذلك وكتب إلى بكتكين المار ذكره عامله بدمشق أن يسلم المدينة إلى بكجور ويحضر هو إلى مصر فسلمها إليه واستمرّ بكجور في ولاية دمشق وأساء السيرة فيها. وفي سنة ٣٧٨هـ سنة ٩٨٩م سيّر العزيز العلوي عسكرياً مع القائد منير الخادم إلى دمشق ليعزل بكجور ويتولاها فلما قرب منها خرج بكجور عليه وقاتله عند داريا ثم انهزم بكجور وطلب الأمان فأجابه منير إلى ذلك فسار بكجور إلى الرقة فاستولى عليها واستقرّ منير في إمارة دمشق وأحسن السيرة في أهلها. أمّا بكجور فسار سنة ٣٨١هـ سنة ٩٩٢م من الرقة إلى قتال سعد الدولة بن سيف الدولة بحلب واقتلاً قتالاً شديداً فهرب بكجور وأصحابه وكثر القتل فيهم ثم أمسك بكجور وأخذ أسيراً إلى سعد الدولة فقتله ولقي بكجور عاقبة بغيه وكفره احسان مولاة. وسار سعد الدولة إلى الرقة وبها أولاد بكجور وأمواله وحصرها

فطلبوا الأمان وحلف سعد الدولة أن لا يعترض إليهم ولا إلى مالهم فلما سلموا إليه الرقة غدر بهم وقبض عليهم وأخذ ما معهم من الأموال وكانت شيئاً كثيراً. ولما عاد سعد الدولة إلى حلب لحقه فالج في جنبه اليمين فأحضر الطبيب ومدّ إليه يده اليسرى فقال الطبيب يا مولانا هات اليمين فقال ما تركت لي اليمين يمناً ومات بعد ثلاثة أيام. واسم سعد الدولة شريف وكنيته أبو المعالي بن سيف الدولة. وقبل موته عهد إلى ولده أبي الفضائل بولاية حلب وجعل مولاه لؤلؤاً يدبر أمره.

وفي سنة ٣٨٦هـ سنة ٩٩٧م توفي العزيز بالله بن المعز لدين الله العلوي الفاطمي بمدينة بليس وكان قد برز إليها لغزو الروم وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف شهر وقد ولي كتابته رجلاً نصرانياً يقال له عيسى بن نسطورس واستتاب بالشام رجلاً يهودياً اسمه ميثا فاستطالت النصراني واليهود بسببها على المسلمين فعمد أهل مصر إلى قراطيس وجعلوها في طريق العزيز فأخذها العزيز، فإذا قد كتب فيها الذي أعز اليهود بميثا والنصارى بعيسى وأذل المسلمين بك الا كشفت عنا فقبض على عيسى النصراني وصادره. وكان العزيز يحب العفو ويستعمله ولما مات العزيز بويج ابنه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله بعهد من أبيه (ملخص عن أبي الفداء وغيره).

عد ٧٨١

الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي

هو المنصور أبو علي بن العزيز بن المعز لدين الله بويج بالخلافة بعهد أبيه سنة ٣٨٦هـ سنة ٩٩٧م كما مرّ وكان عمره حينئذٍ إحدى عشرة سنة وقام بتدبير ملكه أرجوان (ويروى برجوان) خادماً أبيه وكان خصياً أبيض فضبط الملك وحفظه للحاكم إلى أن كبر، ثم قتل الحاكم بأمر الله أرجوان المذكور. وفي سنة ٣٩٣هـ سنة ١٠٠٣م استعمل الحاكم على دمشق أبا محمد الأسود واستقرّ في قصر الامارة. وفي سنة ٣٩٧هـ سنة ١٠٠٧م خرج على الحاكم بمصر انسان أموي من ولد هشام بن عبد الملك يسمى أبا ركة لحمله ركة على كتفه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وكثر جمعه وملك برقة وجهاز إليه الحاكم جيشاً فهزمه أبو ركة وغنم ما في ذلك الجيش وقوي به وسار إلى الصعيد واستولى عليه فعظم ذلك على

الحاكم كثيراً فأحضر عساكر الشام واستخدم عساكر كثيرة واستعمل عليهم فضل ابن عبدالله وأرسله إلى أبي ركة فجرى بينهم قتال شديد وآخره أن عساكر الحاكم انتصرت وهربت جموع أبي ركة وأخذ هو أسيراً فقتله الحاكم وصلبه وطيف برأسه. وفي سنة ٤٠١ هـ ١٠١١ م خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم بالله بأعماله كلها وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل: « الحمد لله الذي انجلى بنوره غمرات الغضب وانهدت بعظمته أركان النصب واطلع بقدرته شمس الحق من الغرب. فكتب بهاء الدولة إلى عميد جيوشه يأمره بالمسير إلى حرب قرواش فصار إليه وارسل قرواش يعتذر وقطع خطبة العلويين .

وفي سنة ٤٠٢ هـ سنة ١٠١٢ م ملك صالح بن مرداس حلب . إن رغبنا في أن نستوفي تاريخ الحاكم بأمر الله ساقنا إلى تاريخ حوادث كانت في أيامه في القرن الحادي عشر منها ملك صالح بن مرداس مولده في حلب. ولكي لا نبسطه في تاريخ السنين جمعنا هنا ليكون أقرب تناولاً كما فعل أبو الفداء في تاريخه الذي لخصنا كلامه .

قد علمت مما مر أنه قد ولي حلب سيف الدولة بن حمدان ثم خلفه ابنه شريف الملقب بسعد الدولة ولما توفي خلفه ابنه أبو الفضائل وقام بتدبيره لؤلؤ احد موالى سعد الدولة أبيه، ثم استولى أبو نصر بن لؤلؤ المذكور على أبي الفضائل بن سعد الدولة وأخذ منه حلب واستولى عليها وخطب فيها للحاكم بأمر الله فلقبه الحاكم مرتضي الدولة واستقر في ملك حلب وكانت وحشة بينه وبين صالح بن مرداس الكلبي وعشيرته أفضت إلى حرب كانت بينهم سجلاً وكان لابن لؤلؤ غلام اسمه فتح عصي على أستاذه ابن لؤلؤ وتحصن بقلعة حلب وكاتب الحاكم بأمر الله بمصر فأولاه الحاكم صيدا وبيروت وسلم حلب إلى نواب الحاكم وسار مولاه ابن لؤلؤ إلى أنطاكية وهي في يد الروم فأقام معهم بها وتنقلت حلب بأيدي نواب الحاكم بأمر الله حتى صارت بيد انسان من بني حمدان يعرف بعزير الملك وبقي على نيابته في حلب حتى قتل الحاكم بأمر الله كما سيأتي وملك الظاهر لاعزاز دين الله العلوي فولى على حلب انسان يعرف بابن ثعبان، وولي القلعة خدام يعرف بموصوف، فقصدهما صالح بن مرداس أمير بني كلاب فسلم إليه أهل حلب مدينتهم لسؤ سيرة المصريين فيهم، وصعد ابن ثعبان إلى القلعة وحصرها صالح بن

مرداس فسلمت إليه أيضاً سنة ٤١٤ هـ سنة ١٠٢٤ م واستقرَّ صالح مالكا بحلب وملك معها من بعلبك إلى عانة واستمرَّ على ذلك ست سنين. وفي سنة ٤٢٠ هـ سنة ١٠٣٠ م جهز الظاهر العلوي جيشاً لقتال صالح المذكور ولقتال حسان أمير بني طي الذي كان قد استولى على الرملة وتلك البلاد وكان مقدم عسكر مصر اسمه أنوش تكين فاتفق صالح وحسان على قتاله، وسار صالح من حلب إلى حسان واجتمعا على الأردن عند طبرية ووقع بينهما القتال فقتل صالح بن مرداس وابنه الأصغر وأرسل رأسهما إلى مصر ونجا ولده نصر وسار إلى حلب وملكها مكان أبيه، وكان لقبه شبل الدولة وبقي مالكا بحلب إلى سنة ٤٢٩ هـ سنة ١٠٣٩ م. ولما خلف المستنصر بالله الظاهر العلوي جهز العساكر من مصر لقتال شبل الدولة، وفي مقدمة عساكر مصر رجل يقال له الدزيري وهو أنوش المذكور ويلقب بالدزيري فاقتلوا مع شبل الدولة عند حماه فقتل شبل الدولة وملك الدزيري حلب والشام وعظم شأنه وكثر ماله وتوفي بحلب سنة ٤٣٣ هـ سنة ١٠٤٤ م.

وكان لصالح بن مرداس ولد بالرحبة يقال له أبو علوان ثمال ولقبه معز الدولة فلما بلغه خبر وفاة الدزيري سار إلى حلب وملكها ثم ملك قلعتها وبقي مالكا بحلب إلى سنة ٤٤٠ هـ سنة ١٠٤٩ م وأرسل إليه المصريون جيشاً فهزمهم ثم أرسلوا إليه جيشاً آخر فهزمهم أيضاً ثم صالح ثمال المصريين ونزل لهم عن حلب فأرسلوا رجلاً من أصحابهم يقال له الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة فتسلم حلب من ثمال في السنة المذكورة وسار ثمال إلى مصر وسار أخوه عطية إلى الرحبة. وكان لشبل الدولة الذي قتل في حرب الدزيري ابن اسمه محمود واتفق معه أهل حلب وحصروا ابن ملهم سنة ٤٥٢ هـ سنة ١٠٦١ م فجيش المصريون عسكرياً لنصرة ابن ملهم، ولما قاربوا حلب رحل محمود عنها هارباً وقبض ابن ملهم على جماعة من أهل حلب وأخذ أموالهم وسار العسكر في أثر محمود فاقتلوا وانتصر محمود وهزمهم وعاد إلى حلب فحاصرها وملك المدينة والقلعة، وخلق سبيل ابن ملهم فصار إلى مصر واستقرَّ محمود بن شبل الدولة مالكا لحلب لما وصل ابن ملهم إلى مصر. وكان ثمال بن مرداس قد سار إليها كما مرَّ، فجهر المصريون ثمال المذكور بجيش لقتال ابن أخيه محمود فصار ثمال إلى حلب وهزم ابن أخيه محمود عنها وتسلمها في سنة ٤٥٣ هـ سنة ١٠٦٢ م.

ثم توفي ثمال في حلب سنة ٤٥٤ هـ سنة ١٠٦٣ م وأوصى بحلب لأخيه

عطية الذي كان قد سار إلى الرحبة كما ذكرنا فملك عطية حلب وكان محمود ابن شبل الدولة لما هزمه عمه ثمال قد سار إلى حران فعندما مات ثمال وملك عطية جمع محمود عسكرياً وسار إلى حلب فهزم عمه عطية عنها، فسار عطية إلى الرقة وملكها ثم أخذت منه فسار إلى الروم وأقام بقسطنطينية حتى مات بها واستمرَّ محمود مالكاً في حلب وأخذ ارتاح من الروم واستولى عليها أيضاً ومات محمود المذكور سنة ٤٦٨ هـ سنة ١٠٧٦ م وملك بعده حلب ابنه نصر ثم قتل التركمان نصراً المذكور سنة ٤٦٩ هـ سنة ١٠٧٧ م وملك حلب بعده أخوه سابق بن محمود المذكور وبقي مالكاً حلب إلى سنة ٤٧٢ هـ سنة ١٠٨٠ م فأخذ حلب منه شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل (عن ابي الفداء الجزء الثاني صفحة ١٤٧).

عد ٧٨٢

بقية أخبار الحاكم بأمر الله

في سنة ٤٠٢ هـ سنة ١٠١٢ م كتب ببغداد محضر بأمر القادر بالله يتضمن القدح بنسب العلويين خلفاء مصر وانكار صحة انتسابهم إلى علي بن أبي طالب ووقع عليه جماعة من العلويين والقضاة وكثير من الفضلاء ومما قيل في هذا المحضر: «إنَّ هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم حكم الله عليه بالبور والدمار ابن معد بن اسمعيل بن عبد الرحمن بن سعيد لا أسعده الله وإن من تقدّمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين ادعاء خوارج لا نسب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأنَّ ما أدعوه من الانتساب إليه زور وباطل وأنَّ هذا الناجم في مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون وللإسلام جاحدون ... أحلوا الخمر وسبوا الأنبياء وأدّعوا الربوبية».

وكانت سيرة الحاكم في أموره وأحكامه من أعجب السير وأغربها وأعماله متناقضة يأمر بشيء ثم ينهى عنه وجود على رجال بالمال ثم يقطع رأسه يولي عاملاً ثم يغضب عليه ويقتله. واتخذ مجلساً في الليل يحضر فيه عدة من أعيان ثم أبطله، ومات جيش بن الصمصامة وأوصى بأن تكون تركته لأmir المؤمنين الحاكم بأمر الله وكانت تبلغ إلى مئتي ألف دينار بين نقود ومتاع ودواب، فوهبها لأولاده

وخلع عليهم ومنع الناس من مخاطبة أحدهم له بسيدنا ومولانا إلا أمير المؤمنين وأباح دم من خالف ذلك وكان يخرج كل ليلة فيشق الشوارع والأزقة. وبالع الناس في الوقود والزينة وأنفقوا الأموال الكثيرة فمنع النساء من الخروج في الليل ثم أمر بعدم خروجهن البتة وأمر من يبيع أن يكون معه شبه المغرفة يساعد طويل يده إلى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة بعد أن تأخذ ما بها، وهدم كنيسة القيامة بأورشليم ثم أعاد بناءها وحمل النصارى على الاسلام وأمرهم أن يلبسوا السواد احتقاراً للعباسيين ثم أباحهم العود إلى دينهم. إلى كثير غير ذلك من الأعمال والأوامر المتناقضة والمنع عما هو مباح وإباحة ما هو منكر، وقتل كثيرين من أعيان دولته ووجوه بلاده إلى أن كانت سنة ٤١١هـ سنة ١٠٢١م فخرج يطوف ليلاً على عادته وتوجه إلى شرقي حلوان ومعه ركايبان أعاد أحدهما مع جماعة من العرب ثم عاد الآخر وأخبر أنه خلف الحاكم عند العين، فخرج جماعته وأصحابه لكشف خبره فوجدوا عند حلوان حمار الحاكم وقد ضربت يده بسيف وعليه سرجه ولجامه وأتبعوا الأثر فوجدوا ثياب الحاكم فلم يشكوا في قتله.

والذي رواه ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء من سبب قتله أنه كان قد أحرق بعض مصر ونهب بعضها ونكّل بأهلها ثم أوحش أخته المسماة سيدة الملك وتهدها بالقتل فأرسلت إلى قائد من قواده يسمى ابن داوس وأغرته بقتله وهونته عليه ووعدته بأن يكون مدير الدولة وانها تزيد في اقطاعه مائة ألف دينار فأقام رجلين واعطتهما هي ألف دينار ومضيا إلى الجبل وسار الحاكم إليه منفرداً على عادته فقتلاه وكان عمره ستاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر وولايته خمسة وعشرين سنة وعشرين يوماً. وقالوا إنه بعد التيقن بقتل الحاكم اجتمعوا إلى أخته سيدة الملك فأحضرت ابن دواس وأجلست علياً بن الحاكم صبيّاً لم يناهز الحكم وبايع الناس له ولقب الظاهر لاعزاز دين الله ونفذت الكتب إلى البلاد بأخذ البيعة له، ثم حضر ابن داوس من الغد وحضر معه القواد فأمرت سيدة الملك خادمتها فعلاه بالسيف أمامهم حتى قتله وهو ينادي بثأر الحاكم وقامت هي بتدبير الملك أربع سنين ثم ماتت.

على أن الذي رواه المقرئ في إنما هو: «لأنه قبض على رجل من بني حسين سنة ٤١٥هـ فأقرّ بأنه قتل الحاكم في جملة أربعة أنفس تفرقوا في البلاد، وأظهر قطعة

من جلدة رأسه وقطعة من الفوطة التي كانت عليه، فقيل له لِمَ قتلته؟ قال غيره لله وللإسلام. فقيل له كيف قتلته؟ فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده قائلاً هكذا قتلته ووقع مقتولاً فقطع رأسه. قال المقرئ وهذا هو الصحيح في خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشاركة في كتبهم أن أخته قتلته على أن الرواية الأولى هي المشهورة وقد نقلها أكثرهم والله أعلم. أما أصحابه فيقولون إنه اختفى في بستان داخل سرداب وأنه لم يزل حياً وسوف يأتي في آخر الأزمان ويسمونه الحاكم بأمره ويتحمل عود الضمير إلى منوي وهو لفظ الجلالة أي بأمر الله لكنهم ينوون بأمر نفسه. وقد صرح بذلك حمزة الآتي ذكره وقد اختلف المؤرخون في ما إذا كان الحاكم كافراً ومبتدعاً وادعى الربوبية أو غير كافر. فقال ابن خلدون (في الجزء الرابع من تاريخه صفحة ٦٠): «وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات باسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته وأما مذهبه في الرافضة فمعروف ولقد كان مضطرباً فيه مع ذلك». ولكن خالفه كثيرون وحجته غير سديدة. قال القرمانى في كتاب تاريخ الدول (صفحة ١٩٢): «قال ابن الجزري ادعى الحاكم المذكور بالربوبية وكان قوم من الجهال إذا رأوه يقولون يا واحد يا واحد يا محيي يا مميت، وصنف له بعض الباطنية كتاباً ذكر فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي وأن روح علي انتقلت إلى الحاكم وقرأ هذا الكتاب بجامع القاهرة فقصده الناس قتل مصنفه فسيروا الحاكم إلى جبال الشام فنزل بوادي التيم وناحية بانياس فاستمال قلوب الناس وأباح لهم الخمر... وأقام عندهم مدة يدعوهم فأفضل منهم خلقاً كثيراً. وفي وادي التيم ونواحي الشوف إلى يومنا هذا قوم يدعون الدرور يعتقدون خروج الحاكم ولهم كتب يتدارسونها فيما بينهم ويعتقدون أنه لا بد أن يعود ويمهد الأرض. وقال الجعفري (رواه العلامة فنديك في كتابه الموسوم بالمرآة الوضیة صفحة ١٣٣): «وفي آخر سنة ٤٠٧ هـ قدم إلى مصر رجل يقال له محمد بن اسمعيل الدرزي وكان في ما قيل عجمياً وداعياً من دعاة الطائفة الباطنية وهو المسمى في كتب الدرور بنشتكين الدرزي فدخل هذا الرجل في خدمة الحاكم ووافقه على اثبات دعوته بالالهية، وعلم الدرزي بهذا التعليم جهراً وكتب كتاباً يقول فيه إن نفس آدم جازت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم متقدمة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم وهو خالق الكون إلى آخره. ثم قرأ كتابه في أحد الجوامع فهجم عليه الناس ليقتلوه ففر منهم

وحدث شغب عظيم في القاهرة ونهبوا بيت الدرزي وقتلوا كثيرين من أصحابه، فأرسله الحاكم سراً إلى بر الشام فنزل بوادي التيم بالقرب من جبل الشيخ وهناك نادى بألوهية الحاكم. وكان الأمراء التنوخيون الذين قدموا من العراق إلى بر الشام من الطائفة الباطنية وبوجوده هذه الدخيلة في أنفسهم كانوا مستعدين لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليها، ومن ذلك تسمت طائفة الدروز. وقتل الدرزي المذكور في وقعة مع التتر سنة ٤١٠هـ.

وكان عند الحاكم رجل آخر اسمه حمزة بن علي بن أحمد وهو عجمي أيضاً فوقع الخلاف بينه وبين الدرزي حتى أرسله الحاكم إلى الديار الشامية فتقدم حمزة مكانه وعلم بألوهية الحاكم وجعل نفسه ثانياً له. وقيل إنَّ الدروز يكرمون حمزة جداً ويكرهون الدرزي ويلعنونه. وفي مكاتب أوروبا كتب كثيرة حاوية شرح الدين الذي كان حمزة يدعو إليه، وبعضها منسوب إلى حمزة أيضاً. ومن هذه الكتب كتاب عنوانه «كتاب المشاهد والأسرار التوحيدية» وهو أربعة مجلدات نقلت ثلاثة منها من سورية إلى افرنسة سنة ١٧٠٠م والمجلد الرابع كان في مكتبة الرهبان الدومينيكيين في باريس ثم انتقل إلى مكتبة الأمانة التي فيها أيضاً بعض كتب منسوبة إلى حمزة وأصحابه في أربعة مجلدات، وفي مكتبة الواتيكان مجلد، ومجلد آخر مثله في المكتبة الإمبراطورية في فيينا وكتابان في مدرسة ليد وأربعة في مدرسة أكسفورد إلى غير ذلك من الكتب المشتملة على قواعد مذهب حمزة أو الحاكم بأمر الله، وأكثرها على هيئة رسائل حاوية شروح هذا المذهب ودستوره ولكنها غامضة ورمزية، فقلماً يمكن القطع بالمعنى المراد بها. والمتلخص منها أنَّ الله واحد وهو الكائن الوحيد الذي تجب عبادته وألوهيته لا تدركها العقول ولا تقع تحت حد وتعريف، وقد ظهر للبشر مرات كثيرة متجلياً بناسوت، وأخيراً ظهر باسم الحاكم وأتى أعمالاً خارقة للطبيعة ومملوءة حكمة، ولا يظهر بعد اختفائه الأخير إلا عند مجيئه لتأييد دين التوحيد ومعاقبة الجاحدين. ويعبر في تلك الكتب عن مجيئه بيوم الدينونة وأنَّه اليوم الذي يلبس فيه الحاكم ناسوته ويدين الناس بالسيف وزمان غيبته يسمى فيها زمان الغيبة وزمان التجربة إلى غير ذلك من العقائد التي لا محل لذكرها في هذا المقام.

الفصل الثاني

مشاهير العلم السوريين في القرن العاشر

عد ٧٨٣

القاضي التنوخي وابنه المحسن

هو أبو القاسم علي بن محمّد بن أبي الفهم داود إلى عمر بن الحارث أحد ملوك تنوخ الأقدمين ولد بأنطاكية سنة ٢٧٨هـ سنة ٨٩٢م وقدم بغداد وتفقه بها على مذهب أبي حنيفة، كان عالماً بأصول المعتزلة والنجوم. قال الثعالبي في حقه هو من أعيان أهل العلم والأدب وأفراد الكرم وحسن الشيم وكان قد تقلّد قضاء البصرة والأهواز بضع سنين، وحين صرف عنه ورد سيف الدولة بن حمدان بحلب زائراً ومادحاً فأكرم مثواه وأحسن قراه، وكتب بمعناه إلى الخليفة ببغداد حتى أعيد إلى عملها وزيد في رزقه ورتبته. وكان الوزير المهلبى وغيره يميلون إليه ويتعصبون له ويعدون ريحانة الندماء وتاريخ الظرفاء ومن شعره :

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جاري

وحكى أبو محمّد الحسن بن عسكر الواسطي قال كنت ببغداد جالساً على دكة بباب افرز للفرجة إذ جاءت ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي فأنشدت متمثلاً
هواء ولكنه جامد الخ من شعر التنوخي فقالت إحداهن هل تحفظ لهذا البيت تماماً؟
فقلت ما أحفظ سواه فقالت أنا أنشدك أحد تمامه وما قبله فأنشدتني بيتين بعد البيت الأول وهما :

إذا ما تأملتُها وهي فيه تأملتُ نوراً محيطاً بنارٍ

فهذا النهاية في الأبيضاض وهذا النهاية في الاحمرار
ومن شعره أيضاً :

رضاك شباب لا يليه مشيب وسخطك داء ليس منه طيب
كأنك من كل النفوس مركب فأنت إلى كل النفوس حبيب

وقد توفي بالبصرة لسبع خلون من شهر ربيع الأول سنة ٣٤٢ هـ سنة ٩٥٧ م
ودفن من الغد في تربة اشترت له بشارع المريد وله ديوان شعر جيد .

أمّا ابنه المحسن فقد ذكره الثعالبي بعد أبيه فقال فيه : « هلال ذلك القمر
وغصن هاتيك الشجر والشاهد العدل لمجد أبيه وفضله والفرع المسند إلى أصله
والنائب عنه في حياته والقائم بعد . وفاته وفيه يقول أبو عبدالله بن الحجاج
إذا ذكرنا القضاة وهم شيوخ تخيرت الشباب على الشيوخ
ومن لم يرَضْ لم اصفعه إلا بحضرة سيدي القاضي التنوخي

وللمحسن المذكور كتاب «الفرج بعد الشدة» وله ديوان شعر أكبر من ديوان
أبيه وكتاب «سوار المحاضرة» وكتاب «المستجد من فعلات الأجواد» . ونزل ببغداد
وأقام بها وحدّث إلى حين وفاته وتقلّد القضاء وأعمالاً كثيرة في نواح مختلفة ومن
شعره في بعض المشايخ وقد خرج ليستقي وكان في السماء سحب فلما دعا
أصبحت السماء فقال التنوخي :

خرجنا لنستقي بمين دعائه وقد كاد هذب الغيم أن يلحق الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشّفت السما فما تمّ إلا والغمام قد انقضا

وقد كتب إلى بعض الرؤساء في شهر رمضان :

نلت في ذا الصيام ما تشتهيهِ وكفاك الاله ما تتقيهِ
أنت في الناس مثل شهرك في الأشهر بل مثل ليلة القدر فيه

وكانت ولادته سنة ٣٢٧ هـ سنة ٩٤٠ م ووفاته سنة ٣٨٤ هـ سنة ٩٩٥ م وكان
للمحسن ولد يسمى أبا القسم علياً وكان أديباً فاضلاً . قال ابن خلكان له شعر لم
أقف منه على شيء وكان يصحب أبا العلاء المعري وأخذ عنه كثيراً ، فهم أهل

بيت كلهم فضلاء أدياء ظرفاء وكانت ولادة أبي القسم سنة ٣٦٥هـ سنة ٩٧٦م ووفاته سنة ٤٤٧هـ سنة ١٠٥٦م انتهى .

عد ٧٨٤

أبو القاسم سليمان الطبراني وأبو الرقعمق

أما أبو القاسم فهو سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الطبراني ولد سنة ٢٦٠هـ سنة ٨٨٠م بطبرية بالشام وتوفي بأصبهان سنة ٣٦٠هـ سنة ٩٧٧م رحل في طلب الحديث من الشام إلى العراق والحجاز واليمن والجزيرة وأقام في رحلته ثلاثاً وثلاثين سنة وسمع من الكثيرين، وله المصنفات الممتعة النافعة الغريبة منها المعاجم الثلاثة الكبير والأوسط والصغير وهي أشهر كتبه. وروى عنه الحافظ أبو نعيم وكثيرون غيره. والطبراني نسبة إلى طبرية والطبري نسبة إلى طبرستان . وأما أبو الرقعمق فهو لقب لأبي حامد أحمد بن محمد الأنطاكي ولد بأنطاكية وتوفي في ما ظنَّ خلكان بمصر سنة ٣٩٩هـ سنة ١٠٠٩م وهو شاعر مشهور ذكره الثعالبي في «اليتيمة» فقال في حقِّه هو نادرة الزمان وجملة الاحسان ممن تصرَّف بالشعر في أنواع الجد والهزل، وأحرز قصب السبق، وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين وهو بالشام كابن حجاج بالعراق، فمن غرر محاسنة قوله يمدح أبا الفرج يعقوب بن كلَّس وزير العزيز صاحب مصر.

قد سمعنا مقاله واعتذاره وأقلناه ذنبه وعثاره
والمعاني لمن عنيت ولكن بك عرضت فاسمعي يا جاره
إلى أن يقول :

هتك الله ستره فلکم سحرتني الحاظه وكذا
هتك من ذي تستر أستاره لم يدع للعزيز في سائر الأرض
كل مליح الحاظه سحاره ذو يد شأنها الفرار من البخل
عدواً إلا وأحمد ناره وكذَّه الخطوب بالبذل غاره
بالعطايا وكثرت أنصاره هي فلت من العزيز عداه

هكذا كل فاضل يده تمسي وتضحى نفاعه ضراره
فاستجره فليس يأمن إلا من تفيأ ظلاله واستجاره
(ملخص عن ابن خلكان في وفيات الأعيان) .

محمّد أبو الفرج الوأواء الدمشقي

لم يذكره ابن خلكان في «الوفيات» وذكر الصلاح الكتبي في «فوات
الوفيات». فقال محمّد بن أحمد. وقيل هو ابن محمّد أبي الفرج الوأواء الغساني
الدمشقي شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الاستعارة جيد التشبيه
بنى الحريري مقامة على قوله :

وأمرت لؤلؤاً من نرجس وسقت ورداً وعضت على العناب بالبرد

وذكر كثيراً من أشعاره منها ما قاله في سيف الدولة :

من قاس جدواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين اثنين
أنت إذا جدت ضاحكاً أبداً وهو إذا جاد باكي العين
وكانت وفاة الوأواء سنة ٣٩٠هـ تقريباً وهي سنة ٩٩٩م تقريباً أيضاً .

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

عد ٧٨٥

المشاهير بالفقه والطب والتاريخ وغيرها من العلوم

الطبري

هو أبو علي الحسن بن القاسم الطبري الفقيه الشافعي أخذ الفقه عن أبي علي بن أبي هريرة وعلق على كتابه شرح مختصر المزني تعليقات نافعة وسكن بغداد ودرس بها بعد أستاذه المذكور وكان عارفاً بالقرآن بصيراً بالمعاني وكان من المجتهدين لم يقلد أحداً وكان فقيهاً عالماً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وله التاريخ المشهور ابتدأ فيه من أوّل الزمان إلى آخر سنة ٣٠٢ هـ سنة ٩١٥ م، وله كتاب في التفسير لم يفسر مثله وله في أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة. ولما مات تعصبت عليه العامة ورموه بالرفض وما كان سببه إلا أنه صنّف كتاباً فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل. فقليل له في ذلك فقال لم يكن أحمد بن حنبل فقيهاً وإنما كان محدثاً، فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا كثيرين ببغداد فشنعوا عليه. وقد ولد سنة ٢٢٤ هـ سنة ٨٤٠ م وتوفي سنة ٩٢٣ م هذا ما ذكره أبو الفداء في تاريخ سنة ٣١٠ هـ (جزء ٢ صفحة ٧٦). والذي ذكره ابن خلكان في ترجمته أنه توفي سنة ٣٥٠ هـ سنة ٩٦٢ م ولا بد من غلط في الطبع فقد ذكر عامتهم وفاته سنة ٣١٠ هـ وذكرها المؤرخون النصاري سنة ٩٢١ م أو سنة ٩٢٢ م وقد ترجم تاريخه إلى الافرنسية العالم دوبا Dupeux سنة ١٨٣٦ م.

أبو بكر الرازي

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب المشهور والرازي منسوب إلى الراز وهي راجس المذكورة في سفر طوييا. وذكر ابن جلجل في تاريخ الأطباء أنه دبر مارستان الري ثم مارستان بغداد في أيام المكتفي ومن أخباره أنه كان في شببته يضرب بالعود ويغني فلما التحى وجهه قال غناء يخرج من بين شارب ولحية لا يستظرف فنزع عن ذلك وأقبل على دراسة كتب الطب والفلسفة فقرأها قراءة رجل متعقب على مؤلفيها فأدرك كنهها واعتقد الصحيح منها وعلل السقيم وألف في الطب كتاباً كثيرة، وكان أمام عصره في علم الطب فله كتاب «الحاوي» في مقدار ثلاثين مجلداً، وكتاب «الجامع» وهو أيضاً من الكتب الكبار وكتاب «الأقطاب» وكتاب موجز صنفه للمنصور بن نوح الساماني وسماه «المنصوري»، وهو على صغره كبير المنفعة ويحتاج إليه كل أحد. ومن كلامه مهما قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، ومهما قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب، وإذا كان الطبيب عالماً والمريض مطيعاً فما أقل لبث العلة. وعالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة. وقد توفي الرازي سنة ٣١١ هـ سنة ٩٢٤ م وقد ترجم كثير من كتبه إلى اللاتينية ومنها كتابه الحاوي. وقد طبعت هذه الترجمة في براشيا سنة ١٤٨٦ م وكتابه إلى المنصور ينطوي على عشرة أسفار وقد طبعت ترجمته اللاتينية في البندقية سنة ١٥١٠ م. وهذه الكتب كدائرة طبية وكان يعتمد عليها حيناً طويلاً لتعليم الطب حتى في أوروبا، وله مقالة مشبعة في الجذري ترجمها العالم «فلل» إلى اللاتينية. وطبعت هذه الترجمة في بلاذنس سنة ١٤٩٨ م ثم ترجمها كولن إلى الفرنسية وطبعت ترجمته في بواتيا سنة ١٥٥٦ م، ولها ترجمة أخرى افرنسية وضعها بوله Poulet سنة ١٧٦٨ م (بوليا معجم التاريخ والجغرافية).

أبو نصر الفارابي

هو محمد بن طرخان الفارابي وكان رجلاً تركياً ولد بفاراب إحدى مدن الأتراك العظام وقالوا تسمى اليوم أطرار وسافر من بلده إلى بغداد وهو يعرف اللغة التركية وعدة لغات، وتعلم ببغداد اللغة العربية وأتقنها غاية الاتقان ثم اشتغل بعلوم

الحكمة (الفلسفة) على أبي بشر متى بن يونس الحكيم المشهور في علم المنطق، ثم ارتحل إلى مدينة حاران واشتغل بها على أبي الحيا الحكيم النصراني (كذا سماه أبو الفداء، وسماه ابن الأثير يوحنا بن خيلان الحكيم النصراني) ثم قفل إلى بغداد وأتقن علم الفلسفة وشرح كتب أرسطو وأتقن علم الموسيقى. وألف ببغداد معظم تصانيفه ثم سافر إلى دمشق ولم يبق بها بل سافر إلى مصر ثم عاد إلى دمشق وأقام بها في أيام سيف الدولة بن حمدان وأحسن إليه. وحضر يوماً عند سيف الدولة بدمشق بحضرة فضلائها فما زال كلام الفارابي يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وأخذوا يكتبون ما يقوله. وكان الفارابي يحب العزلة وقلماً يجالس الناس وكان في مدة مقامه بدمشق لا يكون إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض وكان ازهد الناس في الدنيا، وأجرى عليه سيف الدولة كل يوم أربعة دراهم فاقتصر عليها ولم يزل مقيماً بدمشق إلى أن توفي سنة ٣٣٩هـ سنة ٩٥١م. وقد ناهز ثمانين سنة من عمره ودفن خارج الباب الصغير وقد قال فيه صاعد بن أحمد: بن عبد الرحمن القرطبي الأندلسي إنه فيلسوف المسلمين بالحقيقة وأنه قيّد جميع أهل الاسلام وأرى عليهم في التحقيق وجاءت كتبه في الفلسفة الغاية الكافية والنهاية الفاضلة وله كتاب شريف في «احصاء العلوم» والتعريف بأغراضها لم يسبق إليه ولا ذهب أحد مذهبه فيه، ولا يستغني طلاب العلوم كلها عن الاهتداء به. انتهى كلام ابن صاعد منقولاً عن ابن الأثير وله كتاب موسوم «بالسياسة المدنية» ابتداءً بتأليفه في بغداد وأكماله في مصر وقيل في حقه في معجم التاريخ الجغرافي لبوليا ما ملخصه (كان ضليعاً في علوم عصره جميعها وسمي مهذب العقول الثاني، والأول هو أرسطو. وفصاحة كلامه ومخبرته في صناعة الموسيقى وشعره الجيد نولته منزلة رفيعة عند أمير سورية (سيف الدولة). وروى بعضهم أن سيف الدولة أراد أن يستعمله في دولته فأبى وارتحل فاغتاله بعض اللصوص في طريقه. وروى بعضهم أنه صرف أكثر سني حياته عند صاحب سورية يجري عليه النفقات وكان الفارابي أوّل من تعمّق بدرس كتب أرسطو وفسّرها وبثّها بين العرب وأشهر تأليفه: دائرة علمية جمعت كثيراً من العلوم والفنون وهي في مكتبة الأسكوريال بمدريد مخطوطة، ومقالة في الموسيقى وقد طبعت كتبه في موضوعات مختلفة في باريس سنة ١٦٣٨م مترجمة إلى اللاتينية. وأكثر مؤلفاته أتلّفها حدثان الدهر ولبعضها ترجمات عبرانية وكان الفارابي استاذ ابن سينا» انتهى.

المسعودي

لم يذكره ابن خلكان في «وفيات الأعيان» وأثبتته الصلاح الكتبي في «وفات الوفيات» (جزء ٢ صفحة ٥٧) فقال: «هو ابن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ من ذرية عبدالله بن مسعود رضي الله عنه. قال الشيخ شمس الدين عداة في البغداديين وأقام بمصر مدة وكان اخبارياً علامة صاحب غرائب وملح ونوادر مات سنة ٣٤٦هـ (٩٥٨م) وله من التصانيف كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في تحف الأشراف والملوك. وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور وكتاب الرسائل والاستذكار بما مر في سالف الأعصار وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم، وكتاب «التنبيه والأشراف» وكتاب «خزائن الملوك وسر العالمين». وكتاب «المقالات في أصول الديانات» وكتاب «أخبار الزمان ومن اباده الخلدان». وكتاب «البيان في أسماء الأئمة» وكتاب «الخوارج والله أعلم». وقد ترجم بعض كتبه إلى الافرنسية وقد استشهد كتابه التنبيه والأشراف الأب نو الافرنسي في كتابه الموسوم بكراسات مارونية لذكر قيس الماروني عن ترجمة كارا دي فو صفحة ٢١٢.

العبادي الطبيب

هو أبو يعقوب اسحق بن حنين بن اسحق العبادي الطبيب المشهور وقد مر ذكر أبيه في تاريخ القرن التاسع وكان نصرانياً نسطورياً أوجّه عصره في علم الطب وكان يلحق بأبيه في النقل وفي معرفته باللغات وفصاحته فيها، وكان يعرب كتب الحكمة التي بلغة اليونان إلى اللغة العربية كما كان ينقل أبوه. وقد عرب من كتب الفلسفة لأرسطو وغيره أكثر مما عرب من كتب الطب، وكان قد خدم من الخلفاء والرؤساء من خدم أبوه ثم انقطع إلى القاسم وزير الامام المعتضد بالله واختص به حتى كان الوزير المذكور يطلعه على أسرارهِ ويفضي إليه بما يكتبه عن غيره. وله ولأبيه المصنفات المفيدة في الطب وتوفي سنة ٢٩٩هـ سنة ٩١١م أو سنة ٩١٢م (ملخص عن ابن خلكان في وفات الأعيان وعن أبي الفداء إلا ما ذكرناه عن وفات الوفيات).

بعض المشاهير في الخطابة والانشاء

ابن نبأة الخطيب

هو أبو يحيى عبد الرحيم بن محمّد بن اسمعيل بن نبأة الحذاقي الفارقي صاحب الخطب المشهورة كان اماماً في علوم الأدب ورزق السعادة في خطبه التي أجمعوا على أنه ما عمل مثلها وكان من أهل ميفارقين وكان خطيب حلب وبها اجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة، وقالوا إنه سمع عليه بعض ديوانه وكان سيف الدولة كثير الغزوات فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ليحض الناس عليه وعلى نصرة سيف الدولة. ومن احدى خطبه المعروفة بالنامية لأنه ألقاها بعد منام قوله في الموتى: « كأنهم لم يكونوا للعيون قرة ولم يعدوا في الأحياء مرة أسكتهم الله الذي أنطقهم وأبادهم الذي خلقهم وسيجدهم كما خلقهم ويجمعهم كما فرقهم يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً ». قال ابن خلكان لم أرَ أحداً من المؤرخين ذكر تاريخه في المولد والوفاة سوى ابن الأزرق الفارقي في تاريخه فإنه قال ولد سنة ٣٣٥هـ (سنة ٩٤٧م) وتوفي سنة ٣٧٤هـ (سنة ٩٨٥م) بميفارقين فيكون مات وعمره ٣٨ سنة شمسية .

وابن نبأة هذا غير ابن نبأة الشاعر الذي هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمّد بن نبأة إلى مر التيمي السعدي وكان شاعراً مجيداً جمع بين حسن السبك وجودة المعاني طاف البلاد ومدح الملوك والوزراء والرؤساء وله في سيف الدولة بن حمدان غرر القصائد ونخب المدائح منها قوله في قصيدة له :

قد جدت لي باللهي حتى ضجرت بها وكدت من ضجري اثني على البخل
إن كنت ترغب عن أخذ النوال لنا فاخلق لنا رغبة أو لا فلا ننل
لم يُبق جودك لي شيئاً أومله تركتني أصحاب الدنيا بلا أمل
وله ديوان كبير . وقد ولد هذا الشاعر سنة ٣٢٧هـ سنة ٩٣٩م وتوفي سنة ٤٠٥هـ سنة ١٠١٥م ببغداد .

بديع الزمان الهمذاني

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني المعروف ببديع الزمان صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة وعلى منواله نسج الحريري مقاماته واحتذى حذوه واقتفى في خطبته بفضله وأنه هو الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج وله الرسائل البديعة والنظم المليح فمن قوله في رسالة الماء إذا طال مكثه ظهر خبثه وإذا سكن متنه ظهر نتنه وكذلك الضيف يسمح لقائه إذا طال مثواه ويثقل ظله إذا انتهى محله. وفي رسالة أخرى حضرته التي هي كعبة المحتاج لا كعبة الحجاج ومشعر الكرم لا مشعر الحرم ومنى الضيف لا منى الخيف وقبلة الصلوات لا قبلة الصلاة. وله في تعزية بموت خطب قد عظم حتى هان ومسّ خشن حتى لان والدنيا قد تنكرت حتي صار الموت أخف خطوبها وجنت حتى صار أصغر ذنوبها فانظر يمّنة هل ترى إلا محنة ثم انظر يسرة هل ترى إلا حسرة ومن شعره من جملة قصيدة طويلة :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسكباً لو كان طلق الحيا يطر الزهبا
والدهر لو لم يخزن والشمس لو نطقت والليث لو لم يُصَدّ والبحر لو غُذبا

وسكن هراة من بلاد خراسان وله كل معنى مليح حسن من نظم ونثر، أمّا ما يحكى عنه من أنّه نطق ببعض قصائده ارتجالاً أو ارتجل بعض مقاماته أو خطبه البديعة فهو غلو في مدحه ومغالة في وصف توقّد ذكائه فلا يصدقه عاقل. وكانت وفاته سنة ٣٩٨ هـ ١٠٠٨ م فقيل مات مسموماً وقيل مات من السكتة (ملخص عن وفيات الأعيان لابن خلكان وعن تاريخ أبي الفداء).

عد ٧٨٧

بعض المشاهير في اللغة والشعر

ابن سهل

هو أبو بكر محمّد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج كان أحد أئمة المشاهير أخذ العلم عن أبي العباس المبرد وأخذ عنه النحو جماعة منهم

أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني وغيرهما. ونقل عنه الجوهري في الصحاح في مواضع عديدة وله عدة مصنفات مشهورة. وكان مع كمال فضائله يلثغ في الرأء يجعلها غنياً فاملاً كلاماً يوماً بالرأء فكتبوه بالغين فقال لا بالغين بل بالفاء وجعل يكررها . والسّراج نسبة إلى عمل السروج وكانت وفاته سنة ٣١٠ وقيل سنة ٣١٥ هـ سنة ٩٢٣ أو سنة ٩٢٨ م (عن أبي الفداء في تاريخ سنة ٣١٠) وذكر ابن خلكان أنّ له كتاب «الأصول» وهو أجود الكتب المصنفة في هذا الشأن وإليه المرجع عند الاختلاف في النقل وكتاب «جمل الأصول» وكتاب «الاشتقاق» وكتاب «الشعر والشعراء» وكتاب «الرياح والهواء والنار» وغيرها .

ابن دريد

هو أبو بكر محمّد بن الحسن بن دريد وأوصلوا نسبه إلى يشجب بن يعرب ابن قحطان والله يعلم صحة مثل هذه الأنساب. وكان ابن دريد امام عصره في اللغة والأدب والشعر. قال المسعودي في كتاب مروج الذهب في حقه كان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن أحمد فيها وأورد أشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين وكان يذهب في الشعر كل مذهب وشعره أكثر من أن نحصيه فمن جيد شعره قصيدته المقصورة التي مدح بها الشاه بن ميكال وولديه عبدالله واسماعيل ويقال إنّه أحاط بها بأكثر القصور وأولها:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوّدته مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ثم قال المسعودي وقد عارضه في هذه القصيدة جماعة من الشعراء منهم أبو القاسم علي بن محمّد الأنطاكي التنوخي . وشرح هذه القصيدة كثيرون من المتقدمين والمتأخرين ولاين دريد من التصانيف المشهورة كتاب «الجمهرة» وهو من الكتب المعتمدة في اللغة وكتاب الاشتقاق وكتاب «الانواء» وكتاب «المقتبس» وكتاب «الملاحن» وكتاب «زوار العرب» وكتاب «اللغات المجتتى إلى غيرها من الكتب». وله نظم رائع جداً وكان من تقدّم من العلماء يقول: ابن دريد اعلم الشعراء وأشعر العلماء ومن مليح شعره قوله:

غراء لو جلت الحدود شعاعها للشمس عند طلوعها لم تشرق
غصن على ذعص تأود فوقه قمر تألق تحت ليل مطبق
لو قيل للحسن احتكم لم يعدّها أو قيل خاطب غيرها لم ينطق
فكأننا من فرعها في مغرب وكأننا من وجهها في مشرق
تبدو فيهتف بالعون ضياؤها الويل حل بمقلة لم تطبق

قال ابن خلكان ولولا خوف الاطالة لذكرت كثيراً من شعره وكانت ولادته
بالبصرة سنة ٢٢٣هـ سنة ٨٣٩م ونشأ بها وتعلّم فيها ثمّ انتقل إلى عمان وأقام بها
اثنى عشرة سنة ثمّ عاد إلى البصرة وسكنها زماناً ثمّ خرج إلى نواحي فارس
وصحب ابني ميكال. ثمّ انتقل إلى بغداد فأجرى المقتدر عليه خمسين ديناراً في
الشهر إلى أن توفي ببغداد سنة ٣٢١هـ سنة ٩٣٤م. فان صح ذلك كان عمره
خمساً وتسعين سنة شمسية والله أعلم ورثاه خجطه البرمكي بقوله :

فقدت يا ابن دريد كل فائدة لما غدا ثالث الأحجار والترب
وكنت أبكي لفقد الجود منفرداً فصرت أبكي لفقد الجود والأدب
(انتهى ملخصاً عن وفيات الأعيان لابن خلكان وعن أبي الفداء وغيرهما)

النحاس النحوي

هو أبو جعفر أحمد بن محمّد اسمعيل بن يونس المرادي النحاس النحوي
المصري وكان من الفضلاء وله تصانيف مفيدة منها تفسير القرآن وكتاب اعرابه
وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو اسمه التفاحة وكتاب في الاشقاق
وتفسير أبيات سيبويه ولم يسبق إلى مثله وكتاب الكتاب (أي كتاب سيبويه)
وكتاب الكافي في النحو وكتاب المعاني وفشّر عشر دواوين وأملاها وكتاب الوقف
والابتداء صغير وكبير وكتاب في شرح المعلقات السبع وكتاب طبقات الشعراء
وغیر ذلك. وأخذ النحو عن أبي الحسن علي بن سليمان الأخفش وأبي اسحق
الزجاج وابن الأنباري ونفطويه وقد رحل من مصر إلى العراق وكانت فيه خسارة
وتقتير على نفسه ومع هذا فكان للناس رغبة كثيرة في الأخذ عنه، فنفع وأفاد

وأخذ عنه خلق كثير وتوفي بمصر سنة ٣٣٨هـ وقيل سنة ٣٣٧هـ سنة ٩٥٠م أو سنة ٩٤٩م وكان سبب وفاته أنه جلس على درج المقياس على شاطئ النيل في أيام زيادته وهو يقطع بالعروض شيئاً من الشعر فقال بعض العوام هذا يسحر النيل حتى لا يزيد فتغلى الأسعار فدفعه برجله في النيل فلم يوقف له على خبر .

أبو الطيّب المتنبي

هو أبو الطيّب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكندي المعروف بالمتنبي الشاعر المشهور، وقيل هو أحمد بن الحسين بن مرة بن عبد الجبار وهو من أهل الكوفة، وقدم الشام في صباه وقيل إن أباه انتقل إلى الشام بولده ونشأ ولده بالشام واشتغل بفنون الأدب ومهر فيها وكان من المكثرين من نقل اللغة والمطلعين على غريبها وحواشيها ولا يسأل عن شيء إلا واستشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر، وأما شعره فهو النهاية ولا حاجة إلى ذكر شيء منه لشهرته. والناس في شعره على طبقات فمنهم من يرجح أبا تمام عليه ومنهم من يرجحه على أبي تمام. قال النامي الشاعر الآتي ذكره كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي أن أكون قد سبقته إلى معنيين أحدهما قوله :

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال
والآخر قوله :

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان
واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه وقال بعضهم إنه وقف له على أكثر من أربعين شرحاً بين مطولات ومختصرات (ومنهم وطنينا المجيد المرحوم الشيخ نصيف اليازجي). وإنما قيل له المتنبي لأنه ادعى في صباه النبوة وتبعه خلق كثير من بني كليب وغيرهم فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدي المار ذكره فأسره وتفرق أصحابه وحبسه طويلاً ثم استتابه وأطلقه وقيل غير ذلك وما ذكرناه أصح. فالتحق المتنبي بالأمير سيف الدولة صاحب حلب سنة ٣٣٧هـ سنة ٩٤٩م ثم فارقه

ودخل مصر سنة ٣٤٦هـ سنة ٩٥٨م ومدح كافور الأحمدي المار ذكره، ولما لم يرض فارقه سنة ٣٥٠هـ سنة ٩٦٢م، ووجه كافور خلفه رواحل إلى جهات شتى فلم يلحق، وقصد المتنبي بلاد فارس ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي واجزل جائزته، ولما عاد من عنده قاصداً بغداد والكوفة عرض له فاتك بن أبي الجهل الأسدي في عدة من أصحابه وكان مع المتنبي جماعة من أصحابه فقاتلوهم وقتل المتنبي وابنه مُحشَّد وغلّامه مفلح. وذكر ابن رشيق في كتاب العمدة في باب منافع الشعر ومضاره أنَّ المتنبي لما رأى الغلبة فرَّ فقال له غلامه لا تتحدَّث الناس عنك بالقرار أبداً وأنت القائل :

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فكر راجعاً حتى قتل وكان قتله سنة ٣٥٤هـ سنة ٩٦٦م وقيل إنَّ مولده كان
بالكوفة سنة ٣٠٣هـ سنة ٩١٦م وقيل إنَّ أباه كان سقاء بالكوفة ثمَّ انتقل إلى
الشام بولده ونشأ ولده بالشام وإلى هذا أشار بعض الشعراء في هجو المتنبي
أي فضل لشاعر يطلب الفضل لَم من الناس بكرة وعشياً
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ءَ وحيناً يبيع ماءَ الحيا
وقد رثى أبو قاسم المظفر المتنبي بقوله :

لا رعى الله سرب هذا الزمانِ إذ دهانا في مثل ذاك اللسانِ
ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثانٍ يرى لبكر الزمانِ
هو في شعره نبِيٌّ ولكن ظهرت معجزاته بالمعاني

النامي الشاعر

هو أبو العباس أحمد بن محمَّد المصيصي المعروف بالنامي الشاعر المشهور كان من فحول شعراء عصره وخواص مداح سيف الدولة بن حمدان وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة وكان أديباً فاضلاً عارفاً باللغة والأدب وروى عنه أبو القاسم الحسين بن علي الحلبي وأخوه أبو الحسين أحمد وغيرهم ومن محاسن شعره

في سيف الدولة :

أمير العلي ان العوالي كواسب علاك في الدنيا وفي جنة الخلد
يمر عليك الحول سيفك في الطلى وطرفك ما بين الشكيمة والبلد
ويمضي عليك الدهر فعلك للعلي وقولك للتقوى وكفك للفرد
وله مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد . وحكى أبو الخطاب بن عون
الحريري أنه دخل على النامي فوجده جالساً ورأسه كالنعامة يياضاً وفيه شعرة واحدة
سوداء فذكرها له فقال نعم هي بقية شبابي ولي فيها شعر هو :
رأيت في الرأس شعرة بقيت سودا تهوى العيون رؤيتها
فقلت للبيض إذ تروعها بالله الا رحمت غربتها
وقل لبث السواد في وطن تكون فيه البيضاء ضرتها
وقال بيضاء واحدة تروع ألف سوداء فكيف حال سوداء بين ألف بيضاء ومن
شعره :

أتاني في قميص اللاد يسعى عدو لي يلقب بالحبيب
وقد عبث الشراب بمقلتيه فصير خده كسنا اللهيپ
فقلت له بما استحسنت هذا لقد أقبلت في زي عجيب
احمرة وجنتيك كستك هذا أم أنت صبغت دم القلوب
فقال الراح اهدت لي قميصاً قريب اللون من شفق الغروب
فنوبي والمدام ولون خدي قريب من قريب من قريب
وتوفي النامي بحلب سنة ٣٩٩هـ وقيل سنة ٣٧٠ أو سنة ٣٧١هـ أي سنة
١٠٠٩ أو سنة ٩٨١ أو سنة ٩٨٢م .

الجرجاني

هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني الفقيه الشافعي كان فقيهاً

أديباً شاعراً ذكره الشيخ أبو اسحق الشيرازي في كتاب طبقات الفقهاء وقال له ديوان شعر وهو القائل :

يقولون لي فبك انقباض وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجماً
وهي أبيات طويلة مشهورة وذكره الثعالبي في كتاب يتيمة الدهر فقال هو فرد
الزمان وانسان حدة العلم وقبة تاج الأدب وفارس عسكر الشعر مجمع خط ابن
مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحري وقد طاف بلاد العراق والشام وغيرها واقتبس
أنواع العلوم والآداب علماً. وله من أبيات قوله :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال شيئان حرماً عليّ الغنى نفسي الایة والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه مواقف خير من وقوفي بها العسر
وله أيضاً :

وقالوا اضطرب في الأرض والرزق واسع قلت ولكن موضع الرزق ضيق
وإذا لم يكن في الأرض حرّ يعينني أو لم يكن كسب فمن أين لي رزق
وشعره كثير وطريقته فيه سهلة وله كتاب الوساطة بين المتنيي وخصومه أبان فيه
عن فضل غزير واطلاع كثير ومادة متوفرة وقد توفي سنة ٣٦٦ هـ سنة ٩٧٧ م .

الأزهري

هو أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهر الهراوي الامام المشهور في اللغة وكان
فقيهاً شافعي المذهب غلبت عليه اللغة فاشتهر بها وقد أجمعوا على الاقرار بفضله
ودرايته وورعه ودخل بغداد وأدرك بها أبا بكر بن دريد ولم يرو عنه شيئاً وكان قد
رحل وطاف في أرض العرب في طلب اللغة. وحكى بعض الأفاضل أنه رأى
بخطه أنه أسر ووقع في نصيب عرب نشأوا في البادية وأنه بقي في أسرهم دهرأ
طويلاً واستفاد من مجاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمّة ونوادير كثيرة أوقع
أكثرها في كتابه الموسوم بالتهذيب وهو من الكتب المختارة وفي أكثر من عشر
مجلدات. وله تصنيف في غريب الألفاظ التي يستعملها الفقهاء في مجلّد واحد

وهو عمدة الفقهاء في تفسير ما يشكل عليهم من اللغة المتعلقة بالفقه وكتاب «التفسير» وتوفي بمدينة هراة سنة ٣٧٠ وقيل سنة ٣٧١ هـ أي سنة ٩٨١ أو سنة ٩٨٢ م ونسبته الازهري إلى جده الأزهر كما رأيت ونسبته الهراوى إلى مدينة هراة .

السيرافي النحوي

هو أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافي النحوي المعروف بالقاضي سكن بغداد وتولى القضاء نيابة عن أبي محمد بن معروف وكان من أعلم الناس بنحو البصريين وشرح كتاب سيبويه وأجاد فيه وله كتاب «ألفات الوصل والقطع» وكتاب «الوقف والابتداء» وكتاب «صناعة الشعر والبلاغة» و«شرح مقصورة ابن دريد»، وقرأ اللغة على ابن دريد والنحو على أبي بكر بن السراج المار ذكره وكان الناس يشتغلون عليه فنون القرآن والقراءات والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر والعروض والقوافي وكان نزيهاً عفيفاً حسن الأخلاق وكان معتزلاً ولم يظهر منه شيئاً وكان لا يأكل إلا من كسب يده ينسخ ويأكل بأجرة نسخه وكان أبوه مجوسياً اسمه بهزاز فاسلم وسماه ابنه عبدالله وكان كثيراً ما ينشد في مجالسه :

اسكن إلى سكن تسر به ذهب الزمان وأنت منفرد
ترجو غداً وغد كحاملة في الحي لا يدرون ما تلد

وكانت بينه وبين أبي الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني ما جرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس فقال فيه أبو الفرج :

لست صدراً ولا قرأت على صدر ولا علمك البكي بشاف
لعن الله كل نحو وشعر وعروض تجيء من سيراف

وتوفي سنة ٣٦٨ هـ سنة ٩٧٩ م والسيرافي نسبة إلى سيراف وهي بلدة من بلاد فارس وقال فيه ابنه أبو محمد يوسف أصل أبي من سيراف وبها ولد وبها ابتداء

يطلب العلم وخرج منها قبل العشرين ومضى إلى عمان وتفقه بها ثم عاد إلى سيراف ومضى إلى عسكر مكرم (اسم محل) وأقام عند أبي محمد بن عمر المتكلم وكان يفضل على جميع أصحابه ودخل بغداد وخلف القاضي أبا محمد معروف .

أبو علي الفارسي

هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي النحوي ولد بمدينة فسا من أعمال فارس واشتغل ببغداد وكان امام وقته في علم النحو وجاب البلاد وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان وكان قدومه عليه سنة ٣٤١ هـ ٩٥٣ م وجرت بينه وبين أبي الطيب المتنبّي مجالس ثم انتقل إلى بلاد فارس وصحب عضد الدولة ابن بويه وعلت منزلته عنده حتى قال عضد الدولة أنا غلام أبي علي الفسوي (هو الفارسي ونسبه إلى بلاده) في النحو وصنف له كتاب الايضاح والتكملة في النحو. ويحكى أن عضد الدولة قال له يوماً لِمَ انتصب المستثنى في قولنا قام القوم إلا زيدا فقال الشيخ بفعل مقدر تقديره استثنى زيدا فقال عضد الدولة هلاً رفعتَه وقدرت الفعل امتنع زيد فانقطع الشيخ وقال هذا الجواب ميداني، ثم عاد إلى منزله ووضع في ذلك كلاماً حسناً وحمله إلى عضد الدولة فاستحسنه. وقال في كتابه الايضاح إن زيدا من القول المذكور انتصب بالفعل المتقدم بتقوية ال. وحكى القاسم بن أحمد الأندلسي قال جرى ذكر الشعر بحضرة أبي علي الفارسي فقال إني لا غبطكم على قول الشعر فإن خاطري لا يوافقني على قول مع تحقيقي العلوم التي هي مواده فقال رجل فما قلت شيئاً منه فقال لا أعلم أن لي شعراً إلا ثلاثة أبيات في الشيب وهي :

خضبت الشيب لما كان عيباً وخضبت الشيب أولى أن يعابا
ولم أخضب مخافة هجر خلٍّ ولا عيباً خشيت ولا عقابا
ولكن المشيب بدا ذميماً فصيرت الخضاب له عقابا

ومن تصانيفه كتاب «التذكرة» وهو كبير وكتاب «المقصود والمدود» .
وكتاب «الحجة في القراءات» وكتاب «الاغفال في ما أغفله الزجاج من المعاني»

وكتاب «العوامل المائة» وكتاب «المسائل الحلييات» وكتاب «المسائل البغداديات» وكتاب «المسائل الشيرازيات» وكتاب «المسائل العنصريات» وكتاب «المسائل العسكرية» وكتاب «المسائل البصرية» وكتاب «المسائل المجلسيات» وغير ذلك . وقال ابن خلكان إنه سمع في منامه ثلاثة أبيات لأبي علي الفارسي علق منها على خاطره البيت الأخير وهو:

الناس في الخير لا يرضون من أحد فكيف ظنك يسمو الشر أو ساموا

وتوفي سنة ٣٧٧هـ سنة ٩٨٨م .

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن العاشر

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم وأساقفة سورية في هذا القرن

عد ٧٨٨

بطاركة أنطاكية في القرن العاشر

فرغنا من الكلام في هؤلاء البطاركة في القرن التاسع بذكر سمعان الأول الذي توفي سنة ٩٠٣م فخلفه بعد وفاته إيليا الثاني ذكره سعيد بن البطريق وقال إنه استوى على الكرسي البطريركي سنة ٩٠٣م وأنه كان عالماً وله تصانيف وأنه استمر في البطريركية ثمانين وعشرين سنة وتابعه على ذلك ادوار برنردس وروى

العلامة السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٤٠) إنَّ إيليا هذا أرسل يوحنا جاثليق الروم إلى بغداد فالجئ إلى الخروج منها لأنَّ ابراهيم جاثليق النساطرة نال أمراً أبرزه الخليفة بأن لا يكون في بغداد كرسي لمثروبوليت الروم بل إذا أرسل البطريرك الأنطاكي أسقفاً لزيارة الروم في بغداد وتعاطى أشغاله فيلزمه أن يعود بعد نهاية أشغاله إلى بلده، وقد توفي إيليا سنة ٩٣١ لقوله إنَّه صُيِّر بطريركاً سنة ٩٠٣م وأنَّه استمرَّ في البطريركية ٢٨ سنة. ولم يكن بطريرك في كرسي أنطاكية بعد وفاة إيليا مدة أربع سنين على ما روى ادوار برنردس ومدة سبع سنين على ما في تاريخ ابن البطريق .

وخلف توادوسيوس الثاني إيليا المذكور ذكره ابن البطريق وقال صير بطريركاً على أنطاكية سنة ٩٣٦ وكان اسمه أولاً أسطفانس وكان حياً سنة ٩٣٧ حين فرغ ابن البطريق من تدوين تاريخه. قال لكويان ذكرت حتى الآن عداد بطاركة أنطاكية خلفاً عن سلف وقد جمعت أسماء من سيأتي ذكرهم من كتب مؤلفين كثيرين وحال دون معرفة كثيرين منهم حدثان الدهر أو أسباب أخرى، وخلف توادوسيوس المذكور توادوريطس الثاني ثمَّ أغاييوس الأوَّل فهذا ما يظهر من جدول بطاركة أنطاكية المحفوظ في الواتيكان ولم نستفد منه إلَّا العلم باسميهما ولم يتحفنا بذكر شيء من أعمالهما .

وقد علمنا أنَّ كريستوفر كان بطريركاً على أنطاكية قبل أن حمل نيقفور فوقاً ملك الروم على أنطاكية سنة ٩٥٨ أو سنة ٩٦٩ سنداً إلى ما رواه لاون الشماس (ك ٦ عد ٦) من أنَّ نيقفور أخذ أنطاكية ولم يكن فيها بطريرك لأنَّ كريستوفر البطريرك الذي كان فيها كان الوالي قد قتله ولبثت أنطاكية بعد مقتله مترملة مدة ما . وقد جاء في الصلوات المعروفة بالارثوذكسيات التي يتلوها الروم في كنائسهم ما نصَّه: «إنَّه ليستحق الذكر المؤبد كريستوفر وتوادور وخلفاؤهما العشرة أي كريستوفر وتوادور وأغاييوس ويوحنا ونيقولاوس وإيليا وتوادور (الآخر) وباسيليوس وبطرس وتوادوسيوس ونيقفور ويوحنا (الآخر)» ولكن أنبأنا نيقفور المؤرخ (ك ١٤ فصل ٣٩) إنَّ الملك نيقفور فوقاً اعتنى بترقية اسطراتيوس إلى بطريركية أنطاكية . وقد جاء ذكر اسطراتيوس هذا في كتاب الناموس اليوناني الروماني فظهر أنَّه كان بطريركاً أنطاكياً وإن لم يرد ذكره في الارثوذكسيات المذكورة وكان بعد ذلك بطريركاً على أنطاكية توادور الثاني وهو المذكور في الارثوذكسيات بعد كريستوفر

فقد روى لاون الشماس في المحل المذكور أنَّ يوحنا سمسق لما استتب الملك وبلغه أن جيش الرومانيين افتتح أنطاكية ولا بطرك فيها اهتمَّ بأن يقام توادور بطريكاً على أنطاكية وكان ناسكاً ورعاً. وكان حينئذ في قسطنطينية فأخذه الملك يوحنا إلى بولياكتوس البطريك القسطنطيني فراه إلى بطريكية أنطاكية وصير بعد توادور بطريكاً أغايوس الثاني وهو المذكور في الأرثوذكسيات بعد توادور. وروى جيورجيوس بن العميد أنَّه كان أسقفاً على حلب فنقل إلى بطريكية أنطاكية ثم نفي وأمر أن يقيم بقسطنطينية بعد أن دبر كنيسة أنطاكية اثنتي عشرة سنة، وبقي بطريكاً في منفاه سبع سنين وخلفه يوحنا الثالث وهو المذكور في الأرثوذكسيات بعد أغايوس. وقد ذكره بطرس البطريك الأنطاكي أحد خلفائه في رسالة إلى ميخائيل شيرلاريوس البطريك القسطنطيني ويظهر من ذلك أنَّه كان في أيام البابا يوحنا الثامن عشر في أوائل القرن الحادي عشر وجاء في المجلد الأول من كتاب آثار الكنيسة الرومية أنَّ يوحنا الثالث كان في أيام سيسين البطريك القسطنطيني وهذا كان بطريكاً بقسطنطينية من سنة ٩٩٥ إلى سنة ٩٩٩.

وصير بعد يوحنا الثالث نيقولاوس الثاني على ما في الأرثوذكسيات المذكور ولكن قال من اعتنوا بطبع تراجم القديسين إنَّ العلامة يوسف سمعان السمعاني كتب إليهم أنَّ في جداوله العربية لبطاركة أنطاكية إنَّ الذي خلف يوحنا الثالث إنما هو إيليا ولا ذكر فيها لنيقولاوس. وكذلك جاء في الجدول الواتيكاني لهؤلاء البطاركة أي أنَّ إيليا خلف يوحنا ولا ذكر لنيقولاوس. فرجَّح أنَّ إيليا خلف يوحنا وإيليا هو الوارد ذكره في الأرثوذكسيات. ومع هذا الخلاف في إقامة هؤلاء البطاركة لا عجب من أننا لم نظفر بمعرفة تاريخ سني ترقيتهم ووفاتهم (انتهى ملخصاً عن الشرق المسيحي للكويان في كلامه على بطاركة أنطاكية).

عد ٧٨٩

بطاركة أورشليم في القرن العاشر

آخر ما ذكرناه في تاريخ بطاركة أورشليم في القرن التاسع وفاة إيليا الثالث بطريكها سنة ٩٠٧، وقد خلفه سرجيوس الثاني لأنَّه قيل في الجداول اللاتينية إنَّ سرجيوس خلف إيليا الثالث وسماه ابن البطريق جيورجيوس، وقال فيه إنَّه صير

بطريقاً في السنة السادسة لخلافة المكتفي بالله واستمر في البطيركية أربع سنين وستة أشهر. وقال ابن العميد (في ك ٢ من تاريخ المسلمين فصل ١٨) إن المكتفي ببيع بالخلافة يوم وفاة أبيه المعتضد بالله في ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ وذلك يوافق اليوم الرابع أو الخامس من نيسان سنة ٩٠٢م لأنَّ بدء تلك السنة الهجرية كان في ١٥ كانون الأول سنة ٩٠١ ولما كان ابن البطريق قال إنَّه صير بطريقاً في السنة السادسة لخلافة المكتفي كان الناتج أنَّه رقي إلى البطيركية سنة ٩٠٧ قبل الخامس من نيسان سنة ٩٠٨. ثمَّ قال في خليفته لاون الآتي ذكره إنَّه صير بطريقاً في السنة الثالثة لخلافة المقتدر كما سيجيء. والمقتدر ببيع بالخلافة في ١٣ من ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ وذلك يوافق ١٢ آب سنة ٩٠٨م ولذلك تعقَّب لكويان ابن البطريق فقال لا أفهم كيف استمرَّ سرجيوس ستة أشهر بعد السنين الأربع التي لا تكمل إلَّا في ٥ نيسان سنة ٩١١، وعليه فيلزم أن يكون سرجيوس توفي في تشرين الأول لتكملة الستة الأشهر وكان يلزمه على ذلك أن يقول إنَّ خليفته صير بطريقاً في السنة الرابعة للمقتدر لا في السنة الثالثة لأنَّه ببيع بالخلافة في ١٢ آب سنة ٩٠٨ على أنَّ هذا غلط بأشهر فلا يعبأ به ولا يعجب منه في كلام ابن البطريق الذي اعتاد الغلط بمئتين من السنين. وخلف لاونتيوس سرجيوس وسماه ابن البطريق لاون وقال فيه إنَّه صير بطريقاً للسنة الثالثة من خلافة المقتدر ابن المكتفي كما مرَّ واستمرَّ في البطيركية سبع عشرة سنة. والذي أجمع عليه المؤرخون أنَّ المقتدر إمَّا هو أخو المكتفي لا ابنه قال ابن العميد (في كتابه المذكور فصل ١٩) إنَّ جعفر أبا الفضل المقتدر بالله ابن المعتضد ببيع بالخلافة يوم وفاة أخيه المكتفي في الثالثة عشرة من ذي القعدة سنة ٢٩٥هـ يوافق ذلك ١٢ من آب سنة ٩٠٨م. وقال أبو الفداء في تاريخه (جزء ٢ صفحة ٦٥): «في هذه السنة أي سنة ٢٩٥) لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي القعدة توفي المكتفي بالله أبو محمَّد علي بن المعتضد بالله». وقال بعد ذلك: «ذكر خلافة المقتدر بالله أبي جعفر بن المعتضد بالله» فتصحف على ابن البطريق الأخ بالأب وان صدقنا مع ذلك قوله إنَّه لبث في البطيركية سبع عشرة سنة وقد رقي سنة ٩١٦ فتكون وفاته سنة ٩٢٧ أو سنة ٩٢٨.

وجاء في الجداول اللاتينية لبطاركة أورشليم أنَّ أنسطاس خلف لاونتيوس المسمى لاون أيضاً ولا ذكر لأنسطاس في تاريخ ابن البطريق. وجاء في جدول دوزيتاوس البطيريك الذي خلف لاون إمَّا هو نيقولاوس الأول ولا ذكر لنيقولاوس

في الجداول اللاتينية وأجمعوا على ذكر خريستوفر. فقد ورد ذكره في الجداول اللاتينية بعد أنسطاس وذكره ابن البطريق ولكنه لم يذكر في أي سنة صير بطريكاً بل قال وقع في أيامه حريق في كنيسة القيامة يوم أحد الشعانين وأنه فرغ من تدوين تاريخه في أيام هذا البطريك وقد فرغ منه في سنة ٩٣٧م ولا يعلم في أية سنة توفي خريستوفر المذكور. فسقم تواريخ هذه الأعصر يحول دون التحقيق على من كان من هؤلاء البطارقة ومن لم يكن وفي أية سنة كان كل منهم ولا نعلم أي الروايات نصدق وبأيها نكذب. وزاد في الطين بلة عدم الاركاز إلى أقوال ابن البطريق ولو كان معاصراً لهذه الأحداث وقريباً من مواقعها ومن يعلم إن كان قوله إن لاون استمر في البطريكية سبع عشرة سنة صحيحاً حتى توفي سنة ٩٢٨م. ومن أين لنا البرهان على أنه توالى في كنيسة أورشليم ثلاثة بطارقة وهم أنسطاس ونيقولوس وخريستوفر في مدة تسع سنين حتى كان خريستوفر في سنة ٩٣٧م فقد أصاب من قال إن تاريخ ابن البطريق شوش تواريخ القرون السابقة وكل منصف يجد لنا معذرة في أننا لم نقدر أن نعين سني بطارقة ملتنا المارونية في هذه القرون إذا راعى سقم التواريخ البيعية فيها. وجاء ذكر أغاثون ويوحنا السادس ويوحنا السابع بعد خريستوفر ولا ذكر لهؤلاء البطارقة الثلاثة في الجداول اللاتينية بل جاء في كتاب توادوريكس باولي مدح لاغاثون بعلمه وذكائه وفضيلته لكنه لم يعز إلى أحد ما قاله في هذا البطريك. وروى شدرانس (في مجلد ٢ من تاريخه) إن يوحنا البطريك طعن عليه خصماً بأنه أغرى الملك نيقفور فوقاً بأن يحمل على سورية فكان جزاؤه بالحريق وحريق كنيسة القبر المقدس. ويظهر أن ذلك كان سنة ٩٦٩ قبل مقتل الملك نيقفور المذكور وربما كان هذا البطريك يوحنا البطريك الأورشليمي الذي وضع ترجمة القديس يوحنا الدمشقي من العربية إلى اليونانية كما يظهر من مقدمات المجلد الأول من تصانيف الدمشقي في طبعة الأب مين وقد أشرنا إلى ذلك في كلامنا على ترجمة هذا القديس وقد جاءت ترجمة يوحنا الدمشقي في كتب البولنديين في اليوم السادس من أيار موقعة يوحنا رئيس أساقفة أورشليم وجاء في المجلد الأول في نيسان من كتب البولنديين هذه ترجمة مكاريوس بطريك أنطاكية ومما قيل فيها إن مكاريوس أتى إلى أورشليم وكان بطريكها يسمى يوحنا فأعظم ملتقاه وأكرم مثواه على أن مكاريوس هذا توفي سنة ١٠١٢، فظن بعضهم أن يوحنا هذا الذي أكرم مكاريوس مثواه هو غير يوحنا

الذي مات محروقاً سنة ٩٦٩. وقال غيرهم بل هو هو ومكاريوس عاش عمراً طويلاً أو لم تكن وفاته سنة ١٠١٢. وبين سنة ٩٦٩ وسنة ١٠١٢ ثلاث وأربعون سنة فلا يظن أنَّ مكاريوس بقي في البطيركية ثلاث وأربعين سنة ولذلك رجح باجيوس في تنقيحه تاريخ بارونيوس لسنة ١٠١١ أنَّ يوحنا هذا غير يوحنا الأول. وامتح توادوريكس باولي بطيركاً سماه خويستوفر الثاني أو نيقوفور وقال إنه أحسن تدبير كنيسة وعانى مشاق كثيرة لكنه لم يذكر عن أخذ كلامه ولا متى صير أو متى توفي.

وجاء في جداول بطاركة أورشليم اسم توما الثاني ويوسف الثاني فكأنَّهما خلفا كريستوفر توما أولاً ثمَّ من بعده يوسف، وزعم توادوريكس باولي أنَّ قميص المسيح الذي اقترع عليه الجنود بعد صلبه وجد في فلسطين في أيام البطيرك توما المذكور. على أنَّ الذي رواه بايرويكيوس في مقدّماته المعلقة على المجلد الثالث من تراجم القديسين في شهر أيار إمَّا هو ان وجد أنَّ هذا القميص كان سنة ٥٩٥ قبل أربع مائة سنة من أيام توما المذكور، وأنَّهم عثروا عليه في صفد مطبقاً عليه في تابوت من رخام، وأنَّ يوحنا الصوام بطيرك قسطنطينية أحضره بكل تجلة واحتفاء إلى قسطنطينية ووضعه في المعبد الذي كان فيه عود الصليب، وأنَّه نقل بعد ذلك إلى مدينة ترافيريس مولد القديسة هيلانة الملكة ولا نعلم متى كان هذا النقل ولا من كان الناقل. وأمَّا يوسف البطيرك الذي خلف توما فقال في حقه توادوريكس إنه كان فيلسوفاً ماهراً وطبيباً مشهوراً ودبر الكنيسة إبان الاضطهاد واشتهر برأفته وحزمه وفضائله ولا نعلم متى كان هذان البطيركان في أورشليم ولا كم سنة لبثا في تدبير كرسيها.

وكان بعد هؤلاء على كرسي أورشليم اسكندر وأغايوس، أمَّا اسكندر فقال فيه نيقوفور كالستس (ك ٤ من تاريخه فصل ٣٩) إنه نقل من كرسي أنطاكية إلى كرسي أورشليم في أيام الملك باسيليوس برفيروجانث الذي استوى على منصة الملك سنة ٩٧٥ إلى سنة ١٠٢٥. وأمَّا أغايوس فقليل فيه في كتاب الناموس اليوناني الروماني (مجلد ٤ فصل ٤) إنَّ أغايوس رئيس أساقفة سلوقية بياريا صير بطيركاً على أورشليم في أيام الملك باسيليوس المذكور، ولكن لما لم تكن في تلك المدة سلطة للملك الروم على فلسطين ساغ لنا أن نقدّر أنَّ اسكندر وأغايوس لم يقبلا في

أورشليم، ولذلك لا نرى اسميهما في جداول البطارقة الأورشليميين .

وكان بعد أغايوس أرميا ويسمى أرسا قال فيه ابن العميد (ك ٣ في تاريخ المسلمين فصل ٥) أنَّ العزيز بالله أحد الخلفاء الفاطميين تزوّج امرأة مسيحية ملكية وكان لها أخوان اسم أحدهما أرسا صيّره بطريكاً على أورشليم واسم الثاني أرسانيوس جعله بطريكاً على الملكيين في اسكندرية، وقد حاز العزيز الخلافة سنة ٣٦٥ للهجرة يوم توفي أبوه المعز لدين الله وهذه السنة كان بدؤها في ١٠ أيلول سنة ٩٧٥ للميلاد وتوفي العزيز سنة ٣٨٦ التي كان بدؤها في ٢٥ كانون الثاني سنة ٩٩٦م وعليه فأرميا رقي إلى البطريركية في هذه المدة . وخلف العزيز بعد وفاته ابنه الحاكم بأمر الله في شهر رمضان سنة ٣٨٦ ويوافق تقريباً اليوم العشرين من تشرين الأول سنة ٩٩٦ واضطهد المسيحيين واليهود كما مرّ. وذكر الباريكس الراهب في تاريخه الذي طبع في لبسيك سنة ١٦٩٨م الاضطهاد الذي أنزله الحاكم بأمر الله بالنصارى وقال في جملة كلامه أنّه سمل عيني البطريرك أرميا ونفاه إلى بابل. وروى غوليلمس الصوري (في ك ١ من تاريخه للحرب المقدسة فصل ٤) أخبار هذا الاضطهاد وسمل عيني البطريرك وتدميره كنيسة القبر المقدس التي كان اول بنائها في أيام قسطنطين الكبير. وذكر هذا التدمير أيضاً باجيوس (في ك ٤ من تنقيحه تاريخ بارونيوس لسنة ١٠٠٩). وجاء في تاريخ عربي كتبه رجل قبطي كان قبل ابن العميد بنحو قرن وترجمه ابراهيم الحاقلي الماروني إلى اللاتينية وطبعه أنَّ الحاكم بأمر الله قتل البطريرك زكريا بطريك اسكندرية سنة ١٠١٢. وأمّا أرميا فلا نعلم متى توفاه الله ، ومما لا شك فيه أنّه لم يتوفّ في القرن العاشر بل في مبادئ القرن الحادي عشر ولذلك جعلنا كلامنا فيه خاتمة كلامنا في بطارقة أورشليم في هذا القرن العاشر. انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان كلامه على بطارقة أورشليم .

عد ٧٩٠

من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن العاشر

قلّ من عرفنا من أساقفة سورية في هذا القرن فقد روى العلامة السمعاني ترجمة إيليا أسقف دمشق فقال (في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣) إنّ إيليا

الملقب بالجوهرى كان أسقفاً على النساطرة في أورشليم فجعله يوحنا بطريركهم في ١٥ تموز سنة ١٢٠٤ (يونانية توافق سنة ٨٩٣م) ميريوليتاً على النساطرة بدمشق كما روى عمرو بن متى (في مجلد ٢ صفحة ٤٤٠) وبقي حياً إلى أيام يوحنا عيسى بطريركهم الذي دبر البطريركية من سنة ٩٠٠ إلى سنة ٩٠٥. فلهذا الأسقف كتاب في القوانين البيعية قسمه إلى قسمين تكلم في الأول منهما على قوانين الغربيين مضمناً إياه تراجم الرسل والتلاميذ والقوانين المنسوبة إلى الرسل ثم قوانين المجامع التي عقدت في انكورة وقيصرية الجديدة ونيقية والقسطنطينية وألحق به جدولاً في المبتدعين من بدء الكنيسة إلى ملك قسطنطين وضمن القسم الثاني قوانين الشرقيين أي القوانين التي فرضها بعض بطاركة النساطرة أو المجامع التي عقدوها وألحق بها جدولاً مشتملاً على أسماء بطاركة الشرق أي بطاركتهم من ادي الرسول إلى تيموتاوس يهب الله، وجدولاً آخر يشتمل على أسماء أساقفة بطريركية المشرق ثم جواب يوحنا عيسى بطريركهم على مسألة الصوم المعروف بصوم نينوى، ثم صوم العذارى، والحق الناسخ هذا الكتاب بمقالة لأحد علمائهم في الزواج والطلاق. وذكر السمعاني (في مجلد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٧) كتابه هذا في فهرست الكتب التي أتى بها أندراوس الماروني من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية وهو السابع والثلاثون منها، وقد خط سنة ٦١٧هـ الموافقة سنة ١٢٣١م. وإيليا المذكور مقالة ألفها وهو أسقف في أورشليم زعم فيه أن فرق السريان الثلاث أي النساطرة والملكية واليعاقبة هم متفقون في عقائد الإيمان الجوهرية ومختلفون في التعبير عنها فقط. قال السمعاني (في المحل المذكور) عندي من هذه المقالة نسخة خطت سنة ١٦٩٢م معنونة: «كتاب اجتماع الأمانة بين السريانية المكنين بالنسطورية والملكية واليعقوبية تأليف مار إيليا المكنى بالجوهري مطران القدس الشريف» ومما تضمنه هذا الكتاب اثبات مؤلفه أن جميع نصارى الشرق متفقون في عقائد الإيمان الآتي ذكرها، وهاك كلامه بحروفه: «رأيتهم مجتمعين على القيام بالأحاد والأعياد المسيحية ومتفقين على أمر القيام بأمر القربان أنه جسد المسيح ودمه ومقرين بالأمانة التي أمر بها الثلاث مئة وثمانية عشر الآباء الذين اجتمعوا بمدينة نيقية وهي تقرأ عند الجميع في كل وقت القداس، مجتمعين أيضاً على صحة الكهنوت على مراتبها ومراتب البطريركية والأسقفية والقسوس والشمامسة أيضاً بماء المعمودية ولم يكن فيهم فرق في الدين ولا في الإيمان ولكن في الهوى أي في الغرض والحزب». إلى أن يقول: «ونحن

نرى جميع أهل دين النصرانية متفقين بالإنجيل كتاب الله الحق وكتاب فولوس والابركسيس والكتب العتيقة التوراة والأنبياء والأمانة والقربان والمعمودية والأعياد والآحاد والصوم والكهنوت والصليب والاقرار بيوم القيامة والبعث والنشور من القبور والحلال والحرام والجنة والنار». ثم شرح بأي معنى يعتقد النساطرة أنَّ في المسيح طبيعتين وأقنومين ويأنفون من أن يسموا العذراء والدة الله. ويؤمن الملكية بأنَّ في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ويسمون العذراء والدة الله، ويعلم اليعاقبة أنَّ في المسيح طبيعة واحدة وأقنوماً واحداً ويدعون مريم أم الله كالمملكة. وأردف ذلك بقوله: «اختلفوا في القول وأنفقوا في المعنى وتناكروا في الظاهر واجتمعوا في الباطن وكلهم إلى إيمان واحد يتقادون وبرب واحد يؤمنون ولرب واحد يعبدون». ثم ذكر اختلافهم في رسم إشارة الصليب على وجههم فقال: «إنَّ اليعقوبية تعمل الصليب بالاصبع الواحد وتأخذ من الشمال إلى اليمين وغرضها بذلك الإيمان بمسيح واحد على الصليب خلصهم بصلبه من جهة الشمال الذي هو الخطيئة إلى ناحية اليمين التي هي المغفرة. وأيضاً النسطورية والملكية عملوا إشارة الصليب بالأصبعين وأخذوا من اليمين إلى الشمال وغرضهما بذلك الإيمان بوجود اللاهوت وغرضهما بذلك الإيمان بوجود اللاهوت والناسوت جميعاً على الصليب لأنَّ الخلاص بذلك وظهر الإيمان من الجانب الأيمن ورفع الكفر من جانب الشمال الذي هو الضلال. هذا أمر ليس فيه فرق يوجب على أحد الكفر عند المخالف له لأنَّ الإيمان واحد». وقال في انكار النساطرة تسمية العذراء أم الله وأجاب الملكية واليعاقبة ذلك ما يأتي بحروفه: «امتناع النسطورية وانكارهم أن يقولوا إنَّ مريم والدة الله فليس ذلك جحوداً للاهوت المسيح ولا انكار حلول كلمة الله في السيدة مريم والدة المسيح وهو اله العالمين... بل قصدهم أنَّ اسمه عزَّ وجلَّ يعم الثلاثة أقانيم الآب والابن وروح القدس وإذا قلنا والدة الله أدخلنا الولادة على الآب والابن وروح القدس وإذا قلنا والدة المسيح وهو اله العالمين فهو الابن وحده من حيث لا نجد أنَّه الله. كذلك قول اليعاقبة والملكية إنَّ مريم والدة الله ليس هذا انكار لناسوت المسيح ولا اظهار لولادة الآب والروح القدس بل هو اقرار بلاهوت المسيح محبول به ومولود. وفي كل الأحوال فليس في ذلك عند الإيمان فرق ولا تباعد عن الحق». وبمثل ذلك أثبت أنَّ اختلاف الطقوس والصلوات عند فرق النصارى في الشرق لا يثلم وحدة الإيمان. ففرض إيليا من هذه المقالة إيجاد السلم والوفاق بين رعاة كل فرقة من فرق النصارى

فتقاطر النصارى من كل فج وملة إلى أورشليم كان يبعث على وجود الاتفاق
والمسألة بينهم ولاسيما في عقائد الدين .

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن العاشر

عد ٧٩١

نيقولاولس بطريك قسطنطينية وسعيد بن البطريق بطريك اسكندرية

إننا جرياً على مساق كتابنا هذا نذكر هنا بعض المشاهير في العلم ولاسيما
الشرقيين ولو نشأوا خارجاً عن سورية، فمن هؤلاء في هذا القرن نيقولاولس بطريك
قسطنطينية نلخص ترجمته عن مكتبة الآباء اليونان التي طبعها الأب مين مجلد
١١١ صفحة ٩ وما يليها، فقد كان نيقولاولس من حاشية الملك لاون ملك الروم
الملقب بالحكيم والفيلسوف ومستشاره في هذا المنصب الرفيع إلى المقام البطريكي
على كنيسة قسطنطينية سنة ٨٩٥م، فاستسار سيرة الأبرار مكداً في حراثة كرم
الرب حتى أحصاه سنكسار كنيسة قسطنطينية وغيره من كتب تراجم القديسين في
مصاف أصفياء الله وكذلك اعتده بارونيوس في تاريخه، والبولانديون في تراجم
القديسين. وبعد أن تبوأ الكرسي البطريكي بتسع سنين أو احدى عشرة سنة على
رواية أخرى نفاه الملك لاون نفسه عن كرسيه لأنه كان يخالفه في أمر زواجه
بامرأة رابعة خلافاً للعادة التي كانت مستطرفة في هذه البطريكية، ثم عاد إلى
كرسيه سنة ٩١١م إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٤م. وعلى رواية أخرى سنة ٩٢٥م
في ١٤ أو ١٥ أيار. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب رسائل اشتمل على ١٦٣
رسالة والأولى منها إلى عامل اكريت المسلم استهلها بقوله: «إلى الأمير الفائق
الشرف الكلي الشهرة الصديق المخلص أمير اكريت ان كل سلطة أرضية وكل إمارة

بشرية مرجعها إلى سلطة الله السامية وليس في الأرض سلطة ولا متسلط يتاح له أن يكتسب بذكائه الأمر والسلطة إن لم يقيض له ذلك الرب الملك في العلا وهو القدير وحده. ولما كان مصدر كل سلطة ومرجعها واحداً وهو الله كان متحتماً على أصحاب السلطة أن يداول أحدهم الآخر بالكلام والرسائل والوفود وفي العالم الآن سلطتان ساميتان أي سلطة إخواننا المسلمين وسلطة ملوك الروم، وهما أشبه بالنيرين العظيمين في الفلك، ولهذا يلزمهما أن يكونا بالالفة والاخاء، واختلافهما في العوائد ونوع المعاش والمذهب الديني لا يلزم أن يجعل إحداهما غريبة عن الأخرى بل يقضي عليهما أن يشتركا في المكاتبات ومبادلة الأفكار والمفاوضات في المصالح العامة». ولهذا البطريق كتاب في السيرة الرهبانية وهو مثبت أيضاً في مكتبة الآباء وقد طبعه مین بعد كتاب رسائله .

وأما سعيد بن البطريق بطريق الملكية في الاسكندرية فنلخص ترجمته عن يوحنا سلدانس الذي ترجم تاريخه من العربية إلى اللاتينية قال إن هذا البطريق سمي عند مولده سعيد، ولما كان أبوه بطريقاً سمي ابن البطريق أو ابن بطريق ولما صير بطريقاً أراد أن يكون اسمه باليونانية فسمى نفسه أوتشوس أو افتيخيوس أو أوطيخا وتأويله سعيد. وقد ولد في الفسطاط بمصر في السنة الثامنة لخلافة المعتمد بالله في ولاية أحمد بن طولون على مصر سنة ٢٦٣هـ سنة ٨٧٧م كما في كتاب تاريخه كان سعيد طبيباً ماهراً وكان له أخ اسمه عيسى وكان طبيباً أيضاً وقد ارتقى إلى البطيركية سنة ٣٢١هـ الموافقة لسنة ٩٣٢م وأدركته الوفاة سنة ٣٢٨هـ الموافقة لسنة ٩٣٩ أو سنة ٩٤٠م .

وقد كتب أربعة كتب: كتاباً في الطب، وكتاباً في محاوراة بين مسيحي ومبتدع، وكتاباً في التاريخ من خلق العالم إلى أيامه بالإيجاز، وكتاباً في تاريخ صقلية بعد أن أخذها المسلمون. ومما قاله سلدانس في الفاتحة التي علقها على كتاب تاريخه قد وجدت في تاريخه أموراً كثيرة جداً تتعلق بالتاريخ الكنسي والتاريخ الدنيوي توجب النقد والنظر ولم أجد لها أثراً في كتب المؤلفين التي تتداولها الأيدي أو غيرها ما عثرت عليه وطالعته من كتب المؤلفين اليونان أو اللاتين أو العبرانيين أو العرب ولم أر من ذكر تاريخه من علماء أوروبا القدماء إلا غوليلم أسقف صور إذ قال في مقدمة تاريخه أن الماريكس ملك أورشليم دفع إليه بعض كتب من جملتها تاريخ سعيد بن بطريق بالعربية واقترح عليه أن يكتب

تاريخاً، فكتب تاريخاً ابتداءً فيه من صدر الاسلام إلى سنة ١١٨٤ للميلاد وأنه اعتمد خاصة على شهادة الرجل المحترم سعيد بن البطريق الاسكندري. انتهى ملخصاً عن سلدانس في المقدمة المعلقة على ترجمته لتاريخ ابن البطريق. وقد رأيت ما انتقدنا به مرات كلام ابن البطريق وكم أبنا فيه من الأغلاط الفاضحة.

وقد طبع سلدانس سنة ١٦٤٢م مقالة زعم أنه أخذها عن سعيد بن البطريق البطريك الاسكندري في أصول كنيسته وترجمها على هواه وذيلها بشروح توافق مذهبه البروتستنتي وجعلها حجة لزعمه أن درجة الكاهن والأسقف واحدة وأن سلطانهما واحد وولايتهما واحدة، فرد مقالته هذه ابراهيم الحاقلي الماروني في كتاب كبير طبعه في مطبعة نشر الإيمان المقدس في رومة سنة ١٦٦١م عنوانه الانتصار لافثيشيوس (سعيد) الاسكندري مثبتاً أن سعيد المذكور لم يزعم هذا الزعم وأن كلامه لا يدل عليه وأن سلدانس حرّفه وترجمه على هواه وأيد التعليم الكاثوليكي بحجج قاطعة وبيّنات دامغة ولدينا نسخة من هذا الكتاب أتخفنا بها الكردينال برنابو رئيس مجمع نشر الإيمان سنة ١٨٦٧م عند زيارتنا أم المدائن بخدمة الطبيب والصالح الذكر البطريك بولس مسعد وترى مقدمة الحاقلي على هذا الكتيب مثبتة في مجلد ١١١ صفحة ٨٩٤ من مكتبة الآباء اليونان في طبعة الأب مين .

عد ٧٩٢

جيورجيوس متروبوليت اربل والموصل وغيره من مشاهير هذا القرن

نعرف في هذا القرن جيورجيوس متروبوليت اربل والموصل وهو نسطوري أقامه عمنويل بطريك النساطرة على هذه الأسقفية نحو سنة ٩٤٥م. وذكر عبد يسوع الصوباوي (فصل ١٩٢) مجموعة قوانين جيورجيوس هذا. وله أيضاً خطبتان أو صلاتان مثبتتان في بعض الكتب السريانية المخطوطة في المكتبة الواتيكانية، وألف كتاباً قسّمه إلى سبع مقالات عنوانه بيان جميع الرتب البيعية وأسباب وضعها وشرح ما يتعلّق بالتجشّد والآحاد والأعياد وهو مثبت في الكتاب السرياني المخطوط تحت عد ٣١ في المكتبة الواتيكانية، وقد خلا من ذكر اسم مؤلفه وهو ناقص. ومنه نسخة كاملة في الكتاب السرياني عد ١١ في المكتبة المذكورة وقد خطّ سنة

١٧٠٧م وهو كتاب جزيل الفائدة في معرفة طقوس النساطرة ورتبهم. ومن رأيه في هذا الكتاب أنَّ يوحنا الصائغ بشرَّ بمولده سنة ٣٠٥ لاسكندر وأنَّ المخلص ولد سنة ٣٠٤ واعتمد سنة ٣٣٦ وصلب سنة ٣٣٩ وأنَّ أورشليم خربت سنة ٣٧٩ وهذا مخالف لرأي عامتهم، أنَّ المخلص ولد سنة ١١١ لاسكندر المكدوني ويشتمل هذا الكتاب على أربعة وعشرين فصلاً وله كتاب آخر في فرض صلاة المساء يشتمل على واحد وعشرين فصلاً وكتاب ثالث في فروض صلوة الليل والصباح وفيه تسعة فصول وكتاب في رتب الأسرار وفيه ثلاثون فصلاً وكتاب خامس في رتبة المعمودية وفيه تسعة فصول وكتاب سادس في رتبة تكريس الكنيسة وفيه ثمانية فصول وكتاب سابع في دفن الموتى والصلوة عليهم وفيه ستة فصول وله فصل في الخطبة والزواج ودستور للإيمان في العربية ذكره عمرو بن متى (عن السمعاني في المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٥١٨).

أكومانيوس

كان أكومانيوس إسقفًا على تريكالاً في تساليا واختلف في العصر الذي كان فيه ولكن ظهر أنَّه كان في أواخر القرن العاشر بدليل أنَّه استشهد تفسيره العهد الجديد بكلام فوتيوس وقد توفي نحو سنة ٨٨٠م وتفسير أندراوس أسقف قيصرية بالكبادوك وقد كان على الأرجح في أواسط القرن التاسع. وبكلام خليفته وتلميذه أريثاس في كرسي قيصرية وقد توفي في نحو سنة ٩٢٠م. فنتج بلا بدَّ أنَّه كان بعد هؤلاء. ومن تأليفه المعروفة كتاب في «تفسير كتاب أعمال الرسل»، وكتاب في «تفسير رسائل بولس الرسول»، وكتاب في «تفسير الرسائل الكاثوليكية» (طالع ترجمة أكومانيوس وكتبه في طبعة الأب مين مجلد ١١٨).

أريثاس

كان أريثاس أسقفًا على قيصرية الكبادوك وكان تلميذاً لأندراوس أسقف هذه المدينة في القرن التاسع ثمَّ خلف أستاذه في مبادئ القرن العاشر. وكان أندراوس وضع كتاباً في تفسير الجليان أو رؤيا يوحنا الرسول فأوجزه ونقحه أريثاس وكتب

ترجمة الشهداء القديسين سامونا وكوريا وحبيب من مدينة الرها (طالع ترجمة أندراوس وأريثاس وتأليفهم في طبعة الأب مين مجلد ١٠٦).

جيورجوس الراهب

إنَّ جيورجوس هذا يسمى أيضاً همرتولس ويرجح أنَّه كان من اسكندرية، وأمَّا العصر الذي كان فيه فيظهر أنَّه كان بين أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر لأنَّ الملك قسطنطين برفيروجات الذي كان في منتصف القرن العاشر انتحل بعض أقواله . وقد كتب تاريخاً موجزاً ابتداءً فيه من خلق الانسان إلى سنة ٨٤٠م وقد بسط غيره تاريخه حتى تاريخ سنة ١١٤٣م، وقد نشر هذا التاريخ الأب مين في جملة مكتبة الآباء اليونان مجلد ١١٠ وقد ذكر جيورجوس في الكتاب الرابع من تاريخه صفحة ٨٩٥ غزوات المردة أي الموارنة في القرن السابع، والجماءهم معاوية إلى عقد عهدة صلح مع الملك قسطنطين اللحياني، ثمَّ الجماءهم عبد الملك بن مروان إلى عقد مثل هذه العهدة مع الملك يوستينانوس الأخرم على شريطة أن يكبت الموارنة ويجلي عسكرهم من لبنان. ويأسف كثيراً على انخداع يوستينانوس بابهان قوة المردة بنفيه نخبة رجالهم الذي كانوا حصناً منيعاً له طبق ما روينا ذلك في محله نقلاً عن توافان وشدرانس وزاناراس وغيرهم .

لاون الشمساس

ولد لاون هذا في أواسط القرن العاشر بآسيا الصغرى وهو القائل إنَّ أباه اسمه باسيلوس وموطنه يسمى كالوا ثمَّ مضى إلى قسطنطينية طلباً للعلم وكان هناك سنة ٩٦٦م وانضوى إلى جمعية كهنوتية ورفي إلى درجة الشماسية ويظهر أنَّه اعتزل تلك الجمعية وانكبَّ على كتابة التاريخ فكتب تاريخ الحروب التي كانت في أيامه وفي عهد الملوك الرومانيين ولاسيما رومانوس ونيقوفور فوقا ويوحنا سمسق وأخصَّها ثلاث: حرب ملوك الروم مع المسلمين في كريت، وحربهم في آسيا وسورية، وحربهم مع الروسيين. ولذلك كان لتاريخه أهمية، ويعول عليه لأنَّ الكاتب ثقة ومعاصر للأحداث التي كتب عنها، لكنَّه لم يخلُ من النقد في ما دعتة إليه حالة

أيامه وقد قسم تأليفه إلى عشرة كتب صغيرة، وقد ترجمه إلى اللاتينية ونشره العالم كولوس هاس في باريس سنة ١٨١٩م ثم طبع ثانية في بون سنة ١٨٢٨م وطبعه الأب مين في مجلد ١١٧ من مكتبة الآباء اليونان سنة ١٨٦٤م. ومما ذكره في غزوات نيقوفور وفوقاً ويوحنا سمسق سورية قوله في الكتاب الرابع فصل ١٠ أن نيقوفور قصد أنطاكية وحصرها ولم يشأ أن يخربها لأمله انه سيأخذها عن قرب سالمة ثم ترك عسكرياً محاصراً لها ومضى إلى فلسطين واجتاز بلبنان إلى طرابلس فلم يتيسر له فتحها لمناعتها ولتأخر سفنه عن الوصول إليها، فمضى إلى عرقا وكانت محصنة بثلاثة أبراج فحاصرها تسعة أيام وأخذها وغنم غنائم كثيرة كانت فيها. وذكر في الكتاب الخامس فصل ٤ أخذ الحامية التي كان قد تركها علي أنطاكية لهذه المدينة كما رويناه في محلّه. وقال في الكتاب العاشر فصل ٤ إن يوحنا سمسق حشد جيشه قاصداً فلسطين فأخذ أباريا بعد أن حاصرها أياماً وكانت حصينة ثم سار إلى دمشق فخرج الدمشقيون لالتقاءه بتقادم وهدايا نفيسة فخمّدوا غضبه فوضع عليهم جزية وضئهم إلى ملكه، واجتاز لبنان الصعب المسالك وأخذ مدينة حصينة في سفحه اسمها برزو (لا نعلم أين كان موقع هذه المدينة) ثم بلغ فينيقية وأخذ قلعة بانياس وحاصر بيروت ووجد فيها صورة صليب الخُلص، فأخذها وأقامها في كنيسة الخُلص التي كان قد بناها في قسطنطينية. وروى خبر المعجزة التي أجرتها هذه الصورة كما رويناه في عد ٧٣٥ وقد أشرنا هناك إلى أخذ الملك يوحنا هذه الصورة إلى قسطنطينية. وقال بعد أن أخذ بانياس (بانياس) وبيروت سار بجيشه إلى طرابلس فرأى أنه لا يتيسر له فتحها لأنها محصنة من جهة البر بحصون منيعة وبخليج احتفرو أهلها، ومن الجهة الأخرى البحر، ولم يكن لديه سفن كافية فتحول بجيشه إلى القرى الساحلية فأخذها. وظهر حينئذ في سورية في شهر آب نجم مريع استمر ظهوره ثمانين يوماً فتشاعم يوحنا سمسق من ظهوره وعاد إلى قسطنطينية ولم نر من ذكر وفاة لاون الشمس. وقد أنهى تاريخه بخبر وفاة يوحنا سمسق التي كانت سنة ٩٧٥م وما ملكه نيقوفور وسمسق في سورية تغلب عليه المسلمون بعد وفاتها.

سويدا

لم يتيسر للعلماء أن يعلموا من كان سويدا ومن أين كان حتى زعم بعضهم أنَّ صاحب المعجم المشهور باسمه سمي نفسه سويدا ولم يكن هذا اسمه . على أنَّ هذا الزعم مردود ولكن لم يذكر أحد من العلماء أصله ومنشأه وهو لم يعرف نفسه بل قد جاء في كلامه على جزيرة سموتراقي: «إنَّ أوَّل من سكن هذه الجزيرة هم الساميون ونحن من ذريتهم فظنُّ بعضهم أنَّ منشأه هذه الجزيرة الواقعة في بحر اجاي (إيجيه) من جهة تراسة. ولكن قال غيرهم إنَّ هذا الكلام ليس كلام سويدا بل منتحل عن كاتب آخر مجهول الاسم. وقال بعضهم إنَّه كان كاهناً راهباً والراجح أنَّه كان في هذا القرن العاشر وقد اشتهر بمعجم تاريخي ضمَّنه ذكر كثيرين من المؤلفين الذين تقدَّموه وقد طبعه للمرة الأولى كلكونديلاس في مديولان سنة ١٤٩٩م وطبع بعد ذلك مرات ولاسيما طبعة لودلف كوستر بكمبريدج سنة ١٧٠٥م ثمَّ طبع في أكسفورد سنة ١٨٣٤م، ثمَّ طبع الأب مين خلاصة له في سنة ١٨٦٤م بباريس في المجلد ١١٧ من مكتبة الآباء اليونان .

ذيل

عد ٧٩٣

ما كان عند نهاية القرن العاشر

لم يكن في القرن العاشر بدعة حديثة مشهورة ولا بحث ديني عام ولا مجمع مسكوني، ولكن ما كان قد جاء في سفر رؤيا يوحنا (فصل ٢٠ عد ٣): « فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه في الهاوية وأقفل خاتماً عليه لئلا يضل الأمم بعد إلى تمام الألف سنة، وبعد ذلك سيحل زماناً يسيراً » وفي عد ٧: « وإذا تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم ». توهم الناس أنَّ نهاية العالم ستكون في نهاية الألف سنة للميلاد. قال الأب دي اراس (في تاريخ الكنيسة مجلد ٣ صفحة ٥) إنَّ سنة

الألف للميلاد كانت عصراً مخيفاً فتوهم النصارى في كل قطر أنه قد دنت نهاية العالم اعتماداً على تفسير غير صحيح لآيات من رؤيا يوحنا . فعني البابا سليسترس الثاني بتنفيذ هذا الخطأ ورد الشعوب عن هذا الوهم الذي قام في أذهانهم على أنَّ الأوهام والتخيلات كانت أقوى من البراهين والحجج ، ولم يكن تأثير التشجيع والحض على إزالة الخوف فترك الناس في السنة الأخيرة من القرن العاشر مشاغلهم ومصالحهم النافعة لهم طراً حتى حرائة أرضهم وكانوا يوقفون أراضيهم ومنازلهم على الكنائس والأديار ، ولما ازف اليوم المنتظر بزعمهم غصت الكنائس بالمقاطرين إليها وكانوا يخشعون إلى الله بالابتهالات وتناول الأسرار فانقضت تلك السنة كغيرها من السنين ولم يسمع صوت لساعة نهاية العالم التي حصر الله العلم بها في ذاته المقدسة ، على أنَّ هذه الحركة التقوية التي أحدثها الخوف في عقول الناس بعثهم حينئذٍ على إنشاء الكنائس والمعابد والأديار ، وكانت الاضطرابات والثورات في القرون السالفة أنستهم هندسة الأبنية المقدسة فعمدوا على إنشائها بطريقة مستحدثة تسمى غططية لأنها أخذت عن الغطط (يسميهام المؤرخون العرب قوط) سكان اسبانيا ، فأقيمت حينئذٍ كنائس كثيرة في أشهر المدن ومنها كنيسة باريس الكبرى على اسم العذراء المعروفة باسم Notre Dame de Paris أنشأها الملك روبرتس على أنقاض هيكل للوثنيين على ما قال أحد المؤرخين .

وقال روه روبرتس (في كتاب ٦٢ من تاريخه) إنَّ الكنيسة في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر كانت محلاة بكثير من الصلح والقدسين وكان على كرسي بطرس البابا سلبسترس الثاني اعلم أهل عصره ، وكان في ألمانيا الملوك الثلاثة المستمرون أوتون ، وفي أونغريا الملك القديس أسطفانس ملك هذه المملكة ورسولها الذي جعلها كاثوليكية ، وفي روسيا القديس ويلدمير الدوك الأعظم ، وفي افرنسة هوغ كابت المتسامي بورعه وتقواه وخلفه ابنه روبرتس وغوليوم كونت بواتيا الذي اتَّخذ الطريقة الرهبانية وغوليوم كونت بروفنس وتولوز ، وكان في نافارا الملك سانش ، وكان بين هنري ملك ألمانيا وروبرتس ملك افرنسة وسانش ملك نافارا ولاء وأخاء ، وكان في افرنسة من الأساقفة القديسين القديس جيرار أسقف تول ، والطوباوي ادليرون أسقف متز ، والقديس فُلكران أسقف لودلف والقديس جيرائيل أسقف مو والقديس تيارس أسقف أورليان والقديس برشار أسقف فيان والطوباوي فلبر أسقف شرتر . ولم يكن في ألمانيا من القديسين أقل من افرنسة فكان القديس

ولفكنج أسقف راتيزبون والقديس وكهز أسقف قوسطنس والقديس أولبر أسقف براغ والقديس فيليجينس أسقف ماينس والقديس ليانتيوس أسقف همبرغ والقديس برنردس والقديس كودرد أسقف اهلديشم والقديس ولبور أسقف لياج والقديس هادييار أسقف كولونيا والقديس هرتويس أسقف سلسبورج والقديس ماينفر أسقف بادربون وكان في روسيا القديس بونيفاشيوس رئيس الأساقفة وكان رسولاً وشهيداً، وكان في السويد القديس سيكفريد أسقفًا ورسولاً والقديس أولوس ملكاً وشهيداً وكان في الرهبانيات كثيرون من القديسين. والحاصل أن أوروبا دخلت في دور حديث عند انقضاء القرن العاشر وبداية الحادي عشر فقد خمدت نار الثورات واستتبّت الراحة وانبسط في أنحائها الإيمان الكاثوليكي وأصبحت الكنيسة الرومانية كفيلة التهذيب الكاثوليكي ومعلمة الشعوب .

وأما سورية فكانت تثرّ في هذه المدة تحت ولاية الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي الذي كان يقترح كل يوم على غير هدى نوعاً من التنكيل والعذاب للنصارى واليهود حتى المسلمين أيضاً، وقد أحرق كنيسة القبر المقدّس كما مرّ، وألحق بها غيرها من الكنائس، ونوّل اكليل الشهادة لكثيرين من المسيحيين في سورية ومصر حتى أخذ البابا سليسترس المذكور يحض المسيحيين من ذلك الحين على استنقاذ المسيحيين من هذا الاستعباد القاسي وتأمين الأماكن المقدّسة .

ملحق

تاريخ الموارنة

عد ٧٩٤

رد مزاعم من اتَّهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر

اعترض على الموارنة بشهادة ساويرس أسقف الأشمونيين من القبط في القرن العاشر سنداً إلى أنَّ هذا الأسقف وهو من أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة قال في كتاب ألفه منتقداً فيه عادات استطرقها فرق النصارى في أيامه: « إنَّ الموارنة فرقة متميزة عن اليعاقبة والأرمن والملكية وعن اللاتينية أيضاً ». وكل يرى أن ليس في هذا الكلام الذي روينا به بالحروف نفسها التي رواه بها المعارض ما يدل على ضلال يستمسك به الموارنة فامتيازهم عن اليعاقبة بينة لهم على أنَّهم ليسوا على ضلالهم باعتقاد الطبيعة الواحدة في المخلص وكذلك امتيازهم عن الأرمن الذين كانوا في عصر المؤلف كاليعاقبة باعتقادهم طبيعة واحدة في المسيح، وأما امتيازهم عن الملكية فإن أراد بهم الكاثوليكين فالموارنة متميّزون عنهم من حيث الطقس والطائفة والرعاة كما هم الآن، وإن أراد بهم غير الكاثوليكين فيكون كلامه بينة للموارنة على أنَّهم كاثوليكون صحيحو العقيدة خلافاً للملكية غير الكاثوليكين. وامتيازهم عن اللاتينية كامتيازهم عن الملكية الكاثوليكين لا يشعر بخلاف ديني بلا خلاف طقسي وطائفي. ويمكننا الآن أن نقول ولا حرج أننا متميّزون عن اللاتينيين لأنَّ لنا رعاةً وتهدياً وطقساً غير ما لهم من ذلك، والأمر بين وقد استوفينا الكلام فيه في كتابنا روح الردود صفحة ٩٢ من طبعة بيروت .

إنَّ أوَّل طاعن بالموارنة بل مصدر كل طعن عليهم بأنَّهم تشبثوا ببدعة المشيئة الواحدة إنما هو سعيد بن بطريق البطريرك الملكي الاسكندري الذي كان في القرن العاشر وقد فُتدنا زعمه ودحضناه كل الدحض في مواضع كثيرة من كتابنا هذا

وفي عد ٦٦٨ في المجلد الرابع نقضنا قوله بقوله نفسه إنَّ مارون مبدع بدعة المشيئة الواحدة كان في زمان موريق ملك الروم فابنا أنَّ القديس مارون كان قبل موريق الملك بنحو من قرنين وقبل ظهور هذه البدعة بأكثر من قرنين. وفي عد ٧١٠ من هذا المجلد الخامس ردنا زعمه رداً مسهباً باقامة الحجج القاطعة الدامغة على كذبه وإيراد شهادات كثيرين من الأحرار الأعظمين والعلماء المحققين والاستدلال بقرائن وأدلة لا يشوبها ريب ثمَّ عددنا كثيراً من أغلاطه الفاضحة في غير هذا البحث وفي عد ٧١١ من المجلد المذكور أثبتنا ترجمة رسالة البابا بناديكتس الرابع عشر إلى نيقولاوس لركاري بهيئة براءة في إثبات قداسة القديس مارون حيث فتد هذا الخبر العلامة زعم سعيد المذكور تفنيدياً من المحال أن يعترض عليه أو يوجد ما يضعف قوته، وقد محققنا زعم سعيد المذكور في مواضع كثيرة من كتابنا روح الردود وقد فندناه أخيراً كل تفنيدي في كتيبتنا الذي رفعناه هذه السنة ١٩٠٠م بالفرنسية إلى مجمع الآثار القديمة في رومة ثمَّ نشرناه بالعربية ووسمناه بالحجة القاطعة الجلية على من ينكرون ثبوت الموارنة الدائم في العقيدة الكاثوليكية وقد ذكرنا في كتيبتنا المذكورة من فتد مزاعم سعيد بن بطريق من العلماء الاعلام ولاسيما علماء أمتنا المارونية حتى أصبحت هذه الحقيقة في جملة ما يقال فيه :

وليس يصح في الأذهان شيء إذ احتاج النهار إلى دليل

وإذا كان ديجور الجهل المنسدل على تواريخ هذه القرون الوسطى لا يمكننا من الاطلاع على أمور كبيرة وعامة فلا عجب من أن نجهل تاريخ أمة صغيرة كانت مستأمنة في قمم لبنان وكهوفه في القرن العاشر حتى لا يتيسر لنا أن ندوّن شيئاً من تاريخها في هذا القرن .

الباب الحادي عشر

تاريخ سورية في القرن الحادي عشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء العلويون الذين تولوا سورية في القرن الحادي عشر وما
كان في أيامهم من الأحداث

كان حظ سورية أن يليها غالباً ولاية أجنبية وكانت عرضة لمطامع الحكام
السائدين في جنوبها أو شمالها فكذا كانت فريسة تنابها فراعنة مصر وملوك آشور
ثم هؤلاء الفراعنة وملوك الكلدان والفرس ثم بطالسة مصر والسلوقيون خلفاء
اسكندر الكبير المكدوني، ثم الرومانيون والفرس، ثم تداولتها أيدي الرومانيين والعرب
ثم أخذها الخلفاء العباسيون في بغداد. ومنذ أواسط القرن العاشر تغلب عليها الخلفاء
العلويون الفاطميون الذين كان مركز ولايتهم في مصر ولذلك تحتم علينا جرياً على
مساق تاريخنا أن نذكر الخلفاء العلويين الذين تولوا سورية في هذا القرن الحادي عشر
مع ما كان في أيام كل منهم من الحوادث فيها، ونفرد بعد ذلك الكلام في الخلفاء
العباسيين الذين اقتصرت ولايتهم في هذا القرن على الخلافة الدينية.

الظاهر لاعزاز دين الله

هو أبو الحسن علي بن منصور الحاكم بأمر الله بويج له بالخلافة في اليوم السابع من قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ سنة ١٠٢١ م. وعن القرمانى أنه ولي الخلافة بعد موت أبيه بشهرين وكان إذ ذاك صبيّاً وعمره سبع سنين وكانت عمته المسماة ست الملك تباشر تدبير المملكة بنفسها وقويت هيبتها عند الناس وعاشت بعد قتل الحاكم وخلافة ابنه أربع سنين وماتت. ومن أشهر الأحداث في أيامه أنه تبوأ منصبة الملك في قسطنطينية الملك رومانس الثالث سنة ١٠٢٨ م فجّهز أسطولاً وسيّره إلى والي أنطاكية (التي كانت حينئذ بيد ملوك الروم) ليسطو به على شواطئ سورية فأتلف المسلمون قسماً كبيراً من هذا الأسطول وثارت بهم الحمية وعاودتهم الشجاعة وعزموا على استرداد المدن التي كانت قد أخذت من يدهم في أيام الملوك نيقفور وسمسق وباسيليوس. وجيشوا وقصدوا تلك المدن فقتلوا حاميتها من الروم وأتصلوا حتى أنطاكية فاحتدم الملك رومانس وعزم أن يسير بنفسه لقتال المسلمين في سورية، فأراعت هذه الحملة الأمراء ولالة سورية فأرسل أمير حلب من بني مرداس وفداً إلى الملك طالباً الصفح عما مضى وواعداً أن يفي الجزية السنوية المضروبة على إمارته، فأشار على رومانس بعض خواصه أن يقبل هذه الترضية التي يؤمل أحسن منها بعد الظفر، وقالوا إن الظفر غير محقق بل قد يهلك جيشه بالحر في مدة الصيف وقد يببده العطش. فأبى قبول نصيحهم وازدري مشورتهم وكان يخيل له أنه أحكم وأقوى من نيقفور وسمسق سالفه فلا يدع لهما الفخار عليه. فتوغّل بسورية إلى مسيرة يومين عن حلب لكن ما عتم أن ندم فأنه التقاه جيوش من العرب مشتتة في السهول فأحاطوا بجيشه وقتلوا كثيرين وأمسى الروم في وسطهم فهلكت خيولهم لعدم العلف ومات من الرجال كثيرون من شدة الظمأ أو قتلوا، فسير رومانس فرسانه لكشف العدو عن أصحابه وكانت للعرب خيول تزرى النسور بعدوها وما انفكوا يطعنون الروم في قلب جيشهم ومقدمته وساقته وهزموا أولئك الفرسان بعد أن جندلوا أكثرهم على الغبراء وأسروا الجرحى منهم فارتاع جيش الملك وعظمت شجاعة المسلمين ووثبوا من كل جهة وأخذوا ينقضون المتارس، فانهزم جيش الملك وهو أخذته الرعدة وفارقه حرسه ولو لم يعله أحد

فرسانه على جواده لأدركه المسلمون وأسروه. على أن الاسلام ظنوا هزيمتهم حيلة فلم يتبعوا آثارهم بل أموا معسكرهم وغنموا ما كان فيه وهو شيء كثير وأسروا كثيرين أقعدتهم جراحهم عن الهزيمة. وكان الحر شديداً وسار الملك كثيراً بجيشه إلى جهة أنطاكية فمات كثيرون من جنوده عطشاً أو لاستقائهم ماء مضر، ولما رأى المسلمون أن انهزامهم لم يكن حيلة حرية جدوا في أثرهم فأدركوهم وهم على هذه الحال السيئة فشتتوهم شذر مذر، فاستسلم بعضهم دون قتال، وبعضهم وطأتهم الخيل وحف بالملك الخطر أن يؤخذ أسيراً فأحاط به حرسه من كل جهة حتى أوصلوه إلى أنطاكية وعاد منها كثيراً خجلاً إلى قسطنطينية. وزاده غماً وعاراً أن أحد قواده ميناس تيسر له بعد براح الملك أنطاكية أن يخرج على العرب ويأسر بعضهم ويسترد بعض ما غنموه، وأن تيوكتيست وهو قائد آخر أخذ منهم قلاعاً وصدهم عن كل غزو وسطو على نواحي أنطاكية وصير ميناس بعد ذلك والياً على المشرق فأعاد إلى جنود الروم شيئاً من شرفهم وفخارهم واستحوذ على الرها واستمر حاكماً فيها. وأما تيوكتيست فأعاد إلى طرابلس واليها الذي كان جنود الظاهر الخليفة قد أخرجوه منها وضرب أسطول الروم الأسطول المصري فاستظهر عليه وعاد إلى قسطنطينية ظافراً غانماً، وكان كل هذا يزيد في غم رومانس وخجله حتى أنحله وأهزله. هذا ما رواه صاحب مختصر تاريخ الملك مجلد ٤ في رومانس الثالث وقد جاء مثل ذلك في تواريخ المؤرخين العرب أيضاً. وروى ابن الأثير في الكامل هذا الخبر مع شيء من الاختلاف قال: «في هذه السنة أي سنة ٤٢١ هـ (سنة ١٠٣١ م) خرج ملك الروم من القسطنطينية في ثلاثماية ألف مقاتل إلى الشام، فلم يزل بعسكره حتى بلغوا قرب حلب وصاحبها شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس فنزلوا على يوم منها فلحقهم عطش شديد وكان الزمان صيفاً وكان أصحابه مختلفين عليه فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه ومن كان معه ابن الدوقس وهو من أكابرهم وكان يريد هلاك الملك ليملك بعده. فقال الملك الرأي أن نقيم حتى تجيء الأمطار وتكثر المياه فقبح ابن الدوقس هذا الرأي وأشار بالاسراع فلم يشأ الملك العمل برأيه ففارقه ابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس وسلخوا طريقاً آخر، فخلا بالملك بعض أصحابه وأعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفاً أربعين رجلاً وهو أحدهم على الفتك به فاستشعر من ذلك وخاف ورحل من يومه راجعاً ولحقه ابن الدوقس، وسأله عن السبب الذي أوجب عوده، فقال له قد

اجتمعت علينا العرب وقرّبوا منا، وقبض في الحال على ابن الدوقس وابن لؤلؤ وجماعة معها فاضطرب الناس واختلفوا ورحل الملك وتبعهم العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون وأخذوا من الملك أربع مئة بغل محمّلة مالا وثياباً وهلك كثير من الروم عطشاً ونجا الملك وحده ولم يسلم من أمواله وخزائنه شيء البتة وكفى الله المؤمنين القتال. وقيل في عوده غير ذلك وهو أنّ جمعاً من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره وظنّ الروم أنّها كبسة فلم يدروا ما يفعلون حتى أنّ ملكهم لبس خفّاً أسود وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر فتركه ولبس الخف الأسود ليعمى خبره على من يريده وانهزموا وغنم المسلمون جميع ما كان معهم .

وقال أبو الفداء في أخذ الرها المار ذكره: « كانت الرها لعطير من بني نمر فاستولى أبو نصر بن مروان صاحب ديار بكر على حران وجهاز من قتل عطيراً صاحب الرها فأرسل صالح بن مرداس (والي حلب) يشفع إلى أبي نصر بن مروان في أن يرّد الرها إلى ابن عطير وإلى ابن شبل بينهما نصفين فقبل شفاعته وسلّمها إليهما سنة ٤١٦ هـ (سنة ١٠٢٦ م) وبقيت المدينة معهما، فراسل ابن عطير ارمانس (كذا يسمي المؤرخون العرب رومانس) ملك الروم وباعه حصته من الرها بعشرين ألف دينار وعدة قرى، وحضر الروم وتسلموا برج ابن عطير فهرب أصحاب ابن شبل واستولى الروم على البلد وقتلوا المسلمين وأخربوا المساجد». انتهى كلام أبي الفداء. وروى ابن الأثير الخبر كما رواه أبو الفداء وزاد عليه قوله: « وسمع نصر الدولة (صاحب ديار بكر) الخبر فسير جيشاً إلى الرها فحاصروها وفتحوها عنوة واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتفى النصرارى بالبيعة التي لهم وهي من أكبر البيع وأحسنها عمارة، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد وبقي الروم في البرجين وسير إليهم عسكراً نحو عشرة آلاف مقاتل فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم ودخلوا البلد وما جاورها من بلاد المسلمين، وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج وحمل إليهم خراجاً. وقد روى دي لارو في مختصر التاريخ المذكور حكاية غريبة في احتيال ابن مروان على استرداد الرها من يد الروم قال أتى اثنا عشر رجلاً عريباً إلى حاكم الرها ومن ورائهم خمس مئة فارس وخمس مئة جمل يحمل كل منها صندوقين، وقال الرجال المذكورون إنّ هذه الجمال حاملة هدايا من قبل أمتهم لتقدم للملك طلباً لرضاه، فأحسن حاكم الرها

ملتقاهم ودعاهم إلى العشاء ولم يؤذن بدخول من صحبهم إلى المدينة. وأتفق أن فقيراً أرمنياً مضى يطلب صدقة فسمع رجلاً في صندوق يخاطب جاره في الصندوق الآخر بما سمع فترك الحاكم ضيوفه في منزله مخفوريين ومضى مع حرسه إلى منزل العرب وأخذ يفتح كل صندوق ويقتل الجندي الذي فيه، وكان الفرسان تفرقوا لجمع العلف لحيلهم وكانوا يعودون أحدهم بعد الآخر فيقتله الحاكم وبعد قتل أكثر الفرسان وهرب بعضهم عاد الحاكم إلى ضيوفه فقتلهم واستبقى واحداً قطع يديه وجذع أنفه وصلم أذنيه وأرسله إلى قومه ليخبرهم ما كان من تعمدهم الاحتفال .

ومما ذكره أبو الفداء وابن الأثير من الأحداث في أيام الظاهر أخذ الروم افاميه التي سميها أباها وكانت في جهة حماه في الحل المعروف الآن بقلعة المضيق. قالوا ما ملخصه: « في سنة ٤٢٣ هـ (سنة ١٠٣٣ م) ملك الروم قلعة افاميه بالشام وسبب ملكها أن الظاهر خليفة مصر سير إلى الشام الدزيري وزيره فملكها وقصد حسان بن المفرج الطائي فانهزم على الأردن من عسكر الظاهر وألح في طلبه فدخل بلاد الروم ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب ومعه عسكر كثير فسار إلى افاميه فكبسها وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم وسير الدزيري إلى البلاد يستنفر الناس للغزو .

وفي سنة ٤٢٧ هـ سنة ١٠٣٧ م توفي الظاهر لإعزاز دين الله وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وأياماً وكانت له مصر والشام والخطبة له بافريقية، وكان جميل السيرة حسن السياسة منصفاً للرعية إلا أنه مشغل ببلذاته محب للدعة والراحة وولي بعده ابنه أبو تميم معد ولقب المستنصر بالله (عن ابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون) .

عد ٧٩٦

المستنصر بالله وبعض ما كان في أيامه بسورية خاصة

كان مولد المستنصر بالقاهرة سنة ٤١٠ هـ سنة ١٠٢٠ م هذه رواية ابن الأثير. على أن رواية أبي الفداء أن مولده سنة ٤٢٠ هـ ١٠٣٠ م وبويع له بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ سنة ١٠٣٧ م كما مر. قال ابن خلدون وقام بأمر المستنصر وزير أبيه أبو

القاسم علي بن أحمد الجرجاري (وفي الكامل لابن الأثير الجرجاري) وكان بدمشق الوزير (كذا في نسخة ابن خلدون وهو الدزيري الآتي ذكره) واسمه اقوش نكين وكانت البلاد صلحت على يديه لعدله ورفقه وضبطه، وكان الوزير الجرجاري يحسده ويغضه وكتب إليه بإبعاد كاتبه أبي سعيد فلم يجب الوزير إلى ذلك واستوحش، وجاء جماعة من الجند إلى مصر في بعض حاجاتهم فدخلهم الجرجاري في التوثب به ودس معهم بذلك إلى بقية الجند بدمشق فتعللوا عليه . . . فخرج إلى بعلبك سنة ٤٣٣هـ (سنة ١٠٤٢م) فمنعه عاملها من الدخول فسار إلى حماه فمنع أيضاً فقتل وهو في خلال ذلك ينهب فاستدعى بعض أوليائه من كفرطاب فوصل إليه في الفي رجل وسار إلى حلب فدخلها وتوفي بها في جمادى الآخرة من السنة (المذكورة). وفسد بعده أمر الشام وطمع العرب في نواحيه وولى الجرجاري على دمشق الحسين بن حمدان فكان قصارى أمره منع الشام وملك حسان بن مفرج فلسطين (الذي في الكامل أنه خرج وتولى فلسطين) وزحف معز الدولة بن صالح الكلاي إلى حلب فملك المدينة وامتنع عليه أصحاب القلعة وبعثوا إلى مصر للنجدة فلم ينجدهم فسلموا القلعة لمعز الدولة بن صالح فملكها» انتهى كلام ابن خلدون بحروفه .

قد مرّ نقلاً عن أبي الفداء أنَّ شبل الدولة بن صالح بن مرداس بقي مالكاً لحلب إلى سنة ٤٢٩هـ سنة ١٠٣٨م فأرسل في أيام المستنصر عسكرياً إلى شبل الدولة مقدمهم الدزيري (الذي سماه ابن خلدون الوزير) فاقتتلوا مع شبل الدولة فقتل شبل الدولة وملك الدزيري حلب والشام جميعه تلك السنة ثم توفي الدزيري سنة ٤٣٣هـ سنة ١٠٤٢م وكان لشبل الدولة أخ يقال له أبو علوان ثمال ولقبه معز الدولة وهو الذي ذكره ابن خلدون كما رأيت آنفاً، فهذا زحف إلى حلب بعد موت الدزيري وملكها سنة ٤٣٤هـ سنة ١٠٤٣م وبقي مالكاً لها إلى سنة ٤٤٠هـ سنة ١٠٤٩م فأرسل إليه المصريون جيشاً فهزمهم ثم أرسلوا جيشاً آخر فهزمهم أيضاً ثم صالح معز الدولة المصريين ونزل لهم عن حلب فأرسل المصريون رجلاً من أصحابهم يقال له الحسن بن علي بن ملهم ولقبوه مكين الدولة فتسلم حلب وسار معز الدولة إلى مصر .

وكان وزير المستنصر الحسن بن علي اليازوري ويازور من أعمال الرملة هذا ما رواه أبو الفداء وكذا روى ابن الأثير، وأرى روايتهما أصح من رواية ابن خلدون

النازوري بالتاء ورَّجماً كان ذلك خطأ في المطبعة. فالمعلوم أنَّ جهة الرملة بلد اسمها يازور أو يازر أو جازر وليس هناك بلد تسمى تازور فكان اليازوري قاضياً في الرملة على مذهب أبي حنيفة ثمَّ تولَّى الوزارة ودبَّرها أعواماً، وفي سنة ٤٤٨هـ سنة ١٠٥٧م تغيَّر عليه المستنصر فقبض عليه ووجد له مكاتبات إلى بغداد. وكانت بعد ذلك الخطبة ببغداد للمستنصر العلوي على يد البساسيري من مماليك بني بويه عند انقراض دولتهم واستيلاء السلاجقة على العراق .

وفي سنة ٤٥٥هـ سنة ١٠٦٤م كانت بالشام زلزلة عظيمة خرَّبت بها كثير من البلاد وانهدم بها سور طرابلس، وفيها ولي أمير الجيوش بدر مدينة دمشق من قبل المستنصر العلوي، ثمَّ ثار به الجند (عن أبي الفداء جزء ٢ صفحة ١٩٣) وفي سنة ٤٦٠هـ سنة ١٠٦٨م كانت بفلسطين ومصر زلزلة شديدة حتى طلع الماء من رؤوس الآبار وهلك من الروم عالم عظيم وزال البحر عن السواحل مسيرة يوم (نظن ذلك على سبيل المبالغة) فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون فرجع الماء عليهم وأهلك خلقاً كثيراً. وفي سنة ٤٦١هـ سنة ١٠٦٩م احترق جامع دمشق بسبب فتنة وقعت بين المغاربة والمشاركة فضربت دار مجاورة للجامع بالنار فأتصلت النار بالجامع وعجز الناس عن إطفائها فأتى الحريق على الجامع فدثرت محاسنه وزال ما كان من الأعمال النفيسة فيه. وفيها كان بمصر غلاء شديد حتَّى أكل الناس بعضهم وانتزع منها من قدر الانتزاع، واحتاج خليفة مصر المستنصر إلى إخراج الآلات وبيعها فأخرج من خزائنه ثمانين ألف قطعة بلور كبار وخمسة وسبعين ألف قطعة من الديباج واحد عشر ألف كراغند (الدرع فارسية) وعشرين ألف سيف محلَّى ووصل من ذلك إلى بغداد مع التجار (عن أبي الفداء في المحل المذكور صفحة ١٩٥).

وفي سنة ٤٦٢هـ سنة ١٠٧٠م سار أمير الجيوش بدر من مصر إلى مدينة صور وكان قد تغلَّب عليها القاضي عين الدولة بن عقيل وحاصرها فأرسل القاضي إلى الأمير قتلوا مقدم الأتراك في دمشق ليستنجده، فسار في اثني عشر ألف فارس فحصر صيدا وهي لأمر الجيوش بدر فرحل حيثل بدر عن صور فعاد الأتراك ولما عادوا عاود بدر حصار صور برأ وبحراً سنة ومع ذلك لم يبلغ غرضه فرحل عنها (عن ابن الأثير في تاريخ السنة المذكورة) .

وظهرت في هذا العصر الدولة السلجوقية وهي منسوبة إلى سلجوق بن تقاق ويروى دقاق ومعناه القوس الجديد وكان من أمراء الأتراك وقَّبه ملك الترك وقَدَّمه ولقبه سباشي ومعناه قائد الجيش. وكان لسلجوق من الأولاد ارسلان وميكائيل وموسى فقتل ميكائيل في بعض الوقعات، ومن أولاده طغرل بك وداود وكانت بينهم وبين سلطان تركستان حروب هائلة واستولوا على خراسان وتقدَّموا من خراسان إلى غزنه وقهروا السلطان مسعود صاحبها وثبت قدمهم بخراسان وخطب لهم على منابرهما في آخر سنة ٤٣١هـ سنة ١٠٤٠م وكان المتسلط منهم طغرل بك بن ميكائيل. وفي سنة ٤٤٧هـ سنة ١٠٥٦م زحف طغرل بك إلى بغداد فكثر الأرجاف بها وطاعه أهلها وخطب له الخليفة القائم بجوامع بغداد وقبض على الملك الرحيم فكان آخر من استولى على العراق من بني بويه ومات في سجنه بعد ثلاث سنين. وخرج طغرل بك من بغداد واستولى على الموصل واعمالها وأقام فيها أخاه ابراهيم نبال وكان طغرل بك قد ترك أخاه داود والياً في خراسان فمات داود سنة ٤٥١هـ سنة ١٠٦٠م فملك خراسان بعده ابنه الب ارسلان، وتزوج طغرل بك بابة الخليفة القائم العباسي. وتوفي طغرل بك سنة ٤٥٥هـ سنة ١٠٦٤م وكان عقيماً لم يكن له ولد فاستقرت السلطنة بعده لابن أخيه الب ارسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق. ومن أشهر الأحداث في أيامه أسره الملك رومانس الرابع المسمى ديوجان سنة ٤٦٣هـ سنة ١٠٧١م، فان رومانس كان قد حمل لأول مرة على بلاد المسلمين وبلغ منبج ونهبها وقتل أهلها وهزم محمود بن صالح بن مرداس والي حلب ومن معه من العرب ثم عاد إلى قسطنطينية في طريق اسكندرونة ثم حمل ثانية في السنة المذكورة وبلغ إلى سبسطية في الكبادوك في مائة ألف جندي والتقاء الب ارسلان في خمسة عشر ألفاً على ما يقال، فأرسل الب ارسلان يطلب منه المهادنة فقال رومانس لا أهادنك إلا بالري فانزعج السلطان وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس وعقد ذنب فرسه بيده وفعل عسكره مثله ولبس البياض وتحنَّط وقال، إن قتلت فهذا كفني، وزحف إلى الروم واشتد القتال فانهزم الروم وقتل جواد الملك رومانس فوقع إلى الأرض واحتاطه المسلمون وأخذوه أسيراً فلما رآه الب ارسلان ضربه ثلاث مرات بالسوط على عاداتهم عند أسر الملوك ثم مدَّ إليه يده وعانقه وأمنه ولاطفه وأكرم مثواه. وكان يقول له أنا رجل مثلك ويمكن أن يعرض لي ما يعرض لك والويل لمن تسكره خمرة نصره فتراني لا اعتدك أسيراً

بل أجعلك ملكاً. وقال له يوماً ألم أرسل إليك في المهادنة فأبيت فقال الملك دعني من التويخ وافعل ما تريد. فقال السلطان لو أسررتي ما كنت تفعل بي؟ فقال القبيح. فقال السلطان وما تظن أنني أفعل بك؟ فقال إنما أن تقتلني وإنما أن تشهرني في بلادك والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول المال واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان ما عزمت على غير هذا فأعاملك بما أسمع أن ستك تأمر به وهو عمل المعروف ونسيان الإساءة. ودفع إليه عشرة آلاف دينار ليتجهز بها ووعدته بأن يخلي سبيل الأسرى من الروم جميعاً على شريطة أن يخلي الروم سبيل الأسرى من المسلمين. وعقدوا صلح بينهما وعينا تخوم الملكتين وسير السلطان مع الملك عسكرياً ليوصلوه إلى مأمنه، وبعد عوده أرسل إلى السلطان مائتي ألف دينار وحلف على أنه لا يقدر على غير ذلك. وكان ميخائيل السابع عند أسر رومانس قد وثب على سرير المملكة فاستوى عليه (ذكر ذلك ابن العبري في مختصر تاريخ الدول ودي لارو في مختصر تاريخ الملك السافل وأبو الفداء في صفحة ١٩٦).

إنَّ السلطان الب أرسلان بعد أن استتبَّ له الملك في خراسان والعراق وغيرهما أخذ ينازع الخليفة العلوي سورية، ففي سنة ٤٦٣ هـ سنة ١٠٧١ م سار الب أرسلان حتى نزل على حلب فبذل له صاحبها محمود بن نصر بن مرداس الطاعة دون أن يطئ بساطه فلم يرَضَ الب أرسلان بذلك وحاصر المدينة، فخرج محمود ووالدته ليلاً ودخلا على السلطان الب أرسلان فأحسن إليهما وأقرَّ محموداً على مكانه بحلب. وفي السنة المذكورة قصد يوسف ابن ابق الخوارزمي وهو من أمراء ملكشاه بن الب أرسلان الشام وفتح مدينة الرملة ثمَّ بيت المقدس وأخذهما من نواب الخليفة المستنصر صاحب مصر ثمَّ دمشق وضيَّقَ على أهلها ولم يملكها وفي سنة ٤٦٥ هـ سنة ١٠٧٣ م قتل السلطان الب أرسلان قتله يوسف الخوارزمي مستحفظ أحد الحصون على دجلة أراد الب أرسلان قتله فقتله يوسف بسكين كانت بيده وخلفه في الملك ابنه المسمى ملكشاه (عن أبي الفداء وغيره).

تتمة أخبار المستنصر بالله العلوي وما كان في أيام ملكشاه السلجوقي بسورية

كانت والدته المستنصر العلوي قد استولت في مصر على الأمر فضعف أمر الدولة وصارت العبيد حزباً والأتراك حزباً وجرت بينهم حروب وكان ناصر الدولة ابن حمدان من أكبر قواد مصر فاجتمعت إليه الأتراك وجرت بينهم وبين العبيد عدة وقعات وحصر ناصر الدولة مصر وقطع الميرة عنها، فغلت الأسعار بها وفرغ ما كان بخزائن المستنصر ثم استولى ناصر الدولة على مصر وانهزمت العبيد واستبدَّ ناصر الدولة بالحكم وقبض على والدته المستنصر وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرَّق عن المستنصر أولاده وأهله حتى بقي يقعد على حصيرة. وكان غرض ناصر الدولة أن يخطب للخليفة القائم العباسي فدرى بغرضه قائد كبير من الأتراك اسمه الدكر فاتفق مع جماعته وقتلوا ناصر الدولة وأقاربه في مصر على آخرهم. وكان ذلك سنة ٤٦٥هـ سنة ١٠٧٣م وبقي الأمر مضطرباً بمصر. ففي سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م استدعى المستنصر بدر الجمال وكان متولياً سواحل الشام وشكا إليه حاله واحتلال دولته فقتل الدكر والوزير ابن كنيده وغيرهما من الأمراء والقواد وأقام منار الدولة وشيد من أمرها ما كان قد درس، وأصلح اسكندرية ودمياط وسار إلى الصعيد وقهر المفسدين وعادت مصر إلى أحسن ما كانت عليه (عن ابن الأثير وأبي الفداء صفحة ٢٠٠).

وفي سنة ٤٦٨هـ سنة ١٠٧٦م استولى يوسف الخوارزمي^(١) من أمراء ملك شاه على دمشق وهو الذي ذكرنا آنفاً استيلاءه على الرملة وبيت المقدس وحصاره دمشق وعوده عنها سنة ٤٦٣هـ. فقد كان في كل سنة بعد ذلك يقصد أعمال دمشق فيأخذ غلاتها فيقوى هو وعسكره ويضعف أهل دمشق وجندها، ففي رمضان سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م سار إلى دمشق وحاصرها وأميرها المعلي بن

(١) سماه ابو الفدا في تاريخ سنة ٤٦٣ يوسف بن ابق الخوارزمي كما ذكر انفاً وسماه في تاريخ سنة ٤٦٨ انسز وسماه ابن الاثير في تاريخ سنة ٤٦٨ افسيس والافسيس. وسماه ابن خلدون اتسزين افق، وقد سماه الشاميون اقسقس، والصحيح هذا وهو اسم تركي.

حيدرة من قبل الخليفة المستنصر فلم يقدر عليها. فانصرف عنها، وساء أميرها المعلي السيرة مع الجنود والرعية فثار به العسكر وأعانهم العامة فهرب إلى بانياس ثم منها إلى صور ثم أخذ إلى مصر فحبس بها ومات محبوباً. ولما هرب من دمشق ولّى الخند والرعية عليهم انتصار بن يحيى المصمودي الملقّب برزين الدولة ووقع الخلف بين عشيرته وأحداث المدينة وعرف يوسف ذلك فعاد إلى دمشق سنة ٤٦٨ المذكورة فحاصرها فعدمت الأقوات فسلمها أهلها إليه بامان وعوض انتصار عنها بقلعة بانياس ومدينة يافا ودخل هو دمشق وخطب فيها للمقتدي بأمر الله الخليفة العباسي وكان آخر ما خطب فيها للعلوين وتعلّب يوسف على أكثر الشام للملكشاه السلجوقي وفرح أهل دمشق لكأنه ظلمهم وأساء السيرة فيهم (عن ابن الأثير وذكره ابن خلدون وأبو الفداء أيضاً). وفي سنة ٤٦٩ هـ سنة ١٠٧٦ م سار الاقيسي أي يوسف المذكور من دمشق إلى مصر وحصرها وضيق على أهلها ولم يبق غير أن يملكها ولكن قوي المصريون عليه فهزموه، وقيل عاد بغير قتال وهلك جماعة من أصحابه فوصل إلى دمشق وقد تفرّق أصحابه، فرأى أهلها صانوا مخلفيه وأمواله فشكرهم ورفع عنهم الخراج تلك السنة، وأتى إلى بيت المقدس فرأى أهله قبحوا على أصحابه ومخلفيه وحصروهم في محراب داود فقاتلهم وفتح المدينة عنوة ونهبها وقتل من أهلها، فأكثر حتى قتل من التجأ إلى المسجد الأقصى، وكف عمّن كان عند الصخرة. وقد أرسل بدر الجمالي أمير الجيوش بمصر عسكراً لطرد يوسف المذكور من دمشق وكان السلطان ملكشاه أقطع أخاه تتش الشام وما يفتحه فسار إلى حلب وحاصرها فأرسل يوسف يستنجد على عسكر بدر الجمالي فسار تتش إلى دمشق ولما قرب منها رحل عنها عسكر المصريين وركب يوسف للالتقاء بالقرب من المدينة فلامه تتش على تأخّره عن الطلوع إلى القائد وقبض عليه وقتله ملك تتش دمشق وأحسن السيرة في أهلها وسمي تاج الدولة، وكان ملكه دمشق سنة ٤٧١ هـ سنة ١٠٧٩ م. وقيل سنة ٤٧٢ هـ سنة ١٠٨٠ م (عن ابن الأثير وأبي الفداء). قال ابن خلدون: «وملك ملكشاه بعد ذلك حلب واستولى السلاجقة على الشام أجمع». ولكن يظهر أنّ ملكهم الشام حينئذ لم يكن ثابتاً وراسخاً فان مسلم بن قريش الملقّب شرف الدولة صاحب الموصل سار إلى حلب سنة ٤٧٢ هـ سنة ١٠٨٠ م فحاصرها وسلمها أهلها إليه سنة ٤٧٣ هـ سنة ١٠٨١ م، فأرسل ملك شاه إليه العساكر سنة ٤٧٧ هـ سنة ١٠٨٥ م وهزمه من الموصل فعاد إلى حلب.

وفي السنة المذكورة سار سليمان بن قطلش السلجوقي صاحب قونية إلى الشام فملك مدينة أنطاكية بمخامرة الحاكم فيها من جهة النصارى وكانت أنطاكية بيد الروم من سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٧٠ م إذ أخذها نيقفور فوقاً) فافتتحها سليمان في سنة ١٠٨٥ (عن أبي الفداء). وقال ابن الأثير في ذلك ما ملخصه: «إن سبب ملك سليمان المدينة أن صاحبها الفردوس (كذا) الرومي كان قد سار عنها إلى بلاد الروم ورُتّب بها شحنة وكان مسياً إلى أهلها وإلى جنوده حتى أنه حبس ابنه فاتفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان واستدعوه، فأتى بثلاثمائة فارس وكثير من الرجال وسار في جبال وعرة حتى وصل إليها للموعّد فنصب السلالم باتفاق من الشحنة ومن معه وصعد السور وأخذ المدينة فقاتله أهل البلدة فهزّمهم وقتل منهم كثيرين ثم عفا عن الباقيين، وتسلم القلعة المعروفة بالقسيان وأخذ من الأموال ما يجاوز الاحصاء وأحسن إلى الرعية وعدّل فيهم وأمرهم بعمارة ما خرب ومنع أصحابه من النزول في دورهم وكتب إلى السلطان ملكشاه يشره بذلك وينسب هذا الفتح إليه لأنه من أهله فأظهر ملكشاه البشارة به وهنأه الناس وقد قال فيه الأيوبردي من قصيدة مطلعها:

لمعت كناصرية الحصان الأشقر نار بمعتلج الكثيب الأعفر
وفتحت أنطاكية الروم التي نشرت معاقلها على الاسكندر
وطئت مناكبها جياذك فانتنت تلقى اجنتها بنات الأصفر

ولما ملك سليمان أنطاكية أرسل إليه شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب حلب يطلب ما كان يحمله إليه والي أنطاكية من المال ويخوفه معصية السلطان. فأجابه اما طاعة السلطان فهي شعاري ودثاري والخطبة له والسكة في بلادي وقد كاتبته بما فتح الله على يدي بسعاده وأما المال الذي كان صاحب أنطاكية يحمله قبلي فهو كان كافراً وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه وأنا بحمد الله مؤمن ولا أحمل شيئاً، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية ونهب سليمان أيضاً بلد حلب فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهب عسكره فقال أنا كنت أشد كراهية لما يجري ولكن صاحبكم أحوجنني إلى ما فعلت ولم تجر عادتي بنهب مسلم، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعادوه. وجمع شرف الدولة الجموع من العرب والتركمان وسار إلى أنطاكية ليحاصرها وجمع سليمان عساكره وسار إليه فالتقيا في طرف من أعمال

أنطاكية سنة ٤٧٨ هـ سنة ١٠٨٦ م واقتتلوا فانهزم شرف الدولة وجموعه وقتل بعد أن صبر في القتال وقتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان بيده ديار ربيعة ومضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب وما والاها من البلاد وما كان لأبيه وعمه قرواش ولما قُتل قصد بنو عقيل أخاه إبراهيم بن قريش وهو محبوس وملكوه أمرهم وسار سليمان إلى حلب فحاصرها ولم يبلغ منها غرضاً فرحل عنها (عن ابن الأثير صفحة ٥٦ جزء ١٠ وأبي الفداء صفحة ٢٠٥ جزء ٢).

وبعد أن رحل سليمان عن حلب أرسل في سنة ٤٧٨ هـ سنة ١٠٨٧ م إلى ابن الحبيبي (ويروى الحنيتي) العباسي مقدم أهل حلب يطلب منه تسليم حلب إليه فاستمهلته إلى أن يكاتب السلطان ملك شاه، واستدعى تتش صاحب دمشق أخا السلطان ملكشاه فسار تتش إلى حلب وجرت الحرب بين تتش وابن عمه سليمان فانهزم عسكر سليمان وثبت سليمان في القتال، فقبل لأنه لما انهزم عسكره انتحر وقيل بل قتل في المعركة واستولى تتش على عسكره، وكان سليمان قد أرسل جثة شرف الدولة بعد قتله في السنة السالفة ملفوفة في إزار إلى حلب ليسلموها إليه فأرسل تتش في هذه السنة جثة ابن عمه سليمان ملفوفة في إزار إلى حلب ليسلموها إليه، فأجابه ابن الحبيبي بالمطالبة إلى أن يرد مرسوم ملكشاه في أمر حلب، فحاصر تتش حلب وضيّق على أهلها وملكها بمخابرة أحد محافظي برج بها فأنه أصعد رجال تتش بالخيال والسلالم إليها ودخلوا منه إلى المدينة فبقي في قلعة حلب سالم بن مالك العقيلي ابن عم شرف الدولة، فحاصر تتش القلعة سبعة عشر يوماً فبلغه خبر وصول مقدمة جيش أخيه السلطان ملكشاه إلى حلب فرحل عنها (عن ابن الأثير صفحة ٦٠ جزء ١٠ وأبي الفداء صفحة ٢٠٦ جزء ٢).

لما كاتب ابن الحبيبي السلطان ملكشاه في أمر حلب كان السلطان في أصفهان فسار إلى الرها وهي بيد الروم من حين اشتروها من ابن عطر كما قدمنا ذكره فحاصرها وملكها وسار إلى قلعة جعبر وبها صاحبها سابق الدين جعبر القشيري وهو شيخ أعمى فأمسكه وأمسك ولديه وكانا يقطعان الطريق، وسار إلى منبج فملكها وسار إلى حلب ولما قاربها رحل أخوه تتش عنها إلى البرية وتوجّه إلى دمشق ووصل السلطان إلى حلب وتسلمها وتسلم القلعة من سالم بن مالك العقيلي المذكور على أن يعوّضه بقلعة جعبر وتسلمها السلطان إليه، ولما استقرّ السلطان ملك شاه بحلب أرسل إليه الأمير نصر بن علي بن منقذ الكناني صاحب

سيزر ودخل في طاعته وسلّم إليه اللاذقية وكفرطاب وأفاميا (أباميا) فأجابه السلطان إلى المسألة وترك قصده أن يملك هذه البلاد عنوة، وأقرّ شيزر على الأمير نصر المذكور وسلّم حلب إلى قسيم الدولة اقسنقر الآتي ذكره ثم ارتحل السلطان إلى بغداد (عن ابن الأثير صفحة ٦٠ وأبي الفداء صفحة ٢٠٧).

وكان بدر الجمالي أمير جيوش مصر قد سار سنة ٤٧٨هـ سنة ١٠٨٦م إلى دمشق وحصرها وبها تاج الدولة تتش المذكور وضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائداً إلى مصر. وفي سنة ٤٨١هـ سنة ١٠٨٩م جمع اقسنقر المذكور صاحب حلب عساكره وسار إلى قلعة شيزر وصاحبها الأمير نصر المذكور وضيق عليه ونهب الرض ثم صالحه الأمير فعاد اقسنقر إلى حلب. وفي سنة ٤٨٢هـ سنة ١٠٩٠م عمرت مئذنة جامع حلب وقام بعملها القاضي أبو الحسن الخشاب. وفي هذه السنة خرجت عساكر مصر إلى الشام فحاصروا مدينة صور وكان قد تغلب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عقيل وامتنع عليهم، ثم توفي ووليها أولاده فحصرهم العسكر المصري فلم يقدرُوا على مقاومته فسلموها إليه ثم سار العسكر إلى صيدا ففعلوا بها كذلك ثم ساروا إلى عكا وافتتحوها عنوة وقصدوا جبيل فملكوها وأصلحوها أحوال هذه البلاد واستعملوا عليها الأمراء والعمال وعادوا إلى مصر (ابن الأثير صفحة ٧٢). وفي سنة ٤٨٤هـ سنة ١٠٩٢م كان السلطان ملك شاه قد أمر اقسنقر والي حلب بمساعدة أخيه تتش والي دمشق على ملك الشام وما بقي بأيدي خليفة مصر العلوي من البلاد فسار اقسنقر مع تتش ونزلا على حمص وبها صاحب خلف بن ملاعب فملك تتش حمص وأمسك ابن ملاعب وولديه ثم سار تتش إلى عرقة فملكها ثم سار إلى افامية (أباميا) فملكها. وكان بها خادِم للخليفة المصري فنزل بالامان وابنه ثم سار إلى طرابلس فامتنعت عليهم وفي سنة ٤٨٥هـ سنة ١٠٩٣م خرج السلطان ملك شاه من بغداد إلى الصيد فعاد مريضاً بحمى محرقة وتوفي بها. وكان من أحسن الناس صورة ومعنى وخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصي بلاد الاسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت له ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب، وكانت أيامه أيام عدل وأمن وأخفت زوجته تركان خاتون موته وفزّقت الأموال في الأمراء وسارت بهم إلى أصفهان، واستحلفت العسكر لولدها محمود وعمره أربع سنين وشهور وخطب له في بغداد وغيرها، ونازعه أخوه بركيارق السلطنة ثم نازعهما عمهما تتش والي

دمشق أخو ملكشاه كما سنذكر في الفصل التالي وفي سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٩٥م توفي المستنصر بالله خليفة مصر العلوي وكانت مدة خلافته ستين سنة وأربعة أشهر وعمره سبعا وستين سنة وولي خلافة مصر بعده ابنه أبو القاسم أحمد وتسمى المستعلي بالله .

عد ٧٩٨

ما كان من الأحداث في أيام خلفاء ملكشاه السلجوقي
والمستعلي بالله خليفة مصر

قد مرَّ أنَّ تراكان خاتون زوجة ملكشاه حملت ابنها محمود إلى أصفهان مع العساكر وخطب له في بغداد وغيرها، وكان له أخ اسمه بركيارق من أم أخرى وكان بأصفهان فهرب منها حين وصل إليها أخوه في العساكر، فأرسلت أم الملك محمود عسكرياً إلى بركيارق فاقتلوا فانهزم عسكر الخاتون وسار بركيارق في أثرهم وحصرهم بأصفهان وأخذ تاج الملك (وهو) وزير محمود أسيراً فقتله بعض أعدائه وكان ذلك سنة ٤٨٥هـ سنة ١٠٩٣م ففي سنة ٤٨٦هـ سنة ١٠٩٤م تحوَّك تتش والي دمشق أخو ملكشاه لطلب السلطنة بعد موت أخيه وأتفق معه اقسنقر والي حلب وخطب له باغي سيان والي أنطاكية وبزان (في الكامل يوزان) والي الرها. وسار تتش ومعه اقسنقر فافتتح نصيبين عنوة ثم قصد الموصل وفيها ابراهيم بن قريش المار ذكره، فكان قتال شديد أخذ فيه ابراهيم المذكور أسيراً وجماعة من أمراء العرب فقتلهم تتش وملك الموصل وأرسل إلى بغداد يطلب الخطبة له فتوقفوا فيها ثم سار واستولى على ديار بكر وسار إلى اذريجان وكان بركيارق ابن أخيه قد استولى على كثير منها فسار لقتال عمه فقال اقسنقر والي حلب إنَّما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان، ملكشاه وإنَّما إذا كان بركيارق ابن السلطان قد تملَّك فلا نكون مع غيره، وخلي تتش ولحق بيركيارق فضعف تتش لذلك وعاد إلى الشام (عن أبي الفداء صفحة ٢١٤ وغيره) .

وخطب في بغداد لبركيارق وأقرَّه الخليفة المقتدي بالله ولقب ركن الدولة، وإنَّما تتش عمه فبعد عوده إلى الشام أخذ يجمع العساكر وبعد العدد وكثرت جموعه وخاف منه اقسنقر والي حلب لأنَّه تركه ولحق بابن أخيه وطلق يحشد الجنود أيضاً

وأيدته بركيارق بالأمير كربوغا (كذا سماه أبو الفداء وسماه ابن الأثير كربوغا) والتقت عساكر الطرفين سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٩٥م عند نهر سبعين قريباً من تل سلطان وبين حلب ستة فراسخ واشتد القتال فخامر بعض عسكر اقسنقر وصار مع تتش وانهزم الباقون وثبت اقسنقر في ساحة الحرب فأخذ أسيراً وأحضر إلى تتش فقال له تتش لو ظفرت بي ما كنت صنعت قال كنت أقتلك فقال تتش أنا أحكم عليك بما كنت تحكم عليّ به وقتل اقسنقر وسار تتش إلى حلب فملكها وأسر الأمير كربوغا المذكور وأرسله إلى حمص فسجنه بها، ثم استولى تتش على حران والرها والجزيرة كلها وملك ديار بكر وسار إلى اذريجان فملكها وملك همذان أيضاً وأرسل يطلب الخطبة ببغداد من المستظهر بالله الخليفة العباسي، فأجيب إلى ذلك ولقب تاج الدولة. ولما بلغ بركيارق خبر استيلاء عمه تتش على اذريجان سار إلى اربيل وقرب من عسكر عمه ولم يكن معه غير ألف رجل وعسكر عمه خمسون ألفاً، فكبست فرقة من عسكر نتش بركيارق فهرب إلى أصفهان وكانت ترکان خاتون أم السلطان محمود قد ماتت فدخل بركيارق أصفهان وبها أخوه محمود فاحتاط عليه جماعة من كبراء عسكر أخيه وأرادوا سمل عينيه فلحق محموداً جدری قوي فوقفوا في سمل بركيارق، لينظروا ما يكون لمحمود فمات محمود وكان موته فرجاً لبركيارق. ثم جدر بركيارق وعوفي فاجتمعت عليه العساكر فسار بها سنة ٤٨٨هـ سنة ١٠٩٦م لقتال عمه تتش والتقوا بموضع قريب من الري فانهزم عسكر تتش وثبت هو في ساحة الوغى فقتل، واستقامت السلطنة لبركيارق. وإذا أراد الله أمراً كان مفعولاً فلو لحق بركيارق مائة فارس عند هربه إلى أصفهان لأدركوه وأسروه ولو قصده عمه تتش وقت مرض أخيه محمود أو وقت مرضه لفاز بالسلطنة واستقامت له، فله الأمر في كل حال (عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وكان لتاج الدولة تتش أبناء أكبرهم رضوان ودقاق أما دقاق فكان في الواقعة مع أبيه وأما رضوان فبلغه خبر مقتل أبيه وهو متوجه للاستيلاء على العراق، فعاد إلى حلب وفيها من جهة أبيه أبو القاسم حسن بن علي الخوارزمي ولحق برضوان جماعة من قواد أبيه ثم لحقه بحلب أخوه دقاق وكان مع رضوان أيضاً الأمير باغي سيان بن محمّد التركماني والي أنطاكية وجناح الدولة وكان مزوجاً بأم رضوان وهو من أكبر القواد واستمالوا أكثر جند القلعة ونادوا ليلاً بشعار الملك

رضوان واحتاط رضوان على أبي القاسم الخوارزمي والي حلب وطيب قلبه وخطب
 لرضوان بحلب ثم سار بمن معه إلى الرها فاستولى عليها وأطلق قلعتها لباغي سيان
 والي أنطاكية واستولى على ديار بكر ووقع اختلاف في عسكر رضوان بين باغي
 سيان وجناح الدولة المذكورين فعاد إلى حلب وعاد باغي سيان إلى أنطاكية ومعه
 أبو القاسم الخوارزمي. وكان في دمشق ساوتكين خادماً تتش والياً في قلعتها فكاتب
 دقاق سرّاً يستدعيه ليملكه دمشق فخف دقاق من حلب إلى الشام وأرسل أخوه
 رضوان خيلاً خلفه فلم يدركوه، ووصل دقاق إلى دمشق فسلمها ساوتكين إليه
 ووصل إليه جماعة من خواص أبيه فأكرمهم وسار إليه باغي سيان التركماني
 صاحب أنطاكية ومعه أبو القاسم الخوارزمي الذي كان والياً بحلب ثم قتل دقاق
 ساوتكين الخادم الذي أحسن إليه واستبدّ بولاية دمشق. ففي سنة ٤٩٠ هـ سنة
 ١٠٩٨ م سار رضوان من حلب إلى دمشق ليأخذها من أخيه دقاق وسار معه باغي
 سيان والي أنطاكية وجناح الدولة زوج أمه ووصلوا إلى دمشق فلم ينل رضوان منها
 غرضاً، فارتحل إلى القدس فلم يملكها وتراجعت عنه عساكره فرجع إلى حلب ثم
 فارق باغي سيان رضوان وسار إلى أخيه دقاق وحسن له أن يقصد أخاه رضوان
 ويأخذ حلب منه فسار في عسكر إلى أخيه وجمع رضوان العسكر والترك
 والتركمان والتقى مع أخيه على قنسرين فانهزم دقاق وعسكره ونهبت خيامهم وعاد
 رضوان إلى حلب منصوراً، ثم اتّفقا على أن يخطب لرضوان بدمشق قبل دقاق ثم
 خطب الملك رضوان للمستعلي بأمر الله العلوي خليفة مصر أربع جمع ثم خشي
 من عاقبة ذلك فقطعها وأعاد الخطبة العباسية. وفي سنة ٤٩١ هـ سنة ١٠٩٩ م كان
 وصول عساكر الافرنج إلى سورية وخرج الكلام فيهم إلى تاريخ القرن الثاني عشر
 ولكن يقضي علينا مساق تاريخنا أن نستتم تاريخ رضوان ودقاق وبركيارق وغيرهم
 لأنّ يحتاج القراء إلى مطالعة أخبارهم في تاريخ القرن الثاني عشر وفي مجلّد آخر.
 إنّ باغي سيان والي أنطاكية المار ذكره مرات كان على ولايته عند قدوم
 الافرنج إلى أنطاكية فناصرهم بشجاعة عظيمة عنوة فخرج هو منها هارباً مرعوباً
 حتى غشي عليه، وأراد من معه أن يركبه فلم يكن فيه من المسكة ما يثبت على
 الفرس فتركوه مرمياً واجتاز رجل أرمني به وهو على آخر رمق فقطع رأسه وحمله
 إلى الافرنج بأنطاكية سنة ٤٩١ هـ سنة ١٠٩٩ م. وجهاز دقاق بن تتش صاحب
 دمشق وجناح الدولة زوج أم الملك رضوان (وكان قد فارق رضوان من حلب وسار

إلى حمص فملكها) وغيرهما من الأمراء والقواد جيشاً وساروا على الافرنج بأنطاكية وبلغوا إلى مرج دابق وكانت بينهم وقعت آخرها ظهور الافرنج عليهم. وفي سنة ٤٩٢هـ سنة ١١٠٠م كانت حروب بين بركيارق وبين أخيه محمّد بن ملكشاه ثمّ اتفق سنجر أخوهما مع محمّد ونازعا بركيارق أخاهما السلطنة واستمرت الحرب بينهما إلى سنة ٤٩٧هـ سنة ١١٠٤م حين استقرّ الصلح بينهما وحلّفا على ذلك. أما البلاد التي استقرت لمحمّد ووقع الصلح عليها فهي من النهر المعروف باسبندز إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ومن العراق بلاد صدقة بن مزيد، وما بقي من السلطنة فهو لبركيارق ولما وصلت الرسل إلى المستظهر بالله الخليفة العباسي خطب لبركيارق في بغداد.

وفي السنة المذكورة أي سنة ١١٠٤م توفي دقاق بن تتش صاحب دمشق فخطب طغتكين الاتابك (معنى الكلمة أمير الأمراء) بدمشق لابن دقاق وكان طفلاً عمره سنة واحدة ثمّ قطع خطبته وخطب للبتاش بن تتش عم هذا الطفل ثمّ قطع خطبة بلتاش وأعاد خطبة الطفل واستقرّ طغتكين في دمشق. وفي سنة ٤٩٨هـ سنة ١١٠٥م توفي السلطان بركيارق بن ملكشاه وكان عمره خمساً وعشرين سنة ومدة سلطنته اثنتي عشرة سنة انقضت بالحروب والمحن ولما استقام أمره أدركته منيته. وكان قد عهد بالسلطنة لابنه ملكشاه وعمره أربع سنين وثمانية أشهر وبعد موته خطب له بجوامع بغداد ثمّ تغلّب عليه عمه محمّد وصارت السلطنة له.

وأما رضوان صاحب حلب ففي سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٦م استولى على قلعة افاميه (اباميا وهي قلعة المضيق) بعد قتل ابن ملاعب واليها ثمّ أخذها الافرنج منه وفي سنة ٥٠٣هـ سنة ١١١٠م صالح الافرنج بعد أخذهم منبج على أنّه يدفع إليهم اثنين وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ثمّ توفي سنة ٥٠٧هـ سنة ١١١٤م وقام بملك حلب بعده ابنه الب ارسلان الملقّب بالأخرس ولم يكن أخرس حقيقة ولأنما كان في لسانه حبسة وتمتمة، وكانت أمه بنت باغي سيان صاحب أنطاكية المذكور واستولى على الأمور لؤلؤ الخادم وكان الحكم والأمر إليه.

فهذه كانت حالة هذه البلاد عندما قدم الافرنج إليها من انقسام ملوكها وتوفر عددهم واختلاف بعضهم مع البعض وكانت سواحل فلسطين وفينيقيا إلى طرابلس

تحت ولاية مصر العلوي وهو المستعلي وقد توفي سنة ١١٠١. فهذان الانقسام والاختلاف عاونا الافرنج على أخذ أكثر البلاد وإيقاعهم بالمسلمين كما سوف ترى .

الفصل الثاني

المشاهير في العلم في سورية ومن عاصرهم في القرن الحادي عشر

عد ٧٩٩

المشاهير السوريون في هذا القرن

أبو العلاء المعري

هو أحمد بن عبدالله بن سليمان إلى قضاة التنوخي وكنيته أبو العلاء اللغوي الشاعر قرأ النحو واللغة على أبيه وعلى محمد بن عبدالله بن السعد النحوي بحلب وله التصانيف الكثيرة المشهورة والرسائل الماثورة وله من النظم «لزوم ما لا يلزم»، وهو كبير يقع في خمسة أجزاء (وقد طبع عما قريب جزآن منه بمصر) وله «سقط الزند» أيضاً وقد شرحه بنفسه وسماه ضو السقط. وقال ابن خلكان بلغني أنَّ له كتاباً سماه «الأيك والغصون» وهو المعروف «بالهمزة والردف» وهو يقارب مائة جزء. وحكى لي من وقف على المجلد الأول بعد المائة من كتاب الهمزة والردف. وكان علامة عصره ولد سنة ٣٦٣هـ (سنة ٩٧٤م) بالمرة وهي بلدة بالقرب من حماه وشيزر وهي منسوبة إلى النعمان بن بشير الأنصاري فتسمى معرة النعمان وكان أعمى لأنه جدر وعمره ثلاث سنين فغشي يمنى عينيه بياض وذهبت اليسرى

جملة وقيل ولد أعمى وقد شرح ديوان المتنبي وسمى شرحه كتاب اللامع العزيزي
في شرح المتنبي ولما قريء عليه قال كأنما نظر المتنبي إليَّ بلحظ الغيب حيث قال :
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمَّم

واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه ذكرى حبيب، وشرح ديوان البحتري
وسماه غيث الوليد وتكلَّم على غريب أشعارهم ومعانيها ومأخذهم من غيرهم وما
أخذ عليهم وتولى الانتصار لهم والنقد في بعض المواضع. ودخل إلى بغداد مرتين
وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم رجع إلى المعرة ولزم منزله وشرع في التصنيف وأخذ
منه الناس وسار إليه الطلبة من الآفاق وكاتبه العلماء والوزراء وسمى نفسه رهين
المحبسين للزومه منزله ولذهاب عينيهِ، ومكث خمساً وأربعين سنة لا يأكل لحماً
تديناً لأنَّه كان يرى رأي الحكماء المتقدمين وهم لا يأكلونه كيلا يذبحوا الحيوان
ففيه تعذيب له وهم لا يرون بالايلام مطلقاً في جميع الحيوانات. هذا ما قاله ابن
خلكان. وقال أبو الفداء (صفحة ١٨٥ جزء ٢ من تاريخه) ونقلت عنه أشعار
وأقوال علم بها فساد عقيدته ونسب إلى التمهذ بمذهب الهندو لتركه أكل اللحم
خمساً وأربعين سنة وكذلك البيض واللبن وكان يحرم ايلام الحيوان ... وكان
يظهر الكفر ويزعم أنَّ لقوله باطناً وأنَّه مسلم في الباطن فمن شعره المؤذن بفساد
عقيدته قوله :

عجبت لكرى واشياعه	وغسل الوجوه ببول القر
وقول النصرارى اله يضام	ويظلم حياً ولا ينتصر
وقول اليهود اله يحب	رسيس الدماء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصي البلا	د لرمي الجمار ولثم الحجر
فواعجباً من مقالاتهم	أيعمى عن الحق كل البشر
ومن ذلك قوله أيضاً	

زعموا أني سأبعث حياً	بعد طول المقام في الأرماس
وأجوز الجنان ارتع بها	بين حور وولدة أكياس
أي شيء أصاب عقلك يا مسكين	حين رميت بالسوساس

ومن ذلك

أتى عيسى فبطل شرع موسى وجاء محمد بصلاة خمس
وقالوا لا نبي بعد هذا فضل القوم بين غد وأمس
ومهما عشت في دنياك هذه فما تخليك من قمر وشمس
إذا قلت المحال رفعت صوتي وإن قلت الصحيح أطلت همسي

ومن ذلك

تاه النصارى والحنيفة ما اهدت ويهود قطرى والمجوس مضللة
قسم الورى قسمين هذا عاقل لا دين فيه ودّين لا عقل له
وقد توفي أبو العلاء المعري سنة ٤٤٩ هـ سنة ١٠٥٨ م. قال ابن خلكان بلغني
أنه أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت.
هذا ما جنّاه أبي عليّ وما جنّيت على أحد
وهو متعلّق أيضاً باعتقاد الحكماء فانهم يقولون إيجاد الولد وإخراجه إلى هذا
العالم جناية عليه لأنّه يتعرّض للحوادث والآفات. ورثاه تلميذه أبو الحسن علي بن
همام بقوله :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد اركت اليوم من جفني دما
سيرت ذكرك في البلاد كأنه مسك فسامعه تضمخ أو فما
والتنوخي نسبة إلى تنوخ ومعناه الإقامة وهو اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديماً
بالبحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هناك فسموا تنوخاً، وقبيلة تنوخ إحدى القبائل
الثلاث نصارى العرب وهم بهرا وتنوخ وتغلب (عن ابن خلكان وأبي الفداء).

عبد المحسن الصوري

هو أبو محمد عبد الحسن بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري الشاعر
المشهور أحد الفضلاء المحسنين المجيدين الأدباء، شعره بديع الألفاظ حسن المعاني
رائق الكلام مليح النظام من محاسن أهل الشام، وله ديوان شعر أحسن فيه كل

الاحسان. ومن محاسن شعره قصيدته في علي بن الحسين والد الوزير أبي القسم
المغزلي ومطلعها.

أترى بثأراً أم بدينٍ علقـت محاسنها بعيني
في لحظها وقوامها ما في المهتدِ والرديني
إلى أن استخلص بقوله :

كانت كذلك قبل أن يأتي علي ابن الحسين
وهي قصيدة طويلة ولها حكاية ظريفة وهي أنه كان بعسقلان رئيس يقال له
ذو المنقبين فجاءه بعض الشعراء وامتدحه بهذه القصيدة وزاد عليها بيتاً وهو :
ولك المناقب كلّها فلم اقتصرت على اثنتين
فاستحسنها الرئيس وأجزل جائزته ولما خرج قال له بعض الحاضرين هذه
القصيدة لعبد الحسن فقال اعلم هذا واحفظ القصيدة ثم أنشدها فقبل له لِمَ أقبلت
عليه وأجزته هذه الجائزة السنية؟ قال لم أفعل ذلك إلا لأجل البيت الذي زاده
عليها. فإنّ هذا البيت ليس لعبد المحسن بل لهذا الرجل وهو في نهاية الحسن وقد
ذكر صاحب «الليثمة» هذين البيتين لعبد الحسن :

عندي حدائق شكر غرس جودكم قد مسها عطش فليست من غرسا
تداركوها وفي أغصانها رمق فلن يعود اخضرار العود أن ييسا
واجتاز يوماً بقبر صديق له فأنشد :

عجباً لي وقد مررت على قبرك كيف اهتديت قصد الطريق
أتراني نسيت عهدك يوماً صدقوا ما لميت من صديقي
ولما ماتت أمّه وجد عليها جداً كثيراً وأنشد :

رهينة احجار بيداء ذكركِ تولت فحلت عروة التمشك
وقد كنت أبكي ان تشكّيت وإنما أنا اليوم أبكي أنّها ليس تشكّي
وهذا المعنى مأخوذ من قول المتنبي :

وشكيتي فقد السقام لأنّه قد كان لما كان لي أعضاء

مخلص الدولة صاحب قلعة شيزر

هو أبو المتوَّج مقلَّد بن نصر بن منقذ الكناني الملقَّب مخلص الدولة وكان مقلَّد في جماعة كثيرة من أهل بيته مقيمين بالقرب من قلعة شيزر عند جسر بني منقذ المنسوب إليهم وكانوا يترددون إلى حلب وحماة في تلك النواحي وكان لهم بها الدور النفيسة والأمالك المثمنة وذلك كله قبل أن ملكوا قلعة شيزر. وكان ملوك الشام يكرمونهم ويجلون أقدارهم وشعراء عصرهم يقصدونهم ويمدحونهم وكان فيهم جماعة أعيان رؤساء كرماء اجلاء علماء ولم يزل مخلص الدولة في رئاسته وجلالته إلى أن توفي سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م بحلب وحمل إلى كفرطاب. وقيل كانت وفاته سنة ٤٣٥هـ سنة ١٠٤٤م وقد رثاه القاضي أبو علي حمزة بن الرزاق بقصيدة قال فيها ابن خلكان إنها من فائق الشعر وذكرها كلها وإن كانت طويلة لكنَّها غريبة قليلة الوجود بأيدي الناس ومطلَّعها :

الاكل حي مقصداً ^(١) مقاتله	وأجل ما يخشى من الدهر عاجله
وهل يفرح الناجي السليم وهذه	خيول الردى قدامه وحيائله
لعمري الفتى أنَّ السلامة سلَّم	إلى الحين والمغرور بالعيش آمله

ومنها :

مضى قيصر لم تغن عنه قصوره	وجدل كسرى ما حمته مجادله
وما صدَّ هلكاً عن سليمان ملكه	ولا منعت منه أباه سرابله
وما نفس الانسان إلَّا خزامة	بأيدي المنايا والليالي مراحلها
سرى نعشه فوق الرقاب وطالما	سرى جودُهُ فوق الركاب ونائله
أناعيه أنَّ النفوس منوطة	بقولك فانظر ما الذي أنت قائله
فيا عين سحي لا تشحي بسائل	على ماجدٍ لا يعرف الشخ سائله
لعمرك أنَّ في الذي عنَّ كله	شريك عنان ناصح الود ناحله

(١) اقصد السهم اصاب فقتل مكانه.

ورثاه أيضاً أبو محمّد عبدالله بن الربيع الخفاجي الحلبي الشاعر المشهور بقصيدة
طويلة رائية ومدحه بأخرى حاثية، وقد أجاد فيهما ورثى أخاه أبا المغيث منقذ الذي
توفي سنة ٤٣٩هـ سنة ١٠٤٨م بقوله:

غربت خلاليك الحسان غريبة ورعى الزمان دنوها ببعاد
ذهبت كما ذهب الربيع وخلفت قيض^(١) الربيع حدادة الأكباد

العسقلاني

هو الشيخ المجيد أبو علي الحسن بن عبد الصمد العسقلاني صاحب الخطب
المشهورة والرسائل المحبرة وكان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى، ويقال إن
القاضي كان جل اعتماده على حفظ كلامه وذكره عماد الدين الأصبهاني بالخريدة
فقال المجيد مجيد كنعته قادر على ابتداع الكلام ونحته وله الخطب البديعة والملح
الصنيعة. وذكره ابن بسام في الذخيرة وسرد له جملة من الرسائل وذكر هذا
المقطوع من نظمه وهو من بعض قصيدة:

ما زال يختار الزمان ملوكه	حتى أصاب المصطفى المتخيرا
قل للأولى ساسوا الورى وتقدّموا	قدماً هلموا شاهدوا المتأخرا
تجدوه أوسع في السياسة منكم	صدراً وأحمد في العواقب مصدرا
إن كان رأي شاوروه احنفاً	أو كان بأس نازلوه عنترا
قد صام والحسنات ملء كتابه	وعلى مثال صيامه قد أفطرا
خطروا إليك فخطروا بنفوسهم	وأمرت سيفك فيهم أن يخطرا
عجبوا لحلمك أن تحوّل سطوة	وزلال خلقتك كيف عاد مكدرا
لا تعجبوا من رقة وقساوة	فالنار تقدح في قضيب أخضرا

وذكر أنه توفي مقتولاً بسجن في القاهرة سنة ٤٨٢هـ سنة ١٠٩٠م ومن
المنسوب إليه الشعر الآتي:

(١) بدل الربيع أو عوضه.

يا سيف نصري والمهند يانع وريبع أرضي والسحاب مصافُ
أخلاقك الغرّ النميرة ما لها حملت قذى الواشين وهي صلافُ

ابن حيّوس الدمشقي

هو أبو الفتيان محمّد بن سلطان بن محمّد بن حيّوس الملقّب مصطفى الدولة
الشاعر المشهور كان يدعى بالأمير لأنّ أباه كان من أمراء الغرب، وهو أحد الشعراء
الشاميين المحسنين وفحولهم المجيدين له ديوان شعر كبير، لقي جملة من الملوك
والأكابر ومدحهم وأخذ جوائزهم وكان منطلقاً إلى بني مرداس أصحاب حلب وله
فيهم القصائد الأنثية. وكان قد مدح محمود بن نصر بن مرداس فأجازه ألف
درهم فلما مات وقام ولده نصر مقامه قصده ابن حيّوس بقصيدته الرائية يمدحه فيها
ويعزيه عن أبيه ومما قاله فيها:

تباعدت عنكم حرفة لا زهادة وسرت إليكم حين مسني الضرُّ
فلاقيت طل الأمن ماله حاجز يصدد باب العز ما دونه سترُ
فجاد ابن نصر لي بألف تصرمت وإنّي عليم أن سيخلفها نصرُ
لقد كنت مأموراً لترجى لمثلها فكيف وطوعاً أمرك النهي والأمرُ

ولما فرغ من انشادها قال الأمير نصر والله لو قال عوض قوله سيخلفها
سيضعفها لا ضعفها له وأعطاه ألف دينار. وكان قد اجتمع على باب الأمير نصر
جماعة من الشعراء وامتدحوه وتأخّرت صلاته عنهم فسيروا إليه ورقة كتبوا عليها:

على بابك المحروس منا عصابة مفاليس فانظر في أمور المفاليسِ
وقد قنعت منك الجماعة كلها بعشر الذي أعطيته لابن حيّوسِ
وما بيننا هذا التفاوت كله ولكن سعيد لا يقاس بمنحوسِ

فلما وقف الأمير على هذه الأبيات أطلق لهم مائة دينار وقال والله لو قالوا
بمثل الذي أعطيته لابن حيّوس لأعطيتهم مثله. ومن محاسن شعر ابن حيّوس

القصيدة اللامية التي مدح بها أبا الفضائل سابق بن محمود وهو أخو الأمير نصر المذكور ومما قاله:

طالما قلت للمسائل عنكم واعتمادى هداية الضلال
إن ترد علم حالهم عن يقين فالفهم في مكارم أو نزال
تلق بيض الأعراض سود مثار النقع خضر الأكفاف حمر النصال
وكان ابن حيوس قد أثرى وحصلت له نعمة ضخمة من بني مرداس فبنى داراً
بحلب وكتب على بابه من شعره:

دار بنيناها وعشنا بها في نعمة من آل مرداس
قوم نفوا بؤسى ولم يتركوا عليّ للأيام من باس
قل لبني الدنيا ألا هكذا فليصنع الناس مع الناس
وقد ولد ابن حيوس سنة ٣٩٢هـ سنة ١٠٠٢م بدمشق وتوفي سنة ٤٧٣هـ
سنة ١٠٨١م وهو غير ابن حبوس الشاعر المغربي وهو بالبلاء الموحدة الخفقة وابن
حيوس بالبلاء المشددة وقد تصحّف على كثيرين اسم أحدهما بالآخر.

ابن الخياط الدمشقي

هو أبو عبدالله أحمد بن محمّد التغلبي المعروف بابن الخياط الشاعر الدمشقي
الكاتب المجيد ولد بدمشق سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م وتوفي بها سنة ٥١٧هـ سنة
١١٢٤م وطاف البلاد وامتدح الناس ودخل بلاد العجم وامتدح بها ولما اجتمع بابن
حيوس أستاذة بحلب وعرض عليه شعره فتشأه وقال قلماً نشأ ذو صناعة ومهر
فيها إلا وكان دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه . قال ابن خلكان لا حاجة
إلى ذكر شيء من شعره لشهرة ديوانه ولو لم يكن إلا القصيدة البائية لكفاه فكيف
وأكثر قصائده غرر ومطلع القصيدة المذكورة:

خذنا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد رّياها يطير بلبه
وإياكما ذاك النسيم فائّه متى هبّ كان الوجد أيسر خطبه

وهي طويلة ومن محاسن شعره:

أَتَظُنُّنِي لَا أَسْتَطِيعُ أَحِيلُ عَنْكَ الدَّهْرُ وَدِي
مَنْ ظَنُّ أَنْ لَا بَدْ مِنْهُ فَانْ مِنْهُ أَلْفُ بَدْ

وكان ابن الخياط تلميذاً لابن حيوس وقد قصد حلب سنة ٤٧٢ هـ سنة ١٠٨٠ م وبها وقتل أستاذه ابن حيوس فكتب إليه:

لَمْ يَبْقَ عِنْدِي مَا يَبَاعُ بِدَرْهَمٍ وَكَفَّاكَ مِنِّي مَنْظَرِي عَنْ مَخْبَرِي
إِلَّا بِقِيَّةِ مَاءٍ وَجْهَ صَنْتِهَا عَنْ أَنْ تَبَاعَ وَأَيْنَ أَيْنَ الْمُشْتَرِي
فَقَالَ ابْنُ حَيُوسَ وَلَوْ قَالَ: أَنْتَ نَعَمْ الْمُشْتَرِي. لَكَانَ أَحْسَنَ.

عد ٨٠٠

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

البستي الشاعر

هو أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي الشاعر المشهور صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس البديع التأسيس. فمن أقواله البديعة: من أصلح فاسده أرغم حاسده، من أطاع غضبه أضاع أدبه، عادات السادات سادات العادات، من سعادة جدك وقوفك عند حدك، أجهل الناس من كان للإخوان مذلاً وعلى السلطان مدلاً، حد العفاف الرضا بالكفاف، ما لخرق الرقيع ترقيع. ومن نادر شعره قوله:

إِنْ هَزَ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيَعْلَمَهَا انْسَاكَ كُلُّ كَمِي هَزَ ذَابِلُهُ
وَإِنْ أَقْرَأَ عَلَى رَقٍّ أَنْامِلُهُ أَقْرَأَ بِالرَّقِّ كِتَابَ الْأَنَامِ لَهُ
وَلَهُ أَيْضًا:

فَقَدْ يَلْبَسُ الْمَرْءُ خَزَّ الثِّيَابِ وَمِنْ دُونِهَا حَالَةُ مَضْنِيَّةٍ
كَمَنْ يَكْتَسِي خَدَهُ حَمْرَةً وَعَلَتْهَا وَرَمَ فِي الرِّيَّةِ

وله أيضاً:

إذا تحدثت في قوم لتؤنسهم بما تحدث من ماض ومن آت
فلا تعد لحديث أن طبعهم موكل بمعادة المعادات
وله:

تحمل أخاك على ما به فما في استقامته مطمئ
وانى له خلق واحد وفيه طبائعه الأربع
وقد توفي سنة ٤٠٠ هـ وقيل سنة ٤٠١ هـ وهي سنة ١٠١٠ أو سنة ١٠١١ م.

الرئيس ابن سينا

أتخفنا أبو الفرج ابن العبري (في كتابه مختصر تاريخ الدول) بترجمة ابن سينا لنفسه قال: «إن أبا رجلاً من أهل بلخ وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور واشتغل بالتصرف في قرية خرمتين وتزوج أمي من قرية يقال لها افشنة وولدت منها بها، وولد أخي ثم انتقل إلى بخارى، وأحضرت معلم القرآن والأدب وكملت العشر من العمر وقد أتيت على القرآن وعلى كثير من الأدب حتى كان يقضى مني العجب. وأخذ والدي يوجهني إلى رجل كان يبيع البقل ويقوم بحساب الهند حتى اتعلمه منه ثم جاء إلى بخارى أبو عبدالله الناطلي (ويروى البابللي والنايلي) وكان يدعي الفلسفة وأنزله إلى دارنا رجاء تعلمي منه فقرأت ظواهر المنطق عليه، وأما دقائقه فلم يكن عنده منها خبرة ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسي وأطالع الشروح وكذلك كتاب أقليدس فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ثم توليت حل الكتاب بأسره ثم انتقلت إلى المجسطي وفارقي الناطلي. ثم رغبت في علم الطب وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه وتعهدت المرضى فانفتح علي من أبواب المعالجات المكتسبة من التجربة ما لا يوصف وأنا في هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة. ثم توفرت على القراءة سنة ونصفاً وكلما كنت أتخير في مسألة ولم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل حتى فتح لي المغلق منه والمتعسر. وكنت أرجع بالليل إلى داري واشتغل بالقراءة والكتابة فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ريثما تعود إلي

قوتي ثم أرجع إلى القراءة ومتى أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها حتى أن كثيراً منها انفتح لي وجهها في المنام، ولم أزل كذلك حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي ثم عدت إلى العلم الإلهي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة، فما كنت أفهم ما فيه وألتبس عليّ غرض واضعه حتى أعدت قراءته أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه. وآيست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وحضرت يوماً وقت العصر في الوراقين ويبد دلال مجلّد ينادي عليه فعرضه عليّ فرددته رد متبرم معتقد أن لا فائدة في هذا العلم، فقال لي اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعك بثلاثة دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه، فاشتريته فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، فرجعت إلى بيتي وأسعرت قراءته فانفتح عليّ أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه قد صار لي على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت بشيء على الفقراء شكراً لله تعالى. فلما بلغت ثماني عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها وكنت إذ ذاك للعلم أحفظ ولكنه اليوم معي أنضج وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء ثم مات والدي وتصرفت بي الأحوال وتقلّدت شيئاً من أعمال السلطان ودعنتي الضرورة إلى الارتحال من بخارى والانتقال عنها إلى جرجان، وكان قصدي الأمير قابوس فأتفق في أثناء هذا أخذ قابوس وحبسه وموته. ثم مضيت إلى راهستان ومرضت بها مرضاً صعباً وعدت إلى جرجان وانشئت في حالي قصيدة فيها البيت القائل:

لما عظمت فليس مصر واسعي لما غلا ثمني عدمت المشتري

قال أبو عبيدة الجورجاني إلى هاهنا انتهى ما حكاه الشيخ عن نفسه. وفي هذا الموضع أذكر أنا بعض ما شاهدت من أحواله في حال صحبتي له وإلى حين انقضاء مدته. قال في مدة مقامه في جرجان صنف أوّل «القانون» و«مختصر المجسطي» وغير ذلك ثم انتقل إلى الري واتّصل بخدمة السيدة وابنها مجد الدولة، ثم خرج إلى قزوین ومنها إلى همذان فاتّصل بخدمة كدبانويه (ويروى كربانويه) وتولى النظر في أسبابها، ثم سألوه تقلّد الوزارة فتقلّدها، ثم اتّفق تشويش العسكر عليه واشفاقهم منه على أنفسهم فكيسوا داره وأخذوه إلى الحبس وأخذوا جميع ما كان يملكه، وساموا الأمير شمس الدولة قتله فامتنع منه وعدل إلى نفيه عن الدولة طلباً لمرضاتهم، فتواری الشيخ في دار بعض أصدقائه أربعين يوماً فعاد الأمير طلبه وقلده الوزارة ثانياً. ولما توفي شمس الدولة وبويع ابنه طلبوا أن يستوزر الشيخ فأبى

عليهم وتوارى في دار أبي غال العطار وهناك أتى على جميع الطبيعيات والالهيات ما خلا كتابي الحيوان والنبات من كتاب الشفاء، وكاتب علاء الدولة (أمير أصفهان) سراً يطلب المسير إليه فأتهمه تاج الملك (أمير همذان) بمكاتبتة وأنكر عليه ذلك وحث في طلبه فدل عليه بعض أعدائه فأخذوه وادوه إلى قلعة يقال لها بروجان وأنشأ هناك قصيدة فيها:

دخولي باليقين كما تراه وكل الشك في أمر الخروج
وبقي فيها أربعة أشهر ثم أخرجه وحملوه إلى همذان ثم خرج منها متنكراً وأنا وأخوه وغلامان معه في زي الصوفية إلى أن وصلنا إلى أصفهان فصادف في مجلس علاء الدولة الاكرام والاعزاز الذي يستحقه مثله، وصنّف هناك كتباً كثيرة قال وكان الشيخ قويّ القوى كلّها . . . وكان سبب موته قولنج عرض له، ولحرصه على برئه حقن نفسه في يوم واحد ثمان مرات فتقرّح بعض امعائه وظهر به سجع وعرض له الصرع الذي قد يتبع القولنج وصار من الضعف بحيث لا يقدر على القيام، فلم يزل يعالج نفسه حتى قدر على المشي لكنه مع ذلك كان لا يستحفظ، ويكثر التخليط في أمر المعالجة ولم يبرأ من العلة كل البرء. ثم قصد علاء الدولة في همذان وسار معه الشيخ فعاودته في الطريق تلك العلة إلى أن وصل إلى همذان وعلم أنّ قوته قد سقطت وأنها لا تفي بدفع المرض فأهمل مداواة نفسه وأخذ يقول المدير الذي كان يدبرني عجز عن التدبير الآن فلا تنفع المعالجة، وبقي على هذا أياماً ثم انتقل إلى جوار ربه ودفن بهمذان وكان عمره ثمانياً وخمسين سنة وكان موته سنة ٤٢٨ هـ سنة ١٠٣٨ م وقال بعضهم فيه:

ما نفع الرئيس من حكمه الطب ولا حكمه على النيرات
ما شفاه الشفاء^(١) من ألم الموت ولا نجاه كتاب النجاة^(٢)

قال ابن خلكان كان ابن سينا نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه وصنف كتاب الشفاء في الحكمة والنجاة والاشارات والقانون وغير ذلك ما يقارب مئة مصنف ما بين مطول ورسالة في فنون شتى، وله رسائل بديعة منها رسالة حي بن

(١) الشفاء كتاب جليل من تأليف ابن سينا.

(٢) النجاة كتاب آخر له.

يقظان، ورسالة سلامان وابسال، ورسالة الطير وغيرها. وتقدّم عند الملوك وخدم
علاء الدين بن كالويه وعلت درجته عنده وانتفع الناس بكتبه وهو أحد فلاسفة
المسلمين وله شعر فمن ذلك قوله في النفس:

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل مقلة عارِف وهي التي سمرت ولم تتبرقع
وصلت على كرهٍ إليك ورُبما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
أنفت وما ألفت فلماً واصلت ألقت مجاورة الخراب البلقع

إلى آخر هذه القصيدة المشهورة التي شطرها الطيب الذكر المطران جرمانس
فرحات الماروني وتراها في ديوانه المشهور. وقال الشيخ كمال الدين بن يونس إن
مخدوم ابن سينا سخط عليه واعتقله في السجن وكان ينشد:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال وفي السجن مات أخس الماتِ
فلم يشف ما نابه بالشفاء ولم ينبُج من موته بالنجاة

وقد امتدحه المؤرخون الأفرنج وما قيل فيه في معجم التاريخ والجغرافية لبوليه أنه
أتقن الفلسفة وكان أوّل من تعمّق بدرس كتب أرسطو وعرف الناس بها وألف
مقالات في المنطق وفي ما وراء الطبيعة Metaphisique معتمداً على كتب أرسطو
ومن آرائه أن موته كان سنة ١٠٣٦ وأن منزله عند العرب منزلة ابوقراط وأرسطو
عند اليونان، واستمرّ كتابه «القانون» قروناً كثيرة بمنزلة أساس للتعليم في آسيا وفي
أوروبا أيضاً. وقد طبعت كتبه في العربية برومية سنة ١٥٩٣م وقد ترجم منها إلى
اللاتينية كتاب القوانين والنصائح الطبية في البندقية سنة ١٤٨٣م ثم سنة ١٥٦٤م
ثم سنة ١٦٠٨م وطبعت مؤلفاته الفلسفية سنة ١٤٩٠م وقد ترجم فتيه إلى
الفرنسية كتابه في المنطق وطبعه في باريس سنة ١٦٥٨م.

الثعالبي صاحب اليتيمة

هو أبو منصور عبد الملك بن محمّد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري. قال ابن
بسام صاحب الذخيرة في حقه كان في وقته راعياً بلغات العلم وجامع شتات النشر

والنظم رأس المؤلفين في زمانه وأمام المصنفين بحكم اقارنه، سار ذكره سير المثل وضربت إليه اباط الابل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغرب طلوع النجم في الغياهب وتأليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع. وأكثر راو لها وجامع من أن يستوفيهما حد أو وصف أو يوفي حقوقها نظم أو وصف وذكر له طرفاً من النثر وأورد شيئاً من نظمه فمن ذلك ما كتبه إلى الأمير أبي الفضل الميكالي:

لك في المفاخر معجزات جمة أبداً لغيرك في الورى لم تجمع
بحران بحر في البلاغة شأنه شعر الوليد وحسن لفظ الأصمعي
كالنور أو كالسحر أو كالبدو أو كالوشى في برد عليه موشع
وله من التأليف «يتيمة الدهر» في محاسن أهل العصر وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها وفيها يقول أبو الفتوح نصر الله بن قلاص الاسكندري الشاعر المشهور:
أبيات أشعار اليتيمة أبكار أفكار قديمه
ماتوا وعاشت بعدهم فلذلك سميت اليتيمة

وله أيضاً كتاب «فقه اللغة» (وقد طبعه المرحوم الكونت رشيد الدحداح بباريس) وسحر البلاغة وسر البراعة ومن غاب عنه المطرب ومؤنس الوحيد وشيء كثير جمع فيه أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم وفيها دلالة على كثرة اطلاعه وله أشعار كثيرة. وكانت ولادته سنة ٣٥٠ هـ سنة ٩٦٢ م وتوفي سنة ٤٢٩ هـ سنة ١٠٣٨ م والثعالبي نسبة إلى خياطة جلود الثعالب لأنه كان فزاً.

أبو اسحق الشيرازي

هو الشيخ أبو اسحق ابراهيم بن علي الشيرازي الفيروزبادي الملقب جمال الدين سكن بغداد وتفقه على جماعة من الأعيان، وصحب القاضي أبا الطيب الطبري كثيراً وانتفع به وناب عنه في مجلسه، وصار أمام وقته ببغداد وتولى مدرسة نظام الملك بها ولم يزل بها إلى أن مات، وصنف التصانيف المفيدة منها المذهب والتنبيه في الفقه واللمع وشرحها في أصول الفقه والنكت في الخلاف والمعونة والتلخيص في الجدل وله الشعر الحسن. ومنه:

سألت الناس عن خلٍّ وفيّ فقالوا ما إلى هذا سبيلُ
تمسك ان ظفرت بوذٍّ حيّ فان الحر في الدنيا قليلُ
وقال فيه عاصم الشاعر البغدادي:

تراه من الذكاء نحيف جسم عليه من توقده دليلُ
إذا كان الفتى ضخماً المعالي فليس يضره الجسم النحيلُ

ولد سنة ٣٩٣ هـ سنة ١٠٠٣ م ١٠٠٢ م وتوفي سنة ٤٧٦ هـ ١٠٨٤ م ورثاه أبو القاسم عبدالله بن ناقياً بقوله:

أجرى المدامع بالدم المهرق خطب أقام قيامة الآماق
ما للليالي لا نلفّ شملها بعد ابن بجدها أبي اسحاق
إن قيل مات فلم يمت من ذكره حي على مرّ الليالي باق

الفصل الثالث

ملوك الروم إلى آخر هذا القرن والخلفاء العباسيين فيه

قد ذكرنا تراجم الملوك الرومانيين إلى هرقل الملك لأنهم كانوا يلون سورية ثم أضربنا عن ذكر تراجمهم لانقطاع ولايتهم عليها معتاضين بذكر تراجم الخلفاء الذين تولوا هذه البلاد. على أنه كثيراً ما دعانا مساق التاريخ إلى ذكر بعضهم وإيراد أخبار الحروب والعلاقات التي كانت بين الخلفاء وبينهم، ولذلك يشترق قراء تاريخنا إلى الاطلاع على أخبارهم ولو موجزة، وعلى سني ملكهم ليكونوا أكثر اطلاعاً في معرفة التاريخ. ولهذا نورد في العدد التالي أسماءهم وسني ملكهم وإشارة إلى شيء من أخبارهم على سبيل فهرست مبسوط قليلاً. قد تحتم علينا في تاريخ هذا القرن الحادي عشر أن نعدل عن ذكر الخلفاء العباسيين إلى ذكر الخلفاء العلويين الفاطميين الذين تولوا سورية في هذا القرن فتكملة لتاريخ العباسيين نفرد

لهم جزءاً من هذا الفصل نذكر به من قام منهم بالخلافة بعد من ذكرناهم قبلاً
تعميماً للفائدة .

عد ٨٠١

ملوك الروم من بعد هرقل إلى آخر القرن الحادي عشر

بعد وفاة هرقل ملك الروم سنة ٦٤١م خلفه ابنه قسطنط الثاني وعمره اثنتا عشرة سنة وأخذ منه معاوية الخليفة أعمالاً كثيرة من ملكه ومقتة شعبه لرذائله، فترك قسطنطينية وأقام في صقلية فقتله أحد أعوانه في الحمام بسيراكوزا سنة ٦٦٨م وخلفه ابنه قسطنطين الرابع الملقب اللحياني لطول لحيته وشاركه في الملك أخواه طيبار وهرقل فقتلها واستبد بالملك، وحاربه العرب وحصروا قسطنطينية فلم يقووا عليها، وعاون على حرم بدعة المشيئة الواحدة في الجمع السادس العام سنة ٦٨٠ وتوفي سنة ٦٨٥م . وخلفه تلك السنة ابنه يوستينان الثاني وعمره ست عشرة سنة ويلقب بالأخرم لجذع أنفه، وثار به مسودوه سنة ٦٩٤ وجذعوا أنفه ونفوه إلى تراسة وبقي منفياً عشر سنين دبر الملك فيها لاونس ويسمى لاون، ثم طيبار ابسيما ثم رجع يوستينان إلى ملكه سنة ٧٠٥م بمعاونة تريانيوس ملك البلغار ومات قتيلاً سنة ٧١١م .

وقام بالملك بعد يوستينان سنة ٧١١م فيليبك ويسمى وردان وبردان، وهو أرمني ترقى في المناصب في قسطنطينية واقتحم قسطنطينية سنة ٧١١م، فدخلها دون معارض واستوى على أريكة الملك ومقتة شعبه لتشيعة لبدعة المشيئة الواحدة فثل عرشه ونفي سنة ٧١٣م ومات في منفاه، وخلفه في السنة المذكورة أنسطاس الثاني. وكان كاتباً لسالفه وأحسن السيرة في شعبه ونظم الجندية وحاربه المسلمون ثم أرغمه توادوسيوس الثالث الآتي ذكره على أن يعتزل الملك ويترهب سنة ٧١٦م، ثم حاول استرداد ملكه وعلى عرشه لاون الأيسوري فسلمه بعض الخونة إلى هذا الملك فقطع رأسه سنة ٧١٩م .

وخلف توادوسيوس الثالث أنسطاس الثاني بعد اعتزاله سنة ٧١٥م، وكان توادوسيوس جاني الخراج في بيتيليا فنأدى به الجنود في رودس ملكاً فأتى إلى

قسطنطينية وأكره أنسطاس على الاعتزال لكنه اضطرَّ هو أن يترك الملك إذ نازعه أباه لاون الأيسوري سنة ٧١٧م وأن يتَّخذ طريق الرهبانية .

وأقام بالملك لاون الثالث الأيسوري المذكور سنة ٧١٧م وكان قائداً لجيش أنسطاس المذكور وحارب المسلمين وهزمهم عن قسطنطينية، ولكنَّهم استحوذوا في أيامه على مدن كثيرة في الكبادوك وبنطس واشتهر بتأييده بدعة محاربي الصور واضطهاده الكاثوليكين، وعزل جرمانس بطريك قسطنطينية وقد حرمه البابا غريغوريوس الثاني ثمَّ غريغوريوس الثالث وتوفي سنة ٧٤١م .

وخلفه بعد وفاته ابنه قسطنطين الخامس ويلقَّب بالزبلي لتغوطه بماء تعميده وتشيع لبدعة محاربي الصور واضطهد الكاثوليكين وزاد عدد الشهداء في الكنيسة، ومات في حملة على البلغار سنة ٧٧٥م . وخلفه ابنه لاون الرابع وكان مشايعاً لمحاربي الصور وحارب العرب، واستمرَّ على منصة الملك خمس سنين إلى سنة ٧٨٠م وخلفه ابنه قسطنطين السادس وكان عمره حينئذٍ عشر سنين فديرَت أمه ايرينا الملك وصرفت عنايتها إلى استئصال بدعة محاربي الصور وإلى عقد المجمع النيقاوي الثاني العام سنة ٧٨٧م وصالحت هرون الرشيد صلحاً مذللاً للمملكة. وحاول ابنها قسطنطين سنة ٧٩٠م أن يتملَّص من سلطتها ويستبد في الملك فحجرته في قصره واثارت من الثائرين معه، ولكن ثارت عليها ثورة أخرى فنفيت واستمرَّت في المنفى خمسة عشر شهراً، ثمَّ صالحت ابنها ثمَّ كادت عليه فسملت عينيه واستبدَّت بالملك سنة ٧٩٧م، وحاولت عقد محالفة مع كرلس الكبير ملك المغرب. ثمَّ نهضت عليها عصابة فخلعتها عن الملك سنة ٨٠٢م، وملكت نيقوفور فنفاها وألجئت في منفاها أن تعيش يعمل يديها إلى أن ماتت سنة ٨٠٣م وأمَّا ابنها قسطنطين السادس فكان قد مات سنة ٧٩٧م .

أمَّا نيقوفور فهو الأوَّل بهذا الاسم فملك سنة ٨٠٢م كما مرَّ وعقد معاهدة مع كرلس الكبير ملك المغرب عينت فيها تخوم مملكتي المشرق والمغرب، وانتصر عليه هرون الرشيد وأرغمه على دفع جزية سنوية، وكان ميالاً لمحاربي الصور والمناوئين ثمَّ قتله البلغاريون سنة ٨١١م وخلفه حينئذٍ ستوراق ولكنه لم يملك إلاَّ شهرين وثل عرشه ميخائيل الأوَّل كوروبالات (وهو وصف لولي قصور الملوك) وحجب الروم إليه باحسانه إلى أرامل الجنود الذين قتلوا في الحرب مع المسلمين والبلغار وإلى أولادهم

ومنع محاربي الصور عن تعديهم على الكاثوليكين، ولكن انتصر عليه البلغاريون واضطروا أن يعود إلى قسطنطينية لتخميد ثورة حدثت بها، وأمر على الجنود في بلغارية لاون الأرمني، فحمل الجنود على أن ينادوه ملكاً فملكوه سنة ٨١٣م ونفي الملك ميخائيل، فأتخذ الزي الرهباني وعاش راهباً إلى سنة ٨٤٦م. وأما لاون الأرمني فانتصر على البلغاريين وكان مشايحاً لمحاربي الصور وعني بإصلاح النظام العسكري ومنع من بيع المناصب المدنية والجندية وقتل ليلة عيد الميلاد سنة ٨٢٠م، وخلفه في الملك ميخائيل الثاني ويلقب بالتمام وكان عزيزاً عند الملك لاون الأرمني وسماه بطريكاً، لكنه تغير عليه لشكوى فحبسه ولما قتل الملك خرج من محبسه واستوى على عرش الملك، وكان ظالماً للكاثوليكين ضعيفاً مع أعدائه أخذ المسلمون منه اكريت وصقلية وكالابريا وتوفي سنة ٨٢٩م وخلفه حينئذ توافيل ابنه وتشيع لمحاربي الصور وكان في حرب دامية مع المعتصم بالله الخليفة العباسي، ودمر زبطره مدينة مولد هذا الخليفة، فدمر الخليفة عمورية مدينة مولد هذا الملك وتوفي سنة ٨٤٢م. وخلفه تلك السنة ابنه ميخائيل الثالث الملقب بالسكير وكان صغيراً فديرته أمه الملكة توادورا واستحوذ عليه خاله برداس حتى حمله على أن يجافي أمه ويضطهدها، لكنه تغير على برداس واماته وحصر الروسيون قسطنطينية في أيام هذا الملك فدفعهم عنها سنة ٨٦٦م، وشارك في الملك باسيلوس المكدوني فأهلكه وملك مكانه سنة ٨٦٧م. وكان في أيامه تغلب فوتيوس على بطريركية قسطنطينية كما مر.

أما الملك باسيل الأول فكان مكدونياً وكان والداه فقيرين فتزلف إلى الملك ميخائيل الثالث حتى شاركه في الملك كما مر، وشعر أن الملك يريد قتله فعاجله بانتزاع حياته والخلافة له. وحارب المسلمين وأخذ صقلية منهم وطرد فوتيوس من كرسي قسطنطينية وأعاد إليه اغناطيوس لكنه رد فوتيوس إلى هذا الكرسي بعد وفاة اغناطيوس، وله مقالة في صناعة تدير الملك وضعها لابنه لاون السادس ومجموعة للقوانينكملها ابنه وتعرف بالباسيلية وشارك ابنه قسطنطين السادس في الملك سنة ٨٦٨ إلى سنة ٨٧٨ ثم توفي سنة ٨٨٦م. وخلف باسيل ابنه لاون السادس ويلقب بالفيلسوف والحكيم سنة ٨٨٦م وعزل فوتيوس عن كرسي قسطنطينية وحارب البلغاريين سنة ٨٨٩م، وكانت له حروب مع العرب فاستردوا صقلية منه ودمروا مدن آسيا الصغرى وجزر الأرخيبيل واستحوذوا على سالونيك سنة ٩٠٤م وغزقوا الأسطول الرومي سنة ٩١١م. وله من التصانيف كتاب خطب وتنقيح

شرائع يوستينيانس وزيادته عليها شرائع الملوك الذين ملكوا بعده وقوانين نظام الجندية وتوفي سنة ٩١١م وخلفه في السنة المذكورة أخوه الملك اسكندر ابن الملك باسيل المكدوني لكنّه لم يملك إلا سنة واحدة وتوفي سنة ٩١٢م .

وقام في الملك بعد اسكندر قسطنطين السابع ابن لاون السادس الحكيم ويسمى برفيروجانت وتأويلها المولود بالبرفير لأنّ القابلة كانت تقبل بعض أولاد الملوك بالبرفير أو تفرش غرفة الولادة بالبرفير فيسمى من ولدوا كذلك برفيروجانت. ولما ملك قسطنطين هذا كان عمره احدى عشرة سنة فدبرت أمه زوا الملك ثمّ غصب الملك منه رومانس الأوّل الأرمني سنة ٩١٩م ولم يبق لقسطنطين إلا اسم ملك وشارك رومانس في الملك أبنائه خريستوف وأسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك خمساً وعشرين سنة أعني إلى سنة ٩٤٤م، فأغرى قسطنطين السابع ابني رومانس أسطفانس وقسطنطين الثامن (لأنّ خريستوف كان قد مات) بالمناسبة لأبيهما فثارا به وثلاً عرشه وحبساه في دير حيث مات سنة ٩٤٨م، وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه سنة ٩٤٥م مستبدّاً به واستتبّ له إلى سنة ٩٥٩م حين مات مسموماً على ما يقال. ولهذا الملك تصانيف أهمّها مقالة مشبعة في تدبير الملك وترجمة الملك باسيليوس المكدوني، وكتاب في مناصب المملكة ورتب الدولة، وكتاب في التاريخ إلى غير ذلك. وقد طبع الأب مين كتبه في جملة كتب المؤلفين اليونان .

وخلف رومانس الثاني قسطنطين السابع سنة ٩٥٩م وهو حفيد رومانس الأوّل ابن ابنه قسطنطين الثامن ولم يكن له ما يذكر إلاّ اعتكافه على ملاذه واشتغاله بما لا فائدة منه للملك على أنّه كان كان أمير جنده نيقفور فوقاً فأخذ اكرت وصقلية من يد المسلمين وافتتح حلب وغيرها من مدن سورية كما قدمنا ذكره. وكانت مدة ملك رومانس أربع سنين لأنّه توفي سنة ٩٦٣م. وقيل إنّ امرأته توفان دسّت له سمّاً مات به فاختر للملك بعده نيقفور فوقاً برضى توفان أرملة رومانس المذكور التي تزوجها، وكان لها من رومانس ابنان باسيليوس وقسطنطين التاسع فشاركهما في الملك بل كان يقول إنّّه وصيهما لصغر سنهما، ولكن كان الأمر له وهو المالك حقيقة. وقد غزا سورية وأخذ أنطاكية وغيرها وكانت مدة ملكه ست سنين وكادت عليه توفان فقتلته على يد أحد عشاقها يوحنا سمسق سنة ٩٦٩م. وبعد مقتل نيقفور فوقاً نودي ييوحنا سمسق ملكاً فأعلن كسالفه أنّه لا يريد أن

يكون إلا وصياً على الملكين باسيلوس الثاني وقسطنطين التاسع ابني رومانس الثاني أو شريكاً لهما في الملك، وكان قبلاً قائداً في جيش المشرق. وكان الملك رومانس الثاني أغراه بقتل نيقفور فوقاً سالفه فلم يقتله بل عاونه على أخذ الملك سنة ٩٦٣م ولكن عزله فوقاً عن منصبه ونفاه. ففي سنة ٩٦٩م اتفق مع توفان الملكة وقتل فوقاً وملك مكانه، ومن أعماله أخذه بلغاريا من يد الروسين سنة ٩٧١م، وافتتاحه عدة مدن في سورية في سنة ٩٦٢م وسنة ٩٧٣م وسنة ٩٧٤م، وأصابه مرض في كيليكيا سنة ٩٧٥م فمات به ومعنى سمسق بالأرمنية القصير أو الصغير.

وبعد وفاة يوحنا سمسق استبد الملكان باسيلوس الثاني وقسطنطين التاسع ابنا رومانس الثاني بالملك سنة ٩٧٦م ومن أعمالهما انتصارهما على البلغاريين وأخذهما منهم خمسة عشر ألف أسير ١٠١٣م وضم بلغاريا إلى مملكتهما. وتوفي باسيلوس الثاني سنة ١٠٢٥م واستتب الملك لأخيه قسطنطين التاسع وحده إلى أن توفي سنة ١٠٢٨م.

وخلف رومانس الثالث قسطنطين التاسع ١٠٢٨م وكان قسطنطين قد اختاره للملك معه وزوجه بابنته زوا وحارب الأتراك سنة ١٠٣٠م فظهروا عليه وأساء سيرته في مسوديه واعتسف وجار فعاملت عليه امرأته زوا فقتل في حمامه سنة ١٠٣٤م فخلفه الملك ميخائيل الرابع ويسمى البفلاغوني لأنه ولد بفلاغونية ولم تكن له قبل ملكه وجاهة لكن الملكة زوا كانت تحبه واستعملته في قتل زوجها رومانس الثالث ورقته إلى عرش الملك ولم يكن أهلاً له، فوكل تدبير المملكة إلى الخصي يوحنا أخيه. وحارب ميخائيل مع ذلك العرب والبلغاريين وكان له بعض النصر، وفي سنة ١٠٤١م اعتزل الملك وأخذ الطريقة الرهبانية ومات تلك السنة.

وخلفه ابن أخيه ويسمى ميخائيل الخامس ويلقب قلفط واختشى مكائد زوا الملكة عليه فنفاها، وهاج الشعب عليه فحجزوا عليه في دير وسملوا عينيه ونادوا بزوا ملكة مع اختها توادورا، فعقدت زيجة ثالثة مع قسطنطين العاشر سنة ١٠٤٢م فترك لها ازمة الملك إلى أن توفيت سنة ١٠٥٢م. ودبر قسطنطين الملك بعد وفاتها سنتين أعني إلى سنة ١٠٥٤م وترك السلاجقة تعظم قوتهم ويملكون البلاد إلى قرب قسطنطينية. ومات سنة ١٠٥٤م واستبدت تودورا أخت زوا بالملك وأحسن سياسة شعبها فمدحوها وتوفيت سنة ١٠٥٦م وبها انقضت سلالة المكدونيين في ملوك الروم.

وخلفها الملك ميخائيل السادس سنة ١٠٥٦م ويلقب بالحربي وكان من قادة الجيش فاختارته توادورا خلفاً لها ولرغبته في أن يؤيد رجال الندوة والشعب ولايته اختار عمال النواحي وأعوان الملك منهم، فحقن عليه أصحاب المناصب الجندية فثاروا به وخلعوه وملكوا اسحق كومنانس ١٠٥٧م ومات ميخائيل غفلاً. أمّا اسحق كومنانس فكان ابن عمانوئيل كومنانس والي المشرق، وبعد ارتقائه سدة الملك سنة ١٠٥٧م أجرى بعض الاصلاحات وأراد أن يشترك الاكليريكيون في المناصب المدنية واعتراه مرض الرئة فاعتزل الملك وتخلي عنه إلى قسطنطين دوكاس سنة ١٠٥٩م وانفرد في دير حيث مات سنة ١٠٦١م.

واستمر قسطنطين دوكاس (اسم أسرته) وهو الحادي عشر بهذا الاسم على منصبة الملك ثماني سنين أعني من سنة ١٠٥٩م إلى سنة ١٠٦٧م، وفي أيامه أكثر الأتراك والاونغاريون من السطو على المملكة، وأتمّ النرمنديون استيلاءهم على كالابريا (بجنوب إيطاليا) التي كانت لم تزل من أعمال مملكة الشرق. وتوفي سنة ١٠٦٧م وخلفه فيها ابنه ميخائيل السابع ونازعه الملك رومانس ديوجان الذي كان قد تزوج بادوكسيا أم الملك ميخائيل أرملة قسطنطين دوكاس، واستبد بالملك مع أودوكسيا سنة ١٠٦٨م. ولكن أسر الأتراك رومانس الرابع المذكور سنة ١٠٧١م فعاد ميخائيل السابع إلى ملكه واستمر على منصبته إلى سنة ١٠٧٨م حين خلعه عنه نيقفور أحد قادة جيشه وحجره في دير ثم صار أسقفاً على أفسس.

وقام بالملك بعد خلع ميخائيل السابع نيقفور بوتونيان وهو الثالث بهذا الاسم من ملوك الروم ولكن نازعه الملك قائد آخر اسمه نيقفور أيضاً ويعرف بنيقفور بريان، ونادى به الجيش بايليريا ملكاً سنة ١٠٨٠م، وسمي نيقفور الرابع فسير نيقفور الثالث الكسيس كومنانس قائد جيشه لمحاربة مزاحمه فانتصر الكسيس على نيقفور الرابع وأسره وسمل عينيه. وخاف الكسيس أن يعامله الملك بما عامل به مزاحمه فجعل الجيش يسميه ملكاً، وخلع نيقفور الثالث وحجره في دير سنة ١٠٨١م.

وأما الكسيس فهو ابن يوحنا كومنانس أخي الملك اسحق كومنانس المذكور آنفاً، وغضب الملك نيقفور الثالث سنة ١٠٨١م كما رأيت وظهر على السلجوقيين، ولكن انتصر عليه النرمنديون، وقد عاون سفراؤه في أوروبا كثيراً على حشد الجيش لانتفاذ الأرض المقدسة على أنه بعد أن تبنى كودفروا دي بوليون مكر بالافرنج بنية

وأنطاكية، وأتخذ زحفهم إلى الشرق وسيلة ليسترد إلى مملكته بعض المدن في آسيا الصغرى ورودرس وصاقس الجزيرتين، وأساء سيرته في مملكته فنهب الكنائس وغفل عن كتب أصحاب البدع وقد توفي سنة ١١١٨م وكتبت بنته حنه تاريخه .

فهؤلاء هم ملوك الروم الذين تسنموا عرش قسطنطينية في هذه الحقبة التي انطوى عليها هذا المجلد الخامس من تاريخ سورية، وهي من وفاة هرقل سنة ٦٤١م إلى آخر القرن الحادي عشر وبدا القرن الثاني عشر وقد لخصنا موجز تراجم عن كثيرين من أعيان المؤرخين وسوف نلخص تراجم من خلفهم إلى سنة ١٤٥٣م التي أخذت فيها قسطنطينية من يدهم ان قيض الله لنا أن نتم هذا التاريخ .

عد ٨٠٢

الخلفاء العباسيون في القرن الحادي عشر

فرغنا من الكلام في الخلفاء العباسيين في القرن العاشر بذكر القادر بالله الذي توفي سنة ١٠٣٢م وضرربنا عن ذكر خلفائه في تاريخ القرن الحادي عشر لاضطرارنا إلى ذكر الخلفاء العلويين أصحاب مضر وسورية في هذا القرن. ولغلاً يفوت قراء كتابنا معرفة الخلفاء العباسيين، ولكي يتيسر لهم ادراك ما ذكرناه عن بعضهم في تاريخ هذا القرن عدنا الآن والعود احمد إلى ذكر ترجماتهم بالإيجاز ما أمكن .

لما توفي القادر بالله سنة ٤٢٢هـ سنة ١٠٣٢م جلس في الخلافة ابنه القائم بأمر الله واسمه عبدالله أبو جعفر وهو السادس والعشرون منهم، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة. وفي سنة ٤٢٦هـ سنة ١٠٣٦م انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد وعظم أمر العياريين (من يخلون أنفسهم وهواها) وصاروا يأخذون أموال الناس ليلاً ونهاراً والسلطان والخليفة عاجزان عنهم. وانتشرت العرب في البلاد فنهبوا النواحي وقطعوا الطريق (عن أبي الفداء صفحة ١٦٦ من جزء ٢). وفي سنة ٤٤٧هـ سنة ١٠٥٦م قدم طغرل بك السلجوقي إلى جهات بغداد فأرسل قواها يبدلون له الطاعة والخطبة فأجابهم إلى ذلك. وتقدم الخليفة القائم بذلك فخطب له بجوامع بغداد واستأذن طغرل بك في دخول بغداد، فوجه إليه الخليفة رسلاً حلفوه للخليفة

وللملك الرحيم صاحب بغداد حينئذٍ، فدخل طغرل بك بغداد وحصلت فتنة بين
عسكره وبعض أهل المدينة فهزم عسكر طغرل بك عامة الأهلين وعزا طغرل بك
الفتنة إلى الملك الرحيم، فأرسل الخليفة إلى الملك الرحيم أن يخرج هو وكبار القواد
إلى طغرل بك وهم في أمان الخليفة، فخرجوا فقبض طغرل بك على الملك الرحيم
والقواد فعظم ذلك على الخليفة وشكا عدم حرمة، فأفرج طغرل بك عن بعض
القواد وأبقى بعضهم والملك في الاعتقال. وكان الملك الرحيم آخر من استولى على
العراق من بني بويه. وفي سنة ٤٤٨هـ سنة ١٠٥٧م تزوج القائم الخليفة بينت داود
أخي طغرل بك. ثم خرج طغرل بك من بغداد فاستولى على الموصل وعاد إلى
بغداد وأراد الاجتماع بالخليفة القائم فجلس له الخليفة على سرير عالٍ عن الأرض
نحو سبعة أذرع، وحضر طغرل بك في جماعته وأحضر أعيان بغداد وكبراء
العسكر، فقبل طغرل بك الأرض ويد الخليفة وجلس على كرسي، ثم قال له رئيس
الرؤساء إنَّ الخليفة قد ولاك جميع ما ولاه في بلاده ورد إليك مراعاة أمر عبادته،
فاتق الله في ما ولاك واعرف نعمته عليك. وخلع على طغرل بك وأعطاه العهد
فقبل الأرض ويد الخليفة ثانياً وانصرف، ثم بعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار
 وخمسين مملوكاً من الأتراك ومعهم خيولهم وسلاحهم.

وفي سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م سار البساسيري أحد عمال المستنصر بالله
خليفة مصر إلى بغداد فدخلها وخطب في جوامعها للمستنصر وأبعد الخليفة القائم
عن بغداد، وكان طغرل بك مشغولاً في قتال أخيه ابراهيم نبال، ولما قتل أخاه
واستراح منه عاد إلى العراق لرد الخليفة القائم إلى مقره، وأرسل إلى البساسيري
يقول رد الخليفة إلى مكانه وأنا أرضى منك بالخطبة، فلم يجب البساسيري فحاربه
طغرل بك وظفر به فقتله سنة ٤٥١هـ سنة ١٠٦٠م ورد الخليفة، وخرج طغرل بك
لملاقاته واجتمع به واعتذر عن تأخره بعصيان أخيه وصحبه إلى داره بكل تجلة حتى
أخذ بلجام بغلة الخليفة إلى أن صار على باب حجرته. وطالت مدة الخلافة إلى أن
توفي سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م.

لقد أوصى القائم عند وفاته أن يخلفه ابن ابنه عبدالله بن ذخيرة الدين محمد
فبويج بالخلافة بعد موته وسمي المقتدي بأمر الله وهو السابع والعشرون منهم.
ويروى أنَّ الشريف أبا جعفر الهاشمي لما فرغ من غسل القائم بايع المقتدي
وأنشده:

إذا سيد منا مضى قام سيد

وارتج عليه فقال المقتدي: قؤول بما قال الكرام فعول

وفي سنة ٤٧٥هـ سنة ١٠٨٣م أرسل المقتدي الشيخ أبا اسحق الشيرازي إلى السلطان ملكشاه وهو في خراسان ليشتكو من عميد أبي الفتح بن أبي الليث فأكرم السلطان الشيخ أبا اسحق وعاد بالاجابة إلى ما التمس، ورفعت يد العميد عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة، وتزوج المقتدي بالله بابنة السلطان ملك شاه سنة ٤٨٠هـ سنة ١٠٨٨م، وبعد سنتين شكت إلى أبيها اعراض الخليفة عنها فطلبها ملكشاه مللاً لا بد منه فأرسلها الخليفة إليه (عن ابن الأثير في تاريخ سنة ٤٨٢). وتوفي المقتدي بالله سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٩٥م وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأشهرًا وتوفي بغتة على أثر توقيعه على تقليد بركيارق بن السلطان ملك شاه، وخلفه ابنه المستظهر بالله وكان اسمه أبا العباس أحمد وهو الثامن والعشرون من الخلفاء العباسيين وكان عمره لما بوع له بالخلافة ست عشرة سنة وشهرين. وفي حين الاختلاف بين بركيارق وأخيه محمّد السلجوقي المار ذكرهما ابني ملكشاه شكّا الخليفة المستظهر بالله إلى محمّد وأخيه سنجر سوء سيرة بركيارق أخيهما وخطب لمحمّد وتوفي المستظهر بالله سنة ٥١٢هـ سنة ١١١٩م فكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر. ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين خطب لهم بالحضرة وهم تاج الدولة تتش بن الب ارسلان والسلطان بركيارق والسلطان محمّد ابنا ملكشاه. ومن غرائب الاتفاق أنّه لما توفي السلطان الب ارسلان توفي بعده القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعده المقتدي بأمر الله ولما توفي السلطان محمّد توفي بعده المستظهر بالله (عن ابن الأثير في تاريخ سنة ٥١٢هـ).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الحادي عشر

الفصل الأوّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

عد ٨٠٣

بطاركة أنطاكية في القرن الحادي عشر

فرغنا من كلامنا في بطاركة أنطاكية في القرن العاشر بذكر إيليا ويؤخذ عن الأرثوذكسيات التي يتلوها الروم في القداًس، وقد تقدّم ذكرها أنّ توادورس الثالث خلف إيليا المذكور. ولكن قال العلامة السمعاني في ما كتبه لطابعي تراجم القديسين (على ما ذكروا هم) أنّ في الجداول العربية التي كانت لديه أنّ الذي خلف إيليا إنما هو جيورجيوس لا توادورس، وأنّ جيورجيوس خلفه بطرس ولا ذكر لباسيليوس الذي جاء ذكره في الأرثوذكسيات المذكورة. أمّا بطرس الذي ذكره السمعاني فهو الثالث بهذا الاسم وقد ورد اسمه في الأرثوذكسيات بعد باسيليوس المذكور. وروى لكويان في المشرق المسيحي أنّ بطرس هذا رقي إلى البطريركية سنة ١٠٥٣م وعمل بالعادة القديمة أن يكتب البطاركة بعد ترقيتهم إلى الحبر الروماني

والى بطاركة المشرق فكتب بطرس إلى البابا لاون التاسع وإلى البطاركة القسطنطيني والاسكندري والأورشليمي. قال لكويان عندي نسخة من هذه الرسائل باليونانية ورسالته اليونانية إلى الحبر الروماني تختلف كثيراً عن ترجمتها اللاتينية. وقد كتب ميخائيل شيرولاريوس البطريرك القسطنطيني عند انفصاله عن الكنيسة الرومانية إلى بطرس هذا مندداً بطقوس اللاتينيين وعاداتهم، فأجابه بطرس مدافعاً عن بعض هذه الطقوس ومرجعاً بعضها إلى العادات القديمة، ومنزهاً نفسه عن كل شقاق أو انفصال عن الكنيسة الرومانية. ورسالته هذه مثبتة في المجلد الثاني من آثار الكنيسة اليونانية ولا يعلم في أية سنة توفي.

وخلف توادوسيوس الثالث بطرس الثالث المذكور على ما جاء في الأرثوذكسيات وذكره أنسطاس القيصري أيضاً في مقالته في صوم العذراء مينا أن هذا الصوم أثبته بطرس بطريرك أنطاكية وتوادوسيوس خليفته ويوحنا الجالس وقتئذ على كرسي أنطاكية.

وخلف اميليانس توادوسيوس الثالث في أيام الملك ميخائيل السابع ابن الملك قسطنطين دوкас، وقد استوى ميخائيل على منصبة الملك سنة ١٠٦٧م وخلعه عنه رومانس الرابع واستبدَّ مع اودكسيا في الملك سنة ١٠٦٨م، ولما أسر رومانس سنة ١٠٧١م عاد ميخائيل إلى ملكه وثبت فيه إلى سنة ١٠٧٨م كما مرَّ في عد ٨٠٠. ولما أتى اسحق الكسيس أخو الكسيس كومنانس الذي ملك سنة ١٠٨١م إلى أنطاكية قبله البطريرك في بستانه بخارج المدينة فنهاه الأمير عن الدخول إلى المدينة ثم أرسله إلى اللاذقية وأمره أن يمضي إلى قسطنطينية. ولم يذكر اسم اميليانس في الأرثوذكسيات في عداد بطاركة أنطاكية لمقاومته الملك ميخائيل المذكور والكسيس كومنانس الذي ألقت في أيامه الأرثوذكسيات المذكورة، وخلف نيكوفور اميليانس المذكور وجاء ذكره في الأرثوذكسيات. وأيّد ذلك شدرانس وزوناراس في تاريخهما وقال زوناراس إنَّ هذا البطريرك كان سنة ١٠٨٩م.

وقام بعد ذلك في الكرسي الأنطاكي يوحنا الرابع وكان في أنطاكية لما بلغت إليها جيوش الأفرنج سنة ١٠٩٨م وذكره غويلمس أسقف صور اللاتيني في تاريخه. ومما قاله عنه إنَّه بعد بلوغ جيشنا إلى أنطاكية وحصرهم لها اضطهده المسلمون، ولما فتحوها ولم يكن البطريرك يألف عادات اللاتينيين مضى إلى قسطنطينية. وهذا لم

يقل به غوليلمس وحده بل رواه كثيرون من المؤرخين ولم ينتخب اللاتينيون خلفاً له مدة حياته لئلا يكون أسقفان لكرسي واحد خلافاً للقوانين البيعية، وأقوال الآباء. وروى ارديكس فيتاليس صفحة ٧٩٦ من كتاب تاريخه إنه حصل قلق في الشعب لأنه شاع أنه يريد تسليم المدينة إلى الكسيس كومنانس ملك قسطنطينية فشقت عليه هذه الاشاعة كثيراً حتى اعتزل البطيركية وحبس نفسه في مكان منفرد، وجزم أنه لا يعود إلى من لا تروق له عاداتهم. وهذا يؤيد صحة نسبة كتاب إليه يندد به باستعمال الفطير خلافاً للاتينيين، وهذا الكتاب موجود في عدة مكاتب معنوناً باسمه .

ثم الأرثوذكسيات المذكورة الفت في أيام الملك الكسيس كومنانس نحو سنة ١١٠٣م وقد ذكر اسمه فيها في آخر اسماء البطاركة فيظهر من ذلك أنه بقي حياً إلى تلك السنة. وقد ذكره مرهج بن نيرون الباني الماروني في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم. فقال إن توما أسقف كفرطاب ترك بدعة اليعاقبة وتشبث ببدعة المشيئة الواحدة، ففند يوحنا بطريك الملكية الأنطاكية زعمه وصنف رسالة جمع فيها أقوال الآباء والجامع المثبتة في المسيح مشيئتين وفعلين، فادعى توما أن يرد رسالة البطريك بكتاب قسمه إلى عشر مقالات كما يظهر من مقدمة هذا الكتاب حيث يقول: «إنه لما كانت سنة ١٤٠٠ لاسكندر بن فيلبس المكدوني (وهي سنة ١٠٨٩م) جرت رسائل ومكاتبات بين يوحنا بطريك الروم الأنطاكي وتوما مطران كفرطاب من أعمال حلب في شأن الاعتقاد بمشيئتين وطبيعتين في المسيح، وأخذ توما يدحض رسالة الأنباء يوحنا كلمة فكلمة ناقضاً مذهب المشيئتين ومثبتاً مذهب المشيئة الواحدة» وكتاب توما الكفرطابي هذا هو الرابع عشر في جملة كتب ابراهيم الحاقلي التي نقلت بعد وفاته إلى المكتبة الواتيكانية. وقد ذكره السمعاني مرات في المكتبة الشرقية ولاسيما في فهرست المجلد الأول صفحة ٥٧٦ حيث عدد كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية فقال الرابع عشر .. كتاب توما الحارثاني أسقف كفرطاب في المشيئة الواحدة في المسيح مقسوم إلى عشرة فصول أو عشر مقالات، قد أرسله إلى يوحنا بطريك الملكيين الأنطاكي سنة ١٤٠٠ يونانية (سنة ١٠٨٩م)، وهو باللغة العربية والأحرف السريانية صفحاته ١٥٧ من رق وكتبه يوسف من قرية حاقل من بلاد جبيل في ٢٠ شباط سنة ١٧٠٣ يونانية (سنة ١٣٩٢م). وفي مكتبة بطريركيتنا نسختان قديمتان من هذا الكتاب (انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان مع زيادات على كلامه).

بطاركة أورشليم في القرن الحادي عشر

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن العاشر بذكر أرميا الذي سمل الحاكم بأمر الله عينيه وخلفه في بطريركية أورشليم تاوافيلس على ما روى الباريكس الراهب في كتاب تاريخه الذي طبع في لبيك سنة ١٦٩٨م، وكما جاء في الجداول اللاتينية. وقال في حقه توادوريكس باولي (على ما روى باييروكيوس في المقدمات على المجلد الثالث من تراجم القديسين في شهر أيار) إنَّ الله وفقه فدبر كنيسته بكل قداسة واشتهر في الفضائل وعمل الآيات في الأرض المقدسة كلها. وظنَّ العالم المذكور أنَّ مدَّة بطريركيته كانت وجيزة لأنَّه شرع في تجديد كنيسة القبر المقدَّس التي كان الحاكم بأمر الله قد دمرها كما مرَّ، ولم يكمل تجديدها بل يعزى تجديدها إلى نيقوفور أحد خلفائه. وجاء في جداول دوزيتاوس البطريك لبطاركة أورشليم أنَّ الكرسي الأورشليمي ظلَّ فارغاً من بطريك احدى عشرة سنة وأنَّ نيقوفور الأوَّل خلف تاوافيلس المذكور.

وكان قبل تاوافيلس أو بعده بطريك في أورشليم يسمى أرسانيوس ولا ذكر له في الجداول اللاتينية في جملة بطاركة أورشليم في هذا العصر، ولم يذكره الباريكس في تاريخه. والمؤكَّد مع ذلك أنَّه كان بطريكاً على أورشليم قبل سنة ١٠٢٤م، وهذا التوكيد مبني على ترجمة القديس سمعان الراهب السائح التي أثبتتها البولنديون في المجلد السادس من تراجم القديسين في ٢٦ تموز. فان كاتب ترجمة القديس سمعان المذكور كان معاصراً له وكتب في ترجمته أنَّ أرسانيوس البطريك الأورشليمي ذكر بعض أعماله في رسالة أثبت الكاتب ملخصها. وقال البولنديون إنَّ بعض العلماء ذكر هذه الرسالة وإن ارتاب بعضهم في صحتها أو في سلامتها من التحريف. ومن رأي البولنديين أيضاً أنَّ أرسانيوس لم يرتق إلى البطريركية إلَّا بعد سنة ١٠١٠م. ويظهر أنَّه لم يتوفَّ إلَّا بعد سنة ١٠١٦م ولكن في أيَّة سنة بعدها توفي فالصحيح أنَّه لا سبيل إلى القطع بذلك.

وبعد وفاة أرسانيوس صير يوردانس بطريكاً على أورشليم ولا ذكر له في الجداول اللاتينية، ولا في كتاب الباريكس أو كتاب توادوريكس باولي، ولكن ذكره كلاير رودولفس وهو مؤلف معاصر له في الكتاب الرابع من تاريخه فصل

ونقل عنه باييروكسيوس في تاريخ بطاركة أورشليم المعلق على المجلد الثالث في تراجم القديسين في شهر أيار في معرض ذكر آية جرت في القبر المقدس سنة ١٠٣٣م فقال إن يوردانس البطريك كان مشاهداً هذه الآية، وأما في آية سنة صير بطريكاً فقال لكويان لم أجده في كتاب .

وقد جاء في الجداول اللاتينية أن نيقفور صير بطريكاً بعد توافيلس وكذلك قال الباريكس وتوادوريكس ولم يذكر أرسانيوس ويوردانس كما رأيت . وذهب كثيرون من المؤرخين إلى أن تجديد بناء كنيسة القبر المقدس بعد نقض الحاكم بأمر الله لها كان في أيام نيقفور، لكنهم لم يتفقوا على سنة هذا التجديد فقال كلاير رودلفس المذكور أن التجديد كان بعد النقض دون مهلة وقال شدرانس (مجلد ٢ من تاريخه) إن الكنيسة جددت سنة ١٠٣١م. وقال الباريكس (قسم ٢ من تاريخه نقلاً عن كويدس) إنها جددت في أيام الظاهر بن الحاكم بأمر الله سنة ١٠٤١ أو سنة ١٠٤٨م وذهب غوليلمس أسقف صور أن التجديد كان سنة ١٠٤٨م. قبل أن فتح الافرنج أورشليم باحدى وخمسين سنة. قال لكويان إن هذا هو الأرجح وعليه فيقفور كان سنة ١٠٤٨م بطريكاً على أورشليم، ولكن لم يكن لنا سبيل إلى أن نحقق متى صير بطريكاً ولا متى توفي ولا كم سنة عاش في البطريكية .

وخلف صفرونيوس الثاني نيقفور على ما روى الباريكس (قسم ٢ من تاريخه) إذ قال كان صفرونيوس بطريكاً على أورشليم قبل أن يسير أمراء المغرب لانقاذ الأرض المقدسة بنحو من أربعين سنة، ويؤخذ منه أن صفرونيوس كان بطريكاً سنة ١٠٥٩م وذكر هذا المؤلف بعد ذلك أن ملك الروم سار إلى أورشليم وقتل قوماً من المسلمين واستبقى النصارى. وذكر ابن العميد هذه الحادثة في سنة ٤٦٩هـ الموافقة لسنة ١٠٧٦م ولا يعلم إن كان صفرونيوس بقي حياً إلى تلك السنة. وجاء في جداول دوزيتاوس البطريك ذكر مينا بعد صفرونيوس ولم يذكره غير دوزيتاوس. قال لكويان لا أجسر أن أعد مينا في جملة بطاركة أورشليم، ثم ذكر دوزيتاوس مرقس أيضاً بعد صفرونيوس ولا ذكر له في كتاب آخر. على أن الجداول اللاتينية والباريكس وباييروكيوس ذكرت أوتيميوس بعد صفرونيوس الثاني .

أما أوتيميوس فجاء في بعض جداول بطاركة أورشليم أن الافرنج ردوا في أيامه الكنائس إلى المسيحيين، وهذا غير صحيح إلا أن يكون المراد ما ذكرناه آنفاً من أن

أحد ملوك الروم سار إلى أورشليم ونكّل بالمسلمين وأرغمهم على رد الكنائس إلى النصارى لأنّ الافرنج لم يفتحوا أورشليم إلّا في سنة ١٠٩٩م في أيام سمعان الآتي ذكره خليفة أوتيموس .

خلف سمعان أوتيموس على الأصح خلافاً لدوزيتاوس في فهرست بطاركة أورشليم حيث زعم أنّ سمعان كان قبل أوتيموس مع أنّ جميع الجداول قدمت أوتيموس على سمعان الذي كان بطريكاً سنة ١٠٩٤م لما أتى بطرس السائح الافرنسي إلى أورشليم، وفاوض هذا البطريك ملياً في أمر استنقاذ أمراء المغرب الأماكن المقدّسة. ومن روى ذلك غوليلمس أسقف صور (ك ١ في الحرب فصل ١١) فأنّه قال وسمع بطرس السائح أنّ بطريك المدينة يسمى سمعان وأنّه رجل فاضل يتّقى الله ففاوضه بواسطة ترجمان أمين ويُنّ له البطريك حالة النصارى وما يحف بهم من الأخطار، ولما بلغ البطريكية قدوم عساكر الافرنج سنة ١٠٩٨م إلى سورية وحصرهم أنطاكية انتقل إلى قبرص وأرسل هدايا إلى الافرنج، لكنّه توفي سنة ١٠٩٩م بعد افتتاحهم أورشليم. روى ذلك البرتس الاكويني في تاريخ أورشليم (ك ٦ فصل ٣٩) ولما علم الافرنج بوفاته جزموا أن يقيموا بطاركة لاتينيين على أورشليم وفعلوا كذلك في كل مدة ولايتهم على الأرض المقدّسة، واستمرّ أهل البلاد يقيمون بطاركة على أورشليم. وقد قال دوزيتاوس إنّ البطريك المذكور كتب كتاباً يندد به بتقديس اللاتينيين على الفطير، وذكر لاون الأسبوس فقراً من كتاب يعزى إلى سمعان يندد فيه باستعمال الفطير. وقال لكويان لا أجسر أن أحقق أنّ سمعان مؤلف هذا الكتاب هو سمعان الثاني بطريك أورشليم الذي لا يظهر أنّه كان مخالفاً للاتينيين. انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي .

عد ٨٠٥

من نعرفهم من أساقفة سورية وجوارها في هذا القرن
قلّ من عرفنا من أساقفة سورية في هذا القرن لما كان فيها من اضطراب الأحوال والحروب كما رأيت، فقد ذكر لكويان منهم سرجيوس أسقف دمشق فقال سرجيوس ذكره دميانس (ك ١٩ فصل ١٠) وأنبأنا أنّه اعتزل الأسقفية وسار إلى رومة فصرف ما بقي من حياته في السيرة الرهبانية، وكان في أيام البابا بناديكتس

التاسع الذي استوى على منصبة الرئاسة من سنة ١٠٣٣م إلى سنة ١٠٤٨م. وذكر لكويان أيضاً من أساقفة صور سابا وقال إنه كان أسقفاً على صور فاختير بطريركاً على أورشليم على عهد الملك الكسيس كومنانس الذي ارتقى إلى عرش الملك سنة ١٠٨١م، ولكن لم يذكر لكويان سابا في جملة بطاركة أورشليم وأنطاكية في هذا القرن كما رأيت .

وكان في هذا القرن أيضاً سامونا أسقف غزة وقال بعضهم إنه اشتهر سنة ١٠٧٢م وله مناظرة مع رجل مسلم اسمه أحمد في وجود جسد المخلص في القربان الأقدس حقيقة، وهي مثبتة في مكتبة الآباء ولاسيما في التأليف الموسوم بالدفاع عن اعتقاد الكنيسة الكاثوليكية دائماً بسر الاوخرارستيا (مجلد ١ كتاب ٣ فصل ٦). ولما استعان بعض العلماء الكاثوليكين بشهادته على اثبات هذه الحقيقة ردّها البرتنس وكلوديوس الكلونيان معتمدين على قول بعضهم أنّ سامونا كان في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر، فقالا لم يكن في فلسطين أساقفة روم بعد أن استحوذ الافرنج عليها وأقاموا أساقفة لاتينيين، وزعمهما باطل فلا مراء في أنّه بقي أساقفة شرفيون للنصارى الشرقيين مع وجود أساقفة للاتينيين. وقد حقق يعقوب فترياك في التاريخ الأورشليمي أنّه استمرّ للسوريين أساقفة منهم يدبرون شؤونهم الروحية. ولما انتصر صلاح الدين الأيوبي على الافرنج لم ينفِ الأساقفة الشرقيين بل سلمهم كنائس الافرنج كما يظهر من رسالة كوزاد أحد الصليبيين التي أثبتها بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٧ عد ٩ .

ويجدد بنا أن نلخص شيئاً من الجدل الذي كان بين القديس سامونا وأحمد المشار إليه، فقد كان سامونا مسافراً إلى حمص يصحبه كثيرون في جملتهم أحمد المذكور وكان الأسقف يطرفهم ببعض الأحاديث الروحية وأتى بذكر القربان المقدس، فقال له أحمد كيف وأنتم كهنة تخذعون النصارى بقولكم إنّ الخبز المصنوع من الطحين يصير جسد المسيح؟ فأجابه الأسقف قل لي بعيشك هل ولدتك أمك كبيراً على ما أنت عليه الآن؟ فقال أحمد كلا فقال الأسقف وما كبرك قال القوت بارادة الله. فأجابه الأسقف فالقوت إذا استحال فيك جسداً. قال هكذا أظن قال الأسقف وكيف كان ذلك؟ قال أحمد: لا أعلم. فأخذ سامونا يشرح له كيف تهضم المعدة الأقوات وتحيلها دماً وتوزعها على الجسد فتستحيل عظماً مع العظام وعضلة مع العضلات وعصباً مع الأعصاب. وقال ها هوذا ما

يجعل الطفل رجلاً أعني أن المأكّل يستحيل فيه جسداً والمشرب دماً، فأذعن أحمد لقوله. وقال الأسقف وكذلك نعتقد بسر القربان فالكاهن يقدس خبزاً وخمراً فيستحيلان بقدرة الله إلى جسد المسيح ودمه، أو لا يستطيع الله أن يصنع ما تصنعه معدتك فسلم أحمد بذلك. وسأل أعتقدون أن في القربان جسد المسيح ودمه حقيقة أو هو مثال لجسده كالضحايا التي يرفعها اليهود؟ فأجابه الأسقف حاشاً أن نقول أن صورة أو مثال بل نعتقد أن ما نتناوله إنما هو جسد المسيح ودمه حقيقة. فإن المسيح قال لتلاميذه خذوا كلوا هذا هو جسدي وهذا هو دمي ولم يقل هذا صورة أو مثال جسدي أو دمي. وقال في محل آخر جسدي مأكّل حقاً ودمي مشرب حقاً. وإذا كان المسيح وهو إله قال ذلك فمن يمتري فيه وإذا كان خلق العالم من العدم وكانت كلمته صادقة وفعالة. وكان الهاً على كل شيء قديراً وكل ما شاء الرب صنع فمن يجسر أن يزعم أنه لا يستطيع أن يحيل الخبز جسداً والخمر دماً. فقال أحمد أحسنت بايضاح أيمانكم ولكن الله واحد وجسد المسيح واحد فكيف يقسم إلى أجزاء لا تخصى وهل يبقى مسيحاً واحداً أو يتعدد إلى ما لا نهاية له؟ فأجابه الأسقف إليك مثلاً محسوساً ومادياً يقنعك بهذه الحقيقة. خذ مرآة واضرب بها الأرض وكسرها ما شئت وانظر في كل فلذة منها فترى صورتك كاملة كما كنت تراها في المرآة قبل تكسرها وكذلك يكون المسيح كاملاً في كل قربان تقدّس مهما تكاثر عدد القربان وأمكنه تقديسها. ولك مثال آخر في الكلمات التي تلفظها فتسمعها أنت المتكلّم ويسمعها جميع الحاضرين مهما توافر عديدهم كاملة دون أن تنقسم فأذعن أحمد واثني على الأسقف.

ومن مشاهير الأساقفة في جوار سورية بهذا القرن يوحنا بن شوشان أي ابن سوسان. وقد ذكر السمعاني (مجلّد ٢ من المكتبة الشرقية صفحة ١٤٣) ترجمته فقال ما ملخصه إن يوحنا بن شوشان هو أحد بطاركة اليعاقبة في بدء القرن الحادي عشر، وكان اسمه يشوع قبل ارتقائه إلى البطريركية. ومن مؤلفاته نافور (رتبة قداس) ذكره ابراهيم الحاقلي الماروني في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي صفحة ١٣٥ وهو مثبت مخطوطاً في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي في المكتبة الواثيكانية صفحة ٤١، ومطبوعاً في كتاب قداس الكلدان صفحة ١٤٥، وفاتحته **لحم يسوع المسيح** أي اللّهم منبع الحب ومعين الجودة. وقد اغتر سكوننجيوس إذ ذكر نافور هذا وقال إن «نافور يوحنا

ابن سوسان البطريك الف بالكلدانية سنة ١٠٨٣ للميلاد. وقد حقق السمعاني أنه لم يتجاوز سنة ١٠١٠م، وقال رُجماً أنَّ الناسخ أخطأ في عداد السنين فكتب سنة ١٠٨٣م بدلاً من سنة ١٠٠٣م. على أنَّ خطأ مرهج بن نيرون الباني الماروني كان أعظم إذ قال في فهرست المؤلفين الذين ذكرهم في كتابه افولنيا أي سلاح الإيمان: «يوحنا بن شوشان من أصحاب الطبيعة الواحدة كان قبل يعقوب البردعي الذي ذكرناه آنفاً في كتاب تعليم اليعاقبة». فقال السمعاني إنَّ ابن نيرون ظنَّ أنَّ كتاب تعليم اليعاقبة قد ألفه يعقوب البردعي فكانت نتيجته مستقيمة، لكنَّها مستندة إلى مقدمات غير صحيحة بأنَّ هذا الكتاب ليس من مصنَّفات البردعي بل قد ألفه رجل يعقوبي كان بعد يعقوب البردعي بقرون (طالع ما ذكرناه في الكلام على يعقوب البردعي في تاريخ القرن السادس).

وقد ذكر البطريك أسطفان الدويهي في كتابه المنائر العشر (فصل ٧ عد ٥) نافور يوحنا بن شوشان في جملة النوافير غير الكاثوليكية فقال: «يوحنا وهو يشوع بن شوشان صنف نافورين أولهما بدؤه **الله انا وه وجميعنا نمنا** (اللهم يا من تسرَّ بالحب) والثاني **دحا بسجدا وهددنا وهددنا** (اللهم منيع الحب ومعين الجودة) وهذا انطبع برومية بالغشم بين النوافير المقبولة». وقد خطأ السمعاني الدويهي لنسبته النافور الأول لبرشوشان قائلاً إنَّ هذا النافور الأول ليس لبرشوشان بل إنما هو لديونيوسوس بن صليبا كما يظهر من الكتاب الثالث من الكتب المأتي بها من الاسقيط إلى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٧٩، بل أنَّ الدويهي نفسه عزاه في الفصل المذكور عدد ١٦ إلى ابن صليبا بقوله: «وله أيضاً نافوران يبدأ أولهما **الله انا وه وجميعنا نمنا** » اللهم يا من تسرَّ بالحب.

ومن مصنَّفات ابن شوشان أيضاً مقالة في الملح والزيت اللذين يدوبهما اليعاقبة بخبز القربان يندد فيها بالقبط. وقد ذكر هذا المبحث مؤلف كتاب تعليم اليعاقبة على ما في النسخة الموجودة منه في مكتبة مدرسة الموارنة برومة صفحة ٥١. ونقل ابن نيرون الباني عن هذا الكتاب ما رواه في كتابه افوليا أي سلاح الإيمان صفحة ٣٥ وهو: «وزادت الحبة بين جماعة القبط والسريان إلى زمان أينا يوحنا برشوشان بطريك أنطاكية، فوقع بين السريان وبين القبط خلاف على أنَّ السريان يعملون في قربانهم الملح والزيت، فكتب أبونا يوحنا برشوشان سجلاً يوضح فيه تحقيق الملح

والزيت ووضعهما في القربان». قال السمعاني ولهذه المقالة نسخة سريانية ذكرها رينودوسيوس في مقدّمات المجلّد الثاني من تأليفه في الليتورجيات الشرقية معنونة مقالة في ما يشير إليه دوف الملح والزيت بالقربان تأليف يوحنا البطريك ولها ترجمة عربية في الكتاب الأربعين من الكتب التي شراها صديقنا أندراوس اسكندر الماروني في ما بين النهرين وسوف يحضرها إلى المكتبة الواتيكانية .

وقد استؤنف هذا البحث في دوف الملح والزيت بالقربان بمصر في أيام كريستودولس بطريك القبط، فقد روى ساويرس أسقف الأشمونيين عن كاتب ترجمة هذا البطريك أنّ هذا البحث في دوف الملح والزيت بالقربان جرى بين قوم سريان كانوا بمصر وبين القبط حتى أنّ سرياناً منهم يعرف بالشيخ أبي بشر خاطب البطريك بذلك، فأمر البطريك تلامذته أن يخرجوه من حضرته فأخرجوه مهاناً. وكان ذلك الرجل طبيب الملك فشكا البطريك إلى الوزير وأرسل رسالة يشكوه بها إلى يوحنا بطريك أنطاكية يعقوبي، فكتب كريستودولس إلى البطريك يوحنا رسالة شرح فيها هذه المسألة، ويوحنا الموجهة إليه رسالة كريستودولس غير يوحنا بن شاشون. انتهى ملخصاً عن السمعاني في المحل المذكور .

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الحادي عشر بسورية وغيرها

عد ٨٠٦

أبو الفرج عبدالله بن الطيب

روى البطريك أسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب تاريخه المطبوع حديثاً في بيروت صفحة ١٠٤ أنّ القس عبدالله أبا الفرج المعروف بابن الطيب: «قد كان مارونياً من أهل جبل لبنان أنّه مال إلى القائلين بالمشيئة الواحدة في ربنا بسبب مطالعته لكتاب سعيد بن بطريق وتغربه في بلاد العراق». لكنّ العلامة السمعاني روى في المكتبة الشرقية (مجلّد ٣ صفحة ٥٤٤) كلام الاهدني بأكثر

تفصيل ناقلاً إياه عن الكتاب الثالث في الاحتجاج عن الموارنة فصل ٢ في الرد على الاعتراض الثاني ومن ذلك يظهر أنه كان في يد السمعاني نسخة أخرى من كتاب الاحتجاج غير التي في يدنا والتي طبعت ببيروت سنة ١٨٩٠م، فإننا لم نجد فيها في المحل المذكور شيئاً مما ذكره السمعاني من كلام الاهدني الآتي وهو: «ويتبين من اقراره أنه كان مارونياً كما يظهر من قوله في الفاتحة التي علقها على بدء تفسيره الأناجيل وهو نكتب نحن الموارنة هذا الإيمان الذي به نؤمن بسيدنا يسوع المسيح الله الكلمة. وأراد أن يرسل كتابه من العراق إلى الموارنة أهل جبل لبنان» ويورد الاهدني شهادات من كتاب تفسيره يتبين منها أنه كان يقول إن في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ومشية واحدة إلى أن يقول: «وأما ارساله كتابه إلى أهل جبل لبنان وتسميته نفسه مارونياً فيدلان على أنه كان مارونياً أصلاً إلى درجة الكهنوت على شبه ما قلنا في توما مطران كفرطاب ... وإن اثنيهما بخروجهما من بين جماعتهما ومساكنتهما الأمم الغربية عندما حرتهما الأولى ومالا إلى معتقدات غير مقبولة من رؤساء ملتتهما ... وتخيلاً أن ربنا ذو مشية واحدة وفعل واحد».

على أن العلامة السمعاني أثبت في المحل المذكور من مكتبته الشرقية أن عبد الله ابن الطيب كان عراقياً وولد ببغداد وأنه كان راهباً وقساً ونسطورياً واشتهر في بداية القرن الحادي عشر، وكان كاتباً لإيليا الأول بطريرك النساطرة وتوفي سنة ١٠٤٣م في أوائل شهر تشرين الأول واعتمد السمعاني في ذلك على شهادة ابن العبري في تاريخه السرياني وفي تاريخ الدول حيث قال ابن الطيب توفي سنة ٤٣٥ للهجرة التي كان بدؤها في شهر آب سنة ١٠٤٣م وأثبت السمعاني أنه كان نسطورياً بقوله: «إن هذا يدل عليه المكان الذي ولد به والأمة التي نشأ فيها واقامته كاتباً لبطريرك النساطرة وما دونه في كتبه ولا سيما مقالته في الرد على الذين يسمون العذراء أم الله ومدافعتة مرات عن مذهب النساطرة في تفسيره الأناجيل وفي مجموعة القوانين التي وضعها وتعظيمه وتقريظه لاصحاب هذه البدعة ثم شهادة ابن العبري وأبي البركات اللذين سميا دائماً ابن الطيب نسطورياً. وقال فيه ابراهيم الحاقلي الماروني في آخر كتابه الموسوم بالانتصار لأفثيشيوس: «أبو الفرج بن الطيب النسطوري له تصانيف كثيرة وفي جملتها تفسير الأناجيل مطول وموجز يدل على فقاوته وإن دافع مرات عن معتقد النساطرة». ولم يصرح ابن نieron الباني (في

فهرست العلماء الذين استشهدهم في كتابه أفوليا أي سلاح الإيمان) أنسطورياً كان أم كاثوليكياً، بل قل حسبه بعضهم نسطورياً وبعضهم ذا إيمان قويم .

إلى أن قال السمعاني وأما إرساله كتابه إلى أهل جبل لبنان وتسميته نفسه مارونياً أصلاً بل يظهر أنه سمع (من بعض خصوم الموارنة كابن بطريق) أن بعض الموارنة يعتقدون المشيئة الواحدة فظن أن رأيهم في المسيح لا يخالف رأي النسطورة فيه. فقد أثبتا في المجلد الأول صفحة ٥٤٧ وفي المجلد ٢ صفحة ٢٩٢ أن النسطورة يعتقدون في المسيح أقنومين وطبيعتين ويعزون إليه مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ونجد ابن الطيب قال أحياناً في كتبه إن في المسيح أقنوماً واحداً ولا أشك في أن هذا تحريف النساخ فقد شهد أبو البركات أن اليعاقبة نقّحوا كتاب ابن الطيب وحذفوا منه ما يدل على البدعة النسطورية وكذلك أظن أن بعض الموارنة زادوا أو حذفوا من كتبه ما يجعل كلامه مطابقاً لمذهبهم كالاقتقاد بأقنوم واحد في المسيح وإلى ذلك أشار الدويهي في الحل المذكور إذ قال «إن ما أوردناه من أقوال ابن الطيب يغني عن شهادات لا تحصى من أقواله ليفهم القارئ أن كتاب أبي الفرج ابن الطيب وقع بيد العلماء اليعاقبة فعبثوا به وحرفوه وحيث كتب في تجسد الرب اتحد اللاهوت مع الناسوت كتبوا على هامش الكتاب بطبيعة واحدة، وكتبوا أحياناً أنه صار ذا طبيعة من طبيعتين وتارة أن اتحادهما ألف منه طبيعة واحدة ثم أدخل الناسخ لجهله في متن الكتاب ما زيد على الهامش. ومثل ذلك قوله إن في المسيح أقنومين لأن هذا القول يضاد رأي الكاتب ونسق تفسيره». فانتقد السمعاني قول الدويهي هذا فقال إذا كان اليعاقبة قد عبثوا بكتاب ابن الطيب وأدخلوا عليه القول بطبيعة واحدة فليت شعري من أدخل عليه القول بأقنومين. لعمرى لم يصنع ذلك الموارنة لأنهم اعتقدوا في كل حين أن في المسيح أقنوماً واحداً ولا اليعاقبة أو الملكية لأنهم أنفوا دائماً من بدعة نسطور ولا كاتب نسطوري، وإلا لما غفل عن أن يحذف من كتاب ابن الطيب كل ما يدل على الطبيعة الواحدة طبقاً لتعليم اليعاقبة. فالأولي إذاً أن نقول إن المؤلف بنفسه كتب أن في المسيح أقنومين، ولنا من جهة أخرى أدلة قاطعة على أنه كان نسطورياً، منها أنه كان كاتباً لإيليا الأول بطريرك النسطورة. وما يدل على ذلك أن إيليا النصيبيني صنف كتاباً مقسوماً إلى عشرة مجالس وهم بأن ينشره سنة ٤١٨ هـ (سنة ١٠٢٨ م) في أيام إيليا البطريرك المذكور، والتمس أن يطبع عبدالله ابن الطيب على هذا الكتاب ويثبته. وقال في

خاتمة هذا الكتاب: «ولما فرغت من هذا الكتاب رأيت أن لا اذيعه قبل مطالعتك له أيتها الأخ الجليل حرسك الله، وقبل مطالعته غيرك له وتيقنت أنه من اللازم أن أبعث به إلى الشيخ الجليل الكاهن العلامة الفيلسوف أبي الفرج عبد الله ابن الطيب كاتب دار الجاثليق أيده الله سائلاً أن يطالعه ويتحكّم في اشهاره» .

واليك ما قاله ابن العبري في كتابه مختصر تاريخ الدول المطبوع سنة ١٨٩٠م في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت: «في سنة ٤٣٥هـ (سنة ١٠٤٣م) توفي أبو الفرج عبد الله بن الطيب وهو عراقي، وفيلسوف فاضل مطلع على كتب الأوائل وأقاولهم وعني بشروح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف ارسطاطاليس، ومن الطب كتب جالينس وبسط القول في الشروح بسطاً شافياً قصد به التعليم والتفهيم. قال القاضي الاكرم جمال الدين القفطي رحمه الله لقد رأيت بعض من يتحل هذه الصناعة يلوم أبا الفرج بن الطيب بالتطويل وكان هذا العائب يهودياً ضيق الفطن قد وقف مع عبارة ابن سينا. فاما أنا وكل مصنف فلا نقول إلا أن أبا الفرج بن الطيب قد أحيا من هذه العلوم ما دثر وأبان منها ما خفي، وقد تلمذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان. قال ابن بطلان إن شيخنا أبا الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كاد يلفظ نفسه فيها وهذا يدل على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه» وقد ذكر السمعاني في المحل المذكور كلام ابن العبري مترجماً إياه إلى اللاتينية .

وذكر السمعاني ثم مؤلفات ابن الطيب فقال أما مؤلفاته الباقية فهي تفسير للعهدين القديم والحديث . قال ابن العبري «هذا (أي ابن الطيب) فسر العهدين بكتاب في اللغة العبرية» وكتاب تفسيره الأناجيل الأربعة موجود في مدرسة الموارنة برومة وقال فيه أبو البركات في فهرست المؤلفين «القس أبو الفرج بن الطيب كاتب طيموتاوس الجاثليق له مجموع شرح الأناجيل المقدسة وقد نقّحه بعض اليعاقبة وانتزع منه الألفاظ التي هي موافقة لرأي النسطورية سياسة ونقلت منه عدة نسخ بعد ذلك ابتغاء لما فيه من الفضائل والمعاني التي تعب جامعها في إيرادها. قال السمعاني: «قد أتيت من مصر إلى المكتبة الواتيكانية بكتاب لأبي الفرج بن الطيب عنوانه «فردوس النصارى» اشتمل على أبحاث موجزة في العهدين، وعدّد أكثر أسفار العهد القديم، ثم مقالة في وفاة الأنبياء، وكتاب في الأناجيل وأعمال الرسل، ورسالة يعقوب، ورسالة بطرس ورسالة يوحنا ورسائل بولس وتليها مقالة في وفاة

الرسول. وذكر هذا الكتاب في فهرست الكتب العربية المعلق على المجلدين الأول والثاني من المكتبة الشرقية. وقال أبو البركات (في المحل المذكور) إن هذا الكتاب غير كتابه في تفسير الأنجيل لأنه قال وله كتاب يسمى فردوس البيعة. وقال العلامة البطريك أسطفانس الدويهي الاهدني في مقدمة كتابه في الاحتجاج عن الموارنة أن لابن الطيب تفسيرين للأنجيل أحدهما بشارة متى بالمعنى الحرفي والثاني للأنجيل الأربعة بالمعنى المجازي. ولما بحث الاهدني في الكتب الشرقية التي أخذ عنها يوحنا باتيسطا (المعمدان) اليسوعي وتوما الكرمل في فهرست الأغلاط التي وجدها في تلك الكتب ذكر في جملتها كتابين لابن الطيب فقال «الرابع تفسير انجيل متى تأليف القس عبدالله العراقي المعروف بأبي الفرج بن الطيب الذي كان يعتقد أن برنبا طبيعتين ومشية واحدة. وهذا الكتاب أخذه يوحنا باتيسطا معه إلى القدس الشريف ولقبه بالمنامي وقد عثر على نسخة أخرى منه فقرأها وسمى هذا الكتاب سمعان وهو السابع من الكتب التي كانت لديه، وأما الكتاب الخامس فهو كتاب تفسير الأنجيل الأربعة بالمعنى المجازي وهو من مؤلفات ابن الطيب أيضاً وسماه يوحنا باتيسطا رويين. وذكر نسخة أخرى من هذا الكتاب وهي الكتاب السادس من عداد كتبه».

ولابن الطيب أيضاً مجموعة في القوانين قال فيها أبو البركات في المحل المذكور «وله كتاب فقه النصرانية الجامع للقوانين البيعية والجامع الغربية والشرقية وقد ذكر فهرست ما تضمنه مع فهرست للقوانين» وقد ذكر السمعاني أن هذا الكتاب في المكتبة الواتيكانية وهو السادس والثلاثون من الكتب العربية المخطوطة فيها ممزقة أوراقه الأولى والأخيرة وبعض صفحاته ليست في محلها. وله أيضاً مقالة في التوبة قال فيها أبو البركات: «وله مقالة في التوبة وتحصيل معناها وأقسامها أربعة عشر باباً» وله أيضاً مقالة في الأرث مثبتة في الكتابين الثالث والخامس من الكتب العربية المخطوطة بالمكتبة الواتيكانية خط الأول منهما سنة ١٢٢٤م والثاني سنة ١٣٧٢م وذكرهما السمعاني في فهرست الكتب المعلق على المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٦٢٠ و ٦٢١.

وله كتاب في شرف الصوم والصدقة والصلاة ويحوي أجوبة على مسائل بطريك النساطرة وعلى كلام في الأرث وفي الفروض الإلهية وهو ملحق بالكتاب السادس من الكتب العربية الواتيكانية وقد ذكره السمعاني أيضاً في الفهرست المعلق على المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٦٢١.

وله مقالة يندد فيها بمن يقولون إنَّ مريم أم الله وعنوانها: «مقالة لابن الطيب في الرد على من قال إنَّ مريم والدة الله». وهي مثبتة بالكتاب التاسع والعشرين من الكتب العربية الواتيكانية. ويقال فيه إنَّها خطت بتاريخ السادس والعشرين من شهر برمودة سنة ٩٧٦ للشهدا (وهي سنة ١٢٦٠م) وله مقالة في التثبيت والتوحيد عنوانها «من مقالة الشيخ أبي الفرج عبدالله بن الطيب في التثبيت والتوحيد وهي مثبتة في الكتاب التاسع والستين من الكتب العربية المخطوطة الواتيكانية.

وله تفسير كتب أرسطو قال فيه ابن العبري في تاريخه السرياني: «إنَّه فُسر كتب أرسطاطاليس» واعلم أنَّ هو تنجاريوس ذكر في مكتبته الشرقية صفحة ٢١٩. في جملة مفسري كتب أرسطو أحمد بن الطيب الرازي، فهذا غير عبدالله بن الطيب الذي تكلم عنه لأنَّ أحمد بن الطيب مسلم وعبدالله بن الطيب مسيحي نسطوري، وأنَّه يلزم اصلاح خطأ بروكوكيوس في المقدمة التي علقها على تاريخ الدول لابن العبري فإنَّه لم يميز بين أبي الفرج بن العبري الشهير وبين أبي الفرج بن الطيب وسبب أخطائه كنية العالمين بأبي الفرج.

قد مرَّ أنَّ إيليا أسقف نصيبين أرسل رسالته التي وضعها إلى عبدالله بن الطيب لينقحها ويصلح ما يرى أنَّه لا بد من اصلاحه وكتب ابن الطيب في آخرها «قرأتها دعوة لبقاء قدس أبينا المعظم صلاته على العالم وهي على الحسن والصحة والموافقة في معناها بما تستحقه الكتب البيعية ولا يمكن من يحب الحق أن يرفع كلمة منها» على ما في الكتاب الثامن والثلاثين من الكتب العربية الواتيكانية. انتهى ملخصاً عن السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية صفحة ٥٤٤ وما يليها.

عد ٨٠٧

ابن بطلان

روى لنا أبو الفرج بن العبري ترجمة ابن بطلان فنلخصها عنه قال: ابن بطلان هذا هو طبيب نصراني بغدادي فضل في علم الأوائل وكان يرتزق بصناعة الطب، وخرج عن بغداد إلى الموصل وديار بكر ودخل حلب وأقام بها مدة وما حمدها وخرج عنها إلى مصر فأقام فيها مدة واجتمع بآبن رضوان المصري الفيلسوف وجرت بينهما منافرة أحدثتها المغالبة في المناظرة وخرج ابن بطلان عن مصر مغضباً

على ابن رضوان وسار إلى أنطاكية وأقام بها، وقد سئم كثرة الأسفار وضاق عطنه عن معاشرّة الأغمار فغلب على خاطره الانقطاع عن العالم. فنزل بعض الأديار بأنطاكية وترهب وانقطع إلى العبادة إلى أن توفي سنة ٤٤٤ هـ (سنة ١٠٥٣ م). ومن مشاهير تصانيفه كتاب تقديم الصحة مجدول وكتاب دعوة الأطباء مقامة ظريفة ورسالة اشتراء الرقيق. ولما جرى ما جرى له مع ابن رضوان بمصر كتب إليه رسالة يقطعه فيها ويذكر معائبه ويشير إلى جهله بما يدعيه من علم الأوائل ورتبها على سبعة فصول الأوّل فضل من لقي الرجال على من درس في الكتب. الثاني في أنّ الذي علم المطالب علماً رديئاً يعسر حلّ مباحثه بحسب علمه. الثالث في أنّ إثبات الحق في عقل لم يثبت فيه المحال أسهل من اثباته عند من ثبت في عقله المحال. الرابع في أنّ من عادات الفضلاء عند قراءتهم كتب القدماء أن لا يقطعوا بطعن مصنفها إذا رأوا في المطالب تبايناً وتناقضاً، لكن تجلّدوا إلى البحث والتطلّب. الخامس في مسائل مختلفة صادرة عن براهين صحيحة من مقدمات صادقة وتطلب أجوبتها بالطريقة البرهانية. السادس في تصفّح مقالته في المباهلة (الملاعنة) التي ضمن فيها: إنني أسأله ألف مسألة ويسألني مسألة واحدة (ربّما كان غلط في الطبع وكان الأصل أسأله مسألة واحدة ويسألني ألف مسألة). السابع في تتبع مقالته في النقطة الطبيعية والتعيين على موضع الشبهة في التسمية وختم الرسالة بقوله وليتحقق أنّ اللذة بمضغ الكلام لا تفي بغصة الجواب فإنّ لنا موقف حساب وجمع ثواب وعقاب يتطلّم فيه المرضي إلى خالقهم ويطالبون الأطباء بالأغلاط القاضية في هلاكهم وأنهم لا يسامحون الشيخ كما سامحته بسببي ولا يفضون عنه كما أغضبت عن ثلب عرضي فليكن من لقائهم على يقين ويتحقق أنّهم لا يرضون منه إلّا بالحق المبين والله يوفقنا وإياه للعمل بطاعته والتقرب إليه بابتغاء مرضاته وهو خير ونعم الوكيل».

وقد ذكر السمعاني في مكتبته الشرقية (مجلّد ٣ صفحة ٥٤٦) ابن بطلان وقال إنّّه كان يعقوبياً لا ملكياً كما وهم رينودوسيوس في المجلّد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٣٥٣ وقد ولد ببغداد وعلم الطب والفلسفة في الجزيرة وسورية وأخيراً انقطع إلى العبادة بالطريقة الرهبانية في دير قريب من أنطاكية.

توافيلكتس وشدرانس

أمّا توافيلكتس فولد في قسطنطينية وكان علامة عصره ضليعاً بمعرفة كتب الآباء الذين كتبوا باليونانية ولاسيما كتب «فم الذهب» وصير أسقفاً على اكريد وميتروبوليتاً لبلاد البلغارين. وقد أثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١٠٧١م بأدلة قاطعة أنه اشتهر في أيام الملوك ميخائيل دوكا ونيقوفور بوتانيات والكسيس كومنانس من سنة ١٠٦١م وإلى ما بعد سنة ١٠٨١م ولا يعلم متى كانت وفاته. ومن مؤلفاته تفسيره للأناجيل الأربعة وكتاب أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول ونبوات حبقوق ويونان ونحوم وهوشع، وله خطبة في السجود للصليب طبعها كراتسارس أحد الآباء اليسوعيين ورسائل مثبتة في مكتبة الآباء وله كتاب في تدبير الملك ألفه للملك قسطنطين برفيروجانث وابنه ميخائيل دوكا وقد طبع في اليونانية مع ترجمته اللاتينية ثم طبع هذه الترجمة في المجلد السابع عشر من مكتبة الآباء المطبوعة في ليون وقد اعتمد في تفسيره رسائل بولس الرسول على تفسير يوحنا فم الذهب لها، حتى يمكن أن يقال إن ما تفسير توافيلكتس إلا خلاصة تفسير فم الذهب لهذه الرسائل وأثبت تفسيره الأناجيل عقيدة وجود جسد المسيح في القربان حقيقة بينات دامغة وأدلة قاطعة وقد أفحم العلامة مؤلف الكتاب الموسوم بالدفاع عن إيمان الكنيسة الكاثوليكية دائماً بسر الافخارستيا بأقواله البرتينس وكلوديوس الكلونيين (طالع المجلد الأول ك ٢ فصل ٩ من هذا التأليف. انتهى ملخصاً عن تاريخ نطاليس اسكندر.

وأمّا شدرانس ويسمى جيورجيوس شدرانس فهو راهب يوناني كاثوليكي انصب على علم التاريخ فنيغ وألف تاريخاً ابتداءً فيه من تاريخ خلق العالم إلى سنة ١٠٥٧م في أيام الملك اسحق كومنانس، وقد اعتمد غالباً في تاريخه على تاريخ القديس توفان المؤرخ وقد انتقده كثير من العلماء في مواضع كثيرة من تاريخه. وقال بعضهم في أنه جامع أقوال المؤرخين فيروى ما رواه غيره ولو معتلاً دون أن يبدى رأيه على أنه ثقة في نقله ولا يخلو تاريخه من فائدة. وقد استشهد بأقواله كثير من العلماء الأعلام وقد حذونا حذوهم باستشهاداً تاريخه مرات كثيرة ولاسيما في ما رأيناه متابعاً غيره من المؤرخين السابقين له.

بعض مشاهير الآباء اللاتينيين في هذا القرن

القديس بطرس دميانس

ولد في رافنا نحو سنة ٩٨٨م ودرس العلوم على أخيه وكان رئيس الشمامسة في المدينة المذكورة، وقيل إن اسمه كان دميانس فنسب أخوه إليه. وقيل إن دميانس اسم أبيه وأخذ الطريقة الرهبانية في إحدى المحاسن، ثم صير رئيساً للحبساء وخدم الكنيسة خدمات تذكروا وتشكر في أيام الأحرار الرومانيين غريغوريوس السادس واكليمنضس الثاني، ولاون التاسع، وفكتور الثاني، وأسطفانس التاسع، ونيقولاوس الثاني، واسكندر الثاني. وقد رقاها البابا أسطفانس التاسع إلى مقام الكرادلة أسقفاً على أوستيا. وقد كتب في حقه البابا نيولاوس الثاني إلى أساقفة افرنسة عند بعثته إليهم ما ترجمته: «قد اعتنينا بأن نرسل إليكم الرجل الشهير الذي ليس أعظم منه بعدنا في الكنيسة الرومانية الا وهو بطرس دميانس أسقف أوستيا من هو لنا بمنزلة العين وللكنيسة الرومانية بمثابة دعامة لا تتزعزع». وكان شديد الغيرة على حفظ تهذيب الكنيسة وله مقالات مشبعة في توبيخ السيمونيين (من يأخذون مالا في تنويل المناصب البيعية) والكهنة الذين لا يحافظون على عفتهم والعامّة الذين يتجاوزون بذوات قرابتهم. وقد حملة حبه للعزلة والخلوة أن يترك مقامه السامي سنة ١٠٦٢م ويعتزل في محبسة إلى أن أدركته المنية سنة ١٠٧٢م. ويعيد لذكره في ٢٣ شباط.

وقد ترك آثاراً دالة على غزارة علمه وطول باعه وشديد غيرته وقد طبعت مؤلفاته لأول مرة في باريس سنة ١٦٤٣م في ثلاثة مجلدات اشتمل أولها على رسائله منقسمة إلى ثمانية كتب وتضمن الثاني خطبه وتراجم القديسين وحوى الثالث ستين مقالة في موضوعات شتى. وقد أثنى العلماء على تصانيفه وقدرها حق قدرها الرفيع في اثبات حقائق الدين وقواعد الآداب وأصول التهذيب البيعي وتاريخ الكنيسة وكلها متينة المبنى سلسلة العبارة خالية من الغموض.

وقد عثر الكريدينال ماي على شرح له لرتبة القداس من أحسن الشروح الموضوعية لذلك، وما قال فيه عند شرحه كلمات المسيح التي يلفظها الكاهن في

القداس وهي هذا هو جسدي هذا هو دمي: «لأنَّ الخبز والخمر يستحيلان جسداً ودماً بقوة كلام الكلمة التي بها صار كلمة الله جسداً وحلَّ فينا، وبها قال فكان كل شيء وبها صارت امرأة لوط صنماً، وبها عادت العصا حية، وبها استحالت ينابيع الماء دماً، وبها تحوّل الماء خمرًا. وإذا كان كلام إيليا أهبط النار من السماء ألا يستطيع كلام المسيح أن يحيل الخبز جسداً. فمن يجسر أن ينكر ذلك على من ليس لديه أمر عسير، وعلى من به كان كل شيء وبدونه لم يكن شيء. لعمرك ان خلق الشيء من لا شيء هو أعظم كثيراً من تحويل شيء إلى آخر. فان قال قائل إني موقن بأنّه قادر على ذلك لكنني غير موقن بأنّه اراده فليسمع ما يقول كلمة الله عندما بارك الخبز: هذا هو جسدي. فالمسيح هو الحق فالحق هو المتكلّم فما يقوله لا يمكن أن يكون إلّا الحق. وقال في محل آخر إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فليس لكم في ذواتكم حياة. وزاد على ذلك بياناً للحقيقة قوله جسدي مأكّل حقاً ودمي مشرب حقاً. فأنا راغب في الحياة الأبدية فأتناول جسد المسيح حقيقة وأشرب دمه حقيقة، جسده الذي أخذه من العذراء ودمه الذي راقه على الصليب. وكما كانت الأرملة في صارفة صيدا تأكل كل يوم فلا ينقص طحينها ولا يقل زيتها، فكذلك الكنيسة تتناول كل جسد المسيح في كل مكان ولا ينقص جسد المسيح ولا يقل» .

القدّيس انسلمس أسقف كنتورباري

ولد القدّيس انسلمس بأوسطا (إيطاليا) سنة ١٠٣٣م وبعد أن شبّ ترك والده وموطنه وأتى إلى افرنسة. وكان أولاً متردداً بين أن يصير راهباً وبين أن يعيش بأملأكه خادماً الفقراء، لأنّ أباه كان قد توفي وترك له ثروة عظيمة وجزم أخيراً أن يترهب وانضوى إلى دير ياك بافرنسة سنة ١٠٦٠م وبعد ثلاث سنين انتدب رئيساً لهذا الدير فانكبّ على درس اللاهوت ونبغ فيه حتى أخذ يحمل الأبحاث الغامضة المشكلة والمغلقة على من تقدّمه مطابقاً بين رأيه وشهادة الأسفار المقدّسة وقد أتعبتة مهام رئاسته فهمّ أن يعتزلها ومضى إلى موريل أسقف روان يستشير في ذلك فنهاه عن الاعتزال وقال له إن دعيت يوماً ما إلى منصب أرفع من رئاسة الدير فلا تأنفه لأنني أعلم أنّك لا تستمر زماناً طويلاً في هذه الرئاسة، فعاد انسلمس إلى ديره

حزيناً واستمرّ يدبر ديره بحكمة، ويعامل مرؤوسيه بلطف وأنس حتى كانوا يعتدونهم أباً حنوناً وذاع صيت فضائله وعلمه وكان لديه أملاك في انكلترا فكان تديرها يلجئهم أن يقيم هناك أياماً، وحيثما حل لوقي بالتجلة والتكريم وكان الناس يتفاخرون بمحادثته ويتسابق وجوه الانكليز إلى اغتنام مرضاته حتى كان الملك نفسه يحتفل بلقائه ويؤنسه ويعظم مثواه عنده. ولم يكن انسلمس يمل من التعليم بأحاديثه وتآليفه شارحاً الحقائق اللاهوتية والفلسفية شرحاً تشربه الأذهان وتطيب به القلوب حتى استحق أن يحصى في عداد آباء الكنيسة وملافتها. وفي سنة ١٠٩٣م اختاره أساقفة انكلترا رئيساً لأساقفة كنتورباري على إباتته هذا المنصب وتمنعه عن قبوله أياماً، فكان شديد الدفاع عن حقوق الكليروس والحبر الروماني مخالفاً لغويللمس ملك انكلترا الملقب بالأشقر LE ROUX الذي كان يرغب في قصر هذه الحقوق وفي غضب أملاك الكنائس حتى أبعد انلمس عن إنكلترا، ولكن رده إليها انريكس الأول خليفة غويللمس المذكور. وعقد انلمس مجمعاً في وستمينستر وقضى فيه بالتزام الكليروس انكلترا بحفظ العفة سنة ١١٠٢م وكانت لانلمس مرتبة رفيعة في علم اللاهوت وفي سياسة عصره حتى لقب بأغوسطينس الثاني. وقد جدّ في أن يؤيد الدين بمبادي الفلسفة وأحدث برهاناً لم يسبق إليه لاثبات وجود الله متخذاً إياه من ثبوت موجود كامل، وهو أول من وضع الطريقة الجدلية في علم اللاهوت. فيورد الاعتراضات ويردّها بحلها. وقد توفي سنة ١١٠٩م وأحصاه البابا اسكندر السادس في مصاف القديسين سنة ١٤٩٤م، وأحصاه البابا اكليمنضس الحادي عشر في مصاف ملافة الكنيسة سنة ١٧٢٠م ويعيد لذكره في الكنيسة الرومانية في ٢١ نيسان.

ومما كتبه وهو رئيس دير ياك بنورمندية كتابه في تراجم القديسين ومحاورات في الحق وفي سقوط الشيطان، وفي حرية الانسان وبعض تأملات وغير ذلك. ومما كتبه وهو رئيس أساقفة كتابه في الإيمان بالثالوث وتجسّد الكلمة رداً على بعض أصحاب البدع. ابتدأ في هذا الكتاب وهو راهب وأنهاه بعد أسقفية سنة ١٠٩٤م وقدمه إلى البابا اوربانس الثاني، وشرع تلك السنة في تدوين كتبه المعنونة لماذا صار الاله إنساناً وأنجزها في سنة ١٠٩٨م. وكتب في السنة التالية كتابه في حبل العذراء وكتابه في انبثاق الروح القدس وكتب سنة ١١٠١م رسالته في الخبز الفطير وأنفذها إلى فالارانس، ودوّن في السنة التالية رسالته إليه في تعدد الأسرار. ووضع

في آخر حياته كتابه في التوفيق بين علم الله السابق والانتخاب ونعمة الله وبين حرية الانسان المطلقة وتعزى إليه كتب ومقالات أخرى عديدة أثبت نطاليس اسكندر صحة نسبة بعضها إليه، وأنكر صحة نسبة باقيها. وقد طبعت مؤلفاته أولاً بنورمبرك سنة ١٤٩١ ثم طبعت في البندقية سنة ١٧٤٦ وطبعها الأب مين في جملة مكتبة الآباء اللاتينيين مجلد ١٥٨ ومجلد ١٥٩ .

القديس أنسلم أسقف لوكا

كان في هذا القرن أيضاً أنسلم أسقف لوكا بإيطاليا وهو سليل أسرة شريفة من مديولان وابن أخي البابا اسكندر الثاني، وقد نصبه هذا البابا أسقفاً على لوكا التي كان هو أسقفها قبل ارتقائه ذرى الحبرية، وأرسله إلى الملك انريكس الرابع ملك ألمانيا الذي كان استحوذ حينئذ على إيطاليا ليعرفه أسقفاً، فأبى أن يمضي إلى هذا الملك الذي كان مخالفاً للحبر الروماني، ولما توفي عمه البابا اسكندر انتخب أنسلم أسقفاً على لوكا انتخاباً قانونياً. وكتب إليه البابا غريغوريوس السابع خليفة عمه أن يحذر من أن يأخذ من الملك المذكور علامة الرضى عنه قبل أن يصالح الحبر الروماني الملك. وكان أنسلم عضداً قوياً للكنيسة وللبابا غريغوريوس المذكور في مقاومة كبير الذي أدخله الملك انريكس المذكور على الكرسي الروماني ولم يكن حبراً شرعياً، بل أقلق الكنيسة مدة طويلة، وقد عهد إليه البابا غريغوريوس بسفارة الكرسي الرسولي، والنظارة إلى أساقفة لومبردية كلها. وكان فاضلاً ورعاً عادلاً حليماً علامة حتى حكى عنه أنه كان يحفظ الأسفار المقدسة كلها عن ظهر قلبه، ويحيط علماً بتفسيرات الآباء لها. وقد ألف كتباً كثيرة منها كتاب أنفذه إلى كبير الدخيل على الكرسي الرسولي يناشده به أن يقلع عن غلطه ويمحو اثامه بالتوبة فأجابه كبير متكبراً مراوفاً، فأجابه أنسلم بكتابين يبين في الأول منهما اختلاس كبير الحبرية دون حق، وأن الملك أنريكس الرابع بمدافعته عنه يطمأ شرائع الكنيسة ويخل بالدين. وأوضح في الثاني أن ليس للملك الأرض أن ينصبوا رعاة للكنيسة أو أن يستولوا على أملاكها وأموالها ودافع دفاعاً شديداً عن البابا غريغوريوس السابع وعن حكمه بالحرم على الملك أنريكس الرابع مورداً لاثبات غرضه آيات الكتاب وأقوال الآباء والحجج الدامغة وله كتاب في تفسير مراثي أرميا النبي وزبور داود، وله تأليف نفيس جمع فيه قوانين الكنيسة في

ثلاثة عشر كتاباً ويظهر أنَّ البابا غريغوريوس السابع اقترحه عليه. وذكر روهريخر (في كتاب ٥٦ من تاريخه) خلاصته، وقد انكر نطاليس اسكندر صحة نسبة هذا الكتاب إلى القديس أنسلم أسقف لوكا، ولكنَّ ردَّ يوحنا منسى رأيه مثبتاً في حواشيه على تاريخ نطاليس المذكور أنَّ مجموعة القوانين المذكورة هي للقديس أنسلم دون غيره، ومُورداً لتأييد غرضه أدلة ساطعة وبيانات قاطعة. وقد توفي القديس أنسلم في ١٨ آذار سنة ١٠٨٦ م وقال روهريخر في المحل المذكور إنَّ الله أجرى على يده معجزات كثيرة في حياته وبعد مماته وقد كتب ترجمته كاهن كان يخدمه وقد اعتمد المؤرخون على هذه الترجمة في كلامهم عليه. (انتهى ملخصاً عن تاريخ نطاليس اسكندر والأب روهريخر).

الفصل الثالث

ما كان من البدع والشقاق في القرن الحادي عشر

عد ٨١٠

البدع في هذا القرن

كفى سورية ما كان من البدع القديمة من يعقوبية ونسطورية وغيرها وكفاها ما كان بها في هذا القرن من الاضطرابات السياسية ومغالبات الدول العباسية والسلجوقية في شماليها أي في العراق، وما يليها مع الدول العلوية الفاطمية في مصر، وتنازعهن أعمال سورية فضلاً عن محلات عمال الأعمال السورية بعضهم على بعض، فلم تكن بدعة حديثة بسورية بين النصارى، وقد كان في أوروبا بعض البدع والمبتدعين ولكن لم يشترك السوريون في احداها ولم يتشايعوا لأحد المبتدعين. فقد كان في أورليان بافرنسة فرع من بدعة المانويين، والأولى أن نسميه نوعاً من مذهب المعتزلة أو الدهريين أتت بهذا الضلال امرأة من إيطاليا فبثته في أورليان وشايعها عليه رجلان اسم أحدهما اسطفانس واسم الآخر ليزويوس. ومن

غوايات أصحاب هذه البدعة قولهم إنّ الأرض والسماء أزليتان لا بداية لهما وأنّ كلّ ما جاء في الأسفار المقدّسة عن خلق العالم والثالوث الأقدس هو هذر، وأنّ تجسّد المسيح خرافة، وأنّ الزواج حرام، وأنّ لا ثواب ولا عقاب في الآخرة وعرف بذلك روبرتس ملك افرنسة فأتى بنفسه إلى أورليان واجتمع فيها كثيرون من الأساقفة فعدّوا مجمعاً وأصرّ فيه أسطفانس وليزويوس على ضلالهما فحطّهما الأساقفة عن درجتهما إذ كانا إكليريكين فكابرا وما انفكّا يثّان ضلالهما فأمر الملك بحرقهما فأحرقا وكان نظام تلك الأيام يبيح ذلك .

وأشهر البدع في القرن الحادي عشر بدعة بانغاريوس ويسميه الافرنسيون باربخر، فهذا ولد في بداية هذا القرن بمدينة طور بافرنسة ودرس العلوم وكان يتباهى بعلمه ويجهّد نفسه ليأتي منها بما لم يسبق إليه. ورقي إلى درجة رئيس شمامسة في انجه وأخذ أولاً يندد ببعض عقائد الدين ثمّ تصدى لانكار وجود جسد المسيح ودمه حقيقة في القربان الأقدس فكان أوّل من ابتدّع هذه البدعة ولم يسبقه إليها غيره على الأصح، وطفق يثّ ضلاله سنة ١٠٤٧م. فعدت عدة مجامع لنبد هذا الضلال فعدّد البابا لاون التاسع مجمعاً في رومة سنة ١٠٥٠م فحرم بارنغاريوس وضلاله وعقد مجمع آخر في بريس في أيام الملك انريكس الأوّل (الذي ملك سنة ١٠٣١م إلى سنة ١٠٦٠م) فحرمه أيضاً. وكذلك حرّمه البابا فكتور الثاني في مجمع عقده في فلورنسا سنة ١٠٥٥م. وعُقد هذه السنة مجمع آخر في طور بافرنسة وأفحم فيه بانغاريوس بضلاله فجحدته وأقسم على أنّه لا ينفك عن تعليم الكنيسة الكاثوليكية. وعقد البابا نيقولاوس الثاني مجمعاً في رومة سنة ١٠٥٩م وشهده مئة وثلاثة عشر أسقفاً فاعترف فيه بانغاريوس بالإيمان الروماني على موجب دستور قدم له فتلاه وأقسم على حفظه، وألقى ما كان كتبه مدافعه عن ضلاله في النار بحضرة آباء المجمع، لكنّه رجع إلى افرنسة فعاد إلى بثّ ضلاله وألّف كتاباً يدافع به عن بدعته فحرمه موريل أسقف روان في مجمع عقده سنة ١٠٦٣م، وهذا المجمع أثبتّه مجمع آخر عقد في بواتيا بافرنسة أيضاً سنة ١٠٧٥م ثمّ عقد القديس غريغوريوس السابع الحبر الروماني مجمعاً في رومة سنة ١٠٧٩م وأحضر إليه بارنغاريوس، فأقرّ بخطأه وجحدته جحوداً صحيحاً، وأقسم على صحة جحوده. ومما قاله في جحوده: «اعترف بأنّ الخبز والخمر اللذين يوضعان على المذبح يستحيلان بسر الصلوة المقدّسة وكلمات استحالة مخلصنا استحالة جوهرية

إلى جسد المسيح ودمه حقيقة ... لا على سبيل الإشارة وقوة السر فقط بل بحقيقة الجوهر». لكنّه حنث مرّة أخرى وعاد إلى غيه إلى أن نال من الرحمة الإلهية نعمة فعّالة حملته على الاقلاع عن ضلاله سنة ١٠٨٠م في مجمع التأم في بوردو وقضى بعد ذلك ثماني سنين مظهراً صنوف التوبة والتكفير عن اثمه وتوفي في حضن الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٠٨٨م .

وقد ماتت بدعة بارنغاريوس بموته واستمرّت ميتة قروناً إلى أن بعثها بعض المبتدعين ولاسيما الكلوينيين في القرن الخامس عشر. وأما الكنائس الشرقية المتّحدة بالكنيسة الرومانية أو المنفصلة عنها في سورية وغيرها من المشرق فقد حافظت وما فتئت تحافظ على هذه العقيدة المقدّسة سر محبة الله المذهلة للبشر. وقد حبّطت مساعي البروتستانت الذين حاولوا مرات تضليل الكنائس الشرقية عن هذه العقيدة فخفقت محاولاتهم إلّا في العدد اليسير الذي أضلوه ببدعتهم. وقد رفعتُ مقالة مطبوعة بالفرنسية والعربية إلى المجتمع القرباني في أورشليم سنة ١٨٦٣م أثبت بها هذه العقيدة بتقليد الكنيسة السريانية بفروعها الكاثوليكية وغير الكاثوليكية مستشهداً بكتب طقوس كل من هذه الكنائس وأقوال آبائها وعلمائها .

عد ٨١١

الشقاق الذي أحدثه ميخائيل شيرولايوس البطريرك القسطنطيني

إنّ الشقاق بين الكنيستين اللاتينية واليونانية الذي ألقى بذره فوتيوس بما كان بينه وبين القديس اغناطيوس والأحبار الرومانيين في شأن بطريركيته في قسطنطينية كما مرّ نبت ونما وتأصل في أيام ميخائيل شيرولايوس البطريرك القسطنطيني، وكنا نود لو سمح مساق تاريخنا أن نصمت عن ذكر هذا الخلاف لئلاّ يظن أنّنا ننقص في حرمة الائتلاف والاخاء الذي نتوخاه بين الفرق المسيحية جمعاء بل بين جميع الأمم على الاطلاق. على أنّ هذا الخلاف بين الكنيسة الرومانية واليونانية وبين الكنائس الشرقية نفسها أيضاً قد طال أمره وعمّ سورية وسائر الأمصار الشرقية وما برح إلى اليوم، فلم يكن لنا من سبيل إلى الاضراب عن الكلام فيه، وجل ما يتحتم علينا أن ننهد كل تعرّض وتعصّب ونتحاشى عن كل طعن وتمويه ومواربة، ونعتمد

على ما رواه المؤرخون الثقة، ونؤثر شهادة المعاصرين منهم على شهادة المتأخرين .
إن ميخائيل شيرولاوريوس كان سليل أسرة شريفة بقسطنطينية، وفي ابان شبابه
أحدث ثورة على الملك ميخائيل البلاغوني (الذي استوى على منصبة الملك سنة
١٠٣٤ إلى سنة ١٠٤١م) فحبسه الملك في دير فترهب كما روى شدرانس المؤرخ
اليوناني المعاصر في تاريخ سنة ١٠٣٥م ثم رقي إلى المقام البطريركي في قسطنطينية
سنة ١٠٤٣م، وصرف عشر سنين في البطريركية والناس تحسبه صحيح المعتقد، ولم
ينشئ خلافاً إلى أن كتب سنة ١٠٥٣م رسالة إلى يوحنا أسقف تراني بجنوبي
إيطاليا ووقع عليها هو ولاون أسقف اكريدا بيلغاريا، وقد ملأها من الطعن بالخبر
الروماني والكنيسة اللاتينية. ثم كتب في السنة التالية رسالة أخرى إلى بطرس
بطريرك أنطاكية واوعبها من المطاعن والقذح بالكنيسة اللاتينية، ومن رؤوس شكاويه
فيها أن اللاتينيين يشتركون مع اليهود في تقديسهم الخبز فطيراً، وأنهم يأكلون
الخنوق ويحلقون لحاهم ويصومون السبت ويأكلون لحوم الحيوانات النجسة ويأكل
رهبانهم اللحم ويستحلون أكله في السبة الأول والخامسة من الصوم، وأنهم زادوا
على دستور الإيمان كلمة الابن زاعمين أن الروح ينبثق من الآب والابن وأنهم
يزوجون أخوين باختين وأن أحد كهنتهم يقبل الآخر في القداس، وأن أساقفتهم
يتحللون بالخواتم ويمضون إلى الحرب ويلطخون أيديهم بالدم البشري، وكهنتهم
يستعملون في التعميد تغطيس المعمد بالماء مرة واحدة ويضعون ملحاً في فم المعمد
ولا يكرمون ذخائر القديسين ولا صورهم، ولا يترغون بهلوليا في الصوم. أثبت هذه
الرسالة الكردينال بارونيوس أمام المؤرخين في تاريخ سنة ١٠٥٣م .

وبينما كان البابا لاون التاسع في مدينة بونا فتو (بإيطاليا) عثر الكردينال همبر
أسقف كنيسة القديسة روفينا على رسالة البطريرك ميخائيل شيرولاوريوس ولاون
أسقف اكريدا إلى يوحنا أسقف تراني المذكورة، وكانت مشتملة على ما اشتملت
عليه رسالة البطريرك المذكور إلى بطرس بطريرك أنطاكية فترجمها من اليونانية إلى
اللاتينية ورفعها إلى الخبر الروماني المار ذكره. وبعد أن طالعها كتب إلى البطريرك
ميخائيل ولاون أسقف اكريدا رسالة مشبعة منطوية على احد وأربعين فصلاً أثبتتها
لاباي في المجلد التاسع من مجموعة الجامع، وهي الخامسة من رسائل هذا البابا.
وإليك ملخصها: «إن جل ما أوصانا به سيّدنا يسوع المسيح إنما هو جل ما سأل
الآب إياه من أجلنا وهو السلام والاتحاد، فالويل للعالم إذاً من الشكوك والعتار

والويل للناس الذين يلقون عصا الشقاق في وحدة الكنيسة فهؤلاء أشد قسوة من الجند الذين لم يشقوا قميصه غير المخطط. ويا للعار من البدعة التي تسعى بثلم الوحدة غير المنقصمة فأصحابها أشبه بالنسور والجوارح التي لا تعيش إلا بموت غيرها». إلى أن يقول: «إنَّ ما يذهلنا ويكينا ويستنزف دموع محبِّتنا إنَّما هو تمزيق أحشاء الكنيسة أمنا وجرح عواطف المسيحيين ولبال التهذيب البيعي واحتقار قوانين الكنيسة، فهذا هو ما أقدمت عليه أنت أيُّها الأخ العزيز الحبر القسطنطيني وأنت يا لاون أسقف اكريدا بطعنكما جهاراً بالكنيسة الرسولية اللاتينية، أنتما لم تسمعا حجتها ولم تبكماها في الدفاع عن دعواها بل تعيينها خاصة بتقديسها خبز القربان فطيراً. لعمري أنَّ تنديدكما كان على غير روية والفخر الذي تتباهيان به لا يحق لكما، فقد رفعتما فاكما إلى السماء ولسانكما ينطق على الأرض بحجج وتخمينات بشرية لتعبثا بالإيمان القديم، فقد انقضى نحو من ألف وعشرين سنة بعد آلام المخلص وتأيان الآن لتعلما الكنيسة الرومانية كيف تصنع ذكر هذه الآلام كأنَّ تجسد المخلص وتعليمه وموته لم ينفعها بشيء وهو القائل لمؤسسها: «طوباك يا سمعان بن يونا فأنَّه لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك لكن أبي الذي في السماء. وأنا أقول لك إنَّك أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني بيعتي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها». فبطرس هو حجر الزاوية الذي بنيت عليه الكنيسة ولا يتزعزع بنيانها ولا تقوى عليه محاورات المبتدعين الذين يقودون إلى الهلاك. فهذا ما قاله الحق الذي هو المسيح ولا ينطق إلا بالحق وهو الذي وعد بطرس بالثبات الدائم إذ قال له: «إنَّ الشيطان سيغربلكم كالحنطة وأنا صليت من أجلك لئلا ينقص إيمانك، وأنت ارجع فثبت اخوتك». ومن يحمله الجنون أن يزعم أنَّ من ارادته إنَّما هي الفعل نفسه لا تستجاب صلاته أو لا يستوي في نيل هذه الوعود بطرس وخلفاؤه الذين نبذوا كل ضلال وابعموا وأفحموا كل مبتدع، أولم تثبت قلوب الاخوة بإيمان بطرس الذي لم ينقص ولن ينقص مدى الدهور؟ فنحن لا نريد أن نذكر هنا التسعين بدعة بأسمائها التي نشأت في الشرق في أوقات متبانية لتعبث بعذرية الأم الكنيسة الكاثوليكية، ولكن لا بدُّ لنا من أن نقول شيئاً عمماً نشأ في كنيسة القسطنطينية من الضلال الذي نبذه الكرسي الرسولي واستأصله ومحقه، فنذكر أوسابيوس أسقف نيكومدية الذي تغلَّب على كرسي قسطنطينية، رشَّع لواء أريوس الذميم ومكدونيوس الذي قتل سالفه بولس الطوباوي، وجذَّف على الروح القدس

وعذَّب المسيحيين واضطهد الكاثوليكين حتى مماته، متشبهاً بيوليانس الجاحد وأودكسية الأريوسية التي أدخلت على كرسي قسطنطينية أونوميوس المبتدع، وريموفيل الأريوسي، ومكسيمس الأبوليناري. والجمع الأول القسطنطيني بعد أن رقى نيكتر إلى البطريركية كتب إلى البابا داماسوس، أنَّ كنيسة قسطنطينية الحديثة النشأة، انتشبت فيها أظافر المبتدعين، فأنقذناها من مخالب الأسد. على أنَّ هذه الكنيسة لم تنجُ إلى زمان طويل. فيوحنا فم الذهب خليفة نكتار خلع من كرسيه ومات في المنفى. وخليفته ارساس اضطهد تلاميذ فم الذهب وأعمل فيهم أسياف الجنود. وقام بعد هؤلاء نسطور الذي أنكر أنَّ العذراء أم الله، وزعم أنَّ في المسيح أقنومين. وكان بعده أوطيخا الذي وَّحد طبيعتي المسيح وتسبب بقتل القديس أفلايانس. وماذا نقول في أكاشيوس الذي شكاً أولاً بطرس بطريرك اسكندرية ثمَّ شايعه في بدعته، وبعد هؤلاء انتميس الأوطاخى الذي حطَّه البابا أغايطس عن كرسيه وأوتيكيوس الذي زعم أنَّنا بعد القيامة نكون غير محسوسين، فقَدَّ ضلاله البابا غريغوريوس وهو شماس، وخليفة يوحنا الذي حملته كبرياؤه أن يسمي نفسه بطريركاً مسكونياً. وماذا نقول في سرجيوس وبيرس وبولس الذين زعموا أنَّ في المسيح مشيئة واحدة، وأحدهم بيرس بعد أن جحد ضلاله في رومة عاد إلى قيه، وأنتما أشبه ببولس المذكور إذ تجسران أن تحكما على الكنيسة الرومانية التي لا يحل لكما ولا لأحد من الناس أن يحكم عليها». وهذه الرسالة طويلة نقتصر منها على ما لخصنا وعلى ختامها وهو: «نناشدكما بأحشاء يسوع المسيح أن نكون جسداً واحداً وروحاً واحدة ونتشبه بأعضاء الجسد البشري التي لا يحسد بعضها بعضاً بل يسر أو يحزن كل عضو منها بما يسر أو يحزن الأعضاء الأخرى، ولتتحاشى عن الكبرياء والحسد اللذين شأنهما بلبال جسد المسيح فلم تحسد الكنيسة الرومانية مع أنَّ المحبة تجعل كل شيء مشتركاً. فنحن نرى كل فخر لكم فخراً لنا فلم تفرغون جدكم في أن تسلبونا فخراً منحه الله لنا وأقرت لنا الناس به، الا تنزل اليد أو الرجل الشرف أو الذل للرأس منزلة الشرف أو الذل لهما؟ فإن لم تشعرُوا في نفوسكم بوجوب هذا الاتفاق في أعضاء الجسد الواحد فأنتم لستم من هذا الجسد ولا حياة لكم فيه، وإذا تكونوا من جسد المسيح الذي هو الكنيسة ولا حياة لكم فيها فتأملوا أين تكونون فانكم تكونون كغصن قطع من الجفنة ويس فإن انفصلتم يبتسم وعرضتم أنفسكم للاطراح بالنار والاحتراق، فنسأل رحمة الله أن تفيكم هذا

المصائب الجسيم». ومن شاء مطالعة هذه الرسالة المسهبة برمتها فليراجع المجلد التاسع من مجموعة لاباي صفحة ٩٤٥ إلى صفحة ٩٧١ .

وبعد أن بلغت هذه الرسالة إلى البطريرك ميخائيل اضطره إمّا أمر الملك قسطنطين مونوماكس، وإمّا شدة ميل أهل قسطنطينية إلى الكنيسة الرومانية إلى أن يكتب إلى البابا لاون رسالة ترجي بالسلم والاصطلاح، فأرسل البابا سنة ١٠٥٤م إلى قسطنطينية ثلاثة قصاد: الكردينال همبر أسقف كنيسة القديسة روفينا المار ذكره، وبطرس رئيس أساقفة أمالفي (إيطاليا)، وفريدريك شماس الكنيسة الرومانية من مصاف الكرادلة، وأصبحهم برسالتين احدهما إلى الملك قسطنطين مونوماكس، والثانية إلى البطريرك ميخائيل جواباً على رسالتهما إليه وكان البطريرك أبدى شديد رغبته في اتحاد الكنائس، فأجابه البابا مهتماً له على ميله إلى الاتحاد ومحققاً له هيام الأحرار الرومانيين به في كل وقت، ولم يكتف عليه ما كان قد اتّصل به من البطريرك ميخائيل انه ارتقى إلى البطريركية دون أن يجتاز إليها بالأسقفية، وأنه يسعى في أن يخضع لسلطته بطريركيتي اسكندرية وأنطاكية ويحرهما من حقوق استقلالهما القديمة، وأنه سمى نفسه بطريركاً مسكونياً مع أنّ هذه التسمية لم يرد القديس بطرس ولا أحد من خلفائه أن يتّخذها لنفسه، وإن أمر الجمع الخلكيدوني أن يلقب بها القديس لاون البابا ومن يخلفه من الأحرار الرومانيين. وزاد البابا على ذلك قوله إنّه يتعجب كثيراً من أنّ البطريرك يطعن على الكنيسة ويحرم ويضطهد جهاراً من يتناولون القربان الأقدس بالخبز الفطير، مع أنّ هذا لم يقدم عليه أحد من الآباء القديسين أو من ملائكة البيعة ذوي الإيمان القويم، ويبين له أنّه عرف ذلك من الرسالة التي أنفذها البطريرك إلى أساقفة أبوليا (إيطاليا) حيث أفرغ جهده في أن يثبت أنّ المخلص قدّس جسده على الخبز والخمير، مع أنّ الأسفار المقدسة تفند زعمه بتصريحها أنّه قدّسه على الخبز فطيراً، إذ حظر على اليهود تحت عقوبة الموت أن يبقى في بيوتهم خميرة مدة ثمانية أيام الفصح. وقال اخالف المسيح وتلاميذه وصية الفصح وهم عاملون بها. أثبت هذه الرسالة لاباي في المجلد التاسع صفحة ٩٧٨ .

ولم يتعرّض البابا لاون التاسع في هذه الرسالة لرد باقي مزاعم البطريرك ميخائيل بل كان قد ضمن ذلك في مذكرة دفعها إلى قصاده المذكورين وأطال الكلام فيها على مسألة التقديس على الخبز الفطير أيضاً .

أمّا رسالة الحبر الروماني إلى الملك قسطنطين فضمّنها اطراء غيرته وعنايته بتوثيق

عرى السلم والوفاق بين اليونان واللاتينيين، وقد أخبره بإيجاز عما عني به لانقاذ الكنائس من اضطهاد الترمنديين، وشكا إليه تحامل البطريرك القسطنطيني على اللاتينيين وعلى بطريركي اسكندرية وأنطاكية، وسأله أن يرد إلى الكنيسة الرومانية أملاكها التي في مملكته وأوصاه بقصاده . وقد أثبت لاباي هذه الرسالة أيضاً في المجلد المذكور صفحة ٩٨١ .

وقد توفي القديس لاون التاسع الحبر الروماني في ١٩ نيسان سنة ١٠٥٤م، وأما قصاده المذكورون فقبلهم الملك قسطنطين مونوماكس بالتجلة والتكريم، وأنزلهم في قصره. وصنف الكردينال همبر كتاباً في تنفيذ مطاعن البطريرك ميخائيل على اللاتينيين واتهامه لهم ووضعه على سبيل محاوراة بين رجل قسطنطيني ورجل روماني، وفند همبر أيضاً كتاباً كان راهب اسمه نيقيطا قد دّونه مقتفياً به آثار البطريرك ميخائيل في قدحه باللاتينيين، وكان تنفيده سديداً حتى أفحم نيقيطا فأذعن للحق واعترف بأنّ للكنيسة الرومانية السلطة والرئاسة على جميع الكنائس. وأخذ كتابه المعنون في الفطير والسبت وزيجة الكهنة وألقاه في النار بحضرة الملك والقصاد، فقبله القصاد وأثنوا عليه وصار صديقاً صدوقاً لهم وأمر الملك بترجمة تنفيذ الكردينال همبر لكتاب نيقيطا إلى اليونانية، وحفظت هذه الترجمة في مكتبة قسطنطينية كما روى كانيسوس (مجلد ٤ من تاريخه). وقد أثبت الكردينال بارونيوس مقالة نيقيطا ورد الكردينال همبر لها في المجلد الحادي عشر من تاريخه .

أما البطريرك ميخائيل فأبى أن يكلم قصاد البابا وتحاشى عن أن يراهم، بل منعهم من التقديس في الكنائس، فدعوه مرات ليأتي ويدافع عن مزاعمه أو يرعوي عنها فلم يفعل، فمضوا إلى كنيسة القديسة صوفيا وأوضحوا بحضرة الملك والاكليروس والشعب أغلاطه واصراره عليها وإبائه مكالتهم أو مكاتبتهم، وتركوا على المذبح منشور حرّمهم له وللاون أسقف اكريدا باسم الحبر الروماني والنيابة عنه مبينين فيه أغلاطهما وجرائمهما، وفي جملتها أنّ لاون المذكور وطأ برجله القربان المقدّس الذي قدّسه أحد كهنة اللاتينيين. وقد أثبت لاباي صورة هذا المنشور في المجلد التاسع صفحة ٩٩٢ من مجموعته المذكورة، وسافر قصاد البابا من قسطنطينية فبلغتهم في أثناء طريقهم رسالة من الملك يدعوهم بها من قبل البطريرك أن يعودوا إلى قسطنطينية، وظنّوا أنّ البطريرك فاق من سكرة غفلته فعادوا وراسلهم البطريرك أن يجتمعوا به في كنيسة القديسة صوفيا للمفاوضة، وكان في نيته أن يحرش

الشعب عليهم. ودرى الملك ما أضمر البطريك فطلب أن يشهد هذه المفاوضة فتمنّع البطريك من الاجابة، فاصرف الملك القصاد واحتدم البطريك من صنيع الملك وثار عليه عصابة من ذويه ولم يستطع الملك أن يخمد هذه الثورة إلا بأن يسلم إلى الثائرين سماركد ابنه وبولس أحد أعوانه اللذين كانا ترجماني الملك لدى القصاد، وهذا ناطق بجبانة هذا الملك ووغادته. أمّا البطريك ميخائيل فأذاع منشوراً ندّد به بحرم القصاد له وأطلق الحرم عليهم ورفع اسم البابا من التذكارات البيعية وأنفذ إلى سائر بطاركة المشرق رسائل أوعب فيها المثالب والمطاعن عليهم وعلى الكنيسة اللاتينية جمعاء، وجعل اثني عشر مطراناً يوقعون عليها. والمعلوم أنّ بطرس البطريك الأنطاكي لم يذعن لرأيه بل ردّه وإنّ تسامح بدم بعض عادات اللاتينيين كما يظهر من جوابه الذي أثبتّه الكردينال بارونيوس في تاريخ سنة ١٠٥٤م أنّ كلّ ما ذكرناه هنا مأخوذ عما كتبه الكردينال همبر المذكور في أخبار بعثته إلى قسطنطينية، وعن رسالة البطريك ميخائيل إلى البطريك بطرس الأنطاكي. وقد أثبتّ الكردينال بارونيوس العلامة هذه الآثار، ففي تاريخ سنة ١٠٥٤م ثمّ عن ترجمة القديس لاون التاسع الحبر الروماني التي دوّنها ديوتس (ك ٢ فصل ٥)، وعن كتاب محاوراة الكردينال همبر وعن ردّه كتاب نقيطيا المذكور. وهذه الآثار أثبتّها بارونيوس أيضاً في ذيل المجلّد الحادي عشر من تاريخه.

ويظهر من الآثار المذكورة أنّ الرسائل تواترت بعد ذلك بين البطريك ميخائيل شيرولايوس والبطريك بطرس الأنطاكي، وفي جملة مدعيات البطريك ميخائيل الباطلة أنّ القصاد المذكورين لم يرسلهم البابا، وأنّ ختوم الرسائل التي أتوا بها مزورة، وأنّ الملك عرف أخيراً مكرهم وعزا خدعته بهم إلى المترجمين، وأنّهم حرّموا الكنيسة اليونانية لأنها لا تعتقد أنّ الروح القدس منبثق من الآب والابن، وأنّ اسم الحبر الروماني لا يذكر في كنيسة قسطنطينية مذ عهد بعيد، أي من أيام البابا فيجيليوس ويظهر من أجوبة البطريك بطرس أنّه كاثوليكي المذهب حقاً، لكنّه يتملّق البطريك ميخائيل ويلاطفه ويجامله ويتسامح له في بعض المسائل ويتجاهل في غيرها، ويظنّ أنّه أثر هذه الطريقة لأنّ أنطاكية حينئذ كانت في ولاية ملوك الروم، والبطريك القسطنطيني له المحل الثاني بعد الملك في المملكة.

ثمّ توفي الملك قسطنطين مونوماكس وارتقى اسحق كومنانس إلى منصّة الملك سنة ١٠٥٧م، وكان البطريك ميخائيل عاونه على هذا الارتقاء وكان يزعجه بكثرة

مطالبه له ولدويه بل يؤنبه ويهدده إذا أنكر عليه سؤله، حتى قال له يوماً أنا وضعت التاج على رأسك واعلم كيف أنتزعه، فاستاء الملك من جسارته ودلاله عليه وعزم أن يعده وانتهاز فرصة خروجه من المدينة فأمر بأخذه وبعض ذويه إلى إحدى الجزر، وزين للأساقفة الموجودين في قسطنطينية خلعه، وأرسل يقول له أن يعتزل البطيركية طائماً ويتقي الأساقفة له مكرهاً في مجمع واعد بسلوس اعلم اليونان في عصره خطبة جمع فيها ما يكفي من الأسباب لعزله، فلم يحفل البطيرك بهذا التهديد ولم يثن الملك عن عزمه فقضت المنية بينهما لأن البطيرك مرض حينئذ ثم توفي سنة ١٠٥٨م مصرأ على معاداته الأحرار الرومانيين .

وقد أثبت نطاليس اسكندر بعد الفراغ من كلامه في ميخائيل شيرولايوس أن الشقاق الذي القى هو عصاه لم ينتشر في الكنيسة الشرقية كلها في هذا القرن موبداً رأيه بأن البابا اسكندر أرسل سنة ١٠٧١م بطرس أسقف انانيا إلى الملك ميخائيل، واستمر هذا الأسقف في قسطنطينية سنة كاملة، وأن البابا بسكاليس الثاني بعث غروسولانس أسقف مديولان إلى الملك الكسيس كومنانس ليستأصل ما يكون علق بالأذهان من آثار شقاق شيرولايوس ويوطد سائر اليونان في وحدة الإيمان، وأجرى مباحثة بحضرة الملك نفسه أثبت فيها أن الروح القدس ينبثق من الآب والابن، ثم أذاع تلك المباحثة مكتوبة وأفاض نطاليس بإيراد غير ذلك من البيانات الدالة على أن شقاق شيرولايوس لم يعم كنائس الشرق كلها في القرن الحادي عشر. وقد أيد رأيه العلامة يوحنا منسى في حواشيه على تاريخه قائلاً شيرولايوس وضع أساس هذا الشقاق بين الكنيستين اللاتينية واليونانية، ولكن لم يكن الانفصال بينهما تاماً في القرن الحادي عشر ومهما يك من هذا الأمر فقد تعاظم الشقاق مذ حينئذ إلى أن أفتتح الملوك اللاتينيون قسطنطينية كما سيأتي، فخدمت جمره الشقاق أو خبثت تحت الرماد ثم عادت إلى الاضطراب لما أخذ الملك ميخائيل باليالوغس قسطنطينية من الملوك إلى اللاتينيين، وقد عقدت مجامع كثيرة سنشير إليها في أوقاتها وزال فيها الخلاف وحصل الوفاق ولكن لم توثق عراه، فانقصمت وعاد الخلاف إلى اليوم فنسأل الله إزالته وجمع كنيسة المسيح في حظيرة واحدة وجعلها رعية واحدة لراع واحد . انتهى .

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الحادي عشر

عد ٨١٢

المطران داود الماروني

كل ما نعلمه عن ترجمة هذا الأسقف أنه كان مارونياً ورئيس أساقفة، وأنه كان في هذا القرن الحادي عشر، وأنه ترجم من السريانية إلى العربية كتاباً كان أحد آباء الطائفة المارونية قد ألفه وقد عني بهذه الترجمة سنة ١٣٧٠ لاسكندر المكدوني توافق سنة ١٠٥٩م. وقد ذكر هذا الكتاب البطريرك أسطفانس الدويهي الاهدني في الفصل السادس من كتاب احتجاجه عن الموارنة ورفع التهم عنهم وسماه تارة كتاب «القوانين» وتارة كتاب «الهدى» أو كتاب «الهداية». وذكر مرهج بن نيرون الباني الماروني في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم صفحة ٨٩، وفي كتابه المعنون أفوليا (أي سلاح الإيمان) صفحة ١٧٠، وابراهيم الحاقلي في كتابه في أصل اسم بابا صفحة ٤٩٢، وأتى بذكره صفحة ٤٩٢ دي لوراك في كتاب سياحته في سورية وجبل لبنان مجلد ٢ صفحة ٩١ وقد ذكره العلامة السمعاني في كتابه فهرست الكتب المخطوطة القديمة الشرقية في المكتبة الواتيكانية الذي ألفه بمعاونة المطران أسطفان عواد السمعاني ابن اخته كما سيأتي، وقد ذكره مرات في مكتبته الشرقية وحقق أنه هو الذي أخذ هذا الكتاب من الشرق وضّمه إلى المكتبة الواتيكانية، إذ روى في فهرست الكتب العربية التي نقلها من الشرق إلى المكتبة المذكورة، فقال في صفحة ٦٢٩ من المجلد الأول ما ترجمته: «الكتاب السادس والسبعون (من المكتبة المذكورة) يشتمل على رسالة الانبا يوسف إلى داود مطران الموارنة المؤرخة في سنة ١٣٧٠ (لاسكندر الموافقة لسنة ١٠٥٩ للميلاد)، والتي سأله بها أن يرسل إليه كتاب القوانين البيعية، ثمّ جواب المطران داود إلى الانبا يوسف. وقد أرسل إليه

المقالة المشتملة على القوانين التابعة مجموعة القوانين تنطوي على ثلاثة وخمسين عنواناً: العنوان الأول في الإيمان، ٢ في الإيمان بسري التثليث والتجسد، ٣ في الصلاة، ٤ في الأشياء النجسة، ٥ في الأشياء الطاهرة، ٦ في القربان الأقدس، ٧ في التقادم، ٨ في الشركة، ٩ في المعمودية، ١٠ في الصوم، ١١ في العشور، ١٢ في مقدمة الخراف، ١٣ في مقدمة الثمار، ١٤ في شرح دستور الإيمان، ١٥ في القوانين المختصة بالمؤمنين أجمع، ١٦ في قوانين الرهبان والراهبات، ١٧ في قوانين الكهنة، ١٨ في قوانين المؤمنين والصلوات القانونية، ١٩ في الصوم والطلاق والزواج والامانة والقضاء، ٢٠ في البطارقة والأساقفة والكهنة والشمامسة والرهبان والعامّة، ٢١ قوانين المجمع القسطنطيني الثاني، ٢٢ قوانين كيرلس الأورشليمي في المعمودية والزيجة، ٢٣ في المسيح الاله، ٢٤ قانون يوحنا الانجيلي، ٢٥ قانون في الأسباب المسوغة هجر الرجل امرأته وبالعكس، ٢٦ في المسيح والثالث نقلاً عن كتاب عدي ابن ابراهيم المعروف بابن عديان الذي دُوّن سنة ٣٨٦ هـ (وهي سنة ٩٩٧م)، ٢٧ في الصلوة الربية، ٢٨ قوانين اكليمنضس، ٢٩ في حفظ أيام الأعياد، ٣٠ في تكريس الهياكل، ٣١ في الميرون المقدّس، ٣٢ في المذابح، ٣٣ في الملابس الكهنوتية، ٣٤ في قوانين الرسل وهي واحد وثمانون قانوناً، ٣٥ قانون بطرس الرسول للكنيسة، ٣٦ في العشور والبكور، ٣٧ مراسيم بطرس الرسول، ٣٨ مرسوم بولس، ٣٩ مرسوم بولس وعلى قول آخرين مرسوم يعقوب في ذكر الموتى، ٤٠ في جنازة الموتى، ٤١ في من يقاسون الاضطهاد من أجل الإيمان، ٤٢ في درجات الكهنوت، ٤٣ قانون بولس في تناول القربان، ٤٤ في قوانين المجمع النيقوي وهي اثنان وعشرون قانوناً، ٤٥ في قوانين مجمع أنقورة وهي ثلاثة وعشرون قانوناً، ٤٦ في قوانين مجمع قيصرية الحديثة وهي خمسة عشر قانوناً، ٤٧ في قوانين مجمع كنكرا وهي عشرون قانوناً، ٤٨ في قوانين مجمع أنطاكية وهي أربعة وعشرون قانوناً، ٤٩ في قوانين مجمع اللاذقية وهي تسعة وخمسون قانوناً، ٥٠ في قوانين مجمع قسطنطينية وهي أربعة قوانين، ٥١ في قوانين المجمع الخلكيدوني وهي سبعة وعشرون قانوناً، ٥٢ في قانون المجمع الأفسسي، ٥٣ في مراسيم الملوك قسطنطين وتوادوسيوس ولاون وهي مئة وأربعون مرسوماً. وأردف السمعاني هذا الفهرست بقوله: «وهو كتاب عربي خطُّ بالأحرف السريانية على رق بقطع الربع، صفحاته ٢٩٥ وكان خطُّه سنة ١٧١٣ لاسكندر توافق سنة ١٤٠٢ للميلاد. وقد ذكر السمعاني أيضاً المطران داود

وكتابه في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٦٧ حيث تكلم في يعقوب البردعي فقال: «ذهب المطران داود الماروني في كتابه في القوانين وهو السادس والسبعون من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية إلى أنه سمي البردعي نسبة إلى مدينة اسمها البردعة، وهاك قوله في الفصل الأول: «ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى البردعة ولذلك يقال له يعقوب البردعي». وهذه المدينة ذكرها مؤلف جغرافية بلاد النوبة وأورد نيرون الباني قوله في كتابه أفولبيا (سلاح الإيمان) صفحة ٤٢ على أن بردعة بنيت بعد يعقوب البردعي بزمان طويل أعني نحو سنة ٧٠٥م في أيام عبد الملك بن مروان على ما روى جلال الدين الأسيوطي في تاريخ الخلفاء على ما في الكتاب السادس والأربعين من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٨٠ حيث قال: «في سنة ٨٥هـ بنيت مدينة اردبيل ومدينة بردعة بناهما عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي». انتهى كلام السمعاني في المحل المذكور وإذ تكلم في صفحة ١٨١ من المجلد المار ذكره في عدد البرشانات على عادة اليعاقبة أن تكون وترأ لا شفعا إلا في البرشانتين قال: «قد اعترض توما من يانيسيا (في مؤلفه في الاهتمام برجوع جميع الأمم ك ٧ فصل ٦ صفحة ٤٩٩) على المواردة بأن لديهم شيئا من هذه العادة، وقال الأب اليانيس السوسي إنه وجد أثرا لذلك في كتاب «الهدا» (هو كتاب المطران داود)، على أن العلامة البطريك أسطفانس الدويهي الشهير قد أوضح (في احتجاجه عن المواردة احتجاج ٦ فصل ٢) إن هذا الظن أو التخمين باطل ولا صحة له».

إن توما أسقف كفرطاب الذي أشرنا إلى شيء من أخباره في كلامنا على تاريخ المواردة في القرن السابع وذكرنا أنه أتى إلى لبنان سنة ١١٠٤م ليستغوي المواردة ببدعة المشيئة الواحدة، وأنه ترجم كتاب القديس يوحنا مارون في الإيمان وعبث به محرّفاً لإياه وزائداً عليه ما يوافق غرضه، فتوما هذا قد عبث بكتاب المطران داود المذكور أيضاً وعبث بادخال زيادات عليه وتحريفه له توسلاً لغرضه المذكور. وقد أثبت العلامة البطريك أسطفانس الدويهي (في الفصل السادس من كتابه في الاحتجاج عن المواردة صفحة ٣٤٠ من كتاب تاريخ المواردة المطبوع في بيروت) إن توما الكفرطابي المذكور زاد على كتاب المطران داود القول التابع: «إن أول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة هي الفرقة المنسوبة إلى آريوس وهي التي تدعى آريوسية، ثم النسطورية وهي المنسوبة إلى نسطور، ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى

يعقوب البرادعي، ثم الملكية وهي المنسوبة إلى مكسيمس المخالف الذي كان من ذرية السمرة، وأبوه كان اسمه زادوق، وكان يهودياً وأمه جارية عجمية كما تقدّم عنه الوصف في الكتاب الكبير، وخبره مؤرّخ في كتاب سعيد بن بطريق، ثم المارونية وهي المنسوبة إلى دير مارون وإلى الأب القديس الطاهر مار يوحنا بطريك أنطاكية. إلى أن قال: «قد ذكرت خبرها بين الفرقتين الملكية والمارونية وشرحت بيان حالها شرحاً شافياً في الرسالة التي كتبها إلى الأب القديس أرسانيوس أسقف عين قوره وسميتها رسالة العدل... وثبتت هذه الفرق أربعاً على أن الفرقتين الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما إنّما هما فرقة واحدة، ورأيهما في الاتحاد والجوهر الأتقومي رأي واحد وإنّما اختلفتا بالمشيئة. فقالت الملكية بالمشيئة وقالت المارونية بالمشيئة الواحدة واحتجت كل واحدة منهما بحجج، وقد ذكرنا حالهما وحججهما التي أوجبت الخلاف بينهما في الرسالة الموسومة ببداية العدد». فهذه هي الزيادة التي أدخلها توما أسقف كفرطاب على كتاب المطران داود في العنوان في الإيمان، وقد حجج الموارنة خصومهم بهذه الزيادة التي كان مطرانهم داود قد كتبها.

على أن العلامة الدويهي وغيره قد أثبتوا بحجج قاطعة وبيّنات دامغة أن هذا الكلام كلام توما الكفرطابي وليس كلام المطران داود. وإليك بعض تلك الحجج أولها أن أرسانيوس أسقف العاقورة الذي يقول الكاتب إنّه أرسل إليه رسالته المسماة رسالة العدل لم يكن في أيام المطران داود بل بعده بستين في أوائل القرن الثاني عشر، إذ كان توما الكفرطابي في لبنان. وقد صرح توما في كتابه الموسوم بالمقالات العشر أنّه كتب رسالة مطولة إلى أرسانيوس أسقف العاقورة يبين فيها معتمداً على تواريخ ابن بطريق أن اعتقاد المشيئة الواحدة كان رأي معلّمهم مارون ورأي الآباء وأنّ الموارنة لا يفترقون عن الملكية إلّا بهذا. ومثل ذلك الرسالة التي قال الكاتب إنّه يبيّن فيها حال الموارنة والملكية وحججهما، فإنّما هي لتوما الكفرطابي وآثارها باقية في كتابه المقالات العشر وليست للمطران داود. الحجة الثانية أن توما الكفرطابي قد صرح في كتابه المذكور بأنّه لا يقدم إلى لبنان إلّا ليصحّح معتقد الموارنة ليؤمنوا بأنّ في المسيح مشيئة واحدة، وجل كلامه في الكتاب المذكور موجه لهذا الغرض. وقد بذل جهده في رسالته إلى أرسانيوس أسقف العاقورة ليثبت زعمه هذا مستدلاً بأقوال سعيد بن البطريق بأنّ هذا كان معتقد مارون والموارنة، فإن كان الموارنة قد اعتقدوا قبله ببداية المشيئة الواحدة، وبهذا افترقوا عن الملكية، وكان هذا معتقد

أسقفهم داود في كتاب قوانينهم، فلم هذا التعب والنصب والعناء لتصحيح عقيدتهم؟ ولم نذب توما سوء منقلبه وخسارة أتعابه وأوقاته إذ قاومه بطريك الموارنة وعانده أرسانيوس أسقفهم ولم يذعن لكلامه إلا خوري قرية فرشع ونفر ببلاد جبيل؟ وكيف يوفق بين هذا وبين ما يرويه عن المطران داود أن طائفته لا تفترق عن الملكية إلا باعتقادها المشيئة الواحدة خلافاً لهم؟ الحجة الثالثة أن ما ورد في الزيادة المذكورة على كتاب المطران داود عن القديس مكسيمس إنما هو كلام سعيد ابن بطريق بحروفه، انتحلته عنه توما الكفرطابي الذي جعل سعيد عمدة له في كتابه المقالات العشر ولم يذكر هذه الخرافة عن أبي القديس مكسيمس وأمه إلا سعيد المذكور.

وقد أثبت السمعاني العلامة أن ما علق على النسخة الواتيكانية من كتاب المطران داود إنما هو رقعة أدخلها عليه توما الكفرطابي، فإنه في كتابه فهرست الكتب القديمة الشرقية في المكتبة الواتيكانية الذي ألفه بمعاونة المطران أسطفان عواد السمعاني لكتاب المطران داود في المكتبة الواتيكانية بعد أن كان في عد ٧٦ من الكتب التي أحضرها من الشرق: «إن البطريرك الأنطاكي أسطفانس (الدويهي) علق حاشية على هامش هذا الكتاب صفحة ٢٥ أبان فيها أن توما الكفرطابي أدخل على هذا الكتاب أشياء كثيرة ليثبت بدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح». ثم روى تلك الزيادة كما روينها قال: «ليس هذا كلام المطران داود بل كلام توما الكفرطابي، فإن كاتب الرسالة إلى أرسانيوس (أسقف العاقورة) إنما هو توما، لا داود فالواضح إذاً أن هذه الزيادة على كتاب القوانين للمطران داود أدخلتها يد توما الكفرطابي المذكور».

ولنا حجة أخرى قاطعة تبين تلك الزيادة مدخلة على نسخة كتاب المطران داود التي في المكتبة الواتيكانية وليست من كلام المطران المذكور، فإن النسخ الأخرى لهذا الكتاب خالية عن هذه الزيادة بل تشتمل على ما يناقض ذلك، منها النسخة التي كانت في مكتبة مدرسة الموارنة برومة وقد تداولتها يد القس مرهج بن نيرون الباني وأخذ عنها (في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم صفحة ٨٩) شهادة المطران داود حيث يقول: «إن الملكية يتفقون مع الموارنة باعتقادهم المشيئين فإن الموارنة يثبتون في المسيح مشيئين تبعاً لطبيعته الإلهية والبشرية». وقد أثبت ذلك دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان فقال (في المجلد الثاني صفحة ٩١

راداً زعم غوليلمس أسقف صور) وبُيُوت بطلان شهادة غوليلمس شهادة مطران
سوري عالم اسمه يوسف (هذا سهو من المؤلف أو خطأ من منظّم حروف المطبعة
ويصلحه قوله الثاني) كان عائشاً سنة ١٠٥٩م كما يظهر من رسالة كتبها الأنبا
يوسف تلك السنة إلى المطران المذكور يسأله بها أن يترجم من السريانية إلى العربية
كتاب «القوانين البيعية» الذي عند السريان. وهذه الرسالة معلقة على فاتحة كتاب
القوانين المذكورة. ومنه نسخة محفوظة في مكتبة مدرسة الموارنة برومة وترى في
الفصل الأول من هذه القوانين الشهادة الآتية التي ترجمناها عن الأصل العربي: «إنَّ
الملكية يُتفقون مع الموارنة باعقادهم المشيختين فإنَّ الموارنة يثبتون أنَّ في المسيح
مشيختين» الخ. قال مرهج بن نيرون (الباني الماروني): «كيف يصح إذاً ما قاله
غوليلمس الصوري عن الموارنة في سنة ١١٨٤م من أنَّ هذه الطائفة تسكعت نحواً
من خمسمائة سنة في ضلال مبدع اسمه مارون مع أنَّ المطران المذكور يشهد
شهادة تنقض كل ذلك أعني الموارنة كانوا في سنة ١٠٥٩م التي ترجم فيها
الكتاب المذكور يجاهرون باعقادهم أنَّ في المسيح مشيختين». انتهى كلام دي
لاروك.

طالع ما كتبه في هذا الشأن في كتابي «روح الردود» من صفحة ١٠٠ إلى
صفحة ١٢٢ من المطبعة العربية ببيروت، ومن صفحة ٩٥ إلى صفحة ١١١ من
ترجمته الافرنسية المطبوعة في اراس سنة ١٨٩٦م.

كان الفراغ من تصنيف هذا المجلد الخامس من تاريخ سورية الدنيوي والديني
في اليوم الرابع من شهر تشرين الأول سنة ١٩٠٠م، تقبل اللهم برحمتك
ورضوانك تعبي وعنائي في تأليف هذا الكتاب وما وفقنتني إلى ما كتبه كفارة عن
آثامي واحتساباً لمرضاتك، وقبض لي إن حسن لك استتمام أجزاء هذا التأليف
وصرف ما ابقيت لي من الحياة متفانياً في خدمتك وحفظ أوامرك والعمل بنواهيك
ونفع عبادك بمنك يا أرحم الراحمين آمين.

المطبعة يوسف التريخ

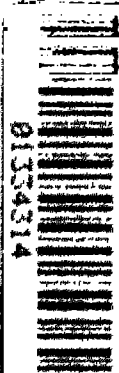
تاريخ سوريا البيزنطية

يتضمن تاريخ سورية من أواخر القرن الحادي عشر
إلى أوائل القرن السادس عشر

إشراف
نظير حبيب

راجعه ودققه
الكتور ماريون ريد

نظير حبيب



01334314

Bibliotheca Alexandrina

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف
رقم التسجيل ٧٥٠٩١ / ٧

تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء السادس

يتضمن تاريخ سورية من أواخر القرن الحادي عشر
إلى أوائل القرن السادس عشر

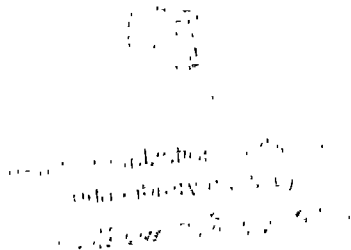
إشراف

نظير عبود

رأجه ودققه

الدكتور هاديون رعد

دار نظير عبود



فهرس

صفحة

عد

الباب الثاني عشر تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الاول تاريخ سورية الديوي في هذا القرن

فاتحة الكتاب

الفصل الاول قدوم الفرنج إلى سورية واستحوازم على بعض مدنها وما كان من الحروب في هذا القرن

٨١٢	تألب الفرنج في بلادهم ومسيرهم إلى قسطنطينية	٢٢
٨١٣	ما كان بين الفرنج وملك الروم ومسيرهم إلى انطاكية	٢٦
٨١٤	حصار الفرنج انطاكية وفتحها	٣٠
٨١٥	حصار المسلمين للفرنج في انطاكية	٣٤
٨١٦	ذيل في اقوال العلماء في الحربة التي وجدت حيثل في انطاكية ..	٣٩
٨١٧	سير الفرنج من انطاكية إلى اورشليم	٤٢
٨١٨	حصار اورشليم وفتحها	٤٥

٨١٩	وقعة عسقلان وغيرها إلى وفاة غودفروا ملك اورشليم	٥٠
٨٢٠	انتخاب بودوين ملكاً وبعض الاحداث في ايامه	٥٣
٨٢١	فتح بودوين عكا وحره في يافا ووقعة حران	٥٦
٨٢٢	فتح الفرنج طرابلس وغيرها	٥٨
٨٢٣	ذكر مسير عساكر السلطان محمد السلجوقي إلى قتال الفرنج	٦١
٨٢٤	خلافة بودوين الثاني وما كان في ايامه	٦٤
٨٢٥	ملك فولك دي انجو وما كان من الاحداث في ايامه	٦٨
٨٢٦	حملة يوحنا كمنانس ملك الروم على سورية	٧٢
٨٢٧	ملك بودوين الثالث على اورشليم واخذ المسلمين الرها	٧٥
٨٢٨	حملة الصليبيين الثانية على سورية	٧٧
٨٢٩	حصار دمشق	٨١
٨٣٠	اخذ الفرنج مدينة عسقلان	٨٣
٨٣١	ذكر غير ذلك من الحوادث في ايام بودوين الثالث	٨٥
٨٣٢	اموري الاول وما كان في ايامه	٨٦
٨٣٣	بودوين الرابع وبعض ما كان في ايامه	٩١
٨٣٤	حروب واحداث اخرى في ايام بودوين الرابع	٩٤
٨٣٥	سوء حال الفرنج في هذه المدة	٩٨
٨٣٦	وقعة حطين الشهيرة	١٠٢
٨٣٧	ما فتحه صلاح الدين في بلاد الفرنج بعد وقعة حطين	١٠٦
٨٣٨	فتح صلاح الدين اورشليم	١٠٨
٨٣٩	حصار صلاح الدين لمدينة صور وفتح بعض مدن غيرها	١١١
٨٤٠	غزوة صلاح الدين في شمالي سورية	١١٤
٨٤١	حملة الفرنج الثالثة على سورية	١١٧
٨٤٢	حصار الفرنج عكا	١٢٠
٨٤٣	المدن التي اخذها الفرنج من المسلمين بعد فتح عكا	١٢٤
٨٤٤	الهدنة التي عقدت بين الفرنج والسلطان صلاح الدين	١٢٨
٨٤٥	وفاة السلطان صلاح الدين ومن ملك بعده	١٣٠
٨٤٦	بعض الاحداث إلى نهاية هذا القرن	١٣١

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن الثاني عشر

٨٤٧	المشاهير السوريون	١٣٤
	محمد بن الخضر المعري	١٣٤
	ابراهيم الغزي الشاعر	١٣٥
	ابن منير الطرابلسي	١٣٦
	ابن عساكر الدمشقي	١٣٧
	ابن الذكي الدمشقي	١٣٨
	ابن القيسراني	١٣٩
	محيي الدين الشهرزوري	١٤٠
	تقية ابنة الصوري	١٤١
	اسامة بن منقذ	١٤٢
٨٤٨	بعض من عاصر هؤلاء من امثالهم في غير سورية	١٤٤
	ابو حامد الغزالي	١٤٤
	الطغرائي صاحب لامية العجم	١٤٦
	ابو محمد الحريري	١٤٧
	الفتح بن خاقان	١٤٨
	الزمخشري	١٤٩
	الادريسي	١٥١
	ابن رشد	١٥٢
٨٤٩	ذيل في الخلفاء العلويين وملوك الروم في القرن الثاني عشر ...	١٥٣

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في هذا القرن

٨٥٠	بطاركة انطاكية في القرن الثاني عشر	١٥٦
٨٥١	بطاركة اورشليم في القرن الثاني عشر	١٥٩
٨٥٢	بطاركة انطاكية واورشليم اللاتينيون في القرن الثاني عشر	١٦٣
٨٥٣	اساقفة سورية في القرن الثاني عشر	١٦٦
	توما اسقف كفرطاب	١٦٦
	غوليلمس الصوري	١٦٨
٨٥٤	ديوانيسوس بن صليبا	١٦٩

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثاني عشر

٨٥٥	بعض المشاهير الشرقيين في هذا القرن	١٧١
	البطريك ميخائيل الكبير	١٧٢
	يوحنا زوناراس	١٧٣
	حنه كومنانس	١٧٣
٨٥٦	بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن	١٧٣
	القديس برنردس	١٧٤
	بطرس اللمبردي	١٧٥
	ذيل	١٧٥

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

٨٥٧	حالتهم الدنيوية في هذا القرن	١٧٦
٨٥٨	بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر	١٧٨
٨٥٩	ما نعرفه من اديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر	١٨٧
٨٦٠	تفنيد زعم غوليلمس الصوري ان الموارنة ارعوا عن الضلال	
سنة ١١٨٢ م	١٩٢

الباب الثالث عشر

تاريخ سورية في القرن الثالث عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

الاحداث التي كانت في القرن الثالث عشر

٨٦١	استقلال الملك العادل بالسلطنة وبعض اعماله	٢٠٠
٨٦٢	ما كان من الحرب بين الملك العادل والفرنج	٢٠٤
٨٦٣	اخذ الفرنج دمياط وانتزاعها من يدهم	٢١٠
٨٦٤	حملة فريدريك الثاني ملك المانيا على سورية وترك الملك	
الكامل القدس له	٢١٤
٨٦٥	بعض احداث في سورية إلى وفاة الملك الكامل	٢١٨
٨٦٦	اخبار الفرنج بسورية بعد عود عاهل الالمان إلى المغرب	٢٢٤
٨٦٧	ما كان من الاحداث بين الملوك الايوبيين بعد وفاة الملك الكامل ..	٢٢٦
٨٦٨	غزوات الخوارزمية في سورية	٢٣١
٨٦٩	حملة الفرنج السابعة على سورية بأمره الملك لويس التاسع	٢٣٥
٨٧٠	ذكر وفاة الملك الصالح وخلافة ابنه ووقعة المنصورة	٢٣٧

٢٤٠	٨٧١	أخذ الملك لويس أسيراً ونجّاه من الأسر
٢٤٣	٨٧٢	بأقي أخبار الأمراء الأيوبيين إلى انقراض دولتهم
٢٤٦	٨٧٣	تمتة الكلام في حملة القديس لويس وعوده إلى فرنسا
٢٤٩	٨٧٤	أغارات التتر على سورية
٢٥٣	٨٧٥	بعض الأحداث في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري
٢٥٥	٨٧٦	حروب الملك الظاهر مع الفرنج إلى حين وفاته
٢٦١	٨٧٧	خلافة ولدي الملك الظاهر له ثم خلعهما وتمليك قلاوون الصالح
٢٦٣	٨٧٨	وقعة حمص بين الملك المنصور وقلاوون والتتر
٢٦٤	٨٧٩	وفاة صاحب حماه وفتح قلعة المرقب وصهيون
٢٦٦	٨٨٠	ذكر فتوح طرابلس
٢٦٩	٨٨١	ذكر فتوح عكا
٢٧٤	٨٨٢	فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها
٢٧٦	٨٨٣	ذكر بعض الأحداث في أيام الملك الأشرف إلى مقتله ومقتل قاتليه
٢٨٠	٨٨٤	حملة التتر على سورية مرة أخرى

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم الدينيين بسورية في القرن الثالث عشر

٢٨٣	٨٨٥	المشاهير السوريون
٢٨٣		ابن الساعاتي
٢٨٤		فتيان الشاغوري
٢٨٤		الشيخ علي الطرابلسي
٢٨٥		رشيد النابلسي
٢٨٥		ياقوت الحموي
٢٨٧		ابن عنين
٢٨٨		بهاء الدين ابن شداد
٢٨٨		عبد الرحمن العسقلاني
٢٨٩		عبد المحسن التنوخي
٢٩٠		ابن النجار الدمشقي

٢٩١ ابن ابي اليسر الدمشقي	
٢٩١ عون الدين الحلبي	
٢٩٢ ابن ابي اصيبعة	
٢٩٣ ابن الحموي	
٢٩٣ بهاء الدين ابن النحاس الحلبي	
٢٩٤ علاء الدين ابو الحسن الدمشقي	
٢٩٥ محمد بن مالك	
٢٩٦ جمال الدين الحموي	
٢٩٧ من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين	٨٨٦
٢٩٧ فخر الدين الرازي	
٢٩٩ معجد الدين ابن الاثير	
٣٠٠ عز الدين ابن الاثير المؤرخ	
٣٠١ ضياء الدين ابن الاثير	
٣٠٢ عثمان ابن الحاجب	
٣٠٣ ابن البيطار	
٣٠٤ البهاء زهير	
٣٠٥ عمر ابن القارض	
٣٠٥ ابن خلكان	
٣٠٦ البيضاوي	

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الثالث عشر

الفصل الاول
بطاركة انطاكية واورشليم من الشرقيين والغربيين

٣٠٧	بطاركة انطاكية في القرن الثالث عشر	٨٨٧
٣٠٩	بطاركة اورشليم في القرن الثالث عشر	٨٨٨
٣١٠ ...	بطاركة انطاكية واورشليم من اللاتين في القرن الثالث عشر	٨٨٩

الفصل الثاني
المشاهير الدينيين في القرن الثالث عشر

٣١٢	غريغوريوس ابن العبري المعروف بأبي الفرج	٨٩٠
٣٢٠	ابن العسال ويعقوب اسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني	٨٩١
٣٢١	يعقوب اسقف تكريت	
٣٢٢	بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن	٨٩٢
٣٢٢	القديس البرتس الكبير	
٣٢٣	القديس توما الاكويني	
٣٢٤	القديس بوناونتورا	

ملحق
تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

٣٢٥	فتح المسلمين جبة بشري	٨٩٣
٣٢٦	حروب كسروان	٨٩٤
٣٣١	بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر	٨٩٥
٣٣٥ ...	رد ما يحتاج به على الموارنة من كلام البابا اينوشنسيوس الثالث	٨٩٦

الباب الرابع عشر
تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الاول
تاريخها الديني

الفصل الاول

من تولوا سورية بهذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

- ٨٩٧ تتمة اخبار الملك الناصر وما كان في ايامه ٣٤٠
٨٩٨ العشائر الاسلامية التي اقيمت في سواحل لبنان في هذه الاثناء ٣٤٥
٨٩٩ احداث اخرى في ايام الملك الناصر إلى حين وفاته ٣٥٠
٩٠٠ وفاة الملك الناصر وتعاقب ابنائه في الخلافة ٣٥٢
٩٠١ بعض احداث غير ما ذكر في ايام هؤلاء الملوك ٣٥٨
٩٠٢ الملك المنصور والملك الاشرف وما كان في ايامهما ٣٥٩
٩٠٣ المنصور بن الاشرف واخوه الصالح وما كان في ايامهما ٣٦٣
٩٠٤ دولة المماليك الجراكسة واولهم الملك الظاهر برقوق ٣٦٥
٩٠٥ انتفاض الناصري واستيلاؤه على الشام ومصر واعتقال السلطان
برقوق بالكرك ٣٦٨
٩٠٦ ثورة منطاش ونكبة الجوباني وحبس الناصري ٣٧٠
٩٠٧ خروج السلطان برقوق من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره
دمشق وعوده إلى كرسية ٣٧١
٩٠٨ ذكر احداث اخرى في ايام السلطان الظاهر إلى مقتل منطاش ٣٧٤
٩٠٩ بقية اخبار الملك الظاهر برقوق وابنه إلى نهاية هذا القرن ٣٧٧

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الرابع عشر

٣٧٩	المشاهير السوريون في هذا القرن	٩١٠
٣٧٩	ابن منظور	
٣٨٠	فخر الدين الحموي قاضي حلب	
٣٨٠	شمس الدين الدمشقي	
٣٨٠	الملك المؤيد اسماعيل ابو الفداء	
٣٨٢	بدر الدين محمد الكتاني الحموي	
٣٨٢	هبة الله الحموي	
٣٨٣	عمر ابن الحسام الدمشقي	
٣٨٤	ابن الوردي	
٣٨٥	صلاح الدين الكتبي الحلبي	
٣٨٦	صلاح الدين الصفدي	
٣٨٦	صدر الدين الدمشقي	
٣٨٦	محمود القدسي	
٣٨٧	من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم غير السوريين	٩١١
٣٨٧	قطب الدين محمود الشيرازي	
٣٨٧	شهاب الدين احمد ابن عبد الوهاب	
٣٨٨	الصنهاجي صاحب الاجرومية	
٣٨٨	اثير الدين ابو حيان النحوي المغربي	
٣٨٩	صفي الدين الحلبي	
٣٨٩	ابن هشام الانصاري	
٣٩٠	ابو الضياء خليل بن اسحق المالكي	
٣٩١	ابن عقيل	
٣٩١	ابن بطوطة	
٣٩٢	السعد التفتزاني	

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

الفصل الاول
بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

٩١٢	بطاركة انطاكية	٣٩٣
٩١٣	بطاركة اورشليم في القرن الرابع عشر	٣٩٤

الفصل الثاني
بعض المشاهير الدينيين في القرن الرابع عشر

٩١٤	محبوب بن قسطنطين مطران منبج اليعقوبي	٣٩٦
٩١٥	عبد يشوع مطران صوبا	٣٩٨
٩١٦	دانيال الكاهن وخامس بن القرداحي	٤٠١
٩١٧	تيموتاوس الثاني بطريك النساطرة واغناطيوس بن وهب بطريك اليعاقبة	٤٠٢
٩١٨	عمرو بن متى	٤٠٣
٩١٩	مشاهير آخرون في هذا القرن	٤٠٥
	جبرائيل اسقف الموصل	٤٠٥
	نيقوفور كاليستوس	٤٠٥
	توادورس القاري	٤٠٦
	نيقوفور كراكوراس	٤٠٦

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

- ٩٢٠ ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن ٤٠٦
٩٢١ بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر ٤٠٨
٩٢٢ من عرفناهم من اساقفة الموارنة في هذا القرن ٤١٢

الباب الخامس عشر

تاريخ سورية في القرن الخامس عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

- ٩٢٣ حملة تيمورلنك على سورية ٤١٥
٩٢٤ ما كان من الاحداث في ايام الملك الناصر فرج إلى وفاته ... ٤١٨
٩٢٥ الملك المؤيد شيخ وما كان في ايامه ٤١٩
٩٢٦ الملك المظفر احمد ابن الملك المؤيد والملك الظاهر ططر ٤٢٢
٩٢٧ الملك الصالح محمد بن ططر ٤٢٤
٩٢٨ الملك الاشرف برسبای الدقماقي الظاهري ٤٢٤
٩٢٩ الملك العزيز يوسف ابن الملك الاشرف ٤٢٧
٩٣٠ الملك الظاهر جقمق العلائي الظاهري ٤٢٨
٩٣١ الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر والملك الاشرف
اينال العلائي ٤٣٠
٩٣٢ الملك المؤيد احمد ابن الملك الاشرف ٤٣٣

٩٣٣	الملك الظاهر خشقدم	٤٣٤
٩٣٤	الملك الظاهر بلباي المؤيدي	٤٣٦
٩٣٥	الملك الظاهر ترمبغا الظاهري	٤٣٧
٩٣٦	الملك الاشرف قايتباي المحمودي الظاهري	٤٣٨
٩٣٧	الملك الناصر محمد ابن الملك الاشرف قايتباي	٤٤٥
٩٣٨	الملك الظاهر قانصوه الاشرفي	٤٤٧
٩٣٩	الملك الاشرف جان بلاط الاشرفي	٤٤٩
٩٤٠	الملك العادل طومان باي	٤٥٢

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الخامس عشر

٩٤١	المشاهير السوريون	٤٥٤
	ابن الحبيب الحلبي	٤٥٤
	علاء الدين البهائي الغزولي الدمشقي	٤٥٤
	ابن الشحنة الحلبي	٤٥٥
	البدر الشنكي الدمشقي	٤٥٥
	ابن حجة الحموي	٤٥٥
	علي بن خليل الطرابلسي	٤٥٦
	شهاب الدين الرملي القدسي	٤٥٦
	ابن حجر العسقلاني	٤٥٦
	شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي	٤٥٨
	محمد بن قرقماس الناصري	٤٥٨
	ابو حامد المقدسي	٤٥٩
	ابن مزهر الدمشقي	٤٥٩
٩٤٢	بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين	٤٥٩
	ابن خلدون الإشبيلي	٤٥٩
	محمد بن موسى الدميري	٤٦٠
	علي بن محمد الجرجاني	٤٦١
	ابن الهائم	٤٦١

٤٦٢ ابن الملتن
٤٦٢ محمد الفيروزآبادي الشيرازي
٤٦٤ البرهان البيجوري
٤٦٤ تقي الدين احمد بن علي المقرئ
٤٦٦ محمود العيني
٤٦٧ ابو الحسن بن تغري بردي
٤٦٧ تقي الدين الشمني
٤٦٨ محمد السنحاوي
٤٦٩ الشيخ شمس الدين القادري

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

٩٤٣ بطاركة انطاكية في القرن الخامس عشر	٤٧٠
٩٤٤ بطاركة اورشليم في القرن الخامس عشر	٤٧١

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر

٩٤٥ نوح البقوفاوي بطريرك البعاقبة	٤٧٤
٩٤٦ الاخ (فرا) غريفون	٤٧٥
٩٤٧ الكردينال بساريون وتوادورس غازا	٤٧٨

الفصل الثالث

اخص الاحداث الدينية في هذا العصر اي اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية

٩٤٨	ما كان بهذا الشأن قبل القرن الخامس عشر	٤٨٠
٩٤٩	مجمع فرارا	٤٨٤
٩٥٠	اعمال هذا المجمع في فلورنسا	٤٩١
٩٥١	ما كان بعد اتحاد الروم في هذا المجمع	٤٩٩

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

٩٥٢	بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في ايامهم .	٥٠٤
٩٥٣	بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر	٥٠٧
٩٥٤	من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر	٥١٦
٩٥٥	تفنيد رأي من زعم ان الموارنة واسكفهم الياس مطران قبرص	
	رجعوا إلى الايمان ايام البابا اوجانيوس الرابع	٥١٨

الباب السادس عشر

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

القسم الاول

تاريخها الديني في هذا القرن

فصل

ما كان من الاحداث إلى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر

٩٥٦	الملك قانصوه الغوري	٥٢٨
٩٥٧	طومان باي آخر ملوك الجراكسة	٥٣٢

المجلد السادس

تاريخ سورية

الباب الثاني عشر

تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

فاتحة الكتاب

إن تاريخ سورية، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، مثالات يتمثل بها كل عاقل ليلزم السلام والوفاق، وينكب عن الخصام والخلاف. فجّل أحداث تاريخ هذين القرنين أو كلها حروب ومغالبات على مدن سورية، خاصة بين الفرنج الذين أكثروا من الحملات حيثيذ على بلادنا، وبين المسلمين الذين كانوا يلون هذه البلاد. ولو اقتدى بعض المسلمين بأبي بكر الصديق في الرفق بالنصارى، كما أوصى غزاته الأولين، أو بعمر بن الخطاب، إذ لم يشأ أن يصلي في كنيسة القدس، لثلا يقول المسلمون بعده هنا صلى عمر، أو تركوا النصارى وما يدينون كما أمروا، لنجا المسلمون والنصارى من غوائل الحروب التي خربت هذه البلاد.

مدة قرنين. ولكن قام في مصر الخلفاء العلويون الفاطميون، ونازعوا الخلفاء العباسيين الولاية على سورية، وأذاقوا النصارى الأمرين بعد أن كانوا يترفون بعدالة هرون الرشيد وأولاده وأحفاده، وقام من العلويين الحاكم بأمر الله فعذب النصارى واليهود وبعض المسلمين أيضاً، ودكّ معابدهم حتى أحرق كنيسة قبر المسيح، ومنعوا النصارى من أن يحجّوا إلى القدس إلا أن يدفعوا ضريبة فاحشة. فلم يصبر أحبار رومة، رؤساء الدين المسيحي، وملوك النصارى بالغرب، على هذا الاعتداء، ودعتهم فروضهم الدينية إلى العناية بتأمين النصارى بسورية ومصر، وأخذ منذ ذلك الحين في الاهتمام بتأمينهم من الاضطهاد، ووقاية معابدهم من الخراب، إلى أن تألّبت في آخر القرن الحادي عشر جموع نصارى الغرب وسارت إلى المشرق.

ولولا الخلاف الذي كان بين المسلمين في ذلك العصر أعني بين الملوك السلجوقيين وخلفاء مصر العلويين، وبين حكام الأعمال بأنفسهم، كما كان بين ولاية بغداد والموصل وحلب ودمشق وحمص وغيرها لما قدر الفرنج أن يدخلوا هذه البلاد، ولا جسروا أن يكون لهم بها مطمع. ولو لم يكن بين النصارى مثل هذا الخلاف بين ملوك الروم في قسطنطينية وملوك الغرب، وبين أصحاب تلك الحملات بأنفسهم أيضاً، لما استطاع المسلمون أن يخرجوهم من هذه البلاد عنوة. والحق يقال إن هذه الحروب الشديدة المديدة أرتنا بسالة المسلمين، وصبرهم على القتال، وعصبيتهم الشديدة. فلم يتركوا الفرنج يستريحون في بلادهم سنة واحدة دون حرب. فكانت في القرنين سلسلة حروب تتصل إحدى حلقاتها بالأخرى كما سترى. وكشفت هذه الأحداث من جهة الفرنج عن ورعهم وتحمّسهم في الدين في ذلك العصر، وتحملهم مضض مشاق السفر وأخطار الحرب. ولكن كان في جانب ذلك المحاسدة والخلاف، حتى ألجئوا أن يجلوا عن هذه البلاد صاغرين، ويورثوا سكانها غوائل الخلاف. ونالنا نحن الموارنة نصيبنا من هذه المصائب، وهو إحراق عمل كسروان بجملته، وخراب جبة بشري، على أثر جلّائهم، لأنهم أنسوا بنا، واستوطنوا بين ظهرائنا لجامعة الدين بيننا وبينهم. وسترى في كل فصل من تاريخنا لهذين القرنين موعظة ناطقة بوجوب الموالاة والوفاق في أمور هذه الدنيا، بين الملل ولو اختلفت ديناً ومذهباً وطقساً، ووجوب التنكيب عن العداوات والخصام طلباً لراحة كل فريق، والسير في طريق التمدن والتراقي في مدارج النجاح والفلاح. هدى الله كلّ ضال إلى سراط الحق المستقيم.

الفصل الأول

قدوم الفرنج إلى سورية واستحوازم على بعض مدنها وما كان
من الحروب في هذا القرن

عد ٨١٢

تألب الفرنج في بلادهم ومسيرهم إلى قسطنطينية

كان المسلمون قد ضايقوا ملك الروم الكسيس كومنانس، وانتزعوا أكثر أملاكه، وأوشكوا أن يحصروه في قسطنطينية عاصمة ملكه. فلجأ إلى ملوك أوروبا وأوفد إليهم وفوداً ورسائل منها رسالة إلى روبرتس كونت فلاندر الملاحقة يومئذ بفرنسة، وإلى جميع الأمراء المسيحيين من الاكليريكيين والعامه، يستجير بهم، ويبالغ في مضايقة المسلمين له، وفي احتقارهم الدين المسيحي، وسطوهم على الكنائس والأديار، ويسألهم الأخذ بناصره، والانتصار لدينهم، واستنقاذ قبر المخلص من أيديهم. ويزين لهم كسب ما في المشرق من الكنوز والذخائر المقدسة والآثار الجليلة. وكان في أبرشية اميان بفرنسة وقتئذ، حبيس اسمه بطرس، عزم أن يرحل إلى أورشليم فأتمها، وأقام فيها أياماً، وزار سمعان بطريك هذه المدينة، وحدثه سائلاً لياه عن حالهم، فتم إليه البطريك ما يقاسون خاصة من جراء مغالبة دول المسلمين على مدينتهم، فسأله بطرس أليس من علاج لهذه الشؤون؟ فقال البطريك آثامنا أبعدت بيننا وبين إلهنا فلا يستجيب دعاءنا، وكأن عقابنا لم يكن بعد. فأشار عليه السائح أن يرفع رسائل إلى الحبر الروماني وأمراء النصارى في المغرب، وهو يوصل رسائله إليهم، ويصنع ما يقدره الله عليه لإجابة سؤاله. فراق هذا الكلام للبطريك، وكتب رسائله، ودفعها إلى السائح الذي قام في ذهنه أن الله يدعو للجهاد في هذه المهمة الجليلة. فأتى إلى رومة، ورفع رسالة البطريك إلى البابا أوربانس الثاني،

فأجله وأبدى ارتياحه إلى مساعدة نصارى المشرق. فمضى بطرس السائح يقري الفيافي بإيطاليا وفرنسا، حافي القدمين، مكشوف الرأس، حاملاً صلياً، مغرياً الكبراء والعامّة أيضاً لنجدة نصارى الشرق. أما الحبر الروماني فعقد مجمعاً في بلاسنس بـنـرمـندية، جمع فيه أساقفة إيطاليا وبوركونيا وفرنسة وألمانيا وبفيارا وغيرها، حتى اجتمع حينئذٍ مئتا أسقف ونحو من أربعة آلاف إكليريكي، وأكثر من ثلاثين ألفاً من العامة، فلم تسعهم كنيسة، فتألبوا في ساحة في اليوم الأول من آذار سنة ١٠٩٥، وشهد المجمع نواب بعض الملوك، ووفود الكسيس ملك الروم الذين تضرعوا باخبات إلى الحبر الروماني وأمراء الغرب، أن يمدوا ملكهم وينجدوه على أعدائه، حباً بخير الكنيسة والدين الذي كاد يزهق في الشرق، فحث البابا المؤمنين على أن يمدوا ملك الروم، وأقسم كثيرون من الحاضرين أن يسيروا إلى قسطنطينية لإمداد الملك. وعزم الحبر الروماني أن يسير إلى فرنسة، ويعقد فيها مجمعاً، فسار بحراً واستدعى الأساقفة إلى الاجتماع في كلمون باوفرنيا في الثامن عشر من تشرين الثاني سنة ١٠٩٥، فاجتمعوا في اليوم المعين وكان عدد رؤساء الأساقفة ثلاثة عشر، وعدد الأساقفة والرؤساء الكبار مئتين وخمسة، وعدد الباقين من الإكليريكيين نحواً من أربع مئة، وحشد يشدّ عن العد من الأمراء، والسفراء، والوجهاء، والعامّة، حتى ضاقت عنهم المدينة وضواحيها. وبعد أن بحث آباء المجمع عن بعض المسائل المتعلقة بالدين والتهديب البيعي قرّروا عقد المجلس العاشر في ساحة فسيحة في المدينة. فقام بطرس السائح وخطب في الجامعة خطبة حماسية رنانة، وكان فصيحاً، بليغاً، سديد الحجة، وكان لخطبته وقع شديد في قلوب سامعيه، حتى كادوا يحاولون أن يطيروا من كلمون إلى أورشليم. وخطب بعده البابا اوربانوس وكان فرنسياً مولداً حاضراً أبناء وطنه المسيحيين أجمع على استنقاذ الأرض المقدسة، بفصاحة عجيبة، حتى نهض السامعون بأجمعهم، وضجوا صارخين كأنه بقم واحد: Dieu Le Veut ! Dieu Le Veut ! إن الله يريد ذلك. إن الله يريد ذلك. فقال البابا فليكن هذا الكلام شعاراً لكم في كل عمل صالح تأتونه. وكان لكلامه تأثير شديد، حتى عزم للحال أكثر السامعين من الاكليروس والعالمين على المسير إلى الشرق. وكان اويمر أسقف بوي أول من أخذ من يد البابا الصليب شعار الصليبيين في حملاتهم إلى المشرق، وتبعه كثيرون. وأقام البابا براى الأساقفة اويمر أسقف بوي رئيساً روحياً للمتجندين وسفيراً من قبله، وريموند

كونت تولوز وسان جيل رئيساً مدنياً. وطاف البابا في كثير من كنائس فرنسا مديراً شؤونها وحائاً على المسير إلى المشرق، وموزعاً بيده الصليبان. وجال بطرس السائح في كل فجّ داعياً إلى التجند، وأكثر الأساقفة من الحض على ذلك. فعظم الإقبال على هذا التجند في فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وتبارى فيه الأكابر، والأصاغر، الرجال، والنساء، والأحداث، والكهول، حتى اضطر البابا أن يضع نظاماً لذلك؛ وفي جملة أن لا تسافر المرأة إلا مع زوجها أو إختها. وكان بين الكبراء المجتدين ريموند كونت تولوز المارّ ذكره، وروبرتس الثاني كونت فلاندر وكونت سمي بعداً كونت أورشليم، وروبرتس الثاني كونت نرمندية، وغودفروا دي بويون دوك لوران، وأخواه بودين واستاش، ويوموند أمير ترينتو. وأما عدد الصليبيين فلا يحصى، وقال فوجر من شرتر الذي كان معهم إن عددهم لا يقل عن ستة ملايين، ولكن عاد بعضهم من إيطاليا، وبعضهم من غيرها، وبعضهم مات، وبعضهم قتل. والمؤكد أن الذين بلغوا قسطنطينية كانوا نحو ستمائة ألف مقاتل. وقالت الأميرة حنه كومنانس التي كتبت تاريخ أبيها الكسيس كومنانس: «من شاء إحصاء عدد الصليبيين فليحص عدد رمال البحر، أو نجوم السماء، أو أوراق النبات، أو أزهار الربيع». هذه مبالغة تشير إلى الكثرة.

وقد اتفق الصليبيون أن لا يسيروا في طريق واحد، أو حشداً واحداً، بل أن يسيروا متفرقين، وموعد اجتماعهم قسطنطينية. فسار جيش منهم مقدمه بطرس السائح في طريق ألمانيا، وكان عدد هذا الجيش نحو تسعين ألفاً. وفي جملتهم نساء وأحداث وشيوخ. وأخذ إمرة فريق من هذا الجيش رجل اسمه كوتيار Sans Avoir أي الفقير، أو الذي لا يملك شيئاً. واسمه دالّ على ما كان عليه من المسكنة والفقرة. وكان عسكره كذلك، وكان المؤمنون يقومون بأودهم ما ساروا في أرض فرنسا. وقد تبعهم بعض الالمان في طريقهم، ولم يعترض لهم أحد، وبلغوا إلى بلغاريا. وقد عازهم الزاد وأبى واليه أن يمدّهم بشيء منه، فتشتوا في المزارع والقرى، وسلبوا الماشية، وأحرقوا بيوتاً، وقتلوا بعض من قاومهم. فتألب البلغاريون عليهم، وقتلوا منهم كثيرين، وانهزم كوتيار سائراً في الأحرار والمغاوير بمن بقي من جنده، إلى أن بلغوا نيسا. فشقق عليهم واليه، وأحسن إليهم بأزودة وأسلحة وملابس، وبلغوا أسوار قسطنطينية بعد شهرين مضنين بالتعب والجوع.

وأما الفريق الآخر من هذا الجيش، الذي كان إمارة بطرس السائح، فسار في طريق بغيارا واوستريا فأباحتهم قولمان ملك اونغريا (المجر) أن يجتازوا بأرضه آمنين، بحيث لا يضربون بأحد، ويشترطون ما يحتاجون إليه، وبلغوا مدينة سملين، فأروا على أبوابها بعض أسلحة كان أهل المدينة قد انتزعوها من الصليبيين، فضربوا المدينة وفتحوها وقتلوا من أهلها أربعة آلاف. ولكن جيش الانغاريون عليهم، فانهزم بطرس السائح بعسكره، وساروا في الأحراج وأنتهوا إلى نيسا، فقدم لهم واليها الزاد. ولكن وقع خصام بين بعض الأهلين وبعض الجند، فأحرق بعض الألمانين من الصليبيين سبع مطاحن، فثار أهل المدينة بالصليبيين، فقتلوا كثيرين، وأخذوا منهم ألفي عربة، وأسروا كثيرين. وعاد بطرس السائح الذي كان قد سار في مقدمة جيشه إلى والي نيسا يسأله تخلية الأسرى، وردّ العربات، فأبى واستأنف القتال، ودارت الدائرة على الصليبيين، فقتل منهم عشرة آلاف، وانهزموا في البرية نحو تراسة نادمين على ما جنوا على أنفسهم وعلى غيرهم. ولما علم الملك الكسيس بوصولهم إلى تراسة أرسل يعتبهم على سطوهم، ويعدمهم بالصفح، فساروا حتى انتهوا إلى أسوار قسطنطينية.

وحشد كاهن ألماني اسمه كوتسكال عسكراً نحو خمسة عشر ألفاً وكان أكثرهم من السباريت الجانين، فأفرطوا في السطو بانغاريا، فقتلوا هناك عن آخرهم. وتآلب عسكر آخر من ألمانيا فسطا على اليهود، ونكل بهم فشتتهم الانغاريون والبلغاريون شذر مذر. وأما الجيوش المنظمة فسار فريق كبير منها إمارة غودفروا دي بويون. فلم يتعرض لهم الانغاريون والبلغاريون. وسار فريق آخر إمارة بوبرتس دوك نرمندية، وروبرتس كونت فلاندوا، وغيرهما، في طريق إيطاليا. وسار فريق آخر إمارة بيوموند إمير تريدنتو بحرراً إلى بلاد اليونان. وسار الصليبيون من جنوب فرنسا برئاسة اويمر أسقف بوي سفير البابا وإمارة ريموند كونت تولوز، وكان عدد هذا الجيش نحواً من مئة ألف مقاتل، وساروا في طريق إيطاليا وبلاد اليونان بأحسن نظام وبكل عبادة وورع، واجتمعوا جميعاً في ضواحي قسطنطينية سنة ١٠٩٦. وكان معسكر قادتهم في قرية بيوكدرا إحدى ضواحي قسطنطينية. وقد كان عدد من قتل ومات منهم في طريقهم ألفاً مؤلفة (ملخص عن تاريخ روهو بخر عن تاريخ غوليلمس أسقف صور وغيره من مؤرخي ذلك العصر).

ما كان بين الفرنج وملك الروم ومسيرهم إلى أنطاكية

إن الكسيس ملك الروم الذي كان قد استمدَّ أمراء الغرب، ارتاع لما رأى كثرة عديدهم، ووجس من انقلاب ناجديه عليه، وأسف لأنه أراهم ضعفه باستمداده لهم. فعول على الحيلة والمكر بهم، فرحب بهم، وأنسهم، وقدم لهم هدايا وتقادم نفيسة، وأكثر من الوعود بمجاراتهم على كل ما يبتغون، لكنه بالغ في تجسس أحوالهم واستطلاع ما كنّت سرائرهم. وكان الكونت دي فرمندوا أخو ملك فرنسا قد ألقاه عاصف على شواطئ الأبير، فدسّ الكسيس من أحضره وحاشيته إلى قسطنطينية بهيئة أسير، آملاً أن يكون أخو ملك فرنسا رهينة عنده لحفظ الأمانة له، فكان عكس ما أمل. فإن ذلك كشف للفرنج خبث نيته، وأراهم لزوم الحذر منه، وأخذ رؤسائهم يعاملون الروم معاملة أعداء. فندم الكسيس على قبج فعلته، واستعطف أسيره، وطلب عفوه، وبالغ في إكرامه، وفي تقديم الهدايا له. لكنه لم يلبث أن منع الفرنج الزاد. فانتشروا في القرى وضواحي المدينة ينهاون ويسلبون، واستمروا على ذلك أياماً، فكان لهم ما يكفيهم. وأتت أيام عيد الميلاد فكفّوا عن السلب تدبيراً، وصالحوا الملك، فعاد يجري الأرزاق عليهم. وكان الملك لا يدخر وسيلة من وعد ووعيد ليحلف له غودفروا يمين الأمانة والطاعة، وغودفروا لا يغتر بوعده ولا يهرب وعيده، وأوشكا أن يتعاركا، وبلغ الخبر بيوموند، واستبشر بأن تلك وسيلة لإسقاط ملك الروم واقتسام مملكته. وكاشف غودفروا في ذلك فلم يحسن له. وعلم الملك بذلك فازداد رهبةً وتوجساً، وأرسل ابنه ليكون في معسكر الفرنج، فاغثروا بخدعته، وصيدوا بأحبولته، وأتى رؤسائهم إلى قصره، فبالغ في تكريمهم، وتبّنى غودفروا، ووضع مملكته تحت حمايتهم، فحلفوا له على أنهم لا يخلّون بحرمة الضيافة، وأنهم يسلّمون إليه ما كان يخصّ مملكته من المدن التي يفتحونها. ووعدهم الملك أن ينجدهم برأً وبحراً بجنده وسفنه، وأن يقدم لهم الأزودة، ويشاطرهم الكفاح والمخاطر والفخر في حملتهم.

وكان أول من عبر البوسفور منهم واحتلّ آسيا غودفروا، وسار على أثره باقي الأمراء، وكان جيشهم حينئذٍ ست مئة ألف مقاتل. وأول مدينة حصروها وافتتحوها كانت مدينة نيقية المشهورة بالجمعين الأول والثامن اللذين عقدا فيها،

وكان تولايها حينئذ قليج أرسلان بن سليمان سلطان قونية من السلجوقيين، وسماه أبو الفداء قليج. فلاقى الفرنج بجموعه، فقاتلوه، وهزموه في رجب سنة ٤٩٠ هـ وهي سنة ١٠٩٧ م. هذا ما رواه ابن الأثير وأبو الفداء. وقد ذكر المؤرخون الفرنج أخذ نيقية بأكثر تفصيل فقالوا إن مهاجمات الفرنج لهذه المدينة في الأيام الأولى من حصارهم لم تجدهم نفعاً، ورجعوا عنها خاسرين لأنها كانت محصنة منيعة، وأتى السلطان قليج لنجدتها بستين ألف فارس، فتأججت نار الوغى بينه وبين الفرنج من الفجر إلى المساء، فانكسر، وتشتت جمعه، وقتل من عسكره كثيرون. وبعد هذه الواقعة شدوا الحصار على المدينة، ولم يبقَ إلا أن يدخلوها. فأرسل الملك الكسيس كتيبة من جنده بإمرة قائدين معروفين بالدهاء. فدخل أحدهم المدينة وأرهب أهلها بما سيجريه الفرنج عليهم من الانتقام، وزين لهم أن يستسلموا إلى الملك ففعلوا. وإذا كان الفرنج يتحفزون للدخول إلى المدينة رأوا أعلام الملك الكسيس تخفق على أسوار المدينة وقلاعها، فدهشوا واحتدموا وكادوا يتمزقون غيظاً، إذ منعوا من أن يدخلوا المدينة إلا عشرة عشرة بعد إراقة دماء كثيرين منهم في فتحها، وأوشكوا أن يثيروا بملك الروم لولا أن يتدارك هو الأمر، باعتذاره عن فعلة قائديه، وبسخائه على الجنود، وتقديم الهدايا النفيسة لرؤسائهم. فأغضى الفرنج على سوء صنيعه وحذروا الأركان إليه.

وفي ٢٥ حزيران من سنة ١٠٩٧ سار الفرنج بجيوشهم من نيقية منقسمين إلى عسكريين؛ أحدهما بإمرة بيوموند وتنكراد وروبرتس دوك نرمنديه، والآخر بإمرة غودفروا دوك لوران. وبينما عسكر بيوموند على مقربة من دوريل المعروفة الآن باسكي شهر، وثب عليهم في غرة تموز قليج أرسلان سلطان قونية السلجوقي، بجيش جرار لا ينقص عن ثلثماية ألف رجل. واستعرت نار الحرب بين الفريقين منذ الصباح، وانتهى جنود السلطان في إحدى كراتهم إلى معسكر الفرنج. فقتلوا النساء والأطفال، والشيوخ، والمرضى، واتصلوا إلى أن أحاطوا بالفرنج من كل جهة، وسدوا عليهم باب الهرب. وكاد اليأس يستحوذ عليهم، فإذا طلائع العسكر الآخر الذي بإمرة غودفروا مشرفة عليهم من أعلى جبل قريب منهم. فانتعشت قلوب إخوانهم، وارتاع أعداؤهم، وانكشفوا مرتدين، فنتبع الفرنج خطاهم يقتلون منهم. فتحصن السلطان قليج في قمة جبل طائناً أن الفرنج لا يلحقونه إلى هناك. فأحرقوا بالجبل وضيقوا على من تحصنوا به، وقتلوا منهم كثيرين، وغنموا ازودتهم

وسلاحهم وخيمهم ودوابهم. وقد سرتهم رؤية الجمال التي لم يكونوا يعرفونها في أوروبا. وكان عدد القتلى من الفرنج في هذه الواقعة نحو أربعة آلاف. وقد أطرى المؤرخون النصارى المعاصرون لهذه الأحداث بسالة المسلمين وثبتهم في القتال. أما السلطان قليج فانهزم بمن بقي من جيشه، وأخرب كل البلاد التي رأى أنه لا يستطيع الدفاع عنها.

وفي ٣ تموز سار الفرنج جيشاً واحداً، مفكرين أن سيرهم معاً يقيهم الغدر ومباغثة أعدائهم فريقاً منهم، لكنهم عرضوا نفوسهم بذلك للهلاك جوعاً في الأعمال التي أخربها قليج. ولما توغلوا بهذه البلاد المقفرة الخربة، عازهم الزاد، وأصابتهم مجاعة ألجأتهم إلى الاقتيات بحب الأشجار وأصول النبات. فهلك كثير من الجنود والدواب جوعاً وعطشاً، واضطرّ الفرسان أن يترجلوا، وبعضهم أن يركبوا الحمير والبقر، وأن يستخدموا الغنم والماعز والخنازير والكلاب لنقل أمتعتهم وملابسهم. وروى غوليلمس الصوري في كتاب تاريخه لهذه الحرب أنه مات في يوم واحد خمس مئة نفس من الفرنج. واستمروا على هذه الحال التعيسة المضنكة إلى أن انتهوا إلى أنطاكية بيسيدية. ففتح أهلها أبوابها لهم، واستراحوا في هذه المدينة المخضلة الزاهية أياماً. وقد ذاع خبر انتصارهم وكثرة جيشهم، فتوارد إليهم وفود من أعمال كثيرة يرحبون بهم، ويعدون بالطاعة لهم، وإمدادهم بما يبتغون. وجاهر النصارى في آسيا الصغرى بالانقياد إليهم.

وسار جيش الفرنج من أنطاكية بيسيدية نحو قونية عاصمة ملك قليج السلجوقي، وبلغوا هرقلية، حيث أقاموا أربعة أيام، واستأنفوا مسيرهم في أوعار جبل طورس مقاسين من المشاق ما حملهم على أن يسموا هذا الجبل جبل الشيطان، حتى انتهوا في خاتمة مطافهم إلى مارينريا وهي مرعش وكان سكانها نصارى، وفي قلعتها حامية من قبل الحكومة انهزمت عند دنوّهم من المدينة. ومضى حينئذ بودوين أخو غودفروا بكتيبة أولاندية، وتنكراد بكتيبة إيطالية لتجسس الطرق، وتهزيم الأعداء عنها، ولتأمين النصارى في كيليكيا، وللاستيوار. فانتشروا في هذه البلاد وملكوها. واستسلم أهل ترسيس إلى تنكراد، ثم استحوذ عليها بودوين فكان بينهما نزاع كاد يفضي إلى القتال لولا ترفع تنكراد ونزاهته، واستحوذ على ادنه فارس من بوركونية اسمه كوالف، وتولى تنكراد المصيبة، وانتهى إلى اسكندرونة. وكان يطوف في هذه البلاد بثلاث مئة فارس فيفترّ كل عدوّ منها رهبة من جيوش الفرنج.

وعاد بودوين إلى المعسكر العام في مرعش، فونبه أخوه غودفروا على سوء معاملته تنكراد وطمعه بأخذه ترسييس. وكان رجل أرمني اسمه بنكراس يلي مملكة صغيرة. فثار به أهلها فخلعوه، وانقلب عليه الدهر حتى ألقى في السجن في قسطنطينية، ثم فر منه، وانضم إلى الفرنج تحت إمرة بودوين، وكان يزين له الاستيلاء على أرمينية والجزيرة (ما بين النهرين). فأذعن بودوين لرأيه لكن لم يشأ أن يصبح من الفرنج إلا نحو من ألف رجل ومائتا فارس، فسار بهم في أرمينية فلم يلف معارضا، وانفصل عنه بنكراس مستحوذاً على بعض أماكن. ولم يبنئنا التاريخ ما آل إليه أمره. وأما بودوين فاستولى على بعض المدن على عدوة الفرات، فذاع اسمه، وعظمت سطوته ورهبته. وكانت الرها ألحقت بولاية ملك الروم كما رأيت، وكان عليها يومئذ أمير رومي اسمه توادورس يفي الجزيرة للسلطين السلجوقيين، وقد اجتمع فيها كثيرون من النصارى. فاجتمع رأي الأمير والشعب على أن يستدعوا بودوين ويملكوه فيهم، وسار إليه أسقف المدينة واثنان عشر وجيهاً من الشعب، وسألوه أن يسرع إلى مدينتهم ويحكم عليهم، فلبى دعوتهم. ولما دنا من المدينة خرج الشعب كله للالتقاء حاملين أغصان الزيتون ومرتمين بالتسايح. وكان الأمير شيخاً لا ولد له، فتبني بودوين وجعله وارثاً له، ثم اغتال الأمير بعض الناقمين عليه، واستبد بودوين بالولاية على الرها، ووسع تخوم ولايته بما ناله من إرث الأمير، فأخذ سمياط وغيرها من المدن، ثم ماتت امرأته فتزوج بنت أخي أحد أمراء أرمينية، وسهلت له هذه الصلة بالنسب توسيع نطاق حكمته إلى جبل طورس، حتى دان له قسم كبير من الجزيرة وسكان عدوتي الفرات، وأسس هناك للفرنج كنتية الرها سنة ١٠٩٨، واستمر يدير شؤونها إلى أن استدعي ليخلف أخاه غودفروا بعد وفاته في مملكة أورشليم كما سيجي. وتخلي بودوين حيثيذ عن كونتية الرها لبودوين كونت بروج أحد أنسبائه. وأما جيش الإفرنج فسار من مرعش نحو قنسرين، وكان في طليعة الجيش روبرتس كونت فلاندر في ألف رجل، فاستحوذ على قنسرين بإمداد، النصارى سكانها، فأسرع عسكر المسلمين الذي كان في أنطاكية لإنجاد المدينة، لما رأى الفرنج تبوأوها عدل عنها إلى جسر الحديد الذي على العاصي ليصدوا الفرنج عن العبور إلى أنطاكية، وكان في جانبي الجسر قلعتان مصفحتان بالحديد، واجتمع هناك جيش كبير من المسلمين. وكان روبرتس المذكور أول من أوقد نار الحرب بطلائع جيش الفرنج، فردّ عن الجسر خاسراً نحو

ألف رجل، ثم أدركه الجيش العام فشتوا جيش المسلمين، وانهزم من في القلعتين، واستحوذ الفرنج على ضفتي العاصي وساروا نحو أنطاكية. (ملخص عن غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب وغيره من المؤرخين المعاصرين كما روى أقوالهم روهر بخر في كتاب ٦٦ من تاريخه).

عد ٨١٤

حصار الفرنج أنطاكية وفتحها

نلخص أولاً ما ذكره المؤرخون العرب في هذا الشأن نقلاً عن ابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الفداء وغيرهم. قالوا لما انتهت جيوش الفرنج إلى أنطاكية حاصروها تسعة أشهر، وكان واليها يومئذ باغي سنان (وقد مر ذكره) من قبل الملوك السلجوقيين فأحسن الدفاع عنها، وظهر من شجاعته وجودة رأيه وحزمه واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، وأخرج رجال النصارى من المدينة بحجة احتفار خندق، ثم منعهم من العود إليها، وأبقى أطفالهم ونساءهم فيها، وهلك أكثر الفرنج من الجوع والبرد والوباء، ولو بقوا على كثرتهم التي خرجوا فيها لطبقوا بلاد المسلمين. ولما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج، وبدلوا له أموالاً وأقطاعات، فدلّهم على بعض الخارج ودخلوا منه، ونفخوا البوق، فخرج باغي سنان هارباً حتى إذا كان على أربع فراسخ من المدينة راجع نفسه وندم. فسقط مغشياً عليه، وأراد أصحابه أن يركبوه، فلم يكن فيه مسكة. وقد قارب الموت فتركوه وساروا عنه، واجتاز به رجل أرمني، كان يقطع الخطب، وهو بآخر رمق، فقتله وأخذ رأسه إلى الفرنج بأنطاكية. وكان الفرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق بأننا لا نقصد إلا البلاد التي كانت بيد الروم، لا نطلب سواها، مكرراً منهم وخديعة حتى لا يساعدوا صاحب أنطاكية. وسنذكر تألبهم على الفرنج، بعد أخذهم أنطاكية، وحصارهم لهم فيها نقلاً عن المؤرخين العرب أيضاً.

وأما ما ذكره المؤرخون الفرنج في حصار أنطاكية وفتحها، فنلخصه عن المؤلفين المعاصرين لهذه الأحداث، كريوند دي اجيل أو القرين منهم، كغوليلمس أسقف صور وغيره. قالوا إنّ هذا الحصار استمرّ ثمانية أشهر، من أوائل تشرين الأول سنة ١٠٩٧ إلى أواخر حزيران سنة ١٠٩٨. وتقلبت فيها أحوال تارة تسوء،

وتارة تحسن. وكان المسلمون في داخل أسوار المدينة، لا يسمع لهم جلبة، ولا صياح. فتوهم الفرنج أنهم مرتعدون فشلون. فلم يحتاطوا كما كان ينبغي، وانتشروا في ضواحي المدينة وقراها، لاهين بما لاقوا هناك من المؤن، والثمار، والجنات، والمياه، والمواشي التي لم يتمكن أهل المدينة من حرزها. وفشا فيهم الفتور، والانكباب على الطرب والملاذ، وحمل ذلك أهل المدينة على الأمل، ونعش فيهم الشجاعة والنخوة، فخرجوا على الفرنج، فقتلوا، وأسروا كثيرين ممن كانوا مشتبين في البساتين، أو لاهين بما طاب لهم. فندم الفرنج على سوء تصرفهم، وعزموا على أن يأخذوا بثأر من قتل من اخوانهم، ولكن لم تكن لهم الأدوات اللازمة للحصار. فطال مكثهم خارج المدينة ونفذ اذخارهم، وأتت أيام الشتاء، فتمزقت خيمهم، وتعرس مسيرهم من قبل الازحال، وضربت المجاعة أطنابها فيهم. فاجتمع رؤسائهم، وتشاوروا وأرسلوا نحواً من عشرين ألف رجل منهم بإمرة أمير تريدنتو، وكونت فلاندر إلى الاعمال المجاورة لهم، ليمتاروا طعاماً. فمضى هؤلاء، وانتصروا في مسيرهم على عدة شراذم اعترضت لهم، وعادوا موقرين ازودة وذخائر كثيرة. وفي مدة غيابهم، خرج المسلمون على عساكر الفرنج الخيمة حول مدينتهم، فأكثروا من القتل والتنكيل بهم. وذكر ريموند دي اجيل المؤرخ الذي كان في جملة الفرنج حينئذ، انخذلهم، وما قاسوه في ذلك اليوم. وعزا انكسارهم إلى انتقام الله منهم لآثامهم. وقد أدركهم تعالى، بنجاتهم من المجاعة، وبما وفق غزاتهم إلى جلبه من المؤن، سداً لجوعهم إلى وقت فشت فيهم الأمراض، وتوافر عدد الموتى، حتى روى بعض الشهود العيانين، ان الكهنة، لم يكفهم الوقت للصلوات على الأموات. وضافت سهول أنطاكية عن المدافن، وعاودتهم المجاعة حتى أكلوا الجيف، وماتت خيولهم لقلة العلف، فكان لهم في بدء الحصار ستون ألف فرس، ولم يبق منها إلا ألفان. وكثر الابقاء فيهم، فقد حمل اليأس بعضهم على الفرار إلى الرها، حيث ولي بودوين، وبعضهم إلى كيليكيا، حيث تولى تنكراد، وبعضهم أنسل مستخفياً إلى بلاده. وانحاز دوك نرمندية نفسه إلى اللاذقية، ولم يعد إلا بعد مناشدته مرات. وغادر تاتيس قائد عسكر ملك الروم بجنده المعسكر، بحجة أن يستنجد ويمتار حتى اضطر قادة الجيش، أن يقضوا بالموت على من يفر. وطفق أرمير أسقف بوي وغيره من الأساقفة والكهنة، يعظون في الجيش، ويحضونهم على التوبة والتكفير عن آثامهم، ليرأف الله بهم. وفرضوا أصواماً وصلوات، وأقاموا محكمة

تقضي على المجرمين. وكان بعض النصارى يتجسسون أخبار الفرنج، ويكشفون للمسلمين أحوالهم، فشنق بيوموند بعض هؤلاء عبدة لغيرهم.

وكان غودفروا قد جرح، والتأم جرحه، وخرج بين الجنود، فأنعش فيهم الأمل. وأرسل أخوه بودوين كونت الرها وبعض أمراء أرمنية، مالا وذخائر لجيش الفرنج. وأتتهم المؤن من قبرص، وساقس ورودس، فكان لهم كفافهم، وقلت الأمراض فيهم، فعادتهم الشجاعة والنخوة. وقدم إليهم حينئذ وفد من قبل خليفة مصر العلوي، فاستقبلوهم بالاجلال، فقالوا إن مولانا يرغب في التقرب إلى الفرنج على ما بين الفريقين من اختلاف الدين، وانه مستعد أن يدخل بجنده إلى فلسطين وسورية ليخرج منها أعداءهم الذين كانوا على ممر الأيام أعداء الداء للذرية أهل علي. وانه يعلم أن جل ما يقصدونه، انما هو أورشليم، فهو يعد بأنه يجدد كنائس النصارى فيها، ويذب عن دينهم، ويفتح أبواب المدينة لكل من يرغب في الحج إليها، بحيث أن يدخلوا اعزالا، لا سلاح معهم، وأن لا يقيموا فيها أكثر من شهر. فان قبلوا هذا الشرط كان الخليفة مناصراً ومنجداً لهم. وإن أبوا موالاته قامت على قدم، وساق شعوب مصر والحبشة وجميع سكان آسيا وإفريقيا من بوغاز جبل طارق، إلى بغداد لمناوأة الفرنج وكبتهم. فساء كلامهم رؤساء جيش الفرنج، وقام أحدهم، وقال للوفد المصري: «قولوا لمولاكم أن ديننا بعثنا على انقاذ الأرض التي ولد فيها رب هذا الدين، ولا نحتاج في ما عزمنا عليه إلى نجدة من دول الأرض، ولا ننسى ما أجراه المصريون من وقت قريب على حجاج الغرب، ولا يمحي من ذكرنا ما أنزله الحاكم بأمر الله على النصارى، ودكه كنائسهم، ولا سيما كنيسة القبر المقدس. فنحن لا نقصد زيارة أورشليم بل أقسمنا على أن نملكها ونستحوذ على كل ما هنالك. فقولوا لمن أرسلكم أن يختار السلم أو الحرب، قولوا له ان الفرنج المخيمين حول أنطاكية لا يروعهم شعب مصر ولا سكان الحبشة ولا أهل بغداد». وعند انصراف الوفد المصري، صاحبه مفوضون من قبل الفرنج إلى مصر كيلا يجاهرُوا خليفة مصر بالعدوان.

وقد حشد في هذه الأثناء، أمير حلب وأمير دمشق وغيرهم من الأمراء، عشرين ألف فارس، ليمدوا أنطاكية، ودنوا منها فخرج من معسكر الفرنج نخبة من جنودهم، فقاتلوا أولئك الأمراء، وهزموهم وقتلوا منهم ألفي رجل، وألف حصان. وقد ذكر المؤرخون المسلمون هذه الواقعة، بعد أخذ الفرنج أنطاكية كما سيجيء.

وقد قدم حينئذ أسطول من جنوا ودخل المرفأ المعروف بمرفأ القديس سمعان على مقربة من أنطاكية، فسرّ الفرنج خبر قدومهم، ومضى من معسكرهم كثيرون إلى ذلك المرفأ ليرحبوا بهم، ويستطلعوهم أخبار أوروبا، ويمتاروا لهم أقواتاً. وبينما هم راجعون وأكثرهم اعزال لا سلاح معهم، فاجأهم أربعة آلاف رجل من المسلمين وقتلوا كثيرين منهم وشتتوا الباقين. وبلغ الخبر إلى الجيش فأسرع غودفروا بغيره من الرؤساء والجنود، لانقاذ اخوانهم، فهزموا المسلمين. فأرسل باغي سنان والي المدينة نخبة من رجاله لامدادهم مهدداً إياهم بأنه لا يفتح لهم أبواب المدينة، إلى أن ينتصروا، فانتصر الفرنج على الفريقين معاً، وأبدى غودفروا وروبرتس دوك نرمندية آيات البسالة. ودام القتال النهار كله، وانهزم المسلمون، وغرق منهم نحو ألفين في العاصي. ولم تكن خسائر الفرنج قليلة، وطفق باغي سنان يضطهد النصارى الذين لبثوا في المدينة، وحبس البطريك يوحنا، وأذاقه مر العذاب. وضربت المجاعة أطنابها في أنطاكية، فسأل باغي سنان الفرنج أن يعقد هدنة معهم، فأجابوه إليها، ولو لم تكن لهم مصلحة فيها. وكان بعض الفرنج في مدة الهدنة، يدخلون المدينة وبعض أهلها يخرجون إليهم. فسنحت الفرصة لبيوموند أن يصادق أميراً اسمه فيروز، كان رئيس الحرس في ثلاثة أبراج، وكان مسيحياً أرمنياً، فأسلم وكشف ذات يوم لبيوموند تونيب ضميره له، وانه يريد أن يصالح النصارى، وأن يؤديهم خدمة ما. فحضره بيوموند على اتمام ذلك، فوعده فيروز أن يسلم إليه الأبراج الثلاثة التي في حراسته، ولحق بيوموند إلى انه اهتدى إلى وسيلة تضمن فتح المدينة، وطلب أن يكون الوالي عليها، فخالفه بعضهم. وإذا بمخبر يقول إن كربوغا (وسماه بعضهم كربوقا) أمير الموصل، قادم بمئتي ألف مقاتل لنجدة أنطاكية. فوعده أكثر رؤساء الجيش بيوموند، أن يكون أميراً على أنطاكية، وسأله أن يسرع ما أمكن باتخاذ الوسيلة التي أشار إليها لفتحها قبل وصول كربوغا. فأرسل بيوموند للحال إلى فيروز يطالبه بانجاز ما وعد فأرسل فيروز ابنه إلى بيوموند ليكون رهينة عنده، معيناً الغد ميقاتاً لتسليم الأبراج. فأذاع الفرنج ان جيشهم سائر لقتال كربوغا، وقبل المغيب اصطففت صفوفهم وسارت في الطريق، ولما سدل ستار الظلام رجعوا نحو أسوار المدينة. فدرى أخو فيروز بخيانة أخيه وأراد كشف سره، فطعنه فيروز بمعدة نفذت إلى قلبه، وكان الظلام حالكاً والريح شديدة والحرس نياماً آمنين فدلى فيروز سلماً على الأسوار، فأصعد بيوموند على السلم ضابطاً اسمه بيان، فقال له فيروز:

« كل شيء معد فتعالوا »، واره جثة أخيه للتوثق بقوله. ومع ذلك اعترى الجنود الهلع، فترددوا عن التسلق، فتسلق بيوموند آملاً أن يتبع غيره آثاره. فلم يقتفوه ولا مه فيروز على ابطائهم، فأسرع نازلاً محققاً لأصحابه أن لا خوف. فأخذوا يصعدون على السلالم، فسلم فيروز إليهم الأبراج الثلاثة التي كانت بحراسته، ثم استولوا على سبعة أبراج أخرى ودلهم فيروز على مدخل المدينة، فدخلوا وانتشرت صفوفهم في شوارعها تصيح Dieu Le Veut (هكذا أراد الله) ولما طلع الصباح أبصروا علم بيوموند يخفق على أعلى أبراج المدينة، وانسل باغي سنان مستخفياً، ولهان يصحبه بعض خدمه إلى خارج المدينة، حيث غشي عليه، ولم يعد يستطيع أن يستمسك على جواده، وخاف خدامه فتركوه وفيه رمق، فمرّ به رجل أرمني احتز رأسه، وأتى به إلى الفرنج في المدينة كما روى المؤرخون العرب. وكان فتح أنطاكية في غرة حزيران سنة ١٠٩٨. انتهى ملخصاً عن ريموند دي اجيل الذي كان في هذه الحرب، وعن غوليلمس الصوري وغيرهما ممن كتبوا تاريخ هذه الحرب.

عد ٨١٥

حصار المسلمين للفرنج في أنطاكية

نذكر أولاً ما دونه المؤرخون المسلمون ثم نردفه بما قاله المؤرخون النصارى في هذه الحرب، ولا يخفى ما في هذه الطريقة من تحقيق الأخبار، فلا يبقى سبيل إلى الريب في ما اتفق عليه فريقان مختلفان غرضاً ونزعة وموطناً، وتيسير ترجيح الصحيح على الفاسد في ما اختلفا فيه. وناهيك من تفصيل الأخبار مأخوذة عن عدد من الرواة.

فنلخص حصار المسلمين للفرنج في أنطاكية بعد فتحها، عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء قالوا « لما بلغ كربوغا صاحب الموصل، ما فعله الفرنج بأنطاكية جمع عسكره وسار إلى الشام، وأقام بمرج دابق، واجتمع إليه دقاق بن تتش (وسماه بعضهم تتش بالنون، وبعضهم تتش بالتاء ونظن هذه الرواية أصح) صاحب دمشق وطغتكين اتابك (هذه الكلمة بمعنى أبي الأمراء، وكان الملوك السلجوقيون يلقبون بها بعض عمالهم، وخلع بعض هؤلاء العمال الطاعة لمواليهم،

واستقلوا في أعمالهم، ومنهم الاتابكة الذين أنشأوا دولة في سورية، وسيجيء ذكرهم)، وجناح الدولة صاحب حمص، وهو زوج أم الملك رضوان (وقد مرّ بنا ذكرهم) وغيرهم من الأمراء والقواد وساروا حتى نازلوا أنطاكية. وانحصر الفرنج بها بعد أن كانوا ملكوها اثني عشر يوماً، وعظم خوفهم ولم يكن لهم ما يأكلونه، وتقوت الأقوياء منهم بدوابهم، والضعفاء بالميتة وورق الشجر. فأرسلوا إلى كربوغا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد، فلم يعطهم ما طلبوا وقال لا تخرجوا إلّا بالسيف. وأساء كربوغا السيرة في من معه من المسلمين، وأغضب الأمراء، وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم عليه، وأضرموا له في نفوسهم الغدر. ولما ضاق على الفرنج الأمر وقلت الأقوات، خرجوا من أنطاكية، واقتتلوا مع المسلمين، فولى المسلمون هارين، وكثر القتل فيهم، ونهب الفرنج خيامهم، وتقوّوا بالأقوات والسلاح. وعن ابن الأثير خاصة انهم خرجوا من الباب متفرقين من خمسة أو ستة ونحو ذلك. فقال المسلمون لكربوغا ينبغي أن تقف على الباب، فتقتل كل من يخرج. فقال لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم جميعاً. ولما تكامل خروج الفرنج، ضربوا مصافاً عظيماً فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوغا. أولاً من الاستهانة والاعراض عنهم. ثانياً من منعهم عن قتل الفرنج. وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيف، ولا طعن برمح، ولا رمى بسهم، وانهزم كربوغا معهم وظنّ الفرنج ذلك مكيدة، إذ لم يجز قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألفاً، وغنموا ما في العسكر من الأقوات والأموال والأثاث والدواب والأسلحة، فصلحت حالهم وعادت إليهم قوتهم.

وأنبأنا ابن الأثير أيضاً، بما ذكره كثيرون من مؤرخي النصارى كما سيأتي. وهو وجدان الفرنج حينئذٍ الحربة التي طعن بها جنب المسيح. فقال وكان مع الفرنج راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال. فقال لهم ان المسيح عليه السلام، كانت له حربة مدفونة بالقسيان الذين بأنطاكية، وهو بناء عظيم، فان وجدتموها ظفرتم، وان لم تجدوها فالهلاك محقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة فيه وعفا اثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة ثلاثة أيام. وفي اليوم الرابع حفروا في جميع الأماكن، فوجدوها كما ذكر فقال: أبشروا بالظفر. فخرجوا في اليوم الخامس الخ.

وأما ما رواه المؤرخون النصارى، فهو أن الفرنج بعد أن دخلوا أنطاكية، عكفوا على الطرب والقصف، وأقام الكبراء مراقص ونسوا الله الذي اسبغ عليهم احسانه. ولكن ما لبث الطرب أن تولاه الكرب، فانهم مذ اليوم الثالث، بعد دخولهم المدينة، شاهدوا من أعلى الأسوار، فرساناً ترمح نحو المدينة، ومن ورائهم حشد غطت خيامه شواطئ العاصي. وكانت القلعة المنيعة ما برحت بيد المسلمين، فخيّم هذا الجيش حول أنطاكية، وقائدهم كربوغا أمير الموصل. ولم يكن للفرنج وقت لاعداد الأقوات، فكانت فيهم مجاعة أكلوا بها الحمير والخيول والبغال والجمال بل الجلود العتيقة أيضاً. وكان عند الدوك غودفروا، قليل من المؤن، وزعه على الآخرين، ولما نفذ لم يبق له إلا أن يعزيهم ويشجعهم بكلامه، وفز بعضهم، وأسلم بعضهم طلباً للقتل، ومات بعضهم جوعاً، وقتل المسلمون بعضهم، وفز أسطفانس كونت بلوا (بفرنسة) وسار بطريق أوروبا، فالتقى بالكسيس ملك الروم قادماً لنجدة الفرنج بمئة ألف جندي، يصحبه عشرة آلاف لاتيني بأمره كوى أخو ييوموند. فأخبره بحصار كربوغا أنطاكية، وبكثرة جيشه. وقال ليرى ساحته من عار الهزيمة انه لو دفع جيش الملك قوتاً لجيش كربوغا، لما ناب كل جندي منه فلذة صغيرة. فارتاع الكسيس، أو تظاهر بالارتياح. فعدل عن مسيره، وعاد إلى قسطنطينية، ولم يوقفه عن العود تضرعات أخي ييوموند إليه. واستحوذ اليأس والقنوط على الفرنج بأنطاكية، حتى اضطرّ ييوموند أن يحرق بمضض البيوت، ليخرج الرجال منها. وقال غوليلمس الصوري ان كثيرين منهم أوشكوا أن يكفروا به تعالى، ويتذمروا من أنه كافأ تحملهم المشاق حباً به باهماله لهم في هذه الشدائد المبرحة. وظهر بينهم من يدعي أنه كانت لهم مناظر سماوية، رأوا فيها يسوع المسيح ووالدته والقديس امبروسىوس ونفوس من قتلوا في الحرب، يحققون لهم النصر والظفر قريباً. واستنطقهم اويرم سفير البابا بالإيمان عن صحة ما يزعمون، فحلفوا وعزا بعض المؤلفين الحدباء النصارى هذه المناظر إلى مخيلتهم التي قام فيها ان الله لا يترك من تجندوا حباً به، وقاسوا هذه المشاق والمخاطر، دون آية سموية تفرج ضيقهم وتزيل بؤسهم. وحقق آخرون ان ما هذه المناظر، إلا رؤى سماوية لا تستغرب على قدرة من هو على كل شيء قدير، أو على رأفته بعباده في هذه الضيقة القصوى. ونرى حالهم تغيرت بعد هذه المناظر، وأقسم رؤسائهم ألا ينفكوا عن القتال والجهاد إلى أن ينقذوا أورشليم.

وأتى كاهن من أبرشية مرسيليا اسمه بطرس برتلمي إلى مجلس رؤساء الجيش، فقرر أن القديس أندراوس الرسول، ظهر له ثلاث مرات، وأمر قائلاً اذهب إلى كنيسة أخي بطرس في أنطاكية، واحفر في جانب المذبح الكبير، فتجد الحربة التي طعن بها جنب المخلص، وهي تنجي هذا الجيش، وتنصره كلما جعلوها علماً في مقدمة رجالهم. واستحلف سفير البابا هذا الكاهن، فحلف على صحة قوله، وفرض الصوم والصلوة ثلاثة أيام. ثم عيّنوا اثني عشر رجلاً من الكهنة والفرسان الثقة في جملتهم ريموند دي اجيل المؤرخ الذي كتب هذا الخبر مفصلاً للعناية بهذا الكشف. فاشغلوا عدة من الفعلة في الحفر في المكان المعين، فحفروا أكثر من اثني عشر قدماً. وعند المساء ظهرت تلك الحربة. قال ريموند المذكور لما ظهرت هذه الحربة، بادرت انا كاتب هذه الخبر إلى تقبيلها بكل عبادة وورع، وانتشرت البشري في الجيش، فأنستهم الجوع وأزالت الخوف من قلوبهم، وأصبح الضعيف منهم بطلاً، والوغد كميّاً، وأرسلوا بطرس السائح إلى كربوغا يقول له: «انصرف عن المدينة ولك ثلاثة أيام تستعد فيها للرحيل وإن آيت وأصررت على الحصار، فجنود النصارى لا يباغتون عدوهم، ولا يسترقون النصر بالخدعة، فبيبحونك اختيار الحرب إن شئت وإن أحببت حجب اراقة الدم الكثير، فاختر عدداً من شجعان جيشك، وهم يختارون عدداً يوازيه من جيشهم، وقاتل أنت إن شئت أحد أمراء النصارى، والله يولي النصر من شاء، وإن شئت الحرب عامة فنه إلى ذلك بإشارة» فلما سمع كربوغا هذا الكلام، لبث مدة صامتاً مدهوشاً محتتماً من هذه الجسارة، ثم قال قل لمن أرسلك، أن على المغلوب أن يقبل الشروط التي توضع عليه، لا أن يفترض شروطاً، فمثلهم من الصعاليك الأوغاد يروعون النساء بخزعبلاتهم، وأما رجال الحرب في آسيا، فلا يهولهم سقط الكلام. وسيعلم النصارى أنّ هذه الأرض أرضنا، ومع ذلك سأرأف بهم إن أسلموا، وأتناسى أنّ هذه المدينة جعلتها المجاعة في حوزتنا. فقل لأصحابك أن يسرعوا باغتنام عفوي، والّا أخرجتكم بالسيف من أنطاكية. وأراد بطرس السائح أن يجاوب، فمدّ كربوغا يده إلى سيفه وأمر أن اطرّدوا هؤلاء الأوغاد، فعاد بطرس يخبر قومه بما كان في وفادته واستعدوا للقتال.

وصرف الجيش ليلته بالصلوة، وتقدم منهم في الصباح، مائة ألف إلى مائدة الخلاص، وخرجوا منقسمين إلى اثني عشر صفّاً، وفي مقدمتهم ريموند المؤرخ

حاملاً الحربة التي وجدوها وساروا الهوبنا. ولما رآهم كربوغا ظنّ أنهم خرجوا طالبين عفوه، لكنهم رأوا علماً أسود على قلعة أنطاكية، وكان علامة لا يعتمد عليه الفرنج فعلم أنهم خرجوا محاربين. وكان من جيشه ألفا رجل يحرسون معبر العاصي، فهزمهم الفرنج عند دنوهم من المعبر، فأوقعوا الرعب في قلوب سائر الجيش، فأخذوا بالفرار. فقطع كربوغا رأس أحد الفارين علّه يوقفهم، وأرسل يقول لأمرأى الفرنج أن يحجبوا الدماء، ويختاروا عدداً منهم، وهو يختار عدداً موازياً، فيقتل الفريقان. وكان أبى هذه الطريقة في الأمس، فأنكرها عليه الفرنج اليوم، واستعرت نار الحرب، ولم تكن ساعة إلاّ وانهمز جيش كربوغا، وسابقهم هو إلى الفرار، واستمرّ ولهاناً إلى أن عبر الفرات. وكان في معسكره كثير من المؤن والملابس فظلوها أياماً ينقلونها إلى أنطاكية. وقتل من الفرنج في هذه الواقعة أربعة آلاف رجل. ولما رأى من كان في القلعة من رجال المسلمين ما كان في جيش كربوغا، استسلموا إلى رؤساء الجيش، وتنصّر بعضهم، وذهب بعضهم يروون ما رأوا من سطوة الفرنج، وكثرة عديدهم في أنحاء سورية حتى تملك الرعب قلوب السوريين. وقال ريموند دي اجيل لو مشى الصليبيون نحو أورشليم على أثر انتصارهم، لما وجدوا من يعترضهم، أو يناوئهم، لكنهم صرفوا اهتمامهم إلى إعادة البطريك يوحنا إلى كرسيه وكرامته وفتحوا الكنائس وأقاموا الكهنة فيها، وخصّوا نصيباً من غنائمهم من معسكر كربوغا، بشراء آنية للكنائس، وتجهيزها، وأنفذوا رسائل إلى أصحابهم في الغرب، يبشرونهم بما كان لهم من توفيق الله، ويحضونهم على اللحاق بهم لمشاطرتهم الفخر والأجر، وكان الكثيرون منهم يرون أن يسيروا للحال إلى أورشليم، ومن هؤلاء الدوك غودفروا. على أنّ الكثيرين من رؤساء الجيش ارتأوا أن ينتظروا مرور أيام الحرّ إذ كانت الواقعة المذكورة في حزيران، ويرجعوا سفرهم إلى أيام الخريف، فأصابهم وباء مات به في شهر واحد خمسون ألف نفس. وأعظم من أسفوا عليه حينئذ أومير أسقف بوي سفير البابا، ودفنوه في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، في الحبل الذي وجدوا فيه الحربة المذكورة. انتهى ملخصاً عمّن كتبوا تاريخ هذه الحروب من المؤلفين المعاصرين لها، أو شهدوها كريموند دي اجيل وغوليلمس الصوري.

ذيل في أقوال العلماء في الحربة التي وجدت حيثذ في أنطاكية

إنّ كثيرين من المؤلفين الذين كانوا في جملة الفرنج الصليبيين أو المعاصرين لهم وغيرهم، أثبتوا أنّ هذه الحربة هي الحربة نفسها التي طعن بها الجند جنب الخلّص وهو على الصليب، معتمدين على أنّ الكشف عنها كان بوحى، ومؤيدين رأيهم بالآيات التي أجراها الله بواسطة هذه الحربة، على أنّ بعض أهل النقد منهم بايل وجول سيمون وتيار وغيرهم ممن هم على شاكلتهم من علماء هذا العصر، قد أنكروا أنّها الحربة نفسها التي طعن بها جنب الخلّص. فلم نرى أن نغضبي عن هذا البحث صامتين، بل أن نورد في هذا الذيل أقوال المؤرخين والعلماء في هذا الصدد.

إنّ أندراوس أسقف كريت الذي كان في القرن السابع، أنبأنا (في مقالته في ارتفاع الصليب فصل ٥) أنّ الحربة التي طعن بها جنب الخلّص، دفنها اليهود مع الخشبة التي صلب عليها وغيرهما من أدوات الصلب. وقد حقق كثيرون أنّ القديسة هيلانة والدة الملك قسطنطين الكبير، وجدت عند تنقيها عن خشبة الصليب، ثلاث صلبان والحربة والمسامير. ولم نعد نعلم ما كان من أمر هذه الحربة، إلى أن تكلم فيها القديس غريغوريوس أسقف طور (بفرنسة)، في القرن السادس وعدها (في كتابه في مجد الشهداء فصل ١٧) من جملة الذخائر الموجودة في أيامه. وأنبأنا بيذا المكرم، في القرن التاسع (في كتابه في الأماكن المقدسة) انها كانت محفوظة في أورشليم في صليب من خشب بكنيسة القبر المقدس، ثم وجدت هذه الحربة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية، كما رأيت، وحقق وجدانها وأثبت أنّها الحربة نفسها التي طعن بها جنب الخلّص، ريموند دي اجيل الذي كان في جملة الموكول إليهم الكشف عنها، والذي كان يحملها عند حملتهم على جيش كربوغا. وقد أكّد ذلك روبرتس كونت فلاندر في رسالة إلى امرأته، موصياً إياها أن تبني ديراً لإكراماً للقديس أندراوس، لأنه هداه إلى الحل الذي كانت فيه الحربة التي طعن بها الخلّص وهذه الرسالة مثبتة في تواريخ فلاندر، وحقق ذلك كاهن اسمه تودابودس Tudebudus، كان شاهداً عياناً لوجدان هذه الحربة، ولحملها كعلم في القتال وانتصارهم. وأودع ذلك كتابه

الموسوم بتاريخ السفر إلى أورشلیم، وقد أثبت تاريخه هذا دوشان في المجلد الرابع من مؤلفي تاريخ فرنسا. وقد ذكر وجدان هذه الحرية أنسلموس دي ريبامون Ribemont الذي توفي في حصار عرقا. فانه كتب رسالة إلى مناسا رئيس أساقفة رنس (بفرنسة) قال فيها ما ترجمته «بيننا كنا في حالة تعيسة جداً، مدّ الله يد عون لهبيده، وهدهام بحنوه إلى الحرية التي طعن بها جنب المخلص، وكانت مخبأة تحت بلاط كنيسة القديس بطرس، وطولها يوازي طول رجلين. ولما سعدنا بوجودان هذه الدرة الثمينة، أحیی الرجاء قلوبنا». وقد كتب رؤساء الجيش رسالة إلى البابا اوربانس الثاني، ومما قالوه فيها: «قد ضايقنا الجوع وغيره من الحن الكثيرة، حتى نحر كثيرون منا خيلهم وحميرهم التي كانت معهم واقتاتوا بها. على أن رحمة الله لطفت بنا ونجدتنا. فان القديس أندراوس أوحى إلى أحد عباد الله، وهدهام إلى المحل الذي كانت الحرية التي طعن بها لونغيلس جنب المخلص مخبأة فيه. فوجدنا هذه الحرية المقدسة في كنيسة القديس بطرس بأنطاكية. فهذا الاكتشاف واوحية أخرى كثيرة أعادت إلينا قوتنا وشجاعتنا، حتى ان كان اليأس والرعب قد استحودا عليهم عادوا موعيين نخوة وجسارة، وأخذ يحرض بعضهم بعضاً على القتال. وبعد أن بقينا محصورين ثلاثة أسابيع وأربعة أيام، اعترفنا بخطايانا يوم عيد القديسين بطرس وبولس، وخرجنا من المدينة مصطفين للقتال وكنا أقل عدداً من جيش أعدائنا العرمم، حتى ظنونا نحاول الهرب لا اننا نستنزلهم للقتال».

وقد أنبأنا ريموند دي اجيل المذكور، والبر المؤرخ من اكس وغوليلمس أسقف صور أنه وقع في جيش الصليبيين عند حصار عرقا خلاف في ما إذا كانت هذه الحرية هي الحرية التي طعن بها جنب المخلص فان ارنول خودى دوك نرمندية أخذ يذيع بينهم أن هذه الحرية ليست الحرية التي طعن بها جنب المخلص، واستمال بعضهم إلى رأيه. ولما سمع ذلك بطرس برتلمي الذي كان الوحي إليه بوجودانها، احتدم وأخذ يقسم على صحة ما كان من الوحي فانقسم الشعب فعرض عليهم بطرس المذكور أن يضرعوا ناراً فيدخل هو فيها حاملاً الحرية فان نجا من النار ولم يمسه ضر تحتم عليهم أن يصدقوا أن هذه الحرية هي الحرية التي طعن بها المخلص، وإن أهلكته النار، ف يريد أن يموت ضحية لكذبه. فأضرعوا ناراً عظيمة، واجتمع العسكر والشعب وأخذ هذا الكاهن الحرية وجثا فصلى. ثم دخل النار المتأججة حافياً حاملاً الحرية، ولبث مدة ثم خرج سالماً، ولم يمسه ضرر ولا حرق

بجسمه أو ثوبه. فتهافت الشعب عليه، بعضهم للتبرك به وبعضهم ليمتحنوا حقيقة حاله، فأذوه أكثر من أذية النار له. وقد ذكر بعضهم شهادات الكثيرين ممن شهدوا هذه الآلة بأنفسهم. وقد أخذ الصليبيون هذه الحربة معهم من أنطاكية إلى أورشليم، ثم نقلت هذه الذخيرة الثمينة من أورشليم إلى قسطنطينية، ثم باع بودوين الثاني فلذة منها إلى البنادقة بمبلغ عظيم من المال، كان في أقصى الحاجة إليه. ثم شرى منهم القديس لويس ملك فرنسا، هذه الذخيرة ووضعها في المعبد المعروف بالمعبد المقدس بياريس La Sainte Chapelle. وأما ما بقي من هذه الحربة، فاستمرّ محفوظاً في قسطنطينية في كنيسة القديس يوحنا، إلى أن فتح هذه العاصمة، السلطان محمد الثاني الفاتح سنة ١٤٥٣م، فأمر أن تحفظ خزينة الملك وزينة الكنائس والذخائر. وبعد وفاة السلطان محمد الثاني، اختصم ابنه بايزيد وزعيم، وتغلّب بايزيد على أخيه، فتنحى أخوه في رودس عند رئيس الفرسان المسمى بطرس أبوسون، فرغب بايزيد في أن يصادق الرئيس المذكور ليمنع أخاه من العود إلى منازعته الملك. وروى بوسيسوس في تاريخ فرسان القديس يوحنا في أورشليم (ك ٧ فصل ٨)، أنّ الرئيس المذكور حثّ السلطان بايزيد أن يهدي إلى البابا أينوشتنسيوس الثامن، الحربة المقدسة فأرسلها إليه بايزيد مع سفير. ورافق هذا السفير كويدو بلانكفور ابن أخي بطرس الرئيس المذكور. فبلغا إلى رومية سنة ١٤٩٢م، فأرسل البابا كرينالاً للملاقة هذا السفير. ولما انتهوا إلى رومة، لاقى البابا هذه الذخيرة مصحوباً بالكرادلة، وحشد من الكهنة والشعب، إلى الباب المعروف بباب الشعب، وأخذ الذخيرة بيده، ووضعها في كنيسة القديس بطرس. وهذه الأخبار مأخوذة عن مذكرة كتبها ثلاثة علماء من الرومانيين دونوا فيها كل ما كان هناك في أيامهم. وقد روى ذلك أيضاً الكرينال مرقس فيكوريوس الذي كان بانكونا (إيطاليا)، عندما مرّ سفير بايزيد حاملاً هذه الهدية النفيسة إلى الحبر الروماني. وقد فند الأب اونورا الكرملي كل ما ورد على هذه الذخيرة من الاعتراضات في مؤلفه في قواعد الانتقاد في المجلد الثالث منه. انتهى ملخصاً عن معجم التاريخ لكوردان، وعن معجم الصليبيين لاولت دومسنييل من طبعة الأب مين.

سير الفرنج من أنطاكية إلى أورشليم

لم يذكر المؤرخون الفرنج، فتح المعرة وحمص وشيزر بعد انتصارهم بأنطاكية. ولكن ذكره ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء فقالوا ما ملخصه: «لما انهزم المسلمون أمام الفرنج إلى معرة النعمان، فنازلوها، وحاصروها وقاتلهم أهلها قتالا شديداً. فعمل الفرنج برجاً من خشب يوازي سور المدينة، ووقع القتال عليه، فلم يضر ذلك المسلمين، ولكن تداخل بعضهم الفشل والهلع، وظنوا أنهم إذا تحصنوا ببعض الدور امتنعوا فيها. فنزلوا من السور وأخلوا الموضع الذي كانوا يحفظونه، ورآهم غيرهم، ففعلوا كفعلهم، فخلا مكانهم أيضاً من السور وتبعهم غيرهم حتى خلا السور. فصعد الفرنج على السلال، ودخلوا المدينة وأعملوا سيوفهم في أهلها ثلاثة أيام، فقتلوا ما يزيد على مائة ألف، وسبوا السبي الكثير وملكوه، وأقاموا أربعين يوماً، وساروا إلى عرقا فحاصروها أربعة أشهر ونقبوا سورها عدة نقوب فلم يقدروا عليها، وأرسلهم متقذ صاحب شيزر، فصالحهم عليها. وساروا إلى حمص وحاصروها فصالحهم صاحبها جناح الدولة وخرجوا على طريق النواقر إلى عكا فلم يقدروا عليها. هذا ما ذكره المؤرخون العرب المذكورون.

وأما ما رأيته في كتب المؤرخين الفرنج التي لدينا فهو أنهم استمروا متربطين في أنطاكية ينتظرون حلول أجل سفرهم إلى أورشليم في الربيع سنة ١٠٩٩ م. وكان بعض رؤساء الجيش يحملون حملات خصوصية على بعض المدن، فربما كان من ذلك فتحهم المعرة، ومصالحه والبي شيزر وحمص لهم على هاتين المدينتين: كما روى المؤرخون العرب. ولما حلّ أو فات أيضاً الميقات المضروب للسفر إلى أورشليم، كثر التذمر في الجيش الفرنجي من هذا الابطاء، ولا سيما إذ بلغهم أنّ خليفة مصر الفاطمي سيّر جيشاً، فاستحوذ على أورشليم قبل أن يسبقهم الفرنج إليها. فعولوا على السير ومشى في مقدمة الجيش كونت تولوز، ويصاحبه من الرؤساء تنكراد وروبرتس كونت نرمنديّة، وكان الرعب من سطوتهم وانتصاراتهم قد تولى قلوب سكان البلاد، فبادروا إلى ملاقاتهم النصارى ليستمدوا عونهم والمسلمون ليسألوهم العفو والرضى عنهم. وكان الفريقان يقدمان للجيش محتاجون إليه من المؤن والمأوى وغيرهما، وزادهم سروراً أنّ كثيرين من اخوانهم

الذين كانوا يظنونهم قتلوا، قد عادوا إليهم إذ كان المسلمون قد أسروهم، فخلوا حينئذ سبيلهم، وسافر غودفروا من أنطاكية في أوائل آذار سنة ١٠٩٩م بما بقي من الجيش، ورافقه أخوه يوموند إلى اللاذقية، وودعه وعاد إلى إمارته في الرها. خائفاً أن يسطو عليها أحد، ولحقهم في اللاذقية من كانوا قد اعتزلوا في الرها وكيليكية واتصل بهم هناك كثير من فرسان الانكليز وهم من الاشراف، واجتازوا من اللاذقية بجبله وطرطوس فداننا لهم وخيموا حول عرقا جميعاً. وهناك كان بينهم الخلاف الذي مر ذكره على الحربة التي وجدوها في أنطاكية، ولما فصل هذا الخلاف بالآية التي ذكرناها في العدد السابق وعادوا إلى الوفاق، أقبل عليهما وفدان أحدهما بعد الآخر الأول من قبل الكسيس ملك الروم يجدد مواعيد الملك بانجاده لهم ويعتبههم لاهمالهم ما وعدوه به. فازدروا رسله وأبلغوهم عدم ثقتهم بكلام مولاهم وأنه نقض وعوده السابقة بتقاعده عن امدادهم في أنطاكية، وكانوا قد كتبوا إليه أنهم لا يرون أنفسهم ملتزمين بحفظ وعودهم له لاخلاله بوعوده. والوفد الثاني كان من قبل خليفة مصر الفاطمي، يبلغهم أن هذا الخليفة استحوذ على أورشليم وفلسطين، ويحقق لهم أنه لا ينوي بهم إلا خيراً، لكنه لا يستطيع أن يفتح مذ الآن فصاعداً أبواب أورشليم، إلا لحجاج اعزال لا سلاح معهم. فلم يجاب رؤساء الجيش وفد الخليفة المصري إلا برفعهم الحصار عن عرقا وحرق معسكرهم واسراعهم بالسير إلى أورشليم، فمروا بجانب طرابلس، وقد أراد واليها أن يعترض لمسيرهم، فهزمه وأصحابه، واضطر أن يدفع إليهم غرامة، وكثيراً من المؤن، وأن يخلي سبيل السجناء النصاري الذين كانوا في محبسه، وقد راقهم ما شاهدوه لأول مرة من قصب السكر، ورطب النخل والليمون وغيرها من الثمار والأشجار التي لا توجد في أوربا، وأقبل إليهم جمع من النصاري سكان لبنان، وهدوهم إلى ثلاثة طرق يسيرون بها إلى أورشليم. طريق على ساحل البحر وطريق في وسط البلاد وطريق في سورية المخوفة. فاثروا طريق الساحل لقربها كل وقت من أسطول بيزا وجنوا الذي كان يمدهم في طريقهم. فمروا بالبثرون وجبيل وكان نصاري لبنان يلتقونهم مقدّمين لهم الازودة وكل ما يحتاجون إليه من المؤن للجامعة الدين بين الفريقين، حتى كان الحبساء يخرجون من محابسهم في الجبل ويأتون إليهم داعين لله أن يتيح التوفيق لهم. وعند اجتيازهم ببيروت وصيدا وصور، قدّم لهم المسلمون ما يحتاجون إليه كيلا يسطوا على بساتينهم وجناتهم. ولما انتهوا إلى

عكا خرج إليهم واليها واعدأ ومقسماً على أنه يسلم لهم المدينة متى استحوذوا على أورشليم، فجاوزوها إلى قيصرية المعروفة بقيصرية فلسطين، ووقعت في معسكرهم حمامة وأخذوها، فوجدوا تحت جناحها رسالة من والي عكا يخبر بها ولاية المدن المجاورة له بسير الفرنج ويحضهم أن يجمعوا من استطاعوا من الرجال لمناوأتهم فقرئت هذه الرسالة في مجتمع الرؤساء فشكروا الله واستبشروا بأن الله معتن بهم اذ سخر طير السماء لتأتيهم بالكشف عما تكنه سرائر أعدائهم.

وأقاموا بهذه المدينة أربعة أيام، احتفلوا بها لعيد العنصرة، ثم ساروا فاستحوذوا على اللد المسماة قديماً ديوسبولي، والمشهورة باستشهاد القديس جيورجيوس شفيعهم فيها وأقاموا أسقفاً في هذه المدينة، ونصبوا له عدة كهنة وأتفقوا أن يخصوا كنيسة هذه المدينة بعشر ما يغنونه في حملتهم هذه. ثم ساروا إلى الرملة، فانهزم سكانها خوفاً منهم إلى جبيل، فتولوها ووجدوا فيها ما سد حاجاتهم من مؤن وغيرها وأقاموا فيها أسقفاً فرنسياً مولداً اسمه روبرتس مشهوداً له بعلمه وفضيلته.

ولما عرف المسلمون بدنوهم من أورشليم، هاج من كان ساكناً منهم على عدوتي الأردن وتخوم بلاد العرب ونابلس، وتألّبو وساروا نحو أورشليم فنكّلوا بالنصارى في طريقهم وغلّلو بعضهم بالقيود وانهبوا الكنائس والمعابد وأحرقوها، وسار جيش الفرنج من الرملة في وإد بين جبلين صعب المسلك مستوعر ولكن لم يعترضهم أحد في طريقهم فاستبشروا بأن الله معتن بهم، وبلغوا عند المساء إلى قرية تسمى عنانوت، وسماها غوليلمس الصوري عمواس وهي المعروفة الآن بعيناتا (طالع عد ٢٧٦ في المجلد الثاني من هذا التاريخ)، فباتوا تلك الليلة هناك، فأقبل عليهم بعض النصارى المنهزمين يخبرونهم بأن المسلمين تألّبوا على قرى الجليل ونابلس وما جاور الأردن فنهبوا وأحرقوا وقتلوا كثيرين من النصارى. وأوفد أهل بيت لحم إلى الفرنج رسلاً يستغيثون بهم ويستمدونهم فسير تنكراد بمائة فارس مدرع، فاستقبلهم الأهليون بالاحتفاء والتكريم وذهبوا توّاً لزيارة المذود الذي ولد به المخلص ونشر تنكراد علمه على كنيسة المذود في الساعة التي ولد المسيح فيها.

ولما كان الصباح، سار جيش الفرنج من عيناتا نحو أورشليم، ولما أشرفوا على

أورشليم صاحوا يا أورشليم يا أورشليم، وبكوا لفرط سرورهم. قال المؤرخ روبرتس الراهب الذي كان في جملتهم (كتاب ٨ من صفحة ٧٤) يا يسوع كم من الدموع انهمرت من عيون جنودك عند رؤيتهم أسرار أورشليم الأرضية فانهم اجمع خروا سجداً، وحيوا بهتافهم، وأجسادهم قبرك المقدس، فأنت دفنت هناك وهم يسجدون لك جالساً عن يمين الآب، وسوف تأتي لتدين الأحياء والأموات. ثم نهضوا وكرروا الهتاف Dieu Le Veut Dieu Le Veut، وجدّدوا حلف اليمين على إنقاذ أورشليم، ومشوا حفاةً نحو أورشليم مترنمين بقول النبي: «إنهضي يا أورشليم وارفعي الحائط وانظري إلى المخلص الذي أتى ليكسر أغلالك». إلى أن خيموا حول المدينة. انتهى ملخصاً عمّن ذكرنا من المؤرخين المعاصرين لهذه الأحداث.

عد ٨١٨

حصار أورشليم وفتحها

نذكر أولاً جرياً على عادتنا أقوال المؤرخين المسلمين ملخصة عن ابن الأثير وابن خلدون وأبي الفداء قالوا: «كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش، ملكه من يد العلويين أصحاب مصر، وأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركماني. ولما توفي صارت القدس لولديه ايلغازي (وعن ابن خلدون ايلغاري بالراء) وسقمان. فلما وهن الأتراك في موقعة أنطاكية طمع المصريون في استرجاعها فسيروا إليها جيشاً في مقدّمته الأفضل بن بدر الجمالي فحاصرها وفيها الأميران ايلغازي وسقمان أخوه وابن عمهما سونج (ويروى سونخ) وابن أخيها ياقوتي ونصبوا عليها نيفاً وأربعين منجنيقاً، فعطلوا بعض مواضع من سورها ودام القتال والحصار نيفاً وأربعين يوماً، وملكوها بالأمان في شعبان سنة ٤٨٩هـ سنة ١٠٩٧م، وأحسن الأفضل قائد جيش مصر إلى ايلغازي وسقمان ومن معهما وساروا إلى دمشق، ثم عبروا الفرات، فأقام سقمان ببلد الرها وسار ايلغازي إلى العراق، واستتاب المصريون في القدس رجلاً يعرف بافتخار الدولة، فلما وصل الفرنج إليه حصروه نيفاً وأربعين يوماً، ونصبوا على المدينة برجين أحدهما من ناحية صهيون والآخر من جهة الشمال، فأحرق المسلمون البرج الأول، وقتلوا كل من به فأتاهم المستغيث بأن المدينة قد ملكت من جهة الشمال، ولبت الفرنج في البلدة أسبوعاً

يقتلون فيه المسلمين، واختفى جماعة منهم بمحراب داود فاعتصموا به وقتلوا فيه ثلاثة أيام. فبذل لهم الفرنج الأمان، فسلموا إليهم، ووفى الفرنج لهم، فخرجوا ليلاً إلى عسقلان، فأقاموا بها وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على خمسين ألفاً منهم جماعة كثيرة من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستماية درهم، ومائة وخمسين قنديلاً من الصغار وتنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي ونيفاً وعشرين قنديلاً من الذهب إلى غير ذلك من الغنائم. وكان فتح القدس سنة ٤٩٢ هـ سنة ١٠٩٩ م، وورد المنهزمون من الشام إلى بغداد صحبة القاضي أبي سعد الهراوي، فأوردوا في الديوان كلاماً أبكى العيون، وأوجع القلوب. وقاموا بالجامع فاستغاثوا، وبكوا وأبكوا، ولشدة ما أصابهم، أفطروا في رمضان، فأمر الخليفة أن يسير القاضي أبو محمّد الدامغاني، وأبو بكر الشاشي، وأبو القاسم الزناجي، وغيرهم إلى السلاطين السلاجقة. فوقع الخلف بين هؤلاء السلاطين، فتمكّن الفرنج من البلاد. وقال في ذلك المظفر الايبردي أحياناً منها:

مزجنا دماء بالدموع السواجم	فلم يبق منا عرضة للمراحم ^(١)
وشر سلاح المرء دمع يفيضه	إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها	على هفوات ايقظت كل نائم
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم	ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم	تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيضت ومن دمي	توارى حياء حسنهما بالمعاصم
اترضى صنديد الاعارب بالاذى	وتغضي على ذل كمة الأعاجم
فليتهم اذ لم يذودوا حمية	عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم

(١) ويروى عرصة للمراحم.

أما الذي رواه المؤرخون النصارى ممن شهدوا هذه الحرب أو عاصروها، فهو أنّ الفرنج أخذوا مذ بلوغهم إلى أسوار أورشليم، يستعدون لحصارها. فخيّم غودفروا وروبرتس كونت نرمندية وروبرتس كونت فلاندر، في شمالي المدينة في ناحية جبل الزيتون، وتكراد في ميمنتهم، وبجانبه ريموند كونت تولوز، تجاه الباب المغربي. ثمّ أقام فريقاً من عسكره في جنوب المدينة بجانب جبل صهيون، واستمرت جهة المدينة المشرقية خالية من عسكر، لكنّهم أقاموا مخفراً على جبل الزيتون، وخرج بعض النصارى من المدينة يشكون إلى الفرنج سوء حالهم، وتضييق المصريين، وما أجروه من العذاب عليهم، وما نهبوه من كنائسهم، ودورهم. فزاد ذلك الفرنج حمية وحماسة، وفرّ البطريك سمعان إلى قبرص، وكان في المدينة من جيش المصريين أربعون ألفاً، وتجنّد من سكانها عشرون ألفاً. فكان هذا العدد يربو على عدد الفرنج المقاتلين الذين بلغوا أورشليم ولم يكن معهم سلاّهم، ولا أدوات للحصار ومع ذلك هاجموا المدينة فنقضوا السور الخارجي، وكان السور الداخلي منيعاً، فلم يقووا عليه ولم يكن معهم إلّا سلّم واحد يوازي علو السور فتسلّق عليه بعض الشجعان وقتلوا المصريين وجهاً لوجه، فتراكم المصريون عليهم وقتلوا بعضاً وحذفوا بعضاً إلى أسفل فماتوا وأرسل الفرنج سراّضهم منهم تفتش على أخشاب، لاصطناع سلاّهم وأدوات للحصار فعثروا في مغارة على أخشاب ضخمة، فأثّروا بها إلى المعسكر ونقضوا بعض البيوت وأخذوا أخشابها وكان بعض المتحمّسين يدنون من الأسوار، ويقبلون أحجارها باكين وقائلين يا أسوار أورشليم أسقطي علينا وليغطّ غبارك عظامنا. وانتهى إليهم وهم على هذه الحال السيئة أنّ أسطولاً من جنوا بلغ مرفأ يافا مشحوناً ذخائر ومعدات للقتال. فسار للحال منهم ثلاث مائة رجل بامرة ريموند بالت فالتقاهم شرذمة من الأعداء في الدلفهزموها وشتّتوا شملها وبلغوا يافا فوجدوها خالية من السكان، ورأوا أنّ أسطولاً مصرياً سطّا على الأسطول الجنوبي وألقى النار فيه. على أنّهم استطاعوا بجهدهم أن يخرجوا من السفن المؤن وكثيراً من الأدوات اللازمة لاصطناع المناجيق وغيرها من أدوات الحرب، فأثّروا بها إلى أورشليم يصحبهم عدد من المهندسين والنجارين، ثمّ أخذ تنكراد كتيبة من جنده فجال بها فعثر على بعض أميال عن أورشليم على غابة جلبوا منها ما لزمهم من الأخشاب، وانكبّوا ليلاً ونهاراً على اصطناع الأدوات حتى كان الأمراء أنفسهم يبارون الفعلة في عملهم، وفي جملة ما صنعه، ثلاثة أبراج تحركها آلات، وهي

منقسمة إلى ثلاث طبقات يقوم في الأولى العملة الذين يحركون البرج، وفي الثانية المحاربون، وكانت هذه القلاع المتحركة أرفع من أسوار المدينة. وقبل أن يشرعوا بحصار المدينة حُصِّهم الأساقفة والكهنة على التضرع إلى الله بالصوم والصلوة والتصدق. ثم هاجموا المدينة في اليوم الثالث عشر من تموز سنة ١٠٩٩م، فكانت الحرب سجالاً. وفي اليوم التالي بكروا إلى القتال وأشغلوا الرجال وأدوات الحرب ودنت الأبراج المتحركة من أسوار المدينة وكان غودفروا في أعلى أحدها يصحبه أخوه أوستاش وبودوين دي بوج فلا يخطئ سهم لغودفروا، وأبدى سائر الرؤساء آيات البسالة محاربين في مقدمة جنودهم غير مبالين بالخطر. ودامت الحرب متسعة اثنتي عشرة ساعة إلى أن فصل الظلام بين المتحاربين. ثم عاد الفريقان إلى القتال صباح اليوم التالي بعزيمة أشد من الجلود، واقتحم الفرنج أسفل الأسوار غير مبالين بما يقذفه المسلمون من النار من أعلاها، وحاول بعضهم نقض الأسوار وبعضهم التسلق عليها فازداد المسلمون حماسة وحمية وأكثروا من قذف النار عليهم وعلى أبراجهم الخشبية وسائر أدواتهم حتى التهبت ولا ماء ولا خل لهم لاطفائها، فمات من الفرنج كثيرون بالنار والسهم وتولاهم اليأس وظنوا أنَّ الله أهملهم. وقيل إنَّ القديس جيورجوس ظهر لهم بهيئة فارس يرمح برمحه ويشير إليهم أن يدخلوا المدينة وقد يكون غودفروا وريموند قالا ذلك للجنود ليوقظا بهم الشجاعة. فانتعشوا وعادتهم الحمية وأسرعت النساء والاحداث والمرضى أنفسهم إلى مكان المعركة حاملين الماء والزاد والسلاح ومعاونين الجنود على ادناء ما سلم من الأبراج المتحركة إلى الأسوار وأخذوا يرمون منها الأحجار والنار على أدوات أعدائهم وعلى جوالق التبن وأكياس العشب الموضوعة وراء الأسوار فالتهبت وأثار الهواء لهيبها نحو المسلمين فهرعوا عن النار والدخان وأمسوا عرضة لسهام الفرنج وسيوفهم، فنزل غودفروا وكثير من الرؤساء والشجعان من أبراجهم إلى الأسوار ثم إلى المدينة وتتبعوا المصريين في الأسواق فقتلوا كل من وصلوا إليه. ولما رأى تنكراد وروبرتس ما كان دخلا ببعض الشجعان إلى المدينة من نافذة فتحها وبتسلقهم الأسوار وفتح غودفروا وتنكراد الباب المعروف بباب القديس أسطفانس فدخل به فريق آخر من الصليبيين فانهزم المسلمون فشتتوا في كل ناحية. وتعاضم في أورشليم الهتاف، Dieu Le Veut، فانهزم المسلمون فشتتوا في كل ناحية. وتعاضم في أورشليم الهتاف، Dieu Le Veut واعتصم بعض المسلمين ببرج داود مع أميرهم ولجأ بعضهم إلى جامع عمر فتبعهم الفرنج وقتلوه. وقال ريموند دي اجيل الذي كان شاهداً

عيانياً أنّ الدم الجاري في رواق الجامع كان يبلغ لركبة الرجال . وقالوا إنّ عدد القتلى في ذلك اليوم وما بعده بلغ إلى سبعين ألف قتيل . وقد رأيت قول المؤرخين المسلمين أنّ عدد القتلى في المسجد الأقصى يزيد على خمسين ألفاً . وعن أبي الفداء سبعين ألفاً . وكان فتح أورشليم في ١٥ أو ١٦ تموز سنة ١٠٩٩ م .

وبعد الظفر ساروا حفاةً مكشوفي الرؤوس إلى كنيسة القيامة باحتفاء واحبات وخشوع وانصات يشكرون الله على ما أولاهم وصرفوا قسماً من الغنائم التي أخذوها في إغاثة الفقراء والأيتام وفي زينة المذابح التي أقاموها . وقناديل الفضة والذهب التي غنموها من الجامع الأقصى وقعت في نصيب تنكراد فصرفها بعد المفاوضة مع غودفروا في سبيل عمل المبرات . وكان نصارى أورشليم أخفوا ما كان فيها من خشبة الصليب ثمّ أظهروها للصليبيين ، فطيف بها في أورشليم بصنوف التجلة والخشوع .

وبعد عشرة أيام من فتحهم أورشليم أخذوا يتفاوضون في من يملكونه في أورشليم وعولوا على أن يختاروا عشرة رجال من نخبة الاكليروس والجند وفرضوا صوماً وصلوات وصدقات ليلهمهم الله إلى انتخاب ملك يدبر شؤون هذه المملكة الحديثة . وحلف المختارون العشرة أمام الجنود على أنّهم لا يراعون في انتخابهم إلا المصلحة نابذين كل غرض خاص وكل ميل أو نفع شخصي . واستطلعوا أولاً آراء الجنود في كل من رؤسائهم . وقال غوليلمس الصوري إنّهم سألوا أسرات الرؤساء وخذائهم واستحلفوهم ليشوا لهم ما يرونه في آداب كل من المرشحين وما يعتقدونه في سيرتهم وخصالهم وأميالهم وأطوارهم . وبعد التنقيب والترويديد نادوا بغودفروا دوك لوران ملكاً على أورشليم ، فتقبل الجنود هذه التسمية بالبهجة والسرور وشكروا الله ، وأخذوا الملك بالاحتفاء إلى كنيسة القبر المقدس حيث أقسم على أن يرعى سنن الشرف والعدل وأبى أن يكلل بتاج من ذهب في مدينة كلل فيها الخللص ياكليل الشوك ، واقتصر أن يسمي نفسه بارون وحامي القبر المقدس كما صنع كرلس الكبير الذي هو من سلالته ، إذ دعا نفسه حامي كنيسة الله ومعاوناً حقيراً للكرسي الرسولي .

انتهى ملخصاً عن كثير من كتب المؤرخين الفرنج الذين اعتمدوا على تواريخ المعاصرين .

وقعة عسقلان وغيرها إلى وفاة غودفروا ملك أورشليم

ذكر ابن الأثير وقعة عسقلان فقال: «في هذه السنة (أي سنة ٤٩٢ هـ سنة ١٠٩٩ م) في رمضان كانت وقعة بين العساكر المصرية والفرنج وسببها أنَّ المصريين لما بلغهم ما تمَّ على أهل القدس، جمع الأفضل أمير الجيوش العساكر وسار إلى عسقلان وأرسل إلى الفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم. فأعادوا الرسول بالجواب ورحلوا على أثره وطلعوا على المصريين إذ لم يكن عندهم خبر من وصولهم ولا من حركتهم ولم يكونوا على أهبة القتال. فنادوا إلى ركوب خيلهم ولبسوا أسلحتهم وأعجلهم الفرنج فهزمهم وقتلوا منهم من قتل وغنموا ما في العسكر من مال وسلاح وغير ذلك. وانهزم الأفضل فدخل عسقلان ومضى جماعة من المنهزمين فاستتروا بشجر الجميز فأحرق الفرنج بعض الشجر حتى هلك من فيه وقتلوا من خرج منه. وعاد الأفضل في خواصه إلى مصر ونازل الفرنج عسقلان وضايقوها فبذل لهم أهلها قطعة اثني عشر ألف دينار وقيل عشرين ألف دينار. ثمَّ عادوا إلى القدس». وقد عثرنا على أخبار هذه الوقعة من جهة الفرنج في الرسالة التي رفعها غودفروا ملك أورشليم وغيره من رؤساء الجند والاكليس إلى البابا بسكاليس الثاني سنة ١١٠٠ م. وإليك ملخص ما قالوا عن هذه الوقعة: «انتهى إلينا أنَّ ملك بابل (يريدون ملك مصر) أتى إلى عسقلان في جيش يشذ عن العد متهدداً أن يأسر الفرنج الذين يحمون أورشليم ويستولي على أنطاكية. ولما تيقنا صحة الخبر سرنا لملاقاة المصريين، وتركنا في أورشليم جرحانا وحامية كافية. ولما التقى الجيشان، جثونا وابتهلنا إلى الله لينصرنا على أعدائنا ويرفع شأن كنيسه. فاستجاب الله دعواتنا وحوّلنا الشجاعة حتى كنا نرى جنودنا يتسارعون إلى اقتحام نار الوغى كغزلان ظمأى وأمامها ماء قرا. ولم يكن عسكرنا يجاوز خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل وجيش العدو لا يقل عن مئة ألف فارس وأربع مئة ألف راجل. فشمل الله عبيده بقدرته فانهمز أمامنا هذا الجيش العرمم قبل أن يقاتلنا وكأَنَّهُم اعزال لا سلاح معهم، فاستحوذنا على خزائن ملك مصر وتبعنا أثر جنوده فقتل منهم نحو مئة ألف وغرق كثيرون

منهم بالبحر وكان رعبهم شديداً حتى مات منهم ألفا رجل لازدحامهم على الدخول بباب عسقلان، ولو لم يتشاغل جنودنا بانتهاب معسكرهم لما تركوا منهم من يخبر. وبما يدعو إلى العجب، أننا كنا في الأمس أخذنا ألفواً من الجمال والبقر والغنم فأمر رؤساء الجنود أن يتركوها ويتفرغوا للقتال. فتركوها لكن هذه الماشية لم تتركنا فكانت تقف حيث وقفنا وتسير حيث سرنا وكان الغمام يقينا حرَّ الشمس والنسيم يروح قلوبنا. فشكرنا الله على هذا الظفر وعدنا إلى أورشليم». وقد ذكر المؤرخون العيانون هذا الظفر واعتدوه عجباً وقالوا إنّ قطعان الجمال والبقر والغنم المار ذكرها توهمها المصريون جنوداً في ساقعة عسكر النصارى. وقال ريموند دي اجيل أنّ جنودنا كانوا حيثئذ يزدادون حمية وسروراً كلما دنوا من جيش المصريين. وقال البر من اكس أنّهم مضوا إلى هذه الحرب كمن يمضي إلى عرس أو إلى مأدبة طرب، وكأنّ أمير الرملة المسلم يعاون عسكر النصارى. فدهش من حمية الفرنج وجذ لهم في اقتحامهم المخاطر وأباح بدهشته إلى غودفروا وأقسم على أنّه يتنصّر حبّاً بهذا الدين الذي يولي مثل هذه الشجاعة.

وعزم بعض رؤساء الصليبيين على العود لأوطانهم فعادوا واثقين بأنّ حكمة غودفروا وبسالة تنكراد تستتم مهنتهم. وجزم غودفروا أن يؤمّن مملكته ويسيطر تخومها فسيّر تنكراد إلى الجليل فاستولى على طيارية وعدّة مدن على ضفتي الأردن. فنصب حاكماً فيها وحاصر غودفروا مدينة اسوف على شاطئ البحر فأقبل للسلام عليه أمراء من جبال نابلس والسامرة وقدموا له هدايا من التين والزبيب، ورأوا ملك أورشليم جالساً على جوق محشو بالتبن ولا حرس حوله فأبدوا تعجبهم من ذلك. فأجابهم غودفروا: « من الأرض جبلنا، وفي قلبها مسكننا بعد الموت فكيف نأنف أن نجلس عليها في هذه الحياة ». فازدادوا عجباً من هذا الجواب أيضاً.

وبلغ غودفروا أنّ أخاه بودوين كونت الرها ويوموند أمير أنطاكية قادمان إلى زيارة الأماكن المقدسة في أورشليم يصحبهما عدد غفير من الفرسان والجنود وزائرون آخرون من المغرب بلغ عددهم العشرين ألفاً، فاحتفى غودفروا بأخيه وبمن رافقوه وأبدى لهم صنوف التكريم مدة الشتاء كلها، وكان في جملة الزائرين وإيبر

أسقف بيزا أرسله البابا بسكاليس الثاني قاصداً خلفاً لأويمر الذي توفي في أنطاكية. ومات حينئذ سميان بطريك الروم في أورشليم وكانت وفاته بقبرص فانتخب أويمر بطريكاً. فلم يقبل البطريكية إلا مكرهاً كما قال عن نفسه في رسالة كتبها إلى بيوموند. فخلع هذا البطريك على غودفروا خلعة الملك على أورشليم وعلى بيوموند خلعة الامارة في أنطاكية.

واغتتم غودفروا فرصة وجود الأمراء اللاتينيين في أورشليم ليسن دستوراً ونظاماً لتدبير مملكته. فجمع رجالاً علماء وأتقياء وعهد إليهم أن يفرضوا سنناً للمملكة على منهاج سنن الفرنج فوضعوا هذه السنن، منها أن يكون للعدلية مجلسان أحدهما يرؤسه الملك وأعضاؤه من الشرفاء، ويفصل الدعاوي التي تقوم بين كبار العمال. والثاني يتولى إدارته حاكم أورشليم وأعضاؤه من وجوه كل من المدن، وينظر في دعاوي أصحاب الأملاك والعامة وحقوقهم. وأقيم مجلس ثالث ينظر في دعاوي النصارى الشرقيين فكان قضاته ممن ولدوا في سورية ويتكلمون بلغة أهلها والحكم فيه بموجب شرائع البلاد وعاداته. فشرائع غودفروا هذه قد زاد عليها ونقحها من خلفوه في الملك ووضعت في كنيسة القيامة، وسموها مجالس أورشليم وبمقتضى هذا النظام كان الملك واحداً غير متجزئ، يتصل إليه بالارث ولو كان الوارث اثني، وإذا لم يكن وارث فلعلية الاكليرس ورؤساء أصحاب الاقطاعات أن يختاروا ملكاً ويلزم الملك أن يقسم على رعاية النظام قبل أن يقر له بالملك أصحاب الاقطاعات وان يتوجه البطريك.

وكان غودفروا يأتي متواتراً لنجدة تنكراد في حروبه مع أمراء الجليل وأتصل أحياناً بحملاته إلى ما وراء لبنان حتى دمشق وغزا حوران وعاد ظافراً وآسراً كثيرين وغنائماً خيولاً وجمالاً. واشتهر في سطوته وحكمته حتى كان القوم يشبهونه بيهوذا المكابي غيرة وبشمشون قوة وبسليمان حكمة. وقضى الفرنج والروم والمسلمون أن مملكته سوف تدوم أدهاراً، على أن الله لم يفسح بأجله فقد مرض عند عوده من إحدى حملاته ولازمه مرضه خمسة أسابيع لم ينقطع فيها عن تدبير مهامه وبلغه وهو محتضر أخذ مدينة حيفا. فكان ذلك خاتمة انتصاره وآخر مسراته في هذه الدنيا واعترف اعترافاً عاماً بخطاياهم ونال سائر أسرار الكنيسة ومضى للقاء ربه في ١٧ تموز سنة ١١٠٠ بعد فتح أورشليم بسنة واحدة، ودفن في كنيسة القبر المقدس في أسفل الجبل.

انتخاب بودوين ملكاً وبعض الأحداث في أيامه

بعد وفاة غودفروا لم يخلُ أمر الخلافة له من مصاعب فقد كان غودفروا تخلقى في حياته للبطريك وإمبر المار ذكره عن حي كنيسة القبر المقدس في أورشليم وعن ربع في مدينة يافا. فادعى البطريك أنّ الملك المتوفى تخلقى له في آخر حياته عن أورشليم كلها وخالفه رؤساء الجنود والشعب، واختاروا بودوين أخا غودفروا الذي كان أميراً في الرها فتخلقى بودوين عن إمارة الرها لابن عمه بودوين دي بوج وسار إلى أورشليم في سبعمائة فارس وسبعمائة راجل فالتقاء عسكر في مضايق فينيقيا وأرادوا قطع الطريق عليه فانتصر عليهم. وعن ابن الأثير إنّ الذي التقاه الملك دقاق صاحب دمشق ومعه الأمير جناح الدولة صاحب حمص. وعن البطريك أسطفانس الدويهي، أنّ محل اعتراضهم له كان معبر نهر الكلب. ولما دنا من أورشليم خرج إلى لقائه الشعب والاكليس ومعهم النصارى الشرقيون بالمصاييح والصلبان يسبحون الله ويعظمون ملتقى ملكهم الجديد وأخذوه بعظيم الاحتفاء إلى كنيسة القبر المقدس.

ولم يلبث بودوين في أورشليم إلّا أسبوعاً والى فرسانه ونخبة جنده وسار طالباً عدواً يملكه أو أرضاً يملكها، وكل بيعض المسلمين الذين يهينون حجاج أورشليم أو يسلبون مالهم، ثم توجه نحو حبرون (الخليل) والبحر الميت واجتاز في الجبال إلى أن انتهى إلى الحبل الذي ضرب فيه موسى الصخرة فجرت المياه، وإلى البرية التي بين بلاد ادوم ومصر وعاد إلى أورشليم فصالح البطريك وإمبر فألبسه البطريك التاج ومسحه مسحة الملوك في بيت لحم بكنيسة المولد يوم عيد الميلاد. ولما كان بعض العذال والأعداء يعيرون غودفروا بعدم لبسه تاجاً من ذهب ويسمونهم ملك الحجاج وأمير العباد لم يشأ بودوين أن يحذو حذو أخيه بلبسه تاجاً حقيراً تشبهاً بالخلص بل لبس تاج الملك مرصعاً قاضياً بلزوم ذلك في مملكة يحدق بها الأعداء من كل جهة.

وأول ما صرفه بودوين من العناية بملكه بعد تنويجه كان جلوسه للقضاء بحسب نظام أورشليم المار ذكره. فكان يصرف كل يوم ساعات بسماع دعاوي مسوديه وفصلها، وكان من أهم هذه الدعاوي خلاف كان بين تنكراد وغوليلمس

دي مالون على حيفا التي كان تنكراد قد فتحها وكان غودفروا قد وهبها لغويلمس المذكور. فصالح بودوين بينهما وسلم إلى تنكراد تدير إمارة أنطاكية لأمر بيوموند أميرها. فترك دعواه على حيفا بل تخلى لبودوين عن إمارة طيبارية أيضاً. ولم يكن اشتغال بودوين بتدير شؤون مملكته يعوقه عن حملاته على بلاد المسلمين. وبينما كان عائداً من إحدى غزواته إلى ما وراء الأردن موقراً غنائم، وقد دنا من النهر سمع صراخاً، فاقترب، فوجد امرأة مسلمة مطلوقة (اصابها مخاض الطلق)، فطرح رداه عليها ليسترها، وفرش لها طنفسة، وأمر أن يؤتى إليها بتمار وزقي ماء وبناقة ترضع طفلها، وأقام جارية تخدمها، وأن تسير معها إلى زوجها. وكانت هذه المرأة من نساء وأعيان المسلمين. ولما وصلت إلى زوجها بكى لسروقه برؤية امرأته التي كان يظنها ماتت، أو سييت، وأقسم أنه لا ينسى مدى الدهر ما صنعه بودوين إليها.

وفتح بودوين أرسوف وقيصرية، وأقام الفرنج في قيصرية أحد الكهنة الآتين معهم أسقفاً عليها. وفي السنة الثانية لملك بودوين حارب المصريين في سهول حيفا، فانتصر عليهم نصراً مبيناً ولكن ساء ما ورد إليه من الأخبار أن حشداً كبيراً من الحجاج الغربيين وثب بهم الأعداء في جبال آسيا الصغرى، فأهلكوهم، ونجا منهم غويلمس كونت بواتيا، وأسطفانس كونت بلوا وغيرهما مع قليلين. فسار بودوين لملتقاهم حتى بيروت.

ولما بلغوا أورشليم صحبهم إلى القبر المقدس فأقاموا أشهراً في أورشليم وساروا بعد الفصح إلى يافا ليعودوا إلى أوروبا ورافقهم بودوين فورد عليه نبأ أن المسلمين خرجوا من عسقلان وأخرجوا اللد والرملة، فجمع بودوين ما تيسر من الجنود وركب أولئك الزائرون الشرفاء خيولهم وأخذوا سلاحهم وخرجوا معه للقتال. فإذا عدد الأعداء لا يقل عن عشرين ألفاً، وليس مع بودوين إلا مايتا فارس وقليل من الرجال، ومع ذلك اقتحم القتال فأحاط الأعداء به وبمن معه فلم يبق لهم إلا أن ينتظروا الموت وقتل من الزائرين كونت بلوا وكونت بوركونيا، وأسر هرين كونت بوج وكونراد أحد أعيان جرمانية، وانهزم بودوين واختبأ بين القصب، فألقى الأعداء النار فيه، فكاد يحترق واسعده كده فهرب إلى الرملة، ولم تكن هذه المدينة الحقيمة كفؤاً لرد وثبة الأعداء فأيقن الهلاك، وإذا برجل غريب أقبل عليه وهداه إلى طريق آمن خفي. فسار به ونجا، وكان هذا الغريب الذي أنقذ ملك

أورشليم رجل المرأة التي أحسن إليها يودوين عند ولادتها، فأراد أن يكافئه على إحسانه.

وبعد فرار يودوين، وثب المسلمون على الرملة، وجميع من كانوا فيها من النصارى قتلوا أو أسروا. ولما سمع الفرسان الذين كانوا بأورشليم بأخبار ما كان هبوا لمناصبه الأعداء. واتفق حينئذ أن رسا في مرفأ يافا، مئتا سفينة من المغرب تقل جمعاً كبيراً من الزائرين، وفي جملتهم كثيرون من الانكليز والجرمانيين الذين اشتهروا بالحرب، وعاد يودوين بسفينة إلى يافا، فانضوى إليه عسكر شديد العزيمة محنك بالحرب هائم بالقتال. فخرج على الأعداء الذين كانوا يتأهبون لحصار يافا فظهر عليهم وبدد شملهم. فاستراحت مملكة أورشليم مدة من القتال. وقد ذكر ابن الأثير الواقعة الأولى في تاريخ سنة ٤٩٥هـ سنة ١١٠٢م فقال: «في هذه السنة في رجب، خرجت عساكر مصر إلى عسقلان ليمنعوا الفرنج عما بقي في أيديهم من البلاد الشامية. فسمع بهم بردويل (كذا يسمى يودوين) صاحب القدس. فسار إليهم في سبعماية فارس وقاتلهم. فنصر الله المسلمين وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم وانهزم بردويل واختفى في أجمة قصب فاحترقت تلك الأجمة، ولحقت النار بعض جسده ونجا منها إلى الرملة، فتبعه المسلمون وأحاطوا به فتنكر وخرج منها إلى يافا وكثر القتل والأثر في أصحابه». إن أخبار أخذ الصليبيين أورشليم وإقامتهم مملكتهم فيها وما يؤتيهم الله من التوفيق، بعثت كثيرين ممن كانوا قد رجعوا إلى الغرب قبل فتح أورشليم أن يعودوا ثانية إلى المشرق. وحملت الغيرة كثيرين من أعيان فرنسا وإيطاليا وألمانيا على أن يؤموا الأرض المقدسة وانضم إليهم كثيرون من العامة رجالاً ونساءً واحداً حتى قيل إن عددهم لم يكن يقل عن أربعماية ألف على أنهم لم يتعظوا بالتجربة فساروا إلى قسطنطينية. وكان كونت تولوز قد مضى بعد حرب عسقلان إلى اللاذقية ثم إلى قسطنطينية فعهدوا إليه بقيادة هذا الجيش في آسيا الصغرى. فهلك هذا الجيش في الطريق لشن الأتراك الغارة عليهم. ومن نجا منهم عاد إلى قسطنطينية ووصل بعضهم إلى أنطاكية ولم يبق من النساء امرأة. وعظمت شكاوي اللاتينيين من الروم وتذمرهم من ملكهم الكسيس كومنانس لأنه كان من جهة يسعى لتخلية سبيل الأسرى من النصارى ومن جهة أخرى يجهز أسطولاً ويؤلب جيشاً ليأخذ أنطاكية ويستحوذ على المدن التي تولهاها الفرنج في سواحل سورية، وأراد أن

يدفع مالا يفدى به ييوموند الذي كان أسره الأتراك في وقعة عند ملطية لا ليخلي سبيله بل ليأخذه إلى قسطنطينية ويكرهه أن يتخلى له عن إمارته في أنطاكية. على أن ييوموند افتدى نفسه بعد أن بقي أسيراً أربع سنين وعاد إلى أنطاكية يرد مهاجمات الكسيس.

عد ٨٢١

فتح بودوين عكا وحربه في يافا، ووقعة حزان

ذكر المؤرخون المسلمون حصار عكا وفتحها سنة ٤٩٧ هـ سنة ١١٠٤ م فقالوا ما ملخصه: «في هذه السنة سار صنجيل (نظن أن المراد بهذا الاسم ريموند كونت تولوز المسمى Saint Giles سان جيل) وقد وصله مدد الفرنج من البحر إلى طرابلس وحاصرها براً وبحراً فلم يجد فيها مطعماً فعاد عنها إلى جيل وحاصرها وتسلمها بالأمان، ثم سار إلى عكا ووصل إليه من الفرنج جمع آخر من القدس وحاصروا عكا في البر والبحر، وكان الوالي بعكا من جهة خليفة مصر اسمه بنا ولقبه زهر الدولة الجيوشي نسبة إلى أمير الجيوش. وجرى بينهم قتال حتى ملك الفرنج عكا بالسيف وفعّلوا بأهلها الأفعال الشنيعة وهرب من عكا بنا المذكور إلى دمشق ثم سار إلى مصر وملوك الاسلام إذ ذاك مشغولون بقتال بعضهم بعضاً. وقد تفرقت الآراء واختلفت الأهواء وتمزقت الأموال». هذا ما ذكره ابو الفداء. وذكر مثله ابن الأثير وابن خلدون.

والذي رواه المؤرخون الفرنج هو أن الملك بودوين استعان بالزائرين الذين كانوا قد أتوا من بيزا وجنوا ومعهم أسطول كبير فتولّى عنوة على عكا وهي مدينة مهمة وبمنازل مرفأ لسورية، وراع هذا الفتح المسلمين في دمشق وعسقلان ومصر وطفق سلطان مصر يؤلب الجنود ويجهز أسطولاً ليكبج جيش النصارى وبقي من غزواتهم ما بقي من بلاده، وما لبث بعد فتح عكا أن ظهر أسطول مصري تجاه يافا وزحف جيش من عسقلان إلى صحارى الرملة فهبّ لمناوأتهم النصارى من الجليل ونابلس، وجبال اليهودية، وخرج بودوين من يافا في خمس مئة فارس وألفي راجل، لمناسبة الأعداء، وكانوا ألفاً مؤلفة، فأوقد بودوين نار الوغى عليهم فقتل أمير عسقلان وخمسة آلاف رجل من المسلمين وغنم النصارى من خيولهم

وحميرهم وجمالهم ومالهم وعادوا إلى يافا. فلما رأى ذلك أصحاب الأسطول
يسوا من الفوز وأقلعوا في البحر وأبعدوا فثار بهم عاصف فغرق بعض سفنهم
وحطم بعضها على الصخور.

أما وقعة حران في الجزيرة (ما بين النهرين) فذكرها المؤرخون المسلمون فقال
ابن الأثير: «لما استطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الاسلام قصدوا حران وكانت
للملك من مماليك ملك شاه اسمه قراجه، واستخلف عليها محمد الأصبهاني ثم
عصا مولاه فسار الفرنج إليها وحصروها، وأتفق أمراء المسلمين وتحالفوا وساروا إلى
لقاء الفرنج والتقوا على نهر بليخ فاقتتلوا. فأظهر المسلمون الانهزام فتبعهم الفرنج
نحو فرسخين ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم. وكان
ييمند صاحب أنطاكية وطنكري (كذا يسمون تنكراد والي اللاذقية حينئذ) صاحب
الساحل قد انفردا وراء جبل ليأتيا المسلمين من وراء ظهورهم. فلما خرجا رأيا
الفرنج منهزمين فأقاما إلى الليل وانهزما فتبعهما المسلمون وقتلوا من أصحابهما كثيراً
وأثروا كذلك. وأفلت ييمند وطنكري في ستة فرسان وكان القمص (الكونت)
بردويل (بودوين أمير الرها) انهزم مع جماعة من قمامصتهم وخاضوا نهر البليخ
فوحلت خيولهم فأخذ بودوين أسيراً وسار المسلمون إلى الرها فحاصروها خمسة
عشر يوماً ثم افتدي بودوين بخمسة وثلاثين ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين
وكانت عدة القتلى من الفرنج تقارب اثني عشر ألف قتيل».

وأما المؤرخون الفرنج فقالوا في هذه الواقعة «في ربيع سنة ١٠٤١م عزم بيوموند
أمير انطاكية وتنكراد والي اللاذقية واباميا حينئذ وبودوين دي بوج كونت الرها
وابن عمه جوسلان أن يجتازوا الفرات ويستحذوا على حران فحاصروا المدينة
خمسة عشر يوماً فاستسلمت إليهم فاختلفوا على من يتولى أمرها ألبودوين كونت
الرها تكون أم لبيوموند أمير أنطاكية؟ وإذا بجيش عرمرم فاجأهم من الموصل فدهش
الفرنج وأخذ الرعب في قلوبهم كل مأخذ فانهزموا أمام أعدائهم فأسر بودوين
وجوسلان وأفلت بيوموند وتنكراد منفردين.

واستمر بيوموند بعد هذه الواقعة محصوراً في أنطاكية يهده الروم من جهة
والمسلمون من أخرى. ولم يبق عنده ما يقوم بحاجته من أموال ورجال فدار في
خلده أن يلجأ إلى نصارى الغرب، وكان يخشى أن يغتاله الروم في مسيره.

فأشاع أنه توفي وحبس نفسه في نعش فجاوز أسطول الروم وهم جذلون ويلعنون ذكره، ولما وصل إلى إيطاليا انبعث من موته الموهوم وسار تَوّاً إلى الحبر الروماني يشكو له ما عاناه حباً بالدين ويسأله كبح الكسيس ملك الروم الذي كان يسميه آفة الشرق. فاعزه البابا وقدر شهامته حق قدرها وأصغى إلى شكواه ووعد بالمساعدة لاصلاح شؤون الشرق. ثم مضى إلى فرنسة فعظم فيليب الأول مثواه وزوجه قسطنسا بنته وخطب في كثير من المحافل يحضّ على معاونة النصارى في الشرق، وطاف في كثير من مدن فرنسة ثم اجتاز منها إلى إسبانيا ثم إلى إيطاليا. فتجنّد معه كثيرون، فسافر في جيشه من مدينة باري بإيطاليا قاصداً ثل عرش ملك الروم، وحاصر مدينتهم دوراترد (على بحر الادرياتيك في جنوب سكوتاري وطال زمان الحصار وفشا الوباء بعسكره وأبق منهم كثيرون فاضطرّ إلى عقد صلح مذل له مع ملك الروم سنة ١١٠٨ وعاد يتجهّز لقتال هذا الملك فعاجلته المنية سنة ١١١١م في تريدينتو. وأما بودوين دي بورج والي الرها وجوسلان ابن عمه، فأخذوا إلى بغداد واستمرا مأسورين خمس سنين على ما روى المؤرخون القرن، ج خلافاً لما يظهر مما روينا عن ابن الأثير عن فداء بودوين. وربّما كان هذا الفداء بعد مرور السنين الخمس التي ذكرها المؤرخون الفرنج. وكان تنكّراد في هذه المدة يدبر حكومة أنطاكية ويرد عنها حملات الأعداء. انتهى ملخصاً عن كثير من المؤرخين الفرنج.

عد ٨٢٢

فتح الفرنج طرابلس وغيرها

قد روى المؤرخون المسلمون، حصار الفرنج طرابلس في عدة سنين فقال أبو الفداء في تاريخ سنة ٤٩٥ هـ ١١٠٢م: «في هذه السنة سار صنجيل الفرنجي في جمع قليل وحصر ابن عمار بطرابلس ثم وقع الصلح على مال حملة أهل طرابلس إليه. فسار صنجيل إلى انطربطوس (طرشوس) ففتحها، وقتل من بها من المسلمين ثم سار وحصر حصن الأكراد فجمع جناح الدولة صاحب حمص العسكر ليسير

إليه. فوثب باطني على جناح الدولة وهو بالجامع فقتله. ولمّا بلغ صنجيل قتله رحل عن حصن الأكراد إلى حمص ونازلها وملك أعمالها». وروى كذلك ابن الأثير في تاريخ السنة المذكورة، ثم ذكرنا في تاريخ سنة ٤٩٧ هـ سنة ١١٠٤ م: «في هذه السنة وصلت مراكب من بلاد الفرنج إلى مدينة لاذقية وفيها التجار والأجناد والحجاج واستعان بهم صنجيل الفرنجي على حصار طرابلس فحاصروها معه برأ وبحراً وضايقوها وقتلوا أياماً. فلم يروا فيها مطعماً فرحلوا عنها إلى مدينة جبيل، فحاصروها وقتلوا عليها قتلاً شديداً. فلما رأى أهلها عجزهم عن الفرنج أخذوا أماناً وسلموا البلد إليهم. فلم تف لهم الفرنج بالأمان وأخذوا أموالهم واستنقذوها بالعقوبات وأنواع العذاب. فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا وقالوا في تاريخ سنة ٤٩٩ هـ سنة ١١٠٦ م «كان صنجيل قد ملك مدينة جبلة ثم سار وأقام على طرابلس فحاصرها وبنى بالقرب منها حصناً وبنى تحته ريبضاً وهو المعروف بحصن صنجيل، فخرج الملك (الأمير) أبو علي بن عمار صاحب طرابلس فأحرق الريبض ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحروقة فانخسف به فمرض صنجيل من ذلك وبقي عشرة أيام ومات وحمل إلى القدس ودفن فيه ودام الحرب بين أهل طرابلس والفرنج خمس سنين، وظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظيم وقلت الأقوات فيها. وسار ابن عمار صاحب طرابلس من الشام إلى بغداد قاصداً باب السلطان محمد (السلجوقي) مستنقراً على الفرنج طالباً تسيير العساكر لازاحتهم، وأنه استتاب ابن عمه ذا المناقب في طرابلس ورتب معه الاجناد برأ وبحراً وأعطاهم جامكية ستة أشهر سلفاً. وإن ابن عمه أظهر الخلاف له والعصيان عليه ونادى بشعار المصريين. فكتب إلى أصحابه يأمرهم بالقبض عليه وحمله إلى حصن الخواي ففعلوا ما أمرهم. وكان ابن عمار استصحب معه هدايا نفيسة قدّمها للسلطان محمد فأكرمه وعامله معاملة الملوك وعرض عليه ابن عمار ما يقاسيه وقوة عدوه وطول حصره وطلب غيره السلطان فوعده السلطان بذلك. وحضر دار الخلافة وذكر ما ذكره عند السلطان. فلم يجد ذلك نفعا كما ستري وعاد ابن عمار إلى دمشق سنة ٥٠٢ هـ سنة ١١٠٩ م وتوجّه منها مع عسكر إلى جبلة فدخلها وأطاعه أهلها. وأما أهل طرابلس فانهم راسلوا الأفضل أمير الجيوش بمصر يلتمسون منه والياً يكون عندهم ومعه الميرة في البحر. فسيّر إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب ومعه الغلة وغيرها مما يحتاج إليه في الحصار. فلما صار فيها قبض على

جماعة من أهل ابن عمار وأصحابه وأخذ ما وجده من ذخائره وآلاته، وحمل الجميع إلى مصر في البحر».

وقال ابن الأثير، وأبو الفداء في تاريخ سنة ٥٠٣هـ سنة ١١١٠م: «في هذه السنة في حادي عشر ذي الحجة ملك الفرنج مدينة طرابلس لأنهم ساروا إليها من كل جهة وحصروها في البر والبحر وضائقوها من أول رمضان وكانت في يد نواب خليفة مصر العلوي. وأرسل الخليفة إليها أسطولاً فردّه الهواء ولم يقدر على الوصول إلى طرابلس ليقتضي الله أمراً كان مفعولاً وملكوها بالسيف، وقتلوا ونهبوا وسبوا. وكان بعض أهل طرابلس قد طلبوا الأمان وخرجوا منها إلى دمشق قبل أن يملكها الفرنج». ثم قال في سنة ٥٠٤هـ سنة ١١١١م: «ملك الفرنج مدينة صيدا في ربيع الآخر وملكوها بالأمان وفيها سار صاحب أنطاكية مع من اجتمع عليه من الفرنج إلى الأثارب، بالقرب من حلب وحصره ودام القتال بينهم ثم ملكوه بالسيف وقتلوا من أهله ألفي رجل وأسروا الباقين ثم ساروا إلى زردنا فملكوها بالسيف، وجرى لهم كما جرى لأهل الأثارب. ثم سار الفرنج إلى منبج وبالس فوجدوهما قد خلاهما أهلها فعادوا عنهما وصالحهم الملك رضوان صاحب حلب على اثنين وثلاثين ألف دينار يحملها إليهم مع خيول وثياب، ووقع الخوف في قلوب أهل الشام من الفرنج فبذلت لهم أصحاب البلاد أموالاً وصالحوهم فصالحهم أهل مدينة صور على سبعة آلاف دينار وصالحهم ابن منقذ صاحب شيزر على أربعة آلاف دينار وصالحهم على الكردي صاحب حماه على ألفي دينار».

وإليك خلاصة ما قاله المؤرخون الفرنج بهذه الأحداث: «في سنة ١١٠٨م وقال بعضهم سنة ١١١٠م (وهو الأوجه) سار برتران بن ريموند كونت سان جيل إلى المشرق ومعه سبعون سفينة من جنوا بقصد أن يتولى بعض مدن فينيقيا، فهاجم أولاً جبيل فملكها بعد مهاجمات ثم سار لحصار طرابلس، وأتى بودوين ملك أورشليم في خمس مئة فارس يعاونه على هذا الحصار. فضائقوا المدينة ولم ينجدها أحد فاستسلمت إلى الفرنج بشرط أن يكون أهلها أحراراً. فمن شاء الخروج منها خرج بما أمكنه حملة ومن شاء البقاء فيها لزمه أن يؤدي الجزية. فأمست طرابلس وعرقا وطرطوس وجبلة عملاً رابعاً من أعمال الفرنج في سورية وتولاه برتران بن ريموند كونت سان جيل، وحلف يمين الأمانة للملك أورشليم. وبعد أخذ طرابلس

بأشهر جمع بودوين ملك أورشليم عساكره حول بيروت وحاصرها شهرين وأرغم أهلها أن يستسلموا إليه . ولم يبق للمسلمين على شاطئ البحر المتوسّط إلاّ عسقلان وصور وصيدا . ولم يكن أهل صيدا نجوا إلى حيثئذ إلاّ باظهارهم الخضوع وتقديمهم التّقادّم . فكانوا يؤجلون خراب مدينتهم من سنة إلى أخرى يبذل أموالهم . واتّفق أنّه عند عود ملك أورشليم من حملة على شواطئ الفرات بلغه أنّ سيكور ابن ملك نورفج حلّ في يافا يصحبه عشرة آلاف رجل من مملكته . فسار بودوين إلى لقاء هذا الأمير وكلفه أن يمده في حروبه فأجابه إلى ذلك ولم يتطلّب اجرة إلاّ أن يعطى فلذة من ذخيرة عود الصليب . وأتى معه إلى أورشليم فعجب سكّانها من طول قامات هؤلاء الزّائرين ومن عدّة حريهم وقرّر مجلس الملك حيثئذ أن يحاصروا صيدا . فسار أسطول سيكور للحال إلى تجاه صيدا وخيّم بودوين ملك أورشليم وكونت طرابلس حذاء أسوارها فحاصروها ستة أسابيع وأكروها والي المدينة ووجهاءها أن يسلموا مفاتيح مدينتهم إلى ملك أورشليم . ولم يطلبوا إلاّ أن يخرجوا من المدينة في ما يمكنهم حملة على رؤوسهم ومناكبهم . فخرج من سكان صيدا خمسة آلاف واستمرّ الباقيون فيها خاضعين للملك أورشليم . وعاد أمير نورفج إلى بلاده جذلاً بما ناله من ذخيرة خشبة الصليب ووضع هذه الذخيرة في إحدى مدن بلاده .

عد ٨٢٣

ذكر مسير عساكر السلطان محمّد السلجوقي إلى قتال الفرنج

روى ابن الأثير في تاريخ سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢م أنّه في هذه السنة اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الفرنج، وكان من قوادهم الأمير مورود صاحب الموصل، والأمير سكمان صاحب تبريز، والأمير ايلغازي صاحب ماردين . وساروا إلى بلد سنجار ففتحو عدة حصون للفرنج وحاصروا مدينة الرها، ثمّ رحلوا عنها وعبروا إلى جانب الفرات الشامي، وطرقوا أعمال حلب وحاصروا قلعة تل باشر خمسة وأربعين يوماً . ولم يبلغوا منها غرضاً . فرحلوا عنها، ووصلوا إلى حلب فأغلق رضوان صاحبها أبواب المدينة ولم يجتمع فيهم . فرحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق ونزل على الأمير

مودود فأطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه. فخاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الفرنج سرّاً وكانوا قد تكلموا عن قتال المسلمين فلم يتم ذلك، فتفرقت عساكر المسلمين لأنّ الأمير برسق الذي هو أكبر الأمراء كان به نقرى ويحمل في محفة. ومات سكرمان أمير تبريز، واتبك طغتكين صاحب دمشق خاف على نفسه فتفرّقوا وبقي طغتكين ومودود في المعرّة. فساروا منها ونزلوا على نهر العاصي. ولما سمع الفرنج بتفرّق عساكر المسلمين طمعوا وكانوا قد اجتمعوا وساروا إلى اقاميا (اباميا قلعة المضيق). وسمع بهم ابن منقذ صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الفرنج فرحلوا إلى شيزر ونزلوا عليهما ونزل الفرنج بالقرب منهم فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة فلم يعطوا مصافاً للحرب، ورأوا قوة المسلمين فعادوا إلى اقاميا وتبعهم المسلمون فتخطّفوا من أدركوه في ساقاتهم وعاد المسلمون إلى شيزر.

وفي سنة ٥٠٦هـ سنة ١١١٣م سار مودود صاحب الموصل إلى الرها فنزل عليها ورعى عسكره زروعها ورحل عنها إلى سروج وفعل بها كذلك وأهمل الفرنج ولم يحترز منهم فلم يشعر إلّا وجوسلين صاحب تل باشر قد كبسهم. وكانت دواب العسكر منتشرة في المرعى فأخذ الفرنج كثيراً منها وقتلوا كثيراً من العسكر. فلما تأهب المسلمون للقاء جوسلين عاد عنهم إلى سروج. وفي سنة ٥٠٧هـ سنة ١١١٤م اجتمع الأمراء المذكورون وطغتكين صاحب دمشق ليردوا غارات ملك الفرنج على بلاد دمشق وقطعوا المواد عنها فراسل طغتكين الأمير مودود، فسار بعسكر جرار ولاقاه طغتكين إلى سلمية وساروا جميعاً إلى الأردن ودخلوا بلاد الفرنج والتقوا معهم عند طبرية واشتدّ القتال وصبر الفريقان. ثمّ انهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والأسر، ومن أسر ملكهم بفدوين (بودوين) فلم يعرف وأخذ سلاحه وأطلق فنجاً، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثيرون وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية فلقبهم عسكر طرابلس وأنطاكية فقويت نفوسهم بهم وعاودوا الحرب، فأحاط بهم المسلمون من كل جهة وصعد الفرنج إلى جبل غربي طبرية فأقاموا به ستة وعشرين يوماً والمسلمون بازائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم ومنعوا الميرة عنهم لعلّهم يخرجون إلى قتالهم فلم يخرجوا، فسار المسلمون إلى بيسان ونهبوا بلاد الفرنج من عكا إلى القدس وخرّبوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى،

وانقطعت المادة عنهم لبعدهم عن بلادهم. ثم عاد الأمراء عن القتال وأذنوا للعساكر بالعود والاستراحة وبقي مودود في خواصه ودخل دمشق ليقيم عند طغتكين إلى الربيع لمعاودة الغزو، ودخل مودود الجامع يوم الجمعة ليصلي مع طغتكين. ولما خرجا وثب باطني على مودود، فجرحه أربع جراحات، وكان صائماً فحمل إلى دار طغتكين واجتهد به ليفطر، فقال لا لقيت الله إلا صائماً. فمات من يومه. وقيل إن الباطنية بالشام خافوه، فقتلوه وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله. قال ابن الأثير «حدثني والذي قال كتب ملك الفرنج إلى طغتكين بعد قتل مودود كتاباً قال فيه: إن أمة قتلت عميدها يوم عيدها في بيت معبودها لحققت على الله أن يبيدها.»

وإليك خلاصة ما جاء في كتب المؤرخين الفرنج عن ذلك، قالوا في سنة ١١١٣م أقبل عسكر جرار من خراسان والموصل ودمشق وانتشر في الجليل. فسار الملك بودوين لملأوتهم واغترّ بحيلة صنعها المسلمون، فأقدم على قتالهم دون ترو. فكان يوم أوشك فيه عسكر النصارى أن يهلك عن آخره وملكهم ان يزول وملكهم أن يقتل. إلا أنه قد تيسر لهم في آخر الصيف انصراف جيش أعدائهم ولكن عقب ذلك جراد رعى الزروع، ومجاعة جشأت بها نفوس أهل كونتية الرها وامارة أنطاكية وزلزال انبسط من جبل طورس إلى بيرة أدوم فأخرب مدناً كثيرة. فتاب النصارى إلى الله وخشعوا ونادوا بأصوام وواظبوا الكنائس والتضرع إلى الله إلى أن انقشعت ظلمات هذه المحن والمصائب.

ولما رأى بودوين نفسه مستريحاً من غارات أعدائه غزا في بلاد العرب حتى البحر الأحمر ودار في خلده أن يحمل على مصر فحمل عليها سنة ١١١٨م ووصل إلى جهة الغرما ظافراً غانماً، ولكن أصاب بودوين الملك مرض فلم يعد له ولقومه حيلة إلا بأن يعود إلى أورشليم. فحملوا بودوين في محفة إلى العريش، ولما شعر بدنو المنية علم خدامه كيف يحنطون جثته ويحملونها إلى أورشليم وأوصى بأن يخلفه في الملك إما أخوه أوسطاش أو بودوين دي بوج كونت الرها، وتناول أسرار الكنيسة ومضى إلى لقاء ربّه. فاستخرج أصحابه أحشائه ودفنوها بالقرب من العريش وحملوا جثته إلى القدس. فدفنوها به في ٢٦ آذار سنة ١١١٨م يوم عيد الشعانين. وكان تنكراد والي أنطاكية قد توفي سنة ١١١٢م في أنطاكية ودفن بها في كنيسة القديس بطرس هامة الرسل. وأوصى بأن يخلفه روجه بن ريشار، أحد

أنسابه بشرط أن يتخلّى عن إمارة أنطاكية إلى أميرها الشرعي ابن ييوموند الذي كان حينئذٍ عند أمّه في إيطاليا.

عد ٨٢٤

خلافة بودوين الثاني وما كان في أيامه

بعد وفاة بودوين الأوّل ودفنه اهتمّ اكليس أورشليم وشعبها بانتخاب ملك يخلفه. فأراد بعضهم أن يملكوا أخاه أوسطاش، وقال غيرهم إنّ أوسطاش بعيد والأخطار حافة بهم. فرشّحوا بودوين دي بوج كونت الرها من أنسباء الملك المتوفي. وكان حينئذٍ بأورشليم فأجمع رأيهم عليه ونادوا به ملكاً في كنيسة القيامة يوم عيد الفصح وأقام في كونتية الرها عوضاً عنه جوسلان دي كورتناي.

ولم ينتهوا من حفلات الملك الجديد إلّا تألّبت جموع من المسلمين من فارس والجزيرة وسورية، وزحفوا إلى عدوة العاصي بإمرة ايلغازي بن ارتق والي ماردن الذي كان تولى على حلب. وقال المؤرخون المسلمون في ذلك في هذه السنة (أي سنة ٥١٣ هـ وهي سنة ١١٢٠م) كانت وقعة بين ايلغازي بن ارتق، وبين الفرنج بأرض حلب فانهزم الفرنج وقتل منهم عدة كثيرة وأسر عدة، وكان في من أسر رجال صاحب أنطاكية. ثم سار ايلغازي، وفتح عقيب الاثارب، وزردنا. وكانت الوقعة في منتصف ربيع الأوّل عند عفرين. ومّا مدح به ايلغازي بسبب هذه الوقعة قول العظيمي:

قل ما تشاء فقولك المقبولُ وعليك بعد الخالق التعويلُ

واستبشر القرآن حين نصرته وبكى لفقد رجاله الانجيلُ

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك اجتمع المسلمون من بلاد فارس والجزيرة وسورية بإمرة ايلغازي، وعلم بتجمعهم روجه بن ريشار أمير أنطاكية، فاستمدّ ملك أورشليم وكونت الرها وكونت طرابلس ولم ينتظر وصولهم بل عاجل المسلمين بالقتال. فقتل هو وتشتت عسكره كل التشتت وأسر كثيرون وكان في جملتهم غوتيار المسجل. وهو وصف ما عاناه الأسرى حينئذٍ من العذاب المبرح. وقال إنّه

لم يصف كل ما رأى خشية أن يقتدى النصارى يوماً بما أنزله أعداؤهم بهم. وقد انتشرت عساكر ايلغازي بعد هذا الظفر في أعمال الفرنج وبلغ حينئذ ملك أورشليم إلى أنطاكية. وقد قتل أكثر من كان يذب عنها، ولزم أن يقام الاكليرس. والرهبان في حراسة الأبراج إذ لم يكونوا على ثقة من الروم والأرمن لاستقلالهم فأنعش وصول الملك رجاء الأهلين وزار كنائس أنطاكية وعليه ثياب الحداد وطلب بركة البطريك له ولجنوده وسار لقتال المسلمين وعلمهم خشبة الصليب. والتحم القتال فظهر النصارى وانهزم أيلغازي ودييس قائد العرب. وبعد أن أُنْمَنُ بودوين أنطاكية وأعمالها عاد إلى أورشليم قسبة ملكه.

وقال المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥١٥ هـ سنة ١١٢٢ م في هذه السنة عصا سليمان بن ايلغازي على أبيه بحلب وحسن له العصيان رجل من أهل حماة من بيت قرناص كان ايلغازي قد قدّمه على أهل حلب فجازاه بذلك. فسار أيلغازي من ماردين وهجم على حلب وقطع يدي ابن قرناص ورجليه وسمل عينيه فمات ولحقته رقة الوالد على ولده سليمان فاستبقاه وهرب إلى طغتكين بدمشق. فاستتاب أبوه على حلب ابن أخيه واسمه سليمان أيضاً ابن عبد الجبار. وقالوا أيضاً في السنة المذكورة كانت حرب بين بلك بن بهرام ابن أخي أيلغازي، وبين جوسلين صاحب الرها. فان بلك حصر هذه المدينة وبها الفرنج وبقي على حصرها مدة فلم يظفر بها فرحل عنها. فقصد جوسلين صاحب الرها وسروج فانتصر بلك على الفرنج وقتل منهم كثيرين وأسر جوسلين وابن خالته كليام وجماعة من فرسانه، وبذل جوسلين فداء نفسه أموالاً كثيرة فلم يقبلها بلك وسجنهم في قلعة خربت. وتوفي ايلغازي في سنة ٥١٦ هـ سنة ١١٢٣ م وملك بعده ابنه تمرتا ش بماردين، وأخذ بلك حلب من ابن عمه سليمان المار ذكره. فسلم سليمان حصن الأثارب إلى الفرنج ليهادنوه على حلب. واستولى الفرنج على خربت وخلصوا جوسلين ثم سار بلك إليها واسترجعها من الفرنج.

ثم توفي بلك سنة ٥١٨ هـ سنة ١١٢٥ م وسبب وفاته أنه قبض على الأمير حسان البعلبكي صاحب منبج وسار إلى هذه المدينة فملكها وحصر القلعة فأصابه سهم لا يدري من رماه فقتله. فحملة ابن عمه تمرتا ش بن ايلغازي إلى حلب وتسلم المدينة ورتب أمورها وعاد إلى ماردين مركز ولايته. واجتمعت الفرنج

وانضمَّ إليهم ديس بن صدقة وحاصروا حلب وأخذوا في بناء بيوت لهم بظاهرها فعظم الأمر على أهلها ولم ينجدهم صاحبها تمرّش لا يثاره الرفاهة والدعة. فكاتب أهل حلب اقسنقر البرسقي صاحب الموصل في تسليمها إليه فصار إليهم، فلمّا قرب من حلب رحلت الفرنج عنها وسلّم أهل حلب المدينة والقلعة إليه واستقرّت في ملك البرسقي مع الموصل وغيرها. وفي سنة ٥١٩هـ سنة ١١٦٢م سار البرسقي إلى كفرطاب وأخذها من الفرنج ثم سار إلى عزاز، وكانت لجوسلين فاجتمعت الفرنج لقتاله واقتتلوا فانهزم البرسقي وقتل من المسلمين خلق كثير.

ومّا قاله المؤرخون الفرنج في هذه الأحداث أنّه في سنة ١١٢٢م، كبس بلك ابن أخي ايلغازي جوسلين كونت الرها فأسره ومعه كاليران أحد أنسبائه الادنين وغللهما وساقهما إلى أطراف الجزيرة. ولمّا بلغ خبرهما إلى بودوين ملك أورشليم سار مسرعاً إلى الرها ليعزي أهلها ويفكّ الأسيرين. فاستفزّه كرم أخلاقه واعتماده على شجاعته أن يقتحم المخاطر. فوقع أسيراً بيد بلك وصار شريكاً لمن عني بتخليصهما. فحملت النخوة والحمية خمسين رجلاً من أرمينيا على إنقاذ الملك والأميرين فدخلوا القلعة متنكرين وقتلوا الحامية التي كانت بها. ولكن أحاط المسلمون بالقلعة واستطاع جوسلين أن يفترّ منها وأسرع إلى أورشليم فوضع قيوده على قبر الخلّص وعاد في عسكر من أورشليم والرّها لينقذ الملك الأسير. ولمّا انتهى إلى الفرات علم أنّ المسلمين دخلوا القلعة وقتلوا الخمسين رجلاً وأخذوا الملك إلى قلعة حران.

واغتنم المصريون فرصة أسر ملك أورشليم فتألّبو وساروا إلى صحراء عسقلان قاصدين أن يزيحوا الفرنج عن فلسطين. واستعدّ الفرنج للدفاع متقوين كشعب نينوى بالتوبة والصوم، وقرع الجرس الكبير في أورشليم ايذاناً بالحرب فخرج النصارى وعسكرهم لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل وأميره أوستاش دي اكران كونت صيدا ومدبّر المملكة في غيبة الملك. وحمل البطريك خشبة الصليب في طليعة العسكر ومن ورائه كاهن حامل الحربة التي طعن بها جنب الخلّص وكانوا اكتشفوها بأنطاكية. وكان المصريون يحاصرون حينئذٍ يافا بحرّاً وبراً. ولمّا رأى أصحاب الأسطول الفرنج بعدوا عن الشاطئ، وتسعّرت نار القتال بين العسكرين في البر فظهر النصارى وانهزم المصريون وتتبع الفرنج آثارهم في صحراء عسقلان إلى أن دخلوا أسوار عسقلان. وعاد الفرنج إلى أورشليم مترنمين بأناشيد التسبيح والشكر

لله. وأما بودوين الملك فافتدى نفسه بمال، ولما سُخِّلَ سبيله جمع عسكراً وزحف إلى حلب وكان بين أمراء المسلمين اختلاف أدى إلى أن ديبس أمير العرب وغيره من أمراء تلك النواحي انضموا إلى الفرنج فضايق بودوين حلب وأوشك أهلها أن يستسلموا إليه فتسارع أمير الموصل لنجدة حلب في عسكر جرّار فاضطرّ بودوين أن يرفع الحصار ويعود إلى أورشليم. فشكر ذروه الله على نجاته. ثم انتهى إليه أن جيش المسلمين الذي أتى لنجدة حلب قد انتشر في إمارة أنطاكية فنكّل بأهلها ونهب وحرّق. فهبّ راجعاً في نخبة من فرسانه وجنوده فهزم الأعداء من أملاك الفرنج. ثم هجم طغتكين صاحب دمشق على أملاك الفرنج فأسرع بودوين لقتاله فأرغم أن ينكص على عقبه إلى دمشق.

وقد بقيت صور كلّ هذه السنين في يد الخلفاء العلويين أصحاب مصر فأخذها الفرنج من يدهم سنة ١٢٥م. وإليك ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك: «كانت صور في يد الخلفاء العلويين وشرع الفرنج في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها. فسمع الوالي الذي بها من قبل المصريين خبر تأهبهم وعلم أن لا قوة له ولا طاقة على دفع الفرنج عنها. فأرسل إلى الأمر بذلك فرأى أن يرد ولاية صور إلى طغتكين صاحب دمشق وأرسل إليه بذلك. فملك طغتكين صور ورّتب بها من الجند وغيرهم ما ظنّ فيه كفاية، وسار الفرنج إليهم ونازلوهم وضيقوا عليهم ولازموا القتال. فقلّت الأقوات وسئم من بها القتال وضعفت نفوسهم وصار طغتكين إلى بانياس ليقرب منهم ويذب على البلد. ولعلّ الفرنج إذا راوه قريباً منهم لم يتحرّكوا ولزموا الحصار فأرسل طغتكين إلى مصر يستنجدهم فلم ينجدوه. وتمادت الأيام وأشرف أهلها على الهلاك. فراسل حينئذ طغتكين الفرنج وقرّر الأمر على أن يسلم المدينة إليهم ويمكّنوا من بها من الجند والرعية من الخروج بما يقدرّون على حمله من أموالهم ورحالهم. فاستقرّت القاعدة على ذلك وفتحت أبواب المدينة وملكها الفرنج وفارقها أهلها وتفرّقوا في البلاد وحملوا ما أطاقوا وتركوا ما عجزوا عنه. ولم يعرض الفرنج على أحد منهم ولم يبق إلّا الضعيف. وملك الفرنج البلد في ٢٢ من جمادي الأوّل سنة ٥١٨هـ (سنة ١١٢٥م)، وكان فتحه رهناً عظيماً على المسلمين. فأنّه من أحصن البلاد وآمنها». والذي قاله المؤرخون الفرنج: أنّه في تلك الأثناء قدم إلى شواطئ سورية أسطول بنديقي أميره دوغ (أي والي) البندقية فافترض الفرنج قدومه لحصار صور، وأتى المسلمون من دمشق إلى محل

قريب من المدينة لنجدة أهلها وخرج عسكر مصري من عسقلان، فأخرب بلاد نابلس وهدد أورشليم فلم يُجن ذلك عزيمة الفرنج عن الحصار، وأتفق حينئذ قتل بلك في منبج وكان جوسلان هو القاتل له، وقد طير خبر قتله إلى مدن النصارى وأرسل رأسه إلى صور فازداد الفرنج حماسة وحمية. فيئس الصوريون من الدفاع فاستسلموا إلى الفرنج بعد حصار خمسة أشهر ونصف. فخفقت أعلام ملك أورشليم ودوخ البندقية على أسوار صور. فدخل إليها الفرنج ظافرين وخرج منها الصوريون في نسائهم وأولادهم صاغرين. وانتشر خبر الظفر فسمع صدى التهليل والشكر لله في كل من مدن النصارى ولاسيما أورشليم حيث أقيمت حفلات باهرة ذكراً لهذا الانتصار وشكراً لله عليه.

وقد توفي بودوين في ٢١ آب سنة ١١٣٠م، ويروى سنة ١١٣١م في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة للملكه اذ استوى على منصبة الملك سنة ١١١٨م في عيد الفصح ودفن في كنيسة القيامة. وكان متزوجاً بابنة أمير من أرمينيا ورزق منها أربع بنات إحداهن زوجة فولك دي انجو الذي خلفه والثانية امرأة ريموند أمير أنطاكية والثالثة امرأة ريموند كونت طرابلس والرابعة ترهبت. وكان تقياً ورعاً هماماً زاد مملكته بغزواته.

عد ٨٢٥

ملك فولك دي انجو، وما كان من الأحداث في أيامه

بعد دفن بودوين الثاني، اجتمع الرؤساء والأعيان فاختروا خليفة له في مملكة أورشليم فولك كونت انجو. وكان قد حضر إلى سورية سنة ١١٢٠م، وعاد إلى فرنسا سنة ١١٢٥م، وتزوج بابنة بودوين الثاني كما مر. وتوجه البطريك الأورشليمي اللاتيني في ١٤ أيلول سنة ١١٣١م. وتوفي في ١٣ تشرين الثاني سنة ١١٤٢م. وما كان في أيامه أن البرسقي الذي كان قد ولي حلب كما مر قتله باطنية بالموصل، وكان مملوكاً تركياً شجاعاً. وكان قد أقام ابنه مسعوداً والياً بحلب. فلما قتل أبوه سار إلى الموصل وملك بها مكان أبيه واستخلف على حلب أميراً اسمه قيمانز، ثم استخلف بعده رجلاً اسمه قتلغ وأساء السيرة فخلعه

أهل حلب وولوا عليهم سليمان بن عبد الجبار الذي كان قد تولى حلب أولاً كما مرّ. وعصا قتلغ في القلعة. ولما سمع الفرنج باختلاف أهل حلب سار إليهم جوسلين فصانعوه ببال فرحل عنهم. ومات مسعود بن البرسقي أمير الموصل فولى السلطان محمود السلجوقي عماد الدين زنكي على الموصل وما يليها. فزاد إمارته وأرسل عسكرياً إلى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام، فأجاب أهل حلب إليه. وسير قائد العسكر سليمان بن عبد الجبار وقتلغ إلى زنكي فأصلح بينهما ولم يرد أحدهما إلى حلب. ثم سار عماد الدين زنكي بنفسه إلى حلب وملك منبج في طريقه واستبشر أهل حلب بقدومه فرتّب أمور حلب وسمل عيني قتلغ فمات. وكان في دمشق أن مات طغتكين أميرها سنة ٥٢٢ هـ سنة ١١٢٩ م وهو من مماليك تتش بن الب ارسلان السلجوقي. وملك دمشق بعده ابنه تاج الملوك نوري (ويروى بوري بالباء ونوري بالنون). وفي سنة ٥٢٣ هـ سنة ١١٣٠ م سار رجل من الاسماعيلية يسمى بهرام إلى دمشق ودعا الناس إلى مذهبه وأعانه طاهر بن سعد المزدعاني وزير نوري أمير دمشق وسلّم إليه قلعة بانياس فعظم أمره وملك عدة حصون بالجلال. وجرى بينه وبين أهل التيم مقاتلة قتل بهرام فيها وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم يسمى اسماعيل. وأقام الوزير في دمشق رجلاً منهم أيضاً يسمى أبا الوفا. فعظم أمره حتى صار الحكم له بدمشق وكاتب الفرنج على أن يسلم دمشق إليهم ويسلموا إليه عوضها مدينة صور واتفقوا على ذلك. وعلم الأمير نوري بذلك فقتل وزيره المزدعاني وأمر بقتل الاسماعيلية الذين بدمشق. فثار بهم أهل دمشق وقتلوا منهم ستة آلاف نفر، ووصل الفرنج إلى الميعاد وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء فرحلوا عنها. وخرج نوري بعسكر دمشق في أثرهم فقتلوا منهم عدة كثيرة. وأمّا اسماعيل الذي كان بقلعة بانياس فسلم هذه القلعة إلى الفرنج وصار معهم.

وأمّا عماد الدين زنكي فكان قد أرسل من حلب يستنجد نوري صاحب دمشق على الفرنج فأرسل نوري إلى ابنه سونج الذي كان نائباً عن أبيه بحماة يأمره بالمسير إلى عماد الدين زنكي فسار إليه، فغدر زنكي به وقبض عليه ونهب خيامه واعتقله وجماعة من مقدمي عسكره بحلب، وسار زنكي إلى حماة فملكها لخلوها من الجند. ثم رحل عنها إلى حمص وحاصرها مدة، وكان قد غدر بصاحبها أيضاً الذي يسمى قيرخان بن قراجا، وقبض عليه وأحضره معه إلى حمص وأمره أن يأمر

ابنه وعسكره بتسليم حمص إليه فأمرهم فلم يلتفتوا إلى أمره. فلما آيس زنكي منها رحل عنها عائداً إلى الموصل واستحصب سونج وأمراء دمشق معه، وبذل نوري صاحب دمشق مالاً في ابنه فلم يجب إلى طلبه.

وفي سنة ٥٢٤هـ سنة ١١٣١م، عاد زنكي من الموصل إلى الشام وقصد حصن الاثارب القريب من حلب وكان أهله الفرنج يضايقون أهل حلب وجمع الفرنج فارسهم وراجلهم وقصدوا زنكي فرحل عن الاثارب وسار إلى ملتقاهم فاقتتل الفريقان أشد القتال فانهزم الفرنج وقتل منهم كثيرون وأسر بعض فرسانهم، ثم عاد إلى الاثارب وأخذ عتوة وقتل وأسر كل من فيه وخرب زنكي حينئذ الحصن المذكور وبقي خراباً إلى الآن.

وفي سنة ٥٢٦هـ سنة ١١٣٣م، توفي تاج الملوك نوري صاحب دمشق بسبب جرح أوقعه به بعض الباطنية وعهد بالملك بعده إلى ولده شمس الملوك اسماعيل وأوصى بيعليك وأعمالها لولده شمس الدولة محمّد. ثم استولى محمّد على حصن الرأس وحصن اللبوة فكتبه أخوه اسماعيل في إعادتها إليه فلم يقبل محمّد ذلك. فسار اسماعيل وفتح الحصنين وحصر أخاه محمّد بيعليك وملك المدينة وحصر القلعة، فسأله محمّد في الصلح فأجابته إليه وأعاد إليه بعلبك وأعمالها. وفي سنة ٥٢٧هـ سنة ١١٤٣م سار شمس الملوك اسماعيل على غفلة من الفرنج فملك مدينة بانياس وقتل وأسر من كان بها من الفرنج. ثم سار في هذه السنة إلى حماة وهي لعماد الدين زنكي كما مرّ وحصرها فملكها عتوة وطلب أهلها منه الأمان فأمنهم وملك قلعتهم أيضاً. ثم سار إلى شيزر وبها صاحبها من بني منقذ فذهب بلدها وحاصر القلعة فصانعه صاحبها بمال فعاد عنها إلى دمشق. وبعد عوده وثب عليه بعض مماليك جده طغتكين فضربه بسيف فلم يعمل به. فقبض على الضارب فقتله وقتل من أقرّ عنهم وألحق بهم أخاه سونج الذي كان زنكي قد أسره كما مرّ، فعظم ذلك على الناس ونفروا منه.

وفي سنة ٥٢٨هـ سنة ١١٣٥م سار شمس الملوك إلى حصن الشقيق في وادي التيم. وكان بيد الضحّاك بن جندل رئيس هذا العمل وكان الفرنج راضين عن الضحّاك فأخذ شمس الملوك هذا الحصن وعظم ذلك على الفرنج وقصدوا بلاد حوران وجمع شمس الملوك الجموع وناوشهم. ثم أغار على بلادهم من

جهة طبرية ووقعت الهدنة بينهم وبينه، فعاد الفرنج إلى بلادهم. وفي سنة ٥٢٩هـ سنة ١١٣٦م اتفق جماعة على قتل شمس الملوك فقتلوه على غفلة بايعاز امه. قيل إن الناس كرهوه لفرط جورهم وظلمهم وشكوه إلى امه فاتفقت مع من قتله. وقيل بل أن أمه اتهمت لشخص يقال له يوسف بن فيروز فأراد شمس الملوك قتل امه فاتفقت مع من قتله. ولما قتل ملك بعده بدمشق أخوه شهاب الدين محمود. ولما بلغ زنكي مقتل شمس الملوك أسرع إلى دمشق وحصرها وضيق على أهلها فقام برفع الحصار مملوك لطفتكين اسمه معين الدين اتر واستولى على الأمر بسبب ذلك. ولما لم يَزِ زنكي مطعماً في أخذ دمشق اصطلاح مع أهلها ورحل عنها إلى بلاده.

وفي سنة ٥٣٠هـ سنة ١١٣٧م، تسلّم شهاب الدين محمود صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها. فأن أصحابها أولاد الأمير قيرخان بن قراجا المار ذكره ضجروا من كثرة تعرّض عماد الدين زنكي إليها وإلى أعمالها فراسلوا شهاب الدين في أن يسلموا إليه ويعطيهم عوضها تدمر. فأجابهم إلى ذلك فتسلّمها وأقطعها لمملوك جده معين الدين اتر المار ذكره. فلما رأى عسكر زنكي بحلب وحماة خروج حمص إلى صاحب دمشق تابعوا الغارات على بلدها. فأرسل شهاب الدين إلى زنكي في الصلح فاستقرّ بينهما وكفّ عسكر زنكي عن حمص، ولم يكن ذلك إلاّ للمدة وجيزة فان زنكي نازل حمص سنة ٥٣١هـ سنة ١١٣٨م فلم يمكنه معين الدين اتر من فتحها. فرحل عنها إلى بعين وهي للفرنج وضيق عليها. فاجتمع الفرنج ليدفعوه عن بعين، وجرى بينهم قتال شديد آخره انهزام الفرنج ودخول بعضهم إلى حصن بعين فحصر زنكي الحصن وضيق عليه. فطلب الفرنج الأمان فقرر عليهم تسليم حصن بعين وخمسين ألف دينار فأجابوه إلى ذلك. فأطلقهم وتسلّم الحصن وفتح حيثل المعرة وكفرطاب وأخذها من الفرنج.

وفي سنة ٥٣٢هـ سنة ١١٣٩م، سار زنكي إلى حماة وسار منها إلى بقاع بعلبك فملك حصن المجدل، وكان لصاحب دمشق وأرسله مستحفظ بانياس وأطاعه. وسار إلى حمص فحصرها ثانية ثم رحل عنها إلى سلمية بسبب نزول الروم على حلب كما سيأتي. ثم عاد إلى منازل حمص. فسلمت إليه المدينة والقلعة، وأرسل فخطب أم شهاب الدين محمود صاحب دمشق وهي التي قتلت

ابنها شمس الملوك اسماعيل بن نوري كما مرّ وإنما تزوجها طمعاً بالاستيلاء على دمشق. ولما خاب أمله من ذلك أعرض عنها. انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون.

عد ٨٢٦

حملة يوحنا كمنانس ملك الروم على سورية

هاك خلاصة ما قاله المؤرخون المسلمون في هذه الحملة، كان ملك الروم قد خرج سنة ٥٣١ هـ (سنة ١١٣٨ م) من بلاده متجهزاً فاشتغل بقتال الأرمن وصاحب أنطاكية وغيره من الفرنج. فلما دخلت سنة ٥٣٢ هـ (سنة ١١٣٩ م) سار إلى بزاغة وهي على ستة فراسخ من حلب وحاصرها وملكها بالأمان ثم غدر بأهلها وقتل فيها وأسر وسبى، فتنصّر قاضيهما وقدر أربع مئة نفس من أهلها، وأقام فيها عشرة أيام ثم رحل عنها بمن معه إلى حلب ونزل على قويق (نهرها) وزحف إليها وجرى بينه وبين أهلها قتال كثير فقتل من الروم بطريق عظيم القدر عندهم. فعادوا خاسرين وأقاموا ثلاثة أيام ورحلوا إلى الأثارب وملكوها وتركوا فيها سبايا بزاغة، وتركوا عندهم من الروم من يحفظهم، وساروا نحو شيزر فخرج الأمير أسوار نائب زنكي بحلب وأوقع بمن في الأثارب من الروم واستفك أسرى بزاغة وسباياها. وسار ملك الروم إلى شيزر وحاصرها ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً، وأرسل صاحب شيزر أبو العساكر بن منقذ الكناني إلى زنكي يستنجد فسار زنكي ونزل على العاصي بين حماة وشيزر. وكان زنكي وعسكره يشرفون كل يوم على الروم وهم محاصرون شيزر بحيث يراهم الروم. وأقام ملك الروم محاصراً شيزر أربعة وعشرين يوماً ثم رحل عنها من غير أن ينال منها غرضاً. وسار زنكي في أثر الروم فظفر بكثير ممن تخلف منهم. ومدح الشعراء زنكي بسبب ذلك. من هذا ما قاله مسلم بن خضر الحموي من أبيات أولها:

بعزمك أيها الملك العظيم تذلل لك الصعاب وتستقيم
ومنها:

ألم تر أنّ كلب الروم لما تبين أنّه الملك الرحيم
فجاء فطبق الفلوات خيلاً كأنّ الجحفل الليل البهيم
فحين رميته بك في خميس تيقن فوت ما أمسى يروم
كأنك في العجاج شهاب نور توقد وهو شيطان رجيم

ومّن ذكروا هذه الحملة من المؤرخين النصارى دي لارو في موجز تاريخ الملك السافل قال في سنة ١١٣٧م عاد الملك يوحنا كومنانس إلى مطامعه بالاستيلاء على أنطاكية. وكانت هذه الإمارة بعد مقتل بيوموند الثاني أميرها في حرب مع زنكي قد وقعت في يد ابنة عمرها ثلاث سنين اسمها قسطنسا وقد خطبت لريموند ابن كونت بواتيا. ولما علم بيوموند أنّ ملك الروم يجهز حملة على أنطاكية استنجد رئيس عصابة من الأرمن وجهز بعض الجنود فلم يجده ذلك نفعا بل فتح ملك الروم ترسيس وأدنه وما جاورهما. ثم حاصر عين زربه فقاومه أهلها شديد المقاومة. ولكن ألجئوا أن يستسلموا إليه فأمنهم وهزم الأرمن من المواضع التي كانت يدهم. وبعد أن استحوذ على كيليكيا كلّها خيم على أبواب أنطاكية. فارتاع ييموند صاحبها واستنجد فولك ملك أورشليم لكنّ هذا الملك كان أحوج منه إلى من ينجده على زنكي أمير الموصل وحلب. فلم ير ريموند مناصاً من أن يسلم المدينة إلى ملك الروم ويقرّ بسيادته. ووعده الملك يوحنا أن يلحق بإمارة أنطاكية كل ما يأخذه من المسلمين. وبعد التوقيع على معاهدة بهذا المعنى خفقت أعلام ملك الروم على قلعة أنطاكية ومضى الملك يصرف فصل الشتاء في ترسيس.

ثم افتتح الملك بعض المدن في الفرات وسار إلى حلب ومعه أمير أنطاكية وكونت الرها، وكانت حلب محصنة وفيها حامية كثيرة شديدة البأس. فوثبوا على الفرنج وردوا مرات فلم توهن عزيمتهم ، وتعرض الملك نفسه عدة مرات لفقد حياته فلم ينش عن عزمه، لكنّه خشى أخيراً حصول معجاة في عسكره فأرغم أن يرفع الحصار عن حلب ويكتفي بأخذه بعض القرى المجاورة لها، ويرحل إلى شيزر آملاً أي يستعيز عما خسره. وقبل أن يعبر العاصي عبره فرسان المسلمين ووثبوا على عسكره فهزمهم الروم وغرق كثيرون منهم في النهر وعاد البقية إلى شيزر،

واعتصموا بأسوارها يدافعون عن بلدهم مدافعة الأبطال فلم يتمكن الروم من فتح المدينة واستحوذوا على بعض ضواحيها فقط وقتلوا سكانها. وخاف سكان المدينة فراسلوا الملك يوحنا بالصلح وقدموا له تقادم نفيسة فرحل عنهم إلى أنطاكية. وقد دخل الملك يوحنا أنطاكية باحتفاء عظيم وكان معه أمير أنطاكية وكونت الرها يضبطان عنان جواده فاجله الأهلون لإجلال ملكهم وكانت له السلطة المطلقة في المدينة، على أنه سأل أمير أنطاكية أن يقيم فيها حامية من قبله. فوجس الأمير من ذلك وحسبه تخلية للملك عن إمارته، فلجأ إلى حيلة سيئة العاقبة فدرس إلى سكان المدينة أي يثوروا ويحملوا سلاحهم. فعمت الثورة المدينة وتآلب سكانها وأخذوا يهددون ويصيحون في الأسواق الويل لأنطاكية فقد بيعت للروم، وهجموا على بعض حاشية الملك فقتلوا كثيرين وأتبعوا أثر من هرب إلى قصر الملك. فدعا الملك الأمراء وقال لهم أرى هذه الجموع لم تفهم ما قصدته وقد نسبوا إلي من السوء ما لم أتعده. فسيروا واخمدوا روع هؤلاء الثائرين وأكدوا لهم أنني غداً أبين لهم سوء ظنهم بي بارتحالي عن أنطاكية. فأثنى من حضر على سداد الملك وأصالة رأيه، ومضى الأمير وكونت الرها، فطبيخوا قلوب الثائرين. وفي الغد خرج الملك من المدينة وخيم عند أبوابها، ثم سار إلى قسطنطينية وفي قلبه حزازات من أهل أنطاكية.

بعد أربع سنين أي سنة ١١٤٢م عاد إلى سورية ومعه عمانويل أصغر أبنائه وبلغ إلى أسوار أنطاكية واستأنف ما كان قد طلبه من ريموند. أن يقيم حامية في قلعة أنطاكية، فأبى ريموند الإجابة إلى مطلوبه فأوعز الملك إلى جنوده أن ينهبوا بلاد أنطاكية، فاندفعوا ينهبون ويقطعون الأشجار ويتلفون الحصاد والثمار ويحرقون المزارع والقرى. وكان يؤمل أن يستحوذ على أنطاكية بهذه الوسيلة السيئة فزاد الناس كرهاً له ودار في خلدته أن يسير إلى أورشليم ويقضي بها فصل الشتاء. فسير رسلاً إلى فولك ملك أورشليم يستأذنه بأن يزور الأماكن المقدسة ويعدّه بأنه ينجده على أعدائه. فلم يثق الملك باخلاص ملك الروم ووجس من دخوله أورشليم، فأجابه أنه يسرّ بقبوله لكنه يخشى أن القحط الحاصل في بلاده لا يمكنه من تقديم الأزودة الكافية لجيشه. فان شاء أن يحضر بعشرة آلاف رجل فقط احتفى بلقائه وتكريم مثواه. فأدرك ملك الروم سبب رفض قبوله مع جيشه ولم يشأ أن ينفصل عن جيشه فأعاد رسل ملك أورشليم إليه وأرسل إليه معهم هدايا نفيسة، وقفل إلى

كيليكية متوقفاً سنوح فرصة لإتمام ما نوى، إلا أنه بينما كان يوماً يروح نفسه بالصيد جرح بسهم مسمّم من جمعيته لدى عراكه لأحد الضواري ومات من جرحه في ٨ نيسان سنة ١١٤٣م، وأوصى رؤساء جيشه أن يملّكوا بعده ابنه عمانويل المذكور فملّكوه وعاد إلى قسطنطينية.

وتوفي فولك ملك أورشليم سنة ١١٤٤م وفي رواية أخرى سنة ١١٤٢م وله ابنان بودوين وأموري.

عد ٨٢٧

ملك بودوين الثالث على أورشليم وأخذ المسلمين الرها

بعد وفاة فولك ملك أورشليم انتخب لخلافته ابنه بودوين وهو الثالث بهذا الاسم والخامس من ملوك أورشليم، ولم يكن له من العمر عند ارتقائه إلى سدة الملك إلا ثلاث عشرة سنة، وقد أثنى غوليلمس أسقف صور على حسن أخلاقه وحميد صفاته. ومن أهم الأحداث في أيامه فتح عماد الدين زنكي صاحب الموصل وحلب مدينة الرها. قال المؤرخون المسلمون في ذلك في سنة ٥٣٩هـ (سنة ١١٤٥م) فتح أتابك عماد الدين زنكي مدينة الرها من الفرنج، وفتح غيرها من حصونهم في الجزيرة أيضاً. وكانت مملكتهم بهذه الديار من قرب ماردين إلى الفرات مثل الرها وسروج والبيرة وغيرها. وكانت هذه الأعمال مع غيرها مما هو غرب الفرات لجوسلين، وكان صاحب رأي الفرنج والمقدّم على عساكرهم لما هو عليه من الشجاعة والمكر. وكان زنكي يعلم أنه متى قصد حصرها اجتمع فيها من الفرنج من يمنعها فيتعذّر عليه فتحها، فاشتغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير قاصد بلادهم فأروا أنه منشغل بغيرهم فاطمأنوا، وفارق جوسلين الرها وعبر الفرات وبلغ زنكي الخبر فنادى في عسكره بالرحيل وأن لا يتخلّف أحد عن الرها في غد يومه، فساروا إلى الرها ونازل زنكي المدينة وقاتل أهلها ثمانية وعشرين يوماً، وأمر بنقب أسوار المدينة، ولجّ في قتالها خوفاً من اجتماع الفرنج والمسير إليه فأخذها عنوة وقهراً وحصر قلعتها فملكها أيضاً ونهب الناس الأموال وسبوا الزرّة وقتلوا الرجال. وأعجبت المدينة زنكي فلم يشأ خرابها وأمر بردّ ما أخذ منها، وجعل فيها عسكرياً يحفظها، وتسلم مدينة سروج وسائر الأماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي

الفرات إلا البيرة فإنه حاصرها ولم يقدر أن يأخذها حينئذ (ملخص عن الكامل لابن الأثير).

والإليك ما قاله المؤرخون النصارى ملخصاً عن معجم تاريخ الصليبيين: «بعد وفاة جوسلين الأول خلفه في كونتيّة الرها ابنه جوسلين الثاني وكان عاكفاً على ملاذه، متقاعداً عن الاهتمام بشؤون إمارته، ترك الإقامة في قصبته الرها وأقام في طوربال على عدوة الفرات لاهياً بما يلدّ له. وكان زنكي هائماً بفتح الرها فخادع جوسلين بما ينوي وهاجم الرها بغتة سنة ١١٤٤م وأقام عليها الحصار ولم تنجدها أرملة فولك ملك أورشليم التي كانت تدبّر المملكة لصغر ابنها. وكان ريموند أمير أنطاكية عدواً لجوسلين فلم يشأ أن يناصره، فانفرد أهل الرها بمناصبة زنكي آمليّن أن تنجدهم أمة الفرنج واستمروا على ذلك ثمانية وعشرين يوماً فلم يكن منجد ولا معين، وفتح عسكر زنكي منافذ في أسوار المدينة، ودخلوها فقتلوا كثيرين من سكانها رجالاً ونساءً وأطفالاً وشيوخاً ونهبوا بيوتها وكنائسها، وجروا أسقفاً أرمنيّاً في شوارعها ثم جلدوه، وقتلوا الأسقف اللاتيني واكليروسه وأرسلوا رؤوس بعض القتلى إلى بغداد وأسروا من بقي من الأهلين». وقال أبو الفرج بن العبري في تاريخه السرياني: «إنّ أهل الرها كباراً وصغاراً حتى الرهبان أيضاً تسارعوا إلى أسوار المدينة للذبّ عنها. وكانت النساء يحملن إلى المحاربين الحجارة والماء والزاد، وعرض زنكي عليهم عند ثقب الأسوار والأبراج أن يستسلموا إليه فأبوا معلّين نفوسهم بوصول جوسلين وملك أورشليم إليهم. وكان في أسفل بعض الأبراج أخشاب ألقى زنكي النار فيها فتداعت فتسارع الناس إلى ذاك المحلّ ليمنعوا دخول الأعداء منه وخلت الأسوار من عددٍ كافٍ لصدّ المهاجمين فنقب جنود زنكي السور ودخلوا المدينة فانهزم سكانها إلى القلعة فلم يفتح لهم الفرنج حراسها الأبواب إلى أن يرجع رئيسهم الذي كان قد سار للذبّ عن المدينة، ولما عاد ازدحم الناس في الباب حتى هلك منهم خلق كثير وأصيب الرئيس بسهم فمات. وبعد أن استحوذ زنكي على المدينة والقلعة أمر جنوده أن يغمدوا سيوفهم وسمح لبعض السريان والأرمن أن يعودوا إلى السكنى بالرّها. وأطلق الناس والأولاد. ولما قتل زنكي سنة ١١٤٧م عند حصاره حصن جعبر أغرى جوسلين سكانها النصارى بأن يسلموها إليه فدخل إليها وملكها وحاصر قلعتها فدهمه نور الدين بن زنكي من حلب في عسكر جرّار وأرغمه على ترك الرها ونهب المدينة

وأسر أهلها وانهزم بعضهم إلى أماكن أخرى. وأما جوسلين فقبض عليه نور الدين بحيلة وسجنه بحلب حيث توفي سنة ١١٤٩م وبذل عمانويل كومنانس ملك الروم مالاً جزيلاً لأرملة جوسلين فتخلّت له عن طوربال وغيرها من المدن التي بقيت لها على عدوة الفرات. ورأى ملك أورشليم أن لا طاقة له على حفظ كونتية الرها فارتضى بتركها للملك الروم وأحضر أرملة جوسلين إلى أنطاكية مع أسرات الفرنج التي كانت في الرها. على أنّ ملك الروم لم يستطع أيضاً أن يبقى لنفسه على الرها وهي في وسط أملاك المسلمين فأُمسّت فريسة لنور الدين ابن زنكي وقد عادت إلى ملك الولاة المسلمين بعد أن ملكها الإفرنج نحواً من نصف قرن».

عد ٨٢٨

حملة الصليبيين الثانية على سورية

في سنة ١١٤٥م سار أسقف جبلة إلى البابا أوجانيوس الثالث وهو في فيتربو بإيطاليا يلتمس المساعدة لكنيسة المشرق، وكان يروي أخبار أخذ المسلمين مدينة الرها وتنفجر من عينيه ينابيع الدموع، فأنفذ البابا أوجانيوس الثالث رسالة إلى لويس السابع ملك فرنسا يحضّنه بها على إمداد الإفرنج الذين بسورية. ومما قاله في هذه الرسالة: «لا نستطيع أن نقول دون أسفٍ شديد وذرف الدموع السخينة إنّ مدينة الرها وقعت في يد الأعداء هي وغيرها من المدن وإنّ رئيس أساقفة الرها قتل وأتبعوا به إكليرسه كلّه وذخائر القديسين أهينت ودنّست والخطر يحفّ بكنيسة الله في المشرق». فعزم الملك لويس أن يسير إلى المشرق وكاشف بقصده بعض الولاة والأعيان فأشاروا عليه أن يستدعي القديس بربردس ويستشيريه فأجابه القديس أنه لا يجوز بشيء قبل أمر البابا له. ولما حثّه الحبر الروماني على أن يخطب مبيّناً لزوم إنجاد الإفرنج في الأساكن المقدسة اندفع يخطب وصنع الله آيات كثيرة على يده وأكثر من الرسائل إلى أنحاء كثيرة فتألبت جموع وافرة العدد وفي رأسها الملك لويس السابع ومعه كثيرون من ولاة فرنسا وأعيانها، وكونراد ملك المانيا ومعه كثيرون من ولاة مملكته وأعيانها. ولما بلغ الملكان في جيشهما إلى أرض مملكة الروم أكثر الملك من بعث الوفود للتعاهم، وكان هؤلاء

الوفود يغالون في إطرائهم للملكين حتى كان كل سامع من الإفرنج يشمئز من هذا الغلو ويملّ من سماعه. وقد روى أوردون دي دويل الذي كان مرافقاً للملك لويس وكتب تاريخ رحلته هذه أنّ غودفروا أسقف لانكر الذي كان في معية الملك احتدم من كثرة التعظيم للملك بخطب وفود ملك الروم فقاطعهم الحديث قائلاً: حسبكم اخواني ما جئتم به تكراراً في مجد الملك وعظمته وحكمته وورعه، فهو عالم بنفسه ونحن عالمون به، فقالوا الآن سريعاً ما تريدون. وكان ملك الروم يخشى أن يثل الملكان عرشه، فأراد أن يلتقيهما بالترحاب والتجلة، ويضمر لهما الخديعة والمكر مقتدياً بجده ألكسيس كومنانس وأبيه يوحنا. وقد روى نيقيطا المؤرخ اليوناني (في كتاب تاريخه السنوي ك ١ من مجموعة التاريخ البيزنطي الذي طبع في البندقية) أخبار معاملة الروم للملكين لويس وكونراد. منها أنّ الملك كونراد مرض أحد أنسابه عند مروره بأدرنة فتركه بها فدخل بعض جنود الروم إلى مخدعه فأحرقوه فعاد ابن أخي الملك فأحرق الدير الذي حرق به نسيبه وجزى المجرمين بما جنت أيديهم. وكان الروم يكمنون للإفرنج في طرقهم ويغتالون من تخلف منهم. ولما كان الإفرنج يأتون المدن ليمتاروا طعاماً كان الروم يوصدون الأبواب وكانوا يدلون من أعلى الأسوار حبالاً فيأخذون ما يتطلبون من الثمن ثم يعطونهم ما يحسن لهم من الخبز أو الطعام وكانوا أحياناً يأخذون الثمن ويغيبون عن الأسوار دون أن يعطوهم شيئاً، ويخلطون الدقيق أحياناً بكلس فيؤذي آكليهم. ولا أعلم إن كان ذلك كله بعلم الملك، والذي أعلمه علم اليقين أنّ الملك سكّ نقوداً مزيفة ليعطاها الفرنج إذا باعوا شيئاً. كل هذا من كلام نيقيطا المذكور.

ولما بلغ ملك فرنسة إلى قسطنطينية خرج للقائه جميع الشرفاء من الإكليروس والشعب وسألوه متدللين أن يتعطف ويزور الملك فهو واجد لرؤيته. فسار بعدة قليلة من حاشيته فلاقاه الملك بنفسه وعانقه ثم دخلا القصر فجلسا على كرسيين لا يمتاز أحدهما عن الآخر. وأكثر ملك الروم من الملاطفة والمجاملة والوعود وليتها صادقة، ثم سار ملك فرنسة ومعه أشراف المملكة إلى القصر المعدّ له. وكان ملك الروم يأدب المآدب الفاخرة له ويصحبه لزيارة كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من غرائب القسطنطينية. وأما كونراد ملك المانيا فلم يشأ أن يحلّ في قسطنطينية واقتصر أن يقابل عمانويل ملك الروم وكلّ منهما على جواده مع النسابة بينهما، لأنّ عمانويل

كان متزوّجاً بأخت زوجة كونراد. وسار كونراد في طريق الأناضول قبل ملك
فرنسة وأصبحه ملك الروم بكتائب من جيشه ليهدهم الطريق، والأولى أن يقال
ليضلّوهم الطريق ويغدرُوا بهم. ولما بلغوا إلى بلاد المسلمين أعلم هؤلاء الخونة قادة
الألمان أن يعدّوا زاداً يكفيهم بعض أيام لأنهم سوف يعبرون بركة قاحلة ليأخذوهم
في طريق أقرب إلى قونية المدينة النضرة الفاخرة، واقتادوهم في طرق وعرة خشنة.
ولما لم يبلغوا غاية سفرهم بعد أيام عتبهم الملك كونراد ولامهم فتركوا المعسكر ليلاً
ولم يبق من يهديهم السبيل فتوغّلوا في بلاد صعبة المسالك وليس من يهديهم إلى
طريق للخروج منها.

وروى كثيرون من المؤرخين منهم ابن العبري: أنّ الملك عمانويل أخبر سلطان
قونية بمسير الفرنج وحسن لهم اغتيالهم، فجمع السلطان جموعاً ودهم الألمانين من
كل جهة وهم تائهون، تعبون، لا زاد معهم ولا علف لحيلهم، فرجعوا القهقري،
فتتبّعهم الأتراك يقتلون من تخلف عنهم أو عجز عن لحاقهم، واقتحم بعض
شجعانهم الخطر مدافعين عن الضعفاء، ودخلوا في مضيق، فاكتنفهم الأتراك،
وفتكوا بأولئك الشجعان ومن تصدّوا للدفاع عنهم، وأصاب كونراد نفسه سهمان
وهو بين فرسانه، وظلّ القتلى والجرحى والمرضى على قارعة الطريق. وكان جيش
المحاربين من الألمانين نحو سبعين ألفاً عدا من اتّبّعهم، فلم ينج منهم إلا عشرهم،
وانهزم الملك كونراد وعاد إلى نيقية فالتقى هناك بلويس ملك فرنسة، فعانق أحدهما
الآخر وبكيا، وقصّ كونراد ما جرى له متحجّاً، ورافق ملك فرنسة إلى افسس،
وعاد إلى قسطنطينية يقيم فيها فصل الشتاء.

وأما ملك فرنسة وجيشه فساروا في طريق افسس، وكانت بينهم وبين الأتراك
مناوشات ظهوروا بها عليهم إلى أن انتهوا إلى طريق حجر معلق بين مهاوٍ من جهة
وصخور متراكمة من أخرى. وكان الجيش الإفرنجي مقسوماً إلى مقدمة وقلب
وساقة، وكانت الملكة اليونورا في مقدمة الجيش فلم تشأ أن تنظر باقية، ولما
تملّصت من ذاك المضيق رأت سهلاً رحباً أسرع إليه في من معها لتخيم به،
فوثب الأتراك على قلب الجيش حيث كان الضعفاء والأعزال وجهاز العسكر،
وأعملوا سيوفهم بأولئك الضعفاء. وكان الملك في ساقة الجيش، وسمع الصراخ
فأسرع بفرسانه وألحم القتال مع الأتراك فنجا من بقي من قلب الجيش، واستمرّ
الملك والأعداء مشتبكين بالقتال إلى أن أخذ الملك بأغصان شجرة من على جواده،

ورمى بنفسه على صخر، وكان يرّد النبال المرشوقة عن بعد بترسه وسيفه عامل بمن دنا منه، فأثقتته شجاعته وظلام الليل ولحق عسكره وهم سيكون عليه. ثم ساروا نحو سائالية وهي أضاالية، فكانت مناوشات بينهم وبين أعدائهم كان الظفر للفرنسيس بها، ولكن أخرب الأعداء القرى في طريقهم فأصابتهم مجاعة ذبحوا فيها خيولهم واغتذوا بلحمها، وانتهوا بعد مسيرة اثني عشر يوماً إلى أضاالية وكان سكانها من الروم وهي من أملاك ملكهم، فأغلقوا أبواب المدينة، ومنعوا الفرنج من الدخول إليها. فكثرت التذمر بينهم لأنهم لم يتولوا قسطنطينية عند مرورهم بها كما كان رأي بعضهم وهموا أن يأخذوا أضاالية فأتى واليها يعرض على الملك أنه يقدم لهم سفناً يسيرون بها إلى انطاكية فقبل الملك ما عرضه الوالي. ولكن مرّت خمس أسابيع ولم يحضر السفن وأخيراً أحضر منها ما لا يكفي لشحن العسكر كلّه. فسار الملك وجماعته بهذه السفن، وترك الملك للوالي مبلغاً عظيماً من المال ليصرفه على المرضى وتسيير جند يصحبون الإفرنسيين إلى أن يعبروا كيليكية، على أنه في غداة سفر الملك رأى الفرنج الأتراك مقبلين إليهم عوضاً عن الجنود الذين وعد الوالي أن يسيّرهم ليهدوا الفرنج الطريق ويؤمنوهم به. فدافع الفرنج عن نفوسهم مدافعة الأبطال أياماً، ولكن أنهكهم التعب والجوع فسألوا الوالي أن يسمح لهم بالدخول إلى المدينة فأبى وانهزم بعض رؤسائهم. والله يعلم كم قتل منهم وهرب وبقي منهم تائهين في كيليكية.

وأما الملك ومن سار معه إلى انطاكية فلما وصلوا إليها نسوا ما أصابهم ولم يبالوا بمن خلفهم في أضاالية وعكفوا على الحفلات والملاهي، وكانت الملكة اليونورا علة ذلك، فهي كانت بنت أخي ريموند دي بواتيا أمير انطاكية ومحبة للقصف واللهو وغير راسخة في الأدب، وكان ريموند عمّها يريد بقاء الملك في انطاكية ليساعده على فتح حلب، فأجابه الملك أنه يحبّ قبل كل شيء أن يبلغ أورشليم ليفي نذره بالحجّ إليها، فتغيّر ريموند وجاهر بمقاومة الملك حتى همّ أن يفصل الملكة ابنة أخيه عن زوجها، ودرى الملك بذلك فأسرع بالخروج من انطاكية. وكان ملك أورشليم وأعيانها يخشون طول إقامة الملك بانطاكية فأرسلوا يسألونه أن يعجل مسيره إليهم، فعبر الملك سورية وفينيقيا ولم يجب إلى سؤال كونت طرابلس أن يمكث مدة عنده ليعاونه على توسيع تخوم ولايته. ولما انتهى الملك إلى أورشليم خرج لملتقاه الأمراء والشعب والإكليروس حاملين سعف النخل والزيتون محيئين الملك بالتسايح

التي حَيَّي بها المختلص، وطابت القلوب بقدومه وانتعش بهم الرجاء والأمل. ثم بلغ إلى هناك كوزناد ملك المانيا متنكراً مع جماعته بهيئة حجاج. وبعد أن أتمَّ الملكان زيارتهما عقد اجتماع في عكا شهده الملكان وملك أورشليم وكثيرون من الأساقفة والأمراء والأعيان. واتفق رأيهم في هذا الاجتماع أن يحاصروا دمشق، وعيّن موعداً لذلك اليوم الخامس والعشرين من أيار سنة ١١٤٨م في طبرية (ملخص عن كثيرين من المؤرخين ولاسيما غوليلمس الصوري في تاريخ الحرب).

عد ٨٢٩

حصار دمشق

عزا المؤرخون المسلمون حصار دمشق إلى ملك الألمان فقالوا ما ملخصه في سنة ٥٤٣هـ (سنة ١١٤٨م أو سنة ١١٤٩): «سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير وجمع عظيم من الفرنج. فلما وصل إلى الشام قصده من بها من الفرنج وخدموه وامتثلوا أمره فأمرهم بالمسير معه إلى دمشق ليحصرها ويملكها، فساروا معه وحاصروها، وكان صاحبها مجير الدين ابق بن محمد بن نوري بن طغتكين، وليس له من الأمر شيء، وإنما الحكم لمعين الدين انز مملوك جده طغتكين، فجمع العساكر وحفظ البلد وأقام الفرنج يحاصرونه، ثم زحفوا بفارسهم وراجلهم فخرج إليهم أهل البلد والعسكر فقاتلوهم وصبروا لهم وقوي الفرنج وضعف المسلمون، فتقدم ملك الألمان حتى نزل بالميدان الأخضر فأيقن الناس بأنه يملك البلدة. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين غازي بن زنكي يدعوه إلى نصرة المسلمين وكفّ العدو، فجمع عساكره وسار إلى الشام واستصحب معه أخاه نور الدين محموداً من حلب، فنزلوا في حمص وأرسل إلى الفرنج يهددهم إن لم يرحلوا عن دمشق، فكفّ الفرنج عن القتال فقوي أهل البلد على حفظه واستراحوا من ملازمة الحرب، وأرسل معين الدين إلى الفرنج الغرباء يهددهم بحضور سيف الدين وإلى فرنج الشام يقول بأيّ عقل تساعدون هؤلاء علينا، وإن ملكوا دمشق أخذوا ما ييدكم من البلاد؟ وأما أنا فإن رأيت ضعفي عن حفظ دمشق سلّمتهما إلى سيف الدين، وأنّ ملك الشام فلا يبقى لكم معه مقام. فأجابوه إلى التخلّي عن ملك الألمان، وبذل لهم حصن بانياس، وحسنوا لملك الألمان ترك دمشق. فرحل عنها

وعاد إلى بلاده. هذا ما قاله المؤرخون المسلمون وهم غير عالمين بدخلة الفرنج. وأما المؤرخون الفرنج فقالوا: «إن عساكرهم قصدت دمشق وحاصرتها وإن ملك أورشليم كان في طلائع الجيش ومن خلفه نصارى المشرق ومن بعدهم عسكر لويس ملك فرنسة. وأما ملك ألمانيا فكان في مَنْ جمعهم من عسكره في ساقه الجيش ليحفظ المحاربين من وثوب عدو من وراء. وصبر المسلمون على القتال ببسالة عند عدوة النهر الذي يخترق البساتين. ولما رأى كونراد ملك الألمان ذلك أسرع بفريق من رجاله إلى مقدّمة الجيش وانقضّ على المسلمين كصاعقة فوثب عليه رجل من المسلمين طويل القامة شديد البأس فعاجله ملك الألمان بضربة سيف بين العنق والكتف فشقه نصفين، فارتاع المسلمون وانهزموا إلى المدينة وبقي الإفرنج مالكين عدوة النهر وأيقن سكان دمشق بعجزهم عن الدفاع وهمّوا أن يخلوا المدينة، وألقوا على أبواب المدينة ومداخل الإفرنج حجارة ضخمة ليتيسّر لهم الفرار بعيالهم وأموالهم قبل أن يدركهم الفرنج.

وتيقّن الإفرنج امتلاك المدينة ولم يبقَ لهم لرؤسائهم إلا بأن يعرفوا لمن تكون الولاية على دمشق بعد فتحها. ورجح كونت فلاندر على مزاحميه فأخذت الغيرة أشراف الفرنج في سورية من تفضيله عليهم، وأخذ بعضهم يعاملون على حبط مسعاهم وأشاروا على رؤساء الجيش أن يتركوا موقفهم في البساتين ويرتحلوا إلى جهة أخرى قاحلة والأسوار تجاهها منيعة. وورد الخبر بأن أمير حلب والموصل قادمان بجيش جرّار، وتجنّد عشرون ألف من المسلمين وطلبوا المصاف. فلم يخجل الفرنج وملك فرنسة وألمانيا أن يرحلوا عن دمشق إلى فلسطين وهناك تحادّثوا بأن يحاصروا عسقلان فلم يتفق رأيهم على شيء وعاد ملك ألمانيا إلى بلاده خجلاً أسفاً. وبقي ملك فرنسة في أورشليم إلى عيد الفصح سنة ١١٤٩م ثم عاد إلى فرنسة دون أن يصنع شيئاً يذكر. فلم تكن نتيجة صالحة من هذه الحملة بل كان منها اشتداد الضغينة بين ملوك الفرنج وملك الروم وزيادة قوة المسلمين وجرأتهم وذلك النصارى ووهن قوتهم؛ وعلة كل ذلك الحسد والطمع واختلاف الآراء الناشء عن ذلك الحسد. وقد تعرّى وتأسى القديس برنردوس الذي دعا الناس إلى هذه الحملة وغيره من المتورّعين بأن مَنْ توفّوا من أهل هذه الحملة ماتوا في سبيل الله وكفروا عن آثامهم وآثام غيرهم.

أخذ الفرنج مدينة عسقلان

كانت مدينة عسقلان قد استمرت كل هذه المدات تحت ولاية الخلفاء العلويين بمصر وكان بقاؤها كذلك وبالأعلى الفرنج وعلى ملك أورشليم خاصة إذ لم يكن حاجز يصدّ المصريين عن مهاجمة مملكة أورشليم في طريق عسقلان بل كانوا كل ما شاؤوا يرسلون عسكرياً إلى عسقلان فينكّل بالفرنج، وقد قصدوا الفرنج مرات فلم يتيسّر لهم فتحها إلى أن استغنموا فرصة الخلاف بين الوزراء في مصر وشتوا الغارة عليها فملكوها، وقد روى ذلك ابن الأثير في الكامل فقال في تاريخ سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م: «في هذه السنة ملك الفرنج بالشام مدينة عسقلان وكانت من جملة مملكة الظاهر بالله العلوي المصري وكان الفرنج كل سنة يقصدونها ويحصرونها فلا يجدون إلى ملكها سبيلاً. وكان للوزراء بمصر الحكم في هذه البلاد والخلفاء معهم اسم لا معنى تحته، وكان الوزراء يرسلون إليها كل سنة من الذخائر والأسلحة والأموال والرجال من يقوم بحفظها. فلما كان في هذه السنة أن قتل ابن السلار الوزير واختلفت الأهواء في مصر وولي عباس الوزارة اغتنم الفرنج اشتغالهم عن عسقلان فاجتمعوا وحاصروها فحصر أهلها وقتلواهم قتلاً شديداً وردّوا بعض الفرنج إلى خيامهم مقهورين، وتبعهم أهل البلد إليها فأيس الفرنج من فتح المدينة. فبينما هم على عزم الرحيل إذ قد أتاهم الخبر أنّ البلد قد وقع بين أهله خلاف لادّعاء كل طائفة منهم أنّ النصر كانت من جهتهم، وعظم الخلاف حتى قتل من الفريقين قتلى فطمع الفرنج وعادوا إلى حصار المدينة ولم يجدوا من يمنعه فملكوها».

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك إنّ عسقلان كانت باباً للملك مصر يدخلون منه كلما شاؤوا إلى مملكة أورشليم برّاً وبحراً. وكان هؤلاء الملوك يرسلون كل سنة إليها أموالاً وأسلحة ويدفعون أرزاقاً لكثيرين من أهلها، فهم بودوين بأن يريح نفسه ومملكته من شرّ أهل هذه المدينة ويفتح بأخذها سبيلاً إلى مصر فحصّن قلعة غزة التي كانت خربة ومهملة وعهد بحراستها إلى فرسان الهيكل (وهم جماعة تألبوا في ذلك العصر). وكانت غزة بين عسقلان ومصر وبها محطّ نجّادات ملوك مصر لعسقلان فحاول المصريون أن يملكوا تلك القلعة فلم يتيسّر لهم أخذها ولم يبق لهم

سبيل إلى شقّ الغارات على بلاد الفرنج أو إلى إنجاد عسقلان إلا بالبحر. وفي سنة ١١٥٢م أتى كثيرون من الأمراء الذين يدعون حقّ الولاية على أورشليم في جمع كبير وختّموا في جبل الزيتون فخرج النصارى إليهم وظهروا عليهم وتبعوا آثارهم إلى الأردن، وعاونهم الفرنج من نابلس وغيرها فقتلوا كثيرين وعادوا إلى أورشليم غائمين شاكرين لله، وحملهم هذا الظفر أن يسيروا إلى ضواحي عسقلان وجنّاتها فارتاع منهم أهل عسقلان وهربوا إلى المدينة فعزم الفرنج أن يحاصروها. ودعا الملك بودوين أكابر الفرنج والفرسان وأساقفة اليهودية وفينيقيا فساروا وبطريك أورشليم يحمل أمامهم خشبة الصليب، وحاصروا المدينة برأ وبحراً وكان لجيرار كونت صيدا إمرة أسطول مؤلف من خمس عشرة سفينة، واستمرّ الحصار شهرين وقدم نحو الفصح جمع من الحجاج فحلّ في عكا ويافا فاستنجدهم الملك فأسرعوا إلى معسكر النصارى وانضمّ بعضهم إلى جنود جيرار في الأسطول، فشدّوا الحصار على عسقلان وأتتها نجدة في البحر من مصر فلم توهن عزم الفرنج بل ازدادوا حميّة ونخوة وصنعوا برجاً من خشب أعلى من الأسوار، فألقى العسقلانيون ليلاً بين البرج والسور كثيراً من المواد المحرقة فألهبوها، فهبّ هواء حول اللهب نحو المدينة حتى أصبحت حجارة السور كلساً، فسقط بعض السور وتسارع فرسان الهيكل ودخلوا المدينة وأقاموا خفراً على الثلثة في السور كيلا يدخل غيرهم فيشاطرهم الغنيمة والفخر. ولما رأى حامية المدينة وأهلها عدد الداخلين قليلاً وقد اشتغلوا بالنهب عن القتال وثبوا بهم فقتلوا منهم وهزموا باقيهم وسدوا الثلثة، فاستولى الكدر والأسف على الفرنج وعادوا إلى معسكرهم. واستدعى الملك والأعيان والأساقفة للمشاورة فرأى بعضهم الرحيل عن الحصار، ورأى غيرهم العود إليه فعادوا في الغداة إلى الحصار واستمرّ القتال النهار كله وكثر القتلى في الفريقين فطلب العسقلانيون هدنة لدفن موتاهم ثم طلبوا الصلح على شريطة أن تفتح لهم أبواب المدينة ويباح لهم الخروج منها وإخراج أموالهم وأثقالهم مدة ثلاثة أيام، فقبل الملك شرطهم وعمل به فخرجوا وأصبحهم الملك بمن يخفرهم إلى تخوم مصر. ودخل في ١٢ آب سنة ١١٥٤ الملك والبطريك والأساقفة وأعيان الفرنج وعسكرهم إلى عسقلان (ملخص عن تاريخ غوليلمس الصوري لهذه الحرب).

ذكر غير ذلك من الحوادث في أيام بودوين الثالث

مما ذكره المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥٤٤ هـ سنة ١١٥٠ م أنّ نور الدين محمود بن زنكي غزا بلاد الفرنج من جهة انطاكية وقصد حصن حارم وهو للفرنج، فجمع البرنس صاحب انطاكية الفرنج وسار إلى نور الدين فاقتتلوا فانتصر نور الدين وقتل البرنس وانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم . وملك بعد البرنس ابنه ييموند وهو طفل وتزوجت أمه برجل آخر وتسمى البرنس . ثم أنّ نور الدين غزاهم غزوة أخرى فهزمهم وقتل فيهم وأسر ييموند وكان من أسر البرنس الثاني زوج أم ييموند فتمكن حينئذ ييموند في ملك انطاكية .

ومما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك إنّ ريموند دي بواتيا أمير أنطاكية هاجم نور الدين بن زنكي على غير روية لأنّ الشجاعة به كانت تتصل إلى الجسارة والتهور وأصلى الحرب وليس معه إلا قليل من الفرسان ينتظر وصول باقي العسكر، فقتل في هذه الحرب وترك أرملة وابنين وبنتين، فعني ايميريكس بطريك انطاكية اللاتيني بالذبّ عن البلاد وأتى ملك أورشليم لنجدة أهل انطاكية، وأوقف تمادي نور الدين وسلطان قونية السلجوقي عن مدّ سلطتها في بلاد الفرنج .

ومما رواه المؤرخون المسلمون في تاريخ سنة ٥٤٩ هـ سنة ١١٥٥ م أنّ نور الدين محمود بن زنكي أخذ دمشق من صاحبها حينئذ مجير الدين انز بن محمد بن نوري بن طغتكين، وكان سبب حرصه على ملكها أنّ الفرنج لما ملكوا عسقلان في السنة السالفة لم يكن لنور الدين طريق لإزاحتهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان، وقويت شوكة الفرنج بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية من النصارى بدمشق . فمن أراد المقام بها تركوه ومن أراد العود إلى وطنه أخذوه قهراً شاء صاحبه أم أبى، وكان لهم على أهلها كل سنة قطيعة يأخذونها منهم فكان رسلهم يدخلون البلد ويأخذونها منهم . فلما رأى نور الدين ذلك خاف بأن يملكها الفرنج فلا يبقى للمسلمين بالشام مقام فراسل نور الدين مجير الدين واستماله وواصله بالهدايا وأظهر له المودة حتى وثق إليه، وكاتب من بها من الأحداث واستمالهم فوعده أن يسلموا المدينة إليه . وسار نور الدين إلى دمشق، فأرسل مجير الدين إلى الفرنج يبذل لهم الأموال، وتسليم قلعة بعلبك إليهم لينجدوه

وُيرحلوا نور الدين عنه، فشرعوا في جمع فارسهم وراجلهم ليرحلوا نور الدين عن دمشق. فقبل أن يجتمع لهم ما يريدون تسلّم نور الدين البلد فعادوا بخفي حنين، لأنه لما حاصر نور الدين دمشق ثار الأحداث الذين راسلهم وسلّموا البلد إليه، ودخل من الباب الشرقي وحصر مجير الدين في القلعة وراسله في تسليمها وبذل له أقطاعاً في جملته مدينة حمص، فسَلّم القلعة إليه وسارا إلى حمص فأعطاه عوض حمص بالس فلم يرضها مجير الدين، وسار عنها إلى العراق وأقام ببغداد وابتنى بها داراً (عن الكامل لابن الأثير).

وفي سنة ٥٥٢هـ وهي سنة ١١٥٨م كان بسورية زلازل كثيرة شديدة خربت كثيراً من البلاد وهلك فيها ما لا يحصى فخرّب منها بالمرّة حماة وبيروت وكفرطاب والمعرّة وافاميا وحمص وحصن الأكراد وعرقا واللاذقية وطرابلس وانطاكية، وخربت أماكن كثيرة في باقي البلاد وتهدّمت أسوار وقلاع. ومما حكاه ابن الأثير في وصف هذا الخراب قوله كان بمدينة حماة معلم للأولاد وذكر أنه فارق المكتب وجاءت الزلزلة فخرّب البلد وسقط المكتب على الصبيان جميعهم فلم يأت أحد يسأل عن صبي كان له في المكتب.

وفي سنة ١١٦٢م سار بودوين الثالث ملك أورشليم إلى جهات انطاكية فأصابته حتّى شديدة فحملوه إلى طرابلس ثم إلى بيروت فتوفي بها في ١٣ من شهر شباط وأخذت جثته إلى أورشليم فدفنت في مدفن أسلافه الملوك وحزن عليه الفرنج كثيراً لأنه كان عادلاً حليماً شجاعاً صبوراً على الأتعاب، ورعاً مكرماً لخدمة الدين محباً لمناذمتهم، ولم يكن له ولد فخلفه أخوه أموري.

عد ٨٣٢

اموري الاول وما كان في ايامه

بعد وفاة بودوين الثاني اختير للملك في أورشليم أخوه أموري ويسمى الماريك أيضاً، وتوّج في ١٨ من شهر شباط سنة ١١٦٢. وقد أثنى غويلمس أسقف صور في تاريخه على كثير من مناقبه وفضائله ولم يغض على ذكر بعض معائبه ونقائصه. ومن الأحداث في أيامه أنه في سنة ٥٥٨هـ وهي سنة ١١٦٤م قصد نور

الدين بن زنكي طرابلس ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد فكبسه الفرنج فانهزم منهم إلى بحيرة حمص وتلاحق به مَنْ سلم من المسلمين، وكان هرب إليه شاور وزير العاضد لدين الله الخليفة العلوي واستنجده ليعود إلى وزارته، وبذل لنور الدين ثلث أموال مصر بعد رزق جندها إن أعاده إلى الوزارة، فأرسل نور الدين شيركوه بن شاذي أحد أمرائه ومعه عسكر من سورية وشاور المذكور إلى الديار المصرية فقتلوا ضرغام الذي كان قد تغلب على الوزارة بمصر بعد انهزام شاور، وأعادوا شاور إلى الوزارة. ثم غدر شاور بنور الدين ولم يَفِ له بشيء مما وعد، فأعاد شيركوه إلى مصر واستولى على بلبس والمشرقية فاستنجد شاور بملك الإفرنج على إخراج شيركوه من البلاد، فأرسل الملك أموري عسكراً من الفرنج إلى مصر واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه بلبس ودام الحصار ثلاثة أشهر. وحاصر نور الدين حارم وهي بيد الفرنج، وأخذ وقتل وأسر من الفرنج وكان في جملة الأسرى البرنس صاحب انطاكية والكونت صاحب طرابلس. ولما بلغت هذه الأخبار الفرنج وهم محاصرون بلبس راسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبس بمن معه وعادوا إلى سورية. ورجع الفرنج أيضاً ثم سار نور الدين إلى بانياس وفتحها وكانت بيد الفرنج من سنة ١١٤٩م إلى هذه السنة. وفي سنة ١١٦٦م فتح نور الدين حصن المنيطرة من الشام وكان بيد الفرنج. وفي سنة ١١٦٨م جهّز نور الدين عسكره وسيّره إلى مصر مع شيركوه فاستولى على بعض أعمالها وأرسل شاور المذكور يستنجد الفرنج فساروا في أثر شيركوه إلى جهة الصعيد والتقوا على بلد يسمّى إيوان فانهزم الفرنج والمصريون، واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلّها ثم سار إلى الإسكندرية وملكها وجعل فيها ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب. وعاد شيركوه إلى جهة الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالإسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه إليهم فاتفقوا على مال يحملونه إلى شيركوه ويسلم إليهم الإسكندرية ويعود إلى الشام. فتسلم المصريون الإسكندرية وعاد شيركوه بابن أخيه صلاح الدين المذكور وعسكره، واستقرّ الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار. وفي السنة المذكورة فتح نور الدين صافيتا والمغربية ويروى العربية.

وفي سنة ١١٦٩م سار شيركوه بعسكر إلى مصر وسبب ذلك تمكّن الفرنج من

البلاد المصرية وتحكّمهم على المسلمين بها حتى ملكوا بليبس قهراً ونهبوها وقتلوا أهلها وأسروهم ونزلوا على القاهرة وحاصروها، فأحرق شاور مدينة مصر القديمة خوفاً من أن يملكها الفرنج، وأمر أهلها بالانتقال إلى القاهرة فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوماً، فأرسل العاضد الخليفة الأموي إلى نور الدين يستغيث به وصانع شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها إليهم، وحمل إليهم مائة ألف دينار، وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال، فرحلوا وجّهز نور الدين العسكر مع شيركوه وأنفق فيهم المال وأعطى شيركوه ألف دينار سوى الثياب والدواب والأسلحة وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على كره منه. أحبّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعاده وملكه. «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم». ولما قرب شيركوه من مصر رحل الفرنج إلى بلادهم واجتمع شيركوه بالعاضد الخليفة فخلع عليه وأجرى عليه وعلى عسكره الإقامة الوافرة. وشرع شاور يماطل شيركوه في إنجاز ما وعد من المال لنور الدين وإفراد ثلث البلاد له. وعزم شاور على أن يعمل دعوة لشيركوه وأمراء عسكره ويقبض عليهم فمنعه ابنه الكامل من ذلك وعزم عسكر نور الدين على الفتك بشاور واتفق على ذلك صلاح الدين وغيره من الأمراء فنهاهم عن ذلك شيركوه واتفق أنّ شاور قصد شيركوه ليزوره على عادته فلم يجده بل لقي صلاح الدين فوثب صلاح الدين ومنّ معه على شاور وألقوه إلى الأرض عن فرسه وأمسكوه وهرب أصحابه. وسمع العاضد الخليفة بذلك فأرسل يطلب من شيركوه إنقاذ رأس شاور فقتله وأرسل رأسه إلى العاضد. ودخل شيركوه بعد ذلك القصر فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقّبهُ الملك المنصور أمير الجيوش وقتل شيركوه بعد ذلك الكامل بن شاور واستتب له الأمر.

على أنّ شيركوه لم يَلِ الوزارة إلا شهرين وخمسة أيام وأتاه أجله فأحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة وسماه الملك الناصر، وثبّت قدم صلاح الدين على أنه نائب لنور الدين، وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أباه أيوب وأهله فأرسلهم نور الدين إليه وأعطاهم صلاح الدين الإقطاعات بمصر، وتمكّن بالبلاد وضعف أمر الخليفة العاضد. وفي سنة ١١٧٠م سار الفرنج إلى دمياط وحاصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وخرج نور الدين وغار

على بلاد الفرنج فاضطروا أن يرجعوا على أعقابهم ولم يظفروا بشيء. وفي سنة ١١٧٢م أمر نور الدين صلاح الدين أن يقطع الخطبة العلوية ويخطب للخليفة العباسي فقطعها صلاح الدين وخطبوا للمستضيء بالله العباسي، ثم توفي العاضد العلوي فاستولى صلاح الدين يوسف بن أيوب على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه ونقل أهل العاضد إلى موضع من القصر وأخرج جميع من فيه من عبد وأمة فانقرضت بالعاضد دولة العلويين الفاطميين بعد أن قام منهم أربعة عشر خليفة، وكان ابتداء خلافتهم سنة ٢٩٦هـ سنة ٩٠٩م إلى أن انقرضت دولتهم سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧٢م فمدة خلافتهم ٢٧١ قمرية و ٢٦٣ شمسية. وسبحان من لا يتغير ولا يزول.

أما صلاح الدين الأيوبي فالأظهر والأصح ما قاله فيه المؤرخون المسلمون. قال ابن الأثير إنّ شيركوه وأيوب ابني شاذي أصلهما من الأكراد الروادية وقصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد، وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظاً لقلعة تكريت. ولما انكسر عماد الدين زنكي خدمه أيوب وشيركوه فأحسن إليهما وأعطاهما إقطاعات جليّة. ولما ملك زنكي قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظاً لها، ولما حاصره عسكر دمشق بعد موت زنكي سلّم القلعة إليهم على إقطاع كبير شرطوه له، وبقي أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق وبقي شيركوه مع نور الدين بن زنكي وأرسله إلى مصر مرات إلى أن تسلّم وزارتها، وكان ابن أخيه صلاح الدين بن أيوب معه ثم خلفه بعد موته كما رأيت.

وبعد خلافة صلاح الدين لعمّه شيركوه وموت العاضد وقطع الخطبة للعلويين والخطبة للمستضيء من العباسيين وإرسال الخليفة العباسي الخلع لصلاح الدين والأعلام السوداء شعار العباسيين، أظهر صلاح الدين الامتثال لنور الدين وأنه يلي مصر من قبله، ولكن وقعت بينهما وحشة باطنة، فإنّ صلاح الدين ساعد ونازل الشويك وهي للفرنج، ثم رحل عنها خوفاً من أن يأخذها فلا يبقى ما يعوق نور الدين عن قصد مصر وبلغ ذلك نور الدين فكتمه وتوخّش باطنه لصلاح الدين وجمع صلاح الدين أقاربه وكبراء دولته وقال بلغني أنّ نور الدين يقصدنا فما الرأي؟ فقال عمر ابن أخيه نقاتله ونقصده. فأنكر أيوب أبوه ذلك وقال أنا أبوكم لو رأيت نور الدين نزلت وقبّلت الأرض بين يديه، بل أكتب إلى نور الدين لو

جاءني من عندك إنسان واحد وربط المنديل في عنقي وجرّني إليك سارعت إلى ذلك. وأخذ صلاح الدين خلوة وقال له لو قصدنا نور الدين أنا كنت أول مَنْ يمنعه، ولكن إذا أظهرنا نحن كذلك يترك نور الدين جميع ما هو فيه ويقصدنا ولا ندري ما تكون العاقبة، وإذا أظهرنا له الطاعة تمدد الوقت بما يحصل ما به الكفاية عند الله فكان كما قال أيوب.

وفي سنة ٥٦٨ هـ سنة ١١٧٣ م سار صلاح الدين من مصر إلى الكرك وحصرها وكان قد واعد نور الدين أن يجتمعا عليها، وسار نور الدين من دمشق حتى وصل إلى الرقيم وهو بالقرب من الكرك وخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين فرحل عن الكرك وأرسل تحفاً إلى نور الدين، واعتذر أن أباه مريض ويخشى أن يموت فتذهب مصر، فعلم نور الدين مقصده وقبل عذره في الظاهر. وكان صلاح الدين وأهله خائفين من نور الدين واتفق رأيهم على أخذ مملكة غير مصر حتى إذا هزمهم نور الدين عن مصر التجأوا إلى تلك المملكة، فجهّز صلاح الدين أخاه توران شاه إلى اليمن فاستولى عليها واستقرت في ملك صلاح الدين. وثار عليه بعض أعيان مصر فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم. واتفق أن قد توفي نور الدين هذه السنة بدمشق وكان قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر وأخذها من صلاح الدين، فأتاه أمر الله الذي لا مردّ له وهو الذي بنى أسوار مدن الشام مثل دمشق وحمص وحماء وحلب وشيزر وبعبك وغيرها لما تهدّمت بالزلازل، وقام بعده ابنه الملك الصالح اسماعيل وعمره إحدى عشرة سنة وتولّى تدبير الملك الأمير شمس الدين محمد المعروف بابن المقدم، وأظهر صلاح الدين الطاعة له. انتهى مأخوذاً عن أبي الفداء في تاريخ السنين المذكورة.

وبعد موت نور الدين قلق أصحاب الإقطاعات بسورية وهم كل منهم أن يستبدّ بعمله ويزيده ما أمكن، فراسلوا الإفرنج وعقدوا معهم عهديات على أن يفوهم جزية إن حاربوا صلاح الدين. وحارب أموري ملك أورشليم بانياس التي كان نور الدين قد أخذها فاسترضاه الأمراء المتولّون دمشق بمال وإطلاق بعض الأسرى النصاري فعاد إلى أورشليم وبعد أيام توفي بها في ١١ تموز سنة ١١٧٣ م.

بودوين الرابع وبعض ما كان في أيامه

وبعد وفاة أموري ملك أورشليم قام بالملك بعده في ١٥ تموز سنة ١١٧٣م ابنه وسَمِّي بودوين الرابع ولم يكن عمره وقتئذ إلا ثلاث عشرة سنة، وقال فيه غوليلمس أسقف صور الذي كان أبوه قد عهد إليه في تربيته وتثقيفه أنه كان منذ صغره يعشق المعالي والحق والعدل، على أنه اعتراه البرص ثم العمى فلم يدبّر الملك بنفسه واختلف في مَنْ يدبّر الملك، فاختر بعضهم مليون دي بلانسي والي ناحية من بلاد العرب، واختار غيرهم ريموند أحد أحفاد ريموند دي سان جيل كونت طرابلس، فتغلب هذا وسلّم إليه تدبير شؤون المملكة. وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين صغيراً أيضاً مقيماً في دمشق يتنازع كثير من الأمراء في حاشيته تدبير مملكته، واتفق أنّ شمس الدين ابن الداية المقيم بحلب أرسل يستدعي الملك الصالح بن نور الدين إلى حلب ليكون مقامه بها، فسار إليها وأخذ سعد الدين كمشتكين مدبراً للملكه. فلما تمكّن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية وعلى غيره من أعيان حلب واستبدّ بتدبير الملك فخافه ابن المقدم الذي كان يدبّر الملك في دمشق واتفق مع غيره من الأمراء بدمشق وكاتبوا صلاح الدين واستدعوه ليملك عليهم، فسار من مصر في سبع مئة فارس. ولما بلغ إلى دمشق خرج كل مَنْ كان فيها من العسكر والتقوه ونزل بدار والده أيوب المعروفة بدار العقيلي، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فاستماله صلاح الدين فسَلّم القلعة إليه، فصعد إليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الأموال. وبعد أن قَرّر أمر دمشق واستخلف فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين سار إلى حمص فملكها وعصت عليه القلعة، فترك حولها مَنْ يضيق عليها ورحل إلى حماه فملكها، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جرديك فامتنع في القلعة فأرسل صلاح الدين يقول له إنّ لا غرض له سوى حفظ البلاد للملك الصالح بن نور الدين وإنما هو نائبه ويريد إرسال جرديك في رسالة له إلى حلب. وسار جرديك بتلك الرسالة إلى حلب واستخلف أخاه في قلعة حماه. فلما وصل جرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين مدبّر الملك وسجنه. وعلم أخوه بذلك فسَلّم القلعة إلى صلاح الدين، ثم سار صلاح الدين إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح، فاجتمع أهل حلب

وقاتلوا صلاح الدين وصدّوه عن المدينة، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدّم الإسماعيلية أموالاً ليقتلوا صلاح الدين فقتلوا دونه. واستمرّ صلاح الدين محاصراً لحلب إلى أن نزل الفرنج على حمص فسار إليها ورحل الفرنج عنها وملك حيثنذ قلعتها التي كانت قد عصت عليه أولاً، وسار إلى بعلبك فملكها وأرسل الملك الصالح من حلب إلى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجد به على صلاح الدين، فجهّز جيشه صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فوصل هذا الجيش إلى حلب وانضمّ إليهم عسكر حلب وقصدوا صلاح الدين، فأرسل هو يبذل حمص وحمّاه وأن تقرّ بيده دمشق وأن يكون فيها نائباً للملك الصالح فلم يجيبوه إلى ذلك، وساروا إلى قتاله واقتتلوا عند قرون حمّاه فانهزم عسكر الموصل وحلب وغنم عسكر صلاح الدين أموالهم وتبعوهم حتى حصروهم في حلب، وقطع حيثنذ صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وأزال اسمه عن السكة واستبدّ بالسلطنة، فراسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه، فصالحهم على ذلك ورحل عن حلب سنة ٥٧٨هـ سنة ١١٧٥م. انتهى ملخصاً عن تاريخ أبي الفداء (مجلد ٣ صفحة ٥٩ وما يليها).

وما ذكره المؤرخون الفرنج في هذه الأثناء أنّ الفرنج غزوا الأعمال الواقعة وراء لبنان بإمرة كونت طرابلس والملك بودوين، واتصلوا في الغزوة الأولى إلى داريا على خمسة أميال من دمشق، ثم غزوا ثانية من صيدا فدخلوا البقاع وبلغوا إلى بعلبك التي سمّاها غوليلمس الصوري في تاريخه اميكارا وهو غلط. وقد التبس عليه اسم بعلبك باسم تدمر وعادوا إلى صيدا غانمين وكانوا يقصدون بهذه الغزوات إيقاف نجاح صلاح الدين الذي كان يتولّى على حمص وحمّاه ويحاول فتح حلب أيضاً كما رأيت ويعنى بتشديد أركان دولة الأيوبيين.

وفي سنة ٥٧١هـ سنة ١١٧٦م كانت وقعة بين صلاح الدين وسيف الدين غازي المذكور بتل السلطان، وكان مع سيف الدولة صاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما، فانهزم سيف الدولة ومثّم معه مرعويين واستولى صلاح الدين على أنقال عسكرهم وسار إلى بزاعة فحاصرها وتسلمها، وإلى منبج فحاصرها وفتحها عنوة، وكان فيها نبال بن حسان المنبجي فأسره ثم أطلقه ثم سار صلاح الدين إلى اعزاز فتسلمها ووثب عليه إسماعيلي فضربه بسكين في رأسه فجرّحه، فأمسك

صلاح الدين يدي الإسماعيليّ وبقي يضرب بالسكين فلا تؤثر حتى قتل الإسماعيليّ ووثب آخر عليه فقتل أيضاً. ولما ملك اعزاز رحل عنها إلى حلب وحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين، وسأله أخيراً أهل حلب في الصلح فأجابهم إليه وأخرجوا إليه بنتاً صغيرة لنور الدين أخت الملك الصالح، فأكرمها صلاح الدين وأعطاهما شيئاً كثيراً وقال لها ما تريدان؟ فقالت: أريد قلعة اغراز وكانوا قد علّموها ذلك فسَلّمها إليهم سنة ١١٧٧، واستقرّ الصلح بين صلاح الدين وبين الملك الصالح وسيف الدولة صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين، وتحالفوا على أن يكونوا كلّهم عوناً على الناكث الغادر. ورحل صلاح الدين عن حلب وقصد بلد الإسماعيلية فنهبه وخزبه وأحرقه وحاصر قلعة مصياف، فأرسل سنان مقدّم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين يسأله أن يسعى في الصلح، فسأل صلاح الدين الصفح عنهم فصالحهم ورحل عنهم وعاد إلى مصر بعد أن استقرّ له ملك الشام، وأمر ببناء السور الدائري على مصر القاهرة والقلعة التي على جبل المقطم، ولم يزل العمل بهذا السور إلى أن مات صلاح الدين. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء في تاريخ هذه السنين).

لما عاد صلاح الدين إلى مصر غزا الفرنج بعض الأعمال في ناحية انطاكية وعلم صلاح الدين بتوجيه عسكرهم إلى تلك الناحية فاغتنم الفرصة ليستطو عليهم في فلسطين. وإليك ما قاله المؤرخان المذكوران في هذه الحملة: «في سنة ٥٧٣هـ سنة ١١٧٨م سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الفرنج ووصل إلى عسقلان فنهب وتفرّق عسكره في الإغارات، وبقي السلطان في بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعوا عليه فقاتلهم أشد القتال. وكان لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين ولد اسمه أحمد من أحسن الشباب فأمره أبوه بأن يحمل على الفرنج فحمل عليهم وقاتلهم وأثر فيهم أثراً كثيراً وعاد سالماً. وأمره أبوه بالعود إليهم ثانية فحمل عليهم فقتل وتمت الهزيمة على المسلمين. وقاربت حملات الفرنج السلطان فمضى منهزماً إلى مصر في البرية ومعه من سَلّم، فلقوا في طريقهم مشقة وعطشاً شديداً وهلك كثير من الدواب. وأخذ الفرنج من كانوا متفرّقين في الإغارات أسرى أو قتلوه». قال ابن الأثير رأيت كتاباً بخط يد صلاح الدين إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق يذكر له هذه الواقعة وفي أوله:

ذكرتك والخطي^(١) يخطر بيننا وقد نهلت^(٢) منا المثقفة^(٣) السمرة
ويقول فيه: لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة وما نجانا الله منه إلا لأمر يريده
سبحانه وتعالى. وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر.

وقال المؤرخون الفرنج في ذلك: «سار صلاح الدين إلى فلسطين ولما علم ملك
أورشليم بذلك سار في من تيسر له جمعه من الفرسان إلى عسقلان وبلغ صلاح
الدين إليها وخيم في جوارها، ورأى عسكر المسلمين أن النصارى محاصرون في
المدينة فتفرقوا للإغارات والغنيمة في السهول، فأحرقوا الرملة وخربوا عمل اللد
وانهزم الأهلون وعظم الرعب في جبل اليهودية حتى أورشليم، فخرج المحاربون
النصارى وقصدوا عسقلان وتلال الرمل تحجب عنهم النظر حتى أشرفوا على المحل
الخيم به صلاح الدين واندفعوا للقتال. فاستدعى صلاح الدين عسكره المشتت
وهيئ من كان معه على القتال وكان بودوين الملك في طليعة جنده وأمامه خشبة
الصليب ولم يكن معه إلا ثلاثمائة وخمسة وسبعون فارساً، فصبر المصريون على
القتال وقتل كثيرون من ممالك صلاح الدين وحاشيته وتمت الهزيمة على صلاح
الدين وذويه، فنتج الفرنج أثرهم إلى جبل جرار وكان المصريون يلقون في الطريق
دروعهم وخوذهم وضايقهم الجوع والعطش، فمات كثيرون منهم وغنم الإفرنج ما
كان في معسكرهم من أثقال وسلاح وخيل وجمال وأسروا كثيرين ممن كانوا
متفرقين وقتلوا كثيرين وانهزم صلاح الدين ركباً هجيناً إلى مصر». وعزا أبو الفرج
بن العبري في تاريخه السرياني انقلاب المصريين إلى ربح عاصفة هبت في وجوههم
وأثارت الرمل على عيونهم. (انتهى ملخصاً عن غوليلمس الصوري في تاريخ
الحرب كتاب ٢٠ وبرنردس الخازن في مكتبة الصليبيين وغيرهما).

عد ٨٣٤

حروب وأحداث أخرى في أيام بودوين الرابع

بعد أن عاد صلاح الدين مدحوراً إلى مصر تقوى الفرنج وساروا من جهة
انطاكية وحاصروا مدينة حماة، وكان توران شاه أخو صلاح الدين ينوب عنه في

(٣) الرماح أيضاً.

(٢) شربت

(١) الرمح

دمشق وليس عنده كثير من العسكر وكان كثير الانهماك في اللذات مائلاً إلى الراحة، وكان بحماه شهاب الدين الحارمي خال صلاح الدين لكنه كان مريضاً وشدّ الفرنج الحصار على هذه المدينة وكادوا يملكونها قهراً، ولكن جدّ المسلمون في القتال وأخرجوا الفرنج إلى ظاهر السور وأقاموا كذلك أربعة أيام ثم رحلوا عن حماه إلى حارم وحاصروها أربعة أشهر فأرسل إليهم الملك الصالح صاحب حلب ملاً فصالحوه ورحلوا عن حارم، فأرسل إليها الملك الصالح عسكرياً فسلمها أهلها إليه وكانت لصلاح الدين، واستتاب بها مملوكاً لأبيه اسمه سرخك.

وفي سنة ٥٧٤هـ سنة ١١٧٩م طلب توران شاه من أخيه السلطان صلاح الدين بعلبك وكان السلطان قد أعطاه لابن المقدم لما سلّمه دمشق كما مرّ، فأرسل إلى ابن المقدم ليسلّم بعلبك إلى أخيه، فعصا بها فأرسل السلطان وحاصره بعلبك وطال الحصار إلى أن أجاب ابن المقدم إلى تسليمها بعوض، فعوّضه السلطان عنها. هذا ما رواه أبو الفداء ولم نر من ذكر العوض الذي ناله ابن المقدم عن بعلبك.

وفي السنة المذكورة سيّر السلطان صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر إلى حماه وابن عمه محمد بن شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ بلادهما فاستقرّ كل منهما ببلده. وفي سنة ٥٧٥هـ سنة ١١٨٠م سار صلاح الدين إلى الشام وفتح حصناً كان الفرنج قد بنوه عند مخاضة الأحران وفي نسخة الأجران وفي الكامل الأخران بالقرب من بانياس عند بيت يعقوب. وفي ذلك يقول علي بن محمد الساعاتي الدمشقي:

أُتسكن أوطان النبيين عصابة تمين لدى إيمانها وهي تخلف
نصحتكم والنصح للدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

يريد صلاح الدين الذي هو يوسف ابن أيوب. هذا ما رواه أبو الفداء. وروى ابن الأثير الخبر بأكثر تفصيل فقال ما ملخصه: سار صلاح الدين من دمشق إلى بانياس وبث الغارات على بلاد الفرنج، ثم سار إلى الحصن وحاصره ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر، فقاتل من به من الفرنج ثم عاد عنه إلى بانياس وخيله متكبراً، وعاد صلاح الدين فأخذ الحصن ودكّه إلى الأرض. (انتهى ملخصاً عن تاريخ غوليملس أسقف صور كتاب ٢١).

وفي سنة ٥٧٧هـ سنة ١١٨٢م توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين بحلب وعمره نحو تسع عشرة سنة بمرض القولنج، ولما اشتد عليه وصف له الأطباء الخمر فمات ولم يستعمله. وأوصى بملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل فسار إليها، وبعد أن استقر في ملكها كاتبه أخوه عماد الدين صاحب سنجار في أن يعطيه حلب ويأخذ سنجار فأجابه إلى ذلك فسار، عماد الدين إلى حلب وتسلمها وسلم سنجار إلى أخيه عز الدين.

وفي سنة ٥٧٨هـ سنة ١١٨٣م سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرج الأعيان لوداعه وكان كل منهم يقول شيئاً في الوداع وفراقه أنشده معلم بعض أولاده قول الشاعر:

تمتّع من شميم عرار^(١) نجد فما بعد العشية من عرار
فتطير صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه لأنّ ذلك يُشعر بأنه لا يعود إلى مصر
وكان كذلك مع طول مدة حياته. وأغار صلاح الدين في طريقه على بلاد الفرنج
وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فانتهاز فرخشاه ابن أخيه ونائبه
بدمشق الفرصة وسار إلى الشقيف بعساكر الشام وفتحها وأغار على ما يجاوره من
بلاد الفرنج وارسل يشر عمه السلطان بذلك.

وفي السنة المذكورة سار صلاح الدين من دمشق ونزل قرب طبرية وشنّ
الإغارة على بلاد الفرنج مثل بانياس وجنين والغور فغنم وقتل. روى ذلك أبو
الفداء. وقال ابن الأثير: «وجاء الفرنج ونزلوا بطبرية فسير صلاح الدين فرخشاه ابن
أخيه إلى ييسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وأغار على الغور فأفعم أهله قتلاً وأسراً
وقواته تغير على بلاد العدو، وأرسل جماعة من عسكره مع جالبي الميرة فلم تشعر
إلا والفرنج مع ملكهم خرجوا عليهم. وعلم صلاح الدين فسار في العساكر مجدداً
حتى وافاهم وهم في القتال، فقاتل الفرنج قتلاً شديداً وكادوا يزيلون المسلمين عن
مواقفهم، ولكن تغلب المسلمون في آخر الأمر وقتلوا من الفرنج مقتلة كثيرة وأسروا
كثيرين، منهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو أعظم الفرنج محلاً بعد
الملك، ثم صاحب جبيل، وصاحب طبرية وغيرهم من كبار فرسانهم، ونجا

(١) بهار طيب الرائحة وقيل هو النرجس.

ملكهم. وروي أنّ هذه الواقعة كانت في مرج عيون. ثم عاد صلاح الدين من محل المعركة وتجهّز لمحاصرة الحصن ونادى بالزحف إليه والجّد في قتاله، فرحفوا واشتدّ القتال وكان الفرنج قد اجتمعوا بطبرية فألحّ المسلمون في قتال الحصن خوفاً من وصول الفرنج إليهم وأدركهم الليل فناموا في حياله. فلما كان الغد نقبوا الحصن وعمّقوا النقب وأشعلوا النار فيه ليسقط فلم يسقط لأنّه كان عريضاً تسعة أذرع. وعاد النقاويون فخرقوا السور وألقوا النار فيه فسقط ودخل المسلمون الحصن وأسروا كل من فيه وأطلقوا من كان به من أسرى المسلمين. وقتل صلاح الدين كثيرين من أسرى الفرنج وأدخل الباقين إلى دمشق، ولم يرح صلاح الدين الحصن حتى هدم وعفا أثره وألحقه بالأرض.

والذي رواه المؤرخون الفرنج أنّ الملك بودوين بنى سنة ١١٧٨ حصناً على ضفة الأردن في المحل المسمّى معبر يعقوب ليصدّ غزوات العرب وغارات الأعداء، وقد سمّي هذا المحل بهذا الاسم لأنّه يظنّ أنّ يعقوب عبر الأردن منه بعد عوده من ما بين النهرين، وسلم الملك هذا الحصن إل فرسان الهيكل. وحاصر صلاح الدين الحصن الحديث وأغار في مدة الحصار في فريق من عسكره إلى نواحي صيدا فكان هناك قتال شديد، فظهر المسلمون على الفرنج وقتلوا وأسروا كثيرين منهم: اودون دي سان امان رئيس فرسان الهيكل، وكان رجلاً شريفاً وجاءت العرب فأغارت على جنين واللجون، وتلك الولاية حتى قاربوا مرج عكا، وسار الفرنج من طبرية فنزلوا تحت جبل كوكب (كوكبة)، فتقدّم صلاح الدين إليهم وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشاب، فلم يبرحوا ولم يتحرّكوا لقتاله فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاہ فحملا على الفرنج في منّ معهما، فقاتلوا قتالاً شديداً وانحاز الفرنج إلى حاميتهم، فلما رأى صلاح الدين ما قد أثخن فيهم وفي بلادهم عاد عنهم إلى دمشق.

وكان صلاح الدين قد أمر الأسطول المصري بالجّيء إلى بيروت فساروا إليها ونازلوها وأغاروا عليها وعلى بلدها، ووافاهم صلاح الدين ونهب ما لم يصل الأسطول إليه، وحاصرها عدة أيام وكان عازماً على ملازمتها إلى أن يفتحها لكنه خاف اجتماع الفرنج عليه فتركها وعاد إلى دمشق.

ثم سار صلاح الدين نحو الجزيرة وعبر الفرات من البيرة فأخذ حران وحصن

كيفاً والرها والرقّة وقرقيسيا واستولى على الخابور جميعه وعلى نصيبين وحاصر الموصل، ولما رأى حصارها يطول رحل عنها إلى سنجار فملكها. وفي سنة ٥٧٩هـ سنة ١١٨٤م أخذ حصن آمد بعد حصار وقتال، ثم عاد إلى الشام وقصد تل خالد من أعمال حلب وملكه، ثم سار إلى عيتتاب فحاصرها وملكها، ثم سار إلى حلب وبها صاحبها عماد الدين زنكي المازّ ذكره. وطال الحصار وكان أمراء حلب وعسكرها قد أكثروا من الاقتراحات عليه وقد ضجر من ذلك وكره حلب فسلمها إلى السلطان صلاح الدين على شرط أن يعوّض عنها بسنجار ونصيبين والخابور والرقّة وسروج، واتفقا على ذلك وسلم حلب إلى صلاح الدين. وكان أهلها ينادون عليه يا حمار بعت حلب بسنجار، وشرط السلطان عليه أن يحضر بنفسه وعسكره إذا استدعاه ولا يحتجّ بحجّة وكان فتحه حلب في شهر صفر. ومن الاتفاقات العجيبة أن محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة قال فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشّر بفتوح القدس في رجب
فوافق فتوح القدس في رجب سنة ٥٨٣هـ سنة ١١٨٨م كما سترى. ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سرخك الذي كان الملك الصالح قد ولّاه إياها وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال. وكاتب سرخك الفرنج فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه وسلموا حارم إلى صلاح الدين وهو بعد أن قرر أمور حلب وما جاورها وجعل في حلب ولده الملك الظاهر غازي عاد إلى دمشق ظافراً غانماً وقد دانت له مصر وبلاد العرب والجزيرة والقسم الأكبر من سورية، ولم يبقَ من يخالفه إلا الفرنج محصورين في وسط أملاكه وله أسطول في شواطئ مصر. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير في الكامل وأبي الفداء في تاريخه).

عد ٨٣٥

سوء حال الفرنج في هذه المدة

قد عرفت مما مرّ ما آلت إليه حال السلطان صلاح الدين من العظمة والمهابة وانبساط ملكه واستفحال أمره. وأما الفرنج فكانوا حينئذ في أسوأ حال لأنّ الملك

بودوين الرابع كان مبلّياً بالبرص وقد اشتدّ مرضه حتى لم يعد يستطيع حراكاً وأمسى أعمى وأصابته حمى وهو بالناصره واستمرّ متردداً في التخلّي عن الملك، فاختر بحضرة أشراف مملكته والملكة أمه وهرقل بطريك أورشليم كوي لوسنيان كونت يافا وعسقلان مدبراً للملكه، وكان متزوّجاً بسبيلا بنت أخيه الملك أموري، وأبقى الملك لنفسه السلطة الملكية والحق على استيفاء عشرة آلاف ريال من ذهب، على أنّه رأى بعد مدة أنّ كوي ليس أهلاً لتدبير المملكة وقد أسخطه ببعض أعماله فخلعه من المنصب الذي كان قد عهد إليه به ورغب في أن لا يكون له أمل في الخلافة له بعد موته، فتخلّى عن الملك لابن أخته سبيلا المذكورة وسماه بودوين الخامس، وتوجّه باحتفال. وكانت أخته المذكورة قد تزوّجت أولاً بالمركيز دي مونتي فراتا فرزقت منه هذا الولد، وتزوّجت ثانية بكوي دي لوسنيان، ولكن لم يكن عمر هذا الملك الحديث حينئذٍ إلا خمس سنين وكُلّ في ٢٠ من شهر تشرين الثاني سنة ١١٨١م، فلم يثبت العقلاء خلع كوي لبقاء الملك دون مالك لعجز بودوين الرابع من قبل مرضه وصغر بودوين الخامس، فانزوى كوي دي لوسنيان في عسقلان وأبى الطاعة للملك جهاراً، وسمّى الملك ريموند كونت طرابلس مدبراً للملك ابن أخته.

وكان الملك يرى أنّ السلطان صلاح الدين يزداد كل يوم سلطة وعظمة وانبساطاً للملكه فأرسل إلى المغرب هرقل بطريك أورشليم وأرنود رئيس الفرسان الهيكليين وروجه رئيس فرسان الاسبيتال (جماعة أو جمعية أسست للعناية بالحجاج والمرضى منهم) فمضوا أولاً إلى فارونا (بايطاليا) حيث كان الحبر الروماني البابا لوشينوس وفريدريك ملك المانيا فشرحوا مذرفين الدموع حالة النصارى الغربيين في سورية والتمسوا إمدادهم وإنجادهم ببرجال وأموال ليقبوا على مناصبة أعدائهم، وقالوا إنّ القبر المقدس وغيره من الكنائس يحفّ بها الخطر، فرثى الملك لهم وأشفق عليهم ووعد بأنه عند عودته إلى المانيا يبدل قصارى جهده في إمدادهم ومساعدتهم. ودفع إليهم البابا رسائل توصية إلى ملكي فرنسا وانكلترا، فمات رئيس الهيكليين في فارونا وسار البطريك ورئيس الاسبيتاليين إلى فرنسا وبلغا إلى باريس في ١٥ كانون الثاني سنة ١١٨٥م فقبلهما رئيس أساقفة باريس بالترحاب والإجلال، ولما عرف الملك فيليب اغوسطس بقدمهما أبدى لهما صنوف التكريم وقدا له مفاتيح أورشليم وكنيسة القبر المقدس. وجمع الملك الأساقفة والأعيان في

باريس وأمر الأساقفة أن يعظوا في الكنائس محرضين رعاياهم على السفر إلى
أورشليم، وأمر عماله كذلك وأشار عليه أعوانه أن لا يسير بنفسه إلى أورشليم بل
يرسل مالا وفرساناً وجنوداً نجدة للصليبيين.

وسار البطريك ورفيقه إلى انكلترا وبلغاها في أوائل شباط سنة ١١٨٥م فقبلهما
الملك انريكس الثاني بالإكرام وقدماً له الراية الملكية ومفاتيح كنيسة القبر المقدس
وبرج داود ومدينة أورشليم وسلماه رسالة البابا حيث كان يستط له شرح الحال
السيئة التي كانت وقتئذ في الأرض المقدسة. وذكر الوافد أنّ الملك بوعد كان قد
أبرزه للحبر الروماني، وحلف على أن يسير إلى فلسطين وينجد الفرنج كفارة عن
سعيه بقتل توما أسقف كنتريزي، فوعد الملك بإمدادات عظيمة ولكنه اعتذر عن
المضي بنفسه إلى فلسطين، وألح البطريك عليه بالمسير حتى بكلام خشن جرح
فبقي الملك يعتذر، فحنق البطريك وهده بأن الله ينتقم منه. ورأى الملك قد
استشاط فمده عنقه وقال للملك: اقتلني كما قتلت أخي توما، فخير لي أن تقتلني
أنت في انكلترا من أن يقتلني المسلمون في سورية. ثم سكن جيش غضبهما واتفقا
على أنّ الملك انريكس يسير إلى فرنسة. فيستشير فيليب ملك فرنسة وسار الملك
بمعيته إلى نرمنديا وسار ملك فرنسة إليها، وقد رأى الملك أن يمدا الصليبيين بمال
ورجال على أنّ الذين ساروا من أوروبا إلى سورية لنجدة إخوانهم في هذه المرة
كانوا قليلين. وعاد البطريك هرقل إلى أورشليم حزينا أسفاً على أنه لم يلق في
الغرب حيثئذ تلك الحمية التي كانت لأهلها قبلاً في الذب عن الدين. وقد اغتم
البابا لوشيوس لأن مسعاه لم يصادف النجاح الذي كان يأمله، فكتب إلى السلطان
صلاح الدين رسالة يسأله بها أن يخلي سبيل الأسرى الذين في حوزته من
النصارى. ولم تبق لنا الأيام رسالة البابا هذه ولكنها أبقت لنا جواب صلاح الدين
للحبر الروماني ذكره رادولف دي ديشاتو في كتابه تاريخ العصور صفحة ٦٢١،
وباجيوس في تاريخ سنة ١١٨٤م، وإليك ترجمة هذا الجواب عن الإفرنسية: «من
الملك صلاح الدين أعظم ملوك المشرق إلى سيادة البابا رفعت إلينا رسالة قداسكم
ونحن نعلم ونوقن أنّ لكم المحل الأول في هذا العالم ونعلم أنّ الله خولكم المجد
والفخار لتكونوا في العظمة التي أنتم عليها، ونعرف أيضاً أنّ النصارى أجمعين
يؤدونكم الطاعة ويهابونكم. وقد قدّم لنا هذه الرسالة سفيركم أوليفيه فيتال
فأكرمناه وقابلناه في داخل قصرنا وأجبناه إلى كل ما طلبه حرمة لكم ولما لكم

عندنا من التوقيير. وقد سررنا كثيراً بكل ما حوته رسالتكم وطلبه سفيركم من الصلح مع النصارى وتخليه سبيل الأسرى، فعلى الذين هم لكم مطيعون أن يرسلوا إلينا مَنْ كانوا من رعايانا أسرى عندهم، ونحن نرسل إليهم بكل طيبة خاطر مَنْ كانوا منهم أسرى عندنا وعظمتكم تعلم أنَّ الأسرى الذين عندنا من النصارى هم من الأعيان والأشراف وجنودنا الذين أسرهم النصارى هم من عاتمة الناس وسفلة القوم. فنحن نثمن إن حسن لديكم الأسرى الذين عندنا والنصارى يثمنون الأسرى الذين عندهم ومَنْ نقص له من الثمن يعوّض عنه بأسرى آخرين ويعلم الله أنه لما رأينا رسالتكم ووفود عظمتكم شملنا سرور لا مزيد عليه وحمدناه تعالى لذلك».

وكتب البابا أيضاً إلى أخي السلطان صلاح الدين فأجابه برسالة مؤرخة في ٢٦ أيار سنة ١١٨٤م، ومما قاله فيها مترجماً عن الفرنسية: «قد علمت من كلام سفيركم أنكم ترغبون في المحافظة على المعاهدة التي عقدها الملك صلاح الدين مع سالفكم اسكندر ذي الذكر المقدس في شأن تخليه الأسرى بين النصارى والمسلمين. (يظهر من كلام الملك العادل أخي صلاح الدين أنه قد كانت معاهدة سابقة بين البابا اسكندر والسلطان صلاح الدين)، فإذا أراد النصارى الذين في أورشليم وملكهم وسكان بلاد صور أن يطيعوا أمركم مع جميع النصارى وأن يحافظوا بحسب إرادتكم على القرار الذي جرى بيننا على الصلح وتخليه سبيل الأسرى الذين في سجوننا فنعد نحن أيضاً بأن نتّم كل ما ترغبون فيه لتوطيد هذا الصلح ونسأله تعالى أن يلهمهم ويلهمنا لنصنع بنعمته كل ما يكون عائداً لنفع النصارى والمسلمين آمين». ذكر هذه الرسالة أيضاً مَنْ ذكروا الرسالة الأولى.

إنَّ الملك بودوين الرابع الأبرص توفّي سنة ١١٨٥م وترك خليفة له ابن أخته بودوين الخامس وعمره تسع سنين ولكن توفي سنة ١١٨٦م ودفن في كنيسة القبر المقدس وكان آخر ملك دفن فيها. فبعد وفاته جمع ريموند كونت طرابلس أعيان المملكة في نابلس وبقي البطريرك ورئيس الهيكلين في أورشليم وقالوا لامرأة لوسينيان بنت الملك أموري أنهما يتوّجانهما ملكة على رغم كل مخالف، وأرسلا يقولان للأعيان المجتمعين بنابلس أن يأتوا لتكليلاها، فأبوا وأرسلوا للبطريرك أنهم لا يرضون أن تملّك عليهم امرأة. فأقفلوا أبواب المدينة، وسارت سيبيليا إلى كنيسة القبر المقدس فأخذ البطريرك من الخازن تاجين فوضع أحدهما على المذبح والآخر على رأس

سييليا ثم قال لها البطريك: «مولاتي أنت امرأة فينبغي أن يكون معك رجل يدبر شؤون المملكة فخذني هذا التاج وتوّجي به رجلاً أهلاً لتدبير المملكة، فأخذت التاج ودعت زوجها لوسينيان الواقف أمامها وقالت مولاي تقدّم إليّ واقبل هذا التاج فإنني لا أرى أجدر منك به. فجثا أمامها فوضعت التاج على رأسه فنودي به ملكاً وبها ملكة. ولما بلغت هذه الأخبار إلى مسامع الأعيان المجتمعين بنابلس شقّ ذلك عليهم ولاسيما على بودوين كونت الرملة فقال خرب البلد فحرامٌ عليّ أن أسكنه لئلاّ ألام بخرابه وأنا فيه. فناشد ريموند كونت طرابلس كونت الرملة أن يشفق على النصارى وأن لا يبرح البلاد ليساعد الأعيان على نجاة المملكة من الأخطار المحدقة بها. وقال عندنا هنا همفروا دي تورون زوج ايزابال ابنة أموري الثانية فנסير إلى أورشليم بل هم يساعدوننا لأنني عقدت هدنة معهم، فاتفق رأي الأعيان على ذلك، على أنّ همفروا أبى أن يكون ملكاً وتسارع إلى أورشليم فقال للملكة أوثر راحتي وحياتي على تاج الملك، فاغتمّ الأعيان. ولكن أثر السواد الأعظم منهم الإذعان للملك على خراب البلاد. وترك كونت الرملة عمله وسار إلى انطاكية وأقام فيها ومضى ريموند كونت طرابلس فأقام في طبرية التي له من جهة امرأته، واتفق مع صلاح الدين أن ينجده إذا مسّه لوسينيان بضراً. فهذه كانت حال الفرنج وصلاح الدين واقف لهم بالمرصاد. (انتهى ملخصاً عن كثيرين من مؤرّخيهم).

عد ٨٣٦

وقعة حطين الشهيرة

كان بين الفرنج وصلاح الدين هدنة كما سبقت الإشارة إلى ذلك. وإليك ما كان بعدها على ما روى المؤرخون المسلمون، قالوا في سنة ٥٨٢هـ وهي سنة ١١٨٧م غدر البرنس صاحب الكرك وأخذ قافلة عظيمة من المسلمين وأسرههم فأرسل السلطان صلاح الدين يطلب منه إطلاقهم بحكم الهدنة فلم يفعل، فنذر السلطان أنه إن أظفره الله به قتله بيده. وفي سنة ٥٨٣هـ سنة ١١٨٨م جمع السلطان عساكره وسار بفرقة منها وضايق الكرك خوفاً على الحجاج من صاحبها، وأرسل فرقة أخرى مع ولده الملك الأفضل فأغاروا على بلاد عكا وتلك الناحية وغنموا شيئاً كثيراً. وسار السلطان ونزل على طبرية وحاصر مدينتها وفتحها عنوة

وتأخرت القلعة وكانت طبرية للقومص (الكونت) صاحب طرابلس، وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فأرسل الفرنج القسوس والبطريك يnehونه عن موافقة السلطان ويوبّخونه، فصار معهم واجتمع الفرنج للتعقّي السلطان فركب صلاح الدين من طبرية والتقى الجمعان في حطين واشتدّ بينهم القتال. ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على مَنْ قدامه من المسلمين وكان هناك تقي الدين صاحب حماه فأفرج له وعطف عليهم فنجا القومص ووصل إلى طرابلس وبقي مدة يسيرة ومات غنماً، وأحرق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلاً وأسرّاً. وكان في جملة مَنْ أسر ملك الفرنج الكبير والبرنس ارنواط (ارنولد) صاحب الكرك وصاحب جبيل وجماعة من السبتارية (جماعة الاسييتاليين) وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام إلى الآن بمصيبة مثل هذه الواقعة. ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته وأجلس ملك الفرنج إلى جانبه وكان الحرّ شديداً، فسقاه ماءً مثلجاً فسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنواط صاحب الكرك، فقال له السلطان هذا الملعون لم يشرب الماء يا ذني ووبّخ البرنس وقرعه على غدره وقصده الحرمين، وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن السلطان جأشه وعاد إلى طبرية وفتح قلعتها بالأمان.

وهذا قاله المؤرخون الفرنج إنّ رانود دي شاتيليون والي الكرك كان قد غزا العربية قاصداً الحجاز ومكة المكرمة فردّ عن غزواته. وفي سنة ١١٨٧م أخذ قافلة كانت سائرة من مصر إلى بلاد العرب وسجن المسافرين غير مبالٍ بالهدنة التي لم تكن قد انقضت مدتها. ولما علم صلاح الدين بذلك أرسل يسأله أن يطلق مَنْ أسره ويهدده بأن يعامل النصاري الذين يمرون بأرضه معاملته للمسلمين، فأبى رانود تخليّة سبيل السجناء فحنق السلطان صلاح الدين وحلف على أن يبيد النصاري وأعلن انتقاض الهدنة، ونذر أن يقتل رانود بيده إن أظفره الله به. وجمع عساكره ودخل أرض النصاري في عسكر يزيد على خمسين ألف مقاتل وسارت فرقة من جيشه بإمرة أحد أولاده نحو الناصرة، فتسارع سكان القرى إلى الناصرة ينادون وصل المسلمون فهلموا للدفاع عن مدينتكم، فهبّ الفرسان الهيكليون والاسييتاليون واجتمع مئة وثلاثون فارساً وثلاث أو أربع مئة راجل وصافوا عسكر المسلمين وكان نحواً من سبعة آلاف مقاتل. وقال مؤرّخو ذلك العصر إنّ هؤلاء الأبطال أبدوا في هذه الحرب آيات البسالة وأثنا كثيراً على شجاعتهم وجهادهم.

ومن امتاز منهم مارشال من الهيكليين اسمه يعقوب ماليا كان راكباً جواداً أبيض قتل أرفاقه وهو صابر يقاتل وحده بين جثثهم والنبال المصوبة إليه يتكسر بعضها على بعض إلى أن وقع به جواده فقفز وسيفه بيده ودم جراحه يسيل، وهجم على صفوف الأعداء وما يرح يقاتل إلى آخر نسمة من حياته حتى توهم المسلمون أنه الخضر أي القديس جيورجوس. وبعد مقتله كرموا جثته وتبركوا بأخذ فلذات من ثيابه وسلاحه، ولم ينبج من هذه المعركة إلا رئيس الهيكليين وفارسان من فرسانه. وكانت هذه الوقعة اليوم الأول من أيار سنة ١١٨٨.

أما لوسينيان ملك أورشليم الذي يفكر أولاً بمحاربة ريموند كونت طرابلس فرأى من السداد أن يكتفي بتوبيه وأن يعزل على رأيه، وعرف ذلك ريموند فأقسم على أنه نسي كل ما كان له من الإهانات وأتى إلى أورشليم، فخرج لوسينيان لملتقاه وأبدى له عواطف حبه، فتعانقا على مشهد الشعب كله وتصافحا وتحالفا أن يقاتلا معاً إلى الممات.

وكان عسكر صلاح الدين يزداد كل يوم حتى صار معه في طبرية ثمانون ألف مقاتل وحاصر قلعة هذه المدينة وكانت فيها امرأة ريموند كونت طرابلس، واجتمع عسكر النصارى في الجليل في صحراء صفورية وصاروا نحواً من خمسين ألف مقاتل. وكان كونت طرابلس وطبرية من أملاكه يرى أن ترك طبرية لصلاح الدين خير من ما يعرض عسكر النصارى للتهلكة في البرية الحشنة القالحة الواقعة بين طبرية وصفورية. والأولى بالنصارى أن يصدمو المسلمين في هذه البرية وهم بعيدون عن الأزودة والماء من أن يعرضوا نفوسهم للمخاطر بالخروج على المسلمين، فخالف بعضهم رأي ريموند هذا وأثبتته الملك لوسينيان، ولكن ارتأى رئيس الهيكليين بأن لا يعمل برأي ريموند لأنه خائن وبأن يأمر العسكر بالسير. فأمر وسار الجيش في الثالث من شهر تموز وبلغوا إلى معابر ضيقة حجرة قبل أن يصلوا إلى بحر الجليل فالتقاهم المسلمون هناك والعطش أخذ منهم كل مأخذ والحر يصلبهم، وكان كونت طرابلس في مقدمة الجيش فأرسل يقول للملك أن يسرع ليصل إلى شاطئ البحيرة، فوثب عسكر صلاح الدين بغتة على ساقة عسكر الفرنج فشتتوا الهيكليين والاسبتياليين الذين كانوا يحرسون مؤخرة العسكر فلم يجسر الملك أن يتقدم إلى ما قدم وما عاد يعلم ما يعمل، فأمر بضرب خيامه وسمعه الناس يقول ويلاه ويلاه خرب البلاد وأزف الأجل. ولم تبح رحى الحرب دائرة إلى أن أسبل الليل ستاره

وألقى المسلمون النار في الهشيم المتراكم هناك، فصرف النصارى ليلهم معدّين بالحر والدخان ورشق السهام والجوع والعطش. وفي الغد خرج صلاح الدين من طبرية وأوقد نار الحرب على النصارى وانحاز الرجالة من الفرنج إلى أكمة هناك بدلاً من أن يعضدوا الفرسان المجاهدين، وصبر الهيكليون والاسبتياليون على القتال في ساقة الجيش ولكن كثر العدى عليهم وكانوا في كل ساعة يزيدون عدداً فدعوا الملك لنجدتهم، لكنه رأى أنّ الرجالة انقطع عليهم طريق العود إليه وأنه لم يبق حوله من يذب عنه، فأمر أن يرفعوا الخيام عساه أن يستطيع أن يوقف وثوب الأعداء عليه، وترك كثيرون من الجنود صفوفهم واجتمعوا حول خشبة الصليب فتخلخلت الصفوف. ولما رأى كونت طرابلس ما حاق بالملك والفرسان والعسكر من سوء الحال والموقف رأى نفسه منفرداً والأعداء يحدقون به من كل جهة، فاخترق صفوفهم وفتح طريقاً بينهم عبر به مع طلائعه وما برحت النجادات تأتي المسلمين وأصاب سهم قاتل أسقف عكا الذي كان يحمل خشبة الصليب فترك الخشبة المقدسة إلى أسقف اللد ووثب فريق من المسلمين على الرجالة الذين كانوا قد انحازوا إلى الأكمة فلم يكن منهم غير قتيل أو أسير، ونجا باليان والي نابلس ومن تمكن من الانهزام واطمئن الجثث، وتسارع عسكر المسلمين إلى المحل الذي كانت فيه خشبة الصليب وملك أورشليم فأخذوا هذه الخشبة المقدسة وأسروا أسقف اللد وكل من كان معه وقبضوا على الملك وغيره من الأعيان وقتل من سلم من الهيكليين والاسبتياليين من القتل أو الأسر. هذا ما رواه راول كوغسهال الذي كان شاهداً لهذه الحرب. وقد روى ابن الأثير أخبارها كما رويناها عن راول المذكور. وهذا ما قاله ابن الأثير في أخذ خشبة الصليب: «وأخذ المسلمون صليبيهم الأعظم الذي يسمونه صليب الصلبوت ويذكرون أنّ فيه قطعة من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عندهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك».

وفي الغداة أشخص صلاح الدين الفرسان الهيكليين والاسبتياليين الذين أخذوا أسرى فعفا عن رئيس الهيكليين لأنه برأيه عزم الفرنج على مهاجمة السلطان فكان هذا النصر له وكان حول صلاح الدين جماعة من الأمراء والفقهاء فأوعز إلى كل منهم أن يقتل فارساً من الفرسان الفرنج فأبى بعضهم تورّعاً وباقيهم أخذوا يقتلون أولئك الفرسان وهم مكبلون بالأغلال، وقد أقبلوا على الموت بسرور وبشاشة بل

كان بعضهم يلحون بإنزال العقاب بهم ويتسابقون على الموت. وفتح صلاح الدين قلعة طبرية بالأمان وأرسل امرأة ريموند كونت طرابلس إليه. (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم ولاسيما ميثود وروهربخر).

عد ٨٣٧

ما فتحه صلاح الدين من بلاد الفرنج بعد وقعة حطين

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون. لما فرغ صلاح الدين من طبرية سار إلى عكا وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع فعجب هو والناس من ذلك بعدما حلّ بالفرنج فصمّ صلاح الدين على الزحف ليفتح المدينة عنوةً إذ خرج كثير من أهلها يطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وخيّرهم بين الإقامة والظعن، فاختاروا الرحيل وساروا متفرقين وحملوا ما أمكنهم حملة من أموالهم وتركوا الباقي فغنمه المسلمون وكان من كثرته يعجز الإحصاء عنه لأنّ المدينة كانت مقصداً للتجار الفرنج والروم وغيرهم. وسلّم صلاح الدين البلدان إلى ولده الأفضل.

وفي مدة مقام السلطان بعكا تفرّق عسكره إلى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والقولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا فملكوها ونهبوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وأرسل تقي الدين ابن أخيه فنزل على تبين ليقطع الميرة عنها وعن صور، وسير حسام الدين عمر بن لاجين في عسكر إلى نابلس فأتى سبسطية (السامرة) وبها قبر زكريا، فأخذه من أيدي النصاري وسلّمه إلى المسلمين، ووصل إلى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها واستنزل من بها بالأمان وتسلم القلعة.

وكتب إلى صلاح الدين ابن أخيه عن تبين يقول إنّ أهلها امتنعوا عليه ويحثّه على الوصول إليه فسار إليه وحاصر المدينة وضائقها وهي من القلاع المنيعة على جبل. ولما اشتدّ الحصار أطلقوا من عندهم من الأسرى المسلمين فلم يرض السلطان ذلك ويقولوا مصرّين إلى أن أرغموا على طلب الأمان فأمنهم ووفى لهم. وسار إلى صيدا واجتاز في طريقه إلى صرند فأخذها صفواً عفواً بلا قتال. ولما سمع صاحب صيدا بمسيره نحوه رحل عنها وتركها فارغة من مانع ومدافع فتسلّمها صلاح الدين

ساعة وصوله إليها وسار عنها من يومه إلى بيروت وهي أحسن مدن الساحل وأنزهها وأطيبها، ورأى أهلها قد صعدوا على سورها وأظهروا القوة والجلد وقتلوا على سورها قتلاً شديداً واغرتوا بحصانة بلدهم. وبينما الفرنج يقاتلون إذ سمعوا من البلد جلبة عظيمة وغلبة زائدة وأتاهم مَنْ أخبرهم أَنَّ المسلمين دخلوا المدينة من جهة أخرى فأرسلوا ينظرون ما الخبر وإذا ليس له صحة، وأرادوا تسكين مَنْ بالمدينة فلم يمكنهم ذلك وخافوا على أنفسهم من الاختلاف الواقع فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم صلاح الدين على نفوسهم وأموالهم وتسلم المدينة، وكانت مدة حصارها ثمانية أيام.

وأما جبيل فكان صاحبها من جملة الأسرى الذين سيروا إلى دمشق فتحدث مع نائب صلاح الدين بدمشق في تسليم جبيل على شرط إطلاقه، وعرف بذلك صلاح الدين فأحضره مقيداً عنده، ولما حضر سلم إلى صلاح الدين حصنه وأطلق الأسرى المسلمين الذين كانوا به فأطلقه صلاح الدين كما شرط له، وكان صاحب جبيل هذا من أعيان الفرنج وأصحاب الرأي والمكر، وكان إطلاقه من الأسباب الموهنة للمسلمين.

وكان صلاح الدين لما هزم الفرنج بطبرية أرسل ييثر أخاه العادل بمصر ويأمره بالمسير إلى بلاد الفرنج من جهة مصر، فتسارع إلى ذلك ونازل حصن مجدل بابا وحاصره وغنم ما فيه وسار منه إلى مدينة يافا، فحاصرها وملكها عنوةً ونهبها وأسر الرجال وسبى الحرير وجرى على أهلها ما لم يجز على أحد من تلك البلاد. قال ابن الأثير: «كان عندي جارية من يافا وأنا بحلب ومعها طفل سقط من يدها فانسلك وجهه فبكت عليه كثيراً فأعلمتها أن ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت لست أبكي له بل أبكي لما جرى علينا. كان لي ستة أخوة هلكوا كلهم وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم. هذا من امرأة واحدة».

وبعد أن ملك صلاح الدين ما ملكه كان أمر عسقلان والقدس أهم عنده لأنهما على طريق مصر فيختار اتصال ولاياته ببعضها ليسهل خروج العسكر منها ودخوله إليها، ولما في فتح القدس من الذكر الجميل والصيت العظيم له، فسار من بيروت إلى عسقلان واجتمع بأخيه العادل ونازلا عسقلان، وملك الفرنج مع صلاح الدين أسير فقال له إن سلمت هذه البلاد إليّ فلك الأمان، فأرسل الملك إلى مَنْ

بعسقلان من الفرنج يأمرهم بتسليم المدينة فلم يسمعوأ أمره، فلما رأى صلاح الدين ذلك جدّ في قتال أهل المدينة ونصب المنجنيقات وزحف مرة بعد الأخرى وتقدّم إلى السور وملكهم يكرّر المراسلات إليهم وهم لا يجيبون إلى ما يقول، ولكن رأوا أنهم كل يوم يزدادون ضعفاً وأنّ لا نجدة لهم ينتظرونها فراسلوا صلاح الدين في تسليم البلد على شروط اقترحوها، فأجابهم صلاح الدين إليها وسيّرهم صلاح الدين ونساءهم وأولادهم وأموالهم إلى بيت المقدس ووفى لهم بالأمان. (كل هذا خلاصة ما قاله ابن الأثير وغيره في هذه الأحداث).

وما قاله المؤرخون الفرنج لا يخالف ما قاله المؤرخون المسلمون فقد رووا ما ملخصه أنّ صلاح الدين أراد أن يستثمر الظفر الذي ناله فصار للحال إلى عكا وحاصر هذه المدينة يومين فسلمت إليه وغنم ما كان في هذه المدينة الموعبة بسلع التجارة، وما ألقاه انتصاره من الرعب في القلوب سهّل له فتح نابلس وأريحا والرملة وغيرها من المدن كقيصرية وارسوف ويافا ويروت. ولم يبق من مدن ساحل البحر بيد الفرنج إلا صور وطرابلس وعسقلان، وكان فتح عسقلان أهم عند صلاح الدين من فتح غيرها من المدن فحاصرها فوجد بها مناعة لم تكن له في الحسبان وقاتله أهلها شديد القتال، وكان قد أحضر معه ملك أورشليم فأرسل يشير على أهل المدينة أن يستسلموا إلى صلاح الدين فلا يجديهم دفاعهم فائدة وأن يشفقوا على عيالهم ويحجبوا دماء النصارى، ولما ضايقتهم صلاح الدين وأخذ النقبابون يحفرون تحت الأسوار خرجت لجنة منهم فقالت لصلاح الدين لم نقدم إليك حباً بأنفسنا بل شفقة على نساءنا وأولادنا فما نفع حياة زائلة ونحن نتوقع حياة خيراً منها ولا نصل إليها إلا بالموت، فقد أولاك الله النصر على النصارى لكنك لا تدخل البنة عسقلان إن لم تشفق على عيالنا وتخلي سبيل ملكنا. فكان لهذا الكلام وقع عظيم في قلب صلاح الدين وأجاب إلى شروطهم لكنه لم يخل سبيل ملك أورشليم إلا بعد سنة. (انتهى ملخصاً عن ميثود وروبريخ).

عد ٨٣٨

فتح صلاح الدين أورشليم

إليك ما قاله المؤرخون المسلمون إنّ صلاح الدين فتح بعد عسقلان الرملة وغزة

والخليل وغيرها. وكان قد أخرج من مصر الأسطول الذي بها فأقام في البحر يقطع الطريق على الفرنج وكل ما رأوا مركباً غرقوه، ثم سار إلى بيت المقدس وكان به البطريرك المعظم عندهم وهو أعظم شأنًا من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان (يسميه الفرنج باليان دي ايبالين) صاحب الرملة ومَن خلص من فرسانهم من حطين، وقد جمعوا وحشدوا واجتمع أهل تلك النواحي وغيرها في القدس وكانوا كلهم يرون الموت أيسر من أن يملك المسلمون بيت المقدس، ويرون أنَّ بذل أنفسهم ومالهم بعض ما يجب عليهم في سبيل حفظه، وقد حصَّنوه في تلك الأيام وصعدوا على سوره وعزموا على المناضلة دونه. ولما قرب صلاح الدين من القدس تقدَّم أمير من المسلمين في جماعة غير محتاط ولا حذر فلقبه جمع من الفرنج فقاتلوه وقتلوه وجماعة ممن معه، فأهَمَّ المسلمين قتله وساروا حتى نزلوا على القدس، فرأوا على أسواره ما هالهم وبقي صلاح الدين خمسة أيام يطوف حول المدينة لينظر من أين يقاتلها، وعمد إلى جهة الشمال نحو باب العمود أو كنيسة صهيون ونصب المنجنيقات ورمى بها ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ورموا بها، واشتدَّ القتال بينهم وكل يراه ديناً وحتماً وكان خيالة الفرنج يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون ويبارزون، وحمل المسلمون حملة رجل واحد فأزالوا الفرنج عن مواقفهم وأدخلوهم بلدهم ووصل المسلمون إلى الخندق فجاوزه والتصقوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتكشف الفرنج عن الأسوار. ولما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين وتحكَّم المنجنيقات بالرمي وتمكَّن النقاين من النقب اجتمع مقدّموهم يتشاورون في ما يأتون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم المدينة إلى صلاح الدين وأرسلوا جماعة من كبارهم في طلب الأمان فامتنع السلطان من إجابتهم وقال لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهل هذا البلد حين ملكتموه. ولما رجع الرسل خائبين أرسل باليان بن بيرزان وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين فأجيب إلى ذلك وحضر ورغب في الأمان فلم يجبه صلاح الدين واستعطفه فلم يعطف واسترحمه فلم يرحم، ولما أيس من ذلك قال أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير وإنما يفترون عن القتال رجاء أنك تجيئهم إلى الأمان وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا الموت لا بدَّ منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا تسبون وتأسرون رجلاً ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك

أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرها من المواضع، ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين وهم خمسة آلاف أسير ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه، ثم خرجنا عليكم كلنا مقاتلين قتال مَنْ يحمي دمه ونفسه وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله وتموت أعرء أو نظفر كراماً.

ولما سمع صلاح الدين هذا الكلام دعا أصحابه واستشارهم فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويحملوا على ركوب ما لا تدرى عاقبته. فأجاب صلاح الدين إلى بذل الأمان للفرنج واستقرّ أن يؤخذ من الرجل عشرة دنائير غنيماً كان أم فقيراً ومن المرأة خمسة دنائير والطفل ديناران. فمن أذى ذلك إلى أربعين يوماً نجا ومن لم يؤد ما عليه صار مملوكاً. فبذل باليان عن الفقراء ثلاثين ألف دينار وسلمت المدينة ورفعت على أسوارها الأعلام الإسلامية ورتب صلاح الدين على أبوابها أمناء من الأمراء يأخذون من كل خارج منها ما فرض عليه، فقسم الأمناء الأموال وتفرقت أيدي سبأ، ولو أذيت في ذلك الأمانة لملاً الخزائن وعم نفعه. وادّعى جماعة من الأمراء أنّ جماعة من أقطاعه مقيمون بالقدس فأطلقهم وأخذ قطيعتهم وبعضهم كان يلبس الفرنج زي المسلمين ويخرجون ويأخذ قطيعتهم. واستوهب بعضهم من صلاح الدين عدداً من الفرنج فوهبهم لهم وأخذوا ما عليهم. وبالجملية فلم يصل إلى خزينته إلا القليل وأطلق صلاح الدين ملكة القدس وسارت إلى زوجها الذي كان محبوساً بقلعة نابلس وخرج البطريرك الكبير ومن معه من أموال البيع منها الصخرة والأقصى ما لا يعلمه إلا الله، وكان له من المال مثل ذلك. وقيل لصلاح الدين أن يأخذ ما معه ويقوّي به المسلمين فقال لا أغدر به ولم يأخذ منه إلا عشرة دنائير وسير الجميع ومعهم مَنْ يحميهم إلى مدينة صور.

وردّ صلاح الدين بعض أبنية القدس إلى ما كانت عليه في أيام المسلمين وأمر بتطهير المسجد والصخرة وبعمارة المسجد الأقصى واستنفاد الوسع في تحسينه وترصيفه ومحو ما كان في تلك الأبنية من الصور، ونقل إلى الصخرة المصاحف الحسنة والربعات الجيدة. وباع الفرنج ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وأموالهم بأرخص الأثمان. وأما النصارى أهل القدس غير الفرنج فطلبوا من صلاح الدين أن يكتنهم من الإقامة في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك. (انتهى ملخصاً عن الكامل لابن الأثير).

وأما المؤرخون الفرنج فرووا أخبار فتح صلاح الدين أورشليم كما رويناها عن المؤرخين المسلمين وقلّ ما زادوا عليها وما زادوه كان المؤرخون العرب أولى منهم بذكره، فانهم أثنوا على سماحة صلاح الدين وكرم أخلاقه واشفاقه على الفقراء والمصابين بهذه النازلة. من ذلك قولهم أنّ صلاح الدين عند رؤيته جمعاً من النساء والأطفال خارجين من القدس سيكون والديهم وأولادهم وأزواجهم الذين قتلوا أو أسروا في وقعة حطين رق لهم وردّ إلى الأمهات أولادهن وإلى النساء أزواجهن الذين كانوا بين الأسرى، وقد رأى أيضاً كثيرين تركوا أمتعتهم وحملوا على ظهورهم بدلاً منها أنسبائهم أو أصحابهم العاجزين عن المشي فراقه عملهم وأكثر جوائزهم لهم وسمح للاسيثاليين أن يبقوا في المدينة للعناية بالزائرين وبمن أقعدهم مرضهم أو مانع آخر عن الرحيل من المدينة، ودفع الملك العادل أخو صلاح الدين فدية ألفي أسير فافتدى به السلطان أخوه وكسر أغلال كثيرين من الفقراء والأيتام. وقد أشار عليه بعض المسلمين أن يدك حيثئذ كنيسة القبر المقدّس وسائر الكنائس ليمنع النصارى من الحج إلى القدس أو من يتذرّعوا بتكريمها إلى الاستيلاء على هذه المدينة فأثر أن يخالفهم في بقاء الكنائس ولاسيما كنيسة القبر اقتداءً بعمر بن الخطّاب إذ أبقى هذه الكنائس للنصارى في صدر الإسلام وقالوا لو نقضنا البناء فلا يرح النصارى يحجون إلى محلها ونقضها يثير نصارى الشرق فينضمون إلى نصارى الغرب، وأباح النصارى أن يستمروا على زيارتهم لهذه المعابد كما كانوا على شرط أن يأتوا إلى القدس دون سلاح، وأن يفوا ضريبة ما. انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم.

عد ٨٣٩

حصار صلاح الدين لمدينة صور وفتح بعض مدن غيرها

إنّ صلاح الدين بعد أن دبر أمور القدس سار إلى مدينة صور وهذا ما رواه المؤرخون المسلمون في ذلك. قالوا: إنّ إنساناً من الفرنج الذين داخل البحر يقال له المركيش (وهو كونراد ابن المركيز دي مونتافراتا السابق ذكره) خرج في البحر بمال كثير للزيارة والتجارة وأرسى بعكا ولم يكن يعلم أنّ صلاح الدين أخذها، وبلغه أن صور ما برحت بيد الفرنج فقصدتها، وقد اجتمع بها من الفرنج خلق كثير ولم يكن

لهم رأس يجمعهم ولا مقدّم يقاتل بهم، فقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة وبذله ما معه من المال، فولوه عليهم وكان شجاعاً بالحروب وقال في حقه ابن الأثير « كان من شياطين الانس حسن التدبير والحفظ وله شجاعة عظيمة وشرع في تحصين صور فجدد حفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانتها، واتفق من بها على حفظها والقتال دونها » وأتى صلاح الدين إلى عكا وأقام بها أياماً ولما سمع المركيش بوصوله إلى عكا جد في عمل سور للمدينة وعمق خنادقها ووصلها من البحر إلى البحر من الجانب الآخر حتى صارت المدينة كالجزيرة ورحل صلاح الدين من عكا وخيّم بجانب صور وقسم القتال على عسكره فكانوا يتناوبون مثل ولده الأفضّل وولده الظاهر وأخيه العادل وابن أخيه تقي الدين، وكان للفرنج شوانٍ وحرّاقات يركبون بها في البحر جانبي محل القتال فيقاتلون أهل البلد المسلمين من أمامهم ويرمى عليهم أصحاب الشواني من جانبيهم، فكثرت الجراحات والقتل في المسلمين ولم يتمكنوا من الدنو من البلد، فأرسل صلاح الدين عشر شوانٍ جاءته من مصر فكانت في البحر تمنع شواني أهل صور من الخروج إلى قتال المسلمين فتمكن المسلمون حينئذٍ من القرب إلى البلد، فقاتلوه براً وبحراً وضايقوه. حتى كادوا يظفرون فجاءت الأقدار بما لم يكن في الحساب وذلك أنّ خمساً من شواني المسلمين باتت ليلة مقابل ميناء صور ليمنعوا من الدخول إليها والخروج منها، ولما كان السحر ناموا وما شعروا إلّا وشواني الفرنج قد نازلهم وضايقتهم وقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقيين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من الشواني فمنهم من سبح ونجا ومنهم من غرق. وأمر السلطان الشواني الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم انتفاعه بها لقلتها فسارت وتبعها شواني الفرنج، ولما رأى المسلمون الفرنج مجددين في طلبهم ألّقوا نفوسهم إلى البحر فنجوا، ونقض صلاح الدين هذه الشواني وعاد إلى مقاتلة صور في البر وكان ذلك قليل الجدوى. وفي بعض الأيام خرج الفرنج فقاتلوا المسلمين واشتدّ القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار وأسر من الفرنج فارس كبير مشهور ولما رأى صلاح الدين أنّ أمر صور يطول رحل عنها إلى عكا. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير).

وإليك ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك أنّ صلاح الدين بعد أن فتح كثيراً من مدن الفرنج سار إلى صور وحاصرها وضايقها وكاد يملكها لو لم يكن فيها كونراد ابن المركيز دي مونتي فراتا الذي أسره صلاح الدين في وقعة حطين، وكان كونراد

هذا قد اشتهر بحروبه بإيطاليا مدافعة عن البابا من اعتداء الملك فريديريك بربا روسا (ذي اللحية الحمراء) ثم سار في كثير من الفرسان إلى سورية سنة ١١٨٦م لمحاربة المسلمين، وعند مروره بقسطنطينية أحمده ثورة على اسحق ملك الروم وقتل رئيس العصاة فلقبه الملك بقيصر وزوجه باخته، فتركها في قسطنطينية وسار إلى فلسطين فوجد أهل صور عازمين على أن يستسلموا إلى صلاح الدين، ففوّى قلوبهم وشجعهم على القتال وولي أمرهم فراسله صلاح الدين بأنه يخلي سبيل أبيه ويقطعه ما شاء من الاقطاع بسورية إذا فتح له أبواب صور، وهدده بأن يقتل أباه إن لم يذعن لطلبه، فأجابه مزدرياً بكل هبة من قبله وإن مصلحة النصارى أهم عنده من حياة أبيه، وإذا قتل المسلمون شيخاً استسلم في الحرب فيفتخر بأنه ابن شهيد، وبهمة كونراد وشجاعته وتدييره لم يتمكن صلاح الدين من فتح صور مع بذله كل جده في ذلك. وقد تمكن كونراد بعد ذلك أن يخلص والده من الأسر لأن أهل صور أسروا أحد الأمراء المسلمين فأطلقه على شرط إطلاق أبيه وكان كذلك. وكان صلاح الدين عند فتحه تبين كما مرّ أقام جماعة من جنده على قلعة هونين يمنعون من حمل الميرة إليها فلما كان يحاصر صور أرسل من فيها يطلبون منه الأمان فأمنهم ونزلوا منها ووفى لهم بأمانهم.

وكان لما سار إلى عسقلان جعل على قلعة كوكب وهي مطلة على الأردن من يحصرها ويحفظ الطريق للمجتازين، وسيّر طائفة أخرى من العسكر إلى قلعة صفد فحاصروها وكان بعض الفرنج قد لجأوا إلى هاتين القلعتين عند انكسارهم بحطين، ففي ليلة كثر فيها الرعد والبرق والريح والمطر وثب الفرنج على المسلمين المحاصرين قلعة كوكب فقتلوهم جميعاً وأخذوا ما كان عندهم من طعام وسلاح وغيره وعادوا إلى قلعتهم، ففويوا بذلك وأمكنهم أن يحفظوا قلعتهم. وتخيّر صلاح الدين بذلك فعظم عليه لأخذ شوانيه في صور واضطراره إلى الرحيل عنها، ورتب على حصن كوكب جماعة أخرى من الجنود فحاصروها، وفي سنة ٥٨٤هـ سنة ١١٨٩م سار صلاح الدين من عكا إلى قلعة كوكب فحاصرها ونازلها، وكان يظن أن ملكها سهل، فلما رآها منيعة والوصول إليها متعذر سار منها إلى دمشق وترك عليها من يستدجم حصارها وحصار قلعة صفد والكرك لأنه كان قد ملك كل البلاد الساحلية من عكا إلى الجنوب ما عدا هذه الحصون وكان يؤد أن لا يبقى في وسطها ما يشغل قلبه أما الكرك فاستمرّ الملك العادل أخو صلاح الدين محاصراً لها حتى

فنيث أزواد الفرنج بها وأكلوا دوابهم وصبروا حتى لم يبق للصبر مجال، فراسلوا الملك العادل يطلبون الأمان فأمنهم وتسلم القلعة وما يجاورها كالشوبك وغيرها. وأما قلعة صفد فعاد إليها صلاح الدين بعد غزوته في الشمال وضائق أهلها وفرغ زادهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلم القلعة إلى صور ثم حاصر قلعة كوكب وصبر الفرنج فيها حتى أخذ النقاؤون ينقبون بسورها فاستسلموا إلى صلاح الدين فأمنهم وتسلم القلعة منهم وساروا إلى صور. روى كل ذلك ابن الأثير وقال: «اجتمع بصور من شياطين الفرنج وشجعانهم كل صناديد فاشتدت شوكتهم وحميت جمرتهم وتابعوا الرسل إلى المغرب يستغيثون ويستنجدون والامداد كل قليل تأتيهم وكان ذلك بتفريط صلاح الدين في إطلاق كل من حصره حتى عض بنابه ندماً وأسفاً حيث لم ينفعه ذلك.

عد ٨٤٠

غزوة صلاح في شمالي سورية

نروي أخبار هذه الغزوة عن ابن الأثير الذي قال إنه كان مع السلطان فيها. سار صلاح الدين من دمشق سنة ٥٨٤ هـ سنة ١١٨٩م ونزل على بحيرة قادس غربي حمص وطلب العساكر فأتته أولاً رجال عماد الدين زنكي صاحب سنجار ونصيبين والخابور، ثم تلاحقت الرجال من الموصل والجزيرة وغيرها وسار حتى نزل تحت حصن الأكراد، فأقام يومين وسار بكتيبة من الفرسان فدخل إلى بلاد الفرنج وأغار على صافيتا والعريمة ويحمور حتى وصل إلى قرب طرابلس وأبصر البلاد وعرف من أين يأتيها وأين يسلك منها ثم عاد إلى معسكره تحت حصن الأكراد وأتاه قاضي جبله وهو منصور بن تيبيل وكان مسموع الكلمة وله الحرمة البارزة عند ييموند أمير أنطاكية وهو يحكم على جميع المسلمين بجبله ونواحيها فاستدعى السلطان ليسلم جبله إليه، فسار صلاح الدين معه ونزل بانطرطوس (طرسوس) فأخلى الفرنج المدينة واحتموا في برجين حصينين فخرّب المسلمون دورهم ومساكنهم ونهبوا ما وجدوا ودكوا أحد الحصنين بعد طلب المحاصرين به الأمان وألقوا حجارته في البحر وترك صلاح الدين الحصن الآخر مخفوراً ورحل إلى مرقية وقد أخلاها أهلها وساروا إلى المرقب وفيها حصن لا تحدث أحداً نفسه

بملكه لعلوه ومنعته. واتفق أن صاحب صقلية من الفرنج سير نجدة في ستين شانية وكانوا بطرابلس ولما سمعوا بمسير صلاح الدين أتوا ووقفوا في البحر تحت المرقب ليمنعوا من يجتاز بالسهام. وكان هناك مضيق لا يسلكه إلا الواحد بعد الآخر ولما رأى ذلك صلاح الدين أمر بالطارقيات والجفتيات فصفت على الطريق مما يلي البحر من أول المضيق إلى آخره وجعل وراءها الرماة ليمنعوا الفرنج من الدنو إليهم فاجتاز المسلمون عن آخرهم حتى عبروا المضيق ووصلوا إلى جبلّة وتسلمها صلاح الدين وقت وصوله وتحصن الفرنج بقلعتها وما زال قاضي جبلّة يخوفهم ويرغبهم حتى استنزلهم بالأمان.

ولما فرغ السلطان من أمر جبلّة سار عنها إلى اللاذقية فترك الفرنج المدينة لعجزهم عن حفظها واحتموا بحصنين على الجبل فدخل المسلمون المدينة وحاصروا الحصنين ونقبوا الأسوار وعظم القتال فأيقن الفرنج العطب ودخل قاضي جبلّة يخوفهم فطلبوا الأمان فأمنهم صلاح الدين وكان أسطول صقلية الذي تقدّم ذكره وصل إلى اللاذقية ولما رأى تسليم أهلها سريعاً حنق عليهم وطلب مقدم الأسطول الأمان ليحضر عند صلاح الدين فأمنه وحضر وقال: إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج ما فعلت فدلوا فاتركهم يكونوا ممالكك وجندك تفتح بهم البلاد وترد عليهم بلادهم ولّا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فأجابه صلاح الدين مزدرياً بكل ما يجيء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابهم.

وسار صلاح الدين عن لاذقية وقصد قلعة صهيون وهي منيعة شاهقة صعبة المرتقى فحصرها وضائق من فيها وتجلدوا بالقتال ولكن أرغموا أخيراً على طلب الأمان فلم يجبههم صلاح الدين إليه أولاً ثم قرروا على أنفسهم قطعة كقطيعة أهل القدس فتسلم صلاح الدين الحصن فحصّنه وجعله أحصن الحصون ولما ملك قلعة صهيون تفرق جنده في تلك النواحي فملكوا حصن بالاطنوس وحصن العيد وغيرهما.

وسار صلاح الدين عن صهيون إلى قلعة بكاس فرأى الفرنج قد أدخلوها وتحصنوا بقلعة الشجر فملك قلعة بكاس ونازل قلعة الشجر فرآها منيعة وحصينة ورماتها بالمنجنقات فلم تصل الحجارة إليها وبقي المسلمون عليها أياماً لا يرون فيها مطعماً. وكان الفرنج الذين بها قد راسلوا ييموند أمير أنطاكية يستمدونه

لأنهم محصورون فلم يمدّهم فسلموا القلعة إلى صلاح الدين، فأقام بها أميراً اسمه قلج ورحل عنها إلى قلعة برزية وهي تقابل حصن أفايا (أباميا) وتناصفها في أعمالها وبينهما بحيرة من ماء العاصي وعيون تتفجر من الجبل. وكانت هذه القلعة منيعة جداً ولا يمكن أن تقاتل من جهة الشمال والجنوب إذ لا يمكن أن يُصعد على جبالها من هاتين الجهتين فنصب صلاح الدين عليها المنجنيقات من جهة المغرب فلم يؤثر بها، فأمر بالزحف وقسم عسكره ثلاثة أقسام حتى كلما كل قسم استراح وزحف الآخر، فأتعب الفرنج النهار كله، وأخيراً اختلط المتقاتلون ودخلت طائفة من عساكر المسلمين مع الفرنج إلى القلعة فملكوها وقتلوا وأسروا من فيها.

ورحل صلاح الدين إلى جسر الحديد الذي على العاصي بالقرب من أنطاكية وسار إلى قلعة درب ساك ورماها بالمنجنيقات، ثم زحف جنوده إليها وكشفوا الرجال عن سورها ونقبوا برجاً منها، فسقط واستمدّ أهل القلعة ييموند فطال الوقت ولم يمدّهم، فطلبوا الأمان من صلاح الدين فأمنهم على شرط أن لا يخرج أحد إلا بثيابه بغير مال ولا سلاح ولا أثاث. ثم أخرجهم وسيّرهم إلى أنطاكية وسار إلى قلعة بغراس وهي بالقرب من أنطاكية فحاصرها وضايقها حتى طلب أهلها الأمان فأمنهم على شرط تأمين أهل درب ساك.

وعزم صلاح الدين على حصر أنطاكية وخاف ييموند من ذلك فأرسل إلى السلطان يطلب الهدنة وبدل إطلاق كل أسير مسلم عنده، فاستشار صلاح الدين عماله في النواحي وغيرهم فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود الجنود ليستريحوا ويجددوا ما يحتاجون إليه، واتفق صلاح الدين وييموند على هدنة ثمانية أشهر أولها أول تشرين الأول وآخرها آخر أيار وأطلق ييموند الأسرى المسلمين وكان صاحب أنطاكية حينئذ أعظم الفرنج شأناً وأكثرهم ملكاً لأن الفرنج كانوا قد سلّموا إليه طرابلس وجميع أعمالها بعد موت ريموند صاحبها، وأقام بها ابنه وعاد صلاح الدين إلى حلب ثم سار إلى دمشق فدخل أول رمضان، فأشير عليه بتفريق العساكر فقال العمر قصير والأجل غير مأمون وقد بقي بيد الفرنج حصون كوكب وصفد والكرك فلا بدّ من أخذها وسار إليها وأخذها كما مرّ في الفصل السابق.

حملة الفرنج الثالثة على سورية

بعد أن ملك صلاح الدين أورشليم سبر الفرنج وفوداً كثيرين إلى الغرب يستنجدون ملوكه، ولما بلغت هذه الأخبار الغرب عمّ الحزن والكآبة سكانه وكان البابا أوربانس الثالث في فرارا (إيطاليا) وكان شيخاً فأخذ الحزن به كل مأخذ حتى مرض ومات في ١٩ تشرين الأول سنة ١١٨٧. وفي ٢١ من الشهر المذكور انتخب البابا غريغوريوس الثامن واهتم للحال بانجاد الفرنج في المشرق وأنفذ رسائل إلى ملوك الغرب وأساقفته يحضهم على إعانة إخوانهم، وأوفد رسلاً وقضاداً إلى الممالك يعظون بذلك. وسار إلى بيزا ليصلح بين أهلها وأهل جنوا، وكانت هاتان المدينتان حيثل متوفرة فيهما الثروة والقوة بحراً وبراً، ولكن دهمته النية هناك في ١٦ كانون الأول تلك السنة فانتخب للكرسي الروماني البابا أكليمنضس الثالث. ومذ ارتقائه إلى السدة الحبرية العظمى أمر بتقديم التضرعات لله لإيقاع السلم والصلح بين ملوك الغرب ولنجاة كنائس الشرق وأرسل وفوداً إلى الملوك والأمراء دعاة يدعون الناس إلى التجند لانجاد الفرنج في المشرق وكان في جملة هؤلاء الدعاة أسقف اسمه غوليلمس قال بعضهم إنه غوليلمس أسقف صور صاحب التاريخ، وقال غيرهم إن صاحب التاريخ كان قد مات من قبل وهذا غوليلمس آخر، وأسند هؤلاء رأيهم إلى قول أحد مكملتي تاريخ غوليلمس الصوري. وأياً كان هذا فبعد أن أوقد نار الغيرة بإيطاليا سار إلى فرنسة وشهد اجتماعاً التقى به أنريكس الثاني ملك إنكلترا وفيليبوس أغوسطوس ملك فرنسة وكانت بينهما عداوة شديدة، فخطب هذا الداعي خطبة حملت المجتمعين على التفجع واستنزفت الدموع من جميع العيون، حتى قام الملكان المتحاربان وعانق أحدهما الآخر وبكيا واتفقا أن يسيرا إلى المشرق، وأخذوا حينئذ الصليب شعار الصليبيين وتبعهما كثيرون من الأمراء والولاة والأعيان، وأجمع الأمراء والأساقفة على فرض ضريبة سموها عشور صلاح الدين يتحتم بها على من لا يسير بهذه الحملة أن يؤدي عشر مدخوله وعشر قيمة أثائه إلى اللجان المقامة لجباية هذه الفريضة بموجب نظام سنوه لذلك. وأما ملك إنكلترا فدعا أغنياء مملكته وأمرهم أن يؤدوا عشر دخلهم ومن تردد عن ذلك ألقاه في السجن، فنشأ عن ذلك بعض القلق. ثم استؤنفت العداوة بين ملكي إنكلترا وفرنسة واجتمعا بتحريض الأساقفة والأعيان في محل الاجتماع الأول فلم يتوافقا إلى أن مات

أنريكس الثاني ملك إنكلترا وخلفه ابنه ريشار الملعب بقلب الأسد سنة ١١٨٩م، وتذكر يمين أبيه على إنجاد نصارى الشرق فجّد في التأهب لهذه الحملة، فنشأت في الإنكليز حمية شديدة لتخليص الأرض المقدّسة، لكنهم ابتدأوا في اضطهاد اليهود فقتلوا جمّاً غفيراً في لندره ويورك. فالحاجة إلى المال في هذه المهام واحراز اليهود من ذلك العصر أكثر ثروة البلاد الساكنين بها كانا يحملان الناس متواتراً على الاستعانة بأموالهم لسد الفاقة الماسة. واجتمع ملك فرنسة وملك أنكلترا وقررا أن يكون سفرهما بحراً، وفرضا نظاماً يستسير الجنود بمقتضاه، وفي جملته منع النساء من السفر إلى فلسطين، وحلف أحدهما للآخر على حفظ الأمانة والصدقة ما داما حيّين. وقررا أن يسافر ملك فرنسة من جنوا وملك انكلترا من مرسيليا، فسافر ملك فرنسا من جنوا في ٣٠ آذار سنة ١١٩١م وبلغ إلى شواطئ فلسطين في ١٣ نيسان من السنة المذكورة، وسافر ريشار ملك انكلترا من مرسيليا إلى مسينة في صقلية ثمّ سار من مسينة في ١٣ نيسان من تلك السنة، فثار بأسطوله عاصف شديد نسف ثلاث شوانٍ على ساحل لاميسون بقبرص، ومن نجا من الغرق وقع على الشاطئ بدهية أقسى من العاصف فان اسحق كومنانس ملك الروم كان هناك وكانت قبرص من أملاكه وقد حالف صلاح الدين، فقبض على أولئك المساكن عند خروجهم من الماء وألقاهم في السجن ليموتوا جوعاً. ووصل إلى هناك مركب آخر يقل أخت ريشار الملك وخطيبته بنت ملك نافرا فلم يؤذن لهما بالدخول إلى الميناء، وإذ أقبل الملك ريشار بعدة من شواني أسطوله خلصهما وطلب من ملك الروم إطلاق من سجنهم من الإنكليز فأبى بل هدد ملك الإنكليز بأن يعامله كذلك إن وضع رجله في جزيرته، فاستشاط ريشار وأمر بنزول عساكره إلى البر فقتلوا كثيرين من الروم وهزموا الباقين وفي جملتهم ملك الروم، ثمّ أوقعوا بالروم وقعة أخرى حتى اضطّر ملك الروم أن يذعن لكل ما شرطه ملك الانكليز وحلف له يمين الأمانة، وأقرّ له بمملك قبرص. ولما مان بيمينه أسره وكبله بقيود من فضة وملك الجزيرة كلها. ثمّ سار بحراً إلى سورية فالتقى بإحدى شواني المسلمين مشحونة بالرجال والأسلحة والزاد ففرقها بعد قتال شديد وبلغ إلى عكا في ٨ حزيران سنة ١١٩١م.

وأما ألمانيا فقد تكاثر وفود الفرنج من سورية إليها وأرسل الحبر الروماني كثيرين من الرسل والدعاة إلى نواحيها، وهبّت الحمية في أهلها بعد رقدتها وأخذ ملكها فريدريك برباروسا (أي الأحمر اللحية) يتأهب للمسير إلى الأرض المقدّسة، وينتقي

نخبة الرجال لمعيته . وقام قائد جيشه بجمع الآتين تحت رايته في راتيزبون من عيد الميلاد إلى نصف الصوم، وسار الملك بحاشيته قرب عيد العنصرة سنة ١١٨٩م. وقبل مسيره أنفذ وفوداً إلى الأمراء النصارى والمسلمين الذين سوف يمر ببلادهم حتى كاتب صلاح الدين، وكان قد سبق له مخابرة معه، فقال له في رسالته لا أقدر أن أبقي صديقاً لك ومملكتي تائرة عليّ ان لم تتخلّ عن أورشليم وترد خشبة الصليب، فلم يكن جواب صلاح الدين إلّا إعلاناً للحرب. وكاتب أيضاً قليج إرسلان سلطان قونية وكان أصحابه يقولون إنّه تابع لبدعة الفلاسفة، ويظنّ في أوروبا أنّه تنصّر وقد حفظت رسالة من البابا اسكندر الثالث يشير عليه بها كيف يتدبر بأمر تنصّره. وكان ملك الروم قد تزلف إلى ملك ألمانيا فأرسل يخبره بمسيره في عسكره، ويقال إنّ ملك الروم اتّفق حيثنّذ مع صلاح الدين على محاربة الفرنج. وعند اجتياز الملك فريدريك بجيشه بالنمسا والمجر لم يلق إلّا التكريم وتقدمة الأزواد لجيشه، ولكن لما بلغ بلغاريا اضطّرّ جيشه أن يسير في الغابات ويتحمل المشاق والدفاع حتى قتل البلغاريون من تخلف من الجيش أو وجدوه مريضاً. ولما بلغ الملك فريدريك إلى فيليبوبولي عرف أنّ الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى قسطنطينية طرخوا في السجن ولم يخل سبيلهم إلّا بعد عدة أسابيع، وعند عودهم إلى المعسكر أخبروا بما رأوا من عزم الملك اسحق والروم على قطع الطريق على الصليبيين، فأخذ الملك فريدريك ادرنة وكاليبولي وكل مدن الساحل وطلب من البندقية وأنكونا وجنوا شواني كبيرة وصغيرة لحصر قسطنطينية، فذلّ حيثنّذ ملك الروم وتواضع ووقع على معاهدة بينه وبين الملك فريدريك وأذعن لكل ما طلبه هذا الملك منه، وحلف اليمين في كنيسة القديسة صوفيا هو وأعيان مملكته على أنّه يحفظ كل ما وقع عليه من الشروط، وقدم رهائن لملك ألمانيا على صحة يمينه، لكنه كتب إلى صلاح الدين يقول أنّ حجاج الغرب أصبحوا عاجزين عن المضرة به وانه قطع أجنحة انتصارهم. وكان سلطان قونية قد أرسل رهائن لملك ألمانيا فأمسكهم في قسطنطينية واجتاز الألمان البحر عند كاليبولي وبلغوا اللاذقية بأسيا الصغرى.

وفي سفر الألمانين من اللاذقية إلى قونية رسائل عديدة كتبها من كانوا في ذلك العصر واختار ميشود رسالة كتبها أحد المسافرين مع الملك فريدريك إلى الحبر الروماني وأثبت ملخصها، ومنها يتبين ما قاسوه من المشاق في هذا السفر وما عانوه من الحرب وكانوا فيها ظافرين، وما أصابهم من الجوع وحربهم مع قليج إرسلان

سلطان قونية وأخذهم مدينته، ولم يبقوا فيها إلا يومين وساروا نحو بلاد النصارى. فأرسل أمير أرمينية إلى الملك فريدريك وفوداً يستعطفه ويعد بامداده وانجاده له، على أن يسيرهم في طرق جبل طورس الوعرة ومضايقه المحفوفة بالمخاطر من كل جهة قد انتهكهم وأضناهم وأنقص عديدهم وبلغوا بشق النفس إلى أطراف كيلىكيا، وحيّموا في جانب نهر فقيل إن الملك نزل يستحم به فغرق، وقيل وقع في الماء وهو عابر النهر فنشل منه ولا روح فيه فعظم المصائب وعمّت الكتابة العسكر عن آخره وتولاهاهم اليأس فعاد بعضهم إلى بلادهم وتاه بعضهم في البرية وأسف جميع مؤرخي ذلك العصر كل الأسف على وفاة هذا الملك وأذهلتهم أسرار العناية الربانية.

وسار من بقي من العسكر والحزن ملء قلوبهم يحملون جثة من كان يحملهم على الشجاعة والنخوة واختاروا أميراً عليهم فريدريك دوك دي سواب، وانقسموا في سيرهم قسمين فريق أخذ طريق أنطاكية وبلغوا إليها فأصابهم وباء أهلك كثيرين، منهم وفريق سار في طريق حلب فوثب عليهم المسلمون وقتل من نجا منهم حتى أن هذا الجيش الذي سار من أوطانه وهو لا يقل عن مئة ألف مقاتل لم يبلغ منه إلى فلسطين إلا نحو خمسة آلاف مقاتل سنة ١١٩٠م. وأما جثة فريدريك ملكهم فمن قائل إنها دفنت في أنطاكية ومن قائل بل دفنت في صور (انتهى ملخصاً عن كثيرين من مشاهير المؤرخين). واستعظم ابن الأثير حملة الفرنج هذه وشدة حميتهم وغيرتهم وتوافر عديدهم، وقال في ملك الألمان خاصة: «ولولا الله تعالى لطف بالمسلمين وأهلك ملك الألمان لما خرج على الشام والا كان يقال إن الشام ومصر كانتا للمسلمين». وأثبت أن ملك الروم أخبر صلاح الدين بقدم الألمان ووعده أنه لا يمكنهم من العبور ببلاده، ولما وصل ملكهم عجز عن منعه ووجدت رسالة من صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد يتبين منها هلهة وشكواه من كثرة الفرنج الوافدين في كل يوم إلى الشام، وقال إنه كلما قتل واحداً منهم أتى ألف.

عد ٨٤٢

حصار الفرنج عكا

إن صلاح الدين كان قد أبقي لوسينيان ملك أورشليم مكبلاً بقيوده، ولما أخذ الكرك وحصني كوكب وصفد خلى سبيله بعد أن أكرهه على أن يحلف يميناً بالإنجيل على أنه يتخلّى عن ملك أورشليم ويسير إلى أوروبا، فاستفتى لوسينيان

العلماء في يمينه فأفتوه أنها لا تلزمه لصدورها عن اكراه، ولأنّ الحيلة تدفع بحيلة، ولأنّ صلاح الدين كان قد حلف لأهل عسقلان أن يطلق ملكهم فلم يطلقه حيثئذ، وكان صلاح الدين نفسه يعلم أنّ ملك أورشليم لا يبرّ يمينه ولم يطلقه إلّا خوفاً من أن يختار الفرنج ملكاً أشدّ بأساً منه، أو لأمله أن يختلفوا في إقامة ملك عليهم. وأتى لوسينيان إلى صور فلم يشأ كونراد الذي كان قد حفظها وملكها أن يعرفه ملكاً فطاف لوسينيان في ملكه يصحبه بعض الأمناء له فجهز نحواً من تسعة آلاف مقاتل وأتى فحاصر عكا. وهذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك في تاريخ سنة ٥٨٥هـ سنة ١١٩٠م. قد اجتمع في صور خلق كثير من الفرنج ووصل منهم في البحر عالم لا يحصون كثرة وساروا إلى عكا ونازلوها وضايقوها وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر ولم يبق للمسلمين إليها طريق فسار إليهم السلطان صلاح الدين وقتلهم وحمل تقي الدين عمر صاحب حماة من ميمنة السلطان عليهم فأزالهم عن موقفهم والزق بالسور وانفتح الطريق إلى المدينة، فأدخل السلطان عسكرياً إليها نجدة وبقيت الحرب سجّالاً، ثم صافوا السلطان وحملوا على قلب جيش المسلمين فأزالوه وأخذوا يقتلون في المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السلطان فانهزوا إلى جانب وانضاف إليه جماعة وعطف على الفرنج الذين خرقوا القلب فأفنوهم قتلاً وكانت قتلهم نحو عشرة آلاف نفس، وانهزم بعض المسلمين عند خرق القلب ووصل بعضهم إلى طبرية وبعضهم إلى دمشق وحصل للسلطان قولنج فأشار عليه الأطباء بالانتقال من ذلك المحل فرحل عن عكا إلى الخروبة، فتمكن الفرنج من حصر المدينة وانبسطوا في تلك الأرض ووصل أسطول المسلمين إلى عكا وتمكن من إنزال عسكري إليها ووصل الملك العادل أخو السلطان بعسكر مصر فقويت قلوب المسلمين.

ثم دخلت سنة ٥٨٦هـ سنة ١١٩١م وعاد السلطان من الخروبة إلى عكا وكان الفرنج قد عملوا قرب سور عكا ثلاثة أبراج من خشب وشحنوها بالسلح والمقاتلين، فتحيل المسلمون وأحرقوا البرج الأول وألقوا به البرجين الآخرين، ووصل إلى السلطان العساكر من كل البلاد وكان ملك الألمان سار من بلاده بمائة ألف مقاتل، واهتم المسلمون لذلك وايسوا من الشام بالكلية فسلط الله على الألمان الغلاء والوباء فهلك أكثرهم في الطريق، ولما وصل ملكهم إلى بلاد الأرمن نزل في نهر هناك يغتسل ففرق وأقاموا ابنه مقامه فرجع من عسكريه جماعة إلى بلادهم ولم يصل منهم إلى عكا غير نقدير ألف مقاتل مع ابن ملك الألمان (الذي في كتب

الفرنج أنّ أنريكس السادس ابن فريدريك ملك ألمانيا لم يسر إلى فلسطين والذي سار في الألمان إلى عكا إنّما هو فريدريك دوك سواب) وكثرت المناوشات بين السلطان والفرنج على عكا وخرجوا ذات يوم من خنادقهم بالفارس والراجل وأزالوا الملك العادل عن موضعه فعطف عليهم المسلمون وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، فعادوا إلى خنادقهم ولولا مغص أصاب السلطان لكانت هذه الواقعة هي الفيصلة. وقوي الشتاء واشتدّت الرياح فأرسل الفرنج مراكبهم عن عكا إلى صور خوفاً عليها أن تتكسّر فانفتحت الطريق إلى عكا في البحر وأرسل البديل إليها فكان الخارجون منها أضعاف الداخلين إليها فحصل التفريط بذلك لضعف البديل.

وفي سنة ٥٨٧هـ سنة ١١٩٢ أحاط الفرنج بعكا من البحر إلى البحر وحفروا عليهم خندقاً فلم يتمكن السلطان من الوصول إليهم واشتدّ حصارهم لعكا وطال وضعف من بها عن حفظها، وعجز صلاح الدين عن كف العدو عنهم فخرج الأمير سيف الدين علي بن المشطوب وطلب الأمان من الفرنج على مال وأسرى يقومون به للفرنج فأجابوهم إلى ذلك، وظهرت أعلام الفرنج على عكا وحبسوا المسلمين في أماكن من البلد، وقالوا إنّما نجسهم ليقوموا بالمال والأسرى وصليب الصلבות، (خشبة الصليب التي كان المسلمون أخذوها) وكتبوا إلى صلاح الدين فحصل ما أمكن تحصيله من المال وطلب منهم إطلاق المسلمين فلم يجيبوه إلى ذلك، وقتلوا كثيرين منهم واستمروا بالباقيين في الأسر. وبعد تقرير أمر عكا رحل الفرنج عنها إلى قيسارية. (انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم ولا سيما أبو الفداء).

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك. أنّ الفرنج أخذوا في حصار عكا في غاية آب سنة ١١٨٩م ودام الحصار نحو سنتين، وكان مع لوسينيان عند أول حصارها نحو تسعة آلاف مقاتل ثم وصلت شواني أهل بيزا (إيطاليا) واحتلوا على شاطئ البحر، وفي اليوم الثالث بعد وصولهم هاجموا المدينة وأقاموا السلام على الأسوار وأوشكوا أن يأخذوها حينئذٍ لولا شيوخ الخبر بوصول صلاح الدين والانكفاف عن وثبتهم رهبةً وذعراً، ثم رأوا أسطولاً مقبلاً فإذا به اثنتا عشر ألف مقاتل من فريز والدانيمرك وأسلحة وأزواد، وتلا هذا الأسطول أسطول آخر يقل كثيرين من إنكلترا وفلاندر، وعرف صلاح الدين بكثرة نجدات الفرنج فترك غزوته في فينيقيا وسار إلى عكا وحلّ على جبل قريب إليها، وهاجم المسلمون الفرنج مرات فلم يستطيعوا أن يزيلوهم عن مواقعهم ف ضرب صلاح الدين مصافاً عاماً

وأرغم الفرنج أن يتركوا موقفهم في شمال المدينة، وأتصل إلى أسوار المدينة وأخذ بعض حرسها، وحصر الفرنج في معسكرهم، ورتب المدينة وأقام فيها نخبة من رجاله وعاد إلى معسكره. وحفر الفرنج خنادق حول معسكرهم فهاهنا ذلك المسلمين وروعهم وفود مراكب الفرنج كل يوم، وأتى حينئذ الصليبيون من مدن إيطاليا ثم من شمبانيا وغيرها من أعمال فرنسة، ثم من ألمانيا. وجهاز كونراد مركيس صور أسطولا وعسكراً وانضاف إلى الصليبيين حتى كان حول عكا أكثر من مائة ألف مقاتل، ولم يكن ملكا فرنسة وإنكلترا وصلا بعد، فأشار على صلاح الدين بعض حاشيته أن يتنحى من وجه هذا الجيش العرمم، وكان مصاف في السهل الفسيح الكائن بين المعسكرين، وكان الفرنسيون والفرسان الاسبتاليون بامرة ملك أورشليم وكتاب الإنجيل يحمله أربعة فرسان أمامه، وكان البنادقة واللمبرديون وعسكر صور على ميسرة الجيش وكان في القلب الألمان والبيزاويون والإنكليز، وكان رئيس فرسان الهيكل وغيره مع العسكر المستحفظ الذي يسير حيث تدعوه الحاجة، واصطف أمامهم المسلمون فكسرت في أول كرة ميسرة جيش المسلمين التي كانت بامرة تقي الدين ابن أخي السلطان وبلغ بعض الفرنج إلى خيمة صلاح الدين وانهمز كثير من المسلمين حتى طبرية، وفر العبيد من معسكر المسلمين وانتهبوا ما كان فيه. على أن الفرنج اشتغلوا بالنهب عن القتال وتشتتوا فعطف عليهم المسلمون وقتلوا كثيرين منهم. ودنا فصل الشتاء فأشار على صلاح الدين أمراء جيشه أن يريح عسكره ويستريح هو مدة فمضى صلاح الدين فأقام مع عسكره في المحل المدعو الخروبة. فحسب الفرنج هذه العزلة عن الحرب خوفاً وانسطوا في أنحاء عكا وحصنوا في هذه المدة مواقفهم واصطنعوا ثلاثة أبراج من خشب ولما انقضى الشتاء عاد صلاح الدين من الخروبة ومعه عساكر الجزيرة وسورية وعادت نار الحرب تتأجج، فأحرق المسلمون الأبراج المذكورة، وبعد مغالبات كثيرة بين الفرنج والمسلمين ووصل ملك إنكلترا وملك فرنسة وبقايا عسكر ملك ألمانيا إلى عكا فارتاع المسلمون وضايقهم الفرنج وأصاب صلاح الدين مرض أعجزه عن أن يشهد الحرب مع جنوده، فطلب المسلمون الأمان فأجابهم الفرنج إليه وتسلم الفرنج عكا في ١٣ تموز سنة ١١٩١م بعد حصارها نحو سنتين. وكان من شروط الصلح أن يطلق صلاح الدين الأسرى النصاري ويطلق الفرنج الأسرى المسلمين وأن يدفع إلى الفرنج مايتي ألف دينار، وأن يرد عليهم خشبة الصليب. وانقضى زمان ولم ينجز صلاح الدين

وعده فهدده الفرنج بقتل المسلمين الذين في حوزتهم إن أخلف وعده، ولما لم يجيبهم إلى طلبهم أخذوا ألفين وسبعماية أسير وقتلوهم قرب محلة صلاح الدين، فخرج عليهم المسلمون وقتلوهم ولم تكن جدوى من قتالهم. وقد ذكر المؤرخون المسلمون قتل هؤلاء الأسرى وسموهم شهداء. ولما رأى صلاح الدين أنه لا بد من استئناف الفرنج الحرب وخشي زيادة الانخزال خلى سبيل ألفي أسير من الفرنج ودفع إليهم مئتي ألف دينار ورد عليهم خشبة الصليب.

وفي مدة حصار عكا ماتت سبيليا بنت أموري الملك وزوجة لوسينيان ملك أورشليم وتوفي ولداها فكان ذلك سبباً للخلاف بين الفرنج، فان كونراد والي صور تزوج بايزبال أخت الملكة خلافاً لرسم الكنيسة لأنها كانت مزوجة، وأدعى الملك وأراد خلع لوسينيان وكان لكل منهما محازبون وكان في آخر الأمر أن ريشار ملك انكلترا أعطى لوسينيان قبرص وسماه ملكاً عليها وقام هو في مقام ملك أورشليم. وكان ملكا فرنسة وانكلترا يظهر أحدهما الوداد للآخر في أول الأمر ثم وقع بينهما التحاسد والغيرة، ومرض فيليب ملك فرنسة فحمله مرضه والتحاسد بينهما على العود إلى ملكه، فعاد في آخر تموز من السنة المذكورة وترك من جنوده عشرة آلاف مقاتل بامرة أوغو الثالث دوك بركونيا، فمات هذا الدوك في صور السنة التالية أي سنة ١١٩٢م وبقي ريشار ملك انكلترا وحده على إمرة الصليبيين. انتهى ملخصاً عن كثيرين منهم).

عد ٨٤٣

المدن التي أخذها الفرنج من المسلمين بعد فتح عكا

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك إنَّ الفرنج بعد تقريرهم أمر عكا ساروا نحو يافا فضايقتهم المسلمون في مسيرهم وأرسلوا عليهم من السهام ما كاد يحجب الشمس، ووقعوا على ساقتهم فأسروا جماعة وقتلوا جماعة، وعاد ملك الإنكليز إلى الساقة فحماها وجمعها فأخذ الفرنج قيسارية وساروا منها إلى أرسوف، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف وكان المسلمون قد سبقوهم إليها وحملوا عليهم عند وصولهم إليها حتى ألحقوهم بالبحر، فاجتمع الفرنج وحملت فرسانهم على المسلمين حملة رجل واحد فولوا منهزمين لا يلوي أحد على أحد، ووصلوا إلى سوق

المسلمين وقتلوا من السوق وغيرهم خلقاً كثيراً، ثم سار الفرنج إلى يافا وقد أخلاها المسلمون فملكها الفرنج. ثم رأى صلاح الدين تخريب عسقلان مصلحة لئلا يحصل لهما ما حصل لعكا، فسار إليها وأخلاها وخربها ورتب الحجارين في تفليق أسوارها، فدكها إلى الأرض ثم خرب حصن الرملة وخرب كنيسة اللد ثم سار إلى القدس ورتب أموره، وعاد إلى مخيمه بالنطرون ثم ترأسل الفرنج والسلطان في الصلح على أن يتزوج الملك العادل أخو السلطان بأخت ملك إنكلترا، ويكون للملك العادل القدس وكل ما بيد المسلمين من الشام، ويكون لامرأته عكا وكل ما بيد الفرنج، فأنكر القسيسون على أخت الملك ذلك إلا أن يتنصر الملك العادل، فلم يتفق بينهم حال. ثم رحل الفرنج من يافا إلى الرملة على عزم أن يفتحوا القدس وكان في كل يوم يقع بين المسلمين وبينهم مناوشات وعظم الخطب واشتد الحذر فكان كل ساعة يقع الصوت في العسكرين باللقاء، وأقبل الشتاء وحالت الأحوال والأمطار بينهما، وأعطى صلاح الدين الدستور لعسكره ليستريحوا وسار هو إلى القدس وأخذ في تحصينها وتجديد ما رث منها، وكان ينقل الحجارة بنفسه على فرسه ليقتردي به العسكر. وسار الفرنج من الرملة إلى النطرون قاصدين القدس، وكانت بينهم وبين المسلمين وقعات أسر في وقعة منها نحو خمسين فارساً من مشهوري الفرنج وعاد الفرنج، إلى الرملة لقطع المسلمين طريق الميرة عنها.

وفي سنة ٥٨٨هـ سنة ١١٩٣م رحل الفرنج نحو عسقلان وشرعوا في عمارتها وكان صلاح الدين بالقدس، وكان قتال شديد بينهم وبين المسلمين فاستولى الفرنج على حصن الداروم فخرّبوه ثم ساروا إلى القدس وصلاح الدين فيه، فبلغوا بيت نوبة ولم يكن عند صلاح الدين إلا بعض العساكر المصرية، ولما سمع صلاح الدين بقربهم فرق أبراج البلد على أمرائه، وسار الفرنج من بيت نوبة إلى قلونية وهي على فرسخين من القدس، فصبّ عليهم البلاء فعلم الفرنج أنه إذا نازلوا القدس كان الشر إليهم أسرع والتسلط عليهم أمكن، فرجعوا القهقري. ولما بعد الفرنج عن يافا ستر صلاح الدين سرية من عسكره إليها وقاربوها وكمنوا عندها فاجتاز بهم جماعة من فرسان الفرنج مع قافلة فخرجوا عليهم فقتلوا منهم وأسروا وغنموا، وعلم الفرنج أنّ بعض أمراء صلاح الدين عادوا إليه ولحققتهم العساكر الشرقية عسكر الموصل وعسكر ديار بكر وعسكر سنجار، واجتمعت العساكر بدمشق وأيقن الفرنج أنّ لا طاقة لهم بها إذا فارقوا البحر، فعادوا نحو عكا يظهرّون العزم على فتح بيروت فأمر

صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في العساكر الشرقية معارضاً للفرنج في مسيرهم إلى بيروت، وخيّم الأفضل بمرج عيون فلما بلغ الفرنج ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها.

ولما رحل الفرنج إلى عكا سار صلاح الدين إلى يافا في عسكر حلب وغيرها فنازلها وملكها عنوةً ونهبها المسلمون وغنموا ما فيها وقتلوا الفرنج وزحفت العساكر إلى القلعة وقاتلوا عليها آخر النهار وكادوا يأخذونها، فخرج البطريك وعدة من الفرنج ووعدوا المسلمين أن يسلموا إليهم القلعة بكرة غد، ولما كان الصباح أتتهم نجدة وأدركهم ملك إنكلترا فأخرج من يافا من المسلمين وبرز إلى ظاهر المدينة واعترض المسلمين وحمل عليهم فلم يتقدم إليه، وعاد صلاح الدين إلى الرملة لينظر ما يكون من الفرنج فلزموا يافا ولم يرحلوا منها.

وفي هذه السنة قتل كونراد صاحب صور. والذي رواه ابن الأثير أنّ صلاح الدين راسل مقدم الاسماعيليه وهو سنان ليرسل من يقتل ملك الإنكليز، وإن قتل المركيز صاحب صور فله عشرة آلاف دينار، فلم يمكنهم قتل ملك الإنكليز أو لم يره سنان مصلحة لذلك فخلو وجه صلاح الدين من الفرنج ويتفرغ للاسماعيلية، فعول إلى قتل المركيز وأرسل رجلين بزي الرهبان فقتلاه، ولما قتل ولي صور بعده كند (كونت) من الفرنج في داخل البحر يقال له الكند هنري.

وأما رواية المؤرخين الفرنج لأخبار هذه الأحداث فلا تختلف جوهراً عن رواية المؤرخين المسلمين لها، مع ذلك نورد ما روه بما أمكن من الإيجاز تحقيقاً للأخبار وطمعاً بالفائدة من زيادة التفصيل. قالوا إنّ النصارى بعد أن قرروا أمر عكا ساروا نحو يافا وعدد جيشهم نحو مائة ألف مقاتل بإمرة ريشار ملك إنكلترا، وكان لهم في مسيرهم مناوشات مع المسلمين الذين ما انفكوا يرمونهم بالسهام ويقطعون الطرق عليهم، ولم يكن عسكر الفرنج يتمكن من أن يسير أكثر من ثلاثة فراسخ في اليوم، ولما دنوا من قيسارية أصاب سهم الملك ريشار بفخذه وكان مسيرهم والبحر على يمينهم وعن شمالهم الجبل مشحون بجنود المسلمين، وبعد أن عبروا غابة أرسوف وجدوا في الصحراء هناك مئتي ألف مقاتل من المسلمين فاستعدّ الملك ريشار لقتالهم دون أن يتوقف عن المسير، فأمر جنده أن لا يتجاوزوا حد الدفاع إلّا أن يعلمهم بالهجوم، ثمّ ألحم بعض الفرسان الكماة الحرب فحمي وطيسها بين

الجميع وكان الملك ريشار يتسارع إلى حيث يرى حاجة إليه، وكان القتال شديداً والقسطل حالكاً وقد دنا المتحاربون بعضهم من البعض حتى قتل كثيرون من الفرنج بأيدي الفرنج أنفسهم لظنهم أنهم مسلمون. ودارت الدوائر على المسلمين حتى روى بهاء الدين المؤرخ المسلم الذي كان في هذه الحرب أنه لم يجد حول صلاح الدين إلا سبعة عشر مملوكاً من مماليكه، وسار الفرنج نحو أرسوف فأتى بعض المسلمين ووثبوا على ساقة جيشهم فعاد ريشار إليهم وشتت شملهم وخسر صلاح الدين في هذه الحرب ثمانية آلاف مقاتل والفرنج ألفاً. ولما رأى صلاح أن بعض الحصون الباقية بيده لا تتحمل شدة وثبات الفرنج وأنّ الرعب استحوذ على قلوب جنوده فلا يمكنهم حفظها عمد على دكها كما رواه المؤرخون المسلمون.

ووقع في هذه الأثناء ريشار ملك إنكلترا بخطر، ذلك أنه سار للصيد في غاب سارون ونام في ظلّ شجرة، فأسرعت شزيمة من المسلمين لقتله أو أسره، فعلا جواده وأخذ يدافع عن نفسه، واحتاطه الأعداء من كل جهة، فصاح أحد الفرسان من تبعته سماه المؤرخون غوليلمس براتل باللغة العربية: أنا الملك فانقذوني فانكفّ الأعداء عن الملك وأحاطوا بهذا الفارس وأسروه وأتوا به إلى صلاح الدين فأرسله إلى دمشق ففداه الملك بعشرة أمراء من أمراء صلاح الدين كانوا أسرى عند الفرنج.

وبعد أن ملك الفرنج يافا وجدّدوا أسوارها قصدوا أورشليم لكنهم رأوا أنه لا بدّ لهم قبل ذلك من أن يحصّنوا أسوار بعض المدن وشرعوا في تحصين عسقلان. وصادق هؤلاء المؤرخون على ما رواه المؤرخون المسلمون من محاولة الفرنج حينئذ فتح أورشليم واکراههم على الرجوع عن قصدهم وعودهم إلى يافا ثمّ مسيرهم إلى عكا واستيلاء صلاح الدين على يافا وعود الملك ريشار بجرأاً إليها وطرده المسلمين من المدينة وانتصاره على صلاح الدين في ظاهرها.

ومما رواه المؤرخون الفرنج أنه بينما كان الملك ريشار في عسقلان أتته الأخبار بأن أخاه يوحنا يغدر به ويريد أخذ ملكه منه، فجمع رجال مشورته وأنبأهم بما كان وعالهم بأنّ مصلحة ملكه تضطره إلى ترك الشرق، وقال إن تركت فلسطين تركت فيها ثلاث مئة فارس وألفي رجل من نخبة جيشي، فأسف جميعهم لاضطراره أن يرحل فلسطين في هذه الحال وسألوه أن يختار قبل سفره ملكاً لأورشليم يجمع القلوب إليه ويزيل الخلاف، فقال من ترون أهلاً لذلك فأجمع رأيهم على المركيس

كونراد والي صور، ولم يكن الملك يحبه بل كان يقدر شجاعته ودبرته حق قدرهما، فرضيه وأرسل ابن أخيه كونت شمبانيا يشره بذلك. وكان كونراد عقد سراً مع صلاح الدين معاهدة واتفقا معاً فدهش من اختيار ريشار له ملكاً، ولم يقدر أن يخفي سروره، ولكي يرى نفسه ويظهر ورعه رفع عينيه إلى السماء فقال: «إلهي ملك الملوك مر بتتويجي ملكاً إن رأيتني أهلاً وإلاً فابعد عن رأسي هذا الإكليل». وبعد أيام قليلة كان مقتل كونراد كما ذكره المؤرخون العرب ووقعت أنظار أهل صور على هنري كونت شمبانيا. وكان هنري نسيباً لريشار ملك إنكلترا وفيليب ملك فرنسا وسأله أن يملك فيهم وأن يتزوج أرملة كونراد إيزبال بنت الملك أموري، وقدمت له إيزبال نفسها مفاتيح مدينة صور فتزوجها وعرفه الفرنج ملكاً عليهم، وأثبتته ريشار وتخلّى له عن كل ما أخذه في فلسطين. ورأى ريشار أنّ مصلحة مملكته تقضي عليه بالرجوع إليها، ورأى صلاح الدين أنّه لا طاقة له على حرب الفرنج وريشار الملك فعزم الفريقان على عقد هدنة بالشروط الآتي ذكرها، وسار ريشار عائداً إلى بلاده وكان نجاحه في الشرق وإسأته إلى كثيرين من الفرنج في سورية قد جعلاً له أعداء في كل مملكته. ولذلك لما قذفت الريح شوانيه في دلماسيا قبض عليه ليوبولد دوك النمسا وأراد أن يبيعه وتقدّم أعداؤه لشراؤه ولاسيما أنريكس السادس ملك ألمانيا، فانتصر له الحبر الروماني وحرّم كل من يهينه فخلّى سبيله وعاد إلى ملكه. (انتهى ملخصاً عن كثيرين وبعضهم من الشهود العيانين).

عد ٨٤٤

الهدنة التي عقدت بين الفرنج والسلطان صلاح الدين

هذا ما قاله المؤرخون المسلمون. في ٥٥٨ هـ سنة ١١٩٣ م عقدت هدنة بين السلطان صلاح الدين وملك الفرنج وسبب ذلك أنّ ملك الانكليز كاتب الملك العادل يسأله الدخول على السلطان في الصلح فلم يجبههم السلطان إلى ذلك ثم اتفق رأي الأمراء على ذلك لطول البيكار وضجر العساكر ونفاذ نفقاتهم، فأجاب السلطان إلى ذلك واستقرّ أمر الهدنة في يوم السبت ثامن عشر شعبان الموافق أوّل أيلول وتحالفوا على ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان (٥ أيلول)، ولم يحلف ملك الإنكليز بل أخذوا يده وعاهدوه، واعتذر بأنّ الملوك لا يحلفون

وقع السلطان بذلك وحلف الكند (الكونت) هري (هنري) ابن أخيه وخليفته في الساحل، وكذلك حلف غيره من عظماء الفرنج واستحلفوا الملك العادل أخا السلطان والملك الأفضل والظاهر ابني السلطان، والملك المنصور صاحب حماه محمّد بن تقي الدين عمر، والملك المجاهد شيركوه صاحب حمص، والملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك وغيرهم من الأمراء والمقدمين الكبار. وعقدت هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدّتها ثلاث سنين وثلاث أشهر. وعن ابن الأثير ثمانية أشهر وكانت الهدنة أن يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وعكا وعملها وحيفا وعملها وأن تكون عسقلان خراباً، واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في عقد هدنته واشترط الفرنج دخول صاحب أنطاكية وصاحب طرابلس في عقد هدنتهم وأن تكون اللد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين، فاستقرّت القاعدة على ذلك وأذن السلطان للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وتفرقوا، ثم رحل السلطان إلى القدس وتفقد أحواله وأمر بتشييد أسواره وزاد في وقف المدرسة التي عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند (سانت) حنه يذكرون أنّ فيها قبر حنه أم مريم، ثم صارت في الإسلام دار علم قبل أن يملك الفرنج بالقدس، ولما ملكوا القدس أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة وفوض تدريسها ووقفها إلى القاضي بهاء الدين بن شداد، ولما استقرّ أمر الهدنة أرسل مائة حجار لتخريب عسقلان وأن يخرج من بها من الفرنج ورحل السلطان عن القدس إلى نابلس ثم إلى ييسان ثم إلى كوكب ثم إلى طبرية ثم إلى بيروت ووصل إلى خدمته ييموند صاحب أنطاكية فأكرمه السلطان وسار إلى دمشق وفرح الناس به وأقام العدل والإحسان بدمشق وأعطى العساكر الدستور (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وقد وافق المؤرخون الفرنج المؤرخين المسلمين على ذلك، وقالوا إنّ مدّة الهدنة ثلاث سنين وثمانية أشهر كما ذكرها ابن الأثير، وأنّ القدس يكون بابه مفتوحاً لزيارة الفرنج يحجون إليه دون سلاح وأنّ مدن الساحل من يافا إلى صور تكون يدهم، وكان كل من الفريقين يدعي عسقلان، وقّر الأمر أخيراً أن تكون خراباً وحلف رؤساء جيش المسلمين على القرآن ورؤساء جيش الفرنج على الإنجيل، وصادقوا على أنّ ريشار الملك لم يحلف بل أخذ يد المفوضين بعقد الهدنة. وبعد استقرار الهدنة سار من الفرنج من قصدوا العود إلى أوروبا يحجون إلى القبر

المقدّس الذي لم يتمكّنوا من إنقاذه، فدخلوا المدينة أفواجاً دون سلاح، وبذل صلاح الدين مجهوده في رعاية حق الضيافة لهم وأرسل الملك ريشار أسقف ساليسوري ليحج عنه، فعامله صلاح الدين بالتجلة والتكريم وحادثه ملياً في شأن الحرب المقدّسة.

عد ٨٤٥

وفاة السلطان صلاح الدين ومن ملك بعده

كان صلاح الدين بعد عقد الهدنة مع الفرنج تحسن له نفسه أن يغزو إلى آسيا الصغرى ويأخذ ما فيها للمسلمين وللملك الروم ويفتح قسطنطينية ويتطرق إلى الفرنج ببلادهم، فأنه كان يألف التعب ويأنف الراحة، وخرج إلى شرقي دمشق متصيداً وغاب خمسة عشر يوماً وعاد ثم خرج للتمقّي الحجاج ورجع بين البساتين إلى القلعة وكانت هذه آخر ركباته فقد أصابته حمى وأخذ المرض في التزايد، وقصده الأطباء فلم تنجع به أدويتهم وغشي الناس من الحزن والبكاء عليه ما لا يمكن حكايته وتوفي ليلة السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ سنة ١١٩٤م ودفن في قلعة دمشق في الدار التي كان مريضاً فيها، ثم عمل الملك الأفضل تربة قبالة الجامع وكانت داراً لرجل صالح ونقل رفاته إليها سنة ٥٩٢هـ سنة ١١٩٧م، وكان مولد صلاح الدين بتكريت سنة ٥٣٢هـ سنة ١١٣٨م فيكون عمره عند وفاته ٥٧ سنة هجرية، وكانت مدّة ملكه للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة وملكه الشام قريباً من تسع عشرة سنة، وخلف سبعة عشر ولداً ذكراً وبتناً واحدة، وكان أكبر أولاده الأفضل نور الدين ملك بدمشق بعده، والبنت تزوجها بعد وفاته ابن عمها الملك الكامل صاحب مصر، ولم يخلف صلاح الدين في خزائنه غير سبعة وأربعين درهماً. وهذا دليل قاطع على فرط كرمه، ولم يخلف داراً ولا عقاراً وقيل إنّه قبل وفاته أمر أحد أمرائه أن يطوف بدمشق بكفنه منادياً هذا ما يأخذه صلاح الدين فاتح المشرق من فتوحه. وكان حسن الخلق صبوراً على ما يكره كثير التفاعل عن ذنوب أصحابه يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه وكان طاهر المجلس فلا يذكر أحد في مجلسه أحداً إلا بالخير.

ولما توفي صلاح الدين استقرّ في الملك بدمشق وبلادها ولده الملك الأفضل نور

الدين علي، وبالديار المصرية ولده الملك العزيز عماد الدين عثمان، وبحلب ولده الملك الظاهر غياث الدين غازي، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب، وبحماة وسلمية والمعة ومنبج الملك المنصور ناصر الدين محمّد بن الملك المظفر تقي الدين عمر، وبعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه من أنسابه، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمّد بن شيركوه إلى غير هؤلاء. والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان صلاح الدين والمعهود إليه بالسلطنة. واستوزر ضياء الدين ابن الأثير مصنف المثل السائر وهو أخو عز الدين ابن الأثير مؤلف التاريخ السميّ بالكامل، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه إلى أخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب. ولما اجتمع أكابر الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد في السلطنة ووقعوا في أخيه الأفضل ملك دمشق فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز.

عد ٨٤٦

بعض الأحداث إلى نهاية هذا القرن

في سنة ٥٩٠ هـ سنة ١١٩٥ م استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز صاحب مصر والأفضل صاحب دمشق ابني صلاح الدين فسار العزيز في عسكر من مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق، فأرسل الأفضل يستنجد عمّه العادل وأخاه الظاهر صاحب حلب وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده، وأقبل الملك الأفضل بدمشق على شرب الخمر وسماع الأغاني والأوتار ليلاً ونهاراً، وأشاع ندماءه أنّ عمّه الملك العادل حسن له ذلك وكان يعلمه خفية، وفوض الأفضل أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير الجزري يديرها برأيه الفاسد ثمّ أظهر الأفضل التوبة عن ذلك وأزال المنكرات وواظب على الصلوات وشرع في نسخ مصحف بيده.

وفي سنة ٥٩١ هـ سنة ١١٩٦ م عاود الملك العزيز صاحب مصر قصد الشام ومنازلة أخيه الملك الأفضل فسار نحو دمشق فاضطرب عليه بعض عسكره وفارقوه، فعاد إلى مصر بمن بقي معه وكان الملك الأفضل قد استنجد بعمه الملك العادل، فلما رحل أخوه العزيز إلى مصر تبعه الملك الأفضل والملك العادل ومن انضمّ إليهما

طالبين مصر فساروا حتى نزلوا على بلبس، وقد ترك العزيز فيها جماعة من الصلاحية فقصده الملك الأفضل مناجزتهم بالقتال فمنعه عمه الملك العادل، وقصده الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه العادل أيضاً وقال بمصر لك متى شئت وكاتب العادل العزيز بالباطن وأمره بارسال القاضي ليصلح بين الأخوين فأصلح بينهما وأقام الملك العادل عند العزيز بمصر وعاد الأفضل إلى دمشق ولزم الزهد والقناعة وترك الأمر لوزيره المذكور فكثير شاكوه وقلّ شاكره.

وفي سنة ٥٩٢هـ سنة ١١٩٧م بلغ الملك العادل والملك العزيز بمصر اضطراب الأمور على الملك الأفضل بدمشق فاتفقا على أن يأخذا دمشق من الأفضل ويسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة للملك العزيز بسائر البلاد كما كانت لأبيه صلاح الدين، فخرجوا من مصر حتى نزلوا على دمشق وكان الملك الأفضل قد حصنها وكاتب الملك العادل بعض الأمراء من داخل البلد وصاروا معه ووعدوه بتسليم البلد، فدخلها الملك العزيز من باب الفرج والملك العادل من باب توما وأجاب الملك الأفضل إلى تسليم القلعة أيضاً وانتقل منها بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره ضياء الدين المذكور مختفياً بصندوق خوفاً عليه من القتل، وأعطى الملك الأفضل صرخد فسار إليها بأهله واستوطنها، وبعد أن دخل الملك العزيز دمشق سلمها إلى عمه الملك العادل فأبقى السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز.

وفي سنة ٥٩٤هـ سنة ١١٩٩م وصل جمع عظيم من الفرنج إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت وسار الملك العادل إلى يافا وأتته نجدة من مصر ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس، وهجم على يافا بالسيف فملكها وقتل من كان يقاتله بها. ونازل الفرنج تبين فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبين فرحل الفرنج عنها إلى صور خائبين وعاد الملك العزيز إلى مصر وترك أكثر العسكر مع الملك العادل وجعل إليه أمر الحرب والصلح فطاول الملك العادل الفرنج فطلبوا الهدنة فاستقرت بينهم ثلاث سنين وعاد الملك العادل إلى دمشق.

وفي سنة ٥٩٥هـ سنة ١٢٠٠م توفي الملك العزيز صاحب مصر بحمى أصابته بأثر قنطرة عن جواده واشتدّ حماه، وحدث به يرقان وقرحة في إمعائه واحتبس

طبعه فمات في السنة المذكورة بعد أن ملك ست سنين إلّا شهراً. فأقام بالملك بعده ولده الملك المنصور محمّد وكان عمره حينئذ تسع سنين. واتفق الأمراء على إحضار أحد من بني أيوب ليقوم بالملك ووقع اختيارهم على الملك الأفضل وهو بصرخد وأرسلوا إليه فसार حثيثاً مختفياً خوفاً من عمه الملك العادل فصير اتابك أي أمير الأمراء عند الملك المنصور ابن أخيه، وأشار عليه أخوه الملك الظاهر صاحب حلب أن يقصد دمشق ويأخذها من عمه الملك العادل فसार الملك الأفضل في العساكر إلى دمشق وبلغ الملك العادل مسيره وهو محاصر ماردين فसार إلى دمشق ووصل إليها قبل الملك الأفضل، ثم وصل الأفضل إلى دمشق وزحف إليها وجرى بينهما قتال، واتصل الأفضل إلى باب البريد ولم يمهده العسكر فتكاثر أصحاب العادل وأخرجوهم من البلد. ووصل الملك الظاهر صاحب حلب منجداً لأخيه الأفضل مضيقاً المدينة ودام الحصار وقتل الأقوات فيها وعزم العادل على تسليم البلد، فحصل بين الأخوين الأفضل والظاهر خلاف أدى إلى ترك حصار دمشق. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وأما المؤرخون الفرنج فقالوا في فتحهم بيروت وغيرها ما ملخصه أنّ البابا شالستينوس الثالث اغتتم فرصة وفاة صلاح الدين فدعا أمراء أوروبا ليهتموا باسترجاع أورشليم فلبى أنريكس السادس ملك ألمانيا دعوته مع أنّه كان محروماً لأنّه شرى ريشار ملك انكلترا وسجنه فتألب عسكر في ألمانيا وإيطاليا وساروا بحراً إلى سورية وأخذوا بعض المدن الساحلية التي كانت بيد المسلمين، منها اللاذقية وجبلة وبيروت وصيدا واستفكوا نحو تسعة آلاف أسير ولكن وقع الخلاف بينهم إذ لم يكن ملك يجمع كلمتهم فإنّ هنري دوك شمبانيا وملك أورشليم سقط به رواق أو سقط هو من شباك فانشح رأسه ومات وكان بعض الفرنج المتوطنين بسورية لا يريدون نقض الهدنة بينهم وبين المسلمين إلى أن نقضها الملك العادل بحصاره يافا وفتحها وبمنازلته الفرنج على تبين وترحيلهم عنها، ثم تجددت الهدنة بين الفرنج والمسلمين إلى ثلاث سنين، وبعد وفاة ملك أورشليم تزوجت أرملة ايزبال بنت أموري الملك زيجة ثالثة بأموري دي لوسينيان أخي كوي دي لوسينيان ملك قبرص وكل ملكاً سنة ١١٩٧م.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن الثاني عشر

عد ٨٤٧

المشاهير السوريون

محمّد بن الخضر المعري

ذكره الصلاح الكتبي في «فوات الوفيات» فقال هو ابن الحسن بن القاسم أبو اليمن بن أبي مهزول التنوخي المعروف بالسابق من أهل المعرة. قال ابن النجار كان شاعراً مجيداً مليح القول حسن المعاني رقيق الألفاظ دخل بغداد وجالس ابن باقيا والأبيوردي والخطيب التبريزي وأنشدتهم شعره وعمل رسالة لقّبها تحفة الندمان أتى بها بكل معنى غريب يشتمل على عشر كراريس ومما ذكره من شعره:

واغيد واجه المرأة زهواً فحرّق بالصباة كل نفس
وليس من العجائب أن تأتي حريق بين مرآة وشمس
ومنه أيضاً

حلمت على السفية فزاد بغياً وعاد فكفه سفهي عليه
وفعلي الخير من شئمي ولكن أتيت الشر مدفوعاً إليه

وقال وكانت وفاته بعد الخمسمائة. فسنة الخمسمائة للهجرة هي سنة ١١٠٧ للميلاد فلا نعلم في أية بعدها كانت وفاته.

ابراهيم الغزي الشاعر

قال في حقه ابن خلكان هو أبو اسحق ابراهيم بن يحيى إلى محمّد الأشهبي .
وقال ابن النجار في تاريخ بغداد هو ابراهيم بن عثمان بن عباس إلى عبد الله
الأشهبي الكلبي الغزي الشاعر المشهور ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق
فقال دخل دمشق وسمع بها من الفقيه نصر المقدسي سنة ٤٨١ هـ (١٠٩٨ م)
ودخل إلى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية سنين كثيرة، ومدح ورثى غير واحد من
المدرسين بها وغيرهم، ثم رحل إلى خراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر
شعره هناك وذكر له عدة مقاطيع من الشعر واثني عليه . انتهى كلام الحافظ . وله
ديوان شعر اختاره بنفسه وذكر في خطبته أنّه من ألف بيت، وله قصيدة لناصر
الدين بن العلا وزير كرمان ومما قاله فيها:

حملنا من الآثام ما لا نطيقه كما حمل العظم الكسير العصائب

وقال في قصر الليل:

وليل رجونا أن يدب عذاره فما اختط حتى صار بالفجر شائباً

وله أيضاً:

قالوا هجرت الشعر قلت ضرورة باب الدواعي والبواعث مغلق
خلت الديار فلا كريم يرتجى منه النوال ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنّه لا يشتري ويخان فيه مع الكساد ويسرق

وقد توفي سنة ٥٢٤ هـ سنة ١١٣١ م ما بين مرو وبلخ من بلاد خراسان ونقل
إلى بلخ ودفن فيها ونقل عنه أنّه كان يقول لما حضرته الوفاة أرجو أن يغفر لي ربي
لثلاثة أشياء: كوني من بلد الإمام الشافعي، واني شيخ كبير جاوزت السبعين،
واني غريب .

ابن منير الطرابلسي

قال فيه ابن خلكان هو أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي الملقب مهذب الدين الشاعر المشهور، له ديوان شعر وكان أبوه ينشد الأشعار ويغني في أسواق طرابلس، وحفظ القرآن الكريم وتعلّم اللغة والأدب، وقال الشعر وقدم دمشق وسكنها، وكان رافضياً كثير الهجاء، ولما كثر ذلك منه سجنه بوري بن أتابك طغتكين صاحب دمشق مدة وعزم على قطع لسانه، ثم شفعوا فيه فنفاه وكان بينه وبين ابن القيسراني (الآتي ذكره) مكاتبات وأجوبة ومهاجاة، وكانا مقيمين بحلب ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة المماثلين ومن شعره من جملة قصيدة:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله	في منزل فالحزم أن يترحلا
فالبدر لما ان تضاعل جدّ في	طلب الكمال فحازه متنقلاً
ساهمت عيشك مرّ عيشك قاعداً	أفلا فليت بهنّ ناصية الفلا
فارق ترق كالسيف سل فبان في	متنيه ما أخفى القراب واخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة	ما الموت إلّا أن تعيش مذلاً
للفقر لا للفقر هبها إنّما	مغنك ما أغناك أن تتوسلا
لله علمي بالزمان وأهله	ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا
طبعوا على لوم الطباع فخيرهم	إن قلت قال وان سكت تقولا

وكانت ولادته سنة ٤٩٣هـ سنة ١١٠٠م بطرابلس وكانت وفاته سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م بحلب ودفن بجبل جوشن بقرب المشهد الذي هناك. قال ابن خلكان زرت قبره ورأيت عليه مكتوباً:

من زار قبري فليكن موقناً
إنّ الذي ألقاه يلقاه
فيرحم الله أمراً زارني
وقال لي يرحمك الله

ولكن وجدت في ديوان أبي الحكم عبيد الله أنّ ابن منير توفي بدمشق سنة ٥٤٧هـ أي سنة ١١٥٣م، ورثاه بأبيات تدل على أنّه مات بدمشق، منها وهي هزلية على عادته:

أثوابه فوق أعواد تسير به وغسلوه بشطي نهر قلوط
واسخنوا الماء في قدر مرصّة وأشعلوا تحته عيدان بلوط
وعلى هذا التقدير فيحتاج إلى الجمع بين هذين الكلامين فعساه أن يكون قد مات في دمشق، ثم نقل إلى حلب فدفن بها والله أعلم.

ابن عساكر الدمشقي

هو الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمّد الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين المعروف بابن عساكر الدمشقي، كان محدث الشام في وقته ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به وبالعجائب، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره، وجاب البلاد ولقي المشايخ ثم عاد إلى دمشق ثم رحل إلى خراسان وصنف التصانيف المفيدة، وكان حسن الكلام على الأحاديث صنف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلداً أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق تاريخ بغداد. وقد استعظمه العلماء وقال بعضهم أنّ العمر يقصر عن أن يجمع الانسان فيه مثل هذا التأليف وله شعر لا بأس فيه ومنه قوله على ما قيل:

إلّا أنّ الحديث أجل علم وأشرفه الأحاديث الأعالي
وانفع كل نوع منه عندي وأحسنه الفوائد والامالي
وأتك إن ترى للعلم شيئاً تحقّقه كأفواه الرجال
فكن يا صاح ذا حرص عليه وخذه من الرجال بلا ملال
ولا تأخذه عن صحف فترمي من التصحيف بالداء العضال

ومن المنسوب إليه أيضاً:

أيا نفس ويحك جاء المشيب فماذا التصابي وماذا الغزل
تولى شبابي كأن لم يكن وجاء مشيبي كأن لم يزل
كأنني بنفسي على غرة وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون وما قدر الله لي في الأزل
وكانت ولادته أول سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٥م وتوفي سنة ٥٧١هـ سنة
١١٧٥م بدمشق ودفن بها وحضر الصلاة عليه السلطان صلاح الدين.

ابن الذكي الدمشقي

هو أبو المعالي محمد بن أبي الحسن إلى أبان بن عثمان بن عفان الأموي
القرشي الملقب يحيى الدين ابن زكي الدين الدمشقي الفقيه الشافعي، كان ذا
فضائل عديدة من الفقه والآداب وغيرهما، وله النظم المليح والخطب والرسائل،
وتولى القضاء بدمشق سنة ٥٨٨هـ سنة ١١٩٣م وكانت له عند السلطان صلاح
الدين المنزلة العالية والمكانة المكيئة، ولما فتح السلطان صلاح الدين حلب أنشده
القاضي المذكور قصيدة منها البيت المتداول وقد مرّ ذكره:

وفتحك القلعة الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

وفوضه السلطان حيثل الحكم والقضاء بحلب فاستتاب بها زين الدين بنا
البانياسي وله خطبة مشهورة القاها بأمر السلطان صلاح الدين بالقدس في أول
جمعة بعد الفتح، وكانت ولادته سنة ٥٥٠هـ سنة ١١٥٦م ووفاته سنة ٥٩٨هـ
سنة ١٢٠٢م.

ابن القيسراني

هو ابن عبد الله محمد بن نصر إلى خالد بن الوليد الخزومي الخالدي الحلبي الملقب شرف المعالي المعروف بابن القيسراني. وكان من الشعراء المجيدين والادباء المتقين، وكان هو وابن منير الطرابلسي شاعري الشام في ذلك العصر وجرت بينهما وقائع ونواذر وملح. وكان ابن منير ينسب إلى التحامل على الصحابة ويميل إلى التشيع فكتب إليه ابن القيسراني:

ابن منير هجوت مني خبرا افاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدري فان لي اسوة الصحابة
ومن محاسن شعره قوله:

كم ليلة بت من كاسي وريقته نشوان امزج سلسالا بسلسال
وبات لا تحتمي عني مراشفه كأثما ثغره ثغر بلا والي
قال ابن خلكان قد ظفرت بديوانه وانا يومئذ بحلب ونقلت عنه اشياء منها قوله في مدح خطيب:

شرح المنبر صدرا لتلقيك رحيبا
اترى ضم خطيبا منك او ضمخ طيبا
ومن معانيه البديعة:

هذا الذي سلب العشاق نومهم أما ترى عينه ملأى من الوسن

وكانت ولادة القيسراني سنة ٤٨٧هـ سنة ١٠٨٦م بعكا، وتوفي سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م بمدينة دمشق، ودفن بمقبرة باب الفرديس. والقيسراني منسوب إلى قيسرية فلسطين وله كتاب في الكلمات المتشابهة لفظا من الاسماء المنسوبة طبع في لندن سنة ١٨٦٥م.

محيي الدين الشهرزوري

هو ابن حامد محمد القاضي كمال الدين الشهرزوري الملقب محيي الدين. وقد دخل بغداد فتفقه على الشيخ ابي مصور ابن الرزاز ثم صعد إلى دمشق وولي قضاءها نيابةً عن والده، ثم انتقل إلى حلب وحكم نيابةً عن ابيه ايضاً سنة ٥٥٥٥ هـ سنة ١١٦١م، وبعد وفاة والده تمكن عند الملك الصالح اخي نور الدين المذكور قبلاً صاحب حلب غاية التمكن، وفوض اليه تدبير مملكة حلب سنة ٥٧٣ هـ سنة ١١٧٨م، ثم وشى به اعداؤه وحساده إلى الملك الصالح واقضت الحال انه لزم بيته، ثم رأى المصلحة مفارقة حلب فانتقل إلى الموصل وتولى قضاءها ودرس بمدرسة والده والمدرسة النظامية بالموصل، وتمكن عند صاحبها مسعود ابن مودود بن زنكي. واستولى على جميع الامور وكان محيي الدين جواداً سرياً قيل انه انعم على فقهاء بغداد وادبائها وشعرائها ومحاييها عند رسالته اليها بعشرة آلاف دينار اميرية. ويقال انه في مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريباً على دينارين فما دونهما بل كان يوفيهما عنه وله اشعار جيدة منها قوله في وصف جراحة:

لها فخذاً بكر^(١) وساقاً نعامة وقاومتا^(٢) نسراً وجؤجؤ^(٣) ضيغم
حبثها افاعي الرمل بطناً وانعمت عليها جياذ الخيل بالرأس والفم

وله في وصف نزول الثلج من الغيم:

ولما شاب رأس الدهر غيظاً لما قاساه من فقد الكرام
اقام يميظ عنه الشيب غيظاً وينثر ما اماط على الانام

وكانت ولادته سنة ٥١٠ هـ سنة ١١١٧م وتوفي سنة ٥٨٦ هـ سنة ١١٩١م.

(٣) صدر.

(٢) الريشتان اللتان في أعلى الجناح

(١) الناقة

تقية ابنة الصوري

هي أم علي تقية ابنة ابي الفرج ابي جعفر السلمي الارمنازي الصوري، كانت فاضلة ولها شعر جيد قصائد ومقاطيع، وصحبت الحافظ احمد ابن محمد السلفي الاصبهاني زماناً بالاسكندرية، وذكرها في بعض تعاليقه واثنى عليها وكتب بخطه. عثر في منزل سكناي فانجرح اخمصي فشقت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعصبته فانشدت تقية للحال:

لو وجدت السبيل جدت بخدي عوضاً من خمار تلك الوليدة
كيف لي ان اقبل اليوم رجلاً سلكت دهرها الطريق الحميدة
ولها غير ذلك اشياء حسنة ورووا ان تقية نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفر تقي الدين عمر ابن اخي السلطان صلاح الدين، وكانت القصيدة خمرية ووصفت آلة المجلس وما يتعلق بها بالخمر، فلما وقف عليها الملك المظفر قال الشيخة تعرف هذه الاحوال من زمان صباها. فبلغها ذلك فنظمت قصيدة اخرى حربية ووصفت آلة الحرب وما يتعلق بها احسن وصف، ثم صيرت اليه تقول علمي بهذا كعلمي بذلك وكان قصدها تبرئة ساحتها مما نسب اليها. وكانت ولادتها سنة ٥٠٥ هـ سنة ١١١٢ م وتوفيت سنة ٥٧٩ هـ سنة ١١٨٤ م. والارمنازي نسبة إلى ارمناز هي قرية من اعمال دمشق وقيل من اعمال انطاكية وقيل من اعمال حلب بينها وبين عزاز اقل من ميل ثم توطن اهلها في صور.

ابن بري المقدسي

هو أبو محمد عبدالله بن أبي بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي الأصل المصري المقام المشهور في علم النحو واللغة والرواية والدراية، كان علامة عصره ونادرة دهره وله على كتاب الصحاح الجوهري حواشٍ فائقة أتى فيها بالغرائب، واستدرك عليه بها في مواضع كثيرة وهي دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه، وصحبه خلق كثير واشتغلوا عليه، ومن جملة من أخذوا عنه أبو موسى

الجزولي، وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلمه وكان عليه التصفح في ديوان الانشاءات، ولا يصدر كتاب الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلا أن يتصفحها ويصلح ما به من خلل خفي. ويحكى أنه كانت فيه غفلة ولا يتقيد بالاعراب بل يسترسل في حديثه كيف ما اتفق حتى قال يوماً لبعض تلامذته اشتر لي قليل هندبا بعروقه فقال التلميذ هندبة بعروقه فقال له لا تأخذه إلا بعروقه وان لم يكن بعروقه فلا أريده. قال ابن خلكان ورأيت له حواشي على درة الغواص في أوهام الخواص للحريري وله جزء لطيف في أغاليط الفقهاء وله الرد على ابن الخشاب في الكتاب الذي يبين فيه غلط الحريري في المقامات فانتصر ابن بري للحريري وما قصّر في ما عمله وكانت ولادته بمصر سنة ٤٩٩هـ سنة ١١٠٦م وتوفي سنة ٥٨٢هـ سنة ١١٨٧م وبري علم يشبه النسبة.

اسامة بن منقذ

هو أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد إلى منقذ الكناني الكلبي من أكابر بني منقذ أصحاب قلعة شيزر، وأول من ملك هذه القلعة منهم سديد الملك ابن منقذ وكانت بيد الروم فنازلها وتسلمها بالأمان سنة ٤٧٤هـ سنة ١٠٨٢م ولم تزل في يده ويد أولاده إلى أن جاءت الزلزلة سنة ٥٥٢هـ ١١٥٨م. وكان سديد الملك موصوفاً بالذكاء وقوة الفطنة. وحكي عنه أنه جرى له أمر خاف منه على نفسه من محمود بن مرداس صاحب حلب، فرحل إلى طرابلس عند ابن عمار صاحبها ففتقد ابن مرداس إلى كاتبه ابن النحاس الحلبي أن يكتب لسديد الملك كتاباً بتشوقه، ويستدعيه إليه. وفهم الكاتب أن ابن مرداس يقصد له شراً فكتب كما أمر وكتب أخيراً إن شاء الله تعالى. فشدد النون وفتحها فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضه على ابن عمار ومجلسه فاستحسنوه واستعظموا رغبة ابن مرداس في التقرب إليه فقال هو، أرى في الكتاب ما لا ترون فكتب الجواب وفي آخره أنا الخادم المقر بالإنعام وكسر الهمزة من أنا وشدد النون ولما وصل الكتاب إلى ابن مرداس وقف عليه الكاتب وسرّ بما فيه وطابت نفسه إذ علم أن سديد الملك أدرك المعنى فكان قصد الكاتب من تشديد النون في قوله إن شاء الله الإشارة

إلى قوله تعالى: «إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ عَلَيْكَ لِيَقْتُلُوكَ». وقصد سديد الملك بتشديد النون قوله أنا الخادم الإشارة إلى قوله تعالى «إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا. وقد توفي سديد الملك سنة ٤٧٥هـ سنة ١٠٨٣م، ومخلص الدولة ابن منقذ الذي ذكرنا ترجمته في القرن الحادي عشر هو والد أسامة الذي نكتب ترجمته هنا كما يؤخذ عن ابن خلكان في ترجمة سديد الملك المذكور.

ولأسامة بن منقذ تصانيف عديدة في فنون الأدب وقد أثنى عليه العلماء وقد سكن دمشق ثم انتقل إلى مصر ثم عاد إلى دمشق ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا، فأقام به حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق فاستدعاه وهو شيخ قد جاوز الثمانين وله ديوان شعر في جزئين موجود في أيدي الناس. قال ابن خلكان قد رأيته بخطه ونقلته منه، ومما نقله عنه قوله في ابن طليب المصري وقد احترقت داره:

أنظر إلى الأيام كيف تسوقنا قسراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره ناراً وكان خرابها بالنار
وقوله يصف ضعفه:

فأعجب لضعف يدي من حملها قلماً من بعد حكم القنا في لبة الأسد
وما كتبه إلى أبيه جواباً عن أبيات كتبها أبوه إليه:

وما أشكو تلون أهل ودي ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم فما أرجوهم في من رجوت
إذا أدمت قواصرهم فوادي كظمت على اذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق الحيا كأني ما سمعت وما رأيت
تجنوا لي ذنباً ما جنتها يداي ولا أمرت ولا نهيت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت

وكان مولد أسامة سنة ٥٨٨هـ سنة ١٠٨٦م بشيزر وتوفي بدمشق سنة ٥٨٤هـ

سنة ١١٨٩م (قد أخذنا أكثر ما في هذا الفصل ملخصاً عن ابن خلكان في وفيات الأعيان).

عد ٨٤٨

بعض من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم في غير سورية

أبو حامد الغزالي

هو حامد بن محمد زين الدين الغزالي الشافعي وقد ولد في طوس مدينة خراسان، ولذا يصفونه بالطوسي وكانت ولادته سنة ٤٥٠هـ سنة ١٠٥٩م ووفاته سنة ٥٠٥هـ سنة ١١١٢م، ولم يكن للشافعية في آخر عصره مثله. وقد اشتهر في علمه وزهده، ففي سنة ٤٨٨هـ سنة ١٠٩٦م ترك جميع ما كان عليه وسلك طريق التزهد والانقطاع وقصد الحج ورجع إلى دمشق فأقام مدة يذكر الدروس في زاوية الجامع، ثم انتقل إلى بيت المقدس واجتهد في العبادة ثم قصد مصر وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد إلى وطنه بطوس وصنف كتباً مفيدة في عدة فنون منها ما هو أشهرها الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه ومنها «إحياء علوم الدين» وهو من أنفس الكتب وأجلّها، وله في أصول الفقه «المستصفى» فرغ من تصنيفه سنة ٥٠٣هـ سنة ١١١٠م وله «المنحول والمتحل في علم الجدل» وله «تهافت الفلاسفة» و«محك النظر» و«مقياس العلم والمظنون به على غير أهله» و«المقصد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى» و«مشكاة الأنوار» و«المنقذ من الضلال» و«حقيقة القولين» إلى غير ذلك. ونسب إليه بعض الشعر ووزع أوقاته في آخر حياته على وظائف الخير إلى أن انتقل إلى ربه في السنة المذكورة. ورثاه الأيوبردي الشاعر المشهور بأبيات منها:

مضى وأعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه

(انتهى ملخصاً عن ابن خلكان).

وقد ذكره العلامة المطران أسطفان عواد السمعاني الشهير في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية بفيرنسا وأثنى عليه في علمه وورعه وعدد كتبه

وقال إنها نحو ستين مجلداً خصّ بالذكر منها كتابه في علم الدين قسّمه إلى أربعة أجزاء وكل جزء إلى عشرة فصول تكلم فيها على عبادة الله وأركان عقائد الدين ووصايا الإسلام والفضائل والردائل، وكتابه في المعارف العقلية تكلم به على صناعة القياس، وعلى ما وراء الطبيعة وعلى الغاية والمقاصد في الأعمال، وكتابه المنقذ من الضلال بيّن فيه ما ينافي أو يوافق دين الإسلام من أقوال الفلاسفة، وكتابه المظنون به على غير أهله يرد به ما يورده على سبيل الاعتراض على دين الإسلام، وكتابه مشكاة الأنوار تكلم فيه على الله الذي هو النور الحقيقي ثم على الأنوار الثانية ويريد بها موسى وعيسى ومحمد. وكتابه نصيحة الملك يخاطب به السلطان ملك شاه السلجوقي، وكتابه الخاتم تكلم به على معنى الحروف العربية وعملها السحري وكتابه الموجز في علم النجوم، وكتابه الحاوي ما يعزى إليه من الأشعار الأدبية والفلسفية، ثم ذكر له كتاباً في ما وراء الطبيعة واللاهوت مقسوماً إلى سفرين، تكلم في الأوّل على الذات والوجود والوحدة والجمع والضروري والممكن وفي حدوث الأشياء والجوهر والعرض، وتكلم في الثاني على المعقولات والنفس البشرية وقواها، وعلى الأرواح الملائكة والشياطين، وعلى أسماء الله ووحدة ذاته وعلمه وخلقه السماء والأرض ووحيه وعنايته، وعلى النبوة ورسالة محمد النبي وسمو مرتبة الأنبياء، وعلى الإيمان والفروض ويوم الدين والفردوس وجهنم. وقد أخذ المطران المذكور كل هذه التعليقات عن كتبه الموجودة بالمكتبة المذكورة وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع أنّ كتابه المنقذ طبع بباريس سنة ١٨٤٢م ثم في القسطنطينية ومصر، وأنّ كتابه مقاصد الفلاسفة طبع منه ما يتعلّق بالمنطق في لايدن سنة ١٨٨٨م وأنّ له كتاباً يسمى عمدة المحققين وبرهان الدين، طبع في القاهرة سنة ١٢٧٧م، وكتابه تهافت الفلاسفة طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣هـ وله كتاب احياء علوم الدين طبع مرتين في بولاق سنة ١٢٧٨ وسنة ١٢٨٢هـ وفي القاهرة مراراً وله أيضاً المقالة الولدية يخاطب فيها غلاماً بقوله يا ولد طبع في فيانا سنة ١٨٣٨م مع ترجمة ألمانية، وله الدرة الفاخرة في أحوال الآخرة طبع في سويسرا سنة ١٨٧٨م مع ترجمة فرنسية انتهى.

الطغرائي صاحب لامية العجم

هو على ما قال ابن خلكان العميد فخر الكتاب أبو اسمعيل الحسين الملقب مؤيد الدين الأصبهاني المعروف بالطغرائي، كان غزير الفضل لطيف الطبع فاق أهل عصره بصنعة النظم والنثر وله ديوان شعر جيد ومن محاسن شعره قصيدته المعروفة بلامية العجم يصف بها حاله ويشكو زمانه وأولها:

أصالة الرأي صانتي عن الخطل وزينة الفضل زانتي لدى العطل
وهي تنيف على ستين بيتاً وهي مشهورة تتداولها الأيدي. وذكر العماد الكاتب أنه كان ينعت بالأستاذ وكان وزير السلطان مسعود بن محمود السلجوقي بالموصل، وأنه لما جرى بينه وبين أخيه السلطان محمود المصافى بالقرب من همدان وكانت النصرة فيه لمحمود قتل الطغرائي بمكيدة من وزيره لأنه رأى إقبال السلطان محمود عليه، وكانت هذه الواقعة سنة ٥١٣هـ وقيل سنة ٥١٤هـ وقيل سنة ٥١٨هـ أي سنة ١١١٩م أو ١١٢١م أو ١١٢٥هـ وقد جاوز الستين. وفي شعره ما يدل على أنه بلغ سبعاً وخمسين سنة لأنه قال وقد جاءه مولود:

هذا الصغير الذي وافى على كبري أقر عيني ولكن زاد في فكري
سبع وخمسون لو مرت على حجر لبان تأثيرها في صفحة الحجري

والطغرائي هذه النسبة إلى من يكتب الطغراء وهي الطرة التي تكتب في أعلى كتب الملوك. وعن كتاب «اكتفاء القنوع بما هو مطبوع» أن ديوانه طبع في القسطنطينية في مطبعة الجوائب وأن قصيدته لامية العجم طبعت في قسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ وفي أكسفورد سنة ١٦٦١ وفي فرنكفورت سنة ١٧٦٩. ولصلاح الدين الصفدي الذي توفي سنة ١٣٦٢ شرح عليها سماه: «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» طبع في القاهرة سنة ١٣٠٥هـ وبهامشه شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لجمال الدين بن نباتة المصري الذي توفي سنة ٨٦٨هـ.

أبو محمد الحريري

هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي صاحب المقامات المشهورة كان أحد أئمة عصره ورزق الخطوة التامة في عمل المقامات واشتملت على شيء كثير من كلام العرب وأمثالهم ورموز أسرار كلامهم، فأتمها خمسين مقامة وصنفها للوزير جلال الدين علي بن صدقة وزير المسترشد ونسجها على منوال بديع الزمان الهمذاني وأبي زيد السروجي الذي عزا إليه هو رجل بصري نحوي لغوي صحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة. وأما تسميته الراوي بالحارث بن همام فانما عنى بها نفسه آخذاً عن الآية كلکم حارث وکلکم همّام قالوا كانت مقالاته أربعين مقامة فأنكرها بعضهم عليه وقالوا هي لرجل مغربي مات بالبصرة ووقعت أوراقه إليه فادعاها فاستدعاه الوزير إلى الديوان واقترح عليه إنشاء رسالة فلم يفتح الله عليه فقام وهو خجل فقال فيه بعض عاذليه:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما رماه في وسط الديوان بالخرس

وكان يزعم أنه من ربيعة الفرس وكان مولعاً بنتف لحيته عند الفكرة ويسكن في مشان البصرة، ولما عاد إلى بلده عمل عشر مقامات أخرى وسيّرها إلى الوزير واعتذر من عيه وحصره بالديوان بما لحقه من المهابة. وللحريري تأليف حسان منها «درة الغواص في أوهام الخواص» و«ملحة الاعراب المنظومة في النحو». وله أيضاً شرحها وله ديوان رسائل وشعره كثير غير الذي في المقامات، ويحكى أنه كان ذميماً قبيح المنظر فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ منه شيئاً، فلما رآه استزرى شكله وفهم الحريري ذلك فلما سأله أن يملي عليه قال له أكتب:

ما أنت أول ساير غره قمز ورائد أعجبتة خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

فخجل الرجل منه وانصرف عنه وقد ولد الحريري سنة ٤٤٦هـ سنة ١٠٥٥م وتوفي سنة ٥١٥هـ وقيل سنة ٥١٦هـ سنة ١١٢٢م أو سنة ١١٢٣م، وكان يسكن

في سكة بني حرام فنسبه الحرامي إلى هذه السكة والحريري نسبة إلى الحرير وعمله أو بيعه.

وقد طبعت مقامات الحريري مراراً وأحسن طبعة هي التي اعتنى بها العلامة دي ساسي الفرنسي في باريس سنة ١٨٢٢م مع شرح وافٍ، ولما حصل في هذه الطبعة بعض الخطأ من مرتبي الحروف طبعت ثانية مصححة مع حواشٍ تاريخية ولغوية في باريس سنة ١٨٤٩م بعناية العلامة وارنبورغ، وطبعت أيضاً في كلكتة سنة ١٨٠٩م وسنة ١٨١٢م وفي لايبسيك سنة ١٨٥٦م وفي بولاق سنة ١٢٨٨م مع شرح عليها، وطبعت في بيروت مراراً ولأحمد الشريشي (توفي سنة ٦٣٩هـ سنة ١٢٢٣م) شرح لمقامات الحريري طبع في بولاق مراراً وأما كتاب الحريري درة الغواص فطبع في قسطنطينية ثم طبع في مصر على الحجر سنة ١٢٧٣م وكتابه «ملحة الإعراب» طبعت على الحجر مراراً.

الفتح بن خاقان

هو أبو نصر الفتح بن محمد بن خاقان الاشيلي صاحب كتاب «قلائد العقيان» وله عدة تصانيف غيره. وقد جمع من شعراء المغرب قلائد العقيان طائفة كبيرة وتكلم على ترجمة كل منهم بأحسن عبارة وألطف إشارة. ومن كتبه «مطمح الأنفس ومسرح التانس في ملح أهل الأندلس» وهو ثلاث نسخ كبرى ووسطى وصغرى وهو كتاب كثير الفائدة لكنه قليل الوجود في هذه البلاد، وكلامه في كتبه دال على فضله وغازاة مهارته. وكان كثير الأسفار سريع التنقل وتوفي قتيلاً في مدينة كراش سنة ٥٣٥هـ سنة ١١٤١م ويروى سنة ٥٢٩هـ سنة ١١٣٥م. قيل كان خليع العذار في دينه لكنّ كلامه في تأليفه كالسحر الحلال والماء الزلال (انتهى ملخصاً عن ابن خلكان).

وقد طبع كتابه قلائد العقيان في بولاق سنة ١٢٨٤هـ وطبعه الشيخ الكونت رشيد الدحداح في باريس سنة ١٨٦٠م وأما كتابه «مطمح الأنفس» الذي قال ابن خلكان إنّه كان قليل الوجود في أيامه فقد طبع في قسطنطينية في مطبعة الجوائب سنة ١٣٠٢هـ وعدد التراجم فيه خمس وخمسون ترجمة وهي غير المثبتة في قلائد العقيان.

الزمخشري

هو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري الامام الكبير في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان، وكان إمام عصره وصنف التصانيف البديعة منها «الكشاف» في تفسير القرآن لم يصنف قبله مثله ومنها «الحجرات بالمسائل النحوية والمفرد والمركب في العربية»، و«كتاب الفائق في تفسير الحديث» و«أساس البلاغة في اللغة» و«ربيع الأسرار ونصوص الأخبار» و«متشابه أسامي الرواة» و«النصائح الكبار والنصائح الصغار» و«ضالة الناشد والرابض في علم الفرائض» وكتاب «المفصل في النحو»، وقد اعتنى بشرحه خلق كثير والتمودج في النحو والمفرد والمؤلف في النحو ورؤوس المسائل في الفقه وشرح أبيات كتاب سيبويه و«حميم العربية» و«المستقصى في أمثال العرب وسواير الأمثال»، و«ديوان التمثيل وشقائق النعمان في حقايق النعمان» و«شافى العمى من كلام الشافعي» و«القسطاس في العروض ومعجم الحدود» و«المنهاج في الأصول» ومقدمة الأدب وديوان الرسائل وديوان الشعر والرسالة الناصحة والامالي في كل فن وغير ذلك. وقد سافر إلى مكة المشرفة وجاور بها زماناً فلقبوه جارا لله وكان هذا علماً عليه، قال ابن خلكان الذي أخذنا هذه الترجمة عنه ان الزمخشري كان معتزلي الاعتقاد متظاهراً به وأول ما صنف كتاب الكشاف افتحه بقوله:

الحمد لله الذي خلق القرآن فقبل متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه فغيره بقوله الحمد لله الذي جعل القرآن وجعل عندهم بمعنى خلق ورأيت في كثير من النسخ الحمد لله الذي أنزل القرآن وهذا اصلاح الناس لا اصلاح المصنف. ومن شعره يرثي شيخه أبا مضر منصور:

وقائلة ما هذه الدرر التي تساقط ما عينيك سمطين سمطين
فقلت لها هذا الذي كان قد حشى أبو مضر اذني تساقط من عيني

ويقال أنه أوصى أن يكتب على قبره هذان البيتان:

إلهي قد أصبحت ضيفك في الثرى وللضيف حق عند كل كريم

فهب لي ذنوبي في قراي فانها عظيم ولا يقوى بغير عظيم

وكانت ولادة الزمخشري سنة ٤٦٧هـ سنة ١٠٧٥م ووفاته سنة ٥٣٨هـ سنة ١١٤٤م، وزمخشر المنسوب هو إليها قرية كبيرة من قرى خوارزم (عن ابن خلكان).

وقد ذكر العلامة المطران أسطفان عواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية في عد ٤٣٩ من كتبها المشرقية كتاب المفصل للزمخشري في النحو وقال إنه قسمه إلى أربعة أقسام: الأول في الاسماء، والثاني في الأفعال والثالث في الحروف والرابع في ما يكون منها مشتركاً.

وجاء في كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع أنّ للزمخشري معجم جغرافي يسمى كتاب الجبال والأمكنة والمياه طبع في لايدن سنة ١٨٥٦م وان كتابه الكشف طبع في كلكتة سنة ١٨٥٦م وفي بولاق سنة ١٢٨١هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ، وعلى هامشه كتاب الانتصاف لناصر الدين المنير الاسكندري وشرح محب الدين افندي الآيات الواردة في الكشف، وسمى شرحه تنزيل الزيات على شرح شواهد الآيات، وطبع كتابه ببولاق سنة ١٢٨١هـ. وللزمخشري كتاب «أطواق الذهب» طبع في فيانا سنة ١٨٣٥م مع ترجمة ألمانية ويشتمل على تسع وتسعين مقالة في المواعظ والنصائح ثم طبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٢٩٣هـ مع شرح لألفاظه اللغوية وضعه الشيخ يوسف الأسير وطبع في باريس سنة ١٨٧٦م مع ترجمة فرنسية. وله خمسون مقامة في المواعظ بعث مع شرحها في مصر سنة ١٣١٣هـ وقد طبع كتابه «المفصل» في الاسكندرية سنة ١٢٩١هـ وطبع كتابه «الانموذج في النحو» في القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ ثم في خرتستيانا سنة ١٨٥٩م وكتاب «اس البلاغة» طبع في مصر بعد ضبط المتن على أربع نسخ طبعه يوسف شيت البشراني سنة ١٢٩٩هـ. وطبع كتابه المسمى «مقدمة الأدب» في لابسيلك سنة ١٨٥٠م وهو معجم عربي وفارسي وطبع كتابه «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» في القاهرة سنة ١٢٩٢هـ.

الادريسي

هو أبو عبدالله محمد الشريف الادريسي من ولد ادريس العلويين الذين تولوا غربي إفريقيا الشمالية من سنة ١٧٥هـ إلى سنة ٣١٤هـ أي من سنة ٧٩١م إلى سنة ٩٢٦م. وقد ولد سنة ٤٩٤هـ سنة ١١٠٠م في مدينة سبتا وكان جده قد لجأ إليها بعد أن خلع من الملك وأتى الادريسي هذا في صباه إلى قرطبة بالاندلس وتخرج بالعلوم فيها ثم ساح في هذه البلاد وفي شمالي إفريقيا وآسيا الصغرى، واستدعاه روجر الثاني ملك صقلية إلى ديوانه وكان قد جمع من كتب الجغرافيين القدماء ومن الرحالة المعاصرين مادة كبيرة، فصنع كرة من فضة رسم عليها خطوط البلاد وشرح ذلك في مقالاته الجغرافية التي قسمها إلى سبعة أقاليم وسبعين بلاداً. وتكلم فيها على حاصلات كل بلاد ومصنوعاته وحكومته واداب سكانه وبقي من هذا الكتاب موجز طبع في العربية سنة ١٥٩٢م برومة ثم ترجمه العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني إلى اللاتينية وطبع ترجمته في باريس سنة ١٦١٩م وسماه «جغرافية النوبة» ثم وجد اماداي جوبر نسخة مخطوطة من هذا التأليف في مكتبة الأمة بباريس سنة ١٨٢٩م فطبعها مع ترجمة فرنسية بباريس سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٣٩. هذا ما أخذناه عن بعض كتب الفرنج إذ لم نرى ابن خلكان ذكره. وقد ذكر المطران اسطفان عواد السمعاني كتاب الادريسي في الجغرافية في فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية وقال إن هذا الكتاب طبع برومة بالعربية سنة ١٦١٧م بعناية الأمراء الماديشيين وعن هذه الطبعة ترجم جبرائيل الصهيوني ويوحنا الحصريون المارونيان هذه المقالة إلى اللاتينية، وطبعت بباريس. وجاء في كتاب اكتفاء القنوع أن كتاب الادريسي في وصف افريقيا وإسبانيا طبع بلايدن سنة ١٨٦٦م مع ترجمة فرنسية، وان العلامة امادي الإيطالي استخرج كل ما قاله الادريسي في وصف إيطاليا وطبعه على حدّته برومة سنة ١٨٨٣م مع ترجمة إيطالية وشروح. وللادريسي أيضاً وصف فلسطين وبر الشام طبع في بون سنة ١٨٨٥م وعندنا شرح للكرة الجغرافية التي صنعها الادريسي وضعه القس سمعان السمعاني وطبعه برومة.

ابن رشد

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي الفيلسوف الطبيب، ولد سنة ٥٢٠هـ سنة ١١٢٧م بقرطبة في الأندلس حيث تولى جده وأبوه القضاء، وكان متمكناً وضليعاً في علوم التوحيد والفقه والفلسفة والرياضيات ومعزراً عند ملوك مراكش والأندلس، وتقلد مناصب عالية في اشبيلية وقرطبا ومراكش، ودسّ عليه بعض حسّاده من العلماء عند ملك مراكش فسخط عليه ونفاه، ثم رضي عنه سنة ١١٩٨م ودعاه إلى مراكش فتوفي تلك السنة وكان يشك باختلال عقيدته، وسمّوه المفسر لأنه ترجم كتب أرسطو، وأوقن أنه معصوم من الخطأ. فزعم أن ما الفلسفة إلا ترجمة كتب أرسطو، لكنّه فسّرها بمعنى مؤذن لتشييعه لمذهب الحلول، وقد فتد القديس توما الأكويني مذهبه هذا الذي نبذته أيضاً المدرسة الكلية بباريس سنة ١٤٢٠م وحرّمه المجمع اللاتراني الذي عقد سنة ١٥١٢م، وقد طبع كتاب تفسيره لفلسفة أرسطو مترجماً إلى اللاتينية سنة ١٥٩٥م بالبندقية. وله كتاب سماه «الكليات في الطب» طبع في المدينة المذكورة مع ترجمته اللاتينية سنة ١٤٨٢م. وكان الناس في أوروبا زماناً طويلاً لا يعرفون كتب أرسطو إلا بترجمتها إلى اللاتينية عن كتب ابن رشد العربية، وكانوا ينزلون أقواله منزلة أقوال أرسطو إلى أنّ ترجمت كتب أرسطو عن اليونانية. قال المطران أسطفان عواد السمعاني عند ذكره كتابه في فلسفة أرسطو الموجود مخطوطاً في المكتبة الماديشية أنّ هذا الكتاب نادر لأنّ ابن رشد لم يكن له عند العرب شهرة ابن سينا وغيره من الفلاسفة، ولأنّ المسلمين المتحمسين كانوا يشتبهون بصحة عقيدته، فكانت كتبه العربية نادرة حتى أنّ ما ترجم منها إلى اللاتينية مترجم أكثره عن الترجمات العبرانية لا عن الأصل العربي. ولابن رشد أيضاً رسالة سماها «تهافت المتهافتين» رد بها كتاب الغزالي الموسوم بتهافت الفلاسفة كما مرّ، وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣هـ كتاب اشتمل على رسالة الغزالي تهافت الفلاسفة وعلى رسالة ابن رشد تهافت المتهافتين وعلى رسالة ثلاثة لمصطفى بن خليل البرسوي الرومي توفي سنة ١٤٨٧م ألفها على سبيل المحاكمة بين تهافت الغزالي وتهافت ابن رشد. ولابن رشد أيضاً رسالة «التوحيد والفلسفة» ردّ بها مذهب الأشعرين، طبعت في مونيخ قسبة بفيارا سنة ١٨٥٨م

مع ترجمة ألمانية وله شرح على «أرجوزة» ابن سينا في الطب لم يطبع ومقالة في «الدرياق» ومقالة في «الحميات» ومقالة في «حركة الأفلاك» إلى غير ذلك.

عد ٨٤٩

ذيل في الخلفاء العلويين وملوك الروم في القرن الثاني عشر

قد اشتغلنا بذكر ملوك الفرنج في هذا القرن الثاني عشر عن ذكر الخلفاء العلويين في مصر وسورية، فإثنا تكملة لتاريخ هؤلاء الخلفاء أن نذيل تاريخ هذا القرن بذكر من كان فيه منهم إلى حين انقراض دولتهم بملك صلاح الدين الأيوبي وابتداء دولة الأيوبيين فيه.

فرغنا من كلامنا على هؤلاء الخلفاء في القرن الحادي عشر بذكر المستعلي بالله سنة ٤٩٥هـ سنة ١١٠٢م وقد بويع بالخلافة يوم وفاته ابنه أبو علي المنصور، ولقب الأمر بأحكام الله، ولم يكن له من العمر حينئذ إلا نحو خمس سنين. وقام بتدبير دولته الأفضل بن أمير الجيوش أحسن قيام، وفي سنة ٤٩٨هـ سنة ١١٠٥م أرسل الأفضل ابنه شرف المعالي فقهر الفرنج في الرملة، ثم نازلوا ابنه الآخر سناء الملك في عسقلان وكانت الحرب سجلاً، ثم قتل الأمر بأحكام الله سنة ٥٢٤هـ سنة ١١٣١م، إذ وثب عليه الباطنية فقتلوه لأن كان سيء السيرة في رعيته.

ولما قتل الأمر لم يكن له ولد فبويع ابن عمه عبد المجيد الحافظ بن المستنصر، وفي رواية أخرى ابن المستعلي ولقب بالحافظ لدين الله، واستوزر أبا علي أحمد بن الأفضل ابن بدر الجمالي، فاستبدّ وتغلب على الحافظ إلى أن قتل هذا الوزير سنة ٥٢٦هـ سنة ١١٣٣م، فاستقامت أمور الحافظ وحكم في دولته، لكنه كان عرضة لتحكم وزرائه به حتى أنه استوزر ابنه حسناً وجعله وليّ عهده فحكم عليه، واستبدّ بالأمر دونه وقتل كثيرين من أمراء دولته، وصادر كثيرين. فلما رأى الحافظ ذلك سقاه سمّاً فمات ثم توفي الحافظ سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م.

وبعد وفاة الحافظ ولي الخلافة بعده ابنه أبو منصور اسماعيل ولقب الظافر بأمر الله واستوزر ابن مصال وبقي أربعين يوماً يدبر الأمور، فقصدته العادل بن السلار من الاسكندرية ونازعه الوزارة وكان ابن مصال قد خرج من القاهرة فخالفه العادل

وصار وزيراً وأرسل عسكرياً فقتل ابن مصال واستقرّ العادل ابن السلار حتى لم يبق معه حكم للظافر، لكنه قتل سنة ٥٤٨هـ سنة ١١٥٤م فأخذ الوزارة عباس بن ياديس الصفاجي وكان ربيب ابن السلار، وأخذ الفرنج هذه السنة عسقلان من الظافر. وفي سنة ٥٤٩هـ سنة ١١٥٥م قتله وزيره عباس المذكور.

وبعد مقتل الظافر ولوا الخلافة ابنه أبا القاسم عيسى ولقب الفائز بنصر الله، وله من العمر خمس سنين، فحمله عباس الوزير المذكور على كتفه وأجلسه على سرير الملك وباعه الناس، وأخذ عباس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك إلا ما لا خير فيه. وتوفي الفائز سنة ٥٥٥هـ سنة ١١٦١م وعمره نحو إحدى عشرة سنة، فقد اختاره عباس الوزير صغيراً كيلا يكون له شيء من الحكم.

وبعد وفاة الفائز بنصر الله دخل القصر الصالح بن درزيك من أكابر الأمراء وكان أرمنياً، واختار أبا محمد عبدالله بن يوسف بن الحافظ وكان مراهقاً قارب البلوغ فباعه الصالح بالخلافة ولقب العاضد لدين الله وزوجه الصالح ابنته فكان ذلك سبب عداوة في القصر لصالح، وهو استطال على الناس وأرسلت عمه العاضد الأموال إلى أمراء المصريين فجرحوه ومات من جراحه وأوصى أن تكون الوزارة لابنه العادل. ولكن وثب شاور عامل الصعيد على العادل الوزير فقتله وصار وزيراً للعاضد سنة ٥٥٨هـ سنة ١١٦٤م. ثم جمع الضرغام جمعوا فهزم شاور إلى الشام واستقرّ في الوزارة وقتل كثيرين من الأمراء. وفي سنة ٥٦٥هـ سنة ١١٧٠م حصر الفرنج دمياط وأرسل نور الدين بن زنكي أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين إلى مصر كما ذكرنا قبلاً وصار شيركوه وزيراً للعاضد ثم توفي وخلفه ابن أخيه يوسف صلاح الدين وأقام الخطبة العباسية بمصر. ومات العاضد وانقرضت به دولة العلويين سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧٢م وخلفتها دولة الأيوبيين أولاً في مصر ثم في سورية. وكان ابتداء دولة العلويين في المغرب سنة ٢٩٧هـ سنة ٩١٠م وانقرضت سنة ٥٦٧هـ سنة ١١٧٢م فكانت مدة ملكهم مئتين وسبعين سنة قمرية ومئتين وستين سنة شمسية وعددهم أربعة عشر ملكاً منهم ثلاثة بالمغرب واحد عشر بمصر والشام.

وأما الخلفاء العباسيون فقد ذكرنا منهم من تولوا سورية إلى آخر القرن العاشر

ثم ذكرنا من ولي الخلافة منهم في القرن الحادي عشر عدد ٨٠٢ وسوف نذكر من بقي منهم إلى آخرهم في محل آخر إن شاء الله تعالى .

وبقي علينا أن نذكر ملوك الروم في هذا القرن الثاني لتعلق بعض أخبار هذا التاريخ بأخبارهم وقد ذكرنا في عدد ٨٠١ جميع من ملكوا في قسطنطينية من هرقل الملك الذي أخذ الخلفاء سورية منه إلى الكسيس كوماناس الذي كان في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل هذا القرن الثاني عشر. فنذكر الآن منهم من كانوا في هذا القرن .

إنَّ الكسيس كوماناس أدركته الوفاة سنة ١١١٨م فخلفه ابنه يوحنا الثاني وحارب السريين سنة ١١٢٥م وانتصر عليهم، وكان قد حارب أسطفانس الثاني ملك المجر سنة ١١٢٤م وحارب الأتراك سنة ١١١٩م وأخذ منهم اللاذقية وقسطنوني بآسيا الصغرى، وأتفق مع ريموند دي اوتريش سنة ١١٣٨م وحارب الاتابك بسورية وأحسن سيرته في مملكته حتى لقبوه مرقس أورليوس البيزنطي . وتوفي سنة ١١٤٣م .

وخلفه في السنة المذكورة ابنه عمנוئيل الأول كوماناس مفضلاً على أخيه الأكبر اسحق كوماناس، وفي سنة ١١٤٧م غدر بالصلبيين الذين كانوا بامرة كونراد ملك ألمانيا ولويس السادس ملك فرنسا، وعاون باتفاقه مع المسلمين على انخذالهم وقهر عساكرهم، فعاقبه على غدره روجر ملك صقلية وحليف الصليبيين . فدخل في عساكره بلاد اليونان ونهب تاب وقرنثية وكان عمנוيل في حرب متصلة مع المجرين والسريين الذين ثاروا عليه وبدد عز الدين سلطان قونية عساكره في آسيا الصغرى سنة ١١٧٦م . وتوفي عمنوئيل سنة ١١٨٠م وقام بعده ابنه الكسيس الثاني وكان عمره اثنتي عشرة سنة، وكانت أمه تدبر الملك على أنَّ سوء سيرتها كان سبباً للثورة عليه وعليها، فأقيم اندرونيكس كوماناس مديراً للملك، فتوَّج الكسيس وشاركه في الملك وما عثم أن قتله سنة ١١٨٣م وملك مكانه . وساء السيرة فثل عرشه اسحق الملقب انج (أي الملاك) سنة ١١٨٥م ووثب الشعب على أندرونيكس فشنته وانقضت به سلالة كوماناس . وأقام الشعب مكانه اسحق الثاني انج المذكور فحارب البلغارين وفاز ببعض النصر عليهم ولكن مقتته الشعب لعكوفه على ملاذه وقسوته فثل عرشه أخوه الكسيس الثالث سنة ١١٩٥م وسمل عينيه، ولكن نهض

عليه الكسيس الرابع ابن أخيه وخلعه من الملك واستنجد بالصليبيين فأثروا لنجدته وملكوا قسطنطينية سنة ١٣٠٣م وأقروه، ولكن قتله بعد ستة أشهر دوкас مرسوفل (الغليظ الحاجب) وأخذ الملك سنة ١٢٠٤م وسمي الكسيس الخامس، فثل الصليبيون عرشه وملكوا قسطنطينية وأقاموا فيها المملكة اللاتينية كما سيجيء.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الأوّل

بطاركة أنطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من الأساقفة

في هذا القرن

عد ٨٥٠

بطاركة أنطاكية في القرن الثاني عشر

فرغنا من كلامنا في بطاركة أنطاكية في القرن الحادي عشر بذكر يوحنا الرابع ولا نعلم علماً أكيداً من خلفه. فقد روى لكويان في كلامه عن هؤلاء البطاركة في كتابه المشرق المسيحي أنّه يظهر من جدول لبطاركة أنطاكية قدّمه من مدّة أنثاسيوس الرابع بطريرك أنطاكية ووضع في المكتبة الوايكانية أنّ توادوسيوس أو توافيلس (يسميه بالاسمين) خلف يوحنا الرابع المذكور لكّنه قال أنّ الفرنج أخذوا في أيامه أنطاكية، وهذا غير صحيح ويين بطلانه ما ذكرناه في ترجمة يوحنا الرابع

المذكور، وعليه فلا يمكن الاعتماد على ما جاء في الجدول المذكور عن توادوسيوس أو توافيلس.

وجاء في هذا الجدول أيضاً أنّ يوحنا الخامس خلف توادوسيوس المذكور في بطريركية أنطاكية، واستشهد مؤلف الجدول بنيكون ارشمندريت دير القديس سمعان العمودي وقال بعد ذلك أنّ يوحنا الخامس خلفه توادورس بلسامون فقال لكويان هنا خطأ غير مغتفر ولنا على إثبات عدم صحته بينات راهنة وأدلة دامغة وسنورد أسماء بطاركة كثيرين كانوا قبل توادورس بلسامون الذي قال صاحب الجداول إنه خلف يوحنا الخامس. وقد أقام اللاتينيون على أنطاكية بعد ملكهم إياها بطاركة تتالوا خلفاً عن سلف، ولكن استمرّ الروم ينصبون بطاركة من أصحاب طقسهم فيقيمون بقسطنطينية حتى سعى بودوين الثالث ملك أورشليم (الذي كان متزوجاً بتوادورا بنت أخي الملك عمנוئيل كومنانس) لدى هذا الملك بأن لا يرسل إلى أنطاكية بطريركاً من قسطنطينية، ومع ذلك انتخب رجل اسمه سوتريكس. وقبل ارتقائه إلى بطريركية أنطاكية ابدع ضللاً أنكر به أنه يجوز تقدمة ذبيحة الصليب أو ذبيحة القربان لله الكلمة، بل يلزم تقدمة الذبيحتين للآب والروح القدس فعقد مجمع سنة ١١٥٥م حرم به سوتريكس وأقصي عن البطريركية.

ولا نعلم خلفاً لسوتريكس المذكور إلا أناسيوس الذي كان مقيماً في قسطنطينية أيضاً، إذ قد روى الايتوس في الكتاب الثاني من مؤلفه في اتفاق الكنائس فصل ٤٢ أنه عقد مجعاً سنة ١١٦٦م في قسطنطينية جلس فيه أناسيوس بطريرك أنطاكية بعد لوقا البطريرك القسطنطيني.

وروى بعضهم أنه كان في جملة البطاركة الذين باركوا زواج الملك عمنوئيل كومنانس بمرم ابنة ريموند أمير أنطاكية وهم لوقا بطريرك قسطنطينية وصفرونيوس بطريرك اسكندرية وأناسيوس بطريرك أنطاكية المذكور.

وقام بعد أناسيوس في الكرسي الأنطاكي سمعان الثاني فقد أثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨م رسالة من جيورجيوس ميريوليت كورشيرا إلى سمعان هذا عنوانها: «إلى بطريرك مدينة الله أنطاكية السيد سمعان الكلي القداسة من جيورجيوس ميريوليت كورشيرا». وكان سمعان يشكو إلى الميريوليت المذكور سوء حاله وما يقاسيه من الحزن فأجابه بالرسالة المذكورة معزياً إياه ومثنياً عليه، وكان

جيورجوس حينئذ في برنديسي بإيطاليا مرسلًا إلى روما من الملك عمנוئيل كومنانس تلبية لدعوة البابا اسكندر الثالث لعقد مجمع في رومة وهو المجمع اللاتراني الثالث الذي عقد سنة ١١٧٩، دعا إليه الأساقفة الكاثوليكين وغير الكاثوليكين. ولما وصل جيورجوس إلى برنديسي مريضاً وكان الشتاء شديداً استمرّ في هذه المدينة ستة أشهر، وعاد منها إلى الشرق دون أن يصل إلى رومة، لكنه أرسل إليها نيابة عنه نكتاريوس الرئيس الذي كان يصحبه. فمأحك في المجمع وكابر واستمر مصرّاً على رأيه، وعاد متفاخراً مدعياً الظفر، وهناك جيورجوس المذكور وغيره من المشايخين لهما. وكل هذا بيّن من رسائل جيورجوس المذكور التي أثبتتها بارونيوس في تاريخ سنة ١١٧٨ م وسنة ١١٧٩ م، ويظهر من ذلك أنّ سمعان البطريك الأنطاكي المذكور لم يكن كاثوليكياً لالتحامه مع جيورجوس ونكتاريوس المذكورين. وفي سنة ١١٨٧ م دعا الملك اسحق الفخ بطاركة القسطنطينية وأنطاكية وأورشليم الذين كانوا في مدينته مع غيرهم من الأساقفة وسوّا شريعة أن لا ينتخب الأساقفة في قسطنطينية كالعادة بل لا بدّ من استدعاء غيرهم من أساقفة الأقاليم وذلك بين في كتاب الناموس اليوناني الروماني صفحة ٤٦٩، غير أنّه لا ذكر هناك لأسماء هؤلاء البطاركة.

وصيّر بعد أثناسيوس توادورس الرابع بلسامون بطريكاً على كرسي أنطاكية وكان حائزاً مناصب رفيعة في كنيسة القسطنطينية قبل ارتقائه إلى الكرسي الأنطاكي، وقد انتخب لهذا الكرسي في القسطنطينية واستمرّ فيها، ويظهر أنّه صيّر بطريكاً سنة ١١٨٦ م. وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩١ م أنّه في هذه السنة قدم بلسامون البطريك الأنطاكي كتابه في القوانين البيعية لجيورجوس كسيفيلينس البطريك القسطنطيني وكتب إليه ما يأتي: «إلى البطريك جيورجوس كاسيفيلينس الكلي القداسة نظم توادورس بطريك أنطاكية». ويلى ذلك أبيات شعر قال في آخرها: «هذا ما دوّنته إليك أنا توادورس بلسامون بطريك أنطاكية الشريفة وسائر المشرق». قال بارونيوس بعد ذلك لم يكن بلسامون بطريكاً على أنطاكية إلّا بالاسم ولم يتمكّن أن يقيم بها بل كان بطريكها اللاتيني مستحوذاً على كرسيها، ولا يدع بطريك الروم أن يدنو منه، بل كان يسمح بإقامة أساقفة للروم في غيرها من المدن للاهتمام بالروم الساكنين فيها. وقد شهد بلسامون نفسه بذلك في كتابه الثاني عند شرحه حالة الكنيسة المشرقية مفنداً القانون السادس عشر من المجمع

الأنطاكي حيث قال: «إنّ اللاتينيين لا يدعون الروم يضعون رجلهم في أنطاكية أو أورشليم أو طرسوس، فأورشليم استحوذ عليها المسلمون، وكرسي أنطاكية غصبه بطريك اللاتين، وكرسي طرسوس غصبه الأرمن. وأما باقي الكنائس المتعلقة بأورشليم وأنطاكية وبعض الكنائس الشرقية المختصة بالقسطنطينية فلا تخلو من أساقفتها لأنّ السلطان واللاتينيين والمسلمين ييحدون أساقفة هذه الكنائس أن يدبروا كنائسهم ويهتموا بالمسيحيين المقيمين هناك».

ثم استطرد بارونيوس إلى انتقاد كتاب بلسامون وتبيين ما حواه من المطاعن بالكنيسة الرومانية، ومن الأغلاط التاريخية وتحريفه بعض قوانين الجوامع ومراسيم الملوك، ثم روى في تاريخ سنة ١١٩٣م أنّ الملك اسحق انج عزل نيقيطا البطريرك القسطنطيني عن كرسيه، وكان بلسامون هائماً أن ينتقل من بطريركية أنطاكية إلى بطريركية قسطنطينية، وكان بعضهم يزعمون أنّ نقل البطاركة من كرسي إلى آخر محظور بقوانين البيعة، فأثبت بلسامون للملك ول بعض الأساقفة أنّ هذا النقل غير محظور، وأنّ بعض الملوك أثبتوه بمراسيمهم. ثم عقد الأساقفة الاجتماع هناك مجعاً وأقرّوا هذا الأمر على أنّ بلسامون لم ينتفع بما أثبتته لأنّ الملك اسحق فضّل عليه دوزيتاس البطريرك الأورشليمي فنقله إلى كرسي قسطنطينية. وقد أثبت ذلك نيقيطا كونيّاتس في ترجمة الملك اسحق المذكور، وقد استمرّ بلسامون بطريكاً على أنطاكية من سنة ١١٨٦م إلى سنة ١٢١٤م، وعن بعضهم أنّه توفي سنة ١٢٠٣م. انتهى.

عد ٨٥١

بطاركة أورشليم في القرن الثاني عشر

آخر من ذكرنا من بطاركة أورشليم في القرن الحادي عشر هو سمعان الثاني لذي توفي سنة ١٠٩٩م وجاء في الجدول الذي وضعه دوزيتاوس لبطاركة أورشليم أنّ أوتيميوس خلف سمعان المذكور، ولكن قد أثبتا أنّ هذا غير صحيح وأنّ المعتمد عليه أنّ أوتيميوس كان قبل سمعان، وأنّ الذي خلف سمعان إنّما هو أغايوس. وفي تاريخ أورشليم في هذا القرن تشوش وغموض لا سبيل إلى إزالتها. فقد جاء في كتاب الناموس الرومي اللاتيني (فصل ٤) ذكر لاغايوس أنّه انتقل من كرسي

سلوقية إلى كرسي أورشليم، ولكن قيل أنّ هذا النقل كان في أيام الملك باسيليوس أعني نحو سنة ٩٨٤م. وروى نيكوفور كاليستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) أنّ أغايوس نقل إلى كرسي أنطاكية فلا يعلم متى كان أغايوس هذا وهل كان في أنطاكية أو أورشليم.

وجاء في جدول دوزيتاوس المذكور أيضاً أنّ سابا خلف أغايوس في أيام الكسيس كومانس أي في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل الثاني عشر، وأنّه نقل من كرسي قيصرية فيليس إلى بطريركية أورشليم، وأنّه سار إلى قسطنطينية وخدم الأسرار الإلهية مع نيقولاوس بطريركها. وجاء في كتاب الناموس المذكور ما يشعر بذلك ولكن (روى نيكوفور كاليستس ك ١٤ فصل ٣٩) أنّ الذي سار إلى قسطنطينية في أيام نيقولاوس بطريركها إنما كان أسقفاً على صور ولم يذكر اسمه. ونيقولاوس هذا البطريرك القسطنطيني هو المسمي الغراماطيقي وقد صيّر بطريركاً سنة ١٠٨٤م. فإن صحّ أنّ بطريركاً أورشليمياً سار إلى قسطنطينية واجتمع بنيقولاوس بطريركاً كان سمعان الذي ذكرناه في تاريخ القرن الحادي عشر ولا ذكر في الجداول اللاتينية لسابا في عداد بطاركة أورشليم بعد ولاية الفرنج عليها. قال لكويان لم نذكر سابا هذا إلاّ لأنّه ربّما كان بطريركاً على أورشليم قبل سمعان أو بعده ولكن لا وسيلة لنا للقطع بذلك.

وجاء في جدول دوزيتاوس أيضاً أنّ أوخاريوس خلف سابا ولعلّه من سماء لاون الاتيوس (في ك ٢ من توفيق الكنائس فصل ١٨) مكاريوس، وقال إنّّه كتب مقالة يخالف بها اللاتينيين، على أنّ دوزيتاس قال إنّ أوخاريوس كان بطريركاً على أورشليم يوم فتح بودوين ملك أورشليم عسقلان، وهذا الفتح كان سنة ١١٤٦م. قال لكويان ربّما تصحّف على دوزيتاوس اسم فلكاروس بطريرك اللاتين على أورشليم حينئذٍ باسم أوخاريوس فقد أثبت كثيرون أنّ فلكاروس بطريرك أورشليم اللاتيني شهد حصار عسقلان ثمّ ذكر دوزيتاوس بعد أوخاريوس يعقوب ونعته بالثاني ولا نرى في غير جدوله أثراً ليعقوب هذا.

وذكر دوزيتاوس بعد يعقوب أرسانيوس ونعته بالأول وقد غفل عن أرسانيوس الآخر الذي ذكرناه قبلاً ثمّ قال في كتابه السابع فصل ٢٢ ما يؤخذ منه أنّ أرسانيوس هذا كان في سنة ١١٤٦م. وهذا يؤيد ما قلناه آنفاً من أنّ دوزيتاوس لم

يميز بين فلكارس البطريك اللاتيني الذي كان سنة ١١٤٦م وبين أوخاريوس بطريك الروم، وإلاّ لكان للروم بطريكاً لأبرشية واحدة في وقت واحد وهما أوخاريوس وارسانيوس.

وذكر دوزيتاوس بعد أرسانيوس يوحنا السابع وقال إنّه كان في أيام الملك عمנוئيل كومنانس وعزا إليه (في ك ٧ فصل ٢٢) مقالات في الفطير وانبثاق الروح القدس رداً على اللاتين وإنّه شهد المجمع الذي عقد في قسطنطينية سنة ١١٥٦م بشأن ذبيحة القديس مع قسطنطين بطريكها في أيام الملك عمנוئيل كومنانس، لكن المعلوم أنّ هذا المجمع عقده حينئذ لوقا كريسبورج خليفة قسطنطين المذكور ووقع عليه نيقولاوس بطريك أورشليم، ودوزيتاوس يسميه يوحنا السابع. وقد اقترح بودوين ملك أورشليم حينئذ على عمנוئيل كومنانس ملك الروم أن لا يرقى بطريك أنطاكية إلى كرسيها دون استشارة أساقفة بطريركيته، ويظنّ أنّ ذلك شمل بطريكية أورشليم أيضاً. وقد رأينا توقيع نيقولاوس بطريك أورشليم مع توقيع لوقا بطريك قسطنطينية على حط سوتريكس البطريك الأنطاكي المار ذكره عن كرسيه لما بثه من الضلال. والحاصل أنّ البطريك الأورشليمي حينئذ كان نيقولاوس لا يوحنا السابع الذي لم يذكره أحد إلاّ دوزيتاوس.

وذكر دوزيتاوس بعد يوحنا السابع نيكوفر الثاني وقد شهد المجمع الذي عقد في القسطنطينية سنة ١١٦٦م كما روى الاتيوس (ك ٢ في توفيق الكنائس فصل ١٢) وقال إنّ عنده من أعمال هذا المجمع نسخة مخطوطة. وقد بحث في هذا المجمع عما إذا كان اعتقاد بعض الألمانين أنّ المسيح مساوٍ للآب من حيث اللاهوت ولا ينقص عنه بسبب الناسوت يطابق الإيمان القويم، وحكم بصحة معتقدهم. ثمّ أنّ توادورس بلسامون ذكر نيكوفر هذا في تفسير القانون السابع والثلاثين فلا مرية ببطريركيته ولكن لا يمكن القطع بسنة ترقيه أو سنة وفاته.

وصير بعد نيكوفر المذكور أثناسيوس الثاني، ولما فتح السلطان صلاح الدين الأيوبي أورشليم وطرد الفرنج منها رحل هرقل البطريك اللاتيني عنها إلى عكا، فسار أثناسيوس هذا إلى أورشليم وأثبت بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨م رسالة كتبها جيورجيوس متربوليت كورشيرا المذكور آنفاً إلى أثناسيوس هذا بطريك أورشليم عنوانها: «جيورجيوس متربوليت كورشيرا إلى السيّد أثناسيوس بطريك

أورشليم الكلي القداسة». والرسالة ودادية يذكره بها بحبته له واشتياقه إلى رؤيته، ويعتذر له عن إتمام ذلك بأمراضه وأثبت بارونيوس أيضاً جواب أثناسيوس إلى جيورجيوس المذكور وبه يرثي حالة أورشليم في ذلك الوقت، فنقد باجيوس كلام بارونيوس هذا قائلاً أنّ الروم يقيموا أثناسيوس بطريكاً على أورشليم قبل سنة ١١٩٣م كما يتبين مما سنقوله في تاريخ السنة المذكورة، وعليه فيلزم أن تكون رسالة جيورجيوس المذكورة إلى أثناسيوس وجواب أثناسيوس له قد كتبا في سنة ١١٩٣م لا سنة ١١٨٨م كما ذكرهما بارونيوس في تاريخ سنة ١١٩٣م أنّ انج اسحق ملك الروم عزل تلك السنة نيقيطا موندانس عن بطريركية قسطنطينية، ونقل دوزيتاوس بطريك أورشليم إلى كرسي قسطنطينية. فقال باجيوس لم يكن عزل نيقيطا موندانس في هذه السنة بل في السنة السابقة، وخلف لاونتيوس الراهب نيقيطا المذكور ثم اعتزل في سنة ١١٩٣م، فخلفه دوزيتاوس متنقلاً من كرسي أورشليم إلى كرسي قسطنطينية. وهذا يخالف ما قاله باجيوس في تاريخ سنة ١١٨٨م من أنّ الروم لم يقيموا أثناسيوس قبل سنة ١١٩٣ لأنّ أثناسيوس هذا كان قد توفي سنة ١١٨٨ وخلفه لاونتيوس، وخلف دوزيتاوس لاونتيوس المذكور ثم نقل سنة ١١٩٣م إلى كرسي قسطنطينية كما قال باجيوس نفسه فبقي قول بارونيوس ثابتاً سالماً من النقد. وذكر السمعاني في المجلد الأول من المكتبة المشرقية صفحة ٦٣٠ أنّ الكتاب السابع والسبعين من الكتب التي أخذها من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية يشتمل على خمس وستين خطبة لأثناسيوس البطريرك الأورشليمي، وأنّ الكتاب التسعين من تلك الكتب انطوى على ست وستين خطبة. قال لكويان لا يمكن القطع بأنّ هذه الخطب لأثناسيوس حقيقة.

وروى بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٨م أنّ أثناسيوس توفي في هذه السنة وخلفه لاونتيوس في بطريركية أورشليم وقد وصفه نيقيطا كونيانتس (ك ٢ من تاريخه عد ٤) انه كان رجلاً عالماً فاضلاً وتوفي سنة ١١٩٢م، ولا علم لنا بغير ذلك من أمره.

وقام بعد لاونتيوس دوزيتاوس وكان من البندقية مولداً وأتى إلى قسطنطينية لطلب العلم وأنبأ اسحق انج أنّه سوف يكون ملكاً، فلما استوى على منصّة الملك صرف عنايته إلى إقامة دوزيتاوس بطريكاً على أورشليم بعد وفاة لاونتيوس. وقد عزل هذا الملك لاونتيوس الآخر عن بطريركية قسطنطينية سنة ١١٩٣م وأقام

دوزيتاوس بطريك اورشليم في مكانه بعد أن أفتى له توادورس بلسامون ان القوانين البيعية تجيز نقل البطاركة من كرسي إلى آخر طمعاً بأن ينقله الملك من كرسي أنطاكية إلى كرسي قسطنطينية. فأثار الملك دوزيتاوس بطريك اورشليم عليه وكان الشعب يمتدح دوزيتاوس ويسخر منه كما روى بارونيوس نقلاً عن نيقيطا كونيائس في تاريخ سنة ١١٩٣م حتى اضطر أن يترك بطريكية قسطنطينية ويعود إلى اورشليم. وجاء ذكر دوزيتاوس هذا في الجدول الذي نظمته دوزيتاوس الآخر البطريك الأورشليمي في القرن السابع عشر لبطاركة اورشليم إلى أيامه.

وبعد أن نقل دوزيتاوس إلى كرسي قسطنطينية أقيم مكانه مرقس على كرسي اورشليم ويلقب فلورس. وقال فيه نيكفور كالستس (ك ١٤ من تاريخه فصل ٣٩) انه طرد من كرسيه ظلماً لأن دوزيتاوس ترك كرسي قسطنطينية وعاد إلى اورشليم، ولا يعلم ما كان لمرقس بعد ذلك ولا متى توفي دوزيتاوس. والمعلوم أن توفان الأول كان بطريكاً على اورشليم في آخر القرن الثاني عشر أو بدء القرن الثالث عشر، وهذا يظهر من رسالة أنفذها إليه مرقس البطريك الاسكندري الذي كان معاصراً لتوادورس بلسامون ولم يذكر دوزيتاوس الثاني في جدول بطاركة اورشليم توفان هذا، بل روى أن غريغوريوس الآتي ذكره خلف دوزيتاوس الأول، ثم صير لاونتيوس بطريكاً على اورشليم خلافاً لما مر. (انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي وعن تاريخ بارونيوس في السنين المذكورة).

عد ٨٥٢

بطاركة أنطاكية وأورشليم اللاتينيون في هذا القرن الثاني عشر

رأينا أن ذكر البطاركة اللاتينيين على أنطاكية وأورشليم في هذا القرن لا يخلو من الفائدة ولذلك أردنا ذكرهم هنا بما أمكن من الإيجاز نقلاً عن لكويان في المشرق المسيحي.

بطاركة أنطاكية اللاتينيون في القرن الثاني عشر

كان لبطريك أنطاكية عند اللاتين من الكراسي الأسقفية: اللاذقية وجبلة وطرطوس وطرابلس وجبيل. وأول بطريك أقيم فيها منهم برنردس سنة ١٠٩٩م

وكان فرنسياً من فالنس، وقد طلب الملك بودوين الأول من البابا بسكاليس الثاني أن يخضع لبطيركية أورشليم جميع المدن التي يفتحها فأجابه البابا إلى ذلك، فشكا برنردس بطريك أنطاكية من أن هذا مجحف بحقوق كرسية الأنطاكي، فأمر البابا سنة ١١١٣م أن تبقى الولاية لكلا الكرسيين على ما كانت عليه قبل استيلاء الفرنج على مدن سورية. وتوفي برنردس سنة ١١٣٥م على ما روى غوليلمس أسقف صور في تاريخه، وروى غيره أن وفاته كانت سنة ١١٣٢م، وخلفه رودلفس ويسمى الأول انتخبه الشعب وطاعه بعض الإكليروس وعصاه بعضهم، واتشح بالبايوم درع الرئاسة قبل أن يثبته الحبر الروماني مدّعياً أنه خليفة بطرس في أنطاكية كخليفة البابا له برومة. فطرده أمير أنطاكية منها فصار إلى رومة فشفع به أصدقاؤه إلى الحبر الروماني البابا أينوشنسيوس الثاني فقبله وأمر أن يخلع بالبايوم الذي أخذه من نفسه ويعطى باليوم آخر، وأن يعود إلى أنطاكية لتسمع دعواه فيها. ونصب البابا قاصداً لذلك فمات القاصد بعكا فنصب آخر، وعقد مجعماً بأنطاكية سنة ١١٣٦م ودعي رودلفس إليه فلم يحضر فحط عن مقامه وحبس في دير، ففرّ منه إلى رومة مستغفراً، ثم أدركته المنية (قتل مسمماً) سنة ١١٤٢م. روي كل ذلك غوليلمس الصوري.

وخلف أيماريكس ويسمى أموري رودلفس المذكور واستمرّ في البطيركية زماناً طويلاً. قال لكويان زعم غوليلمس الصوري أن الموارنة ارعوا عن بدعة المشيئة الواحدة في أيام هذا البطريك سنة ١١٨٢م، والصحيح أن هذا الارعاء لا يصدق على الموارنة بأجمعهم بل على فريق منهم كان قد اغترّ بكتاب توما الحاراني أسقف كفرطاب، كما ذكرنا في مقدّمة كلامنا على الموارنة. واستمرّ ايماريكس حياً إلى سنة ١١٨٧م كما يظهر من رسالة كتبها إلى أنريكس الثاني ملك انكلترا، وتوفي في آخر السنة المذكورة أو سنة ١١٨٨م، وخلفه رودلفس الثاني على ما روى العلامة السمعاني في الجداول التي وضعها لبطاركة أنطاكية، وتوفي رودلفس هذا سنة ١٢٠٠م.

أما بطركية أورشليم اللاتينية فكانت تلي أربع متربوليات أولها صور ويخضع لمطرانها أساقفة عكا وصيدا وبيروت وبانياس. والثانية قيسرية ويخضع لمطرانها أسقف سبسطية وهي السامرة، ولم يكن لحيفا أسقف بل كانت خاضعة لمطران

قيصرية. والثالثة الناصرة ويخضع لمطرانها أسقف طبرية، وكانت المطرنية لباسان فنقلت إلى الناصرة تبركاً. والرابعة بصرى ويخضع لمطرانها أسقف روم في جبل سينا وكان أساقفة بيت لحم وحبرون (الخليل) واللد يخضعون لبطريك أورشليم رأساً.

وأول بطريك لاتيني على أورشليم وإيمبر، وكان سفير البابا مع الصليبيين فانتخبوه بطريكاً سنة ١٠٩٩م، وقاومه أرنولفوس مدير أعمال البطريكية. وسار وإيمبر إلى رومة فردّه الخبر الروماني معزراً إلى كرسيه، ثم توفي سنة ١١٠٧م. هذا ما رواه لكويان وهو أولى بالتصديق مما ذكره بعضهم من أنّ وإيمبر اعتزل البطريكية سنة ١١٠٣م أو سنة ١١٠٤م، وأقيم بعده ابرامار رئيس أساقفة قيصرية إلى سنة ١١٠٧م.

وخلف جيبالينس وإيمبر على الأصح سنة ١١٠٧م فتغلب على البطريكية أبرامان المذكور، فعزله الكرسي الرسولي، وأثبت جيبالينس الذي توفي سنة ١١١١م فخلفه أرنولفس الذي كان يدبر مهام البطريكية. وقد قاوم وإيمبر كما مرّ ثم توفي أرنولفس سنة ١١١٨م وخلفه كورماندس وبقي في البطريكية عشر سنين وتوفي سنة ١١٤٥م، وخلفه فولكاريوس أو فولشر رئيس أساقفة صور، وتوفي سنة ١١٥٧م وخلفه الماريكس، وتوفي سنة ١١٨٠م، وخلفه هرقل وكان رئيس أساقفة قيصرية، فاعترض غوليلمس أسقف صور على انتخابه فحرمه البطريك فلجأ إلى رومة ومات غوليلمس فيها. وفي أيام هرقل أخذ صلاح الدين الأيوبي أورشليم من الفرنج وتوفي هرقل سنة ١١٩١م ويقال أنّ البابا شالستينس الثالث انتخب للبطريكية كيرلس رئيس الكرمليين، فلم يقبل وانتخب شماس كنيسة باريس فانتخب إلى أسقفية أخرى ونصب بها فبقي كرسي أورشليم إلى سنة ١١٩٤م حين انتخب مونوماكس وسماه بعضهم أموري أو الماريك وكان أسقفاً على قيصرية وتوفي سنة ١٢٠٣م وقيل سنة ١٢٠٢م. انتهى.

توما أسقف كفرطاب

كان أسقفاً على كفرطاب كورة حلب يعقوبي المذهب اختلف مع رؤساء ملته فشايع أصحاب بدعة المشيئة الواحدة وكتب كتاباً سماه المقالات العشر، وافتتحه بقوله: «مخبركم يا إخوة لما كانت سنة ١٤٠٠م من تاريخ اسكندر بن فيليس المكدوني (سنة ١٠٨٩م) جرت مكاتبات ومراسلات بين بطرك الروم في مدينة أنطاكية وهو الانبا يوحنا وبين توما مطران كورة حلب الماروني لأنه جرى بينهما تصحيح المذهب المسيحي باعتقاد الإيمان المقدس وكان الأمر في اعتقاد الملكيين بالمشيئين للذي الطبيعيين، وفي تصحيح مذهب الموارنة بتأسس ربنا من لاهوت وناسوت طبيعتين متحدتين بمشيئة واحدة، فلما كثر التصحيح بينهما جعلت كتب الانبا يوحنا تتوارد إلى الانبا توما وكتب إلى الانبا يوحنا، فعند ذلك كتب الانبا يوحنا بطريرك أنطاكية رسالة طويلة الشرح كثيرة المعنى وأرسلها مع قاصد إلى الانبا توما مطران الموارنة إلى كفرطاب بلد كورة حلب، وهو يحتج عليه فيها ويقول إن كل من لا يعتقد أن لربنا يسوع المسيح مشيئين فهو ضال في مذهبه. ولما وصلت الرسالة إلى الانبا توما تأملها فوجد فيها تعاليم كثيرة مخالفة لقوانين المجامع وكنيسة الله الجامعة الرسولية، فحزن أنبا توما حزناً شديداً... وجعل ينقض رسالة انبا يوحنا كلمة كلمة في تبطيل المشيئين وإثبات المشيئة الواحدة: «إلى أن يقول لما وصلت هذه الرسالة إلى انبا يوحنا عجز عن جوابها وألقاها في النار كيلا ينتشر خبرها وعاد توما وكتبها ثانية أحسن مما كانت أولاً. كل هذا من كلام الكفرطابي الذي أثبتنا مرات أنه لم يكن مارونياً وإن لم يكن موارنة حينئذ في كفرطاب، بل سمي نفسه مارونياً ليخدع الموارنة. ثم أخير توما عن نفسه أنه سار بعد ذلك إلى جبل لبنان وكان يظن أنه لا يقيم به إلا نصف سنة فحدث أن الفرنج حاصروا طرابلس حينئذ فلم يمكنه العود، فسار إلى جبة يانوح فأقام أربع سنين وعاد إلى جبة بشري وأقام بها سنتين، وأنه أتاه ذات يوم خوري ماهر قديس من أهل قرية فرشح وسأله أن يجدد له تلك الرسالة التي كتبها إلى يوحنا بطريرك أنطاكية فجدها له، وكتابه

المقالات العشر يشتمل على تلك الرسالة. ويظهر من كتابه المذكور أنه كتب رسالة إلى أرسانيوس مطران العاقورة سماها رسالة العدل ليعين له فيها أنّ القديس مارون وقدماء الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة مستنداً إلى أقوال سعيد بن البطريق، وأنه يلزم الموارنة أن يعودوا إلى معتقد أجدادهم. فأجابه المطران أرسانيوس ناقضاً زعمه ومبيناً ضلاله وكذلك قاومه البطريك يوسف الجرجسي بطريك الموارنة حينئذ حتى لم ينخدع بضلاله إلاّ خوري فرشح أو كفرشح، ونفر قليل مع أنه أقام بلبنان ست سنين جائلاً في جبة بشري وعملي البترون وجبيل، ومحرفاً كتب الموارنة أو زائداً عليها ما يوافق مقصده ويساعده على خدعة الموارنة. وقد صنع مثل ذلك خاصة في كتاب إيضاح الإيمان للقديس يوحنا مارون، وفي كتاب الهدى للمطران داود الماروني (كما أثبتا في الكلام على يوحنا مارون وعلى المطران داود المذكور) ومع ذلك عصم الله الموارنة من أحبولة خداعه. وقد صرّح بأنّه أراد تصحيح مذهب الموارنة ولم يذعن لزعمه إلاّ خوري فرشح ونفر قليل فعاد بخفي حنين. فكلّامه إذاً في كتابه المذكور وفي رسائله للمطران أرسانيوس العاقوري وغيره هو حجة قاطعة للموارنة على تشبّثهم حينئذٍ بعقيدة المشيئتين بالمسيح لا حجة عليهم بهذا الضلال. فلو كانوا متسكعين به حينئذٍ ما كانت حاجة إلى هذا التعب كله من قبله لتصحيح إيمانهم وردّهم إلى هذا الضلال ولا من قبل بطريك الموارنة ومطرانهم لمناصبته في ذلك. وقال فيه ابن القلاعي في قصيدة في ذوي البدع:

تبعهم توما من حاران	من قصته الصديق يبان
في كورة حلب كان مطران	وكرسیه ليس هو سمعاني
قلت لي إنّه من ماردين	زدتني به رغبة ذا الحين
ماردين مسكن الشياطين	نسطور ويعقوب سكاني
قلت إنّه جاء لجبل لبنان	شهدت أنّه جاء للطغيان
ومارون في سذاجة الآن	ينصت لمن هو سرياني

ومن قوله إنّه أتى لبنان عند حصار الفرنج لطرابلس يظهر أنّ إتيانه كان سنة ١١٠٤م أو سنة ١١٠٥م. ومن قوله إنّه أقام بلبنان ست سنين يظهر أنّ رجوعه منه

كان سنة ١١١٠م أو ١١١١م، ولم نعر على ما يثبتنا ما كان من أمره بعدئذ ولا متى كانت وفاته.

غوليلمس الصوري

أقام الفرنج أساقفة لاتينيين لهم في كل من المدن الأسقفية وليس كبير فائدة في استقراء أسمائهم والبحث عن أعمالهم، وأشهر من كان منهم في هذا القرن غوليلمس رئيس أساقفة صور، وهو سوري مولداً وأصلاً على ما قال بعضهم، منهم نطاليس اسكندر وقد ولد في أورشليم نحو سنة ١١٢٧م وسار إلى المغرب فتخرج هناك في العلوم، ولما عاد إلى أورشليم سنة ١١٦٢م أحبه أموري ملك أورشليم واعتمد عليه وأقيم بعنايته رئيس شمامسة في كنيسة صور المتيروبوليتية سنة ١١٦٧م، وعهد إليه بترية ابنه بودوين الرابع، وأوفد مرات إلى قسطنطينية ورومة وسعى بعقد معاهدة بين عمنوئيل ملك الروم وملك أورشليم سنة ١١٦٨م، وصير أسقفاً على صور سنة ١١٧٤م، وشهد مجمع لاتران الثالث سنة ١١٧٧م، وأبى أن يخضع لسلطة هرقل بطريك أورشليم اللاتيني معترضاً على انتخابه، وكان بينهما خلاف مشهور. واختلف في سنة وفاته فقال بعضهم سار إلى رومة سنة ١١٨٢م بسبب الاختلاف بينه وبين البطريك وبقي في الغرب، وقد دعا بمواعظه وخطبه إلى حملة الفرنج الثالثة على سورية وتوفي سنة ١١٩٣م. وعن مكمل تاريخه على ما في مجموعة تاريخ الصليبيين المطبوعة في باريس سنة ١٨٥٩م أنّ غوليلمس رجع من صور إلى إيطاليا سنة ١١٨٠م، لأنّه اعترض على انتخاب هرقل البطريك الأورشليمي واغتابه، فحرمه البطريك فاستغاث بالحبر الروماني وسار إلى رومة وأرسل البطريك خفية معه رجلاً رشاه بمبلغ من المال فدرس له سماً مات به. على أنّ الواضح من خلاصة تاريخ غوليلمس المعلقة في آخر المجلد الثاني من المجموعة المذكورة أنّ وفاة أموري بطريك أورشليم وانتخاب هرقل خليفة كانا في سنة ١١٨٠م، وأنّ غوليلمس عاد من رومة وقسطنطينية إلى صور في ١٤ نيسان هذه السنة، وإن البطريك أموري توفي في ٨ تشرين الأوّل من هذه السنة، وإنّ انتخاب هرقل واعتراض غوليلمس عليه كانا حيثئذ في الشهر المذكور، وإنّ حرم هرقل

البطريك لغوليلمس أسقف صور كان بين سنة ١١٨٣م وسنة ١١٨٤م، وأنه حينئذ استغاث بالكرسي الرسولي وسار إلى رومة فمات فيها تلك السنة مسموماً. وقد قيل في مقدمة المجلد الثاني من المجموعة المذكورة المطبوعة في باريس بعناية جمعية الخطوط القديمة سنة ١٨٥٩م ما ترجمته: «إنّ غوليلمس كان قد سار إلى رومة ليبرئ ساحته من الشكايات التي أوردها عليه هرقل البطريك الأورشليمي فمات هناك بغتة ضحية لبغض هرقل له. فهذا ما نعتقده بعد البحث الوافي ومراجعة كثير من كتب التاريخ الموثوق بصدقها وسوف نورد في نبذة مخصوصة بينات لا ترد تثبت صحة هذا الرأي».

قد كتب غوليلمس تاريخه الشهير في اثنين وعشرين كتاباً ضمن الأول منها بعض إفادات تاريخية موجزة عن أخذ العرب أورشليم سنة ٦٠٦م، ثم أخذ الفرس لها ونقل خشبة الصليب منها إلى بلاد فارس، ورد الملك هرقل لها إلى أورشليم. وملك الخلفاء سورية وحرّق الحاكم بأمر الله الخليفة العلوي كنيسة القبر المقدّس وتجديد نيكوفور بطريك أورشليم لبنائها سنة ١٠٤٨م إلى غير ذلك، ثمّ شرع في كتابة تاريخ الصليبيين من رجوع بطرس السائح إلى رومة سنة ١٠٩٥م. وقالوا إنّ ما تضمّنه تاريخه في الكتاب الأوّل إلى الكتاب الخامس عشر أعني من سنة ١٠٩٥م إلى سنة ١١٤٤م لم يكن إلّا خلاصة ما كتبه غيره من المؤرخين، وأمّا ما كتبه من تاريخ سنة ١١٤٤م إلى سنة ١١٨٤م فقد كتبه بعلم نفسه، وقد قال في مقدّمة مؤلفه أنّ أموري ملك أورشليم اقترحه عليه وأنّه دفع إليه بعض الكتب العربية، وأنّه اعتمد منها على أقوال الرجل المحترم سعيد بن البطريق الملكي الاسكندري وقد أخذ عنه ما قاله في تهمة الشهيرة للموارنة التي سردها إن شاء الله في الملحق الآتي في تاريخ الموارنة في هذا القرن. ويقال أنّ له تاريخاً للعرب أضاعته الأيام.

عد ٨٥٤

ديوانيسوس بن صليبا

هو من ملاطية (بأرمينية الصغرى) واسم أبيه صليبا فيعزى إليه وكان اسمه قبل أسقفيته يعقوب فبدله بعدها بديونيسوس، وهو يعقوبي مذهباً وقال فيه البطريك أسطفانس الدويهي في فصل من كتابه «المناثر العشر»: ديوانيسوس بن

المشرقية. وله نافوران فاتحة أحدهما: **اللهمة وحده جاسيا ربي اللهم**
يا من ترتضي بالحبة، وفاتحة الثاني: **سبحك يا ذا الجلال والإكرام**
وإلهنا أعطينا حباً واتفاقاً وأماناً كاملاً، وله نافور ثالث بدؤه **الحمد لله**
والحمد لله دائماً وبالإيمان بالله رب العالمين أيها الرب الإله الذي أنت الحب
الحقيقي والكمال . وهذا النافور مثبت في كتاب في مدرسة الموارنة برومة. وقد
ذكر البطريك أسطفانس الدويهي النافورين الأولين في كتابه المذكور، وقال إنَّ

النافور الثاني طبع برومة سنة ١٥٥٤ وهو خطأ لأنه لم يطبع برومة نافور لابن صليبا بل طبع برومة تلك السنة نافور معزو إلى ديونيسيوس الأروبايجيتي في كتاب قداس الكلدان.

ولدى يوانيسيوس بن صليبا ثلاث صلوات تتلى الأولى في قداس اليعاقبة يوم خميس الأسرار، والثانية يوم السبت العظيم، والثالثة يتلوها اليعاقبة قبل كسر القربان في القداس. وله كتاب في شرح رتبة القداس وهو الذي ذكرناه أولاً نقلاً عن الدويهي وقد ذكره رينودوسيوس في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات المشرقية صفحة ٤٥٤، وذكره نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان، وقال إن نسخة منه في كتب الحاقلي ونسخة أخرى كانت في مدرسة الموارنة المقامة في رافنا، ويشتمل هذا الكتاب على عشرين فصلاً ذكرها السمعاني (في المكتبة المشرقية مجلد ٢ صفحة ١٧٧ إلى ٢٠٨) فصلاً فصلاً مبيناً أهم ما حواه كل منها. وقد أبتأ في عد ٧٠٧، أن كتاب ابن صليبا هذا هو غير كتاب يوحنا مارون الموسوم بشرح القداس أيضاً، وذكرنا ما بين الكتاتين من الاختلاف وأوضحنا أن ابن صليبا انتحل بعض كلام يوحنا مارون.

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثاني عشر

عد ٨٥٥

بعض المشاهير الشرقيين في هذا القرن

لم نهتد في ما لدينا من كتب التاريخ إلى ترجمة أحد من المشاهير الدينيين السوريين في هذا القرن فاقترضنا على ذكر بعض المشاهير الشرقيين في هذا الفصل، وسنذكر في الفصل التالي المشاهير الغربيين في هذا القرن بما أمكن من الإيجاز.

البطريك ميخائيل الكبير

هو أحد بطاركة اليعاقبة وقد اشتهر في أواخر القرن الثاني عشر فيؤخذ عن كتاب الأناجيل القديم الموجود في المكتبة الملكية في باريس أنّ هذا الكتاب خطّ في أيام هذا البطريك سنة ١٥٠٣ يونانية الموافقة لسنة ١١٩٢م. وقد ذكره رينادوسيوس في المجلّد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٤٨ وقال في حقه ديوانيسيوس بن صليبا في جدول بطاركة اليعاقبة عد ١٠٠ إنّه كان راهباً في دير برصوما واشتهر في الفضائل وفي الكتاب الخامس من كتب الحاقلي الذي في المكتبة الواتيكانية خطبة لابن صليبا هذا ألّفها يوم ترقّيته إلى المقام البطريكي. ومن مؤلفات هذا البطريك نافور أي رتبة للصلوات التي تتلى في القديس ترجمه رينودوسيوس إلى اللاتينية في كتابه المذكور آنفاً وهو مثبت في الكتاب الثالث من الكتب السريانية المخطوطة المأثي بها من الصعيد إلى المكتبة الواتيكانية صفحة ١٢٦ وفاتحته: **الله سمح حلا همدنا ودلا** أي اللهم الضابط كل شيء وسيّد كل شيء وذكره البطريك أسطفانس الدويهي في كتابه المناثر العشر في الفصل السابع في مؤلفي النوافير الهراطقة. فقال، ميخائيل البطريك له نافور بدوّه **الله سمح حلا همدنا ودلا** وله مقالة في الاستعداد إلى تناول القربان الأقدس ذكرها رينودوسيوس في كتابه المذكور، ووصفها بلاهوتية وعلمية، وقال إنّه ضمّن كتابه هذا الجليل الكلام في فروض الإنسان المسيحي وفي الإيمان وكيف يستطيع الإنسان أن يكون تلميذاً كاملاً للمسيح، وفي لزوم التوبة والاعتراف إلى غير ذلك. وعدّه أبو الفرج ابن العبري في جملة المؤلفين الذين كتبوا في القوانين البيعية، وله كتاب في الرتب الحبرية والطقوس البيعية وهو مثبت في الكتاب الرابع من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية، ويعزى إليه كتاب قديم وجد في الرها مشتملاً على جداول في أسماء بطاركة اليعاقبة والأساقفة الذين رقاهم كل منهم من القرن الثامن إلى الثاني عشر، وقد ترجمه إلى الفرنسية المونسنيور شابو ونشره في المجلة الموسومة بالمشرك المسيحي. وتوفي هذا البطريك في ٧ تشرين الثاني سنة ١٢٠٠م على ما روى ابن العبري في تاريخ بطاركتهم.

يوحنا زوناراس

قد استشهدنا بكلامه متواتراً وهو مؤرخ يوناني كان في قسطنطينية في هذا القرن كاتباً للملكين يوحنا وعمانوئيل كومنانس، ثم ترك العالم واتخذ السيرة الرهبانية على مقتضى قانون القديس باسيليوس وانفرد في جزيرة، وانكبّ على التأليف، فصنف تاريخه المشهور ابتداءً فيه من خلق العالم إلى سنة ١١١٨ للميلاد التي توفي فيها الكسيس كومنانسي. واثني العلماء على هذا التاريخ ولاسيما ما كتبه في قسطنطين الكبير والأمراء آل بيته وقد طبع تاريخه مرات، منها طبعة الأب مين في جملة مكتبة الآباء المشرقيين وقد ترجمه الرئيس كوزن إلى الفرنسية وطبعت هذه الترجمة أولاً في باريس سنة ١٦٧٨م. وله أيضاً قصائد شعرية وشرح على قوانين الرسل والمجامع المقدسة وعلى الرسائل القانونية للقديسين ديونيسيوس وبطرس الاسكندرانيين وغريغوريوس المعروف بذي العجائب وباسيليوس، على أنّ العلماء رأوا أنّ هذه الشروح نفسها تعزى إلى توادرس بلسامون البطريك الأنطاكي ولم يحققوا لأيهما هي حقيقة.

حنة كومنانس

هي ابنة الملك الكسيس كومنانس وزوجة نيقوفور القيصر، وكانت فقيهة عالمة ضليعة بعدة فنون كتبت تاريخ أبيها الكسيس كومنانس في خمسة عشر كتاباً، وانتقد كلامها كثير من العلماء ولاسيما اللاتينيون في مبالغتها في تعظيم أبيها وفي بغضتها لللاتينيين وقد أثنى زوناراس في المجلد الثالث من تاريخه صفحة ٢٤٢ وسماها القيصرة العلامة وقال نيقيطا كونيّاتس (في تاريخه صفحة ٧) إنّها كانت منصبة على الفلسفة وضليعة في كل فن.

عد ٨٥٦

بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن

نكتفي بأن نذكر من المشاهير الدينيين الغربيين في القرن الثاني عشر القديس برنردس وبطرس اللمبردي.

القديس برنردس

ولد القديس برنردس بفونتان له ديجون Fontaine les Dijon بفرنسة سنة ١٠٩٠م أو سنة ١٠٩١م، واتخذ طريق الرهبانية وأنشأ رهبانية تسمى رهبانها البرنرديين نسبة إليه، وأقيم رئيساً عليها سنة ١١١٥م. وذاع صيت قداسته وفصاحته حتى تقاطر إليه الرجال من كل فج طالبين الأنضواء إلى رهبانيته وعظمت شهرته حتى كان الأساقفة والأمراء والملوك بل الأحرار الرومانيون أنفسهم يختارونه حكماً فيما يختلفون به من المسائل. ولما نازع اناكليتس أينوشنسيوس الثاني الباباوية سنة ١١٣٠م استمال القديس برنردوس أنريكس الثاني ملك إنكلترا وغيره من الأمراء إلى المدافعة عن أينوشنسيوس البابا الشرعي واستدعاه هذا البابا إلى رومة ثلاث مرات ليتعزز به، وقد دعا إلى حملة الصليبيين الثالثة سنة ١١٤٦م فلبى دعوته لويس السادس ملك فرنسة وكونراد ملك ألمانيا وكان شديد المدافعة عن الدين الكاثوليكي، فناصر من المبتدعين ابيلاردوس وبطرس برديس وادلدوس من براشيا وغيرهم وأحمد ثورة الراهب راول الذي حاول أن يهيج الناس على قتل اليهود جميعاً وأنشأ لرهبانيته نحو اثنين وسبعين ديراً منبثة في أنحاء أوروبا كلها، حتى قال بعضهم أنه كان حلية عصره وزينة دهره ومعلم البابوات والأساقفة والملوك والأمراء برسائله وقداسته ومطرقة أصحاب البدع بتفنيده ضلالهم، وأجرى الله على يده آيات باهرة ونقله تعالى إليه سنة ١١٥٣م وأحصاه البابا اسكندر الثالث في مصاف القديسين سنة ١١٧٤م، وتعيد له الكنيسة اللاتينية في ٢٠ آب يوم وفاته، وتعيد له طائفتنا المارونية في ذلك اليوم». وألف كتباً كثيرة نشرها ماييلون في ستة مجلدات بقطع كامل سنة ١٦٩٠م، ثم طبعت بعد ذلك مرات وهي مشتملة على مقالات لاهوتية ورسائل وخطب باللغة اللاتينية، وله مدائح رنانة للعدراء الكلية الطوبى، وهو الذي زاد على الصلوة السلام لك أيتها الملكة أم الرحمة الفقرة الأخيرة وهي «يا شفوقة رؤوفة يا مريم البتول الحلوة اللذيذة صلي لأجلنا يا والدة الله القديسة» وباقي هذه الصلوة تأليف ويمبر نائب البابا في حملة الصليبيين الأولى الذي صير بعد ذلك بطريركاً لاتينياً على أورشليم. ومما حكى عن القديس برنردس أن البابا أمره يوماً أن يلقي خطبه عليه وعلى الكرادلة والأساقفة المجتمعين للمراسات الروحية فاعتذر، فلم يقبل البابا عذره فاستمهل، فأمله ثلاثة أيام وأتى في الوقت المعين

وصعد على المنبر وأجال باصرتيه بالحاضرين وقال: «إعملوا بما تعلمون» وانسلّ عن المنبر وتوارى فكانت عبارته عظة كبرى أشغلت سامعيها بالتأمل بها مدّة طويلة.

بطرس اللمبردي

ولد في نوفاريا بلمبرديا أحد أعمال إيطاليا في أواخر القرن الحادي عشر، وتخرّج في العلوم برنس بفرنسة ونال رتبة الملقنة في كلية باريس وعلم فيها اللاهوت ثم رقي إلى أسقفية باريس سنة ١١٥٩م. وفي رواية أخرى سنة ١١٥٨م وتوفي سنة ١١٦٠م. وله مؤلف في اللاهوت قسّم إلى أربعة كتب وسماها «آراء» جمع فيها آراء الآباء في كل مباحث اللاهوت، لكنّه أهمل القطع بصحة كثير منها فيورد أقوال الآباء في ذلك المبحث وقلمًا يعنى بيتها، ولذلك كان كتابه موضعاً للجدال بين العلماء، وشرحه كثير من العلماء ولاسيما القديس توما الأكويني وانتقده كثيرون منهم في عدة مسائل، وأكسبه هذا التأليف لقب معلّم الآراء. ويسمى اللمبردي نسبة إلى لمبرديا مولده وله تفسير للزبور ولرسائل القديس بولس الرسول. انتهى.

ذيل

لم يكن في هذا القرن بدعة حديثة في الشرق بل كان في الغرب بعض المبدعين كبطرس أبايلاردوس وارنلدوس من براشيا وبطرس فالدوس وغيرهم ولم تكن بدعهم ذات أهمية أو لم تدم إلّا زمنًا وجيزاً وقُلّ من شايهم عليها، ولذا لم نحفل إلّا بالإشارة إليها.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

عد ٨٥٧

حالتهم الدنيوية في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن الثامن عد ٧٤٢ أنّ حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر إحراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم على أراضيهم، وإن يظهر أنّ الخلفاء كانوا يولون عليهم ولاية مسيحيين، وأيدنا ذلك بشهادة العلامة السمعاني في مؤلفه «مكتبة الناموس» (مجلد ٤ صفحة ٣٩٤). والآن نقول يظهر أنّ الموارنة سكان لبنان استمروا على ذلك إلى هذا القرن وما بعده أيضاً متنعمين بنوع من الاستقلال الإداري بفضل الخلفاء، ولما أتى الفرنج وملكوا السواد الأعظم من سورية لم ينزعوا عنهم هذه النعمة بل تركوهم واستقلالهم المذكور. وهذا تؤكّده لنا أدلة كثيرة قاطعة فلم نعثر في كل ما قلّبناه من كتب التاريخ لأخذ تاريخ الخلفاء ما يؤذن بأنّ الخلفاء نصبوا عاملاً على لبنان أو على مدنه غير الساحلية، فقد ذكروا متواتراً عمال النواحي كطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحماه وحمص وبعبك، ولكن لم نرَ ذكراً لعامل في لبنان أو إحدى مدنه أو قراه الجبلية، بل لم نجد أثراً لإقامة المسلمين في أنحائه إلا بعد أواخر القرن الثالث عشر ولا في سواحه أو ما يقرب منها كإقامة أمراء الغرب من آل تنوخ في عمل الغرب القريب من بيروت، فإنّ الملوك والأمراء المسلمين أقاموا في مدة حربهم مع الفرنج هؤلاء الأمراء في العمل المذكور، وبعد طردهم الفرنج من هذه البلاد أسكنوا عشائر من المسلمين في سواحل لبنان ليكونوا حاجزاً بين نصارى لبنان وبين الفرنجة إذا عادوا إلى سورية كما سيأتي.

ولما فتح الفرنج سورية وملكوا مدنها الساحلية لم يعترضوا النصارى سكان لبنان في تدبير أمورهم الداخلية، ولم يمشوا ما كانوا عليه من الاستقلال، فلا نراهم نصبوا عاملاً على غير المدن الساحلية، ولا ألفينا ما يدل على أنَّهم حاربوا سكانه أو أنَّ سكانه استسلموا إليهم أو تركوا لهم تدبير شؤون بلادهم، كما لا نرى أنَّ الحكام المسلمين استعانوا بهم على حرب الفرنج أو جندوا قوماً منهم لمحاربة الفرنج. ولو كانوا يلونهم كغيرهم من سكان السهول والمدن البحرية لما أهملوا تكليفهم إلى إنجادهم في حروبهم كما كانوا يصنعون مع باقي مسوديهم بل لو كان للولاة المسلمين الولاية المطلقة على سكان الجبل لما استطاع الفرنج أن يتمكنوا في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا لاكتناف الجبل هذه المدن ومن عرف موقعها قضى بما نحن مثبتون.

وقد جاء في كتاب تاريخ الموارد المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠م (صفحة ٢٧٩) ذكر أمراء لبنان مع تعيين أسمائهم وسني ولايتهم نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي الاهدني، فلا يمكن القطع بصحة هذه الرواية ولا سيما في تعيين الأسماء والسنين، لأنَّ صاحب الرسالة لم يسند ما كتبه إلى أحد المؤرخين أو أحد الكتب القديمة، وغموض التواريخ في تلك الحقبة معلوم مشهور فيتعذر على الكاتب أن يحقق هذه الأسماء وهذه السنين. وإذا كان العلماء لم يستطيعوا أن يعرفوا أسماء بعض البطارقة وسني رياستهم في تلك القرون فلا يظن أنَّه كانت وسيلة للعلم بأسماء أمراء منزوين في جبل وبسني ولايتهم. ولكن بقاء حكام أو أمراء في لبنان في تلك السنين لا رية فيه وكل ما مرَّ آنفاً يؤيد أنَّ هؤلاء الأمراء كانوا وطنيين ولنا شهادة قاطعة على أنَّه كان في لبنان في القرن الثاني عشر ملك أو أمير ماروني في جبيل. وهذه الشهادة كتبها البطريك أرميا العميشي بخط يده على كتاب الأنجيل الأربعة الذي خطَّ سنة ٨٩٧ يونانية الموافقة لسنة ٥٨٦ للميلاد. وكان هذا الكتاب في بطريركية الموارد في أيام البطريك أرميا المذكور ثمَّ اتَّصل إلى المكتبة الماديشية في فيرنسا بإيطاليا، وذكره العلامة المطران أسطفان عواد السمعاني في الفهرست الذي وضعه للكتب الشرقية في هذه المكتبة وقد صنع مثلاً للكلمات نفسها التي خطَّها يد أرميا بالسريانية وسنذكرها عند الكلام فيه. ونجتزئ الآن بذكر ما خصَّ غرضنا منها، فانه بعد أن ذكر دعوة البطريك له وتصويره أسقفاً في دير كفتون قال: «وبعد مضي أربع سنين طلبني ملك (أي أمير) جبيل

والأساقفة ورؤساء الكنيسة والكهنة وألقوا قرعة فأصابني وأقاموني بطريركاً في دير حالات». فأمر جليل الذي دعا أسقفاً مارونياً وشهد انتخابه بطريركاً لا يمتري في أنه ماروني.

ونرى لويس التاسع ملك فرنسة لما كان في عكا في أواسط القرن التالي كتب في رسالته إلى الموارنة: «إلى أمير الموارنة بجبل لبنان وإلى بطريرك وأساقفة الطائفة المذكورة». وصرّح في رسالته بأنّ الأمير سمعان أتى إليهم وقدم له هدايا فاخرة بل قد صرّح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته في كرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م بأنّه لما ملك المسلمون أنطاكية وطردوا الفرنج منها ولّى هؤلاء فارين إلى جبل لبنان، فقبلهم بطريرك الموارنة بالاناس والترحاب فكتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكر له صنيعه ولم تزل براءة البابا اسكندر الرابع التي أشار إليها بناديكتس الرابع عشر محفوظة في خزانة أوراق بطريركية الموارنة حيث يوصيه بهؤلاء الفرنج، ويخوّله الحق أن يسوسهم كشعبه. فلو لم يكن للموارنة حيثيذ نوع من الاستقلال لما هرب الفرنج إليهم ولما استطاع بطريرك الموارنة أن يقبلهم ويضمّهم إلى شعبه وسوف ترى شيئاً كثيراً يثبت ذلك.

عد ٨٥٨

بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر

لما قدم الفرنج إلى سورية في آخر القرن الحادي عشر كان يوسف الجرجسي بطريركاً على الموارنة ولا نعلم في أيّة سنة قبل ذلك رقي إلى هذا المقام، بل علمنا أنّه لما فتح الفرنج أورشليم أقاموا غودفروا ملكاً عليهم واختاروا بطريركاً لاتينياً على أورشليم أرسلوا رسائل ووفداً إلى الحبر الروماني البابا أوربانس الثاني يشرونه بما وقّعه الله إليه، وأرسل يوسف الجرجسي مع وفدهم نائباً عنه ورسالة إلى الحبر الروماني يحقق بها طاعته له وتشبّه بالإيمان الكاثوليكي فبلغت هذه الرسالة إلى البابا بسكاليس الثاني لأنّ سالفه البابا أوربانس الثاني كان قد توفي قبل فتح أورشليم بأربعة عشر يوماً فسّر البابا بسكاليس بهذه الرسائل والوفد سروراً عظيماً وأرسل إلى بطريرك الموارنة تاجاً وعكازاً. وروى ذلك الأسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في رسالة كتبها إلى البطريرك سمعان الحدي سنة ١٤٩٤م

ومرهج بن نيرون الباني في كتابه (أفوليا) سلاح الإيمان صفحة ٦٧، وأورد لكويان قوليهما في المشرق المسيحي (مجلد ٣) في كلامه على بطاركة الموارنة وكان هذا البطريرك ساكناً في يانوح من عمل جبيل.

وروى لكويان في المحل المذكور ما روينه في كلامنا على توما أسقف كفرطاب أنه كان يعقوبياً وصار من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة، وأتى إلى لبنان قاصداً أن يستغوي الموارنة وأنه قام لمناصبته يوسف بطريك الموارنة وأرسانوس مطران العاقورة وفندا تعليمه برسائلهما، فزله الجميع ولم يضل إلا خوري كفرشع وبعض المغفلين إلى أن قال لكويان إن هذا البطريرك بقي حياً إلى سنة ١١١٩م هذا إذا كان هو الذي كتب رسالة إلى البابا جيلاسيوس الثاني يهنئه بها بارتقائه إلى الحبرية العظمى ولما كان البابا جيلاسيوس لم يعيش إلا زماناً وجيزاً (سنة وخمسة أشهر) جاوبه البابا كاليستوس الثاني على رسالته سنة ١١١٩م كما روى ابن نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان صفحة ٦٨، وربما كان البطريرك بطرس خليفة يوسف المذكور هو الذي كتب هذه الرسالة.

وصيّر بعد البطريرك يوسف الجرجسي البطريرك بطرس الأول ولا شك في أنه كان بطريكاً على الموارنة سنة ١١٢١م، لأن الكتاب السابع من الكتب السريانية المخطوطة التي نقلها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية علق كاتبه على صفحة ٢٦٢ منه هذه الحاشية بالسريانية وترجمتها: «أنا الحقير الراهب سمعان كتبت هذه الأسطر في هذا الكتاب الذي نسخته لأبينا الطوباوي بطريكنا مار بطرس بطريك الموارنة الساكن بدير ميفوق المقدس في وادي ايليج من عمل البترون، إلى أن أمرني أن أكون رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في أرض كوزيند-بجزيرة قبرص في أيام الرهبان الساكنين في دير القديس يوحنا المذكور وهذه أسمائهم: الراهب داود القس موسى الراهب، يوسف التحتومي، والراهب جيورجيوس، والراهب دانيال. وهؤلاء كهنة يخدمون الله وكان ذلك سنة ١٤٣٢ يونانية (سنة ١١٢١م) في اليوم الثاني عشر». يريد من تشرين الأول الذي كان السريان يبدأون السنة منذ ذكر ذلك السمعاني في المجلد الأول من المكتبة المشرقية صفحة ٣٧٠ ثم ذكره صفحة ٦١١ و ٦١٢ من المجلد المذكور.

وقد ذكر الدويهي في تاريخه البطريرك بطرس هذا فقال: «وفيها (أي في سنة

١١٢١م) كان البطريرك بطرس قاطناً في دير سيدة ميفوق من أعمال البترون وبعث الرهبان القاطنون بدير مار يوحنا كزبند يخبرونه ب وفاة رئيسهم ويسألونه أن يرأس عليهم القس سمعان الذي كان كاتباً عند قدسه، وله اليد الطولى في الخط، وفي تزويق التصاوير كما هو واضح من كتاب ميامر مار يعقوب السروجي الذي كتبه بخط استرنكالي على رق وهو مصان عندنا بدير سيدة قنوين». انتهى كلام الدويهي ويظهر منه أنّ هذا الكتاب الذي كان في قنوين نقله السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية.

وخلف غريغوريوس الثالث من حالات بطرس الأول وقد ذكره الأسقف جبرائيل القلاعي في رسالته إلى البطريرك سمعان الحداثي ومرهج بن نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان، وقال أنّه أرسل سنة ١١٣٠م وفداً إلى البابا أينوشنسيوس الثاني يهتئمه بارتقائه إلى الحبرية العظمى، ولما أرسل هذا البابا الكردينال غويللمس إلى الشرق بسبب الخلاف الشهير الذي كان حينئذٍ إذ غصب الباباوية بطرس لاون وسمى أناكليتس الثاني، التقى البطريرك غريغوريوس الكردينال غويللمس إلى طرابلس وقدم صك طاعته للبابا أينوشنسيوس الثاني البابا الشرعي. وقد ذكر ذلك البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه، فبعد أن أورد خبر هذا الخلاف ورجوع الأكثرين إلى طاعة البابا الشرعي واقتداء الفرنج الذين بسورية بهم قال: «وعلى شبه من تقدّم ذكرهم نزل رؤساء الملة المارونية وعلماءها إلى مدينة طرابلس وعلى يد الكردينال غويللمس قاصد البابا زخيا (أينوشنسيوس) حلفوا له الطاعة وأعطوه خطوط أيديهم أنّهم لا يتمسكون بغيره ولا يكرزون إلّا باسمه».

وصيّر بعد غريغوريوس الثالث الحالاني يعقوب الأول من رامات بيلاد البترون وقد روى العلامة السمعاني (في المجلّد ١ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٠٧) أنّه علق على أحد كتب القديس يعقوب السروجي (وهو السابع من الكتب السريانية التي نقلها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية) هذه الحاشية بالعربية: «لما كان تاريخ سنة ١٤٥٢ يونانية (توافق سنة ١١٤١م) في شهر تموز المبارك بعشرة أيام مضت منه حضر إلى عندي أنا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب دانيال من رهبان دير كفتون وقد أعطيته سلطاناً من الله، ومن حقارتي بأنّه يكون رئيساً ومديراً على دير مار يوحنا الكوزبند في جزيرة قبرص المحروسة من الله تعالى بحسب ما ورد من الأولاد

الرهبان وأولهم الراهب عيسى وإيليا والراهب موسى، والراهب يوحنا وأخوه يعقوب برضاهم وخاطارهم وخطّ أيديهم ولربّنا آمين». وقال البطريك أسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١١٤٠م: «وفيها كانت وفاة الرجل الفاضل القس سمعان رئيس دير ما يوحنا الكوزبند بقبرص، وأرسل لهم بدله البطريك يعقوب من رامات من عمل جبيل القس دانيال من رهبان سيدة كفتون الذي في كورة طرابلس، ومن بعد يعقوب الراماتي رقي إلى الكرسي البطريكي يوحنا السابع سنة ١١٥١م، وقد ولد في لحفد من عمل جبيل وسكن أولاً في دير مار الياس في قريته، ثم انتقل إلى دير السيدة بهاييل، وأقام هناك ديراً، ووصفه الدويهي في تاريخ بطاركة الموارنة بأنّه كان ذا مكارم وفصاحة كما يظهر من النافور الذي كتبه، وأنّه في مدّة إقامته بلحفد رقى أربعة أساقفة لمعاونته على تدبير الشعب، فسكن أحدهم في دير القديس حوشب، والثاني في دير القديس سمعان، والثالث في دير القديس اليشاع والرابع في دير السيدة بلحفد. وانه لما كان عيد العنصرة حضر إليه شعب كثير ومعهم شمامسة وكهنة ورهبان ورؤساء كهنة فانتقل من ديره إلى دير السيدة الذي فوق هاييل حيث لم يكن ماء، فحفر بئراً وأنشأ ديراً كبيراً. وقد جاء في الآثار القديمة وفي الرسالة التي كتبها جبرائيل بن القلاعي إلى القس جرجس في الفصل الحادي عشر أنّ دير هاييل المذكور استمرّ كرسيّاً لبطاركة الموارنة إلى أيام البطريك أرميا، إلّا أننا لم نعثر على أسماء هؤلاء البطاركة الذين أقاموا به لنثبت ذكرهم. انتهى كلام الدويهي وقد وجد مكتوباً على كتاب الأناجيل القديم الذي كان في بطريكية الموارنة ثمّ نقل إلى المكتبة الماديشية بفرنسا. وذكر المطران أسطفان عواد الخطوط المعلقة عليه في كتابه فهرست هذه المكتبة فقال إنّّه كتب على صفحة ١٨ سطر ٢٣ وما يليه ما يأتي بالعربية: «لما كان تاريخ سنة ١٤٦٥ يونانية توافق سنة ١١٥٤م) ثامن يوم مضت من شهر أيلول حضر إلى عندي أنا بطرس بطريك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي القاطن بدير سيدة ميفوق في وادي ايليغ الولد الراهب أشعيا من دير قزحيا وعملته رئيس على الرهبان القاطنين في دير ما يوحنا دير الكوزبندو في جزيرة قبرص حسبما ورد من الأولاد الرهبان بخط أيديهم وهم: الولد الراهب جبرائيل ورفيقه الراهب شمعون، والراهب حبقوق، والراهب ميخائيل، ولرب المجد آمين». فبطرس هذا هو يوحنا اللحفدي المذكور. ويظهر أنّ بطاركتنا كانوا منذ تلك الأيام يزيدون على إسمهم بطرس، ويظهر أيضاً أنّه كان يقيم بسيدة ميفوق أيضاً. وقد

ذكره السمعاني (في المجلد الأول من المكتبة المشرقية صفحة ٥٢٢)، وقال إنه ولد في لحفد، وأنه خلف البطريك يعقوب الراماتي، وأنه دير الكنيسة المارونية من سنة ١١٥١م إلى سنة ١١٧٣م وأنه كتب نافوراً ذكره البطريك أسطفانس الدويهي في كتابه المنائر العشر في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكين فقال: «يوحنا اللحفدي جلس على الكرسي الأنطاكي بعد الألف والمائة من سني السيد المسيح له نافور بدؤه **ܕܝܪܐܠܗܐ ܕܠܚܦܕܐ**، إليها الإله الكلّي القداسة وهو مثبت في كتب القداس الموجودة في دير قنوين.

إنّ البطريك أسطفانس الدويهي ذكر بعد البطريك يوحنا اللحفدي البطريك أرميا العمشيتي، لكن قال ما رويناه أنفاً أنّ دير هاييل استمرّ كرسياً بطاركة الموارنة إلى أيام البطريك أرميا، إلّا أننا لم نعثر على أسماء البطاركة الذين أقاموا هناك لنذكرهم، فظهر أنّه كان بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي بطاركة آخرون. ولكويان في كلامه على بطاركة الموارنة جعل يوحنا اللحفدي الثامن والعشرين منهم، ثمّ وضع الأعداد ٢٩ و ٣٠ و ٣١ وبعدها بياضاً لأنّه لم يهتدِ إلى أسماء ثلاثة بطاركة ثمّ ذكر لوقا أيضاً قبل أرميا. وقال المطران أسطفانس دواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ١٦ متكلّماً في كراسي بطاركة الموارنة. «رابعاً في دير القديس الياس بلحفد من أبرشية جبيل حيث جلس يوحنا اللحفدي خليفة يعقوب وهو الذي نقل الكرسي إلى دير القديسة مريم بهاييل من أبرشية جبيل المذكورة وهناك جلس بطرس وبطرس الآخر ولوقا المسمّى بطرس. خامساً نقل الكرسي البطريكي ثانية إلى دير القديسة مريم ييانوح من أبرشية البترون حيث جلس أرميا». ولا أشكّ البتّة في أنّه كان بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي بطاركة آخرون. وعلى ذلك دليل قاطع غير ما مرّ من شهادة المؤرخين. فقد ذكر السمعاني وغيره أنّ يوحنا اللحفدي توفي سنة ١١٧٣م كما رأيت وأنّ أرميا توفي سنة ١٢٣٠م، فلو كان أرميا خلف يوحنا للزم أن يكون أرميا استمرّ بطريكاً سبعاً وخمسين سنة وهذا لا يصدق. ومما لا ريب فيه أنّ أرميا العمشيتي شهد الجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥م، وأنّ البابا أيونشسيوس الثالث كتب إليه براءته المثبتة في سجلات البراءات تلك السنة، فلو كان قد صير بطريكاً سنة ١١٧٣م لكان له في البطريكية حيثئذ اثنتان وأربعون سنة. فان فرضنا أنّه صير بطريكاً وعمره أربعون سنة فقط فيكون عمره سنة ١٢١٥م اثنتين وثمانين. سنة ومن يصدق أنّ

هرماً بهذا العمر يتحمل مشاق السفر في تلك الأيام إلى رومة فإذا لا بدّ من أن يكون بطاركة آخرون بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي أفلم ننظر ما يقوله المؤرخون في ذلك؟

قال لكويان في المشرق المسيحي (متكلماً في بطاركة الموارنة) روى مرهج بن نيرون الباني في مقالته في اسم الموارنة وأصلهم ودينهم نقلاً عن جبرائيل بن القلاعي في قصيدته في أصحاب البدع أنّ من اتبعوا ضلال توما أسقف كفرطاب (الذي كان قد توفي) أطغوا غيرهم من الموارنة ببدعة المشيئة وتوافر عدد المطغين حتى أنّ البطريك نفسه لم يذكر اسمه جنح إلى ذلك فإن ابن القلاعي يقول ما معناه أنّه بعد توما قام ابن شعبان وأخذ يكتب ويعلم الأحداث ويذكر الضلال بين الموارنة وملاً كتبهم من الزوان، وقام بعده ابن حسان من حدشيت وأطغى أهل كفر ياشيت وكتب وغير الصلوات وانبت سم الضلال في قرى أخرى حتى اتّصل إلى الرأس أيضاً إذ قال: «إنّ البطريك ابتلع السم بقدر ما يسع الفم». ولذلك اجتمع رؤساء الموارنة وأعيانهم وكثيرون من الشعب وجزموا جميعاً برأي واحد على أن ينفصلوا من شركة البطريك فلم يعودوا يؤدونه الطاعة ولا يقبلونه في البلاد بل حملتهم الحمية والغيرة الدينية على أنّهم حطوه عن مقامه وانتخبوا بطريكاً آخر، فحنق لذلك أصحاب البطريك المعزول وقتلوا البطريك الجديد. وبعد قتل هذا البطريك تعاظم الخلاف والشغب بينهم فتدارك أمرهم أيميريكس البطريك الأنطاكي على اللاتين، وسكن روعهم وخمد جزوة غضبهم ورد المغوين عن غيهم، فاتفقوا جميعاً على انتخاب بطريك صحيح المعتقد. قال لكويان هذا ما جاء في التاريخ المذكور: «إنّ أيميريكس ذا الذكر الصالح انتزع السم منهم وأرشدهم فطاوعوه واهتمّ بنيل البركة لهم من الكرسي الرسولي، واختاروا بطريكاً سكن في هايل وحفظ كل ما في الإنجيل، وكان ضليعاً في تفسير الأسفار المقدسة وألف أشعاراً كثيرة في الإيمان». واختتم لكويان كلامه بقوله لا ريب عندي في أنّ هذا ما حمل غوليلمس أسقف صور على ما كتبه من أنّ الموارنة كلّهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢م على يد أيميريكس البطريك الأنطاكي مع أنّ هذا لا يصدّق على الملة كلّها، بل على بعضها فقط ويؤيد ذلك ما جاء في التاريخ المذكور: «إنّهم ثبتوا في إيمان مارون وذلّ المعاندون وعاد الوفاق والسلم ثابتين بين من كانوا مختلفين». وكان لكويان قد قال في مقدّمات كلامه على الموارنة كما لم يعجب فرنسة إتباع

كثيرين من اكليسها وأعيانها مذهب لوتارس وكلوينس هكذا لا يعيب الملة المارونية اتباع بعض أفرادها الضلال مدة ما.

وبعد إيراد لكويان خبر هذه الأحداث ذكر لوقا الأول قائلاً ما خمدت جذوة الاضطراب بين الموارنة إلّا وقام رجل يسمى ابن شعبان رومي أصلاً وعاونه مطران اسمه عيسى فبثا الضلال في بعض قرى لبنان، وكان البطريك اسمه لوقا وكان في آخر القرن الثاني عشر أو بدء الثالث عشر، فأنحاز إليهما واستشهد لكويان لذلك نيرون الباني (في مقالته في اسم الموارنة صفحة ٩٨) الذي قال إنّ المطران عيسى وابن شعبان علّما الناس أن يصنعوا إشارة الصليب باصبع واحدة، وبذا المجمع الرابع. وأوجس الشيطان إلى راهبين أحدهما من يانوح والآخر من دير نبوح فزعما أنّ المسيح لم تكن له نفس ولا تألّم ولا كان يستطيع أن يشعر بالألام، وإن البابا أرسل قاصداً لم يقبله لوقا فحرم البابا أصحاب هذا الضلال ونشأ بين الموارنة شقاق بسبب ذينك الراهبين. إلى أن يقول لكويان أنّ هذا الشقاق استمرّ إلى أن قام البطريك أرميا خليفة لوقا المذكور. انتهى.

إنّ العلامة لكويان اعتمد في إيراد هذا الخبر وذكر البطريك لوقا على قول نيرون الباني، ونيرون اعتمد على قول جبرائيل ابن القلاعي في بعض زجلياته على أنّ البطريك أسطفانس أفرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم عن الموارنة لتفنيد قول ابن القلاعي المذكور مبيناً أنّ البطريك لوقا من بنهوان لم يكن في القرن الثاني عشر أو أوّل الثالث عشر بل في آخر القرن الثالث عشر أو أوّل الرابع عشر، وإنّه لم يحب بضلال، وإنّ الحكّام الذين ذكر ابن القلاعي أنّ هذه الأحداث كانت في أيامهم لم يكونوا في ذلك العصر بل بعده بسنين كثيرة، وإنّ جُلّ مقصد ابن القلاعي كان يبين للمقدم عبد المنعم حاكم بشري الذي زاغ عن الإيمان القويم وشايع اليعاقبة أنّ كل من شدّوا عنه انتقم الله منهم، فلم يرع نظام تاريخ السنين إلى غير ذلك من الأدلّة القاطعة. فضلاً عن أنّ ابن شعبان الذي ذكره لكويان هنا كان ذكره قبلاً، وعن اننا سنبين أنّ أرميا العمشيتي كان بطريكاً في المدة التي عيّنها لكويان للبطريك لوقا.

قد أفضل علينا العلامة المطران أسطفانس عواد السمعاني بنشره مثلاً لخط بيد البطريك أرميا عشر عليه في كتاب الأناجيل القديم الموجود الآن في المكتبة الماديشية

بفرنسا، وكان قبلاً في بطريركية الموارنة، وطبع هذا المثال في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة المذكورة، ومنه يتبين زمان ارتقاء أرميا إلى الأسقفية وسنة انتخابه بطريكاً والخط بالسريانية والأحرف المسماة استرنكلية وهذه ترجمته بحروفه:

«في سنة ١٥٩٠ يونانية في اليوم التاسع من شباط أتيت أنا الحقيق أرميا من قرية دملصا المباركة إلى دير سيدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليج من عمل البترون إلى سيدنا بطرس بطريك الموارنة، ورسمني بيديه المقدستين وجعلني مطراناً على دير كفتون المقدس الذي على ضفة النهر، وبقيت هناك أربع سنين. وكان سكان الدير المذكور الراهب حزقيال ورفيقه الراهب أشعيا والراهب دانيال والراهب يشوع ورفيقه إيليا والراهب داود واثنين وثلاثين راهباً آخرين. وبعد انقضاء السنين الأربع طلبني أمير جيل والأساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة وألقوا قرعة فأصابني وصيروني بطريكاً في دير حالات المقدس، ثم أرسلوني إلى رومة المدينة العظمى وتركت أخاناً المطران توادورس يدبر الرعية ويهتم بشؤونها».

إنّ في هذا الخطّ زلة قلم اما من الذي أخذ المثال أو من أرميا الذي كتب الخط فسنة ١٥٩٠ يونانية توافق سنة ١٢٧٩ مسيحية، وأرميا كان قبل هذه السنة بنحو قرن ويكفي مؤونة بيان هذا الغلط براءة البابا اينوشنسيوس الثالث المنفذة إليه باسمه في سنة ١٢١٥م وقد أجمعوا على أنّه شهد المجمع اللاتراني الرابع، ولا يختلف اثنان في أنّ هذا المجمع عقد سنة ١٢١٥م وليس بين أسماء بطاركتنا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر اسم أرميا هذا، ولذلك روى المطران أسطفان عواد في ترجمته هذه العبارة إلى اللاتينية سنة ١٤٩٠م لا سنة ١٥٩٠م، وذكر موافقتها لسنة ١١٧٩م لا لسنة ١٢٧٩م. وعليه فلما كان أرميا رقي إلى درجة الأسقفية سنة ١١٧٩م كما في صحيح الخط، وقال إنّهُ انتخب بطريكاً بعد أربع سنين كان انتخابه بطريكاً سنة ١١٨٣م أي بعد حصول الوفاق بين الحزبين المختلفين من الموارنة بسنة واحدة أو ببعض أشهر فقط، لأنّ لا يحتمل أن يكون الوفاق حصل في آخر سنة ١١٨٢م وانتخاب البطريك كان في أول سنة ١١٨٣م. ولما كان رأينا هذا مستنداً إلى ما خطّه يد أرميا قد اعتمدناه مفضلاً على غيره لهذا الاستناد.

قال لكويان في المشرق المسيحي قال البطريك أسطفانس الدويهي في الجدول الذي وضعه لبطاركة الموارنة أنّ أرميا ارتقى إلى البطريركية سنة ١٢٠٩م وكان من

عمشيت من عمل جبيل، وكان رجلاً فاضلاً باراً ذا غيرة على الدين القويم، أقام ييانوح ودخل رومة العظمى بنفسه، وحضر المجمع الذي انعقد بلاتران في أيام البابا أينوشنسيوس الثالث. وقال نيرون الباني في مقالته المذكورة صفحة ١٠١ انه عندما صيّر بطيريكاً مضى إلى رومة أغراه بذلك أمير جبيل، وترك المطران توادورس من كفرفو (بجبة بشري) نائباً له في البطيركية ليلتمس علاجاً للشؤون التي كانت في أيام سالفه. وهذا يظهر أيضاً من براءة البابا أينوشنسيوس الثالث حيث يقول إنه شهد المجمع اللاتراني. ولما بلغ إلى رومة خرّ على قدمي البابا وكلّمه متذللاً وسأله بركته له ولشعبه، فعزاه البابا وأجابه إلى كل ما سأله، وبقي هناك مسروراً خمس سنين وستة أشهر. وروى ابن القلاعي والبطيريك أسطفان الدويهي أنّ البطيريك أرميا كان يوماً يقّده بحضرة البابا، ولما انتهى إلى رفع القربان رفعه وبقي معلقاً فوق رأسه. فعظم البابا قداسته وأمر بنقش صورة هذه الآية على جدار الكنيسة. قال الدويهي بقيت هذه الصورة إلى أيامنا في كنيسة القديس بطرس القديمة، وبعد أن فرغ أرميا من مهامه برومة سأل البابا أن يرخص له بالعود إلى بلاده فخرج من رومة مبتهجاً طيّب القلب، لأنّ البابا نوّله سلطان طلبه وأرسل معه الكردينال غوليلمس مفوضاً إليه أن يأخذ من شعب لبنان دستور اعترافهم بالإيمان، وكان خروج أرميا من رومة في ٣ كانون الثاني سنة ١٢١٥ م. (قال لكويان في حسابنا سنة ١٢١٦ م لأنّ المجمع اللاتراني عقد سنة ١٢١٥ م وهو سافر في ٣ كانون الآخر) وبلغ إلى طرابلس في شهر آذار، ولما علم المطران توادورس نائبه بخبر قدومه جمع جمعاً غفيراً من الموارنة ولم يبدوا شعائر سرورهم إلّا بعدما بلغهم البطيريك بركة الخبر الروماني وأنشأوا صكاً أثبتوا به إيمانهم وأختامهم أنّهم متشبثون بإيمان بطرس لا يزوغون عنه وسلّموا ذلك الصك إلى الكردينال غوليلمس وكان عدد من وقّعوا عليه مائتين وسبعين رجلاً. وفي جدول بطارقة الموارنة الذي وضعه البطيريك الدويهي أنّ أرميا توفي سنة ١٢٣٠ م في دير السيدة بميفوق. انتهت رواية لكويان.

وعندي في وفاة البطيريك أرميا سنة ١٢٣٠ م نظر من قبيل أنّه كان صير بطيريكاً سنة ١١٨٣ م وهذا ثابت بخط أرميا نفسه، فيكون استمرّ بطيريكاً سبعاً وأربعين سنة وهذا يصعب القطع به ولهذا أرى صيرورته بطيريكاً سنة ١١٨٣ م أثبت من أنّ وفاته كانت سنة ١٢٣٠ م. لأنّ الأوّل مسنود إلى خط يده وأما الثاني فلا سند له كهذا ويضاده طول مدّة بطيريكته والله أعلم. وقد اتحف البابا

اينوشنسيوس البطريك أرميا بتاج وعكاز وغيرهما من الملابس البيعية، وأخذ قدمائها منذ ذلك الحين يقتربون من عادات اللاتينية في الملابس الكهنوتية وغيرها كما حقق السمعاني في المجلد الرابع من مكتبة الناموس.

عد ٨٥٩

ما نعرفه من أديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر

لا نقصد أن نتكلم عن أديار الموارنة وكنائسهم القديمة مستندين إلى قدمها بهيئة بنائها، فهذا يستلزم معاينتها ولا حظ لنا في ذلك. ويقتضي علم الآثار القديمة ولا خبرة لنا فيه فكلامنا مقصور على ما ورد له منها ذكر في التواريخ.

فأول أديار الموارنة الدير الذي بناه أهل حماة على ضريح القديس مارون بين حماه وحمص على العاصي وسمي دير البلور لحسن بنائه وكثرة الرهبان فيه حتى كان به ثمانماية راهب، وكان أول الأديرة في سورية الثانية كما يظهر من توقيع رئيسه على العريضة التي رفعت إلى البابا هرمزدا وعلى غيرها من العرائض المعلقة في ذيل أعمال الجمع الخامس، وقد دكّ هذا الدير الملك أنسطاس وقتل من رهبانه ثلاثماية وخمسين راهباً لسبب مدافعتهم عن رسوم الجمع الخلكيدوني المقدّس، ثم جدّد بناءه الملك يوستينانس الأول كما شهد بروكوب القيصري (في ك ٥ في ابنية يوستينانس فصل ٩)، وعاد مزهراً برهبانه إلى أن نقضته عساكر يوستينانس الثاني الأخرم سنة ٦٩٤م، وقتلوا من رهبانه خمس مائة راهب (طالع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرون الخامس والسادس والسابع).

والدير الثاني القديم للموارنة هو الدير الذي أنشأه القديس يوحنا مارون بطريركنا الأول على اسم القديس مارون في شرقي كفرحي من عمل البترون، ونقل إليه هامة القديس مارون، وكوّس كنيسته في الخامس من كانون الثاني، وأمر أن يعيد للقديس مارون في ذلك اليوم، واستمرّ الموارنة يعيدون له فيه قروناً. وقد عاد البطريك دانيال الشاماتي إلى السكنى بهذا الدير في القرن الثالث عشر.

والثالث دير السيدة العذراء في يانوح أنشأه جبرائيل الثالث من بطاركة طائفتنا أو خليفته يوحنا الثاني المعروف بمارون وأقام هناك بطاركتنا إلى سنة ١١٢٠م، ثم

سكنوا في دير ميفوق، ودير لحفد، ودير هاييل الآتي ذكرها ثم عادوا إلى دير يانوح حيث أقام أرميا العمشيتي والبابا أينوشنسيوس الثالث يسمى كنيسة السيدة في يانوح كنيسة البطريركية في براءته إلى البطريرك أرميا المذكور ثم تركوا هذا الدير عدّة وعادوا إليه فسكنه البطريرك شمعون الموجهة إليه رسالة البابا اسكندر الرابع مؤرخة في أوّل شباط سنة ١٢٥٦م وفيها ذكر الكنيسة البطريركية في يانوح.

والرابع دير السيدة بميفوق وقد جاء في مجمعنا اللبناني (صفحة ٤٣١ من الطبعة الحديثة) أنّه استقرّ في هذا الدير البطريرك بطرس خليفة، البطريرك يوسف الجرجسي، وغريغوريوس الحلاتي، ويعقوب الراماتي. وقد ذكرنا في العدد السابق خطّين مؤذنين بإقامة البطريرك بطرس المذكور في هذا الدير سنة ١١٢١م وفي الدير المذكور إلى الآن آثار دالة على ذلك منها خط منبئ بتجديد الدير المذكور ومشير إلى بنائه القديم وهو **ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ**.

ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ

ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ - أي بسم الله الحي الدائم في سنة ١٧٤٦م جدد بناء هذا الهيكل أخوان كاهنان أمون ومينع وكان قد أنشأه أربعة بطاركة بطرس وأرميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١م. وهناك خط آخر ذكر البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه (صفحة ١١٣) ولم يزل موجوداً وهو **ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ**

ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ

ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ أي بسم الله الحي الأبدي

في سنة ١٥٨٨ من سني اليونان (وهي سنة ١٢٧٧م) كمل بناء هذا الهيكل على اسم والدة الله صلاتها معنا على يد أناس خطأة: داود القس ومرقس ويوحنا». وفي وسط هذا الخط صليب كتب حوله بك نقهر أعداءنا وباسمك نذلّ مبغضينا. والذي رواه الدويهي من هذا الخط نرى فيه كلمة **ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ** بدلاً من كلمته **ⲉⲙⲉⲥⲉ ⲁⲓⲁⲓ** أي كمل هذا الهيكل المنسوب إلى يعقوب أحد البطاركة وهو الثالث من البطاركة الأربعة المذكورين بالخط الأوّل، وقد ترك بطاركتنا السكّني بهذا الدير ثم عادوا إليه فاستقرّ

به البطاركة يعقوب ودانيال الحداثتي ولوقا البهراني وشمعون ويوحنا وجبرائيل من حجولا الذي توفي شهيداً سنة ١٢٦٧م.

والخامس دير القديس الياس في لحفد من عمل جبيل استقرّ فيه البطريرك يوحنا اللحفدي خليفة البطريرك يعقوب الراماتي وقد مرّ في كلامنا على البطريرك يوحنا المذكور أنّه كان في لحفد أربعة أديار أخرى: دير القديس حوشب، ودير القديس سمعان، ودير القديس اليشاع، ودير السيدة العذراء. أقام بها أربعة أساقفة على ما في الرواية المذكورة.

والسادس دير السيدة العذراء في هاييل أنشأه البطريرك يوحنا اللحفدي بعد أن انتقل من لحفد إلى هاييل في أواسط القرن الثاني عشر.

والسابع دير القديس أنطونيوس المعروف بدير قزحيا ويظهر أنّ هذا الدير قديم جداً لأنّه جاء في براءة البابا أينوشنسيوس الثالث إلى البطريرك أرميا في سنة ١٢١٥م ذكر دير قزحيا بمنزلة أوّل كرسي لأساقفة الموارنة، لأنّه عند تعداده كراسي الأساقفة الخاضعين لبطريركيته ذكر دير قزحيا أولاً. وكان بعض علمائنا لترجمتهم كلام هذا البابا عن اللغات الأجنبية تصحف عليهم قزحيا بمار اسيا وتبعناهم على ذلك عند ذكر كلام هذا البابا في بعض كتبنا إلّا أنّ العلامة السمعاني يسميه في كتاب الجمع اللبناني باللاتينية HASSAYA فانتبهنا إلى أنّ المراد قزحيا.

وقد علق البطريرك بطرس وهو يوحنا اللحفدي على كتاب الأنجيل القديم الخط الذي ذكرناه في كلامنا في العدد السالف على هذا البطريرك منبئاً بأنّه حضر إليه سنة ١١٥٤م الراهب أشعيا من دير قزحيا ورأسه على دير الكوزبند في قبرص.

الثامن دير القديس يوحنا في كوزبند بقبرص فهذا الدير قد جاء ذكره في عدة خطوط منها خط الراهب سمعان المعلق على الكتاب السابع من الكتب التي نقلها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية مبيّناً فيه أنّ البطريرك بطرس الذي كان سنة ١١٢١م جعله رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في كوزبند، وقد ذكرنا هذا الخط بحروفه عند كلامنا على البطريرك المذكور. ومنها الخط الذي علّقه البطريرك يعقوب الراماتي على أحد كتب السروجي وفحواه أنّه قد رأس دانيال راهب دير كفتون على دير القديس يوحنا بكوزبند سنة ١١٤١م وقد ذكرنا هذا الخط أيضاً بحروفه في كلامنا على البطريرك المذكور. ومنها الخط

الذي ذكرناه آنفاً المؤذن بتسمية البطريك يوحنا اللحفدي أشعيا راهب دير قزحيا رئيساً على دير كوزبند.

ومنها خط في القرن الثالث عشر علّقه البطريك يوحنا الجاجي على كتاب الأناجيل المذكور بالسريانية وهذه ترجمته: «لما كانت سنة ١٥٥٠ يونانية (توافق سنة ١٢٣٩م) أنا بطرس بطريك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي والمسمى يوحنا من قرية جاجج والساكن بالدير المبارك دير السيدة مريم بميقوق أتى إليّ من دير الكوزبند القس المسمى متى وهو كاهن تقي بتول وأخذ مني ثلاث مئة دينار وحقاً للميرون للدير المذكور وأخذ معه كتاب التوراة لموسى بالعربية وكتاب الناموس وكتاب الإيمان والله المجد آمين».

التاسع دير كفتون وقد جاء ذكره في ما خطته يد البطريك أرميا العمشيتي على كتاب الأناجيل المذكور مراراً، قال إنّ البطريك بطرس رقاہ إلى الأسقفية على هذا الدير وأنّ رهبانه حيثئذ كانوا اثنين وثلاثين راهباً وفي الخط الذي علّقه البطريك يعقوب الراماتي المؤذن بأنّه رأس دانيال راهب دير كفتون على دير كوزبند وهذا الدير للموارنة انتقل في ما بعد إلى يد الروم الملكيين غير الكاثوليكين كما سوف ترى.

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً صفحة ٩٨ بسم الله الحي قد وقفت اشمونة ابنة الياس على دير القديس سركيس الكرم الذي لها عند العين ليحولها الله خلاص نفسها وصحة جسدها وكان هذا الوقف سنة ١٤٠٩ يونانية (توافق سنة ١١٩٨م) يوم عيد القديس سركيس ونشهد بذلك نحن الكهنة تادي وجيورجيوس وبولس.

الحادي عشر كنيسة القديسين نهرا وباسيليوس في سمار جبيل قال المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور أنّ كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا التي تسميها العامة ماري نوهرا والتي يكرّمها من أقدم الأيّام الموارنة بل الهراطقة والمشاقون وغير المؤمنين أيضاً وهي في أبرشية جبيل (تحسب الآن من عمل البترون) حذاء القلعة الحصينة التي بناها حكام طرابلس من اللاتينيين في القرن الثاني عشر للذب عن هذه الناحية من غارات المسلمين، واطلالها الباقية إلى الآن دالة على عظمتها وقد اعتاد المؤمنون بل غير المؤمنين أيضاً أن يقدّموا البخور والشموع وغيرها من التقدّم لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بجانب هذه القلعة توسلاً بشفاعتهما هذين القديسين. وذكر

من الخطوط المعلقة على كتاب الأناجيل الثاني المذكور خطأً علق على الصفحة الأولى منه بالسريانية هذه ترجمته «بسم علة كل مخلوق في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩م) أقتسم بنو الخوري اقليمس خدمة كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بينهم مشاهرة، فأصاب برصوما كانون وكانون وحزيران وتموز وأصحاب أخويه سليمان وفيلبس الثمانية الأشهر الباقية». وخطاً آخر علق على صفحة ٤ بالسريانية وهذه ترجمته: «بسم الله الحي في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩م) قد وقف الشماس يوسف لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا جميع متروكات امرأته المتوفاة». وخطاً علق على صفحة ٩ بالعربية الا البسمة وهذا هو **دومط** (بسم الله الحي) في سنة ألف وسبعماية كذا كتبت ولكن ترجمها المطران أسطفان المذكور سنة ١٥٦٥ لأنه وقّعها إلى سنة ١٢٤٥م) وخمسة وستين يونانية سليمان ابن توما من حردو (لعلها حردين) أوهب لكنيسة مار باسيليوس ومار نهرا حقلتي زيتون بقرب قرية بشري عن نفسه ونفس أخيه من يستخلصها يكون حظه مع يوحنا الاسخريوطي». فهذه الخطوط مؤرخة في القرن الثالث عشر لكنّها مشعرة بأنّ هذه الكنيسة أقدم من ذلك العصر. الثاني عشر كنيسة القديس ادنه في العاقورة فقد ورد مرات ذكر المطران أرسانيوس أسقف العاقورة الجالس في دير القديس ادنه في العاقورة، واطلال هذه الكنيسة ما زالت في العاقورة وتعرف بهذا الاسم الآن. وجاء في تاريخ سنة ١٢١١م من تاريخ البطريرك أسطفانس الدويهي: «في هذا الزمان أخذ أبناء ملّتنا بلبنان يقرعون نواقيس من نحاس بدل الخشب للصلاة والقداس، وفاضت نعم الله بين أيديهم فأنشأوا كنائس وأدياراً ومدارس يقصدها الناس لخدمة الله وخلّاص نفوسهم. وكان للخوري باسيل من بشري ثلاث بنات أسماهن تقلا وصالومي ومريم نذرَنَ لله عذريتهن وأنفقن جميع ما يملكنَ في بناء الكنائس وتجهيزها، فبنت تقلا في هذه السنة كنيسة القديس جيورجيوس والقديس دومط في بقرقاشا، وكنيستين للقديس لابي الرسول والقديس سرجيوس الشهيد في بشنين بالزاوية. وفي سنة ١١١٣م رقدت بالرب. وبنت أختها مريم كنيسة القديس سابا في بشري وأختها صالومي كنيسة القديس دانيال في الحدث».

وأما دير قنوين فهو أقدم من هذه الكنائس، إذ يقال أنّ الملك توادوسيوس أمر ببنائه. وفي رواية أنّ توادوسيوس الذي بناه ليس هو الملك بل سائح يسمى توادوسيوس نسل في المغارة التي هناك وبنى شيئاً حولها، وسوف نتكلّم عليه في

ما بعد عندما نذكر نقل الكرسي البطريركي إليه في أواسط القرن الخامس عشر ا
قدّرنا الله على إيصال تاريخنا إلى ذلك القرن.

عد ٨٦٠

تفنيد زعم غوليلمس الصوري أنّ الموارنة ارعوا عن الضلال

سنة ١١٨٢م

روى غوليلمس أسقف صور اللاتيني في كتابه ٢٢ في الحرب فصل ٨ ، ترجمته: «لما استراحت المملكة (مملكة أورشليم) من حرب صلاح الدين سرّده سروراً موقوتاً في أنّ ملّة من السريان تسكن في عمل من فينيقيا في سفح لبنا قريب من جبيل طراً عليها تغير مهم لأنّهم بعد أن كانوا اتبعوا مدة خمسمائة س ضلال مارون المبتدع وتسموا موارنة نسبة إليه، وكانوا يتممون أسرارهم منفصلين عن جماعة المؤمنين استفاقوا بالهام الله وهبوا من تقاعدهم وهلعوا إلى ايميريكه بطريك أنطاكية اللاتيني وهو الثالث من البطاركة اللاتين الذين تراسلوا هذه الكنيس وارعوا عن الضلال الذي كانوا متسكّعين به ورجعوا إلى وحدة الكنيس الكاثوليكية واعتنقوا الإيمان القويم، وحافظوا على تقليدات الكنيسة الرومانية بك احترام واجلال، ولم يكن عدد هذا الشعب يسيراً بل كان يقال أنّهم يجاوزو الأربعين ألفاً منتشرين في أسقفيات جبيل والبترون وطرابلس وسفح لبنان، وها الجبل كما مرّ. وكانوا رجالاً أشدّاء مدرّبين بالحروب وكانوا نافعين لنا جداً في مهامنا الخطيرة، وفي اغاراتهم المتواترة على الأعداء. ولهذا سرّ قومنا كلّ السرو برجعهم إلى الإيمان القويم وأما ضلال مارون واتباعه فهو أنّه كان في ربنا يسو المسيح مشيئة واحدة وفعل واحد كما يظهر من الجمع السادس أنّه عقد لبّ ضلالهم والذي حكم عليهم بالحرّم، وزادوا على هذا المعتقد المزدول من الكنيس الأرثوذكسية أشياء أخرى مضرة بعد أن انفصلوا من جماعة المؤمنين، ولما ندم على هذه الأشياء جميعها كما قدمنا ارعوا إلى الكنيسة الكاثوليكية مع بطريكه وبعض أساقفتهم الذين كما تقدّموهم بالضلال تقدّموهم بالعود التقوي إلى الاقر بالحقيقة. انتهى مترجماً بكل دقة عما رواه بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٢ بحروفه اللاتينية من كلام غوليلمس الصوري.

إنّ كلام غوليلمس هذا يتضمّن أمرين: الأوّل اخباره عن تسكّع الموارنة خمس مئة سنة في الضلال تبعاً لمارون المبتدع وانعقاد المجمع السادس لنبد ضلالهم وحرمة لهم. والثاني خبره عن ارجاعهم على يد ايميريكس بطريك أنطاكية. فالأوّل كاذب بجملته والثاني صادق في بعض الموارنة لا كلّهم وهاك البيان الأوّل ان غوليلمس يقول أنّ المجمع السادس عقد ضد الموارنة (كما هي حرفية العبارة) وانه حرّمهم. فراهن كل من شاء على أن يبين لنا كلمة أو إشارة في النص اليوناني لهذا المجمع أو في ترجمته اللاتينية القديمة تشعر بأنّ هذا المجمع عقد ضد الموارنة أو بأنّه حرّمهم. فان ابانها سلمنا طائعين بكّلاً يتهمنا به خصومنا من هذا القبيل وان استحال عليه أن يجد مثل هذه الكلمة أو الإشارة فليتكف عن ثلبننا، ويوقن غوليلمس اغتر باعتماده على تاريخ سعيد بن البطريق الذي جعل البابا أنوريوس والملك هرقل وسرجيوس ويروس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريك اسكندرية جميعاً موارنة وهو أمر مضحك يسخر منه كل عالم، وانكره على ابن البطريق كل محقق حتى بوكوك أوّل من ترجم تاريخه وسلدانس الذي طبعه.

إنّ زعم غوليلمس أنّ الموارنة اتّبّعوا ضلال مارون المبتدع وتسكّعوا به خمس مئة سنة لا اس له إلّا خرافة سعيد بن البطريق، وقد ذكرناها مراراً ولا بدّ الآن من مراجعة خلاصتها: «كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول إنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ولما مات بنى له سكان حماه ديراً واتبعوا اعتقاده سموا موارنة». وقد أقرّ غوليلمس نفسه أنّه اعتمد على شهادة سعيد بن البطريق إذ صرّح في مقدّمة كتاب تاريخه أنّ أموري ملك أورشليم دفع إليه بعض كتب عربية في جملتها تاريخ سعيد المذكور واقترح عليه كتب تاريخ فاعتمد خاصة على تاريخ الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريك الاسكندري. وقد أشار إلى ذلك البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره الآتي ذكره بقوله: «إنّ شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الرأي المضاد للموارنة. ولربّما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله ولذلك عزاه إلى المجلّد الثاني من تاريخ سعيد الاسكندري». وأمّا كون حكاية سعيد هذه هي التي اعتمد عليها غوليلمس من الترهات البسباس فقد أجاد ببيانه العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره لإثبات قداسة القديس مارون الذي أثبتنا ترجمته في عدد ٧١١، أورد هذا البابا الجهد أدلة على ذلك يستحيل نقضها منها أنّ القديس مارون كان في آخر القرن الرابع وأوّل القرن الخامس، وبدعة المشيئة

الواحدة لم تظهر إلا في القرن السابع فيبين ظهورها قرنان فمن المحال أن يكون مارون ابتدعها ومنها أنّ دير القديس مارون الذي روى ابن البطريق أنّ سكان حماه بنوه على اسمه كان قبل ظهور هذه البدعة بقرنين أيضاً إذ كان ديراً مشهوراً برهبانه الأفاضل من القرنين الخامس والسادس، كما يظهر من رسائلهم إلى البابا هرمزدا وغيره المتعلقة في ذيل المجمع الخامس. ولما دك هذا الدير أنسطاس الملك جدّد بناءه الملك يوستينانوس الأوّل الذي توفي سنة ٥٦٥م كما حقق بروكويوس القيصري في الكتاب الخامس في ابنة يوستينانوس. وهذا المؤرّخ كان من رجال دولة يوستينانوس المذكور وعليه فمن شاء أن يكابر مدعياً صحّة شهادة غوليلمس المؤسسة على شهادة ابن البطريق فليرد ولو هذين الدليلين أوردتهما البابا بناديكتس أو يثبت أنّ غوليلمس اعتمد على غير سعيد في زعمه هذا عن الموارنة فنسلم طائعين.

بقي أن يقال أنّ مارون الذي ذكره ابن البطريق وانتحل غوليلمس قوله ليس مارون الرئيس بل يوحنا مارون البطريرك الذي كان في القرن السابع. فنجيب أنّ هذا الزعم أيضاً باطل بل محال لأنّ يوحنا مارون لم يكن في أيام موريق ولا بنى أهل حماه على اسمه ديراً كما قال ابن البطريق، بل صيّر أسقفاً على البترون سنة ٦٧٥م أو سنة ٦٧٦م وبطريركاً سنة ٦٨٥م وتوفي سنة ٧٠٧م. فاشتهر في عصر الملك قسطنطين اللحياني ويوستينانوس الثاني الأخرم لا في عصر موريق الذي كان في آخر القرن السادس. وقد صرح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م أنّ الموارنة إنّما انتخبوا بطريركاً خاصاً عليهم وهو يوحنا مارون ليقوا نفوسهم من بدعة المشيئة الواحدة، فما الذي يقى من القوّة لزعم غوليلمس أو غيره من خصومنا أنّ يوحنا مارون ابتدع هذه البدعة فضلاً عن الاجتماع على أنّ يوحنا مارون توفي سنة ٧٠٧م، وأنّ ظهور بدعة المشيئة الواحدة كان سنة ٦٢٨م. فلو فرضنا أنّه عاش ثمانين سنة لكان مولده سنة ٦٢٧م فكيف يتدع بدعة وعمره سنة أو ستان. وإن قيل تبع هذه البدعة بدعاً فلم لا نجد اسمه بين من حرمهم المجمع السادس وغوليلمس يزعم أنّ المجمع السادس عقد ضدّ الموارنة وحرّمهم، ولا يستطيع هو أو غيره أيّاً كان أن يحجنا بكلمة أو إشارة من النص اليوناني لهذا المجمع أو من ترجمته اللاتينية يتبيّن بها اسم مارون أو الموارنة مع أنّ هذا المجمع عدّد أسماء كل منشعي هذه البدعة ومن شايهم عليها فلم صمت عن مارون أو يوحنا مارون أو الموارنة؟

إنَّ كلَّ ما أوردناه في المجلد الخامس لاثبات براءة المارونيين والموارنة من هذه البدعة من شهادات الأحبار الأعظمين وكرادلة الكنيسة الرومانية وقصاها والعلماء المحققين والأدلة القاطعة على ثبوت الموارنة في الإيمان الكاثوليكي منذ ظهور هذه البدعة إلى سنة ١١٨٢م كل ذلك يصلح أن يكون برهاناً قاطعاً على بطلان زعم غوليلمس أنَّ الموارنة تشبثوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وارعوا عنها سنة ١١٨٢م.

وقد فتد هذه التهمة كثيرون من العلماء المغريين والمشرقيين وزيفها من علمائنا كثيرون نخصّ بالذكر منهم البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه، وفي كتابه ردّ التهم، والعلامة السمعاني في مواضع كثيرة من المكتبة المشرقية ومن مكتبة الناموس وغيرهما من كتبه، والمطران أسطفانس عواد السمعاني في محاماته عن القديس يوحنا مارون وفي كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية، والبطريرك يوسف أسطفان في محاماته عن قداسة القديس يوحنا مارون والخوري أنطون القبيالة في رده رسالة القس يوحنا عجيمة والبطريرك بولس مسعد في كتابه «الدر المنظوم» وأنا أحقر هؤلاء العلماء الذي لا أستحق أن أذكر في عديدهم في كتابي «روح الردود» وفي كتيب رفعته في السنة السالفة إلى علماء مجتمع الآثار القديمة الذي التأم برومة سنة ١٩٠٠م وسأذكر شهادة بعض مشاهير المؤرخين اللاتينيين.

وأما القسم الثاني من شهادة غوليلمس الصوري وهو ما رواه عن ارتداد الموارنة على يد ايميريكوس بطريرك أنطاكية اللاتيني فلا نجهد صدقه على فريق من الموارنة فقد رأيت ما ذكرناه في الكلام على بطاركة طائفتنا في هذا القرن عدد ٨٥٨ عن انخداع فريق من الموارنة لمقالة توما أسقف كفرطاب وبث بعد وفاته ابن شعبان وابن حسان ضلاله بين الموارنة حتى أطغوا سكان بعض القرى منهم أهل كفرياشيت وجنح البطريرك نفسه إلى ضلالهم فنهض لمقاومته باقي رؤساء الملة وأعيانها والسواد الأعظم من شعبها، وحملتهم الحمية والغيرة الدينية على حطه عن مقامه وإقامة بطريرك آخر صحيح المعتقد فلم يكن من الأغرار المغوين بالضلال إلا أنهم جسروا على قتل البطريرك الحديث، فعظم الأمر على الأكثرين المتشبثين بالإيمان القويم وعزموا أن يهلكوا أولئك الشاذين عن آخرهم، فتدارك أمرهم ايميريكس بطريرك أنطاكية اللاتيني وأرشد أولئك الضالين فارتدوا إلى محبة الدين القويم، وصالحهم مع اخوانهم وأدخلهم في طاعة رؤسائهم، فانتخبوا متفقين بطريركاً

عوضاً عن البطريك المقتول. وكل منصف يرى أنّ التهمة بالضلال والارتداد عنه لا تصدق في هذا الحادث إلا على ذلك الفريق القليل ولا تمس شأن الطائفة بجملتها، ولا يصدق عليها أتباع الضلال والرجوع عنه. فجنوح بطريك إلى ضلال وقتل بعض الأغرار المتحمسين للضلال بطريكاً من الكبائر الفظيعة، لكنّها من الأعمال الفردية المقصورة على فاعليها ولا تتعدى إلى الملة كلها ونهوض باقي رؤسائها وأعيانها وشعبها على البطريك المغتر وحطّه عن مقامه بينة دامغة على براءة ساحة الملة بجملتها من شائبة الضلال، بل دليل قاطع على تشبّثهم المتين بعروة الإيمان القويم. ونجترىء بأن نورد إثباتاً لكل ما جئنا به في هذا الفصل شهادات باجيوس ولكويان وهما من كبار المؤرخين المدققين فالعلامة باجيوس انتقد تاريخ الكردينال بارونيوس امام المؤرخين ونقحه سنة فسنة. ولما كان بارونيوس ذكر رواية غوليلمس عن ارتداد الموارنة في تاريخ سنة ١١٨٢م الحق باجيوس بكلامه انتقاداً وتنقيحاً هذا ملخصه: «عدد ١٠ غلط غوليلمس الصوري في كل ما رواه عن ارتداد الموارنة ابنا في عد ٤ كم انخدع غوليلمس الصوري وما أشد بغضه للفرسان الأورشليميين إذ كتب أنّهم كانوا قبلاً ينتمون إلى حماية القديس يوحنا الرحوم ولما ازداد مالهم استبدلوه بالقديس يوحنا المعمدان. ونبين هنا كم أخطأ بنسبته بدعة المشيئة الواحدة إلى ملة الموارنة بجملتها. وقد ذكر بارونيوس كلامه بجملته فاكثفي أنا بإيراد ملخصه». ولخصه إلى أن قال: «عد ١١ إنّ غوليلمس الصوري اعتمد على حكايات كاذبة لا شك في أنّ الصوري انتحل في كتابة تاريخه أشياء كثيرة من تواريخ سعيد البطريك الاسكندري، وهذا لم يكن مدققاً في تواريخه بل أدخل بها حكايات كثيرة وروى أموراً تخالف رأي المؤلفين، وهي عن الصدق بمراحل. وقد صرح غوليلمس نفسه في مقدّمة كتابه بان أموري ملك أورشليم دفع إليّ كتباً عربية فكتبت تاريخاً آخر يبتدئ من ظهور الاسلام إلى هذه السنة التي هي سنة ١١٨٤ للميلاد فينطوي على تاريخ خمس مئة وسبعين سنة وقد تبعت خاصة الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريك الاسكندري»... فتاريخ الصوري هذا لم يصل إلينا وما بقي منه في تاريخ الحرب المقدّسة قال هو فيه: «لم يكن لديّ في هذا القسم ما يرشدني إليه من الكتب اليونانية أو العربية فاعتمدت فيه على التقليدات وحدها إلا شيئاً يسيراً كونت فيه شاهداً عياناً ونظمت سلسلة أخباره». على أنّ التقليدات التي اتبعها كانت غالباً غير صحيحة، ومما لا ريب أنّه اعتمد

في أكثرها على حكايات سعيد المذكور عن أصله العربي . فقال : « كان في أيام موريق راهب اسمه مارون » إلى آخر كلامه المعروف الذي رواه باجيوس هنا إلى أن قال : « عدد ١٢ أن تاريخ سعيد مشحون بالأقاصيص لأن بدعة المشيئة الواحدة لم تظهر في أيام موريق هذا ولا في عصر فوفا خليفته بل في أيام هرقل ، وهذا يعلمه جميعهم والدير الذي ذكره سعيد لم يكن بعد وفاة مارون هذا (أي يوحنا مارون) بل كان قبله بنحو مائتي سنة وكان مكرساً على اسم القديس مارون الرئيس . وقد استدلل نيرون على هذا بشهادة بروكويوس القيصري في الكتاب الخامس من ابنة يوستينان حيث قال : « جدد واصلح فندق الفقراء على اسم القديس رومانس ودير القديس مارون فوق حماه » . ومما لا يُمتري فيه أن يوستينانس توفي سنة ٥٦٥ م وموريق تستم منصبة الملك سنة ٥٨٣ م وتوفي سنة ٦٠٢ م فتجديد بناء الدير في أيام يوستينانس يستلزم أن يكون حينئذ قديماً جداً . وتؤيد ذلك أعمال الجمع الخامس المسكوني الذي عقد سنة ٥٥٢ م في عصر يوستينانس المذكور إذ شهد هذا الجمع قصاد دير القديس مارون الذي كان طائر الشهرة ، وكان أول جميع أديار سورية الثانية ورئيسها ، وهذا يبين أيضاً من توقيع سفراء هذا الدير على أعمال الجمع المذكور . وقد أثبت أن مارون هذا (أي يوحنا مارون) كان راهباً في الدير المذكور نفسه وكان اسمه يوحنا فزاد عليه مارون آخذاً إياه من اسم دير القديس مارون الرئيس . وقد استوفينا رد هذه الحكاية بإسهاب في تاريخ سنة ٦٣٥ م » (نكتفي برده هنا عن رده في تاريخ السنة المذكور لئلا يمل القارئ) : « عدد ١٣ إن بعض الموارنة زاغوا عن الإيمان » . بقي لنا هنا أن نفند ما رواه بارونيوس عن الصوري من أن ملّة الموارنة بجملتها ارتدت إلى الإيمان الكاثوليكي فلا ريب في أن المشيئة الواحدة انسربت في جبل لبنان واتصل السم إلى البطريك نفسه كما رويناه في تاريخ سنة ١١٠٩ م ، وكان انسرابها في نحو أوائل هذا القرن بواسطة توما الحاراني أسقف كفرطاب كما قلنا في المحل المذكور .

« عدد ١٤ وفي هذه السنة ١١٨٢ م أوقع أييريكس البطريك الأنطاكي الصلح في كنيسة الموارنة ، أن الموارنة بعد ذلك وبعد ما ذكرناه في تاريخ سنة ١١٠٩ م انتخبوا بطريكاً كاثوليكياً فقتله الشاذون عن الإيمان وتوافرت الانقسامات والقلق بين الموارنة على انتخاب بطريك كما روى نيرون ، فتسارع أييريكس بطريك أنطاكية اللاتيني وخمد جذوة حنقهم ورد من أوجدوا الشقاق أو أتبعوه إلى الطاعة

وحلّهم السلطان الحبر الروماني من الحرم الذي حلّ بهم لاقترافهم الجريمة الكبرى بقتل البطريرك واجتمعت كلمة الموارنة على انتخاب بطريرك حديث مشهور باستمساكه بالإيمان القويم». وأيد باجيوس كلامه بما جاء في مقالة نيرون من انقياد الموارنة بواسطة أيميريكس وطلبه الحل لهم من الكرسي الرسولي وانتخابهم بطريركاً سكن في دير العذراء القديسة في هايل وحفظ كل ما في الانجيل، وكان ضليعاً في تفسير الأسفار المقدسة وألف ميامر كثيرة في الإيمان، ولم ينبذ إيمان مارون بل ثبت وتأيد إلى أن قال: «ومن ذلك ينتج نتجاً واضحاً أنّ الصوري لما علم أنّ الموارنة الذين اتبعوا شقاق توما الكفرطابي جحدوا ضلاله على يد أيميريكس وأقروا بالإيمان الروماني هم والبطريرك بعد وقوع الصلح ظنّ أنّ الموارنة جميعاً كانوا متلوّثين ببدعة المشيئة الواحدة فنسب إلى كل الملة ما لا يصدق إلّا على فريق يسير منها ولا أهمية له فيها، وقد زاع مدة فقط إلّا أن نقول أنّ الصوري انخدع بأخبار أحد من الذين ارتبكوا بشقاق توما الكفرطابي، ولكن لا معذرة البتة للصوري بزعمه أنّ المجمع السادس عقد ضدّ الموارنة وأنّه حرّمهم، إذ لا كلمة واحدة في أعمال هذا المجمع تشير إلى ذلك.

عدد ١٥ قد أخطأ الصوري بنسبته إلى الملة جمعاء الضلال فكيف حقّ له أن يقول إنّ الموارنة تسكّعوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وأسقفهم داود الذي كان سنة ١٣٧٠ لاسكندر وهي سنة ١٠٥٩م ألف كتاباً جمع فيه قوانين الكنائس الشرقية كما يظهر من رسالة الانبا يوسف إليه في طلب هذا الكتاب. وقد أثبت الأسقف داود في الفصل الأوّل منه أنّ الموارنة يعترفون بمشيئتين في المسيح إذ قال: «إنّ الروم يتفقون مع الموارنة بالاعتراف بالمشيئتين والموارنة يعترفون بالمشيئتين تبعاً للطبيعتين الإلهية البشرية». فكيف يزعم الصوري أنّهم كانوا ملوّثين ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة ولم يرفعوا عنها إلّا سنة ١١٨٢م. أجل إنّ بعض الموارنة سافر إلى قبرص حين انقسامهم وأطغى كثيرين ولكن لا ينتج من هذا إلّا أنّ كثيرين من الموارنة كانوا ضالين عن الإيمان الصحيح، على أنّ هذا لا يوجب الضلال على الأئمة جمعاء كما أنّ كثيرين من الفرنسيين والجرمانيين تلوّثوا بضلال كلوينوس ولا ينتج من ذلك أنّ الأئمة ليستا كاثوليكيّتين. وقد ندّد بعضهم بالموارنة لأنّه وجد في كتبهم ما يدل على بدعة ولاسيما بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة لكن هذا أدخله مكر اليعاقبة على كتب الموارنة، لأنّه لما كانت

المُلتان تستعملان اللغة السريانية في صلواتهما فعني اليعاقبة بأن يدخلوا ضلالهم في كتب الموارنة محرفين لها أو زائدين عليها، وهذا ظاهرٌ مما كتبه بطرس بطريرك الموارنة إلى الكردينال أنطونيوس كارافا في ٢٥ آب سنة ١٥٨٣م، ورواه نيرون صفحة ٧٧ في مقالته المذكورة وهو: «قد كتب إليكم بعض الناس أنّ في كتبنا بعض كلماتٍ تخالف رأس الكنيسة المقدّسة فنحن لا نقبل إلّا ما تقبله الكنيسة المقدّسة وما يوجد في بعض النسخ يمكن أن يكون أدخل على كتب الموارنة من كتب الملل المحدثّة بنا من زمان مديد، فدع يا أخي جانباً كل شبهة باستقامة إيماننا فأساسنا ثابت منذ القديم على إيمان الكنيسة المقدّسة الرسولية الرومانية، ولم نرغ عن هذا الإيمان البتة ولا نكلّمكم بفينا فقط بل بفمنا وقلبنا معاً والله الشاهد على ذلك». فصح إذا أنّ غوليلمس الصوري وكثيرين غيره من الحديثين الذين تساهلوا بتصديق أخباره عن ارتداد الموارنة قد انخدعوا انخداعاً كبيراً.

«انتهى كلام باجيوس وقد أوردناه مطولاً لما اشتمل عليه من الفوائد في هذا البحث.

وأما لكويان فقد ذكرنا شهادته في عدد ٨٥٨ فانه بعد أن ذكر ما كان بين الموارنة حينئذٍ وعناية أيميريكس بارتداد الزائغين عن الإيمان إلى محجته القويمة واذعانهم لارشاده والصلح بينهم قال: «لا ريب عندي في أنّ هذا ما حمل غوليلمس الصوري على ما كتبه من أنّ الموارنة كلّهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢م على يد أيميريكس البطريرك الأنطاكي، مع أنّ هذا لا يصدّق على الملة كلّها بل على بعض أفرادها فقط». وكان قد قال في مقدّمة كلامه على الموارنة: «كما لم يعب فرنسة اتباع كثيرين من اكليرسها وشعبها مذهب لوتاروس وكلونيوس هكذا لا يعيب الملة المارونية اتباع بعض أفرادها الضلال مدّة ما».

إنّني أرى هذه الأدلّة التي أوردتها حتى الآن تتجاوز حد الكفاية في دحض دعوى سعيد بن البطريرك وغوليلمس أسقف صور على الموارنة الضلال الهم الله من يحسدوننا على نعمته وفضله أن ينصفونا ولا أقل من أن يجارونا في طريق الجدال المفروضة ولا يحجبونا في ما بعد بأقوال سعيد وغوليلمس قبل أن يردوا الأدلّة الواضحة والبيّنات القاطعة التي جئنا بها هنا وفي مواضع أخرى.

الباب الثالث عشر

تاريخ سورية في القرن الثالث عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الديوي في هذا القرن

الفصل الأول

الأحداث التي كانت في القرن الثالث عشر

عد ٨٦١

استقلال الملك العادل بالسلطنة وبعض أعماله

كان الفراغ من كلامنا في تاريخ القرن الثاني عشر بذكر الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين الأيوبي، وبذكر الخلاف بين الملك العادل أخي صلاح الدين وابني أخيه الملك الأفضل والملك الظاهر على دمشق إلى أن اختلف الملكان الأفضل والظاهر، فرحلا عن دمشق وعاد الملك الأفضل إلى مصر والملك الظاهر إلى حلب. ففي سنة ٥٩٤هـ وسنة ١٢٠٠م خرج الملك العادل من دمشق وسار في أثر الأفضل إلى مصر، ولما وصل الأفضل إليها تفرقت عساكره لأجل الربيع، فأدركه عمه العادل فخرج الأفضل بمن عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بالسائح، فانكسر عسكر الأفضل وانهزم هو إلى القاهرة ونازل العادل القاهرة فأجاب الأفضل

إلى تسليمها على أن يعرض عنها ميفارقين وحاني وسميساط فأجابه العادل إلى ذلك ولم يف له به، ودخل العادل القاهرة في ٢١ من ربيع الآخر من هذه السنة وسافر الملك الأفضل إلى صرخد وأقام العادل بمصر على أن اتابك (أمير الأمراء) الملك المنصور محمد بن العزيز وبعد مدة يسيرة أزال الملك المنصور عن الملك واستقل العادل في السلطنة. ولما استقرت المملكة للعادل أرسل إليه الملك المنصور صاحب حماه يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بعرين من ابن المقدم فقبل الملك العادل عذره وأمره برد بعرين إلى ابن المقدم فاعتذر عنها بقربها من حماه ونزل عن منبج وقلعة نجم لابن المقدم عوضاً عن بعرين فرضي ابن المقدم بذلك، وكانت له أيضاً أفاميا (اباميا) وكفرطاب وخمس وعشرون ضيعة من المعرة، وكذلك كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه واشترط الملك العادل عليه أن يكون خمس مئة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة العادل كلما خرج إلى البيكار والتزم صاحب حلب بذلك.

وفي سنة ٥٩٧هـ سنة ١٢٠١م كان الملك العادل بمصر وعنده ابنه الملك الكامل محمد وهو نائبه بها، وبحلب الملك الظاهر وهو مجتد في تحصين حلب خوفاً من عمه الملك الظاهر، وبدمشق الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل نائب أبيه ويامفارقين الملك الأوحى أيوب ابن الملك العادل أيضاً، ومات ابن المقدم وصارت بلاده لأخيه شمس الدين فسار الملك الظاهر صاحب حلب إلى منبج وحصر لها وملكها وقلعتها، ثم سار إلى قلعة نجم فحصرها وملكها وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماه يبذل منبج وقلعة نجم على أن يصير معه على الملك العادل، فاعتذر باليمين التي في عنقه للملك العادل ولما ايس منه سار إلى المعرة وأقطع بلادها واستولى على كفرطاب وكانت لابن المقدم، ثم سار إلى أفاميا وفيها قراقوش نائب ابن المقدم وأرسل الظاهر وأحضر عبد الملك ابن المقدم من حلب وكان اعتقله بها مع بعض أصحابه وضربهم أمامه ليسلم أفامية فامتنع عن تسليمها، فرحل الملك الظاهر عنها إلى حماه وحاصرها طويلاً فجرح بسهم في ساقه ولما لم يحصل غرض صالح صاحبها الملك المنصور على مال يحمله إليه ورحل إلى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنزلها هو وأخوه الملك الأفضل الذي كان في صرخد وانضم إليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الأمراء الصلاحية، واتفق الأخوان الأفضل والظاهر على أنهما

متى ملكا دمشق يتسلّمها الملك الأفضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ويتسلّمها الملك الأفضل وتسلّم دمشق حينئذ إلى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الأفضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر.

وبلغ الملك العادل حصار الأخوين دمشق فخرج بعساكر مصر وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهما، واشتدّت مضايقة الملكين لدمشق وتعلّق النقابون بسورها، فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد أخاه الملك الأفضل على دمشق وقال له أريد أن تسلّم إليّ دمشق الآن، فقال له الأفضل إنّ حريمي حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه وهب هذا البلد لك فاجعله لي إلى حين تملك مصر وتأخذه فامتنع الظاهر عن قبوله ذلك، وكان قتال العسكر والأمرء الصلاحية لأجل الأفضل. فقال لهم إن كان قتالكم لأجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل وإن كان قتالكم لأجل أخي فأنتم وإياه. فقالوا إنّما قتالنا لأجلك وتخلّوا عن القتال وأرسلوا وصالحوا الملك العادل ورحل الملك الظاهر عن دمشق في أوّل المحرم سنة ٥٩٨هـ سنة ١٢٠٢م فقدم الملك العادل إليها ثم سار منها إلى حماه ونزل على تل صفرون، وقام الملك المنصور صاحب حماه بجميع وظائفه وكلفه وبلغ الملك الظاهر وصول عمّه العادل إلى حماه قاصداً محاصرته فاستعدّ للحصار وأرسل عمه ولاطفه وأهدى إليه، وكانت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه المعرة واستقرّت للملك المنصور صاحب حماه، وأخذت من الملك الظاهر قلعة نجم أيضاً وسلّمت إلى الملك الأفضل، وكانت له أيضاً سروج وسميساط وسلّم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف موسى ولما استقرّ الصلح بين الملك العادل والملك الظاهر رجع العادل إلى دمشق وأقام بها. وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في ملكه وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه.

وفي سنة ٥٩٩هـ سنة ١٢٠٣م أرسل الملك العادل وانتزع ما كان بيد الملك الأفضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سميساط، فقط فأرسل الملك الأفضل والدته فدخلت على الملك المنصور صاحب حماه ليرسل معها من يشفع في الملك الأفضل عند الملك العادل، فوجه معها القاضي زين الدين ابن الهندي فلم يجبها الملك العادل ورجعت خائبة. وأقام الملك الأفضل بسميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل وخطب للسلطان ركن الدين بن قليج لإرسال السلجوقي صاحب بلاد الروم، وفي سنة ٦٠٤هـ سنة ١٢٠٨م لما استقرّ الملك العادل بدمشق

أرسل إليه الخليفة الناصر التشریف صحبة الشيخ شهاب الدين السهرودي فبالغ الملك العادل في إكرام الشيخ والتقاءه إلى القصر ودخل من صاحبي حلب وحماه ذهب لينثر على الملك العادل إذ لبس الخلعة فلبسها ونثر الذهب وكان يوماً مشهوداً، والخلعة جبة أطلس أسود بطراز مذهب وعمامة سوداء بطراز مذهب وطوق ذهب مجوهر وسيف جميع قرابه ملتبس ذهباً وحصان أشهب بمركب ذهب، ونثر على رأسه علماً أسود، مكتوب فيه بالبياض اسم الخليفة ثم خلع رسول الخليفة على الملك الأشرف والملك المعظم أميني الملك العادل عمامة سوداء وثوباً واسع الكم وكذلك على الوزير صفى الدين بن شكر، ووصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التي تحت حكمه. وخوطف العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. وتوجه الشيخ شهاب الدين المذكور إلى مصر فخلع على الملك بها وجرى فيها نظير ما جرى في دمشق من الاحتفال. وفي هذه السنة ١٢٠٨م اهتم الملك العادل بعمارة قلعة دمشق والزم كل واحد من ملوك أهل بيته ببناء برج من أبراجها.

وفي سنة ٦٠٥هـ سنة ١٢٠٩م أمر الملك الظاهر صاحب حلب بإجراء القناة من حيلان إلى حلب وغرم على ذلك أموالاً كثيرة وفي سنة ٦٠٦هـ سنة ١٠٢١م سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات وجمع العساكر والملوك من أولاده ونزل حران وسار منها فنازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي بن مودود، وحاصرها وطال الحصار ثم خامرت العساكر التي صحبة الملك العادل ونقض الملك الظاهر صاحب حلب الصلح مع عمه العادل ورحل الملك العادل عن سنجار وعاد إلى حران واستولى هلى نصيبين، وكانت لقطب الدين المذكور وعاد إلى دمشق ثم إلى مصر. وفي سنة ٦١٢هـ سنة ١٢١٦م استولى الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن وفي سنة ٦١٣هـ سنة ١٢١٧م توفي الملك الظاهر صاحب حلب وقبل وفاته احضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين أن يكون الملك بعده لولده الصغير الملك العزيز ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز. وحلف الأمراء والأكابر على ذلك وكان مولد الظاهر بن صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٨هـ سنة ١١٧٣م وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها أبوه له إحدى وثلاثين سنة.

وفي سنة ٦١٥هـ سنة ١٢١٩م توفي الملك العادل في عالقين عند عقبه افق بفلسطين وكان يحارب الفرنج في تلك النواحي فرحل إلى هناك ومرض واشتد

مرضه فمات وكان مولده سنة ٥٤٠ هـ سنة ١١٤٦ م، فكان عمره عند وفاته ثلاث وسبعين سنة شمسية وملك بدمشق ٢٣ سنة ومدة ملكه لمصر نحو ١٩ سنة. وخلف ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات، وحضر إليه منهم بعد وفاته الملك عيسى صاحب نابلس وكنتم موته وأخذه ميتاً في محفة إلى دمشق، وأخذ كل ما كان لأبيه من الجواهر والسلاح والخيول، وكان في خزانته على ما قيل سبعمائة ألف دينار عيناً. وبعد أن حلف الناس له أظهر موت أبيه وجلس للعزاء وكاتب الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته، وقد رثى شرف الدين بن عنين الملك العادل بقصيدة مطلعها:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى
ومنها العادل الملك الذي أسماؤه في كل ناحية تشرف منبرا
بين الملوك الغابرين وبينه في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما بقى في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
انتهى ملخصاً عن ابن الأثير في الكامل وعن أبي الفداء في تاريخه.

عد ٨٦٢

ما كان من الحرب بين الملك العادل والفرنج

هذا ما قاله المؤرخون العرب. في سنة ٥٩٩ هـ سنة ١٢٠٣ م سار الملك المنصور صاحب حماه إلى بعين مرابطاً للفرنج وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وصاحب حمص أن ينجدها، واجتمع الفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرهما وقصدوا الملك المنصور ببعين واتفقوا معه واقتلوا فانهزم الفرنج وقتل منهم جماعة وكان يوماً مشهوداً، ثم خرج من حصن الأكراد الاستار وانضم إليهم جموع من السواحل وتوافقوا مع الملك المنصور ببعين فانتصر ثانية وانهزم الفرنج هزيمة شنيعة وأسر الملك المنصور، وقتل منهم عدة كثيرة ومدح سالم بن سعادة الحمصي الملك المنصور بسبب هذه الوقعة بقصيدة منها:

وشتت منتقماً بساحل بحرهما جيشاً حكى البحر الخطم غمرما

اسدلت في الآفاق من هبواته ليلاً واطلعت الأسنة أنجماً

وفي سنة ٦٠٠هـ سنة ١٢٠٤م كانت الهدنة بين الملك المنصور والفرنج وفي هذه السنة خرج كثير من الفرنج من البحر وسهل الأمر عليهم ملكهم قسطنطينية، وأرسوا بهكا قاصدين بيت المقدس ثم ساروا ونهبوا كثيراً من بلاد المسلمين بنواحي الأردن وسبوا وفتكوا بالمسلمين، فخرج السلطان الملك العادل من دمشق وجمع العساكر ونزل على الطور بالقرب من عكا في قبالة الفرنج ودام ذلك إلى آخر السنة. وفي سنة ٦٠١هـ سنة ١٢٠٥م كانت الهدنة بين الملك العادل والفرنج وسلم إليهم يافا ونزل عن مناصفات اللد والرملة وأعطاهم الناصرة وغيرها، ولما استقرت الهدنة سار الملك العادل إلى مصر فأغار الفرنج على حماه ووصلوا إلى قريها إلى قرية تسمى الرقيطا وامتألت أيديهم من المكاسب وأسروا من أهل حماه شهاب الدين بن البلاعي، وكان فقيهاً شجاعاً وحمل إلى طرابلس فهرب منها إلى بعلبك فعاد إلى أهله بحماه سالماً. ثم وقعت بين الملك المنصور صاحب حماه وبين الفرنج. وسنة ٦٠٣هـ سنة ١٢٠٧م سار الملك العادل من مصر إلى الشام فنزل في طريقه عكا فصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى ثم وصل إلى دمشق، وكان الفرنج الذين بطرابلس وحصن الأكراد أكثروا الاغارة على بلد حمص ونازلوا مدينة حمص فلم يكن لصاحبها أسد الدين شيركوه أن يدفعهم، فاستنجد الظاهر ملك حلب وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد إلا الظاهر، فآثب سائر له عسكرياً أقاموا عنده ومنعوا الفرنج عن ولايته إلى أن سار الملك العادل من دمشق ونزل على بحيرة قادس، وجاءه عساكره من الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً اسمه القليعات وأخذها صلحاً، وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخزبه وتقادم إلى طرابلس، فنهب وأحرق وسبى وغنم وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها، وعاد إلى بحيرة قدس، وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فلم تستقر قاعدة ودخل الشتاء وطلبت العساكر الشرقية العود إلى بلادها فنزلت طائفة من العسكر بحمص وعاد الملك العادل إلى دمشق فشتى بها.

وفي سنة ٦١٤هـ سنة ١٢١٨م قال ابن الأثير في هذه السنة وصلت امداد الفرنج في البحر من رومية الكبرى وغيرها في المغرب والشمال، لأن المتولي بها كان صاحب رومية لأنه ينزل عند الفرنج بمنزلة عظيمة ولا يرون مخالفة أمره ولا

العدول عن حكمه فجهز العساكر من عنده مع جماعة من مقدّمي الفرنج وأمر غيرهم من ملوك الفرنج أن يسير بنفسه أو يرسل جيشاً ففعلوا ما أمرهم به فاجتمعوا بعكا وكان الملك العادل بمصر فسار إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد وقصده الفرنج من عكا فسار هو إلى نابلس فسبقه الفرنج إليها فنزل على بيسان فتقدّم الفرنج إليه وكان عسكره قليلاً فلم ير أن يلقاتهم في الطائفة التي معه خوفاً من هزيمة تكون عليه، ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويجمع العساكر. ووصل إلى مرج الصفر وتقدّم الفرنج إلى بيسان فأخذوا كل ما فيها من ذخائر كثيرة ونهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس، وأقاموا ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى مرج عكا ومعهم من الغنائم والأسرى ما لا يحصى سوى من قتلوا وما أحرقوا وما أهلكوا ثم جاؤوا إلى صور وقصدوا بلد الشقيف ونهبوا صيدا والشقيف، وعادوا إلى عكا وتجهّزوا وأخذوا معهم آلة الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور وهي على رأس جبل بالقرب من عكا كان العادل قد بناها، وحصروها كادوا يملكونها، فقتل بعض ملوكهم فتركوا القلعة وعادوا إلى عكا، فتوجّه الملك المعظم ابن العادل ودكّ قلعة الطور إلى الأرض لأنها بالقرب من عكا ويتعدّر حفظها. وأمّا الفرنج فبعد عودهم عن قلعة الطور أقاموا بعكا إلى سنة ٦١٥ هـ سنة ١٢١٩م وساروا في البحر إلى دمياط، وأرسل الملك العادل العساكر إلى ابنه الملك الكامل في مصر ليقوى على الفرنج وفي هذه الأثناء أدركت المنية الملك العادل كما مرّ. (انتهى ملخصاً عن ابن الأثير وأبي الفداء).

وأما المؤرخون الفرنج فأهم كلامهم في تاريخ أوائل هذا القرن على حملة الأفرج الرابعة بقصد استنقاذ الأرض المقدّسة، وخلاصة كلامهم في ذلك أنّ هذه الحملة دعا إليها البابا اينوشنسيوس الثالث وأعظم دعائها بأمره، فولك خوري نوبلي بفرنسة وأعظم قادة الجيش بها بودوين التاسع كونت فلاندر، وبونيفاشيوس مركيس مونتا فراتا بإيطاليا، وهنري دندولو دوج (حاكم) البندقية، ولما اجتمع هؤلاء مع عساكرهم في البندقية عزموا أن يسافروا إلى مصر لكنهم ساروا أولاً سنة ١٢٠٢م. فحاصروا زارا مدينة بدلماسيا إجابة إلى طلب البنادقة لأنّ أهل هذه المدينة كانوا قد ثاروا عليهم، وبعد أن نهبوها ساروا إلى قسطنطينية ووصلوا إليها سنة ١٢٠٣م. وكان الكسيس الرابع ملك الروم استنجدهم فنجدوه على منازعيه وأقروه في تخت الملك، ولكن نهض عليه دوكاس مرسوفل (الغليظ الحاجب) وأخذ ملكه سنة ١٢٠٤م

ممي الكسيس الخامس فطرده الصليبيون وملكوا قسطنطينية، فأقاموا بودوين كور ملكاً، وأخذ البندقيون أعظم نصيب وهو بعض الجزائر وربع القسطنطينية مع يسة القديسة صوفيا. وهكذا أقيمت في قسطنطينية المملكة اللاتينية واقتسم أمراء حملة أعمال البلاد التي دوخوها واستمرّ ملكهم في قسطنطينية من سنة ١٢٠٤م ، سنة ١٢٦١م حين استردّها الملك ميخائيل الثامن باليولوجوس.

على أنّ فريقاً من رجال الحملة الرابعة سافروا من مرسيليا وبروج توّأ إلى عكا ضمّ إليهم طائفة ممن غادروا بعد حرب دارا الجيش الذي قصد قسطنطينية فأثروا عكا وسُمت نفوس هؤلاء جميعاً الإقامة بعكا دون حرب وكان ملك أورشليم يدداً في نقض الهدنة مع المسلمين، فزائل كثيرون منهم فلسطين وقصدوا نضواء تحت راية أمير أنطاكية الذي كان يحارب ملك الأرمن ولم يأخذوا من يهم الطرق فوقعوا بيد المسلمين الذين أرسلهم عليهم أمير حلب، فشئتوا شملهم تلوا وأسروا كثيرين منهم وهذه هي وقعة بعين مع الملك المنصور التي ذكرها ربحون العرب وحدثت وقعة مجاعة في مصر من جزاء نقص ماء النيل دامت تين واتصلت إلى سورية وعقبها أمراض وبائية هلك بها جموع كثيرة في فلسطين نى قيل إنّه مات بعكا من النصارى ألف في يوم واحد. وكانت في سنة ١٢٠٠م زلازل هائلة خربت بها مدن كثيرة ودمرت قلاع حماه وبعين وبعليك م يبق في نابلس إلّا سوق السامريين، وسقطت أكثر أبنية دمشق ولم يبق في ور إلّا بعض البيوت وأمست أسوار عكا وطرابلس كوم أنقاض ولم تخل أورشليم ن التخريب وقد ذكر المؤرخون العرب أيضاً هذه المصائب بالقحط والوباء والزلازل.

وفي سنة ١٢٠٥م توفي أموري الثاني ملك أورشليم ثم توقّيت بعده امرأته بال التي كانت مزوجة قبله بالملك هنري المارذكره ولدى اجتماع عمال المملكة عيانها لاختيار ملك لم يتفق رأيهم على أحد الفرنج المقيمين بسورية فأرسلوا ايمار امل قيصرية وأسقف عكا إلى المغرب فسارا إلى فيلبوس أغوسطوس ملك فرنسة ختار لهم ملكاً فاختر ايوحنا دير بريانه ليتزوج بمرم وريثة ملك أورشليم ابنة ايزبال ني ولدت لها ومن زوجها كونراد دي مونتافراتا، ويملك على أورشليم فسار ايوحنا لذكور إلى سورية وتزوج بمرم وريثة الملك في ١٤ أيلول سنة ١٢٠٩م في عكا ثم ج ملكاً على أورشليم في ٢٠ من الشهر المذكور، فكان الثاني عشر من ملوك نرنج في أورشليم ولم تكن له ثروة كافية لاصلاح حال مملكته، وشاع حينئذ أنّ

ملوك المغرب يجهزون حملة كبرى لانجاد الفرنج في سورية، فوجس الملك العادل من هذه الأخبار وكادت مدة الهدنة تنقضي فعرض على الفرنج أن يسلم إليهم عشر قلاع حياً باستمرار السلم فأشار عقلاء الفرنج بالاجابة إلى ما عرضه وخالفهم بعض الجبهة، ولم يأت مع يوحنا الملك الحديث من فرنسة إلا ثلثماية فارس ولم يكن يملك إلا أربعين ألف ليرة أعطاه إياها ملك فرنسة، وأعطاه الرومانيون أربعين ألف أخرى. ولما تردد الفرنج في قبول ما عرضه الملك العادل سار هو إلى فلسطين في عسكر وحاصر طرابلس وهدد عكا وبنى قلعة في جبل طابور، وبث سواريه إلى أبواب عكا، فتواقع الملك يوحنا مع عسكر الملك العادل وأبدى آيات البسالة لكنه لم يقو على إنقاذ بلاد النصارى من عدو قدير. ولما رأى الفرنج قلة عديدهم جنوا وندم من لم يقبلوا المسالمة مع المسلمين وأرسل الملك وفداً إلى رومة يستغيث البابا وملوك أوروبا ليمدوه، وكان بين ملوك النصارى وقتل حروب ومنازعات فقل من لبي دعوة ملك أورشلين. وقد أنبأنا كثيرون من المؤرخين المعاصرين أنّ جمّاً غفيراً من الحدثان بفرنسة وألمانيا تألبوا وكانوا يطوفون المدن والقرى مترنمين بقولهم يا رب ردّ علينا صليبا المقدس وكانوا يقولون نسير إلى أورشلين لانقاذ قبر مخلصنا، وانخرط في سلكهم بعض الكهنة وأخذوا بالمسير إلى سورية، ولكنّ بعضهم ردّهم أهلهم عن السفر وبعضهم تشبّثوا وبعضهم قتلوا ووصل بعضهم إلى عكا فزادوا الفرنج قنوطاً ووجلاً ليأسهم من إنجاد رجال الغرب. وبلغت أخبار هؤلاء الحدثان إلى البابا أنوشنسيوس الثالث فقال هؤلاء الحدثان يؤنبوننا على تقاعدنا بمسارعتهم إلى الأرض المقدسة. وعزم سنة ١٢١٣م على عقد مجمع عام برومة لاصلاح بعض الشؤون في الكنيسة وللحض على امداد نصارى الشرق، وأنفذ قصاداً ودعاة إلى ممالك أوروبا بحضون الناس على التجند لنجدة الفرنج في سورية، وكان من جملة هؤلاء الدعاة يعقوب فترى الذي صير فيما بعد أسقفاً على عكا. وأرسل البابا رسائل إلى أساقفة المعمور والرؤساء يستدعيهم إلى المجمع، وقد كتب حينئذٍ إلى الملك العادل نفسه رسالة مؤرخة في السنة سنة ١٢١٤م وهي ١٦ من حبريته وقد أثبت ميشود هذه الرسالة في آخر المجلد الثالث من تأليفه، وقد ناشد البابا الملك العادل بأن يترك المدينة المقدسة. ومما قاله في هذه الرسالة إنّ الله اختار المسلمين آلة لانتقامه من النصارى، وسمح لصلاح الدين بأن يأخذ أورشلين لأنامهم، وحرّضه أن يقي اوراق الدم إن أراد ديمومة ملكه. ولم تكن هذه المرة الأولى من مكاتبة رؤساء الكنيسة إلى السلاطين

المسلمين فإنّ هذا البابا نفسه كتب قبل ذلك رسالة إلى أمير حلب أثبتتها ميشود في كتابه المذكور.

وفي سنة ١٢١٥ عقد المجمع العام في لاتران فشاهده نحو من خمسمائة أسقف وفي جملتهم بطريركنا أرميا العمشيتي ونائب بطريركية اسكندرية ونائب بطريرك الروم الأنطاكي وطريركا اللاتين في أنطاكية وأورشليم وسفراء ملوك أوروبا. وبعد أن حرم المجمع بدعة الاليجازيين واشياعها ونبذ كل ضلال يخالف الإيمان القويم اهتم البابا والأساقفة وسفراء الملوك بما يتداركون به حال النصارى في المشرق وقرروا أنّ كلّ من الاكليريكيين يدفع جزءاً من عشرين جزءاً من دخله السنوي في سبيل النفقة على انجادهم الفرنج في سورية، وأنّ البابا والكرادلة يدفعون عشر دخلهم وان تعقد هدنة مدة أربع سنين بين ملوك النصارى وأثبت الدعاة في كل فجّ يذيعون أمر المجمع بامداد نصارى المشرق. ففي سنة ١١١٧م تألّبت جموع كثيرة أكبر رؤسائهم أندراوس ملك المجر فكانت هذه الحملة الخامسة. وعند مرورهم بقبرص صاحبهم لوسينياس ملكها واجتمعوا في عكا وخرجوا منها بامرة ملك المجر وملك أورشليم وملك قبرص وساروا نحو مرج ابن عامر واتصلوا إلى الأردن ولم يعترضهم أحد، ولكن نهبوا وأسروا بعض المسلمين دون حرب وعادوا إلى عكا ووقع الرعب في قلوب المسلمين فسكّن الملك العادل روعهم قائلاً عما قليل سيقع الخلاف بين الفرنج وجيشهم الكثيف أشبه بسحابة تنقشع بأقل ريح. وعزم رؤساء جيش النصارى أن يحملوا على جبل طابور حيث تحصّن المسلمون ولما بلغوا إلى سفح الجبل أخذ المسلمون يفلبون عليهم الصخور الضخمة ويمطرون عليهم النبال فلم يش ذلك عزيمة الفرنج وأبدى ملك أورشليم آيات البسالة في هذه الحرب فانهزم المسلمون وتبعهم الفرنج إلى باب القلعة. وبينما كان المسلمون يرتجفون خوفاً من الفرنج خاف هؤلاء أن يكبسهم أمير دمشق ويكمن لهم فانصرفوا عن القلعة كأنّهم لم يأتوا إلّا لزيارة محل تجلي المخلص، ولكي يتقي رؤساء الجيش عار الهزيمة من جبل طابور ساروا بجيشهم نحو فينيقيا وكان البرد قارساً فأضّرّ بكثير من الجيش، وبينما كانوا مخيمين بين صور وصيدا ثار عليهم عاصف وبروق ورعود ومطر غزير فأقلب خيامهم وشتّت متاعهم وقتل بعض خيلهم حتى ظنّوا أنّ الله أبى إلّا إذلّهم وكتبهم. وقلّ زادهم ورأوا أنّ إقامة جيشهم في محل واحد تعود بالوبال عليهم فانقسموا إلى أربعة أقسام ريثما ينتهي الشتاء، فمضى ملك أورشليم ودوك النمسا ورئيس فرسان

القديس يوحنا فأقاموا بسهول قيصرية، وملك المجر وملك قبرص وريموند ابن أمير أنطاكية أقاموا بطرابلس، ورئيس فرسان الهيكل والصليبيون الذين من هولاندا حصّنوا قلعة في سفح جبل الكرمل وأقاموا بها، وغير هؤلاء عادوا إلى عكا ينوون أن يعودوا إلى أوروبا. ودخلت سنة ١١١٨م فملك قبرص اعتراه مرض فمات، وملك المجر يس من الفوز، وبعد أن أقام ثلاثة أشهر في فلسطين عاد إلى مملكته، ولم يوقفه تهديد بطريك أورشليم له بالحرم ولكنه ترك بعض عسكره في سورية.

وبعد سفر ملك المجر قدم إلى عكا جمع غفير من فرنسة وإيطاليا وكان الاستيلاء على مصر يشغل أفكار الصليبيين مدات، وقد أشار به البابا أيتوشنسيوس الثالث في الجمع اللاتراني فقصدها الفرنج وساروا أولاً إلى دمياط وسنرى في الفصل التالي أخبار هذه الحملة.

عد ٨٦٣

أخذ الفرنج دمياط وانتزاعها من يدهم

هذا ملخص ما قاله ابن الأثير في ذلك «لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكا إلى أن دخلت سنة ١٢١٩م فساروا في البحر إلى دمياط فأرسلوا على بر الحيزة بينهم وبين دمياط نهر النيل، وقد بُني فيه برج كبير منيع وجعلوا فيه سلاسل حديد مدوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب أن تصعد في النيل إلى ديار مصر وبنى الفرنج على عسكرهم سوراً وجعلوا خندقاً يصد من الوصول إليهم وشرعوا في قتال من بدمياط وعملوا آلات ومرميات وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى البرج المذكور ليملكوه. وقد نزل الملك الكامل ابن الملك العادل بمنزلة تعرف بالعادية بالقرب من دمياط والعساكر متصلة من عنده إلى دمياط وأدام الفرنج قتال البرج فلم يظفروا منه بشيء وكسرت مرماتهم وآلاتهم وبقوا كذلك أربعة أشهر ثم ملكوا البرج وقطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر في النيل ويتحكموا في البر، فنصب الملك الكامل جسراً عوض السلاسل امتنعوا به من السير في النيل وقاتلوا على الجسر قتالاً شديداً حتى قطعه فأتى الملك الكامل عدة مراكب وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت مراكب الفرنج من سلوكه فقصد الفرنج خليجاً هناك يعرف بالأزرق كان النيل يجري عليه قديماً فحفروه

وعمقوا وأجروا الماء فوق المراكب التي جعلت في النيل إلى البحر وأصعدوا مراكبهم فيه إلى مقابل المنزلة التي فيها إلى مقابل المنزلة التي فيها الملك الكامل، وقتلوه من هناك وزحفوا إليه غير مرة فلم يظفروا بطائل ولم يتغير على أهل دمياط شيء، لأن الميرة والامداد متصلة بهم والنيل يحجز بينهم وبين الفرنج فاتفق لما يريد الله أن الملك العادل توفي في جمادى الآخرة من تلك السنة فضعفت نفوس الناس لأنه السلطان حقيقة وأولاده يحكمون باسمه. وكان من جملة الأمراء بمصر الأمير عماد الدين من الأكراد المعروف بابن المشطوب وله لفيف، كثير فاتفق مع غيره من الأمراء وأرادوا خلع الملك الكامل من الملك وتمليك أخيه الملك الفائز، وبلغ الخبر إلى الملك الكامل ففارق المنزلة ليلاً وسار مسرعاً إلى قرية يقال لها أشمون وأصبح العسكر وقد فقدوا سلطانهم، فركب كل انسان من هوائه ولم يقف الأخ على أخيه، وتركوا خيامهم وذخائرهم وأموالهم ولحقوا بالكامل، فغير الفرنج حيثئذ النيل آمنين بغير منازع إلى بر دمياط فغنموا ما في معسكر المسلمين، واجتمع العرب على اختلاف قبائلهم ونهبوا البلاد المجاورة لدمياط وقطعوا الطريق وكانوا أشد على المسلمين من الفرنج، وأحاط الفرنج بدمياط وقتلوا أهلها براً وبحراً واشتد القتال عليهم وتعدرت عليهم الأقوات فسلموا البلد إلى الفرنج وخرج قوم منهم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة.

واتفق أن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل صاحب دمشق وصل إلى أخيه الملك الكامل فقوى قلبه واشتد ظهره وأخرجوا ابن المشطوب إلى الشام فأتصل بالملك الأشرف صاحب ديار الجزيرة وصار من جنده، وأما الفرنج فلما ملكوا دمياط أقاموا بها وبنوا سراياهم في كل ما جاورها وشرعوا في تحصينها حتى أصبحت لا ترام، ولما سمع الفرنج في بلادهم بفتح دمياط أقبلوا من كل فج يهرعون إليها وعاد الملك المعظم إلى الشام فخرّب البيت المقدس خوفاً من أن يأخذه الفرنج، وأشرف الفرنج على أخذ سائر البلاد بمصر والشام وظهر التتر في المشرق كما سيأتي حتى وصلوا إلى نواحي العراق، فخاف المسلمون وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم فمنعهم الملك الكامل وكتب إلى أخويه المعظم في دمشق والأشرف في الجزيرة يستنجدهما ويحثهما على الحضور بأنفسهما، وكان الملك الأشرف مشغولاً عن نجدة بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، ولما استقامت له الأمور سار هو وأخوه

صاحب دمشق سنة ٦١٨هـ سنة ١٢٢٢م إلى مصر، وكان الفرنج تركوا دمياط وقصدوا الملك الكامل ونزلوا لمقابله وبينهما خليج من النيل يسمى بحر أشمون وأوقدوا الحرب عليه، وسمع الملك الكامل بدنو أخيه الأشرف فلقه واستبشر هو والمسلمون بقدومه، وأما الملك المعظم فقصد دمياط وزحف الكامل والأشرف إلى الفرنج عند خليج من النيل يعرف ببحر المحلة، واشتد القتال وأخذ المسلمون من الفرنج ثلاث قطع من مراكبهم بمن فيها من الرجال وما فيها من الأموال، فقويت نفوس المسلمين وترددت الرسل بين الفريقين بتقرير قاعدة الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم البيت المقدس وعسقلان وطبرية وجبله وصيدا واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين إلا الكرك، ويسلمهم الفرنج دمياط فلم يرضوا وطلبوا ثلاث مئة ألف دينار عوضاً عن تخريب القدس ليعمروها بها، فلم يتم بينهم أمر وعادوا إلى القتال. وكان الفرنج لاقتدارهم في نفوسهم لم يستصحبوا معهم ما يقوتهم عدة أيام، وعبر طائفة من المسلمين إلى الجهة التي عليها الفرنج ففجروا النيل، فركب الماء أكثر ملوك الأرض ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة ضيقة. ونصب الكامل على النيل جسوراً عبر المسلمون عليها فملكوا الطريق الذي يسلكه الفرنج إن أرادوا العود إلى دمياط، فرأى الفرنج أنهم قد ضلوا الصواب بمفارقة دمياط في أرض يجهلون بها، وأحاطتهم العساكر فأحرقوا خيامهم ومناجيقهم وأثقالهم وزحفوا إلى المسلمين فحبل بينهم وبين ما يشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم ورأوا أن ميرتهم قد تعذر عليهم وصولها وإن المنايا كشرت لهم عن أنيابها، فراسلوا الملك الكامل يطلبون الأمان ليسلموا دمياط بغير عوض فينما المراسلات مترددة أقبل جيش كبير فإذا هو الملك المعظم صاحب دمشق الذي كان قد جعل طريقه على دمياط فاشتدت ظهور المسلمين وزادوا الفرنج خذلاناً وتمموا الصلح على تسليم دمياط وأرسل الفرنج قسوسهم ورهبانهم إلى دمياط في تسليمها ولما دخلها المسلمون وجدوها محصنة تحصيناً عظيماً وأعطى الله المسلمين ظفراً لم يكن في حسابهم. انتهى تلخيص كلام ابن الأثير.

أما المؤرخون الفرنج فقلما كان بينهم وبين المؤرخين المسلمين من الخلاف في أخبار أخذ الفرنج دمياط ثم انتزاعها من يدهم، وما قالوه إنهم عند حصارهم برج دمياط بنوا برجاً من خشب على سفيتين ربطوا إحداهما بالأخرى وصفحوا البرج

بالنحاس، وكان فيه محل لإقامة المحاربين وجسر قلاب يلقي إلى قلعة دمياط. وفي اليوم المعين نزل بهذا البرج ثلاثمائة محارب وسارت السفينتان بالنيل وعليهما البرج وورستا بجانب القلعة، وأخذ جنود النصارى يرمون السهام أولاً متحفيين للطعن بالحرايب، وإلاً أمطر عليهم المسلمون تهتان نار، وجدوا في إحراق برج الخشب وقتل من فيه، وعلقت النار بالبرج وزعزع الجسر عن أسوار القلعة وأخذ المسلمون علم النصارى وضجوا مسرورين واستولت الكآبة على الفرنج وجهروا بالدعاء لله خاشعين فطفئت النار وصلحت الآلة ورسخ الجسر على جدار سوار القلعة، وكان لاوبلد دوك النمسا أميراً في هذا البرج فشدد عزائم رجاله فعادوا إلى القتال بأشد حمية وأشرفوا على أسوار القلعة وكانوا يتجادلون والعدو بالسيوف والحرايب، وقفز جنديان إلى سطح القلعة فأرعبا المحصورين فتهافتوا إلى السفلى وحاولوا إلقاء النار في السقف والتحصن بسور من نار، فلم يمكنهم الفرنج مما يحاولون بل باغتهم بالطعن وضرب القلعة من كل جهة وبكل وسيلة حتى أيقنوا الهلاك، فاستسلموا إلى أعدائهم ورموا سلاحهم ثم فتحوا المدينة كما روى المؤرخون العرب. ولكن بعد حصارهم لها سبعة عشر شهراً. وقد عاب المؤرخون الفرنج الصليبيين بابطائهم عن التقدم في الديار المصرية على فور فتحهم دمياط وعلى مغادرة كثيرين منهم ساحة القتال وعودهم إلى أوطانهم، على أن أخبار انتصارهم حملت كثيرين من ألمانيا وبيزا وجنوا والبندقية، ومن أعيان فرنسة على المسير إلى المشرق. وكان من جملة هؤلاء كاردينالان: روبرتوس رئيس أساقفة كورسون، وبيلاج أسقف البانو. وكان من رأي هذا الكردينال عند طلب الملك الكامل الصلح أن لا يجاب إليه ولو بذل للفرنج التخلي عن القدس وعن كل ما فتحه صلاح الدين، وكان يخالفه في ذلك ملك أورشليم وكثيرون من أعيان الفرنج. وكان الكردينال يرى أن طلب الملك الكامل الصلح خدعة وأنه من العار على الفرنج أن لا يتموا ما تعمدوه بعد أن استبشروا بتمامه. وقبل أن يتفق رأي الفرنج على الجواب للملك الكامل أتى أخواه لنجدته فاشتد ظهره كما قيل وعاد إلى حرب الفرنج فانتصر عليهم عند المنصورة وصالحهم على ترك دمياط كما ذكر ذلك المؤرخون المسلمون وكان استرداد دمياط سنة ١٢٢٢م.

حملة فريديريك الثاني ملك ألمانيا على سورية وترك الملك الكامل القدس له

بعد أن استردّ المسلمون دمياط سار يوحنا دي بريان ملك أورشليم إلى المغرب مستصرخاً مستنجداً ووصل أولاً إلى رومة فشكا إلى البابا أنوريوس الثالث باكياً سوء حالة النصارى في سورية ومصر، وكان بطريكاً الإسكندرية وأورشليم قد رفعاً عريضتين إلى هذا الخبر الروماني يتتهلان إليه بهما أن يأخذ بناصر نصارى الشرق. وفي جملة صنوف العناية التي بذلها أنوريوس الثالث لامداد الفرنج في الشرق أنه عرض على فريديريك الثاني عاهل ألمانيا أن يتزوج بيولاند ابنة ملك أورشليم ووريثة ملكه ويسمى ملك أورشليم. فقبل العاهل ما عرضه البابا ووعد أن يذب عن مملكة أورشليم، وارتضى أن يحرم أن أخلّ بوعده، ووثق ذلك باليمين. وطاف يوحنا ملك أورشليم مستنجداً ملوك أوربا ومخبراً بالمعاهدة التي جرت بينه وبين عاهل ألمانيا، وأخذ هذا العاهل يعد ما يلزم لهذه الحملة التي ستكون بامرته ويبنى سفناً في صقلية لنقل العساكر، وأكثر من الرسائل للبابا ليعاونه على إكثار جنود الحملة مبدياً من الحماية أشدها ومن الغيرة معظمها، فتعلقت به الآمال والأمانى ولكن طراً عليه ما ينذر بالثورة عليه في صقلية ونابولي ولبرديا (التي كانت حينئذ خاضعة له) فطلب من البابا مهلة سنتين ليعمل ما توجب عليه يمينه فاستاء البابا من هذا التقاعد، لكنه لم ير من السداد نبذ طلبه وكان بزواجه بوريثة ملك أورشليم ضماناً على مبرة يمينه. وعقدت هذه الزيجة برومة باحتفاء وهناً يوحنا ملك أورشليم نفسه بأن عاهل ألمانيا صهره ونصيره وفرح الجميع بذلك، ولكن لم يدم هذا الفرح لأنّ العاهل تغيّر على زوجته وأهملها ونازع أباهها ملك أورشليم وسمى نفسه ملك أورشليم، واضطرّ البابا أن يغضى على ذلك حباً بمصلحة الأرض المقدسة، ولزم ملك أورشليم الصمت والعزلة متوقفاً سنوح فرصة ليأخذ بثأره. وقد توفي البابا أنوريوس الثالث سنة ١٢٢٧م فخلفه غريغوريوس التاسع وصرف عنايته بامداد نصارى الشرق وكتب إلى عاهل ألمانيا ليسرع بالمسير إلى فلسطين. وكانت العساكر متأهبة والعاهل يؤجل سفره من وقت إلى آخر وكانت أيام الحرفمات من العسكر كثيرون حتى بعض الأساقفة والشرفاء، وملّ غيرهم فرجعوا إلى أوطانهم إلى أن سار

الملك والجيش من برنديزي، فثار عاصف ومرض العاهل أو تمارض ووجس مما يكون في مملكته حين غيابه، فأمسك في ترانت وأجل سفره، فساء البابا عدوله عن المسير وقد بلغه أنّ أربعين ألفاً من الجيش وصلوا إلى عكا، ولما استبطأوا العاهل أخذوا في العود إلى بلادهم. واعتذر العاهل فلم يصب البابا عذره وكتب إلى ملوك أوربا يشكوه بحنثه يمينه بحجة مرضه، فاستاء العاهل من ذلك ونشر أعلام الخصام للحبر الروماني واستمال أشراف رومة فثاروا على البابا وأكروهه أن يفر من رومة فانتضى سيفه الروحي وأذاع حرم العاهل على نصارى الغرب أنّه استنزل هذا الحرم على نفسه إذ أخلف يمينه فضلاً عن إثارة الرومانيين على البابا. ولم يكن الفرنج في سورية يفترون عن استمداد البابا فرفع إليه بطريك أورشليم وبعض أساقفته ورؤساء الفرسان عرائض يبينون بها ما استحوذ عليهم من اليأس عند سماعهم أنّ عاهل المانيا أضرب عن نجدتهم فنشر البابا هذه العرائض ليحضّ أهل الغرب على إمداد اخوانهم ويوقنوا سوء تصرف العاهل.

وكان انتصار الملك الكامل واخوته على الفرنج في مصر أوقع بينهم خلافاً على ما يأخذه كل منهم من مدن الفرنج ووجس الكامل على نفسه من قبل اخوته، وكان قد اشتهر تجهيز عاهل ألمانيا العساكر ليغزو الشرق، وحصول النفرة بينه وبين البابا فدار في خلد الملك الكامل أن يرسل عاهل ألمانيا ويحالفه فأرسل إليه هدايا ورسلاً وعرض عليه أن يأتي إلى المشرق فيسلمه أورشليم، فسّر بذلك فريدريك وعجب منه وأرسل الملك الكامل سفيرا يستوضح منه ما يريد ويحقق له صداقته، فالتقى الملك الكامل السفير بثلجلة والتكريم وحقق له رغبته في موالاة العاهل ولم يكن البابا يعلم شيئاً من هذه المراسلات التي جعلت فريدريك يعزم على المسير إلى الشرق فجمع عماله وأعيان مملكته وأقبل متشحاً بزي الصليبيين وأعلن لهم خبر سفره إلى سورية، ولم يجهز إلاّ عشرين سفينة وستمائة فارس ليسير فيهم فعلم البابا بذلك وأرسل يلومه على هذا التهور فلم يجب رسل البابا بشيء وسافر، ولما وصل إلى قبرص وصاحبها هنري لوسنيان وهو قاصر واثمه مدبرة الملك ادعى ان دخل قبرص يخصه ما دام الملك قاصراً لأنّ له السيادة على قبرص بما أنّه ملك أورشليم، ولما لم يجب إلى طلبه حاصر نيقوسية وأكره الملك على الإجابة، ثمّ وصل إلى عكا ولما علم البطريك والاكليس ورؤساء الفرسان أنّه محروم ومخالف للحبر الروماني وان ليس معه من الجند ما يردع الأعداء ازدروه، واتفق عند وصوله إلى عكا أنّه

كان الملك المعظم صاحب دمشق قد توفي وخلفه ابنه داود، وأنّ الملك الكامل خرج إلى فلسطين قاصداً دمشق ليملكها من ابن أخيه المذكور، فخرج عاهل ألمانيا من عكا وحلّ بين قيصرية ويافا. وأرسل إلى الملك الكامل والي صيدا يطالبه ويقول له إنّ لم يأت إلى سورية طامعاً بأن يأخذ ملكاً فوق أملاكه ليزور المواضع المقدّسة ويضع يده على ملك أورشليم الذي أفضى إليه، وكانت الأحوال التي ألجأت الملك الكامل إلى موالة عاهل الألمان قد تبدّلت فقبل رسل العاهل بالتكريم وأرسل وفدأ إليه يعتذر عن تسليم أورشليم إليه ويطلب الصلح معه. وتواترت بينهما الرسائل وفي جملتها رسالة العاهل قال فيه للملك الكامل: «أنا أخوك وأحترم دين المسلمين احترامى لدين المسيح وأنا وريث مملكة أورشليم وقد جئت لأضع يدي عليها ولا أروم أن أنازعك ملكك فلنجتنب إراقة الدماء». وأرسل إليه الملك الكامل درعه وسيفه ضماناً على رغبته في المسالمة له، فأرسل إليه الملك خيلاً وجمالاً وغيرها من الهدايا. وكان المسلمون يشتمون من مراسلات الملك والنصارى ويعيبون العاهل بمراسلاته له بل أضمر له فرسان الهيكل والاسبيتاليون الغدر به واهلاكه، وأخيراً عقد الملكان هدنة بينهما إلى مدة عشر سنين ونصف سنة. ومن شرائطها أنّ الملك الكامل يتخلّى لعاهل الألمان عن أورشليم وبيت لحم وجميع القرى الواقعة بين يافا وأورشليم وان بقي للمسلمين في المدينة المقدّسة جامع عمر، وان يباحوا ممارسة فروض دينهم وأن لا يجدد النصارى بناء أسوار أورشليم، وأنّه إذا اعتدى مسلم على مسلم آخر فيسمع دعواها قاضي المذهب وأنّ العاهل لا يعاون افرنجياً ولا مسلماً على حرب أحد من المسلمين بل عليه أن يمنع كل تعدٍ على أرض الملك الكامل وأن يصدّ كلّاً من عساكره ومرؤوسيه عن مثل ذلك. ومن خالف ما جرى الاتفاق عليه لزم العاهل أن يصدّه عن ذلك. ولم تدخل إمارة أنطاكية وكونتية طرابلس والكرك في هذه الهدنة بل يلزم العاهل أن يمتنع عن كل مساعدة لحكام هذه الأعمال، ووقع على المعاهدة في ٢٠ شباط سنة ١٢٢٩م. ولم يرتض المسلمون ولا النصارى من هذه المعاهدة حتى أنّ الملك العاهل لما دخل كنيسة القبر المقدّس لم يجد أسقفاً يضع التاج على رأسه فوضعه لنفسه، ولم يمكث في أورشليم إلّا يومين كتب فيها رسائله إلى البابا وغيره مبشراً بأخذه أورشليم وإعادة ملك النصارى إليها. وكتب بطريك أورشليم رسالة إلى البابا، ومنشوراً إلى النصارى يشكو بهما من سوء تصرّف فريدريك الثاني، وبعد خروج

العاهل من أورشليم يومين دخل المسلمون إليها، ولم يشأ ملك دمشق الذي تخصّبه أورشليم أن يوقّع على المعاهدة التي لا ذكر فيها للكنيسة أو للنصارى بل لفريديريك وحده حتى لا يمكن أحداً أن يضع يده عليها أو يحدث بها شيئاً إلاّ هذا العاهل ومن ينوب عنه وقد بقيت القرى المجاورة لأورشليم بيد المسلمين وأبيح سكانها أن يجتمعوا للصلوة في جامع عمر وعددهم يفوق عدد نصارى أورشليم فأية ضمانات تتكفل بالسلم بين الفريقين في مدة عشر سنين فضلاً عن أنّ العاهل أخذ على نفسه أن لا يحارب المسلمين بل أن يمنع كل حرب تقع عليهم ويمتنع عن كل مساعدة لحكام أنطاكية وطرابلس وغيرها من بلاد الفرنج.

ولما عاد العاهل إلى عكا لم يستقبله البطريرك والاكليس والفرسان إلاّ بالازدراء والاحتقار فانتقم منهم بمنع الأقوات عن المدينة وإهانة الفرسان وضرب بعض الرهبان، ولم يطل الإقامة في عكا وسار منها إلى قبرص سنة ١٢٢٩م ودعا الملك ومديري المملكة إلى مأدبة فقبض عليهم، وأخذ ملك قبرص بمنزلة أسير ليوطد ملكه على الجزيرة وكان راينالد دوك سبولات أثار الحرب من قبل العاهل على أملاك الكرسي الرسولي وكان في عسكره كثيرون من المسلمين سكان صقلية فاضطرّ البابا إلى أن يدافع عن أملاكه وأمر على عسكره يوحنا دي بريان ملك أورشليم فانتصرت عساكر البابا ودخلت بعض أملاك العاهل أيضاً وملكت بعضاً من أعمال إيطاليا المختصّة بالعاهل ووصل العاهل إلى برنديزي فعاودت الشجاعة أحزابه فاستردّ بعض ما كان قد أخذ منه إلاّ القلاع وعاد يوحنا دي بريان إلى فرنسة ليستعد لسفره إلى القسطنطينية إذ مات في تلك الأثناء روبرتس ملك هذه المدينة اللاتيني وخلفه أخوه بودوين وعمره تسع سنوات فقط، وقرر اقطاب المملكة أن يتوجّج يوحنا دي بريان ملكاً على قسطنطينية مدّة حياته، وأن يتزوّج بودوين بابنة أخرى له فإذا بلغ العشرين من عمره كلّ ملكاً على ما يملكه السلاطين في آسيا. وأمّا عاهل الألمان فراسل البابا بالصلح وفي ٣ من شهر تموز سنة ١٢٣٠م حلف يميناً احتفالياً أن يخضع لأوامر الحبر الروماني دون شرط وحلّه البابا من الحرم وردّ إليه ما كانت جنوده قد أخذته من مملكة صقلية فهذا ما كان من حملة فريديريك الثاني عاهل الألمان على سورية وعوده منها.

وهذا ما ذكره ابن الأثير وأبو الفداء في تسليم الملك الكامل القدس إلى أمبراطور الألمان. قالوا ما ملّخصه في سنة ٦٢٦هـ سنة ١٢٢٩م تسلّم الفرنج البيت

المقدس، وسبب ذلك خروج الانبرور ملك الفرنج إلى ساحل الشام وكانت عساكره قد سبقته وأخذوا ما يجاورهم من بلاد المسلمين، ومضى إليهم وهم على صور طائفة من المسلمين يسكنون الجبال المجاورة لصور وأطاعوهم وصاروا معهم وقوي طمع الفرنج بموت الملك المعظم صاحب دمشق ولما وصل الانبرور نزل بعكا وكان الملك الكامل قد خرج من مصر يريد بلاد الشام وأن يملك دمشق من صلاح الدين داود ابن المعظم وأرسل داود إلى عمه الملك الأشرف صاحب الجزيرة يستنجده على عمه الملك الكامل فسار الملك الأشرف إلى دمشق وترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فاصطلحا وترددت الرسل بينهما وبين الانبرور دفعات كثيرة فاستقرت القاعدة أن يسلموا إليه البيت المقدس ومعه مواضع يسيرة من بلاده وعلى أن تستمر أسواره خراباً وكان الملك المعظم قد خربها ولا يعمرها الفرنج ولا يتعمروا إلى قبة الصخرة ولا إلى الجامع الأقصى ويكون الحكم في الرسايق إلى والي المسلمين ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط واستعظم المسلمون ذلك وكثروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه وقال في ذلك أبو الفرج الجوزي قصيدة مطلعها:

مدارس آيات خلّت من تلاوة ومنزل وحي مقفر الأرجاء

عد ٨٦٥

بعض الأحداث في سورية إلى وفاة الملك الكامل

سنة ٦١٩هـ سنة ١٢٢٣م قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق حماة ليملكها لأنّ الملك الناصر صاحب حماه كان قد التزم له بمال يحمله إليه إذا ملك حماه فملكها ولم يفه فنزل الملك المعظم ببيعرين وجرى بينه وبين الملك الناصر قتال قليل ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية فاستولى على حواصلها وولي عليها ثم توجه إلى المعرة فاستولى عليها وأقام فيها والياً من جهته وقرر أمورها ثم عاد إلى سلمية فأقام بها على قصد منزلة حماة ودخلت سنة ٦٢٠هـ سنة ١٢٢٤م وبلغ الملك الأشرف ما فعله أخوه المعظم بصاحب حماة فغضب عليه ذلك واتفق مع أخيه الملك الكامل على انكار ما فعله المعظم وترحيله عن حماة، فأرسل إليه الملك الكامل

أصبح الدين الفارسي، فقال له السلطان «يأمرك بالرحيل»، فقال السمع والطاعة
يرحل مغضباً على أخويه الكامل والأشرف ورجعت سلمية والمعرة للملك الناصر
وكان الملك المظفر محمود من أسرة الأيوبيين مقيماً عند الملك الكامل بالديار
لمصرية وكان الملك الكامل يؤثر تملكه حماه لكن أخاه الملك الأشرف غير مجيب
ن ذلك لانتماء الملك الناصر صاحب حماه إليه وجرى بين الكامل والأشرف في
ذلك مراجعات آخرها أنهما اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر وتسليمها إلى
ملك المظفر فتسلّمها وهو بمصر وأرسل إليها نائباً من جهته حسام الدين بن محمد
بن علي الهذباني واستقرّ بيد الناصر حماه والمعرة ويعرين وسار الأشرف من مصر
واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من أخيه الملك الكامل للملك العزيز
صاحب حلب وعمره يومئذ عشر سنين واركب الملك العزيز في دست السلطنة
واتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فأرسلوا عسكرياً وهدموا
لى الأرض.

وفي سنة ٦٢٤هـ سنة ١٢٢٨م توفي الملك المعظم بن الملك العادل صاحب
دمشق بقلعة دمشق بالدوسنطاريا وعمره تسع وأربعون سنة، وكانت مدة ملكه
دمشق تسع سنين وشهوراً على رواية أبي الفداء وعشر سنين وخمسة أشهر وثلاثة
وعشرين يوماً على رواية ابن الأثير، وكان شجاعاً وكان يجمال أخاه الملك الكامل
صاحب مصر ويخطب له بيلاده ولا يذكر اسمه معه، وكان قليل التكلّف جداً لا
يركب بالسناجق السلطانية وينخرق في الأسواق من غير أن يطرق بين يديه كعادة
الملوك وكان عالماً فاضلاً بالفقه والنحو واللغة وكان حنفياً متعصباً لمذهبه وخالف
جميع أهل بيته فانهم كانوا شافعية. وكان قد أمر أن يجمع له في اللغة جامع كبير
يشتمل على «الصحاح الجوهري» ويضاف إليه ما فات الصحاح من «التهذيب»
للأزهري و«الجمهرة» لابن دريد وغيرهما. وكان يحب العلماء ويقربهم إليه
وأوصى عند موته بأن يكفن في البياض ولا يجعل في أكفانه ثوب فيه ذهب وأن
يدفن في لحد ولا يبنى عليه بناء بل يكون قبره في الصحراء تحت السماء وولي
بعده ابنه داود ويلقب الملك الناصر وكان عمره قارب عشرين سنة.

وفي سنة ٦٢٥هـ سنة ١٢٢٩م أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من
بن أخيه الملك الناصر داود حصن الشوبك فلم يجب إلى طلبه فسار الملك الكامل
من مصر ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولى على نابلس والقدس وغيرهما من

بلاد ابن أخيه المذكور وكان مع الملك الكامل الملك المظفر صاحب حماه وقد وعده الكامل أن ينتزع حماه من أخيه الناصر ويسلمها إليه. ولما علم الملك الناصر صاحب دمشق بقصد عمه الملك الكامل استنجد بعمه الملك الأشرف فقدم إلى دمشق ورأى الناصر يحتاط ويتجهز للحصار فأمر بإزالة ذلك وحلف للناصر على المساعدة والحفظ له وبلاده وراسل الملك الكامل واصطلحا. وظنَّ صاحب دمشق أنَّه معهما في الصلح ثم سار الملك الأشرف إلى أخيه الملك الكامل إلى غزة واتفقا في الباطن على أخذ دمشق من ابن أخيهما الناصر وتعويضه عنها بحران والزها والرقه من بلاد الملك الأشرف وأن تستقرَّ دمشق للملك الأشرف ويكون له إلى عقبة افيق، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للملك الكامل صاحب مصر. وبلغ الناصر ذلك وهو بنابلس فرحل إلى دمشق وسار الأشرف في أثره وحصره بدمشق، وبعد أن عقد الملك الكامل الهدنة مع أمبراطور ألمانيا سنة ٦٢٦ هـ سنة ١٢٢٩ م كما مرَّ سار إلى دمشق لمعاونة أخيه الأشرف في حصارها واشتدَّ الحصار فاستولى الملك الكامل على دمشق وعوض الناصر صاحبها بالكرك والبلقاء والأغوار والشوبك، وأخذ الملك الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت قد عينت للناصر وهي حران والرها وغيرها وتسلم الأشرف دمشق وسلم أخاه الملك الكامل البلاد الشرقية المذكورة.

ولما سلم الملك الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف سار من دمشق إلى سلمية ونازل حماه وبها الملك الناصر المذكور، وكان فيه جبن فخاف، وكان في العسكر الذي نازله شيركوه صاحب حمص فراسله الناصر أن يأتي إليه ليلاً ليحضره عند الملك الكامل وأتى ومضى به شيركوه إلى الكامل وهو بسلمية، ولما رآه الكامل شتمه وأمر باعتقاله وبأن يأمر نوابه في حماه أن يسلموها إلى عسكر الكامل وأرسل علامته إلى نوابه بذلك، فامتنع الطواشيان بشر ومرشد من تسليمها. وكان بقلعة حماه الملك المعز أخو الناصر فملكوه حماه وأرسلوا يقولون للملك الكامل لا تسلم حماه لغير واحد من أولاد تقي الدين، وكان من هؤلاء الملك المظفر وكان من جملة عسكر الكامل. فأرسل الكامل يقول له اتفق مع غلمان أبيك وتسلم حماه. فاتفق معهم ففتحوا له باب النصر فمضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الأكرم وهي الآن مدرسة تعرف بالخانوية (قال أبو الفداء هذه المدرسة وقفها عمتي مؤسسة خاتون بنت الملك المظفر المذكور) وحضر أهل حماه وهتأوا الملك المظفر بملك حماه وصعد في اليوم الثالث من دار الوزير إلى القلعة وتسلمها، وفوض أمور تدبير

حماه إلى الأمير سيف الدين علي الهذباني الذي كان خادماً له قبل توليته على حماه، وكان يقول له أشتهي أن أراك صاحب حماه وأكون بعين واحدة فأصبحت عينه في الحرب على حماه مع عسكر الكامل فحظي عند الملك بتدبير أمور حماه. ولما استقرّ ملك المظفر بحماه انتزع الكامل منه سلمية وسلّمها إلى شيركوه صاحب حمص، وأمره أن يعطي أخاه الملك الناصر بعين فامثل ولم يبق بيد الملك المظفر إلا حماه والمعة. ثم رحل الملك الكامل عن سلمية إلى البلاد الشرقية التي أخذها من أخيه الأشرف عوضاً عن دمشق، فنظر في مصالحها ثم لحقه الملك المظفر فزوجه الكامل بنته غارته خاتون وهي بنت خاله لأنّ المظفر ابن أخت الكامل، ثم عاد المظفر إلى حماه وعاد الملك الكامل بعد أن دبر البلاد الشرقية إلى مصر.

وفي سنة ٦٢٧هـ سنة ١٢٣٠م استولى الملك الأشرف صاحب دمشق على بعلبك فانه أرسل أخاه الملك الصالح صاحب بصرى فنازلها وبها صاحبها الملك الأمجد بهرام من الأيوبيين أيضاً، وطال الحصار إلى أن سلّم الملك الأمجد بعلبك إلى الملك الأشرف وعوّضه عنها الزبداني وقصير دمشق الذي شماليها ومواضع أخرى، وتوجه الملك الأمجد وأقام بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السفارة التي ينزلها النواب. وكان الأشرف قد حبس بعض مماليكه في داره وجلس قدّام الحبس يلعب بالترّد ففتح المملوك الباب وأخذ سيفاً ضرب به مولاه قتلته. ثم طلع على سطح الدار وألقى نفسه إلى وسطها فمات ودفن الملك الأمجد بمدرسة والده التي على الشرف وكانت مدّة ملك الأمجد بعلبك تسعاً وأربعين سنة لأنّ السلطان صلاح الدين ملكه إياها سنة ٥٧٨هـ وكان الأمجد أشعر بني أيوب وشعره مشهور.

وفي سنة ٦٢٩هـ سنة ١٢٣٢م سار الملك الكامل وأخوه الملك الأشرف الذي كان عنده بمصر فوصلا إلى الشوبك فاحتفل لهما الملك الناصر داود ابن أخيها الملك المعظم بالضيافات والتقدم، وحصل بينهم الإتحاد التام وسافر الناصر معهما إلى دمشق ثم سار الملك الكامل من دمشق إلى سلمية واجتمع معه ملوك أهل بيته في جمع عظيم، ثم سار معهم إلى آمد فحاصرها وتسلمها من صاحبها المسعود ابن الملك الصالح محمود بن محمد بن قره إرسلان الذي ملكه صلاح الدين آمد وأعطي الكامل الملك المسعود إقطاعاً جليلاً في مصر ثم بدت منه أمور منكرة فاعتقله الملك الكامل وبقي معتقلاً إلى أن مات الملك الكامل ورتب الكامل أمور آمد وعاد إلى مصر.

وفي سنة ٦٣٠هـ سنة ١٢٢٣م استولى الملك العزيز صاحب حلب على شيزر وكانت بيد شهاب الدين يوسف من ولد عثمان بن الداية من أمراء نور الدين بن زنكي، وكان صلاح الدين قد أقرّ عثمان بن الداية على شيزر فأخذها هذه السنة الملك العزيز بأمر الملك الكامل من شهاب الدين المذكور وعاوناه على ذلك الملك المظفر صاحب حماه ثم أخذ الملك المظفر صاحب حماه بعين من أخيه قليج إرسلان لأنه خشي أن يسلمها إلى الفرنج لضعفه وجرى ذلك باذن الملك الكامل.

وفي سنة ٦٣٤هـ سنة ١٢٢٧م توفي الملك العزيز صاحب حلب ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين وتقرّر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف عمره سبع سنين، والمرجع في أمور المملكة إلى جدته والدة الملك العزيز واسمها ضيفة خاتون بنت الملك العادل. وفي هذه السنة قويت الوحشة بين الملك الكامل وبين أخيه الملك الأشرف صاحب دمشق وسبب ذلك أنّ الملك الكامل قصد بلاد الروم فاتفق الملك الأشرف مع شيركوه صاحب حمص ومع صاحبة حلب ضيفة خاتون (أخت الملك الكامل) ومع باقي الملوك على مخالفة الملك الكامل خلا الملك المظفر صاحب حماه فأنه تمتّع عن الاتفاق معهم فتهدهد الملك الأشرف بانتزاع بلاده منه فقدم خوفاً من ذلك إلى دمشق، ووافق الأشرف على قتال الملك الكامل. وكاتب الأشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال أخيه الكامل إذا خرج إليه وأرسل الأشرف يقول للناصر داود صاحب الكرك ان وافقتني جعلتك ولي عهدي وأوصيت لك بدمشق وزوجتك بابنتي، فلم يوافق له سوء حظه ورحل إلى مصر وصار مع الكامل على ملوك الشام، فسّر الكامل به وجدد عقده على ابنته عاشور التي قد طلقها منه واركب الناصر بسناجق السلطنة ووعد أنه ينتزع دمشق من الأشرف ويعطيه إياها. ولكن في سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م توفي الملك الأشرف وتمالك دمشق أخوه الصالح اسماعيل صاحب بصرى بعهد من الأشرف، وكانت مدة ملك الأشرف بدمشق ثمان سنين وشهوراً ولم يكن له من الأولاد إلا بنت واحدة. ولما استقرّ الملك الصالح اسماعيل في دمشق كتب إلى الملوك من أهله وإلى كيخسرو وصاحب بلاد الروم في اتفاقهم معه على أخيه الملك الكامل فوافقوه على ذلك إلا الملك المظفر صاحب حماه، فأنه كتب إلى الكامل يعتذر عن انقياده أولاً للأشرف خوفاً منه فقبل الملك الكامل عذره ووعد بانتزاع سلمية من صاحب حمص وتسليمها إليه.

ولمّا علم الكامل ب وفاة أخيه الأشرف سار إلى دمشق ومعه الناصر صاحب الكرك واستعدّ الملك الصالح اسماعيل للحصار ووصل إليه صاحب حمص ونجدة الحلبين ونازل الكامل دمشق وأخرج الصالح النفاطين فأحرق العقبة جميعها وما بها من خانات وأسواق. وفي مدة الحصار جاء نحو خمسين رجلاً من حمص نجدة للصالح فظفر بهم الكامل فشنتهم بين البساتين. وعند الحصار أرسل الكامل توقيعاً للملك المظفر صاحب حماه ليستلم سلمية فتسلمها وأخيراً سلم الملك الصالح دمشق إلى أخيه الملك الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً إلى بصرى التي كانت له. وكان الكامل شديد الحق على شريكوه صاحب حمص فأرسل إليه العسكر وأمر صاحب حماه بالمسير إليه فاشتدّ خوف شريكوه وخضع للملك الكامل وأرسل إليه نساءه ودخلن على الملك الكامل فلم يلتفت إلى ذلك. وبعد أيام مرض الكامل واشتدّ مرضه وسببه أنّه لما دخل قلعة دمشق أصابه زكام فدخل الحمام وسكب عليه ماء شديد الحرارة فاندفعت النزلة إلى معدته وتورّمت منها وحصل له حصّى فمات سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م وكانت مدّة ملكه لمصر من حين مات أبوه العادل عشرين سنة وكان نائباً بها قبل ذلك نحو عشرين سنة وكان عمره حين وفاته نحو ستين سنة وكان بين موته وموت أخيه الأشرف نحو ستة أشهر.

وأتفق الأمراء على تحليف العسكر للملك العادل ابن الملك الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلفوا له وأقاموا في دمشق نائباً له الملك الجواد يونس بن مودود ابن الملك العادل، ورجع الملك الناصر إلى الكرك وسار أكثر العسكر إلى مصر وتأخّر بعضهم مع الجواد بدمشق، وفرح شريكوه صاحب حمص ب وفاة الملك الكامل وأتاه فرج ما كان ينتظره وحزن الملك المظفر صاحب حماه وأرسل صاحب حمص فارتجع سلمية وقطع القناة الواصلة من سلمية إلى حماه فبيست بساتينها ثم سدّ مخرج العاصي من بحيرة قادس فبطلت نواكير حماه والطواحين وذهب الماء في أودية بجوانب البحيرة، ولما لم يجد مسلماً عاد فهدم ما عمله صاحب حمص وجرى كما كان أولاً. وكذلك أمن صاحب حلب وعسكره بموت الكامل. انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن الأثير.

اخبار الفرنج بسورية بعد عود عاهل الألمان إلى المغرب

إنّ فريدرىك الثاني عاهل الألمان برح سورية في ٢٩ أيار سنة ١٢٢٩م ولم يُقم من يدافع عن الفرنج بها، ولم يحفل بتحسين أورشليم فسار بطريك أنطاكية وبتريك أورشليم إلى الغرب يستصرخان الحبر الروماني وأمرأء أوروبا، فعقد البابا غريغوريوس التاسع مجمعاً في سولاتو (إيطاليا) سنة ١٢٣٤م شهده فريدرىك الثاني (وكان البابا قد صالحه) والبطريكان المذكوران وبتريك قسطنطينية اللاتيني، وقرروا أنّه لا لزوم لرعاية الهدنة التي عقدت مع الكامل صاحب مصر بل يلزم امداد نصارى الشرق لأنّ المسلمين دخلوا أورشليم بعد الهدنة. وأرسل البابا رسائل إلى الخليفة ببغداد وإلى صاحب دمشق وغيرهما من أمراء المسلمين، وأوفد دعاة في أوروبا يحضون الناس على السلم وترك الحصومات المتفاقمة حينئذ في الغرب، وأنفذ رسائل إلى الأساقفة ليغروا الناس بنجدة الفرنج بسورية فأخذ يهيو كونت شميانيا وملك نافارا راية الصليب ودعا الناس إلى إتباعه، فاقندى به دوك بوركوتيا وكونت بريطانيا وكونت باد وكثيرون من أعيان فرنسا وعزموا على السير إلى فلسطين، واجتمعوا سنة ١٢٣٦م بمدينة طور ليقروا ما ييسر نجاح حملتهم. وكانت حينئذ مملكة اللاتين في القسطنطينية شاغرة ليس من يحميها ويضبطها وهي على حافة الهلاك وتستدعي النجدة، فحار المجتمعون بين أن ينجدوا الفرنج بسورية أو مملكة قسطنطينية واستشاروا البابا غريغوريوس فأجابهم أنّ توطيد أركان مملكة قسطنطينية ييسر لهم خطتهم بسورية، وكان عاهل الألمان قد عاد إلى إلقاء الفتنة بأوروبا بادعائه السيادة على سردينيا وبحملته على رومة أيضاً فعزم القلق أوروبا، واجتمع رؤساء الصليبيين في ليون سنة ١٢٣٩م عازمين على السفر إلى سورية، فأرسل البابا سفيراً يبين لهم أنّه يريد أن يعودوا إلى مواضعهم لأنّه ليس من السداد أن يسافروا وهذه حالهم وهذا شأن أوروبا، فأجابوا أنّ عودهم لا يستطاع. وكتب إليهم فريدرىك الثاني أن يؤجلوا سفرهم إلى السنة القادمة فيسير في مقدّماتهم فاعتقدوا ذلك خدعة وساروا إلى مرسيليا ثمّ منها إلى عكا سنة ١٢٣٩، ولكن لم يجدوا سفناً لنقل كل عسكرهم لأنّ أهل جنوا كانوا يدافعون مع البابا وأهل بيزا مع العاهل، فلم يتخلّ الفريقان عن سفنهما وأهل البندقية كانوا يدافعون عن ملك قسطنطينية. ولما بلغ

الصليبيون إلى عكا كان الملك الكامل قد توفي وأمراء أسرته يتنازعون ارثه ولم يعلم الفرنج أن ينتفعوا بهذا النزاع إذ لم يكن بينهم من يجمع كلمتهم ويوحد عملهم وأقاموا كونت شمبانيا رئيساً عليهم، فلم يعلم أن يجمعهم على طاعته وسار نحو عسقلان قاصداً أن يجدد أسوارها، فسار دوك بريطانيا بفرسانه نحو دمشق ومعه قطعان من جمال وبقر وخيل وحمير غنمها من المسلمين، وأراد كونت باد ودوك بركونيا أن يقتديا به فسارا نحو غزة ولما علم قصدهما سألهما أعيان الفرنج أن لا ينفصلا عن عسكرهم وأمرهما كونت شمبانيا الذي كانوا قد أمروه عليهم أن لا يغادرا المعسكر فلم يسمعا له بل قالاً أتيانا سورية لنحارب لا لنلازم البطالة، وسارا في من تبعهما من العسكر. ولما توغلا في البلاد وعلم أمير غزة بدنوهم أوقد ليلاً النار على الاكام إشارة إلى وقوع ما يكره فتألب المسلمون من كل فج وقصدوا الفرنج فتقدم كونت باد في كتيبة من فرسانه ليستطلع عدد الأعداء وحالهم فرأهم يزيدون أضعافاً على عدد الفرنج وهم يتحفزون للقتال، فتشاور رؤساء الفرنج وكان رأي كونت يافا ودوك بوركانيا أن ينسحبوا دون قتال، وارتأى كونت باد وكونت مونتافراتا أن يقاتلوا وأصروا على عزمهم، واشتبك القتال فزحج الفرنج أولاً المسلمين عن مراكزهم ولكن نفذ ما معهم من السهام وطمع المسلمون بهم وأظهروا الانكسار أمامهم إلى محل أطبقوا به عليهم من كل جهة، فثبت بعض رؤسائهم في القتال وأبدوا آيات البسالة وتسارع من بعسقلان من الفرنج لنجدتهم، فوجدوا الأعداء يغلبون الأسرى ويتزعجون ثياب القتلى ويغنمون بما معهم، ولم يروا من الصواب الوثوب إلى الأعداء أو لحاقهم. وكان من جملة الأسرى كونت باد وكونت مونتافراتا وغيرهما من الأعيان، وعاد من بقي من العسكر إلى عكا ثم سار بعضهم إلى صور وصيدا وطرابلس، ولما أيقن الفرنج عجزهم عن الانتصار راسل فرسان الهيكل وبعض رؤساء الفرنج ملك دمشق واتفقوا معه على هدنة، وعلى رد المواضع المقدسة، وأرسل الاسبيتاليون وكونت شمبانيا ودوك بريطانيا إلى سلطان مصر وعقدوا معاهدة على أن يعاونوه على مخالفته في سورية. وقد ذكر ذلك المؤرخون العرب أيضاً أسفين من اتفاق أمرائهم مع الفرنج كما سترى.

وعاد كثيرون من رجال هذه الحملة إلى المغرب وأتى منهم إلى عكا جمع من انكلترا بامرة ريشار دي كورتويل أخي أنريكوس الثالث ملكها، وكان ريشار أغنى الأمراء في أوروبا ولما أقبل على عكا خرج للقاءه الشعب والاكليرس مرددين بأعلى

أصواتهم قول الانجيل: «مبارك الآتي باسم الرب». وكان ريشار هذا ابن أخي ريشار الملقب بقلب الأسد المشهور في الشرق ولم يكن انقص منه شجاعة، ولكن بعد أن زحف إلى الأعداء وحاز بعض الظفر غادره الفرسان الأسبتياليون تمسكا بالهدنة التي عقدوها مع سلطان مصر، وتقاعد عنه الهيكليون حرمة للهدنة التي عقدوها مع ملك دمشق، فلما رأى الفرنج لا يطاوعونه ترك الحرب مكرهاً واقتصر على تجديد معاهدة الصلح مع الأمراء المسلمين ولم ينل من ثمار غزوته إلا مبادلة المسلمين بتخلية سبيل الأسرى والأذن بدفن عظام القتلى من النصارى في وقعة غزة، ثم زار أورشليم التي كانت قد سلمت إلى الفرنج ثانية. وفي رواية أن ريشار اشترط في معاهدة الصلح مع سلطان مصر خروج المسلمين من أورشليم، ثم سافر ريشار إلى إيطاليا فوجد البابا ما زال منشغلاً بالحرب مع أعداء حكومة رومة. وقد ضم المؤرخون الفرنج الأحداث التي ذكرناها في هذا الفصل إلى أعمال الحملة السادسة التي قام بها فريدريك الثاني عاهل الألمان. انتهى ملخصاً عن كثيرين.

عد ٨٦٧

ما كان من الأحداث بين الملوك الأيوبيين بعد وفاة الملك الكامل

لما بلغ الحلبين موث الملك الكامل اتفقت آراؤهم على أخذ المعرة ثم أخذ حماه من الملك المظفر صاحب حماه لموافقته الكامل على قصده، وسار عسكرهم إلى المعرة فانتزعها من يد المظفر وحاصر قلعتها، فأخذها أيضاً ثم ساروا وفي مقدمتهم المعظم توران شاه ابن صلاح الدين إلى حماة ونازلوها، وبها الملك المظفر واستمرّ الحصار حتى انتهت هذه السنة وهي سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م. ففي السنة التالية ضجرت نفوسهم من هذا الحصار ولم يجدوا بحماه مطعماً فأمرت ضيفه خاتون صاحبة حلب بنت الملك العادل بالرحيل عنها، فرحلوا بعد أن نهبوا بلاد حماه وأنفق الملك المظفر على هذا الحصار أموالاً كثيرة واستمرت المعرة في يد الحلبين وسلمية في يد صاحب حمص ولم يبق للمظفر إلا حماه وبعرين، وخاف أن تخرج بعرين بسبب قلعتها فهدم هذه القلعة إلى الأرض.

قد مرّ أن الملك العادل ابن الملك الكامل خلف أباه بمصر وأقيم الملك الجواد نائباً له في دمشق، ففي سنة ٦٣٦هـ سنة ١٢٣٩م أراد الملك العادل أن ينتزع

دمشق من يد الملك الجواد وان يعوضه عنها إقطاعاً بمصر، فلم يُردّ الجواد ذلك بل لم دمشق إلى الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل الذي كان صاحب سنجار الرقة وعانه، فاستولى الملك الصالح على دمشق وكان الملك المظفر صاحب حماه حاضداً له. ولما استقرّ ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين استدعونه ليملك مصر. فخرج من دمشق وجعل نائبه فيها ولده الملك المغيث عمر شرع يكتتب عمه الصالح اسمعيل صاحب بعلبك ويستدعيه إليه، وعمه المذكور متذر له ويظهر أنّه معه وهو يعمل عليه في الباطن. وكان الملك الناصر صاحب كرك قد سافر إلى مصر واتفق مع الملك العادل على قتال أخيه الملك الصالح باحب دمشق. ودخلت سنة ٦٣٧هـ سنة ١٢٤٠م والملك الصالح أيوب بنابلس اصداً الاستيلاء على مصر، وقد اكتشف أنّ عمه اسماعيل يضاده وكان له طبيب نقي به يقال له الحكيم سعد الدين الدمشقي، فأرسله إلى بعلبك ليطلبه بأخبار عمه معه قفص من حمام نابلس. وعلم اسماعيل بوصول الحكيم فاستحضره وأكرمه سرق حمام نابلس وجعل موضعها حمام بعلبك ولم يشعر الطبيب بذلك، فصار كتب إلى الصالح إنّ عمك اسماعيل يجمع الرجال قاصداً دمشق فيقعد الطير بعلبك فيأخذ اسماعيل البطاقة، ويكتب إنّ عمك اسماعيل جمع الرجال ليعاضدك هو واصل إليك ويسرّحه على حمام نابلس فيعتمد الصالح على ذلك ويترك ما رد له من غيره. واتفق أن يعلم الملك المظفر صاحب حماه بسعي اسماعيل في خذ دمشق فجهز نائبه سيف الدين ومعه ما يلزم من السلاح والمال ليحفظ دمشق صاحبها الصالح، وأظهر أنّه اختصم مع نائبه وأنه فارقه لأنّه يريد أن يسلم حماه لافرنج. كل ذلك ليخفي قصده على شيركوه صاحب حمص لئلا يعارض النائب لم تخف هذه الحيلة على شيركوه بل التقى سيف الدين النائب المذكور على حيرة حمص وأظهر أنّه مصدقه، وسأله الدخول إلى حمص ليضيفه فدخل سيف الدين وبعض جماعته إلى حمص فدخل عليهم شيركوه وأخذ ما كان معهم من مال والسلاح واعتقلهم وعذبهم، وسار شيركوه بمعية اسماعيل صاحب بعلبك في مسكرهما إلى دمشق. وحاصروا قلعتها وتسلموها وقبضوا على المغيث ابن الصالح نائبه بدمشق. وبلغ ذلك الملك الصالح فسار من نابلس على الفور فعلم أنّ عمه اسماعيل استولى على قلعة دمشق واعتقل ولده المغيث ففسدت نيات عساكره عليه شرع الأمراء ومن معه من الملوك يدخلون إلى اسماعيل بدمشق، ولم يبق عنده إلاّ

مماليكه وأستاذ داره حسام الدين ابن أبي علي، وأصبح لا يدري ما يفعل. وسمع الناصر داود صاحب الكرك بذلك فنزل بعسكره وأمسك الصالح أيوب واعتقله في الكرك، وأرسل أخوه العادل صاحب مصر يطلبه من صاحب الكرك فلم يسلمه، وتهده العادل بأخذه عنوة فلم يلتفت الناصر إلى ذلك، ثم أفرج الملك الناصر عن ابن عمه الملك الصالح واجتمعت عليه مماليكه، وكاتبه البهاء زهير وسار الناصر والصالح إلى قبة الصخرة بالقدس وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح ودمشق والبلاد الشرقية للناصر.

فلما بلغ العادل صاحب مصر ظهور أمر أخيه الصالح عظم عليه وبرز بعسكر مصر قاصداً الناصر والصالح، وأرسل إلى عمه الصالح اسماعيل المستولي على دمشق أن يقصدهما من جهة الشام فسار اسماعيل بعساكر دمشق ونزل الفوار، فبينما الناصر داود والصالح أيوب في هذه الشدة وهما بين عسكرين قد أحاطا بهما إذ ركبت جماعة من المماليك الأشرفية ومقدمهم إليك الأسمر وأحاطوا بدهليز الملك العادل وقبضوا عليه وجعلوه في خيمة صغيرة وعليه من يحفظه، وأرسلوا إلى الصالح أيوب يستدعونه فأتاه فرج لم يسمع بمثله، فسار هو والناصر داود إلى مصر وكان كل يوم يلتقي الصالح أيوب فوج بعد فوج من الأمراء والعسكر فدخل مصر وزينت له البلاد وفرح الناس بقدومه وكانت مدة ملك العادل ستين، وحصل للملك المظفر صاحب حماه من السرور بملك الصالح أيوب ما لا يمكن شرحه فانه ما زال على ولائه حتى أنه لما أمسك بالكرك كان يخطب له بحماه وبلادها، ولما استقرّ الملك الصالح أيوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود استشعر كل منهما من صاحبه وخاف الناصر القبض عليه فاسترخص وتوجه إلى بلاده الكرك.

وفي سنة ٦٣٨هـ سنة ١٢٤١م قبض الملك الصالح أيوب على إليك الأسمر وعلى غيره من الأمراء والمماليك الذين قبضوا على أخيه العادل وأودعهم الحبوس وشرع في بناء قلعة الجزيرة بمصر واتخذها مسكناً لنفسه. وكثرت في هذه السنة وما بعدها اغارات الخوارزمية على سورية وسنفرد لذكرها الفصل التالي، وفيها كان هلاك الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل الذي كان قد تولى دمشق ثم عوض عنها بسنجار وعانه، فباع عانه للخليفة المستنصر وسار لؤلؤ صاحب الموصل وحاصر سنجار ويونس غائب واستولى عليها، فلم يبق بيد يونس شيء من البلاد فسار إلى غزة وأرسل إلى الملك الصالح أيوب صاحب مصر يسأله في المسير إليه

فلم يجبه إلى ذلك فسار يونس إلى عكا وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسمعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالاً للفرنج وتسلم يونس المذكور واعتقله ثم خنقه . وفيها أيضاً قوي خوف الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن أخيه صاحب مصر فسلم اسماعيل صفد والشقيف إلى الفرنج ليعضدوه على ابن أخيه فعظم ذلك على المسلمين وعابوه به .

وفي سنة ٦٣٩هـ سنة ١٢٤٢م اتفق الصالح اسماعيل صاحب دمشق مع المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص (الذي كان أبوه قد توفي فخلفه هو) وضيقة خاتون صاحبة حلب على عداوة الملك الصالح أيوب صاحب مصر ولم يوافقهم الملك المظفر صاحب حماة وأخلص في الإنتماء إلى صاحب مصر . وفي سنة ٦٤٠هـ سنة ١٢٤٣م توفيت ضيقة خاتون بنت الملك العادل أخي صلاح الدين وكانت قد تزوجت بالملك الظاهر صاحب حلب، ولما توفي ابنها الملك العزيز كما مَرَّ ملكت حلب وتصرّفت بالملك تصرف السلاطين وقامت به أحسن قيام وكانت مدة ملكها ست سنين . ولما توفيت كان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز ثلاث عشرة سنة فملك حلب بعدها وكان مرجع الأمور إلى جمال الدين اقبال الأسود الخصي .

وفي سنة ٦٤١هـ سنة ١٢٤٤م كانت المراسلة بين الصالح أيوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح على أن يطلق اسماعيل المغيث بن صاحب مصر وحسام الدين بن أبي علي الهدباني وكانا معتقلين عنده فاطلق حسام الدين واستمرّ المغيث في الاعتقال . واتفق اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلموا إليهم عسقلان وطبرية، فعمر الفرنج قلعتيهما وسلمّا إليهم أيضاً القدس بما فيها من المزارات . قال القاضي جمال الدين بن واصل مررت إذ ذاك بالقدس متوجهاً إلى مصر ورأيت القسوس وقد جعلوا على الصخرة قناني الخمر للقربان . وفي سنة ٦٤٢هـ سنة ١٢٤٥م استدعى الملك الصالح صاحب مصر الخوارزمية ووصلوا إلى غزة ووافتهم العساكر المصرية مع ركن الدين بيبرس مملوك الصالح صاحب مصر الذي دخل معه الحبس لما حبس في الكرك، وأرسل اسماعيل صاحب دمشق العساكر مع الملك المنصور وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص، وسار هذا إلى عكا فاستدعى الفرنج على ما كان وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر، فخرج الفرنج بالفارس والراجل واجتمعوا بصاحب حمص وعسكر

دمشق والكرك والتقى الفريقان بظاهر غزة وتواقعا فانهزم عسكر دمشق والفرنج وتبعهم عسكر مصر والخورازمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً، واستولى صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ووصلت الأسرى والرؤوس إلى مصر ودقت بها البشائر عدة أيام، وسار عسكر مصر والخورازمية إلى دمشق وحاصروها فتسلّموها سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م على أن يستقر بيد اسماعيل صاحبها بعلبك وبصرى والسواد ويستقرّ بيد صاحب حمص حمص وما هو مضاف إليها ثم خرج الخوارزمية عن طاعة صاحب مصر لأنهم كانوا يأملون أن يحصل لهم من البلاد ما يرضيهم فلم يعطوا شيئاً فانقلبوا إلى معاضدة اسماعيل الذي أخذ بعلبك وانضمّ إليهم صاحب الكرك وعادوا فحاصروا دمشق وغلت الأقوات وقاسى أهلها شدة عظيمة.

وفي سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م اتفق الحليون والملك المنصور صاحب حمص مع الملك الصالح صاحب مصر وقصدوا الخوارزمية وهم محاصرون دمشق، فرحل الخوارزمية عن دمشق وساروا إلى الحلبين فالتقى الجيشان سنة ٦٤٤هـ سنة ١٢٤٧م في محل يقال له القصب، فانهزم الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها وقتل مقدمهم حسام الدين بركة خان وحمل رأسه إلى حلب. ولما وصل خبر كسرتهم إلى الملك الصالح صاحب مصر فرح فرحاً عظيماً وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص وحصل بينهما التصافي، وأما الصالح اسمعيل فسار إلى الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به، وأرسل صاحب مصر يطلبه فلم يسلمه الملك الناصر إليه، ورحل حينئذ حسام الدين بن أبي علي الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق ونازل بعلبك وبها أولاد اسماعيل المذكور وتسلمها بالأمان، وحمل أولاد اسماعيل إلى صاحب مصر فاعتقلهم هناك وكذلك فعل بأمين الدولة وزير اسمعيل، وناصر الدين يغمور أستاذ داره، ودقت البشائر لفتح بعلبك ومات وقتئذ سيف الدين بن قليج صاحب عجلون فتسلمها الملك الصالح أيوب وأرسل عسكراً إلى حرب الملك الناصر داود صاحب الكرك، فاستولى على بلاده وخرب ضياعها وحاصر الكرك ولم يستول عليها صاحب مصر إلا في سنة ٦٤٧هـ سنة ١٢٥٠م، إذ سار الناصر صاحبها إلى الناصر صاحب حلب مستجيراً به، واستناب بالكرك ابنه عيسى وكان له أخوان أكبر منه الأمجد والظاهر، فساءهما تقدم أخيهما الأصغر عليهما فتوجه الأمجد إلى صاحب مصر وبذل له تسليم الكرك على إقطاع له ولأخيه بديار مصر فأعطاهما إقطاعاً ارضاهما وتسلم الكرك وفرح بها.

وقد توفي الملك المظفر صاحب حماه سنة ٦٤٢هـ سنة ١٢٤٥م وكانت مدة ملكه في حماه خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعمره ثلاثاً وأربعين سنة، وخلفه ابنه الملك المنصور محمد. وفي سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م تسلّم سلمية التي كانت قد أخذت من أبيه وسلّمت إلى صاحب حمص. وفي سنة ٦٤٤هـ سنة ١٢٤٧م توفي الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص بن شيركوه بدمشق ونقل إلى حمص فدفن فيها وخلفه ولده الملك الأشرف موسى.

وفي سنة ٦٤٥هـ سنة ١٢٤٨م استردّ صاحب مصر عسقلان وطبرية من يد الفرنج بعد محاصرتهما مدة وكان قد جرى تسليمها إلى الفرنج سنة ١٢٤٤م فعمرها وحصّنها إلى أن أخذها صاحب مصر منهم سنة ١٢٤٨م. وفي سنة ٦٤٦هـ سنة ١٢٤٩م أرسل الملك الناصر صاحب حلب عسكرياً مع شمس الدين لؤلؤ الأرمني فحاصروا الملك الأشرف موسى بحمص مدة شهرين فسلم إليهم حمص وتعوض عنها بتل باشر مضافاً إلى ما في يده من تدمر والرجة، ولما بلغ ذلك الصالح صاحب مصر شقّ عليه وسار إلى الشام لارجاع حمص من الحلبين. وكان قد حصل له مرض ووصل إلى دمشق فأرسل عسكرياً إلى حمص وحاصروها ونصبوا منجنيقاً مغريباً يرمي بحجر زنته ١٤٠ رطلاً بالشامي واستمرّ عليها الحصار إلى أن وصل الخبر إلى الملك الصالح بدمشق بوصول الفرنج إلى جهة دمياط، وكان مرضه قد اشتدّ ووصل رسول من قبل الخليفة وسعى بالصلح بين الملك الصالح والحلبين وان تستقرّ حمص بيد الحلبين، فأجاب صاحب مصر إلى ذلك وأمر عسكريه فرحلوا عن حلب وهو عاد إلى مصر في محفة لقوة مرضه. انتهى ملخصاً عن أبي الفداء.

عد ٨٦٨

غزوات الخوارزمية في سورية

إنّ الخوارزمية ينتسبون إلى خوارزم في البلاد الشرقية وأصلهم من التتر وكان ملوكهم يسمون خوارزم شاه أي ملك خوارزم ولما خرج التتر في هذا القرن سطوا على خوارزم ونكّلوا بأهلها وأخرجوهم من بلادهم فأتوا العراق ثمّ توطنوا الجزيرة في حران وما جاورها. ففي سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م خرج الخوارزمية عن طاعة الملك الصالح أيوب صاحب سنجار ونهبوا البلاد، فاسترضاهم وبذل لهم حران

والرها فعادوا إلى طاعته، وفي سنة ٦٣٨ هـ سنة ١٢٤١ م كثر عبث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة صاحب البلاد الشرقية وساروا إلى قرب حلب فخرج عليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورنشاہ بن صلاح الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير منهم الملك الصالح ابن الملك الأفضل واسر مقدم الجيش الملك المعظم المذكور واستولى الخوارزميون على أثقال الحلبين وأسروا منهم عدة كثيرة، ونزلوا بعد ذلك على جيلان وكثر عبثهم ونهبهم في بلاد حلب وجفل أهل الحواضر والبلاد ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للقتال وارتكب الخوارزمية من الفواحش ما ارتكبه التتر، ثم ساروا إلى منبج وهاجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب مثلما فعلوا بغيرها، ثم رجعوا إلى حران ثم عادوا من حران وقطعوا الفرات من الرقة، ووصلوا إلى الجبول ثم إلى تل اعزاز ثم إلى سرمين ثم إلى المعرة وهم ينهبون ما يجدون. ووصل الملك المنصور ابراهيم صاحب حمص ومعه عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبين، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص وقصدوا الخوارزمية، وقد كانوا على شيرز فنزل عسكر حلب على تل السلطان ورحل الخوارزمية إلى جهة حماه ولم يتعرضوا لنهبها لانتماء صاحبها الملك المظفر إلى صاحب مصر، ثم ساروا إلى سلمية إلى الرصافة طالبين الرقة لحقهم عسكر حلب وهجم عليهم العرب فأرموا ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الأسرى ووصلوا إلى الفرات ووقع القتال هناك بينهم وبين عسكر حلب وصاحب حمص إلى الليل، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا إلى حران فسار عسكر حلب إلى البيرة وقطعوا الفرات والتقوا مع الخوارزمية قريب الرها فانهزم الخوارزمية وركب الحلبيون أقفيتهم يقتلون ويأسرون إلى أن حال الليل بينهم.

ثم سار عسكر حلب إلى حران فاستولوا عليها وهرب الخوارزمية إلى بلد عانه وبادر بدر الدين صاحب الموصل فاستولى على نصيبين ودارا وكانتا للخوارزميين، وخلص من كان بهما من الأسرى منهم الملك المعظم توران شاه ابن صلاح الدين وقدم له صاحب الموصل ثياباً وتحفاً وبعث به إلى عسكر حلب، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين وغيرها، واستولى صاحب حمص على بلد الخابور. ثم سار عسكر حلب وقد وصلت إليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم ابن الملك صاحب مصر بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم وبقي ذلك بيده حتى توفي أبوه في مصر.

وفي سنة ٦٤٠ هـ سنة ١٢٤٣ م كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم صاحب حمص مصاف قريب الخابور، فولى المظفر والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة، ونهب عسكر حلب شيئاً كثيراً حتى نساءهم، ونزل صاحب حمص في خيمة الملك المظفر واحتوى على خزائنه ووطاقتهم وعادوا إلى حلب. وفي سنة ٦٤٢ هـ سنة ١٢٤٥ م أتى الخوارزمية إلى غزة دعاهم صاحب مصر فانتصروا مع عسكره على عسكر دمشق والفرنج كما قدمنا في الفصل السابق، ثم خرجوا عن طاعته وحاصروا دمشق مع الملك الصالح اسماعيل فردّهم عنها الحلبيون وصاحب حمص سنة ٦٤٣ هـ سنة ١٢٤٦ م، ثم نالوهم سنة ٣٤٤ هـ سنة ١٢٤٧ م، فشتتوا شملهم وقتلوا رئيسهم كما مرّ في الفصل السابق. هذا ما ذكره أبو الفداء.

واليك ما رواه المؤرخون الفرنج ولاسيما متى باري (وهو مؤرخ انكليزي من رهبنة القديس عبد الأحد كان في هذا القرن) أنّ ملوك دمشق وحلب وحمص والكرك وافقوا أو هادنوا الفرنج في فلسطين على سلطان مصر فاستدعى هذا لنجدة الخوارزمية الذين كان التتر قد أخرجوهم عن بلادهم فأتوا فلسطين. وقد علمنا ما كان منهم من رسالة رفعها روبرتس بطريك أورشليم وانريكس مطران الناصرة وغيرهما من رؤساء الفرنج بفلسطين إلى أساقفة فرنسة وانكلترا مؤرخة في ٢٣ تشرين الآخر سنة ١٢٤٤ م هذه خلاصتها: «إنّ التتر أخربوا بلاد فارس وطرّدوا الخوارزميين من بلادهم فلم يبق لهم مقر، ثمّ استدعاهم سلطان مصر ليقبضوا في فلسطين واعدّ لهم بمساعدته، فأتوا بنسائهم وعيالهم بغتة فلم يكن لنا وقت لصدّهم، ودخلوا إلى عمل أورشليم من جهة صفد وطبرية واتفق رأي الفرسان وأعيان البلاد على أن نستنجد ملكي دمشق وحمص حليفينا، ومن جملة أعداء الخوارزمية. ولما أبطأ مدد هؤلاء ولم تكن أسوار لأورشليم رأى سكانها أنّ لا قدرة لهم على الدفاع عنها فزايّلوا وعددهم نحو ستة آلاف وساروا في الجبال معتمدين على الهدنة التي كانت بينهم وبين صاحب الكرك، فوثب بعض المسلمين عليهم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً وهرب الباقون إلى صحراء الرملة، فهجم عليهم الخوارزمية وقتلوهم ولم يبق منهم إلّا ثلاث مئة نفس. ثمّ دخل الخوارزميون أورشليم وهرع من بقي منها إلى كنيسة القبر المقدّس فدخل الخوارزمية إليهم وقتلوهم وقطعوا رؤوس الكهنة الذين كانوا يقدّسون وخزّبوا القبر وأزالوا الرخام الذي كان بالكنيسة، وهدموا مدافن الفرنج ودّسوا جبل

صهيون وكنيسة وادي يوشافاط حيث مدفن العذراء، ثم ساروا إلى بيت لحم وفعلوا الفضائع في كنيستها وفي مغارة المولد فعيل صبرنا على تحمّل هذه المصائب وجزمنا على محاربة الخوارزمية مع ملكي دمشق وحمص، وزحف عسكرينا من عكا بطريق قيصرية وكان الخوارزمية مجتمعين في جازر منتظرين عسكر سلطان مصر، ولما وصل اشتبك القتال يوم الاثنين ١٧ تشرين الأول فانكسر المسلمون الذين كانوا معنا وانهزموا وبقي النصارى صابرين على القتال ولما كان عددهم قليلاً ذعروا وقتل منهم كثيرون حتى لم يبق من الهيكليين إلا ثلاثة وثلاثون فارساً، ومن الاسبيتاليين خمسة وعشرون فارساً، ومن فرسان القديس يوحنا ثلاثة.

وقد سألنا بعد هذه المصيبة ملك قبرص وأمير أنطاكية أن ينجدانا بعسكر للذب عن الأرض المقدسة ولا نعلم ما يصنعان، أجل أنّ مصيبتنا الماضية عظيمة لكننا نخشى أعظم منها فيما بعد، لأنّ بلاد النصارى لا معين لها من الناس والأعداء مجتمعون على ميلين من عكا، ويعثون سراياهم في كل البلاد حتى الناصرة وصفد ويجبون من الأهليين الخراج الذي كان النصارى يأخذونه، فان كل هؤلاء الأهليين انقلبوا علينا وصاروا مع الخوارزمية فلم يبق للنصارى إلا بعض القلاع ويتعذر عليهم الدفاع عنها. واختتموا هذه الرسالة بقولهم إنّ الفرنج خسروا الأرض المقدسة إن لم ينجدوا من الآن إلى شهر آذار القادم». انتهى تلخيص الرسالة التي أثبتتها أيضاً راينلدوس في تاريخ سنة ١٢٤٤م.

وكان في جملة من أسرهم الخوارزميون كوتيا دي بريان كونت يافا ابن أخي يوحنا دي بريان ملك أورشليم، ومن بعد هذه الحرب الهائلة استولى المصريون على أورشليم وطبرية وغيرها من المدن التي تخلى عنها ملك دمشق للفرنج، وسار الخوارزمية فحاصروا يافا وأخذوا معهم كوتيا أسيراً أملين أن يأمر أن تفتح لهم أبواب مدينة تخصّه، فعلقوه على صليب تجاه الأسوار وهددوه بالقتل إن صنع أهل مدينته أقل حركة للمدافعة عنها، أمّا هو فأخذ يصرخ بأعلى صوته على قومه دافعوا إلى النفس الأخير فهذا هو المفروض عليّ وعليكم أن أموت حباً بكم وبالخلاص؛ فلم يقوَ الخوارزميون على فتح المدينة وأرسلوا كوتيا إلى القاهرة فوثب عليه حشد سكارى يخنقه فأماتوه بالضرب ولم يكن منجد للفرنج ومنج فلسطين من شرّ الخوارزمية إلاّ تقلّبهم وعدم ثبوتهم، فان سلطان مصر أرسل إليهم خلعاً وهدايا نفيسة ورغب إليهم أن يمضوا إلى دمشق ويحاصروها فساروا إليها وافتتحوها؛

وكان قد وعدهم بأن يملكهم فلسطين. فبعد انتصارهم على دمشق خاف مجاورتهم وأخلف وعده لهم فانقلبوا عليه وحاصروا دمشق ثانيةً ليأخذوها من سلطان مصر وطال الحصار وغلت الأقوات في المدينة، وأرسل سلطان مصر سنة ١٢٤٧م نجدة لدمشق واتفق مع صاحبي حلب وحمص وغيرهما فظفروا على الخوارزمية في موقعتين كما رويها نقلاً عن المؤرخين العرب فتشتت الخوارزمية وذهبت سطوتهم وصولتهم. انتهى ملخصاً عن كثيرين من مؤرخي الفرنج.

عد ٨٦٩

حملة الفرنج السابعة على سورية بامرة الملك لويس التاسع

قد بلغ إلى الغرب ما صنعه الخوارزمية بأورشليم واستيلاء سلطان مصر عليها بعد أن تخلى عنها للفرنج صاحب دمشق، وكان التتر يهددون أوروبا أيضاً باجتياحهم لها وكانوا قد دخلوا المجر وأذاقوا أهلها الأمرين، وكانت مملكة اللاتين في قسطنطينية على حافة الانقراض وفريدريك الثاني عاهل ألمانيا قد عاد إلى السطو على الكرسي الرسولي، وكان أينو شنسوس الرابع الحبر الروماني قد فز من رومة إلى ليون فعقد هناك مجعماً عاماً سنة ١٢٤٥م، وشهده فالريان أسقف بيروت اللاتيني فأبان حالة اليأس التي كان عليها الفرنج في سورية أيضاً بودوين الثاني ملك القسطنطينية ومعه بطريركها اللاتيني، فاسهب في بيان الخطر الملم بمملكته من قبل الروم، ولم يجسر فريدريك الثاني أن يمضي بنفسه إلى المجمع فأرسل نواباً عنه قد تعهدوا باصلاحه ما فرط منه ونجدته لنصارى سورية، فلم يثق الحبر الروماني بوعوده وقد أخلف مثلها مرات، بل قد حكم بحطه عن منصبة ملكه ووافقه المجمع على ذلك وفي جملة رسوم هذا المجمع استئناف الحملة لإمداد الفرنج في سورية والقسطنطينية، وأن يدفع الاكليريكيون واحداً من عشرين، والبابا والكرادلة العشر من دخلهم لنفقة الحرب في سورية ومصر، ومن كان لهم جعل دون نفقة لزمهم أن يدفعوا نصف هذا الجعل في نجدة ملك القسطنطينية. وكان لويس التاسع ملك فرنسا قد مرض مرضاً عضالاً فنذر أن يتجند للدفاع عن الأرض المقدسة، وأخبر بنذره نصارى فلسطين، ولما بلغ دعاة البابا لهذه الحملة إلى باريس جمع الملك لويس القديس أعيان مملكته وكاشفهم بعزمه على السفر إلى الشرق ودعاهم إلى مشاركته فلبى دعوته كثيرون منهم اخوته

الثلاثة روبرتس كونت ارتو، والفونس كونت بواتو، وشارل كونت انجو، فأفرغت بلانش دي كاستيل والدّة الملك ورئيس أساقفة باريس وكثيرون من وزرائه قصارى جهدهم في إثناء الملك عن عزمه على السفر فلم يثنّ وأخذ يتجهّز لهذه الحملة وكان القلق مستحوراً على أوروبا فلم يتجند من انكلترا إلا بعض الأعيان مقدمهم غويللمس دي سالسبوري. وكانت في ألمانيا حرب أهلية بسبب حط العاهل عن منصّة ملكه، وفي إيطاليا انقسامات داخلية فقلّ من تجنّد منهما. وفي سنة ١٢٤٨م جمع الملك عمّاله وأعيان مملكته مرة أخرى واستحلفهم على حفظ الأمانة لأولاده ان نزلت به مصيبة في غربته، وهمّ باصلاح كل ظلم أوقعه عماله، واحتاط للوقاية من مثل ذلك وأبدى جوده على الكنائس والأديار وعهد بتدبير مهام المملكة إلى أمه بلانش دي كستيل، فقامت بما عهد إليها به أحسن قيام. وسافر الملك لويس من فرنسة في ٢٥ آب سنة ١٢٤٨ والمملكة مرغريتا معه، وكان أسطولهم مؤلفاً من مئة وعشرين مركباً كبيراً ومن ألف وخمسمائة سفينة صغيرة وبلغ إلى قبرص في ٢١ أيلول من تلك السنة فاستقبله أنريكس لوسنيان ملك الجزيرة، باحتفاء في لمسون وسار به إلى نيقوسية قصبة الجزيرة وكان في عزمه أن يسافر للوقت إلى مصر، فألح عليه ملك الجزيرة أن يصرف فيها مدة الشتاء ففعل وأصلح في هذه المدة بين الاكليرس اللاتيني والاكليرس الرومي في قبرص، وبين الفرسان الهيكليين والاسيبتاليين، وبين أهل جنوا وأهل بيزا المقيمين بعكا. وسافر الملك في عسكره من قبرص في ٢١ أيار سنة ١٢٤٩م فردّه عاصف إلى المورة ولم يبلغوا ساحل مصر إلا في ٤ حزيران، وكان صاحب مصر حصّص دمياط وأقام فيها جيشاً كبيراً مقدّمه الأمير فخر الدين، فحلّت جنود الملك لويس على أرض دمياط رغماً من مقاومة عسكر مصر، وقبل أن تدنو سفينة الملك لويس من البر قفز في البحر فغمره الماء إلى كتفه وخرج منه مستلاً سيفه متحفزاً للوثوب على الأعداء، فسأله ذووه أن ينتظر اكتمال صفوفه فجثا شاكرّاً لله لوصوله إلى مصر. ثمّ هبّ للقتال وكان للمصريين أسطول في مصب النيل فذعر وتشتت عسكر فخر الدين، وكان السلطان مريضاً مرضاً عضالاً فانقص في بسالة المسلمين، وسار فخر الدين إليه وهو في محل بين المنصورة ودمياط تاركاً دمياط وقد انهزم منها المسلمون والحامية الذين كانوا بها بعد أن قتلوا من كان بينهم من النصارى وألقوا النار في الدور، وقتل من الفرنج كونت مرش في جانب الملك وفارسان آخران، واستولى الفرنج على دمياط وأطفأوا النار من

الدور وغنموا ما بقي فيها وما كان بغيرها ودخل الملك المدينة حافياً مكشوف الرأس واقتدى به الاكليرس ورؤساء الجند، ورقى سفير البابا أحد الكهنة إلى أسقفية دمياط ووزع الملك البيوت والأرضين على الفرسان الذين كانوا يحاربون معه. هذا ما ذكره المؤرخون الفرنج.

وقال أبو الفداء في ذلك: «في هذه السنة (أي سنة ٦٤٧هـ سنة ١٢٤٩م) سار ريدافرنس وهو من أعظم ملوك الفرنج وريد بلغتهم هو الملك أي ملك فرنسا (يظهر أنّ أبا الفداء لم يكن يعلم الفرنسية فظنّ أنّ الملك يسمى ريد ولم يعلم أنّ الدال من آخر الكلمات ليست منها بل هي حرف دال على الإضافة إلى ما بعدها). وفرنس أمة عظيمة من أُمم الفرنج وكان جمع ريد فرنس نحو خمسين ألف مقاتل وشتى في جزيرة قبرص ثم ساروا ووصل في هذه السنة إلى دمياط، وكان الملك الصالح قد شحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة وجعل فيها بني كنانة وهم مشهورون بالشجاعة، وأرسل فخر الدين ابن الشيخ بجماعة كثيرة ليكونوا قبالة الفرنج بظاهر دمياط. ولما وصل الفرنج عبر فخر الدين من البر الغربي إلى البر الشرقي ووصل الفرنج إلى البر الغربي فهرب بنو كنانة وأهل دمياط منها وتركوا أبوابها مفتوحة فتملكها الفرنج بغير قتال واستولوا على ما بها. وكان هذا من أعظم المصائب وعظم ذلك على الملك الصالح وأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم. ووصل الملك الصالح إلى المنصورة ونزل بها وقد اشتدّ مرضه وهو السل والقرحة التي كانت به وقد أيس منه».

عد ٨٧٠

ذكر وفاة الملك الصالح وخلافة ابنه ووقعة المنصورة

قال أبو الفداء ما ملخصه: «في هذه السنة أي سنة ٦٤٧هـ سنة ١٢٤٩م توفي الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل ابن الملك العادل وكانت مدة ملكه لمصر تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً. وكان عالي الهمة طاهر اللسان والذيل وقوراً كثير الصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من أهل بيته حتى كان أكثر عسكره مماليكه، وجمع جماعة منهم حول دهليزه سماهم البحرية. وكان له ثلاثة أولاد: فتح الدين عمر توفي في حبس الصالح اسماعيل،

وكان له ولد آخر قد توفي أيضاً ولم يكن قد بقي له غير الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا، ولم يوص الصالح بالملك لأحد، ولما توفي أحضرت شجرة الدر جارية فخر الدين ابن الشيخ صدر الدين ابن حمويه والطواشي جمال الدين محسناً وعزفتها بموت السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج، وجمعت شجرة الدر الأمراء وقالت لهم السلطان يأمركم أن تحلفوا له، ثم من بعده لولده الملك المعظم، وللأمير فخر الدين باتابكية العسكر. فحلف الأمراء والأجناد والكبراء بالعسكر وبمصر، وكانت بعد ذلك تخرج الكتب والمراسيم وعليها علامة الملك الصالح، وكان يكتبها خادم يقال له السهيلي فلا يشك أحد في أنها خط السلطان، وأرسل فخر الدين قاصداً لاحضار الملك المعظم من حصن كيفا فشاع بين الناس موت السلطان ولا يجسر أحد من أرباب الدولة أن يفوه بذلك.

وتقدم الفرنج من دمياط إلى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة ومات فيها جماعة من كبار المسلمين ونزل الفرنج بحر مساح ثم قربوا من المسلمين وكبسوهم على المنصورة، وكان الأمير فخر الدين المذكور في الحمام بالمنصورة فركب مسرعاً وصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه، ثم حمل المسلمون والترك البحرية على الفرنج فردوهم على أعقابهم، واستمرت بهم الهزيمة. وأما الملك المعظم فوصل إلى المنصورة في آخر السنة المذكورة واشتد القتال بين المسلمين والفرنج براً وبحراً ووقعت مراكب المسلمين على الفرنج وأخذوا منهم اثنين وثلاثين مركباً، فضعف الفرنج وأرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل وان يسلموا دمياط إلى المسلمين فلم تقع الإجابة إلى ذلك». انتهى تلخيص كلام أبي الفداء. وهذه خلاصة ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك الملك: «إن الملك لويس لم يشأ أن يتقدم من دمياط قبل وصول أخيه كونت بواتو الذي كان قد تخلف في فرنسة ونشأت في هذه المدة اختلافات بين الفرنسيين والكونت سالسبوري الانكليزي فخطبها الملك لويس بوداعته، وقد عقد ديوان مشورته فكان من رأي بعض أركان الحرب أن يزحفوا إلى اسكندرية ويمتلكوها لأن مرفأها أوسع وأرحب لسفنهم، وكان من رأي آخرين أن يسيروا توأ إلى القاهرة. وكان كونت أرتو أخو الملك يرى ما رأى هؤلاء فاستمال الملك إلى العمل برأيهم فساروا نحو المنصورة وسفنهم سارت في النيل شاحنة الازود والسلاح وآلات الحصار فحلوا في فارسكور في ٧ من كانون الأول سنة ١٢٤٩م. وهناك علموا بموت الملك الصالح وذكروا ما ذكره المؤرخون العرب من إخفاء شجر

الدر خير موته وتولية فخر الدين على الجيش واستدعاء الملك المعظم من حصن كيفا، وبلغ عسكر النصارى بعد وقعة بين طلائع العسكرين إلى قناة أشمون مقابلة المنصورة في ١٩ كانون الأول، ولم تكن القناة الفاصلة بين العسكرين عريضة لكنها كانت عميقة لا يمكن عبورها دون جسر وحاول المهندسون إقامة جسر فتعذر عليهم وأرسل فخر الدين عسكراً عبر القناة من محل آخر وباغت الفرنج من ورائهم فكان له بعض النجاح واستمرّ الفرنج يحاولون إقامة معبر إلى التربة والمسلمون لا يمكنونهم من ذلك واستمرّوا على ذلك شهراً إلى أن هدهم بدوي إلى معبر قريب منهم بعد أن رشوه بمبلغ من المال، وسار الملك في جيشه إلى هذا المعبر فأول من عبر به روبرتس كونت ارتوا أخو الملك، وقد حلف له أن ينتظر على ضفة النهر الأخرى وصول العسكر إليه. وتبع الكونت الفرسان الهيكليين والاسبيتاليين وكونت سالسبوري ورجاله الانكليز، ولما رأى روبرتس الأعداء تركوا معسكرهم وانهزموا أمامه نسي يمينه ولم يقف عند نصائح الفرسان الذين عبروا معه ووثب على الأعداء متعباً لهم حتى دخل وراءهم إلى المنصورة، وكان فخر الدين في الحمام وخرج فركب جواده على عجلة فأصابته ضربة كانت القاضية، فاضطرب العسكر المصري وتسارع بعضهم إلى داره فنهبا وأحرقها وهموا بالهزيمة، فحملهم بيرس البندقاري أحد المماليك (الذي اشتهر كثيراً بعد ذلك كما ترى) على الصبر والثبات في الدفاع وأقفل أبواب المدينة كي لا يبقى للفرنج مفر أو مناص، وصبر الكونت روبرتس على القتال مبدئاً آيات البسالة إلى أن قتل، واستمرّ وطيس القتال حامياً من الساعة السادسة قبل الظهر إلى الساعة الثالثة بعده، فلم ينج من الألف وخمسمائة فارس الذين دخلوا المنصورة من الفرنج إلا القليلون. وكان غوليلمس كونت سالسبوري في جملة القتلى، وأسر رئيس فرسان القديس يوحنا، وقلعت عين رئيس الهيكليين، أما باقي الجيش فعبر القناة ولم يعلموا ما حلّ بطلائعهم فتقدّم دوك بريطانيا وفريق من الجيش نحو المنصورة ليرى ما حلّ بالكونت روبرتس ورفاقه فالتقاهم بعض المماليك واشتد القتال بينهم حتى أرغم الدوك المذكور أن يعود وهو يتقياً الدم من فمه، ولما بلغ الملك القديس خبر هذا المصائب حزن جداً وبكى كثيراً ورفع عينيه إلى السماء قائلاً لتكمل مشيئة الله وليكن اسمه مباركاً. وجمع أعيان جيشه وقال ما رأيكم يا أحبائي ورفقائي في متاعبي ومخاطري العودة إلى وراء بعد هذه الخسارة الجسيمة فيطمع بنا أعداؤنا ويسرهم انهزامنا كسرورهم بقتل اخواننا ويتبعون آثارنا ويعملون سيوفهم بنا أما أنا فأرى أن

نبتهل إلى الله أولاً ليغفر آثامنا التي هي علة انسكسارنا ثم نحارب واثقين بعونه
لنأخذ بثأر أخي وأصدقائنا الذين أريقتم دماؤهم فلما سمع الجيش كلام الملك هذا
تحفّزوا جميعاً للقتال كرجل واحد واشتبك الفريقان في القتال ونزل الملك في وسط
المعركة ولم يكن من يرمي سهماً أو يرسل نشاباً بل كانوا متجالدين بالسيوف
والحراب متلاحمين ووثب على الملك ستة من المماليك وأحدقوا به وضبطوا عنان
جواده فشردّدهم عنه ببسالة وتملّص منهم بضربات سيفه وفي آخر الأمر ازاح الفرنج
المصريين عن مراكزهم واستولوا على معسكرهم بما كان فيه من عدة الحرب والذخيرة.

عد ٨٧١

أخذ الملك لويس أسيراً ونجّاه من الأسر

هذه خلاصة ما قاله أو الفداء في ذلك: « لما قام الفرنج قبالة المسلمين
بالمنصورة فنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد من دميّاط فان المسلمين قطعوا الطريق
الواصل من دميّاط إليهم فلم يبقَ لهم صبر على المقام فرحلوا ليلة الأربعاء لثلاث
مضين من المحرم سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م) متوجهين إلى دميّاط، وركب
المسلمون أكتافهم وعند الصباح خالطهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم
منهم إلّا القليل وبلغت القتلى منهم ثلاثين ألفاً على ما قيل وانحاز ريدافرنس ومن
معه من الملوك إلى بلد هناك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشي محسن الصالحين ثم
احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة وقيد ريدافرنس وجعل في الدار التي كان
ينزلها كاتب الانشاء فخر الدين ابن لقمان ووكل به الطواشي صبيح المعظمي،
ورحل الملك المعظم بالعسكر من المنصورة ونزل بفارسكور ونصب له بها برج
أخشب، فيوم الاثنين في آخر المحرم قتل الملك المعظم، وسبب ذلك أنّه أطرح جانباً
أمراء أبيه ومماليكه وبلغ كل واحد منهم تهديده ووعيده فنفرت قلوبهم منه وهو
اعتمد على بطائنه الذين وصلوا معه من حصن كيّفا، وكانوا أطرافاً أراذل
فاجتمعت المماليك البحرية على قتله وهجموا عليه بالسيوف وكان أوّل من ضربه
ركن الدين بيبرس الذي صار سلطاناً في ما بعد، فهرب الملك المعظم إلى برج
الأخشب فأطلقوا في البرج النار فخرج الملك هارباً طالباً البحر ليركب في جرافته،
فحالوا بينه وبينها بالنشاب فطرح نفسه في البحر فأدركوه وأتموا قتله وكانت مدة

ملكه من حين وصوله إلى مصر شهرين وأياماً. واجتمع الأمراء وأتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة ويكون عز الدين أيلك الصالحي المعروف بالتركماني اتابك (أي أمير الأمراء) العسكر وحلفوا على ذلك، وخطب لشجر الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وسميت والدة خليل وكان توقيعها كذلك إذ كان لها ولد اسمه خليل مات صغيراً ولما استقرّ الأمر على ذلك جرى الحديث مع ريدافرنس في تسليم دمياط بالفرنج عنه فسلّمها وصعد إليها بالعلم السلطاني يوم الجمعة لثلاث مضيّن من سفر سنة ٦٤٨هـ (سنة ١٢٥٠م) وأطلق ريدافرنس وركب البحر نهار السبت غد الجمعة المذكورة وأقلعوا إلى عكا.

وهذا ملخص ما قاله المؤرخون الفرنج: «إنّ المصريين لم ينفكوا مدّة الليل عن مهاجمة الفرنج ليزيحوهم عن العسكر الذي كانوا قد أخذوه في النهار، وفي الغد الذي كان صباح أربعاء الرماد أقاموا جسراً على قناة أشمون فعبّر عليه الرجالة وأميرهم دوك بوركانيا وانضمّوا إلى الفرسان، وفي نهار الجمعة التالي زحف المصريون بمصافهم إلى الفرنج وتسعرت نار القتال وكان في مقدّمة الجيش كونت انجو فلم يستطع جنوده أن يقفوا على النار الصناعية التي كان الأعداء يلقونها إليهم وقتل جواده وهو راكب عليه فاستصرخ الملك فهبّ إليه مستلاً سيفه واخترق الصفوف إلى أن بلغ المحل الذي كان به أخوه وأعمل سيفه بالأعداء بشجاعة عظيمة وبراعة غريبة غير مبال بخطر حتى أنقذ أخاه ونجاه الله، وقتل في هذه الواقعة رئيس الهيكليين وكثير من أعيان الفرنج ومشاهيرهم. وكان كونت بواتو أخو الملك متولياً قيادة الجناح الأيمن في الجيش فحاق الخطر به وكاد يقع أسيراً» وإليك ما كتبه القديس لويس في رسالة عامة إلى أهل مملكته عن هذه الواقعة قال: «يوم الجمعة جمع الأعداء رجالهم من كل جهة وقصدوا أن يهلكوا جيش النصارى برمته ووثبوا على صفوفنا بقوّة وعددهم لا يحصى وكانت الخسائر من الفريقين عظيمة. ويقال إنّه لم يكن قطّ وقعة كهذه في هذه البلاد وبعون الله ثبتنا في الدفاع في كل جهة وتقهر الأعداء وقتل منهم كثيرون». وجلّ ما يظهر من ذلك أنّ الفرنج لم ينكسروا في هذا اليوم وأوقعوا بأعدائهم خسائر وخسروا مثلها.

وأصابهم وباء تصحبه الدوسنتاريا والحمى الخبيثة مسبب من ثنّانة جثث القتلى ومن طرح بعض هذه في القناة ومن أكلهم أيضاً السمك المغتذي بها فمات منهم

كثيرون وكان لهم على مصابهم هذا أيضاً الصبر الجميل ولم يحلّلوا الافطار في الصيام أو أكل اللحم فيه، وكان الملك لويس يعزي المرضى ويذلّ جلّ العناية بهم إلى أن أصابه أيضاً المرض وألزمه خيمته. وأتى الملك المعظم إلى المنصورة بعد تسعة عشر يوماً من الوقعة التي كانت فيها وكانت مؤن الفرنج تأتيهم من دمياط فأول ما باشره الملك قطع الطريق حتى لا تكون مواصلة بينهم وبين دمياط فعازهم الزاد وكان ذلك مصيبة أخرى. وروى بعض المؤرخين العرب أنّ الفرنج بذلوا للملك المعظم دمياط ان تخلص لهم عن فلسطين، ووعد الملك لويس أن يسلم أخويه رهينة على ذلك، فأجاب الملك المعظم إلى ذلك ولكن طلب ان يكون الملك لويس نفسه رهينة ورضي هذا القديس بذلك، على أنّ أعيان جيشه أبوا ذلك كل الإباء وقالوا أحب إلينا أن نحتمل الموت جميعاً ولا نحمل مثل هذا العار فرأى الملك لويس حينئذ أنّه لم يبق وسيلة للنجاة إلاّ العود بطريق دمياط.

وأمر الملك لويس أن يعبر الجيش القناة ويسير بطريق دمياط فأخذوا بالمسير ليلاً في ٥ نيسان سنة ١٢٥٠م ونزل سفير البابا والنساء والأولاد والمرضى بسفن وألحوا على الملك لويس أن يسير معهم فأبى إلاّ أن يرافق جنوده، وقال أحب إليّ أن أموت معهم من أن أنفصل عنهم. وسار في ساقبتهم وركب المصريون ظهورهم فكان الملك يدي آيات البسالة بالدفاع وغادره أكثر فرسانه فأدرك المصريون الفرنج من جهات كثيرة وأكثروا من القتل والأسر فيهم ولم يكن من ساروا بحراً أحسن حظاً ممن ساروا برّاً، وأضنى التعب والجهد الملك فانهز بنفر قليل من خدامه إلى قرية تسمى المنية ودخل بيت امرأة فرنسية هناك ودافع عنه خدامه إلى أن فارقتهم الحياة فدخل أحد المماليك إلى الملك فأوثقه بيديه ورجليه وأخذه بسفينة حربية إلى المنصورة وقبض المصريون على أخويه أيضاً وكان عدد القتلى من الفرنج نحو ثلاثين ألفاً وأقام المصريون الملك في بيت يدل عليه إلى الآن في المنصورة وهو مشرف على النيل.

كان من رأي الملك المعظم أن يطوف ملك فرنسة في كل بلاد المسلمين تذليلاً للفرنج وتعزيزاً وتشجيعاً للمسلمين، فلم يوافق أهله مشورته على رأيه إذ كان يهمهم استرداد دمياط ويخشون موت ملك فرنسة فتفوتهم فرصة استردادها، فأجمع رأيهم أن يطلقوا الملك على شريطة أن يسلم دمياط إليهم ويذلّ لهم خمس مائة ألف دينار (قالوا إنّها توازي تسعة ملايين ونصف من الفرنكات). ولما رأى الملك لويس أنّ

دمياط لا بدّ من أخذها في هذه الحال ولا يمكن أن تمتنع على المسلمين رضي بما شرطه المصريون. ولكن لما كان لا يليق بمقام الملوك أن تفتدى حريتهم بمال جعل دمياط فدية له والخمس مائة ألف دينار فداء لرفقائه في الأسر، فسّر الملك المعظم بذلك وحط خمس المبلغ المتفق على إداؤه، وعقد الصلح بين المسلمين والنصارى على هدنة عشر سنين وبقاء المدن التي ملكها الفرنج قبل هذه الحملة على ملكهم بعد هذا الصلح. وكان حينئذ ما ذكره المؤرخون العرب من قتل المعظم وتولية شجرة الدر، فبقى ملك فرنسا والأسرى في سجونهم. ولما استقرّت الحال في مصر عاد الأمراء إلى إنجاز المعاهدة مع ملك فرنسا فطلبوا تسليم دمياط قبل تخليّة سبيله وأن يدفع نصف المبلغ قبل ارتحاله عن مصر، فلم يشأ أن يوقع على هذه المعاهدة قبل إطلاقه، ولا أن يحلف عليها إلّا بما لاقى به من اليمين، فاضطرّ الأمراء أن يكتفوا بكلامه وحده وكتب الملك إلى بطانته بتسليم دمياط، ودفع نصف المبلغ الذي استقرّ الرأي عليه، فردّت دمياط إلى المسلمين في ٦ أيار سنة ١٢٥٠م وأطلق بعض الأسرى الذين بقوا أحياء، وسافر الملك لويس والفرنج إلى عكا فبلغوا إليها في ١٤ أيار سنة ١٢٥٠م. انتهى ملخصاً عن جوانفيل وغيره ممن كانوا في هذه الحملة.

عد ٨٧٢

باقي أخبار الأمراء الأيوبيين إلى انقراض دولتهم

لما ملك المصريون شجرة الدر موضع الملك المعظم أرسلوا رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا إليه بل كاتبوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب ابن الملك العزيز، فسار إليهم وملك دمشق ودخلها يوم السبت لثمان مضين من ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ سنة ١٢٥٠م. ولما استقرّ في دمشق خلع على جمال الدين بن يغمور وعلى الأمراء القميرية وأحسن إليهم واعتقل جماعة من الأمراء مماليك الملك الصالح وعصت عليه بعلبك وعجلون وشيميس مدة مديدة، ثم سلّمت جميعها إليه فصار الملك الناصر متولياً حلب ودمشق. ولما ورد الخبر بذلك إلى مصر قبضوا على من عندهم من القميرية وعلى كل من اتهم بالليل إلى الحلبين، ورأوا أنّه إذا استمرّ أمر المملكة في امرأة على ما هو عليه بتعليك شجر الدر تفسد الأمور، فأقاموا عزّ الدين أيلك الذي كان أتاكب العسكر ملكاً عليهم وركب بالسناجق السلطانية ولقّب بالملك المعز وأبطلت السكة

والخطبة التي كانت باسم شجرة الدر، ثم اجتمع الأمراء واتفقوا على أن لا بدّ من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة واختاروا الملك الأشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن، وقرروا أن يكون إليك المذكور أتابك واجلس موسى المذكور في دست السلطنة.

وكان بغزة حيثئذ جماعة من عسكر مصر فسار إليه عسكر دمشق فاندفعوا عن غزة إلى الصالحية بالسايح واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وطلبوا له بالصالحية، واتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا بالقاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم العباسي، وجددوا الإيمان للملك الأشرف موسى بالسلطنة ولإليك بالاتبكية. وسار فارس الدين اقطاي الصالحى مقدم الممالك البحرية إلى غزة بنحو ألفي فارس ولما وصل إلى غزة وافقه من كان بها من جهة الناصر فوجس الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب من ذلك، فسار من دمشق قاصداً مصر، وصحبته كثيرون من الأمراء الأيوبيين، ولما بلغ المصريين ذلك أهتّموا لقتاله ودفعه وبرزوا إلى السايح وتركوا الأشرف المسمى بالسلطان بقلعة الجبل بمصر والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة أولاً على عسكر مصر، فخامر جماعة من الممالك الترك العززية على الملك الناصر صاحب دمشق وثبت المعز إليك في جماعة قليلة من البحرية وانضاف إليهم من خامروا من الممالك العززية وكان صاحب دمشق لا يشك بنصرة عساكره وكسرة المصريين فبقي مع جماعة يسيرة تحت السناجق السلطانية فحمل عليه المعز إليك بمن كان معه فولى منهزماً إلى جهة الشام ثم حمل إليك على عسكر الشاميين فهزمهم وأخذ شمس الدين لؤلؤ قائد العسكر أسيراً وضرب عنقه وأسر عدّة من الأمراء الأيوبيين الذين كانوا مع صاحب دمشق ولما علم باقي العسكر الشامي بهروب صاحب دمشق اختلفت آراؤهم فمنهم من أشار بالدخول إلى القاهرة وتملكها ولو فعلوا لتملكوها، ومنهم من أشار بالرجوع إلى الشام فعملوا برأيه، فعاد إليك إلى القاهرة معتزاً منصوراً وحبس بني أيوب بالقلعة وشنق بعض الأمراء الذين أسرههم، وسار بعد ذلك فارس الدين اقطاي بثلاثة آلاف فارس إلى غزة فاستولى عليها وعاد إلى مصر وبقي الأمر على ذلك إلى سنة ٦٥١هـ سنة ١٢٥٤م حين أرسل الخليفة العباسي فاصلح بينهم على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن وللملك الناصر صاحب دمشق وحلب ما وراء ذلك.

وكان المعز أيك أتابك مصر طموحاً إلى الاستبداد وإلى خلع الأشرف وتبوأ منصته وكان اقطاعي الجامدار من أمراء البحرية يدافعه عن ذلك ويغص من عنائه منافسة وغيره فارصد له أيك ثلاثة من المماليك فاغتالوه سنة ٦٥٢ هـ سنة ١٢٥٥ م. وكانت جماعة المماليك البحرية ملتفة عليه فانفضوا ولحقوا بصاحب دمشق، واستبد إيك بمصر وخلع الملك الأشرف وقطع الخطبة له فكان آخر أمراء بني أيوب بمصر وخطب أيك لنفسه وتزوج شجر الدر التي كانوا قد ملكوها قبلاً، ولما وصل البحرية إلى دمشق أطعموا صاحبها في ملك مصر واستحثوه فتجهز وسار إلى غزة وبرز أيك بعساكره إلى العباسية ودخلت سنة ٦٥٣ هـ سنة ١٢٥٦ م، واستراب المعز بالعزيزة المقيمين معه فأبعدهم عنه ولحقوا بصاحب دمشق وترددت الرسل بين دمشق وإيك صاحب مصر فاصطلحوا على أن يكون التخم بينهم العريش وفي سنة ٦٥٥ هـ سنة ١٢٥٨ م قتل المعز إيك قتله شجرة الدر غيلة في الحمام غير من خطته بنت لؤلؤ صاحب الموصل فنصبوا مكانه ابنه علياً ولقبوه بالنصور وثأروا به من شجرة الدر أي قتلوها بثأر المعز.

وفي هذه السنة أي سنة ١٢٥٨ م نقل إلى الملك الناصر صاحب دمشق ان المماليك البحرية الذين كانوا مقيمين عنده بعد مقتل اقطاعي يريدون أن يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وطلب انتزاحهم عن دمشق فساروا إلى غزة وانتموا إلى الملك المغيث صاحب الكرك وأرسل صاحب الشام عسكرياً في أثرهم فكبسهم فانهمزوا إلى اللقاء ملتجئين إلى صاحب الكرك فانفق فيهم أموالاً جزیلة واطعموه في ملك مصر، فجهزهم وساروا إلى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى الفريقان بالعباسية فانهمزت البحرية وعسكر صاحب الكرك وكان في جملة البحرية بيبرس البندقداري الذي صار بعد ذلك ملكاً. وبعد أن انهزمت البحرية عن مصر عادوا إلى الكرك وما زال صاحب الشام واجساً منهم ومن صاحب الكرك فبعث إليهم عسكريه عن دمشق فظفروا به واستفحل أمرهم بالكرك فسار الناصر صاحب الشام إليهم بنفسه سنة ٦٥٧ هـ سنة ١٢٦٠ م ومعه صاحب حماه فنزلوا على الكرك فحاصروها فأرسل صاحبها إلى الناصر في الصلح فشرط عليه أن يحبس البحرية فأجاب إلى شرطه ونما الخبر إلى بيبرس أميرهم فهرب في جماعة منهم ولحق بالناصر صاحب الشام وفي هذه الأثناء قدمت عساكر التتر إلى الشام وتملكوها كما ترى في الفصل التالي وهرب صاحبها إلى مصر أولاً ثم إلى تيه

العرب ثم حسن له أصحابه أن يقصد هولاءكو ملك التتر فأقبل عليه ووعدته برده إلى ملكه وأبقاه عنده، ثم اجتمعت عساكر المسلمين وساروا إلى الشام مع صاحب مصر وهو حينئذ الملك المظفر قطز الذي كان قد قتل المنصور علياً بن أيك واستبد بالسلطة وقتلوا التتر، فانهزم التتر وقتل أميرهم النائب عن هولاءكو فاحضر هولاءكو الناصر ولامه على ما كان منه من تسهيله عليه أمر الشام فاعتذر الناصر له فلم يقبل عذره ورماه بسهم فأنفذه، ثم أتبعه بأخيه الظاهر وبالصالح بن الأشرف صاحب حمص فانقرض بذلك بني أيوب من الشام كما انقرض ملكهم من مصر كما رأيت قبلاً ولم يبق منهم بالشام إلا المنصور ابن المظفر صاحب حماه وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦٢م. وعند عود المظفر قطز ملك مصر من الشام إلى مصر بعد انتصاره على التتر قتله يبيرس البندقداري وتبواً تحتة. انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون.

وكان بدء دولة الأيوبيين بصلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ١١٧٢م وتولى ملوك هذه الدولة سورية ومصر تارةً معاً وتارةً بانفصال المملكة الواحدة عن الأخرى وكان في سورية كحلب ودمشق وحمص وحماه وبلبك نوع من الاستقلال لكل عمل على حدة وإن كان الولاة عليها من الأمراء الأيوبيين إلى أن انقرض ملك الأيوبيين في مصر سنة ١٢٥٥م بقتل الملك الأشرف، قتله المعز أيك أحد المماليك البحرية واستبد بملك مصر وانقرض ملكهم بسورية بقتل هولاءكو ملك التتر الملك الناصر كما رأيت فكانت مدة ملك الأيوبيين في سورية ومصر نحو تسعين سنة وخلفتهم دولة المماليك البحرية ويسمون المماليك الترك.

عد ٨٧٣

تمة الكلام في حملة القديس لويس وعوده إلى فرنسا

ذكرنا قبلاً أن القديس لويس ملك فرنسا سار من دمياط وبلغ إلى عكا في ١٤ أيار سنة ١٢٥٠م، فالتقاء النصارى باحتفاء عظيم ثم عقد ديوان مشورته للبحث أبقى في الشرق أم يعود إلى مملكته، فرأى الأكثرون لزوم عودِه أمّا هو فأعلن أنّه لا يشاء أن يغادر مملكة أورشليم، ووعد أن ينفق على جميع الذين يبقون معه، وعاد أخواه إلى أوروبا وفشا الوباء في عكا فمات كثيرون من جنوده وصرف الملك عنايته

إلى تحصين المدن والقلاع التي كانت بيد الفرنج، وكان الأمراء المسلمون متشاغلين بمنازعاتهم الأهلية عن محاربة الفرنج فلم يشأ أمراء سورية أن يولوا على السلطنة امرأة هي شجرة الدر التي أقامها المصريون سلطنة عليهم، فانضمّ السوريون إلى الملك الناصر صاحب حلب ونادوا به سلطاناً عليهم وكان بين الفريقين ما ذكرناه من الحروب، وكان كل منهما يرسل الملك لويس ليتفق معه ويتقي مناوأة الفرنج له والملك لويس يقترح ما يعنّ له من الشروط، ثم عقدت بينه وبين أمراء مصر معاهدة من شروطها أنّ المماليك المصريين يخلون سبيل الأسرى النصارى الذين كانوا باقين بمصر وأولاد النصارى الذين كانوا قد أسلموا، ويرسلون رؤوس القتلى التي كانوا قد علقوها على أسوار القاهرة وإن يتخلّى المسلمون للفرنج عن أورشليم وسائر مدن فلسطين ما عدا غزة وقلعة داروم وقلعتين أخريين، وأنهم لا يحاربون أورشليم مدة خمس عشرة سنة، وإن الفريقين المتعاهدين يجمعان عساكرهما ويحاربان معاً وكل ما يغنمانه يقسم مناصفة بين الفرنج والمماليك. وعزم رؤساء المماليك أن يسيروا إلى غزة ومنها إلى يافا لاثبات المعاهدة ومفاوضة ملك فرنسة بما يتخذون من الوسائل للحرب، وعرف السلطان صاحب دمشق بهذه المعاهدة فأرسل عسكرياً من عشرين ألفاً خيّموا بين غزة وقلعة الداروم ليمنعوا الاتصال بين المصريين والفرنج فلم يحضر مفوضو المصريين في الأجل المعين إلى يافا إثمًا خوفاً من عسكر الشام وأما لاختلافات أهلية طرأت عليهم، لكنهم شرعوا يتممون بعض الشروط المتفق عليها فأرسلوا الأسرى ورؤوس القتلى وزادوا عليها فيلاً أهدها ملك فرنسة للملك انكلترا وكانوا يكررون وعدهم بأن يأتوا إلى يافا والملك لويس ينتظرهم حتى انقضت سنة ولم يحضر أحد منهم. وكان الملك فرنسة أن يعدل عن هذه المعاهدة التي لم يوقعوا عليها ويعقد مثلها بل أحسن منها مع سلطان دمشق فلم يفعل ولم يتقدّم الأمراء المصريون إلى الملك لويس بهذه المعاهدة إلّا لحاجتهم إليه ولأملهم أنّ نصارى الغرب يمدّونه بالعساكر، ولما رأوا عسكره قليلاً وإن اتفاهم مع النصارى يهيج المسلمين عليهم تباطأوا عن التوقيع على المعاهدة، وأرسل الخليفة من بغداد من يسعى في الصلح بين سلطان الشام وأمراء مصر على أن يتناسى السلطان سوء صنيع الأمراء ويظهر الأمراء ندامتهم على ما مضى، وطلبهم السلم. ولما كان كل من الفريقين قد ملّ من الحرب وانتصر المصريون مدة والسوريون مدة أخرى دون الوصول إلى وقعة فاصلة تقارب كل من الفريقين إلى الآخر، وامثلوا أمر الخليفة ووقع الصلح بينهم

والاتفاق على محاربة الفرنج. وسار الناصر صاحب الشام بعسكر حتى بلغ أسوار عكا وتهدد أن يقطع أشجار الجنات ويعطل الحقول إلا أن يدفعوا له خمسين ألف دينار، فأكره الفرنج أن يدفعوها أذ لم تكن لهم طاقة حيثئذ على الحرب فعاد الناصر إلى دمشق والممالك إلى مصر عازمين أن يعودوا في وقت آخر.

وضاعف الملك لويس عنايته بتحسين مدن الفرنج وأخذ في تجديد أسوار صيدا التي كان المسلمون قد أخربوها لما كان الملك لويس في مصر، وأوشكت هذه الأسوار أن تكمل فاذا بجماعة كثيرة من التركمان كبست صيدا وفيها قليل من الحامية وقتلوا من فيها من النصارى ودكوا ما بُني من الأسوار. وكان الملك في صور لما بلغته هذه الأخبار فصار مسرعاً إلى صيدا وجهز عسكراً أرسله في أثر التركمان إلى بانياس وكان يريد أن يسير به فمنعه ذروه من المسير ضناً براحته وحياته، ولما بلغ الفرنج إلى بانياس انهزم المسلمون منها وملك الفرنج المدينة، ولكن انحاز بعض الفرسان إلى قلعة قرية من المدينة فحاصروها فردهم عنها من كان فيها من المسلمين وتبعوا أثرهم فأوقعوا باقي عسكر الفرنج في الضيق، ومع ذلك مكنتهم شجاعتهم من كسرة المسلمين، لكنهم لم يقروا على أن يحفظوا بانياس فنهبوها وتركوها وعادوا إلى صيدا ولما أتى الملك من صور إلى صيدا رأى بعض جثث القتلى لم تدفن بعد فنزل عن جواده وحمل بيده مع غيره جثة متنتة لتدفن فأخذت الغيرة جنوده فدفنوا بالاكرام كلما وجد بها من الجثث.

وقد روى بعض علمائنا وكثيرون من مؤرخي الفرنج أنه لما كان الملك لويس التاسع في عكا أرسل الموارنة إليه هدايا مع الأمير سمعان وجماعة من رجالهم فرحب بهم الملك القديس وأكرمهم، وسوف نذكر في الملحق المعلق على آخر تاريخ هذا القرن رسالة هذا الملك إلى أمير الموارنة وبطريركهم وأساقفتهم، وأرسل أيضاً مقدّم الاسماعيلية أو النصيرية المعروف عند الفرنج بشيخ الجبل إلى الملك لويس وفداً ورسالة يزدلف بها إليه، فأجابه الملك على رسالته وأرسل إليه كاهناً عالماً يعرف اللغة العربية ليرشدهم إلى الإيمان بالمسيح، وعن بعضهم أنهم تظاهروا حيثئذ بالنصرانية وكانوا يمارسون بعض فروضهم منها تعييدهم بعض الأعياد السيديّة التي روى بعضهم أنهم يمارسونها حتى الآن.

وفي سنة ١٢٥٣م بلغ الملك لويس خبر وفاة أمه بلانش دي كستيل مدبرة الملك

في مدة غيابه فوجد لذلك كثيراً، ورأى أنه أصبح محتّماً عليه أن يترك الأرض المقدّسة ويعود إلى مملكته ومع ذلك أمر بإقامة صلوات وممارسات روحية ليلهمه الله إلى ما يشاءه، واجتمع أعيان الفرنج إلى الملك فاطروا غيرته وأدوه فرض الشكر على كل ما عمله وقاساه حباً بهم وسألوه أن يعود إلى مملكته التي لا تستغني عنه بغيره بعد وفاة والدته، وأبدوا أملهم بأن لا ينفكّ عن مساعدتهم في أوروبا بعد بلوغه إليها. وأبحر في ٢٤ نيسان من سنة ١٢٥٤م وصحبته الملكة مرغاريتا وثلاثة أولاد رزقهم في الشرق وترك في عكا مائة فارس من فرسانه بامرة جفروا دي سار جين وقد أخذ هذا الملك راية الصليب وسار إلى المشرق مرة أخرى كما سوف ترى.

عد ٨٧٤

اغارات التتر على سورية

منشأ التتر تركستان الصينية وتركستان الروسية وقد ظعنوا إلى ما جاورهم من البلاد ونكّلوا بأهلها أو أخرجوهم منها كما صنعوا بأهل خوارزم. وفي أوائل هذا القرن تملّكوا بلاد فارس وكان أول ملوكهم فيها جنكيز خان الشهير. وتأويل هذه الكلمة في لغتهم الملك الكلي القدرة أو ملك الملوك جنكيز خان قد اجتاحت البلاد الشرقية وأنزل بها الويل والدمار واتّصل إلى الصين وإلى روسية الجنوبية وإلى العراق والجزيرة وعند موته قسّم ملكه بين أولاده الأربعة وكان الخامس من ملوك التتر اسمه هولاكو وهو الذي أغار على سورية كما سنذكر هنا. في سنة ٦٥٧هـ سنة ١٢٦٠م قدم هولاكو إلى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على البلاد الجزرية وأرسل ولده سموط إلى الشام، فوصل إلى ظاهر حلب وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب بقتال التتر، وأكمن التتر في الباب المعروف بباب الله ولما وصل العسكر قاتلوه قليلاً واندفعوا قدامه حتى خرجوا عن البلد ثم عاد التتر على الحلبيين فهربوا طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد واختنق في الأبواب جماعة من المنهزمين ثم رحل التتر إلى اعزاز فتسلّموها بالأمان.

وبلغ الملك الناصر صاحب دمشق وحلب ما صنعه التتر بحلب فسار من

دمشق إلى برزه، وأتى إليه الملك المنصور صاحب حماه واجتمع عنده أُم عظيمة من العساكر ومن جفلوا من بين أيدي التتر، وعلم حينئذ أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله فهرب إلى قلعة دمشق سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦١ م، وتعذر عليه أن يناوئ التتر الذين عادوا من اعزاز إلى حلب وأحاطوا بها وهاجموها من عند حمام حمدان في ذيل قلعة الشريف وبذلوا السيف في المسلمين فقتل منهم جماعة كثيرة، وصعد إلى القلعة خلق عظيم ودام القتل والنهب من يوم الأحد إلى يوم الجمعة حين أمر هولاء برفع السيف، ونودي بالأمان ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأوا إلى بعض دور قيل لفرمانات كانت بأيدي أصحابها وإن عددهم يزيد على خمسين ألف نفس. ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها الملك المعظم المذكور واشتدّت مضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالأمان وجعل هولاء النائب بحلب عماد الدين القزويني، ووصل إلى حلب الملك الأشرف صاحب حمص فأكرمه هولاء وأعاد إليه حمص. وكان الملك الناصر صاحب حلب قد أخذها منه وعوضه عنها تل باشر كما مر فأقره هولاء بها. ووصل إلى هولاء أيضاً محيي الدين بن الزكي من دمشق فأقبل عليه وولاه قضاء الشام ولما عاد إلى دمشق لبس خلعة هولاء وكانت مذهبة وجمع الفقهاء وغيرهم من أكابر دمشق وقرأ عليهم تقليد هولاء. وجاء أكابر حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح مدينتهم سلموها إلى هولاء وطلبوا منه الأمان لأهل حماه وشحنة يكون عندهم، فأثمنهم وأرسل إليهم شحنة خسرو شاه فتولى المدينة وأمن أهلها وكان صاحب حماه الملك المنصور توجه إلى الملك الناصر بدمشق وصحبه بفراره.

ثم سار هولاء إلى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب، فأحضره هولاء وسلموها إليه فغضب هولاء وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبى النساء وعاد هولاء إلى الشرق لدواع حملته على العود وأمر عماد الدين القزويني الذي كان قد جعله نائباً بحلب أن يرحل إلى بغداد، فرحل إليها وجعل مكانه بحلب رجلاً أعجمياً وأمر هولاء بخراب أسوار قلعة حلب وأسوار المدينة، فخربت عن آخرها وأمر الأشرف صاحب حمص أن يعود إليها ويخرب في طريقه سور قلعة حماه فخربه ولم يخرب أسوار المدينة لقرب الفرنج إليها بحصن الأكراد، فإذا خربت أسوارها يتيسر للفرنج أخذها وأتاب هولاء عنه على جيشه كتبغا فسار بالجيش إلى دمشق فملكها بالأمان ولم يتعرض العسكر إلى

قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق فحاصرها التتر وجرى على أهل دمشق بسبب هذا العصيان شدة عظيمة، وأقاموا المجانتى على القلعة وضابقوها ثم تسلّموها بالأمان ونهبوا جميع ما فيها وخزّبوا أسوارها وأخذوا بعلبك وعجلون وأخرجوا نقيب قلعة دمشق وواليتها من الاعتقال وضربوا أعناقهما بداريا.

واجتمعت العساكر الإسلامية في مصر واشتهر عند أهل دمشق خروجها لقتال التتر فأوقعوا بالنصارى وكانوا قد استطالوا بدق النواقيس وادخال الخمر إلى الجامع، فنهبهم المسلمون وخزّبوا كنيسة مريم العظيمة وكانت في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين، وكان في الجانب الذي فتحه أبو عبيدة بالأمان كنيسة ملاصقة للجامع فبقيت بيد النصارى، فلما ولي الوليد بن عبد الملك الخلافة خرب الكنيسة الملاصقة للجامع وأضافها إليه ولم يعوض النصارى عنها، فلما ولي عمر بن عبد العزيز عوضهم كنيسة مريم عن تلك الكنيسة فعمّروها عمارة عظيمة وبقيت كذلك حتى خربها المسلمون في التاريخ المذكور (أبو الفداء وابن خلدون).

وسار الملك المظفر قطز ملك مصر بالعساكر الاسلامية لقتال التتر وصحبته الملك المنصور صاحب حماه ولما بلغ ذلك كتبغا نائب هولاء على الشام جمع من في الشام من التتر وسار إلى لقاء المسلمين وتقارب الجمعان في الغور واقتتلا فانهمز التتر هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا وأسر ابنه وفرّ من بقي إلى رؤوس الجبال وتبعهم المسلمون فأفنوهم وهرب من سلم منهم إلى المشرق وكان في صحبتهم الأشرف صاحب حمص ففارقهم وطلب الأمان من المظفر فأمنه ووصل إليه فأكرمه وأقرّه على ما بيده وهو حمص وما يضاف إليها وضرب عنق الملك السعيد صاحب الصبية إذ كان مع التتر وأخذ أسيراً وأعاد الملك المنصور صاحب حماه إلى ملكه وأعاد إليه المعرة وكانت في يد الحلبيين، وأتمّ المظفر قطز سيره إلى دمشق فابتهج المسلمون بقدومه وتضاعف شكره لله تعالى على هذا النصر العظيم وأمر بشنق جماعة المنتسبين إلى التتر فشنقوا وقال بعض الشعراء بذلك:

هلك الكفر بالشام جميعاً واستجدّ الاسلام بعد دحوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم فاعتزنا بسمره وببيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا دائماً مثل واجبات فروضه

وهنا الشيخ شرف الدين شيخ المشايخ الملك المنصور صاحب حماه بنصره
وعودة المعرة إليه بأبيات منها:

رعت العدى فضمنت ثل عروشها ولقيتها فأخذت تل جيوشها
نازلت أملاك التتار فانزلت عن فعلها قسراً وعن اكديشها
فغدا لسيفك في رقاب كماتها حصد المناجل في ييس حشيشها
فقت الملوك ببذل ما تحويه إذ ختمت خزائنها على منقوشها

وجهاز قطز عسكرياً إلى حلب لحفظها وجعل شمس الدين اقوش البرلي أميراً
بالسواحل وغزة وفوض نيابة السلطنة بدمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي،
وفوض نيابة السلطنة بحلب إلى الملك السعيد صاحب الموصل، وسار الملك المظفر
قطز من دمشق عائداً إلى مصر فقتله في طريقه ركن الدين بيبرس البندقداري وأخذ
السلطنة وكان قطز قد استتاب علم الدين سنجر الحلبي بدمشق كما مرّ فبعد مقتل
قطز جمع علم الدين الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة فأجابه الناس إلى ذلك ولقب
نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وعرف التتر بذلك
فعادوا إلى الشام مرة أخرى فساروا إلى البيرة وكان قطز قد قرر بحلب الملك
السعيد وأقام معه حامية فابغضته وخلعته وأقامت مكانه حسام الدين الجوكندار
وسار التتر من البيرة إلى حلب فاندفع حسام الدين وعسكره بين أيديهم وانهزموا
إلى جهة حماه فملك التتر وأخرجوا أهلها إلى محل اسمه قرنيا (أي مقر الأنبياء)
وبذل التتر فيهم السيف فأفنوا أغاليهم وسلم قليل منهم ووصل حسام الدين
وعسكره إلى حماه فضيفهم صاحبها وهو خائف من غدرهم ثم وصلوا من حماه
إلى حمص وقارب التتر حماه ففرّ صاحبها أيضاً إلى حمص ولحقهم التتر إليها
فاقتتل الفريقان على حمص قتالاً شديداً كان آخره ان هزم التتر وتبعهم المسلمون
يقتلون ويأسرون منهم كيف شاءوا ورجع إلى حماه الملك المنصور صاحبها وانضمّ
من سلم من التتر إلى باقي جماعتهم، وكانوا نازلين قرب سلمية فزلوا على حماه
يوماً واحداً ثم رحلوا عنها وكان ذلك سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦١م وقد عاد التتر بعد
ذلك إلى الشام كما سترى (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون).

بعض الأحداث في أيام الملك الظاهر بيبرس البندقداري

بعد أن قتل ركن الدين بيبرس البندقداري قطز سنة ٦٥٨هـ سنة ١٢٦٠م استقرّ في السلطنة وتلقّب بالملك القاهر، ثمّ غير هذا اللقب وتسمّى الملك الظاهر لأنّه قيل له إنّ لقب القاهر غير مبارك ما تلقّب به أحد وطالت مدته. وكان قطز قد استناب علم الدين سنجر الحلبي بدمشق فلما قتل قطز حلف الحلبي الناس لنفسه واستقلّ بدمشق، كما مرّ ففي سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦١م جهز الملك الظاهر بيبرس عسكرياً مع علاء الدين البندقداري وهو أستاذ الملك الظاهر لقتال علم الدين، فخرج علم الدين إليهم واقتتلوا في ظاهر دمشق فولى علم الدين وأصحابه منهزمين ودخلوا قلعة دمشق إلى أنّ جنّ الليل فهرب إلى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل إلى الديار المصرية، فاعتقل ثمّ أطلق واستقرّت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماه وحمص وحلب، واستقرّ ايدكين البندقدار الصالح في دمشق لتدبير أمورهما، وورد عليه مرسوم الملك الظاهر بالقبض على بهاء الدين الأشرفي وشمس الدين أقوش البرلي وغيرهما من العزيزية والناصرية، وتوجّه بهاء الدين إلى علاء الدين أمير الجيش فقبض عليه فاجتمع العزيزية والناصرية إلى أقوش البرلي وخرجوا من دمشق ليلاً، وأرسل علاء الدين إلى البرلي يطيب قلبه ويحلف له فلم يلتفت إلى ذلك وسار إلى حمص وطلب من صاحبها الأشرف أن يوافق على العصيان فلم يجبه إلى ذلك، ثمّ توجّه إلى حماة وأرسل يقول للملك المنصور صاحبها لم يبق من البيت الأيوبي غيرك قم لتصير معك وتملك البلاد، فردّه رداً قبيحاً فاغتاز البرلي ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر، وسار إلى شيزر ثمّ إلى جهة حلب وكان فيها فخر الدين الحمصي قد أرسله علاء الدين نائب دمشق للكشف عن البيرة من التتر الذين نازلوها فقال البرلي لفخر الدين نحن في طاعة الملك الظاهر فمضي إليه ونسأله أن يتركني ومن في صحبتي مقيمين بهذا الطرف ولا يكلفني وطأً بساطه فسار فخر الدين إلى مصر ليؤدي هذه الرسالة فاستبدّ البرلي في حلب وجمع العرب والتركان واستعدّ لقتال عسكر مصر. وكان الملك الظاهر قد أرسل جمال الدين المحمّدي الصالح لقتال البرلي وأمر فخر الدين المذكور بالانضمام إليه ورضي الملك

الظاهر عن علم الدين المذكور وأرسله معهما لقتال البرلي، فساروا إلى حلب وطرده منها وبقيت البيرة في يده. ففي سنة ٦٦٠ هـ سنة ١٢٦٢ م دخل في طاعة الملك الظاهر فأكثر من الاحسان إليه والعطاء له وسأله البرلي أن يقبل البيرة منه فلم يفعل، وما زال يعاوده حتى قبلها. ثم تغيّر الملك الظاهر عليه سنة ٦٦١ هـ سنة ١٢٦٣ م فقبضه وكان آخر العهد به. وكان التتر قد قتلوا الخليفة المستعصم العباسي سنة ١٢٥٨. ففي سنة ١٢٦١ قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص اسمه أحمد شهدوا أنه ابن الظاهر محمد ابن الامام الناصر فيكون عم المستعصم، فعقد الملك الظاهر يبيرس مجلساً حضر فيه من أكابر العلماء وشهد أولئك العرب كما تقدّم، وأثبت القاضي نسب أحمد المذكور وبايعه الملك والناس بالخلافة ولقّب المستنصر بالله، وأنفق الملك الظاهر مالاً جسيماً في عمل آلات الخلافة لأحمد المذكور وفي استخدام عسكر له، ثم توجه به إلى دمشق ثم جهزه إلى بغداد طمعاً في أنه يستولي عليها ويجتمع عليه الناس. فسار الخليفة بعسكره من دمشق وعاد يبيرس إلى مصر فوصلت إليه فيها كتب الخليفة انه استولى على عانة والحديثة وان كتب أهل العراق وصلت إليه يستحثونه على المسير إليهم، وقبل أن يصل إلى بغداد وصلت إليه التتر وقتلوه وغلب أصحابه. وكان في حلب رجل من العباسيين هو أحمد أبو العباسي ابن علي نجا مختفياً من بغداد فاستقدمه الملك الظاهر إلى مصر وبويع له بالخلافة ولقّب الحاكم بأمر الله، وطالت خلافته وتوفي سنة ٧٠١ هـ سنة ١٣٠٢ م واستمرّ هؤلاء الخلفاء في مصر على الخلافة الدينية ولا ولاية لهم إلى سنة ١٥١٧ حين تخلى الخليفة الأخير منهم عن الخلافة إلى السلطان سليم الأول العثماني فكان عدد العباسيين في مصر ١٥ خليفة وعددهم في العراق ٣٧ خليفة.

وفي سنة ٦٦٠ هـ سنة ١٢٦٢ م جهز الملك الظاهر عسكراً إلى حلب مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب، ثم أمر سنقر المذكور والملك المنصور صاحب حمص والأشرف صاحب حماه أن يغيروا على أنطاكية فساروا ونهبوا بلادها وضايقوها وأخذوا ما يفوق على ثلاث مئة أسير.

وفي سنة ٦٦١ هـ سنة ١٢٦٣ م سار الملك الظاهر من مصر إلى الشام فلاقته والدة الملك المغيث صاحب الكرك فوثقها بالأمان لابنها وأحسن إليها وكان في قلبه غيظ عظيم على المغيث وحلف لوالدته وكان يجتهد على حضوره إليه، فأغراه الأمجد رسول المغيث إلى الملك الظاهر حتى حضر وكان الخوف في قلبه شديداً

ونصحه ابن مزهر ناظر خزائنه أن يقر قبل أن يصل إلى الملك الظاهر ويعود إلى الكرك فلم يمتثل نصيحته وسار حتى وصل إلى بيسان حيث كان الملك الظاهر، ولاقاه الملك الظاهر وجامله خدعة، ولما قرب من دهليز الملك قبض عليه واعتقله وأرسله إلى مصر فكان آخر العهد به، ثم قبض على جميع أصحابه وفي جملتهم ابن مزهر المذكور. وكان للمغيث ولد يقال له الملك العزيز وأعطاه الملك الظاهر إقطاعاً في مصر وسار الملك الظاهر إلى الكرك فتسلمها ورثب أمورها وعاد إلى مصر. وفي السنة المذكورة توفي الملك الأشرف صاحب حمص فكان آخر الملوك على حمص من بيت شيركوه الأيوبي وانتقلت حمص إلى مملكة الملك الظاهر (انتهى ملخصاً عن أيي الفداء وابن خلدون).

عد ٨٧٦

حروب الملك الظاهر مع الفرنج إلى حين وفاته

نلخص أولاً ما قاله المؤرخون المسلمون ولاسيما أبو الفداء وابن خلدون قالوا: «في سنة ٦٦٣هـ سنة ١٢٦٥م سار الملك الظاهر ببيرس من مصر بعساكره المتوافرة إلى جهاد الفرنج بالساحل، ونازل قيسارية الشام في تاسع جمادي الأولى وضايقها وفتحها بعد ستة أيام، وأمر بها فهدمت، ثم سار إلى أرسوف ونازلها وفتحها في جمادى الآخرة من السنة المذكورة وعاد إلى مصر. وفي سنة ٦٦٤هـ سنة ١٢٦٦م خرج الملك الظاهر من مصر ثانية وسار إلى الشام وجهاز عسكرياً إلى ساحل طرابلس ففتحوا القليعات وحلباً وعرقاً ونزل هو على صفد وضايقها بالزحف وآلات الحصار ولاصق الجند القلعة وكثر القتل والجراح في المسلمين، ثم فتحها بالأمان وقتل أهلها عن آخرهم وسيّر عسكره إلى الأرمن ووصلوا إلى بلاد سيس فانتصروا على صاحبها وقتلوا أحد أولاده وأسروا الآخر ورجعوا وأيديهم ملأى من الغنائم، وخرج الملك الظاهر للقتال فتنزل إلى قارا بين دمشق وحمص فأمر بنهب أهلها وقتل كبارها فنهبوا وقتل منهم جماعة لأنهم كانوا نصارى وكانوا يسرقون المسلمين ويبيعونهم للفرنج وأخذت صبيانهم ممالك فتربوا بين الترك في مصر فصار منهم أخيار وأمراء.»

وفي سنة ٦٦٦هـ سنة ١٢٦٨م توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة إلى الشام

ففتح يافا وأخذها من الفرنج ثم سار إلى أنطاكية ونازلها وزحفت العساكر الإسلامية إليها فملكوها بالسيف وقتلوا أهلها وسبوا ذراريهم وغنموا منهم أموالاً جلية وكانت أنطاكية للبرنس ييموند بن ييموند وله معها طرابلس وكان مقيماً بطرابلس لما فتحت أنطاكية ولما سمع أهل قلعة بغراس بفتح أنطاكية هربوا وتركوا الحصن خالياً فأرسل الملك الظاهر من استولى عليه وشحنه بالرجال والعدد وصار من الحصون الإسلامية.

وفي سنة ٦٦٨هـ سنة ١٢٧٠م عاد الملك الظاهر إلى الشام وأغار على عكا فرأى أنَّ لا مطمع له فيها وقتئذ فتوجه إلى دمشق ثم إلى حماه وجهاز عسكرياً إلى بلاد الاسماعيلية فتسلّموا مصياف وعاد من حماه إلى دمشق ثم إلى مصر.

وفي سنة ٦٦٩هـ سنة ١٢٧١م عاد الملك الظاهر من مصر إلى الشام ونازل حصن الأكراد وهو للفرنج وجدّ في حصاره واشتدّ القتال عليه وملكه بالأمان ثم رحل عنه إلى حصن عكا ونازله وجدّ في قتاله وملكه بالأمان فقال محيي الدين ابن عبد الظاهر مهنيّاً له بفتوح عكار:

يا مليك الأرض بشرا كَ فقد نلت الارادة

(ويروى السعادة)

إن عكار يقيناً هو عكا وزياده

(ويروى لعمرى موضع يقيناً)

ثم تسلّم قلعة العليقة وبلادها من الاسماعيلية ونازل حصن القرين وضيق عليه إلى أن استلمه بالأمان وأمر به فهدم ثم جهاز ما يزيد على عشرة شوان لغزو قبرص فتكسرت في مرسى اليمبسوس وأسر الفرنج من كان في تلك الثواني فاهتمّ بعمار شوانٍ آخر فعمل في المدة اليسيرة ضعف ما تكسّر.

وفي سنة ٦٧٦هـ سنة ١٢٧٨م توفي السلطان الملك الظاهر بيبرس أبو الفتح الصالحى النجمي بدمشق ودفن فيها قرب الجامع الأموي، وكنم مملوكه بدر الدين تتليك المعروف بالخنزدار موته وارتحل بالعساكر ومعهم الحفّة مظهرّاً أنَّ الملك فيها وأثّه مريض، وكان الملك الظاهر حلف العسكر لولده بركة ولقبه الملك السعيد، ولما وصل بدر الدين بالعسكر إلى القاهرة أظهر موت الملك الظاهر وجلس ابنه الملك

السعيد للتعزية واستقرّ في السلطنة وكانت مدّة ملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة .
وأما ما قاله المؤرخون الفرنج عن حروب الملك الظاهر معهم فهذا خلاصته :
« كان التتر يأمنون أحياناً الفرنج عند غزواتهم لسورية كيلا يتجشمون حرب المسلمين
والنصارى معاً ولم يكن الفرنج المقيمون بسورية على وفاق بينهم بل كانت عداوة
شديدة بين أهل جنوا وأهل البندقية المتوطنين بعكا ، ولما كان القديس لويس ملك
فرنسة بسورية أصلح بينهم ومنعهم من العود إلى الخلاف ، وبعد أن رجع إلى الغرب
عادت العداوة بينهم حتى اتّصلت إلى سكان بلادهم في أوروبا ، ولم يكن لأورشليم
ملك إلاّ بالاسم فقط وكانت أوروبا في أسوأ حال من جراء تهديد البربر لها أيضاً
ومن الاختلافات بين ملوكها والانقسامات الداخلية أيضاً في بعض ممالكها . وزاد في
الطين بلّة وفي الطنبور نعمة سقوط مملكة اللاتين في قسطنطينية لأنّ الملك ميخائيل
باليلوغوس طرد منها الملك بودوين الثاني سنة ١٢٦١م . ففي هذه الحال السيئة قام
في السلطنة الإسلامية الملك الظاهر بيبرس الذي لقّبه عماد دين الإسلام وكنّوه بأبي
الفتوحات . ففي سنة ١٢٦٣م بعد أن أخرب بلاد أنطاكية سار بعساكره المتوافرة إلى
فلسطين فارتاع الفرنج من دنوهم إليهم وأرسلوا يطلبون منه الأمان فأرسل وحرّق كنيسة
الناصرية ونهبت عساكره كل البلاد التي بين ناين وجبل طابور وأتوا فحلّوا تجاه عكا .
ومن الغريب أنّ الملك الظاهر استطاع أن يغري أمير صور الفرنجي ليعاونه على عكا
فوعده بالإجابة إلى ذلك واتّفق مع أهل جنوا وحاصر عكا بحراً حين كان بيبرس
يحاصرها براً ومما يؤيد ذلك رسالة أنفذها البابا أوربانوس الرابع إلى الجنوئين الذين
بفلسطين يؤنّبهم ويلومهم على سوء عملهم بسورية ، على أنّ أمير صور ارعوى عما
وعده به بيبرس وكفّ عن حصار عكا فاستشاط بيبرس من أخلاف الأمير وعده له
وجاهر بأنّه سوف ينتقم من الفرنج ، فأخرج القرى والمزارع وقام سكان المدن على
أسوارها ينتظرون يوماً فيوماً قدوم الأعداء إليهم . »

وقصد بيبرس قيسارية سنة ١٢٦٥م فدافع أهلها شديد الدفاع ولما عيسوا تركوا
المدينة وامتنعوا بالقلعة لكنّها على مناعتها لم تقوَ على مهاجمات عسكر بيبرس
فافتتحوها وساروا منها إلى أرسوف ، فحصر أهلها بالجهاد وألقى المسلمون أخشاباً
وأشجاراً في خنادق المدينة ليعبروا إلى أسوارها فخرقها الفرنج ، وأخذ كل فريق منهم
يلغم ليقْتلوا تحت الأرض أيضاً ولم يكن ما يبرد حمية الفرنج ولا ما يخمد جذوة
غضب بيبرس . واستشهد المؤرخون الفرنج بقول المقرئزي إنّ كثيرين من الأغنياء

والزهاد والفقهاء المسلمين انضموا إلى جيش بيبرس ليفتحوا أرسوف وإن عساكر المسلمين لم يروا حينئذ الفرنج يشربون خمرًا أو يأتون منكراً بل كانوا يرون بعض السيدات يحملن الماء والزاد للمحاربين ويلزمنهم عند انتقاد وطيس الحرب أيضاً، ويساعدنهم في نقل آلات الحصار. وقد استمر الحصار أربعين يوماً وأخيراً خفقت أعلام بيبرس على أبراج أرسوف ودخل المسلمون إليها فصلوا في كنائسها التي حولها جوامع وقتلوا الكثيرين من سكانها واستبعدوا الباقين منهم ووزعهم بيبرس على رؤساء جيشه، وأمر بارسوف وهدمت وأكره الأسرى أن يهدموا منازلهم بأيديهم. وقسم أرضها على أمرائه وعاد بيبرس إلى مصر ثم سار ثانية إلى سورية سنة ١٢٦٦م فنهبت عساكره بلاد صور وعكا وطرابلس وكانت غنيمة عساكره عظيمة حتى روى المقرئ أنه لم يبق من يشتري البقر والغنم وغيرها من الدواب ولو بأبخس الأثمان. وأتى فحاصر قلعة صفد وكانت تخص الفرسان الهيكليين وشد الحصار عليها حتى كان يشاطر جنوده الجهاد في فتحها وعرض نفسه أكثر من مرة للخطر ودافع من فيها من الحامية مدافعة الأبطال وروعت بسالتهم المسلمين، ولم يُجد على بيبرس تشجيع جنوده ولا عقابه من فر منهم ولا حبسه بعض أمرائه لأنهم تركوا مواقفهم ولا وعده من صبر على القتال بأعظم المجازات بل نفعت حيله ودهاؤه، فإنه أكثر من المراسلات إليهم والوعود الكاذبة لبعضهم والوعيد لغيرهم حتى مكن الانقسام بينهم فصار بعضهم يرى المصلحة في الاستسلام إليه وغيرهم يراها بالمدافعة حتى الموت وأخذ بعضهم يشكو بعضاً بالخيانة ويوقع الشبهة على صدق أمانته فضعفت عزيمتهم وتفرقت كلمتهم فنقصت قوتهم وأكثر جنود بيبرس من المهاجمات لهم وكادت منجنيقاتهم تخرق الأسوار فاستسلموا على شرط أن يتوجهوا حيث شاءوا ولا يأخذوا معهم سوى ملابسهم، فبذل لهم بيبرس الأمان على ذلك لكنه لما رآهم خارجين من القلعة شكاهم بأنهم حملوا نقوداً وأشياء نفيسة فقبض عليهم جميعاً وكانوا ست مئة مقاتل وعلى رواية بعض المؤرخين العرب كانوا ألفين، فأمر بقتلهم ولم يستبق إلا اثنين منهم أحدهما أرسله إلى عكا ليخبر الفرنج بما كان في صفد والثاني أسلم فسلم وعاد بيبرس بعد أخذ صفد إلى مصر ثم رجع إلى سورية وجهاز الحملة على ملك الأرمن مدعياً عليه أنه دعا التتر إلى سورية فانتصر عليه كما روى المؤرخون العرب وفرض ضريبة على المسلمين لنفقة الحرب التي كان يسميها الحرب المقدسة. وحاول نخبة من الفرنج أن يغيروا على جهة طبرية فالتقاهم

المسلمون فشتتوا شملهم وقتلوا كثيرين منهم وقد أخذ المؤرخون الفرنج هذا الخبر عن المقيزي. وأرسل الفرنج يسألون هدنة فلم يجيبهم إليها بل أسرع بنفسه إلى ظاهر عكا فأرأوه ممتطياً جواده منتصباً سيفه ينادي بخراب عكا وقتل سكانها واستمر محاصراً للمدينة أربعة أيام ورحل عنها بغتة إلى يافا وكان من دأبه أن يشغل أعداءه في مواضع كثيرة بوقت واحد ليتقي تأليبهم عليه، وكان القديس لويس ملك فرنسا حصن يافا ولكن لم يصبر سكانها على الدفاع فملكها بيبرس ودك أسوارها وكان ذلك سنة ١٢٦٧م ثم سار إلى طرابلس ولما سأله بيوموند لِمَ أتيت أجابه أتيت الآن لأحصد زرع أرضك وسوف آتي فأحصر مدينتك».

وكان من مدة طويلة ينوي فتح أنطاكية ففي سنة ١٢٦٨م ساق إليها جنوده وكان بيوموند في طرابلس التابعة لولايته والبطريك يدبر شؤون الحكومة مدة غيابه وكان كثيرون من سكانها قد ارتحلوا عنها فجبجبن الفرنج في الدفاع عنها وأكثروا من التضرع والاسترحام للغازي فلم يعطف إلى الإجابة، وقد أسكره ظفريه وهام بتدمير مدن الفرنج عن آخرها، فدخل المسلمون المدينة عنوة فلم يبقوا على أحد ممن وجدوا من سكانها واستحلوا دم الفرنج وعرضهم وأموالهم وكتب بيبرس حينئذ رسالة لبيوموند صاحب أنطاكية وهو بطرابلس ومما قاله فيها وهو مترجم عن الفرنسية إذ لم نعثر على النص العربي: « فاجأ الموت قومك من كل جهة وفي كل طريق فقد قتلنا كل من اخترتهم لحراسة مدينتك والدفاع عنها فلو رأيت فرسانك تطأهم أرجل خيلنا أو رأيت أعمالك منهوبة وأموالك موزونة بالقنطار ونساء رعاياك مباعة بالخرج أو رأيت الصليبان مطروحة على الأرض وأوراق الإنجيل ممزقة وملقاة في الجو للرياح ومدافن البطارقة منجسة أو رأيت أعدائك المسلمين يذبحون الرهبان والكهنة والشمامسة على المذابح ورأيت الدور محروقة وكنيسة القديس بولس وكنيسة القديس بطرس مدكوكتين لعمرى لو رأيت كل ذلك لصحت يا ليتني كنت غباراً».

وقسم بيبرس الغنائم على جنوده واقتسم الممالك النساء والبنات والأولاد وكان يباع الولد الصغير باثني عشر درهماً والبنت بخمسة دراهم فهلك سكان أنطاكية جميعهم في يوم واحد وأحرق بيبرس بيوتها ومساكنها. وقال أكثر المؤرخين إن عدد القتلى من النصارى بلغ إلى سبعة آلاف قتيل وعدد الأسرى مئة ألف أسير وكان فتح أنطاكية في أول أيار سنة ١٢٦٨م وقد فتحها الفرنج سنة ١٠٩٨م فتكون مدة

ملكهم لها مئة وسبعين سنة: وبعد أن بعث بيبرس رسالته إلى ييوموند أرسل إليه وفد وسار مع الوفد متنكراً ليكشف على تحصينات طرابلس وينظر في الوسائل اللازمة لفتحها، وكان الوفد يسمون ييوموند كونتاً وهو يريد أن يسمى أميراً، فأشار إليهم بيبرس أن يدعوه أميراً ورجع مع وفده يسخر من ييوموند بقوله أتت الساعة التي يلعب الله بها الأمير والكونت. وبعد ذلك عقد هدنة مع ييوموند ناوياً أن يخفي ما يكره ضميره ومتى حان الوقت لا تعوزه حيلة لنقض الهدنة. ولما أمسى الفرنج بسورية بهذه الحال السيئة الحرجة سار رئيس أساقفة صور اللاتيني ورئيس الفرسان الهيكليين والاسبيناليين إلى المغرب يستصرخون الكرسي الرسولي والملوك والشعوب لإنقاذهم، فكان جل من لبي دعوتهم القديس لويس ملك فرنسا. وفي سنة ١٢٧٠م سافر وبلغ إلى صقلية وكان أخوه شارل دانجو صار ملكاً على صقلية فاقنع الملك لويس أن يتوجه بعسكره أولاً إلى تونس فيدوخوا ويمنع سطو التونسيين على الفرنج الذين يأتون إلى فلسطين فسار الملك لويس إلى تونس وحاصرها ولكن دهمته المنية هناك فذهبت نفسه الصالحة تنال أجل برها ومبراتها في الإخدار السماوية في ٢٥ آب سنة ١٢٧٠م، وقد أحصاه في مصاف القديسين الحبر الروماني البابا يونيفاشيوس الثامن سنة ١٢٩٧م. وكان البابا غريغوريوس العاشر قد بدأ في الفحص عن دعوى تطويبه مذ سنة ١٢٧٣م ثلاث سنين بعد وفاته. وبعد وفاة الملك لويس انتصر ابنه الملك فيليب وعساكره على أمير تونس وأرغموه على معاهدة مع الفرنج مذلة له ومشرفة للفرنج. وفي جملة موادها إباحة النصارى مباشرة أمور دينهم وبناء المعابد والأديار لهم بل عدم التعرض لمن شاء من المسلمين أن ينتصر. وكان إدوار ابن انريكس الثالث ملك انكلترا لحق بالقديس لويس ملك فرنسا إلى تونس، وبعد وفاته سار إلى عكا اما ترواً إما بعد أن رافق جثة القديس لويس إلى صقلية على رواية أخرى، وكان صحبته نحو ثلثمائة فارس وألف راجل وانضم إليهم فرسان الهيكل والاسبيتال وجماعة من الفرنج حتى صار عسكرهم نحو سبعة آلاف مقاتل، فزحفوا أولاً إلى فينيقيا لإعادة الاتصال بين مدن النصارى وكان المسلمون قد قطعوه فعانوا مضض الحرّ وأفرط بعضهم في أكل الفواكه والعسل فمات بعضهم ثم توجهوا إلى الناصرة فملكوها. وتذكروا تدمير بيبرس كنيسة العذراء الشهيرة بهذه المدينة فقتلوا من وجدوا فيها من المسلمين ونهبوا بيوتهم وبعد هذا الانتصار لم يشأ الأمير إدوار أن يستأنف الحرب إمّا لأنه لم يَرِ قوة كافية للثبات في القتال إمّا لأنه رأى الفرنج المقيمين

بسورية لا يرغبون فيه، وإتّما لأنّه انخدع بمراسلة أمير يافا المسلم له واعداً بأن ينتصر وأن يسلم إليه هذه المدينة التي كان يليها من قبل بيبرس. وكثرت المراسلات بينهما وكان رسول أمير يافا رجلاً اسماعيلياً فدخل يوماً على الأمير ادوار وهو مضجع على فراشه فحمل عليه بمديّة جرحته في ذراعه فرفسه الأمير فألقاه على الأرض وأراد أخذ المدينة منه فجرح في جبهته ولما تناولها منه طعنه في بطنه وسمع الحجاب الصوت فدخلوا ووجدوا الاسماعيلي صريعاً، ولكن خافوا أن تكون المدينة مسعّمة. وروى بعض المؤرّخين أنّ الأميرة اليونارا زوجة إدوار أخذت تمتص جرح زوجها لتخرج السمّ منه، وروى آخرون أنّ رئيس فرسان الهيكل أرسل إليه للحال دواء لا يشك بنفعه ولكن لم ينجع هذا الدواء ولا غيره من العلاجات وخيف على حياة الأمير فحضر طبيب انكليزي وتعهّد بشفائه على شرط أن يبعد عنه الأميرة وحاشيته فأبعدوا. فقطع الطبيب كلما كان يراه أسود من لحم الأمير حول جرحه فبرأ بعد خمسة عشر يوماً. ولم يشأ إدوار بعد ذلك أن يبقى في فلسطين فعقد هدنة مع الملك بيبرس إلى مدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات. وبعد التوقيع عليها عاد إلى إنكلترا سنة ١٢٧١م وهكذا انتهت هذه الحملة التي هي الثامنة والأخيرة من حملات الفرنج على سورية.

عد ٨٧٧

خلافة ولدي الملك الظاهر له ثمّ خلعهما وتملك قلاوون الصالحى
قد مرّ أنّ الملك الظاهر بيبرس توفي بدمشق وكنتم نائبه ومملوكه بدر الدين موته إلى أن عاد بالعسكر إلى القاهرة، فأظهر موت الملك وجلس ابنه بركة في دست السلطنة سنة ٦٧٦هـ سنة ١٢٧٨م، ولقب الملك السعيد، واستمرّ بدر الدين تملك الخزنदार في نيابة السلطنة على ما كان عليه مع والده، لكنه مات بعد ذلك في مدّة يسيرة وتولى نيابة السلطنة بعده شمس الدين الفارقاني ولم يكن الملك السعيد يسمع له بل خبط وأراد تقديم الأصاغر، وأبعد الأمراء الأكابر، وقبض على سنقر الأشقر والبيسري وكانا من كبار قومه ففسدت نيّة الأمراء عليه. وفي سنة ٦٧٧هـ سنة ١٢٧٩م سار الملك السعيد إلى الشام بعسكره ووصل إلى دمشق وجرد منها عسكراً أمّر عليه الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى وأرسلهم للإغارة على سيس في بلاد الأرمن، فشتوا الإغارة وعادوا غانمين، واتّفقوا على الخلاف على الملك السعيد

وخلعه، وعبروا على دمشق ولم يدخلوها فأرسل إليهم الملك السعيد يستعطفهم، ودخل عليهم بوالدته فلم يلتفتوا إلى ذلك وأتموا السير إلى مصر، فركب الملك السعيد وسبقهم إلى القاهرة ودخل إلى قلعة الجبل فوصلت العساكر بعده في ربيع الأول سنة ٦٧٨هـ سنة ١٢٨٠م، فحاصروا الملك السعيد بالقلعة وخامر عليه من كانوا معه وأخذ أحدهم يهرب بعد الآخر وينضم إلى عسكر المحاصرين، ولما رأى الملك السعيد ذلك طأوعهم على الانخلاع من السلطنة وطلب أن يعطى الكرك فأعطوه إياها فسار إليها وتسلمها بما فيها من الأموال.

واتفق أكابر الأمراء الذين خلعوا الملك السعيد على إقامة أخيه بدر الدين سلامش في المملكة ولقبوه الملك العادل، وكان عمره إذ ذاك سبع سنين وشهوراً واختاروه صغيراً ليكون الأمر طوع أيديهم، وصار الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى أتابك العسكر (أي أمير الأمراء)، فجهز الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وأرسله إلى دمشق وجعله نائب السلطنة بالشام، وكان العسكر لما خالفوا الملك السعيد قد قبضوا على عز الدين أيدير نائب السلطنة بدمشق، وزولوا بعده بدمشق أقوش الشمسي نائب السلطنة بحلب، فسار سنقر الأشقر إلى دمشق وتولاها على أن هؤلاء الأمراء قد انقلبوا في السنة المذكورة نفسها على سلامش الذي ملكوه، فخلعوه وأجسلا الأمير قلاوون الصالحى أتابك المذكور على منصّة الملك ولقبوه الملك المنصور. ولما علم بذلك سنقر الأشقر الذي كان الأمير قلاوون قد أرسله إلى دمشق خرج عن طاعته بعد سلطنته وحلف له الأمراء والعسكر الذين عنده بدمشق واستبدّ بالملك وتلقّب الملك الكامل شمس الدين سنقر، فجهز عليه الملك المنصور قلاوون عساكر مصر مع علم الدين سنجر الحلبي الذي تقدّم ذكر سلطنته بدمشق بعد موت قطز، ولما قاربت عساكر مصر دمشق برز إليهم سنقر الأشقر بعساكر الشام واقتتل الفريقان في ظاهر دمشق فولى الشاميون وسنقر الأشقر منهزمين، ونهبت العساكر المصرية أثقالهم وكتب سنجر الحلبي إلى الملك المنصور يخبره بالنصر. وكان الملك المنصور قلاوون قد جعل مملوكه حسام الدين لاجين السلحدار نائباً بقلعة دمشق فاعتقله سنقر الأشقر عند خروجه فلما انهزم جعله قلاوون نائب السلطنة بالشام وأمّا سنقر الأشقر فأنه هرب إلى الرحبة، وكاتب ابغا بن هولأكو ملك التتر وأطعمه في البلاد وسار من الرحبة إلى صهيون واستولى عليها وعلى برزنه والشجر وبكاس وعكار وشيزر وإفاميا وصارت هذه الأماكن له، وتوفي أقوش الشمسي المذكور نائب السلطنة بحلب فولى

الملك المنصور سنجر الحلبي المذكور. وكثرت الأخبار أنّ التتر قادمون إلى حلب بجموعهم فصار قلاوون من مصر ووصل إلى غزة قاصداً دفع التتر عن البلاد، وكان التتر قد وصلوا إلى حلب فعاثوا ثم عادوا، فلما علم الملك المنصور بعودهم عاد هو أيضاً إلى مصر لكنه رجع إلى الشام ثانية سنة ٦٨٠ هـ سنة ١٢٨٢ م، ووصل إلى بيسان وقبض على جماعة من الظاهرية ودخل دمشق واعدم منهم جماعة، وأرسل عسكرياً إلى شيزر وهي لسنقر الأشقر كما مرّ وجرى بين العسكريين مناوشة وترددت الرسل بين السلطان قلاوون وبين سنقر الأشقر واحتاج السلطان إلى مصالحته ليقوى على التتر، فكان الصلح بينهما على أن يسلم سنقر شيزر إلى السلطان ويسترد سنقر الشجر وبكاس وكانتا قد أخذتا منه فتسلّم نواب السلطان شيزر وتسلّم سنقر الشجر وبكاس وحلفا على ذلك واستقرّ الصلح. وكان الملك السعيد بن بيبرس الذي ذكرنا خلعه من الملك وتولّيته الكرك قد مات، واتفق من بالكرك وأقاموا موضعه أخاه نجم الدين خضر ابن بيبرس ولقبوه الملك المسعود وكان من المخالفين للملك المنصور قلاوون فاحتاج إلى مصالحته فصالحه أيضاً سنة ٦٨٠ هـ سنة ١٢٨٢ م ليجمع كلمة المصريين والشاميين على مدافعتة التتر (عن أبي الفداء وابن خلدون).

عد ٨٧٨

وقعة حمص بين الملك المنصور قلاوون والتتر

في سنة ٦٨٠ هـ سنة ١٢٨٢ م حشد أبغا بن هولأكو ملك التتر عساكره وسار بها قاصداً الشام وانفرد عن جيشه فغنم وسار إلى الرحبة وسير جيوشه إلى الشام وقدم عليهم أخاه منكوتر بن هولأكو، فساروا إلى جهة حمص وكان الملك المنصور قلاوون بدمشق، فالتقاهم بالجيوش الاسلامية إلى حمص وأرسل يستدعي سنقر الأشقر ومن عنده من الأمراء والعسكر بحكم ما استقرّ بينهما من الصلح، فسار سنقر من صهيون إلى عسكر الملك المنصور ووصل إليه صاحب حماه الملك المنصور ورتب السلطان عساكره فكان في رأس الميمنة الملك المنصور محمّد صاحب حماه، وكان رأس الميسرة سنقر الأشقر ومن معه، وكان بر الميمنة العرب وبر الميسرة التركمان وكان في القلب حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة ومن أضيف إليه من الأمراء والعساكر، والتقى الفريقان بظاهر حمص في الساعة الرابعة من يوم الخميس رابع عشر رجب الفرد، وأنزل الله نصرته على القلب والميمنة

فهبزمو من كان قبالتهم من التتر وركبوا أقفاءهم يقتلونهم، وكان أخو ابغا قبالة القلب فانهزم أيضاً وأما ميسرة المسلمين فانكشفت عن مواقعها وانهزم بعض رجالها إلى جهة دمشق وسافر التتر في اثرهم حتى وصلوا إلى تحت حمص ووقعوا في السوقية وغلمان العسكر والعوام فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ثم علموا بنصرة المسلمين في القلب والميمنة وهزيمة جيشهم فولى هؤلاء أيضاً على أعقابهم وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون. وكان عدد التتر ثمانين ألف فارس منهم خمسون ألفاً من المغول والباقي حشود وجموع من امم مختلفة مثل كرج وأرمن وعجم وغيرهم. ولما وصل خبر هذه الكسرة إلى ابغا وهو على الرحبة يحاصرها رحل عنها على عقبة منهزماً وصرف الملك المنصور قلاوون العساكر الإسلامية فرجع كل منهم إلى محله وعاد هو إلى دمشق والأسرى والرؤوس بين يديه، ثم عاد إلى الديار المصرية ومات بعد ذلك منكوبتر أخو ابغا المذكور ابن هولاكو مكموداً عقيب كسرتة على حمص. وفي سنة ٦٨١هـ سنة ١٢٨٣م مات ابغا أيضاً ابن هولاكو بن جنكيز خان ملك التتر، ولما مات ابغا ملك بعده أخوه أحمد بن هولاكو. ولما جلس في الملك أظهر دين الإسلام وتسمى أحمد سلطان وكان اسمه بيكدار، وأرسل رسلاً إلى السلطان الملك المنصور وقلاوون فاحترز عليهم السلطان ولم يمكن أحداً من الاجتماع بهم وكان مضمون رسالتهم اعلام السلطان باسلام أحمد وطلب الصلح بين المسلمين والتتر فلم ينتظم ذلك.

ثم خرج ارغون بن ابغا بخراسان على عمه أحمد سلطان المذكور سنة ٦٨٢هـ سنة ١٢٨٤م واقتتلا، فانهزم أرغون وأخذه عمه أسيراً، وسأله الخواقين إطلاق ابن أخيه أرغون واققراره على خراسان فلم يجب إلى ذلك، وكانت خواطر المغول أي التتر قد تغيرت على أحمد بسبب اسلامه والزامه لهم بالإسلام فاتفقوا على قتله، وقصدوا ارغون بالموضع الذي هو معتقل فيه فأطلقوه وقتلوا نائب أحمد ثم ساروا لقتل أحمد فأحسن بهم فهرب فبعوه وقتلوه وملكوا أرغون. (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون وغيرهما).

عد ٨٧٩

وفاة صاحب حماه وفتح قلعة المرقب وصهيون

في سنة ٦٨٣هـ سنة ١٢٨٥م توفي الملك المنصور صاحب حماه وهو من

الأيوبيين وكانت مدّة ملكه على حماه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام، وكان قد أوصى بأن يخلفه الملك المظفر وكتب في ذلك إلى السلطان الملك المنصور قلاوون فلم يرد الجواب منه إلّا بعد وفاة الملك المنصور، وبه يدعو السلطان الملك المنصور لصاحب حماه بطول البقاء والبرء من المرض، ويعدّه باقرار ابنه الملك المظفر على حماه إذ لم يفسح الله بأجله. وبعد وفاة الملك المنصور أرسل السلطان قلاوون إلى ابنه الملك المظفر التشاريف ومرسوم اقراره في مملكة حماة، وفي سنة ٦٨٤هـ سنة ١٢٨٢م سار الملك المظفر صاحب حماه إلى دمشق حيث كان السلطان قلاوون يشكر له فأكرمه السلطان إكراماً كثيراً.

وفي السنة المذكورة أي سنة ١٢٨٦م سار السلطان قلاوون بالعساكر المصرية والشامية ونازل حصن المرقب، وكان هذا الحصن لفرسان الاسبيتال وكان في غاية العلو والحصانة لم يطمع أحد من الملوك الماضين في فتحه. ولما زحفت عساكر قلاوون إليه نصبت عدّة مجانيق كباراً وصغاراً وأخذ الحجارون ينقبون فيه. وقال أبو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه إنني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك اثنتا عشرة سنة وهو أوّل قتال رأيته وكنت مع والديّ، ولما تمكّنت النقوب من أسوار القلعة طلب أهلها الأمان فأجابهم السلطان إليه رغبة في إبقاء عمارتها فانه لو أخذها بالسيف وهدمها كان حصل التعب في إعادة عمارتها وأعطى أهلها الأمان على أن يتوجّهوا بما يقدرّون على حمله غير السلاح، وصعدت السناجق السلطانية على حصن المرقب المذكور وحمل أهله إلى مأمنهم ورحل السلطان عنه إلى الوطأة بالساحل وأقام بروجاً بالقرب من موضع يقال له برج القريص ثم سار ونزل تحت حصن الأكراد ثم نزل على بحيرة حمص.

وقد ذكر المؤرخون الفرنج حصار قلعة المرقب وفتحها فقالوا شكّا المسلمون من فرسان الاسبيتال الذين كانت هذه القلعة تخصّصهم بانهم يغيرون على أرض المسلمين وربما لم تكن هذه الشكوى كاذبة فقصدها السلطان قلاوون بعساكره وكانت هذه القلعة أشبه بمدينة، وكانت أبراجها أعلى من أبراج تدمر، فلم يكن يطمع في أخذها ومع ذلك نصبت عساكر قلاوون مجانيقها عليها وأخذت في حصارها في أوّل نيسان من السنة المذكورة، وأخذ الحجارون ينقبون في أسوارها ففتحوها فيها نافذة وهجموا عليها فردّتهم بسالة الفرنج عن القلعة فلم ينفك المسلمون عن الوثوب عليها واتّصلوا بلغم تحت القلعة إلى داخلها فاضطرّ الفرنج أهلها إلى أن يستسلموا إلى السلطان

قلاوون وهرب من كان فيها من الفرنج إلى طرابلس وملك المسلمون قلعة المرقب. وفي سنة ٦٨٦هـ سنة ١٢٨٨م كان السلطان قلاوون قد جهز عسكرياً كثيفاً مع نائب سلطنته حسام الدين طرنطاي وأمرهم بالمسير إلى قلعة صهيون وكان صاحبها حيثل شمس الدين سنقر الأشقر كم مرّ فنصببت العساكر عليها المجانيق وضايقوها بالحصار فاضطرّ سنقر إلى تسليمها بالأمان وحلف له حسام الدين قائد الجيش بأنّ السلطان سيكرمه. وسار حسام الدين إلى اللاذقية وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته فالقى حجارة في البحر عبر عليها إلى البرج فحصره وتسلمه بالأمان وهدمه، وتوجّه بعد ذلك وصحبته سنقر الأشقر إلى الديار المصرية ولما وصلا إلى قرب قلعة الجبل في القاهرة ركب السلطان قلاوون نفسه والتقاها وأكرمهما ووفى بالأمان الذي أعطاه حسام الدين لسنقر المذكور. (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون وغيرهما).

عد ٨٨٠

ذكر فتوح طرابلس

هذا ما رواه المؤرخون المسلمون: «في سنة ٦٨٨هـ سنة ١٢٨٩م خرج السلطان الملك المنصور قلاوون بالعساكر المصرية في الحرم من هذه السنة وسار إلى الشام ثم سار بالعساكر المصرية والشامية ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة مستهل ربيع الأول، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة وليس عليها قتال في البرّ إلّا من الجهة الشرقية ونصب السلطان عليها عدة كثيرة من المجانيق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتدّ عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى المينا فنجا أقلهم في المراكب وقتل أكثر رجالها وسييت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة. قال أبو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته وكنت حاضراً فيه مع والدي الملك الأفضل وابن عمي الملك المظفر صاحب حماه ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ونهبهم أمر السلطان فهدمت ودكت إلى الأرض وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطوماس (أي القديس توما) وتقع بينها وبين طرابلس المينا فلما أخذت طرابلس

هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء، فاقترح العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة إلى الجزيرة المذكورة فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا من بها من النساء والصغار. وبعد فراغ الناس من النهب عبرت أنا إلى هذه الجزيرة في مركب فوجدتها ملاءى من القتلى بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من نتن القتلى. ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد إلى الديار المصرية وأعطى صاحب حماه الدستور فعاد إلى بلده وكان الفرنج قد استولوا على طرابلس سنة ٥٠٣ هـ سنة ١٢٩٩ م. فتكون مدة مكثها مع الفرنج نحو مائة وخمسة وثمانين سنة (قمرية ومائة وتسع وسبعين شمسية).

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك إنَّ بيوموند السادس أمير أنطاكية وكونت طرابلس توفي سنة ١٢٧٥ م وخلفه ابنه بيوموند السابع وكان صغيراً وكان تدبير الإمارة لوالدته وأسقف طرسوس، وكان هوغس الثالث ملك قبرص من أنسباء أمير أنطاكية فأتى إلى طرابلس حيث الأمير الصغير ناوياً أن يأخذ تدبير الإمارة، فمانعته من ذلك والده الأمير وأسقف طرسوس فاعتزل ملك قبرص وأقام في عكا. وكان عند بيوموند السادس رجال رومانيون سلم إليهم بعض مهام إمارته فاستاء من ذلك شرفاء المدينة فكان سبباً للقلق في طرابلس بعد موت الأمير وقتل من الرومانيين ثلاثة رجال. وكان أسقف طرابلس رومانياً أيضاً فكان يؤيد جانب الرومانيين المذكورين وتحزب أسقف طرسوس للشرفاء فكان هذا الاختلاف بين الأسقفين أيضاً علة لشرور كبيرة وأدى إلى الخلاف بين الأمير والفرسان الهيكلين وأسقف طرابلس، واتصل الأمر إلى أن طرد الأمير أسقف طرابلس من كنيسته وضبط أملاكه فلجأ الأسقف إلى دار الهيكلين في طرابلس فكبسه الأمير فيها وأراد هدمها وبعد أن طرد الأسقف منها نهبها وأقام خفراً من المسلمين على حفظها فحرم أسقف طرابلس الأمير ومن اشترك معه في هذا التعدي. وقد عثر على رسالة من البابا نيقولاوس الثالث إلى هذا الأمير مؤرخة في أوّل حزيران سنة ١٢٧٩ م يؤنبه فيها على هذا التعدي، ومما قاله بها حذار أيها الابن العزيز أينطبق ما صنعت على صنع رجل مسيحي أم هذه بواكير ملكك فكيف يمكننا أن نقنع الملوك والمؤمنين في المغرب بأن يسيروا لنجدتكم وقد اشتهر عنكم أنكم تضطهدون النصارى وكنيسة طرابلس فاقتدين بمثل أجدادك، فما دام أمراء أنطاكية يكرمون الكرسي الرسولي وفقت إمارتهم، ولما أخلّوا في طاعته خسروا أنطاكية.

وكان التحاسد بين الفرنج عظيماً وقد اتفق فرسان الهيكل مع حاكم جبلة على أن يستولوا على طرابلس. وقال ميشود في تاريخ الصليبيين إن لدينا تقريراً مخطوطاً مسجلاً في سجل طرابلس ومشهوداً عليه من كثيرين. ففي هذا التقرير يبين حاكم جبلة اتفاهه مع الهيكليين على خيانة ييوموند ومن بعد أن كشفت هذه الخيانة أمر الهيكليون حاكم جبلة أن يحارب الفرنج الذين من ييزا في سورية وأن يذهبهم فلم يحاربهم، وأكرهته مناخر ضميره أو خوفه من ييوموند ان يقر بذنبه ويسترضي هذا الأمير، ومما قاله أنه مستعد لترك أملاكه في جبلة وذهابه إلى جهة أخرى يعيش به، ولم يشأ الهيكليون أن يشفعوا به ويسعفوه بأمر. وقال بعض المؤرخين العرب إن ييوموند أمر بقتل حاكم جبلة وأخذ أملاكه فاضطر ابنه للأخذ بثأر أبيه أن يلتجئ إلى المسلمين. ثم مات ييوموند فتعاضم الخلاف والقلق وأخذت أخته وأمه تتنازعان ملكه ففي هذه الحال السيئة سار السلطان قلاوون لحصار طرابلس سنة ١٢٨٩م.

ولما عرف الفرنج استعداد السلطان قلاوون لحصار طرابلس عادوا إلى نوع من الاتفاق واستمدوا ملك قبرص وفرسان عكا فأرسل ملك قبرص أربعة مراكب وعدة من الجنود فرساناً بأمرة أخيه وسارع فرسان الاسبيتال والهيكل وغيرهم من الفرسان حتى من أهل ييزا والبندقية المقيمين في فلسطين لانجاد الطرابلسيين والدفاع عن مدينتهم، وكان أمير أسطول جنوى أتى إلى طرابلس يطلب من أهلها ترضية عما كانوا جنوه على بعض الجنوين فلم يأب هذا أيضاً مساعدة الطرابلسيين في هذه الحال. وقد أقام السلطان قلاوون سبعة عشر منجنيقاً كبيراً ترمي أسوار طرابلس وأشغل ألف وخمسمائة جندي بالنقب تحتها ومن بعد أن حاصرها المسلمون خمسة وثلاثون يوماً دخلوا إليها وأوقعوا بها ما ذكره المؤرخون العرب ولجأ بعض المنهزمين النصارى إلى مراكب جنوى وغيرها فحملتهم هذه المراكب إلى قبرص. وذكروا أن عدد القتلى في وقت الحصار كان سبعة آلاف رجل. ولما كانت خسائر المسلمين لا تقل عن ذلك لم يبقوا بعد دخولهم المدينة على أحد ممن وجدوه من الرجال وأخذوا النساء والأولاد أسرى. وذكر المؤرخون الفرنج ما ذكرناه عن أبي الفداء من هرب بعضهم إلى الجزيرة وعبروا المسلمين إليهم وقتلهم.

ذكر فتوح عكا

بعد أن فتح الملك المنصور قلاوون طرابلس أخذ يتجهز لفتح عكا وخرج في سنة ٦٨٩هـ سنة ١٢٩٠م من الديار المصرية بالعساكر المتوافرة فأصابه مرض في طريقه وأخذ يتزايد حتى توفي يوم السبت سادس ذي القعدة بدهليزه بعد أن ملك نحو إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، وخلف ولدين الملك الأشرف صلاح الدين خليل والسلطان الأعظم الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد. وفي صبيحة اليوم الذي توفي فيه جلس في الملك ابنه الملك صلاح الدين خليل وفوض نيابة السلطنة إلى بدر الدين بيدرا بعد أن قتل حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة في أيام أبيه، وعهد بالوزارة إلى شمس الدين محمد بن السلوس، ثم سار بالعساكر المصرية سنة ٦٩٠هـ سنة ١٢٩٠م إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية أن يحضروا وصحبهم المجانيق فتوجه الملك المظفر صاحب حماه وعمه الملك الأفضل وسائر عسكر حماه معه إلى حصن الأكراد وقال أبو الفداء المأخوذ هذا الكلام عن تاريخه قد تسلمنا من حصن الأكراد منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل مائة عجلة، ففرقت في العسكر الحموي، وكان المسلم إليّ منه عجلة واحدة لأنني كنت إذ ذاك أمير عشرة وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيّل على العادة، وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غير عكا. وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادي الأولى من هذه السنة، واشتدّ عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها بل كانت مفتوحة وهم يقاتلون فيها، وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم فكانوا على جانب البحر عن يميننا إذا واجهنا عكا، وكان يحضر إلينا مراكب مقبية بالخشب الملبّس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروح، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من جهة البحر وأحضروا مركباً فيه منجنيقاً يرمي علينا وعلى خيامنا من جهة البحر، فكنا منه في شدة حتى اتفق في بعض الليالي هبوب أرياح قوية

فارتفع المركب وانحطّ بسبب الموج فانكسر المنجنيق الذي كان فيه ولم ينصب بعد ذلك، وخرج الفرنج في أثناء الحصار بالليل وكبسوا العسكر واتصلوا إلى الخيام وتعلّقوا بالأطناب، فتكاثرت عليهم العساكر فولوا منهزمين إلى البلد وقتل عسكر حماه عدة منهم. ولما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماه عدّة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف، واشتدّت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الآخرة بالسيف، ولما هجم المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب وكان في داخل البلد عدّة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصّنها بها وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر لكثرتة، ثم استنزل السلطان جميع من عصا بالأبرجة ولم يتأخّر منهم أحد وأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا، ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكاً. ومن عجائب الاتفاق أنّ الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة السابع عشر جمادي الآخرة سنة ٥٨٧هـ واستولوا على من بها من المسلمين وفتحت في هذه السنة يوم الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة على يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين فكان فتوحها مثل اليوم الذي ملكها الفرنج فيه وكذلك كان لقب السلطانين واحداً.

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك. كانت عكا حينئذٍ عاصمة الجاليات النصرانية وأعظم مدن سورية وأكثر الفرنج الذين طردهم المسلمون من مدنها لجأوا إلى عكا، وكانت مرسى كل السفن الآتية من الغرب، وقد اجتمع فيها التجار من كل صقع وحلّ بها أكابر الفرنج ونواب بعض الملوك والعمال الذين أخذ المسلمون أعمالهم. وقد شكّا المؤرخون الذين كانوا في ذلك العصر من ترف سكان عكا وخلاعتهم وانصبابهم على الملاحى والملاذ وزادوا في الشكوى من التحاسد الذي كان بين هؤلاء الجاليات وتعصب كل منهم لأبناء وطنه وعدم وجود شريعة عامة يخضع لها جميعهم أو سلطة فعالة يتهيّبونها، فتوقف كلّاً على حدّ حقه، وتروعه عن هضم حق غيره فكان لكل جالية من بلاد رئيس وشريعة، ولا جامعة بينهم وسلطة ملك أورشليم اسمية لا فعلية. وقد كشفت لنا الأيام الحاضرة عن سرّ كان مجهولاً في ذلك العصر وهو أنّ الفونس الثالث ملك اراكون وأخوه يعقوب ملك صقلية راسلا سلطان مصر وأرسلا إليه هدايا وأطلقا ترفلاً إليه سبعين مسلماً كانوا

أسرى عندهما ورغبا إليه أن يعامل من كان من رعاياهما في ملكه كما كان الملك الكامل يعامل رعايا فريدريك الثاني ملك ألمانيا، وعقدا معاهدة مع السلطان قلاوون في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٢٩٠م. من فحواها أولاً أن ييذل الملكان جدهما في إيقاف البابا والملوك النصارى وجمهوريتي جنوا والبندقية والروم والفرسان الهيكلين والاسببتاليين عن كل معاداة للسلطان وعن السطو على أرضه ثانياً أن يحاربا برأ وبحراً من يشهر من النصارى الحرب على السلطان. ثالثاً أن يعلما السلطان بكل ما يكاد عليه في الغرب. رابعاً إذا انقضت مدة الهدنة الموجودة حيثئذ أو جرى الإخلال بها فلا ينجذ الملكان نصارى سورية بسلاح أو مال أو بأي شيء كان، ولا يعاونان البابا أو ملوك النصارى أو الروم أو التتر إذا حارب أحد هؤلاء السلطان. ولم يكن للملكين في مقابلة ذلك إلا إباحة رعاياهن ان يحجوا إلى القبر المقدس وسائر الأماكن المقدسة دون معارض إذا كانوا مصحوبين باذن الملك وإلا الرخصة لسفن اراكون وصقلية أن تدخل المرافئ المختصة بالسلطان وتقبل فيها كما تقبل سفن رعاياه في المرافئ المختصة بالملكين. (كل هذا مأخوذ عن ترجمة قلاوون التي نشرها دي ساسي).

وكان السلطان قلاوون يتحين الفرصة لفتح عكا ويتوقع حجة لنقض الهدنة التي لم تكن انقضت مدتها. واختلف في ذكر الحجة التي تسول بها حيثئذ واصح الأقوال فيها أنّ شاباً مسلماً عشق امرأة مسيحية عني ومضى بمعشوقته إلى جنة في ظاهر عكا، وعرف زوجها فلحقها وقتل المعشوقة والعاشق، وقد أضاعه حنقه الرشد فعاد إلى عكا وخنجره بيده فقتل من التقى به من المسلمين، فأرسل السلطان قلاوون يطلب الجانبين من عكا، وإذا حصل التأخر عن إرسالهم حصر عكا فأرسل النصارى من عكا وفداً يعرض عليه جزاء المجرمين بالحبس والنفي فأبى هذه الترضية وأعلن الحرب وسار بالجيش المصري فباغتته المنية كما مرّ.

وقام ابنه الملك الأشرف بالأمر وباتمام وصية أبيه بحصار عكا فصار إليها بأربعين ألف فارس ومئتي ألف رجل من مصر وانضم إليه من دمشق وحماه وحلب والبلاد الشرقية والغربية نحو من مئتي ألف آخرين. ولم يكن رجال الحرب في عكا في أول الأمر أكثر من عشرين ألف وكانت عساكر الملك الأشرف تزداد كل يوم ورجال الفرنج تنقص، وبديء في الحصار في الخامس من نيسان سنة ١٢٩١م وكان رئيس فرسان الهيكل صديقاً للسلطان فصار إليه يطلب توقيف الحرب فأجابه

السلطان إلى ذلك على شرط أن يدفع كل من سكان عكا النصارى ديناراً بندياً، وعاد رئيس الفرسان يخبر الشعب وهم مجتمعون في كنيسة الصليب بما وفق إليه ويشير عليهم بقبول الشرط فازدروه وصاحوا أنه خائن يستحق الموت وصمموا على الدفاع.

وكان رجال الحرب من الفرنج أشدّاء متحمّسين على ما أوقعه بينهم الانقسام من الوهن غير مبالين بقلّة عددهم واختلاف آرائهم فصبروا في الدفاع عدّة أسابيع وأبواب المدينة مفتوحة ليلاً ونهاراً يخرجون منها كل يوم للسّطو على الأعداء وقد أوقعوا بهم خسائر جسيمة بعدّة خرجات وكانت العساكر الإسيلاية تتقدّم بلغم الأرض نحو الأسوار حتى حكموا مناجيقهم من المدينة واقتربوا منها وأمطروا عليها مدّة عشرة أيام متتالية سيولاً من نبال وحجارة فاستحوذ الوهن على الفرنج وخمدت حميتهم وأنزل الأغنياء منهم نساءهم وأولادهم في سفن وسيروهم إلى قبرص بل أبقى بعض الفرسان والرجال أيضاً وغادروا عكا وكانوا أولاً عشرين ألفاً فأمسوا بعد هذه الأيام العشرة اثني عشر ألفاً منهم ثمانمائة فارس، وترك ملك قبرص وأورشليم القتال في الليلة الواقعة في الخامس عشر والسادس عشر من أيار بحجّة إراحة جنوده وكانوا مئتي فارس وخمس مئة راجل وانسحب ليلاً من عكا ولحقه ثلاثة آلاف من أوجهها.

وفي صبيحة السادس عشر من أيار رأى جيش المسلمين أنّ عدد الرجال على الأسوار أقل مما كانوا قبلاً فهجموا على المدينة فدافع سكّانها وأبدوا معجزات البسالة وأرغمتهم كثرة الأعداء على التقهقر، ودخل بعض المسلحين المدينة وكان فرسان الهيكل والاسبيتال قد توقّفوا ذلك اليوم عن القتال لأنّه لم يكن برأيهم، فلما رأوا قهقري الفرنج أخذتهم الحمية فركب مريشال الاسبيتال (مّتى) من كلرمون بفرسانه وأسرع إلى لقاء المسلمين وردّ من كان هارباً من الفرنج فوثب على المسلمين الذين دخلوا المدينة فقتل أحد رؤسائهم وجرح كثيرين وانتزع سلاحهم فاقتدى غيره بشجاعته فطردوا من المدينة من دخل إليها فعاودت الشجاعة قلوب الفرنج وخرج من الأبرجة من كانوا تحصّنوا بها وعاونوا الباقين ليلاً على سدّ الثلثة التي فتحها المسلمون في الأسوار. وقبل الصباح عقدوا مجلس مشورة في دار الاسبيتالين فرأى بعضهم أنّ الدفاع أصبح مستحيلاً إذ قتل في الأمس ألفاً رجل من الفرنج وإن أحسن وسيلة لنجاة من بقي من الشعب ترك المدينة. على أنّ هذه الوسيلة غير

ممكنة إذ لم يكن هناك إلا مركبان لا يسعان إلا مئتي رجل فنهض بطريك أورشليم وألقى فيهم خطبة بين فيها أن لا وسيلة في شدة هذا الضيق لجنود نصارى كما هم إلا الاتكال على الله والتجلى في الدفاع، ولا مطعم في رافة الأعداء أو في شفقتهم على النساء والأطفال ولا مندوحة للهرب، فلا مناص إذاً من القتال ومن أراد الله موته مات شريفاً مجاهداً في الدفاع عن نفسه وعن دعوى عادلة صالحة أي الله إلا أن يثيبها، وبسالة رجال الحرب تأتي بالآيات والعجائب إذا كان مصدرها الإتكال على قدرة الله، فبيعوا إذاً دمكم غالباً ما استطعتم ولا تكونوا أوغاداً جبناء، وإذا كان لا بد من الموت في كل الأحوال فلا يبقى لكل متاً إلا أن يختار اسعيذاً ومجيداً يموت أو ذليلاً ووغداً؟ فكان لخطاب البطريك وقع شديد في قلوبهم فسمعوا القداس واعترفوا بخطاياهم وقبل بعضهم بعضاً قبة السلام وتناولوا القربان الأقدس وتسارعوا إلى الأسوار وإلى مواقفهم الحربية.

ولما أصبح صباح الثامن عشر من أيار سنة ١٢٩١م هاجمهم المسلمون ودخلوا المدينة مرتين من ثلثة الأسوار ومن باب كنيسة القديس أنطونيوس فردّهم الفرنج ومقدّمهم متى (سماه بعضهم غوليلمس) من كلرمون ماريشال الاسييتاليين في المرتين، فجمع السلطان جيشه كله على المنفذين المذكورين فانهزم حينئذ يوجنا دي كراتي نائب ملك فرنسة، وأوتون دي كراينديرون نائب ملك انكلترا وجنودهما وأسرعوا إلى مركب هربا به، وصبر باقي الفرنج على القتال صبراً عظيمًا له البطريك، وأتى حينئذ رئيس الفرسان الهيكلين بفرسانه يدافع عن الدخول في الباب المعروف بباب القديس أنطونيوس فأصابه سهم صرعه عن جواده ومات. وكان رئيس الاسييتاليين يقاتل على الثلثة التي فتحوها في السور فجرح جرحاً مميتاً فحمل إلى مستشفى وأما الماريشال متى فيعس وألقى بنفسه في وسط المسلمين وأخذ يقتل من كان عن يمينه أو شماله حتى وقع به جواده وأصيب هو بعدة سهام. وأما البطريك نيقولاوس بطريك أورشليم المذكور فآثر الموت مع شعبه على الفرار فأنزلوه مكرهاً في قارب يوصله إلى مركب، فأخذ الراعي الطاليج صعباً على القارب فغرق بهم جميعاً وهكذا كانت نهاية آخر بطريك أورشليمي لاتيني أقام بهذه البلاد.

وكان في ذلك عكا ديس شهير يسكنه رهبان القديسة كلابا، ولما علموا رغبة المسلمين بدخول المسلمين إلى المدينة جمعت الرهبان في القلعة بانيان لا تكسفيناً على أهلهم لتحقيق الزائلة وليكن لهم كنيسة أن تمنح طاهرات تجسم كرمهم وأقل كرمهم الأصغر من لها نقشاً همدني لها

صانعة، وأخذت جارحة وقطعت أنفها وغطى دمها وجهها واقتدت الباقيات بها فشوهن وجوههن ولما دخل المسلمون الدير اشمأزوا من هذا المشهد وحملهم الاشمئزاز على الخنق فقتلوا أولئك الراهبات عن آخرهن.

وبعد دخول المسلمين إلى عكا كان في شوارعها وعلى قلاعها وحصونها ما ترتعد له الفرائص من المذابح والفظائع حتى روى أحد فرسان القديس يوحنا الذي كان شاهداً هذه الحرب، أنه كان يعبر على الجثث من محل إلى آخر كأنها جسور، وكانت جماعات من المنهزمين لا يعلمون أين يمشون ودخل بعضهم إلى الكنائس فاحترقوا بها أو ذبحهم الأعداء بجانب المذابح وبقي في المدينة بعض قلاع وحصون وفيها بعض الفرنج فدافعوا حتى قتلوا وسلاحهم بأيديهم، وبقيت قلعة الفرسان التي كان لجأ من نجا منهم من سيوف المسلمين فأرسل السلطان يعرض عليهم أن يستسلموا إليه فاستسلموا. وأرسل السلطان ثلاثمائة جندي ليخرجوهم بالأمان ودخلوا برج رئيس الفرسان فوجدوا بعض النساء اللواتي فررن إلى هناك فسطوا عليهن فلم يتحمل الفرسان هذا التعدي على نساء لجأ إليهم فوثبوا على الجنود الذين دخلوا البرج فقتلوهم عن آخرهم فسخط السلطان وأمر بإعادة الحصار عليهم فدافع الفرسان ومن معهم عن نفوسهم شديد الدفاع وأقاموا على ذلك أياماً وأخيراً نقب جنود السلطان أساس القلعة فتداعت وسقطت والجنود مهاجمون لها فقتل تحت أنقاضها الفرسان ومن صحبهم ولجأ إليهم، والجنود المهاجمون لهم، وأمر السلطان أخيراً بهدم كل القلاع والحصون والابرجة والدور والكنائس المشهورة وأمسست عكا قاعاً صفصفاً وكوم أنقاض. (انتهى ملخصاً عن أقوال المؤرخين الفرنج عمن كانوا شهوداً عيانين في هذه الحرب).

عد ٨٨٢

فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها |

هذا ملخص ما قاله المؤرخون المسلمون في ذلك لاسيما أبو الفداء. لما فتحت عكا -القي الله تعالى الرعبة في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها الشجاعي نائب السلطنة بدمشق في أواخر رجب، وكذلك هرب أهل صور فأرسل السلطان وتسلمها ثم تسلم عثليت في مستهل شعبان ثم تسلم

انطردوس في خامس شعبان جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩١ م. واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وأمر بها فخرت عن آخرها وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام. وبعد ذلك رحل السلطان الملك الأشرف ودخل دمشق وأقام مدة ثم عاد إلى الديار المصرية ودخلها في هذه السنة. وعن صالح بن يحيى في تاريخ بيروت أنه لما وصل سنجر الشجاعي إليها نزل بقلعتها وأمر الفرنج أن ينقلوا أولادهم وحريمهم وأنقلهم إليها، وظنوا أنه مشفق عليهم فقبض على الرجال وقيدهم وألقاهم في الخندق وشرع في هدم أسوار المدينة وقلعتها وجهاز أهلها إلى دمشق ثم إلى مصر فهلك منهم العاجز والنساء ولما وصلوا إلى مصر خيّرهم السلطان بين العود إلى بيروت أو التوجه إلى قبرص بأجمعهم.

وهذا ملخص ما قاله المؤرخون الفرنج أن سكان صور تركوا مدينتهم وانهزموا بحرّاً وكان الفرسان الذين انهزموا من عكا ساروا إلى صيدا وتجهّزوا للدفاع عنها ولكن لما بلغهم أنّ أحد أمراء المسلمين يتجهّز لقتالهم في صيدا ضعفت عزائمهم وولوا هارين أولاً إلى طردوس ثم إلى قبرص ثم سار الأمير وهو الشجاعي نائب السلطنة بدمشق فأخذ صيدا ودك قلعتها، ثم سار هذا الأمير إلى بيروت فاستسلم أهلها إليه دون قتال وكان أهل هذه المدن يظنون أنّ الملك الأشرف يحفظ لهم حقوق الهدنة فلم ينجدوا عكا، ولما رأوا ما حلّ بها يسوا واستسلموا أو انهزموا ولم ينج من بقي منهم من القتل والأسر والنهب. واتّصلت قسوة الملك الأشرف إلى بيوتهم فأحرقها وإلى معابدهم فدكّها فضلاً عن تدمير القلاع والحصون، فأتمّ الملك الأشرف طرد الفرنج من سورية ومن سلم منهم وهو أقلّهم هرب إلى قبرص ثم إلى الغرب أو اختبأ عند النصارى بلبنان فكانت مدة مقام الفرنج بسورية من حين أخذهم أنطاكية سنة ١٠٩٨ م إلى حين طردهم من عكا سنة ١٢٩١ م مائة وثلاثاً وتسعين سنة شمسية، وأقام السلطان الملك الأشرف حينئذ في سواحل لبنان من زاوية طرابلس إلى صيدا بعض عشائر التركمان والمسلمين تجوّطاً من عود الفرنج إلى هذه الجهة، واستغناهم بنصارى لبنان، فتكون تلك العشائر فاصلة بين الفرنج والنصارى الوطنيين.

ولما بلغت إلى الغرب أخبار ما حلّ بالفرنج بسورية وفتح الملك الأشرف ما كان

باقياً ييدهم من المذن وقسوته عليهم وحرق كنائسهم وأديارهم أو دكّها عمت الكتابة القلوب واستعظموا المصيبة ويسوا من الانتصار والأخذ بالثأر وندموا على إهمالهم بني أوطانهم ودينهم، ولات ساعة مندم. وأراد الحبر الروماني الذي كان حينئذ نيقولاوس الرابع يدعو نصارى الغرب إلى حملة أخرى إلى سورية، وأبرز منشوراً عاماً يرثي به نصارى الشرق ويندب سوء الحال، وأرسل دعاة إلى الممالك وعقدت لجاناً في مواضع كثيرة للاهتمام بما يرغب فيه الحبر الروماني. وكان إدوار ملك إنكلترا (الذي كان قد سار قبلاً إلى سورية كما ذكرنا) عزم على العود إليها على أنه بعد طرد الفرنج منها اعتذر بأنّ حالة مملكته لا تمكنه من العود إلى سورية، وكان رودلف عاهل ألمانيا أيضاً قد وعد البابا بالمسير إلى سورية لكنّه مات حينئذٍ منشغلاً بمهام مملكته أكثر من نصارى الشرق وفيلبوس ملك فرنسة الذي كان يرجي أن يكون قدوة لغيره كان له من العوائق ما يبطئه عن تلبية دعوة الحبر الروماني وأدركت المنية البابا نيقولاوس الرابع في ٤ نيسان سنة ١٢٩٢م فكان الله قبيض للفرنّج هذا الانخزال بغامض حكمته وأسرار عنايته المتعالية عن مدارك الناس وهو يرفع من يشاء ويذلّ من يشاء ومن كان له وزيراً أو مستشاراً ليدرك كنه مقاصده الرفيعة.

الدين سنجر الشجاعى المذكور، وعزل قراسنقر المنصوري عن نيابة السلطنة بحلب واستصحبه معه وولى موضعه سيف الدين بلبان المعروف بالطياخي. وبعد وصوله إلى مصر قبض على سنقر الأشقر وجرمك وطقصو وكان آخر العهد بهم.

وفي سنة ٦٩٢ هـ سنة ١٢٩٣ م عاد السلطان الأشرف إلى الكرك ثم إلى دمشق وخرج متصيداً في البرية ووصل إلى الفرقلس في طرف بلد حمص من جهة الشرق، وحضر إليه مهنا بن عيسى أمير العرب وأخواه محمّد وفضل وولده موسى فقبض عليهم وأرسلهم إلى مصر، فحبسوا في قلعة الجبل ثم عاد إلى مصر. وفي هذه السنة توفي الملك الأفضل عم الملك المظفر صاحب حماه ووالد أبي الفداء المؤرّخ وسبب موته أنّ السلطان الأشرف دعاه إليه تطفأً فسار وحده ووصل إلى دمشق فاعتزته حتى مات بها.

وفي سنة ٦٩٣ هـ سنة ١٢٩٤ م كان مقتل السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون فأنّه سار إلى تروجه للصيد وركب في نفر يسير من خواصه فقصده مماليك والده وهم بيدر نائب السلطنة المذكور قبلاً، ولاجين الذي كان السلطان قد عزله عن نيابة السلطنة بدمشق واعتقله مرة بعد الأخرى، وقراسنقر الذي عزله عن نيابة السلطنة بحلب وانضمّ إليهم جماعة من الأمراء، ولما قاوموا السلطان أرسل إليهم أميراً ليكشف خبرهم فأمسكوه معهم ووصلوا إلى السلطان، وأول من ضربه بالسيف بيدرا ثم لاجين حتى مات وتركوه مرمياً على الأرض، فحمله ايدمر الفخري والي تروجه إلى القاهرة واتفق القاتلون على سلطنة بيدرا فنادوا به وتلقّب بالملك القاهر، وسار نحو قلعة الجبل ليملكها. واجتمع مماليك السلطان المقتول وانضمّ إليهم غيرهم وساروا في اثر بيدرا ومن معه فلحقوهم على الطرانة واقتتلوا وانهزم بيدرا وتفرّق أصحابه وتبعوا بيدرا فقتلوه ورفعوا رأسه على رمح واستتر لاجين وقراسنقر. واتفق أمراء السلطنة على سلطنة الملك الناصر أخي الملك الأشرف القتيل، وإن يكون الأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة، وعلم الدين سنجر الشجاعى وزيراً وتبعوا الأمراء الذين قتلوا الأشرف فقبضوا على جماعة منهم وقطعت رقابهم، وبعضهم قطعوا أيديهم وأرجلهم وصلبوا على الجمال وطيف بهم وبقي لاجين وقراسنقر مستترين. واتفق كتبغا نائب السلطنة والشجاعى. وزيرها فقبضا على شمس الدين محمّد بن السلعوس الذي كان وزير

الأشرف وكان له عنده منزلة رفيعة، وتمكّن وأحضر أقاربه من دمشق إلى مصر
وبقي منهم واحد في دمشق فكتب إليه:

تنبه يا وزير الأرض واعلم بأنك قد وطئت على الأفاعي
وكن بالله معتصماً فاني أخاف عليك من نهش الشجاعي

وبعد القبض على ابن السلعوس تولاه الشجاعي واستصفى ماله وقتله، ثم
حصلت الوحشة بين كتبغا نائب السلطنة وبين الشجاعي الوزير ونزل كتبغا من
القلعة واستمرّ الشجاعي وأصحابه بها فحضر كتبغا وغلب عليه وقطع رأسه وطيف
به بالبلد، وظهر لاجين وقراسنقر من الاستتار وأخذ كتبغا لهما من السلطان الأمان
وأقرّ لهما الاقطاعات الجليلة، وكان ذلك لغرض سياسي عند كتبغا لأنه في سنة
٦٩٤هـ سنة ١٢٥٩م حجر على السلطان الملك الناصر في قاعة بقلعة الجبل
وحجب الناس عنه واستحلف الناس على سلطنته وجلس على سرير السلطنة ولقب
نفسه الملك العادل، وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل لاجين
المذكور نائباً له في السلطنة وأفرج عن مهنا بن عيسى وأخويه وولده الذين كان
الأشرف قد حبسهم كما مرّ.

وفي سنة ٦٩٥هـ سنة ١٢٩٦م خرج الملك العادل كتبغا من مصر وسار إلى
الشام فوصل إلى دمشق وتوجّه إلى جهة حمص وقدم إلى جوسية وهي قرية على
طريق بعلبك من حمص، وكانت خراباً فاشتراها وعمرها فوصل إليها ورآها وعاد
إلى دمشق وعزل عز الدين أيك الحموي عن نيابة السلطنة بالشام وولّى موضعه
سيف الدين غرلو مملوكه.

وفي سنة ٦٩٦هـ سنة ١٢٩٧م خرج الملك العادل كتبغا من دمشق متوجّهاً
إلى مصر ووصل إلى نهر العوجا فركب لاجين نائبه وانضمّ إليه جماعة، وبغت
الملك العادل في دهليزه وقتل اثنين من مماليكه وولى كتبغا هارباً راجعاً إلى دمشق،
فالتقاه مملوكه غرلو ودخل العادل قلعة دمشق واهتمّ بجمع العسكر لقتال لاجين فلم
يوافقه عسكر دمشق على ذلك، فخلع نفسه من السلطنة وأقام في قلعة دمشق
وأرسل يطلب الأمان من لاجين، وموضعاً يأوي إليه فأعطاه صرخد فسار إليها وأما
لاجين فبعد تهزيمه كتبغا نزل بددهليزه على نهر العوجا واجتمع معه الأمراء الذين
وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً فالتزمها، منها أن لا ينفرد عنهم برأي ولا

بسلطة ممالكهم عليهم كما فعل بهم كتبغا، فأجابهم لاجين إلى ذلك وحلف لهم عليه وحلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين، ثم رحل بالعساكر إلى مصر واستقرّ بقلعة الجبل وأرسل إلى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام موضع غرلو مملوك كتبغا.

وفي سنة ٦٩٧هـ سنة ١٢٩٨م جرد الملك المنصور لاجين جيشاً كثيفاً من مصر سيره إلى الشام وأرسل إلى عماله في الشام أن يعجدوا عسكرهم وتحمل العساكر الشامية والمصرية على بلاد الأرمن فساروا إلى حلب ثم اجتمعوا على نهر جيحان وشتوا الاغارات على بلاد سيس وغنموا وعادوا، فأمر لاجين أن يجتمعوا ثانية بحلب ويسيروا إلى سيس أيضاً فساروا إلى حموص وضايقوها، وكان قد اجتمع فيها من الأرمن عالم عظيم ليعتصموا بها وقطع العسكر عنهم الماء فهلك أكثرهم بالعطش وأخرج أهل حموص نحو ألف ومائتين من النساء والصبيان فغنمهم العسكر. قال أبو الفداء وفي هذه الحملة كان قسبي جاريتين ومملوكاً وكان بين أولاد ليفون ملك الأرمن خلاف على الملك أدى إلى الحرب بينهم وإلى انتصار دندين أحدهم وملكه فيهم، ولما تملك أرسل إلى العساكر الإسلامية يذل الطاعة إلى ما يرسمه سلطانهم فطلب منه العسكر أن يكون نهر جيحان بين المسلمين والأرمن وكل ما كان جنوبيه من البلاد والحصون للمسلمين فأجابهم إلى ذلك، فتسلم المسلمون مدناً وحصوناً كثيرة وجعل السلطان لاجين بعض الأمراء نائباً فيها.

وفي سنة ٦٩٨هـ سنة ١٢٩٩م وثب على الملك المنصور لاجين جماعة من المماليك الصبيان الذين اصطفاهم لنفسه فقتلوه وهو يلعب بالشطرنج بعد أن ملك سنتين وثلاثة أشهر، وأول من ضربه منهم شخص اسمه سيف الدين كرجي وضربه الباقون بعده وساروا ليقتلوا نائبه ومملوكه منكوتر، فاستجار بسيف الدين طفجي مقدّم هؤلاء المماليك فاجاره وحبسه في بئر ليخفيه عنهم فمضى كرجي ومعه جماعة فأخرجوه وقتلوه. وفي الصباح جلس طفجي مقدّم هؤلاء المماليك القاتلين في موضع النيابة فأمر ونهى وهناك جماعة أكبر منه، فاتفقت آراؤهم على الواقعة به وإعادة الملك الناصر ابن قلاوون الذي كانوا قد خلعوه وأرسلوه إلى الكرك كما رأيت. واتفق حيثئذ رجوع باقي الأمراء من حملة سيس فوافق رأيهم رأي الأولين فوثبوا على طفجي بالسيوف وهرب منهم فأدركوه وقتلوه، وقصدوا كرجي القاتل نهرب وتبعوه فقتلوه وتوجّه بعض الأمراء إلى الكرك فأحضروا الملك الناصر

وأجلسوه على سرير ملكه الذي كانوا قد أبعدوه عنه ولما استقرّ بالسلطنة ثانية اتّفق معه الأمراء أن يكون سيف الدين سلار نائب السلطنة، وفوض نيابة السلطنة بالشام إلى جمال الدين الأفرم وأفرجوا عن شمس الدين قراسنقر من الاعتقال، وكان له نحو سنة وبعثوه إلى الصبيبة.

وفي هذه السنة أي سنة ١٢٩٩م توفي الملك المظفر صاحب حمّاه بعد أن ملك فيها خمس عشرة سنة وهو من البيت الأيوبي ولم يبقَ من هذا البيت حاكم إلا في حمّاه، وانقطعت الحكومة منه بوفاة ولكن عادت إليه بعداً كما سترى، لأنّ قراسنقر الذي كان قد توجه إلى الصبيبة كما مرّ كتب منها إلى الأمراء بمصر يتضور من المقام بها، وهي مكان وخم واتّفق ذلك عند وصول خبر وفاة الملك المظفر، فأعطى قراسنقر نيابة السلطنة بحمّاه فصار إليها. قال أبو الفداء الذي كان يحق له هذا المنصب لأنّ الملك المظفر عم أبيه قمنا بوظائف خدمته وأخذ من تركه صاحب حمّاه ومنا أشياء كثيرة حتى أحجف بنا. ووصلت المناشير من مصر إلى أمراء حمّاه وجندّها باستقرارهم على ما بأيديهم من الاقطاعات فاستمرينا على ما كان بأيدينا. (انتهى ملخصاً عن أبي الفداء وابن خلدون وغيرها).

عد ٨٨٤

حملة التتر على سورية مرة أخرى

في سنة ٦٩٩هـ سنة ١٣٠٠م حمل التتر على سورية مرة أخرى، وهذا ملخّص ما قاله المؤرخون العرب في ذلك. في هذه السنة ساد قازان بن ارغون ملك التتر بجموع عظيمة من المغول والكرج وغيرهم وعبر الفرات ووصل إلى حلب ثمّ سار إلى حمّاه ثمّ نزل على وادي مجمع المروج بين حمص وحمّاه، وسارت العساكر الإسلامية صحبة الملك الناصر حتى وصلوا إلى ظاهر حمص وساروا نحو مجمع المروج وكان سلار نائب السلطنة ويبرس الجاشنكير أستاذ الدار هما المتغلّبين على المملكة، فداخل الأمراء الطمع ولم يكملوا عدة جندهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الأمور الفاسدة، والتقى العسكران عند العصر من نهار الأربعاء ٢٧ من ربيع الأوّل من سنة ٦٩٩هـ الموافق ٢٣ كانون الأوّل سنة ١٣٠٠م في شرقي حمص على نصف مرحلة منها، فانكسرت ميمنة المسلمين ثمّ الميسرة

وثبت القلب واحتاطت به التتر وجرى بينهم قتال عظيم، وتأخر السلطان إلى جهة حمص وأدركه الليل فولت العساكر الإسلامية تبدر الطريق وتمت بهم الهزيمة إلى ديار مصر، وتبعهم التتر واستولوا على دمشق وساقوا في اثر الجفال إلى غزة والقدس وبلاذ الكرك وكسبوا وغنموا من المسلمين الجفال شيئاً عظيماً. وكان قبجق نائب السلطنة بالشام والبكي الظاهري نائب السلطان بصفد، ويكتمر السلحدار قد هربوا من حمص خوفاً من الملك المنصور لاجين واتصلوا بقازان ملك التتر، ولما أتى إلى سورية أتيا معه وأخذ قبجق منه الأمان لأهل دمشق، وعصت عليه القلعة فحاصرها وكان النائب بها الأمير سيف الدين ارحواش المنصوري فقام في حفظها أتم قيام، وأقام قازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنيقية إلى أن دعاه فعاد إلى بلاده، وقرر في دمشق قبجق ووجد صحبته عدّة من المغول. ولما بلغ العساكر المصرية مسير قازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان إلى الصالحية، ثم اتفق الرأي أن يبقى السلطان بمصر ويسير سلاّر نائب السلطنة ويبرس أستاذ الدار بالعساكر إلى الشام، فكاتب قبجق ورفيقاه المسلمين سرّاً، ولما خرجت العساكر المصرية هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتر، ولما رأى ذلك التتر المجردون بدمشق خافوا وساروا إلى بلادهم وخلا الشام منهم ووصل قبجق ومن معه إلى الأبواب السلطانية فأحسن السلطان إليهم ووصل سلاّر ويبرس بالعساكر إلى دمشق وقررا أمور الشام ورتبا في نيابة السلطنة بدمشق الأمير جلال الدين أقوش الأفرم على عادته، وجعلوا قراسنقر نائب السلطنة بحلب ورتبا في نيابة السلطنة بحماه الأمير كتبغا زين الدين المنصوري الذي كان سلطاناً ثم خلع وأعطي صرخند.

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في ذلك. كان التتر من زمان مديد يشنون الغارات على سورية وقد توفي ارغون ملكهم وهو يتجهّز لحملة كبرى على سلطان مصر وسورية، وكان تجهيزه أوقع الرعبة في قلوب المسلمين فحسبوا موته آية سموية ولطفاً من الله بهم، وكان في جملة خلفاء ارغون رجل هيام بالحروب عشاق للمعالي والسؤدد اسمه قازان مشهور بذكائه وبسالته، وكان قازان يعتد النصارى أخلص حلفائه وأكثرهم أمانة للملكه، وكان في عسكره كثيرون من الجراكسة النصارى وعلم الصليب يسير بجانب علمه الملكي، وكان له طمع كبير بامتلاك شواطئ النيل والأردن ولما كان يحدث مدناً في بلاده يسميها باسماء مدن مصر وسورية واليهودية إلى أن سار بجيش كثيف إلى سورية، ولما علم بقصده ملك

الأرمن وملك قبرص وفرسان الهيكل وفرسان القديس يوحنا ساروا إليه وانضوا إلى لوائه، فكانت لهم وقعة مع عسكر المسلمين في جانب حمص انتصر بها عسكر قازان على عسكر سلطان مصر وقتل منهم كثيرين وانهزم الباقون فنبعهم فرسان الأرمن حتى البرية، وملك قازان حلب ودمشق. وروى هيتون المؤرخ الأرمني أنّ النصاري عادوا حينئذ إلى أورشليم وزار قازان معهم القبر المقدس، وأرسل عندئذ وفداً ورسائل إلى الحبر الروماني وملوك أوروبا يطلب المحالفة معهم ويعد أن يسلمهم الأرض المقدسة. وقد ذكر مراسلة قازان هذه كثيرون من المؤرخين الفرنج فأحسن الحبر الروماني قبول وفد ملك التتر وأكرم مثواهم، ولكن لم يتمكن من الإجابة إلى طلبهم بل أجله إلى حين متعجباً من أن يرى في ملك تترى ما لا يراه في ملوك النصاري من الحمية والغيرة، على أنّ قازان اضطرّ أن يعود إلى بلاده ولم يستطع من خلفه في سورية من عسكره أن يقوى على مهاجمات عسكر السلطان لهم فعادوا إلى أعقابهم.

ثم إنّ قازان تجهّز لحملة أخرى على سورية، ففي الأولى منهما وهي الثانية من حملاته أرسل نائبه كوتولوسا وأمره بأعداد الجند فجمع العسكر وانضمّ إليه القبرصيون ورؤساء فرسان الاسبيتال والهيكل وملك الأرمن، ولكن أصاب قازان مرض فاجل هذه الحملة وانصرف كل من محالفيه إلى محله، ثمّ تجهّز قازان لحملة ثالثة سنة ١٣٠٣م فجمع على الفرات جيشاً كثيفاً منتشراً في مسافة ثلاثة أيام على الطريق ولكن سطا على بلاده أعداء يخافهم فأكروا أن يعود على عقبه، وأبقى مع كوتولوسا نائبه أربعين ألف رجل، وأمره أن يدخل سورية ويملك دمشق ويقهر المسلمين فدخل وقتل كثيرين وأحرق البيوت والزروع وحاصر حمص آملاً أن يجد فيها العسكر المصري كما كان في الحملة الأولى، فملك هذه المدينة عنوة وقتل من وجد فيها من المسلمين، ثم سار وحاصر دمشق وحول سكاّنها ماء النهر ليلاً إلى معسكر التتر فأهلك كثيرين من الرجال والخيال والرجال العسكر، وخسر ملك الأرمن كثيرين من رجاله فانهزم التتر وعادوا إلى الفرات، فاحتملوا مشقة كبرى في عبوره من قبل أعدائهم. روى كل ذلك هيتون المؤرخ الأرمني الذي كان في جملة رجال هذه الحملة، وتوفي قازان سنة ١٣٠٤م. انتهى.

الفصل الثاني

معرض مشاهير العلم الدنيويين بسورية في القرن الثالث عشر

عد ٨٨٥

المشاهير السوريون

تراعى سنة وفاتهم في ترتيب أسمائهم

ابن الساعاتي

وهو دمشقي الأصل وقال فيه ابن خلكان هو أبو الحسن علي بن رستم
مروف بابن الساعاتي الملقب بهاء الدين، وهو شاعر مبرز في حلبة المتأخرين له
وان شعر يدخل في مجلدين أجاد فيه كل الإجادة وديوان آخر لطيف سماه
طبعات النيل نقل عنه قوله:

يوم في سيوط وليلة عمر الزمان باختها لا يغلط
تنا بها والليل في غلوائه وله بنور البدر فرع أشمط
لطل في سلك الغصون كلؤلؤ رطب يضافحه النسيم فيسقط
لطير يقرأ والغدير صحيفة والريح يكتب والغمام ينقط
وقد توفي سنة ٦٠٣هـ سنة ١٢٠٧م.

فتيان الشاغوري

هو الشهاب فتيان بن علي الأسدي الحنفي الدمشقي المعروف بالشاغوري كان فاضلاً وشاعراً ماهراً خدّم الملوك ومدحهم وعلم أولادهم وله ديوان شعر فيه مقاطع حسان وأقام مدّة بالزبداني وله فيها أشعار لطيفة فمن ذلك قوله في جنة الزبداني وهي تتراكم عليها الثلوج في زمان الشتاء وتنبت أنواع الزهور في زمن الربيع وقد أحسن كل الاحسان:

قد أجمد الخمر كانون بكل قدح وأحمد الجمر في الكانون حين قدح
يا جنة الزبداني أنت مسفرة بحسن وجهه إذا وجه الزمان كلج
فالثلج قطن عليك السحب تندفه والجو يحلجه والقوس قوس قزح
وله وقد دخل إلى حمام ماؤها شديد الحرارة وكا قد شاخ:

أرى ماء حمامكم كالحميم نكابد منه عناءً وبؤساً
وعهدي بكم تسمطون الجدي ف ما بالكم تسمطون التيوسا
وتوفّي بالشاغور وهي عمارة بظاهر دمشق ودفن بمقابر باب الصغير سنة ٦١٥ هـ سنة ١٢١٩ م.

الشيخ علي الطرابلسي

لم نعر على اسمه في ما لدينا من كتب المؤرخين العرب لكن عثرنا عليه في فهرست الكتب المشرقية التي في المكتبة المشرقية التي في المكتبة الماديشية للعلامة المطران أسطفان عواد السمعاني وهو الكتاب ٢٣٧ من تلك الكتب. فقال ما ملخصه مقالة طبية كيماوية عنوانها زينة الحكيم لمؤلفها الشيخ علي الطرابلسي نسبة إلى طرابلس الشام، وقد فرغ من تأليفه هذا الكتاب سنة ٦١٦ هـ سنة ١٢١٩ م كما يظهر من الحاشية المعلقة بآخر الكتاب وهو مقسوم إلى أربع مقالات: الأولى في

المعادن وتهيتها لاستعمال الطبيب، الثانية في ماهية الحجر الذي يسمونه حجر الفلسفة وكيفية تركيبه، الثالثة في السيميا وتفسير أسرارها وهي صناعة استعمالها العرب ليعرفوا أمزجة الأجسام وكيفيةها زاعمين أنهم يحصلون معرفة أكيدة بالمستقبلات بواسطة تركيب بعض الحروف وقلب الأسماء، الرابعة في استعمال العقاقير الحيوانية على مذهب جالينوس وقد خطّ الكتاب المذكور سنة سنة ١٥٥٣ رجل اسمه الشيخ صالح.

رشيد النابلسي

لم يذكره ابن خلكان بل ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات، فقال هو عبد الرحمن بن بدر... رشيد الدين النابلسي الشاعر المجيد مدح الناصر وأولاده وأولاد العادل. قال شهاب الدين القوسي في معجمه أنشدني رشيد الدين النابلسي وقد رأى مليحاً بديع الصورة بين عبيد أسودين قبيحي الصورة:

لله من عاينت عيني محاسنه يوماً فعودته بالله من عيني

يختال كالغصن تيهاً في شمائله ما بين عبيدين لون الليل عجلين
فقلبتا والشلوق يطوييني والينشوني أديف لم تألق قبلك في صحن خلد البين (الينشوني)
فمرّ يضحك من قولي وقال بلي كم قد رأى الناس سعداً بين نحسين
وكانت وفاته سنة ٩١٠ هـ من الهجرة النبوية ١٥٢٣ م. له شعر آخر ما ترجم له في نسق
قاله وأما سنة ١٢٢٥ قس ريف متبوعاً له ما لم. له شعر في لهجته لنسج ما له تارة
قوله ريف ما له ما له ريف ما له ٨١١٩ قس ما ٨٧١١ قس ما ٥٧٥٥
ياقوت الحموي

ذكره ابن خلكان في الوفيات فقال هو ابن عبد الله ياقوت ابن عبد الله الرومي
الجنس المولود، الحموي المولى بأسر من بلاد صغرى وإتباعه بغداد رجل تاجر يعرف
بشكر ابن أبي الفخر الحموي وجعله في الكتاب يتفح به في تجارتهم وكان عسكراً
٢٢٨١٩ قس ريف ما له ما له ريف ما له ٨١١٩ قس ما ٨٧١١ قس ما ٥٧٥٥

يحسن الخط، ولما كبر ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة وشغله مولاه بالأسفار في تجارته وكان يعود إلى الشام، وجرت بينه وبين مولاه نبوة أوجبت عتقه وابعاده فاشتغل بالنسخ بالأجرة وحصلت له بالمطالعة فوائد. ثم الوى عليه مولاه بعد مدة وأعطاه شيئاً وسقّره إلى كيش ولما عاد كان مولاه قد توفي. وكان ياقوت قد حصل شيئاً مما كان بيده فأرضى أولاد مولاه وزوجته بشيء وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله وجعل بعض تجارته كتباً، وتوجه إلى دمشق وكان متعصباً على علي، وناظر بعض من يتعصب له فذكر علياً بما لا يسوغ فثار عليه الناس وكادوا يقتلونه، فانهزم إلى حلب ثم توصل إلى الموصل ثم إلى خراسان واستوطن مدينة مرو، ثم تجول في كثير من البلاد وقد تقطعت به الأسباب وأعوزه ذني المأكل وخشن الثياب، لكنه عكف على التصنيف والتأليف فصنّف كتاباً سماه «ارشاد الالباء إلى معرفة الأدباء» يدخل في أربعة جلود كبار ذكر فيه أسماء كثيرين من النحويين واللغويين والنسائين والقراء المشهورين والاختباريين والمؤرخين وأصحاب الرسائل وأرباب الخطوط إلى غيرهم مع إثثار الاختصار والاعجاز في نهاية الإيجاز. وقال قصدت صغر الحجم وكبر النفع وقال إنه جمع كتاباً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء ومن تصانيفه أيضاً كتاب «معجم البلدان» وكتاب «معجم الشعراء» وكتاب «معجم الأدباء» وكتاب «المشرك وضعاً مختلف صقعا» وهو من الكتب النافعة وكتاب «المبدأ والمال في التاريخ» و«كتاب الدول»، و«مجموع كلام أبي علي الفارسي» و«عنوان كتاب الأغاني» و«المقتضب في النسب» يذكر فيه أنساب العرب و«كتاب أخبار المتنبي» و«كتاب من له هبة عالية في تحصيل المعارف». وله رسالة بديعة مسهبة إلى جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف الشيباني وزير صاحب حلب يصف فيها حاله ويقصّ ما جرى له ثراً وشعراً. وقد أثبت ابن خلكان هذه الرسالة برمتها في ترجمة ياقوت هذا وأحجمنا طولها عن نشرها. وقد ولد ياقوت في سنة ٥٧٤هـ أو سنة ٥٧٥هـ (سنة ١١٧٩ أو سنة ١١٨٠م) ببلاد الروم على ما قاله هو وتوفي سنة ٦٢٦هـ سنة ١٢٢٩م في الخان بظاهر حلب.

وجاء في كتاب «اكتفاء القنوع بما هو المطبوع» أنّ كتاب ياقوت معجم البلدان في الجغرافية طبعه روستنفلد الألماني في لايسك في خمس مجلدات من سنة ١٨٦٦م إلى سنة ١٨٧٣م وكتابه المشترك وصفاً والمختلف صقعا في الجغرافية عني بطبعه العالم المذكور أيضاً في مدينة غوتنغن سنة ١٨٤٦م.

ابن عنين

هو أبو المحاسن محمد بن نصر ابن عنين الانصاري الملقب بشرف الدين الكوفي الأصل الدمشقي المولد الشاعر المشهور ولم يكن في آخر عصره من يقاس به، ولم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد بل تفنن فيه، وكان غزير المادة من الأدب مطلعاً على معظم أشعار العرب وكان مولعاً بالهجاء وثلب أعراض الناس، وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً من رؤساء دمشق سماها «مقراض الاعراض» وكان السلطان صلاح الدين قد نفاه من دمشق لوقعه في الناس فلما خرج منها قال:

فعلام أبعدتم أخا ثقة لم يجترم ذنباً ولا سرقا
انفوا المؤذن من بلادكم ان كان ينفي كل من صدقا
وطاف البلاد من الشام والعراق حتى دخل الهند وأقام بها مدة ثم رجع على طريق الحجاز والديار المصرية وعاد إلى دمشق وقد كتب من الهند لأخيه:
سامحت كتبك في القطيعة عالماً أنّ الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك في الخفاء لأنه يسري فيصبح دوننا بمراحل
والبيت الثاني لأبي المعري استعمله مضمناً فكان أحسن تضمين ولما مات صلاح الدين وملك أخوه الملك العادل دمشق عاد إلى دمشق من سفرته وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية المشهورة وأولها:

ماذا على طيف الأحبة إن سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى
وبعد أن وصف في هذه القصيدة دمشق وبساتينها وأنهارها ونفيه عنها قال في المغربة وما قاساه فيها:

أشكو إليك نوى تمادي عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهراً
لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى يعفو ولا جفني يصفحه الكرى
ومن العجائب أن يقيّل ظلمهم كل الورى ونبذت وحدي بالورى

وكان له في عمل الألفاز وحلها اليد الطولى ولم يكن له غرض في جمع شعره
فلذلك لم يدونه وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من
النظم، ومع هذا ففيه أشياء ليست له وكان من أطرف الناس وأخفهم روحاً وأحسنهم
مجوناً، وكانت ولادته بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩هـ سنة ١١٥٥م
وتوفي عشية الاثنين والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٣٠هـ سنة ١٣٣٣م بدمشق ودفن
بمسجده الذي أنشأه لأرض المزة وهي بكسر الميم قرية على باب دمشق.

بهاء الدين ابن شداد

أبو المحاسن يوسف بن رافع الأسدي قاضي حلب بهاء الدين والمعروف بابن
شداد الفقيه توفي أبوه وهو صغير فنشأ عند أخواله بني شداد فنسب إليهم خلد
صلاح الدين الأيوبي وولاه قضاء العسكر والحكم بالقدس الشريف، وكان حاضراً
لما توفي صلاح الدين وتوجه إلى حلب يجمع كلمة الإخوة أولاد صلاح الدين
وتخليف بعضهم لبعض، فطلبه الملك الظاهر صاحب حلب من صاحب دمشق وهو
الملك الأفضل فأجابه إلى ذلك فولاه الملك الظاهر قضاءها ووقوفها، وكانت حلب
حينئذ قليلة المدارس وأوليت فيها من العلماء والآل نفراً يسيراً فيعتنى بترتيب أمورها
وجمع الفقهاء بها وعمرت في أيامه المدارس والكليات، وكان يوليها جل الاهتمام
وعقدتها في حلب ولم يكن لأحد معه في الدولة كلام. وقيل توفي يوم الأربعاء
رابع عشر صفر سنة ٦٣٢هـ سنة ١٢٣٥م بحلب ودفن في تربة أنشأها لنفسه. قال
ابن الأثير: حضر الصلاة عليه ودفنه. وصنف كتاب ملجأ الحكام عند الناس
الأحكام وكتاب دلائل الأحكام تكلم فيه عن الأحاديث المستنبطة منها الأحكام في
مجلدين والكتابين «ملجأ الباهر في الفقه»، وكتاب «المسيرة في صلاح الدين الأيوبي»
وغير ذلك وجعل داره خانقاه للصوفية لأنه لم يستطع له وإن شئتم نأدع
لهية هدية له قبله.

ابن شاد لهنه مهياا تشبسه الر حمن العسقلاني علة ربه شلالا مشأا

رذ لم يذ كصفه لنه خلكا نيل لأم كرمه صياحب فواتها الوفاة. كماله معجزة الر حمن بن ك
أبي القاسم الكنائي العسقلاني ابن المسجف ولد سنة ٥٨٣هـ سنة ١٢٨٨م وتوفي
رذ عا رذ عا ت. نبع رذ عا رذ عا مهملك رذ عا نأ بالبعها نبع

سنة ٦٣٥هـ سنة ١٢٣٨م وكان أديباً ظريفاً خليعاً وأكثر شعره في الهجو ومن شعره في مدح الكمال القانوني:

لو كونت عاينت الكمال وجسه أوتار قانون له في المجلس
لرأيت مفتاح السرور بكفه اليه رى وفي اليمنى حياة الأنفس
وله أيضاً في قوم أغنياء بخلاء:

يا رب كيف بلوتني بعصاة ما فيهم فضل ولا افضال
متناصري الأوصاف يصدق فيهم الهاجي وتكذب فيهم الآمال
غطى الثراء على عيوبهم وكم من سوءة غطى عليها المال
جبنا إذا استنجدتهم للممة لؤما إذا استرفدتهم بحال
فوجههم غرف على أموالهم وأكفهم من دونها اقفال
هو في الرخاء إذا ظفرت بنعمة آل وهم عند الشدائد آل

عبد المحسن التنوخي

ذكره صاحب فوات الوفيات قال عبد المحسن بن حمود... أمين الدين التنوخي الحلبي الكاتب المنشئ البليغ ولد سنة ٥٧٠هـ سنة ١٢٧٥م وتوفي سنة ٦٤٣هـ سنة ١٢٤٦م. رحل وسمع بدمشق من حنبل والكندس وغيرهما، وعني بالأدب وجمع كتاباً في الأخبار والنوادر في عشرين مجلداً، روى فيه بالسند، وله ديوان شعر وديوان ترسل وكتاب «مفتاح الأفراح في امتداح الراح» ومن شعره:

اشتغل بالحديث إن كنت ذا فهم ففيه المراد والإيثار
وكن بما قد علمته عاملاً فالعلم روح تجني منها الثمار
وإذا كنت عاملاً وعليماً بالأحاديث لم تمسك نار

وله أيضاً:

أقول لنفسي حين نازل لمتي مشيبي ولم يبق غير رحيلي
أيا نفس قد مرّ الكثير فاقصري ولا تحرصي لم يبق غير قليل
ولا تأملي طول البقاء فانني وجدت بقاء الدهر غير طويل

ابن النجار الدمشقي

ذكره صاحب فوات الوفيات أيضاً قال هو ابراهيم بن سليمان ... بن النجار
الدمشقي المجود ولد بدمشق سنة ٥٩٠ هـ (سنة ١١٩٤ م) وتوفي سنة ٦٥١ هـ (سنة
١٢٥٤ م) وحدث وكتب في الاجازات، وله نظم وأدب وسافر إلى حلب وبغداد،
وكان كاتباً للأمجد صاحب بعلبك وتولى نقابة الأشراف بالاسكندرية. ومن شعره
ما قاله في اسود شائب:

يا رب أسود شائب أبصرته وكان عيني لظي وقاد
فحسبته فحماً بدت في بعضه نار وباقيه عليه رماذ
وله في تفصيل العلم على المراتب:

أين المراتب في الدنيا ورفعتها من الذي حاز علماً ليس عندهم
لا شك أنّ لنا قدراً رأوه وما مثلهم عندنا قدر ولا لهم
هم الوحوش ونحن الانس حكمتنا تقودهم حيثما شئنا وهم نعم
وليس شيء سوى الاهمال يقطعنا عنهم لأنهم وجدناهم عدم
لنا المريحان من علم ومن عدم وفيهم المتعبان الجهل والحشم

ابن أبي اليسر الدمشقي

هو تقي الدين ابن أبي اليسر اسماعيل تفرد بأشياء كثيرة وكان جده كاتب الإنشاء لنور الدين وكتب هو للناصر داود وكان جيّد النظم حسن القول وولي بدمشق نظارة المارستان ومشیخة أم الصالح ومشیخة الزاوية بدار الحديث الأشرفية وكتب على لسان سيف الدين بن مقلد الملك الأشرف وكان يصل إليه عطاؤه رقعة مضمونها يقبل الأرض بين يدي الملك الأشرف أعز الله نصره وشرح ببقائه نفيس الدهر وصدره، وينهي أنّه وصل إلى باب مولانا كما قال المتنبي:

حتى وصلت بنفس مات أكثرها وليتني عشت منها بالذي فضلا
ويرجو ما قاله في البيت الآخر:

أرجو نذاك ولا أخشى المطال به يا من إذا وهب الدنيا فقد بخلا
فأعطاه صلة سيئة ومن شعره:

ليلي كشعر معذبي ما أطوله أخفى الصباح بفرقة إذ أسبله
ان أبعدته يد النوى عن ناظري فله بقلبي أن ترحل منزله
بالعاديات قد اعتدى عني ضحى وبدا له في كل قلب زلله
لخصنا عن صاحب الفوات ولم يذكر سنة مولده ولا سنة وفاته ولا شك أنّه
في هذا القرن الثالث عشر.

عون الدين الحلبي

هو سليمان بن عبد المجيد ... الأديب البارع عون الدين بن العجمي الحلبي ولد سنة ٦٠٦ هـ سنة ١٢٥٩م بدمشق وكان متأهلاً للوزارة كامل الرياسة لطيف الشبائل ومن شعره:

لهيب الخدّ حين بدا لعيني هوى قلبي عليه كالفراشي

فأحرقه فصار عليه خالاً
ومن شعره:

يا سائقاً يقطع البیداء متعسفاً
إن جزت بالشام شم تلك البروق ولا
وعج على دير متى ثم حي به الـ
واعبر بدير حنانیا وانتهاز فرص
واستجل راحتها تحيي النفوس إذا
حمراء صفراء بعد المزج كم قذفت
سألت توماس عن كان عاصرها
وقال اخبرني شمعون ينقله
بانها سفرت بالطور مشرقة
وهي المدام التي كانت معتقة
وهي التي عبدتها فارس فكني

بضامر لم يكن في سيره واني
تعدل بلغت المنى عن دير مراني
ربان بطرس فالربان رباني
اللذات ما بين قسيس ومطران
دارت براح شماميس ورهبان
بشهبها من همومي كل شيطان
أجاب رمزاً ولم يسمح بتبيان
عن ابن مريم عن موسى بن عمران
أنوارها فكنوا عنها بنيران
من عهد هرمس من قبل ابن كنعان
عنها بشمس الضحى في قومهِ ماني

ابن أبي أصيبعة

ولد في دمشق وكان أبوه بدمشق وكان عمه رئيس المستشفى لأمراض العين
وكان من أصدقاء ابن البيطار الآتي ذكره وكان يخرج معه إلى بادية الشام في
طلب النبات، وتوفي في صرخد سنة ٦٦٦هـ سنة ١٢٦٩م وله: «عيون الانباء في
طبقات الأطباء» ذكر فيه مشاهير الأطباء والطبيين من كل الأمم وطبع في القاهرة
في جزئين سنة ١٣٠٠هـ.

ابن الحموي

هو عبد الرحمن بن ابراهيم ... الحموي الشافعي المعروف بابن البارزي قاضي حماه وابن قاضيها ولد بحماه سنة ٦٠٨ هـ سنة ١٢١٢ م وتوفي سنة ٦٨٣ هـ سنة ١٢٨٥ م، وكان إماماً فاضلاً فقيهاً أصولياً خيراً، وكان مشكور الأحكام وافر الديانة محباً للفقراء، درس وأفتى وصنف وخرج أصحابه في المذهب وتوفي في طريق الحج وحمل إلى المدينة ودفن في البقيع. ومن شعره في القلم: ومشتق كاللحظ يحكي فعله سر الخط إلا أن هذا أصغر في رأسه المسود ان أجروه في اليد ض للأعداء موت أحمر ومنه ما كتبه إلى الملك المنصور صاحب حماه:

خدمتك في الشباب وها مشيبي أكاد أحل منه اليوم رمسا
فراع لخدمتي عهداً قديماً وما بالعهد من قدم فينسى

بهاء الدين ابن النحاس الحلبي

قال فيه صاحب الفوات هو محمد بن ابراهيم الامام العلامة حجة العرب بهاء الدين بن النحاس الحلبي النحوي شيخ العربية بالديار المصرية ولد بحلب سنة ٦٢٧ هـ ١٢٣٠ م وتوفي بالقاهرة سنة ٦٩٨ هـ سنة ١٢٩٩ م وأخذ العربية عن جمال الدين بن عمرون ودخل مصر لما خربت، وتخرج به جماعة من الأئمة وكان من أذكى بني آدم وله خبرة بالمنطق واقليدس مشهوراً بالدين والصدق والعدالة، وكان له صورة كبيرة في صدور الناس معروفاً بحل المشكلات واقتنى كتباً نفيسة. ولم يتزوج قط وقيل فيه إنه كان كثير التلامذة كثير الصلاة، يسعى في مصالح الناس وكان لا يكلم أحداً إلا بلغة العوام، لا يراعي الإعراب ولا يكاد يأكل شيئاً وحده وكان ينهي عن الخوض بالعقائد، وولى التدريس بجامعة ابن طولون وبالقبّة المنصورية ولم يصنف شيئاً إلا إملاء على كتاب «المغرب» لابن عصفور من أول الكتاب إلى باب الوقوف.

ومن شعره يخاطب رضى الدين الشاطبي وقد كلفه أن يشتري له قطراً:
أيها الأوحـد الرضـي الذي طـال عـلاء وطاب في الناس نشراً
أنت بحر لا غـرو أن نـحن وافـينـد ناك راجـين من نـدـاك قـطـراً
ومن شعره أيضاً:

إنـي تركـت لـدى الـورى دنـياهم وظللت أنتـظر المـات وأرقـب
وقطعت في الدنـيا علائـق لـيس لي ولد يموت ولا عقال يـخرب

علاء الدين أبو الحسن الدمشقي

أبنأنا شيئاً من ترجمته العلامة المطران أسطفانوس عواد السمعاني في كتابه
فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية عند ذكره كتاباً له (هو ٢٢٩ من
تلك الكتب) عنوانه: «شرح الأصول العامة في صناعة الطب»، وقال إنه كان
قريشياً من دمشق وتوفي سنة ١٢٩٦م، وأن كتابه يشتمل على أربعة أقسام:
الأول في أصول الطب النظري والعملي، الثاني في إعداد المآكل والأدوية البسيطة
والمركبة، والثالث في أمراض كل من الأعضاء الخاصة وعلل هذه الأمراض
واعراضها وعلاجها، الرابع في الأمراض التي لا تصيب جزءاً واحداً من الجسد
وعللها واعراضها وعلاجها. وقد بين مؤلف هذا الكتاب في فاتحته أنه اعتمد على
علي ابن العباس المعروف المجوسي وهو طبيب مشهور كان في أواخر القرن
العاشر، وقد شرح الكتاب الموسوم بالملكي. وعني علاء الدين بأن يطبق بين آراء
ابن العباس المذكور وآراء الرئيس ابن سينا حاذياً حذو ابن سينا وكان ابن العباس
وابن سينا طبيين مشهورين، وكانت آراؤهما غالباً متضاربة. ويظهر من تاريخ
الأطباء لابن جلال ومن أقوال غيره أن العرب كانوا يرون أن آراء ابن العباس
أصلح للعمل وكلام ابن سينا أفصح وأحكم. وهذا ما حمل علاء الدين على
شرح أصول صناعة الطب على موجب رأي الاثنين معاً.

محمّد بن مالك

ذكره الصلاح الكتبي صاحب فوات الوفيات فقال ما ملخصه محمّد بن عبد الله بن مالك الامام العلامة الأوحّد جمال الدين الطائي الشافعي النحوي نزيل دمشق ولد سنة ٦٠٠ هـ سنة ١٢٠٤ م بالأندلس وصرف همّته بدمشق وحلب إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدّمين، وكان إماماً في قراءات القرآن وصنف فيها قصيدة دالية، وكان إماماً في العادلية بدمشق، فكان إذا صلى فيها شيعة قاضي القضاة شمس الدين بن خلّكان إلى بيته تعظيماً له. وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يشقّ لججه. وأما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها فكان عجباً، وكان الأئمة الأعلام يتحIRONون في أمره. وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه غاية وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يجد فيه شاهداً عدل إلى الحديث فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب هذا مع ما كان عليه من الدين والعبادة وكثرة النوافل وكمال العقل، وانفرد عن المغاربة بشيئين الكرم ومذهب الشافعي. وأقام بدمشق مدّة يصنف ويشغل بالجامع بالتربة العادلية وصنف خلا الفتية المشهورة التي كثر شراحها كتابه لتسهيل الفوائد قد مدحه سعد الدين بن عربي بقوله:

إنّ الإمام جمال الدين جمّله ربّ العلاء لنشر العلم أهله
املى كتاباً له يُسمى الفوائد لم يزل مفيداً لذي لب تأمله
فكل مسألة في النحو يجمعها إنّ الفوائد جمع لا نظير له
ومن تأليفه «سبك المنظوم وفك المختوم» وكتاب «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف
بيت وشرحها، و«الخلاصة» و«مختصر الشافية» و«اكمال الاعلام بمثلث الكلام»
و«فعل وافعل» و«المقدمة الأسدية» وصنفها باسم ولده الأسد، و«عدة الالفاظ
وعمدة الحافظ» و«النظم الأوجز في ما يهزم» و«الإعتضاد بالطاء والضاد» و«اعراب
مشكل النجادي». وقال شرف الدين الحصري يرثيه بأبيات منها:

يا شتات الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالك المفضل
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه في الانفصال والاتصال

عدم النعت والتعطف والتو كيد مستبدلاً من الابدال
 الم اعتراه اسكن منه حركات كانت بغير اعتلال
 يا لها سكنة كانت لهمز قضا أورثت طول مدّة الانفصال
 رفعوه في نعشه فانتصبنا نصب تمييز كيف سير الجبال
 أرغموه في الترب من غير مثل سالماً من تغير الانتقال
 ومددنا الأكف نطلب قصراً مسكناً للنزول من ذي الجلال
 يا لسان الاعراب يا جامع الـ اعراب مفهماً لكل مقال
 يا فريد الزمان في النظم والنثر وفي نقل مسندات العوالي
 وقد طبعت الفية ابن مالك في باريس سنة ١٨٣٣م بعناية العلامة دي ساسي
 ثم طبعت في لايسبك سنة ١٨٥١م بعناية العلامة ريتريسي الألماني. وقد طبعت
 في المشرق مراراً كثيرة وقد ترجمها إلى الإيطالية منذ عهد قريب المستشرق العالم
 فيثو فنصل دولة إيطاليا العام الآن في سورية وشرحها شرحاً وافياً، ولها في العربية
 عدة شروح منها شرح ابن الناظم وشرح عقيل الأشموني وغيرها. وقد طبعت هذه
 الشروح مرات أيضاً.

جمال الدين الحموي

ذكره أبو الفداء في تاريخه سنة ٦٩٧هـ فقال جمال الدين محمد بن سالم بن
 واصل قاضي القضاة الشافعي بحماه وكان مولده سنة ٦٠٤هـ سنة ١٢٠٨م وتوفي
 السنة ٦٩٧ المذكورة ١٢٩٨م وكان فاضلاً إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق
 والهندسة وأصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ وله مصنفات حسنة منها «مفرج
 الكروب في أخبار بني أيوب» ومنها «الأمبرورية في المنطق» صنفها للانبرور ملك
 الفرنج صاحب صقلية لما توجه رسولاً إليه في أيام الملك الظاهر بيبرس، واختصر
 الأغاني اختصاراً حسناً وله غير ذلك من المصنفات. قال أبو الفداء ولقد ترددت

إليه بحماه مراراً كثيرة وكنت أعرض عليه ما أحلّه من اشكال كتاب اقليدس واستفيد منه وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض فانه شرحها شرحاً حسناً مطولاً وصححت أسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني . وكان في سورية غير هؤلاء من مشاهير أضرينا عن ذكرهم خشية ملل القراء ولأنهم أقل شهرة مما ذكرنا .

عد ٨٨٦

من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

فخر الدين الرازي

قال في حقه ابن خلكان أبو الفضل محمّد بن عمر... الطبرستاني الأصل الرازي المولد الملقّب فخر الدين المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعي فريد عصره فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل وله التصانيف المفيدة في فنون عديدة، منها «تفسير القرآن» جمع فيه كل غريب وغريبة وهو كبير جداً لكنّه لم يكلمه وشرح سورة الفاتحة في مجلّد. ومنها في علم الكلام «المطالب العالية ونهاية العقول»، وكتاب «الأربعين» و«المحصل» وكتاب «البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان»، وكتاب «المباحث العمادية في المطالب المعادية»، وكتاب «تهذيب الدلائل وعيون المسائل» وكتاب «ارشاد الانظار إلى لطائف الأسرار» وكتاب «أجوبة المسائل التجارية»، وكتاب «تحصيل الزبدات» وغير ذلك. وله في الفقه «المحصل والمعاليم» وفي الحكمة «الملخص» و«شرح الإشارات لابن سينا» و«شرح عيون الحكمة» وغير ذلك. وفي الطلسمات «السر المكتوم» و«شرح أسماء الله الحسنی» ويقال إنّ له شرح المعضل في النحو للزمخشري وشرح الوجيز في الفقه للغزالي وشرح سقط الزند للمعري. وله مختصر في الاعجاز ومواخذات جيّدة في النحاة وله طريقة في الخلاف، وله في الطب «شرح الكليات لقانون ابن سينا» وصنّف في علم الفراسة، وله مصنف في «مناقب الإمام الشافعي». وانتشرت تصانيفه في البلاد ورزق منها سعادة عظيمة وهو أوّل من اخترع هذا الترتيب في كتبه وأتى فيها بما لم يسبق إليه. وكان له في الوعظ اليد البيضاء ويعظ باللسانين

العربي والعجمي. ويروون عنه ملحقاً ونوادير غريبة ومناقبه أكثر من أن تعد وكان له مع هذه العلوم شيء من النظم ومن ذلك قوله:

نهاية اقدم العقول عقل وأكثر سعي العالمين ضلالاً
وأرواحنا في وحشة من جسوننا وحاصل دنيانا أذى ووبالاً
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى ان جمعنا فيه قيل وقال
وكم قد رأينا من رجال ودولة فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا والجبال جبال
وكانت ولادته سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م بالري، وتوفي سنة ٦٠٦هـ سنة ١٢٠٩م بهرة. انتهى ما لحصناه عن ابن خلكان.

وقد ذكره المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية بمعرض ذكر كتاب له في الحكمة، قال إنه مقسوم إلى أربعة أبواب: الأول في السماء والعالم، والثاني في التولد والنساء، والثالث في ماهية النفس الناطقة، والرابع في سعادتها. وقال في حقه إنه كان فيلسوفاً وطبيباً وفقهياً ماهراً وذكر تفريض الجوزي المؤرخ له وروى عن قبريشيوس عدة كتب له. فقال إن له من الكتب: الكتاب الأول في طريقة اللاهوت (الذين يسميه المسلمون علم الكلام) العامة، ثانياً أحكام اللاهوت، ثالثاً مصباح أو مشكاة اللاهوت، رابعاً شرح كتب أرسطو، خامساً شرح القرآن، سادساً إيجاز كتاب ابن سينا في ما وراء الطبيعة مع شرح عليه، سابعاً حل ألف مشكل في اللاهوت، ثامناً طريقة في ترتيب المجاذلات، تاسعاً السر المكتوم. وذكر له هرييلوتيس في مكتبته المشرقية الكتب الآتية ذكرها: أولاً إرشاد الابصال في لطائف الأسرار وهي شرح للأسرار الدقيقة اعتنى بأن يثبت به مبادي دين الاسلام ويفسرها، ثانياً محصل الافكار في علم ما وراء الطبيعة واللاهوت الجدلي وقد شرحه علماء كثيرون، ثالثاً أصول الدين وهو مقسوم إلى خمسين بحث موضوعه فلسفي لاهوتي. والبحث الأول يضاد به من قالوا بأزلية العالم ومنه يظهر أن عقيدته لم تكن فاسدة كما تجنى عليه أعداؤه وله كتاب سماه «اختيارات النجومية» وكتاب آخر عنوانه «الأربعين في أصول الدين» وكتاب آخر عنوانه «المحصل». هذا ما ذكره له العالم المذكور.

وجاء في اكتفاء القنوع بما هو المطبوع أنَّ كتاب الرازي مفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير طبع في بولاق في ستة أجزاء من سنة ١٢٧٨هـ إلى سنة ١٢٨٩هـ طبع بالقاهرة في ثمانية أجزاء سنة ١٣٠٩هـ وعلى الهامش التفسير المسمى بـ«إرشاد العقل السليم» لأبي السعود العمادي، وطبع في قسطنطينية في عدّة أجزاء سنة ١٣٠٧. والرازي فخر الدين هذا هو غير أبي بكر محمّد بن ذكرى الرازي، وغير أحمد بن فارس بن ذكرى الرازي، وغير قطب الدين محمود بن محمّد الرازي، وغير السيّد الرازي الشيعي.

مجد الدين بن الأثير

قال في حقّه ابن خلكان أبو السعادات المبارك بن أبي الكرم محمّد ... الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب بمجد الدين قال فيه أبو البركات ابن المستوفي أشهر العلماء ذكراً، وأكبر النبلاء قدراً وأحد الأفاضل المشار إليهم، وفرد الأمثال المعتمد عليهم. وله المصنّفات البديعة والرسائل الوسيعة، منها: «جامع الأصول في أحاديث الرسول» ومنها: كتاب «النهاية في غريب الحديث» في خمسة مجلّدات وكتاب «الانصاف في الجمع بين الكشف والكشاف» في تفسير القرآن الكريم أخذه من تفسير الثعلبي والزمخشري. وله كتاب «المصطفى والختار في الأدعية والاذكار»، وله كتاب لطيف في صنعة الكتابة وكتاب «البدیع في شرح الفصول» في النحو لابن الدهمان وله ديوان رسائل وكتاب «الشافى في شرح مسند الامام الشافعى» وغير ذلك من التصانيف. وكانت ولادته بجزيرة ابن عمر فوق الموصل سنة ٥٤٤هـ سنة ١١٥٠م واتّصل بخدمة الأمير مجاهد الدين قايماز. وبعد وفاته خدم عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل وتولى ديوان رسائله وله شعر يسير. فمن ذلك ما أنشده للاتابك صاحب الموصل وقد زلت به بغلته وهو:

إن زلت البغلة من تحته فان في زلتها عذرا
حملها من علمه شهاقاً ومن ندا راحته بحرا
وكانت وفاته بالموصل سنة ٦٠٦هـ سنة ١٢١٠م وعن اكتفاء القنوع بما هو

المطبوع أنّ كتاب مجد الدين الموسوم بالنهاية في غريب الحديث طبع في طهران سنة ١٢٤٩هـ في جزء واحد كبير الحجم وهو معجم في الحديث وطبع أيضاً بالقاهرة سنة ١٣٠٨ وأما كتابه «جامع الأصول في أحاديث الرسول» فلم يطبع كاملاً إلى الآن ولكن لخصه ابن الريع بكتاب وسمه بـ«تسيير الوصول إلى معرفة الأصول» طبع في كلكتة سنة ١٢٥٢هـ.

عز الدين ابن الأثير المؤرّخ

قال في حقّه ابن خلكان هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم ... الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقّب عز الدين، ولد في الجزيرة ونشأ بها ثم سار إلى الموصل مع والده وأخويه مجد الدين السابق ذكره وضياء الدين الآتي ذكره، وسكن الموصل وسمع بها وبغداد من اعلام العلماء حيثنّذ، ورحل إلى الشام والقدس وسمع فيهما من كثيرين ثم لزم بيته في الموصل منقطعاً إلى التوفّر في النظر في العلم والتصنيف، وكان بيته مجمع الفضل لأهل الموصل والواردين إليها وكان إماماً في حفظ الحديث ومعرفة ما يتعلق به. وحافظاً للتواريخ وخبيراً بانساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم، وصنف في التاريخ كتاباً كبيراً سماه «الكامل» ابتداءً به من أوّل الزمان إلى آخر سنة ٦٢٨هـ (سنة ١٢٣١م) وهو الذي استشهدنا به واعتمدنا عليه مراراً وهو من خيار التواريخ. واختصر كتاب الانساب لأبي سعد عبد الكريم بن السمعاني، واستدرك عليه في مواضع، ونبه على اغلاط وزاد أشياء أهملها أبو سعد، وأكثر ما يوجد اليوم من هذا التصنيف «المختصر» وهو في ثلاثة مجلّدات والأصل في ثمانية، وهو عزيز الوجود ولم أره إلاّ مرة واحدة بمدينة حلب ولم يتّصل إلى الديار المصرية سوى المختصر المذكور. وله كتاب «أخبار الصحابة» في ستة مجلّدات كبيرة. وقال ابن خلكان إنّ كان يتردد إليه كثيراً إذ كان في حلب، وإن ولادته كانت سنة ٥٥٥هـ سنة ١١٦١م بجزيرة ابن عمر وهو من أهلها وتوفي سنة ٦٣٠هـ سنة ١٢٣٣م بالموصل. وأما جزيرة ابن عمر مولده فقال فيها ابن خلكان لا أدري من هو ابن عمر. وقيل إنّها منسوبة إلى يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين، ثم لآتي ظفرت بالصواب في ذلك. وهو أنّ رجلاً من أهل بر قعيد من أعمال الموصل بناها،

وهو عبد العزيز بن عمر فأضيفت إليه. ورأيت في بعض التواريخ أنها جزيرة ابني عمر أوس وكامل ولا أدري أيضاً من هما، ثم رأيت في تاريخ ابن المستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن محمد أنه جزيرة أوس وكامل ابني عمر بن أوس الثعلبي والله أعلم.

وقد ذكر أبو الفداء عز الدين بن الأثير ووصفه بما وصفه به ابن خلكان وقال: «وهو المنقول منه غالب هذا المختصر. أي تاريخه المشهور وقد طبع كتاب ابن الأثير الموسوم بأسد الغابة في معرفة الصحابة في القاهرة في ٥ مجلدات سنة ١٢٨٦هـ، وطبع كتابه الكامل في التاريخ في ١٤ مجلداً في لايدن ولايسك من سنة ١٨٥١م إلى سنة ١٨٧٦م. عني بطبعه العلامة نورنبرغ ثم طبع في بولاق، وفي القاهرة في اثني عشر جزءاً من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٠٣هـ. وعلى هامش هذه الطبعة كتاب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» للجبرتي. وطبع كتاب ابن الأثير في «أنساب العرب» في غوتنغن سنة ١٨٢٥م عني بطبعه روستنفلد الألماني هذا ما رواه صاحب كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع، وهو ادوار بن الدكتور فان ديك. وقال لابن الأثير هذا أيضاً كتاب تاريخ الدولة الأتابيكية ملوك الموصل ذكر فيه الحروب الصليبية طبعت منه أجزاء مع ترجمة فرنسية بعناية العلامة جان جنس والعلامة رينود في باريس سنة ١٨٢٩م.

ضياء الدين ابن الأثير

هو أخو مجد الدين وعز الدين السابق ذكرهما ولم يكن أقل منهما علماً واتّصل بخدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧هـ ثم طلبه منه ولده الملك الأفضل، فخير له صلاح الدين بين المقام في خدمته والانتقال إلى خدمة ولده فاختار خدمة ولده ومضى إليه، فاستوزره وحسنت حاله عنده. ولما توفي صلاح الدين واستقلّ ولده الملك الأفضل بمملكة دمشق استقل ضياء الدين بالوزارة وصار الاعتماد في جميع الأحوال عليه، ولما أخذت دمشق من الأفضل وانتقل إلى صرخد وكان ضياء الدين أساء السيرة مع أهل دمشق همّ أهل دمشق بقتله فأخرج مستخفياً في صندوق وسار إلى الأفضل ثم صحبه إلى مصر لما استدعى لنيابة ابن أخيه الملك المنصور كما تقدّم. ولما أخذ الأفضل البلاد الشرقية خاف ضياء الدين

أن يصحبه إليه، لكنه عاد إلى خدمته بعدئذٍ ثم فارقه واتّصل بخدمة أخيه الملك الظاهر صاحب حلب، ثم فارقه وتحوّل في البلاد إلى أن جعل دار إقامته الموصل كاتباً لصاحبها نصر الدين محمود ارسلان شاه. ولضياء الدين من التصانيف الدالة على غزارة فضله كتابه الذي سماه «المثل السائر في آداب الكاتب والشاعر»، وهو في مجلّدين فتصدى عز الدين أبو حامد المدايني لمواخذته والرد عليه وسمى كتابه الفلك الدائر على المثل السائر. ولضياء الدين أيضاً كتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم وهو مع وجازته في غاية الحسن والإفادة وله كتاب المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء وله مجموع اختار فيه شعر أبي تمام والبحتري وديك الجن والمنتبي وهو في مجلّد واحد كبير وله ديوان ترسل في عدّة مجلّدات، و«المختار» في مجلّد واحد. وكانت ولادة ضياء الدين بالجزيرة سنة ٥٥٨هـ سنة ١١٦٣م وتوفي ببغداد سنة ٦٣٧هـ سنة ١٢٤٠م.

وقد طبع كتابه «الوشتي المرقوم في حل المنظوم» في بيروت سنة ١٢٩٨هـ وطبع كتابه «المثل السائر» في مصر سنة ١٢٨٢هـ. وقد انتقد هذا الكتاب الصفدي أيضاً.

عثمان ابن الحاجب

قال فيه ابن خلكان هو عمر أبو عثمان بن عمر... المصري الفقيه المالكي المعروف بابن الحاجب الملقّب جمال الدين، كان والده حاجباً للأمير عز الدين موشك (ويروى موسك بالسين) الصالحى، وكان كردياً فاشتغل عثمان أولاً بالقرآن الكريم ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك ثم بالعربية والقراءات، وبرع في علومه وأتقنها غاية الاتقان ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعة وأكّبت الخلق على الاشتغال عليه، وكان الأغلب عليه علم العربية وصنف مختصراً في مذهبه ومقدمة وجيزة في النحو (وهي المعروفة بالكافية وأخرى مثلها في التصريف وسماها الشافية) وشرح المقدمتين وصنف في أصول الفقه، وكل تصانيفه في نهاية الحسن والافادة وخالف النحاة في مواضع وأورد عليهم إشكالات تبعد الإجابة عنها، وعاد إلى القاهرة والناس ملازمون له للاشتغال عليه. ثم انتقل للاسكندرية للاقامة بها فلم تطل مدّته هناك وتوفي بها في ٢٦ شوال سنة ٦٤٦هـ سنة ١٢٤٩م. وذكر

أبو الفداء أنه اختصر كتاب الاحكام للآمدي في أصول الفقه فطبق ذكر هذين الكتائين أي الكافية ومختصره في أصول الفقه جميع البلاد خصوصاً بلاد العجم، وأكّـب الناس على الاشتغال بهما إلى زماننا هذا. وله غيرهما عدّة مصنّفات.

وعن اكتفاء القنوع أنّ الحسين ابن أحمد الشهير بزيني زاده من أهل القرن الثاني عشر للهجرة شرحاً بصفة اعراب الكافية سماها: «الفوائد الشافية على إعراب الكافية» فرغ من تبييضه سنة ١١٦٨هـ سنة ١٧٥٤م وطبع بالقسطنطينية سنة ١٢٣٥هـ سنة ١٢٥١هـ دون ذكر محل الطبع. وطبعت الكافية مع الاعراب في القاهرة ولللاجامي الذي توفي سنة ٨٩٨هـ بهرات شرح مطوّل على الكافية سماه «الفوائد الضافية» طبع في الهند سنة ١٢٨٢هـ وفي القسطنطينية سنة ١٢٨٧. وللرضي الاستربادي الذي توفي سنة ٦٨٦هـ شرح مطوّل على الكافية يعرف بشرح الرضي طبع في جزئين في الهند سنة ١٢٨٠هـ وفي القسطنطينية سنة ١٢٧٥هـ مع حواش على الهامش. وطبعت الشافية في التصريف في الهند سنة ١٢٧٨هـ مع شروح لها ثمّ في القسطنطينية سنة ١٣٠٣هـ. وروى المطران أسطفان عواد في فهرست المكتبة الماديشية أنّ فيها كتاب الكافية مطبوعاً بالعربية برومة سنة ١٥٩٢م ونسخة أخرى مع ترجمتها إلى اللاتينية التي وضعها توما أوربانيوس وطبعت في لايدن سنة ١٦١٧م ثمّ بريس سنة ١٦٣٨م.

ابن البيطار

هو أبو محمّد ضياء الدين عبد الله ابن أحمد المعروف بابن البيطار الأندلسي اشتهر كثيراً بعلم النبات وجال في كثير من الآفاق للبحث عن النبات والاستطلاع على خواصه حتى عدّوه من أحسن مؤلفي العرب في علم النبات وأقام مدات في مصر وسورية. وكان من أصحاب ابن أبي أصيبعة صاحب طبقات الأطباء ولابن البيطار عدّة مصنّفات في الطب منها المغني وهو مرتب على أحرف الهجاء، وكتاب مداواة الأعضاء وله في النبات كتاب الأدوية المفردة المعروف بمفردات ابن البيطار وهو معجم في النبات وهو أشهر كتبه وطبع في جزئين ببولاق سنة ١٢٩١هـ معنواً الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. وقد أخذ ابن البيطار عن مصنف

ديوسقوريدس اليوناني العين ذريي وتوفي بدمشق سنة ٦٤٦هـ سنة ١٢٤٨م. وقد ذكر المطران أسطفانس عواد السمعاني كتاب مفردات ابن البيطار في فهرست الكتب المشرقية بالمكتبة الماديشية وقال في حقّه أنّه كان فيلسوفاً ماهراً جداً بعلم النبات وطاف أربع قارات العالم للبحث عن النبات واختبار خواصه لكنه قال إنّهُ توفي في ملاكا مدينة مولده في التاريخ الذي ذكرناه لا في دمشق كما مرّ ونحن نعول على هذه الرواية أكثر من الرواية التي ذكرناها قبيل هذا.

البهاء زهير

ذكر ترجمته ابن خلكان فقال هو أبو الفضل زهير بن محمّد بن علي... المهلب العتكي الملقّب بهاء الدين من فضلاء عصره وأحسنهم نظماً ونثراً وخطاً وأكثرهم مروءة اتّصل بخدمة السلطان الملك الصالح ابن الملك الكامل بالديار المصرية وتوجه بخدمته إلى البلاد المشرقية ولما ملك الملك الصالح دمشق انتقل إليها في خدمته ولما خرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو على نابلس، وقبض عليه ابن عمّه الملك الناصر صاحب الكرك استمرّ البهاء زهير بنابلس ولم يتّصل بغيره ولما ملك الملك الصالح الديار المصرية عاد البهاء زهير إلى خدمته قال ابن خلكان: كنت أتشوّق أن أجمع به وأسمع منه فاجتمعت به بالقاهرة ورأيتهُ فوق ما سمعته عنه وأنشدني كثيراً من شعره:

يا روضة الحسن صلي فما عليك ضيّرُ فهل رأيت روضة ليس لها زهيرُ
ومنه أيضاً

كيف خلاصي من هوى مازج روحي واختلط
وتايه أفيض في حبي له وما انبسط
يمرّ بي متلفاً فهل رأيت الطبي قط

وقد توفي البهاء زهير سنة ٦٥٦هـ سنة ١٢٥٨م.

عمر بن الفارض

قال فيه ابن خلكان هو ابن حفص وأبو القاسم عمر بن أبي الحسن علي الحموي الأصل المصري المولد والدار والوفاة المعروف بابن الفارض. له ديوان شعر لطيف وأسلوبه فيه رائع ظريف وله قصيدة مقدار ست مئة بيت مشتملة على اصطلاح الصوفية ومنهجهم وما ألطف قوله من جملة قصيدة طويلة:

أهلاً بمن لم أكن أهلاً لموقفه قول المبشر بعد اليأس بالفرج
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج
وله من قصيدة أخرى:

لم أخل من حسدٍ عليك فلا تضع سهري بتشنيع الخيال المرجف
واسألُ نجوم الليل هل زار الكرى جفني وكيف يزور من لم يعرف
وعلى تفنن واصفيه بوصفه يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف
وله ذو بيت ومواليً والغاز. جاور بمكة زماناً وكان حسن الصحبة محمود
العشرة، وكانت ولادته في الرابع من ذي القعدة سنة ٥٧٦هـ سنة ١١٨١م
بالقاهرة وتوفي في جمادي الأولى سنة ٦٣٣هـ سنة ١٢٣٥م ودفن بسفح المقطم.
وقد طبع ديوانه المشهور مراراً منها في بولاق في جزئين سنة ١٣١٠هـ مع
شرحين عليه، الأول شرح لغوي للبوريني الذي توفي سنة ١٠٣٤هـ والآخر شرح
صوفي لعبد الغني النابلسي الذي توفي سنة ١١٤٣هـ، وطبع أيضاً في باريس مع
الشرحين المذكورين سنة ١٨٥٥م وطبع في بيروت مراراً وطبعه في مرسيليا الكونت
رشيد الدحداح سنة ١٨٥٣م مع خلاصة من الشرحين.

ابن خلكان

هو أحمد بن محمد بن أبي بكر خلكان البرمكي الملقب شمس الدين صاحب
وفيات الأعيان الذي اعتمدنا عليه غالباً في تراجم المشاهير الدينيين. قال عن نفسه

في ترجمة زينب بنت الشعري: «مولدي يوم الخميس بعد صلوة العصر حادي عشر شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ هـ (سنة ١٢١٢ م) بمدينة أرييل بمدرسة سلطانها الملك المعظم مظفر بن زين الدين رحمه الله تعالى وكان فاضلاً عالماً تولى القضاء بمصر والشام وله مصنّفات جليلة منها وفيات الأعيان في التاريخ وغيره. وتوفي سنة ٦٨١ هـ سنة ١٢٨٢ م بدمشق وقد طبع كتابه وفيات الأعيان العلامة روستنفلد الألماني في ثلاثة عشر جزءاً في غوتنغن من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٦٥ م، وهذه الطبعة هي التي اعتمدنا عليها وطبع أيضاً في باريس من سنة ١٨٣٨ م إلى سنة ١٨٤٢ م، وطبع مرة أخرى في باريس سنة ١٨٦٨ م وطبع في بولاق سنة ١١٧٥ هـ وسنة ١٢٩٩ هـ ثم في القاهرة سنة ١٢١٠ هـ وقد ذكر له صاحب فوات الوفيات كثيراً من مقاطع الشعر منها:

يا رب إنّ العبد يخفي عيبه فاستر بحلمك ما بدا من عيبه
ولقد أتاك وما له من شافعٍ لذنوبه فاقبل شفاعة شبيهه
ومنها:

يا معرضاً عني بغير جنايةً أما تستحي من فرط تيهك والعجب
ومنها:

سلوتك فاصنع ما تشاء فانه محا كثرة التقيح حبك في قلبي

البيضاوي

هو ناصر الدين عبد الله الاشعري العقيدة ولد في البيضا ببلاد فارس وتولى القضاء في شيراز، وألقى دروساً في عدّة مدن، وتوفي في تبريز سنة ٦٨٥ هـ سنة ١٢٨٧ م. وفي رواية أخرى سنة ٦٩٢ هـ سنة ١٢٩٢ م وله في التوحيد كتاب «طوالع الأنوار» طبع مع شرح له بمطبعة حجرية في القسطنطينية. وأشهر كتبه تفسير القرآن الذي سماه «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» اعتنى بطبعه العلامة فلايشر. الألماني في سبعة أجزاء في لايسك سنة ١٨٤٨ م، ووضع فل الألماني لهذه الطبعة

فهرستاً وافياً طبع في لايسك سنة ١٨٧٨م، ولشهاب الدين الخفاجي (الذي توفي سنة ١٠٢٩هـ) حاشية على هذا الكتاب عنوانها «عناية القاضي وكفاية الراضي» طبعت في ٨ أجزاء بيولاق سنة ١٢٨٣ ولشيخ زاده الحاشية على البيضاوي طبعت في ثلاثة أجزاء بيولاق سنة ١٢٦٣ وله حواشٍ أخرى.

وذكر العلامة المطران أسطفانس عواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية تصانيف البيضاوي، فقال: الأول تفسير القرآن عنوانه أنوار التنزيل وأسرار التأويل جمع فيه في مجلدين تفاسير كثيرين ممن تقدّموه، الثاني مقالة في أركان دين الإسلام وعقائده، والثالث كتاب في التاريخ سماه نظام التواريخ، والرابع كتابه المسمى طوابع الأنوار وهو فلسفي ديني وقد شرحه شمس الدين الأصفهاني ومنه نسخة في مكتبة باريس الملكية في عد ٢١٠. وهذه النسخة خطت سنة ١٣٤٨ كما يظهر من الذيل المعلق بآخرها.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث عشر

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم من الشرقيين والغربيين

عد ٨٨٧

بطاركة أنطاكية في القرن الثالث عشر

فرغنا من تاريخ بطاركة أنطاكية في القرن الثاني عشر بذكر توادورس بلسامون، وأرى تاريخ هؤلاء البطاركة في القرن الثالث عشر سقيماً غامضاً، ولذلك تلجئني

الحال إلى الاكتفاء بتلخيص ما رواه لكويان في مصنفه الموسوم بالمشرق المسيحي عن بطارقة أنطاكية في هذا القرن. قال كان بعد توادورس بلسامون في كرسي أنطاكية يواكيم الأول هياروتاوس ثم سمعان الثالث ثم داود، فقد رأيت في الجدول الواتيكاني الذي أرسلت إليّ خلاصته أنّ يواكيم خلف توادورس بلسامون ثم خلف هياروتاوس يواكيم ثم خلف اثناسيوس هياروتاوس. وقد صرح كاتب الجدول المذكور بأنّه لا يعلم متى جلس هؤلاء البطارقة على كرسي أنطاكية مع بذله قصارى الجِدِّ للاطلاع على ذلك، ولهذا أظنّ أنّ اثناسيوس الذي ذكره صاحب الجدول الواتيكاني هنا ليس هو إلّا اثناسيوس الذي ذكرناه قبلاً في جملة بطارقة أنطاكية في القرن الثاني عشر، ورأيت في الجدول العربي الذي وضعه السمعاني أنّ يواكيم خلف بلسامون ودوروتاوس خلف يواكيم (وأظنّ أنّ دوروتاوس هذا الذي ذكره السمعاني إنّما هو هياروتاوس الذي ذكرناه نقلاً عن الجدول الواتيكاني). وكان بعد دوروتاوس سمعان يوليانوس واثناسيوس. انتهى كلام السمعاني. ثم قال لكويان وأما داود الذي ذكرته آنفاً فقد يكون له اسمان ولا أشكّ في أنّه جلس على كرسي أنطاكية بعد بلسامون، وقبل أوتييميوس الآتي ذكره. ثم ارتقى إلى كرسي أنطاكية بعد هؤلاء أوتييميوس الأول، توادوسيوس الخامس، ثم أرسانيوس ثم كيرلس الثاني، ثم ديوانيسيوس الأول، ثم كيرلس الثالث، ثم ديوانيسيوس الثاني، ثم صفرونيوس. ومما يبعث على العجب أنّ مؤلف الجدول الواتيكاني لم يذكر هؤلاء البطارقة الثمانية ولم يذكر خلفاً لاثناسيوس المذكور آنفاً إلّا اغناطيوس الذي كان في القرن الرابع عشر مع أنّه قد حقق علماء يركن إلى روايتهم. أنّ هؤلاء البطارقة الثمانية جلسوا على كرسي أنطاكية ومن هؤلاء نيكوفور كاليستس فأنّه أورد أسماءهم في الكتاب الرابع عشر من تاريخه، وقال إنّ أربعة بطارقة من هؤلاء نقلوا من كرسي أسقفية إلى الكرسي البطريركي الأنطاكي أي أنّ أوتييميوس نقل من كرسي طرابلس وكيرلس الثاني من كرسي صور ثم خلفه ديوانيسيوس الأول منتقلاً من كرسي بومبايولي. وخلف كيرلس الثالث ديونيسيوس الثاني وكان أسقفاً على المصيصة وكان شهيراً. وروى جيورجيوس باخميرس (في ك ٦ من تاريخه فصل ٥) أنّ أوتييميوس الأول لم يخلفه أرسانيوس كما روى بعضهم بل خلفه توادوسيوس وكان راهباً فان أوتيوس لما علم بدنو وفاته أوعز إلى توادورس أسقف عين زربة أن يجمع الأساقفة ويقرعوا

بحياته على من خلفه بعد مماته ففعلوا، ولذلك لم يكن بعد وفاة أوثيميوس من مخالف لانتخاب ديونيسيوس الثاني. وهذا البطريك قد ساعد على اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية في أيام الملك ميخائيل باليولوجوس. ثم يقول باخميرس أنّ ديونيسيوس هذا تنازل عن البطيركية فاختار اكليس أنطاكية أرسانيوس، وبعد وفاة أرسانيوس انقسم الأساقفة فاختار أساقفة كيليكية ديونيسيوس أسقف باميا يابولي، واختار أساقفة سورية كيرلس الثاني رئيس أساقفة صور واختتم لكويان كلامه بقوله وأما كيرلس الثالث وديونيسيوس الثاني وصفرونيوس الذين ذكرهم نيكوفور كاليستوس فلم أجد لهم ذكراً في ما طالعت من الكتب ويظنّ أنّ هذا القرن انقضى في مدّة هؤلاء البطاركة.

عد ٨٨٨

بطاركة أورشليم في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على بطاركة أورشليم في القرن الثاني عشر بذكر توفان الأوّل ويظهر أنّ كرسي أورشليم لم يقم عليه بطريك بعد وفاة توفان المذكور في أوائل القرن الثالث عشر إلى نحو سنة ١٢٦٠م، فلا نرى لكويان ذكر بعد توفان إلّا غريغوريوس الثاني، وقال إنّ هذا صيّر بطريكاً في أيام الملك ميخائيل باليولوجوس. والمؤكّد أنّ هذا الملك جلس على منصّة الملك في نيقية سنة ١٢٦٠م واستردّ قسطنطينية من الملك بودوين الثاني آخر ملوك اللاتين فيها سنة ١٢٦١م، وعني بإقامة غريغوريوس المذكور بطريكاً على أورشليم. وأنبأنا لكويان أنّ لهذا البطريك كتاباً يرد به رأي يوحنا بكخوس الذي كان يدافع عن تعليم الكنيسة الغربية واللاتين، وأنّ هذا الكتاب في المكتبة الملكية في باريس.

ثم توفّي غريغوريوس الثاني في أيام الملك ميخائيل أيضاً ولا نعلم بأيّة سنة كانت وفاته لأنّ الملك ميخائيل استقرّ على منصّة الملك إلى سنة ١٢٨٢م وخلفه ابنه أندرونيكوس الثاني وبعد وفاة غريغوريوس صيّر باسيليوس الثالث بطريكاً على أورشليم، ولما كان باسيليوس في القسطنطينية عاون على إصلاح الروم مع الكنيسة اللاتينية، ولما عاد إلى كرسيه في أورشليم قتل في مدّة الحروب التي كانت وقتئذ بين المسلمين والفرنج روى ذلك الاتيوس في كتاب ردّه على هوتينجاروس صفحة ٤٧٥.

وبعد مقتل باسيليوس صيّر على أورشليم تادي الفرمي فان في المكتبة الملكية بباريس كتاب مخطوط عنوانه تادي الفرمي بطريك أورشليم رداً على اليهود كتبه نحو سنة ١٢٩٨م في أيام الملك أندرونيكوس الثاني.

عد ٨٨٩

بطاركة أنطاكية وأورشليم من اللاتين في القرن الثالث عشر

أمّا أنطاكية فقد صيّر بطرس الأول بطريكاً عليها سنة ١٢٠٠م، ولما تولى ريموند كونت طرابلس أنطاكية كان خصام شديد بينه وبين هذا البطريك فسجنه وتوفي في السجن كما يظهر من رسالة كتبها البابا أينوشنسيوس الثالث في ١٢ تموز سنة ١٢٠٨م وخلفه بطرس الثاني وأثبتته البابا أينوشنسيوس الثالث المذكور وأوصى بطاعته واحترامه وقد أعاقه المرض عن أن يشهد الجمع اللاتراني الرابع الذي عقده البابا أينوشنسيوس الثالث سنة ١٢١٥م فأرسل نائباً عنه ثم توفي سنة ١٢١٧م كما يظهر من رسالة أنفذها البابا أنوريوس الثالث إلى مجمع كنيسة أنطاكية وفرغ كرسي أنطاكية من بطريك إلى سنة ١٢١٩م، وكان يديره كاهن اسمه بطرس من كابوا فرقه البابا المذكور إلى مقام الكردينالية وأقام على الكرسي الأنطاكي ديناريوس أحد كهنة الكنيسة الرومانية، ثم توفي ديناريوس سنة ١٢٢٦م. وخلفه على الأظهر روبرتوس، فدبر مهام هذا الكرسي من سنة ١٢٢٦ أو سنة ١٢٢٧م إلى سنة ١٢٤٦م. وتوفي برومة وخلفه إيليا من رهبانية القديس عبد الأحد وبعد وفاته صيّر كويستيانوس من هذه الرهبانية بطريكاً على أنطاكية واستمر على كرسيها إلى سنة ١٢٦٨م حين قتله عسكر الملك الظاهر بيبرس وهو على المذبح لابس حلة التقديس عند امتلاكهم أنطاكية في شهر أيار سنة ١٢٦٨م المذكورة، واستمر الكرسي الرسولي إلى اليوم يسمى على أنطاكية بطاركة شرفاً يقيمون برومة فلا محل لذكرهم في تاريخ سورية.

أمّا أورشليم فيظهر أنه بعد وفاة مونوماكوس بطريكها سنة ١٢٠٢م كما ذكرنا في تاريخ القرن الثاني عشر أختير بطريكاً لها ألبرتس سنة ١٢٠٤م، وكان أسقفاً بإيطاليا وثبته البابا أينوشنسيوس الثالث ولهذا البابا عدة رسائل إلى هذا البطريك الذي كان محبوباً موقراً حتى كان المسلمون أنفسهم يحبونه ولكن اغتاله

رجل شرير كان البطريك يؤنبه على فظائع ارتكبتها بينما كان في طواف حافل يوم عيد ارتفاع الصليب سنة ١٢١٤م، وانتخب بعده كوتاروس ويسمى لوتاروس وكان أسقفاً على عكا. وروى بعضهم أن الذي انتخب بعد البرتس إنما هو رودلفس وصحح لكويان أن المنتخب هو كوتاروس لكنه لم يكن أسقفاً على عكا بل كان أسقفاً على بيزا أتى مع جماعة من أبناء أبرشيته لنجدة الفرنج بفلسطين فانتخب بطريكاً لأورشليم سنة ١٢١٥م، ثم توفي فخلفه رودلفوس واستمر على البطريكية إلى سنة ١٢٢٥م، فخلفه جيرالدوس. وفي أيامه أتى فريديريك الثاني عاهل ألمانيا إلى فلسطين فشكا البطريك إلى الحبر الروماني بأنه كان يعيبه بعقده الهدنة مع سلطان المسلمين فاستدعاه البابا ونهيه أن لا يتدخل بأعمال هذا الملك ورفع عنه قصادة الكرسي الرسولي بفلسطين وعهد بها إلى البطريك الأنطاكي، ثم توفي رودولفوس سنة ١٢٣٩م وبعد وفاته طلب مجمع كنيسة أورشليم إلى البابا أن يرسل إليهم الكردينال يعقوب دي فترى الذي كان قبلاً أسقفاً على عكا وهو صاحب التاريخ المشهور، فلم يجب البابا غريغوريوس التاسع إلى طلبهم ونصب بطريكاً على أورشليم سماه بعضهم روبرتس وبعضهم كويدن وتوفي سنة ١٢٥٤م، وخلفه يعقوب وكان فرنسياً اختاره البابا اسكندر الرابع وعهد إليه بالقصادة في سورية. وروى مكمل تاريخ غوليلمس أنه أتى إلى عكا سنة ١٢٥٦م وعاد إلى المغرب سنة ١٢٦١م وتوفي الحبر الروماني فانتخب يعقوب بابا وسمي أوربانوس الرابع وتوفي سنة ١٢٦٤م وكان قد انتخب لبطريكية أورشليم برتلماس من رهبانية القديس عبد الأحد، فأبى قبول البطريكية فانتخب أمبرتوس الرئيس العام لهذه الرهبانية فاستعفى أيضاً فعدل عنه إلى غوليلمس وكان أسقفاً على اجان فسار إلى عكا سنة ١٢٦٣م ومضى إلى قبرص سنة ١٢٦٧م فتوج أوغوس لوسنيان ملكاً عليها ثم توفي سنة ١٢٧٠م وخلفه توما وكان من الرهبانية المذكورة. وكان البابا اسكندر الرابع قد جعله قاصداً في سورية كلها فجعله غريغوريوس العاشر بطريكاً على أورشليم سنة ١٢٧٢م وقاصداً في أصقاع المشرق. وروى مكمل تاريخ غوليلمس أنه توفي عند وصوله إلى عكا سنة ١٢٧٢م وقيل بل بقي حياً إلى سنة ١٢٧٧م، فانتخب خلفاً له ايكلاوريوس رئيس أساقفة نابولي، فلم يثبته البابا نيقولاوس الثالث بل انتخب مكانه يوحنا رئيس الرهبانية المذكورة فاستعفى، فعدل البابا إلى انتخاب إيليا سنة ١٢٧٩م. ونرى كوفريديوس أسقف حبرون (الخليل)

يسمي نفسه نائب إيليا بطريك أورشليم في رسالته إلى ادوار الأول ملك انكلترا، وتوفي إيليا سنة ١٢٨٧م أو سنة ١٢٨٨م فاختار البابا نيقولاوس الرابع نيقولاوس الفرنسي من رهبانية القديس عبد الأحد بطريكاً على أورشليم، وعهد إليه بالقصادة في سورية وفلسطين وقبرص. ولما حاصر السلطان الملك الأشرف عكا وفتحها سنة ١٢٩١م وألح الفرنج على البطريك أن يفرّ بسفينة وأكرهوه أن ينزل بها، ورأى كثيرين يرمون بأنفسهم في البحر فأخذ منهم معه من لا تطيق السفينة حملهم ففرقت السفينة بهم جميعاً، واختار حينئذ البابا شالستينوس الخامس رودلفوس الثاني بطريكاً على أورشليم، وكان رئيساً إقليمياً في الأرض المقدسة وتوفي سنة ١٣٠٤م. (انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للكويان مجلد ٣) واستمر الكرسي الرسولي يسمي بطاركة شرفاً على أورشليم إلى هذا القرن حين حسن للبابا بيوس التاسع أن يقيم بطاركة أورشليم فيها ويدبرون اللاتين سكان البطريكية فسمى السيّد يوسف فالركا بطريكاً مقيماً في أورشليم سنة ١٨٤٧م وأتى إليها سنة ١٨٤٨م.

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن الثالث عشر

عد ٨٩٠

غريغوريوس ابن العبري المعروف بأبي الفرج

ولد غريغوريوس ابن العبري سنة ١٢٢٧ للميلاد في ملطية حاضرة أرمينيا الصغرى على ضفة الفرات وكان أبوه يسمى اهرون أو هرون وروى رينودوسيوس (في كتابه في الليتورجيات صفحة ٤٦٩) أنّه وجد في نسخة لأحد كتب ابن العبري في باريس أنّه كان ابن أخي البطريك ميخائيل الكبير بطريك اليعاقبة الذي ذكرنا ترجمته، وكان أبوه طبيباً ماهراً وله خبرة بالفلسفة فلّقن ابنه مبادئ العلوم ثمّ

دفعه إلى عالم بارع في مدينته فقرأ عليه اللغات السريانية والعربية واليونانية، فبرع فيها ثم انكبّ على درس الفلسفة واللاهوت فحاز قصبات السبق على أقرانه، ثم عكف على درس الطب آخذاً عن أبيه وغيره. وفي سنة ١٢٤٢م لما فتح التتر آسيا الصغرى وأقبلوا نحو ملطية همّ أبوه أن يهرب بأهل بيته فعدل التتر حينئذٍ عن الدخول إلى ملطية لكنهم عادوا إليها سنة ١٢٤٣م وخربوها، فرحل هرون وأولاده إلى أنطاكية فسكنوها كما روى ابن العبري نفسه في كتابه تاريخ الدول (صفحة ٤٤١). واستأذن ابن العبري أباه بهجر العالم وانقطع إلى النسك والانفراد في مغارة بجبل أنطاكية، فأقام على ذلك سنة ثم خرج إلى طرابلس الشام قاصداً يعقوب أحد مشاهير النساطرة الذي كان يدرس العلوم الأدبية والرياضية والطبية، فتتلمذ له وتعارف هناك بصليبا وجيه ابن يعقوب من ملته، فاشتغلا مدّة على العالم النسطوري وبرعا، واستقدمهما اغناطيوس سابا بطريرك اليعاقبة ورفاهما إلى درجة الأسقفية سنة ١٢٤٦م، وجعل صليبا أسقفاً على اليعاقبة بعكا، وابن العبري أسقفاً على جوباس (مدينة صغيرة من أعمال ملطية). إلّا أنّه لم يبق هناك سوى سنة واعتزل هرون أسقف لاقاين الأسقفية فنقل البطريرك اغناطيوس المذكور ابن العبري إلى أسقفية لاقاين وهي في جوار جوباس واستمرّ في هذه الأسقفية خمس سنين ومات البطريرك اغناطيوس سابا سنة ١٢٥١م، فكان في الملة اليعقوبية شقاق فاختر بعضهم خليفة له ديونيسيوس عنجور أسقف ملطية، واختار آخرون المغريان يوحنا ابن المعدني. وكان ابن العبري من مريدي ديونيسيوس، واستمرّ الشقاق إلى سنة ١٢٦١م حين قتل ديونيسيوس، وكان في كرسي حلب في تلك المدّة باسيليوس صليبا (وهو صليبا وجيه رفيق ابن العبري في طرابلس سمي بعد تسقفه باسيليوس) فرفاه ابن المعدني إلى مقام المغريان، وسمي اغناطيوس وأقام خلفاً له في حلب متى الجومي، فأرسل ديونيسيوس البطريرك ابن العبري إلى حلب، فصار أسقفان لكرسي واحد. وسمع المغريان اغناطيوس المذكور بذلك فقدم إلى حلب وأخذ يعاكس ابن العبري واعتضد عليه بالملك الناصر صاحب حلب حتى اضطرّ ابن العبري أن يعتزل إلى بيت أبيه الذي كان قد نقل سكنه إلى حلب. ثمّ سار ابن العبري إلى السلطان في دمشق فأخذ براءة لديونيسيوس عنجور بطريركه وأمرأً لصاحب حلب ليأخذ بناصر ابن العبري فسلمه صاحب حلب كنيسة اليعاقبة في هذه المدينة فاستبدّ في رعاية ملته المغريان من حلب، وأتي فسكن طرابلس متعاطياً فنّ الطب إلى أن توفي سنة ١٢٥٨م.

ولما قتل ديونيسيوس البطريك سنة ١٢٦١م كما مرّ أدى ابن العبري فروض الطاعة إلى يوحنا بن المعدني وحظي عنده، وهم بترقيته إلى مقام المفريان فعاجله الموت سنة ١٢٦٣م وانتخب مكانه يشوع رئيس دير الجويقات، وسمي اغناطيوس وهو الثالث من بطاركتهم بهذا الاسم فرقي ابن العبري إلى مقام المفريان سنة ١٢٦٤م، وهذه الكلمة سريانية معناها المثمر أو المصدر، إشارة إلى ما يصدره من الثمار الروحية. فلما انتشرت شيعة اليعاقبة في المشرق وكان بطاركتهم يقيمون بأنطاكية رأوا أنّه لا بدّ لهم من نائب يقوم مقامهم في العراق والجزيرة، فأوجدوا رتبة مفريان وهي بمعنى الجاثليق أو الكاثوليكس أي الأسقف العام أو كبير الأساقفة، وقد ذكر ابن العبري ترقيته إلى رتبة مفريان المشرق في القسم الثاني من تاريخه السرياني صفحة ٣٣٥ ثم ذكر في القسم الرابع من هذا التاريخ ما عمله وما كان من الأحداث وهو مفريان من سنة ١٢٦٤ إلى سنة ١٢٨٦م التي توفي بها. وقد نقل السمعاني في مكتبته المشرقية (مجلّد ٢ صفحة ٢٤٨ إلى ٢٦٤) كلام هذا المفريان في القسم الرابع المذكور، ولخص ذلك الأب شيخو في ترجمته ابن العبري التي نشرها في مجلة «المشرق» في سنة ١٨٩٨م، إلّا أنّه وقع غلط من منظّمي الحروف المطبعية فذكروا أنّ ترقية ابن العبري إلى رتبة مفريان كانت سنة ١٢٧٤م، والمؤلف يريد أن يقول سنة ١٢٦٤م. وقد روى خبر وفاة ابن العبري أخوه برصوما وعدد مؤلفاته، ونقل ذلك العلامة السمعاني في المحل المذكور من مكتبته المشرقية من صفحة ٢٦٤، فكان عدد مؤلفاته التي ذكرها أخوه واحداً وثلاثين مؤلفاً وقال السمعاني إنّ فاته ان يذكر لأخيه ثلاثة كتب أيضاً.

فذكر أخص هذه الكتب فأولها كتابه المعنون بالسريانية **ܕܡܪܝܬܐ ܕܐܝܬܐ** وبالعربية «كنز الأسرار». قال العلامة السمعاني (في كلامه على هذا الكتاب صفحة ٢٧٧ من المجلّد ٢) كانت نسخة منه معارضة بنسخة بخط المؤلّف في مدرسة الموارنة برومة، وهذا الكتاب يشتمل على تفسير الأسفار المقدّسة واعتمد فيه على الترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة منبهاً إلى ما بينها وبين غيرها من النصوص والترجمات من اختلاف الروايات كالعبرانية والسامرية والسبعينية، وترجمتي اكويل وسميماخوس وروايات اورييجانس، وعن الأب لويس شيخو اليسوعي الذي كتب ترجمة هذا العلامة مطوّلة ان أقساماً مثيرة من هذا الكتاب قد طبعها كثيرون من علماء أوروبا. الثاني كتابه الموسوم «بمنارة الأقداس» وبالسريانية **ܕܡܪܝܬܐ ܕܐܝܬܐ**. قال العلامة

السمعاني في المحل المذكور إنّ منه نسخة بالعربية في مكتبة باريس الملكية ومنه بالسريانية نسختان إحداهما في المكتبة الماديشية والثانية في المكتبة الواتيكانية وهو في اللاهوت، ترجمه إلى العربية دانيال بن الخطاب (كتبه الأب شيخو بالحاء ورواه السمعاني بالحاء) اليعقوبي من المعارضين للمؤلف، وعربه بعده الشماس سركيس بن يوحنا الدمشقي. وقال الأب شيخو إنّ في مكتبة الآباء اليسوعيين نسخة منه أخذت عن نسخة في دير الشرفة.

الثالث كتاب «الأشعة» والسريانية ܐܠܥܝܢܐ ܕܐܠܗܐ وهو في اللاهوت أيضاً مقسوم إلى عشرة أقسام الأوّل في ما خلقه الله في الأيام الستة، والثاني في الله الوحيد الذات المثلث الأقانيم، والثالث في التجسّد الخ. ومما قاله في هذا القسم: «فيقول لك الماروني من الضرورة أن يكون لللاهوت طبيعة فان كانت الطبيعة الواحدة التي تقرّ أنّها في المسيح طبيعة اللاهوت فأين هي طبيعة الناسوت؟» وقال العلامة السمعاني باثر ذكره هذا الكلام (مجلّد ٢ من المكتبة المشرقية صفحة ٢٩٨): «هذا يؤيد ما ذكرته مراراً أنّ اتّهام البعض للموارنة ببدعة الطبيعة الواحدة هو كاذب وباطل، وألحق بذلك حاشية قال فيها إنّ النسخة التي لدينا من كتاب ابن العبري هذا كان مكتوباً فيها الخلكيدوني مكان الماروني، فضرب عليها كاتب هذه النسخة وكتب مكانها الماروني». وعلق على هامش الكتاب حاشية قال فيها. هكذا وُجد بخط هذا العلامة (أي ابن العبري) بيده أنّه أعاد الكلمة إلى ما كانت عليه بخط المؤلف.

والكتاب الرابع من كتب ابن العبري هو كتاب «الهدايات» والسريانية ܐܠܥܝܢܐ ܕܐܠܗܐ جمع فيه القوانين البيعية ليكون دستوراً بيد الأساقفة وقسمه إلى قسمين يشتمل الأوّل منهما على ما يختصّ بأمر الكنيسة، والثاني على ما يتعلّق بالمؤمنين وضمّنه أربعين باباً ذكر السمعاني عنواناتها، ومنه نسخة في المكتبة الماديشية ذكرها المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب المشرقية في هذه المكتبة في عدد ١١ من هذه الكتب صفحة ١٠١، وذكر ما في كل منها من الفصول، وروى أنّ هذه النسخة خطت سنة ١٣٥٧م وقد شرى نسخة منه لمكتبة الفاتيكان أندراوس اسكندر الماروني. وقد أفادنا الأب

١٥٩٦ لاسكندر، وهي سنة ١٢٨٥ للميلاد، ثم زاد بعضهم على تاريخه فأوصله إلى نوح البقوفاي اللبناني الذي رقي إلى بطريركيته سنة ١٤٩٣م. وقد نقل السمعاني عن هذا القسم صفحات مطوّلة في بطارقة اليعاقبة وجثاقتهم في مكتبته المشرقية، ثم اهتم السيّدان الفاضلان المستشرقان أبالوس ولامي بطبع هذا القسم مع ترجمته إلى اللاتينية وتذييلهما بحواش كثيرة الفائدة وذلك سنة ١٨٧٢م وسنة ١٨٧٣م في لوفان (بلجيكا). وقد أتم السيّد لامي جداول البطارقة والجثاثة إلى زماننا مع ذكر بطارقة النساطرة بعد زمان ابن العبري، وختمه بملخص تاريخ بطارقة الكلدان الكاثوليكين من عهد يوحنا سلاوفا، وفي مكتبة مدرستنا مدرسة الحكمة نسخة من كتاب أبالوس ولامي. هذا وقد استشهدنا بكلامهما مراراً.

والقسم الثالث من تاريخ ابن العبري ضمنه تاريخ الجثاثة والبطارقة ومفريانات الشرق عند الكلدان الكاثوليكين أي النساطرة واليعاقبة من توما الرسول وتلميذه ادى وحاجي إلى يهب الله الذي رأس أمة النساطرة سنة ١٥٩٣ لاسكندر وهي سنة ١٢٨٢م، ومن ماروتا المفريان الأوّل لليعاقبة الذي رقي إلى هذا المقام سنة ٦٢٨م إلى سنة ١٢٨٦م التي توفي بها ابن العبري مفريانهم، وزاد بعضهم على تاريخ هؤلاء ذكر خلفائهم إلى سنة ١٨٠٧ لاسكندر التي هي سنة ١٤٩٦ للميلاد. قال العلامة السمعاني إنّ كتاب ابن العبري هذا أكثر إفادة من جميع كتبه ولاسيما قسمه الثاني والثالث لأنّه أبان فيها بياناً جلياً تاريخ النساطرة واليعاقبة البيعي وكان اليونان واللاتين لا يعرفون منه شيئاً وليس القسم الأوّل من هذا الكتاب وهو الآتي ذكره أقل نفعاً من القسمين المذكورين.

ثم إنّ القسم الأوّل من تاريخ ابن العبري السرياني المذكور قد ترجمه مؤلفه نفسه إلى اللغة العربية وسماه مختصر تاريخ الدول وزاد عليه عدّة إفادات نقلها عن مشاهير مؤرخي العرب كالطبري وابن الأثير، وقد طبع أصله السرياني مع ترجمته إلى اللاتينية سنة ١٧٨٩م. على أنّ هذه الطبعة وجدها العلماء مشوهة بكثير من الخطأ، وقد جدد طبعه بدقة واتقان بدجان العازاري الكلداني أصلاً سنة ١٨٩٠م. وأما ترجمته العربية فقد طبعها أولاً موجزة العالم ادوار بوكوك مع ترجمته لها إلى اللاتينية معنونة مختصر تاريخ العرب لابن العبري في أكسفورد سنة ١٦٥٠م، ثم طبع الكتاب كاملاً بالعربية واللاتينية سنة ١٦٦٣م في المدينة المذكورة، ثم ترجم هذا الكتاب إلى الألمانية، وطبع الأب صالحاني اليسوعي النسخة العربية وحدها في

مطبعة اليسوعيين ببيروت من عهد قريب وطبعته أكمل وأحسن من باقي طبعاته.

ولابن العربي في الفلسفة كتابه الموسوم بزبدة الحكمة وبالسريانية **ܕܐܝܢܐ ܕܐܪܝܬܐ** وسماه بعضهم حكمة الحكم وقسمه إلى قسمين، ضمن الأول ترجمة فلسفة أرسطو، وشرح في الثاني ما يختص بعلم الطبيعة كالعالم والسماء والمعادن والنبات والحيوان ثم علم ما وراء الطبيعة كأصول الفلسفة والعلم بالخالق والادبيات الخ. ثم اختصر هذا المؤلف وسماه «تجارة التجارات» وبالسريانية **ܕܐܝܢܐ ܕܐܪܝܬܐ** وقد ذكره المطران أسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية، وفصل ما اشتمل عليه من المقالات والفصول وقال إن الكتاب الموجود بالمكتبة المذكورة خطه سنة ١٣٤٠م الكاهن نجم وعليه تعليقات عربية على الهامش كتبها دانيال الربان أي العالم أو الملفان الذي كان الكتاب ملكاً له.

وله أيضاً كتاب في النفس البشرية كتبه بالعربية ونشره الأب شيخو في آخر ترجمته المعلقة في «مجلة المشرق» وله أيضاً ترجمة كتابين في الفلسفة أحدهما كتاب «الإشارات والتنبيهات» لابن سينا سماه **ܕܐܝܢܐ ܕܐܪܝܬܐ** والثاني كتاب «زبدة الأسرار» لأثير الدين الابهري أحد معاصريه الذي توفي سنة ١٢٦٢م وفي ديوانه عدة قصائد فلسفية.

وله في الرياضيات «حل كتاب اقليدس» في الهندسة وله كتاب في «علم الهيئة» أي الفلك سماه بالسريانية **ܕܐܝܢܐ ܕܐܪܝܬܐ** أي كتاب الارتفاع العقلي وله كتاب في «تفسير المجسطي» لبطليموس وهو في النجوم وحركات الأفلاك وكتاب في «استخلاص التقويم السنوي وتعيين الأعياد المنتقلة» ليسهل به معرفة الأعياد المذكورة، وله في الطب شرح فصول ابقراط وفاق به من تقدمه بشرحه لكنه مفقود لم نهتد إليه إلا بذكر أخيه برصوما له في جملة مصنفاته، وله أيضاً بهذا الفن «شرح كتاب حنين بن اسحق» الطبيب النصراني المشهور وعاجله الموت قبل أن ينجز هذا الكتاب، وترجم إلى السريانية كتاب ديسقوريدس اليوناني في المفردات الطبية وكتاب «القانون» للشيخ الرئيس ابن سينا في الطب.

وله في اللغة السريانية **ܕܐܝܢܐ ܕܐܪܝܬܐ** أي كتاب «الأشعة أو اللمع» ضمته كل أبواب النحو في اللغة السريانية على أنه سلك به مسلك العرب في نحو لغتهم، وحذا خاصة حذو الزمخشري في كتابه «المفصل» وقد طبع هذا الكتاب الأب

مرتين المستشرق الفرنسي بياريس سنة ١٨٧٢م على مطبعة حجرية وقلماً تخلو مدرسة من مدارس طائفتنا من هذا الكتاب. وله كتاب آخر في نحو هذه اللغة مقتطف من كتابه السابق ومعقود بالشعر بالوزن الأفرامي، وعندي نسخة منه نسختها لنفسه بمدة تعليمي بمدرسة عين ورقة، وله قصيدة تزيد على ست مئة بيت مرتبة على أحرف المعجم جمع فيها الألفاظ المتشابهة بالحروف في اللغة السريانية على طريقة الجنس اللفظي في علم البديع بالعربية وألحق بها تفسيراً لتلك الألفاظ، وله ديوان شعر سرياني طبع برومة سنة ١٨٧٧م حواياً ثمانين قصيدة وقد وقف على طبعه الأب أغوستينوس الشباني الراهب الحلبي اللبناني الماروني وله قصائد أخرى كثيرة لم تطبع بهذا الكتاب، ومن المشهور من شعره قصيدته في الحكمة الإلهية على طريقة الصوفيين تغزل بها بالكمالات الإلهية كعمر بن الفارض مشبهاً إياها بفتاة بهية المنظر فريدة الخصال استهلها بقوله:

فلا حاد حادها لحدادها وصحبه فاحصها مقبلة وقد

طبعها العلامة جبرائيل الصهيوني الماروني بياريس سنة ١٦٢٦م، ثم جدّد طبعها القس يوحنا نطين الراهب الحلبي اللبناني الماروني برومة سنة ١٨٨٠م وشرحها بالعربية ونظّمها بالشعر الغزلي أحد شعراء هذه الأيّام فمطلعها:

بدت تجلو بمعلمنا سناها فنور الشمس يخجل من ضياها

فتاة راق منظرها ورقّت سهام أرسلتها مقلتها

بتول كاعب أم عجوز صفات ليس يجمعها سواها

وله أيضاً نافور أي رتبة قداس ذكره له الاهدني في المئزر العشر والسمعاني في المكتبة الشرقية إلى غير ذلك من الكتب التي عني بتأليفها هذا النابغة في عصره. وقد أخذ العلماء على ابن العبري أغلاطاً كثيرة عدا متابعته على بدعة الطبيعة الواحدة في المخلص في عقائد الإيمان، ونقتصر على ذكر ضلالين له: الأول زعمه في كتابه منارة الأقداس أنّ الروح القدس ينبثق من الآب دون الابن وهذا مخالف لمعتقد أمته أيضاً، والثاني ضلاله الذي صرح به في قانون الإيمان الذي كتبه بقوله أنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعل واحد، وهذا بدعة المونوتوليتيين، ونعذره بهذا الضلال لأنّه نتيجة لأزمة من مقدّمات اعتقاد اليعاقبة بأنّ في المسيح طبيعة واحدة فمن قال

بطبيعة واحدة لزمه ضرورة أن يقول بمشيئة واحدة وفعل واحد، لكننا لا نعذر من يعلم أنّ علماء اليعاقبة وابن العبري نفسه يسمّون مذهب الموارنة بدعة، ومع ذلك يتّهمونهم ببدعة المشيئة الواحدة التي لا تفرق إلاّ بالاسم عن تعليم اليعاقبة. انتهى ملخصاً عن العلامة السمعاني في المجلّد الثاني من المكتبة المشرقية وعن الأب شيخو اليسوعي في ترجمة ابن العبري المثبتة في مجلة المشرق.

عد ٨٩١

ابن العسال ويعقوب أسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني

أمّا ابن العسال فهو أبو اسحق المصري موطناً، اليعقوبي مذهباً، قال في حقّه المطران أسطفانس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية اشتهر شهرة كبرى بعلمه في القرن الثالث عشر حتى كتّاه النصارى المشرقيون أبا الفضائل، وله كتاب جمع فيه قوانين الكنيسة وقسمه إلى قسمين وعلق عليه مقدّمة ذكر فيها الكتب التي أخذ عنها، وهي أسفار العهدين القديم والحديث، وقوانين الرسل والقوانين المعزوة إلى أكليمنطس الحبر الروماني، ومجمع انقوره ومجمع أنطاكية وغيرها من المجامع، وضمّن القسم الأوّل اثنين وعشرين فصلاً، واشتمل القسم الثاني على ثلاثين فصلاً، وله كتاب في تفسير الأسفار المقدّسة عنوانه مجموع أسس الدين، وهو كثير الفائدة أبان فيه صحّة الدين المسيحي، ورد فيه على الوثنيين واليهود وزيّف أقوال الفلاسفة غير المسيحيين، وأثبت بأدلة جلية سري التثليث والتجسّد وسائر أسرار الدين المسيحي التي تتفق عليها ملل النصارى. وزعم رينودوسيوس في كتابه تاريخ بطاركة الاسكندرية أنّ كتاب مجموع أسس الدين ليس لابن العسال صاحب كتاب مجموع قوانين الكنيسة بل لأخ له، لكن زعم رينودوسيوس هذا غير صحيح لأنّ جميع نسخ الكتاتين التي في المكاتب الشهيرة ولاسيما المكتبة الواتيكانية تراها باسم أبي اسحق ابن العسال أبي الفضائل، وقد شهد ابن العسال المجمع الذي عقده كيرلس لقلق بطريرك اليعاقبة في الاسكندرية سنة ١٢٣٩م وأدخل قوانينه في مجموعته فظهر من ذلك أنّه توفّي بعد هذا المجمع.

يعقوب أسقف تكريت

كان راهباً في دير القديس متى القريب من نينوى ثم رقي إلى أسقفية تكريت واشتهر سنة ١٢٣٠م، وله من التأليف كتاب سماه «الكنوز» وقسمه إلى أربعة أقسام تكلم في الأول منها على الله الواحد الذات المثلث الأقانيم في ثلاثة عشر فصلاً، وفي الثاني على تجسّد الخلص وقسمه إلى واحد وأربعين فصلاً، وفي الثالث على عناية الله وضمّنه أحد عشر فصلاً، وفي الرابع على خلق العالم والملائكة والنفس وقيامه الموتى والدينونة وجعل فيه أربعين فصلاً، وهو يعقوبي المذهب. وله كتاب آخر في شرح «الفروض الإلهية» و«تفسير الرتب والصلوات» وله كتاب آخر في «دستور الإيمان».

وأما يوحنا ابن المعدني الذي أشرنا إليه في ترجمة ابن العبري فكان من بلدة اسمها معدن في الجزيرة وصير أولاً أسقفاً لماردين على اليعاقبة، ثم رقي سنة ١٢٤٩ إلى رتبة مفران ولماً توفي اغناطيوس سابا بطريركهم سنة ١٢٥١م انتخب بعض أساقفتهم ديونيسيوس عنجور بطريركاً فجمع ابن المعدني الأساقفة المخالفين لديونيسيوس في حلب فانتهبوه بطريركاً سنة ١٢٥٢م، وبقي البطريركان معاً إلى سنة ١٢٦١م حين قتل ديونيسيوس فاستبدَّ ابن المعدني بالبطريركية، ثم توفي سنة ١٢٦٣. ذكر كل ذلك ابن العبري في تاريخه السرياني. ولابن المعدني من المؤلفات نافور ذكره الدويهي في كلامه على مؤلفي النوافير غير الكاثوليكية عد ٧ حيث قال «**መስሐፍ ደክ ክርስቶስ** (يوحنا ابن المعدني) له نافور بدوهُ **መስሐፍ ደክ ክርስቶስ**» أي أيها الإله الآب الأزلي السرمدى الكائن ضرورة. وترجم رينودوسيوس هذا النافور في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات صفحة ٥٢٤، وقال لا نعلم من هو يوحنا هذا ولا في أي زمان كان فكل ما نعلمه إنما هو أنه كان بطريركاً على اليعاقبة فان تاريخ بطارقة اليعاقبة على أنطاكية غامض جداً قال العلامة السمعاني عند ذكره ذلك (في المكتبة المشرقية مجلد ٢ صفحة ٢٤٣): «إنما الفضل للحبر الروماني أكليمنضوس الحادي عشر الكلي القداسة فأمره وعنايته جمعت في المكتبة الواثيكانية الكتب الوافرة العدد بلغات جميع الشرقيين فظهرت حقائق تواريخ جميع هذه الملل».

ولابن المعدني مقالة في النفس منظومة في عدة قصائد تضمّنها الكتاب الخامس من الكتب السريانية التي جلبها أندراوس اسكندر الماروني إلى المكتبة الواتيكانية، وله أيضاً اثنان وعشرون خطبة باللغة العربية، قد خطّت بالأحرف السريانية كتبها سنة ١٥٠٥م نوح البقوفاوي اللبناني الذي صيّر بطريكاً على اليعاقبة، وهي مثبتة في الكتاب ٣٠ من كتب أندراوس اسكندر المذكور في المكتبة الواتيكانية، وأولى هذه الخطب في ميلاد الرب والثانية في ظهوره للعالم الخ. انتهى ملخصاً عن ترجمتي يعقوب أسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني في المكتبة المشرقية مجلد ٢.

عد ٨٩٢

بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن

جرباً على مساق تاريخنا ورغبة في زيادة الفوائد نخص بالذكر من مشاهير المغرب في هذا القرن من تساموا بالقداسة والعلم وطبق ذكرهم الآفاق وهم القديسون العظام البرتس، وشمس المدارس توما الأكويني، وبوناونتورا، ونذكر ترجماتهم بما يمكن من الإيجاز لأنها خارجة عن دائرة عرضنا.

القديس ألبرتس الكبير

ولد هذا القديس سنة ١١٩٣م في مدينة لوينجان من بفيارا وتخرّج بالعلوم في بادوا وانضوى إلى رهبانية القديس عبد الأحد سنة ١٢٢٢م، وصيّر رئيساً إقليمياً فيها سنة ١٢٤٥م، وعلم العلوم المقدسة في كولونيا وعظمت شهرته حتى لقب بالكبير وهو حي، واستحق هذا اللقب لسامي علمه وعظمة قداسته. ثم انتقل إلى باريس يعلم فيها فتقاطر الطلبة إليه حتى لم تعد تسعهم قاعة فصار يعلم في ساحة فسيحة، وقد رقاها البابا اسكندر الرابع إلى أسقفية راتيسبون سنة ١٢٥٩م فلم يقبلها إلا مكرهاً بأمر الطاعة واعتزلها بعد سنين مستعفياً من هذا الحمل الثقيل، وعاد إلى كولونيا باذلاً همه في تدبير المدارس اللاهوتية، وتوفي سنة ١٢٨٠م وعمره سبع وثمانون سنة وله كثير من المؤلفات منها ثمانية مجلدات في تفسير علم الطبيعيات

ومقالة في الكيمياء وهو الذي أوجد الأكسيد نتريك، وقد طبعت مؤلفاته في لايدن سنة ١٦٥١م، فكانت واحداً وعشرين مجلداً.

القديس توما الأكويني

هو اللاهوتي الشهير والفيلسوف المبرز ولد سنة ١٢٢٧م وقيل سنة ١٢٢٥م بالقصر المعروف بقصر روگا ساكا في مملكة نابولي من أسرة شريفة تعرف بكونت أكوين، ودخل رهبانية القديس عبد الأحد جبراً على مقاومة آله فأثر التفرغ للعلم واكتساب الفضيلة على مرضاة ذويه واشتغل في العلم على ألبرتوس الكبير المار ذكره في كولونيا ثم لحق باستاذة إلى باريس ونولته كلية هذه العاصمة لقب دكتور أي ملفان سنة ١٢٥٥م وانكبّ على الوعظ والتعليم فنبغ في ذلك وعظمت شهرته وأقرّ الجميع بسمو قدره وعلو مداركه وتلألأت فضائله وأحبّه القديس لويس التاسع ملك فرنسا، وكان يدعوّه إلى مائدته. وأحبّ الأخبار الأعظمون أينو شنسيوس الرابع واكليمنضوس الرابع وغريغوريوس العاشر أن يرقّوه إلى المراتب الرفيعة في الكنيسة، فأبى كل مرتبة واكتفى أن يلقّب في رهبانيته بمدير أو معلّم. وكان أعلم أهل عصره وأعظم لاهوتي وفيلسوف في أئامه، فأكسبه ذلك ألقاباً مشرفة كالملفان العام والمعلّم الملكي وشمس المدارس وملاك العلم حتى استحقّ أن يُحصيه البابا بيوس الخامس في مصاف أباء الكنيسة وجهابذتها. وقد صرف العشرين سنة الأخيرة من عمره في التعليم والتصنيف والوعظ والصلوة حتى قال فيه البابا يوحنا الثاني والعشرون في براءة تثبيت قداسته: «إنّه لم يصرف ساعة من زمانه بغير عمل من أعماله المبرورة ولا يستثنى من ذلك إلّا ساعات رقاذه أو ما تضطره الطبيعة إليه». وقد أرسله رؤساؤه سنة ١٢٧٢م إلى نابولي ليعلم فيها اللاهوت واستدعاه البابا غريغوريوس العاشر إلى المجمع المسكوني الذي كان قد عزم على عقده في ليون فلبى الدعوة وسار فمرض في الطريق ومضى إلى لقاء ربه لينال إكليل جهاده في ٧ آذار سنة ١٢٧٤م، وهو في بدء الخمسين من عمره أو الثامنة والأربعين منه بحسب الاختلاف في سنة مولده وأحصاه البابا يوحنا الثاني والعشرون في مصاف القديسين سنة ١٣٢٣م. وتعيد الكنيسة لذكره كأعظم ملافتها في اليوم السابع من آذار في الكنيسة اللاتينية، وفي ٣ منه في كنيستنا المارونية.

وأما مؤلفاته فهي كثيرة وأخصّها «خلاصة الإيمان الكاثوليكي» رداً على الوثنيين و«الخلاصة اللاهوتية الشهيرة» التي شرح بها المباحث اللاهوتية والفلسفية والأدبية بطريقة القياس المنطقية، وله أيضاً «شرح كتاب أرسطو الفلسفي» و«تفسير الأسفار المقدسة» و«شرح لكتاب اللمبردي» الملقب بمعلم الآراء وله خطب ومباحث ومقالات حتى أشعار ادخلت الكنيسة بعضها في رتبها وفروضها. وقد طبعت مؤلفاته في رومة سنة ١٥٧٠ وسنة ١٥٧١ في ثمانية عشر مجلداً ثم طبعت في باريس سنة ١٦٣٦م إلى سنة ١٦٤١م في ثلاثة وعشرين مجلداً، ثم طبعت في البندقية سنة ١٧٤٥م في عشرين مجلداً، ثم في برم بصقلية سنة ١٨٥٧م وما يليها في أربعة وعشرين مجلداً، وقد ترجمت الخلاصة اللاهوتية احد مؤلفاته إلى اللغة الفرنسية عدّة ترجمات، وترجمت إلى العربية، ومن هذه الترجمة نسخة مخطوطة بمكتبة أسقفية طائفنا في حلب ويعنى الآن السيد العالم العامل المطران بولس عواد النائب البطريركي بترجمتها إلى العربية، وأكمل إلى الآن من ترجمته أربعة مجلدات وهي أصح كثيراً من الترجمة العربية المذكورة.

القديس بوناوتورا

وُلِدَ بيانيا ريا (توسكانا من أعمال إيطاليا) سنة ١٢٢١م وانضوى إلى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٢٤٣م، وعلم الفلسفة واللاهوت في كلية باريس سنة ١٢٥٣م، ونال فيها مرتبة ملفان سنة ١٢٥٥م، ثم أقيم رئيساً عاماً على رهبانيته سنة ١٢٥٦م، وكان محبوباً موقراً من كل أحد وحائزاً ثقة الجمهور وكفاه بيئة على ذلك أن الكردالة اتفقوا بعد وفاة البابا أكليمنضوس الرابع على أن يختاروا خليفة له من يعينه لهم بوناوتورا فسمى لهم الكردينال تهيبو فانتخبوه وسمي غريغوريوس العاشر، فرفعه هذا الحبر الروماني إلى مقام الكردينالية مكافأة له سنة ١٢٧٢م. وكان حار العبادة لوالدة الله وبذل قصارى جهده في نشر عبادتها، وقد دعاه البابا غريغوريوس العاشر إلى مجمع ليون العام وأجلسه في المحل الأول بعده، فتوفي في هذا المجمع سنة ١٢٧٤م. وله مؤلفات كثيرة منها شرح كتاب «الافتداء بالمسيح» وشرح على «كتاب الآراء» لبطرس اللمبردي وكتاب «تأملات بحياة المسيح»

ترجم إلى الفرنسية عدّة ترجمات وكتاب «تفسير للأسفار المقدّسة» وعدّة كتب لارشاد الشعب وثقيفه سماها «كتاب الفقراء» وله عدّة ترانيم روحية مشهورة وجميع كتبه موعبة بعواطف التقوى العميقة حتى أكسبته لقب المعلم الساروفيمي. وقد طبعت كتبه برومة سنة ١٥٨٦م إلى سنة ١٥٩٦م في ثمانية مجلّدات ثمّ طبعت بباريس سنة ١٨٦٦م في أربعة عشر مجلّداً وأحصاه البابا سيستوس الرابع إلى مصاف القديسين سنة ١٤٨٢م ثمّ رتبه البابا سيستوس الخامس في سلك ملائكة الكنيسة وتعيّد له الكنيسة الرومانية في ١٤ حزيران والكنيسة المارونية في ١٤ تموز.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

عد ٨٩٣

فتح المسلمين جبة بشري

قال البطريرك أسطفان الدويهي في تاريخ سنة ١٢٨٣م: «قد وقفنا على كتابين للصلاة كُتب أحدهما سنة ١٥٩٤ لاسكندر (الموافقة لسنة ١٢٨٣ للميلاد) في قطين الرواديف في أرض الحدث بقرب دير القديس يوحنا بدير مار ابون الذي كان الأسقف ابراهيم الحدّثي مقيماً به. والثاني كتب بعد الأوّل بمئتين واحدتين وعشرين سنة أي سنة ١٨١٥ لاسكندر وهي سنة ١٥٠٤م، وقد كتب في كلا الكتابين أنّه في شهر أيار سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبة بشري وصعدت إلى وادي حيرونا شرقي طرابلس وحاصروا قرية إهدن حصاراً شديداً وملكوها بعد أربعين يوماً في شهر حزيران وسلبوا ما وجدوا فيها وخزّبوا القلعة التي كانت في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل (إنّ هناك الآن كنيسة تسمى سيّدة الحصن) ثمّ انتقلوا إلى بقروفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على أكابرها وأحرقوهم بالبيوت ودكوها إلى الأرض، وأكثروا من النهب والسلب وبعد أن أعملوا السيوف بأهل

حَصَرُون وكَفَرَسَارُون وذَبَحُوهم فِي الكَنِيسَةِ زَحَفُوا فِي ٢٢ آبَ إِلَى الحَدَث، فَهَرَب أَهْلُهَا إِلَى العَاصِي وَهِيَ مَغَارَةٌ فِيهَا صَهْرِيحٌ مَاءٌ فَقَتَلُوا مِنْ أَدْرَكَوهُ وَخَرَّبُوا الحَدَث وَبَنُوا بَرْجاً قِبَالَ المَغَارَةِ وَأَبْقُوا حَامِيَةً مِنَ العَسْكَرِ. ثُمَّ هَدَمُوا جَمِيعَ الأَمَاكِنِ الحَصِينَةِ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا سَبِيلاً إِلَى فَتْحِ قَلْعَةٍ حَوْقَا الَّتِي قِبَالَ الحَدَث، فَأَشَارَ عَلَيْهِمُ ابْنُ الصَّبْحَا مِنْ كَفَرَسْغَابٍ أَنْ يَجْرُوا إِلَيْهَا المَاءَ الَّذِي فَوْقَ بَشْرِي فَفَعَلُوا وَمَلَكُوهَا بِقُوَّةِ المَاءِ لِأَنَّهَا كَانَتْ دَاخِلَ الصَّخْرِ، وَأَذْنُوا لِابْنِ الصَّبْحَا أَنْ يَلْبِسَ عِمَامَةً بَيْضَاءً، وَأَنْ تَقُومَ الْعَبِيدُ بِخِدْمَتِهِ. وَلَمَّا تَرَجَعَ العَسْكَرُ نَدِمَ ابْنُ الصَّبْحَا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ وَبَنَى دِيرَ سَيِّدَةٍ حَوْقَا لِسُكَنِ الرِّهْبَانِ وَهُوَ بِالقَرَبِ مِنَ البَرْجِ الَّذِي كَانَ فِي الصَّخْرِ». لَا نَشْكُ فِي صِحَّةِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ لِأَنَّ الدُّوَيْهِيَّ خَيْرَ ثِقَةٍ، وَقَدْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ نَقَلَهَا عَنْ كِتَابِ خَطِّ تِلْكَ السَّنَةِ أَيْ سَنَةِ ١٢٨٣مَ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا هَذِهِ النُّكْبَةُ فَيُظَنُّ أَنَّ الأَسْقَفَ إِبْرَاهِيمَ الحَدَثِيَّ الَّذِي كَانَ يَسْكُنُ دِيرَ مَارِ ابْنِ هُوَ الَّذِي كَتَبَ خَبَرَ هَذِهِ الحَادِثَةِ بَاطِرَ وَقُوعِهَا عَلَى كِتَابِ الصَّلُوةِ طَبَقَ عَادَةً أَسْلَفْنَا الَّتِي نَعْلَمُ لَهَا أَمْثَالاً كَثِيرَةً وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ تَفْصِيلُ الخَبَرِ وَتَعْيِينُ الأَمَاكِنِ عَلَى مَا نَعْلَمُهَا الآنَ مَعَ الأَيَّامِ الَّتِي فَتَحَتْ بِهَا كُلَّ قَرْيَةٍ. وَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابِ الغُرَرِ الحَسَنِ خَبَرَ هَذِهِ الوَقْعَةِ كَمَا ذَكَرْنَاهُ إِلَّا بِنَاءَ ابْنِ الصَّبْحَا دِيرَ حَوْقَا، وَلَمْ يَأْتِ ذِكْرُ بَشْرِي فِي هَذَا الفَتْحِ مَعَ أَنَّهَا وَاقِعَةٌ بَيْنَ بَقُوفَا وَحَصَرُون، فَلَا يَخْلُو إِهْمَالُ ذِكْرِهَا مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ ذَاتَ أَهْمِيَّةٍ حَيْثُئِذٍ، إِمَّا أَنَّ المُسْلِمِينَ نَكَبُوا عَنْهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ مَنِيعَةً كَثِيرَةً السَّكَّانِ. وَالأَظْهَرُ عِنْدَنَا الثَّانِي لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ قَبْلَ هَذِهِ النُّكْبَةِ وَبَعْدَهَا مَأْهُولَةٌ بِخَلْقٍ كَثِيرٍ وَيَنْسَبُ الْعَمَلُ كُلُّهُ إِلَيْهَا وَكَانَ فِيهَا مَقْدَمُونَ أَصْحَابُ بَطْشٍ وَصُولَةٍ كَمَا سَتَرَى، فَالأَوَّلِيُّ أَنْ نَقُولَ أَنَّ المُسْلِمِينَ نَكَبُوا حَيْثُئِذٍ عَنْهَا عَلَى أَنَّ فَتْحَ هَذِهِ البِلَادِ حَيْثُئِذٍ لَمْ يَكُنْ إِلَّا غَزْوَةً عَابِرَةً عَلَى عَادَةِ تِلْكَ الأَيَّامِ وَلَمْ يَتَوَطَّنَ المُسْلِمُونَ فِيهَا بَلْ قَصَبُوا التَّنْكِيلَ بِأَهْلِهَا رَجَاءً لِأَنَّهُمْ نَجَدُوا الفَرْنَجَ فِي حُرُوبِ المُسْلِمِينَ الأَخِيرَةِ لَهُمْ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ أَخْبَارِ حَرْبِهِمُ الآتِي ذِكْرُهَا مَعَ أَهْلِ كَسْرَوَانَ وَنَرَى بَقُوفَا وَاهْدَنَ وَالحَدَثَ بَعْدَ مَدَّةٍ وَجِيزَةٍ عَامِرَةٍ مَأْهُولَةٍ بِالنَّصَارَى المَوَارِنَةِ.

عَد ٨٩٤

حُرُوبُ كَسْرَوَانَ

الحَرْبُ الأَوَّلَى كَانَتْ فِي أَوَاخِرِ القَرْنِ الثَّالِثِ عَشَرَ وَأَوَائِلِ الرَّابِعِ عَشَرَ نُرَوِي أَخْبَارَ هَذِهِ الحُرُوبِ عَنِ المُوَرِّخِينَ المُسْلِمِينَ أَوَّلًا ثُمَّ نَرُدُّهَا بِأَخْبَارِ المُوَرِّخِينَ النَّصَارَى

جاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى الذي نشره الأب لويس شيخو اليسوعي في المجلة العربية الموسومة بـ«المشرق» قال صالح: «في شهر شعبان سنة ٦٩١ هـ سنة ١٢٩٢م توجه الأمير بيدرا (من ممالك الملك المنصور قلاوون) قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه بصحبته من الأمراء الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر والأمير قراسنقر المنصوري، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين العلائي. وأتاهم من جهة الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا، والأمير عز الدين إيك الحموي وغيرهما، والتقوا بالجبل وحضر إلى الأمير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حزمه فحصل الفتور في أمرهم حتى تمكن الكسروانيون في بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال، فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم أهل تلك الجبال حتى اضطّر الأمير بيدرا أن يطيب قلوبهم ويحسن إليهم. وخلع على جماعة من أكابرهم فاشتطوا في الطلب فأجابهم إلى ما التمسوه من الإفراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم، وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم، وحصل للأمراء والعسكر من الآلام ما أوجب تسريح بعضهم لسوء تدبير الأمير بيدرا، ونسبوه إلى إهمال أمرهم واتهموه بالفتور عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه وأشاعوا أنه تبرطل منهم وأخذ رشوة كبيرة واحتجّ الناس بذلك». هذا ما قاله صالح بن يحيى وذيله الأب شيخو بحاشية قال فيها: «ورد خبر غزوة الأمير بيدرا لكسروان في تاريخ الممالك للمقرئزي وتفصيله لا تختلف عما ذكره المؤلف هنا».

وقال صالح المذكور بعد ما مرّ: «ثم توجه الأمير بيدرا بالعساكر إلى دمشق فتلقاه السلطان وأقبل عليه وترجّل عند ترجّله للسلام عليه، ولما أنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه في العسكر عمل كلام السلطان فيه حتى مرض لذلك، وشيع الناس أنه سقي السم ثم عوفي... وكان الذي أخبر أنّ بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طقصوا فاسرّ بيدرا الأمر في نفسه وترّص له، ولما قبض السلطان على لاجين خاطب بيدرا السلطان في القبض على بيبرس طقصوا فقبض عليه مع لاجين لأنّه كان قد تزوج ابنته».

والذي رواه البطريق أسطفانس الدويهي في تاريخه أنّ الكسروانيين الجرديين كانوا قد نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج عند حصار طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً، فبرز أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق إلى قراسنقر أنّ

يجمع العساكر الشامية ويزحف بها لاستئصالهم واستشهد الدويهي ابن سباط فقال: «قال ابن سباط وكتب أيضاً إلى إثنين من أمراء غرب بيروت جمال الدين حجي بن محمد التنوخي وزين الدين بن علي أنه إذا بلغهما توجه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة الجرد وكسروان يتوجهان إليه بعساكرهما وأن من نهب امرأة كانت له جارية أو صبياً كان له مملوكاً ومن أحضر منهم رأساً فله دينار، وأن سنقر المذكور متوجه لاستئصال شأفتهم وسبي ذراريهم. هذا ما رواه الاهدني في تاريخ سنة ١٢٨٧م. ولا شك في أنه مقدمة لما ذكره صالح ولم يعد يذكر حرباً في كسروان انتصر بها الكسروانيون إلا في سنة ١٣٠٢م كما سيأتي فنظرت أنه فاته العلم بما كان من الأمر الذي أبرزه حسام الدين لاجين فلم يذكر الدويهي حرب سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢م التي ذكرها صالح بن يحيى، وكان قائدها بيدرا نائب السلطان بالشام بل ذكر الحرب التي كانت سنة ١٣٠٢م ويؤيد حصول هذه الحرب قول صالح بن يحيى أن العساكر الشامية توجهت سنة ٧٠٥هـ إلى جبال كسروان: «وهي النوبة الثانية في أيام السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور». فالحرب الأولى التي ذكرها سنة ٦٩١هـ كانت في أيام الملك الأشرف خليل بن قلاوون لا في أيام الملك الناصر وحرب سنة ٧٠٥هـ هي النوبة الثانية في أيام الملك الناصر الذي ولي الملك سنة ٦٩٣، ثم خلعه كتبغا سنة ٦٩٤هـ، ثم رده إليه سنة ٦٩٨هـ وعهد حينئذ بناية السلطنة بالشمال إلى جمال الدين الأفرم الآتي ذكره كما مر في تاريخنا هذا. وهذا ما قاله الإهدني في هذه الحرب الثانية:

«سنة ١٣٠٢م (سنة ٧٠٢هـ) نزل الفرنج على نهر الدامور ليلة الأربعاء ثامن جمادي الأول فقتل هناك فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأسر أخوه شمس الدين عبدالله، فافتداه ناصر الدين الحسين بن خضر بثلاثة آلاف دينار. فرفعت الشكاوي إلى نائب دمشق الأفرم من الجرديين وأهل كسروان. قال ابن الحريري أن في هذه السنة اجتمع النواب جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق وسيف الدين استدر نائب طرابلس، وشمس الدين سنقر المنصوري وحشدوا جيوش الشام إلى مقاتلة الجرديين وأهل كسروان، فاجتمع مقدمو الجبال واستعدوا للقاء الجيش فهزموه وقتلوا كثيرين وغنموا غنيمة كبيرة». قال الأسقف جبرائيل ابن القلاعي: «أن الوقعة كانت عند مدينة جبيل وأنّ المقدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدماً والمشهورون منهم خالد مقدم مشمش وسان وأخوه سليمان

مقدّما ايليچ وسعادة وسركيس مقدّما لحفد وعنتر مقدّم العاقورة وبنيامين مقدّم حردين، ورتّبوا ألفي مقاتل كمنوا على نهر الفيدار والفين على نهر المدفون ثمّ انحدروا بثلاثين ألف مقاتل لقتال الجيش، فوقعوا بحمدان القائد على الطريق منفرداً فقتلوه وحملوا على الجيش فهزموه وأهلكوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم وأخذوا أربعة آلاف رأس خيل من خيلهم، وقدم الأكراد لنجدتهم فصدهم المكنون في الفيدار والمدفون فلم يخلص منهم إلّا القليل، وقتل من الأمراء التنوخية (أصحاب غرب بيروت) نجم الدين محمّد، واخوة شهاب الدين أحمد ولدا جمال الدين حجي، ثمّ غزا الجرديون بلادهم وأحرقوا منها عين صوفر وشلمك وعين زوينة وبحطوش وغيرها من بلاد المغرب، وقتل (في وقعة جبيل) من المقدّمين بنيامين مقدّم حردين ودفنوه عند باب الأركان في جبيل ثمّ صعدوا إلى معاد واقتسموا الغنائم.

أما الحرب الثالثة فإليك ما قاله فيها صالح بن يحيى: «وما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان ما رويّا من جملة حوادث سنة ٧٠٥ هـ (سنة ١٣٠٥م) وذكرنا توجه العساكر الشامية إلى جبال كسروان وإبادة أهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في أيام الملك الناصر محمّد بن المنصور». فقالا: «كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدّت شوكتهم وتطاولوا إلى أذى العسكر عند انهزامه من التتر في سنة ٦٩٩ هـ (سنة ١٣٠٠م) وأغضى السلطان عنهم وتمادى في عقابهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج من الطاعة (ربّما أشارا بهذا إلى ما ذكرناه من الحرب الثانية) واعتزلوا بجبالهم المنيعة ووثقوا بجمعهم الكثيرة وعلّلوا النفس بأنّه لا يمكن الوصول إليهم». انتهى ما نقله صالح عن النويري والصلاح الكتبي.

ثمّ أخذ صالح في تفصيل الخبر فقال: «ففي ذي الحجة سنة ٧٠٤ هـ (سنة ١٣٠٤م) جهز جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام زين الدين عدنان ثمّ توجّه بعده تقي الدين قراقوش وتحذّثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فأبوا، فأمر عند ذلك بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومن مملكة من ممالك الشام وتوجّه آقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الإثنين الثاني من محرم سنة ٧٠٥ هـ (سنة ١٣٠٥م) وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو خمسين ألفاً وتوجّهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين، وتوجّه سيف الدين استدرم نائب طرابلس وشمس الدين سنقر جاه المنصوري نائب صفد، وطلع استدرم المذكور من جهة طرابلس وكان قد نسب إليه مباظنتهم، فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما ينفي عنه هذه

التهمة، فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه، واجتمعت على أهله العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن سكّانها يظنون أحداً يطأها، وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرّقوا في البلاد واستخدم استدمر جماعة منهم في طرابلس بجامكية وجازاهم من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أملاكاً». انتهى كلام صالح بن يحيى.

وهذا ما جاء في تاريخ البطريك أسطفانوس الدويهي: «في سنة ١٣٠٤م (سنة ٧٠٤هـ) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين بن عدنان يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم، ثم أرسل إليهم تقي الدين بن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش (تأمل المطابقة بين الدويهي وصالح بأسماء هؤلاء المنذرين) فلم يحصل إتفاق، فافتى العلماء حينئذ بنهب بلادهم لاستمرارهم على العصيان، ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع تزداد من كل ناحية إلى سلخ (آخر) هذه السنة.

وسنة ١٣٠٧م (سنة ٧٠٧هـ) نرى هنا زلة قلم من الناسخ بتعيين هذه السنة والصواب سنة ٧٠٥هـ، لأنه إذا كان أقوش أمر بجمع العساكر واجتمعت سنة ٧٠٤هـ إلى آخرها فلا يظنّ أنّه آخر مسيره إلى سنة ٧٠٧هـ بل سار في أوّل سنة ٧٠٥هـ، وقد اتّفق كلاما صالح والدويهي على تعيين يوم الإثنين ثاني محرم ذكر ابن الحريري وابن سباط أنّه في يوم الإثنين ثاني محرم سار أقوش الأفرم نائب دمشق بخمسين ألفاً بين فارس وراجل إلى جبال الجرد وكسروان التي حيال بيروت فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل، والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد، وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحريهم وأموالهم وأولادهم ونحو ٣٠٠ نفس، واحتتموا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نبيّة فوق أنطلياس بالقرب من مغارة البلانة، فدافعوا عن أنفسهم ولم يقدر الجيش أن ينال منهم ثمّ بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا، فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا الأمير قتلوا بك حارساً عليهم مدّة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار.

ثمّ أحاط العسكر بتلك الجبال (أي جبال كسروان) ووطئوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أنّ أحداً من خلق الله يصل إليها فخرّبوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا

البيع وقتلوا وأسرّوا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعّة بعد عزّتها وفي ١٨ جمادى الأخرى ركب بالشرايش علي الدين البعلبكي وسيف الدين بكتمر وبكر الدين بكتاش وحسام الدين لاجين وعز الدين خطاب العراقي وتوجّهوا لأجل عمارة الجبل (أي تأمين السكان الذين لم يستطيعوا الفرار واسكان عشائر من المسلمين في السواحل كما سيأتي) وحفظ ميناء البحر مع الجماعة الذين ساروا من دمشق إلى بيروت... وأمر الملك الناصر محمّد بن قلاوون تركمان الكورة أن ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الفرنج وهم أهل عساف» وسوف نأتي على ذكر هؤلاء.

وأما من هم الذين سماهم صالح بن يحيى الجرديين وسماهم الدويهي في أوّل كلامه الجليلين فلا شكّ في أنّهم غير الكسروانيين لذكر المؤرخين المذكورين فريقيّن لا فريقاً واحداً، وترى أنّهم سكّان العمل المسمى إلى الآن الجرد ومن قرأه رشميا وشارون وبتاتر وبحمدون وأنهم كانوا دروزاً ويظهر أنّ هؤلاء لم يكونوا في طاعة الأمراء التنوخيين حكماء المغرب وكانوا يسطون على بلادهم وقد صرّح الدويهي بأنّ نذير أقوش أمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية وكان قتل الأميرين التنوخيين عند الدامور يعزى إلى هؤلاء الجرديين والكسروانيين معاً، إذ روى الدويهي أنّه بعد وقعة الدامور رفعت الشكوى إلى نائب دمشق من الجرديين والكسروانيين ويظهر أنّ الدروز الجرديين والموارنة الكسروانيين كانوا حينئذٍ متفقين ويؤيده هرب الجرديين بعد أن دارت عليهم الدائرة في عين صوفر إلى غربي كسروان إلى نيبه وانطلياس التي كانت حينئذٍ من كسروان وكان تخمه من الغرب والجنوب نهر الجعماني.

عد ٨٩٥

بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن الثاني عشر بذكر وفاة البطريرك أرميا وخلفه بعد وفاته دانيال من عمل جبيل وقطن أولاً في دير القديس فريانوس بكفيفان. ثمّ انتقل إلى دير القديس مارون بكفرحي وأنه انتخب سنة ١٥٤١ يونانية أي سنة ١٢٣٠م على ما كتب يعقوب بن يوحنا البتروني (وفي نسخة أخرى البشراوي) على كتاب فرض القديسين الصيفي الذي طالعه في

كنيسة القديس سابا بيشري وكتب هناك أيضاً أنّ هذا البطريك كان ساكناً سنة ١٢٣٦م في دير القديس جيورجيوس في الكفر وهي من عمل جبيل.

قال الدويهي يظهر من سلسلة البطارقة التي ذكرناها أولاً أنّ بطريكاً اسمه يوحنا كان بين أرميا وسمعان الآتي ذكره. وروى لكويان أنّ الدويهي قال بعد ذلك إنّه لم يتوصّل إلى معرفة البطريك الذي صيّر بعد يوحنا فأسمى الأمر غامضاً لا يهتدى إلى وجهه بيبانه، والذي أراه بفكرتي القاصرة أنّه ربّما كان يوحنا هذا بعد أرميا وقبل دانيال الشاماتي المار ذكره. وقد أبنا في كلامنا على أرميا العمشيتي تردّدنا في القطع بأنّ أرميا بقي في البطريكية من سنة ١١٨٣ إلى سنة ١٢٣٠م أي سبعة وأربعين سنة، فلا أرى مانعاً من أن نفترض أنّ يوحنا هذا الذي لم يهتد الدويهي ولكويان إلى زمانه كان في المدة التي انقضت من بعد عود أرميا رومة سنة ١٢١٦م إلى سنة ١٢٣٠م التي قالوا إنّ دانيال الشاماتي صيّر فيها بطريكاً، ويكون وجه التوفيق وإزالة الغموض الحاصل في هذا البحث والله أعلم. وصيّر بعد ذلك سماعيل وقد ذكره الياس من معاد في حاشية علّقها على كتاب فرض الآلام الذي نسخه سنة ١٢٤٥م قال فيها «كان النجاز منه في أيام ساداتنا البطريك سماعيل صاحب الكرسي الممدوح مدينة الله أنطاكية والمطران سماعيل بجبل لبنان في سنة ١٥٥٦ لليونان» وهي سنة ١٢٤٥ للميلاد. وقال لكويان إن كان سماعيل هو الذي خلف يوحنا فيكون هو الذي روى بياجوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدسة المطبوع برومة سنة ١٦٩٥ صفحة ٥٢ إنّه لما أخذت أنطاكية من يد الفرنج التجأ إليه كثيرون من الكاثوليكين سكانها فقبلهم وأكرم مثواهم في لبنان. وكتب إلى البابا اسكندر الرابع يخبره بحالتهم وشديد تعلّقهم بالكرسي الرسولي، فأجابه البابا مثنياً على اهتمامه ومسمياً إياه بطريكاً أنطاكياً. قال الدويهي إنّ نسخة هذه الرسالة ما برحت مصانة عندنا إلى الآن في دير قنوين (وهي إلى اليوم أيضاً في خزانة بطريركيتنا). وفي كتاب الفتيقيط الصيفي الذي وقع بيدنا في كنيسة القديس سابا في بيشري وجدنا مكتوباً أنّه كان بعد حياً في سنة ١٢٧٧م، ولم نجد له خبراً ولا أثراً بعد ذلك، ولا علمنا من خلفه، ولكن وجدنا مكتوباً على صخر في الحائط الغربي من دير ميفوق عند تجديد بناء هذا الدير

حفظه الله تعالى
 في سنة ١٥٨٨ لليونان وترجمته أنّه في سنة ١٥٨٨ لليونان

(سنة ١٢٧٧م) تم يعقوب هذا هيكل والدة الله مريم . وقال فمن يكون يعقوب هذا الذي جدد هذا الدير ونسب إليه؟ لا نستطيع أن نقول إلا أنه كان بطريركاً لأنه قبل هذا التجديد وبعده كان هذا الدير مأوى للبطاركة . وقيل إنه اندفن فيه سبعة بطاركة . قلنا وقد ذكرنا هذا الخط في الكلام على دير ميفوق ولكن النسخة المحضرة لنا كتب فيها مكان **محمدا** **محمدا** أي كمل بناء هذا الهيكل . فربما شوشت الأيام حروف الكلمة وكانت في أيام الدويهي أظهر للقراءة أو أن الناسخ لنا توهم من كلمة **محمدا** لئلا تكون دالة على أثر لليعاقبة فكتب موضعها **محمدا** .

وصير بعد ذلك دانيال الثاني وجاء في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أن دانيال هذا خلف سمعان سنة ١٢٨١م . وقال الدويهي : «لأنه كان من حدشيت من عمل بشري» . وقد كتب القس يوحنا الراهب الذي من حجولا في آخر كتاب تكريس الميرون ما يأتي : «كمل هذا الكتاب في سنة ١٥٩٢ لاسكندر (توافق سنة ١٢٨١م) في أيام أينا المختار البطريرك دانيال من حدشيت» . ونرى صورته إلى الآن في كنيسة القديس رومانوس بالقرية المذكورة وقد وردت إليه براءة تثبيت من البابا نيقولاوس الثالث (الذي كان على السدة البطرسيية من سنة ١٢٧٧ إلى سنة ١٢٨١م) . ومما تضمنته الأمر له بأن يكون الميرون من زيت الزيتون والبلسم لا غير ، وانتخب بعد دانيال الحدشيتي لوقا وكان من بنهران بسفح لبنان من عمل بشري . وروى الدويهي أن انتخابه كان في سنة ١٢٨٣م التي فيها فتحت العساكر الإسلامية جبة بشري كما مرّ . وقد وهم جبرائيل أسقف الافقسية بقبرص المعروف بابن القلاعي أن هذا البطريرك مال إلى قول راهبين تشبهاً بضلال أبو لينار أن المسيح لم تكن فيه نفس بشرية بل ناب عنها اللاهوت ، وزاغوا عن الإيمان الصحيح ، فأرسل الخبر الروماني ينذرهم فلم يشأ البطريرك قبول قصاص البابا . ومما قاله ابن القلاعي :

والبطريرك ما راد يقبلهم	يسمى لوقا من بنهران
كشر الشر وصاروا غرضين	وثار الانشقاق من أجل اثنين
في ذا السبب ابنوا برجين	وقسموا الملك في ذاك الآن
سمع بذلك السلطان برقوق	وانفتح له باب كان مغلق

أرسل عساكر تحت وفوق تحاصر في جبل لبنان

على أنّ الدويهي أفرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم لتفنيد قول ابن القلاعي هذا مثبتاً أنّ هذا الضلال لم يكن بلبنان فقط وأنّ أيام هذا البطريك كانت موعبة بالحروب على الموارنة في جبّة بشري وكسروان فلم يكن وقت لاشتغال الشعب أو رؤسائه بالمباحث الدينية. وقد اتّهمه يياجوس صاحب الكتاب الموسوم بسورية المقدّسة أنّه اتبع بدعة المشيئة الواحدة فقام عليه الرؤساء والشعب وعقدوا مجمعاً حطّوه فيه عن مقامه البطريكي وأقاموا مكانه البطريك جبرائيل من حجبولا سنة ١٢٩٠م، وتهمة البطريك لوقا بهذا الضلال باطلة ولا مسند لها ولو افترضت صحيحة لتبين منها غير الموارنة على الإيمان القويم بحطّهم بطريركهم.

وقد روى الدويهي على ما ذكر لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة أنّه بعد لوقا أقيم البطريك جبرائيل من حجبولا سنة ١٢٩٠م، وهذا هو الظاهر من كلام يياجوس في كتابه سورية المقدّسة كما رويناه قبيل هذا، وأنّه نال التشييت من الخبر الروماني (البابا نيقولاوس الرابع) وأنّه نال إكليل الشهادة في خارج مدينة طرابلس سنة ١٢٩٦م، وأنّ مدفنه يعرف اليوم بالشيخ مسعود في جانب الحبل المسمى تل الرمل في هذه المدينة، وأحصاه الموارنة في عدد شهدائهم. هذا ما رواه لكويان وعقبه بقوله: «على أنّه يظهر من الكتاب القديم الذي هو الثامن عشر من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية أنّ جبرائيل هذا كان بعد هذا العصر، فقد ذكر السمعاني الكتاب المذكور في فهرست الكتب المعلّق على المجلّد الأوّل من مكتبته الشرقية صفحة ٥٧٧ وهو كتاب لابن القلاعي وقال إنّ في جملة ما حواه قصيدة لابن القلاعي. وقال إنّ في جملة ما حواه قصيدة لابن القلاعي: «في البطريك جبرائيل من حجبولا الذي قضى شهيداً للإيمان الكاثوليكي في طرابلس سنة ١٣٦٧م، إلاّ إن يكون وقع غلط في تعيين تلك السنة، وادعى الحكم في ذلك لعلماء الموارنة». انتهى كلام لكويان.

وجاء في سلسلة بطاركة الموارنة التي أخذها المعلّم رشيد الشرتوني عن الدويهي ونشرها في المجلة الموسومة بالمشرق أنّ هذا البطريك نال إكليل الشهادة في طرابلس سنة ١٣٦٧م، وهذا يوافق ما رواه السمعاني كما ذكرنا قبلاً لكنّه يخالف ما رواه لكويان عن الدويهي كما قدمناه في هذا الحبل. وكثيراً ما وجدنا ما رواه لكويان

عن سلسلة الدويهي يخالف نسختها العربية ولا شك في أنّ ترجمتها اللاتينية التي اعتمد عليها لكويان هي أصح وأسلم من التحريف والغلط ومن جهة أخرى لا نعلم إذا كان السمعاني عيّّن سنة ١٣٦٧م برأي نفسه أن نقلها على سبيل الحكاية عن ابن القلاعي الذي كشف له المتأخرون كثيراً من الخطأ في تعيين السنين. والذي يظهر لنا مرجحاً أنّ البطريك جبرائيل هذا رقي إلى البطريكية سنة ١٢٩٠م ونال إكليل الشهادة سنة ١٢٩٦م اعتماداً على ترجمة سلسلة الدويهي اللاتينية التي هي أصلح وأسلم من النسخة العربية التي كانت بيد المعلّم رشيد المذكور. ويؤيد ذلك ما نعلمه حقّ العلم من أنّ المسلمين لم تسبق لهم العادة بأن يسطوا على النصارى ولاسيّما رؤساء الدين جهاراً وتصميماً إلا في وقت الحرب. وقد رأيت أنّ المدة من سنة ١٢٨٣م إلى سنة ١٣٠٥م كانت موعبة بالحروب في جبة بشري وكسروان فضلاً عن الحروب مع الفرنج، ولا نعلم حصول شيء من هذه الحروب في لبنان سنة ١٣٦٧م ولذلك نرجح أنّ استشهاد هذا البطريك كان في أواخر القرن الثالث عشر لا بعد نصف القرن الرابع عشر.

وقام بعد البطريك جبرائيل البطريك سمعان ونرجيء الكلام عليه إلى تاريخ القرن الرابع عشر.

عد ٨٩٦

رد ما يحتج به على الموارنة من كلام البابا أينوثنسيوس الثالث إنّ خصوم الموارنة يحجونهم بفقرة وردت في رسالة أنفذهها أينوثنسيوس الثالث سنة ١٢٥١م إلى البطريك أرميا والمطارنة والأساقفة ورؤساء الأديار والإكليروس والشعب الموارنة. وقد أثبت العلامة البطريك أسطفانس الدويهي ترجمة هذه الرسالة برمتها في الفصل الثامن من كتابه في رد التهم. فالعبارات التي يحجج الموارنة بها من هذه الرسالة هي قوله في من أفاض الله عليهم سوابغ نعمه فارعوا عن الضلال: «كما بلغنا وسرنا أنّه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدة فانكم سابقاً كنتم كالحراف الضالّة غير عالمين أنّ خطيئة المسيح واحدة... وأنّ الراعي الصالح واحد وهو السيّد المسيح... ولما أرسلنا قبلاً إلى نواحيكم المرحوم الكردينال بطرس كاهن كنيسة القديس مرشولوس رجعتم بالهام الرب إلى راعيكم وأسقف نفوسكم

وفهمتم أننا نحن رأس الأبحار ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة... ولما كان الكردينال المذكور علم أنكم تحتاجون إلى بعض أمور اجتهد في إيضاحها لكم حسب مآل الأمر الرسولي وأوصاكم بأن تقرؤوا بمعزل عن كل ريب بما تمسكت به الكنيسة الرومانية، وهو أن الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب... وإن تحفظوا في المعمودية هذه الصورة، أي أن الثالوث الأقدس يذكر مرة واحدة في التغطيسات الثلاث لا أكثر، وأن سرّ التثبيت يتصرف به رؤساء الكهنة دون غيرهم... وأن تؤمنوا أن في المسيح طبيعتين ومشيتين إلهية وإنسانية. وهذه الوصايا ولو كنتم قبلتموها في ما سلف قبول الطائعين الخاضعين إلا أن إعادتها عليكم الآن لأجل تأكيدها وإثباتها». فهذه هي العبارات المحتج بها.

وقد ردّ العلامة الدويهي في الفصل المذكور زعم من حجوا الموارنة بهذه العبارات وأثبت أن الموارنة براء من التهمة بالضلال، وأن هذه العبارات لا تصلح أن تكون حجة عليهم به. وصنع كذلك المرحوم البطريرك بولس مسعد في عدّة مواضع من كتابه الموسوم بالدر المنظوم أي صفحة ١٢١ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٦ فوأن لم أقس بهذين العلامتين فقد حذوت حذوهما في كتابي الموسوم بروح الردود وأسهبّت برد زعم خصومنا باحتجاجهم علينا بكلام البابا المذكور.

والآن أقول إن في رسالة البابا أينوشنسيوس الثالث هذه نفسها فقرتين آخرين يتبين منهما جلياً أن الموارنة لم يكونوا على ضلال وارعوا عنه حيثئذ. الفقرة الأولى هي قوله: «وأنت أيها الأخ البطريرك لما كنت قبلاً في مدينة طرابلس مع قوم من مطارنتك أعني يوسف مطران قزحيا، وتاوادورس أسقف كفرفو، وجمع كبير من الكهنة، وجمهور وافر من الخاضعين لك حلفت أنت وهم عن نفوسكم وعمن يتعلّق بكم بحضرة بعض أساقفة ورهبان وشمامسة في المدينة المذكورة اليمين على مثال الصورة التي يتعهد بها المطارنة بالطاعة للكرسي الرسولي». فحلف يمين الطاعة على مثال الصورة التي يتعهد بها الأساقفة بالطاعة للكرسي الرسولي ليس هو ارعواء عن ضلال، ولا يكتفى لمن كان ضالاً بحلف مثل هذا اليمين، بل الاكتفاء بها دليل بين وبينه قاطعة على أن من أبرزها لم يكن من ذوي البدعة والضلال.

والفقرة الثانية هي قوله: «ثمّ إننا ثبت لك بسلطاننا الرسولي كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها، ونأمر أصحابها بالخضوع لكرسي كنيسة السيدة

في يانوح أيّها الأخ البطريرك الذي ولاك الله رئاستها، وإن يكونوا طائعين لك ولخلفائك نعني مطارنة قزحيا وجبة بشري وأساقفة المنيطرة ورشعين وكفرو وعرقا... ونثبت لك النعم المعتادة الحاصل عليها أنت وأسلافك في الكنيسة الأنطاكية إلى هذا الآن بالسلطان الرسولي نمنحها لك وللذين يتخلفون بعدك». ومما لا ريب فيه أنّ من خرج عن الكنيسة أو زاغ عن إيمانها خسر بزيغان نفسه الحقوق والنعم وما اعتاد أن يكون له فيها. فإن كان بطريرك الموارنة وأسلافه قد تسكّموا بالبدعة كيف يثبت أيونشنيوس الثالث النعم أو الحقوق أو الاستعمالات الحاصل عليها لا البطريرك أرميا وحده بل أسلافه أيضاً في الكنيسة الأنطاكية إلى الآن. ولو كان هؤلاء الأسلاف أصحاب بدعة لما بقي لهم حقوق ولا أثبتها البابا لهم وقد أدبنا أنّ البطريرك أرميا الموجهة إليه هذه الرسالة قد انتخب بطريركاً سنة ١١٨٣م أي بعد سنة واحدة من الارعواء المدعى به على الموارنة، واعتمدنا في هذا على ما خطّه أرميا نفسه بيده. وأسلاف أرميا الذين أثبت لهم أيونشنيوس حقوقهم أو عوايدهم في الكنيسة الأنطاكية هم يوسف الجرجسي الذي أرسل قصاده مع قصاد الملك غودفروا إلى رومة سنة ١٠٩٩م بطلب التثبيت فأنعم عليه به البابا بسكالس الثاني سنة ١١٠٠م. ثم غريغوريوس الحلاتي الذي أرسل إليه البابا أيونشنيوس الثاني الكردينال غويللمس سنة ١١٣١م يخبره أنّه هو البابا الشرعي لا بطرس دي لاون الذي تدخّل على الكرسي الروماني، فحلف البطريرك وأساقفته يمين الطاعة لأيونشنيوس كما حلف رؤساء الفرنج الذين كانوا حينئذٍ بسورية، إلى غير هؤلاء من بطارقة الموارنة. والحادثان المذكوران هنا رواهما لكويان في كلامه على بطارقة الموارنة في المجلّد الثالث من الشرق المسيحي.

فالبابا أيونشنيوس الثالث أثبت إذاً بالفقرتين اللتين ذكرناهما أنّ الموارنة لم يكونوا هراطقة. فكيف يخرج قوله في الفقرة الأولى: «إنكم كنتم ضالين وأنّ الكردينال أمركم أن تعتقدوا أنّ في المسيح طبيعتين ومشيتين». إنّ لذلك مخرجين الأول إنّ البابا تكلم في هذه الفقرة على بعض الموارنة الذين كان أتباع توما الكفرطابي قد أغروهم ببدعة المشيئة الواحدة حتى استمالوا البطريرك نفسه إليهم، فاجتمع الأساقفة وأعيان الأمة فحطوا البطريرك عن مقامه وانتخبوا غيره فقتله أصحاب البطريرك المنحط، وأصلح أموري بينهم فانتخبوا حينئذٍ أرميا الموجهة الرسالة إليه، فأشار البابا إلى هذه الأحداث التي ذكرنا تفصيلها في عدد ٨٥٨ وعدد ٨٦٠

وأراد بمن كانوا ضالين تلك الفقة من الموارنة التي كانت قد ضلّت مدّة ثمّ ارعوت عن ضلالها إلى جادة الصواب على يد أموري بطريك أنطاكية وهذا لا يبعد عن الصواب وهو لازم للتوفيق بين قولين متضادين في رسالة واحدة.

والمخرج الثاني إنّ الخبر الروماني تكلم في الفقرة الأولى على الموارنة والروم معاً وهذا ظاهر من كلامه الذي قدّمناه وهو «كما بلغنا وسرّنا أنّه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدّة فأنكم كنتم سابقاً كالخراف الضالّة» الخ ثمّ من قوله الآخر إنّ الكردينال الذي أرسله أمرهم بأنّ يعترفوا «بأنّ الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب وان يحفظوا من المعمودية الصورة التي يدعى بها الثالوث الأقدس مرّة واحدة لا أكثر وأنّ سرّ التثبيت يتصرّف به رؤساء الكهنة لا غيرهم: «ومن المؤكّد أنّ الروم إنّما هم الذين ينكرون انبثاق الروح القدس من الابن وكانوا يوجبون ذكر الثالوث ثلاثاً عند تلاوة صورة المعمودية، وهم إلى الآن يمنح كهنتهم سرّ التثبيت وليس بمحفوظ للأساقفة، وما من أحد من العلماء المحققين عزا إلى الموارنة هذه الأغلاط. وينتج من ذلك نتجاً جلياً أنّ البابا تكلم بهذه الرسالة على الموارنة والروم معاً.

وقد قال بهذا المخرج كثيرون من العلماء اللاتينيين منهم الأب ايرونيوس دنديني في فصل ٢٨ من كتاب بعثته إلى الموارنة في أواخر القرن السادس عشر وهذا قوله: «إنّ هذه البراء (أي براءة أينو شيسوس الثالث) لا يتكلم بها البابا عن الموارنة وحدهم بل عن الروم أيضاً إذ رجعوا في طرابلس حينئذ إلى طاعة الكنيسة الرومانية ارتجاعاً حافلاً بحضرة كردينال كنيسة القديس مرشولوس القاصد الرسولي في هذه الجهات من الشرق، وبهذا يتيسر فهم السبب الذي أوجب نسبة أغلاط طائفة إلى أخرى». ومنهم أيضاً الأب توما يياتي الكرملّي الذي قال في الكتاب السابع الفصل ٢٢ من مؤلفه الموسوم بلزوم الاهتمام بخلاص جميع الأمم ما ترجمته «إنّ بطريك الموارنة قد احتفظ غاية الاحتفاظ على براءات الأخبار الرومانيين من أينو شيسوس الثالث إلى غيره من الباباوات الذين أنفقدوا إليهم قصداً كردينال كنيسة القديس مرشولوس وغيره، ولما كان الأخبار الرومانيون يأمرّون برسائلهم الموارنة أن يتحاشوا عن أغلاط الروم وينبذوها، حصل من ذلك أنّ بعض المرسلين من رومة توهّموا أنّ الموارنة تابّعوا أكثر الروم على أغلاطهم كانبثاق الروح القدس من الآب وحده وانكار المطهر وما أشبه على أنّ الموارنة أثبتوا أنّهم بمعزل عن هذه

الأغلاط ويبتوا في كتبهم ونوافير قدّاسهم بينات كثيرة ناطقة بمدافعتهم كل حين عن العقائد الكاثوليكية». ونقتصر على إيراد شهادة هذين الشاهدين من العلماء اللاتينيين ونضرب حباً بالإيجاز عن إيراد أقوال علمائنا.

على أنّنا لا نعدل عن قول العلامة البابا بناديكطوس الرابع عشر في رسالته الموجهة في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣م إلى نيقولاوس لركاري وهذا قوله «قد أثبت الموارنة أنّهم ينتسبون في أصلهم إلى القديس مارون الانبا، وأنّهم لم يزيغوا البتة عن الإيمان الكاثوليكي، ولا انفصلوا قطعاً عن وحدة الكنيسة. وزادوا على ذلك أنّهم إذا كانوا قد جدّدوا أحياناً اتّحادهم بالكنيسة الرومانية فلا ينبغي البتة أن يفهم ذلك بمعنى أنّهم شدّوا عن الدين الكاثوليكي ثمّ رجعوا إليه». ومن ذلك بلا بد تجديد اتّحادهم بالكنيسة الرومانية بحضرة قاصد البابا أينوشنسيوس الثالث المذكور هنا والذي على تقريره المرفوع للحبر الروماني بنيت رسالته وربّما لم يميز كما ينبغي بين من حجدوا الضلال كروم طرابلس ومن جدّدوا اتّحادهم بالكنيسة الرومانية وحلفوا يمين الطاعة للحبر الروماني كالموارنة وقد صرّح البابا أينوشنسيوس الثالث بأنّ بطريك الموارنة وأساقفته ومن حضر في طرابلس من كهنته وشعبه حلفوا هذه اليمين على هذه الصورة كما رأيت في كلامه الذي أوردناه آنفاً.

الباب الرابع عشر

تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي

الفصل الأول

من تولّوا سورية بهذا القرن وما كان من الأحداث في أيّامهم

عد ٨٩٧

تتمة أخبار الملك الناصر وما كان في أيّامه

فرغنا في تاريخ القرن الثالث عشر بذكر إعادة الملك الناصر إلى السلطنة بمصر وسورية وحملة التتر على سورية واندفاعهم عنها، فنعود إلى تكملة أخبار هذا الملك وما كان في أيّامه من الحوادث من ذلك وفاة زين الدين كتبغا نائب السلطنة بحماه سنة ٧٠٢هـ سنة ١٣٠٢م الذي كان قد تسلطن، فخلعه نائب لاجين وأعطاه صرخد ثم تولّى حماه كما مرّ وتوفي في السنة المذكورة. وكان أبو الفداء صاحب التاريخ المشهور يرجو أن يسمى نائب السلطان في حماه بلده كما كان أهله قبله وهم من الأيوبيين، وأرسل يعرض على السلطان ذلك فوجد الأمر قد فات، وقررت النيابة بحماه لسيف الدين قبيجق نائب الشوبك قبلاً، ووعد السلطان

أبا الفدا الوجود الجميلة، واعتذر له بأن كتابه وصل بعد خروج قبجق إلى حماه. روى ذلك أبو الفداء نفسه في تاريخ السنة المذكورة وقال إنه كان فيها زلزلة عظيمة هدمت بعض أسوار قلعة حماه وغيرها من الأماكن بسورية ومصر.

وفي سنة ٧٠٥ هـ سنة ١٣٠٥ م أرسل قراسنقر نائب السلطنة بحلب مع قشتمر مملوكه عسكر حلب للإغارة على بلاد سيس فدخلوها وكان قشتمر المذكور ضعيف العقل قليل التدبير مشتغلاً بالخمر، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتر وانضم إليهم الأرمن والفرنج ووصلوا على غرة إلى عسكر حلب، فلم يكن للحلبين قدرة بمن جاءهم فتولوا يتدرون الطريق، وتمكن التتر والأرمن منهم، قتلوا وأسروا أكثرهم واختفى من سلم في تلك الجبال ولم يصل إلى حلب إلا القليل عرايا بغير خيل.

وفي هذه السنة أي سنة ١٣٠٥ سار جمال الدين أقوش الأفرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام إلى جبال الظننين، وكانوا عصاة مارقين في الدين فأحاطت العساكر الإسلامية بتلك الجبال المنيعه وترجلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا وأسروا جميع من بها من النصيرية والظننين وغيرهم من المارقين، وطهرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطريق بعد ذلك منهم. فأنهم كانوا يقطعون الطريق ويتخطفون المسلمين ويبيعونهم للكفار. هذا ما ذكره أبو الفداء في تاريخ هذه السنة ويظهر أن أقوش الأفرم بعد أن افتتح كسروان كما مر في عدد ٨٩٤ سار في تلك السنة نفسها إلى جبال الظننين (وهي المعروفة اليوم بجبل شرقي زاوية طرابلس) فدوخ أهلها والنصيرية. ومما لا ريب فيه أن هذه الجبال غير جبال كسروان، وأهلها غير الكسروانيين، لأن صاحب تاريخ بيروت الذي أشهره الأب شيخو اليسوعي سمي من حاربهم أقوش أولاً الجرديين والكسروانيين، فهم غير الظننين والنصيرية الذين ذكر أبو الفداء أن أقوش حاربهم ثانياً وظفر بهم، ويؤيد قولنا تعيين أبي الفدا موقع جبال الظننين بين دمشق وطرابلس، وموقع جبال الجرديين والكسروانيين بين دمشق وبيروت. ويزيده تأكيداً تسمية صاحب تاريخ بيروت من حاربهم أقوش جرديين وكسروانيين، وتسمية أبي الفداء من حاربهم أقوش أيضاً ظننين ونصيرية. فليست الحرب واحدة بل حربين وإن كانتا في سنة واحدة.

وفي سنة سنة ٧٠٨ هـ ١٣٠٨ م استبدّ سلار نائب السلطنة وبيبرس الجاشنكير بالأمر وتجاوزا الحد في الانفراد بالأموال والأمر والنهي ولم يتركا للسلطان إلاّ الاسم، فسئمت نفس السلطان الملك الناصر هذا التطاول، وأظهر أنّه يريد المسير إلى الحجاز، وقام من مصر ومعه عدّة من الأمراء ووصل إلى الكرك فأمر الأمراء الذين حضروا بخدمته أن يعودوا إلى مصر وكشف لهم أنّه جعل السفر إلى الحجاز وسيلة للمقام بالكرك. ولما وصل الأمراء إلى مصر وأعلموا من بها بإقامة السلطان بالكرك تشاوروا فيما بينهم واتفقوا أن تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير، وأن يستمرّ سلار على نيابة السلطنة كما كان وحلفوا على ذلك. وركب بيبرس بشعار السلطنة إلى قلعة الجبل بالقاهرة وجلس على سرير الملك وتلقّب بالملك المظفر ركن الدين، وأرسل إلى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له عن آخرهم، وكتب تقليداً للملك الناصر بالكرك ومنشوراً بما عيّنه له من الاقطاع وأرسلهما إليه.

وفي سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م سار من مصر جمال الدين أقوش الموصلية غير أقوش الأفرم ولاجين الجاشنكير ومعهما نحو ألفي فارس إلى حلب، وسار معهم من الشام جماعة من جملةهم أبو الفداء مع عسكر حماة، وكان نائب السلطنة بحلب قراسنقر المنصوري، فأخذ يستميل الناس في الباطن إلى طاعة السلطان الملك الناصر ويقبح عندهم طاعة بيبرس، وسار جماعة من المماليك في مصر مفارقين طاعة بيبرس ووصلوا إلى الملك الناصر بالكرك وأعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبة، فأعاد خطبته بالكرك واستدعاه عسكر دمشق مبينين أنّهم باقون على طاعته. ووصلت إليه من حلب المكاتبات فسار بمن معه من الكرك، واحتال أقوش الأفرم عليه بأخبار كاذبة توجب عوده إلى الكرك فعاد إليها واستمرت العساكر على طاعته وجاهر الناس بالخلاف لبيبرس وانحلّت دولته، وبلغ ذلك العساكر المقيمين بحلب فانصرفوا من غير دستور. ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية له عاود المسير إلى دمشق فالتقاء عسكر دمشق وانهزم أقوش الأفرم نائب السلطنة فيها ودخل الملك الناصر دمشق ونزل بالقصر الأبلق، وطلب الأفرم وأمنه وقدم إليه نواب السلطنة بحلب وحماه وصفد وغيرها فأمرهم بالتجهيز للمسير إلى مصر.

ولما تكاملت العساكر سار بهم من دمشق قاصداً مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ذلك فاستعدّ للقتال وجمع عسكراً ضخماً وساروا إلى الصالحية. ولما وصل الملك الناصر إلى غزّة قدم إلى طاعته عسكر مصر أولاً فأولاً ولما تحقق ذلك بيبرس خلع

نفسه من السلطنة وأرسل يطلب الأمان، وأن يتصدق عليه ويعطيه إما الكرك أو حماء أو صهيون فأجابه السلطان الملك الناصر إلى إعطائه صهيون. وأتم السلطان السير، فهرب بيبرس إلى الصعيد وخرج سلار نائب السلطنة للتعليق السلطان متذلاً، وبقي السلطان سائراً بالعساكر الشامية والمصرية إلى قلعة الجبل واستقر على سرير ملكه، فكانت سلطنته الثالثة. ووزع عماله وأعطى أقوش الأفرم صرخد ونفى سلار من مصر وقبض على بيبرس الجاشنكير واسترد منه ما كان أخذه من الأموال والخيول واعتقله في قلعة الجبل وكان آخر العهد به. وكانت سلطنته إحدى عشر شهراً واستقر السلطان الملك الناصر على سلطنته.

وفي سنة ٧٠٨ هـ سنة ١٣٠٨ م ملك الفرسان الاسبيتاليون جزيرة رودس أخذوها من الاشكري صاحب قسطنطينية، وصعب بسبب ذلك على التجار الوصول في البحر إلى هذه الديار لمنع الفرسان من يصل إلى بلاد الإسلام. هذا ما رواه أبو الفداء في تاريخ السنة المذكورة والذي نعلمه من تاريخ هؤلاء الفرسان الذين يسمون فرسان القديس يوحنا الأورشليمي وفرسان رودس وفرسان مالطة أن جمعيتهم أنشئت بعد أن أخذ الفرنج أورشليم سنة ١٠٩٩ م، وكان غرضها استقبال الحجاج وقضاء حاجاتهم والعناية بالمرضى منهم، ثم أخذ أعضاؤها على أنفسهم سنة ١١٢١ م أن يذبوا عن الزائرين بالسلاح أيضاً، فأصبحت جمعيتهم دينية جنديّة وكانوا يتسيرون بقانون القديس أغوستينوس. وبعد أن فتح صلاح الدين أورشليم سنة ١١٨٨ م انتقلوا إلى عكا. وبعد أن أخذ المسلمون عكا ساروا إلى قبرص وفي سنة ١٣٠٨ م على ما ذكر أو سنة ١٣١٠ على رواية أخرى أخذوا رودس وتحصنوا بها مدة قرنين ونيف إلى أن طردهم منها السلطان سليمان سنة ١٥٢٢ م بعد حصار شديد ودفاع مديد، فساروا إلى كريت ثم إلى صقلية ثم استقروا في مالطة سنة ١٥٣٠ م واستمروا بها إلى سنة ١٧٩٨ م إذ أخذها منهم نابليون الأول بوناپرت عند عبوره إلى مصر. وفي تقليدات أمّتنا المارونية أنّه كان في جملة هؤلاء الفرسان كثيرون من رجال الموارنة وساروا معهم إلى قبرص ورودس وبقي أولادهم في هذه الجمعية عند إقامتهم برودس ومالطة.

وفي سنة ٧١٠ هـ سنة ١٣١٠ م وليّ أبو الفداء نيابة السلطنة بحماه موطنه وقد روى هو خبر توليته، فقال أنّه كان قد زائل حماء خشية من عداوة استدمر الذي كان السلطان قد ولّاه حماء، وسأل السلطان أن يمكّنه من القيام بدمشق فتصدّق

عليه بخلة ورسم له بغلة من حواصل دمشق، وإن يكون خبزه بحماه مستقراً عليه وكذلك أجناده، ووصل استدمر إلى دمشق متوجهاً إلى حماه فأفرغ جهده في أن يسير أبو الفداء معه إليها فتمنع، واتفق أن مات نائب السلطنة بالسواحل الشامية فأعطى السلطان النيابة بها لاستدمر وتصدق على أبي الفداء بالنيابة بحماه، فلم يحب استدمر المسير إلى السواحل وامتنع من قبول التقليد والخلة ومات حيث كان سيف الدين قبجق نائب السلطنة بحلب، فنصب السلطان استدمر موضعه واستقرت حماه للعبد الفقير إلى الله تعالى بن عليّ مؤلف هذا الكتاب. وكان استقراري في دار ابن عمي الملك المظفر بحماه بعد الظهر نهار الإثنين ٢٣ جمادى الآخرة سنة ٧١٠هـ سنة ١٣١٠م الموافق السادس عشر من كانون الثاني. هذا من كلام أبي الفداء. وقال بعده كان خروج حماه عن البيت التقوي الأيوبي سنة ٦٩٨ وعوده إليها سنة ٧١٠م. فكانت مدة خروجها إحدى عشر سنة وخمس أشهر وسبع وعشرين يوماً. وفي السنة المذكورة جرد السلطان عسكرياً مع كراي المنصوري وشمس الدين سنقر الكمالي إلى حلب للقبض على استدمر الذي كان السلطان قد جعله نائب السلطنة فيها كما مرّ ولم يكن يثق بطاعته. وسار أبو الفداء والي حماه معهم فكبسوا استدمر في دار النيابة بحلب وقبضوا عليه واعتقلوه بقلعة حلب، ثم أرسلوه إلى مصر فاعتقل بها ثم نقل إلى الكرك وكان آخر العهد به. واحتيط على موجوده من الخيل والقماش والسلاح وكان شيئاً كثيراً وحمل جميع ذلك إلى بيت المال.

وفي سنة ٧١١هـ سنة ١٣١١م بعد القبض على استدمر جعل السلطان قراسنقر نائب السلطنة بدمشق نائباً لها بحلب، وأنعم بنبابة السلطنة بالشام على سيف الدين كرية المنصوري، ثم قبض عليه ورتب في نيابة السلطنة بالشام أقوش الذي كان نائباً في الكرك. وأما قراسنقر فبعد استقراره بحلب استأذن السلطان بأن يسير إلى الحجاز لقضاء حجّ الفرض فأذنه، فسار في غير الطريق المعتاد حتى وصل إلى بركة زيرا فحصل عنده التخيّل والخوف من الركب المصري لئلا يقبضوا عليه فعاد على البرية إلى بر حلب واجتمع مع مهنا بن عيسى أمير العرب واتفقوا على المشاققة والعصيان، وقصد قراسنقر حلب ليستولي عليها مستقلاً فمنعه الأمراء الذين بها والعسكر من الدخول إليها، وأرسل السلطان إلى قراسنقر ومهنا أمير العرب ما يطيب خاطرهما فلم يرجعا عن ضلالهما فجرد السلطان عسكرياً مع المقر السيفي ارغون الدوادار الناصري والأمير حسام الدين قرا لاجين، حتّى إذا رجع قراسنقر عن

الشقاق والنفاق قرر أمره في مكان يختاره، وإن لم يرجع يقصده العسكر حيث كان. وسار أبو الفداء بصحبته فاندفع قراسنقر إلى الفرات وأقام هناك وافترقت ممالكه، فبعضهم سار إلى التتر وبعضهم قَدَم الطاعة ثم توجه قراسنقر إلى جهة مهنا حليفه. وفي سنة ٧١٢هـ سنة ١٣١٢م قصد أقوش الأفرم نائب السلطنة بالفتوحات أن يحدث شقاقاً وانضم إليه حموه أيدير الزردكاش من دمشق ومن يلوذ به وقصدوا عسكر الساحل فلم يوافقهم على ضلالهم، فهرب الأفرم إلى سنقر في البرية وأقاما بقرب سلمية، فاجتمعت العساكر من حمص وحماه وحلب ونزلوا بظاهر سلمية، وقصد قراسنقر والأفرم كبس العسكر ليلاً لظنهما أن فيهم مخامرين يوافقونهما على ضلالهما فلم يوافقهما أحد فرجعا عن قصدهما وسارا بن معهما إلى الرحبة فجهز الأمراء عسكراً في أثرهما فتبعوهما إلى الرحبة، فاندفع قراسنقر ومن معه إلى عانة والحديثة، ولم يرد العسكر لحاقهما إلى هناك بغير مرسوم من السلطان وعادوا إلى حمص وكثر تردد الرسل إلى قراسنقر والأفرم في إطابة خواطرهما وهما لا يزدادان إلا عتواً، حتى سارا إلى التتر واتصلا بخربندا ملكهم مع أيدير الزردكاش ومن انضم إليهم. وقرّر السلطان سيف الدين سودي في نيابة السلطنة بحلب مكان قراسنقر. وحمل قراسنقر والأفرم خربندا ملك التتر على أخذ الرحبة وكان الأفرم هو الذي قد سعى لبدر الدين بن ادكشي الكردي بنيابة السلطنة بالرحبة فأغرى خربندا بأخذها طامعاً بأن بدر الدين ربما يسلم قلعة الرحبة إليه جزاء صنعه إليه فحاصرها خربندا فصبر بدر الدين على الحصار وقاتل شديد القتال حفظاً لعهد أمانته للسلطان، ووقع الغلاء والفناء في عسكر خربندا وتعذرت عليه الأقوات ولم يجد صحة لما أطمعه به قراسنقر والأفرم فرحل عن الرحبة راجعاً على عقبة بعد حصار الرحبة نحو شهر». انتهى ملخصاً عن أبي الفداء.

عد ٨٩٨

العشائر الإسلامية التي أقيمت في سواحل لبنان في هذه الأثناء
روى العلامة المدقق البطريرك أسطفانوس الدويهي أن الملك الناصر بعد أن فتح المسلمون كسروان سنة ١٣٠٥م أمر تركمان الكورة أن ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الفرنج، وهم أهل عساف. وكان دركهم من حدود أنطلياس إلى

مغارة الأسد وجسر المعاملتين تحت غزير وكانوا لا يدعون أحداً يمرّ في دربند نهر الكلب إلا بورقة إجتياز من الوالي أو من أمراء الغرب التنوخية (الآتي ذكرهم) وأقام التركمان المذكورون ثلاثة ابدال كل بدل مئة فارس يقوم بالدرك شهراً، وكانوا ينزلون بأنطلياس وبيوت اليزك (كلمة فارسية يراد بها رئيس العسس ومن يراقب من مضى فيتبعه) على نهر الكلب وفي البرج الذي يليه جنوباً وفي برج جونبة. وكانت أذواقهم (منزلهم) من حولهم وهي المعروفة بالعامرية وزوق الخراب وزوق مصبح وزوق ميكائيل بأسماء مقدّمي الأزواق، وبنوا لهم منازل وغرسوا جنان وبساتين بعين طورا وعين شقيق لإقامة أمرائهم شتاءً وصيفاً.

وجاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى مصداقاً لذلك ما نصّه: «وأما أرباب الأيزاك (مرّ تفسير كلمة اليزك) فكانوا جنود حلقة بعلبك يتجردون إلى بيروت ابدالاً يبقى كل بدل شهر. وفي سنة ٧٠٦ هـ أقرّوا التركمان بكسروان وتداركهم بثلاث مئة فارس وجعلوا دركهم من حدود أنطلياس إلى مغارة الأسد على حدود معاملة طرابلس، فكانوا يمنعون من يستنكرونه أن يتعدّى دربند (كلمة تركية معناها مضيق) نهر الكلب إلا بورقة طريق من المتولى أو من أمراء الغرب كما يفعلون بقطية (قرية على التخوم بين مصر والشام) على درب مصر، وجعلوا التركمان المذكورين ثلاثة ابدال كل بدل يقيم في الدرك شهراً، وموجب استقرارهم بكسروان أنّه لما فتح كسروان كما ذكرنا أقطعه لانا لاس لم يكفوه فأنزلوا فيه التركمان لكثرتهم ولحفظ الموائى والدروب.

وقد جاء في تاريخ صالح بن يحيى المذكور قبل ما مرّ ما نصّه: «وعاد نائب الشام (بعد فتح كسروان) إلى دمشق بالعساكر في رابع شهر صفر من السنة المذكورة (سنة ٧٠٦ هـ سنة ١٣٠٦ م) وجعل الناظر في بلاد بعلبك والجبال الكسروانية بهاء الدين قراقوش فقهر ما كان تأخّر بجبال كسروان وقتل من أعيانهم جماعة ثمّ أعطوا أماناً في غير كسروان، ثمّ أقطعوا علاء الدين خطاب وسيف الدين نكر الحسامي وابن صبح أراضى في كسروان ثمّ أبطلوها عنهم وأقطعوها التركمان، فأدركوا موائى البحر ودروب البر من ظاهر بيروت إلى عمل طرابلس واستمروا إلى وقتنا هذا وشهروا بتركمان كسروان وعرفوا به».

وجاء في هذا التاريخ أيضاً: «وكان الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه

ابن أيوب (ابن أخي صلاح الدين الأيوبي) صاحب حماه قد أوقف وفقاً على جماعة خيالة ورجالة برسم الجهاد، وأشرط عليهم أن يكونوا في أقرب الموانئ إلى دمشق فلما استوطن المسلمون بيروت بعد الفتوح الأخيرة استقرت إقامة المجاهدين المذكورين بها لقربها من دمشق وفي أيام السلطان الملك الظاهر بريقوق عمر البرج الكبير ببيروت على قاعدة برج من أبراج القلعة الخربة فقرروا به المجاهدين المذكورين» إلى أن يقول: «أمّا أمراء بني الغرب فاستقرّ دركهم على بيروت سنة ٦٩٣هـ (سنة ١٢٩٤م) وهي ثالث سنة الفتوح الأخيرة وذلك في أيام الأمير زين الدين صالح بن علي بن بحتري، وأيام الأمير سعد الدين خضر بن محمد وأخيه جمال الدين حجي بن محمد... وفي أيام ناصر الدين حسين استقرّ أمراء الغرب تسعين فارساً وانقسموا ثلاثة أبدال في كل شهر يقيم منهم في بيروت ثلاثون فارساً. وفي انقضاء الشهر يحضر ثلاثون بدلهم وفي ذلك يقول بعض شعراء زمانهم:

أيا ابن أمير الغرب شرقاً ومغرباً ومن كل عرف غير عرفهم نكز
باحسانك المشهور بيروت بلدة على الساحل المعمور صار لها ذكر
إلى أن يقول:

هو الناصر المعروف بالجلود والتقوى له الفضل والإحسان والعطف والبر»

وقد فصل لنا العلامة الدويهي كيف كانت هذه المراقبة والدرك بعد إخراج الفرنج من بيروت سنة ١٢٩٣م فقال جعلوا لبيروت مراقبة البحر وجعلوا فيها رهجية وحمام بطاقة (البطاقة الرسالة ورقية توضع في الثوب فيها ذكر الثمن سميت بذلك لأنها تشدّ بطاقة من هذب الثوب) مدرج إلى دمشق وخيل بريد فكانت النار (المعبر عنها بالرهجية) للحوادث في الليل وحمام البطاقة للحوادث في النهار والبريد لما يتجدد من الأخبار. كل ذلك فعلوه خوفاً من رجوع الفرنج فجعلوا في الطريق من بيروت إلى دمشق أربعة برد أحدها في الحصين، والثاني في قرية ايدل، والثالث في خان ميسلون، والرابع في دمشق. ثم رتبوا أيضاً أنواراً تصل إلى دمشق في ليلة واحدة فكانوا يشعلون ناراً في ظاهر بيروت في مكان معلوم فتجاوبها نار في رأس بيروت العتيقة (لعلها دير القلعة حيث يسمى الحبل بيروت

العتيقة) ومنها إلى جبل بوارش، ومنه إلى بيرس (في الجبل الشرقي) ومنه إلى جبل الصالحية ومنه إلى قلعة دمشق.

وأما أمراء الغرب الذين مرّ ذكرهم فنلخص أخبارهم عن أحدهم صالح بن يحيى الذي كان في أواسط القرن الخامس عشر وهو صاحب الكتاب «تاريخ بيروت» الذي أفضل الأب لويس شيخو اليسوعي على العلم بنشره في مجلة «المشرق» سنة ١٨٩٨م منقولاً عن نسخة بخط المؤلف في مكتب باريس الكلية. فهذا المؤلف نصّ على أنّ جد أمراء الغرب إنما هو الأمير بحتر الملقّب بناهض الدولة والمكنى بأبي العشائر وهو ابن شرف الدولة علي وأوصل نسبه إلى تنوخ بن قحطان إلى المنذر بن ماء السماء. وإنّه اعتمد على أحمد بن عبد ربّه وعلى الملك المؤيد صاحب حماة. وأثبت صورة منشور من الأتابك الظهيري يذكر به إمارته بالغرب من جبل بيروت. وتاريخ هذا المنشور سنة ٥٤٢هـ (توافق سنة ١١٤٧ للميلاد) في أيام الأمير مجير الدين آبق بن جمال الدين محمّد بن تاج الملك بوري بن ظهر الدين طغتكين ويتحصّل من ذلك أنّ هؤلاء الأمراء استدعاهم أتابكة دمشق من جهات حلب إلى الغرب في القرن الثاني عشر لمقاومة الفرنج ببيروت. ثمّ أثبت المؤلف أيضاً منشوراً عاماً من الملك العادل نور الدين ذكر فيه كرامة بن بحتر المذكور وقال إنّه: «الأمير النجيب أمير الغرب كرامة من أطاعه فقد أطاعنا ومن عاونه في الجهاد فقد عمل برضانا وكان شكوراً منا، ومن خالفه فقد خالف أمرنا. وتاريخ هذا المنشور سنة ٥٥٢هـ (سنة ١١٥٧م). ثمّ أثبت منشوراً آخر من الملك العادل أيضاً موجهاً إلى كرامة المذكور، من مضمونه أنّ الأمير كرامة بن بحتر التنوخي لاذ بالخدمة وقصد الدولة العادلة فأجيب إلى ملتمسه وعيّن جهاته غالب قرى الغرب، ومن البقاع ظهر حمّار من وادي التيم تعلبانيا من البقاع، المعاصر التحتا والفوقا والدامور وشارون ومجد لبننا وكفرعمية. وتاريخ هذا المنشور ٧ رجب سنة ٥٥٦هـ سنة ١١٦١م.

وكان أبناء كرامة أربعة أصغرهم حجي فهادنهم صاحب بيروت الفرنجي وكان يحسن إليهم واستدعاهم يوماً إلى عرس في بيروت فحضر الثلاثة الكبار منهم فقتلهم غيلة وركب بعسكر إلى حصن سرحمور فنهبوه وهدموه وألقوا حجارتهم في الوادي وأحرقوا القرى المجاورة له وأسروا من تخلف عن الهرب، وهربت أم حجي بولدها الصغير الذي كان باقياً عندها، ثمّ حضر الملك الناصر بن أيوب لفتح بيروت سنة ٥٨٣هـ سنة ١١٨٨م فلاقاه حجي إلى قرية خلدة ولما فتح السلطان بيروت

قال لحجي ها قد أخذنا ثأرك من الفرنج وكتب له منشوراً ورد عليه ما كان لأبيه واخوته. وفي هذا المنشور ذكر سرحمور وعين كسور والدوير وطرديلا وعين درافيل وذكر المؤلف المذكور مناشير من السلاطين لحجي مؤرخة بعد سنة ست مائة للهجرة ولم يذكر في أية سنة توفي بل ذكر بعده ابنه محمد الملقب بنجم الدين وأثبت منشوراً له من الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد سلطان مصر والشام به يطيب خاطره ويأمره أن يتأهب للقاءه لأنه قادم عن قرب إلى البلاد. وتاريخ هذا المنشور ١٦ ذي الحجة دون ذكر السنة. وقال إن أولاده وأولاد أخيه شرف الدين علي قتلوا في ثغرة الجوزات بكسروان في ١٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٠هـ سنة ١٢٤٣م، ومن أولاد نجم الدين محمد المذكور جمال الدين حجي الثاني وذكر له منشوراً من الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز سلطان دمشق. وذكر جهاته عرامون وعين درافيل وطرديلا وعين كسور ورمطون وقدرتون ومرتعون والصباحية وسرحمور وعيتات وعين غنوب والدامور والدوير. وتاريخ هذا المنشور ٢٥ صفر سنة ٦٥٥هـ سنة ١٢٥٣م. وله منشور من الملك الظاهر بيبرس يذكر جهاته المذكورة ويزيد عليها شملان وبتار ويصور وكفر عميه وعيتات وتاريخه في رجب سنة ٦٥٩هـ سنة ١٢٦١م، ولما تولى التتر على الشام اجتمع جمال الدين بكتيغا نائب هولاء في الشام فكتب هولاء له منشوراً يثبته في إقطاعه. ومما كان في أيامه أن قطب الدين عيدي استقطع قرية كفر عميه من الأمراء التنوخيين فوجد مقتولاً في القرية، وأتهم بعض هؤلاء الأمراء بقتله وكان بعضهم معتقلين بمصر فوجهت العساكر إلى الغرب من بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت فأحرقوا بلادهم وكان ذلك سنة ١٢٧٨م، ثم أمتهم الملك السعيد. ذكر هذا البطريق الدويهي أيضاً في تاريخ السنة المذكورة. وقد ذكر المؤلف رسالة له ولأخيه زيد الدين من ملك الأمراء لاجين نائب الشام عن الملك المنصور قلاوون يأمرهما أن يتوجها مع سنقر المنصوري بجمعهما إلى جهة كسروان والجرد، وان من سبي امرأة منهم كانت له جارية، أو صبياً كان له مملوكاً، ومن أحضر منهم رأساً فله دينار. وتاريخ هذه الرسالة سنة ٦٨٦هـ (سنة ١٢٨٢م) وجمال الدين هذا هو أول من سكن اعبيه من هؤلاء الأمراء وكانوا قد سكنوا قبلاً عرامون المغرب وسرحمور وطرديلا وقد ولد جمال الدين سنة ٦٣٣هـ (سنة ١٢٣٦م) وتوفي سنة ٦٩٧هـ (سنة ١٢٩١م).

فهذا ما لحصناه عن الكتاب المذكور في تاريخ هؤلاء الأمراء إلى مبادئ القرن الرابع عشر وقد بقي أبناء جمال الدين المذكور وأبناء اخوته وأعمامه يتولون عمل

الغرب وما تبعه من اقطاعهم. وسنأتي على ذكر ما كان مهماً من تاريخهم بأوقاته ومن شاء زيادة تفصيل في أخبارهم فليطالع كتاب صالح بن يحيى المذكور في مجلة «المشرق».

عد ٨٩٩

أحداث أخرى في أيام الملك الناصر إلى حين وفاته

في سنة ٧١٢هـ (سنة ١٣١٣م) رخص السلطان الملك الناصر لرهبان الفرنج بأن يسكنوا في جبل صهيون بوساطة روبرتس ملك صقلية وفيها أوصل سيف الدين سودي نائب السلطنة بحلب نهر* الساجور إلى نهر قويق وأنفق عليه ثمان مئة ألف درهم تبرّع بالنصف من ماله والنصف الآخر من مال السلطنة. ذكر ذلك البطريق الدويهي في تاريخ هذه السنة.

وفي سنة ٧١٤هـ سنة ١٣١٤م توفي سيف الدين سودي نائب حلب المذكور فولى السلطان مكانه الأمير علاء الدين الطنغا الحاجب. وفي سنة ٧١٥هـ سنة ١٣١٥م بنى الأمير ناصر الدين حسين بن محمد التتوخي داراً جميلة في قرية اعبيه وزينها ببرج وحمام وجنينة جر الماء إليها. وفي هذه السنة سخط السلطان على سيف الدين نمر نائب طرابلس الذي وليها بعد أقوش الافرم وسبق معتقلاً إلى مصر وولى مكانه سيف الدين كستاي، ثم توفي فولى مكانه شهاب الدين قرطباي نقله إليها من نيابة حمص وولى نيابة حمص سيف الدين اقطاعي ثم قبض سنة ٧١٨هـ (سنة ١٣١٨م) على طغاي الحسامي من الجاشنكير وصرفه نائباً إلى صفد مكان بكتمر الحاجب ثم سخطه فأحضره معتقلاً وحبسه بالاسكندرية، وبعث على صفد سيف الدين اقطاعي نقله إليها من حمص وبعث على حمص بدر الدين بكتوت (عن ابن خلدون).

وفي سنة ٧١٦هـ سنة ١٣١٦م ظهرت سحابة في شرقي بعلبك وعظم الرعد والبرق والمطر وجرت المياه في الأودية بغزارة لم يعهد لها من نظير واجتمعت على السور حتى كادت تبلغ أعلاه فثلمت السور وأخذت برجاً برمته طوله خمسة عشر ذراعاً وعرضه كذلك فحملته كما كان وأخربت البيوت والحوانيت. وتوجه بدر الدين بن معبد من دمشق إلى بعلبك لرؤية الحاصل وكتب محضراً كان فيه عدد

البيوت التي أقلبها السيل ٨٩٥، وعدد الحوانيت ١٣١ وعدد الجوامع والمساجد والمدارس ٣، غير ما هلك من الناس والماشية. ذكر ذلك الدويهي سنة ١٣١٦م، وذكره أبو الفداء في تاريخ سنة ٧١٧هـ وفيها ثار أيضاً من جهة طرابلس ريح زعازع وهبّ عاصف من جهة البحر وتكون شبه تنين وهطلت الأمطار على بيوت التركمان فلم تترك شيئاً من البيوت أو سكّانها سوى ثلاثة عشر رجلاً هُشمتهم الحجار والأخشاب، وحملت الريح جملاً وألقتهم في البحر، ووقع برزء على هيئة أشطاف الحجارة. ذكر ذلك العلامة الدويهي في تاريخ السنة المذكورة وروى أبو الفداء أنّه في أواسط نيسان من السنة المذكورة ترادفت الأمطار وحصلت سيول عظيمة في بلاد حلب وحماه وحمص وغرق أهل ضيعة من بلاد حمص مما يلي جوسية. وفي هذه السنة أيضاً رد السلطان على أبي الفداء قسبة المعرة وكان أتبعها بطلب أبي الفداء إلى ولاية حلب بعد ولاية أبي الفداء، فردّ المعرة إلى ولايته في هذه السنة.

وفي سنة ٧١٧هـ سنة ١٣١٧م ظهر في جبال بلاطنس إنسان نصيري وادّعى أنّه محمّد ابن الحسن العسكري ثاني عشر الأئمة عند الأمامية الذي دخل السرداب فأتبعه من النصيرية جماعة كثيرة نحو ثلاثة آلاف نفر وهجم على مدينة جبلة ونهب أموال أهلها وسلبهم ما عليهم فجرد إليه عسكر من طرابلس ولما قابوه تفرّق جمعه وهرب واختفى في تلك الجبال فتبعوه وقتلوه وباد جمعه. روى ذلك أبو الفداء في تاريخ سنة ٧١٧هـ، ورواه البطريق الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٦م. وفي سنة ٧٢٠هـ سنة ١٣٢٠م أنعم السلطان على أبي الفداء بلقب سلطان فاستعظمه واستصغر نفسه عن أن يشارك السلطان بوصفه الشريف فندبه السلطان إلى ذلك، وأرسل إليه شعار السلطنة وأقام الأمراء بين يديه، ولما مثل أمام السلطان قبل الأرض مرّات وآتحفه السلطان بهدايا نفيسة وأمره بالعود إلى بلاده. وقد توفي أبو الفداء سنة ٧٣٢هـ سنة ١٣٣١م وهو السلطان الملك المؤيد اسماعيل ابن الملك الأفضل علي الأيوبي وولى السلطان الملك الناصر ابنه الملك الأفضل محمّد برغبة أبيه إلى السلطان في ذلك، ولما مات الملك الناصر سنة ٧٤١هـ سنة ١٣٤٠م وقام بالأمر بعده ابنه الملك المنصور أبو بكر محمّد عزل الأفضل عن حماة ونصب مكانه طغر دمّر فسار الملك إلى دمشق فمات بها سنة ٧٤٢هـ سنة ١٣٤١م وانقرضت إيالة بني أيوب من حماه (عن ابن خلدون).

وفي سنة ١٣٣٣ قدمت إلى بيروت مراكب الفرنج من جنوا وكان الوالي فيها عز الدين البيسري من قبل تنكز نائب السلطنة بدمشق ونزلوا إلى المدينة وقتلوا أهلها يومين ودخلوا برجها وأخذوا الأعلام السلطانية. ولما بلغ ذكر تنكز أمير الأمراء دعا أمراء الغرب الذين بعراون والتركان الذي بكسروان وبكتهم وأهانهم لتقصيرهم في المحافظة.

وفي سنة ١٣٣٩م وقعت نار في دمشق بشرقي الجامع الأموي فأحرقت سوق اللبادين والوراقين ثم وقعت مرة أخرى فأهلكت مالا وخلقا كثيرا فاتهم النصارى بذلك لأنه كان قد جرى على كنائسهم، فقبضوا على رؤساء النصارى وطوفوهم على الجمال وسفروا أربعة عشر شخصا منهم وأخذوا مالا جزيلا، ورسم تنكز نائب السلطنة أن لا يستخدم المسلمون النصارى في الدواوين، وبلغ ذلك مسامع السلطان فأرسل نائب السلطنة بصفد فقبض على تنكز واعتقله وأخذه إلى القاهرة ثم اعتقل في الاسكندرية وتوفي في السجن.

وأرسل السلطان علاء الدين طنبغا إلى دمشق نائبا بها فقبض على أولاد تنكز وعلق بعضهم على الخشب وضبط أموالهم وكانت وافة جدا وأرسلها إلى مصر (عن تاريخ البطريك أسطفانس الدويهي).

عد ٩٠٠

وفاة الملك الناصر وتعاقب أبنائه في الخلافة

قد توفي السلطان الملك الناصر في ذي الحجة آخر سنة ٧٤١هـ سنة ١٣٤٠م بعد أن جلس على منصبة السلطنة ثلاث مرات، واستمر في السلطنة الأخيرة من حين استبدد وصفا له الملك اثنتين وثلاثين سنة ولما اشتد المرض به أراد أن يعهد بالملك إلى قوصون أعظم أمرائه فامتنع فعهد لابنه أبي بكر ومات فمال يشتك أحد أمرائه العظام إلى تولية ابنه الآخر أحمد الذي كان أبوه قد ولاه الكرك، فأبى قوصون إلا الوفاء بعهد السلطان فانقاد يشتك إليه، فبويع أبو بكر بالخلافة ولقب الملك المنصور. وقام قوصون بأمر الدولة وقطلوبغا الفخري فولوا على نيابة السلطان طقر دمر وبعثوا على حلب طشتمر، وعلى حمص أخضر عوضا عن طغراي وأقروا كبيغا الصالحى على دمشق، ثم استوحش يشتك من استبداد قوصون وقطلوبغا دونه

وطلب نيابة دمشق فاعتذروا له، ولما جاء للوداع قبض عليه قطلوبغا الفخري وبعث به إلى الاسكندرية فاعتقل بها ثم أقبل السلطان أبو بكر على لذاته ونزع عن الملك وصار يمشي في سكك المدينة متنكراً مخالطاً السوق فنكر الأمراء ذلك وخلعه قوصون وقطلوبغا ولم يبق في السلطنة إلا سبعة وخمسين يوماً من بيعته (وعن البطريق الدويهي أنه ملك ثمانية أشهر) وبعثوا به إلى قوص فحبس بها.

وبعد خلع أبي بكر ولوا أخاه كجك ولقبوه الملك الأشرف وعزلوا طقردمر عن نيابة السلطنة، وقام قوصون بها وبعثوا طقردمر نائباً على حماه وعزلوا عنها الأفضل ابن الملك المؤيد اسماعيل أبي الفداء (وقد مرّ أنّ عزله كان في أيام أبي بكر والقولان لابن خلدون) وبعثوا بقتل يشتك في محبسه بالاسكندرية.

ولما بلغ إلى الأمراء بالشام الخبر باستبداد قوصون على الدولة غصوا من مكانه واعتزموا على البيعة لأحمد ابن الملك الناصر أخي أبي بكر وكجك وكان مقيماً بالكرك منذ ولاه أبوه إمارتها وكاتبه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وحثاه على الملك. وبلغ الخبر إلى مصر فخرج قطلوبغا الفخري في العساكر لحصار الكرك وكتبوا إلى طنبغا الصالحي نائب دمشق فسار في العساكر للقبض على طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وكان قطلوبغا قد استوحش من صاحبه قوصون وغصّ باستبداده عليه فلما سار بالجند من مصر بعث ببيعته إلى أحمد بن الملك الناصر بالكرك وسار إلى الشام يستدعي الناس إلى مبايعة أحمد المذكور ودعا إليه طقردمر نائب حماه فأجابه وقدم عليه وانتهى الخبر إلى طنبغا نائب دمشق وهو يحاصر حلب، فأفرج عنها ودعاه قطلوبغا إلى بيعة أحمد فأبى فانقضّ عليه أهل دمشق وسار إلى مصر فاستولى قطلوبغا على الشام أجمع بدعوة أحمد وبعث إلى الأمراء بمصر فأجابوه إليها، وهتجوا الشعب لخذل قوصون فنهبوا بيوته وخزبوا واقتحموا القلعة وقبضوا على قوصون وبعثوا به إلى الاسكندرية فمات في محبسه. وقدم السلطان أحمد من الكرك إلى مصر في رمضان سنة ٧٤٢هـ (سنة ١٣٤١م) ومعه طشتمر نائب حمص وأخضر نائب حلب وقطلوبغا الفخري فاستولى على عرش السلطنة ولقب الملك الناصر وولى طشتمر نيابة السلطنة بمصر وبعث قطلوبغا الفخري إلى دمشق وقبض على أخضر والي حلب وولى مكانه أيدغمش وبلغ الخبر إلى قطلوبغا الفخري قبل وصوله إلى دمشق فعدل إلى حلب، وقبض على أيدغمش وبعث به إلى مصر فاعتقله السلطان واعتقل معه طشتمر نائب السلطنة لرية فيه

فاستوحش الأمراء من السلطان وارتاب بهم فارتحل إلى الكرك بعد ثلاثة أشهر من بيعته وأخذ معه طشتمر وايدغمش معتقلين واستوحش بيبرس الأحمدي نائب صفد وسار إلى دمشق فلقاه العسكر ومالؤه، وبعث السلطان في القبض عليه فأبى أن يسلم. وقال إنما الطاعة لسلطان مصر لا لصاحب الكرك واضطرب الشام فبعث إليه الأمراء بمصر بالرجوع إلى دار ملكه فامتنع وقال هذه مملكتي أنزل من بلادها حيث شئت، وعمد إلى طشتمر وايدغمش فقتلها فاجتمع الأمراء بمصر وخلعوه وبايعوا لأخيه اسماعيل في محرم سنة ٧٤٣هـ (سنة ١٣٤٢م) ولقبوه بالملك الصالح. فولى الملك الصالح أفسنقر السلاري نيابة السلطنة وسرح العساكر سنة ٧٤٤هـ (سنة ١٣٤٣م) لحصار الكرك مترادفة للقبض على أخيه الملك الناصر أحمد ونزع عن الملك الناصر بعض العساكر ولحقوا بمصر، وكثر القتال بالكرك إلى أن اقتحمت عساكر الملك الصالح الملك الناصر وقتلوه سنة ٧٤٥هـ (سنة ١٣٤٤م) واستبد الملك الصالح بالملك، لكثرت ارتاب بكثير من الأمراء وتقبض على نائبه أفسنقر السلاري وبعث به إلى الإسكندرية فقتل هناك. وولى مكانه النجاح الملك، ثم توفي الملك الصالح حتف أنفه سنة ٧٤٦هـ (سنة ١٣٤٥م) واستمر بالملك ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

وبويع بعده بالخلافة أخوه زين الدين شعبان ولقب بالملك الكامل وجعل النيابة بمصر لأرغون العلاوي، وأرسل النجاح الملك ليكون نائباً بصفد ثم استردّه من طريقه وبعثه معتقلاً إلى دمشق، وتوفي بعد ذلك في محبسه. وأرهف السلطان الكامل حدّه في الاستبداد على أهل دولته فراراً ممّا يتوهم فيهم من الحجز عليه فتراسل الأمراء بمصر والشام وانتقض عليه طنبغا اليحياوي ومن معه بدمشق سنة ٧٤٧هـ (سنة ١٣٤٦م)، وبرز في العساكر يريد مصر وبعث السلطان منجو اليوسفي يستطلع أخبارهم فحبسه اليحياوي، فجرد الكامل العساكر إلى الشام واعتقل حاجي وحسين أخويه بالقلعة وثار الأمراء بمصر وركبوا إلى قبة النصر فركب السلطان إليهم في مواليه واقتتلوا فقتل أرغون العلاوي نائبه فرجع السلطان إلى القلعة منهزماً ودخل من باب السر متخفياً، وقصد محبس أخويه ليقتلها فحال الخدام دونهما وأغلقوا الأبواب ودخل الأمراء القلعة من بعده فأخرجوا حاجي أخا السلطان من معتقله فبايعوه، ولقبوه بالملك المظفر، واقتقدوا الكامل فوجدوه واعتقلوه مكان حاجي أخيه وقتل في اليوم الثاني في السنة المذكورة وكان ملكه سنة وشهراً وأياماً.

وأما الملك المظفر حاجي فعهد بالنيابة له بمصر إلى أرغون شاه والحجازي وولوا طقتمر الأحمدي النيابة بحلب، والصلاحي النيابة بحمص، وحبس المظفر جميع موالي الكامل أخيه ونزع إلى الاستبداد فقبض على الحجازي والناصري وقتلهما لأربعين يوماً من ولايته. وأرسل أرغون شاه نائبه إلى صفد للنيابة وجعل مكان طقتمر الأحمدي في حلب تدمير البدري، وأرهف في الاستبداد فاستوحش الأمراء بمصر والشام، وانتقض اليحياوي المذكور آنفاً بدمشق وأدخله نواب الشام في الخلاف. وبلغ الخبر إلى مصر فتواعد الأمراء بها للوثوب على المظفر ونمى الخبر إليه فاستدعاه من الغد إلى القصر وقبض على كل من اتهمه منهم بالخلاف، وهرب بعضهم فأدركوا واعتقلوا جميعاً فقتل بعضهم وبعث بعضهم إلى الشام فقتلوا في الطريق، وولى من الغد مكانهم خمسة عشر أميراً. ووصل الخبر إلى دمشق فلاذ اليحياوي بالمغالطة وقبض على جماعة من الأمراء وكان الملك المظفر قد أرسل أحد خاصته إلى دمشق يستطلع الأخبار فحمل الناس على طاعة المظفر وأغراهم بقتل اليحياوي، فقتلوه وبعثوا برأسه إلى مصر وسكنت الفتنة. واستوسق الملك للمظفر ثم تجددت الثورة وخرج الأمراء إلى قبة النصر فركب المظفر في مواليه إليهم وبعض الأمراء الذين معه يرون ما يراه خصومه من خلعه ولما تورط في الزحف إليهم أسلمه من كان معه إلى بيقاروس أحد الأمراء المخالفين له فقتله على تربة أمه في خارج القلعة ودفن هناك في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨هـ (سنة ١٣٤٧م) بعد أن ملك سنة وثلاثة أشهر.

وبعد مقتل المظفر أقام الأمراء عاتمة يومهم يتشاورون في من يولونه وأجمعوا على مبايعة حسن ابن الملك الناصر أيضاً ولقبوه الناصر بلقب أبيه، وقام ستة من الأمراء بأمر الدولة وكان المستبد عليهم جميعاً بيقاروس القاسمي قاتل الملك المظفر، فقتل الحجازي وأقسنقر اللذين كانا قائمين بدولة المظفر أخيه، وقبض على رفيقه أحمد شادي من أولئك الأمراء الستة وغربه إلى صفد، وأبعد الجبقا منهم أيضاً إلى طرابلس ليكون نائباً بها وبعث أرغون الاسماعيلي منهم ليكون نائباً بحلب، أما الجبقا المذكور فسار صحبة اياس الحاجب إلى طرابلس، ولما انتهيا إلى دمشق بلغ الجبقا أن أرغون شاه نائب دمشق تعرض لبعض حرمه فطرقة في بيته ليلاً فذبحه، وصنع مرسوماً سلطانياً دافع به الناس والأمراء عن نفسه واستصفى أمواله ولحق بطرابلس، ولما عرض الأمر للسلطان أنكر المرسوم وأمر باتباعه فزحفت

العساكر إلى الجبكا بطرابلس فقبضوا عليه وعلى اياس الحاجب وجاءوا بهما إلى مصر فقتلا.

ثم شرع السلطان حسن الناصر بالاستبداد على عادة إخوته وقبض على منجك اليوسفي أستاذ داره وعلى السلحدار واعتقلهما من غير مشورة بيقاروس وأصحابه، فارتاب بيقاروس واستأذن السلطان في الحج هو وطاز فأذن لهما، ودس إلى طاز أن يقبض على بيقاروس^١ ولما نزلا بالينبع قبض طاز على بيقاروس ورغب إليه في أن يتركه يحج مقيداً فتركه، ولما رجعا من الحج حبسه طاز بالكرك بأمر السلطان ثم أفرج عنه وولاه نيابة حلب كما سيأتي. ولما بلغ خبر اعتقاله إلى أحمد شادي نائب صفد انتقض على السلطان فجهز السلطان إليه العساكر فقبضوا عليه وجاءوا به إلى مصر فاعتقل بالاسكندرية. واستوحش أهل دولة الناصر منه لقبضه على بيقاروس وحبسه ورفع عليهم مغلطاي أحد الأمراء فتفاوضوا في خلعه، وداخل طاز المذكور وهو كبيرهم جماعة من الأمراء في الثورة فأجابوه إليها فركبوا ودخلوا القلعة من غير ممانع فقبض طاز على الناصر واعتقله وأخرج أخاه حسينا من اعتقاله، فبايعه ولقبه الملك الصالح وكان ذلك سنة ٧٥٢هـ (سنة ١٣٥١م) بعد أن أقام بالملك ثلاث سنين ونحو عشرة أشهر.

وقام طاز بحمل دولة ملكه الصالح وأبعد يبقوا الشمسي إلى دمشق وبقرا إلى حلب أسيرين، وانفرد بالأمر فنافسه أمراء الدولة واجتمعوا على الثورة، وكان كبارهم مغلطاي ومنكلي وبيقا العمري وركبوا في من اجتمع إليهم إلى قبة النصر للحرب فركب طاز وسلطانه الصالح في جموعه ففض جمعهم وأثنى فيهم وقبض على مغلطاي ومنكلي وحبسهما بالإسكندرية وقبض على الشمسي المحمدي نائب دمشق ونقل إليها لمكانه أرغون الكامل من حلب، وأفرج عن بيقاروس بالكرك وبعثه مكانه إلى حلب.

فتذكر بيقاروس قبض طاز عليه وأدركته المنافسة والغيرة من استبداده بالدولة فحدثه نفسه بالخلاف، وكاشف نواب الشام فوافقه في ذلك بلكمش نائب طرابلس وأحمد شادي نائب صفد وخالفه أرغون الكامل نائب دمشق وتمشك بالطاعة ودعا بيقاروس العرب والتركمان فأجابه جبار بن مهنا من العرب وقراجا بن العادل من التركمان في جموعهما وبرز بيقاروس من حلب قاصداً دمشق فأجفل

عنها أرغون نائبها إلى غزة، ووصل بيقاروس فملكها وامتنعت القلعة فحاصرها وكثر العيث من عساكره في القرى فسار السلطان وأمراء الدولة من مصر في العساكر وبلغ بيقاروس خروج السلطان فأجفل عن دمشق، وثار العوام بالتركان فأئخذوا فيهم ووصل السلطان إلى دمشق ونزل بالقلعة وجهاز العساكر في اتباع بيقاروس فجاءوا بجماعة من الأمراء الذين كانوا معه، فقتل السلطان بعضهم وحبس الباقين وولى على دمشق الأمير علياً المارداني، ونقل منها أرغون الكامل إلى حلب وسرح العساكر في طلب بيقاروس مع مغلطاي الدودارا فقبض على بيقاروس وأحمد وقطلمش من أمرائه وقتلهم وأرسل رؤوسهم إلى السلطان وكان ذلك في سنة ٧٥٣هـ وسنة ٧٥٤هـ (سنة ١٣٥٢ سنة ١٣٥٣م).

وكان شيخو أتابك العساكر قد ارتاب بصاحبه طاز فداخل الأمراء بالثورة وترتب إلى أن خرج طاز إلى البحيرة متصيداً، فركب شيخو إلى القلعة فخلع الملك الصالح وقبض عليه وألزمه بيته، وبايع لحسن الناصر أخيه وأعاده إلى كرسيه بعد أن كان معتقلاً كما مرّ. وكان ذلك سنة ٧٥٥هـ (سنة ١٣٥٤م) فدامت ولاية الصالح ثلاث سنين.

وبعد أن أجلس شيخو الناصر على كرسيه قبض على طاز وبعثه إلى حلب نائباً وعزل أرغون الكامل فأتى إلى دمشق ثم قبض عليه سنة ٨٥٦هـ (سنة ١٣٥٥م) وسبق إلى الاسكندرية فحبس بها وتوفي الشمسي الأحمدي نائب طرابلس فولي مكانه منجك واستبدّ شيخو بالدولة وتصرف بالأمر والنهي واعتمده الملوك من النواحي شرقاً وغرباً بالمخاطبات، وكان سرغتمش رديفه بالولاية إلى أن وثب يوماً بعض الموالي سنة ٧٥٨هـ (سنة ١٣٥٧م) على شيخو بمجلس السلطان وضربه بالسيف ثلاثاً أصاب بها وجهه ورأسه وذراعيه فحمل إلى منزله وأمر السلطان بقتل المملوك الذي ضربه ثم مات شيخو وهو أول من سمي بالأمير الكبير بمصر واستقلّ سرغتمش رديفه بتدبير مهام المملكة وقبض على طاز بحلب وحبسه بالاسكندرية وولى مكانه الأمير علياً المارداني نقله من دمشق وولى مكانه بدمشق منجك اليوسفي ثم قبض على سرغتمش سنة ٧٥٩هـ (سنة ١٣٥٨م) وعلى جماعة من الأمراء وحبسهم بالاسكندرية ثم قتلهم واستبدّ السلطان بملكه.

وجعل السلطان مملوكه يبيقا (كذا سماه ابن خلدون وسماه غيره يلبغا) أمير

ألف وأقام في الحجابة الجاي اليوسفي، ثم بعثه إلى دمشق نائباً واستقدم منجك نائب دمشق فاستتر واختفى وكان هذا السلطان يأنس بالعلماء والقضاة ويجمعهم في داره مبتدلاً ويفاوضهم في مسائل العلم ويصلهم ويحسن إليهم إلى أن ثار عليه بيبقا الذي أكثر من إحسانه إليه وهو في خيامه خارجاً عن داره فانهزم السلطان منه ليلاً وتسرب في المدينة واختفى وركب الأمراء المدافعة بيبقا فالتقاهم ببولاق وهزمهم مرات وتقبض على السلطان، وكان آخر العهد به وانتهى به ملك أبناء السلطان الناصر الثمانية سنة ٧٦٢هـ (سنة ١٣٦٠م). انتهى ملخصاً عن ابن خلدون في الجزء ٥، وعن تاريخ الدول لعبد الحارث الشريف الشافعي نقلاً عما رواه المطران أسطفان عواد السمعاني عن كتابه فهرست المكتبة الماديشية.

عد ٩٠١

بعض أحداث غير ما ذكر في أيام هؤلاء الملوك

روى البطريق أسطفانوس الدويهي عن ابن سباط أنه في سنة ١٣٤٥م أجفل الناس في السواحل لأنه بلغهم أن ملك قبرص سيحمل على بيروت وما جاورها فأرسل يلبغا نائب السلطنة بدمشق ييدير الخوارزمي وأمر ببناء شوان ومراكب وأن أمراء الغرب وتركمان كسروان يسكنون في بيروت مع العساكر الشامية ويحتاطون ليلاً ونهاراً لئلا يباغتهم العدو.

وفي سنة ١٣٤٨ كان طاعون شديد الوطأة عم البلاد الحلبية والشامية ولم يعهد ببلاد الشام مثله، حتى روى صلاح الدين الصفدي أنهم صلّوا أحياناً بدمشق على ميتين وثلاث وستين جنازة، وانقرض سكان بعض الضياع وكانت شدة وطأة الطاعون من غلاء ثمن المؤن، ولكثرة عدد الموتى رخصت الأسعار وثار أرياح شديدة وهطلت أمطار غزيرة فاستبشر الناس بزوال الوباء لكنه لم يزل بل ازداد حتى صلي بدمشق على مئة وثلاثين ميت في يوم واحد.

وروى الدويهي عن ابن سباط أيضاً أنه في سنة ١٣٥٥م قصدت مراكب بعض الفرنج صيدا وقتلوا جماعة من أهلها وأسروا جماعة وقتل أيضاً خلق كثير من الفرنج وكسر مركب من مراكبهم، ووصل الصراخ إلى دمشق، فاجتمعت العساكر

من دمشق وصفد وبادروا إلى افكاك الأسرى، وأخذوا من ديوان الأسرى مبلغ ثلاثين ألف درهم وأعطوا الفرنج على كل رأس خمس مئة درهم.

وقد روى صالح بن يحيى هذا الخبر في كتابه تاريخ بيروت الذي نشرته مجلة «المشرق» بأكثر تفصيل. فقال جاز على بيروت تعميرة (يريد عمارة أو أسطول) للفرنج ولم يتعرضوا لها بل توجهوا إلى صيدا وأخذوها وقتلوا من أهلها جماعة وأسروا جماعة ونهبوا منها شيئاً كثيراً، وكذلك المسلمون فأنهم قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم إلى دمشق فعلقوها على القلعة وكانت بعضاً وثلاثين رأساً. وحضر إلى صيدا الأمير شهاب الدين بن صبح نائب صفد وسبق العسكر الثامن ولحق التعميرة على جزيرة صيدا بعد فوات الأمر فاشتري الأسرى جميعهم كل نفر بخمس مئة درهم وأخذ من ديوان الأسرى ثلاثين ألف درهم.

عد ٩٠٢

الملك المنصور والملك الأشرف وما كان في أيامهما

بعد وفاة الملك الناصر نصب بيقا نائب السلطنة المذكور محمد ابن المظفر ولقبه الملك المنصور، وقام بكفالاته وتدير دولته وجعل طنبغا الطويل رديفه، وأفرج عن طاز الذي كان معتقلاً كما مرّ لكنّه كان قد عمي فبعثه إلى القدس بسؤاله ثمّ إلى دمشق ومات فيها، وولى عرب الشام جبار بن مهنا وأمسك جماعة من الأمراء وحبسهم.

ولما اتّصل بالشام ما فعله بيقا وأنه استبدّ بالدولة وكان أستدمر نائباً بدمشق امتعض لذلك وعول على الإنتفاض وواقفه عليه بعض أصحابه، فاستولى على قلعة دمشق وخبر بيقا بذلك فسار في العساكر من مصر ومعه السلطان المنصور ووصلا إلى دمشق، فاعتصم المخالفون بالقلعة وتردّدت بينهم القضاة بالشام حتى نزلوا من القلعة على الأمان بعد أن حلف لهم بيقا، فلما نزلوا بعث بهم إلى الإسكندرية فحبسوا بها وولى الأمير المارداني نائباً بدمشق وقطلوبغا الأحمدي نائباً بحلب وعاد السلطان وبيقا إلى مصر.

وبدا لبيقا استرابة في الملك المنصور فخلعه سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م)

ونصب مكانه شعبان ابن الناصر حسن وكان عمره عشر سنين ولقبه الملك الأشرف وتولّى كفالته. وفي سنة ٧٦٥هـ (سنة ١٣٦٣م) عزل المارداني من دمشق وولى مكانه منكلي بغا نقله من حلب إلى دمشق وولى مكانه بحلب قطلوبغا الأحمدي، فتوفي قطلوبغا المذكور فولى مكانه غشقتمر المارداني ثم عزله سنة ٧٦٦هـ (سنة ١٣٦٤م) وولى مكانه سيف الدين فرجي.

وفي سنة ٧٦٧هـ (سنة ١٣٦٥م) قصد ملك قبرص الاسكندرية في أسطول عظيم يقال بلغ سبعين مركباً مشحونة بالعدّة والعدد وأنزل عسكره إلى البر وزحفوا إلى المدينة وحاميتها قليلة حينئذٍ وأسوارها خالية من الرماة ونائبها غائب ووصل الفرنج إلى الباب فأحرقوه واقتحموا المدينة، فاضطرب أهلها وماج بعضهم في بعض وأجفلوا إلى جهة البر بما أمكنهم من عيالهم وولدهم وما اقتدروا عليه من أموالهم. وشعر بهم الأعراب أهل الضاحية فاختطفوا الكثير منهم وتوغّل الفرنج في المدينة فهبوها وملأوا سفنهم من المال والمتاع والبضائع وسبوا وأسروا كثيرين، وكثر إليهم الصراخ من العرب وغيرهم فانكفأوا إلى أساطيلهم وأقلعوا من الغد. وطار الخبر إلى كافل الدولة بيقا فخرج لوقته بسلطانه وعساكره ومعهم ابن عوام نائب الاسكندرية فبلغهم الخبر في طريقهم باقلاع العدو فلم يثنهم ذلك عن المسير إلى الإسكندرية. وشاهد بيقا ما وقع بها من معرة الخراب وآثار الفساد وقد امتلأت جوانحه غيظاً وحنقاً على أهل قبرص، فأمر بإنشاء مئة مركب واعتزم على غزو قبرص بعساكر المسلمين، واحتفل في الاستعداد لذلك واستكثر من السلاح وآلات الحصار، فكمل ذلك فلم يقدر على إتمام غرضه من الجهاد لما وقع من العوائق كما سيجيء. هذا ملخص ما رواه ابن خلدون.

وجاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى أنّ إنشاء هذه المراكب كان في بيروت وإليك ما جاء في هذا الكتاب: «وفي يوم الجمعة ١٣ من محرم سنة ٧٦٧هـ (سنة ١٣٦٥م) أخذت الإسكندرية وكان الأمير الكبير يلبغا (هو الذي يسميه ابن خلدون بيقا) العمري المتكلم عن السلطان لحدائث سنه، فرسم للأمير ييدير الخوارزمي بالتوجه إلى بيروت ليعمر من غاباتها مراكب كثيرة حمالات وشواني للدخول إلى قبرص، فحضر إلى بيروت وأحضر صناعات كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمعاً غفيراً. وقيل إنّه لم يعهد قط عمار مثلها عظماً وسرعة وكثرة صناعات وقوة عزم، وعمر ييدير بظاهر بيروت مسطبة وعرفت به إلى الآن، وكانت

المراكب تعمل بها على بعد من البحر وحضر عسكر الشام متجرداً فنازلوه بين البحر والمراكب حذراً من أن مراكب قبرص تحضر على حين غفلة فيحرقوا ما يعمل من المراكب. وكان نائب الشام في ذلك الوقت اقستمر عبد الغني، ولما توفي يلبغا العمري في ليلة الأحد ١٠ من ربيع الآخر سنة ٧٦٨ هـ (سنة ١٣٦٦ م) أبطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب إلى البحر سوى حاملتين كبيرتين... وكان الأمير يدمر قد استعجل القوم على عمارتها ليجهزها فتحضروا صواري ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمرونها، ثم بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا، وكذلك تلفت باقي الشواني التي لم تنزل في البحر، وكان قد صرف عليها مالاً جزيلاً فذهب سدئ لم يستفد منها سوى الحديد بعد أخذ الناس منه شيئاً كثيراً.

وهذا ما قاله المؤرخون الفرنج في هذه الأحداث. روى ميشود في تاريخ الصليبيين (عدد ٥ صفحة ٢٥٣) إن بطرس لوسينيان ملك قبرص سار إلى المغرب يستصرخ النصارى لاسترداد الأرض المقدسة فلبى دعوته بعض المتبطلين المتعطلين وساعدته جمهورية البندقية لما ترجوه من رواج تجارتها في المشرق، وعاونه بعض فرسان رودس. وبعد عوده إلى قبرص سار منها في عسكر يبلغ عشرة آلاف رجل إلى الإسكندرية وكانت حاميتها قليلة فاستولوا عليها ورغب ملك قبرص في أن يحصنها ويعتصم بها منتظراً وفود عسكر مصر ليقاتله أما جنوده وأعوانه فأتروا أن ينهبوا هذه المدينة الثرية فنهبوا، وخافوا أن يهاجمهم بها عسكر مصر فأحرقوها وارتحلوا عنها في اليوم الرابع بعد استيلائهم عليها فحقن المسلمون من ذلك شديد الحق وأذاقوا النصارى بمصر مر العذاب والاضطهاد. أما الفرنج المذكورون فاحتلوا بعد مدة سواحل سورية فاستحوزوا على طرابلس التي كانت قد جددت بعد خرابها وأحرقوها وكذلك صنعوا بطرطوس واللاذقية وغيرهما من مدن فينيقية فلم يكن نفع من هذه الحملة سوى إثارة حنق المسلمين على النصارى.

ولما كان الملك الأشرف يخشى غير الفرنج من الأعداء لم تكن له مراكب تعادل مراكبهم فهاذهم على الشروط الآتية أولها أن يخلي سبيل الأسرى من الفريقين، والثاني أن يكون لملك قبرص نصف الدخل من المكوس المضروبة على ما يدخل إلى صور وبيروت وأورشليم والإسكندرية ودمشق، والثالث أن يباح للنصارى الفرنج الحج إلى أورشليم وجرى الاتفاق على ضريبة يؤديها الزائرون، ورد السلطان على فرسان القديس يوحنا الدار التي كانت لهم في أورشليم ورخص للنصارى أن

يجددوا بناء كنيسة القبر المقدس وكنيسة بيت لحم وكنيسة الناصرة وغيرها، على أن ملك قبرص والفرنج لم يمتنعوا زماناً طويلاً بما وافقهم سلطان مصر وسورية عليه لأنه بعد أن تفرق جنود هذه الحملة أخلف وعده ولم يشأ أن يعمل بشيء مما جرى الإتفاق عليه.

وفي سنة ٧٦٨هـ (سنة ١٣٦٦م) كان استبداد بيبقا على السلطان قد طال وثقلت وطأته على الأمراء وأهل الدولة وخصوصاً على ممالكه وأرهف حدّه في التأديب لهم حتى بجدع الأنوف واصطلام الآذان وكان كبير خواصه أستدمر وأوقع في بعض الأيام مثل هذه العقوبة بأخي أستدمر فاستوحش له وداخل سائر الأمراء في الثورة على بيبقا وكاشفوا السلطان في ذلك، فسرّح بيبقا إلى البحيرة وأخذ الأمراء يتشاورون في نكبته، فمى الخبر إليه فعاد إلى القاهرة وجمع من كان بها من الأمراء والحجّاب فخلع الأشرف ونصب أخاه توك ولقبه الملك المنصور واستعدّ للحرب. وكان السلطان غائباً عن دار ملكه وأراد العود إليها فالتقاء بيبقا وأصحابه يرشقونه ومن معه بالسهم ويرسلون عليهم الحجارة من المجانيق فاجتمعت العساكر على السلطان وهاجموا الخونة فانتفض أصحاب بيبقا عنه وتركوه أوحش من وقد في قلاع، فولى منهزماً إلى بيته فاستحضره السلطان وحبسه بالقلعة ثم ضربه بعضهم وهو مقبل للتضرّع فقطع رأسه. وقام بالدولة أستدمر الناصري ورديفه بيبقا الأحمدي وغيرهما من الأمراء وأبدوا الاستهتار بالسلطان والرعية ونادوا بخلع السلطان فركب في ممالكه وبعض الجند والعامة فهزم هؤلاء المنتفضين وجيء بأستدمر أسيراً وشفع به الأمراء فأطلقه السلطان باقياً على أتابكته ثم استأنفوا الانتفاض فركب إليهم السلطان والأمراء فهزمهم وقتل كثيرين منهم وأرسل بعضهم إلى الحبس بالاسكندرية، واستبدّ السلطان بأمره واستدعى سنكلي بغا من حلب وجعله أتابكاً واستأثى الأمير علي المارداني من دمشق وولاه النيابة وكان ذلك سنة ٧٦٩هـ (سنة ١٣٦٧م).

وفي سنة ٧٧٤هـ (سنة ١٣٧٢م) توفي سنكلي بغا الأتابك وكان الجائي اليوسفي أمير سلاح عند السلطان فجعله أتابكاً أيضاً فأسخط السلطان وغمط نعمته وانتفض فلاطفه السلطان فبطر، فأرسل إليه ممالكه وأذنهم بقتاله فقاتلوه وانهزم أمامهم حتّى غرق في البحر. واستدعى السلطان أيدير القري وكان نائباً بطرابلس فولاه أتابكاً مكان الجائي المذكور، ورفع رتبته، وولى في نيابة السلطنة منجك

اليوسفي نائب السلطنة الأشرف في دولته على أكمل حالات الاستبداد، واذعان الناس لطاعته وأراد قضاء فرض الحج فخرج إليه سنة ٧٧٨ (سنة ١٣٧٦م) وانتهوا إلى عقبة أيله فانتقض عليه بعض مماليك ببيقا الذين كان قد ردهم إلى خدمة الدولة وجاهرُوا بالخلاف، فركب السلطان في خاصّته يظنّ أنّهم يراعون أو يجنح إليه بعضهم فأبوا إلّا قتاله ولما عاينوه نضحوا موكبه بالنيل فرجع إلى خيامه منهزماً وركب البحر في لقيف من خواصّه قاصداً العود إلى القاهرة وكان عند سفره عنها استخلف ابنه علياً ولي العهد وأوصى نائبه أكتمر عبد النبي بالانتهاء إلى مراسيمه وترك جماعة من الأمراء والمماليك في وظائفهم وكان منهم قرطاي الطازي كفيل ولي العهد وأليك البدري، فسولت لقرطاي نفسه الانتقاض، وداخل بعض الأمراء به وحضر بجم غفير إلى القلعة فحمل الأمير علي ابن الأشرف وولى عهده وباعه واستدعى الأمراء القائمين بالقاهرة فباعوه وأخذ هو كفالة السلطان وجعل أليك المذكور رديفاً له.

وأما السلطان فعرف في طريقه بواقعة القاهرة وما فعله قرطاي فأشار بعضهم عليه بقصد الشام وآخرون بالوصول إلى القاهرة فساروا إليها وانتهوا إلى قبة النصر ليلاً وغشيهـم النعاس، فناموا وانفرد السلطان عنهم واختفى، وعرف بهم أهل الثورة فوثبوا عليهم وقتلوهـم، وجاءت امرأة إلى أليك فدلّته على السلطان في بيت جارتها فاستخرجوه من ذلك البيت ودفعوه إلى أليك فامتحنه حتى دلّهم على الخزينة وقتلوه خنقاً سنة ١٣٧٦. وكان يبيع سنة ١٣٦٢ فتكون مدّة ملكه أربع عشر سن (انتهى ملخصاً عن ابن خلدون وغيره).

عد ٩٠٣

المنصور بن الأشرف وأخوه الصالح وما كان في أيّامهما

فبعد مبايعة الأمير علي ابن السلطان الأشرف والده لقّبوه بالملك المنصور وقام بالدولة قرطاي الطازي وقسم الوظائف كما شاء وكان أليك البدري الغزي المذكور رديفاً لقرطاي في حمل الدولة من أوّل ثورتهم وكان يعرف من قرطاي عكوفه على لذاته فعمل قرطاي ضيافة في بيته سنة ٧٧٩هـ (سنة ١٣٧٧م) وجمع إليها ندماءه فأهدى إليه أليك نبذاً اذيب فيه بعض المرقدات فباتوا يتعاطونه حتى غلبهم

السكر ولم يفيقوا فركب أيك من ليلته وأركب السلطان المنصور معه واختار الأمر لنفسه، واجتمع الناس عليه وفاق قرطاي، ورأى اجتماع الناس على أيك فأرسل إليه يستأمنه فأمنه أيك ثم قبض عليه فسّره إلى صفد واستبّد بالدولة.

ثم انتقض طشتمر بالشام ووافقه على الانتقاض كثيرون من الأمراء فنأى أيك في الناس بالمسير إلى الشام فتجهزوا، وسرح مقدّمهم مع ابنه أحمد وأخيه قطلوفجا ثم خرج هو بالساقة مع السلطان والأمراء والعساكر فثار الأمراء الذين كانوا في المقدمة مع أخيه فرجع إليه منهزماً. فاجفل أيك راجعاً إلى القلعة ومعه السلطان والعساكر فخرج إليه ساعة وصوله جماعة من الأمراء فسرح إليهم العساكر مع أخيه فأوقعوا به وقبضوا عليه، فسرح أيك إليهم من بقي معه من الأمراء، ولما تواروا عنه فرّ هارباً متخفياً ثم ظهر من الاختفاء، وجاء إلى بلاط أحد الأمراء فبعثوا به إلى الاسكندرية فحبس بها. وأقام الأمراء ببيقا الناطري مكانه لكنهم لم يمشوا له الطاعة وبقي أمرهم مضطرباً وآراؤهم مختلفة، فاستدعوا طشتمر من الشام ووضعوا زمام الدولة في يده، فصار إليه التولية والعزل والحل والعقد، ثم انتقضوا عليه واستدعوه إلى القلعة فقبضوا عليه وعلى جماعة من أصحابه وبعثوا بهم إلى الاسكندرية. وقام بالدولة من بعده الأميران برقوق وبركة ثم وقع الخلاف بينهما وتغلّب برقوق على بركة وبعثه إلى الاسكندرية فحبس بها، ثم قتل واستبّد برقوق بالأمر أما السلطان علي بن الأشرف فكانوا قد أجلسوه على سرير السلطنة وعمره اثنتا عشرة سنة وكان نواب السلطنة يتداولون الأمر من دولة إلى دولة كما رأيت إلى أن توفي السلطان في صفر سنة ٧٨٣هـ (سنة ١٣٨١م) بعد خمس سنين من ولايته.

لما توفي الملك المنصور استدعى برقوق نائب السلطنة الأمراء واتفقوا على نصب أخيه الأمير حاج ولقبوه الملك الصالح وقلّده الخليفة على العادة، وجعل برقوق كافله في الولاية لصغره عن القيام بهذه العهدة، وأفتى العلماء بذلك وجعلوه من مضمون البيعة. فولى برقوق كثيرين من الأمراء أصحاب بيقا الذين كانوا أنصاره لأنّه منهم فطمعوا في الاستبداد وظفروا بلذّة الملك والسلطان ووقعوا في ظل الدولة والأمان، وسمت أحوالهم إلى أن يستقل أميرهم بالدولة ويستبّد بها. وأنس برقوق الرعية بحسن سياسته وجميل سيرته فامتعض جماعة من الأمراء المختصّين بالسلطان وتفاوضوا في الغدر به ونما الخبر إلى برقوق بذلك فقبض عليهم وغرب بعضهم إلى دمشق وبعضهم إلى قوص فاعتقلوا بها حتّى أنفذ الله فيهم حكمه. وتفاوض غيرهم

من الأمراء في قيام برقوق بأمرهم مستقلاً، فجمعهم لذلك في ١٩ رمضان سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) فحضر الخاصة والعامة من الجند والقضاة والعلماء وأرباب الشورى والفتيا وأجمعوا على بيعه برقوق وعزل السلطان الصالح. وبعث برقوق أميرين من الأمراء فأدخلوا السلطان بيته وتناولوا السيف من يده وأحضره إلى برقوق، فلبس شعار السلطنة وخلعة الخلافة ودخل إلى القصور السلطانية، وجلس على التخت وأتاه الناس ببيعتهم ولقب الملك الظاهر وقرعت الطبول وانتشرت البشائر وخلع على أمراء الدولة وانتظمت الدولة وسرّ الناس بدخولهم في إيالة هذا السلطان (انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون).

فكان الملك الصالح آخر ملوك دولة المماليك البحرية وأصلهم من الأتراك خدموا الملوك الأيوبيين ثم خلفوهم في الملك ويسمون المماليك البحرية نسبة إلى البحر ويريدون به النيل، أو لأنهم أتوا من البحر. ويسمون أيضاً المماليك البرجية نسبة إلى أبراج كانوا يسكنونها وابتدأ ملكهم بسورية ومصر معاً سنة ١٢٥٥ بالمملك المقرأيك الذي قتل الملك الأشرف الأيوبي وابتداء ملكهم بسورية ومصر معاً سنة ١٢٦٢ بالمملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي قتل قطز ملك مصر من هؤلاء المماليك واستبدّ بالمملك بمصر وسورية معاً كما رأيت. وقد انقرضت دولتهم سنة ١٣٨٢ بخلع الملك الصالح وتمليك برقوق الذي كان أوّل الملوك من المماليك الجراكسة الذين تولّوا مصر وسورية فتكون مدّة الملوك من المماليك البحرية مذ تولّوا مصر سنة ١٢٥٥م إلى انقراض دولتهم سنة ١٣٨٢ مئة وسبعاً وعشرين سنة شمسية وعدّة ملوكهم خمسة وعشرون ملكاً.

عد ٩٠٤

دولة المماليك الجراكسة وأوّلهم الملك الظاهر برقوق

إنّ أصل هؤلاء المماليك من الجركس وهم قبيلة مواطنها في نواحي قوه قاف وهم من الترك، ويقال إنّ جبلة بن الايهم الغساني لما ارتحل في صدر الإسلام إلى ملك الروم مع جماعة من قومه خالطوا الجركس بالنسب والصهر واندرجوا فيهم، أمّا برقوق فهو مملوك منهم ملكه بيقا المذكور لما كان ضابطاً زمام الملك وربي في أطباق بيته وتعلّم آداب الملك وأتقن الرماية والثقافة، ولما نكب ممالك بيقا سجن

برقوق في الكرك خمس سنين مع بعض أصحابه ولما خلي سبيلهم انطلقوا إلى الشام واستخلصهم الأمير منجك نائب الشام يومئذ وألقى محبته وعنايته على الأمير برقوق لما رأى عليه من علامات القبول والسعادة، ثم استدعاه الملك الأشرف واستضافه لولده الأمير علي. ولما ثار الجائي على السلطان الأشرف دفعه برقوق وأصحابه حتى غرقوه فاخصّ الأشرف برقوق وبركة من أصحابه بإحسانه ورفع مكانتهما إلى أن ألقى الأمراء زمام الملك إليهما، ثم استبدّ برقوق وحده بالملك وخلع الملك الصالح وجلس على تخته كما مرّ بك فكان برقوق أول الملوك من دولة المماليك الجراكسة.

ومن أعماله حبسه بيقا الناصري الذي قدّمنا أنّه كان كافلاً الدولة بعد أبيك ثم استبدلوه بطشتمر نائب السلطان بالشام وولوه على حلب، فهذا كان من عشاء برقوق ورفقائه في تقلّب الأحوال عليه وكان له من الدالة عليه يتوقف عن إنفاذ أوامره ويعدل عنه إلى ما يراه للمصلحة والسلطان ينكر عليه ذلك ويحقّده عليه ثم خرج بيقا من حلب بالعساكر إلى التركمان آخر سنة ٧٨٥هـ (سنة ١٣٨٣م) دون إذن السلطان فانهزم وأحقّد السلطان عليه هذه أيضاً. فاستقدمه سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) وقبض عليه وأرسله إلى الحبس بالاسكندرية وولى مكانه بحلب الحاجب سودون المظفر، وكذلك أبعد السلطان الطنبغا الجوباني إلى الكرك ثم ولاه على الشام وكان الطنبغا هذا من أنصار السلطان وكان معتقلاً معه بالكرك أيام النحوسة ثم نصبه أيام السعادة أمير مجلسه أي صاحب الشورى بالدولة وهو ثاني الأتابك، ثم دبت عقارب الحسد بينهما وارتاب السلطان به فقبض عليه وأودعه إحدى حجر القصر يوماً ثم أقصاه إلى الكرك وتنازعت عواطف الرحمة والوفاء فجعله نائباً بالكرك. وكان بندمر (ويروى يدمر بالياء مكان النون) الخوارزمي نائباً بدمشق فسخط السلطان عليه وولى الطنبغا مكانه سنة ٧٨٧هـ (سنة ١٣٨٥م) وكان للطنبغا ممالك أوغاد قد أبطرتهم النعمة واستهواهم الجاه وشرهوا إلى الاضرار بالناس وهو يزجرهم فكادوا عليه حتى قبض السلطان عليه وأرسله إلى الاسكندرية فسجن بها سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) وولى مكانه بدمشق طرنطاي الحاجب.

وروى صالح بن يحيى في تاريخ بيروت ما ملخصه أنّه في سنة ٧٨٤هـ (سنة ١٣٨٢م) حضر أسطول من جنوا إلى صيدا فأخذوها وجاءوا إلى بيروت وبلغ الخبر في ذلك إلى دمشق فأرسل أمير الأمراء يدمر نائب السلطنة بدمشق العساكر

الشامية إلى بيروت فلم يتعرض أصحاب الأسطول للنزول إلى البر وساروا إلى جهة قبرص والماغوصة، ولما رجع العسكر إلى دمشق عاد الجنويون إلى بيروت في اثني عشر غراباً كبيراً ودخلوا الميناء، وكان فيها قرقورتان (اسم لنوع من السفن) للبنادقة فأخذوهما وشحنوهما بالرجال حتى تمكن الرماة منهم من الرمي على برج بيروت الصغير البعلبكي، ولم يكن في ذلك الحين بني البرج الكبير وكان مكانه خرائب قديمة، فرمى الفرنج المسلمين فتتخى المسلمون من قبالتهم واستتروا بالحيطان فتقدمت شواني العدو إلى البر ما بين البرج والخرائب التي كانت مكان البرج الكبير، ونصبوا صقائلهم من الشواني إلى البر ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدم من كبارهم ويده سنجق وصعدوا إلى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوة إشارة إلى أنهم ملكوا البلد وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمة بعد شرذمة، فهجمت فرقة من المسلمين على الذين معهم السنجق فقهرهم ورموا السنجق، فلما رأى الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين وحمل منهم أصحاب النخوة على الفرنج، فانهزم منهم من كان نزل إلى البر وازدحموا على الصقائل، فانقلب بعضها بهم فغرق منهم جماعة وقتل جماعة وانكسروا شر كسرة وقتل من المسلمين نفر وجرح جماعة، وكانوا اكتشفوا الأسطول عشية يوم وصوله فأشعلوا النار ليلاً إشارة إلى وصول الفرنج إلى بيروت، فوصل الخبر تلك الليلة تدريجاً إلى دمشق فحضر ييدير نائب الشام إلى بيروت عشية يوم الواقعة وتبعته عساكر الشام فكان وصولهم بعد فوات الأمر ولم يروا غير الشواني في البحر على بعد وهي راجعة إلى بلادهم. انتهى.

وكان السلطان برقوق قد ولي أحمد منطاش من موالي الملك الناصر محمد بن قلاوون على ملطية فاستبد بالسلطنة عليها وبدأت منه علامات الانتفاض على السلطان، ثم عاد يتنصل منه ويرى ساحته من الخلاف وشفع به بعض أصحابه، فأبقاه السلطان في عمله لكثته لم يزل ناوياً على الخلاف وداخل بعض الأمراء التركمان في ذلك وأرسل صاحب سيواس قاعدة بلاد الروم وسار إليها، وكان ملك سيواس صيباً يقوم بكفالاته قاض عنده فقبض على منطاش وحجسه ترفلاً إلى السلطان، وأرسل السلطان سنة ٧٨٩هـ (سنة ١٣٨٧م) عساكره إلى جهة سيواس واقتحموا تخومها على حين غفلة فبادر القاضي إلى إطلاق منطاش لوقته لأن منطاش كان حمله على الرجوع عن موالة السلطان وسار منطاش إلى أحياء التتر

واستجاشهم على عسكر السلطان وأتي بهم إلى سيواس وعسكر السلطان محاصر لها فلم يقوَ عسكر السلطان على فتحها بل ملّوا وضجروا وعادوا عنها إلى بلاد الشام وبقي منطاش بأحياء التتر إلى أن انتقض الناصري بحلب على السلطان ودعا منطاش إليه فلبى دعوته وناصره في الانتقاض كما ترى في الفصل الآتي. انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون وغيره.

عد ٩٠٥

انتقاض الناصري واستيلائه على الشام ومصر واعتقال السلطان برقوق بالكرك قد مرَّ أنَّ السلطان كان قد سخط على بييقا الناصري وسجنه بالاسكندرية ثم أفرج عنه فسار إلى حلب، ولما عاد العسكر عن سيواس داخل الناصري بعض أمراءه بالانتقاض على السلطان، وبلغ ذلك إلى السلطان فاعتقل هؤلاء الأمراء فاستراب الناصري واضطرب وشرع في اسباب الانتقاض، وعاد إليه سماسة الفتن من الأمراء وغيرهم فأطاعوه وافتتح أمره بالانحراف عن الأمير سودون المظفري الذي كان السلطان قد ولاه على جلب مكان الناصري، وتفاقم الأمر بينهما فأرسل السلطان من يصلح بينهما ويسكن الثائرة وبيننا كان موفد السلطان قد جمع الناصري والمظفري للصلح بينهما وثب قوم على المظفري الوالي وفتكوا به، واجتمع الأمراء على الناصري واعصوبوا عليه ودعاهم إلى خلع الطاعة فأجابوه إلى ذلك سنة ٧٩١هـ (سنة ١٣٨٩م). واتصل الخبر بطرابلس وبها جماعة من الأمراء يرومون الانتقاض فعمدوا إلى الايوان السلطاني وقبضوا على نائب السلطان بها وحبسوه وفعل مثل ذلك أهل حمص وغيرها، فسرح السلطان العساكر لقتال هؤلاء، وأرسل الناصري من حلب يستدعي منطاش من احياء التتر، فأتاه وماله وجمع طوائف التركمان والعرب ونهض في جموعه يريد دمشق ونائبها طرنطاي الحاجب المذكور آنفاً يواصل تعريف السلطان بالأخبار ويستحث العساكر من مصر.

ثم بلغت عساكر السلطان إلى دمشق واختاروا من القضاة وفداً أوفدوه على الناصري وعلى أصحابه بحلب، فلم يجيبوا وأمسكوا الوفد عنهم وساروا للقاء عساكر السلطان ولجأ أيتمش الأتابك إلى قلعة دمشق فدخلها وذهب عسكره شعاعاً وأخذ كثيرون منهم أسرى، ودخل الناصري وأصحابه دمشق واستولوا عليها

وعاثت عساكرهم في نواحيها وأوعزوا إلى نائب القلعة بحبس أيتمش عنده، وأظهر ابن باكيش بغزة طاعته للأمراء ومّر به أنيال اليوسفي من أمراء الألوف بدمشق ناجياً من الوقعة فقبض عليه وحبسه بالكرك.

واستعدّ السلطان يرقوق للمدافعة وأقام رؤساء لعساكره مكان من خسرهم بدمشق، وأقام الناصري وأصحابه أياماً بدمشق ثم عمدوا على المسير إلى مصر، ونهضوا إليها بجموعهم وخفيت أخبارهم حتى أطلت مقدمتهم على بلبس ثم تقدّموا إلى بركة الحاج وبرز السلطان في مماليكه ووقف أمام القلعة بقية يومه والناس من العساكر والعامة يتقاطرون إلى الناصري حتى غصّت بهم بسائط البركة واستأمن أكثر الأمراء الذين مع السلطان إلى الناصري فأمنهم وأطلع السلطان على شأنهم، وسارت طائفة من العساكر وناوشوهم القتال وعادوا منهزمين إلى السلطان وارتاب السلطان بأمره وعاین انحلال عقدته فدسّ إلى الناصري بالصلح وبعث إليه بالملاطفة فأشار عليه الناصري بأن يتوارى بشخصه مخافة أن يصيبه أحد بسوء، فلما غشيه الليل صرف من بقي من مماليكه وخرج متنكراً. وياكر الناصري وأصحابه القلعة فاستولوا عليها ودعوا أمير حاج ابن الأشرف المار ذكره فأعادوه إلى التخت كما كان، ولقبوه المنصور. واستدعوا الجوباني والأمراء المعتقلين بالاسكندرية فأثّوا وركب الناصري وأصحابه للقائهم، وأشرك الناصري الجوباني في تدبير الدولة وأخذوا ينادون بطلب السلطان الظاهر حتى دلّ عليه بعض ممالك الجوباني، وجاءوا به إلى القلعة وتشاوروا في أمره. وكان منطاش وغيره يطلبون قتله، وأبى الناصري والجوباني إلاّ الوفاء بعهد الناصري له وتردّدوا في مستقره بين أن يكون بالكرك أو قوص أو الاسكندرية وأجمعوا على الكرك. ولما دنا وقت مسيره قعد له منطاش عند البحر (أي النيل) ليغتاله فركب الجوباني مع السلطان من القلعة وأركب معه صاحب الكرك في جماعة من قومه يوصلونه إلى الكرك، فنجا السلطان من منطاش ووصل إلى الكرك سالماً في قليل من غلمانته ومواليه ووكل الناصري به حسن الكشكي من خصومه وولاه على الكرك وأوصاه بخدمته ومنعه ممن يريد به سوء.

وأما الأمراء الثائرون فجعلوا الجوباني أتاك السلطان المنصور، والناصري رأس النوبة الكبرى أي مدبّر السلطنة، ثم بعثوا بذلار نائباً على دمشق وأخرجوه إليها. وبعثوا كمشيقا البيقاوي على حلب وكان السلطان قد عزله من طرابلس واعتقله بدمشق. ولما جاء في حملة الناصري بعثه على حلب وقبضوا على جماعة من

الأمرأ الذين كانوا مع السلطان برقوق منهم النائب سودون والطرنتاي نائب دمشق، فحبسوا بعضهم بالاسكندرية وبعضهم بالشام وتتبعوا ممالك السلطان برقوق فحبسوا أكثرهم وأشخصوا بقيتهم إلى الشام يستخدمون عند الأمرأ وقبضوا على محمود قهرمان الدولة فصادروه على ألف درهم وأودعوه السجن. انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون.

عد ٩٠٦

ثورة منطاش ونكبة الجوباني وحبس الناصري

كان منطاش منذ دخل مع الناصري متربصاً بالدولة طاوياً جوانحه على الغدر برجالها لأنهم لم يوفرأ حظه من الاقطاع ولم يجعلوا له اسماً في الوظائف حين اقتسموها ولا راعى الناصري له حق خدمته ومقارعتة الأعداء بل أثر الجوباني عليه وكان ممالك الجوباني لما حبس أميرهم وانتقض الناصري بحلب لحقوا به وبمنطاش وكان منطاش موانساً لهم ومصافياً إياهم فداخل بعضهم في الثورة وأبدى للجوباني المخالصة بغشيان مجلسه وملابسة ندمائه وحضور مائدته، وكان البييقاوية جميعاً ينضمون على الناصري ويرون أنه مقصّر في الرواتب والاقطاع فدعاهم منطاش إلى التوثب فكانوا إليه أسرع. ونما الخبر إلى الناصري والجوباني فعزموا على إشخاص منطاش إلى الشام فتمارض وأقام في بيته أياماً يطاولهم ليحكم التدابير عليهم ثم عدا على الجوباني وكان قد أكن في بيته رجلاً للثورة فقبضوا على الجوباني وقتلوه لحينه وركب منطاش إلى الرملة (محل بالقاهرة) فذهب مراكب الأمرأ بباب الاصطبل واجتمع إليه من داخله بالثورة، ومن كان قد بقي من ممالك الملك الظاهر برقوق وركب الأمرأ البييقاوية من بيوتهم ووقفوا ينظرون مآل الحال، وبرز الناصري فيمن حضر وأمر الأمرأ بالحملة على أصحاب منطاش فوقفوا ولم يجيئوه إلى ذلك فأحجم الناصري عن الحملة في ذلك النهار.

وفي الغد تزايدت جموع منطاش فاقتحم الناصري فانهزم وانفض أصحابه عنه، فذهب حيراناً وأتى الأمرأ البييقاوية مجلس منطاش فقبض عليهم وبعث بهم إلى الاسكندرية، ثم جدّد البيعة لأمر حاج الملك المنصور المذكور وقبض على جماعة من ممالك السلطان الظاهر برقوق وفزّ الباقون واستقلّ بتدبير الدولة ونصب في ظائفها من شاء من أصحابه.

ولما بلغ الخبر إلى بذلار بدمشق باستقلال منطاش بالدولة أنف من ذلك وارتاب على نفسه وداخلته الغيرة فعزم على الانتفاض وكاتب نواب الممالك بالشام في حلب وغيرها يدعوهم إلى الوفاق معه فأعرضوا عنه وتمسكوا بطاعتهم، وكان الأمير الكبير بدمشق جنتمر أخو طاز المذكور قبلاً يداخل الأمراء هناك بالتوثب على بذلار نائب السلطنة بدمشق وبالتوثق منهم للدولة، وبلغ الخبر إلى بذلار فركب في مماليكه وشيعته يروم القبض عليهم فلم يتمكن من ذلك، واجتمعوا عليه وظاهرهم عامة أهل دمشق فقاتلوه ساعة فأيقن بالانقلاب والهلكة وقبضوا عليه وطبروا بالخبر إلى منطاش، فأمر باعتقاله فاعتقل وهلك مريضاً في محبسه، وولى منطاش جنتمر المذكور نيابة دمشق واستقرت الأحوال على ذلك.

وكتب منطاش إلى حسن الكشكي نائب الكرك بأن يقتل السلطان برقوق وكان الناصري أوصاه كما مرّ أن يمنعه ممن يريده بسوء فاستشار الكشكي خواصه فأشاروا بالتحرز من قتل السلطان جهد الطاقة، فكتب إلى منطاش معتذراً بالخطر الذي في قتله دون إذن السلطان المنصور والخليفة فأعاد إليه الكتاب مع كتاب من السلطان والخليفة وبالأذن بقتله، واستحثه على الاجهاز عليه واهلاكه فعلمه الكشكي بالوعد وطاوله يرجو التخلص من ذلك وكانوا يكتمون الأمر عن السلطان برقوق شفقة عليه وإجلالاً له، لكنه شعر بذلك وأخلص بالالتجاء إلى الوهم بما يأتي. انتهى ملخصاً عن تاريخ ابن خلدون أيضاً.

وروى البطريق الدويهي في تاريخ سنة ١٣٨٨م أنه كان قتال بين أمراء الغرب التنوخية وهم من حزب السلطان برقوق وبين تركمان كسروان والأمراء أبناء الأعمى وهم من حزب منطاش مع أرغون نائبه في بيروت فاستظهر التركمان على أمراء المغرب وقتلوا منهم نحو تسعين رجلاً ونهبوا ما وجدوا بدورهم ببيروت وأحرقوا من قراهم عيناب وعين عنوب وشمال وعيتات وغيرها.

عد ٩٠٧

خروج السلطان برقوق من الكرك وظفره بعساكر الشام
وحصاره دمشق وعوده إلى كرسيه

لما بلغ السلطان برقوق استقلال منطاش بالدولة وحبسه الأمراء البيقايوة جميعاً

ونصب مكانهم أصحابه اهمه ذلك وخشي غاياته ثم شعر أنّ منطاش يروم اغتياله فأرسل غلمانه في الكرك فظفروا برجال داخلوهم في حسن الدفاع عن السلطان فأجابوهم إلى ذلك وتعهدوا به، واستعدّوا لقتال البريدي الذي كان في قلعة الكرك وكان منزله بازاء السلطان فهجموا عليه وقتلوه ودخلوا برأسه إلى السلطان وشفار سيوفهم دامية. وكان الكشكي نائب السلطنة يفطر على سباط السلطان تأنيساً له فلما رأهم دهش وهمّوا بقتله فمنعهم السلطان من ذلك، وملك السلطان القلعة وبايعه النائب المذكور وصعد إليه أهل المدينة وبايعوه، ووفد عليه عرب الضاحية من بني عقبة وغيرهم فأطاعوه. وفشا الخبر في النواحي فتسارع إليه مماليكه من كل جهة وبلغت أخباره إلى منطاش فأوعز إلى ابن باكيش نائب غزّة أن يسير في العساكر إلى الكرك، وتردّد السلطان بين لقائه والنهوض إلى الشام، وعزم على المسير إلى دمشق فسار من الكرك في ألف رجل أو يزيدون من العرب والترك، فسرح جنتمر نائب دمشق العساكر لدفاعه فالتقوا بمحل يسمى شقحب وكانت بينهم وقعة عظيمة أجلت عن هزيمة أهل دمشق وقتل الكثيرون منهم وأتبعهم السلطان إلى دمشق، ثم أحسّ بأنّ ابن باكيش وعساكره يتبعونه فكثّر إليهم ليلاً وصبحهم على غفلة فانهزموا ونهبت عساكر السلطان ما معهم واستفحل أمر السلطان ورجع إلى دمشق ونزل بالميدان وأغلق الدمشقيون أبواب المدينة فأقام يحاصروهم إلى محرم سنة ٧٩٢ هـ (سنة ١٣٩٠ م) كما سيأتي.

وكان كمشيقا الحموي نائب حلب قد أظهر دعوته للسلطان في عمله وكاتبه بذلك عندما نهض من الكرك إلى الشام، ولما بلغه حصاره لدمشق تجهز للقائه ووصل إليه بكثير من المال والسلاح والخيول وآلات الحصار، وكان جماعة من الأمراء أصحاب السلطان محبوسين بصفد وكان قوم من مماليكه يستخدمون عند نائب صفد فغدروا به وأطلقوا من كان من الأمراء في السجن ولحقوا بالسلطان. وبلغ الخبر إلى الأمراء المحبوسين بقوص (بالصعيد) فقبضوا على واليها وأخذوا من مودع القاضي ما كان فيه من المال وعزموا أن يسيروا من هناك إلى الكرك ويلحقوا بالسلطان، ولكن تدارك منطاش أمرهم فقبضت عساكره عليهم وأتوا بهم إلى مصر. وعزم منطاش على المسير إلى الشام فنادى وأخرج السلطان المنصور والخليفة والقضاة والعلماء في آخر سنة ٧٩١ هـ (سنة ١٣٨٩ م)، ولما بلغ خبر مسيرهم إلى السلطان برقوق وهو محاصر دمشق ارتحل في عساكره إلى لقاءهم ونزل قريباً من

شقحب، ولما تراءى الجمعان كانت بينهما وقعة هائلة أجلت عن استيلاء السلطان برقوق على الملك المنصور والخليفة والقضاة ودخولهم في حكمه وتهزيم منطاش وجموعه ولحوقه بدمشق، ولما وصل منطاش إليها أوهم نائبها جنتمر أن الظفر له وأن الملك المنصور موافق على أثره. فركب السلطان برقوق في عساكره من شقحب فهزم منطاش وجمعه وأثنى فيهم ثم عاد إلى شقحب وحمل الملك المنصور على التبرؤ من الملك والعجز عنه وأحضر الخليفة والقضاة فشهدوا عليه بالخلع وعلى الخليفة بالتفويض إلى السلطان برقوق والبيعة له والعود إلى كرسيه، وأقام السلطان بشقحب تسعة أيام ورحل إلى مصر وبلغ الخبر إلى منطاش فركب لاتباعه لكنه لم يجسر أن يناوئه وعاد إلى دمشق.

وكان منطاش قبل مسيره من مصر إلى الشام استخلف على القلعة بكاء الأشرفي ووكله بالمعتقلين بها، فهؤلاء المعتقلون عثروا على منفذ إلى سرب تحت الأرض يفضي إلى حائط الإسطبل مقام نائب القاهرة والأتابك ووجدوا في ذلك السرب آلة النقب فنقبوا الحائط وأفضوا إلى أعلى الاسطبل وهجموا على الحراس فقتلوهم وهرب الباقون. واجتمع إليهم بعض أصحاب السلطان برقوق الذين كانوا مختبئين ومالهم بكاء وكيل القلعة وهجموا على بيت سراي تمر الذي كان منطاش قد استخلفه بالقاهرة فنهبوا ماله وسلاحه وركبوا خيله واستولوا على الاسطبل وبينما هم على هذه الحال وصل كتاب السلطان بإعداد الميرة والعلوفة في منازل السلطان على العادة، وتتابع الواصلون في عسكر السلطان إلى أن أصبح السلطان يوم الثلاثاء رابع صفر سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) في ساحة القلعة بالقاهرة وقلده الخليفة الملك وعاد إلى سريه.

ثم أفرج السلطان الظاهر عن الأمراء الذين كان منطاش قد حبسهم بالاسكندرية وفيهم الناصري وابن بيقا الجوباني (ذكر ابن خلدون قبل هذا قتل الجوباني ثم ذكره هنا في جملة المحبوسين بالاسكندرية فرأينا أن المراد بالحلل الثاني ابنه أي ابن الجوباني فأثبتناه كذلك خلافاً للأصل) وسودون الطرنطاي وغيرهم وولى انيال اليوسفي أتابكاً والناصرى أمير سلاح إلى غير ذلك من المراتب والوظائف وانتظم أمر دولته في مصر واستوثق ملكه وصرف نظره إلى الشام وتلافيه من فساد منطاش. انتهى ملخصاً عن ابن خلدون أيضاً.

ذكر أحداث أخرى في أيام السلطان الظاهر إلى مقتل منطاش

بعد أن استقر السلطان على كرسيه في القاهرة عين ابن بيبقا الجوباني لنيابة دمشق ورئاسة العساكر والناصري لنيابة حلب، وكان قد عاهد كمشيقا نائب حلب على أتاكية مصر، وعين قراد مرداش على طرابلس، ومأموناً القلحطاوي على حماه. وسير العساكر معهم إلى الشام في ٨ جمادي الأولى سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) وكان منطاش أفرغ جهده في كتم أخبار السلطان عن أمرائه بمصر ولما شاعت وفشت انصرف هواهم إلى السلطان، وبعث منطاش الأمير إيما زمر نائباً على حلب فحاصر كمشيقا نحواً من خمسة أشهر وبعث العساكر إلى طرابلس مع ابن إيماز التركماني فحاصروها وملكوها من يد سندمر حاجبها وكان مستولياً عليها من قبل السلطان الظاهر، ولما ملكوها ولي منطاش على قشتمر الأشرفي ثم بعث العساكر إلى بعلبك وأوعز إلى قشتمر نائب طرابلس بالمسير إلى حصار صفد فسار إليها فقاتله جنودها وهزموه، فجهز إليها العساكر مع ابقا الصفدي كبير دولته، لكن هذا لما تيقن استيلاء السلطان على كرسيه بمصر جنح إلى الطاعة وارتحل من الغد إلى مصر، فأقبل السلطان عليه وجعله من أمراء الألو فاضطرب منطاش وتبين له نكر الناس وارتاب بأصحابه فقبض على جماعة منهم وقتل بعضهم، فاستوحش الناس منه واستأمنوا إلى السلطان، وشرع منطاش في الفتك بالمنتهمين إلى السلطان من المحبوسين بقلعة دمشق وذبح جماعة من الجراكسة فسير السلطان العساكر من مصر إلى الشام، ولما دخلوا حدودها ارتبك منطاش في أمره واستقر به الخوف والهلع والاسترابة بمن معه فخرج هارباً من دمشق في خواصه ولحق بيعبر أمير العرب آل فضل مستجيراً فأجاروه ونزل معهم.

ولما خرج منطاش من دمشق خرج أشمس من محبسه وملك القلعة واعصوب ممالك السلطان عليه وأرسل إلى ابن الجوباني الخبير فتسارع إلى دمشق وجلس بموضع نيابته، وقبض على من بقي من أصحاب منطاش وخدمه وبلغ خبر فرار منطاش إلى إيماز تمر وهو يحاصر حلب فأجفل ولحق بمنطاش وقتل كمشيقا من أصحابه أكثر من ثمانين مئة رجل وبعث ابن الجوباني العساكر إلى طرابلس وملكوها من يد قشتمر الأشرفي الذي كان منطاش قد ولاه عليها وكذلك ملكوا حماه وحمص.

ثم بعث ابن الجوباني إلى يعبر أمير العرب آل فضل باسلام منطاش وإخراجه من أحيائهم فامتنع واعتذر فسار الجوباني عليه بالعساكر فكانت بين الفريقين حرب شديدة وحملة العساكر على منطاش والعرب فهزمهم إلى الخيام وانفرد الجوباني عن العساكر فأسرهم العرب وسبق إلى يعبر أميرهم فقتله، وعاد الناصري بالعساكر إلى دمشق وباكر من الغد آل علي من العرب في أحيائهم فكبسهم وقتل منهم جماعة فثار منهم بما فعلوه في الواقعة من نجاتهم لآل فضل، وولى السلطان الناصري على دمشق مكان ابن الجوباني فقام بأمرها وأحكم التصرف في حمايتها.

وأما منطاش ويعبر أمير العرب فارتحلا إلى حلب فحاصرها وضيقا عليها وكان نائبها كمشيقا المذكور، ثم راجع يعبر نفسه فأرسل كمشيقا في الطاعة للسلطان واعتذر عما وقع منه وسأل الأمان وكاشف كمشيقا السلطان بذلك فأجابه إلى سؤاله وشعر منطاش بذلك فارتاب وخادع يعبر بأنه يريد الإغارة على التركمان وسار معه من العرب سبع مئة فارس، ولما دنا من التركمان رجّلهم عن الخيل وأخذها ولحق بالتركمان فصافاهم ونزل بمرعش بلد أميرهم ورجع العرب مشاة إلى يعبر، وسار منطاش إلى عناب من قلاع حلب فملكها واعتصم بالقلعة أياماً فأئخن منطاش في أصحابه وقتل جماعة من أمرائه ثم جاءته العساكر من حلب وحماه وصفد فهرب إلى مرعش وسار منها إلى بلاد الروم وفارقه جماعة من أصحابه واضمحَلَّ أمره حينئذٍ.

ولما انتظم أمر حلب أرسل السلطان يستدعي كمشيقا نائبها ليجعله أتابكاً كما كان قد وعده جزاءً لخدماته المذكورة للسلطان وولى مكانه بحلب قراد مرداش نقله إليها من طرابلس وبلغ كمشيقا مصر سنة ٧٩٣هـ (سنة ١٣٩١م) فاهتز السلطان وأركب الأمراء للقائه بالبحر في تكرمته ورفع مجلسه فوق الأتابك واستقرَّ بمصر في أعلى مراتب الدولة.

واستمرَّ منطاش شريداً إلى منتصف سنة ٧٩٣هـ (سنة ١٣٩١م) ثم قصد دمشق ويقال إنَّ الناصري أغراه بذلك خدعة ليقبض عليه فسار منطاش من مرعش ولما بلغ خبره إلى حماه هرب نائبها إلى طرابلس فدخل منطاش حماه ونادى فيها بالأمان، ثم سار منها إلى حمص ثم إلى بعلبك وهرب نائبها إلى دمشق فخرج إليه الناصري نائب دمشق في العساكر على طريق الزبداني، وسار منطاش بطريق آخر

ونزل بالقصر الأبلق وشرع في مصادرة الناس والفريضة عليهم، وإذا بالناصرى قد عاد في عساكره فاقتتلوا عشية ذلك اليوم وبقي القتال متصلاً بينهما سائر رجب وشعبان وبلغ الخبر إلى السلطان فارتاب بالناصرى وأتهمه بالمداينة وتجهز لقصد الشام وقتل أهل الخلاف من الأمراء المحبوسين وأرسل غيرهم إلى الاسكندرية ودمياط واستخلف بالقاهرة كمشيقا الحموي الأتابك المذكور، ولما علم منطاش بمسيرة السلطان من مصر هرب من دمشق وخرج الناصرى من الغد في اتباع منطاش فهزمه ووصل السلطان إلى دمشق فأكرم الناصرى وجامله ووفد إليه آل مهنا وآل عيسى من العرب في طاعة السلطان والمظاهرة له على منطاش ويعبر فأكرم وفادتهم وسار إلى حلب فأتاه الخبر بأن منطاش فارق يعبر ومّر ببلاد ماردين فواقعه عساكر هناك وقبضوا على جماعة من أصحابه وخلص هو من الواقعة وأتى إلى أحد أمراء التركمان يسمى سالم فقبض عليه وأرسل إلى السلطان يطالعه بشأنه ويطلب بعض أمرائه ليسلمه إليهم فأرسل السلطان قراد مرداش نائب حلب واتبعه بالناصرى فوصل قراد مرداش إلى سالم وبقي أربعة أيام يطالعه بمنطاش وهو يماطله فوثب قراد مرداش عليه ونهب أحياءه وفتك بقومه فهرب سالم ومنطاش إلى سنجار ثم وصل الناصرى وأنكر على قراد مرداش ما أتاه وتنازعا ورجعا إلى السلطان في العساكر صفري اليمين وكتب سالم إلى السلطان يعتذر ويقول إن الناصرى كتب له وأمره بالمحافظة على منطاش فسخط السلطان على الناصرى وأمر بقتله وولى على دمشق مكانه بطا الدوادار وارتحل السلطان إلى دمشق وقتل بها جماعة من أهل الفساد يبلغون خمسة وعشرين رجلاً ثم عاد إلى مصر فبلغ إليها في منتصف محرم سنة ٧٩٤هـ (سنة ١٣٩١م).

أمّا منطاش فبعد فراره مع سالم إلى سنجار أقام معه أياماً ثم فارقه وعاد إلى يعبر فأقام في أحيائه وتزوج بنتاً من آل فضل وأقام معهم ثم سار سنة ٧٩٤هـ (سنة ١٣٩١م) وعبر الفرات إلى نواحي حلب فأوقعت به العساكر وأسروا جماعة من أصحابه ثم زحف يعبر ومنطاش إلى سلمية فلقيهما نائب حلب ونائب حماه فهزموهما وتسارع نائب حلب إلى أحياء يعبر فذهب أموالها واستاق نعمها ومواشيها وأضرم النار في ما بقي منها وأكمن ليعبر ومنطاش وبلغ يعبر ومنطاش الخبر فأسرعا بمن معهما إلى الكرّ على أحيائهم فخرج عليهم الكمناء وأثنخوا فيهم وهلك من الفريقين خلق كثير.

ثم وفد على السلطان عامر بن ظاهر أخيه يعبر طائفاً للسلطان ومنازلاً لعمته وواعداً أن يسلم منطاش متى طلب منه فأقبل السلطان عليه وأثقل كاهله بالإحسان والموايد فرجع عامر وتفاوض مع آل فضل جميعهم فأجابوه إلى ما يرغب وخيروا يعبر بين أن يمكنهم من إمساك منطاش أو يخلي سبيلهم ليدخلوا في طاعة السلطان ويفارقهم هو إلى حيث شاء فجزع يعبر لذلك وأذن لهم في القبض على منطاش فقبضوا عليه وبعثوا إلى نائب حلب من يستلمه فبعث إليهم بعض أمرائه فسلموه إليهم وأرسلوا معه الفرسان والرجالة حتى أوصولوه إلى حلب وبعث السلطان أميراً من القاهرة فاحتز رأسه وطاف به في ممالك الشام وجاء به إلى القاهرة سنة ٧٩٥هـ (سنة ١٣٩٢م) فعلق على باب القلعة ثم دفع إلى أهله فدفنوه. هذا ملخص موجز مما رواه ابن خلدون في فصول كثيرة.

عد ٩٠٩

بقية أخبار الملك الظاهر برقوق وابنه إلى نهاية هذا القرن

في سنة ٧٩٦هـ (سنة ١٣٩٣م) فرّ أحمد ابن أويس صاحب بغداد إلى الملك الظاهر تيمورلنك التتري الذي كان قد ملك أكثر البلاد الشمالية وأثنى فيها وحاصر بغداد فانهزم أحمد المذكور إلى الرحبة ثم إلى حلب ومصر مستصرخاً به على طلب ملكه والانتقام من عدوه، فأجاب السلطان إلى صراخه وجهاز عساكره وسار فيها إلى الشام ومعه أحمد ابن أويس المذكور. وكان تيمورلنك بعد أن استولى على بغداد وزحف في عسكره إلى تكريت وحاصرها أربعين يوماً وملكها وانتشرت عساكره في ديار بكر إلى الرها فملكوها وكتب السلطان الظاهر إلى جليان نائب حلب بالخروج إلى الفرات واستيعاب العرب والتركمان للإقامة هناك رصداً للعدو، ثم أرسل إليه العساكر من دمشق مع كمشيقا الأتابك وغيره وكان تيمورلنك قد شغل بحصار ماردين فأقام عليها أشهراً ثم ملكها وامتنعت عليه قلعتها فارتحل عنها إلى ناحية بلاد الروم ومزّ بقلاع الكراد فاغارت عساكره عليها واكتسحت نواحيها وبقي السلطان إلى شعبان من السنة المذكورة مترصباً ليرى ما يكون من تيمورلنك. فهذا ختام كلام ابن خلدون في هذه الأحداث. والظاهر من كتاب «عجائب المقدور في أخبار تيمور» للقاضي شهاب الدين الدمشقي أنّ تيمور

بدا له حينئذ أن يقصد الهند فقصدها وشغل بتدويخها مدةً فعاد السلطان الظاهر إلى مصر ولا نعلم من أخباره الهامة بعد ذلك إلا ورود رسالة تيمورلنك إليه سنة ٨٠١ هـ (سنة ١٣٩٨ م) وبها يهدده ويردعه، وجواب الملك الظاهر عليها مزدرياً بتهديداته ومبدياً العزم على قتاله وقد أثبت القراماني الرسالة والجواب عليها وذكرهما شهاب الدين في كتابه المذكور لكنّه ارتاب بصحّتهما، وقال إنّه وجد صورة هذا الكتاب من إنشاء نصير الدين الطوسي على لسان هولاكو التتري مرسلًا ذلك إلى سلطان مصر وصورة الجواب بعينه إنشاء من كان في ذلك العصر وصورتا الخطاب والجواب مشهورتان فنغتنى بشهرتهما عن إثباتهما هنا ثم توفي الملك الظاهر برقوق في أثر ذلك في ١٣ شوال سنة ٨٠١ هـ (سنة ١٣٩٨ م).

وروى البطريق الدويهي أنّه تولّى بعده ولده عبد العزيز ولقب الملك المنصور لكنّه خلع قبل أن تطول مدّة ولايته وأجمعوا على تولية أخيه زين الدين فرج ولقبوه الملك الناصر وله من العمر اثنتا عشرة سنة. ولم يذكر القراماني الملك المنصور كأنّه لقصر مدّة ولايته ولا ذكره الاسحاتي في كتابه «أخبار الأول» ولا حسن عبدالله في كتابه «آثار الأول» بل نصّ ابن اياس في تاريخ مصر أنّ الملك الظاهر برقوق أوصى بأن يخلفه ابنه فرج بل ذكروا الملك فرج وقالوا إنّ عمره كان عشر سنين وأنّ الناس ظنّوا أنّه ستكون فتنة عظيمة بعد موت والده فلم يتحرّك ساكن وأنشد ابن الأوحدي في ذلك:

مضى الظاهر السلطان أكرم مالكٍ إلى ربه إلى الخلد في الدرج
وقالوا ستأتي شدّة بعد موته فاكذبهم ربي وما جاء سوى فرج
وفي سنة ٨٠٣ هـ وهي سنة ١٤٠٠ للميلاد ختام القرن الرابع عشر برز تيمورلنك إلى حلب بجحافل الجراة ونرجى الكلام في ذلك إلى تاريخ القرن الخامس عشر ليكون كلامنا متنسقاً ولا نجزئ أخبار هذه الحملة الشهيرة على سورية في تاريخ قرنين.

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الرابع عشر

عد ٩١٠

المشاهير السوريون في هذا القرن

ابن منظور

ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات وسمّاه محمّد بن مكرم وقال إنّه ابن علي بن أحمد الأنصاري الرويفعي ثمّ المصري القاضي جمال الدين بن المكرم من ولد رويفع بن ثابت الأنصاري ويعرف بابن منظور. ولد أوّل سنة ٦٣٠ هـ (سنة ١٢٣١ م) وكان فاضلاً وعنده تشييع بلا رفض مات في شعبان سنة ٧١١ هـ (سنة ١٣١١ م) خدم في الإنشاء بمصر ثمّ ولي نظر طرابلس اختصر كتباً كثيرة وله النظم والنثر وأعظم مؤلفاته «لسان العرب» وهو من أشهر المعجمات العربية وطبع ببولاق في عشرين جزءاً سنة ١٣٠٨ م وقد جمع فيه كلما ورد في المعجمات التي تقدّمته يرتبه على أحرف أو آخر الكلم كالصحيح الجوهري وهو ثقة، وله أيضاً كتاب «نثار لأزهار في الليل والنهار» تكلم فيه على الليل والنهار والاعتناق والاصطباح والهلل كماله والفجر ونسيم السحر إلى غير ذلك وقد طبع كتابه هذا في القسطنطينية سنة ١٢٩٨ م.

فخر الدين الحموي قاضي حلب

ذكره أبو الفداء فقال في سنة ٧٣٠هـ (سنة ١٣٣٠م) توفي قاضي القضاة فخر الدين عثمان بن كمال الدين البارزي الحموي الجهنني قاضي حلب فجأة وكان يعرف كتاب «الحاوي في الفقه» وشرحه في ست مجلدات وكان يعرف الحاجبية والتصريف وكان فيه دين وصداقة.

شمس الدين الدمشقي

هو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الانصاري الدمشقي الصوفي المعروف باسم شيخ الربوة ولد سنة ٦٥٤هـ (سنة ١٢٥٧م) وتوفي بصفد سنة ٧٢٨هـ (سنة ١٣٢٨م) وله كتاب سماه «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» اعتنى بطبعه العلامة فداين والعلامة مهرن في بطرسبرغ سنة ١٨٦٦م.

الملك المؤيد اسماعيل أبو الفداء

ذكر مكمل تاريخه ترجمته بإيجاز فقال مات السلطان الملك المؤيد اسماعيل ابن الملك الأفضل علي صاحب حماه مؤلف هذا التاريخ وله تصانيف حسنة مشهورة منها أصل هذا الكتاب ونظم «الحاوي في الفقه» وشرحه شيخنا قاضي القضاة شرف الدين بن البارزي (المرار ذكره) شرحاً حسناً وله كتاب «تقويم البلدان» وهو حسن في بابه تسلطن بحماه في أول سنة ٧٢٠هـ (سنة ١٣٢٠م) بعد نيابتها رحمه الله تعالى، وكان سخيّاً محباً للعلم والعلماء متفتناً يعرف علوماً. ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون أن ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه. وكانت وفاته سنة ٧٣٢هـ (سنة ١٣٣١م) وذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات وزاد على ما تقدم أنّ السلطان الناصر جعله سلطاناً بحماه يفعل فيها ما يشاء من اقطاع وغيره وليس لأحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم وأركبه في القاهرة

بشعار الملك وابهة السلطنة ومشى الأمراء والناس في خدمته حتّى الأمير سيف الدين ارغون النائب، وكانت فيه مكارم وفضيلة تامة من فقه وطب وحكمة وغير ذلك وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة لأنّه أتقنه وإن كان قد شارك في باقي العلوم مشاركة جيّدة ونظم الحاوي في الفقه وله تاريخ كبير وكتاب الكناش مجلدات كثيرة (لا نعرف هذا الكتاب حتّى الآن) وكتاب تقويم البلدان هذبه وجدوله وأجاد فيه ما شاء وله كتاب الموازين وهو صغير ومات وهو في الستين رحمه الله تعالى وله شعر ومحاسنه كثيرة وأثبت الصلاح الكتبي بعض أشعاره منها:

أقرأ على طيب الحيا ة سلام صبّ مات حزنا
وأعلم بذاك احبة بخل الزمان بهم وضمنا
لو كان يشرى قريهم بالمال والأرواح جدنا
متجرّع كأس الفراق يبيت لالشجان رهنا
صبّ قضى وجداً ولم يقضى له ما قد تمنى
وقد رثاه الشيخ جمال الدين بن نباتة بقصيد أوّلها:

ما للندى لا يلبي صوت ناديه أظن أنّ ابن شادي قام ناعيه
ما للرجاء قد استدّت مذاهبه ما للزمان قد اسودّت نواحيه
نعى المؤيد ناعيه فيا أسفي للغيث كيف غدت عنا غواديه
يا آل أيوب صبراً ان ارثكم ما اسم أيوب صبراً كان يرجيه
هي المنايا على الأقوام دائرة كل سياثيه منها دور ساقيه

وقد طبع كتابه في تقويم البلدان في الجغرافية بباريس سنة ١٨٣٧م إلى سنة ١٨٤٠م بعناية العلامة رينود ثمّ طبع في درسدن سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٥م وله أيضاً «وصف جغرافية مصر» طبع سنة ١٧٧٦م في غوتغن وأمّا كتاب تاريخه فقد طبع سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٧٩٤م بمدينة كوبنهاغن بعناية العلامة دايסקه مع ترجمة لاتينية وشروح ثمّ طبع بالقسطنطينية في أربعة أجزاء سنة ١٢٨٦هـ وهذه

الطبعة هي التي بيدنا ملخص عن كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع. وقد ذكر المطران أسطفانس عواد السمعاني كتابي أبي الفداء التاريخ وتقويم البلدان في فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية، وأثبت فهرست كتاب تقويم البلدان كاملاً وقال إنه علّق عليه مقدّمات لازمة لفهم فنّ الجغرافية كتيبانه أولاً أغلاط بعض الكتاب في تعيين درجات طول الأماكن وعرضها، وكبحته عن الأرض هل هي مدوّرة أو مستوية وهل في وسطها قطب أو محور إلى غير ذلك .

بدر الدين محمّد الكتّاني الحموي

ذكره مكمل تاريخ أبي الفداء في تاريخ سنة ٧٣٣هـ (سنة ١٣٣٢م) فقال كان له معرفة بفتون وله عدّة مصنّفات درس بدمشق ثمّ ولي قضاء القدس ثمّ قضاء الديار المصرية ثمّ قضاء الشام ثمّ قضاء مصر وولي مشيخة الحديث بالكاملية ومشيخة الشيوخ وتنزّه عن معلوم القضاء لغناه مدّة ومحاسنه كثيرة ومن شعره: لم أطلب العلم للدنيا التي ابتغيت من المناصب أو للجاه والمال لكن متابعة الأسلاف فيه كما كانوا بقدر ما قد كان من حالي

هبة الله الحموي

ذكر ترجمته مذيّل تاريخ أبي الفداء وهو ابن الوردي فقال ما ملخصه أنّه في سنة ٧٣٨هـ (سنة ١٣٣٧م) توفي شيخي المحسن إليّ أبو القاسم هبة الله ابن قاضي القضاة نجم الدين أبي محمّد عبد الرحيم البارزي الجهتي الحموي الشافعي، علم الأئمة وعلامة الأئمة، تعين عليه القضاء بحماه فقبله وتورّع عن معلوم الحكم من بيت المال ولم يتخذ عمره درّة ولا مهمازاً ولا مقرعة ولا غزّر أحداً بضرب ولا أسقط شاهداً. هذا مع نفوذ أحكامه وقبول كلامه افنى شببته في المجاهدة والتقصّف، وانفق كهولته في تحقيق العلوم، وقضى شيخوخته في تصنيف الكتب الجياد، ودعي مرات للقضاء في الديار المصرية فأبى واجتمع له من الكتب ما لم يجتمع لأهل عصره واشتهرت مصنّفاته في حياته بخلاف العادة فمنها في التفسير كتاب «البستان في تفسير القرآن» مجلّدان وكتاب «روضات جنات الحيين» إثنا

عشر مجلّداً وفي الحديث «كتاب المجتبي» مختصر جامع الأصول وكتاب «الوفا في أحاديث المصطفى» وكتاب «المجّرد من السند» وكتاب «المنضد» شرح المجرد أربعة مجلّدات وفي الفقه كتاب شرح الحاوي المسمّى «إظهار الفتاوي من أعوار الحاوي» وكتاب «تيسير الفتاوي في تحرير الحاوي»، وهما أشهر تصانيفه وكتاب شرح نظم الحاوي أربعة مجلّدات وكتاب «المغني» مختصر التنبيه وكتاب «تميز التعجيز» إلى غير ذلك، وله نظم قليل منه ما كتب به إلى صاحب حماة يدعوه إلى وليمة: طعام العرس مندوب إليه وبعض الناس صرح بالوجوب فجبراً بالتناول منه جرياً على المعهود في جبر القلوب ومنه نثره الذي يقرأ طرداً وعكساً سور حماه بربها محروس وقد رثاه واضح الترجمة المذكورة بقصيدة منها:

برغمى أنّ بينكم يضام	ويبعد عنكم القاضي الإمام
سراج للعلوم أضاء دهرأ	على الدنيا لغيبته ظلام
تعطلت المكارم والمعالي	ومات العلم وارتفع الطغام
عجبت لفكرتي سمحت بنظم	أيسعدني على شيخي نظام
حشا أذني درأ ساقطته	عيوني يوم حم له الحمام
ويا شرف الفتاوى والدعاوى	على الدنيا بغيبتك السلام
لكم مني الدعاء بكل أرض	ونشر الذكر ما ناح الحمام

عمر ابن الحسام الدمشقي

ذكره الصلاح الكتبي في «فوات الوفيات» فقال هو الشاعر زين الدين أبو حفص الدمشقي الشافعي، سأله عن مولده فقال سنة ٦٨٤هـ (سنة ١٢٨٢م) وكانت وفاته في رمضان سنة ٧٤٩هـ (سنة ١٣٤٨م). اجتمعت به مرة وقد أنشدني كثيراً من شعره منه لنفسه:

قد اثقلتني الخطايا فكيف أخلص منها
يا رب فاغفر ذنوبي واصفح بفضلك عنها
وقال أيضاً:

يا من عليه اتكالي ومن إليه مآبي
جد لي بعفوك عني إذا أخذت كتابي
وقال أيضاً:

يا سائلي كيف حالي في مراقبتي وما العقيدة من سري واعلاني
أخاف ذنبي وأرجو العفو عن زللي فانظر فيين الرجا والخوف تلقاني

ابن الوردي

مما ذكره الصلاح الكتبي في فوات الوفيات في حقه هو القاضي الأجل الإمام
الفقيه الأديب الشاعر زين الدين بن الوردي المعري الشافعي، أحد فضلاء العصر
وأدبائه وشعرائه، تفنن في العلوم وأجاد في المنثور والمنظوم، نظمه جيد إلى الغاية
وفضله بلغ النهاية، ومن مصنفاته «البهجة الوردية في نظم الحاوي» وكتاب «فوائد
فقهية» منظومة وكتاب «شرح ألفية ابن مالك» وكتاب «ضوء الدرة على ألفية ابن
معطي» وكتاب «قصيدة اللباب في علم الإعراب» وشرحها وكتاب «اختصار ملحة
الإعراب» نظماً، وكتاب «مذكرة الغريب نظماً» وشرحها وكتاب «المسائل المذهبية
في المسائل الملقية» وكتاب «ابكار الأفكار» و«تنمة تاريخ أيي الفداء صاحب
حماء»، و«أرجوزة في تعبير المنامات» و«أرجوزة في خواص الأحجار ومنطق
الطير» نظماً. وقد درس على هبة الله الحموي كما رأيت، وتوفي بالطاعون سنة
٧٤٩هـ (سنة ١٣٤٨م).

وقد ذكر الصلاح كثيراً من أشعاره منها ما كتبه إلى فخر الدين قاضي حلب
وقد عزله وعزل أخاه:

جنبتي وأخي تكاليف القضا وشفيتنا في الدهر من خطرين
يا حي عالم دهرنا أحببتنا فلك التحكُّم في دم الأخوين
ومنها:

بالله يا معشر أصحابي اغتتموا علمي وآدابي
فالشيب قد حلّ برأسي وقد أقسم لا يرحل إلّا بي
ومنها:

سبحان من سخر لي حاسدي يحدث لي في غيبتي ذكري
ولا أكره الغيبة من حاسدي يفيد في الشهرة والأجر
ولابن الوردي أيضاً كتاب في الجغرافية سَمَّاه «خريدة العجائب وفريدة
الغرائب» ألّفه في حلب وذكره له صاحب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع وقال إنّه
طبع في أسوج سنة ١٨٢٤م مع ترجمة لاتينية، وطبع أيضاً في اوبسالا سنة
١٨٣٥م، وطبع في القاهرة سنة ١٢٩٢هـ، ويشتمل كتابه هذا على خريطة عامّة لا
تزال محفوظة في المكتبة الملكية بباريس، وقد وقع الشكّ بأذهان بعض المحققين في
أنّ ابن الوردي صاحب الجريدة الجغرافية هو ابن الوردي الذي نكتب ترجمته أو
غيره يسمى ابن الوردي أيضاً. وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية وقد طبعت
أرجوزته في النحو على الحجر بمدينة برسلار من بروسيا.

صلاح الدين الكتبي الحلبي

هو صلاح الدين محمّد بن شاكر الكتبي صاحب كتاب فوات الوفيات وهو
تمة وملحق الكتاب وفيات الأعيان لابن خلكان جمع فيه خمس مئة واثنين
وسبعين ترجمة من فوات ابن خلكان ذكرهم أو كانوا بعد وفاته إلى وفاة صلاح
الدين المذكور التي كانت سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م) وقد طبع كتابه ببولاق سنة
١٢٨٣هـ وقد ذكر له صاحب الكشف من التأليف كتاب «عيون التواريخ» في ستة
مجلّدات.

صلاح الدين الصفدي

هو خليل ابن إبيك بن عبدالله الصفدي الشافعي توفي بدمشق سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م) له كتاب «الوافي بالوفيات» . انتهى فيه إلى آخر سنة ٧٦٠ قبل وفاته بأربع سنين وهو كتاب حافل جمع فيه تراجم الأعيان ونجباء الزمان ممن وقع عليه اختياره فلم يغادر أحداً من أعيان الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والعَمَـال المحدثين والفقهاء والأولياء والصلحاء والنحاة والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب الملل والنحل والبدع وأعيان كل فنٍّ ممن اشتهر أو أتقن إلا ذكره (عن كتاب كشف الظنون). وله كتاب «دمعة الباكي ولوعة الشاكي» نظم ونثر طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٠ ثم ١٣٠٢ .

صدر الدين الدمشقي

هو صدر الدين أبي عبدالله محمد بن عبد الرحمان الدمشقي اشتهر سنة ٧٨٠هـ (سنة ١٣٧٨م) وله كتاب «رحمة الأمة في اختلاف الأئمة» طبع ببولاق سنة ١٣٠٠ .

محمود القدسي

ذكره المطران أسطفانس عواد السمعاني في فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ١٣٢)، وقال إنه ابن الشيخ فخر الدين، وأنه اشتهر سنة ٧٨٠هـ (سنة ١٣٧٨م) وإن له في هذه المكتبة كتاباً في طريقة الصلاة قسمه إلى مقدمة وعشرة فصول أولها في طهارة النفس والجسد.

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

قطب الدين محمود الشيرازي

ذكره أبو الفداء قال كان مولده بشيراز سنة ٦٣٤هـ (سنة ١٢٣٧م) وتوفي سنة ٧١٠هـ (سنة ١٣١٠م) وكان إماماً مبرزاً في عدّة علوم مثل العلم الرياضي والمنطق وفنون الحكمة والطب والأصولين. وله عدّة مصنفات منها «نهاية الادراك في الهيئة» و«تحفة السامي في الهيئة» أيضاً وشرح مختصر ابن الحاجب في الفقه، ومصنفاته وفضائله مشهورة.

شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب

ذكره ابن الوردي في تنمة تاريخ أبي الفداء فقال في تاريخ سنة ٧٣٣هـ (سنة ١٣٣٢م) مات الإمام المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب الشافعي بالقاهرة وله تاريخ في ثلاثين مجلداً كان ينسخ باليوم ثلاثة كراريس، وفضيلته تامة وعاش خمسين سنة. انتهى ما قاله ابن الوردي. وأظنّ أنّ شهاب الدين هذا هو الذي ذكره المطران أسطفان عواد السمعاني في فهرست الكتب المشرقية بالمكتبة الماديشية (صفحة ٤١) وسماه شهاب الدين أحمد الإمام الشافعي الذي تسميه العامة ابن النوري وأنه توفي سنة ٧٣٢هـ (سنة ١٣٣١م) وله تاريخ عمومي قسّمه خمسة أقسام. قال وقد رأيت نسخة منه في مكتبة باريس الملكية في عشرة مجلّدات وأنّ في المكتبة الماديشية المذكورة كتاباً جامعاً خلاصات من كتبه مقسوماً إلى أربعة وثمانين فصلاً ومدارها في أمور سياسية وأدبية وطبيعية وتاريخية وفصاحية، يؤيدها المؤلّف بشهادات فلاسفة العرب وأشعار شعرائهم ووضع فهرساً لفصول الكتاب المذكور الأربعة والثمانين، وجاء في كتاب اكتفاء القنوع أنّ النوري توفي سنة ٧٣٢هـ (سنة ١٣٣١م) وله كتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» وهو تاريخ كبير في ثلاثين جزءاً يطبع إلى الآن ومنه جزء محفوظ في الكتبخانة المصرية.

الصنهاجي صاحب الأجرومية

هو أبو عبدالله محمد بن داود الصنهاجي الأجرومي ولد سنة ٦٨٢ هـ (سنة ١٣٨٤م) وتوفي سنة ٧٢٣ هـ (سنة ١٣٢٣م). كذا ذكره المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور وهو مؤلف كتاب «المدخل في النحو» المعروف بـ«الأجرومية» نسبة إليه، وطبع الكتاب مراراً منها برومة سنة ١٥٩٢م وقد شرحه كثير من العلماء منهم خالد ابن عبدالله الأزهرى وحسن الكفراوي وغيرهما. والأجرومي نسبة إلى أجروم بلده.

أثير الدين أبو حيان النحوي المغربي

من ذكره ابن الوردي في تنمة تاريخ أبي الفداء، فقال إنه توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ (سنة ١٣٤٤م) وكان بحراً زاخراً في النحو وكان يستهزئ بالفضلاء من أهل القاهرة ويحتملونه لحقوق اشتغالهم عليه، وكان يقول عن نفسه أنا أبويات بالتاء يعني بذلك تلاميذه. وله مصنفات جلييلة منها «تفسير القرآن العظيم» وشرح «التسهيل» و«ارتشاف الضرب من ألسنة العرب» مجلّد كبير جامع ومختصرات في النحو وله نظم ليس على قدر فضيلته فمن أحسنه قوله:

وقابلني بالدرس أبيض ناعم وأسمر لدن أورثا جسمي الردى
فذا هزّ من عطفيه رمحاً مثقفاً وذا سلّ من جفنيه عضباً مهندا
ورثاه الصلاح الصفدي بقصيدة طويلة منها:

مات أثير الدين شيخ الورى فاستعزّ البارق واستعيرا
يا عين جودي بالدموع التي يروي بها ما ضمه من ثرى
مات إمام كان في علمه يرى إماماً والورى من ورا
عن كتاب حسن المحاضرة لجلال الدين السيوطي.

صفي الدين الحلي

هو عبد العزيز بن سرايا الحلي الملقب صفي الدين الحلي من شعراء المسلمين ولد سنة ٦٧٧هـ سنة ١٢٧٨م وهاجر من العراق بسبب الحروب والمحن إلى نادي الملوك آل ارتق أصحاب ماردن في الجزيرة. ونظم في مدح السلطان نجم الدين أبي الفتح تسعاً وعشرين قصيدة، كل منها تسعة وعشرين بيتاً، على حرف من حروف المعجم كل بيت يتندي وينتهي بذلك الحرف، ووسمها «بدر النحور في مدائح الملك المنصور» وبدعيته مشهورة وقد توفي سنة ٧٥٠هـ سنة ١٣٤٩م وطبع ديوانه في دمشق سنة ١٣٠٠ مع قصائده الارتقيات التي نظمها في مدح بني أرتق الأكراد (عن اكتفاء القنوع).

ابن هشام الأنصاري

هو عبدالله ابن يوسف بن هشام الأنصاري المصري له كتاب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» في عوامل الإعراب طبع بالقاهرة جزئين سنة ١٢٩٩هـ وعليه حاشية لمحمد الأمير (الذي توفي سنة ١٢٣٢هـ) ثم طبع هذا الكتاب ثانية بالقاهرة سنة ١٣٠٢هـ ويطلعه الطلبة بمدرسة الجامع الأزهر وعن مغني اللبيب أخذ المطران جرمانوس فرحات الشهير أكثر ما تضمنه كتابه الموسوم بـ«الفصل المعقود في عوامل الإعراب» والذي طبعه الشيخ الكونت رشيد الدحداح في آخر كتاب أحكام باب الإعراب عن لغة الاعراب للمطران المذكور. وللمغني أيضاً شرح آخر وضعه تقي الدين أحمد الشمني (الذي توفي سنة ٨٧٢هـ سنة ١٤٦٧م) وسمى شرحه «المصنف من الكلام على مغني ابن هشام» طبع بالقاهرة جزئين سنة ١٣٠٥هـ وعلى هامشه «تحفة الغريب بشرح مغني اللبيب» لمحمد بن بكر الدماميني. على أن شرح الدماميني هذا انتهى إلى حرف الفاء فقط. وقد توفي الدماميني سنة ٨٢٨هـ سنة ١٤٢٤م. ولمحمد غرفة الدسوقي أيضاً حاشية على مغني اللبيب طبعت جزئين بالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ وبهامشها متن مغني اللبيب. ولابن هشام أيضاً كتاب «شذور الذهب في معرفة كلام العرب» في النحو وهو مختصر وعليه شرح بيولاق

سنة ١٢٨٢هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وحاشية على شرح لمحمد عبادة العدو (توفي سنة ١١٩٣م) طبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٣ وهي مطبولة وحاشية أخرى لمحمد الأمين طبعت على هامش كتاب شذور الذهب بالقاهرة سنة ١٣٠٥.

ولابن هشام أيضاً كتاب «قطر الندى وبل الصدا» في النحو مع شرح له عليه طبع ببولاق سنة ١٢٥٣هـ سنة ١٢٨٢هـ وهو مختصر سهل العبارة وللسجاعي. توفي سنة ١١٩٧هـ) حاشية عليه طبعت ببولاق سنة ١٢٩٩ وبالقاهرة سنة ١٣٠٦ وله شرح معلقة كعب بن زهير بانت سعاد وله شرح «ألفية ابن مالك» سماه «أوضح المسالك إلى الفية ابن مالك» ويعرف بالتوضيح طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ ولخالد الأزهرى شرح على التوضيح سماه «التصريح بمضمون التوضيح». وقد توفي ابن هشام سنة ٧٦١هـ (سنة ١٣٥٩م).

أبو الضياء خليل بن اسحق المالكي

توفي سنة ٧٦٧هـ (سنة ١٣٦٥م) وله كتاب المختصر في الفقه على مذهب المالكية طبع بباريس مرات آخرها سنة ١٨٨٣م وهي أحسن طباعته بباريس وطبع بمصر مراراً وشرحه كثيرون، وأحسن هذه الشروح «الشرح الكبير على مختصر سيدى الخليل» لأحمد الدردير الذي توفي سنة ١٢٠٢هـ طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٣م مع حاشية عليه لمحمد الدسوقي الذي توفي سنة ١٢٣٠هـ طبع ثانية سنة ١٣١٠هـ. ولأحمد الدردير شرح آخر على متن له حذا به حذو متن أبي الضياء وسماه «أقرب المسالك إلى مذهب مالك» ويعرف بالشرح الصغير تمييزاً له عن الشرح الكبير لأبي الضياء وطبع الشرح الصغير بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ مع حاشية عليه لأحمد الصاوي المتوفي (سنة ١٢٤١) سماها «بلغت السالك لأقرب المسالك». ولأبي عبدالله محمد الخرشي الذي توفي سنة ١١٠٢هـ شرح على كتاب أبي الضياء طبع ببولاق سنة ١٢٩٩ ثمانية أجزاء ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ خمسة أجزاء وعلى هامش الطبعتين حاشية لعلي العدو الذي توفي سنة ١١٨٩هـ.

ابن عقيل

هو أبو محمد عبدالله بن عقيل المصري الهاشمي قاضي القضاة العلامة الناحي ولد سنة ٦٩٧هـ (سنة ١٢٩٧م) وتوفي سنة ٧٦٩هـ (سنة ١٣٦٧م). أشهر مصنفاته شرح ألفية ابن مالك وهو من أشهر كتب النحو وأقربها تناولاً وقد طبع مراراً بالقاهرة وبيروت، وقد ترجم العلامة ايتريسي الألماني الألفية مع شرح ابن عقيل لها إلى اللغة الألمانية، وطبع ترجمته في لايبسيك سنة ١٨٥٢م وقد وضع كثيرون شروحاً لشرح ابن عقيل ولآيات الشواهد التي ضمنتها شرحه منهم أحمد الحضري الدمياطي (الذي توفي سنة ١٢٨٨هـ)، وله حاشية على شرح ابن عقيل طبعت ببولاق سنة ١٣٠٢هـ وسنة ١٣٠٥هـ. ولعبد المنعم الجرجاوي المصري شرح شواهد ابن عقيل طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٥هـ وللسجاعي (الذي توفي سنة ١١٩٧هـ) شرح آخر لهذه الشواهد طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٨ وأعيد طبعه سنة ١٣٠٦. وللسجاعي أيضاً حاشية على شرح ابن عقيل برمته طبعت بالقاهرة سنة ١٢٩٨هـ وطبع محمد قطرة العدوى الفية ابن مالك وشرح ابن عقيل لها وآيات الشواهد مرتبة على حروف المعجم ببولاق سنة ١٢٦٤. وطبع خليل سرقيس نزيل بيروت شرح آيات الشواهد عن محمد قطرة المذكور وطبعه بمطبعة المعارف ببيروت سنة ١٨٧٢م.

ابن بطوطة

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي الملقب شمس الدين ابن بطوطة الرحالة المشهور ولد بطنجة من أعمال مراكش سنة ٧٠٣هـ سنة ١٣٠٣، ولما بلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة أخذ يطوف ببلاد العراق ومصر والشام واليمن والهند والأقطار الصينية والتتية وأواسط إفريقيا والأندلس ثم انتهى إلى المغرب وفيه أخذ يملئ على ابن جزي رحلته وسماها: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهي مشهورة وقد عني الفرنج بترجمتها إلى أكثر لغاتهم. وتوفي ابن بطوطة سنة ٧٧٩هـ (١٣٧٧م) وقد طبع رحلته من الفرنج المستشرقان ديغرمري

وسنغوينتي أربعة أجزاء بباريس سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٧ مع ترجمة فرنسية لها، وطبعت هذه الرحلة بمصر جزئين سنة ١٢٨٨هـ وطبع مختصر لها بالقاهرة بمطبعة حجرية سنة ١٢٨٧هـ.

السعد التفتزاني

توفي سنة ٧٩٢هـ (سنة ١٣٩٠م) له شرح على الايساغوجي بالمنطق وكتاب «تهذيب المنطق والكلام» طبع في لكانو بالهند دون ذكر لسنة الطبع وطبع مع شرح له في كلكتة سنة ١٢٤٣. ولعبدالله اليزدري شرح وحاشية على كتاب التهذيب هذا طبع في كانفور بالهند أيضاً سنة ١٢٩١هـ. وطبع بلكناهور بالهند مجموع بالمنطق، أوله «شرح للجلال الدواني على متن التهذيب» للسعد وله «شرح عقائد النفس في التوحيد» طبع بكلكتة سنة ١٢٦٠هـ وله كتاب سماه «النعم السوابغ في شرح الكلام النوابع» في اللغة طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٦هـ والكلم النوابع هو للزمخشري. وله كتاب في التصريف شرح لكتاب التصريف الفري الذي هو للزنجاني طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٣ وله «شرح تلخيص المفتاح» الذي لمحمود القزويني في المعاني والبيان سماه «المطوّل» وطبع في القسطنطينية سنة ١٢٦٠ ثم سنة ١٣٠٤م (أكثر ما رويناه في هذه التراجم الأخيرة ملخص عن اكتفاء القنوع بما هو مطبوع لادوار فان ديك).

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

عد ٩١٢

بطاركة انطاكية

فرغنا من الكلام على بطاركة انطاكية في القرن الثالث عشر، بذكر قول لكويان إنَّ هذا القرن انقضى وعلى كرسي انطاكية إما كيرلس الثالث وإما ديوانيسيوس الثاني وإما صفرونيوس. وقال هذا العلامة بعد ذلك ذكر السمعاني في جدول بطاركة انطاكية، يوحنا السادس ومرقس الاول قبل اغناطيوس الآتي ذكره، ولم أجد لهما ذكراً في كتب غيره، ولم أرَ من السداد ان اترك اسميهما.

ويظهر أنَّ اغناطيوس الثاني خلف مرقس الذي ذكره السمعاني، وأنه كان على كرسي انطاكية سنة ١٣٤٤م، حين كان شقاق البلاميين عند الروم، وحرّم ايسيدورس محدث هذا الشقاق في كتاب فاتحته، اغناطيوس برحمة الله بطريك مدينة الله انطاكية وسائر المشرق. وقد اشهر هذا الكتاب الاتيوس في مؤلفه في الكتب البيعية عند الروم. وعقد حينئذ مجمع التأم فيه اثنان وعشرون اسقفًا، ورأسه البطريرك القسطنطيني، وهذا البطريرك الانطاكي، فنبذوا ضلال المحدثين وحرّموهم. فتحاملوا على البطريرك اغناطيوس وأودعوه السجن وأذاقوه مرّ العذاب، بعد أن

أخذه من الدير الذي كان مقيماً به، وحبسوه في محل خفي حيث توفاه الله. ويقال إنَّ خصومه تركوا جثته فريسةً للكلاب والخنازير. روى ذلك يوحنا شيرسياتوس في كتابه فضائع البالاميين. ويظهر مما مرَّ أنَّ اغناطيوس لم يمت في انطاكية بل في نواحي القسطنطينية.

جاء في الجدول الواتيكاني: «أنَّ بخوميوس الاول اغناطيوس المذكور»، وكان بخوميوس متروبوليتاً على دمشق. ثم حط عن كرسيه وانتخب مكانه ميخائيل الاول سنة ١٣٧٠م. ويظهر أن كرسي انطاكية كان فارغاً سنة ١٣٦٧م لأنَّ البابا أوربانوس الخامس أنفذ هذه السنة، رسالة إلى البطاركة القسطنطيني والاسكندري والاورشليمي، يستحثهم بها على الاتحاد بالكنيسة الرومانية، ولا ذكر فيها للبطريرك الانطاكي. فينتج أنَّه لم يكن في تلك السنة بطريرك على انطاكية. ثم توفي ميخائيل الاول الذي انتخب مكان بخوميوس، فعاد لجوميوس ثانية إلى كرسي انطاكية، لكنه لم يمكث فيه طويلاً، إذ روى بعضهم أنَّ خليفته مرقس الثاني توفي سنة ١٣٧٨م.

والذي في جدول السمعاني أنَّ اغناطيوس الثاني المذكور، خلفه ميخائيل الاول، وميخائيل هذا خلفه مرقس الثاني ثم بحوميوس ثم نيلوس ثم ميخائيل الثاني الذي كان في أيام تيمورلنك، في بداية القرن الخامس عشر. انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي. ولا حاجة إلى القول أنَّ تاريخ هؤلاء البطاركة في هذا القرن أيضاً سقيم غامض ولا وسيلة لنا لإزالة غموضه والكشف عن حقيقته.

عد ٩١٣

بطاركة اورشليم في القرن الرابع عشر

فرغنا من الكلام على بطاركة اورشليم في القرن الثالث عشر، بذكر البطريرك تادى الفرمي. ويظهر أنَّ الذي خلفه في أوائل القرن الرابع عشر إنما هو صفرونيوس الثالث. فقد روى نيكوفور كاليستوس (في المجلد الثاني من تاريخه فصل ٣٩ في نقل الاساقفة) أنَّ صفرونيوس (الذي يظهر أنَّه خلف تادى الفرمي) توفي، فخلفه اثناسيوس اسقف قيصرية فيلبس (بانياس) فاقتحم على كرسيه جبرائيل برونلا ثم ترك جبرائيل هذا الكرسي طائعاً أو مكراً وعاد اثناسيوس وهو

الرابع بهذا الاسم الى كرسية. وروى بخميرس (في ك٧ في اندرونيكوس الملك الذي كان ملكاً سنة ١٣٠٨م). إنَّ اثناشيوس الاول البطريك القسطنطيني عزل اثناسيوس بطريك اورشليم عن كرسية لشكايات اوردها عليه جبرائيل برولا اسقف قيصرية فيلبوس، فأرجع البطريك القسطنطيني برولا مع قصاد من قبل الملك للتحقيق على تلك الوشايات في اورشليم، فعزل الفاحصون اثناسيوس وأقاموا جبرائيل برولا الشاكي مكانه. ولم يذكر بخميرس رجوع اثناسيوس، ولكن ذكره نيكوفور كاليستوس كما رأيت.

وقد روى يوحنا نتكوزان (ك٤ من تاريخه فصل ١٤)، إنه بعد وفاة اثناسيوس اجتمع الاساقفة في اورشليم، فانتخبوا العازر، فأتى إلى القسطنطينية ليثبته الملك اندرونيكس الثاني. وجاء في اثره جراسيموس الراهب وبعض مشايخه، فشكوا البطريك، فلم يقبل الملك شكاياتهم ولا يرأ ساحة البطريك، بل أمره ان يبقى بالقسطنطينية، ووجه وفداً إلى اورشليم ليستقصي جلية الامر من الاساقفة، وعرض حينئذ موت اندرونيكوس الملك سنة ١٣٢٣م. فعزل يوحنا البطريك القسطنطيني العازر المذكور عن بطريركيته ونصب جراسيموس عدوه، وأرسله بطريكاً إلى اورشليم، فشكاه الاورشليمون إلى السلطان بمصر فعزله وسار جراسيموس إلى مصر ليبرر نفسه مما تجنوا عليه به، فعاجلته المنية في الطريق وعاد العازر إلى كرسية في اورشليم. وأثبت رانيلدوس رسالة من البابا اوربانوس الخامس انفلدها سنة ١٣٦٧م الى العازر البطريك هذا وإلى البطريك القسطنطيني والبطريك الاسكندري يستحثهم بها على الاتحاد بالكنيسة الرومانية. وقد مرَّ آنفاً ذكر هذه الرسالة ومنها يظهر ان العازر بقي حياً في بطريركيته اورشليم الى سنة ١٣٧٦م. وقد قام بها منذ سنة ١٣٣٢ او سنة ١٣٣١م. ويظهر ايضاً من هذه الرسالة أنَّ هذا البطريك كان يرغب في الاتحاد بالكنيسة الرومانية ولا علم لنا يغير ذلك من اخبار هذا البطريك.

وقام بعد العازر صفرونيوس الرابع دوزيتاوس في جداوله بعد العازر، ثم قال في لكتاب السابع من تاريخ بطاركة اورشليم انه استمر في البطريركية ستاً وأربعين سنة. فقال لكويان لا اعلم كيف يصح ذلك لأنَّ العازر سالفه بقي حياً الى سنة ١٣٦٧م كما علمت من رسالة البابا المذكورة ودوروتاوس خليفة صفرونيوس. هذا يقال ان الملك يوحنا بالالوغوس اقره في البطريركية وهذا الملك تسنم منصة الملك

سنة ١٣٨٤م، وفي رواية أخرى سنة ١٣٨٧م وتوفي سنة ١٣٩١م، فكيف يصح القول انه دبر بطريركية اورشليم ستاً وأربعين سنة وهو كان بعد العازر وقبل دوروتاوس الآتي ذكره.

وكان بعد صفرونيوس الرابع دوروتاوس الاول ذكره دوزيتاوس في جدولته بعد صفرونيوس الرابع وقد أقره في البطريركية الملك الذي يقال انه كان يوحنا بالالوغوس. وقد منّا نقلاً عن لكويان أنه صير ملكاً سنة ١٣٨٧م او سنة ١٣٨٧م. وصير بعد دوروتاوس بطريكاً ابنه توافيلوس الثاني لأنه كان مزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدسة، فخلفه ابنه بعد وفاته وكان في أيام عمانوئيل الثاني بالالوغوس الذي رقي إلى سدة الملك سنة ١٣٩١م. وفي ١٣٩١م وفي أيام ابنه الملك يوحنا السابع بالالوغوس الذي شارك اباه في الملك سنة ١٣٩٩م فقد قال دوزيتاوس (في ك٧ في تاريخ بطاركة اورشليم فصل ٢٢) أنه قرأ في كتاب الميناوون المحفوظ باورشليم ما ملخصه: «إن ذلك الكتاب خط في أيام البطريرك دوروتاوس. والآن يدبر البطريركية توافيلوس ابنه على عهد الملك عمانوئيل بالالوغوس الشيخ وابنه الملك يوحنا».

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الرابع عشر

عد ٩١٤

محبوب بن قسطنطين مطران منبج اليعقوبي

ذكره المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (كتاب ٢٣٢ صفحة ٢١٣). فقال أن له تاريخاً عاماً ابتداءً فيه من سنة تجسد المخلص وأوصله إلى أيامه أي إلى القرن الرابع عشر. وضمنه ما جاء في

التاريخ المشهور الذي يستشهد به متواتراً العلماء من اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة بالمسيح، وهو حاوٍ تاريخ اليعاقبة من السريان والقبط والاحباش والارمن وزاد عليه ما يأتي:

أولاً: تاريخ اعمال الملوك الرومانيين وفهرست اسمائهم من اغوستوس قيصر الى اندرونيكوس الثاني بالالوغوس الذي خلف اياه ميخائيل بالالوغوس سنة ١٢٨٣م.

ثانياً: تاريخ الملل المشرقية أعني الروم الملكية والنساطرة والموارنة، وقد سُمي جميع هؤلاء هراطقة لخضوعهم للكنيسة الرومانية أو مخالفتهم بدعته التي هي اليعقوبية.

ثالثاً: تاريخ سبعة مجامع عامة وهي النيقوي والقسطنطيني والأفسسي الاول الذي عُقد لنبد تعليم نسطور، ثم الافسي الثاني الذي عقد خلافاً لاوطيخا، فإنَّ القبط اصحاب الطبيعة الواحدة يسلمون بهذا المجمع وينبذه سائر اليعاقبة وتحرمه الكنيسة الرومانية، ثم المجمع الخليكدونني الذي ذكره محبوب المذكور ونبذه وذكر بدلاً منه المجمع الافسوسي الثاني وسماه المجمع الرابع. ثم ذكر القسطنطيني ووصفه بالخامس ثم القسطنطيني ونعته بالسادس ثم بالقسطنطيني ووسمه بالسابع وقال أنه التأم خلافاً لمحاربي الصور مع أنَّ هذا المجمع عقد بنيقية لا بالقسطنطينية.

رابعاً: مختصر تاريخ المسلمين العرب والفرس والافريقيين والاسياويين والسوريين من تاريخ سنة ٩٣٣ لاسكندر أي سنة ٦٢٢ للميلاد إلى سنة ٧١٢ هجرية وهي سنة ١٣١٢ للميلاد التي بها كان ختام ما كتبه محبوب بن قسطنطين مطران منبج المذكور.

وقال المطران اسطفانس المذكور لا علم لي بنسخة أخرى لهذا الكتاب إلا هذه النسخة التي في المكتبة الماديشية، فهو اثر جليل جدير بالتعظيم وينبغي الاحتفاظ عليه. وقد خط على رقي في ١٢٧ صفحة بالعربية الفصحى والاحرف العربية وقد نسخه سعيد بن يوحنا ابن ابي البدر بن عبد المسيح اليعقوبي الرهاوي كما هو مدوّن في آخره.

عبد يشوع مطران صوبا

هو عبد يشوع الصوباوي النسطوري الذي استشهدنا مرات في هذا التاريخ بأقواله. وقد وضع العلامة السمعاني ترجمته في صفحة ٣٢٥ وما يليها من المجلد الثالث من مكتبته الشرقية الذي أفرده لقصيدته الشهيرة الآتي ذكرها ولشرحها وتذليلها. فقال ما ملخصه ان عبد يشوع المذكور اسم ابيه مبارك، وقد رقي أولاً إلى اسقفية سيغارا والعربية نحو سنة ١٢٨٥م ثم رقا بهب الله بطريك النساطرة الى متروبوليطية صوبا وهي نصيبين نحو سنة ١٢٩٠م وكانت وفاته في شهر تشرين الثاني سنة ١٣١٨. في أيام ثيموتاوس خليفة يهب الله المذكور وقد بين السمعاني اغترار ابراهيم الحاقلي ورينودوسيوس ومرهج بن نيرون الباني وغيرهم بعدم التفرقة بين عبد يشوع الصوباوي، هذا الذي كان في أواخر القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر وبين عبد يشوع الآخر الذي كان في أيام البابا بيوس الرابع في القرن السادس عشر وسار الى رومة فجحد بدعة النساطرة وأقر بالإيمان الكاثوليكي وصير بطريكاً على الكلدان الكاثوليكين. فبين الاثنين ما يزيد على قرنين وقد أقام السمعاني على ذلك براهين قاطعة وبيّنات دامغة. وكان الصوباوي الذي نكتب ترجمته طائر الشهرة بقلمه حائزاً أعلى مرتبة بين قومه وسائر السريان حتى يقال انه لا يضاهيه أحد في فصاحة الخطب التي كتبها بالسريانية نظماً ونثراً، وهو أشبه بملافة السريان افرام واسحق ويعقوب، لولا تلوثه بأضاليل النساطرة، مما يحط من قدر غزارة اقواله وطلاوة نسقه وسعة اطلاعه بالمباحث المقدسة.

وأما الكتب التي ألفها وصنّفها فكثيرة وقد عدّها هو بنفسه في آخر قصيدته التي جمع فيها أسماء المؤلفين ومصنفاتهم. فقال وأما الكتب التي الفتها انا الحقيق عبد يشوع مطران صوبا فهي كتاب «تفسير الاسفار المقدسة في العهدين القديم والجديد». قال السمعاني في شرح ذلك زعم هوتنجاوس ان تفسير الصوباوي هذا بالمعنى المجازي، وقد فاته ان توادوروس المصيبي ومن تبعه من النساطرة يأنفون من تفسير الاسفار المقدسة بالمعنى المجازي ومن العدول عن المعنى الحقيقي اليه. وقد ذكر عبد يشوع ان توادوروس المذكور الف خمسة كتب رداً على من يفسرون الكتاب بالمعنى المجازي، وهو أي عبد يشوع لم يشر في تفسيره البتة الى انه بالمعنى

المجازي وقد اغترَّ هوتنجاوس بكلمة **ܡܝܚܝܬܐ** من كلام الصوبايي مع ان هذه الكلمة عند السريان بمعنى نص الكتاب لا بمعنى مجاز. والكتاب الثاني من الكتب التي عزاها الصوبايي الى نفسه «الكتاب الجامع في التدبير العجيب» اي في تجسد المسيح وأعماله، والثالث كتاب يسميه «قصائد فردوس عدن» وترجم ابراهيم الحاقلي هذا الاسم بفردوس اللذات. وقال السمعاني من هذا الكتاب نسخة في المكتبة الواتيكانية أُخِذَتْ عن نسخة مدققة كانت في مكتبة الرهبان الموارنة الساكنين برومة حذاء كنيسة القديسين بطرس ومرشليينوس، وقد قسم الصوبايي هذا الكتاب المنطوي على خمسين قصيدة الى قسمين سمي الاول الحايي خمساً وعشرين قصيدة «احنوخ» وسمى الثاني ايليا. وادعى في المقدمة ان يرد على من قال أنَّ اللغة العربية افصح من السريانية والسبب منها لنظم الشعر، فردَّ كلامه السمعاني في شرحه له قائلاً: «لا يقول بتفضيل السريانية على العربية إلا من كان قليل الخبرة باللغتين». فالعربية أوسع وأغنى من السريانية بل من اليونانية أيضاً، وهي أفصح من جميع اللغات الشرقية، وربما كان المقام الاول للسريانية في ايام الملوك الاشوريين والكلدان. وأما الآن فأين هي من اللغة العربية. وضمن كلامه في هذه القصائد انواعاً كثيرة من البديع كما يقرأ طرداً وعكساً، وما التزم في قوافيه لزوم ما لا يلزم وغير ذلك من انواع البديع اللفضي كالتزامه في قصيدته الاخيرة حرف التاء في كل كلمة منها، ونهاية كل بيت بناء وألف. والكتاب الرابع من كتبه يتضمن مختصر القوانين. وقال السمعاني ان من هذا الكتاب في المكتبة الواتيكانية نسختين احدهما كتبت سنة ١٥٥٧م والثانية خطت ١٣٣٢م بعد وفاة المؤلف بأربع عشرة سنة. وهو مقسوم الى قسمين يتضمن الاول ما يتعلق بعامة الناس كالقوانين التي موضوعها الخطبة والزيجة وتقسيم الميراث والأحكام الشرعية والإيمان والآداب الخ. والثاني ما يتعلق باصحاب المراتب البيعية كالانتخابات والوظائف البيعية الخ.. وذكر السمعاني عنوانات كل من فصول هذا الكتاب.

والكتاب الخامس من كتبه في «اعمال الشاه» اي الملك مروان في خراسان وقد كتبه باللغة العربية. والسادس كتابه الذي وسمه **ܕܡܝܚܝܬܐ** أي كتاب «الدرة» أو الجوهرة في حقيقة الايمان. وقد ذكر الحاقلي هذا الكتاب في فهرست اسماء المؤلفين الذين استشهدهم في كتابه الانتصار لافيتشيوس. وقال أنَّ لديه منه نسختين: الاولى في مكتبة كنيسة الصليب الاورشليمي، والثانية في جملة

كتب ابراهيم الحاقلي. وقسم الصوباوى كتابه هذا إلى خمسة أقسام وفي كل منها عدة فصول، القسم الاول في الله وصفاته. الثاني في الخليقة او في خلق العالم، ومعصية آدم وسنن الله والانبياء كابراهيم وموسى ثم في النبوات المبشرة بتجسد المخلص. والثالث بتجسد المخلص في أحشاء العذراء وفي صحة الايمان المسيحي وحقيقته ثم في البدع ورد ما يعترض به اصحابها، وفي ان العذراء تسمى والددة المسيح بحسب زعم اصحاب بدعته لا والددة الله، ثم في الكنيسة. والقسم الرابع في اسرار الكنيسة وعددها سبعة اسرار: الكهنوت والمعمودية ومسحة الميرون أي سر التثبيت والقربان جسد المسيح ودمه ومغفرة الخطايا أي سر التوبة وأدخلوا مكان سر المسحة رسم إشارة الصليب ومكان الزبيجة الخمير المقدس. ثم تكلم على كل منها في فصل على حدة. ثم القسم الخامس وضمينه الكلام في ما يتعلق بالحياة الاخرى كتكريم ايام الآحاد والاعياد والصوم والصلاة والصدقة والقيامة والدينونة.

والسابع من كتبه **حدا وقاتل حقا وبفعله ههف وبهتلا**

ارتأى الحاقلي وهوتجاروس ان المعنى «كتاب الاسرار المحجوبة» في فلسفة اليونان وأصبح من ذلك ما قاله السمعاني من ان المقصود بالكلام المذكور كتابان: كتاب في اسرار البيعة وكتاب في فلسفة اليونان لأن عنوان النسخة الموجودة في المكتبة الواتيكية من هذا الكتاب **حدا وقاتل حقا وبفعله ههف وبهتلا** أي كتاب أسرار البيعة وفلسفة اليونان وإسقاط واو العطف في الشعر مباح. والثامن كتابه في «الجدل ودحض البدع». والتاسع كتاب «نظام الاحكام والسنن البيعية» اسهب به ما أوجز في كتابه مجموع قوانين المجامع المار ذكره. والعاشر من كتبه حوى اثنتي عشرة قصيدة ضمنها شروحات في بعض العلوم حاذياً حذو ابن العبري بشرحه بعض العلوم في قصائده. والحادي عشر مقالات في تفسير بعض الآيات المقدسة وخطب. والثاني عشر ديوان قصائد في موضوعات كثيرة ذكر منها السمعاني قصيدة في التغرب وقصيدة في الالفاظ المترادفة وبعض هذه القصائد أخذ عن كتابه فردوس عدن المار ذكره. والثالث عشر قصيدته التي بسط بها اسماء الكتاب مبتدئاً بموسى والانبياء إلى أيامه ولاسيما المؤلفون النساطرة. وقد شرح هذه القصيدة كثيرون منهم ابراهيم الحاقلي الماروني ثم العلامة السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية. ولعبد يشوع أيضاً تفسير رسالة ارسطو الى اسكندر الكبير في

الصناعة العظمى وهي الكيمياء وله أيضاً رسائل متنوعة. وذكر له عمرو بن متى رسالة عربية في التثليث والتوحيد والتجسد وله مقالة في بعض المباحث المشككة، ومقالة أخرى في الانغاز والمعميات والامثال (انتهى ملخصاً عن السمعاني في المجلد ٣ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٢٥ الى ٣٦١).

عد ٩١٦

دانيال الكاهن وخامس بن القرداحي

أما دانيال فهو كاهن سرياني يعقوبي، كان في هذا القرن الرابع عشر وله كتاب مجموعة القوانين، حذا به حذو ابن العبري. وقد ذكره ابراهيم الحاقلي الماروني في كتابه الموسوم بالانتصار لافتيشوس، فقال هو العالم دانيال السرياني اليعقوبي المذهب، ألف كتاباً موجزاً في قوانين اليعاقبة باللغة العربية يشتمل على سبعة عشر فصلاً ١ في الكنيسة ٢ في العماد ٣ في القربان ٤ في الاصوام والاعياد ٥ في الصلوات ٦ في تجنيز الاموات ٧ في مراتب الكهنوت ٨ في الوصايا ٩ في قسمة الموارث ١٠ في البيع والشراء ١١ في الرهن ١٢ في الشركة ١٣ في الوديعة ١٤ في العارية ١٥ في الهبات ١٦ في الوقف ١٧ في الكبائر اي الخطايا ويظهر انه اختصر كتاب موجز القوانين لابن العبري، لان دانيال اختتم كتابه بقوله: «فهذا ما سمح به الخاطر من اختصار بعض ابواب القوانين البيعية والاحكام العالمية. ومن اراد الاستقصاء في ذلك، فعليه بمطالعة كتاب الهدايا لشيخنا المقيريان». يريد غريغوريوس بن العبري. وقد ترجم دانيال أو اختصر غير كتاب الهدايا من تأليف ابن العبري وقد شهد بذلك داود الحمصي في حاشية علقها على كتابه في القوانين الذي كان قبلاً لابراهيم الحاقلي. ثم اتصل الى السمعاني وهذا قوله في تلك الحاشية: «قال داود الحمصي ان ملة السريان كان قد فني عملها علومها إلى ان ظهر المطران يوسف بن غريب وله كتب مصححة، وكذلك الريان يشوع بن حبرون، وبعدهم الشيخ المرحوم دانيال وله من المصنفات عدة كتب، وهي كتاب «أيتيقون» (أي في الادبيات) وكتاب «أوصر رازي» (كنز الاسرار) وكتاب «اصول الدين» وكتاب «صححي مختصر» (أي مختصر صححي ابن العبري). وكتاب «ايساغوجي مختصر» وكتاب «هدايا» وهو هذا وغيرها». وقد زيد على كتاب

القوانين لدانيال المذكور ستة وعشرون قانوناً من تأليف يوحنا بطريرك اليعاقبة ذكرها داود الحمصي المذكور.

أما خامس بن القرداحي او الحداد فهو شاعر نسطوري كان في أواخر القرن الثالث عشر وبداية هذا القرن. وكان بعد ابن العبري الذي توفي سنة ١٢٨٦م لأنه شطّر أو ختمس بعض قصائده وله ديوان بالسريانية في المكتبة الواتيكانية وهو الثاني والثلاثون من الكتب السريانية نسخ سنة ١٨٨٩ لاسكندر الموافقة سنة ١٤٧٨ للميلاد. وفي اول صفحة منه قصيدة لابن العبري في الامور الالهية وكمال سيرة المجتهدين بالحكمة شطّرها خامس بن القرداحي. وقد اشتمل هذا الكتاب من صفحة ٦٢ الى صفحة ٢٤٨ على اغاني وقصائد ثم على قصيدة في الدينونة العامة. روى ذلك العلامة السمعاني في مجلد ٣ في المكتبة المشرقية صفحة ٥٦٦. وذكر في المجلد الثاني صفحة ٤٨٩ قصائد العالم خامس بن القرداحي، فقال له من القصائد الادبية ست عشرة قصيدة وله في موضوعات مختلفة خمس عشرة قصيدة، وفي الصوم قصيدتان، وفي الاستعداد لتلاوة الانجيل قصيدة، عند زيارة الابرشية قصيدة، وعدة قصائد لتتلى في آحاد السنة.

عد ٩١٧

تيموتاوس الثاني بطريرك النساطرة واغناطيوس بن رهيبي بطريرك اليعاقبة اما تيموتاوس فصيّر بطريكاً على النساطرة في سنة ١٣١٨م. وكان قبل ذلك مطران الموصل وأربيل، ومن اثاره اثباته القوانين البيعية في كنيسته. ذكر ذلك عبد يشوع الصوبواي في كتابه في القوانين وله كتاب في اسرار الكنيسة اتى يوسف الثالث بطريرك الكلدان بنسخة منه الى مجمع نشر الايمان المقدس، كتبت باورشليم سنة ١٦١٣م. وفصل السمعاني (في مجلد ٣ من المكتبة الشرقية ٥٧٢ وما يلي) ما اشتمل عليه هذا الكتاب وبدؤه الفصل الاول في الكهنوت، والفصل الثاني في تكريس الكنيسة، والثالث في المعمودية، والرابع في جسد المسيح ودمه المقدسين وقال فيه إنّ الامثل فيه تقديس الخبز خميراً، وإن الرسل استعملوه كذلك، وإن مزيج الماء بالخمّر لازم، الخامس في الكمال الرهباني، والسادس في تجنيز الموتى، والسابع في الخطبة والزواج. وفي كل هذه الفصول عدة أجزاء (عن المكتبة الشرقية مجلد ٣ صفحة ٥٧٦)

وأما أغناطيوس وهو يوسف بن وهيب فكان أولاً اسقفاً على ماردين ثم رقي إلى المقام البطركي على اليعاقبة سنة ١٢٩٣م وتوفي سنة ١٣٣٢م، وسمي حينئذٍ أغناطيوس وتابعه خلفاؤه على التسمية باسم اغناطيوس. وله مقالة مسهبه في تفسير الحروف السريانية وكتاب مشبع في الفاظ هذه اللغة، وألف نافوراً منه نسخة في الكتاب الرابع من الكتب السريانية المأثري بها من الاسقيط إلى المكتبة الواطيكانية يتدئ في صفحة ٦١ منه، وفي الكتاب الخامس منها أيضاً صفحة ٢١. وفتحة هذا النافور **الله الله الله الله** ايها الاله المحتجب وغير المدرك. وترجمة رينودوسيوس إلى اللاتينية في المجلد الثاني من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٥٨٢. وقد ذكره البطريك اسطفانس الدويهي في كتابه «المناثر العشر» عدد ٨ في مؤلفي النوافير غير الكاثوليكين، فقال اغناطيوس وهو يوسف بن وهيب له شرح على القداس ونافور بدؤه **الله الله الله الله** ايها الرب الاله القوي والذي لا يدرك واستدرك السمعاني على الاهدني بأن النافور الذي هو بدؤه ليس لاغناطيوس المذكور بل لفيلوكسينوس المنبجي كما يظهر من الكتاب الرابع من الكتب المأثري بها من الاسقيط صفحة ٦١٦ ومن الكتاب الخامس منها صفحة ١٨٥ ومن المجلد الثاني من كتاب رينودوسيوس المذكور صفحة ٣١٠ (عن المكتبة المشرقية مجلد ٢ صفحة ٤٦٤).

عد ٩١٨

عمر و بن متی

هو عالم نسطوري اشتهر نحو سنة ١٣٤٠م ويظهر من أحد اقواله انه بقي حياً الى سنة ١٣٤٩م، وقد ذكره عبد يشوع الصوبايي الذي توفي سنة ١٣١٨م وظنه بعضهم ماري بن سليمان وهو عالم آخر نسطوري كان في القرن الثاني عشر، وألف كتاباً عربياً سماه المجلد، وذكر فيه سلسلة بطاركة النساطرة. والف عمرو بن متى كتاباً آخر سماه المجلد ايضاً وذكر سلسلة البطاركة المذكورين عن ماري مع شرح لها وزيادة عليها فنشأ الوهم بعدم التفريق بين هذين العالمين مع ان كتاب المجلد لماري بن سليمان قسمه الى سبعة ابواب وثلاثين فصلاً وكتاب المجلد لعمر بن متى قسمه الى خمسة اجزاء. وكان العلامة السمعاني قد اغتر بشهادة ابي

البركات في فهرست المجلد الثاني من المكتبة الشرقية كتاب المجلد للماري بن سليمان الى بن متى وبين أبوابه السبعة. ثم انتبه الى اغتراره في المجلد الثالث عند كلامه على عمرو بن متى فأصلح ما فرط منه وذكر خلاصة كل من الكتابين معدداً الابواب والاجزاء والفصول فيهما وعنواناتهما.

وبما ذكره في خلاصة كتاب عمرو المسمى المجلد وهو خمسة اجزاء، الجزء الاول ساقط من نسخته التي في المكتبة الواتيكانية، الجزء الثاني فيه خمس مقدمات وثمانية فصول المقدمة الثانية في تعريف امر المشاركة كيف صاروا يلقبون نساطرة ومن الذي رمى بهم عليهم اسم نسطور، فبطريك القسطنطينية وهو رجل يوناني وهم سريان ولم يكونوا رأوه البتة ولا طرق بلادهم المقدمة الخامسة في معنى الاتحاد والنبوة الفصل الاول في ان الشرق اشرف الجهات. الفصل الثاني في بيان ان مبدء البناء والعمارة في الدنيا كان في الشرق، ومنه امتد الى سائر الجهات الاخرى، الفصل السادس في بيان ان الاصل الاول في معرفة الله تعالى والايمان به وظهور الناموس والكهنوت والميعاد بالمسيح إنما كان من الشرق. الفصل السابع في بيان أن من الشرق كان ابتداء ظهور البشارة بسيدنا يسوع المسيح والايمان به. الفصل الثامن في تلمذ الرسل الاطهار للافاق والبلدان، الجزء الثالث في ذكر البطارقة والملوك وما كان في أيامهم منذ صارت المملكة للنصارى مبتدئة من الملك قسطنطين ثم في معنى الصور واکرامها ثم في ترتيب بعض الصلوات بالتراتيل والالحان. الجزء الرابع ويشتمل على ذكر الملل والآراء والاعتقادات وعدد المجامع وفيه سبعة فصول: الاول في ذكر الملة اليهودية والانبياء والملوك وما كان في ايامهم، الثاني في ذكر الملة السامرية، الثالث في ما حدث قديماً في بلاد الروم واليونان من الآراء والاعتقادات، الرابع في ذكر المذاهب والآراء الكائنة ببلاد الروم واليونان بعد تلمذ الرسل، الخامس في ذكر الهيكل المبني على اسم ميكائيل مما ذكره الانبا اوتيشيوس الملكي بطريك الاسكندرية المعروف بسعيد ابن البطريق، السادس في ذكر ان المشاركة من قديم الزمان الى الان كانوا غير محتاجين الى جمع مجمع لأجل اصلاح ما تغير من قواعد الدين، السابع في عدد المجامع. الجزء الخامس يشتمل على سبعة اصول وخاتمة وأخص ما ذكره في هذا الجزء الكلام في الرسل الاثني عشر، وبعض التلاميذ السبعين، وبطاركة الشرق ومطارينهم وكراسيهم، وما وضعه الآباء الشرقيون ولا سيما ما ذكره اليا بطريك الشرق في كتابه البرهان في تصحيح الايمان وجيورجيوس

مطران الموصل في كتابه امانة المشاركة، ومكيخا بطريرك الشرق في مقالته وميخائيل اسقف امد وميافارقين وعبد يشوع مطران نصيبين (هو الصوباوي) في مقالته في التوحيد والتثليث وفي الحلول والاتحاد وفي توبيخ اليهود على ما يبتدعونه واطهار بهتهم ووجوب نسخ الشرائع القديمة وامتناع نسخ شريعة المسيح. وما ذكره في الاصل الرابع من هذا الجزء ما اتفق عليه فرق النصارى في الاتحاد والرد على من يقول ان النساطرة يقولون بابنين. فهذه خلاصة كتاب المجلد اي البرج لعمر بن متى (عن السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية ٥٨٠ وما يليها). وقد انتقد السمعاني كلام عمرو في كتابه هذا في عدة مواضع في المكتبة الشرقية.

عد ٩١٩

مشاهير آخرون في هذا القرن

جبرائيل اسقف الموصل

ذكره السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية صفحة ٥٦٦ فقال انه كان مطراناً على النساطرة في الموصل سنة ١٢٨٢م، وتوفي سنة ١٦٢٩ يونانية الموافقة سنة ١٣١٨ للميلاد وله قصائد سريانية وهو راهب في دير سبر يشوع تكلم فيها على خلق العالم وعلى التجسد والقضاء وتبشير الرسل وضمن تقاريط للآباء والعلماء البيعيين وكتب ترجمة سبر يشوع صاحب الدير المذكور وديوان مثبت في الكتاب الثاني والثلاثين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٣٣ وفي الكتاب السابع منها.

نيقوفور كاليستوس

هو راهب يوناني كان في هذا القرن الرابع عشر وتوفي سنة ١٣٥٠م وله تاريخ ابتداء فيه من سنة ميلاد المخلص وضمنه في ثلاثة وعشرين كتاباً، ولما كان من الروم غير المتحددين انكر في كتبه انثاق الروح القدس من الآب والابن وقد انتقد العلماء كتبه في مواضع كثيرة وبينوا ان فيها بعض الحكايات والاقاصيص.

توادورس القاري

كان هذا قارئاً في كنيسة القسطنطينية وكتب تاريخاً يبعاً أملاه عليه نيقفور كاليستوس وابتدأ فيه من تاريخ وفاة توادورس الصغير وانتهى في تاريخ سنة ٥١٨ وقد اشتهر توادورس هذا سنة ١٣٢٠م.

نيقفور كراكوراس

كان في هذا القرن ايضاً وكتب تاريخ بيزنطية اي القسطنطينية في احد عشر كتاباً وابتدأ من سنة اخذ الفرنج القسطنطينية إلى سنة ١٣٦١م وقد ترجم تاريخه هذا الى اللاتينية العالم ايرونموس فلوفليوس.

ملحق

تاريخ الموارد في القرن الرابع عشر

عد ٩٢٠

ما نعلمه من حالة الموارد الدنيوية في هذا القرن

كانت في السنين الاولى من هذا القرن الحروب التي فتح بها عمل كسروان وقد ألحقنا اخبارها بتاريخهم في القرن الثالث عشر متابعه، لثلا نقسم الكلام على هذه الحروب في تاريخ قرنين فليطالعهها هناك من شاء.

وقل ما علمنا من تاريخ حالهم الدنيوية في هذا القرن، فجعل ما علمناه انهم شرعوا يسمون حكام اعمالهم او قراهم الكبيرة مقدمين بدلاً من تسمية حكام الاعمال امراء. وجاء في اخبار الاعيان (ص ١٠٩) للمرحوم طنوس الشدياق انه في

سنة ١٣٧٥ م توفي غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة، ولم يخلف ولداً ذكراً فورثته ابنته. زوجة جرجس الملقب بالشدياق. ولم يذكر المؤلف مسنداً لهذا الخبر ولم يروه البطريق اسطفانوس الدويهي في تاريخه فيتعذر علينا القطع بصحته.

وروى البطريق الدويهي عن ابن سباط انه في سنة ١٤٨٨م جهز الملك الظاهر برفوق العساكر المصرية لمقاتلة الناصري ومنطاش فجمع هذان عساكر الشام والعرب والتركمان وأهل كسروان والجرديين وجرت بينهم حروب، فانتصر منطاش والناصرى على عساكر مصر وهزموها. وفي اثناء ذلك انتشب القتال بين امراء الغرب وبين عشرين (فسر بعضهم هذه اللفظة بمعنى المتطوعين ونظن انها جمع العاشر وهو من يؤمن المارة من اللصوص) البر اهل كسروان والامراء اولاد الاعمى من تركمان كسروان. وكان امراء الغرب من حزب الملك الظاهر برفوق والكسروانيون من جهة ارغون نائب منطاش ببيروت فاستظهر اهل كسروان على امراء الغرب وقتلوا منهم نحواً من تسعين شخصاً وأمسكوا جماعة منهم وقتلوا بعضهم ونهبوا ما وجدوا لأمراء الغرب في بيروت وأحرقوا عدة قرى من الغرب منها عين عنوب وعيناب وشملان وعيتات وغيرها. وبعد ان عاد الملك الظاهر الى السلطنة (كما مر) وجه عساكره الى تركمان كسروان (ويروى قصدت العساكر طومان شيخ التركمان حاكم كسروان) وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل في جورة منطاش بزوق ميكائيل فقتل من التركمان الامير علي واخوه الامير عمر ابنا الاعمى وجماعة كثيرة ونهبوا زوق ميكائيل.

فذكر أهل كسروان والجرديين بعد ذكر التركمان يدل دلالة صريحة على ان الكسروانيين المذكورين هنا ليسوا من التركمان سكان سواحل كسروان بل من الموارنة الذين كانوا قد استمروا بكسروان بعد الفتح او كانوا قد رجعوا اليه بعد خرابه إذ كان قد مضى بعد الفتح اكثر من ثمانين سنة.

وروى الدويهي في تاريخ هذه السنة ان الملك الظاهر لما كان معتزلاً عن السلطنة أقام الشدياق يعقوب بن ايوب مقدماً على بشري وكتب له ذلك بصفيحة من نحاس. وقد ذكر هذا الخبر صاحب الغرر وروى العبارة الاخيرة. وكتب له صفيحة بختمه ان يكون شيخاً. ثم حل الملك الظاهر بدير قنوين وكان رئيسه كاهناً اسمه القس بطرس، فاحسن استقباله فعفا الدير من الاموال الاميرية وجعل له

التقدم على جميع اديار تلك النواحي وكتب ذلك على صفيحة نحاسية. وفي كتاب الغرر اعطاه بذلك خطأ. ولما عاد الملك الظاهر إلى الكرك وكان البطريك داود الذي دعي يوحنا مقيماً بدير مار سركيس القرن بأرض حردين فجعل القس بطرس المذكور اسقفاً واسكنه دير قنوين.

عد ٩٢١

بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر

إن آخر من ذكرناهم من بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر هو سمعان الخامس الذي صير بطريكاً في آواخر القرن المذكور واستمر على السدة البطريركية زماناً طويلاً حتى سنة ١٣٣٩م. فقد علمنا انه كان بطريكاً سنة ١٣٢٢م من حاشية علقها الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس شامات (وفي تاريخ الموارنة المطبوع، وفي سلسلة بطاركتهم المذاعة في الشرق قنات بدلاً من شامات) على كتاب الانجيل الذي نسخه بالاحرف السطرنكية على رق سنة ١٣٢٢م قال فيها: «كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب في ايام ايونا البطريك سمعان الجالس على كرسي انطاكية. وفي ايام بطرس رئيس اساقفة بشري سنة ١٦٣٣ يونانية» (توافق سنة ١٣٢٢م) قال الدويهي هذا الكتاب محفوظ في دير مار ميخائيل شاريا بقرية عينتورين وعلمنا من حاشية اخرى علقها القس يعقوب رئيس دير مرت مورا باهدن على كتاب الانجيل الذي بكنيسة بجة من بلاد جبيل انه كان الفراغ منه سنة ١٣٣٩م في أيام البطريرك شمعون (سمعان) وبطرس مطران اهدن.

وبعد وفاة البطريك سمعان انتخب مكانه يوحنا وهو التاسع بهذا الاسم. روى ذلك لكويان نقلاً عن الدويهي سنداً إلى ما كتب على كتاب قديم بكنيسة القديس سركيس بحدشيت بالسريانية وهذه ترجمته :

كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب سنة ١٣٥٧ للتاريخ المسيحي في ايام سيدنا المختار يوحنا بطريك انطاكية وجبل لبنان وسواحل البحر وفي ايام يوحنا مطران قبرص».

وروى البطريك الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٧م ان يعقوب اسقف اهدن

كتب في ذيل كتاب الانجيل الذي خطه سنة ١٦٧٧ لاسكندر (توافق سنة ١٣٦٧م المذكورة) انه في هذه السنة قصد ملك الاسكندرية بجيشه قتل رجالها وأسر صغارها ونهب اموالها. فغضب سلطان المسلمين على النصارى وأمسك رؤساء الكنيسة وحبسهم بدمشق. وكان الاسقف المذكور في جملتهم فتمكن من الهرب. وكتب هذا الكتاب وهو مستتر. وقال الدويهي ان هذا الكتاب محفوظ بدير قنوين وهو سبعة وعشرون كراساً بالخط السرياني والكرشوني وقد ذكر الدويهي هذا توطئة لقوله التالي: «وفي هذه السنة كان على الكرسي الانطاكي البطريرك جبرائيل واستتر حين الاضطهاد بقرية حجولا من عمل جبيل، فكتب نائب دمشق بسببه إلى نائب طرابلس، وعند ما علم انه في حجولا قبض على اربعين رجلاً من هذه القرية وأمرهم باحضاره فاحضروه وأمر بحرقه في اول نيسان خارج طرابلس عند جامع طيلان». انتهى كلام الدويهي في تاريخه على ما في النسخة التي عندنا. وفي النسخة التي أخذ عنها المعلم رشيد الخوري الشرتوني تاريخ الموارنة مقتطفاً عن تاريخ الدويهي ثم في سلسلة بطاركة الموارنة التي نشرها في مجلة المشرق.

على أننا قد رويناه في تاريخ بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر نقلاً عن لكويان في مؤلفه الشرق المسيحي، وعن صاحب الكتاب الموسوم بـ«سورية المقدسة» ان البطريرك جبرائيل من حجولا صير بطريركاً سنة ١٢٩٦م. واستشهد بطرابلس سنة ١٢٩٦م ولكويان اعتمد في سلسلة بطاركة الموارنة على الدويهي، لكنه قد استدرك كلامه في هذا البطريرك وذكر ما يظهر انه يخالف ذلك. وهو ما رواه السمعاني عند ذكره (في المكتبة الشرقية مج ١ صفحة ٥٧٧) كتاباً لجبرائيل القلاعي الذي روى فيه استشهاد هذا البطريرك. وقيل هناك انه كان سنة ١٣٦٧م. وترك لكويان حل هذا المشكل لعلماء الموارنة فنحن عند كلامنا في هؤلاء البطاركة في القرن الثالث عشر رجحنا صحة رواية لكويان وصاحب سورية المقدسة ان جبرائيل هذا كان في آخر القرن الثالث عشر خاصة لعلمنا باعتماد لكويان على سلسلة بطاركة الموارنة للدويهي مترجمة الى اللاتينية، وهي أصح من نسخها العربية وأسلم من التحريف. ونرى الآن لكويان في كلامه على بطاركة الموارنة في هذا القرن لم يذكر جبرائيل بل ذكر داود المسمى يوحنا خليفة ليوحنا التاسع الذي قدسنا ذكره، وعزا ذلك الى الدويهي ايضاً. فلم يكن لنا حتى الآن يدان في حل هذا المشكل. في آخر القرن الثالث عشر كان جبرائيل ام بعد نصف القرن الرابع عشر! ويزيد المسألة ارتباكاً

قول الدويهي في الفصل التاسع من رد التهم: «ان البطارقة مثل البطريرك لوقا من بنهران والبطريرك جبرائيل من حجولا ونظائرهما بتلك السنين ما استطعنا ان نقف لهم على خبر في كتاب ولا نعرف بأية سنة كانوا لعدم وجود تاريخ وانشغال الناس في تلك الايام بالحروب، فاكتفينا بإيراد ما علمناه من الاقوال في هذه المسألة دون القطع بصحة احدهما. ولا مزية في ان جبرائيل من حجولا كان بطريركاً على الموارنة وقتل في طرابلس والاختلاف على الزمان فقط.

روى لكويان انه بعد وفاة يوحنا التاسع خلفه داود الثاني ويسمى يوحنا أيضاً. وكان ساكناً بدير القديس سركيس في حردين، وهذا يظهر مما علقه الخوري دانيال من قرية بان على الكتاب الذي نسخه سنة ١٢٩٧م وهو: «كان النجاز منه سنة ١٧٨٠ يونانية (توافق سنة ١٣٩٧م) على يد الخوري دانيال ابن الحاج سمعان من قرية بان على زمان البطريرك داود المكنى يوحنا القاطن بدير مار سركيس القرن بأرض حردين، وكان بطرس مطراناً على دير قنوين». ويستفاد من خط آخر كتبه كيرلس مطران جاج والخوري اليشاع الناسك والشماس موسى المارديني ان هذا البطريرك استمر الى سنة ١٤٠٤م التي كان فيها بطرس مطراناً هلى اهدن.

وقد زعم جبرائيل بن القلاعي ان هذا البطريرك طغاه حبيس اسمه اليشاع جال في بلاد اليعاقبة، وعند عودته ادخل في جبل لبنان رتبة جديدة وخلط الزيت بالقربان المقدس، فاغتر البطريرك بهذا الضلال حتى ابدى قسوة زائدة على رؤساء الكهنة الذين خالفوه، فوقع الخلف في الرعية وانقسموا حزبين. ذكر ذلك البطريرك الدويهي في الفصل العاشر من كتابه رد التهم عن الموارنة، وقال ان البطريرك الذي كان في عصر اليشاع الحبيس المذكور هو البطريرك داود المسمى يوحنا ايضاً الذي سكن في دير القديس سركيس بحردين، وكنا قبلاً نظن فيه انه بسبب تعليم اليشاع الحبيس وبسبب مجاورته لبعض اليعاقبة المقيمين بحردين تبع راي يعقوب وغير اسمه ودعا نفسه يوحنا، وأنشأ الاضطهاد على الملة المارونية وعلى رؤساء كهنتها، فقاومه اهل جبة بشري وبلاد جبيل ورؤساء الاساقفة ولم يزيفوا عن الايمان القديم. ولكن لما بحثنا بحثاً شافياً عن هذه الامور تحققنا ان ظننا كان بعيداً عن دائرة الصواب، وتأكدنا ان الحبيس اليشاع كان رجلاً ناسكاً واتضح لنا من الكتب التي عثرنا عليها بخطه انه كان من قرية الحدث، وانه درس على فرح خوري قرية

وسي ثم صار حبيباً وكاهناً في محبسة القديس سرقيس بقرية الحدث. ولم نجد في الكتب التي شرع في كتابتها منذ سنة ١٧٠٢ لاسكندر (سنة ١٣٩١م) تعليماً جديداً ولا قولاً محدثاً. وإن صحَّ ما رواه عنه ابن القلاعي من خلطه الزيت القربان فيكون ذلك خطأ محرماً، لكنه ليس بضلال يخالف الايمان لأنه لم يعلم ن ذلك لازم بل كان مقصوراً على عمله. والذي يتبادر الى الفهم انه كان يدهن لقالب بالزيت لئلا يلتصق به خبز القربان كما ندهنه الآن بالشمع وهذا لا لوم عليه بعمله وكانت القوالب في ذلك الحين مجوفة.

لقد وقفنا على كتب كثيرة كتبت في ايام البطريك داود المذكور فتحققنا منها نه سمي يوحنا منذ صير بطريكاً. وقال الخوري دانيال الباني في الكتاب الذي خطه سنة ١٣٩٧م في ايام البطريك داود المسمى يوحنا وقدمنا هذا الخط. وكذلك ذكر المطران كيرلس الجاجي هذا البطريك في الكتاب الذي نسخه سنة ١٧١٢ لاسكندر (سنة ١٤٠٤م). ودعاه الاب البطريك يوحنا ولم يطعن به. وذكره ايضاً لمطران يعقوب اللحفدي في ذيل كتاب «الناموس» الذي نسخه للمطران داود لحدشيتي فقال: «وكان الفراغ من كتاب الناموس هذا سنة ١٧١٣ من ملك سكندر بن فليس اليوناني (وهي سنة ١٤٢٠م) وهو برسم الاخ المغبوط المنتخب لله تعالى المطران داود بن جوسلين من قرية حدشيت وفي ايام ابينا ومعلمنا وسيدنا مار يوحنا المنتخب لله تعالى المؤيد بالمسيح والقاطن في دير مار سرقيس القرن بقرب حردين رحمن الرب ببركة صلواته المقدسة بشفاة السيدة ام النور وجميع لقديسين آمين».

وقال الدويهي وهذا الكتاب هو محفوظ الى الآن عندنا بدير قنوين وهو برسم اخينا المطران يوسف الحصري.

واختتم الدويهي كلامه بقوله يتبين من هذه الشهادات وغيرها أضر بنا عن ذكرها ان هذا البطريك كان يسمى وقتاً يوحنا وآخر داود يوحنا وانه كان ذا ايمان قويم ولو كان قد زاغ عن محجة الايمان الصحيح ما كان ذكره المطران كيرلس والمطران يعقوب وسمياه ابانا. وما كان وصفه المطران يعقوب بانه بار ومُنتخب لله ومؤيد بالمسيح ولا طلب من الله ان يرحمه ببركة صلاته المقدسة ولو كان البطريك المذكور، وقد عامل على قتل كهنته كما تجنوا عليه ما كان قرظه هؤلاء الاساقفة

الذين كانوا في ايامه وفي جملة اساقفته بهذه المدائح والنعوت السامية على ان الاضطهاد الذي جرى على بعض رؤساء الكهنة لم ينزله بهم بطريك بل هو ما قدمنا ذكره في هذا الفصل بسبب حملة ملك قبرص على الاسكندرية وقتل اهلها ونهب اموالهم.

عد ٩٢٢

من عرفناهم من اساقفة الموارنة بهذا القرن

الاول بطرس اسقف بشري ذكره البطريك الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٥م. قال انه كان قاطناً ومرتساً على دير مار اليشاع بوادي نهر قاديشا، ومن ذلك يظهر ايضاً ان هذا الدير قديم وكان يسكنه رهبان واساقفة قبل ان يأخذ السكنى به الرهبان الحلبيون مؤسسو الرهبنة اللبنانية. ثم ذكر الدويهي المطران بطرس المذكور في تاريخ سنة ١٣٢٢ سنده الى ما كتبه الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس من قنات على كتاب الانجيل الذي كان محفوظاً في دير مار ميخائيل شاريا بعنتورين.

الثاني بطرس اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٣٩م. فقال ان الاحداث التي ذكرها في تاريخ تلك السنة كانت في ايام رئاسة بطرس اسقف اهدن والقس سرقيس رئيس دير مورت مورا باهدن ويظهر من هذا ايضاً ان دير مورت مورا باهدن هو اقدم كثيراً من سكنى الرهبان الحلبيين مؤسسي الرهبنة اللبنانية به. وجاء ذكر المطران بطرس الاهدني المذكور في الخط المار ذكره الذي علقه القس يعقوب رئيس دير مورت مورا المذكورة على كتاب الانجيل الذي كان بكنيسة بجة سنة ١٣٣٩م.

الثالث جيورجوس مطران قبرص ذكره العلامة السمعاني (في المجلد ٤ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٣) نقلاً عن اعمال مجمع نيقيوسية بقبرص الذي عقده اليا رئيس اساقفة الكلدان بهذه الجزيرة سنة ١٣٤٠م حيث يعد في جملة من شهدوا هذا المجمع جيورجوس مطران الموارنة، ويصرح بأن كل من شهدوا هذا المجمع اقرؤا بأن الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن، وإن الاب الاقدس البابا بناديكتوس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض.

الرابع يوحنا اسقف قبرص ايضاً وقد مر ذكره في الخط الذي نقله الدويهي عن الكتاب القديم الذي كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت، وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧م في ايام البطريك يوحنا، ويوحنا اسقف قبرص. وقد ذكره لكويان ايضاً في جملة من ذكرهم من اساقفة الموارنة.

الخامس يعقوب اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٦م وقال انه كان في جملة الاساقفة الذين قبض عليهم نائب السلطنة بدمشق وانه فر واستتر وكتب في استتاره سنة ١٦٦٧م كتاب الانجيل الذي كان باقياً الى ايام الدويهي في دير قنوين وهو سبعة وعشرون كراساً بالسرياني والكرشوني. وذكره ايضاً المطران اسطفان عواد السمعاني في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية في جملة التعليقات التي نقلها عن كتاب الانجيل الذي كان في بطريركية الموارنة ونقل الى المكتبة المذكورة. وقد كتب عليه في صفحة ٢٢: «نهار السبت ١٥ من ايار سنة ١٦٧٢ يونانية (توافق سنة ١٣٦١م) يوحنا ابن سركيس من قرية بلوزا اوقف لدير قنوين عن نفسه الكرم الفوقاني عند العين شهد بذلك يعقوب مطران اهدن والخورى سمعان» وجاء بعد ذلك خط آخر هذا هو بحروفه: «القس سمعان ابن الخوري عبد المسيح من داريا ذو الذكر الصالح اوقف لدير قنوين اربعة عشر عرق زيتون بقرب قرية كفرشخنا في حقل الزهرة سنة ١٦٧٣ يونانية (توافق سنة ١٣٦٢م) شهد بذلك بخط يده المطران يعقوب.

السادس الاسقف حنين ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم فقال انه بسبب حملة قبرص على الاسكندرية وبسبب حريق وقع في دمشق صدر الامر بالقبض على رؤساء النصارى فوق من رؤساء كهنة الموارنة بيد نائب السلطنة بدمشق منهم يعقوب مطران اهدن المار ذكره والبعض الآخر فروا هارين كما ذكر عن الاسقف حنين فإنه سار في البحر الى قبرص، والبعض اختفوا ولم ينبئنا الدويهي من اين كان حنين واين كان اسقفاً.

السابع المطران يعقوب اللحفدي ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم وقال انه نسخ كتاب الناموس للمطران داود الحدشيتي وذيله بالحاشية التي ذكرناها في الكلام على البطريك داود في الفصل السابق.

الثامن المطران بطرس في دير قنوين ذكره الدويهي مرات منها في تاريخ سنة

١٣٨٨م حيث روى ان الملك يرقوق لما كان معتزلاً عن الملك زار قنوبين وأحسن القس بطرس رئيس الدير استقباله فرقاہ البطريق داود الى الاسقفية واسكنه دير قنوبين. ومنها في الخط الذي نقله عن الكتاب الذي نسخه الخوري دانيال الباني سنة ١٣٩٧م وكتب انه فرغ من نسخه في ايام البطريق داود. ولذا كان بطرس مطراناً في دير قنوبين ثم ذكره الدويهي في مقدمة المطارين الذين كانوا سنة ١٤٠٠م.

التاسع كيرلس اسقف جاج ذكره الدويهي في تاريخه في جملة الاساقفة الموارنة الذين كانوا سنة ١٤٠٠م وفي سلسلة بطاركة الموارنة إذا استشهد خطأ موقعاً عليه من هذا المطران وغيره يتبين منه ان البطريق داود بقي حياً إلى سنة ١٤٠٤م كما مر.

العاشر يعقوب من قنية اسقف لحفد ذكره الدويهي في جملة مطارين الموارنة الذين كانوا في سنة ١٤٠٠م وقال فيه في تاريخ هذه السنة انه كان من قنيا وكان قاطناً بلحفد بدير السيدة المعروف بدير المرج، وانه اخذ عنه أخبار المجاعة التي كانت بسورية تلك السنة.

الحادي عشر بطرس ابن القس سمعان (وقال في تاريخ سنة ١٤٠٣م ابن الخوري سمعان) اسقف اهدن ذكره الدويهي في جملة الاساقفة الذين كانوا سنة ١٤٠٠م ويظهر انه بقي حياً سنة ١٤٠٤م إذ روى الدويهي ايضاً في سلسلة بطاركة الموارنة الخط الذي دونه كيرلس اسقف جاج والخوري اليشاع الناسك وما قيل فيه انه في هذه السنة كان بطرس مطراناً على اهدن.

الثاني عشر داود بن جوسلين الحدشيتي وقد جاء ذكره في جملة اساقفة الموارنة سنة ١٤٠٠م. وفي الذيل الذي كتبه المطران يعقوب اللحفدي على كتاب الناموس الذي نسخه للمطران داود بن جوسلين الحدشيتي. وقد روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤١٩م ان هذا الاسقف توفي في السنة المذكورة في ١٦ شباط.

هذا ما أمكن التوصل إلى معرفته من اسماء هؤلاء الاساقفة الموارنة في القرن الرابع عشر.

الباب الخامس عشر تاريخ سورية في القرن الخامس عشر

القسم الاول تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

السلطين الذين تولوا سورية في هذا القرن
وما كان من الاحداث في ايامهم

عد ٩٢٣

حملة تيمورلنك على سورية

افرد شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبدالله الدمشقي الانصاري المعروف
بابن عرب شاه كتاباً برمته لتاريخ تيمور سماه عجائب المقدور في اخبار تيمور.
وقد طبع هذا الكتاب مراراً وآخر طبعاته كان بمصر سنة ١٣٠٥م. وحيث ان هذا
المؤلف كان معاصراً لتيمور فيحسب ثقة في نقل اخباره، وان ضمن كتابه بعض
اقاصيص عن مولد تيمور ونشأته وتوصله إلى الملك، وان جعل كتابه كتاب ادب
في الفاظ اللغة، فيوردها غالباً مسجعة مرصعة بأنواع البديع اللفظي والمعنوي.
والذي نعلمه من هذا الكتاب وغيره من مؤلفات المحققين ان تيمور بالتركية معناه
الحديد ولنك الاعرج فتيمور لنك معناه تيمور الاعرج. وقد ولد في الكش وهي
مدينة قريبة من سمرقند على ما في رواية المحققين لا بعيدة عنها بنحو ثلاثة عشر
شهوراً كما في الكتاب المذكور ويتصل نسب تيمور من جهة النساء إلى جنكيزخان

اول ملوك المغول. وكانت ولادته سنة ١٣٣٥م وخلف عمه سيف الدين في اماره الكش ورئاسة القبيلة سنة ١٣٦١م خاضعاً لاحد خانات التتر إلى ان اسمى نفسه خان سنة ١٣٧٠م. واخضع لسلطته ما جاوره من البلاد وملك خراسان واصفهان واجتاح بلاد فارس والعراقين والجزيرة وغيرها، وملك كثيراً من نواحيها وقصد الهند ١٣٩٧م وانزل بها الربال وأذاق اهلها الامرتين. وعاد سنة ١٤٠٠م نحو سورية وبلغت اخباره الى الملك الناصر زين الدين فرج بن السلطان برقوق فكتب الى نائب الشام وسائر النواب والحكام ان يتوجهوا الى حلب ويجتهدوا في دفعه، فتجهز نائب الشام سودون مع النواب والعساكر ورحلوا الى حلب. وبلغ تيمور الى عين تاب وكان نائبها اركماس فحصبها واستعد للقتال لكنه اجفل عند اقامة تيمور الحصار على مدينته، فهرب الى حلب وارسل تيمور من عين تاب الى النواب بحلب مرسوماً ان يطيعوا اوامره ويذلوا لسلطته ويكفوا عن القتال ويخطبوا باسمه فلم يردوا عليه جواباً وقتل سودون نائب السلطنة بالشام رسول تيمور وحصبوا حلب ما استطاعوا ورحل تيمور من عين تاب، فوصل في اليوم السابع الى حلب وبرز من عسكره طائفة فالتقاها جماعة من عسكر حلب فبددوا اصحاب تيمور وطردهم، ثم الحم الفريقان القتال في اليوم التالي واستمرت الحرب سجلاً لم يظهر النصر لاحدهما. وفي الغد كان القتال الشديد في حيلان فانكسر الحلبيون وولوا الادبار فتبعهم اصحاب تيمور يشخون فيهم بمعنى ما قال ابن عرب شاه المذكور.

جعلنا ظهور القوم في الحرب أوجهاً وقمنا بها ثغراً وعيناً وحاجبا وازدحم الحلبيون في باب المدينة وتكردسوا وداس بعضهم بعضاً حتى قتل كثيرون منهم وتشنت الباقون منهزمين شر هزيمة حتى بلغ بعضهم دمشق وحاصرت عساكر تيمور المدينة. فذلت قلوب اهلها وقويت شوكة التتر فملكوها وعظمت بها الاهوال. واكثر التتر من الفتك باهلها ولم يشفقوا على رضيع او شيخ او امرأة وتحصن النواب بالقلعة فشدد تيمور لنك الحصار عليها، فاستأمنوا اليه وقبض على سودون نائب الشام وعلى نائب صفد ونائب غزة وغللهم بالقيود وخلع على ترمادش نائب حلب الذي سعى بتسليم القلعة اليه وشرع في استخلاص الاموال وضبط الاثقال، ثم قتل جماعاً غفيراً من الحلبيين بثأر الرسول الذي كان قد ارسله الى حلب فقطع عنقه سودون نائب الشام، وبنى برؤوسهم قبة، ونهب كل ما كان في القلعة والمدينة وهو شيء لا يوصف. ثم قصد تيمور دمشق وبلغ المعرة بجيشه

العرمرم فجفل اهل دمشق وتشتتوا فبعضهم قصدوا قلعة ارسون وبعضهم قلعة شقيف تيرون وغيرهم الى غيرها من المواضع الحصينة البعيدة وارسل تيمور ابنه مهراڤ شاه وماردين شاه الى حماة فلقيهما اهلها مرحبين طائعين، وأخذوا الهدايا التي قدموها وأقاما عليهم نائباً من قبل ابيهما وبعد ان رحلا عن حماة وثب اهلها على النائب فقتلوه فرجع ابنا تيمور الى حماة فقتلا ونهبوا واحرقا اكثر البيوت وحاصروا القلعة ونجدهما تيمور بعشرين الف مقاتل فملكوا القلعة واهلكوا من كان فيها. ولما بلغ تيمور الى حمص خرج اليه رجل يسمى عمر بن الرواس فاستجلب خاطره وقدم له مقدمة فاخرة فعفا عن اهل حمص ووهبها لخالد بن الوليد المدفون بها وولى عمر المذكور عليها.

ثم نزل تيمور على بعلبك فخرج اهلها دخلاء عليه فلم يلتفت الى مقالهم ولم يرث لتذللهم بل ارسل فيهم جوارح النهب والاستئصال وورد الى الشام بخروج الملك الناصر بن برقوق من مصر وقدمه الى الشام، فسكن جأش بعض الناس وزال استيحا شهم. وأما اصحاب العزم والرأي السديد فلم يثقوا بالنجاة وانتظروا ما يتولد من حادثات الزمان. وبلغت عساكر السلطان الى دمشق وبلغ تيمور اليها بجيشه الجرار العرمرم وأقام في غربي المدينة بداريا وما يليها. وكانت اولاً بين الجيشين مناوشات ومهارشات ليست بذات بال، ودخل الخلف بين عساكر السلطان فعاد فريق منهم الى مصر ودخل على السلطان احد خواصه فخوفه من بطش تيمور، ومن انه لا بد من ان يملك دمشق فتفوت السلطان مصر وربما أسره تيمور او قتله فأثر هذا الكلام في السلطان فخرج ليلاً من القلعة قاصداً الرجوع الى مصر ومر بالبقاع العزيز وبات في سفح لبنان بين قريتي نبحا وجباع الحلاوة لئلا يعلم به احد وسار في طريق الساحل الى مصر.

ولما علم تيمور بهرب السلطان احتاط دمشق بالعساكر فملكها وقتل اعيانها وسبى نساءها واحرقها مع الجامع الاموي وكان فيه جم غفير من النساء والاطفال فهلك جميعهم. واهرب المساجد والمدارس والمعابد ودك القلعة وارتكب جنوده بها الفظائع، وقيل انه كان يأمر بجمع الاولاد ورميهم بالخنادر فتدوسهم الخيل والبقر ويلقون بعضهم بالابار ويرمونها بالحجارة الضخمة، وأسر كثيرين من اعيانها وعذبهم اعذبة مبرحة متنوعة.

ولم يخرج تيمور من دمشق حتى جاءها الجراد فغطى بكثرته الارض ووجه السماء. فارتعى النبات والشجر وكان حلوله بدمشق في ٢٩ اذار وباض في ارضها ونقص بيضه في ١٢ ايار فارتعى الزحاف الكروم والاشجار حتى الغابات، فلما رأى تيمور ذلك رحل عن دمشق. وبعد الجراد واختطاف العساكر الاموال والغلات حصل غلاء فاحش ومجاعة كبرى حتى أكل الناس عبيدهم وجواريتهم ودوابهم والجيف. وجاء الوباء ثالثة الاثافي وثقلت وطأته حتى بقى موتى كثيرون دون دفن. روى الدويهي هذه الاخبار عما كتبه الاسقف يعقوب من قنيا وكان قاطناً بلحفد بدير السيدة المعروف بدير المرج ورواه ايضاً غير الدويهي من المؤرخين. وأما تيمور فسار عن دمشق لجهة ماردين وبغداد فملكها سنة ١٤٠١م وحارب بايزيد السلطان العثماني سنة ١٤٠٢م. وفي هذه السنة ارسل رسلاً وهدايا نفيسة الى السلطان فرج واعتذر عما صدر منه بسورية ووقع الصلح بينهما. وفي سنة ١٤٠٤م حمل على الصين في مايي الف مقاتل فهلك في الطريق سنة ١٤٠٥م انتهى.

عد ٩٢٤

ما كان من الاحداث في ايام الملك الناصر فرج الى وفاته بعد ان ارتحل تيمور عن سورية نصب الملك الناصر فرج الامير اقبا (ويروى يلبغا) نائباً بدمشق، وأمر الشيخ محمود الخاصكي نائب طرابلس ان يسير الى دمشق ويعاون نائبها في عمارتها، وولى على حلب الامير دقمق الخاصكي وسعى في تجديد ابنتها.

وفي سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م) وقعت فتن بين الامراء بمصر فخاف السلطان فرج على نفسه واختفى ولم يعلم احد اين ذهب بعد ان كان ملك ست سنين وأشهر، فاجتمع القضاة والامراء عند الخليفة واستشاروا وولوا مكانه أخاه وسمي الملك المنصور عبد العزيز. وكان عمره ثمان سنين ما في اخبار الدول للقرماني ثم ظهر الملك الناصر فرج فامسك اخاه المنصور عبد العزيز وحجسه بالاسكندرية ثم قتل فكانت مدة ولايته سبعة واربعين يوماً على رواية محمد ابن علي الاسحاقي في

تاريخه «اخبار الأول في من تصرف في مصر من الدول» وعاماً كاملاً على رواية الشيخ عبدالله المشرقاوي في كتابه «تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين» وعاد الناصر فرج الى عرش ملكه.

وفي السنة المذكورة وثب يعبر بن مهثا امير العرب (نظنه يعبر امير الفضل الذي قدمنا ذكره) في خلق كثير من العرب على دمشق فالتقاه نائبها في خارج المدينة والتحم بين الفريقين القتال. فانهزم النائب واستولى يعبر على دمشق وشكت الناس من جورهِ وسطو عساكره فخرج اليه السلطان الناصر فرج من مصر في العساكر المصرية فازاحه عن دمشق وعن الامصار الشامية وجدد بناء الجامع الاموي وامن الناس ورتب امور البلاد وعاد الى مصر.

وفي سنة ١٤٠٩م كان طاعون شديد الوطأة في بلاد الشام وروى القرمانى ان الامير شيخ ونوروز نائب الشام وغيرهما من الامراء اتفقوا على العصيان بالشام فخرج اليهم السلطان ووصل الى غزة فخامر عليه اعيان عسكره وقصدوا الامير شيخ ونوروز الى حمص فتوجه السلطان في طلبهم ووصل الى اللجون (بقرب الناصرة) واقتتلوا قتالاً شديداً فانكسر السلطان وهرب الى دمشق فتبعوه وحاصروه بقلعتها اياماً. فطلب الامان فامنوه ونزل من القلعة فقبضوا عليه وسجنوه سنة ٨١٥هـ (سنة ١٤١٢م) وادعى عليه احدهم ابن ازدر بقتل اخيه ظلماً فحكموا بقتله عوضه فقتلوه وبقي ثلاثة ايام مرمياً على مزبلة عريان. وكانت مدة ولايته سوى ايام غيبته ثلاث عشرة سنة. وأضيفت السلطنة الى أمير المؤمنين المستعين بالله ابي الفضل العباس بن محمد العباسي وصار خليفة وسلطاناً مدة ستة أشهر، ثم ان الجراكسة احبوا ان لا تخرج السلطنة منهم ورغبوا في ان يكون الامير شيخ سلطاناً فخلعوا المستعين بالله من الخلافة وتولى الخلافة بعده الفضل داود العباسي وتولى السلطنة السلطان الرابع من الجراكسة وهو الملك المؤيد شيخ الآتي ذكره.

عد ٩٢٥

الملك المؤيد شيخ وما كان في ايامه

كان الامير شيخ عبدالله المحمودي الظاهري من ممالك الظاهر برقوق اعتقه وقدمه في المراتب الى ان صار مقدم الف في دولة الملك الناصر فرج، ثم نائب

السلطنة بطرابلس ثم بالشام ايضاً واسره تيمورلنك في حلب ثم نجا من الاسر وكانت له أمور مع الملك الناصر فسجنه مدة ثم التف إلى نوروز نائب الشام في عصيانه المار ذكره. ولما قتل الملك الناصر وتسلطن الخليفة العباسي كان شيخ اتابك العسكر بمصر، فخلع الخليفة من السلطنة وتسلطن مكانه سنة ٨١٥ هـ (سنة ١٤١٢م) وتسمى الملك المؤيد. ودقت له البشائر ونودي باسمه في القاهرة وضج الناس بالدعاء له وقال فيه الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر:

تسلطن الشيخ وزال العنا فالناس في بشرٍ وتيهٍ وفيخ^(١)
فلا تقاتل بصبي ولا تلقَ به جيشاً وقاتل بشيخ
وبعد استقراره بالسلطنة قبض على جماعة من الامراء وأرسلهم إلى السجن بالاسكندرية وأنعم على جماعة من الامراء ايضاً ورقاهم في المرتب وارضى الجند بالاقطاعات، وقرب جماعة حضروا معه من الديار الشامية الى مصر منهم الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي عين اعيان الشعراء في عصره فاستقامت اموره في السلطنة وأطاعه الجند.

وفي سنة ٨١٦ هـ (سنة ١٤١٣م) اتته الاخبار من دمشق بأن نوروز الحافظي نائب الشام ثقلت عليه سلطنته وأظهر العصيان وكدره من خيانة شيخ بالعهد التي كانت بينهما، وبقي نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واستمر واضعاً يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات. ففي سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤م) سار الملك المؤيد في العساكر من مصر الى الشام ومعه الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة، فوجد نوروز قد حصن دمشق فحاصره المؤيد وطال الحصار، وفي آخر الامر سلم نوروز نفسه الى الملك المؤيد فقطع رأسه وأرسله الى القاهرة فعلق على باب زويلة ثلاثة ايام ثم دفن. وكان مقتل نوروز سنة ٨١٨ هـ (سنة ١٤١٥م). وأقام الملك المؤيد بعد ذلك بدمشق اياماً فنظم البلاد الشامية ونصب قنباي الحمدي نائباً في الشام والامير اينال الصصلاني نائباً بحلب والامير سودون ابن عبد الرحمان نائباً بطرابلس والامير جاني بك البجاسي نائباً بحماة، وعاد إلى مصر، وكان له يوم مشهود زينت لديه القاهرة.

(١) الفبيخ: السكون بعد اضطراب.

وبعد عودته إلى مصر أظهر النواب المذكورون العصيان عليه وخرجوا عن الطاعة، فجرد الملك المؤيد العساكر عليهم ثانية بنفسه وتواقع معهم فانتصر عليهم وقبض على قنباي الحمدي نائب الشام وقطع رأسه ثم على اينال الصبلاي نائب حلب وقتله على صدر أبيه ثم قتل الأب أيضاً وولى جماعة غير هؤلاء ورجع إلى مصر ولكن لم تمض مدة يسيرة حتى خامر هؤلاء النواب عليه وأظهروا العصيان، فجرد اليهم مرة ثالثة وخرج بنفسه فلما علم النواب بقدومه هربوا من وجهه وتوجهوا إلى قرا يوسف أمير التركمان فأقام نواباً غيرهم ممن وثق بهم وعاد إلى مصر فصفا له الزمان وأنشأ له ممالك وجدد له أمراء.

وفي سنة ٨١٩ هـ (سنة ١٤١٦م) كان في مصر الطاعون وفتك فتكاً فظيماً واستمر نحواً من ثلاث سنين وتارة ينقص وعقبه قحط وغلاء. وفي سنة ٨٢٢ هـ (سنة ١٤١٩م) أكمل الملك المؤيد عمارة الجامع المنسوب إليه في القاهرة وقد تنهى في زخرفته ورخامه وسقفه وابوابه فلم يبق في القاهرة مثله. لكنه أفرط في ضرب الضرائب لنفقة بنائه وأنشأ مئذنتين له فتداعت احدهما للسقوط فرسم بهدمها وإعادة بنائها فقال شهاب الدين بن حجر يداعب قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني:

لجامع مولانا المؤيد رونق منارته تزهر بالحسن والزيّني
تقول وقد مالت عليهم ترفّقوا فليس على هدمي اضر من العيني
فأجابه بدر الدين:

منارة كعروس الحسن اذ جلّيت وهدمها بقضاء الله والقدر
قالوا اصببت بعين قلت ذا غلط ما أوجب الهدم إلا خسة الحجر
وفي سنة ٨٢٤ هـ (سنة ١٤٢١م) مرض الملك المؤيد واشتد مرضه واستمر على ذلك أياماً إلى ان توفي يوم الاثنين تاسع المحرم من هذه السنة، ودفن في جامع المذكور. وقيل ان عمره كان حينئذٍ خمساً وستين سنة وكانت مدة سلطنته بمصر والشام ثمان سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

الملك المظفر احمد ابن الملك المؤيد والملك الظاهر ططر

هو الخامس من الملوك الجراكسة تسلطن يوم وفاة ابيه المار ذكره وعمره سنة واحدة وثمانية اشهر وسبعة ايام، ولما أقاموه ملكاً كان الاتابكي الطنبغا القرشي غائباً هو وجماعة من الامراء بالشام بسبب عصيان بعض النواب، فلما توفي الملك المؤيد تعصب مماليكه وقالوا لا نملك إلا ابن مولانا وكانوا نحو خمسة الاف مملوك، فعارض الخليفة في تمليكه وقال هذا صغير وتضيع احوال المسلمين. فقال الممالك الامير ططر يكون مدير المملكة إلى ان يعود الاتابكي الطنبغا، فلم يسع الخليفة إلا انه بايعه على كره منه ولقبه الملك المظفر وأجلسوه على سرير الملك وهو في حجر المرضعة. ولما دقت الكؤوسات كالعادة اضطرب وأغمي عليه وحصل له حول في عينيه. ولما تم أمره في السلطنة ثار مماليكه على الامير ططر بسبب الامريات والاقطاعات فلم تسعه الحال إلا ان يسترضيهم بما شاءوا من المناصب والاقطاعات. وجاءت الاخبار بأن جقمق الارغوني نائب الشام قد خرج عن الطاعة وكذلك يشبك المؤيدي نائب حلب وتبعهما غيرهما من النواب، وكان الاتابكي الطنبغا القرشي في الشام كما مرّ وجمع العربان وعسكره وزحف بهم الى دمشق، فحارب جقمق نائب الشام، فانكسر جقمق وانهزم الى حلب فملك الاتابكي دمشق وحصنها والتف عليه العربان والعشائر. ولما بلغ ذلك الامراء بمصر خلعوا على ططر وجعلوه اتابكي العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي واتفقوا على ان ططر يأخذ السلطان بمحفة ويتوجه معه في العساكر الى دمشق، فخرج ططر والملك المظفر معه في محفة تصحبه امه المسماة خوند سعادات والمرضعة، ولما وصلوا الى الشام القى الله الرعب في قلب الطنبغا القرشي. فحضر الى الملك وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك وهو في المحفة فقبض عليه ططر وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق نائب الشام وسجنه هناك أيضاً ثم أمر بخنقهما فخنقا ليلاً، ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم. ثم تمارض وأتى بعض الامراء المؤيدية يعودونه بالقلعة، فقبض على جماعة منهم حتى قيل انه قبض على اربعين اميراً في يوم واحد وحبسهم بقلعة دمشق وأمسك ايضاً نحو ثلاثمائة مملوك من الممالك المؤيدية وحبسهم بقلعة دمشق. فصفا الوقت لططر وكثر المستقربون اليه،

أقامهم في المناصب وأعطاهم الاقطاعات وقويت شوكته واشادت عصبته وأخذ يهد لنفسه حتى سولت له خلع الملك المظفر فخلعه وتسلمن مكانه بدمشق. كان الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربعة معه فبايعوه في ١٩ من شعبان سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) وتلقب الملك الظاهر وخطب باسمه على منابر دمشق، ثم عاد إلى مصر ومعه الملك المظفر وأمه خوند سعادات ولما وصل إلى القاهرة وزينت له المدينة وحملت على رأسه القبة. ولما جلس على منصة الملك رسل الملك المظفر الى السجن بثغر الاسكندرية وأرسل معه المرضعة فكانت مدة سلطنة الملك المظفر سبعة أشهر وعشرين يوماً، فما كان أغناه عن هذه السلطنة التي اكسبته الحول وأدت به الى السجن ومات بالطاعون سنة ٨٣٣هـ (سنة ١٤٢٩م) ثم نقلت جثته إلى القاهرة ودفن على اييه.

اما الملك الظاهر سيف الدين ططر (وكتب بعضهم تتر) الجركسي فهو لسادس من الملوك الجراكسة وأصله الظاهر برقوق اشتراه ثم اعتقه ثم هرب من الملك الناصر فرج بن برقوق والتف على حكم العوضي نائب حلب. ولما قتل جكم المذكور التف على شيخ ونوروز حين أظهرها العصيان بالشام كما مرّ. ولما قتل الملك الناصر بدمشق تقدم بالمناصب في دولة الخليفة العباسي وفي دولة الملك المؤيد. ولما مات الملك المؤيد كان مديراً للمملكة في دولة ابنه الملك المظفر الى ان خلعه وتسلمن مكانه كما قدمنا. وقيل ان خوند سعادات ام الملك المظفر دست له سماً لما خلع ابنها فاعتل بالشام وعاد إلى مصر عليلًا إلى ان توفي يوم الاحد ٤ من ذي الحجة سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) فكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر واياماً فصيح فيه ما قاله الشاعر:

كان كالتمني ان يرى فلماً من الصباح ولما رآه غمي
انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس عن اخبار الدول وآثار الاول للقرماني
ان موته لم يكن من السم بل عرض له قولنج فمات منه.

الملك الصالح محمد بن ططر

وهو السابع من الملوك الجراكسة ويلقب ناصر الدين وقد بويغ بالسلطنة بعد وفاة ابيه سنة ٨٢٤هـ (سنة ١٤٢١م) وكان عمره حينئذ نحو احدى عشرة سنة وخلع على المقر الاتابكي جاني بك الصوفي فكان اتابك العساكر ومدبر امور المملكة وهو صاحب الحل والعقد والابرار والنقض. فاستوحش لذلك باقي الامراء ووثب الامير برسباي على الاتابكي جاني بك فهربه فقبض عليه بعض المماليك واحضروه إلى الامير برسباي فقيده وأرسله إلى السجن في الاسكندرية ونزل منزلته وتولى الحل والعقد. ووقعت نفرة بين برسباي والامير طراباي جانب الحجاب، فقبض برسباي وأرسله أيضاً إلى السجن بالاسكندرية وقويت شوكة برسباي وتعصب له جماعة من الامراء فخلعوا الملك الصالح بن ططر من الملك ونادوا باسم برسباي ملكاً، فكانت مدة سلطنة الملك الصالح ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. ولم يرسله برسباي إلى السجن بالاسكندرية كعادتهم حينئذ بل ادخله دار الحرم وأسكنه قاعة البربرية هو وأمه، ورخص له بأن ينزل من الدار ويركب كل نهار جمعة ويزور قبر والده إلى ان توفي الملك الصالح ثاني جمادي الآخرة سنة ٨٣٣هـ (سنة ١٤٢٩م) ودفن بمدفن والده ططر انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

الملك الأشرف برسباي الدقماقي الظاهري

هو الثامن من ملوك الجراكسة ويكنى أبا النصر بويغ بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح وقّر له بها الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة، وأصله جركسي جلبيه بعض التجار إلى البلاد الشامية، فاشتره الأمير دقماق نائب ملطية فينسب إليه، ثم قدّمه إلى الملك الظاهر بريق فنسب إليه أيضاً؛ فاعتقه الملك الظاهر، وتقلّب بالمناصب وتولّى نيابة السلطنة بطرابلس وقبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة.

المرقب، ثم أطلقه وجعله رئيس ألف بدمشق. ولما خامر على السلطان جقمق الأرغوني نائب الشام قبض على برسبای وسجنه بقلعة دمشق، ولما توجه ططر إلى الشام وقهر جقمق أفرج عن برسبای وأحضره صحبته إلى القاهرة وجعله دوا داراً كبيراً. ولما توفي ططر دبر برسبای المملكة في سلطنة ابنه الملك الصالح إلى أن خلعه كما مر، وتولى السلطنة وأقام أصحابه بالمناصب وجعل المقر السيفي جاني بك البجاسي نائباً بالشام، وكان لا يتصرف في أحوال المملكة إلا برأي القاضي عبد الباسط فعظم أمره حتى اطلق عليه لقب عظيم الدولة في أيامه.

وفي سنة ٨٢٩هـ (سنة ١٤٢٥م)^(١) أرسل السلطان الأشرف تجريدة إلى قبرص وأرسل ثلاثة امراء من مصر ونائب الشام ونائب حلب ونائب صفد ونائب طرابلس لقتال ملك قبرص، وبلغوا أولاً إلى الماغوضة ثم إلى الملاح. وكان قتال شديد بين الجيشين ودارت الدوائر على عسكر ملك قبرص، فنهبت عساكر السلطان وأسرت نحو سبع مئة أسير، وملكوا حصن لامسون وانهزم القبارصة وقتل أخو الملك وأسروا الملك نفسه وأتوا به إلى مصر بعد أن نهبوا داره وأحرقوها وأحرقوا دوراً أخرى كثيرة، وأخذوا من الغنائم شيئاً كثيراً. ولما بلغوا بملك قبرص إلى القاهرة، اصطفت العساكر أمام باب القلعة صقين ودخل الملك بينهما مقتيداً راكباً بغلاً وأمر السلطان بسجنه ثم اتفق معه على أن ملك قبرص يؤدي إلى السلطان مائتي ألف دينار يقوم بنصفها وهو بالقاهرة ويدفع النصف الثاني بعد عوده إلى قبرص، ثم يدفع كل سنة عشرين ألف دينار. فأفرج السلطان عنه وعاد إلى بلاده. وكملت في هذه السنة عمارة المدرسة الأشرفية التي بناها الأشرف هذا عند سوق الوراقين بالقاهرة فرسم السلطان أن تعلق خودة ملك قبرص على باب هذه المدرسة لتكون ذكراً للأشرف. قال ابن اياس إن هذه الخودة لم تزل معلقة على باب هذه المدرسة إلى الآن أي إلى أيامه في القرن العاشر للهجرة.

وفي سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) بلغ السلطان أن الأتابكي جاني بك الصوفي

(١) وقفنا حتى الان السنين الهجرية للسنين المسيحية بتعين القاعدة العامة باسقاط ثلاث سنين من كل مائة سنة هجرية إذ لم يكن لدينا كتاب في تفصيل السنين الهجرية والمسيحية. وقد ظفرنا حديثاً بكتاب التوقيعات الالهامية لمحمد مختار باشا حيث بين بداية كل سنة هجرية موافقة في كل شهر للسنين المسيحية فاخذنا في الاعتماد عليه.

الذي كان قد حبسه بالاسكندرية هرب من السجن، فاضطرب السلطان وصار يكبس البيوت، وقبض على اصهاره وعياله وماليكه وعذبهم حتى ظهر أنّ جاني بك في بلاد التركمان عند أولاد قرا يوسف أميرهم. وفي سنة ٨٣٣هـ (سنة ١٤٢٩م) وقع طاعون شديد الوطأة في مصر واستمر أربعة أشهر. فمات به من الناس كثيرون حتى قيل إنه مات في يوم واحد نحو أربعة وعشرين ألف شخص. وضيّع الناس من ذلك وصار يودّع بعضهم بعضاً وقال شاعر في ذلك

قد أنقص الطاعون ثلث الورى وأهلك الوالد والولده

كم منزل كالشمع سكانه أطفالهمو في نفخة واحدة

وفي سنة ٨٣٥هـ (سنة ١٤٣١م) قطع بعض التركمان رأس جاني بك الصوفي المار ذكر وأحضره إلى الملك الأشرف ليحظوا عنده، فرسم السلطان أن يطاف بهذا الرأس في القاهرة، فطافوا به وعلقوه في باب زويلة ثلاثة أيام.

وفي سنة ٨٣٦هـ (سنة ١٤٣٢م) أتى قصاد من قبل قرا ملك أمير التركمان إلى الملك الأشرف بهدية من جملة قرص امرأة مكفنة بذهب وخروف باليتين وخلعة مخمل أحمر معلمة بذهب وصقورة للصيد. فلما رأى السلطان الهدية استقلها وساءته الخلعة ودعا القصاد إلى البحيرة وألبس تلك الخلعة لأحد الشهدارية، وكان مضحكاً. فرقص بها أمام السلطان ثم أحضر ناراً وأحرق الخلعة وذبح الخروف، وقال للقصاد إذا أراد استاذكم أن يعز أحداً فماذا يصنع به؟ قالوا: يرميه بالماء. فأمر برميهم في البحيرة وتركهم بها ساعة ثم اخرجوهم وقصّوا أذنان خيلهم. وقال السلطان لهم انصرفوا إلى استاذكم وبلغوه أن يلاقيني إلى الفرات. وناول جماعة السلطان الخروف بمعنى أن الملك الأشرف ورعيته كالغنم والمرأة بمعنى أنهم كالنساء، والخلعة بمعنى أن السلطان نائب استاذ التركمان، ولذلك أمر السلطان بتجريد العساكر والخروج على التركمان. وخرج السلطان في عساكره إلى الشام وحلب وقصد آمد وأقام عليها الحصار ونصب عليها عدّة مجانيق، فلم يقدر عليها واستوحش السلطان من ماليكه وخشي وقوع فتنة، فأرسل قرا ملك بالصلح وحلف قرا ملك أنه لا يعتدي على أملاك السلطان. فعاد السلطان إلى مصر وعاد قرا ملك إلى العبيان والاعتداء. وقيل إن السلطان صرف على هذه التجربة خمس مئة ألف دينار ولم يظفر بطائل. هذا ما رواه ابن اياس في تاريخ مصر،

ولكن روى الاسحاقى في كتابه أخبار الأول في من تصرف بمصر من الدول، أن الأشرف لما توجه إلى آمد، ظفره الله بعدوه وقتل ملكها واستأصل أمواله وأحضر خودته وعلّقها بسلسلة في دهليز مدرسته التي أنشأها بمصر برأس الوراقين؛ والخوذة باقية إلى الآن فتأمل والله أعلم.

وفي سنة ٨٤١هـ (سنة ١٤٣٧م) مرض الملك الأشرف برسباي وحصل له مالىخوليا، فأمر بنفي الكلاب من القاهرة إلى بر الجيزة، فأتموا أمره. ورسم أن لا تخرج امرأة من بيتها، فكانت المرأة إذا أرادت الخروج من بيتها لحاجة، أخذت ورقة من المحتسب وجعلتها برأسها لتباح أن تمشي بالسوق. إلى غير ذلك من الأوامر التي لا طائل لها، إلى أن توفي في يوم السبت، في ثاني عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، بعد أن ملك ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعمره نحو ستين سنة انتهى ملخصاً من تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٢٩

الملك العزيز يوسف ابن الملك الاشرف

هو التاسع من ملوك الجراكسة ويكنى ابا المحاسن، ويلقب جمال الدين. كان أبوه عهد اليه بالملك قبل وفاته، فبوع بالسلطنة يوم وفاته في ١٢ ذي الحجة سنة ٨١٤هـ (سنة ١٤٣٧م). وكان له من العمر نحو اربعة عشرة سنة وكان الاتابكي جقمق العلائي يدبر الملك ويده الحل والعقد. وفي سنة ٧٤٢هـ (سنة ١٤٣٨م) دبت عقارب الفتنة بين الاتابكي جقمق وبين الامراء الاشرفية وأخذوا يعاكسون الاتابكي في ما يعمله من الامور. وكان الملك العزيز بيد جقمق كلولب يحركه كيف شاء وليس له من السلطنة إلا الاسم. وكتب العلامة على المراسيم وقصد الامراء مرات قتل الاتابكي والتف جماعة من الامراء المويديّة والناصرية عليه. وتعصبوا له ووثبوا على الملك العزيز ومعهم كثيرون من المماليك السيفية. وانتشب القتال بين هؤلاء وبين الامراء الاشرفية فلم تكن ساعة حتى انكسر الامراء الاشرفية وتشتوا ومزقهم كل ممزق. واتفق محازبو جقمق على تملكه واستدعوا الخليفة المعتضد بالله داود وقضاة المذاهب الاربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا الاتابكي جقمق وسمي الملك الظاهر. ولما تسلطن رسم بان العزيز يدخل إلى دور

الحرم ولم يسجنه بالاسكندرية كالعادة فكانت مدة ولاية الملك العزيز ثلاثة أشهر وخمسة أيام كأنها أضغاث احلام.

ثم ان الملك العزيز يوسف الذي كان مسجوناً بدار الحرم قد انسحب من هناك ونزل بعد المغرب في هيئة صبي طباح وعليه ثياب رثة وعلى رأسه دسّ طعام وقد لوّث وجهه بسواد الدسّ وكان مماليك ابيه قد اوقعوه في هذه البلية وتخلوا عنه وتبرأوا منه فتم به ما قيل:

لقاء أكثر من يلقياك اوزار فلا تبال اغابوا عنك او زاروا
اخلاقهم حين تبلوهنّ او عار وفعلهم مائم للمرء او عار
لهم لديك إذا جاؤك اوطار إذا قضوها تنحوا عنك او طاروا
واستمر الملك العزيز مختفياً نحو شهر والوالي يكبس في كل ليلة البيوت وكان كل من له عدو يوشي عليه بأن العزيز عنده فيكبسون بيته إلى ان توجه العزيز إلى بعض الامراء فتم عليه، فقبض عليه وأرسل إلى السجن بالاسكندرية، وكان قصد الملك الظاهر ان يزوج العزيز ويقيه ساكناً بالقلعة. فأورثته عجلته الندامة وقال في ذلك شاعر من اصحابه:

ولم يدخلوه السجن إلا مخافة من العين ان تطراً على ذلك الحسن
وقلنا له شاركت في الاسم يوسف فشاركه ايضاً في الدخول الى السجن
واستمر العزيز في السجن مدة دولة الملك الظاهر كلها. فلما كانت دولة الاشرف انيال افرج عنه وسكن بالاسكندرية، وتوفي بها. انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٠

الملك الظاهر جقمق العلائي الظاهري

هو العاشر من ملوك الجراكسة وأوصله جركسي جلبيه احد التجار، فاشتراه العلائي علي بن الاتابكي انيال اليوسفي فنسب اليه وقدمه إلى الملك الظاهر برقوق

فنسب اليه ايضاً وحبس في دولة الملك الناصر فرج ثم اطلق وترقى في مناصب الدولة الى ان صار اتابك العساكر في دولة الاشرف برسباي ثم مديراً للملك في دولة ابنه العزيز ثم خلعه كما مر. وبعد تسلطه وزع المناصب والاقطاعات كما شاء وجعل المقر السيفي قرقماس الشعباني اميراً كبيراً واستمر على ذلك اياماً، ثم لعب الكرة مع السلطان وقصد ان يقبض عليه وهو راكب، فانجذب السلطان منه. وخشي قرقماس ان يفتك السلطان به لافتضاح قصده فعاد قرقماس إلى بيته ولبس آلة الحرب. التفت اليه جماعة من الامراء والماليك ولكن كان اكثر الامراء والعسكر مع الملك الظاهر جقمق واتفقوا معه فكسروه وشتوا جماعته واختفى هو ثلاثة ايام ثم ارسل يطلب الامان من السلطان، فأرسل إليه بعض الامراء، فقيده وأرسلوه إلى السجن بالاسكندرية. وخمدت الفتنة وخلع السلطان على المقر السيفي اقبغا التمرازي وجعله اتابك العساكر مكان قرقماس ونائب السلطنة وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بمصر إذا أبطلوا هذه المرتبة.

وفي سنة ٨٤٣هـ (سنة ١٤٣٩م) خرج اينال الحكمي نائب الشام عن الطاعة وأظهر العصيان وتابعه على ذلك تغري يرمنش نائب حلب. فأرسل السلطان اليهما العساكر ونصب الاتابك اقبغا التمرازي المذكور نائباً بالشام عوضاً عن اينال الحكمي وجعل المقر السيفي يشبك السودوني اتابك العسكر عوضاً عن التمرازي. فسار التمرازي إلى الشام وحارب النواب فكسرههم وأسرههم وقطع رؤوسهم، وارسلها إلى القاهرة فلعلقت على باب زويلة. ثم اثبت السلطان على قرقماس كفوياً وحكم به قاضي القضاة المالكي فقطع رأسه في السجن بالاسكندرية وكان قرقماس هو الذي قطع عنق الملك الظاهر برقوق في سجن الاسكندرية نفسه فجازاه الله بمثل ما جنى وصفا الزمان للملك الظاهر جقمق.

وفي سنة ٨٤٩هـ (سنة ١٤٤٥م) توفي الامير عز الدين صدقة بن شرف الدين عيسى التتوخي من امراء المغرب وكان عز الدين صدقة بهاماً شجاعاً تولى الدرك في ساحل البحر من طرابلس إلى صفد ليحمي البلاد إذا قصده الفرنج، وكان بينه وبين الامراء اولاد الحمرة الذين اتوا من البقاع وتوطنوا ببيروت عداوة انشأها الحسد ذكره البطريق اسطفانوس الدويهي في تاريخ السنة المذكورة.

وفي سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٥٣م) توفي الملك الظاهر جقمق العلاني ولما شعر

بثقل مرضه دعا الخليفة القائم بالله حمزه وقضاة المذاهب الاربعة وعهد بالملك إلى والده المقر الفخري عثمان وخلع نفسه من السلطنة. وقد انشأ الملك الظاهر كثيراً من المساجد والمعابد والقناطر والجسور وكان يكرم العلماء ويصلهم ويحب الفقراء ولا سيما الايتام منهم. وكان إذا سمع ان احداً يسكر نفاه وقطع جامكته. انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس وتاريخ محمد الاسحاقي وتحفة الناظرين للشيخ عبدالله الشرقاوي.

عد ٩٣١

الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر والملك الاشرف اينال العلائي

اما الملك المنصور فهو ابن الملك الظاهر جقمق المار ذكره وهو الحادي عشر من ملوك الجراكسة ويكنى ابا السعادات ويلقب فخر الدين تسلطن وعمره نحو تسع عشرة سنة وجلس على سرير الملك في حياة ابيه إذ خلع نفسه عن السلطنة كما مر سنة ٨٥٧هـ (سنة ١٤٣٥م). وكان اتابك العساكر اينال العلائي وبعد سلطنته قبض على الامير زين استادار الذي كان يبغضه في ايام ابيه وسلمه إلى الامير جاني بك نائب جده فعاقبه وعصره في ركابه حتى كسرها واستخرج منه نحو اربعين الف دينار ولم يكن في الخزينة مال. قيل ان الملك الظاهر اباه لم يخلف في الخزينة إلا ثلاثين الف دينار فانقص الملك المنصور من نفقة العساكر وضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار منها عن الاشرفي قيراطين، وأراد ان ينفق هذه الدنانير على العساكر فتألب المماليك الاشرفية والمؤيدية والتف جماعة اليهم من المماليك السيفية وقصدوا بيت الاتابكي اينال العلائي فاركبه على كره منه ودعوا الخليفة حمزة وكتبوا محضراً شهد فيه جماعة بما يوجب خلع الملك المنصور وبايعوا الاتابكي اينال العلائي بالسلطنة ووثبوا على الملك المنصور وحاصروه في القلعة، واستمرت الحرب بينهم من يوم الاثنين إلى يوم السبت وقطعوا الماء عنه ومنعوا الاقوات عن عسكره حتى يئس الملك المنصور وانهزم من كان معه. فقبض اينال على الملك المنصور وقيده وسجنه في البحرة ثم ارسله إلى السجن بالاسكندرية فكانت مدة سلطنته ثلاثة واربعين يوماً فصاح به ما قيل:

فلم يقيم إلا بمقدار ان قلت له اهلاً أخيّ مرحباً

واستمر الملك المنصور في سجن الاسكندرية إلى ايام دولة الملك الظاهر خشقدم فافرج عنه ورخص له ان يسكن في دار بالاسكندرية وبقي على ذلك إلى ايام دولة الملك الاشرف قايتباي فنقله إلى ثغر دمياط. وقد استأذن السلطان بأن يحج فأذنه به وعاد من الحج إلى القاهرة فأكرمه السلطان وخلع عليه ثم رسم له بالعود إلى ثغر دمياط فعاد وأقام هناك إلى ان توفي وله من العمر اربع وخمسون سنة.

اما اينال العلائي فبعد مبايعته بالسلطنة سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٣٥م) سمي الملك الاشرف وكني ابا النصر ولقب سيف الدين وهو الثاني عشر من ملوك الجراكسة وأصله جركسي جلبه جلاء الدين علي واشتراه منه الملك الظاهر برقوق فيوصف بالعلائي الظاهري وتقلب في المناصب فكان في دولة الاشرف برسباي نائب غزة. ولما توجه برسباي إلى آمد جعله نائب الرها ثم استقدمه إلى القاهرة وجعله نائب السلطنة بصفد واستمر بها إلى دولة الملك الظاهر جقمق، ولما توفي الاتابكي يشبك السوداني جعله الظاهر في الاتابكية عوضه سنة ٨٤٩هـ (سنة ١٤٤٥م). ولما توفي جقمق وتولى ابنه الملك المنصور خلعه كما مر واستولى على سرير السلطنة وأخذ في تدبير امره وإصلاح شأنه وإقامة عماله وجعل ولده أحمد المقر الشهابي اتابك العسكر فاستوحش لذلك الامراء فعزل ولده وأقام مكانه ثاني بك البرديكي، ونصب الامير خشقدم امير سلاح وأرسل بعض الامراء الذين توجس منهم إلى السجن بالاسكندرية مقيدين، وقبض على جماعة من مماليك الملك الظاهر جقمق ونفى بعضهم إلى الشام وبعضهم إلى قوص في جنوبي مصر، فاستقامت امور سلطنته وقرر في قضاء الشافعية بحلب القاضي تاج الدين عبد الوهاب وعزل عنه الزهري. وتوفي في السنة المذكورة ييغوت بن صفر المعروف بالاعرج نائب صفد وكان قد ولي نيابة حماة ثم نيابة صفد ثم سجن ثم عاد إلى صفد ومات بها. وتوفي جفنبوس الناصري نائب بيروت وأقام السلطان في نيابة صفد اياس الطويل وكان اتابك العسكر بطرابلس وفي هذه السنة ارسل السلطان محمد بن عثمان ييشر السلطان الاشرف بفتح القسطنطينية فدقت البشائر في قلعة القاهرة ونودي بالزينة في المدينة.

وفي سنة ٨٨٥هـ (سنة ١٤٥٤م) أقام السلطان الحافظ قطب الدين الحضييري

في كتابة السر بدمشق وبعد مدة زيد على كتابة السر قضاء الشافعية بدمشق ثم قرر في اتابكية حلب ابردي الظاهري عوضاً عن علي بك العجمي ثم جعله نائباً بحلب، وفيها قدم جلبان نائب الشام إلى السلطان وكان أشيع عنه العصيان وقدم للسلطان مقدمة فاخرة وأضافه السلطان اياماً وخلع عليه وأمره بالعود إلى الشام على عادته. وفي سنة ٩٥٨هـ (سنة ١٤٥٥م) توفي جلبان هذا وكان قد جاوز الثمانين من عمره وتولى عدة ولايات منها النيابة في حماه وفي طرابلس وفي حلب فعين السلطان في نيابة الشام قاني باي الحمزاوي نائب حلب قبلاً، وخلع على جاتم الاشرفي ليكون نائباً بحلب عوضاً عن قاني باي الحمزاوي. وفي هذه السنة ايضاً قبض السلطان على يشبك النوروزي نائب طرابلس وحمل إلى قلعة المرقب فسجن بها وقرر مكانه في نيابة طرابلس اينال البشبيكي، وقرر في نيابة صفد جاني بك التاجي عوضاً عن اياس الطويل وجعل في نيابة غزة خاير بك النوروزي احد الامراء بصفد، ونصب في اتابكية حلب سودون الناصري اتابك طرابلس وقرر جمال الدين المباعوني في قضاء الشافعية بدمشق وعزل عنها سراج الديني الحمصي.

وفي سنة ٨٦٢هـ (سنة ١٤٨٥م) توفي قاني باي الحمزاوي نائب الشام المذكور فقرر السلطان مكانه جاتم الاشرفي وفي سنة ٨٦٥هـ (سنة ١٤٦٠م) توفي الملك الاشرف اينال بعد ان قضى مدة ملكه في ارغد عيش فكثير عليه الحزن والاسف كما قيل:

هي الدنيا إذا كملت وتم سرورها خذلت

وتفعل بالذين بقوا كما في من مضى فعلت

بعد ان ملك ثمان سنين وشهرين وستة ايام وكان عمره عند وفاته احدى وثمانين سنة وله ابنان الاتابكي احمد الذي تسلطن بعده، والمقر الناصر اخوه، وله بنتان. ولما ثقل به المرض عهد بالملك إلى ولده الاتابكي احمد المذكور فجلس على سرير السلطنة في حياة ابيه. انتهى ملخصاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

الملك المؤيد ابن الملك الاشرف

هو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وكني ابا الفتح ولقب شهاب الدين بويح بالسلطنة في حياة ابيه الملك الاشرف اينال سنة ٨٦٥هـ (سنة ١٤٦٠م) وكان عمره لما استوى على منصة الملك نحواً من ثماني وثلاثين سنة، وأخذ في تدبير ملكه وخلع من اختارهم من الامراء وفي جملتهم المقر السيفي خشقدم الناصري وكان امير سلاح فقرره في الاتابكية عوضاً عن نفسه، واستحوذ الامن والعدل والرضاء في الرعية وأحبه الناس حباً شديداً ومالت النفوس اليه على نحو ما قيل:

دولته للانام عيد باقي وأيامه مواسم
قد أظهر العدل في الرعايا وأبطل الجور والمظالم
وصير الشاة في حماه تمشي مع الذئب والضياغم
لو نطقت مصرنا لقلت يا ملك العصر والاقالم
ملأت قلوب الملوك رعباً أغنى عن السمر والصوارم

ثم قدم الاشرفي الذي كان دواداراً ثانياً، ونفي في دولته الاشرف اينال. فلما مات اينال قدم إلى القاهرة من غير اذن السلطان ونزل عند الاتابكي خشقدم فشق ذلك على السلطان وأمر بإخراجه وسجنه فشنع بعض الامراء فأنعم عليه السلطان أن يكون مقدم الف بدمشق وخلع عليه فشق ذلك على جماعة الاشرفية وكثر القيل والقال بين الناس ولهجوا بوقوع فتنة عن قرب، وشاع بين الناس ان السلطان عازم على امساك جماعة من الاشرفية، ثم امر السلطان نقيب الجيش ان يبلغ الامراء ان يصعدوا إلى القلعة فتوجسوا ولم يحضر احد منهم ووثب المماليك الاشرفية والظاهرية واستمالوا إليهم اكثر المماليك الاينالية وأفسدوا عقولهم حتى اخذوا سلاحهم وتوجهوا إلى الرماية، فانشب القتال بينهم وبين العسكر ومماليك السلطان، واستمر القتال ثلاثة ايام والسلطان يجلس في محل مطل على الرملية حيث الحرب وفي اليوم الثالث رتب على الملك مماليك ابيه فتحقق انه مكسور فكان له ما قيل:

كنت من كربتي افر اليهم فهُمُوا كربتي فأين المفر

فانهزم الملك المؤيد إلى القلعة ولما علم ذلك العسكر توجهوا إلى بيت الأتابكي خشقدم فاركبه على كره منه وساروا إلى المحل المعروف بباب السلسلة ودعوا الخليفة والقضاة الأربعة فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعوا بها الأتابكي خشقدم فكانت مدة ملك الملك المؤيد أربعة أشهر وثلاثة أيام.

وكان الماليك قد كاتبوا جانم نائب الشام ان يحضر إلى مصر ليلي السلطنة وأرسلوا إليه صورة بخطوط أيديهم على انهم ارتضوا بأن يكون هو سلطاناً عليهم فابطأ جانم وما صبروا هم فولوا خشقدم السلطنة إلى ان يحضر جانم، ولكن أصبح الوكيل اصيلاً وتمكن خشقدم في السلطنة وأرسل فقيّد الملك المؤيد أحمد وأخاه وأرسلهما إلى السجن بالاسكندرية وكان الملك المؤيد اهلاً للسلطنة، وبصيراً في مصالح الرعية ولو طالت سلطته لكان للناس به غاية النفع، ولكن خانه الزمان وغدر به ممالك ابيه كما قيل:

إذا جفاك الدهر وهو ابو الورى طراً فلا تعتب على اولاده
انتهى ملخصاً عن ابن اياس في تاريخ مصر

عد ٩٣٣

الملك الظاهر خشقدم

لم يحسبه ابن اياس في جملة ملوك الجراكسة بل قال هو اول ملوك الروم بمصر ان لم يكن إبيك التركماني من الروم ولا لاجين من الروم (والاثنان ملكا قبلاً بمصر كما مر). واصل خشقدم مملوك رومي جلبه التاجر ناصر الدين فيعرف بالناصرى واشتراه منه الملك المؤيد شيخ المار ذكره واعتقه وصار جمداراً وبقي خاصكياً في دولة الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ الى ان صار مقدم الف بدمشق وبقي هناك. ولما تغير خاطر السلطان على الامير قاني بك حاجب الحجاب المار ذكره ونفاه، استحضر خشقدم من دمشق وأنعم عليه بإقطاع الامير قاني بك سنة ٨٥٤هـ (سنة ١٤٥٠م). ثم بقي خشقدم امير سلاح في دولة الملك الاشرف اينال. ولما توفي هذا الملك وخلفه ابنه الملك المؤيد أحمد اجفل خشقدم اتابك العسكر كما رأيت، ثم خلع الماليك المؤيد وعهدوا بالسلطنة إلى خشقدم إلى ان يحضر جانم نائب الشام، فتمكن خشقدم بالسلطنة وقد بويع بها في ١٧ رمضان

سنة ٨٥٦هـ (سنة ١٤٦٠م) ويسمى الملك الظاهر، وكُنِّي ابا سعيد ولقب سيف الدين.

ووزع الملك الظاهر المناصب والاقطاعات على من شاء من الامراء وجعل المقر السيفي جرياش الحمدي المعروف بكرك اتابك العسكر، وجاءت الاخبار بان جانم نائب الشام قد وصل إلى خانقاه سرياقوس بحسب دعوة الامراء الاشرفية له ليلسلطونه عوضاً عن الملك المؤيد احمد كما مر. وعرف جانم ان الوعد اختل والوظائف قسمت وفاته الشنب وعز الطلب فكان كما قيل:

وثب الشعب يوماً وثبةً شغفاً منه بعنقود العنب

لم ينله قال هذا حامض حصرم ليس لنا فيه ارب

ولما بلغ خشقدم حضور جانم اضطرب وجميع الامراء فاتفقوا ان جانم يرجع إلى الشام ليقبى نائباً بها ولا يدخل مصر، ووجهوا اليه خلعة نيابة الشام وأرسل السلطان اليه مع الخلعة عشرة آلاف دينار، فرجع جانم إلى الشام بخفي حنين وأسر السلطان إلى نائب قلعة دمشق ان يقبض على جانم فهرب جانم بعياله وأولاده إلى الرها فنهب العسكر داره وأظهر هو العصيان بالرها فجهز له السلطان عسكراً وأمر عليه جاني بك نائب جده، ونصب في نيابة دمشق المقر السيفي تم المؤيدي عوضاً عن جانم.

وفي سنة ٨٦٧هـ (سنة ١٤٦٢م) جاءت الاخبار من حلب ان جانم قتل وقيل قتله مماليكه وهو في قلعة الرها ولما تحقق الخبر دقت البشائر بالقاهرة وانكف العسكر المعين لكيته عن المسير وفيها قبض السلطان على الامير تمتاز الاشرفي وسجنه بقلعة المرقب وشكا بأنه قتل رجلاً فأثبت السلطان ذلك عليه وأرسل اليه رجلاً من المالكية يسمى الشارعي فضرب عنقه على باب السجن بالمرقب وكان تمتاز هذا سيء الخلق واللسان وكان منفيّاً بالشام من اول دولة الاشرف اينال.

وفي سنة ٨٢٧هـ (سنة ١٤٦٧م) جاءت الاخبار من حلب بأن خارجياً اسمه شاه سوار مقبل إلى الشام فأرسل السلطان إلى الامير يرد بك نائب حلب بأن يخرج اليه فخرج ومعه نواب صفد ودمشق وطرابلس وحماة وحمص في رجالهم فانتصر شاه سوار عليهم وغنم بحليهم وسلاحهم فاضطرب السلطان وأمر بتجريدة

يرأسها خمسة امراء من مقدمي الالوف فانتصر عليهم وقتل وأسر كثيرين من الامراء وغيرهم، وأخذ بعض اعمال حلب. وما برح السلطان يجهز العساكر ويرسلها إليه سنة ٨٧٧هـ (سنة ١٤٧٢م) حين تمكنت العساكر من حصره في قلعة زمنوطو وتركه اكثر عسكره فاستسلم هو واخوته وبعض ذويه فاحضروهم إلى القاهرة وأمر السلطان بشنقهم فشنقوا. وفي السنة المذكورة مرض السلطان الظاهر خشقداً واشتد مرضه نحو اربعين يوماً وادركته المنية في ١٠ ربيع الاول من سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م) ودفن في تربة اعدّها لنفسه في الصحراء وله من العمر خمس وسبعون سنة وكانت مدة ولايته بالديار المصرية والشامية ست سنين وخمسة اشهر وعشرين يوماً. انتهى مقتطفاً عن تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٤

الملك الظاهر بلباي المؤيدي

هو الرابع عشر من ملوك الجراكسة عند من اسقطوا خشقداً من عديدهم لانه رومي، والخامس عشر عند من لم يسقطه. وأصل بلباي جركسي جلبه الامير اينال من بلاد الجراكسة فاشتره الملك المؤيد شيخ فينسب اليه ثم اعتقه وصار جمداً ثم ساقياً في دولة الملك الظاهر جقمق، وتقدم بالمراتب حتى صار مقدم الف في دولة الملك الاشرف اينال ثم حاجب الحجاب في دولة الملك الظاهر خشقداً، ثم اتابك العساكر سنة ٨٧٠هـ (سنة ١٤٦٥م). ولما توفي الملك الظاهر خشقداً وقع الاتفاق على سلطته وحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف وقضاة المذاهب الاربعة فبايعوه بالسلطنة وسمي الملك الظاهر وكني بابي النصر ولقب بسيف الدين وجعل المقر السيفي تبرغا اتابك العساكر عوضاً عن نفسه، ووزع باقي المناصب على من اراد وقبض على الامراء وارسلهم إلى السجن بالاسكندرية، فنفرت منه قلوب الرعية وقطع نفقة بعض الخدام. وكان السلطان خشقداً قد ارسل بعض الامراء إلى العقبة لمنع فساد العربان فعادوا ومعهم نحو ستين شخصاً من العرب، فأمر بقتلهم ونصب الامير ازبك نائب السلطنة بالشام وأمره بالتوجه إليها بعد ثلاثة ايام فتوجه.

وكانت فتنة بين الممالك افضت إلى اجتماع الامراء يوم السبت سابع جمادي الأولى من سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م) وأحضروا الخليفة والقضاة الاربعة وخلعوا

الملك الظاهر بلباي من السلطنة واتفقوا على ان يباعوا الاتابك تمرغا، ثم قيدوا بلباي على بعض الامراء المؤيدية وأرسلوا الملك الظاهر بلباي إلى السجن بالاسكندرية والامراء المذكورين إلى السجن بدمياط، فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بلباي شهرين إلا اربعة ايام فصيح به ما قيل:

ركب الاهوال في زروته ثم ما سلّم حتى ودّعا
وكان بلباي فظ الاطباع سيء التدبير سمج الشكل فحقّ ان يقال فيه:
وفظ غليظ الطبع لا ود عنده وليس لديه للاخاء تأنيس
تواضعه تكبير وتقريبه جفا وترحيبه ممقّت وبشره تعبيس

عد ٩٣٥

الملك الظاهر تمرغا الظاهري

عده ابن اياس في تاريخ مصر الثاني من ملوك الروم بمصر ووضعه غيره بالسادس عشر من ملوك الجراكسة. قال ابن اياس انه كان رومي الاصل اشتراه الملك الظاهر جقمق ورياه صغيراً ولما تسلطن جقمق جعله خاصكياً ثم سلاحداراً ثم خازنداراً ثم دواداراً ثانياً ثم صار مقدم الف في دولة الملك المنصور بن جقمق. ثم نفى إلى اسكندرية وسجن بها نحو ست سنين ثم نقله الملك الاشرف اينال إلى مكة فأقام بها نحو ثلاثة سنين. ولما تسلطن خشقدم استأثاه من مكة وخلع عليه وجعله راس نوبة النواب فأقام على ذلك مدة ثم نفاه إلى الاسكندرية فأقام بها مسجوناً ثلاثة ايام، فشفع به الاتابكي قائم التاجر إلى ان صار اتابك العساكر في دولة الملك الظاهر بلباي. ولما خلع هذا من السلطنة اتفق الامراء على سلطنة تمرغا الاتابكي وأحضروا الخليفة والقضاة الاربعة وبايعوه بالسلطنة يوم السبت سابع جمادى الاولى سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م)، وسُمّي الملك الظاهر، وكُنّي ابا سعيد وكان كفؤاً للسلطنة، وله المام ببعض العلوم والفنون. ولما استوى على عرش السلطنة جعل المقر السيفي قايتباي الحمودي اتابك العساكر عوضاً عن نفسه ووزع المنصب والاقطاعات على من شاء من الامراء. ووقعت الوحشة بينه وبين المماليك

الحشقدمية ولما كانت ليلة الاثنين سادس رجب تلك السنة عمل السلطان الموكب في القصر الكبير ودخل جماعة من المماليك الحشقدمية وسيوفهم مسلولة فقبضوا على السلطان وعلى جماعة من امرائه وسجنوهم، وكان يرأس هؤلاء المماليك الامير خير بك وقد اتفق مع المماليك الاينالية بأنه يمسك السلطان في القصر وهم يقبضون على باقي الامراء الخارجين عن القصر ويكون هو السلطان. فلما قبض على السلطان ظن انه تسلطن وأخذ يوزع المناصب في تلك الليلة ولسان الحال يناديه «كلام الليل يحويه النهار». وكان الاتابكي قايتباي غائباً ولما بلغه الخبر اسرع إلى المدينة وشجع جماعة الظاهرية واستمال الاينالية على الامير خيربك وقال انه يرضيهم فاتفقوا الليلة نفسها على خلع السلطان تمرغا وتولية الاتابكي قايتباي، وعند الفجر اركبوه وساروا به نحو القلعة فلما رأى خير بك ذلك اضطرب وضاق به الامر فأخرج السلطان تمرغا من السجن وأجلسه على منصبه وقبل الارض قدماه مستغفراً، وتسطح امامه وقال اقتلني فأنا كنت باغياً عليك. فأجابه السلطان لا أنت ولا أنا بقي لنا بقاء، ودافع الحشقدمية وخير بك قايتباي وجماعته فانكسروا وتشتتوا، وقبض قايتباي على خير بك وبعض عصبته وسجنهم في محل بالقلعة وأدخل السلطان تمرغا إلى البحرة دون قيد، ثم ارسله مكرماً إلى ثغر دمياط ودعوا الخليفة والقضاة الاربعة وبايعوا قايتباي بالسلطنة وكانت مدة سلطنة تمرغا ثمانية وخمسين يوماً فصيح به كما قاله الشاعر:

لم أستتمَّ عناقه لقدمه حتى ابتدأت عناقه لوداعه
وصح بالامير خير بك ما قاله الشاعر الآخر:

يريد المرء ان يعطي مناه ويأبى الله إلا ما أرادوا
واستمر تمرغا في دمياط على ارغد عيش إلى ان وسوس ابليس له ان ينسحب منها كما سيأتي:

عد ٩٣٦

الملك الاشرف قايتباي المحمودي الظاهري

هو الخامس عشر من ملوك الجراكسة على رواية ابن اياس لاسقاطه خشقدم

وتمربغا من عدادهم وهو السابع عشر على رواية من لم يسقطوهما وأصل قايتباي جركسي جلبه إلى مصر تاجر اسمه محمود، فنسب إليه واتصل إلى الملك الظاهر جقمق فنسب إليه ايضاً وهو الذي اعتقه وصيره جمداراً ثم خاصيكياً ثم دواداراً كبيراً. ولما توفي الظاهر بلباي جعله رأس نوبة النواب، ولما تولى الملك الظاهر تمربغا جعله اتابك العساكر إلى ان اتفق على سلطته وبايعه بها الخليفة والقضاة الاربعة سنة ٨٧٢هـ (سنة ١٤٦٧م)، وسمي الملك الاشرف، وكُنِّي ابا النصر ولقب سيف الدين.

ولما استولى الملك الاشرف على منصة الملك خلع على المقر السيفي جاني بك قلقسير وجعله اتابك العسكر، وكان عمر الملك الاشرف حينئذ نحواً من خمس وخمسين سنة، وقبض على اعيان الخشقدمية ونفاهم إلى عدة اماكن، وقرر في اتابكية دمشق شادي بك الجلباني، وخلع على يشبك السيفي علي بك وقرره في نيابة قلعة دمشق وجعل في نيابة قلعة حلب تمر بك، وقرر مرداش العثماني في نيابة القدس عوضاً عن محمد بن حسن بن ايوب، وجعل بيبروس الاشرفي في اتابكية صفد. وفي السنة المذكورة انتصر شاه سوار المار ذكره على العساكر السلطانية وقتل كثير من الامراء وأسر كثير، ومن سلموا دخلوا حلب مشاة عراة ودخلها ازبك نائب الشام وهو مجروح في وجهه، ودخل نائب طرابلس ونائب حلب في اسوأ حال، وأسر سوار اتابك العساكر جاني بك قلقسير، فعقد السلطان ديوان مشورة وارتأوا ان يؤخذ من مال الجوامع والمساجد ما يجهز به عساكر لكبت شاه سوار. فأذكر ذلك شيخ الاسلام امين الدين الاقطراني الحنفي وأثبت ان ليس للسلطان ان يأخذ اموال الناس إلا بوجه شرعي إلا إذا كان ضرورياً في المنع عن المسلمين، ولا يفي بالحاجة ما في ايدي الامراء والجنود وحلي النساء، فانفض المجلس من غير طائل وعين الاشرف تجريدة اخرى على سوار وبلغت الاخبار بأنه وصل إلى قرب حلب.

وفي هذه السنة فرّ الظاهر تمربغا من دمياط وبلغت الاخبار الملك الاشرف فاضطرب وأمر بالتحوط منه واتباعه، فقبض عليه ارغون شاه نائب غزة، وتوجه الامير يشبك فحمله في محفة إلى الاسكندرية دون قيد، فرفق به السلطان ولم يسجنه وكتب هو إلى السلطان يعتذر بأنه قصد التوجه إلى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان وتخدم الفتنة ولم يكن الامر كذلك فصيح ما قيل:

إذا كان وجه العذر ليس بواضح فإن اطراح العذر خير من العذر

وفي سنة ٨٧٣هـ (سنة ١٤٦٨م) نصب السلطان قانصوه الياقوت نائباً بطرابلس عوضاً عن اينال الاشقر الذي نصبه نائباً بحلب عوضاً عن بردك البجمقدار الذي نقله إلى نيابة الشام عوضاً عن ازبك بن ططنج الذي نقله إلى اتابكية العساكر عوضاً عن جاني بك قلقيسر الذي اسره سوار.

وفي سنة ٨٧٤هـ (سنة ١٤٦٩م) خلع السلطان على قانصوه الياقوت ليكون نائباً بحلب عوضاً عن اينال الاشقر الذي جعله مقدم الف بالقاهرة ونصب يشبك الجاسي نائباً بطرابلس وكان قبلاً نائباً بحماة وجعل مكانه بحماة بلاط الياقوت احد مقدمي الافوف بدمشق وأقام مكانه تراز اتابك عسكر حلب وقرر في اتابكية حلب تعزى بردى بن يونس.

وفي سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٧٠م) كان خلاف بين العلماء بالقاهرة في امر الشيخ عمر بن الفارض فتعصب عليه جماعة من العلماء وقالوا بنسبه وكفروه ونسبوه إلى من يقول بالجلال والاتحاد بسبب ابيات قالها في قصيدته الثائية، وكان اخص المتحاملين عليه برهان الدين البقاعي، ومحِب الدين بن الشحنة. وفي رأس المنتصرين له الجلال بن الكمال الاسيوطي والشيخ ذكريا الانصاري، والف الجلال السيوطي كتاباً سماه «قمع المعارض في الرد عن ابن الفارض» وصنف غيره كتاباً سماه «درياق الافاعي في الرد على البقاعي» وكثرت المشاحنات في هذا الشأن وما أحسن ما قاله الشهاب المنصوري في البقاعي:

ان البقاعي بما قد قاله مطالب

لا تحسبوه سليماً فقلبه يعاقب

وهجا بعضهم ابن الشحنة لذلك فقال:

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفي في كل القبائح أوحده الازمان

في مصر علم ابي حنيفة تدعي جهلاً وأنت معرّة النعمان

وما اورده لتبرئة ساحة ابن الفارض مذهب الحلول قوله في قصيدته الثائية نفسها:

ولي من اتم الردئتين اشارة تنزه عن راي الحلول عقيدتي

وفي هذه السنة ايضاً توفي برد بك البجمقداري نائب الشام فنصب السلطان مكانه الامير برقوق الناصري. وفيها وردت الاخبار بأن حسن الطويل ملك العراقين قصد ان يستحوذ على بلاد حلب وإنه اظهر العداوة للسلطان وقد طمع بعسكر مصر بسبب كسرة شاه سوار لهم. فثار السلطان وقصد ان يخرج إلى حلب وكان سوار ما زال يحارب السلطان ولم تنته الحرب إلا سنة ٨٧٧هـ (سنة ١٤٧٢م) فاضطر السلطان ان يغضي على ما بلغه عن حسن الطويل ملك العراقين إلى ان قبضت العساكر على سوار وشنق بالقاهرة كما مر. وبعد ذلك بلغت الاخبار بأن حسن الطويل جمع العساكر وهو زاحف إلى بلاد السلطان فجهز السلطان عسكراً لكبته وأمر عليه ثلاثة من الامراء فساروا إلى حلب سنة ٨٧٧هـ المذكورة، ثم اردفهم السلطان بتجريدة اخرى لما بلغه ان حسن الطويل اخذ بعض اعمال بلاده ولما وصلوا إلى حلب ارسل اليهم حسن الطويل وفداً يطلب من اسروا وسجنوا بحلب من جماعته ويعد بإطلاق من عنده من الاسرى فلم يجبه الامير يشبك الدودار امير عسكر السلطان إلى ذلك، وأرسل جماعة من عسكره لقتال عسكر حسن الطويل في البيرة فرحلهم عنها وجرح ابن الطويل جراحات بالغة. وقال شمس الدين القادري في الانتصار على حسن الطويل:

أيا حسن الطويل بعثت جيشاً كاغنام وهنّ لنا غنائم
فنار الحرب قد قتلت سواراً وأنت لسبكها لا شك خاتم
وقال المنصوري:

هل عازف بالخارجي المعتدي يخبر إلينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه قالوا الطويل فقلت ليل شتاته
وقد كاتب حسن الطويل الفرنج ليعينوه على قتال سلطان مصر وأن يحملوا على السلطان ابن عثمان وعلى سلطان مصر في البحر وهو يحمل عليهما في البر. وأرسل هذه المكاتبه مع وafd فوقع هذا الوفد بيد سفير من قبل السلطان ابن عثمان فقبض عليه وأسرّه وأخذ الكتابة منه وقدمها للملك الاشرف.

وفي سنة ٨٧٩هـ (سنة ١٤٧٤م) ارسل حسن الطويل سفيراً إلى الملك الاشرف ويده رسالة يعتذر بها عما كان منه ويطلب العفو فأكرم السلطان سفيره

وأظهر العفو عما يجري منه وكان قد شاع ان حسن الطويل قتل، فظهر كذب هذه الاشاعة. وفي سنة ٨٨٠هـ (سنة ١٤٧٥م) جعل الملك الاشرف برد بك السيفي جدباش نائباً على صفد عوضاً عن ازدمر بن مزيد الذي نقله إلى نيابة طرابلس، ووجه إلى دمشق برهان الدين النابلسي وكيلاً لبيت المال، فصدرت منه قبائح حتى رجمه اهل دمشق ورموا عليه بالسهم وأحرقوا داره، فتلطف نائب القلعة بالعامه وخمد جذوة غضبهم على النابلسي. وفي سنة ٨٨٢هـ (سنة ١٤٧٧م) قبض الامير يشبك بامر السلطان على برهان الدين هذا وعاقبه واستلخص منه بعض الاموال ومات تحت العقاب. وفي هذه السنة سافر السلطان الملك الاشرف قايتباي إلى البلاد الشامية بغتة بنفر يسير، فخرج إلى طرابلس وبلغ إلى حلب ثم إلى الفرات فأقام هناك اياماً ثم عاد إلى حلب ثم رحل عنها إلى حماه، فتوكل مزاجه واشتد المرض فحملوه بمحفة إلى دمشق. وكثر القال والقليل بأن السلطان توفي فاضطربت احوال الامراء في القاهرة وأبدى كل منهم ما بنفسه من رغبته في السلطنة إلى ان تعافى السلطان ووردت البشائر انه نصل من مرضه وعاد من دمشق وكان دخوله إلى القاهرة يوماً مشهوداً.

وفي سنة ٨٨٤هـ (سنة ١٤٧٩م) نقل السلطان قانصوه اليحياوي من نيابة حلب إلى نيابة الشام عوضاً عن جاني بك قلقسیر الذي توفي، ونقل ازدمر احد ذوي قرابته من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب، وقرر في نيابة طرابلس برد بك المعمار نائب صفد، ونصب في نيابة صفد جاني بك احد ممالك السلطان. وفي سنة ٨٨٥هـ (سنة ١٤٨٠م) أرسل السلطان الامير يشبك الدودارا ومعه هؤلاء النواب إلى حلب لكبت سيف امير العرب آل فضل الذي كان ابدى العصاوة ففر سيف وتوجه إلى الرها فلحقه الامير يشبك والنواب إلى الرها وحاصروها قاصدين اخذها، فخرج عليهم بابتدر حاكمها من قبل يعقوب بن حسن الطويل فانتصر عليهم وشتت شملهم وأسر الامير يشبك ثم قتله واسر نائب الشام ونائب حلب وقتل كثيرين منهم برد بك نائب طرابلس فصيح يشبك ما قال الشاعر:

وكم من طالب يسعى لشيء وفيه هلاكه لو كان يدري

وعين السلطان الاتابكي اذبك نائباً بحلب عوضاً عن ازدمر الذي كان قد أُسر وفوض اليه امر البلاد الشامية والحلبية، ونصب تمارازا التمشي احد انسابه نائباً

شام، فامتنع من ذلك. فاستبد له بقجماس الاسحاقي عوضاً عن قانصوه
حيايوي الذي أسر، ولما وصل إلى حلب اذبك واليها ارسل وافداً إلى يعقوب بن
سن الطويل فأكرمه يعقوب وأطلق من كان عنده من الاسرى سنة ٨٨٦هـ (سنة
١٤٨٨م).

وفي سنة ٨٨٨هـ (سنة ١٤٨٣م) خلع السلطان علي مملوكه اينال الخسيف
جعله نائباً بصفد وكان اتابك العساكر بحلب ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه وخلع
على قريه يبيرس الرجبي وجعله نائباً بطرابلس عوضاً عن اينال السلحدار الذي كان
اسره علي دولات، وعلي هذا هو اخو شاه سوار المتقدم ذكره قد أظهر العصيان
لعداوة للسلطان فخرج عليه وارديش نائب حلب وجرى قتال شديد بين
سكركين فانكسر العسكر الحلبي وقتل النائب المذكور. وكان السلطان بايزيد خان
ن السلطان محمد خان يمدد علي دولات. فابتدأ حيثئذ التنافر بين سلطان
قسطنطينية وسلطان مصر وبعد ان انكسر عسكر حلب استأنف العسكر المصري
كر على عسكر علي دولات وعسكر السلطان ابن عثمان الذي كان ينجده فقطفر
سكرك المصري.

وفي ٨٩١هـ (سنة ١٤٨٥م) توفي يشبك العلائي نائب حماه فنصب
سلطان مكانه سيباي الطيوري وكانت في هذه السنة وما بعدها حروب بين
سكرك السلطان بايزيد العثماني والسلطان قايتباي في جهات حلب وكان النصر
لها تارة لسلطان القسطنطينية وتارة لسلطان مصر والشام وفي سنة ٨٩٢هـ (سنة
١٤٨٨م) توفي قجماس الاسحاقي نائب الشام فدعا السلطان قانصوه اليحيايوي
بي كان قبلاً نائباً بالشام وردّه إلى هذه النيابة ثانية. وفي السنة التالية نصب
في الدين الحموي في نظارة الجيش بدمشق وجعل عبد الرحيم في كتابة السر
يدكي الاشرفي في نيابة القلعة بدمشق، وأعاد ازدمر قريه إلى نيابة حلب وتوفي
إدار السلطان بهذه المدينة، فنصب مكانه اركماس بن ولي الدين، وجاءت
أخبار بأن عسكر السلطان ابن عثمان وصل إلى ادنه فجند الملك الاشرف عسكراً
بده فكانت بين العسكرين وقعة قتل فيها خلق كثير من الفريقين، وعاد عسكر
ن عثمان إلى ادنة فتبعه العسكر المصري إليها وحاصرها وأخذها أخيراً بالامان.
في سنة ٨٩٤هـ (سنة ١٤٨٨م) جاءت الاخبار بأن عسكر ابن عثمان لما بلغه

رجوع العسكر المصري طمعوا بأخذ البلاد الحلبية فاهتم الملك الاشرف بارسال تجريدة اخرى أمر عليها قانصوه الشامي أحد مقدمي الالوف فاستولوا في السنة التالية على بعض الاماكن من ملك ابن عثمان ولكن حصل في العسكر المصري قلق من قبل النفقة فعادوا إلى مصر سنة ٨٩٦هـ (سنة ١٤٩٠م) وتعذر على السلطان جمع ما فرض من الضرائب وقلق الناس لذلك فأرسل الملك الاشرف سفيراً إلى السلطان العثماني فعاد ومعه سفير من قبل بايزيد، فوقع الصلح بينهما وأطلق الاسرى من الفريقين وفي السنة المذكورة وقعت فتنة بين نائبيها ازدرم وبين جماعة من اهلها فقتل سبعة عشر ملوكاً من مماليك النائب وقتل من اهل حلب نحو خمسين رجلاً، فقام باخماد هذه الفتنة قانصوه الغوري الذي صار فيما بعد سلطاناً وكان وقتئذٍ حاجب الحجاب بحلب.

وفي سنة ٨٩٧هـ (سنة ١٤٩١م) كان بمصر طاعون شديد الوطأة ماتت به الالوف المانعة وكان يموت بهذا الوباء كل يوم اكثر من الف شخص وعمّ الوباء الشام ولم يكن عدد الموتى بدمشق اقل من الموتى بالقاهرة واتصل إلى القرى ايضاً وفي سنة ٨٨٩هـ (سنة ١٤٩٢م) وقعت بدمشق فتنة حتى رجم اهلها النائب قانصوه اليحياوي. وفي سنة ٨٩٩هـ (سنة ١٤٩٣م) توفي ازدرم المسرطن نائب صفد الظاهري ثم توفي ازدرم نائب حلب من اقرباء السلطان وتولى عدة مناصب منها نيابة طرابلس ونيابة حلب وكان اصله من مماليك الظاهر جقمق وبعد موته نصب مكانه اينال السلحدار نائب طرابلس، وتوفي يشبك بن حيدر نائب حماه وأصله من مماليك الاشرف اينال. فخلع السلطان على اقباي الطويل وجعله نائباً بحماه. وفي سنة ٩٠٠هـ (سنة ١٤٩٤م) عين السلطان كرتباي اخا الامير اقبدي الدودار نائباً بصفد.

وفي سنة ٩٠١هـ وهي بدء القرن العاشر للهجرة (سنة ١٤٩٥م) حم السلطان الاشرف قايتباي وزاد مرضه فاجتمع يوم السبت ١٦ من ذي القعدة الخليفة والقضاة الاربعة وخلصوه من السلطنة وهو في النزاع، وبايعوا ابنه محمد بالسلطنة. ولما كان يوم الاحد ١٧ من الشهر المذكور توفي الملك الاشرف إلى رحمة الله وعمره نحو من ست وثمانين سنة وكانت مدة سلطته بمصر والشام تسعاً وعشرين سنة وأربعة اشهرًا وأياماً ولم تتفق هذه المدة لغيره من السلاطين قبله وقد خلف كثيراً من الآثار التي تحيي ذكره منها مدرسة بدمشق وأخرى بغزة وأخرى بدمياط

وأخرى بالاسكندرية، والجامع الذي بالصحراء والجامع الذي بالروضة إلى غير ذلك من معاهد الدين والعلم. انتهى مقتطفاً من تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٧

الملك الناصر محمد ابن الملك الاشرف قايتباي

هو الثامن عشر من ملوك الجراكسة عند من لم يسقطوا خشقدهم وتمربغا من عديدهم لانهما روميان بويغ بالسلطنة في ١٦ من ذي الحجة بحياة ابيه ودون رضاه لانه كان في النزاع وكان له من العمر عند مبايعته اربع عشرة سنة وأشهر، وكني ابا السعادات ولقب بالمنصور اولاً ثم بدله بالناصر وعين في المناصب من شاء من الامراء وأمر يعود بعض من كانوا منفيين في ايام ابيه، ودعا قانصوه الشامي الذي كان قد قرره بناية حماه ونصب مكانه اركماس احد المقدمين بدمشق وكان كرتباي نائب صفد قد قتل احمد بن يهادر نائب قلعتها، فأمر السلطان الماس بن ولي الدين احد الخاصكية بالقبض على كرتباي، فضرب كرتباي عنق الماس وانهمز من صفد، فنصب الملك الناصر مكانه برد بك الطويل، ولما كان السلطان قد جعل قانصوه خمسمائة اتابكي العسكر وكبير الامراء عظم امر قانصوه هذا، وصار له الحل والعقد حتى خلع الملك الناصر كما سترى. وفي سنة ٩٠٢ هـ (سنة ١٤٩٦م) جاءت الاخبار بقتل عساف الحبشي نائب صيدا وبيروت وكان من مشاهير النواب، وكانت له شهرة طائفة. وفيها قتل قانصوه بعض الامراء غيلة وركب في احزابه من الامراء والعسكر إلى باب السلسلة ودعا الخليفة والقضاة الاربعة فخلعوا الملك الناصر بصورة شرعية وبايعوا قانصوه خمسمائة بالسلطنة، ولم يبق سوى ان يفاض عليه شعار الملك ويركب فرس النوبة ويصعد إلى القلعة. لكن صبح به حيثئذ ما قيل:

ستقضي لنا الايام غير الذي قضت ويحدث من بعد الامور امور

فإن قانصوه خمسمائة ارسل بعض الامراء للقبض على الملك وإدخاله إلى قاعة البحرة، فتعصب له جماعة من ممالك ابنه وكانوا نحو الف مملوك فمنعوا الامراء من دخول القلعة، وانتشب القتال بين الفريقين واستمد قانصوه خمسمائة

الناس فلم يمدوه بل حاصره ممالك الناصر في باب السلسلة ومعه الخليفة والقضاة الاربعة، واستمر الحال على ذلك يومين وفي آخر القتال جرح قانصوه خمسمائة وأغمي عليه فحمله بعض غلمانه ونزل ممالك الناصر إلى باب السلسلة وهزموا من كان به وانتهبوا كل ما فيه، وانتصر الملك الناصر وتوجه الخليفة والقضاة الاربعة في اليوم التالي فهنأوه بانتصار. وهذا يذكرنا قول الشاعر:

وبين اختلاف الليل والصبح معرك يكر علينا جيشه بالعجائب
وقد استخف قانصوه خمسمائة بالملك لصغر سنه فخذله الله وصح ما قيل: -
لا تحقرن كبد الصغير فربما تموت الافاعي من سموم العقارب
وقول الآخر:

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة إن الذبابة تدمي مقلة الاسد
وحاول قانصوه خمسمائة بعد ذلك ان يأخذ بثاره فازداد خذلاناً

وفي السنة المذكورة توفي قانصوه اليحياوي نائب الشام المار ذكره فنصب السلطان مكانه في السنة التالية كرتباي الاحمر ، وفي سنة ٩٠٣ هـ (سنة ١٤٩٧م) خلع السلطان على جان بلاط بن يشبك وجعله نائباً بحلب وكان اقبردى الدوادار اظهر العصيان وحاربه العسكر فانهزم إلى الشام وقصد ان يملكها ونهب الضياع التي حول دمشق وخرّب كثيراً منها، وفعل كذلك في قرى حلب وقد حاصر اقبردى دمشق نحو شهرين ولم ينل منها مأرباً، وفر إلى حلب وحاصر بطريقه حماه وأخذ منها اموالاً كثيرة. وكان اينال السلحدار نائب حلب حينئذ من عصابة اقبردى فأراد ان يسلمه المدينة فرجمه اهل المدينة وطرده من حلب وحصنوا المدينة ففر اقبردى وعسكره واينال صاحب حلب وتوجهوا جميعاً إلى علي دولات ابن شاه سوار المار ذكره، فاتفق الامراء حينئذ ان يولوا على حلب جان بلاط بن يشبك وتبع كرتباي الاحمر نائب الشام اقبردى وجماعته إلى عين تاب وكانت بين الفريقين هناك وقعة قتل فيها اينال نائب حلب وجماعة كثيرة وانهزم اقبردى إلى جبل الصوف في من بقي معه من الامراء والممالك وأرسل العسكر المصرى إلى القاهرة بعض رؤوس من قتلوا في وقعة عين تاب وفي جملتها رأس اينال نائب حلب.

وفي سنة ٩٠٤ هـ (سنة ١٤٩٨ م) سار السلطان إلى بر الجزيرة وأقام هناك ثلاثة أيام في أرغد عيش وقد خرج عن الحد في اللهو والخلاعة والطيش وكأن لسان الحال كان يقول له:

تزود من الدنيا فإنك لا تدري إذا جن ليلك هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمشي ويصبح آمناً وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري
وركب السلطان في آخر تلك الايام ولم يكن معه إلا ابناء عمه وبعض
سلحدرائته ومر على الطالبية وكان هناك طومان باي متوجهاً إلى البحيرة فخرج
مسرعاً للقاء السلطان وسأله ان يحل عنده فأبى فقدم له طومان باي جفنة فيها لبن
فاخر فوقف السلطان وهو راكب على فرسه وأخذ يتناول من اللبن وطومان باي
ضابك لجام فرسه وإذا بخمسين مملوكاً خرجوا من الخيام التي هناك وعاجلوا
السلطان بالحسام قبل الكلام فقتلوه شرّ قتلة، وقتلوا ابني عمه واحد السلاحدارية
ونسب قتله إلى طومان باي. ولما قتل الملك الناصر كان عمره سبع عشرة سنة
وكان يوصف بالكرم والشجاعة لكنه كان جاهلاً عسوفاً سفاكاً للدماء كثير العشرة
للاوباش وكانت مدة ملكه نحو سنتين وأربعة اشهر وأكثرها فتن وشورر . انتهى
مقتطفاً من تاريخ مصر لابن اياس.

عد ٩٣٨

الملك الظاهر قانصوه الاشرفي

هو التاسع عشر من ملوك الجراكسة إذا حسبنا منهم خشقدم وتمربغا الروميين
وأصله مملوك جركسي اشتراه الامير قانصوه وقدمه للملك الاشرف قايتباي في سنة
٨٩٨ هـ (سنة ١٤٩٢ م) ثم ظهر انه اخو سرية السلطان اصل باي الجركسية فجعله
السلطان قايتباي جمداراً، ولما توفي وخلفه ابنه الملك الناصر محمد جعله خزانداراً
كبيراً وبقي يسمى خال السلطان. ولما وثب قانصوه خمسمائة على السلطان قام
قانصوه خاله بنصرته فرقاه ابن اخته في المناصب فعظم امره وشاع بين الناس ذكره
ولما عصا اقبردى الدوادار وانهزم إلى الشام جعل الملك الناصر خاله في الدوادارية

الكبرى عوضاً عن اقبردى ولما قتل الناصر اختلف الامراء في من يخلفه ثم اتفقوا على قانصوه خال الناصر واستدعوا الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الاربعة فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الاربعة بذلك، وتلقب بالملك الظاهر وكني أبا سعيد، وأبقى الاتابكي إذبك في اتابكية العسكر وقرر طومان باي في الدوادرية الكبرى عوضاً عن نفسه.

وفي هذه السنة أيضاً توفي كرتباي الاحمر نائب الشام ويقال ان الملك الناصر رشا على قتله بألف دينار لانه مخالف له وينهاه عما لا يليق بملك، فُدس له سم مات به فنقل الملك الظاهر جان بلاط ابن يشبك من نيابة حلب إلى نيابة الشام ونصب في حلب عوضه قصره بن اينال، وفيها عاد اقبردى الدوادر إلى حلب وحاصرها اشد الحصار وأحرق ما حولها من القرى واشرف على اخذ المدينة فجهز السلطان عسكراً ضخماً اثر عليه تاني بك الجمالي امير سلاح. فلدى وصولهم إلى حلب وجدوا اقبردى بمرعش عند علي دولات بن شاه سوار وطال مقام العسكر بحلب واسعار المؤن غالية وعلف الخيل قليل. فأرسل قصره نائب حلب قاني باي الرماح يسأل اقبردى الصلح، ولما وثق اقبردى بذلك حضر صحبتة قاني باي ودخل إلى حلب طائعاً، فالتقاه نائب حلب وأمرء العسكر وكاتبوا السلطان بذلك، فأرسل له خلعة فاخرة وفرساً بسرج ذهب وقلده نيابة طرابلس. إلا انه بعد دخوله إلى حلب وإقامته بها قبل ان يتوجه إلى طرابلس اعترته آكلة مات بها ودفن بحلب ثم نقلت جثته إلى القاهرة ودفن بتربة انشأها لنفسه بالصحراء، ومات وعمره دون الخمسين وأصله من مماليك الاشرف قايتباي ثم ظهر انه قريه وتقلب في المناصب الرفيعة إلى ان خرج وحارب عسكر السلطان مراراً فسلم اخيراً نفسه كما مر. وبعد وفاة اقبردى نقل السلطان قصره من نيابة حلب إلى نيابة الشام ونقل جان بلاط نائبها إلى الاتابكية بمصر ونصب دولات باي بن اركماس في نيابة حلب عوضاً عن قصره، وقرر بليناى المؤيدى في نيابة طرابلس عوضاً عن دولات. وروى البطريقك الدويهي انه كان في هذه السنة ببيروت وباء مات به خلق كثير.

وفي سنة ٩٠٥هـ (سنة ١٤٩٩م) عصا قصره نائب الشام وخرج عن الطاعة واستولى على قلعة دمشق وعلى ما فيها من المال، فاضطرب السلطان وأظهر انه يخرج إلى الشام بنفسه، وأخذ يستعد لذلك. وكان الامير طومان باي ممالئاً قصره على العصيان قاصداً التمهيد لنفسه، وأشار الامراء على السلطان بأن يبعث إلى

قصره سفيراً يقرره في نيابة الشام، ولا يواخذه بما عمل إذا سلم قلعة دمشق إلى نائبها، ولكن جاءت الاخبار بأن قصره تولى على طرابلس وقبض على نائبها بلباي المذكور وسجنه بقلعة دمشق وكتب السفير المرسل إليه انه مصر على العصيان فجهز الملك الظاهر جيشاً لكبت قصره ، وكان في هذا الجيش نحو ثلاثين اميراً وألفي مملوك من ممالك السلطان، وعاد حيثئذ طومان باي من الصعيد إلى الجزيرة وخرج الامراء والعسكر لملاقاته. وأقام بالجزيرة لا يريد الدخول إلى القاهرة فأرسل اليه السلطان الامير طراباي وصورة حلف عن لسان السلطان انه لا يهينه إذا قابله ولا يقبض عليه، فلم يثق طومان بذلك الحلف وأظهر العصيان فتحقق الملك الظاهر الثورة عليه وأخذ يحصن القلعة ويستعد للحصار بها وفرق السلاح على ممالিকে وقبض على بعض الامراء الذين وقعت له بهم الشبهة، وتوجه طومان باي إلى الازبكية بمن معه من الامراء. وكان الاتابكي جان بلاط ساكناً هناك واتفقوا على خلع الملك الظاهر وساروا يحاصرون القلعة ولم يكن عند الملك الظاهر إلا نائب القلعة وبعض الامراء ونحو الف رجل، ومع ذلك استمرت الحرب بين الفريقين ثلاثة ايام وبعدها دخل طومان باي باب السلسلة وانكسر الملك الظاهر وتشتت من كان معه بالقلعة ودخل الملك دار الحريم ولبس زي امرأة وتوجه نحو الترب فاختفى ووقع لخلاف في من يملك فيهم، ولم يجسر طومان باي أن يأخذ الملك وكان الاتابكي جنبلاط مقدماً عليه، ورشح ثاني بك الجمالي فلم يرض به العسكر ايضاً ولكن تعصب له طومان باي وأصر عليه فكانت السلطنة له فكانت مدة الملك الظاهر قانصوه سنة وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً. وكان خلعه في آخر ذي القعدة سنة ٩٠٥ هـ (سنة ١٤٩٩م) وساس الناس احسن سياسة وخلع من السلطنة والناس راضون عنه ولم يكن له من المساوي إلا قليل.

عد ٩٣٩

الملك الاشرف جان بلاط الاشرفي

هو العشرون من ملوك الجراكسة عند من لم يسقط من عديدهم خشقدم وقربغا وأصله جركسي اشتراه الامير يشبك بن مهدي الدوادر الكبير ثم قدمه إلى الملك الاشرف قايتباي، فكان جمداًراً ثم خاصكياً ثم دوادار وتوجه قاصداً إلى السلطان ابن عثمان سنة ٨٦٩ هـ (سنة ١٤٩٠م) ثم صار مقدم الف في دولة

الاشرف قايتباي، ودوداراً كبيراً عوضاً عن اقبردي في دولة الناصر ثم قرر نائباً بحلب ثم نقله الظاهر قانصوه إلى نيابة الشام كما رأيت ثم أحضره إلى القاهرة ونصبه اتابك العسكر عوضاً عن الاتابكي اذبك، وتزوج بخوند اصلباي ام الملك الناصر، ولما وثب طومان باي على الملك الظاهر قانصوه وانكسر وقع الاتفاق على سلطنة جان بلاط بتعصب طومان باي له واستدعوا الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الاربعة فخلعوا الملك الظاهر وبايع الخليفة جان بلاط بالسلطنة وشهد على ذلك القضاة، وتسمى الملك الاشرف على اسم استاذه الملك الاشرف قايتباي وكني ابا النصر، وكان ملء العيون، كفوءاً للسلطنة وافر العقل سديد الرأي.

ومن الاحداث في ايامه انه نصب قصره نائب الشام اتابكا للعسكر وكان يظن ان ذلك يدخله في طاعته ويكف عن العصيان الذي كان قد جاهر به كما مر في الفصل السابق فكان الامر مخيباً ظنه. فقد أرسل السلطان اليه قصره الصغير يشره بسلطنته ويستدعيه إلى الاتابكية فايي إلا العصيان وخلع الطاعة، وعاد رسول السلطان إليه فأخبره ان قصره لم يلبس الخلعة وهو مصر على العصيان، فاستاء السلطان لذلك ونصب ثاني بك الجمالي في الاتابكية التي كان قد اعدّها لقصره وخلع على طومان باي وقرره في اميرية سلاح مضافة إلى ما بيده الدوادارية الكبرى وجعله ايضاً في الوزارة والاستدارية حتى صار صاحب الحل والعقد في تلك الايام. ثم جاءت الاخبار بأن قصره قد تولى غزة واعمالها والقدس وغيرها من النواحي، وجاءت الاخبار من حلب بأن دولات باي نائبها اظهر الطاعة للسلطان وانه غير مشترك في العصيان مع قصره نائب الشام، ولم تكن تلك الاخبار إلا مخادعات لفقها طومان باي تمهيداً لسلطنته، وكان قد تمادى حتى جعل السلطان جان بلاط كالحجور عليه لا يقضي امراً دون مشورته. وكانت احوال البلاد الشامية تزداد قلقاً واضطراباً فجهز السلطان عسكرياً لكبت قصره ورده إلى الطاعة وأمر ان يسرع العسكر بالخروج وعين قرقماس بن ولي الدين نائباً بحلب وبرد بك الطويل نائباً بطرابلس وقانصوه بن جركس نائباً بحماه وعين دولات باي نائب حلب في نيابة الشام عوضاً عن قصره إذ قبض عليه، وخرج هؤلاء مع العسكر إلى الشام بأمر طومان باي وكان السلطان يظنه ناصحاً له وهو اكبر البغاة عليه ولما وصل العسكر إلى الشام حل في مكان يسمى سعسع بالقرب من دمشق، فركب قصره نائب الشام في نفر قليل من عسكره وأظهر انه طائع

دخل مع طومان باي وعسكره إلى دمشق واجتمعوا في القصر الابلق بالميدان، وقر
أبهم ان يصعدوا إلى القلعة ويقرأوا فيها مراسيم السلطان، فقرأوها ولم يلتفت
صروه على جماعة من الامراء الذين اتوا من مصر وفي جملتهم قرقماس بن ولي
مدین المعین نائباً لحلب وقانصوه بن جركس المعین نائباً بحماة وقيدوهم وسجنوهم
القلعة. وفي تلك الاثناء وصل إلى دمشق دولات باي نائب حلب وتعصب
طومان باي وطلب ان يبايع بالسلطنة واحضر قضاة الشام وكتب صورة محضر في
طع الملك الاشرف جان بلاط وبايعوا مكانه بالسلطنة طومان باي من غير حضور
طيفة وسمي الملك العادل، وكُتِبَ ابا النصر وأفاضوا عليه شعار الملك، وقبِلَ الامراء
لارض امامه، وأول من قبلها قصره نائب الشام ثم باقي الامراء. وأخذ طومان
اي يدبر مهام السلطنة فنصب قصره نائب الشام اتابك العساكر بمصر، وعين
ولات باي نائب حلب نائباً بالشام وجعل مكانه في نيابة حلب اركماس بن ولي
مدین، وقرر برد بك الطويل في نيابة طرابلس، وسمي قانصوه الغوري دواداراً كبيراً
له الوزارة والاستدارية وخطب باسم طومان باي الملك العادل على منابر دمشق.

وأما الملك الاشرف جان بلاط فلما بلغته هذه الاخبار اضطرب لها وعين في
لنصيب عوضاً عن الامراء الذين عصوا بدمشق من وثق بهم من الامراء بمصر
استحضر المصحف العثماني وحلف عليه الامراء من كبير وصغير بحضرة الخليفة
القضاة الاربعة ايماناً مغلظة بالله والمصحف والطلاق على انهم يخلصون في الطاعة
، ولا يخونون ولا يغدرون ولا يميلون إلى العادل، وأخذ في تحصين قلعة القاهرة
أصلح سورها وأبراجها ونقل إليها كثيراً من المؤن وفتح الزردخانة، وفرق على
تنوده سيوفاً ودروعاً وقسيّاً ونشاباً وخيولاً. وفي يوم السبت رابع جمادي الأخرى
سنة ٩٠٦ هـ (سنة ١٥٠٠ م) جاءت الاخبار بأن العادل طومان باي خرج من الشام
ووقصره نائب الشام ودولات باي نائب حلب وجماعة من النواب والتف اليهم
لجم الغفير من العساكر وعربان جبل نابلس، وقد وصلوا إلى غزة فعلق السلطان
نان بلاط السنجق السلطاني على باب السلسلة ونادى للعسكر بالدخول إلى القلعة
لدخلوا، وفي اليوم الخميس تاسع جمادي الاخرى وصل العادل في من معه إلى
ناققا سورياقوس ودخلت طلائع عسكره القاهرة، وفي يوم السبت الحادي عشر من
شهر المذكور دخل العادل طومان باي إلى القاهرة من باب الفتوح فارتفعت له
اصوات بالدعاء لانه كان محبوباً فنادى بالامان والاطمئنان والبيع والشراء ثم

تسمرت نار الحرب بين الفريقين واستمرت ثلاثة ايام، وظهر أخيراً ان الدوائر ستدور على الاشرف جان بلاط فأخذ الامراء والجنود ينسحبون من القلعة ويحضرون إلى الملك العادل طومان باي، ولما ضاق الامر على الاشرف جان بلاط دخل إلى دور الحرم واختفى ودخل الملك العادل وجماعته القلعة وقبضوا على الاشرف جان بلاط. قيل وجدوه مختفياً في محل مهجور من دور الحرم وقيده ب قيد ثقيل ثم ارسلوه إلى السجن بالاسكندرية فكانت مدة سلطنته ستة أشهر وثمانية عشر يوماً وخنقوه أخيراً بالسجن.

عد ٩٤٠

الملك العادل طومان باي

هو الحادي والعشرون من ملوك الجراكسة إذا عُدَّ منهم خشقدم وتمريغا وأصله جركسي اشتراه قانصوه اليحياوي نائب الشام وقدمه إلى الاشرف قايتباي، ولذا يوصف بالاشرفي، واعتقه قايتباي وتقلب بالمناصب إلى ان صار دواداراً كبيراً في دولة الظاهر قانصوه ثم ضم اليه الاشرف جان بلاط مناصب اخرى كما مر إلى ان غدر به لما امره العسكر الذي ارسله على قصره نائب الشام، وتسلمن بدمشق، وعاد إلى القاهرة فحارب جان بلاط وقبض عليه وارسله إلى السجن بالاسكندرية سنة ٩٠٧ هـ (سنة ١٥٠٠ م) ثم استدعوا الخليفة العباسي فبايعه بالسلطنة وشهد على ذلك القضاة الاربعة وقرر قصره نائب الشام قبلاً في اتابكية العساكر واضمر له الغدر به كما قيل:

إذا رأيت ثنايا الليث بارزة فلا تظننَّ بأن الليث يبتسم

فإنه لم يمضِ زمن إلا امر بعض الخاصكية ان يقبضوا عليه وهو في مجلسه فقيده واودعوه محبساً ثم خنقوه بأمره. ويظهر ان السلطان العادل علم ان قصره يعامل عليه وانه جمع بعض الامراء وأهداهم خيولاً ومالا فمالوا إليه وعولوا على ان يسلطنوه فتداركه السلطان منتهزاً الفرصة على حد قول الشاعر...

كان قصره قصيراً عمره خانه الدهر فولى مسرعاً

وقال ابن اياس في قصره:

كان قصره قصيراً عمره خانه الدهر فولى مسرعاً

طلبوا التسليم منه فابى ثم ما سلّم حتى ودعا

وكان الملك العادل باغياً على قصره فجزاه الله على بغيه فلم يعيش بعد قصره إلا اياماً قليلة وقتل كما سترى. قال علي بن ابي طالب: «من سل سيف البغي قتل به» فاغتيل طومان باي لقصره ازال حبه من قلوب الناس واستوحشوا منه فعزل كثيرين من مناصبهم ونفى بعضهم.

ثم خلع طومان باي على دولات باي وقرره في نيابة الشام ونصب ارقماس ابن ولي الدين نائباً بحلب عوضاً عن دولات باي المذكور، وجعل جاثم بن قجماس نائباً بطرابلس عوضاً عن برد بك الطويل، والامير سنباى نائباً بحماة، وقانصوه القاجر نائباً بصفد واستحثهم للخروج بسرعة إلى محل ولاياتهم، ثم عزل ارقماس نائب حلب وولى مكانه قانصوه قرا وكان نائباً في غزة وولى على غزة علي باي السيفي بن يشبك، وكان قد صادر بعض الامراء واختفوا من وجهه فأخذ يكبس بعض البيوت والدور ويشوش على الناس ويسبي بعض عماله الحريم، فهاجت الناس وعظم القلق ووثب العسكر في آخر رمضان على طومان باي الملك العادل، وظهر الامراء الذين كانوا قد اختفوا من وجهه فلما تحقق العادل ان الحملة عليه نزل إلى باب السلسلة وعلق السنجق السلطاني، واستدعى العسكر إلى القلعة فلم يلب احد دعوته ولم يكن عنده في القلعة إلا نفر يسير، فكان الدفاع عن العادل لا يستحق الذكر. وتسحب بعض الامراء الذين كانوا معه فنزل الملك العادل ليلاً من القلعة واختفى وكان قد شاع انه يريد ان يقبض على بعض الامراء يوم عيد الفطر بالجامع فوثب العسكر عليه تلك الليلة، وبعد اختفائه نهب العسكر كل ما كان في الاسطبل السلطاني والقلعة ثم ظهر من اختفائه فقبض عليه وقطع رأسه، وكانت مدة سلطنته ثلاثة اشهر وعشرة ايام، وقام بالسلطنة بعده قانصوه الغوري. ونرجى الكلام فيه إلى تاريخ القرن السادس عشر. انتهى. وقد اعتمدت في ما كتبتة إلى الآن من تاريخ ملوك الجراكسة على كتاب تاريخ مصر الموسوم بـ«بدائع الزهور في وقائع الدهور» لمحمد بن احمد بن اياس الحنفي المصري، واستعنت عليه بكتاب «اخبار الأول في من تصرف في مصر من ارباب الدول» لمحمد عبد المعطي بن ابي الفتح الاسحاقي وبكتاب «تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلاطين»

للشيخ عبدالله الشرقاوي وبكتاب تاريخ العلامة البطريق اسطفان الدويهي الاهدني
الماروني.

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الخامس عشر

عد ٩٤١

المشاهير السوريون

ابن حبيب الحلبي

هو فقيه من حلب توفي سنة ٨٠٨ هـ (سنة ١٤٠٥ م) له كتاب «مختصر المنار»
في اصول الفقه وشرح هذا المختصر ابو الثنا احد السيواسي في كتاب سماه «زبدة
الاسرار في شرح مختصر المنار» فرغ من وضعه سنة ٩٧٤ هـ (سنة ١٥٦٦ م)
وطبعت الزبدة في كازان سنة ١٨٨٧ م. واما المنار فهو لعبد الله بن احمد النسفي
صاحب الكنز المتوفي سنة ٧١٠ هـ (سنة ١٣١٠ م). وقد طبع المنار بالهند بمطبعة
حجر. وللشيخ جيون اللكتاوي (المتوفي سنة ١١٣٠ هـ سنة ١٧١٧ م) شرح للمنار
سماه «نور الانوار في شرح المنار» طبع في كلكوته سنة ١٨١٩ م.

علاء الدين البهائي الغزولي الدمشقي

هو عالم دمشق توفي سنة ٨٨٥ هـ (سنة ١٤١١ م) وله كتاب عنوانه «مطالع
البدور في منازل السرور» ضمنه خمسين باباً شرح بها كيفية بناء البيت وتدير
المنزل وما يجعل المسكن محل السرور والبهجة والانشراح. وقد طبع هذا الكتاب
بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ.

ابن الشحنة الحلبي

إننا نعرف عالين يسمى كل منهما ابن الشحنة وكلاهما من حلب اولهما توفي سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) وله كتاب «روض المناظر في علم الاوائل والاواخر» اختصره من تاريخ ابي الفداء المشهور وزاد عليه تاريخ ما كان الى سنة ٨٠٦هـ (سنة ١٤٠٣م). وقد جمع هذا التاريخ للملك المؤيد عماد الدين نائب السلطنة بقلعة حلب وطبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٩٠ على هامش المجلد ٧ و ٨ و ٩ من تاريخ ابن الاثير المسمى «الكامل».

واما ابن الشحنة الثاني فقال في حقه ابن اياس في تاريخ مصر هو محمود بن محمود الشقفي الحلبي ولد سنة ٨٠٤هـ (سنة ١٤٠١م) وكان عالماً فاضلاً بارعاً في الفقه على مذهب ابي حنيفة، وكان ناظماً ناثراً تولى الحنفية مراراً وتوفي سنة ٨٩٠هـ (سنة ١٤٨٥م) وقد قارب التسعين من عمره وله عدة تأليف جلية. انتهى كلام ابن اياس. والذي عرفناه من مؤلفات ابن الشحنة هذا تاريخ مدينة حلب الشهباء سماه «الدر المنتخب في تاريخ حلب» ولا نعلم ان هذا الكتاب طبع. وله ايضاً في الفقه كتاب سماه «لسان الحكماء» طبع على هامش كتاب «معين الحكماء في ما يتردد بين الخصمين من الاحكام» ببولاق سنة ١٣٠٠هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ.

البدر الشتكي الدمشقي

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة فقال البدر الشتكي محمد بن ابراهيم بن محمد الدمشقي الاصل الاديب المشهور ولد سنة ٧٤٨هـ (سنة ١٣٤٧م) ومات في جمادي الآخرة سنة ٨٣٠هـ (سنة ١٤٢٦م).

ابن حجة الحموي

هو تقي الدين ابو بكر المعروف بابن حجة ولد بحماة سنة ٧٧٧هـ (سنة ١٢٥٧م) وتوفي سنة ١٤٣٣م، ومن اشهر مؤلفاته كتاب «خزانة الادب وغاية

الارب» وقد طبع على هامش رسائل بديع الزمان الهمداني في بولاق سنة ١٢٩١هـ. وفي مصر سنة ١٣٠٤هـ وطبع كتاب الخزانة ايضاً ببولاق سنة ١٢٩١هـ وبالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ. وله كتاب آخر سماه «ثمرات الاوراق في المحاضرات» طبع على هامش محاضرات الادباء للراغب الاصفهاني بالقاهرة سنة ١٢٧٨هـ ثم طبع بها سنة ١٣٠٤هـ سنة ١٣٠٨هـ. وقال في حقه جلال الدين السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» ابن حجة رأس ادباء العصر تقي الدين ابو بكر بن علي الحموي نزيل القاهرة صاحب البديعة المشهورة وشرحها، و«ثمار الاوراق» وغير ذلك من التصانيف الادبية.

علي بن خليل الطرابلسي

هو عالم فقيه في طرابلس توفي سنة ٨٤٤هـ سنة ١٤٤٠م وله كتاب في الفقه عنوانه «معين الحكام في ما يتردد بين الخصمين في الاحكام» وهذا الكتاب طبع ببولاق سنة ١٣٠٠هـ وطبع بالقاهرة سنة ١٢١٠هـ وعلى هامشه كتاب «لسان الحكام» لابراهيم بن محمد الشحنة الحلبي المار ذكره.

شهاب الدين الرملي القدسي

هو فقيه من القدس توفي سنة ٨٤٤هـ (سنة ١٤٤٠م) له كتاب سماه «صفوة الزبد في فقه الشافعي» وشرحه شرحين ذكره صاحب «كشف الظنون في اسماء الكتب والفنون» في باب الصاد.

ابن حجر العسقلاني

هو احمد بن علي بن محمد ابو الفضل شهاب الدين العسقلاني الاصل ولد بمصر سنة ٧٧٣هـ (سنة ١٣٧٢) ونشأ بها يتيماً وتفقه على الانباسي والبلقيني وارتحل إلى الشام والحجاز، فأخذ عن جماعة وتوفي سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م) وله عدة مصنفات، منها كتاب «نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر» في اصطلاح

الحديث طبع بكانفور سنة ١٢٩٥، وكتاب «تقريب التهذيب» في اسماء رجال الحديث طبع بدلهي دون ذكر السنة. وكتاب «المنبهات» طبع بالمدينة المذكورة على الحجر سنة ١٢٨٨ وكتاب «الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة» مرتباً على أحرف المعجم ولم يطبع، وكتاب «الاصابة في تمييز اسماء الصحابة» طبع في كلكتة سنة ١٨٥٦م في عدة مجلدات، وقد ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه «حسن المحاضرة» المار ذكره فقال انه عانى اولاً الادب وعلم الشعر فبلغ فيه الغاية ثم طلب الحديث وبرع فيه فلم يكن في عصره حافظ سواه، وألف كتباً كثيرة كـ«شرح البخاري» و«تعليق التعليقات» و«تهذيب التهذيب» و«تقريب التهذيبي» و«لسان الميزان» و«الاصابة في الصحابة» (مر ذكره) و«رجال المنبهات» الذي ذكره و«تقريب المنهج بترتيب المدرج» وقد رثاه السيوطي بقوله:

قد بكت السحب على قاضي القضاة بالمطر
وانهدم الركن الذي كان مشيداً من حجر
ورثاه الشيخ شهاب بن الحجازي بقصيدة طويلة مطلعها:

كل البرية للمنية صائرة وقفولها شيئاً فشيئاً سائره
والنفس ان رضيت بذأ ربحت وإن لم ترض كانت عند ذلك خاسره
إلى ان قال

لكن سئمت العيش من بعد الذي قد خلف الافكار منا حائره
قاضي القضاة العسقلاني الذي لم ترفع الدنيا خصيماً ناظره
لهفي عليه عالماً بوفاته درست دروس والمدارس دائره
قد خلف الدنيا خراباً بعده لكنما الاخرى لديه عامره
وقد ذكر السيوطي قصيدة لابن حجر رثا بها زين الدين العراقي من ابياتها:

وبحر الدمع يجري باندلاق وبدد الصبر يسري في الحاق
ولاحزان بالقلب اجتماع ينادي الصبر حيّ على افتراق

فيا اهل الشام ومصر فابكوا على عبد الرحيم بن العراقي
على الخبر الذي شهدت قروم له بالانفراد على اتفاق
وذكر له ملا كاتب صاحب كشف الظنون تاريخاً يسمى «ابناء الغمر» وذيلاً
على تاريخ قضاة مصر لأبي عمر بن محمد يوسف الكندي سماه «رفع الامر من
قضاة مصر».

شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي

هو احمد بن محمد بن عرب شاه الدمشقي الحنفي ولد بدمشق سنة ٧٩١هـ
(سنة ١٣٨٨م) ولما غزا تيمورلنك الشام اخذه أسيراً مع بعض عشيرته إلى سمرقند
وتفقه بها في العلوم وأتقن معرفة اللغتين الفارسية والتركية، وطاف كثيراً من البلاد
وجاء اخيراً إلى ادرنه فأقامه السلطان محمد بن عثمان على ترجمة الكتب لابنه
السلطان مراد من العربية إلى الفارسية والتركية، وعاد بعد مدة إلى موطنه دمشق
وتوفي سنة ٨٥٤هـ (سنة ١٤٥٠م). وأشهر مصنفاته تاريخ سيرة تيمورلنك سماه
«عجائب المقدور في اخبار تيمور» طبع في لايدن سنة ١٦٣٦م، وفي كلكتة سنة
١٨١٢ ثم سنة ١٨١٨ وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥. وله كتاب آخر كله سجع في
تربية الملوك والامراء سماه «فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء» ورتبه على عشرة ابواب
وهو على اسلوب كتاب كليلة ودمنة طبع بمدينة بوت (المانيا) سنة ١٨٢٣م ثم
سنة ١٨٥٢م مع ترجمة لاتينية وشروح، وطبع ببولاق سنة ١٢٧٦هـ ثم بالقاهرة
سنة ١٣٠٣هـ.

محمد بن قرقماس الناصري

ذكره ابن اياس في تاريخ مصر فقال في حقه كان فاضلاً من اعيان الحنفية
وكان يدعي معرفة علم الحروف وعلم الكيمياء وكان قد ولي مشيخة تربة الظاهر
ولد سنة ٨٠٢هـ (سنة ١٣٩٩م) وكان ناظماً ناثراً وله عدة مصنفات منها كتاب
«زهر الربيع في شواهد البديع» وله «معارضة مقامات الحريري» إلى غير ذلك من
التأليف. وكانت وفاته سنة ٨٨٢هـ (سنة ١٤٧٧م).

ابو حامد المقدسي

ذكره ابن اياس ايضاً فقال هو محمد بن خليل المقدسي الشافعي من اهل الفضل والعلم وله عدة مصنفات، ولد بعد سنة ٨٢٠هـ (سنة ١٤١٧م) لكنه كان بليد الذهن قليل الفهم. ومما وقع له ان الديني ابا الفتح بن النحاس الشاعر كتب له بيتين ودفعهما إليه في مجلس القاضي كاتب السر ابن مزهر فلما قرأهما استحسناهما ولم يفهم ما بهما من التنديد به فكتبهما بخطه في مصنفاته وهما: ابا حامد انت الذي شاع ذكره بكثرة تأليف وجمع به انفراد فأنت الذي ما مثل حفظك في الوري وأنت الذي ما مثل ذهنك في البلد ففهم ابو حامد بالبلد المكان وأراد به الشاعر البلادة:

ابن مزهر الدمشقي

ذكره ابن اياس ايضاً فقال هو ابو بكر محمد.... بن عثمان المعروف بمزهر الدمشقي الانصارى الشافعي وكان عالماً فاضلاً عارفاً بالفقه انتهت إليه رئاسة عصره، وكان وجيهاً عند الملوك والسلطين. تولى عدة مناصب سنية منها نظر الاسطبل ونظر الجيش وكتابة السر واستمر فيها نيفاً وعشرين سنة حتى مات مقررّاً بها. ومولده سنة ٨٢٣هـ (سنة ١٤٢٨م) وتوفي سنة ٨٩٣هـ (سنة ١٤٧٨م).

عد ٩٤٢

بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

ابن خلدون الاشبيلي

هو ولي الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي النسب ولد سنة ٧٣٢هـ سنة ١٣٣١م اخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره وبرع في العلوم وتضلّع بالفنون ومهر في الادب والكتابة، وولي كتابة السر بمدينة فاس ثم دخل القاهرة فولّي مشيخة البيبريسية وقضاء المالكية سنة ١٣٢٨م، ثم مضى

للحج وعاد إلى مصر ثم انتقل إلى الشام وجاء في كتاب «كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون» لملا كاتب انه كان في وقعة تيمور قاضياً بحلب، فحصل في قبضته اسيراً سميلاً فكان يصاحبه وسافر معه إلى سمرقند، فقال له يوماً لي تاريخ كبير جمعت فيه الوقائع بأسرها، فخلفته بمصر، وسيظفر به المجنون (يشير إلى برقوق) واستأذنه في ان يعود إلى مصر ليجيء به، فإذا له فعاد فتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م). وكان فاضلاً رفيع القدر اصيل المجد وقور المجلس عالي الهمة وأما تأليفه فأشهرها وأحسنها كتاب تاريخه الذي عنوانه «ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر»، وهو في سبعة مجلدات اولها مقدمة هي من اجل ما كتب بالعربية في فلسفة التاريخ ومن احسن المؤلفات لغة ومعنى وإنشاء حتى صارت كلمة المقدمة او المقدمات علماً لهذا الكتاب. وضمن المجلدات الستة الباقية تاريخ اسهب فيه الكلام في تاريخ العرب وأوجز في تاريخ غيرهم، وختمه بتاريخ قبائل البربر ودولهم. وقد استعنا بتاريخه هذا مراراً كما رأيت وقد طبع تاريخه ببولاق سنة ١٢٨٤هـ وفي جزائر المغرب سنة ١٨٥١م. وقد طبعت المقدمة وحدها طبعات فطبت بباريس سنة ١٨٨٥م وطبعها خليل افندي سركيس بمطبعته في بيروت سنة ١٨٧٩ ثم سنة ١٨٨٢م. وقد استأنف طبعها مرة اخرى وطبت بالجزائر ايضاً من سنة ١٨٤٧ إلى سنة ١٨٥١م.

محمد بن موسى الدمي

هو عالم مصري كان يدرس الحديث في الجامع الازهر. ولد بمصر سنة ٧٥٠هـ (سنة ١٣٤٩م) أخذ العلم عن بهاء الدين السبكي وجمال الدين الاسنادي وتوفي سنة ٨٠٨هـ (سنة ١٤٠٥م) وأشهر تصانيفه «حياة الحيوان الكبرى» مرتبة على حروف المعجم لكنها مشحونة بالاقاصيص. وفي آخر هذا الكتاب جزء تكلم فيه بايجاز عن تاريخ الخلفاء الراشدين وبني امية بدمشق وبني العباس بالعراق ومصر واسماء الخلفاء الفاطميين والملوك الايوبيين واسماء الملوك من دولة المماليك. وطبع كتابه هذا ببولاق سنة ١٢٧٥ و سنة ١٢٨٤ و سنة ١٢٩٢ وطبع ببلاد فارس طبعاً متقناً مع صور ورسوم جميع الحيوانات وبعض الرجال الوارد ذكرها في الكتاب.

علي بن محمد الجرجاني

هو عالم مصري توفي سنة ٨١٦ هـ سنة ١٤١٣ م له كتاب سماه التصريفات في مصطلح العلوم كالفقه والفرائض والحديث والكلام والنحو والتصريف والتفسير وهي مرتبة على حروف الهجاء وطبع هذا الكتاب بليبسك سنة ١٨٤٥ م بعناية العلامة فلوغل الالماني مع تصريفات محي الدين ابن العربي الذي توفي سنة ٦٣٨ هـ سنة ١٢٤٠ م بدمشق. وتصريفات ابن العربي هي تفسير للاصطلاحات الصوفية الواردة في كتابه المسمى «الفتوحات الملكية في معرفة الاسرار المالكية والملكية» وقد طبع كتابا الجرجاني وابن العربي معاً ايضاً بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ. وللسيد الشريف الجرجاني ايضاً كتاب «الكبرى في المنطق» طبع في لكتاو سنة ١٨٤٤. وله ايضاً «الصغرى في المنطق» طبع بلكتاو وايضاً سنة ١٨٤٣. ثم طبعت الكبرى والصغرى معاً هناك سنة ١٢٦٤ هـ. وللجرجاني ايضاً «شرح الفرائض السراجية» طبع بكازان سنة ١٨٨٩ م و«السراجية» كتاب في الفرائض لسراج الدين محمد السنجاوندي الحنفي طبع ببولاق سنة ١٣٠٣ هـ.

ابن الهائم

هو شهاب الدين احمد بن محمد بن عماد المعروف بابن الهائم ولد بالقاهرة سنة ٧٥٣ هـ (سنة ١٣٥٢ م) وتوفي باورشليم سنة ٨١٥ هـ (سنة ١٤١٢ م) وله كتاب سماه «اللمع في علم الحساب» طبع ببولاق سنة ١٢٤٢ هـ، وشرحه سبط المارديني الذي ولد سنة ٨٧٦ هـ (سنة ١٤٢٢ م). وله كتاب آخر سماه «المعونة في الحساب والوسيلة» شرحه سبط المارديني ايضاً وسمى شرحه «ارشاد الطلاب إلى وسيلة الحساب». ولمحمد الازهري الشافعي ابن البليسي حاشية على كتاب المعونة المذكور. ولابن الهائم ايضاً كتاب سماه «مرشدة الطالب» شرحه شيخ الاسلام زكريا الانصاري المتوفي بالقاهرة سنة ٩٢٦ هـ (سنة ١٥٩١ م) وشرحها ايضاً عبدالله بن محمد الشنتوري الفرسي الخطيب بالجامع الازهر المتوفي سنة ٩٩٩ هـ (سنة ١٥٩٠ م) في كتاب سماه «بغية الراغب في شرح مرشدة الطالب». ولابن الهائم كتاب «نزهة الاحباب في تصريف الحساب» اختصره من كتابه مرشدة الطالب

وللبيروني شرح على هذا الكتاب. ولابن الهائم كتاب آخر «شرح على الارجوزة الياسمينية» في الجبر والمقابلة لابن الياسميني المتوفي سنة ٦٠٠ هجرية (سنة ١٢٣٠م) وله المنظومة بالحساب التي سماها «المقنع» وشرحها زكريا الانصاري المذكور في كتاب سماه «الفتح المبدع في شرح المقنع» وله ايضاً «غاية السؤال في الاقرار بالجهول» في الجبر والمقابلة.

ابن الملّقن

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة، فقال سراج الدين ابو حفص عمر بن علي بن احمد الانصاري ولد سنة ٧٢٣هـ (سنة ١٣٣٣م) واشتغل بالتصنيف وهو شاب حتى كان اكثر اهل العصر تصنيفاً. ومن تصانيفه «شرح البخاري» و«شرح العمدة» و«شرحان على «المنهاج» وعلى «التنبيه» وعلى «الحاوي» وعلى «منهاج البيضاوي» و«الاشباه والنظائر» وغير ذلك. توفي سنة ٨٠٤هـ (سنة ١٤٠١م) وذكره صاحب كشف الظنون وزاد على ما تقدم ان له كتاب «قضاة مصر» و«طبقات الشافعية».

محمد الفيروزابادي الشيرازي

هو مجد الدين ابو الطاهر محمد بن يعقوب ولد سنة ٧٣٠هـ (سنة ١٣٢٩م) في قارسين بقرب شيراز، وكان يسافر إلى الجزيرة والهند وبلاد العرب طلباً لتوسيع معارفه وإنشاء مدارس في مكة المكرمة والمدينة. واجتمع سنة ٧٩٠هـ (سنة ١٣٨٨م) بتيمولرنك التتري الشهير بمدينة شيراز فآكرمه تيمورلنك وتولى قضاء اليمن سنة ٧٩٥هـ (سنة ١٣٩٢م)، وبقي متقلداً هذا القضاء إلى وفاته التي كانت سنة ٨٢٠هـ (سنة ١٤١٧م). وعلى رواية أخرى سنة ٨١٦هـ (سنة ١٤١٣م) وقد اشتهر بمعجمه الذي سماه «القاموس المحيط» و«القاموس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيظ». قال في خطبته وكنت برهة من الدهر التمس كتاباً جامعاً بسيطاً ومصنفاً على الفصح والشوارد محيطاً ولما اعياني الطلاب شرعت في كتابي الموسوم بـ«اللامع المعلم العجائب بين المحكم والعباب» غير اني ضمنته في

ستين سافراً يعجز تحصيله الطلاب، فصرفت صوب هذا القصد عناني، وألفت هذا الكتاب محذوف الشواهد مطروح الزاويد ولخصت كل ثلاثين سافراً بسفر وضمنته خلاصة ما في العباب والمحكم واضفت إليه زيادات من الله سبحانه وتعالى عليّ بها وأنعم، ولما رأيت اقبال الناس على صحاح الجوهرى وهو جدير بذلك غير انه قد فاته نصف اللغة او اكثر، اردت ان يظهر للناس باديء بدء فضل كتابي هذا عليه. وإذا تأملت صنيعي هذا وجدته مشتملاً على فرائد اثيرة وفوائد كثيرة في حسن الاختصار وتقريب العبارة وتهذيب الكلام وايراد المعاني الكثيرة في الالفاظ اليسيرة. ومن احسن ما اختص به هذا الكتاب تخليص الواو من الياء، وذلك قسم يسم المصنفين بالعي والاعياء الخ... وقد طبع القاموس لأول مرة في المدينة المذكورة سنة ١٢٧٠هـ وفي تبريز سنة ١٢٧٧هـ وطبع في ثلاثة اجزاء باسكوادار من ضواحي القسطنطينية سنة ١٢٣٠هـ وطبع بمصر مراراً أحسن طبعاته هناك الطبعة المضبوطة بالشكل ببولاقي في خمسة اجزاء من سنة ١٢٧٢هـ إلى سنة ١٣٠٣هـ. ضبطها نصر الهوديى وعلق على هوامشها شروحاً مفيدة أخذها عن تاج العروس وعن حاشية القاموس للقرافي، وطبع اخيراً في القسطنطينية سنة ١٣٠٤هـ. ووضع احمد فارس الشدياق اللباني كتاباً سماه «الجاموس على القاموس» طبع في القسطنطينية سنة ١٢٩٩هـ بين به ما في القاموس من الهفوات والخطأ. ولحمد بن يحيى القرافي المشار اليه حاشية على القاموس وسمها بـ«القول المأنوس بتحريه ما في القاموس» وله ايضاً كتاب سماه «القول المأنوس بشرح مغلق القاموس». والكتابان لم يطبعوا بعد والقرافي هذا ولد سنة ٩٣٩هـ (سنة ١٥٣٢م) وتوفي سنة ١٠٠٨هـ (سنة ١٥٩٩م) وذكر صاحب كشف الظنون كثيرين ممن انتقدوا القاموس او شرحوه او تراءوا عليه، منهم جلال الدين السيوطي الذي قال في كتابه «زهر اللغة» ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد فقد فاته اشياء ظفرت بها في اثناء مطالعته لكتب اللغة حتى هممت ان اجمعها في جزء مديلاً عليه. وجمع عبد الرحمن بن علي الاماسي ما كتبه استاذة سعدالله بن عيسى في هوامش القاموس ودوّن في كتاب فصار حاشية على القاموس. (وتوفي عبد الرحمن المذكور سنة ٩٣٨هـ (سنة ١٥٧٥م) وكتب محمد بن مصطفى الشهير بداود زاده مختصراً سماه «درّ اللقيط في اغلاط القاموس المحيط». وللسيوطي كتاب الافصاح في زوايد القاموس على الصحاح» اي صحاح الجوهرى. وللشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي حاشية على

القاموس سماها القول المأنوس. ومن الحواشي عليه حاشية نور الدين علي بن غانم المقدسي المتوفي سنة ١٠٠٤هـ (سنة ١٥٩٥م) وحاشية محمد بن عبد الرؤوف المناوي المتوفي سنة ١٠٣١هـ (سنة ١٦٢١م) وله حاشية أخرى تسمى «القول المأنوس بشرح معاني القاموس» وحاشية مختصرة عن الحاشية السابق ذكرها. انتهى تلخيص كلام صاحب كشف الظنون.

البرهان البيجوري

ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة، وهو ابراهيم بن احمد ولد نحو سنة ٧٥٠هـ (سنة ١٣٤٩م) وأخذ عن الاسنوي ولازم البلقني ورحل إلى الاذري بحلب، وكان الاذري يعترف له بالاستحضار وشهد العماد الحسباني عالم دمشق بأنه أعلم الشافعية بالفقه في عصره، وكان يسرد الروضة حفظاً. وانتفع به الطلبة ولم يكن في عصره من يستحضر الفروع الفقهية مثله، ولم يخلفه من يقاربه في ذلك مات في سنة ٨٢٥هـ (سنة ١٤٢١م).

تقي الدين احمد بن علي المقرئ

هو تقي الدين احمد بن علي المقرئ البعلبكي الأصل المصري المسكن ولد سنة ٧٦٦هـ (سنة ١٣٦٤م) ونشأ بالقاهرة وتفقه على مذهب الحنفية ثم اتبع المذهب الشافعي، وما برح يضبط الوقائع ويكتب التاريخ إلى ان توفي بالقاهرة سنة ٨٤٥هـ (١٤٤١م) وعن حسن المحاضرة للسيوطي انه ولد سنة ٧٦٩هـ (سنة ١٣٦٧م) وتوفي سنة ٨٤٠هـ (سنة ١٤٣٦م). وقال ابن إياس في تاريخ سنة ٨٤٥هـ فيها توفي الشيخ تقي الدين المقرئ المؤرخ، والأصح انه توفي سنة ٨٤٦هـ لا في السنة المذكورة. وله مؤلفات كثيرة منها كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» طبع ببولاق في مجلدين سنة ١٢٧٠هـ، وله كتاب «السلوك في معرفة دول الملوك» وهو تاريخ السلاطين من دولة الماليك بمصر والشام طبع في غوتغن سنة ١٨٤٥م وله «تاريخ الاقباط» طبع في المدينة المذكورة ايضاً تلك السنة وله رسالة في

النقود الاسلامية طبعت في روستك سنة ١٧٩٧م وفي القسطنطينية سنة ١٢٩٨هـ وله رسالة اخرى في الأوزان والمكايل الشرعية طبعت بروستك ايضاً سنة ١٨٠٠م. وله كتاب «امتاع الاسماع» في ستة مجلدات وكتاب «الخبر عن البشر» وكتاب «تاريخ مقفى» في تراجم اهل مصر والواردين اليها وكتاب «مجموع الفوائد ومنبع العوائد» وكتاب «شذور العقود» وكتاب «المقاصد السنّية في الاجسام المعدنية» وكتاب «البيان والإعراب بما بأرض مصر من الأعراب» طبع في غوتنغن سنة ١٨٤٧م وكتاب «التنازع والتخاصم في ما بين بني امية وبني هاشم» طبع بلايدن سنة ١٨٨٨. وله ايضاً كتاب «الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام» طبع بلايدن سنة ١٨٩٠م. وقد كتب العلامة دي ساسي الفرنسي ترجمة المقرئ بالعربية والفرنسية في كتاب سماه الانيس المفيد للطالب المستفيد طبع بباريس سنة ١٨٢٦. فهذه الكتب التي جاء ذكرها للمقرئ في كتاب اكتفاء القنوع بما هو المطبوع.

وقد ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، وعزا إليه عدا بعض الكتب التي قدمنا ذكرها كتاب «درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة». وربما كان كتاب تراجم اهل مصر والواردين اليها الذي ذكرناه آنفاً. وعزا إليه ايضاً كتاب «عقد جواهر الاسقاط من اخبار مدينة الفسطاط» و«اتعاض الخنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء» و«التاريخ الكبير» وغير ذلك مما جاء في كتاب كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون. صنف المقرئ «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» فأوعب وأجاد... وله «تاريخ ملوك مصر» وهو تاريخ كبير مقفى في تراجم اهل مصر والواردين إليها. قال صاحب النجوم الزاهرة لو اكمل هذا التاريخ على ما اختاره لجاوز الثمانين مجلداً. وله كتاب «عقد جواهر الاسقاط من اخبار مدينة الفسطاط» وكتاب «اتعاض الخنفاء بأخبار الخلفاء» وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر وما كان في ايامهم من الحوادث مذ فتحت إلى ان زالت الدولة الفاطمية. وألف «السلوك لمعرفة دول الملوك» في ذكر من ملك بعدهم من الاكراد والأتراك والجراكسة وما وقع في ايامهم. وقد وضع جمال الدين يوسف بن تغري بردي تلميذ المقرئ ذيلاً على كتابه السلوك وسماه حوادث الدهر. انتهى تلخيص كلام صاحب كشف الظنون الذي اورده على سبيل الشرح لبعض كتب المقرئ.

محمود العيني

ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة فقال هو قاضي القضاة بدر الدين محمود بن أحمد... العيني ولد في رمضان سنة ٧٦٢هـ (سنة ١٣٦٠م) وتفقّه واشتغل بالفنون وبرع ومهر ودخل القاهرة وولي الحسبة مراراً وقضاء الحنفية، وله تصانيف منها «شرح البخاري» و«شرح الشواهد» و«شرح معاني الآثار» و«شرح الكنز» و«شرح الجمع» و«شرح درر البحار» و«طبقات الحقيقة» وغير ذلك، ومات في ذي الحجة سنة ٨٥٥هـ (سنة ١٤٥١م). وذكر صاحب كشف الظنون ان له كتاب «عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان» وقال انه اشتمل على تسعة عشر مجلداً. وعن كتاب «اكتفاء القنوع بما هو المطبوع» انه جمع فيه تاريخ الناس من بدء العالم إلى سنة ٨٥٠هـ (سنة ١٤٤٦م) مع «وفيات الاعيان». وقال ان هذا التاريخ لم يطبع بعد ولكن طبع كتابه «عمدة القارئ» في شرح صحيح النجاري في القسطنطينية سنة ١٣١٠هـ في احد عشر جزءاً، وطبع كتابه «شرح كنز الدقائق» لعبدالله النسفي (المتوفي سنة ١٣٠١هـ) ببولاق سنة ١٢٨٥هـ في جزئين، ويعول عليه في التدريس. وطبع كتابه «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الالفية» (اي ألفية ابن مالك) ببولاق سنة ١٢٩٩ على هوامش خزائن الادب. وله لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي. وعن كشف الظنون ان كتاب معاني الآثار الذي شرحه العيني كما مر هو لأبي جعفر الطحاوي في شرح الناسخ والمنسوخ وتأويل العلماء وكتاب الهداية لشيخ الاسلام برهان الدين المرغيناني الحنفي في الفقه. ولهذا الكتاب شروح كثيرة جداً غير شرح العيني وكتاب الجمع هو مجمع البحرين وملتقى النهرين في الفقه للامام مظفر الدين احمد المعروف بابن الساعاتي البغدادي الحنفي المتوفي سنة ٦٩٤هـ (وسنة ١٢٩٤م) وأما كتاب «درر البحار» فهو منظومة في الفروع نظمها ابن العيني في اربعة آلاف ومائة وستة وخمسين بيتاً ثم شرحها. انتهى ما لخصناه عن كشف الظنون. وقد أشرنا قبلاً إلى المداعبة التي كانت بين العيني وابن الحجر.

ابو المحاسن ابن تغري بردي

ولد بمصر سنة ٨١٢هـ (سنة ١٤٠٩م) وتوفي سنة ٨٧٤هـ (سنة ١٤٩٦م). وله كتاب في التاريخ سماه «النجوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة» ضمنه تاريخ مصر سنة ٣٦٠هـ (وسنة ٩٧١م) إلى سنة ٨٧٥هـ (سنة ١٤٥٣م) اي من دخول ابناء عبيد الله العلويين إلى مصر إلى ملك آل عثمان في القسطنطينية. وقد طبع كتابه هذا في لايدن سنة ١٨٥٢م وله ايضاً كتاب سماه «مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة». طبع في كمبردج سنة ١٨٩٢. وذكر صاحب كشف الظنون كتابه النجوم الزاهرة، فقال بدأ فيه بولاية عمرو بن العاص إلى الدولة الاشرفية. وهذا تاريخ كبير مرتب على السنين إلى زمانه، وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة مبسوطاً، وذكر ملوك الاطراف، والوقائع، ومن توفي من الاعيان والعلماء والملوك الخ... ولما فتح السلطان سليم الديار المصرية خبر هذا التاريخ واستحسنه فأمر بترجمته إلى التركية فترجم ولخص المصنف كتابه وسماه «تلخيص الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة» وذكر انه اختصره لثلا يختصره غيره على تبويبه وفصوله.

تقي الدين الشمني

هو الامام تقي الدين ابو العباس الشمني ذكره جلال الدين السيوطي في كتابه حسن المحاضرة وبالح في مدحه وأوصافه فقال هو قدوة عين الزمان وانسانها وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها وشجرة المعارف التي طاب اصلها فزكت فروعها وأغصانها ورياض الاداب التي فاضت ينابيعها وفاحت زهورها وتنوعت افنانها وغير ذلك من الاطراء ولد بالاسكندرية سنة ٨٠١هـ (سنة ١٣٩٨م). وقرأ الفنون على اعيان العلماء وانتفع به الخلق وصنف حاشية على المغني وحاشية على الشفاء وشرح كتابه النقاية في الفقه وشرح نظم النخبة لاييه وأرفق «المسالك لتأدية المناسك» وطلب لقضاء الحنفية فامتنع ومات في ذي الحجة سنة ٨٧٢هـ (وسنة ١٤٦٧م). وجاء في كشف الظنون ان كتاب «المغني» الذي وضع الشمني الحاشية عليه هو «مغني الليب عن كتب الاعاريب» لابن هشام

الانصاري النحوي، وسمى الشمني حاشيته عليه «المنصف في الكلام على مغنى ابن هشام». وأما كتاب «الشفاء» فهو للإمام الحافظ ابي الفضل عياض المتوفي سنة ٥٤٤ هـ (سنة ١١٤٩ م) وعنوانه: «شفا في تعريف حقوق المصطفى» وسمى الشمني حاشيته عليه «مزيل الخفا في ضبط ألفاظ الشفا». وأما كتابه «النقاية» فهو للإمام عبيد الله بن مسعود الحنفي المتوفي سنة ٧٤٥ هـ (سنة ١٣٤٤ م) وعنوانه «نقاية مختصر الوقاية» وقد أجاد الشمني وبالع في ايجازها وشرحها، وسمى شرح ألفاظ الشفا «الدراية في شرح النقاية». ويظهر لي ان «نظم النخبة»، و«ارفق المسالك» كتابان لاييه كمال الدين محمد التميمي وقد رثى جلال الدين السيوطي تقي الدين الشمني بقصيدة طويلة من ابياتها:

رزء عظيم به تستنزل العبر	وحادثٌ جلّ فيه الخطب والغيرُ
رزء مصاب جميع المسلمين به	وقلبهم منه مكلوّم ومنكسرُ
ما فقد شيخ شيوخ المسلمين سوى انه	هدام ركن عظيم ليس ينعمزُ
إذ كان في كل علم آبة ظهرت	وما العيان كمن قد جاءهُ الخبرُ
حياتك الحق في الدارين ثابتةٌ	ما العالمون بأموات وإن قبروا
هم الأولى تشرق الدنيا ببهجتهم	لا شمسها وابو اسحق والقمرُ

محمد السنحاوي

هو محمد بن عبد الرحمان السنحاوي الشافعي ولد بسنحا في ارياف مصر سنة ٨٣١ هـ (سنة ١٤٢٧ م) وتوفي سنة ٩٠٢ هـ (سنة ١٤٩٦ م) وهو من تلامذة ابن حجر العسقلاني وله من الكتب «التبر المسبوك في ذيل السلوك» وهو تنمة لكتاب المقرئزي المعنون «السلوك في معرفة الملوك» وقد قدمنا ذكره. وشرع في نشره شارل كلياردو بك ملحقاً بمجلة مصر التي هو مديرها.

الشيخ شمس الدين القادري

هو محمد بن ابي بكر نجيب الانصاري القادري ذكره السيوطي في كتابه حسن المحاضرة واكثر من الثناء عليه. ومما قاله ولد سنة ٨١٥ هـ (سنة ١٤١٢ م) واشتغل بالعلم على جماعة من الشيوخ مع ذكاء مفرط. وقال الشعر واكثر، وبرع في فنون الادب نظماً ونثراً، وهو الآن شاعر الدنيا على الاطلاق لا يشاركه في طبقة احد مات في جمادى الاول سنة ٩٠٣ هـ (سنة ١٤٧٩ م) وذكر من شعره قصيدة طويلة مطلعها:

شجاك بربيع العامرية معهد به انكرت عينك ما كنتُ تعهدُ
وقد غالى بها بمدح جلال الدين السيوطي الى ان قال
فخذها جلال الدين بالمدح كاعباً لها جيدٌ حسن بالنجوم مقلدُ
ولا تبتئس من قول واشٍ وحاسدٍ فما برحت اهل الفضائل تحسدُ
ومن لحظتُ مسعاه عينُ عنايةٍ فطرف اعاديه مدى الدهر ارمدُ
بإخلاصهم لا الهجو يوماً يسوءهم ولا سرهم مدح الذي راح يحمدُ
وهذا اعتقاد المؤمنين اولي النهى فلا يكُ في هذا لديك ترددُ
وقد بالغ ابن اياس ايضاً بمدح القادري وقال انه شيخه واستاذه.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

عد ٩٤٣

بطاركة انطاكية في القرن الخامس عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن الرابع عشر بذكر ميخائيل الذي كان في ايام تيمورلنك الغازي وقتلناه وقلنا انه يظهر من الجدول الذي وضعه العلامة السمعاني لبطاركة انطاكية ان ميخائيل المذكور خلفه بوخوميوس ثم مرقس ث يواكيم، ولا نعلم غير ذلك من تاريخ هؤلاء البطاركة الذين كانوا في الثالث الاو من هذا القرن. بيد اننا نعلم علماً اكيراً ان دوروثاوس الاول البطريرك الانطاكي كان في ايام المجمع الفلورنسي الذي عقد سنة ١٤٣٣م واستمر إلى سنة ١٤٤٣م وناب عنه في هذا المجمع ايسيدوروس مطران كيوفيه ووقع على اعمال هذا المجمع هكذا: ايسيدوروس اسقف كيوفيه وروسيا كلها بالنيابة عن دوروثاوس البطريرك الانطاكي الكلي القداسة. وقد ادعى مرقس مطران افسس الذي اعتزل عن المجمع قبل نهايته وابدى الشعب المشهور انه كان نائباً عن البطاركة فيلاتوس الاسكندرية ودوروثاوس الانطاكي ويواكيم الاورشليمي في نبذ ما تقرر في المجمع الفلورنسي على ان البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي كانوا سنة ١٤٦٠ يودوا الخضوع للكرسي الروماني، إذ روى يوحنا كوبالينوس في كتابه في اعمال البا

بيوس الثاني ان هؤلاء البطارقة اوفدوا إلى هذا البابا موسى رئيس شمامسة كنيسة انطاكية المشهور بعلومه اليونانية والسريانية مقرين بسلطة الخبر الروماني العامة وبمارسم في المجمع الفلورنسي، فقبل البابا سفيرهم بالتكريم واجاب البطارقة برسالة لاتينية وأمر ان تحفظ نسخة عنها في خزائن الكنيسة الرومانية.

وجاء في الجدول الفاتيكانى ان دورثاوس الاول خلفه مرقس اسقف صيدنايا وسمي ميخائيل. وجاء في جدول السمعاني اسم ميخائيل ومرقس فقال لكويان ان ميخائيل ومرقس واحد فذكر السمعاني مرقس بعد ميخائيل سهواً وذكر في الجدول الفاتيكانى بعد ميخائيل توادوروس الخامس ثم ميخائيل الرابع ثم دوروثاوس الثاني ثم ميخائيل الخامس ثم دوروثاوس الثالث. والذي في جدول السمعاني انه بعد ميخائيل ومرقس المار ذكرهما عنه ترقى الى الكرسي الانطاكي يواكيم ثم غريغوريوس ثم ميخائيل (هو الموصوف بالاربع في الجدول الفاتيكانى) ثم دوروثاوس (الثاني) ثم ميخائيل (الخامس) ثم دوروثاوس (الثالث). فالفرق بين الجدولين ان الجدول الفاتيكانى لم يذكر مرقس ولا يواكيم اللذين ذكرهما السمعاني، ومن سمى توادوروس في الجدول الفاتيكانى سماه غريغوريوس واتفق الجدولان في باقى من ذكر فيهما من البطارقة. وأما في اية سنة كان ترقى كل من هؤلاء البطارقة وفي اي سنة توفي كل منهم وما كانت اعمالهم، وإذا كانوا متحدنين بالكرسي الروماني او مخالفين له، كل ذلك غامض لا نعلم شيئاً منه. وإذا كان العلامتان لاكويان والسمعاني لم يتيسر لهما ان يبنآنا بشيء من ذلك وهما بمكاتب اوربا المفعمة بالكتب من كل نوع وبكل لغة فأئى لنا نحن الذين لاتصل يدنا إلا إلى قليل من الكتب ان نتحف قراءنا بما عزّ على العلامتين المذكورين التوصل إليه، والذي نظنه ان البطارقة الذين اشرنا اليهم دبروا كنيسة انطاكية في هذا القرن وربما ادرك بعضهم القرن السادس عشر كما سوف ترى في تاريخ هذا القرن.

عد ٩٤٤

بطارقة اورشليم في القرن الخامس عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطارقة في القرن الرابع عشر في ذكر توافيلوس الثاني ابن روزيناوس. وجاء في كتاب دوروثاوس في بطارقة اورشليم (فصل ٣٣)

ان توافيلوس خلفه توفان، وإنه صير بطريكاً سنة ١٤٦٠ وإن بلسامون البطريك الانطاكي كتب اليه جواباً. فبلسامون البطريك الانطاكي كان قبل هذا العصر بمدة بمديدة ولم يكن في هذا العصر بطريك في انطاكية يسمى بلسامون إلا ان يكون اصحابه سموه بلسامون تفاؤلاً بهذا الاسم الشهير، والذي كان يدبر كنيسة انطاكية حينئذ إنما دوروتاوس، وتعلم ان ميخائيل بلسامون رافق البطريك القسطنطيني إلى المجمع الفلورنسي ووقع على مرسوم الاتحاد، ثم نكل عنه، لكن ميخائيل هذا لم يكن بطريكاً وقد يكون بطريك انطاكية حينئذ من اسرة بلسامون.

وصير بعد توفان يواكيم بطريكاً على اورشليم وكان بطريكاً حين انعقاد المجمع الفلورنسي وناب عنه فيه مرقس وروزيتاوس اسقف بوغباسية كما يظهر من توقيع هذا الاخير على مرسوم الاتحاد، ولم يقبل يواكيم ان يكون التوقيع باسمه بل نبذ كل ما كان في هذا المجمع، واتفق مع بطريكي الاسكندرية وانطاكية وكتبوا إلى الملك يوحنا رسالة هددوه بها بالحرمان ان لم يرفعوا عن الاتحاد وقد اثبت هذه الرسالة لاون الاتيوس باليونانية مع ترجمتها اللاتينية في ك ٣ في اتفاق الكنيستين فصل ٤.

وخلف توفان الثالث يواكيم المذكور وقد ذكره لاون الاتيوس في المحل المذكور. وروى انه شهد مجعاً عقد بالقسطنطينية لنقض الاتحاد الذي كان قد تقرر في المجمع الفلورنسي وتوقيع توفان ظاهر في اعمال هذا المجمع القسطنطيني. وذكر روزيتاوس هذا المجمع (في ك ١ في تاريخه لبطاركة اورشليم فصل ٦)، وقال ان توفان خليفة يواكيم شهره، وصير بعد توفان ابراهيم ثم يعقوب الثالث ثم مرقس الثالث. ولا ذكر في كتب الروم لهؤلاء البطاركة الثلاثة ربما لمتابعتهم الحبر الروماني، ولكن ذكرهم بايركيوس في مقدماته على المجلد الثالث من اعمال القديسين في شهر أيار، فقال انهم كانوا في القرن الخامس عشر نقلاً عن توادوريكوس باولي الذي كان في هذا القرن، وان ابراهيم كان شديد التعلق بالايمان القويم ورفي إلى بطريكية اورشليم في ايام البابا بيوس الثاني، وانتقل إلى دار البقاء سنة ١٤٦٨م وهو على ما أظن الذي اتفق مع بطريكي الاسكندرية وانطاكية فأرسلوا وفداً إلى بيوس الثاني رأسه موسى رئيس الشمامسة في كنيسة انطاكية، وأرسلوا اليه رسالة صرحوا بها انهم مذعنون لمراسيم المجمع الفلورنسي، وسألوه ان يعنى اللاتينيون بإنقاذ نصارى الشرق وقال في ذلك يوحنا كوبالينوس

(في كتابه ٤ في بيوس الثاني) ان هؤلاء البطاركة الاسكندري والانطاكي والاورشليمي وغيرهم من الامراء المسيحيين ارسلوا اولاً وفداً إلى البابا اوجانيوس في الجمع الفلورنسي وتابعوا الكنيسة اللاتينية على الاقرار بانثاق الروح من الاب والابن وبالطهر الخ.. ولكن لما كتب مرسوم الاتحاد نكلوا عن اقرارهم وأبوا قبوله بسعي زارعي الزوان ثم ارعوا وعادوا الى الصواب وتفاوضوا مع رعاياهم، وأرسلوا وفداً برئاسة موسى الانطاكي إلى الحبر الروماني فقبلهم بالترحاب. وترجم موسى المذكور رسائلهم إلى البابا إلى اللاتينية فأمر البابا ان تحفظ في خزائن الكنيسة الرومانية وصرفهم مسرورين شاكرين. انتهى ما رواه يوحنا كوبالينوس. وأما يعقوب الثالث فقال في حقه توادوريكوس باولي المذكور انه كان عالماً بالاسفار المقدسة وخلف ابراهيم المذكور وجدد كنيسة القبر المقدس باجازة من السلطان الذي كان حينئذ. وفي ايام هذا البطريك اخذ سلطان الاتراك قسماً من بلاد العرب فأرسل البطريك راهباً إلى اوربا يجمع حسنة ليفي الجزية المضروبة على الاديار ولا سيما دير القديسة كاترينا في جبل سيناء. ثم توفي هذا البطريك سنة ١٤٨٢م. وأما مرقس الثالث فذكره توادوريكوس ايضاً بعد يعقوب وقال انه كان يوقع اسمه هكذا: «مرقس الكاثوليكي برحمة الله مطران بيت لحم وبطريك اورشليم المقدسة وسورية والعربية وعبر الاردن. والظاهر من ذلك ان هؤلاء البطاركة الثلاثة كانوا كاثوليكين خاضعين للكرسي الروماني.

وروى دوزيتاوس (في ك٧ من تاريخه فصل ٢٢) انه بعد ذلك صير غريغوريوس الثالث بطريكاً ودبر كنيسة اورشليم ستاً وثلاثين سنة. انتهى ملخصاً عن المشرق المسيحي للعلامة لكويان في كلامه على بطاركة انطاكية واورشليم.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر

عد ٩٤٥

نوح البقوافوي بطريرك اليعاقبة

وضع العلامة السمعاني ترجمة نوح هذا (في المجلد الثاني من المكتبة المشرقية صفحة ٤٦٨) فقال ما ملخصه: « ولد نوح هذا سنة ١٤٥١م بيقوفا من قرى لبنان » (تري اخريتها بين اهدن وبشري ويظهر انه لما أضل اليعاقبة بعض الموارد من سكان هذه القرية كما سيجيء كان نوح في جملة هؤلاء) فصوره اليعاقبة اسقفاً على حمص وعلى سائر اليعاقبة المتوطنين بفينيقية، وفي سنة ١٤٩٠م جعله يوحنا برسبلا مفريناً (جائليقاً) في المشرق. ثم توفي يوحنا البطريرك المذكور فخلفه وصار بطريركاً على اليعاقبة سنة ١٤٩٤م.

ومن تأليفه كتاب اشتمل على ثمانين وستين قصيدة سريانية مثبتة في الكتاب الخامس والاربعين من الكتب السريانية في المكتبة الواثيكانية منها ثلاث قصائد في جبل لبنان، وثلاث قصائد في نفسه، وقصيدتان في مولده حيث يقول انه ولد سنة ١٧٦٢ لاسكندر توافق سنة ١٤٥١م كما ذكرنا، وثمانين قصائد في رهبان جبل لبنان.

وكتب بالعربية ثلاث مقالات ذكرناها في كلامنا على يعقوب البردعي عد ٦٦٢ وابنا هناك اعتماداً على شهادة العلامة السمعاني في المكتبة المشرقية مجلد ٢ صفحة ٦٧ إن هذه المقالات ليست ليعقوب البردعي بل هي لكاتب متأخر عنه كثيراً، ولم يبين السمعاني في المحل المذكور اسم كاتبها لكنه صرح بذلك في كلامه على نوح هذا، فقال ان هذه المقالات الثلاث اولها في تعليم اليعاقبة اي معتقدهم وثانيتهما تقرير لليعاقبة عنوانه خطبة في ايمان السريان وثالثها خطبة في

بشارة العذراء الطوبأوية وهي لنوح البقوفاوي والذي جعلني اعتقد ذلك انما هو ما عثرت عليه في الكتاب الثلاثين من الكتب السريانية التي اتى بها اندراوس اسكندر الكاهن الماروني إلى المكتبة الواتيكانية حيث قال نوح عن نفسه في صفحة ١٣٣ منه (ما ترجمته عن السريانية) كمل كما وجدت صلوا على حقارتي في يوم الثلاثاء الحادي عشر من نيسان نحو الساعة التاسعة منه ١٨١٩ يونانية (الموافقة سنة ١٥٠٨م) بمدينة حلب كتبه نوح الخاطيء. «وقد كتب في صفحة ١٤٢ انه هو مؤلف الخطبة في بشارة العذراء وهذا ما كتبه بالعربية ميمر قاله نوح في الموصل سنة ١٨٠٣ يونانية (سنة ١٤٩٤م) من اجل معاندي مريم والدة الله ولم يعلموا عيد البشارة المجيد». وفتحة هذه الخطبة : «بسم الآب البسيط والابن الوسيط والروح الفارقليط» وهذه الخطبة هي الخطبة نفسها المعزوة الى يعقوب البردعي في الكتاب الذي بمكتبة مدرسة الموارنة برومة، كما تأكدت بمعارضة الخطبتين. وعليه فلا صحة لنسبتها إلى البردعي. على ان النفس في هذه الخطبة وفي المقالتين الاخرين هو واحد والعبارة واحدة، وهذا يثبت ان المقالات الثلاث لنوح البقوفاوي نفسه. وقد أهدت ذلك هنا لاني في كلامي على يعقوب البردعي انكرت ان تكون هذه المقالات الثلاث له ولم أعين مؤلفها بل تركته نكرة، فصرحت الآن بما عثرت عليه حديثاً. انتهى تلخيص كلام السمعاني. وجاء في الكتاب الثلاثين المذكور من صفحة ١٣٨ فصاعداً تاريخ موجز لنوح المذكور ضمنه اخبار ما كان من الاحداث في الشرق ولا سيما في الجزيرة (ما بين النهرين) إلى ايامه اي إلى سنة ١٨٠٧ يونانية الموافقة سنة ١٤٩٦ للميلاد. وقد ذكر السمعاني في صفحة ٤٦٩ من المجلد المذكور تاريخ نوح هذا الموجز وذيل بعضه بحواش فمن شاء الوقوف عليه فليطالعها في المحل المذكور ولم ينبئنا السمعاني في اي سنة توفي نوح هذا ويظهر من تاريخه لكتابته تعليم اليعاقبة سنة ١٥٠٨ كما مر انه مات بعد تلك السنة.

عد ٩٤٦

الآخ (فرا) غريفون

نلخص ترجمة هذا العالم الفاضل عما كتبه الاب هنري لامنس اليسوعي الكاتب المجيد في مجلة «المشرق» في العدد الاول وما يليه من السنة الاولى لهذه

المجلة التي هي سنة ١٨٩٧م. لم يكن الاخ غريغون سورياً ولا شرقياً ايضاً لكنه كان فلمنكياً او بلجيكيّاً صرف سنين متطاولة في سورية ولبنان عند المواردنة خاصة، وله ايادي على الدين والعلم في هذه البلاد، ولا نعلم سنة مولده بالفلمنك ويقدر انها في اوائل هذا القرن الخامس عشر وقد انضوى الى رهبانية القديس فرنسيس الاسيزي في فرعها المعروف بالديرين، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره حاز في باريس رتبة الملفان في اللاهوت وأقام يدرس هذا العلم السامي في مدرسة باريس الكلية سبعة اعوام، فكسب من الشهرة ما راعه لتواضعه، فغادر هذه المدرسة ليتخلص من المدح العالمي. وزار معابد رومة ثم طلب الانتقال إلى فرع آخر من رهبان القديس فرنسيس المعروفين بالاصغرين المحافظين ليقضي حياته بينهم خامل الذكر بعيداً عن العالم، ولكن حامل المسك لا تخفى روائحه فلم يعتم رؤساؤه واخوته الرهبان ان كشفوا عن كنز علمه فأمره رؤساؤه ان يدرس علم الكتاب المقدس فأذعن طائعاً وأتم ما عهد اليه به مدة قائماً به احسن قيام، لكنه كان هائماً بالسفر إلى فلسطين ومشاطرة اخوته بها اتعابهم وجهادهم. وكان في تلك المدة عقد المجمع الفلورنسي وغاية البابا اوجانيوس الرابع برد المشرقين المنفصلين عن مركز وحدة الايمان اليه. وعرف غريغون باتحاد الروم في هذا المجمع وإرسال الارمن وفداً للاعتراف بالايمان وارتجاع بعض اليعاقبة وإرسال البطريرك يوحنا الجاجي بطريرك المواردنة الاخ يوحنا رئيس رهبان القديس فرنسيس ببيروت ليطلب له التثبيت من لدن الحبر الروماني ويعرض له ان البطريرك وأمة المواردنة جميعاً يقرون بكلمة يقره المجمع، فزاد هيام الاخ غريغون بالتوجه إلى سورية فنال ما تمناه.

وفي اواخر سنة ١٤٤٢م او اوائل السنة التالية وصل غريغون إلى فلسطين وشرع يزور معابدها التي قد وضعها بكتاب وسمه بدليل الارض المقدسة، ثم اقام باورشليم بدير جبل صهيون وقد روى البطريرك اسطفانوس الدويهي مرات انه كان حينئذ في اورشليم جماعة من المواردنة. وقد جاء في كتاب روهريش (BOHRICHT) الالماني الذي زار اورشليم في تلك الايام، وذكر مواردنة مقيمين في كنيسة القيامة (صفحة ٩٢ في كتابه المذكور) وكان الكرسي الرسولي قد عين في تلك المدة انطون طرويه من رهبان القديس فرنسيس وكيلاً او قاصداً له عند نصارى المشرق ولا سيما اهل جبل لبنان، فعاد انطون إلى رومة سنة ١٤٤٤م يصحبه وفد من المواردنة رحب بهم الحبر الروماني وأقام حينئذ الحبر الاعظم بطرس

دي فرارا من دير الفرنسيين في بيروت وكيلاً رسولياً لدى الموارنة والسريان. وفي سنة ١٤٥٠م نقل الاخ غريغون إلى اديار رسالتهم في جبل لبنان فأقام في بيروت مدة ويظهر انه كان رئيس ديرهم الذي كان بجانب كنيسة المخلص المبنية على اثار البيت الذي حدثت به آية الصليب التي ذكرناها قبلاً. ونظن ان هذا الدير هو ديرهم المعروف بهذه المدينة التي غادروها من سنوات قليلة، وأقاموا حيث هم الآن في حي الجميزة. ثم تخلى الاخ غريغون عن تدبير مهام الدير اليهم بالتعليم والارشاد ثم يم لبنان ومعه الاخ فرنسيس البرشلوني، وكان بطريك الموارنة حينئذ يعقوب الحداثي الذي توفاه الله سنة ١٤٥٨م. وكان الاخ غريغون قد تعلم اللغتين العربية والسريانية فكلفه البطريك ان يعظ ويعلم عند الموارنة، فتفانى في الاجتهاد على ذلك. وقد غالى مرقس الاشبوني بذكر جهاد غريغون في انذار الموارنة حتى زعم انه صنع آية لم يصنع مثله، وهي انه رد الشمس من الغرب إلى الشرق وبهذه الآية رد الموارنة إلى الايمان القويم. وتلك حكاية عدها العلماء بين الاقاصيص، وردها البطريك الدويهي في كتاب رد التهم، والبطريك بولس مسعد في الدر المنظوم، والاب لامنس ايضاً في ترجمة فرا غريغون ولا نراها تستحق العناية بالرد.

وبعد وفاة البطريك يعقوب الحداثي صير بطرس بن حسان بطريكاً على الموارنة كما سيجيء، فأرسل فرا غريغون ومعه اثنان من رهبانه الاخ سمعان والاخ اسكندر إلى رومة وأصبحهم برسائل مشتملة على ابداء طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي وطلب تثبيتته في البطريكية، فوصل فرا غريغون ورفيقاه إلى المدينة العظمى سنة ١٤٦٩م وكان الحبر الروماني حينئذ بولس الثاني ترحب بوفد الموارنة وأثبت البطريك وكتب فرا غريغون من رومة إلى الموارنة رسالة سوف تثبتها بالملحق في تاريخ الموارنة المعلق بآخر هذا الباب، وعاد غريغون إلى لبنان حاملاً براءة التثبيت للبطريك بطرس المذكور. ووهم بعض المؤرخين ان البابا صير فرا غريغون بطريكاً على الموارنة ورد الاب لامنس نفسه هذا الوهم بل انتقد ايضاً قول البطريك الدويهي ان الاخ غريغون صير بطريكاً على اورشليم مبيتاً ان الكردينال ساريون الآتي ذكره كان حينئذ بطريك اورشليم شرفاً ورجح الاب لامنس ان قول القائل ببطريكية غريغون على الموارنة ليس إلا مبالغة يراد بها فرط عنايته بالموارنة، وهذا رأي كوارسميوس (في كتابه وصف الارض المقدسة) او ان الحبر الروماني جعله نائباً رسولياً عند الموارنة وهذا هو الاظهر والامثل عندنا.

ورأى غريغون بين الموارد شايين امتازا ذكاء وفضيلة اسم احدهما يوحنا والآخر جبرائيل القلاعي اللحفدي، فأدخلهما في سلك رهبان القديس فرنسيس وارسلهما إلى البندقية ثم لرومة لاقتباس العلوم البيعية، وعاد إلى الشرق ورقى البطريك سمعان الحداثي جبرائيل اللحفدي اسقفاً على الموارد بقبرص، وأما يوحنا فاستأثرته المنية بعيد عودته. واعتمد لامنس في ذلك على تاريخ الدويهي وسوف نذكر ترجمة الاسقف جبرائيل القلاعي في تاريخ القرن السادس عشر.

وروى الاب لامنس ان غريغون رقي إلى الاسقفية، وانه بقي على ما كان عليه قبلها من الزهد والنسك والمحافظة على نذر الفقر سائراً على مثال القديسين، ولم تغفله فروض اسقفية عن تأليف الكتب فصنف كتباً كثيرة وترجم عدة كتب ولم يبق من تأليفه إلا كتابان: الاول مدائح مريم والثاني وصف الارض المقدسة. وعزا اليه الدويهي ميمر في فتوح السلطان محمد الثاني القسطنطينية. ثم ان طعن غريغون بالسن لم يوهن عزيمته، فلما رأى انتظام الحال في لبنان في هذه المدة عزم ان يسير إلى بلاد العجم إذ سمع ما كان يومئذ من المخابرات بين الكرسي الرسولي ودولة العجم في شأن نشر المذهب الكاثوليكي في تلك البلاد، وكان الاحبار الرومانيون قد تحققوا مخبرته بحالة الشرق وعادات اهله ومعرفته بلغتهم، فأوفده البابا سيستوس الرابع وسافر من بيروت بحراً ومعه الاخ فرنسيس البرشلوني المذكور، فأصابه مرض أرغمه على النزول في فماغوستا بقبرص، فقصي اجله في دير رهبانه بالمدينة المذكورة في ١٨ تموز سنة ١٤٧٥م.

عد ٩٤٧

الكردينال بساريون وتوادوروس غازا

ولد هذا العلامة المشهور في طرايزند سنة ١٤٠٣، وفي رواية أخرى سنة ١٣٩٥م. وكان اولاً راهباً في رهبانية القديس باسيليوس ودرس العلوم وتفقه بالفلسفة خاصة في احد اديارهم بالمورة، ولما عزم الملك يوحنا باليولوجوس على العناية باتحاد الكنيسة اليونانية بالكنيسة اللاتينية استأثى بساريون من دير وجعل بطريك القسطنطينية يرقيه إلى اسقفية نيقية فراقاه اليها سنة ١٤٣٨م. وأخذ الملك بصحبته إلى ايطاليا ومعه عدة من العلماء، ولما حصل الاتفاق والاتحاد صير البابا

اوجانيوس الرابع بساريون كردينالاً سنة ١٤٣٩ مكافأة لغيرته وعنايته بالاتحاد، ولما نكث الروم عهد اتحادهم واستمر بساريون متمسكاً به ابغضه الروم شديد البغض فلم يشأ العود إلى بلاده بل اقام برومة حيث كان محله موعد العلماء والادباء والفضلاء، واولاه البابا بيوس الثاني لقب بطريك القسطنطينية. وفي رواية اخرى لقب بطريك اورشليم سنة ١٤٦٣م. وبعد وفاة البابا نيقولاوس الخامس وبولس الثاني رشحه كثيرون من الكرادلة للحبرية العظمى، وقد عهد اليه الكرسي الرسولي بمهام كبرى باوروبا. وقد توفي في رافنا في ايطاليا سنة ١٤٧٢م. وقد الف الكردينال بساريون كتباً كثيرة حسبها العلماء في جملة الكتب التي عاونت على احياء درس العلوم بعد اندراسها، وقد احييت كتبه الفلسفية بايطاليا الانصباب على درس فلسفة افلاطون فقد الف اربعة كتب رد بها مطاعن بعض العلماء بكتب افلاطون وطبعت هذه الكتب بباريس سنة ١٤٦٩م. وترجم إلى اللاتينية اربعة كتب لكسنوفون في سقراط طبعت بلوفان سنة ١٥٣٣م وله ترجمة لاتينية لكتب ارسطو في ما بعد الطبيعة طبعت بباريس سنة ١٥١٦م وله خطب في الانتصار لنصارى الشرق طبعت بباريس سنة ١٤٧٦م، وله مقالات لاهوتية لم تطبع. وقد طبعت له مقالة في سر الازخاريسيا في مكتبة الآباء وله رسائل وردود على بعض اساقفة الروم الذين كانوا يأبون اتحاد كنيستهم بالكنيسة الرومانية او نكثوا الاتحاد بعد صيرورته. وبالجملة كان بساريون من اشهر علماء القرن الخامس عشر وكان صديقاً ومحامياً عن كثيرين منهم، نخص بالذكر منهم جرجس الطرايزندي وتوادوروس غازا الآتي ذكره واندراسوس التسالونيكى. ومن اللاتينيين بلوندس دفالر من قيترب، وليونر اداتين وغيرهما.

توادوروس غازا

ولد في سالونيك سنة ١٤٠٠م وسار إلى ايطاليا بعد ان اخذ الاترك مدينتهم سنة ١٤٢٩م وعلم اللغة اليونانية في فلورنسا وفرارا وألف هناك متدى علمياً. ثم استدعاه البابا نيقولاوس الخامس إلى رومة فانضم إلى الكردينال بساريون. ومن مؤلفاته غرامطيق اي كتاب نحو اللغة اليونانية بهذه اللغة انتشر كثيراً في القرن الخامس عشر واذاعه اراسموس مع ترجمة لاتينية له في بال سنة ١٥٢١م ثم في باريس سنة ١٥٢٩م وله ايضاً ترجمات لكثير من كتب شيشرون الخطيب الروماني إلى اليونانية إلى غير ذلك من التصانيف.

الفصل الثالث

اخص الاحداث الدينية في هذا العصر
اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية

عد ٩٤٨

ما كان بهذا الشأن قبل القرن الخامس عشر

ذكرنا في تاريخ القرن التاسع الخلاف الذي كان بالقسطنطينية بين القديس اغناطيوس بطريرك هذه المدينة حينئذ وبين فوتيوس، وتغلب هذا على البطريركية خلافاً لاوامر الحبر الروماني، ونبذ فوتيوس الطاعة له، وتعليمه بعض ما يحالف تعليم الكنيسة الرومانية، وكان هذا مبدأ الانقسام إلى الآن. ولما ترقى البطريرك ميخائيل شيرولاوس إلى كرسي القسطنطينية في القرن الحادي عشر عظم الخلاف وانبسط الانقسام، ولكن لما ملك بلدوين القسطنطينية وتبعه غيره من الملوك اللاتينيين من سنة ١٢٠٤م إلى سنة ١٢٢١م خمدت جذوة الخلاف قليلاً، لكنها ما برح لها وميض، وحالما استرد الملك ميخائيل بالالوغوس القسطنطينية من الملوك اللاتينيين عاد الخلاف إلى ما كان عليه قبلاً، بيد ان هذا الملك رأى ان مملكته مشرفة على السقوط بأيدي المسلمين فعزم ان يعتصم بموالة اللاتينيين ويتفق معهم من جهة الدين ايضاً ليتحقق مناصرتهم له، فأوفد إلى البابا غريغوريوس العاشر يوحنا احد رهبان القديس فرنسيس وأصبحه برسالة صرح بها للحبر الروماني بأنه يرغب مع سورية في ان يرجعوا إلى الاتحاد بالكنيسة الرومانية والإقرار بايمان واحد. وكتب ايضاً إلى القديس لويس التاسع ملك فرنسة ليعاونه على هذا الاتفاق بين الكنيستين الرومانية والرومية. فالحبر الروماني لهيامه بهذا الاتحاد ارسل حالاً إلى الملك اربعة كهنة من قبله ليداولوه بما يريده من طريقة الرجوع وأرسل معهم دستور الايمان

الذي يلزم الملك واساقفة الروم ان يعترفوا به عند حصول الاتفاق، وعرض على الملك عقد مجمع لهذه الغاية وحرصه ان يشهده بنفسه او يرسل نواباً عنه. ولما اجاب الملك إلى ما يرغب البابا اعلن الحبر الروماني سنة ١٢٧٢م عزمه على عقد مجمع في ليون سنة ١٢٧٤م ودعا اليه اساقفة اللاتينيين وبطريق القسطنطينية وسائر رؤساء الروم وعقد هذا المجمع في ليون سنة ١٢٧٤م وهو الرابع عشر من المجمع المسكونية والثاني في ليون وكان فيه من الاساقفة اكثر من خمسمائة اسقف عدا الكرادلة، وكان فيه بطريركان لاتينيان ويعقوب ملك راغون، ونواب كثيرين من الملوك والامراء اخصهم نواب الملك ميخائيل باليولوغوس ملك القسطنطينية ونواب فيلبس ملك فرنسة، ودعا البابا اليه ملفانين من اشهر ملائكة الكنيسة في ذلك العصر وهما القديس توما الاكويني لكنه مات في طريقه، ثم القديس بونا ونتورا وهذا رافق البابا في مسيره إلى المجمع وشهده وافتتح المجمع في السابع من شهر ايار السنة المذكورة بعد ان صام المجتمعون ثلاثة ايام. وفي المجلس الاول افتتح البابا غريغوريوس العاشر المجمع بالصلاة المعتادة ثم خطب في المجتمعين مبيناً انه تعتمد بعقد هذا المجمع ثلاث غايات: الاولى العناية بانجاد النصارى في الأرض المقدسة، والثانية اتحاد الكنيسة الرومية بالكنيسة الرومانية، والثالثة وضع بعض فرائض لاصلاح التهذيب البيعي. وعقد المجلس الثاني في ١٨ ايار وكان فيه المفاوضات بوضع بعض فرائض دينية، ثم المجلس الثالث في السابع من حزيران واشتهرت فيه بعض مراسيم تتعلق بالايمان والتهذيب وتقرر في آخر هذا المجلس ان ينتظر وصول الروم إلى عقد المجلس الرابع.

ووصل مفوضو الروم في الرابع والعشرين من حزيران وكانوا كثيرين ومن عليا الاكليرس واعوان الملك وفي جملتهم جرمانوس الذي كان بطريقاً على القسطنطينية، وتوافان متروبوليت نيقية، وأما يوسف بطريق القسطنطينية فكان مقاوماً للاتحاد مصراً على الخلاف فحبسه الملك برأى الاساقفة في دير الى ان يعود المرسلون إلى المجمع. فإن وقع الاتفاق واستمر البطريق مصراً على رأيه عزله الاساقفة والملك عن البطيركية واقاموا غيره. هذا ما رواه نطاليس اسكندر نقلاً عن رسالة الرؤساء الروم إلى البابا. ولما قرب وفود الروم من ليون خرج لللتقاهم كل من كان في المجمع من الاساقفة والرؤساء والنواب وصحبوهم بالاحتفاء إلى القصر الذي كان به البابا فقام لاستقبالهم وعلى جانبه الكرادلة وكثيرون من الاساقفة وبعد معانقة السلام

والسلم قدموا للحبر الروماني رسالة الملك ورسائل الاساقفة وعددهم ثمانية وثلاثون اسقفًا، ثم قالوا اتينا لنقدم إلى الكنيسة الرومانية الطاعة المتوجبة لها ونعترف بالايان الذي تعترف هي به ونوافقها على المسائل الثلاث التي كان يعسر على اساقفة الروم الاقرار بها، وهي رئاسة البابا والاعلان باسمه في الصلوات، ورفع الاستغاثات إلى الكرسي المقدس. وكان الملك يصرح في رسالته باقراره بهذه المسائل الثلاث وانبثاق الروح القدس من الآب والابن، ويسأل الحبر الروماني ان يعطف إلى الترخيص للروم بان يتلوا قانون الايمان كما كانوا يتلونه قبل ابتعادهم عن الكرسي الروماني، وبأن يحفظوا طقوسهم التي لا تخالف الايمان ولا مراسيم المجامع. وكان عنوان رسالة الملك إلى البابا هكذا: «الى الأب الاقدس الطوباوي غريغوريوس الحبر السامي للكرسي الرسولي البابا العام وابي جميع المسيحيين من ميخائيل الملك الامين بالمسيح ومدير شعبه انجلوس كومناتوس باليولوجوس ابن قداستكم الروحي».

وفي اليوم التاسع والعشرين من حزيران عيد القديسين بطرس وبولس اقام البابا قداساً احتفالياً في الكنيسة الكبرى بليون شهده الروم وكل آباء الجمع، وتلا فصلاً من رسالة القديس بولس وفصلاً من الانجيل باللاتينية واليونانية ثم خطب القديس بوناونتورا ثم ترنموا بقانون الايمان أولاً باللاتينية مع قولهم المنبثق من الاب والابن ثم ترنم به الروم باليونانية ومعهم من كان من اللاتين يعرف هذه اللغة والفريقان كررا ذكر انبثاق الروح القدس من الاب والابن ثم ترنم الروم بمديح للبابا واستمروا منتصبين في جانب المذبح إلى نهاية القداس فكان في ذلك العيد فرح لا يوصف عند اللاتين والروم.

وعقد المجلس الرابع في السادس من تموز وكان مدار الكلام فيه على اتحاد الروم بالكرسي الروماني فتلوا باللاتينية ثلاث رسائل مترجمة عن اليونانية: الاولى رسالة الملك ميخائيل، والثانية رسالة ابنه اندرونيكوس، والثالثة رسالة رؤساء الروم إلى الحبر الروماني. وقد ضمن الملك رسالته دستور الايمان الذي كان البابا قد ارسله اليه مع مرسله المار ذكرهم واختتمها بقوله: «نحن نعترف بأن هذا الايمان صحيح وكاثوليكي وقويم ونعترف بذلك بقلبنا ونعلنه بقمنا ونعد بأن نحفظه دون خلل فيه ولا زيغان عنه»: وكانت رسالة رؤساء الروم على مثال رسالة الملك بالتصريح باقرارهم برئاسة كنيسة رومة وانبثاق الروح القدس من الابن والآب والمظهر وجواز التقديس على الفطير والخمير الخ.... واختتموها بقولهم ان بطريركهم اصر على

المخالفة فأقاموه بأمر الملك في دير إلى عودهم، فإن وافقهم خضعوا له وإلا عزلوه وانتخبوا غيره. وبعد أن انتهت تلاوة الرسائل الثلاث نهض جيورجوس الاكروبوليت اكبر اعوان الملك ونائبه في هذا المجمع وبرز اليمين التالية: «أنا اجدد الشقاق نيابة عن مولاي وبالأصالة عن نفسي واعتقد بقلبي واعترف بضمي بالايان الكاثوليكي القويم الروماني واعد بأن احافظ على هذا الايمان كل وقت دون اي زيغ عنه البتة. وأقرّ برئاسة كنيسة رومة وبوجوب الطاعة لها واثبت كل ذلك يميني وقسمي بنفس مولاي ونفسي». ثم جثا من في المجمع مترنمين بالتسبحة المعتادة او بدستور الايمان باللاتينية ثم تلاهم بالترنم بذلك جرمانوس بطريرك القسطنطينية قبلاً وتوافان متروبوليت نيقية. وأعاداً مرتين ذكر انبثاق الروح القدس من الآب والابن. وأمر البابا بعد ذلك بتلاوة رسالة كان خان التتر قد ارسلها اليه وانفذ ستة عشر مفوضاً من قبله إلى المجمع لعقد معاهدة مع النصارى ضد المسلمين وعين البابا موعد عقد المجلس الآتي نهار الاثنين التاسع من تموز.

قد تأجل عقد المجلس إلى السادس عشر من تموز وفيه عند احد المرسلين من خان التتر لانه آمن مع رجلين من رفقائه وتلي في هذا المجمع اربعة عشر قانوناً موضوعها الايمان والتهذيب وعين البابا اليوم السابع عشر من تموز موعداً للمجلس الاخير من هذا المجمع.

ففي اليوم المذكور عقد المجلس الاخير من هذا المجمع وتلي فيه مرسوم المجمع ومما قيل فيه عن انبثاق الروح القدس :

«نعترف اعترافاً صحيحاً تقوياً ان الروح القدس ينبثق منذ الازل من الاب والابن لا كأنهما مبدآن بل مبدأ واحد. فهذا ما اعترفت به وعلمته ونشرته إلى الآن وهذا ما تعتقده وتعلمه وتنشره الكنيسة الرومانية المقدسة ام جميع المؤمنين، وهذا هو الرأي الصحيح الثابت غير المتغير الذي علمه الآباء المستقيمون الايمان والعلماء اللاتينيون والروم». ثم خطب البابا خاتماً المجمع مسدياً لله الشكر على ما انعم من اتخاذ الروم ومن اتخاذ الوسائل التي يرجى برحمته ان تكون نافعة للنصارى في الشرق ومن فرض رسوم تتكفل بإصلاح ما اختل من التهذيب، وترنموا بتسبحة الشكر لله وقد تفضل البابا بهدايا نفيسة على مفوضي الملك ورؤساء الروم وكتب إلى الملك ميخائيل يخبره بما كان في المجمع ويهنئه بنجاح المسعى.

وكتب مثل ذلك إلى ابنه اندرونيكوس وإلى رؤساء الروم، وأرسل مع الروم سفيراً إلى الملك عند وصولهم إلى القسطنطينية، واستمرار يوسف بطريركهما مصرّاً على رأيه أكرهه الملك على الاستقالة من بطريركيته وعني بإقامة يوحنا فيكوس أحد مقدمي كهنة القسطنطينية بطريركاً مكانه وتشدد على من أبى الاتحاد من الكليرس والعامّة.

ثم توفي البابا غريغوريوس العاشر وخلفه اينوشينسوس الخامس ثم اديانوس الخامس في مدة وجيزة، وقام بالحبيرة العظمى يوحنا الحادي والعشرون سنة ١٢٧٦م فأرسل قصاداً إلى الملك ميخائيل يطالبه في أن يثبت الروم ما تقرّر في مجمع ليون وأقسم عليه مفوضو ورؤساء الروم، فعقد حيثث في القسطنطينية مجمعان حيث أقرّ يوحنا فيكوس البطريرك ورؤساء الروم بالايان على موجب الدستور المرسل اليهم من الحبر الروماني، وكتب الملك ميخائيل وابنه اندرونيكوس إلى البابا يهنئانه بحصول الاتحاد المبتغي على أن الملك كتب سنة ١٢٧٨م إلى البابا نيقولاوس الثالث خليفة يوحنا الحادي والعشرين المذكور يقول انه باذل قصارى جهده في الاستدعاء إلى الاتحاد، وأن المؤامرات المنشئة عليه لذلك كادت تحطه عن اريكة ملكه. وسأل البابا ان يتسامح له إذا ابدى حسن التصرف مع مسوديه بسياسته. وكان الحاصل بعد ذلك أن الروم الاقليين منهم عادوا إلى الابتعاد عن الكنيسة الرومانية والمخالفة لها في العقائد التي واثقوها عليها، واضطر البابا مرتينوس الرابع خليفة نيقولاوس الثالث أن يحرم الملك ميخائيل لنكته عهد الاتحاد المقسوم عليه، وأن يبقى الروم على ما كانوا عليه نحو مئة وستين سنة إلى أن عقد مجمع فرارا ثم نقل إلى فلورنسا كما ترى في الفصلين التاليين.

عد ٩٤٩

مجمع فرارا

لما رأى الملك يوحنا باليوغوس مملكته متداعية للسقوط والملوك العثمانيين العظام قد استحوذوا على قسم كبير منها ويهددونه بفتح القسطنطينية عاصمة ملكه، لجأ إلى الحبر الروماني مبدئاً شديد رغبته في الاتحاد بالكنيسة الرومانية هو وشعب الروم، وكان البابا اوجانيوس الرابع هائماً بهذا الاتحاد فلبى دعوة الملك ونادى سنة ١٤٣٨م بعقد مجمع في فرارا إحدى مدن ايطاليا، ودعا اليه الملك

يوحنا بطاركة الروم واساقفتهم واما الاساقفة اللاتينيون فكان بعضهم مجتمعين في مدينة بال (المانيا) فأمر البابا بانتقال مجمعهم إلى فرارا وحضر الملك يوحنا باليوغوس بنفسه إلى فرارا وصحبته البطريرك القسطنطيني وكثيرون من اساقفة الروم، واشهرهم بساريون رئيس اساقفة نيقية، ومرقس رئيس اساقفة افسس، وبلغ البابا اوجانيوس الرابع إلى هذه المدينة من السابع والعشرين من كانون الثاني سنة ١٤٣٨م، واجتمع هناك الكرادلة وكثيرون من اساقفة الغرب، وأرسل البابا الكردينال نيقولاوس البركاتي لاستقبال ملك الروم في البندقية، فبلغ هذا الملك مع حاشيته إلى المدينة المذكورة في الثامن من شباط، ثم سار منها إلى فرارا، ووصل إليها في الرابع من آذار، ووصل بعده بثلاثة ايام البطريرك القسطنطيني والاساقفة وكانوا واحدا وعشرين اسقفاً، وكان معهم جم غفير من الأرشمندريته وأعيان الاكليرس لا يقل عددهم عن سبع مئة. واتفق راي الفريقين على عقد المجلس الاول في التاسع من نيسان سنة ١٤٣٨م واجتمعوا ذلك اليوم في كنيسة القديس جيورجوس الكبرى، وكان امام المذبح عرش عظيم وضعوا عليه كتاب الاناجيل ومفاتيح كنيسة القديسين بطرس وبولس اتوا بها من رومية، وجلس البابا تحت يمين المذبح على عرش ارفع من سائر العروش وبجانبه عرش عاهل المغرب فارغاً، وعن شماله المذبح القسطنطيني. وفي جانبي الكنيسة كراسي رؤساء الاساقفة والاساقفة وكان من جانب اللاتين الكرادلة ثم رؤساء الاساقفة والاساقفة عددهم نحو مئة وستين اسقفاً عدا رؤساء الاديار وكثير من باقي الاكليرس ونواب بعض الامراء والملوك، وكان من جانب الروم من ذكرنا آنفاً من تبعة الملك والبطريرك. وأعدوا بالقرب من كرسي بطريرك القسطنطينية محلاً لنواب باقي البطاركة الشرقيين الذين لم يتيسر لهم ان يأتوا إلى المجمع وكان اسيدوروس متروبوليت بروسيا نائباً عن بطريرك انطاكية مع مرقس مطران افسس، لكن اسيدوروس لم يصل إلا في شهر آب مع بعض اساقفة من قبيلته وكان نائباً عن فيلوتاوس بطريرك الاسكندرية انطونيوس مطران هرقلية وغريغوريوس معرف الملك، وعن يواكيم بطريرك اورشليم مطران سردومو ناميسيا في المورة على انه لم يكن في هذا المجلس إلا إذاعة براءة البابا بعقد هذا المجمع في فرارا وافتتاحه برضى ملك الروم بطريرك القسطنطينية لاتحاد الكنيستين والتنبيه للمدعويين بأن يأتوا إليه بمدة اربعة اشهر، او يعيشوا من ينوب عنهم ولم يشهد

يوسف بطريرك القسطنطينية هذا المجلس لانه كان مريضاً وعمره نحو ثمانين سنة لكنه بعث رسالة بين فيها انه موافق على كل ما يرسم فيه.

وبعد هذا المجلس الذي لا يعد إلا مقدمة للمجمع لم تعقد مجالس اخرى إلا إلى شهر تشرين الاول لسبب عصيان بعض الاساقفة الذين كانوا مجتمعين ببال على اوامر الحبر الروماني، وتوسط بعض امراء اوروا لردهم إلى الطاعة بل كانت مفاوضات خصوصية بحث بها عن عقيدة المطهر وظهر منها ان الروم لا يأنفون من التسليم بذلك تتعذب في جهنم ويسلمون بانها تكفر عن آثامها بحزنها واقصائها عن مشاهدة الله، وان الصدقات وصلوات الكنيسة تفيدها بتخفيف عذابها وتقصير مدته، وفي الثامن من شهر تشرين الاول عقد المجلس الاول بالكنيسة الكبرى بل بالمعبد الذي في القصر الحال البابا به، لأن البابا كان متوكل الصحة. وعين للخطابة من جهة الروم مرقس اسقف افسس وايسيدوروس اسقف كيوف بروسيا وبساريون اسقف نيقية والحق بهم ثلاثة كهنة، وعين من جهة اللاتين الكردينال يوليانوس شلزاريني والكردينال القديس نيقولاوس البركاني وايسيدوروس ورئيس اساقفة رودس ويوحنا اسقف فورلي وراهبان ملفانان باللاهوت فخطب بساريون اولاً خطبة ما برحت محفوظة برمتها اعرب بها عن السرور الذي شمل المؤمنين اجمعين لاملهم ان يروا عن قريب اتحاد الكنائس بعد ان تولاهما الانقسام، واثنى على البابا وملك الروم وبطريرك القسطنطينية عاطر الثناء لما ابدوا من الغيرة على هذا الاتحاد، وحرضهم على متابعة سعيهم المشكور المبرور الى النهاية المبتغاة. واطال في كلامه واجاد واستغرق بخطبته الوقت المعين للمجلس كله، وأرجئ الاجتماع إلى يوم السبت المقبل. وكان في وسط الخطباء نيقولاوس ساكوندين يترجم ما يقال باليونانية إلى اللاتينية بسرعة وامانة يتعجب منها، فعقد المجلس الثاني في الحادي عشر من تشرين الاول وخطب فيه اندراوس رئيس اساقفة رودس في الموضوع نفسه الذي خطب فيه بساريون وبفصاحة اشبه بفصاحته، حتى لم ينجز خطبته قبل المساء ومع ذلك بحث الآباء قبل انصرفهم في النظام اللازم حفظه في الجدل وفي المواد التي يبحث عنها، وقرروا ان يكون بطريقة القياس للايجاز، وبث المسائل، وان يختار الروم مادة البحث في المجلس التابع.

فعقد المجلس الثالث يوم الثلاثاء الرابع عشر من تشرين الاول وخطب فيه مرقس اسقف افسس وأحب ان يكون البحث عن زيادة كلمة والابن على قانون الايمان

ولمّح إلى ان الكنيسة الرومانية ابطأت في اتخاذ وسائل الاتحاد الذي ترغب فيه الآن، وان هذا الاتحاد يتعذر حصوله ان لم تزل أولاً الاسباب الداعية الى الخلاف. واختتم بكلامه طالباً ان تتلى مراسيم المجامع السابقة واقوال الآباء قبل الدخول في البحث والجدال، فاجابه اندراوس رئيس اساقفة رودس على خطابه فقال لإنني لأعجب من تناسيكم اهتمام الكنيسة الرومانية لدى كل ملمة بالكنيسة الشرقية فلم تنشأ بدعة إلا وهبت الكنيسة الرومانية لمناصبها واجهاد النفس في ايجاد الوسائل اللازمة لزوالها بانفاذ رسائلها وقصاها الى غير ذلك من الوسائل، ولا يفوت علمكم ان البابا سليسترس رأس مجمع نيقية، وغيره من احوار رومية رأس غيره من المجامع إما بنفسه وإما بقصاده، ولأعجب من ان بعض ملوك القسطنطينية عاونوا الاحبار الرومانيين احياناً على ذلك. وبعد ان انشقت العصا لم يفتر احوار رومية عن استدعاء الملوك الشرقيين إلى الوفاق فإن كنا لم نحفظ السلم فمتى طلبتموه انتم ولم نجبكم اليه؟ او متى سألتكم عود الالفه وأبيناه؟ بل كم من مرة ناشدكم الأحوار الرومانيون ان تعودوا الى الائتلاف فأيتيم او وعدتم ثم اخلفتم وعدكم، او ما وقع رؤساء الروم على الاتحاد في مجمع ليون ونكثوا عهدهم، واما كون الكنيسة الرومانية تطلب الآن الاتحاد وتشتاق اليه فهذا ليس بمنكر له، واما ما سألته الآن من مراجعة مراسيم المجامع السابقة واقوال الآباء السالفين فأرى ان يضاف إلى ذلك بالاولى مطالعة اقوال الاناجيل المقدسة ايضاً.

فوافقه مرقس مطران افسس على محبة كنيسة رومة وعنايتها بالشرقيين، وقال ان هذا ايضاً يحملها على إزالة سبب الخلاف وهو الزيادة على قانون الايمان، فأجابه مطران رودس ليست هذه الزيادة سبب الخلاف لان الاتحاد استمر سنين متطاولة بعدها وقد حصل العود إلى الاتفاق مرات دون رفع هذه الزيادة، وقال انه سيبين امرين، الاول انه لم تكن زيادة والثاني انه وان سلم بالزيادة فتكون محكمة لازمة ولا مناص منها.

وعقد المجلس الرابع في الخامس عشر من تشرين الاول واستغرق وقته البحث في طريقة انبثاق الروح القدس وعهد الآباء بيت هذا البحث إلى لجنة مؤلفة من ستة اعضاء ثلاثة لاتينيين وثلاثة روم. وعقد المجلس الخامس في السادس عشر من تشرين الاول فتليت فيه مراسيم المجامع النيقوي والافسسي والخلكيدوني وغيرها، وغني الروم بأن ينتخبوا منها ان هذه المجامع حظرت كل زيادة على دستور الايمان

فأجاب الكردينال يوليانوس على كلام الخطيب الرومي، وقدم إلى المجمع نسخة قديمة جداً فأجاب الكردينال يوليانوس على كلام الخطيب الرومي وقدم إلى المجمع نسخة قديمة جداً من اعمال المجمع النيقوي الثاني وصرح فيها بانثاق الروح القدس من الاب والابن طبق معتقد الكنيسة اللاتينية.

وفي المجلس السادس الذي عقد في العشرين من تشرين الاول خطب اندراوس رئيس اساقفة رودس خطبة مسهبة ابان فيها جلياً ان كلمة والابن في دستور الايمان ليست زيادة ولا تغييراً كما يزعم الروم بل هي تفسير ونتيجة لازمة لاعتقاد الكنيسة بانثاق الروح القدس من الآب والابن، واثبت ذلك بشواهد كثيرة من اقوال الاءاء الروم ولا سيما يوحنا فم الذهب الذي قال كل ما هو للآب هو للابن ما عدا الابوة لان ابن الله صرح في انجيله بقوله كل ما هو للاب هو لي فالنتاج عن ذلك نتجاً لازماً انه كان الاب مبدءاً لانثاق الروح القدس فيكون الابن بلا مرء مبدءاً له ايضاً. ثم قال الخطيب فليست إذأ كلمة الابن تفسيراً كما فسر المجمع النيقوي القوانين السابقة له بقوله مساو للاب جوهرأ بياناً للاهوت المسيح. وكما فست المجمع العامة المنعقدة بعد المجمع النقي عقائد الدين المبحوث عنها فيها بزيادة كلمات. مثلاً زاد المجمع القسطنطيني الاول ما بين لاهوت الروح القدس خلافاً لمكدونيوس وزاد المجمع الافسسي ما بين ان في المسيح اقنوماً واحداً لا اقنومين خلافاً لنسطور، وزاد المجمع الخلكيدوني ما بين الطبيعتين في المسيح خلافاً لأوطيخا، إلى ان قال الخطيب انكم تجلون غريغوريوس بالاماس وهو يقول لا يؤخذ بالالفاظ بل بالمعاني، فإن اعتقدتم ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كما يتضح من الاناجيل ومن اقوال الآباء الشرقيين فما المضرة من التصريح بذلك في دستور الايمان، وكلمة من الابن تفسير لا زيادة. فللكنيسة السلطان ان تزيد. ونراها قد زادت في كل مجمع ما احتيج إليه لبيان العقيدة المبحوث عنها.

وعقد المجلس السابع في الخامس والعشرين من تشرين الاول فاستكمل رئيس اساقفة رودس اثبات عقيدة انثاق الروح القدس من الابن مفنداً ما اتى به مرقس رئيس اساقفة افسس من الاعتراضات على هذه الحقيقة. وفي المجلس الثامن والتاسع اللذين عقدا في اول تشرين الثاني والرابع منه خطب بساريون رئيس اساقفة نيقية مدافعاً عن رأي الروم. وخلاصة كلامه ان تفسير عقائد الايمان ليس محظوراً لكن المحظور ان يراد شيء على دستور الايمان، وان المجمع الافسسي نهى

عن ذلك وانه ينبغي ان يجيبه اللاتينيون. أختص هذا النهي بدستور الايمان؟ ام لا ففي المجلس العاشر الذي عقد في ٨ تشرين الثاني وقف يوحنا اسقف فورلي يرد على خطاب بساريون وبعد ان اثبت ان كلمة والابن ليست زيادة بل تفسير الحقيقة مقرر، قال ان الكنيسة كانت تقول في دستورها في ايام الرسل وأومن بالروح القدس ثم قالت في المجمع القسطنطيني الاول المنبثق من الاب فلم يحسب ذلك القول زيادة بل هو تفسير او شرح لاعلان تقرير العقيدة. وأما مرسوم المجمع الافسسي بأنه لا يجوز لاحد ان يستعمل او يكتب او يؤلف او يعتقد بدستور غير دستور المجمع النيقوي فمعناه الظاهر البديهي انه لا يحل لاحد ان يكتب او يعتقد بدستور مخالف للدستور النيقوي، وليس معناه انه لا يحل تفسيره بكلمة. وقد فهمت المجمع التابعة مرسوم المجمع الافسسي الذي فهمناه به إذ زادت بعض شروح على الدستور السابق، وما من شريعة في الكون يُنهى عن تفسيرها بمعناها الصحيح متى مست الحاجة إلى تفسير وانتم تسلمون بانه يسوغ لكل عالم ان يشرح او يفسر عقائد الايمان، فكيف تسلمون لفرد بما تنكرونه على مجمع مع ان المجمع الافسسي نهى الافراد عن ان يكتبوا او يؤلفوا دستوراً غير الدستور النيقوي، ولم تنه المجمع التابعة له عن ذلك، بل ليس له ان ينهاها عنه لان سلطانه وسلطانها سيان، وإذا حق هذا التفسير فسيان ان ذكر في الدستور او في رسوم المجمع او في غيرها بحيث ان يكون التفسير صحيحاً مطابقاً للمعتقد. وزاد الخطيب بياناً فقال ان المجمع الافسسي نهى عن الاعتقاد ايضاً بغير ما في الدستور النيقوي، فإذا سألكم احد اتعتقدون بان الله اولي فتجيئون بلا بد نعم. فيحق لكل ان يقول لكم على موجب رأيكم انكم محرومون، لأن هذا ليس من الدستور النيقوي وهلّم جرّاً إلى غير ذلك من العقائد.

وعقد المجلس الحادي عشر في ١١ تشرين الثاني وخطب فيه الكردينال يوليانوس وأجاد وأحكم فافحم وأبكم حتى هنأه بساريون رئيس اساقفة نيقية على اجادته وأصالته رأيه، وأعلمه ان جواب الروم سيكون في المجالس التابعة. وفي ١٥ تشرين الثاني عقد المجلس الثاني عشر وخطب فيه مرقس اسقف افسس، وحاول ان ينقض او يضعف بعض الحجج التي حججهم بها الكردينال يوليانوس فلم ينجح، بل كشف الكردينال في جواب الروم عن تناقض ظاهر لا مفر منه، وهو انهم زعموا انه بعد المجمع الأفسسي كان يطلق لكل فرد من الناس ان يشرح ايمانه بما شاء من

الالفاظ مع استمساكهم بأن هذا المجمع نهى الاساقفة والاكليريكيين والعامّة عن كل شرح او تفسير فكيف يوفق هذا التناقض او كيف يسوغ ذلك لكل فرد ولا يسوغ للكنيسة جمعاء.

وعقد المجلس الثالث عشر في ٢٧ تشرين الثاني وبذل مرقس الافسسي قصارى جهده في تأييد رأيه واطال كلامه كيلا يبقى وقت للرد عليه ففي المجلس الرابع عشر الذي عقد في الرابع من كانون الاول والمجلس الخامس عشر الذي عقد في الثامن منه اجاب الكردينال يوليانوس بإيجاز على كل فقرة من فقرات كلام مرقس الافسسي، واطهر في المجمع نسخة رسالة قديمة العهد كتبها البابا ليباريوس إلى القديس اثناسيوس، ومما اشتملت عليه هذه الرسالة ان المجمع النيقوي نهى عن ان يزداد او يحذف او يغير من قانون الايمان، ومن جسر على ذلك فان كان اسقفاً او إكليريكياً حط عن درجته، وان علمانياً او راهباً حرم. ولما كان مرقس الأفسسي والروم قالوا ان هذا النهي لم يكن قبل المجمع الثالث المسكوني احمرت وجوههم وكان ذلك بيّنة اخرى ناقضة لرأيهم وقد افحمت هذه البيّنة بساريون وأقنعتهم.

ولما رأى الروم ان اللاتين لا يعبأون بكثرة الكلام يمسوا من النجاح واخذوا يفكرون بالعود إلى اوطانهم، فحرضهم الملك على البقاء فطلبوا الجزم وبت هذا البحث. فاجابهم اللاتين لا بد من استقصاء كنه المسألة بالبحث هل ينبثق الروح القدس من الابن كما ينبثق من الاب لانه لا يمكن حذف كلمة من الابن من الدستور إلا ان يثبت انها غير صحيحة وانها تجديد يخالف الايمان. وكان الروم يعلمون ما يحجهم به اللاتين من آيات الانجيل الواضحة ومن اقوال الابهاء الشرقيين انفسهم فقال مرقس الافسسي احذفوها من القانون واثبتوها في مرسوم المجمع فأجابه الكردينال فلنفحص يا سيدي فلنفحص فإن ظهر أنّ كلمة والابن تجديد فلا يلزم ان تكون في الدستور ولا في المرسوم، وان ظهر انها مطابقة للايمان فيلزم ان تبقى ثابتة في الدستور والمرسوم وفي كل محل.

وقد اثبت لاباي (مجلد ١٣ صفحة ١٢٣٩) رسالة كتبها بساريون رئيس اساقفة نيقية إلى لاسكاريس تبين حالة الروم وافكارهم حينئذ. وإليك ترجمة قسم منها قد اورد اللاتينيون هذه الحجج وما اشبهها فلم يكن لنا ما يقال فيها فما الذي نقوله خلافاً لحقيقته ظاهرة جليلة فلزمننا الصمت، اما اللاتين فبعد ان اثبتوا انه

يجوز زيادة كلمة او عبارة صحيحة على الدستور استعدادا ليشبتوا العقيدة نفسها اي ان الروح القدس منبثق من الاب والابن على ان جماعتنا رأوا انهم افحموا في المبحث الاول فخافوا ان يصيبهم كذلك في المبحث الثاني، وتذكروا ما قلته لهم من اول الامر ان لا يفتتحوا الجدل بهذه المسألة فجنبوا وعولوا على الانتزاع من الجمع والعود إلى اوطانهم، واكثروا من القول فيما بينهم فلنرجع فلنرجع. وإذا سألتهم لماذا ترجعون فلا يمكنهم ان يجيبوك فما نقول للآتين ان سألونا لم ترجعون في وسط المباحثة او في بادئ بدئها لان كل ما جرى البحث فيه الى ذلك اليوم هو في زيادة كلمة «والابن» ولا يمس العقيدة بنفسها، فلم تعودون قبل ان تبتدئوا في ما اتيتم له. ولم يكونوا يعلمون ما يجيبون بل كانوا يقولون فلنعد. ويسر بعضهم إلى بعض ان اللاتين مزعمون ان يوردوا اقوالاً كثيرة من كتب الاباء المشرقين اثباتاً لانبثاق الروح القدس من الآب والابن. فِيمَ نجيب عليها فلنعد ولم يمكنهم في الجمع إلا خطاب القاه الملك فيهم.

وفي المجلس السادس عشر المتعقد في العاشر من كانون الثاني سنة ١٤٣٩م كان الوباء اشتدت وطأته في فرارا فعرض البابا اوجانيوس على ملك الروم وبطريك القسطنطينية نقل الجمع إلى فلورنسا، فصرحا برضاهاما فتليت في هذا المجلس براءة البابا في شأن نقل الجمع من فرارا إلى فلورنسا وبعد ستة ايام سار البابا إلى فلورنسا لتكملة الجمع فما كان في فرارا وفلورنسا مجعاً يحسب واحداً وقد افردا الفصل الثاني للكلام في ما كان في فلورنسا.

عد ٩٥٠

اعمال هذا الجمع في فلورنسا

قد سار البابا من فرارا الى فلورنسا في ١٦ من كانون الثاني سنة ١٤٣٩م وسار بعده ملك الروم وبطريك القسطنطينية وعقد المجلس الاول في فلورنسا وهو السابع عشر من مجالس هذا الجمع في ٢٦ من شباط في قصر البابا بحضرة الملك ولم يشهد بطريك القسطنطينية هذا المجلس لانه كان مريضاً، فخطب الكردينال يوليانوس نائباً عن البابا مبيناً ان الفريقين اللاتين والروم اتفقا على الاسراع بنهاية المجلس، وانه يلزم عقد ثلاثة مجالس في كل اسبوع، وان تكون المباحثة في كل

مجلس ثلاث ساعات وان يعتمد الخطباء الايجاز بكلامهم. وقال ان من رأي جلالة الملك ان يبحث الاباء في وسائل الاتحاد قبل المفاوضة في المجالس العامة ووافق البابا على ذلك، لكن الروم لم يتفقوا فيما بينهم على طريقة الاتحاد واراوا مواصلة البحث في العقائد فأمر البابا ان يختاروا الخطباء الذين يدافعون من جهتهم وان يختار اللاتين خطباءهم فكان كذلك.

فعقد المجلس الثاني في فلورنسا في العاشر من اذار وكان الخطيب فيه من جهة اللاتين الاب يوحنا من الجبل الاسود رئيس اقليم نومنديا على رهبان القديس عبد الاحد، وكان مشهوراً بعلومه الفلسفية واللاهوتية وكان موضوع كلامه عقيدة انبثاق الروح القدس من الآب والابن. فسأل الروم ما تفهمون بالانبثاق إذ تقولون ان الروح القدس ينبثق من الاب فأجابه مرقس الافسسي افهم بذلك ان الروح القدس يأخذ وجوده وكل ما يعرف به من الاب. فقال الخطيب احسنت وإليك البرهان من اخذ الروح القدس وجوده منه انبثق منه، والحال ان الروح القدس يأخذ وجوده من الابن، فإذا ينبثق منه. فالكبرى هي قولكم نفسه فلا مشاحنة فيها الحق فهو يعلمكم كل حق وهو يمجديني لانه يأخذ مما هو لي ويبين لكم كل ما هو للآب هو لي، ولهذا قلت انه يأخذ من الآخر إلا بمعنى انه ينبثق منه لمساواة الاقانيم الالهية بالذات والقدرة والمعرفة، فذلك طبق قولكم انه يأخذ منه وجوده. ثم اورد الخطيب آيات الانجيل الناطقة بان الابن يرسل الروح القدس كقوله فإذا جاء الروح البارقليط الذي ارسله انا اليكم من الاب. (يوحنا فصل ١٥ عد ٢٦) وكقوله ان لم امض فلا يأتيكم البارقليط، وان انطلقت ارسلته اليكم. (يوحنا ١٦ عد ٧). وقال لا يقال في اللاهوت ان اقنوماً يرسل الآخر إلا بمعنى انه ينبثق منه لتساوي السلطة والأمر فيهم. وعليه ترى انه ورد في الاناجيل وغيرها من اسفار العهد الجديد متواتراً ان الاب ارسل الابن وان الابن ارسل الروح القدس، ولم يرد قط ان الابن ارسل الاب، وان الروح القدس ارسل الابن. وألحق الخطيب بذلك الآيات التي يسمى بها الروح القدس روح الابن كقول الرسول (غلاطية فصل ٤ عد ٦) «ارسل الله روح ابنه في قلوبكم». وذلك على حد تسمية روح الاب بقوله في بشارة متى (فصل ١٠ عد ٢٠) لستم انتم بالمتكلمين لكن روح ابيكم يتكلم فيكم إلى غير ذلك من الآيات.

ثم انتقل الخطيب إلى ذكر اقوال الاباء الشرقيين وما ذكره شهادة من القديس ايفانيوس في كتابه الموسوم بالمرسى قال فيها متكلماً في الآب، واسمى ابناً من هو

منه (اي من الاب) واسمى روح قدس من هو وحده من كليهما اي من الآب والابن، ثم اورد شهادة اخرى من هذا القديس مأخوذة عن كتابه المذكور قال فيها كما اقول انه لم ير احد الاب إلا الابن ولا الابن إلا الاب. فكذلك اقول لا يعرف احد الروح القدس إلا الآب والابن الذي يأخذ منه وينشق ولا يعرف احد الاب والابن إلا الروح القدس الذي يمجدهما ويعلم كل شيء وهو من الاب والابن. وأراد الاب يوحنا ان يستقري باقي شهادات الآباء فاعترض له مرقس الافسسي بشهادة من القديس باسيليوس فطولع كلام القديس باسيليوس فوجد في النسخ التي بيد اللاتين ان اونوميوس الذي كان باسيليوس يرد عليه قال لما كان الروح القدس هو الثالث في نظام الاقانيم لزم ان يكون الثالث في الطبيعة فقال باسيليوس في رد زعمه: اية حاجة إلى ان يكون الثالث في الطبيعة من كان الثالث في نظام الاقانيم فهو بحسب المقام الثاني بعد الابن لان له الوجود منه ويأخذ منه ويبين لنا ويتعلق تعلقاً مطلقاً بهذه العلة. فقال مرقس الافسسي نعم قال باسيليوس شيئاً بهذا المعنى لكن قوله لان له الوجود منه إلى آخر الفقرة هو زيادة على كلام باسيليوس وفي القسطنطينية نسخ كثيرة من كتاب باسيليوس ولا شيء فيها من هذا الكلام الاخير وطال الجدال إلى ان احضر الاب يوحنا إلى المجمع نسخة يونانية من كتاب باسيليوس كان قد أتى بها حديثاً من القسطنطينية ويظهر من الرق المكتوبة عليه والحروف المكتوبة بها انها قد خطت من اكثر من ستمائة سنة ولا اثر فيها للحك او الزيادة وفيها نص باسيليوس كاملاً كما هو في النسخ التي بيد اللاتين وبعد الاطلاع عليها قال الاب يوحنا ان التاريخ واعمال المجمع انبأنا ان ليس اللاتين هم الذين اعتادوا تحريف الكتب هذا ما رواه جامع اعمال هذا المجمع من الروم وكان حاضرا في المجمع قد اثبتناه نقلاً عن الكردينال منسي في كتابه مجموع المجمع (مجلد ٣١ صفحة ٧٦٧).

وقد استغرق هذا المبحث اوقات المجالس من الثالث إلى الثامن التي كانت في ٥ و ٧ و ١٠ و ١٤ و ١٧ اذار، وقد عثر الاب يوحنا في مدة هذه المجالس على خطبة للقديس باسيليوس في الروح القدس فوجد فيها نصاً يصرح بأن الروح القدس يأخذ اللاهوت نفسه من الابن حتى ابكم مرقس الافسسي عن الجواب، واكرهه على ان يقرّ بأن كلام القديس باسيليوس يمكن ان يكون له المعنى المقصود من الاب يوحنا. وفي المجلسين الثامن والتاسع اللذين عقدا في ٢١ و ٢٤ من آذار اجاد الاب يوحنا

بايراد شواهد كثيرة من اقوال الآباء الشرقيين وقال إن كثيرين منهم صرّحوا بأن الروح القدس ينبثق من الآب والابن وانه لا فرق بين القول ينبثق من الآب والابن او ينبثق من الآب بالابن ومن قال منهم انه ينبثق من الآب لم ينف الابن. ولما كان بعض الروم يظنون ان اللاتين يعتقدون ان الروح القدس ينبثق من مبدأين اي الآب والابن فأوضح الآب يوحنا لهم صراحة ان الكنيسة الرومانية تعتقد بأنّ لانبثاق الروح القدس مبدأ واحداً او علة واحدة وهي الآب. فإن الابن له الوجود من الآب وله منه ايضاً بُيُوتُ الروح القدس، فليس لبثق الروح القدس مبدأً او علتان لان كل ما هو للابن قد اخذه من الآب. قال جامع اعمال المجمع الرومي المذكور لهذا الكلام عند الروم وقع حسن، وخرجنا من المجلس مسرورين لاعتقاد اللاتين ان لانبثاق الروح القدس علة واحدة، ووقع الانقسام بين الروم فأحب فريق منهم الاتحاد ومن هذا الفريق كان الملك وبساريون رئيس اساقفة نيقية، وانكره فريق آخر ومنهم مرقس الافسسي واخذوا خطب الآب يوحنا ينقبون فيها. فقال مرقس ان فيها بدعة وقال بساريون يلزم ان نشكر الله لاننا وجدنا تعليم اللاتين مطابقاً لتعليم الآباء الروم القديماء، وامر بخطبة مثبتة في اعمال المجمع راي اللاتين في انبثاق الروح القدس، وفند اعتراضات الروم. واختتم كلامه بالحث على الاتحاد، وتابعه على ذلك جيورجىوس سكولاريوس احد اللاهوتيين الروم، وكان الملك اتفق مع البابا على تعيين لجنة من الفريقين تبحث في رسائل الاتحاد وتنشئ مرسومه، وبعد مشاحنات طويلة قر رأيهم على انشاء المرسوم بشأن انبثاق الروح القدس كما يأتي: «نحن اللاتينيون والروم نقرّ ونعترف ان الروح القدس منبثق منذ الأزل من الآب والابن وان انبثاقه منهما منذ الأزل من مبدأ واحد وبثقة واحدة ونعلن ان ما قاله بعض الملافنة والآباء القديسين من ان روح القدس ينبثق من الآب بالابن يفهم منه ان الابن هو كالأب ومع الآب مبدأ لبثق الروح القدس لان كل ما هو للأب اعطاه للابن ما عدا الابوة التي تميزه عن الابن وعن الروح القدس، وقد اخذ الابن من الآب منذ الازل قوة البثق التي بها ينبثق الروح القدس من الابن كما ينبثق من الآب. فتلي هذا المرسوم واثبته الفريقان ووقعوا عليه في اليوم الثامن من حزيران إلا مرقس رئيس اساقفة افسس، فإنه استمر مصرأً مكابراً. وبعد التوقيع عائق الفريقان احدهما الاخر معانقة السلم والاتحاد واتفق رأيهم على ان يبحثوا ايضاً في باقي المسائل المختلف فيها كالطهر ورئاسة الحبر الروماني وسعادة القديسين وجواز التقديس على الخمير والفطير.

وكان البطريرك القسطنطيني يرغب في ان ينشأ للحال مرسوم الاتحاد ليرى نهاية هذا الامر الخطير قبل موته الذي كان يشعر بأنه قريب، فقليل له انه يلزم ايضاً ايضاح باقي المسائل. وقد اعدت مواد البحث فيها بفرارا فلا تحتاج إلى وقت طويل. وفي ليلة التاسع من حزيران توفي البطريرك، والذي رواه ذووه انه دخل بعد عشائه الى غرفته واخذ ورقاً وقلماً يكتب ثم اعتراه ارتعاش ففاضت روحه، فأخذ الاساقفة الذين اجتمعوا حينئذ الرقعة التي كتبها فوجدوه قد خط بيده ما يلي: «انا يوسف برحمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومة الحديثة والبطريرك المسكوني لما رأيت انقضاء حياتي وازماعي على وفاء الدين المحتوم على كل من الناس كتبت بنعمة الله ووقعت على رأيي الاخير مبنياً اياه بكل ايضاح ليكون معلوماً عند جميع اولادي الاعزاء، فأوضح اذا ان كل ما تؤمن به وتعلمه الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرسولية كنيسة سيدنا المسيح رومة القديمة تؤمن به أنا وأقبل كل عقائد هذا الايمان، واعترف بأن البابا حبر رومة القديمة هو ابو الالباء المطلوب والحبر الاعظم ونائب سيدنا يسوع المسيح لتوطيد إيمان المسيحيين، وأؤمن ايضاً بمطهر النفوس. وبياناً لذلك وقعت على هذا الاقرار في ٩ حزيران سنة ١٤٣٩م. فعظم البابا حفلة جنازته وشهدها بنفسه مصلياً عليه في كنيسة دير رهبان القديس عبد الاحد.

ثم اجتمع الاساقفة يتباحثون في باقي المسائل وابتدأ بالبحث عن صحة تقديس الخبز الفطير فلم يمتنع اساقفة الروم عن التسليم بأنه يصح تقديس الخبز خميراً كان أم فطيراً، بحيث يكون الخبز من القمح، وأن يكون خادماً السر كاهناً وبين الخطيب حينئذ افضلية تقديس الخبز فطيراً اقتداءً بالمسيح الذي قدس جسده بالفصح، وكان استعمال الخمير محظوراً فيه على اليهود. ولما كان قد قيل ان الروم يعتقدون ان صلوة الروح القدس التابعة كلام التقديس هي ضرورة لاتمام التقديس القى الخطيب خطبة اخرى يئن بها بشهادات الالباء والعلماء ان كلام المسيح الذي يتلوه الكاهن هو اللازم وحده لصحة التقديس، فأجابه متربوليت روسيا محققاً ان هذا معتقد الروم ايضاً.

وكان اباء هذا المجمع اقاموا وهم بفرارا لجنة تبحث في المسائل المختلف فيها فاعتمد على ابحاثهم المذكورة في الايمان بالمطهر فلم تكن صعوبة في هذا المجلس في الاتفاق على ان نفوس القديسين حازت السعادة في السماء وان نفوس الخطاة الذين لم يتوبوا قبل الموت عذاباً اليماً في الجحيم واما نفوس من اثموا وتابوا ولم

يفوا عن آثامهم او هفواتهم في هذه الحياة فتعذب في محل الى ان تطهر. ولا يحفل ببيان نوع العذاب ابنا هو ام بظلام او بطريقة اخرى وان جميع الناس سوف يقومون باجسادهم امام منبر المسيح يوم القيامة لتجزى كل نفس بما عملت. وأما في رئاسة الحبر الروماني فكان بعض التردد عند الروم ولا سيما ان ملك الروم كان يريد ان يقر برئاسة الحبر الروماني، إلا انه ليس له ان يقبل الاستغاثه به من احكام البطاركة الشرقيين، ولا ان يأمر بعقد مجمع مسكوني دون رضى الملوك والبطاركة. وبعد بيان خطباء اللاتين رئاسة الحبر الروماني المطلقة على الكنيسة جمعاء بآيات الاسفار المقدسة وشواهد الاباء وردهم ما يحتج به على ذلك، وبعد الاتفاق بين الفريقين على ان يزداد في مرسوم المجمع قيد يصرح به بسلامة الحقوق والعوائد التي كانت للبطاركة الشرقيين اذعن الروم ورضي البابا بزيادة القيد المذكور، وعقدت عدة مجالس لانشاء صك الاتحاد. وبعد انشائه فحص عن كل عبارة وعن كل كلمة وبعد تقريره تلي وصادق عليه الفريقان وترى فحواه في براءة البابا الاتي ذكرها.

وعين الآباء ستة علماء من كل فريق لانشاء براءة البابا فاشتغل هؤلاء بذلك ثمانية ايام وكانوا يجتمعون لذلك مرتين كل يوم ثم تليث البراءة التي انشأوها بمجلس عام فعقد في ٤ من تموز بحضرة البابا اوجانيوس وملك الروم، فأثبتها جميع الحاضرين برضى عام وقرروا ان تذاع إذاعة احتفالية بعد يومين في آخر المجلس. ولم يذكروا في البراءة شيئاً بشأن صورة كلام التقديس لاقرار الروم امام البابا اجمالاً وافراداً انهم لا يخالفون الكنيسة الرومانية في ان كلمات الرب التي يتلوها الكاهن في التقديس إنما هي صورة تقديس القربان، ودعوة الروح القدس بعدئذ ليست من الكلمات اللازمة لصحة التقديس، فسر البابا لاقرارهم بذلك ايضاً. وفي اليوم السادس من تموز سنة ١٤٣٩م عقد المجلس الاخير بين الروم واللاتين وقدس البابا في الكنيسة الكبرى بفلورنسا واجتمع الملك وآباء المجمع في النظام الذي اشرنا اليه في الكلام على مجالس هذا المجمع بفرارا. وبعد نهاية القداس جلس البابا على عرشه وتلا الكردينال يوليانوس براءة البابا باللاتينية ثم تلا ترجمتها إلى اليونانية بساريون رئيس اساقفة نيقية. وهذا مختصر هذه البراءة.

اوجانيوس اسقف عبد عبيد الله للذكر المؤبد برضى ابننا العزيز بالمسيح يوحنا

باليوغوس ملك الروم الكلي الشرف، وبرضى نواب اخوتنا المحترمين بطاركة الشرق وغيرهم من نواب الكنيسة الشرقية واطال البابا كلامه في بيان السرور الذي تولى قلبه من جراء اتحاد الكنيستين الرومية واللاتينية وفي وصف الجبور والبهجة للذين كانوا في السماء وسيكونان عند جميع المؤمنين في المعمور كله لزوال الانقسام والشقاق وتولي الاتفاق والاتحاد بين المسيحيين في كل صقع وبعد شكره الله على هذه النعمة الكبرى والمنة العظمى قال:

«قد اجتمع اللاتين والروم في هذا المجمع المقدس العام وجرى بينهم البحث المدقق بكل ما يمكن من الاسفار من التحري عن عقيدة انبثاق الروح القدس، فأورد الخطباء آيات الاسفار المقدسة وكثيراً من شهادات ملائكة الكنيسة المشرقيين والمغربيين فوجد ان بعضهم يقولون ان الروح القدس ينبثق من الآب والابن، وغيرهم يقولون ينبثق من الآب بالابن ومرجع القولين إلى معنى واحد وان اختلفت الالفاظ، واثبت الروم انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الاب لا ينفون ذلك عن الابن لكن كان يظهر لهم ان اللاتين بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الابن يعتقدون ان لانبثاقه مبدأين او علتين، فحقق لهم اللاتينيون انهم لا يعتقدون إلا مبدأ واحداً او علة واحدة لنبثق الروح القدس، ولا ينكرون ان الآب مبدأ اللاهوت كله ولا ان الابن يأخذ كيانه وبثقة الروح القدس من الاب. وعليه فيكون لانبثاق الروح القدس مبدأ واحد او علة واحدة وبثقة واحدة، ولذلك اتفق الفريقان واجمعوا على وضع القرار الآتي بسم الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس، وبأبواب هذا المجمع المقدس المتعقد بفلورنسا تقرر ان المسيحيين اجمع يلزمهم ان يعترفوا بحقيقة الايمان هذه ويستمسكوا بها، ونحن نعتزف بها وهي ان الروح القدس ينبثق منذ الازل من الاب والابن وان له ذاته وكيانه من الاب والابن، وينبثق منذ الازل من كليهما بما انهما مبدأ واحد له، وبثقته واحدة مقرين ان الالباء والملائكة القديسين الذين قالوا ان الروح القدس ينبثق من الاب بالابن لم يكن لقولهم معنى غير هذا المعنى، ويريدون بذلك ان الابن هو كالأب علة للروح القدس كما يقول الروم ومبدأ له كما يقول اللاتين. ومن حيث ان الاب اعطى ابنه الوحيد بولادته له كل ما هو للأب ما عدا الابوة، فاعطاه ايضاً ان ينبثق الروح القدس منه منذ الازل، وتقرر ايضاً ان كلمة والابن زيدت بكل صواب على الدستور ايضاحاً للحقيقة لحاجة مست إلى ذلك. وتقرر ايضاً ان من جسد المسيح يتقدس حقيقة بخبز القمح سواء كان فطيراً ام

خميماً وأنه بلزم كلاً من الكهنة ان يتبع في ذلك عادة كنيسته غربية كانت ام شرقية، وان نفوس من ماتوا تائبين حقيقة وحاصلين على محبة الله ولكن قبل ان يثمروا ثماراً صالحة للتوبة للتكفير عن آثامهم التي ارتكبوها بالفعل والاهمال يتطهرون بعد موتهم بعذاب المطهر، وتقيدهم في هذا العذاب افعال المؤمنين الاحياء الصالحة كذبيحة القديس والصلوات والصدقات وغيرها من المبرات التي اعتاد المؤمنون ان يصنعوها لخير المؤمنين بحسب قوانين الكنيسة، وان نفوس من لم يرتكبوا اثماً بعد المعمودية ونفوس من تابوا عن اثمهم مكفرين عنه اما في حياتهم اما بعد موتهم في المطهر تدخل الى السماء حالاً وتشاهد الله وجهاً لوجه، ويقاس مجدها بمقياس استحقاقها. واما نفوس من برحوا من هذه الحياة وقد ارتكبوا اثماً مميتاً لم يتوبوا عنه وكانت عليهم الخطية الاصلية فتذهب للحال إلى الجحيم ولا يكون عذابها متساوياً.

وتقرر ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدس والخبر الروماني الجالس عليه هو خليفة بطرس الطوباوي بولس الرسول وهو نائب المسيح ورئيس الكنيسة جمعاء وابو جميع المسيحيين ومعلمهم، وان سيدنا يسوع المسيح اعطاه بشخص بطرس الطوباوي السلطة التامة ليرعى ويسوس ويدبر الكنيسة كلها كما هو مصرح ايضاً في اعمال المجامع المسكونية والقوانين المقدسة، وتجدد الرسم بنظام الكنائس الاخرى البطريركية المين بالقوانين بنوع ان يكون صاحب الكرسي القسطنطيني الثاني بعد الخبر الروماني الاقدس والثالث البطريرك الاسكندري والرابع البطريرك الانطاكي والخامس البطريرك الاورشليمي مع سلامة حقوقهم واختصاصاتهم.

أعطي بفلورنسا في المجلس الذي عقد باحتفال في الكنيسة الكبرى سنة ١٤٣٩م في السادس من شهر تموز وهي السنة التاسعة لحريتنا.

ثم وقع البابا هكذا انا اوجانيوس اسقف الكنيسة الكاثوليكية وقعت مقررأ كذلك ربي انت عوني وعاضدي فلا تتركني يا إلهي . وكانت كلمات الزبور هذه شعاراً لـاوجانيوس الرابع.

ويلي ذلك توقيع ثمانية كرادلة انا فلان اوقع على التقارير السابقة وترى بعد اسماء الكرادلة توقيع الملك يوحنا باليولوجوس ثم معرفة جيورجيوس ثم ايسيدوروس متروبوليت كيوف وروسيا كلها، وعدة ميتروبوليتات واساقفة من الروم منهم مطارنة

هرقلية ودرابيزون ونيكومدية وملتين وأما سياورودس ثم اغناطيوس مطران تورنوفو فصبة بلغاريا ودميان مطران مولدافيا والفلاخ ومن بعدهم كثيرون من الاساقفة اللاتينيين منهم ثمانية اساقفة من فرنسة. وبعد ذلك تقدم الملك يوحنا والاشراف الروم ونواب ملك الايباريين والمطارنة والاساقفة الروسيين وغير هؤلاء وكانوا نحو خمس مئة شخص، وجثوا امام البابا وقبلوا يده. ثم اذاع البابا اوجانيوس الرابع مرسوم الايمان والاتحاد في كل صقع وكتب رسالة عامة إلى جميع الامراء والرؤساء في المعمور المسيحي يخبرهم بها عما اجمعت عليه الكنيسة الغربية والشرقية مبدياً سروره وأمرأً بتقدمة الصلوات الخاشعة شكراً لله على ذلك. وتاريخ هذه الرسالة ٧ تموز سنة ١٤٣٩. وقد اثبتها لاباي في مجموعة المجامع مجلد ١٣. انتهى ملخصاً عن مجموعات المجامع لمنسى ولاباي وخاصة عن اعمال هذا الجمع التي جمعها احد علماء الروم باليونانية. وكان حاضراً في هذا الجمع وقد ترجمها إلى اللاتينية العلامة الكردينال يوحنا منسي في تأليفه المذكور.

عد ٩٥١

ما كان بعد اتحاد الروم في هذا الجمع

ان البابا اوجانيوس الرابع اهدى إلى ملك الروم بعد تقرير الاتحاد كل ما كان وعد به من المساعدات، بل زاد عليه وسار الملك يوحنا باليولوغوس من فلورنسا في ٢٦ آب وصحبه ثلاثة كرادلة وكثيرون من الاساقفة إلى البندقية، وبلغ اليها في ٦ ايلول وسافر منها في ١١ تشرين الاول قاصداً القسطنطينية، ولم يبلغ اليها إلا في اليوم الاول من شباط سنة ١٤٤٠م وابقى البابا الجمع مفتوحاً وبقي فيه بعض اساقفة الروم. وفي ١٨ من كانون الاول سنة ١٤٣٩م رقي إلى مقام الكردينالية سبعة عشر كردينالاً منهم بساريون الشهير رئيس اساقفة نيقية الذي ذكرنا ترجمته، ثم ايسيدوروس متروبوليت كيوف رئيس اساقفة روسيا، وكان قد ولد بتسالونيك وانضوى في رهبانية القديس باسيليوس وصار رئيساً على دير القديس ديمتريوس في القسطنطينية إلى ان رقي الى رئاسة اساقفة روسيا، وباقي الكرادلة من اوربا.

وفي شهر ايلول سنة ١٤٣٩م بلغ إلى فلورنسا وفد من قبل قسطنطين بطريرك الارمن وكان هذا الوفد اربعة اشخاص احدهم اسقف يسمى يواكيم وثلاثة علماء

اسماؤهم سركيس ومرقس وتوما وبعد مقابلة البابا لهم مضوا إلى الملك يوحنا واخبروه بعزمهم على الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية، فأظهر لهم ارتياحه الى ذلك وكانت رسالة البطريرك قسطنطين الى البابا مؤرخة في ٢٥ تموز سنة ١٤٣٨م وما قاله فيها انه مرسل وفده إلى المجمع ابتغاء السلم والاتحاد بالكنيسة الرومانية كما كان بين القديس البابا سليسترس والقديس غريغوريوس المنور، وبين الملك قسطنطين الكبير وتريدات ملك الارمن، وعين البابا بالاتفاق مع المجمع ثلاثة كرادلة وعدة من العلماء للمفاوضة مع الارمن، وكان البحث في ما يخالف الارمن به المعتقد الكاثوليكي واخصه اعتقادهم طبيعة واحدة في المسيح وانكارهم انبثاق الروح القدس من الابن. وبعد اثبات هذا المعتقد بآيات الكتاب واقرار الاباء القديسين اذعن الارمن واقرؤا بالايمان الكاثوليكي باسمهم واسم بطريركهم وامتهم. فأصدر البابا برأي المجمع براءته المعروفة بإرشاد الارمن مؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٤٣٩.

وفي ٢٦ نيسان سنة ١٤٤١م أخبر البابا آباء المجمع أنه سيصل إلى المجمع عن قرب سفراء من قبل ملك الحبشة ابتغاء الاتحاد، وانه رغبة في تعزيز هذا المجمع ولدواع حميدة عزم ان ينقله من فلورنسا إلى رومة، ويعقد هناك بكنيسة لاتران. وفي شهر آب من السنة المذكورة وصل اندراوس رئيس دير القديس انطونيوس بمصر وبطرس الشماس نائبين عن يوحنا بطريرك اليعاقبة الاسكندري وعن قسطنطين زاداع يعقوب ملك الحبشة، وطلبا باسم الملك والبطريرك والشعب الخاضع لهما ان يُقبلوا بشركة الكرسي المقدس والكنيسة الرومانية. ومما كتبه البطريرك في رسالته: «انا الحقير يوحنا خادم خدام يسوع المسيح ومدبر كرسي القديس مرقس ابي الاسكندرية العظمى ومصر كلها وليبيا والحبشة اجثو امامك ايها الاب الاقدس انت الحائز كمال الكهنوت والراعي الصالح جداً وامير الشرف والقداسة والقائد الورع لمن ساروا بطريق غربتنا هذه إلى سبيل الخلاص السيد اوجانيوس بابا رومة العظمى الراعي الرسولي لجمع الكنائس المسيحية والامير الوحيد للكنائس الاولى وللآباء ولكهنة المسيح، طيب النفوس المعتلة. وتاريخ الرسالة ١٢ ايلول من القاهرة سنة ١٤٤٠م، فقبل البابا سفير الملك ونائب البطريرك في ٣١ آب في مجلس عام. وما قاله سفير ملك الحبشة للبابا، إذا نظرت إلى عظمة قداستك وحقارتي تولاني الرعب فأنا انسان حقير تراب ورماد اتكلم امام نائب الله في ارضه وخليفة القديس بطرس وابي المؤمنين كافة ورئيسهم ومعلمهم الذي أعطي مفاتيح ملكوت السماء

ليفتح ويخلق لمن شاء، فأنت ملك الملوك واعظم الاسياد. وإذا تأملت في هذه الامور وما اشبهها ارتعت من ان اوجه كلامي الى قداستكم ولا سيما إذا راعيت مقدرتكم وحكمة اللاتينيين الذين انصبوا من البدء الى الآن على درس الامور الالهية وتعليم يسوع المسيح، فاعتقدوا واستمسكوا إلى اليوم بما بلغه اليهم رئيسا الرسل بطرس وبولس الطوباويان. وأما الكنائس التي خلت من هذه الحكمة والنظام فأضاعت المبادئ الاساسية وانفصلت عن امها ومعلمتها فأسلمها الله لخزيها إلى غير المؤمنين، كما نرى في الروم والارمن وفينا نحن الاحباش اليعاقبة منذ انفصالنا من نحو تسع مئة سنة ولم تكن لنا الآن تعزية وسلوى من حزننا إلا بانه كما قبلتم الروم والارمن في وحدة الايمان الكاثوليكي تقبلونا نحن ايضا نظيرهم».

وفي الثاني من ايلول سنة ١٤٤١م اتى الى المجمع بفلورنسا وفد آخر من الاحباش ارسله نيقوديموس المتراس من قبل ملك الحبشة على الاحباش الذين في اورشليم، وتلا احدهم خطبة غراء معظماً شأن الخبر الروماني ومبيناً تعلقهم به وسرورهم بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية ومعدداً المصائب التي اصابته من انفصلوا عن هذه الكنيسة، وموضحاً ان انفصالهم لم يكن عن خبث نية بل اوجبه البعد عن مركز الايمان وحرمانهم من رسائل او قصاص من قبل الخبر الروماني الى ان قال انهم لم يأتوا ليجادلوا البابا على حقيقة بل ليزعنوا لاحكامه. فأقام البابا لجنة تتفاوض مع الاحباش في عقائد الايمان ثم ابرز باثبات المجمع مرسوماً يتضمن ما يلزم الاحباش ان يعتقدوا به، وتلي هذا المرسوم في المجلس المنعقد في رابع شباط سنة ١٤٤٢م وأثبتته لاباي في المجلد ١٣ من مجموعة المجمع، ووقع عليه وفود الاحباش من قبل البطريرك والملك ورئيس امتهم في القدس باسمائهم وبالنياية عن الملك والبطريرك وملتهم، وأرجأ البابا الجواب إلى ملك الحبشة إلى ما بعد وصوله إلى رومة ولم يعثر احد على نسخة من هذا الجواب الى الآن.

وانتقل المجمع إلى رومة وكانت مجالسه تعقد في كنيسة مار يوحنا لاتران، وأتى اليه وفد من قبل اغناطيوس بطريرك السريان فانه ارسل باسمه واسم امته عبد الله رئيس اساقفة الرها سائلاً البابا ان يرسل اليه دستور الايمان الذي تعتقده الكنيسة الرومانية، فعين البابا بعض الاساقفة للمباحثة مع المطران عبد الله المذكور في مذهب البطريرك وشعبه، فوجدوا ان مذهبهم صحيح إلا في اعتقادهم ان الروح القدس ينبثق من الاب فقط، وان في المسيح طبيعة واحدة ومشية واحدة

وفعلاً واحداً فين أولئك الاساقفة للمطران عبد الله ما يلزم الاعتقاد به، فأبدى خضوعه وتسليمه من قبل نفسه وقبل بطريكه وشعبه بكلمة تعتقد به الكنيسة الرومانية فأنشأ البابا مرسوماً يتضمن ما يلزم السريان اليعاقبة ان يؤمنوا به وتلي في المجلس الثلاثين من هذا المجمع واثبته لاباي في المجلد ١٣ من مجموعة المجمع.

ومن بعد ذلك ارسل البابا اوجانيوس اندراوس رئيس اساقفة رودس إلى المشرق لثبيت الروم والارمن واليعاقبة في الاتحاد الذي جرى، واتى إلى قبرص ليرد الكلدان عن بدعة نسطور بان في المسيح اقنومين، وان العذراء لا تسمى والدة الله فوق الله اندراوس المذكور إلى ان رد تيموتاوس متروبوليت الكلدان الى الايمان القويم مع شعبه، وأرسل الكلدان مطرانهم تيموتاوس إلى رومة ليقرر اتحادهم بالكنيسة الرومانية، وارسل ايليا مطران الموارنة كاهناً اسمه اسحق إلى البابا اوجانيوس الرابع ليجدد اقرار الموارنة بالايمان الكاثوليكي. وأتم تيموتاوس واسحق ما عهدا اليهما به شعباهما في اول شهر آب سنة ١٤٤٤م بمجلس عقده المجمع بلاتران، وأبرز البابا براءة بهذا الشأن مؤرخة في اليوم المذكور، وقد اثبتها لاباي في المجلد المذكور من مجموعة المجمع، وهذا جعل بعض المؤرخين يظنون ان نائب اسقف الموارنة ايضاً جحد ضلالاً كان الموارنة سكان قبرص ملوثين به، فلم يميزوا بين من ارعوى عن ضلال ومن جدد الاقرار بإيمانه. وهذا بين من براءة البابا اوجانيوس المذكورة نفسها وسنأتي على رد هذه التهمة للموارنة في الملحق الاتي في تاريخهم في هذا القرن.

على ان هذا الاتحاد الذي غني به اوجانيوس الرابع كل هذه العناية ووقع عليه ملك الروم واساقفتهم واقسموا عليه لم يثبت ولم يقبله شعب الروم بدسائس مرقس رئيس اساقفة افسس لانه مذ عوده إلى كرسية اخذ يخلق اكاذيب ومطاعن بحق المجمع واللاتينيين مظهراً انه كان بطل الكنيسة الرومية في مناصبتهم وانتصاره عليهم وعدم انقياده لرأيهم. ومتروфан الذي خلف يوسف بطريك القسطنطينية الذي توفي في المجمع قد قاومه المعاندون ومات كمدأ سنة ١٤٤٣م والملك يوحنا باليالوغوس كان واهن العزيمة، فلم يقوَ على مقاومة المخالفين واستمر كرسي القسطنطينية فارغاً ثلاث سنوات، وفي آخرها تجشم غريغوريوس خلف متروфан هذا العبء المخفوف بالمكاره وبذل مجهوده بالاتحاد ولكن مات الملك وخلفه قسطنطين الثاني عشر باليالوغوس لا ليملك بل ليشهد جنازة مملكة الروم التي قرضها السلطان محمد الثاني العثماني سنة ١٤٣٥م بفتح القسطنطينية رغماً عن مساعدة البابا اوجانيوس

الرابع والبابا نيقولاوس الخامس على حفظ مملكة الروم فإن اوجانيوس الرابع جهز اسطولاً مؤلفاً من خمسين مركباً ووجهه إلى نحو اليوسفور نجدة للملك الروم وجمع ملك بولونيا والمجر جيشاً كبيراً بايعاز البابا وعبر الدانوب ظافراً، وبلغ إلى صوفية عاصمة بلغاريا وانتصر بوقعتين على اعداء الروم. وكل ذلك لم يؤثر بمكابرة شعب الروم على مخالفة الكنيسة الرومانية بل تغلب رأيهم على دوام الانفصال عنها وجذبوا اليهم من كانوا وقّعوا على الاتحاد فاستمر هذا الانقسام الممقوت إلى اليوم .

وقد مر ان يواكيم بطريرك اورشليم قد نبذ كل ما كان في الجمع الفلورنسي واتفق مع بطريركي الاسكندرية وانطاكية وكتبوا إلى الملك يوحنا رسالة هددوه بها بالحرمان ان لم يرعو عن الاتحاد، لكننا نعلم من جهة اخرى ان بطاركة هذه المدن كانوا سنة ١٤٦٠م يودون الخضوع للكرسي الرسولي، ووافدوا إلى البابا ييوس الثاني موسى رئيس شمامسة انطاكية مقرين بسلطة الحبر الروماني فقبل البابا سفيرهم بالتكريم واجاب البطاركة جواباً حسناً كما ذكرنا في عدد ٩٤٣ لكن هذا الاتحاد ايضاً لم يدم إلا قليلاً.

وقد كان نكث الروم عهد الاتحاد بالكنيسة الرومانية معثرة لغيرهم من الملل الشرقية فإن السريان اليعاقبة الذين كان بطريركهم اغناطيوس الثاني قد عادوا إلى ما كانوا عليه من البدعة واستمروا عليه إلى ان اهتمدى إلى الايمان القويم اندراوس اخيجان الحلبي اليعقوبي على يد البطريرك يوسف العاقوري بطريرك الموارنة في اواسط القرن السابع عشر ودرس العلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقاه يوحنا الصفراوي بطريرك الموارنة الى الاسقفية سنة ١٦٥٦م، وأرسله إلى حلب مع القس اسطفانوس الدويهي (وهو الذي صير بطريركاً على الموارنة سنة ١٦٧٠م) فرد بعض اليعاقبة إلى الايمان الكاثوليكي. ولما توفي اغناطيوس سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩م صير اندراوس بطريركاً على السريان سنة ١٦٧٨م وبه ابتدأت سلسلة بطاركتهم.

وكذلك الارمن فإنهم بعد اتحادهم في مجمع فلورنسا رجعوا إلى ضلالهم ولم يبقَ منهم على الإيمان الكاثوليكي إلا قلائل، وكانوا قد اتحدوا مرات قبل ذلك فنكلوا الى ان صير عليهم بطريركاً ابريهام العنتابي سنة ١٧٣٩م على كيليكيا، واخذ السكنى بدير المخلص بالكريم بعمل كسروان، ثم خلفاؤه دير بزمار، وكذلك فعل الاحباش والقبط فانهم بعد اتحادهم في الجمع الفلورنسي نكثوا عهدهم ثم اتحدوا في ايام البابا غريغوريوس الثالث عشر في اواخر القرن السادس عشر، إذ

ارسل هذا البابا اليهم قاصداً فأدخلهم في طاعة الكنيسة الرومانية، ثم نكثوا إلى ان اقام البابا بناديكتوس الرابع عشر اسقفاً عليهم اتناسيوس القبطي اسقف اورشليم بموجب براءته المؤرخة في ٤ آب سنة ١٧٤١م هذا في القبط وأما الاحباش فرجع بعضهم من عهد ليس بمديد ويدبرهم نائبان رسوليان احدهما من اللعازيين والآخر من الكبوشيين ويُناط امرهم بمجمع نشر الايمان المقدس.

اما الكلدان القبرصيون الذين اتحدوا كما مرّ فقد غادروا الايمان الكاثوليكي ورجعوا الى غيهم، واثبت لاباي رسالة من البابا نيقولاوس الخامس إلى اسقف نيقوسية ونقلها عنه بارونيوس في تاريخ سنة ١٤٥٠م فحواها ان ينبه الكلدان المذكورين ان يعودوا إلى ما عهدوا به على انفسهم في ايام اوجانيوس، وان اصروا بفصلهم عن شركة المؤمنين فلم يراعوا انتهى.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

عد ٩٥٢

بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في ايامهم كان حكام الموارنة في هذا العصر يسمون مقدمين ومن عرفنا شيئاً من اخبارهم في هذا القرن يعقوب ابن ايوب مقدم بشري، فقد ذكرنا قبلاً ان الملك الظاهر برقوق نصبه مقدماً على بشري. وروى البطريك اسطفانوس الدويهي في تاريخه انه بقي حاكماً إلى ان توفي سنة ١٤٤٤م وكانت مدة ولايته ٦٢ سنة وخلفه في المقدمة اولاده المقدمون سيفاً وقمر ومزهر وزين وبدر على ما في تاريخ الدويهي المطبوع بيروت. ولكن في النسخة الخطية التي لدينا من هذا التاريخ: «سيفاً وهو زين (اي الملقب بزین) وقمر وهو بدر ومزهر واجروا العدالة في حكومتهم. فاستراح اهل البلاد في ايامهم كما كانوا في ايام والدهم. وأما اولاد المقدم يعقوب فبعد وفاة احدهم سيفاً خلفه في المقدمة ابنه عبد

المنعم الاول ثم توفي سنة ١٤٦٩م فخلفه رزق الله ابن اخيه جمال الدين بن سيف ابن يعقوب، ثم توفي رزق الله هذا سنة ١٤٧٢م وخلفه ابن اخيه عبد المنعم الثاني ايوب بن عساف ابن جمال الدين. هذا ما رأيته في النسخة التي لدينا من تاريخ الدويهي. ونرى هذه الرواية اصح مما جاء في التاريخ المطبوع من ان وفاة رزق الله كانت سنة ١٤٦٢م دون ذكر ولايته ولا ولاية عبد المنعم الاول، ومع ذكر وفاته مرة اخرى سنة ١٤٧٢م. قال البطريق الدويهي أنه في ايام هؤلاء المقدمين استتب الراحة بلبنان وكثر العمران وانشئت الكنائس والمدارس حتى كان في قرية الحدث ستمائة زوج بقر، وفي الحارة العليا من اهدن سبعون بغلاً. وقد احصينا اسماء من كانوا من النساخ في ذلك العصر ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مئة وعشرة نساخ. وفي ذلك الوقت اهلوا الخط الاسترانكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور، ولما ظهرت اخبار ما ساد بلبنان من الامن والراحة قصده كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه مثل اولاد جمعه الذين تركوا عين حليا وتوطنوا في بشري، واولاد ايليا واخوهما الشدياق جرجس اولاد الحاج حسن انتقلوا من نابلس إلى حدشيت، والقس يعقوب ورفقاؤه هاجروا من الحبشة وترهبوا في دير مار يعقوب باهدن، ولذلك سمي دير الاحباش اضافة اليهم.

وفي سنة ١٤٧٨م وقع الشقاق في جبل لبنان بسبب المقدم عبد المنعم ايوب المار ذكره، فإن عبد المنعم هذا تعلم القراءة في ايام عمه المقدم رزق الله عند كاهن يعقوبي، ولما توفي عمه وخلفه في المقدمية كان يتردد اليه تاجر اسمه موسى بن عطشه (كذا في نسخة تاريخ الدويهي التي لدينا، وكانت بيدي ذي الذكر الصالح البطريق بولس مسعد مصححة بيده لا عطية كما في طبعة هذا التاريخ). وكان موسى المذكور مغوياً بيدعة الطبيعة الواحدة وقد اشعر ان المقدم كان فاتراً في دينه فأرسل اليه هدايا مع قسوس يعاقبة بفرصة عرسه، وهم اكلوا من الهدايا له والتودد اليه، فأحبهم وبنى لهم كنيسة بقرب داره على اسم برصوما. واتفق حينئذ ان اقدم من القدس القس نوح البقوفاوي (الذي ذكرنا ترجمته وسكن في الفراديس بأرض قرية بان واغوى بعض الاميين في عقائد الايمان، واستهواهم الى التعلم والرهبانية عنده، منهم عيسى وابن شعبان من حردين وموسى واخوه حنا ابنا ابراهيم ابن الحاج موسى من بقوفا، وسيما وابنه جرجس من لحفد، وموسى من قرية موسى، ودس فيهم سم بدعة اليعاقبة وسعى بارتقايمهم إلى درجة القسوس على يد استاذة

ديوسقوروس اسقف بيت المقدس فصاروا يرسمون اشارة الصليب باصبع واحدة دلالة على الطبيعة الواحدة، ولا يذكرون في شملاية القداس إلا ثلاثة مجامع. ولما بلغ خبرهم إلى البطريرك بطرس الحداثي ارسل اليهم كهنة ورؤساء كهنة ينهونهم عن هذا الطغيان فلم ينتهوا وحمى جانبهم المقدم عبد المنعم والغرباء الذين قدموا من صفد ونابلس والحبشة، وعظم الشقاق في البلاد وتهدد المقدم عبد المنعم من اعترض لهم بالنفي من بلاده وضبط املاكه.

إلا انه في سنة ١٤٨٨م مل يعقوب اسقف اهدن واهلها من انذار القس يعقوب والاحباش القاطنين بدير مار يعقوب باهدن ليرعوا عن ضلالهم وعن بثه بين العامة فلم يقلعوا عن غيهم، فرّقوا إلى درجة الاسقفية ابراهيم بن حبلص وانزلوه عليهم في الدير فلم يتحملوه ليحكم فيهم، فرحلوا إلى وادي حدشيت وجعلوا نفوسهم تحت حماية الشدياق جرجس ابن الحاج حسن، وأسكنوا في دير مار جرجس وسمي دير الاحباش اضافة اليهم، فشق امرهم على الشدياق جرجس الذي كان شيخ حدشيت وعلى المقدم عبد المنعم، ولما لم تكن لهم مقدرة على مناوأة اهل اهدن استنجدوا باولاد زعزوع مقدم بشناتا فجمع هؤلاء رجال الضنية وقصدوا اهدن في صباح الاحد، وعلم اهل اهدن بقدمهم فأقاموا لهم كميناً في حمينا، ولما نزل رجال الضنية من الجبل وثب عليهم الكمين فأهلك كثيرين منهم. وتبع اهل اهدن من بقي منهم فيهم الى مرجة تولا ولما علم اليعاقبة بذلك ضربتهم ايدي سبا وتشتت شملهم، وفر بعضهم إلى حردين وبعضهم إلى كفرحورا وبعضهم ساروا الى قبرص، وارتحل القس يعقوب ورفقاؤه إلى دير مار موسى في البرية. وفي سنة ١٤٩٣م عاد جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي من اوروبا اذ كان قد انضوى إلى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٤٧١م وارسلوه إلى احد اديارهم لاقتباس العلوم، وعند عودته اخذ ينصح ويعلم من كانوا على غير هدى او اميين، ويخاصم من زاغوا عن الايمان ويندد بهم بخطبه ورسائله واشعاره. ومنها قصيدة لأهل بشري يقول فيها مخاطباً هذه القرية:

وانت من شار عليك حتى دخل يعقوب فيك
من تجديفه حل عليك غضب الله في ذاك الآن
فاذاً توبي يا حره واطردي الغربا إلى برا

ويعقوب جسمه يتهرى ومارون اقبليه في الاحضان
ثم كتب في سنة ١٤٤٩م كتاباً سماه مارون الطوباوي وأنفذه إلى البطريرك
سمعان الحداثي واساقفته يثبت فيه اتحاد الملة المارونية في كل وقت بالكنيسة
الرومانية، ويفند زعم من قال ان الموارنة فرقة من اليعاقبة.

وفي سنة ١٤٩٥م توفي المقدم عبد المنعم ايوب فظهر ان الله عاجله بالمنية كيلا
يتأصل الشقاق في جبل لبنان، وتولى المقدمة على بشري بعده ولده جمال الدين
يوسف، وكان راسخاً في الايمان القويم وامراته اصلحت كنيسة مار حوشب في
بقاعكفرا عندما خربت حينتها.

وافادنا الدويهي ايضاً انه كان في العاقورة في اواسط هذا القرن خليل بن مقلد
على العاقورة وبنى القبر الذي عند عين القرية وأقام فوقه برجاً.

عد ٩٥٣

بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر

فرغنا من الكلام في بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر بذكر البطريرك داود
المسمى يوحنا، وقتلنا انه توفي سنة ١٤٠٤م. قال لكويا ذكر الدويهي ان داود
خلفه يوحنا العاشر وكان من جاج ولا يعلم هل خلفه بعد وفاته او فرغ الكرسي
البطريركي زماناً طويلاً إلى ان انتخب يوحنا الجاجي المذكور. والمعلوم انه لما
وصلت اليه رسالة البابا اوجانيوس الرابع للدعوة إلى المجمع الفلورنسي ارسل الاب
جوان (يوحنا) رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت الى البابا يحقق له طاعته
للكرسي الروماني وخضوعه لكل ما يسنه المجمع ويلتمس درع الرئاسة وتثبيتته في
بطريركية انطاكية على الموارنة. قال الدويهي (فصل ١١ من كتاب رد التهم) ان
هذا البطريرك كان قد تولى رئاسة الكرسي الانطاكي قبل انعقاد المجمع المذكور
لكنه لم يستطع ان يستمد التثبيت من رومة بسبب ما كان من المخاوف والمخاطر
على من يسافر بحراً ولعدم وجود من يحسن معرفة اللغات الفرنجية إلى ان حضر
اليه الاب يوحنا المذكور، وأعلمه بنهاية مدة رئاسته وإزماعه على السفر إلى رومة
فاوفده البطريرك الى الحبر الروماني ورفع اليه معه عريضة مشفوعة بعرائض اخرى

من الاساقفة واعيان الملة يجاهرون فيها تثبيتهم بعري الايمان الكاثوليكي المقدس وباذعانهم لكل ما يسنه المجمع ولتتمسون تثبيت بطيريكهم. قال المطران جبرائيل ابن القلاعي في الكتاب الذي رفعه إلى البطريرك سمعان الحدي سنة ١٤٤٩م: «ان ايمانكم وخطوط ايديكم منذ مئتين وثمانين سنة وصاعداً محفوظة برومة وهي المرسلة على يد فراغريفون وفرا اسكندر وفرا سمعان ومن قبلهم على يد فرا يوحنا رئيس دير بيروت، ووكيل بطيريككم يوحنا الجاجي الى مجمع فلورنسة ومن قبله النخ» فثبت البابا اوجانيوس يوحنا الجاجي في بطيركية انطاكية وأرسل اليه صحبة قاصده تاجاً ودرعاً. وقال المطران جبرائيل ابن القلاعي في ذلك:

يوحنا الجاجي كان بطريك اقتبل من البابا تاج وتبارك
بعث للمجمع ولم يتحرك وثبته لمارون في رعيان

ولما رجع قاصد البطريرك، انحدر الشعب الى لقائه في طرابلس بمسرة وابتهاج فتوهم نائب المدينة انه جاسوس من قبل الفرنج فقبض عليه وعلى رفيقه وأودعهم السجن، وعرف البطريرك ذلك وكان قاطناً بدير سيدة ميفوق في وادي ايليح من اعمال البترون فأرسل قوماً من اعيان الملة ليوقفوا النائب على الحقيقة ويزيلوا ما توهمه فأخرجوا القاصد ومن كان معه من السجن بكفالة، فصعد فرا يوحنا الى دير ميفوق وبلغ البطريرك رسالة البابا والبسه درع الرئاسة ثم سار إلى بيروت فطلبه نائب طرابلس فلم يجده فحنق حنقاً شديداً وأرسل عسكرياً في جلب البطريرك والكفلاء فانهزموا، فنهب العسكر الدير واحرقوا البيوت وقتلوا كثيرين، واخذوا البعض مقيدين بالسلاسل الى طرابلس ومنذ ذلك الحين هجر البطريرك دير ميفوق وأقام بدير قنوين تحت حماية يعقوب مقدم بشري المار ذكره.

ثم دعا البطريرك احد رهبان القديس فرنسيس اسمه بطرس من فرارا وارسله الى البابا اوجانيوس في شهر آب سنة ١٤٤٠م، وكتب اليه معه رسالة ضمنها الشكر لتكريمه عليه بالتثبيت وتحقيق طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي في كل وقت، والخبر عما جرى لهم عند وصول قاصده إلى طرابلس وما قاسوه من الاضطهاد لذلك، فأرسل اليه الخبر الروماني الجواب مؤرخاً في ثاني كانون الاول من سنة ١٤٤١م. وسنذكر رسالة البابا اوجانيوس هذه في محل اخر ثم توفي البطريرك يوحنا الجاجي في دير قنوين سنة ١٤٤٥م وهو اول من سكن دير قنوين

من بطاركة الموارنة. وخلفه يعقوب الثاني الحداثي. قال لكويان نقلا عن البطريرك اسطفانوس الدويهي في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يوحنا الجاجي اجتمع الاساقفة ورؤساء الاديار واعيان الشعب في دير قنوين وانتخبوا يعقوب بن عيد من الحدث بطريكاً وكان منذ صغر سنه قد تربى في السيرة الملكية بمحبسة القديس سركيس شرقي دير مار يوحنا المعروف بدير مار ابون، وكان لرئيس هذه المحبسة الرئاسة على جميع الحبساء في جبة بشري. وبعد انتخابه ارسل قاصداً الى البابا اوجانيوس الرابع يسأله ان يمن عليه بتثيته في البطريركية وبارسال درع الرئاسة. واتفق ان مات البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٤٧ فارسل اليه البابا نيقولاوس الخامس براءة التثبيت وكانت محفوظة في دير قنوين في ايام البطريرك اسطفانوس الدويهي، وربما هي اليوم باقية في الكرسي البطريركي، وربما كانت هي البراءة التي روى الدويهي في تاريخه ان البابا نيقولاوس الخامس ارسلها سنة ارتقائه الى الحبرية الى هذا البطريرك يطلب اليه ان يدعو له وان يوصي شعبه ليقتدوا باسلافهم في المحافظة على الاتحاد بالكنيسة الرومانية، وانه إذا احتاج الى شيء فليستشر اندراوس اسقف الافقسية بقبرص فهو نائبه بهذه الجزيرة ثم توفي البطريرك الحداثي في ٨ شباط سنة ١٤٦٨م.

ومن التعليقات على كتاب الاناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة وهو الان في المكتبة الماديشية ما نقله المطران اسطفان عواد السمعي عنه في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المذكورة وهو بحروفه: «لما كان تاريخ سنة ١٧٧٣ من سنين اسكندر (سنة ١٤٦٢م) اوقف البطرك يعقوب العصا البور للدير المبارك قنوين، وعن الاب البطريرك بطرس اي من خرجها من الدير المبارك، او قالها انها له او يرهنها او يبيعها يكون محروم مفروز مغضوب ومسحوط من الله ومن كرسي مار بطرس ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا». وورد ذكر هذا البطريرك في خط اخر على هامش الكتاب المذكور صفحة ١٩ وهو بحروفه «لما كان تاريخ سنة ١٧٧٢ من سنين اسكندر اليوناني سنة ١٤٦١م) اوقف الخوري جرجس والخوري هلال القاطنين في دير حوقا اوقفوا من تعيهم وعرق جبينهم للدير المبارك سيدة قنوين الدست الكبير وجعلوه تذكراً صالحاً عن أنفسهم في الدنيا والاخرة ورحمهم الله آمين... وكان الوقف في ايام ابونا ومعلمنا ورئيسنا وتاجنا ومديرنا البطريرك مار يعقوب الحداثي رحمه الله ويرحمنا في بركة صلاته آمين.

والنتائج من هذين الخططين ان البطريرك يعقوب الحداثي استمر حياً إلى ما بعد

سنة ١٤٦٢م لانه توفي سنة ١٤٨٥م كما في تاريخ الدويهي المطبوع. وفي النسخة المخطوطة التي لدينا وأظن ان المرحوم البطريك بولس مسعد اغتر لهذه النسخة حتى جعل وفاة البطريك يعقوب الحداثي سنة ١٤٥٨م ومثله طابع تاريخ الدويهي. واظن ايضاً نقل كلامه عن الدويهي ومع ذلك عين لوفاته سنة ١٤٦٨م كما ذكرناها عنه وايد رأينا الخطان المذكوران.

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريك يعقوب اجتمع الاساقفة والرؤساء والاعيان فانتخبوا الاسقف بطرس بطريكاً وعرفه الدويهي في تاريخه بانه بطرس ابن يوسف ابن يعقوب الشهير بابن حسان. وقال في الفصل ١٣ من الاحتجاج انه كان اخا البطريك يعقوب المتوفي وأرسل البطريك والأساقفة، وفرا غريفون الذي قدمنا ترجمته الى البابا بولس الثاني يلتمسون اثبات البطريك ومنحه درع الرئاسة. هذا ما رواه الدويهي ونقله عنه لكويان واردفه بقوله ان في كتاب وصف الارض المقدسة لكوارزيموس (في اخر المجلد ٢) رسالة من البابا بولس الثاني الى هذا البطريك مفتوحة: «بولس الاسقف عبد عبيد الله الى الاخ المحترم بطرس بطريك الموارنة المسمى انطاكياً السلام والبركة الرسولية ان اله القوات القادر على كل شيء» إلى ان يقول: «ولما كنا لا نشك في انك مستعد لقبول هذه التعاليم وغيرها من الاوامر الرسولية يديعة وطيبة خاطر قد اردنا اقتفاء بآثار اسلافنا الصالحين الذكر اينوشنسيوس الثالث وأوجانيوس الرابع ان نثبت انتخابك ونسميك ونرقيك الى رئاسة كنيسة الموارنة الانطاكية وان نؤيد كل ما كان قبلاً ونثبت جميع الحقوق والعادات الممدوحة الآتلة لنفعل ونفع اسلافك وفائدة الطائفة المارونية... ونسلم اليك الاهتمام بهذه الطائفة في الروحانيات والزمنيات.

اعطي برومة حذاء كنيسة القديس بطرس في شهر آب سنة ١٤٦٩م وهي الخامسة لحبريتنا.

ومن المخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المذكور خط علق على صفحة ٢٠ منه وهذا هو بحروفه. «لما كان تاريخ سنة ١٨٠٤ يونانية (سنة ١٤٩٣م) اوقف الاب البطريك بطرس بن داود بن حسان من قرية الحدث البدلة الحمراء وايضاً العصاة والعكاز القضة واقفهم بعد موته عن نفسه لدير الست السيدة قنوين فأبي من يرههم او يبيعهم او يشتريهم او يخرجهم من الدير بغير رجعة تكون هذه

الحرمات المذكورة حالة عليه وعلى هامته، ويكون ممنوع محروم مفروز مغضوب مسخوط من الله تعالى ومن كرسي مار بطرس رئيس التلاميذ ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا. وشهد على ذلك الاب المطران جرجس من جاج شهد بذلك الاب الخوري سمعان ابن عميد من قرية الحدث. شهد بذلك الاب الخوري يعقوب من قرية الحدث شهد بذلك العبد الحقير كاتبه دانيال.

قال لكويان توفي البطريرك بطرس في ١٢ شباط سنة ١٤٩٢م والذي في تاريخ الدويهي انه توفي في ١٢ تشرين الاول سنة ١٤٩٢م ولا تعلم اي الروايتين هي الاصح والظاهر من الخط المذكور انه لم يكن حياً سنة ١٤٩٣ لان البطريرك بن داود هو البطريرك سمعان الآتي ذكره لا بطرس بن يوسف الذي كان قد توفي قبلاً.

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك بطرس اجتمع الاساقفة وانتخبوا خلفاً له الاسقف سمعان الحديثي ابن داود بن يوسف بن حسان الحديثي وهو ابن اخي البطريرك بطرس، وبعد انتخابه بطريكاً ارسل يطلب تثبيته وفصل الدويهي ذلك في الفصل الخامس عشر من كتاب رد التهم عن الموارنة فقال ان هذا البطريرك لم يفتّر بعد انتخابه بطريكاً من ارسال الرسائل إلى رومة يطلب تثبيته على يد الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس، ونائب الباباوات اسكندر السادس ويوس الثالث ويوليوس الثاني ولاون العاشر، وعلى يد الاب ارسان والاب اسكندر من رهبان القديس فرنسيس اللذين كانا قد حضرا الى البطريرك، إلا انه لم يأتيه الجواب بسبب ما كان حينئذ من اخطار السفر بحراً، والحروب في بلاد الشام، وتعاقب الباباوات في مدة يسيرة. ففي سنة ١٥١٣م ارسل البطريرك كاهناً اسمه بطرس الى الاب مرقس رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت يستلم منه عن وقت عود السفن الراسية في مرفأ بيروت الى اوربا ليرسل معها رسالة يطلب بها التثبيت. فعند وصول القس بطرس إلى بيروت كانت تلك السفن متحفزة للسفر وقد رفعت اناجرها فاقنع الرئيس القس بطرس ان يسافر الى رومة مع تلك السفن ودفع اليه كتاباً الى البابا لاون العاشر اخبره به ان الامة المارونية هي من اقدم الايام مطيعة للحبر الروماني في كل شيء، وان بطريكها ارسل عدة دفعات يطلب التثبيت فلم يتيسر له نيله، وذكر له اضطرار سفير البطريرك ان يسافر بغتة. وسأل ولما لم يستطع ان يجيب البابا وآل مشورته عما سئل عنه ارجعوه إلى بيروت برسالتين احدهما

إلى البطريرك والثانية الى رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت وانتخابهم البطريرك، وهل عندهم براءة او رسائل من الاحبار الرومانيين السالفين.

وفي بداية سنة ١٤١٤م عاد القس بطرس الى لبنان وأرسل البطريرك يخبر الاب فرنسيس سوريانوس والاب مرقس رئيس دير بيروت بما كان فساد الاب فرنسيس الى قنوين وصحب معه ترجماناً فترجم رسالة البابا الى العربية وكتب البطريرك الجواب مشيعاً إلى البابا فترجم الى اللاتينية. قال الدويهي ونسخة هذا الجواب اللاتينية لم تزل مصونة عندنا إلى الآن وهي تتضمن اولاً الاقرار بأن الله واحد مثلث الاقانيم وان كلمة الله تجسد وتألم ومات وقام في الجسد الذي اخذه من مريم. ثانياً ان انتخاب البطريرك الجديد يكون باجتماع رؤساء الكهنة واعيان الشعب. ثالثاً انهم يقدسون الميرون على الطريقة القديمة. رابعاً شرح الرتب البيعية والحلل الكهنوتية وما تشير اليه. خامساً ان جميع البطارقة الذين سلفوا قبله كانوا خاضعين لصاحب الكرسي الروماني مع شعبهم كافة. سادساً طلب التثبيت لنفسه مع بدلة كاملة وصليب وخاتم ووجه للمذبح واربعة دروع للشمامسة على شبه التي ارسلها قديماً البابا اينوشنسيوس الثالث ثم اوجانيوس الرابع. سابعاً ان يرسل حيناً بعد حين رجالاً فضلاء علماء لافتقاد الموارد وتوثيق عرى الاتحاد بينهم وبين الكنيسة الرومانية. ثامناً ان يمنع اسقف الفرنج في قبرص عن التعدي على اوقاف الموارد في هذه الجزيرة. تاسعاً ان يوصي حكام قبرص من البنادقة ان يعاملوا بالركة واللين من لجأ اليهم من النصارى. عاشراً ان يكتب رسالة الى المقدم الياس المدعو عساف بن يوسف من بشري لتكون له الغيرة على جماعته اهل لبنان. حادي عشر ان يمنح بعض الغفارين الكاملة للموارد تنشيطاً لهم وانهاضاً لهمتهم في بناء الكنائس.

ثم بعث البطريرك مع قاصده إلى الحبر الروماني ست براءات من البراءات التي ارسلها اسلافه إلى بطارقة الموارد اعني براءة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريرك ارميا في سنة ١٢١٥م، وبراءة البابا اسكندر الرابع الى البطريرك شمعون سنة ١٢٥٦م، وبراءة اوجانيوس الرابع الى البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٣٩م، وبراءة البابا نيقولاوس الخامس الى البطريرك يعقوب الحديثي سنة ١٤٤٧م، وبراءة البابا كاليستوس الثالث الى البطريرك المذكور سنة ١٤٥٥م، وبراءة البابا بولس الثاني الى البطريرك بطرس الحديثي سنة ١٤٦٤م. وكانت عريضة البطريرك مؤرخة في ٨ من

اذا ر سنة ١٥١٥م. وكتب الاب سوريانوس. ايضاً الى الحبر الاعظم مصادقاً على ما عرضه البطريرك من صحة عقيدتهم وثبوتهم في الايمان الكاثوليكي.

وسار القس بطرس راجعاً إلى رومة ورفع الى البابا لاون العاشر ما كان معه من الرسائل فسرّ بها واجاب البطريرك في اليوم الاول من آب سنة ١٥١٥م ومما قاله في جوابه: «قد سررنا وطابت نفسنا بتلاوة رسائلك وسماعها وامتلأ فؤادنا طرباً لا يوصف، فترتب علينا ان نحمد الله تعالى ونشكره بمجموع قوانا على ما اولاكم من نعمه وسوابغ آلائه لانه اصطفاكم من بين كنائس المشرق لتعبدوه بايمان وصانكم في بهرة الكفر والبدع كما صين الورد بين الشوك لئتمجد اسمه بين غير المؤمنين، وقد تشبثتم بعادات الكنيسة الجامعة الرومانية وبرتبتها بنقاوة لا ريب فيها ولم تزيغوا عن الايمان بالمسيح بسبب الضيم والضنك والاضطهاد الذي يلم بكم على ما علمنا من كتابكم، ورسالة الاب فرنسيس سوريانوس واثبته في البطريركية، وأرسل اليه مع القس بطرس المذكور درع الرئاسة وأوصاه ان يكون للموارنة مكان الراس وهم مكان الاعضاء، وامره ان لا يستعملوا في الميرون إلا الزيت والبلسم، كما تسلمت الكنيسة من الرسل الاطهار وكما تعهد قديماً البطريرك ارميا في ايام اينوشنسيوس الثالث ان يكون تقديس الميرون كل سنة يوم خميس الاسرار، وان يعتقدوا ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كمن مبدأ واحد، وان يتناولوا القربان الاقدس ولو مرة في الفصح. وأرسل تاجاً مرصعاً وغفارتين احدهما قرمزية والاخرى مخملية حمراء وبطراشيلين، وغطا للمذبح من مخمل احمر مزركش وستاراً للكرسي، وزناراً من حرير وقميصاً، وبعث ايضاً لشمامسته مدرعتين ممرعتين ومدرعتين حمراوين مزركشتين.

ثم كتب لاون العاشر اليه رسالة اخرى في اول ايلول من السنة المذكورة اعلمه فيها انه ارسل كتاباً الى ليونندروس امير البندقية اوصاه فيه بالموارنة القاطنين بقبرص وكتاباً اخر إلى المقدم الياس الماروني يوصيه فيه بالغيرة على امور الدين وبالاجتهد على نجاح طائفته، وكتاباً آخر الى مطران الافقسية ينهاه به بأمر الطاعة على الاعتداء. وكتب اعلاماً عاماً في ان الكنيسة المذكورة وسائر اوقاف الموارنة بقبرص يكون وليها بطريرك الموارنة، وان من اعتدى عليها يسقط بالحرم، وان كان المعتدي سقفاً فيكون مربوطاً. ثم منح غفراناً كاملاً مؤبداً لكل من يزور كنيسة الكرسي لبطريركي في عيد انتقال العذرا وعيد ميلاد يوحنا المعمدان وعيد الرسولين بطرس

وبولس وعيد ارتفاع الصليب إذا اعترف وتناول القربان الاقدس واحسن بشيء إلى الكرسي البطريكي، وفوض المعرفين ان يحلوا من الخطايا المحفوظ حلها للرؤساء وان يبدلوا النذور باعمال اخرى صالحة ما خلا نذري العفة ودخول الرهبانية. وعاد القس بطرس بهذه المنح الى البطريك فكان ذلك موجباً للسرور والابتهاج للبطريك والملة جمعاء.

وفي السنة المذكورة انتهت مدة رئاسة الاب يوحنا من رهبانية القديس فرنسيس على دير بيروت فتوجه إلى البطريك سمعان الى قنوين وأقام عنده بضعة ايام، فأرسل البطريك معه إلى رومة الخوري يوسف وراهبين ليتعلما اللغة اللاتينية والعلوم وصحبهم برسالة الى البابا فبلغوا المدينة العظمى حين انعقاد المجمع اللاتراني الخامس فتليت رسالة البطريك بالعربية ثم ترجمتها الى اللاتينية في المجمع، ودونت في اعمال المجلس الحادي عشر منه، وأمر البابا بأن ينزلوا عند الكردينال ستاكروس عند كنيسة مار اغوستينوس، وعند ما طلب الخوري يوسف ان يقدس امر الكردينال بأن يفحص كتاب القديس فلم يوجد في رومة من يحسن اللغة السريانية إلا رجل اسمه تاسيوس امبروسيوس كان يعرف هذه اللغة بسبب مخالطته للبرانيين. هذا ما رواه الدويهي في كتاب الاحتجاج وكان قد روى في تاريخه ان تاسيوس المذكور درس السريانية على قصاص البطريك، والعبرانية على رجل يهودي حينئذ اخذ الاوروبيون يدرسون السريانية.

ولما توفي البابا لاون العاشر سنة ١٥٢١م وخلفه البابا اوربانوس السادس ارسل البطريك شمعون اليه القس موسى العكاري رئيس دير حوقا والراهب الياس بن زرزور الحداثي ناظر املاك دير قنوين، فحلاً برومة عند الكردينال برندينوس ستاكروس اسقف استيا، ثم رفعوا الى البابا عريضة البطريك فتقبلها البابا بالبشاشة والاعزاز وارسل الى البطريك الجواب مؤرخاً في ٢٢ تشرين الثاني ١٥٢٢م ومما قاله فيه انه تحقق صحة ايمانه وايمان شعبه ليس من رسالته فقط بل مما شهد به ايضاً القصاص الذين ارسلهم اليه البابا لاون العاشر، فانهم قرروا ان الموارنة لا يختلفون بشيء عن الكنيسة الرومانية ولذلك يشكر الله على ما انعم به على الموارنة ويسأله تعالى ان يباركه ويبارك مطارينه وأساقفته وكهنته وشمامسته وجميع الشعب الماروني الكاثوليكي، وارسل الى البطريك مع قاصديه بدلتين واربعة دروع مزركشة وبطراشيلين وزنديين مزركشين وكتونة بيضاء، وكفاً وبشخوناً وتاجاً مرصعاً بلؤلؤ

من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر

نعرف من هؤلاء الاساقفة

الاول: المطران بطرس ابن الخوري سمعان من اهدن كان مترئساً على هذه البلدة في سنة ١٤٠٤م ذكره البطريرك اسطفانوس الدويهي في تاريخ هذه السنة.

الثاني: المطران سمعان من قرية مشمش من عمل جبيل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٤٠م وقال انه سار مع البطريرك عند انتقاله من دير ميفوق الى دير قنوين عندما جعل هذا الدير كرسيًا لبطريركية الموارنة.

الثالث: المطران الياس أسقف الموارنة بقبرص ذكره كثيرون منهم الدويهي. وعند اتحاد الروم بالكنيسة الرومانية في المجمع الفلورنسي اوفد الكاهن اسحق نائباً عنه الى البابا اوجانيوس الرابع، فسار تيموتاوس اسقف الكلدان الذي كان قد ارعوى عن بدعة النساطرة الى الايمان القويم، فأثبت تيموتاوس ارتجاعه الى الايمان الكاثوليكي باليمين، وحلف اسحق نيابة عن مطرانه الياس اليمين التي يحلفها رؤساء الكهنة في الكنيسة الرومانية على صحة ايمانهم وخضوعهم للكرسي الرسولي، فتوهم بعضهم ان المطران الياس والموارنة الساكنين بقبرص كانوا هراطقة وارعوا عن ضلالهم. وسنفرد لرد هذه التهمة الفصل التالي.

الرابع: المطران يعقوب نائب البطريرك بطرس بن حسان الحدثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٥٨م وقال انه كان قائماً بمعاوضة البطريرك المذكور، وهو غير المار ذكره في احد الخطوط المثبتة آنفاً.

الخامس: المطران داود ابن المقدسي حنا ابن الاسقف داود الحدشيتي ذكره الدويهي ايضاً في تاريخ السنة المذكورة، وقال انه كان بمعاوضة البطريرك المذكور. وروى عنه في تاريخ ١٤٦٦م حصول قحط ومجاعة بسبب امحال الزروع مدة سنتين لطول القيط، وان كان ذلك في ايام الملك الظاهر خشقدم المار ذكره.

السادس: المطران بطرس مطران اهدن ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٤٧٢م، ولا نظنه المطران بطرس ابن الخوري سمعان الذي روي انه كان مترئساً على اهدن سنة ١٤٠٤م، بل هو بطرس آخر توفي سنة ١٤٣٧م.

السابع: المطران يعقوب ابن رئيس اهدن (كذا في النسخة المخطوطة وفي تاريخ الدويهي المطبوع). سكن بدير مار سركيس رأس النهر وهو الذي طرد الرهبان اليعاقبة الاحباش من دير مار يعقوب اهدن.

الثامن: المطران يعقوب اسقف بشري ذكر الدويهي وفاته سنة ١٤٧٣م ايضاً.
التاسع: المطران حزقيال وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا، وورد اليه رسالة من البابا خوسطوس الرابع في تاريخ ١١ ايار سنة ١٤٧٤م وتوفي سنة ١٤٨٩م.
العاشر: المطران سمعان بن داود بن يوسف الحداثي رقاہ عمه البطريرك بطرس الحداثي الى اسقفية العاقورة واليموني سنة ١٤٨٠م، وسكن بدير قنوين ثم خلف عمه البطريرك بطرس كما مر.

الحادي عشر: المطران سمعان بن ظريفة، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٢م وقال انه انتقل من المنيطرة الى العاقورة من جور المستراحية الذين تقووا بالمنيطرة وعزلوا اولاد قصاص من المشيخة.

الثاني عشر: المطران ابراهيم بن حبلص من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٨م قائلاً: ان المطران يعقوب اسقف اهدن واعيانها سعوا بترقيته إلى الاسقفية وانزلوه على الرهبان الاحباش اليعاقبة المقيمين بدير يعقوب اهدن حتى رحلهم عنه.
الثالث عشر: المطران يوسف اسقف بشري، روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤٩٨م انه توفي حزقيال اسقف بشري الذي قدمنا ذكره، وخلفه في هذه الاسقفية المطران يوسف.

الرابع عشر: المطران جرجس صدقني من مزرعة الحدث.

الخامس عشر: المطران يوحنا المسمى بالفرنجي.

السادس عشر: المطران تادروس العينطوري.

السابع عشر: المطران يوسف القبرصي.

ذكر الدويهي هؤلاء جميعاً في تاريخ سنة ١٤٩٤م وقال انهم كانوا مع المطارين يعقوب الاهدني وابراهيم بن حبلص ويوسف اسقف بشري وداود الحداثي المار ذكرهم رجال ديوان البطريرك سمعان اذ قدم لهم جبرائيل بن القلاعي كتابه في

ثبوت الموارنة الدائم على الايمان الكاثوليكي وروى ان المطران تادروس المذكور الذي كان مقيماً بدير السيدة بعنتورين توفي في ٢٩ من شهر اذار ١٥٠٠م وتسلم الدير تلميذة القس وهبه.

وقد عثرنا ايضاً على اسم المطران جرجس من جاج في الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المحفوظ الآن في المكتبة الماديشية منها الخط الذي ذكرناه في الكلام على البطريك سمعان الحداثي حيث ذكر من شهود وقفه لدير قنوين المطران جرجس من قرية جاج. وكذلك جاء ذكره بمنزلة شاهد في الخط المنبئ بشراء هذا البطريك الريتون في الحدث سنة ١٤٥٩م، وفي الخط الاخر المؤرخ في سنة ١٥٢١م. وجاء في الخطوط المعلقة على صفحة ٢٢ من الكتاب المذكور ذكر شهادة المطران في وقف سرقيس من سرعل بستناً لدير قنوين سنة ١٤٩٦م ولا تعلم اهو المطران سمعان بن ظريفه المار ذكره ام هو مطران آخر؟

عد ٩٥٥

تفنيذ رأي من زعم ان الموارنة واسقفهم الياس مطران قبرص
رجعوا الى الايمان في ايام البابا اوجانيوس الرابع

قد مر في عد ٩٥١ ان البابا اوجانيوس الرابع ارسل اندراوس رئيس اساقفة رودس الى الشرق بعد نقل الجمع الفلورنسي من فلورنسا إلى رومة لتثبيت من اتحدوا بالكنيسة الرومانية في الجمع ودعوة من لم يتحدوا الى الاتحاد، وان اندراوس اتى الى قبرص فرد تيموتاوس مطران الكلدان من بدعة نسطور إلى الإيمان الكاثوليكي، فتلا دستور ايمانه بحضرة اندراوس المذكور، وان الياس مطران الموارنة في هذه الجزيرة تلا دستور ايمانه ايضاً، ثم سار تيموتاوس إلى رومة وارسل المطران الياس اليها كاهناً اسمه اسحق لينوب عنه لدى البابا اوجانيوس في تقرير ايمانه الكاثوليكي. وبعد وصولهما إلى رومة كرروا تلاوة دستور ايمانها وحلفا على صحته سنة ١٤٤٤م بمجلس عقد في لاتران، فتوهم بعض المؤرخين ان المطران الياس والموارنة سكان قبرص وقتئذ كانوا ضالين ضلال مكاريوس بأن في المسيح مشية واحدة وفعل واحد فأرعوا عنه حيثئذ وجاوز بعضهم حد كل اعتدال وصدق، وتوسعوا من البعض إلى الكل، فزعموا ان الموارنة اجمعين اقلعوا في ذلك الحين عن

بدعة المشيئة الواحدة فنفتد زعم هؤلاء مبرئين أولاً ساحة الملة المارونية من كل ضلال واقلاعهم عنه في ذلك الحين. ثانياً تبرئة ساحة الياس مطران قبرص الماروني وشعبه القبرصي من الضلال.

تبرئة الملة المارونية من ذلك

قد رأيت في عد ٩٥٣ ان البطريك يوحنا الجاجي الذي عقد المجمع الفلورنسي في ايامه ارسل الى البابا اوجانيوس الاب يوحنا رئيس دير رهبان القديس فرنسيس في بيروت مصحوباً بالرسائل منه ومن اساقفته واعيان شعبه يجاهرون فيها بتبشيثهم بعري الايمان الروماني وباذعانهم لكل ما يتقرر في المجمع المذكور ويلتمسون منح البطريك درع الرئاسة والتثبيت، فتوجه بها الاب يوحنا المذكور وقدم الرسائل الى البابا اوجانيوس المذكور سنة ١٤٣٩م وهو في المجمع بفلورنسا، فأثبت البابا البطريك وأرسل اليه مع قاصده درع الرئاسة وتاجاً، وعاد الاب يوحنا بذلك سنة ١٤٤٠م فاستقبله الموارنة باحتفال في طرابلس، فتوهم نائب المدينة ان القاصد جاسوس، فحبسه ومن كان معه، فكفله بعض ابناء الملة واخرجوه من السجن. ثم طلبه النائب فلم يحضر فارسل عسكرياً إلى ميفوق حيث كان البطريك فقتل ونهب ونكل فدعا البطريك الاب بطرس من فرارا من الفرنسيين وارسله إلى البابا في شهر آب سنة ١٤٤٠ مصحوباً برسالة ضمنها شكره للبابا على ما انعم عليه به من التثبيت واخباره بما كان عند وصول قاصده الاب يوحنا، فاجابه البابا اوجانوس برسالة اثبتها برمتها البطريك اسطفانوس الدويهي في الفصل الحادي عشر من كتابه رد التهم عن الموارنة ونحن نلخصها هنا عنه.

«اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله إلى الاخ المحترم يوحنا بطريك الموارنة السلام والبركة الرسولية قد اطلعنا على ما كتبتموه لنا في شهر آب الفائت صحبة الولد العزيز الراهب بطرس من الاخوة الصغار ونظرنا فإذا نعمة الهنا وسيدنا يسوع المسيح معكم لقبولكم تعاليم ايمانه بكل رضى واختيار ولكم رجاء وطيد في الكرسي الرسولي وفي كل من يتولى، فالاله الضابط الكل يفيض نعمه عليكم وعلى الشعب الذي تحت طاعتكم، وكما كان الخضوع سبباً لانتظام الفضائل التي

تمدحون عليها فلتكن طاعتكم ايضاً لكل ما نكتبه اليكم لتمتثلوا حكمة ونعمة، ولا يكفي ان تسلكوا بها انتم وحدكم بل ان تقودوا ايضاً الشعب والامم الاخرى في تلك البلاد والاعمال القاصية الى الحياة الدائمة بامثال افعالكم. ولما لم يمكننا ان نبين لكم كل شيء في كتابنا هذا ارسلنا اليكم الولد العزيز الراهب انطونيوس من طورية من الرهبانية المعروفة بالاخوة الصغار (من رهبان القديس فرنسيس) وجعلناه رفيقاً لولدنا الراهب بطرس من فرارا وهما يشرحان لكم كل ما تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية. ولا يكفي ان تقبلوها وان تكونوا متحدين بالكرسي الرسولي بل ان تقووا نفوسكم ايضاً على الثبات والمحاربة لاجل الايمان لتتالوا الاكاليل، ولم نقل ذلك لرية لنا في ثباتكم وثبات ملتكم بل لاننا علمنا انكم استقبلتم قصادنا وظهرتم بهجة ومسرة زائدة حتى اغتصبتم اعداءكم عليكم فقبضوا على البعض من رؤساكم وقتلوا البعض وصبرتم على ذلك بشهامة كبرى وصح فيكم قول الرسول انكم صبرتم على نهب اموالكم بفرح عظيم ويتحتم علينا في مخاطبتنا لكم ان نبين ما تستحقون عليه من الثناء والثواب، وإذا فعلتم ما ذكرناه وكنتم مستعدين للعمل به استشعرت في قلبكم بفرح جزيل من اجل الهبات العظيمة المنحدرة عليكم من لدن الله» .

كتب بفلورنسة سنة ١٤٤١م لتجسد المخلص في اليوم الثاني عشر من كانون الاول وفي السنة الحادية عشرة من حبرتنا.

ثم ان المواردنة سكان اورشليم وفلسطين رفعوا عريضة إلى البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٣٨م عصابة الاب البرتس من الفرنسيين ايضاً يبينون بها تشبههم بعري الايمان الكاثوليكي وخضوعهم لكل ما يرسمه المجمع المذكور فأجابهم البابا بالرسالة الاتية وقد اثبت البطريرك الدويهي ترجمتها برمتها في الفصل الثاني عشر من كتابه في رد التهم عن المواردنة ونقلناها عنه مصلياً قليلاً العبارة العربية.

من اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله إلى الابناء المحبوبين المواردنة المقيمين باورشليم وجوارها وسائر بلاد المشرق السلام والبركة الرسولية.

«المجد لله في العلا وعلى الارض السلام والمسرة لبني البشر ذوي الارادة الصالحة. يحسن بنا ايها الابناء الاعزاء ان نهتف هتاف الفرح بنفس مبتهجة يختلط ابتهاجها بابتهاج الملائكة إذ نبشركم بالسرور غير الموصوف الذي شمل جميع

المسيحين، فان عقلنا ترطب بندى التعزية الالهية وفؤادنا تهلل بالرب ونرى نفسنا عاجزة عن وصف ما نشعر به من السرور وطمأنينة الخاطر، فنقتصر على ترديد اصوات التسبيح والحمد والشكر فان ما كنا نطلبه ونجده في نيله ان نرقى الى ذروة هذه الرئاسة قد نلناه برحمة الله ألا وهو زوال ذلك الشقاق المديد المبيد الذي وقع مذ اربع مئة وخمسين سنة بين الكنيستين الغربية والشرقية، ونحن مع إننا بذلنا كل ما في وسعنا لاصلاح هذه الشؤون فينبغي ان نعزو ذلك كله إلى جودة الله غير المتناهية، فكل ما يكون بغير امداده ومعونته فهو باطل اننا منذ ارتقائنا إلى الحبرية لم نأل جهداً بل كنا ندأب ونكد حتى يسر الله اتحاد الكنيسة الشرقية بالغربية، فبعد ان وجهنا رسائل كثيرة إلى جهات مختلفة قدم الينا في العام المنصرم ولدنا المحبوب بالمسيح يوحنا باليالوغوس ملك الروم، واخونا ذو الذكر الصالح يوسف بطريرك قسطنطينية، ونواب بطاركة الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس، ورسل ملوك دربيزون واتيباريا والروس والفلاخ مع رؤساء كهنة واكليروس داراكنه وخلق كثير، وهم مقيمون على نفقتنا إلى هذا اليوم ولا رتياحهم إلى هذا الاتحاد المقدس عرضوا نفوسهم للمشاق الباهظة ومخاطر البحر وحضروا إلى هذا الجمع المسكوني، وسألونا ان يكون الثمامه بايطاليا ليتيسر لنا ان نشهده بنفسنا، واقلوا على البحث والجدال بغير خصومة، اهتممنا بأن نجتمع من كل صقع علماء ضليعين بالشرائع الالهية والبشرية ليبينوا الحق لطالبيه. ولما حصحص الحق بمعونة الله بنصوص الكتب الالهية واقوال الآباء الاطهار الموثوق بكلامهم من اللاتين ينبثق من الآب والابن معاً، وسلموا بطيبة خاطر ان سلطان الكنيسة الرومانية والكرسي المقدس الذي احتفقه بعض الناس وافتروا عليه هو الاجل الاعظم، واقرأوا ايضاً بياقي الحقائق كما واضح في المرسوم الموقع عليه المرسل اليكم مع الابن العزيز وكيلكم فرا البرتوس من الاخوة الصغار، وهو يخبركم عن كل ما كان مفصلاً، ويحق لنا ان نفتخر بالرب ونعلن انه قد جرى في عصرنا امر لم تر البيعة الكاثوليكية اعظم منه ولا افضل منذ تبشير الرسل، ولم تقف معجزات الله عند هذا الحد بل ان الله برحمته الغزيرة اطلع لنا سماء اخرى واسعة الارحاء ليتمكن شمس البر الذي ولد في الشرق من ان يسط اشعته إلى ظلمة الكفر لينتشر خلاص الرب الى اقصى الارض، ويمجد الجميع بفم واحد وروح واحدة الهنا وابا ربنا يسوع المسيح. وها نحن متوقعون يوماً بعد يوم قدوم من وجهنا اليهم رسلنا، وبلغتنا البشرى ان طائفة كبرى من

الارمن اشرق عليها ضياء الحق وهم مستعدون لطاعة الكنيسة الرومانية والكرسي الرسولي بكل شيء والاذعان لسننه وتعاليمه من غير تردد. فالان ايها الابناء الاعزاء قد ترتب علينا ان نقدم لله سيد الجميع قربان التسبحة والابتهاج من اجل النعم الغزيرة التي نلناها من كرمه وما برحنا نرجو غيرها. وكما اشرركم معنا بالفرح فاشركوا معنا في اداء الشكر لجودة الله والتنافس بذلك امام كل مسيحي. والحمد على ما اولى من الخير واسألوه تعالى ان يتم عمله الذي جعل يده على يدنا». كتب بمدينة فلورنسا سنة ١٤٣٩م في السابع من حزيران وهي التاسعة من حبريتنا.

فمن يا ترى يصدق ان البابا اوجانيوس الرابع يكتب الى الموارنة مثل هذا الكلام إذا كانوا غير خاضعين له قبلاً او رجعوا حديثاً إلى طاعته حيث لا إشارة الى رجوعهم ولا إلى قبولهم بل اقتصر الى تبشيرهم باتحاد الروم ورجائه باتحاد غيرهم، وكلفهم ان يشكروا الله معه وان يذيعوا ذلك عند جميع المسيحيين فضلاً عن ان رسالته مؤرخة سنة ١٤٣٩م، وخصماء الموارنة يزعمون انهم رجعوا إلى الايمان الكاثوليكي سنة ١٤٤٢. فكيف يوفقون هذا التناقض؟

وقد مرّ ان البطريرك سمعان الحداثي ارسل إلى البابا لاون العاشر صحيفة قاصده ست براءات من اسلافه تبين تشبث الموارنة بعري الايمان الكاثوليكي، ومن هذه البراءات براءة من اينشنوسيوس الثالث بتاريخ ١٢١٥م، واخرى من البابا اسكندر الرابع مؤرخة سنة ١٢٥٦م، يتبين منهما جلياً ان الموارنة كانوا خاضعين للكرسي الرسولي قبل اوجانيوس الرابع بأعصر بل كانوا دائماً كذلك. وهذه البراءات الست المذكورة وغيرها لم تزل الى اليوم محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة، وهي تُخجل وتُفحم كل مكابر عنيد ولا حاجة إلى زيادة البيان في رد هذه التهمة لظهور بطلانها بما قدمناه، وفي مواضع كثيرة من هذا التاريخ وغيره، بل نأتي الى بيان انها لا تصدق ايضاً على الياس مطران قبرص والموارنة بقبرص وعلى رعيته فيها.

تبرئة الياس مطران قبرص والموارنة ساكنيها من هذه التهمة

لا ننكر ان البابا اوجانيوس الرابع كتب في براءته المفتحة: «تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح» المؤرخة في سنة ١٤٤٥م عن كلامه في اندرواس رئيس اساقفة

رودس ان اندراوس هذا هدى الى الايمان القويم تيموتاوس ومطران طرسوس الذي كان بقبرص وكان نسطورياً يعتقد ان في المسيح اقنومين وان العذرا لا تسمى والدة الله وانه رد الى الهدى الياس مطران الموارنة الذي كان مع جماعته بقبرص ملوثاً بضلال مكاريوس ان في المسيح مشيئة واحدة، وأنه جمع هؤلاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة فاقروا بالايمان الكاثوليكي جهاراً، ثم ارسل تيموتاوس المذكور والقس اسحق تلميذ الياس مطران الموارنة الى رومة فجحد تيموتاوس ضلال نسطور، واسحق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة. ولا ننكر ايضاً ان المطران الياس جحد تعليم مكاريوس وافر بالايمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرص وكذلك فعل تلميذه القس اسحق برومة لكننا نقول ان اندراوس مطران رودس عند بلوغه إلى قبرص ومخاطبته تيموتاوس والياس الاسقفين ورؤيته انهما مستعدان للاقرار بالايمان الكاثوليكي انشأ لهما دستور الايمان الذي يلزم كلياً منهما ان يقرأ به جهاراً وباحتفال. ولما كان يعلم ان تيموتاوس نسطوري ضمن الدستور الذي اعده له جحد بدعة نسطور، ولعلمه من كتاب غوليلموس اسقف صور ان الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران الياس الماروني جحد بدعة مكاريوس بطريك انطاكية الذي كان مغوياً ببدعة المشيئة الواحدة، فتلا كل منهما في الكنيسة الدستور الذي اعده له اسقف رودس، وكتب الى البابا اوجانيوس انه هداهما إلى الايمان القويم، فاغتر البابا بما كتبه في براءته المذكورة. على ان اقرار المطران الياس لم يكن احدائاً لجحوده بل تقريراً او تجديداً له.

ولنا على اثبات ما قلناه ادلة بينة وحجج راهنة منها اولاً بدعة المشيئة الواحدة لم يبق لها من قرون قبل التاريخ المذكور قوام مستقل او انصار يقولون بها وحدها بل استمرت عند اليعاقبة لانها نتيجة لازمة من اعتقادهم الطبيعة الواحدة. وقد صرح بذلك السمعاني في مقالته في اصحاب الطبيعة الواحدة (مجلد ٢ في المكتبة الشرقية) وكثيرون غيره، وهؤلاء اليعاقبة يسمون مذهب الموارنة بدعة. تخص منهم بالذكر ابن العبري الذي قدمنا قوله بذلك، وقد صرح باعتقاده المشيئة الواحدة في المسيح فلا يعلم كيف امكن موارنة قبرص واسقفهم الياس ان يجددوا بدعة المشيئة الواحدة ويقولون بقول مكاريوس ان في المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، وليس من قائل انهم كانوا يعاقبة. ثانياً اننا نعلم حق العلم ان الموارنة بقبرص كانوا متحدين

مذهباً بإخوانهم في لبنان وخاضعين لبطريك الملة وقد رأيت تواتر المكاتبات بين الاحبار الرومانيين وبطاركة الموارنة في تلك المدة ولا نجد أثراً في تقليدات ملتنا او خيراً في كتب المؤرخين ان موارنة قبرص او اسقفهم زاغوا عن الايمان وخلعوا طاعة بطريركهم وقد ذكرنا في تاريخ القرن الرابع عشر نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية الذي عقده اليا رئيس اساقفة الكلدان في هذه الجزيرة سنة ١٣٤٠م ان جيورجيوس مطران الموارنة يقبرص كان في جملة من شهدوا هذا المجمع وكانوا جميعاً كاثوليكين وأقروا في مجملهم ان الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن، وان الاب الاقدس البابا بناديكتس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض. وقد ذكرنا ايضاً هناك يوحنا اسقف الموارنة بقبرص اعتماداً على خط نقله البطريرك الدويهي عن كتاب كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧م في ايام البطريرك يوحنا مطران قبرص. وعليه فاسلاف الياس كانوا كاثوليكين وهو لا نجد أثراً ولا خيراً يبين لنا انه جدد بدعة المشيئة الواحدة التي لم تبقَ إلا عند اليعاقبة، ولا يؤخذ قطعاً من براءة اوجانيوس المذكور انه كان يعقوباً.

ثالثاً قد روى هوراس يوستينيان في كتابه في اعمال المجمع الفلورنسي ان اوجانيوس الرابع امر ان ينقش على باب كنيسة القديس بطرس في صحائف من نحاس ذكر الامور الهامة التي جرت في ايامه، فنقش على تلك الصحائف: «هذا لذكر اوجانيوس الحبر الاثيل ونفسه السامية وعلمه المنيف ان الروم والارمن والحبش واليعاقبة امنوا على يده ايمان رومة العظمى». وكتب على قبره بكنيسة القديس بطرس المذكورة بعد وفاته. «بعنايته اتبع الروم والاحباش والارمن آثار الكنيسة الرومانية باسرار الايمان ثم السريان والعرب الى تخوم الهند، وهذه عظام صغيرة بالنسبة الى نفسه السامية. ولا نرى في هاتين الكتابتين ذكر للموارنة بالعموم او لموارنة قبرص واسقفهم بالخصوص مع ان الملل المذكورة فيهما لم يرجع إلا قسم منها.

رابعاً الاب غريغون الشهير كتب سنة ١٤٦٩م رسالة من رومة الى الموارنة ومما قاله فيها: ان الموارنة الذين ببلاد الفرنج وروودس وقبرص وطرابلس ويبروت والقدس الشريف ما برحوا منذ الزمان القديم إلى هذا اليوم يدخلون كنائس الفرنج وقيمون القداس على مذابحهم ويلبسون حللهم ويستعملون قربانهم ويرفعون الجسد والدم مثلهم ويرسمون الصليب على وجوههم كما يرسمه الفرنج ويعترفون عند كهنتهم

ويتناولون من يدهم القربان الاقدس ويقبلون هداياهم كالتاج وغيره». وقال مثل ذلك الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس المذكور انفاً وكلاهما عهد اليهما عدة من الباباوات النيابة عنهم عند الموارنة وعاشراهم وعاشا بين ظهرانيهم سنين متطاولة بأثر ما كتب عن المطران الياس وموارنة قبرص، وقد صرّحاً أن الموارنة فيها يعملون كل ما ذكره منذ قديم الزمان أيسمح الفرنج في قبرص وكان حكامها حيثئذ من امراء البندقية بأن يقدس كهنة الموارنة وهم هراطقة على مذابحهم، او جاز لكهنة الفرنج ان يناولوا من كانوا ملطخين ببدة مكاريوس.

خامساً ان كثيرين من مشاهير المؤرخين الفرنج كبارونيوس ويوحنا مورينوس وغيرهما الذين كانوا انخدعوا بقول غوليلموس ان الموارنة ارعوا سنة ١١٨٢م عن الضلال اثبتوا انهم لم ينفكوا بعد ذلك البتة عن الاتحاد بالكنيسة الرومانية عامتهم وخاصتهم، ونخص بالذكر من هؤلاء القديس انطونيوس اسقف فلورنسا الذي كان معاصراً للبابا اوجانيوس الرابع لهذه الاحداث إذ توفي سنة ١٤٥٩م، فانه قال ان الموارنة جحدوا الضلال على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية، وهم الى الآن متشبثون بالايان الكاثوليكي ومتمسكون بتقليدات الكنيسة الرومانية بحرص بليغ. فلو كان المطران الياس وموارنة قبرص ملطخين في البدة الى سنة ١٤٤٤م وعادوا الى جادة الحق في أيام هذا الأسقف القديس لما أهمل ذكرهم ولما قال ان الموارنة متشبثون إلى الان بالايان الكاثوليكي الخ...

سادساً ان الامثل والاقرب الى الصواب ان نقول ما قاله كثيرون من علمائنا الافاضل وهو ان اندراوس اسقف رودس لما رأى المطران الياس والموارنة القبارصة مستعدين للاقرار بالايان الكاثوليكي، وتوهم انهم من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة انشأ لهم دستوراً للايان ليتلوه ويحلفوا عليه ففعل ذلك المطران الياس بقبرص فكتب اندراوس كما توهم الى الحبر الروماني وما كان إدراك ما كانت تلك الايام وجهل الشرقيين لغة الغريين، وجهل اللغات الشرقية، فكتب البابا اوجانيوس الرابع ما كتبه مغترأ باخبار قاصده، ولم تكن هذه الدفعة الوحيدة التي ترى بها مثل هذا الوهم بل جرى مثل ذلك مع بطرس كردينال كنيسة القديس مرشولوس عند ما رجع الروم على يده في طرابلس، وقدم الموارنة دستور ايمانهم حيثئذ فتوهم انهم هراطقة ولم يميزهم عن الروم في ما كتبه الى البابا اينوشنسيوس الثالث فكانت براءته إلى بطريرك الموارنة سنة ١٢١٥م غير مميزة بينهم وبين الروم،

وكذلك جرى لموارنة القدس إذ جددوا اقرارهم بالايمان على يد ايميريكوس بطريك انطاكية الى غير ذلك.

وقال الاب ايرونيوس دنديني اليسوعي في فصل ١٨ من كتاب بعثته إلى لبنان سنة ١٥٩٦م. «ان براءات الاحبار الاعظمين انما كتبت على النمط الذي نراها به من قبل الاخبار غير الصحيحة التي بلغتهم، وإذ كنت انا اعلم ذلك تحرّيت هذا الامر وامعنت فيه ودققت في فحص كتبهم (اي كتب الموارنة) فرأيتها لا تضاد العقائد الكاثوليكية البتة. ولما لم يدقق غيري في فحص الكتب بالاجتهاد والامعان اللازمين كان لا بد من ان تعزى إلى الموارنة في براءات الاحبار الرومانيين اغلاط متنوعة. ولييان الحقيقة بياناً جلياً يلزم أن تلاحظ أن جميع البراءات المعزوة فيه أغلاط الى الموارنة نسخت حرفاً فحرفاً عن براءة اينوشنسيوس الثالث. وكلام البابا في هذه البراءة ليس على الموارنة وحدهم بل على الروم ايضاً، فانهم عادوا حينئذ في طرابلس إلى طاعة الكنيسة الرومانية وقدم الموارنة في ذلك الوقت صك تمسكهم بطاعتها الى كردينال كنيسة القديس مرشلوس وهو بطرابلس اذ كان قاصداً رسولياً في الشرق فكان ذلك سبباً لنسبة اغلاط طائفة الى اخرى. وقال مثل هذا المقال غير دنديني من علماء اللاتين ومرهج ابن نيرون الباني في مقالته في الموارنة والسمعاني في المكتبة الشرقية. ويمكن القول بمثل ذلك براءة اوجانيوس الرابع المذكورة. ويؤيد ذلك قول العلامة البابا بناديكتوس الرابع في رسالته الى نيقولاوس لركاري المؤرخة في ٢٨ ايلول سنة ١٧٥٢م، وهو قد اثبت الموارنة انهم لم ينحرفوا قط عن محجة الدين الكاثوليكي ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك انهم كانوا جددوا اتحادهم بالكنيسة الرومانية وقتاً ما، فلا ينبغي ان يتأول ذلك بمعنى انهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا اليه.

وجاء في كتاب اسطفانوس عواد السمعاني في محاماته عن يوحنا السرومي وهو يوحنا مارون، ان الياس مطران قبرص كان يروم التملص من سلطة بطريك الموارنة والاستقلال بسلطته محتجاً بما خوله المجمع الافسسي (في عمل ٧ قسم ٢) لمطارنة قبرص من الاستقلال عن بطريك انطاكية في ترقية اساقفتهم الى الاسقفية، فحسب منشقاً عن بطريكره ومتحداً مع تيموتاوس مطران النساطرة، فالجئ الى ان يتلو دستور ايمانه بحضوره اندراوس رئيس اساقفة رودس. ومهما يكن من امره فهو فرد ورعيته في قبرص فريق يسير من الموارنة، فمن لا يقنعه كلما اوردناه من الادلة

لا يسوغ له ان يعيب الملة كلها بعمل بعض افرادها، كما لا تعاب الكنيسة اللاتينية بالكثيرين الذين خرجوا عن طاعتها وعصوها.

لا نشاء ان نختم هذا الفصل دون ان نذيله بما كتبه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٣) متكلماً في براءة البابا اوجانيوس الرابع في شأن اقرار تيموتاوس مطران الكلدان واسحق قاصد الياس مطران قبرص على الموارنة بالايان حيث ذكر السمعاني فقرة من البراءة المذكورة قال فيها البابا: «لا يجسرُّ احد من الشعب والاكليروس من الآن وصاعداً ان يدعو مطران الكلدان واسقف الموارنة المذكورين وشعبيهما واكليؤسهما هراطقة او ان يسمى الكلدان نساطرة، ومن خالف امرنا هذا نأمر اسقفه ان يحرمه الى ان يصنع الترضية الكافية أو يغتّم بجزاء آخر زمني يراه الاسقف». واردف السمعاني ذلك بقوله: انظر الى الفرق الذي وضعه البابا بين اسمي الموارنة والنساطرة. فلما كان الموارنة لم يأخذوا اسمهم عن مبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة فقط. واما النساطرة فلما كانوا اخذوا اسمهم عن نسطور المبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة ونساطرة، وهذا ما راعاه باجيوس إذ كتب عن الموارنة في تاريخ سنة ٦٣٥م عد ١٣ «بل ان تسمية هذا الشعب نفسها موارنة ينتج منها انهم لم يسموا بهذا الاسم نسبة الى مارون مبتدع، فإن العادة المستمرة في الشرق والغرب ان الهراطقة الذين يرجعون الى الايمان الكاثوليكي ان كانوا غربيين كاللوتاريين والكلونيين دعوا كاثوليكين، وان كانوا شرقيين فإن كانوا يعاقبة دعوا سرياناً وان نساطرة تسموا كلداناً ويفهم بذلك انهم سريان كاثوليكيون وكدلان كاثوليكيون.... واما الموارنة فهذا كان اسمهم دائماً، والاحبار الرومانيون يسمونهم به من ايام البابا اينوشنسيوس الثالث او يسمى بطريركهم بطريرك الموارنة الانطاكي. والناج من ذلك نتجاً لازماً ان هذا الاسم دل دائماً على شعب كاثوليكي». انتهى كلام باجيوس.

الباب السادس عشر

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

فصل

ما كان من الاحداث الى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر

عد ٩٥٦

الملك قانصوه الغوري

نحتمنا كلامنا في تاريخ سورية الدنيوي بذكر فرار طومان باي وخلعه من السلطنة وتولية السلطان قانصوه الغوري، وكان الملك العادل طومان باي جعله دواداراً كبيراً، وسُمّي الملك الاشرف وهو الثالث والعشرون من ملوك الجراكسة. وقد اختاره امراء مصر للسلطنة لانه كان لين العريكة سهل الازالة اي وقت ارادوا عزله عزله، لانه كان اقلهم مالاً وأضعفهم حالاً واوهنهم قوة. ولما عرضوا عليه السلطنة قال لا اقبل إلا بشرط ان لا تقتلوني، فاذا اردتم خلعي فاخبروني وانا اوافقكم وانزل لكم عن الملك فعاهدوه على ذلك، فقبل وفرح العسكر بولايته. وكان كثير الدهاء ذا فطنة ورأي إلا انه كان شديد الطمع كثير الظلم فانه اخذ

يلقي الفتنة بين الامراء ويأخذ هذا بهذا ويدس لهم السم في الطعام ونحوه حتى افنى كبراءهم ودهاتهم إلا قليلاً منهم، ثم اتخذ ممالكك لنفسه جلباً وأعدهم جنداً فصاروا يظلمون الناس واطهروا الفساد، وصار هو يصادر الناس ويأخذ اموالهم قهراً. وكثر العياث في ايامه فكانوا إذا رأوا انساناً كثير المال وشوا به الى السلطان فأرسل اعوانه فاستنزف ماله وسلمه إلى من يعاقبه ليأخذ ما اخفاه فجمع مالا كثيراً، لكنه قيل ما انتفع به ووقع اخيراً بيد اعدائه وهكذا كل ما يؤخذ بمثل هذا الاسلوب.

وفي سنة ٩٠٨ هـ (سنة ١٥٠٢ م) تولى نيابة حلب سيباي ونيابة دمشق قانصوه الحمدي، فظهر الى البقاع وانهزم منه ناصر الدين بن محمد بن حنش مقدم البقاع وكانت بينهما مناوشات ووقعت فتنة بين اهل دمشق ونائبها فاحرق الشاغور ونكل بهم وفي سنة ٩٠٩ هـ (سنة ١٥٠٣ م) جاء سيل عظيم ومطر دام سبعة وعشرين يوماً فكانت منه مضار لا تقدر فاخرب نهر بردى في دمشق بيوتاً وحوانيت كثيرة، واضر نهر العاصي بالنواعير والبساتين بحماة، وكذلك الانهر الجارية في لبنان اخربت المطاحن واقلبت الجسور القديمة التي كانت عليها، منها جسر نهر الكلب القديم. وفي سنة ٩١٤ هـ (سنة ١٥٠٨ م) وقع ثلج لم يعهد له نظير واستمر يتراكم خمسة عشر يوماً حتى قطعت الطرق في الساحل ايضاً ولم نعثر في ما لدينا من الكتب على امور تستحق الذكر من احداث السنين التالية إلى سنة ٩٢٢ هـ.

ففي السنة الاخيرة الموافقة سنة ١٥١٦ م للميلاد بينما كان سيباي بن بخت خجاً نائب السلطنة بالشام وخاير بك بلباي نائب حلب وتمرّاز الاشرفي نائب طرابلس وجان بردي الغزالي نائب حماة، ويوسف نائب صفد منتقلاً اليها من نيابة القدس، ودولات باي نائب غزة وقد اضيف اليه نيابة القدس والكرك بلغ الملك الاشرف قانصوه الغوري ان السلطان سليم الاول العثماني عازم على ان يحمل على سورية ومصر ليتزعهما من ولاية ملوك الجراكسة، فأخذ الملك الاشرف يساعد للخروج إلى سورية، ثم خرج بالعاكر ومعه الخليفة ونواب القضاة الاربعة واستخلف بالقاهرة الدوادار طومان باي، ودخل الملك الاشرف دمشق يوم الاثنين ثامن جمادي الاول من السنة المذكورة فلاقاه الامير سيباي نائب الشام بالعاكر ودخل في موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الاربعة وسائر الامراء وزينت له المدينة زينة حافلة ونزل بالمصطبة التي يقال لها مصطبة السلطان، واقام بدمشق

تسعة ايام ثم رحل عنها الى حماة فلاقاه نائبها جان بردي الغزالي محتفياً به ثم سار إلى حلب فدخلها يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة وكان لدخوله يوم مشهور. وعند وصول السلطان الاشرف الغوري الى حلب قدم اليه وفد من قبل السلطان سليم بن عثمان اخص هذا الوفد ركن الدين قاضي عسكر ابن عثمان وقرابا باشا احد امرائه، فشرع الغوري يعتبهما على افعال ابن عثمان وما يبلغه عنه، فقالا فوض الينا استئذان امر الصلح، وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه، ولا تشاوروني. وكان ذلك خدعة حرية لتخمد همة الغوري عن الاستعداد للحرب وكان السلطان سليم يقول له في كتابه اليه انت والدي واسألك الدعاء، لكن لا تدخل بيني وبين اسماعيل الصفوي الذي حملت عليه، فخلع الملك الاشرف على وفد السلطان العثماني الخلع السنية وارسل الى السلطان سليم الامير مغلباي الدوادار للمفاوضة بامر الصلح، فوردت الاخبار بان السلطان سليم قبض عليه ووضعه في الحديد وقصد شنقه فشفع به بعض وزرائه، وقصد ان يخلق لحيته وأمر السلطان سليم عساكره ان تسير نحو حلب فوصلوا الى عنتاب وملكوا قلعة ملطية وغيرها فلما بلغت هذه الاخبار الملك الاشرف خرج من حلب وسير امامه الثواب والعساكر وعاد اليه الامير مغلباي مهاناً وقص عليه ما انزل به السلطان سليم من التعزير والتهديد، ثم خلى سبيله، وقال له قل لاستاذك ان يلاقينا الى مرج دابق فاضطرب الاشرف من ذلك. ويوم الاربعاء حادي عشر رجب رحل الاشرف إلى مرج دابق.

وفي الخامس عشر من الشهر المذكور اقبلت عليه جيوش السلطان سليم فصصف الاشرف جيشه للقتال في الميمنة الخليفة امير المؤمنين المتوكل على الله، وعلى ميمنته سيباي نائب الشام، وكان على الميسرة خاير بك نائب حلب، والملك الاشرف في القلب اي الوسط واصطلت نار الحرب فقاتلت العساكر المصرية والشامية قتالاً شديداً وزحزحوا اولاً عساكر السلطان عن مواقعهم واخذوا منهم سبعة سناجق وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل، ولكن شاع بين المماليك القرانصة ان الملك الاشرف قال للمماليك الجلبان لا تقاتلوا ودعوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم، ففترت عزيمة هؤلاء وقتل الاتابكي سودون العجمي، وسيباي نائب الشام فانهزم فريق كبير من العساكر في الميمنة وانهزم خاير بك نائب حلب من الميسرة، فانكسرت وظهر انه كان مخامراً على الملك الاشرف لانه هرب قبل العسكر،

واصبح الاشرف واقفاً تحت السنجد في نفر قليل واخذ ينادي هذا وقت المروعة هذا وقت النجدة فلم يسمع له احد قولاً، وغلت ايدي العسكر المصري عن القتال وشخصت أبصارهم، وتقدم الأمير تمر الزردكاش إلى السنجد فطواه وأخفاه وقال للاشرف مولاي ادركنا عسكر ابن عثمان فانج بنفسك وادخل الى حلب فعاجله فالج شل شفته وارخى منكبه، وركب فرسه فمشى بخطوتين وانقلب عنه إلى الارض فخرجت روحه ومات من شدة قهره، ووثب عسكر ابن عثمان على من بقي من عساكر الغوري فقتلوا من ادركوه وشتتوا الباقين شذر مذر وغنموا ما كان في معسكرهم وكان في جملة القتلى سييائي نائب الشام وتمرزاي نائب طرابلس وطراباي نائب صفد واصلان نائب حمص وجماعة من امراء دمشق وحلب وطرابلس ومصر وكانت مدة سلطنة الغوري خمس عشرة سنة وتسعة اشهر وعشرة ايام ثم دخل السلطان سليم حلب فملكها دون معارض ولا منازع واتى اليه الخليفة امير المؤمنين المتوكل على الله فاكرمه وخلع عليه ودخل عليه ثلاثة من القضاة الذين كانوا مع الغوري فوبخهم على انهم لم يمنعوا سلطانهم من ان يظلم الناس، ودعا خاتر بك نائب حلب قبلاً فخلع عليه وصار من جملة امرائه وابقى الخليفة والقضاة الثلاثة عنده وأقام بحلب اياماً حتى دبر الملك ووضع الرسوم العادلة، ثم توجه الى حماة فملكها والى حمص فاستولى عليها ثم قدم الى دمشق فخرج اهلها إلى لقاءه وطلبوا منه الامان، فامنهم وضبط حصون المدينة ومهد امورها وسار منها نحو مصر، ولما بلغ إلى غزة عدل الى زيارة القدس الشريف والخليل بنفر قليل، وكذا استحوذ على سورية كلها واقام بها عمالاً من خواصه.

عد ٩٥٧

طومان باي آخر ملوك الجراكسة

بعد وفاة الغوري وعود من سلم من الامراء في وقعة مرج دابق إلى مصر اجتمع الامراء في القاهرة يتشاورون في من يلي امرهم وامرائهم ان يختاروا للسلطنة طومان باي الذي كان يدبر الملك في غيبة الغوري، وقد احسن تديره فامتنع هو من ذلك غاية الامتناع واستمروا هم يقولون ما عندنا سلطان إلا انت. ومن الاسباب التي كان يوردها لتمنعه ان خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم فمن

ابن ينفق على العسكر، ومنها ان ابن عثمان ملك البلاد الشامية وهو زاحف ليملك مصر والامراء لا يطاوعونه على الخروج اليه، ومنها انه تسلطن فلا يبعد ان يتقلبوا عليه ويخلعوه من السلطنة ويقتلوه او يرسلوه الى السجن بالاسكندرية، فاحضروا مصحفاً شريفاً وحلف الامراء عليه بأنهم اذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرون به ولا يثيرون فتناً، فأذعن لهم فاستدعوا امير المؤمنين يعقوب والد الخليفة المتوكل على الله الذي كان ابن عثمان ابقاه عنده وحضر قضاة المذاهب الاربعة والامراء والعسكر، واطهر والد الخليفة وكالة مطلقة عن ولده المتوكل على الله فاثبتها القضاة فبايعوه بالسلطنة والبسوه حلتها وسُمِّي الملك الاشرف، كما كان اسم الغوري سالفه وجلس على كرسي الملك.

فطومان باي هو الثاني والعشرون من الملوك الجراكسة عند من اسقطوا خشقدم وتربغا من عديدهم والرابع والعشرون عند من لم يسقطوهما، وقال بعضهم انه كان ابن اخي الغوري، وقال غيرهم انه كان اخاه. والذي قاله ابن اياس في تاريخ مصر ان اصله من كتابية الاشرف قايتباي اشتراه الملك الاشرف قانصوه الغوري وكان يلوذ بقرابة، ولما تسلطن قانصوه الغوري رقيه في المراتب حتى الدوادية الكبرى. ولما خرج على ابن عثمان جعله نائبه في غيبته فاحسن سياسة الرعية واطاعة العسكر الذي بقي بمصر فملكوه بعده على ان ابن اياس قال بعد ذلك ان الغوري عم طومان باي.

وروى بعضهم ان جان بردي الغزالي نائب حماة كان ممن خامر على الغوري في وقعة مرج دابق وانحاز إلى السلطان سليم. والذي رواه ابن اياس في تاريخ مصر انه عاد الى القاهرة وجعله طومان باي نائب الشام وتوجه بفريق من العسكر قبل الجميع الى غزة لمناوأة السلطان، ولما لم يكن معه من الجيش ما يكفي لمقاتلة جيش ابن عثمان جمع بعض العربان وقصد ان يقطع الطريق على عسكر السلطان سليم باشا واقتتلا قتالاً شديداً، فانكسر الغزالي ومن معه وقتل منهم كثيرون ومن سلم منهم عاد الى القاهرة بأسوأ حال. ثم وردت الاخبار بان سنان باشا العثماني انتقم من اهل غزة وقتل منهم نحو الف شخص ثم زحف السلطان سليم بجحافلهم وبلغوا الريدانية فكانت هناك وقعة قتل فيها كثيرون من عسكر ابن عثمان واخصمهم سنان باشا، ثم انقسم العسكر العثماني إلى فرقتين فرقة جاءت من تحت الجبل الاحمر وفرقة صدمت المصريين في الريدانية فهزموهم وشتوا شملهم، وثبت

الملك الاشرف طومان باي يقاتل بنفر قليل الى ان خاف القبض عليه فولى واختفى ودخل جماعة من العثمانيين الى القاهرة مستلين سيوفهم واحرقوا بعض الدور ونهبوا بعضها. وفي يوم الاثنين ختام سنة ٩٢٢هـ (سنة ١٥١٧م) دخل الخليفة المتوكل على الله الى القاهرة وصحبته وزراء السلطان سليم وجم غفير من العساكر العثمانية ونادوا بالامان والاطمئنان، وان لا احد من العسكر العثماني يشوش راحة الاهلين وان كل من عنده مملوك جركسي ولا يظهره يشنق. ولكن لم يلتفت بعض الجنود العثمانيين لهذه المناداة بل ظلوا ينهبون في القاهرة ثلاثة ايام وخطب يوم الجمعة باسم السلطان سليم خان على منابر القاهرة ومصر.

وفي افتتاح سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧م) امر السلطان سليم شاه بالانكفاف عن النهب واشخصوا لديه من قبضوا عليهم من الجراكسة فأمر بضرب اعناقهم، واكمل عسكره حز رأس كل جركسي وجدوه. وفي يوم الاثنين ٣ من المحرم دخل السلطان سليم شاه القاهرة في موكب حافل فارتفعت له الاصوات بالدعاء وكان قدماه الخليفة والقضاة الاربعة. وفي يوم الاربعاء خامس المحرم وثب الاشرف طومان باي على محلة السلطان سليم شاه واحتاطها بالعسكر فانتشبت الحرب ودامت الليل كله الى مغرب الشمس واستؤنف القتال في اليوم التالي فطرد العثمانيون المصريين من بولاق وجزيرة الفيل وقبضوا على بعض المماليك وطردها المصريين من الناصرية الى قناطر السباع، وقسم طومان باي عسكره اربعة اقسام ارسل كل فرقة في جهة فلم ينجحوا واستمر القتال من يوم الاربعاء الى طلوع الشمس يوم السبت ثامن المحرم ولما ظهر لطومان باي امتناع انتصاره على العثمانيين هرب وتوجه نحو الصعيد. واما ما كان في هذه الحرب الطويلة من القتل والنهب واحراق الدور والفظائع فيعجز عن وصفه القلم وهرب الى طومان باي وهو في الصعيد كثيرون من المماليك والعسكر المصري والتف اليه جمع من العربان وارسل يقول للسلطان سليم شاه ان شئت اجعل الخطبة والسكة باسمك واكون انا نائباً عنك بمصر واحمل اليك خراجها وارحل انت عن مصر الى الصالحية وصن دماء المسلمين والا فاخرج إلى ملاقاتي في بر الجيزة ويعطي الله من شاء النصر، فوجه السلطان سليم القضاة الاربعة الى طومان باي مع منشور الامان محلوفاً عليه ان جاء طومان باي خاضعاً. فأرسل طومان باي فقتل سفير السلطان سليم قبل ان يصل اليه مع القضاة فتيقن السلطان سليم ان طومان باي يأبى الصلح والخضوع فنهض اليه بعسكره إلى

بر الجيزة وقدم طومان باي إلى تلك الجهة فكانت موقعة أخرى هائلة تغلب في أولها المصريون ولكن دارت عليهم الدوائر في آخرها، وولى طومان باي منهزماً فلاقاه حسن بن مرعي في ضيعة اسمها البوطة وكان حسن المذكور صديقاً قديماً لطومان باي فنزل عليه ضيفاً بعد أن حلف له أن لا يخونه ولا يدل عليه، وإذا بالعربان احتاطوا عليه من كل جهة وهو لا يدري واعلموا السلطان سليم فارسل جماعة من عسكره فقبضوا عليه وغللوه واتوا به اليه فأقامه مقيداً عنده أياماً. وفي الحادي عشر من ربيع الأول سنة ٩٣٢هـ (سنة ١٥١٧م) شنقه على باب زويلة في القاهرة وكانت سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً وانقرضت به دولة الجراكسة. وقد دامت مئة وأحدى وعشرين سنة قمرية وأول ملوكها السلطان برقوق وآخرهم طومان باي وأصبحت سورية ومصر منذ ذلك الحين إلى اليوم في قبضة ملوكنا العظام وسلاطيننا الفخام السلاطين آل عثمان خان ادام الله ملكهم مدى الزمان ومتع رعاياهم بالتوفيق والنجاح والامان ما تتألى الملوان.

وقد اقتطفنا ما في هذين الفصلين عن تاريخ مصر لابن اياس وعن تاريخ الاسحاقي وعن تحفة الناظرين للشرقاوي وعن تاريخ البطريرك الدويهي.

وليكن هذا ختام هذا المجلد السادس من تاريخنا هذا ويليهِ المجلد السابع في تاريخ سورية في أيام السلاطين العثمانيين وكان النجاز من تصنيفه في اليوم الخامس من شهر نيسان سنة ١٩٠٢م تقبل الله تعبي فيه كفارة عن زلاتي وجعله ملخصاً لوجهه الكريم ونفع به قارئيه يمنه وكرمه فهو ارحم الراحمين آمين.

الطرائف يوسف الدين

تاريخ سوريا
الدولة العثمانية

سورية في أيام السلاطين العثمانيين

إشراف
نظير عبود

رابعه ودقة
الكهولمارون رشيد

دار المطبعة



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء السابع

سورية في أيام السلاطين العثمانيين

إشراف

نظير عبود

راجع وحققه

الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود

فهرس

عدد	صفحة
٩٥٨	أصل السلاطين العثمانيين وملوكهم إلى السلطان سليم الأول
١٧	فاتح سورية

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

الفصل الأول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان في أيامهم

٩٥٩	تكملة أخبار السلطان سليم الأول	٢٦
٩٦٠	السلطان الغازي سليمان خان الأول وما كان في أيامه	٢٩
٩٦١	السلطان الغازي سليم خان الثاني وما كان في أيامه	٣٦
٩٦٢	السلطان الغازي مراد خان الثالث	٣٨
٩٦٣	السلطان محمد خان الثالث وما كان في أيامه	٤٣

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن السادس عشر

٩٦٤	بعض المشاهير السوريين في هذا القرن	٤٥
٤٥	أبو عبدالله محمد بن قاسم الغزي	٤٥

٤٦	عبد البر الحلبي	
٤٦	برهان الدين المقدسي	
٤٦	عائشة الباعونية الدمشقية	
٤٧	زين الدين عمر الحلبي	
٤٧	محمد بن يوسف الدمشقي	
٤٨	محمد بن علي الحموي	
٤٨	الشيخ بدر الدين محمد الغزي	
٤٩	شمس الدين بن طولون الدمشقي	
٤٩	ابراهيم الحلبي	
٥٠	برهان الدين الحلبي	
٥١	شمس الدين محمد الحلبي	
٥٢	شمس الدين محمد الغزي	
٥٢	شمس الدين الرملي	
٥٣	داوود الانطاكي الضرير	
٥٣	تقي الدين الغزي	
٥٤	بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين	٩٦٥
٥٤	جلال الدين السيوطي	
٥٧	أحمد القسطلاني	
٥٧	أبو يحيى زكريا الانصاري	
٥٩	محمد بن أياس المصري	
٦٠	محمد الحضري	
٦٠	عبد الرحيم العبادي	
٦١	حسين بن محمد الديار بكري	
٦١	ابن نجم المصري	
٦٢	عبد الوهاب الشعراني	
٦٣	أحمد الهيثمي	
٦٤	محمد البيركلي	
٦٤	أبو السعود العمادي	

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن السادس عشر

الفصل الأول
بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن السادس عشر

٩٦٦	بطاركة انطاكية في هذا القرن	٦٥
٩٦٧	بطاركة أورشليم في القرن السادس عشر	٦٧

الفصل الثاني
المشاهير الدينيون في القرن السادس عشر

٩٦٨	يوحنا سلوقا بطريرك الكلدان	٦٨
٩٦٩	موسى المارديني	٧٢
٩٧٠	عبد يشوع بطريرك الكلدان	٧٣

الفصل الثالث
الأحداث الدينية في هذا القرن

٩٧١	لوتار وتلاميذه	٧٧
٩٧٢	كلوين وتلميذه بيزا	٨١
٩٧٣	تفنيد بعض غوايات مدعي الإصلاح ولا سيما انكار رئاسة بطرس وخلفائه	٨٥
٩٧٤	رد زعمهم أنّ لكل فرد الحق في تفسير الأسفار المقدّسة	٨٧
٩٧٥	تفنيد زعمهم أن ليس للانسان حرية في أعمال الخلاص	٩١
٩٧٦	تفنيد زعمهم أنّ الأعمال الصالحة غير لازمة للخلاص ويكفي الايمان وحده	٩٣
٩٧٧	وجود جسد المسيح حقيقة في القربان المقدّس	٩٧
٩٧٨	المجمع التريدنتيني	١٠٠

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

٩٧٩	بعض حكامهم وأعيانهم في هذا القرن	١٠٧
٩٨٠	بطاركة الموارنة في القرن السادس عشر	١١٣
	وأولاً في البطريرك موسى العكاري	١١٣
٩٨١	البطريرك ميخائيل الرزي	١١٨
٩٨٢	البطريرك سركيس الرزي	١٢٣
٩٨٣	البطريرك يوسف الرزي	١٢٥
٩٨٤	المجمع الطائفي الذي عُقد في أيام البطريرك ميخائيل الرزي	
	سنة ١٥٨٠	١٢٧
٩٨٥	المجمع الطائفي الذي عقده البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦ ...	١٣١
٩٨٦	أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر	١٣٤
	المطران جبرائيل اللحفدي	١٣٤
٩٨٧	باقي أساقفة الموارنة في هذا القرن	١٣٦
٩٨٨	المشاهير الدينيين الموارنة في القرن السادس عشر	١٤٥

الباب السابع عشر

تاريخ سورية في القرن السابع عشر

القسم الأول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الأول

السلطين العظام الذين تولوها بهذا القرن وما كان في أيامهم

٩٨٩	السلطان أحمد خان الأول	١٤٩
-----	------------------------------	-----

٩٩٠	أخبار الأمير فخر الدين المعني إلى عوده من أوروبا	١٥٢
٩٩١	السلطانان مصطفى خان الأول وعثمان خان الثاني	١٥٨
٩٩٢	ما كان بسورية في أيام هذين السلطانين	١٥٩
٩٩٣	السلطان الغازي مراد خان الرابع	١٦٤
٩٩٤	ما كان بسورية في أيام السلطان مراد خان الرابع	١٦٦
٩٩٥	السلطان ابراهيم خان الأول	١٧٤
٩٩٦	ما كان بسورية في عهد السلطان ابراهيم الأول	١٧٥
٩٩٧	السلطان محمد خان الرابع	١٧٧
٩٩٨	ما كان بسورية في أيام السلطان محمد الرابع	١٨٢
٩٩٩	نكبة القيسية ونهضتهم	١٨٥
١٠٠٠	تتمة أخبار سورية إلى سنة ١٦٨٧	١٨٨
١٠٠١	السلطان سليمان خان الثاني والسلطان أحمد خان الثاني	١٩٢
١٠٠٢	ما كان بسورية في أيام السلطانين سليمان الثاني وأحمد الثاني	١٩٣
١٠٠٣	السلطان مصطفى خان الثاني	١٩٦
١٠٠٤	ما كان بسورية في أيام السلطان مصطفى الثاني	١٩٧

الفصل الثاني

مشاهير القرن السابع عشر

٢٠١	المشاهير السوريون في هذا القرن	١٠٠٥
٢٠١	١ - أحمد القرماني	
٢٠٢	٢ - حسن البوريني	
٢٠٣	٣ - ابن الجوهري	
٢٠٤	٤ - ابن الجزري	
٢٠٥	٥ - ابن حبيب الغزي	
٢٠٦	٦ - البهاء العاملي	

- ٧ - فتح الله البيلوني الحلبي ٢٠٨
- ٨ - نور الدين بن برهان الحلبي ٢٠٩
- ٩ - عبد الرحمان العمادي ٢١٠
- ١٠ - ابراهيم البتروني ٢١٠
- ١١ - صالح التمرتاشي الغزي ٢١١
- ١٢ - النجم الغزي ٢١٢
- ١٣ - ابن النقيب البيروتي ٢١٤
- ١٤ - أبو الوفاء العرضي الحلبي ٢١٤
- ١٥ - خير الدين الرملي ٢١٥
- ١٦ - عبد اللطيف البهائي ٢١٦
- ١٧ - ابن السمان الدمشقي ٢١٧
- ١٨ - علي البصير مفتي طرابلس ٢١٧
- ١٩ - الكواكبي الحلبي ٢١٨
- ٢٠ - الشيخ ابراهيم الفتال الدمشقي ٢١٩
- ٢١ - محمد المحبي ٢٢٠
- ١٠٠٦ بعض المشاهير غير السوريين في هذا القرن ٢٢٠
- ١ - أبو بكر الشنواني ٢٢٠
- ٢ - عبد الرؤوف المناوي ٢٢١
- ٣ - ابراهيم اللقاني ٢٢٣
- ٤ - ابن شيخان ٢٢٤
- ٥ - الاسحاقي ٢٢٤
- ٦ - الشهاب الخفاجي ٢٢٥
- ٧ - الجوهري المكي ٢٢٧
- ٨ - برهان الدين الميموني ٢٢٨
- ٩ - عبد القادر قدرى ٢٢٨
- ١٠ - ابن يبري ٢٢٩

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن السابع عشر

الفصل الأول
بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

- ١٠٠٧ بطاركة انطاكية في القرن السابع عشر ٢٣٠
١٠٠٨ بطاركة أورشليم في القرن السابع عشر ٢٣٣

الفصل الثاني
بعض المشاهير الدينيين السوريين وغيرهم في القرن السابع عشر

- ١٠٠٩ ايليا بطريك الكلدان ٢٣٦
١٠١٠ آدم الرئيس وهو تيموتاوس أسقف آمد ٢٤٠
١٠١١ جبرائيل مطران الكلدان ٢٤٢
١٠١٢ يوسف الثاني بطريك الكلدان ٢٤٣
١٠١٣ اندراوس أخيجان بطريك السريان الكاثوليكين ٢٤٦
١٠١٤ بولس الزعيم ٢٤٨
١٠١٥ أفيميوس الصيفي مطران صيدا الملكي الكاثوليكي ٢٤٩

ملحق
تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول
أعيان الموارنة الدنيويون في القرن السابع عشر

- ١٠١٦ بعض أعيانهم في هذا القرن ٢٥٠
١٠١٧ أبو رزق البشعلاني وابنه يونس ٢٦٠

١٠١٨ أعيان موارد آخرون ٢٦٥

الفصل الثاني

بطارقة الموارد في القرن السابع عشر

- ١٠١٩ البطريك يوحنا مخلوف ٢٦٧
١٠٢٠ البطريك جرجس عميره ٢٧٠
١٠٢١ البطريك يوسف العاقوري ٢٧٢
١٠٢٢ البطريك يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي ٢٧٤
١٠٢٣ العلامة البطريك اسطفانوس الدويهي ٢٧٧

الفصل الثالث

أساقفة الموارد في القرن السابع عشر

- ١٠٢٤ الأساقفة الذين رقامهم البطريك يوسف الرزي ويوحنا مخلوف .. ٢٨٢
١٠٢٥ أساقفة الموارد الى أيام الدويهي ٢٨٧
١٠٢٦ أساقفة الموارد الذين رقامهم البطريك الدويهي ٢٩٠

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارد وفضلائهم في القرن السابع عشر

- ١٠٢٧ بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري ٣٩٢
١٠٢٨ القس جبرائيل الصهيوني الأهدني ٢٩٤
١٠٢٩ العلامة ابراهيم الحاقلي ٢٩٥
١٠٣٠ مرهج بن نيرون الباني ٢٩٧
١٠٣١ مشاهير آخرون بالغيرة والنسك ٢٩٩

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

- ١٠٣٢ الأديار ٣٠٤
١٠٣٣ ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بُنيت في هذا القرن ٣٠٨

ذيل

المجمع الذي عقده البطريرك يوسف العاقوري في دير حراش ... ٣١٠

الباب الثامن عشر

تاريخ سورية في القرن الثامن عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلطين العثمانيون العظام الذين تولوا سورية في هذا القرن

وما كان في أيامهم

- ١٠٣٤ السلطان الغازي أحمد خان الثالث ٣١٥
١٠٣٥ ما كان بسورية من الأحداث في أيام السلطان أحمد الثالث .. ٣١٨
١٠٣٦ السلطان الغازي محمود خان الأول ٣٢٣
١٠٣٧ ما كان بسورية في أيام السلطان محمود الأول ٣٢٦
١٠٣٨ السلطانان عثمان الثالث ومصطفى الثالث ٣٣٠
١٠٣٩ بعض ما كان بسورية في أيام السلطانين عثمان الثالث
ومصطفى الثالث ٣٣٣

٣٣٨	١٠٤٠ خروج الأمير علي بك المصري والشيخ ظاهر العمر في سورية .
٣٤٥	١٠٤١ أحداث أخرى بلبنان في هذه الأثناء
٣٤٨	١٠٤٢ السلطان عبد الحميد خان الأول
	١٠٤٣ ما نعلمه من أخبار سورية في أيام السلطان عبد الحميد
٣٥١	الأول
٣٦١	١٠٤٤ السلطان الغازي سليم خان الثالث
	١٠٤٥ ما نعرفه من تاريخ سورية في أيام السلطان سليم الثالث إلى
٣٦٦	سنة ١٨١٠

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن الثامن عشر

٣٧٩	١٠٤٦ المشاهير السوريون في هذا القرن
٣٧٩	١ - عبد الجليل المواهبي
٣٨٠	٢ - السيد ابراهيم بن حمزة
٣٨١	٣ - محمد الكفيري
٣٨٢	٤ - أبو السعود الكواكبي
٣٨٢	٥ - الشيخ عبد الغني النابلسي
٣٨٤	٦ - أحمد الغزي
٣٨٥	٧ - أحمد العكي
٣٨٥	٨ - عبد الله الطرابلسي
٣٨٦	٩ - عبد المعطي الخليلي
٣٨٦	١٠ - خليل القتال
٣٨٧	١١ - مصطفى البكري
٣٨٩	١٢ - محمد الغزي
٣٨٩	١٣ - حامد العمادي
٣٩٠	١٤ - سعيد السمان
٣٩١	١٥ - محمد السفاريني
٣٩٢	١٦ - حسن البخشي

- ١٧ - أحمد شاكر الحموي ٣٩٣
- ١٨ - عبدالله اليوسفي الحلبي ٣٩٤
- ١٩ - محمد خليل المرادي ٣٩٥
- ١٠٤٧ من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين ٣٩٦
- ١ - السيد عبد الله الخدادي اليمني ٣٩٦
- ٢ - علي العمري ٣٩٧
- ٣ - خليل المصري ٣٩٨
- ٤ - محمد ابن الطيب ٣٩٨
- ٥ - عبدالله السويدي ٤٠٠
- ٦ - يوسف الحفني ٤٠١
- ٧ - محمد التونسي ٤٠٢
- ٨ - عبد الرحمن العيدروس ٤٠٢
- ٩ - عمر البغدادي ٤٠٣
- ١٠ - عطية الله الازهوري ٤٠٤
- ١١ - محمد الكردي ٤٠٤
- ١٢ - محمد مرتضي ٤٠٥
- ١٣ - محمد الصبان ٤٠٥

المجلد السابع

تاريخ سورية

أيام السلاطين العثمانيين

عد ٩٥٨

أصل السلاطين العثمانيين وملوكهم إلى السلطان سليم الأول
فاتح سورية

إنَّ العثمانيين فصيلة من الأتراك سمووا بهذا الاسم نسبةً إلى عثمان بن ارطغرل ابن سليمان شاه، وكان سليمان جد عثمان سلطاناً في بلاد ماهان قرب بلخ، ولما ظهر جنكيزخان التتري وأخرب بلاد بلخ وأخرج منها خوارزم شاه أي سلطان خوارزم سنة ٦١١ هـ (سنة ١٢٥١ م) ارتحل سليمان في عشيرته إلى جهة بلاد الروم ففرق في أحد الأنهر عند عبوره به، وعاد ابنه ارطغرل فقام في جهات ارزروم، وكان ينجد علاء الدين السلجوقي سلطان قونية في حروبه. فكافأه باقطاعه إياه عدّة أعمال ومدن، وهو أخذ لنفسه من ملك الروم مدينة قرهحصار وغيرها. ثم توفي ارطغرل في سنة ١٢٨٨ م على رواية القرمانلي، وسنة ١٢٩٩ م على رواية الاسحاقلي، فخلفه ابنه عثمان جدّ سلاطيننا العثمانيين العظام. وأخذ يجد في توسيع نطاق اقطاعاته وملكه، ولما أغار التتر على آسيا الصغرى سنة ١٣٠٠ وقتل علاء الدين السلجوقي سلطان قونية، استقلَّ عثمان بما كان في يده وسمي باديشاه (أي سلطان) آل عثمان، وجعل قسبة ملكه ايكلي شهر، وأخذ في

تحصينها وتحسين أبنيتها وتوسيع مملكته . وحارب الروم في نيكومدية وظفر بهم . وفي سنة ٧٠٧ هـ (سنة ١٣٠٧ م) فتح ناحية مرمره ، ومنذ سنة ٧١٧ هـ (سنة ١٣١٧ م) أخذ في حصار بورصه ودام هذا الحصار سنين إلى أن فتحها ابنه اورخان سنة ١٣٢٦ . وفي هذه السنة توفي السلطان عثمان وخلفه ابنه اورخان المذكور ، وجعل بورصه قسبة ملكه ، وسنّ نظاماً جديداً للعسكر وسماه بالتركية يكيجارى ويُلَفِظُ يني تشاري . وحزّف بالعريية فصار انشكاري أي الجيش الجديد . وحارب ملك الروم وأخذ نيقية سنة ١٣٣٠ وساقس سنة ١٣٣٤ وابتدأ يشنّ الاغارات على تراسة سنة ١٣٣٥ وهدد القسطنطينية بالفتح سنة ١٣٣٧ ، وأخذ كليبولي سنة ١٣٥٩ إلى غير ذلك من غزواته ، وتوفي السلطان اورخان الغازي سنة ١٣٦٠ وعمره إحدى وثمانون سنة ودُفن بمدينة بورصه .

وخلفه ابنه مرادخان الأول وكانت باكورة أعماله فتحه مدينة أنقورة وأدرنه (ادريانوبل) وفيلبه (فيليببولي) قسبة الروملي الشرقية ، وتالت غزواته وحملاته على المدن التي لم يكن ملكها في آسيا الصغرى وعلى البلغار والصرب في أوروبا ، فملك أكثر المدن الآسيوية ، وأزال استقلال الروملي الشرقية والبلغار والصرب ، على أنه بعد وقعة قرص اوه التي قهر بها الصربيين سنة ١٣٨٨ مرّ السلطان بين القتلى فقام من بينهم جندي اسمه ميلوك كوبلوفتش فطعن السلطان بمدة فكانت الطعنة قاضية . هذا ما رواه محمد فريد بك صاحب تاريخ الدولة العلية ، والذي رواه القرمانى والاسحاقى أنّ أحد أمراء النصارى اسمه دبلوش أو بلواشي أتى إلى السلطان مظهراً الطاعة ، ولما همّ بتقبيل يده ضربه بمدة كانت في كفه فقتله . فصار من الرسوم العثمانية أن لا يدخل أحد بسلاح على السلطان وأن يُفْتَش قبل دخوله . وكانت وفاة السلطان مراد سنة ١٣٨٨ وعمره خمس وستون سنة ومدة ملكه ثماني وعشرون سنة شمسية .

وخلف السلطان مراد ابنه السلطان بايزيد الأول ويقال له يلدرم . وولّى الأمير اسطفان بن ملك الصرب على بلاده ، وأجازته أن يحكم بلاده بحسب قوانينهم بشرط دفعه جزية معيّنة وتقديمه عدداً معيّناً من الجنود ينضمون إلى جيش السلطان وقت الحرب . ثم حارب الملك عمانويل باليولوجوس وحاصر القسطنطينية وترك حولها جيشاً ، وأغار على بلاد الفلاخ وأكره أميرها على التوقيع على معاهدة يعترف بها بسيادة الدولة العثمانية على بلاده ، ويتعهد لها بدفع جزية سنوية . ثم

ضمّ بلغاريا إلى الأملاك العثمانية فصارت ولاية عثمانية . وخشي ملك المجر واستمد بعض ملوك أوروبا لمقاومة المسلمين ، فلبى بعضهم دعوته ، وكانت وقعة هائلة بين الفريقين سنة ١٣٩٦م على نيكوبولي كان النصر فيها لعساكر السلطان بايزيد . ثم عاد يشدّد الحصار على القسطنطينية ، وبلغته أخبار اغارة تيمورلنك على آسيا الصغرى فاضطرّ إلى ابرام الصلح مع ملك الروم والاكتفاء بأنّ هذا الملك يدفع له كل سنة عشرة آلاف ذهب . وأنّ يجيز المسلمين اقامة جامع ومحكمة تفصل دعاويهم الدينية . ثم أسرع لمناوأة تيمورلنك فالتقى الجيشان في سهل انقوره ، وخان السلطان بعض عسكره إذ كان أمراؤهم مع تيمورلنك ، وأبدى السلطان آيات الشجاعة النهار بطوله ووقع أخيراً أسيراً بيد تيمورلنك فأحسن معاملته لكنه توفي سنة ١٤٠٣م .

وبعد وفاة بايزيد ردّ تيمورلنك على بعض أمراء آسيا الصغرى ولاياتهم وعاد أهل البلغار والصرب والفلاخ إلى استقلالهم . واختلف ابنه بايزيد على الملك وتنازعه مدة طويلة إلى أن استقلّ به محمد الأول سنة ١٤١٣ م . وعده أكثر المؤرخين الخامس من السلاطين العثمانيين مسقطين اخوته من عديدهم . وكانت مدة سلطنته موعبة بالحروب الداخلية لاسترداد الامارات التي استقلت بعد موت السلطان بايزيد مأسوراً . وعند منازعة الاخوة أحدهم الآخر ، وبعد أن أثن السلطان محمد المملكة من الشغب والانقسامات صرف قسارى جهده في وضع نظام يتكفل بمحو الفتن واعادة الدولة إلى رونقها السابق ، ولكن فاجأته المنية سنة ٨٢٤ هـ (سنة ١٤٢١ م) بادرته وعمره ٤٣ سنة . وأوصى بالملك لابنه مراد وكان حينئذ بأماسيا فأخفى الوزير خبر موت السلطان إلى أن حضر ابنه واستلم مقاليد الدولة . والأظهر أنّ السلطان محمد الأول هو أول من أرسل من العثمانيين الصرة السنوية إلى أمير مكّة وهي عبارة عن مبلغ من المال يرسله السلطان إلى أمير مكّة ليوزعه على فقراء مكّة والمدينة . ولكن لم تكن تبلغ ما تبلغه الآن ، وقيل إنّ السلطان سليماً الأول هو أول من ابتدأ في ارسال الصرة بعد أخذه سورية ومصر .

وخلف السلطان مراد خان الثاني الغازي أباه السلطان محمد سنة ١٤٢١ م . المذكورة وكان عمره ثماني عشرة سنة . ومن بواكير أعماله صلحه مع أمير قرمان وعقده هدنة مع ملك المجر إلى خمس سنين . وقد طلب منه عمانويل ملك الروم أن يتعهد له بأن لا يحاربه مطلقاً وأن يسلمه اثنين من اخوته رهينة لقيامه بهذا

التعهد ، ولأ فيطلق سبيل الأمير مصطفى عم السلطان مراد الذي كان في حوزة هذا الملك ، وإذ لم يجبه السلطان إلى طلبه أطلق الملك الأخير مصطفى وأعطاه عشرة مراكب حربية بأمره ديمتريوس لاسكاريس فأتى مصطفى بها وحاصر كليبولي فسلمت إليه القلعة فتركها وقصد ابن أخيه السلطان مراد بادرنه ، فخانه بعض قواده وتركه أكثر جنوده فاضطر إلى الانهزام وعاد إلى كليبولي فسلمه بعض أتباعه إلى ابن أخيه فكان آخر العهد به .

وسار السلطان مراد إلى القسطنطينية ليأخذ بثأره من ملك الروم الذي أطلق عمه فحاصر هذه المدينة في ١٤ آب سنة ١٤٢٢م فلم يتمكن من فتحها لعصيان أحد اخوته عليه واستعانت عليه ببعض أمراء آسيا . فأخمد السلطان مراد هذه الفتنة أيضاً بقتل أخيه وارهاب محازبيه ، واستردّ الولايات التي كان تيمورلنك قد أعادها إلى استقلالها ، وصرف عزمه إلى استرداد ما كان للعثمانيين في أوروبا ، فكانت له محاربة شديدة مع ملك المجر فانتصر عليه وأجبره على معاهدة من فحواها أن يتخلّى ملك المجر عن كل ما له على عدوة نهر الدانوب اليمنى ليكون هذا النهر فاصلاً بين أملاك الدولة العلية والمجر . ولما رأى أمير الصرب جرج برنكو فيتش عجزه عن مناوأة السلطان مراد عاهده أن يدفع إليه كل سنة خمسين ألف دوكا ذهباً ، وأن يقدم له فرقة من جنوده في وقت الحرب . وفي سنة ١٤٣٠م أعاد السلطان فتح سالونيك التي كان ملك الروم قد تخلّى عنها إلى جمهورية البندقية ، وقصد البانيا فأطاعه سكان يانية وغيرهم مشرطين عدم التعرض لهم في أمور دينهم وعوائلهم . وفي سنة ١٤٣٣م اعترف أمير الفلاخ بسيادة العثمانيين عليه تخلصاً من غوائل الحرب ، ثم ثار هو وأمير الصرب على السلطان مراد بتحسين ملك المجر لهما الانتفاض على السلطان فحاربهما وقهرهما ، وحارب ملك المجر وأثنى في أهل مملكته وعاد سنة ١٤٣٨م من هذه الحرب بجسم غفير من الأسرى ، ثم حاصر بلغراد عاصمة الصرب ولم يتوفّق إلى فتحها ، فأغار على بلاد ترانسلفانيا وكانت له حروب فيها مع جيوش ملك المجر ، فتغلّب هونيد قائد جيش المجر على عساكر السلطان في وقعات كثيرة . ثم عُقد الصلح على أن يتخلّى السلطان عن سيادته على بلاد الفلاخ ويردّ إلى أمير الصرب بعض المدن التي كان قد أخذها منه . وأن يهادن ملك المجر عشر سنين . ووقع على هذه المعاهدة في ٢٦ ربيع الأول سنة ٨٤٨ الموافقة ١٢ تموز سنة ١٤٤٤م .

وتوفي أكبر أولاد السلطان مراد فوجد عليه كثيراً، فتنحى عن الملك وسلمه إلى ابنه محمد واعتزل في جهات ايدین، ولم يمكث إلا واثاه الخبر بأن ملك المجر أخل بالهدنة وأتى وحاصر فارنه فهب السلطان مراد وجميع عساكره، فبدد المجر عن فارنه وقتل ملك المجر لاوسلاس. وبعد انتصاره عاد إلى خلوته، لكنه لم يلبث فيها إلا قليلاً لأن الانكشارية ازدروا ملكهم محمد وعصوه ونهبوا ادرنه. فعاد السلطان مراد فأحمد فتنهم سنة ١٤٤٥م ولكي يشغلهم بالحرب أغار على بلاد اليونان وقصد مدينة قورنثية، وكانت محصنة ففتحت مدافع العثمانيين (هذا كان أول استعمال العثمانيين المدافع) ثلماً في أسوارها دخلت بها الجنود إلى هذه المدينة وملكوها، لكنهم لم يتمادوا بأخذ باقي البلاد لأن اسكندر بك الشهير أحد أبناء جورج كستريو أمير البانيا الشمالية واغتنم فرصة محاربة السلطان للملك المجر فدخل البانيا، ودعا رؤساء قبائل الالبانيين فوافقوه على استخلاص بلادهم من يد العثمانيين، وجمعوا الرجال وطرّدوا العثمانيين من أكثر مدن بلادهم، فسار السلطان إليهم في جيش كثيف واسترد منهم مدينتين من أهم المدن سنة ١٤٤٧م وردّه عنهم عود المجر إلى الحرب واشتغال عساكر السلطان بها. وبعد أن انتصر على المجر سنة ١٤٤٨م عاد لمحاربة اسكندر بك. وأراد أن يصلحه على أن السلطان يقلده ولاية البانيا فأبى اسكندر بك إلا مواصلة القتال. وكان عسكر السلطان قليلاً ومضموناً في تواصل الجهاد، فعاد إلى ادرنه ليريح عساكره ويجمع غيرها فتوفي بها في ٥ المحرم سنة ٨٥٥ الموافق ٩ شباط سنة ١٤٥١ م.

وخلفه ابنه محمد الثاني الغازي فاتح القسطنطينية وكان مولده سنة ١٤٢٩م وعمره حين استوى على عرش الملك اثنان وعشرون سنة فنقل جثة أبيه إلى بورصه، وأخذ يتأهب لفتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية، ثم حاصر هذه المدينة سنة ١٤٥٣م من جهة البرّ بجيش لا يقلّ عن المائتي ألف جندي، ومن جهة البحر بأسطول مؤلف من مئة وثمانين سفينة. وكان ملك الروم اسمه قسطنطين فاستمد ملوك أوروبا فلبى دعوته جمهورية جنوا. وأرسلت أسطولاً بأمره جرسينياني فكانت حرب هائلة بين الأسطولين انتصر فيها الجنويون، ورفع الروم لهم السلاسل الحديدية المانعة لدخول سفن العثمانيين، فدخلت سفن جنوا وأعادوا تلك السلاسل وراءهم، فمهد السلطان محمد طريقاً في البرّ ورفضه بالأواح صبّ عليها زيتاً ودهناً لتلق السفن عليها، فتمكن في ليلة واحدة أن يدخل سبعين سفينة

إلى البحر داخل السلاسل . وفي اليوم التالي هاجم المدينة بجيشه البري وبمن كانوا بالسفن فافتتحها في ٢٠ جمادى الأول سنة ٨٥٧ هـ (٢٩ أيار سنة ١٤٥٣ م) وأرخ بعض الشعراء هذا الفتح بقوله:

رام أمر الفتح قوم أولون حازه بالنصر قوم آخرون

فأحرف آخرون بحساب الجمل ٨٥٧ وأرخ ذلك غيره بقوله بلدة طيبة . ودخل السلطان كنيسة اجيا صوفيا وأمر أن يؤذن فيها اعلناً بجعلها جامعاً للمسلمين . وبعد الفتح أباح النصارى اقامة شعائر دينهم وحریتهم فيه وحفظ أملاكهم وأعطاهم نصف الكنائس وجعل النصف الآخر جوامع . وأذن لهم باقامة بطريك وفرض عليهم الجزية مستثنياً منها أئمة الدين .

وبعد فتح السلطان القسطنطينية سار قاصداً فتح المورة ، فأرسل ديمتريوس وتوماس أخو قسطنطين الملك حاكما المورة يعرضان عليه قبول دفع جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوكا ، فاكتمى السلطان بذلك وسار إلى الصرب فسأل أميرها الصلح مع السلطان على أن يدفع كل سنة ثمانين ألف دوكا ، فأجابه السلطان إليه ، وكان ذلك سنة ١٤٥٤م لكنه أعاد الكرة في السنة التالية على بلغراد عاصمة الصرب وحاصرها ، وكان هويناد القائد المجري الشهير قد دخل إليها فدافع عنها حتى اضطر السلطان إلى رفع الحصار عنها سنة ١٤٥٥م . وكان هويناد أصيب بجراح مات بسببها بعد رفع الحصار ، فأرسل السلطان بعد موته الصدر الأعظم محمود باشا فاتم فتحها من سنة ١٤٥٨ إلى سنة ١٤٦٠م وزال استقلال الصرب قطعاً . وفي هذه المدة عاد السلطان إلى المورة فاستحوذ عليها ، وهرب توماس إلى ايطاليا ، ونفى ديمتريوس أخوه إلى جزيرة في الأرخبيل . وبعد عوده من المورة صالح اسكندر بك المذكور وترك له ولاية البانيا وايبيروس وسار إلى آسيا الصغرى يدوخ ما بقي بها غير خاضع له ففاز بما تمنى ، ودخل مدينة طرابيزون دون مقاومة شديدة وقبض على الملك وأولاده وزوجته وأرسلهم إلى القسطنطينية .

وقصد السلطان بعد ذلك بلاد الفلاخ فتظاهر ملكها بطلب الصلح على أنه يدفع كل سنة عشرة آلاف دوكا فأجابه السلطان إلى ذلك ، لكن هذا الملك اتحد مع ملك الجرج وانتقض على السلطان فسار إليه بمائة وخمسين ألف مقاتل فهزمه وشتت جمعه وانتهى إلى بوخارست عاصمة ملكه ، وانهزم ملك الفلاخ إلى ملك

الجزر فعزله السلطان ونصب أخاه مكانه ، وضمّ بلاده إلى أملاك الدولة العلية . وفي سنة ١٤٦٢م حارب السلطان أمير البشناق لامتناعه عن دفع الجزية وأسرّه هو وابنه وأمر بقتلهما فدانت له البشناق . وفي سنة ١٤٦٤م حاول ملك الجزر أخذ البشناق فهزمته جيوش السلطان وأصبحت البشناق ولاية عثمانية وخسرت ما كان لها من الامتياز . ومنذ سنة ١٤٦٣م ابتدأت العدواة بين السلطان وجمهورية البندقية فاستحوذ العثمانيون على مدينة ارغوس . وكانت للبنادقة فأرسلت الجمهورية أسطولاً إلى المورة فتأثر سكانها وقتلوا الحامية التي بها ، وحاصروا قورنثية واستردوا ارغوس ، فهبّ السلطان اليهم في ثمانين ألفاً ، فأرجعوا ما كان البنادقة قد أخذوه . ولكن ثار اسكندر بك الشهير والي البانيا وحارب العثمانيين في مواقع كثيرة لكنه توفي سنة ١٤٦٧م بعد أن حارب خمساً وعشرين سنة . واستؤنف القتال بين العثمانيين والبنادقة فافتتح العثمانيون اجريوس مركز مستعمرات البنادقة في بحر الروم سنة ١٤٧٠م . وفي هذه السنة ضمّ السلطان بلاد قرمان إلى مملكته . وفي سنة ١٤٧٥م حاربت العساكر العثمانية بلاد البغدان فلم تفز بالنصر . فعزم السلطان على فتح بلاد القرم ليستعين بفرسانها على فتح البغدان ، فدانت له بلاد القرم وأصبحت ولاية من ولاياته . وعاد جيشه إلى البغدان فاشتهر اسطفانوس الرابع أميرها بالمداقة سنة ١٤٧٦م فلم تنل العساكر العثمانية مأزباً من هذه البلاد . ثم جرت معاهدة صلح بين السلطان والبنادقة سنة ١٤٧٩م بعد تخليهم عن أشقودره للسلطان . وفي سنة ١٤٨٠م فتحت عساكر السلطان الجزر الواقعة بين بلاد اليونان وايطاليا ومدينة أوترانت في جنوبي ايطاليا ، وحاولت فتح جزيرة رودس التي كانت حينئذ بيد فرسان القديس يوحنا فلم تتمكن من فتحها .

وفي سنة ١٤٨١م توفي السلطان محمد الثاني صاحب هذه الفتوحات الكثيرة وعمره ثلاث وخمسون سنة ومدة ملكه إحدى وثلاثون سنة . وسنّ نظامات كثيرة في المملكة وخلفه في الملك ابنه بايزيد الثاني الذي كان حاكماً بأماسية ، وكان ميالاً إلى السلم أكثر من ميله إلى الحرب ، ولكن كان له أخ يسمى جم ويسميه الفرنج زيزيم كان حاكماً بقرمان . ولما بلغه خبر وفاة أبيه سار في من لاذ به فدخل مدينة بورصة عنوة ، وراسل أخاه أن يقتسما المملكة بينهما فلم يجبه السلطان بايزيد إلى ذلك بل حاربه وهزمه إلى تخوم مملكة مصر وسورية ، فأقام جم مدة بالقاهرة وعاد إلى حلب ، وسار في محازبيه لحصار قونية فصدها واليها عنها ،

وراسل أخاه في أن يقطعه بعض الولايات فأبى ، فالتجأ الأمير جم إلى فرسان القديس يوحنا برودس طالباً أن يساعده على نيل أغراضه فقبلوه بالتجلة والاکرام ، فأرسل السلطان بايزيد إلى رئيس هؤلاء الفرسان أن يقي أخاه عندهم ويتعهد له بعدم التعرض لاستقلال جزيرتهم مدة ملكه ، ويدفع لهم كل سنة خمسة وأربعين ألف دوكا . فقبل الفرسان ذلك ووفوا بعهدهم ، وأرسلوا الأمير محفوظاً إلى نيس ثم إلى شميري ، وبقي متنقلاً في فرنسة إلى سنة ١٤٨٩م . ثم انتقل إلى روما . وفي هذه الأثناء حاصر ملك فرنسة روما وطلب من البابا تسليم الأمير جم فسلمه إياه وبقي مع جيش فرنسة إلى سنة ١٤٩٥م حين توفي بنابولي ونُقلت جثته إلى بورصة .

أما السلطان بايزيد الثاني فقلّ ما كان له من الفتوحات ، ولكن كانت له وقعات مع بعض المتاخمين لمملكته فصدهم عن السطو عليها . وحصلت وحشة بينه وبين سلطان مصر وسورية فأصلح باي تونس بينهما تفادياً من حرب بين سلطانين مسلمين . ثم افتتحت عساكر بايزيد بلغراد عاصمة الصرب وكانت كنقطة سوداء بين أملاك الدولة العلية والحجر ، وكانت للسلطان بايزيد علاقات حسنة مع روسيا ثم مع بولونيا ولكن تكدر صفاء السلم بينه وبين هذه الدولة الأخيرة لادعاء كل من الدولتين السيادة على البغدان . وأغار ملك بولونيا على هذه البلاد فصده عساكر بايزيد وسطت على تخوم بولونيا . وكانت مخابرات بين السلطان وبين البابا اسكندر السادس وملك نابولي ودوك مديولان وجمهورية فلورنسا طمعاً بمساعدة العساكر العثمانية لهم بشؤونهم . واستجد الخلاف بين السلطان والبنادقة ، وأرسل البنادقة فحاصروا جزيرة مدلي ليمنعوا العثمانيين عن السطو على بلادهم ولاح الظفر للعثمانيين ، ولكن عصا في تلك المدة على السلطان بعض أولاده فاشتغل عن الحرب في خارج المملكة .

وكان للسلطان بايزيد ثمانية أولاد مات خمسة منهم صغاراً وبقي له ثلاثة: وهم كركود وأحمد وسليم . وكان كركود من أهل العلم والأدب لا يهتم بالسياسة والحرب ، وكان أحمد يحبه الأعيان والأمراء ، وأما سليم فكانت عامة الجنود والانكشارية خاصة يميلون إليه ، وخشى والدهم أنّ اختلاف النزعة بينهم يؤدي بهم إلى النزاع ، فنصب كلّ منهم في ولاية . وكان منصب سليم طرابزون فلم يرضه وطلب إلى أبيه أن يوليه إحدى ولايات أوروبا فأبى السلطان اجابة طلبه .

فانتفض سليم على والده وجاهر بالعصيان وسار في جيش من قبائل التتر إلى الروملي، وأرسل والده جيشاً لارهابه فلم يهرب، وسار إلى ادرنه وسمى نفسه سلطاناً عليها. فأرسل أبوه جيشاً فانهزم منه لكن أرغم والده على العفو عنه لالحاح الانكشارية فعفا ونصّبه والياً على سمندرية، فالتقاء الانكشارية في طريقه وأتوا به إلى القسطنطينية باحتفال عظيم، وساروا به إلى القصر وسألوا السلطان أن يتنازل عن الملك لابنه سليم، فاستقال سنة ١٥١٢م وسافر للإقامة بدبموتيقا فتوفي بطريقه في ١٠ ربيع الأول سنة ٩١٨ هـ (في ٢٦ أيار سنة ١٥١٢ م) وكان عمره ٦٧ سنة ومدة ملكه ٣٢ سنة.

وبعد أن أحمد السلطان سليم ثورة أخوته وأبنائهم عليه سار إلى ادرنه وأتاه سفراء من قبل البندقية والمجر والروس وسلطنة مصر فأبرم معهم هدنات لمئات طويلة لخوفه من تقدّم الفرس وملكهم شاه اسماعيل الشيعي الذي كان قد فتح عدة ولايات. وانبسطت مملكته واستفحل أمره فعالنه السلطان سليم بالحرب وسافر بجيوش من ادرنه قاصداً تبريز، وكانت له وقعات مع شاه العجم انتصر بها على عدوّه ودوّخ قسماً كبيراً من بلاده وعاد إلى القسطنطينية وترك قوّاده يستكملون فتح باقي مدن الشاه اسماعيل. ففتحوا ماردين وأورفة والركة والموصل وكان ذلك سنة ١٥١٥م. ثم عاد سنة ١٥١٦م قاصداً الشام ومصر والتقى مع سلطان مصر قانصوه الغوري في مرج دابق وكانت بينهما الواقعة التي ذكرناها في عد ٩٥٧ حيث تشتتت عساكر الغوري ومات هو كمدأ. وأخذ السلطان سليم سورية ومصر سنة ١٥١٧م كما مرّ في الاعداد الأخيرة من المجلد السادس. وسنذكر في ما يلي باقي أعماله والأحداث التي كانت في أيامه. انتهى ملخصاً عن القرمانلي والاسحاقلي وكتاب تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد بك وعن تاريخ العثمانيين للعالم دي لأكروا.

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

الفصل الأول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن
وما كان في أيامهم

عد ٩٥٩

تكملة أخبار السلطان سليم الأول

استوفينا قبلاً الكلام في فتح السلطان سليم سورية ومصر، وقد قام بمصر بعد فتحها مدة دبر بها مهام هذه البلاد ووضع نظاماً لادارتها على هيئة ولاية من ولايات السلطنة العثمانية، نصب فيها خير بك أحد أمراء المماليك الذين خانوا طومان بك وانضموا إليه، وتخلّى له الخليفة المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين عن الخلافة الدينية. فصار السلطان سليم الأول وجميع خلفائه العثمانيين إلى اليوم سلاطين وخلفاء دينيين وأمراء المؤمنين. وقد ذكرنا قبلاً أنه بعد سقوط بغداد مقرّ الخلفاء العباسيين بيد التتر انتقل هؤلاء الخلفاء إلى مصر فكان بها منهم خمسة عشر خليفة آخرهم محمد المتوكل على الله المذكور. وكان منهم في العراق سبعة وثلاثون خليفة، وفي مصر خمسة عشر فجعلتهم اثنان وخمسون خليفة. وابتدأت خلافتهم سنة ٧٥٠ م وانقضت سنة ١٥١٧م فمدته ٧٦٧ سنة شمسية.

وسار السلطان سليم من مصر إلى سورية مستصحباً معه آخر الخلفاء من بني العباس، فبلغ إلى دمشق في ٢٠ رمضان سنة ٩٢٣هـ الموافق ٧ تشرين الأول سنة ١٥١٧ م. ونصب جان بردي الغزالي نائباً للسلطنة بدمشق، وأضاف إليها القدس

وغزة وصفد والكرك، وأقام عمالاً لحلب وحمص وطرابلس والمدن البحرية ، وكتب إلى أمراء لبنان يؤمنهم ويدعوهم إليه، فحضر إليه الأمير قرقماز ابن الأمير يونس بن معن ، والأمير جمال الدين اليميني، والأمير عساف التركماني وغيرهم ، وأما أمراء الغرب التنوخية فلم يحضروا لأنهم كانوا من محازبي المماليك الجراكسة فاختشوا من السلطان ، فولّى الأمير قرقماز بلاد الشوف والأمير جمال الدين الغرب ، والأمير عساف كسروان وبلاد جبيل . وأمرهم أن يحسنوا السياسة ، ويجروا العدالة كلاً في قومه ، وأن يبدلوا الجدد في تعمير البلاد ونجاح أحواله . وفرض على بلادهم مالا قليلاً رحمةً منه لرعاياه، فقد جعل مثلاً على كسروان سبعمائة سلطاني ، والسلطاني ثلثا القرش الأسدي ، وأعطاهم بذلك خطأ شريفاً . هذا ما رواه البطريق اسطفانوس الدويهي في تاريخ سنة ١٥١٧م . وروى الأمير حيدر شهاب في تاريخه الذي طبع بالقاهرة سنة ١٩٠٠م أنّ الذي حضر من الأمراء آل معن لدى السلطان هو الأمير فخر الدين . ابن الأمير عثمان بن معن وإنه مثل أمام السلطان وتلا الدعاء الآتي:

« اللهم آدم دوام من اخترته لملكك وجعلته خليفة عهدك . وسلّطته على عبادك وأرضك . وقلّدتك سلطتك وفرضك . ناصر الشريعة الغراء . وقائد الأئمة الطاهرة الزاهرة سيدنا وولي نعمتنا أمير المؤمنين . الامام العادل والذكي الفاضل الذي بيده أزمة الأمر بادشاه آدم الله بقاءه . وفي العزّ الدائم أبقاءه وخلد في الدنيا مجده ونعماءه . ورفع إلى القيامة طالع سعده وبلغه مأموله وخير قصده . من ملك الملك بالعقل والتدقيق ومثله الله بالاقبال والتوفيق . أعاننا الله بالدعاء لدوام دولته بالسعد والتخليد . بأنعم العزّ والتمهيد امين » .

ويظهر أنّ حلم السلطان سليم وتوصياته لعماله بالجدّ في تعمير هذه البلاد زادت في عمرانه . فقد روى البطريق الدويهي أنّ الناس قصدت لبنان من كل جهة . فأتى فريق من المتأولة من بلاد بعلبك وتوطنوا في فاريا وحراجل ويقعاتا . وقدم بعض المسلمون السنة وسكنوا فتقا وساحل علما وفيطرون وفقيع وعرامون والجديدة، كل هذه القرى من أعمال كسروان . وأتى بعض الدروز من جهة الجرد وأقاموا بيرمانا ومزارع كسروان (الذي كان تخمه الجنوبي الجمعاني) ونرح بعض النصارى من نواحي طرابلس، منهم أهل المجدل فقطنوا عرامون وهاجر أهل يانوح فسكنوا في الكفور بالفتوح ، وارتحل الشيخ حبيش بن موسى بن

ميخائيل في عياله من يانوح إلى غزير . وكان الأمراء آل عساف يسكنون أولاً عين شقيق في مدة الصيف وعنطورا في مدة الشتاء . وجماعتهم يقيمون بالأزواق على ساحل البحر . ولما قرّر السلطان سليم الأمير عساف في ولاية كسروان جعل مقامه في غزير ، وكان له ثلاثة بنين حسن وحسين وقيتيه ويروى قيديه وقاديه .

وفي سنة ١٥١٨م توفي الأمير عساف والي كسروان وبلاد جبيل فولّى نائب السلطنة بدمشق مكانه ابنه حسن لأنه كان البكر، ووقعت الفتنة بين الأمير قيتيه وبين أخويه حسن وحسين فأكرها الأمير قيتيه أن يفرّ إلى الشويفات عند الأمير جمال الدين حاكم الغرب المذكور، ثم سعى بعضهم بالصلح بينهم ونزل الأمير حسن وأخوه الأمير حسين إلى بيروت فغدر بهما أخوهما قيتيه وقتلها، وأراد أن يقتل منصوراً ابن أخيه حسن ثم أحجم عن ذلك ريثما يلد هو ولدأ يخلفه . وأخذ الولاية على كسروان وقبض على يوسف وسليمان ابني الشيخ حبيش المذكور لأنهما كانا يخدمان أخويه فحبسهما وغرمهما بمبلغ من المال ونفاهما إلى مصر . واستمر قيتيه حاكماً في كسروان إلى وفاته . هذا ما رواه البطريرك الدويهي . وجاء في تاريخ الأمير حيدر شهاب أنّ الأمير حسين هو الذي ولي كسروان بعد وفاة أبيه ، وبعد أن توفي هو وليه أخوه الأمير حسن ، ونازعه الأمير قيتيه . وبعد وقوع الصلح بينهما اغتال قيتيه حسناً وأخذ الولاية على كسروان . ونؤثر نحن رواية البطريرك الدويهي على رواية الأمير حيدر .

وأما السلطان سليم فبعد أن أقام مدة في دمشق زایلها وسار إلى حلب فأقام بها شهرين يدير شؤونها، ثم سار إلى القسطنطينية عاصمة ملكه ولم يبق فيها إلا عشرة أيام للاستراحة . وارتحل إلى ادرنه وأتاه سفير من قبل ملك اسبانيا يسأله اباحة النصارى الحجّ إلى أورشليم كما كان في أيام دولة المماليك الجراكسة ، فأجابه السلطان إلى ذلك على شرط دفع المبلغ الذي كان يُدفع قبلاً للماليك . وأخذ السلطان في تجهيز عمارة بحرية للحملة على رودس واعداد عسكر لمحاربة شاه العجم ثانياً ، ولكن عاجلته المنية قبل النجاز ذلك فتوفي في ٩ شوال سنة ٩٦٩هـ (٢٢ ايلول سنة ١٥٢٠ م) وهي السنة التاسعة من سلطنته والحادية والخمسين من عمره .

السلطان الغازي سليمان خان الأول وما كان في أيامه

وُلد هذا السلطان في غزّة شعبان سنة ٩٠٠ هـ (٢٧ نيسان سنة ١٤٩٤ م) وهو العاشر من السلاطين العثمانيين، وكان غائباً عند وفاة أبيه فعاد بعدها مسرعاً إلى القسطنطينية فاستوى على منصّة السلطنة في ١٦ شوال سنة ٩٢٦ هـ (٣٠ ايلول سنة ١٥٢٠ م). ولما وصل خبر ارتقائه تحت السلطنة إلى دمشق سوّلت للغزالي واليهما نفسه الخروج، وجاهر بالعصيان واستولى على قلعة دمشق وأرسل أحد أتباعه ليحتلّ بيروت، وجدّ في استمالة خير بك عامل مصر إلى غرضه مبيتاً به سهولة النجاح لبعدهما عن مقرّ الخلافة وحدائث سن السلطان، فلم يجبه خير بك إلى مطلوبه بل أرسل إلى السلطان كتاب الغزالي إليه، وبعث السلطان فرحات باشا أحد وزرائه في جيش كافٍ لكبت الغزالي واخماد نار ثورته قبل امتدادها. فسار فرحات باشا في آخر ذي الحجة سنة ٩٢٦ هـ (تشرين ثاني سنة ١٥٢٠ م) وانتهى إلى حلب في ٢٢ كانون الأول فوجد الغزالي محاصراً لها. فعاد الغزالي دون قتال إلى دمشق فتحصّن بها، فتأثره فرحات باشا وحاصره بدمشق. وخرج الغزالي لقتاله في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٥٢٢ م فهزمه فرحات باشا وفزّ متذكراً، ولكن خانه بعض أصحابه وقبض عليه وسلمه إلى فرحات باشا فقتله وأرسل رأسه إلى القسطنطينية. ذكر ذلك كثيرون من المؤرخين العرب ودي لاكروا في تاريخ العثمانيين.

ولم يسترح بال السلطان من جهة سورية إلّا وورد له الخبر أنّ ملك المجر قتل السفير الذي كان قد أرسله إليه يطلب دفع الجزية ويهدده بالحرب، فأمر السلطان بتجهيز العساكر إلى المجر وسيّرها بقيادة أحمد باشا، وسار هو بأثرها وحاصر بلغراد وفتحها بعد دفاع شديد. وأخلت عساكر المجر قلعتها في ٢٩ آب سنة ١٥٢١ فدخلها السلطان، وصلّى الجمعة في إحدى كنائسها التي حوّلت جامعاً. وكان فتح بلغراد أكبر مساعد على فتح ما وراء الدانوب. وأرسل السلطان يخبر ملوك أوروبا بانتصاره وهنأه بعضهم. وفي سنة ١٥٢٢ م وقّع السلطان وجمهورية البندقية على معاهدة تجارية تأييداً للمعاهدة السابقة وزيد عليها أنّ قنصل الجمهورية في الآستانة يلزم تبديله كل ثلاث سنين. وإنّ دعاوى التركات ترى في ديوانه ويحق

له أن يرسل ترجماناً يحضر المرافعة في الدعاوى التي تكون لرعيته أمام المحاكم العثمانية . وكانت هذه المعاهدة أساساً لحقوق القناصل ببلاد الدولة العلية .

ثم أخذ السلطان يعدّ العساكر والعدد لفتح رودس منتهزاً فرصة الخلاف والحروب التي كانت بين ملوك أوروبا ولا سيما فرنسيس الأول ملك فرنسا وشارل الخامس ملك اسبانيا . وكانت رودس بيد فرسان القديس يوحنا الأورشليمي ، وكان رئيسهم حينئذ فيليب دي فيليا الفرنسي . وأرسل السلطان قبل الحصار عرض على رئيس الفرسان أن يتخلّى عن الجزيرة متعهداً بأنه يؤمنهم على نفوسهم وأموالهم فأبى الرئيس الاذعان لهذا الاقتراح ، فسّير السلطان جيشاً كثيفاً يحاصر الجزيرة براً ، وأسطولاً كبيراً يحاصر قصبتها بحراً . وأتمر على جيشه مصطفى باشا ، فأقام الحصار على مدينة رودس وتمكّن من انزال بعض الجيش إلى البرّ فشدّ الحصار عليها بحراً وبراً ، ولم يكن فيها إلّا نحو ست مئة فارس وخمسة آلاف أو ستة من الجنود فدافعوا مدافعة الأبطال وأبدوا آيات البسالة . ويقال أنّ النساء أنفسهن كنّ يساعدن الرجال بالقاء الأحجار على المحاصرين ، وصبّ الزيت الغالية على رؤوسهم .

وفتح العثمانيون بقلل مدافعهم ثلثات في أسوار المدينة وحاولوا الدخول إليها فصدّهم المحصورون . وكان بين الفرسان رجل اسمه اندراوس دامارال كان قد نازع الرئيس الرئاسة فلم ينلها ، فكان يبلغ مصطفى باشا قائد العثمانيين أخبار أصحابه ، ثم سار السلطان سليمان بنفسه إلى رودس فعاودت الشجاعة جنوده وتبدّل اليأس بالرجاء ، فكانت وقعة هائلة قُتل بها خلق كثير من الفريقين لكنها لم تكن الفاصلة ، فعزل السلطان مصطفى باشا عن قيادة الجيش ، وولّى مكانه بيرى باشا فاتخذ طرقات أخرى للتضييق على الفرسان كمنع وصول الأقوات إليهم ، وألغم تحت أسوار المدينة ومواصلة ايقاد نار المدافع والبنادق حتى يئس الرودسيون وتولاهم القنوط ، واكتشفوا حينئذ على خيانة اندراوس المذكور فقتلوه كيلاً يثيبه السلطان . وراسلوا السلطان بالتسليم فأجابهم إليه وقبل شرطهم أن يخلوا المدينة في مدة اثني عشر يوماً ، وأن تبعد الجيوش العثمانية عنها مسافة ميل من كل هجماتها كيلاً يضرّوا بهم عند خروجهم . فخرجوا وساروا إلى مالطة وتنازل لهم عنها شارل الخامس ملك اسبانيا فسكنوها إلى أن احتلها نابوليون بونايرت عند حملته على مصر سنة ١٧٩٨م ، وقدمنا أنه كان بين هؤلاء الفرسان جماعة من الموارنة . وامتلك السلطان سليمان رودس وعاد ظافراً إلى الآستانة .

وكانت في تلك الأثناء حروب بين فرنسيس الأول ملك فرنسا وشارل الخامس ملك اسبانيا وهولاندا وعاهل المانيا، وأخذ ملك فرنسا أسيراً فراسل بعد تخلية سبيله السلطان سليمان في عقد محالفة بينهما الغرض منها أن يحارب السلطان شارل الخامس من جهة المجر ويشغله من جهة المشرق ليقوى عليه ملك فرنسا من جهة المغرب. وأرسل ملك فرنسا سفيراً إلى السلطان فاحتفى بقبوله وأجاب ملك فرنسا جواباً لطيفاً أثبتته جودت باشا في الجزء الأول من تاريخه. وسار السلطان في جيش كثيف لمحاربة المجر في ٢٥ نيسان سنة ١٥٢٦م فأخذ عدّة قلاع، ثم كانت واقعة هائلة بين العثمانيين والمجر قُتل فيها لويس ملك المجر وتشتت جيشه شذر مذر، وحصلت فوزى في المجر لاختلافهم في اقامة ملك، فأضاعت هذه البلاد استقلالها. وفي سنة ١٥٢٧م ادعى فردينان ملك النمسا وأخو شارل الخامس أنّ ملك المجر يحق له لأنه نسيب الملك لويس الذي قُتل، وسار في جيش لمحاربة جان زابولي الذي نصبه السلطان ملكاً على المجر، فاستنجد هذا بالسلطان فأمدّه سنة ١٥٢٨م بجيش أتمر عليه ابراهيم باشا، ثم سار السلطان بنفسه في جيش عرمرم وانتهى إلى مدينة بود حيث كان محتلاً فردينان ملك النمسا. وحاصر المدينة ففرّ ملك النمسا إلى فيينا فتبعه السلطان إليها وحاصرها وسلط مدافعه على أسوارها، ولكن طال الحصار وأقبل الشتاء والبرد المعهود في تلك الجهات فعاد السلطان في جيشه إلى المجر ثم إلى الآستانة.

وفي سنة ١٥٣١م أرسل ملك النمسا جيشاً لمحاصرة مدينة بود واستخلاصها فلم يقوَ على فتحها، فسار السلطان قاصداً فيينا ثانية وأخذ في طريقه إليها عدة قلاع وحصون. ولاقاه في مسيره سفير من قبل ملك فرنسا فاحتفى السلطان به احتفاء لم يسبق مثله لغيره، فقد صبّ لاستقباله عدداً عظيماً من الجنود وأطلقت المدافع تحيةً بقدومه، وتوطّد الاتحاد بين السلطان وملك فرنسا على محاربة شارل الخامس، ولكن جمع هو جيوشاً كثيرة للمدافعة عن فيينا، ودنت أيام الشتاء فعاد السلطان إلى الآستانة. وفي سنة ١٥٣٣م راسل ملك النمسا السلطان بعقد الصلح فقبل السلطان أن يعقد أولاً هدنة على شروط اختارها، ولما قُبِلت عُقدت معاهدة الصلح في ٢٢ حزيران سنة ١٥٣٣م ومن بنودها أن تردّ النمسا مدينة كورون للسلطان ولا يرّد السلطان شيئاً مما فتحه في المجر.

وفي سنة ١٥٣٤م أرسل السلطان ابراهيم باشا إلى بلاد العجم للتكليف بشريف

بك خان مدينة بدليس ، وقبل وصوله كان شمس الدين ابن والي أذربيجان قد قتل شريف المذكور ، وجاء برأسه إلى ابراهيم باشا فمضى الوزير فصرف أيام الشتاء في حلب ثم سار منها إلى تبريز فدخلها بالامان وبنى بها قلعة ، وأقام بها حامية عثمانية ، ثم سار إليها وفتح تلك السنة بغداد وأقام بها أربعة أشهر وعاد إلى الآستانة سنة ١٥٣٦م ، فوفد عليه سفير من قبل ملك فرنسا اسمه لافورى فمقدت معاهدة بين السلطان وملك فرنسا مشعرة باتحاد المملكتين ، وتقررت امتيازات القناصل وحقوق الرعايا الفرنسيين في المملكة العثمانية . وقد أثبت هذه المعاهدة بينودها محمد فريد بك في كتابه تاريخ الدولة العلية صفحة ٩١ وما يليها .

وكان من المتفق عليه في هذه المعاهدة أنّ السلطان يجعل وجهة حروبه بلاد نابولي وجزيرة صقلية واسبانيا بدلاً من مهاجمات النمسا التي تتحد جميع امارات المانيا وممالكها للدفاع عنها لأنها مع استقلالها جزء من التحالف الألماني ، وإنّ فرنسا تدخل إيطاليا من جهة اقليم بياصوني عندما تدخل عساكر السلطان من جهة نابولي ، على أنّ عدم دخول جمهورية البندقية في التحالف العثماني الفرنسي كان مانعاً من نجاح هذا التحالف وأضرّ به كثيراً . وعاب النصارى مخالفة ملك مسيحي لسلطان مسلم ، وأراد السلطان أن ينتقم من جمهورية البندقية لمقاومتها محالفتها لفرنسة مع رعايته جوارها وتحاشيه غزو بلادها .

وكان السلطان سليمان قد استدعى خير الدين باشا المعروف عند الفرنج بباربا روسا (أي ذي اللحية الحمراء والصهباء وأصله من أروام جزيرة مدلي وكان من لصوص بحر الروم يسطو على مراكب الفرنج ، ودخل في خدمة محمد الحفصبي صاحب تونس وتولّف إلى السلطان سليم الأول وأرسل إليه مركباً كان قد أسره ، فأرسل السلطان إليه خلعاً سنّية وعشر سفن يستعين بها على غزو مراكب الفرنج ، فاستحوذ خير الدين وأخ له على بعض المدن في جزائر الغرب وتونس باسم السلطان . وسار ينزل على بعض شواطئ إيطاليا وفرنسة واسبانيا ويأخذ ما تصل إليه يده من المال والناس . فاستدعاه السلطان سليمان سنة ١٥٣٣م واتفق معه على انشاء مراكب لفتح اقليم تونس . وبعد انشائها سار بها خير الدين سنة ١٥٣٤م وحاصر تونس سنة ١٥٣٥م واحتلّها ، ولكن طرده منها شارل الخامس ملك اسبانيا . وفي سنة ١٥٣٧م أرسله السلطان سليمان في سفن كثيرة فحاصر جزيرة كورفو ليأخذها من البنادقة فلم يتمكن من فتحها بل فتح كثيراً من جزائر الروم .

وفي سنة ١٥٣٨م جمع السلطان جيشاً كبيراً في البانيا قاصداً شرقاً الاغارة على ايطاليا من جهة الشرق وأقام خير الدين باشا بالاسطول بمرافقاً اوترنت ليهاجمها من جهة الجنوب ويثبت عليها ملك فرنسا من جهة الغرب . ولكن حصلت هدنة بين ملك فرنسا وشارل الخامس فنجت ايطاليا . ثم صالح السلطان جمهورية البندقية سنة ١٥٣٨م على تركها بعض مدن له .

وفي سنة ١٥٤٠م مات زابولي والي المجر من قبل سليمان فأغارت جيوش النمسا على المجر واحتلوا بست ، وحاصروا مدينة بود المقابلة لها ، فنهض السلطان سليمان بنفسه فرفع حصار النمساويين عن بود ودخلها وجعل بلاد المجر ولاية عثمانية وتعهد خطأً لأرملة زابولي أنه لا يحتل المجر إلا مدة طفولة ابنها فإذا بلغ رشده ردها إليه .

وفي سنة ١٥٤١م عاد النزاع بين ملك فرنسا وشارل الخامس وأرسل ملك فرنسا الموسيو بولان إلى الآستانة يستنجد السلطان ، فتردد السلطان أولاً لرؤيته تقلب فرنسيس الأول لكنه سير أخيراً خير باشا في أسطوله مع السفير ، فبلغ الأسطول العثماني مرسيليا فانضمَّ إلى أسطول فرنسا وأقلعوا إلى مدينة نيس ففتحوها سنة ١٥٤٣م ولكن لم يحتلوها للخلاف بين العسكرين . وفي سنة ١٥٤٤م أبى ملك فرنسا مساعدة الأسطول العثماني له لهياج النصارى عليه ونسبتهم له إلى المروق لاستعانتهم بالمسلمين ، وعقد الصلح مع شارل الخامس في معاهدة كريسبي ، وعاد خير الدين بأسطوله إلى الآستانة فتوفي بها سنة ١٥٤٦م . وفي سنة ١٥٤٧م عُقد الصلح بين السلطان وملك النمسا بعد مغالبات حربية على شرط أن يدفع لملك النمسا جزية سنوية ثلاثين ألف دوكا لقاء ما بقي بيده غير بلاد المجر ، وأن تبقى المجر لابن زابولي بوصاية أمه ايزابل وتحت رعاية السلطان . وفي سنة ١٥٥١م استؤنفت الحرب بين السلطان سليمان وملك النمسا لأنَّ ايزابل وصية ملك المجر تخلَّت لملك النمسا عن اقليم ترانسلفانيا خلافاً للعهد . وفي سنة ١٥٥٢م انتصرت العساكر العثمانية على النمساويين في عدة مواقع وأكرههم فصل الشتاء على العود إلى الآستانة . وفي سنة ١٥٥٣م بعد وفاة فرنسيس الأول ملك فرنسا وخلافة ابنه هنري الثاني عُقدت بين السلطان سليمان وهنري الثاني المذكور معاهدة على ضمَّ الأسطول العثماني إلى الأسطول الفرنسي لفتح جزيرة كورسيكا . وترى مواد هذه المعاهدة مثبتة في كتاب تاريخ الدولة العلية صفحة ١٠٣ نقلاً عن

مجموعة البارون دي تستا، فسارت مراكب الدولتين وفتحت الجزيرة، ولم يستمر الاحتلال بها لوقوع النفرة بين القائدين، وعاد الأسطول العثماني إلى الآستانة. وفي سنة ١٥٦٥م أرسل السلطان سليمان الأسطول العثماني مؤلفاً من نحو مائتي سفينة لفتح مالطة، وحاصروها ولكن توفي أمير البحر طغرول فعاد الأسطول العثماني إلى الآستانة. وفي سنة ١٥٦٦م عاد السلطان إلى البحر لأن مكسيميليان بن فردينان ملك النمسا أخذ مدينة توكاي من الشاب أمير المجر فقصد السلطان كبت ملك النمسا وسار ليأخذ قلعة ارلو الشهيرة، ولكن بلغه في طريقه أمير سكودار (في المجر) تغلب على فرقة في جيشه فأراد أن يكبحه قبل حصر ارلو، فحاصر مدينته فأخلاها أهلها وتحصنوا بقلعتها ومرض السلطان وتوفي في ٢٠ صفر سنة ٩٤٧ هـ (سنة ١٥٦٦م) وكنتم الوزير خبر موته خوفاً من فشل الجيش. وبعد ثلاثة أيام فتح العثمانيون القلعة ودخلوها وكان المحاصرون لغموها فانفجرت الأرض وسقط بناء القلعة فأهلك من كان بها ومن دخلها. فكانت مدة ولاية السلطان سليمان ثمانين وأربعين سنة قمرية صرفها في توسيع نطاق الدولة واعلاء شأنها.

ومن الأحداث في بلادنا هذه في أيام السلطان سليمان أن الأمير قيتبيه ابن الأمير عساف المار ذكره توفي سنة ١٥٢٣م في غزير وخلفه الأمير منصور ابن أخيه حسن. وانبسطت ولايته إلى عكار، فإن ولاية طرابلس كانت لثائب من قبل السلطان، وإذا لم يكن نائب التزمها محمد آغا ابن شعيب من أهل عرقا وأجر الأمير منصور المذكور بلاد جبيل والبترون وجبة بشري والكورة والزاوية والضنية. ورد الأمير منصور الشيخين يوسف وسليمان ابني حبيش اللذين كان عمه قيتبيه قد نقاهما، ونصب الشيخ هاشم العجمي عاملاً في بلاد جبيل، وجعل ابن عمه عبد المنعم بن سيف الدين قائماً على أملاكه وبني له داراً في غزير.

وفي سنة ١٥٢٨م وقعت النفرة بين بني شعيب من عرقا وبني سيف أمراء التركمان في عكار، واتصلوا إلى القتال فارتحل بنو سيف من بلاد عكار إلى الباروك إلى حمى الأمير قرقماز بن معن، وأخذ الأمير منصور المذكور يناصر بني سيف، وأرسل معهم ثلاث مئة رجل فكبسوا بني شعيب في عرقا وقتلوا أكثرهم وتولوا بلاد عكار، فحقن محمد آغا ابن شعيب حاكم طرابلس على الأمير منصور وادعى عليه بمال فأرسل إليه الأمير منصور عبد المنعم وابني حبيش المذكورين وصحبهم نحو من خمس مئة رجل كمنوا عند حارة الحصانة بطرابلس. وطلب

معتمدو الأمير اجراء المحاسبة على المال المطلوب واجتمعوا بحضرة القاضي مع محمد آغا في جامع طليان ، فوثب عبد المنعم وابنا حبيش على محمد آغا فقتلوه ، وكان ابنه معه فألحقوه به وأصلحوا أمورهم مع القاضي فسلمهم تقريراً بأنهم أبرياء من قتل محمد آغا .

وفي سنة ١٥٣٢م قصد عبدالساتر الكردي حاكم البترون العصيان على الأمير منصور بن عساف ، فأرسل إليه الأمير أربعين رجلاً فقتلوه وألحقوا به أباه ، ونصب مكانه يوسف بن شكيان الحصاراتي وصرفه في بلاد البترون ، وكان شجاعاً باراً ، وكان يوسف هذا مارونياً على ما يظهر . ثم قتل الأمير منصور حاكم جبيل الحيانة أهداها ، ونصب مكانه أبناء الحسامي . ولم يزل في جبيل جماعة مسلمون يسمون بيت الحسامي فرمما كانوا من نسل أولئك .

وفي نحو سنة ١٥٣٣م كانت منازعة بين مالك شيخ العاقورة من اليمنية وهاشم العجمي (الذي مرَّ أنَّ الأمير منصور نصبه عاملاً في بلاد جبيل) وكان من القيسية . وكان أهل البلاد مقسومين إلى قيسية ويمنية ، فكبس مالك جبّة المنيطرة وأحرقها فاتفق أهلها مع القيسية الذين كانوا في العاقورة وكنوا لملك في طريق الجرد وقتلوه ، فرفع حنش وحرفوش أخوا مالك الشكوى إلى نائب السلطنة بدمشق ، فكتب النائب إلى الأمير منصور أن يقبض على القتالين ويرسلهم إليه ، فأمر الأمير منصور عبدالمنعم المذكور أن يقتل ابن عمه هاشم فأذعن لأمره وتوجه إلى محل هاشم ففرّ وقتل عبدالمنعم أحد أبناء عمه وسار مع أخوي مالك متتبعا هاشم والقاتلين ، فانهزم هاشم إلى كرك بعلبك إلى الأمراء الخرافشة ، ونهب عبدالمنعم ورجاله لاسا وأحرقوها وغيرها من قرى جبّة المنيطرة . وخاف القيسية الذين بالعاقورة وهربوا إلى طرابلس ونواحيها ، فنهب عبد المنعم بيوتهم وأحرقوها وخلت العاقورة من السكان . واستوحش الأمير منصور من عبد المنعم المذكور ودرى هو بذلك فراسل الأمراء الخرافشة على قتل هاشم ، وتعهد لهم بقتل الأمير منصور وتسليمهم ولايته ، فقتل الخرافشة هاشم فوق الكرك وطرحوا جثته في بئر يسمى إلى اليوم بئر هاشم . وكان له أخ لجأ إلى الأمراء الشهابيين ، وأما عبدالمنعم فأخذ يقتاب أبناء حبيش وينم بهم ويسعى بهلاكهم توسلاً لنيل غرضه من اهلاك الأمير منصور . واكتشف ابناء حبيش على دخيلته ودخلوا على الأمير ليلاً وأخبروه بالمؤامرة عليه بين عبد المنعم والخرافشة ، فأباحهم اغتياله فوثبوا عليه في داره التي

كان الأمير منصور قد بناها له قرب السراي فقتلوه وألحقوا به أحد عشر نفساً من أنسبائه . فطاب خاطر الأمير منصور وجعل أبناء حبيش كواخيه وصرفهم في تدبير أمور حكومته . وكان من سكان العاقورة الشيخ أيوب وأخوه فضول ابنا الشماس توما ، فلما ارتحل اليمنية منها إلى الشام ، والقيسية إلى طرابلس سكنا هما عند دير مار اذنه كرسي أسقف العاقورة ووقفهما الله في أخذ أوامر من نائب دمشق لتعمير العاقورة وإرجاع أهلها إليها فعمرت بعد خرابها سبع سنين . وأخذ أيوب وفضول المشيخة عليها . ومن تقليدات المشايخ آل هاشم المسمين إلى الآن بهذا الاسم أنّ هاشم المذكور هو جدّهم الأول وإنه نُسب إلى العجم لأنه أتى من بلاد العجم إلى لبنان . ولكن قد عثرت على وريقة في كتاب تاريخ الدويهي الذي كان بيد الصالح الذكر البطريك بولس مسعد وهي بخطه الذي أعرفه حق المعرفة كتب عليها ما يأتي بحروفه: « الشيخ أيوب ابن الشماس توما وَلَدَ هاشم وظهر ورعد ومن هاشم هذا ابن الشيخ أيوب تكنى أولاده وأولاد أخويه ضاهر ورعد بيت الهاشم لأنه كان الأشهر فيهما » . وليس من ينكر عظم مخبرة هذا البطريك بأنساب الموارنة .

في سنة ١٥٤١م ائتمر المقدم ميخائيل المتكلم على زوق مكائيل وأولاده حنش أمراء فتقا على قتل الأمير منصور عساف وساروا إلى غزير يضمرون الغدر به ، فدرى بمكرهم وبسط لهم سماً ليقتلوه وأمر رجاله فقتلوه . انتهى مأخوذاً عن تاريخ البطريك اسطفانوس الدويهي وقد نقل عنه ذلك الأمير حيدر شهاب في تاريخه . وليتنبه قارئ هذا التاريخ الذي طُبِع حديثاً في مصر أنّ فيه من سهو الناسخ عدّة أغلاط منها قوله الأمير منصور سيفاً وهو من آل عساف .

عد ٩٦١

السلطان الغازي سليم خان الثاني وما كان في أيامه

هو ابن السلطان سليمان الأول وُلد في ٦ رجب سنة ٩٣٠ هـ (١٠ أيار سنة ١٥٣٣ م) وخلف أباه بعد وفاته واستوى على أريكة الملك في ٩ ربيع الأول سنة ٩٤٧ هـ أي ٢٤ كانون الأول سنة ١٥٦٤ م . فأقام بالآستانة يومين وأسرع إلى سكودار للاحتفال بنقل جثة المغفور له والده إلى القسطنطينية ، وقد أُرِخ أحد

الشعراء ملكه بقوله: «سليم تولى الملك بعد سليمان سنة ٩٤٧». ومما كان في أيامه عقد الصلح بينه وبين النمسا بمعاهدة مؤرخة في ١٧ شباط سنة ١٥٧١، ومن شروطها حفظ النمسا أملاكها في الجبل ودفعها الجزية السنوية المقررة بالعهود السابقة، واعترافها بمتابعة أمراء ترنسلفانيا والفلاخ والبغدان للدولة العلية، ثم تجديد الهدنة مع ملك بولونيا باعتراف الباب العالي بالتحالف الذي حصل بين ملك بولونيا وأمير البغدان، واستئناف الاتفاق مع شارل التاسع ملك فرنسا تأييداً لما كان بين ملوك فرنسا والسلطان سليمان الأول. وزيد على ذلك اتفاق الدولتين على ترشيح هنري دي فالوا أخيه ملك فرنسا لعرش بولونيا ليكون لهما نصيراً ضد النمسا من جهة وروسيا من جهة أخرى.

وفي سنة ١٥٧٠م أمر السلطان سليم الثاني بفتح جزيرة قبرص وكانت بيد البنادقة وتوجهت إليها المراكب الحربية، وقيل إن عدد ما حملته من العساكر كان مائة ألف جندي يقودها مصطفى باشا، فأخذوا الملاحاة أولاً ثم انتقلوا إلى حصار الأفقيسية وبنا عليها برجاً، ودام الحصار عليها من أول الصوم إلى آخر شهر آب، ثم حاصروا الماغوصة وقيل أنه كان فيها نحو ألف مدفع، ودافع أهلها والحامية التي كانت فيها مدافعة الأبطال، ودنا فصل الشتاء فخدمت نار الحصار ثم اضطربت في نيسان سنة ١٥٧١م. ولم تفتح إلا في ٦ آب من السنة المذكورة إذ عاز المحاصرين القوات والبارود فألجئوا إلى التسليم. وروى البطريرك الدويهي أن الذين أخذوا أسرى من النصارى كانوا نحو مئة وثمانين ألفاً، والذين قُتلوا كانوا نحو خمسين ألفاً، وكان الموارنة حينئذ كثيرين في قبرص فقتل منهم نحو ثمانية عشر ألفاً. وكان قد تحصن منهم نحو اثني عشر ألفاً في قرية اسمها كاليباسي فخادعهم الأعداء حتى سلموا ثم أهلكوهم عن آخرهم. وكان حينئذ من النهب والحريق والفظائع ما الصمت عنه أولى. وقتل من العساكر خلق كثير واستمرت قبرص تحت ولاية الدولة العلية إلى أن احتلها الإنكليز سنة ١٨٧٨م.

ولما رأى البنادقة تغلب العثمانيين واختشوا انبساط سطوتهم في غير قبرص من أملاكهم اتفقوا مع ملك اسبانيا وفرسان مالطة وجهزوا أسطولاً يزيد على مئتي سفينة وقصدوا الأسطول العثماني الذي كان نحو ثلاث مئة سفينة، وتسعرت نار الحرب بين الأسطولين بالبحر بقرب ليبانتا فانتصر المتحدون على العثمانيين وأخذوا منهم نحو ثلاثين سفينة وغرقوا سفناً أخرى، وأخذوا ثلاثماية مدفع وبعض

الأسرى . ولما بلغت هذه الأخبار إلى الآستانة همّ المسلمون بقتل المرسلين فتدارك الأمر الوزير محمد باشا صقلي وأخرج المرسلين آمنين بحسب طلب سفير فرنسة، وأخذ الوزير ينشيء سفناً حديثة وبذل قصارى جهده في تجهيزها وتسليحها حتى جهّز في سنة واحدة نحو مئتين وخمسين سفينة . ووقع الخلاف بين الأدميرال البندقي والأدميرال الأسباني ، وسعى البنادقة بالتقرب إلى الدولة العلية فتّم الصلح بينهما في ١٧ آذار سنة ١٥٧٣م على أن تتخلّى البندقية عن قبرص للدولة العلية وأن تدفع لها غرامة حربية ثلاثماية ألف دوكا . وأما الأسبانيون فقصد أسطولهم تونس في آخر سنة ١٥٧٢م، فاحتلوها دون معارضة ولا مقاومة وأعادوا إليها سلطانها حسناً الذي كان قد لجأ إليهم عند احتلال العثمانيين بلاده . ولكن لم تمض ثمانية أشهر حتى استردها سنان باشا للدولة العلية .

وفي ٢٧ شعبان سنة ٩٨٢هـ (١٢ كانون الأول سنة ١٥٧٤م) توفي السلطان سليم الثاني وعمره ٥٢ سنة قمرية ومدة ملكه ثمانين سنين وخمسة أشهر . ومما كان من الأحداث في أيامه في بلادنا هذه أنّ الأمير منصور بن عساف انبسطت ولايته من نهر الكلب إلى حمص وحماه بمقتضى براءة سلطانية ، وكان ينصب العمال في هذه النواحي ، وأنشأ له داراً ببغروت وأخرى بجبيل وسراي بغزير وبنى بجانبها جامعاً ومعدنة وحماماً وجنّة فسيحة وأجرى الماء إلى غزير من نبع المغارة .

عد ٩٦٢

السلطان الغازي مراد خان الثالث

هو ابن السلطان سليم الثاني وُلد في القسطنطينية في ٥ جمادي الأول سنة ٩٥٣ هـ (٤ تموز سنة ١٥٤٦ م) وقد أُرّخ بعضهم ولادته بقوله: « خير النسب سنة ٩٥٣ » . وخلف أباه سنة ٩٨٢ هـ سنة ١٥٧٤ م . كما مرّ . وكانت باكورة أعماله أنه حظّر شرب الخمر الذي كان قد استطرق وفشا استعماله ولا سيما عند الانكشارية، فثار هؤلاء وباعة الخمر وصانعوه حتى غصّ النظر عن تناول مقدار منه لا يتأتى عنه ذهول العقل والاخلال براحة العموم . ونصب رئيساً على الانكشارية

رجلاً اسمه شيكالا كان قد أسلم من عهد قريب، فازداد الشغب والقلق في هذه الجوقة . وكان بين الدولة العلية والنمسا في ذلك الحين نوع من السلم ، وإن طرأت حيناً بعد حين مناوشات بين عساكر الأمتين لكنها لم تكن لتفضي إلى اعلان الحرب ، بل كانت مصلحة الفريقين تقضي عليهما بقاء الوفاق وأبرمت بينهما مهادنة لمدة ثماني سنين بدؤها سنة ١٥٧٧م . وكانت العلاقات بين السلطان مراد ودولة فرنسا حسنة جداً وكذلك بينه وبين جمهورية البندقية . وأيد لهما الحقوق القنصلية والتجارية بل زادها وأضاف إليها مواد أهمها أن يكون سفير فرنسا مقدماً على سائر سفراء الدول في المقابلات والحفلات الرسمية . واتفق مع ايزابل ملكة انكلترا أن ترفع مراكب الانكليز العلم الانكليزي عند دخولها المرافئ العثمانية . وكانت جميع السفن الأوروبية لا تدخل بلاد الدولة إلا وعليها العلم الفرنسي بمقتضى عهود كانت في أيام السلطان سليمان وابنه السلطان سليم الثاني .

وأهم الحروب التي كانت في أيام السلطان مراد الثالث هي حربه مع العجم فكانت المناوشات بين رجال الدولتين قد تواترت من مدة طويلة على التخوم . وكان السلطان يرغب في ابعاد الانكشارية عن العاصمة واشغالهم بالحروب عن سطوتهم وشغبهم فيها . وكان شاه العجم المسمى طهماسب قد توفي سنة ١٥٧٦م وخلفه ابنه حيدر فقتل للحال وخلفه أخوه اسماعيل فمات مسموماً سنة ١٥٧٧م وخلفه أخوه محمد وكانت البلاد منقسمة عليه فرأى محمد باشا صقلي الصدر الأعظم حينئذ انتهاز فرصة هذا القلق فحسن للسلطان اعلان الحرب فأرسل السلطان جيوشه بامرة مصطفى باشا فسار فيها إلى بلاد الجركس التابعة للعجم ففتحها واحتل مدينة تفليس سنة ١٥٧٨م ونصب في هذه البلاد عمالاً من أمراء الكرج ومضى يصرف فصل الشتاء في مدينة طرايزن . فحشد ملك العجم في الشتاء جيشاً أُمّر عليه حمزه مرزا ، فاسترد بعض المدن من العثمانيين ولم يقوَ على أخذ تفليس ، وتوفي مصطفى باشا قائد الجيش العثماني فأقام السلطان مكانه سنان باشا ، فأخذ طاغستان على شاطئ بحر الخزر سنة ١٥٨٢م وبعد أن انتصر في حروب أخرى عاد إلى الآستانة فنصبه السلطان صديراً أعظم وقائداً للجيش الذي في بلاد الكرج ، فسار في جيش يربو على مائتي ألف مقاتل ، فدخل مدينة تبريز عاصمة العجم بعد انتصاره على الأمير حمزة مرزا . وبعد أن استمرت هذه الحرب سجالاً ست سنين ، عُقد الصلح بين الدولة العلية والعجم في ٢١ مارت سنة

١٥٨٥م وتخلّت دولة العجم للدولة العلية عن أعمال الكرج وشروان ولورستان وبعض أذربيجان ومدينة تبريز، وعاد بعض الجيش إلى الآستانة .

وعاد الانكشارية إلى تعنتهم وشغبهم وثاروا على ناظر المالية مدّعين أنه دفع إليهم دراهم ناقصة العيار وأنه لم يوفهم كل ما لهم ، فقتلوه في داره ثم ثاروا مرة أخرى سنة ١٥٩٣م . ذكر ذلك القرمانى وقال إنه كان شاهداً هذه الحادثة وأنّ الانكشارية اتفقوا مع غيرهم من العساكر ودخلوا إلى ديوان السلطان وأرسلوا يطلبون محمداً الشريف الدفترى يومئذ مدّعين أنه لم يتقدم جوامكهم ، فامتنع السلطان من تسليمه إليهم خيفة أن يقتلوه ، فأصروا على طلبهم فخرج عليهم بعض الحامية والخدم والغلمان وأخذوا يرمونهم بالحجارة ، فاندفعوا مذعورين وتراكموا في الباب ، ووطئ بعضهم بعضاً وقتل منهم مئة وسبعة عشر رجلاً ، وتمزّد الانكشارية مرة أخرى في بودبست وقتلوا وإليها وصنعوا كذلك في القاهرة وفي تبريز . وكثر الشغب والقلق في المملكة كلها وغلت أيدي الولاة وضعفت سلطتهم .

ولم يجد السلطان مراد حيلة للتخلّص من هذه الحال إلّا بأن يشغل الانكشارية والعسكر بالحرب ، فأعاد سنان باشا إلى منصب الصدارة العظمى لاعتماده على بسالته وذكائه واتفقا على اعلان الحرب للنمسا التي كانت قد لمت شعنها وجددت قواها في مدة ثلاثين سنة قضتها بالسلم . وأوعز سنان باشا إلى حسن باشا والي البشناق أن يخترق بعسكره تخوم المجر اعلاناً للحرب ، واتقدت نار الحرب في المجر سنة ١٥٩٣م فكانت سجالاً وكان النصر طوراً للعثمانيين وطوراً للمجريين والنمساويين . فقتل من العثمانيين حسن باشا والي الهرسك . وانهزم إلى بودبست وفتحت جيوش النمسا عدة قلاع عثمانية ، ثم استرد بعضها سنان باشا سنة ١٥٩٥م . وزاد في الطين بلة وفي الطنبور نغمة اشهار الفلاخ والبغدان وترنسلقانيا العصيان على الدولة ومحالفتهم لرودف الثاني ملك النمسا وامبراطور المانيا ، فسار إليهم سنان باشا إلى مدينة بوخارست سنة ١٥٩٥م ولكن انتصر عليه ميخائيل أمير الفلاخ ، ودخل بعض المدن العثمانية وقت حاميتها ونكل بأهلها ، فاضطر العثمانيون إلى التقهقر إلى ما وراء الدانوب ، وتبعهم الأمير ميخائيل المذكور وانتصر عليهم مرة أخرى ، وأخذ عدة مدن منها مدينة نيكوبولي . ذكر ذلك كثيرون منهم أبو العباس القرمانى في أخبار الدول ، ومحمد فريد بك في تاريخ الدولة العلية .

وأما ما كان في بلادنا السورية في أيام السلطان مراد الثالث ، فمنه ما ذكره العلامة البطريق الدويهي في تاريخ سنة ١٥٧٦م أنه حدث زلزال عظيم في جزيرة قبرص استمر ساعتين وسقطت به كنيسة القديس ميخائيل في ساماتو، وكنيسة القديس الياس ، والمعدنة التي كانت في الجامع في الافقسية وكنائس أخرى وقرى .

وقال في تاريخ سنة ١٥٧٩م إنه حدث طاعون في الديار المصرية والشامية وقحط حتى بلغ ثمن شنبل القمح في أعمال طرابلس إلى مئة وخمسين غرشاً ، وشنبل الحنص مئة وأربعين وقلة الزيت إلى ثلاث مئة وأربعين . وأنه في هذه السنة شكوا بعضهم الأمير منصور بن عساف إلى الباب العالي بسبب قتله ابن شعيب حاكم طرابلس وأمراء فتقا وعبدالساتر وغيرهم (مرّ ذكر هذه الأحداث في عد ٩١١) فأمر السلطان أن يكون والي طرابلس باشا لكسر شوكة بني عساف وولّى عليها يوسف باشا ابن سيفا التركماني فتعقّب أتباع الأمير منصور فهرب الشدياق خاطر الحصري الذي كان مقدماً على جبة بشري في بلاد بعلبك والمقدم مقلّد من ناحية الشوف ، فمات هناك وله ولد اسمه جمال الدين يوسف وبنت اسمها ست البنات . على أنّ يوسف باشا والي طرابلس كاتب الشدياق خاطر وأتمنه ورده إلى ولاية جبة بشري وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكاً له في الولاية . وفي السنة التالية أي سنة ١٥٨٠م توفي الأمير منصور بن عساف وخلفه في ولايته بغزير ابنه الأمير محمد .

وفي سنة ١٥٨٤م وثب جماعة من الأردياء على حاملي خزينة السلطان في جون عكار فانتهبوا المال . فصدر الأمر إلى جعفر باشا الطواشي والي طرابلس أن يجمع العسكر من ساحل البحر من صيدا إلى حمص ويصادر يوسف باشا بن سيفا الذي كان قد اعتزل عن طرابلس وأقام في عكار فنهب العسكر بلاد عكار وأحرق كثيراً من قراها ، ورفع جعفر باشا الشكوى إلى السلطان بأنّ الأمير محمد ابن الأمير منصور عساف وأمراء بلاد الدروز إنما هم الذين نهبوا الخزينة ، فصدر الأمر إلى ابراهيم باشا والي مصر أن يجمع العساكر من حلب والشام ومصر فجمعها وقطع طرق البحر والبقاع على الدروز ، وأرسل يطلب الغرماء من الأمير قرقماز بن معن ، فحضر إلى ابراهيم باشا الأمير محمد بن جمال الدين من عرمون الغرب وابن عمه الأمير منذر من اعبيه ، والأمير محمد بن عساف من غزير ، واستسلموا إلى الوزير . فلما رأى الأمير قرقماز بن معن أنّ باقي الأمراء انصرفوا عنه وأمسى

منفرداً هرب إلى مغارة في ناحية جزين، فاختبأ بها وأصابه مرض أودى به إلى الموت، وكان له ابنان فخر الدين ويونس. ولما بلغ الوزير انهزام الأمير قرقماز سار في عسكره إلى عين صوفر واستدعى إليه عقال الدروز، فحضرُوا وقتل منهم خمس مئة رجل ثم سار إلى طرابلس وصحبه الأمراء الذين استسلموا إليه فمضى بهم إلى الآستانة العلية فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم. وقتر كلاً منهم في بلاده فأعاد إلى أمراء الغرب كل ما كان يدهم، وردَّ الأمير محمد عساف إلى ولايته في غزير فعادوا إلى وطنهم مسرورين شاكرين. وقدم الأمير محمد عساف عنده الشيخ أبا قانصوه محمد بن حماده ووهبه داراً في غزير واستحضر معه من الآستانة رجلاً خبيراً بالبناء أقامه على تكملة بناء السراي في غزير. فأكملها وكانت من أحسن الأبنية في بلاد الشام في ذلك العصر. وأما الأميران فخر الدين ويونس ابنا الأمير قرقماز معن فأرسلتهما والدتهما إلى كسروان فاختبأا عند آل خازن، ولما صفا كأس السياسة رجعا إلى دار الأمير سيف الدين التنوخي من أمراء الغرب. ثم وليا بعد ذلك بلاد الشوف كما كان أبوهما.

وفي سنة ١٥٩٠م خرج الأمير محمد بن عساف من غزير إلى مقاتلة يوسف باشا بن سيفاً في عكار، وعرف يوسف باشا بذلك فجمع عسكره وكمن للأمير محمد بين البترون وعقبة المسيلحة فقتله هناك وبدد عسكره. ولم يكن للأمير محمد ولد فانقرضت به دولة بني عساف الذين سكنوا غزير منذ سنة ١٣٠٦م بعد جلاء الصليبيين كما مرّ. فكانت ولايتهم هناك مئتين وأربع وثمانين سنة. وضبط يوسف باشا بن سيفاً بعد ذلك أملاك بيت عساف وأخذ أموالهم وتزوج بأرملة الأمير محمد، وقبض على أبي يونس سليمان وأبي سعد منصور حبش وقللها ونهب دارهما، وفرّ ابناها يونس وحبيش إلى الشويفات لاجئين إلى الأمير محمد بن جمال الدين، وأقام يوسف باشا بالنيابة عوضهما أبناء حمادة، فانتقلوا مع يوسف باشا من غزير إلى طرابلس. ووجس يوسف باشا من آل حمادة فألقى الفتنة بينهم وبين المستراحية الذين كانوا بجبة المنيطرة. وكانوا من أنساب آل حمادة. فقتل قانصوه حمادة أناساً من المستراحية في طرابلس. ثم قتل منهم بعضاً كانوا يسكنون بكفرخلدا، وصعد إلى المنيطرة بعسكر يريد إهلاك أحدهم المسمى جمال الدين سيالة. فأصابته رصاصة فقتل وحملته جماعته إلى كفتين فدفن فيها. انتهى منقولاً عن تاريخ الدويهي وتاريخ الأمير حيدر شهاب.

ثم توفي السلطان مراد الثالث سنة ١٥٩٤م وكانت مدة سلطنته عشرين سنة وأشهر، وخلفه ابنه السلطان محمد خان الثالث.

عد ٩٦٣

السلطان محمد خان الثالث وما كان في أيامه

هو ابن السلطان مراد الثالث وُلد في ٧ ذي القعدة سنة ٩٧٤ هـ (٢٦ أيار سنة ١٥٦٦ م) ورقي منصة الملك بعد وفاة أبيه سنة ١٥٩٤م كما مرّ. وكانت المملكة محفوفة بالمخاطر من الخارج، ومرتبكة في الداخل من قبل ركافة الوزراء ومطامعهم وتعتت الانكشارية وغيرهم من الجنود. وكان ميخائيل أمير الفلاح قد طرد العثمانيين إلى ما وراء نهر الدانوب بمساعدة جنود النمسا، واضطر السلطان يوم جلوسه على العرش أن يقول الانكشارية على ما يرضيهم من الحلول لذلك. فلم يمتنوا مبلغاً رجاء أن يدفع لهم السلطان فوق ما أملوا إلى أن أملاً فرهاد الوزير الأعظم أكياساً من الدراهم ونسقىها في صحن الدار، واستدعى الانكشارية والفرسان وقال: هذا هو حلوانكم اقتسموه بينكم. فأحرز الانكشارية كل تلك الأكياس لأنهم كانوا أكثر عدداً. فانخرط الفرسان في المدينة يهددون الوزير بالقتل، وأدرك السلطان محمد أنّ اشغال جنوده بالحرب خير وسيلة لكفهم عن الشغب، وللدب عن المملكة فسيّر الصدر الأعظم لمحاربة النمسا وأحلافها، ولكن لم يسر معه إلا فريق من الجنود وأبى الآخرون أن يصحبوه، فاضطر السلطان أن يستأتي سنان باشا من حيث كان منفياً ويجعله قائداً للجيش، فاقتنع الجنود المتمردون بالمسير معه، فسار فيهم، وعلم فرهاد باشا بذلك فعاد إلى الآستانة. ولما بلغ سنان باشا إلى آخر تخوم المملكة التقاه الأمير ميخائيل وعساكر النمسا ومن اتحد معهم فرأى من نفسه العجز عن المقاومة لهم فأرسل يطلب نجدة، فاستهزت الحمية والنخوة السلطان محمد فنهض بنفسه فسار في جيش كثيف إلى بلغراد، ثم إلى ساحة الحرب آخذاً بنفسه قيادة جيوشه. فعاودتهم الحمية والبسالة والرغبة في الاستماتة أمام سلطانهم، ففتح قلعة ارلو الشهيرة سنة ١٥٩٧م وانتصر على جيوش النمسا والمانيا. وكانت له وقائع أخرى مع عساكر المتحدين، ولكن لم تكن الوقائع فاصلة. ومات سنان باشا، وأراد السلطان العود إلى العاصمة فترك قيادة

جيشه لسيكالا المعروف عند العرب والأتراك بجفالة ، وهو ابن القائد جفالة باشا الجنوبي الأصل الذي قُتل في الحرب الأخيرة مع العجم وكان قد أسلم .

أما جفالة باشا فسرح فريقاً من الجيش وهو من آسيا الصغرى ليعودوا إلى أوطانهم . وقيل وقعت له مظنة فيهم فطردهم ، وفي الحالين أضعف قوة جيشه . وهؤلاء الخونة شرعوا راية العصيان على الدولة وبمقدمتهم رجل يسمى قره يازيجي ، وتغلبوا على بعض ولاية قرمان فاتبعوا الدولة مع انشغالها بحرب المجر والنمسا خاصة ، وأرسلت إليهم الجنود فخرج قره يازيجي ومات من جراحه . ولكن قام أخوه والي حسن بالأخذ بثأره ، وأخذ عدة مدن ، فحاربتة الجيوش السلطانية وأكرهته أخيراً أن يرمي سلاحه ، وعيّن والياً في البشناق فسار إليها في اخلاط من جنوده حيث بادوا في حربهم مع المجر والنمسا ، وعصا أيضاً والي القرم فأرسل السلطان ابراهيم باشا الذي كان محافظاً على تخوم المملكة فنكل بأهل القرم ونهب بلادهم ، وثار في العاصمة الفرسان طالبين التعويض عما فاتهم من اقطاعاتهم في الاناضول بسبب ثورة قره يازيجي وأخيه والي حسن ، وحاولوا نهب ما في المساجد من التحف الذهبية والفضية فأخمدت الدولة ثورتهم بواسطة الانكشارية .

وأما ما كان في بلادنا السورية في أيام السلطان محمد الثالث فمنه ما ذكره البطريك اسطفانوس الدويهي ونقله عنه الأمير حيدر شملان الشهابي في تاريخه ، وهو أنه في سنة ١٥٩٨م كانت وقعة بنهر الكلب بين الأمير فخر الدين بن معن ، وبين يوسف باشا بن سيفا بسبب الولاية على كسروان ، ودارت الدوائر على يوسف باشا وقُتل ابن أخيه الأمير علي وتشنت شمل عساكره ، فتولّى فخر الدين بيروت وكسروان . ولكن لم يستمر ذلك إلا سنة واحدة لأنّ فخر الدين تركهما برضاه لابن سيفا وعاد فخر الدين إلى الشوف .

وقال الدويهي أيضاً قد فشا في هذا القرن استعمال شرب التبغ في الأمصار المصرية والشامية ، وفي سنة ١٦٠٢م كبس الأمير موسى بن الحرفوش مع جماعته جبة بشري فنهبوا البيوت واستاقوا الماشية . وكان أهل الجبة بالسواحل ، ولما بلغ ذلك يوسف باشا جمع جنوده وأهل الناحية نحو حمسة آلاف رجل وسار فيهم فكبس مدينة بعلبك يوم عيد القديس يوحنا المعمدان فهرب أهل المدينة فنهبوا وقتلوا من أدركوا . واحتفى شلهوب بن نبعا مع بعض الحرافشة وكثير من أهل المدينة في

قلعة بعلبك، فحرق يوسف باشا قرية الحدث في بلاد بعلبك، وحاصر القلعة خمسين يوماً، ثم ملكها وقتل ابن فاطمة ورعد ابن نبعا لأنه كان مع الأمير فخر الدين في وقعة نهر الكلب، وقتل ابن أخيه الأمير علي ثم نادى بالأمان، ثم توفي السلطان محمد الثالث في ١٣ رجب سنة ١٠١٢هـ التي توافقت ١٦ كانون الأول سنة ١٦٠٣م وعمره سبع وعشرين سنة بعد أن وُلِّي تسع سنين.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن السادس عشر

عد ٩٦٤

بعض المشاهير السوريين في هذا القرن

أبو عبدالله محمد بن قاسم الغزي

وُلد ونشأ في غزة وتوفي سنة ٩١٨ هـ (سنة ١٥١٢ م)، وله شرح على كتاب أحمد الأصفهاني بالفقه المعروف بالمختصر بالتقريب، وقد طُبِع في لايدن سنة ١٨٥٩م، وسمى محمد شرحه: «الفتح القريب الحبيب في شرح التقريب». وقد علّق عليه محمد نوري بن عمر حواشي كثيرة الفائدة، وسمى كتابه: «قرب الحبيب الغريب في شرح التقريب». وطُبِع هذا الشرح مع الحواشي بالقاهرة سنة ١٣٠١ هـ ويعول عليهما في تدريس الطلبة الشافعية بمكة المكرمة. وذكر له ملاً كاتب في كتابه الموسوم بكشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون حاشية على كتاب عقائد النسفي وهو الشيخ نجم الدين أبو عفا عمر المتوفي سنة ٥٣٧هـ. فقال والشيخ محمد بن قاسم الغزي الشافعي المعروف بابن الغراييلي المتوفي سنة ٩١٨هـ صنّف حاشية على كتاب العقائد المذكور كاملة أولها «أما بعد حمد الله الذي الخ».

عبد البر الحلبي

هو عبد البر بن الشحنة الحلبي المتوفى سنة ٩٢١ هـ (سنة ١٥١٥ م) ذكره صاحب «كشف الظنون»، وقال إنَّ له شرحاً على كتاب «جمع الجوامع في أصول الفقه» لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧١ هـ (سنة ١٣٦٩ م).

برهان الدين المقدسي

ذكره صاحب الكشف أيضاً القاضي برهان الدين ابراهيم بن محمد بن أبي شريفة المقدسي توفي سنة ٩٢٢ هـ (سنة ١٥١٦ م) له شرح على كتاب «الأعراب عن قواعد الأعراب» للشيخ أبي محمد عبدالله بن يوسف الشهير بابن هشام النحوي المتوفى سنة ٧٦٢ هـ (سنة ١٣٦٠ م).

عائشة الباعونية الدمشقية

هي بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني وأم عبد الوهاب الدمشقية توفيت سنة ٩٢٢ هـ (سنة ١٥١٦ م). والباعونية نسبةً إلى قرية باعون في قضاء عجلون في شرقي الأردن، ولها من التأليف «الفتح المبين في مدح الأمين» وهي بديعة بديعة مطلعها:

في حسن مطلع أعمار بذي سلم أصبحت في زمرة العشاق كالعلم
وشرحتها هي نفسها، وأول شرحها الحمد لله محلي جياذ الافهام بعقود مدح الشفيع. إلى أن قالت هذه قصيدة صادرة عن ذات قناع شأدت بسلامة الطبع سافرة عن وجوه البديع سامية بمدح الحبيب الشفيع. وقد طُبعت مع شرحها على هامش خزانة الأدب لابن حجة الحموي بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ. ولها أيضاً منظومة بمولد النبي طُبعت بدمشق سنة ١٣٠٤ هـ.

زين الدين عمر الحلبي

ذكره صاحب كشف الظنون فقال هو الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبي المتوفي سنة ٩٣٦ هـ (سنة ١٥٢٩ م) له كتاب عنوانه: «تنبيه الوسنان إلى شعب الإيمان». وهو مختصر كتاب آخر له سماه «مورد الظمآن»، وذكر له كتباً أخرى منها كتاب سماه «سفينة نوح» عليه الصلاة والسلام، وكتاب آخر سماه «سلوة»، وكتاب آخر وسمه «بعر الند في المنتخب من مؤلفات بني فهد». وله أيضاً «فتح المنان في تخميس رائية الشيخ علوان». وذكر له أيضاً كتاباً في الفقه عنوانه: لفظ المرجان من مسند أبي حنيفة النعمان». وكتاباً آخر عنوانه: «البرقيات المكلفة في الأحاديث المسلسلة».

محمد بن يوسف الدمشقي

هو الشيخ محمد بن يوسف بن علي الدمشقي الصالحي وُلد بدمشق ثم ارتحل إلى مصر فأقام بالبرقوتية، وتوفي سنة ٩٤٢ هـ (سنة ١٥٣٥ م) ومن أشهر كتبه «الآيات العظيمة الباهرة في معراج سيد أهل الدنيا والآخرة». وأوله الحمد لله الذي رفع سيد خلقه الخ ربه على سبعة عشر باباً ثم ظفر بأشياء فألحقها بكتابه وسماه «الفضل الفائق». قيل أنه جمع كتابه من ثلاثمائة كتاب، ويُعرف كتابه «بالسيرة الشافية» وعنه أخذ برهان الدين علي الحلبي كتابه «انسان العميون في سيرة الأمين والمأمون» المعروف بالسيرة الحلبية، وقد طُبع بمصر سنة ١٢٨٠م ثم سنة ١٣٠٤م. وجاء في كشف الظنون أنَّ له كتاباً عنوانه: «عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة النعمان». أوله الحمد لله الذي جعل العلماء ورثة الأنبياء وقال إنه أشيع سنة ٩٣٨ هـ كتاب ما هو فيه غير لائق في حق الامام أبي حنيفة رحمه الله، فصنفت هذا الكتاب ورتبته على مقدمة وستة فصول وخاتمة. وفرغ من تأليفه سنة ٩٣٩ هـ (سنة ١٥٣٢ م).

محمد بن علي الحموي

ذكره صاحب كشف الظنون وقال كتاب عنوانه: «تحفة الحبيب» في ما يهبه من رياض الشهور والتقريب في علم الطريقة أوله الحمد لله الذي أعجم حرف الوجود بسقطلة الوجود الخ ألفه سنة ٩٤٣ هـ (سنة ١٥٣٦ م).

الشيخ بدر الدين محمد الغزي

ذكره صاحب كشف الظنون أيضاً وقال هو الشيخ بدر الدين بن رضي الدين محمد الغزي العامري عالم دمشق ونقيها المتوفي سنة ٩٤٩ هـ (سنة ١٥٤٢ م). له كتاب: «جواهر الدخائر في شرح الكبائر والصغائر» وهو قصيدة رائية ألفها سنة ٩٤٠ هـ سنة ١٥٣٣ م مطلعها:

الحمد لله ربي الواسع البر ء الغافر السيئات الواسع البر

وشرح هذه القصيدة الشيخ رضي الدين محمد بن يوسف بن أبي اللطف المقدسي الحنفي المتوفي سنة ١٠٢٨ هـ (سنة ١٦١٨ م). وأول شرحه الحمد لله غافر الكبائر وسائر الصغائر لمن رجع عما صنع واعترف الخ. والقصيدة والشرح تأليفان بديعان أجاد فيهما مؤلفاهما. هذا ما كتبه صاحب كشف الظنون في حرف الجيم صفحة ٤٠٩ من المجلد الأول من كتابه. ثم ذكره في مواضع أخرى من المجلد المذكور، وأرخ وفاته سنة ٩٨٤ هـ (سنة ١٥٧٦ م). وأظن هذا التاريخ الأخير هو الصحيح. فقد قال في صفحة ٣٢٦ إن للشيخ بدر الدين محمد بن رضي الدين محمد الغزي مفتي الشام المتوفي سنة ٩٨٤ هـ شرح شواهد كتاب: «تخليص المفتاح في المعاني والبيان». ثم قال في صفحة ٤٧٨ إن للشيخ بدر الدين محمد بن رضي الدين محمد الغزي مفتي الشام المتوفي سنة ٩٨٤ هـ كتاباً عنوانه: «الدر الثمين في المناقشة بين أبي حيان والسمين». فقد جرى بين بدر الدين وقاضي دمشق بحث في المناقشة بين هذين العالمين، ورجح البدر كلام أبي حيان وزفد اعتراضات السمين. ثم كتب كتاباً في ذلك وأرسله إلى القاضي، فلما وقف عليه

انتصر للسمين ورجح كلامه على كلام أبي حيان ورد اعتراضات بدر الدين .
وكتب في ذلك رسالة وقف عليها علماء الشام فرجحوا كلام القاضي على كلام
بدر الدين .

شمس الدين بن طولون الدمشقي

ذكره صاحب كشف الظنون أيضاً فقال هو شمس الدين محمد بن طولون
الدمشقي المتوفي سنة ٩٥٣ هـ (سنة ١٥٤٥ م). وله رسالة عنوانها: «ظرائف النحلة
في لطائف النحلة» أولها الحمد لله الذي خصّ النحلة بنحلة أدوية الشفاء في
الأبدان ورسالة عنوانها غاية الحرص في جواب سؤال أهل حمص. أولها الحمد لله
الذي هدانا لهذا الخ. أجاب فيها عن مسألة قبر خالد بن الوليد المدفون بحمص
ورسالة موسومة: «غاية الوفاء في ختم الشفاء». وله كتاب «تنقيح الحديث للتسبيح»
مختصر في الكلام على الحديث الأخير للبخاري .

ابراهيم الحلبي

وُلد بحلب ثم رحل إلى القسطنطينية وولي الخطابة في جامع السلطان محمد
خان، وتوفي سنة ٩٥٦ هـ (سنة ١٥٤٩ م) وأشهر مؤلفاته ملتقى الأبحر في الفقه
طُبِعَ بالقسطنطينية سنة ١٢٥١ م ثم ببغداد سنة ١٢٦٣ م. ويعول عليه وهو مختصر
مفيد جمع فيه كل ما يحتاج إليه في غيره من كتب الفقه ، وأجمع الحنيفة على
قبوله وفرغ من تبييضه سنة ٩٢٣ هـ (سنة ١٥١٧ م)، وشرحه عبد الرحمن بن
محمد سليمان المعروف بشيخ زاده، وسمى شرحه «مجمع الأنهر في شرح ملتقى
الأبحر». وطُبِعَ هذا الشرح في مجلدين بالقسطنطينية سنة ١٢٨٧ م. ولحاجي
اسماعيل حاشية عليه طُبِعَت في القسطنطينية سنة ١٣٠٤ م، وذكر له صاحب
كشف الظنون شروحاً كثيرة منها شرح تلميذه الحاج علي الحلبي المتوفي سنة
٩٦٧ هـ (سنة ١٥٥٩ م) وشرح محمد المعروف بابن البهنسي من مشايخ دمشق،
إلى كتاب البيع. وتوفي سنة ٩٨٧ هـ (سنة ١٥٧٩ م) ثم شرح تلميذ البهنسي

الشيخ نور الدين البافاني القادري ويسمى «مجرى الأنهر على ملتقى الأبحر». ثم شرح الشيخ علاء الدين بن ناصر الدين الامام بجامع بني أمية بدمشق وسمى شرحه: «سكب الأنهر على فرائض ملتقى الأبحر» وأتم شرحه سنة ٩٩٠ هـ (سنة ١٥٨٢م). ثم شرح العلامة محمد بن علي الملقب بعلاء الدين الحصكي الدمشقي الذي توفي سنة ١٠٨٨ هـ سنة ١٦٧٧ م. وسمى شرحه: «الدر المنتقى في شرح المنتقى». ثم شرح مصطفى بن عمر بن الشيخ محمد الحلبي المتوفي سنة ١٠٩٣ هـ سنة ١٦٨٢ م. ثم السيد محمد بن محمد الحلبي المتوفي سنة ١١٠٤ هـ سنة ١٦٩٢ م. ويعرف شرحه بشرح السيد الحلبي إلى غير هؤلاء.

ولابراهيم الحلبي أيضاً كتاب آخر كبير شُرِّحَ على كتاب: «منية المصلي» لسديد الدين الكاشفري. قال صاحب كشف الظنون هو كتاب معروف ومتداول بين الحنفية شرحه ابراهيم بن محمد شرحاً جامعاً كبيراً في مجلد سماه «غنية المتملي في منية المصلي». وأقبل عليه الناس وتلقاه الفضلاء بالقبول. أوله الحمد لله جاعل الصلاة عماد الدين الخ، ثم اختصره تسهيلاً للطالبين. ويعزى إليه أيضاً مختصر لكتاب طبقات الحنفية الذي أول من ابتدأ في كتابته الشيخ عبد القادر بن محمد القرشي المتوفي سنة ٧٧٥ هـ (سنة ١٣٧٣م)، وكتاباً آخر عنوانه: «مصاييح أرباب الرئاسة ومفاتيح أرباب السياسة». ونظنه الكتاب الذي عزاه إليه صاحب كتاب «اكتفاء القنوع». لكن روى أنَّ عنوانه أرباب الرئاسة ومفاتيح أبواب السياسة. وربما كان هذا العنوان هو الصحيح وقد وقع غلط من مرتبي الحروف في طبع كشف الظنون كما غلطوا بتعيين سنة وفاته سنة ٩٥٩ هـ وقد مرَّ عنه أنها كانت سنة ٩٥٦ هـ. وقال صاحب كشف الظنون أنَّ لابراهيم أيضاً تلخيص كتاب التاتار خانية في الفقه انتخب منه ما هو غريب أو كثير الوقوع.

برهان الدين الحلبي

ذكره صاحب كشف الظنون وقال هو الشيخ برهان الدين ابراهيم بن يوسف ابن عبد الرحمان الحلبي المعروف بابن الحنبلي المتوفي سنة ٩٥٩ هـ (سنة ١٥٥١م) وله كتاب عنوانه ثمرات البستان وزهرات الأغصان .

شمس الدين محمد الحلبي

ذكره صاحب الكشف فقال هو شمس الدين محمد بن ابراهيم الحلبي الشهير بابن الحنبلي المتوفي سنة ٩٧١ هـ (١٥٦٣م) وهو على ما يظهر ابن برهان الدين السابق ذكره، وله ديوان يعرف «بديوان ابن الحنبلي». ومما ذكره له من التأليف كتاب عنوانه «الشراب النيلي في ولاية الجيلي» ألفه حين قال بعضهم أنّ المهدي سيظهر عن قريب أو على رأس التسعمائة. وأول هذا الكتاب نحمدك يا من رفع شأن أوليائه. ثم رسالة عنوانها العرف الوردية في نصرة الشيخ الهندي في تأليفه على قوله فسحقاً لأصحاب السعير. ثم حاشية على حاشية شمس الدين محمد بن هلال النحوي الحلبي (المتوفي سنة ٩٣٣ هـ سنة ١٥٢٦م) في شرح كتاب التصريف لعز الدين الزنجاني، وسمى ابن هلال حاشيته: «التطريف على شرح التصريف» وسمى ابن الحنبلي: «حاشية التصريف على تغليط التطريف». وله حاشية أخرى سماها: «مستوجة التشريف بتوضيح شرح التصريف». ولسعد الدين مسعود التفتزاني شرح لكتاب التصريف للزنجاني ولشمس الدين أيضاً منظومة في المعنى، ووضع لها شرحاً سماه غمز العين إلى كنز العين. وله أيضاً حاشية على السراجية وهي كتاب في الفرائض لسراج الدين محمد السجاوندي. وسمى شمس الدين حاشيته: «زبالة السراج على رسالة السراج». «أولها نحمدك يا واجب الوجوب ومفيض جود الجود». وفي نسخة «الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى» إلى أن قال هذه روضة دوح نشأت من رفع الفواشي عن بعض الحواشي على كلام الشريف وهي ممزوجة بالمتن كالحسروية. وله كتاب في الحديث سماه «الأثبت»، وله أيضاً شرح القصيدة الميمية للمولى أبي السعود بن محمد العمادي ومطلعها:

«أبعد سليمى مطلب غرام»

وسمى شرحه لها المنشور العودي على المنظوم السعودي إلى غير ذلك من التأليف التي عدّها له صاحب كشف الظنون، في جملتها كتابه الموسوم «بدر الحب في تاريخ أعيان حلب». وقد ذكر له صاحب الكشف هذا الكتاب في حرف الدال وأرخ وفاته سنة ٩٧٦ هـ فتوهمنا أنه محمد آخر حلبي. ثم راجعنا كتابه في حرف الباء فوجدنا هذا الكتاب معزواً إليه. وقد أرخ وفاته سنة ٩٧١ هـ كما ذكرنا فتحقق أنّ تاريخها في حرف الدال غلط من مرتبي الحروف.

شمس الدين محمد الغزي

هو الشيخ شمس الدين محمد بن عبدالله بن أحمد بن الغزي وجاء في كتاب اكتفاء القنوع أنه توفي سنة ٩٩٥ هـ (سنة ١٥٨٧ م). ولكن جاء في كشف الظنون أن وفاته كانت سنة ١٠٠٤ هـ (سنة ١٥٩٥ م)، وإن كتابه الآتي ذكره فرغ من تأليفه سنة ٩٩٥ هـ المذكورة، وأظن هذا الصواب. ولشمس الدين المذكور كتاب «تنوير الأبصار وجامع البحار» في الفقه وهو مشهور وضعه أولاً في مجلد واحد أوله حمداً لمن أحكم أحكام الشرع جمع فيه مسائل المتون المعتمد عليها عوناً لمن ابتلى بالقضاء والفتوى، ثم شرحه في مجلدين ضخمين وسماه: «منح الغفار في تنوير الأبصار». وهذا الكتاب عني بشرحه جماعة من العلماء منهم العلامة علاء الدين الحصكفي مفتي الشام المتوفي سنة ١٠٧٧ هـ (سنة ١٦٨٨ م) وسمى كتابه «الدر المختار في شرح تنوير الأبصار»، وطُبع بـكلكتة سنة ١٢٤٣ هـ ثم وضع محمد الأمين الشهير بابن عابدين (المتوفي سنة ١٢٥٢ هـ (سنة ١٨٣٦ م) حاشية سماها «رد المختار على الدر المختار» وشرح تنوير الأبصار في فقه مذهب الامام أبي حنيفة النعمان. وطُبعت هذه الحاشية في خمسة أجزاء بالقاهرة سنة ١٢٧٢ هـ مع فهرست مستوفٍ. ووضع أيضاً الطحطاوي المتوفي سنة ١٢٣١ هـ حاشية على الدر المختار طُبعت ببولاق سنة ١٢٥٤، ثم طُبعت ثانية سنة ١٢٨٢ هـ. ومن شرحوا تنوير الأبصار أيضاً المنلا حنين بن اسكندر الرومي نزيل دمشق، والشيخ عبد الرزاق مدرس الناصرية بدمشق. وكتب عليه العلامة شيخ الاسلام بالديار الرومية الانكوري تعليقات في غاية التحرير والنفع، وكتب عليه شيخ الاسلام خير الدين الرملي حواشي مفيدة ونظمه المولى موسى بن أسعد بن يحيى المحاسني الدمشقي نظماً لطيفاً على بحر الرجز. وكان موسى المذكور حياً سنة ١١٥٩ هـ (سنة ١٧٤٩ م) وسمى نظمه: «خلاصة التنوير وذخيرة المحتاج والفقير». وعدد أبيات هذا النظم خمس مئة وثمانية آلاف بيت.

شمس الدين الرملي

هو شمس الدين محمد بن العباس أحمد بن حمزة الرملي المتوفي سنة ١٠٠٤ هـ (سنة ١٥٩٥ م) له شرح على كتاب «منهاج الطالبين» في الفقه لأبي

زكربا يحىى المتوفى سنة ٦٧٦هـ (سنة ١٢٧٧م) وسمى شمس الدين شرحه: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج». وقد طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ في ثمانية أجزاء مع حاشيتين عليه، الأولى لعلى الشبراملسى والثانية لأحمد بن محمد عبد الرزاق الرشيدى، وضعها سنة ١٠٨٦هـ (سنة ١٦٧٥م). وقد ذكر صاحب كشف الظنون شروحاً كثيرة لكتاب منهاج الطالبين. من شاء الاطلاع عليها فليطالعها في كتابه في حرف الميم.

داود الانطاكي الضرير

هو الشيخ داود عمر الانطاكي ويُعرف بالشيخ الصوري الانطاكي المتوفى بمكة سنة ١٠٠٥هـ (سنة ١٥٩٦م) ألف كتاباً عظيماً في الطب سماه: «تذكرة أولي الألباب في الجامع العجب العجاب». أوله سبحان مبتدع مواد الكائنات ذكر فيه أنه أنفق عمره في تحصيل الطب، وألف فيه كتباً منها هذه التذكرة وهي مطوّلة في الطب النظري والعلمي طُبعت بالقاهرة في ثلاثة أجزاء سنة ١٢٩٤هـ، وبهامشها كتاب آخر له: «سماء النزهة المبهجة في تشميد الأذهان وتعديل الأمزجة». وللتذكرة ذيل طويل لأحد تلاميذه سماه ذيل التذكرة. وطُبعت هذه المؤلفات الثلاثة معاً بالقاهرة سنة ١٣٠٢ هـ في جزئين، ثم أعيد طبعها سنة ١٣٠٩ في أربعة أجزاء. وله كتاب سماه «المفيد» وهو مختصر رتبته على خمسة عشر باباً لم يُطبع بعد. وذكر له صاحب كشف الظنون عدا ما مرّ كتاب بغية المحتاج أشار هو إليه في أول تذكرته، وقال إنه نظم قانون الشيخ الرئيس ابن سينا وشرحه وذكر في شرحه أنه تكفل بحل هذه الفنون واستقصاء المباحث الدقيقة بحيث لم يحتج مالكة إلى كتاب سواه وإنّ له أيضاً مختصر هذا القانون.

تقي الدين الغزي

ذكره صاحب كشف الظنون فقال هو المولى تقي الدين بن عبد القادر التميمي الغزي الحنفي المتوفى سنة ١٠٠٥هـ (سنة ١٥٩٦م). له كتاب «الطبقات السنية

في تراجم الحنفية» فيه فوائد هامة بفن التاريخ لا يسع المؤرخ جهلها . وصوّر كتابات باسم السلطان مراد خان بن السلطان سليم خان، ثم سيرة النبي، ثم مناقب الامام أبي حنيفة . ثم رتب الاسماء على الحروف وأكثر في بعض التراجم من الاشعار قاصداً أن لا يخلو كتابه من الأدب . وذكر في أوله أنه أورد باباً للأنساب والألقاب في آخر الكتاب .

عد ٩٦٥

بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين

جلال الدين السيوطي

هو جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال الخضيرى السيوطي الشافعي كان فقيهاً عالماً وركناً من أركان الاسلام، وُلد سنة ٨٤٩هـ (سنة ١٤٤٥م) وتوفي سنة ٩١١هـ (سنة ١٥٠٥م). أخذ عن جماعة من علماء عصره ودرس الفلسفة والرياضيات فكان أطول باعاً من فضلاء زمانه . وله مؤلفات كثيرة في علوم وفنون وافرة منها كتاب: «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» طبع سنة ١٨٣٥م . باوبسلا ثم طبع بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ وهو في كتب مكتبتي وقد استشهدت بأقواله مرات ، وأراه أحسن مؤلف للوقوف على تاريخ مصر من حيث السياسة والحضارة . وله أيضاً كتاب «لبّ الأبواب في تحرير الأنساب» . طبع بليدن سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٢م . وطُبعت له زيادات وملحق بعد التصحيح والمعارضة بنسخ أخرى بليدن أيضاً سنة ١٨٥١م ، مضافاً إليها مقتبسات من كتاب الانساب للسمعاني ومن كتاب «اللباب» لابن الأثير الجزري .

وله كتاب «تاريخ الخلفاء» وهو موجز مفيد طبع في كلكتة سنة ١٨٥٧ م . ثم بمصر سنة ١٣٠٥ هـ . ولدي نسخة منه ويعول عليه في تاريخ الخلفاء الأخيرين من العباسيين وهم الذين تولّوا الخلافة الدينية بمصر دون الملك بعد سقوط بغداد . وقد طبع على هامش طبعته المصرية كتاب «آثار الأول في ترتيب الدول» للحسن بن عبدالله العباسي . وله أيضاً كتاب «مفحمات الأقران في مبهمات القرآن» ، وهو

موجز مفيد طُبع بليدن سنة ١٨٣٩ م. ثم ببولاق سنة ١٢٨٤ هـ. وله أيضاً كتاب «لباب النقول في أسباب النزول» في الكتاب المعروف بتفسير الجلالين للقرآن، وهما جلال الدين الحلبي وجمال الدين السيوطي. هذا فالحلبي فسر إلى آخر سورة الأسراء والباقي فسرهُ السيوطي، وقد طُبع هذا الكتاب بكلكتة سنة ١٢٥٦ هـ. ثم بيمباي سنة ١٢٨٢ هـ. ثم ببولاق سنة ١٢٩٣ هـ وبالقاهرة سنة ١٣٠٨ هـ. وعلى هامش هذه الطبعة كتاب «معرفة الناسخ» لمحمد بن حزم المتوفي سنة ٤٥٦ هـ (سنة ١٠٣٦ م) وله كتاب أيضاً عنوانه «الاتقان في علوم القرآن» طُبع بكلكتة سنة ١٨٤٩ م، ثم بها سنة ١٨٥٦ م ثم طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٦ هـ. وله أيضاً كتاب عنوانه «الحليل في استنباط التنزيل» طُبع على الحجر بدلهي سنة ١٢٩٦ هـ على هامش كتاب البيان في تفسير القرآن شرح لمعين الدين بن صفى الدين المتوفي سنة ٩٠٥ هـ (سنة ١٤٩٩ م).

وله كتاب أيضاً سماه «زهر الربى» شرح به سنن أحمد النسائي المتوفي بمكة سنة ٣٠٣ هـ (سنة ٩١٥ م) وطبع هذا الكتاب مع شرح السيوطي له بكفور سنة ١٨٤٧ م، ثم طبع بها ثانية سنة ١٨٨٢ م. وله أيضاً مصباح الزحاجة في شرح سنن أبي ماجه، وهو كتاب في الحديث لأبي عبدالله محمد بن ماجه القزويني المتوفي سنة ٢٨٣ هـ (سنة ٨٩٦ م). وقد طُبع هذا الكتاب مع شرح السيوطي له، وشرح آخر له بدلهي سنة ١٢٨٢ هـ. وللسيوطي أيضاً كتاب سماه «تدريب الراوي في شرح تقريب النووي»، والنووي هذا هو محيي الدين يحيى النووي من نوى ببلاد الشام، وقد توفي سنة ٦٧٦ هـ (سنة ١٢٧٧ م). وله كتاب يعرف «بالتقريب والتيسير في مصطلح الحديث». وقد طُبع شرح السيوطي بالقاهرة سنة ١٣٠٧ م. وللسيوطي أيضاً كتاب «الجامع الصغير في الحديث» اختصره في كتابه المطول المرسوم «بجميع الجوامع»، وطُبع الجامع الصغير ببولاق سنة ١٢٨٦ هـ. وله كتاب سماه «ديوان الحيوان» في المواد الطبية اختصره من كتاب «حياة الحيوان» للدميري. وذكر فيه منافع الحيوان، ألفه وهو يدرس بمدارس القاهرة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية وطُبعت ترجمته بباريس بعناية ابراهيم الحاقلي. وله مقالات أدبية وطبية طُبعت مع مختصر ترجمته بالقسطنطينية بمطبعة «الجوائب» سنة ١٢٩٨ هـ. وله أيضاً كتاب سماه: «المزهر في علوم اللغة» جمع فيه فقه اللغة وآدابها وسائر علومها طُبع ببولاق سنة ١٢٨٢ هـ. وله أيضاً كتاب عقود الجمان في المعاني والبيان وهو

ارجوزة ذيلها بشرحه لها ، وقد طُبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٩٣هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٣ . وله أيضاً كتاب الوسائل إلى معرفة الأوائل أخذ عنه علي زاده المعروف بشيخ التربة المتوفي سنة ١٠٠٧هـ (سنة ١٥٩٨ م) كتابه «محاضرة الأوائل ومسامرة الأواخر». وله رسالة عنوانها «الشماريخ في علم التاريخ» طُبعت بليدن سنة ١٨٩٤م . وله كتاب طبقات المفسرين طُبع بليدن سنة ١٨٣٩م مع شروح لاتينية وسيرة المؤلف .

ومما ذكره له صاحب كشف الظنون عدا ما مرّ «الاعتماد والتوكل على ذي التكفل» وهو عنوان رسالة من رسائله الحديثية على ما ذكره في فهرست مؤلفاته . ثم «أعذب المناهل في حديث من قال أنا عالم ، فهو جاهل» وهي رسالة أوردها في كتابه «الحاوي» . ثم «أعلام الأديب بحدوث بدعة المحارب» وهي رسالة ألّفها لبيان أنّ محارب المساجد بدعة. ثم «الاعلام بحكم عيسى عليه السلام» . رسالة كتبها جواباً لسائل سأل عن ذلك . ثم أفاده الخبر بنصّه في زيادة العمر ونقصه وهي من رسائله أيضاً . ثم «الاعضاء من دعاء الاعضاء» من رسائله الحديثية ذكرها في فهرست تأليفه . ثم «انافة في الخلافة» رسالة أخرى له . ثم «أبناء الازكياء لحياة الأنبياء» من رسائله أيضاً . ثم «انتصار بالواحد القهار» مقامة له ضمّنها رواية لرجل من أهل عصره ثم «انصاف في تمييز الأوقات» مقالة له . ثم «أتمودج اللبيب في خصائص الحبيب» مختصر لخصه من كتابه الكبير في الخصائص . ثم «نواهد الأبرار وشواهد الأفكار» وهي حاشية على أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ضمّنها في مجلد واحد . ثم «الآية الكبرى في شرح قصة الأسرى» مقالة له ، ثم «الباحة في السباحة» رسالة له . ثم «بارق قطع يد السارق» رسالة كتبها لما سرق بعض المعاصرين كتاباً ونسبه إلى نفسه ولم يكن لديه غيره فأراد بيان ذلك . ثم «البدر الذي اجلّى في مسألة الولاء» رسالة له . ثم «البدورالسافرة في أمور الآخرة» كتاب له أوله الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض ذكر فيه أنه أنجز ما وعد به في خطبة كتاب البرزخ . ثم نظم البديع وهي بديعة له مع شرحها . ثم «بذل العسجد لسؤال المسجد» رسالة له . ثم ما «رواه الماعون في أخبار الطاعون» وهو مختصر أوجز فيه كتاب بذل الماعون في فضل الطاعون لأحمد بن حجر العسقلاني . ثم «بزوغ الهلال من الخصال الموجب للظلال» رسالة جمع فيها الأحاديث الواقعة في الخصال الموجبة لظل العرش ثم «لبط الكف في اتمام الصف»

رسالة له . ثم «بلبل الروضة» مقامة أنشأها في وصف روضة مصر . ثم «بلغة المحتاج في مناسك الحاج» مقالة له . ثم «تأخير الظلّامة إلى يوم القيامة» وهي رسالة ألّفها شكاية من آذاه . ثم «تبييض الصحيفة بمناقب الامام أبي حنيفة» كتاب له إلى غير ذلك مما ذكره صاحب كشف الظنون وقد ملئت من استقرائه وحاذرت ملل القارئين .

أحمد القسطلاني

هو شهاب الدين أحمد بن محمد الخطيب القسطلاني المصري الشافعي المتوفي سنة ٩٢٣هـ (سنة ١٥١٧م) ومن مؤلفاته «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية في السيرة النبوية» وهو كتاب جليل ليس له نظير في بابهِ ، رتبه على عشرة مقاصد وشرحه محمد الرزقاني المتوفي سنة ١١٢٢هـ (سنة ١٧١٠م)، وطُبع هذا الكتاب مع شرحه المذكور بيولاقي سنة ١٢٧٨ ثم أعيد طبعه سنة ١٢٩١ . وبجمعت فيه فوائد كثيرة في تاريخ صدر الاسلام . وعلى هذا الكتاب عدة حواشٍ إحداها لنور الدين علي القاري المكي المتوفي سنة ١٠١٤هـ (سنة ١٦٠٥م) وحاشية أخرى للشيخ ابراهيم الميموني المصري المتوفي سنة ١٠٧٩ (سنة ١٦٦٨م) ثم حاشية في خمسة مجلدات للشيخ أبي الضيا علي الشبراملسي المتوفي سنة ١٠٨٧هـ (سنة ١٦٧٦م). وللقسطلاني أيضاً شرح على «الجامع الصحيح» للبخاري وهو شرح كبير مختلط بالمتن في نحو عشرة أسفار كبار أوله الحمد لله الذي شرح بعارف عوارف السنة النبوية . وقد طُبع الجامع الصحيح وعلى هامشه شرح القسطلاني في أربعة أجزاء بالقاهرة سنة ١٣٠٩ . وقد طُبع للقسطلاني كتاب «ارشاد الساري إلى صحيح البخاري» بيولاقي سنة ١٢٦٧هـ ثم بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ ولا نعلم أهو شرحه المذكور آنفاً أم هو شرح آخر .

أبو يحيى زكريا الانصاري

هو القاضي زكريا بن محمد الانصاري المصري المتوفي سنة ٩٢٦هـ (سنة ١٥١٩م). ومن تأليفه كتاب سماه «فتح الرحمن بكشف ما يلتبس من القرآن

الكريم»، أوله الحمد لله الذي نور قلوب العارفين بكتابه العظيم وهو مختصر في ذكر الآيات المتشابهة مختلفة وغير مختلفة. وفيه أتمودج من أسئلة القرآن وأجوبتها أخذته عن كتاب الرازي وألحق به أشياء. طبع ببولاق سنة ١٢٩٩هـ على هامش «السراج المنير» لمحمد الشرييني المتوفي سنة ٩٧٧هـ (سنة ١٥٦٩م) وله أيضاً كتاب «متن المنهج» وهو مختصر من منهاج الطالبين للنووي المتوفي سنة ٦٧٦هـ (سنة ١٢٧٧م) في الفقه على مذهب الشافعية وهم يعولون عليه، وقد طُبع هذا الكتاب ببولاق سنة ١٢٨٥هـ ثم طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥ في خمسة أجزاء مضافاً إليه شرح وحاشية، أما الشرح فهو لذكريا المؤلف نفسه وأما الحاشية فهي لسليمان الجمل فرغ من تأليفها سنة ١١٨٤هـ (سنة ١٧٧٨م) وسماها «فتوحات الوهاب على شراح زكريا الانصاري على متن منهج الطلاب». وقد طُبع منهاج الطالبين للنووي ومتن المنهج لذكريا معاً بالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ.

وله أيضاً شرح على ليساغوجي (منطق) الابهري المتوفي في نحو سنة ٧٠٠هـ. وقد طُبع هذا الشرح مع شرحين آخرين: الأول للابهري نفسه والثاني ليويسف الحفناوي ببولاق سنة ١٢٨٣هـ. وله أيضاً كتاب سماه «المقصد لتخليص ما في المرشد»، والمرشد كتاب للحسن العماني في الوقف والابتداء. وقد طُبع المقصد ببولاق سنة ١٢٨٢هـ. وبالقاهرة سنة ١٣٠٥هـ وكان قد طُبع بالقاهرة سنة ١٢٩٠هـ على هامش كتاب «تنوير المقياس في تفسير ابن عباس» للفيروزبادي صاحب القاموس، وله شرح على الجامع الصحيح للبخاري طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٩هـ على هامش الجامع المذكور. وله كتاب سماه «فتح المبدع في شرح المقنع»، والمقنع منظومة في الحساب لابن الهائم الذي ذكرناه قبلاً. وله كتاب آخر سماه: «ملخص تلخيص المفتاح» للقزويني المعروف بخطيب دمشق. وقد توفي سنة ٧٣٩هـ (سنة ١٣٣٨م) وقد طُبع كتابه مرات منها ببغروت سنة ١٣٠٢هـ وطُبع ملخص زكريا المذكور ببولاق سنة ١٣٠٥هـ.

وبما ذكره له صاحب كشف الظنون حاشية على كتاب «أنوار التنزيل» للبيضاوي سماها «الفتح الجليل ببيان خفي أنوار التنزيل» وشرح على جامع الصحيح للإمام القشيري النيسابوري المتوفي سنة ٢٦١هـ (سنة ٨٧٤م) ثم حاشية على شرح جلال الدين المحلى لكتاب «جمع الجوامع في اصوا، الفقه» لتاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي المتوفي سنة ٧٧١هـ (سنة ١٣٦٩م). ثم شرح له كتاب

«الصغير في الفروع» للشيخ نجم الدين عبد الغفار القزويني المتوفي سنة ٦٦٥ هـ (سنة ١٢٦٦ م). ثم شرح آخر على «البهجة الوردية» وهي منظومة في الحاوي المذكور لزين الدين عمر بن الوردي شرحها زكريا المذكور وسمى شرحه «الغر البهية للبهجة الوردية». ثم شرح على الرسالة القشيرية في التصوف للامام أبي قاسم المتوفي سنة ٤٦٥ هـ (سنة ١٠٧٣ م) ثم شرح لكتاب «الشافية في التصريف» لعثمان بن الحاجب المتوفي سنة ٦٤٦ هـ (سنة ١٢٤٨ م) وسمى زكريا شرحه «مناهج الكافية في شرح الشافية». ثم مقالة في شرح «البسمة والحمدلة»، ثم شرح لكتاب «طوالع الأنوار في علم الكلام» للقاضي عبدالله البيضاوي المتوفي سنة ٦٨٥ هـ (سنة ١٢٨٤ م) ثم شرح لفصول ابن الهائم المار ذكره سماه «غاية الوصول إلى شرح الفصول» ثم مختصر لكتاب «قرة العين في الفتح والامالة بين اللفظين» لعلي بن عثمان المقرئ المتوفي سنة ٧٠١ هـ (سنة ١٣٠١ م) ثم شرح القصيدة الخرجية في العروض للعلامة ضياء الدين عبد الله الخزرجي. ثم شرح الفية ابن الهائم المذكور الموسومة بكفاية. وسمى شرحه «الهدايا في الكفاية» ثم «مختصر تنقيح اللباب» واللباب لأحمد الحاملي المتوفي سنة ٤١٥ هـ (سنة ١٠٢٤ م) وتنقيحه لأحمد العراقي المتوفي سنة ٨٢٦ هـ (سنة ١٤٢٢ م) فاختصر زكريا هذا التنقيح وسماه «تحرير تنقيح اللباب». انتهى .

محمد بن اياس المصري

هو محمد بن أحمد بن أياس الحنفي المصري توفي سنة ٩٣٠ هـ (سنة ١٥٢٣ م) وله تاريخ مشهور سماه بدائع الزهور في وقائع الدهور ينتهي سنة ٩٢٨ هـ وهو حاو تاريخ مصر في مدة دولة المماليك البحرية والجراكسة وتاريخ بعض السنين في أيام السلاطين آل عثمان العظام، أوله الحمد لله الذي فاوت بين العباد وذكر في أوائله ما جاء في القرآن، والحديث من فضائل مصر وما اشتملت عليه من العجائب ومن نزلها ومن دخلها من الأنبياء وجعل تاريخه على ترتيب الشهور والأعوام. على أن ذكره الأحداث على هذا الترتيب كان مرتباً متعباً يلجئ القارئ في استقراء خبر الحادثة الواحدة إلى مطالعة صفحة من كتابه كما خبرت

ذلك بنفسه، إذ لديّ نسخة من هذا التاريخ مطبوعة ببولاق سنة ١٣١٢هـ وقد استشهدت بأقواله مرات كما رأيت. وهذه الطبعة أصح من طبعته الأخرى التي طبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٩هـ. وتاريخ ابن أبياس أتمه عبدالرحمن الجبرتي الحنفي المتوفي سنة ١٢٣٧هـ (سنة ١٨٢٢ م) إلى أيامه وسوف يأتي ذكره.

محمد الخضري

هو الشيخ جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك الخضري وجلّ ما عرفناه من تأليفه شرح «لامية العجم» لمؤيد الدين اسماعيل الطغرائي المتوفي سنة ٥١٤هـ (سنة ١١٢٠م) وقد ذكر ترجمته. وأول شرح الخضري الحمد لله الكريم المثلان. وذكر فيه أنه جرّد أكثره من شرح صلاح الدين الصفدي المتوفي سنة ٧٦٤هـ (سنة ١٣٦٢م) وقال أنّ الصفدي شرح هذه القصيدة فأوعى فيها وأوعب وأطنب وأسهب وأعجب وأغرب وأطلق أعنة الأقلام وجرّ ذبول فضول الكلام وأسهل وأوعز وأنجز واستطرد من فنون إلى فنون واسترسل من شجون الجدّ إلى المجون حتى صار ذلك التطويل سبباً للعجز عن التحصيل، هذا مع ما خرج فيه عن الجدّ وطفا الماء في المدّ من مستهجنات هزله التي لا تليق بقلمه وفضله بما لا يحلّ ذكره وايداعه بل تخل بالعدالة رواية وسماعه. انتهى منقولاً عن كشف الظنون.

عبد الرحيم العبادي

هو عبد الرحيم بن أحمد العبادي العباسي الشافعي المتوفي سنة ٩٦٣هـ (سنة ١٥٥٥م) وله كتاب سماه «معاهد التنصيص على شواهد التخليص»، وهو كتاب «تلخيص المفتاح في المعاني والبيان» للشيخ جلال الدين القزويني المار ذكره آنفاً. وأول كتاب العبادي الحمد لله الذي اطلع في سماء البيان أهلة المعاني ذكر فيه معاني الأبيات وتراجم قائلها ووضع كل فن مع ما يناسبه من نظائره الأدبية ومزج فيه الجد والهزل وأهداه إلى أبي البقا محمد بن الجيعان ثم لخصه واقتصر على شرح الشواهد وقد طبع كتابه معاهد التنصيص ببولاق سنة ١٢٧٤هـ.

حسين بن محمد الديار بكري

هو حسين محمد بن الحسن الديار بكري المالكي نزيل مكة والمتوفي بها سنة ٩٦٦هـ (سنة ١٥٥٨م) له تاريخ سماه «تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس» وهو تاريخ للاسلام جمعه من مؤلفات كثيرة أسهب بإيراد أخبار ما كان في صدر الاسلام وأوجز في أخبار الخلفاء والملوك وبذل جهده في تحقيق الأخبار وتمييز صحيحها من فاسدها. وقد طُبع بالقاهرة سنة ١٢٨٣هـ في جزئين ثم أعيد طبعه بها سنة ١٣٠٢هـ وعلى هامشه شروح لغوية كثيرة الفائدة علقها مصحح الطبع.

ابن نجيم المصري

هو زين العابدين ابراهيم بن محمد نجيم المصري الحنفي المتوفي سنة ٩٧٠هـ (سنة ١٥٦٢م). أشهر مؤلفاته «الأشباه والنظائر في الفقه» أوله الحمد لله على ما أنعم، ذكر فيه كتاب التاج السبكي للشافعية وإنه لم يزل للحنفية مثله وإنه لما وصل في شرح الكنز إلى البيع الفاسد، ألّف مختصراً في الضوابط والاستثناءات منها وسماه «بالقوائد الزينية» انتهى إلى خمس مئة ضابط فأراد أن يضع كتاباً على النمط السابق مشتملاً على سبعة فنون: ١- معرفة القواعد وهو أصل الفقه. ٢- فن الضوابط قال وهو أنفع الاقسام للمدرّس والمفتي والقاضي. ٣- فن الجمع والفرق ولم يتم هذا الفن فأتمه أخوه الشيخ عمر. ٤- فن الالغاز. ٥- فن الحيل. ٦- الأشباه والنظائر وهو فن الحكام. ٧- ما تحكي عن الامام الأعظم أبي حنيفة وصاحبه والمشايع وقد طُبع الأشباه والنظائر بكلكتة سنة ١٢٤١هـ وبمصر سنة ١٢٩٨هـ.

وعلى كتاب ابن نجيم المذكور تعليقات أحسنها وأوجزها تعليقة الشيخ علي ابن غانم الخزرجي المقدسي سنة ١٠٣٦هـ (سنة ١٦٢٦م) ومنها تعليقة محمد ابن محمد المشهور بجوى زاده المتوفي سنة ٩٩٥هـ (سنة ١٥٨٦م)، وتعليقة مصطفى بن محمد المشهور بعزي زاده المتوفي سنة ١٠٣٧هـ (سنة ١٦٢٧م) إلى غيرها. ولمحمد بن محمد التمرتاشي حاشية عليه سماها «بزواهر الجواهر في شرح الأشباه والنظائر» إلى غير ذلك من الشروح والترتيب لهذا الكتاب. ولابن نجيم

أيضاً كتاب يُعرف بالرسائل الزينية منها رسالة في الافعال التي تفعل بالصلاة على مذاهب الأربعة ، وقد شرح أحمد محمود الحموي المتوفي سنة ١٠٩٨هـ (سنة ١٦٨٦م) هذه الرسائل وكتاب «الاشباه والنظائر» في كتاب سماه «غمز عيون البصائر على محاسن الاشباه والنظائر» طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٩٠هـ في جزئين .

عبد الوهاب الشعراني

هو الشيخ أبو المواهب عبد الوهاب بن أحمد الشعراني الشافعي المتوفي سنة ٩٧٣هـ (سنة ١٥٦٥م) من تأليفه كتاب «لوائح الأنوار في طبقات السادة الأخيار». أوله الحمد لله الذي خلع على أوليائه خلع انعامه . ذكر فيه من الصحابة أربعة وعشرين، ومن التابعين خمسة وعشرين، ومن النساء سبع عشرة، ومن المشايخ مائتين، ومشايخ عصره ستة وثمانين فجملة من ذكرهم ٤٢٢ نفساً، ثم ذُيِّلَ بكتاب مختصر ذكر فيه جماعة من مشايخ مصر في عصره، وقال في آخره والباقون ذكرناهم في كتاب «المفاخر والمآثر في علماء القرن العاشر». وقد طبع كتابه لوائح الأنوار بالقاهرة سنة ١٢٩٢ ثم أعيد طبعه بها سنة ١٣٠٥هـ .

. وله أيضاً كتاب عنوانه «الميزان الكبرى في المذاهب الأربعة» طُبع بالقاهرة سنة ١٢٧٩هـ سنة ١٣٠٢هـ، ثم سنة ١٣٠٦هـ. وعلى هامشه كتاب: «رحمة الأئمة في اختلاف الأئمة» للدمشقي العثماني الذي فرغ من وضعه سنة ٧٨٠هـ (سنة ١٣٧٨م) وعرف صاحب كشف الظنون مؤلف كتاب رحمة الأمة بأنه صدر الدين ابي عبدالله محمد بن عبد الرحمن الدمشقي العثماني . وللشعراني أيضاً كتاب «اليواقيت والجواهر في تبيان عقائد الكبائر» ألفه في العقائد وحاول فيه المطابقة بين عقائد أهل الكشف وعقائد أهل الفكر ولم يسبقه إليه أحد. ثم اختصره واختصر المختصر فحصل منه ثلاثة كتب، وقد طُبع اليواقيت في القاهرة سنة ١٢٧٧هـ ثم أعيد طبعه سنة ١٣٠٥هـ وعلى الهامش كتاب «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر» للشعراني أيضاً. والشيخ الأكبر هو محيي الدين بن العربي المالكي الصوفي المتوفي سنة ٦٣٨هـ (سنة ١٢٤٠م) بدمشق، وله أيضاً كتاب

«منح المنة في التلبس بالسنة» وهو في العقائد وطبع بالقاهرة سنة ١٢٧٦ هـ وله أيضاً كتاب تنبيه المغترين في الآداب الدينية طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٧. وله أيضاً «مختصر التذكرة في أحوال الآخرة» اختصره من تذكرة القرطبي وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤ انتهى .

أحمد الهيثمي

هو أحمد بن حجر الهيثمي وُلد بمحلة أبي هيثم من نواحي مصر سنة ٩٠٩ هـ (سنة ١٥٠٣ م) وتوفي بمكة المكرمة سنة ٩٧٤ هـ (سنة ١٥٦٥ م) وله عدة تأليف منها كتاب سماه «الخيرات الحسان في مناقب الامام الأعظم أبي حنيفة النعمان» ردّ به مطاعن الغزالي بأبي حنيفة النعمان، وطبع هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٠٤ هـ. ومنها «الفتح المبين في شرح الأربعين» أي الأربعين حديثاً، ذلك أنه جاء في حديث: «من حفظ على امتي أربعين حديثاً في أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة في زمرة الفقهاء والعلماء». فصنّف كثيرون من العلماء المسلمين كتباً بهذا الباب فمنهم من اعتمد على ذكر أحاديث التوحيد ومنهم من اعتمد على ذكر أحاديث الأحكام ومنهم من اختار المواعظ إلى غير ذلك، وسموا كتبهم أربعين منسوبة إلى مؤلفيها: كأربعين الأصفهاني وأربعين النيسابوري وأربعين ابن الجزري الخ. ومن أحسنها أربعين النووي وهو الامام محيي الدين يحيى النووي منسوباً إلى نوى ببلاد الشام وكان محدث الشام، وتوفي سنة ٦٧٦ هـ (سنة ١٢٦٨ م) فالهيثمي شرح أربعين النووي وطبع شرحه بالقاهرة سنة ١٣٠٧ وعلى هامشه حاشية لحسن علي المدابغي .

وللهيثمي أيضاً «شرح مختصر الفقه» لعبدالله الخضري وطبع المتن والشروح ببولاق سنة ١٣٠٩ هـ ولمحمد بن سليمان الكردي المتوفي سنة ١١٩٤ هـ (سنة ١٧٨٠ م) حاشية على شرح الهيثمي سماها «الحواشي المدنية» طبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٧ هـ. وله أيضاً شرح كتاب الارشاد الذي هو لشرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقرئ المتوفي سنة ٨٣٧ هـ (سنة ١٤٣٣ م) وسمى الهيثمي شرحه «فتح الجواد في شرح الارشاد» وطبع بالقاهرة سنة ١٣٠٥. وله أيضاً كتاب «الزواج عن

اقتراف الكبائر» طُبع ببولاق سنة ١٢٨٤هـ، وبالقاهرة سنة ١٣١٠هـ. وعلى هامشه رسالتان له أيضاً. وله أيضاً مواعظ منتخبة سماها «النخب الجلية» طُبعت بالقاهرة سنة ١٣١٠هـ. وله أيضاً «الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة». طُبع بمصر سنة ١٣٠٧هـ. وله شرح على قصيدة البوصيري الهمزية سماه «المنح الملكية في شرح الهمزية» طُبع ببولاق سنة ١٢٩٢هـ.

محمد البيركلي

هو محمد بن بير على المشهور باسم بيركلي المتوفي سنة ٩٨١هـ (سنة ١٥٧٣م). له كتاب «الدرّ اليتيم في التجويد» طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٥٣هـ وشرحه الشيخ أحمد الرومي. واشهر كتبه اظهار الأسرار في النحو رثبه على ثلاثة أبواب: الأول في العامل، الثاني في المعمول، الثالث في الاعراب. وشرح هذا الكتاب حسين بن أحمد الشهير بزيني زاده الذي نبغ نحو سنة ١١٦٨هـ (سنة ١٧٥٤م). وسمى شرحه على «أسرار الأنخيار على اعراب اظهار الأسرار»، ويُعرف بمعرب الاظهار طُبع بالقسطنطينية سنة ١٢٢٢هـ وببولاق سنة ١٢٦٩هـ ولمصطفى ابن حمزة من علماء القرن الحادي عشر للهجرة شرح لهذا الكتاب سماه «نتائج الأفكار في شرح الاظهار» طُبع ببولاق سنة ١٢٦٦هـ وبالقسطنطينية سنة ١٣٠٠هـ وله كتاب سماه «ماية عامل في النحو»، طُبع مع مجموعة في كلكته سنة ١٨٠٥م. وذكر له صاحب الكشف كتاب ايقاظ النائمين. كتب أولاً رسالة في «عدم جواز أخذ الأجرة للقراءة» و «عدم جواز وقف النقود». وأفتى المولى أبو السعود بالجواز فصنّف جواباً دحض به رده ثم ذكر له كتاب فرائض يسمى «فرائض بيركلي».

أبو السعود العمادي

هو شيخ الاسلام المولى أبو السعود بن محمد العمادي المتوفي سنة ٩٨٢هـ (سنة ١٥٧٤م): ومن أشهر مؤلفاته «ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»

في تفسير القرآن طُبع ببولاق جزئين سنة ١٢٨٥هـ وعظم صاحب كشف الظنون قدر المؤلف وقدر مؤلفه ، وذكر من التعليقات عليه تعليقة الشيخ أحمد الرومي المتوفي سنة ١٠٤١ هـ (سنة ١٦٣١ م) وتعليقة الشيخ رضى الدين بن يوسف المقدسي إلى نحو نصف الكتاب وتفسير العمادي هو أشهر تفسير بعد تفسير البيضاوي والكشاف الزمخشري . اعتمدت في التراجع التي ذكرتها في هذا الفصل على كتاب كشف الظنون لملا كاتب وكتاب «اكتفاء القنوع بما هو المطبوع» لادوار فان ديك الأميركاني .

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن السادس عشر

عد ٩٦٦

بطاركة انطاكية في هذا القرن

فرغنا من الكلام في هؤلاء البطاركة في القرن الخامس عشر بذكر دوروتاوس الثالث ، وذكر لكويان بعده يواكيم الرابع ثم ميخائيل السادس ثم مكاريوس الثاني ثم يواكيم الخامس ثم ميخائيل السابع ثم يواكيم السادس . وقال جاء في جدول السمعاني إن دوروتاوس الذي كان قد ذكره خلفه يواكيم (الرابع الذي ذكره لكويان) ثم ميخائيل (السادس) ثم يواكيم (الخامس) ثم يواكيم (السادس) ثم

ميخائيل (السابع) ثم يواكيم الآخر (السابع) فكان الفرق بين رواية لكويان ورواية السمعاني، أن السمعاني لم يذكر مكاريوس الذي ذكره لكويان ، وهذا لم يذكر يواكيم السابع الذي ذكره السمعاني. ثم قال لكويان والذي جاء في الجدول الفاتيكانى أنّ دوروتاوس الثاني خلفه ميخائيل وهذا خلفه يواكيم مطران بيروت وكان مترئساً على كرسي انطاكية سنة ١٥٦٤م على ما يظهر من رسالة يواصاف القسطنطيني إلى توادوسيوس مدير كنيسة القسطنطينية . وجاء في هذا الجدول أيضاً أنه لما كان يواكيم الرابع أو الخامس لا يزال حياً دبر كنيسة انطاكية أسقف اسمه مكاريوس لا أعلم من هو، وإنّ يواكيم استمر حياً إلى سنة ١٥٧٦م. قلت قد رأيت في أحد الكتب الذي لا أثق بصحته أنّ يواكيم الرابع لم يستطع الإقامة في انطاكية لشدة التضيق عليه ، فزايها وسار إلى القسطنطينية وتوفي بها سنة ١٥٢٩م فإن صحّ هذا فلا يكون يواكيم المذكور يواكيم الخامس الذي روى لكويان أنه استمر حياً إلى سنة ١٥٧٦م بل يواكيم الرابع. وجاء في الكتاب المذكور أنّ يواكيم الخامس أصدر منشوراً ١٥٦٠م نهى به عن كل كلمة افتراء على الحبر الروماني ويبيّن تقدّمه ورياسته على سائر البطارقة مستشهداً بأقوال الجامع والقوانين البيعية، وأنه توفي سنة ١٥٧٩م .

روى لكويان أنّ يواكيم الخامس خليفة ميخائيل ووصفه بالسادس أو السابع، وقال إنّ الدمشقيين انتخبوا وهو في قيد الحياة يواكيم أسقف طرابلس بطريركاً على انطاكية وهذا مطابق لما جاء في جدول السمعاني من أنّ دوروتاوس الذي كان معاصراً لأرميا بطريرك القسطنطينية خلفه يواكيم ثم ميخائيل ثم يواكيم الآخر، ولم يغفل السمعاني إلا ذكر مكاريوس الذي ارتقى إلى البطريركية في حياة يواكيم الرابع كما مرّ (وربما أغفل السمعاني ذكره لأنه لم يكن شرعياً). ومما يؤكد أنّ ميخائيل السادس أو السابع خلف يواكيم الخامس سنة ١٥٦٧م (وهذا يخالف ما ذكرناه نقلاً عن الكتاب المذكور أنّ يواكيم الخامس توفي سنة ١٥٧٩م) رسالة كتبها ميخائيل المذكور تلك السنة وهي مثبتة في كتاب تركي يوناني صفحة ٢٩٥ من المجلد الثاني منه، ترى فيه توقيع (ميخائيل برحمة الله بطريرك مدينة الله انطاكية وسائر المشرق) .

وفي سنة ١٥٨٢م طرد والي دمشق البطريرك ميخائيل المذكور من كرسيه وعمره ثمانون سنة، فسار إلى القسطنطينية يشكو متظلماً، ويظهر أنه بقي في

القسطنطينية معروفاً بطريكاً انطاكياً إلى سنة ١٥٨٥م. كل هذا مأخوذ عن الكتاب التركي اليوناني المار ذكره وهو مشعر بأن تشكيّ الدمشقيين على بطريركهم ميخائيل واينارهم عليه يواكيم أسقف طرابلس كان نحو سنة ١٥٨٢م .

وجاء في الجدول الفاتيكاني أنّ يواكيم السادس الذي غصب كرسي ميخائيل السادس أو السابع توفي فخلفه يواكيم السابع وكان أسقفاً على حمص. وفي جدول السمعاني أنّ يواكيم هذا يُعرف بابن زيادة وهو بلا مرأى البطريرك الانطاكي الذي شهد مجعاً في القسطنطينية سنة ١٥٩٣م عقده البطريرك ارميا الثاني القسطنطيني، أيّد به حقوقه البطريركية على رئيس أساقفة موسكو. هذا وقد أثبت اسطفانوس اللوسينياني في جدول المشاهير أنّ يواكيم بطريرك انطاكية كان مترسماً على هذا الكرسي سنة ١٥٩٣م. وبعد وفاة البطريرك يواكيم هذا خلفه دوروتاوس الرابع وهذا اتفق فيه الجدولان الفاتيكاني والسمعاني، وجاء فيهما أنه استمر في البطريركية إلى سنة ١٦١٠م. انتهى .

عد ٩٦٧

بطاركة أورشليم في القرن السادس عشر

فرغنا من كلامنا على بطاركة أورشليم في القرن الخامس عشر بذكر غريغوريوس الثالث وقال دوزيتاوس في كتابه في بطاركة أورشليم أنّ دوروتاوس الثاني خلف غريغوريوس المذكور واستمر على البطريركية ثلاثاً وأربعين سنة، ثم قال أنّ جرمانوس خلف دوروتاوس. وقد جاء ذكر جرمانوس هذا في رسالة كتبها يواصاف الثاني بطريرك القسطنطينية سنة ١٥٦٥م إلى توادوسيوس مدبر كنيسة هذه المدينة. ويظهر من تاريخ جنبرادوس أنّ جرمانوس بقي حياً في البطريركية إلى سنة ١٥٧٢م، بل قال اسطفانوس اللوسينياني في جدول المشاهير الذي وضعه أنّ جرمانوس هذا كان بطريكاً للروم في أورشليم سنة ١٥٧٩م. وقال دوزيتاوس في ك ١٢ من تاريخ بطاركة أورشليم أنّ جرمانوس استقال تلك السنة أي سنة ١٥٧٩م من البطريركية .

وبعد استقالة جرمانوس من البطريركية خلفه صفرونيوس الخامس، وروى

دوزيتاوس في المحل المذكور أنه انتخب بالقرعة في اليوم التالي لاستقالة سالفه وكان صفرونيوس من المورة، وكان خادماً في إحدى كنائس القسطنطينية فاستقدمه جرمانوس إليه ليخلفه بعد استقالته، وأصلح كنيسة القسطنطينية، وأمه هيلانة التي كانت في داره. وشهد سنة ١٥٩٣م مجعماً في القسطنطينية أثبت فيه للبطريك القسطنطيني الحقوق البطريركية على تدبير كنيسة روسيا، وعُقد مجمع آخر في ذلك العهد نبذ الروم فيه قبول اصلاح الحساب الذي أمر به غريغوريوس الثالث عشر. وفي سنة ١٦٠٢م أخذ صفرونيوس يجدد كنيسة القبر المقدس واتم ذلك خليفته توافان لأن صفرونيوس تنازل عن البطريركية سنة ١٦٠٨م وخلفه توافان الذي سوف نذكره في تاريخ القرن السابع عشر، فهذا ما أمكن التوصل إلى معرفته من تاريخ بطاركة أورشليم في القرن السادس عشر.

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن السادس عشر

عد ٩٦٨

يوحنا سلوقا بطريك الكلدان

كان من المشاهير الدينيين في هذا القرن يوحنا بن دانيال، وكان يسمى قبل ارتقاؤه إلى السدة البطريركية سلوقا بالسريانية وصعوداً بالعربية وحملته مناصبة النساطرة له أن يعتنق المذهب الكاثوليكي، وسماه بعضهم سمعان بدلاً من يوحنا. واغتر ابراهيم الحاقلي بمتابعتهم فسماه سمعان في مقدمته على قصيدة عبد يشوع الصوباوي، وقد روى اندراوس ماسيوس أخبار ترقيته إلى البطريركية وكان قد رآه في رومية وحده عند شخوصه إليها فقال ماسيوس المذكور أنه في سنة ١٥٥١م توفي بطريك النساطرة الذي كان اسمه سمعان ماما فانتخبوا مكانه سلوقا، وكان من عادتهم القديمة أنه لا بد في ترقية البطريرك من أربعة مثيربوليتية أي رؤساء

أساقفة ، ولا أقلّ من ثلاثة وكان من تقليداتهم القديمة أنه إذا لم يوجد في ملّتهم ثلاثة رؤساء أساقفة فيلزم الالتجاء إلى الحبر الروماني ليرقي البطريك . وكان البطريك المتوفي لم يرق أحداً إلى المتربوليتية حرصاً على حفظ البطريركية في أنسابه ، وأرسل سلوقا أصحابه إلى روما ، وصحبه منهم سبعون رجلاً إلى زيارة أورشليم . وبعد اتمام زيارتهم رافقه منهم ثلاثة رجال في سفره إلى روما فتوفي أحدهم في الطريق ، وأصاب الثاني مرض فاحتجم عن المسير وبلغ الثالث معه إلى روما وكان اسمه غالباً .

وقد رفع أعيان النساطرة إلى الحبر الروماني يوليوس الثالث عريضة مع بطريركهم ومما قالوه فيها ، إننا نحن عبيدكم النساطرة أيتام لا أب لنا ولا مدبر ، ولم يبقَ لدينا شيء من خمير الآباء ولا رئيس أساقفة ، بل بقي أسقفان أو ثلاثة فقط ، فقد قام فينا بطريك من مئة سنة لم يكن يرقي إلى مقام رئيس أساقفة إلاّ من كان من أسرته وأنسابه . واستطرت هذه الأسرة ظلماً هذه العادة من مئة سنة إلى الآن وبقي اليوم منهم أسقف واحد يريد أن يستسير كما استسار من كانوا قبله من ذوي قرباه ، فلم نرضَ نحن ذلك ولم نشأ انتخابه ، بل اجتمعنا من جميع أصقاع المشرق من المدن والقرى أعياناً وكهنة ورهباناً وغيرهم من المؤمنين . واقترعنا بحسب العادة ورسوم القوانين المرعية فأصابت قرعتنا سيدنا صعود المفضال إذ لم نجد غيره رجلاً مجملّاً بالحبّة والذكاء ، عالماً ومعلماً ومتسامياً بالعفة والطهر ، مزداناً بنقاوة الأعمال وحسن الخصال فاستقدمناه من محل سكناه واقمناه في وسط المجتمعين ، فوجده جميعهم أهلاً لهذا المقام وقالوا إنما هذا هو الرجل الذي يصلح لذلك ، ورفعنا جميعنا إلى سموكم هذه العريضة ، وإن لم نكن أهلاً لذلك وأرسلناها لثلقى لدى قدميكم المقدّسين صحبة ثلاثة أعيان من كبار ملّتنا وهم آدم وتوما وغالب ، فنبتهل إلى أبوتكم السامية الجلال أنهم إذا بلغوا إليكم وعرضوا عليكم ما نبغى لا تدعونا عاراً وسخرية للأمم حتى لا نستطيع أن نرفع رأساً أمام أحد بل نعطفوا إلى اجابة تضرعنا إليكم وإلى من أولاكم هذه المرتبة السامية وترقوا بطريكنا إلى مقام البطريك والجاتليق لئلا نبقى أيتاماً لا أب لنا ولا مدبر وكالخراف التي لا راعي لها .» وكتب أيضاً الأعيان الذين صحبوا البطريك إلى أورشليم رسالة أخرى على هذا النمط .

قال العلامة السمعاني الذي أخذنا هذه الترجمة عنه (في المجلد الأول من

المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٣) لدينا في سفر سلوقا إلى روما وإقامته بطبريكاً وعوده إلى بلاد الكلدان تاريخان: الأول مثبت في الكتاب التاسع والعشرين من الكتب السريانية في المكتبة الواتيكانية وفي الكتابين التاسع والثالث عشر المأتي بهما من آمد. والثاني في كتاب مجهول المؤلف وهو نشر لا نظم، ثم في قصيدة نظمها عبد يشوع أسقف الجزيرة الذي خلف سلوقا المذكور. وأثبت السمعاني تاريخ هذا البطريرك نقلاً عن أحد الكتابين المأتي بهما من آمد، لأنه أوجز فتلخصه عنه «لما كانت سنة ١٨٦٤ لاسكندر (سنة ١٥٥٣م) سار سيدنا ومعلمنا سلوقا من دير هرمزدا إلى أورشليم، وبعد أن سجد فيها وتبارك بالقبر المقدس سافر إلى روما وأهداه في طريقه بحراً وبراً من دعاه لهذا السفر، وبلغ روما سالماً في ١١ من تشرين الثاني، ونوّله الله حظوة في أعين الرومانيين ولا سيما البابا وحاشيته. وزار معبد القديسين بطرس وبولس، وأقام في هذه المدينة العظمى نحواً من ستة أشهر وفي نهار الأحد الجديد الواقع حينئذ في الثالث من نيسان رقاها الكرادلة بأمر البابا إلى الأسقفية والمتربوليتية. وفي الثامن والعشرين من الشهر المذكور حضر البابا يوليوس إلى كنيسة القديسين بطرس وبولس محمولاً بعرش مذهب يحف به كثيرون من رؤساء الأساقفة والاساقفة وجنّ غفير من الكهنة والرهبان والعامّة ويديده المقدستين رَسَم سيدنا سلوقا جاثليقاً وبطريركاً ودفع إليه رسائل ليكون مقبولاً في أمصار المشرق كافة، وفي أنحاء الهند جميعها، وأمر أن يُصنع له أربع حلل مقدّسة مذهبة وتاجاً مذهباً وأن يعطى كأساً ذهبياً، وأرسل معه رجلاً علامة وحكيماً لاهوتياً وفيلسوفاً اسمه ابروسيوس وراهباً متواضعاً ووديعاً وعالمًا اسمه انطونيوس، وعاد بالسلامة والاقبال على مدينة آمد سنة ١٨٦٥ لاسكندر (١٥٥٤م) في ١٢ تشرين الثاني، فاستقبله أهل آمد جميعهم بالتجّلة والتكريم. وفي نهار الأحد الثاني رقى إلى درجة الأسقفية المتربوليتية هرمزدا الآمدي المعروف باسم حبيب وسماه ايليا ورقى بعد ذلك عبد يشوع أسقف الجزيرة وجعله متربوليتاً في كنيسة القديس فتيون بآمد.

وروى خبر موته عبد يشوع أسقف الجزيرة المذكورة الذي خلفه فقال ما ملخصه: «في سنة ١٨٦٥ لاسكندر (سنة ١٥٥٤م) لما انتشر خبر قدوم البطريرك سلوقا وبلغ إلى ابن ماما (وهو ابن أخي البطريرك ماما سابق سلوقا) أخذ هذا الشرير يخترع حيلاً لاهلاك البطريرك، ووشى به إلى والي آمد مورداً عليه تهماً لا

أصل لها غير ضأن بشيء مما يبلغه مأربه، فقبض عليه الوالي وزجّه في السجن وغلله بالقيود، وكان يجلده ويعذبه كل يوم من دون شفقة، وأبقاه على ذلك أربعة عشر يوماً وهو صابر متجلّد إلى أن خنقه حراس السجن وأشاعوا أنه انهزم. وأخذوا جثته إلى البرية ثم طرحوها في النهر». وكان ذلك سنة ١٥٥٥م ولم يبقَ في تدير كنيسة الكلدان إلا سنة وشهرين.

وكان سلوقا قد كتب وهو بروما دستور ايمانه وترجمه ماسيوس المذكور عن السريانية إلى اللاتينية وطبعه سنة ١٥٦٩م وأوله اقرارى بالايمان أنا الراهب صعود وما يجدر ذكره في هذا الدستور: أولاً قوله كانت العبادة عندنا أن نعرف بخطايانا، ولكن قام بيننا ظالم شرير أبطل هذه العادة، ثانياً قوله في سرّ التثبيت لا أعلم إذا كان قدماؤنا استعملوا هذا السرّ فأنا راهب ومن علمني ذلك. قال السمعاني إنّ النساطرة بعد انفصالهم عن الكاثوليكين كان في جملة أغلاطهم خلّوهم من سرّ التثبيت فلا نجد له ذكراً ولا أثراً في كتب طقوسهم، ولا أثراً له رتبة التعميد عندهم، ثالثاً قوله: «إننا نكرم ونعظم ونمدح الكنيسة الرومانية ورئيسها البابا الأقدس وجميع حاشيته المباركين فإنه قد كتب في كتبنا أنّ الكهنوت عندنا من هذه الكنيسة الرومانية، ولذلك أتينا نأخذ خميراً منكم كما هو مدوّن في رسالتنا» يريد الرسالة التي صحبه بها ذووه. وقد قيل في هذه الرسالة «إنّ كهنوتنا من أقدم الأيام من روما التي هي كرسي بطرس زعيم الرسل، ولكن لما تشوّش نظام المسيحيين انقطع طريقنا إليكم من مدة ثلاثماية سنة إلى الآن». وروى ماسيوس إنه سمع من سلوقا ورفيقه أنّ بطريكاً آخر من ملّتهم اسمه مارو أو آرام أتى إلى روما من نحو ثلاثماية سنة، وجعله الحبر الروماني بطريكاً على ملّته. وذكر عبد يشوع المذكور في قصيدته على ترقية سلوقا أن العادة القديمة جداً عندهم أنّ بطريك ملّتهم يترقى في انطاكية أو روما، وذكر كثيرين ممن رقوا في روما وانطاكية. على أنّ العلامة السمعاني المدقق أنكر صحة ترقية بطاركتهم في روما إلا آرام المار ذكره آنفاً وسلوقا وخليفته عبد يشوع، وأما تعلقهم ببطريكية انطاكية فهو من أقدم الأيام وجائليق سلوقية التي هي مركز بطاركة الكلدان كان خاضعاً لبطريكية، انطاكية وذلك ظاهر من قوانين الجامع المقدّسة. انتهى ملخصاً عن المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٣ وما يليها.

موسى المارديني

هو كاهن من ماردين أرسله اغناطيوس بطريرك السريان اليعاقبة إلى البابا يوليوس الثالث سنة ١٥٥٢م، فقدم دستور اقراره بالايمان الكاثوليكي من قبل نفسه، ونيابة عن البطريرك المذكور. وترجم اندراوس ماسيوس هذا الدستور من السريانية إلى اللاتينية وأذاعه، فقبل البابا البطريرك اغناطيوس وموسى رسوله في حظيرة الكنيسة الرومانية، وكان البطريرك يرغب في طبع كتاب العهد الجديد بالسريانية فتوجه موسى إلى جرمانيا واهتم بطبع الكتاب المذكور بفيينا وتعرف إلى يوحنا البرتوس ودمنستاديوس الذي كان درس بعض مبادئ اللغة السريانية على سمعان أسقف السريان الكاثوليكي، وأتم يوحنا المذكور دروسه السريانية على يوحنا المارديني. هذا واشتركا بنشر هذه اللغة في أوروبا كما أثبت ودمنستاديوس نفسه في مقدمته على العهد الجديد الذي طبع بالسريانية سنة ١٥٥٥م حيث قال ما ملخصه: « لما كنت مهتماً بطبع السريانية أتى إليّ كاهن كاثوليكي اسمه موسى المارديني كان اغناطيوس البطريرك الانطاكي قد أرسله إلى روما لمهام كبرى ولطبع العهد الجديد، وأخذ نسخاً منه إلى سورية. ولما لم يجد بروما ولا بالبندقية من يتجشم عبء هذه المهمة هداه بعضهم إليّ، فوفد عليّ ومعه رانالدرس بولس الذي أشتهر بقداسته وسمو علمه ».

وقد اغترّ ماركارينوس بينيوس فظنّ موسى هذا وموسى بركيفا أسقف بيت رمان والموصل واحداً، مع أنّ بركيفا توفي سنة ١٢٢٤ لاسكندر التي توافق سنة ٩١٣ للميلاد، وموسى المارديني كان في أواسط القرن السادس عشر يعني بطبع الكتب السريانية بفيينا كما رأيت في كلام دومنستاديوس الذي ذكرناه آنفاً. وكما أثبت اندراوس ماسيوس الذي كان موسى المارديني معلماً له في اللغة السريانية، وقد صرح ماسيوس بذلك في مقدمته على كتاب موسى بركيفا في الفردوس. وقد ترجم ماسيوس من السريانية إلى اللاتينية دستور الايمان الذي تلاه موسى المارديني حيث بعد اقراره بكل ما رسم في الجمع الخلكيدوني وجحوده ضلال ديوسقورس قال: « ابتهل إلى أبي الآباء وراعي الرعاة الحبر الأعظم يوليوس الثالث أن يتعطف ويقبل اقرارى هذا من قبل نفسى ونيابة عن بطريركنا وأسالكم أنتم أيها الآباء

المختارون ، أنتم رجاء الكنيسة المقدسة الكرادلة المتسامون بالقداسة أن تقبلوا اقرارى هذا بالايان الذى صرحت به بالاصالة عن نفسى وبالنباة عن بطرىكنا الذى أمرنى أن أقرّ أمامكم بايمانكم هذا القويم والصحيح ، وأصرّح بأنه يقبل الاقرار الذى أقرّ به أنا ، ولم أقدم على اقرارى على فور بلوغى إلى هنا لأنه أمرنى أن لا أعجل باقرارى ، بل أن أتدبر واتبصر بما أقرّ به . وقد رأيت الآن بعد التروى أنّ ايمانكم إنما هو كالسراج الموضوع على منارة لا يحجب نوره ظلام حتى لو أمسى العالم كله ظلاماً لبقى منيراً كالشمس للعالم كله ، ولا أقبل شيئاً يزيد على هذا الايمان ولا أنقص منه شيئاً .

على أنه ظهر بعد ذلك أنّ اغناطيوس بطرىكه لم يعتقد الايمان الكاثوليكي صحيحاً، وداود خليفته فى بطرىكية اليعاقبة لم يعتقد على هذا الايمان قلبه وضميره وإن تظاهر به . فقد روى بطرس سترروزا فى كلامه على عقائد الكلدان أنّ البابا غريغوريوس الثالث عشر أرسل إلى هذا البطرىك داود سفيراً رسولياً وهو لاونرودس أسقف صيدا سنة ١٥٨٣م وأرسل إليه معه براءة تثبيته فى البطرىكية والدرع البطرىكي آملاً أن يحمله بذلك على مصالحة الكرسي الرسولي ، ورفع البطرىك مع الأسقف المذكور دستور ايمانه إلى الحبر الروماني (وهو مثبت فى الكتاب ١٦٩ من الكتب العربية فى المكتبة الواتيكانية) ، إلّا أنّ السفير المذكور قرّر لدى عودته أنه لم ينجح بسفارته .

وقد أذاع ماسيوس المذكور مقالة لاهوتية فى الثالث الأقدس وقال إنّ موسى المارديني كتبها سنة ١٥٥٢م، على أنّ العلامة السمعاني أنكر أن تكون هذه المقالة تصنيف موسى المذكور وأثبت أنها مأخوذة عن كتب فروض السريان التى تتلى فى كنائسهم يوم عيد الثالث الأقدس كما يعلم كل خبير بطقوس السريان . انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٣٥ .

عد ٩٧٠

عبد يشوع بطرىك الكلدان

ذكر ترجمته السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٣٦) فلخصها عنه قال: إنه عبد يشوع بن يوحنا قد رقاہ يوحنا سلوقا إلى أسقفية جزيرة دجلة ،

ثم خلف هذا البطريرك بعد مقتله فدير كنيسة الكلدان أحسن تدبير وأقدسه . وقال في حقه بنفينيوس في ترجمة البابا ييوس الرابع ما ملخصه : « كان في هذا العصر عبد يشوع بطريرك النصارى الشرقيين الساكنين في عبر الفرات ، وكان رجلاً عالماً ضليعاً باللغات الكلدانية والعربية والآشورية ، وتمتد رئاسته على الكلدان إلى الهند . عانى السفر الشاق مع بعض أصحابه لزيارة الأعتاب الرسولية ، فثبته الخبر الروماني ومنحه درع الرئاسة مأخوذاً عن ضريح القديس بطرس الرسول ، ولما قابله البابا وعد بحفظ الطاعة له ما دام حياً ، وأبرز بواسطة مترجم دستور إيمانه الذي ثلثي في المجلس ٢٢ من المجمع التريدينيني فكان كما يأتي : « أعترف بقلب نقي واعتقاد لا غش فيه أمام كرادلة الكنيسة الرومانية الفاتقي الاحترام أنا عبد يشوع بن يوحنا من بيت مرشيا (وفي النسخة السريانية من بين مارون) من مدينة جزيرة دجلة المنتخب جاثليقاً أو بطريركاً في مدينة الموصل أقسم على أنني أعتقد بقلبي وأعترف بلساني بإيمان الكنيسة الرومانية المقدسة ، وأثبت جميع العقائد التي تثبتها وأرذل كل ما تزدله وأتعهد وأعد بأنني أعلم جميع أخوتي الأساقفة وكل من هم خاضعون لسلطتي بأي نوع كان أن يعتقدوا هذا الإيمان ويتشبثوا فيه ، وأجهد نفسي باقناعهم بذلك بكل ما في طاقتي من الوسائل أعانني الله على ذلك . وتشهد عليّ به هذه الأناجيل المقدسة . وبياناً لذلك وقعت بيدي على اعترافي هذا وعلى يميني في ٧ من آذار سنة ١٥٦٢م » .

وقال بنفينيوس بعد ذلك ، ثم ألقى على البطريرك عدة مسائل عويصة ، فأجاب عليها بفقاهة وسداد وقال إنه قد طالع أسفار العهدين القديم والحديث وكتب الآباء الأقدمين اليونان واللاتين التي تتناولها أيدينا نحن الكاثوليكين مترجمة إلى الكلدانية والعربية والآشورية . وذكر كتباً أخرى لا نعرفها ، وحقق أنّ عندهم أكثر طقوس الكنيسة الرومانية وأسرارها ، وألتمس أن ترسل إليه مراسيم المجمع التريدينيني ، وأقرّ أنّ قدماءهم تلقوا الإيمان بالمسيح على يد الرسل توما وتادي وتلميذهما ماري ، وإنهم الآن محافظون عليه . ولما أراد العود إلى بلاده أثقل البابا كاهله بالهدايا والمنح . وقد رأيت رسائله التي أنفذها إلى روما بعد عودته إلى وطنه . انتهى كلام بنفينيوس فيه . وكتب مثل ذلك الكردينال اموليوس الذي كان يساعده بروما في رسالة أنفذها إلى المجمع التريدينيني ، وذكرها رانيلدوس في تكملة تاريخ بارونيوس في سنة ١٥٦٢م .

وقد اغترّ ابراهيم الحاقلي إذ زعم في مقدمته على فهرست الكتبة السريان لعبد يشوع الصوباوي أنّ عبد يشوع الصوباوي وعبد يشوع البطريك الذي نكتب ترجمته هما واحد. فقال الصوباوي أتى إلى البابا يوليوس الثالث وهو شيخ، وجحد بدعة نسطور واعتقد المعتقد الكاثوليكي ثم عاد في أيام البابا بيوس الرابع إلى روما فمنحه هذا البابا درع البطريكية. وجرى مثل هذا السهو لمرهج بن نيرون الباني في كتابه افوليا (سلاح) الايمان صفحة ١١٦ و ١١٧ وكذا كان لرينودوسيوس في كتابه في دوام الايمان مجلد ٥ صفحة ٦٥٦ على أنّ اغترار هؤلاء العلماء ظاهر لأنّ بين عبد يشوع الصوباوي وعبد يشوع البطريك أكثر من مئتي سنة، فالبطريك ثبته البابا بيوس الرابع سنة ١٥٦٢م وعبد يشوع الصوباوي كان حياً سنة ١٣٠٠م، إذ شهد على نفسه في مقدمة ديوانه الذي سماه «الفردوس» بقوله: «من سنة ١٦٠٢ لاسكندر (توافق سنة ١٢٩١ للميلاد) التي كتبت بها هذا الكتاب أنا عبد يشوع مطران صوبا وارمينية إلى هذه السنة التي هي سنة ١٦٢٧ لاسكندر (توافق سنة ١٣١٦ للميلاد). ثم مات الصوباوي سنة ١٣١٨م كما يظهر من كتاب الإنجيل القديم السرياني المحفوظ بمكتبة مجمع نشر الايمان حيث ذكر وفاة الصوباوي سنة ١٦٣٠ لاسكندر في أوائل تشرين الثاني (التي توافق سنة ١٣١٨ للميلاد). وقد علّق عبد يشوع البطريك وهو أسقف حاشية على ديوان عبد يشوع الصوباوي سنة ١٨٥١ لاسكندر (سنة ١٥٣٩ للميلاد) وكان هذا الكتاب في منزل الرهبان الموارنة حذاء كنيسة القديسين مرشليينوس وبطرس بروما. وكتب في هذه الحاشية بالعربية والأحرف السريانية: «إنّ هذا الكتاب ألّفه عبد يشوع أسقف صوبا من نحو مائتي سنة يخص القس ابراهيم بن يعقوب، اشتراه من القس عبدالله بن زين الدين». ثم ألحق بذلك عبارة سريانية هذه ترجمتها: «كتبته بيدي أنا الحقير عبد يشوع من الجزيرة وكل من قرأه يصلي من أجل حقارتي صلاةً قلبية حباً برّنا». فلا يبقى إذا شك في أنّ عبد يشوع الصوباوي غير عبد يشوع الجزري البطريك.

وأما ما ألّفه عبد يشوع البطريك فهو أولاً ثلاث قصائد سريانية طويلة. في يوحنا سلوقا سالفه: أولها في مسيره إلى روما وترقيته إلى بطريكية الكلدان وتثنيته بها، والثانية في عوده من روما إلى بلاد الكلدان ومقتله بوشاية براما بطريك النساطرة وحيله، والثالثة رثاء له وتعداد لصفاته. وهذه القصائد الثلاث

مثبتة في ثلاثة كتب سريانية في المكتبة الواتيكانية وهي السابع والعشرون من الكتب السريانية. ثم الكتابان التاسع والثالث عشر من الكتب المأني بها من آمد. ولعبد يشوع قصيدة في مدح البابا ييوس الرابع قد ترجمها إلى اللاتينية المطران اسحق الشدراوي الماروني صاحب الغراماطيق المشهور. ونشرها بالسريانية واللاتينية بطرس ستروزا في كتابه في مجامع وعقائد الكلدان صفحة ١٢٥ وهي مثبتة في الكتاب السرياني في مكتبة نشر الايمان المقدس. وكان هذا الكتاب يخص مدرسة الموارنة برفنًا. وله أيضاً دستور ايمانه الذي تلاه بحضرة الكرادلة كما مرّ. ويسمي نفسه بكلامه السرياني عبد يشوع بن يوحنا من بيت مارون، كما أشرنا إلى ذلك. وقد شكّا العلامة السمعاني من أنّ الترجمة إلى اللاتينية لهذا الدستور لا تطابق أصلها السرياني، ومن أنّ ترجمة هذا الدستور من اللاتينية إلى السريانية التي وضعها سرّكيس الرزي مطران دمشق الماروني سنة ١٦٣٣م وأثبتها في كتاب في مكتبة مجمع نشر الايمان المقدس هي بعيدة عن الأصل السرياني. انتهى.

الفصل الثالث

الأحداث الدينية في هذا القرن

أهم الأحداث الدينية في هذا القرن ظهور مدّعي الاصلاح المعروفين بالبروتستانت، فلم تنشأ بدعة هؤلاء في سورية ولم تتصل إليها في بادئ بدئها، لكن تطرقت إليها ولا سيما في القرن الحالي، وانتشر في بلادنا البروتستانت من أميركيين وانكليز وألمانيين، وكثرت معاهدهم العلمية وتوفر عدد مرسلهم بيننا وعظمت مطابعهم وتوافر نشرهم الكتب، وقلّما خلا كتاب منها عن بث شيء من تعاليمهم المخالفة لايامنا القويم. وأتبعوا الرعاة الكاثوليكين بالحفاظ على رعاياهم أكثر مما استفادوا هم بكسب نفر منهم فإنهم وإن نجحت مطابعهم بنشر المئات بل الألوف من الكتب وإن وفقت مدارسهم في أن دخلها جمّ غفير من الطلاب والطالبات إلا أنّ من جذبهم لاتباع بدعتهم ولا سيما من الكاثوليكين كانوا أقلّ

من القليل في جانب ما يبدلونه لذلك من الأموال والأتعاب والمعدات، وما ترسله جمعياتهم من اميركا وانكلترا وجرمانيا إلى سورية لهذه الغاية . كل ذلك كان داعياً لنا لنفرد هذا الفصل من تاريخ سورية للكلام في هذه البدعة، فنذكر أولاً الذين انشأوها، وأخصّ تعاليمهم المخالفة الايمان الكاثوليكي ونلحق بذلك شيئاً من الردّ عليها، ثم نأتي على ذكر شيء من مراسيم المجمع التريدينيني الذي عُقد لمناسبة هذه البدعة .

عد ٩٧١

لوتار وتلاميذه

وُلد مرتينوس لوتار بايسلابان أحد أعمال المانيا سنة ١٤٨٣م وكان أبوه من عامة الناس، ودرس العلوم في بعض مدارس المانيا ونال بعض المراتب العلمية سنة ١٥٠٥م. وبينما كان يوماً في تلك السنة في البرية انقضت صاعقة على أحد رفقاءه فارتعش لوتار من هذه النازلة ونذر أن يدخل الرهبانية . وانضوى بعد ذلك إلى رهبان القديس اغوستينوس ورقي إلى درجة الكهنوت سنة ١٥٠٧م، وأقيم معلماً للفصاحة والطبيعيات في كلية ويتبرك سنة ١٥٠٨م، ثم أخذ يدرس الأسفار المقدسة سنة ١٥٠٩م وسافر إلى روما سنة ١٥١١م مكلفاً أن يسعى بضمّ أديار الأغوسطينيين كلها تحت سلطة النائب العام، فعاد وفي قلبه حزازات لأنه لم ينل ما طلب . وأخذ في رهبانيته رتبة ملفان واكب على التعليم فكسب شهرة فيه، وفي سنة ١٥١٧م أصدر البابا لاون العاشر براءة يحثّ المؤمنين بها على التبرع بشيء من المال مساعدةً لنصارى المشرق وتكملةً لبناء كنيسة القديس بطرس برومة . ومنح من يتبرعون بدفع مبلغ غفرانات، وعهد باذاعة البراءة في المانيا إلى أحد رهبان القديس عبد الأحد، فامتعض الرهبان الأغوسطينيون، فأخذ لوتار يندد أولاً بسوء استعمال الغفرانين، ثم كتب مقالة ضعنّها خمساً وتسعين قضية ضد الغفرانات فكان له محازبون . وردّ رئيس رهبان القديس عبد الأحد قضايا لوتار بمئة وسبع عشرة قضية، ويثّن أنّ قضايا لوتار بدعة، فأجابه لوتار بأكثر جرأة، وأرسل مقالته إلى البابا في كتيّب عنوانه: «حلّ المجادلات في قوة الغفرانات» . وأكثر من التلذل وظواهر الطاعة للبابا آملاً أن يتسامح له . ولما بلغ البابا ما كتبه إليه لوتار رأى ما في كلامه

من البدع ، فدعاه إلى روما فاعتذر بضعف جسمه وبعد المسافة ، فعهد البابا بالأمر إلى الكردينال كاتيانوس سفيره إلى جرمانيا ، وأفرغ الكردينال مجهوده ليحمل لوتار على الارعواء عن غوايته فلم ينل منه مأرباً . وعُقدت مفاوضة في ليبسيك سنة ١٥١٩م فأنكر بها لوتار رئاسة البابا وأصّر على غلظه وكابر وتعتت .

وفي سنة ١٥٢٠م أشهر لوتار اعلاناً إلى شرفاء المانيا ومقالة سماها هسيي بابل ومقالة أخرى في الحرية المسيحية أكثر فيها من الطعن والتنديد بالبابا وبالكيسة الرومانية وبالندور الرهبانية وتبتل الكهنة وسلطة الكيسة ومقتنى الاكليرس أملاكاً عالمية ، وأنكر جواز تكريم القديسين ووجود المطهر ووصايا الكيسة وعقيدتي الاعتراف والاستحالة الجوهرية في الأورخاريسيا ، وقداش الكاهن وحده وتناول الخبز المقدس دون الخمر . ولم يبق من الأسرار إلا المعمودية والأورخاريسيا على مفهومه . فحرم البابا لاون العاشر تعاليمه هذه في براءته المبرزة في ٣ كانون الثاني سنة ١٥٢١م فأحرق لوتار براءة البابا في ويتنبرك مع جميع الأحكام الصادرة من الكرسي الرسولي ، ودعي لوتار للنظر في حججه في جمعية عُقدت في قورم سنة ١٥٢١ فأبى أن يأتي إليها إلا أن يؤمنه الملك كرلوس الخامس عاهل جرمانيا ، فأثمه وحضر لكئنه استمر مصراً على غيئه فسلم إلى ضمانه العاهل ، ففرّ وأخفاه والي ساكس الذي كان يناصره بقصر ورتبورك أكثر من تسعة أشهر تفرّغ فيها لنشر تأليف ييٹ بها أضايليله . وعني سنة ١٥٢٢م بترجمة الأسفار المقدسة إلى اللغة الألمانية . وأدخل في ترجمته ما يوافق غرضه وتأييد أضايليله ، ثم دخل ويتنبرك سنة ١٥٢٢م وعاد ييٹ غواياته ، فتبعه كثيرون من الشعب وأغوى كثيرين من الأمراء والحكام منهم أمراء السويد والدنمرك وبلتييمور ، وأهل بعض المدن منها ستراسبورغ وهمبرغ وفرانكفورت ، وقد استطاع أن يقرر لأتباعه حرية الضمير أي أن يعتقد كل ما يراه في جمعيات لورنبرك سنة ١٥٢٣م وسنة ١٥٢٤م ، وفي جمعية سبيرا سنة ١٥٢٦م ، فاضطر العاهل كرلوس الخامس أن يسمح بأن يعتقد كلّ بما يراه إلى أن ييٹ بالأمر المجمع المزمع عقده عن قرب . ونقض هذا السماح في جمعية أخرى عُقدت بسبيرا أيضاً سنة ١٥٢٩م ، وأمر باقامة القدّاس في البلاد المصابة ببدة لوتاروس أيضاً ، إلى غير ذلك من فروض الدين . فاستاء من ذلك فريديريك أمير ساكس وغيره من الأمراء اللوتاريين فأجمعوا ورفعوا إلى العاهل احتجاجاً (بروتسطو) على ذلك ، وهذا أصل تسمية اللوتاريين بروتستانت أي محتجين .

وكان لوتار قد طغى راهبة اسمها كاترين دى بورا وأخرجها من ديرها وتزوج بها سنة ١٥٢٥م، وكانت من أسرة شريفة وترهبت ليأسها من الزواج، وكان نتائج تعاليم لوتار أنّ كثيرين من الأمراء المغويين يبدعته ضبطوا الأوقاف واستحوذوا على أملاك الكنائس. وظنّ بعض الشرفاء أنّ هذه وسيلة تصيّرهم أغنياء وتكسبهم استقلالاً حديثاً، وكثر الهرج وعظم القلق واضطرّ العاهل سنة ١٥٣٢م أن يعقد الصلح مع الأمراء البروتستانت، على أن تبقى لهم الحرية في دينهم الحديث إلى أن يُعقد الجمع المزمع. وصرف لوتار ما بقي من عمره في اذاعته أفضاليه بمؤلفاته وخطبه وفي مناصبته البدع الكثيرة التي نشأت بين أتباعه أنفسهم، إلى أن قضى الله عليه وتوفي سنة ١٥٤٦م بعد عقد الجمع التريدينيني سنة ١٥٤٥م، وقد دُعي لوتار إليه فلم يحضر. وكان قد استغاث من سفير البابا بالبابا نفسه الذي يجهل كنه أمره إلى البابا الذي يعلمه ثم من هذا الجمع. ولما عُقد هذا الجمع لم يحضر إليه مكتفياً بحكم نفسه، واقتفى أصحابه آثاره فلم يشخصوا إلى الجمع، وطلبوا منشور الامان فأعطاهم الملك اياه، وكررت الدعوة لهم إلى الجمع فأبوا إلا الاصرار.

أما تلاميذ لوتار فكانوا كثيرين ولكن قلّ منهم من تابعه على غوايته كلها، وأول هؤلاء فيليب مالنطون وُلد سنة ١٤٩٧م بيراتان من جرمانيا، وكان مغوياً بأضاليل لوتار، لكنه كان ليّن العريكة مبغضاً للخصام، ولهذا كان يلطف جهده تعاليم لوتار، وكان يشكو من أنه متشبث بنقض ما تعلمه الكنيسة. وألّف مالنطون سنة ١٥٣٠م دستور الايمان الذي قدّمه اللوتاريون إلى عاهل جرمانيا كارلوس الخامس في جمعية أوغوسطا ولطف به بعض تعاليم لوتار ووافق تعليم الكنيسة في عدة عقائد منها أنّ الانسان لا يتبرر بالايمان وحده، وإنّ الكنيسة لا تحتوي المنتخبين فقط بل على المزدولين أيضاً، وإنّ للانسان مطلق الحرية وإن لم يدرك البرّ خلواً من النعمة، وإنه يجوز تكريم القديسين، وإنّ للأساقفة سلطاناً تجب الطاعة له إلى غير ذلك. وروى فاريللا في المجلد الأول من تاريخه (صفحة ٤٤٥) أنّ مالنطون كتب إلى فرنسيس الأول ملك فرنسا أنّ رئاسة البابا وسلطانه لا بدّ منهما لثبوت وحدة التعليم في الكنيسة، وعرف لوتار بذلك فحنق منه ووبخه وصرح له بأنّ قوله هذا يلاشي الديانة التي جدّ بانشائها عشرين سنة. وتوفي مالنطون سنة ١٥٥٦م على رواية فرنست أو سنة ١٥٦٠م على رواية كوتي. وروى كثيرون من

المؤرخين أنّ أم مالنطون قالت له وهو مدنف: «يا ابني أنا كنت كاثوليكية فصيرتني أغير عقيدتي وأنت الآن قريب من اداء الحساب لله فقل لي أي دين هو أحسن للخلاص: الدين الكاثوليكي أو اللوثاري؟» فأجابها ابنها إنّ الدين اللوثاري الذّ للحواس وأما الكاثوليكي فأسلم للخلاص «فذاك الذّ وهذا أسلم».

ومن تلاميذ لوتار أيضاً يوحنا اكرهكولا وُلد بايسلابان مولد أستاذه وتلمذ له أولاً ثم أنشأ بدعة على حدة يُعرف أصحابها بناقضي السنّة، لأنّه كان يقول كن زانياً ولصاً وسارقاً وآمن فتخلص. ففحصت كلية ويتبرخ غوايته ونبتتها فارعوى عنها، لكنه سار بعد وفاة لوتار إلى برلين واستأنف بثّ تجميدفه ومات مصرّاً عليه، وقيل إنّ أتباعه ينكرون وجود الأرواح.

ومن تلاميذ لوتار أيضاً نيقولاوس ستوركيوس وتوما منشيروس فهذان تابعا استاذهما أولاً على أفضاليه، ثم صارا رئيسي بدعة تُعرف بالاناباتيستا أي منكري المعمودية الأطفال، لأنّ أول غواياتهم كان منعهم تعميد الأطفال قبل بلوغهم سن التمييز. أخذوا ذلك من قول لوتار إنّ ترك الأطفال دون تعميد أولى من تعميدهم وهم لا شيء لهم من الايمان الخاص. ولم يلتفت هؤلاء إلى قول المخلص دعوا الأطفال يأتون إليّ فإنّ ملكوت الله مثل هؤلاء، فإن حقّ لهم دخول ملكوت السماء فيحقّ لهم قبول المعمودية التي لا يدخل السماء أحد دونها. وتعميد الأطفال أخذته الكنيسة عن الرسل بالتقليد الذي أثبته الآباء الأقدمون منهم اوريجانوس الذي قال في مجلد ٢ من تأليفه صفحة ٣٥: «أنّ الكنيسة أخذت بالتقليد عن الرسل أن تعمد الأطفال أيضاً». وكذلك قال القديس ايريناوس وترتوليانوس وقد أخذ توما المذكور يطعن بلوتار ويقبّح عليه خصاله الذميمة، فطرده لوتار من ساكس مع اتباعه، فمضى إلى مونستر وأخذ يعظ رعاي الشعب أن يخلعوا طاعة الأساقفة والولاة فاحرّجوا جمّاً غفيراً وأبدوا تعدييات، فوثب عليهم عسكر الحكومة فقتل بعضهم وشتت من بقي منهم، ثم جمع توما بعضهم وكانت لهم وقعتات مع الجنود إلى أن انهزموا وضربتهم أيدي سبا، وفزّ توما واختفى ولكن قبض عليه بعد ذلك وحُكم عليه بقطع الرأس. وروى بعضهم أنه قُتل مصرّاً. وروى نطاليس اسكندر أنه ارعوى عن ضلاله واعترف قبل مقتله، وانقسم أصحاب شيعته إلى بدع كثيرة لا محل لذكرها.

ومن تلاميذ لوتار أيضاً اندراوس الكرلوستادي فهذا تابع لوتار على بدعه ثم انشق عنه وأنشأ بدعة على حدة تسمى بدعة السرين، وخالف لوتار بزعمه أنّ القربان المقدس لا يحوي جسد المسيح، ولم يكن لوتار ينكر ذلك، وإن أنكر الاستحالة وخالفه أيضاً بقوله يلزم استئصال صور الصليب والقديسين ونقض المذابح وإبطال القداس. وعرف لوتار بذلك وهو مختفٍ عند أمير ساكس فسار إلى ويتنبرغ حيث كان اندراوس فأعاد المذابح والصور، ولما لم يذعن له اندراوس جعل الأمير ينفية مع امرأته فمضى إلى تورنجا وهناك ألف كتابه الموسوم بالعشاء الرباني. وقد مضى يوماً لوتار إلى هناك فطرده اندراوس ورجمه بالحجارة إلى أن توفي اندراوس المذكور مصاباً بالفالج.

وكان من مدعي الإصلاح هؤلاء زينليوس وكان تعليمه أشبه بتعليم لوتار وإن خالفه بعقائد كثيرة، وكان خورياً بزوريك من أعمال المانيا، وشرع يثّ ضلاله ناكراً الغفران كما ابتدأ لوتار، وألحق بذلك أضاليل أخرى منها أنّ القداس ليس ذبيحة بل تذكّار للذبيحة الصليب، وأنّ لا حاجة إلى شفيع غير المسيح، وإنّ الزواج واجب لكل أحد، وإنّ سلطة البابا والأساقفة لا أسّ لها في الأسفار المقدسة. وخالف لوتار بنسبته أمر الخلاص إلى حرية الانسان وقوى الطبيعة. وكان لوتار يعزو ذلك إلى النعمة وحدها وجعل جمعية زوريك سنة ١٥٢٣م تبطل تبطل الكهنة والقداس، وتزوج هو في السنة التالية، وكانت حرب بين الكاثوليكين ومدعي الإصلاح سنة ١٥٢٩م وسنة ١٥٣١م فقتل زونيليوس في هذه الحرب الأخيرة.

عد ٩٧٢

كلوين وتلميذه بيزا

وُلد يوحنا كلوين في نوايون (بفرنسة) سنة ١٥٠٩م وأعدّه والده أولاً لخدمة الكنيسة، لكنه تمنع عن خدمتها ومضى يدرس الفقه في اورليان ثم في بروج حيث أخذ يدرس اللغة اليونانية على ملكيور فولمار النمساوي، وكان ملكيار لوتارياً ورأى تلميذه ذكياً فأشربه بدع لوتار شيئاً فشيئاً فشرّبها وطفق ينشر آراءه في الإصلاح الديني. وأتى إلى باريس وانتشر خبر فساد عقيدته، وكثر العثار

والقلق بسببه فأرسل قاضي الجنايات من يقبض عليه ، ولم يجد وسيلة للهرب إلا بأن شقَّ غطاء الفراش شقفاً وتدلى بها من الشباك إلى بيت الكترام، فلبس ثوبه وفرَّ به متنكراً، فجال في بعض مدن فرنسة وأداه تطوافه إلى انكولام، وشرع يعلمهم اللغة اليونانية الذي كان قد درس بعض أصولها كما مرّ. ونزل هناك في بيت لويس تيلات خوري كلاي وكان عنده مكتبة جمعت كثيراً من الكتب، فألف كلوين هناك أكثر مؤلفه المعروف برسوم الدين المسيحي آخذاً أكثر كلامه عن لوتار ومالنتون وأصحابهما، وواضعاً إياه في قوالب لغوية أكثر فصاحة ونظاماً، فكتب هذا التأليف أولاً باللاتينية ثم ترجم إلى الفرنسية. ومضى كلوين إلى ستراسبورغ وحاول أن يربح أتباعاً لبدعته في جرمانيا، وتعرّس عليه ذلك فعاد إلى فرنسة سنة ١٥٣٥م وأقام ببواتيا وأخذ يغوي البعض خفية فازداد عدد أتباعه، فنصب كرسي تعليمه في قاعة المدرسة المسماة محل الخدمة، فتغلّب على أتباعه اسم الخدام، وبث دعائه في القرى المجاورة فازداد عدد محازبيه، وأخذ يباشر هناك العشار الرباني كما يسميه. فكان يجتمع في أتباعه فيتلو أحد الخدام فصلاً من أسفار العهد الجديد موضوعه عشاء الفصح، ثم يلفظ خطبة موجزة مدارها غالباً على الطعن بالبابا والتقييح بالقداس، ثم يضعون خبزاً وخمراً على المائدة ويقول أحد الخدام: يا اخوتي هلمّ نأكل خبز الرب ونشرب خمره ذكراً لآلامه وموته. ثم يوزع الخدام على كل من الحاضرين جزءاً من الخبز والخمر فيتناولون ذلك صامتين، ويُنهي الخدام الحفلة بالشكر لله لأنه جعلهم يعرفون الحق، ووقاهم من ضلال البابويين. وكانت أوامر الملك صارمة على المبتدعين ففرّ كلوين من بواتيا وأتى إلى نيراك باكويتانيا. وكانت مرغاريता ملكة نافارّا أخت ملك فرنسة وكانت تناصر المذهب الحديث فلم يستطع أن يختفي مدة طويلة. فمضى إلى باسيليا (بال بسويسرا) وعني هناك بتنقيح مؤلفه رسوم الدين المسيحي، ثم أذاعه وفي رأسه آية الإنجيل: «ما جئت لألقي في الأرض سلاماً بل حرباً». ومضى سنة ١٥٣٦م إلى جنيف بسويسرا وكان أهلها خلعوا الدين الكاثوليكي باغواء فاريلوس، فترحب هذا بكلوين لأنه أمل أن يساعده على حفظ البدعة الحديثة، وهيج كلوين أتباعه بجنيف على حرق صور القديسين، ودكّ المذابح في الكنيسة الكبرى. ثم نشأ خلاف بين كلوين وفاريلوس على الخبز الذي يستعمل في العشاء أفطيراً يكون أم خميراً، فقال فاريلوس يلزم أن يكون فطيراً وكلوين أنه

يلزم أن يكون خميراً، بعداً عن عادة الكنيسة الرومانية. وعظم الخلاف بين الشعب لذلك، فطردت الحكومة كلوين وفاريلوس من جنيف، فسار كلوين إلى بيرنا ولم ينجح فيها، فعاد إلى ستراسبورغ فقبله فيها بوشيرس أحد تلاميذ لوتار. وكان كلوين يعلم اللاهوت ويخدم جماعة فتبعوا ضلاله وتزوج هناك سنة ١٥٣٨ بارملة اسمها ايداليتا عاشت معه أربع عشرة سنة ولم تلد له ولداً.

وفي سنة ١٥٤١م خلع أهل جنيف حكومتهم وصاروا فوضى فاستدعوا كلوين وجعلوه رئيساً لهم فوطد غواياته وأصدر أمراً من الديوان أن يتشبت كل واحد بالرسوم التي وضعها. وألف حيثيذ كتابه بالتعليم المسيحي بالفرنسية وترجمه اتباعه إلى عدة لغات، ثم أذاع مقالاته في محاماة الدين المسيحي وفي التهذيب وفي اصلاح الكنيسة، وكتاباً في المجمع التريدينيني سماه الدرياق ضد هذا المجمع. وفي سنة ١٥٥١م كان خصام كبير بين كلوين وايرونيموس بولساكوس، فهذا كان راهباً كرملياً ثم انفصل عن الكنيسة لكنه لم يطق احتمال ضلال كلوين ولوتار إنَّ الانسان لا حرية له، وإنَّ الله أعدَّ بعض الناس إلى الفردوس وبعضهم إلى الجحيم، فسجنه كلوين ثم حمل الحكومة على نفيه وعلى تهديده بالقتل إن عاد. وفي سنة ١٥٥٣م أمات كلوين ميخائيل سرفات محروقاً بالنار، فكان كلوين قد اطلع على كتاب خطب لسرفات بها ينكر سرَّ الثالوث الأقدس، وكان يمقت سرفات لأنه أفحمه يوماً ما بالجدال. ومَرَّ سرفات بجنيف وحمله الفضول أن يسمع خطبة لكلوين دون أن يراه، فدرى بذلك كلوين بعد خطبته فسعى بأن القى سرفات بالسجن، وجرت عليه المحاكمة وثبت عليه ضلاله، فأقنع كلوين القضاة بالحكم عليه بالموت محروقاً ونفذ الحكم في ١٧ تشرين الأول سنة ١٥٥٣م. ولطالما قرَّع كلوين بعض الملوك الكاثوليكين لحكمهم بالموت على بعض المبتدعين وشبههم بوكليان. فهي هو أحرق سرفات وألف كتاباً بعد ذلك أثبت به بالكتاب والتقليد جواز قتل المبتدعين المصرين، ولما ردَّ مرتينوس بال كتاب كلوين دحض بيزا تلميذ كلوين ردَّ بال فلم يبق وجه للوم الهراطقة للكنيسة على تسليمها المبتدعين المصرين إلى الولاة العالمين. وكان كلوين يفرى اتباعه بفرنسة باهانة الكاثوليكين وكنايسهم، بل بالمؤامرة على الملك أيضاً، وحاولوا تنفيذ هذه المؤامرة وسطوا على الكنائس والاكليس مراراً، وكانت شؤون لا محل لتفصيلها هنا. وبلغ أخيراً يوم انتقام الله من كلوين فمات بجنيف في ٢٦ أيار سنة ١٥٦٤م. وروى كثيرٌ من

المؤرخين أنه مات داعياً الشياطين لاعتناً حياته وكتبه، وكانت تنبعث من قروحه رائحة نتانة لا تطاق .

وأما تلاميذ كلوين فأخصهم توادورس بيزا فهذا وُلد في مدينة فسلاي بيوركونيا من أسرة شريفة سنة ١٥١٩م، ودرس العلوم الرياضية بباريس ثم اللغة اليونانية في اورليان على فولمار معلم كلوين هذه اللغة والبدعة، وكان ذكياً حسن المعاشرة لكنه كان طامحاً إلى الملاذ مشتغلاً بالأشعار العشقية، وكان هائماً بعشق امرأة اسمها كلوديا زوجة خياط بباريس وبدد ما ناله من ارث أبيه وعمه، واتصل إلى سرقة الكؤوس والزينة من كنيسة البوركانيين في اورليان، وكان ناظراً عليها فشكى بهذه السرقة وشجن، ثم فرّ من باريس إلى جنيف وأخذ معشوقته معه فتزوج بها وزوجها حي . ولما علم كلوين أنه تلميذ فولمار استأذنه رَحَّب به وأقامه معلماً للغة اليونانية بجنيف، ولهذا كان بيزا يجله حتى دعوه عابد كلوين وكان أكثر كفرة من معبوده . وأفرغ قصارى جدّه في انكار وجود جسد المسيح بالقربان حتى قال في أحد الاجتماعات: «إنّ جسد المسيح بعيد عن القربان المقدّس بعد السماء عن الأرض» . وكتب إلى ملكة انكلترا متباهياً بأنه نشر مذهبهم بفرنسة بالسلاح والملاحم، واجتمع يوماً بالانطون اللوتاري فسأله لم يقلقون فرنسة كل هذا القلق فأجابه إنما نفعل ما فعله الرسل . فقال له الانطون: ولما لا تحتمل الالهانة كما احتمل الرسل؟ فأعرض بيزا عنه مغضباً ولم يجبه . وماتت امرأته وعمره سبعون سنة فتزوج بصبيبة أخرى واستمر لإحدى وأربعين سنة بعد موت كلوين يدبر كنيسة جنيف إلى أن أدركته المنية سنة ١٦٠٥م وعمره ٨٥ سنة .

ويجدر بنا أن نروي شيئاً مما كان بين القديس فرنسيس سالس وبيزا من البحث في الدين نقلاً عن ترجمة هذا القديس لبطرس كالس. أنّ البابا اكليمنضوس الثامن أوعز إلى القديس فرنسيس أن يمضي إلى جناف ويحدّث بيزا علّه يتمكن من ردّه إلى الايمان الصحيح فتوجه إليه ووجده في بيت وحده، واستهلّ حديثه معه أنه لا يصدق ما يرويه له أعداؤه عنه . فقال بيزا إني أحسبك رجلاً فاضلاً ويشق عليّ أن أسمع أنك تحامي دعوى واهنة كدعوى المذهب الكاثوليكي . فسأله القديس أترى إني لا أستطيع أن أخلص وأنا متمسك بالايمان الكاثوليكي؟ فطلب بيزا مهلة ليحييه، ودخل مخدعه وخرج بعد ربع ساعة فقال: أرى أنّ الانسان يستطيع أن يخلص بالايمان الكاثوليكي . فقال القديس: ولم

تبدون كل هذا الجهد حتى بالحرب والأهوال لتردوا الناس عن هذا الايمان؟ فقال بيزا إنّ كنيسة روما تتمتع خلاص النفوس بزعمها الأعمال الصالحة لازمة للخلاص ونحن ننقض هذا السياج بقولنا إنّ الايمان يكفي للخلاص . فقال القديس ألا ترى أنّ قولكم هذا ينقض الشرائع الإلهية والبشرية التي تهدد مخالفيها بالعقاب وتعد العاملين بها بالثواب . ونرى الإنجيل يقضي بالنار المؤبدة لا على مرتكبي الاثم فقط بل على من يهملون صنع الخير . واستطرد القديس إلى قوله أن لا بدّ في الكنيسة من قاضٍ يلتزم بالاذعان لحكمه ، وإلا فتكون المحاورات لا نهاية لها . فقال بيزا: قاعدة الايمان الوحيد إنما هي الكتاب ، والمجمع التريدينيني خالف هذه القاعدة . قال القديس إنّ آيات الكتاب تتحمل معاني كثيرة ، فلا بد من قاضٍ يحكم أي هذه المعاني هو الصحيح . فقال بيزا الكتاب واضح والروح القدس يلهم كل فرد إلى المعنى الصحيح . فأجابه القديس إنكم تعتقدون أنّ لوتار ولكوين ملهمان ، ونرى لوتار علّم أنّ في القربان جسد المسيح وكلوين أنكر ذلك ، ولوتار أنكر أنّ رسالة القديس يعقوب الرسول من جملة الأسفار المقدسة ، وكلوين سلّم أنها من هذه الأسفار . فمن من الاثنين ألهم الروح القدس ومن نصدّق ومن نكذّب؟ فاندفع بيزا إلى الشتائم وفظّ الكلام . فقال له القديس بدعة ما جئت لأكدرك ، وانصر من عنده .

وقد أقدم الكلوينيون باغراء كلوين وبيزا لا على قلق فقط ، بل على حروب وملاحم أيضاً فيها ، انتقاماً من الكاثوليكين ، وثورات على من كان من الملوك أو الولاة كاثوليكياً . ولم ينحصر هذا الفساد في فرنسة بل تخطاها إلى غيرها من ممالك أوروبا ، ولا يؤذن المقام بالتطويل بذكر هذه الشؤون . انتهى مقتطفاً من تواريخ عدة مؤلفين كنبطاليس اسكندر والكردينال كوني والأب روهربخر وغيرهم .

عد ٩٧٣

تفنيد بعض غوايات مدعي الاصلاح ولا سيما انكار

رئاسة بطرس وخلفائه

لا نقصد هنا أن نفتد أضايل لوتار وكلوين وأحزابهما كلها ، فإنّ ذلك يستوجب مجلدات كثيرة ضخمة ، وهو يتجاوز خطة المؤرخ . فجلّ ما عزمنا عليه

إنما هو دحض أشهر هذه البدع بآيات الكتاب وأدلة العقل بأوجز عبارة وأوضح إشارة. وعلى سبيل العجالة رعاية لمساق تاريخنا كما رأيت في كلامنا على البدع الشهيرة، ولتلطّف بانصافنا من يطالع من البروتستانت كلامنا في هذا الفصل، فأثني يحق لعلمائهم أن يحبروا المقالات الطويلة لاجراء أبنائنا من حظيرة كنيستنا، ولا يحق لنا بالأولى أن نحافظ عليهم بايضاح الحقائق لهم، ونبتدئ أولاً بالرد على انكارهم رئاسة بطرس وخلفائه الأحرار الرومانيين.

قد أفردنا في عد ٥٠٥ فصلاً مطولاً لاثبات اقامة المخلص القديس بطرس زعيم الرسل وخلفائه رئيساً عاماً ومطلقاً لكنيستته في المعمور كله. ونزيد على ذلك الآن الأدلة الآتية القاطعة أنّ المخلص قال لرسله هأنذا معكم كل الأيام وإلى انقضاء العالم (متى فصل ٢٨)، فنسأل هؤلاء المدعين الاصلاح كيف أهمل المخلص كنيستته مدة أكثر من خمسة عشر قرناً إلى أيامهم. وهو القائل إنه يكون معها كل الأيام. وأين كانت كنيسة المسيح قبلهم، فكنيسة المسيح يلزم أن تكون ابتدأت في أيامه ودامت وتدوم إلى الأبد. أو يقبل العقل السليم أن يضع المخلص أس كنيستته ولا يبيني عليه إلا في القرن السادس عشر أو إنه يدع كنيستته ضالة مدة كل هذه القرون ولا يلتفت إلى اصلاحها إلا في أيامهم. فيقولون إنّ الكنيسة لبثت سالمة من الفساد مدة القرون الثلاثة الأولى، فليكن كقولهم مجازة ولكن لِمَ لم يصلحها في الاثني عشر قرناً الباقية إلى أيامهم. وكيف أمكن أن تكون سلمت من الفساد مدة ثلاثة قرون. ثم يعروها الفساد بعد ذلك، وهو القائل أن يكون معها كل الأيام. فمتى ثبت أنها كنيسة المسيح ولو يوماً واحداً امتنع بعده أن يدعها تفسد بجملتها، فقد يفسد بعض أعضائها وتقطعهم من جسمها. ولكن أن تفسد بجملتها وتسمي عروسة المسيح زانية فهذا من المستحيل بعد أن صرح بأنه سيكون معها إلى انقضاء العالم وبأنّ كنيستته تدوم إلى الانقضاء وأبواب الجحيم لن تقوى عليها.

وأيضاً أين كانت كنيسة هؤلاء المصلحين قبل أيامهم، فيقولون أنها كانت في جماعة المبدعين قبلهم، على أنّ هؤلاء المبدعين ضلّ كلّ منهم بعقيدة أو أكثر، وخالف أحدهم الآخر في ما ذهب إليه من الضلال، وفي تسليم بعضهم بما تعتقده الكنيسة الكاثوليكية أو في انكاره. ولا يمكن أن يقال أنّ مجموعهم أو أفرادهم هي كنيسة المسيح التي يلزمها طبعها نفسه أن تكون واحدة، ويلزم المسيح عز وجل أن

يعلم تعليماً واحداً لا أن يعلم الضدين أو المتناقضين حتى ولو جمعنا بدع المبتدعين قبلهم معاً على اختلافها لما تألفت منهم بدعتهم . فمن البديهي إذاً أنه لا يصح زعمهم إن كنيستهم كانت في جماعة المبتدعين قبلهم ، فلا يبقى إلا أن تكون كنيستهم ابتدأت فيهم في القرن السادس عشر . وهل من يسمي كنيسة المسيح كنيسة لم تُنشأ إلا بعده بأكثر من خمسة عشر قرناً ، كلا إن نشأتهم نفسها بعد المسيح بكل هذه القرون دليل قاطع وبينة دامغة على أن كنيستهم ليست كنيسة المسيح بل بدعة نشأت حينئذ فيها ، فقطع أصحابها من جسمها تفادياً من سير الفساد إلى باقي الجسم .

ثم هل اتفق هؤلاء المصلحون على تعليم واحد أو ألفوا جمعية واحدة كما يلزم أن تكون كنيسة المسيح ، كلا بل انقسموا إلى جماعات كثيرة يخالف بعضها بعضاً كما هو المشهور ، بل اختلف رؤساؤهم أنفسهم في عقائد جوهرية في الايمان . وقد مرّ أن لوتار اعتقد أن في القربان جسد المسيح وأنكر ذلك كلوين وبيزا تلميذه ، ونفى لوتار رسالة القديس يعقوب الرسول وغيرها من عداد الأسفار المقدسة . وسلّم كلوين بذلك وزعم كلوين أن الله أعدّ الناس بعضاً للخلاص وبعضاً للهلاك بمجرد مشيئته ، ولم يقل لوتار كذلك . وخالف لوتار تلاميذه في عقائد كثيرة كما مرّ . فأخصّ علامة لكنيسة المسيح إنما هي الوحدة بالايمان وبالرئاسة . فأين المصلحون من ذلك ومن هذه العلامات أيضاً أن تكون كنيسة المسيح رسولية فأين هم من الرسل . نعم أجمع المبتدعون والمصلحون على انكار سلطة الكنيسة والخبر الروماني ، ولكن هذا الانكار ملازم لطبع كل بدعة ولغاية كل مبتدع لأنهم إذا سلموا بذلك سقطت بدعتهم وبطل مسعاهم بحكم الخبر الروماني إن تعليمهم بدعة وضلال . ونقتصر على هذا اليسير بالفاظه السديد ببيانه الشديد بقوته .

عد ٩٧٤

رد زعمهم أن لكل فرد الحق في تفسير الأسفار المقدسة

زعم لوتار أن الحق على تفسير الكتاب المقدس يستوي به العامة والعلماء . وقال لكوين في كتابه: «الدرياق ضد المجمع التريدينتي» لا سلطان لكنيسة روما على

أن تفسر الكتاب المقدس أو تحكم على المعنى الصحيح لآياته . ولما اعترض الكاثوليكيون على مدّعي الاصلاح بأنّ قول لوتار غير صحيح وإنّ في الكتاب آيات غامضة لا يتوصل كل من العامة إلى كنه معناها ، قالوا إنّ الروح يرشد كلاً إلى المعنى الصحيح . ثم حجّجهم الكاثوليكيون قائلين أنّي يحق لكلّ من أن ينكر على كنيسة رومة السلطان أن تفسر الكتاب أو تحكم على المعنى الصحيح لآياته ، ولوتار يجعل مثل هذا السلطان لكل فرد من المؤمنين دون فارق بين العالم والأمي ، فتقرّون إذاً لكل فرد بما تنكرونه على جماعة منتشرة في كل المعمور ومجموعة في كل عصر على معنى واحد ، فهذه الحجة والحق أقول لم أر إلى الآن رداً ولو واهناً عليها . وأظنّ ردها مستحيلاً وهلمّ نبسط البرهان .

إنّ الأسفار المقدسة تشتمل على شريعة نزلها الله على عباده نشدتكم الله ألا قلت لي أية شريعة في العالم من أقدم الدهر إلى اليوم ترك الشارع لمن فرضت عليهم أن يفسروها كما يهوى كلّ منهم ، ويتأولوها بالمعنى الذي يختاره كل واحد ، وإذا اختلف اثنان منهم على مفهوم أية واحدة وكل منهما يفهما بمعنى فمن القاضي؟ وأية قوة تبقى للشريعة؟ وما تكون فائدتها والفريقان يحتجان بها بحق سواء لكل منهما؟ لعمري لم يشترع في العالم من بدئه إلى الآن شريعة مشوبة بهذا النقص في أركانها وقوامها ، أما رأى مدعو الاصلاح أن يخصصوا بمثل هذا النقص إلاّ الشريعة التي هي أكمل الشرائع وإلاّ الله عزّ وعلا وابنه الوحيد . أيستليق أحدّ منهم أن يسرّ شريعة لخدمته أو من هم تحت سلطته ويدعهم يتأولونها كما يطيب لهم ١٩ .

أما جواب بعضهم أنّ الروح القدس يلهم كل واحد إلى المعنى الصحيح فهو أكثر فساداً من زعمهم الأول نفسه ، فترى أئمتهم اختلفوا في عقائد جوهرية في الايمان كما مرّ . وأصّر كلّ منهم على رأيه إلى الممات فأين كان الروح القدس عنهم حتى لم يلهمهم إلى الصواب . ونراهم منقسمين إلى شيع عديدة تخالف إحداها الأخرى في مسائل المعتقد ، أعلم الروح القدس الضدين أو النقيضين ونحن نصارى مثلهم ونعتمد على الأسفار المقدسة نظيرهم ونخالفهم في عقائد كثيرة فلم لم يلهمنا الروح القدس إلى الصواب بحسب زعمهم ، ونحن ملايين وكنا في كل عصر كذلك ، فلم لم يشفق علينا ويزيل هذا الخلاف من بيننا ويجمعنا لتكون رعية واحدة . وقد جاء الفادي ليجمع أبناء الله المتبدين إلى واحد ، وقد سأل الأب ذلك بأخبارات لتكون رعية واحدة .

وأما زعم كلوين أن ليس للكنيسة السلطان على تفسير الكتاب أو الحكم بالمعنى الصحيح من آياته فهو باطل ، وأظن أنه لو تدبر كلوين هذا الزعم لما فاه به ، وأرى أن كل من تروى به من اتباعه أنف من هذا الحكم وقضى بفساده، فلا يخلو تفسير هذا الكتاب وفهم معانيه إما أن يكون مباحاً لكل من يؤمنون به وهذا مذهب مدعي الإصلاح ، وإما أن يكون الله منزلة أقام من يفسره ويحكم بالمعنى الصحيح منه ، وهذا المذهب الكاثوليكي ولا ثالث لهما المذهبين. فإن كان الأول أي أن تفسيره مباح لكل مؤمن به فليساو كلوين الكنيسة الكاثوليكية ولو بفرد من جماعته ويتلطف بأن يقول إن للكنيسة الحق أن تفسر الكتاب كما يحق لكل فرد من أتباعه . وأما أن ينكر على الملايين الذين كانوا في هذه الكنيسة مذنباتها إلى الآن ما يروونه . وقد أجمعوا في كل هذه الأعصر على معاني واحدة للكتاب . ويفضل على هؤلاء جميعاً كل فرد من شيعته، فهذا لا يقبله عقل ولا يقوله عاقل من المصلحين أنفسهم أو غيرهم. نقول كل هذا مجازة لهم على صحة زعمهم مع اعتقادنا آياه فاسداً .

وأما المذهب الثاني وهو أن الله أقام في بيعته من يفسر الكتاب ويعتمد على حكمه ، فهذا تضطرننا إلى القول به أدلة قاطعة وبيّنات دامغة وآيات واضحة في هذا الكتاب نفسه . فمن هذه الأدلة أولاً إن حكمة الله الذي هو الشارع تقتضي أن يقيم لشريعته قاضياً ومفسراً ، أكون الشارع حكيماً إذا سنّ شريعته وترك لكل أن يفهمها كما أراد ويعمل بها على هواه ، ولم يقم من يحافظ عليها أو يقضي بها عند وجود الخلاف على معناها . لعمرى أن من جسر على القول بذلك كفر وجذّف بتفضيله كل المشترعين على الله والعياذ به من هذا الكفر، ثانياً إن طبع الشريعة يقتضي ذلك فشرعية تتجاذبها أذهان الناس وأغراضهم ولكل منهم الحق على تفسيرها ولا معترض عليه لا تبقى شريعة . ومن المبادئ البديهية أن لا أحد قاض في دعواه فيلزم أن يستثنى من ذلك مدعو الإصلاح في دعاوى دينهم، فإنّ كلاً منهم قاض بدعواه ولا حرج . ثالثاً قد علمنا الاختبار الذي لا نكير له إن مذهب البروتستانت هذا كان علة لانقسامهم إلى شيع تكاد لا تحصى ، ولم يبق لهم ضابط يجمعهم أو جامعة تضبطهم في العقائد الجوهرية أيضاً . وهذا بديهي فمن استباح تفسير الكتاب كما يعن له ولم يكن لغيره أن يعترضه بتفسيره كان حراً أن يعتقد بما يقوم بذهنه وبما يحمله عليه ميله، وأذهان الناس مختلفة اختلاف

وجوهرهم، بل اختلاف الوجوه ثابت ومفهوم الذهن يتقلب تقلب الأرياح، وأميالهم تعمي بصائرهم، ولذلك رأينا كثيرين منهم اعتقدوا سنداً إلى هذا المبدأ بما ينفر منه العقل السليم، ثم تبادوا في هذا المبدأ حتى أنكروا أولاً صحة بعض آيات من الكتاب، ثم أنكروا بعضهم أسفار برمتها ثم توصل بعضهم إلى نبذ الكتاب المقدس بكليته، وانحازوا إلى مذهب العقليين الذين لا يعتقدون إلا بما يرشدهم إليه عقولهم، وتطرقوا من هذا إلى غيره من المذاهب الكفرية كالمعتزلة والدهريين إلى غير ذلك من المذاهب التي تخرج أصحابها من عداد الغافلين. فهذا ما أرانا إياه الاختبار من غوائل مذهب لوتار وكلوين وأشياعهما.

وأما آيات الكتاب التي تحقق مذهبهم فكثيرة ومفحمة، وقد ذكرنا كثيراً منها في اثباتنا رئاسة بطرس وخلفائه في المجلد الثالث حيث أثبتنا أجلّ الاثبات وأقواه أنّ الخلّص جعل بطرس صخرة بنى عليها كنيسة الواحدة وراعياً يرعى خرافه ونعاجه، ورئيساً يثبت اخوته المؤمنين في الايمان إن أضلّهم ابليس، ومفسراً للشريعة وقاضياً بها في العالم كله. وأبنا أنّ الخلّص لم يشأ أن تقوم كنيسة في أيام بطرس فقط، بل في كل الدهور، فكان محتتماً أن تكون هذه السلطة لكل من يخلفه في كرسي روما. ونزيد على ذلك الآن ما يفند زعم البروتستانت مبيّناً أنّ في الكنيسة سلطة ورعاة ومعلمين وقضاة لا أنّ المسيح ترك المؤمنين والكتاب بيدهم ليتأوله كلّ منهم، ويقضي كما يحب ويعني له، من ذلك قوله: «ولذا لم يسمع للكنيسة فليكن عندك كوثرني وعشار». (متى فصل ١٨ عد ١٦). وقال لرسله لا لجماعة المؤمنين: «من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم احتقرني، ومن احتقرني احتقر الآب الذي أرسلني» (لوقا ١٠ عد ١٦) من قبلكم فقد قبلني ومن قبلني فقد قبل الآب الذي أرسلني (متى ١٠ عد ٤٠) وسماهم ملح الأرض ونور العالم (متى ٥: ١٣) وخوّلهم تعليم جميع الأمم (متى ٢٨: ١٩) وأعطاهم سلطان الحلّ والربط وغفران الخطايا وامساکها (يوحنا ٢٠: ٢٢). وقال الرسول (إنّ الله وضع في بيته أولاً الرسل ومن بعدهم المعلمين... (قرنثية ١ صفحة ١٢ عد ٢٨) وهو أعطى بعضهم أن يكونوا رسلاً... وبعضهم مبشرين وبعضاً رعاة ومعلمين (أفسس ٤: ١١) وأقسام المواهب موجودة ولكن الروح واحد... وأقسام الخدم موجودة ولكن الرب واحد. وكما أنّ لنا في الجسد أعضاء مختلفة وليس لجميع الأعضاء عمل واحد، هكذا نحن الكثيرون جسد واحد في المسيح وكلّ منا عضو

للآخر (روما ١٢: ٤). وقال لطيطوس تلميذه « لهذا خلقتك في قريطش لتصلح الأمور الناقصة وتقيم في كل مدينة قسوماً كما أوصيتك (طيطوس ١: ٥). فكل هذه الآيات وكثير من أمثالها لم نذكره تفادياً من ملل القارئ تثبت اثباتاً جلياً قاطعاً أنّ المسيح يترك الكتاب وحده لجماعته ليفسره كلّ منهم ويتأوله ويقضي به كما يهوى ويتراءى له كما زعم البروتستانت ، بل أقام لهم قضية يقضون بالمعنى الصحيح ورعاة يجنبونهم الضلال ، ومعلمين يعلمونهم ما هو الصحيح والقويم . وفي رأس هؤلاء جميعاً بطرس السليح ثم خلفاؤه إلى انقضاء الدهر لحفظ الوحدة بين من صُلّي إلى أبيه أن يجعلهم واحداً كما هو وأبوه واحد ، لا إنه جعل كنيسته فوضى كما أراد البروتستانت جعلها في القرن السادس عشر مدّعين أن يصلحوها ، فأُمسى من ادعوا أنهم مصلحوها تائهين ومتقلبين مع كل ريح كسفينة لا ربان بها أو جثة دون رأس .

عد ٩٧٥

تفنيد زعمهم أن ليس للانسان حرية في أعمال الخلاص

إنّ البدعة السادسة والثلاثين من بدع لوتار التي حرّمها البابا لاون العاشر في براءته التي أذاعها سنة ١٥٢٠م هي: « إنّ الحرية بعد الخطيئة (أي خطيئة آدم) هي اسم دون مسمى ». وقال كلوين (كتاب ٢٠ من رسومه فصل ٢) متكلماً في الأفعال البشرية: « لا حرية للانسان ، والحرية في أمر الخلاص اسم لا مسمى له . إنّ الانسان الأول وحده كان حاصلاً على الحرية ولما أخطأ أضاعها هو وذريته كلها ، وكل ما يفعله الانسان فإنما يفعله مضطراً إليه لأنّ الله يريد هذا وهو يحمله عليه ». وإذا اعترض على زعمه أنّ الانسان إن لم يكن حراً بعمله فلا يترتب عليه عقاب ولا ثواب ، فأجاب (في كتابه المذكور فصل ٣) إنّ استحقاق الانسان العقاب أو الثواب يكفيه أن لا يغصبه آخر على الفعل . وإن فعل مضطراً دون حرية . ولما ورد عليه أنه إذا كان الله يحمل الانسان ويضطره إلى عمل الخطيئة فيكون هو تعالى فاعلاً للخطيئة . أجاب إنّ فاعل الخطيئة هو من يرتكبها لا من يأمر بها أو من يحمل الخطيئة عليها ، بل اتصل إلى القول الكفري أنّ الخطايا أجمع تصير بارادة الله لا بسماحه فقط ، وهذا قوله (في كتابه الانتخاب الأزلي):

« يزعمون أنّ الله يسمح سماحاً فقط بالخطايا، والكتاب يبيّن أنها لا تصير بارادته فقط بل هو يفعلها ». وأورد بعض آيات الكتاب آخذاً إياها بغير معناها الصحيح . ولما قيل له لِمَ يكون الله معصوماً من الائم المشترك بينه وبين الناس والانسان يدان عليه أجاب (في ك ٣ من رسومه فصل ٢٣) : « هذا يعسر ادراكه على فهمي الجسدي » .

فمجرد ذكر هذا الأزعام الواضح بطلانها يكفي مؤونة تفنيدها ، فلا عقاب ولا ثواب إذا لم تكن حرية ، لأنها أسّ كل مجازاة وأسّ كل شريعة فُرضت على العاقلين ، وحيث ظهر أنّ الفاعل كان مكرهاً أو مجبراً على الفعل انكفت عنه قوة الشريعة . فسارق أجبر على السرقة لا تجزيه الشريعة جزاء السارق . ومن أمر بالسرقة أو أكره غيره عليها وهو أمر ذو نفوذ على المأمور جزئه الشريعة جزاء السارق ، وقل مثل ذلك في الثواب ، وأما جعله تعالى آمراً بالائم أو فاعلاً له فكفر لم يقدم عليه أحد قبل كلوين ولا يتابعه عليه انسان عاقل ولو خلا من الدين . ثم إنّ مزاعم كلوينوس هذه مخافة حسّ الناس العام وحسّ كل واحد منهم ، فكلّ منا يحسّ ويرى أنه حرّ أن يفعل الخير أو الشرّ وأن يفعل هذا أو ذاك ولا يشعر بنفسه أنّ الله أو غيره من الناس يكرهه على ما يعمل به بارادته ، ولما كان هذا الحسّ عاماً في كل الناس من آدم إلى اليوم فلا سبيل إلى التكذيب به .

إنّ أسفار العهدين القديم والحديث موعبة بالأوامر لعمل ما هو خير وصالح وبالنهي عمّا هو شرّ وطالح . وذلك جلّ غرض الوحي أو كله . وندر أن تجد صفحة من الكتاب خلت من ذلك ، فإن صحّ زعم كلوين أنّ الانسان لا حرية له وإنّ كل ما يفعله يفعل مضطراً محمولاً من الله عليه أصبحت كل هذه الأوامر والنواهي لغواً وعبثاً ، لأنّ الانسان لا يفعل إلّا ما حمّله الله عليه . فما فائدة الأمر وما نفع النهي ، حتى أنّ الوصايا العشر المكتوبة باصبع الله تكون لغواً في هذا المذهب ، فإن كان الانسان لا حرية له ليمتنع عن القتل والزنا والسرقة وشهادة الزور فما نفع نهى الله عن ذلك . أو يسلم اتباع كلوين بأنّ الله يحمل الناس ويضطرهم إلى القتل والزنا وشهادة الزور ويهلكهم بعد ذلك لارتكاب هذه الكبائر ، فأين عدله وأين قداسته . أعوذ بالله من هذا الكفر . وأتعجب كيف فاه به كلوين وكيف وجد من يتابعه عليه . وهلّم نرى شيئاً من شهادات الوحي الناطقة بحرية الانسان وهي كثيرة جداً تقتصر على بعضها مجانبّة للملل القارئ .

« إن أحسنت تنال وإن لم تحسن فعند الباب خطيفة رابضة ... وأنت تتسلط عليها » (تكوين ٤٥ فصل ٤ عد ٧). وهذا قاله الله لقائين بعد معصية أبيه آدم . قد أشهدت عليكم اليوم السماء والأرض بأنني جعلت بين أيديكم البركة واللعنة فاختر الحياة لكي تحيا (تثنية ٣٠ : ١٩) : « إن الله خلق الانسان منذ البدء وتركه بيد مشورته ، وسنّ عليه أوامر ووصايا ، فإن أردت أن تحفظ الوصايا فهي تحفظك (ابن سيراخ ١٥ : ١٤) : « فاختراروا لكم اليوم من تعبدون اما الآلهة التي عبدها آباؤكم في عبر النهر ، أو آلهة الآموريين الذين أنتم مقيمون بينهم ، أما أنا وبيتي فعبد الرب (يشوع بن نون ٢٤ : ١٥) . ولم يضطره الأمر بل هو مسلط على ارادته (قرنية ١ و ٧ : ٣٧) . كم مرة أردت أن أجمعكم كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها فلم تريدوا (متى ١٣ : ٢٣) أنتم في كل حين تقاومون الروح القدس (ابركسيس ٧ : ٥١) فإذا يطلق للانسان أن لا يريد ، ولو أراد الله وله حرية أن يقاوم إرادة الروح القدس) : « لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال » لا يقدر الانسان أن يعبد ريين معاً . فله القدرة إذأ ، أى الحرية أن يعبد أحدهما . من أراد أن يحيي نفسه فليهلكها فإذا له الحرية أن يحييها ويهلكها وأمثال ذلك لا تحصى .

عد ٩٧٦

تفنيد زعمهم أنّ الأعمال الصالحة غير لازمة للخلاص
ويكفي الايمان وحده

إنّ بدعة لوتار الحادية والثلاثين في جملة بدعه التي حرّمها البابا لاون العاشر في براءته التي أصدرها سنة ١٥٢٠م هي : « إنّ البار يخطئ بكل فعل صالح » . قال في بدعة ٣٢ : « إنّ الفعل الصالح المفعول كما ينبغي هو إثم بحكم الله » . وقال كلوين (في كتاب ٢ من رسومه فصل ٩) : « إنّ أفعال الأبرار اثم محض » . لعمرى أنّ مزاعم لوتار وكلوين في أمر الدين مذهلة ومنافية منافاة ظاهرة لكلام الله المنزل بل للعقل البشري أيضاً ، فأى عقل يسلم بأنّ البار يأثم بكل ما فعل صالح ، وإنّ كل فعل صالح هو اثم ، فكل ذي عقل سليم يرى أنّ ما هذا إلاّ هذيان .

ومن قال به لم يميز بين الخير والشرّ بعكس ما يرشد إليه الطبع جاعلاً فعل الخير شراً واثماً، وفعل الشر خيراً وفضيلة لأنّ الله يحمل الانسان عليه .

وإذا بحثنا عما بعث هذين المبتدعين على هذه المزاعم التي ترى كاضغاث أحلام ، رأينا أنهما أدعيا فيها على أنّ المخلّص تألم ومات من أجل خلاص البشر وفتح لهم باب السماء ليدخلوها آمنين وليس عليهم إلا أن يؤمنوا به فقط ، وعليه فمن فعل منهم فعلاً صالحاً أساء إلى المخلّص مدعياً أن يخلّص نفسه بعمله ، كأنّ آلام المسيح وموته غير كافية لخلاصه . على أنّ زعمهما هذا ينتج منه نتجاً لازماً أنّ المسيح تألم ومات ليس ليستأصل الرذائل ويسهّل الانتصار عليها ويؤهل التائب لمغفرتها بعد ارتكابها ويقهر ابليس وينجو من الشرير وتجاربه ، بل بالعكس ليمنّ الرذيلة في الناس ويطلق لهم ارتكابها ويصدّهم عن التكفير عنها بأعمالهم الصالحة ويقوّي ابليس عليهم ويزجهم في لجة تجاربه ويدخلهم السماء متمرغين بأقذار آثامهم لا مزية لهم ولا فضيلة سوى أنهم آمنوا بابن الله إيماناً مجرداً عن كل عمل صالح، ولو ملطخاً بقاذورات الرذائل ، فهل من عاقل من أي مذهب كان يسلم بأنّ الله إله القداسة وربّ النقاوة والطهارة وينبوع كل خير وصلاح يبيح عبادة الفحشاء والرذيلة ويثيب من انكبّ عليهما بملكوته ويعاقب من تهجد وترهد وتورّع وتخشع بنار الجحيم الأبدية ١٩.

فيحتج هؤلاء المبدعون بآيات من الكتاب يتمحلون لها معاني ليست معانيها، منها قول بولس الرسول: « ليس بأعمال برّ عملناها نحن بل برحمته خلصنا » . (طيطس ٣: ٥) وقوله « وأما نعمة الله فحياة الأبد بسيدنا يسوع المسيح ربنا (روما ٢٣: ٦) وقوله: « إذ تعلمون أنكم تنالون من الله جزاء الميراث » (كولوسايس ٣: ٢٤) وقوله: « لأنكم بنعمته نجوتم بالآيمان ولم يكن هذا منكم لأنه موهبة الله لا بأعمال، لئلا يفتخر أحد » (أفسس ٢: ٨) ومنها قول يوحنا الرسول في الإنجيله (٣: ٣٦) « من يؤمن بالابن فله الحياة الأبدية » وما جاء في أعمال الرسل (١٣: ٣٩) . « وكل من يؤمن به يتبرر » . وقول بولس الرسول (روما ١٠: ١١): « ومن آمن به لا يُخزى » . وقول المخلّص مرات إيمانك خلّصك .

فقد تعامى هؤلاء المبدعون ومن تبعهم عن المعنى الصحيح للآيات المذكورة وما أشبهها ، فالكنيسة الكاثوليكية تعلم ، وكل خبير بتعليمها يعلم أن ليس للانسان حق

بطبيعته على أن يتمتع بمشاهدة الله ويشترك في مجده . وبعد معصية آدم الانسان الأول سدّ باب السماء بوجهه فانحدر ابن الله من سمائه وصار انساناً ليكسبنا هذا الحق ويفتح لنا باب السماء المغلق . وعليه فخلاص الانسان ودخوله في السماء لم يكن بأعمال برّ يعملها الناس بل برحمته ، والحياة الأبدية في المجد هي نعمة الله يسوع المسيح لا حق الانسان ولا نتيجة عمره ، وميراث السماء ليس لنا من طبعها أو من أعمالنا حق عليه بل نلناه من الله ونجاتنا من تبعة الهلاك لم تكن منا بل هي موهبة الله ، ولا يحق لأحد أن يفتخر بذلك . فهذا هو المعنى الصحيح الظاهر للآيات المذكورة لا ما تمحله لها البروتستانت ليثبتوا أنّ الأعمال الصالحة غير لازمة بل أنها مآثم .

وأما الآيات الأخرى التي يقال فيها أنّ من يؤمن بالمسيح فله الحياة الأبدية أو يتبرر أو لا يخزي ، أو يخلصه ايمانه . فمن لنا بمن يفسرها لنا تفسيراً صحيحاً أحسن وأعلم من المخلص نفسه ، ومن رسله . فالمخلص لما سأله ذاك الشاب : « ما الذي أعمله لأرث الحياة الأبدية ، فلم يجبه أن تؤمن بل قال له : إن شئت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ، فقال له وما هي ؟ فأجابه : لا تقتل لا تزني لا تسرق . » (متى ١٩ : ١٧) . وإذا أرسل تلاميذه للتبشير لم يقل لهم علموهم أن يؤمنوا فقط . بل قال : « علموهم أن يحفظوا كل ما أمرتكم به » (متى ٢٨ : ١٩) وبولس الرسول الذي قال : « من آمن به (بالمسيح) لا يُخزي ، والبار يحيا من الايمان » هو نفسه فسرّ ذلك (قرنتية ١ صفحة ١٣ : ١٢) لنفسه بقوله « لو صار في جميع الايمان حتّى أنقل الجبال ولم تكن فيّ المحبة فلست بشيء . . . وأنا كالصنج الذي يطنّ » . وقال يعقوب الرسول (في رسالته ف ٢ : ١٤ وما يليه) : « ما المنفعة يا أخوتي إن قال أحد إنّ له ايماناً وليس له أعمال ، أترى الايمان يستطيع أن يخلصه ؟ . . . أنت تؤمن بالله فالشياطين أيضاً تؤمن وترتعد كما أنّ الجسد دون الروح ميت فكذلك الايمان دون الأعمال هو ميت » .

فإذاً حيث ورد في الكتاب أنّ الايمان يبرر أو من آمن فله الحياة الأبدية يتحتم أن يفهم بذلك بموجب تفسير المخلص ورسله أنفسهم ، لا الايمان المجرد عن العمل أو النظري أو الميت ، بل الايمان الحيّ بالأعمال أو العملي العامل في المحبة كقول الرسول : « لا يُعدّ الختان شيئاً ولا الغرلة بل الايمان الذي يعمل بالمحبة » . (غلاطية ٥ : ٥) ثم إنّ بعض أقوال المخلص لمن شفاهم ايمانك خلّصك أو أحياك يراد به أنّ

ايمانهم بقوة أبراهم من المرض . وبقي لنا كلمة أنّ اللوتاريين يحجبونا أنّ رسالة يعقوب الرسول التي استشهدناها آنفاً، أسقطها لوتار من عداد الأسفار المقدسة القانونية، فنقول أنه لم يسقطها إلا لأنها تخالف زعمه بما أوردناه منها، خاصة وكلوين حليفه قد أثبتنا، والكنيسة الكاثوليكية لم تتمر في قانونيتها وإن أسقطناها مجازاة فما يقولون بالباقي . وإليك شيئاً آخر من آي الأسفار المقدسة التي تثبت أنّ الأعمال الصالحة لازمة للخلاص، ولا يكفيه الايمان وحده: « ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار أمام الله بل العاملون بالناموس يتبررون (رومة ص ٢: ٣) . ما كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماء بل من يعمل ارادة ابي الذي في السماء » (متى ٧: ٢١) فعمل ارادة الله هو عمل الأفعال الصالحة « فليضئ نوركم أمام الناس ليروا أعمالكم الحسنة » (متى ٥: ١٦): « إنما ينبغي لكم الصبر لتعملوا مشيئة الله وتستحقوا الوعد » (عبرانية ١٠: ٣٦): « قد جاهدت جهاداً حسناً وتمت سعيي وحفظت ايماني وحفظ لي مذ الآن اكليل البر (تيموتواس ٢ فصل ٤: ٧) فإذا لم يحفظ له اكليل البر» لأنه حفظ ايمانه فقط بل لأنه جاهد وأتم سعيه أيضاً: « كل انسان يأخذ أجرته على قدر تعب » (قرنثية أف ٣: ٨) « لتستحقوا ملكوت الله الذي بسببه تتألمون » (تسالونيكي ٢ صفحة ١: ٥) « طوبى للرجل الذي يصبر على البلوى لأنه إذا امتحن يأخذ أكليل الحياة الذي وعد الله به محبيه » . (يعقوب ١: ١٢) بل نرى الدّيان يدين المؤمنين في اليوم الأخير ويورثهم ملكوته أو ينفيههم منه، لا لأنهم لم يؤمنوا بل لأنهم أهملوا الأعمال الصالحة: « تعالوا يا مباركي أبي ، رثوا الملك المعد لكم لأنني جعت فأطعمتموني » ... « اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار المؤبدة لأنني جعت فلم تطعموني وعطشت فلم تسقوني » الخ (متى ٢٥: ٣٥) . ولا ريب في أنّ هؤلاء من المؤمنين إذ يقولون للدّيان: « متى رأيناك يا رب جائعاً فلم نطعمك أو عطشاناً فلم نسقك ؟ » .

وما لي أعدد آيات الكتاب المثبتة أنّ الأعمال الصالحة لازمة للخلاص وهي أكثر من أن تعدّ بل هي القسم الأكبر من الكتاب كله في العهدين، فإنّ كل الآيات التي ورد فيها أمر بمعروف أو نهى عن منكر هي مثبتة لما نحن مثبتون ، فإن لم يكن ما أمر الله به أو نهى عنه لازماً للعمل به كانت جميع تلك الأوامر والنواهي لغواً، وعشاً أيسلم البروتستانت بهذه النتيجة الحاصلة ضرورة من تعليمهم، لا أظن أنّ من تدبر منهم هذا المعنى يسلم بما يخالفه . ولذلك ارعوى بعضهم عن

هذا الضلال . وقد أنبأنا بوصويت الشهير (في كتابه ٨ في الاختلافات عد ٣٠)
إنّ اللوثاريين قالوا في دستور ايمانهم الذي قدموه إلى المجمع التريدينيني بعد
اجتماعهم في نيتمبرغ « إنّ الأعمال الصالحة لازمة وتستحق من قبل صلاح الله
المجاني المجازاة الجسدية والروحية » .

عد ٩٧٧

وجود جسد المسيح حقيقة في القربان المقدّس

لم أشأ أن أحتتم هذا الفصل دون أن أقول شيئاً في سرّ محبة الله العجيبة
للبشر، فلو تار سلّم بأنّ بالقربان المقدّس جسد المسيح، ولكن قال أنه يبقى فيه
جوهر الخبز أيضاً . ومن أقواله أنّ جسد المسيح يكون في القربان المقدّس ومعه
كالنار في الحديد الحامي . وأما كلّوين فتقلّب رأيه بذلك دفعات ولكن جلّ زعمه
أنّ جسد المسيح لا يكون بالقربان حقيقة بل بالقوة التي يبرزها فيه، ولذلك كان
يضع العشاء الرباني . وأنكر ذلك ييزا وغيره من مدعي الاصلاح، وقد تقدمهم
بهذا الانكار بارنجر في القرن الحادي عشر .

لا سبيل إلى اثبات هذه العقيدة بالبراهين العقلية لا من قبيل قدرة الله على أن
يحيل الخبز جسداً والخمر دماً فهذا لا مرية فيه والله على كل شيء قدير . ونرى
الأقوات فينا تستحيل إلى لحم ودم وعظام، بل من قبيل محبة الله للبشر حتى يغدو
خليقته بجسده ودمه . فهذا لا يمكن العقل أن يعتقد به إلّا بالاعتماد على الوحي
وكلامه تعالى الذي صرّح به في أسفار العهد الجديد المقدّسة بآيات كثيرة فنقتصر
كلامنا على آيات الأناجيل الأربعة وآيات رسالة بولس الرسول الأولى إلى القرنيين .

إنّ المختلّص لما أنهى الشريعة القديمة بأكله خروف الفصح مع تلاميذه وابتدأ في
الشريعة الحديثة أخذ خبزاً ووزعه على تلاميذه قائلاً: « خذوا فكلوا هذا هو
جسدي » . وكذلك أخذ كأساً وبارك وقال: « خذوا فاشربوا منه كلكم هذا هو
كأس دمي » . فهذا الكلام ذكره متى الإنجيلي فصل ٢٦ عد ٢٦، ومرقس فصل
١٤ عد ٢٢، ولوقا فصل ٢٢ عد ١٩، وبولس الرسول في رسالته الأولى إلى
القرنثيين فصل ١١ عد ٢٤ . والقاعدة المجمع عليها والتي يقضي بها العقل أنّ كلام

الكتاب يلزم فهمه بمعناه الحقيقي دائماً ولا يعدل عنه إلى المعنى المجازي إلا إذا اقتضت ذلك ضرورة أو منافاة ظاهرة، ولو أمكن تأويل كلام الكتاب دائماً بمعنى مجازي لما بقيت عقيدة على سلامتها. فإذا قول المخلص في الخبز هذا هو جسدي وفي الكأس هذا هو دمي يلزم أن يفهم بمعناه الحقيقي، أي أنّ هناك جسده ودمه حقيقة لا بالصورة أو القوة أو البركة كما وهم الكلوينيون.

إنّ يوحنا الرسول لم يذكر في الإنجيله تقديس المسيح جسده ليلة الفصح بل أفرد الفصل السادس في الإنجيله للكلام على هذا السر العجيب متكلاً أولاً عن تجسده قائلاً: أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، ثم أخذ يعد تلاميذه للايمان بهذا السر قبل ابتداعه بكلام صريح مفهم يأبى كل تأويل أو مواربة. فقال (عد ٥٢): «إنّ الخبز الذي سأعطيه أنا هو جسدي الذي أعطيه من أجل حياة العالم». ولو كان أراد بهذا الكلام تجسده كما زعم المبتدعون لما قال الذي سأعطيه بل الذي أعطيه أو أعطيه، وقد فهم السامعون هذا الكلام بمعناه الحقيقي. ولذلك قال الانجيلي عد ٥٣: «فخاصم اليهود أحدهم الآخر قائلين كيف يمكن هذا أن يعطينا جسده لنأكله». ومن البين أنّ المخلص لو أراد بكلامه غير ما فهمه اليهود واستغروه للزمه ضرورة أن يزيل خصامهم وعثارهم مبيّناً حقيقة قوله. وإليك ما قال لهم حينئذ عد ٥٤: «قال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في أنفسكم» (عد ٥٥). «فمن يأكل من جسدي ويشرب من دمي تجب له الحياة الأبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (عد ٥٦): «لأنّ جسدي مأكلاً حقاً ودمي مشرب حقاً». فنسأل البروتستانت أن يجدوا لنا إن قدروا عبارة أخرى أوضح من هذه في بيان هذه العقيدة.

ثم أردف المخلص قوله السابق بقوله: «من يأكلني فهو يحيا من أجلي ... من يأكل هذا الخبز يحيا إلى الأبد ... وكثير من تلاميذه لما سمعوا قالوا ما أصعب هذه الكلمة من يمكنه استماعها». أي فهموا أنه يعطيهم جسده لحماً ليأكلوه ودمه ليشربوه، ولذلك رأوا الكلام صعباً. ففسر لهم يسوع حينئذ كلامه وأبان لهم كيفية أكلهم جسده بتناولهم جوهر جسده حياً لا لحمه ميتاً. فقال: «أهذا يشككم (وأنا بينكم جسدي) فكيف إذا إن رأيتم ابن البشر يصعد حيث كان أولاً ولا يبقى بينكم بالجسد وكنتم مأمورين أن تتناولوا جسده وهو في السماء وأنتم في الأرض إنّ الروح هو الذي يحيي». أي أنّ الروح المقترن بجوهر جسدي هو الذي يحيي

« والجسد لا يفيد شيئاً » أي أنّ الجسد الخالي من الروح كلحم الضأن الذي تبتاعونه من الجزر لا يفيد شيئاً: « والكلام الذي قلته لكم هو روح » أي روحي ويراد به أكل جوهر جسدي حياً بالروح « وهو حياة » تحيا بها النفوس الحياة الأبدية التي أشرت إليها. فهذا هو التفسير الحقيقي الظاهر لهذه الآيات وأما تفسير البروتستانت لها بأنّ في القربان بركة جسد المسيح أو رمزاً إليه أو ذكراً لآلامه لا جسده حقيقة فهو مناقض مناقضة صريحة لكلامه السابق، ولا سيما قوله جسدي مأكلاً حقاً ودمي مشرب حقاً، ولا يمكن توفيقه مع كلامه هنا ولا مع ما قاله عند ابداع هذا السر ولا مع كلام الرسول الآتي:

قال بولس الرسول في رسالته الأولى إلى القرنثيين (فصل ١١ عد ٢٣ وما يليه): « قد سلمت إليكم ما قبلته من ربنا ». وذكر تقديس المخلص جسده ودمه ليلة آلامه كما ذكره الانجيليون إلى أن قال: « فإذاً من يأكل من خبز ربنا ويشرب من كأسه وهو لا يستحقه فيذنب إلى دم ربنا وجسده، فمن أجل هذا فليمتحن الانسان نفسه، وحينئذ يأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس، لأنّ من يأكل ويشرب منه وهو لا يستحقه فيأكل ويشرب دينونة لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب ». فهذه الآيات غاية في الوضوح، فإن لم يكن في خبز ربنا وكأسه غير الخبز والخمر فلم يذنب إلى دم ربنا وجسده من تناوله وهو لا يستحق، ولم يأكل ويشرب دينونة لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب. فما من كلام أوضح من هذا في تأدية هذا المعنى ويضاهيه بالوضوح قول هذا الرسول الآخر (في الرسالة المذكورة فصل ١٠ عد ١٦): « فكأس الشكر تلك التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح، وذلك الخبز الذي نكسره أليس هو شركة دم المسيح؟ ».

قد كان سهلاً لدينا أن نثبت هذه العقيدة بشهادات كثيرة من الآباء القديسين من القرن الثاني فصاعداً، ثم بكثير من الآثار القديمة التي وُجدت في مخابئ روما وغيرها دالة دلالة صريحة على اعتقاد المؤمنين الأولين بما نعتقده اليوم بحقيقة وجود جسد المسيح في القربان المقدس، لكننا أضربنا عن ذلك تفادياً من ملل القارئين ولأنّ خطبتنا تاريخية لا لاهوتية أو دينية، وإن أطلنا الخروج عن دائرة غرضنا التاريخي توسعاً وطلباً لزيادة الفائدة.

ولم نر للبروتستانت ما يعترضون به لهذه العقيدة ما يستحق رداً إلا الآية

الأخيرة التي ذكرناها آنفاً ، من بشارة يوحنا . وقد أثبتنا معناها الحقيقي وبطلان المعنى الذي تمحلوه لها . وأما زعمهم أنّ قوله هذا هو جسدي معناه هذا يفسر جسدي أو يشير إليه أو هو بركة جسدي فهو تعسف ظاهر، ولا قيام له في جانب قوله جسدي مأكلاً حقاً . ولهم أذليل أخرى لم نتعرض لردها لما قدمناه واكتفينا بأن يكون ما ذكرناه في هذه الفصول مثلاً لباقي تعاليمهم .

عد ٩٧٨

المجمع التريدينيني

ذكرنا في ما مرّ من تاريخنا أكثر المجمع المسكونية لعلاقات لها بمواضيع كلامنا التاريخي ، فكان متحتماً علينا أن نذكر هذا المجمع أيضاً لأنه أهم المجمع المسكونية، ولأن عقده لنبد تعاليم مدعي الإصلاح الذين ذكرنا تاريخهم ورددنا بعض غواياتهم .

إنّ هذا المجمع دعا البابا بولس الثالث إلى عقده في أول تشرين الثاني سنة ١٥٤٢م في مدينة ترانت أو تريدينو في اللاتينية في التيرول من مملكة النمسا والمجر، إلّا أنه تأخر افتتاحه لدواع، وعقد المجمع الأول منه في ١٣ من كانون الأول سنة ١٥٤٥م . وكان البروتستانت قد طلبوا عقده ، ولما عُقد أبوا الحضور إليه ، وقد أعطوا مّرات منشور الايمان الذي طلبوه وأطلق لهم أن يباحثوا آباء المجمع بما أرادوا أن يقيموا في المجمع آمنين ، وأن ينصرفوا عنه متى طاب لهم ومع ذلك لم يحضروا . وقد توقف هذا المجمع مرات ، ثم استؤنف عقد مجالسه ، ونُقل إلى بولونيا سنة ١٥٤٧م ثم عاد الآباء إلى تريدينو، وكان عدد مجالسه خمسة وعشرون مجلساً . وعني به الأحرار الأعظمون البابا بولس الثالث ثم يوليوس الثالث ثم بيوس الرابع . وكان آخر مجلس منه في الثالث والرابع من كانون الأول سنة ١٥٦٢م فكانت مدته ثماني عشرة سنة .

قد عُقد المجمع الأول منه في ١٣ كانون الأول سنة ١٥٤٥م ولم يكن في هذا المجلس إلّا افتتاح المجمع بحضور نواب الحبر الروماني وهم ثلاثة كرادلة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الرهبانيات العامون ونواب بعض الملوك وكثيرون من

اللاهوتيين. فاجتمع الحاضرون أولاً في كنيسة الثالث الأقدس بالمدينة المذكورة وساروا بتطواف حافل إلى كنيسة الكاتدرا حيث أقام أحد الكرادلة القداس، ومنح نيابةً عن البابا غفراناً كاملاً لجميع الحاضرين. وأعلن أن يكون الاجتماع التالي في اليوم السابع من كانون الأول سنة ١٥٤٦م بعد انقضاء الأعياد الربانية. ولم يحسب بالاً فيشينوس في تاريخه لهذا المجمع الاجتماع الأول إلا افتتاحاً له، وابتدأ في ذكر مجالسه في المجلس الثاني.

المجلس الثاني عُقد في ٧ كانون الثاني سنة ١٥٤٦م وتُلي فيه مرسوم وضعه آباء المجمع أمروا فيه أن يواظب جميع الحاضرين في المجمع وسكان المدينة على الصلوات والابتهاالات وتقدمة القداسات ليمُنَّ الله على كنيسته بالأمان والمجلاء غياهب الضلال، وسطوع أنوار الحق. وفرضوا نظاماً للمفاوضات في المباحث التي يبحث المجمع فيها، وأمروا بمجانبة الكلام الناحس والضوضاء إلى غير ذلك.

المجلس الثالث عُقد في الرابع من شباط وأقروا فيه دستور الايمان الذي تستعمله الكنيسة الآن. والمجلس الرابع عُقد في الثامن من نيسان وأقروا فيه عدد الأسفار المقدسة وأثبتوا صحة كل ما اشتملت عليه، وهي في العهد القديم أسفار موسى الخمسة، ثم أسفار يشوع والقضاة وراعوت وأربعة أسفار الملوك وسفرا الأيام. وسفرا عزرا الأول والثاني المعزو إلى نحميا. ثم أسفار طوبيا ويهوديت واستير وايوب، وزبور داود المائة والخمسون، والأمثال والجامعة، ونشيد الانشاد، والحكمة، وسفر يشوع بن سيراخ، ونبؤات أشعيا وارميا مع بادوخ وحزقيال ودانيال، ونبؤات الأنبياء الصغار الاثني عشر هوشع ويوال وعموص وعبديا ويونان وميخا ونحوم وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخيا، وسفرا المكابيين الأول والثاني. وفي العهد الجديد الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل الذي كتبه لوقا الانجيلي، ورسائل بولس الرسول الأربع عشرة أي رسالته إلى الرومانيين ورسالته إلى قورنثية ورسالته إلى أهل غلاطية وأفسس وفيلبسيوس وتسالونيكي، ورسالته إلى تيموتاوس، ورسالته إلى طيطوس وفيليمون والعبرانيين. ورسالتا بطرس الرسول، ورسائل يوحنا الثلاث، ورسالتا يعقوب الرسول ويهوذا الرسول ورؤيا يوحنا. وطعنوا بالحرم كل من لم يعتقد بأن هذه الأسفار جميعها وكل ما اشتمل عليه كل منها صحيحة وقانونية ومنزلة وكذلك كل من ينهذون التقاليدات الرسولية التي أجمع الآباء عليها من مواد الايمان والآداب، وأضافوا إلى ذلك مرسوماً موضوعه طبع هذه الأسفار وتفسيرها واستعمالها.

والجلس الخامس عُقد في السابع عشر من حزيران بحثوا فيه عن الخطيئة الأصلية ووضعو عدة قوانين طاعنين بالحرم من يخالفها. منها أنَّ من أنكر أنَّ الإنسان الأول لم يفقد بمعصيته في الفردوس القداسة والبر اللذين كان حاصلًا عليهما، أو لم يقع تحت غضب الله وسخطه ويتسلط عليه الموت الذي هده الله به، وتسوء حاله بالنفس والجسد فليكن محروماً. ومنها أنَّ من يزعم أنَّ معصية آدم أضرت به وحده دون ذريته فليكن محروماً. وكذلك من أنكر أن المسيح صالحنا مع أبيه السماوي بموته، وأنَّ المعمودية تمحو باستحقاقه جزيرة الخطيئة الأصلية إلى غير ذلك من القوانين. وألحق بهذه القوانين مرسوماً لاصلاح التهذيب البيعي موضوعه تلاوة الأسفار المقدسة ولم يجوز تفسيرها.

وعُقد المجمع السادس في ١٣ من كانون الثاني سنة ١٥٤٧م وبحث فيه عن تبرير الخاطئ ووضع الآباء ستة عشر فصلاً لشرح التبرير ومصدره، والوسائل المُلَبِّغة إليه، وألحق بذلك ثلاثة وثلاثين قانوناً، أولها من زعم أنَّ الإنسان يستطيع أن يتبرر أمام الله بأعماله البشرية وحدها دون نعمة يسوع المسيح فليكن محروماً. ومنها من زعم أنَّ الإنسان فقد الحرية بعد معصية آدم أو هي اسم بلا مسمى فليكن محروماً، ومنها أنَّ من زعم أنَّ الخاطئ يتبرر بالايان دون سعيه مع نعمة الله بأعماله الصالحة فليكن محروماً.

وألحق آباء المجمع بالقوانين المذكورة مرسوماً في اصلاح التهذيب البيعي يشتمل على خمسة فصول موضوعها اقامة الأساقفة في أبرشياتهم وزيارتهم لها ومنعهم عن عمل الخبرات في أبرشيات غيرهم وفروض أصحاب الجمل.

والجلس السابع عُقد في الثالث من آذار سنة ١٥٤٧م كان البحث فيه عن الأسرار، ووضعو للأسرار بالاجمال ثلاثة عشر قانوناً، وللمعمودية أربعة عشر قانوناً. وللتبشير ثلاثة قوانين. وألحقوا بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب اشتمل على خمسة عشر فصلاً في من يدبرون الكنائس وأرزاقهم وفي نوابهم وتكريس الكنائس إلى غير ذلك.

والجلس الثامن عُقد في ١١ آذار وكان الوباء فشا في تريدينو وأصدر البابا بولس الثالث براءة بنقل المجمع منها إلى بولونيا، ووضع المجمع مرسوماً بذلك فثلي في هذا المجمع وأجازه الأكثرون. ونُقل المجمع إلى بولونيا بايطاليا، فعُقد المجلس

الأول فيها وهو التاسع من مجالس المجمع في ٢١ نيسان، وتُلي فيه مرسوم بتأجيل المجلس إلى الثاني من حزيران سنة ١٥٤٧م ريثما يتم اجتماع الآباء ببولونيا إذ كان تخلف بعضهم بداعي الاحتفالات الفصحية في أبرشياتهم وأجيز هذا المرسوم .

والجلس العاشر عُقد في ٢ حزيران سنة ١٥٤٧م ولما كان عدد الأساقفة لم يتكامل بعد وضع المجتمعون مرسوماً أقرّوا فيه تأجيل المجلس إلى ١٥ ايلول . وعظم حينئذ الخلاف بين الحبر الروماني وبين عاهل المانيا الذي لم يكن يشاء نقل المجمع إلى بولونيا، وسعى برفع احتجاج على اقامة المجمع بهذه المدينة بناءً على أنّ الألمان لا يحضرون إليها لأنها من أملاك البابا . فتوقف المجمع أربع سنوات، وتوفي البابا بولس الثالث سنة ١٥٤٩م واثّدت مكانه الكردينال دي مونتي أحد نوابه في المجمع وسمي يوليوس الثالث فأصدر براءة في استئناف أعمال المجمع في ١٤ آذار سنة ١٥٥٠م .

فُعقد المجلس الحادي عشر في أول أيار سنة ١٥٥١م في تريدينو، ووضع مرسوماً أقرّ المجتمعون به استئناف المجمع، وعُيّن اليوم الأول من ايلول لعقد المجلس الثاني عشر، ولما عُقد هذا المجلس في اليوم المعيّن وكان يؤمل أنّ عاهل المانيا وغيره من ملوك أوروبا سيوفدون نوابهم إلى المجمع فروي أن تتأجل الأبحاث إلى مجلس آخر يُعقد في ١١ تشرين الأول .

وعُقد المجلس الثالث عشر في اليوم المار ذكره من سنة ١٥٥١م وكان مدار البحث في سر الأوخارستيا، فوضع الآباء ثمانية فصول شرحوا بها حقيقة هذا السر وما يتعلّق بتناوله، وفرضوا أحد عشر قانوناً أولها من أنكر أنّ في سر الأوخارستيا الكلي القداسة جسد المسيح حقيقة وذاتاً وجوهراً متحداً بنفسه ولاهوته أي المسيح كاملاً أو زعم أنّ جسده بالقربان مجازاً أو رمزاً أو قوة فليكن محروماً . وأضافوا إلى ذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب البيعي مشتملاً على ثمانية فصول في عناية الأساقفة بأداب رعاياهم والاستغاثة من أحكامهم وكيفية تصرفهم بهذه الأحكام، وأن لا يُدعى الأسقف للمحاكمة إلّا بدعوى توجب خطّه أو ابعاده عن وظيفته . وفي صفات من يصلحون للشهادة على الأسقف . وإنّ الدعاوى الباهظة على الأساقفة تناط بالحبر الروماني . ولما كان البروتستانت قد أبانوا رغبتهم في أن يطلعوا على ما يقرره المجمع في سر القربان، وفي أن يحضروا إليه إذا أعطوا منشور الايمان

فأرسل إليهم المجمع منشوراً يؤمنهم به ويطلق لهم أن يوردوا كل ما شاءوا من الأدلة ، وأن يكونوا في المجمع آمنين وينصرفوا منه متى طاب لهم فلم يحضروا .
والمجلس الرابع عشر عُقد في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٥٥١م وكان البحث فيه عن سر التوبة ومسحة المرضى . وشرح الآباء ما يتعلق بسر التوبة في تسعة فصول وما يتعلق بسر المسحة في ثلاثة فصول ، وفرضوا في سر التوبة خمسة عشر قانوناً وفي سر المسحة أربعة قوانين وألحقوا بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب مشتملاً على ثلاثة عشر فصلاً في سلطان الأساقفة وانزالهم التأديبات ، وفي حق الولاية على الكنائس والأوقاف .

والمجلس الخامس عشر عُقد في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٥٥٢م وكان البروتستانت قد طلبوا تأجيل التوقيع على القوانين المختصة بذيبة القديس وسر الدرجة مظهرين الرغبة في الأتيان إلى المجمع . فتقرر في هذا المجلس أن يؤجل الاجتماع إلى ١٩ آذار . وأرسل المجمع إلى البروتستانت منشور الأمان ثانية بأكثر اسهاب فلم يقبلوه وأبوا الحضور .

والمجلس السادس عشر عُقد في ٢٨ نيسان سنة ١٥٥٢م فتقرر فيه إيقاف المجمع بسبب القلق الذي أثاره البروتستانت ومحازبوهم في جرمانيا وغيرها . حتى روي أن الغرض المقصود من المجمع هو ازالة الاختلافات وضمّ المؤمنين في وحدة الايمان أمسى متعذر المنال بل يُخشى من تعاظم القلق والشور . واضطر أساقفة كثيرون أن يباحوا المجمع لملفاة أحوال أبرشياتهم ، فأوقفوا المجمع أولاً إلى سنتين ثم بقي موقفاً إلى سنة ١٥٦٢م . ومات البابا يوليوس الثالث سنة ١٥٥٥م وخلفه مرسل الثاني ثم بولس الرابع سنة ١٥٥٩م ، فأمر باستئناف المجمع سنة ١٥٦٢م .
فعُقد المجلس السابع عشر في ١٨ كانون الثاني من سنة ١٥٦٢م ولم يكن فيه إلا تلاوة براءة البابا بالعود إلى تكملة المجمع وحكم المجمع بذلك .

وعُقد المجلس الثامن عشر في ٢٦ شباط سنة ١٥٦٢م فثلي به مرسوم في تحريم الكتب الحاوية ضلالاً ، وأقيمت لجنة لفحص الكتب وبيان ما ينبغي تحريمه منها لاقتلاع الزوان من حقل الخللص . واشتمل هذا المرسوم أيضاً دعوة عامة ليأتي إلى هذا المجمع كل من أراد الوقوف على الحقيقة . وألحق به منشور التأمين للقبيلة الجرمانية حيث دعي إلى هذا المجمع الكهنة والأمراء وأصحاب الاقطاعات والشرفاء

وأعضاء الجمعيات ليشهدوا هذا الجمع آمين ويطلق لهم أن يوردوا خطأ أو شفاهاً كل ما أرادوا من الآراء مأخوذة من آيات الكتاب وتقليدات الآباء ومراسيم المجامع . ثم عمموا هذا المنشور ليكون شاملاً لجميع الذين يخالفون الايمان الكاثوليكي من أية مملكة أو قبيلة أو مدينة كانوا .

وعُقد المجلس التاسع عشر في ١٤ أيار سنة ١٥٦٢م ولما كان سفراء فرنسا الموفدون إلى الجمع لم يصلوا إليه والتمسوا تأجيل المجلس إلى حين بلوغهم . اكتفى الآباء باشتهاار تأجيل الاجتماع إلى الرابع من حزيران .

وعُقد المجلس العشرون في اليوم المذكور وتليت فيه الرسائل المؤذنة بنصب سفراء فرنسا . وروي للآباء أن الأمثل تأجيل المفاوضات العامة لدواع كثيرة ورغبة في زيادة التحري والتدقيق ، فأمرؤا أن يؤخر المجلس إلى ١٦ تموز .

وعُقد المجلس الحادي والعشرون في ١٦ تموز سنة ١٥٦٢م وكان البحث فيه عن تناول القربان المقدس باعراض الخبز والخمر معاً ، وعن مناولة الأطفال . وشرح الجمع تعليمه بذلك في أربعة فصول أولها في أن العامة والكهنة غير المقدسين لا يلتزمون بالناموس الإلهي أن يتناولوا الخبز والخمر المقدسين معاً بل يكفي تناولهم الخبز وحده ، ويكونوا قد تناولوا جسد المسيح كاملاً ، وإنّ مناولة الأطفال غير لازمة . وفرضوا لذلك أربعة قوانين وألحقوا بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب اشتمل على فصول أولها أن لا يحق للأسقف أن يأخذ شيئاً من المال بدل من ترقية أحد إلى الدرجات المقدسة ، وأن لا يرقى أحداً ما لم يكن له ما يقوم بأوده إلى غير ذلك مما يتعلق بالأسقف وخوارنة الرعايا .

وعُقد المجلس الثاني والعشرون في ١٧ ايلول سنة ١٥٦٢م وكان البحث فيه عن ذبيحة القداس ، وشرح الجمع التعليم الكاثوليكي بهذه العقيدة في تسعة فصول وفرض في ذلك تسعة قوانين . وأضاف إلى ذلك مرسوماً في ما يلزم عمله أو تحاشيه في اقامة القداس . وألحق بذلك مرسوماً في اصلاح التهذيب حاوياً أحد عشر فصلاً في سيرة الكليركيين ، وفي الوصايا الأخيرة ، وفي أن وكلاء الأوقاف يلزمهم اداء الحساب للأسقف عن وكالتهم إلى غير ذلك .

وعُقد المجلس الثالث والعشرون في ١٥ تموز سنة ١٥٦٣م وكان مدار البحث فيه عن سر الدرجة . وشرح الآباء التعليم الكاثوليكي بذلك في أربعة فصول

وألحقوه بثمانية قوانين، وأضافوا إليها مرسوماً في اصلاح التهذيب مشتملاً على ثمانية عشر فصلاً في لزوم اقامة الراعي في رعيته. وفي عمر المرشحين إلى الدرجات المقدسة، والفحص عن سيرتهم وعلمهم، وفي نظام المدارس الاكليريكية إلى غير ذلك.

والمجلس الرابع والعشرون عُقد في ١١ تشرين الثاني سنة ١٥٦٣م وكان مداره على سر الزيجة. وفرض المجمع فيه اثني عشر قانوناً وألحق بها مرسوماً في اصلاح التهذيب مشتملاً على عشرة فصول موضوعها كيفية الزيجة والموانع المبطللة لها، ومن يحق له الحل منها والأيام الممنوع بها عقد الزيجة الخ. وألحق بذلك مرسوماً آخراً مشتملاً على واحد وعشرين فصلاً في نظام اقامة الأساقفة بأبرشياتهم، وفي لزوم عقد مجمع في الأبرشيات كل ثلاث سنين مرة، وكيفية زيارة الأسقف أبرشيته ولزوم الوعظ ومن يصلح لذلك، واختصاص الخبر الروماني بسماع الدعاوى الجزائية الكبرى على الأسقف، ونظام سماع الدعاوى في المحاكم الكنسية إلى غير ذلك.

والمجلس الخامس والعشرون وهو الأخير عُقد في ٣ و ٤ كانون الأول سنة ١٥٦٣م وتُلي فيه مرسوم المجمع في المطهر وفي الالتجاء إلى القديسين وتكريم الدخائر والصور، وألحق بذلك مرسوم في اصلاح التهذيب مداره على اصلاح مسير الرهبان والراهبات. وقد اشتمل على اثنين وعشرين فصلاً، وأضيف إليه مرسوم آخر ينطوي على واحد وعشرين فصلاً في مواد مختلفة منها أنه يلزم الكرادلة والأساقفة القنائة في أثاث دورهم وموائدهم. وأن يتلوم الأساقفة في الطعن بسيف الحرم، ثم شرح حق الولاية على الكنائس والاقواف وما يحق للولي ولزوم اعادة اداء العشور إلى غير ذلك.

ولما لم يستتم هذا المجلس أعماله في اليوم المذكور نودي بالاجتماع لتكتملتها في اليوم التالي وهو الرابع من كانون الأول، وتُلي حينئذ مرسوم المجمع في الغفارين والانتقطاع عن المأكّل المحرّمة وفي الأصوام والأعياد. وفي فهرست الكتب المحرّمة تلاوتها، وفي كتاب الفرض والقداس. ثم تُلّيت أعمال هذا المجمع التي كانت في أيام بولس الثالث ويوليوس الثالث فأجازها الآباء. وتُتم المجلس بالدعاء للبابا بيوس الرابع المالك حينئذ، ولبولس الثالث، ويوليوس الثالث اللذين عنيا به أيضاً، ولكرلوس

الخامس عاقل المانيا وغيره من الملوك الذين عاونوا على هذا المجمع . ثم وقّع المجمع على مجالس المجمع ورفعوا عريضة إلى الحبر الروماني التمسوا بها تثبيتها . فأصدر البابا بيوس الرابع برأته في اثباتها مؤرخة في السادس من كانون الثاني سنة ١٥٦٤م . وكان عدد الذين وقّعوا على هذا المجمع مئتين وخمسين وهم سفراء البابا أربعة وكردينالان وثلاثة بطاركة وهو بطريرك أورشليم اللاتيني وطريرك اكلوييا وطريرك البندقية ، وخمسة وعشرون رئيس أساقفة ، ومئة وثمانية وستون أسقفًا ، وتسعة وثلاثون وكيلًا عن غايين ، وسبعة رؤساء ، وسبعة رؤساء عامون للرهبانيات .

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

عد ٩٧٩

بعض حكاهم وأعيانهم في هذا القرن

كان في هذا القرن كثيرون من مقدمي الموارنة ومشايخهم يلون قومهم من قبل ولاية دمشق أو طرابلس أو غزير وما يليها . وقد ذكرنا في تاريخ القرن الخامس عشر أنّ المقدّم عبد المنعم الثاني مقدّم بشري توفي سنة ١٤٩٤م وخلفه ابنه يوسف ، ثم توفي يوسف وخلفه ابنه المقدّم الياس بن يوسف المذكور . ونرى البطريرك اسطفانوس الدويهي روى في تاريخ سنة ١٥١٤م أنّ البطريرك سمعان الحداثي التمس من البابا لاون العاشر في جملة ما التمس منه أن يكتب رسالة إلى المقدّم الياس بن يوسف من بشري ليكون غيوراً على قومه أهل جبل لبنان . وروى في تاريخ سنة ١٥١٥م أنّ الحبر الروماني أنفذ الرسالة المطلوبة إلى المقدّم الياس المذكور وحثّه بها على أن تكون له العناية بأمر الدين الكاثوليكي واليقظة لسياسة ملّته . ثم

توفي المقدم الياس سنة ١٥١٩م ولم يكن له إلا ولد قاصر اسمه يوحنا . فتغلب على المقدمة كمال الدين بن عبد الوهاب المعروف بابن عجرمة من قيطو، وتزوج بست الملوك ابنة الشيخ علوان بن قمر من بشري، وكانت ذات ثروة عظيمة فبنى برجاً بقيطو وحكم الجهة الشمالية من البلاد. ويظهر أنّ بشري والجهة الجنوبية لبثت بمهدة المقدم يوحنا، وسُمّي عبد المنعم أيضاً. ففي سنة ١٥٣٧م كان اجتماع يبلوزا، ولما قدم مقدم بشري يوحنا المذكور لم يرد ابن عجرمة أن يلاقيه أو يقف عند دخوله، فطعنه المقدم يوحنا بالرمح فقتله ودُفن بقيطو شرقي كنيسة مار سركيس. وفي سنة ١٥٤٧م كان مقتل المقدم عبد المنعم يوحنا فإنّ ست الملوك أرملة ابن عجرمة رغبةً في أخذ ثأر زوجها استدعت إليها حماده رئيس الحمادية الذين أتوا من بلاد العجم إلى قهمز بلبنان، واتفقت مع نصارى ملكية من عين حليا فأكمنوا للمقدم في خارج داره، ولما خرج سحراً وثبوا عليه وقتلوه، ودخل الملكية الدار وقتلوا أولاده. وما انتشر الخبر حتى أسرع أهل بشري في طلب القاتلين فأدركوهم في محل يسمى الحرائص فقتلوا حماده وبعضاً من رفاقه. وانقرضت بمقتل يوحنا هذا ذرية المقدم سيفاً، وانتقلت إلى ذرية قمر، وسمي المقدمون من ذرية قمر العناحلة نسبةً إلى عين حليا، لأنّ رجلاً من عين حليا اسمه عز الدين تزوج بنت حسام الدين بن أيوب بن قمر مقدم من بشري سنة ١٤٣٠م، فولد منها حسام الدين، وهذا رُزق أربعة أولاد هم: موسى ورزق الله، وداغر، وعاشينا. ولما انقرضت سلالة سيفاً أخذ هؤلاء الولاية على جبة بشري. ويظهر أنّ الذي أخذ الولاية منهم هو رزق الله، إذ روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٧م أنّ رزق الله هذا مقدم بشري كان حاضراً مع البطريك وثمانية مطارين ونحو أربعماية كاهن في تقديس الميرون يوم خميس الأسرار من السنة المذكورة. وروى في تاريخ سنة ١٥٧٠م أنّ رزق الله هذا كان قد تولّى المقدمة من قبل الأمير منصور بن عساف، وكان مجداً في تعمير البلاد وجباية مال الحكومة، وكانت فتنة بينه وبين أخيه عاشينا لأنّ عاشينا لم يكن حسن السيرة بل كان يسطو على الناس وينهب ويقتل فحنق عليه أخوه المقدم رزق الله وأتبه أشد التأنيب فرحل إلى حصرون وكان متزوجاً بامرأة منها وأخذ يهدد أخاه بالقتل، فأصلح البطريك ما بينهما وأعاد عاشينا إلى البرج الذي كان قد بناه في أسفل بشري، لكنه لم ينكف عن طريقته السيئة ونفرت القلوب منه. وشُكي إلى نائب طرابلس بأنه شلح قفلاً في المسيقة فأراد رزق

الله أن يستريح من شره فدبر على قتله، ودعاه إليه إلى البرج الذي في أعلى القرية وكان قد تأمر مع رجال من الضنية على قتله، وكمنوا له في البرج، ولما دخل إليه اغتالوه. وسمع البطريك فأتى إلى بشري وحرم رزق الله على مسمع الجمهور. وطلب صاحب القفل إلى المقدم أن يرده له ما سلب منه، فتبرأ من ذلك فدعاه إلى المحكمة ونزل المقدم إلى طرابلس مع مشايخ القرى للمحاسبة على الخراج. وحضر إلى القاضي فلم يقدم صاحب القفل بيته ولا شاهداً، فتأجلت الدعوى إلى إقامة بيته. ثم عاد المقدم بعد مدة إلى طرابلس ورقبه صاحب القفل حتى دخل الحمام فرشا الحارس في الحمام، وختّم طرف عمامة المقدم بسمة بضاعته، ولما خرج من الحمام أمسكه بيده وقال لا يحق لك يا مقدم أن تأكل مال المسلمين. وأخذه إلى أمام القاضي وأراه سمة بضاعته على عمامة المقدم فحكم القاضي عليه فربطوه في ذنب حصان وجزّروه حتى قضى أجله وهو بريء من تلك التهمة.

وبعد مقتل المقدم رزق الله تولّى المقدمة سنة ١٥٧٣م أخوه داغر وعساف بن موسى أخيهما من قبل الأمير منصور بن عساف، وأرسل الأمير رجالاً قتلوا موسى وداود ابني شلندى من بشري حمي المقدم رزق الله، وقيل أنهما عملاً على قتل صهرهما، وخاف أقارب بني شلندى فنزلوا إلى طرابلس وشكوا المقدم داغر بأنه تسبب بقتل نسيبهم، فطيّب نائب طرابلس خاطرهم. ولما أرسل جابي المال إلى بشري أمره بقتل المقدم داغر، وبعد أن جبى مال القرية ركب حصانه وطعن المقدم داغر برمح فقتله. ثم إنّ الأمير منصور عساف قتل المقدم عساف ابن أخي داغر، وولّى على جبة بشري أبا سلهب القريعي. وكان ذلك مخالفاً لرضى أبي منصور حبّيش مدبر الأمير منصور. وفي سنة ١٥٧٤م وقعت النفرة بين أبي سلهب القريعي المذكور وأنسابائه وبين البشراية، وقتل القريعي رجلين من بشري عند العين التي تحت بقاعكفره، وقُدّمت الشكوى إلى الأمير منصور فعزل الأمير منصور أبا سلهب القريعي بتدبير الشيخ أبي منصور حبّيش عن مقدمة الجبة، وولّى مكانه مقلد ابن الياس، وأشرك معه في الولاية الشدياق يوسف أبا رعد المعروف بخاطر ابن الشدياق شاهين الحصري من بيت مشروق. وأما اهدن فكان ثلاثة شمامسة يدبرون أمورها.

وفي سنة ١٥٧٩م قُدّمت الشكوى إلى الباب العالي على الأمير منصور عساف بقتله ابن شعيب حاكم طرابلس، وامراء فتقا غيرهم فأمر السلطان بجعل

طرابلس باشاوية لكسر شوكة الأمير منصور وجعل يوسف باشا ابن سيفا التركماني والياً عليها. فطلب المقدم مقلد والشدياق خاطر فهرب الأمير مقلد إلى جهة الشوف فمات هناك وله صبي اسمه جمال الدين يوسف، وبنت اسمها ست البنات. على أنّ يوسف باشا رضي عن الشدياق خاطر وكاتبه وأمنه وأعاده إلى ولاية جبة بشري، وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكاً له في الولاية. وتوفي الشدياق باخوس المذكور سنة ١٥٩٤م وخلفه ابنه الشدياق فرج في تدبير جبة بشري مع الشدياق خاطر.

وقد اشتهر بهذا العصر الشيخ حبيش بن موسى بن عبدالله بن مخائيل، فإنه انتقل من قرية يانوح بعياله إلى غزير بعد أن دوّخ السلطان سليم الأول العثماني سورية ومصر وأمنهما، وولّى الأمير عساف على كسروان وبلاد جبيل، فأقام الشيخ حبيش بغزير عند الأمير عساف، وكان له ثلاثة بنين يوسف ومهنا وسليمان. وتوفي الأمير عساف ١٥١٨م وتوفي بعده ابنه الأمير حسن فكان يوسف وسليمان ابنا حبيش مدبري حكمه. ثم قتل الأمير قيتبيه (قايدبيه) ابن الأمير عساف الأمير حسن والأمير حسين أخويه ببيروت، وقبض على يوسف وسليمان ابني حبيش وحبسهما ثم نفاهما إلى مصر. ثم توفي الأمير قيتبيه بن عساف وخلفه الأمير منصور ابن أخيه حسن فردّ الشيخين يوسف وسليمان ابني حبيش إلى خدمته سنة ١٥٢٣م. ولما حنق حمد آغا بن شعيب حاكم طرابلس على الأمير منصور، أرسل الأمير إليه سنة ١٥٢٨م ابني حبيش وعبد المنعم الآتي ذكره، فقتلوا ابن شعيب وألحقوا به ابنه في جامع طيلان بطرابلس وأصلحوا نفوسهم مع القاضي فحكم أنهم أبرياء. وقد مرّ ذلك.

ولما توزع القشلق (ضريبة للحكومة وقال بعضهم يراد به زمرة من الجند) على ولاية الشام سنة ١٥٧٢م وأصاب جبة بشري منه واحد وعشرون ألف سلطاني، وقيمة السلطاني ثلثا القرش، وأصاب دير قنوين منه مائتا سلطاني، وضبطت الحكومة الدير، فاستفكه البطريك ميخائيل الرزي بعناية الشيخ أبي منصور حبيش وهو الشيخ يوسف المذكور على ما يظهر. ولما حصل القتال بين القرعية وبين أهل بشري عني الشيخ أبو منصور حبيش بعزل القرعية عن حكومة الجبة، وولّى عليها مقلد بن الياس كما مرّ. وتوفي الشيخ أبو منصور يوسف حبيش سنة ١٥٨٣م وخلفه في تدبير ولاية غزير أخوه الشيخ أبو يونس سليمان. ولما قتل يوسف باشا

سيفا الأمير محمد العساف وتزوج امرأته، قبض يوسف باشا على سليمان حبيش المذكور وعلى منصور ابن أخيه مهنا وقتلها سنة ١٥٩٣م وهرب ولدهما يونس وحبيش إلى الشويفات ملتجئين إلى الأمير محمد بن جمال الدين التنوخي. هذا ما ذكره العلامة الدويهي في تاريخه ونقله عنه الشيخ طنوس الشدياق في تاريخ الأعيان. وفي ذلك نظر فإن كان الشيخ يوسف والشيخ سليمان حبيش انضويا إلى خدمة الأمير عساف سنة ١٥١٨م فلا بد أن كان عمرهما حينئذٍ نحواً من عشرين سنة على الأقل، فيتعسر تصديق الرواية أن الشيخ سليمان خاصة عاش ثلاثة وتسعين سنة. وأظن أن في النسب خطأ وأن أبا منصور يوسف وأبا يونس سليمان هما غير يوسف وسليمان ابني حبيش اللذين خدما الأمير عساف سنة ١٥١٨م والله أعلم.

وكان من أعيان الموارنة وحكامهم في هذا القرن مالك ابو الغيث ذكره البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٥٢٣م، فقال كان متكلماً على العاقورة أي حاكماً بها. وكان صاحب همة واقدام وسار إلى دمشق ولبث بها مدة، فاغتنم المتأولة فرصة غيابه وانتقلوا من حراجل إلى قرية تدمر التي فوق يانوح فعمروها واستوطنوا بها. وعلم بذلك الشيخ مالك فحمل عليهم وطردهم من هناك، وأخذ كل ما كان لهم إلى العاقورة. وروي في تاريخ سنة ١٥٣٤م أنه كان فيها خصام بين مالك شيخ العاقورة وهو من غرض اليمنية، وبين هاشم العجمي. فكبس مالك جبة المنيطرة مرتين وأحرق قراها، واتفق أهل هذه القرى ومن كانوا من حزب القيسية في العاقورة وأكمنوا للمالك في طريق الجرد فقتلوه غيلة، فسار حنش وحرفوش أخوا مالك إلى دمشق يشكون إلى نائبها، فكتب إلى الأمير منصور عساف أن يقبض على الغرماء ويرسلهم إليه، فأرسل الأمير منصور عبد المنعم ابن عم هاشم ومعه رجال وأخو مالك للقبض على هاشم وقتلي مالك. فانهزم هاشم إلى الأمراء الحرافشة لائذاً بهم فخانوه بسعاية عبد المنعم ابن عمه، إذ تعهد لهم بقتل الأمير منصور عساف وتسليمهم أقطاعاته، فاغتالوا هاشماً ورموه في بئر عند الكرك يسمى باسمه. ووجس أهل العاقورة وفّر القيسية منهم إلى طرابلس واليمنية إلى دمشق، وخلت العاقورة من السكان سبع سنين. وقد ذكرنا ذلك في عدد ٩٦٠.

وأما هاشم العجمي الذي ولّاه الأمير منصور عساف على بلاد جبيل وابن عمه عبد المنعم الذي جعله دهقاناً على أمواله، وبنى له داراً في غزير قُتل فيها كما مرّ

في العد المذكور من كتابنا هذا . فلا نظن أنهما كانا من الموارنة وإنساب آل هاشم في العاقورة إلى هاشم المذكور لا نراه صحيحاً، بل ترى الأظهر ما نقلناه في العدد المذكور عن خط الصالح الذكر الشهير بمعرفة الانساب البطريك بولس مسعد وهو أن نسبة هؤلاء المشايخ إنما هي إلى هاشم أحد أبناء الشيخ أيوب ابن الشماس توما الآتي ذكره .

الشيخ أيوب ابن الشماس توما من العاقورة ذكره العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٥٣٤م فقال وأما الشيخ أيوب وأخوه فضول ابنا الشماس توما فسكنا عند دير القديس أدنا كرسي أسقفية العاقورة وساعدهما الله على تعمير قريتهما ، ونالا أمراً من نائب دمشق بأن يجمعا سكانها (الذين كانوا قد تشتتوا كما مرّ) وأن يكونا مشايخ فيها . ووُلد لأيوب ثلاثة بنين وهم هاشم المار ذكره وضاهر ورعد وأشهرهم هاشم جد آل هاشم ومشايخ العاقورة .

وفي سنة ١٥٤٥م انتقل الشدياق سركيس الخازن من قرية جاج ببلاد جبيل إلى قرية البوار بالفتوح لاستحراز الأمن والراحة في ولاية الأمير منصور عساف ، ثم انتقل من البوار إلى قرية بلونه بجوار عجلتون . وتوفي الشدياق سركيس سنة ١٥٧٠م وله ابنان أبو صقر ابراهيم وأبو صافي رباح . وفي سنة ١٥٨٤م توفي الأمير قرقماز المعني في مغارة جزين منهزماً من أمام ابراهيم باشا والي مصر الذي كان السلطان قد أرسله للتنكيل بولاية لبنان لاتهمهم بسلب خزينته في جون عكار . فأرسلت أرملة الأمير قرقماز ابنيها الأميرين فخر الدين ويونس إلى بلونة مع الشيخ كيوان الماروني من دير القمر فخبأهما عند الشيخ أبي صقر ابراهيم الخازن ابن سركيس . ولما انصرف ابراهيم باشا عاد الأميران فخر الدين ويونس إلى اعييه عند خالهما الأمير سيف الدين التنوخي ، ولما بلغا أشدهما ردهما خالهما إلى ولاية أبيهما بالشوف فتذكرا معروف الشيخ ابراهيم الخازن ، ودعاه الأمير فخر الدين إليه وجعله مديراً لحكومته وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه في آخر هذا القرن سنة ١٦٠٠م، فكان ذلك سبيلاً إلى تقدّم الأسرة الخازنية في المناصب كما سوف ترى .

الشيخ كيوان الماروني هذا من دير القمر كان مديراً لحكومة الأمير قرقماز ابن الأمير فخر الدين الأول . ولما توفي الأمير قرقماز سنة ١٥٨٤م عني كيوان بتخبة

ولديه فخر الدين ويونس عند الشيخين ابراهيم ورباح الخازن كما مّر. ولم نعلم شيئاً آخر من أمر هذا الرجل.

الشيخ يوسف بن شكيان الحصاراتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٣٢م، فقال عبد الساتر الكردي حاكم البترون قصد أن يعصو الأمير منصور بن عساف فجهز له الأمير أربعين رجلاً قتلوه وألحقوا به أباه، وولّى مكانه يوسف بن شكيان الحصاراتي وصرفه ببلاد البترون لاشتهاره بالنزاهة والعدل والشجاعة.

ومن نكبات الموارنة في هذا القرن قتل جثمّ غفير منهم في قبرص عند فتح العثمانيين لها سنة ١٥٧٠م. فقد أنبأنا الدويهي في تاريخ السنة المذكورة أنّ الذين قُتلوا من الموارنة حينئذٍ كانوا نحو ثمانية عشر ألفاً، وكان اثنا عشر ألف رجل منهم قد اعتصموا بقرية اسمها كاليباسي على قمة الجبل، فحلفوا لهم إذا استسلموا إليهم لم يضربوا بهم، بل يردون إليهم قراهم ويولونهم عليها، فلما نزلوا إليهم قتلهم عن آخرهم فكان عدد قتلى الموارنة حينئذٍ ثلاثين ألفاً.

والنكبة الثانية أنه لما وزع القشلق على بلاد الشام سنة ١٥٧٢م وأصاب أهل جبة بشري منه واحد وعشرين ألف سلطانني كناية عن أربعة عشر ألف قرش، فأكثر جباة هذه الضريبة من الصرامة والقسوة على الأهلين حتى اضطر كثيرون منهم إلى الفرار، وخلت قراهم من السكان. وذكر الدويهي من هذه القرى سبعل وبنهران ومتريت والناووس وأدنيث وكفرفو وراس كيفا وسرعل ونيحا وحيرونا وبرحليون ورشديين وبقرقاشا.

عد ٩٨٠

بطاركة الموارنة في القرن السادس عشر وأولاً في البطريرك موسى العكاري

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن الخامس عشر بذكر البطريرك سمعان الحداثي ووفاته في أواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٥٢٤م. وفي الحادي عشر من كانون الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة وأعيان الاكليروس والشعب وانتخبوا موسى بن سعادة من قرية الباردة بعكار، وكان راهباً في دير

السيدة بحوقا، وكان البطريرك سمعان الحداثي سالفه قد أرسله سنة ١٥٢٢م إلى البابا أدريانوس السادس . وبعد عودته رماه إلى الأسقفية كما مرّ . وقال فيه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٢) نقلاً عن تاريخ الدويهي : « إنه كان ذا عبادة جريئة وغيره متقدمة دخل إلى روما وأحضر درع التثبيت للبطريرك سمعان (الحداثي) وصنّف قصيدة سريانية في سفره إلى رومية ، وقصيدة أخرى في مدح يوسف بن يعقوب ، وأنشأ أملاكاً كثيرة لدير قنوين ، وترك له عند وفاته ثروة وافرة ، وحزن على موته شعب الموارنة كلهم ودفنوا جسده الطاهر في مغارة القديسة مارينا بالبكاء والنوح . وبعد دفنه جعلوا مخدعه الذي كان قرب باب كنيسة السيدة معبداً ، ونصبوا فيه مذبحين على اسم الرسولين بطرس وبولس كي لا يسكن هناك أحد بعده » .

وقال السمعاني بعد ذلك أنّ في دير الكرسي الرسولي البطريركي المذكور أربع رسائل من الأبحار الأعظمين منفذة إليه ، ولديّ منها أربع نسخ منقولة عن أصولها الأولى من البابا اكليمنضوس السابع مؤرخة في ٢٥ من كانون الثاني سنة ١٥٣١م ، والثانية من بولس الثالث مؤرخة في شهر كانون الأول سنة ١٥٤٢م ، والثالثة من بولس الرابع مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٥٥٦م ، والرابعة من بيوس الرابع مؤرخة في أوائل ايلول سنة ١٥٦٢م . وقد أرسل البطريرك موسى إلى هذا البابا جيورجيوس مطران دمشق لينوب عنه وعن ملّة الموارنة في المجمع التريدينيني . وهذا ظاهر من رسالة هذا البابا إليّ حيث يقول : « قد قابلنا بارتياح أحناء المحترم جيورجيوس مطران دمشق الذي حمل رسالتك إلينا » . إلى أن يقول : « وأما رغبتكم في أن نرسل المطران المذكور إلى المجمع التريدينيني ، فلم نرّ الاجابة إليها لازمة ولا سيما لأنه لا يعرف اللاتينية ولا يحسن الكلام بالايطالية ، فلا يتمكن من بيان ما يراه ولا من فهم ما يبحث عنه ، ولهذا رأينا الأولى أنكم متى سنحت لكم الفرصة ترسلون إلينا رسالة تقرّون بها بأنكم خاضعون أنتم وأساقفتكم واكليركم لجميع مراسيم المجمع التريدينيني وتثبتون كل ما أثبتته وترذلون كل ما رذله كما صنع أخونا المحترم عبد يشوع بطريرك الكلدان قبل سفره من عندنا عن عهد قريب » .

وفي أيام هذا البطريرك جدد وأيد البابا اكليمنضوس السابع في ١١ ايلول سنة ١٥٢٨م منح الغفران الذي كان سالفه البابا لاون العاشر قد أنعم به على من يزورون كنيسة الكرسي البطريركي في عيد ميلاد الخلّص وختاتته وظهوره للتبشير

(الغطاس) وصعوده وحلول الروح القدس (العنصرة)، وأعياد: ميلاد يوحنا المعمدان، وانتقال العذراء، والقديسين بطرس وبولس، ووجود الصليب بحيث أن يعترفوا ويتناولوا القربان الأقدس في تلك الأيام ويتبرعوا بدفع صدقة ما للكرسي البطريركي أو لترميم غيره من كنائس الطائفة. وكذلك منح البابا بيوس الثالث في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٥٤٢م غفران سبع سنين وسبع أربعينات للموارنة كل مرة تلا أحدهم أمام صورة المصلوب خمساً الصلوة الربانية والسلام الملكي، بحيث أن يكونوا تائبين ومعترفين حقيقة أن يقصدوا الاعتراف في الأزمنة المرسومة، ثم إن البابا بيوس الرابع فوّض إلى البطريرك موسى المذكور في رسالته المنفذة إليه في أول ايلول سنة ١٥٦٢م أن يحل من التأديبات البيعية جميع الهراطقة والمشاقين والمارقين سواء كانوا من الموارنة أو من أية ملّة كانت، وأثبت الغفارين المموحة من سلفائه. وترى هذه المراسيم الحبرية في ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً.

ومن أعمال البطريرك موسى المذكور أنه أرسل سنة ١٥٢٧م انطونيوس مطران دمشق لطلب التثبيت من الحبر الروماني، فوقع بيد اللصوص بالبحر وسلبوا ما كان معه حتى رسائل البابا. ثم استفلت نفسه ودخل إلى روما ونال حظوة لدى البابا اكليمنطوس السابع. وسلم إليه منشور الغفران المار ذكره، ودفع إليه توصاة إلى المؤمنين ليتصدقوا عليه، ولم يرسل درع الرئاسة إلى البطريرك لفقدان رسالته. وفي سنة ١٥٣٠م أرسل البطريرك رسالتين إلى البابا اكليمنطوس السابع مع بعض المرسلين يحقق له دوام خضوع ملته للكرسي الرسولي، ويخبره عن الضنك الحاصل عليهم، ويسأله أن يكرم عليه بالملابس الكهنوتية، وأن يجعل الكردينال ستاكروس وكيلاً عاماً للملّة المارونية، فأجابه البابا في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٥٣١م أنه قد سرّ كثيراً بأن شعبه ما برح يزداد عبادة وتقوى واستمساكاً بعرى الايمان الكاثوليكي، وأنه عين الكردينال المذكور وكيلاً بروما لأمة الموارنة وهو الذي ارتقى السدة الباباوية بعداً، ودُعِيَ مرشلوس أو مرسل.

وفي سنة ١٥٤٢م أرسل البطريرك رسالة إلى البابا بولس الثالث مع أحد المرسلين سأل قداسته فيها أن يوصي رئيس الرهبان فرنسيس أن يرسل إليه ستة كهنة لينشعوا مدرسة بلبنان لتعليم بعض الشبان اللغة اللاتينية مبيّناً له أنه من مدة طويلة لم يأت أحد من قبل الحبر الروماني لزيارتهم، ولا استطاع هو أن يرسل أحداً يعرف اللغة إلى قداسته. وأثبت الدويهي ترجمة جواب البابا على هذه الرسالة في

الفصل ١٦ من كتاب رد التهم . وفي سنة ١٥٤٥م أرسل كرلوس الخامس عاهل
جرمانيا إلى البطريك موسى بدلة جميلة لخدمة الاسرار الالهية مع الطبيب ابراهيم
العاقوري . قال الدويهي وهي محفوظة إلى الآن في دير قنوين . وفي سنة ١٥٥٣م
أخذ جابي المال في قبل والي طرابلس زيادة المال على المال المطلوب من دير
قنوين ، فرفع البطريك موسى عريضة إلى السلطان سليمان خان الغازي وكان
يومئذ بحلب ، فصدرت إرادته السنية يأمر لقاضي طرابلس أن ينظر في الدعوى
ويأمر الجابي أن يردّ على دير قنوين ما أخذه منه وتاريخ هذا الأمر في ١٥ محرم
سنة ٩٦١ هـ (سنة ١٥٥٤ م) .

وفي سنة ١٥٥٥م ارتقى إلى السدة الرسولية البابا بولس الرابع فرفع البطريك
إليه رسالة يهنئه بها ويلتمس بركته ودعائه . فأجابه البابا في ١٢ تشرين الثاني سنة
١٥٥٦م وأرسل إليه عدّة كاملة للتقديس . وقد ذكر ذلك الدويهي مفصلاً في
الفصل السادس عشر من كتابه ردّ التهم . وفي سنة ١٥٥٧م عقد مجمّعاً نهار
خميس الأسرار وقُدّس الميرون بحضرة ثمانية مطارين ونحو أربعماية كاهن
ورزق الله مقدّم بشري وجم غفير . وفي هذه السنة أنشأ البطريك كنيسة القديس
جيورجوس بقرية شدره من عمل عكار .

وفي سنة ١٥٦١م اتفق أن وقع رجل في بئر كنيسة الموارنة بأورشليم المعروفة
بكنيسة القديس جرجس ومات . فهرب الرهبان الموارنة الذين كانوا في تلك
الكنيسة ، وأتى جماعة من القبط دفعوا الغرامة التي توجبت على الكنيسة ووضعوا
يدهم عليها . فأخذ البطريك موسى أمراً من مصطفى باشا والي دمشق إلى قاضي
القدس مؤرخاً في شهر محرم سنة ٩٧٢ هـ الموافقة ١٥٦٤ للميلاد ، أن يسمع
دعوى البطريك ويرفع يد القبط عن الكنيسة ، فسار البطريك إلى القدس ومعه
الدراهم اللازمة لاسترداد الكنيسة . وكان رئيس رهبان الفرنج اسمه بونيفاس فأقنع
البطريك أن لا يداعي القبط ولا يخسر الدراهم بل أن يقضي جماعته الموارنة
فروضهم الدينية عند رهبانه في القدس في كنيسة المخلص لكونهم قلائل . وكان
لهم مذهب في كنيسة العلبة الصهيونية ، وإذا جار الزمان وخرج الرهبان أي رهبان
القديس فرنسيس من القدس فتبقى كنيسة المخلص بيد الموارنة . فاقنع البطريك
بذلك ، وعدل عن استرداد كنيسة القديس جرجس ، ومداعاة القبط . واشترى
بالدراهم داراً في القدس لجماعته . وهذا ظاهر من رسالة كتبها البطريك موسى إلى

البابا بيوس الرابع وأرسلها مع الأب بونيفاس المذكور عندما انقضت مدة رئاسته وعاد إلى رومة .

ودخلت سنة ١٥٦١ ولم ينل البطريرك درع الرئاسة والتثبيت بالنوع المعتاد وإن تواترت عرائضه إلى الأحرار الرومانيين ونعمهم عليه كما رأيت ، لأنّ الرسائل المرسلة مع المطران انطونيوس المذكور أتلّفها اللصوص ، ولم يتيسر له كل هذه المدة أن يرسل أحداً من أبناء ملّته يطلب له التثبيت . ففي هذه السنة بلغه أنّ القس حرجس القبرصي يعرف اللغة الايطالية ، فدعاه إليه وأمره أن يسير إلى روما ، ودفع إليه رسالة منه ورسائل من أساقفة الملّة وأعيانها إلى البابا بيوس الرابع لطلب درع الرئاسة ، وأرسل معه ست براءات من أسلافه لبطاركة الموارنة . ولما وقف البابا على هذه الرسائل أنعم على البطريرك بدرع الرئاسة وأرسل له مع قاصده عدة كاملة للتقديس وبراءة الغفران السابق ذكره ومرسوماً يحتم به أن لا يعارض أحد رؤساء الموارنة في الولاية على كنائسهم وأوقافهم ، لأنّ البطريرك كان قد شكّا إليه تعدي أسقف الأفقسية بقبرص اللاتيني على أوقاف الموارنة .

وكان البطريرك قد سلّم إلى القسّ جرجس المذكور أوراقاً مّهورة بختمه دون كتابة شيء عليها ، حتى إذا دعت الحاجة يكتب عليها ما شاء . فكتب على إحدى هذه الأوراق عريضة إلى قداسته يلتمس منه أن يرقي القسّ جرجس إلى أسقفية دمشق ، ويرسله إلى الجمع التريدينيني لينوب عنه فيه ، فأمر البابا بترقيته اكراماً للبطريرك ، واعتذر له عن ارساله إلى الجمع لأنه لا يعلم اللاتينية وليس ضليعاً بالايطالية كما رأيت آنفاً . ولما بلغ المطران جرجس إلى قبرص تلبث فيها ولم يصل إلى البطريرك . وبلغت هذه الأخبار إلى البطريرك موسى وهو في القدس كما مرّ . فأرسل إليه اعلاماً بربطه عن الإلهيات ، وكتب إلى البابا يشكر له لانعامه بدرع الرئاسة ويخبره بما كان من تزوير قاصده .

وفي سنة ١٥٦٧م كانت وفاة البطريرك موسى في ٩ آذار وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وفي البطريركية اثنان وأربعون سنة وثلاثة أشهر ، ودُفن في مغارة القديسة مارينا كما مرّ .

البطريك ميخائيل الرزي

في اليوم الثاني عشر بعد وفاة البطريك موسى^(١) اجتمع رؤساء الطائفة وأعيانها لانتخاب بطريك، فأجمع رأيهم على انتخاب الحبيس ميخائيل بن يوحنا الرزي من قرية بقوفا، وكان ميخائيل المذكور أولاً رئيساً على دير قزحيا وعلى الحبسة. لكنه رغبة في العزلة عن الناس ترك رئاسة الدير وأقام بمحبسة القديس بيشاي القرية من الدير. ولما انتخب للبطريركية تمتع جداً من قبولها، فألح عليه الأساقفة والأعيان بأن يخضع لمشيئة الله، فقبل البطريركية على كره منه، ثم أرسل أسقفياً يسمى يوليوس لزيارة شعبه بقبرص، وأمره أن يرسل إليه الشماس لوقا من قبرص لعلمه بأنه رجل فصيح خبير بلغات الافرنج. ولما أتى إليه رقاها إلى درجة الكهنوت ومقام البردوط، وأرسله إلى روما مصحوباً برسائل الطاعة وشهادات رؤساء الملة إلى الحبر الروماني طلباً لتثبيته. ومزّ لوقا المذكور بقبرص فوجد العساكر العثمانية محاصرة الجزيرة فاضطر أن يبقى فيها سنة كاملة. وبعد رفع الحصار سافر إلى روما ووقعت شبهة برسالة البطريك لأنها مهمورة بختم جديد وكانت الأفكار متنبهة بسبب التزوير التي كان الخوري جرجس القبرصي قد أقدم عليه قبله. فتوقف تثبيت البطريك. ثم إن الأب ايرونيemos فستاوس رئيس رهبان القديس فرنسيس انقضت مدة رئاسته فمضى يزور البطريك قبل سفره إلى روما فصحبه البطريك بعريضة أخرى إلى البابا يبيّن بها طاعته والتماسه، فقدمها الرئيس إلى قداسته على يد الكردينال كارافا وكيل الموارنة بروما، فشرّ بها الحبر الروماني وحاشيته وهم بتثبيت البطريك واجابة مطالبه فإذا كتابات وردت من قبرص قيل فيها أنّ البطريك الجديد أصله يعقوبي خلافاً لما يقوله عنه ايرونيemos المذكور، فتشوشت الخواطر وأمر البابا الكردينال كارافا أن يستقصي في هذه الأخبار. وكتب البابا والكردينال كارافا

(١) نص الدويهي في تاريخه ان البطريك موسى توفي في التاسع من اذار ثم قال إنه في اليوم الثاني عشر (يفهم منه بعد وفاته) اجتمع رؤساء الملة وانتخبوا البطريك ميخائيل فيكون انتخابه في ٢١ اذار. ونقل عنه لكويان في المشرق المسيحي ان انتخابه كان في ٣١ اذار فلا نعلم هل الخطأ في العدد الأول وصوابه في ١٩ اذار أو في العدد الثاني وصوابه في ٢١ اذار والأظهر انه توفي في ١٩ اذار كما رواه الدويهي في كتابه رد التهم اهـ.

والأب ايرونيوس إلى رئيس القدس الأب فرنسيس أن يمضي عاجلاً إلى لبنان ويفحص جيداً عن البطريرك الجديد وسيرته ومعتقده وأصله ، وأن يطوف في البلاد يستوضح يقظاً صحة الأخبار عن البطريرك وعوائل ملته . وكانت رسالة البابا هذه مؤرخة في ٨ حزيران ١٥٦٩ م .

فسار الأب فرنسيس المذكور عاجلاً إلى لبنان وأطلع البطريرك ميخائيل على الرسائل الواردة له ، فأمر البطريرك في آخر تشرين الثاني من السنة المذكورة باجتماع رؤساء الكهنة وعلماء الأئمة وقصّ عليهم ما ورد عليه من التهم ، فهتف جميعهم من فم واحد أن لا أصل لهذه التهمة الشنعاء وأنّ بطريركهم صحيح المعتقد جليل التقوى والقداسة . وكتب المجتمعون تقريراً ومن وقّعوا عليه رئيس القدس المذكور والاسقف داود الحداثي ، وسركيس الدويهي أسقف اهدن ، وجرجس بن صرواص أسقف بشري ، وسركيس الرزي أسقف عرقا وغيرهم . وأثبتوا بهذا التقرير أنّ البطريرك قويم الايمان حسن السيرة ، حميد الخصال ما زاغ قطّ عن ايمان آبائهم وانهم أكرهوه على قبول البطريركية . ومما كتبه البطريرك عن نفسه : « إن كنت قد غيّرت عادة من عوائد الكرسي الانطاكي فأكون مواخذاً أمام الله والكرسي الرسولي » .

وسبب هذه التهمة أنّ أهل بقوفا قرية هذا البطريرك كان بعضهم وهم سكان الحلة السفلى قد مالوا إلى اليعقوبية باغواء ديسقوروس بن ضو اليعقوبي ، فوثب عليهم أهل اهدن ودكوا منازلهم وطردوهم من البلاد ، وأما بيت الرزي الذين كانوا يسكنون الحلة العليا من القرية فصانوا نفوسهم من الضلال ، لكنهم اضطروا إلى المهاجرة من قريتهم إلى قرية كفرحورا وما برحوا إلى اليوم يحافظون على ايمان آبائهم ، وقام منهم ثلاثة بطاركة دبروا الكرسي الانطاكي نحو إحدى وأربعين سنة . قال الدويهي الذي ننقل هذه الأخبار عن كتابه في رد التهم (فصل ١٦) : « وما زال أعقابهم إلى اليوم حكماً على زاوية رشعين يقومون بمعاودة الكرسي البطريركي بكل جهدهم كما يفعل الآن الشيخ أبو شديد ضاهر خليفة الشدياق انطونيوس بن الرزي » .

ثم إنّ البطريرك ميخائيل أرسل إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر المطران جرجس البسلوقيتي والخورى اقليمس الأهدني مصحوبين برسائل منه ومن رؤساء

الأمة يؤدون بها فروض الطاعة ويلتمسون درع الرئاسة للبطيريك . ولما اطلع البابا على الرسائل شتر بها وأرسل إلى البطيريك رسالة مؤرخة في ١٤ شباط سنة ١٥٧٧م سنذكر ملخصها ، وأرسل مع القاصدين إلى البطيريك الأب جوان باطيسا (يوحنا المعمدان) اليان والأب توماراديوس من اليسوعيين وأمرهما أن يفحصا عن ايمان الموارنة وطاعتهم وكتبهم وعوائدهم ، وأرسل معهما للبطيريك عدة كاملة للتقديس ، ورسالة يوصيه بها بالأبوين المذكورين . ولما بلغا مع القاصدين البطيريكين إلى قنوين ، رحب البطيريك بهم وأمر باجتماع الأساقفة ورؤساء الأديار وأعيان الشعب ، فأقرّ أمأهم بأنه ماروني ابن ماروني متشبه بالخضوع لصاحب الكرسي الروماني ، وأقسم على أنه يقبل كل ما يقبله ويرذل كل ما يرذله . ثم كتب ذلك في صفيحة وطواها وقال ها هو اعتقادي، عليه أحيا وعليه أموت .

ثم استأذن جوان باطيسا البطيريك أن يطوف ببلاد الموارنة ويطلع على كتبهم وعوائدهم ، وكان يعلم العربية ويحسن قراءة الخط الكرشوني فشرّ البطيريك بذلك ، وكتب رسالة بخط يده إلى الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان ليحسنوا ملتقاه واکرامه ويطلعوه على كل ما يحب من الكتب ، وأمر أخاه المطران سركيس والقس جرجس يونان من ايليچ أن يرافقه ، واستمر نحو سنة يجول في الأديار ويتفقد الكنائس ويطلع على الكتب . وصنع لنفسه ثلاثة دفاتر يكتب في الأول ما يراه من الغلط ، وفي الثاني ما يلزم استشارة البابا فيه ، وفي الثالث ما يلزم الكهنة والعامّة التنبيه إلى حفظه . وبينما كان الناس يتوقعون انعقاد مجمع طائفي وفد أمر من رئيس اليسوعيين يطلب به عود جوان باطيسا إلى روما ، فودّع البطيريك في ٢٥ من شباط سنة ١٥٧٩م وسافر ، وأرسل البطيريك معه عريضة للبابا ورسالة إلى الكردينال كارافا ، وبعث معه شائين وهما جبرائيل الأذنتي وكسبر القبرصي ليقتبسا العلوم برومة .

وقد حفظ لنا مرهج بن نيرون الباني في كتابه في اسم الموارنة وأصلهم ودينهم فقرة من رسالة من هذا البطيريك إلى الكردينال كارافا مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٥٧٨م في شأن بعض العبارات التي أدخلها الهرطقة على كتبنا . ومما قاله « قد يمكن أن يكتب إليكم أحد أنّ في كتبنا كلمات تخالف معتقد الكنيسة المقدّسة فثّق أخي أننا لا نقبل إلّا ما تقبله الكنيسة المقدّسة ، وإن كان في بعض النسخ شيء يخالف ذلك ، فقد أدخله الهرطقة المحدثون بنا على تلك الكتب من زمان

طويل . فدع كل ربية وشبهة باستقامة ايماننا فنحن مؤسسون من أقدم الأيام على صخرة ايمان الكنيسة المقدسة الرسولية الرومانية ، وقد تشبثنا به دائماً ولا نكلمكم بفمنا فقط بل بالقم والقلب معاً والله شاهد على ذلك .

وأما جوان باطيسا فلما بلغ إلى روما مثل بحضرة البابا ودفع إليه رسالة البطريرك وأخبره عن أحواله وأحوال ملته مثنياً على طاعتهم للكرسي الرسولي وصحة ايمانهم وتقواهم . ثم قال إنه بسبب اختلاطهم بأهل البدع اندس في كتبهم بعض أغلاط واستطرقوا بعض عوائد غير حميدة . وسأل قداسته أن ينشيء لهم مدرسة في روما يتهدّب بها شبانهم المرشحون للدرجات الكهنوتية . فابتهج البابا بما سمعه منه وشكر الله على أنه حفظ في الايمان الكاثوليكي شعباً بعيداً بعداً شاسعاً عن روما . وفي أول سنة ١٥٨٠م أمر جوان باطيسا أن يعود إلى لبنان ومعه الأب جوان بردن من اليسوعيين أيضاً ، وأرسل للبطريرك معهما براءة التثبيت ودرع الرئاسة وكأساً وحللاً كهنوتية وآنية للميرون وقوالب للبرشان وصوراً ومسابح ورسالة للبطريرك يخوّله بها لبس درع الرئاسة ، ورسالة أخرى إلى الأسقف سركيس والأسقف داود ليتوليا تلييسه الدرع والشهادة على ابرازه بيمين الطاعة . والرسالتان بتاريخ ١٢ آذار ١٥٨٠م . وفي عيد انتقال السيدة لبس البطريرك الدرع وحلف بيمين الطاعة على موجب الصورة المرسومة في المجمع التريدينيني . وعُقد بعد ذلك المجمع الطائفي الذي سنفرد له فصلاً مخصصاً .

أما الرسالة التي أنفذها إليه البابا غريغوريوس الثالث عشر مع قاصديه والأب جوان باطيسا فهي المثبتة ترجمتها في الفصل الحادي عشر من ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً صفحة ٣٢ وخلاصة ما قال فيها : « قد بلغنا أنّ قميص الرب غير المخيط الذي حاول أعداء الكنيسة أن يشقوه ما زال محفوظاً على سلامته عند أبناء الروح الذين على بعد رجائهم ثبتوا غير متزعزعين في وحدة الكنيسة الرومانية كما عرفنا مؤخراً من فحوى رسالتك المكتوبة بخط يدك المرفوعة إلينا على يد الأخ المحترم والأسقف جرجس والابن الحبيب الخوري اقليمس اللذين أوفدتهما إلينا ، فنحن نسدي الحمد لله الذي عزانا بايمانك ونقبل بعاطفة الحبة الأبوية الطاعة التي أدبتموها . ونثني كثيراً على اخلاصكم ونصرّح بأننا قد اتخذناك أنت وجميع الموارنة تحت عهدتنا وحماية السدة الرسولية جرياً على آثار سلفائنا الأبحار الرومانيين . ونبذل لكم كل ما تفتقرون إليه من المساعدات وإذا كنتم في التماس

خلاص نفوسكم لم تزالوا بحول الله حافظين وديعة الايمان ، فرغبة في مزيد نموكم في سبيل الخلاص والعمل بوصايا الله والكنيسة وحفظ تقليداتها رأينا من الواجب أن نحثكم بالنصائح الأبوية على الاجتهاد في أن ترعوا سالماً ما عهده إليكم سلفاؤنا ولا سيما اينوشنسيوس الثالث ، واوجان الرابع ، ولاون العاشر فإننا اقتداءً بهم ننبهكم إلى بعض أمور أدخلتموها عندكم على ما علمنا من خطأ منها ، على ما بلغنا أنكم في ذبيحة القدّاس تزيدون على التقديسات الثلاثية يا من وُلدت لأجلنا يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا وهي تعزى إلى الثالوث كله ، لذلك نحكم بوجوب حذف تلك الزيادة ، ونأمر أنّ الميرون المقدّس يكون من زيت الزيتون والبلسم الصرف دون أن يُخلط بمادة أخرى ، وأن يكون تكريسه يوم خميس الأسرار وأن لا يُسمح بتوزيع سر الثبیت إلاّ للأساقفة . وإنه يلزم مناولة الأطفال سرّ القربان المقدّس ولا يُخفى على درايتك أنّ نصّ الشرع صريح بأنّ درجات القربة الدموية والإلهية التي يُحرم معها عقد الزواج لا تتعدى الدرجة الرابعة . فهذا خلاصة ما جاء في هذه البراءة .

على أن زيادة يا من صُلبت لأجلنا على التقديسات كانت من عادة الكنيسة الانطاكية ، متى وجهت هذه الزيادة إلى ابن الله المتجسد لا إذا وُجّهت إلى الثالوث . وكذا نصّ على هذه الزيادة القديس يوحنا مارون في شرحه رتبة القداس ، ولذلك استمرت ملتنا تستعمل هذه الزيادة بالمعنى المذكور مقصوداً بها أنّ الله المتجسد . ومن أقدم الأيام اعتاد بعض أهل بطريركية انطاكية أن يزيدوا في آخر التقديسات عند توجهها إلى المسيح ، أيها المسيح الذي صُلبت لأجلنا أو الذي قمت من بين الأموات ارحمنا كما نفعل نحن الآن . وكذلك كان الموارنة كباقي الشرقيين يضيفون في زيت الميرون البلسم وعقاقير أخرى ، فبعد هذه البراءة عدلوا عن أن يضيفوا في الزيت إلاّ البلسم ، وكذلك كان كهنتنا يوزعون سر الثبیت كما يصنع باقي الشرقيين إلى اليوم ، إذ يمنحون هذا السر مع سر المعمودية ، وحُفظ بعد هذه البراءة توزيعه للأساقفة وحدهم ، إلاّ أن يرخص البطريرك لأحد الكهنة بتوزيعه كما نصّ مجمعا اللبثاني . وكان كهنتنا أيضاً يناولون الأطفال كباقي الشرقيين ، فامتنع بعدئذٍ هذا الأمر عندنا . ويظهر أنّ درجات القربة المحرمة الزواج كانت تتصل إلى الدرجة الخامسة كما هي اليوم عند الروم فاقصر بعد هذه البراءة على الدرجة الرابعة .

ومن الأحداث التي كانت في أيام البطريك ميخائيل أنّ المطران داود الذي كان متوكلاً على دير قزحيا انتقل مع الخوري مارون القبرصي والقس يعقوب بن حويص الحاقلي إلى دير حوقا، وهناك رقى دون مشورة البطريك إلى درجة الأسقفية القس يعقوب المذكور واستحضر الحبيس يونان وأخاه القس يوسف ابني جلوان من سمر جبيل راهبي دير قزحيا فرقاها أيضاً إلى الأسقفية، فلما علم البطريك بذلك ربط الحبيس يونان وأخاه وأمر الحاكم بخروجهما من دير قزحيا، وأخذ الحبيس يونان إلى محبسة القديس سمعان بالفرايس، وأخوه القس يوسف سار إلى سمر جبيل قريته. وبعد ثلاثة أشهر نزل المقدم مقلد والشدياق خاطر الحصري وأعيان البلاد فاسترضوا البطريك عنهم وباركهم وأذنهم بالعود إلى دير قزحيا.

وانتقل البطريك ميخائيل من هذه الدنيا إلى راحة الأبرار في ٢١ ايلول سنة ١٥٨١م وقد استمر بالبطريكية أربع عشرة سنة وخمسة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. ووصفه الدويهي بأنه كان فصيح القلم حسن الخط لئن العريكة كثير المبرّات.

عد ٩٨٢

البطريك سركيس الرزي

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريك ميخائيل، اجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان فانتخبوا أخاه المطران سركيس الرزي إلى البطريكية بحضرة قاصدي البابا جوان باطيسا وجوان برون. ورفع البطريك والأساقفة العريضة إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، ورسالة إلى الكردينال كارافا وكيل الملة. وكلفوا الأب جوان برون أن يتوجه بها إلى رومية لطلب التثبيت ودرع الرئاسة للبطريك الجديد. فسار الأب جوان وأخذ معه أربعة شبان لاقتباس العلوم بروما: وهم الأول يوحنا بن يعقوب الحصري وهذا بعد عودته في سنة ١٥٩٠م لبس اسكيم القديس عبد الأحد ثم صار أسقفًا، والثاني مرقس بن اسطفان المطوشي القبرصي، والثالث يعقوب بن سمعان الحصري، والرابع انطونيوس الحصري. ولما انتهى الأب جوان إلى أم المدائن قدّم عرائض البطريك والأساقفة والأعيان إلى الحبر الأعظم فشّر

قداسته وأرسل إلى البطريرك براءة تثبيته ودرع الرئاسة، ورسالة إلى أسقف طرابلس ليلبسه الدرع ويقبل منه يمين الطاعة. وتاريخ هذه البراءة الخامس من آذار سنة ١٥٨٢م.

وبعد أن لبس البطريرك درع الرئاسة رفع عريضة الشكر للحبر الروماني مع القسّ يوحنا أيوب الحصري والقسّ يعقوب الدويهي والشماس ابراهيم الادنيتي، وأرسل عشرة شبان لاقتباس العلوم منهم جرجس بن عميرة الأهدني الذي صار بعداً أسقفاً على اهدن ثم بطريركاً، وسركيس بن موسى أخو البطريرك الذي صار بعداً أسقفاً على دمشق، وموسى العنيسي من العاقورة وصار أسقفاً على الأقسية، ويطرس بن جبرائيل المطوشي ودخل بعداً شركة اليسوعيين. ثم أرسل البطريرك في السنة التالية أربعة شبان من موارنة حلب حتى صار عدد تلاميذ الموارنة بروما نحو عشرين تلميذاً، فحينئذ أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسة خاصة للموارنة سنة ١٥٨٤م قال عند افتتاحها: «لأن الموارنة سكان لبنان هم مستمرّون من أعصار كثيرة على الايمان الكاثوليكي والخضوع والطاعة للكنيسة الرومانية دون سائر الطوائف الشرقية غير المؤمنة وغير المتحدة». وأمر البابا بنقل الشبان الموارنة إلى مدرستهم. وكانت النفقة عليهم أولاً من مال قداسته، ولما رقد بالرب سنة ١٥٨٥م وخلفه البابا سيستوس الخامس ولم يكن أقل محبة للموارنة رتب لهذه المدرسة دخلاً يقيم بأود خمسة عشر تلميذاً، ثم توفي الكردينال كارافا وكيل الموارنة سنة ١٥٩١م فوقف قبل وفاته تركته على مدرسة الموارنة وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال رحمه الله وأجزل أجره، فأجّدت هذه المدرسة على الموارنة بل على الكنيسة كلها بفوائد دينية وعلمية لا تقدّر. فإنه قام من تلاميذها بطاركة وأساقفة كثيرون ونبيغ منهم جهابذة طبق ذكرهم الخافقين فأثاروا المغرب بتواريخ المشرق وكانت كتبهم وما برحت كمرقاة للعلوم ومشكاة يُستنار بنورها في أمور المشرق. وسنأتي على ذكر كثيرين منهم وعلى ذكر تأليفهم الغراء.

ولما ارتقى البابا اكليمنضوس الثامن إلى الحبرية العظمى رقى البطريرك سركيس ابن أخيه إلى الأسقفية. وأرسله سنة ١٥٩٥م لتبشئة البابا واداء الطاعة له، فقبله البابا أحسن قبول. ولما هم بالعود أرسل البابا معه ايرونيموس دنديني وغايوس برون اليسوعي وأرسل معهما للبطريرك عدة كاملة للتقدّيس وأمرهما أن يفحصا عن أمور الطائفة وعوائدها، وكان وصولهم جميعاً في شهر آب سنة ١٥٩٦م. وبلغ

البطريك أنه شاع في المغرب أنّ الموارنة كانوا ضالين وأنّ الأب جوان باطيسا هداهم في مجمع عقده في أيام البطريك ميخائيل فتولاه غيظ شديد ، فدعا في الثاني من ايلول الأساقفة والرؤساء والأعيان وعقد مجمعا تلا فيه رسالة البابا . أمام الأب دنديني عن طائفته ، ومما قاله إنه هو كان يقدم الكتب للأب باطيسا عند تطوافه في جبل لبنان وكان يترجمها له ، وأنّ تلك الكتب لم تزل موجودة عند أصحابها ومرسومة بخطه باللاتيني . وأحضرت حينئذ تلك الكتب فظهر أنّ الأغلاط التي أشار إليها باطيسا لم تكن بكتب الموارنة بل بكتب اليعاقبة . ويّين البطريك صحة ايمان الموارنة في كتبهم حتى تعجب الأب دنديني وأقرّ أنّ ما اتهم به قصاد الباباوات الموارنة هو تحجّ عليهم كما هو مدوّن في كتاب بعثته إلى لبنان . وكان عقد المجمع المذكور في ١٨ ايلول سنة ١٥٩٦م بحضرة الأب ايرونيوس دنديني اليسوعي المرسل من لدن البابا اكليمنضوس الثامن ، وسنفرّد للكلام فيه فصلا مخصوماً . ثم توفي البطريك سركيس الرّزي في السابع والعشرين من شهر ايلول تلك السنة بعيد انحلال المجمع بعد أن دبر البطريكية ست عشرة سنة .

عد ٩٨٣

البطريك يوسف الرزي

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريك سركيس الرزي اجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان ، وانتخبوا خلفاً له المطران يوسف ابن أخيه موسى الرزي ، فأوفد البطريك الجديد سنة ١٥٩٨م الخوري جرجس بن يونان من قرية ايليج ، والشدياق يوسف الياس الحلبي إلى روما لاداء فروض الطاعة للحبر الأعظم ، والتماس التثبيت ودرع الرئاسة فتعطّف عليه البابا اكليمنضوس الثامن بذلك سنة ١٥٩٩م . وفي سنة ١٦٠٣م رقى البطريك القس يوحنا الحصريوني ابن الشدياق حاتم الحوشي إلى الأسقفية ، وكان من تلاميذ مدرسة روما ، وأوفده إلى البابا بولس الخامس ليقدم له فروض الطاعة ، فعاد المطران يوحنا من سفره في سنة ١٦٠٦م ، وكان البابا قد أوعز إليه أن يتبع الموارنة الحساب الغريغورياني الجديد . فأمر البطريك باتباع هذا الحساب فعيد الموارنة بطرابلس وجبة بشري والبترون وجبيل عيد الرسل مع الافرنج قبل الطوائف الشرقية بعشرة أيام ، ثم اتبع باقي الموارنة هذا الحساب في دمشق وحلب

وسائر المدن والقرى إلا موارنة قبرص فاستمروا مدة على الحساب القديم وحينئذ ترك الموارنة أيضاً حساب سني اسكندر الذي كانوا يؤرخون به فصاروا يؤرخون بحساب سني ميلاد المخلص.

وكان للبطريرك يوسف صداقة وانتماء إلى يوسف باشا بن سيف، فساعده كثيراً في تدبير طائفته وردّ إلى الطاعة من كان يخالفه من شعبه. وهو الذي أقام الجسر الذي على نهر اهدن بين عنطورين وكفر سغاب. وبنى دير القديس دوميط بأرض داريا وأنفق على ذلك نفقات ضخمة. وأراد حسام الدين أحد خدام يوسف باشا أن يتزوج بامرأة لا يحلّ له الزواج بها، فنهاء البطريرك فلم ينته فطعنه بالحرم فمات بغتة. ولرغبته في اتحاد طائفته بالكنيسة الرومانية والسلوك على آثارها في كل شيء أباح الأساقفة أكل اللحم وأباح العامة أكل السمك وشرب الخمر في الصوم الكبير، وأبطل سبت نينوى وهي أسبوع كانوا يكثر فيه التقشفات والصلوات، وأوجز مدة الانقطاع عن أكل اللحم قبل عيد الرسل وقبل عيد الميلاد. على أنّ ذلك لم يرق للبابا بولس الخامس كما يظهر من الرسالة التي أنفذها إلى خليفته البطريرك يوحنا مخلوف في ٦ آذار سنة ١٦١٠م حيث ينقض ما تسامح به البطريرك يوسف المذكور، بناءً على أنّ ذلك من العوائد الحميدة التي إتصلت إليهم من آبائهم الأبرار. على أنّ ما ردّ ما صار التسامح به كان صعباً في أمور مثل هذه فقل من رجع إلى العوائد القديمة.

وكان في أيام هذا البطريرك أناس في العرقيوب يسمون البياضية يعتقدون النصرانية باطناً ويظهرون الاسلام ويعتّمون بعمايم بيضاء كالمسلمين. فدفع البطريرك مبلغاً كبيراً من المال ليوسف باشا ابن سيف والي طرابلس فنال منه منشوراً أباح هؤلاء أن يتظاهروا بالمذهب الذي يؤثرونه دون خوف ولا حرج. فتظاهروا بالنصرانية. وفي سنة ١٦٠٧م أرسل أخاه المطران سركيس إلى البابا بولس الخامس وبعث معه القسّ الياس ابن الحاج حنا والقسّ جرجس مارون من اهدن والشماس يوسف فرحب البابا بهم وأكرم مثواهم، إلا أنّ البطريرك قضى أجله بعد مدة قصيرة، فحزن عليه البابا وحاشيته حزناً شديداً، وكتب رسالة إلى الأساقفة والاكليروس والشعب الماروني يثني بها عليهم لحفظهم دائماً الايمان الكاثوليكي سالماً ويعزيهم بوفاة هذا البطريرك ويطنب في الثناء عليه ويأمر بأن يكثروا من الأعمال الصالحة لراحة نفسه. وهذه الرسالة مؤرخة في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م

وتجدها برمتها في الفصل ١٨ من ردّ التهم للدويهي . ورجع القسّ الياس والقسّ جرجس بهذه الرسالة إلى لبنان وأمر البابا المطران سركيس أن يبقى بروما للعناية بطبع بعض الكتب اللازمة للطائفة وبقضاء بعض حاجاتها . وكانت وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨م وله في البطريركية إحدى عشرة سنة .

عد ٩٨٤

المجمع الطائفي الذي عُقد في أيام البطريرك ميخائيل الرزي

سنة ١٥٨٠م

لم يذكر العلامة الدويهي هذا المجمع بل قال في الفصل ١٦ من رد التهم أنّ الناس كانوا يتوقعون عقده سنة ١٥٧٩م، ولكن ورد أمر من رئيس اليسوعيين إلى الأب جوان باطيسا ليرجع إلى روما، فرجع إليها ثم عاد إلى لبنان سنة ١٥٨٠م. بل ورد في الفصل ١٧ من رد التهم أنّ البطريرك سركيس الرزي أخا البطريرك ميخائيل كان يحتج أمام الأب ايرونيμος دنديني سنة ١٥٩٦م أنّ أخاه البطريرك ميخائيل لم يعقد مجمعاً . فلا نعلم أفات الدويهي العلم بهذا المجمع أم أدخلت يد غير يده على كتابة العبارة السابق ذكرها أنّ البطريرك ميخائيل لم يعقد مجمعاً لأننا وجدنا المطران اسطفانوس عواد السمعاني ذكر في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ١١٧) نسخة من أعمال هذا المجمع . وكنا قد ترجمنا كلام المطران اسطفان عواد المذكور المشتمل على تلخيص هذه الأعمال وعزمنا أن نرسل نستنسخ أعمال هذا المجمع في المكتبة الماديشية المذكورة ولأعثرنا في المجلد الخامس من مكتبة الناموس للعلامة السمعاني (صفحة ٥٢١) على أعمال هذا المجمع برمتها عن نسخة أصلية فاكتفينا بتلخيصها عنه .

قال العلامة المذكور: «لدي نسخة أصلية باللاتينية والعربية من المجمع الذي عقده ميخائيل الرزي بطريرك الموارنة بدير قنوين في ١٦ آب سنة ١٥٨٠م بحضرة يوحنا باطيسا اليان ويوحنا برون اليسوعيين سفيّري الكرسي الرسولي من قبل البابا غريغوريوس الثالث عشر إلى الموارنة ومذيل بتوقيع البطريرك والأساقفة الآتي

ذكرهم ، وبشهادة يوحنا باطيسا المذكور بأنه ترجم الأعمال العربية إلى اللاتينية في ٢٠ ايلول سنة ١٥٨٠م ، والنسخة العربية كتبها الخوري يوحنا الحصري ، وقال إنه نسخها بأمر آباء المجمع والقاصدين الرسولين .

وفاتحة هذا المجمع أنه لما كان هذا المجمع المقدس اجتمع للمحافظة على الايمان الكاثوليكي وكان هذا الايمان متضمناً في الأسفار المقدسة والتقليدات الإلهية والجامع المقبولة من الكنيسة ، فلماذا يثبت هذا المجمع ويقبل ويكرم أسفار العهدين العتيق والجديد كما ذكرتها المجمع المقدسة ولا سيما المجمع التريدينيني . ويحترم التقليدات الملاحظة الايمان والآداب ويجلّ المجمع وجميع الآباء الذين تقبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية شهادتهم . ويشتمل هذا المجمع على عشرة عنوانات أو فصول .

العنوان الأول في الايمان الارثوذكسي ويشتمل على سبعة قوانين أولها ما تقدّم ذكره في الفاتحة ، يليه الاعتراف بوحداية الله : تثليث أقانيمه وانبثاق الروح القدس من الآب والابن . وإنّ في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ومشيعتين وفعلين . ثم تحريم زيادة يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا موجهة إلى الأقانيم الثلاثة ولزوم الاعتقاد بالمطهر . وإنّ الله يدين بعد الممات كل انسان كأعماله فيحصل الأبرار على السعادة والأشرار على العذاب في الحجيم بعد الموت حالاً .

العنوان الثاني في الأسرار بالعموم وفيه ثلاثة قوانين . إنّ أسرار الشريعة الجديدة سبعة وإنها تكتمل بالأشياء كأنها مادة وبالألفاظ كأنها صورة وبشخص الخادم الفاعل بنية ما تفعله الكنيسة ، وإنّ المعمودية والتثبيت والدرجة تجعل في النفس وسماً لا يمحي فلا تعاد .

العنوان الثالث في المعمودية وفيه ثمانية قوانين تبين فيها ضرورتها للخلاص مادتها وصورتها وخادما ومفعولها ، وإنّ كل كنيسة تحفظ عاداتها في التعميد بالتغطيس أو السكب ، وإنّ القرابة الروحية تكون بين القابلين والمعمد وأبيه وأمه وبين المعمد والمعمد وأبيه وأمه . وإنّ الولد إذا حملته أمه قبل طهرها لا يكتسب نجاسة سواء كان قبل العماد أو بعده .

العنوان الرابع في سر التثبيت وفيه أربعة قوانين تبين فيها أنّ مادة هذا السر هي البلسم مع الزيت المبارك وصورته وكونه غير المعمودية وكون خادمه هو الأسقف

ومفعولاته تقوية الروح القدس للمثبت في الحرب الروحية، وإن الأولى في تثبيت الأولاد الانتظار إلى السنة السابعة من عمرهم.

العنوان الخامس في سر الأوخاريسيا وفي ثلاثة قوانين تبين فيها أن مادة هذا السر الخبز القمحي وخمر الكرمة المزوج بقليل من الماء، وإن صورته كلمات المسيح هذا هو جسدي الخ. وإن الخبز والخمر يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه ويكون تحت كل من الشككين كاملاً. وإن مناولة الأطفال ليست ضرورية للخلاص وإنه يلزم إزالة العادة بمناولة الأطفال تبعاً للكنيسة الرومانية.

العنوان السادس في سر التوبة وفيه ثلاثة قوانين تبين بها أن مادة هذا السر أعمال التائب وصورته قول الكاهن أنا أحلك وخادمه الكاهن الحائز على سلطة الحل.

العنوان السابع في سر المسحة الأخيرة وفيه قانونان تبين بهما أن مادته هي زيت الزيتون المبارك من الأسقف وإنه لا يُعطى إلا للمريض الذي يُختسى موته، وإنه يلزم دهن عينيه وأذنيه ومنخره وشفتيه ويديه ورجليه وصلب ظهره، وإن صورته هي الألفاظ التي يتلوها الكاهن عند دهنه كل عضو من أعضائه المذكورة.

العنوان الثامن في سر الدرجة وفيه ثلاثة قوانين تبين فيها أن مادته تسليم الشيء الذي تكمل فيه الدرجة مثلاً في الكاهن تسليمه الكأس مع الماء والخمر والصينية، وفي الشمامسة تسليم الأناجيل، وفي الشدايقة تسليم الكأس فارغاً وآنيته الخمر والماء وكتاب الرسائل، وفي الشمعدانية تسليم الشمعدان واطفاء الشمعة، وفي المقسمين كتاب التقسيم، وفي القارئ كتاب القراءات، وفي البواب تسليم مفاتيح الكنيسة. وإن صورة هذا السر هي الألفاظ المعينة في كتاب الرسامات مع وضع يد الأسقف. وإن خادم هذا السر هو الأسقف.

العنوان التاسع في سر الزيجة وفيه خمسة قوانين تبين فيها أن العلة الفاعلة في الزواج هي الرضى المتبادل المصرح به بالألفاظ عن الزمان الحاضر، وإن الزيجة غير منحلة وإن أمكن الافتراق نظراً إلى الفراش، وإن الزواج المعقود شرعياً هو صحيح ولو كان دون رضى الوالدين. وإن الزواج مرات جائز إذا لم يضاد ذلك مانع آخر، وإنه يسوغ الزواج بين أخين وأختين وزواج الأب بالأم وزواج الابن مع بنتها لأن مانع الأهلية لا يكون بين أقرباء المتعاقدين بل بين كل منهما وأقرباء الآخر.

العنوان العاشر في التهذيب يشتمل على اثني عشر قانوناً تبين بها أن من نال درجة مقدسة بالرشوة يُمنع من الشركة هو ومن رقاها إليها . وإن من نال درجة أو مقاماً بحيلة أو تزوير لزم عزله واقصاؤه عن الشركة ، وإن من حاز درجة من غير أسقفه يُمنع من رقاها عن ترقية غيره مدة سنة ويربط من ترقى عن مباشرة درجته إلى أن يحسن لأسقفه أن يحله وأن يمنع من الدرجات من لم يقبل سر التثبيت أو لا يعلم مبادئ الايمان والقراءة والكتابة، وأن يجري الفحص على المتدرجين وينالوا الشهادة ، وأن لا يرقى أحد من الشدايقة قبل الثانية والعشرين من عمره . ولا إلى الشمامسة قبل الثالثة والعشرين . ولا إلى الكهنوت قبل الخامسة والعشرين وقبل أن يبرز أمام الأسقف اعترافه بالايمان الكاثوليكي . وأنه يلزم من قبل الدرجات المقدسة أن يتلو الفرض المعتاد أو صلوات غيره تؤلف بصورة عامة من البطريرك أو بأمره . وأنه يلزم أن يكون رعاة في كل قرية أو خورنية ، وأنه يلزم البطريرك والأساقفة أن يزوروا رعاياهم بأنفسهم أو وكيلهم العام أقله كل سنتين مرة . وأنه يلزم عقد مجامع اقليمية أقله كل ثلاث سنين مرة . وأنه يلزم الكهنة أن يعلموا الأحداث التعليم المسيحي أقله في أيام الآحاد والأعياد . وأن لا يقتنى أحد كتباً موضوعها الأشياء المقدسة ما لم تكن تلك الكتب مفحوصة ومثبتة من السيد البطريرك أو من أشخاص يعيّنهم لذلك ، وذلك تحت طائلة الحرم ، وكذلك يحظر على كل أحد أن يكتب كتباً تتعلق بالأشياء المقدسة أو يبيعها ما لم تكن مثبتة من الأساقفة . والقانون الأخير من هذه القوانين قيل فيه : « لما كان الحبر الروماني خليفة بطرس السليح رئيس الرسل ونائب المسيح ورئيس الكنيسة كلها وقد حاز بشخص بطرس الأمر أن يرعى ويدبر الكنيسة كلها وسلمت إليه السلطة المطلقة كما تبين في المجامع المقدسة والعامة ، فنحن في هذا المجمع المقدس نأمر بأنه كلما أنتخب حبر روماني جديد يعيّن الاكليروس الماروني واحداً أو أكثر منهم ليذهب باسم جميعهم ليقدم الطاعة والاحترام للحبر الروماني واعداً بأن كنيسةنا هذه تبقى دائماً على هذه العادة كلما انتخب بطريرك للموارنة يتوجه بنفسه أو يرسل غيره ليستمد له تثبيت انتخابه كما جرى من أقدم الأيام إلى الآن .

ويلي ذلك توقيع الآباء الذين شهدوا هذا المجمع هكذا : « أنا ميخائيل بطريرك الموارنة الانطاكي . أنا يوحنا المعمدان اليان اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي . أنا يوحنا برون اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي . أنا سركيس من كفرحورا أسقف

ورئيس دير قزحيا. أنا يوحنا رئيس أساقفة اهدن. أنا جرجس رئيس أساقفة دمشق. أنا اقليموس من اهدن معاون البطريرك الانطاكي. أنا داود أسقف العاقورة. أنا يوسف رئيس أساقفة قبرص».

عد ٩٨٥

المجمع الطائفي الذي عقده البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦م

إنّ الأب جوان باطيسا المذكور كان عند تطوافه بلبنان ومطالعة بعض كتب بيعية قد جمع بعض أغلاط عزاها إلى الموارنة، وكان غيره أيضاً قد عزا إليهم أغلاطاً أخرى، فعقد بسبب ذلك مجمع البطريرك ميخائيل المذكور، فكثرت الأقوال في أوروبا أنّ الموارنة كانوا ضالين فهداهم جوان باطيسا، فلم يتحمل البطريرك سركيس هذه الثقولات على ما يظهر، وسأل البابا أن يوفد إليه قاصداً ليوضح له بطلان هذه التهم، فأوفد إليه البابا اقليموس الثامن الأب ايرونيوس دنديني اليسوعي ليفحص عن هذه الأمور في مجمع يعقده البطريرك وأساقفته بحضرته. ومذ الثاني من أيلول سنة ١٥٩٦م أمر البطريرك الأساقفة ورؤساء الأديار وعلية الكهنة والأعيان أن يجتمعوا لديه، فحضر لديه كل من لم يحل مانع شرعي دون حضوره، وكان في جملة الحاضرين من الأساقفة والأعيان يوسف رئيس دير قزحيا ويوسف رئيس دير القديس انطونيوس بالفراديس وموسى من بشري والشدياق يوسف خاطر من حصرون والشدياق فرج من حدشيت وكثير من الكهنة. وبعد اجتماعهم وبعد المفاوضات الابتدائية عُقد المجمع في ١٨ ايلول من السنة المذكورة بحضرة الأب ايرونيوس دنديني اليسوعي قاصد الحبر الروماني.

وترى أعمال هذا المجمع مثبتة في ذيل كتاب المجمع اللبناني المطبوع حديثاً (صفحة ٩) وخلاصتها: «إنّ الأغلاط التي كانت تعزى إلى الطائفة هي أنّ في المسيح طبعاً واحداً ومشية واحدة وفعلاً واحداً، وإنّ الروح القدس ينبثق من الأب وحده، وإنّ التقديسات الثلاث تدل على صلب الثالث بجملته وإنّ لا وجود للمطهر ولا للخطيئة الأصلية، وإنّ النفوس لا تنال ثواباً أو عقاباً قبل الدينونة الأخيرة، وإنه يجوز انكار الايمان ظاهراً. وإنّ سر التثبيت لا يمتاز عن المعمودية

ولأنه يلزم خلط الميرون بغير البلسم أيضاً ولأنه يلزم التقديس على الخمير ، وإن المسحة تكون بالزيت الذي يباركه الكاهن لا الذي يباركه الأسقف ، وإن طلاق الزوجة لعلّة الزنى أو المرض جائز ، وإن صوّر الأسرار ناقصة وإنها ابتهالية » فهذه هي الأغلاط التي كانت معزوة إلى الطائفة وجرى البحث عنها ، وأورد كل من المجتمعين رأيه فيها .

فكانت آراؤهم مجمعة على ما يخالفها أي أنّ في المسيح أقنوماً واحداً لإلهياً ، وطبعين إلهياً وبشرياً ومشيتين وفعلين ، وإنّ الروح القدس ينبثق من الآب والابن وإنّ التقديسات ترد في كتبهم إما مسندة إلى الثالوث الأقدس فلا يزداد عليها شيء وإما مسندة إلى الأقنوم الثاني وحده . وحيث يزداد عليها ذكر الميلاد والصلب باعتبار الجسد ، وإنّ المطهر موجود . ولذلك تصنع الحسنات والصلوات والقداسات عن نفوس الموتى وإنّ الخطيئة الأصلية لاحقة بجميع الناس وإنّ النفوس متى خرجت من أجسادها تثاب أو تعاقب حالاً ، إلا إذا كانت لم تستم التكفير عن ذنوبها في هذه الحياة فتسجن بالمطهر إلى تمام تبريرها . وإنّ جحد الإيمان محرم وإنّ ظاهراً وإنّ سر التثبيت قائم بنفسه وهو غير سر المعمودية ، وإنّ سر الميرون لا ينبغي أن يداف به إلا البلسم ، وإنّ عاداتهم المستمرة إنما هي التقديس على الخبز فطيراً ، وإنّ مسحة المدنفين يلزم أن تكون بالزيت المكرّس من الأسقف يوم خميس الأسرار ، وإنّ الطلاق محظور حتماً وإن جاز لدواعٍ الهجر والامتناع عن المساكنة الزوجية ، وإنّ صوّر الأسرار عندهم لا تختلف عن صوورها عند اللاتينيين . وأطلعوا الأب دنديني على كثير من كتبهم المثبتة ما أجمعوا عليه بحضرته وشهد هو أنه لم يعثر فيها على ما يخالف ذلك .

ثم تذكروا في بعض العادات الدميّة التي طرأت في بعض الجهات إما الجهل الكهنه وإما للاختلاط ببعض المشاقي أو ذوي البدعة ، وسنوا القوانين التابعة القانون (١) لا يؤجل التعميد أكثر من عشرة أو اثني عشر يوماً ، وعلى الكاهن أن يدوّن أسماء المعمدين وعرايهم . (٢) يلزم الأساقفة أن يوزعوا سر التثبيت كل سنة في أبرشياتهم . (٣) يلزم اتخاذ عراب للمبشرين . (٤) يلزم أن يرعى ما فُرض في المجمع التريدينيني في صدد القرابة الروحية الناشئة عن سري المعمودية والتثبيت . (٥) يتحتم على من يرعون الشعب أن يكونوا ممتازين بالعلم ، ويلزم تلاوة الفتاوى الدميّة أيام الآحاد في الكنائس الكبيرة ، ويكلف الكهنة الجاورون الحضور إليها .

(٦) أن تعيّن محفوظات للأساقفة والبطريرك ولا يحل منها غيرهم . (٧) يلزم حظر مناولة الأطفال قبل ادراكهم الرشد . (٨) يتحتم على الكهنة أن يستعملوا كتاب القداس المطبوع بروما ولا يستعملوا غيره إلا بعد عرضه على البطريرك . (٩) يلزم منع الكهنة من أن يقدّسوا حفاة . (١٠) يلزم الكاهن أن تبقى أصابعه متضامة بعد التقديس لا تلمس شيئاً آخر . (١١) ينبغي على الكاهن أن يناول المؤمنين الجسد والدم . (١٢) يلزم أن تكون الآنية التي يُحفظ بها القربان من فضة أو ذهب ولا أقلّ من أن تكون نحاساً أو قصديراً لا خشباً . (١٣) يحظر على الفتى الزواج قبل السنة الرابعة عشرة من عمره وعلى الفتاة قبل الثانية عشرة وإن سُمح لهما بعقد الخطبة قبل ذلك . (١٤) يلزم عقد الزيجة بحضرة كاهن الرعية وشهود ويلزم الخوري أن يدوّن أسماء المتعاقدين والشهود وأن ينادي بالزواج ثلاثاً قبل انعقاده . (١٥) يحظر زواج البنات الهرطقة والمشاكين . (١٦) يلزم ادخال العادة القديمة باستعمال الماء المبارك بالكنايس . (١٧) يلزم أن ترعى أيام الأعياد بالقداسة وتشهر الأعياد المتحتم حفظها ويضاف إليها عيد الثالث الأقدس وعيد القربان المقدّس وعيد جميع القديسين . (١٨) ينبغي أن يُستأصل من أذهان النساء لزوم امتناعهن عن الاتيان إلى الكنيسة أيام حيضهن وأربعين يوماً بعد ولادتهن . (١٩) يلزم أن يكون عند البطريرك والأساقفة وسائر ذوي المقامات الشهيرة الكتب المقدّسة . (٢٠) يلزم البحث عن كتب الهرطقة والمشاكين وحفظها عند البطريرك في مكان مغلق ولا يأذن بمطالعتها إلا للعلماء . (٢١) يلزم الأساقفة والكهنة أن يعتنوا باتخاذ كل الوسائل لحفظ هذه القوانين . ثم أعيدت تلاوة كل ما جرى بهذا المجمع فأقرّه المجتمعون والتمسوا تنبيته في لدن الحبر الروماني فوعدهم قاصده بذلك وانفض المجمع في ٢٠ أيلول سنة ١٥٩٦ م .

ولما كان البطريرك الرزي قد توفي بعيد ذلك في ٥ تشرين الأول وانتخب للبطريركية المطران يوسف الرزي وكان رئيس دير قزحيا، لم يكتفِ باثبات هذا المجمع بل زاد عليه القوانين التالية: القانون الأول يلزم جميع الكهنة أن يقدموا ذبيحة القداس وهم متوشحون بملابس التقديس إذ كان بعضهم يقدمها قبل اتشاحه بها وبعضهم بعده . (٢) مضمونه تحريض الكهنة على التبتل عملاً بمشورة الرسول وترك الخيار لهم . (٣) فحواه الحث للأساقفة أن يلبسوا لبس الأساقفة لا لبس الرهبان والأمر لهم أن لا يقيم منهم أكثر من واحد في مكان واحد إلا عند

البطريك . (٤) أن يعيّن واعظون أهل للخطابة ليرشدوا الشعب ولا يُسمح لأحد بذلك إلاّ بأمر البطريك أو الرئيس المحلي . (٥) حظر الاكليريكيين عن اقتضاء الخراج للولاة غير المؤمنين . (٦) منع النساء من الدخول إلى أديار الرهبان إلاّ بإذن البطريك .

وبعد أن عاد الأب دنديني من لبنان ألف كتاباً في بعثته وأوضح في الفصل الثاني والعشرين منه أنّ الموارنة براء من الأغلاط التي عزيت إليهم . وإنّ ما تدوّن في رسائل الأبحار الرومانيين اينوشنسيوس الثالث ولاون العاشر وغريغوريوس الثالث عشر من نسبة هذه الأغلاط إليهم ، إنما هي مبنية على أخبار تلقاها القصاد من مصادر لا يركن إليها ومطالعات لم يميزوا بها بين كتب ملّة وأخرى ، ولا بين الصحيح والخرف . ولما لم يصنع غيري التحري والتحقيق الذي صنّعه أنا انخدعوا ولم يهتدوا إلى الحقيقة ورفعوا التقرير إلى السدّة الرسولية كما خيّل لهم ، أما أنا فتحققت أنّ الأمر ليس كما زعموا لأنني طالعت بنفسي الكتب التي هي كتبهم حقيقة فلم أجد فيها شيئاً يخالف التعليم الكاثوليكي ولكن القصاد الذين كانوا قبلي لم يمعنوا النظر في كتبهم الخاصة ولم يفرقوا بينها وبين كتب اليعاقبة فعزوا إلى الموارنة من البدع ما هم براء منه ، ولذلك لا أتعجب مما كتب في رسائل الأبحار الرومانيين من هذا القبيل . انتهى .

عد ٩٨٦

أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر وأولاً في المطران جبرائيل اللحفدي

روى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٤٧١م أنه في هذه السنة دخل جبرائيل ابن بطرس المعروف بابن القلاعي من لحفد إلى القدس ، ولبس اسكيم القديس فرنسيس فأرسله رؤساؤه إلى روما لاقتباس العلوم ، ثم ذكر في تاريخ سنة ١٤٩٣م أنّ جبرائيل عاد من بلاد الافرنج مع رفيق له وهو القس حنا الماروني ، فانضوى أيضاً إلى رهبانية القديس فرنسيس ، وكانا كلاهما متضلعين بالعلوم مجملين بالغيرة على الدين الكاثوليكي ، فالقس حنا غرق في البحر بينما كان مسافراً إلى القدس وأقام

جبرائيل بلبنان مناضلاً بخطبه ورسائله المقدّم عبد المنعم مقدّم بشري ومرشداً الأميين إلى الايمان القويم . وفي سنة ١٤٩٤ ألف كتاباً يحقق فيه اتحاد الملة المارونية من أقدم الأيام بالكنيسة الرومانية، وسمى كتابه «مارون الطوباوي» ورفع إلى البطريرك سمعان الحديثي وأساقفته وحاشيته وعلماء الملة ليفحصوه ويحجوا به المخالفين، ورقي جبرائيل إلى درجة الكهنوت في رهبانيته سنة ١٤٩٦م، وأقام بدير الصليب في الأفقسية بقبرص .

ولما توفي الأسقف يوسف بقبرص سنة ١٥٠٧م رقاها البطريرك سمعان الحديثي إلى كرسي الأفقسية وأخذ السكنى أولاً في المدينة المذكورة بدير القديسين نهرا وانطونيوس ثم انتقل إلى دير القديس جرجس بطالا فتفانى بالغيرة على رعيته والاجتهاد بنفعها .

وفي سنة ١٥١٦م انتقل هذا المجاهد المتاجر بالوزنات الخمس إلى رحمة ربه لينال الاكليل الذي أهله له أتعابه ومبذاته . قال الدويهي في تاريخ السنة المذكورة يعجز اللسان عن وصف قداسته وعلومه وتفانيه بالغيرة التي سند بها ملته المحقق بها اولو البدع ، ولم ينفعها بحياته فقط بل أفادها بعد وفاته أيضاً بمصنفاته التي نذكر بعضها .

فقد صيّف كتاباً في الناموس البيعي وكتاباً اشتمل على مواظب كثيرة ، وكتاباً في الاعتراف ، وكتاباً في رئاسة الأبحار وأخبارهم ، وكتاباً في ملوك روما ، وكتاباً في معتقد الموارنة واتحادهم دائماً بالكنيسة الرومانية وكتاباً في علم الإلهيات وآخر في الإيمان القويم وأسرار حياة المسيح . وجمع خمس عشرة رسالة منفضة إلى بطاركة الموارنة من الأبحار الرومانيين من اينوشنسيوس الثالث إلى لاون العاشر . وكتب نحواً من خمس مئة رسالة لأبناء ملته لتثيتهم في ايمان القديس مارون والكنيسة الرومانية . ونظم قصائد كثيرة وإن كانت منحطة لغةً فهي كثيرة الفائدة . منها قصائد في سر الثالوث الأقدس وفي التجسد الرباني ، وفي حياة المخلص وفي أحزان أمه عند الصليب وفي طبيعتي المسيح ومشيتيه وأقنومه الواحد ، وفي انبثاق الروح القدس من الآب والابن ، وفي مديح السيدة العذراء ، وفي أخبار الرسل ، وفي قسطنطين الكبير ومبادئ النصرانية ، وفي الجامع الأربعة الأولى العامة ، وفي مدح القديس مارون الانطاكي ، وفي ابراهيم الخليل ، وفي القديس نهرا السمراني ،

وفي القديس جيورجوس الذي استشهد في اللدّ ، وفي القديس سمعان الجبيلي ،
والقديس ريشا الروماني ، والقديس شينا اللص ، والقديسة بربارة البعلبكية ،
وأفروسيينا الاسكندرية وقصيدة في حرب كسروان ، وأخرى في من قصدوا زرع
الزوان بين الموارنة ، ومرتبة لرفيقه القس يوحنا المار ذكره ، وفي راهبة شردت من
ديرها ، وقصيدة في معرفة الأفلاك والأبراج والكواكب الثابتة والمتحركة إلى غير
ذلك من القصائد في العلوم وفي النفس والتوبة والموت وأوجه القرابة في الزواج
وغير ذلك اقتصرنا عن ذكره . وما ذكرناه كافٍ ليفهم القارئ ما أشدّ ما كانت
غيرة الأسقف جبرائيل بن القلاعي . وقال المطران اسطفانوس عواد في فهرست
الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية بعد أن نقل (صفحة ٣٨٦) عن الدويهي ما
رويناه هنا « إنّ مؤلفات ابن القلاعي هذه محفوظة بين الكتب العربية في مكتبة
مدرسة الموارنة بروما ، وفي المكتبة الواتيكانية عد ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٨١
وتحتوي أيضاً غير ما ذكرناه من تأليفه .

عد ٩٨٧

باقي أساقفة الموارنة في هذا القرن

الثاني من أساقفة الموارنة في هذا القرن السادس عشر للحقدي هو قرياقوس
من بيت حبلص من اهدن ، رقاہ البطريك سمعان الحدثي إلى الأسقفية سنة
١٥١٣م بعد وفاة يعقوب مطران اهدن الذي ذكرناه في جملة أساقفة القرن
الخامس عشر . ووصفه الدويهي بأنه كان رجلاً شجاعاً أصيل الرأي حسن التدبير ،
وكان يشغل الحبيس جبرائيل الأهدني بنسخ الكتب البيعية وبعنايته أتلف أهل جبة
بشري الجراد من بلادهم سنة ١٥٢٦م ، ووقوا زروعهم وأشجارهم من مضرته ،
وتوفي سنة ١٥٥٠م .

٣ - الأسقف مارون مطران قبرص رقاہ البطريك سمعان الحدثي إلى أسقفية
قبرص سنة ١٥١٦م خلفاً لجبرائيل بن القلاعي ، وذكره الدويهي في تاريخ السنة
المذكورة .

٤ - الأسقف جبرائيل الأهدني وهو ابن أخي المطران قرياقوس بن حبلص

المر ذكره، روى الدويهي أنه رقي إلى الأسقفية سنة ١٥٢٠م وأنه كان يسكن في قرية زغرتا ولم ينبعثا بسنة وفاته .

٥ - انطونيوس مطران دمشق ذكر الدويهي ترقيته إلى أسقفية دمشق سنة ١٥٢٣م. وقال إنَّ البطريك سمعان الحديثي أرسله لزيارة الموارنة بقرص، فجدد بناء كنيسة القديس جرجس بطالا، وفي سنة ١٥٢٧م أرسله البطريك موسى العكاري إلى روما فوقع بيد اللصوص، ثم استفل نفسه كما مرّ في ترجمة البطريك المذكور، ثم توفي سنة ١٥٢٩م .

٦ - المطران يعقوب بن عزيز الحديثي أنبأنا الدويهي بوفاته في تاريخ سنة ١٥٢٤م ولم نعلم متى كانت ترقيته إلى الأسقفية . وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة أيضاً وفاة المطران جرجس بن صدقني من مزرعة الحدث الذي ذكرناه في جملة أساقفة القرن الخامس عشر . وقال إنه كان باراً فاضلاً قضى أجله في قرية اليموني، وهو زائر للرعية . وبعد أن أقام القداس يوم وفاته علم أنّ أجله قد دنا فاستدعى الكهنة وأمر أن يجنزوه حياً وأن يدفنه في مغارة القديسة مارينا بقنوين . واستراح بالرب بعد جنازه فحملوه ليلاً إلى قنوين ودفنوه حيث أوصى أن يُدفن .

٧ - المطران يوسف من كفر حورا بناحية الزاوية، لم يتحفنا الدويهي إلا بذكر وفاته سنة ١٥٢٧م .

٨ - الأسقف جرجس الحديثي مطران نيقوسية بقرص لم يذكره الدويهي ولكن ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٧١ حيث قال: « ٣٠٣ زبور داود ترجم من السريانية إلى العربية بعناية جرجس مطران نيقوسية السرياني الماروني . وفي آخر الزمور ١٥٠ المزمور المفتتح لما كنت صبياً قاله داود بعد انتصاره على جليات ، وتسميه عامتهم الخارج عن عدد الزبور، وألحق بذلك التساييح التي وردت في العهدين القديم والحديث وعدتها عشر تساييح والصلوة الربية وقانون الايمان الذي وضعه آباء المجمع النيقوي، وفهرست الأعياد في مدار السنة، وجداول لمعرفة الأعياد المنتقلة وبعض ضوابط لمعرفة يوم عيد الفصح وأول الصوم الأربعيني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية . وأضيف إلى ذلك أمثال أو حكم أدبية مجموعة من كتب عدة مؤلفين، ثم حساب العشور البطريكية التي جمعها بأمر البطريك موسى العكاري

جرجس الحداثي مطران نيقوسية مترجم وناسخ هذا الكتاب سنة ١٨٣٩ لاسكندر (سنة ١٥٢٨ للميلاد) في جزيرة قبرص وهي السنة التي فرغ فيها من اشتغاله بهذا الكتاب كما هو يّزن من الحاشية التي علقها بيده على حساب العشور المذكور. ثم إنّ ترجمة الزبور هذه مع الأصل السرياني طُبعا بدير قزحيا سنة ١٥٨٥م بعناية سركيس الرزي بطريرك الموارنة وهو الرابع والأربعون من عداد بطاركتهم، وباهتمام يوسف خاطر من عائلة السماعنة حاكم جبل لبنان. والكتاب يشتمل على ٢٢١ صفحة بقطع الثمن مكتوبة بالأحرف السريانية واللغة العربية بيد جرجس مطران نيقوسية سنة ١٨٣٩ لاسكندر (سنة ١٥٢٨ للميلاد) كما هو مدوّن على آخر هذا الكتاب.

٩ - المطران جرجس الأهدني روى الدويهي إنه بعد وفاة المطران انطونيوس أسقف دمشق سنة ١٥٢٩م صير هذا مكانه، وإنه في سنة ١٥٥٢م أرسله البطريرك موسى العكاري مع الأسقف داود ابن الخوري سمعان الحداثي إلى زيارة الموارنة الذين بقبرص فكرسا عدة كنائس مع فرنسيس أسقف الأفقسية الماروني، ورقوا القس مرقس بن انطون من قبرص إلى الأسقفية وأخذ السكنى في قرية مطوش، وإنّ المطران جرجس توفي سنة ١٥٦٢م.

١٠ - الأسقف سركيس بن نجيم روى الدويهي أنه سار إلى قبرص سنة ١٥٢٩م، وقيل أنه بعثه على هذا السفر تهمة اتهمه بها أهل قرية بكركي التي فوق جونية، فحرمهم وارتحل إلى قبرص، وكانت بكركي قرية كبيرة اعتاد أهلها أن يكونوا مكارين وسعاة وخربت بعد ذلك.

١١ و ١٢ - الأسقف ايليا الحداثي أنبأنا الدويهي بوفاته سنة ١٥٣٠م وأنه خلفه الأسقف تادروس من الحدث أيضاً، وكان معاوناً للبطريرك موسى العكاري في أشغال الكرسي البطريركي وتدير أملاك دير قنوين.

١٣ - الأسقف سمعان مطران طرابلس جاء في تاريخ الدويهي أنّ سمعان مطران طرابلس توفي سنة ١٥٣٤م وخلفه الراهب برسف بن بطرس. ولكن جاء في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية للمطران اسطفانوس عواد السمعاني (كتاب ٥٤ صفحة ٩١) «كتاب الفرض الأسبوعي السرياني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية المارونية»، يشتمل على ٢٢٢ صفحة بالأحرف واللغة

السريانية كُتِبَ بروما بعناية البابا بولس الثالث الحبر الروماني في اليوم الثاني عشر من نيسان سنة ١٥٤٣م ويبد سمعان أسقف طرابلس الشام الماروني من جبل لبنان كما في الحاشية المعلقة على آخر هذا الكتاب . وقد روى البطريك اسطفانوس الدويهي أنّ سمعان المذكور رقي إلى أسقفية طرابلس نحو سنة ١٥٣٥م ولما لم يتمكن من الإقامة في هذه المدينة بسبب الاضطهاد الجاري يومئذ على الكاثوليكين سار إلى روما يطلب الترخيص من البابا بولس الثالث بأن يقيم خارجاً عنها، فرخص له بذلك وعاد إلى وطنه وتوفي سنة ١٥٤٧م. انتهى كلام المطران اسطفانوس عواد ومنه يظهر أنّ نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا اعتراها غلط النسخ في ما رويناه آنفاً عنها، وإنّ الصحيح أنّ المطران سمعان رقي سنة ١٥٣٤م أو سنة ١٥٣٥م إلى أسقفية طرابلس لا إنه توفي تلك السنة . وقد رأينا مرات أنّ نسخ كتب الدويهي التي كانت بروما أصبح كثيراً من النسخ التي تتداولها أيدينا في المشرق . وقد أنبأنا المطران اسطفانوس عواد المذكور أنّ كتاب الفرض (الشحيمة) الذي عثر عليه في المكتبة الماديشية يطابق النسخ المجاز طبعها بروما في ١٢ تموز سنة ١٦٢١م بعد أن فحصها عدد من العلماء الاعلام ، وطُبعت في أيام البابا بولس الخامس ثم غريغوريوس الخامس عشر ثم اوربانوس الثامن ثم اينوشنسيوس العاشر، ثم بعناية البابا اكليمينضوس الحادي عشر. وطُبعت أخيراً بمطبعة نشر الايمان سنة ١٧٣٢م بعد أن نظر فيها وصححها البطريك يعقوب عواد .

١٤ - الأسقف يوسف الجاجي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٤٠م فقال كان خصام بين أهل عينطورين وأهل بان على دير قزحيا ، وكل من الفريقين يدّعي أنه في خراج قريته ، فحكم القاضي أنه في خراج عينطورين وقبل أهلها دفع الخراج المرتّب عليه كل عام وقدره ثلاثمائة درهم . فاعتزل القس حنا بن نمرون الباني عن رئاسة الدير وترأس عليه الخوري يوحنا اللحفدي ، ثم خلع نفسه من الرئاسة فترأس عليه الأسقف يوسف الجاجي وكان رجلاً روحانياً كثير الجلد على نسخ الكتب البيعية ثم توفي سنة ١٥٤٤م .

١٥ - الأسقف جبرائيل بن أستيته الأهدني روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٤٤م أنه بعد وفاة الأسقف يوسف الجاجي ، خلفه جبرائيل المذكور في رئاسة دير قزحيا، فأنشأ له كثيراً من العقارات وأتمّ بناء القبو والدهليز والمجلس والمطحنة التي على النهر . ووسّع الكنيسة التي في الصخر وأقام بها ثلاثة مذابح للسيدة

العدراء وللقديسين انطونيوس ومكاريوس وكان كثير الورع والتقشّف ، وكان يصنع في كل يوم من الصوم ألف مطانية ، وما كان يشرب الماء في مدة الصوم إلى خميس الأسرار . ومع هذا الجهاد لم يكن ينقطع عن نسخ الكتب ، فكثرت جداً كتبه في كنائس لبنان . ولم يدع كنيسة أجداده مار جرجس باهدن تحتاج إلى شيء من الكتب فكافأه البطريك موسى العكاري بترقيته إلى الأسقفية وتوفي سنة ١٥٥٦ م .

١٦ - الأسقف انطونيوس الحصري ابن الحاج فرحات صير أسقفاً على اهدن بعد وفاة المطران قرياقوس المار ذكره سنة ١٥٥٠ م وكانت أمه بنت عم المطران قرياقوس من اللدويهية ، فترى عند أخواله بدير القديس يعقوب المعروف بدير الأحباش . وتضلّع في اللغات السريانية والعربية والتركية ، وكان مقداماً شجاعاً ، ولما قدم السلطان سليم الثاني إلى مدينة حلب مثل أمامه في جملة المشتكين الطرابلسيين ، فأثّر عليه بخمسة مراسيم سلطانية شجّلت في سجلات طرابلس في أيام واليها حسين بك ، منها أنّ غلال الزيتون تقسم تحت أشجارها مناصفة فالنصف للمالك والربع حق وربع ظلم (كذا وجدنا مكتوباً ويتبادر إلى الفهم أنّ المراد بربع حق أنّ الربع للعامل وربع ظلم أنّ الربع الآخر بدل الخراج) . ومنها أن لا يعترض أحد النصاري في دينهم أو زواجهم ، ومنها أنه يرخص لهم بترميم كنائسهم ومنها أمر همايوني موجه إلى قاضي طرابلس بأن لا يعترض أحد بطريك الملة المارونية في أعمال بطريركيته بل أن يردع ويعاقب كل من تمرد عليه أو عانده . وكانت هذه الأوامر مؤرخة في أول ربيع الأول سنة ٩٥٦ (الموافقة سنة ١٥٤٩ م) فكافأه البطريك موسى العكاري عن أتعابه وغيرته بترقيته إلى الأسقفية . وكان أنّ أسقف الملكية بعكار استحوذ على دخل الموارنة بناحية عرقا وعكار سبع سنين ، فشكاه المطران انطونيوس إلى محكمة طرابلس فأمر القاضي أن يضع يده على مداخل مطران الملكية سبع سنين ليستوفي حقه ، وأكرم البطريك موسى المطران انطونيوس أن يتصرّف بعشور بلاد عكار ما دام حياً .

١٧ - الأسقف داود ابن الخوري سمعان الخدثي رقاہ البطريك موسى إلى الأسقفية ليكون معاوناً له مع المطران تادروس في تدبير الكرسي البطريكي سنة ١٥٥٢ م ، ثم أرسله مع المطران جرجس الأهدني المار ذكره لزيارة الموارنة بقبرص فكرسوا عدة كنائس .

١٨ - الأسقف مرقس بن انطونيوس من قبرص رقاہ سنة ١٥٥٢م الأسقفان داود وجرجس المذكوران مع أسقف الأفقسية إلى الأسقفية في مدة زيارتهما في قبرص، وكان ورعاً مجاهداً في خير الكنيسة، ونسخ الكتب، وأخذ السكنى بقرية مطوش بقبرص.

١٩ - الأسقف يوسف بن حرواص رقاہ البطريرك موسى العكاري سنة ١٥٥٦م إلى الأسقفية، وأقامه بدير القديس اليشاع بأرض بشري مجازاة لتعبه في بناء الدير المذكور.

٢٠ - الأسقف موسى بن أيوب بن قمر ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م، وقال إنه كان قاطناً بدير القديس ماما في بشري ومتكلماً على القرية.

٢١ - الأسقف ماكا البقوفاوي ذكره الدويهي وقال في حقه إنه لزم الحياة النسكية نحو ستين سنة، فأقام أولاً بدير قزحيا ثم بجانب كنيسة القديس دوميظ بداريا، ثم في كنيسة السيدة المنقورة بالصخر تجاه عرجس، ثم في محبسة مار ميخائيل فوق قزحيا. وكان عبدة صالحة لكل ناظر إليه أو سامع به، وكان يطوي الصوم سبعة سبعة، ويقمع جسده بالصوم والعطش والمشى حافياً. ولم ينظر إلى وجه امرأة. ولم يكن بمحبسة مار ميخائيل ماء ولم يعد له قوة ليستقي من محبسة قزحيا فصلى إلى الله فأخرج له من الصخر ماءً قليلاً، فنقر له جرنأ فصار يجتمع به ما يكفيه ويكفي زائريه. وشرفه البطريرك موسى بدرجة الأسقفية وتوفي سنة ١٥٦٠م.

٢٢ - الأسقف جرجس القبرصي ذكرنا قبلاً أنّ البطريرك موسى أرسله كاهناً إلى رومة ليأتيه بدرع الرئاسة، ودفع إليه أوتاراً ممهورة بختمه، ولم يكتب عليها شيئاً حتى إذا اضطر إلى أمر كتب عليها ما يحتاجه. وبينما كان بروما كتب على إحدى تلك الأوراق رسالة من البطريرك إلى الحبر الروماني يخبره بها بوفاة الأسقف جرجس الأهدني مطران دمشق ويسأله أن يرقى القس جرجس رسوله إلى هذه الأسقفية. فأمر البابا بترقيته لإجابة إلى سؤال البطريرك، فرقي إلى الأسقفية سنة ١٥٦١م. وعاد إلى قبرص فوجد أنّ الأسقف فرنسيس المار ذكره قضى أجله فضبط ما كان له، واستمر عند أهله بقبرص. وكان البابا قد أرسل إلى البطريرك معه غفارة وكانت طويلة فقصّها لتكون ملائمة لقامته، ولما علم

بذلك البطريرك أطلق عليه تأديب الرباط . طالع ما سنقوله في الأسقف جرجس البسلوقي .

٢٣ - الأسقف سرقيس الأهدني خلف المطران انطونيوس الحصري أسقف اهدن المار ذكره بعد وفاته سنة ١٥٦٥م وكان الأسقف سرقيس ابن القس موسى الدويهي وتوفي سنة ١٥٧٧م بعد أن استمر بأسقفية اهدن اثنتي عشرة سنة . ووصفه الدويهي بأنه كان أصيل الرأي شديد الغيرة على بناء الكنائس والأديار .

٢٤ - الأسقف يوحنا بن عبيد خلف الأسقف سرقيس المار ذكره في أسقفية اهدن سنة ١٥٧٧م ووصفه الدويهي بأنه كان ورعاً كثير العبادة مشهوراً بنسخ الكتب .

٢٥ - الأسقف يوسف رقاہ البطريرك ميخائيل الرزي إلى مطرانية بيروت سنة ١٥٧٧م مع الأسقف يوحنا المار ذكره .

٢٦ - الأسقف جرجس البسلوقي رقاہ البطريرك المذكور إلى مطرانية دمشق سنة ١٥٧٧م أيضاً مع الأسقفين يوحنا ويوسف المار ذكرهما . ثم أرسله في اليوم العاشر بعد ترقيته إلى روما مع الخوري اقليمس الأهدني لطلب درع الرئاسة كما مرّ في الكلام على البطريرك ميخائيل الرزي ، وعادا من سفرهما سنة ١٥٧٨م مع الأب جوان باطيسا . وقال المطران اسطفانوس عواد في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية عند ذكره الكتاب الثاني والخمسين منها : « عدة صلوات » ترجمها من اللاتينية إلى العربية جرجس مطران دمشق الماروني وهذه الصلوات تتلى قبل القداس وبعده . وقد منح الأبحار الأعظمون غفران سنين كثيرة لمن يتلوها . فجرجس الماروني هذا هو ابن سليمان من قرية كليين بقبرص غير بعيدة عن نيقوسية ، رقاہ البطريرك ميخائيل الرزي إلى أسقفية دمشق وأرسله بعيد ذلك لتقديم فروض الطاعة باسم البطريرك وملته . وقبله البابا بيوس الخامس ثم غريغوريوس الثالث عشر بالتكريم وأقام مدة بروما وطبع هناك هذا الكتاب كما يظهر من الحاشية المعلقة على آخر هذا الكتاب بخط يده ، وعاد إلى لبنان سنة ١٥٧٨م مع الأب يوحنا المعمدان اليان (جوان باطيسا) ثم ذكر ما حواه الكتاب المذكور أيضاً فقال « دستور ايمان الرسل والدستور النيقوي ثم صلاة يوم

الأحد ثم زيور داود التي تتلى في صلوات الفرض عند الموارنة والصلوة المؤلفة من فيلوكسينوس المنهجي ترجمها جرجس المذكور من السريانية إلى العربية». وقال أخيراً: «كتاب عدة صفحاته ١٥٩ صفحة بقطع صغير مكتوب بالأحرف الكرثونية كتبه بروما بأنظار بيوس الخامس الحبر الأعظم جرجس بن سليمان من قرية كليين بقبرص مطران دمشق سنة ١٥٧١م» كما في الحاشية المعلقة في آخر الكتاب.

وعليه فكان قول المطران اسطفانوس عواد أنّ المطران جرجس هذا كان من قبرص، ورقاه البطريك ميخائيل الرزي إلى الأسقفية في أوائل بطريركيته سنة ١٥٦٧م مخالفاً لقول الدويهي أنه كان من بسلوقيت ورقاه البطريك المذكور سنة ١٥٧٧م، واتفق العلامتان في الباقي. فعلى قول أيهما نعتد؟ فإن حق لي أن أقول شيئاً وأن لا أصلح أن أكون تلميذاً لأحدهما. قلت يظهر لي أنّ صاحب الكتاب المذكور الذي ذكره المطران اسطفان عواد هو المطران جرجس القبرصي المار ذكره الذي كان قاصداً للبطريك موسى العكاري، واحتال على البابا بيوس الرابع حتى أمر بترقيته إلى الأسقفية، وربطه البطريك ويظهر أنه عاد إلى روما وأقام فيها إلى سنة ١٥٧١م التي كتب بها كتابه. وإنّ المطران جرجس البسلوقيّ الذي ذكره الدويهي هو غير ذاك، وهو قاصد البطريك ميخائيل الرزي إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، مضى إلى روما سنة ١٥٧٧م وعاد منها سنة ١٥٧٨م. وجلّ ما يرجح لي قلبي هذا أنه إذا كان المطران جرجس القبرصي أرسله ميخائيل الرزي في أوائل بطريركيته أي سنة ١٥٦٧م فلا يبقى بروما إلى سنة ١٥٧١م التي كتب فيها كتابه ولا إلى سنة ١٥٧٨م التي عاد بها مع جوان باطيسا كما ذكر المطران اسطفان عواد. فقول الدويهي إذاً أوجه وأمثل والله أعلم.

٢٧ - الأسقف داود رئيس دير قزحيا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٧٧م وقال إنه كانت فتنة بينه وبين البطريك ميخائيل الرزي فانتقل من دير قزحيا مع الحوري مارون القبرصي والقس يعقوب بن حبلص الحاقلي إلى دير حوقا ورقى دون مشورة البطريك القس يعقوب المذكور إلى الأسقفية، ثم دعا من دير قزحيا الحبيس يونان وأخاه القس يوسف ابني جلوان من سمار جبيل وراهي قزحيا فرقاها إلى الأسقفية أيضاً. ولما علم البطريك بذلك رفع عرض الواقع إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر في رسالة مؤرخة في ١٧ أيلول سنة ١٥٧٧م ومنع الحبيس يونان وأخاه عن استعمال حقوق الأسقفية، وأمر الحاكم بخروجهما من دير قزحيا،

فحملوا الحبيس يونان بالنعش إلى دير القديس سمعان بالفراديس وأما أخوه يوسف فسار إلى قريته سمار جبيل ، وبعد ثلاثة أشهر مضى المقدم مقلد البشرياني والشدياق خاطر الحصريوني وبعض الأعيان ، فشفعوا بهم فباركهم البطريرك وكان دير قزحيا قد خلا من الرهبان ، فرخص لهم بالعود إليه وأعطاهم عشرة رهبان وبقراً وماعزاً إلى غير ذلك مما يلزم لهم ، وفصل الدير عن الحبسة ليقوم كل منهما بنفسه . ويظهر أنه لم يصحح رسامة من رسمهم الأسقف داود .

٢٨ - الأسقف سرقيس الرزي أخو البطريرك ميخائيل الرزي لم يذكر الدويهي سنة ارتقائه إلى الأسقفية بل ذكر في تاريخ سنة ١٥٧٨م أنّ البطريرك ميخائيل أرسل أخاه الأسقف سرقيس والقس جرجس بن يونان مع الأب جوان باطيسا ليرافقاه في تطوافه بلبنان ويقدم له ما يطلبه ، والأسقف سرقيس هو الذي خلف بالبطريركية أخاه البطريرك ميخائيل بعد وفاته سنة ١٥٨١م .

٢٩ - الأسقف سرقيس من كفرحورا لم يذكره الدويهي ، ولكن وجدنا توقيعه على المجمع الطائفي المنعقد سنة ١٥٨٠م هكذا . أنا سرقيس من كفرحورا أسقف ورئيس قزحيا .

٣٠ - الأسقف يوسف البسلوقيتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٠م فقال أنه نحو هذه السنة رقد بالرب يوسف البسلوقيتي الذي كان مستحبساً في دير القديس انطونيوس بالفراديس ، ولأجل سيرته الملكية وشيخوخته النقية رقاها البطريرك ميخائيل إلى الأسقفية ، ولما دنت ساعة وفاته مضى لزيارته ، ثم أمر بدفن جثته بمغارة البارة مارينا بجانب دير قنوين .

٣١ - الأسقف اقليمس الأهدني هو الذي كان البطريرك ميخائيل الرزي قد أرسله كاهناً مع المطران جرجس البسلوقيتي إلى روما ، فراقه أخوه البطريرك سرقيس إلى الأسقفية سنة ١٥٨٤م ليكون معاوناً له في دير قنوين . وذكر الدويهي وفاته سنة ١٥٩٨م وقال إنه توجه إلى روما مرات وأنه كان حازماً أصيل الرأي .

٣٢ - الأسقف انطونيوس الجميل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٧م وقال إنه لما كان كاهناً عني ببناء كنيسة القديس عبدا في قريته بكفيا وأنفق عليها ألف قبرصي عدا ما أنفقه أهل القرية وغيرهم ، فأراد البطريرك سرقيس الرزي أن يكافئه

فرقاه إلى الأسقفية وأكرمه ببذلة جميلة للقداس ، ولما كان البطريرك متوجهاً سنة ١٥٩٥م لزيارة كسروان لقيته المطران انطونيوس إلى البوار عازماً أن يمنعه عن الدخول إلى هذه البلاد فربطه البطريرك ، وفي اليوم الثالث بعد ذلك قضى أجله .

٣٣ و ٣٤ - الأسقف يوسف والأسقف يوحنا مطرانا قبرص ذكرهما الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٨م بقوله في هذه السنة كانت وفاة الأسقف يوسف بجزيرة قبرص ، ورقى البطريرك خلفاً له الأسقف يوحنا بن اسكيلا المعلم من الخيزفانية ثم ذكر وفاة يوحنا هذا في سنة ١٥٩٨م .

٣٥ - الأسقف يوسف الرزي هو ابن موسى الرزي أخى البطريرك سركيس ، رقاہ عمه البطريرك المذكور سنة ١٥٩٥م إلى الأسقفية في عيد ميلاد الرب ، وأرسله سفيراً إلى البابا اكليمندوس الثامن لقضاء بعض حاجات الطائفة وتهنئة البابا بارتقائه إلى الحبرية العظمى ، فعاد من روما سنة ١٥٩٦م ومعه الأب ايرونيموس دنديني والأب فايوس برون اليسوعيان لعقد الجمع المار ذكره ، وبعد وفاة عمه البطريرك سركيس سنة ١٥٩٦م خلفه في البطريركية كما مرّ .

٣٦ . الأسقف موسى العنيسي صير مطراناً على قبرص سنة ١٥٩٨م بعد وفاة الأسقف يوحنا بن اسكيلا المار ذكره ، وكان موسى المذكور من العاقورة وتهذب بالعلوم بروما .

ورقى البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية في آخر هذا القرن أي سنة ١٦٠٠م ابن أخيه الأسقف سركيس الرزي والأسقف جرجس بن عميرة الأهدي الذي انتخب بعداً بطريركاً ، والأسقف ميخائيل من بيت عبيد باهدن ، والأسقف موسى من عرجس . وأقام بدير مار اليشاع ببشري . وترجى تامة الكلام في هؤلاء إلى تاريخ القرن السابع عشر .

عد ٩٨٨

المشاهير الدينيون الموارنة في القرن السادس عشر

نريد بالمشاهير الدينيين من اشتهروا في هذا القرن من الموارنة بالنسك والزهد والعلوم الدينية أو نسخ الكتب ، وهم ليسوا بطاركة أو أساقفة ، واعتمدنا في تراجمهم على تاريخ العلامة الدويهي .

١ - كان من سلك النساك القس موسى العكاري ، وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا ، وكان تلميذاً للخوري اسطفان والقس ميخائيل رئيسي هذا الدير ثم رقى إلى الأسقفية ثم البطريركية كما مرّ .

٢ - الخوري يوحنا المعروف بالزطيمية ، فهذا كان من ترنج وارتحل بعائلته سنة ١٥١٠ إلى قبرص في جملة من هاجروا من لبنان تلك السنة من جري الجور والضرائب . وكان الخوري يوحنا عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من الكتب البيعية ، وكان من جملة عمد الطائفة في تلك الأيام ، وكانت له مباحث دينية مع الروم بقبرص ، وكانوا يسمونه كروكليا لأنه كان يعتّم بعمامة زرقاء ، وعانى مشاق كثيرة من أبناء طائفته حسداً له . وبعد وفاته خلفه ابنه القس يوسف والشماس الياس واشتهرا بنسخ الكتب البيعية والأفعال الحسنة .

٣ - الخوري لوقا بن بطرس من ترنج أيضاً وأنشأ كنيسة جميلة في قرية كليين بقبرص على اسم القديس لوقا الانجيلي .

٤ - الخوري زكريا وكان من جملة النازحين من لبنان إلى قبرص ، وبنى كنيسة القديس ماما في قرية مطوش .

٥ - الحاج ميخائيل أخو الأسقف جبرائيل القلاعي انتقل من الحفد إلى قرية طالا بقبرص وزاد على كنيسة السيدة سوقاً آخر ومذبحاً على اسم القديس عبدا .

٦ - القس بطرس وهو الذي أرسله البطريرك سمعان الحداثي إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣م فردّه البابا إلى لبنان إذ لم يكن مصحوباً برسائل البطريرك ، ثم سفره البطريرك ثانية إلى أم المدائن سنة ١٥١٥م فنال التثبيت على يده كما قدمنا في الكلام على هذا البطريرك ، وهو الذي أحضر نسخة من رسالة فراغريفون إلى الحبر الروماني شهادة بصفحة ايمان الموارنة كما مرّ .

٧ - الخوري يوسف الذي أرسله البطريرك سمعان الحداثي سنة ١٥١٥م إلى رومة مع راهبين لاقتباس اللغة اللاتينية والعلوم الدينية فعلموا اللغة السريانية وكانوا أول من علّمها بأوروبا .

٨ - الخوري يونان المشرقي رئيس دير قزحيا ، زاد في كنيسة هذا الدير سنة ١٥٢٦م على مذهب القديس بشاي مذهبين آخرين أحدهما على اسم السيدة

والثاني على اسم جبرائيل رئيس الملائكة . وفي سنة ١٥٣٩م اتفق مع رهبانه على نهبي النساء عن الدخول إلى دير قزحيا ، وحلف جميعهم على ذلك وأقاموا لذلك احتفالاً وتطوافاً بالدير كله . وفي سنة ١٥٤٢م انتقل إلى رحمة ربه . وكتب عنه تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني أنه خدم الله بالطهارة والورع مدة خمسين سنة . وكان قبل وفاته بأربع سنين يصوم يومين يومين ولا يفطر في الصوم الكبير إلا يوم السبت والأحد ، ولم يكن عدد لمطانيته في سبة الآلام ، ولم يكن له مثيل في أعمال الرحمة . ويعجز القلم عن رقم فضائله . وشهد تلميذه الخوري يوحنا اللحفدي بأن الله صنع على يده آية كان هو شاهداً لها وهي أنه عازهم الزيت فوضع بخوراً وصلى على خاية الزيت فطفحت به . وشهد جنازه البطريرك موسى المطران قرياقوس وجّم غفير تباركوا بجسده الطاهر . وقد ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ٢٦ إذ روى أنّ كتاب الزبور الذي كان قد كتبه حوشب في دير قزحيا سنة ١٣١٨م قد نسخه ملك جبرائيل من اهدن سنة ١٥٢٢م باهتمام الأب يونان الحبيس المتريتي . وروى ترجمة هذا الحبيس عن الدويهي كما رويناها ، وذكر أيضاً تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني وهو ناسخ كتاب الزبور المذكور .

٩ . القس جرجس بن حرواص من قرية عرجس أنشأ دير القديس اليشاع ووسعه وأنفق عليه ١٣٧٥٠ درهماً عدا ما تبرّع به غيره من المحسنين . وكان عبد المنعم الأول مقدم بشري معاوناً له ومثله الحاجة سارة رفيقته في النسك وشريكته في بذل النفقة المذكورة ، وكان ذلك سنة ١٥٣٣م . ويظهر لنا أنّ القس جرجس هذا هو الذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م وقال إنّ المطران رقاها إلى الأسقفية مكافأة له لبنائه دير مار اليشاع ببشري وإن سمي في هذا الحبل الأخير يوسف لا جرجس .

١٠ . القس يوحنا بن نمرون الباني كان رئيساً على دير قزحيا سنة ١٥٢٩م وكان شهيراً بالورع والنسك ، ولما اختصم أهل بان وأهل عينطورين على دير قزحيا وحكم القاضي به لأهل عينطورين اعتزل القس يوحنا من الرئاسة وتولاها الخوري يوحنا اللحفدي كما مرّ عند ذكر الأسقف يوسف الجاجي . ثم عاد القس يوحنا إلى رئاسة دير قزحيا سنة ١٥٥٦م ولم يمكث بها طويلاً بل استقال منها وسكن دير القديس سمعان بقيطو ، إلا أنه في سنة ١٥٦٧م لما صير الحبيس ميخائيل

الرزى المترس على دير قزحيا بطريكاً أعادوا القس يوحنا إلى رئاسة هذا الدير فأنشأ له مطحنة عند الدير وجرت الماء إليها من النهر . وعظمت شهرته بالبر والورع ، ولما توفاه الله خلفه بالرئاسة الخوري ابراهيم الحداثي .

١١ - الخوري يوحنا اللحفدي كان تلميذ الحبيس يونان المتريتي وترأس على دير قزحيا بعد اعتزال القس يوحنا الباني المذكور ، ثم توفي سنة ١٥٤٢م بعد وفاة معلمه وقد اقتدى بفضائله ونسكه وتقشفاته وخدمته أربع عشرة سنة في مرضه ، وكان يقضي سبة الآلام متهجداً كثيراً من الاماتات والمطانيات .

١٢ - الحبيس يونان بن جلوان من سمار جيبيل ترهب في دير قزحيا مع أخيه القس يوسف ، وقد ذكرنا دعوة المطران داود رئيس دير قزحيا لهما إلى دير حوقا وترقيتهما سنة ١٥٧٦م إلى الأسقفية خلافاً لقوانين الكنيسة ومنع البطريك لهما عن مباشرة حقوق الأسقفية وطاعتهما ورضى البطريك عنهما وردهما إلى دير قزحيا فأكملا حياتهما بالنسك والزهد والورع .

١٣ - القس يعقوب عصاص من بيت الزيات من أسمر جيبيل ، لبس الأسكيم الملائكي بدير قزحيا ، وقضى حياته بالنسك والقداسة في محبسة القديس سمعان بالفرايس وتوفي سنة ١٥٨٥م قال الدويهي ، وجسده ما زال سالماً في مغارة مار ادنه هناك لم يعتريه فساد .

الباب السابع عشر

تاريخ سورية في القرن السابع عشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلاطين العظام الذين تولّوها بهذا القرن وما كان في أيامهم

عد ٩٨٩

السلطان أحمد خان الأول

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن السادس عشر بذكر وفاة المغفور له السلطان محمد خان الثالث ، وبعد وفاته في ١٢ رجب سنة ١٠١٢ هـ (١٦ كانون الأول سنة ١٦٠٣م) خلفه ابنه السلطان أحمد خان الأول ، ولم يكن له من العمر عند ولايته إلا نحو خمس عشرة سنة ، وكانت المملكة حينئذٍ محفوفة بالمخاطر في المشرق من قبل الشاه عباس ملك العجم ، وفي المغرب من جهة النمسا . وكانت أحوال السلطنة بسورية مضطربة من قبل استفحال أمر الأمير فخر الدين المعني ، وسطوة علي باشا جان بولاد الذي تولّى حلب . وكان أصل جان بولاد من الاكراد ومعنى اسمه ذو النفس التي من بولاد (فولاذ) لُقّب به لشدة بأسه واقدامه

وآل جنبلات ينتسبون إليه بناءً على أنه بعد تشتت عساكره في حلب هاجر بعض ولده إلى لبنان لصداقته مع الأمير فخر الدين المعني .

ففي هذه الحال المشؤومة قيض الله للدولة العلية وللسلطان الصغير السن وزيراً هماماً حازماً وهو مراد باشا المعروف بقبوجي باشا ، وكان عند ايلائه منصب الصدارة ناهز الثمانين من عمره ، ومع ذلك لم يَأْبَ قيادة الجيش فحارب الثائرين في آسيا وظهر عليهم واستمال أحد زعمائهم في الأناضول المسمى قلندر اوغلي ، ونصبه والياً على أنقره وسار في سنة ١٦٠٧م إلى حلب التي كان علي باشا جان بولاد المذكور قد استحوذ عليها بعد حرب شديدة بينه وبين يوسف باشا ابن سيفا . وخرج من الطاعة ، وقبل أن يبلغ مراد باشا إلى حلب في عساكره خرج جان بولاد للقائهم فاندعرت عساكره وعاد هو إلى حلب وحصّن قلعتها فتبع مراد باشا آثاره وحاصر المدينة فافتتحها وأقام المنجنيقات على القلعة وراسل رؤساء المحافظين عليها واعدأ اياهم بخلع ومناصب ، فاغثروا بها واستسلموا إليه وسلموه القلعة ، فقتلهم عن آخرهم ونادى بقتل كل من كان تبعة جان بولاد . وكان عسكره عند خروجه من حلب نحو ثمانين ألفاً فقتل كثيرون منهم في مواضع كثيرة وانهزم الباقون وتشتتوا وأخذ منهم الرعب كل مأخذ حتى كان الرجل الواحد يقتل عشرة منهم . وأسرت عيال جان بولاد وجواريه حتى والدته وبيعوا بأبخس الأثمان . وفرّ هو إلى الأستانة طائعاً فعفا السلطان عنه ونصبه والياً على إحدى ولايات المغرب .

وبعد أن دبر مراد باشا أمور حلب عاد إلى الأناضول فانتصر سنة ١٦٠٨م على من بقي من الثائرين فيها ، وانتهاز عباس شاه العجم فرصة هذه الحروب فاسترجع بعض مدن العراق العجمي واحتلّ تبريز ووان وغيرهما ، فسار إليه مراد باشا في جيشه . وكانت بين الفريقين حروب هائلة ، ولكن لما كانت جيوش الدولة كلّت من الكفاح والجهاد في سنين متوالية لم تنل الظفر المرغوب . وتوفي مراد باشا في ٥ آب سنة ١٦١١م وتولّى منصب الصدارة نصوح باشا فجرت المراسلات بين الدولتين في أمر الصلح بينهما سنة ١٦١٢م على أن تترك الدولة العلية لمملكة العجم جمع الأعمال والبلاد والقلاع والحصون التي فتحها العثمانيون من عهد السلطان الغازي سليمان الأول فكانت هذه أول معاهدة تركت فيها الدولة العلية بعض ما فتحته .

ولما كانت عساكر الدولة منشغلة بالحروب في المشرق استبدّ النمساويون ببلاد
المجر وأساءوا معاملة أشرافها، فالتجأوا إلى السلطان أحمد طالبين عونه وحمايته،
وانتخبوا أميراً اسمه يوسكاي ملكاً عليهم وأمدّه السلطان بجيوشه فطردوا
النمساويين من عدة حصون سنة ١٦٠٥م وخشيت النمسا من زيادة الفتح فاعترفت
بانتخاب يوسكاي ملكاً للمجر وأميراً لاقليم ترنسلفانيا، وتنازلت له عن الأعمال
المجرية بشرط أن يُرجع إلى المانيا بعد موت يوسكاي ما كان لها قبل ملكه، فرضي
المجريون ولم يشأ السلطان أحمد أن ينفرد بالحرب مع النمسا فصالحها سنة ١٦٠٦م
على أن تدفع النمسا للدولة العلية مئتي ألف دوكا وتبطل الجزية السنوية المتفق
عليها قبلاً وقدرها ثلاثون ألف دوكا. ووقع نواب النمسا والمانيا والدولة العلية على
هذا الاتفاق سنة ١٦٠٨م.

وبعد التوقيع على هذه المعاهدة والعمل بها مدة، توفي يوسكاي ملك المجر
وامتنع أهل ترنسلفانيا عن الانضمام إلى النمسا مؤثرين البقاء تحت حماية الدولة
العثمانية التي لا تتعرض لهم في دينهم ولا في عوائدهم وتكتفي بادائهم الجزية
لها. فنصبت لهم الدولة ولاية فأصبحت ترنسلفانيا حاجزاً بين المجر وامارتي الفلاخ
والبغدان كي لا يتفقوا على مناصبة الدولة العلية، فسادت السكينة مدة ولكن
حصلت سنة ١٦١١م وسنة ١٦١٤م مناوشات بين مراكب الدولة وسفن اسبانيا
وولايات ايطاليا ومالطة، وكان الفوز فيها للإفرنج. فأمر الصدر الأعظم نصوح باشا
بجمع مراكب الدولة في البحر المتوسط فانتهاز بعض أخلاط القوزاق انسحاب
سفن الدولة من البحر الأسود وأغار على أملاك الدولة، فحنق السلطان أحمد على
وزيره بسعاية مبغضيه وحساده، وكان آخر العهد به في ١٤ تشرين الأول سنة
١٦١٤م.

وزدادت في أيام السلطان أحمد العلاقات السياسية مع دول الافرنج، فجددت
المعاهدة مع فرنسا سنة ١٦٠٤م ومع بولونيا سنة ١٦٠٩م وعقدت معاهدات تجارية
مع الفلمنك (هولاندا) سنة ١٦١٢م.

وأما ما كان في سورية في أيام السلطان أحمد فقد ذكرنا منه ثورة علي باشا
جان بولاد واخمادها بتشتيت شمله، وبقي ما كان مع الأمير فخر الدين المعني
فنفرد له الفصل التالي.

أخبار الأمير فخر الدين المعني إلى عوده من أوروبا

إنَّ معن جد هذه الأسرة هو من رؤوس العشائر التي أسكنها سلاطين المسلمين في سورية المناصب الأفرنج ما كانوا يغالبونهم على امتلاكها، وسكن معن وعشيرته في الشوف وأقطعت الحكومتان مقاطعات له ولولده من بعده، وكان آل معن مسلمين على الأصح واتفقا مع التنوخيين أمراء المغرب المار ذكرهم، ومع الأمراء الشهابيين الذين احتلوا بعدهم وادي التيم. وكانت بين الأسرتين مصاهرة، وقام فيهم أمير يسمى الأمير يوسف حكم في الشوف ثم توفي في أواخر القرن الخامس عشر وخلفه الأمير فخر الدين ابن أخيه عثمان. وحالف سنة ١٥٠٥م الأمير منصور الشهابي حاكم وادي التيم، وفي وقعة مرج دابق بين السلطان سليم الأول وقانصوه الغوري سلطان مصر وسورية كان الأمير فخر الدين بمعية الغزالي نائب الغوري، ولما قدم السلطان سليم إلى دمشق دخل عليه الأمير فخر الدين ودعا له كما قدمنا، ثم توفي الأمير فخر الدين المعروف بالأول سنة ١٥٤٤م وخلفه ابنه الأمير قرقماز. ولما نُهبَت خزانة السلطان في جون عكار سنة ١٥٨٤م أرسل إبراهيم باشا والي مصر وقائد جيش السلطان يطلب الغرماء من الأمير قرقماز، فخاف وفرَّ إلى مغارة تيرون تحت جزين، فتوفي هناك وله ولدان صغيران، فخر الدين ويونس خبأتهما والدتهما عند الشيخ إبراهيم بن سركيس الخازن ببلونه، ولما زال الاضطراب رد الأمير سيف الدين التنوخي الأميرين (وكانا ابني أخته) إلى أقطاعهما في الشوف. وكان لفخر الدين هذا المعروف بالثاني وقعة في نهر الكلب سنة ١٥٩٨م مع يوسف باشا سيفا والي طرابلس على ولاية كسروان، فظهر فخر الدين على يوسف باشا وتولَّى فخر الدين بيروت وكسروان سنة واحدة ثم تركهما واكتفى بالشوف.

وفي سنة ١٦٠٥م كانت وقعة بهجونية بين الأمير فخر الدين وبين يوسف باشا سيفا والي طرابلس وغازير، وكان الظفر فيها للأمير فخر الدين. وانهمز يوسف باشا وأقام فخر الدين الشيخ يوسف ابن الأسلماني حاكماً من قبله في غزير. وفي سنة ١٦٠٦م سار أحمد باشا حافظ دمشق لمحاربة الأمير يونس الحرفوشي، واستنجد الأمير يونس الأمير فخر الدين فنجده. وكذلك قصد حافظ دمشق محاربة الأمير

أحمد الشهابي فاستمد الأمير أحمد الأمير فخر الدين فأمدّه بعسكر فكفّ الحافظ عنه .

وكان الأمير فخر الدين من حزب علي باشا جان بولاد ، وكان معه في عراد بأرض حماة عند محاربته ليوسف باشا سيفاً ، ولما حضر مراد باشا الصدر الأعظم إلى حلب وقهر جان بولاد كما مرّ ، أظهر حنقه على الأمير فخر الدين أيضاً . فأرسل ابنه الأمير علياً إلى الصدر الأعظم ودفع له نحو من ثلاث مئة ألف قرش استعطافاً لخاطره ، فعفا الوزير عنه وأنعم على ابنه علي بولاية صيدا وبيروت وغزير . وفي سنة ١٦٠٩م وقعت فتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل معوش وكثر القتلى من الفريقين واتفقا على بيع قريتهم والخروج منها . فاشتراها منهم الأمير علي ابن الأمير فخر الدين باثني عشر ألف قرش ، وأسكن النصارى فيها . فحضر إليها البطريك يوحنا مخلوف الأهدني وأقام فيها مدة ، وبنى فيها داراً وكنيسة وهي المعروفة هناك بكنيسة السيدة .

وفي سنة ١٦١١م توفي مراد باشا الصدر الأعظم وخلفه في الصدارة نصوح باشا كما مرّ . وسار إلى ديار بكر فأرسل إليه الأمير فخر الدين مع كتبخانه المسمى مصطفى خمسة وعشرين ألف قرش وخيلاً جياداً وأنسجة فاخرة ، فقبل نصوح باشا الهدية وخلع على حاملها ، لكنه لم يبد له البشاشة المعتادة . ثم قدم نصوح باشا إلى حلب وأرسل يطلب من الأمير فخر الدين خدمة للسلطان فأرسل له خمسة وعشرين ألف قرش أخرى استعطافاً لخاطره ، وخمسين ألفاً خدمة للسلطان ، وأكرم رسوله بخمسة آلاف قرش . ومع ذلك لم يصف خاطره عليه ، وكان مؤاخذاً له لأنه ألجأ الأمير يونس الحرفوشي والأمير أحمد شهاب ضد أحمد باشا حافظ دمشق ، ولأنّ ما قدّمه له كان أقلّ مما أرسله إلى مراد باشا سالفه مع ابنه الأمير علي كما مرّ . وفي سنة ١٦١٢م عاد أحمد باشا حافظ دمشق من عند نصوح باشا في حلب إلى ولايته بدمشق . وكان قد اغتاب الأمير فخر الدين وأوغر صدر نصوح باشا عليه وأطمعه في بلاده ، وعزل الأمير حمدان بن قانصوه عن ولاية عجلون وناבלس ، وولى عليهما فرك بك . وكان قد صحبه من حلب وعزل عمراً شيخ العرب المفارجة عن ولاية حوران وولى مكانه رشيداً شيخ العرب السردية فاستنجد المزولان بالأمير فخر الدين فنجدهما وأرسل ابنه الأمير علياً ومعه ثلاثة آلاف مقاتل فغزوا بلاد العرب وحوران وتواقعوا مع رجال أحمد باشا حافظ دمشق

وظهروا عليهم وغنموا بأموالهم ومواشيهم . واستمر الأمير حمدان بعجلون والشيخ عمرو بحوران فرفع أحمد باشا حافظ دمشق عرائض إلى الباب العالي يشكو بها الأمير فخر الدين بأنه غزا الجولان وبلاد حوران وأنه محاصر مدينة دمشق فجهز السلطان ألفي مقاتل من انكشارية الآستانة ، وأمر ولاية الأناضول وحلب وطرابلس أن يجردوا العساكر لقتال الأمير فخر الدين بقيادة وزيره نصوح باشا ، ولما دخل الوزير في جيشه إلى دمشق قَدَّم إليه الأمير يونس الحرفوش والأمير أحمد شهاب وابنه والأمير علي حاكم وادي التيم مستسلمين إليه . وأما الأمير فخر الدين فلم يركن أن يستسلم إلى الوزير ولم يشأ أن يحارب عسكر السلطان ، وقصد أن يعتزل في البرية فبلغه أنَّ الأمير أحمد شهاب جمع عسكراً وقطع عليه طريق جسر الجماع ، ولما وصل الأمير علي بن فخر الدين برجاله تعقبهم الأمير أحمد وقتل كثيرين منهم . وجمع فخر الدين أحزابه في الدامور واستنهضهم للقتال فرأى عزيمتهم باردة فعزم على السفر إلى أوروبا فحَصَّن قلعة شقيف أرنون وقلعة بانياس ومغارة نوحا المسماة شقيف تيرون وجعل في هذه الحصون ما يكفي من الميرة والعدد ، وأقام بها عياله وأثقاله ووَلَّى حسين اليازجي على قلعة بانياس وحسين الطويل على حصن شقيف تيرون ، وسَلَّمَ ابنه الأمير علياً إلى الشيخ عمرو الذي كان قد استرجع له مشيخة حوران بأربع مئة سكماني ليكونوا محافظين على ابنه ، وكان الشيخ عمرو فارساً شجاعاً وجمع الأمير فخر الدين أخاه الأمير يونس والسيدة والدتهما ومشايخ الشوف وآل خازن وأوصاهم أن يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً ولا يفتروا بالمواعيد ولا يركنوا إلى العهود . واستأجر مركبين للافرنج وأخذ تحفاً وأموالاً وسار قاصداً إيطاليا عند الكرمان دوكا أمير تسكانا ومعه بعض حاشيته منهم الحاج كيوان المار ذكره وواحدة من نسائه ، وحلَّ أولاً في مدينة ليفورنو واستقبله واليها بالاعزاز وأنزله في دار كبيرة ورَّتَبَ له جراية سنوية كل سنة ألف سكوت (ريال) وسار أخوه الأمير يونس فاستقرَّ بدير القمر بخواص أخيه ، وحيثُ انتقل آل معن من بعقلين إلى دير القمر . أما أحمد باشا حافظ دمشق فولَّى حسين باشا ابن سيفا على مدينة بيروت والشيخ مظفر رئيس اليمينية على بلاد الشوف ، وابن البستنجي على صيدا . وزحف هو من دمشق إلى بلاد الشوف في جيش لا يقل عن مئة ألف رجل من سكماني ودروز وعرب ، وأقام الحصار على قلعة شقيف أرنون وحصن بانياس ، فدافع من بهما مدافعة الأبطال . ودام الحصار خمسين يوماً

فلم يكن مطمع من فتحهما . فأمر الحافظ العسكر أن يطوفوا البلاد وينهبوا ويقتلوا ويحرقوا ، فكاتب الأمير يونس الحافظ طالباً الأمان فأجابه الوزير إلى ذلك وأمر أن يرسل إليه عقلاء الشوف ووجهاء قومه ووالدة الأمير ليكلفوا ما سيكون القرار عليه ، وصار الاتفاق على أن يدفع الأمير يونس مئة ألف قرش . فأخذ الوزير الكفلاء معه إلى دمشق ريثما يدفع الأمير المبلغ المتفق عليه . فأرسل الأمير المبلغ المتفق عليه وكان عشرون ألف قرش منه بيد الشيخ أحمد بن العكس من دروز حفة حلب ، فأخذها وفز بها فلم يكتفِ أحمد باشا حافظ دمشق بما وصل إليه فاستأنف الحملة وعاد إلى البقاع ودخل دير القمر عنوة وحرق منازل المعنيين وشقت من وجد من رجال الأمير . ودخل الأمير يونس في أربع مئة رجل من وجهاء الشوف إلى قلعة بانياس فأرسل الحافظ جماعة من عسكره ليغزوا وادي بسري فحاربهم أهل الشوف وقتلوا منهم نحواً من ست مئة رجل ، فجهز إليهم الحافظ ثمانية آلاف مقاتل ، فشقت أهل الشوف شملهم وقتلوا وأسروا . وأباح الحافظ عسكره أن يحرقوا قرى الشوف وينهبوها ويقتلوا كل من وقع بأيديهم واستمروا على ذلك أربعة أيام . وورد الخبر أن نصوح باشا الصدر الأعظم قُتل فوجس الحافظ وسرّح أبناء العرب ورجع هو إلى دمشق .

وفي سنة ١٦١٣م وردت البشائر بأن السلطان عزل أحمد باشا الحافظ عن منصبه في دمشق وولّى مكانه جركس باشا ، وقبل أن يصل إلى دمشق أرسل نائباً عنه إليها وأمره أن ينادي بالأمان وأن يرجع كل من نزع إلى محله ، وولّى على الشوف الشيخ يوسف المسلماني أحد أتباع المعنيين ، وكتب الأمير يونس إلى أهل الشوف أن يعود كل منهم إلى وطنه . وأرسل الشيخ أبا نادر الخازن والشيخ أبا ضاهر حبيش وأمرهما أن يعدا الأشجار في كسروان ويستوفيا المال المرتب عليها مع ابن المسلماني . وكان الشيخ أبو نادر شجاعاً حازماً أبي النفس وحافظاً لسرّ آل معن . ثم لما قدم جركس باشا إلى حلب أمر باطلاق والدته الأمير يونس وعقلاء الشوف ووجهائه الذين كان الحافظ قد أمسكهم بدمشق ، وأرسل فرمان العفو ومندبل الأمان إلى الأمير فخر الدين ليعود آمناً إلى بلاده .

وفي سنة ١٦١٤م وصل جركس باشا إلى دمشق فأرسل إليه الأمير يونس خمسة وعشرين ألف قرش خدمة له ، ومائة ألف قرش لمطبخ السلطان وتعهده بأنه يدفع كل سنة خمسين ألف قرش للسلطان زيادة على مقطوع بلاده وسأله أن

يرسل خمسين رجلاً من عسكره يسكنون بحصن الشقيف وحصن أرنون فارتضى الوزير بذلك وأنعم على الأمير علي بن فخر الدين بولاية صفد وعلى عمه الأمير يونس بولاية صيدا وبيروت وما يليهما .

وفي سنة ١٦١٥م لم يشأ يوسف آغا الذي كان الوزير قد أرسله ليستلم حصن الشقيف وحصن أرنون أن يدخل إليهما قبل أن يخرج الأمير يونس منهما أبناء العرب ، فشق ذلك على الأمير يونس وأخذ في هدمهما فشرّ الوزير بذلك وأمر بدكهما ، فشرع البناءون في نقضهما ، فدكوهما إلى الأرض وترك الوزير للأمير يونس نصف المبلغ الذي كان قد تعهد بادائه كل عام وجعله خمسة وعشرين ألفاً تلافياً من مضرة البلاد .

وأمر الوزير حسين باشا ابن سيفا أن يرفع يده عن بلاد كسروان وبيروت وأن يكف عن المساعدة للشيخ مظفر الذي كان قد أقامه بالشوف ، ولا يحامي ابن الأمير محمد بن جمال الدين في الشويفات ولا المقدمين بيت الصواف بالشبانية ، فلم يمثل حسين باشا الأمر بل اتفق مع الأمير شلهوب الحرفوش وأمرأه رأس نحاش وسرحوا ألفي مقاتل لمقاومة المعنيين ، فجمع الأمير يونس وابن أخيه الأمير علي والأمير علي الشهابي نحو ثلاثة آلاف رجل . والتقى الفريقان عند عين الناعمة وكان الظفر للمعنيين ، وطرّدوا رجال حسين باشا سيفا إلى قرب الشويفات وقتلوا منهم مئتي رجل . وفي ذلك النهار جرت مقاتلات في اعبيه واغنييد وعين دارا بين القيسية واليمنية فكان النصر في جميعها للقيسية الذين هم من حزب آل معن . وأما الأمير يونس فحمل في النهار التالي على بيروت فخرج إليه الوجوه مستسلمين إليه وقدموا له عشرين ألف قرشاً فرضي عنهم وأمنهم . ثم أباح عسكره أن يغزوا بلاد الغرب والجرد والمثن وأن ينهبوا القرى ويحرقوها لأن أهلها كانوا قد نهبوا قرى الشوف وأحرقوها في أيام الحافظ ، فانتهبوا مالهم وأحرقوا قراهم ولا سيما دار الأمير محمد بن جمال الدين بالشويفات ودارالمقدمين بيت الصواف بالشبانية . ولما رأى ذلك الأمير حسين بن يوسف باشا سيفا أخذ عبال أخيه حسن باشا ورحل فيهم من غزير إلى بلاد عكار فأمر الأمير يونس الشيخ أبا نادر الخازن ومملوكه ذا الفقار أن يسكنا بغزير ، ويليا بلاد كسروان ونصب في باقي الأعمال حكاماً يلون أمرها ، وأما الشيخ مظفر والي الشوف قبلاً ، ففرّ إلى الضنية ثم توطن في قرية شدرا بعكار .

وفي سنة ١٦١٦م لما كان حسن باشا ابن سيفاً راجعاً إلى عكار من سفره مع محمد باشا الصدر الأعظم دعاه قراقوش والي حلب إلى وليمة فقبض عليه وقتله ، وكان ذلك بدسيسة من محمد باشا المذكور بسبب أعماله بطرابلس ، وأرسل رأسه إلى الباب العالي . ثم خلع السلطان محمد باشا المذكور ونصب مكانه خليل باشا فهذا سار إلى ديار بكر وأرسل قبجياً من قبله يسمى رستم آغا إلى الأمير علي بن فخر الدين يطلب ارسالية ستين والمال والخدمة المتوجبة للسلطان ، فدفع له الأمير علي ثلاثين ألفاً وخمسة آلاف للقبجي وارفاقه ، وعشرين ألفاً للوزير خليل باشا وخمسة آلاف للدولة معتدراً بأنّ البلاد نهبتها الحافظ وعراها قحط وغلاء ، فقبل الوزير عذره وأرسل إلى دمشق خمسة عشر ألفاً من المال المرتب عليه ثم عزل جركس باشا من ولاية دمشق ونصب مكانه أحمد باشا الجوخ دار ، وأرسل إلى الأمير علي يطلب المال والارسالية (هي مقدمة كانوا يقدمونها للولاة) فدفع إلى رسوله عشرين ألفاً من مال الحكومة ولم يرسل إليه شيئاً على سبيل التقديم ، فخلع الأمير علي عن ولاية صفد ووّلّى عليها حسين اليازجي ، فاستدان هذا مبلغاً ودفعه إلى والي دمشق وحاشيته .

وفي سنة ١٦١٧م توجه حسين اليازجي المذكور إلى ولايته بصفد وقبله من أعيانها بنو منكر وبنو شكر وبنو الصغير ، فشق ذلك على الأمير علي بن فخر الدين فزحف في رجاله إلى صفد ، وكانت وقعة بينه وبين حسين اليازجي قُتل فيها حسين المذكور وتشتت رجاله ، وغنم رجال الأمير علي ما كان معهم ، واسترد هو ولاية صفد وأرسل مقدمة إلى الوزير وتعهد بدفع المبلغ الذي كان حسين اليازجي استدان من بعض الدمشقيين . وصدرت له أوامر الباب العالي بولاية صفد وصيدا وبيروت وما يليها .

وفي هذه السنة عاد الأمير فخر الدين وكان وصوله إلى عكا ومدة غيابه في أوروبا خمس سنين ونرجى تنمة أخباره إلى الفصول الآتية رعايةً لنظام التاريخ لأنّ السلطان أحمد خان توفي هذه السنة في ٢٣ ذي العقدة ١٠٢٦ هـ (الموافقة ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٦١٧ م) .

السلطانان مصطفى خان الأول وعثمان خان الثاني

إنَّ السلطان أحمد خان الأول لم يرع عادة أسلافه بتركهم الملك والخلافة لأحد أبنائهم، بل أوصى بهما لأخيه مصطفى لأنَّ ابنه عثمان كان صغيراً لم يجاوز الثالثة عشرة من عمره. وأما السلطان مصطفى فكان مولده سنة ١٠٠١ هـ فكان عمره عند ارتقائه إلى تخت السلطنة خمساً وعشرين سنة، على أنَّ السلطان مصطفى لم يستمر على أريكة الملك هذه الدفعة إلاَّ نحو ثلاثة أشهر وعزله أصحاب المطامع وفي مقدمتهم المفتي، وساعدهم الانكشارية على ذلك طمعاً بالهبات التي كانوا يعطونها عند تولية كل سلطان جديد، وكان عزله في غرة ربيع الأول سنة ١٥٢٧ هـ (٢٦ شباط سنة ١٦١٨ م).

ونصبوا مكانه السلطان عثمان خان الثاني ابن السلطان أحمد الأول وكان عمه السلطان مصطفى قد أوقف في السجن سفير فرنسا وكاتب سره وترجمانه بسبب أنَّ كاتب السفارة ساعد أحد أشراف بولونيا على الفرار من السجن الذي كان فيه. وأوشكت نار الحرب أن تضطرم بين فرنسا والدولة العلية، فالسلطان عثمان أخرج السفير وترجمانه وكاتبه من محل التوقيف وأرسل حسين جاووش مندوباً من قبله إلى ملك فرنسا يعتذر عما كان ترضية لفرنسة. فانهضت بذلك النازلة وتدخلت بولونيا في أيام السلطان عثمان في شؤون امارة البغدان فتوسل السلطان بذلك إلى اعلان الحرب على بولونيا قاصداً فتح هذه المملكة وجعلها فاصلاً بين أملاك الدولة العثمانية ومملكة روسيا. وأراد أن يمهّد لذلك بالتحوط من بعض عوائق داخلية فأنقص ما كان للمفتي من السلطة في تعيين أصحاب المناصب وعزلهم وقصرها على الافتاء فقط ليأمن شر دسائسه لئلا يعزله كما عزل عمه السلطان مصطفى. ثم سَيَّر الجيش لمحاربة ملك بولونيا، وهاجم العثمانيون البولونيين في عدة حصون فلم يستطيعوا أن يحرزحوم عنها، وطلب الانكشارية الكف عن الحرب، وسأل البولونيون الصلح فاضطرَّ السلطان عثمان أن يقبله فعقد بين الفريقين في ١ تشرين الأول سنة ١٦٢٠ م. وحنق السلطان على الانكشارية لأكراههم اياه على الصلح، وعزم على اقناعهم وأرسل يحشد جيوشاً في آسيا وينظمها ويدربها على القتال. ودرى الانكشارية فهاجوا وماجوا واتفقوا على خلع

السلطان ، ووثبوا على السراي في ٢٠ أيار سنة ١٦٢٢م فخلعوا السلطان عثمان وأعادوا إلى الملك السلطان مصطفى . ولم يكتفوا بذلك بل حملتهم الجسارة والقحة على ارتكاب فظيعة لم يسبق لها مثيل فإنهم أدخلوا السلطان عثمان إلى القلعة المعروفة بحصن سبعة الأبراج وكان آخر العهد به . وبعد هذه الفعلة الشنعاء وإعادة السلطان مصطفى أمست الحكومة بأيدي الانكشارية فكانوا ينصبون من يشاءون من الوزراء ويعزلون من شاءوا ويولون المناصب من أجزل لهم المواهب ، وأصبحوا فوضى ليس لهم رازع ولا رادع وسرت عدوى هذا الوباء إلى سائر ولايات المملكة ، وأشهر بعض الولاة الانتقاض على السلطنة والاستقلال بولاياتهم وسعمت نفوس أهل الآستانة هذه الأحوال ، وأشيع الانكشارية مطامعهم في السلب والنهب والقتل فقرّر رأيهم أخيراً على تولية علي باشا كمانكش منصب الصدارة العظمى ، فأشار بعزل السلطان مصطفى ثانية لضعف عزيمته ووهن قواه العقلية فخلعوه في ١٥ ذي العقدة سنة ١٠٣٢ هـ (١١ ايلول سنة ١٦٢٣ م) وأجلسوا على سرير السلطنة السلطان مراد الرابع ، واستمر السلطان مصطفى معزولاً إلى أن توفي سنة ١٦٣٩م .

عد ٩٩٢

ما كان بسورية في أيام هذين السلطانين

وكان بسورية في أيام هذين السلطانين أن قدم سنة ١٦١٨م إلى طرابلس عمر باشا الكاتبجي والياً عليها فضبط المدينة وبقيت ملحقاتها كلها بيد يوسف باشا سيفاً ولم يعوّضه منها شيئاً فاستنجد عمر باشا الأمير فخر الدين فجمع الرجال من صفد وصيدا والشوف وغيرها وزحف بهم إلى نهر ابراهيم ثم إلى أميون . ولما علم بذلك يوسف باشا سيفاً ارتحل ليلاً واعتصم بحصن عكار فغنم رجال فخر الدين ثقال عسكر يوسف باشا واجتمعوا مع جماعة عمر باشا وحاصروا يوسف باشا . وتضايق لقلة الميرة والمدد حتى أكل جماعته لحم الخيل . فاستنجد نائب دمشق ونائب حلب فأجاباه إلى ذلك وجمعا العساكر وبلغا إلى حماه فكاتبوا عمر باشا والأمير فخر الدين أن يرفعا الحصار عن يوسف باشا فلم يرفعا حتى أدّى لهما مئة ألف قرش وكتب صكاً للأمير فخر الدين بمائة ألف قرش أخرى ، ودوّن صك ابراء

بأنه لم يبق لأحدهما على الآخر حق ولا دعوى . وبعد رفع الحصار عن حصن عكار رجع الأمير فخر الدين وأقام الحصار على قلعة جبيل وهي بولاية آل سيف ، ثم أتمن من كانوا بها فخرجوا منها وأمر بهدمها وكانت حصينة منيعة وقديمة البناء . وولّى على بلاد جبيل الشيخ أبا نادر الخازن وفتح أيضاً قلعة أسمر جبيل ولم يهدمها ، وولّى على بلاد البترون المقدم يوسف بن الشاعر . ثم ورد أمر من الباب العالي بتقرير يوسف باشا سيفاً في ولاية طرابلس فدخلها واستتب له الأمر مدة وجيزة .

وفي سنة ١٦١٩م أرسل الأمير فخر الدين كتحذاه مصطفى آغا إلى دمشق ومعه عشرة آلاف قرشاً تقدمة هذه السنة طالباً أن تحال ولاية طرابلس إلى عهده ، فلم يقبل والي دمشق بذلك بل ولّى على طرابلس حسين باشا الجلالى ، وأنعم على مصطفى آغا المذكور بولاية جبلة واللاذقية ، وأمره أن يهدم القلاع التي كانت بيد يوسف باشا سيفاً وأن يضبط ما له من الأملاك هناك . ولما علم يوسف باشا بذلك أرسل ابنه الأمير حسن إلى الأمير فخر الدين ليستعطف رضاه عنه فالتقاه الأمير فخر الدين بالبشاشة والتكريم وعقد زواج الأمير علي بن فخر الدين على ابنة الأمير حسن بن سيفاً المذكور . وبرى على شقيقته وعقد زواج الأمير بلك بن يوسف باشا على بنت الأمير علي المذكور ووقع الصلح بين يوسف باشا والأمير فخر الدين . ووجه يوسف باشا سيفاً بعض أعوانه إلى الآستانة ومعهم تقادم ومبلغ وافر إلى السلطان ، فصدر الأمر العالي بعزل حسين باشا الجلالى عن ولاية طرابلس وتقريرها على يوسف باشا ابن سيفاً . وفي هذه السنة عُزل مصطفى باشا عن ولاية دمشق وعُهد بها إلى سليمان باشا . وتوفي علي باشا الصدر الأعظم وتولّى هذا المنصب حسين باشا البستنجى .

وفي سنة ١٦٢٠م أرسل حسين باشا الصدر الأعظم مصطفى آغا إلى الأمير فخر الدين مصحوباً بأمر أن يستحصل من يوسف باشا المال المطلوب منه للخزينة ، فنهض الأمير فخر الدين في بعض رجاله وسار إلى أن بلغ برج البحصاص في خارج طرابلس ، فانتقل يوسف باشا إلى جبلة وأرسل ابنه الأمير حسناً إلى الأمير فخر الدين فباعه بالوكالة عن أبيه جميع متخلفات بيت عساف في بيروت ومزرعة انطلياس ودار غزير . وبعد أن تسلم الأمير فخر الدين صكّ البيع أرسل إلى يوسف باشا يطالبه بما عليه للدولة بموجب الأمر فأبى يوسف أن يدفع ما عليه واستنجد

بسليمان باشا والي دمشق وبعرب حمص والبقية وتركمانها ، وحاصر فخر الدين طرابلس وكان معه من السكمان نحو ثمان مئة مقاتل وفتحها وقام الحصار على قلعتها فلم يقوَ على فتحها ونازل الأبراج فكانت عليها وقعات كثيرة ، وقدمت نجدة ليوسف باشا من العرب والتركمان وأرسل سليمان باشا والي دمشق مئة رجل ليسعوا بالصلح فخرج الأمير فخر الدين إلى النهر البارد وتواقع الفريقان هناك فهلك خلق كثير منهما ، ثم قدم مصطفى آغا القبجي من الآستانة ويده خلعة الأمير فخر الدين وأمر سام أن يكفّ عن مطالبة يوسف باشا ابن سيفا ووصلت خمسة مراكب للذب عن ميناء طرابلس ، فلما أطلع الأمير فخر الدين على الأمر السامي ترك طرابلس وعاد إلى بلاده .

وفي سنة ١٦٢١م أُحيلت ولاية طرابلس إلى عهدة عمر بشا الكتمانجي وقدم نائبه إليها ويده كتاب إلى الأمير فخر الدين أن يساعد عمر باشا إذا قاومه يوسف باشا ابن سيفا . ولما بلغ ذلك يوسف باشا تنحّى عن طرابلس وسار في أهله إلى عكار فأرسل الأمير فخر الدين فطرد أتباع يوسف باشا من جبة بشري ووّلّى عليها الشيخ أبا صافي الخازن ، وسلمت ولاية عجلون إلى الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين ، وولاية حمص إلى عمر بك ابن سيفا . وكان وقتئذٍ أن قد عُزل مصطفى باشا عن منصب الصدارة وتولاه محمد باشا الكرجي فجدد الأوامر لوالي دمشق والأمير فخر الدين بأن يعضدا عمر باشا الكتمانجي ويمكّنه من ولاية طرابلس ، وأن تضبط أملاك يوسف باشا سيفا وتورد إلى الخزينة السلطانية بعد أن يوفى منها الدين الذي يثبت عليه . فولّى عمر باشا المذكور أحمد بك على حماة وجعفر أفندي على جبلة ، والأمير فخر الدين على جيبيل والبثرون وجبة بشري والضنية وعكار . وجمع الأمير رجاله وسار إلى طرابلس وصحبه الأمير محمد شهاب فخرج عمر باشا وقاضي البلد وأعيانها إلى لقائه عند برج البحصاص وخلع عليه ، ثم ورد في اليوم الثالث بعد وصوله أمر سام من السلطان بتقرير ولاية طرابلس على يوسف باشا سيفا ، وسبب ذلك أنّ محمد باشا الكرجي عُزل عن منصب الصدارة وارتقى إليه قرا حسين باشا فاضطر عمر باشا والي طرابلس أن يسير مع الأمير فخر الدين إلى بيروت ويعود منها إلى الآستانة . فأرسل يوسف باشا يحصي الأشجار في جبة بشري ، وجار أعوانه في الاحصاء وجباية المال حتى عدوا في اهدن خمسين ألفاً ومائة وخمسة وستين أصلاً ، فهاجر كثيرون من أهل الجبة إلى دمشق وحلب

وغيرهما ، وفي هذه السنة نهب عاشينا بن شلهوب مقدم بشري دير القديس توما بأرض حصرون وقتل القس دانيال العكاري طامعاً بدراهمه ، فقبض عليه الشيخ أبو صافي الخازن وأخذه إلى أسمر جبيل وعرض أمره على الأمير فخر الدين فأمر بقتله ، فقتلوه ودفنوه عند جسر المدفون . وأتى أبوه شلهوب يحتج عنه فقبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن وأرسله إلى الأمير فخر الدين مبيّناً أنه من حزب ابن سيقا فأمر الأمير بقتله .

وفي سنة ١٦٢٢م عزل والي دمشق جماعة الأمير فخر الدين عن ولاية نابلس وعجلون ، وبلغ الأمير فخر الدين أنّ ذلك كان بدسيسة من الأمير يونس الحرفوش فسأه ذلك ونهض من بيروت إلى قب الياس وطلب إليه الأمير حسين ابن الأمير يونس الحرفوش فحضر لديه فادعى عليه الأمير فخر الدين بأنه اشترى من الأمير منصور بن فريخ دار قب الياس وأرض تل نمرا وغيرهما من العقار في البقاع ، وقد غصب هو وأبوه هذه الأملاك فيلزمهما أن يرفعا يدهما عنها ، فأنكر ذلك الأمير حسين وفرّ إلى بعلبك وتوجّه هو وأبوه إلى الزيداني ، فأمر الأمير فخر الدين بنهب البقاع فنهبها رجاله وضبطوا ماشيتها وأخذوا كل ما وصلت أيديهم إليه إلى لبنان ، وهدموا دار قب الياس فتوجه الأمير يونس الحرفوش إلى دمشق ودفع لواليتها ألف ذهب زيادة في المال المرتب على صفد وعجلون فولّاه سنجق صفد وولّى على عجلون الأمير بشير قانصوه حليف الأمير يونس . وتعصّب لهما الأمير أحمد طرييه والشيخ أحمد الكتاني من حكام تلك النواحي فأرسل الأمير فخر الدين إلى الأمير علي الشهابي وإلى حسن الطويل أن يحرقوا قرى عجلون فأحرقوا منها فارا وحلاوة والخربة وأحرق كيوان آغا ناظر عكا جميع قرى الكرمل . وسار الأمير فخر الدين في ألفين وخمسمائة سكماني لغزو بلاد الأمير أحمد طرييه والأمير قانصوه وترك الرجال في جنين وزحف بألف وخمسمائة فارس إلى نهر العوجا فنهبوا المواشي والأثاث ، فاجتمع عليهم العرب وقتلوه واسترجعوا ما نهبوا وقتل من الفريقين جماعة ونكص الأمير في فرسانه إلى خان جلدولية . وكذلك قتل الأمير أحمد طرييه نصوحاً بوكباشي الأمير فخر الدين في ساحل عكا واسترد ما كان انتهبه من الماشية . وسعى الشيخ درويش وكيل الأمير فخر الدين بالآستانة فنال أمراً بتقرير سنجق صفد على الأمير علي بن فخر الدين . ولما بلغ ذلك الأمير فخر الدين توجه إلى صفد ، فهرب الأمير يونس الحرفوش من أمامه فرتب أمور صفد وعرج عند

عودته على الكرك فقتل رجاله ثلاثين رجلاً من أتباع الأمير يونس الحرفوش ، وأحرقوا الكرك وسرعين وغيرهما من قرى بيت الحرفوش ، ويقال أن السبب في ذلك هو أن الأمير موسى الحرفوش كان قبلاً يسلم قسماً من أملاكه لزارعين من الشوف ، ولما تولّى بلاد بعلبك استفحل أمره واقتنى نحو أربعين قطيعاً من الماعز وأشغل نحو ألف فدان في حراثة الأرض لحسابه ومنع أهل الشوف من الزراعة بالبقاع .

وفي سنة ١٦٢٣م وقعت نفرة بين مصطفى باشا والي دمشق وبين الأمير فخر الدين فنهض الوزير المذكور من دمشق في عشرة آلاف مقاتل وانضم إليه الأمير يونس الحرفوش وآل سيفا ، والتقاء الأمير فخر الدين ومعه الأمير علي الشهابي وأخوه الأمير أحمد ، والتحم القتال عند نبع عنجر في لبنان الشرقي ، وكان الظفر للأمير فخر الدين فشنت رجاله عسكر الوزير وقتل وأسر ، وبقي مصطفى باشا وليس حوله إلا عشرة رجال من خواصه ، ووصل إليه الأمير فخر الدين ، ولما عرفه ترجل عن جواده وقبل ذيله وأكرم رجاله وأركبه جواده وأرسل بعض حاشيته بخدمته إلى قب الياس . وسار الأمير فخر الدين في أثره إلى هناك ودخل على الوزير معتذراً له عما كان فاعتذر له الوزير أيضاً عن نهوضه إليه ونسب ذلك إلى الأمير يونس الحرفوش ، وخلع الأمير على الوزير وقرّ عليه وعلى جماعته سناجق عجلون وصفد ونابلس والبقاع العزيز ، ثم سار الوزير والأمير إلى بعلبك ففرّ الأمير يونس الحرفوش إلى معرة النعمان وغنم عسكر الأمير غلال آل حرفوش وكانت نحو ثلاثين هراً (حاصلاً) فانتفع بها القوم من وادي التيم إلى جبة بشري . وحاصر الأمير القلعة وقتل من جماعته ومن كانوا ينقبون في جدرانها نحو أربعين رجلاً ، وورد الخبر أن مراد باشا صاحب حلب قبض على الأمير يونس الحرفوش وسجنه في قلعة سلمية فقطع رجاله الذين كانوا بالقلعة رجاهم وسلموها إلى الأمير فخر الدين فأمر بهدمها .

وفي هذه السنة أيضاً غزا الأمير فخر الدين بلاد عجلون ونابلس وسار إلى نهر العوجا ، ولما قدم إليه ابنه الأمير علي والأمير محمد والأمير أحمد الشهابيان كبسهم العرب وقتلوا من رجالهم نحو مئة وخمسين ، ثم طردهم عرب بني طريه حتى أوصلوهم إلى نهر عين أم العلق وأهل بلاد حارشة حاصروا من كانوا من رجال فخر الدين في قلعة جنين وأخرجوهم منها وقتلوا منهم كثيرين . وعاد الأمير فخر

الدين إلى صيدا فأطلق الأمير أحمد بن طريه أخوته وبنيه فسطوا على بلاد الأمير فخر الدين ونهبوا وقتلوا . ولما خرج عليهم كيوان آغا ناظر عكا هزموه وقتلوا نفرأ من جماعته وغزوا ساحل عكا وجوارها فجمع الأمير فخر الدين رجاله وسار فيهم لقتال الأمير بشير قانصوه المذكور . وكثرت المراسلات بينهما ، وكان آخرها أن الأمير بشير دخل في طاعة الأمير فخر الدين ، فأقامه نائباً لابنه الأمير حسين في تدبير بلاد عجلون كما كان أولاً ، واتفق مع باقي أمراء العرب المذكورين . وفي هذه السنة أيضاً أنشأ الأمير منذر ابن الأمير سليمان علم الدين التنوخي سرايا عظيمة في اعبيه ولم يكملها لزيادة اتساعها . انتهى ملخصاً عن تاريخ العلامة الدويهي وغيره .

عد ٩٩٣

السلطان الغازي مراد خان الرابع

هو ابن السلطان أحمد الأول وُلد في ١٨ جمادى الأول سنة ١٠١٨ هـ (٢٩ آب سنة ١٦٠٩ م) أجلسه الانكشارية على منصبة السلطنة بعد عزل عمه السلطان مصطفى الأول في ١٥ ذي القعدة سنة ١٠٣٢ هـ (١١ ايلول سنة ١٦٢٣ م) واختاروه صغيراً كيلا يكون معترضاً لهم في استبدادهم ولا مضعفاً لنفوذ كلمتهم . واستمروا في العشر السنين الأولى من سلطنته على غيهم وطغيانهم لكنه كبهم بعد ذلك كما سترى .

وأهم الحروب في أيام هذا السلطان كانت حربه مع العجم . فإنَّ الشاه عباس انتهز فرصة الاختلال في الآستانة لتوسيع نطاق أملاكه . وكان أنَّ رئيس الشرطة في بغداد اسمه بكير آغا ثار على والي هذه المدينة وقتله واستبد بالولاية ، فأرسل إليه السلطان عسكرياً أميره حافظ باشا فحاربه وحاصره في بغداد ، فراسل بكير الشاه عباساً بأن يسلمه المدينة فसार الشاه في جنوده ليستلمها ، وعرض بكير آغا على القائد العثماني أيضاً أن يسلمه المدينة إن أقرته الدولة على ولايتها ، فوافقه على ذلك . واحتلَّ الجنود العثمانيون المدينة قبل أن يصل الشاه إليها ، ولما وصل حاصرها ثلاثة أشهر وفتحها بخيانة بكير آغا أيضاً لأنه سلمها إليه على شرط أن يكون والياً

فيها من قبل الشاه . وبعد أن استلمها قتل هذا الخائن وألحق به أباه ، وفي ذلك عبدة لمن اعتبر . وفي سنة ١٦٢٤م سار حافظ باشا الصدر الأعظم إلى بغداد ليستردها وحاصرها وضيق عليها مدة فلم ينل منها مأرباً ، فتذمر الانكشارية وامتنعوا عن الحرب حتى اضطر الصدر الأعظم إلى رفع الحصار والرجوع إلى الموصل ثم إلى ديار بكر حيث ثار الجنود ثانية . فعزل السلطان حافظ باشا الصدر الأعظم وولّى مكانه خليل باشا وكان قد تولاه قبلاً ، وكان أباطة باشا والي أرضروم قد أظهر الانتفاض والعصيان فسار خليل باشا إليه وحاصره ، فلم يقوَ عليه فعزله السلطان وأقام مكانه خسرو باشا . وسار إلى أرضروم وأدخل أباطة في سلك الطاعة ونصّبه والياً في البشناق سنة ١٦٢٨م .

وقد توفي في هذه الأثناء الشاه عباس وتولّى مكانه الشاه مرزا ابنه ، وكان حديث السن فسار خسرو باشا إلى العجم طامعاً أو يدوخها ، وبلغ إلى مدينة همذان فدخلها فجأة سنة ١٦٣٠م ثم قصد بغداد وكانت له في مسيره إليها ثلاث وقعات مع جنود العجم ، وكان النصر له فيها . وبلغ بغداد وحاصرها ودافع عنها قائد حاميتها دفاعاً شديداً ، واضطر خسرو باشا إلى أن يرفع حصار بغداد فلم يمتثل جنوده أمره ، فسار إلى حلب خوفاً من مهاجمة الأعداء له في الموصل ولا ثقة له بجنوده فعزل السلطان خسرو باشا عن منصبه وأقام به حافظ باشا فأظهر خسرو باشا لجنوده أنه لم يُعزل إلا لأنه رفق بهم وطاوعهم على ما يرغبون ، فثاروا وأرسلوا إلى الآستانة يطلبون إرجاعه ، ولما لم يجبههم السلطان إلى ذلك ساروا إلى الآستانة وقاموا سنة ١٦٣٢م بثورة كبرى خيف منها على حياة السلطان . وقتلوا حافظ باشا الصدر الجديد ، فحنق السلطان وأمر بقتل خسرو باشا لاعتقاده أنه هو الذي أوجد هذه الفتنة وولّى في منصب الصدارة بيرام محمد باشا . ومنذ ذلك الحين أخذ السلطان مراد يُظهر شديد العزم والقسوة في مجازاة رؤساء الانكشارية وغيرهم من المقلقين العائين ويأمر بقتل كل من ثبت عليه الاشتراك في ثورة أو فتنة ، فتولّت مهابته القلوب وخشيته الأكابر والأصاغر وأمن الناس على نفوسهم وأموالهم من التعدي ، واستتبت الراحة بالآستانة وسائر أنحاء المملكة بل أفرط في القسوة والعنف حتى قيل أنه منع رعاياه عن استعمال التبغ تحت عقوبة القتل . وكانت آخر ثورات الانكشارية في أيامه سنة ١٦٣٢م أنشأها رجب باشا فأمر السلطان بقتله والقاء جثته من شبايك القصر ليراها المشاغبون فسكنت الخواطر .

وفي سنة ١٦٣٥م سار السلطان مراد بنفسه إلى بلاد العجم ففتح مدينة أريوان وتبريز وعاد إلى الآستانة فتغلب العجم ثانية على أريوان سنة ١٦٣٦م فسار ثانية في جيش كثيف وحاصر بغداد في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٦٣٨م فافتتحها عنوة في ٢٥ كانون الأول من السنة المذكورة، وعرض حينئذ شاه العجم الصلح على أنه يترك للدولة العلية بغداد ويترك له السلطان مدينة أريوان وتوفرت المخابرات بذلك إلى أن وقع على معاهدة الصلح في ١٩ أيلول سنة ١٦٣٩م وانقطعت أسباب العدوان .

عد ٩٩٤

ما كان بسورية في أيام السلطان مراد خان الرابع

في سنة ١٦٢٤م كانت وفاة يوسف باشا التركماني وقد كان تولّى طرابلس مدة سنة ١٥٧٩م فمدة ولايته عليها خمس وأربعون سنة قد تقطعت مراراً وتنقصت كثيراً ولا سيما في المغالبات التي كانت بينه وبين الأمير فخر الدين . وتولّى طرابلس بعده ابنه الأمير قاسم الذي كان حاكماً في جبلة ، واستمر ابنه محمود حاكماً في حصن الأكراد وابنه الأمير بلك في عكار ، ثم حشد الأمير فخر الدين جيشاً سار فيه إلى بعلبك ثم جبة بشري ومنها إلى طرابلس ، فدخلها واستمر جماعته ينهبون ويسلبون مدة أربعين يوماً حتى وصل إليها وزير حلب . ثم قدم مصطفى باشا ابن اسكندر من قبل أحمد الحافظ الصدر الأعظم والياً على طرابلس وظلم كثيراً ، وولّى على عكار الأمير سليمان بن سيفا فهرب أولاد عمه أبناء يوسف باشا إلى الحصن .

وفي سنة ١٦٢٥م أقوت الدولة الأمير فخر الدين على ولاية بعلبك فهرب الأمير حسين ابن الأمير يونس الحرفوش إلى حلب وأخذ يسعى عند وزيرها على الأمير فخر الدين ، ومما قاله : فليطلب الوزير رفع يد الأمير فخر الدين عن القلاع التي بيده ، فإن رفعها اقطع رأسي . فأمكنه الوزير في قلعة حلب تحت هذا الشرط ، ثم اجتمع الأمير قاسم سيفا الذي كان والياً بطرابلس والشيخ علي بن حماده وأحزابهما في قلعة المرقب ، فنهض إليهم مصطفى باشا والي طرابلس

المذكور في عسكره فدفعوا له عشرين ألف قرش استعطافاً لخطره، فعاد إلى طرابلس وكتب إلى الأمير فخر الدين يستنجد به على آل سيف. فحشد الأمير عسكراً ضخماً من سكران وعرب وأهل بلاده وزحف بهم من بيروت إلى البقاع واللبوة والهرمل، وكان الأمير سليمان بن سيفاً معتصماً بحصن صافيتا وعنده نحو أربع مئة رجل، فلما بلغه قدوم الأمير فخر الدين أطلق الرجال وهرب إلى سلمية ليعتصم بالأمير مدلج رئيس قبيلة من العرب، وكان الأمير مدلج مع الوزير الحافظ في حصار بغداد، فلما عاد إلى سلمية قبض على الأمير سليمان وألقاه في نهر الفرات، فاستعطف آل سيف الأمير فخر الدين وسلموا إليه قلعة الحصن وقلعة المرقب فرضي عنهم ومنع صاحب طرابلس من السطو عليهم.

وفي سنة ١٦٢٦م عزل الحافظ أحمد باشا الصدر الأعظم مصطفى باشا عن اية طرابلس وتولى عليها عمر باشا الدفتردار، وعندما وصل مصطفى باشا إلى الوزير وهو في ديار بكر قتله وأخذ ماله. ثم قدمت الشكوى على الأمير فخر الدين أنه جار على رعايا السلطان ونهب طرابلس. وفي أثناء ذلك عزل الحافظ أحمد باشا عن الصدارة وتولاه مكانه خليل باشا، فسار في العساكر إلى حلب قاصداً محاربة الأمير فخر الدين، ولما وصل إلى حلب عزل عمر باشا والي طرابلس وتولى عليها إبراهيم باشا. ولما بلغ ذلك إلى الأمير فخر الدين أرسل عبدالله بكباشيه إلى خليل باشا الصدر الأعظم يعده بخزائن كثيرة وتسليم قلعة الحصن وصافيتا وشميسة والمرقب إليه فارتضى الوزير بذلك وقتل الأمير حسين يونس الحرفوش وتحولت العساكر إلى بغداد لمحاربة شاه العجم.

وفي سنة ١٦٢٧م تولى الأمير فخر الدين محافظة اية طرابلس فأنشأ قناية القاع وعمّر القليعات في جون عكار ونصب في مغرقها أربعة عشر ألف نصبة توت، وغرس بستاناً آخر أكبر من الأول في أرض الحبيصة؟ وفي سنة ١٦٣٠م زحف الأمير فخر الدين إلى بعلبك بالرجال قاصداً الاستيلاء على قلعة تدمر فأخذها من والي دمشق، وفيها حدثت زلزلة هائلة فهدمت البرج الأوسط من قلعة أسمر جبيل، وتوفي بهذا السبب الشيخ نوفل ابن الشيخ نادر الخازن ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش وستة أنفس غيرهما، ثم أخذ الشيخ أبو نوفل في السنة التالية في تجديد ما تهدم من هذه القلعة.

وفي سنة ١٦٣١م كانت وقعة بين الأمير علي ابن الأمير فخر الدين وبين الأمير أحمد قانصوه والشيخ رشيد وأولاد بشير في أرض صفد، فظفر بهم الأمير علي وطلبوا أن يصالحوه فصالحهم وبنى في بلاد صفد مغارة الحمام فوق نبع اسبانيا وجعلها حصناً منيعاً.

وفي سنة ١٦٣٢م بنى الأمير فخر الدين في بيروت البرج الكشاف وخان الوحوش والجنينات.

وفي ١٦٣٣م كثرت الشكايات على الأمير فخر الدين إلى السلطان مراد خان، فأمر كجك أحمد صاحب دمشق أن يجرد جيشاً للقبض عليه فخرج من دمشق بالعساكر ونزل في صحراء خان حاصبيا وشن الغارة على بلاد وادي التيم ولاية الأمراء الشهابيين، فنهبوا وقتلوا وأحرقوا، ولما بلغ ذلك الأمير علي بن فخر الدين أتى مسرعاً برجاله من صفد وباغت العساكر ليلاً ودار القتال بينهم واختلط الجمعان. وقدم الأمير قاسم والأمير حسين الشهابيان لنجدة الأمير علي، ففترق عسكر كجك أحمد وولّى الادبار. فقتل آثارهم الأميران الشهابيان مسافة نحو ساعتين، ولما رجعا وجدا الأمير علياً وقع قتيلاً وبجانبه عصبة من غلمان وأصحابه فبكيا عليه وسألا عن خبره فقالوا رأيناه مذ قدمنا على هذه الحال فغسلوه ودفنوه في ذاك المحل ولما بلغ مقتله أباه وجد عليه جداً.

ولما علم السلطان ما كان من تشتيت عسكر كجك أحمد صدر أمره باهلاك آل معن، وحضر جعفر باشا وزير البحر بالأسطول السلطاني إلى طرابلس ومنها إلى بيروت، وخيم الجنود في ظاهرها وانضم إليهم آل سيف وآل علم الدين بجيش وافر، وأتى الكجك أحمد من دمشق إلى صيدا بإشارة خليل باشا الصدر الأعظم إذ كان بحلب، فأنفض آل معن من أمام هذه الجيوش وانهزموا من بيروت وصيدا، فالأمير حسين ابن الأمير فخر الدين فرّ مع مدبره الشيخ أبي نوفل نادر الخازن إلى قلعة المرقب ليتحصن بها، والأمير ملحم ابن الأمير يونس معن فرّ إلى عجلون ونزل على الأمراء آل طريه والأمير فخر الدين انهزم إلى قلعة شقيف تيرون التي في قرب قرية نيحا وتحصن فيها بعياله ومعه مدبره الشيخ أبو نادر الخازن وسرور آغا وأبو علوان وأبو صافي من حاشيته. وبقي الأمير يونس أخو فخر الدين بدير القمر فوجه جعفر باشا رئيس الأسطول عسكرياً إلى قلعة المرقب فاستولى عليها وقبض على الأمير حسين وسيره إلى حلب إلى خليل باشا الصدر الأعظم، وكتب الكجك أحمد باشا

إلى الأمير يونس وهو في دير القمر أن يحضر إليه آمناً فحضر، ولما دخل عليه ضرب عنقه حالاً ونهض من صيدا نحو الشوف فنهب قراها وقتل وسبى وولّى عليها الأمير علي علم الدين اليميني . ثم توجه لحصار قلعة تبيرون حيث الأمير فخر الدين، فحاصرها وشدّ عليها الحصار وأفسد الماء المنحدر إليها بالدماء والأقذار فتدلّى الأمير فخر الدين منها ليلاً وفرّ بمن معه إلى المغارة التي تحت جزيين وهي حصينة لا يسلك إليها من محل ولا يصعد إليها إلاّ بسلم من خشب فلحقه الوزير إلى هناك وأحضر نقابين نقبوا المغارة وقطعوا صخرها من الأعلى والأسفل فاستولى الوزير عليها وقبض على الأمير فخر الدين وأولاده والأمير منصور والأمير حيدر والأمير بك وعلی مدبره الشيخ أبي نادر الخازن وعلى باقي حاشيته، وأطلق الحرّيم دون أذى . وعاد إلى دمشق بمن قبض عليهم وأما الأمير ملحم ابن الأمير يونس فأرسل وزير دمشق يطلبه من الأمراء آل طريه فسلموه إلى يد ابراهيم آغا مدبر الوزير فأتى به إلى دمشق، ولما وصلوا به إلى خان العبيد الذي تسميه العامة خان الشيخ، عرجوا إليه للمبيت ففرّ الأمير ملحم من على سطح الخان واختبأ تحت معبر الماء القريب من الخان، فخرج الرجال في طلبه فلم يهتدوا إليه مع أنّ مجازهم كان على ذلك المعبر، ولما يئسوا من وجدانه رجعوا إلى الخان وهو يراهم ذهاباً وإياباً، ولما خلا البر منهم نهض من مخبأه وسار حتى بلغ قرية عرنة في سفح جبل الشيخ واختبأ بها مدة ثلاثة أشهر عند رجل من وجهائها كان من غرض المعنيين . وأما الشيخ أبو نادر فكفله الأمير علي علم الدين اليميني وأخرجه من قلعة دمشق وولده الشيخ أبو فاضل نادر الخازن هرب من حلب والأمير فخر الدين وأبناءه أشخصوا إلى الآستانة، ولما مثل الأمير فخر الدين بحضرة السلطان مراد خان لأمه على أمور شتى فاحتج عن نفسه بأنه ما جمع الرجال إلاّ بأمر الوزراء والنواب الطائعين ولا قتل إلاّ العصاة على الدولة وإنّ القلاع التي تولّى عليها أخذها من يد العصاة وسلمها إلى رجال الدولة فتقبل السلطان احتجاجه وطيب خاطره .

وأما الأمير علي علم الدين فبعد أخذ الأمير فخر الدين وأبنائه إلى الآستانة قبض على أصحاب المناصب المعنيين وقتلهم وسلب أموالهم وتوجه إلى قرية اعبيه فدعاه الأمراء التنوخيون للغداء فغدر بهم وقتل الأمير يحيى العاقل والأمير محمود والأمير ناصر الدين والأمير سيف الدين، ثم دهم أبناءهم الصغار في البرج وقتلهم وكانوا ثلاثة، وانقرضت بهؤلاء سلالة أمراء الغرب التنوخيين، وبلغ ذلك إلى الأمير ملحم ابن الأمير يونس المعني وهو في عرنة كما مرّ. فلم يتحمل هذه الحال

وراسل القيسيين فاجتمع عليه جمع منهم فقام بهم إلى الشوف ، وشاع خبره وتحاضرت إليه الأحزاب والأصحاب من كل جهة ، فسار فيهم لقتال الأمير علي علم الدين فالتقاه هذا بجموعه من اليمنية ومعه مدبر الكجك أحمد والي دمشق فالتقى الفريقان في أرض المقيروط (ويروى المقيرض) فوق مجدل معوش . وتسعرت نار الحرب ودارت الدوائر على اليمنية وانفض جمعهم وفرّ أميرهم وقُتل منهم نحو ثلاث مائة رجل ، ومدبر والي دمشق . واشتدت شوكة الأمير ملحّم وكثرت جموعه فانهزم الأمير علي علم الدين إلى طرابلس وسار منها إلى دمشق مستغيثاً بوالها كجك أحمد فأغاثة وأصبحه بخمس مئة مقاتل ، ولما وصلوا إلى قرب قب الياس ألحم سيد أحمد ابن أبي عذرء القتال معهم ومعه أربع مئة رجل ، فأخلى له الأمير علي المحلّة حتى دخل عليها برجاله ثم كثر عليهم الأمير علي برجاله فأحاطوهم من كل جهة وقتلوهم عن آخرهم . ورجع الأمير ملحّم بن بقي من رجاله إلى الشوف فجدد حيثنّ كجك أحمد الشكوى على آل معن ، وإنّ أحدهم الأمير ملحّم ابن أخي الأمير فخر الدين جمع الرجال وقتل مدبر ولاية دمشق وفكك بالعسكر وقصد أن يحاصر دمشق . فحقن السلطان مراد خان وأمر بقتل الأمير فخر الدين وأبنائه الثلاثة الذين كانوا معه في الآستانة فقتلوا ولم يبق منهم إلّا الأمير حسين بن فخر الدين الذي كان خليل باشا الصدر الأعظم قد أحضره من حلب إلى الآستانة ، ولأذ بعقوته ووالا الأمير ملحّم ابن الأمير يونس المذكور ، وكان الأمير قاسم والأمير حسين الشهايبان ينجدانه في قتاله لليمنية وكان الأمير حسين متزوجاً ببنت الأمير ملحّم وولّت الدولة آل سيفا على اية طرابلس واليمنية على الشوف ، وفي أيام الأمير فخر الدين اعتر النصارى وبنوا كنائس وركبوا الخيل مسرجة واعتصموا بعمائم بيضاء وحملوا السلاح مجوهرات ، وقدم إلى لبنان المرسلون الأوروبيون وكان أكثر عسكر فخر الدين من النصارى ومدبروه وخداه موارنة وكان هو شجاعاً حليماً كريماً محنكاً بالسياسة ويقال أنه كان قصير القامة .

وفي سنة ١٦٣٤م تولّى اية طرابلس قاسم باشا ابن يوسف باشا سيفا ، فورد له الأمر السلطاني أن يسير إلى بلاد العجم لمعاونة عساكر الدولة على الأعاجم وأمر بتجهيز العساكر فلم يطاوعه مدبراه حسن آغا ويوسف آغا ولم ينش عن عزمته بل سار مرحلتين واعتراه الخوف فتظاهر بالجنون واعتزل عن عسكره واختفى فرجع عسكره إلى طرابلس واجتمع حيثنّ أعيانها وأقاموا مكانه ابن أخته الأمير علي ابن الأمير محمد سيفا فدبر المدينة شهرين ، فنهض عليه الأمير عساف بن يوسف باشا

سيفا وحاربه فانهزم الأمير علي إلى بيروت والتجأ إلى الأمير علي علم الدين اليمني
المر ذكره واتفقا مع حسن آغا مدبر قاسم باشا سيفا المذكور ، فجمع الأمير علي
علم الدين عسكرياً وصحبه الأمير سيفا وحسن آغا وساروا على طريق الجرد
واستولوا على بلاد جبيل وجبة المنيطرة ، فجمع الأمير عساف سيفا المشايخ الحمادية
وهب لمناوأتهم فأحرق جبة المنيطرة وقتل أبا جمال الدين سيالة وابن أخيه من
المستراحين المتأولة ، واتفق المقدم زين الدين الصواف مع الأمير علي سيفا وسارا
برجالهما إلى قرية ايعال بزاوية طرابلس فجمع الأمير عساف سيفا المشايخ الحمادية
وكبس الأمير علي وزين الدين المذكورين فظفرا به وقتل من أتباع الأمير عساف
الشيخ كنعان بن قانصوه حماده وجماعة كثيرة ، وقطعوا رؤسهم وأرسلوها إلى
طرابلس . وعاد الأمير علي بن محمد سيفا إلى ولاية طرابلس وضّم إليها ولاية
جبيل والبترون . ومن جري ذلك كثر الظلم للرعايا وقبض الأمير علي علم الدين
على جماعة ليقرروا عن أملاك آل معن والمشايع الخوازنة وغيرهم .

وفي سنة ١٦٣٥م تولّى إيالة طرابلس مصطفى باشا النيشانجي وعهد بولاية
جبيل والبترون والضنية إلى الأمير علي سيفا ، وبولاية عكار والحصن وصافيتا إلى
بعض أقربائه . ونصب على جبة بشري الشيخ أبو كرم يعقوب ابن الرئيس الياس
الحدثي والشيخ أبا جبرائيل يوسف الأهدني . ثم صدر الأمر السلطاني إلى مصطفى
باشا صاحب طرابلس المذكور أن يتوجّه لمحاربة شاه العجم ووكل بمحافظة طرابلس
وما يليها إلى الأمير عساف بن يوسف باشا فشق ذلك على الأمير علي ابن أخته
فكبس قرية أميون ونهبها . وكان صحبتته المقدم محمد بن علي الصواف فجمع
الأمير عساف الرجال والتحم بينهما القتال في أرض عرقة في أطراف الزاوية ،
فاندعر الأمير علي وانهزم إلى الشوف . وكانت عيال الأمير علي بيرج سير في
الضنية فدهمهم الأمير عساف وأخذهم إلى عكار واستولى على بلاد جبيل . أما
الأمير علي سيفا فاستنجد بالأمير علي علم الدين حاكم الشوف فنجاه . فعاد
الأمير علي سيفا بالرجال لمقاتلة خاله الأمير عساف ، ودهمه في قرية عناز من بلاد
الحصن فانتصر عليه الأمير عساف وقتل جماعة كثيرة من رجاله واحتملت الرعايا
من جراء ذلك مشاق وخسائر كثيرة .

وفي سنة ١٦٣٦م قصد أحمد الشامي آغا الانكشارية بالشام قتال الأمير علي
علم الدين اليمني لعصيانه وعدم ادائه المال السلطاني ، واتفق معه حاكم صفد
ومتسلم بيروت والمقدم مراد اللمعي والأمير عساف سيفا ، فانهزم من أمامهم الأمير

علي علم الدين ورحل معه اليمنية من المتن والجرد والعرقوب والشحار والشويفات بعيالهم ومواشيهم فكانوا نحو سبعة آلاف نفس ، وتوجهوا نحو كسروان فانهزم من أمامهم القيسية فنهبوا بكفيا ، وتكاثروا عليهم القيسية فكسروهم في مرحاتا ، وقتل الشيخ أبو فارس حبيش ، ثم تواقعوا في المروج فقتل الشيخ حمزي القاضي وانهزم اليمنية من كسروان وساروا إلى عكار على طريق الجرد ، فاجتمعوا برجال الأمير علي سيفا بعرقا وسار أحمد الشامي المذكور بأصحابه وعسكره على طريق الساحل إلى طرابلس وخرجوا لمقاتلة اليمنية عند النهر البارد فظهر عليهم الشامي فاندفعوا من أمامه ولحقهم عسكره في أرض جون عكار فشتمهم وسبى نساءهم ونهب ماشيتهم وأموالهم ثم توسط طربوش البدوي في الصلح بين الأمير عساف سيفا وابن أخته الأمير علي سيفا ، فعقد بينهما في قرية المنى في ناحية طرابلس وعادا مع الأمير علي علم الدين إلى بيروت ، ولما رأى الأمير ملحم المعني المار ذكره ضعف عزيمة اليمنية وانحطاط قوتهم تظاهروا وجمع الرجال وهزم الأمير علي علم الدين اليمني من الشوف واستحوذ عليه .

وفي هذه السنة أيضاً جعل مصطفى باشا والي طرابلس مرضي آغا متسلماً تدبير شؤونها ، فولّى على عكار الأمير عساف سيفا وعلى جبيل والبترون الشيخ علياً والشيخ أحمد ابني قانصوه حماده وجمع الأمراء الحرافشة العرب والسكمان وقصدوا استرداد ولايتهم على بلاد بعلبك ، وعلم بذلك والي دمشق فأرسل إليهم عسكراً فقتلوا من الحرافشة ورجالهم خلقاً كثيراً . ثم أرسل الباب العالي متسلماً إلى طرابلس وإذ بلغ ذلك مصطفى باشا أرسل رجالاً أرجعوه من طريقه إلى حماة ، وبعث مدبره وبعض حاشيته ليجتمعوا بالأمراء آل سيفا والمشايخ بني جمادة في قرية بقرزلا ، فلم يدعن آل سيفا لرأيه في مخالفة الدولة ، ووقع الخلاف بين الفريقين فقتل آل سيفا الشيخ أحمد حماده ومدبر مصطفى باشا وحاشيته ، ولما بلغ ذلك إلى مصطفى باشا انهزم ليلاً من طرابلس ودخل المتسلم المرسل من الباب العالي إلى المدينة مع الأمير عساف والأمير علي سيفا . وهذه السنة أيضاً كانت وقعة في أرض احمج بين المشايخ الحمادية الذين تولّوا كما مرّ على بلاد جبيل والبترون وبين الأمير اسماعيل الكردي من أمراء راس نحاش ومحمد بن يوسف آغا ، فانتصر الأمير اسماعيل على الحمادية وتولّى محمد بن يوسف آغا على بلاد جبيل والبترون .

وفي سنة ١٦٣٧م ارتحل الأمير عساف سيفاً إلى جبيل واتفق مع الأمير ملحم ابن الأمير يونس معن وآل مدلج الحيارى من العرب على محاربة ابن أخته الأمير علي سيفاً. واتفق مع هذا الأمير علي علم الدين والتقى الفريقان برجالهما في عكار فطرد الأمير عساف الأمير علياً حتى إلى جبل الكلبية وشاع حينئذ أن والي طرابلس غزل ونُصب مكانه شاهين باشا، فعاد الأمير ملحم المعني إلى الشوف والأمير عساف إلى البقعة. ولما بلغ إليها شاهين باشا رُفعت إليه الشكاوى بأن آل سيفاً خربوا بلاد السلطان فأرسل إليه الأمير عساف مدبره وأصبحه بخيل وتقادم فخلع شاهين باشا على المدبر وأرسله يؤمن الأمير عساف، فحضر الأمير إلى الباشا فأمر برفعه إلى قلعة الحصن، وفي اليوم الثاني شنقوه. وأمر شاهين باشا بالقبض على أتباعه فلم ينبج منهم إلا القليل واستخدم الباشا الأمير اسماعيل الكردي من رأس نحاش والشيخ علي حماده وأمرهما بالقبض على الأمراء آل سيفاً فقبضوا على الأمير قاسم الذي كان قد تولّى طرابلس ثم تظاهر بالجنون كما مرّ. وعلى أبناء آل سيفاً ونسائهم وأخذوا يفتشون في القرى والأديار على أموالهم. وفزّ الأمير علي سيفاً إلى الأمير علي علم الدين وتشتت آل سيفاً من إيالة طرابلس. وفي هذه السنة أخذ الأمير علي علم الدين الولاية على بلاد الشوف من قبل نائب السلطنة بدمشق فانهمز المشايخ الخوازنة والحبيشية من كسروان إلى بلاد جبيل.

وفي سنة ١٦٣٨م قدم السلطان مراد خان إلى حلب في جيش جرار قاصداً بغداد لاستردادها من شاه العجم، فوجس الأمير علي علم الدين من قدوم السلطان والتجأ إلى المتأولة ببلاد بشارة فلما علم الأمير ملحم المعني بذلك جمع عسكراً ودهم الأمير علياً في قرية انصار وقتل كثيرين من جماعته، ففزّ الأمير علي إلى دمشق مستغيثاً بواليتها، فأغاثة وأرسل معه سكمناً زحف بهم على الأمير ملحم ففزّ من أمامه، وفزّ كثيرون من أهل الشوف والغرب والجرد والمتن. ثم أرسل والي دمشق عمدة من قبله ويدهم أمر سلطاني فحواه أن بلاد جبيل والبترون وجبة بشري تنسلخ من إيالة طرابلس وتتبع إيالة دمشق ونُصب أحمد آغا الشمالي حاكماً ببيروت وصيدا، فهض عليه الأمير علي علم الدين والتقيا في خلدة فقتل الأمير علي الحاكم المذكور.

وفي سنة ١٦٣٩م غزل محمد باشا ابن درويش عن ولاية طرابلس وتولاها محمد باشا الأرناؤوطي وكان مدبره مصطفى بك ابن الصهيوني وفي غضون ذلك

كبس الأمير علي علم الدين قرية مشغرة بالبقاع ونهبها وسار إلى بيروت وتوطن فيها، وطلب والي طرابلس حكام أعمال ولايته فحضرُوا لديه إلا آل سيفا وأبو كرم الحدّثي حاكم جبة بشري المذكور. وتوفي السلطان مراد في ١٦ شوال سنة ١٠٤٩ هـ (٩ شباط سنة ١٦٤٠ م) وعمره ٣١ سنة ومدة سلطنته نحو ١٧ سنة وخلفه أخوه السلطان ابراهيم.

عد ٩٩٥

السلطان ابراهيم خان الأول

هو ابن السلطان أحمد الأول وأخو السلطان مراد الرابع وُلد في ١٢ شوال سنة ١٠٢٤ هـ (٤ تشرين الثاني سنة ١٦١٥ م) واستوى على أريكة الملك بعد وفاة أخيه السلطان مراد سنة ١٦٤٠م كما مرّ. ولم يكن تولّى منصباً في الدولة كغيره من السلاطين بل عاش بين الحزم ولم يكن ميالاً إلى الحرب، وأوعز إلى أمير ترنسلقانيا أن لا يحرك ساكناً يثير النمسا، لكنه لم يكن يرضى على من يعتدي على الدولة. ولذلك لما سطا الكوزاك سنة ١٦٤٢م على مدينة أزوف واحتلوها أرسل إليهم جيشاً نكّل بهم واسترد المدينة من أيديهم بعد أن كانوا قد أحرقوها، وجهاز عسكرياً وأسطولاً لفتح جزيرة كريت من يد البنادقة لأنهم قبضوا على أخي السلطان وعمته وهما متوجهان بحراً إلى مكة للحج. ويقال إنّ هذا الأمير تنصّر وترهب في رهبانية القديس عبد الأحد وصار كاهناً وتوفي سنة ١٦٦١ م. وأمر السلطان على جيشه يوسف باشا وألقت سفنه مراسيها أمام مدينة خاناية في ٢٤ حزيران سنة ١٦٤٥م وكانت هذه الجزيرة يومئذ من أملاك البندقية فاستحوذ العثمانيون على المدينة المذكورة لتأخر سفن البندقية عن الوصول إليها في الوقت المناسب، وحمل البنادقة على أملاك الدولة في بلاد اليونان فأحرقوا بتراس وكورون ومودون بالمورة. ويقال أنّ السلطان ابراهيم إراد في مقابلة ذلك أن يهلك النصاري في مملكته فعارضه المفتي أسعد زاده أبو سعيد أفندي في ذلك وقيل إنّ الافرنج أدخلوا هذه القصة في تواريخهم.

وفي سنة ١٦٤٦ م. فتحت عساكر السلطان ابراهيم أكثر الجزيرة، وفي السنة

التالية حاصرت مدينة كنديا عاصمة هذه الجزيرة فحال دون فتحها ثورة الجنود في الآستانة كما سيأتي .

وأما البنادقة ومحاربوهم فافتتحوا عدة قلاع في أملاك الدولة بدماسيا واتصلت مراكبهم إلى محاصرة الدردنل ، وجهزت روسيا جيشاً وأرسلته إلى رومانيا ليستحوذ عليها . وكثر القلق وعظم الشغب والتذمر من السلطان ابراهيم فأراد السلطان أن يفتك برؤساء الانكشارية في ليلة زفاف إحدى بناته لتذمرهم وانتقادهم أعماله ورغبتهم في التدخل في شؤون المملكة ، فعلموا بمقصد السلطان واثتمروا عليه واجتمعوا بمسجد يقال له اورطه جامع ، وانضم إليهم بعض العلماء والمفتي عبد الرحيم أفندي وهيّجوا الانكشارية وغيرهم من العسكر وقرروا جميعاً عزله وتولية ابنه محمد الذي كان قد أتم السابعة عشرة من عمره ، فخلعوه في ١٨ رجب سنة ١٠٥٨ هـ (٨ آب سنة ١٦٤٨ م) وبعد ذلك بعشرة أيام أظهر بعض الجنود كدرهم من السلطان الحديث سناً وسلطنته وطلبوا إعادة السلطان ابراهيم إلى الملك ، وخاف رؤساء العصاة الذين عزلوه ان يعرّضوا إلى السلطنة فينتقم منهم فأفردوه في السراي وكان آخر العهد به . وكانت مدة ملكه ٨ سنين وتسعة أشهر وعمره ٣٤ سنة . وكان وزراؤه في الصدارة قره مصطفى فقتله ونصب مكانه محمد باشا أحد أنسبائه .

عد ٩٩٦

ما كان بسورية في عهد السلطان ابراهيم الأول

في سنة ١٦٤٠م كبس والي طرابلس محمد باشا الأرناؤوطي الشيخ أبا كرم الحداثي شيخ جبة بشري المار ذكره لأنه لم يحضر للسلام عليه عند قدومه ، ففرّ وقبضوا على ابن عمه سعد (ويروى مسعد) وأخذوا يفتشون عليه القرى والأديار وينزلون بسكانها البلاء والدمار ، وضيّقوا عليهم ، فلم يحتمل الشيخ أبو كرم هذا التكنيل بأهل بلاده فنزل طائعاً إلى المدينة واستسلم إلى واليها على يد القاضي ، فأمر الوزير برفعه إلى القلعة ثم طوّفه راكباً على جمل في شوارع المدينة وعرض عليه الاسلام فأبى ، فأماتوه معلقاً على كلاب . وفي هذه السنة دهم وزير طرابلس

الأمير سليمان سيفاً في عكار فظفر به ونهب بلاده ونزح أهلها إلى طرابلس . وفيها توجه حميدان الشعار إلى طرابلس يطلب رزقه من كاتب واليها فأبى أن يؤديه فقتل حميدان ذلك الكاتب وولده مصطفى ونجا فجمع مدبر الوزير الرجال وجدّ السير بطلب حميدان فلم يدركه . فنهب قرية حردين وكفور العربة وفيها توفي الشيخ علي بن قانصوه حماده ودُفن في طورزيا (بيلاد جبيل) وقام بعده الشيخ أبو محمد مرجان شيخاً على بيت حماده .

وفي سنة ١٦٤١م غضب والي طرابلس على المشايخ الحمادية ففرّوا من وادي علمات وبلاد جبيل وقتل منهم محمد ياغي بن قمر الدين وصعب بن حيدر وبعض جماعته . وتولّى بلادهم الأمير علي علم الدين اليمني . وفيها كانت وفاة الشيخ أبي جبرائيل يوسف ابن الشمس جرجس الأهدني بعد أن تولّى جبة بشري عشر سنين وشاركه في بعضها الشيخ أبو كرم الحديثي المار ذكره . وخلف الشيخ أبا جبرائيل المذكور أخوه الشدياق أبو ذيب حنا فقتله محمد العراك في زغرتا بدسياسة من بيت حماده وتولّى حكم بشري حيثليّ المقدّم زين الدين بن الصواف وكان معه أبو عون الغمة (؟) من بكفيا .

وفي ١٦٤٢م صدرت أوامر سلطانية أن تكون بيروت وصيدا تحت ولاية أحمد باشا الأرناؤوطي والي طرابلس فأرسل مدبره زيني آغا ليستلمها ، وكان الأمير ملحم معن بيلاد الشوف والأمير علي علم الدين بقرية بشتودار من أعمال البترون ، فكبس الأمير علي الشيخ سرحال حماده بقرية غبالة من عمل فتوح كسروان فنهب القرية وقتل خمسة أنفار من أولاد سرحال وأقاربه وطرده الحمادية من ايلة طرابلس . وكان مع الأمير علي الأمير اسماعيل الكردي من راس نحاش ، والمقدّم علي بن الشاعر ، وبعض من بيت حماده . وفيها بنى أحمد باشا الأرناؤوطي داراً على نهر رشعين وثقل على الناس بالضرائب التي فرضها لذلك وضايقهم بالسخرة لعماره .

وفي ١٦٤٤م غزل أحمد باشا الأرناؤوطي عن ولاية طرابلس ونُصب مكانه حسن باشا ، وكان مدبره الشيخ أبو رزق البشعلاني . وفيها توجه رجال إلى الآستانة يشكون إلى الباب العالي جور الحكام عليهم بالضرائب والخراج ويلتمسون احصاء الأشجار والرجال والبيوت لتخفيف الظلم عنهم ، فأرسل الباب العالي عمالاً

أحصوا الأشجار والرجال والبيوت وبعد أن عادوا إلى الآستانة أبطل الوالي ما عملوه وعاد يضايقهم كما كان أولاً فتشتت الأهالي .

وفي سنة ١٦٤٥م جعل السلطان ابراهيم خان المشايخ أولاد الحسامي مشايخ جبيل من سلك الانكشارية فضربت لهم النوبة السلطانية وباشروا بترميم أسوار المدينة وقلعتها .

وفي سنة ١٦٤٦م غزل حسن باشا عن ايالة طرابلس وعاد إليها محمد (وقد دعاه أحياناً أحمد) الأرناؤوطي ، وكان مدبره مصطفى الصهيوني والحاج قمر الدين ، وكان مطلوب الدولة من ايالة طرابلس ثلاث مئة ألف قرش بدلاً عن غلال الزيتون التي كانت الدولة تأخذ نصفها ، فوزعوها على الرؤوس والأرض فأصاب مفلح كل فدان ورأس كل انسان أربعة وعشرين قرشاً وكل مائة أصل زيتون خمسة قروش وكل مائة توتة أربعة قروش ونصف . فتضايق الرعايا وتشتتوا عن مواطنهم وخلت بعض القرى من السكان .

وفي سنة ١٦٤٧م غزل محمد باشا الأرناؤوطي عن ايالة طرابلس وتولّاها محمد باشا الصوفي . ولم يستتم السنة من ولايته وعاد إليها محمد باشا الأرناؤوطي وفرض على الناس قدومية وعيدية ، وكان شنبل القمح بقرش . وفيها في أول تموز توفي الشيخ أبو نادر الخازن كأخيه الأمير فخر الدين المعني ، وكان قد تولّى كسروان وجبيل والبثرون وجمة بشري والمرقب ، وكان ورعاً غيوراً على الدين . وقام بعده ابنه نوفل نادر الخازن . ولم يكن أقلّ من أبيه ورعاً وغيره وكرم أخلاق . انتهى ملخصاً عن تاريخ العلامة الدويهي وغيره .

عد ٩٩٧

السلطان محمد خان الرابع

بعد خلع السلطان ابراهيم خان في ٨ آب ١٦٤٨م أقام المفتي والعلماء والجنود ابنه السلطان محمد خان الرابع ولم يكن أتمّ السنة السابعة من عمره ، فأصبحت السلطنة بيدهم على اختلاف أغراضهم ونزعاتهم ، وأصبحوا فوضى لا وازع ولا رادع بينهم ولا نظام يوقفهم عن مطامعهم . ولم يكن من يرحم فقيراً أو يوقر

كبيراً. وسرت عدوى هذا الفساد إلى الجنود الذين كانوا محاصرين كندية عاصمة كريت حتى اضطر قائدهم السر عسكر حسين باشا أن يرفع الحصار. واتصل الخلل إلى الجنود البحرية فانتصر الأسطول البندقي على الأسطول العثماني سنة ١٦٤٩م واحتلّ البنادقة بتندوس وبنوس وغيرهما من الجزر والثغور، ومنعوا السفن الحاملة المؤن من الوصول إلى الآستانة فغلت الأسعار واستمرت على هذه الحال إلى أن قبيض الله أن يتولّى منصب الصدارة محمد باشا المعروف بالكوبرلي سنة ١٦٥٦م، فعامل الانكشارية بالقسوة وقتل منهم خلقاً كثيراً عندما ثاروا كعادتهم، فخدمت جذوة تعديدهم وعشومهم. وأرسل سنة ١٦٥٧م أسطولاً لمحاربة سفن البنادقة المحاصرة للدردنيل، فحاربها ولم يتح الله حينئذ النصر للجنود العثمانيين. ولكن بعد أن توفي قائد الأسطول البندقي انتصر الأسطول العثماني واستردّ من البنادقة ما احتلوه من الثغور والجزر.

وفي سنة ١٦٥٨ انتقض والي ترنسلفانيا على الدولة وحارب جنودها وظهر عليهم، فسار إليه محمد باشا الكوبرلي الصدر الأعظم فقمعه وطرده من البلاد ونصب مكانه والياً شرطاً عليه أن يدفع كل سنة أربعين ألف دوكا. ثم انتقض أمير الفلاخ أيضاً واتفق معه أمير ترنسلفانيا المذكور فعاد إليهما الصدر الأعظم وانتصر عليهما نصراً مبيناً، وفي مدة هذا الوزير حصل فتور في التحاب بين الدولة العلية ودولة فرنسة، فإنّ هذه الدولة ساعدت أولاً سراً البنادقة على العساكر العثمانية في حرب كريت، ووقع بيد الوزير مراسلات رمزية بين البنادقة والفرنسيين ولم يتمكن الوزير من حلّ رموزها، فاستدعى إليه وهو في أدرة سفير فرنسة من الآستانة فاعتذر بمرضه وأرسل ابنه نيابةً عنه. ولما لم يجب الوزير إلى مرغوبه حبسه فشخص السفير إلى أدرة ولم يجبه إلى حلّ رموز المراسلات، فاستمر ابنه في السجن، فأرسل الكردينال مازرين وزير فرنسة إلى السلطان سفيراً مخصوصاً يطلب الترضية بعزل الوزير فلم يجبه السلطان إلى ما طلب. وأطلق الوزير سراح ابن السفير فأخذت فرنسة تساعد البنادقة جهاراً في كريت. وفي سنة ١٦٦١م دهم الوزير مرض المنية فاستشاره السلطان بمن يعيّن خلفاً له فأشار بتصيب ولده أحمد باشا فنصبه السلطان بعد وفاة أبيه.

واقتردى أحمد باشا كوبرلي بأبيه بضبط عنان الجنود ومجازاة كل من أنحلّ منهم، ومحاربة أعداء الدولة، وكاشفته دولة النمسا وجمهورية البندقية بالصلح

فأباه، وقاد الجيوش بنفسه لمحاربة النمسا. وحاصر قلعة نومفرل في ١٧ آب سنة ١٦٦٣م. وكانت هذه القلعة على غاية المناعة ومع ذلك أكره أحمد باشا حاميتها على التسليم إليه بشرط خروجهم منها سالمين وتركهم فيها كل ما كان عندهم من السلاح والذخائر، وأخلوها في ٢٨ أيلول سنة ١٦٦٣م. فارتاعت دول أوروبا من سطوة العثمانيين ولا سيما ليوبولد عاهل النمسا، واستغاث بالبا اسكندر السابع سائلاً إياه أن يجعل لويس الرابع عشر ملك فرنسا ينجده، فأقنع البابا ملك فرنسا بذلك فأرسل إليه ستة آلاف جندي فرنسي وأربعة وعشرين ألفاً من محالفيه الألمانين بقيادة الكونت كوليني. وانضم هؤلاء إلى الجيش النمساوي وتسعرت نار الحرب وكان النصر أولاً للعثمانيين فاحتلوا بعض المدن، ولكن صبر النمساويون والفرنسيون خاصة على القتال وأوقفوا العثمانيين عن التقدم، ودامت الحرب النهار كله ولم تكن نتيجة فاصلة. وتسمى هذه الوقعة وقعة سان جوتار نسبة إلى كنيسة كانت الحرب في جانبها. وتبادلت المخابرات الصلح بين الفريقين ففقد بينهما سنة ١٦٦٤م وفي جملة شروطه قسمة بلاد المجر بين الدولة العلية والنمسا على أن يكون للنمسا ثلاث ولايات منها وللدولة العثمانية أربع.

ومع ذلك استمرت مراكب فرنسا تطارد سفن المغرب بحجة أنها تغزو سفنها حتى استولى الفرنسيون على اقليتي الجزائر وتونس، وأرسل وزير فرنسا سفيراً إلى الآستانة لاصلاح ذات البين فلم يقبل أحمد باشا الصدر الأعظم أن يجدد المعاهدات التجارية مع دولة فرنسا وأمر بمنع مرور بضائع تجارتها إلى الهند بطريق مصر فجاءت فرنسا بمساعدة مدينة كنديا عاصمة كريت على محاربة العثمانيين، وسار الصدر الأعظم بنفسه إلى كنديا سنة ١٦٦٧م فلم يقوَ على أخذ هذه الجزيرة إلا في سنة ١٦٦٩م بمقتضى معاهدة بين الدولة العلية وجمهورية السندقية، على أن هذه الجمهورية تتخلى للدولة العلية عن كريت ويبقى لها منها ثلاث مراسي لسفنها ووقع على هذه العهدة سنة ١٦٧٠م.

وفي السنة المذكورة أرسل لويس الرابع عشر ملك فرنسا سفيراً إلى الآستانة في أسطول بحري لارهاب الصدر الأعظم ليدعن إلي ما تطلبه فرنسا فلم يرهب الوزير بل أجاب السفير أن المعاهدات السابقة لم تكن إلا منحاً سلطانية يحق لهم الرجوع عنها، وإذا لم يرضه هذا الجواب فليرحل. ولما بلغ هذا الجواب لويس الرابع عشر لم ير من السداد اعلان الحرب على الدولة بل صمم على ملايتها، وتمكن بأصالة

رأيه وحكمة وزيره كولبر خليفة الكردينال مازرين من تجديد الدولة المعاهدات التجارية مع فرنسا سنة ١٦٧٣م وردّ إليها حماية الأماكن المقدّسة كما كان من أيام السلطان سليمان الأول. وعادت علاقات الدولتين إلى صفائها.

وفي سنة ١٦٧٢م أغار ملك بولونيا على بلاد الكوزاك الخاضعة للسلطان، فسار السلطان بنفسه إلى هذه البلاد واحتلّ بعض حصونها ومدنها، فطلب ملك بولونيا الصلح ووقع على معاهدته في ١٨ ايلول سنة ١٦٧٢م، ولكن لم تقبل الأمة البولونية هذا الصلح، وأرسلت جيشها تحت قيادة سويسكي القائد الشهير لمحاربة العثمانيين، فاسترد المدن التي كانوا قد استولوا عليها، ومات ميخائيل ملك بولونيا المذكور، فانتخب البولونيون القائد المذكور ملكاً عليهم مكافأة له. ودامت الحرب بين الدولتين سجلاً إلى سنة ١٦٧٦م حين جدد سويسكي الصلح مع العثمانيين مع تغيير قليل في الشروط التي كانت في أيام الملك ميخائيل، وكانت هذه المعاهدة خاتمة أعمال الوزير أحمد باشا كوبرلي الذي توفي في ٣ تشرين الأول سنة ١٦٧٦م، وتقلّد منصب الصدارة بعده زوج أخته مصطفى ولكنه لم يحسن السياسة كما فعل سالفاه محمد باشا وأحمد باشا كوبرلي.

وفي سنة ١٦٨١م سار هذا الوزير إلى المجر قاصداً محاربة النمسا، وبعد أن انتصر على عساكرها في وقعات بالمجر، قصد مدينة فيينا عاصمة النمسا فحاصرها سنة ١٦٨٣م واستحوذ على قلاعها الخارجة وهدم أسوارها بالمدافع، لم يبقَ عليه لتتمة الفتح إلا المهاجمة الأخيرة، فوفد عليه سويسكي ملك بولونيا وأمراء ساكس وبفيارا بجيوشهم. وفي ١٢ ايلول سنة ١٦٨٣م هاجموا الجنود العثمانيين واستمر القتال النهار كله، ودارت أخيراً الدوائر على العثمانيين واندفعوا أمام أعدائهم وانهزم قره مصطفى باشا تاركاً المدافع والذخائر التي كانت في معسكره وقفل راجعاً إلى الآستانة والملك سويسكي يعدو في أثرهم ويقتل كل من تخلف منهم. ولما بلغ خبر هذا الانخزال إلى السلطان أمر بقتل الصدر الأعظم قره مصطفى باشا المذكور، وأنفذ أحد رجال حاشيته فقتله وأرسل إلى السلطان رأسه، فنصب مكانه ابراهيم باشا سنة ١٦٨٤م.

وبعد اندحار العثمانيين في وقائع فيينا تألّبت النمسا والبندقية وبولونيا وروسيا على محاربة الدولة العلية وهي منفردة، وسمى هذا التحالف أصحابه التحالف

المقدس . وزاد الحال ارتباكاً حصول الفتور بين الدولة العلية وفرنسة ، وزحفت
عساكر الدول المتحدة على المملكة العثمانية من كل صوب ، فسارت عساكر
سويسكي ملك بولونيا نحو بلاد البغدان ، وسفن البندقية ومالطا إلى بلاد اليونان
والمورة فاحتلت جيوش البنادقة أكثر مدن اليونان سنة ١٦٨٦م وزحفت عساكر
النمسا إلى المجر فاحتلت عدة حصون وقلاع سنة ١٦٨٥م فعزل السلطان ابراهيم
باشا الصدر الأعظم ونفاه إلى جزيرة رودس وولى مكانه السر عسكر سليمان باشا
وكان مشهوراً بشجاعته وحسن تديره ، ولكن تعثر كثيراً انهاض الدولة بعد هذا
التقهقر . وكانت جيوش النمسا بقيادة الدوك دي لورين الشهير ، وكانت باكورة
أعمال سليمان باشا اسرعه إلى نجدة مدينة بودا التي كان الدوك دي لورين
يحاصرها بتسعين ألف جندي فلم يتمكن من رفع الحصار عنها بل دخلها القائد
المذكور في ٢ ايلول سنة ١٦٨٦م وقتل حاكمها وأربعة آلاف من حنوده ،
فخرجت هذه المدينة من أملاك الدولة إلى اليوم .

وجمع سليمان باشا من بقايا الجنود العثمانيين جيشاً مؤلفاً من ستين ألف
جندي يعززهم سبعون مدفعاً ، وصرف مدة الشتاء في تدريب عسكره وتجهيز
المعدات ، ثم هاجم عساكر الدول المتحدة في ١٢ آب سنة ١٦٨٧م في سهل
موهاكر . واشتد القتال فانخلد الجنود العثمانيون وانهزموا عن آخرهم وغنم أعدائهم
مدافعهم وسلاحهم وذخائرهم ، واحتلوا اقليم ترنسلفانيا وعدة قلاع من غرواسية .
ولما بلغ خبر هذا الاندحار إلى الأستانة هاج وماج الجنود الباقون فيها وأرسلوا إلى
بقايا عسكر سليمان باشا أن يشوروا عليه ، فثاروا ولولا فراره إلى بلغراد لقتلوه ، ثم
أرسلوا وفداً إلى الأستانة يطلبون أن يأمر بقتل هذا الصدر فأمر بقتله
اخماداً لثورتهم وتفادياً من حنقهم ، وخيف على المملكة من الداخل والخارج فقرر
بعض الوزراء والعلماء خلع السلطان محمد الرابع فخلعوه في ٨ تشرين الثاني سنة
١٦٨٧م بعد أن حكم أربعين سنة قمرية وخمسة أشهر ثم توفي معزولاً سنة
١٦٩٢م ونصبوا بعد خلعه أخاه السلطان سليمان خان الثاني .

ما كان بسورية في أيام السلطان محمد الرابع

في سنة ١٦٤٩م عُزل محمد باشا الأرناؤوطي عن ولاية طرابلس وتولاها مكانه صهره عمر بك وسمي عمر باشا، فوقف أولاً حسن ديب بن علي حماده الذي كان مديراً لسالفه ثم عزله عن منصبه وأقام به ابن الصهيوني وأبا رزق البشعلاني، وجعل أبا صعب أخا البشعلاني حاكماً في جبة بشري. وفي سنة ١٦٥٠م ولّى عمر باشا صاحب طرابلس الأمير ملحم المعني على بلاد البترون فأرسل الأمير ملحم الشيخ أبا نوفل الخازن يجبي المال من هذه البلاد. وفيها كانت وقعة في وادي التيم لأنّ الأمير علي علم الدين اليمني سعى لدى بشير باشا والي دمشق بالأمير ملحم المعني وأوغر صدره عليه، فنهض بعسكره إلى وادي التيم قاصداً التنكيل بالأمير ملحم وجماعته، فالتقاه الأمير بعسكره إلى المحل المذكور وتسعرت نار الحرب بين العسكرين فظهر الأمير ملحم على بشير باشا وولّى الادبار إلى دمشق.

وفي سنة ١٦٥١م عُزل عمر باشا المذكور عن اية طرابلس وتولاها عوضه حسن باشا واتخذ مديراً له الشيخ أبا رزق البشعلاني، فاتفق هذا مع الأمير اسماعيل الكردي من راس نحاش والمقدم علي بن الشاعر على المشايخ آل حماده المتأولة، وعهد إلى حسن آغا بأن يجبي المال من بلاد عكار ويدفعه إلى الأمير ملحم المعني، ثم تقوى على هؤلاء مصطفى باشا الصهيوني الذي كان قبلاً مديراً لولاية طرابلس وعاد إلى تدبيرها، فسلم جبة بشري إلى أبي شاهين علي بن العجال من بشناتا (بالضنية) وانكسرت شوكة أبي رزق البشعلاني وأحزابه وطرده الشيخ سرحال حماده من عكار حسن آغا الذي كان البشعلاني أرسله لجباية المال منها.

وفي سنة ١٦٥٢ عاد محمد باشا الأرناؤوطي إلى اية طرابلس وسلم تدبير أمورها إلى الشيخ أبي رزق البشعلاني وأقام حكماً في أعمالها من اختارهم وسمي البشعلاني شيخ المشايخ وضربت له النوبة السلطانية فشق على المسلمين انقيادهم إليه وهو نصراني.

وفي سنة ١٦٥٣م قبض محمد باشا والي طرابلس على البشعلاني المذكور وسبب ذلك أنه قدم إلى دار البشعلاني بعض المشايخ الحيشية ومعهم رجال لهمة زواج أحدهم ، فعرض بعض الوشاة للوالي أن قدومهم إنما كان ليأخذوا البشعلاني إلى بلاد الأمير ملحم المعني ، فأمر الوزير بالقبض عليه وعلى أولاده ومن قدموا إليه ورفعوهم إلى القلعة وأوثقوهم بالقيود وكانوا تسعين رجلاً . ثم نهبوا دار البشعلاني وأخذوا أمواله . ثم توجه الوالي إلى حماة لجباية المال فأخذ معه البشعلاني وسائر المسجونين ، وحاسب البشعلاني فثبت له عنده اثنا عشر ألف قرشاً . وفي أثناء ذلك ورد الأمر بعزل محمد باشا الأرناؤوطي وتولية قره حسن باشا . وقدم هذا إلى حماة ونزل عند محمد باشا سالفه وأعاد الحساب بينه وبين البشعلاني فثبت عنده أربعة آلاف وخمسة مئة قرشاً دفعها عنه ابن الصهيوني وحلى سبيله وسبيل من كان معه . وأراد قره حسن باشا أن يفوض أموره إليه كما كان في أيام محمد باشا ، فوصل قبوجي من الآستانة بطلب رأس البشعلاني فأشار عليه قره حسن باشا وابن الصهيوني أن يسلم لينجو فأذعن لقولهما وتظاهر بالاسلام . وأكرموا القبوجي بألف قرش وأرجعوه . ثم حضر حسن باشا إلى طرابلس ومعه البشعلاني فولاه على جبلة واللاذقية لجباية المال وقبل أن يسير البشعلاني إليهما أوصى أخاه أبا صعب أن يأخذ عياله ويتوجه بهم إلى ولاية الأمير ملحم المعني ، فسار بهم وشق ذلك على حسن باشا والي طرابلس . وتزوج البشعلاني بامرأة موسى باشا .

وفي هذه السنة أيضاً شكى الأمير علي علم الدين الأمير ملحم المعني إلى بشير باشا والي دمشق أنه اعتدى عليه هو والأمير قاسم والأمير حسين الشهايان وأزاحوه عن دياره ، وأهلكوا بعض رجاله ، وأخذوا ماله ، والتمس منه أن يوليه جبل الشوف ويصحبه بعسكر لقتال الأمير ملحم وأنصاره ، فقبل بشير باشا ذلك وفوض إليه ولاية الشوف وتوجه معه عسكراً من دمشق فجاء إلى وادي التيم ، ولما بلغ الأمير ملحم قدومه نهض إلى لقائه برجال الشوف ولاقاه الأمير قاسم والأمير حسين الشهايان برجالهما ، وهاجموا عسكر الأمير علي علم الدين واستمر القتال نحو ثلاث ساعات فانتهصر الأمير ملحم وأنصاره وهزموا عسكر الأمير علي وأهلكوا خلقاً كبيراً منهم . وتتبعوا آثارهم إلى دمشق . وخرج الأمير علي علم الدين . ولما بلغ دمشق ودخل على بشير باشا حنق عليه وشتمه وسبه إلى الخيانة وسجنه في قلعة دمشق ، وبقي سجيناً بها إلى أن عُزل الوزير المذكور .

وفي سنة ١٦٥٤م غُزل قره حسن باشا عن ولاية طرابلس وقدم إليها مكانه محمد باشا الكوبرلي فولّي المقدم علياً بن الشاعر على بلاد البترون، والشيخ أحمد ابن محمد حماده على جبة بشري، واستخدم عنده الأمير اسماعيل الكردي والحاج سعد بن علي حماده، فأخذ أتباعهما يعتدون على الناس في الأسواق، فطردهما مع اتباعهما ابن محمد باشا الوالي إلى أطراف الزاوية. هذا ما جاء في نسخة من تاريخ الدويهي معرّبة بقلم فارس الشدياق.

وفي سنة ١٦٥٥م ركب محمد باشا والي طرابلس على الأمير اسماعيل الكردي وعلى الحاج سعد حماده بسبب عدم ادائهم المال، فالتقى بهما عند حريشة الهري في كورة طرابلس فانكسرا، وانهزم الأمير اسماعيل بعياله من ايلة طرابلس إلى عند الأمير أحمد المعني فولّاه على صور.

وفي سنة ١٦٥٦م نُصّب محمد باشا الكوبرلي والي طرابلس في مسند الصدارة فولّي على طرابلس محمد آغا الطباخ، وعلى صيدا وبيروت اسماعيل آغا، وعلى صفد محمد آغا، والتزم المقدم فارس بن مراد بللمع جبة بشري من محمد آغا الطباخ. وفي سنة ١٦٥٨م ولّي محمد آغا هذا المقدم فارس مراد المذكور على جبة بشري وعكار، والمقدم علي بن الشاعر على البترون تحت يد الأمير ملحم المعني، وجبى مالها الشيخ أبو نوفل الخازن. وفي السنة المذكورة توجه الأمير ملحم المعني إلى صفد لجباية مالها فمرض بعكا ونقلوه إلى صيدا بمحفة. وتوفي في ١٦ ايلول وحزن عليه الشعب لأنه كان عادلاً حليماً مرضياً للدولة معتنياً بشؤون بلاده ومرؤوسيه على اختلاف مذاهبهم ميالاً إلى النصارى. فأقام أولاده المناحة عليه ثلاثة أشهر.

وفي سنة ١٦٥٩م تولّى قبلان باشا ايلة طرابلس وأعطته الدولة أمراً بالاعتصاص من المشايخ آل حماده بسبب مخزقاتهم وسطوهم. ولما علموا بذلك فزّوا إلى كسروان بعيالهم ومواشيهم، فهدم الوزير بيوتهم وقرى وادي علمات ونزل بعسكره إلى جبيل فضبط ما كان لأهل كسروان من الخنطة، وقرر بلاد عكار على المقدم فارس اللمعي المذكور بكفالة روم أحمد، وبلاد جبيل على كاواروغلي، وجبة بشري على المقدم علي قيديه بن الشاعر.

ثم قبض على كاواروغلي حاكم بلاد جبيل وقتله لعدم دفعه المال. وأمسك

روم أحمد كفيل المقدم فارس اللعي وأخذ منه ثلاثة عشر ألف قرشاً مستهلكة عنده من مال بلاد عكار .

عد ٩٩٩

نكبة القيسية ونهضتهم

في سنة ١٦٦٠م رُفعت الشكوى إلى الباب العالي على الأمير علي والأمير منصور الشهابيين وعلى آل حماده وغيرهم بأنهم يسطون على حقوق والي دمشق . فأرسل محمد باشا الكوبرلي الصدر الأعظم ابنه أحمد باشا والياً على دمشق ومحمد باشا الأرناؤوطي والياً على صيدا وبيروت ، وقرر قبلان باشا على إيالة طرابلس . ولما وصل أحمد باشا الكوبرلي إلى دمشق كتب إلى والي طرابلس ووالي القدس ووالي غزة وصاحب سنجق صفد وابن طريه البدوي أن يحضروا إليه لمحاربة القيسية ، وتوجه الأمير علي علم الدين اليمني وولده الأمير محمد والأمير منصور وأنصارهم اليمنية وابن الصهيوني والمقدم علي الشاعر . وبعد أن وصلوا إلى دمشق توفي الأمير علي علم الدين والمقدم علي الشاعر . وزحف أحمد باشا الكوبرلي بالباقي ورجالهم والعسكر وكانوا نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، وحلّ بسعسع وبلغ الأمراء الشهابيين قدومه فكتبوا إليه يسترضونه بمال فأبى إلاّ تذليلهم فقاموا بعيالهم ومعهم ست مئة رجل إلى كسروان ونزلوا على المشايخ الحمادية في قهمز . فسار أحمد باشا إلى وادي التيم وهدم دور الأمراء الشهابيين بحاصبيا وراشيا وأمر بقطع أشجارهم بوادي التيم ومرج عيون والبقاع . وولّى على وادي التيم الأمير محمد والأمير منصور ابني الأمير علي علم الدين ومعهما المقدم زين الدين وابن أخيه عبدالله .

ثم سار بعسكره إلى سهل قب الياس وكتب إلى الأمير أحمد والأمير قرقماز ابني الأمير ملحم المعني يأمرهما باحضار الأمراء الشهابيين فأجاباه أنّ الأمراء المذكورين ما نزلوا بلادهما قط . وانتقلا حيثلّ من بعقلين إلى عين زحلنا بنحو سبعة آلاف نفس ، فأرسل أحمد باشا يطلب منهما أربعماية ألف قرش نفقة عساكره وإلاّ يحتلّ ديارهما بعساكره ويهلكهما . فأذعنا لطلبه وتعهدا بعد المراجعة باداء مئتين وخمسين ألف قرش منجمة على أربعة أشهر ووضعنا عنده رهناً على

ذلك الأمير قاسم ارسلان أمير الشويفات ، وشرف الدين مقدّم حمانا . فارتضى بذلك وقفل راجعاً إلى دمشق ومعه والي غزة فقتله هناك وغرّم عياله بمائة وخمسين ألف قرشاً . وأخذ من ابن طرييه البدوي نحو خمسين ألف قرش ، وتوجّه قبلان باشا والي طرابلس إلى الهرمل ثم إلى طرابلس وكتب إلى الأمير اسماعيل الكردي كتاب الأمان فاغتر به وانتقل من صور إلى طرابلس بعياله . ولما بلغ أحمد باشا الكوبرلي قدومه إلى طرابلس أمر بالقبض عليه وقتله لأنه اجتمع بالمعنية بعين زحلتا .

أما الأميران أحمد وقرقماز المعنيان فلم يتيسر لهما دفع المبلغ الذي تعهدا به كاملاً . وبلغ أحمد باشا أنّ الأمراء الشهابيين مختفون عندهما فنهض ثانية من دمشق وحلّ بقب الياس ، وقدم إليه والي غزة الجديد ووالي طرابلس والأمراء آل علم الدين والأمراء آل طرييه فكثّر جحفله واشتد عزمه واجتمع الأمراء آل معن والأمراء الشهابيون مع المشايخ الحمادية في قهمز بكسروان وقّر رأيهم على تفريق رجالهم والفرار من وجه الكوبرلي والاختفاء . وأمروا أصحابهم أن ينفضوا عنهم ، وأرسل الأمير أحمد والأمير قرقماز السكمان واللاوند الذين كانوا معهما إلى الأمير كنعان من آل عساف الحيارى واختفيا في بلاد جبيل ، واختفى الأمير منصور والأمير علي الشهابيان في بعض كهوف تلك البلاد . وفي رواية أنهما سارا بخمسين رجلاً إلى جهات حلب . ولما انقطع الخبر عن هؤلاء الأمراء اجتمع مشايخ البلاد ووجوهها وكتبوا إلى أحمد باشا مع الشيخ سرحال العماد شيخ الباروك بأنّ الأمراء المعنيين والشهابيين فزّوا ولا يُعلم لهم خبر . والتمسوا منه العفو عن البلاد وتأمين أهلها ، فأجابهم إلى ذلك وأطلق لهم الأمان . وولّى الشيخ سرحال المذكور على بلاد الشوف والأمير محمد والأمير منصور ولدّي الأمير علي علم الدين علي الغرب والجرد والمتن ، ومحمد آغا على كسروان ، وعلي باشا الدفتردار على صيدا وسماه وزيراً . ومنذ ذلك الحين أخذ ولايتها يُسمّون وزراء . وغرّم كل عمل من هذه الأعمال بعشرين ألف قرش فدُفعت له .

ثم بلغ أحمد باشا المذكور أنّ الأمراء المعنيين والشهابيين مختفون بكسروان فوجه إليهم خمسة آلاف مقاتل يصحبهم بعض اليمنية للبحث عنهم ، وكتب إلى قبلان باشا والي طرابلس أن ينهض لمساعدتهم ، فطفّوا يجولون بلاد جبيل وكسروان ويكبسون المواضع التي يظنونهم فيها . فأحرقوا دور اللمعيين والخوازنة

والحمادية والمعنية وقطعوا أشجارهم . وأرسل الأمير محمد والأمير منصور علم الدين أناساً فعلوا كذلك في وادي علمات . وعاثت العساكر في تلك البلاد وأهلكت مال أهلها . وأرزاقهم وفقر الأميران الشهابيان إلى الجبل الأعلى ، واستمر الأميران المعنيان في بلاد جبيل .

وفي سنة ١٦٦٢م عُزل علي باشا الدفتردار عن ولاية صيدا ونصب بها مكانه محمد باشا ، فكتب إلى الأمير أحمد والأمير قرقماز المعنيين وأطلق لهما الأمان وأباحهما أن يظهرأ من مخبأهما ويرسلا إليه رجلاً من خواصهما ليعقد لهما الصلح عن يده ويوجه إليهما خلع الولاية معه ، فانخدعا بذلك وظهرأ من مخبأهما وأرسلا إليه رجلاً وصحبا بهدايا ، فعند وصوله أطلق لهما محمد باشا الأمان على يده أيضاً وصرفه من عنده مسروراً ومكرماً وعاهده أن يحضر الأميران إلى عين مزبود فيرسل هو مدبره إلى هناك لمقابلتهما ومخاطبتهما بما يلزم من الشروط ، ويفرغ عليهما خلع الولاية . فقدم الأميران إلى المكان المعين ولما أقبلا وجدا مدير الوزير ومعه جم غفير وأحاط بهما رجال كثيرون وأرادا الانهزام فعاجلت شرذمة الأمير قرقماز فقتلوه ، وأسرع الأمير أحمد بالفرار ودافع عنه أصحابه وذبوا عنه حتى أخرجوه من بين القوم بعد أن ضربه أحد رجال الوزير ضربة جرحته جرحاً بليغاً برقبته بقي بسببه كل حياته لا يقدر أن يحرك عنقه . وقتل جل أصحابه عند المدافعة عنه ، وتمكن من أن يتوارى عنهم ، وعاد إلى مخبئه وتولى محمد باشا الأمير محمد ابن الأمير علي علم الدين والشيخ أبا علوان من قيسية الباروك على الشوف ، وبقي الأمير أحمد معن مختبئاً نحو سنتين حتى عُزل محمد باشا عن ايلالة صيدا .

وفي سنة ١٦٦٤م عُزل محمد باشا عن ايلالة صيدا ، وكان أحمد باشا الكوبرلي قد ارتقى إلى منصب الصدارة وترك سورية فتظاهر الأمير أحمد المعني ونم خبره إلى القيسية فاجتمع إليه جمهور منهم ونهض بهم إلى الشوف فتألب آخرون من القيسية ، فنهض إليه الأمير محمد علم الدين اليمني والي الشوف وغيره من اليمنية فالتحمت الحرب بينهم وكان النصر للقيسية ، ودام القتال متردداً بين الحزبين نحو سنتين حتى حطمت شوكة اليمنية وخمدت نارهم . وفي سنة ١٦٦٧م كانت وقعة عند برج بيروت في الغلغول بين القيسية واليمنية فقتل منهم المقدم عبدالله بن قيديية بن الصواف ، وظهر القيسية على اليمنية فانهمزوا إلى دمشق . وتولى الأمير

أحمد معن بلاد الشوف والغرب والجرد والمغن وكسروان وكتب حينئذ إلى الأمير منصور والأمير علي الشهابيين إلى الجبل الأعلى يبشرهما بالنصر ويستقدمهما إلى بلادهما، فنهض الأميران بمن معهما وقدا إلى الشوف فتلقاها الأمير أحمد بمزيد التجلة والحفاوة والتكريم وأمدهما بالخيول والسلاح، وعادا إلى بلادهما فدخل الأمير منصور حاصبيا والأمير علي راشيا. انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي.

عد ١٠٠٠

تتمة أخبار سورية إلى سنة ١٦٨٧م

في سنة ١٦٧١م استنجد الأمير علي الحرفوش بوالي دمشق على أولاد عمه الأمير عمر والأمير شديد والأمير يونس فنجدته وهزم أولاد عمه المذكورين ونهب أموالهم وأحرق دورهم، وتولّى على بلاد بعلبك وفيها حارب الأمير فارس شهاب بني حيمور في البقاع وقتل منهم جماعة أنهم كانوا أمام عسكر أحمد باشا الكوبرلي في وادي التيم وعاونوا على قطع أشجار الشهابيين بالبقاع فساروا إلى دمشق واستجاروا بواليتها فأجارهم ووجه معهم عسكراً ونهض معهم الأمير موسى والأمير منصور علم الدين فانهمز الأمراء الشهابيون ورجع العسكر إلى دمشق وبنو حيمور إلى البقاع.

وفي سنة ١٦٧٣م غزل محمد باشا عن إيالة طرابلس وتولاها بعده حسن باشا، فولّى المشايخ الحمادية على الأعمال التي كانوا بها قبلاً، ورفع عنهم بعض التكاليف فطمعوا وتصرفوا بمال التكاليف المذكورة وقتلوا أناساً في عشاش عند نهر رشعين بالزاوية ونهبوا كثيراً من القرى فخربت.

وفي سنة ١٦٧٤م ولّى حسن باشا والي طرابلس المذكور الشيخ سرحال حمادة على بلاد جبيل والبترون ولما حضر إليه الشيخ أحمد بن قانصوه حمادة ليوليه على جبة بشري قبض عليه بسبب التعديات المار ذكرها وعلى الشيخ محمد بن حسن ديب بسبب عدم ادائه مال الضنية. وولّى إبراهيم آغا على جبة بشري وكان المتكلم أمامه أبو كرم بشارة من اهدن وأبو شديد غصيبة بن كيروز من بشري.

وفي سنة ١٦٧٥م بينما كان حسن باشا والياً على طرابلس واسماعيل باشا على صيدا وحسين باشا على دمشق جهز حسن باشا عسكرياً لطرد بني حمادة من اقطاعاتهم لعدم ادائهم المال وأرسل مدبره فطردهم إلى عين الغفير فوق افقا وفصل بينهم الظلام، ثم أحضر حسن باشا أحمد بن محمد قانصوه وابن حسن ديب وأمر أبناء عمهما أن يقتلوهما فقتلوهما، ووثبت جماعتهما على بلاد جبيل فنهبوا وقتلوا وأحرقوا قرية حصرائيل ونهبوا قرى البترون وماشية حصرون. وقبض المقدم قيديه بن الشاعر وأصحاب الاقطاعات على مشايخ القرى وسجنوهم بـجبيل ليدفعوا المال المرتب على القرى. وصدر في هذه الأثناء الأمر السلطاني إلى والي صيدا ودمشق لينجدا والي طرابلس على العصاة فاجتمع نواب هؤلاء الولاة في سهل قب اللباس ومعهم نحو خمسة آلاف مقاتل وكتبوا إلى الأمير أحمد المعني أن يسلمهم العصاة، وكتبه والي صيدا أن لا يختشي من هذا الطلب لتيقنه حسن مسلكه واستقامته. واجتمع حيثئذ أهل البلاد والأمراء الشهابيون في دير القمر وكانوا نحو أربعة آلاف رجل، وكتبوا إلى نواب الوزراء المذكورين: أنّ المشايخ الحمادية اجتازوا ببلادهم ولم يستقروا بها، وكتبوا إلى اسماعيل باشا والي صيدا أنّ دعوى حسن باشا على الحمادية هي لتأخرهم عن دفع عشرة آلاف قرشاً، وأنّ الأمير أحمد المعني يكفل دفعها بشرط أنّ حسن باشا يطلق رهائنهم المسجونين بقلعة طرابلس. فأرسل حسن باشا الرهائن إلى صيدا إلى اسماعيل باشا فاستلمهم ودفع له عشرة آلاف قرش الباقية عند الحمادية وانفضت العساكر.

وفي سنة ١٦٧٦م تقرر حسن باشا على ولاية طرابلس فولّى الحاج حسن بن الحسامي وأبا حيدر النمّس على بلاد جبيل والحاج باز بن أبي رعد ومرعباً بن الشاطر على بلاد البترون وأبا كرم (جد آل كرم) بن بشارة على جبة بشري. ووزع الأعلام على جميع الأعمال احتياطاً من سطو الحمادية. وورد له أمر سلطاني بأن يسير لمقاتلة التركمان، وتوفي بغيا به مرعب بن الشاطر، وقتل الشيخ حسين بن أحمد الحاج باز في أرض الحفد والشدياق أنطون أخو مطران اهدن في وادي حيرونا. واحترق دير القديس اليشاع وحارة أولاد أبي كيروز من بشري. ولما عاد حسن باشا من سفره وبلغه ما كان في غيا به زحف بعسكره إلى بلاد جبيل فقتل شيخ البربرة والحاج حسن الحسامي الذي كان قد ولاه. وقبض على مشايخ قريتي غرزوز وبخعا ز فرغمهم بمال لأنهم من حزب الحمادية، وأمر بحرق قرى وادي

علماء، فحرق منها فرحت وعلما ومشان وطرزيا والحصن واهمج وجاج .
وحرق من قرى جبة المنيطرة كفرحيال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقا . وبعد أن عاد
حسن باشا بعسكره وثب بعض الحمادية فأحرقوا قصيا وتولا وعبدلي وبسبينا
وصغار وشبطين .

وفي سنة ١٦٧٧م توفي أحمد باشا الكوبرلي الصدر الأعظم وتولّى منصب
الصدارة مصطفى باشا فغيّر النواب في جميع الولايات فأرسل محمد باشا إلى
طرابلس، فولّى الشيخ سرحال حمادة على بلاد جبيل وولده الشيخ حسين على
البترون، والشيخ حسين بن أحمد حمادة على جبة بشري وأمرهم أن يؤمنوا
الرعايا ويردوا النازحين . وفي سنة ١٦٧٩م تولّى خليل باشا ابن كيوان آيالة صيدا
ثم غزل عنها سنة ١٦٨٠م وانتقل إليها محمد باشا والي طرابلس، وقام بطرابلس
عوضه وزير آخر يسمى محمد باشا أيضاً فقرر الحمادية في اقطاعاتهم . وفي هذه
السنة أي سنة ١٦٨٠م تولّى الأمير فارس الشهابي بلاد بعلبك وسار إلى قرية
نيحا التي فوق الفرزل، فجمع الأمير عمر الحرفوش الحمادية ورجالهم، ودهمه
ليلاً فقتله وقتل من جماعته خمسة وعشرين رجلاً، ولما بلغ ذلك الأمير موسى
الشهابي نهض برجاله من حاصبيا وصحبه الأمير علي من راشيا قاصدين أخذ الثأر
ففرّ الأمير عمر الحرفوش من بعلبك واستغاث بالأمير أحمد المعني لاجراء الصلح
بينه وبين الأمراء الشهابيين، فسار الأمير أحمد إلى بعلبك وعقد الصلح بينهم على
شرط أن يدفع الحرافشة لآل شهاب كل سنة خمسة آلاف قرشاً وجوادين من
جياذ الخيل دية الأمير فارس . وفيها تزوج الأمير موسى الشهابي بابنة الأمير أحمد
المعني ثم توفي الأمير عمر الحرفوش المذكور سنة ١٦٨٣م وكانت وفاته في بلاد
جبيل مطروداً من بعلبك . وفي السنة المذكورة تولّى ابن صدقة سنجق بعلبك
وتدمر ووادي التيم فأرجع بلاد بعلبك إلى الأمير شديد ابن أخي الأمير عمر
الحرفوش .

وفي سنة ١٦٨٤م قتل المشايخ الحمادية أبا نادر شيخ مزرعة عكار وابن أخت
محمد باشا في قرية حلبا بعكار، ولما غزل محمد باشا عن آيالة طرابلس هجم
الحمادية على قلعة طرابلس وأخرجوا رهائنهم منها عنوة ثم كبسوا قرية عشقوت
بكسروان وقتلوا منها أحد عشر رجلاً ورفعت الشكوى بهم إلى والي طرابلس،
فولّى الأمير أحمد المعني على جميع اقطاعات الحمادية فتوجّه الأمير أحمد إلى غزير

بخمسة آلاف مقاتل وأرسل رجالاً دهموا الحمادية ففروا إلى بلاد بعلبك فأحرق وادي ايليح ولاسا وأفقا والمغيرة وقطع أشجارهم . وشفع بهم لديه بعض خواصه فعفا عنهم وقفل راجعاً إلى الشوف ، ولم يقبل خلعة والي طرابلس على اقتطاعات الحمادية .

وفي سنة ١٦٨٦م تولى علي باشا النكدلي ايالة طرابلس ، وصدر له الأمر السلطاني بأن يجمع قبيلة من العرب تسمى البغدة ، فسار لذلك ولما علم الحمادية بغياهم ثاروا فقتلوا الشيخ أبا داغر شيخ حردين وابن رعد شيخ الضنية وغيرهما ، فقبض نائب الوزير على اثني عشر رجلاً من أتباعهم وأماتهم على الخازوق . ولما رجع علي باشا إلى طرابلس صدر له الأمر العالي أن يحارب الأمير شديد الحرفوش لأنه نهب قرية رأس بعلبك وأحرق قلعتها فاستحضر المقدم قيدييه بن الشاعر وأبا فاضل رعد من الضنية وابن دندش من عكار . وكتب إلى الأمير بشير الشهابي أن ينجده بالرجال فنجدته وزحف الوزير إلى بعلبك فهرب الأمير شديد إلى بلاد جبيل مستجيراً بالمشايخ الحمادية ، فنزل الباشا على العاقورة فأحرقها وأحرق أربعين قرية من قرى المتأولة وقطع أشجارها ودك إلى الأرض دار الشيخ حسين في ايليح ونقض قبر الأمير عمر في طرزياء واهتدى عسكره إلى خباياهم في مغارة قنات ، ففتحوها وبينما كان العسكر نازلاً عند عين الباطية في جرد تنورين كبسهم الحمادية ليلاً فقتلوا منه نحو خمسة وأربعين رجلاً وغنموا باسلاهم ، وانهزم يوسف آغا مع جماعته إلى بعلبك وأنفض الدروز والعرب والتركمان إلى مواطنهم وهرب ابن الحسامي بعياله إلى بيروت ، أما الوزير فانحدر إلى جبيل ونكبها وقفل راجعاً إلى طرابلس فنزل بعده الحمادية وأحزابهم وأحرقوا قلعة جبيل ونكبوا المدينة .

وفي سنة ١٦٨٧م عزل علي باشا النكدلي عن ايالة طرابلس وتولاها بعده حسين باشا ، فقبض على الشيخ يونس وأخويه عبدالله ورزق الله وأولادهما بسبب والدهم أبي رزق البشعلاني ، فتظاهر يونس بالاسلام ليتمكن من الهرب . وهربوا جميعهم ليلاً مع عشرين نفس إلى قاطع كسروان لائذين بالأمير أحمد معن والشيخ أبي قانصوه فياض الخازن ، وأظهر هناك الشيخ يونس صحة معتقده الكاثوليكي . انتهى ملخصاً عن تاريخ البطريك الدويهي الذي كان شاهد عيان لهذه الأحداث لأنها كانت في أيامه وبلاده ، وعنه أخذ أخبارها الأمير حيدر الشهابي في تاريخه والشيخ طنوس الشدياق في كتابه أخبار الأعيان في جبل لبنان .

السلطان سليمان خان الثاني والسلطان أحمد خان الثاني

أما السلطان سليمان خان الثاني فهو ابن السلطان ابراهيم الأول ، وُلد في ١٥ محرم سنة ١٠٥٢ هـ (١٥ نيسان سنة ١٦٤٢ م) وانتخب للسلطنة والخلافة بعد خلع السلطان محمد الرابع ٨ تشرين الثاني سنة ١٦٨٧م فأغدى في الهبات والعطايا للجنود ، ولم يعاقبهم على عصيانهم فتمردوا وقتلوا بعض قادتهم وحاصروا الصدر الأعظم الجديد سيواس باشا في داره وقتلوا وسبوا أزواجه ، فتولت الفوضى وانتهز أعداء الدولة فرصة هذا الاحتلال والاضطراب فاحتل النمساويون بعض قلاع ، واحتل القائد البندقي بعض ثغور بلاد اليونان وساحل دلماسيا سنة ١٦٨٧م . وفي السنة التالية أخذ النمساويون سمندرية وبلغراد وغيرهما . وفي سنة ١٦٨٩ أخذوا تيش وودين من بلاد السرب . ولما رأى السلطان تنامي هذه المصائب عزل مصطفى باشا الذي كان قد نصبه في الصدارة بعد سيواس باشا وعهد بهذا المنصب إلى مصطفى باشا ابن محمد باشا الكوبرلي . ولم يكن أقل همة وحزماً من والده فبذل مجهوده في اشراق الجنود روح النظام ومنعهم من اغتيال حقوق الأهلين وصرف لهم من مال الأوقاف ما كان متأخراً لهم من الأرزاق ، وأباح النصارى تجديد ما تهدم من كنائسهم في الآستانة ، وعاقب شديد العقاب من تعرض لهم في اقامة شعائر دينهم ، فاستمال نصارى المملكة إلى حب الدولة حتى ثار أهل المورة الروم على البنادقة وطردهم من ديارهم لمحاولتهم اجبارهم على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الكاثوليكي ، ودخلوا في حمى الدولة العثمانية طائعين لعدم تعرضها لمذهبهم .

ولما انتظم الجيش وتنقّى من الأدران التي كانت تؤدي به إلى العار والدمار وساد الأمن في أنحاء المملكة سار الصدر الأعظم بنفسه لمحاربة الأعداء فاسترد في زمن قليل مدن تيش وودين وسمندرية وبلغراد إلى ولاية الدولة سنة ١٦٩٠ م . وأعاد غيره من قواد العثمانيين غير هذه المدن إلى طاعة السلطان ، وبذلك أرجع مصطفى باشا الكوبرلي بعض ما فقدته الدولة من المجد والسؤدد بسبب ضعف الوزراء وعصيان الانكشارية على أنّ المنية أنشبت مخالبتها في السلطان سليمان

الثاني في ٢٣ حزيران سنة ١٦٩١م بعد أن استمر على أريكة الملك ثلاث سنين وثمانية أشهر ودُفن في تربة جده السلطان سليمان الأول .

وارتقى إلى منصّة السلطنة بعد السلطان سليمان الثاني أخوه السلطان أحمد خان الثاني ، وكان قد وُلد في ٦ ذي الحجة سنة ١٠٥٢ هـ (٢٥ شباط سنة ١٦٤٣م) فأبقى الصدر الأعظم على منصبه لاعتماده عليه في التدبير والحرب ، على أنّ المنية عاجلت هذا الوزير الخطير فتوفاه الله في ١٨ آب سنة ١٦٩١ م . في ساحة القتال عند مهاجمته الجيوش النمساوية ، فكانت وفاته طامة كبرى على الدولة . ونصب السلطان مكانه عربي جي علي باشا ولم تكن له كفاءة سالفه ولا اقدمه ولا حزمه ، ولم يكن في أيام هذا السلطان أحداث تذكر سوى احتلال البنادقة جزيرة ساقس سنة ١٦٩٤م وقصفت المنية غصن حياته الرطب في ٦ شباط سنة ١٦٩٥م بعد أن استمر على منصّة السلطنة والخلافة أربع سنين وثمانية أشهر قمرية ، ودُفن في تربة جده سليمان الأول مع أخيه سليمان الثاني .

عد ١٠٠٢

ما كان بسورية في أيام السلطانين سليمان الثاني وأحمد الثاني

في سنة ١٦٩١م تولّى طرابلس محمد باشا وصرف المشايخ الحمادية في اقطاعاتهم ، فسلم جليل والبترن إلى الشيخ حسين سرحال حمادة ، والكورة إلى الشيخ اسماعيل ابنه ، وجبة بشري إلى الحاج موسى بن أحمد حمادة ، والضنية إلى أولاد حسن ديب . وفي هذه السنة كان مقتل أبي موسى بن زعرور في وطا الجوز بكسروان ، وتوفي الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن وكان كريماً شجاعاً محباً للعلماء . وبعد أربعة أشهر من وفاته توفي أخوه الشيخ أبو نادر خاطر الخازن فعظمت شوكة الحمادية فقتلوا حنا الأسود في الكورة ونهبوا العاقورة وغلّال أهل كسروان من ميناء جليل .

وفي سنة ١٦٩٢م عُزل محمد باشا عن ايالة طرابلس وتولى عوضه علي باشا وقدم إلى طرابلس في آخر السنة فسموه اللقيس وقرر المشايخ الحمادية على اقطاعاتهم وصير محمد باشا الذي عُزل من طرابلس قائمقاماً وكاتباً للصدر

الأعظم ، وكتب إلى علي باشا خليفته لينهض على الحمادية ويرسل له ثلاثة عشر رأساً من أعيان بيت قانصوه حمادة وأمره أن يكون متصرفاً ببلبك أيضاً فغيّر علي باشا الأحكام وسلّم عكار والهرمل إلى هزيم آغا دندش ، وجبيل إلى حسين آغا الحسامي ، والبثرون إلى المقدم قيديه بن الشاعر ، والزاوية وجبة بشري إلى الشيخ ميخائيل بن نحلوس الأهدني ، والضنية إلى الشيخ أبي فاضل رعد . وكتب إلى الأمير أحمد معن أن ينجده بالرجال لقتال الحمادية فقدم إليه المشايخ الخوازنة ومعهم نحو ألف رجل إلى فوق جبيل ولما شعر بهم الحمادية انهزموا على طريق العاقورة إلى بلاد بعلبك فتبعهم الرجال وهلك منهم بالثلج نحو مائة وخمسين رجلاً ، ولما وصلوا إلى قرية كفردان التمس الخوازنة من علي باشا أن يكفّ العسكر عنهم ، فكفه وطلب الخوازنة العود إلى أوطانهم معتذرين بأن الأمير أحمد معن لم يأذنهم بالخروج عن ايلة طرابلس وأحرق علي باشا قرية نبحا ونهب ثلاثة عشر ألف رأس من معزى الحمادية . وسلّم بلاد بعلبك إلى أحمد آغا الكردي ، وجبيل إلى حسن آغا النوري ورحل بالعساكر من بعلبك . وكتب أحمد آغا والي بعلبك إلى الحاج ياغي بن حميه من المتأولة وأقربائه أن يحضروا إليه ، ولما حضروا غدر بهم وقتل منهم سبعة عشر رجلاً ، وأرسل الحاج ياغي المذكور وولده حيدر إلى علي باشا فقتلها عند مخاضة نهر رشعين ، ثم جهز حسن آغا وأحمد آغا الكردي واسماعيل آغا دندش وأرسلهم إلى بلاد جبيل فقبضوا على الشيخ حسين بن سرحال وحسن ديب وسبعة رجال من رفاقهم فقتلوهم بين قهزم ولاسا .

وفي سنة ١٦٩٣م قلّد السلطان أحمد منصب الصدارة إلى علي باشا والي طرابلس وأقام مكانه ارسلان باشا ابن أحمد آغا المطرجي والياً بطرابلس وأنفذ رسولاً إلى الأمير أحمد معن يعرض عليه توليته الاقطاعات التي كانت بيد الحمادية وأن يمنح سطوهم عن ايلة طرابلس فلم يقبل الأمير أحمد ذلك فسلّم ارسلان باشا بلاد جبيل إلى الأمير حسن بن صعب الكردي وبلاد البثرون إلى المقدم قيديه بن الشاعر . ولما توجه علي باشا إلى الآستانة سار معه الأمير أحمد الكردي والأمير موسى بن علم الدين اليميني . وأرسل ارسلان باشا مدبره محرم آغا يطرد الحمادية على طريق الجرد . وولّى الأمراء الأكراد والمقدمين بني الشاعر على ساحل جبيل ، فلما وصلوا إلى عين قebel في الفتوح نزلوا هناك للمبيت فبلغ ذلك أولاد الشيخ حسين حمادة المختفين في تلك الجهة فجمعوا نحو مائتي رجل ودهموا العسكر ليلاً

فقتلوا منه نحو أربعين رجلاً في جملتهم الأمير موسى الكردي وأولاد عمه الأمير يوسف حافظ قلعة جبيل والأمير أحمد قلاوون والأمير عبد الخالق وابن الأمير موسى علم الدين والمقدم منصور وابن أخيه مصطفى قيديه من بني الشاعر وما انفكوا يطردون الباقيين إلى نهر ابراهيم .

فقدّم ارسلان باشا والي طرابلس الشكوى إلى السلطان بأن الأمير أحمد معن وجهه عسكرياً فأهلك رجاله ، وبقي مدبر الوزير مع العسكر في نهر ابراهيم نحو شهرين ، فبلغه الأمر السلطاني بأن يزيل الأمير أحمد معن عن الاقطاعات التي بيده ، وأن يولي عليها الأمير موسى علم الدين وهي الشوف والجرد والمتن والغرب وكسروان واقلیم جزين واقلیم الخروب . وصدر الأمر السلطاني إلى اسماعيل باشا والي دمشق ومصطفى باشا والي صيدا وأحمد باشا والي غزة ومحمد باشا والي حلب بأن ينهضوا مع ارسلان باشا والي طرابلس لقتال الأمير أحمد معن وازاحته عن الأعمال اللبنانية فاجتمع هؤلاء الوزراء بوطا عرموش بالبقياع وعسكرهم ثمانية عشر ألفاً وخمسمائة مقاتلاً ، وانضمّ إليهم اليمينية وأحزابهم وبعض جماعة القيسية منهم النكدية والعبيدية والشيخ سيد أحمد بن عذدا اليزبكي والشيخ حصن الخازن . ولما رأى الأمير أحمد معن انفضاض بعض أصحابه عنه ، فرّ من الشوف إلى وادي التيم واختبأ عند الأمير نجم شهاب وبقي عنده سنة بكل اكرام . وبعد أن بحثت عنه العساكر ولم يجدوه رجعوا ، وأنفض الوزراء والولاة كل إلى محله ، وتولّى الامير موسى علم الدين اليميني على بلاد الأمير أحمد . ولما ركدت هذه الزعازع تظاهر الأمير أحمد في وادي التيم فاجتمع إليه القيسية فنهض بهم من وادي التيم إلى الشوف ومعه الأمير بشير والأمير نجم الشهايان برجالهما فخاف الأمير موسى وانهزم من دير القمر إلى صيدا ملتجئاً إلى مصطفى باشا واليها واستولى الأمير أحمد على بلاده كما كان .

وما بلغ الأمير أحمد أنّ الأمير موسى علم الدين التجأ إلى مصطفى باشا والي صيدا وجه بعض خواصه إلى والي المذكور بهدايا فاخرة طالباً استمالته إليه ، وكتب إليه كتاباً ينصحه به من الاركان إلى الأمير موسى لأنه مكار ويخشى أن يخدعه كما خدع أبوه الأمير علي علم الدين بشير باشا والي دمشق في وقعة وادي التيم المار ذكرها . فتأكد مصطفى باشا ما كتب إليه به الأمير أحمد لأنه كان يرى الأمير موسى مرواغاً متقلباً فطرده من عنده ومال إلى الأمير أحمد وأحبه

وكتب إلى السلطان يلتمس منه له عفواً وتقريراً في ولايته . فأنعم السلطان بالعفو على الأمير أحمد ، وبالتقرير على الاقطاعات كلها التي كانت بيده . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي أيضاً .

عد ١٠٠٣

السلطان مصطفى خان الثاني

هو ابن السلطان محمد الرابع وُلد في ٨ ذي القعدة سنة ١٠٧٤ هـ (٣ حزيران سنة ١٦٦٤ م) وارتقى إلى منصبة الملك بعد وفاة السلطان أحمد الثاني في ٦ شباط سنة ١٦٩٥ م وكان شجاعاً ثابت الجأش ، فأعلن بعد سلطنته بثلاثة أشهر رغبته في أن يقود الجيش بنفسه لمحاربة بولونيا ، وسار إليها مستغيثاً بفرسان القوزاق ، وانتصر على البولونيين في عدة وقائع . وبلغ إلى مدينة لمبرج وكانت في غاية المناعة فلم يتيسر له فتحها . وحارب أيضاً بطرس الأكبر قيصر الروس إذ كان محاصراً مدينة أزوف ببلاد القرم واضطره إلى رفع الحصار عن هذه المدينة سنة ١٦٩٥ م ، ولكن تغلب عليها القيصر سنة ١٦٩٦ م ولم تزل تابعة لروسية .

ثم أغار السلطان مصطفى بجيوشه على بلاد المجر وفتح بعض حصونها وانتصر على فتراني قائد جيوش النمسا وقتل من جيشه ستة آلاف وأخذه أسيراً . ألا أن الأمير أوجان دي سافوا قائد جيش النمسا سنة ١٦٩٧ م دهم الجنود العثمانية عند عبورهم أحد الأنهر فقتل منهم خلقاً كثيراً وفي جملتهم محمد باشا الصدر الأعظم وغرق منهم كثيرون في النهر . ثم تتبّع الأمير أوجان الباقيين ودخل بلاد البشناق فاتحاً وأقام السلطان في منصب الصدارة حسين باشا الكوبرلي ، فأوقف الأمير أوجان عن التوغّل بأملاك الدولة بل أجبره على التقهقر وترك بلاد البشناق . واسترد أمير البحر العثماني جزيرة ساقس بعد انتصاره في موقعتين على مراكب البندقية . ثم تدخّل لويس الرابع عشر ملك فرنسا بتعاطي الصلح وبعد مخابرات طويلة وقّع على الصلح بين الدولة العلية والنمسا وروسيا والبندقية في معاهدة كرلوفتش في ٢٦ كانون الثاني سنة ١٦٩٩ م .

وكان من شرائط معاهدة الصلح أن تتخلّى الدولة العلية عن بلاد المجر برمتها وعن اقليم ترنسلفانيا لدولة النمسا وأن تتنازل عن مدينة أزاق ، وفرضتها لروسية ،

فزادت أهمية روسية في البحر الأسود وأخطارها على الدولة العلية وردّت إلى مملكة بولونيا بعض المدن التي كانت قد تملكته وتخلّت للبندقية عن المورة واقليم دلماسيا على البحر الأدرياتيكي ، واتفقت مع النمسا على هدنة خمس وعشرين سنة فخسرت الدولة بهذه المعاهدة قسماً كبيراً من أملاكها بأوروبا وازدادت مطامع الدول ببلادها .

ثم إنّ حسين باشا الكوبرلي الصدر الأعظم وبجه اهتمامه بعد هذه المعاهدة الوحيدة العاقبة إلى اصلاح الأمور الداخلية والشؤون المالية والنظام العسكري ، ووضع لكل من هذه الأمور نظاماً كافياً وعلاجاً وافياً ، وترك كثيراً من الأموال المتأخرة على الأهلين ولا سيما النصارى كيلا يجد المفسدون وسيلة من هذا القبيل للوسوسة لهم في الانتفاض على الدولة . على أنّ هذا الوزير استقال من منصبه في ٥ ايلول سنة ١٧٠٢م فعين السلطان مكانه في الصدارة مصطفى باشا وكان ميالاً إلى الحرب فلم يسر على خطة سلفه من الاصلاح ، وأراد أن يخرق معاهدة كرلوفتش المذكورة وأن يثير الحرب على النمسا . ولما شعر أعيان المملكة وجنودها بمضار هذه السياسة لما وراءها من تألب دول أوروبا على الدولة العلية ثانية سألوا السلطان عزله ، فأقاله في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٠٢م وعين مكانه رامي محمد باشا ، فسار على خطة حسين باشا الكوبرلي وطفق ييطل المفاسد ويعاقب أصحاب الرشوات ويمنع المظالم ، فثار عليه الانكشارية وسألوا السلطان عزله فامتنع عن الاجابة إلى سؤالهم ، وأرسل لقمعهم فرقة من الجنود فانضموا إلى الثائرين وخلعوا السلطان مصطفى في ١٥ آب سنة ١٧٠٣م بعد أن استمر على تخت السلطنة ٨ سنين و٨ أشهر قمرية ، وبقي معزولاً إلى أن توفاه الله في ٣١ كانون الأول سنة ١٧٠٣م وأقاموا مكانه بعد عزله أخاه السلطان أحمد خان الثالث . وسوف يأتي الكلام عليه في أول تاريخ القرن الثامن عشر .

عد ١٠٠٤

ما كان بسورية في أيام السلطان مصطفى الثاني

في سنة ١٦٩٦م فرض الأمير أحمد معن ضريبة على الشوف سماها المسعدة ،

وزاد ارسلان باشا على المال الأميري ضرائب أخرى . وكان المطر في تلك السنة قليلاً ونضبت عيون الماء ونشقت الأنهر وجاء الجراد، وغليت أثمان المؤن حتى بيع شنبل الحنطة بأربعة قروش وقلة الزيت بسبعة قروش ونصف وكيلة الأرز بقرش فتشتت الناس وهاجروا أوطانهم لشدة الغلاء وزيادة الجور .

وفي سنة ١٦٩٧م ورد الأمر السلطاني إلى ارسلان باشا والي طرابلس أن يكون مديراً للحج وتولّى طرابلس أخوه قبلان باشا فقبض على الشيخ يونس بن أبي رزق البشعلاني وعرض عليه الاسلام فأبى إلا التشبث بدينه الكاثوليكي ، فأماته على الخازوق . وفي ١٥ ايلول من هذه السنة توفي الأمير أحمد معن واتفق حينئذ أن كان في دير القمر فضلي آغا من قبل حسين باشا والي صيدا للمطالبة بالمال ، فختم على الخزينة وعلى أثاث الأمير . وعرض الأمر على حسين باشا فأرسل قاضي صيدا والمفتي ونقيب الأشراف وبعض العلماء لتحرير تركة الأمير المتوفى ، فحرروها فبلغت خمسة وستين ألف قرشاً ، فوجد أنّ عليه من المال الأميري ثلاثين ألف قرشاً ومن المائة ألف قرش التي كان متعهداً بها للدولة ثلاثين ألف قرشاً .

ولم يكن عقب للأمير أحمد معن فانقرضت به سلالة آل معن . فاجتمع بعد وفاته أعيان الشوف من أمراء ومقدمين ومشايخ لينتخبوا والياً عليهم ، فاتفقت آراؤهم على اختيار الأمير بشير الشهابي ابن الأمير حسين شهاب أمير راشيا وهو ابن أخت الأمير أحمد المتوفى . فوجهوا بعض الأعيان إلى راشيا ودعوه إلى الولاية عليهم ، فلبى دعوتهم وأتى معهم إلى دير القمر فاستقبلوه بالاحتفاء والتكريم ، وكتبوا إلى حسين باشا والي صيدا يسألونه أن يحوّل ما كان بيد الأمراء المعنيين من الاقطاعات إلى عهدة الأمير بشير شهاب المذكور ، وهو يدفع المال المرتب كالعادة ويقوم باداء ما كان باقياً على الأمير أحمد . وكتب الأمير بشير أيضاً إلى والي صيدا كذلك فارتضى حسين باشا بذلك وولّى الأمير بشيراً حسب الطلب ، وعرض للسلطان مصطفى أنّ أسرة المعنيين قد انقرضت وأنّ اللبنانيين انتخبوا الأمير بشير شهاب لما بينه وبين المعنيين من النسب لأنه ابن أخت الأمير أحمد معن . وعرض اليمينيون أنهم لا يقبلون ولاية الأمير بشير شهاب عليهم . وغرل حينئذ حسين باشا عن ولاية صيدا وتولاها ارسلان باشا ، فورد له الأمر السلطاني جواباً عما عرضه حسين باشا ، فعواه أنّ الأمير حيدر ابن الأمير موسى شهاب يكون والياً بعد الأمراء المعنيين ويضع يده علي متروكاتهم لأنه أحق بالارث لكونه ابن

أخت الأمير أحمد معن المتوفي . وكان صدور هذا الأمر بواسطة الأمير حسين ابن الأمير فخر الدين معن الذي كان قد أخذ من قلعة المرقب ، وأرسل موثقاً إلى خليل باشا الصدر الأعظم حين كان في حلب كما مرّ . وتقدّم بمناصب الدولة بالآستانة فأرسل ارسلان باشا الأمر السلطاني إلى الأمير بشير فأجابه ملتصقاً أن يعرض للسلطان أنّ الأمير حيدر عمره اثنتا عشرة سنة فلا يمكنه أن يتولّى الحكم بنفسه ، وأنه هو يكون نائباً عنه ، فعرض ارسلان باشا ذلك وأتاه الجواب أن يكون الأمير بشير والياً بطريق النيابة عن الأمير حيدر إلى أن يكون بلغ أشده ، فيتولّى الاقطاعات بنفسه . هذا ما جاء في نسخة تاريخ الدويهي التي عرّبها فارس الشدياق . وفي النسخة التي بيدنا أنّ ارسلان باشا كتب إلى الآستانة أنّ الأمير بشير كفوء للولاية ولا تليق بغيره ، وهو الذي اختاره أعيان البلاد . فوردت إليه البراءة باسم الأمير بشير وتولّى جميع الاقطاعات التي كانت بيد الأمير أحمد معن . والظاهر من تاريخ الأمير حيدر شهاب صحة خبر ولاية الأمير بشير بالاستقلال لا بطريق النيابة عن الأمير حيدر .

وهكذا انقضت حكومة آل معن وابتدأت حكومة آل شهاب في لبنان وبعض جواره ، واستمرت من سنة ١٦٩٧م إلى سنة ١٨٤٢م التي عزل فيها الأمير بشير قاسم وأرسل مصطفى باشا والي صيدا عمر باشا النمساوي إلى بتدين ليكون والياً بلبنان كما سوف يأتي . وهذه الأسرة قديمة وعريقة بالشرف ، ويقال إنّ أصلهم من بني قريش ، وإنّ جدّهم مالك الملقّب بشهاب من ولد مرة بن كعب ، وإنّ مالك المذكور استعمله عمر بن الخطاب أميراً بحوران ، واستمر أولاده على هذه الامارة إلى أواخر القرن الثاني عشر أيام كان الصليبيون بسورية . فيظهر أنّ الولاة المسلمين في تلك الأيام دعوهم للمهاجرة إلى وادي التيم لمناسبة الافرنج ، كما دعوا التنوخيين والمعنيين لذلك ، فاحتلوا وادي التيم وولّوهم على حاصبيا وراشيا ، وكان بينهم وبين الافرنج حروب . ولما ترك الافرنج هذه الديار استمر الأمراء الشهابيون يلون وادي التيم وما جاورها . ولما قدم السلطان سليم الأول إلى سورية ومصر ففتحهما سنة ١٥١٥م كان الأمير منصور شهاب والياً ، وكان في جملة رجال الغزالي نائب الملك قانصوه الغوري في الشام في وقعة مرج دابق بين السلطان سليم والغوري ، وكان الأمير منصور موافقاً للغزالي على الانحياز إلى السلطان ، وبعد أن تملك السلطان سورية قرر ولاية آل شهاب على اقطاعهم المذكور واستمروا فيه .

وقد مرّ ذكر أخبار بعضهم في هذه الولاية . وقد صاهروا الأمراء المعنيين وحالفوهم إلى أن انقرض آل معن بالأمير أحمد المذكور سنة ١٦٩٧م فخلفه الأمير بشير شهاب وكان ابن أخت المتوفى ثم الأمير حيدر شهاب وكان ابن بنته .

وفي سنة ١٦٩٨م بينما كان ارسلان باشا والياً على طرابلس ، وأخوه قبلان باشا والياً على صيدا ، انتقض الشيخ مشرف ابن الشيخ علي الصغير صاحب بلاد بشارة وعصا قبلان باشا ، فاستنهض قبلان باشا الأمير بشير لقتاله وأطلق له الولاية على صفد وبلاد بشارة واقلية الشومر والتفاح وبلاد الشقيف ، فجمع الأمير بشير رجاله القيسية نحو ثمانية آلاف مقاتل وسار بهم لقتال الشيخ مشرف اليمني ، والتقى به في قرية المزيرة من بلاد بشارة ، والتحم القتال بين الفريقين فظهر الأمير بشير على الشيخ مشرف ورجاله وأهلك منهم خلقاً كثيراً وقبض على الشيخ مشرف وأخيه الحاج محمد ومديرهما الحاج حسين المرجي وأرسلهم إلى قبلان باشا ، فقتل الحاج حسين المرجي وسجن مشرفاً وأخاه ، وولى الأمير بشير على البلاد من صفد إلى المعاملتين بكسروان . فأقام الأمير بشير ابن أخيه الأمير منصور والياً بصفد ، وجعل تحت يده عمر بن أبي زيدان أبا ظاهر العمر المشهور شيخاً على تلك الديار لأنه قيسي . وحضر لدى الأمير بشير بنو منكر أصحاب اقلية الشومر والتفاح ، وبنو صعب أصحاب بلاد الشقيف ، ورضي عنهم وقرهم على اقطاعاتهم ورجع إلى دير القمر . ثم أرسل ارسلان باشا والي طرابلس عسكرياً لمحاربة الحمادية مشايخ بلاد جبيل والبترون لتقاعدهم عن دفع المال السلطاني ، فقبض العسكر على بعض من أكابريهم وغيرهم وأحضرهم إلى طرابلس فسجنوا بها ، وفوّض من فلت منهم إلى دير القمر مستجيرين بالأمير بشير . فأرسل إلى ارسلان باشا يسأله اطلاق السجناء منهم ، وكفل له المال الباقي عليهم ، فأطلقهم وأبقاهم على ما كانوا ، فكان المتوجب عليهم مئتين وخمسين ألف قرشاً ، وفوّض ارسلان باشا الأمير بشير بالولاية على بلاد جبيل والبترون فولّاهم الأمير عليها وأرسل بعض خواصه فجمع المال منهم ودفعه إلى الوزير .

وفي السنة المذكورة قصد أحمد باشا ابن صالح الدواعيري الآستانة ليتولّى على دمشق ، وأصبح معه الأمير موسى بن علم الدين اليمني ليرده إلى ولاية الشوف ، فلدى وصوله إلى الآستانة أمر الصدر الأعظم بقطع رأسه ، وفوّض امارة الحج إلى

قبلان باشا والي صيدا. فقبض على ابن عمه الأمير علي الدواعيري وسجّنه بالقدس. وفي سنة ١٧٠٠م تقررّت ولاية طرابلس على ارسلان باشا وإيالة صيدا على أخيه قبلان باشا. وكانت تلك السنة كثيرة الأمطار والثلوج وكثرت فيها الأمراض أيضاً. انتهى ملخصاً عن تاريخ العلامة الدويهي.

الفصل الثاني

مشاهير القرن السابع عشر

عد ١٠٠٥

المشاهير السوريون في هذا القرن

قد وضع العلامة محمد المحبي الدمشقي لأعيان القرن الحادي عشر تأليفاً سماه «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر»، وقد رتبّه على حروف المعجم، وطبع بالقاهرة في أربع مجلدات سنة ١٢٨٤م متضمناً ألف ومئتين وتسعين ترجمة. فعنه انتقينا ترجمة الرجال المشاهير الآتي ذكرهم في هذا الفصل وما يليه.

١

أحمد القرماني

هو ابن العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي القرماني، قدم أبوه من قرمان إلى دمشق وولّي نظارة البيمارستان، ونظارة الجامع الأموي، إلى أن قُتل بعلبك، وصار ابنه بعد سفتله كاتباً لوقف الحرمين ثم ناظراً له. وكان حسن

المحاضر، وله مخالطة مع الحكام، وأنشأ داراً وحديقة بمحلة الجسر الأبيض من الصالحية، وألف تاريخه المشهور جامعاً له، وتعرض فيه بذكر الدول وكثيرين من الموالى والأمراء المتأخرين، وسماه «أخبار الدول وآثار الأول». ولدي منه نسختان إحداهما مخطوطة والثانية مطبوعة على الحجر. وقد استشهدت بأقواله مرات، وكانت وفاته في ١٩ شوال سنة ١٠١٩ هـ (سنة ١٦١٠ م) وكان قد وُلد سنة ٩٣٩ هـ فيكون عمره ثمانين سنة هجرية.

٢

حسن البوريني

هو الشيخ حسن بن محمد بن عبد الرحمن الصفوري الأصل الدمشقي المنشأ، الملقب بدر الدين البوريني، وُلد بقرية صفورية سنة ٩٦٣ هـ (سنة ١٥٥٥م) وكان فرد زمانه في الفنون والعلوم، وكان يحفظ من الشعر والآثار والأخبار والأحاديث المسندة ما لم يجتمع مع غيره. وألف تأليف كثيرة منها تحريراته على تفسير البيضاوي وحاشيته على المطول (وهو شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح في التصريف) وكتاب «تراجم الأعيان في أبناء الزمان»، وعلى كتابه هذا ذيل لفضل الله بن محب الله الدمشقي والد محمد المحبي صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر المار ذكره. وللبوريني أيضاً شرح ديوان عمر بن الفارض، طبعه بمرسيليا الشيخ الكونت رشيد الدحداح سنة ١٨٥٣م مع مقتبسات من شرح عبد الغني النابلسي وطُبع ببيروت سنة ١٨٦٠م وسنة ١٨٧٤م وسنة ١٨٨٧م. وله رحلة حلبية وأخرى طرابلسية وسبع مجموعات بخطه وسماها «بالسيارات السبع». وله رسائل ومقالات كثيرة. وجمع ديواناً من شعره وهو معروف تتداوله أيدي الناس. وأثبت المحبي شيئاً كثيراً من شعره في كتاب خلاصة الأثر ومنه قوله بعد تعلمه اللغة الفارسية:

تعملت لفظ الأعجمي وإنني من العرب العرباء لا أتكتّم
وما كان قصدي غير صون حديثكم إذا صرت سن شوقي به اترتّم

وإن كنت بين المعجمين فمعربٌ وإن كنت بين العربيين فمعجمٌ
فأغدو بأشواقي إليك مترجماً وسرّكم في خاطري ليس يُعلم
وله في جواب رسالة:

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى دمعان في الأجفان يزدهمان
ما أنصفتني الحادثات ومنيتي بمودعين وليس لي قلبان
وله:

أوصيك أوصيك فاسمع ما أقرره فقد نصحتك خلي النصّح معتبر
لا تركنّ إلى من لست تعرفه ومن عرفت فكن منه على حذر
وكانت وفاة البوريني سنة ١٠٢٤ هـ (سنة ١٦١٥ م).

٣

ابن الجوهري

هو الأديب أبو بكر بن أحمد بن علاء الدين الجوهري الدمشقي وُلد سنة ٩٦٧ هـ (سنة ١٥٦٠ م) وتوفي بعد سنة ١٠٣٠ هـ بقليل (سنة ١٦٢٠ م) قال المحبي بنو الجوهري بيت كبير بدمشق خرج منه خلق من النجباء وكان جدهم الأعلى قاضي العسكر عند أحد ملوك العجم . وأول من هاجر منهم إلى دمشق ناصر الدين ، وكان قدومه إليها سنة ٧٨٤ هـ (سنة ١٣٨٢ م) وكان معه جواهر فاشتهر البيت كله بالجوهري . أما ابن الجوهري صاحب الترجمة فقرأ العلوم على مشايخ عصره منهم الحسن البوريني .

وتردد إلى مصر للتجارة وأخذ من علمائها وكان شاعراً ينظم الشعر الفصيح ، حتى جمع له ديواناً ، قال المحبي رأيت هذا الديوان وانتخبته منه ما أوردته وما أوردته قوله:

وما أم أفراخ تمزقن بالفلا بسطوة نسر كاسر بالخالِبِ
وقد مُنعت من أن تراهنّ واغتدت تنوح وتبكي من صروف النوائِبِ

بأوجع مني عند وشك رحيلنا وحث المطايا في الفلا بالخبائب
ومن مقاطيعه قوله:

خيالك في عيني يلوح وكلما ذكرتك دمع العين يجري على الخد
وما كان ظني بالتفرق بيننا إذا حكم المولى فما حيلة العبد
وقوله:

يا منزلاً بفراديس الشام سقى ربي مغانيك هطال يرؤيها
فلي بمنزلك السامي أخو ثقة فدته روحي من الدنيا وما فيها

٤

ابن الجزري

هو حسين بن أحمد بن حسين المعروف بابن الجزري نسبةً إلى جزيرة ابن عمر من بلاد الأكراد التي كان بها أجداده ثم رحلوا إلى حلب . فهو حلبي أتقن الشعر وجمع فيه بين الصناعة والرقعة ، وأكثر من مطالعة كتب الأدب واللغة حتى رسخت فيه ملكة العلم . ورحل إلى الشام والعراق وقرأ الفقه على محمد بن قاسم الحلبي ، ثم عاد إلى حلب واستقر بها ، وكان يتردد على بني سيفاً أمراء طرابلس وله فيهم المدائح الكثيرة . وجمع له ديواناً تتداوله أيدي الناس . وكان مغرمًا بشعر أبي العلاء المعري ، كثير الأخذ منه . وكتب على ديوانه لزوم ما لا يلزم .

إن كنت متخذاً لجرحك مرهماً فكتاب رب العالمين المرهم
أو كنت مصطحباً حبيباً سالكاً سبل الهدى فلزوم ما لا يلزم
ومن شعره في الغزل قوله:

ما عشت من ألم الفراق لو لم أطل أمل التلاقي
فأظلل كالمسوع من أفعى النوى ورجائي راقى

يا ثالث القمرين ألا في الكسوف وفي المحاق
حاتم دمعى فيك لا يرقى وروحي في التراقي
ومن أقواله:

يا ليلةً جمعتنا والسرور معاً لا روعتها دواعي الأفق بالقلق
لو استطعنا وقد شابت مفارقها صبغاً لها من سواد القلب والحدق
بكيثها وشباب العيش في دعة منا وغافل طرف الدهر لم يفق
علماً بأنّ الليلي غير باقية وكل مجتمّع يرمى بمفترق
وقال بمدح فصل الربيع:

قابلتنا أيدي الربيع بوجه حسن فيه للمحاسن شاهد
ولنعم الزمان منه منحنا فضل فصل الربيع لو كان خالداً
وسافر في آخر عمره إلى حماه فتوفي بها بعد مدة سنة ١٠٣٣ هـ وفي رواية
أخرى سنة ١٠٣٤ هـ (سنة ١٦٢٣ أو سنة ١٦٢٤ م).

٥

ابن حبيب الغزي

هو شرف الدين بن عبد القادر بن بركات المعروف بابن حبيب الغزي الحنفي ،
وكان فقيهاً متمكناً مفسراً نحويّاً . وله تأليف مشهورة منها حاشيته على كتاب
«الأشباه والنظائر» لابن نجيم في الفقه سماها تنوير البصائر في شرح الأشباه
والنظائر . وقال الحبي رأيت بخطه كثيراً من التحريرات على كتاب الدرر والغرر
في الفقه أيضاً . وله كتاب: «سماه محاسن الفضائل بجميع الرسائل» وهو ثلاث
رسائل اثنتان له وواحدة للحسن البوريني المذكور . وسبب جمعها أنّ البوريني كان
قد أرسل إلى الأمير أحمد بن رضوان حاكم غزة رسالة ضمّنها السؤال عن عبارة
كتبها أبو السعود في تفسيره آية من القرآن وهي: «لهم فيها ما يشاؤون خالدين» .

وقال خالدين حال من الضمير المستكن في متعلق الجار والمجرور، وقيل من فاعل يشاؤون. والمعنى أنّ من كانوا في الجنة يستمرون فيها خالدين. وطلب البوريني الجواب من شرف الدين هذا فألف رسالته الأولى وسماها «أرواء الصادي في الجواب عن أبي العوز العمادي». ولما وصلت هذه الرسالة إلى البوريني اعترف بصحة بعضها واعترض على باقيها، فكتب شرف الدين رسالته الثانية وسماها: «بارج العبهري والجادى في الدفع عن أرواء الصادي» ذكر فيها وجهاً آخر وهو إنّ ما لما لا يعقل وخالدين حال وهو جمع لمن يعقل، على أنّ ما تأتي أيضاً لم يعقل كقوله خلق ما في السماء والأرض. ويستوي فيها المذكر والمؤنث والمفرد والجمع وهي في الآية بهذا المعنى، أي لهم فيها ما يشاؤون من ملاذ ومشتهيات. ومن جملة ذلك الحور والولدان وهم ممن يعقل ويجوز في ضميرها مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى. فقال خالدين وهو جمع العاقلين وغلبه على ما لا يعقل من ملاذ النعيم، وعليه فيكون قوله خالدين حال من ما الموصولة والمعنى أنّ ما يشاؤون يكون خالداً لهم. ولم يذكر المحبّي تاريخ وفاة ابن حبيب بل ترك محلها بياضاً. ومن الواضح أنه كان في أيام البوريني ونظراً أنّ وفاته كانت في العقد الثالث من القرن السابع عشر أي من سنة ١٦٢٠ إلى سنة ١٦٣٠ م.

٦

البهاء العاملي

هو محمد بن حسين بن عبد الصمد الملقّب بهاء الدين بن عز الدين الحارثي العاملي الهمداني أكثر المحبّي وغيره من الثناء عليه، وذكره علي بن معصوم وقال وُلد في بعلبك سنة ٩٥٣ هـ (سنة ١٥٤٦ م) وعن أبي المعالي أنه وُلد بقزوين. وعلى الرواية الأولى أنّ أباه انتقل به إلى بلاد العجم. ولما اشتد كاهله أخذ في السياحة فساح ثلاثين سنة واجتمع في أثناء ذلك بكثير من أهل الفضل، ودخل مصر وألف كتاباً سماه الكشكول جمع فيه كل نادرة من علوم شتى، ثم قدم إلى القدس متجنباً مخالطة الناس فلم يخفَ فضله، ودرس عليه الرضي القدسي شياً من الهيئة والهندسة. ثم سار إلى الشام ووصل إلى دمشق واجتمع بالبوريني وهو لا

يعرفه فلم يقدره أولاً حق قدره ، ولما تجاذبا أطراف الحديث نهض البوريني وقال لا بدّ أن تكون أنت البهاء الحارثي . وتعانقا فسأله البهاء كتمان أمره ، وأقلع إلى حلب مستخفياً بهيئة درويش . ثم عاد وقطن بأرض العجم وألّف مؤلفات جليلة منها التفسير المسمى «العروة الوثقى والصراط المستقيم» ، والتفسير المسمى «بعين الحياة» ، والتفسير المسمى «الحبل المتين في مزايا الفرقان المبين ومشرق الشمسين» . وشرح الأربعين والجامع العباسي بالفارسية ومفتاح الفلاح ، والزبدة في الأصول والتهديب في النحو والملخص في الهيئة ، والرسالة الهلالية وحواشي الكشف للزمخشري وحواشي البيضاوي والفوائد الصمدية في علم العربية إلى غيرها . وله لغز طويل مشهور ذكره المحبي في ترجمته:

وله كثير من الشعر الفصيح جمع فيه بين الصناعة والدقة والركة منه ما كتبه إلى والده وهو بهراة:

يا ساكني أرض الهراة أما كفى	هذا الفراق بلى وحق المصطفى
عودوا عليّ فربح صبري قد عفا	والجن من بعد التباعد ما غفا
وخيالك في بالي	والقلب في بلبال

وله يرثي والده:

قف بالطلول وسلها أين سلماها .	وروي من جرع الأجفان جرهاها
وردد الطرف في أطراف ساحتها	وارج الوصل من أرواح أرجاها
فانّ يفتك من الأطلال مخبرها	فلا يفوتك مرآها ورياها
ربوع فضلي تباهي التبر تربتها	ودار أنس يحاكي الدر حصباها

إلى قوله:

لفقدكم شقّ جيب المجد وانصدعت	أركانه وبكم ما كان أقواها
وخزّ من شامخات العلم أرفعها	وأنهد من باذخات العلم أرساها
ويا ضريحاً على هام السماك علا	عليك من صلوات الله أزاها

وكان وفاته سنة ١٠٢٤ هـ (سنة ١٦١٥ م) .

فتح الله البيلوني الحلبي

هو فتح الله بن محمود بن محمد الحلبي الأنصاري المعروف بالبيلوني الشافعي . أخذ عن والده الذي كان من مشاهير العلماء وسافر من حلب صعبة نصوح باشا وزير الدولة وكان معلماً له فنال جاهاً كبيراً ، ثم انحطّ عنده فولّي افتاء الشافعية بالقدس ، وطاف بلاداً كثيرة ، مكة المكرمة ، والمدينة ، والقدس ، ودمشق ، وطرابلس ، وبلاد الروم . وألّف تأليف بديعة منها حاشيته على البيضاوي ، وكتاب سماه «الفتح الحسوي» شرح عقيدة الشيخ علوان الحموي . وله كتاب آخر سماه «خلاصة ما يعول عليه المسلمون في أدوية دفع الوباء والطاعون» ، وهو مشهور وله مجاميع اشتملت على تعاليق غريبة . وأخذ عنه خلق كثير ، وله شعر غير قليل ومنه قوله:

يقولون دارِ الخصم تظفر بوّده فذلك درياق من الغلّ في القلبِ
فما ازداد مذ دارينا غير جفوة لأنّ قديم الداء مستعصب الطبّ

وله:

المرء ما دام في عز ومعتدلٍ فكلُّ خلٍّ له بالصدق متّصفُ
لا عرف الله عبداً صدق صاحبه فإنه بانكشاف الحال ينكشفُ

ومما يستجاد له قوله بالنظارة المعروفة بالعوينات:

رب صديق عاب نظارة يقوى بها الناظر من ضعفه
وعن قليل صار في أمرها يحملها رغماً على أنفه

وكانت وفاته بحلب سنة ١٠٤٢ هـ (سنة ١٦٣٢ م) .

نور الدين بن برهان الحلبي

هو علي بن ابراهيم بن أحمد الملقب بنور الدين بن برهان الدين الحلبي الشافعي قال في حقه المحبي الامام الكبير أجلّ اعلام المشايخ وعلامة الزمان . كان جبلاً من جبال العلم وبحراً لا ساحل له . وذكر له من المؤلفات البديعة السيرة النبوية المعروفة بالسيرة الحلبية ، وقد سماها: «انسان العيون في سيرة النبي المأمون» في ثلاثة مجلدات اختصرها من سيرة الشيخ محمد الشامي ، وزاد عليها أشياء لطيفة الموقع . وله حاشيته على منهج القاضي زكريا وحاشيته على شرح المنهاج للجلال المحلي، وحاشيته على شرح الورقات للجلال المذكور، وحاشيته على شرح الورقات لابن امام الكاملية، وحاشيته على شرح التصريف للسعد التفتازاني ، وشرح على الشرائع النبوية لم يتم سماه الوفا لشرح شمائل المصطفى ، وكتاب سماه «زهر الزهر» وهو مختصر المزهر للسيوطي في اللغة ، وشرح على شرح القطر للفاكهي «ومطالع البدور في المجمع بين القطر والشذور» و«الفوائد العلوية بشرح شرح الأزهرية» و«التحفة السنية» شرح الأجرومية و«غاية الاحسان بوصف من لقيه من بني الزمان» . و«التحفة العلوية في الأجوبة الحلبية» و«النصيحة العلوية في بيان حسن الطريقة الأحمدية» و«المختار من حسن الثناء في العفو عمن جنى» ، و«اللطائف من عوارف المعارف» و«الطراز المنقوش في أوصاف الحبوش» ، و«صبابة الصبابة» مختصر ديوان الصبابة و«انقاذ المهج بمختصر الفرج» ومتن في «التصريف وحسنات الوجنات النواضر من الوجوه والنظائر» و«اعلام الناسك بأحكام المناسك» . ومقالة لطيفة على الجامع الصغير وشرح على شرح البسملة للقاضي زكريا سماه: «خير الكلام على البسملة والحمدلة لشيخ الاسلام» . وله رسالة لطيفة في التصوّف ودخان التبغ إلى غير ذلك من المؤلفات . وكانت وفاته سنة ١٠٤٤ هـ (سنة ١٦٣٤ م) .

عبد الرحمن العمادي

هو عبد الرحمن بن محمد بن عماد الدين العمادي الدمشقي الحنفي . قال المحبي في حقه هو أحد أفراد الدهر وأعيان العلم وأعلام الفضل ، وهو المفتي بالشام بعد أن كان أبوه حيناً مرجع الناس للفتوى . وحوى من الصفات الحسنة والأخلاق الرائقة ما انفرد به دون منازع واختص به دون مشارك . وذكر له من التأليف حاشية على بعض «تفسير الكشاف» للزمخشري بقيت في مسوداته . وقال وله المنسك المشهور الذي سماه «المستطاع من الزاد لأفقر العباد ابن عماد» . وهذا الكتاب طُبع بالقاهرة سنة ١٣٠٤م هو كتاب «الهدية في عبارات الفقه والروضة الرّيا في من دُفن بداريا» . وله رسائل كثيرة في سائر الفنون ومنشآت وأشعار أكثرها لطيف المسلك حسن الموقع . ومنها قوله يشكو عزله من التدريس في المدرسة السليمية واقامة ابن زين الدين مكانه .

لك أشتكي مولاي أفطع وصمة	كادت لشدة قهرها تصميمي
أمن المروءة وهي أسمى رتبة	أنّي أعادلُ بابن زين الدين
لا بل يرجح ثم يغصب منصبي	وأعود منه بصفقة المغبون
لو كنت مع كفوءٍ قرنت لهان لي	لكنه بعس القرين قريني
أو كان ثم تعادلٍ لهضمته	فانظر إلى دهري بمن يبيلوني

وكانت وفاته سنة ١٠٥١ هـ (سنة ١٦٤١ م) .

ابراهيم البتروني

هو ابراهيم بن أبي اليمن بن عبد الرحمن بن أحمد البتروني الأصل الحلبي المولد الحنفي ، وكان أبوه من أعيان حلب وعلمائها ، وهو سلك طريق القضاء

وتولّى عدة مناصب منها حمّاه ، وتفوّغ له أبوه عما كان بيده من مدارس وجهات واستمرت بيده إلّا افتاء الحنفية فإنه عيّن به غيره . وكان حسن المحاضرة شاعراً مطبوعاً ، وشعره كثير الملح والنكت . ومنه من قصيدة في مدح الأمير محمد بن سيف صاحب طرابلس:

أرّبى على شجو الحمام الفرد وشدا فبرح بالحسان الخرد
شاذ يشيّده السرور لمعشر عمروا مجالس أنسهم بالصرخد
في مجلس قام الصفاء به على ساقٍ وشمر للمسرة عن يد
إلى أن قال:

ولقد شكوت له الهوى ليرق لي فنأى عن المضنى بقلبي جلمد
وأبى سوى رقي فقلت له اتقد إني رقيق للأمير محمد

وكانت وفاته سنة ١٠٥٣ هـ (سنة ١٦٤٣ م) قال المحبي في آخر ترجمة ابراهيم هذا إنه من بليدة البترون بالقرب من طرابلس ، وقد خرج منها جماعة من العلماء ، وأول من دخل حلب من بيت البتروني هؤلاء عبد الرحمن جد ابراهيم هذا سنة ٩٦٤ هـ (سنة ١٥٥٦ م) وسنذكر من هذا البيت عدة رجال نجت بهم الشهباء .

صالح التمرتاشي الغزي

هو صالح بن محمد بن عبد الله بن أحمد الخطيب الغزي الحنفي ابن الامام الكبير صاحب التنوير بالفقه ، وكان صالح فاضلاً متبحراً باحثاً وله احاطة بفروع المذهب الحنفي ، أخذ الفقه عن والده ورحل إلى مصر ، وأخذ عن علمائها وتصدّر في ذلك القطر بعد أبيه ونفع الناس بالفتاوى ، وألّف التأليف النافعة في الفقه وغيره منها حاشية على كتاب الأشباه والنظائر سماها: «زواهر الجواهر في شرح الأشباه والنظائر» ، وله منظومة في الفقه . وشرح كتاب تحفة الملوك (ربما كان تحفة الملوك

في الفروع لزين الدين الرازي الحنفي وهو مختصر في العبارات) وشرح ألفية ولده محمد في النحو التي أولها:

قال محمد هو ابن صالح أحمد ربي الله خير فاتح

وله شرح النقاية (أظنه لجلال الدين السيوطي) وسمى تأليفه العناية في شرح النقاية وشرح تاريخ الاسلام سعدى المحشي ، وله رسائل كثيرة وأشعار وافرة منها ما كتبه في رسالة إلى الخير الرملي:

إن جرت عن رملة لي ثم انسان
حبر همام له علم وإحسان
في العلم نعمانه في الجود حاتم
وما له فيهما ضئ وأقران
قالوا هو البحر قلت البحر ذو غرق
قالوا هو البدر لا يعرفه نقصان
قالوا هو الليث قلت الليث ذو حمق
قالوا هو الشمس قلت الشمس ميزان
قالوا فما هو قيل قلت قد جُمعت
فيه الخصال وزادت فيه عرفان

وكانت وفاته سنة ١٠٥٥ هـ (سنة ١٦٤٥ م).

١٢

النجم الغزي

هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن بدر الملقب بالنجم الغزي . وقد ذكر هو ترجمة نفسه في كتاب سماه بلغة الواحد في ترجمة الوالد أي والده . ومما قاله فيها أنه وُلِدَ سنة ٩٧٧ هـ (سنة ١٥٦٩ م) ولأنه زُيِّيَ تحت كنف والده وقرأ عليه إلى السنة السابعة من عمره ثم توفي والده فربته أمه ، وقرأ على عدة مشايخ من علماء أيامه . وقال إنَّ من مؤلفاته نظم الأجرومية سماه «الحلة البهية في الأجرومية» . واقتدى بنظمها بشرح والده لها ثم شرح القطر لابن هشام ، وشرح القواعد له وشرح منظومة والده في النحو في أربعة آلاف بيت وسماه: «المنحة النجمية في شرح الملحة البدرية» . ومنظومة في النحو مائة بيت ومنظومة في التصريف والخط مائة بيت . و«نظم العقيان في مورثات الفقر والنسيان» ومختصر

في النحو سماه «البهجة»، ومقالة على التوضيح لابن هشام ، ومقالة على الشافعية لابن الحاجب ، وشرح لامية الأفعال لابن مالك في التصريف ، ونظم شرح العلامة المحب الحموي على منظومة ابن الشحنة في المعاني والبيان ، ونظم «فرائض المنهاج في الفقه»، وشرح منظومة والده في ضبط القاعدة الفقهية وهي كل ما كان أكثر عملاً وأشقّ فهو أكثر ثواباً ، وسماه «تحفة الطلاب». وشرح كتاب اللآلئ المبدعة في الكائنات المخترعة لجده شيخ الاسلام ، ونظم كتاب «رواة الأسباطين في عدم الدخول على السلاطين» لجلال الدين السيوطي. قال وأعظم مؤلفاتي الآن شرحي على ألفية التصوّف لشيخ الاسلام الجدل المسمى «منبر التوحيد ومظهر التفريد في شرح جمع الجواهر الفريد في أدب الصوفي والمريد». وفي عزمي الآن أن أكتب في الفقه كتاباً حافلاً وأنا شارح في مؤلفات أخرى أسأل الله تعالى التوفيق . ومن مؤلفاتي أيضاً هذا الكتاب المسمى «بلغة الواجد في ترجمة شيخ الاسلام الوالد». هذا أكثر ما ذكره لنفسه .

وذكر له المحبي كتاب: «عقد النظام لعقد الكلام» وهو كتاب غريب الوضع مبني على مقالات للسلف في النصيحة والزهد وأشباههما . وكتاب تحبير العبارات في تحرير الامارات وهو عجيب أيضاً . وكتاب التنبيه في التشبيه وهو كتاب بديع في سبعة مجلدات بقطع النصف لم يسبق إلى مثله ، يذكر فيه ما ينبغي للانسان أن يتشبه به من الأعمال الحمودة وما يتجنبه من الأعمال المذمومة . وله فوائد منظومة كثيرة منها قوله جامعاً آداب العيادة للمريض:

أن تعد يوماً مريضاً فليكن	في زمان لاق فيه أن تعود
واطرق الباب برفق باسمك	صرّح ما صديق كالحسود
واغضض الطرف ولا تكثر إذاً	من سؤال ثم خفف في القعود
لا تكلم بالذي يضجره	أولهُ فيه ارتياب في الوجود
ضع عليه يدك اليمنى وعن	حاله سلّه على وجهه وجود
وأشر بالصبر حذر جزعاً	وادعُ بالاخلاص مولاك الودود
تلك آدابك إن عدت ومن	يحفظ الآداب يُرجى أن يسود

وذكر له أيضاً كتاب التاريخ في أعيان المائة العاشرة وسماه: «الكواكب السائرة

في أعيان المائة العاشرة»، والذيل الذي سماه: «لطف السحر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر». وكانت وفاته سنة ١٠٦١ هـ (سنة ١٦٥٠ م).

١٣

ابن النقيب البيروتي

هو محمد المعروف بابن النقيب البيروتي نزيل دمياط الشافعي ووصفه المحبي بالعالم الكبير والعلم النحرير، دخل دمشق وأخذ عن الشمس الميداني وأمثاله ثم رحل إلى مصر وأخذ فيها على الفور الزيايدي والشيخ علي الحلبي، ودرس بالجامع الأزهر، وأخذ عنه الجمع الكثير وكان يدرّس ولا ينظر في كتاب، ويقول هذه طريقتنا وطريقة مشايخنا، وأقام يدرّس هناك أربعين عاماً. وكان طبيباً حاذقاً ثم رحل إلى دمياط ولزم التدريس فيها إلى أن توفاه الله. وكان في مجلسه مائة وثلاثون طالباً. ومن مؤلفاته حاشية على المنهاج للمحلي وسماه «فتح التجلي». وكانت وفاة ابن النقيب سنة ١٠٦٤ هـ (سنة ١٦٥٣ م).

١٤

أبو الوفاء العرضي الحلبي

هو أبو الوفاء ابن عمر بن عبد الوهاب بن الحسين الشافعي الحلبي مفتي الشافعية بحلب وأحد أعيان العلماء. روى العلوم النقلية والعقلية عن والده ولزم العلامة أبا الجود البتروني وغيره. ومن مؤلفاته تاريخ سماه: «معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب». وكتاب «طريق الهدى في التصوّف» وشرح على ألفية ابن مالك وحاشية على شرح المفتاح للسيد، وحاشية على البيضاوي، وحاشية على

شرح المنهاج للمحلي ، وشرح البديعيات . وله شعر حسن ونثر بارع . ومن شعره
لامية ضاهى بها لامية العجم ومطلعها:

جلالة الفضل تنفى زلة الرجل وذلة الجهل توهي صولة البطل

ومنها:

واضرب على العقل أسواراً محصنة تقيك فتنة أحداث أولي حيل
ولا يروقك ماء الحسن قطره نار الحياء على الخدين كالشعل
ولا حلاوة ثغر حشوه درر فكم من السم في العسال والعسل
وله كثير غير ذلك من الشعر الحسن . وكانت وفاته سنة ١٠٧١ هـ (سنة
١٦٦٠ م) .

١٥

خير الدين الرملي

هو الشيخ خير الدين بن أحمد بن نور الدين علي بن الوهاب الأيوبي
الرملي ، اشتهر في علوم التفسير والحديث والفقه واللغة والتصريف والنحو والبيان
والعروض . وكان شيخ الحنيفة في عصره ، وهو صاحب الفتاوي السائرة . وله
غيرها من التأليف النافعة في الفقه منها حواشيه على كتاب: «منح الغفار» رد فيها
غالب اعتراضاته على كتاب الكنز وحواشيه على شرح الكنز للعيني ، وعلى
الأشباه والنظائر لابن نجيم ، وله تعليقات على البحر الرائق والزيلعي وجامع
الفصولين وله رسالة سماها: «الانصاف في عدم الفرق بين مسألتين النبكي
والخصاف» . وهو بحث معلوم في الأشباه في القواعد ، ورسالة سماها: «الفوز
والغنم في مسألة الشرف من الأم» . وله ديوان شعر مرتب على حروف المعجم .
ومنه قوله في الزنيق:

وزنبة قد أشبهت كأس فضة برأس قضيب من زمردة عجب

سداسي شكل كل زاوية به على رأسها الأعلى هلال من الذهب
وكانت ولادته سنة ٩٩٣ هـ (سنة ١٥٨٥ م) ووفاته سنة ١٠٨١ هـ (سنة
١٦٧٠ م).

١٦

عبد اللطيف البهائي

هو عبد اللطيف بن عبد الباقي الحنفي المعروف بالبهائي ، وُلد ببعلبك وقرأ
على جده لأمه العلامة محمد البهائي . ثم قدم دمشق ولزم الشرف الدمشقي
وسلك طريق القضاء ، وولّى مناصب كبيرة منها قضاء طرابلس وبلغراد ، ونما حظه
واشتهر فضله وألف تأليف دالة على طول باعه، منها شرحه لنصوص ابن عربي
ونظمه متن المنار في الأصول في تسعمائة وثلاثة أبيات وسماه «قرة عين الطالب»
وهو عدد أبياته ثم شرحه شرحاً لطيفاً وعنّونه باسم الوزير أحمد باشا الفاضل . وله
شرح على ديوان أبي فراس أبداع فيه كل الابداع ونظمه ونثره كثيران مستوفيان
شرائط الحسن والمتانة . ومن نظمته في مدح شيخ الاسلام المنقادي استاذة:

بأيّ لسانٍ يجسر العبد مدح مَنْ	دمي من أيّاديه ولحمي وأعظمي
وَمَنْ عشت دهرًا تحت أكناف ظلّه	أروح بأفضال وأغدو بأنعم
وفزت بعلمٍ منه عزّ اكتسابه	وذاك لعمرى حسرة المتعلّم
ينزهني في ظاهري وسرائري	بإرشاده عن كل ريب ومأثم
ولولاه من عبد اللطيف ومن له	ومن يخدم الأشراف يشرف ويكرم
وحسبي من شكري اعترافي بفضله	وتصديق قلبي والجوارح والفم

وكانت وفاته سنة ١٠٨٢ هـ (سنة ١٦٧١ م).

ابن السمان الدمشقي

هو عبد الباقي بن أحمد بن محمد المعروف بابن السمان الدمشقي كان فاضلاً ذكياً قوياً حافظاً كثير الاطلاع على أشعار العرب وأيامهم وأمثالهم، وله تصانيف كثيرة لم يكمل منها إلا «شرح الأسماء الحسنى» و«شرح شواهد الجامي» و«مختصر التهذيب في المنطق» وكان قد شرع في تأليف كتاب سماه «مركات الشعراء» كتب منه قسماً ولو أكمله لكان عجباً. وأخذ قبيل وفاته في الجمع بين الصحيحين للبخاري ومسلم ومات ولم يكمله. وفارق وطنه دمشق ودخل القاهرة واشتغل بها على بعض علمائها، وطاف بلاد الروم ووصل إلى جزيرة كريت، وكان الوزير الفاضل محاصراً لها فمدحه بقصيدة مطلعها:

أخف النوى ما سهلته الرسائل وأحلى الهوى ما كررته العوادلُ

ومما قاله فيها:

يعيّرني قومي بقومي ومحتدي	كما عيب بالعضب الصقيل الحمائلُ
أجل حسدوني حيث فضلت دونهم	وكم حسدت في الناس قبلي الأفاضلُ
وما الفخر بالاجسام والمال والعلی	ولكن بأنواع الكمال التفاضلُ
وفيم نضیع العمر في غير طائل	إذا ما استوى بالناس قس وباقلُ
إذا جاء نقاد الرجال من الوغی	تمیّز عن أهل الكمال الأراذلُ

وكانت وفاته سنة ١٠٨٨ هـ (سنة ١٦٧٧ م).

علي البصير مفتي طرابلس

هو علي البصير الحموي مفتي طرابلس الشام وُلد بحماة وقرأ بها ثم رحل إلى

طرابلس وعمره أربعون سنة وتوطنها وولّي الافتاء بها وكان بارعاً لسنّاً آيةً في الحفظ . وله تآليف كثيرة في الفقه وغيره منها شرح الملتقى سماه: «قلائد الأنحر في شرح ملتقى الأبحر» ونظم «الغرر» في ألفي بيت ونظم «العوامل الجرجانية» ونظم «قواعد الاعراب»، وله كتاب منظوم في أَلغاز الفقه سماه: «الخور العين» يشتمل على ألف سؤال وأجوبتها ومفتتحه:

قول علي الحنفى المسكين من بعد بسم الله ذي التمكين
وبعد أني قد نظمت بعض ما وجدت في مذهبنا المتين
من المسائل التي تعسر عن كل فقيه جامع رزين
وله غير ذلك . وكانت وفاته سنة ١٠٩٠ هـ (سنة ١٦٧٩ م) ودُفن بجبانة الغربا ظاهر طرابلس .

١٩

الكواكبي الحلبي

هو محمد بن حسن بن أبي يحيى الكواكبي الحلبي الحنفى مفتي حلب ورئيسها في الفنون والعلوم النقلية والعقلية مع سعة الجاه والمال، نشأ بحلب وأخذ بها عن كثيرين من محققي عصره كالشيخ جمال الدين الياقوبي . وما زال يترقى بالفضل حتى انفرد وولي أفتاء حلب وتصدّر بها . وأفاد ودرس وبقيت عليه فتوى حلب إلى أن توفي . وألّف مؤلفات كثيرة منها «نظم الوقاية في الفقه» و«نظم المنار» وشرحه في الأصول ، وحاشية على تفسير البيضاوي التزم بها مناقشة سعدي ، وحاشية أخرى انتقد بها عصام الدين وحاشية على شرح المواقف للسيد وغير ذلك . وله نظم ونثر في غاية اللطافة . ومن شعره:

حَتَامَ في ليل الهموم زناد فكرك تقتدخ
قلْبٌ تحرقُ بالأسى ودموع عين تنسفخ
أرفق بنفسك واعتصم بحمى المهيمن تنشرخ

ما أمّ ساحة جوده ذو محنة إلا منح
 أو جاءه ذو المع ضلاتٍ بمغلقٍ إلا فتح
 فدع السوى وانهج على نهج السريّ المتضح
 واسمع مقالة ناصح إن كنت ممن يُنتصخ
 ما تمّ إلا ما يريد فدع مرادك واتضح
 واترك وساوسك التي شغلت فؤادك تسترخ
 وتوفي سنة ١٠٩٦ هـ (سنة ١٦٨٤ م).

٢٠

الشيخ ابراهيم الفتال الدمشقي

هو الشيخ ابراهيم بن منصور المعروف بالفتال الدمشقي استاذ محمد الحبيبي
 الذي نأخذ عنه . وقد غالى في الثناء عليه وأطراً علومه وفضائله ومزاياه وعدد
 تلامذته الشهيرين ، إلى أن قال إنّ له من المؤلفات حاشية القطر للفاكهي وتحريرات
 على مواطن من التفسير ، وكان ينظم الشعر . وبما ذكره من شعره :

كلنا سيدي إليك نؤوب ما لنا لا نعي اللقا ونتوب
 إنّ عمر الشباب ولّى وأبقى ما جنينا فيه وذاك ذنوب
 فإلى كم هذا التواني وقد جاء نذير الحمام وهو المشيب
 ندعى الحب فرية إنما الحب حري بأن يُطاع الحبيب
 ليس هذا دأبّ المحبين لكن قد نحاه مشئت محجوب
 إنّ أعداءنا توالى علينا نفسنا والهوى وعقل مريب
 كيف يرجو الخلاص منهم معني في حماه مكبل مجبوب

وكانت وفاته سنة ١٩٨ هـ (سنة ١٦٨٦ م).

محمد المحبي

هو محمد الأمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد بن محب الدين
الدمشقي المعروف بالمحبي صاحب الكتاب: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي
عشر»، جمع فيه تراجم ١٢٨٩ فاضلاً وأميراً من مشاهير القرن الحادي عشر،
وطبع كتابه بالقاهرة سنة ١٢٨٤م وعنه أخذنا خلاصة التراجم التي ذكرناها هنا
والتي سوف نذكرها في الفصل التالي مع بعض الزيادة والتفسير. وله أيضاً كتاب
«الاعلام» وهو مطوّل في تراجم الأعيان في كل قرن رتبه على ثمانية وعشرين باباً
بحسب حروف المعجم ولم يُطبع بعد. ونشأ من عشيرة المحبي هذا عدة علماء
ذكرهم محمد خليل المرادي الدمشقي في كتابه. «سلك الدرر في أعيان القرن
الثاني عشر»، ومنهم فضل الله بن محب الله والد المحبي المذكور. وله ذيل لتراجم
الأعيان في أبناء الزمان لحسن البوريني. وقد توفي محمد المحبي المذكور بدمشق
سنة ١٢١١ هـ (١٦٩٩ م).

عد ١٠٠٦

بعض المشاهير غير السوريين في هذا القرن

١

أبو بكر الشنواني

هو الشيخ أبو بكر بن اسماعيل بن شهاب الدين الشنواني نسبةً إلى شنوان
وهي بلدة بمصر، وكان كثير الاطلاع على اللغة ومعاني الأشعار حافظاً لمذاهب
النحاة والشواهد. كثير العناية بها وتخرّج به كثير من العلماء منهم الشهاب

الحفاجي ابن أخته وسيأتي ذكره . وله المؤلفات الحسنة منها حاشية على متن التوضيح في مجلدات لم تكمل ، وحاشية على شرح القطر للفاكهي ، وحاشية أخرى على شرح القطر للمؤلف لم تكمل . وحاشية على شرح الشذور للمصنف أيضاً . وحاشية على شرح الأزهرية للشيخ خالد الأزهرى وأخرى على شرح القواعد له . وله أيضاً شرح على البسملة والحمدلة للشيخ عميره . وله شرح آخر على البسملة والحمدلة للقاضي زكريا وشرح مطوّل على الأجرومية جمع فيه نفائس الفوائد ، وحاشيتان على شرح الشيخ خالد الأزهرى للأجرومية أيضاً ، وشرح على ديباجة مختصر الشيخ خليل الناصر اللقاني . إلى غير ذلك وكان كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

وقائلة أراك بغير مالٍ وأنت مهذب علم امام
فقلت لأنّ مالاً قلب لأم وما دخلت على الاعلام لأم

وكانت وفاته سنة ١٠١٩ هـ (سنة ١٦١٠ م) وتال الحفاجي ابن أخته يرثيه:

تباً لقلب عليك اليوم ما احترقا وناظر دمعته في ذا المصاب رقا
وغصة وشجي في القلب سوغها دمع به ناظر المخزون قد شرقا
رضيع ثدي الندى خدن العلا حسباً من مهده لمقرّ اللحد ما افترقا
قوم بنار الجوى تشوى قلوبهم قد صيروها قرى همّ لهم طرقا
والدمع جارٍ عليه قد طفا وطغى لولا سفينة تابوت له غرقا

عبد الرؤوف المناوي

هو ابن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين عبد الرؤوف المناوي القاهري الشافعي ، وكان اماماً فاضلاً زاهداً عابداً ، وكان يقتصر يومه وليله على أكلة واحدة من الطعام . وقد جمع من العلوم والمعارف ما لم يجتمع في أحد

معاصريه . ومؤلفاته كثيرة نجتزئ بذكر بعضها ، فله شرح على شرح العقائد للسعد التفنازاني سماه : تغاية الأمانى» لم يكمله ، وشرح على نظم العقائد لابن أبي شريف ، وكتاب سماه «أعلام الأعلام بأصول المنطق والكلام» و«الشرح على الجامع الصغير» ثم اختصره بأقل من ثلث حجمه وسماه «التيسير» . وله كتاب جمع فيه ثلاثين ألف حديث ويّـن ما فيه من الزيادة على الجامع الكبير ، وكتاب انتقاه من لسان الميزان بيّن فيه الموضوع والمنكر والمتروك والضعيف ورّبه كالجامع الصغير . ورّب كتاب الشهاب القضاعي وشرحه وسماه : «امعان الطلاب بشرح ترتيب الشهاب» ، وشرح كتاب «الشمالك» للترمذي شرحين ثم اختصر كتاب الترمذي المذكور وزاد عليه أكثر من النصف وسماه «الروض الباسم» . وله أيضاً كتاب في اصطلاح الحديث سماه «بغية الطالبين لمعرفة اصطلاح المحدثين» ، وكتاب في الأوقاف سماه تيسير الوقوف على غوامض أحكام الوقوف وهو كتاب لم يسبق إليه ، وشرح منظومة زيد ابن ارسلان التي نظم فيها أربعة علوم أصول الدين وأصول الفقه والفرائض ، والتصوّف وسماه : «فتح الرؤوف الصمد بشرح صفوة الزيد» ، وشرح على العباب سماه : «اتحاف الطلاب بشرح كتاب العباب» ، انتهى فيه إلى كتاب «النكاح» ، وشرح على البهجة الوردية سماه «الفتح السماوي بشرح بهجة الصلحاوي» ، ثم اختصره ، وشرح كتاب «الشمعة المضية في علم العربية» للسيوطي سماه «المحاضر الوضية في الشمعة المضية» ، وكتاب جمع فيه عشرة علوم أصول الدين وأصول الفقه والفرائض والنحو والتشريح والطلب والهيئة وأحكام النجوم والتصوّف وشرح على القاموس انتهى فيه إلى حرف اللال ، وكتاب في أسماء البلدان ، وكتاب في التعاريف سماه : «التوقيف على مهمات التعاريف» ، وكتاب في أسماء الحيوان سماه «قرة عين الانسان بذكر أسماء الحيوان» ، وكتاب في آداب الملوك سماه : «الجواهر المضية في الآداب السلطانية» ، وكتاب في الطب سماه : «بغية المحتاج إلى معرفة أصول الطب والعلاج» ، وكتاب في تاريخ الخلفاء إلى كثير غير ذلك من كتبه وشروحه . وتوفي سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢١ م) .

ابراهيم اللقاني

هو الشيخ ابراهيم بن حسن بن علي اللقاني المالكي نسبةً إلى لقانة قرية من قرى مصر، كان اماماً يرجع إليه في المشكلات والفتاوى بالقاهرة. وله تأليف كثيرة منها وأشهرها منظومة في علم العقائد سماها «جوهرة التوحيد» طُبعت ببولاق سنة ١٢٤١ هـ وقد يتضها ابنه عبد السلام بعد موت أبيه وشرحها. ولمحمد الأمير حاشية على هذا الشرح طُبعا معاً بالقاهرة سنة ١٣٠٩ هـ. ولابراهيم الباجوري المتوفي سنة ١٢٧٦ هـ حاشية على جوهرة التوحيد لللقاني طُبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ. ومن تأليف اللقاني أيضاً كتاب في «التربية والتصوّف»، وكتاب سماه «صاحب المكاشفات وخوارق العادات»، وله أيضاً: «توضيح ألفاظ الأجرومية» و«قضاء الوطر في نزهة النظر في توضيح نخبة الأثر» للحافظ بن حجر. و«اجمال الوسائل وبهجة المحافل بالتعريف برواة الشمائل» ثم «منازل أصول الفتوى وقواعد الافتاء بالأقوى»، ثم «عقد الجمان في مسائل الضمان»، ثم «نصيحة الاخوان باجتناّب شرب الدخان»، وعارضها معاصره الشيخ علي الأجهوري برسالتين أثبت فيهما القول بحلّ شربه ما لم يضّر. ومن تأليفه التي لم تكمل «تعليق الفوائد على شرح العقائد» للسعد وشرح «تصريف العزي» للسعد أيضاً سماه «خلاصة التعريف بدقائق شرح التصريف»، وحاشية على جمع الجوامع سماها: «البدور اللوامع من خدور جمع الجوامع». إلى غير ذلك. وله شعر ومنه:

يا أكرم الخلق قد ضاقت بي السبل ورقّ عظمي وغابت عني الخيلُ
ولم أجد من عزيز استجير به سوى رحيم به تستشفع الرسلُ
وكانت وفاته سنة ١٠٤١ هـ (سنة ١٦٣١ م).

ابن شيخان

هو السيد سالم بن أحمد بن شيخان وُلد سنة ٩٩٥ هـ (سنة ١٥٨٦ م) ونشر كثيراً من العلوم والمعارف وانتفع به كثيرون وصنّف في عدة فنون وعلوم، فمن تصانيفه: «بلغة المريد وبغية المستفيد في علم التحقيق» و«تمشية أهل اليقين على ذائقة التمكين»، وشرح رسالة مفيدة للشيخ عبد الكريم الجبلي، وشرح الجواهر الرابع والخامس من كتاب الجواهر الخمس للسيد محمد غوث الله أتمّ به شرح الشيخ أحمد الشناوي الذي شرح الأول والثاني والثالث منها، ثم نشر: «الافادة بذكر كلمتي الشهادة». ثم «السفر المستور للدراية في الذكر المنشور للولاية» و«الأخبار والأنباء بشعار ذوي القربى الألباء» و«شق الجيب في معرفة أهل الشهادة والغيب»، و«غرر البيان عن عمر الزمان» و«البرهان المعروف في موازين الحروف»، و«منتهى الطلب في قسمة حروف الرتب على الكواكب السبعة والرأس والذنب». وله غير ذلك كثير من المصنفات وله أشعار أيضاً ومنها:

كن ممسكاً بالصوم عن كل سوى واذكر بفطرك من أتى معروفه
وبفاطير عن روية الأغيار ضُم من صام عند الله طاب خلوفه

وكانت وفاته في سنة ١٠٤٦ هـ (سنة ١٦٣٦ م).

الاسحاقى

هو محمد بن عبد المعطي الاسحاقى (وسماه المحبى عبد الباقي) أصله من منوف بمصر وله كتاب التاريخ المشهور الموسوم «بلطائف أخبار الأول في من تصرّف في مصر من أرباب الدول»، طبع بالقاهرة سنة ١٣٠٠ هـ ولديّ منه نسخ مطبوعة سنة ١٣١٥ هـ وعلى هامشها: «تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة

والسلاطين» لعبدالله الشرقاوي. وتاريخ الاسحقاقى مقسوم على أحد عشر باباً. فالمقدمة في فضائل مصر والباب الأول في الخلفاء الأربعة الأولين، والثاني في دولة بني أمية، والثالث في الخلفاء العباسيين، والرابع في من ولي مصر من نواب الخلفاء الراشدين وبني أمية والعباسيين، والخامس في الفاطميين، والسادس في دولة الأيوبيين، والسابع في دولة المماليك البحرية، والثامن في دولة الجراكسة، والتاسع في السلاطين العثمانيين، والعاشر في نوابهم بمصر إلى سنة ١٠٣١ هـ، والحادي عشر خاتمة تحوي نصائح ومواعظ وآداب للسلاطين. وللإسحقاقى أشعار أيضاً ومما ذكره له المحبى منها قوله:

أذكرت أيتها الحمامة غيدا ومعاهداً سلفت لنا وعهودا
أذكرت أشجاناً لنا ومعاهداً وصفا تقضى طارفاً وتليدا
هذا على أنّ الغرام إذ زكى ظلّ الشجى يتوقع التفريدا
إلى قوله:

وجلا عليّ عرائساً من فكره حسنت طلا ومعاطفاً وقودوا
وأفادني وأفدته والخل يحـ مد أن يفاد معانياً ويفيدا
وكانت وفاته في نيف سنة ١٠٦٠ هـ (سنة ١٦٥٠ م).

٦

الشهاب الخفاجي

هو الشيخ أحمد بن محمد بن عمر قاضي القضاة الملقب بشهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي. قد أطل المحبى الكلام في مدحه، وذكر أنه كتب ترجمة نفسه في كتاب «ريحانة الأطباء» الآتي ذكره والذي نلخصه من هذه الترجمة هو أنه قرأ العلوم العربية على خاله أبي بكر الشنواني المار ذكره ووصفه بـ «سبويه زمانه»، وأخذ باقي العلوم عن شيخ الإسلام محمد الرملي وعن الشيخ نور الدين الزهادي

وابراهيم العلقمي ، وأخذ الطب عن الشيخ داود البصير ، وإنه ارتحل مع والده إلى القسطنطينية وتخرج على بعض فضائها ، وأخذ فيها الرياضيات واقليدس عن الخبر داود ، وإنه تولّى قضاء العسكر بمصر وولي أيضاً القضاء في الروملي ثم في سلانيك ، وحصل له بها مال كثير . ثم عدد تأليفه فقال هي حواشي تفسير القاضي وعنوانه: «القاضي وكفاية الراضي» ، وله حاشية على كتاب «أنوار التنزيل» للبيضاوي طُبعت ببولاق في ثمانية أجزاء سنة ١٢٨٣ ثم من كتبه شرح الشفا وسماه: «نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض» ، والشفا كتاب عنوانه: «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض اليحصبي المتوفي سنة ١١٤٩ م . وكتاب الخفاجي هذا طُبِعَ بالآستانة في أربعة أجزاء سنة ١٢٦٧ ثم شرح «درة الغواص في أوهم الخواص» للحريري ، وطُبعت الدرة في مصر سنة ١٢٧٣ هـ . وطُبعت بالآستانة مع شرح الخفاجي سنة ١٢٩٩ هـ ، ثم كتاب: «ريحانة الألباء في طبقات الأدباء» يتضمن تراجم المشاهير من الشعراء وطُبِعَ هذا الكتاب بمصر سنة ١٣٠٦ هـ . ثم «الرسائل الأربعون» وحاشية على «شرح الفرائض» وكتاب «السوائح» و«حواشي الرضى» . كل هذه الكتب عزاها هو إلى نفسه . وزاد المحبي عليها أنَّ له كتاب «شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل» ، وهذا الكتاب طُبِعَ بمصر سنة ١٢٨٢ هـ . وكتاب «ديوان الأدب في ذكر شعراء العرب» ذكر فيه مشاهير الشعراء من العرب العرباء والمولدين ، وربما كان كتاب «ريحانة الألباء ونزهة الحياة الدنيا» الذي طُبِعَ ببولاق سنة ١٢٧٣ هـ وفي القاهرة بعد ذلك ، ثم كتاب «طراز المجالس» وهو مجموع رتبه على خمسين مجلساً ذكر فيها مباحث تفسيرية ونحوية وأصولية ، وقد طُبِعَ بالقاهرة سنة ١٢٨٤ هـ وهو من أحسن كتب الأدب . وله رسائل كثيرة ومكاتبات متوفرة ومقامات ذكر بعضها في ريحانة الألباء ، وله ديوان شعر ومنه قصيدته الدالية التي مطلعها:

أضرمَ أشجاناً ووجداً	قدحت رعود البرق زندا
مدّت على الخضراء برداً	في فحمة الظلماء إذ
وتمطّت الأغصان قدأ	حتى ثئاب نوره
للروض أوقد فيه نداً	وأتى الشقيق بمجمر
سردت له النسيمات سرداً	وعلى الغدير مفاضة

وحبابه من فوقه قد بات يلعب فيه نرداً
فسقى معاهد بالحمى قد أنبتت حباً ووداً
وهي طويلة اجتزاناً منها بما مرّ خشية ملل القارئ. ومن أشعاره أيضاً:
أن يعد ذو بغى عليك فخلّهِ وارقب زماناً لانتقام الطاغى
واحذر من البغي الوخيم فلو بغى جبل على جبلٍ لدك الباغى
وكات وفاته سنة ١٠٦٩ هـ (سنة ١٦٥٨ م).

٧

الجوهري المكي

هو أحمد بن محمد بن علي المعروف بالجوهري المكي، وهو شاعر بارع مجيد وضليع بالعلوم، وُلد بمكة المكرمة ورحل منها إلى الهند فأقام بها خمساً وعشرين سنة وعاد إلى مكة، ثم ظعن إلى بلاد فارس فلم يتم له فيها مرامه، فعاد إلى الهند ولبت فيها حتى دعاه أجله فلبى سنة ١٠٦٩ هـ (سنة ١٦٥٨ م) ومن أشعاره:

ماشمت برقاً سرى في جنح معتكرٍ إلا تذكرت برق المبسم العطيرِ
ولا صَبَوْتُ إلى خلٍّ أسامره إلا بكيت زمان اللهو والسميرِ
شَلَّتْ يَدٌ للنوى ما كان ضائرها لو غادرتنا نقضِي العيش بالوطيرِ

ومن أقواله:

قل للذي يبتغي دليلاً من غير طول على المهيمِن
ما ذرة في الوجود إلا فيها دليلٌ عليه بينٌ

برهان الدين الميموني

هو الشيخ ابراهيم بن محمد بن عيسى المصري الشافعي الملقَّب برهان الدين الميموني، كان شهيراً في علوم التفسير والعربية وضليعاً بالعلوم العقلية والنقلية، وأبلغ شهرته في علم المعاني والبيان وأخذ من أبي بكر الشنواني السابق ذكره وغيره من علماء عصره ومؤلفاته كثيرة منها حاشية على المختصر كذا ذكره المحبي. والذي أظنه المراد مختصر تلخيص المفتاح في المعاني والبيان للقزويني، وحاشية على كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، وهذا الكتاب لشهاب الدين القسطلاني وحاشية على تفسير البيضاوي الشهير. وله كتاب سماه «معراج» في مجلد ضخمة، وبعض تعليقات على شرح التلخيص (أي تلخيص المفتاح) للمولى عصام الدين المعروف بالأطول وتحريرات على حاشية الجامي، وكانت وفاته سنة ١٠٧٩ هـ (سنة ١٦٦٨ م).

عبد القادر قدرى

هو عبد القادر قاضي العسكر الشهير المعروف بقدرى، وقد اشتهر بكتاب فتاويه المعروفة بفتاوى قدرى ويسمونها المجموعة. قال المحبي هي الآن عمدة الحكماء في أحكامهم والمفتين بفتاويهم فهي مجموعة نفيسة أكثر مسائلها وقائع كانت تقع أيام المفتي يحيى بن زكريا وكان قدرى ملازماً خدمته ثم وُلِّي قضاء القسطنطينية وقضاء العسكر مرات، وكانت وفاته في القسطنطينية سنة ١٠٨٣ هـ (سنة ١٦٧٢ م).

ابن ييري

هو الشيخ ابراهيم بن حسين بن أحمد المعروف بابن ييري مفتي مكة المكرمة أحد أكابر فقهاء الحنفية وعلمائهم المشهورين. أخذ العلم عن عمه العلامة محمد بن ييري وشيخ الاسلام عبد الرحمن المرشدي، واجتهد حتى صار فريد عصره في الفقه، وكان له ولد قد مات فانقطع بعد وفاته عن الناس مجدداً في المطالعة والتأليف. وله مؤلفات ورسائل تربو على السبعين منها حاشية على الأشباه والنظائر في الفقه لابن نجيم سماها: «عمدة ذوي البصائر في الأشباه والنظائر» ومنها «شرح الموطأ» رواية محمد بن الحسن في مجلدين و«شرح تصحيح القدوري» للشيخ قاسم، و«شرح منظومة ابن الشحنة في العقائد»، وله غير ذلك من التأليف. وكانت وفاته سنة ١٠٩٩هـ (سنة ١٦٨٧م) وكان في هذا القرن كثيرون من المشاهير السوريين وغيرهم أضربنا عن ذكرهم واجتزينا بذكر من تقدم رغبة في الإيجاز.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع عشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ١٠٠٧

بطاركة انطاكية في القرن السابع عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر دوروتاوس الرابع الذي توفي سنة ١٦١٠م وجاء في الجدول الواتيكاني وجدول السمعاني أنّ دوروتاوس المذكور خلفه اثناسيوس الثالث . وروى يعقوب كولتر اليسوعي أنه كان كاثوليكياً وتوفي سنة ١٦١٩م . وبعد وفاته اختار بعضهم اغناطيوس مطران صيدا وبعضهم كيرلس أخا اثناسيوس المتوفي .

ولا ريب في أنّ اغناطيوس اضطهد كيرلس حتى يقال إنه تسبب بقتله ، وبعد مقتله استبدّ برئاسة الكرسي الانطاكي سنة ١٦٢٨ . ولا مرية في أنه كان بطريكاً انطاكياً سنة ١٦٣٠ لأنّ كولتر اليسوعي المار ذكره أثبت رسالة منه كتبها من حلب في ١٠ آذار سنة ١٦٣٠ يتبين منها صريحاً أنه كان بطريكاً على انطاكية . وبعد وفاة اغناطيوس خلفه افثيميوس وكان مطراناً على حلب . وجاء في

الجدول الواتيكانى و جدول السمعاني أنّ افثيمىوس خلف اغناطيوس ، وقيل في الجدول الأول أنه كان اسمه ملاطيوس إذ كان مطراناً بحلب ، ولما ارتقى إلى البطريركية سمي افثيمىوس . وزاد السمعاني على اسمه اسم كرمة عائلته ، وقال إنه كان يجنح إلى الرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكية . وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٤م : « وكان البطريرك كرمة ذا معرفة واقتدار في العلوم وترجم رتب كنيسة من اللغتين اليونانية والسريانية إلى العربية ، وقيل إنه مات مسموماً لأنه قصد أن يغيّر حساب الصوم ويتبع حساب الكنيسة الرومانية » . وأبأنا لكويان أنه كان يقطن دمشق على عادة أسلافه لكنه لما لم يقدر أن يفي سبعة آلاف دينار كانت الحكومة تطلبها منه رحل إلى حلب وعيّن راهباً من ساقس اسمه ملاطيوس ليكون خلفاً له . كما روى ذلك الأب يوسف لسبون اليسوعي في كتابه الموسوم « بسورية المقدسة » (جزء ١ فصل ٣ صفحة ٧٣٣) وغيّر ملاطيوس اسمه ودعي افثيشيوس ، ولهذا نرى السمعاني قال في جدول افثيشيوس الساقسي خلف افثيمىوس .

وبعد وفاة افثيشيوس الساقسي خلفه مكاريوس الزعيم سنة ١٦٤٣م على ما في الجدول الواتيكانى كما رواه لكويان . وهذا البطريرك هو صاحب الرحلة إلى القسطنطينية وبلغارية والفلاخ والبغدان وروسية ، واستمر في رحلته هذه من سنة ١٦٥٢م إلى سنة ١٦٥٥م ، وكتب أخباره فيها ابنه الشماس بولس الزعيم في كتاب اشتمل على فوائد كثيرة في بطارقة انطاكية الروم الملكيين ، وفي أحوال تلك الأيام . ولهذا الكتاب نسخ نادرة منها ثلاث نسخ في مكاتب روسية ونسخة في لوندرا عني بترجمتها إلى الانكليزية بلفور سنة ١٨٢٩م إلى سنة ١٨٣٦م . على أنّ ترجمته لم تكن مدققة وأغفل فيها أموراً أهمها ترك مقدمة المؤلف مع اشتمالها على فوائد جمة تاريخية ، ولما انتبه إلى ذلك الأستاذ البار جرجي مرقس الدمشقي نزل روسية اعتنى بترجمة المقدمة ويّين ما فيها ، واستطرد إلى تفصيل حالة هذا الكتاب والنسخ الموجودة منه وأعقب ذلك بترجمة الرحلة إلى اللغة الروسية وعني بطبعها من سنة ١٨٩٦م إلى سنة ١٩٠٠م في خمسة مجلدات . وكان لترجمته أحسن وقع ولا سيما لدى المنتديات العلمية بروسية ورومانية . ولما ظهرت ترجمة بلفور الانكليزية المذكورة كتب العالم ستوفسكي استاذ العربية حينئذ في بطرس برج أنه رأى نسخة من هذه الرحلة عند العالم عريضة (هو الخوري أنطون عريضة) بعنطورا وطالع أكثرها في أثناء اقامته بمنزل هذا العالم الشهير وإنه لا يدري لمن

وقعت هذه النسخة بعد وفاة عريضة وكانت مكتوبة بالأحرف الكرثونية وقد أخبرني من عهد قريب سيادة المطران جراسيموس مسرة رئيس أساقفة بيروت الآن أنّ في مكتبته نسخة من هذه الرحلة .

ويؤخذ عن هذه الرحلة قول مكاريوس عن نفسه: « إنّ البطريك افثيموس كرمة كان قد عين قبل وفاته خليفة له ملاتيوس الساقسي وأوصاه بأنه عندما يجلس على الكرسي البطريكي يستدعيني من حلب أنا الفقير مؤلف هذه الأخبار ويرسمني مطراناً على حلب حسبما تمّ ذلك ». إلى أن يقول: « وهو (أي الكهنة وكل الاكليروس) انتخبوا خليفة له (أي للساقسي) اياي أنا الفقير كاتب هذا التأليف أنا ملاتيوس » .

وقد ذكر الشماس بولس أنّ البطريك مكاريوس بعد فراغه من سلسلة بطاركة انطاكية ترجمة والده قال إنه: « ابن الخوري يوحنا الزعيم تقلّد مطرانية حلب باسم ملاتيوس وروى الحوادث الهامة التي طرأت في الاثنتي عشر سنة التي ولي فيها هذه الأبرشية ، وروى قدوم البطريك افثيموس مرتين إلى حلب وسفر والده مع ستين شخصاً من الحلبين الاكليريكيين وعلمانيين لزيارة القدس. وشرح بالتطويل كيفية انتخاب والده وجلسه على الكرسي الانطاكي باسم مكاريوس وتطوافه بالأبرشية مع تعداد كل المدن والقرى التي زارها، وفي جملتها ما يظهر أنه دُثر اليوم لأننا لا نجده في خريطة سورية (طالع مجلة المشرق السنة الخامسة عدد ٢٢ كانون الأول سنة ١٩٠٢م صفحة ١٠٠٩) .

وجاء في المشرق المسيحي للوكيان في بطاركة انطاكية أنّ مكاريوس مضى إلى القسطنطينية وأثبت مع البطاركة الثلاثة دستور الايمان الذي كان بطرس موجيلاً متربوليت روسية قد وضعه ووقع نائبه سنة ١٦٦٨م على شهادة صحة اعتقاد الكنيسة الشرقية بسر الأوخاريسيتيا وغيره من العقائد المخالفة لبدعة كلوين و ترجمة هذه الشهادة إلى اللاتينية مثبتة في المجلّد الأول من التأليف الموسوم بدمومة الايمان. وفي سنة ١٦٧١م أذى مكاريوس شهادتين مثل الأولى في مخالفة بدعة كلوين، وترجمتهما إلى اللاتينية مثبتتان في المجلّد الثالث من التأليف المذكور .

يظهر أنّ مكاريوس توفي سنة ١٦٧٢م وخلفه كيرلس الخامس على ما في جدولّي الواتيكان والسمعاني ، وكان كيرلس حفيد مكاريوس ابن ابنه (لا نعلم أهو

بولس الشماس المذكور أم أخ له) وقال فيه ديمتريوس بروكوبيوس أنه كان رجلاً باراً غيوراً ضليعاً باللغتين العربية واليونانية وجاهر هذا البطريرك باعتناقه الدين الكاثوليكي بأثر جدال كان بينه وبين البطريرك اسطفانوس الدويهي الماروني، وكان مع البطريرك كيرلس أربعة من أساقفته أحدهم افثيميوس الصيفي مطران صور وصيدا فأذعن جميعهم للايمان الكاثوليكي، على أن المخالفين للبطريرك كيرلس أدخلوا عليه توافيطس أحد نواب البطريرك مكاريوس إذ انتخبوه بطريركاً، ولكن بعد وفاة توافيطس هذا أو عزله، استقل كيرلس في بطريركية انطاكية مدة إلى سنة ١٦٨٦م التي فيها رقى المخالفون إلى البطريركية اثناسيوس الرابع المعروف بأثناسيوس الدباس، وكان دمشقياً وراهباً في دير القديس سابا بأورشليم، وتمكن من الشقاق بالملّة بضع سنين إلى أن وقع الاتفاق بين البطريركين على أن أثناسيوس يكون مطراناً على حلب وكيرلس يستقر بالبطريركية. ويقال أن البطريرك كيرلس كان يوقع اسمه كيرلس البطريرك الانطاكي حالياً واثناسيوس كان يوقع اثناسيوس البطريرك الانطاكي سابقاً. وأقام كيرلس في دمشق على عادة أسلافه مذ سنة ١٥٦٩م. ولما بلغ البابا اكليمنضوس الحادي عشر اعتناق كيرلس الايمان الكاثوليكي بعث إليه برسالة مؤرخة في ٩ كانون الثاني سنة ١٧١٦م وطلب منه أن يدون صورة ايمانه فدونها وأرسلها إلى البابا، فورد إليه الجواب منه في ٣٠ أيار سنة ١٧١٨م مبيّناً له فيه مسرّته منه. وأدركت الوفاة البطريرك كيرلس في ٥ كانون الثاني سنة ١٧٢٠م. انتهى ملخصاً عن لكويان في «المشرق المسيحي» وعن «الدر المنظوم» صفحة ٨١ وعن «مختصر تاريخ طائفة الروم الكاثوليكين».

عد ١٠٠٨

بطاركة أورشليم في القرن السابع عشر

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر استقالة البطريرك صفرونيوس الخامس، فبعد استقالته انتخب توفان سنة ١٦٠٨م على ما روى دوزيتاوس الثاني بطريرك أورشليم. وروى بعضهم أن توفان كان ابن أخي سالفه صفرونيوس أو ابن أخته، وزعم هوتنجاوس أن صفرونيوس وتوفان إذ كانا يرميان كنيسة القبر المقدّس ظهر لهما أن القبر الذي يعزى إلى المسيح ليس هو القبر

الحقيقي، والقديم الذي كان منقوراً بصخر بل هو قبر آخر مبني بالحجارة. قال لكويان الذي أراه أنّ هوتنجاوس إنما هو القائل هذا القول لا البطريرك توفان صفرونيوس، وقد فتّد هذا الزعم الاتيوس في مقالته الموسومة بخدعة يوحنا هوتنجاوس والمطبوعة بروما سنة ١٦٦١م، وأثبت حقيقة قبر المخلص كثيرون غير الاتيوس وبعضهم من البروتستانت أيضاً. وبعد أن صرف البطريرك توفان بعض سنين بأورشليم سار إلى القسطنطينية ثم إلى روسية، وكان في القسطنطينية سنة ١٦٣٨م إذ عقد مع البطريركين القسطنطيني والاسكندري مجمعاً بداعي الفصول التي كتبها كيرلس لوكاريس الكلويني، وأنكر الاتيوس (في مؤلفاته في اتفاق الكيستين كتاب ٣ فصل ١١) أنّ توفان وقع على أعمال هذا المجمع ثم حرمت هذه الفصول في مجمع عُقد بأورشليم في ١٦ آذار سنة ١٦٧٢م في أيام دوزيتاوس الثاني الآتي ذكره. وقد توفي البطريرك توفان في القسطنطينية سنة ١٦٤٦ بعد أن أقام بالبطريركية سبعاً وثلاثين سنة كما روى دوزيتاوس (في الكتاب ١٢ في بطاركة أورشليم فصل ١). وذكر صاحب سورية المقدسة خلفاً له سماه اثناسيوس ولا أثر له في كتب غيره.

والذي ذكره لكويان أنه بعد وفاة توفان انتخب بايزيوس بطريركاً على أورشليم بمساعي برتانيوس البطريرك القسطنطيني وباسيليوس أمير ملدافيا وكان من أنساب توفان سالفه، وكان قد أتى إلى أورشليم في أيام صفرونيوس وأقام عنده مدة، ثم ترهب في دير القديس يوحنا المعمدان في جانب الأردن، ثم صير رئيساً على دير غلظه، وإذا كان هناك انتخب بطريركاً على أورشليم، ثم سار إلى ملدافيا وروسية فأثقل الكسيوس قيصر الروس كاهله بالهدايا والتقدم، وعاد إلى أورشليم وانقلب عليه البطريرك القسطنطيني ووشى به إلى الحكومة وأقفل كنيسة تخصّ القبر المقدّس في القسطنطينية فاضطر أن يعود إلى ملدافيا ثم سار إلى القسطنطينية وادرنه، فألقي فيها بالسجن مدة ثم أخلّي سبيله فرجع إلى أورشليم، ثم اعتراه مرض عضال حتى قيل أنه أعدمه رشده، فاتبع مذهب اليهود، ثم نفذ به القضاء المحتوم فلم يشأ أسقف اللد وبيت لحم أن يدفن في مقبرة مكرّسة ويزراً بعضهم ساحته من الضلال. على أنّ دوزيتاوس الذي كان مرافقاً له في أسفاره وشاهداً عياناً لموته ودفنه أثبت ذلك في الكتاب ١٢ من تاريخ بطاركة أورشليم فصل ٢ وكانت وفاة هذا البطريرك نحو سنة ١٦٦٠م.

ولما انتهى إلى القسطنطينية خبر وفاة بازيوس اختار أمير ملدافيا والبطريرك القسطنطيني وبعض الأساقفة انكتاريوس، وكان ناسكاً في جبل سينا ورقي إلى المقام البطريركي في ١٠ نيسان سنة ١٦٦١م يوم أحد الشعانين، وكان أصله من كريت وكان عالماً، وله من التأليف: «تاريخ ملوك مصر من أقدم الأيام إلى السلطان سليم الأول». وبعد انتخابه سار إلى القسطنطينية وكتب رسالة في مخالفة كنيسة الروم لأضاليل لوتر وكلوين. ومضى سنة ١٦٦٤م إلى ملدافيا ليهتم بالأديار التي تختص بكنيسة القبر المقدس، ثم عاد إلى القسطنطينية فرفع عريضة إلى السلطان استقال بها من منصبه لشيخوخته وأمراضه ومنازعة رهبان القدس له، وعاد إلى أورشليم فدبر كنيستها إلى أن أقيم خلف له فاعتزل في دير القديس ميخائيل في هذه المدينة وألف كتاباً في «رئاسة الحبر الروماني» طبعه خليفته دوزيتاوس الآتي ذكره باليونانية بملدافيا سنة ١٦٨٢م. وعقد مجمع في أورشليم سنة ١٦٧٢م لرد بدع كلوين فشجده انكتاريوس ووقع عليه وأنفذ رسالة تلك السنة إلى رهبان طورسينا يفند بها أضاليل المبتدع المذكور. ثم توفي سنة ١٦٧٤م وذكره ديمتريوس بروكوبيوس في جملة علماء الروم.

وبعد استقالة انكتاريوس سنة ١٦٧٢م أقيم مكانه دوزيتاوس الثاني وكان أصله من جزيرة كريت وكان رئيس الشماسية في كنيسة القيامة فصير متربوليتاً لقيصرية فلسطين سنة ١٦٦٠م، كما روى عن نفسه في كتابه الثاني عشر في بطاركة أورشليم، ثم خلف انكتاريوس سنة ١٦٧٢م بامداد البطريرك القسطنطيني على عادتهم. وبعد ارتقائه إلى المقام البطريركي عقد مجمعاً في بيت لحم فنبد أضاليل كلوين التي كان بعضهم قد زعم أن الكنيسة الشرقية متمسكة بها، ووقع في ١٦ آذار من تلك السنة على مراسيم هذا المجمع هكذا: «أنا دوزيتاوس برحمة الله بطريرك أورشليم وفلسطين كلها أثبت واعترف أن هذا إيمان الكنيسة الشرقية». روى ذلك هردوين في المجلد ١١ من مجموعة الجامع ويليهِ تواريخ ثمانية أساقفة واثنين وستين رئيساً ومتقدماً في المراتب البيعية، فإن الكنيسة الشرقية غير الكاثوليكية تضاد اللوثرين والكلوينيين مع مخالفتها للكنيسة الرومانية، وهذه بيّنة دامغة تفند مزاعم أولئك الهرطقة. ثم طبع دوزيتاوس سنة ١٦٨٢م كتاب انكتاريوس سالفه في رئاسة الحبر الروماني كما مرّ، وغيره من كتب بعض علماء الروم المتأخرين، ثم طبع محاورة دينية من تأليفه وسمها «بترس الايمان

الأرثوذكسي». وذكر بعضهم له رسائل أخرى طُبعت سنة ١٦٩٨م وسنة ١٦٩٩م وأشهر مؤلفاته «تاريخ بطاركة أورشليم» يندد به باللاتينيين والأخبار الرومانيين، ولا يتسامح بشيء مع الكلوينيين. ويظهر من هذا الكتاب قلة المامه بصناعة الانتقاد والتدقيق. وطبع كتابه في بوخارست سنة ١٧١٥م وطُبعت ترجمته في صدر هذا الكتاب، ويظهر منها أنه توفي بالقسطنطينية في ٧ شباط سنة ١٧٠٧م. انتهى ملخصاً عن لكويان في المشرق المسيحي.

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين السوريين وغيرهم

في القرن السابع عشر

قد كان في هذا القرن عدة من مشاهير العلم الموارنة من بطاركة وأساقفة وغيرهم. وسنأتي على ذكرهم في الملحق الذي نعلقه في آخر تاريخ هذا القرن بحسب مساق كلامنا حتى الآن. ونجتزئ هنا بذكر بعض المشاهير الدينيين النصاري غير الموارنة الذين كانوا في سورية وما جاورها في هذا القرن.

عد ١٠٠٩

ايليا بطريرك الكلدان

ذكرنا في تاريخ القرن السابق من بطاركة الكلدان يوحنا سلوقا وعبد يشوع الذي خلفه عطاالله سنة ١٥٦٥م وتوفي سنة ١٥٨٢م، ثم سمعان دنحا. وثبته البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٨٢م، ثم خلفه ايليا وكان نسطورياً وتوفي

سنة ١٥٩١م وفيها صار ايليا هذا بطريركاً على الكلدان سنة ١٥٩١م وكان ايمانه مشوباً بالنسطورية ، ثم استمسك بالمذهب الكاثوليكي مع بعض أساقفته في أيام البابا بولس الخامس في مبادي القرن السابع عشر . وقد أنبأنا بطرس ستروزا في كتابه في عقائد الكلدان بسبب ارعوائه ، فقال قد اتفق بالعناية الربانية أن كان بين الفقراء الذين غسل البابا بولس الخامس أقدامهم يوم خميس الأسرار في السنة الأولى لحيريته (سنة ١٦٠٥ م) رجلان كلدانيان أحدهما راهب والآخر عامي ، ولما عادا إلى وطنهما أخبرا ايليا بطريركهما بأي تعطف عاملهما الحبر الروماني وقدماء له بعض هدايا كان البابا قد أرسلها إليه معهما . فكان لذلك وقع حسن في قلب البطريرك فأرسل وفداً إلى روما ليؤدي الشكر له على انعطافه ، ويقرّ بأنه الأب العام للمسيحيين ، ويصرّح بالخضوع لسلطته . فسار هذا الوفد لكنه وقع بيد اللصوص فاضطر البطريرك إلى انفاذ وفد آخر فلم يفِ هؤلاء أيضاً بالمقصود لأنهم ظنوا أنّ اسم النساطرة يمثّقه اللاتينيون فرفعوا بعض صفحات من الرسائل والكتب المنقذة معهم فأوقعوا شبهة الاحتيال على أنفسهم ، فعادوا صفري اليدين . وعلم البطريرك بسوء تصرفهم فاجتمع مع أساقفته يتشاورون بما ينبغي عمله فقرّر رأيهم أن يرسلوا معتمداً لا ليقدم الطاعة والخضوع للحبر الروماني فقط بل ليبيّن أيضاً ما يعتقد به الكلدان ، حتى إذا وجد به خلل التمس اصلاحه . واختاروا لهذه الوفادة رجلاً عالماً فطناً هو آدم رئيس شمامسة البطريركية ورئيس رهبان الكلدان . ولما بلغ إلى روما رفع إلى الحبر الروماني رسالة البطريرك مصحوبة بدستور ايمانهم ، وقد شرحه آدم بأمر البطريرك موقفاً بين معتقد الكلدان والايمان الكاثوليكي . وسأل البابا خاشعاً أن يأمر بالفحص عن صحة معتقدهم وبما يراه ملائماً لخلاص نفوسهم .

وقد ضمّن ايليا رسالته إلى البابا بولس الخامس شكره له على محبته لهم وطلب اهداءهم بركته ، واحصاءهم في عداد أبناء أبوتّه وأنه شق عليه وعلى أساقفته سوء تصرّف من أرسلهم قبلاً إليه وأبان عدم تمكنه من الحضور إلى روما بنفسه وإنه مرسل إليه الآن الأب آدم ابنه الأمين وشريكه في أعماله مصحوباً برسائله ودستور ايمانه فيلتمس منه أن ينظر بذلك ، فإن رأى بذلك غلطاً أو شيئاً مخالفاً لتعليم أهم الكنيسة الرومانية فلينبههم إليه فيصلحوه وليرشداهم فيمشلوا ارشاده .

وكان البطريرك يظن ويتفاخر بأنّ الخلاف بين الكنيسة الرومانية والكلدان إنما

هو على الألفاظ لا على معناها ، ولذلك أجابه البابا في رسالة إليه في شهر نيسان سنة ١٦١٤م بما ملخصه: «إن رسالة اخوتكم التي رفعها إلينا الابن العزيز آدم رئيس شمامسة بطريركيتم ورئيس رهبانكم قد أوعبت قلبنا سروراً وبهجة وحركت فؤادنا عوامل المحبة ويسرنا جداً ما أبدىتموه من الاحترام والتجلة لكرسي القديس بطرس زعيم الرسل ولا سيما لايضاحكم أنّ هذا التكريم كان دائماً في كنيستكم. على أنه يشق علينا أننا لم نجد هذا الاجلال مقروناً بالموافقة للكرسي الرسولي على ما يعلمه من عقائد الايمان» إلى أن يقول: «ولما كنت أيها الأخ المحترم سألتنا بالخاح أن نبيّن لكم ما نراه من الأغلاط في معتقدكم ونصلحه وأنكم مستعدون أنتم ومطارينكم وأساقفتكم للامثال وقبول ما نبيته من الاصلاح ، فإجابة لرغائبكم وعملاً بالوصية التي تلقيناها من المخلص بشخص بطرس الطوباوي أن نثبت اخوتنا بالايمان قد أمرنا أن يسلم إلى معتمدكم آدم رئيس الشمامسة كل ما صار اطلاقه عليه من رسوم المجامع المقدسة مترجماً إلى لغتكم الكلدانية ليوصله إليكم». وأرسل إليه مع آدم المذكور ترجمة فهرست تجاديف نسطور الذي تلي بحضرة آباء المجمع الأفسسي في المجلس الأول منه، ثم الرسالة المنفذة من القديس كيرلس والمجمع الذي عُقد في الاسكندرية إلى نسطور حيث يدون له النصح الأخوي ليرعوي عن غوايته ، ثم نسخة الاثنتي عشرة قضية التي يلزم كل كاثوليكي الاعتقاد بها في شأن سر التجسد . ثم حكم المجمع الأفسسي على نسطور بالحرم ، ثم أعمال المجمع الخامس التي بحث فيها عن تعاليم توادورس المصيبي بحثاً مدققاً ، وجرى نبذها وتحريمها ، ثم مرسوم المجمع السادس العام الذي وقّع عليه الآباء في المجلس الثامن عشر. وقد صرح فيه أنه يلزم الاعتقاد بأن في المسيح مشيئتين وفعلين كما أنّ فيه طبيعتين بأقنوم واحد ، وحيث قيل أنه لا يحلّ لأي كان أن يعتقد ايماناً آخر ثم مرسوم الاتحاد الذي وقّع عليه في المجمع الفلورنسي .

وقد أرسل البابا إلى البطريرك ايليا مع آدم المذكور على سبيل الهدية فلذة من خشبة الصليب المقدّس في صوانٍ من ذهب بهيئة صليب كبير مرصّع بجواهر باللون الأسمنجوني وكتاب الأناجيل المقدسة مطبوعاً بالعربية وكأساً وصينية من فضة ، وتاجاً وأثواباً حبرية للقداسات الاحتفالية ، وكتابتين آخريّن مطبوعين بالعربية نافعين في طب الجسد وإنارة العقل .

ولما عاد آدم إلى البطريرك أقنعه بأن يستدعي إليه مطارينه وأساقفته لعقد مجمع

بآمد ليتلو عليهم رسالة البابا بولس الخامس وارشاده لهم، فدعاهم لذلك . وقد أنبأنا ستروزا بما كان في هذا المجمع في كتابه في مجامع الكلدان . فقال ما ملخصه: « قد دعا البطريك بعد عود آدم مطارينه الذين كانوا قد وافقوه على بعثه إلى رومة ليطالعهم على الجواب الذي ورد له وهو موجه إليهم جميعاً ليقبلوه جميعاً . واستحسن أن يكون اجتماعهم بآمد وعين للاجتماع أيام عيد الميلاد . لكنهم لم يتيسر لهم الاجتماع إلا في شهر آذار لأن البطريك كان قد دعا رئيس رهبان القديس فرنسيس بحلب ليشهد المجمع معهم فتلوم عن الحضور خشية أن يتدخل بأمر لم يؤمر بالدخول به ، فلم يشأ أن يخرج من حلب قبل أن يكشف البابا بهذا الأمر إلى أن حضر في شهر آذار سنة ١٦١٦م وعقد المجمع وجرى التحري والتدقيق وأجمع رأيهم على الامتثال لكل ما أرشدهم إليه الخبر الروماني ، ونفذوا كل ما يخالف تعليم الكرسي الرسولي ، واعترفوا بكل ما يلزم الاعتراف به ودونوا عريضة الجواب مؤرخة في ٨ آذار سنة ١٦١٦م ووقعوا عليها وسلموها إلى رئيس رهبان القديس فرنسيس بحلب مترجمة ، وطبع ستروزا ترجمتها من الكلدانية إلى اللاتينية . وقال إن هذه الترجمة عني بها الرجل الصالح الفقيه اسحق الشدرائي الماروني العالم باللاهوت المقدس وتلميذ مدرسة الموارنة بروما ، وكان هو ويوحنا الحصريون مثيله في العلم والفقاهة والملة قد ترجما براءة البابا الرسولية مع كل ما يتعلق بها من اللاتينية إلى العربية . وكان الموقعون على الرسالة الجمعية ايليا البطريك وجبرائيل مطران حسن بكيفاء، وايليا مطران سعرت ، ويوسف مطران الجزيرة ، وتيموتاوس مطران القدس وآمد (وهو آدم رسول البطريك إلى روما فإنه بعد عوده منها رقاها إلى الأسقفية وسماه تيموتاوس) وابراهيم أسقف العجم ، وحنان يشوع مطران فان . ومما كتبوه في رسالتهم هذه توصيتهم الخبر الروماني بالكلدان قاطني القدس والهند وبالموارنة الذين ترجموا لهم الرسائل إذ قالوا: « ونستلفت عواطف عنايتكم إلى اخواننا الموارنة المترجمين الذين تعبوا كثيراً بهذه المهمة » .

وقد أثبت ستروزا (في كتابيه في عقائد الكلدان ومجامعهم) رسائل البطريك ايليا إلى البابا بولس الخامس مترجمة من السريانية إلى اللاتينية بقلم اسحق الشدرائي ويوحنا الحصريون المارونيين . انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية الملجد الأول صفحة ٥٤٣ .

آدم الرئيس وهو تيموتاوس أسقف آمد

هو آدم رئيس الرهبان الكلدان ورئيس شمامسة ايليا بطريرك الكلدان المذكور وسفيره إلى البابا بولس الخامس، فهذا بعد أن جحد ضلال نسطور بروما من قبل نفسه ونيابة عن بطريركه رقي إلى أسقفية آمد بعد أن تنازل له عنها ايليا أسقفها، وانتقل إلى أسقفية سمرت. وأضيفت إلى آدم بعدئذ أسقفية أورشليم على الكلدان القاطنين بها على عادة النساطرة السيئة من قبيل تسليمهم إلى أسقف واحد أبرشيتين تبعد إحداها عن الأخرى. ومن قبيل جعلهم كنيسة أورشليم أسقفية وهي بطريركية وقد امتدح البابا بولس الخامس آدم في رسالته إلى بطريركه ايليا سنة ١٦١٤م فقال في حقه: «نوصيكم أشد التوصية بآدم رئيس شمامستكم ونرغب في أن توقروه وتحبوه لمحبتنا الخاصة له كاهن عزيز لدينا جداً، فإنه قد استسار سيرة حسنة للغاية في كل المدة التي أقام فيها بروما، وكان محافظاً على قانون السيرة النسكية بكل ورع، وأبدى اجتهاداً شديداً في الاطلاع على الحقائق وكان مكباً على القيام بحقوق الخلطة التي عهدتم بها إليه وهائماً بايضاح آرائكم الدينية بكل دقة، ومنكباً عن التعنن والمكابرة ومتساهلاً باصلاح أغلاطكم برصانة والحاصل أنه تصرف بكل شيء أحسن تصرف حتى اكتسب باستحقاق اعتبار كل من تعاطوا معه أحد الأمور وجهم وثقتهم».

ومن تأليفه ثلاث مقالات أثبتها ستروزا في كتابه في البحث عن معتقدات الكلدان (صفحة ١٩ و ٢٠٥ و ٢٢٥) الأولى كتبها وهو نسطوري يدافع بها عن معتقد النساطرة والمقاتلان الأخريان كتبهما بعد أن اهتدى إلى الايمان الكاثوليكي بروما، فهما كاثوليكيان. والمقالة الأولى مقسومة إلى مقدمة وسبعة فصول يجهد نفسه بها لبيان أن الكلدان النساطرة لا يخالفون المعتقد الروماني إلا باللفظ فقط إذ يقولون أن مريم والدة المسيح وإن في المسيح أقنومين ومشية واحدة وفعلاً واحداً، وإن الروح القدس ينبثق من الآب، وإن انبعاث النور من قبر الخلص يوم السبت العظيم هو آية. وهذه المقالة لا تخلو من فائدة كبرى للاطلاع على آراء النساطرة المتأخرين. على أن ما قاله عن انبعاث النور يوم السبت العظيم بأورشليم قد أخذه عن الروم غير المتحددين الذين يزعمون ولا يدخرون وسيلة ليثبتوا

أنّ انبعاث النور كل سنة يوم السبت المذكور من قبر المخلص إما هو آية إلهية ليقتنعوا الأميين أنّ مذهبهم هو الصحيح وإنّ الله يثبت بآياته، وإنّ حساب الفصح القديم المتشبهين به هو أصبح من الحساب الذي وضعه البابا غريغوريوس لأنّ النور لا ينبعث إلّا يوم السبت العظيم بموجب حسابهم . واتصل هذا الزعم من الروم إلى باقي الشرقيين غير المتحدّين ومما قاله آدم في هذا البحث: « إنّ آباء كنيسة روما العظمى يثبتون أنّ النور الذي يظهر بالمصاييح بأورشليم يوم السبت العظيم هو كاذب وليس نوراً حقيقياً لأنّ النور الحقيقي والطبيعي الذي يبعثه الله لا يحتاج إلى الشمع أو الزيت لينير » . إلى أن يقول: « وإن كان نوراً حقاً فلم يستحيل إلى نار . وإن كان كل نور يستحيل إلى نار فليس له إذاً نور بل هو نار، وكثيراً ما رأيناها تحرق ثياب الحاضرين أو لحاهم » . ومن شاء زيادة بيان في هذا الشأن فليطالع كتاب فرنسيس كوارسميوس في وصف الأرض المقدّسة .

والمقالة الثانية من مقالات آدم عنوانها: « مقالة آدم رئيس شمامسة الغرفة البطريركية بابل في الايمان الكاثوليكي إلى اخوانه الكلدان » وقد قسمها إلى فاتحة تكلم فيها على رئاسة الكرسي الرسولي المقدّس وسمو سلطة الخبر الروماني وتعليمه، ويليهما ستة فصول تكلم فيها على وحدة الذات الإلهية وتثليث الأقانيم الإلهية وميلاد الكلمة الأزلي من الله الأب وميلاده الثاني بالجسد والتميز بين الأقانيم الإلهية وحقيقة وجود مشيئتين وفعلين في المسيح ، ومقالة آدم هذه قد اعترف بها وأثبتها ايليا بطريرك الكلدان السابق ذكره وأساقفته في مجمعهم الذي عقدوه بآمد في ٩ آذار سنة ١٦١٦م وأرسلوها إلى البابا بولس الخامس بمنزلة دستور لايمانهم ، وقد أثبتتها ستروزا في كتابه في مجامع الكلدان صفحة ١٨ .

ومقالة آدم الثالثة عنوانها: « مقالة للرد على الهرطقة المخالفين للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقد ضمتها ذكر أفضال نسطور وتوادورس المصيصي وتفسيره لها ، وهذه المقالة أيضاً قد صادق عليها بطريرك الكلدان وأساقفته المذكورين في مجمع بآمد ووقعوا عليها في ١٥ آذار سنة ١٦١٦م وأرسلوها إلى البابا بولس الخامس وأثبتها ستروزا في كتابه في مجامع الكلدان صفحة ٣٧ . انتهى ملخصاً عن المجلد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٤٩ .

يوسف الثاني بطريرك الكلدان

إننا نذكر هذا البطريرك هنا متابعة لمن تقدّم ذكرهم من بطاركة الكلدان وأساقفتهم وإن كان متأخراً زماناً عن سذكهم بعده، فمن أشهر بطاركة الكلدان الكاثوليكين بعد ايليا المذكور آنفاً يوسف الثاني، فإنّ يوسف الأول بطريركهم رقي إلى البطريركية وثبته البابا اينوشنسيوس الحادي عشر سنة ١٦٨١ م. وفي سنة ١٦٩١ م رقي يوسف الثاني الذي نكتب ترجمته إلى أسقفية أمد ثم تنازل بعد سنتين طائعاً عن البطريركية ليوسف الثاني فثبته البابا اينوشنسيوس الثاني عشر في شهر حزيران سنة ١٦٩٦ م واستمرّ في البطريركية إحدى وعشرين سنة وتوفي سنة ١٧١٤ م.

وقد كتب البطريرك يوسف هذا ترجمة نفسه وذكر الكتب التي ألفها، وإليك كلامه: «أنا يوسف الثاني بطريرك الكلدان بنعمة الله، أصلي من قرية كيفا بايالة الموصل، وُلدت سنة ١٩٧٨ للاسكندر (سنة ١٦٦٧ م) من والدين كاثوليكين، واسم أبي جمعه واسم أمي شموني من بيت معروف، ودرست في وطني اللغة السريانية وتفسيرها على أساتذة ماهرين وذوي إيمان قويم. ورقيت في قريتي إلى درجة الشمامسة وعمري نحو أربع عشرة سنة. ولما بلغت الثانية والعشرين منه سرت إلى مدينة أمد وهي ديار بكر، فرقاني الطيب الذكر البطريرك يوسف الأول إلى درجة الكهنوت إذ كنت متلمذاً له، وبعد سنتين رقاني إلى الأسقفية، وبعد سنتين آخرين صيرني بطريركاً وأجلسني على كرسيه وترك هو أمد وسار إلى روما حيث قضى حياته. وبعد، مسيره كبيت على تعلّم العربية، وكنت أتردد على مدارس الاسماعيليين (المسلمين) إذ لم تكن مدارس للنصارى في المشرق، وتعلّمت في مدارس المسلمين المذكورة المنطق وعلم الطبيعة وعلم ما بعد الطبيعة والقسم الأخير من الفلسفة وهو علم الكلام أي الكلام في الله وهو ختام العلوم. ولما كنت متفرغاً للدرس ألّفت ستة كتب لنفع اخواني الأعزاء، أولها كتاب مفيد جداً سمّيته: «سرور الأبرار وعلاج الأشرار»، وترجمته من العربية إلى السريانية. والثاني سمّيته: «مصباح النور» مترجماً له من العربية إلى السريانية. والثالث كتاب يعمي نظمت به فروض أربعة أعياد وهي أعياد الختانة والقديس فتيون وانتقال العذراء

وميلادها . والرابع شعر نظمته فقرأ وكل فقرة ثمانية أبيات على قافية واحدة تكلمت فيه على سمو سيرة النساك والرهبان . والخامس كتاب في المنطق ترجمته من العربية إلى السريانية وفي هذه السنة التي هي سنة ٢٠١٤ للاسكندر وهي سنة ١٧٠٣ للميلاد ، أنا مشغول بكتاب سميت « المرأة الوضيعة » إذ لاني مؤمن بكل ما كتبت يداي في هذا الكتاب من عقائد ايماننا ، فهذا هو معتقدي وعلى رجاء هذا الايمان أموت وأنا موقن أنّ لا خلاص لأحد من دونه ، وإياه تعالى أسأل أن لا يقصيني عن هذا الايمان إلى النفس الأخير من حياتي ، أنا وكل من أشرك عليهم نور المسيح آمين » .

وقد فصل العلامة السمعاني (مجلد ٣ من المكتبة الشرقية صفحة ٦٠٥) فحوى كتاب المرأة المار ذكره فقال ما ملخصه : « إنّ هذا الكتاب يشتمل على أربعة رؤوس عدا مقدمة المؤلف الرأس الأول ، في أنّ الكنيسة الرومانية هي أم الكنائس كافة ، ولهذا كان سيدنا البابا أباً عاماً لجميع النصارى وإنه لا يمكن الكنيسة الرومانية أن تضل في مباحث الايمان ، وفي هذا الرأس أربعة فصول ، الفصل الأول في أنه لا يمكن أن يكون رأسان للكنيسة ، الثاني في أنه بناءً على ما حققناه في الفصل الأول يلزم أن يكون هذا الرئيس الوحيد بابا روما ولسلفائه وله ولخلفائه أعطى المسيح الرئاسة ، وعليه وحده بُنيت الكنيسة . الفصل الثالث وعلى ما تقدّم فالأخبار الرومانيون من أيام بطرس الرسول إلى اليوم إنما هم خلفاؤه ونواب المسيح ، وفي هذا الفصل ذكر سلسلة الأخبار الرومانيين من بطرس الرسول إلى اكليمنضوس الحادي عشر . الفصل الرابع في أن لا يمكن البابا أن يضل في ما يتعلّق بالايمان .

الرأس الثاني في الرد على النساطرة أبناء ملتنا وشرح موجز لمعتقد كنيسة روما ، وإنّ هذا هو المعتقد الصحيح ويشتمل على ثلاثة فصول ، الفصل الأول في شرح الألفاظ المصطلح عليها في هذه المباحث وشرح بإيجاز تعليم الكنيسة الرومانية بأنّ في المسيح طبيعتين ومشيتين وفعلين بأقنوم واحد ، واستشهد بالجماع العامة الأربعة الأولى ثم أخذ بتفسير الألفاظ طبيعة وأقنوم وجوهر وذات ومشية الخ . الفصل الثاني في اتحاد اللاهوت بالناسوت كان بأقنوم الكلمة وحده لا بالأقنوم البشري لينفى أنّ بالمسيح أقنومين . الفصل الثالث في أنه لو كانت الطبيعة البشرية في المسيح قائمة بأقنوم بشري لما أمكن اتحاد الكلمة بالجسد ان

يكون اتحاداً طبيعياً وأقنومياً، وتكلم في هذا الفصل عن والدة الله وقد اعترضات النساطرة مورداً أدلة كثيرة من كتب الفروض الكلدانية ومن كتاب غريغوريوس ورد الشاعر النسطوري.

الرأس الثالث في التجسد والرد على ذوي البدع بالاجمال ولا سيما على اليعاقبة والأرمن الذين زعموا أنّ في المسيح طبيعة واحدة ومشية واحدة، وفيه خمسة فصول. الأول أنّ المسيح هو إله كامل وإنسان كامل. والثاني أنّ في المخلص طبيعتين متحدتين بأقنوم واحد. وألحق به مقالة أنّ في المسيح فعلين ومشيتين. والثالث في كيفية اتحاد الطبيعة البشرية بأقنوم الكلمة وفسره بأنه بعد الاتحاد لم تختلط الطبيعتان إحداهما بالأخرى، بل استمرت كل منهما سالمة كاملة. والرابع في التعبير عن طبيعتي المسيح، وبكم نوع عُبر عنهما، وذكر أنه عُبر عنهما بأربعة أنواع فقال بعضهم فيه طبيعتان، وقال غيرهم طبيعة مضاعفة وآخرون طبيعة واحدة متجسدة أي الطبيعة الإلهية التي أخذت الجسد واستمرت فيه طبيعة. وذكر من جملة الأدلة على هذا القول: «قانون الايمان المثبت في دير القديس مارون» وقال آخرون طبيعة واحدة بالاطلاق وهذا هو البدعة. والفصل الخامس في حالة التجسد بالنسبة إلى الطبيعة البشرية وشرحه بأنّ طبيعة المسيح البشرية هي كاملة وإن قامت بأقنوم الكلمة وحده.

والرأس الرابع في تعليم الكنيسة الرومانية القويم وأضاليل ذوي البدع المختلفة وفيه أربعة فصول. الأول في أنّ الروح القدس منبثق من الآب والابن لا من الآب وحده. الثاني في نار المطهر. الثالث في أنّ الأبرار يتمتعون بعد موتهم في ملك السعادة الأبدية والأشرار يعانون العذاب في جهنم لا كما وهم بعضهم أنّ عقاب النفوس أو ثوابها لا يكون إلا بعد قيامة الأجساد، وذكر في جملة أدلته على صحة هذه العقيدة قصيدة نرسيس العالم النسطوري في اللص، وقصيدته في المعترفين لجبرائيل مطران الموصل مدح بها القديس أمونيوس، ثم استشهد فروض النساطرة في أيام الأحد والثلاثاء والأربعاء والخميس والميصر في الشهداء في فرض المساء يوم الاثنين، وأخيراً الرؤيا المعزوة إلى القديس بولس الرسول التي يسلم بها النساطرة. والفصل الرابع في الرد على الشكاوى التي يوردها أهل البدع على أبناء الكنيسة الرومانية وضمنه أولاً الكلام في النور الذي يظهر يوم السبت العظيم، ثانياً في النافور اليومي الذي يتلى بحسب طقس كنيسة روما، ثالثاً في تناول العامة الخبز

وحده في القربان ، رابعاً انتقاده النساطرة في عدة أمور منها ابطالهم سر الاعتراف وعدم تعميدهم الأطفال إلا في أيام معلومة واهمالهم سر التثبيت واستعمالهم عصير العنب بدلاً من الخمر وزعمهم أنهم تلقوا عن الرسل التقديس على الخبز خميراً وتقديس بطريركهم ورأسه مغطى وعدم التفاتهم إلى درجات القرابة الدموية والأهلية وتزوّج كهنتهم بعد قبولهم الدرجات المقدّسة وأكلهم اللحم يومي الأربعاء والجمعة مساءً وابتدائهم بالصوم الأربعيني يوم الأحد .

وختم السمعاني كلامه في هذا الكتاب بقوله: وإن عظم الكلدان هذا الكتاب كثيراً وقد احدى بتلاوته كثيرون من النساطرة إلى الايمان الكاثوليكي إلا أنّ الأدلة التي يستند إليها المؤلف كثيراً ما كانت غير مدققة لأنها تثبت أكثر مما يلزم اثباته أو يمكن الخصوم أنفسهم أن يعتمدوا عليها . ولأنّ بعض الشهادات التي أوردها قد كشف المتأخرون أنه لم يدقق بنقلها أو ييسر للخصوم الرد عليها . انتهى ملخصاً عن المجلد الثالث من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٦٠٣ .

عد ١٠١٣

اندرأوس أخيجان بطريك السريان الكاثوليكين

إنّ اندرأوس هذا وُلد بحلب من والدين يعقوبيين وتهلّب ببعض العلوم ، وكان فطناً ليبيّاً ورعاً ، وأتى إلى لبنان وساقته العناية الربانية إلى البطريرك يوسف بطرس العاقوري بطريك الموارنة فأرشده إلى المعتقد الكاثوليكي ، فجدد المذهب اليعقوبي على يده وقبله في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . ولما رأى توقّد ذهنه وهيامه بالفضيلة والعلم أرسله إلى مدرسة الموارنة بروما لاتقان العلوم الدينية فكتبَ عليها سنين ونبع وبرع فيها وحاز قصبات السبق بين أقرانه . ولما أُنجز علومه وعاد إلى لبنان كان البطريرك يوسف العاقوري قد توفاه الله فرقاه البطريرك يوحنا الصفرأوي إلى درجة الكهنوت . ولما رآه غيوراً على أبناء ملته وهاماً بأن يهديهم إلى الايمان القويم ، وتيسّر له أن يهدي بعضهم إليه . رقاها إلى درجة الأسقفية اجابةً لطلب قنصل فرسة حيثلي بحلب المسمى فرنسيس بيكات ، وكان ذلك سنة ١٦٥٦م ووجه إلى حلب مصحوباً بالقس اسطفانوس الدويهي الماروني (الذي صار بعداً

سنة ١٦٧٠م بطريركاً على الموارنة) فعاونه بمشوراته الصائبة ومواعظه الفعالة فردّ الكثيرين من اليعاقبة إلى جادة الايمان الكاثوليكي، وسموا سريناً كاثوليكين. ولما توفي اغناطيوس سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩م في دمشق، انتخب السريان الكاثوليكيون اندراوس بطريركاً عليهم، ونال فرماناً من جلالة السلطان بعناية قنصل فرنسا المذكور، وسمي اغناطيوس اندراوس. وسنة ١٦٦٢م أرسل دستور ايمانه إلى الكرسي الرسولي طالباً تثبيتته بالبطريركية فثبته البابا اسكندر السابع سنة ١٦٦٥ ورقى أخاه دوميجان إلى أسقفية حلب على السريان وسماه ديونيسيوس. وردّ كثيرين من اليعاقبة إلى الايمان الكاثوليكي، وصرف حياته بالبر والقداسة والغيرة على خلاص النفوس إلى أن أدركته المنية في ٢٩ أيار سنة ١٦٧٧م وقيل سنة ١٦٧٨م في مدينة حلب. وبعد شهرين تولّى البطريركية مكانه عبد المسيح المارديني اليعقوبي وحاز فرماناً من عظمة السلطان فاضطهد بحلب من كانوا قد أتبعوا البطريرك أخيجيان وربط الكهنة الذين رقاهم إلى درجة الكهنوت وأجبر من اتخذوا اسكيم الرهبنة على يده بأن يؤدوا الخراج، ومن كانوا قد اعتقدوا معتقده من العامة أبعدهم عن أوطانهم أو أنزل بهم الحرم، فنأصبه في هذا الاضطهاد تجار الافرنج وتمكنوا من عزله عن البطريركية وأقاموا بها اغناطيوس بطرس وكان صحيح الايمان وثبته الحبر الروماني سنة ١٦٧٩م ورقى إلى أسقفية حلب ديونيسيوس رزق الله، وإلى أسقفية أورشليم غريغوريوس يشوع، واستمر في البطريركية إلى سنة ١٧٠١ حين توفي في السجن بأذنه بمكيدة كادها عليه جرجس بطريرك اليعاقبة. ولم يبق على السريان بطريرك كاثوليكي بعده إلى سنة ١٧٨٢م إذ قام عليهم حينئذ المطران ديونيسيوس مخايل جروة من حلب بطريركاً بعد أن ردّ إلى الايمان الكاثوليكي أربعة أساقفة من اليعاقبة وهم: ابراهيم ونعمه وموسى وجرجس. فهؤلاء انتخبوه بطريركاً وثبته البابا بيوس السادس في ١٥ كانون الأول سنة ١٧٨٣م. وحضر إلى كسروان وأقام بدير الشرفه بجانب قرية درعون كما سوف يجيئ. انتهى ملخصاً عن المكتبة الشرقية وتاريخ الدويهي وعن الدر المنظوم للبطريرك بولس مسعد.

هو أنَّ البطريرك مكاريوس الانطاكي الذي تقدّم الكلام عليه في جملة البطارقة الانطاكيين في هذا القرن، وبولس هذا كان عالماً ضليعاً وله تأليف ذكروا له منها كتابين خاصة أحدهما دَوّن فيه أخبار البطارقة الانطاكيين من انتقالهم من انطاكية إلى دمشق حتى زمان والده البطريرك مكاريوس، ويظهر أنَّ هذا الكتاب مفقود، والثاني كتاب رحلة والده سنة ١٦٥٢م إلى سنة ١٦٥٥م إلى الآستانة وبلغاريا والفلاخ والبعغان وروسية. وقد ذكرنا هذه الرحلة في ترجمة والده وأشرنا إلى النسخ الموجودة منها وإلى أنَّ الأستاذ الفاضل جرجي مرقس الدمشقي قد ترجم هذه الرحلة من العربية إلى الروسية وعلّق على صدر كتابه هذا ترجمة المقدمة التي كان المؤلف قد افتتح بها كتابه، وكانت ساقطة من ترجمة هذه الرحلة إلى الانكليزية. وأهم ما في هذه المقدمة ذكر سلسلة لبعض البطارقة الانطاكيين الروم، جمعها من سلسلة كان وضعها والده فاختصر بعضها وزاد في بعضها الآخر وبَدّل ما عَنّ له تبدّله معتمداً في ذلك على الكتب المخطوطة التي جمعها ولم يكن والده حصل عليها، ولا يخلو عمله من فائدة. ومما زاده على كلام والده ترجمة البطريرك أفثيموس الساقصي الذي قدّمنا ذكره، وأسهب الكلام في الخدمات التي أداها هذا البطريرك لوالده. ومما يهم في كلامه أيضاً ترجمة والده البطريرك مكاريوس وذكر أعماله وأسفاره، وقد لخصنا ذلك قبلاً. ثم إنَّ سلسلة بطارقة انطاكية الروم التي وضعها البطريرك مكاريوس ونقحها وأتمها ابنه الشماس بولس كانت مما اعتمد عليه الخوري يوحنا جمعة سنة ١٧٥٦م والخوري ميخائيل بريك نحو سنة ١٧٦٧م في وضعهما سلسلتين لبطارقة انطاكية. ومن هاتين السلسلتين ومن مصادر أخرى يونانية ولاينية جمع برفيريوس الأسقف الروسي سلسلة لبطارقة انطاكية الروم من أيام أوديوس الذي أقامه بطرس الرسول خلفاً له في الكرسي الانطاكي. إلى البطريرك ايروتيوس الذي كان بطريكاً في أثناء وجود برفيريوس في المشرق سنة ١٨٥٠م. وسلسلة برفيريوس هذه أكثر تدقيقاً واحكاماً على ما يقال، إذ لم يكن لنا الحظ أن نطلع عليها. وقد طُبعت في مجلة «جمعية كياف» الاكليريكية بروسية سنة ١٨٧٥م وسنة ١٨٧٦م. انتهى.

أفثيموس الصيفي مطران صيدا الملكي الكاثوليكي

وُلد أفثيموس هذا بدمشق سنة ١٦٤٨م من موسى الصيفي وكاترينا الدباس وتهذب بالعلوم الدينية على الآباء اليسوعيين بدمشق وبرع فيها، ورقاه السيد توافيطوس مطران دمشق إلى درجة الشماسية ثم إلى درجة الكهنوت وجعله من رعاة النفوس في كنيسة دمشق الكاتدرائية فاشتهر بغيرته على خلاص النفوس وبفضائله الراسخة ومناقبه الحميدة، ولما توفي ارميا مطران صور وصيدا على ملته رقه البطريك كيرلس الخامس المار ذكره إلى الأسقفية على صيدا وصور سنة ١٦٧٣، فأخذ يجمع كهنة فضلاء علماء إليه ويشغلهم بكرم الرب بفضائل كثيرين منهم ورقي بعضهم إلى الأسقفية، ومن هؤلاء الكهنة ألف الجمعية الرهبانية الشهيرة المعروفة بالرهبانية المخلصية، وشرع في بناء دير المخلص الشهير سنة ١٧٠٨م وكانت له التعزية الكبرى بأن يرى في أيامه هذه الجمعية نامية ناجحة بأعمالها الخلاصية مستسيرة بطريقة قانونية، وكثيراً ما ناصبه الروم الملكيون غير المتحدين واستحصلوا أمراً سامياً بتنفيه. وفي سنة ١٧١٠م جرت مرافعة بينه وبينهم في محكمة صيدا فحكم له عليهم والتمس من الخبر الروماني سنة ١٧١٩م تغيير بعض أمور في طقسه فلم يجبه الكرسي الرسولي إلى ذلك، وقد أدركته المنية في ٢٧ تشرين الأول سنة ١٧٢٢م. وكان خطيباً بليغاً كريم الأخلاق ليّن العريكة، وقيل أنّ كتاب الدلالة اللامعة في القضايا الخمس التي يخالف بها الروم الكنيسة الرومانية هو من تأليفه، وعزا بعضهم هذا الكتاب إلى الياس فخر الطرابلسي. وقد طُبع هذا الكتاب بروما دون ذكر اسم مؤلفه فلم يتحقق لمن هو. انتهى.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارنة الدنيويون في القرن السابع عشر

عد ١٠١٦

بعض أعيانهم في هذا القرن

ذكرنا في آخر تاريخهم في القرن السادس عشر الشدياق الحصري والي جبة بشري فهذا توفي سنة ١٦١٢م وخلفه بولايته ابنه الشدياق رعد ، وتزوج بست البنات بنت المقتّم مقلد من المقدمين العناحلة (الذين أصلهم من عين حليا وقد مرّ ذكرهم) ويقال إنه كان يسيئ المعاملة لها ويتهدها بالقتل وإنها دسّت له سمّاً في دجاجة أكل منها هو وأخوها جمال الدين بن مقلد المذكور، فماتا وانقرضت بهجمال الدين سلسلة العناحلة . وأما امرأة رعد فتزوجها موسى البشراني وسار بها إلى حلب فزق منها ولداً سمي عسافاً ودخل إحدى رهبانيات الفرنج ومات كاهناً . ومن بعد وفاة المقتّم رعد بن خاطر ولّى يوسف باشا سيفا والي طرابلس على جبة بشري أبا عاشينا شلهوب لأنه كان ابن بنت المقتّم عاشينا الأول بن حسام الدين العنحلائي وولد له ثلاثة بنين وهم: عاشينا ويوحنا وميخائيل . ونازعه الولاية نعمة وداود وجرجس أولاد الشدياق خاطر فاثمر عليهم مع الحاج سليمان

الملكي كاتب ديوان طرابلس فقبض يوسف باشا على نعمة وداود ابني خاطر وألقاهما في السجن، وكان يعدهما بأن يولييهما جبة بشري حتى استنزف الثروة التي تركها والدهما ثم أمر بخنقهما، وألقوهما في البير المعروف بالأزهرى. وقبض المقدم ابو عاشينا شلهوب على أخيهما جرجس وغرقه في النهر قريباً من المدينة، واستمر في الولاية على جبة بشري تسع سنوات. ففي سنة ١٦٢١م كبس ابنه عاشينا دير مار توما بحصرون وقتل القس دانيال العكاري طمعاً بدراهمه، وعرض الأمر للشيخ أبي صافي الخازن الذي كان الأمير فخر الدين المعني قد ولاه على جبة بشري، فقبض على عاشينا وأخذته إلى سمار جبيل وعرض أمره على الأمير فخر الدين فأمر باهلاكه، فقتله ودفنه عند جسر المدفون. وأتى والده المقدم شلهوب ليحتج عن ابنه فقبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن ورفع أمره إلى الأمير فخر الدين وبيّن أنه من غرض ابن سيفاً فأمر بقتله أيضاً فقتل وزُج في المدفون.

وكانت الوجاهة الكبرى بلبنان في أيام الأمراء المعنيين للمشايخ بني الخازن، وقد مرّ في تاريخ القرن السادس عشر أنّ أرملة الأمير قرقماز معن أرسلت ولديها الأميرين فخر الدين ويونس فخبأتهم عند الشيخ ابراهيم ابن الشدياق سرّكيس الخازن، ولما راق كأس السياسة وعاد الأميران المذكوران إلى ولايتهما بالشوف، دعا الأمير فخر الدين ابراهيم الخازن وجعله معاوناً ومديراً له في حكومته، وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه. ولما توفي الشيخ ابراهيم المذكور سنة ١٦٠٠م اتخذ الأمير فخر الدين ابنه خازناً المكتّى أبا نادر مديراً له مكان أبيه، ولما اضطّر الأمير فخر الدين أن يسير إلى أوروبا سنة ١٦١٢م ترك الشيخ أبا نادر مع أخيه الأمير يونس مديراً له كما كان معه.

وفي سنة ١٦١٣م لما عاد الأمير يونس إلى ولاية الشوف أرسل الشيخ أبا نادر والشيخ أبا ضاهر حبيش إلى كسروان ليحصيا الأشجار ويستوفيا ما عليها من المال مع ابن المسلماني الذي كان من رجال المعنيين. وأرسل الأمير يونس الشيخ أبا رحال خطاراً أخا أبي نادر إلى توسكانا إلى الأمير فخر الدين ليطلعه على أحوال البلاد. وفي سنة ١٦١٥م أرسل الأمير يونس الشيخ أبا نادر ومعه مملوك له اسمه ذو الفقار ليحكم في كسروان ويقيماً بغزير. ولما عاد الأمير فخر الدين من رحلته سنة ١٦١٧م والتقاء الأمير يونس أخوه والشيخ أبو نادر إلى عكا، أنعم على أبي نادر وعلى ذريته بولاية عمل كسروان جزاءً لصدقه خدمته بحضوره وغيابه.

ثم سار أبو نادر مع الأمير فخر الدين لمقاتلة يوسف باشا سيفاً المجاداً لعمر باشا والي طرابلس، وعند عودهما حاصر الأمير فخر الدين قلعة جبيل التي كانت بيد جماعة ابن سيف وأخرجهم منهم بالأمان وولّى الشيخ أبا نادر على بلاد جبيل منضمة إلى كسروان. وفي سنة ١٦٢١م ورد أمر من الآستانة إلى الأمير فخر الدين أن يعاون والي طرابلس على يوسف باشا سيفاً إذا لم يدعن للوالي المذكور، وفّر يوسف باشا إلى عكا فأرسل الأمير فخر الدين رجالاً طردوا من جبة بشري العمال الذين كان يوسف باشا قد أقامهم بها وولّى عليها الشيخ أبا صافي الخازن رباحاً عم الشيخ أبي نادر كما مرّ. وفي سنة ١٦٣١ أصلح الشيخ أبو نوفل نادر الخازن ما كان قد خرب من قلعة سمار جبيل بزلزال قتل فيه ابنه نوفل ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش. ولما قبض على الأمير فخر الدين في مغارة جزين سنة ١٦٣٣م كان بمعيته الشيخ أبو نادر وعمه الشيخ أبو صافي وأخذهما معه إلى دمشق، فكفلهما الأمير اليميني وعادا إلى كسروان. وأما أبو نوفل فكان قد فّر مع الأمير حسين بن فخر الدين إلى قلعة المرقب، فأمسكهما خليل باشا وأخذهما إلى حلب. فانهزم أبو نوفل وعاد متكرراً إلى وطنه. ولما رأى الخازنيون شدة المضايقة لهم انهزم الشيخ أبو نادر وابنه نوفل نادر وأخوه أبو خطار عبدالله وسافروا إلى توسكانا بإيطاليا سنة ١٦٣٥م وكان الشيخ أبو نادر مشهوراً عند الافرنج أيضاً فقابلته دوك توسكانا بالمعزة والاكرام. ولما تولّى الأمير ملحم المعني بلاد الشوف عاد المشايخ بنو الخازن من ايطاليا فردهم إلى اقطاعاتهم سنة ١٦٣٨م وجعل أبا نادر مديراً له كما كان قبلاً. وفي سنة ١٦٤٥م توفي الشيخ أبو صافي رباح الخازن في ساحل علما. وفي أول تموز سنة ١٦٤٧م توفي الشيخ أبو نادر خازن بن ابراهيم بن سركيس الخازن بعد أن كان مديراً لحكومة بني معن عدة سنوات وحاكماً بكسروان وجبيل والبترون والحجة والرقب، وخلقه بوجاهته ومساعيه الحميدة ابنه نادر المكتى أبا نوفل.

وفي سنة ١٦٥٠م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل يجبي المال الأميري من بلاد البترون، وكان الأمير التزمه من عمر باشا والي طرابلس. وفي سنة ١٦٥٦م أنعم البابا اسكندر السابع على الشيخ أبي نوفل بلقب كافليز أي فارس. وفي سنة ١٦٥٨م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل ليجبي الأموال الأميرية من عكار وجبة بشري وبلاد البترون وأداها إلى الدولة بحسب تعهده، وكان

الحكام يثقون به كل الثقة . ولما توفي الأمير ملحم معن سنة ١٦٥٨م وخلفه في ولايته ابنه الأمير أحمد والأمير قرقماز جعلوا الشيخ أبا نوفل مديراً لهما كما كان عند والدهما . وسنة ١٦٥٩م أنعم لويس الرابع عشر ملك فرنسا على الشيخ أبي نوفل أن يكون قنصلاً لدولة فرنسا ببيروت ، ونال ذلك بعناية المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس ، وحاز أيضاً وكالة قنصلية البندقية . وقد رضي السلطان الأعظم عن اقامته في هذا المنصب وأتحفه بفرمان مؤذن بذلك ومبيّن حقوق منصبه . (تراه مترجماً في كتاب النبله التاريخية في المقاطعة الكسروانية صفحة ٨٦) وهو الذي أسكن الرهبان اليسوعيين في عينطورا وأعطاهم محل ديرهم هناك من أملاكه . وفي الكتاب الموسوم بالرسائل المعمدة لليسوعيين رسالة مسهبة من هؤلاء الرهبان الذين أتوا حينئذٍ بالثناء على الشيخ أبي نوفل ومبراته وغيرته واتساع شهرته . يمكنك الاطلاع عليها في تاريخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٢٢ .

وقد سمعت مرات من الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد الشهير بمعرفته تاريخ ملتنا رواية ملخصها أنه لما فتر الأمير أحمد والأير قرقماز معن سنة ١٦٦٠م من وجه أحمد باشا كما مرّ ، واجتمع أعيان البلاد لاختيار حاكم غيرهما فانتخبوا الأمير محمد علم الدين اليميني ، ولم يدعوا الشيخ أبا نوفل وازدروه ، وعزل في تلك الأثناء علي باشا عن ايالة صيدا ، وقدم وال آخر فأخذ أبو نوفل يقفّم له الدخائر من حلب حتى بلغ صحراء جونية فالتقاه الشيخ أبو نوفل فشكر الوزير له وسأله ما يريد ، فأجابه لا أطلب نعمة إلّا أن لا تعطى خلعة الولاية على قسبة دير القمر إلّا بواسطة خادكم العاجز ، فوعده الوزير بذلك . وعند حلوله بصيدا أسرع إليه أعيان الشوف يلتمسون تقرير ولاية الأمير محمد اليميني على دير القمر فأجابهم أنه لا يخلع على الأمير المذكور إلّا أن يسأله ذلك الشيخ نوفل الخازن ، وأصرّ الوزير على قوله ، فاضطروا أن يحضر كثيرون منهم إليه في كسروان ، فبالغ في اكرامهم وسأله أن يسير معهم إلى الوزير ، فتمنّع واكتفى بعريضة أصحابهم بها إليه ، فأجابهم إلى ما سأله وعرفوا غلظتهم وتهيبوا الشيخ أبا نوفل . وكان البطريرك المذكور رحمه الله يقول لي إنّ البعض عزوا هذه الرواية إلى الشيخ أبي نادر ، ولكنني وجدت كتاباً قديماً دون الرواية بالتفصيل معزوة إلى أبي نوفل . ولا أتذكر ما عنوان الكتاب ولا أين يوجد .

وفي سنة ١٦٦٤م عاد الأمير أحمد معن إلى ولايته بعد أن انتصر على اليمينيين

فرجع المشايخ آل خازن إلى اقطاعاتهم، وعاد الشيخ نوفل مديراً لحكومة الأمير أحمد، وفي هذه الأثناء قسم أبو نوفل حكومة كسروان على بنيه وكانوا ثمانية فأعطى أبا قانصوه فياضاً قسماً، وأبا ناصيف نوفلاً قسماً، وخازناً قسماً، وطريه قسماً، وبقي بيده قسم كبير سلّمه إلى أبنائه الصغار وهم خاطر وسليمان وقيس وأبو النصر. وفي سنة ١٦٧١م أُحيلت اقطاعات كسروان وبكفيا وغزير إلى عهدة الشيخ أبي نوفل وأولاده بموجب فرمان سلطاني حفظ أصله عند الشيخ بطرس كنعان الخازن، وترى ترجمته مثبتة في تايخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٤٢. وفي سنة ١٦٧٩م في ١٣ آب توفي الشيخ أبو نوفل نادر الخازن.

وخلف أبا نوفل ابنه أبو قانصوه فياض وتمشى على آثار والده أبي نوفل وشرع سنة ١٦٨٠م في بناء دار له في قرية غوسطا وبجانها كنيسة على اسم النبي الياس، وتولّى في كسروان على القسم الذي خصّه به أبوه، وخلفه في قنصلية فرنسة ببيروت. وفي سنة ١٦٧٨م لما ضايق والي طرابلس أولاد أبي رزق البشعلاني الآتي ذكره فزّ أحدحم يونس بأولاده وأولاد أخيه إلى كسروان واحتسّم عند الشيخ أبي قانصوه فياض المذكور، ودافع عنهم ابنه الشيخ حصن الآتي ذكره، فأقاموا في حماه، ونظن أنهم أقاموا بصليما ومنهم بيت البشعلاني الساكنين الآن في القرية المذكورة. وتوفي الشيخ أبو قانصوه فياض في ١٧ تشرين الأول سنة ١٦٩١م. وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة وفاة الشيخ المذكور وقال بعد موته عظمت شوكة بني حماده فقتلوا حنا الأسود في الكورة ونهبوا العاقورة. وكان الشيخ أبو قانصوه جزيلاً الكرم محباً للعلماء شجاعاً شديد البأس.

وخلف أبا قانصوه ابنه حصن في ولايته وأنعم عليه ملك فرنسة لويس الرابع عشر بأن يكون قنصلاً لفرنسة ببيروت كأبيه وجدّه. وقد حفظ لنا العالم دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٨٦) براءة تنصيب الشيخ حصن المذكور قنصلاً لفرنسة ببيروت، وإليك ترجمتها عن الفرنسية:

«مرسوم الملك بتنصيب الأمير حصن الخازن الماروني»

لويس ملك فرنسة وناقارا وكنت بروفنس الخ. السلام لكل من يطلع على مرسومنا هذا، لما كنا نرغب في اجابة سؤال الأمير حصن الخازن في عريضته التي

رفعها إلينا وأن نعززه بأحوال قنصلية بيروت إلى عهده كما كان أبوه وجده بمقتضى مرسومنا الصادر في غرة كانون الثاني سنة ١٦٦٢م، ولعلمنا بما له من الغيرة والصدق بخدمتنا وعنايته بخير رعايانا قد نصبناه بمرسومنا هذا الموقع عليه بيدنا قنصلاً على مدينة بيروت إذ فصلنا هذه المدينة عن قنصلية صيدا المتعلقة بها الآن، ونريد أن تبقى منفصلة عنها إلى أن نصدر أمراً آخر يخالف مرسومنا هذا. وقد أقمنا وأمرنا ونصبنا ونقيم ونأمر وننصب السيد حصن الخازن المذكور قنصلاً للأمة الفرنسية في فرضة بيروت المذكورة وملحقاتها ومتعلقاتها فله بتحويله هذا المنصب أن يلي ويأمر مدة حياته جميع الحقوق والسلطة والامتيازات والانعامات التي لباقي القناصل في المشرق، ورخصنا له أن يقيم عنده نائب قنصل بحيث يكون من أمة الفرنسيين ويكون هو مسؤولاً عنه في الأمور المدنية. وقد أعلمنا مستشارنا وسفيرنا في المشرق السيد شاتوناف دي كاستنيار إنه إذا ظهر له أن السيد حصن الخازن متصف بالسيرة الحميدة وحسن الآداب ومتمسك بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني يصرفه بالقنصلية المذكورة، وبما لها من الحقوق ولا يمنعه من ذلك أي مرسوم كان يخالف ما ذكرنا، وعلى السفير المذكور أن يبذل له كل مساعدة وعناية، ونأمر ربان كل مركب وسفينة تحت العلم الفرنسي وكل تاجر من أمتنا أن يعترفوا بأنه قنصلنا ويمثلوا أمره، ولا يمنع من ذلك الأمر الذي أصدرناه في ١١ آذار سنة ١٦٨٥م بأن لا ينصب من الأجانب قناصل لفرنسة لأننا استثنينا ونستثني من هذا الأمر السيد حصن الخازن فلا مفعول لذلك الأمر من قبله، فهذه هي إرادتنا ومسيرتنا ونرغب إلى الباشاوات والولاة الاجلاء ونسأل من كان منهم الآن ومن يكونون من بعدهم ببيروت وملحقاتها أن يمكنوا السيد حصن الخازن من تكميل فروض منصبه ولا يسمحوا بأن يكون له أقل مانع من اتمام فروض منصبه بل يبذلون له بعكس ذلك كل مساعدة ورعاية، واشعاراً بذلك قد وقّعنا بختمنا على هذه البراءة الصادرة في ١٢ حزيران سنة ١٦٩٧م من سني النعمة وهي الخامسة والخمسون للملكا. التوقيع لويس. وعلى طي البراءة بأمر الملك كونت بروفنس فيليب وختم بالمهر الكبير على الشمع الأصفر.

واليك أيضاً ترجمة جواب لويس الرابع عشر إلى الشيخ حصن قنصل فرنسة ببيروت نقلاً عن الكتاب المذكور:

« إلى السيد الأجلّ الأمير حصن قنصل الأمة الفرنسية ببيروت »

أيها السيد الأجلّ، إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافير الماروني رسولكم، رفع إلينا الرسالة التي كتبتموها إلينا في شهر كانون الأول سنة ١٦٩٥م تطلبون بها أن نصبكم قنصلاً ببيروت، ولا أشك في أنكم تقدرون حمايتي لكم حق قدرها وتصرفون عنايتكم إلى مساعدة رعاياي الذين يتاجرون في سورية، ولذلك أردت رغبةً في مصلحتكم أن أفصل مدينة بيروت عن قنصلية صيدا وأجعلها قنصلية مخصصة، وأمرت أن ترسل إليكم براءة تنصيبكم بها وبقوتها يكون لكم الحق لا أن ترفعوا العلم الفرنسي فقط على باب داركم كما كان يصنع جدكم وأبوكم، بل تكون لكم أيضاً الحقوق والانعامات التي يحرزها قناصل الأمة الفرنسية. وقد سلمتُ إلى رسولكم عدة رسائل إلى سفيرى بالقسطنطينية، وإلى قناصل فرنسة بجواركم وأمرتهم بأن يذّلوا لكم كل الرعاية والعناية بكل ما يتعلق بكم عند طلبكم ذلك، لنفعمكم ومساعدة أبناء ملتكم. وأسأله تعالى أن يرعاكم أيها السيّد الأجلّ بعين حراسته المقدّسة. كُتِبَ في فرسايل في ١٣ من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الرسالة، كولبر» (وهو وزير لويس الرابع عشر).

ويلى ذلك في الكتاب المذكور رسالتان إلى الشيخ حصن إحداهما موقع عليها بونشترتران فحواها أنه تلا على مسامع جلالة الملك رسالته التي سلمه إياها يوحنا مارماكون رسوله. وإنّ جلالته تعطف بفصل قنصلية بيروت عن صيدا وتحويلها إلى عهده، وإنه مرسل له البراءة في طي كتابه وهي في تاريخ ٢ حزيران سنة ١٦٩٧م. والثانية بتوقيع دي تورسي وفحواها أنّ عظمة العاهل تعطف عليه بإيلائه المنصب الذي كان فيه المرحوم أبوه، وإنه تلا الرسالة التي كان هو أنفذها باسم أبيه بعد عرضه الرسالة على مسامع جلالة الملك انعطف إلى إيلائه قنصلية بيروت. وكتب في ذلك إليه وإلى سفيره في القسطنطينية وإلى قناصل فرنسة بجواره يأمرهم بمعاونته ورعايته في كل ما يتعلق به وبمّلتّه. وتاريخ هذه الرسالة في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م.

ويظهر أنّ الشيخ ناصيف بن نوفل ابن عم الشيخ حصن القنصل قد رفع أيضاً إلى الملك لويس الرابع عشر عريضة يشكو بها سوء حالهم عند نكبة دولة المعنيين المار ذكرها واختفاء الأمير معن فأجابه الملك لويس برسالة هذه ترجمتها:

« إلى السيد الأجلّ ناصيف أمير الموارنة »

أيها السيد الأجلّ، إنّ كتابكم الذي رفعه إلينا السيد يوحنا مارماكون الكافليير الماروني موفدكم إلينا علمنا منه سوء المعاملة التي يعاملكم بها الحاكم الجديد الذي نصب عن عهد قريب مكان الأمير أحمد بن معن، واتّضح لنا منه أيضاً أنّ من اللازم تفادياً من الضّرّ للدين الكاثوليكي ورغبةً في تأييده في بلادكم أن نصرف عنايتنا لدخولكم بصفة حاكم على البلاد التي كنتم تتولون ادارتها من عهد قريب إذ تدفعون للبasha والي طرابلس المال المفروض على هذه البلاد. ولما كنت أرغب رغبةً شديدة في أن أساعدكم على ما يعود بالنفع عليكم ولا سيما متى كان ذلك ملائماً للحماية التي بذلتها في كل وقت للكاثوليكين بالشرق قد سلمت إلى موفدكم أوامر وجهتها إلى سفيرى بالقسطنطينية ليصرف عنايته الفعالة لينال لكم ما تبتغون. وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة. دُونَ بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة، كولير.

وكتب الوزير دي تورسي كتاباً آخر إلى الشيخ ناصيف هاك ترجمته.

« أيها السيد الشريف الأجلّ، إنكم تعلمون من الرسالة التي كتبها إليكم سيدي العاهل جواباً على رسالتكم التي أنفذتموها إليه على يد السيد مارماكون رسولكم، كم تهتم جلالته بما يعود بالنفع عليكم وعلى الدين الكاثوليكي، ولا أشك في أنكم تشعرون بأقرب وقت بمفاعيل الحماية التي يبذلها لكم بواسطة أوامره الموجهة إلى سفيره بالقسطنطينية ليصرف عنايته الشديدة ليستمد لكم ما ينقذكم من الضيق الحاصل عليكم، وينفع المسيحيين أبناء ملتكم. ولم يبق لي إلّا أن أحقق لكم إنني لا أنفك عن أن أرجو جلالته ليواصل كل وقت حمايته لكم وأن تتيقنوا أنني صديقكم المخلص ». التوقيع ديتورسي عن فرسايل في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م.

ويظهر أنّ رئيس أساقفة نيقوسية ومتربوليت قبرص نائب البطريرك اسطفانوس الدويهي في مدة غيابه رفع عريضة إلى لويس الرابع عشر بالمعنى الذي كتب به الشيخ ناصيف الخازن، وبالتماس القنصلية للشيخ حصن فأجابه الملك عليها وهاك ترجمة الجواب.

« إلى السيد الأجلّ رئيس أساقفة نيقوسية متربوليت قبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في جبل لبنان في غياب البطريرك اسطفانوس^(١) »

أيها السيد الأجلّ تناولت الكتاب الذي رفعه إليّ من قبلكم السيد يوحنا مارماكون رسول طائفكم، وبه تبيّنون لي الضيق الحاصل ببلادكم الآن وتسألونني فيه أيضاً أن أنصب الأمير حصناً قنصلاً لفرنسة بيروت، فعنايتي بجميع الذين يقرون بالدين القويم في أية جهة كانوا من العالم لا تدع لكم محلاً للريب في عنايتي بكم خاصة، ولذلك شئت بطيبة خاطر أولي الأمير حصناً قنصلية بيروت مفصولة لهذه الغاية عن قنصلية صيدا، وقد كتبت في الوقت نفسه إلى سفيرتي بالقسطنطينية وإلى قناصل حلب وصيدا وطرابلس أن يبدّلوا العناية الفعالة بما يعود بالرفع على ملّتكم وكاثوليكي المشرق الآن وفي كل فرصة تسنح لذلك. وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة. دوّن بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧ م. والتوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة. كولبر.

وهذه ترجمة الرسالة التي بعث بها لويس الرابع عشر إلى سفيره بالآستانة.

« إلى السيد دي كاستنيار مستشار دواويني وسفيري غير العادي بالقسطنطينية »

إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافليّ الماروني الموفد من قبل الأميرين ناصيف وحصن ومن قبل مطران نيقوسية رئيس الدين الكاثوليكي الروماني بغياب البطريرك اسطفانوس قد رفع إليّ رسائل منهم يسألون بها حمايتي من الضيق الملّم بهم بعد أنّ السيد الأعظم (السلطان) ولّى على بلادهم الأمير أبا موسى علم الدين عوضاً

(١) أين كان الدويهي حينئذ لا نعلم حقيقة. على اننا نعلم ان نكباته كانت كثيرة وغياباته عن كرسيه متواترة.

عن الأمير أحمد بن معن ، ولتتمسكون أن يعطى أحدهم الأمير حصن قنصلية بيروت ليتمكن من نشر العلم الفرنسي ونيل حقوق القنصلية والانعادات المختصة بقناصل الأمة الفرنسية ، ويخمد بذلك جدوة ماحاق بهم من الضيق . ولما كان عزمي أن أساعد بكل وسعي على راحة جميع المستنيرين بالإنجيل المقدس في أي قطر كانوا من العالم ، فأنا مرسل إليكم كتابي لأبلغكم ارادتي ومرغوبي أن تستوعبوا ما يشرحه لكم معتمدكم المذكور لخير الدين الكاثوليكي ونفعه ، وأن تبذلوا بعد ذلك العناية باسمي لتنلوه كل ما يبتغيه من الأمور المعقولة ، وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم بحراسته المقدسة أيها السيد دي كستنيار . كُتب في فرسايل في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م . والتوقيع لويس . وفي أسفل الصفحة كولبر .

وقد أصحب المركيز دي تورسي الوزير وكاتب سر المملكة الكافليير يوحنا مارماكون برسالة إلى السفير المذكور مرسلأ له أمر الملك وموصياً بالكافليير المذكور . وتاريخ رسالته ١٣ تموز سنة ١٦٩٧م . وقد كتب الوزير دي تورسي المذكور أيضاً رسالة بأمر الملك إلى قناصل فرنسة بحلب وصيدا وطرابلس فحواها أن جلالة الملك أمره أن يكتب إليهم مبيتاً رغبة جلالته بمساعدة الأميرين نصيف وحصن الخازن ومطران نقوسية نائب البطريرك بغيابه ، وأن يبذلوا بكل فرصة عنايتهم الفعالة بالمذكورين ليشعروا بمفاعيل حماية جلالته . وإنه جعل الأمير حصناً قنصلاً ببيروت منفصلة عن صيدا ، وإن مقصد جلالته بذلك أن يخفف من جهة ثقل الضيق الملم بالمذكورين وأن يزيد من جهة أخرى عنايته برعاياه الذين يتجرون بالمدينة المذكورة وملحقاتها . وإنه كتب إليهم بطيبة خاطر توصاة بالكافليير يوحنا مارماكون معتمدكم لدى جلالته . وتاريخ هذه الرسالة ٣ من تموز سنة ١٦٩٧م .

وبعد وفاة الشيخ حصن قنصل فرنسة سمي ابنه الشيخ نوفل قنصلاً مكانه كما سترى في تاريخ القرن الثامن عشر .

وكان من أعيان طائفتنا في هذا القرن المشايخ آل حبيش فكان منهم الشيخ أبو ضاهر حبيش الذي أرسله الأمير يونس المعني إلى كسروان مع الشيخ أبي نادر الخازن سنة ١٦١٣م ليعدا الأشجار في هذا العمل ويجيبا المال المفروض عليها . وكان منهم أيضاً الشيخ أبو فارس حبيش الذي قُتل في الواقعة التي كانت بين القيسية واليمنية في مرحاتا سنة ١٦٣٦م كما في تاريخ هذه السنة .

وفي سنة ١٦٨٠م كتب الأمير أحمد المعني صكاً للشيخ طرييه بن موسى حبيش وللشيخ أبي شديد سيف بن طالب حبيش يوليها له على غزير، فكانت اقطاعاً لآل حبيش.

عد ١٠١٧

أبو رزق البشعلاني وابنه يونس

كان من أعيان الموارنة في هذا القرن الشيخ أبو رزق البشعلاني، وقد ذكره العلامة الدويهي لأول مرة في تاريخ سنة ١٦٤٣م، ولم ينبئنا بأصله ولا نسبه بل قال في هذه السنة عُزل محمد باشا الأرناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا، وكان كأخيته الشيخ أبو رزق البشعلاني (نسبة إلى بشعلي في عمل البترون). ثم قال في تاريخ سنة ١٦٤٩م عُزل (ثانية) الأرناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها صهره عمر بك، واسترد ابن الصهيوني وأبا رزق البشعلاني ونصب أخاه أبا صعب البشعلاني شيخاً على جبة بشري. ثم قال في تاريخ سنة ١٦٥١م عُزل عمر باشا المذكور عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا فأسلم أمورهما إلى الشيخ أبي رزق البشعلاني، إلى أن قال ثم تقوى عليهم (أي على أبي رزق وحلفائه) ابن الصهيوني وتسلم تدبير أمور طرابلس، وصادر أبا رزق وأتباعه. وقال في تاريخ سنة ١٦٥٣م قبض محمد باشا الأرناؤوط على الشيخ أبي رزق بحجة أن بعض آل حبيش قدموا إلى داره ومعهم جمعة بداعي زواج أحد أولادهم، فنم بعض أهل الفساد إلى الباشا قدومهم إنما كان لمضرة له، فأمر الباشا بالقبض على أبي رزق وأولاده وضيوفه وسجنهم بالقلعة مكبلين بالقيود، وكان عددهم تسعين نفساً. ونهبوا داره واستباحوا ماله، وبعد ذلك ورد الخبر بعزل الأرناؤوط وتولية قرا حسن. فتوجه الأرناؤوط إلى حماه لجباية المال وأخذ أبا رزق والسجناء معه. ودعا أبا رزق للحساب عما دخل ليده من المال، وادعى أن الباقي عليه اثنا عشر ألفاً، وبلغ الوالي الجديد إلى حماه وأعاد الحساب بينهما فثبت أن الباقي على أبي رزق أربعة آلاف وخمس مئة قرش دفعها عنه ابن الصهيوني، وخلق قرا حسن الوالي الجديد سبيله وسبيل السجناء. وأراد أن يعهد بتدبير أموره إلى الشيخ أبي رزق، ولكن وصل قبوحي من الباب العالي يطلب رأسه، فأشار عليه الوالي وابن

الصهيوني لم يسلم فدية لنفسه ، فأذعن مكرهاً لرأبهما . وأعطوا القبوجي ألف قرش فعاد إلى الآستانة . ودخل أبو رزق طرابلس مع قرا حسن والتزم منه جبلة واللاذقية وأوصى قبل سفره إليهما أخاه أبا صعب أن يأخذ أولاده ويسير بهم إلى بلاد ابن معن ، فشق ذلك على الوالي ووجس أبو رزق من مضرت له فتزوج بامرأة موسى باشا ليبعد الوالي عن الظن برده . وفي سنة ١٦٥٤م صير بشير باشا نائب حلب وزيراً وسار قاصداً الآستانة ، وعند وصوله إلى أدنه قُدمت له الشكوى على أبي رزق أنه كان ميالاً إلى ابن معن ، وأرسل أولاده إليه مع أخيه أبي صعب وإن أخاه هذا كان مع ابن معن في وقعة وادي القرن المار ذكرها . فأمر بقتله فُقتل في أوائل شهر آذار من السنة المذكورة . ذكرنا بعض هذه الأخبار في التاريخ العام وأعدنا ذكرها هنا لعزمننا أن نفصل من هذا التأليف تاريخ الموارنة في كتاب على حدة ، فكان لا بد من هذه الاعادة .

وأما الشيخ يونس ابن أبي رزق المذكور فقال في حقه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٧م إنَّ حسين باشا والي طرابلس قبض على الشيخ يونس وأخوته عبدالله ورزق وأولاهم بسبب دعوى والدهم أبي رزق البشعلاني ، فاضطر يونس أن يطلب الاسلام لينجي عيالهم من القتل والاسلام . فهربوا جميعاً في ٢٩ ايلول ومعهم نحو عشرين نفساً إلى قاطع كسروان مستجيرين بالأمير أحمد معن والشيخ أبي قانصوه فياض الخازن ، فنجدهم ابنه حصن وأمنهم برجاله حتى حلوا بحكومة ابن معن سالمين ، وهناك جاهر يونس بصحة عقيدته . ثم قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩٧م قبض قبلان باشا والي طرابلس على الشيخ يونس بن أبي رزق البشعلاني وعرض عليه الاسلام فتمنّع فرفعه على الخازوق في ٢١ أيار من السنة المذكورة .

هذا ما رواه الدويهي ، ولكن أتقننا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٦٣) بترجمة الشيخ يونس المذكور مسمى أياه أميراً فنلخص عنه ما يأتي قال:

« كان الأمير يونس من أسرة شريفة بلبنان ومن ذوي قربي حاكم الملة المارونية ، وله أملاك في سفح لبنان في ناحيتي طرابلس وجبيل لا يقل دخلها عن ألف ليرة ، وكان حسن الشكل زكي العقل محنكاً بالسياسة ، يحبه الجمهور ويثق

به وزراء الباب العالي . وقد استعمله كثيرون من ولاية سورية في أهم أعمال حكومتهم حتى كاد قدره يساوي قدر الولاة . على أنّ ثروته ومنزلته هيّجتا عليه حسد أقرانه . ومباشرة أعمال منصبه أورثته خصوماً له ائتمرا على اهلاكه ، وأسخطوا عليه قبلان باشا ابن المطرجي والي طرابلس وشكوه بجرائم كثيرة ، وتمحلوا لها دليلاً بزيادة ثروته ، فارتاح الباشا إلى سماع شكواهم وقبض على الأمير يونس وأخيه الأمير يوسف وزوجتيهما وأولادهما وكثيرين من أنسبائهما وأتباعهما ، وكانوا نحو خمسين شخصاً ألقوهم في السجن ، وهددوا الأمير يونس بالقتل والحاق جماعته به إلا أن يجحد الدين المسيحي ويسلم . فأظهر بادئ ذي بدء الشجاعة والثبات وازدري التهديد والوعيد على أنه لدى تبصره بحالة أسرته والخطر الذي يلم بها من جهة الدين إذا قُتل قبلهم عوّل على أن يتظاهر بالاسلام فيقي نفسه وذويه من التهلكة واشترط شرطاً صريحاً أن يسلم وحده وتبقى أسرته وذووه نصارى ، وأن يخلّى سبيلهم أجمع . فقبل الباشا شرطه وأكفى أن ينطق هو وحده بالشهادتين . وأباح ذويه حرية دينهم وأخرجهم من السجن . وقد قال يونس قبل مقتله إنه قام بضميره حينئذ أنّ عمله هذا جائز بل مندوب إليه لينجي ذويه وينقل بناته وبنات أخيه من الزواج برجال مسلمين .

وجامل الأمير يونس الباشا بعد ذلك أربعين يوماً ليخفي مقصده وأرسل سراً امرأته وأولاده وذوي قرباه إلى أعلى جبل كسروان . ولما تحقق أنهم أصبحوا آمنين فرّ هو من طرابلس وسار أولاً توّاً إلى بطريك الموارنة معترفاً بالضعف الذي استحوذ عليه وباكياً من جراء ائمه وصرّح بأنه ما انفك مسيحياً . وتلى دستور ايمانه وتقبل القانون الذي فُرض عليه وحلّه البطريرك من ائمه . ورغبةً في أن يبرئ ساحته أمام الناس أيضاً جمع رؤوس التشكيكات الواردة عليه وبيّنات الاكراه الذي أنزل به وأرسل ذلك إلى الآستانة مصحوباً بالحجج اللازمة للدفاع عن نفسه على يد أحد أصدقائه ، وعرض أمره في الديوان السلطاني . ولما كان من متعلقات الدين أمر جلالة السلطان أن يحال النظر بالدعوى إلى المفتي الأكبر بالآستانة ، وهذا بعد التحري بالدعوى حكم أنّ تظاهر الأمير يونس بالاسلام لا يعول عليه لصدوره عن اكراه . وأن لا يؤخذ فيما بعد باسلامه . فأثنى الكثيرون على عدالة العثمانيين وانصافهم .

ولم تكن راحة لضمير الأمير يونس من جراء العثار الذي تسبب به بطرابلس فنزل إليها وجاهر أمام الباشا وديوانه بدينه المسيحي ، وطاف بالمدينة مصرحاً

بذلك ، فأغضى المسلمون على هذا الصنيع وغزل والي المدينة ونُصب غيره فدعا الأمير يونس وأقامه على برية طرابلس واستحصل له أمراً سامياً مثبتاً حكم المفتي السالف ذكره . ومبيحاً إياه وعائلته البقاء على دينهم المسيحي دون أن يزعمهم أحد . فاستمر الأمير يونس وذووه راتعين في بحبوحة الأمن والرغد خمس سنين مباشراً أعمال مأموريته بكل أمانة ونزاهة ، إلا أنه سنة ١٦٩٥م بُدِّل والي طرابلس ومات من كان له من الأصدقاء في الآستانة إذ انقلب الدهر عليهم ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ليهلكوه . فاتهموه بعدة جرائم وشكوه إلى والي الجديد وادَّعوا عليه أنه سبَّ دينهم وقذف بالاسلام . فقبض عليه والي وغلله في السجن وما انفك مدة سنتين يقرفه ويهدده ويتملقه ليكفر بدينه، ووعد به بأن يوليه أسمى المراتب ويرشحه إلى الخلافة بعده بحكومة طرابلس فلم تستمله كل هذه الوسائل إلى الاذعان للوالي ، بل كان يشكر الله على انزال هذا الاضطهاد به تكفيراً عن زلَّته السالفة . وحاول والي مرات أن يستميله فلم يكثر بكلامه ، وأسمعه أخيراً ما أوغر صدره عليه ومزَّق ثوبه وحكم عليه أن يموت على الخازوق . وكان الولاة في تلك الأيام مسيطرين على حياة الرعايا وموتهم ، وقبل تنفيذ الحكم عليه أرسل والي عدداً من أصحابه يغرونه بالرضوخ لمرغوبه فأبى ، ثم حملوه الخازوق وخرجوا به إلى تلّ قريب من المدينة والناس من أمامه وورائه بعضهم يقرّعه، بعضهم يحثه على ارضاء والي وهو أبكم أصمّ عن سماع كلامهم . وقبل رفعه عليّ العود أرسل والي يعده بالعفو عنه وعن ذويه ورد أملاكه إليه فلم يكن يجيب إلا أسلم نفسي بيد الله وهو يهتم بي وبذوي وأملاكي ، ولم ينفك دقيقة موته يستبجّ الرب ويشكره ويدعو باسمه ويلجأ إلى رحمته وإلى العذراء والقديسين، ويكرر تلاوة قانون إيمانه إلى أن أسلم نفسه بيد الله في شهر أيار سنة ١٦٩٧م .

وبقيت جثته خمسة أيام على آلة عذابه وشرذمة من الجند تحرسها ، وشهد شهود عدل وبتوا شهادتهم باليمين أنهم رأوا اكليلاً من نور على رأسه ليلاً مدة بقائه على تلك الحال ، وشاهده الحراس فدهشوا وفزّوا . وأخيراً سأل بعض المسلمين والي أن يأمر بدفن جثته تفادياً من حصول ثورة من جرا ذلك ، فسمح والي لأحد اقربائه أن يُنزل جثته فأنزلها ووضعها أولاً في بئر قرية من مقبرة الموارنة ثم نقلها سراً بعد يومين إلى مدفن خلف المنبر في كنيسة القديس يوحنا بطرابلس .

وبعد موت الأمير يونس اهتم بعض أصحابه أن يخرج الأمير يوسف أخاه من السجن الذي كان به ، فاسترضوا الباشا عنه وخرج وسار إلى أوروبا يسأل المحسنين ما يقوم به بأوده وأود عائلته وعائلة أخيه . قال دو لاروك قد رأيته بباريس مدة أشهر صابراً على مصابه مسلماً إلى مشيئة الله راضياً بأحكامه ، وقد أكرمه الملك وكتب إلى سفيره بالآستانة يوصيه به . ومثل ذلك كتب إلى قناصله ودون رسالة إلى بطريرك الموارنة يعزیه بهذه الفاجعة . ودفع إليّ الأمير يوسف المذكور شرحاً وافياً في حياة أخيه وموته فأخذت عنه هذا المختصر وهو مطابق لما كتبه بطريرك الموارنة إلى الحبر الروماني وملك فرنسة بهذا الشأن مصادقاً عليه من أساقفة جبل لبنان . وللتقرير الذي كتبه قنصل فرنسة بطرابلس مصادقاً عليه من الرهبان الفرنسيين والاسبانيين في المدينة المذكورة . وروى هنري موندلر الانكليزي في كتاب رحلته من حلب إلى أورشليم أنّ قنصل انكلترا صحبه للفرجة على قلعة طرابلس في ٨ أيار سنة ١٦٩٧م وكان يونس مسجوناً فيها لأنه أسلم ثم ارتد . وأنه مات على الخازوق بعد يومين من سفر هذا الكاتب أي في ١٢ أو ١٣ أيار سنة ١٦٩٧م .

وهذه ترجمة المنشور الذي كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهي موصياً بالشيخ يوسف المذكور .

« الحقيير اسطفانوس بطرس البطريرك الانطاكي »

السلام والبركة الرسولية لكل مطالع أو سامع وثيقتنا هذه

ليكن معلوماً أنّ ولدنا العزيز أبا يوسف رزق هو رجل ماروني كاثوليكي من رعيّتنا ومن أعيان الملة المارونية ، وهو أخو الشيخ يونس الذي أكره على أن يبدي جحود الايمان بفمه لا بقلبه ليخلص نفسه وأولاده ، لكنه حالما ساعده الله على الفرار بعد نحو أربعين يوماً انسلّ ليلاً بأولاده إلى ناحية كسروان وهناك اعترف بإثمه ، وقبل طائعاً خاشعاً القانون المفروض عليه ، واهتم بعد ذلك فنال من جلالة السلطان الأعظم أمراً سامياً مسنداً إلى حكم القضاة بأنّ جحوده ايمانه مكرهاً لا يعتمد عليه ، وتظايره بالاسلام باطل ولا صحة له . وبعد ذلك سار إلى طرابلس وجاهر علانية بدينه المسيحي مدة خمس سنوات ، وأضمر له الضغينة والحقد بعض

أصحاب الأمر بالمدينة المذكورة إلى أن تمكنوا من القائه بالسجن واماتته على الخازوق، وكان يجاهر في مدة هذا العذاب بجسارة وبسالة بالايان يسوع المسيح، وقد قبض معه على أخيه يوسف رزق وألقي بالسجن أيضاً، وألجأه الحال إلى خسارة مبالغ وافرة من المال. وباعت الحكومة أملاكه وأثاثه حتى بيته نفسه، ولما لم يعد يستطيع أن يعيش ببلاده بحسب مقامه ولا أن يقوم بأود عائلته أي أولاده وأولاد أخيه يونس هم خمسة عشر شخصاً، وقد اضطر إلى استدانة مبالغ من المال لتقديم النفقة اللازمة لحياتهم وليس له ما يفي، وقد لجأوا إلينا مراراً سائلين أن نصحب بهذه الوثيقة يوسف المذكور أبا هؤلاء الصغار وعمهم فمأمولنا بغيره أصحاب عمل الخير ومحبتهم لجراح المخلص ووالدته الكلية الطهر أن تأخذهم الشفقة على المذكورين وأن يمدوا يد سخاهم إلى الشيخ يوسف المذكور وأولاده وأولاد أخيه ويكون لهم من لدنه تعالى الأجر العظيم والمجد والتسبيح لمن قال في انجيله المقدس: « ما صنعتموه إلى أحد أخوتي هؤلاء الصغار فآلتي صنعتموه » ونسأله جل شأنه نحن وهم أن يجزيهم على احسانهم مائة ضعف في هذه الحياة والحياة الأخرى الأبدية .

أعطي بكرسينا قنوين في اليوم الخامس من شهر تشرين سنة ١٦٩٩م. « وعدا توقيع البطريرك في أعلى هذه الوثيقة دُثِلت بتوقيع يوسف الحصاراتي أسقف جبيل بحوقا ويوسف حبقوق أسقف البترون بقزحيا وجبرائيل الدويهي » .

عد ١٠١٨

أعيان موارد آخرون

من أعيان الموارد أيضاً في هذا القرن الشيخ أبو كرم الحداثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٥م. فقال إن مصطفى باشا والي طرابلس أقام على حكومة جبة بشري الشيخ أبا كرم يعقوب ابن الرئيس الياس الحداثي، وقال في تاريخ سنة ١٦٣٩م تولّى طرابلس محمد باشا الأرناؤوط فأتى للسلام عليه أصحاب الاقطاعات ما عدا أصحاب آل سيف وأبا كرم الحداثي. وفي سنة ١٦٤٠م في ١٦ نيسان أرسل والي طرابلس المار ذكره عسكرياً للقبض على الشيخ أبي كرم الحداثي

حاكم جبة بشري لأنه لم يحضر للسلام عليه ، فقبض العسكر على ابن عمه سعد ، وضيّق على الأديار والقرى بحجّة التفتيش عليه وعلى أولاده وأتباعه وضبط أملاكه ، وعظم الضيق وكثر الخراب والسلب والنهب فلم يتحمل أبو كرم هذا التنكيل بأهل بلاده فانحدر إلى طرابلس طائعاً مستسلماً على يد القاضي ، فأمر الوالي بأن يُلقى في السجن بالقلعة ، ثم طوّفه على جمل بشوارع المدينة وفي قفاه مشاعل نار ، وعرضوا عليه الاسلام فأبى إلا التشبث بدينه فمات مشنوقاً .

ومنهم أبو جبرائيل يوسف الاهدني وكان شريكاً للشيخ أبي كرم الحدثي وتوفي سنة ١٦٤١م بعد أن حكم جبة بشري عشر سنين ، وخلفه بعد وفاته أخوه الشدياق أبو ذيب ابن الشماس جرجس الأهدني فقتله محمد العراك بقرية زغرتا بدسياسة من بيت حماده المتأولة ومصطفى بك ابن الصهيوني مدير ايالة طرابلس . وتولّى حكم جبة بشري بعده المقدم زين الصواف ، وكان معه أبو عون بن الغمة من بكفيا .

ومن هؤلاء أيضاً أبو كرم بن بشاره ، وقد ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٦م وقال إنّ حسن باشا لما استقر على ولاية ايالة طرابلس ولّى أبا كرم بن بشاره على جبة بشري ، وأرى أنّ أبا كرم هذا هو جد آل كرم . وقد خلف أبا جبرائيل يوسف الأهدني وأخاه الشدياق أبا ذيب جرجس المار ذكره في الولاية على جبة بشري ، ولكن أمن عائلتهما كانا أم من عائلة أخرى لا أستطيع أن أحققه حتى الآن ، ولكن مما لا ريب فيه أنّ العامة في اهدن تسمي آل كرم بيت أبي كرم إلى الآن .

ومن هؤلاء الكافليير يوحنا مارماكون الذي تقدّم ذكره ، وكان موفد الشيخ حصن والشيخ ناصيف الخازن ومطران نيقوسية بقبرص إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا كما مرّ . ولكن من هو هذا يوحنا مارماكون ؟ فالذي يتبادر إلى فهمي أنه الكافليير ناضر صغير الذي بنى هو وأخوه الخوري جرجس صغير دير القديس مارون بالرومية المعروف الآن بمدرسة الرومية نحو سنة ١٦٩٦م ، إلا أن يكون مارماكون من موارنة قبرص لأنه موفد مطران نيقوسية أيضاً . وقد أثبت دي لاروك في كتابه المذكور صفحة ٣٠٨ براءة تسميته كافليير أي فارساً من جمعية الفرسان المنسويين إلى سيده الكرمل ، والقديس العازر حيث يقول فيليب دي كورسيليون ماركي دي

دأنجو رئيس هذه الجمعية لرغبنا في اجابة سؤال الكافليز يوحنا مارماكون الماروني الموفد من جلالة الملك من قبل الأمراء ناصيف وحصن ومطران نيقوسية بقبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني بلبنان في مدة غياب البطريرك اسطفانوس أن نقبله ونحصيه في عداد فرسان سيده الكرمل والقديس العازر بأورشليم . وبعد أن اتضح لنا أنه ثابت بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني وأنه حسن السيرة ، وإنّ الداعي لقدمه إلى فرنسة إنما هو ليهتل إلى جلالة الملك في أن يبدل عنايته لدى السلطان العثماني لينؤل نصارى بلاده الراحة والأمن . ولما كان الملك سماه كافليراً في مرسومه إلى ناصيف أمير الموارنة ، وفي مرسومه إلى سفيره بالآستانة ، وكان يهمننا أمر جبل لبنان والأرض المقدسة حيث أنشأت جمعية فرسان القديس العازر ، قد أحببنا سؤاله وقبلناه في جوقه هؤلاء الفرسان وأحصيناه في عديدهم ليكون له ما لهم من الشرف والحقوق والانعامات . وعليه أن يبرز يمين الأمانة المعتاد ، ويلزم أفراد هذه الجوقة في أي مقام كانوا أن يعرفوه كذلك . وبياناً لذلك قد وقّعنا على هذه الوثيقة بخط يدنا ومهرناه بمهر الجمعية . أعطي بباريس في ١٦ تموز سنة ١٦٩٧ م .

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ١٠١٩

البطريرك يوحنا مخلوف

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨ م . وبسبب القلق بالبلاد لم يتمكن الأساقفة من الاجتماع في اليوم التاسع بعد وفاته كالعادة لانتخاب خلف له ، فتأجل الانتخاب إلى أوائل شهر حزيران سنة ١٦٠٩ م فاجتمع حيثليد الأساقفة

والأعيان واختاروا الأسقف يوحنا بن مخلوف من اهدن . وكان البطريرك يوسف الرزي قد رفاه إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م ليكون معاوناً له في تدبير أمور دير قنوين . وبعد انتخابه بطريركاً سيّر إلى روما القس جرجس بن مارون والقس الياس ابن الحاج يوحنا من اهدن والشماس يوسف من كرم سدة ليأتوه بالتثبيت من البابا بولس الخامس . وعند مرورهم بقرص أخذوا معهم القس كسبر الماروني تلميذ مدرسة روما ، وكان مشهوراً بالعلم والبراعة فنالوا من لدن الحبر الأعظم الاعزاز والتكريم ودرع الرئاسة للبطريرك وعاد المذكورون إلى لبنان في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م . وقال يياجيوس ترسي (في كتابه سورية المقدسة صفحة ٥٣) في حق هذا البطريرك : « قد تَلَّأَّتْ به أنوار الفضائل فتسامى بها حتى لُقِّبَ بالقدّيس . وأثار الكنيسة الشرقية بعلمه وعزاها بغيرته . وكان له لدى الأحرار الأعظمين أعلى مرتبة فأتخفوه بهدايا نفيسة ونولوه نعماً مشرفة موازية لفضله واستياله » . ففي سنة ١٦١٢م أرسل إليه البابا بولس الخامس في تاريخ ٢٢ تشرين الثاني رسالة يفوّض إليه بها أن يمنح البركة الباباوية لجميع الموارنة رجالاً ونساءً ، ومن حضر منح هذه البركة وكان معترفاً ومتنولاً يربح غفراناً كاملاً . وترى ترجمة هذه الرسالة مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٧ .

ولما ارتقى البابا غريغوريوس الخامس عشر إلى كرسي الحبرية العظمى أرسل البطريرك يوحنا يهنئه بارتقائه ويطلب منه البركة له ولشعبه ، وأن يتكرم على الطائفة بطبع كتاب الشحيم كما كان سالفه قد أمر بذلك . فورد له الجواب في تاريخ ١ تموز سنة ١٦٢٢م صحبة قاصده الأب ليونردوس من رهبان القديس فرنسيس إنه صار الشروع في طبع الشحيم ، وثبت له الغفارين الذين كان البابا بولس الخامس قد أنعم بها على من يزورون كنيسة قنوين الكرسي البطريركي في عيد بشارة العذراء وعيد انتقالها ، وعيد الرسولين بطرس وبولس ليربحوا غفراناً كاملاً إذا كانوا معترفين ومغتذيين بالقربان الأقدس . ومنح زوار كنيسة قنوين الغفارين التي يربحونها لو زاروا كنيسة زعيم الرسل بروما أو غيرها من الكنائس القائمة داخل أسوار رومة . وترجمة هذه الرسالة تراها مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٣ . وفي السنة المذكورة كان قحط في البلاد فأمر البطريرك بنصب كرم درغاتا مفلح نحو عشرة فدادين وأشغل به عملة كثيرين ، فكانوا يأكلون نهاراً على نفقة الكرسي ويأخذون مساءً الزاد لعيالهم .

وفي سنة ١٦٢٤ جعل دير حوقا مدرسة ابتدائية يتعلّم بها الشبان العلوم الاكليريكية ، ومن نبغ منهم أرسله إلى مدرسة الطائفة بروما . وأرسل الخوري يوحنا ابن قرياقوس الحصري من بيت صندوق (هو الذي صار بعداً أسقفاً وكان مع الصبهيوني بياريس) إلى البابا أوربانوس الثامن يهتته بتسنمه الكرسي الرسولي ويخبره بجعله دير حوقا مدرسة ملّته في المشرق ، وأرسل حيثيذ اثني عشر طالباً لمدرسة روما ، فشّر البابا بكتابة البطريك وعيّن مبلغاً سنوياً لمدرسة حوقا ودوّّن لها دستوراً للعمل به فيها . وفي السنة التابعة أي سنة ١٦٢٥م بعث إلى البطريك تاجاً ثميناً وغفارات نفيسة وكتباً وحللاً ورسالة مشرفة افتتحها بقوله : « لم يذبل البتّة جمال الكرمل ولم يذو مجد لبنان » وقد استشهدنا بفقرات منها مرات في كتبنا بياناً لثبوت الموارنة كل حين على الايمان الكاثوليكي . وتراها مترجمة برمتها في الفصل ١٨ من رد التهم الملحق بتاريخ الدويهي صفحة ٤٥٤ .

وكان هذا البطريك في أوائل بطريركته قد اضطر من قبل المظالم الجارية في جبة بشري ومضادة الشدياق خاطر الحصري له أن يتوجه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين المعني ، والتقليد المحفوظ في جبة بشري والذي رواه الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٠٩م أنّ البطريك بينما كان سائراً في أرض بريسات إحدى قرى الجبة طعن بالحرم الشدياق خاطر لأنه تسبب بخروجه من وطنه . ويقولون إنّ الحاضرين ارتجفوا من الحرم وسألوا البطريك أن يرفعه عن المقدم خاطر ، ولمعرفة البطريك بسداجتهم قال رفعته عنه وحولته إلى هذه الصخرة . فانشقّت الصخرة . وإلى الآن ترى صخرة فوق الحدث مشققة تسميها العامة الصخرة المحرومة ، ويروون عنها هذه الرواية . وعندما دخل البطريك على الأمير فخر الدين أحسن استقباله وبالح في اكرامه ، وكان ابنه الأمير علي قد اشترى قرية مجدل المعوش بالعرقوب الشمالي من سكانها المسلمين وأسكن فيها جماعة من النصارى ، فحل البطريك في هذه القرية وبنى فيها داراً وكنيسة وهي المعروفة الآن بكنيسة السيدة بالقرية المذكورة . وقد زرتها مرات لأنها باقية إلى اليوم ، وبنائها أشبه ببناء كنيسة القديسة مورا التي بناها هذا البطريك أيضاً بكفر زينا في آخر حياته سنة ١٦٣٢م ، إلى أن سار الشدياق خاطر الحصري وغيره من أعيان البلاد إليه إلى مجدل معوش وأرجعوه إلى كرسيه بقنوين . وهذا البطريك هو الذي رقى اسحق الشدراوي الآتي ذكره إلى أسقفية طرابلس سنة ١٦٢٩م . ولهذا الأسقف

قصيدتان بالسريانية . الأولى في مدح البابا أوربانوس الثامن . والثانية في مدح هذا البطريرك . وكلاهما مثبتان في كتاب سرياني بمكتبة مجمع نشر الايمان المقدس . وفي أيام هذا البطريرك واجابة لالتماسه طُبع بروما كتاب فرضنا الكبير المعروف بالشحيم ، بعد الفحص الدقيق والتروي به من علماء شهيرين منهم الكردينال بلرميوس كما سترى .

وفي ١٥ من كانون الأول سنة ١٦٣٣م كان انتقال هذا البطريرك من دار الشقاء إلى دار البقاء المؤبد لينال جزاء جهاده ومبراته ، وكان ذلك في قرية كفرزينا موطني بزاوية طرابلس ، وتحمل ليلاً إلى دير قنوين فدفن فيه . وقال الدويهي في حقه ، كان ليّن العريكة منخفض الجانب ، كريم الأخلاق محب السلامة ، كثير الصدقات . اتخذ سيرة النسك بدير قزحيا ، ولما تسامى بفضائله وشديد غيخته على خلاص النفوس رماه البطريرك يوسف الرزي أسقفاً معاوناً له بدير قنوين . وأنشأ لهذا الدير عقارات كثيرة في جبة بشري وزاوية طرابلس . ولما توفي البطريرك يوسف الرزي خلفه في بطريركية انطاكية على الموارنة . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان في سلسلة بطاركة الموارنة وغيرهما .

عد ١٠٢٠

البطريرك جرجس عميره

ذكر الدويهي بعض ترجمته في الفصل الثامن عشر من رد التهم فقال: كان البطريرك المذكور من: «أنسبائنا، وذهب به خاله القس يعقوب الدويهي إلى روما سنة ١٥٨٤م لاقتباس العلوم في مدرسة الموارنة الحديثة النشأة حينئذ . وبعد أن أتقن العلوم العقلية والنقلية والإلهية ، نشر باللاتينية كتاباً في نحو اللغة السريانية طُبع بروما سنة ١٦٩٦م وعلّق عليه فاتحة تشهد له بطول الباع وغزارة الاطلاع أبان فيها قدم اللغة السريانية وسمّوها على غيرها وفائدتها ، حتى قال إنها اللغة الأولى للناس وأمّ للغة العبرانية . ولكن انتقد فالتون في مقدمات البوليكولوتا (الكتاب المقدس بعدة لغات) الانكليزية بعض أدلة عميره ، ثم اختصر بطرس المطوشي القبرصي الماروني

كتاب عميرة هذا وكذلك صنع جبرائيل عواد الحصري، فأشهرها كتابين في نحو اللغة السريانية موجزين عن كتب عميرة وكان كتاباهما محفوظين بمكتبة مدرسة الموارنة بروما ومكتبة نشر الايمان المقدس .

وعاد عميرة إلى لبنان سنة ١٥٩٥م واشتهر في السنة التابعة بعلمه وفقاهته في المجمع الطائفي الذي عقده تلك السنة البطريرك سركيس الرزي بأمر البابا اكليمندوس الثامن لتبرئة الموارنة من بعض الأغلاط المعزوة إليهم بسبب بعض عبارات في كتبهم كما مرّ. ولما توفي البطريرك سركيس الرزي بعيد هذا المجمع وخلفه ابن أخيه يوسف الرزي رقي عميره إلى الأسقفية على اهدن فتفانى بجهاده وتعليمه وظهر ما كان عليه من ذكاء العقل ورسوخ الورع واتقاد الغيرة على نشر الفضيلة والدين القويم .

ولما توفي البطريرك يوحنا مخلوف في سنة ١٦٣٣م أجمع الأساقفة على انتخاب المطران جرجس عميره أسقف اهدن بطريكاً في ٢٧ كانون الأول سنة ١٦٣٣م، فأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن سعادة بن أنطون بن شمعون بن فهد الحصري ليستمد له التثبيت ودرع الرئاسة من البابا أوربانوس الثامن فثبته سنة ١٦٣٥م . وفي أيام هذا البطريرك أنشئت مدرسة للموارنة بمدينة رافنا بايطاليا من تركة الخوري نصر الله شلق العاقوري . وسيأتي ذكرها في ترجمة الخوري نصر الله المذكور . وفي أيامه أيضاً تشكى أهل بقسميا الذين كانوا من الملكية غير المتحدين على القس يوحنا بن بهينا الأجنبي رئيس دير القديس مارون بكفرحي إلى ابن سيفا، فقبض عليه وأهانته وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير فخرّب إلى أن جدد بناءه البطريرك يوسف اسطفان كما سيجيئ . وفي سنة ١٦٣٨م لما قدم السلطان مراد إلى حلب أنعم على الموارنة وبطريركهم ببراءة أثني فيها على ولائهم للدولة العلية وشدة تعلقهم بالأريكة السلطانية .

وفي التاسع والعشرين من تموز سنة ١٦٤٤م أنشبت المنية أظفارها بالبطريرك جرجس عميرة بعد أن استمر على الكرسي البطريركي عشر سنين وسبعة أشهر . ودفن بقنوين في جانب كنيسة القديسة مارينا، وله كتاب هندسة الأبنية اقترحه عليه الأمير فخر الدين المعني .

قال دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان في ترجمة فرنسيس كالوب

دي شاستول الفرنسي الذي نسك بلبنان وسيأتي ذكره . إنّ بعض الموارنة سألوا فرنسيس الناسك المذكور أن يصير بطريكاً عليهم بعد وفاة البطريرك جرجس عميرة فأبى كل الابهاء وأشار عليهم أن ينتخبوا بطريكاً الياس مطران اهدن الذي كان مرشده الروحي ، وأشار عليه أن يقبل البطريركية ، فانتخبوه ، وبعد ستة أشهر مات الناسك المذكور في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م كما يظهر من الكتابة المنقوشة على ضريحه . على أنّ هذه الرواية غير صحيحة ويخالفها كل ما ورد في تواريخ ملتنا الجامعة على أنّ البطريرك يوسف العاقوري خلف البطريرك جرجس عميره دون متوسط بينهما . ولذلك قال لكويان بعد إirاده الرواية المذكورة فليتبصر اللبيب كيف تتفق هذه الرواية مع ما رواه الدويهي أنّ جرجس عميره خلفه البطريرك يوسف العاقوري ابن المطران بطرس العاقوري المعروف بابن حليب في ١٥ آب من سنة ١٦٤٤م ، ومع ما رواه السمعاني في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ حيث قال مات جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م وفي هذا اليوم نفسه توفي البابا أوربانوس الثامن . وقال في الصفحة التالية إنّ يوسف العاقوري خلف جرجس عميره في ١٥ آب سنة ١٦٤٤م فليزّ القارئ أي القولين أولى بالاتباع . انتهى كلام لكويان . فنحن نرى أنّ رواية دي لاروك هذه غير صحيحة ولا سيما أنه لا ريب في أنّ الناسك المذكور توفي في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م والبطريرك جرجس عميره توفي بعده في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي وعن المشرق المسيحي للكويان وعن المكتبة الشرقية للسمعاني .

عد ١٠٢١

البطريرك يوسف العاقوري

هو ابن المطران بطرس بن حليب ابن الخوري سابا العاقوري . وكان المطران بطرس متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدسة ثم توفيت امرأته فراقه البطريرك يوسف الرزي سنة ١٦٠١م في عشرين من تشرين الثاني إلى الأسقفية خلفاً لموسى أسقف العاقورة . وتوفي المطران بطرس سنة ١٦٠٦م في العبادية بالمتن ودُفن ببيروت كما مرّ . وكان له من الأولاد يوسف هذا الذي تزوج أيضاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدسة . ونعلم أنه كانت له بنت تزوجت بدمشق كما سيأتي . ثم

ارتقى يوسف إلى درجة الكهنوت ، ثم رقاہ البطريرك يوحنا مخلوف إلى أسقفية صيدا سنة ١٦٣٦م ، فأقام في الأسقفية ثمانى عشرة سنة دائماً على فلاحه كرم الرب متفانياً في الأعمال الخيرية والمبرات . وفي سنة ١٦٤٣م اشترى من آل حبش أرضاً في حراش بنى فيها كنيسة وديراً للراهبات كما سيأتي .

ولما توفي البطريرك جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م اجتمع الأساقفة والأعيان في ١٥ آب من السنة المذكورة فانتخبوه بطريركاً . ويظهر أنه أرسل في هذه السنة المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس يستمد له درع الرئاسة من الحبر الروماني فأعاقه مرض أو غيره عن الوصول إلى روما ، وهذا يبين من الفاتحة التي علقها القس عبد المسيح الحداثي الآتي ذكره على كتاب الشحيمة (الفرض) المطبوع بروما حيث يذكر وفاة البطريرك جرجس عميره سنة ١٦٤٤م وانتخاب المطران يوسف العاقوري بطريركاً في ١٥ آب عيد انتقال العذراء من السنة المذكورة . ويقول ما خلاصته : «إنَّ البطريرك الجديد استشار أساقفته وأعيان طائفته في ارسال المطران اسحق الشدراوي عملاً بعادة طائفتنا إلى روما ليؤدي الطاعة نيابة عنه للبابا اينوشنسيوس العاشر وما صار في ذلك نصيب (أما لأنَّ المطران المذكور تعذر عن السفر حينئذٍ أو مرض في الطريق لأنه توجه بعداً إلى روما سنة ١٦٤٧م كما يظهر من هذه الفاتحة أيضاً) . فلما جئت أنا الحقيير (القس عبد المسيح بن الياس بن الطويل من قرية الحدث تلميذ مدرسة الموارنة بروما وخوري أقاربي بعين ابل) أقبل اقدام سيدنا البطريرك أمرني أن أتوجه إلى روما نيابة عنه وأطلب التثبيت له وأقضي بعض حاجات الطائفة ، وطلبت منه رفقاً فرفقني بالشدياق مرقس راهب من رهبان مار شليطا . فوصلنا إلى روما في ٢ من تموز سنة ١٦٤٥م فتقبلنا الحبر الروماني بالاعزاز وأنعم على البطريرك بدرع الرئاسة والتثبيت وأمر بطبع الشحيم مختصراً (وهو كتاب الفرض الاسبوعي المعروف بالشحيمة) وطبع غرامطيق سيدنا البطريرك يوسف الذي أرسله معنا وأخذنا بطبع ذلك بعنايته ، ولكن وجدنا في الشحيمة بعض أغلاط فأصلحناها نحن وحضرة سيدنا المطران اسحق لأنه لحقنا عند آخر طبع صلوة الصبح يوم السبت . وأضفنا إلى ذلك ما يحتاجه الكاهن في ممارسة خدمته إلّا رتبة الصلاة على العرسان فلم نجد لها نسخة بروما . وتم ذلك في ٣٠ من شهر آذار سنة ١٦٤٧م . ونظن أنَّ هذه الشحيمة هي المعروفة باليوسفية نسبةً إلى البطريرك يوسف هذا .

وأما الغرامطيق الذي ألفه هذا البطريك فقد كمل طبعه بروما بمطبعة مجمع نشر الايمان سنة ١٦٤٥ م . ولهذا البطريك أشعار كثيرة بلغة العامة أكثرها في الموارنة والملكية . وقد ذكرنا فقرة منها في تاريخ القرن السابع عند ذكر وقعة أميون بين الموارنة ومريق ومريقان قائدي عسكر يوستينيانوس الأخرم . وبعد فراغه من أخبار هذه الوقعة ، أخذ يفنّد بعض أغلاط الملكية ويندد بهم لعدم اتباعهم الحساب الذي أصلحه البابا غريغوريوس الثالث عشر . وأول من اتبعه في المشرق البطريك يوسف الرزي وطائفته المارونية سنة ١٦٠٦ م كما مر .

وقد رقي هذا البطريك في بداية رئاسته إلى الأسقفية المطران يوسف بن عميمة الكرمنسدي والمطران ميخائيل بن سعادة الحصري سفير سالفه إلى الحبر الروماني وجعلهما معاونين له في شؤون الكرسي البطريكي . وعزا إليه يياجيوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدسة صفحة ٥٣ مقالة شعرية في رئاسة الحبر الروماني . وتوفي في ٢٣ من شهر تشرين الثاني (كذا في نسخة لكويان وفي النسخة التي بيدنا في ٣ منه) سنة ١٦٤٨ م فلم يبق في البطريكية إلا ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ودُفن بقرية العاقورة في كنيسة القديس بطرس المنقورة في الصخر . وقال الدويهي في حقه: كان شجاعاً ورعاً محباً للعلماء غيوراً في أمور الدين راغباً في انشاء الكنائس . وقاسى مشقات كبرى من جراء أعمال صهره زوج بنته المدعو قرقماز لأنه جحد الايمان في دمشق فناصبه الموارنة بدمشق فتحملوا بسببه خسائر جمة ، واضطروا إلى المهجرة والتشتت . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان ، والمجلد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٥٣ وعقد هذا البطريك مجعاً طائفيّاً بدير حراش سنلخص ما كان فيه في آخر هذا الملحق .

عد ١٠٢٢

البطريكيان يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي

أما يوحنا الصفراوي فروى الدويهي أنه كان من بيت البواب من قرية الصفرا في فتوح كسروان . ولم نعلم حتى الآن أين تعلّم ولا متى صير كاهناً . ويظهر أنّ البطريك جرجس عميره رقاه إلى الأسقفية سنة ١٦٣٦ م . وفي اليوم التاسع بعد

دفن البطريك يوسف العاقوري اجتمع الأساقفة والأعيان بدير قنوين سنة ١٦٤٨م في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول واختاروه بطريكاً وأقاموه موضعه، وأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن صابونه الحصري فثبته البابا اينوشنسيوس العاشر سنة ١٦٤٩م. وفي أيام هذا البطريك أصدر لويس الرابع عشر ملك فرنسا براءة جدد فيها الحماية لبطريك الموارنة وأساقفته واكليروسه وشعبه. وهذه ترجمة البراءة المذكورة عن الفرنسية.

« لويس بنعمة الله ملك فرنسا وناظرًا »

سلام لكل مطلع على خططنا هذا، فليكن معلوماً عند كل واقف على براءتنا هذه أننا بعد استشارة الملكة النائية عنا في الملك السيدة والدتنا المحترمة قد أخذنا ووضعنا وتأخذ ونضع تحت حمايتنا الخاصة السيد الكلي الاحترام بطريك الموارنة وجميع أساقفته واكليروسه وعامة شعبه الساكنين خاصة ببلدان. ونود أن يشعروا بمفاعيل حمايتنا ومساعدتنا ولذلك نرغب إلى السيد دي لاهيوتلي أحد أعضاء مجلس الشورى في مملكتنا، وسفيرنا إلى المشرق وإلى جميع من يخلفونه في مقامه أن يمدوهم بعنايتهم بهم اجمالاً وأفراداً ويبدلوا لهم الحماية لدى أعتاب صديقنا الأكمل السلطان الأعظم، وفي أي محل آخر كان لدي الحاجة إلى الحماية كيلا تجري عليهم معاملة سيئة وغير مشروعة، بل يتيسر لهم قضاء أعمالهم والتصرف بمقتضيات مراتبهم الروحية بتمام الحرية، ونأمر قناصل الأمة الفرنسية ونواب قناصلها المنصوبين في فرض المشرق وغيرها من الأماكن المشترع بها العلم الفرنسي الآن، وفي ما يأتي من الزمان أن يساعدوا بكل وسعهم البطريك المشار إليه وجميع الموارنة سكان جبل لبنان، وأن يسيروا في المراكب الفرنسية أو غيرها كل ماروني أراد السفر إلى بلاد النصارى، اما لدرس العلوم واما لغير ذلك، ولا يكلفوهم إلا ما يمكنهم دفعه، ويعاملوهم بالحب والرفقة. ونسأل السادة العظام عمال الحضرة العلية السلطانية ومستخدميها أن يبدلوا رعايتهم ومساعدتهم لحضرة رئيس أساقفة طرابلس وجميع الاكليروس والشعب الماروني، ونعدهم من قبلنا أننا نصنع هذا الصنيع إلى كل رجل من أمتهم يوصون عمالنا به.

أعطى في سن جهان بمدينة لاي في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م وهي السادسة للملكنة .

والبطريك يوحنا هذا هو الذي رقى إلى درجة الكهنوت ثم الأسقفية على السريان اندراوس أخيه بعد أن كان جحد اليعقوبية على يد البطريك يوسف العاقوري . ودرس العلوم بمدرسة طائفنا في روما كما مرّ في ترجمته وفي الثالث والعشرين من كانون الأول سنة ١٦٥٦م انتقل البطريك يوحنا إلى راحة الأبرار الأبدية لينال ثواب جهاده ومبراته ، وكان انتقاله بدير قنوين ، ودُفن هناك . وقد وصفه الدويهي بأنه كان طاهراً قنوعاً رضي الأخلاق بعيداً عن الكدر والمكر ترقى منذ حداثة بالتقوى والنسك وحاز على أعلى مراتب الورع والاتضاع ، وكان مدمناً على الصلوات وتلاوة المسبحة وغيرها من النوافل زيادةً على صلوات الفرض ، كثير الصوم والتقشف في مدة كهنوته ولا سيما في مدة أسقفيته التي كانت اثنتي عشرة سنة ، وفي مدة بطريركيته التي كانت ثمانين سنين ونيف .

أما البطريك جرجس السبعلي فقال فيه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٧م إنه كان ابن الحاج رزق الله من سبعل بزاوية طرابلس (وهي الآن قرية حقيرة) وكان البطريك الصفراوي قد رقه إلى الأسقفية في ٢٥ من تموز سنة ١٦٥٦م ليكون معاوناً له في تدبير شؤون البطريركية . ولما توفي هذا البطريك في ٢٣ من كانون الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة والأعيان في اليوم التاسع بعد وفاته أي في أول كانون الثاني سنة ١٦٥٧م فانتخبوه بطريكاً ، وأرسل الأب يوحنا الكرمللي الذي كان قاطناً بدير القديس البشاع في جانب بشري إلى روما وأصبحه بعرائض أداء الطاعة واستمداد التثبيت من الحبر الروماني البابا اسكندر السابع فاتفق أن مات الأب المذكور لدن بلوغه إلى روما فاضطر البطريك أن يجدد الالتماس ، وتأخر تثبيته إلى سنة ١٦٥٩م . وقال في حقه دي لاروك في كتاب رحلته المذكور (صفحة ١٣١) إنه كان ضليعاً باللغات الشرقية ومبرزاً في معرفة الشرائع والقوانين البيعية ، وفي أيام هذا البطريك قدم من فرنسة أربعة رجال قاصدين العزلة عن العالم للتجرد لخدمة الله في محابس جبل لبنان فاختار بعضهم السكنى بدير مار اسيا بكفر صارون ، وبعضهم بدير مار ابون بأرض الحدث ، وبعضهم بدير القديس انطونيوس في جوار قنوين . فأمر البطريك بمهمة الأديار المذكورة واصلاحها للسكن ، وأن يعطوا الزاد من دير الكرسي البطريكي . وفي ١٢ من شهر نيسان

سنة ١٦٧٠م كانت وفاة البطريرك جرجس بدير مار شليطا مقبس بكسروان ودُفن هناك وضريحه ظاهر إلى الآن . وقال الدويهي في حقه إنه كان شجاعاً كريم الأخلاق ، صبوراً تحمّل كثيراً من جور الحكام في تلك الأيام ومن داء السلّ الذي بلي به واستمر على الكرسي البطريركي ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان .

عد ١٠٢٣

العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي

نعمد في ترجمة هذا العلامة على ما كتبه عن نفسه في رسالة أنفذها إلى القس بطرس مبارك أحد تلاميذ مدرسة الموارنة بروما ، فهذا أرسل كتاباً للبطريرك يسأله به أن يلخص له ترجمته ليثبتها في مقدمة كتاب كان يريد طبعه ، فأجابه البطريرك برسالة المذكورة التي وُجدت في خزانة أوراق الكرسي البطريركي . وإليك نص هذه الرسالة بحروفها:

« البركة والنعمة وحلول الروح القدس تكون حالة على ولدنا القس بطرس المكرم الخ . أشرت لنا حتى نكتب لك عن سيرتنا لتقتطف منه الذي يحسن برأيك وتجعله في مدخل الكتاب على جاري العادة بين الافرنج في طبع الكتب . يا ولدنا نحن نقرّ أنّا أخطأ الناس وأرذلهم بالنسبة إلى النعمة التي تفضل بها الله علينا ، لكن لأجل خاطرك نذكر لك إنّنا من طائفة الدويهيّة المشهورة بين جماعتنا (الموارنة) في التقوى والعلم وسياسة الشعب ، قد خرج منها في الجيلين الماضيين ثمانية مطارين وبطاركين وكان مولدنا سنة ١٦٣٠م) في ٢ شهر آب نهار تذكّار ما اسطفانوس ، وسمينا على اسمه ومنذ الصبا سلمونا والدينا إلى القراءة السريانية . وفي سنة ١٦٤١م) أرسلنا المرحوم البطريرك جرجس بن عميره التي أمه كانت من الطائفة (الدويهيّة) إلى روما بصحبة القس سمعان (التولاوي) ويوسف فتیان (الحصريّ). وفي مقامنا في المدرسة سعينا في اقامة المجمع (جمعية أو أخوية) باسم السيدة الطاهرة وكانت قبلنا انقطعت المجادلات (أي المباحث العامة الحافلة) فعملنا جهداً كلياً عند معلمي المدارس وعند الجنرال

حتى جددنا العادة التي انقطعت، وعملنا مجادلة الفلسفة على اسم الكردينال كابون، وتمام علم اللاهوت على اسم المرحوم البطرك حنا الصفراوي. وسنة ١٦٥٥م كانت عودتنا إلى البلاد وكرم علينا مجمع انتشار الايمان أن نكون من جملة المرسلين وفي ترددنا في البلاد اعتنينا على علم الأولاد وعلى الوعظ وتهذيب الشعب بدرجة الكهنوت. وعندما طلبوا جماعتنا (الموارنة) الحلبية من المرحوم بطريرك جرجس (السبعلي) أن نركز عليهم ثبتنا عندهم نركز عليهم ونعلم أولادهم ونتعاطى في أمورهم مدة ست سنين وعندما في سنة ١٦٦٨م توجهنا من عندهم إلى زيارة المواضع المقدسة في العودة مسكننا البطريرك المرحوم وقدمنا إلى درجة المطرانية على أسقفية قبرص فزرناهم وتعبنا فيهم جهدنا. وفي السنة الثانية عندما انتقل البطريرك جرجس ابن الحاج رزق الله إلى رحمة خالقه ألزومنا رؤساء الكهنة ورؤساء الشعب في درجة البطركية. وفي كل هذه المدة احتملنا مشقات واضطهاد لا يوصف من جور العصاة. حتى أننا طفرنا إلى بلاد كسروان وإلى بلاد الشوف، ولأجل هذه الديرة والكنائس والنصارى التزمنا نرجع لأجل حفظهم، ولأن كانوا شردوا والله الحمد قائمين بحملتنا وفي عمار الكرسي والطائفة. وفي كل هذه المدة تعبنا تعباً بليغاً حتى جمعنا غالب رتبها كما هو (هنا كلمة غير مقروءة).

١ **ܕܐܚܕܐ ܕܡܚܬܝܡܐܢܐ** (كتاب الشرطونية وأظن أن المراد جمعه هذا الكتاب وترتيبه) ٢ **ܕܐܚܕܐ ܕܡܚܬܝܡܐܢܐ** (قبل هذه الكلمة كلمة مخزوقة فكأنها نظام أو قانون الرهبان) ٣ **ܕܐܚܕܐ ܕܡܚܬܝܡܐܢܐ** (رسم البيعة وأثاثها) ٤ **ܕܐܚܕܐ ܕܡܚܬܝܡܐܢܐ** (كتاب الصلوات) وبعثناه إلى روما. ٥ كتاب النوافير (وهو غير كتاب منارة الأقداس الذي عدّد به النوافير بل كتاب برأسه عدد فيه النوافير وعني بترجمة مؤلفيها وذكر صورة كلام التقديس في كل منها، وضمّم إليه نافور رسم الكأس. وهذا الكتاب كان في دير مار شليطا مقبس فنقل حديثاً إلى مكتبة البطريركية) ٦ **ܕܐܚܕܐ ܕܡܚܬܝܡܐܢܐ** (أسرار البيعة) ٧ **ܕܐܚܕܐ ܕܡܚܬܝܡܐܢܐ** (أعياد) كل السنة (وهو كتاب جمع فيه رتب الموارنة على مدار السنة بالسريانية عدد صفحاته ٣٧٩ كرتبة تبريك الماء يوم عيد الغطاس، ورتبة أحد الشعانين وغيرها. وهذا الكتاب الآن في مكتبة البطريركية منقولاً إليها من مكتبة مار شليطا) ٨ سجلات الباباوية ومكاتيب البطارقة وأرباب الدولة وحجج وقوفات الدير ومن غير (وما عدا) الكتب البيعية

التي جمعناه . وذكرنا إننا عاملون متعبين على كتاب الجنازة وغيره ، ثم إننا شرحنا عن كتاب الشرطونية . وفي كتاب آخر عن تكريس البيعة وأوانيها . وفي كتاب آخر عن تفسير القديس والمناظر ، وأيضاً في قصص الآباء أصحاب النوافير المقبولة وأيضاً عن سلسلة بطاركة الملة المارونية ، وأيضاً على أصل الملة المارونية ودوام اتحادها مع الكنيسة الرومانية وهي التي عندك . وأيضاً في التواريخ من بدء الهجرة إلى وقتنا هذا بل الذي تعبنا عليه بزيادة من قدوم الفرنج إلى هذه البلاد . وأيضاً جمعنا رؤوس الأبيات السريانية وفككتها على موجب وزن الشعر ونعمل متعبين بسبب مدرسة الموارنة بروما ونفعها ونشر تلاميذها . ومن غير تعبنا مع طائفتنا ما تأخرنا أيضاً عن نفع الطوائف التي بجيرتنا لأن المرحوم القنصل بيكت ، كان بعث عشر مكاتيب للمرحوم البطريك حنا من صفرا حتى يرسم القس اندراوس أخبخان فما تنازل معه حتى دخلت أنا بينهم وأزحت عن بال البطرك الصعوبات التي كانت تمنعه . وبعد أن ارتسم مطراناً صار أنه طفر (فرّ) إلى جبل لبنان لأجل خاطر القنصل وسيطه إلى الرجوع ، ورحت أنا بنفسي معه وكنت أساعده في المقدرة وفي كتابة الكرز الذي كنت أعطيه . وكذلك طفر لعندنا القس اسحق (السرياني) وأنا بطريك مسكته عندنا سنتين ورتبته ورسمته أيضاً ، وعندما طفر بعده إلى عندنا بطرس بطريك السريان (نظنه اغناطيوس بطرس الذي خلف أخبخان في البطريكية على السريان الذي توفي في السجن بأدنه بمكيدة بطريك اليعاقبة) ثبت عندنا مدة من الزمان بكل اعزاز واکرام ، ثم بعد المذكورين التجا إلينا الخوري نعمة والقس سبيمان السريان من جور بطريكهم الضال ، وكذلك مطران الأرمن على مرّعش عندما التجا إلينا قبلناه بكل كرامة وأمرنا جماعتنا بحلب ليقبلوا جميع المرتدين من اليعاقبة والأرمن والنساطرة وغيرهم ويتلمذونهم ويقضون مصالحهم . محرر في أول شهر أيار سنة ١٧٠١ ربانية . وقد طبع المعلم رشيد الشرتوني من تأليف الدويهي شرح الشرطونية والتكريسات ، وشرح المناظر العشر وسلسلة بطاركة الموارنة مع اضافات . وأخذ من كتابه في أصل الموارنة ودوام اتحادهم بالكنيسة الرومانية . ومن التاريخ كتابه المعروف بتاريخ الطائفة المارونية وطبعه سنة ١٨٩٠ م .

إنّ البطريك سمعان عواد الطيب الذكر قد وضع ترجمة العلامة الدويهي آخذاً عنه وعن ثقة من معاصريه . وهذه الترجمة أثبتتها المعلم رشيد الشرتوني في فاتحة

تاريخ الموارنة للدويهي الذي طبعه بيروت سنة ١٨٩٠م فنقتطف منها ما يلزم لتتمة الترجمة. وبيانها أنّ والد الدويهي يسمى مخايل واسم أمه مريم وهي من آل الدويهي أيضاً، وأرسله إلى روما عمه المطران الياس الدويهي على يد البطريرك جرجس عميره. وقد قال عن نفسه أنه كان يقضي وقت التنزه وهو في المدرسة في القراءة والدرس، وكثيراً ما كان يقوم عن فراشه ليلاً فيصلي ويدرس على نور المصباح الساعتين والثلاث حتى أصيب ببصره، فكان يطلب إلى رفقاءه أن يقرأوا على مسمعه الدروس اليومية، ثم شفي بشفاة العذراء. وكان استاذة في اللاهوت الأب سبرسا اليسوعي. يقول مرات علّمت في بلاد كثيرة ولم أر مثلاً اسطفان علماً وعملاً. وشهد عارفوه أنهم لم يكونوا يجدون عليه خطيئة توجب الحل. وألّف بعد انجاز دروسه كتاباً ضخماً باللاتينية في الفردوس الأرضي. وبعد رجوعه إلى وطنه رُقي إلى درجة الكهنوت وأنشأ مدرسة في اهدن وأخذ يعلم الأولاد ويعظ الشعب إلى أن أرسله البطريرك جرجس السبعلي إلى حلب واعطاً ومرسلاً. واهتدى على يده كثير من الملكية والنساطرة واليعاقبة. وصنّف في تلك الأثناء مؤلفاً في الوعظ والارشاد في مجلدين. وقد جرى انتخابه بطريركاً سنة ١٦٧٠م بغير مشورة الشيخ أبي نوفل الخازن، فاستاء فأتى البطريرك إلى داره بكسروان فأجلّ الشيخ قدره واستغفره عما فرط منه. وأرسل إلى روما القس يوسف شمعون الحصري (الذي صار بعداً أسقفاً) في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠م فثبته البابا اكليمنضوس العاشر (في ٨ آب سنة ١٦٧٢م).

وبعد بطريركيته أخذ يطوف جميع الأبرشيات ويختار كهنة من ذوي العلم والتقوى ويفحص الكتب البيعية ويصلح ما أوقعه النساخ أو أصحاب الأغراض من الخطأ فيها. وكان معتنياً برد العوائد القديمة، ورتب الطقوس. وذكر له البطريرك سمعان عواد بعض الكتب التي ذكرها هو في ترجمة نفسه وما قرظه به العلماء من طائفته كمرهج بن نيرون الباني والمطران يوسف شمعون الحصري والبطريرك يعقوب عواد. ومن غير طائفته نخص بالذكر منهم الكردينال نرلى في كتابه في مشاهير المدرسة المارونية بروما. ولما علم البطريرك كيرليس الحلبي بطريرك الروم الانطاكي أنّ الخبز والخمر لا يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه بقوة كلام التقديس وحده بل بدعوة الروح القدس أيضاً. فاعترضه ورد زعمه بنصوص الكتاب والمجامع والآباء. ولما اطلع بطريرك الروم على حججه أحب أن يجادله

وحضر لجداله ومعه أربعة مطارين ، وكان الجدل بحضرة أمير الشوف في دير القمر . فأفحم الدويهي بطريك الروم وأساقفته حتى أوجب عليهم الأمر والحاضرون أن يدعوا لتعليم الدويهي . وكان هذا سبباً لاعتناقهم الدين الكاثوليكي ، وقد قاومه بعض أساقفته لأنه تشدد عليهم بعمل واجباتهم فأرسل لهم رسالة يؤنبهم بها ويهددهم فخرجوا وتسارعوا إليه يستغفرونه عما فرط منهم . وهم أن يتنازل عن البطريكية فمنعه أبناء الطائفة . وكان شديد الغيرة على مدرسة الطائفة في روما وعلى نشاط تلامذتها وتقدمهم بالتقوى والعلم . وله رسالتان إليهم (مثبتتان في ترجمته المعلقة على تاريخ الموارنة) يتبين منهما كم كان له من العناية بهم والهيام في نجاح هذه المدرسة . وقد أنبأنا صاحب ترجمته بآيات كثيرة صنعها الله على يده في حياته وبعد وفاته .

وقد أهانته قبل وفاته الشيخ عيسى حماده إذ جاء مع بعض أقاربه إلى قنوين طالبين منه مبلغاً من المال ، فكتب إلى الشيخ حصن الخازن عما جرى له فجهز رجالاً من كسروان مع أخيه الشيخ ضرغام (هو الذي صير بعداً بطريكاً) إلى قنوين ، ولما علم بذلك الشيخ عيسى أتى متواعماً متذللاً أمام البطريك ليغفر له ويعدل عن السفر إلى كسروان ، وأراد المشايخ الخوازنة أن يبطشوا به فنهاهم البطريك عن ذلك وسار معهم إلى كسروان فالتقاه الأهلون بالجلّة والاحتفاء وأقام بدير مار شليطا مقبس نحواً من أربعة أشهر ، ثم وردت له رسائل من والي طرابلس على يد الخواجه طريه ترجمان قنصلية فرنسة أن يعود إلى كرسيه آمناً فعاد في ١٩ من نيسان سنة ١٧٠٤م يوم السبت وفي صباح الأحد أقام قداساً حافلاً ومنح غفراناً كاملاً لجميع الحاضرين . وفي غد الاثنين ودعه من كانوا قد رافقوه من كسروان فشيّعهم إلى باب الدير وأراد أن يرجع إلى غرفته فتعذر عليه أن يخطو فحمله شماسه إلى فراشه ، وعلم أن قد دنا أجله وأنّ الله استجاب طلبته أن لا يميته خارجاً عن كرسيه ، وأخذته حمى شديدة لم تمنعه عن التسبيح لله ومباركة شعبه وتناول الأسرار المقدسة إلى أن توفاه الله ونقله إلى راحة الأبرار صحبة القديسين الملائكة باسيليوس واثناسيوس وفم الذهب نهار السبت في الساعة الثالثة من النهار في ٣ من أيار سنة ١٧٠٤م وعمره أربع وسبعون سنة .

وقد حفظ لنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان رسالة أنفذهها لويس الرابع عشر ملك فرنسة إلى هذا البطريك هذه ترجمتها:

«أيها البطريرك اسطفانوس بطرس الانطاكي»

أيها السيد الأجلّ، قد رفع إليّ الخوري الياس كاتب سرّكم الرسالة التي كتبتموها إليّ في ٢٠ من آذار سنة ١٧٠٠م وعلمت منها متأسفاً الحزن التي يقاسيها الكاثوليكيون أبناء ملّتكم المارونية في جبل لبنان وشدة الضنك الذي تقاسونه لوقاية شخصكم من الاهانات التي ينزلها البعض بكم. ولما كنت مستعداً أن أبذل دائماً كل ما بوسعي من العناية بتأييد الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في كل مكان ولا سيما في أرجاء بطريركيّكم حيث تعاظمت الحزن، قد سلمت إلى كاتب سرّكم رسالة جددت بها الأمر الذي أصدرته قبلاً إلى سفيرتي بالقسطنطينية أن يصرف عنايته واهتمامه لينال من الباب العثماني كل ما يمكن من الأمور العائدة بالنفع للدين الكاثوليكي في بلاد الموارنة ليجعلكم تشعرّون بمفاعيل حمايتنا واجلالنا لكم خاصة. وأسأله تعالى أيها السيد الأجلّ أن يحفظكم بحراسته المقدّسة. كُتب في مارلي في ١٠ آب سنة ١٧٠١م التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة كولبر».

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ١٠٢٤

الأساقفة الذين رقاهم البطريركان يوسف الرزي ويوحنا مخلوف

قال الدويهي إنّ البطريرك يوسف الرزي رقى ابن أخيه سرّكيس الرزي إلى أسقفية دمشق سنة ١٦٠٠م وكان حبيساً بدير قرحيا. وكان قد درس العلوم في

روما وأقام بعد تسقفه بالحبسة المذكورة أيضاً. هذا ما جاء في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا، وفي النسخة التي أخذ عنها رشيد الشرتوني في طبعه تاريخ الموارنة. لكن الدويهي نفسه قال في الفصل ١٨ من رد التهم أنّ البطريرك يوسف الرزي أرسل أخاه الأسقف سرقيس سنة ١٦٠٧م سفيراً إلى البابا بولس الخامس ومعه القس الياس ابن الحاج يوحنا والقس جرجس بن مارون من اهدن، فلا يظن الأسقف سرقيس هذا أخا البطريرك هو غير سرقيس ابن أخيه بل هما واحد. وفي رواية الدويهي في تاريخه خطأ من النساخ لأنّ البابا بولس الخامس ذكره في رسالته إلى أساقفة الموارنة وشعبهم في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م داعياً إياه أخا البطريرك الذي كان قد توفي، ويعزيهم لفقده. وأمر البابا حينئذ أن يبقى الأسقف سرقيس في روما للعناية بطبع الكتب وحاجات الطائفة. واستمر بروما إلى سنة ١٦٣٨م التي توفي بها. والذي علمناه مما باشره بروما في هذه المدة هو طبع كتاب الشحيم بعد أن عهد البابا بولس الخامس بفحصه إلى الكردينال بطرس الدبرندينوس محامي الموارنة وقتئذ. والكردينال روبرتوس بلرمينوس الشهير والكردينال أوكتافيوس بندينوس والأب بطرس المطوشي الماروني اليسوعي. ولما توفي الكردينالان الأولان في أثناء هذا الفحص تعيّن بدلتهما الكردينال روبرتوس أو بلدينوس والكردينال اسكندر أوسينوس. وبعد أن أجاز هؤلاء طبعه سنة ١٦٢١م شرع الأسقف سرقيس بطبعه تحت منظرته فنجز طبعه في أيام البابا أوربانوس سنة ١٦٢٥م كما هو بيّن من رسالة الكردينال أوكتافيوس بندينوس محامي الموارنة إلى البطريرك يوحنا مخلوف المعلقة على طبعة الشحيم المذكورة. ثم إنه صحح بمدة أقامته بروما نسخة الأسفار المقدسة العربية معارضاً لها بنسخ كثيرة أخذت من المشرق، وترجمها إلى اللاتينية برفقة غيره من العلماء كما يتبيّن من المقدمة التي علقها عليها. وطُبعت نسخته هذه سنة ١٦٧١م بعد وفاته مع النسخة اللاتينية العامة ومنها نسخ كثيرة في المشرق، بل كانت هي النسخة التي تتداولها أيدي العامة قبل طبع النسخة اليسوعية ببيروت. وذكر بعضهم أنّ المطران سرقيس كان له يد أيضاً مع جبرائيل الصهيوني والخوري يوحنا الحصري في تهذيب الترجمتين السريانية والعربية اللتين طُبعتا في البوليكوتا الباريسية، ولا يبعد ذلك عن الصحة لأنّ البوليكوتا شرع في طبعتها سنة ١٦٢٨م وهو توفي سنة ١٦٣٨م.

وذكر لكويان في جملة الأساقفة الموارنة وقال: أثبت توربانوس أنّ رودريكوس

اليسوعي الذي بعثه البابا بيوس الرابع إلى الموارنة عارض القوانين العربية التي ترجمها إلى اللاتينية مع سركيس هذا أسقف دمشق الماروني . وأسهب الكلام على علمه وفقاهته . وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨ « وفيها في شهر حزيران توفي بروما الحبيس سركيس بن الرزي مطران دمشق وله من العمر ست وستون سنة ، وكان قد اقتبس العلوم بروما وعاش ناسكاً بمحبسة قزحيا مدة وعني في روما بطبع الشحيم ووقف متروكاته على مساعدة الطائفة وكان محبوباً من رؤساء الكنيسة الرومانية .

٢ - المطران بطرس العاقوري ذكره الدويهي وعرفه بأنه ابن الخوري سابا العاقوري من بيت حليب ، وإنّ البطريك يوسف الرزي رقاہ إلى أسقفية العاقورة في ٢٠ من تشرين الثاني بعد وفاة موسى أسقفها . وكان المطران بطرس هذا متزوجاً قبل ارتقاہ إلى الدرجات المقدسة ، ومن أولاده البطريك يوسف العاقوري وتوفي بالعبادية (من المتن) ونقلت جثته إلى بيروت ودُفن في كنيسة مار جرجس فيها . وكان شديد الغيرة كثير العبادة وصنّف مدائح كثيرة .

٣ - المطران يوحنا الحصري ابن الشدياق حاتم الحوشي رقاہ البطريك يوسف الرزي إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م وجعله معاوناً له في تدبير شؤون دير قنوين . وكان قد درس العلوم بروما ودخل رهبانية القديس عبد الأحد وترجم جزءاً من كتب القديس توما الأكويني إلى العربية . ثم أرسله البطريك المذكور سفيراً إلى الخبر الروماني ، وعاد من روما إلى لبنان سنة ١٦٠٦م وأصبحه البابا بولس الخامس بجواب أثني فيه على الموارنة ، وأرسل للبطريك حلالاً كهنوتية وغيرها من الهدايا ، وحينئذٍ أمر البطريك باتباع الحساب الذي أدخله البابا غريغوريوس الثالث وعيد الموارنة في طرابلس وجبة بشري وجبيل والبترون عيد الرسل مع الافرنج قبل طوائف المشرق بعشرة أيام . ثم تطرّق استعمال هذا الحساب إلى دمشق وحلب وسائر المدن والقرى إلّا جزيرة قبرص ، وتركوا التاريخ بسني اسكندر وأخذوا يؤرخون بسني الميلاد . ولما حضّر هذا الأسقف على اتباع هذا الحساب في حلب ناصبه رؤساء الطوائف الشرقية ودفعوا للحكومة مبلغاً من المال لاهلاكه ، فاحتج بالحكمة مثبتاً صحة هذا الحساب وأفحم معانديه وتوفي بروما سنة ١٦٣٢م ودُفن في دير القديس بطرس حيث صلب . وهو غير الأسقف يوحنا ابن قورياقوس الحصري المعروف من بيت حندوق الآتي ذكره .

٤ - ومن رقاھم البطریق یوسف الرزی إلى الأسقفیة الأسقف یوحنا مخلوف الذی صیر بعداً بطریقاً، والأسقف جرجس بن عمیره الذی صیر بطریقاً أيضاً، ورقی أيضاً أساقفة آخرین فی تاریخ القرن السادس عشر.

وأما الأساقفة الذین رقاھم البطریق یوحنا مخلوف فنعرف منهم یوحنا الشدراوی وقد ذكره الدوبهی فی تاریخ سنة ١٦٠٩م قائلاً إن هذا البطریق رقی فیها إلى الأسقفیة الخوری یوحنا الشدراوی. وقد ذكره المطران اسحق الشدراوی فی مقدمة غرامطیقه، وقال إنه عم أبیه وإنه كتب إليه رسائل عديدة فی هذا التألیف فأفادته، وكانت له بمنزلة مشكاة فأنارته. وفی سنة ١٦١٠م رقی الأسقف یوسف بن بشارة من بیت السوق وهو ابن أخی الأسقف اقلیموس الأهدنی المار ذكره. وفی سنة ١٦١٤م رقی جرجس بن مارون الأهدنی إلى أسقفیة الأفقسیة بقبرص وهو الذی كان قد أرسله إلى روما یطلب التثبیت وأحضره له. وروی الدوبهی أيضاً أنه فی ٢٢ من تشرين الأول سنة ١٦١٩م توفي الأسقف یوسف بن یوحنا ابن القس تادروس السمرانی وله فی الرهبانیة بدير قزحیا خمس وخمسون سنة. وذكر فی تاریخ سنة ١٦٢٢م توفي الأسقف یونان بن جلوان السمرانی (نسبة إلى سمار جبیل) الذی استحبس بدير قزحیا، ونظن أن هذین هما الحیس یونان وأخوه القس یوسف اللذان روى الدوبهی فی تاریخ سنة ١٥٧٦م أن المطران داود رئیس دیر قزحیا رقاھما إلى الأسقفیة خلافاً لقوانین الكنيسة.

فمنعهما البطریق عن مباشرة حقوق الأسقفیة فخضعا، فرضی عنهما وردهما إلى دیر قزحیا فأكملا حیاتهما مستنسکین.

الأسقف یوحنا بن قوریاقوس الحصرونی من بیت صندوق فهذا درس العلوم فی مدرسة الموارنة بروما ورقی إلى درجة الكهنوت. وفی ١٦٢٥م أرسله البطریق یوحنا مخلوف لتهنئة البابا أوربانوس الثامن بارتقائه إلى الحبریة العظمی فرحب البابا به وأرسل إلى البطریق رسالة نفیسة یثنی بها علی الموارنة لثباتهم فی الایمان الكاثولیکی، وأهدى إليه تاجاً ثمیناً وكتباً وحلاً بیعیة. ویوحنا هذا عاون القس جبرائیل الصهیونی الأهدنی علی ضبط الترجمتین السریانیة والعربیة المثبتین فی البولیكلوتا (الأسفار المقدسة بعدة لغات) الباریسیة التي عني بطبعها میخائیل لی جایی. ویظهر أنه بقی فی أوروبا لأن البولیكلوتا المذكورة شرع فی طبعها سنة

١٦٢٨م. وقد ذكر كثيرون معاونته عليها ومنهم والثن في المقدمات على البوليكوتا اللوندية، وبعد عودته إلى لبنان رقاہ البطريك يوحنا مخلوف إلى الأسقفية مكافأة لأتعاہ . وأقام بدير مار جرجس بقرقاشا لكنه لم يستمر في الأسقفية إلا أربعة أشهر وتوفي في أحد الشعانين .

الأسقف يوحنا من بيت قزوح رقاہ البطريك يوحنا في ٢٠ تشرين سنة ١٦٢٥م على دير القديس اليشاع يبشري وعلى دير الأحمر . ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ونظّمه من بشري .

الأسقف سركيس السمراني ذكر الدويهي وفاته في تموز سنة ١٦٢٦م وقال إنه كان قد استحبس بدير قزحيا وكان ورعاً راغباً في العلوم ونسخ الكتب فرقى البطريك يوحنا مخلوف مكانه ابن أخيه الأسقف بولس والأسقف يوسف العاقوري من بيت حليب على صيدا وهو الذي صير بعداً بطريكاً، والأسقف يوسف البلوزاوي على بيروت . وروى في تاريخ سنة ١٦٣٧م أنّ الأسقف بولس المذكور إذ كان ساكناً في دير قزحيا شكاه القس حنا ابن البري من غوسطا لاختلافهما على الماء إلى الأمير عساف بن يوسف باشا سيفاً فدعا الأمير الأسقف إلى جبيل وأجرى عليه أنواعاً من العذاب حتى فقت عينه ولم يتركه إلى أن دفع أربعة آلاف قرش .

الأسقف اسحق الشدراوي، ذكر السمعاني ترجمته في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ فقال ما ملخصه؛ دخل مدرسة الموارنة بروما سنة ١٦٠٣ فأقام فيها إلى سنة ١٦١٨م وبرع من خلال هذه المدة في اقتباس اللغات اللاتينية والسريانية والعربية والعلوم السامية، فرقاہ جرجس عميرة مطران اهدن وقتل إلى الدرجات الصغار سنة ١٦١٩م. وفي السنة التالية رقاہ إلى درجة الكهنوت وجعله رئيس كهنة ببيروت. وكان قد تزوج قبل ارتقاہ إلى هذه الدرجة على عادة الشرقيين ثم ماتت امرأته. وفي ٢٥ آذار سنة ١٦٢٩م رقاہ البطريك يوحنا مخلوف إلى الأسقفية على طرابلس كما اخبر عن نفسه في فاتحة المقالة اللاهوتية المثبتة في كتاب بمكتبة نشر الايمان . وله كتاب سرياني في نحو اللغة السريانية (غرامطيق) طبعه بروما في مدرسة الموارنة سنة ١٦٣٦م، وقصيدتان على أحرف الهجاء الواحدة في مدح البابا اوربانوس الثامن، والثانية في مدح يوحنا مخلوف بطريك الموارنة مثبتتان في كتاب بمكتبة مدرسة نشر الايمان . وله بالعربية مباحث لاهوتية بطريقة

السؤال والجواب على عمل الرب في ستة أيام الخلق وفي الفردوس الأرضي والخطيئة الأصلية والموت ويمبوس الآباء والفردوس وجهنم والمطهر وقيامة الموتى والدينونة الأخيرة، وهي في الكتاب المذكور في مكتبة مدرسة نشر الايمان . وله أيضاً ترجمة رسائل اليا بطريك الكلدان إلى الحبر الروماني ، وترجمة أعمال المجمع الذي عقده بآمد سنة ١٦١٧م من السريانية إلى اللاتينة كما مرّ . وقد أرسله وهو أسقف البطريرك يوسف العاقوري إلى البابا اينوشنسيوس العاشر ليستمد له منه التثبيت فتعلّد سفره ، فأرسل البطريرك الخوري عبد المسيح ابن الطويل الحداثي عوضه ومرقس راهب دير مار شليطا مقبس ، ثم لحقهما المطران اسحق وكانا يطبعان الشحيمة فأصلح معها ما كان باقياً من طبعهما كما شرح الخوري عبد المسيح المذكور في المقدمة على الشحيمة المذكورة . وروى دي لاروك أنّ الكردينال فريدريك بوروماوس استدعاه إلى مديولان لينظّم مكتبته الشهيرة في هذه المدينة . وتوفي المطران اسحق سنة ١٦٦٣م في مدينة جبيل ودُفن في كنيسة مار يعقوب التي في سهل جبيل . ومن التقليد أنّ المطران المذكور هو جد آل طريه من طرابلس وجبة بشري . وكان أحدهم ترجماناً لقنصل فرنسة منذ أيام البطريرك الدويهي . وكان منهم بعده تراجمة كثيرون حتى أيامنا هذه . وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨م وفاة المطران عبدالله الهدناني بدير قنوين بعد أن كان له في الرئاسة ست وثلاثون سنة ، وكان حازماً واشترى عقاراً كثيراً لدير قنوين ولم يكن ذكر ترقيته إلى الأسقفية .

عد ١٠٢٥

أساقفة الموارنة إلى أيام الدويهي

في سنة ١٦٣٨م رقى البطريرك جرجس عميرة المطران الياس بن يوحنا من عائلة الصراصرة من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ السنة المذكورة ، وقال في تاريخ سنة ١٦٥١م أنّه فتح سوق القلعة الشرقي بقرية زغرتا ، وأضافه إلى الكنيسة ويّضه وكوّسه لكثرة المترددين إلى الكنيسة . وروى في تاريخ سنة ١٦٥٩م أنّه توفي في هذه السنة وأنه كان ورعاً غيوراً وتربى بدير قزحيا ، وسكن في القدس نحو عشرين سنة ، واشترى فيها دار الازي بأمر البطريرك ، ودخل إلى روما صحبة الأسقف جرجس بن مارون وخدم رئاسة الكهنوت عشرين سنة بمزيد التقوى .

الأسقف يوسف بن عميمة الكرمسدي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م فقال إنّ البطريك يوسف العاقوري بعد ارتقائه إلى سدة البطريركية في هذه السنة رقى يوسف الكرمسدي إلى أسقفية دمشق، وكان معاوناً للبطريك. وذكر في تاريخ سنة ١٦٥٣م أنّ هذا الأسقف توفي فيها لرحمة الله.

الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصريوني ذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّ البطريك يوسف العاقوري رقاها إلى أسقفية طرابلس مع الأسقف يوسف الكرمسدي، وكانت ترقيتهما في دير حراش ليكونا معاونين له. وذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٩م حيث قال في ١٣ من شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصريوني في مدينة طرابلس، وبموجب وصيته دُفن في مغارة القديسة مارينا بقنوين. وكان قد اقتبس العلوم في مدرسة الموارنة بروما وخدم الأسقفية ست وعشرين سنة بكل طهارة.

الأسقف جرجس البشعلاني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٨م فقال في ٢٤ من شباط من السنة المذكورة رقى البطريك يوسف العاقوري القس جرجس بن حبقوق البشعلاني إلى الأسقفية على العاقورة وأخذ السكنى بدير قنوين. الأسقف يوسف البلوزاوي ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٥٠م قائلاً فيها توفي الأسقف يوسف بن ناتان البلوزاوي ولم يكن قد ذكر سنة ترقيته ولا من رقاها.

الأسقف يعقوب الرامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٣م فقال فيها توفي الأسقف يوسف الكرمسدي (المرار ذكره)، وفي يوم عيد انتقال العذراء رقى البطريك يوحنا الصفراوي عوضه الأسقف يعقوب الرامي على دمشق.

الأسقف يوسف الحصاراتي ذكر الدويهي ترقية البطريك يوحنا الصفراوي له إلى الأسقفية في يوم عيد انتقال العذراء سنة ١٦٥٣م مع الأسقف يعقوب الرامي الأنف الذكر على جيبيل. وكان رئيساً لدير حوقا، واستمر نائباً على البطريك المذكور في رئاسة هذا الدير. قال لكويان في أساقفة الموارنة، وقال دي لاروك في كتاب رحلته صفحة ٢٨٤ إنّ البطريك اسطفانوس الدويهي كتب منشوراً في ٥ تشرين الأول سنة ١٦٩٩م (وهو المنشور الذي ذكرناه توصية بيوسف أخي الأمير بولس) ووقع عليه يوسف الحصاراتي مطران جيبيل بدير حوقا، وربما كان يوسف

هذا غير يوسف الذي نكتب ترجمته لأنّ للدويهي رسالة أخرى في ١٢ حزيران سنة ١٦٧٣م، وفيها توقيع يوسف الحصاراتي. فالفرق الذي هو ست وعشرون سنة يجعلنا نظنّ أنّ يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٩٩م هو غير يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٧٣م.

الأسقف جرجس من بيت شوك من قرية عرجس، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م وقال البطريرك يوحنا الصفراوي رقاہ إلى الأسقفية وجعله معاوناً له في تدبير مهام الكرسي البطريركي.

الأسقف ابراهيم السمراني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م أيضاً وقال إنّ البطريرك أقامه بدير قزحيا، ثم ذكر وفاته وهو في هذا الدير في تاريخ سنة ١٦٧٧م وترقية ابنه القس يوحنا أسقفاً على البترون، وسلّم إليه تدبير دير قزحيا، وسوف نذكره في محله.

الأسقف جرجس ابن الحاج من سبل وهو الذي انتخب من بعد بطريركاً. ذكر الدويهي ارتقاءه على الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٥٦م وجعله معاوناً للبطريرك في قنوين.

الأسقف سرقيس الجمري من اهدن، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٨م فقال فيها رجع القس سرقيس الجمري من فرنسة إلى بلاده وكان له في الكهنوت ثلاث وعشرون سنة، فطلب الشيخ أبو نوفل الخازن ترقيته إلى أسقفية دمشق، ثم ذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٨م وقال فيها كانت وفاة الأسقف سرقيس بن الجمري بمدينة مرسيليا في أواخر أيار.

الأسقف جبرائيل البلوزاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٣م قائلاً فيها كانت ترقية المطران جبرائيل بن يوحنا من بلوزا على مدينة حلب خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي. وقد ذكرنا ارتقاءه إلى الأسقفية سنة ١٦٥٠م. وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٣م أنّ المطران جبرائيل هذا أنشأ ديراً جديداً بأرض طاميش في قاطع بيت شباب على اسم العذراء وهو دير طاميش المشهور.

المطران اسطفانوس الدويهي هو العلامة الدويهي ذكر ترقية إلى الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٦٨م فقال توجهنا لزيارة القدس الشريف، وبعد أن تباركنا بتلك المواضع المقدسة ومعنا والدتنا وأخونا الحاج موسى رجعنا بالسلامة لتقبيل أيدي

السيد البطريرك جرجس (السبعلي) بدير قنوين ، فرفعنا إلى درجة المطرانية على الأفسسية بقبرص في ٨ تموز وأمرنا أن نخرج لزيارة الرعية في ايلة طرابلس وجزيرة قبرص ، ولئلا نكون بطالين أشغلنا أنفسنا في سياسة الشعب وفي جمع هذه الأخبار لافادة نفوسنا ولنطلع على معرفة أحوال بلاد نحن فيها ساكنون .

الأسقف يوحنا التولاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٩م فقال في ٢٣ شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصري (الذي مر ذكره) ورفي الأسقف يوحنا التولاوي على صيدا ، وذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٨٠م قائلاً فيها في ٢١ من نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن في قرية بعبدات .

عد ١٠٢٦

أساقفة الموارنة الذين رقاهم البطريرك الدويهي

الأسقف لوقا القبرصي القرباصي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧١م قائلاً إنه رقاها إلى الأسقفية على الأفسسية بقبرص ، وأخذ السكنى في الجزيرة . وذكر في سجله المحفوظ بخزينة أوراق الكرسي البطريركية أنه رقاها في ١ كانون الأول سنة ١٦٧٢م .

الأسقف بطرس بن مخلوف من غوسطا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٤م فقال إنه رقاها في ٥ من تموز من السنة المذكورة على كرسي الأفسسية بقبرص (يظهر أن الأسقف لوقا المار ذكره توفي حينئذ) بحضرة سفير فرنسة الذي توجه تلك السنة إلى القدس ثم سار إلى لبنان وزار البطريرك فرقى الأسقف المذكور بحضرته وذكره في سجله المذكور أيضاً .

الأسقف يوسف الحصري ذكره في تاريخ سنة ١٦٧٥م قائلاً وفيها قدمنا كاتبنا القس يوسف الحصري إلى رئاسة الكهنوت على طرابلس ، وكان ذلك في دبر مار شليطا مقبس ، وكتب في سجله أنه رقاها في ١٤ تموز من السنة المذكورة وعرفه بأنه الخوري يوسف شمعون الايودياكن الحصري وتوفي في ١١ كانون سنة ١٦٩٥م ، وقد حضر إلى المتين سنة ١٦٨٥م ، ورقي في ٢٦ تشرين اول إلى درجتي المرتل والقاري الياس بن أبي عون وجرجس بن أبي سليمان ويوسف بن

أبي رزق وهاشم بن أبي هاشم وموسى بن أبي ناكوزة كما دوّن بخطه على كتاب الشحيم في كنيسة مار جرجس بقرية المتين المذكورة .

الأسقف يوحنا بن جلوان ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٧م قائلاً فيها في ١٨ أيار انتقل إلى رحمة ربه الأسقف ابراهيم بدير قزحيا وقد مرّ ذكره . وفي نهار تاسعه رقبنا ولده القس يوحنا أسقفاً على البترون وتسلم تدير الدير المذكور وتوفي سنة ١٦٩١م .

الأسقف بطرس الاهدني ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٠ قائلاً في ٢١ نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن ببعيدات كما مرّ . ورقبنا مكانه على صيدا القس بطرس ابن القس ابراهيم الاهدني كاتبنا وقلدناه مصالح الكرسي . وذكر في تاريخ سنة ١٦٨٣م أنّه توفي في ٢٦ من أيار منها ، وهو زائر في الشمال فنقلت جثته من البهلولة إلى ضهر صفرا وله من العمر اثنتان وخمسون سنة .

الأسقف يوسف بن مبارك ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٣م وقال أنّه كان من رهبان دير مار سرقيس ريفون ، ولما توفي الأسقف بطرس الاهدني رقاہ بدله على صيدا في ٦ حزيران من السنة المذكورة . وهذا الأسقف توفي في ٨ ايلول سنة ١٧١٣ في ريفون بعد أن دبر البطريركية ثلاث سنين عند توقيف البطريرك يعقوب عواد كما سوف يجي .

الأسقف جرجس الاهدني لم يذكره الدويهي في نسخة تاريخه التي بيدنا ، وجاء ذكره في سجله ويظهر منه أنّه رقاہ في ٢٧ آب سنة ١٦٩٠م على اهدن وإنه ابن سرقيس عبيد الاهدني ويسمى بنيامين والكاروز وإنه دخل الرهبة اليسوعية وتوفي بروما . وسيأتي ذكره .

الأسقف يوسف الشامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩١م وقال إنه رقاہ في ٢٧ كانون الثاني إلى أسقفية بيروت وتوفي سنة ١٧١٣م .

الأسقف يوحنا حبقوق من بشعلي ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٩١م قائلاً: وفيها كانت وفاة المطران يوحنا بن جلوان السمراني رئيس دير قزحيا ورقبنا عوضه الخوري حنا بن حبقوق من قرية بشعله في ٨ من ايلول على دير قزحيا ، وهذا الأسقف سلم الدير المذكور إلى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٠٨م وتوفي سنة ١٧١٨م .

الأسقف ميخائيل الغزيري ذكر الدويهي وفاته في ٦ من تشرين الثاني سنة ١٦٩٧م، وقال أنه كان مطران دمشق، ودُفن بدير طاميش. ولم يذكر ترقيته إلى الأسقفية في تاريخه ولا في سجله فكأنه رقاہ أحد أسلافه.

الأسقف جبرائيل الدويهي رقاہ الدويهي على صرغند في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٦٩٣م وترى اسمه في جملة أسماء الاساقفة الذين كانوا في المجمع اللبناني، ولم يشهده بنفسه ولكن ناب عنه القس بطرس عطايا وتوفي سنة ١٧٣٩م.

الأسقف يوحنا محاسب الغوسطاوي رقاہ الدويهي على عرقا ودير مار شليطا في ٧ ايلول سنة ١٦٩٨ وتوفي بالدير المذكور سنة ١٧١٢م.

الأسقف يعقوب عواد الحصري رقاہ الدويهي على طرابلس في ٦ تموز سنة ١٦٩٨م وهو الذي صير بطريركاً بعده وسيأتي ذكره.

الأسقف خير الله اسطفان الغسطاوي رقاہ الدويهي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠٣م أسقفاً على العاقورة ودُعي جرجس، وتوفي في عين ورقة سنة ١٧٣٣م وهؤلاء الاساقفة الأربعة لا ذكر لهم في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا فأسمائهم مأخوذة عن سجله. انتهى.

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

عد ١٠٢٧

بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري

أما بطرس المطوشي نسبةً إلى قرية مطوش في قبرص فهو أحد تلاميذ مدرسة

الموارنة بروما ، أرسله إليها البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٨٤م مع تسعة تلاميذ آخرين منهم جرجس عميرة الذي صار بعداً بطريكاً ، وسركيس الرزي أخني البطريرك الذي صار أسقفاً على دمشق ، وموسى العنيسي من العاقورة الذي صار مطراناً على قبرص . وبعد أن أنجز بطرس المذكور بمدرسة روما علومه انضوى إلى جمعية الآباء اليسوعيين فكان من فضلائهم وعلمائهم ، وقد أرسله البابا بولس الخامس إلى ايليا بطريك الكلدان مع سفيره آدم رئيس شمامسة كرسيه ، وصحبته الأب مارينوس اليسوعي أيضاً ليقبل الكلدان بحضورهم رجوعهم إلى الايمان الكاثوليكي ، وقد انفذ البابا المذكور معهما رسالة إلى بطريركنا يوحنا مخلوف مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٦١٤م بها يرغب إليه أن يرشد بطرس المطوشي ويوحنا مارينوس إلى ما يتصرفان به مع بطريك الكلدان في أمر رجوعهم فذهبا إلى آمد ، وجمع البطريرك أساقفته بحضرتهمما وجحدوا ضلال نسطور كما تقدم في الكلام على هذا البطريرك . وفي جواب البطريرك إلى الحبر الروماني بولس الخامس أطيّب الثناء على الموارنة الذين تعبوا معه في هذه المهمة وترجموا رسائله وأعمال مجمعهم من السريانية إلى اللاتينية .

وقد ذكر دي لاروك بطرس المطوشي وقال في حقه إنه من جمعية اليسوعيين ولاهوتي مبرز وله غرامطيق سرياني لاتيني ومقالة في اللاهوت الأدبي هي في مكتبة مدرسة الموارنة بروما . وكان الأب المطوشي في جملة من عيّنتهم الكرسي الرسولي لفحص كتاب الفرض الكبير (الشحيم) مع الكردينال بلرمينوس وغيره من العلماء لطبع هذا الكتاب كما مرّ .

وأما نصر الله بن شلق فأصله من العاقورة وقد درس العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ فيها ورقي إلى درجة الكهنوت ، وأقام بأوروبا إلى حين ، وله مؤلف في الكنيسة وترجمة سفر أيوب من السريانية إلى اللاتينية ومقالات أخرى . وقد أحرز ثروة وافرة فأوصى عند وفاته أن تُنشأ بها مدرسة لأبناء طائفتنا في مدينة رافانا من أعمال إيطاليا . وأقام القس جبرائيل بن عواد الحصري منفذاً لوصيته فأنشأ المدرسة كما عهد إليه على أنها لم تلبث طويلاً . فكان تأسيسها سنة ١٦٣٩م ثم أقفلت سنة ١٦٦٤م ونُقل تلاميذها إلى مدرسة الموارنة بروما . وكانت وفاة الحوري نصر الله سنة ١٦٣٥م .

القس جبرائيل الصهيوني الاهدني

وُلد باهدن نحو سنة ١٥٧٧م من بيت الصهيوني أحد فروع أسرة كرم الشهيرة، وتلقّى العلوم بمدرسة المواردنة بروما، ونبغ وحاز قصبات السبق ونال مرتبة الملقان في اللاهوت، ورقى إلى درجة القسوس في روما، وأقيم أستاذاً للغتين. العربية والسريانية في مدرسة الساباينسا (الحكمة) الشهيرة بروما، وحاز من الشهرة ما جعل لويس الثالث عشر ملك فرنسا يدعوه سنة ١٦١٤م ليكون معلماً في المدرسة الملكية بباريس، ثم شرفه بلقب ترجمان ملكي. ولما همّ الأب ميخائيل لي جاي أن ينشر البوليكوتا (الأسفار المقدسة بعدة لغات) الباريسية وكل إليه تعريب النسخة العربية وضبطها وتنقيح النسخة السريانية ومعارضتها بنسخ عديدة، ثم ترجمة العربية والسريانية إلى اللاتينية، وعهد معه هذه المهمة إلى ابراهيم الحاقلي الماروني الشهير والخوري يوحنا الحصري الذي صير فيما بعد أسقفًا، وقد قدمنا ذكره وأنبأنا فالريانوس دي فلا فيني معلم العبرانية في مدرسة باريس في رسائل نشرها لانتقاد طبعة لي جاي أنّ العلامة الصهيوني كان قد أعدّ مقالة مسهبة في الترجمة العربية، ولا نعلم ما الذي منعه عن اشهارها، وقد فرغ لي جاي من طبعته هذه سنة ١٦٤٥م.

على أنّ والتن العلامة الانكليزي الذي عني بطبع البوليكوتا في لوندرة سنة ١٦٥٧م قد انتفع كثيراً بأتعاب الصهيوني ورفاقه المواردنة المذكورين. وهذا ما قاله والتن في مقدماته على طبعته المذكورة في حق الصهيوني «إنّ هذا الرجل العظيم بذل تعباً شاقاً وكثير الفائدة لكل من يرغبون في أن يتضلّعوا باللغات الشرقية والأسفار المقدسة. ومن لم يقرّ له بالفضل كان غامطاً الاحسان، فنحن نعترف بفضلته ونرى أنه يلزم الجميع أن يؤدوه شكراً لا ينقضي». وله أيضاً ترجمة كتاب الزبور من العربية إلى اللاتينية طبعه بروما سنة ١٦١٤م. وكتاب في نحو اللغة العربية طبع بباريس سنة ١٦١٦م. وترجمة جغرافية أبي عبد الله محمد الادريسي من العربية إلى اللاتينية طُبعت بباريس سنة ١٦١٩م ومقالة في بعض مدن الشرق ودين أهلها وعاداتهم وخصالهم عاونه على بعض هذه التأليف الخوري يوحنا

الحصريون المار ذكره، وطبعه بباريس سنة ١٦٢٥م بالعربية واللاتينية. وفي المكتبة الماديشية نسخة من هذا الكتاب مخطوطة بيد الصهيوني نفسه سنة ١٦١٢م كما يظهر من الحاشية المعلقة على آخرها، قد ذكرها المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في هذه المكتبة. وروى أكثر ما رويناه من ترجمة الصهيوني هنا وقال إنه توفي بباريس سنة ١٦٤٨م وكذا ذكر وفاته دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان. انتهى.

عد ١٠٢٩

العلامة ابراهيم الحاقلي

وُلد هذا العلامة ونشأ بقرية حاقل من عمل جبيل بلبنان وتلقّى العلوم بمدرسة المواردنة بروما فنبغ وفاق أقرانه وعلم العربية والسريانية أولاً بروما، وقد عهد إليه الأب لي جاي في طبع البوليكوتا الباريسية بما عهد به إلى الصهيوني والحصريون المار ذكرهما. ومن مؤلفاته ترجمة كتاب ابن الراهب المصري القبطي في التاريخ الشرقي والحاقه بترجمته مقالات مسهبة في تاريخ العرب وأنسابهم، وقد طبعه بباريس سنة ١٦٥١ ومنها ترجمته قصيدة عبد يشوع الصوباوي المشهورة في المؤلفين البيعيين إلى اللاتينية وشرحه لها وحواشيه عليها، طبعت بروما سنة ١٦٥٣م وقد شرحها العلامة السمعاني بعده في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية، واستدرك على الحاقلي قوله في محال كثيرة. وقد شرح السمعاني أيضاً كتاب ابن الراهب المذكور وانتقد على الحاقلي في عدة مواضع. وللحاقلي أيضاً كتاب في نحو اللغة السريانية طبع بروما سنة ١٦٢٨م وترجمة الكتاب الخامس والسادس والسابع من تأليف ابولونيوس في الهندسة من العربية إلى اللاتينية اقترح عليه هذه الترجمة فردينوس الثاني دوق توسكانا. وله أيضاً مختصر في الفلسفة الشرقية طبع بباريس سنة ١٦٤١م وترجمة قوانين القديس انطونيوس الكبير ومواعظه وأجوبته من العربية إلى اللاتينية وطبع هذه الترجمة بباريس سنة ١٦٤٦م. وله ترجمة ديوان الحيوان للسيوطي إلى اللاتينية.

ولللحاقلي أيضاً كتاب الانتصار لافتيشوس أي سعيد بن بطريق، ذلك أن

السلداني ترجم كتاب سعيد هذا إلى اللاتينية، وادّعى في مقدمات ترجمته أنه أثبت في كلامه على المراتب البيعية أنّ درجة القسوس والأساقفة واحدة، وهذا من مزاعم لوتار وكلوين والسلداني من مشاييعهما، فردّ الحاقلي زعم السلداني منتصراً لسعيد البطريك الاسكندري بكتاب انطوى على مئتين واثنين وأربعين صفحة مفنداً أدلة السلداني ومبيّناً بشهادة الكتاب والتقليد الثابت في الكنيسة منذ نشأتها أنّ درجة الأساقفة غير درجة القسوس، وهي تفوقها مقاماً وسلطة بموجب الوضع الألهي، وإنّ كلام سعيد لا يؤخذ منه ما توهمه السلداني. وألحق بهذا الكتاب جزءاً آخر اشتمل على نحو من خمس مئة صفحة تكلم فيه على أصل كلمة بابا ورياسته مضاداً فيه السلداني المذكور. ومما قاله في اسم البابا نقلاً عن مؤلفين نصارى ومسلمين أنّ هذا الاسم اصطلح عليه أولاً بطاركة الاسكندرية واستشهد في جملة شهوده أبا بكر العباسي: « في القسم الثاني من مقالته ضد النصارى » حيث قال: « فإنّ القسوس والعامّة لما سمعوا أساقفتهم يسمون البطريك أباً قالوا في نفوسهم: إذا كنّا نحن نسمي الأسقف أباً والأسقف يسمي البطريك أباً فيجب علينا أن نسمي البطريك بابا أي الأب أي الجد إذ كان أباً لأبينا. ثم لما سمعوا الأساقفة والبطاركة يسمون صاحب رومية أباً قالوا في أنفسهم إذا كنّا نحن نسمي البطريك أباً والبطريك يسمي صاحب رومية أباً فيجب علينا نحن أن نسمي صاحب رومية بابا، فعرف صاحب رومية بهذا الاسم دون غيره إلى الآن عند أهل النصرانية جميعاً ». والأظهر أنّ هذا الاسم أخذ عن السريانية **ܐܒܐ ܕܐܝܬܐ** أي أبو الأب وهو الجد على أنّ اختصاص الأبحار الرومانيين به لم يكن بأمر بل كان من باب التغلب والاستحسان. وللحاقلي في آخر هذا المؤلف ردّ على هوتنجارس في كلامه في تاريخ العرب.

وللحاقلي أيضاً ترجمة قوانين المجمع النيقوي المعروفة بالقوانين العربية لأنها أخذت عن كتب عربية، فالحاقلي عارض هذه القوانين على ست نسخ عربية منها، وترجمها إلى اللاتينية وأشهرها مطبوعة. فمن هذه القوانين باليونانية واللاتينية عشرون قانوناً، لكن الشرقيين يعزون إلى المجمع المذكور أربعة وثمانين قانوناً وتتداولها أيدي الشرقيين أي الملكية والموارنة والقبط واليعاقبة والأحباش والساطرة، ومنها ثلاثة وسبعون قانوناً ترجمها ماروتا أسقف تكرنيت في أواخر القرن الرابع من اليونانية إلى السريانية كما روى عبد يشوع الصوباي في مختصر القوانين،

وأضاف إليها بعض المؤلفين العرب (لا نعلم من هم) أحد عشر قانوناً فصارت أربعة وثمانين قانوناً. وقد دافع الحاقلي عن هذه القوانين في كتيب أشهره وهو مثبت في مجموعة الجامع للاباي (مجلد ١١). وذكر مرهج بن نieron الباني الماروني في كتابه افوليا (سلاح) الايمان وأثبتها الأب كونزالس اليسوعي في كتابه عصمة الأحبار الرومانيين، ولكن نبذا غيرهم من العلماء ولم يعتدوا نسبتها إلى المجمع النيقوي صحيحة .

وقد توفي الحاقلي بروما في ١٥ تموز سنة ١٦٦٤م، ونقلت كتبه إلى المكتبة الواتيكانية بعد وفاته وذكرها السمعاني في فهرست الكتب الذي علقه على المجلد الأول من المكتبة الشرقية وعددها أربعة وستون كتاباً .

عد ١٠٣٠

مرهج بن نieron الباني

أما مرهج فولد بيان احدى قرى جبة بشري ويسميه الغريون فافسطوس ترجمة كلمة مرهج . وروى دي لاروك أنّ خاله ابراهيم الحاقلي المار ذكره أخذه إلى روما وتلقى العلوم في مدرسة الموارد بها، وحاز قصبات السبق وأقامه الكرسي الرسولي استاذاً للغة السريانية في مدرسة السايانسا (الحكمة) الكلية في روما خلفاً لخاله ابراهيم الحاقلي . ثم صار قانونياً في كنيسة القديس اوسطاكيوس هناك ولم يشغله ذلك عن الانصباب على التأليف والتصنيف وتنقيح كتب طائفته البيعية والعناية بطبعها . ومن تأليفه كتابه في أصل الموارد ودينهم واسمهم وهو مشهور واستشهدنا به مرات في خلال تاريخنا هذا . وقد طبع بروما سنة ١٦٧٩م وله كتاب آخر واسمه بافوليا (أي سلاح) الايمان الكاثوليكي، وقد استشهدنا به أيضاً مرات وقد طبع بروما سنة ١٦٩٤م جمع به من كتب السريان والكلدان القديمة البينات الراهنة على صحة الايمان الكاثوليكي خلافاً للبروتستانت، وقد عني بتنقيح الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، وطُبعت بمناظرته بالسريانية والعربية بأحرف كرشونية بروما سنة ١٧٠٣م، وأضاف إليها مقدمة كثيرة الفائدة دالة على فقاته وطول باعه، وعاونه على تصحيح هذه الطبعة القس يوسف الباني الماروني مدرّس اللغتين

السريانية والعربية في مدرسة نشر الايمان المقدس . وقد أخذت الطبعة السريانية عن نسخة كانت في مدرسة الموارد بروما مرسله من بطريركهم إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر (لم يذكر مرهج في مقدماته اسم البطريرك مرسل هذه النسخة ، ويلزم أن يكون ميخائيل الرزي أو أخوه سرقيس الرزي فهما كانا في أيام البابا المذكور) وهي الترجمة السريانية المعروفة بالبسيطة التي استعملتها طائفتنا من أقدم الأيام . وأما العربية فكان الأب ميخائيل المطوشي قد أتى بها من جزيرة قبرص ، وكانت أكثر تهذيباً وضبطاً من سائر النسخ التي عورضت بها ، وهي لا تطابق السريانية المطبوعة معها كل المطابقة كما لاحظت ذلك ، ولكنها لا تختلف عنها حتى يصح القول أن هذه العربية ترجمت عن اليونانية ولا مزية في أنها عن السريانية ، وتقرب من النسخة التي هذبها المطران سرقيس الرزي وطُبعت مع اللاتينية العامية سنة ١٦٧١م بروما ، وتختلف كثيراً عن العربية المطبوعة في البوليكلوتا كما تأكدت بمعارضتي هذه النسخ لدن وجودي في روما . وعن طبعة الأب مرهج هذه أخذ المطران جرمانوس فرحات النسخة التي عرّبها والمستعملة الآن في طائفتنا ، ولدى كتابتي تفسير الانجيل زدتها مطابقة للسريانية وأوعزت إلى الأب يوسف العلم لما كان رئيس دير الكريم للمرسلين ، فصنع كذلك في كتابه تفسير رسائل القديس بولس الرسول وباقي الرسل .

وروى دي لاروك (في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان صفحة ١٢٩) إنه كان بينه وبين مرهج مكاتبة وأثنى على رسائله وأنه كتب إليه في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠١م أنه كان مشتغلاً بطبع العهد الجديد بالسريانية والعربية وقد أنجز طبعه فيما بعد . وإنه توفي سنة ١٧١١م وعمره نحو ثمانين سنة مشهوراً بتقواه ومهارته بالعلوم الشرقية وأنه يرغب في أن يكون كاهناً اتضاعاً بل كان شماساً وقانونياً في كنيسة . . . (ترك اسم الكنيسة بياضاً ونعلم أنها كنيسة القديس اوسطاكينوس روما كما مرّ) ، ونرى مرهج في عناوانات كتبه لم يصف نفسه بكاهن أو قس . ولكن رأينا الدويهي يقول في تاريخ سنة ١٦٥٦م: « دخل إليه (أي إلى البطريرك يوحنا الصفراوي) القس مرهج بن نيرون فوجده ملقى على الأرض والنور ينبعث من وجهه » ولا نعلم أصحاب الترجمة أراد أم غيره يسمى باسمه في سنة ١٦٥٦م التي كان فيها ذلك رسنة ١٧١١م التي توفي صاحب الترجمة فيها خمس وخمسون سنة أبقى مرهج كل هذه المدة كاهناً ولا

عجب إذا كان عاش ثمانين سنة وكان ارتقاؤه إلى الكهنوت وعمره خمس وعشرون سنة . انتهى .

عد ١٠٣١

مشاهير آخرون بالغيرة والنسك

إن من اشتهروا بالغيرة والنسك لجديرون بالذكر كالعلماء فهم أصحاب الفلسفة الروحية الحقّة ، ومن هؤلاء من الموارنة في القرن السابع عشر انطونيوس الصهيوني الاهدني، والذي نعلمه من أمره أنه تلقى العلوم في مدرسة الموارنة بروما كما روى المطران اسطفانوس عواد السمعاني (في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٥١) ثم اتخذ الطريقة الرهبانية ورقى إلى درجة الكهنوت بل صار رئيس كهنة اوبرديوط لأنّ المطران اسطفانوس وصفه بكلمة رئيس كهنة في ترجمة كلامه الذي وضعه على الكتاب الآتي ذكره وهو كتاب الأناجيل ورسائل بولس الرسول وباقي أسفار العهد الجديد حتى رؤيا يوحنا . وقد نسخه بالعربية والأحرف الكرشونية نسبةً إلى رجل اسمه كرشون من الجزيرة ، كان أول من كتب العربية بهذه الأحرف السريانية فأخذ النصارى يكتبون الأسفار المقدسة بهذه الطريقة ليخفوا أسرار دينهم عن المسلمين العرب ، هذا ما ذهب إليه الصهيوني ومرهج الباني والمطران اسطفانوس عواد في كتابه المذكور . وكان هذا الكتاب في جملة الكتب التي أخذت عنها طبعة أسفار العهد الجديد التي عني بها مرهج الباني المذكور سنة ١٧٠٣م . وكان انطونيوس الصهيوني نسخه قبل تسعين سنة بأمر البابا بولس الخامس ويوحنا مخلوف بطريك الموارنة عن كتب كانت بمدرسة الموارنة كما هو بيّن من الدليل الذي علّقه انطونيوس المذكور على آخر هذا الكتاب وهو : « في سنة ١٦١١م في السادس والعشرين من حزيران كان النجاز من نسخ هذا الكتاب في أيام آبائنا بولس الخامس الحبر الروماني الكلي الطوبى والبار يوحنا (مخلوف) الاهدني البطريرك الانطاكي الذي كرسيه بلبنان وتمتد سلطته الروحية إلى سورية كلها والامصار القاصية ، وهو مشتمل أسفار العهد الجديد أي الأناجيل . . . بيد الحقير انطونيوس بن اوفيمياني (كذا) الصهيوني رئيس الكهنة ، والراهب من اهدن بجبل لبنان السرياني الماروني الذي كتب بأمر الرؤساء فصول الأناجيل الأربعة

وسائر أسفار العهد الجديد بحسب تقسيمها وعددها في النسخة العامة الرومانية
أخذاً إياها عن ثلاث نسخ كانت في مدرسة الموارد بروما. وقد دوّن هذا المجلد
السيد الشريف يوحنا راتموندوس المشهور بمعرفة اللغات الشرقية .

وقد نسخ انطونيوس الصهيوني القسم الأول من فلسفة السريان المشتغل على
أربعة كتب وهي كتاب الایساغوجي لبرفيريوس وثلاثة كتب من تأليف أرسطو
الفلسفية . وهذه الكتب ترجمها حنين بن اسحق السرياني الطبيب من اليونانية إلى
السريانية ، والكتاب الذي نسخه الصهيوني هو في المكتبة الماديشية في عدد ١٧٦
وصفحاته ٣٥٠ صفحة . ونسخ أيضاً القسم الثاني من فلسفة السريان وهو يشتمل
على تسع مقالات فلسفية لأرسطو وهو لحنين بن اسحق أيضاً ، ونسخه الصهيوني
في عدد ١٧٧ من المكتبة المذكورة وعدد صفحاته ٢٠٨ . وله أيضاً نسخ القسم
الثالث من فلسفة السريان لحنين المذكور أيضاً وهو في عدد ١٧٨ من المكتبة
المذكورة منطوياً على ٢٠٠ صفحة . وله أيضاً نسخ القسم الرابع من هذه الفلسفة
لحنين في الفصاحة والشعر عدده في المكتبة المذكورة ١٧٩ وصفحاته ٣٩٥ . وهذه
الكتب الأربعة بالسريانية . وفي هذه المكتبة أيضاً الكتاب ٢٧٤ مقالة في الحساب
والجبر بالعربية لأبي عبد الله أحمد شهاب الدين بن أبي جعفر (الذي كان في
أواخر القرن الرابع عشر) ، ومقالة في الخطوط الهندسية لأحمد بن علي . والمقالتان
بخط انطونيوس الصهيوني . وهذا الكتاب يشتمل على ٢٤١ صفحة . فهذا ما
علمناه من ترجمة هذا العالم العامل .

وقد ذكر الدويهي في تاريخه عدة من أصحاب الفضل والنسك ، فمنهم القس
يعقوب الدويهي رئيس دير مار يعقوب باهدن ، وقال إنه كان ورعاً فاضلاً عني
بناء الدير المذكور وتعليم الأولاد ، وتوفي سنة ١٦١٦ م . ومنهم الخوري ميخائيل
الاهدني الذي أخذ طريقة الحبسا بمحبسة مار ميخائيل في وادي قزحيا التي بناها
أولاً القس بركة ، ثم خلفه فيها القس موسى من اليمونة ، وبعده القس يعقوب من
بلاد البترون ثم القس ميخائيل ثم القس يوحنا ، ثم القس ميخائيل ، ثم القس
جبرائيل ثم الخوري ميخائيل المذكور ، وجميع هؤلاء من اهدن . وتوفي الخوري
ميخائيل سنة ١٦١٧ م وخلت المحبسة بعده من الحبسا .

ومنهم القس يوحنا ابن القس يوسف محاسب من غوسطا الذي اهتم سنة
١٦٢٨ م بتجديد بناء دير مار شليطا مقبس بكسروان وهو أول الأديار الجديدة في

كسروان ، وكان أخوه القس سركيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إلى مار شليطا المذكور . وتوفي القس يوحنا سنة ١٦٤٠م وقام بالرئاسة بعده أو في حياته ابن أخيه الخوري سركيس . وسيأتي ذكره عند الكلام على هذا الدير .

ومنهم القس يوسف ابن القس اصاف عن عرامون الذي بنى كنيسة مار عبدا هريريا في فتح كسروان ، ثم كنيسة السيدة هناك . ولبس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا وأختهم رفقا وسيأتي ذكرهم .

من هؤلاء خاصة مؤسسو الرهبنة الحلبية اللبنانية وهم جبرائيل حوا وعبد الله بن عبد الأحد قرآلي ويوسف بن اليتن ، فهؤلاء ألهمهم الله أن ينشعوا رهبانية قانونية عامة فخرجوا من حلب سوية سنة ١٦٩٣م وساروا توالاً إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة والتبرك بها . ثم امتثلوا أمام السيد البطريرك اسطفانوس الدويهي في أول شباط سنة ١٦٩٤م وكاشفوه بعزمهم على إقامة رهبانية تستسير بقانون واحد ويرأسها رئيس عام واحد ، ويكون لكل دير من أديارها رئيس خاضع لسلطان الرئيس العام ويرتبط رهبانهم بنذور الطاعة والعفة والفقر الاختياري والاتضاع على اسم القديس انطونيوس أبي النساك ، فشّر البطريرك بعزمهم وشكر لمساعدتهم ولبّي دعوتهم وأبقاهم عنده . وفي اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ١٦٩٥م ألبسهم الزي الرهباني في دير قنوين على سبيل التجربة قبل ابرازهم النذور ، وسلم إليهم دير القديسة مورا حذاء اهدن ليصلحوا بناءه وقيموا به . ولحق بهم في آخر سنة ١٦٩٥م جبرائيل فرحات ، وكان من عصبتهم بل زعيمهم . وجعلوا أحدهم جبرائيل حوا رئيساً عليهم وشرعوا في انشاء هذه الرهبانية ودعوا إليها باشتهار قداستهم وفضائلهم ، فأتمهم كثيرون للترهب معهم . ورقى البطريرك رئيسهم إلى درجة القسوس وأخذوا يجمعون لهم قانوناً من وصايا القديس انطونيوس وتلامذته ، وأخذوا سنة ١٦٩٦م دير اليشاع النبي حذاء بشري وسكنه بعضهم ورأسوا عليه عبد الله قرآلي بعد أن رقي إلى درجة القسوس . وعندما عقدوا مجمعهم العام سنة ١٦٩٩م انتخبوا القس عبدالله هذا رئيساً عاماً بدلاً من القس جبرائيل حوا ، وثبت البطريرك اسطفانوس الدويهي قانون رهبانيتهم سنة ١٧٠٠م وسنعود في تاريخ القرن الثامن عشر على ذكر هؤلاء الأفاضل .

وقد نسل في لبنان في هذا القرن الحبيس فرنسيس كالوب دي شاستويل الفرنسي ، وذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٢م حين قدم إلى لبنان ، وفي سنة

١٦٤٣م حيث توفاه الله لرحمته. وروى دي لاروك ترجمته مطبولة في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان من صفحة ١٥٢ إلى صفحة ٢٦٠ فنلخص ترجمته عنه بإيجاز. فقد وُلد باكس من فرنسة في ١٩ آب سنة ١٥٨٨م وظهرت عليه امارات التقوى منذ حداثته، ودرس من جملة علومه اللغة العبرانية وأتقنها وعلّق ملاحظات على النسخة السامرية من التوراة، وأرسلت هذه النسخة وملاحظاته إلى جبرائيل الصهبيوني الماروني لتعلّق في البوليكوتا الباريسية المتقدّم ذكرها. وكان هائماً بمطالعة الأسفار المقدّسة، علامة بتفسيرها، فقصد أن يعتزل بفلسطين بعيداً عن الناس ناسكاً متكاملاً بعلم الأسفار المقدّسة. واتفق أنّ سفير فرنسة بالآستانة كان مسافراً إليها فسافرا معاً من مرسيليا في ٢٠ تموز سنة ١٦٣١م فأقام فرنسيس مدة في الآستانة مجاناً للناس. ومع ذلك ظهر فضله وعلمه وعرف اليهود بمهارته بلغتهم العبرانية وتضلعه بمعرفة الأسفار المقدّسة فأكثروا من التردد إليه والاعجاب به، وأهدى أحدهم وكان أعلمهم إلى الايمان القويم وأرسله إلى فرنسة موصياً أخاه به. ونما عرف فضله وعظم اجلال الناس له من كل طبقة وملة فتعمد الخروج من الآستانة فسافر منها في ٢٠ تموز سنة ١٦٣٢م وبلغ إلى صيدا وعزم أن يتنسك بلبنان فسار إلى بيروت ومنها إلى لبنان فبلغ إلى حصرون في ١٥ ايلول تلك السنة، وليس زي الموارنة وسار من حصرون إلى اهدن ليستشير بأمره أسقف هذا البلد الذي كان حينئذٍ جرجس عميرة، فقبله بالترحاب وأمسكه عنده أربعين يوماً، وكان يودّ لو بقي دائماً عنده، لكنّه أيقن أنّ الله يدعوه للانفراد عن العالم. وكان البطريرك والأساقفة حتى الأمير فخر الدين قد أرسلوا يترحبون به، فمضى يزورهم مبتدئاً بالأمير فخر الدين ثم البطريرك والأساقفة وقابله الجميع بالاجلال والاحتفاء ولا سيما البطريرك يوحنا مخلوف الذي أمسكه عنده أياماً، وكاشفه فرنسيس بعزمه على الانفراد عن العالم للتوبة والنسك وسأله أن يقبله في عداد أبنائه، فعجب البطريرك به ووطّد عزمه وباركه فانصرف من عنده يزور الأرز، وعاد إلى اهدن التي فضّل الإقامة بها ليتعلّم اللغة السريانية ليطالع الأسفار المقدّسة بها، وكان باهدن حينئذٍ كاهن فاضل من رهبان قزحيا اسمه القس الياس اعتزل عن الناس في محل قريب من اهدن، فأثر فرنسيس السكنى بالقرب إليه في دير مار يعقوب المنقور بالصخر وعزم أن لا يخرج إلّا لضرورة قصوى. وعاش هناك عيشاً قشفاً صارماً صارفاً أوقاته بالتأمل والصلوة والمطالعات الروحية مانعاً نفسه من أكل اللحم وشرب الخمر مكثراً الصوم إلى الساعة الرابعة بعد الظهر مقتنعاً يوم الأربعاء والجمعة

والسبت من كل الصوم بالخبز والماء لا غير، ينام قليلاً (إذا اضططر إلى الراحة) على فراش خشن. ولما كانت الحملة على فخر الدين كما مرّ وفرّ سكان القرى اضطّر فرنسيس أن يفرّ أيضاً مع القس الياس المذكور وأن يختبئ في المغاور والكهوف ويعانينا مشاق الجوع والعطش. ولما استكن عاصف القلق في البلاد عاد إلى نسكه وتقشفاته، وقصده بعض التجار الافرنج وأرادوا أن يدفعوا له مالاً يستعين به على معاشه فلم يقبل شيئاً. وكانت مطالعته لأسفار العهد القديم بالعبرانية ولأسفار العهد الجديد باليونانية والسريانية التي تعلمها. ولما صير القس الياس مطراناً على اهدن (هو الذي ذكرناه في جملة الأساقفة وقتلنا أنه من عائلة الصراصرة) وسكن في دير مار سركيس اهدن أسكنه معه واستمر عاكفاً على اماتاته وصلواته ثم انتقل المطران من اهدن فلم يشأ الحبيس أن يرح مخدعه في الدير إلى أن أتى الأب شالستينوس رئيس الكرملين في لبنان فأقنعه أن يترك هذا الدير ويأتي فيسكن معه في دير مار اليشاع، فأتى ولكن لم يشأ أن يغيّر شيئاً من عيشته النسكية وصلواته وتأملاته حتى كان الرهبان يتعجبون كيف يمكن شخصاً ربي بالتنعم أن يعيش مثل هذه العيشة الخشنة. ومرض أخيراً فتحمل أوجاعه بالصبر الجميل والهشاشة والتسليم لمشيئة الله والاشتياق إلى ملاقة ربه الذي نقله إلى الحياة الخالدة مع النساك المجاهدين في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م ليلة عيد العنصرة، ودُفن بدير مار اليشاع المذكور. وذكر دي لاروك أنّ الله صنع بواسطته آيات كثيرة في حياته وبعد وفاته.

والذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّه استحبس أولاً بدير السيدة بحوقا ثم بدير مار يعقوب الأحباش، ثم بدير مار سركيس على رأس النهر في رئاسة الأسقف الياس. ولما سكن هذا الأسقف في اهدن انتقل الحبيس إلى دير مار اليشاع في بشري وانتقل إلى الراحة التي لا زوال لها. وكان عبدة صالحة لأهل البلاد وبلغ أسمى المراتب بالورع والصوم والسهر وتلاوة الكتب وفي قمع جسده وتجرده عن العالم وتعلقه بالإلهيات حتى صدر منه معجزات وسبق فأنبا بمزمعات. انتهى.

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

عد ١٠٣٢

الأديار

من الأديار التي جدّدها أو أنشأها الموارنة في هذا القرن دير مار شليطا مقبس بكسروان ، والظاهر من عبارة اندويهي أنّ هذا الدير لم يكن حينئذ أول انشائه لأنه قال بتاريخ سنة ١٦٢٨م: « اهتم القس يوحنا ابن القس يوسف المدعو المحاسب من قرية غوسطا بتجديد بناء دير مار شليطا في أرض مقبس ببلاد كسروان وصار أول الأديار التي أنشئت في تلك البلاد » .

وكان أخوه القس سركيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إليه . وقال في تاريخ سنة ١٦٧٢م عندما سقطت كنيسة دير ما شليطا بمقبس جدّدها الخوري سركيس على يد البتّا القس جرجس الأميوني الماروني ، وفي جانبها من جهة الشمال بنينا (يتكلم الدويهي عن نفسه) داراً لسكنى البطارقة إذا توجهوا إلى تلك الناحية . وفي المشرق نقلاً عن رسالة كتبها الخوري يعقوب عواد الذي صير بعداً بطريكاً أنّ جد بيت المحاسب المسمى باسيل من ميناء طرابلس رحل مع أولاده إلى ساحل علما ثم إلى غوسطا ، وإنّ أحد أولاد باسيل هذا المسمى سركيس ارتقى إلى درجة الكهنوت وكان خبيراً بالحساب فلّقّب محاسب ، ومن نسله الخوري يوسف وولده الخوري يوحنا الذي جدّد بناء هذا الدير . وقد أنبأنا صاحب الرسالة المذكورة أنّه كان في المحل الذي بنى الدير فيه كنيسة قديمة اشتراها الخوري يوسف المذكور مع الأرض الكائنة فيها من أبي يوسف المقيّر من غوسطا سنة ١٦١٥م ، ولا يعلم في

أي وقت بُنيت الكنيسة القديمة على اسم القديس شليطا ، وأما بناء الدير فقد نُقش تاريخه على عتبة باب الكنيسة الغربي هكذا: « بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد كمل عمار هذا الدير المبارك مار شليطا في أيام سيدنا البطريرك حنا (مخلوف) الانطاكي في تاريخ سنة ألف وستماية وثمانية وعشرين مسيحية بيد المعلم نقولا الشامي . وكان المعتني الخوري المحاسب والخوري عطيا والخوري فرح والقرايا القرية غوسطا ودرعون وبطحا وعجلتون وعشقوت » . وتوفي القس يوحنا في ٢١ تموز سنة ١٦٤٠م وترك رئاسة الدير لابن أخيه الخوري سركيس ، وكان القس حنا متزوجاً قبل أن يصير كاهناً وله ولد اسمه الشدياق الياس بنى كنيسة القديس سمعان العمودي في قرية غوسطا كما في إحدى نسخ تاريخ الدويهي لسنة ١٦٤٥م، حيث يقول اعتنى الشدياق ايلياس ابن القس حنا المحاسب مع أهل غوسطا وجددوا كنيسة مار سمعان . وكان دير مار شليطا لسكنى الرهبان والراهبات كما كان في بعض الأديار قبل رسم المجمع اللبناني بالفصل بين الرهبان والراهبات . وكان بجانبه مسكن للبطاركة (قبل أن يزيده الديهي) . ومن سكنه منهم البطريرك جرجس السبعلي ، وتوفي فيه بالطاعون فلم يُدفن في الكنيسة بل خارجها ومدفنه قائم حتى الآن نُقش عليه تاريخ وفاته . وقد زاد البرديوط سركيس الرقوم هذا الدير أملاكاً وشهرة .

وأقام الدويهي فيه مدة فأنشأ فيه مكتبة فجعل الرهبان ينسخون كتباً ، وجمع غيرها وبقي إلى الآن قسم منها وقسم اغتالته أيدي الضياع . وتوفي سركيس البرديوط رئيس هذا الدير سنة ١٦٨١م وترك الرئاسة لابن أخيه القس يوحنا ، وكان في هذا الدير الأسقف يوحنا محاسب رقاہ الدويهي إلى أسقفية عرقا سنة ١٦٩٨م وأقام في هذا الدير وتوفي به سنة ١٧١٢م كما مرّ في الكلام على الأساقفة .

ومن هذه الأديار دير حراش ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٣م فقال اشترى الأسقف يوسف العاقوري (هو الذي صار فيما بعد بطريركاً) من الشيخ يوسف أبي حبيش أرض مار يوحنا حراش بخراج درعون بناحية كسروان ، وأنشأ كنيسة جميلة على اسم السيدة العذراء وديراً جعله لسكنى الراهبات المنتسكات وبلغ عددهنّ إلى نحو ثلاثين راهبة، ورأس عليهنّ رفقة ابنة القس يوحنا المحاسب . وبعد وفاة هذه الرئيسة خلفتها في الرئاسة على هذا الدير ابنة أختها مريم ، وكتب

البطريك الدويهي إلى القس يوحنا رئيس دير مار شليطا وإليها رسالة لفصل خلاف كان بينهما تراها في «المشرق» (صفحة ٣٠٢ من السنة الخامسة). وفي سنة ١٦٤٤م عقد البطريك يوسف العاقوري مع أساقفته مجمعاً في هذا الدير لأصلاح بعض العوائد البيعية. وسنأتي على ذكر هذا المجمع.

ومنها دير مار سركيس وباخوس في ريفون، وأول من أنشأه القس سليمان مبارك من غوسطا. وكان هذا الكاهن مزوجاً وله سبعة بنين، فبعد وفاة امرأته رغب هو وبنوه الاعتزال عن العالم في أحد الأديار فأتوا أولاً دير مار شليطا حيث أقاموا بعض سنين منضوين إلى رهبان هذا الدير، ثم انفصلوا عنهم وأتوا إلى ريفون سنة ١٦٥٥م فأنشأوا الدير القديم على خربة معبد كانت هناك، وقضوا حياتهم فيه مثابرين على النسك والعمل بما يعود عليه بالنفع إلى أن توفي القس سليمان سنة ١٧١٣م كما يظهر من الخط المنقوش على ضريحه في الدير المذكور. ومن أبنائه المطران يوسف مبارك الذي انتخب بطريكاً بعد تنزيل البطريك يعقوب عواد سنة ١٧١٠م، ثم حكم الكرسي الرسولي بارجاع البطريك يعقوب وأبطل انتخاب المطران يوسف إلى البطركية.

ومنها دير مار عبدا هريريا وقد ذكر الدويهي انشاءه فقال في تاريخ سنة ١٦٥٥م: «فيها اهتم القس يوسف ابن القس اصاف من قرية عرامون وبنى كنيسة مار عبدا هريريا في طرف فتوح جبيل ثم كنيسة السيدة قبوا، ولبس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا ثم أختهم رقفا ثم أبوهم وأمهم بعد أن تتركوا حقوق الزواج بينهما برضاها، وإذن مطران الأبرشية، وانقطعا عن العالم ووقفوا كل ما يملكانه للدير راغبين في الفقر، وفي أن يكونوا جميعاً طائعين للقس يوسف إلى نهاية حياة كل منهم، وصاروا عبرة صالحة للناس باتخاذ الطريقة الرهبانية وبالسيرة الصالحة والعبادة والورع إلى نهاية عمرهم.

ومنها دير مار الياس النبي في غزير، بنى هناك الشيخ طريه بن حبيش كنيسة على اسم ايليا النبي في أسفل غزير، ووقف لها بعض العقار، ثم بنى حذاء الكنيسة بعض مساكن فصارت ديراً، وكان ذلك نحو سنة ١٦٦٥م. وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٣م رام المشائخ الحبيشية أن يبيعوا للرهبان الكبوشيين كنيسة مار الياس التي بنوها في أسفل غزير فمنعناهم عن ذلك، ولكن سمحنا لهم

بأن يقيموا بها خمساً وعشرين سنة . وفي سنة ١٦٧٠م جدد القس يوسف اصاباف المذكور آنفاً بناء دير سيدة الحقلة ، وقيل إنّ هذا الدير ودير مار عبدا هرهريا كانا مشتركين فحصل نزاع بين الخدام على حراثة الأملاك أفضى إلى فصل أحدهما عن الآخر برأي بطريك الطائفة وأساقفتها . وفي سنة ١٦٧٣م أنشأ المطران جبرائيل البلوزاوي دير السيدة في طاميش في جنوبي نهر الكلب ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ، ويظهر من خط كان منقوشاً على عتبة باب الدير القديمة أنّ الشيخ أبا نوفل الخازن وأولاده اعتنوا بينائه وتعب به القس عطالله وتلميذه من غزير .

وفي سنة ١٦٨٢م أنشأ الشيخ سلهب الحاقلاني دير السيدة بلويزه في خراج زوق مصبح وجعله لسكنى الرهبان العباد ثم ترهب فيه ولده القس اغناطيوس . وتسلم الدير ثم تسلمه الرهبان الحلبيون اللبنانيون سنة ١٧٠٧م وخصّ عند القسمة الرهبان الحلبيين .

وفي سنة ١٦٩٠م بنى القس خيرالله اسطفان دير عين ورقة في المحل المسمى المشرع ، ثم هطلت أمطار غزيرة فخربت ما بنى ، فجدد البناء في المحل الذي فيه الآن مدرسة عين ورقة الشهيرة ، وهذا الكاهن ارتقى فيما بعد إلى الأسقفية ودعي جرجس . وفي سنة ١٦٩٦م جدد الخوري جرجس صفيير وأخوه ناضر بناء دير القديس مارون في الرومية بجانب القليعات بكسروان الذي صار فيما بعد مدرسة كما سيجئ .

وفي سنة ١٦٩٠م جدد البطريك اسطفانوس الدويهي بناء دير مار سركيس اهدن فإنه قال في خط عُثر عليه في بعض نسخ تاريخه ما ملخصه : « أنّ بناء دير مار سركيس كان على قناطر ، ولما تزعزعت رممها ابن عمنا المطران بولس يمين ، ولما سكن في الدير ابن أختنا الخوري ميخائيل ردم قناطره ثم تداعى عماره فلم يسكنه أحد مدة ، فذُثر فوضعنا يدنا عليه وأزلنا القناطر كلها وأقمنا حائطاً متيناً في الوسط وعمرنا قوين في الداخل أمام كل كنيسة قبو ، وبنينا فوقهما قلالي وأقمنا الحائط الغربي من الأرض فصاعداً . وكان البناؤون أربعة من رشميا والمتكلم عليهم القس جرجس الأميوني الماروني من قرية أميون بالكورة » فهذا القس كان من الملكية فصار كاثوليكياً مارونياً . وكذلك ذكر الدويهي في الخط المذكور أنه في سنة ١٦٩١م جدد بناء دير القديسة مورا في اهدن بعد أن خرب ، فإنّ أبا ميخائيل

انطونيوس من أصنون ترهب فعمرنا له هذا الدير ثم أعطى الدويهي هذا الدير
للرهبان الحلبين عند تأسيسهم الرهبانية فرادوا في بنائه.

عد ١٠٣٣

ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بُنيت في هذا القرن

كنيسة السيدة في قرية بشعلة قال فيها الدويهي في تاريخ سنة ١٦٢٦م فيها
القس يوسف ابن القس حبيب من قرية بشعلة نقض بناء كنيسة السيدة وعقدها
قبواً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م فيها القس يوحنا بن الشمالي أنشأ بقرية درعون
ببلاد كسروان كنيسة القديس انطونيوس قبواً، وأخوه القس فرح بنى كنيسة
السيدة. وكان الأخوان ورعين ولهما اليد الطولى في نسخ الكتب البيعية. وفيها
نقض الشيخ أبو عماد بن الجميل كنيسة القديس عبدا في بكفيا وعقدها قبواً بثلاثة
أسواق بمساعدة أهل بكفيا على يد البتاء يوحنا الشامي. وكذلك القس بشارة من
بيت الحراط اهتم بتوسيع كنيسة الملائكة بقرية بكفيا أيضاً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م: «اهتم البطريرك يوحنا مخلوف فجدد كنيسة
القديسة مورا بقرية كفر زينا» بقيت هذه الكنيسة على ما كانت عليه إلى أيامنا.
ومن بعض سنين نقض أهل القرية البناء القديم وبدلوه بالبناء الحالي، وقد مدّيتهم
ببعض الاسعاف لأنها كنيسة القرية التي ربيت فيها. وقال الدويهي في تاريخ هذه
السنة أيضاً إنّ أهل كفرحاتا بالزاوية جدّدوا كنيستهم على اسم القدس ماما،
وكان هذا البطريرك منذ سنة ١٦٠٩م توجه إلى مجدل معوش بالعقوب الشمالي
وأقام بها مدة، وبنى هناك كنيسة السيدة الباقية حتى الآن على هيئتها القديمة.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٦م: «وفيها انتهى ببناء كنيسة السيدة بالعربانية من
قرى المتن وكرسها المطران يوسف بن حليب العاقوري مطران صيدا في السادس من
تموز، وكان المهتم ببنائها الشيخ عون المكارى وأبو عطاالله ابن القبرصي والحاج
ميخائيل أبو نعمه. وقال في تاريخ سنة ١٦٣٨م إنّ كنيسة الموارنة بأياس كانت قد
خربت وكنيستهم بحلب احترق سقفها مع الدرابزين، وقدم السلطان إلى حلب

فاستأذنوه في بنائهما فأذن به ، فجدد الموارنة جزوع كنيسة ايليا النبي بحلب ، وعمر الأرمن كنيسة باياس لتكون مشتركة بين الملتين المارونية والأرمنية .

وقال في تاريخ سنة ١٦٤١م إن كنيسة الموارنة بالكفریات بقبرص كانت قد رتعت بيد الروم لأن الروم أغروا الخوري جرجس خادمها وبعض أقربائه فاتبعوا مذهب الروم وأخذوا الكنيسة وصار حيثيذ الخوري بطرس خادماً لكفریات . وكان ذا نفوذ وغيره فاستفتى العلماء فأفتوا له أن الكنيسة لم تكن للخوري جرجس بل للموارنة ، فاستحصل خطأ شريعاً باعادتها إلى طائفته ، وفي هذه الأثناء بنى الشيخ أبو نوفل نادر الخازن كنيسة السيدة في عجلتون وعين جعلاً لكاهن يقدس بها كل يوم .

وقال في تاريخ سنة ١٦٥٤م إن القس جرجس ابن القس رزق الله البجاني أنشأ بمساعدة أهل بيت شباب كنيسة القديس جرجس في بحدق بقاطع بيت شباب ، وقال في تاريخ سنة ١٦٧٣م إن الشيخ أبا فارس وأخاه الشيخ أبا ناضر ابني الحاج أبي منصور الاهدني كاتب الأمير أحمد بن معن نقضوا كنيسة السيدة في دير القمر وعقدوها قبواً . وقال في تاريخ سنة ١٦٨٥م عن نفسه جددنا كنيسة مار عبدا على نهر الكلب (الدير المعروف الآن بدير مار عبدا المشمر) بعد أن كانت قد خربت من زمان طويل ، وأنشأنا في جانبها داراً تابعة لدار ما شليطا بمقبس .

وفي سنة ١٦٨٩م تم بناركنيسة مار الياس بغوسطا أنشأها الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن بجانب الدار التي بناها لنفسه بالقرية المذكورة .

ذيل

المجمع الذي عقده البطريرك يوسف العاقوري

في دير حراش

عقد هذا المجمع البطريرك يوسف العاقوري في ٥ من كانون الأول سنة ١٦٤٤م في دير حراش وُجِدت نسخة منه في هذا الدير، ولكن سقط منها ورقة مشتملة على بعض الكلام في سري التوبة والأوخاريسيا، ومنه نسخة أخرى في دير الرهبان الموارنة بروما، وقد أخذنا ملخص قوانين هذ المجمع عن نسخة حراش إذ لم نعر على غيرها، ونرى فيها بعض ما يخالف التهذيب المعمول به الآن منبهاً لنا بما كان في تلك الأيام. وإليك ملخص قوانين هذا المجمع معربة عن النسخة المذكورة.

أولاً في المعمودية هي سرّ من أسرار الكنيسة السبعة ويلزم أن يكون التعميد في اليوم الثامن بعد المولد وإذا دعت ضرورة فبعد أربعين يوماً، ويكون غسل الطفل بعد تعميده حالاً. ٢ لا يؤخر التعميد لغاية العزّاب أو لصنع حفلة أو تقديم هدايا. ٣ لا يُسمح أن يكون العزّاب من الهرطقة. ٤ لا يرشم الطفل (أي لا يُعمد دون تلاوة الصلوات التي في رتبة التعميد) إلّا عند خطر الموت، وإذا لم يوجد حينئذ كاهن أو شماس فيحق لأي رجل أو امرأة كان أن يعمّد بحيث يتلو الكاهن الكلمات الجوهرية وهو يسكب الماء على الطفل وهي: «أن أعمدك يا فلان أو يا فلانة بسم الآب والابن والروح القدس آمين» ومن عمّد كذلك لا يجوز إعادة صورة التعميد عليه بل تتلى عليه صلوات رتبة المعمودية ويُدهن بالميرون والزيت المقدّس ويُغسل للحال، وإن حصلت رية في صحة تعميده السابق فيعمّد ثانية. بقول المعمّد: «إن كنت لست معمّداً فأنا أعمّدك يا فلان الخ». ٥ لا يُستعمل

في التعميد إلا الماء الطبيعي صرفاً بارداً أم سخناً خلياً من العكر . ٦ يلزم الكهنة المعمدين أن يدونوا بسجل مخصوص اسم من عُمد واسم أبيه وأمه وعرايه وزمان تعميده .

في التثبيت هو سر من أسرار الكنيسة السبعة وخادمه هو الأسقف ويعطي هذا السر من كان عمره خمس سنين فصاعداً ويلزم تدوين أسماء المثبتين كأسماء المعمدين .

في الاعتراف هو سر من أسرار الكنيسة السبعة وهنا الورقة الساقطة وهي تشتمل على القوانين المتعلقة بسر التوبة وسر الأوخاريسيا وبعض القوانين المتعلقة بسر الزيجة إلى القانون السادس منها .

القانون السادس زواج أخوين بأختين وقطريب لقطريته (ريب لربيته) غير جائز إلا باذن السيد البطريرك (هذا مباح الآن) . ٧ كل من تعدى على خطيئة غيره أو استعان بحكام عالميين على ذلك أو رشاهم ومن يؤذن بهذا التعدي أو يأمر أو يرتضي به من أقربائها أو غيره فليكن ساقطاً بالحرم والكاهن الذي يكللهما فليكن محروماً (لطفنا الأيام هذا القانون) . ٨ كل من طلب أو أخذ رشوة من أهل العروس وأقربائه ليكن محروماً . ٩ لا يذهب العريس عند العروس بل يلزم الاكليل في بيت العريس . ١٠ كل من تزوج بامنة عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته أو بخالته امرأة أبيه أو بامراة عمه ومن أشبه كانت زيجته باطله والبطريرك يوضح بطلانها . ١١ من تزوج بامراة وماتت فلا يحل له أن يتزوج بينت عمها أو بنت خالته . ١٢ إذا شذ احد الزوجين عن دينه أو ثبت على المرأة الفسق أو جن أحدهما أو طرأ عليه مرض مهما كان فالزواج ثابت ولا طلاق إلا بالممات . ١٣ يمنع عقد الزواج من اليوم الأول من كانون الأول إلى الغطاس ومن الأحد الأول في الصوم إلى الأحد الجديد ولا يحل الزواج إلا من نهار الاثنين بعده وصاعداً . ١٤ المهر يكون برضى أهل العريس والعروس . ١٥ القرابة من جهة الميرون لا تمنع الزواج إلا في الوجه الأول أعني بين القابل والمقبول وبين أبي المعمد وأمه وبين الذي يعمد . ١٦ يلزم أن يكون في المعمودية عزاب وعزابة . ١٧ لا تكن زيجة بين ابن العرابة والبنت التي قبلتها أمه (أي فليونتي لابني كما هي حرفية كلام المجمع وقد حصر المجمع اللبناني القرابة الروحية بين العرايين وبين

المعمود وأبويه ثم بين المعتمد والمعتمد وأبويه لا سوى). ١٨ المعتمد أو الراشم لا يحل له أن يتزوج أم المعتمد أو المعتمدة. ١٩ المعتمد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعتمد أو الراشم. ٢٠ أبو المعتمد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعتمد. ٢١ المعتمد لا يحل له أن يتزوج بالبت التي عمدها. ومن تزوج خلافاً للقوانين المذكورة فُسَخَ عقد زواجه.

درجة الكهنوت القانون الأول الكهنوت سر من أسرار البيعة السبعة، وكل من ضرب كاهناً أو شدياقاً أو راهباً أو أهانهم محروماً ولا يحلّه إلا البطريك. ٢ إذا قدس كهنة جملة عن نفس ميت فالأولى أن يتشح كلّ منهم بأثواب التقديس ليفي الزامه بالقداس الذي أخذ حسنته (هذا القانون غير معمول به الآن ويكفي لباقي الكهنة أن يتشحوا بالدرعة والبطراشيل أو البطرشيل وحده. ٣ لا يجوز للكاهن أن يكون جانياً لمال الحكومة أو شيخاً لقرية أو يتقلّد فريضة من أحد ولا يجوز لأحد العامة أن يُكرمه على ذلك ومن خالف يؤدبه أسقفه. ٤ الرؤساء والكهنة يصير جنازهم وعليهم عدة التقديس كاملة ولا يكون دفنهم غير بالكتونة فقط. ٥ من تزوج بنتين واحدة بعد الأخرى أو تزوج بأرملة لا يصير كاهناً وكذلك من كان أعور أو مفلوجاً أو يقع في الهلة أو ارتكب القتل عمداً. ٦ وكيل كرسي قنوين يناط به تدبير أرزاقها دائماً وليس للبطريك أن يعزله إلا برأي المطارين. ٧ كل من صار مطراناً أو بطريكاً حرمت عليه المآكل المزفرة.

مسحة المرضى القانون الأول هي سر من أسرار البيعة ولا يُمسح المريض إلا عند خطر الموت. ٢ لا يتقاعدن أحد من الكهنة عن مسحة المريض المشرف على الموت لأنها سر ضروري لحماية نفس الميت من محاربة الشيطان. ٣ كل من مات محروماً بغير اعتراف لا يحل لأحد من الكهنة أن يجنزه ويدفنه في مقبرة مكرسة. في الميراث القانون الأول الارث لا يكون إلا بعد وفاء الدين وحسنة القداسات وباقي ما يلزم لدفن الميت. ٢ إذا مات رجل عن امرأة ووارث تعطى المرأة أولاً نقدها والثلث من متروكاته أي ثلاثة قرايط من أربعة وعشرين قيراطاً.

قوانين أخرى غير ما تقدّم

القانون الأول كل كاهن افرنجي عرّف وناول جماعتنا الموارنة بغير أمر البطريرك يكون محروماً ، وكل ماروني اعترف وتناول عند الافرنج أو غيرهم يكون محروماً .
ليس لأحد من الرهبان أن ينتقل من موضع إلى آخر دون اذن السيد البطريرك ، لا يتعدى أحد من الكهنة على رعية غيره في الأمور الروحية فليس له أن يعرف أحداً بغير اذن خوري الرعية إلا في ساعات الموت لتعميد طفل أو حل مريض مشرف على الموت .

وصايا الكنيسة

القانون الأول لا يجوز لأحد تناول الأطعمة المزفرة يومي الأربعاء والجمعة إلا ما وقع منها في عيد الميلاد إلى عيد الغطاس ومن القيامة إلى عيد الصعود . ٢ عيد التجلي وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد انتقال العذراء إذا وقعت يوم اربعاء أو يوم جمعة توكل فيها المأكّل المزفرة . ٣ الصوم الكبير يصام إلى الساعة التاسعة كالعادة ويلزم سماع القداس إذا وُجد وإلا فتلزم الصلاة . ٤ يبدأ في صوم الميلاد من اليوم الخامس من كانون الأول ويصام إلى الظهر وإذا وقع بدؤه يوم الأحد فيبتدى في الصوم يوم الاثنين . ٥ يتبدى بقطاعة الرسل في اليوم الخامس عشر من حزيران وفي قطاعة السيدة من أول يوم من شهر آب وإذا وقع بدؤها يوم الأحد لا يصام . ٦ على كل مسيحي أن يحضر القداس أيام الآحاد والأعياد المأمورة بطالتها ، ومن أهمل ذلك أخطأ خطأ مميتاً رجلاً كان أو امرأة .

وهذه هي الأعياد الواجبة بطالتها تشرين الأول في ٢٨ منه عيد القديس سمعان القانوني ويهوذا الرسول . تشرين الثاني في أول يوم منه عيد جميع القديسين وفي ٣٠ منه عيد القديس اندراوس الرسول . كانون الأول في الواحد

وعشرين منه عيد القديس توما الرسول وفي ٢٥ منه عيد ميلاد سيدنا يسوع المسيح وفي ٢٦ منه عيد السيدة والقديس اسطفانوس وفي ٢٧ منه عيد مار يوحنا الانجيلي . كانون الثاني في اليوم الأول منه عيد ختانة المسيح وفي السادس منه عيد الغطاس . شباط في الثاني منه عيد دخول المسيح للهيكل وفي التاسع منه عيد مار مارون البطريرك . آذار في ١٩ منه عيد مار يوسف خطيب مريم وفي الخامس والعشرين منه عيد بشارة العذراء . أيار في أوله عيد فيلبس ويعقوب الرسولين . حزيران في الرابع والعشرين منه عيد ميلاد يوحنا المعمدان وفي ٢٩ منه عيد القديسين بطرس وبولس . تموز في الخامس والعشرين منه عيد يعقوب بن زبدي الرسول . آب في السادس منه عيد التجلي وفي الخامس عشر عيد انتقال العذراء وفي الرابع والعشرين عيد برتلماوس الرسول . أيلول في الثامن منه عيد ميلاد العذراء وفي الرابع عشر عيد ارتفاع الصليب وفي الحادي والعشرين عيد متي الرسول وفي التاسع والعشرين عيد ميخائيل رئيس الملائكة .

وأما الأعياد المنتقلة فهي عيد القيامة وثانيه ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة وثانيه ، وعيد الثلاث الأقدس في الأحد الذي بعد العنصرة ، وعيد جسد المسيح وهو في الخميس الثاني بعد العنصرة ، وعيد كنيسة المحل . هذه هي الأعياد اللازمة البطالة بها وحضور القديس وعلى الكهنة أن يشهروا في رعاياهم وجوب البطالة في هذه الأعياد ويجهتدوا في حفظ ذلك . انتهت أعمال هذا الجمع ولم نجد في نسخة حراش المذكورة اسم الأساقفة الذين وقّعوا عليه أو شهوده بل قيل هناك أنه انتهى في اليوم الخامس من كانون الأول سنة ١٦٤٤م وعاد كل من المطارين إلى كرسيه والكهنة والرهبان إلى محلاتهم .

الباب الثامن عشر

تاريخ سورية في القرن الثامن عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلاطين العثمانيون العظام الذين تولوا سورية في هذا القرن وما
كان في أيامهم

عد ١٠٣٤

السلطان الغازي أحمد خان الثالث

فرغنا من كلامنا على السلطين في القرن السابع عشر بذكر انقضاء ولاية
السلطان مصطفى خان الثاني، فخلفه السلطان الغازي أحمد الثالث وهو ابن
السلطان محمد الرابع، وُلد ٣ رمضان سنة ١٠٨٤م هـ (٢٢ كانون الأول سنة
١٦٧٢م) وعند استوائه على سرير الخلافة والملك في شهر آب سنة ١٧٠٣م وزع
أموالاً طائلة على الانكشارية فطمعوا وتمادوا في تحكّمهم وطلبوا قتل المفتي فيض
الله أفندي لمقاومته لهم في رغائبهم إليه، لكنه أضمر الفتك بهم لدى سنوح

الفرصة، ولم يلبث أن قتل منهم جماعاً غفيراً وعزل الصدر الأعظم تشانجي أحمد باشا الذي كان الانكشارية قد انتخبوه لهذا، المقام ونصب مكانه حسن باشا زوج أخته. ولكن حملته الانكشارية على عزله وكثر تبديل الوزراء ولم يلتفتوا إلى مساعي بطرس الأكبر قيصر روسيا إذ كان يدبر على إضعاف الدول المجاورة له وهي السويد وبولونيا والدولة العلية ليزيد في قوة مملكته. وعالن شارل الثاني عشر ملك السويد بالحرب وانتصر عليه أخيراً نصراً مبيناً في وقعة بلثافا سنة ١٧٠٩م حتى اضطر أن يفتر من وجه الجيش الروسي ويلجأ إلى بلاد الدولة العلية وغيرها بحاربة روسيا انتصاراً له ووقاية لها من سطر قيصر الروس على أملاكها بعد إذلاله، فخاب مسعاه.

ولكن عهد السلطان بمنصب الصدارة العظمى إلى محمد باشا بلطه جي فعالن روسيا بالحرب، وقاد الجيش بنفسه وكان نحو مائتي ألف مقاتل. وبعد وقائع هائلة تمكن سنة ١٧١٠م من حصر القيصر وكاترينا معشوقته (كاترينا الملكة التي تزوج بها فيما بعد وخلفته بعد موته) فرشت كاترينا الصدر الأعظم بكل ما كان معها من الجواهر الكريمة والحلى الثمينة والمال فانقاد إلى مرغوبها وأوقف الحصار، واكتفى بتوقيع القيصر على عهدة فلكنز في ٢٥ تموز سنة ١٧١١م وتخلّى بمقتضى هذه العهدة عن مدينة أزوف، وتعهد بأن لا يتدخل في شؤون بولونيا. ولو أخلص الوزير لنال من القيصر بهذه الفرصة ما هو أعظم من ذلك كثيراً، ولذلك كاد شارل الثاني عشر ملك السويد يتمزق غيظاً من عقد الصلح على هذه الشروط، وسعى لدى السلطان بعزل الوزير عن منصبه وإبعاده إلى جزيرة لمنوس وولّى الصدارة بعده يوسف باشا، ولم يكن محباً للحرب فوقّع مع القيصر على معاهدة جديدة تقضي بهدنة مدة خمس وعشرين سنة تمتنع كلتا الدولتين عن الحرب فيها. ولم ينقض على هذه المعاهدة بعض أشهر إلا استؤنفت الحرب لأن بطرس الأكبر لم يتم باحدى الشروط التي وُضعت في معاهدة فلكنز، وهي أن يخرب فرضة تجانرك الواقعة على بحر أزوف، فتدخلت انكلترا وهولاندة في المنع عن الحرب لأضرارها بتجارتهما. وبعد مخابرات طريفة عُقدت بين الدولة العلية وروسيا معاهدة في ١٨ تموز سنة ١٧١٣م وهي المعروفة بمعاهدة ادرنة وبموجبها تخلت روسيا عما لها من الأملاك على البحر الأسود. ولم يبق لها عليه فرضة أو ثغر، وبطل في مقابلة ذلك ما كانت تدفعه كل سنة لأمرأى القرم كيلا يعتدوا على

قوافلها، فيعس عندئذ شارل الثاني عشر ملك السويد من مساعدة الدولة له على روسيا ليعود إلى ملكه، وترك بلاد الدولة بعد أن أقام فيها سنتين.

وتولّى في هذه الأثناء منصب الصدارة على باشا داماد، وكان ميالاً إلى الحرب هائماً بأن يرد على الدولة ما أخذ من أملاكها، فأثار الحرب على جمهورية البندقية فاسترد منها المورة وما كان باقياً لها من المدن في كريت، ولم يبقَ للبندوقة في بلاد اليونان إلا جزيرة كورفو، فاستنجد البندوقة بشارل الثالث عاهل النمسا فأسرع العاهل لانجادهم، وطلب إلى السلطان أن يرد عليهم كل ما أخذه منهم وإلا فيكون امتناعه عن الاجابة اعلاناً للحرب، فأبى السلطان قبول ما اقترحه فتأججت نار الحرب وكان قائد جيش النمسا الأمير اوجان دي سافوا الشهير، فانتصر على العثمانيين في ١٥ آب سنة ١٧١٦م وقتل الصدر الأعظم لانتحامه ساحة القتال بنفسه مؤثراً الموت مجاهداً على الانهزام، واستحوذ جيش النمسا على عدة مدن عثمانية، ودخلوا بلغراد في ١٩ آب سنة ١٧١٧م عنوة إلى أن أخذت الدولتان في المحادثات بالصلح وعقدت بينهما المعاهدة المعروفة بمعاهدة بشاروفتس، ووقع عليها في ٢١ تموز سنة ١٧١٨م. ومن شرائطها أن تأخذ النمسا بلغراد وقسماً كبيراً من الصرب، وقسماً من بلاد الفلاخ وأن يبقى البندوقة محتلين ثغور دلماسيا. وإنها ترد المورة إلى الدولة العلية، وفي أثناء ذلك طلبت روسيا إلى الدولة العلية تنقيح المعاهدة السابقة معها بأن يبيح العثمانيون للروس التجارة ببلاد الدولة وأن يمزّوا بها إلى الحج في القدس وغيره من الأماكن المقدسة دون تكليفهم إلى رسم جواز أو دفع شيء، فأجازت الدولة ذلك ووقع على معاهدة به في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٢٠م وأضيف إلى هذه المعاهدة فقرة ذات أهمية كبرى وهي أنّ الدولتين تعهدتا بمنع نفوذ ملك بولونيا على أشراف مملكته ومقاومة جعل الملك ارثياً في أسرته، فوضع بطرس الأكبر هذا الشرط أساساً لما ينويه من ايهان بولونيا والسويد والدولة العلية المجاورة له ليني على ذلك دعائم هذا الملك الجباري الذي هو مؤسسه.

وأراد السلطان أحمد أن يعتاض عما خسره من ولاياته بأوروبا فانتهاز فرصة اضطرابات كانت ببلاد العجم بسبب اكراه الشيخ حسين على التنازل عن الملك إلى محمد أمير أفغانستان. وكان حينئذ الصدر الأعظم ابراهيم باشا داماد فأسرع إلى احتلال ارمينيا وبلاد الكرج، ولكن كان بطرس الأكبر قد سبقه فاحتل اقليم

طاغستان وجميع سواحل بحر الخزر الغربية . ورأى بطرس الأكبر أنه لا يتيسر له قهر العثمانيين فأوعز إلى سفير فرنسة بالآستانة أن يتوسط بينهما فوق الدولتين على أن تمتلك كل منهما ما احتلته من البلاد، ووقعت الدولتان على معاهدة بذلك في ٢٤ حزيران سنة ١٧٢٤م، فلم يقبل الفرس ذلك، ونهضوا كرجل واحد لمحاربة الأجانب واخراجهم من مملكتهم، لكنهم لم يقروا على مقاومة العثمانيين الذين فتحوا سنة ١٧٢٥م عدة مدن وقلاع في همذان واريوان وتبريز، وساعد على ذلك انقسام الفرس والاختلاف بينهم، فإنّ الشاه أشرف قتل محمد أمير أفغانستان ونازع الشاه طهماسب ملك ساسان الشاه أشرف المذكور ثم اصطالحا سنة ١٧٢٧م على أن يملكا معاً. ثم توفي الشاه واستقلّ طهماسب بالملك فطلب من الدولة العلية أن ترد عليه كل ما أخذته من الفرس فلم تجبه إلى ما طلب، فأغار على بلادها فلم يشأ السلطان الحرب ورغب في الصلح فثار الانكشارية وهيجوا الأهلين، وطلب زعيم الثورة المسمى بترونا خليل أن يقتل السلطان الصدر الأعظم والمفتي وأمر الأسطول لجنوحهم إلى مسالة العجم فتمنع السلطان عن الاجابة إلى طلبهم، لكنهم عالتوه أنّ لا بدّ من قتلهم شاء أم أبى، فاضطر إلى التسليم بقتل الوزير وأمر البحر دون المفتي فقتلا وألقيت جثثاهما في البحر، وجراهم تساهل السلطان لهم على مجاهرتهم له بالعصيان ونادوا باهن أخيه السلطان محمود خليفة وأميراً للمؤمنين، فتنازل السلطان عن الملك دون معارضة سنة ١٧٣٠م وعاش معزولاً إلى سنة ١٧٣٦م. وفي أيامه دخل فن الطباعة في بلاده وأسست دار الطباعة في الآستانة بعد اصدار المفتي الفتوى بذلك مشروطاً عدم طبع القرآن الشريف خوفاً من تحريفه أو تصحيفه. انتهى مأخوذاً عن عدة مؤرخين.

عد ١٠٣٥

ما كان بسورية من الأحداث في أيام السلطان أحمد الثالث

قد مرّ في تاريخ القرن السابع أنه بعد انقراض ولاية المعنيين ب وفاة الأمير أحمد معن دون عقب خلفه في الولاية على أعمال لبنان الجنوبية الأمير بشير شهاب سنة ١٦٩٧م وولاه ارسلان باشا والي صيدا كل الأعمال من صفد إلى المعاملتين بكسروان، فجعل ابن أخيه الأمير منصور والياً بصفد، وقرر بني منكر المتاوله على

اقتطاعهم بأقليمتي الشومر والتفاح ، وبني صعب المتأولة على اقتطاعاتهم بلاد الشقيف
ثم توجه الأمير إلى بلاد بشاره وصفد لجباية المال الميري فتوفي بصفد سنة ١٧٠٧م
وقيل مسموماً فحملت جثته من صفد إلى صيدا فدفنت بها في مقبرة المعنيين .
 واجتمع أكابر البلاد وأعيانها وقرّ رأيهم على تولية الأمير حيدر بن الأمير موسى
شهاب خلفاً له . وعرضوا الأمر لارسلان باشا والي صيدا وتوجهوا إلى حاصبيا
فأجاب سؤلهم . فأتوا به إلى دير القمر وكان عمره إحدى وعشرين سنة . ثم عزل
ارسلان باشا عن ولاية صيدا فتولاها مكانه أخوه بشير باشا ، فولّى المشايخ بني
علي الصغير المتأولة على بلاد بشاره ، فأخذوا يسطون على أطراف بلاد الأمير ،
وانضمّ إليهم بنو منكر وبنو صعب المذكورون ، فنهض الأمير حيدر لكبتهم
وردهم ، ولما بلغ إلى النبطية التقاه المتأولة فكانت وقعة دارت بها الدوائر على
المتأولة وولّوا مدبرين وقتل منهم خلق كثير وتحصن بعضهم بالقرية ، فأغار عليهم
فرسان الأمير فأهلكوهم عن آخرهم ، وانجلى بنو الصغير من بلاد بشاره ، فنصب
الأمير الشيخ محمود أبا هرموش نائباً عنه بحكومتها ، وكان ذلك سنة ١٧٠٨م
فثقل ذلك على بشير باشا والي صيدا فأرسل يقوّي الأمراء بني علم الدين وغيرهم
من اليمنية على الأمير حيدر الذي هو قيسي .

ففي سنة ١٧٠٩م عظم حزب اليمنية بالشوف وتظاهر الأمراء بنو علم الدين
بالمضادة للأمير حيدر ومالاهم على ذلك الأمير يوسف ارسلان حاكم الشويفات ،
وكان محمود أبو هرموش الذي نصبه الأمير حيدر عاملاً ببلاد بشاره قد جار
واعتسف فطلبه الأمير إليه فخاف ولجأ إلى بشير باشا ليحميه من غضب الأمير فنال
له من السلطان لقب باشا ، ولما رأى بشير باشا اشتداد ساعد اليمنية نصب الأمير
يوسف علم الدين اليمني على ولاية الأمير حيدر شهاب وأرسله مصحوباً بعسكر ،
وبمحمود باشا أبي هرموش لطرد الأمير حيدر من دير القمر ، فلما علم الأمير بذلك
نهض من دير القمر إلى غزير ومعه بعض أعيان البلاد فأرسل الأمير يوسف علم الدين
عسكراً يتعقب الأمير حيدر فكانت وقعة بغزير بين القيسيين واليمنيين ، وتقهقر
عسكر اليمنية إلى البحر على أنّ الأمير حيدر لم يثق بظفره في ما بعد على أعدائه
فأثر الاختفاء على الحرب ، وسار ببعض ذويه حتى الهرمل ، فاخبتاً هناك بمغارة تُعرف
بمغارة عزرائيل . ولما تحقق اليمنية خروج عسكر القيسية من غزير دهموها سحراً
فنهبوا وأحرقوها وقفلوا إلى دير القمر . وقال بعض الشعراء في ذلك:

نكب الحبيشيون أعظم نكبة لما أغار عليهم الجمع الغفير
هذا جزا من زاد في طغيانه فلاجل ذا أرختها ندمت غزير
سنة ١٧١١م.

وروى الأمير حيدر شهاب صاحب التاريخ هذه الحادثة بوجه آخر هو أنه لما
تولى الأمراء اليمنية البلاد أرسلوا أربعين خيلاً يطالبون المشايخ آل خازن بالأموال
الأميرية فحضر بعضهم إلى دير القمر ليسأل الأمير يوسف علم الدين رفع الخيالة
عنهم، فأطلعهم محمود باشا أبو هرموش على كتاب من المشايخ الحبيشية يقولون
فيه إن الخوازنة يعرفون مقرّ الأمير حيدر وهم يقدمون له الذخائر، فأنكر الخوازنة
ذلك وقالوا ما ذلك إلا مكيدة من بني حبيش علينا. وإذا أرادت الحكومة أن
تحقق الواقع فلترسل الخيالة المذكورين إلى غزير، فإن قبلهم بنو حبيش كانوا
صادقين بما كتبوا. فأمر الأمير يوسف بنقل الخيالة إلى غزير فمنعهم بنو حبيش
وقتلوا منهم ثلاثة رجال وخمسة أفراس، فعرضوا ما كان معهم إلى الأمير يوسف
فغضب وركب بعسكر لحرب غزير فانهزم الحبيشيون إلى نواحي طرابلس فأحرق
غزير ونهبها.

أما محمود باشا أبو هرموش مدبر الأمير يوسف علم الدين فجار في البلاد بعد
فرار الأمير حيدر شهاب وتزوج بنتاً من بنات الأمراء آل علم الدين، فزاد ذلك ثقلًا
على القيسية ورأسلوا الأمير حيدر أن يخرج من مخبئه ويعود إليهم، فأجابهم إلى
ذلك، وسار من مغارة الهرمل وحلّ في قرية رأس المتن عند المقدّم حسين اللمعي
أحد محازبيه، وأنفذ الاعلام إلى القيسية بالشوف وغيرها، وقدم إليه المقدّم مراد
ابن المقدّم محمد والمقدّم عبدالله اللمعيان برجالهما، والشيخ سيد أحمد أبو علدا
والشيخ سرحال العماديان برجال الباروك والشيخ خازن الخازن وغيرهم. ولما بلغت
هذه الأخبار إلى محمود أبي هرموش اعتراه الخوف فدعا اليمنية في الغرب واليمن
والجرد، وكتب إلى بشير باشا والي صيدا وإلى نصوح باشا والي دمشق
يستنجدهما، فنهض بشير باشا بعسكره إلى حرش بيروت ونصوح باشا بعسكره
إلى قب الياس. ولما عرف محمود باشا يقდومهما كتب إلى بشير باشا أن يزحف
بعسكره إلى بيت مري، وإلى نصوح باشا أن يقوم بعسكره إلى المغيثة فوق حمانا،

ونهب هو بعسكر البلاد إلى عين دارا وعزموا جميعاً أن يدهموا بيوم واحد الأمير حيدر، فاستشار الأمير حيدر أصحابه القيسيين فكان رأي المقدم مراد اللمعي أن يقوم الأمير حيدر من وجه العساكر إلى كسروان فأنكر الباقون رأيه وصوبوا أن ينهضوا ليلاً إلى عين دارا فيدهموا محمود باشا وعسكره، وساروا للحال وقسموا عسكرهم ثلاثة أقسام فبلغوا عين داره غلساً ودخلها أولاً المقدم عبدالله والمقدم حسين اللمعيان، وتلظت نار الحرب فدخل عسكر الأمير حيدر عنوة إلى القرية ووثبت القيسية وأبدوا آيات البسالة، وهلك من الفريقين خلق كثير ودارت الدوائر على اليمنية وقتل المقدم حسين اللمعي ابن الصواف صاحب المتن، وقتل من الأمراء آل علم الدين ثلاثة وأسر أربعة وقبض على محمود باشا أبي هرموش، وضربت اليمنية أيدي الشتات، وما علم بشير باشا والي صيدا ونصوح باشا والي دمشق انخدال اليمنية وانذاعارهم عاد كل إلى مقر ولايته، وبعد انقضاء القتال دخل رجل على المقدم حسين اللمعي ولقبه بالمقدم على عادته فانتضى سيفه وقتله قاتلاً: أقتل ثلاثة أمراء وتناديني بالمقدم، يريد أن يسمى أميراً.

ثم توجه الأمير حيدر من عين دارا إلى الباروك ومعه الأمراء اليمنية المأسورون فأمر بقطع رؤوسهم وهم الأمير يوسف والأمير منصور والأمير أحمد، وانقرضت بهم سلالة آل علم الدين، ثم أمر بقطع لسان محمود باشا أبي هرموش ولم يقتله حرمة للدولة لأنه باشا. وسار من الباروك إلى دير القمر ظافراً فسمى المقدمين اللمعيين أمراء، وتزوج الأمير حيدر بينت الأمير حسين اللمعي وزوج ابنته للأمير عساف ابنه وأقطعه قاطع بيت شباب وبكفيا، ثم تزوج بأمر الأمير مراد اللمعي وأقطعه نصف المتن وزوج أخته بالأمير عبدالله اللمعي وأحبه لما شاهده من بسالته يوم عين دارا، ثم أقطع الشيخ قبلان القاضي اقليم جزين، وعلي النكدي الناعمة وما يليها وسلخ عمل الغرب الأعلى عن ولاية الأمير يوسف ارسلان وسلمه إلى محمد تلحوق وأخيه بشير لأن الأمير يوسف المذكور أظهر ميله إلى اليمنية وأقطع الشيخ جنبلاط عبد الملك عمل الجرد ورفع مقام هؤلاء المشايخ وكتب لهم الأخ العزيز وخص بنفسيه خمس قرى وهي بعقلين ونيحا وعين ماطور وبتلون وعين داره.

وفي سنة ١٧١٢م توفي الشيخ قبلان القاضي حاكم اقليم جزين هذا ما رواه صاحب كتاب «أخبار الأعيان»، وروى الأمير حيدر شهاب في تاريخه أن

وفاة الشيخ قبلان كانت سنة ١٧١٥م. واختلفت الرواية أيضاً في متروكات الشيخ قبلان، ففي تاريخ الأعيان أنه أوصى بكل ما له للأمير حيدر، وفي تاريخ الأمير حيدر أنه أوصى بنصف ماله للأمير حيدر وبالنصف الآخر للشيخ علي جنبلاط. ومهما يكن من هذا الخلاف فالأمير حيدر لم يأخذ مما تركه إلا خمسة وعشرين ألف قرش وخصّ بنفسه من اقطاعه مرج بسره ومزرعة بحنين. وكان الشيخ علي جنبلاط متزوجاً بابنة الشيخ قبلان فقتر رأي ذويه بعد وفاته علي أن يخلقه في اقطاعه صهره الشيخ علي المذكور وأتوا به إلى الأمير حيدر فسلمه اقليم جزين.

وفي سنة ١٧١٣م تأخر عند الأمير حيدر من المال الأميري عشرون ألف قرش فجمع أصحاب الاقطاعات وطالبهم بالمال فأجمع رأيهم على أن يسألوا عثمان باشا والي صيدا أن يمهّلهم فطلب رهنأ لامهالهم، فأرسل الأمير حيدر ابنه أحمد والأمير حسين اللمعي ولده حسناً والشيخ قبلان القاضي (أو الشيخ علي جنبلاط على رواية الأمير حيدر المذكورة) شرف الدين مزهر مقدّم حمانا والمشايخ اليزبكية ابن الشنيف ليكونوا رهائن عند عثمان باشا إلى أن يفي كل منهم ما عليه. وأما الأمير مراد اللمعي فتوجه بنفسه وكان له أصحاب من بني يارد ببيروت فدفعوا ما عليه من المال، وقيل بقي بعض من هؤلاء الرهائن عند عثمان باشا إلى أن عزل سنة ١٧١٥م من إيالة صيدا ونُقل إلى البصرة فأخذهم معه ثم عادوا إلى أهلهم. وفي سنة ١٧١٧م توفي الأمير عبدالله اللمعي زوج غضية أخت الأمير حيدر الحاكم ولم يكن له ولد فأخذت أخت الأمير نصيبها من تركته بستان أبي كعكه بالبوشرية وجزيرة ابن معن عند منبع نهر بيروت.

وتوفي الأمير حيدر سنة ١٧٣٠م على ما في تاريخ الأمير حيدر شهاب. وفي أخبار الأعيان سنة ١٧٣٢م ونظن هذه الرواية أصح لأن الأمير حيدر ذكر أنه تولى سنة ١٧٠٧م وقال إنّ مدة ولايته ست وعشرون سنة فلصحة هذا القول الأخير يقتضي أن تكون وفاته سنة ١٧٣٢م كما في أخبار الأعيان. وكان الأمير حيدر عادلاً حليماً كريماً أحبه أهل البلاد وأرضى الدولة وتزوج بأربع نساء حسب السنّة وثلاث سراي ورزق تسعة بنين وهم الأمير ملحم والأمير أحمد من أم والأمراء منصور ويونس وعلي ومعن وحسين من أم أخرى وهي أخت الأولى وكلتاها من بنات عمه من حاصبيا، ثم الأمير عمر من أم الأمير مراد اللمعي، والأمير بشير من

بنت الأمير حسين اللمعي ، وفي أيامه ذلّ وانحط الحزب اليمني وارتفع شأن الحزب القيسي واستفحل أمرهم .

عد ١٠٣٦

السلطان الغازي محمود خان الأول

بعد انقضاء ولاية السلطان أحمد خان الأول رقي إلى منصة الملك السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى الثاني ، وكان قد وُلد في ٣ آب سنة ١٦٩٦م وسلمت إليه مقاليد الخلافة والسلطنة في أوائل تشرين الأول سنة ١٧٣٠م وكان النفوذ حينئذٍ لبطرونا خليل زعيم الثائرين يولي من يشاء ويعزل من يشاء على حسب أهوائه ، حتى عيل صبر السلطان . واعتدى هذا الزعيم على بعض رؤساء الانكشارية فتألبوا للغدر به تخلصاً من شره فقتلوه ولم يقوَ محاربوه على الأخذ بثأره فعادت السكينة واستتب الأمن ورجعت جنود الدولة إلى الحرب مع العجم ، وتغلبت الجيوش العثمانية في عدة مواقع على جنود الشاه طهماسب المار ذكره . حتى طلب الصلح فعقد بين الدولتين في ١٠ كانون الثاني سنة ١٧٣٢م على أن يترك العجم للدولة العلية كلما فتحته ما عدا تبريز واردة هان وهمدان ، فلم يقبل نادر خان أكبر ولاية العجم هذا الصلح وقلب المجرى للشاه طهماسب وقصده بجيشه إلى أصفهان وخلعه وولّى مكانه ابنه عباساً القاصر ، وأقام نفسه وصياً عليه . وزحف إلى المدن العثمانية حتى حصر مدينة بغداد ، فأسرع الوزير طوبال (الأعرج) عثمان باشا لكتبته ، فكانت عدة وقائع قتل باحداها عثمان باشا المذكور . وأخيراً عُقدت معاهدة صلح بين الدولتين في ٢٤ ايلول سنة ١٧٣٦م ومن شروطها أن تعيّن الدولة العلية نادر خان ملكاً على العجم وترد إليه ما أخذته منه ، وأن تكون التخوم بين الدولتين كما تقررت في معاهدة سنة ١٦٣٩م في عهد الغازي مراد خان الرابع .

وبينما كانت الدولة تعاني هذه الحرب في بلاد العجم ، انتهزت روسيا هذه الفرصة فاتفقت مع النمسا على اذلال بولونيا أو قرض دولتها تبعاً لسياسة بطرس الأكبر . وتوفي اوغست الثاني ملك بولونيا سنة ١٧٣٣م فانتخب أعيان المملكة

ستانسلاس ملكاً عليهم ، فأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا وسمت اوغست الثالث ابن اغوست الثاني ملكاً ولو لم ينتخبه الشعب ، فأعلنت فرنسا الحرب على النمسا انتصاراً للعدل ولبولونيا ، وسعت لدى الباب العالي لتحمل الدولة العلية على معاونة بولونيا في الدفاع حفظاً لهذا الحاجز الحصين بينها وبين روسيا ، فلم يلقَ معتمد فرنسا اذنًا صاغية لدى وزراء الدولة ، ولذلك تغلبت روسيا على ستانسلاس واحتلت جنودها بولونيا . ولما شعرت النمسا بسعي فرنسا في الآستانة خافت عقد محالفة بين فرنسا والباب العالي فيحبط مسعاها مع روسيا في بولونيا ، وتسارعت إلى ارضاء فرنسا وأبرمت بينهما معاهدة في فيينا سنة ١٧٣٥م وأخذت التأهب للاشتراك مع روسيا في محاربة الدولة العلية ، وأوعزت إلى روسيا لفتح الحرب فوجدت روسيا حجة لاعلان الحرب سنة ١٧٣٦م وأغارت جيوشها على بلاد القرم واحتلت الثغور التي على شاطئ البحر الأسود فكان ذلك داعياً للدولة إلى الصلح مع نادر خان شاه العجم على الشروط المذكورة المجحفة بحقوق الدولة .

ولحسن الطالع تقلد منصب الصدارة حينئذ رجل حنكه الدهر واشتهر بالسياسة وسمو المدارك وهو الحاج محمد باشا ، فأشغل ذهنه السامي في ملافة شؤون المملكة ، وحشد الجيوش واعداد المعدات الحربية حتى استطاع في وقت وجيز ايقاف الروس عن التقدم في بلاد البغدان بل جعلهم يتقهقرون عنها ، وانتصرت في جهة أخرى الجيوش العثمانية على عسكر النمسا الذي كان قد أغار على بلاد البشناق والصرب والفلاخ وجلاهم عن الصرب فتقهقروا إلى ما وراء نهر الدانوب سنة ١٧٣٧م حتى طلبت النمسا الصلح بواسطة سفير فرنسا ، فعقد هذا الصلح في ٢٨ أيلول سنة ١٧٣٩م بين الدولة العلية والنمسا وروسيا ، ووقعت هذه الدول على المعاهدة المعروفة بمعاهدة بلغراد ، ومن شرائطها أن تتخلى النمسا للدولة العلية عن بلغراد وعمّا أعطى لها قبلاً من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى معاهدة بساروفتس المار ذكرها . وتمهدت روسيا بهدم قلاع ميناء أزوف ، وبعدم انشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو بحر أزوف ، وبأن تردة للدولة كلما فتحته من بلادها ، وانتهت هذه الحرب نهاية عادت بالشرف والفائدة على الدولة العلية باستردادها أكثر ما فقدته بمعاهدة كرلوفتس . وبعد ذلك أقنع سفير فرنسا الباب العالي بعقد محالفة هجوم ودفاع بينه وبين السويد صديقاً لمطامع

روسيا إن اعتدت على إحدى الدولتين، فعقدت هذه المحالفة سنة ١٧٤٠م ثم عقدت الدولة العلية مع فرنسا معاهدة في هذه السنة وهي عبارة عن تجديد المعاهدة التي كانت بين الدولتين سنة ١٦٧٣م مع زيادة في التسهيلات لفرنسا في تجارتها، وأرسل السلطان سفيراً من قبله اسمه محمد سعيد ليقدّم صورة المعاهدة للويس الخامس عشر ملك فرنسا مع هدايا نفيسة فاستقبله الملك بما يليق بمقام مرسله من الاجلال والاحتفاء وشيّعته كذلك، وأهدى معه إلى الدولة مركبين حربيين وبعض رماة المدفعية الفرنسيين ليعلموا المدفعية العثمانيين ويمرنوهم.

وفي ٢٠ من تشرين الأول سنة ١٧٤٠م توفي شارل السادس عاهل النمسا ولما لم يكن له من الأولاد إلا ماري تراز أوصى لها بالملك، ولكنها لاقت كثيرين من نازعوها إياه كلّ منهم بسبب، وكانت فرنسا جملة من تدخلوا في هذه الحروب مع النمسا فأوعزت إلى سفيرها في الآستانة أن يطلب من الباب العالي أن يشترك معها في هذه الحرب على النمسا ويعرض عليه الاحتلال في المجر واسترجاع أملاكه فيها، وإنه بهذه الوسيلة يتقوى على روسيا ويوقفها عن التقدم في بلاده، وإن لم يفعل ذلك تقدمت روسيا شيئاً فشيئاً في بلاده. فلم يُصغِ الوزراء لنصائح فرنسا هذه مع أنها نافعة حقيقة للدولة وإن حملت فرنسا عليها مصلحتها وأضاع رجال الدولة هذه الفرصة. ومما يؤسف عليه تسليمهم إدارة شؤون بلاد الفلاخ والبغدان إلى بعض أغنياء الروم المقيمين بالآستانة بدلاً من أشرف البلاد الذين كان الباب العالي ينصبهم ولاية في هذه البلاد، فأولئك الأغنياء جاروا واستطالوا وأثقلوا الأهليين بالخراج والضرائب فمالوا إلى روسيا وباتوا يعتقدون أنها ستكون منقذتهم من هذا الجور.

وفي ١٣ كانون الأول سنة ١٧٥٤م خطفت المنية السلطان محمود خان الأول مأسوفاً عليه من جميع العثمانيين لاتصافه بالعدل والحلم وميله إلى المساواة بين رعاياه على اختلاف مذاهبهم، وفي أيامه اتسع نطاق أملاك الدولة ومحا بمعاهدة بلغراد ما لحق الدولة من العار والذلة في معاهدة كولوفتش، وكانت مدة عمره نحو ستين سنة ومدة سلطنته نحو خمس وعشرين سنة. انتهى.

ما كان بسورية في أيام السلطان محمود الأول

في سنة ١٧٣٢م كان أسعد باشا العظم والياً في صيدا وتوفي الأمير حيدر شهاب حاكم جنوب لبنان، فاجتمع أعيان البلاد وأرادوا أن يقيموا مكانه ابنيه الأمير ملحماً والأمير أحمد فأبى الأمير ملحماً أن يشارك أخاه في الحكم وسار إلى صيدا فطلب من أسعد باشا أن يوليه مكان أبيه، فخلع عليه وولاه، فضمَّ الأمير ملحماً اخوته إليه وزوّج بنته للأمير فارس صاحب الشبانية اللمعي، وبلغه أنّ بني علي الصغير أصحاب بلاد بشارة أظهروا الشماتة بموت والده وخضبوا ذيول خيولهم بالحناء سروراً، فكتب إلى أسعد باشا يلتمس منه أن يوليه على بلاد بشاره فولاه فنهض إليها ومال إليه سليمان الصعي صاحب بلاد الشقيف فأمنه وأبقاه على ولايته، ودهم بني علي الصغير المتأولة فالتقى بهم في قرية اسمها يارون فكسر جمعهم وشنته وأهلك منهم خلقاً كثيراً وقبض على مقدمهم نصار وفرّ اخوته. فتتبع آثارهم إلى القنيطرة وقتل بعضاً، ونهب تلك الديار وقفل عائداً إلى لبنان ومعه نصار المذكور معتقلاً. وبعد مدة حضر اخوته واستماحوا منه أن يطلق أخاهم وقدموا له فدية عنه فخلّى سبيله وأعادهم إلى ولاية بلادهم من قبله فهاب الناس سطوته واعتزّ أهل ولايته.

إنّ اعتزاز أهل لبنان بسطوة الأمير ملحماً واليهام حملهم على أن يسطوا على من جاورهم واعتدوا على أهل البقاع، فحنق سليمان باشا العظم والي دمشق فجمع عسكرياً وسار بهم إلى البقاع قاصداً كبت اللبنانيين وردعهم عن سطوهم، فرأى الأمير ملحماً ما يكون من غوائل القتال فتداركه بأن استعطف الوالي واعتذر له عن أهل بلاده وتعهّد بأن يدفع له خمسين ألف قرش، فارتضى الوالي بشرط أن يقدّم له الأمير رهناً إلى أن يتم دفع المبلغ المتفق عليه، ووضع الأمير أخاه حسيناً رهناً وبقي عند الوزير إلى أن قبض المبلغ.

وفي سنة ١٧٣٤م انتقل أسعد باشا العظم من ايالة صيدا إلى ايالة دمشق وتولّى ايالة صيدا أخوه سعد الدين باشا الذي كان والياً بطرابلس، وتولّى سليمان باشا العظم طرابلس، وعظمت سطوة بني العظم في سورية. وفي هذه السنة توفي الأمير عساف اللمعي وكان متزوجاً أخت الأمير ملحماً ثم توفي أولادها بعد أبيهم

فعدت إلى دار أخيها الأمير ملحم وأخذت نصيبها من ارث زوجها وأولادها بساتين في نهر بيروت . وفي سنة ١٧٤١م ادعى أسعد باشا العظم والي دمشق على الأمير ملحم دعاوى لم تكن صحيحة ، وجهز عسكرياً سار به إلى البقاع ، وبلغ الأمير ذلك فحشد عسكرياً والتقى الوزير إلى البقاع ، ورأى الوزير أنّ عسكريه لا طاقة له لقتال عسكر الأمير ففقل راجعاً إلى دمشق وتعقبه الأمير إلى قرب دمشق ثم عاد فأحرق بعض قرى البقاع .

وفي سنة ١٧٤٣م أظهر المتأولة أصحاب جبل عامل الخروج عن طاعة سعد الدين باشا العظم والي صيدا ، وامتنعوا عن اداء الأموال الأميرية وشرعوا يعيثون مفسدين في جوارهم . وسطوا على اقليم التفاح التابع ولاية الأمير ملحم فكتب الوزير المذكور إلى الأمير ملحم يستنهضه على قتالهم فلبى دعوته وسار من دير القمر بعسكر جرار حتى بلغ جسر الأولي عند صيدا . واستحوذ الرعب على المتأولة من قدوم الأمير إليهم فوجهوا رسلاً وهدايا إلى الوزير يلتمسون الصفرح عمّا فرط منهم ، ويتعهدون بدفع ما بقي عندهم من المال ومالاً آخر ، فكتب إلى الأمير يخبره بما كان ويأمره بالعود إلى بلاده ، فأبى الأمير الامتثال وظلّ سائراً في عسكريه إلى قرية انصار وفيها بنو منكر وبنو صعب ومحازبهم ، فخرجوا لملتقاه في عسكريهم فهجمت عليهم رجال الأمير فاندفعوا من أمامهم مدحورين ، فتعقبهم اللبنانيون وقتلوا بعضهم وتحصّن الباقون في القرية ، فهجم الأمير عليهم برجاله فظفر بهم وقتل منهم ألف وستمئة قتيل ، وقبض على أربعة من مشايخهم ونهب القرية وأحرقها وعاد إلى دير القمر ظافراً معتزاً ، ومعه المشايخ الأربعة معتقلون ، فألقاهم بالسجن وكتب إلى سعد الدين باشا والي صيدا يشره بالظفر ، فأجاب مظهرأ رضاه ومثنياً عليه ، وأرسل له نفقات العسكر . ثم توسط بعد مدة الشيخ علي جنبلاط في أمر تخلية سبيلهم فأجابه الأمير إلى ذلك بشرط أن يدفعوا كل سنة ستة آلاف قرش وفرسين من الخيل الجياد .

وفي سنة ١٧٤٧م تولّى الأمير ملحم بلاد بعلبك وسيّر إليها أخويه الأمير أحمد والأمير منصوراً يديران شؤونها ، فأبطأ في اداء بعض مالها فكتب إليه الوزير يطلب المال وشدّد عليه الطلب وأغلظ له الخطاب ، وكان أسعد باشا يبغض الأمير ملحم لالتحامه مودة مع أخيه سعد الدين باشا العظم والي صيدا ، وكانت بين الأخوين نفرة ، فوجس الأمير ودعا أعيان بلاده إلى اجتماع الباروك للتشاور والاهتمام بجمع

المال الباقي للخرينة. وبلغ أسعد باشا هذا الاجتماع فوجه رسولا لطلب المال في الظاهر وأسر إليه أن يتجسس أعمال الأمير وما ينوي، ففطن الأمير لما بطن فأظهر للرسول البأس والشدة وصرفه غير راض، ولما بثّ لأسعد باشا بعد عوده ما رام عزم الوزير على أن يدهم الأمير على غفلة فسار مسرعا بعسكر إلى صحراء بر الياس قاصداً قتال الأمير. وكان الأمير يقظاً فنهض عاجلاً من الباروك بجحفل كبير وحلّ في المغيثة، فلما بلغ الوزير بر الياس مساءً وجد نيران الأمير تسطع على المغيثة، فعلم أنه يقظ حذور فعدل عما نواه من المداهمة وتلبث ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع زحف الأمير بجيشه إلى صحراء بر الياس فكانت وقعة بين العسكرين تغلب فيها العسكر اللبناني على العسكر الدمشقي وتتبعه إلى الجديدة وأهلك منه خلقاً كثيراً. وعاد الأمير بعسكره إلى البقاع فنهب ما في قراه وأحرقها ووجه فريقاً من عسكره إلى بلاد بعلبك فنهبها وأزاح واليها الأمير حيدر الحرفوش لأنه كان مع عسكر الوزير وولّى مكانه أخاه الأمير حسينا لأنه كان معه. ولما عاد أسعد باشا من الحج بلغه ما فعله الأمير ببلاد بعلبك فاحتدم غيظاً وحنقاً وأخذ بجمع العساكر لقتال الأمير، ولكن لم يطل الوقت إلى أن نفذ الأمر السلطاني بضرب عنقه، وتولّى مكانه ابن عمه سليمان باشا العظم. وتوفي سعد الدين باشا العظم والي صيدا وتولّى مكانه عثمان باشا المعروف بالمحصل.

وكان الأمير ملحم قد تأخر عن دفع بعض المال بسبب الحرب المار ذكرها فطالبه به عثمان باشا مشدداً عليه بنقده دون امهال، ثم شكاه إلى الباب العالي فصدر الأمر لوالي دمشق أن يساعد والي صيدا على ارغام الأمير على القيام بما عليه، فنهض عثمان باشا إلى جسر صيدا وأرسل فأحرق اقليم التفاح وقطع شجر الزيتون القريب من نهر صيدا، فزحف الأمير بعسكره إلى مزبود قاصداً القتال، ثم تصالحا وكفل عثمان باشا المال الباقي عند الأمير ورجع كل منهما إلى محله، ثم دفع الأمير ما كان عليه من المال.

وفي سنة ١٧٤٨م غضب سليمان باشا العظم والي دمشق على الانكشارية الذين فيها وأخرجهم من المدينة، ففرّ أحمد آغا قلتقجي رئيسهم وبعض جماعته إلى جبل لبنان ولاذوا بحمي الشيخ شاهين تلحوق، فقبلهم وتعصب معه أقاربه والمشايخ آل عبد الملك وأخذ الجماعة المذكورون يسطرون على أبناء السبيل. وكتب سليمان باشا إلى الأمير ملحم أن يطردهم من بلاده فأمر الأمير المشايخ أن يطردوا

القلتعجي فأبوا رعاية للزمام . فوجه الأمير عسكرياً فقاوموه فأحرق مساكنهم وقطع أشجارهم وطردهم ونزلأهم من البلاد ، فنزحوا إلى راشيا ، ثم أرسل القلتعجي يلتمس العفو من سليمان باشا فأظهر له الصفح وأمره بالعود إلى دمشق آمناً ، فاطمأن ورجع بجماعته ، وما عثم الوزير أن قبض عليهم وقتلهم جميعاً ، وأرسل المشايخ يسألون العفو من الأمير ملحم فطيب خاطرهم وأمرهم بالعود إلى أوطانهم فشخصوا إليه فأكرمهم وعوضهم مما أتلفه لهم .

وفي سنة ١٧٤٩م أرسل الأمير إلى الشيخ شاهين تلحوق أن يسطو على أطراف بيروت لأن ياسين بك حاكمها لم يكن يجلب الأمير فلم يتمكن ياسين بك أن يدفع الشيخ شاهين عن تعديه المتواتر فشكاه إلى والي صيدا ، فأرسل هذا الوالي يعرض ولايتها على الأمير ملحم فقبلها منضمة إلى ولايته ، فتوطنها الأمراء الشهابيون وبقيت لهم الولاية عليها إلى أيام الجزائر كما سيأتي . وفي سنة ١٧٥٠م اعتدى بعض من بني منكر المتأولة على اقليم جزين وقتلوا رجلين من أتباع الشيخ علي جنبلاط ، فعظم ذلك على الأمير ملحم وحشد عسكرياً سار به إلى قتال المتأولة وبلغ إلى جباع الحلاوة التي كان فيها بنو منكر ، فواقعهم وظفر بهم وأهلك منهم ثلاثمائة رجل وفرّ الباقيون إلى مزار هناك فتحصنوا به ، فوجه الأمير إليهم كتيبة يرأسها الأمير مراد اللمعي والشيخ ميلان الخازن فأهلكوا أولئك المتحصنين عن آخرهم .

وفي هذه الأثناء اعتدى الشيخ شاهين تلحوق في البقاع على بعض المارة في طريق دمشق ، فوجه سليمان باشا واليها نائبه بجماعة من جنوده فباغتوا الشيخ شاهين في قرية تعنايل بالبقاع ، فانهزم وقتل من أتباعه ثلاثة رجال ، وبلغ الأمير ملحم ذلك فنهض برجاله إلى البقاع ودهم نائب والي دمشق فقتل من جماعته كثيرين وفرّ الباقيون إلى دمشق . فحنق سليمان باشا على الأمير وأخذ يتأهب لقتاله وعرف مصطفى باشا القواص والي صيدا بهذا الخلاف فاهتم باصلاح ذات البين بين سليمان باشا والأمير ملحم ، وشخص إلى البقاع وأرسل يلاطف سليمان باشا ويعرض عليه وسائل الصلح بينه وبين الأمير ، على أن الأمير يدفع للباشا خمسة وسبعين ألف قرشاً تعهد الأمير بها وكفله مصطفى باشا والي صيدا ، وارتهن عنده الأمير علياً أخا الأمير ملحم فبقي عنده خمسة أشهر إلى أن جمع الأمير المبلغ من البلاد ودفعه .

وفي سنة ١٧٥١م دعا الأمير ملحم مصطفى باشا والي صيدا إلى ضيافته فقدم

إلى دير القمر ومكث عند الأمير أياماً. وكان هذا الوالي مغرماً بالرمي بالبنادق وبارعاً فيه ولذلك لُقّب بالقوّاص. ثم دعي من صيدا إلى الآستانة ونصب وزيراً للدفترارية. وفي هذه السنة تخاصم رجل من دير القمر مع خادم للمشايخ النكدية وقتل الخادم، فقبض الأمير على القاتل وأودعه السجن لينظر بالدعوى عليه، ولم يكن القتل تصمماً، وعرضت أمه مبلغاً عظيماً من المال تفديه به فتردد الأمير بقتله. وشعر بذلك المشايخ النكدية فهجم بعضهم على السجن ليقتلوا القاتل فمنعهم من الوصول إلى السجن، لكنه اضطر أخيراً أن يقتله مرضاةً لهم وأكمن للقبض لهم وعزم على الاقتصاص منهم متى سنحت الفرصة. وكان بين الشيخ ~~مختار~~ والشيخ كليب النكديين عداوة قدحت زبد الخلاف بينهما ونهض أحدهما على الآخر فنفاهما الأمير من البلاد فسافرا إلى حاصبيا. وأحرق الأمير منازلهما بدير القمر وهدمها. ثم صالح الأمير اسماعيل والي حاصبيا بينهما وسأل الأمير العفو عنهما فرضي عنهما ورجعا إلى المناصف، ثم توفي الشيخ خطار وطُيّب الأمير قلب الشيخ كليب ورجعه إلى دير القمر وعمر منزله.

وفي سنة ١٧٥٤م دخلت شوكة صبير في يد الأمير ملحم فلم يكثر بها، ودخل الحمام وتطيّب فورمت يده ورماً عظيماً وخبثت القرحة حتى أعجزت الأطباء عن مداواتها، ونحل جسمه واشتغل بنفسه عن مهام تدبير البلاد فطمع أعيانها به واتهموا عليه مع أخويه الأمير أحمد والأمير منصور فترك لهما مقاليد الولاية مكرها، فتسلماها وسار هو بعياله إلى بيروت وتوطنها متزهاً عن الاحكام ومنقطعاً إلى درس الفقه ومعاشرة العلماء المسلمين، وبقي فيها إلى سنة ١٧٦١م حين داهمه مرض الموت فدعا الشيخ سعد الخوري صالح وأقامه وصياً على أولاده لأنهم كانوا صغاراً وهم ستة أمراء محمد ويوسف وقاسم وسيد أحمد وأفندي وحيدر وتوفي ببيروت ودُفن في جامع الأمير منقذ التنوخي وعمره ستون سنة. انتهى.

عد ١٠٣٨

السلطانان عثمان الثالث ومصطفى الثالث

أما السلطان عثمان خان الثالث فهو ابن السلطان مصطفى الثاني وُلد سنة ١١١٠هـ الموافقة لسنة ١٦٩٦م، وتسلم منصبه الملك بعد وفاة محمود خان الرابع

سنة ١٧٥٤م، وسعى في منصب الصدارة تشانجي علي باشا بدلاً من محمد سعيد باشا المار ذكره، فأساء المسعى معتمداً على رضى السلطان عنه، وأهاج الرعية. وكان من عادة هذا السلطان أن يخرج متنكراً للوقوف على حقيقة أعمال أعوانه وأحوال رعيته، فعلم بنفسه بمظالم وزيره ومطامعه فأمر بقتله ووضع رأسه في صحن من فضة على باب السراي عبرة لغيره، وعيّن مكانه مصطفى باشا سنة ١٧٥٥م ثم عزله سنة ١٧٥٦م وأقام مكانه راغب باشا الشهير. وكان من فحول الرجال المثقلين بالمناصب والمحنكين بالسياسة إلا أن الله لم يفسح بأجل هذا السلطان فتوفى في ١٦ صفر سنة ١١٧١هـ (٣٠ تشرين الأول سنة ١٧٥٧م) ولم يكن في أيامه أحداث تذكر فكانت مدة ملكه ثلاث سنين وأحد عشر شهراً وعمره ستون سنة.

وخلفه السلطان الغازي مصطفى خان الثالث وهو ابن السلطان أحمد الثالث وُلد سنت ١١٣٩ هـ وسنة ١٧٢٦ م. وكان ميالاً إلى الإصلاح راغباً في تقدم مملكته، وكان وزيره راغب باشا المار ذكره هائماً بذلك فبنى محلات للحجر على الواردات من الخارج في أيام الأوبئة، وأنشأ مكتبة عمومية أنفق عليها من ماله الخاص، وفكر في وسيلة غريبة لتسهيل النقل داخل المملكة لمنع الغلاء ورواج التجارة ذلك أن يصل بين دجله وبوغاز الآستانة بخليج عظيم يستعين عليه بمجاري بعض الأنهار والأودية ما أمكن، وربما كان أتمه لو أمهله المنون لأنه توفي في سنة ١٧٦٢م.

وبعد موت هذا الوزير انتشبت نار الحرب بين الدولة العلية وروسيا، فإنّ اغوست الثالث ملك بولونيا توفي في تلك الأثناء فسعت كاترينا الثانية قيصرة الروس باقامة ستانسلاس بونيا ثوسكي ملكاً خلافاً لما تعهدت روسيا للدولة العلية أن لا تتدخل بشؤون بولونيا. وبحجة تأمين بولونيا ووقايتها من الحرب الأهلية احتلت جنود روسيا فرصوفيا بالاتفاق مع بروسيا، فأقام السلطان الحجة على هذا الاحتلال، فأجابته روسيا وبروسيا أنّ لا غرض لهما إلا تأمين بولونيا، وأنه إذا أراد فليشترك معهما في ذلك، ولم يكن ذلك إلا خدعة. ومات بطرس الثالث قيصر روسيا فخلفته كاترينا الثانية أدهى نساء عصرها وأقواهنّ، فزادت المسألة ارتباكاً وأهمية. واتفق أنّ بعض سكان الفلاخ النصارى انهزموا إلى أرض روسيا فطلب الباب العالي اخراجهم منها فكان الجواب مهيناً أسخط السلطان جداً فأوعز إلى كريم كراي خان القرم أن يوجد سبباً للحرب فحرض بعض القوزاق التابعين لروسيا أن يعتدوا على بعض المدن التابعة

للدولة فأغاروا على إحدى المدن العثمانية وقتلوا بعضاً من سكانها، فأعلنت الدولة الحرب على روسيا، وأغار كيرم كراي على إقليم سربيا الجديدة الذي كانت روسيا قد تعهدت للدولة بتركه دون استعمار ليكون فاصلاً بين أملاك الدولتين، فعمرتة روسيا فخر كيرم كراي بعض مستعمرات الروس وأخذ بعض الأسرى منهم، وسار الوزير الأعظم محمد أمين باشا بجيش للدفاع عن أملاك الدولة في الفلاخ والبغدان فلم ينجح لسوء تدبيره، فأمر السلطان بقتله سنة ١٧٩٦م ونصب مكانه في الصدارة وقيادة الجيش مولد واني باشا فكان أكثر خبرة بأمور الحرب. ولكن بينما كان جيشه يعبر على جسر من سفن نهرأ كان الجيش الروسي على ضفته الأخرى فاض النهر فأقلب السفن وغرق من كان عليها، وقتل الروس من عبروا إليهم عن آخرهم فاحتل الروس أيا التي الفلاخ والبغدان.

وكانت روسيا في هذه الأثناء تبذل الجهد باثارة رعايا الدولة عليها، فهيّجت سكان المورة على العصبين وأخرجت بعض سفنها من بحر البلطيك فدارت حول أوروبا الغربية وبلغت بلاد اليونان فاستحوذت على بلاد كوردن لتجريء اليونان على خلع الطاعة، فسارعت الدولة على اطفاء الفتنة وخرجت مراكب الروس من كوردن قاصدة جزيرة ساقس فالتقت بالأسطول العثماني في المضيق الذي بين الجزيرة وساحل آسيا الصغرى فتلظت نار القتال ساعات وكان النصر للأسطول العثماني الذي عاد بعد الظفر إلى ميناء جشمه، وتبعته سفينتان روسيتان ظنّ العثمانيون أنهما هاربتان من الأعداء وقاصدتان الانضمام إلى أسطولهم فلم يعترضوا لدخولهما في المرفأ، فألقنا للحال ناراً على المراكب العثمانية فاشتعل البارود الذي فيها وأحرق المراكب وغرقها في ٦ تموز سنة ١٧٧٠م.

وعزم الأميرال الروسي أن يهاجم الآستانة بمراكبه فلم يوافق قائد الجيش البحري وأثر احتلال جزيرة لمنوس أولاً لتكون مركزاً لأعمالهم الحربية. وتمكن البارون دي توت الحجري الذي دخل في خدمة الدولة أن يحصّن من خلال حصار لمنوس مضيق الدردانيل بما أمكن من السرعة حتى استحال على مراكب العدو العبور بهذا المضيق، وحوّل عدة مراكب تجارية إلى سفن حربية وجعلها بالمدافع والمدفعية بسرعة غريبة حتى تمكن حسن بك الذي أثمره على هذه المراكب أن يقاتل الأسطول الروسي على لمنوس ويبيعه عنها، فسماه السلطان مكافأة له قبطان الأسطول العثماني، ورفاه إلى رتبة باشا. ولم ينجح الروس في طرابزون التي

حاولوا الاستيلاء عليها لكنهم احتلوا بلاد القرم وأعلنوا انفصالها عن الدولة واستقلالها تحت سيادة روسيا وحمايتها، وجعلوا شاهين كراي خائناً عليها خاضعاً للقيصرة كاترينا الثانية .

وفي سنة ١٧٧٢م تهادن الفريقان وأرسل كل منهما مفوضين للمخاطبة بأمر الصلح وعقد مؤتمر لذلك بمدينة فوكشان بآيالة البغدان ، فعقد المجلس الأول في ٨ آب سنة ١٧٧٢م، واتفق الجميع على مدّ أجل الهدنة إلى ٢١ أيلول من السنة المذكورة، فاجتمع المؤتمر في ذلك النهار فطلب مفوضو روسيا الاعتراف باستقلال تتر القرم وبالحق لروسيا أن تسيّر مراكبها في البحر الأسود وسائر بحار الدولة العلية، فلم يقبل مفوضو السلطان هذه الشروط فمدّ أجل الهدنة إلى سبعة أشهر، واجتمع بعدها المؤتمر في بوخارست فطلب مفوضو كاترينا قيصرة الروس شروطاً أكثر اجحافاً بحقوق الباب العالي، وظهر أنّ الملكة قصدت بذلك مداومة الحرب فنبذ مفوضو السلطان هذه الشروط . وفي ٢٢ آذار سنة ١٧٧٣م صدرت الأوامر للجيش العثماني أن يستأنف القتال في أعمال الدانوب فقيّض الله النصر للجنود العثمانية وتقهقر الروسيون في عدة مدن هناك .

وكان الأسطول الروسي باقياً في البحر المتوسط وكان علي بك استبد بشؤون مصر وأصبح كأنه مستقل بها، فخابر الأسطول الروسي ليمده بالذخائر والأسلحة ليتم استقلاله، فارتاح الأميرال إلى ذلك رغبةً في اشغال الدولة بحروبٍ داخلية . وفتح علي بك بعض مدن سورية وعاونه على ذل ذلك ضاهر العمر والي عكا حينئذ . ونرجئ تفصيل أخبار هذه الحملة إلى ما سنذكره عن سورية وأخبار نهاية هذه الحرب إلى ما بعده . ونجتزئ الآن بالقول إنّ السلطان مصطفى الثالث عاجلته المنية في ٢١ كانون الثاني سنة ١٧٧٤م بعد أن استمر على سرير الخلافة ست عشرة سنة وأشهرأ . انتهى .

عد ١٠٣٩

بعض ما كان بسورية في أيام السلطانين عثمان الثالث ومصطفى الثالث في سنة ١٧٥٥م كان عبدالله باشا الشنجي والياً على دمشق وقد انعمت عليه الدولة بهذا المنصب لما كان بين الانكشارية والقباقول من العداوة ، فحضر إلى هذه

المدينة ومعه ثلاثة عشر ألف رجل ، فاجتمع أهالي دمشق إلى الميدان قاصدين منعه عن الدخول إلى المدينة ، فدهمهم ليلاً وقتل منهم كثيرين ، ودخل المدينة فخافه الناس . وقيل إنه كان يتنكر ليلاً ويطوف في شوارع المدينة فيقتل كل من وقعت له شبهة فيه ، فأمن المدينة وردع الأوباش فيها .

وفي السنة المذكورة وقعت النفرة بين الأمير أحمد وأخيه الأمير منصور وبين ابن أخيهما الأمير قاسم ابن الأمير عمر ، فنزح الأمير عمر إلى البقاع وقطع الطريق عمن يحضرون إلى بلادهما ، فأرسل عماه يسترضيانه وأعطياه غزير ، ولما رأى الأمير ملحم أنّ أخويه لم يحفظا ذمامه دعا الأمير قاسم وكاشفه بسرّه وأشار إليه أن يتوجه إلى الآستانة ويلتمس من الباب العالي الولاية على جبل الشوف ، ويلتمس لنفسه الولاية على بلاد جبيل وأن تكون الولايتان اقطاعاً لهما ولذريتهما ، وأصبحه بكتاب إلى مصطفى باشا القواص الذي كان قبلاً والياً على إيالة صيدا ، وكان يحب الأمير ملحم وقد رقي إلى وزارة الدفترارية . فسار الأمير قاسم سنة ١٧٥٨م إلى الآستانة ، فرحب به مصطفى باشا المذكور ووعدّه بقضاء حاجته ، ولكن حال دون ذلك وفاة السلطان عثمان وخلافة السلطان مصطفى وعزل مصطفى باشا عن منصبه ، لكنه عندما عزم أن يبارح الآستانة قدّم الأمير قاسم إلى علي باشا الحكيم الذي خلفه في الدفترارية وأوصاه به ، فأنزله عنده مكرماً ، ثم أصبحه بكتاب إلى عبدالله باشا الشنجي والي دمشق أن يقيه عنده إلى أن يصدر الأمر السلطاني بقضاء مأربه . فسار من الآستانة إلى دمشق فالتقاء عبدالله باشا مرحباً وعرض عليه ما يريد من الاقطاعات في ولاية دمشق ، فلم يقبل احداها . ودنا وقت سفره إلى الحج فأمره أن يبقى بدمشق ورّتب له الاقامات الوافرة . ولما عاد عبدالله باشا سنة ١٧٥٩م من الحج لاقاه الأمير قاسم إلى المزاريب وقدّم له اثني عشر جواداً من جياد الخيل فتلّقه الوزير بالبشاشة والاعزاز ، ولكن ورد في اليوم التالي خبر عزل علي باشا من الدفترارية ورجع الأمير مع الوزير إلى دمشق . وبعد بضعة أيام عُزل عبدالله باشا أيضاً عن إيالة دمشق ، فضاق صدر الأمير وعيل صبره فأتى إلى فالوغا ونزل على الأمير شديد مراد اللّمي فكاّته عماه في أمر الصلح فأجابهما إلى ذلك وعقد بينهما عهد وثيق على حفظ المودّة والمسالمة . فحضر من فالوغا إلى دير القمر فقابلهما وتوجّه إلى الحدث فتوطنها ، ثم حضر إليه رسول من قبل الباب العالي مصحوباً بأمر إلى نعمان باشا والي صيدا وفرمان ليولي الأمير قاسماً على الشوف

وملحقاته . فأرسل الأمير إلى عميه وكتب إليهما أنه مقيم على العهد ويؤثر رضاها على الولاية ، وطلب منهما سبعة آلاف قرش ليدفعها صلة لرسول السلطنة فلم يشأ عماء دفعها ، فنهض إلى صيدا ودفع الأمر إلى عثمان باشا واليها فخلع عليه خلعة الولاية على الشوف ودخل إلى بيروت فجأة واستولى عليها ، ففرّ عماء ولم يشأ أن يؤذيها ، وجمعا أكابر الجبل وأعيانه فرفعوا عريضة إلى والي صيدا أنهم لا يرضون أن الأمير قاسماً يحكم فيهم بل يلتمسون إعادة الولاية إلى الأميرين أحمد ومنصور ودفعوا له خمسين ألف قرشاً ، فعزل الأمير قاسماً وسار الأمير قاسم إلى البقاع فكتب له عماء راغبين في الصلح معه فأجابهما إلى ذلك وأتى إلى عين داره ، وكانت من اقطاعه وبقي هناك . وفي سنة ١٧٦٢م زوّجه عمه الأمير منصور بابنته ليقربه إليه فولد له منها الأمير حسن والأمير بشير الكبير ثم ترك عين دارا وقطن بشامون ثم انتقل إلى بيروت ثم إلى غزير التي كانت اقطاعه وتوفي فيها .

وفي سنة ١٧٥٧م كانت في دمشق عدة وقائع بين الانكشارية والقباقول وكان دروز الجبل ينجدون الانكشارية ، واضطر عبدالله باشا الشتجي أن يجعل عسكريه يباغت منازل الانكشارية وقتل من العسكري نحو عشرين رجلاً ، ولكن اضطر الانكشارية أن يخرجوا من دمشق نحو ألف فارس .

وفي سنة ١٧٦٢م وقعت النفرة بين الأمير منصور وأخيه الأمير أحمد وتنازعا الولاية ، وكان أعيان ولايتهما انقسموا في أيام الأمير ملحم على حزين أحدهما يُعرف باليزبكية والآخر بالجنبلاطية . وكان الأمير جانحاً إلى الشيخ عبد السلام العماد زعيم اليزبكية والأمير منصور يميل إلى الشيخ علي جنبلاط زعيم الجنبلاطية . وكان بين الزعيمين مناظرة فسار الأمير أحمد إلى دير القمر عازماً على أن يستبد بالولاية ، وتوجه الأمير منصور إلى بيروت وكتب إلى محمد باشا العظم والي صيدا ليجعله منفرداً في الولاية ، فلبّى دعوته وسار بعسكر إلى حرش بيروت . ثم نهض الأمير منصور إلى دير القمر لقتال الأمير أحمد ففرّ إلى كفرنبرخ ودعا اليزبكية لقتال أخيه فلم يجيبوه إليه بل انقاد الشيخ عبد السلام العماد والشيخ شاهين تلحوق عميدا اليزبكية إلى الأمير منصور فاستقلّ بالولاية ، وكان مدبره الشيخ منصور آده . وقدّم الأمير إلى الوزير عشرة آلاف قرش فعاد إلى صيدا وبقي الأمير أحمد في كفر نبرخ ، وتوسط الشيخ علي جنبلاط والشيخ عبد السلام بأمر الصلح بين الأميرين فتصالحا على أن يسكن الأمير أحمد دير القمر غير متعرّض لولاية

أخيه ، وكان الأمير يوسف ابن الأمير ملحم أخيهما محازباً للأمير أحمد فضبط الأمير منصور أملاكه وأملاك اخوته . وكان الشيخ كليب والشيخ خطار النكديان في خدمته فهدم مساكنهما وانهزما إلى راشيا ، فسعى الشيخ علي جنبلاط بالصلح بين الأمير يوسف والأمير منصور فرضي الأمير منصور عن الأمير يوسف ابن أخيه وحضر لديه فالتقاء بالبشاشة لكنه ما برح ضابطاً أملاكه وأملاك اخوته ، وقام الأمير يوسف من دير القمر .

وكان الشيخ سعد الخوري وصياً ومدبراً لأولاد الأمير ملحم ، ولما علم أنّ الأمير منصور ما انفك ضابطاً أملاكهم ، أخذ يخبر أعيان البلاد في شأن الأمير يوسف واخوته ، ودرى بذلك الشيخ علي جنبلاط فناصر الأمير منصور أن يسلم أولاد الأمير ملحم أملاكهم فلم ينتصح ، فسئمت نفسه تصرف الأمير وانهاز إلى نصرة الأمير يوسف بمساعدة الشيخ سعد الخوري وباتفاق مع الشيخ كليب النكدي . وطاف شيخ عقال الدروز مظهراً أنه يزور الخلوات لأمر دينية وكان يرشدهم سراً إلى مملأة الأمير يوسف ، ثم توجه إلى الأمير يوسف في بشامون وقصّ عليه ما عمل وما رأى ، فنهض الأمير يوسف قاصداً دمشق والتقاء الشيخ سعد الدين الخوري إلى قب الياس فسار إلى دمشق ، وكان واليها حينئذ عثمان باشا الكرجي ، وطلب مساعدته فكتب إلى ولده محمد باشا والي طرابلس أن يولييه بلاد جبيل ، فعاد الأمير يوسف وكتب إلى بعض محازبيه أن يلاقوه إلى جبيل فلاقاه أكثر مشايخ البلاد . ثم سار إلى محمد باشا والي طرابلس وكان وقتئذ في اللاذقية فولاه على بلاد جبيل والبترون . وأتى سنة ١٧٦٣م إلى جبيل واستقرّ فيها والياً .

فتقاطر إلى الأمير يوسف محازبوه من الشوف وغيرها وكثر أصحابه وأعوانه وارتفع شأنه بتدبير الشيخ سعد الخوري . وكان المشايخ آل حماده يتولون بلاد جبيل والبترون فحاربهم الأمير وكسرهم في عدة وقعات حتى أضعفهم عن طلب الولاية ، وأحبّه أهل هذه البلاد وعاونوه على رغائبه . وفي سنة ١٧٦٤م استنجده عثمان باشا والي دمشق لفتح قلعة سانور من صاحبها محمد الجرار فسار الأمير بجيش من لبنان فالتقى بالوزير وحاصروا القلعة فلم يفتحوها ، قيل لتأخر رجال الأمير لأنهم قيسيون ، وأصحاب القلعة كذلك . ومع ذلك غمر الوزير الأمير باكرامه ورضاه ووجس الأمير منصور من الأمير يوسف لئلا يتصدر للولاية . ومع

ذلك أغراه عبد السلام العماد بالانتقام من الشيخ علي جنبلاط فطاوله فعلم الشيخ علي بذلك فراسل الأمير يوسف وهيجه على أخيه الأمير منصور، فنهض من دير القمر إلى مزرعة الشوف ولاقاه الشيخ علي ومحازبوه قائلين إنهم لا يريدون غيره والياً، وغزل حيثل محمد باشا والي صيدا الذي كان الأمير منصور يعتمد عليه فعدل عما كان قد عزم عليه من مضادة الشيخ علي جنبلاط، واضطر أن يلاطفه وأدخل بعض الأمراء في الصلح فخمدت نار الفتنة .

وفي سنة ١٧٦٦م قبض الأمير يوسف على جماعة من الحمادية لتعدياتهم فالتجأوا إلى والي طرابلس فأمدّهم بعسكر وحضروا إلى بيزا بكورة طرابلس ، فسار الأمير يوسف إليهم وانتشب القتال بينهم في أميون فانكسر عسكر طرابلس وحضر جماعة منه في البرج الذي بأسفل القرية وقتل منهم عدة رجال ثم سلموا وانصرفوا إلى طرابلس ورجع الأمير إلى جبيل . وفي سنة ١٧٦٧م وُلد للأمير قاسم ولد سماه بشيراً وهو الأمير بشير المعروف بالكبير وبعد ثلاثة أشهر ونصف توفي . ونظم بعض الشعراء تاريخاً لوفاته وهو:

أيا قاسماً قد فقت فضلاً على الورى وسرت إلى مولاك حين مسيركا
ومن بالشهابيين قبلك قد رقى إلى درج العلياء أرتخ نظيركا

سنة ١١٨١ الموافق ١٧٦٧ م .

وفي سنة ١٧٧٠م توفي الأمير اسماعيل ابن الأمير يوسف ارسلان بلا عقب فأوصى بماله للأمراء آل شهاب ، فاختلف الأمراء الموصى لهم في قسمة التركة ولا سيما الأمير علي أخو الأمير منصور وأخوه الأمير يونس والأمير سيد أحمد ابن الأمير ملحم ، فأصلح بينهم الأمير منصور تاركاً نصيبه من الوصية وقسم بينهم فأخذ الأمير علي العقار الذي في وادي شحرور، والأمير يونس ما كان للموصى في برج البراجنة، والأمير سيد أحمد طاحون المخاضة وبعض العقار في نهر بيروت .

خروج الأمير علي بك المصري والشيخ ظاهر العمر في سورية

أثناء الحرب بين الدولة وروسيا أرسلت روسيا أسطولاً إلى البحر المتوسط كما مرّ. وأثارت بدسائسها ومساعداتها كثيرين من نواب السلطنة عليها ومن جملتهم هيّجت الأمير علي بك المصري، فحسنت له الأنقضاض على الدولة والعصيان عليها، فحشد الجنود في مصر وأرسلها بقيادة محمد بك المكنى بأبي الذهب إلى الحجاز لاجراز الشريف من مكة. ولما وصل إلى جده ملكها بالأمان وولّى عليها حسن بك. ثم سار إلى مكة المكرمة وطرد الشريف منها وأقام غيره مكانه ورجع إلى مصر. فاشتهر الأمير علي بك بسطوته وصولته في كل مكان. وضربت السكة باسمه وخلع الوزير القائم على مصر من قبل الدولة وأقام عليها والياً من قبله. ولانشغال الدولة بمحاربة روسيا أغضت على جسارته وكان حينئذ والياً على عكا الشيخ ظاهر العمر. وأصل هذه الأسرة من المدينة المنورة أتى زيدان جدّهم إلى صفد فولد عمر فتولّى على عكا في أيام الأمير بشير الأول الشهابي، وعند وفاته خلفه ابنه ظاهر العمر وجعله والي صيدا حاكماً على عكا محل أبيه، وكان متفقاً مع المشايخ المتأولة حكام صور وبلاد بشاره، ووقعت نفرة بين الشيخ ظاهر وعثمان باشا الصفاق والي دمشق، فحشد هذا والي عسكرياً واستنجد الأمير منصور حاكم الشوف لقتال الشيخ ظاهر العمر، ولما علم الشيخ ظاهر بذلك كتب إلى الأمير علي بك والي مصر وأرسل له هدايا وزين له الخروج على سورية، وطلب أن يده بالعساكر، فسولت له نفسه امتلاك سورية بفرصة اشتغال الدولة بحرب روسيا، فجهز ستة مناجق كبار وأمر عليهم اسماعيل بك وأصحابهم بعشرة آلاف مقاتل من الغز والعرب والمغاربة وأمرهم أن يكونوا منقادين لطاعة ظاهر العمر، وأرسل الشيخ ظاهر أولاده فالتقوهم في يافا وحضروا بهم إلى عكا، وقدم لهم الشيخ ظاهر الدخائر. ولما علم عثمان باشا بذلك عدل عما كان بنفسه من الانتقام من الشيخ ظاهر وأخذ يتجهز للحجّ. وسار العسكر المصري يتقدمهم الشيخ ظاهر وأولاده إلى جهة المزاريب، وفي نية الشيخ ظاهر أن يلتقي عثمان باشا هناك فيهلكه. فأبى اسماعيل بك أمير العسكر المصري أن يضرب بالحجاج وعاد بعسكره إلى يافا، فشكاه الشيخ ظاهر إلى الأمير علي بك بمصر فأخذ يجهز عسكرياً آخر

يرأسله إلى سورية وأمر عليه محمد بك المكتى بأبي الذهب . سنة ١٧٧٠م بلغ بعسكره إلى جهة الرملة فوجد اسماعيل بك هناك ووافى إليه الشيخ ظاهر وأولاده ومشايخ المتاوله فانضموا إلى عسكره فتألف جيش لا يقل عن ستين ألفاً ، ولما علم عثمان باشا بقدمهم لقتاله ارتاع ومع ذلك خرج بعسكره للقتال فلم يثبت رجاله إلا قليلاً وانهمزوا ، وخيم أبو الذهب بجيشه حول المدينة قاصداً حصارها . وكان الأمير علي بك أصحاب أبا الذهب برسالة طويلة أثبت الأمير حيدر شهاب صورتها في تاريخه فحواها الوعد والوعيد وتعداد مظالم عثمان باشا وأغراء القضاة والحكام وأصحاب المناصب بالمساعدة للجنود على كبحته وردعه ، ولما نشرت هذه الرسالة على خاصة أهل دمشق وعامتهم خرجوا إلى محمد بك أبي الذهب مرحبين طائعين طالبين الأمان ، فأمنهم ودخل المدينة واستقرّ في دار الوزارة وأمر باطلاق المدافع على القلعة فطلب من بها الأمان وتسلم القلعة أيضاً .

وكان الأمير منصور الشهابي يحب ظاهر العمر وبينهما علاقة ودّ ومصلحة . فاستمال الشيخ ظاهر أبا الذهب إلى الأمير وكتب له يطيب قلبه ، ولما علم الأمير منصور بدخول أبي الذهب إلى دمشق ، أرسل إليه ثلاثة أفراس من جياد الخيل وكتب له كتاباً أثبت صورته أيضاً الأمير حيدر في تاريخه ، وأجابه أبو الذهب عليه أحسن جواب . وأما عثمان باشا فتوجه بعد انهزام عسكره إلى حمص وأرسل نائبه إلى الأمير يوسف شهاب يحثه على انجاده بالرجال ، وهو أقام يحشد الجنود من تلك الجهات حتى تألّب عنده خلق كثير . ومن بعد دخول أبي الذهب إلى دمشق طفق اسماعيل بك المذكور يغيّر قلبه ويشني عزمته ويخوّفه من عواقب الأمور بأنّ الدولة لا بدّ من أن يخلو بالها من الحرب فتلتفت إلى مصر بعين الانتقام ، ومن عصا السلطان فقد عصا الله . وما زال به حتى نهض أبو الذهب ليلاً بعساكره مفارقاً دمشق فعجب الناس كثيراً من هذا التغيير غير المنتظر ورجع الشيخ ظاهر الثمر ومشايخ المتاوله كلّ إلى محله .

ولما بلغ عثمان باشا خبر رحيل أبي الذهب أسرع إلى دمشق وكان الأمير يوسف الشهابي قد جمع الرجال في البقاع وسار مجدداً إلى دمشق فأكرمه عثمان باشا غاية الاكرام وخلع عليه ورجع إلى دير القمر وأقام بها ، فمالت إليه أعيان البلاد ولهجت الألسن بالثناء عليه ، ووجس الأمير منصور من أنه لا بدّ أن يزاحمه في الولاية ، وزيّت له الجبابة أن يخلع نفسه منها ويسلمها إلى الأمير يوسف ،

وكاشفه بذلك فتمتّع الأمير يوسف أولاً من ذلك مجاملةً واحتشاماً ، وتخيّل الأمير منصور هذا خداعاً فأرسل الأمير اسماعيل أمير حاصبيا إلى الأمير يوسف يقنعه بقبول الولاية فاقتنع ، فسار الأمير منصور من بيروت إلى الباروك والتقاء الأمير يوسف من دير القمر فتنازل الأمير منصور عن الولاية للأمير يوسف بحضرة أعيان البلاد ، وكتب إلى عثمان باشا يخبره بذلك ويسأله أن يكتب إلى ابنه درويش باشا والي صيدا أن يوجه الخلع إلى الأمير يوسف ، فكان ذلك جلّ ما يتغي عثمان ، باشا فأجابه إلى طلبه وأرسل درويش باشا الخلع إلى الأمير يوسف ، فتولّى البلاد من ظاهر طرابلس إلى ظاهر صيدا ، وتوطّن الأمير منصور بيروت إلى أن توفي .

ووصل محمد أبو الذهب إلى مصر فجأة فتعجّب الأمير علي بك كل العجب إذ كان يعلم دخوله إلى دمشق وطرده عثمان باشا وسأله عن سبب عوده بغتة فجعل السبب تصلف الشيخ ظاهر وعشيرته عليه ونسبهم إلى الخيانة والمكر ، فكتب الأمير علي بك إلى الشيخ ظاهر يعاتبه فأجابه منكرأ ما عزاه إليه أبو الذهب وأرسل إليه ابنه الشيخ عثمان ليكون رهينة على صدق قوله وإخلاصه ، فتحقق علي بك خيانة أبي الذهب ، ولم يلبث أبو الذهب حتى خرج إلى الصعيد وابتدأ يحشد الرجال ، فجمع الأمير علي بك عسكرياً وأمر عليه اسماعيل بك المذكور وأرسله لقتال أبي الذهب في الصعيد . فاتفق اسماعيل بك وأبو الذهب على الأمير علي بك وعاد إلى القاهرة بالجيوش الغفيرة ، فاضطرّ علي بك أن يفتر من القاهرة إلى عكا عند الشيخ ظاهر العمر ، وجلس أبو الذهب على تخت القاهرة ونودي باسمه .

وكتب علي بك والشيخ ظاهر إلى الكونت ارلوف أمير الأسطول الروسي في البحر المتوسط أن ينجدتهما فلبّي دعوتهما بارتياح ، وكان في هذه الأثناء أنّ عثمان باشا والي دمشق أراد أن ينتقم من المتأولة والشيخ ظاهر العمر لمعاونتهم العسكر المصري ، فجمع عسكرياً ضخماً سار به إلى بحيرة الحولة فحشد الشيخ ظاهر والمتأولة حشداً كبيراً وكبسوا ليلاً عثمان باشا فاندعرت عساكره وقتل منهم خلقٌ كثير ، وغرق منهم جماعة في بحيرة الحولة ، وفرّ عثمان باشا بنفر قليل وغنم المتأولة بأسلابهم وكل ما كان في معسكرهم . وانهزم أيضاً درويش باشا والي صيدا ابن عثمان باشا مع أبيه إلى دمشق ، ثم عاد إلى صيدا فعصا عليه مشايخ المتأولة وأرسلوا يتهدّدونه ليقوم من صيدا . وكتب عثمان باشا إلى الأمير يوسف أن يجمع رجال الجبل ويردع المتأولة ، فنهض من دير القمر بهجحفيل زهاء عشرين ألفاً

ولكن اعتصب عليه المتأولة والشيخ ظاهر العمر وخانه بعض رجاله فلم ينجح بحملته عليهم ، وعاد إلى لبنان بعسكره مكسوراً وخاف درويش باشا وفرّ من صيدا إلى دمشق .

ولما علم الشيخ ظاهر العمر ونزله علي بك بقيام درويش باشا من صيدا سؤلت للشيخ ظاهر نفسه الخروج والعصيان فأرسل أحد خواصه يسمى أحمد آغا الدنكلي فاستولى على صيدا وصار نائباً من قبله فيها . فكتب عثمان باشا والي دمشق إلى الباب العالي عمّا كان فصدر الأمر بقتال ظاهر العمر وعلي بك والمتأولة وردعهم عن عصيانهم . وتوفي في أثناء ذلك عثمان باشا والي دمشق وخلفه عثمان باشا المصري . وكتب إلى الأمير يوسف حاكم لبنان أن يجمع الرجال ليكونوا مع عسكر الدولة ، وساروا جميعاً وكانوا نحو عشرين ألفاً ، فأقاموا الحصار على صيدا سبعة أيام وإذا بالأسطول الروسي قد أشرف على المدينة وشرع باطلاق المدافع على العسكر العثماني ورجال لبنان ففتحوا إلى حارة صيدا . وكتب الشيخ ظاهر إلى الأمير يوسف أن يرجع بعسكره إلى جسر صيدا وهناك يكون الاتفاق بينهما ، فأبى الأمير فسار الشيخ ظاهر بعسكره وفرسان الغزّ الذين أتوا مع علي بك وكانوا نحو عشرة آلاف ، وانتشب القتال بينهم وبين عسكر الدولة والأمير وكان الظفر للشيخ ظاهر وعسكره ، فانقلب عسكر الدولة راجعاً إلى دمشق ورجع الأمير يوسف برجاله إلى دير القمر .

وبعد أن رفع الأسطول الروسي الحصار عن صيدا سار إلى بيروت وشرع باطلاق القنابل على أبراجها فهرب الأمراء الشهابيون والأهلون من المدينة ودخلها الروسيون وانهبوا كلما وجدوا وعادوا إلى مراكزهم . ولما بلغ الخبر إلى الأمير يوسف سار من دير القمر برجاله إلى حدث بيروت فأرسل أمير المراكب يطلب منه نفقة مراكبه ليتحوّل عن المدينة فأرسل له سبعة آلاف وخمسة مئة قرش . ويروى خمسة وعشرين ألف قرش . فأخذها وعاد بمراكبه إلى عكا . كان كل ذلك سنة ١٧٧١م . وفي سنة ١٧٧٢م توجه الأمير علي بك ومعه عساكر الشيخ ظاهر العمر قاصداً الديار المصرية ليسترد ولايته عليها ، فالتقاء بجوار غزة محمد بك أبو الذهب والي مصر ، حيثلي وانتشب القتال بين عسكر الفريقين فانكسر عسكر الأمير علي بك كسرة هائلة ومجرح هو في وجهه جرحاً بالغاً ، وسقط على الأرض فانكب عليه أبو الذهب وقبّل يده وبكى عليه . وأقبلت عليه السناجق يقبّلون يده وحملوه

إلى مصر وأحضر له أبو الذهب الجراحين يداوون جرحه حتى أوشك أن يبرأ ثم دسوا له سمّاً في جرحه فمات وانقضى دوره .

وابتدأ دور أحمد الجزار وهذا الرجل كان بشناقي الأصل أتى إلى مصر في أيام ولاية الأمير علي بك المذكور وارتكب جرائم وأرادت الحكومة حبسه ففرّ إلى الأمير يوسف شهاب حاكم لبنان سنة ١٧٧٠م فأقام عنده أياماً ثم أرسله إلى بيروت ورَتَّبَ لها نفقةً من جمركها، ثم سار إلى دمشق فاستخدمه عثمان باشا واليها . ولما أرسل عثمان باشا المصري إلى الأمير يوسف الشهابي عسكرياً ليضمّ إليه رجاله ويُخرجوا الدنكرلي من صيدا كما مرّ، كان الجزار في جملة عسكري الوالي . وبعد أن ضرب الأسطول الروسي بيروت ثم تحوّل عنها قدم الجزار مع نائب عثمان باشا إليها وأمر عثمان باشا الأمير يوسف أن يسلم الجزار بيروت ليحافظ عليها إذا طرقتها الأسطول الروسي ثانية، فسلمه المدينة وبقي معه ثلاث مئة رجل من المغاربة . وشرع الجزار يرمّم أسوار بيروت المتهدمة ويهيئ معدات للحرب والحصار ويمنع أهل الجبل من الدخول إليها ولا يدع شيئاً يخرج منها، فتحقق الأمير يوسف أنه لا يريد العصيان عليه والخروج عن طاعته فجمع عسكرياً حضر به من دير القمر إلى بعبدا فكتب إليه الجزار يطلب الاجتماع به بنفر قليل في ظاهر المدينة، فحضر الأمير إلى المصيطبه وخرج الجزار ببعض أصحابه إليه وأظهر الجزار التلطف والاتضاع للأمير وتبرأ من الخروج والعصيان والتمس أن يمهله الأمير يوسف أربعين يوماً فيقوم من المدينة ويسلمها إليه، فاغترّ الأمير بكلامه وأمهله، ولما انقضت الأربعون يوماً جاهر بالعصيان وأطلق للمغاربة الذين عنده أن يسطوا على أهل الجبل فجمع الأمير عسكرياً ونهض به لحصار المدينة، وكتب إلى ظاهر العمر والي عكا أن يوعز للأسطول الروسي بحصار المدينة واكره الجزار على أن يسلمها إليه، فأجاب ظاهر العمر إلى ما طلب الأمير فكان الأسطول بقرص فسار بطلب الشيخ ظاهر إلى بيروت . واتفق الأمير يوسف وعمه الأمير منصور مع أمير الأسطول على أن يدفعاً له ثلاثمائة ألف قرش على فتح المدينة وتسليمها، ورهنا عنده الأمير موسى منصور على هذا المبلغ، فشرع أمير الأسطول الحصار وأخرج فريقاً من عساكره إلى البرّ وأحاط المدينة برّاً وبحراً ودام الحصار أربعة أشهر . ولما تضايق الجزار كتب إلى ظاهر العمر أنه يسلم المدينة على يده بشرط أن يخرج منها هو وأصحابه دون ضرر، فأجابه ظاهر العمر إلى ما طلب وكاشف الأمير بذلك فرضيته، وأرسل معتمداً

فأخرج منها الجزار وأصحابه وسلمها إلى الأمير يوسف . فجمع الأمير أسلحة أهلها وغزهم قسماً مما تعهد بدفعه للأمير الأسطول ونقده الباقي من ماله واستفك الأمير موسى . وأقلع الأسطول إلى قبرص فرجع الأمراء الشهابيون إلى بيروت وولى الأمير عليها حاكماً من أهلها وعاد إلى دير القمر .

وفي السنة المذكورة أي سنة ١٧٧٢م راسل الشيخ ظاهر العمر عثمان باشا المصري والي دمشق بأنه يرغب في رضى السلطان عنه والصفح عما فرط منه ، فرجع عثمان باشا عريضة إلى الباب العالي بهذا الشأن وحسن لدى السلطان بالتكرم عليه بالعفو وتأمينه في المستقبل . فكتب إلى عمال الدولة بسورية وخصّ الأمير يوسف شهاب بكتاب أثبتته الأمير حيدر الشهابي في تاريخه فوصل هذا الكتاب للأمير وأجاب عليه جواباً حسناً رعايةً لخطر الشيخ ظاهر العمر ، ولكنه كان يكره باطناً أن يكون ظاهر والياً على إيالة صيدا ، ويكون الأمير خاضعاً له ، ثم ورد له الفرمان السلطاني مع قبوحي من قبل الباب العالي ، وقد أثبت الأمير حيدر صورة هذا الفرمان في تاريخه صفحة ٨٣٣ وكانت له الولاية على صيدا وعكا وحيفا ويافا والرملة و نابلس وصفد . وكان المتأولة جميعاً منقادين لأمره واطمأنّ خاطره واستفحل أمره .

وسنة ١٧٧٤م عرض محمد بك أبو الذهب إلى الباب العالي أنه حارب الأمير علي بك وقتله جزاءً لعصيانه ، واستأذن بالحمل على الديار الشامية لتأديب الشيخ ظاهر العمر شريك علي بك بعصيانه . فأذن الباب العالي بذلك فخرج من مصر كملك ومعه جيش كثيف نحو الستين ألفاً ، ولما بلغ غزة ارتجت له البلاد وكان الشيخ ظاهر العمر قد حصّن يافا وأقام بها الرجال والمدافع وجعل ابنه الشيخ كريماً حاكماً فأغلق أبوابها بوجه أبي الذهب فحاصره بها ستين يوماً ثم فتحها عنوة وأهلك من فيها ونهب أموالها ، ولما بلغ ذلك الشيخ ظاهر أرسل يستنجد الأمير يوسف فكان في بيروت فجمع أعيان البلاد في الحرش ولم يصوبوا النجدة خوفاً من أبي الذهب . ولم يشأ الأمير أن يتخلّى عن الشيخ ظاهر فكتب كتاباً إلى أبي الذهب يستعطفه على الشيخ ظاهر وأرسل له هذا الكتاب معتذراً عن القيام معه ، فردّ الشيخ ظاهر هذا الكتاب إلى الأمير وأقبل أبو الذهب على عكا وجاهر الأمير بطاعته ، وطلب الشيخ ظاهر أن يواجه الأمير على جسر صيدا فاعتذر أيضاً عن المقابلة ، فقام الشيخ ظاهر إلى صفد وسار منها بأولاده إلى عرب عنزة ، وقدم

أحمد آغا الدنكرلي والي صيدا وعرض الطاعة لأبي الذهب فأمنه ثم عزله وحضر إليه الشيخ ناصيف النصار وقدم له عشرين حصاناً فطُيَّب قلبه وأمره أن يبقى عنده إلى أن يحضر باقي مشايخ المتأولة ، ثم ملك أبو الذهب بلاد صفد ونكب دير ايليا النبي وقتل من وجد من رهبانه وهدمه فامتلاً بذلك كيل بغيه ، ولما كان ذات يوم جالساً في مظلمته سقط مغشياً عليه ، وكان يصرخ ردوا عني هذا الشيخ المفترس . والناس لا يرون أحداً حوله ، ومات فشاع بين العامة أنَّ ايليا النبي خنقه لهدمه دير . فقال بعض الشعراء :

لما دنا كل المنى والهَمَّ عن قلبي ذهب
والسعد أقبل ظاهراً أرخت مات أبو الذهب

فحمل عسكريه جثته وعادوا بها إلى مصر .

وبعد موت أبي الذهب رجع الشيخ ظاهر العمر إلى عكا وأرسلت الدولة العلية حسن باشا غازي بأسطول عثماني إلى سورية ، فوصل إلى يافا وكتب إلى الشيخ ظاهر أن يؤدي ما بقي عليه من الأموال السلطانية بحسب تعهده للدولة فيبقى على ولايته كما كان ولا يُغزل . فجمع أولاده وأصحاب مشورته واستشارهم فقال بعضهم نترك عكا ونعصم بالجبال ، وبعضهم يحارب في عكا ، وبعضهم يؤذي المال ونغتم الراحة . وقال أحمد الدنكرلي الذي كان والياً في صيدا مولاي إنَّ سيف الدولة طويل وليس لثلثنا أن يحارب مثلها ، فقال الشيخ ظاهر هذا هو الصواب وقد طعنت في السن ولم تبق لي طاقة على الحرب أو الفرار . وكان عند الشيخ ظاهر رجل اسمه ابراهيم الصباغ وكان قديم بيته فقال له الشيخ أعدد لنا جانباً من المال نرضي به الدولة ، فقال ليس عندنا ما يقوم بالمطلوب ، وسواء أرسلنا كثيراً أم قليلاً لا ترضى الدولة عنا . فقال الدنكرلي أعطني مائة ألف قرش وأنا أحملها إلى حسن باشا فأرضيه بها ، فقال ابراهيم ليس عند الشيخ إلا رجال وسلاح فليفعل حسن باشا ما شاء . فاشمأز الدنكرلي وخرج إلى جماعته وكانوا على الأبراج فقال إنَّ الشيخ يريد أن يلقي نفسه بالنار فاسلموا بأنفسكم وسدوا أفواه المدافع ولازموا الإقامة عليها حتى لا يطلق أحدها . ولما أبطأ الجواب قام حسن باشا بأسطوله إلى عكا وأمر محمد باشا العظم والي القدس أن يحضر بعسكره برّاً ،

وأرسل والياً إلى صيدا من قبله فتسلمها وأرسل الدنكرلي يخبره سرّاً بما كان ، فأمر الأسطول أن يرمي المدينة بالقلل ، وأرسل الشيخ ظاهر المغاربة ليطلقوا المدافع على المراكب فقال من في الأبراج إننا قوم مسلمون لا نحارب السلطان ، واعتصموا في الأبراج لا يدعون أحداً يدخل إليها . فلما رأى الشيخ ظاهر ذلك جزع وفرّ من البلد . وبينما هو خارج من باب المدينة رماه أحد المغاربة برصاصة فأصابته في صدره فتجندل قتيلاً . فدخل حسن باشا إلى عكا وضبط خزائن الشيخ ظاهر فإذا هناك من الأموال والسلاح والتحف ما لا يمكن حصره . وأرسل حسن باشا كتاب الأمان إلى أولاد الشيخ ظاهر وطلبهم إليه فحضر أربعة منهم وهم عثمان وسعيد وأحمد وصالح ، فقبض عليهم وقتل أحدهم سعيداً لتطاوله في الكلام على الدولة وأرسل الثلاثة مع رأس أبيهم إلى الآستانة ، فأنعمت الدولة على أحدهم عثمان بالوزارة والولاية على جده وعلى أخيه أحمد بالولاية على مدينة في الروملي وأما ابراهيم الصباغ فقبض عليه حسن باشا وعذّبه حتى أقّر بكل ما يعلم من ذخائره وذخائر مولاه ثم شنقه في أحد المراكب فسيحان الباقي .

عد ١٠٤١

أحداث أخرى بلبنان في هذه الأثناء

في سنة ١٧٧١م تجمّع المشايخ الحمادية ودهموا الأمير بشير حيدر نائب الأمير يوسف بيلاد جبيل وهو يومئذ في العاقورة ومعه شيخا بشري واهدن ، ودام القتال نهراً كاملاً ، فظهر الأمير عليهم وقتل ثمانية رجال منهم وأبعدهم عن القرية وقتل من جماعته ثلاثة أنفار . ثم حضر رجال الجبة لنجدة الأمير بشير فخاف المتأولة وقاموا بعيالهم من جبة المنيطرة ووادي علمات في الكورة ولحقهم رجال جبة بشري . وبلغ الأمير يوسف ذلك فوجّه مدبره الشيخ سعد الخوري وأصبحه بعسكر مغاربة كانوا مع والي دمشق . ولما بلغ الشيخ سعد إلى جبيل بلغه أنّ المتأولة انهزموا إلى الكورة وأدركهم في دير بعشتار فأغار عليهم بمن اجتمع إليه من أهل تلك البلاد فظفر بهم واندعر من بقي منهم ، وظلّ يطردهم إلى القلمون ، وأهلك منهم نحو مائة رجل وقبض على الشيخ علي أبي النصر ، ثم التمس الشيخ ميلاد الخازن اطلاقه فخلّى سبيله . وكان الأمير يوسف سار بعسكر من بيروت فخيّم في نبع أفقا

فعاد الشيخ سعد إليه بعد قهره المتأولة فصرف الأمير يوسف المغاربة إلى بيروت وأقام ببلاد جبيل أياماً .

وفي سنة ١٧٧٢م جمع الأمير يوسف عسكرياً من بلاده وسار به إلى الضنية قاصداً قتال المشايخ آل رعد ولأنها لمحاماتهم عن المشايخ الحمادية وخيم بعفصديق بالكورة فورد له كتاب من والي طرابلس يقول إنّ المشايخ آل رعد لجأوا إليه وأرسلوا كبيرهم يلتسون منه تدخله في الصلح ، فأجابه الأمير إلى ما طلب وقام من عفصديق وأمر بحرقها لأنّ صاحبها الأمير أحمد الكردي كان يميل إلى الحمادية .

وكان الأمير يوسف قد التمس من عثمان باشا والي دمشق أن يولي أخاه الأمير سيد أحمد على البقاع فولاه ، وتوجه الأمير سيد أحمد فأقام بقلعة قب الياس وعمر ما كان مهتماً منها ، وأتى إليها بآلات حربية وأخذ يسطو على مارة الطريق ، ونهب قافلة لتجار دمشق كانت مارة في الطريق ، فكتب عثمان باشا إلى الأمير يوسف أن يردع أخاه عن التعدي ويردّ ما سلبه من القافلة ، وكتب الأمير إلى أخيه فلم يجب فاعتذر الأمير للوزير عذراً لم يقبله . ففي سنة ١٧٧٣م قام الوزير بعسكره إلى البقاع وعرف الأمير يوسف فنهض بعسكره إلى المغنية ثم انحدر لقتال الوزير ، وكانت بينهما وقعات لم يتم الظفر بها لأحدهما فكتب الأمير يوسف إلى الشيخ ظاهر العمر والمتأولة يستنجدهم ، فوفد إليه الشيخ علي ابن ظاهر العمر والشيخ ناصيف النصار كبير بني علي الصغير بجيش وافر ، وبلغ عثمان باشا قدومهم فداخله الهلع وقلق عسكره ففرّ هارباً إلى دمشق تاركاً المدافع والخيّم والذخائر ، فرحف الأمير بعسكره إلى مخيم الوزير وأمر بنهيه وأقام أخاه الأمير سيد أحمد في قلعة قب الياس وسلمه المدافع التي تركها عثمان باشا ، وأثنى على الشيخين المذكورين لتلبية دعوته فانصرفا إلى محلّهما وعاد الأمير يوسف إلى دير القمر .

وسوّلت بعد ذلك للأمير سيد أحمد نفسه أن يخرج على أخيه الأمير يوسف وكان عنده في القلعة الأمير فارس يونس واستمال إليه الأمير منصور صاحب راشيا والشيخ عبد السلام العماد زعيم اليزبكية والشيخ حسين تلحوق ، وكان الأمير يوسف قد صادروهما وضمّ إليهم جميع النافرين من أخيه حتى اجتمع إليه حشد كبير

وأظهر العصيان على أخيه . وثقل على قرى الشيخ علي جنبلاط فحنق عليه الأمير يوسف وجمع عسكرياً زحف به إليه وحصره في قلعة قب الياس سنة ١٧٧٤م فلم يتمكن من فتحها ، وانفض عنه أكثر عسكره بدسيسة الشيخ عبد السلام العماد المذكور ، فطلب عسكر مغاربة من عثمان باشا والي دمشق وضيّق على الأمير سيد أحمد مانعاً عنه الزاد والماء فاستجار الأمير سيد أحمد بالشيخ علي جنبلاط والشيخ كليب النكدي متعهداً أن يخرج من القلعة آمناً ويسلمها إلى أخيه ، وسأل الشيخان الأمير يوسف أن يرضى بذلك فأجابهما إليه . وخرج الأمير سيد أحمد بأصحابه وماله من القلعة وسار إلى الحدث وتوطنها ، فأمر الأمير يوسف بنقض هذه القلعة ، فلم يتمكن الفعلة أن يهدموا إلا قليلاً منها لثانة بنائها ، ثم سأل محمد باشا العظم الذي كان قد تولّى دمشق أن ينصبه حاكماً في البقاع بدلاً من أخيه فأجابه إلى ذلك على شرط أن يرّد على تجار دمشق ما سلبه أخوه من قافلتهم ، فتعهد الأمير يوسف بذلك وأتاب عنه أخاه الأمير قاسماً في ولاية البقاع وعاد إلى بيروت وأكره أخاه الأمير سيد أحمد على اداء قيمة ما سلبه من التجار وردّه عليهم واصطلح مع أخيه الأمير سيد أحمد ولكن بقي حاقداً على الأمير منصور صاحب راشيا لتعصبه لأخيه ، فادّعى المشايخ النكدية عليه بألف قرش وضموا إليها ربها سنة فسنة فبلغ المطلوب منه سبعة آلاف وخمسمائة قرش . فوجه عمه الأمير حسيناً يتقاضاها منه ، فأقام عنده شهرين وتوفي . فادّعى عليه أنه دسّ له سمّاً أماته به . وعظم الأمر فكتب الأمير منصور إلى الشيخ سعد الخوري أن يسترضي الأمير يوسف عنه ، فرضي عنه بعد أن دفع الأمير منصور خمسة عشر ألف قرشاً .

وفي سنة ١٧٧٤م توفي الأمير منصور حيدر الشهابي الذي كان حاكماً وله أربعة أولاد الأمراء موسى ومراد وحمود وحيدر وعمره نحو ستين سنة ودُفن في جامع الأمير مندر التنوخي في بيروت ، ونظم له السيد أحمد البربر تائيناً وتاريخاً:

سقى هذا الضريحُ سحابَ فضلٍ	وعمّ بالرضى من في ثراه
أميرٌ كان في الدنيا شهاباً	ومنصوراً على قومٍ عصاه
فإن يكُ عن عيوني قد توارى	فحسبي أنّ قلبي قد حواه
ولما سار للفردوس فوراً	وقرّ به المهيمن واصطفاه

أتى تاريخه في بيت شعر يودّ البدر لو يُعطى سناه
فمهمله ومعجمه وكل من الشطرين تاريخاً تراه
شهابُ رحمة المولى عليه هوى للترب بدر من رباه

سنة ١١٨٧ هـ الموافق ١٧٧٤ م .

وفيهما توفي أخوه الأمير بشير حيدر المعروف بالسمين بلا عقب .

عد ١٠٤٢

السلطان عبد الحميد خان الأول

بعد وفاة السلطان مصطفى خان الثالث سنة ١٧٧٤م رقي إلى منصة السلطنة والخلافة السلطان الغازي عبد الحميد خان الأول وهو ابن السلطان أحمد الثالث وأخو السلطان مصطفى الثالث سالفه . وُلد سنة ١١٣٧ هـ الموافقة لسنة ١٧٢٤م . وقضى مدة سلطنة أخيه محجوراً في قصره كالعادة ، وفي اليوم الثالث من خلافته توجه بموكب حافل إلى جامع أبي أيوب لتقلد السيف ، ولم يوزع على الجنود الحلوان المعتاد لاستنزاف الحرب الروسية خزائن الدولة ، وأقرّ الصدر الأعظم محسن زاده وأكثر عماله وأعوانه وقواد عسكريه على مناصبهم السابقة ، وكانت روسيا تستعد استعداداً هائلاً لتسترد ما أخذ منها في أيام السلطان مصطفى الثالث وتأخذ ما أمكنها من أملاك الدولة ، وقد زحفت جيوشها في شهر حزيران سنة ١٧٧٤م فاجتازت نهر الطونة قاصدة مدينة وارنا ، فالتقت بعسكر عثماني أميره عبد الرزاق أفندي فهزمته وتقدمت نحو معسكر محسن زاده الصدر الأعظم ، فطلب الصدر من أمير الجيوش الروسية المهادنة وتوقيف القتال ، وأرسل إليه مندوبين للمخاطبة في الصلح وشروطه التي كان الباب العالي قد رفض قبولها في مؤتمر بوخارست ، فاجتمع المندوبان العثمانيان بسفير روسيا بمدينة قينارجة ، وبعد مخابرات طويلة قرّر رأي الدولتين المتحاربتين على عقد معاهدة عُقدت في ٢١ تموز سنة ١٧٧٤م مشتملة على ثماني وعشرين مادة أثبتتها محمد فريد بك في كتابه تاريخ الدولة العلية صفحة ١٦١ نقلاً عن تاريخ جودت باشا . وأهم ما حوته

استقلال التتر في القرم وبساريا وتوبان مع حفظ سيادة الدولة العلية عليهم بالأمر الدينية وتسليم جميع البلاد التي احتلتها روسيا إلى خان القرم، وردّ ما أخذ من أملاك الدولة بالفلاخ والبغدان وبلاد الكرج إليها، وأن يكون للمراكب الروسية حق السفر في البحر الأسود والبحر المتوسط، وأن أسطولها الموجود وقتئذ في البحر المتوسط كما مرّ يرجع إلى روسيا بعد مضي ثلاثة أشهر، وأن تنشئ روسيا كنيسة في بيريا بالآستانة وأن يكون لها حق الحماية لجميع المسيحيين الأرثوذكسيين رعايا الدولة العلية، وأن تدفع لها الدولة غرامة حرية أربعة ملايين روبل مقسطة إلى ثلاث سنين سنة ١٧٧٥م وسنة ١٧٧٦ وسنة ١٧٧٧، وأن تكون جميع المعاهدات السابقة لغواً لا يعمل بشيء منها، وأن يسمى عاهل روسيا بادشاه في جميع المكاتبات الرسمية .

ولم يؤت بذكر بولونيا بهذه المعاهدة مع أنها كانت سبباً لهذه الحرب لأنّ روسيا كانت قد قسمتها سنة ١٧٧٢م بالاتفاق مع النمسا وبروسيا، فأخذت كل دولة من الثلاث قسماً منها . وقد انتهت روسيا من هذه الحرب ظافرة غائمة مجحفة بحقوق الدولة العلية . وليتها وقفت عند هذا الحدّ فإنها أخذت تبتّ رجالها في بلاد القرم لايجاد المشاغب الداخلية فيها قاصدة ابتلاعها وضمتها إلى أملاكها، فظهر أنه لم يكن غرضها من الاتفاق مع الدولة العلية على استقلالها إلّا ليتيسر الاستحواذ عليها بعد خروجها عن ولاية السلطان، وآل القاؤها الدسائس بين أهلها إلى أنهم عزلوا أميرهم دولة كراي فخالفها فريق من أعيانهم . فادعت روسيا أنه يخشى من وقوع حرب داخلية فيلزم تدارك ذلك باحتلال جنودها بلاد القرم، فاحتلها سبعون ألفاً منهم كانوا مقاتلين على التخوم لهذه الغاية، ففازت بما كانت تمنى وهو وضع يدها على سواحل البحر الأسود الشمالية، فسخط السلطان وأراد أن يعالّن روسيا بالحرب لنقضها معاهدة الصلح، لكنه عدل عن ذلك لأنّ فرنسا كشفت له عن وفاق أبرم بين عاهل النمسا وعاهلة الروس كاترينا الثانية على انشاء دولة مستقلة مؤلفة من الفلاخ والبغدان وبساريا لتكون حاضرة بينهما وبين الدولة العلية، ويكون ملكها من الروم، وعلى أن تأخذ روسيا بعض جزائر الروم وغيرها وتأخذ النمسا الصرب واليشناق والهرسك من أملاك الدولة، ودلماسيا من أملاك البندقية وتعيضها منها بجزيرتي كريت وقبرص، وتعطى أجزاء أخرى من المملكة العثمانية لمن اعترض من دول

أوروبا، وأنه اذا أتيح النصر لروسيا والنمسا حتى تدخل جيوشهما الآستانة فيجعلونها مستقلة كما كانت في أيام ملوك الروم. ويعينُ الغراندوق قسطنطين ملكاً عليها بشرط أن لا يبقى له حق في مملكة الروس لئلا تكون روسيا وقسطنطينية في قبضة ملك واحد. فلما علم السلطان ذلك أثر أتباع مشورة فرنسة على الحرب، واعترف بضمّ القرم إلى أملاك روسيا، وهي اهتمت بتحسين سباستوبل، وأنشأت عمارة بحرية من الطراز الأول في البحر المتوسط، وأرسلت جواسيسها إلى بلاد اليونان وولايتي الفلاخ والبغدان لتهييج النصارى على الدولة. وأدخلت القيصرية كاترينا ملك الكرج تحت حمايتها مقدمة لفتح بلاده.

وفي سنة ١٧٨٧م زارت القيصرية كاترينا بلاد القرم بأبهة عظيمة واحتفال متناه، وأقام لها قائد جيشها في هذه البلاد أقواس نصر كتب عليها طريق البيزنطية (أي الآستانة). وقابلت في زيارتها عاهل النمسا فشعر السلطان بسوء النوايا على مملكته فأرسل بلاغاً إلى سفير روسيا بالآستانة طلب به أن يسلم إليه حاكم الفلاخ الذي كان عصا الدولة والتجأ إلى روسيا، وأن ترفع هذه الدولة حمايتها عن بلاد الكرج لأنها تحت سيادة الدولة، وأن تعزل بعض قناصلها المهيجين لرعايا الدولة عليها، وأن تقبل قناصل الدولة في فرض البحر الأسود، وأن يكون للدولة الحق أن تفتش مراكب روسيا التجارية التي تمر ببوغاز الآستانة لئلا تكون ناقلة سلاحاً أو ذخائر حربية. ولما رفض سفير روسيا بأمر دولته هذا البلاغ أعلن الباب العالي الحرب على روسيا، وسجن سفيرها في الآستانة وأمرت القيصرية كاترينا قائد جيشها أن يستولي على مدينة بندر ومدينة أوزى بالفلاخ، فاستحوذ عليهما في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٧٨٨م. وأعلن عاهل النمسا الحرب على الدولة مساعدة لروسيا. وزحفت عساكره على مدينة بلغراد، ولكن دفعه الجيش العثماني عنها. وفي هذه الأثناء نشبت المنية أظفارها بالسلطان عبد الحميد الأول فتوفي في ١٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ. ٧ نيسان سنة ١٧٨٩ م. بالغاً من العمر ٦٦ سنة ومدة ملكه نحو خمس عشرة سنة. انتهى.

ما نعلمه من أخبار سورية في أيام السلطان عبد الحميد الأول

في سنة ١٧٧٦م لما كان الجزائر معروفاً من الدولة سمي والياً على صيدا ولا نعلم بأية وسيلة . وبلغ الأمير يوسف قدومه إلى صيدا فوجس لما بينهما من العداوة إذ حصره الأمير ببيروت . ومع ذلك كتب إليه كتاباً يهنئه بولايته ، وأرسل له هدايا وخيلاً . فأجابه الجزائر متلطفاً شاكراً . وبث الأمير سرّاً لحسن باشا المكلف باصلاح شؤون سورية ما يخشاه من قبل الجزائر ، فأجابه كمن آمناً فإذا رجعت إلى الآستانة عزله . وكان الأمير قد تعهد لحسن باشا بأن يدفع له مائة ألف قرش باقية من المال الأميري عن السنين السالفة ، فاستنهضه حينئذٍ لادائها . واستشار الأمير أصحاب مشورته فارتأوا أن يضع الأمير يده على ريع العقارات التي تخصّ الحكومة وهي بيد أقربائه ، ويدفع الحاصل من هذا الريع للدولة ، فصوّب رأيهم وفعل فشق ذلك على الأمراء ونهضوا إلى البقاع ثائرين عليه وسلبوا ما لبعض أهالي لبنان هناك ، فحشد الأمير رجالاً سار بهم إلى قب الياس لردعهم ، ففكروا إلى اقليم البلان ومنه الجهات الحولة ، فتوسط الأمير اسماعيل حاكم حاصبيا استرضاء الأمير عنهم فرضي ورجعوا إلى محلاتهم إلا أخواه الأمير سيد أحمد والأمير أفندي فإنهما جعلاً يحزبان عليه واستمالا إليهما الشيخ ناصيف النصار كبير المتاولة ، فاضطر الأمير أن يسترضيهما ويردّ لهما اقطاعهما . ثم جمع المال الذي تعهد به ودفعه إلى حسن باشا وسلمه الوزير صكّ براءة ، ووجه له الخلعة على جبل الشوف وتوابعه ، وعلى بيروت والبقاع ، وكتب له عهداً أن ليس لوالي صيدا عليه إلا قبض المال الأميري . وسافر حسن باشا قاصداً الآستانة فأظهر الجزائر ما كان ينويه على الأمير يوسف فنهض بعسكر من صيدا إلى بيروت فاستولى عليها وضبط ما فيها من الأملاك للأمراء الشهابيين ، وشدّد على الأمير يوسف بطلب الأموال الأميرية عن السنين الثلاث الماضية ، فكتب الأمير إلى حسن باشا مستغيثاً به فأدركه الرسول في قبرص ، فرجع ببعض السفن إلى بيروت مسرعاً فأخرج الجزائر منها زاجراً له ، وطيب قلب الأمير واعدأ أن يسعى بعزل الجزائر عن ايلة صيدا حتى وصل إلى الآستانة ، ورجع الجزائر بحرّاً إلى صيدا ، وعاد عسكره برأً وكان ستمائة فارس من اللاوند (جوقة من العسكر) فأكمن لهم النكدية ومعهم نحو مائتي رجل في أرض السعديات بقرب

الدامور. ولما أقبلوا أغار النكدية عليهم فاندفع عسكر الجزار إليهم وقتلوا كثيرين، ومنهم الشيخ أبو فاعور النكدي، وقبضوا على ولده الشيخ محمود وعلى الشيخ واكد بن الشيخ كليب. وسقط أخوه الشيخ بشير مجروحاً بين القتلى، وغنم عسكر الجزار ثياب هؤلاء الرجال وسلاحهم وما كان معهم، وظلّوا سائرين إلى صيدا فأخبروا الجزار بما كان، وقدموا له الشيخين المسوكين فأمر بحبسهما، وبعد قليل مرّ لبنانيون بالسعديات فرأوا الشيخ بشيراً صريعاً بين القتلى وفيه رمق فحملوه إلى أهله في دير القمر.

وكتب الأمير يوسف إلى الجزار يعتذر له بأن ما كان بعسكره لم يكن بعلمه ويلتمس إطلاق الشيخين المحبوسين وجعل له فدية على ذلك مائة ألف قرش، فأجابته الجزار إلى ذلك وأرسل أربعماية فارس إلى دير القمر لاقتضاء المال الذي تعهد الأمير به. فاضطرب الأمير لذلك وخشي أنّ المراد اغتياله، فأقنع رئيس الفرسان أن يصرفهم إلى صيدا خشية وقوع الأسباب، وأن يبقى هو لدى الأمير ففعل، ووزع الأمير المائة ألف قرش على البلاد فأبى الأمراء اللمعيون دفع ما نابههم منها، فطلب الأمير من قائد عسكر الجزار أن يتوجه إلى بيروت ويرغم الأمراء المذكورين على دفع ما عليهم، فتوجّه والتمس من الجزار ارسال العسكر وخرج به القائد على المتن اقطاع اللمعيين فأحرق المكلس والدكوانة والجديدة وقتل جماعة ثم دهم الشويقات فصده رجالها فانهزم راجعاً إلى بيروت، ثم سار إلى صيدا ثم خرج منها بجميع العسكر إلى البقاع وضبط جميع ما للبنانيين هناك من الغلات بحجة اقتضاء المائة ألف قرش، فاتفق حينئذ الأمير يوسف مع الأمراء اللمعيين وجمع عسكراً زحف به إلى المغيثة، وكان بين الفريقين وقعات كان النصر فيها لعساكر الجزار، وقتل من جيش الأمير الشيخ سعيد أحمد العماد، والشيخ ظاهر عبد الملك، وزين الدين مقدّم حمانا، وجماعة غيرهم. ورجع عسكر الجزار إلى صيدا.

وفي سنة ١٧٧٧م تنازع الأمير منصور وأخوه الأمير محمد على ولاية راشيا فاستغاث الأمير محمد بالأمير يوسف فأرسل معه عسكره لازاحة الأمير منصور عن الولاية، ففرّ إلى دمشق لائذاً بمحمد باشا العظم واليها ودفع الأمير محمد خمسة وعشرين ألف قرشاً للوزير وسأله اهلاك أخيه الأمير منصور، فأمر الوزير بالقبض عليه ونفيه إلى قلعة حسيا، ثم أرسل فقتله هناك، فخاف ابنه الأميران موسى

وأُسعد من عمهما ولجأ إلى الأمير يوسف فطِيب قلبهما وأصلحهما مع عمهما ورجعا إلى موطنهما، فغدر بهما عمهما الأمير محمد فقتل الأمير موسى وفقاً عيني الأمير أسعد. هذا ما جاء في أخبار الأعيان. ولكن جاء في تاريخ الأمير حيدر أنَّ الأمير منصور سار إلى الجزائر وسأله أن يعيده إلى ولايته فقبض عليه ونفاه إلى جزيرة أرواد ومات هناك وأرى الرواية الأولى أصح.

وكانت في هذه الأثناء وقعت بين عسكر أحمد باشا الجزائر والشيخ علي بن ظاهر العمر في نابلس قُتل فيها ابنه الحسن والحسين، وضاعت البلاد على الشيخ علي ففرَّ وسار إلى نبحا بالشوف وراسل الأمير يوسف أن يقبله في بلاده وهو يكفيه مؤونة القتال للجزائر، فخاف الأمير من قبوله واهاجة الجزائر عليه، فعاد الشيخ علي إلى نابلس، وكان الجزائر قد سعى لدى الدولة بمحمد باشا العظم والي دمشق واتهمه بدسائس جرت بينه وبين ظاهر العمر، فأنحرف خاطر الدولة عنه. وكان علي آغا القيصري قد طرده الجزائر من عسكره فخدم محمد باشا العظم فأمره مخدومه أن يرسل الشيخ بأنه يريد أن يتجنّد عنده لقتال الجزائر فقبله الشيخ علي لأنه كان يعلم عداوته للجزائر، وأقسم له على الاخلاص في خدمته فاغتر الشيخ علي به وقربه إليه مع جماعة تنتمي إليه. وتحيّن علي آغا وقتاً مناسباً فاغتيال الشيخ علي وقطع رأسه وجاء به إلى محمد باشا فأرسله إلى الآستانة لرفع الشبهة التي أوقعها الجزائر عليه، فنال به عفو الدولة واکرامها له. وزال مجد بيت ظاهر العمر بعد قتل ابنه الشيخ علي، واستحوذ الجزائر على بلادهم وجمع منها أموالاً وفرض عليها ضرائب، ولم يكن في ذلك العصر أفرس من الشيخ علي ولا أشجع ولا أكرم. قال الأمير حيدر صاحب هذا التاريخ رأيت بنت الشيخ علي الظاهر وأخته تسألان الناس صدقة وهو لم يكن يشاء أن يزوج بناته لئلا يقال أنَّ فلاناً يأمر وينهي ابنة الشيخ علي الظاهر. فالعياذ بالله من تقلبات الدهر.

وكان حينئذ أيضاً أنَّ يوسف باشا والي طرابلس أرسل نائبه عثمان بك الشديد فكبس الأمير حيدر أخا الأمير يوسف باهدن وحاصره يومين فتسارع الرجال من جبة بشري وبلاد جبيل والمشايع بنو رعد من الضنية فدفعوا عسكر طرابلس وانقلب راجعاً إلى أميون، وبلغ ذلك الأمير يوسف فنجد أخاه بعسكر وزحف على عسكر طرابلس بأميون فظهر عليه وقتل منه جماعةً وانهزم الباقون إلى طرابلس، وعاد الأمير حيدر إلى اهدن.

وفي سنة ١٧٧٨م وما بعدها كانت مغالبات على ولاية لبنان بين الأمير يوسف وأخويه الأمير سيد أحمد والأمير أفندي، والجزار يتلاعب بالفريقين كيلا يتفقا عليه، فكانت أولاً نفرة بين الأمير يوسف والمشايخ النكدية مدعين أنّ الأمير متقاعد عن تخليص والديهما من سجن الجزار، ولأذوا بأخويه الأميرين سيد أحمد وأفندي، وضوى إليهم الجنبلاطية طالبين خلع الأمير من الولاية فأظهر الأمير أنه يؤثر العزلة فقام من دير القمر إلى غزير، وتمكن أحد خدام المشايخ النكدية اسمه حنا بيدر أن ينقذ الشيخين النكديين من السجن بفك قيودهما وانزالهما من كوة في القلعة، وحضر معهما إلى دير القمر. وفي هذه الأثناء قتل المشايخ بنو علوان ابن عمهم الشيخ ظاهر لميله إلى المشايخ العمادية، فعاد الأمير من غزير إلى الباروك ليقتصّ منهم، ففروا إلى عكا واستمدوا الجزار ووعدوه بأن يملكوه البلاد، فأرسل معهم عسكرياً فالتقاهم الشيخ كليب النكدي برجاله فأرجعهم إلى صيدا بعد أن قتل منهم جماعة. ثم خرج عسكري الجزار إلى اقليم الخروب والتقاهم الشيخ بشير بن كليب النكدي برجاله فظهر العسكري عليهم وقتل منهم خلقاً، ولكن لم يطمع العسكري والمشايخ بنو علوان أن يدخلوا البلاد فانكفأوا إلى صيدا. وتوفي حينئذ الشيخ علي جنبلاط مجاوراً الثمانين من العمر، وحضر الأمير يوسف مأتمه، وبعد دفنه جمع أعيان البلاد في الباروك وخلع نفسه أمامهم من ولاية جبل الشوف وسلمها إلى أخويه الأميرين سيد أحمد وأفندي، وأقطعاه اقطاعات في كسروان وأسقطا عنه مالها الأميري وكتب إلى الجزار يخبره بذلك. وعاد إلى غزير فوجه الجزار خلعة الولاية لأخويه وأقاما بدير القمر.

ولم يطل الوقت حتى تجددت النفرة بين الأمير يوسف وأخويه بسبب أنّ الأمير شديد اللمعي قتل دهقان (خولي) بعض أملاك الأمير يوسف، وتقاعد الأميران عن اجراء الدعوى مجراها، فكتب إلى محمد باشا العظم أن يولييه البقاع فأجابه إلى ذلك، وسار إلى البقاع قاصداً التتكيل بالأمرء اللمعيين، فوفاه الأمير اسماعيل وأخوه الأمير بشير من حاصبيا فوضع يده على أملاك الأمرء اللمعيين في البقاع وأرسل إليه أخواه يطالبانه بمال اقطاعه فطرد من أرسلاهم فجمع رجالاً في بعدا لارهابه فجمع محازبيه واستنجد أصحابه المراجعة ولالة عكار وبني الرعد ولالة الضنية فجزع أخواه واستغاثا بالجزار، فأرسل عسكرياً وحضر هو بنفسه من صيدا إلى بيروت. فتوجه الأمير سيد أحمد مع عسكري الجزار إلى جبيل لمحاصرة أخيه الأمير

حيدر الذي كان والياً في جبيل من قبل الأمير يوسف وتوجه الأمير أفندي برجال البلاد إلى الزوق فقام الأمير يوسف إلى بسكتنا ومنها إلى بعقلين، وأرسل يعد الجزائر بمائة ألف قرش ليعزل أخويه، ورأى الجزائر الأمير يوسف أكثر جرأة وشجاعة فرضي برّد الولاية إلى الأمير يوسف، وكتب إلى قائد عسكره أن يرجع بالعسكر من جبيل إلى صيدا وأرسل الخلع إلى الأمير يوسف، فدخل دير القمر باحتفال عظيم وحضر إليه مناصب البلاد مهئين. وفرّ الأمير سيد أحمد والأمير أفندي إلى المتن إلى أن توسط أمرهما بعض أكابر البلاد فرضي الأمير يوسف عنهما وأقاما عنده في دير القمر بصفة مستشارين.

وفي سنة ١٧٨٢م رضي الأمير عن الشيخ كليب النكدي بوساطة الشيخ سعد الخوري، وأذن له بأن يعود إلى لبنان بعد أن كان فرّ من وجه الأمير يوسف إلى الشيخ ناصيف النصار، فسأى الأمير سيد أحمد والأمير أفندي عوده دون مشورتهم، واتفق أنّ الأمير أحدث حيثنّ مالاّ على التوت سموه البزّة، فأثار أخواه الجنبلاطية عليه وجمعوا حشداً حضروا إلى قرب دير القمر قاصدين أن يطردوا الأمير يوسف ويقتلوا مدبره سعد الخوري، فأرسل الأمير يعدهم بابطال الضريبة المذكورة فأنفض الحشد ولكن استمر الأميران والجنبلاطية على عزمهم وكاشفوا النكدي بالتحالف معهم على عزمهم فوافقهم، لكن بقي أحدهم الشيخ كليب محازباً للأمير يوسف سراً وبيّث إليه ما يسرونه. ففي سنة ١٧٨٣م اجتمعوا في دار الأمير أفندي ليلاً قاصدين أن يمضوا إلى كنيسة التلة بدير القمر ليقسموا على ما صمّموا عليه من طرد الأمير وقتل مدبره، وعرف الأمير فأكمن لهم المغاربة في طريقهم، فقبضوا على الأمير أفندي وتمكن الأمير سيد أحمد من الفرار. ولما أتى المغاربة بالأمير أفندي إلى أخيه الأمير يوسف حملته سورة غضب فقتل أخاه بيده، وأما الأمير سيد أحمد فانهزم في دار الشيخ حسن جنبلاط بالختارة وهذا دفع مالاّ إلى الشيخ عبد السلام العماد فانضوى إليهم واتفقوا على خلع الأمير يوسف من الولاية وتسليمها إلى الأمير سيد أحمد، فخاف الأمير يوسف وفرّ إلى عكا بأربعمائة نفر لائثداً بالجزار، فأحسن ملته وعظم مثواه ووعد الأمير بثلاث مائة ألف قرشاً، فأرسل معه عسكرياً ضخماً فنهض الأمير يوسف بالعسكر إلى صيدا، وكان الأمير سيد أحمد شخص إلى دير القمر حين علم قيام أخيه منها واستكتب أعيان البلاد إلى الجزائر لإنهم لا يرضون غيره

حاكماً ، وأكثروا التشكي من الأمير يوسف . وقام الأمير يوسف بعسكر الجزار إلى اقليم الخروب فالتقاء التلاحقة الملكية (آل عبد الملك) وأخواه الأميران قاسم وحسن ، وحشد الأمير سيد أحمد عسكراً وأرسله مع ابن أخيه الأمير قعدان والتقى الجيشان بعانوت ودارت رحى الحرب فانكسر عسكر الأمير قعدان وهو نجاً منهزماً ، وقُتل من عسكره جماعة وأسر كثيرون خلى الأمير يوسف سبيلهم . وارتاع الأمير سيد أحمد فنهض ومعه الشيخ قاسم جنبلاط إلى صليما عند الأمير اسماعيل اللمعي وفز باقي الجنبلاطين إلى حاصبيا ، فضبط الأمير يوسف أملاكهم وهدم مساكنهم وكتب إلى خاله الأمير اسماعيل والي حاصبيا أن يأخذ مالهم ويرسلهم إليه ، فضبط مالهم وأرسلهم إليه وخلى سبيلهم لأنهم نزلاؤه . وأما الأمير سيد أحمد فتوجه من المثن إلى قب الياس والتجأ إلى محمد باشا العظم والي دمشق ، والتمس منه ولاية وادي التيم والبقاع فأجابه إلى ذلك ، وأصبحه بعسكر وأتى إليه الجنبلاطية فقوي جأشه وتولى وادي التيم رغماً عن الأمير محمد واليها . وعزم على المسير إلى حاصبيا فكتب صاحبها الأمير اسماعيل إلى محمد باشا العظم أن يصرفه عنها فأجابه إلى ذلك . فترك الأمير سيد أحمد الأمير موسى في وادي التيم مكانه وأتى إلى قب الياس مع الجنبلاطية ، فنهض الأمير يوسف بعسكر الجزار ورجاله إلى المغيثة ، وكانت الحرب بين الفريقين ثلاثة أيام متتالية ودارت الدوائر على الأمير سيد أحمد والجنبلاطية ، فانهمزوا جميعاً إلى الزبداني ، وبقي المغاربة من عسكر والي دمشق في قلعة قب الياس ، وحصرهم الأمير فكتب والي دمشق إلى الجزار واتفقا على هدم القلعة ، فلم يُهدم إلا اليسير منها لمتانة بنائها ، وعاد الأمير يوسف إلى دير القمر وأخذ يصادر محازبي أخيه الأمير سيد أحمد . وقام الأمير سيد أحمد والجنبلاطية من الزبداني إلى حاصبيا وحلوا نزلاء على الأمير اسماعيل خال الأمير يوسف فتدخل بالصلح بين ابن أخته والجنبلاطية فرضي الأمير يوسف عنهم بشرط أن يدفعوا مائة وخمسين ألف غرشاً فدفعوها وعادوا إلى وطنهم . وطلب الأمير سيد أحمد من الأمير يوسف أن يرفع الضبط عن أملاكه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يسكن بالشويفات فأطاعه .

وكان في هذه الأثناء أن أحمد باشا الجزار أراد أن يستحوذ على بلاد بشاره كما استحوذ على صفد . وكان في هذه البلاد بنو علي الصغير ورئيسهم الشيخ ناصيف النصار وبنو منكر وبنو صعب وكلهم متاولة . وكانت قبلاً وقعات بينهم

وبين عسكر الجزار فهذه المرة جهز لهم عسكراً كثيفاً زحف إليهم فالتقاه المتأولة بمقدمتهم ناصيف النصرار زعيمهم واصطلت نار الوغى بين الفريقين فأصيب الشيخ ناصيف المذكور برصاصة في رأسه جندلته فانهزم المتأولة ودخل عسكر الجزار بلاد بشاره وامتلكوا قلاعها، والذين سلموا من الحرب هربوا مع أولاد الشيخ ناصيف النصرار إلى بلاد عكار عند محمد بك الأسعد .

وفي سنة ١٧٨٥م هاجت الفتنة بين الأمير يوسف وخاله الأمير اسماعيل والي حاصبيا وسببها أنّ الجزار عزل الأمير اسماعيل عن ولاية مرج عيون وحولها إلى عهدة الأمير، فأرسل الشيخ بشيراً النكدي نائباً عنه في حكومتها، وشخص الأمير اسماعيل إلى دير القمر طالباً من ابن أخته ترك هذا الاقطاع، فلم يجده نفعاً تذللّه والحاحه ومضى بخفي حنين، فأشار عليه الشيخ قاسم جنبلاط أن يدفع إلى الجزار ثلاث مائة قرشاً على ولاية لبنان ومرج عيون وهو يكفلها، وكتب إلى الجزار فطّيب قلبه واستدعاه واعدّ له بالولاية بحيث يكون معه شريكاً فيها أحد الأمراء اللبنانيين، فكتب الشيخ قاسم إلى الأمير سيد أحمد ليكون شريكاً للأمير اسماعيل فلم يتردد في القبول . وكتب إلى الجزار فأبقى الرسل في عكا وخاطب الأمير يوسف يخبره بين الدفع أو العزل، فجمع مناصب البلاد واستشارهم فصوبوا الدفع إلاّ الشيخ قاسم جنبلاط فإنه غير رأيهم، وكتبوا للجزار أنهم لا يريدون ضريبة على بلادهم . فحنق الجزار وحضر لديه الأمير سيد أحمد إلى عكا فخلع عليه وعلى الأمير اسماعيل، وسيّر معهما عسكراً وأرسل الأمير يوسف مع مديره سعد الخوري وبعض أقاربه إلى جزين، فكانت بين العسكرين وقعات كان النصر فيها لعسكر الأمير يوسف . واستدعى الأمير المشايخ المتأولة المار ذكرهم من عكار، وأطلق لهم السطو على عمال الجزار في بلاد بشاره، وزيّن الشيخ قاسم جنبلاط لعسكر الأمير أنّ عسكر الجزار عجز عن الحرب، وإنّ ارضاء الجزار بالمال أولى . فعادوا إلى دير القمر وعاد عسكر الجزار بأكثر قوة ومعه الأمير سيد أحمد والأمير اسماعيل، وظهرت خيانة الحزب الجنبلاطي فقام الأمير يوسف إلى المتن ثم إلى بسكنتا، ودخل الأميران سيد أحمد واسماعيل إلى دير القمر وحضر لديهما أعيان البلاد وسلموا الأمر إليهما .

فراسل بعض المشايخ الأمير يوسف بأن يرضى ولاية بلاد جبيل من قبل خاله الأمير اسماعيل فأبى ونهض إلى جرد كسروان ثم إلى جرد بلاد جبيل فأتبعه

الأمير اسماعيل إلى نبع الحديد، وقام الأمير سيد أحمد بالفرسان إلى البترون فانصرف الأمير يوسف إلى عكار وكتب إلى الجزار يلتزم صفو خاطره، فجعل الجزار ميخائيل السكرج أحد المقرين إليه يكتب إلى الشيخ سعد الخوري أن يعود بمولاه طيب خاطر وأن الجزار سيرده إلى ولايته، فعاد للحال من عكار وأدرك الأمير سيد أحمد أن ذلك لا بد أن يكون بدسياسة من الجزار فرجع من البترون إلى جبيل، ومّر الأمير يوسف بجانبه فلم يجسر أن يعترض به وبلغ الأمير يوسف إلى بيروت والجزار بها وأخذه معه في السفينة إلى عكا، وكتب الأمير اسماعيل والأمير سيد أحمد إلى الجزار يتعهدان له بدفع خمسمائة ألف قرشاً إن أهلك الأمير يوسف، وأرسل هذا الكتاب مع الشيخ محمد القاضي. أما الأمير يوسف فتعهد للجزار بألف ألف قرشاً ينقده إياها في مدة ثلاثة أشهر فخلع عليه وأصبحه بالعساكر الوافرة العدد وأبقى عنده الشيخ سعد رهناً على المبلغ المذكور، فنهض الأمير يوسف بالعساكر من عكا وسار سيراً حثيثاً حتى دخل دير القمر باكراً على حين غفلة، فقتل خمسة من خدام الأمير اسماعيل، وفرّ الأمير سيد أحمد إلى المتن وقبض على الأمير اسماعيل وعلى نحو خمس مئة نفر من رجاله وألقاهم في السجن، وهرب الشيخ محمد القاضي إلى كفرحمل مستجيراً بالشيخ كليب النكدي فأرسل الأمير من أحضره إلى السجن ثم عاقبه شديد العقاب وسمل عينيه وقطع لسانه وأطلقه، وصادر الجنبلاطية بأموال وافرة وفرّ الأمير سيد أحمد إلى حوران.

وسنة ١٧٨٦م توفي الأمير اسماعيل في سجنه، وعاد الأمير سيد أحمد إلى صليما نزيلاً على زوجة الأمير يوسف أخيه، فأمنه أخوه وأمره بالاقامة ببيحمدون وأطلق له أملاكه لكنه قبض عليه سنة ١٧٨٧م وأمر أن يسملوا عينيه ثم أرسله إلى عبيه. وفي هذه الأثناء توجهت ولاية دمشق إلى الجزار فشخص إليها ومعه الشيخ سعد الخوري، وأمر الأمير يوسف أن يقبض على المشايخ أولاد علي الصغير في مشغرة ويرسلهم إلى نائبه سليم باشا بعكا فقبض عليهم وأرسلهم وكان الأمير هو الذي دعاهم من عكار بعد فرارهم إليها بأثر قتل ناصيف النصار كما مرّ. فلم يحمّد نكث الأمير بعهدده لهم وأمر الجزار بقتلهم وسار بالحج، وأقام الشيخ سعد بقلعة دمشق مكرماً فمرض، ولما عاد الجزار من الحج شكّا له من مرضه فأطلقه وبعث به بهودج إلى داره، وتوفي في جبيل في ٥ آذار. ونظم المعلم

الياس اده رثاء له وفقرة التاريخ فيه هي « فلا ريب بعد السعد لا شيء فاخر » سنة ١٧٨٦م. ولم يبقَ الجزار على ولاية دمشق إلا سنة وشكا المسلمون بدمشق جوره فأمر الباب العالي أن يعود إلى عكا فعاد إليها. وفي سنة ١٧٨٧م أرسل الأمير يوسف إلى دمشق فأمن الأمير بشير نجم أخي الأمير اسماعيل فأتى إلى دير القمر منخدعاً بالأمان، ولما دخل الأمير أجهز عليه وقتله وقبض على مدبره عبد الله مالك وألقاه بالسجن لظهور خيانة عليه وأخذ منه اثني عشر ألف قرش ثم قتله .

وفي سنة ١٧٨٨م ثارت الفتنة بين الحزار والأمير يوسف فكان باقياً للجزار مائة وخمسون ألف قرشاً من المبلغ الذي تعهد الأمير بدفعه . ولما أبطأ بادائه أرسل الحزار سليم باشا إلى خان حاصبيا ومعه عسكر وولّى الأمير علياً ابن الأمير اسماعيل المذكور على حاصبيا استعداداً لقتال الأمير، واتفق حينئذ أن ممالك الجزار الذين كان قد رقامهم إلى المناصب ومنهم سليم باشا المذكور قد ثاروا عليه وخلعوا الطاعة له وساروا فحاصروه بعكا وكتبوا إلى الأمير يوسف يطلبون نجدة ومحاكمته، فشدد عزيمتهم وارتاح إلى مناصرتهم ، لكن الجزار دهم الثائرين عليه وشتت شملهم ، وفرّ سليمان باشا أحدهم مستجيراً بالأمير يوسف وعاد الجزار طالباً الانتقام من الأمير يوسف ، فأرسل مائة فارس إلى الأمير علي والي حاصبيا وأمره أن يقوم بهم وبرجاله ويرفع يد الأمير يوسف عن البقاع . وأرسل عسكراً إلى جباع الشوف فأرسل الأمير يوسف الأمير بشير قاسم (هو الأمير بشير المعروف بالكبير) ومعه الشيخ قاسم جنبلاط للمحاربة على حدود الشوف ، وكتب إلى سليم باشا والهارين معه إلى حمص أن يحضروا إلى البقاع ، وجّهز عسكراً لمعاضدتهم وسيّره مع سليمان باشا المذكور، وهؤلاء كسروا الأمير علياً وعسكر الجزار بالبقاع وأثخنوا فيهم ، وانهزم الأمير علي إلى الجزار فأرجعه بألفي مقاتل عاد بهم إلى البقاع وكان عسكر الأمير يوسف تفرّق فانتصر الأمير علي بعسكر الجزار وعاد رجال الأمير يوسف إلى دير القمر مخدولين .

وكذلك كان مع الأمير بشير قاسم في جباع فإنّ عسكر الجزار ظهر عليه وعلى رجاله وكان الجنبلاطية ينفرون الناس من الأمير يوسف ويشيعون عنه . اخبار الوهن فعول على التنزل عن الولاية ونقل عياله إلى المتن وجمع اكابر البلاد وابدى

لهم عجزه عن الولاية والمشاحنة بينه وبين الجزار واطلق لهم ان يختاروا والياً من ارادوا فاختاروا الامير بشير قاسم عمر لأنه كان فتى نبيلاً والجزار يميل اليه كل الميل وبينه وبين الجنبليطية مادة فاحضره الامير يوسف واثار عليه ان يتوجه إلى عكا ويأخذ خلعة الولاية قيل أنه لما قال له الامير سر ابني إلى عكا وتولّ مكاني اجابه اخاف ان انزل ابنك فأعود ابن الجزار فاستقبل الجزار الامير بشيراً بالترحاب وقلده الولاية على جبل الشوف وكسروان واصحبه بألف عسكري وأمره بطرد الامير يوسف من البلاد.

اما الامير يوسف فقام أولاً إلى عاليه ثم إلى حمانا ثم إلى المتين وارسل الامير بشير يخبره بأمر الجزار له فقام إلى جرد كسروان ثم إلى العاقورة ثم لحفد وقام الامير بشير أولاً إلى بوارش ثم إلى وطا الجوز ثم العاقورة وعرض اعداء الامير يوسف إلى الجزار ان الامير بشير متفق معه فطلب الامير بشير منه عسكرياً فارسله اليه وجمع الامير يوسف المشائخ الحمادية ومشايخ جبة بشري وارسلهم مع رجاله إلى الميخان ليمنعوا الامير بشير وعسكر الجزار عن العبور فانتصر عسكر الامير يوسف على عسكر الجزار واركنوا إلى الفرار فجرد الامير بشير سيفه وهجم برجاله على عسكر الامير يوسف فانهزموا من امامه مدحورين فقتل من عسكر الامير يوسف الشيخ يوسف بولس شيخ اهدن وخلق كثير وقتل من عسكر الامير بشير الشيخ أبو دعبيس جنبلاط وفرّ الامير يوسف بمن بقي معه إلى اهدن وسار الامير بشير إلى لحفد وارسل الجزار الف فارس على طريق البحر إلى البترون نجدة للامير بشير فارسل والي طرابلس يحذر الامير يوسف ان يقوم من اهدن لئلا يدهمه العسكر فيها ففرّ بجماعته إلى بلاد بعلبك فارسل اليه الامير جهجاه الحرفوش ان يتحول عن بلاده والا فيقاتله فقال فارس الشدياق أحد أعوان الأمير للرسول ارجع إلى مولاك وقل له من أنت حتى تمنع الأمير يوسف من المرور وضربه بدبوس قائلاً بلغ أميرك أنّ الأمير يوسف يأمرك أن تقوم من بلاد بعلبك أو يفاجئك برجاله فلما بلغ هذا الجواب إلى الأمير جهجاه فرّ هارباً.

وكان الأمير أسعد والي حاصبيا قد كتب إلى ابراهيم باشا والي دمشق أن يؤذن للأمير يوسف بالاقامة في بلاده آمناً فأذن له، فقام الأمير يوسف من طاريا إلى الزبداني ثم انتقل إلى قرية منين، أما الأمير بشير فرجع من لحفد إلى دير

القمر، وبقي الأمير يوسف بمنين أربعة أشهر، ولما عاد إبراهيم باشا من الحج سنة ١٧٨٩م كتب إلى درويش حسن باشا والي طرابلس أن يولي الأمير يوسف بلاد جبيل فولاة عليها، وبلغ الأمير بشير ذلك فكتب إلى الجزائر فأرسل له عسكرياً إلى حرش بيروت وأمره أن يقوم به إلى بلاد جبيل ويطرد الأمير يوسف، فسيّر الأمير بشير أخاه الأمير حسناً بذلك العسكر ففرّ الأمير يوسف إلى كرك بعلبك، واختبأ مديره الشيخ غندور في إحدى قرى الضنية ورجع الأمير حسن بالعسكر، أما الأمير يوسف فصرف من معه إلى أوطانهم وأقام فارس الشدياق بدلاً من الشيخ غندور، وأرسله ليكون وكيلاً عنه في دمشق وسار بمن بقي معه إلى حوران. ورجئ ما بقي من أخبار الأمير يوسف والأمير بشير إلى ما يأتي رعاية لمساق تاريخنا.

عد ١٠٤٤

السلطان الغازي سليم خان الثالث

هو ابن السلطان مصطفى خان الثالث وُلد سنة ١١٧٥ هـ سنة ١٧٦٢ م. وارتقى إلى منصّة الملك بعد وفاة السلطان الغازي عبد الحميد الأول في ٢٢ رجب سنة ١٢٠٣ هـ الموافق ٧ نيسان سنة ١٧٨٩ م. وكان جو السياسة مكفهرًا ورحى الحرب دائرة بين جيوش روسيا والنمسا من جهة وبين الجيوش العثمانية من الجهة الأخرى، فبذل جهده في تقوية الجيش العثماني وامداده بالذخائر والعدد، وكان اليأس قد استحوذ على هذا الجيش وغادر كثير من الجنود مراكزهم وانضمّ الجيشان الروسي والنمساوي أحدهما إلى الآخر في الأعمال الحربية، فاستظهرت على العثمانيين في ٢٢ أيلول سنة ١٧٨٩م، فاستحوذ الروس على مدينة بندر الحصينة واحتلوا معظم بلاد الفلاخ والبغدان وبسارايا، ودخل النمساويون بلغراد وفتحوا بلاد الصرب، ولولا وفاة عاهل النمسا يوسف الثاني في ٢٠ شباط سنة ١٧٩٠م لفقدت الدولة أكثر أملاكها بأوروبا. وخلف العاهل المذكور أخوه ليوبولد الثاني فأشغلت الثورة الكبرى التي قدح زندها في فرنسة عن التوغل في الحرب مع الدولة العلية، فعقدت أولاً معاهدة صلح بين النمسا والدولة العلية وقّع عليها وأبرمت في ٤ آب سنة ١٧٩١م، وبمقتضاها ردّ على الدولة بلاد الصرب ومدينة بلغراد، وأكثر

ما أخذته منها النمسا في هذه الحرب ، واستمرت روسيا تحارب الدولة إلى أن توسطت انكلترا وبروسيا وهولاندا الصلح بينهما ، ووقع على معاهدته في ٩ كانون الثاني سنة ١٧٩٢م ، وبمقتضاها تملكّت روسيا بلاد القرم وقسماً من بسارايا وغيرها . وبعد ابرام الصلح مع الدولتين النمسا والروسيا أخذت الدولة في اصلاح شؤونها الداخلية فنصب السلطان كوجك حسين باشا أميراً لبحرية الدولة ومراكبها ، فأنشأ عدة مراكب حربية على مثال المراكب الفرنسية والانكليزية وأحضر مهندسين مهرة من أوروبا لصبّ المدافع في الطوبخانة العثمانية ، وأصلح المدرسة الحربية ومدرسة الطوبخية ، وصرف جهده في اصلاح الثغور وانشاء القلاع أو تحصينها ووضع نظاماً للجنود المشاة وأدخل غير ذلك من النظام العسكري المعمول به بأوروبا مقدمة للاستغناء عن الانكشارية الذين أصبحوا آفة للدولة . وقد كانت الدولة في أشدّ الحاجة إلى الاصلاحات ، وكان ولاية الاقاليم يطعمون بالاستقلال والاستبداد ولا سيما في مصر .

وفي سنة ١٧٩٨م سار نابوليون بونايرت الأول إلى مصر من قبل الجمهورية الفرنسية لفتحها دون معالنة الدولة بالحرب ، فجهّز في طولون جيشاً مؤلفاً من ستة وثلاثين ألف مقاتل ، وكثيراً من المراكب والسفن لنقل الجنود والذخائر وعدد الحرب ، وأردف بجيشه نحو مائة وعشرين عالماً بارعين في علوم وفنون مختلفة لاستقصاء أحوال مصر وآثارها . وفي ١٩ من شهر أيار سنة ١٧٩٨م سار نابوليون بهذا الجيش دون أن يعلم وجهة سيره فبلغ في ٢٠ حزيران إلى جزيرة مالطة فاحتلها بعد أن دافع من كان فيها من جمعية فرسان يوحنا الأورشليمي شديد الدفاع . وفي ٢ تموز من السنة المذكورة رست مراكبه أمام الاسكندرية وأنزل جنوده على مقربة منها ، ثم دخلها عنوة وترك فيها القائد كليبر وسار إلى القاهرة فاعترض له مراد بك بشرذمة من المماليك فهزمه وواصل سيره إلى مدينة انبابة قبالة القاهرة ، فكانت الوقعة المعروفة بوقعة الأهرام بينه وبين ابراهيم بك ومراد بك في ٢١ تموز سنة ١٧٩٨م وأبدى المماليك آيات الشجاعة بالدفاع ، إلا أنهم لم يقروا على مدافع الفرنسيين ، فدخل بونايرت وجنوده القاهرة ، وأعلن أنه حليف السلطان ولم يأت لفتح مصر بل لتوطيد سلطته فيها ومحاربة المماليك الذين عصوا أوامره . وأرسل أحد قادة عسكره إلى الصعيد متتبّعاً آثار مراد بك . وأرسل فرقة أخرى من جنوده إلى مدينة القصير على البحر الأحمر فأصبح القطر المصري من البحر

المتوسط إلى أقصى الصعيد في قبضة يده وأقام المجلس للبحث عما يجعل احتلاله مصر نافعا .

ولما علمت انكلترا بأخذ بونايرت مالطة واحتلاله مصر بالجيش الفرنسي أمرت مراكبها التي كانت محاصرة مدينة قانس باسبانيا بأمره الأميرال نلسن أن يتعقب المراكب الفرنسية ويضربها فوجدها في أبى قير ، فكانت وقعة هائلة بين مراكب فرنسة وانكلترا انجلت عن تدمير المراكب الفرنسية ، وكانت الدولة العلية قد أخذت في الاستعداد لمحاربة فرنسة واخراج جيشها من مصر ، وعرضت عليها انكلترا مساعدتها على اخراج الفرنسيين من مصر واجسة من قطع طريقها إلى الهند ، وعرضت عليها روسيا أيضاً معاضدتها وامدادها بمراكبها فأبرمت معاهدة بين الدول الثلاث ، وأشهر الباب العالي الحرب على فرنسة في ٢ ايلول سنة ١٧٩٨م وسار الأسطول العثماني والأسطول الروسي نحو مصر ، وأخذ الباب العالي في حشد الجيوش في دمشق وروودس لتزحف إلى مصر ، وكانت المراكب الانكليزية باقية في البحر المتوسط وقطعت مع الأسطولين العثماني والروسي خط الاتصال بين فرنسة وجيشها الذي احتل مصر .

ولما رأى بونايرت اجتماع الجيوش ومراكب الدول المذكورة لمحاربه أراد أن يباغت الدولة بأخذ سورية أيضاً قبل أن تكمل استعدادات الدولة فيها ، فنهض من مصر بثلاثة عشر ألف مقاتل إلى سورية بطريق العريش فاحتل هذا البلد في أوائل سنة ١٧٩٩م ثم أخذ غرة ثم الرملة ثم يافا ثم بلغ إلى عكا وأقام الحصار عليها برأ . وكانت عساكر الجزائر تقاوم الجيش الفرنسي من داخل المدينة ، والأسطول الانكليزي بأمره الأميرال سميث يرشقهم بالقلل النارية ، وحاول الجيش الفرنسي أن يلغم تحت المدينة فينسفها ، فلم يتيسر له اكمال اللغم وحضر المتأولة من بلاد بشاره إلى معسكر الفرنسيين فولأهم بونايرت على هذه البلاد كما كانوا قبلاً ، وحضر الشيخ صالح ابن الشيخ ظاهر العمر فولأه على صفد وقد تصرف الأمير بشير قاسم والي لبنان في هذه الأحداث تصرف رجل حكيم رصين فقد كتب له الجزائر ليمده بالرجال ليدفع الفرنسيين عن عكا فاعتذر اعتذاراً مقبولاً عن انجاده له بالرجال ، وكتب إليه القائد بونايرت فلم يجبه ثم أرسل له رسالة يعاتبه فيها لعدم اجابته فوقعت الرسالة بيد بعض خصومه فقدموها للجزائر فكانت مساعدة له على تبرئة ساحته أمامه .

وبينما كان بونايرت يحاصر عكا بلغه أنّ الجيش العثماني اجتمع في دمشق قادم للدفاع عن عكا فأرسل فرقة من جيشه بأمره القائد كليبر فالتقت هذه الفرقة بالجيش العثماني عند جبل طابور، فأحاطها احاطة السوار بالمعاصم فأبدى رجالها آيات البسالة وثبتوا في القتال مع قتلهم وكثرة أعدائهم حتى طار الخبر إلى بونايرت فأسرع لنجدتهم وانقاذهم بثلاثة آلاف مقاتل فقشع بصولته الأعداء عن فرقته وشتت شملهم وعاد بفرقه إلى عكا ظافراً غانماً.

ورأى بونايرت أنه يتعذر عليه فتح عكا لمقاومة مراكب الدول الثلاث له وتوارد عساكر الدولة عليها ولا سيما ثقل وطأة الطاعون في عسكره فصوّب الرحيل عنها فعاد بمن بقي من جيشه إلى القاهرة ودخلها في ٢١ أيار سنة ١٧٩٩م، ثم وصل إلى مصر الجيش العثماني الذي كان قد تألّب في رودس وحلّ في أبي قير واعتصم، فهبّ بونايرت من القاهرة لمناوئتهم وأصلى عليهم نار الحرب فتغلّب عليهم وقتل منهم خلقاً كثيراً وانهزم إلى المراكب من بقي منهم حياً. وأسر مصطفى باشا قائدهم وكثيراً من جنوده، وكان ذلك في ٢٥ تموز سنة ١٧٩٩م.

وفي ٢٤ آب من السنة المذكورة بلغه أنّ أحوال الجمهورية مضطربة فانسلّ خفيةً ومعه بعض قوّاد جيشه وسافر بهم متنكراً، ولم يشعر بهم الانكليز مع شديد مراقبتهم وانتشار مراكبهم في البحر المتوسط، فظهر بغتةً في باريس في أواخر سنة ١٧٩٩م وترك قيادة الجيش المحتل في مصر لكليبر، وكان هذا الجيش قد هلك نصفه بالحروب والوباء وخط الاتصال بينه وبين فرنسا مقطوع ولا أمل له بنجدة أو امداد. ومراكب الدول المتحدة ضد فرنسا تملأ البحر، والباب العالي يحشد الجنود في مصر وغيرها لاهلاك هذا العدد اليسير من الجنود، وهم في أسوأ حال. فيئس كليبر من الثبات في هذا الموقف فاتفق مع يوسف باشا الصدر الأعظم الذي كان قد حضر إلى العرش والأميرال سميث الانكليزي في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٨٠٠م في العرش على أن ينسحب العسكر الفرنسي بسلاحه راجعاً إلى فرنسا على مراكب الانكليز، ولكن لما أخذ الفرنسيون في الجلاء عن بعض القلاع أرسل الأميرال الانكليزي يبلغ كليبر أنّ دولته لا تجيز الاتفاق السابق عقده إلا أن يلقي العسكر الفرنسي سلاحه بيد الانكاز، فاستشاط كليبر وهبّ لمحاربة العسكر العثماني الذي كان أتى إلى مصر مع الصدر الأعظم لاستلامها من

يد الفرنسيين فكان عديده يربو أضعافاً على عدد الفرنسيين. فتقابل الجيشان عند المطرية في ٢٤ آذار سنة ١٨٠٠م، وبعد قتال عنيف انتصر كليبر وعاد بعسكره ظافراً إلى القاهرة، فوجد أنّ ابراهيم بك أحد الأمراء المصريين قد استحوذ عليها في غيبته، فأضرم النار عليها وخرّب قسماً كبيراً منها. فاستمرت الحرب في شوارعها عشرة أيام على ما رواه الجبرتي في تاريخه المسمى: «عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، وآخر الأمر أنّ كليبر انتصر على كل من ناواه، وأمن القاهرة واستفحلت صولته وسطوته في القطر المصري. وبينما كان يفكر في تمكين موقف جنوده بمصر وتثبيت سلطته فيها، دخل عليه صعلوك حليبي اسمه سليمان وهو يتنزه ببستان وطعنه بمديّة فكانت القاضية، وهرب فوجدوه في بستان قريب من البستان الذي وقع القتل فيه. وبعد المحاكمة قتلوه هو ورفاقه الثلاثة. ورثاه نقولا الترك كاتب تاريخ هذه الحملة وفقرة التاريخ في هذا الرثاء «والسائب الصعلوك أرخ غادري سنة ١٢١٥هـ سنة ١٨٠٠م».

وبعد مقتل كليبر أقام العسكر الفرنسي الجنرال منو موضعه وأيقن العثمانيون والانكليز النصر على الجيش الفرنسي لموت كليبر وسفر بوناپرت، وأنزلوا بأبي قير ثلاثين ألف مقاتل فسار الجنرال منو لقتالهم فهزموه في ٢١ آذار سنة ١٨٠١م وسار إلى الاسكندرية فتحصّن بها، وسار العسكر العثماني الانكليزي إلى القاهرة فحاصروا من بقي فيها من الفرنسيين. ورأى قائدهم بليار أنّ لا مناص له من التسليم فخابر القائدين العثماني والانكليزي بأمر التسليم فوافقاه على الشروط التي كانت أبرمت في الاتفاق مع كليبر. وانجلى الفرنسيين عن مصر في شهر تموز سنة ١٨٠١م بسلاحهم وعددهم ومالهم بقي القائد منو محصوراً في الاسكندرية إلى أن سلّم في ٢ أيلول سنة ١٨٠١م بعد وقعة كانت له مع الجيش العثماني والانكليزي هلك فيها خلق كثير من الفريقين. وبمقتضى الشروط المار ذكرها خرجوا من الاسكندرية بسلاحهم وعددهم وحملتهم جميعاً المراكب الانكليزية إلى فرنسة. وانتهت هذه الغزوة ورجعت مصر إلى سلطانها الشرعي وسوف ترى باقي أخبار السلطان سليم الثالث في أول تاريخ القرن التاسع عشر.

عد ١٠٤٥

ما نعرفه من تاريخ سورية في أيام السلطان سليم الثالث

إلى سنة ١٨٠٠

فرغنا من كلامنا في تاريخ سورية في عدد ١٠٤٢ بذكر طرد الأمير بشير قاسم الأمير يوسف من لبنان وفرار هذا إلى حوران . ففي سنة ١٧٨٩م كتب الأمير يوسف إلى الجزار يستعطفه إليه ويستأذنه بالحضور إلى عكا ، فأذنه فنهض الأمير من حوران بجماعته ومعه أخوه الأمير حيدر تَوّاً إلى عكا ، ودخل على الجزار وفي عنقه منديل الخضوع فأمنه الجزار وأكرمه وعيّن له جعلاً ، وأقام عنده في عكا خمسة أشهر . وكان في خلال السنة المذكورة أنّ الأمير قاسم الحرفوش سأل الأمير بشير أن يساعده في خلع ابن عمه الأمير جهجاه من الولاية ونصبه هو فيها فأجابه الأمير إلى ذلك وأرسل له عسكرياً إلى زحله ، فساروا وقام الأمير قاسم الحرفوش بالعسكر إلى تمنين ، والتقاء ابن عمه برجاله إلى أرض أبلح وانتشب بينهم القتال فانتصر الأمير جهجاه وقبض على الأمير شديد اللّمي ثم أطلقه ، وردّ له جواده وسلاحه . ورجع عسكر لبنان إلى زحلة مدحوراً فجردّ الأمير بشير عسكرياً وأرسل معه أخاه الأمير حسناً ففرّ الأمير جهجاه من بعلبك إلى رأس بعلبك ، فاتبع العسكر أثره فرجع من طريق آخر إلى بعلبك ونهبها وانهزم إلى يبرود . هذا ما جاء في أخبار الأعيان والذي في تاريخ الأمير حيدر أنّ الأمير قاسم لما هاجم الأمير جهجاه في بعلبك أصابته رصاصة فقتل .

وفي سنة ١٧٩٠م أنعم الجزار على الأمير يوسف بخلع الولاية على لبنان بعد أن تعهد له بدفع ستمائة ألف قرش ورهن عنده على هذا المبلغ ولده الأمير حسيناً ومدبره الشيخ غندور سعد الخوري ، واتخذ فارس الشدياق مدبراً عوض الشيخ غندور . فقام الأمير بشير من دير القمر إلى نيجا ثم سار إلى عكا وتعهد إلى الجزار بدفع زيادة على المبلغ الذي تعهد به الأمير يوسف فأنعم عليه بخلعة الولاية . وكان الأمير يوسف باقياً في عكا فأمر أن يُلقى بالسجن ومعه عشرة من خدمه من بني الدحداح وسمعان البيطار وفارس الشدياق وأن تؤخذ عمائم غير هؤلاء ممن كانوا مع الأمير يوسف وسلاحهم ويخلى سبيلهم . وأمر الأمير بشير أن يسرع إلى دير القمر ويأخذ معه الأمير حسيناً ابن الأمير يوسف ، ولما وصل

إلى دير القمر قبض على كل من وجده من محازبي الأمير يوسف وأودعهم السجن ووجه جباة يجمعون المال من كل أعمال البلاد . وتوفي حينئذ الأمير محمد اللمعي فاجتمع الأمراء أقاربه ووجوه المتن في مأتمه ، فأتهموا على الأمير بشير وتحالفوا على طرده من البلاد واختاروا مكانه الأمير حيدر ملحم وابن أخيه الأمير قعدان . وبثوا إلى مناصب البلاد ما عزموا عليه ، وطرّدوا جباة الأموال المنفلدين من الأمير بشير ، فجمع الأمير بشير رجاله وسار بهم إلى عين دارا ، وأرسل الأمير حيدر أحمد بخمسين نفر إلى كفر سلوان (بالمتن) وأمره أن يحرق منازل بني حاطوم الدروز لتسببهم بتلك الثورة ، فثار أهل القرية وامتد الصوت بالمتن وقاتلوا الأمير وحاصروه في القرية ثم دخلوها وسلّبوها جماعته ، وقتل من المتنية خمسة أنفار ومن رجال الأمير ثلاثة وانكفّ راجعاً إلى عين دارا . ثم اجتمع المتنية في حمانا وسار الأمير حيدر ملحم إلى اعبيه واتفق مع ابن أخيه الأمير قعدان وانضوى إليهما بعض المشايخ النكدية والعمادية . وخاف الأمير بشير أن يسبقه الأميران إلى دير القمر فأسرع إليها وأرسل الجزار ألفاً من الأرناؤوط إلى حرش بيروت فخاف الأمير حيدر ملحم فقام إلى العبادية واتفق مع المتنيين ، وأرسل الأمير بشير الأمير حيدر أحمد ومعه رجال لمساعدة عسكر الجزار على الأمراء اللمعيين والمتنيين وكانت بينهم وقعات فانهزم المتنيون وقتل منهم خلق كثير .

وكتب الأمير بشير إلى الجزار يخبره بما كان وينسب هذه الثورة إلى دسائس الأمير يوسف . ولما قرأ الجزار رسالة الأمير بشير غضب غضباً شديداً وكان في طريق الحج ، فكتب إلى نائبه في عكا أن يشنق الأمير يوسف ومديره غندور الخوري دون مراجعة ، ثم خمد غضبه وندم على صدور أمره فكتب إلى نائبه ثانية أن لا يشنقهما ، وبلغ الأمر الثاني قبل أن يُشنقا فأخفاه النائب بإشارة ابن السكرج لأنه كان عدواً للشيخ غندور ، فأخذهما إلى المشنقة فشنق الأمير يوسف وأما الشيخ غندور فمات خوفاً ، وقيل مشنوقاً وكان عمر الأمير يوسف حينئذ أربعين سنة ، وحكم البلاد سبعاً وعشرين سنة منها تسع سنين ببلاد جبيل بإدارة مديره الشيخ سعد الخوري ، وثمانية عشرة سنة في دير القمر . وقد كتب الأمير يوسف رسالة إلى البابا بيوس السادس أثبتتها رشيد الشرتوني في الطبعة الثانية من كتابه في سلسلة بطارقة الموارنة . فالأمير في هذه الرسالة يحقق للحبر الروماني أنّ التهم

الموجهة على البطريك يوسف اسطفان لا صحة لها ولا حقيقة وإنه خاضع مطيع لأمر الكرسي الرسولي . وإن أعيان الملة أقدموا عليه بالرجاء ليتوسط لدى قداسته رجوع البطريك إلى مقامه البطريكي إذ ليس في الملة من يقوم مقامه . وقدم رسالته هذه كما قيل فيها مع القس يوسف التيان (الذي صار بعداً بطريكاً) بصفة موفد من قبله وقبل الشيخ سعد الخوري والملة . وتاريخ هذه الرسالة في ١٥ آذار سنة ١١٩٨ هـ الموافقة لسنة ١٧٨٣ م . ويظهر أنّ البابا بيوس السادس كان قد كتب إلى الأمير يوسف بهذا الشأن لأنه يقول في رسالته المذكورة: «إنه في حين ورود مرسومكم لنا منذ كم سنة مشيناهم «أي الموارنة» على منطوق أوامرهم حرفاً بحرف، وهذا أمر سهل لدينا وبواسطة عزيزنا الشيخ سعد الخوري وحسن تديره ورغبته في طاعتكم، تمّ كل شيء كما ترغبون سعادتكم» .

إنّ قتل الأمير يوسف والشيخ غندور لم يخدم جذوة الثورة التي ابتدأت في المتن على الأمير بشير، وعند رجوع الجزار من الحج تأسف على قتل الأمير يوسف وأمر بقتل ابن السكروج، واستحوذ على ماله لأنه تسبب بقتله . والتمس الأمير بشير منه اطلاق المسجونين من جماعة الأمير يوسف وكفلهم بخمسين ألف قرشاً وأطلقهم . وكتب الجزار إلى والي دمشق أن يجهز عسكرياً لمساعدة الأمير بشير، وأرسل الأمير أسعد والي حاصبيا بعسكر إلى البقاع، ووجه الأمير بشير أخاه الأمير حسناً لينضمّ إلى الأمير أسعد وعسكر دمشق ويقاتلوا الأمراء اللمعيين وأهل المتن من جهة البقاع، وأمر الجزار الأرنؤوط الذين كانوا في حرش بيروت أن يحضروا إلى صيدا ليتوجهوا صحبة الأمير بشير الذي كان قد حضر إليها ومعه المشايخ الجنبلاطية ، ولما بلغ المشايخ النكدية مسير الأرنؤوط إلى صيدا ساروا برجالهم وأكملوا في السعديات بالقرب من نهر الدامور، فانتشبت الحرب بين الفريقين ، فظهر النكدية على الأرنؤوط وقتلوا منهم نحو مائتي رجل، وبلغ ذلك الجزار فكتب إلى قائدي عسكريه في صيدا والبقاع أن ينهضوا بالعساكر إلى المتن للانتقام من أهلها العصاة ، وسار الأمير بشير بعسكر صيدا وأظهر العصيان حينئذ أهل الغرب والشحار والجرد وأهل دير القمر أيضاً، ولما علموا بقدم الأمير من صيدا مع عسكر الجزار أكمنوا في قرب صحراء الشويفات فنشبت نار الحرب بين الفريقين هناك فاندحر أهل البلاد وقتل منهم نحو عشرين رجلاً، وظلّ الأمير بشير سائراً بالعسكر إلى حرش بيروت ، وكانت بعد ذلك أي في سنة ١٧٩٠م وسنة ١٧٩١م

سلسلة حروب متصلة في جهات ساحل بيروت والبقاع وحاصبيا واقلية الخروب والشوف تزيد عدد الأيام التي كانت فيها . وكان الأمير حيدر ملحم والأمير قعدان في خلال هذه المدة قد أقاما في دير القمر حاكمين في البلاد خلافاً لأمر الجزار . ومن أراد زيادة التفصيل في هذه الوقائع فليطالع كتاب أخبار الأعيان للمرحوم طنوس الشدياق وتاريخ المرحوم الأمير حيدر شهاب .

وكانت النهاية أن الجزار لما رأى أنّ عساكره لا تستطيع أن تكره أهل لبنان على طاعة أوامره كتب إلى قائد هذه العساكر وإلى الأمير بشير أن يرجعا بالعساكر إلى عكا ، فنهض الأمير ومعه أخوه الأمير حسن والشيخ قاسم جنبلاط والعساكر إلى عكا ، فأمر الجزار بوضع الشيخ قاسم في محرس مكرماً ، وبأن يتوجه الأمير بشير إلى صيدا ، وأخوه إلى بيروت يقيمان بهما بعيالهما ، وعين لهم نفقات كافية . ولما تحقق الأمران جلاء عساكر الجزار عن البلاد صرفا أهل البلاد كلاً إلى محله ولكن بطر أهل البلاد وتمردوا وجعل بعضهم يتطاولون على أبناء السبيل ، وثقل بعض المتنيين على أهل الساحل وبيروت ، وقتلوا منهم رجلاً مسلماً فأقتل المسلمون أبواب المدينة على كل من كان فيها من الجبل وقتلوا منهم ستين رجلاً . فاجتمع حينئذٍ أعيان البلاد ورفعوا عريضةً إلى الجزار التمسوا بها الصفح عما مضى وأن يولي عليهم الأمير حيدر والأمير قعدان وتعهدوا بأداء الأموال الأميرية على عادتها مع زيادة أربعة آلاف كيس منجمة على ست سنين ، فأجابهم الجزار أن يرسلوا إليه مفوضين فأرسلوا إليه ثلاثة من الأعيان . ولما مثلوا بحضرته قال لهم قد كففت الحرب شفقة على الرعايا وقد انفقت على العساكر نفقات وافرة فإن دفعها الأميران أرسلت لهما خلع الولاية ، فأخبروا الأميرين عن ذلك فرضياه ، واتفقا معه على خمسين ألف قرش . فأمرهما أن يحضرا لديه ومعهما تقادم الخيل المعتادة ، وصكّ تعهد بالأربعة آلاف كيساً ، فأرسلوا له الصكّ وأربعة من الخيل الجياد وعشرين ألف قرشاً من الخمسين ألفاً ، فأرسل إليهما الخلع وأمر بحجز الأمير بشير في صيدا ، وأخيه الأمير حسن في بيروت ورفع الحجز عن إيصال الأقوات إلى الجبل ثم سار إلى الحجّ .

أما الأميران فجمعوا الأموال الأميرية وأرسلوها إلى قائمقام دمشق بحسب أمر الجزار والتمسا من والي طرابلس ولاية بلاد جبيل فأرسل إليهما خلع الولاية عليها ، وسارا إلى جبيل وجمعاً مالها وزاداً عليه نصف مال ونحو قرشين على كل رجل

ليدفعاً تنمة الخمسين ألف قرشاً للجزار، وحاسبا وكيل الأمير بشير، وأخذنا منه ما قبضه من الأموال الأميرية ثم شبقاه، والتمسا من الجزار بعد عوده من الحج ولاية حاصبيا للأمير قاسم شهاب وولاية راشيا للأمير محمد وتعهدا له بدفع المال المرتب عليهما فأرسل خلع الولاية للأميرين قاسم ومحمد.

وفي سنة ١٧٩٢م التمس جرجس باز أبو شاكراً من دير القمر ابن أخت الشيخ سعد الخوري من الأمير حيدر والأمير قعدان أن يؤجرا أولاد الأمير يوسف وهم: الأمراء حسين وسعد الدين وسليم بلاد جبيل، لأن جرجس باز كان مديراً لهم فأجراهم إياها بستين ألف قرشاً كل سنة. فتوجه الأمراء إلى جبيل ومعهم مديبرهم المذكور وأرسل يطلب لهم خلع الولاية من والي طرابلس فأرسلها إليهم. وكان هذا المديبر حاذقاً كريماً خبيراً بأساليب السياسة، فأخذ يستميل أعيان البلاد إلى هؤلاء الأمراء فمالوا إليهم وأحبوا مديبرهم حتى استهانوا بالأميرين الوالين وآثروهم عليهما حتى أمسى الأمير حيدر والأمير قعدان عاجزين عن تدبير شؤون البلاد وتحصيل الأموال الأميرية، فأشار عليهما الشيخ بشير النكدي والشيخ عبدالله القاضي أن يسلموا الولاية إلى أولاد الأمير يوسف خشية أن ترد إلى الأمير بشير قاسم عدوهم. فأرسل الأميران سنة ١٧٩٣م سراً إلى جرجس باز أن يلتبس من الجزار الولاية على الشوف وتوابعه لمواليه أبناء الأمير يوسف. فأرسل أخاه عبد الأحد إلى الجزار بمائة ألف قرشاً فأكرم الجزار بخلع الولاية على الأمراء المذكورين وأبقى عنده عبد الأحد رهناً على باقي الأموال. فقام الأمراء من جبيل إلى الحدث والتفاهم الأمير حيدر والأمير قعدان إلى هناك فتوشحوا بخلع الولاية وساروا جميعاً إلى دير القمر.

وكان أولاد الأمير يوسف متفقين مع الأمير حيدر والأمير قعدان، ولما أظهر الأميران منصور وفارس اللمعين والشيخ قاسم جنبلاط العصيان توجه الأمير قعدان وجرجس باز بعسكر الجزار إليهم فأبدوا الطاعة، وكذلك كان لما دهم الشيخان حسن وبشير قاسم جنبلاط ابن عمهما الشيخ أبا قاسم وأخاه الشيخ أحمد وقتلاهما. وكان هؤلاء يخشون من عود الأمير بشير إلى الولاية ولذلك كانوا يكتبون إلى الجزار أن كل هذه الأحداث نتيجة دسائس الأمير بشير وأخيه الأمير حسن وانهما ما داما بصيدا وبيروت يتعذر جمع الأموال الأميرية. فطلبهما الجزار إلى عكا وأمر أن يقيما بالناصرية وسار إلى الحج. ولما حان وقت رجوعه التقاه

الأمير بشير وأخوه الأمير حسن إلى صحراء المزاريب ، وكان كثيرون من أعيان البلاد قد التمسوا من الجزار إعادة الأمير بشير إلى الولاية فأنعم عليه بها وصحبه بعسكر إلى صيدا .

وأرسل الأمير بشير إلى الشوف أخاه الأمير حسناً والشيخ بشير جنبلاط ومعهما المنلا اسماعيل بألف فارس وحلوا بالمختارة، فجمع الأمير قعدان وجرجس باز نحو ألف رجل فدهمهم هناك ليلاً فتقوى عليهم المنلا اسماعيل وهزمهم إلى برج بعقلين . وكان الأمير بشير قد قام بعسكر من صيدا إلى عانوت فلما بلغه ذلك نهض إلى السمقانية ففرّ الأمير قعدان والأمير حسين ابن الأمير يوسف من بعقلين إلى اعبيه ومعهما جرجس باز ومنها ساروا بمحازيهم إلى جليل . وسار الأمير بشير إلى عاليه وأمر بنهب أكثر قرى الغرب الأعلى ، ثم انتقل إلى حرش بيروت وأرسل رجالاً للقبض على بعض المذنبين، فاجتمع أهل المتن وطرّدوا أولئك الرجال ودعوا أولاد الأمير يوسف ليحضروا إلى المتن، فقام الأمير بشير لكبتهم وبلغ إلى خان الكحالة فالتقاء بعض المتنيين وأطلقوا الرصاص على عسكره فهجم عليهم فانهزموا، وتبعهم إلى العبادية فنهبا وقتل جماعة، ثم قام إلى رأس المتن وحضر الأمير حسين ابن الأمير يوسف برجال بلاد جليل وكسروان والقاطع إلى بعدات ، لكنه رأى المتنية على حالة الفشل فرجع وأنفض عقد المتنية فرحلوا من وجه العسكر، وقدم الأمراء اللعميون طائعين، وحضر الأمير قعدان والأمير حيدر والشيخ بشير النكدي إلى المتن وأرسلوا إلى الشيخ بشير أن يتوسط أمرهم مع الأمير فأجابهم إلى ذلك . وحضر لديه الأمير قعدان فطيّب قلبه وأطلق له التصرف بأرزاقه فرجع إلى عبيه، وأرسل الأمير حيدر يطلب الصفح فعامله كذلك . وأخذ يفحص في دور الأمراء والأديار عن ودائع أولاد الأمير يوسف والنكدية، فضبط ما وجده وغزّم النكدية بخمسين ألف قرشاً ثم طيّب خاطرهم . وتوفي في هذه الأثناء الشيخ قاسم جنبلاط بعكا .

وفي سنة ١٧٩٤م كتب سر عسكر الجزار إليه أنّ الأمير بشير جمع من البلاد اموالاً لا تحصى ولم يجرّ على العسكر أرزاقهم فكان الجواب أن يقبض حالاً على الأمير بشير وأخيه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط ويحضرهم إلى عكا . فاعتقلهم وسار بهم بحراً إليها، وكتب الجزار إلى أولاد الأمير يوسف أن يحضروا لديه ليوليهم، فحضر الأمير حسين والأمير سعد الدين من جليل إلى ساحل

بيروت ، فأرسل لهم خلع الولاية . فسار الأمير حسين إلى دير القمر ومعه مدبره جرجس باز ، وسار الأمير سعد الدين إلى جبيل ومعه فرنسيس باز أخو جرجس المذكور . وأخذ الأمير حسين ينتقم من محازبي الأمير بشير فاتفق الشيخ حسن جنبلاط والمشايخ العمادية ودعوا إليهم الأمير عباس أسعد وقاموا به وبرجالهم إلى بعقلين قاصدين أن يدهموا الأمير حسينا ، فجمع هو أقاربه وبعض الأعيان إلى دير القمر وكتبوا إلى الجزائر أنّ هذه الثورة من دسائس الأمير بشير فأمر بسجن الأمير بشير وأخيه الأمير حسن مغللين ، وأنفذ المنلا اسماعيل بعسكره إلى الشوف فأنفضت تلك العصبة واختفى الشيخ حسن جنبلاط وفرّ العمادية إلى حوران وحضر الأمير عباس لدى الأمير حسين فطّيب قلبه ، ثم رجع العمادية من حوران ودفعوا للأمير حسين خمسة آلاف قرشاً فأمنهم .

وفي سنة ١٧٩٥م عاد الجزائر من الحجّ فرفعت إليه شكاوى كثيرة من ظلم أولاد الأمير يوسف وجرجس باز ، فأمر باطلاق الأمير بشير وأخيه الأمير حسن وتعهدا له بشماتية ألف قرشاً مقسطة على ست عشرة سنة ، ورهن عنده الأمير حسن ابنه الأمير ابراهيم ، والأمير بشير ولديه وزوجته ، والشيخ بشير زوجته . فخلع على الأمير بشير خلع الولاية وأصبحه بعسكر فقام الأمير وأخوه والشيخ بشير جنبلاط ومدبر الأمير الشيخ سلوم الدحداح إلى لبنان . ففرّ الأمير حسين ومحاربوه إلى جبيل ، ثم دعا الأمراء اللعيون الأمير حسينا والأمير سعد الدين إلى المتن ليطرذا الأمير بشيراً فنهضا بأصحابهما إلى البقاع ونزلا بجديتا ، فقام الأمير بالعسكر إلى الباروك ، وأرسل الأمير حيدر أحمد (صاحب التاريخ) إلى قلعة قب الياس فأقبل عليه الأمير حسين يوسف بألف رجل فقاتلهم الأمير حيدر وهزمهم . وقام الأمير بشير إلى المغيشة بعسكر الجزائر ففرّ أولاد الأمير يوسف من جديتا إلى جهات البترون ، وقام الأمير بعسكره إلى كسروان ونزل بوطا الجوز فتقدّم إليه المشايخ الدحداحة وكانوا مع الأمير يوسف فطّيب قلبهم وجعلهم كتبة عنده وعند أخيه ، ثم نزل بعسكره إلى جسر المعاملتين وأرسل أخاه الأمير حسناً والأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط يدهمون الأميرين حسينا وسعد الدين في البترون ففرّوا منها مذعورين إلى طرابلس ، فذهب العسكر البترون وسار الأمير حسن أخو الأمير بعسكر الجزائر إلى زغرتا قاصداً حصار طرابلس ، وأرسل الأمير بشير يخبر الجزائر بما كان فأمره أن يرجع إلى دير القمر ويبقى أخاه مع العسكر في جبيل ، فلما بلغ

الأميرين عودهما خرجا من طرابلس ونزلا براسكيفا فعاد الأمير حسن إلى البترون لقتالهما فانهزما إلى عكار .

وضبط الأمير بشير أملاك أولاد الأمير يوسف وهدم مساكن النكدية ، وضبط أملاكهم ، وجمع الأموال وأرسلها إلى الجزار فأطلق له زوجته وابنه الأمير خليل وزوجة أخيه الأمير حسن ، ثم أنعم خليل باشا والي طرابلس على الأمير سليم ابن الأمير يوسف بولاية بلاد جبيل ، وأرسل معه عسكرياً إلى البترون وصحبه محمد المرعب والشيخ عباس رعد برجال الضنية حتى صار عسكريه نحو ستة آلاف رجلاً . وبلغ الأمير بشير قدومهم إلى البترون فأرسل إلى أخيه الأمير حسن إلى جبيل الأمير حيدر أحمد والشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية برجالهم ، وزحف عسكري الأمير سليم سنة ١٧٩٦م من البترون إلى أرض عمشيت فنهض الأمير حسن برجال البلاد وعسكر الجزار ونشب القتال بينهم فانكسر عسكر الأمير سليم وقتل منهم ستون رجلاً وانهزموا إلى طرابلس .

فرجع الأمير حسن إلى جبيل وكتب الأمير بشير إلى خليل باشا يلتمس أن لا يقبل أولاد الأمير يوسف عنده فلم يجبه إلى ذلك ، بل جهز عسكرياً آخر . وكان الأمير بشير قد كتب إلى الجزار يخبره بما كان ويستمدده فأرسل عسكرياً إلى جبيل بحراً ، فنهض بهم الأمير حسن لقتال عسكر طرابلس فانهزموا دون قتال إلى عكار . ثم كتب عبد الله باشا العظم والي دمشق إلى ابنه خليل باشا والي طرابلس أن يوجه أولاد الأمير يوسف إلى البقاع فيرسل إليهم المنلا اسماعيل بعسكر ، فسار أولاد الأمير يوسف إلى زحله ، وأرسل الأمير بشير الأمير حيدر أحمد وبشير جنبلاط وعسكر الجزار الذي كان بجبيل إلى المغيثة ، وقدم المنلا اسماعيل إلى مندره عند قب الياس بعسكره فلاقاهم الأمير حيدر بعسكر فتسمرت نار الحرب ، فانهزم المنلا اسماعيل وقتل من عسكريه خلق كثير . فلما رأى ذلك أولاد الأمير يوسف فرّوا من زحله إلى بعلبك ثم إلى دمشق . ورجع عسكر الأمير بشير إلى دير القمر وصرف عسكر الجزار إلى عكا .

وفي هذه السنة كان مقتل المشايخ النكدية فإنهم كانوا يخالفون الأمير بشيراً ويضادون آل جنبلاط وعماد في كل ما مرّ من تقلبات ، فاتفق الشيخ بشير جنبلاط والمشايخ العمادية برضى الأمير بشير على قتلهم ، فطلبوا إلى سراي دير القمر بحيلة

أن يخلع عليهم الأمير خلعة الرضى ، فأتى الشيخ بشير واخوته المشايخ واكد وسيد أحمد وقاسم ومراد ، ولما دخلوا القاعة قتلوهم جميعاً وأرسلوا إلى بيوتهم باعبيه فهرب أولادهم ونهبوا بيوتهم ، ثم قبضوا على أولادهم الفارين فسجنوهم ، ثم قتلوا العمادية بالسجن ، وبقي من عائلة كليب ثلاثة أولاد صغار والشيخ سلمان وأولاده ووفق الأمير بعد ذلك بين آل جنبلاط وآل عماد .

وفي سنة ١٧٩٧م أمر عبد الله باشا والي دمشق أولاد الأمير يوسف أن يقيموا في حماه ريثما يرجع من الحج ، وأجرى عليهم النفقات ، فورد إليهم أمر من الجزائر أن يحضروا إليه آمنين فحضروا مع مديبرهم جرجس باز فترحب الجزائر بهم ، وعلم بذلك الأمير بشير فاضطرب وكتب إلى الجزائر يكاشفه ، فأجابه كن طيب القلب . فجمع الأمير المال مع زيادة عليه وفرض على كل رجل ثلاثة قروش عدا الاكليرس وعقال الدروز ، وسعى هذه الضريبة شاشية ، وأرسل ذلك إلى الجزائر طلباً لرضاه . لكنه في سنة ١٧٩٨م ولّى أولاد الأمير يوسف مكانه لاتهامه بالاتفاق مع الفرنسيين ، ولكن لما بلغ الجزائر وصول بونايرت إلى الاسكندرية أوقف أولاد الأمير يوسف عن المسير إلى لبنان .

وفي سنة ١٧٩٩م قدم بونايرت بالجيش الفرنسي فحاصر عكا فاستنجد الجزائر بالأمير فاعتذر إليه بأن أهل البلاد بلغهم أنه ولّى أولاد الأمير يوسف فما عادوا يطيعونه . وكتب بونايرت إلى الأمير بشير فلم يجبه ثم كتب إليه كتاباً آخر يعاتبه به لعدم جوابه ، فوقع هذا الكتاب بيد الجزائر فرضي عن الأمير بشير كما مرّ . ولما ارتحل بونايرت عن عكا خاف الأمير والنصارى من الجزائر ، وكان الأميرال سميث رئيس الأسطول الانكليزي قد كتب إلى الأمير بشير كتاباً ودياً عند مقاومته جيش فرنسة المحاصر عكا ، فأجابه الأمير جواباً لطيفاً صحبة رسول حكيم . فأرسل الأميرال له مع رسوله هدية نفيسة ، وكان ابن أخته جريحاً فأرسله إلى الأمير ليقيم عنده إلى أن يبرأ جرحه ، فأكرمه الأمير غاية الاكرام . ثم حضر الأميرال إلى بيروت فأرسل الأمير يلتبس منه أن يزوره ، واتفقا أن تكون الزيارة بعين عنوب ، وبالحق الأمير بالحفاوة به الاحتفال له ، وجرت بينهما عهود وصدقة وتعهد الأميرال بكفّ الجزائر عن مضرة الأمير ، ولكن لما أفلح الأسطول الانكليزي من عكا أنفذ الجزائر عسكره إلى صيدا عازماً على تنصيب أولاد الأمير يوسف بالولاية . وفي

أثناء ذلك قدم الصدر الأعظم بالجيش العثمانية إلى حلب ، فرجع الأمير بشير إليه عريضة وأرسل له خيلاً جيداً صحبة حسون مراد الدرزي ويوحنا الدحداح ، فقدم له الهدية وسألاه صفو خاطره على الأمير وردع الجزار عن مظالمه فصرفهما راضيين . ولما وصل إلى حماه أرسل له الأمير مائة ألف قرشاً خدمة . ثم دخل دمشق فكتب إلى الأمير يطيب قلبه ويأمره أن يرسل ألف غرارة قمحاً وشعيراً فبادر إلى جمعها وأرسلها فأنعم عليه الصدر الأعظم بخلع الولاية على لبنان ووادي التيم وبلاد بعلبك والبقاع وبلاد المتاولة واعدأ اياه أن يبقى والياً بأمر الدولة وليس لوزراء صيدا ودمشق تسلط عليه ، بل يورد المال إلى الخزينة كما كان في أيام أمراء المعنيين ، وأرسل إليه المهردار مصحوباً بالخلع ليستورد أموال هذه الولايات .

وكان يؤمل أن تسود الراحة ويضمحلّ القلق فلم يكن كذلك ، لأنّ اليزبكية اتفقوا مع الأمير قاسم والي حاصبيا وأرسلوا يسألون الجزار عسكرياً لمقاومة الأمير بشير ، فأجابهم إلى ذلك ووجه عسكرياً إلى خان حاصبيا فنهضوا به إلى البقاع ، فأرسل الأمير الشيخ بشير جنبلات برجاله فحلّ في صغين فالتقاه اليزبكية واضطربت نار الحرب من الصباح إلى المساء فقتل من الفريقين جماعة وافرة ، فأرسل الأمير بشير إلى عبد الله باشا والي دمشق يسأله أن يمدّه بعسكر ، فأمر المنلا اسماعيل أن ينجد الأمير لأنه صار معدوداً من رجال الدولة فنهض بألف فارس إلى البقاع وبعث إلى رؤساء عسكر الجزار أن ينكفوا عن مقاومة الأمير بشير فانقادوا لأمره وعادوا إلى حاصبيا . وهو وسار إلى حاصبيا فهرب الأمير قاسم واليزبكية إلى عكا .

فاحتدم الجزار ولم يلتفت إلى أمر الصدر الأعظم وخلع على الأميرين حسين وسعد الدين ابني الأمير يوسف خلعة الولاية على لبنان ، وأبقى أخاهما الأمير قاسماً رهناً عنده . وأصبحهما بستة آلاف فارس وأربعة آلاف راجل . فسار الأمير حسين بالفرسان إلى البقاع ومعه مديره جرجس باز والأمير سعد الدين بالمشاة إلى اقليم الخروب ومعه مديره عبد الأحد باز والعمادية والنكدية . ولما بلغ ذلك الأمير بشير بعث الأمير حيدر أحمد إلى غريفه ومعه الشيخ حسن جنبلات . وبعث مهردار الصدر الأعظم إلى دمشق يخبر عبد الله باشا بما أقدم عليه الجزار ، وتوجه هو أي الأمير بشير إلى عين بال وأرسل يطلب رجال البلاد فقلّ من لبيّ دعوته . وكتب إلى المنلا اسماعيل أن يأتي لنجدته فسار إلى الزبداني ثم إلى حماه . وقدم النكدية

إلى دير القمر فقام الأمير بشير من عين بال إلى المختارة وأرسل عياله إلى المتن ، ونهض الأمير سعد الدين بالعساكر إلى مزرعة الشوف فقدم إليه بعض الأعيان مستسلمين إليه وانفضّ الأمراء اللمعيون عن الأمير بشير وقلّ محالفوه ، فقام ليلاً من المختارة إلى البقاع فوصل الأمير حسين بعسكر المشاة إلى جب جنين فنهض الأمير بشير إلى حمانا ودعا أمراء المتن فلم يلبوا ، وكتب إليهم الأمير حسين أن يطردوا الأمير بشير من عندهم ولأً فيفاجئهم بعسكره ، فنهض الأمير بشير إلى بلاد جبيل وليس معه من الشوف سوى بني جنبلاط ونحو خمسمائة رجل ، والأمير حيدر ملحم والأمير أحمد والأمير حسن علي من أقاربه ودخل الأمير سعد الدين إلى دير القمر .

وقد وصل إلى الأمير بشير حينئذ رسالة من الأميرال سميث أثبتتها الأمير حيدر في تاريخه فحواها أنه ساءه كثيراً عزل الجزار له ، وأنه ماضٍ إلى الصدر الأعظم بغزة ليلتمس منه توطيده بالولاية ، وأنه ترك له مركباً في نهر بيروت ليستخدمه في حاجاته . وورد أمر من عبد الله باشا العظم والي دمشق إلى أهل لبنان أثبتته الأمير حيدر أيضاً يؤنبهم به على عصيانهم الأمير بشير المنصب من الصدر الأعظم ويهددهم ويحذرهم من المخالفة له . فأرسل الأمير هذا الأمر إلى أهل البلاد عالماً أنهم غير قادرين على مقاومة الجزار ما داموا على هذه الخيانة والانقسام . ثم توجه من بلاد جبيل إلى الكورة ، ثم إلى راسكيفا ، وأما الأمير حسين ابن الأمير يوسف فسار من قب الياس إلى حمانا وأثقل كاهل أهل المتن بجباية المال والضرائب ونفقة العساكر حتى ندموا على طردهم الأمير بشير . ثم سار إلى كسروان ونهب أكثر قراها ، ثم إلى البترون ، ولما بلغ قدومه الأمير بشير قام من راسكيفا إلى سبعل ، فنهض الأمير حسين إلى أميون ففرّ الأمير بشير ليلاً إلى الهرمل وأقام ابنه الأمير خليل عند علي بك الأسعد بعكار ، ثم سار الأمير إلى بعلبك قاصداً أن يقيم بحوران ، فورد عليه كتاب من الأميرال سميث يطلب حضوره إلى غرة لمقابلة الصدر الأعظم ، وأرسل له مركباً إلى طرابلس يسافر به ، فعاد في طريق عكار إلى المنية قرب طرابلس ، والتقاءه قنصل الانكليز وسار في ذلك المركب ومعه مديره الشيخ سلوم الدحداح وعشرون رجلاً من خدمه .

ولما بلغ الأمير إلى حيث الأسطول الانكليزي استقبله الأميرال باحتفاء عظيم ، وأطلق المدافع تجلّة له ، وصحبه في مسيره إلى الصدر الأعظم الذي كان قد أعدّ

خيماً لنزول الأمير، وقابله بالبشاشة والترحاب وطُيِّب قلبه وعرض عليه أن يصحبه بعشرة آلاف جندي لقتال الجزائر. فامتنع الأمير من ذلك، فوعده الصدر أنه متى انتهى من تدير شؤون مصر يسير بجميع جيشه إلى سورية فيضرب الجزائر. واستأذن الأمير الصدر الأعظم بأن يسافر في الأسطول الانكليزي، فأذن له فصار الأمير مع الأدميرال إلى قبرص وأقام معه هناك ثمانية عشر يوماً، ثم سافر معه إلى مصر أيضاً ليتلقى أمر الصدر الأعظم قبل رجوعه إلى لبنان، فاتفق حدوث أنواء أخرت وصولهم إلى اسكندرية مدة طويلة. ولما بلغوا إليها علموا أن الفرنسيين الذين كانوا بالقاهرة قد حاربوا الصدر الأعظم وكسروا عسكره وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، ورجع الصدر الأعظم إلى يافا بمن بقي من عسكره، ولما تحقق الأمير بشير ذلك طلب من الأدميرال أن يرده إلى طرابلس فردّه إليها ونزل عند مصب نهر البارد.

وكان أخوه الأمير حسن والشيخ بشير جنبلاط في الحصن عند علي بك الأسعد فالتقياه، ومن الغد عادوا جميعاً إلى الحصن. وكان الأمير حسين والأمير سعد الدين ابنا الأمير يوسف قد عجزا عن ايراد المال المطلوب للجزار فأنفذ ألف فارس من الدالاتية إلى البقاع لجباية المطلوب، وأرسل جرجس باز أخاه عبد الأحد إلى عكا ومعه عشرون ألف قرشاً ليسكن بها غضب الجزائر، فلم يسكن وألح على الأميرين باداء المطلوب كاملاً، وطلب ثلاثمائة غرارة قمح وألف رأس غنم وثلاث مئة رأس بقر وثلاثمائة قنطار بارود. فأرسل الأميران محصلين لجمعها، فهاج أهل البلاد وطردهم المنتيون المحصلين. فكتب الأمير حسين إلى الجزائر يشكوهم، فأرسل ثلاثمائة نفر من الأرنؤوط فاستعدوا لقتالهم، وأجمعوا على إعادة الأمير بشير إلى الولاية ووافقهم أكثر أعيان البلاد، فأرسلوا ثلاثمائة رجل إلى الحصن عند الأمير بشير يستدعونه إليهم، فقام معهم عائداً إلى لبنان، ولما وصل إلى كسروان نشر اعلاناً لأهل البلاد يخبرهم بقدومه فاضطرب الأميران وأسرع جرجس باز مدبرهما إلى الجزائر يخبره بذلك ويلتمس منه عسكراً فجهز ألفي مقاتل من الأرنؤوط ووعد بهارسال عسكر من الفرسان. أما الأمير بشير فقام إلى حمانا فالتقاء الجميع بيهجة وسرور وقدم إليه المناصب إلا العمادية، واتحد معه أكثر الأمراء اللمعيين، فنهض بحشد كبير إلى الباروك ثم إلى كفرنبرخ، وقدم جرجس باز بالأرنؤوط إلى دير القمر، ونهض الأمير بشير إلى بعقلين وأصلح بين أصحابه وأصحاب أولاد الأمير يوسف حتى قلّ من بقي صديقاً لهم. فأقنع بعضهم جرجس باز أن يصرف

الأرناؤوط من دير القمر فين عقد الصلح على أن يتولّى الأميران ابنا الأمير يوسف بلاد جبيل، ويتولّى الأمير بشير باقي البلاد، فارتضى بذلك، وقام الأمير حسين بعسكر الجزار إلى ساحل بيروت ودخل الأمير بشير إلى دير القمر.

وأرسل الأمير بشير أخاه حسناً برجال الغرب إلى الشويفات لملاقاة الأمير حسين وجرجس باز لعقد الصلح، لكن جرجس باز بدا له أن يعدل عن الصلح فبقي سائراً بالعسكر إلى حرش بيروت والتمس من الجزار تعزيز عسكره بعسكر آخر. ولما عرف الأمير بشير بنكته عهد الصلح، ترك الشيخ بشير جن بلاط بدير القمر ونهض إلى الشويفات وجمع ألف رجل من الغرين والشحار وسار بهم إلى عاريا، وأردف الجزار عسكره بأربعة آلاف مقاتل وزحفوا إلى ساحل بيروت فأحرقوا قره وحاصروا الشويفات، لكن ردوا عنها. وبعد وقعات كان في آخرها النصر للأمير بشير فأذعن جرجس باز وكاشف الأمير بشير بالعود إلى عقد الصلح بشروطه السابقة، أي أن يتولّى أبناء الأمير يوسف بلاد جبيل والأمير بشير باقي البلاد فرضي الأمير بذلك ووطنه بوثيقة مقسوم عليها، واحتال جرجس باز على الجزار فاسترجع عسكره وعقد الصلح وانطلقوا جميعاً إلى دير القمر، ولما علم الجزار ما كان تمزّق غيظاً وأقام عسكره في حصون ولايته، وخضع الجميع للأمير بشير وكان ذلك سنة ١٨٠٠ م.

وقد أوقفنا القلم عن تدوين تكملة أخبار هذه الحوادث إلى تاريخ القرن التاسع عشر رعايةً لمساق تاريخنا. ولا غرو أن يملّ القارئ من مطالعة أخبار هذه الحوادث، فما رأيك في من يتأمل ما كان أسوأ حال هذه البلاد في تلك الأيام السيئة أمام هذا الداهية الدهماء التي هو الجزار. وقد صبح ما قاله فيه الشاعر

جزار لكن للفضائل جازر شرّ البريّة أن تفكر لو عمل

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن الثامن عشر

عد ١٠٤٦

المشاهير السوريون في هذا القرن

وضع العالم الفاضل السيد محمد خليل أفندي المرادي المفتي بدمشق كتاباً في أعيان القرن الثاني عشر للهجرة، سماه: «سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر». وأسهب وأجاد في تراجم معانيهم، فأخذنا عنه ذكر بعضهم وأشهرهم بما أمكن من الإيجاز، وزدنا على ذلك ترجمات بعض من لم يذكرهم نقلاً عن كتب غيره من العلماء منسقين تراجمهم بحسب سني وفاتهم.

١

عبد الجليل المواهبي

هو ابن أبي المواهب بن عبد الباقي الحنبلي وُلد بدمشق سنة ١٠٧٩ هـ (سنة ١٦٦٨ م). ونشأ بها في كنف والده، واشتغل بالعلم عليه وعلى غيره من المشايخ، وأخذ عنهم النحو والتصريف والمعاني والبيان والفقه والحديث، وبرع في المعقولات والمنقولات، وجلس للتدريس بالجامع الأموي وعكف عليه الطلبة للاستفادة. وله من التأليف نظم الشافية لابن الحاجب في التصريف وشرحها شرحاً حافلاً. وله تشطير بديع على ألفية ابن مالك. وله أرجوزة في العروض، وغير ذلك من الرسائل. وكان ينظم الشعر الباهر ومنه قوله مشطراً الأبيات المنسوبة إلى جعفر الصادق.

عُتبت على الدنيا وقلت إلى متى
 أفاقدة الانصاف حتى عليهم
 فكلّ شريف من سلالة هاشم
 ومع كونه في غاية العزّ والعلّا
 فقال نعم يا ابن البتول لأنني
 وأما إساءاتي فذلك أنني
 وله :

إذا ملك لم يكن ذاهبه
 فجد للفقير بما يبتغي
 وفي الله عن كل شيء غنى
 فدعه فدولته ذاهبه
 وأفضل ما لك كن واهبه
 فكن راغباً فيه أو راهبه

وكانت وفاته سنة ١١١٩هـ (سنة ١٧٠٧ م) .

٢

السيد ابراهيم بن حمزة

هو ابن محمد بن كمال الدين بن محمد بن حمزة الحاراني الأصل الدمشقي المولد والنشأة . وُلد بدمشق سنة ١٠٥٤هـ (سنة ١٦٤٤ م) وبها نشأ في ك والده واشتغل بالعلم عليه وعلى شقيقه عبد الرحمن وغيرهما من العلماء الاعلا وسافر إلى مصر متولياً نقابة الأشراف فيها سنة ١٠٩٣هـ (سنة ١٦٨٢ م) وأ عن علمائها ، وتولّى بدمشق نيابة محكمة الباب الكبرى والقسمة العسكة والنقابة مزار ، وكان صدرأ من صدور دمشق ، وكان من الاعلام المحد والعلماء الجهابذة في كثير من العلوم والفنون ، وله مؤلفات منها «أسب الحديث» مؤلف حافل لخص فيه مصنف أبي البقاء العكبري ، وزاد عليه زياد

حسنة ومنها حاشية على شرح الألفية لابن الناظم لم تكمل . وقترظه الأمين المحبي في كتابه النفحة . ومما قاله . في حقه له في الأدب بسطة وباع وشعر متجمل برونق وانطباع . وتوفي سنة ١١١٩هـ (سنة ١٧٠٧م) وبنو حمزة في دمشق رؤساء ساداتهم إلى اليوم .

٣

محمد الكفيري

هو ابن زين الدين عمر بن عبد القادر ابن العلامة شمس الدين الكفيري الحنفي الدمشقي . وُلد بدمشق سنة ١٠٤٣هـ (سنة ١٦٣٣م) واشتغل بالعلم على كثيرين من العلماء الاعلام وأحرز قصبات السبق ، وألّف وصنّف . فمن تأليفه شرحه على البخاري في ستة مجلدات وحاشية على الاشباه والنظائر في الفقه الحنفي ، وكان شيخه الحائك قد شرع في تأليفها ولم يكملها ، فبعد وفاته أتمّها هو . وله شرح على الأجرومية سماه : «الدرة البهية على مقدمة الأجرومية» واعراب لألفاظها سماه «الأنوار المضية في اعراب ألفاظ الأجرومية» . وكان قبل ذلك قد نظمها في أبيات تزيد على مئتي بيت وسبعين بيتاً ، وسماها : «غرر النجوم في نظم ألفاظ ابن أجيروم» . وله أيضاً مقدمة في القراءة سماها بغية المستفيد في أحكام التجويد . وله : «العرف الندي في تخميس لامية ابن الوردى» . وله غير ذلك من المقالات والرسائل وكثير من الشعر منه قوله :

يا من بمحتده ارتقى ومؤملاً عدم الشقا
قد غرّه طول البقا عمّر فوادك بالتقى
واحذر بأنك تلتهي
لا تركزنّ لجاحدٍ يعمّ الإله معاندي
والزم طريقة هاجدٍ واعمل لوجه واحد
يكفيك كلّ الأوجه

وله:

ثلاث من تكن يا خلّ فيه فمغروّز وأجدر بالملام
فأولها اليقين بكون أمرٍ وليس له وجودٌ في الأنام
وثانيها المطامع في مرادٍ إليه وصوله صعب المرام
وثالثها الركون إلى جليسٍ بلا عهدٍ يراه ولا ذمام
فحد عنها لكي ترقى مقاماً وتحظى بالتحية والسلام

فهذا تضمين قول بعضهم ثلاث من يكن فيه كان مغروراً من صدق بما لا
يكون وطمع في ما لا يناله، وركن إلى من لا يثق به. وكانت وفاته سنة
١١٣٠هـ (سنة ١٧١٧م).

٤

أبو السعود الكواكبي

هو أحمد بن محمد بن حسين المشهور كأسلافه بالكواكبي. وُلد بحلب سنة
١٠٩٠هـ (سنة ١٦٧٩م) وبها نشأ، وأخذ العلوم عن فحول علمائها. وكان
والده أجْلهم فأخذ عنه التفسير والمعقولات وتولّى الافتاء بحلب بعد والده. واستمرّ
مفتياً إلى أن توفي. ومما ألّفه في عنفوان شبابه رسالة آداب البحث منظومة،
وشرحها شرحاً مفيداً، ونظّم رسالة سماها الوضع، وباشر بشرحها، ولازم
التدريس وتصدّى للفادة. وأخذ عنه أفاضل حلب وغيرهم جماعة كثيرون. وكان
له شعر رقيق حتى قال المرادي في حقه إنه فاق أهل عصره. وتوفي سنة ١١٣٧هـ
(سنة ١٧٢٤م).

الشيخ عبد الغني النابلسي

هو ابن اسماعيل بن عبد الغني بن اسماعيل بن أحمد المعروف كأسلافه بالنابلسي الحنفي الدمشقي العالم العلامة الحجة الفهامة . وُلد بدمشق سنة ١٠٥٠ هـ (سنة ١٦٤٠ م) وأشغله والده بطلب العلم ، لكن توفي والده وعمره اثنتا عشرة سنة فعكف هو على اقتباسه عن أكبر علماء دمشق في عصره . وكان استاذ الأساتذة وجهيد الجهابذة ولم يبلغ العشرين من عمره إلا واشتهر بعلمه وتأليفه ونظمه ، فنظم بديعية في مدح النبي فاستبعد بعض أن تكون من نظمهم ، فاقترحوا عليه أن يشرحها فشرحها في مدة شهر شرحاً لطيفاً في مجلد . ثم نظم بديعية أخرى التزم فيها ذكر الأنواع ، وسمى كتابه «نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار» . وطبع هذا الكتاب في دمشق سنة ١٢٩٩ هـ وفيه القصيدتان المذكورتان احدهما خمس مائة بيت وبيت ، والثانية على الهامش وفي كل بيت منها اسم النوع من البديع . ثم شرع في القاء الدروس بالجامع الأموي وغيره ، وارتحل إلى دار الخلافة ثم إلى زيارة القدس والخليل . ثم مضى إلى البقاع وجبل لبنان ، ثم إلى مصر ومنها إلى الحجاز فألف في كل من هذه الأسفار رحلة . وله من التصانيف غير ذلك : «التحرير الحاوي بشرح تفسير البيضاوي» في ثلاثة مجلدات ، وشرع في الرابع . و«بواطن القرآن ومواطن العرفان» كله منظوم على قافية التاء نحو خمسة آلاف بيت . و«كنز الحق المبين في أحاديث سيد المرسلين» و«الحديقة الندية في شرح الطريقة المحمدية» و«جواهر النصوص في حلّ كلمات الفصوص» للشيخ محيي الدين ابن عربي . و«كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض» و«زهر الحديقة في ترجمة رجال الطريقة» ، و«خمرة الحان ورثة الألحان» ، شرح رسالة الشيخ ارسلان . و«تحريك الأقليد في فتح باب التوحيد» و«لمعان البرق النجدي» شرح تجليات محمود أفندي الرومي ، و«المعارف العينية الجلية» و«إطلاق القيود في شرح مرآة الوجود» ، و«الظل الممدود في معنى وحدة الوجود» ، و«رائحة الجنة في شرح اضاءة الدجنة» ؛ و«فتح المعبد المبدي في شرح منظومة سعدي أفندي» ، و«دفع الاختلافات من كلام القاضي والكشاف» ،

و«إيضاح المقصود من معنى وحدة الوجود»، و«القلائد الفرائد في موائد الفوائد» في فقه الحنفية على ترتيب أبواب الفقه و«حلية الذهب الأبريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز»، و«الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية»، و«الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز»، و«إيضاح الدلالات في سماع الآلات»، و«التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية»، و«نسمات الأسحار في مدح النبي المختار» وهي البديعية. إلى غير ذلك مما ملأ به الخالدي أربع صفحات وأكثر هذه العناوين أسماء رسائل أو مقالات أو أجوبة.

والذي نعرفه مطبوعاً من كتبه «إيضاح الدلالات في سماع الآلات»، طُبع في دمشق سنة ١٣٠٢هـ وطُبع على الحجر مع كتاب المقاييسات لأبي حيان ودون ذكر محل الطبع وسنته، وكتاب «ديوان الحقائق ومجموع الرقائق في صريح المواجيد الإلهية والتجليات الربانية والفتوحات الأقدسية» وهو الباب الأول من ديوان الدواوين وريحان الرياحين في تجليات الحق المبين طبعة الحقائق ببولاق سنة ١٢٧٠هـ وبالقاهرة سنة ١٣٠٦هـ وهي أشعار صوفية. وكتاب «علم الملاحاة في علم الفلاحة» طُبع بدمشق سنة ١٢٩٩ ولا يخلو من فائدة في اصطلاحات الفلاحة والزراعة وطبع كتابه «نفحات الأزهار في نسمات الأسحار» بدمشق سنة ١٢٩٩هـ في ٥٠٤ صفحة، وكتاب «ديوان أشعاره» طُبع ببولاق سنة ١٨٥٧م وتوفي سنة ١١٤٣هـ (سنة ١٧٣٠م).

٦

أحمد الغزي

هو ابن عبد الكريم بن سعودي بن نجم الدين الشافعي الغزي الأصل الدمشقي مفتي الشافعية بدمشق وابن مفتيها، وُلد سنة ١٠٧٨هـ (سنة ١٦٦٧م) واشتغل بطلب العلم فنبغ فيه وحاز قصبات السبق وصنّف شرحاً على «المنحة النجمية في شرح اللمحة البدرية». وهذا كتاب في علم العربية مختصر في النحو للشيخ أبي حيان الأندلسي المتوفي سنة ٧٤٥هـ وعليه شرح لجمال الدين بن هشام النحوي، واختصره نظماً زين الدين بن الوردي، وله شروح أخرى. ولأحمد الغزي أيضاً شرح على نظم «نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» وهو كتاب في علوم

الحديث للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، وعليه شروح لكثير من العلماء ، وقد نظمه كثيرون منهم فيظهر أنّ جدّ الغزي الرضي في جملتهم فشرح المترجم نظم جدّه كما اختصر كتاب جدّه محدث دمشق الشيخ محمد نجم الدين الغزي المسمى : «اتقان ما يحسن في الأحاديث الواردة على الألسن» . وسمى مختصره «الحد الحثيث في بيان ما ليس بحديث» . واختصر السيرة النبوية للشيخ العلامة علي الحلبي وله غير ذلك . وتولّى افتاء السادة الشافعية بعد وفاة والده . وكان بدمشق له القول والكلمة النافذة ويحترمه أعيانها إلى أن كانت وفاته سنة ١١٤٣هـ (سنة ١٧٣٠م) ورثاه الشيخ سعيد السمانى يقصيدة مطلعها:

قضاء الله من للخلق أوجد بنا يمضي تواني المرء أوجد

٧

أحمد العكي

هو ابن بكر بن أحمد بن محمد مفتي عكا وعالمها ومحبي ربوعها ومعالمها ، وُلد في سنة ١٠٩٥هـ (سنة ١٦٨٣م) وله تأليف كثيرة منها فتاويه المشهورة المسماة باسمه . وله حاشية على تنوير البصائر في الفقه وشرح منظومة ابن الشحنة في الفرائض . وله مختصر السيرة الحلبية ، وحاشية على نزهة النظار في علم الغبار في الحساب وهو اسم لعلامات تدلّ على الأعداد . وله شرح على ملتقى الأبحر في الفقه . وله بعض أشعار رائقة وكانت وفاته سنة ١١٤٧هـ (سنة ١٧٣٤م) .

٨

عبد الله الطرابلسي

هو ابن عمر بن محمد المعروف بالأفيوني الحنفي الطرابلسي نزيل دمشق أحد الأفاضل الجيدين ، وُلد بطرابلس الشام وبها نشأ ، وارتحل مع والده إلى مصر وقدم

ولده هذا إلى دمشق واستوطنها، وله من التأليف شرح على البردة سماه: «الفيوضات المحمدية على الكواكب الدرية»، و«العقود الدرية في رحلة الديار المصرية»، ثم «الزهر البسام في فضائل الشام»، ثم «الزهرة الندية والعقبة العطرية»، ثم «مختصر الاشاعة في أشراف الساعة»، ثم «رثة المثاني في حكم الاقتباس القرآني»، ثم «فيض السرّ المداوي في بهجة الشيخ أحمد النجلاوي»، ثم «المنحة القدسية في الرحلة القدسية». وقد أسهب وأجاد الشيخ سعيد السمان في وصفه. وقال المرادي قد اطلعت على ديوانه فاستحسنته. وذكر كثيراً من شعره ولكن قلّ ما ذكره له غير الغزل والتصانيب ومن شعره:

لضرب السيف أو خوض المنايا وطعن السمهري على الصميم
وأكل السمّ من كبد الأفاعي وقبض الجمر في يوم سموم
وايم الله ذاك يهون عندي ولا أحتاج يوماً للئيم
وكانت وفاته سنة ١١٥٤ (سنة ١٧٤١).

٩

عبد المعطي الخليلي

هو ابن محيي الدين الشافعي الخليلي الأصل والوطن والقدسي المأوى والسكن. رحل لطلب العلم من الخليل إلى الجامع الأزهر بالقاهرة فجدّد ودأب على تحصيل العلوم التفسيرية والحديثية والفقهية، وتضلّع خاصة في مذهب الامام الشافعي، وتولّى افتاء الشافعية في القدس أكثر من خمس وعشرين سنة. وله فتاوى حسنة مجموعة في مجلد، وله رسائل كلها منتخبة منها رسالة في موسى الكليم. وكانت وفاته سنة ١١٥٤ هـ (سنة ١٧٤١ م).

١٠

خليل الفتال

هو ابن محمد بن ابراهيم بن منصور المعروف بالفتال الدمشقي الحنفي، وُلد

بدمشق سنة ١١١٧هـ (سنة ١٧٠٥م) واشتغل في العلوم على جماعة منهم الشيخ عبد الله البصراوي الدمشقي. قرأ عليه الطب ودرس بالجامع الأموي، وكان كثير الأسفار فذهب إلى الآستانة ثلاث مرات، وزار مصر وبلاد الروم وحج إلى مكة وتولّى قضاء عكا على التأييد، وله من التأليف حاشية بالفقه على شرح التنوير للشيخ محمد علاء الدين الحصفكي مفتي الشام. قلت التنوير هو التأليف الموسوم بتنوير الأبصار وجامع البحار في الفروع للشيخ شمس الدين محمد الغزي المتوفي سنة ١٠٠٤م وفي جملة شارحيه الشيخ العلامة محمد علاء الدين المذكور، فلصاحب الترجمة حاشية على هذا الشرح، وله أيضاً كتاب رحلة كتبه بعد سفره إلى بلاد الروم. قال المرادي أخبرت أنّ له شرحاً على لامية ابن الوردي الشهيرة. وكان ينظم الشعر، وذكر بعض أشعاره فاقصرت مما ذكره على تخميسه بيّتي السلطان سليم خان المكتوبين على المقياس بمصر

إن ساعدتك الأمانى واستفدت غنى فكن حديثاً إذا طال المدى حسناً
ولا تباهي بملك من مشيد بنا الملك لله من يظفر بنيل منى
يرده قهراً ويضمن بعده الدركا

إن كنت ذا رتبة في الأفق نازلة أو ثروة لاجتنا العليا سابغة
فلا تقل لي شيء ضمن منزلة لو كان لي أو لغيري قدر ائمة
فوق البسيطة كان الأمر مشتركاً

وتوفي في سنة ١١٨٦هـ (سنة ١٧٧٢م).

١١

مصطفى البكري

هو ابن كمال الدين بن علي بن كمال الدين الحنفي الدمشقي البكري، وُلد بدمشق سنة ١٠٩٩هـ (سنة ١٦٨٧م) وتوفي والده كمال الدين وعمره ستة

أشهر، فنشأ يتيماً في حجر ابن عمه أحمد بن كمال الدين، وقرأ العلوم على مشاهير المشايخ وتوجه من دمشق إلى زيارة بيت المقدس مرات وطاف في كثير من البلاد كحلب وبغداد ومصر، وحج إلى مكة المكرمة ثلاثاً. وألف مؤلفات نافعة منها: «الكشف الأنسي والفتح القدسي» في العبادات وشرحه بثلاثة شروح، ومنها شرحه قصيدة المنفرجة لأبي عبد الله النحوي، وشرحه قصيدة الامام أبي حامد الغزالي التي مطلعها:

الشدة أودت بالمهج يا رب فعجل بالفرج

وله اثنتا عشرة مقامة واثننا عشر رحلة وسبعة دواوين شعرية وألفية في التصوف، وتسع أراجيز في علوم الطريقة، وشروح على صلوات كثيرة. وله كتاب سماه «الفرق المؤذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب». إلى غير ذلك حتى قال المرادي بلغت مؤلفاته مائتين وعشرين مؤلفاً بين مجلد وكراسين وأقل وأكثر وكلها وضع لها أسماء. وله نظم كثير وقصائد خارجة عن دواوينه. وما أثبتته من شعره:

ما هب من نحوكم نسيم صبا	إلا وقلب الفتى إليه صبا
ولا سرى حادٍ لأرضكم	إلا وأذكى بمهجتي لهبا
ولا شدا مطرب بقربكم	إلا يراني وجداً بكم اربا
ولا دنوتم لناظري زمناً	إلا ونادى المشوق واطربا
ولا تذكرت عشية سلفت	بالخيف إلا وصحت واحربا
ولا تحدثت عن وصولكم	إلا وأجريت أدمعي سحبا

وقالوا إن هذا على منهاج الصوفية، يراد بالمشوق إليه الذات القدسية، وكانت وفاة البكري في سنة ١١٦٢ هـ (سنة ١٧٤٨ م).

محمد الغزي

هو ابن عبد الرحمن بن زين العابدين الغزي أصلاً والدمشقي مولداً الشافعي مذهباً، وُلد بدمشق سنة ١٠١٦ هـ (سنة ١٦٨٤ م) وقرأ العلوم على كثير من العلماء الاعلام، وكان مفتي الشافعية بدمشق، ودرس العلوم في المدرسة العمرية بصالحية دمشق، وتولّى تدريس الحديث في الجامع الأموي. وكان ضليعاً بالتاريخ وألف تاريخاً سماه ديوان الاسلام جمع فيه ترجم العلماء المشاهير والملوك وغيرهم، وكان شهيراً بالتاريخ والأدب وحفظ الأنساب والأصول وتراجم السلف، وله شعر باهر وفضل ظاهر. ومن شعره:

إذا نصحت قليل العقل نلت بذا عداوةً منه لا تخفى مساويها
فالحمق دائئ قبيح لا دواء له قد قال فيه من الأشعار راويها
لكل داءٍ دواءٌ يستطبُّ به إلا الحماسة أعيت من يداويها
وكانت وفاته سنة ١١٦٧ هـ (سنة ١٧٥٣ م).

حامد العمادي

هو ابن علي بن عبد الرحيم بن عماد الدين الحنفي الدمشقي المعروف كأسلافه بالعمادي مفتي الحنفية بدمشق وابن مفتيها، وُلد بها سنة ١١٠٣ هـ (سنة ١٦٩١ م) واشتغل بطلب العلم على جماعة من العلماء، فبرع وصاد وألقى الدروس أولاً بالجامع الأموي، ثم تولّى التدريس في السلیمانية بالميدان الأخضر، واستفتح تدريسه بخطب أنماها ثم جمعها، فكانت مجلداً كبيراً. وله مؤلفات

منها «شرح الايضاح» في مجلد كبير . قلت الايضاح أظنه الايضاح في النحو لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي . والايضاح في المعاني والبيان لجلال الدين القزويني المعروف بخطيب دمشق . وللعمادي أيضاً فتاويه المعروفة به في مجلدين كبيرين ، والخواشي التي جمعها على دلائل الخيرات ، وهذا الكتاب في ذكر الصلاة للشيخ أبي عبد الله محمد الجزولي (عن كشف الظنون) وله رسائل كثيرة منها: «الدرّ المستطاب في موافقات سيدنا عمر بن الخطاب»، ومنها «الحوقلة في الزلزلة»، ومنها «الاتحاف لشرح خطبة الكشف» و«تشنيف الأسماع في افادة لو للامتناع»، ومنها «القول الأقوى في تعريف الدعوى» و«اختلاف آراء المحققين في رجوع الناظر على المستحقين»، وله كثير غير ذلك منه ديوان شعر ومكاتبات . ومن شعره:

ولا تبغِ إلا الأوج أرفع منزلي وإن ملت نحو الدون أنك سافلُ
فما المرء إلا حيث يجعل نفسه ولاني لها فوق المساكين جاعلُ

وقال في فوارة

كأن فوارة قامت لناظرها ذوائب لفتاة نظمت غررا
قد أطربتها الغواني وهي ناشدة من شدة الرقص في أطرافها دررا

وكانت وفاته سنة ١١٧١ هـ (سنة ١٧٥٧ م)

١٤

سعيد السمان

هو ابن محمد بن أحمد السمان الشافعي الدمشقي ، وُلد بدمشق سنة ١١١٨ هـ (سنة ١٧٠٦ م) واشتغل بطلب العلوم على كثيرين من الشيوخ في أيامه فنبغ ومهر وساد واشتهر وامتدح الأعيان والرؤساء والوزراء بدمشق وغيرها بقصائد بليغة بديعة . وألّف كتاباً في من امتدح فتح الله بن محمد الدفترى الدمشقي وسماه: «الروض النافح في ما ورد على الفتح من المدائح» . وأراد تأليف كتاب

يترجم به شعراء عصره . وارتحل إلى البلاد لجمع آثارهم وقصد أن يجعله كالنفحة
للأمين الحجي، والريحان للشهاب الخفاجي، والسلافة لابن معصوم الملكي فلم يتم
له ذلك، وبقي كتابه في المسودات وانتثر وتبدد، وعاقته المنية عن نشر هذا الكتاب
النفيس. ولكن له رسائل أدبية وديوان شعر سماه «منايح الأفكار في مدائح
الأخيار». وروي أنه نظم «المغني في النحو» وألف حاشية على الكامل للمبرد.
ومن شعره:

في الصبر

إذا رمتك الليالي وهي مظلمة بحادث واستطالت شوكة الزمن
فاصبر فكم في مطاوي جنحها فرج إن لم يجئ وقتها المحتوم لم يكن

وله في المداراة:

يا صاحب الحزم والرأي الصحيح ومن يصغى لكل كمال في الورى ويعي
قالوا المداراة نصف العقل قلت لهم إنَّ المداراة كل العقل فاستمع
وكانت وفاته في سنة ١١٧٢ هـ (سنة ١٧٥٨ م).

١٥

محمد السفاريني

هو أحمد بن سالم بن سليمان السفاريني الحنبلي، وُلد بقرية سفارين من قرى
نابلس سنة ١١١٤ هـ (سنة ١٧٠٢ م) ثم رحل إلى دمشق طلباً للعلم، فأخذه عن
الشيخ عبد الغني النابلسي وغيره، وحصل في زمن قليل ما لم يحصله غيره في
زمن كثير. ثم عاد إلى نابلس واشتهر بالفضل والذكاء، وألف تأليف كثيرة منها
شرح ثلاثيات مسند الامام أحمد في مجلد ضخيم، ويراد بالثلاثيات ما اتصل
بالرسول من الحديث بثلاثة رواة. وتنحصر الثلاثيات في صحيح البخاري في اثنين
وعشرين حديثاً. ومن مؤلفات السفاريني أيضاً شرح نونية الصرصري سماها
«معارج الأنوار في سيرة النبي المختار» في مجلدين. و«تجبير الوفا في سيرة

المصطفى»، و«غذا الألباب في شرح منظومات الآداب»، و«البحور الزاهرة في علوم الآخرة»، و«كشف اللثام في عمدة الأحكام»، و«الجواب المحرر في الكشف عن حال الخضر والاسكندر» و«القول العلي في شرح أثر أمير المؤمنين علي»، و«قرع السياط في قمع أهل اللواط»، و«المنح الغرامية في شرح منظومة ابن فرح اللامية»، و«الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية»، وشرحها المسمى الآثار الأثرية بشرح منظومتنا المسماة بالدرة المضية، ورسالة في بيان الثلاث والسبعين فرقة إلى غير ذلك. وله من الشعر في المراسلات والغزليات والوعظيات والمراثيات شيء كثير. وكان له الباع الطويل في التاريخ وحفظ وقائع الملوك والأمراء والعلماء والأدباء.

ومن شعره:

الصبر عيل من القلا والنفس أمست في بلا
والجفن جفّ من البكا والقلب في الشجوى غلا
وشكا اللسان فقال في شكواه لا حول ولا

وكانت وفاته سنة ١١٨٨ هـ (سنة ١٧٧٤ م).

١٦

حسن البخشي

هو ابن عبد الله بن محمد البخشي الحلبي، وُلد بحلب سنة ١١١١ هـ (سنة ١٦٩٩ م) وقرأ على والده العلامة الفقه والنحو والحديث والتصوّف، وقرأ على غيره من العلماء منهم الشيخ سليمان النحوي الحلبي الشهير، وألّف رحلة ذكر فيها من اجتمع بهم من الأفاضل في أسفاره وتردّد على القسطنطينية مراراً، وقرأ على علمائها وألّف وأجاد ونظم. ومن تأليفه «بهجة الأخبار في شرح حلية المختار»، و«النور الحلبي في النسب الشريف النبوي»، ورسالة في رجال الشمائل وشرح على الشمائل، وله تأليف في العقائد سماه «تحرير المقال في خلق الأفعال»، وله ديوان

حافل وشرح مفيد في قصيدته المسماة بعقود الآداب، وسمى شرحه «تنقيح الألباب في حلّ عقود الآداب»، وكان يتعاطى القضاء والنيابة بحلب وغيرها. وله شعر رائق، وكانت وفاته سنة ١١٩٠ هـ (سنة ١٧٧٦ م).

١٧

أحمد شاكر الحموي

هو ابن عمر بن عثمان المعروف بالشاكر الحموي نزيل دمشق الحنفي الصوفي وُلد بحماة سنة ١١٢١ هـ (سنة ١٧٠٩ م)، وقرأ العلوم والفنون على بعض المشايخ وطاف في شبابه البلاد حلب وبغداد والموصل وطرابلس والحجاز حتى الهند والعجم على قوله. وكل بلدة حلّ فيها امتدح أعيانها ورؤساءها إلى أن أقام بدمشق وامتدح أعيانها وكبرائها، واشتهر فضله وأدبه لكنه تعاطى عمل الكيمياء وأنفق عليه ماله، وانخدع به جماعة فصرفوا أموالهم معه، فكان هذا سبب فقره حتى أذاه إلى أن صار ينقل الحكايات في بعض بيوت القهوة، وأوقعه في أمراض قال المرادي كنت أزوره وكان يحدثني بوقائعه، ويتحفني بنوادره. وقد طلبت منه ديوان أشعاره وهو ثلاثة مجلدات وسماه «حانة العشاق وريحانة الأشواق»، فدفع إليّ مجلدة بعد أخرى وعندي نسخة منه كتبها عن الأصل وصححتها عليه وهو سبعة أبواب في نظام كلام الحقيقة ومدائح الرسول والآل والأصحاب والغراميات والخمريات ومدائح الأعيان والأحاجي والمعميات والالغاز ثم القوما والمردوف. ومن شعره خمسا قصيدة الفتح النحاس:

برقّ أهاج سحاب الدمع لائحهُ والقلب يردد والأحشا تكافحهُ
والصبّ مذبان في الذكرى فوادحهُ تذكّر السفح فانهلت سوافحهُ

وليس يخفاك ما تخفي جوانحهُ

حال المشوق جلّي غير منكتم والوجد يظهره ناراً على علم

فلا تلم إن هام دمعي بمنسجم صدع الهوى يا عدولي غير ملتئم
يدريه بالبان من أشجاء صادحة

وكانت وفاته سنة ١١٩١ هـ (سنة ١٧٧٩ م).

١٨

عبد الله اليوسفي الحلبي

هو ابن يوسف بن عبد الله المعروف باليوسفي الحلبي الشاعر البارع ، وُلد بحلب وقرأ على والده مدة حياته ، وبعد وفاته على المشاهير من علماء حلب . وكان أوحده الشهما في النظم والتاريخ والابتكارات في فنون الأدب . وله بديعية التزم بها تسمية أنواع البديع ، واخترع فيها أربعة أنواع ثم شرحها شرحاً جيداً . وله من المدائح والتواريخ والأحاجي والمعميات وغيرها شيء كثير . وكانت بينه وبين علماء عصره مطارحات ومساجلات كثيرة . وكان يتعاطى بيع البن في حانوته ، فاشتهر بالنبي وعرض له صمم قبل وفاته بثلاث سنوات فأصابه من ذلك كدر عظيم فنذر أن يستغيث بالنبي بألف بيت راجياً الشفا فلم يتمها . وكان قد زار دمشق ، وجرى بينه وبين علمائها من المطارحات ما يملئ بطون الصفحات . وله قصائد في مدح الشيخ علي المرادي والد محمد خليل المرادي الذي نأخذ عن كتابه هذه التراجم . ومن شعره في مديح دمشق والشيخ المذكور:

أيا جلقاً لا زلتِ باسمه الثغرِ	بصيب أفراح تدوم مدى الدهرِ
وما انفكُ مغناك يلوح مسرةً	ودوحة علياك مضمخة العطرِ
تسامت بقاع اليمن منكِ بسادةٍ	لهم شرف يسمو على الأنجم الزهرِ
ولا سيما منهم همائم مكرمٍ	مجيدٌ علي الشأن مرتفع القدرِ
أما هو في عليا دمشق هلالها	وكوكبها السامي على الكوكب الدري

ومن شعره:

سكرتُ بعيني من أحب فلم أزل مدى الدهر نشواناً وعقلي ذاهلٌ
سلوا مدمناً للخمر إن كان صادقاً تكون في الصهباء تلك الفعائلُ
وكانت وفاته سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م).

١٩

محمد خليل المرادي

هو ابن السيد علي المرادي مفتي دمشق الشهير ابن السيد محمد بن السيد مراد ابن السيد علي المعروف بالمرادي الحنفي البخاري الأصل. صاحب التأليف الذي وسمه «بسلوك الدرر في أعيان القرن الثاني» عشر الذي لخصنا عنه كل ما مرّ من التراجم. قال في حقه صاحب الكتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع أنه نبذ من تأليفه المذكور كل ما هو مملّ وأورد فيه المفيد المملدّ، ولا غنى عنه في معرفة سير المشاهير من أهل القرن الثاني عشر. ونحن نصادق على هذا الكلام وقد طُبِعَ كلامه المذكور ببولاق سنة ١٣٠١هـ وكانت وفاة هذا المؤلف العلامة سنة ١٣٠٦هـ (سنة ١٧٩١م).

السيد عبد الله الحدادي اليمني

هو ابن علوى بن أحمد المهاجر بن عيسى وأوصل المرادي نسبه إلى علي بن أبي طالب، وُلد سنة ١٠٤٤هـ (سنة ١٦٣٤م) بتريم من اليمن سكن السادة الحسينيين وأرخ بعضهم مولده بقوله: «وُلد بتريم امام كريم» وعكف على تحصيل العلوم على بعض أكابر العلماء، ولكن كَفَّ بصره وهو صغير فمنحه الله حفظاً يسحر الأبواب وفهماً يأتي بالعجب العجائب، فألف مؤلفات كثيرة منها رسالة «المعونة والموازرة للراغبين في طريق الآخرة»، و«اتحاف السائل بأجوبة المسائل» وهو جواب على أسئلة سأله عنها الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله باعباد. وختمه بخاتمة تتضمن شرح أبيات الشيخ عبد الله بن أبي بكير العيد روس التي أولها: «هبت نسيم المواصلة بلا اتصال ولا انفصال». وله كتاب «الجامع» جمع به المكاتبات والوصايا والكلام المنظوم والكلام والمنثور، وله ديوان كبير الحجم. ومن شعره قصيدة تائية حذا فيها حذو ابن الفارض في تائيته أولها:

بعثت لجيران العقيق تحيتي وأودعتها ريح الصباحين هبت
سحيراً وقد مرّت عليّ فحركت فؤادي كتحرّيك الغصون الرطبية
وأهدت لروحي نفحةً عنبريةً من الحبي فاشتاقت لقرب الأحبة

وله أيضاً من المؤلفات كتاب النصائح الدينية والوصايا الايمانية ورسالة المزيد ورسالة المذاكرة وفتاوى والفصول العلمية. وكانت وفاته سنة ١١٣٢هـ (سنة ١٧١٩م).

علي العمري

هو ابن مراد العمري الموصلبي الشافعي بذل جهده في تحصيل العلوم حتى حاز قسماً كبيراً منها ، وله تأليف لطيفة منها شرح كتاب الآثار للامام محمد ، وشرح الفقه الأكبر للامام الأعظم وله على كل فنّ تعليقات . وكان مجلسه غاصباً بالعلماء والفضلاء يستغنى به عن القراءة والدرس وكان له الحظ الأوفر من الثروة والغنى ، وتولّى افتاء بغداد مدة سنين ، والقضاء والافتاء بالموصل . وله شعر حسن منه في وصف الروض:

رقصت بلابلها على أغصانها	طرباً ببهجة وردها المترأس
فالياسمين معانقاً أوراقها	قد قلدته خمائلاً من سندس
والاقحوان الشجر منه باسم	وكذلك الغصن العيون النرجس
يختال في قطب الزبرجد مائلاً	والرأس فيه مائل بتنكس

إلى أن قال:

فاشرب معتقة الزمان شمولة	تذر الهموم صحيفة المتلمس
واسطو على خطب الزمان بيأسها	إنّ المدام أنيسة المستأنس

وكانت وفاته سنة ١١٤٧ هـ (سنة ١٧١٤ م) .

خليل المصري

هو المكتى بأبي الفتح الفيومي الشافعي المصري نزيل حمص ، وُلد بالفيوم من الصعيد وارتحل إلى مصر واقتبس العلوم في الجامع الأزهر فكان عالماً فاضلاً محققاً ذكي الفهم فصيح اللسان ، وكان مغرمًا بشرب القهوة والتدخين وله يد طائلة في العلوم والتأليف . فمن تأليفه رسالة نظم في التصوّف سماها «دوام الراحة في اتخاذ الخلوات» . مطلعها:

يقول راجي من به التكميل المحيوي عبده خليلُ

وله مؤلف في الرد على الأسماعيلية سماه السطوة العدلية بالفرقة الاسماعيلية نحو أربعمئة بيت وصفها الخالدي بأنها عجيبة . وله أيضاً مؤلف في العروض أجاد فيه كثيراً . وكتاب في الحديث اقتضبه من العهود الكبرى للشعراني ، ومن الاذكار النووية . وله قصائد كثيرة يطول تعدادها . وقدم إلى دمشق وأخذ عن بعض علمائها . ثم سار إلى حمص وأقام بها مدة سنين . وكانت وفاته بحماة في نيف سنة ١١٦٠هـ (فوق سنة ١٧٤٧م) .

محمد ابن الطيب

هو ابن محمد بن محمد بن موسى الفاسي المالكي الشهير بابن الطيب نزيل المدينة المنورة . وُلد بفاس سنة ١١١٠هـ (سنة ١٦٩٨م) ونشأ بها ، وأخذ العلوم عن والده محمد وغيره فبرع حتى صار اماماً لأهل اللغة العربية وتضلّع في كثير غيرها من العلوم . ونزل بالمدينة المنورة ورحل إلى بلاد الروم ماراً بالشام . ورجع

بطريق مصر وأخذ عنه كثيرون ، وحصل بينه وبين علماء هذه الديار مباحثات علمية . وله تأليف حسنة منها حاشية على القاموس وشرح نظم فصيح تعلب في مجلدين وشرح كفاية المتحفظ (في اللغة نظم للقاضي شهاب الدين أبو عبد الله محمد الخويي المتوفي سنة ٦٩٣ عن كشف الظنون) وحاشية على الاقتراح (في أصول النحو وجدله لجلال الدين السيوطي) وشرح كافية ابن مالك ، وشرح شواهد الكشاف للزمخشري وحاشية على المطول (وهو شرح سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح) إلى غير ذلك من المصنفات التي قال المرادي أنها تنوف عن خمسين مصنفاً . وله شعر حسن ومنه في مدح الأسفار والاعتراب:

سافر إلى نيل المعزّة	إنّ في السفر الظفر
واعلم بأنّ المكث في أل	أوطان يدعو للضجر
أو ما رأيت الما بطول	المكث يعلوه الوضر
والبدر لو لزم الاقا	مة في محل ما بدر
والدّر لو أبقوه في	قعر البحار لما افتخر
والتبر ترب في المعا	دن وهو أفخر مدّخر
والعود معدودٌ لدى الـ	غابات من جنس الشجر
والباتر المغمود لو	لم يخرجوه لما بتر
فادأب على الترحال في الـ	الأحوال أجمعها تسر
واغرب بشرقٍ واشرقنَ	في الغرب إن تك ذا نظر
لا تؤثرنَ بدواً ولا	حضرأً وكن مع ما حضر
فالبدو عزٌّ واللطا	فة والظرافة في الحضر
فإذا بدوت فكل عزٌّ	باذخ فيك استقرّ
وإذا حضرت فكل ظر	في ظرفه لك مستقرّ
لا تبك الفأ لا ولا	داراً ولا رسماً دثر
فالناس ألفك كلهم	والأرض أجمعها مقر

فمتى وجدت العزّ والـ عيش الهنيّ أقم تسرّ
ومتى رأيت الضدّ والصدّ الحفيّ فدع وذّر
واجعل بضاعتك التقى مع من أسرّ ومن جهر
فإذا اتقيت الله فز ت بكل كنز مدّخر
وكانت وفاته في المدينة سنة ١١٧٠هـ (سنة ١٧٥٦م).

٥

عبدالله السويدي

هو ابن الحسين بن مرعي بن ناصر الدين البغدادي الشافعي المعروف بالسويدي، وُلد ببغداد سنة ١١٠٤هـ (سنة ١٦٩٢م) وتوفي والده وعمره ست سنين فكفله عمه لأمه الشيخ أحمد سويد، فغرف بالسويدي. وعلمه العلوم فنبح وتصنّر للتدريس وانتفع به الطلبة علماً وعملاً. وسار من بغداد إلى الموصل ومنها إلى حلب ثم إلى دمشق وقرأ في حلب دروساً عامة وخاصة. وأخذ عنه بها خلق كثيرون. وقرأ بدمشق أيضاً وأقبل عليه الطلبة. وقرأ في المدينة المنورة أيضاً ثم عاد إلى بغداد وألّف المؤلفات النافعة منها شرح «دلائل الخيرات» للشيخ أبي عبدالله الجزولي، وسمى شرحه «أنفع الوسائل في شرح الدلائل» وحاشية على المغني (أي مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري) جعلها محاكمة بين شارحيه كالدمامي والشمسي وابن الملا والماتن. وألّف متناً في الاستعارات جمع فيه فأوعى وسمى تأليفه «الجمانات» وشرحه شرحاً حافلاً. وله مقامة مشهورة ضمّن فيها الأمثال السائرة وقرظه عليها أعيان العلماء. وله ديوان شعر. ولما رحل إلى مكة ألّف رحلة سماها «النفحة المسكية في الرحلة المكية» إلى غير ذلك. ومن شعره قوله لصاحب له أهدى إليه ثلاث هدايا في يوم واحد وكان له صديق اسمه عطية:

يا فاضلاً لا يجارى في البحث بين البرية
وسيداً ذا أيدٍ بالشكر مني حرية
غمرتني بالعطايا وكان حسبي عطية
وتوفي سنة ١١٧٤هـ (سنة ١٧٦٠م).

٦

يوسف الحنفي

هو ابن سالم بن أحمد الشافعي القاهري الشهير بالحنفي ، درس العلوم في الجامع الأزهر فبرع وفضل وسما قدره ونبل ، ولما توفي الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، صار أخوه محمد الحنفي مكانه ، وكان يوسف مدرساً عنه ، وألف مؤلفات دقيقة وتحريرات أنيقة منها الحاشية الحافلة على شرح الألفية للأشمونى ، وحاشية على شرح الخرزجية لشيخ الاسلام زكريا ، وشرحان على شرح آداب البحث للملا حنفي ، وشرح على شرح العصام للاستعارات ، وشرح التحرير في الفقه . وله رسالة في علم الآداب وشرحها ونظم البحور المهمة في العروض وشرحها ، وله ديوان شعر مشهور إلى غير ذلك . ومن شعره تخميساً:

حسبتُ الدهر لي خلا مطيعاً فراع حشاشتي روعاً شنيعاً
بصحبٍ خلّتهم حصناً منيعاً وأخوان تخذّتهم دروعاً
فكانوها ولكن للأعادي

رأيت لهم عهداً صادقاً وأحوالاً لوّدي مظهراتٍ
ظننتهم قسيساً مانعاً وخلّتهم سهاماً صائباتٍ
فكانوها ولكن في فؤادي

فكم ظهرت لنا منهم عيوبٌ ولا لأعيني فجرّ كذوبٌ
وكم حلفوا يميناً أن يتوبوا وقالوا قد صفت ممّا قلوبٌ
قد صدقوا ولكن من ودادي

وكانت وفاته سنة ١١٧٦ هـ (سنة ١٧٦٢ م).

٧

محمد التونسي

هو أبو عبد الله بن علي التونسي له حاشية على شرح ألفية ابن مالك المعروف
بمنهج السالك على ألفية ابن مالك لعلي بن محمد الأشموني. وسمّى التونسي
حاشيته «زواهر الكواكب» وطُبعت في تونس سنة ١٢٩٣ هـ وله أيضاً كتاب
«كنوز الصحة» جمع فيه كنزاً من المعلومات الطبية في حفظ الصحة، وطُبِعَ
ببولاق سنة ١٢٨٠ هـ وتوفي محمد التونسي سنة ١١٩٩ هـ (سنة ١٧٨٤ م) عن
اكتفا القنوع صفحة ٣٠٤.

٨

عبد الرحمن العيدروس

هو ابن مصطفى اليمني له ديوان سماه تنميق الأسفار في ما جرى له مع
اخوان الأدب في بعض الأسفار، طُبِعَ بالقاهرة سنة ١٣٠٤ هـ. وله ديوان آخر في
ما جرى عليه وله بمصر، طُبِعَ مع الديوان الآخر. وفي آخر هذه الطبعة ذيل ذكر

فيه ما كتب من المراسلات بعد عوده من مصر إلى بلاد الحرمين . وله ديوان ثالث سماه «ترويح البال وتهييج البال» طبع ببولاق سنة ١٢٨٣هـ . وتوفي العيدروس بمصر سنة ١١٩٢هـ (سنة ١٧٧٨م) عن اكتفا القنوع صفحة ٣٩٦ .

عمر البغدادي

هو ابن عبد الجليل بن محمد جميل بن عبد المحسن الحنفي البغدادي القادري نزيل دمشق، وُلد ببغداد سنة ١١٥٥هـ (سنة ١٧٤٢م) ونشأ في كنف والده الذي كان فقيهاً مشهوراً وقرأ عليه وعلى غيره من العلماء، وقصد دمشق فاستوطنها وتزوج فيها . وقرأ عليه كثيرون وألّف تأليف وافرة منها شرحه كتاب القدوري في الفقه وحاشية على المغني (أي مغنى اللبيب لابن هشام) في النحو، وحاشية على القصيدة النونية في علم الكلام للخيالي، وحاشية على حاشية العلامة علي بن سلطان محمد القارئ المكي المسماة بالجمالين أو الجلالين (وهو كتاب في تفسير القرآن لجلال الدين السيوطي و لجلال آخر مرّ ذكر هذا الكتاب) وسمى عمر حاشيته: «الكمالين في شرح الجلالين»، ولكن توفي قبل أن يكملها . وله حاشية على رسالة وحدة الوجود للمولي الجامي، ورسالة في الاعلام بالتكبير، ورسالة في الأضحية وأخرى في معنى لا إله إلا الله، وحاشية في الاستعارات جعلها محاكمة بين العصام والملوي، ورسالة في مسألتين لغويتين وقعتا في القاموس الأول في قولهم السرور توقيع جائز، والثانية في بيان أنّ العشر في ظمأ الابل هو اليوم التاسع أو الثامن، إلى غير ذلك من الرسائل والخواشي والتعليقات . وجرى في تأليفه مجرى التحقيق والتدقيق وانتفع به طلبة كثيرون . وحصل اقبال عليه تام من الوزراء والقضاة والحكام، واشتهر كثيراً حتى عُدد فرد العصر . ولكن فاجأته المنية في شبابه قبل أن يكتهل، فمات في دمشق سنة ١١٩٤هـ (سنة ١٧٨٠م) ورثاه تلميذه عبد الحليم بن أحمد اللوجي بقصيدة مطلعها:

ما خلت أنّ عقود النمل تنتثر وأنّ صدى فؤادي ليس ينجبرُ

وختامها:

سقتك من صيب الرضوان وادقة ينهلُ شوبوبها والعفو ينهمرُ
ما قال داعي الرضا في ما يؤرخه دار النعيم لعمري قد حوى عمرُ

١٠

عطية الله الاجهوري

هو ابن عطية البرهاني القادري الشافعي الشهير بالاجهوري ، برع في العلوم
وتصدّر بالجامع الأزهر لاقراء الدروس ، وأقبل عليه الطلبة حتى قيل إنّ الذين
يحضرون دروسه نحو خمس مئة طالب ، وله مؤلفات نافعة منها «شرح مختصر
السنوسي في المنطق» ، وحاشيته شرح منظومة في أصول الحديث وهي المعروفة
بـ«المنظومة البيقونية» في مصطلح الحديث شرحها أولاً محمد الزرقاني المتوفي سنة
١١٢٢هـ (سنة ١٧١٠م) ثم علق الاجهوري حاشيته على الشرح طُبعت بالقاهرة
سنة ١٣٠٥هـ ثم أعيد طبعها بها سنة ١٣١٠هـ وكانت وفاته سنة ١١٩٤هـ (سنة
١٧٨٠م) .

١١

محمد الكردي

هو ابن سليمان الكردي المدني الشافعي ، وُلد بدمشق سنة ١١٢٧هـ (سنة
١٧١٥م) وحمل إلى المدينة وهو ابن سنة ونشأ بها وأخذ عن أفاضلها وألّف
مؤلفات نافعة منها شرح فرائض التحفة (أظنها الكتاب المعروف بتحفة الرائض في
الفرائض ولم يذكر صاحب كشف الظنون اسم مؤلفه ، أو هي التحفة القدسية

منظومة في الفرائض للشهاب أحمد بن الهاشم المتوفي سنة ٨٨٧ هـ). وله حاشيتان على شرح الحضرمية لابن حجر الهيثمي كبرى وصغرى، ثم اختصرها فكان المختصر حاشية ثالثة. وله «عقود الدرر في بيان مصطلحات ابن حجر» وحاشية على «شرح الغاية للخطيب»، و«الفوائد المدنية في من يفتي بقوله من الشافعي»، و«فتح الفتاح بالخير في معرفة شروط الحج عن الغير»، وشرح «منظومة الناسخ والمنسوخ وزهر الربا» في بيان أحكام الربا، وفتاوى في مجلدين ضخمين وغير ذلك. وكانت وفاته سنة ١١٩٤ هـ (سنة ١٧٨٠ م).

١٢

محمد مرتضى

هو من زيله مدينة في اليمن وينسب إلى الحسينة وهو حنفي المذهب وصاحب «تاج العروس من درر القاموس»، ولم يقتصر صاحبه على شرح قاموس الفيروزابادي بل زاده كثيراً من معلوماته وأصلح به كثيراً. وقد طبع طبعة كاملة بالقاهرة في عشرة أجزاء سنة ١٣٠٦ هـ وفي صدره مقدمة مطولة تكلم فيها أولاً عن اللغة مبيّناً الحقيقة والحجاز والاضداد والمترادف والمعرب والمولد وذكر ثانياً مراتب اللغويين وأئمة اللغة في البصريين والكوفيين ثم بين أول من صنف في اللغة، ووضع ترجمة الفيروزابادي وشرح مقدمته. وتوفي محمد المرتضى سنة ١٢٠٦ هـ (سنة ١٧٩٣ م) عن اكتفاء القنوع.

١٣

محمد الصبان

هو محمد ابن علي الصبان المعروف بأبي العرفان وهو من علماء مصر المشاهير، وله تأليف وشروح كثيرة منها شرحه لأرجوزة الأخضرى في المنطق التي

سمّاها السلم المرونتق وهي تبلغ نحو مئتي بيت يحفظها الطلبة في الجامع الأزهرى وطُبعت ببولاق سنة ١٢٨٥هـ وبالقاهرة سنة ١٣١١هـ. وللصبان أيضاً أرجوزة في العروض وشرحها طبعاً بالقاهرة سنة ١٣٠٧هـ، وله حاشية على شرح الأشموني المشهور لألفية ابن مالك، والموسوم بمنهج السالك في ألفية ابن مالك. وللصبان أيضاً حاشية على هذا الشرح يعول عليها في التدريس بالجامع الأزهر، وقد طُبعت ببولاق سنة ١٢٨٠هـ وسنة ١٢٩٤هـ وبمصر سنة ١٣٠٥هـ. وله أيضاً تعليقات على المختصر للسعد التفتازاني ذلك أنّ أبا يعقوب يوسف السكاكي الخوارزمي وضع كتاباً سماه مفتاح العلوم وقسمه ثلاثة أقسام في التصريف والنحو والمعاني والبيان والبديع، فاختصر جلال الدين القزويني القسم الثالث منه في المعاني والبيان والبديع وسمى كتابه تلخيص المفتاح. ثم شرح التفتازاني تلخيص القزويني في كتاب سماه المطوّل، ثم اختصر المطوّل وسماه المختصر، فعلى هذا المختصر علّق الصبان حواشي كثيرة فجرد مصطفى البتاني هذه التعليقات عن الهوامش وجعلها حاشية وسماها حاشية التجريد على مختصر التفتازاني، وطُبعت هذه الحاشية ببولاق سنة ١٢٨٥هـ. ثم شرح الصبان تجريد البتاني وطبع شرحه ١٢٩٧هـ ويعول عليه في التدريس في الجامع الأزهر.

وللصبان أيضاً حاشية على شرح عصام الدين بن عرب شاه للسمرقندية وهذه رسالة في الاستعارات لأبي الليث نصر السمرقندي، فاشتهرت هذه الرسالة بالسمرقندية وشرحها عصام الدين المذكور فوضع الصبان حاشية على شرحه وطُبعت بالقاهرة سنة ١٢٩٩هـ وعلى هامشها شرح عصام الدين في حاشية أخرى لحفيده علي. وله أيضاً منظومة سماها «الكافية الشافية في علمي العروض والقافية»، وله عليها شرح طُبع بمصر سنة ١٢٨٨هـ وربما كانت هذه المنظومة هي الأرجوزة في العروض التي ذكرناها آنفاً، لكن صاحب «اكتفا القنوع» ذكر الأرجوزة وقال إنها طُبعت سنة ١٣٠٧هـ ثم ذكر هذه المنظومة وقال إنها طُبعت سنة ١٢٨٨هـ ويُحتمل أن تكون طُبعت مرتين. وكانت وفاة محمد الصبان سنة ١٢٠٦هـ (سنة ١٧٩١م).

الطائر يوسف الدين

تاريخ سوريا

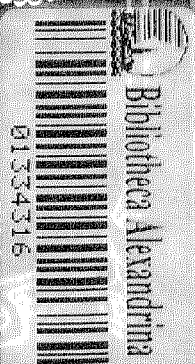
الدولة العثمانية

تاريخ سورية في أيام السلاطين العثمانيين

إشراف
نظير عبود

رأبته ودقته
الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء الثامن

تاريخ سورية في أيام السلاطين العثمانيين

إشراف

نظير عبود

رأجه وكتبه

الدكتور مارون دعد

دار نظير عبود

فهرس

صفحة

عد

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثامن عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

- | | |
|----|--|
| ١٣ | ١٠٤٨ بطاركة انطاكية الروم غير المتحددين في هذا القرن |
| | ١٠٤٩ بطاركة انطاكية على الروم الملكية المتحددين في القرن |
| ١٥ | الثامن عشر |
| ٢٢ | ١٠٥٠ بطاركة اورشليم في القرن الثامن عشر |

الفصل الثاني

من نعرفهم من المشاهير الدينيين في القرن الثامن عشر

- | | |
|----|---|
| ٢٥ | ١٠٥١ الشماس عبدالله زاهر |
| ٢٦ | ١٠٥٢ الخوري نقولا الصايغ والخوري يواكيم مطران |
| ٢٧ | ١٠٥٣ نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي واولاده |
| ٣٠ | ١٠٥٤ الخوري يوحنا عجمي |
| ٣١ | ١٠٥٥ السيد جرمانوس آدم |

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الاول

اعيانهم الدنيويون في هذا القرن

- ١٠٥٦ المشايخ آل خازن وآل حبيش في هذا القرن ٣٣
١٠٥٧ بطرس الشدياق وابن اخيه منصور واولاده ٣٥
١٠٥٨ الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور ٣٨
١٠٥٩ المشايخ آل الضاهر ٤١
١٠٦٠ المشايخ آل الدحداح ٤٢
١٠٦١ مشايخ جبة بشري وطردهم المتأولة منها ٤٤
١٠٦٢ المشايخ ابناء اده وغيرهم ٤٧

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن الثامن عشر

- ١٠٦٣ البطريرك جبرائيل البلوزاوي ٥٢
١٠٦٤ البطريرك يعقوب عواد الحصري ٥٣
١٠٦٥ البطريرك يوسف ضرغام الخازن ٥٩
١٠٦٦ البطريرك سمعان عواد ٦٠
١٠٦٧ البطريرك طويبا الخازن ٦٦
١٠٦٨ البطريرك يوسف اسطفان ٦٧
١٠٦٩ البطريركان ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل ٧٨

الفصل الثالث

مشاهير العلم الموارنة في القرن الثامن عشر

- ١٠٧٠ القس يوسف الباني الحلبي ٨٠
١٠٧١ المطران جرمانوس فرحات ٨١

١٠٧٢	الاب بطرس مبارك	٨٥
١٠٧٣	المطران جرجس بنيمين والخورى اندراوس اسكندر	٨٦
١٠٧٤	العلامة الشهير الخوري بطرس أتولاوي	٨٩
١٠٧٥	ترجمة العلامة يوسف سمعان السمعاني	٩٠
١٠٧٦	مؤلفات السمعاني	٩٢
١٠٧٧	اعتبار الأحبار الأعظمين للعلامة السمعاني	٩٩
١٠٧٨	المطران اسطفانوس عواد السمعاني	١٠٣
١٠٧٩	يوسف لويس السمعاني وابن اخيه القس سمعان السمعاني	١٠٤
١٠٨٠	غير هؤلاء من علماء الموارنة	١٠٥
١٠٥	الخورى ميخائيل الغزيري	١٠٥
١٠٦	اسطفانوس ورد ابن الخوري ابراهيم	١٠٦
١٠٦	الخورى انطون القيايلى	١٠٦
١٠٦	القس عيسى الجاماتي	١٠٦
١٠٦	القس يوحنا اليازنجي	١٠٦

الفصل الرابع

المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن

١٠٨١	المجمع اللبناني	١٠٧
١٠٨٢	مجمع بقعاتا	١١٠
١٠٨٣	مجمع غوسطا	١١٠
١٠٨٤	مجمع ميفوق	١١٢
١٠٨٥	مجمع عين شقيق	١١٦
١٠٨٦	مجمع بكركي الاول	١١٨

الفصل الخامس

١٠٨٧ بعض اديار الموارنة ومدارسهم وكنائسهم المنشأة في

١٢٢	القرن الثامن عشر	١٢٢
١٢٩	مدارس الموارنة المنشأة في هذا القرن	١٢٩

١٢٩	مدرسة عينطورا
١٣١	مدرسة زغرنا
١٣٣	مدرسة عين ورقة
١٣٤	١٠٨٩ كنائس الموارنة المنشأة في هذا القرن

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

السلطين العثمانيون الذين تولوا سورية في هذا القرن

١٣٦	١٠٩٠ تتمتع اخبار ما كان في ايام السلطان سليم الثالث الغازي
١٤١	١٠٩١ ما كان بسورية في هذه المدة
١٤٦	١٠٩٢ السلطان الغازي مصطفى خان الرابع
١٤٧	١٠٩٣ السلطان الغازي محمود خان الثاني
١٥٠	١٠٩٤ استقلال اليونان
١٥٣	١٠٩٥ بعض ما كان بسورية في هذه المدة
١٥٥	١٠٩٦ عامية انطلياس
١٥٨	١٠٩٧ عامية بلاد جبيل المعروفة بعامية لحفد
١٦٠	١٠٩٨ حرب درويش باشا وعبدالله باشا واللبنانيين
١٦٣	١٠٩٩ ما كان للامير بشير بمصر وعود عبدالله باشا إلى الولاية
١٦٥	١١٠٠ ما كان بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط ويعرف بحركة المختارة
١٦٨	١١٠١ حضور مراكب الأروام إلى بيروت وحصار قلعة سانور

١١٠٢	خروج محمد علي باشا على سورية	١٦٩
١١٠٣	اكراه محمد علي باشا على جلاء عساكره عن سورية والاناضول .	١٧٣
١١٠٤	السلطان الغازي عبد المجيد خان	١٨١
١١٠٥	ما كان بسورية في هذه المدة	١٨٧
١١٠٦	السلطان الغازي عبد العزيز خان	١٩٣
١١٠٧	السلطان مراد خان الخامس	١٩٥
١١٠٨	السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني	١٩٦
١١٠٩	ما كان بسورية من سنة ١٨٦١ فصاعداً إلى الآن	٢٠٢

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن التاسع عشر

١١١٠	بعض المشاهير السوريين في هذا القرن	٢٠٤
١	الشيخ امين الجندي الحمصي	٢٠٤
٢	المعلم بطرس كرامه	٢٠٦
٣	الشيخ ناصيف اليازجي	٢٠٧
٤ و ٥	فتح الله مراش وابنه فرنسيس	٢٠٩
٦	الحاج عمر الانسي البيروتي	٢١٠
٧ و ٨	اسكندر ابكار يوس واخوه يوحنا	٢١١
٩	الشيخ يوسف الاسير	٢١٢
١٠	الشيخ ابراهيم الاحدب	٢١٣
١١	امين الشميل	٢١٣
١٢	نقولا الترك	٢١٤
١١١١	بعض المشاهير غير السوريين	٢١٥
١	عبدالله الشرقاوي	٢١٥
٢	عبد الرحمن الجبرتي الحنفي	٢١٥
٣	حسن بن محمد العطار	٢١٦
٤	ابراهيم الباجوري	٢١٦
٥	محمد الدمنهوري	٢١٧

٢١٨	عبدالله ابو السعود المصري	٦
٢١٨	الدكتور كرنيليوس فان ديك	٧

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية في هذا القرن

٢٢١	١١١٢ بطاركة انطاكية للروم الملكية غير المتحدين
٢٢٢	١١١٣ بطاركة انطاكية على الروم الملكية المتحدين في هذا القرن
٢٢٩	١١١٤ بطاركة انطاكية على السريان الكاثوليكين

الفصل الثاني

بطاركة اورشليم في هذا القرن وبطاركة الارمن بلبنان

٢٣١	١١١٥ بطاركة اورشليم على الروم غير المتحدين
٢٣٢	١١١٦ بطاركة اورشليم اللاتينيون
٢٣٣	١١١٧ بطاركة الارمن بلبنان

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع عشر

الفصل الاول

حكام الموارنة واعيانهم

٢٣٦	١١١٨ حكام الموارنة في هذا القرن
٢٤٠	١١١٩ يوسف بك كرم

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم من الموارنة

٢٤٦ المعلم بطرس البستاني
٢٤٨ فارس الشدياق
٢٥١ الكونت رشيد الدحداح
٢٥٤ ابراهيم بك النجار

الفصل الثالث

بطاركة الموارنة ومن رقوهم إلى الاسقفية في هذا القرن

٢٥٥ البطريرك يوسف التيان
٢٥٨ البطريرك يوحنا الحلو
٢٦١ البطريرك يوسف حبيش
٢٦٣ البطريرك يوسف الخازن
٢٦٤ البطريرك بولس مسعد
٢٦٩ البطريرك يوحنا الحاج
٢٧١ البطريرك الياس الحويك

الفصل الرابع

ما عقده اساقفة الموارنة من المجامع في القرن التاسع عشر

٢٧٤ مجمع لويزة
٢٧٧ مجمع بكركي الاخير

الفصل الخامس

الاديار والكنائس والمدارس التي انشأها الموارنة

في القرن التاسع عشر

٢٧٩ الاديار مساكن البطريرك والاساقفة
-----	--

٢٧٩	دير الكرسي البطريركي
٢٨٠	الاديار كراسي المطارين
٢٨١	كرسي طرابلس
٢٨١	كرسي ابرشية قبرص
٢٨٢	كرسي ابرشية بيروت
٢٨٢	كرسي ابرشية صور وصيدا
٢٨٣	كرسي ابرشية بعلبك
٢٨٣	كرسي ابرشية دمشق
٢٨٤	١١٣٤ المدارس التي انشأها الموارنة في هذا القرن
٢٨٤	مدرسة عين ورقة
٢٨٥	مدرسة مار يوحنا مارون
٢٨٥	مدرسة مار مارون الرومية
٢٨٥	مدرسة مار عبدا هرهريا
٢٨٦	مدرسة ريفون
٢٨٦	مدرسة الحكمة
٢٨٨	مدرسة قرنة شهوان ومدرسة غزير
٢٨٨	مدرسة المحبة في عرامون ومدرسة العريمة
٢٨٩	المدرسة الوطنية
٢٨٩	المدارس الرهبانية
٢٩٠	مدرسة المرسلين اللبنانيين
٢٩١	١١٣٥ اديار الرهبان اللبنانيين المنشأة بهذا القرن
٢٩٢	١١٣٦ اديار الرهبان الانطونيين المنشأة بهذا القرن
٢٩٥	١١٣٧ الاديار التي انشأها الرهبان الحلبيون وغيرهم في هذا القرن
٢٩٦	١١٣٨ بعض الكنائس المنشأة للموارنة بهذا القرن

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثامن عشر

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم في هذا القرن

عد ١٠٤٨

بطاركة أنطاكية الروم غير المتّحدين في هذا القرن

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في تاريخ القرن السابع عشر بذكر كيرلس حفيد مكاريوس وباسيليوس الرابع ابن الخوري فضل الله الدباس الدمشقي وما كان بينهما من الخلاف واكتفاء باسيليوس أخيراً بأن يكون مطراناً على حلب. والآن نقول بإسهاب أكثر أنّ البطريرك كيرلس المذكور نظمه الروم غير المتّحدين في سلسلة بطاركتهم ووصفوه بالثالث بهذا الاسم، وبأنه البطريرك المائة والتاسع والأربعون في عداد البطاركة الأنطاكيين كما يتبيّن في الكتاب الذي نشره حديثاً موسوماً بالأرج الذاكلي. ومن السلسلة المرسلة إلّيّ من قبل غبطة السيّد ملاتيوس دوماني بطريركهم الحالي ولكن حسبته الروم الملكية المتّحدون كاثوليكيّاً في جملة بطاركتهم ووصفوه بالخامس، وبأنه ١٣٢ من عداد بطاركة أنطاكية كما يتبيّن من الكتاب المعنون «مختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين» المطبوع ببيروت سنة ١٨٨٤م. على أنّ كيرلس نازعه البطريركية نوافيطس أحد نواب البطريرك مكاريوس فأزاحه عنها، ولمّا توفي نوافيطس أو عزل عاد كيرلس إلى البطريركية

وبقي فيها إلى سنة ١٦٨٦م كما حققه لكويان في المشرق المسيحي وجاء في سلسلة البطريرك ملاتيوس المشار إليها أنّ نوافيطس صير بطريركاً سنة ١٦٨٨م وكذلك ورد ذكره في الأرج الذاكبي. على أنّ مؤلف هذه النبذة في الكتاب المذكور أسقط من عدد البطارقة اسم نوافيطس وصرّح بأنّه أهمل عدده لأنّه ادّعى البطريركية في حياة السيّد كيرلس البطريرك القانوني ومات قبله، وقال إنّ نوافيطس هذا كان يونانياً ومطراناً على حماه.

وأما السيّد باسيليوس الدباس فالذي رواه لكويان عنه أنّه صير بطريركاً سنة ١٦٨٦م وبقي في البطريركية (هذه المرة) سبع سنين ثمّ اعتزل عنها وأعطى مطرانية حلب، وعاد كيرلس مرّة ثالثة إلى كرسي أنطاكية واستمرّ فيه إلى سنة ١٧٢٠م إذ أدركته المنية كما سترى في الفصل الآتي. وقد اتّفق لكويان ومؤلف كتاب الأرج الذاكبي والسلسلة المشار إليها على أنّ أناسيوس صير بطريركاً هذه المرة بعد وفاة البطريرك كيرلس سنة ١٧٢٠م واستمرّ في البطريركية إلى سنة ١٧٢٤م ولكنّ الخلاف هو في أنّ الروم غير المتّحدين يحصون كيرلس وباسيليوس في عداد بطاركتهم الأنطاكيين والروم المتّحدون يجعلونهما من بطاركتهم الكاثوليكين والذي يظهر لي أنّ البطريرك كيرلس كان كاثوليكياً حقاً كما سألين في الفصل الآتي ولاسيما من رسائله إلى الحبر الروماني ورسائل لإمام الأحبار إليه، لكنّه كان يحاذر المجاهرة بالإيمان الكاثوليكي ويخشى مراقبة الروم غير المتّحدين له بدليل ما سنذكره أنّه لم يحضر مجمع مطارينه الذي عقده في طرابلس سنة ١٦٨٠م للاهتمام بنشر الايمان الكاثوليكي فبقي محسوباً عند الروم من بطاركتهم الأنطاكيين. وأما باسيليوس الدباس فلا شكّ في أنّه تظاهر بالإيمان الكاثوليكي والتمس من الحبر الروماني أن يثبتته كما سترى في خطبة البابا بناديكتوس الرابع عشر التي سنذكرها في الفصل الآتي لكنّه لم يكن ثابتاً في إيمانه بل كان متقلّباً فيه، ولذلك لم ينل هذان البطريركان التثبيت ودرع الرئاسة من الكرسي الرسولي لأنّه لم يكن واثقاً كلّ الثقة بشباتهما على الإتحاد كما سترى في خطبة البابا بناديكتوس الرابع عشر المشار إليها.

وبعد وفاة البطريرك أناسيوس الدباس سنة ١٧٢٤م رقى البطريرك القسطنطيني بطلب البطريرك أناسيوس وبعض أعيان حلب سليستروس القبرصي إلى البطريركية

الأنطاكية على الروم غير المتّحدين وسترى في الباب التالي ما أجراه من القسوة على البطريك كيرلس تاناس الكاثوليكي وبعض الأساقفة الخاضعين لسلطته واستمرّ في البطيركية من سنة ١٧٢٤ إلى ١٧٦٦م كما يؤخذ من الكتاب الأرج الذاكى ومن السلسلة الواردة لنا من قبل غبطة السيّد ملاتيوس دوماني البطريك الحالي والظاهر من هذا الكتاب ومن السلسلة المذكورة أنه بعد وفاة سليستروس سنة ١٧٦٦م خلفه البطريك بتليمون ولم يذكر فيهما من أين كان ولا ما كان من أعماله وآثاره لأنّه لم يعيش بطريكاً إلّا سنة واحدة وخلفه البطريك دانيال سنة ١٧٦٧م واستمرّ في البطيركية إلى سنة ١٧٩٣م أي ستاً وعشرين سنة، وبعد وفاته في السنة المذكورة خلفه البطريك انثيموس وبقي مترئساً على الروم غير المتّحدين في بطيركية أنطاكية عشرين سنة أي من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨١٣م. انتهى.

عد ١٠٤٩

بطاركة أنطاكية على الروم الملكية المتّحدين في القرن الثامن عشر

إنّ جميع بطاركة أنطاكية الذين ذكرناهم من القرن الثامن إلى الآن يراد بهم بطاركة الروم الملكية، ومن القرن التاسع بعد الشقاق الذي كان بين القديس اغناطيوس بطريك القسطنطينية وفوتيوس الذي تغلب عليه ولاسيما في القرن الحادي عشر بعد أن عمم ميخائيل شيلولاريوس البطريك القسطنطيني الانفصال عن الكنيسة الرومانية ومدّه إلى باقي البطركيات الشرقية كان السواد الأعظم من بطاركة أنطاكية منفصلاً عن طاعة الكرسي الروماني وندر من كان منهم كاثوليكياً أو ميالاً إلى المذهب الكاثوليكي بنوع أنّه لا يمكن وضع سلسلة لبطاركة أنطاكية الروم الملكيين الكاثوليكين قبل أواخر القرن السابع عشر الذي به ابتداءً يقام بطاركة روم ملكية كاثوليكيون على كرسي أنطاكية تمتد سلطتهم إلى أبناء ملّتهم المقيمين في بطيركييتي اسكندرية وأورشليم ولذلك تحتم علينا أن نذكر هؤلاء البطاركة الكاثوليكين.

ففي سنة ١٦٧٢ ارتقى إلى المقام البطيركي البطريك كيرلس وكان حلياً

وميلاً إلى المذهب الكاثوليكي واجتمع البطريرك اسطفانوس الدويهي بطريرك الموارنة به وبأربعة من مطارينه أحدهم أفثيموس أسقف صور وصيدا، وجرى الجدل بينهم على عقائد الإيمان فأورد لهم الدويهي حججاً قاطعة وأدلة ساطعة على صحة المذهب الكاثوليكي ولزوم تمسكهم به وبنعمة الله ومع ميلهم إلى ذلك صمموا على المجاهرة بهذا المذهب المقدس ثم اجتمع أولئك الأساقفة مع غيرهم سنة ١٦٨٠م في طرابلس يتداولون في الوسائل اللازم اتخاذها لنشر هذا المذهب بين أبناء ملتهم ولم يستطع البطريرك كيرلس أن يشهد مجمعهم حذراً من شدة المراقبة له من قبل الروم. وفي سنة ١٦٨٨م حصل خلاف بين الملكية فانتخب المضادون للبطريرك كيرلس بولس الدمشقي ابن الخوري فضل الله الدباس بطريركاً عليهم وسمى أثناسيوس فعزل البطريرك كيرلس في مجمع من الأساقفة المحازين له فوقع الشقاق والخلاف بين البطريركين وبين المحازين لكل منهما وطال الخلاف إلى أن اتفق البطريركان على أنّ البطريرك كيرلس يستمر في بطريركية أنطاكية ويوقع البطريرك الأنطاكي حالياً وأثناسيوس يكون رئيس أساقفة حلب ويوقع البطريرك الأنطاكي سابقاً.

ولما علم البابا اكليمنضوس الحادي عشر أنّ البطريرك كيرلس يجاهر بالمعتقد الكاثوليكي بعث إليه برسالة مؤرخة في ٩ كانون الثاني سنة ١٧١٧م يحترّضه بها على إذاعة الإيمان الكاثوليكي ويشجّعه على الثبات وعدم المبالاة بالمصاعب التي تعرض له في هذا الطريق ولما بلغته رسالة البابا كتب دستور إيمانه وأرسله إلى الحبر الروماني مع عصاه الحبرية مبيّناً له أنه يجب استلام هذه العصا من قداسته لأنه راعي الرعاة وخليفة بطرس رئيس كنيسة المسيح كلّها فسرّ الحبر الروماني بجوابه وطابت نفسه به وأرسل إليه رسالة أخرى مؤرخة في ٣٠ أيار سنة ١٧١٨م شاكراً له ومبيناً مسرّته في حسن تصرّفه لكنّه لم يثبت التثبيت الرسمي ولم يرسل إليه درع الرئاسة المعتاد ثمّ توفي هذا البطريرك إلى رحمة الله في ٥ كانون الثاني سنة ١٧٢٠م.

وبعد وفاة البطريرك كيرلس سنة ١٧٢٠م خلفه أثناسيوس الدباس المذكور وأرسل دستور إيمانه إلى رومة ومدحه المطران جرمانوس فرحات بقصيدة تراها في

ديوانه لكنّه لم يثبت على الإتحاد بالكرسي الروماني بل عاد إلى المخالفة له، وشَهَر الكتاب الموسوم «بصخرة الشك» وطبعه على نفقته سنة ١٧٢١م بانكلترا، وترجم كتاب غبريل الفيلاذلفي المشحون بالطعن بالإيمان الكاثوليكي. ويعزو إليه صاحب الكتاب الأرج الذاكبي كتباً أخرى تضاد التعليم الكاثوليكي. ويظهر من رسائل نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي الذي كان كاتباً لأثناسيوس المذكور أنّ نعمة الله سعى لديه عند احتضاره أن يكتب إلى البطريرك القسطنطيني أن يرقى سليستروس الآتي ذكره إلى بطريركية أنطاكية فكتب إليه بذلك وأجابه البطريرك القسطنطيني إلى ذلك وكذلك عرب نعمة الله المذكور مقالة لأثناسيوس في الماء الحار الذي يصبّه الروم في الكأس رداً على أفتيموس مطران صور وصيدا الكاثوليكي كل ذلك يثبت أنّ أثناسيوس الدباس كان متقبلاً في إيمانه وقد أحصاه الروم غير المتّحدين في عداد بطاركتهم الذي نشره في الكتاب الأرج الذاكبي، وفي سلسلة بطاركتهم المرسله إليّ من قبل غبطة بطريركهم الحالي كما مرّ. لكنّه لم يقدّم على الكرسي الأنطاكي إلّا مدّة قصيرة لمرض اعتراه وعاجلته المنية في ٢٤ تموز سنة ١٧٢٤م فانتخب الملكية المتّحدون كيرلس تاناس ابن أخت المطران أفتيموس الصيفي الكاثوليكي مطران صيدا في ٢ أيلول سنة ١٧٢٤م بطريركاً على أمتهم. وأمّا الملكية غير المتّحدين فأقيم عليهم الشماس سليستروس القبرصي الأصل بطريركاً فإنه كان في القسطنطينية فرقه بطريرك الروم القسطنطيني إلى بطريركية أنطاكية ونال أمراً من البابا العالي بواسطة سفير إنكلترا بأن ينفي البطريرك كيرلس تاناس وبعض الأساقفة المحازين له، وأتى إلى حلب مبدئاً كل نوع من القسوة، ثمّ ارتحل إلى دمشق سنة ١٧٢٥م فاضطرّ البطريرك كيرلس أن يفرّ إلى لبنان فانتصر له البطريرك يعقوب عواد بطريرك الموارنة وأساقفته ورفعوا كتب شهادة وتوصية به إلى سفير فرنسة لدى الباب العالي، فوَقَّعت بيد البطريرك سليستروس ووشى بهم لسليمان باشا العظم والي دمشق بأنهم مساعدون للملكية الكاثوليكيين العصاة عليه وعلى الدولة العلية فجهز عسكرياً وأرسله إلى دير قنوين مقرّ بطريرك الموارنة، ففرّ البطريرك ونهب العسكر الدير وقبض على بعض رهبانه ورهبان دير قزحيا، وعلى أخي البطريرك يعقوب وطرحوا في السجن بطرابلس، ونهب أكثر قرى جبة بشري. وافتدى بعض أعيان الموارنة رهبانهم وأخا بطريركهم بمبلغ من المال ثمّ قبض

البطريك سليستروس على جراسيموس مطران حلب وأرسله إلى المنفى إلى جبل اتس فاستمرّ في منفاه ست سنين ونصف السنة مكابداً مشاق النفي والتضييق إلى أن استحصل الحلبيون أبناء أبرشيته أمراً برجوعه إلى حلب. وقد ذكره السمعاني مادحاً ثباته في مقدّمته على كتاب قانون الرهبانية الشويرية، وأراد سليستروس القبض على نوافيطوس مطران صيدنايا ففرّ إلى لبنان ومنه إلى رومة حيث توفي سنة ١٧٣٠م. وذكره السمعاني أيضاً في مقدّمته المذكورة وعقد سليسترس مجمعاً في دمشق أعلنوا به تشبّثهم بالقضايا الخمس خلافاً لتعليم الكنيسة الرومانية.

أمّا البطريك كيرلس تاناس فرفع إلى الحبر الروماني دستور إيمانه ملتصقاً تشبّثه ومنحه درع الرئاسة، ونرى البابا بناديكتوس الرابع عشر يخاطب الكرادلة بشأن تثبيت البطريك كيرلس المذكور في الديوان السري الذي عقده في ٣ شباط سنة ١٧٤٤م بما ملخصه: «لما كان البطاركة الملتطخون بوصمة البدعة قد تغلبوا على الكرسي الأنطاكي كان بطاركة القسطنطينية يفرغون جدّهم لاختضاع بطريركية أنطاكية لسلطتهم ولاسيما بعد أن اختصّوا بأنفسهم اسم بطريك مسكوني، وأخذوا ينتخبون البطاركة لأنطاكية ويرقّونهم إلى المقام البطريكي وعلى هذا النمط خلط الملكية أنفسهم بالروم وتسموا روماً ملكية، إلى أن عرض بطرس الثالث البطريك الأنطاكي في القرن الحادي عشر للبابا لاون التاسع ارتفاعه إلى بطريركية أنطاكية والتمس منه التثبيت فثبته، وقد اتّحد دوروثاوس الأوّل بالكنيسة الرومانية في المجمع الفلورنسي التيلي، إلّا أنّه بعد ذلك تسكّعت هذه البطريركية بظلمة الانفصال عن الكنيسة الرومانية ولم يعد يتلأأ فيها نور الرجوع إلى الإيمان القديم إلّا في آخر القرن السابع عشر وكان أوّل من نهج السبيل إلى هذا الرجوع السيّد اوفتيموس الملكي مطران صور وصيدا واتبعه كيرلس البطريك ثمّ أثناسيوس وأرسل كلاهما دستور إيمانهما إلى هذا الكرسي الرسولي، فلم يثق الكرسي الرسولي بذلك كل الثقة ولم يرَ ملائماً أن يمنحهما درع الرئاسة. إلّا أنّه قد قام الآن على الملكية بطريك آخر يسمى كيرلس أيضاً فهذا ارتقى في القرن الحاضر إلى المقام البطريكي واستحقّ وحده التثبيت من الكرسي الرسولي، لأنّه قدّم أدلّة لا يشوبها ريب على طاعته لهذا الكرسي

المقدس، وظهر باسلاً بالمجاهرة بالإيمان القويم ضدّ سليستروس الذي غصب الكرسي البطريركي» (مجلد ٢ من براءات هذا البابا في الحاشية عدد ٦).

وقد خاطب البابا بناديكتوس الرابع عشر البطريرك كيرلس في براءة تثبيته له بما ترجمته: «أيها الأخ الموقر كيرلس الكاثوليكي بطريرك الروم الملكيين الأنطاكي إننا عندما نتذكر أنّ كنيسة الروم الأنطاكية الشريفة التي انفصلت من مدّة متطاولة عن الكرسي الروماني وكان يدبرها بطاركة ملطخون بوصمة البدعة قد نيط تدبيرها الآن باخوتك وعهد بحمايتها إلى راع شرعي، يتولانا سرور لا مزيد عليه وينسينا الكتابة القديمة العهد التي كانت شاملة لنا لأنّه تغلب على هذه الكنيسة أساقفة مخالفون لهذا الكرسي الرسولي. ولعمري إننا نرى نفسنا ترتكض فرحاً إذ نجد أنّ اسم البطريرك الأنطاكي الروم الكاثوليكي أمكن أن يكتب بكل طمأنينة في سجلات الكنيسة الرومانية» (مجلد ١ من براءات هذا البابا صفحة ٣١٢).

وفي سنة ١٧٤٥م تعطّفت الذات الشاهانية على البطريرك كيرلس بالبراءة العالية فسار إلى دمشق واستولى على الدار البطريركية ولكن لم يدم ذلك إلّا مدّة نحو ثلاثة أشهر لأنّ البطريرك سليسترس سار إلى الآستانة العلية وجدّد براءته ثم عاد إلى دمشق وأجرى على الكاثوليكين قسوة عنيفة. وفي سنة ١٧٥٩م دعا البطريرك أساقفة ملته وكاشفهم بأمر استقالته من المقام البطريركي واختياره له القس اغناطيوس جوهر ابن بنت أخيه فخالفه في ذلك أربعة أساقفة فأصرّ على الاستقالة والعمل برأيه فتنزل عن البطريركية ورُقّي إليها نسيبه المذكور وسُمّي أثناسيوس. واستأثرت رحمة الله بالبطريرك كيرلس في ١ كانون الأوّل ويروى الثاني في سنة ١٧٦٠م وله من العمر خمس وسبعون سنة، وكانت وفاته بدير المخلص ودفن في كنيسته. ثمّ أنّ المطارين الأربعة الذين خالفوا البطريرك في ترقيته أثناسيوس جوهر إلى البطريركية وهم مكسيموس مطران حلب وأثناسيوس مطران بيروت وباسيليوس مطران صيدا وباسيليوس مطران بعلبك رفعوا دعواهم إلى البابا اكليمنضوس الثالث عشر وشاركهم في التشكي من ذلك مجمعا الرهبانيتين المخلصية والشويرية والاكليس الدمشقي، فأبطل البابا المذكور بسلطانه تنزل البطريرك كيرلس وانتخاب أثناسيوس وأقام مكسيموس حكيماً مطران حلب بطريركاً عليهم سنة ١٧٦٠م

وأرسل إليهم الأب دومينيكيوس لانزا من الدومينيكيين قاصداً رسولياً كما يظهر من براءتي البابا المذكور المؤرختين في ١ آب سنة ١٧٦٠، ومن تقرير قدّمه القس سمعان الصبتاغ لمجمع نشر الإيمان المقدّس بالوكالة عن المطارين الأربعة المذكورين، وعن رئيسي الرهبانيتين المخلصية والتشويرية.

أمّا البطريرك مكسيموس حكيم الحلبي الذي اختاره البابا اكليمنضوس الثالث عشر فلم يعيش في البطريركية إلّا سنة وبضع أشهر، رقى فيها بعض أساقفة، واتّخذ أنثاسيوس مطران بيروت معاوناً له لأنّه كان شيخاً، وأقام في دير القديس يوحنا بالشويع وعاجلته المنية في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٧٦١م وله من العمر ستّ وسبعون سنة، ودفن في كنيسة دير القديس يوحنا المذكور وله كتاب وسمه بمنهاج التوبة وكتاب آخر في العقائد الكاثوليكية والأسرار البيعية.

وبعد وفاة البطريرك مكسيموس وقع الخلاف بين الأساقفة على انتخاب خليفة له فاغناطيوس مطران حلب وباسيليوس مطران صيدا وأنثاسيوس مطران بيروت ويوسف مطران حمص وفيلبوس مطران بعلبك انتخبوا أحدهم أنثاسيوس الدهان مطران بيروت بطريركاً في ٢٦ كانون أوّل سنة ١٧٦١م، ودُعي توادسيوس وأقام في دير القرقفة. وكان السيّد أنثاسيوس جوهر المار ذكره يطمع بأن يكون بطريركاً فسأه انتخاب البطريرك توادوسيوس فرقى القس جبرائيل المبيض إلى أسقفية قانا الجليل ودُعي جراسيميوس، والقس غريغوريوس الحدّاد إلى أسقفية قارة إذ تنازل له عنها يوسف مطران حمص وكلاهما من الرهبانية المخلصية، فانتخبا مع غيرهما من الأساقفة بطريركاً. وسار السيّد جوهر إلى رومة ومعه المطران مكسيموس سلال وغيره آملاً بإثبات بطريركيته.

وعرض البطريرك توادوسيوس ومنتخبوه من الأساقفة الأمر إلى الكرسي الرسولي والتمسوا تثبيته واتّحافه بدرع الرئاسة، فصدر أمر الحبر الروماني بتثبيت البطريرك توادوسيوس على يد قاصده السيّد لانزا المار ذكره، فدعا القاصد البطريرك والأساقفة ورؤساء الرهبانيات فاجتمعوا بدير القمر. وتلا عليهم الأوامر الرسولية بتثبيت البطريرك توادوسيوس فأبدى حينئذ الجميع الطاعة، ونقل البطريرك السيّد باسيليوس جلفاف من أسقفية صيدا إلى كرسي بيروت، وسمى السيّد جوهر مطراناً على صيدا.

وعاد السيّد جوهر من رومة كنيّاً سنة ١٧٦٤م، وفي السنة التالية اجتمع بالمطارين محازييه فانتخبوه ثانية بطريركاً، فرقى القس بطرس نعيمى إلى أسقفية صور، فاستدعى القاصد الرسولي البطريرك توادوسيوس والأساقفة المطيعين فاجتمعوا في دير القديس ميخائيل بزوق مكاييل ورفعوا عريضة للبابا اكليمنضوس الثالث عشر بما جرى، فأصدر في ١١ أيلول سنة ١٧٦٥م براءة وبخ فيها السيّد جوهر والأساقفة محازييه، وأبطل بطريركيته الثانية، ورشق بالحرم من قاموا بهذا الصنيع. فكانت في الأئمة اضطرابات حملت بعضهم إلى اتباع الطقس اللاتيني فلم يثبت الحبر الروماني ضمهم إلى هذا الطقس. وسنة ١٧٦٨م كتب السيّد جوهر والأساقفة محازبوه إلى البطريرك توادوسيوس يبدون خضوعهم له ويلتمسون حلهم من التأديب المطلق عليهم فاستدعاهم إلى بيروت فحضرُوا إليها طائعين فحلهم من التأديب فكان بذلك سرور أبناء الملة وساد السلم والسكينة فيها.

وفي سنة ١٧٨٨م توفي البطريرك توادوسيوس الدهان إذ كان له من العمر تسعون سنة واستمرّ في البطريركية ستاً وعشرين سنة وبضعة أشهر وكانت وفاته بدير القديس أنطونيوس القرقفة حيث اجتمع أساقفة الملة في ٢٧ نيسان من السنة المذكورة، فانتخبوا السيّد أثناسيوس جوهر مطران صيدا المار ذكره. وعرضوا ذلك للكرسي الرسولي وأوفدوا بهذه المهمة اغناطيوس صروف مطران بيروت إلى رومة فنال من الحبر الروماني تثبيت البطريرك أثناسيوس جوهر في ٣٠ آذار سنة ١٧٨٩م وعاد مصحوباً بدرع الرئاسة له وجعل هذا البطريرك إقامته في دير المخلص. ولم تطل مدّة بطريركيته فقد قضى نحبه في ١١ تشرين الثاني سنة ١٧٩٤ في دير إيليا النبي بقرية رشميا ودفن في كنيسة الدير المذكور، وفي ٣٠ كانون الأوّل سنة ١٧٩٤م اجتمع الأساقفة في دير إيليا النبي بقرية رشميا وأصاب انتخابهم السيّد كيرلس سباح الدمشقي مطران حوران، وكان قد رقي إلى الأسقفية سنة ١٧٦٣م لزيادة حزب البطريرك أثناسيوس جوهر، والتمس الأساقفة من الكرسي الرسولي إثباته ولا نرى ذكراً لاثباته من الحبر الروماني، فنظنّ أنّ المنية عاجلته قبيل تثبيته لأنّه توفي في ٢٥ حزيران سنة ١٧٩٦م في عيتيت من قرى البقاع العزيز، ودفن في كنيستها وكان سليم القلب لا غشّ فيه متواضعاً محباً للجميع.

فاجتمع أساقفة الملة على اثر وفاته فانتخبوا السيد أغاييوس مطر الدمشقي مطران صيدا بطريكاً فسرّ أبناء الملة بانتخابه وكتب الأساقفة إلى الكرسي الرسولي ملتجئين له التثبيت فثبته البابا ييوس السادس الحبر الروماني سنة ١٧٩٧م وخرج الكلام فيه إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

عد ١٠٥٠

بطاركة أورشليم في القرن الثامن عشر

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن السابع عشر بذكر دوزيتاوس الثاني الذي توفي سنة ١٧٠٧ فانتخب خلفاً له خريستوس وكان ابن أخي دوزيتاوس كما يظهر من الذيل المعلق على كتاب عمه دوزيتاوس في تاريخ بطاركة أورشليم المطبوع ببوخارست سنة ١٧١٥م وكان خريستوس على جانب من العلم مجملاً بسجايا حسنة أقام مدة بياريس وجعله عمه أكسرخوس في قيصرية فلسطين وأرسله بطاركة الروم في المشرق إلى قيصر الروس وانتخب بطريكاً في ٨ شباط سنة ١٧٠٧م بعد وفاة عمه بيوم واحد، وله كتاب في فروض الكنيسة الشرقية. قال لكويان أخذت عن هذا الكتاب خلاصة ونشرتها باللاتينية، وأثنى عليه ثناء طيباً ديمتريوس بروكوبيوس وقال إنه كان ضليعاً بالأسفار المقدسة خبيراً بكتب الآباء عالماً باليونانية واللاتينية، درس على علماء القسطنطينية وإيطاليا وتجوّل بأوروبا وجدّد كنيسة أورشليم سنة ١٧١٩م وزيّن قبر المخلص برخصة سنية من السلطنة. وله كتاب في مبادئ الجغرافية في اليونانية الحديثة مثل كتابه في الفروض وهذان الكتابان طبع الأول منهما بياريس والثاني ببوخارست. وذكر العلامة السمعاني في جملة الكتب التي أحضرها من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية (مجلّد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٦٣١) رسالة لخريستوس البطريك الأورشليمي أفنّدها إلى أبرشيته يتكلّم فيها على طبع كتاب يشتمل على ست وستين خطبة لأثناسيوس البطريك الأورشليمي وخطبة لفم الذهب في الفصح والقيامة. كتب هذا الكتاب في حلب سنة ١٧٢١م. وذكر له أيضاً رسالة

مجمعية من المجمع الذي عقد بالقسطنطينية سنة ١٧٢٢م ورأسه أرميا البطريك القسطنطيني وشهده أثناسيوس بطريك أنطاكية ولم يكن في هذه السنة بطريك لأنطاكية إلا أثناسيوس الدباس (كما مر)، وخرستوس البطريك الأورشليمي، واثنا عشر حبراً بين رؤساء أساقفة وأساقفة، وأرسلت هذه الرسالة إلى أهل بطريكية أنطاكية بالعربية واليونانية ليدافع الروم بها ضد رئاسة البابا، وعن انبثاق الروح القدس من الآب وحده، وعن استعمال الخمير وانكار المطهر، وسعادة القديسين بعد القيامة، وتحريم أكل الخنوق ولزوم الصوم يوم السبت، وفيها تنديد باللاتينيين لعدم تناولتهم الأطفال القربان المقدس، وعدم مسحهم بالميرون إلا المرضى المدنفين. واختتم لكويان كلامه بأنه يظهر له من رسالتين واردتين من طرابلس أنّ البطريك خريستوس توفي سنة ١٧٣٣م وخلفه ملاتيوس في شهر آذار من السنة المذكورة والمقال عنه أنّه كان لين العريكة قليل التعصب لمذهب أمته. إلى هنا كان اعتمادنا في تاريخ بطاركة أورشليم على العلامة لكويان في مؤلفه المشرق المسيحي مع زيادات عليه، وأما كلامنا الآتي في هؤلاء البطاركة إلى آخر تاريخنا فنعتمد فيه على سلسلة لهم تكرم بارسالها إلينا غبطة البطريك دميانس بطريك أورشليم الحالي، وعلى كتاب أتحفنا به يشتمل على سلسلة بطاركة أورشليم وهو تأليف الشمّاس غريغوريوس أستاذ المدرسة اللاهوتية بأورشليم مطبوع باليونانية في هذه المدينة سنة ١٨٦٢م.

ومما ذكر في الكتاب والسلسلة عن ملاتيوس المذكور البطريك الأورشليمي أنّه لم يرقّ إلى البطريكية سنة ١٧٣٣م كما ذكره لكويان بل سنة ١٧٣١م، وأنّه لما كانت البطريكية الأورشليمية يومئذ في ضيقة وملاتيوس شيخ غير قادر على سد إعوازاها استقال من البطريكية وتخلّى عنها إلى برتينيوس من أثينا سنة ١٧٣٧م فعني هذا البطريك بسد فاقة البطريكية وحشد ثروة لها بواسطة مناشير أذاعها على الروم في كل جهة، فحسنت حال البطريكية حتى أنشأ كنيسة في الناصرة على البئر التي كانت العذراء تستقي الماء منها على ما يقولون. واستمرّ هذا البطريك على الكرسي الأورشليمي تسعاً وعشرين سنة، ورأى أنّ شيخوخته لا تطبيق تحمّل مهام البطريكية فتنازل عنها سنة ١٧٦٦م إلى أفرام من أثينا أيضاً

وكان أستاذ اللاهوت في قبرص، وذهب برتينيوس يقضي ما بقي من عمره في القسطنطينية حيث توفي بعد مدّة وجيزة، وكانت في أيام البطريك افرام الحرب المار ذكرها بين الدولة العلية والروسية واشتدّت المنازعات بين الروم واللاتينيين على الأماكن المقدّسة.

وفي سنة ١٧٧١م توفي البطريك افرام بعد أن أقام بالبطريركية خمس سنين فأجمعت آراء الأساقفة في القسطنطينية وأورشليم على انتخاب صفرونيوس السادس وكان حلياً ومطراناً على عكا ونائباً بطركياً، واستمرّ على بطريركية أورشليم أربع سنين ثمّ نقل سنة ١٧٧٥م إلى بطريركية القسطنطينية، وأقيم له خلفاً على كرسي أورشليم أبرامبوس الكرجي، فشرع هذا البطريك في مرمة الأماكن المقدّسة بأورشليم وتحسين حالها والحدّ بكل ما يعود بالنفع على بطريركيته، واستمرّ على ذلك اثنتي عشرة سنة ثمّ توفاه الله سنة ١٧٨٧م وخلفه بروكويوس الراكوزي، وكان متروبوليت قيصريّة فلسطين ومجملّاً بالغيرة لكنّه كان طاعناً بالسّنّ تنتهكه الأمراض فأقام بالبطريركية سنة واحدة، ودعا إليه أفتيموس وكان مطراناً على قيصريّة فأرشده إلى ما يدبر به كنيسة أورشليم وتخلّى له عن بطريركيته سنة ١٧٨٨م، فأقام أفتيموس بالبطريركية عشرين سنة، وكانت بينه وبين اللاتينيين والأرمن منازعات كثيرة على الأماكن المقدّسة، ويقال إنّ كان يحسن معرفة اللغات اليونانية والعربية والفارسية، وله تأليف بالعربية منها كتاب «الهداية» و«تفسير المزامير» طبعت على نفقته بفيانا، وتوفي سنة ١٨٠٨م وعمره تسعون سنة. انتهى.

الفصل الثاني

نعرفهم من المشاهير الدينيين في القرن الثامن عشر

عد ١٠٥١

الشماس عبدالله زاهر

هذا العالم بحلب ودرس العلوم البيعية على العالم الشهير الحوري بطرس الآتي ذكره. ويروي بعضهم أنه هو الذي جعله يعتنق الإيمان الكاثوليكي حلب وأتى إلى لبنان في ٢١ من تشرين سنة ١٧٢٢م وأقام أولاً بزوق مسروان يعد أدوات المطبعة التي أنشأها بعد ذلك في دير القديس يوحنا مشوير حيث أتمّ معدّاتها ونشر بها كتباً عديدة منها فصول العهد القديم التي تستعمل في طقس الروم الملكية وكتب فروضهم وصلواتهم وطبع فيها كتاب المجمع اللبناني للثنا المارونية وله عدّة تأليف تشهد بطول باعه به أولها الكتاب الذي وسمه بالبرهان اليقين حيث أثبت القضايا الخمس ما الروم غير المتّحدين. والثاني رد على رسالة لمطران فيلادفيا الروم وسماه: لشفي من سم الفيلادلفي». ولما وردت الرسالة المشار إليها قبلاً من مسطنطينية إلى البطريركية الأنطاكية ألّف كتابه الثالث سّماه: «التفنيد لعنيد» وقد طبع مختصر له في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ثمّ أذاع مطران عكا كتاب تعليم مسيحي اشتمل على ما يخالف المعتقد ، فألّف كتابه الرابع وعنوانه: «الرد على ذوي الانفصال والصد» وكتابته نوانه: «البرهان الصريح في سري دين المسيح» وطبعه بمطبعته. وله أيضاً هبة في لزوم حفظ القوانين الرهبانية ومقالة طويلة سّماها «الحمامة الجلدية

على الكلمات الربية». وله أيضاً كتاب ردّاً على مذهب البروتستانت، ورسالة ضد معتقد الأرمن، وله فتاوى كثيرة في مسائل مختلفة وقد نقح كتاب تفسير المزامير وكتاب تفسير الأناجيل. وذكر له صاحب مختصر طائفة الروم الملكيين الكاثوليكين كتاباً كبير الحجم أرسله إلى الأب بطرس فرماح اليسوعي ولم يبين لنا ما هو هذا الكتاب. وقد بقي عبدالله زاخر عامياً متبتلاً. وفي آخر حياته أبرز النذور الرهبانية وتوفي راهباً في ٢٠ آب سنة ١٧٤٨م.

عد ١٠٥٢

الخوري نقولا الصايغ والخوري يواكيم مطران

الخوري نقولا الصايغ هو من طائفة الروم الملكيين الكاثوليكين ولد سنة ١٦٩٢م وقد انضوى سنة ١٧١٦م إلى رهبانيتهم المعروفة بالحناوية والشويرية نسبة إلى دير القديس يوحنا بالشوير، وقد ابتلأت هذه الرهبانية سنة ١٦٩٧م على ما في كتاب الدر المنظوم للصالح الذكر البطريرك بولس مسعد أو سنة ١٧٠٠م كما في كتاب مختصر تاريخ هذه الطائفة. أسسها أولاً في الدير المذكور راهبان خرجا من دير بلمند واعتنقا المذهب الكاثوليكي وركي الخوري نيقولاوس إلى درجة الكهنوت سنة ١٧١٩م ثم انتخب رئيساً عاماً في رهبانيته سنة ١٧٢٧م، فأقام على هذه الرئاسة ثلاث سنين واستعفى منها في الجمع التالي لكنّه أكره على قبولها سنة ١٧٣٣م وبقي عليها إلى آخر حياته، فأحسن تدبير الرهبانية وزادها نمواً ونجاحاً وبنى عدّة مساكن في دير القديس يوحنا المذكور، وأنشأ فيه كنيسة القديس نيقولاوس، وقد نازعه الروم غير المتّحدين هذا الدير مرتين فلم يتمكنوا من تملكه. وله مصنفات منها كتاب «التقدمة لخدمة عيد الجسد» وكتاب «فرائض الرهبان والراهبات» المثبت من الكرسي الرسولي سنة ١٧٤٧م. وللسيد العلامة السمعاني مقدّمة على كتاب فرائض الرهبان هذا ناطقة بفقاھته كباقي مؤلفاته، وكانوا قبل ذلك اتّخذوا قوانين رهبان القديس أنطونيوس اللبنانيين الموارنة دستوراً لسيرتهم إلى أن ثبت الكرسي الرسولي فرائضهم المذكورة.

وللخوري نقولا ديوان شعر معروف طبع ببيروت مرّات، ومنه قصيدة رثاء لأستاذه المطران جرمانوس فرحات مطلعها:

إلّا أنّ مغنى المجد ثلث دعائمه وربع سناء الفضل أعفت معاله
ومنها قوله:

أمامي وذخري بل غنائي ونعمتي غنمت به غنى تجل غنائمه
فان كنت من يلقى الآه فانني لظالم نفسي شر ظلم وظالمه
حلبت به وسع الإناء معارفاً يلازميني جنح الدجى وألزمه
وكانت وفاته سنة ١٧٥٦ .

وأما الخوري يواكيم مطران فهو يوسف بن موسى المطران من بعلبك ولد بها سنة ١٦٩٦م ودخل الرهبانية الحناوية في ٧ حزيران سنة ١٧٣١م وسمي يواكيم وأخذ العلم عن الشماس عبدالله زاهر المذكور ونبغ فيه وخدم الأنفس الروحية بحلب وحمص وبعلبك، واشتهر بخطبه ومواظبه وتأليفه فله من المصنّفات: «الإيصاغوجي في المنطق» تتداوله أيدي الطلبة الذين لا يحسنون اللغات الأوروبية، وكتاب: «الإيضاحات النطقية» وهو مطوّل في المنطق، وكتاب «التكميل»، وكتاب «منارة القدّاس» مطوّل أيضاً، وكتابا مواظ في آحاد السنة كلّها وفي الأعياد إلى غير ذلك. وتوفي بمدينة عكا سنة ١٧٧٢م. اعتمدنا في تراجم هؤلاء المشاهير على كتاب مختصر تاريخ الطائفة الروم الملكيين الكاثوليكين.

عد ١٠٥٣

نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي وأولاده

نلخص ترجمة نعمة الله المذكور عن مقالة نشرها في مجلّة المشرق الأب جرجس منش الحلبي الماروني هو نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي، ولد في أواخر القرن السابع عشر بحلب ويظهر أنّه كان من طائفة الروم الملكية غير المتّحدين، لكنّه اعتنق الإيمان

الكاثوليكي في مبادئ القرن الثامن عشر، وكان قد درس العلوم حتى الفقه على أدياء حلب وفقهاءها، واستخدمه البطريرك أنثاسيوس الدباس كاتباً له، ووجد له مجموعة سماها: «عجالة راكب الطريق لمن رضي تقليد التلفيق» وهي مشتملة على تسع وسبعين صورة لمناشير وصكوك وغيرها وسبع وسبعين رسالة في أبواب الترسّل كالتهنئة والتعزية والشكر والنصح الخ، ونحو خمسين قصيدة من شعره أكثرها في مدح الفضلاء منهم البطريرك أنثاسيوس الدباس والمطران جرمانوس فرحات مطران الموارنة بحلب والخورري نيقولاوس الصائغ المار ذكره، وله رسالة مسهبة إلى الأب جبرائيل فرحات قبل تسقفه وجوابها قصيدة فرحات البائية المثبتة في ديوانه المطبوع صفحة ٦٤ وفي مجموعته هذه اثنتا عشرة رسالة أنشأها باسم البطريرك أنثاسيوس الدباس وجراسيميوس ومكسيموس أسقفي حلب إلى الأبحار الأعظمين والكرادلة وبعض الأساقفة وتعريب مقالة للبطريرك أنثاسيوس المذكور في الماء السخن الذي يصبّه كهنة الروم في الكأس ردّاً على السيّد أفثيميوس الصيفي مطران صور وصيدا. ومن مقالاته رسالة يبين فيها اندهاشه مما لقيه عند الشيخ أبي نوفل الخازن فنصل فرنسة في بيروت وختم مجموعته بمقالة سماها: «خلاصة حب الفؤاد بنصح الآباء للأولاد». وقد سعى نعمة الله لدى البطريرك أنثاسيوس الدباس عند احتضاره أن يكاتب البطريرك القسطنطيني ليرقي سليبسترس القبرصي إلى بطريركية انطاكية فكتبه ووافقه في ذلك بعض أعيان حلب فرقي البطريرك القسطنطيني سليبسترس إلى هذه البطريركية بعد وفاة البطريرك الأنطاكي وقد ندم الحلبيون بعد ذلك على هذا المسعى لأنّ سليبسترس أذاقهم الأمرين.

وقد عرضت لنعمة الله مصائب ومحن كموت بعض أولاده وفقد ماله وفقره حتى احتاج إلى بيع كتبه العزيزة وفي ذلك يقول:

يا رب قد بعثُ كتبي فحسبي الذل حسبي
بعثُ الصفي^(١) برخيص ومثلـه المتنبي

(١) ديوان صفي الدين الحلبي.

وابن* هاني ويا ما هنئت به وصحبي
وكذا القلائد^(١) لما غلت قلائد كتبي

ويعرف من أولاد نعمة الله ثلاثة: توما وجبرائيل وأنطون. أما توما فسافر إلى
مصر سنة ١٧٥٥ وقال والده عند وداعه:

ولما قضى التوديع فينا قضاءه وزفت مطايا البين ركب الترحل
فقلت لأصحابي ودمعي قد جرى فقفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ولتوما رحلة من حلب إلى اللاذقية في بيروت فمصر. وجبرائيل توفي فرثاه أبوه
بقوله:

يا لقومي اعذروني ضاق بي وسع الفضاء
يا لقومي ضاق ذرعي عيل صبري وانقضى
يا لقومي ضاع رشدي فيما ألقى القضاء
يا لقومي غاب جبرائيل يل عني ومضى

ولجبرائيل هذا مجموعة أهداها والده لأحد أصحابه لثلا تريد شجونه بعد
موته، ورسائل نعمة الله المذكور آخرها في تاريخ سنة ١٧٦٧، ولكن يظهر أنّ
ابنه جبرائيل توفي سنة ١٧٧٥ ورثاه بما مرّ فإن صحّ ذلك كانت وفاته تلك السنة
أو بعدها.

(١) قلائد العقيان.

هو من طائفة الروم الملكيين الكاثوليكين ولد في ٢٠ أيار سنة ١٧٢٤ بقرية جون من أعمال جنوبي لبنان وأرسل إلى رومة سنة ١٧٣٧م لاقتباس العلوم في مدرسة مجمع نشر الإيمان المقدس وأقام بها تسع سنين عاكفاً على تعلّم اللغات اليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية، ثم العلوم الكنسية العالية كالفلسفة واللاهوت الخ. ولما أتم دروسه سار إلى باريس فأقام بها أربع سنين يتضلّع باللغة الفرنسية، وفي ٢٥ كانون الثاني في سنة ١٧٥٠م عاد إلى وطنه. وفي السنة الثالثة رقاہ البطريرك كيرلس تاناس إلى الشماسية ثم إلى درجة الكهنوت مبتلاً، وعاد بعد ذلك في ١ أيلول سنة ١٧٥١م إلى فرنسة فأقام مدة ورجع ثانية إلى وطنه في ١٠ كانون الثاني سنة ١٧٥٣. وفي سنة ١٧٦٢ بى لنفسه من ماله كنيسة على اسم القديس يوحنا المعمدان بقرية جون وهي باقية إلى اليوم معروفة باسمه، وسار سنة ١٧٨٠م مرة أخرى إلى أوروبا فتوفي بها سنة ١٧٨٥م في مملكة النمسا. وله بعض تأليف منها: كتاب «التختيكون الكنسي» المشهور، ومقالة طعن بها الموارنة والقديس يوحنا مارون معتمداً على قول يعزى إلى توادورس أبي قارا رئيس أساقفة كاريا أو حران الذي كان في أواخر القرن التاسع محازباً لفوتوس ضدّ القديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني. ثم عاد في المجمع الثامن المسكوني إلى المعتقد الكاثوليكي (على ما روى غرافيسون في تاريخه للقرن التاسع مجلد ٣ صفحة ١٤١).

فمقالة الأب عجيمي هذه ردّها الخوري أنطون القيايالي البيروتي تلميذ مدرسة الموارنة برومة وترى ردّه لها مثبتاً في كتاب المحاماة عن الموارنة الذي طبع حديثاً في بيروت، ولكن طبع أحد خصوم الموارنة مقالة الأب عجيمي في مصر وأردفها ببعض أقوال ادّعى أنها تؤيّد زعمه، وزعم الأب عجيمي وسمى كتيّبه: «الحجة الراهنة ضدّ الموارنة» ولم يتعرض لشيء من رد الأب القيايالي على تلك المقالة فاضطرت إلى تفنيد ذلك الكتيّب بمقالة وسمتها: ب«الرد على الحجة المسماة راهنة وهي واهنة». ونشرت هذا الرد جريدة «المصباح» في بيروت ويظهر من التقرير الذي قدّمه القس سمعان الصبّاغ لمجمع نشر الإيمان المقدس من قبل المطارين الأربعة الذين شكوا

البطريك كيرلس تاناس بإقامته نسيبه أثناسيوس جوهر بطريكاً ان القس يوحنا عجمي المذكور إنما هو الذي حمل البطريك كيرلس على تنازله وترقيته نسيبه أثناسيوس جوهر إلى مقام البطريكية (طالع الدر المنظوم صفحة ٢٥٠).

عد ١٠٥٥

السيد جرمانوس آدم

لم يكن السيد جرمانوس آدم من المشاهير الذين توفوا في هذا القرن الثامن عشر بل في أوائل القرن التاسع عشر ولكن آثرنا وضع ترجمته في جملة مشاهير القرن الثامن عشر لأنه نبغ واشتهر فيه. ولد هذا السيد بحلب ونشأ وتأدب بها بل انتظم في سلك اكليروسها وبعد ذلك أرسل إلى مدرسة مجمع نشر الإيمان برومة فتلقى العلوم السامية بها كالفلسفة واللاهوت والتاريخ بعد أن أتقن من اللغات اللاتينية واليونانية والإيطالية والفرنسية، وعاد بعد ذلك إلى حلب فراه البطريك كيرلس الدهان سنة ١٧٧٤م إلى أسقفية عكا ثم نقل إلى كرسي حلب سنة ١٧٧٧م، وكانت إقامته وهو مطران بلبنان بزوق مكاييل ودير القديس يوحنا بالشوير. ولما أمر البابا بيوس السادس بطريك الموارنة وأساقفتهم أن يعقدوا مجمعاً طائفيّاً لاصلاح بعض الشؤون جعل المطران جرمانوس آدم قاصداً له في هذا المجمع فعقد في بكركي سنة ١٧٩٠م بحضرة البطريك يوسف اسطفان وقاصد البابا المطران جرمانوس المذكور وأساقفة الطائفة ويعرف بمجمع بكركي الأول وسيجيء كلامنا فيه.

وفي سنة ١٨٠٦م عقد البطريك أغايوس مطر مجمعاً لطائفته الملكية الكاثوليكية في دير القديس أنطونيوس المعروف بدير القرقفة، وكان المطران جرمانوس آدم هو المؤلف لرسوم هذا المجمع فأدخل بينها بعض آراء منبوضة من الكنيسة الرومانية أخذاً لإياها عن أسقف بيستويا بإيطاليا الذي كان قد اجتمع به في فلورنسا، وطبعت أعمال هذا المجمع في مطبعتهم الشويرية سنة ١٨١٠م. لكن الكرسي الرسولي بعد التحري فيها مدة طويلة لم يقبلها بل نبذها البابا غريغوريوس

السادس عشر براءة مؤرخة في ١٦ أيلول سنة ١٨٣٥م. وللسيد آدم كتاب سماه: «البراهين اليقينية في حقيقة الأمانة الأرثوذكسية» أثبت فيه القضايا الخمس التي ينكرها الروم غير المتحدين. وله كتاب في التعليم المسيحي ونبذة في إرشاد معلّمي الاعتراف لكثّة كتب كتاباً آخر يظهر منه أنه ينكر رئاسة البابا العامة، فانتقد هذا الكتاب البطريرك يوسف التيان بطريرك الموارنة وأرسل إلى السيد آدم مقالة انتقاده فكتب آدم رداً عليها، فانتقى البطريرك يوسف التيان برد مسهب بيّن فيه أنّ قضايا السيد جرمانوس هي القضايا نفسها التي علّمها أسقف بيستويا ونبذها الكرسي الرسولي. وردّ التيان هذا موجود في مكتبة مدرسة القديس يوحنا مارون بكفرحي قد طالعه فيها مخطوطاً مدّة إقامتي بهذه المدرسة لتعليم طلبتها الفلسفة واللاهوت من سنة ١٨٥٥م إلى سنة ١٨٦٠م وقد رأيت نسخة أخرى منه في مكتبة الكرسي البطريركي ببيركي وكانت هذه المناقشة بين البطريرك يوسف التيان والسيد آدم سنة ١٧٩٩م.

على أنّ السيد آدم قبل وفاته كتب وصيته وفي جملة ما قاله فيها إنّه يخضع كل ما ألفه أو كتبه لحكم الكنيسة المقدّسة الرومانية فيقبل ما تقبله ويحرم ما تحرمه. وكانت وفاته في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٠٩م.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الأول

أعيانهم الدنيويون في هذا القرن

عد ١٠٥٦

المشايع آل خازن وآل حبيش في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر من كانوا من آل خازن قناصل لدولة فرنسة في بيروت، وأنّ الشيخ حصن بن فياض الخازن كان في هذا المقام، وبعد وفاته صير ابنه الشيخ نوفل الخازن قنصلاً لفرنسة في بيروت وبقي في هذه القنصلية إلى أن عقد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م فكان الشيخ نوفل قنصل فرنسة في بيروت كاتباً فيه.

وبعد أن انتقلت الولاية على جبل لبنان من آل معن إلى آل شهاب في أواخر القرن السابع عشر كان مديرو الأمراء الحاكمين من آل شهاب غالباً من الموارنة وأبقوا آل خازن على ولايتهم بكسروان وآل حبيش على ولايتهم بغزير وما يليها، ولما تولى الأمير يوسف علم الدين اليمني على لبنان بمساعي محمود باشا أيي هرموش كما مرّ واضطرّ الأمير حيدر موسى الشهابي الحاكم حينئذ أن يفرّ من وجهه سار أولاً إلى كسروان معتصماً بالمشايع آل خازن وآل حبيش ولما تقوى عليه

عسكر الأمير يوسف علم الدين ودخلوا غزير وأحرقوها ترك الأمير حيدر عياله في كسروان فخبأهم المشايخ آل خازن في بعض قراهم، وكانوا يقدمون خفية كل ما يلزم لنفقتهم ونفقة الأمير حيدر الذي اختبأ مع بعض خواصه في الهرمل، ثم لما سئمت نفوس أعيان البلاد ولاية الأمير يوسف علم الدين لجأ أعيان القيسية إلى الخازنيين ليكتبوا الأمير حيدر شهاب المذكور أن يعود إلى البلاد فيناصروه جميعاً على اليمنية فحضر الأمير حيدر إلى المتن وكان معه الشيخ خازن الخازن وبعض أبناء عمه وحضروا معه وقعة عنددارا المشهورة حيث انتصر القيسية على اليمنية وظفروا بهم ظفراً تاماً فأقرّ الأمير حيدر المشايخ على ولايتهم في كسروان وكتب لهم الأخ العزيز، وكان في المصطلحات في تلك الأيام أن يفرقوا بين طبقات الناس أن يكتبوا إليهم عزيزنا أو محبتنا أو أعز المحبين أو الأخ العزيز.

وفي ١٧٢٥م تولى الشيخ عبدالله بن فاضل الخازن ناحية عكار ولما كان راجعاً من دير قزحيا إلى كسروان التقاه نحو ثلاثين رجلاً من المشايخ الحمادية وأتباعهم وأرادوا إهانتة لأنه تولى الناحية المذكورة وهم يدعون أن لهم حق الولاية عليها فعاونهم عليهم الرهبان فتملص منهم. وشكا آل خازن الحمادية إلى والي طرابلس سليمان باشا العظم فأرسل عسكرياً فنكل بالحمادية، ولكن نهب عسكره بلاد جبيل والبترون (عن سجل الرهينة اللبنانية)، ولما اضطّر البطريك يعقوب عواد أن ييارج كرسيه قنوين بسبب مناصرته للبطريك كيرلس تاناس كما مرّ وأن يرقى الخوري يوسف صالح الدويهي الأسقفية ويسلمه بتدبير دير قنوين، كتب له صكاً بذلك ووقع عليه مع بعض أساقفته. وكتب له بعض آل خازن أيضاً وثيقة مشعرة برضاهم بهذه الوكالة لتهيئه المتأولة وغيرهم، ولما عقد الجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م شهدته كثيرون من آل خازن وآل حبيش وترى تواقعهم على آخره في النسخة المطبوعة حديثاً.

وفي سنة ١٧٥٠م لما اعتدى بنو منكر الشيعة على إقليم جزين وقتلوا رجلين من أصحاب الشيخ علي جنبلاط حشد الأمير ملحم الشهابي الرجال لكبت الشيعة المذكورين فتوجّه مع الأمير الشيخ ميلان الخازن ببعض رجال كسروان وعند اشتداد القتال في جباع الخلاوة أغار الشيخ ميلان برجاله على برج هناك

كان الشيعة قد اعتصموا به فأتخن فيهم وبدد شملهم فأكرمهم الأمير وعظمت منزلته عنده. وفي سنة ١٧٧٠م لما افضت ولاية البلاد إلى الأمير يوسف الشهابي وتزلف إليه المشايخ آل خازن ولى الشيخ رامج بن حيدر بن قيس الخازن على لحفد وترتج ببلاد جبيل وجعلها اقطاعاً خاصاً به وبذريته وبقيت كذلك إلى أن الغى نظام لبنان الاقطاعات فيه.

عد ١٠٥٧

بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وأولاده

إننا ننسّق ذكر الأعيان بهذا الفصل بحسب زمان اشتهارهم وخدمتهم لولاية البلاد. فبطرس الشدياق هو من سلالة رعد الحصريني جد المقدّم خاطر الحصريني الذي تقدّم ذكره في هذا التاريخ وفهد والد بطرس الذي سمي الشدياق ارتحل من حصرون إلى كسروان بأولاده وعائلته وأقاموا بعشقت. وفي سنة ١٧١٥م دعا الشيخ أبو شيان الخازن بطرس الشدياق بن فهد وعهد إليه بمحاسبة الأموال الأميرية في ولايته بكسروان ثم جعله دهقاناً على عقاراته لما رأى فيه من الدراية والأمانة، إلى أن توجه الشيخ المذكور سنة ١٧٢٣م إلى دير القمر ومعه الشدياق بطرس المذكور، فرأى الأمير حيدر الشهابي الوالي حينئذ ما رآه أبو شيان في بطرس المذكور فطلبه منه وأقامه رئيساً لكتبته وأحبّه لصدق خدمته واختلاصه وجعله مديراً له. ولمّا تولّى الأمير ملحم شهاب بعد والده الأمير حيدر أبقي الشدياق مديراً له كما كان عند والده إلاّ أنّه في سنة ١٧٢٧م تغيّر عليه لوشايات رفعها حساد الشدياق إليه فوضعه في محرس منفرداً دون أن يكشف له سبب تغيّره عليه فعظم الأمر على الشدياق حتى أخرجه عن دائرة رشده، واذ كان يوماً بالكيف ضرب بطنه بسكين فخرقه وأغمي عليه، ولما أبطأ كشفه الحارس فرآه مطروحاً على الأرض وأعلم الأمير بذلك وأمر بإحضار طبيب عاجله فلم يشف، وكان مديراً للأمير حيدر سبع سنين ولائته الأمير ملحم ثماني سنين، وكان له ابنان ظاهر وخطّار قبض الأمير ملحم عليهما وعلى ابن أخيه منصور وضبط مالهم وخيلهم، ثم أمر بإطلاقهم

وارجاع بعض عقارهم، لكنّه هب داري بطرس وابن أخيه منصور بعشقت للشيخ أبي صليبي مرعب الخازن، فارتحل منصور إلى حارة الحدث ببعض أقربائه فتوطنوها وسكن ظاهر وخطار ابنا بطرس في بيروت.

وفي سنة ١٧٤١م سار منصور بأهله إلى بعلبك فخدم الأمير حيدر الحرفوش واستأجر منه أرضاً للزراعة، وقد قتل مصادفة أحد أقربائه رجلاً متوالياً فطيب الأمير حيدر قلب منصور وأقربائه وأمر المتأولة أن لا يسوموهم ضرراً ومن خالف أمره قتله، لمحبه منصور لاستقامته في تدبير أموره ولسعيه بالصلح بينه وبين الأمراء الشهابيين. وسنة ١٧٤٣م رجع منصور بأقربائه إلى حارة حدث بيروت، وسنة ١٧٥٧م أقامه الأمير ملحم الشهابي مديراً لابن أخيه الأمير قاسم عمر وأرسلهما إلى دار السلطنة يلتمسان للأمير ملحم ولاية جبل الشوف وكسروان، وللأمير قاسم ولاية بلاد جبيل. ولما عرف بذلك الأمير منصور الشهابي أمر بقطع الأشجار التي لمنصور الشدياق في الحازمية ونال الأمير قاسم ومنصور أمراً سامياً إلى والي دمشق ليجيبوا الأمير إلى مطلوبه، لكن توفي والي دمشق قبل الإجابة فيئس الأمير قاسم من الفوز وصالح عمّه الأمير منصوراً وعوّض منصور الشدياق عما تلف له أو تكلف بيوتاً وعقاراً في قب الياص وأبقاه في خدمته، فسعى بعض المشايخ بتغييره على منصور وقتله. وكان منصور مأذوناً له أن يفتح الكتب الواردة للأمير ففتح ذاك الكتاب ثم ختمه وأعادته إلى الرسول فدفعه إلى الأمير فلم يخف الأمير ما فيه على منصور وطيب قلبه، فقال له منصور لا تلقى خيراً عند عمك الأمير منصور ما دمت أنا في خدمتك، واستأذنه بأن يفارقه ويتوجّه إلى بلاد بشاره، فأبى الأمير وألح منصور فرضي الأمير وأكرمه ودفع إليه كتاب توصية إلى والي تلك البلاد، فارتحل منصور بأقربائه إلى قرية عين إبل فسكنها مدة ثم انتقل إلى رميش، وسنة ١٧٦٣م دعاه الأمير قاسم إليه فأتى إلى حارة الحدث وعاد إلى خدمة الأمير قاسم مديراً كما كان.

ومرض الأمير قاسم سنة ١٧٦٨م فجعل منصوراً وصياً على أولاده ودهقاناً لأملاكه، ثم استقال من الأمير منصور من هذه الوصاية سنة ١٧٧٠م فاستدعاه الأمير أفندي وأخوه الأمير سيّد أحمد الشهابيان واتّخذاه مديراً لحكومتها وبقي كذلك إلى أن فوّ الأمير سيّد أحمد شهاب سنة ١٧٨٥م من وجه أخيه الأمير

يوسف إلى حوران فسار منصور معه فأمر الأمير يوسف بقطع الأشجار التي له في الحازمية. وسنة ١٧٩٣م توفي منصور الشدياق بن جعفر وعمره سبع وستون سنة ودفن بحارة الحدث وله ثلاثة أولاد فارس ويوسف وسليمان.

أما فارس فاستدعاه الأمير يوسف الشهابي الوالي إلى خدمته سنة ١٧٨٦م وكان الشيخ سعد الخوري مدبر الأمير المذكور يحب فارساً كثيراً فأحبّه الأمير يوسف ولما مرّ الأمير يوسف ببلاد بعلبك سنة ١٧٨٨م مطروداً من الأمير بشير قاسم الشهابي الذي كان قد أخذ الولاية أرسل الأمير جهجاه الحرفوش يقول للأمير يوسف تحوّل عن بلادي أو صليت عليك القتال، فارتبك الأمير يوسف بالجواب فقال فارس للأمير يوسف الجواب عندي. وشمّ الرسول وضربه بدبوس من حديد وقال له اذهب فقل لأميرك من أنت حتى تمنع الأمير يوسف عن المرور فهو يأمرك أن تقوم حالاً من بلاد بعلبك أو فاجأك برجاله. ولما بلغ الأمير جهجاه هذا الجواب فرّ هارباً إلى بلاد الشرق وظلّ الأمير يوسف سائراً إلى الزبداني ثم إلى حوران، وأمر فارس الشدياق أن يقيم بدمشق وكيلاً له، ولما وعد الجزار الأمير يوسف برده إلى الولاية وحضر لديه إلى عكا كتب الأمير يوسف إلى فارس أن يلحقه إلى عكا فتوجه معه خمسة عشر فارساً فأغار عليهم في الطريق عرب عنزه والسردية فقاتلهم قتالاً شديداً وقتل بعضهم لكنّهم استظهروا عليه أخيراً ورموه عن جواده إلى الأرض، فنثر لهم نقوداً ألهاهم بها وفرّ من بينهم إلى قعدان البعيش شيخهم مستجيراً به فأجاره على عادة العرب، وردّ له ولفرسانه كلّ ما سلب منهم، ولم يمكن ورثة القتلى من العرب من مضرة نزيله. وسأله فارس أن يصحبه بمن يوصله إلى إقليم البلان فأصبحه بخمسين فارس، وعند وداعه قدّم له فارس سيفه وكان ثميناً، وسار متذكراً إلى عكا خوفاً من الأمير بشير. وسنة ١٧٩٠م لما حضر الشيخ غندور الخوري إلى عكا يسأل الجزار الولاية للأمير يوسف أنعم عليه بها وأمره أن يقي الشيخ غندوراً رهناً عنده وأن يأخذ فارس الشدياق مديراً له فكان كذلك. وفي سنة ١٧٩٨ دعا الأمراء أولاد الأمير يوسف فارساً بن منصور الشدياق لخدمتهم فأقام عندهم واستمرّ فارس في خدمتهم ثم خدمة الأمير بشير إلى أن توفي سنة ١٨١٧م.

الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور

إنَّ أسرة الخوري تنسب إلى الخوري صالح من عائلة مبارك. ارتحل الخوري صالح المذكور من كسروان إلى قرية رشميا سنة ١٧٠٠م، ويقال إنَّ الخوري عبدالله من هذه الأسرة كان مع الأمير حيدر الشهابي الوالي في وقعة عندارا سنة ١٧١١م، وقبض على أميرين من اليمنية فأقطعه الأمير حيدر قرية رشميا ورفع عنها المال الأميري، وتعاقب الكهنة من هذه الأسرة واحدهم الخوري عبدالله ولد غندور، وغندور ولد الشيخ سعد، وسعد ولد الشيخ غندور اللذين نكتب ترجمتهما. فلما تولَّى الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧٧١م اتخذ الشيخ سعداً ابن غندور مديراً له فأحرز ثقته وعظم اعتباره لدى الأمير المذكور ولدى ملته المارونية بل لدى الكرسي الرسولي كما سيأتي.

في تلك السنة اجتمع المشايخ آل حمادة ودهموا الأمير بشير حيدر الشهابي في العاقورة وهو يجبي الأموال الأميرية وعاونه عليهم شيخا بشري واهدن وغيرهما من أهل البلاد، ولما علم الأمير يوسف بذلك أرسل مدبّره الشيخ سعد بعسكر من قبل الجزار ومن رجال البلاد فأدرك الشيخ سعد المتأولة بقرية دير بعشتار فأغار عليهم وحاربهم من الظهر إلى المساء، فظفر بهم وفزّ الباكون مدحورين فتبعهم الشيخ سعد إلى القلمون وأهلك منهم نحو مائة رجل، وقبض على الشيخ أبي النصر حمادة. وفي سنة ١٧٨٣م رهن الأمير يوسف عند الجزار مدبّره الشيخ سعد الخوري وأحضر ابنه الشيخ غندور سنة ١٧٨٤م وجعله مديراً له عوضاً عن أبيه. وسار الجزار إلى الحج فأخذ الشيخ سعد معه إلى دمشق فاعتراه مرض ولمّا عاد الجزار من الحج سأله أن يرتخص له بالعود إلى بلاده لمرضه فرخص له فحضر الشيخ سعد إلى جبيل ثم إلى زوق مصبح طلباً للتداوي عند جبور الجلدي الحلبي الماروني جدّ عائلة طبيب، فلم ينجح به العلاج فعاد إلى جبيل وتوفي بعيد ذلك سنة ١٧٨٥م وعمره ثلاث وستون سنة وقد رثاه المعلّم الياس آده بأبيات مطلعها:

فلا ريب بعد السعد لا شيء فاختر وقد قرحت بالدمع منا المحاجر

والمصرع الأوّل في هذا البيت ختم به رثاءه وجعله تاريخاً لوفاته لكن مجموع حروف هذا المصرع بحساب الجمل سنة ١٧٨٦م.

وكان الشيخ سعد علماً للملة المارونية وعضداً لها وكان في أيامه ابعاد البطريرك يوسف اسطفان إلى الكرمل بأمر البابا بيوس السادس بسبب الراهبة هندية، فرفع الشيخ سعد عرائض إلى الحبر الروماني وبعض كرادلة الكنيسة الرومانية مؤرخة في ١٥ آذار سنة ١٧٨٤م ملتمساً إرجاع البطريرك إلى كرسيه ميرثاً ساحته مما قذف به، وأوعز إلى أساقفة الملة ورؤساء الرهبانيات والمشايع فاقتدوا به، وأرسل الشيخ سعد الخوري يوسف التيان تلميذ مدرسة الموارنة برومة إلى البابا وأصحبه برسالتين من الأمير يوسف حاكم البلاد إحداهما إلى الحبر الروماني والثانية إلى مجمع نشر الإيمان ميرثاً البطريرك مما طعن عليه ومترجياً عوده إلى مقامه. وترى صور هذه الرسائل مأخوذة عن السجلات البطريركية في كتاب سلسلة بطارقة الموارنة الذي طبعه المعلم رشيد الشرتوني في سنة ١٩٠١م. وكتب أيضاً الشيخ سعد رسائل أخرى بهذا الصدد إلى الكردينال رئيس المجمع المقدّس وإلى المنسنيور بورجيا كاتب المجمع وإلى الكردينال ديرنس وغيرهم. وترى نسخ هذه الرسائل في الكتاب المذكور مع صورة جواب البابا بيوس السادس للشيخ سعد الخوري حيث يفتتحه بقوله: «إلى الإبن الحبيب والرجل الشريف الحسيب السلام والبركة الرسولية» حيث أفاض الكلام معه بما أخذ فيه على البطريرك، وأنّه لما كان أقترّ بغلظه وعرف سوء تصرفه أمر البابا بعوده إلى مقامه خاصة حباً بالطائفة المارونية لتشبثها الدائم بعري الإيمان الكاثوليكي. وتاريخ هذا الجواب ٢٨ أيلول سنة ١٧٨٤م. ولما توفي الشيخ سعد وبلغ خبر وفاته إلى رومة كتب الكردينال أنطونلي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدّس رسالة إلى البطريرك يوسف اسطفان يعزيه وطائفته فيها بهذه الخسارة العظيمة ويبين أمانيه بأنّ ابنه الشيخ غندور يخلفه بوجاهته وغيرته. وترى صورة هذا الجواب في الكتاب المذكور أيضاً. أمّا الشيخ غندور بن سعد فلم يكن أقلّ ذكاءً وغيره ووجاهة من أبيه وكان الأمير يوسف اتّخذة مديراً له منذ رهن أباه عند الجزار كما مرّ، وقد أحسن الخدمة وتناهى بالاخلاص لمخدومه وجدّ في السعي لراحة مواطنيه ونجاحهم، وقد أرسل البطريرك يوسف اسطفان بطريرك الموارنة يومئذ الخوري

أنطون القيايالي البيروتي إلى باريس سائلاً الملك لويس السادس عشر أن ينعم بقنصلية فرنسة على الشيخ غندور فتكرم الملك عليه بها سنة ١٧٨٧م فكان قنصلاً لفرنسة ومديراً لحكومة جبل لبنان. ويظهر أنّ الأمير يوسف كان قد كتب إلى ملك فرنسة يسأله أن ينعم على الشيخ غندور بالقنصلية وأن يواصل حمايته للموارنة كما يظهر من براءة الملك بإيلاء الشيخ غندور هذا المنصب المحفوظة في خزائن البطريركية وترى نسخة منها في كتاب المعلم رشيد المار ذكره في خزائن البطريركية أيضاً صورة رسالة كتبها الأميرال دي كاستريس الفرنساوي إلى الأمير يوسف جواباً عن عريضة للملك بها يبيّن له سرور الملك برسائله ودوام حمايته للموارنة وترى صورة هذا الجواب أيضاً في كتاب المعلم رشيد المذكور.

وللشيخ غندور أيادي جزيلة على أهل لبنان ولاسيما أبناء ملته المارونية وفي جملة مساعيه النافعة لهذه الملة إغراؤه البطريرك يوسف اسطفان على تحويل دير عين ورقة الذي كان أقرباؤه قد أنشأوه لسكنى الراهبات مدرسة إكلييريكية عامة للموارنة. وفي خزائن أوراق البطريركية المارونية رسالتان أنفذهما الشيخ غندور إلى البطريرك يوسف اسطفان يرجوه ويحثّه فيهما على جعل هذا الدير مدرسة للموارنة. ويظهر أنّ البطريرك تردّد في الإجابة عندما وردت عليه الرسالة الأولى فاشتتّى الشيخ غندور مبيّناً له لزوم هذا الأمر ومنافعه الجمة وسهولة وضعه بالعمل لأنّ الدير خاص بعائلته. ومن جملة ما قاله في هذه الرسالة الثانية بحروفه: «ما هي الإفادة إذا راحوا ثمان راهبات من عين ورقة إلى السماء وكان إكلييروس ينوف عن ثلاثة آلاف لا يحسنون قراءة الإنجيل». فقنع البطريرك وأقنع أقرباءه ودوّن صكاً مؤرخاً في ١٤ كانون الثاني سنة ١٧٨٩م بتحويل هذا الدير إلى مدرسة وترى صورة رسالتي الشيخ غندور هاتين بحروفهما في كتاب سلسلة بطاركة الموارنة المذكور على أنّ صكّ تحويل دير عين ورقة مدرسة الذي ذكر في الكتاب المذكور ليس هو الصك الذي دوّن بذلك متضمناً قانون المدرسة ونظامها إلى غير ذلك ولمّا عقد البطريرك يوسف اسطفان بأمر البابا بيوس السادس مجمع عين شقيق سنة ١٧٨٧م كان الشيخ غندور حاضراً به لأنّ الحبر الأعظم كان قد أمر أن يحضره سعد الحوري والده ويكون مساعداً على تنفيذ الأوامر الرسولية. ولمّا كان سعد قد توفي

فأقيم ابنه مقامه وكتب الشيخ غندور إلى مشايخ الموارنة أن يشخصوا إلى هذا المجمع بحسب أمر البابا ودعوة البطريك فلبى أكثرهم الدعوة ورفعوا إلى الشيخ غندور كتاباً يسألونه به أن تكون له العناية بأن يأمر هذا المجمع بإقامة المطارين عند السيد البطريك في قنوين وبكركي ويمضون وقتاً بعد وقت لزيارة أبرشياتهم وسندوا ذلك إلى جملة اعتبارات فأمر هذا المجمع بذلك ولكن لم يحسن لدى الكرسي الرسولي أن يجيبهم إلى طلبهم بل أثر أن يقيم كل أسقف في أبرشيته كما رسم بالمجمع اللبناني. وسنأتي على ذكر هذا المجمع.

وقد سعى الشيخ غندور بطبع المجمع اللبناني فطبع الطبعة الأولى في دير القديس يوحنا بالشويرة، وقد ولاه الأمير يوسف على مجدل معوش ووادي الست وبحمدون وعين تراز مدّة، ولمّا ردّ الجزار الأمير يوسف الشهابي إلى ولاية لبنان سنة ١٧٩٠م رهن عنده ولده الأمير حسين ومدبره الشيخ غندور ولم يلبث الجزار أن أعاد الأمير بشير قاسم إلى الولاية فأخذ يشكو من أنّ دسائس الأمير يوسف تمنعه من إجراء الأحكام وجباية المال فأمر الجزار بشنق الأمير يوسف الذي كان باقياً في عكا وشنق مدبره الشيخ غندور كما مرّ. وقيل إنّ الشيخ غندور لم يشنق بل مات خوفاً فكذا يزول مجد العالم.

عد ١٠٥٩

المشايخ آل الضاهر

أنبأنا العلامة البطريك الدويهي أنّ أصل هذه الأسرة من بيت الرز الذين كان منهم ثلاثة بطارقة وأنّهم عندما دكّت أهل إهدن منازل من اتبع اليعاقبة في بقوفا هاجر بيت الرز إلى كفرحورا بالزاوية في القرن السادس عشر وهم متشبثون بالإيمان القويم وما زال اعقابهم إلى اليوم حكماً على زاوية رشعين يقومون بمعاوضة الكرسي البطريكي بكل جهدهم كما يفعل الآن الشيخ أبو شديد ضاهر خليفة الشدياق أنطونيوس بن الرز . انتهى كلام الدويهي. وفي القرن الثامن عشر استمرّوا حكماً للزاوية كان يوليهم عليها والي طرابلس أو ولاية لبنان. وفي سنة ١٧٥٠م كتب لهم

الأمير ملحم الشهابي الأخ العزيز كباقي مشايخ لبنان الكبار، وكان منهم الشيخ كنعان الظاهر وكان مشهوراً بشجاعته وإقدامه ونخوته. ويروون عن فراسته روايات غريبة وكانت بينه وبين بعض الطرابلسيين محاسدة وخصام فشكوه سنة ١٧٤١م إلى عبد الرحمان باشا والي طرابلس فقبض عليه وألقاه في السجن وعرض عليه أن يسلم فأبى وأكثر له من الوعد إذا طأوعه ومن الوعيد إذا خالفه فاستمرّ مجاهراً بإيمانه لا يحيله عنه حائل وتيقن أنّ الباشا مصمّم على قتله فاحتال حتى اجتمع بالخوري ميخائيل من إهدن فاعترف عنده اعترافاً عاماً ويسر له الله أن يناوله القربان المقدّس زاداً أخيراً وبعد ذلك أمر الباشا بقطع رأسه عند باب التبانى فنفذ الأمر والتقليد الذي ينقله الشيوخ أنّ الله صنع آيات كثيرة إلى من زاروا مدفنه وأنّ بعض النصارى قطعوا يده بعد مقتله ووضعوها في كنيسة العذراء المعروفة بسيدة الحارة في طرابلس فأجرى الله آيات لمن تبرّكوا بها ولا نعلم أهو كنعان ضاهر الوارد اسمه في جملة أعيان الموارنة الذين شهدوا المجمع اللبناني أم غيره. ويترجح عندنا أنه هو هو إن صحّ أنّ مقتله كان سنة ١٧٤١م. واستمرّ آل الظاهر على إقطاعهم الزاوية يولي الأمراء الحاكمون واحداً منهم عليه إلى أن ألغى نظام لبنان الاقطاعات سنة ١٨٦١م.

عد ١٠٦٠

المشايخ آل الدحداح

إنّ هؤلاء المشايخ ينتسبون إلى جرجس الدحداح من العاقورة، وفي مبادئ هذا القرن الثامن عشر كان أحدهم الشيخ يوسف ابن الخوري جرجس ضليعاً في اللغة التركية حسن الخط بها وباللغة العربية، فاستخدمه الأمير حسين الحرفوش، ثمّ انتقل إلى خدمة الشيخ اسماعيل حمادة فوهبه بعض عقارات في عمل الفتوح فارتحل نحو سنة ١٧٠٥م إلى الكفور بالفتوح ثمّ إلى عرمون بكسروان. وتوفي يوسف المذكور سنة ١٧١٢م وكان ابنه موسى قد استخدمه الأمير منصور شهاب سنة ١٧٦١م، وبقي أخواه سليمان ومنصور يخدمان أولاد الشيخ اسماعيل حمادة المذكور كأبيهما، وعلم موسى ابنه نصيفاً وسلوماً اللغة التركية وأجاد نصيف الخط والانشاء. وفي

سنة ١٧٦٣م اتفق موسى وأخوه منصور مع الشيخ سعد الخوري على طلب ولاية بلاد جبيل للأمير يوسف الشهابي وبذلا ما بوسعهما من هذا القبيل. ولما نجح هذا المسعى وتولى الأمير يوسف بلاد جبيل والبترون استخدم الأمير يوسف ابني أخيهما سليمان وهما يوسف ونادر مع كتبة ديوانه وجعل ناصيف بن موسى جايياً للمال الأميري، واستحضر أخاه سلوماً من خدمة زوجة الأمير مراد منصور شهاب وعيّنه بخدمته. وفي سنة ١٧٧١م جعل الأمير يوسف عمل الفتوح عهداً لبني الدحداح ولما أرسل أخاه الأمير حيدراً عاملاً على بلاد جبيل أرسل معه بعض المشايخ الدحادحة، ولما حاصره أخوه الأمير سيّد أحمد في قلعة جبيل نجده المشايخ برجال الفتوح فأنعم عليهم الأمير يوسف ببعض عقارات في ساحل بلاد جبيل. وفي سنة ١٧٨٠م توفي الشيخ منصور بن يوسف الدحداح بعمر ٩٠ سنة فابقى الأمير يوسف ابنه يوحنا معزلاً كأبيه. ولما تولى الأمير بشير الكبير البلاد سنة ١٧٩٠م وانهزم الأمير يوسف إلى نواحي دمشق كان مع الأمير يوسف بعض المشايخ الدحادحة، ولما نزل إلى عكا وحبسه الجزار وحبس من كان معه من الدحادحة وهم سلوم ويوسف وإبراهيم فطلبهم الأمير بشير من الجزار وحبسهم في دير القمر، وطلب أحدهم نصيفاً من أخيه الأمير حسن فانهزم بعياله إلى الضنية. ولما تولى الأمير حيدر والأمير قعدان سنة ١٧٩٢م أخرجوا المشايخ الدحادحة من السجن ثم تولى أولاد الأمير يوسف فاستعملوا المشايخ المذكورين في الكتابة لهم. ثم تولى الأمير بشير الكبير سنة ١٧٩٥م ففرّ الشيخ سلوم الدحداح باخوته مع أولاد الأمير يوسف إلى جبيل فكتب إليه الأمير بشير يهدده بأنه إذا لم يرجع باخوته من جبيل إلى خدمته يأمر بهدم مساكنهم بعراون ويقطع أشجارهم. فرجع الشيخ سلوم إلى خدمة الأمير بشير واخوته إلى خدمة أخيه الأمير حسن. ولما تغلب أولاد الأمير يوسف على الأمير بشير سنة ١٧٩٩م وانهزم الأمير بشير وأخوه الأمير حسن إلى الحصن صحبهما من آل الدحداح سلوم ويوسف وإبراهيم ومنصور ابن سلوم ثم توجه الأمير بشير إلى مصر لمقابلة الصدر الأعظم بواسطة الأميرال سميث الانكليزي فصحبه الشيخ سلوم وبقي يوسف وإبراهيم ومنصور ابن سلوم مع الأمير حسن في الحصن، وبقي بعض آل دحداح في خدمة الأمراء الشهابيين في القرن التاسع عشر كما سترى في تاريخه.

مشايخ جبة بشري وطردهم المتاولة منها

قد مرّ ذكر كثيرين من حكام جبة بشري في القرون السابقة كالشدياق خاطر الحصري ومقدمي بشري والشيخ أبو كرم الحداثي وأبو جبرائيل يوسف وأبو كرم بشاره جدّ آل كرم من إهدن وغرضنا الآن الكلام على من كان من مشايخ هذا العمل في القرن الثامن عشر. قد رأيت في ما مرّ أنّ المشايخ آل حمادة المتاولة تولوا مرات بلاد جبيل والبترون وجبة بشري وعزلوا أو طردوا من هذه الولاية، إلا أنّه في أواخر القرن السابع عشر أي سنة ١٦٩١م قرّر محمّد باشا والي طرابلس المشايخ الحمادية على إقطاعاتهم فتولى الشيخ حسين بن سرحال على بلاد البترون وابنه الشيخ اسماعيل على الكورة، والحاج موسى بن أحمد حمادة على الجبة، وأولاد حسن ديب على الضنية. ولكن في سنة ١٦٩٢م غيّر والي طرابلس من كان سالفه قد ولاهم فنصب في بلاد جبيل حسين آغا بن الحسامي، وفي بلاد البترون المقدّم قيديه ابن الشاعر، وفي الزاوية والجبة الشيخ ميخائيل بن نحلوس من إهدن ابن أخت كرم أبي بشاره وهو من قيل عنه في الأغاني الشعبية:

يحرس دينك يا نحلوس حميت الضيعة بالدبوس
جامع رشعين هديته وفي زغرنا دقيت ناقوس

إلى أن اغتال رجل متوالي اسمه ابن الشقراني الشيخ المذكور في الضنية وعادت الولاية على الجبة إلى بيت أحمد حمادة، فكانت فتنة بينهم وبين الشيخ عبد السلام ابن الشيخ اسماعيل حمادة فهزمهم عبد السلام إلى الهرمل سنة ١٧٠٣م، وأقام في الجبة نحو أربعين يوماً، وحضر إليه بعض وجوهها خيفة من شرّه وفتر بعضهم، وفرض ضريبة على قرى الجبة ومن لم يدفع ما أصابه منها أخذ رجاله طاسات النساء وسلاح الرجال والمؤن. وكتب إلى طرابلس يلتمس الولاية على الجبة فلم يعطها حينئذ. وفي سنة ١٧١٥م حكم جبة بشري أولاد أبي محمّد عيسى وأولاد عمّهم حسين المشطوب مشتركين ثمّ قسموا البلاد مناصفة

فأخذ حسين من أبي محمد عيسى بشري وقنوين وقيطو ويزعون، وأسد ابن أخيه موسى أخذ حصرون وكفر صغاب وبلوزا وتولا وكرمسدي وراسكيفا، وأخذ أولاد حسين المشطوب النصف الآخر وكانوا ثلاثة وهم أبو ناصيف وأبو حسين وأبو قاسم فأخذ أبو ناصيف إهدن وحدها، وأبو حسين صالح أخذ عين طورين ومزرعة التفاح وبنشعي وقنات وبرحليون وحماطورا وكفر صارون وبيت زعيتري في بان، وأخذ أخوهما أبو قاسم دير قزحيا وحدثيت وبقاعكفرا، وكان في حكومتهم شيء من العدل والإستقامة واقتنوا أملاكاً سموها بكاليك مزارا وسبعل وسرعل ووطا الرامات وكفرفو وبان وحقا وثلت سرعل ودير نهرا والحدث وطرذا وبقرقاشا ونيحا وبنهران ومتريت. على أن أولاد هؤلاء المشايخ لم يسلكوا مسلك آبائهم بل عكفوا على السلب والنهب والجور حتى القتل. ومن سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٩ سلبوا راحة الأهلين ونكدوا عيشتهم وقتلوا كثيرين. وكان حينئذ من مشايخ القرى المشهورين الشيخ جرجس بولس من إهدن والشيخ عيسى الخوري والشيخ حنا ضاهر كيروز من بشري والشيخ أبو سليمان عواد من حصرون والشيخ أبو يوسف الياس من كفر صغاب والشيخ أبو خطار من عين طورين والشيخ أبو ضاهر من حدثيت. فائتمر المشايخ المتأولة على قتلهم فقتلوا منهم الشيخ أبا ضاهر من حدثيت واغتالوا كثيرين من وجوه الأهلين، وحملتهم الجسارة على أن يرسلوا ليقبضوا على المطران يواكيم يمين من إهدن فلم يكن أهل الجبة ليطيعوا هذا الجور ولا ليتحملوا هذا الدل والعار فالتقى أهل إهدن رجال المتأولة الآتين للقبض على المطران، وأوقدوا عليهم النار وأشغلوا بهم السيوف وطردهم وتبعوا أثرهم إلى درج قنوين وخيّم الظلام بينهم. وفي النهار التالي غصّت إهدن بالآتين إليها من باقي القرى وقدس المطران يواكيم بكنيسة القديس جرجس بإهدن وحلف جميعهم يمين الأمانة وعدم الخيانة، وقبضوا على رجل متوالي واشتركوا في قتله جميعاً، وجعلوا مشايخ القرى المار ذكرهم مشايخ لهم وحكاماً عليهم مكان المشايخ المتأولة، وأبقوا قسمة قرى البلاد كما كانت في أيام المتأولة. ونزل هؤلاء المشايخ إلى طرابلس وكان واليها حينئذ عثمان باشا الكرجي فالتزموا أي استأجروا منه قرى بلادهم ودفعوا المال المرتب عليها وكان ذلك سنة ١٧٥٩ م.

وأقام هؤلاء المشايخ ثلاثة بكباشية من البلاد وهم بشاره كرم من إهدن وأبو ضاهر الفرز من بشري وأبو الياس العفريت من حصرون وعينوا رجالاً من البلاد للمحافظة، وكان عثمان باشا والي طرابلس يشجعهم ويمدّهم بالمساعدات لكثرة ما كان المتاوله يقدمون عليه من التعديات في الزاوية وحدود طرابلس، وكان المشايخ يلتزمون قراهم منه ولذلك كانوا يسمونهم ملتزمي جبة بشري. وسنة ١٧٦١م هاجم المتاوله قرية بشري آتين من بعلبك إذ كان بعض المشايخ والأهلين في الساحل فدخلوها وقتلوا منها أبا ضاهر الفرز البكباشي، وجبور أصيلة، وأبا أنطونيوس سكر، وأبا رزق جعجع، وجبور رحمة ونهبوا القرية ثم رجع المتاوله ثانية من بلاد بعلبك وبلاد جبيل بنحو ألفي رجل فالتقاهم مشايخ الجبة في أرض بشري وانتشبت القتال بين الفريقين نحو ثماني ساعات ودارت الدوائر على المتاوله فاندعروا وقتل منهم اثنا عشر قتيلاً. وفي سنة ١٧٦٣م سار عليهم والي طرابلس محمد باشا ابن عثمان باشا المذكور عسكرياً إلى جبة المنيطرة وقسمه إلى قسمين: أرسل فريقاً على طريق الجبل وكان معهم بشاره كرم البكباشي المذكور ورجاله، وفريقاً على طريق الساحل وكان معهم الشيخ ضاهر حاكم الزاوية ويوسف الشمر من كفرحاتا، فعسكر الجبل شنت المتاوله فهرب بعضهم إلى ناحية بعلبك وفرّ بعضهم في وادي الميحال نحو الساحل فالتقاهم العسكر الآتي من الساحل فنكّل بهم وأحرق مزارعهم التي كانت بساحل جبيل، ولكن بينما كان بشاره كرم عائداً مع رجاله تحت المغيرة كمن له بعض المتاوله فقتلوه وستة من رجاله.

وفي سنة ١٧٦٤م توجه مشايخ الجبة إلى الأمير منصور الشهابي فولاهم على بلادهم وأمدّهم أيضاً بمحافظين لردع المتاوله عن التعدي فلم يكن ذلك كافياً لكتبهم عن إقلاق أهل البلاد إلى أن كان ما ذكرناه في عدد ١٠٤٢م من أنّ المشايخ الحمادية دهموا الأمير بشير حيدر نائب الأمير يوسف الشهابي في بلاد جبيل وهو في العاقورة ومعه شيخا بشري واهدن فقاتلهم وظهر عليهم وأبعدهم عن العاقورة، ثم حضر لنجدته رجال الجبة وبلغ الخبر الأمير يوسف فوجه مديره الشيخ سعد الخوري بعسكر فأدركهم الشيخ سعد في دير بعشتار وأثخن فيهم وظلّ يطردهم إلى القلمون وكان ذلك سنة ١٧٧٧م. وعلى هذا النحو استمرّ مشايخ

الجنة المذكورون يحكمون بلادهم أي بيت كرم في إهدن وما يليها، وبيت حنا ضاهر وبيت عيسى الخوري في بشري وما يليها، وبيت أبي سليمان عواد في حصرون وما يليها، وبيت أبي يوسف الياس بكفر صغاب وما يليها، وبيت أبي خطّار بعنطورين وما يليها، كما كانت القسمة في أيام المتأولة إلّا بعض تغيرات. وكان حكام البلاد يولون من اختاروه من كل من هذه البيوت على إقطاعاتهم إلى أن ألغيت الإقطاعات بحكم نظام لبنان سنة ١٨٦١م ووضع المشايخ يدهم على بكاليك المتأولة واستمروا على ذلك إلى أن صالح المشايخ أهل القرى البكاليك على حقوقهم بها أو باعوه هذه الحقوق. انتهى عن كتاب تاريخ لأحد هؤلاء المشايخ أنطونيوس أبي خطّار واعتماداً على التقليد المحفوظ في هذه البلاد.

عد ١٠٦٢

المشايخ أبناء اده وغيرهم

أصل هذه الأسرة من ادة إحدى قرى بلاد جبيل وأوّل من عرفناه من وجوها هو الشيخ يوسف اده خدم الأمراء آل معن في آخر مدّتهم ثمّ انتقل إلى خدمة الأمراء الشهابيين فنال حظوة لديهم ودعوه شيخاً وكان متزوجاً بامرأة من أسرته اسمها قمره ولها أخوان منصور وبطرس اده استدعاها إليه وأدخلهما على الأمراء الشهابيين فسروا بذكائهما وحديثهما ورأوا فيهما ملامح النجابة والأمانة والفراسة واختصّوهما بخدمتهم واکرامهم، فخدم الشيخ منصور الأمير منصور الشهابي فأقامه على تدبير شؤونه وأملاكه، وجعل بطرس رئيس الشرط. ولما أفضت ولاية الجبل وبيروت إلى الأمير يوسف الشهابي في حياة عمّه الأمير منصور عظم أمر أبناء ادة وكان منصور معدوداً من أهل السيف والقلم، وأما أخوه بطرس فاشتهر بالسيف أكثر من اشتهاره بالقلم. ومن مساعيهم الحسنة بناء كنيسة القديس جرجس في بيروت للموارنة وكانت صغيرة فكبرّاها بنفقتهم ونفقة مطران بيروت حيثليّ وهو المطران يوسف فاضل، وقد كتب على مذبح هذه الكنيسة: قد تمّ بناء هذا الهيكل المبارك بسعي الشيخ منصور اده. والمعلوم أنه

عاونه على ذلك أخوه الشيخ بطرس وابن أخته الشيخ الياس الآتي ذكره. ثم توفي الشيخ منصور ببيروت سنة ١٧٦٩م وقبره في جانب الكنيسة المذكورة مكتوب عليه: قد درج هنا الشهير ذكره والجليل قدره الشيخ منصور آده الجزيل التقوى والعبادة الذي بعد أن تم سعي حياته البارة بعمل هذه الكنيسة وجميع أعمال البر محبوباً من الله والناس انتقل بغتة إلى مقر الراحة من هذا العالم بتحسّر، وبكاه جميع القبائل وذلك في اليوم الخامس في شهر شباط سنة ١٧٦٩م، وتوفي أخوه الشيخ بطرس ببيت شباب سنة ١٧٨٦م.

وولد ليوسف آده المذكور سنة ١٧٤١م ولد سماه الياس وبرع بالكتابة والإنشاء، ولما توفي أبوه سنة ١٧٦٦م خلفه في رتبته وكتب في ديوان الأمير يوسف ابن الأمير ملحم الشهابي إلى أن رآه أحد عمّال الجزائر عند الأمير يوسف فعجب من حذاقته وطلبه من الأمير يوسف فاستكتبه إلى سنة ١٧٨٦م، وغضب الجزائر وقتئذ على ميخائيل وبطرس السكرج كاتبه ثم على يوسف مارون وقتله وعيّن مكانه لكتابه الياس آده فأقام في خدمته مدّة راضياً عنه، ثم سخط عليه وأرسل جنوداً استاقوه إليه من الكنيسة يريد قتله، على أنّه تمكّن بفصاحته وحذاقته أن يستعطفه إليه فرضي عنه وأهداه محبرة من فضة، لكن المعلم الياس ما يرح واجساً منه خائفاً على نفسه. وبعد مدّة استأذنه بأن يحضر إلى بيروت ليأخذ عياله إلى عكا فأذن له بأن يغيب شهراً وكان ذلك سنة ١٧٨٧م فأخذ يفكر بوسيلة للنجاة من شراك هذا الظالم وعوّل على الفرار إلى حلب، فسار إليها واختبأ في الدار الأسقفية لطائفته وأقام هناك عدّة سنين، فحنّ إلى وطنه وانتهاز فرصة محاربة نابوليون بونابارت لعكا فرجع إلى وطنه ووجد الجزائر ضبطت أملاكه في بيروت وفي جملتها أربعة دور عند باب الدركة، فتوجّه إلى الجبل إلى بيت الدين فأكرمه الأمير بشير الكبير الشهابي ولكّنه لم يأمن على نفسه هناك من سخط الجزائر، فتوطن مدّة في جهات جبيل مستخفياً إلى وفاة الجزائر سنة ١٨٠٤م. وبعد وفاته استخدمه الأمير بشير المذكور لكّنه عاد إلى بيروت يسعى في استرجاع أملاكه وأملاك أقاربه التي ضبطها الجزائر فاسترجع الأملاك التي كانت في الجبل بعدالة الأمير بشير، وأقام حينئذ مدّة ببيروت إلى أن بلغه كتاب من مصطفى آغا متسلم طرابلس وكان من

أصدقائه بأن الملك اسماعيل الكردي صاحب حمص وحماه يطلبه ليكون كاتباً عنده، فتوجه إلى حمص فرحب به الملك اسماعيل وأعزه ورأسه على كتبه ديوانه وأقام هناك خمس سنين. وفي سنة ١٨١٠م كانت نفرة بين يوسف باشا كنج والي دمشق والأمير بشير كادت تفضي إلى الحرب بينهما فأرسل الملك اسماعيل المعلم الياس اده ليسعى بالسلم بينهما ويسوي الخلاف فنجح بدرايته وأزال الخلاف، فكتب الأمير بشير إلى الملك اسماعيل يثني على مسعاه ويطلب منه المعلم الياس ليكون في ديوانه، فأرسله الملك اسماعيل وأكرم مثواه الأمير بشير وأعزه. ولكن غلت مراجل الحسد في قلوب أعدائه ونظرائه فسعوا به لدى الأمير بشير فتغير عليه وأمره أن يسكن بعيداً هو وعياله مبقياً له جعلاً سنوياً، فسكن بعيداً قرير العين إلى أن توفي بها سنة ١٧٢٧م وعمره خمس وثمانون سنة، ودفن أمام الكنيسة ونقش على مدفنه تاريخ من نظم الشيخ ناصيف اليازجي الذي كان يتردد ويتخرج عليه بأداب اللغة وهو:

حكم الاله بما ارتضى واختار للفردوس عبده
والحال قال مؤرخاً هذا رضى الياس اده

وكان الياس اده شاعراً وله كثير من النظم ولا يخلو نظمته من أغلاط نحوية وخلل في أوزانه الشعرية ويعذر بذلك لأنه لم يتخرج بمدرسة بل كان يهتدي إلى النظم بالفطرة السليمة والسليقة الطبيعية.

ومنه قصيدة يمدح بها المطران جبرائيل كنيدر مطران حلب الماروني مطلعها:

أمنذر ملك قد جاء للبشر أم طالع السعد وافى داحض الكدر
أم ضوء صبح يلاشي ظلمة دهمت أم البشير أتى في أطيب الخبر
إلى أن قال:

خذها إليك وإن كانت مقصرة فشأن مثلك ينفي العيب بالعذر

واستر فاني تركت الشعر من زمنٍ لشاغلي عنه غشى مقلة الفكر
ولمّا بلغ خبر وفاة الجزار إلى الأمير بشير وهو بحضرته فاقترح عليه أياتاً
بديهية في موته فقال:

وافى السرور وصحّ ترجيح الأمل بهلاك عالج لا يعادله مثل
عين المآثم والمظالم والردى شرّ العوالم إن تفكر أو عمل
إلى أن قال:

لله درّك يا منون لقد بدت منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الأنام وارخوه بمقصد هلك الشقي وإلى جهنّم قد رحل
ومن نظمه تاريخ لوفاة بطرس ثابت:

لا تحزنوا يا آل قوم عشيرتي إنّ البقاء في الدهر ماضٍ فائت
الموت حتمٌ للبرية شاملٌ كل ابن أنثى لا محالة مائت
وكفى يقين حيث تاريخي روى إني على إيمان بطرس ثابت

وتاريخ لوفاة منصور امرأة بطرس المذكور:

إنّ التقيّة بالثرى قد أدرجت وسعت لتلك الغاية المأثورة
طوبى لنفس ارخوها ببرها ولجت لجنة ربّها منصوره
ومن نكتته أنه مات صديق اسمه ابراهيم وله أخ اسمه يحيى لم يكن يحبه
فقال:

مات ابراهيم خلي آه وأسفي عليه
ليته قد كان يحيى ورحمة الله عليه

وله غير ذلك كثير طالع ترجمة الأب لويس شيخو له في المشرق لسنته الثانية
صفحة ٦٩٣ و صفحة ٧٣٦ .

وقد نصّر الخوري ميخائيل فاضل البيروتي الأمير ابن الأمير حيدر الشهابي سنة
١٧٥٤م ثم نصّر البطريك يوسف اسطفان الأمير قاسم عمر شهاب وعائلته سنة
١٧٦٨م في غزير وقبلهم في الطائفة المارونية، ونصّر بعده الخوري أنطون القياي
البيروتي من أولاد الأمير ملحم الأمير قاسم والأمير سيّد أحمد والأمير حيدر وتبعهم
غيرهم من آل شهاب وآل بلمع حتّى أصبح أكثر هؤلاء الأمراء المقيمين بلبنان في
آخر هذا القرن السابع عشر نصارى وموارنة، فلزم ذكرهم وحسابهم من أعيان
الموارنة. وكان من هؤلاء الأعيان أيضاً سمعان البيطار وهو ابن يعقوب بن سمعان
البيطار الذي ارتحل من قرية جاج وسكن بكفيا ورزق هناك ثلاثة بنين توفي اثنان
منهم وبقي الثالث واسمه يعقوب، ولما انسلخت ولاية الخوازنة عن القاطع وسلمت
إلى الأمراء اللمعيين وكان يعقوب معزوزاً عند الشيخ أبي نوفل حصن الخازن رغب
إليه أن يقيم بقرية غوسطا، فقدم إليها من بكفيا وولد له فيها سمعان صاحب
الترجمة، وكان عاقلاً كريماً حسن الإدارة يعتمد عليه في مهام الحكومة، سلّمه
الأمير يوسف الشهابي عمل البترون وجعله شيخاً به، فاهتمّ بعمران هذه البلاد
ونجاح سكّانها وأظهر غيرة عظيمة على الأمور الديية وأقنع الأمير يوسف حتى ملك
الرهبانية اللبانية أديار حوب وكفيفان وميفوق وأنطوش جبيل وأنعم على رهبان دير
الحقلة بمزرعة مستيتا ودير مار دوميط البوار وكنيسة القديسة صوفيا هناك وبنى
كنيسة القديس بندليمون بقرية بجدرفل وحسن بناء كنيسة بسبينا وساعد أهل
البترون على بناء كنيستهم. وتوفي في مدينة عكا سنة ١٧٩٤م ودفن في ساحة
كنيستها وخلفه ابنه يعقوب البيطار بمداركة واستقامته وحسن ديانه وغيرته. وكان
في هذا القرن أيضاً من الأعيان جرجس باز وعبد الأحد باز مديران لأولاد الأمير
يوسف شهاب، لكن رأينا أن نرجئ أخبارهما إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن الثامن عشر

عد ١٠٦٣

البطريك جبرائيل البلوزاوي

ولد هذا البطريك بيلوزا إحدى قرى جبة بشري واتخذ الطريقة الرهبانية ورقاه البطريك جرجس السبعلي إلى أسقفية حلب سنة ١٦٦٣م خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي الذي كان قد رقي إلى هذه الأسقفية سنة ١٦٥٠م، كما مرّ وأنشأ سنة ١٦٧٣م دير طاميش في جنوبي نهر الكلب وكان يسكنه متى عاد من زيارة أبرشيته الحلبية، ثم أنشأ سنة ١٧٠٠م دير مار اشعيا في أرض برمانا وأسس فيه الرهبانية المعروفة الآن بالرهبانية الأنطونية أو رهبان مار اشعيا، ووضع لها قانوناً أثبتته أولاً البطريك اسطفانوس الدويهي ثم أثبتته الكرسي الرسولي سنة ١٧٤٠م وقلماً يختلف عن قانون الرهبان اللبنانيين، وبقي مديراً أبرشية حلب المارونية مدة إحدى وأربعين سنة، وأكثر من مقتنى الأملاك لدير طاميش حتى صار من أعظم الأديار حينئذ. ولما توفي البطريك اسطفانوس الدويهي في ٣ أيار سنة ١٧٠٤م أجمع أساقفة الملة المارونية على انتخابه بطريكاً في ١١ أيار من السنة المذكورة وثبته البابا أكليمنضوس الحادي عشر على يد قاصده الأب إيليا الكرمللي الافرنسي، وبقي بعد أن صار بطريكاً، كما كان أسقفاً عائشاً العيشة الرهبانية ناسكاً متقشفاً، على أن أيام بطريركيته لم تكن طويلة لأنه توفي لرحمة الله في ٣١ من تشرين الأول سنة ١٧٠٥م، ودفن أمام معبد القديسة مارينا بقنوين.

ولم نجد أنه رقى إلى الأسقفية إلا ابن أخيه القس صافي البلوزاوي على أبرشية حلب في شهر تموز سنة ١٧٠٤م وسماه ميخائيل، وكان يسكن في دير طاميش حيث سكن عمّه وهو أسقف، ثم إنّ المطران ميخائيل هذا تنزل لعجزه عن تدبير هذه الأبرشية وخلفه فيها سنة ١٧٢٥م القس جبرائيل فرحات الشهير ودعي جرمانوس وستأتي ترجمته.

عد ١٠٦٤

البطريك يعقوب عواد الحصري

هو ابن الخوري يوحنا عواد من حصرون درس العلوم بمدرسة الموارنة برومة فبرع فيها، ولما عاد إلى وطنه جعله البطريك أسطفانوس الدويهي كاتباً له لمهارته في تعاطي الأعمال البطريركية ولفصاحته في تدوين الرسائل وتخريجه في السياسة، قام بما عهد البطريك به إليه أحسن قيام، ولذلك رقاّه هذا البطريك إلى الأسقفية على مدينة طرابلس سنة ١٦٩٨م، ولما توفي البطريك جبرائيل البلوزاوي في ٣١ تشرين الأوّل سنة ١٧٠٥م اجتمع الأساقفة في ٥ تشرين الثاني من السنة المذكورة فانتخبوه بطريكاً وثبته البابا اكليمنضوس الحادي عشر على يد قاصده الأب فردينوس الكرملّي سنة ١٧٠٦م. على أنّ سلامة سريرة هذا البطريك وقلة تحذّره أوقعته في عداوة كثيرين، واستمال أعداؤه وحساده أكثر مطارين الملة فعقدوا مجمعاً وحكموا عليه بالعزل خلافاً للقوانين، واستدعوه إلى مجمعهم، وتقدّم مقدّم الأساقفة فعزّاه من الحلل الحبرية وأقاموه في دير لويّزه كسروان محظوراً عليه الخروج منه، وانتخبوا بطريكاً مكانه المطران يوسف مبارك وعرضوا للكرسي الرسولي طالبين تثبيته، فلم يشأ البابا اكليمنضوس الحادي عشر أن يثبته بل أرسل الأب لورنسيوس حافظ الأرض المقدّسة ليفحص عن حقيقة ما كان، فأتى إلى كسروان وجمع الأساقفة والسيد يوسف مبارك الذي انتخبوه بطريكاً وأخذ ما لزم من التقارير وأرسلها إلى الكرسي الرسولي وأتى بالبطريك إلى صيدا وأقامه بدير الفرنسيين هناك.

وقد عهد البابا اكليمنضوس الحادي عشر بهذه المهمة إلى مجمع نشر الإيمان المقدّس، فاجتمع آباء المجمع بمجلس عام في ٢٠ آذار سنة ١٧١٣م فأبرزوا الحكم الآتي تلخيصه: «قد نظر آباء هذا المجمع بالوشايات الموردة على البطريرك يعقوب عواد الأنطاكي وتبصّروا بكل ما يتعلّق بذلك في عدّة مجالس فوجدوا شهادات الشهود المقدّمة على البطريرك باطلة ولا التحام ولا نظام لها، ثمّ تدبّروا الفحص الذي أجراه الأب الأكرم لورنسيوس الفاحص الرسولي وأمعنوا النظر في تقارير الشهود الذين أدّوا شهاداتهم بحضرته، وطالعوا أيضاً العرائض المرفوعة إلى الأب الأقدس من مطارنة وأساقفة وغيرهم في جبل لبنان، وأصغوا إلى ما قرره السيّد المطران جرجس بنيمين الإهدني الموكل من قبل المذكورين، وبعد مراعاة كل ما وجب مراعاته والامعان المدقّق في كل هذه الأمور حكموا بأنّ كل ما قذف به البطريرك يعقوب المذكور لا ثبات له ولا اعتماد عليه، ولاسيّما أنّ المطارين ما أمهلوه المهلة اللازمة ليحامي عن نفسه كما يقتضي العدل والصواب، ولذلك برروا ساحته لأنّه لم يثبت عليه ذنب يستحقّ شرعاً شيئاً من التأديب، وحكموا أيضاً أنّ المطارين والأساقفة لم يكن لهم حق ولا سلطة أن يحطّوه ويخلعوه من مقامه البطريركي، وأثبتوا رأي الأب لورنسيوس الفاحص الرسولي، وأرجعوا البطريرك إلى بطريركيته محافظةً على شأنه وكرامته، على أنّه لما كان تقرر أنّ البطريرك تنزل عن بطريركيته في تلك الفترة حكموا أنّه لا بدّ من الفحص في مجلس آخر عن صحّة هذا التنزّل وحذراً من أن يتأتّى ضرر على الكرسي الرسولي أو على الإيمان الكاثوليكي، أمر آباء المجمع أن يكون الأقدم بين المطارين وكيلاً وناظراً على البطريركية، ولا يحقّ لأحد أن يدعو هذا الوكيل بطريكاً ولا هو يسوغ له أن يطمع بالبطريركية لتدبيره شؤونها في تلك المدة، وفرضوا على الجميع الصمت عن هذه الأمور، وأمروا كاتب المجمع أن يترجم حكمهم هذا إلى العربية ويشهره في لبنان وغيره وفي ٤ نيسان سنة ١٧١٣ عرض الكردينال يوسف ساكريني رئيس مجمع نشر الإيمان حكم الكرادلة على الأب الأقدس فأثبته وأمر أن يكون العمل بموجبه.

وفي اليوم الثامن من أيار سنة ١٧١٣م عقد آباء مجمع نشر الإيمان مجلساً آخر عامّاً بحثوا فيه عن صحّة تنزل البطريرك بعد إمعان النظر في التقارير المقدّمة

بهذا الشأن من كل جهة واعتبار ما يلزم اعتباره حكموا بتأييد البطريرك وإرجاعه إلى مقامه وكرسيه، وأن تردّ عليه كل حقوقه وأبرشيته، وعزلوا الوكيل الذي كانوا قد أقاموه في ٢٠ آذار وعزلوا أيضاً كل دخيل وغاصب للبطريركية، وأعلنوا أن تنزّل البطريرك باطل. وكان قد تنزّل مرتين الأولى لما أعادوه إلى البطريركية في ١٣ آب سنة ١٧١١م على شرط تنزّله عنها، والثانية في ١٤ من الشهر المذكور في دير حريصا بحضرة الفاحص الرسولي، وأبطلوا أيضاً الانتخاب المدعى به لبطريرك آخر والوكالة له ولاشوهما كأنهما لم يكونا، وأمروا جميع المطارنة والأساقفة وجميع الكليرس والشعب الماروني أن يعرفوا السيّد البطريرك يعقوب عواد وحده بطريركاً حقيقياً وشرعياً على الملة المارونية جمعاء، وأن يهتموا بأن يمثل الجميع هذا الحكم وكل من خالف قولاً أو فعلاً هذه المراسيم سقط بالتأديب الذي سنّته القوانين المقدّسة على مثل هؤلاء المخالفين والحل منه محفوظ إلى الحبر الأعظم والمجمع المقدّس. وفي ٩ من شهر أيار عرض هذا الحكم على الأب الأقدس اكليمنضوس الحادي عشر فأثبته وأمر أن يكون العمل بموجبه.

وكتب البابا اكليمنضوس الحادي عشر بأثر ذلك براءة إلى المطارنة والأساقفة والاكليرس والأمرء والشعب الماروني مؤرخة في ٢ تموز سنة ١٧١٣م وتراها مثبتة في ذيل المجمع اللبباني المطبوع حديثاً صفحة ٢٩. فالحبر الأعظم بهذه البراءة قرظ الموارنة على ثباتهم الدائم في الإيمان الكاثوليكي وطاعتهم المستمرة للكرسي الرسولي، وأعرب عن شدّة انعطافه إلى هذه الملة ومحبّته لها وعظمة استيائه ممّا حدث عندهم أخيراً بدسائس بعض أصحاب المآرب المقلقين من عزلهم بطريركهم، وأوضح أنّه وجّه عنايته الحبرية لتدارك هذا الأمر الخطير ووكّل إلى آباء مجمع نشر الإيمان التحري بهذا الأمر. وبعد الفحص عن الدعوى بكل دقّة حكموا بأنّ عزل البطريرك كان مخالفاً للعدل وباطلاً من كل جهة وكذلك حكموا بأنّ تفرغه عن البطريركية باطل، فلهمذا برروا ساحته وأعادوه إلى حقوق بطريركيته وعزلوا كل دخيل أياً كان وأثبت هو هذه الأحكام بسلطانه الرسولي وقال إنّ بعد صدور الحكم وصل إلى رومة القس أندراوس اسكندر بن سمعان الماروني من قبل المطران يوسف الريفوني ويده عرائض ورسائل من البطريرك فطالعتها آباء المجمع بتأنّ

فحكموا أنّ لا ثبات لها ولا اعتماد عليها وإنّما يلزم الاعتماد على الحكم السابق (هذه الفقرة الأخيرة لم نجدها في براءة البابا المثبتة ترجمتها في ذيل الجمع اللبناني لكننا وجدناها في نسخة أخرى).

ولما كانت هذه الدعوى قد انتهت الآن كان أملنا وطيداً بأنكم تسارعون إلى طاعة أمرنا والعمل بأحكام الجمع المقدّس وتعرفون أنّ البطريرك يعقوب هو بطريرككم الحقيقي والشرعي وتقدّمون له الطاعة والتكريم، ومن المؤكّد عندنا أنّ الطاعة التي أنبتموها بدلائل كثيرة من قديم الزمان إلى الآن دون سائر الملل الشرقية هي الآن أكثر لزوماً وضرورة لاقتلاع الزوان الذي زرعه عدو بينكم الخ.

ولما شهرت براءة البابا وحكم الجمع المقدّس على الملة المارونية أذعن الجميع لها ورجع البطريرك يعقوب إلى كرسيه ومقامه، ولكن ما يرح بعض الخلاف والانقسام بين أبناء الملة ورؤسائها، ولذلك نرى البابا اكليمينضوس الحادي عشر وجه رسالة أخرى إلى البطريرك والأساقفة والأمراء والشعب مؤرخة في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٧٢١م يدعوهم بها إلى إزالة بواعث الخلاف والسعي وراء السلام وتأليف الخواطر، وأرسل إليهم بهذه الرسالة الأب جبرائيل حوّا الراهب الحلبي اللبناني الذي كان برومة ليلغهم بركته ورغائبه بأكثر تفصيل، وهذه الرسالة تجد ترجمتها مثبتة في ذيل الجمع اللبناني صفحة ٤٢ .

وعاش البطريرك يعقوب بعد ذلك مكرماً مهاباً دائماً على عمل المبرّات والقيام بأعباء البطريركية أحق قيام، وأنبأنا العلامة السمعاني في مقدّمة المجلّد الأوّل من مكتبته الشرقية أنّ هذا البطريرك عاونه كثيراً على وجدان الكتب الشرقية التي أحضرها إلى المكتبة الواتيكانية لا من لبنان فقط وليس من عند الموارنة وحدهم بل من دمشق وحلب وحمص ومصر أيضاً من عند الطوائف الأجنبية.

وأما الذين رقّاهم البطريرك يعقوب عواد إلى درجة الأسقفية فقد أخذنا أسماءهم عن سجلّات بطريركيتنا فهم:

الأوّل الخوري صافي الجميل من بكفيا رقاه سنة ١٧٠٦م وسمي الياس وتوفي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧١٦م في دير مار عبدا هرهريا ودفن به.

الثاني الخوري باسيليوس باسيل البجاني من بيت شباب رقاہ سنة ١٧١٠م إلى كرسي طرابلس وتوفي في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٧٣٦م، وجاء اسمه في المجمع اللبناني وان لم يحضره لعجزه، وناب عنه القس ميخائيل العيزري الطرابلسي المسمّى غرسيه.

الثالث جبرائيل مبارك الغوسطاوي رقاہ أخوه المطران يوسف الريفوني عندما تغلب على البطريكية سنة ١٧١٣م إلى كرسي صيدا وتوفي في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٣م في ريفون.

الرابع الخوري سمعان عواد ابن أخي البطريك يعقوب رقاہ عمه سنة ١٧١٦م إلى كرسي دمشق وكان متسلماً أبرشية صيدا وهو من آباء المجمع اللبناني.

الخامس القس عبدالله قرألى الحلبي رقاہ سنة ١٧١٦م إلى كرسي بيروت وكان من آباء المجمع المذكور وتوفي في ٦ كانون الثاني سنة ١٧٤٢م في زوق مصبح ونقلت جثته إلى دير لوزية وكان مديراً لدير حراش ورتب القانون لراهبات هذا الدير، وفي سنة ١٧٢٧م دخل إليه ثمانى عشرة راهبة.

السادس الخوري الياس محاسب من غوسطا رقاہ في ١٤ أيلول سنة ١٧١٧م إلى كرسي عرقا ودبر دير مار شليطا مقبس، وكان يزور المتن والجرود وجبيل والبترون والفتوح وكان من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٧ آب سنة ١٧٤٨م في دير مار شليطا المذكور.

السابع القس جبرائيل حوّا رقاہ سنة ١٧٢٣م إلى كرسي قبرص وتوفي برومة سنة ١٧٥٢م.

الثامن القس جبرائيل فرحات الحلبي رقاہ في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥م إلى كرسي حلب وسكن فيها وسمي جرمانوس وتوفي في ٩ تموز سنة ١٧٣٣م وستأتي ترجمته.

التاسع الخوري فرح الجميل من بكفيا رقاہ سنة ١٧٢٦م إلى كرسي جبيل وسمي فيلبوس وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ١٧ تموز سنة ١٧٧٤م في دير شويا.

العاشر الخوري يوسف صالح الدويهي ابن أخي البطريك اسطفانوس الدويهي رقه في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٧٢٨م إلى كرسي البترون ودعي اسطفانيوس وجعله نائباً بطريكاً ودبّر أبرشية بعلبك ومات في دير ريفون.

الحادي عشر الخوري يوسف ضرغام الخازن ابن أبي قانصوه الخازن رقه سنة ١٧٢٨م إلى كرسي غوسطا ثم صار بطريكاً.

الثاني عشر الخوري اغناطيوس شراية رقه في ٢ تشرين الثاني سنة ١٧٣٢م إلى كرسي صور وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٧٤٧م، ويظهر أنه كان يسكن في دير مار الياس بلوني ودير لوزة حيث توفي.

الثالث عشر الخوري يوحنا اسطفان رقه في ١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٢م إلى كرسي اللاذقية وتسلم أبرشية بيروت وكان من آباء المجمع اللبناني وتوفي سنة ١٧٧٩م في عين ورقة.

الرابع عشر القس جبرائيل عواد بن عيسى أخي البطريك رقه في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٧٣٢م إلى كرسي عكا وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٥ آذار سنة ١٧٦٣م.

الخامس عشر الخوري ميخائيل البلوزاوي الثاني بهذا الاسم رقه في كانون الثاني سنة ١٧٣٣م إلى كرسي بانياس وهو من آباء المجمع اللبناني.

السادس عشر هو القس جبرائيل حوشب رقه إلى كرسي حلب في ١ كانون الثاني سنة ١٧٢٢م وحضر إلى المجمع اللبناني فلم يصل إلا بعد نهايته فوقّع عليه وعاد إلى حلب سنة ١٧٣٧م.

السابع عشر القس طويبا ابن الشيخ أبي كنعان قيس الخازن رقه في ١ كانون الثاني سنة ١٧٣٣م إلى كرسي نابلس وسمي تارة مطران طرابلس وتارة مطران قبرص وهو من آباء المجمع اللبناني موقعاً مطران قبرص، وتسلم الوكالة على الكرسي البطريكي ثم صار بطريكاً.

وقد توفي البطريك يعقوب عواد في ٩ شباط سنة ١٧٣٣م ودفن في كنيسة مار شليطا مقبس.

البطريك يوسف ضرغام الخازن

هو ضرغام بن أبي قانصوه فياض بن أبي نوفل نادر الخازن وقد تزوج أولاً وولد له ولد اسمه ميلان، تم توفيت زوجته فصار كاهناً، ثم رقاہ البطريك يعقوب عواد سنة ١٧٢٨م إلى أسقفية غوسطا. ولما توفي البطريك يعقوب المذكور في ٩ شباط سنة ١٧٣٣م اجتمع الأساقفة في ٢٣ من الشهر والسنة المذكورين لانتخاب خلف له، فاختار ستة منهم: المطران عبدالله قرألي مطران بيروت، واختار ستة آخرون الياس محاسب مطران عرقا، واختار اثنان اسطفانوس الدويهي مطران البترون، وطال الخلاف بينهم وكان المطران يوسف ضرغام الخازن يحرضهم على الاتفاق ويلومهم على الخلاف ويبين لهم العثار الذي سيكون من تعمدهم رغائب بشرية وعدم اتفاقهم بروح الرب على من يرون به أهلية لتمجيد الله ونفع طائفهم، فأتم رأبهم أخيراً على انتخابه فانتخبوه بطريكاً في ٢٤ شباط سنة ١٧٣٣م في دير ريفون وثبته البابا اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٤م على يد موفده القس عبدالله ابن الحاج عون من عجلتون. وفي أيامه سلمت مدرسة عينطورا ومدرسة زغرta إلى الآباء اليسوعيين بشروط يبينها الأب الرئيس العام لجمعية الآباء المذكورين بوثيقتين الأولى بشأن مدرسة عينطورا مؤرخة في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤م، والأخرى بشأن مدرسة زغرta مؤرخة في ١٠ كانون الأول سنة ١٧٣٥م. وسيأتي ذكر هاتين المدرستين بأكثر تفصيل. وفي أيامه أيضاً عقد المجمع اللبناني الشهير الذي هو دستور الأمور الروحية في طائفتنا إلى اليوم وسنفرد فصلاً برأسه للكلام في هذا المجمع. وفي أيامه أيضاً وبعنايته جدّد لويس الخامس عشر ملك فرنسا الحماية للموارنة بموجب براءة مؤرخة في ١٢ نيسان سنة ١٧٣٧م، إقتداءً بأبيه لويس الرابع عشر الذي كان قد جدّد لهم هذه الحماية براءة مؤرخة في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م إعتماًداً على الحماية التي بذلتها فرنسا للموارنة بموجب براءة القديس لويس التاسع ملك فرنسا عند شخوصه إلى قبرص وسورية سنة ١٢٤٩م. وأما الكهنة الذين رقاہم البطريك يوسف ضرغام الخازن إلى الأسقفية فلا نعرف منهم إلا اسطفان عواد السمعاني الذي كان مع خاله السيّد يوسف سمعان

السمعاني في الجمع اللبناني وكان رقيباً فيه فراقه البطريك بعد ذلك إلى أسقفية أبا ميّا. وقد عثرنا في السجلات البطريركية على رسائل من هذا المطران إلى البطريك المذكور مؤرخة بعد الجمع المذكور، ولم نعثّر في هذه السجلات على أسماء من رقاّهم هذا البطريك للأسقفية كما عثرنا على أسماء من رقاّهم غيره. ويظهر أنه من سنة ١٧٣٣م التي ارتقى فيها إلى البطريركية إلى سنة ١٧٣٦م التي عقد فيها الجمع اللبناني لم يسقف أحداً لأنّ جميع الأساقفة الذين وقّعوا على الجمع اللبناني كان سالفه البطريك يعقوب عواد قد سقّفهم إلّا المطران حبرائيل أسقف صافية فقد كان البطريك اسطفانوس الدويهي قد رقاّه كما رأيت وأما هل رقى البطريك يوسف ضرغام بعد الجمع اللبناني غير اسطفانوس عواد المار ذكره فلا نعلم ولم نجد في السجلات البطريركية أنه رقى اسقفًا آخر كما وجدنا أسماء من رقاّهم أسلافه وخلفاؤه. والله أعلم.

وتوفي البطريك يوسف ضرغام في ١٣ أيار سنة ١٧٤٢م في دير ريفون ودفن في كنيسة النبي الياس في غوسطا.

عد ١٠٦٦

البطريك سمعان عواد

هو ابن أخي البطريك يعقوب عواد رقاّه عمّه إلى أسقفية دمشق سنة ١٧١٦م كما مرّ، وبعد وفاة البطريك يوسف ضرغام الخازن اجتمع الأساقفة في عين ورقة فانتخبوه بطريكاً فأبى قبول الانتخاب زهداً وتورعاً، فانتخبوا المطران الياس محاسب الغسطاوي أسقف عرقا، وكان المطران طويّا الخازن غائباً فلم يقبل انتخاب المطران الياس المذكور بل اتّفق مع المطران جبرائيل من طائفة السريان فرقى إلى الأسقفية كاهنين من قسوس دير لويّزة وهما القس عبدالله حبقوق الذي توفي في ٧ آب سنة ١٧٥٨م بكفر صغاب والقس جرمانوس صقر من حلب فانتخباه بطريكاً في دير لويّزة. وأظنّ أنّ بعض المطارين المجتمعين في عين ورقة كانوا قد انتخبوا المطران طويّا حتى ساغ له أن يدّعي البطريركية وينازع المطران الياس عليها

وقدم كل من المنتخبين أي المطران الياس والمطران طوييا العرائض للحبر الأعظم طالباً لإثباته في البطيركية ووجه كل منهما موفداً إلى رومة لمحاماة دعواه مصحوباً ببيانات وأدلة على صحة دعواه وسقوط دعوى خصمه منشأة من رجال فقهاء، فعين البابا بناديكطوس الرابع عشر بعضاً من كرادلة مجمع نشر الإيمان المقدس ليجمعوا أمامه ويفحصوا حجج كل منهما ويسمعوا تقارير كل من موفديهما، فظهر للكرادلة أنّ الانتخابين باطلان ويلزم إعلان بطلانتهما، وكان الحبر الروماني متردداً واجساً من المصاعب التي تكون من قبل الفريقين واستشار الكردينال فشنسيوس بترا رئيس مجمع نشر الإيمان الذي كان يثق بعلمه وسعة إطلاعه على القوانين البيعية فأشار بإبطال الانتخابين، واستشار أيضاً العلامة السمعاني الذي كان موثقاً بعلمه واستقامته ومخبرته في بني ملته فأشار بإيضاح بطلان الانتخابين واختيار المطران سمعان عواد الذي كان الأساقفة قد انتخبوه فأبى، فعول الحبر الأعظم على ذلك وكتب براءة مؤرخة في ١٦ آذار سنة ١٧٤٣م موجهة إلى الأساقفة أبطل بها انتخاب المطران الياس والمطران طوييا وأمر بأن يكون المطران سمعان عواد بطيريكاً، وحتم على المطارنة والأساقفة والاكليروس والأعيان والشعب أن يخضعوا لسلطته ويمثلوا أوامره، وصرّح بأن انتخابه هذا البطيريك لا يقصد به تبطيل حقوق أساقفة الموارنة على انتخاب بطيريكهم في ما يأتي من الزمان بل جلّ المقصد إزالة المنازعات وإرجاع الهدوء والسلامة. وكتب رسالة إلى البطيريك سمعان يعلمه بانتخابه ويأمره أن يباشر السلطان البطيريكى على كل مخالف، وأرسل هذه الأوامر الرسولية إلى الأب يعقوب من لوكا أحد رؤساء رهبان القديس فرنسيس، وأمره أن يتوجّه بها إلى لبنان بمنزلة قاصد رسولي ويشهرها على رؤساء الملة المارونية، وحوّله كل سلطة لازمة لتنفيذها. فتوجّه القاصد المذكور من القدس إلى كسروان ودعا إليه المطارنة والأساقفة وعلية الاكليروس والأعيان إلى دير حريصا فنشر عليهم أوامر عظيم الأحبار فأذعن جميعهم دون مخالف للأوامر الحبرية بملء الرضى والطاعة الخلصة، وأجابوا أجمعين بما قاله آباء المجمع الخلكيدوني أنّ بطرس تكلم بلسان خليفته بناديكطوس الرابع عشر وأقبل جميعهم ينحنون أمام البطيريك سمعان مهنين له ومبدين عواطف الطاعة والسرور.

ورفع حيثيذ البطريك والأساقفة عرائض الطاعة والامثال لأمر الأب الأقدس وأصحابها الاكليرس والأعيان بعرائض الشكر والثناء لقداسته، وعرض القاصد المذكور للبابا ولجمع نشر الإيمان مبيناً باندھاش ما رآه من شعائر الطاعة للكرسي الرسولي عند الموارنة، فبلغت هذه العرائض إلى رومة سنة ١٧٤٤م وكان البطريك قد وُكِّل إلى المونسنيور يوسف السمعاني أن ينوب عنه بالتماس التثبيت له من الحبر الأعظم فجمع امام الأحبار الكرادلة ومقدمي البلاط الواتيكاني والرؤساء والأعيان في ٣ تموز سنة ١٨٤٤م ونطق بخطبة يحق للموارنة أن يدؤنوها بالتبر ويخلدوا ذكرها ولا تنمالك من أن نورد بعض فقراتها وان كُتِّا أسلفنا ذكر بعضها. قال ونعم العلامة القائل:

«لا شك في أنَّكم تعلمون جيِّداً أنَّ الموارنة هم مسيحيون سريان يختصون بالبطريركية الأنطاكية لأنَّهم يسكنون سوريا وسواحل فينقيا وجبالها وفلسطين وقبرص ومصر وغيرها من الأمصار الشرقية، والسواد الأعظم منهم يقطنون في لبنان، ولا يفوت علمكم أيضاً أنَّه لما فُشت في أواخر القرن السابع بدعة القائلين إنَّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً وأفسدت سكان البطريركية الأنطاكية فالموارنة رغبةً في أن يصونوا ملَّتَهم ويوقوها ذلك الفساد عزموا على أن ينتخبوا لهم بطريكاً يثبت من الحبر الروماني ويستمد منه درع الرياسة. ولما مرَّت قرون وأخذ السراكسة أنطاكية وطرَدوا منها اللاتينيين الكاثوليكين فرَّ هؤلاء اللاتينيون إلى جبل لبنان وقبلهم بطريك الموارنة بالترحاب والمؤانسة والوداد، فكتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكره لذلك ويدعوه البطريك الأنطاكي. وما برح بطاركة الموارنة يعرفون بهذا الاسم مع إنَّهم نصبوا كراسيهم ثابتةً في جبل لبنان. وقد كان الموارنة كلَّ حين كما هم الآن كاثوليكين كلَّ الكتلثة مرتبطين بالاتحاد بالكرسي المقدس باذلين الطاعة والاحترام التام للحبر الروماني ولبطريركهم، ولكن من حيث هم بشر فليس يعجب أن يحدث بينهم أو إن حدث نقص بشري في شأن بطريركهم وربما يتذكَّر بعضكم ما جرى في أيَّام سالفنا السعيد الذكر اكليمنضوس الحادي عشر من عزل البطريك يعقوب وما التحق بذلك الحبر الجليل من الإهانة العائدة أيضاً إلى حقوق الكرسي الرسولي ... ولما تأكَّد البابا برارة

ذلك البطريك وبراءته حكم يرجوعه إلى كرسيه الذي حطّ عنه ظلماً فقدم الموارنة حيثئلاً دليلاً حديثاً على حسن طاعتهم وخضوعهم للكرسي الرسولي.

ونحمد الله على أنّه لم يصدر منهم في أيّام حبريتنا عزل بطريك لكنّه حدث حادث كدرنا كدراً عظيماً وهو أنّه في سنة ١٧٤٢م انتقل إلى رحمة الله يوسف بطرس الخازن البطريك، وعندما اجتمع المطارنة والأساقفة كالعادة لينتخبوا خلفاً له انقسموا إلى قسمين، فاختار بعضهم الياس مطران عرقا وبعضهم طوبيا مطران قبرص». وأردف البابا كلامه بإخبارهم عن عرائض المنتخبين له وارسال كل منهما موفداً إليه واختياره بعض كرادلة مجمع نشر الإيمان للفحص عن ذلك بحضرته وحكمهم ببطلان الانتخابين واستصوابهم تعيين بطريك غير المنتخبين وتصويبه العمل برأيهم إقتداءً ببعض أسلافه في حوادث كهذه ذكرها لهم وإصداره الأوامر بذلك إلى أن قال: «فهذا ما لزم إيضاحه لكم قبل تلاوة رسالة البطريك الذي اخترناه ورسائل المطارنة والأساقفة الموارنة فمنها تحيطون علماً بما قد جرى». فتقدّم المونسنيور يوسف السمعاني فرفع إلى قداسته الرسائل المذكورة فدفعها البابا إلى كاتب البراءات الرسولية وأمر فتليت أولاً باللغة العربية ثمّ تليت ترجمتها اللاتينية. وحيثئذ استأنف قداسته الكلام فقال: «أفهمتم أنّها الإخوة المحترمون أنّه انتهى بعون الله القادر على كل شيء أمر انتخاب بطريك بكل سلامة وعلى النحو الذي ألهمنا الله إليه ... والمطرانان الياس وطوبيا المنتخبان قبلاً إلى البطريكية حالما سمعا بانتخابنا البطريك سمعان عواد أذعنا وقدّما على الفور الطاعة والخضوع له وبيّنا بذلك عظم طاعتهما لهذا الكرسي الرسولي، فلا غرو أنّ المطارنة والأساقفة والطائفة المارونية جمعاء يستحقون الثناء الجزيل، ولذلك نجملهم من صميم فؤادنا بتلك المدائح السامية التي قرظهم بها أسلافنا الأبحار الرومانيون فقد شبههم بيوس الرابع بالألوف الكثيرة العدد التي لم تحن ركبها لباعال ... وأثبت هذا القول اكليمنضوس الثامن وزاد عليه بأنّ الموارنة قدّموا دائماً وفي كل حين الطاعة للكنيسة الرومانية أم سائر الكنائس ومعلمتهن، وشبّههم البابا بولس الخامس بالورد بين الأشواك. وقال في حقّهم أوربانوس الثامن لم يذبل بهاء الكرم ولم ينقص مجد لبنان لأنّ بطريك الموارنة وأساقفتهم وكهنتهم وشعبهم يحترمون سلطان القديس بطرس ويكرمونه

بشخص الحبر الروماني». وختم البابا خطته بمنح التثبيت للبطريرك فانبرى العلامة السمعاني فقاه في ذلك المحفل بخطبة شكر لقداسته معدداً نعم الاءاء وأسلافه على الملة المارونية ولا تسأل عما حوته تلك الخطبة من المعاني السامية والعبارات البليغة والأساليب الشائقة.

ثم أخذ البطريرك سمعان يتفانى بحراثة كرم الرب متجراً بالوزنات الخمس رابحاً أضعافها بجهاده غير ضنين بتعب أو نصب في سبيل نفع شعبه واقتياده إلى المراعي الخلاصية وتنكبه عن الضلال والاثم، مكداً مجدداً بالوعظ والانذار والتعليم. ولما رأى أن مصلحة شعبه تقضي عليه بالاغتراب هاجر وطنه وكرسبه في دير قنوين وأقام بدير مشموشه في الطرف الجنوبي من لبنان، فأنشأ هذا الدير وسلّمه إلى الرهبان اللبنانيين وتوفي به في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦م. ولهذا البطريرك عدة تأليف والذي نعرفه منها كتاب «النجاة» يشتمل على مواعظ بليغة مؤثرة، وكتاب في «اللاهوت الأدبي» ويتبعه كتاب في أسرار الكنيسة سماء «خزانة الأسرار»، وكتاب في «حلّ المشاكل الواردة في الأسفار المقدسة»، وكتاب «عنوانه زيارة الأسقف الصالح» ضمّنه إرشادات للأساقفة في زيارتهم لرعاياهم.

وأما الذين رقاهم إلى الأسقفية فهم:

الأول الخوري ميخائيل الصائغ رقاہ في ٢٨ شباط سنة ١٧٤٦م إلى أسقفية دمشق وكان يدبر أبرشية بلاد جبيل والبترون.

الثاني الخوري أنطون محاسب من غوسطا رقاہ إلى أسقفية عرقا سنة ١٧٤٨م وكان يدبر دير مار شليطا وأبرشية جبيل والبترون والفتوح وتوفي في ١٣ أيلول سنة ١٧٨٠م في الدير المذكور.

الثالث القس يواصاف الدبسي من بسكتتا رقاہ سنة ١٧٤٨م إلى كرسي صور ويسمى مطران عكا وتوفي في ٢٦ حزيران سنة ١٧٦٠ في دير مار ساسين بسكتتا.

الرابع القس بطرس عطايا من رهبان مار اشعيا وأصله من ساحل علما رقاہ سنة ١٧٤٩م على أبرشية طرابلس عاش خمسة أشهر وتوفي في ١٥ شباط سنة ١٧٥٠م في زمين ببلاد الخواي.

الخامس الخوري يوسف اسطفان من غوسطا رقاہ في شهر آب سنة ١٧٥٠م إلى أبرشية بيروت وهو الذي صار بطريركاً.

السادس القس يمين الحاج بطرس من ساقية المسك من رهبان مار اشعيا رقاہ سنة ١٧٥٢ على بانياس ودعي بطرس.

السابع الخوري يوسف ابن الشيخ أبي نصار ياغي حبيش من ساحل علما رقاہ سنة ١٧٥٥ إلى أبرشية صيدا وتوفي في ٢ شباط سنة ١٧٧٠ في دير مار جرجس علما.

الثامن الخوري يواكيم يمين من إهدن رقاہ في ٢٤ تموز سنة ١٧٥٥ وتوفي في ٢٦ حزيران سنة ١٧٨١ بزغرنا ودفن في كنيسة.

التاسع القس ارسانيوس عبد الأحد رقاہ في ٦ أيلول سنة ١٧٥٥ على أبرشية دمشق ودير حراش وسمي مطران بعلبك وتوفي نحو سنة ١٧٨٨ في دير الرهبان برومة ودفن فيه.

العاشر القس طوييا الراهب اللبناني ابن طريه ابن الشدياق ابن المطران إسحاق الشدراوي رقاہ ليكون وكيلاً على الكرسي البطريركي ودعي إسحاق باسم جدّه ولم نجد تاريخ سنة ترقيته ولكن عثرنا على أنّه توفّي بطرابلس في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٧٥٣.

الحادي عشر القس جبرائيل صقر من حلب من الرهبان اللبنانيين رقاہ إلى الأسقفية سنة ١٧٥٢ وتوفي في ٥ كانون الأوّل سنة ١٧٥٣ في دير حراش وعمره ثمانون سنة وهو أخو المطران جرمانوس الذي رقاہ المطران طوييا الخازن والمطران جبرائيل السرياني إلى الأسقفية مع القس عبد الله حبقوق لزيادة عدد الأساقفة المحازيين للمطران طوييا، وكان ذلك في ٢٠ أيار سنة ١٧٤٢. وتوفي المطران جرمانوس صقر في ١٨ أيلول سنة ١٧٦٨ وتوفي البطريرك سمعان بدير مشموشه في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦.

البطريك طوييا الخازن

هو ابن أبي كنعان قيس الخازن رقاہ البطريك يعقوب عواد إلى أسقفية نابلس سنة ١٧٣٣م ودعي مطران قبرص، وبعد وفاة البطريك يوسف ضرغام الخازن انتخبه بعض الأساقفة للبطريركية، وانتخب باقيهم المطران الياس محاسب فأبطل البابا بناديكتوس الرابع عشر إنتخابهما كما مرّ. ولمّا توفي البطريك سمعان عواد في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦م اجتمع الأساقفة في ٢٨ منه وانتخبوه بطريكاً في كنيسة القديس يوسف بعينطورا وثبّته البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٧ آذار سنة ١٧٥٧م على يد موفده المطران ارسانيوس عبد الأحد الحلبي مطران بعلبك المار ذكره وكان يقيم في كسروان ولاسيما في دير مار روحانا البقيعة، وقد أنشأ هذا البطريك دير القديس أنطونيوس في بقعاتا. أمّا الذين رقاہم إلى الأسقفية فهم:

الأول القس ارسانيوس شكري الحلبي رقاہ إلى أسقفية حلب في ٢٦ آذار سنة ١٧٦٢م وتوفي في شهر أيلول سنة ١٧٨٦م في دير عين شقيق حين اجتماع مجمع هناك سيأتي ذكره ونقلت جثته إلى دير لوزة.

الثاني الخوري ميخائيل فاضل البيروتي رقاہ في ١١ حزيران سنة ١٧٦٢م إلى أسقفية صور وجعله نائباً للكرسي البطريك في ثمّ سلّمت إليه أبرشية بيروت سنة ١٧٨١م.

الثالث القس عبدالله الطرابلسي رقاہ إلى أسقفية عرقا سنة ١٧٦٢م وسكن في دير النبي الياس بيلوني مديراً بعض قرى كسروان وتوفي في الدير المذكور.

الرابع القس مبارك بن عبدالله مبارك من زوق مصبح رقاہ سنة ١٧٦٣م إلى أسقفية الرها ودعي جبرائيل ودبّر أبرشية بعلبك وسكن دير ريفون وتوفي به سنة ١٧٨٨م بعد أن تنزل عن تدبير الأبرشية.

الخامس القس روفائيل الحاقلائي من زوق مصبح رقاہ إلى أسقفية طرابلس سنة

١٧٦٥م وسمي مطران دمشق أيضاً وتوفي في ٦ أيلول سنة ١٧٨٠م ودفن في دير لوزة.

وتوفي البطريرك طوبيا في ١٩ أيار سنة ١٧٦٦ في عجلتون ودفن في كنيسة السيدة بها المختصة بعائلته.

عد ١٠٦٨

البطريرك يوسف اسطفان

هو أحد تلامذة مدرسة المواردنة برومة درس بها اللغات والعلوم الكنسية فبرع وفاق أقرانه وارتقى إلى درجة الكهنوت المقدسة وتفانى بالغيرة على خلاص النفوس فرقاه البطريرك سمعان عواد إلى أسقفية أبرشية بيروت سنة ١٧٥٠م وبعد وفاة البطريرك طوبيا الخازن في ١٩ أيار سنة ١٧٦٦م اجتمع الأساقفة فانتخبوه بطريركاً في ٩ حزيران من السنة المذكورة، ونال التثبيت من البابا اكليمنضوس الثالث في ٦ نيسان سنة ١٧٦٧م على يد موفده الأب عبد الأحد أنطونيوس من لوكا أحد رهبان القديس فرنسيس، وجعل إقامته بدير مار يوسف الحصن بغوسطا الذي كان قد أنشأه من ماله في عقار ورثه عن أبيه. وفي أيام هذا البطريرك قد تثبتت قسمة الرهبانية اللبنانية إلى بلدية وحلبية فقد كان هؤلاء الرهبان قد أجزوا القسمة بينهم في أيام البطريرك سمعان إلا أنه بقيت منازعات بينهم عرض أمرها لمجمع نشر الإيمان المقدس فصدر أمر البابا اكليمنضوس الثالث عشر إلى البطريرك يوسف اسطفان وإلى رئيس الرهبان الفرنسيين ومحافظ الأرض المقدسة أن ينظروا فيما بينهم من الخلاف ويزيلاه بما يريانه ملائماً، فاجتمع البطريرك والرئيس المذكور في دير حريصا في ٨ كانون الأول سنة ١٧٦٨م فدعيا الأب عمانوئيل من رشميا رئيس البلدين ومدبريه، والأب لويس الحلبي رئيس الحلبيين ومدبريه وعدّلا القسمة بينهما وأزالا الخلاف، ودوّنا صكاً بذلك وقّع عليه الرئيسان العامان والمدبرون، وعرضا الأمر للكرسي الرسولي فأثبت البابا اكليمنضوس الرابع عشر هذه القسمة سنة ١٧٧٠م.

إنَّ أهمَّ الأحداث التي كانت في أيام هذا البطريك هو أمر الراهبة حنة عجمي المعروفة بهندية وانخداعه بقداستها وصحة إيمانها، ومحاماته عنها أوجبت الكرسي الرسولي أن يطلبه إلى رومة ويربطه عن التصرف بسلطانه البطريكي، فالعابدة المذكورة كانت أصلاً من قرية بشري وهاجر أهلها إلى حلب فولدت بهذه المدينة وانضوت إلى أخوية قلب يسوع التي أنشأها الآباء اليسوعيون بحلب، ولحسن سيرتها وذكائها جعلت رئيسة لهذه الأخوية ودار في خلدها أن تنشئ رهبانية تعرف: «بقلب يسوع الأقدس»، ولم تَزْ محلاً أكثر ملائمة لذلك من جبل لبنان، فحضرت سنة ١٧٥١م إلى كسروان صحبة أحد الآباء اليسوعيين فأقامت أولاً في دير حراش وأخذت تبحث عن محل يناسب مقصدها فاشتريت دير بكركي من الرئيس العام والمديرين لرهبة مار اشعيا بثلاثة آلاف وخمسة مئة قرش، وكان المطران جرمانوس صقر الحلبي الساكن وقتئذ في دير حراش يعضدها ويعاونها على مشروعها، وكان لها أخ انضوى إلى جمعية الآباء اليسوعيين قاومها أولاً خوفاً من عدم نجاحها، ولما رأى تقدّمها في مسعاها عاونها وابتدأت سنة ١٧٥٢ في توسيع بناء دير بكركي وإحكامه واتقانه، ثم جمعت إليه شابات اهتمت بشقيفهنّ وإرشادهنّ في طريق الفضيلة والكمال، ثم ألبستهنّ الزيّ الرهباني فزاع سيط هذه الراهبة وكثرت راهباتها واشتهرن بحسن سيرتهنّ وتورعهنّ، وجمعت هندية أيضاً رهباناً وكلت إليهم تدبير أملاك الدير وقضاء مهامه الخارجية، ولما توفي المطران جرمانوس صقر معاضدها المذكور بذلت عنايتها في ترقية أحد رهبان ديرها إلى أسقفية حمص ودير بكركي القس ارسانيوس دياب سنة ١٧٦٨م وسُمّي جرمانوس، وعظمت شهرة هندية حتى اعتدّها البعض قديسة وأكثر المؤمنون من التبرّع بالإحسانات على ديرها فزادت في بنائه وعزمت أن تبني كنيسة كبيرة في العرصة التي بين دير الرهبان إلى الغرب وسكن الراهبات إلى الشرق.

وفي سنة ١٧٧١م طلبت هندية من البطريك يوسف اسطفان ومطارين الطائفة تثبيت قانون رهبانيتها الذي كانت قد جمعته من قوانين بعض الرهبانيات، فأبى البطريك إجابة سؤالها إذ لم يكن لها إلا دير بكركي، فألح عليه بعض المطارين والأعيان وارتأوا أن يضاف إلى رهبانية هندية دير مار يوسف الحصن ودير مار

جرجس علما وكان بهما راهبات عابدات، فحسن ذلك لدى البطريرك وأضاف
الديرين المذكورين إلى بكركي وأثبت القانون.

وسنة ١٧٧٧م داخل بعضهم الريب في صحّة إيمان هندية فرفعوا عراض إلى
البابا بيوس السادس والمجمع المقدّس يدّعون بها أنّها تعلّم ضلالاً مخالفاً للإيمان
القويم، فسأ البطريرك وأكثر مطارينه هذا التشكي وغلب على أفكارهم أنّ ذلك
دسائس مبغضين وأجولات حاسدين فحاموها وزيّقوا تلك الأقوال، فأرسل البابا
قاصداً يبحث عن الحقيقة فحضر إلى بكركي وأجرى الفحص فكانت خلاصته
تقريره: «إني حضرت إلى بكركي وفحصت عن أحوال راهباته ومعتقدهنّ
وسيرتهنّ وكذلك فحصت عن باقي جمهور الدير المنتمين إلى قانون قلب يسوع
وكنّت أختالي ألقى شبكتي في نهر متدفّق بالفضائل فوجدت أني ملقيها في بحر
متموّج بالأعمال الصالحة وشعائر القداسة».

فشهادة هذا القاصد بعد فحصه زادت البطريرك وبعض الأساقفة تمسّكاً بهندية
واعتباراً لصحّة إيمانها وبرارتها فاندفعوا إلى الحماة عنها، لكن المضادين لها ما
انفكوا يثلبونها ويطعنون في استقامة معتقدها، وكثر مضادوها وانضمّ إليهم بعض
راهبات ديرها فاضطرّ المجمع المقدّس سنة ١٧٧٨م أن يرسل قاصداً آخر لإعادة
الفحص عن تعليمها ولدى مطالعته كتاباً ألفته وسمّته «اللاهوت السري» عثر به
على ما يوجب الشك في صحّة معتقدها فأنّتها قالت فيه: «إنّ الإنسان الكاثوليكي
إذا تناول القربان المقدّس حاصلاً على النعمة المبررة اتّحد بلاهوت المسيح اتّحد
لاهوته بناسوته سنداً إلى قول الرسول (قرنثية فصل ٧ عد ١٧) «من التصق برّبنا
كان معه روحاً واحدة». فعرض الفاحص ذلك للمجمع المقدّس مع ما قرره له
المضادون فأصدر البابا بيوس السادس أمراً مؤرخاً في ٢٥ حزيران سنة ١٧٧٩م
قاضياً بإلغاء رهبانيتها وإبعادها وراهباتها عن ديرها بكركي، وموجباً اللوم الشديد
على البطريرك لتغاضيه عنها ومحاماته لها، وأمر بتوزيع الراهبات في أديار كسروان
التي للعابدات، وتعيّن لإقامة هندية الدير المعروف بدير سيدة الحلقة حيث قضت
حياتها بالتوبة والورع وكانت وفاتها به سنة ١٨٠٢م.

أمّا البطريرك فطلب القاصد منه الرجوع عن أوامر كان قد أصدرها محاماة

لهندية، وأن يوقع على صورة إقرار كان المجمع المقدس قد أرسلها ليذيلها بتوقيعه فلم يشأ أن يوقع عليها كما كانت منشأة بل نقحها وغير شيئاً فيها، وشكاه بعض خصومه أنه التجأ إلى الذراع العالمي في هذه الأمور، ولما بلغ القاصد ذلك إلى المجمع المقدس صدر أمر الحبر الروماني بأن يكون مربوطاً عن التصرف بسلطانه البطريركي وأن يشخص إلى رومة ليعطي جواباً عن محاماته لهندية وعن عصاوته برفضه التوقيع على صورة الإقرار المقدمة له من القاصد الرسولي، وأقام السيد ميخائيل الخازن مطران قيسارية ليكون مديراً للبطريركية ما دام البطريرك مربوطاً، فسارع البطريرك بالطاعة للأمر وسار إلى دير النبي الياس في الكرمل ليسافر من حيفا إلى رومة فاعتري البطريرك هناك مرض منعه من السفر.

فعظم القلق في الطائفة وكان حينئذ الشيخ سعد الخوري مديراً للأمر يوسف والي لبنان فجعله يكتب إلى البابا بيوس السادس رسالة يبرئ بها ساحة البطريرك من كل لائمة ويلتمس عوده إلى منصبه البطريركي. ورفع الشيخ سعد عرائض إلى البابا المشار إليه وإلى نيافة الكردينال رئيس المجمع المقدس والمونسنيور بورجيا كاتب هذا المجمع والكردينال ديرنس الفرنسي مذكراً إيّاه بحماية فرنسة للموارنة والكردينال كرسيني جواباً له عن كتاب كان قد أرسله إليه توصية بالخوري يوسف تيان عند عوده من رومة إلى لبنان. وفي كل هذه العرائض كان الشيخ سعد يبرئ البطريرك من كل شائبة ومن كل مخالفة لأوامر الكرسي الرسولي، ويعتب لمعاملة البطريرك هذه المعاملة التي تكسر خاطر الطائفة وتحزن قلبها، وأوعز الشيخ سعد إلى الأساقفة ورؤساء الرهبانيات والأعيان ليرفعوا مثل هذه العرائض، وأرسل بها إلى رومة الخوري يوسف التيان المذكور وقد أثبت المعلم رشيد الشرتوني (في كتابه سلسلة بطارقة الموارنة نقلاً عن السجلات البطريركية) صور كل هذه العرائض وشفعها باثبات مرسوم الجواب من البابا بيوس السادس إلى الشيخ سعد الخوري باللاتينية وترجمته العربية مؤرخاً في ١٨ أيلول سنة ١٧٨٤م مفتتحاً بقوله: «أيها الابن الحبيب والرجل الشريف السلام والبركة الرسولية. لم يخامرنا ريب البتة في عنايتك أيها الابن العزيز والرجل الشريف بالحفاضة على الإيمان الكاثوليكي دون انشلام بل نشني عليك أطيب الثناء مقرين بأن إطفاء تلك النار البكرية كان خاصة

باهتمامك ويعزى إليك إزالة ذلك القلق اعتماداً على مراسيمنا الصادرة سنة ١٧٧٩م، ولم يخطر لنا ببال أن نوجب اللوم على أخينا المحترم البطريرك يوسف اسطفان لالتجائه إليك واعتضاده بك ليتمكن من أن يقيم بحاجاته من المداخيل الزمنية لكرسيه البطريركية». ثم يبين له أن ما أوجب اللوم على البطريرك إنما هو ما بلغه عنه أنه لم يشأ أن يوقع على صورة الإقرار المرسله إليه من المجمع المقدس وتأليفه بحسب هواه صورة مخالفة للمرسله إليه، كأنه قاض بدعواه، وأنه التجأ إلى حكام عالميين ولم يلتفت إليك أنت مدبر حاكمه المعلومة تقواك، وأنه لما كان أقر بغلظه نادماً عليه ووقع على صورة إقراره كما أرسلت إليه فؤض إلى قاصده الأسقف أنوش أن يحضر إلى كسروان ويرد البطريرك إلى كرسيه وحقوقه جزاءً لطاعته وإجابة لالتماس جمهور الأساقفة ورغائب الطائفة وتوصية الأمير يوسف الجليل والسامي الاقتدار وتوسله أي توسل الشيخ سعد.

أما صورة الإقرار الذي قدّمه البطريرك حينئذٍ إلى البابا بيوس السادس فقد ضمّنها في براءته المنفذة إلى مطارين الطائفة وأعيانها مؤرخة في ٢٨ أيار سنة ١٧٨٤م فنلخصها عن هذه البراءة: «أنا المدّون إسمي أدناه أقرّ وأعترف بغلطي واعتقادي الباطل بقداسة حنة عجمي راهبة دير بكركي وانخداعها وأقبل وأصادق على مرسوم المجمع المقدس الأول المؤرخ في ٢٥ حزيران سنة ١٧٧٩م والمثبت من سيّدنا البابا بيوس السادس الكلي القداسة (المتضمن تحريم تعليم هندية) ثم إنّي أقرّ وأعترف أنّ هندية المذكورة كانت مخدوعة بخبث واضح وأنّ تخيلاتنا وأوحياتها ونبواتها التي كانت تتفاخر بها وجميع آرائها الحديثة المستغربة ولاسيّما زعمها أنّ جسدها ونفسها يتحدان مع جسد المسيح ونفسه. فهذه كلها باطلة واختراعات وقحة ولا تخلو على الأقل من رائحة البدعة، ولهذا أنقض كل اعتقاد سلف مني بمثل هذه الخداعات والأوهام النفاقية وأبطل والأشي كل فعل أظهرت به وشهرت شيئاً من هذه الأشياء ولاسيّما منشوري المؤرخ في ١٧ أيار سنة ١٧٧٧م وكل ما صدر مني لتأييد مثل هذه الأشياء الرذولة، ثم أقبل وأقر واحترم المرسومين الآخرين المبرزين من مجمع نشر الإيمان المقدس والمثبتين من قداسته في تاريخ ٢٥ حزيران سنة ١٧٧٩م أيضاً. وقد تضمن الأول منهما إبطال وإلغاء الرهبانية التي أنشأتها

الراهبة المذكورة تحت اسم أخوية قلب يسوع، والثاني يشتمل على الحكم المبرز علي بالمنع عن التصرف بكل سلطان بطريركي إلى أن يتحسن للأب الأقدس. واما نظراً إلى الأمر لي بأن أشخص إلى رومة لأجواب أمام قداسته عن ذنوبي السالفة فكنت قد أخذت في السفر فمنعني أمراضه عنه وأرسلت من يقرأ عذري فعفنتني رافة الأب الأقدس من المثول بشخصي وها أنذا قابل بطيبة خاطر أن أبقى مربوطاً إلى أن يرى قداسته أن يحلني من هذا الرباط، وأقبل أن يكون السيد ميخائيل الخازن متصرفاً بالسلطان البطريركي ما دمت مقيماً بهذا الرباط».

ولما كان بعض مطارين الطائفة قد رفعوا إلى مجمع نشر الإيمان المقدس سنة ١٧٧٤م عدّة مشكلات وقعت بينهم وبين البطريرك وسأل البطريرك المجمع المذكور أن يصغي إلى تقريراته في هذه المشاكل، وأرسل روفائيل الحاقلاوني مطران دمشق وكيلاً عنه إلى رومة، ولدى التبصر بحجج الفريقين حكم آباء هذا المجمع في ٢٢ آذار سنة ١٧٧٧م في هذه المشكلات كما سيأتي، فلذلك أضاف البطريرك إلى إقراره المذكور قوله: «لأنني أقبل وأطيع مسرعاً جميع مراسيم مجمع نشر الإيمان المقدس الصادرة في ٨ تموز سنة ١٧٧٤ ولاسيما المراسيم السبعة الصادرة منه في ٢٢ آذار سنة ١٧٧٧م».

فهذه المشكلات ومراسيم الأجوبة الصادرة بشأنها هي سبعة وهذا ملخصها: الأول أنّ البطريرك كان قد أجاز أكل الأطعمة المزفرة يوم الجمعة الواقع في اليوم التاسع بعد عيد جسد المسيح ونصحه المجمع المقدس أن يبطل هذه الإجازة فعرض السؤال هل يلزم تكرار الأمر للبطريرك ليبطل هذه الإجازة فأجاب الآباء أن تتجدد مراسيم المجمع اللبناني (قسم ١ باب ٤ عد ٣ وعد ٥) حيث عينت في العدد الثالث الأصوام المفروضة وفي العدد الخامس رخص للبطريرك لضرورة عامة أن يجعل بدء صوم الرسل في ٢٥ حزيران وبدء صوم انتقال العذراء في ٧ آب وبدء صوم الميلاد في ١٣ كانون الأول. ونبه الطريرك أن لا يقدم على هذا الترخيص على إطلاقه بل في صوم واحد ومرة واحدة بحسب مقتضيات المكان والزمان والمسوغات.

وعرض السؤال الثاني هل يستطيع بطريرك الموارنة أن يمنح غفرانات كاملة دون

إذن الكرسي الرسولي في أيام معينة فأجاب الآباء لا يستطيع ويلزم القاصد أن يعلن ذلك للموارة.

والسؤال الثالث هل للسيد البطريك أن يلزم أساقفة الأبرشيات بأن يأخذوا منه مناشير لزيارة أبرشياتهم، فأجاب الآباء لا يلتزم الأساقفة أن يأخذوا منشور الإجارة منه عندما يزورون أبرشياتهم بالحق المعتاد لهم.

والسؤال الرابع أوجب أن يعين مبلغ دراهم يدفعه الأساقفة كل سنة للسيد البطريك على سبيل العشور وبأي شروط. فأجاب الآباء أنه يلزم أن يعين مبلغ يدفعه الأساقفة كل سنة للبطريك وعينوا قدره ألفين وخمسمائة قرش كل سنة موزعة كما سيجيء. ويحق للبطريك أن يعطي مناشير لجمع العشور لكل من المطارين الموجودين مرة واحدة فقط بياناً لخضوعهم له، وكذلك المطارين الذين سيكونون عند دخولهم على الأبرشية لا غير. وأما المبلغ المعين فقيمه ٤٥٠ قرش على مطران طرابلس و ٣٥٠ على مطران حلب و ٣٠٠ قرش على كل من مطارين جبيل و بعلبك و بيروت و صور و صيدا و ٢٥٠ على كل من مطراني دمشق و قبرص مجموع ذلك قيمته ٢٥٠٠ قرش. وزادوا على ذلك أن هذا التعيين يدوم ست سنين إلى أن يرى المجمع المقدس غير ذلك ويلزم كل مطران أن يطلب منشوراً من البطريك لجباية العشور كل سنة ويدفع ما عليه للبطريك دفعتين. ومن تأخر عن الدفع بغير عذر مقبول حق للبطريك أن يرجع عليه بالمطالبة بحقوقه الأولى.

والسؤال الخامس أوجب للبطريك أن يعزل المطارنة من أبرشياتهم ويمنعهم من التصرف بسلطانهم أو يجري عليهم ما يخفض شأنهم أمام الشعب لدواع غير كافية ودون مشورة المطارين ولا إعلام الكرسي الرسولي فأجاب الآباء لا يحق للبطريك أن يعزل المطارين من أبرشياتهم أو يمنعهم من التصرف الكلي بسلطانهم دون مشورة مجمع المطارنة، وفي ما سوى ذلك له أن يؤدبهم بحسب قوانين الكنيسة.

والسؤال السادس أيلزم الترخيص للرهبان بأن يجولوا في الأبرشيات لجمع الإحسان. وكان الداعي بهذا السؤال أن مجعماً عقد بغوسطا نهى الرهبان عن الجولان بالأبرشيات لجمع الإحسان، فأجاب الآباء أن يلزم المحافظة على قوانين

الرهبان وعلى ما دَوّن في المجمع اللبناني (قسم ٤ باب ٢ عد ٨) حيث قيل وليس للرهبان «أن يتسوّلوا أو يبعثوا راهباً أو عالمياً في سبيل السؤال بلا رخصة من الرئيس المحلّي». وزاد الآباء على ذلك نصح الأساقفة أن يتساهلوا في منح الإذن للرهبان بالتسوّل متى تحقق عندهم احتياجهم إليه، وللرهبان أن يعرضوا أمرهم للسيد البطريرك إذا امتنع الأسقف ضدّ الصواب عن إعطائهم الإذن بالتسوّل.

والسؤال السابع أيقن للبطريرك أي يقبل الكهنة أو الرهبان غير الخاضعين لرؤسائهم ويرتخص لهم بالذهاب إلى محل خلافاً لإرادة رؤسائهم فأجاب الآباء لا يحق له ذلك وفقاً لما تدوّن في المجمع اللبناني في قسم ٤ باب ٢ عد ٩ و ١١. فهذه خلاصة المراسيم التي قال البطريرك في إقراره إنّه يقبلها ويطيعها.

وقال بعد ذلك: «فجميع هذه المراسيم وغيرها مهما كانت مما انتشر أو سوف ينشر من أوامر المجمع المقدّس لأجل تدير الطائفة المارونية أعلن أنني أقبلها وأقرها وأقوم بتكميلها بدون مخالطة أو غش وأقدّم بكل خضوع إقراري واعترافي هذا أمام قداسة سيّدنا البابا بيوس السادس وأبتهل إليه أن يحلّني من كل تأديب التحق بي ويردني إلى نعمته وحنانه ويقبلني كابن نادم وتائب، ومتى تنازل وتقبل توبتي الصادقة يرّدني إلى التصرف بالسلطان البطريركي وإلى تدير طائفتي قاصداً أن أظهر نفسي في الزمان المقبل ابناً خاضعاً وطائعاً للكرسي الرسولي وأثبت كل ما قدّمته بقسمي عليه وبخط يدي وختمي أمام شاهدين في ٨ آذار سنة ١٧٨٤م. والتوقيع يوسف بطرس اسطفان البطريرك الأنطاكي والشاهدان على ذلك القس يوسف التيان مرسل رسولي والقس سمعان الصباغ مرسل رسولي.

ثمّ أردف البابا كلامه في براءته المذكورة المأخوذ عنها كل ما مرّ بقوله: «لا شكّ في أنّ من تاب حقيقة عن زلاته حقّ له أن ينال الغفران فلا هرون بعد توبته فقد كهنوته، ولا سمعان بعد ندامته على سقطته أضاع مقامه الأعلى الرسولي» ولذلك قد أمرنا الأسقف أنوش أن يسير سريعاً إلى كسروان ويردّ الأخ الموقر يوسف اسطفان إلى بطريركيته ويخوله مقامه السابق وسلطانه وجلّ رغائبنا أن تتخذوا ذلك برهاناً أكيداً على حبّنا الأبوي للطائفة المارونية وعربوناً لاعتبارنا لها لغيرتها على

الإيمان الكاثوليكي وثباتها في الاحترام للسنة البطرسية في ٢٨ أيلول سنة ١٧٨٤م وهي السنة العاشرة لحبريتنا.

وأتّم القاصد المذكور ما أمر به فدعا البطريك من دير الكرمل وسار به إلى دير مار يوسف الحصن بغوسطا حيث كانت إقامته، فالتقاه أثناء الطائفة باحتفال عظيم شائق وبهجة وسرور فائق وشرع الأعيان والكهنة والأهلون يتقاطرون من كل فج لتهنئته وأقام البطريك يوسف اسطفان مجدداً مكداً في خير طائفته وحرارة كرم الرب وأرسل سنة ١٧٨٦م الخوري أنطون القياي البيروتي إلى باريس لطلب قنصلية فرنسة للشيخ غندور بن سعد الخوري، فتكرّم الملك لويس السادس عشر عليه بها. وسنة ١٧٨٩م أمر بتحويل دير عائلة مار أنطونيوس عين ورقة إلى مدرسة عامة إكليريكية للطائفة وكان قبلاً ديراً للعابدات، فصار بعداً معهداً علمياً رقى الطائفة في مدارج التقدّم والفلاح، وأجدى عليها بكثيرين من البطاركة والأساقفة والعلماء كما سترى. وعقد مع مطارينه المجمع المعروف بمجمع عين شقيق أو مجمع وطا الجوز سنة ١٧٨٧م، ومجمع بكركي الأوّل سنة ١٧٩٠م. وسوف نلخص ما كان بهذين المجمعين.

وفي ١٢ نيسان سنة ١٧٩٣م ارتحل هذا البطريك إلى دار البقاء في دير مار يوسف الحصن بغوسطا ودفن فيه وكان من العلماء الأعلام وله مؤلفات كثيرة وكانت عنده مكتبة جامعة تبددت من بعده ونقل بعضها إلى دير بكركي. ومن مؤلفاته كتاب بديع في قداسة يوحنا مارون تراه مطبوعاً في كتاب «الحمامة عن الموارنة»، ورسالة مطوّلة في تربية الأولاد كتبها لسكان أبرشية بيروت إذ كان مطراناً عليهم. وله بالسريانية عدّة فروض لتتلى في الكنائس أيام أعياد القديسين يعقوب وليمناوس تلميذي القديس مارون والثلاث مئة وخمسين شهيداً تلاميذه والقديس افرام السرياني وغيره. وله أيضاً عدّة منظومات من المعروفة بالأفراميات التي يترنّم بها في القدّاس منها أفرامية للقديس مارون، وأفراميات للرسولين بطرس وبولس والاثني عشر رسولاً. وله أيضاً طلبات لبعض القديسين يترنّم بها في مساء أعيادهم، ورتب للخدمة في القدّاس في أعياد كثيرين من القديسين، وهو الذي هذب الرتب في طائفتنا وألّف بعضها كرتبة منح الغفران الكامل والبركة البابوية ورتبة تبريك الماء

يوم عيد القديسين بطرس وبولس ورتبة منح البركة بصورة العذراء المعروفة بسيدة الثوب، ألفها وهو في الكرمل، ورتبة منح البركة بالصليب أ أيام الجمعة في الصوم ورتبة الاستعداد للميلاد لتسعة أيام قبل الميلاد ورتبة السجدة يوم عيد العنصرة إلى غير ذلك.

وأما الذين رقامهم إلى الأسقفية فهم:

الأول الخوري ارميا نجيم من غوسطا رقامه إلى أسقفية الناصرة في ١٧ تشرين الأول سنة ١٧٦٧م وتوفي في ١٥ تشرين الأول سنة ١٧٧٥م في دير الحصن.

الثاني الخوري ميخائيل حرب الخازن من عجلتون رقامه إلى أسقفية قيصرية فلسطين في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٧٦٧م ثم دبر أبرشية دمشق والبطريركية مدة منع البطريك يوسف أسطفان عن التصرف بها. وكانت وفاته في دير رام بودقن.

الثالث الخوري الياس الجميل الثاني بهذا الاسم رقامه في ١٢ كانون الثاني سنة ١٧٦٨م إلى أسقفية قبرص وتوفي في ٦ أيلول سنة ١٧٧٩م في شوبا.

الرابع القس أناسيوس الحاج موسى الشنيعي من غوسطا رقامه في ٢٩ حزيران سنة ١٧٦٨م وتوفي في أيلول سنة ١٧٧٨م ودفن بدير الحصن بغوسطا.

الخامس القس ارسانيوس دياب الحلبي رقامه إلى أسقفية حمص ودير بكركي سنة ١٧٦٩م وسمي جرمانوس وتوفي سنة ١٧٩٩م بدير القمر ودفن في كنيسة التلة.

السادس القس ارميا نجيم الثاني ابن أخت المطران ارميا نجيم الأول رقامه إلى أسقفية الناصرة سنة ١٧٧٧م وكان نائباً بطريركياً وتوفي في ٢٧ آب سنة ١٧٧٩م ودفن بدير الحصن.

السابع القس بولس اسطفان أخوه رقامه إلى أسقفية قورش ونيابة الكرسي البطريركي في حزيران سنة ١٧٧٧م، ثم سلمت إليه أبرشية جبيل والبترون وتوفي بمدرسة عين ورقة سنة ١٨٠٨م.

الثامن القس يوسف نجيم أخو المطران ارميا نجيم الثاني رقاہ في ١١ تشرين الأول سنة ١٧٧٩م إلى أسقفية بيروت وتوفي في ٦ آب سنة ١٨٠٢م في دير مار جرجس علما.

التاسع القس يوحنا الحلو من غوسطا رقاہ إلى أسقفية عكا في ٦ آب سنة ١٧٨٨م وكان نائباً بطريركاً في الأشياء الزمنية وهو الذي انتخب بعداً بطريركاً.

العاشر الخوري يوسف التيان من بيروت رقاہ إلى أسقفية دمشق في ٦ آب سنة ١٧٨٦م وكان نائباً بطريركياً في الروحيات ثم استقال من مطرانية دمشق وسلمت إلى المطران ميخائيل الخازن سنة ١٧٨٨م.

الحادي عشر الخوري دانيال الجميل رقاہ إلى أسقفية قبرص في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٧٨٦م وسمي فيلبوس وصار بعداً بطريركاً.

الثاني عشر الخوري جرجس يمين ابن المطران يواكيم من إهدن رقاہ إلى أسقفية طرابلس في ١٨ أيار سنة ١٧٨٧م وتوفي سنة ١٧٩٥م بزغرتا.

الثالث عشر الخوري جبرائيل كنيدر من حلب رقاہ إلى أسقفية حلب في ٩ أيلول سنة ١٧٨٧م وتوفي بها سنة ١٨٠٢م.

الرابع عشر القس اغناطيوس الخازن من عجلتون رقاہ إلى أسقفية نابلس في ٢٩ حزيران سنة ١٧٨٧م ثم سلّمت إليه أبرشية طرابلس بعد وفاة المطران جرجس يمين إلى أن توفي سنة ١٨١٩م بعجلتون.

الخامس عشر القس فرنسيس مبارك رقاہ إلى أسقفية بعلبك بعد أن تخلص عنها المطران جبرائيل مبارك الثاني في ٢٦ آب سنة ١٧٨٧م ودعي بطرس وتوفي في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٨٠٨م في دير ريفون وفي أيامه رقي المونسنيور يوسف سمعان السمعاني العلامة الشهير في رومة إلى مطرانية صور في ٣١ تموز سنة ١٧٦١. وتوفي في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٧٦٨م.

البطريركان ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل

أمّا البطريرك ميخائيل فاضل فهو من بيروت وكان البطريرك طويلا الخازن قد رقيه في ١١ حزيران سنة ١٧٦٢م إلى أسقفية صور وجعله نائباً بطريركياً إلى أن تسلم تدبير أبرشية بيروت سنة ١٧٨١م. ولمّا توفي الطريرك يوسف أسطفان في ٢٢ نيسان سنة ١٧٩٣م تأجل اجتماع الأساقفة لانتخاب بطريرك بسبب الطاعون الذي كان مستحوذاً تلك السنة في البلاد ولاسيما كسروان إلى أن اجتمعوا في ١٠ أيلول سنة ١٧٩٣م، فانتخبوا المطران ميخائيل فاضل وأرسل الخوري جرجس غانم البيروتي إلى رومة ليستمد له التثبيت ودرع الرئاسة من الحبر الروماني فلم يبلغ إليها إلّا بعد وفاة هذا البطريرك التي كانت في ١٧ أيار سنة ١٧٩٥م في دير حراش ودفن به، على أنّ البابا بيوس السادس أراد احصاءه في مصاف البطاركة إذ قال بخطبته في الاجتماع المنعقد لذلك في ٢٧ حزيران سنة ١٧٩٦م: «ولمّا كانت غير الزمان لم تسمح لنا بأن نمنحه التثبيت وهو حي نمنحه إياه وهو ميت ونريد أن يحصى في سلسلة بطاركة الموارنة ولو أحرمتة المنية قبول زينة درع الرئاسة». ولا نعلم أنه رقي أحداً إلى الأسقفية إلّا الخوري جرمانوس قيس الخازن من عجلتون سنة ١٧٩٤م وهذا توفي في دير مار روحانا البقيعة سنة ١٨٠٥م.

وأما البطريرك فيلبوس الجميل فكان من بكفيا وكان البطريرك يوسف أسطفان قد رقيه إلى أسقفية قبرص في ٣٠ تشرين الأوّل سنة ١٧٨٦م. وبعد وفاة البطريرك ميخائيل فاضل في ١٧ أيار سنة ١٧٩٥م اجتمع الأساقفة في دير بكركي في ١٢ حزيران في السنة المذكورة وكان الأساقفة تسعة فاتفقوا أن يرشّحوا للبطريكية المطران يوحنا الحلو والمطران فيلبوس الجميل المذكور ويرمي السبعة الباقون القرعة. فمن حاز أربعة أصوات كان بطريركاً فوقعت الأربعة أصوات للمطران فيلبوس المذكور وثبته البابا بيوس السادس في ٢٧ حزيران سنة ١٧٩٦م على يد معتمده القس ارسانبوس القرداحي الراهب الحلبي اللبناني. وقبل أن يصل إليه درع الرئاسة عاجلته المنية في ١٢ نيسان سنة ١٧٩٦م في دير السيدة في بكركي حيث دفن.

ولا نعلم أنه رقي إلى الأسقفية سوى القس أقليمس الخازن من عجلتون على أبرشية جبيل والبترون وسمي اسطفان. ولما كان ذلك مخالفاً للقوانين البيعية لأن مطران هذه الأبرشية كان حياً وهو المطران بولس أسطفان المذكور فعزل عنها. وبعد وفاة المطران جرمانوس الخازن السالف ذكره سلمت إليه أبرشية دمشق سنة ١٨٠٥م وتوفي في ٣١ كانون الأول سنة ١٨٢٩م في دير مار موسى بلوني ودفن به.

ثم رقي البطريرك فيلبوس الخوري ميخائيل فاضل إلى أسقفية بيروت وسمي أنطونيوس لكن تغلب عليه اسم المطران ميخائيل فاضل الثاني. وتوفي في ٦ تموز سنة ١٨١٩م.

وبعد وفاة البطريرك فيلبوس الجميل اجتمع الأساقفة في ٢٨ نيسان سنة ١٧٩٦م في دير بكركي فانتخبوا المطران يوسف التيان مطران دمشق قبلاً والنائب البطريركي بطريركاً، فكان السادس بهذا الاسم وثبته البابا بيوس السادس في ٢٤ تموز سنة ١٧٩٧م على يد معتمده القس لويس بلييل الراهب اللبناني الذي رقاه إلى أسقفية قبرص سنة ١٧٩٨. ونرجى تكملة ترجمة هذا البطريرك إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

الفصل الثالث

مشاهير العلم الموارنة في القرن الثامن عشر

نحسب هذا القرن قرن الذهب في طائفتنا لكثرة علمائها فيه ولوفرة ما خلفوه من التصانيف البديعة والتأليف النفيسة حتى أفادوا الغرب بتواريخ المشرق ونقلوا إليه ما لا يحصى من آثار الشرقيين وكتبهم وكانوا كمشكاة استنار بضوئها أهل المشرق بعلوم أهل الغرب ورقوا مواطنهم في مدارج العلم وشهد لهم علماء

الغرب بالفضل واعتمدوا على ما أثبتوه إلى الآن وتفاخر بهم أبناء جلدتهم شاكرين لهم ما أجدوا عليهم به. والفضل في كل ذلك للعهد العلمي الذي أنشأه لهم البابا غريغوريوس الثالث عشر فإن أكثر هؤلاء العلماء نبغوا منه وعنه أخذوا أنوار تعاليمهم النافعة وها نحن نأخذ بتدوين تراجم من عرفناه منهم وذكر ما علمناه من تأليفهم الغراء.

عد ١٠٧٠

القس يوسف الباني الحلبي

هو يوسف بن القس جرجس الحلبي ارتحل أسلافه من قرية بان بجبل لبنان إلى حلب الشهباء فولد ونشأ بها وأرسل إلى رومة طلباً للتخرج بالعلوم في مدرسة الموارنة فنبغ وحاز قصبات السبق وارتقى إلى درجة الكهنوت وقال في حقّه القس جبرائيل فرحات (هو المطران جرمانوس فرحات لكنّه كتب ما يأتي قبل تسقيفه) في مقدّمة تفسيره لرؤيا يوحنا: «الأب الفاضل والعالم العامل ذخيرة ملته المارونية وسراج الكنيسة الرومانية غذي بلبانها فترعرع وبني على أساسها فلم يتزعزع الذي ضاءت أشعة شهب علومه في أفق شهبائه حتى استعشت. وأرضع بني حلب مما حلب من فواق ثدي فضله حتى عاشت ونعشت وأفاض مما فاض من معارفه على الطلبة المستفيدين قاصبها ودانيها ودان لنتيجة مقدّمات عمله الصادق بيانها بالفضل والتقدّم قاصبها ودانيها فأفادنا الدهر به ما كنا قبل نتمناه وجاد علينا بوجوده الرضى ما كان بغيره يأباه».

وقد أنبأنا الأب جبرائيل المذكور بلسانه أنّه قصد أم المدائن ابتغاء التخرج بالعلوم فيها فأتقن معرفة اللغات وتضلع بعلوم الفلسفة واللاهوت وآب إلى حلب موطنه وكان يتقلّب بين أن ينفق بضاعته بترشيح الكلام أو أن يخلدها في بطون الأوراق بتوشيح الأقلام واعتمد على الثاني لأنّه يحى بحياة الدهور والأزمان ولذلك ترجم إلى العربية عدّة من الكتب التي فاق معناها وراق مبنائها منها: كتاب «ميزان الزمان وقسطاس أبدية الإنسان» وقد طبع هذا الكتاب مرّات منها طبعة في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت وأردفه بترجمة كتاب «الكمال المسيحي» في ثلاثة

أجزاء وهذا الكتاب أيضاً طبع مرات. ثم كتاب «المعروف والمُعترف» في علم الذمة إلى غير ذلك في التأملات العقلية والرسائل الروحية. وقد عزا إليه القس جرجس منش الحلبي الماروني في ترجمة جرمانوس فرحات أربعة مجلدات في تفسير الرسائل وخمسة في تفسير الأناجيل وثمانية في تفسير العهد القديم، وقال إنّ فرحات صحّح هذه الترجمات. ذكرت هذه الرواية على عهده ومما لا شكّ فيه وأشهر تأليفه كتاب: «العنوان العجيب في رؤيا الحبيب» وهو تفسير لكتاب رؤيا يوحنا الحبيب أحد أسفار العهد الجديد وأغوصها معنى وأعسرها بياناً انتقاه من تفسيرات الأب كورينلوسن الحجري اليسوعي مقتصراً منها ما أمكن اقتصاره وزائداً عليها ما رأى زيادته لازمة. وقد فرغ من هذا التأليف سنة ١٧١٣م وقد عنيت وأنا كاهن بطبع هذا الكتاب سنة ١٨٧٠م بالمطبعة العمومية الكاثوليكية التي قنيتها بمساعدة الخواجا رزق الله خضرا بعد أن عارضته كلمة فكلمة بالنسخة التي خطتها يد معربها القس جبرائيل فرحات المذكور وبنسخة أخرى أخذت عنها.

إنّ ترجمات القس يوسف الباني هذه قد عزّبها كلّها القس جبرائيل فرحات وأظنّ أنّه عني بذلك قبل أن صير أسقفاً على حلب مدعوّاً بجرمانوس سنة ١٧٢٥م. وقد ذكرت في كتابي «سفر الأخبار في سفر الأخبار» أنّ للقس يوسف الباني أيضاً ترجمة تفسير العهد الجديد إلى العربية والذي أراه الآن أنّ ترجمة تفسير هذه الأسفار إلى العربية عدا الرؤيا إنّما هي للأب بطرس فرماج اليسوعي معرّبة بقلم المطران جرمانوس فرحات. ولم أعثر إلى الآن على سنة وفاة الأب يوسف الباني ولا أشكّ في أنّه توفي بعد سنة ١٧١٣ التي فرغ فيها من تأليف كتابه في تفسير الرؤيا كما صرّح بذلك.

عد ١٠٧١

المطران جرمانوس فرحات

ولد هذا النابغة في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠م من أسرة مطر التي ارتحلت من قرية حصرون بלבnan إلى حلب الشهباء فربّاه والداه بالتقوى والورع وتخرّج باللغة السريانية في مكتب الموارنة بحلب، ثمّ تعلّم اللغة الإيطالية ودرس التصريف

والتحو على الشيخ سليمان الحلبي المعروف بالنحوي ثم اشتغل في علم المعاني والبيان والعروض والقوافي والبديع ثم أتقن الفلسفة واللاهوت على العلامة التحرير الخوري بطرس التولاوي الآتي ذكره. ولما أتى الأفاضل الثلاثة وهم جبرائيل حوا وعبدالله قرألي ويوسف بن البتن من حلب إلى لبنان سنة ١٦٩٤م لتأسيس الرهبنة تبعهم جبرائيل فرحات بعد سنتين وانضم إلى المؤسسين المذكورين مجاهداً في طريقة السك الرهبانية متفانياً بحب الله مضطرباً بالغيرة على خلاص النفوس عاكفاً على التأملات الروحية مجاهداً في الأعمال الصالحة مكباً على التأليف والتصنيف ونظم الأشعار الروحية والأدبية متغزلاً فيها بحب الله والفضيلة ومريم العذراء وقد انتخبه اخوته الرهبان رئيساً عاماً على رهبانيتهم في ثلاثة مجامع متتالية أي من سنة ١٧١٦م إلى سنة ١٧٢٥م ويظهر من بعض قصائده أنه رار ضريح الرسولين في رومة أم المدائن.

وفي ٢٩ تموز من السنة المذكورة رقا البطريك يعقوب عواد إلى أسقفية حلب المارونية ودعي جرمانوس فازداد غير وجهاداً في القيام بأعباء مقامه الثقيلة مثابراً على الوعظ والإرشاد دائماً على عمل المرات غير منقطع عن التأليف والتصنيف والتعريب وغير تارك تأملاته وتقشفاته الرهبانية مصبراً نفسه كلاً للكل ليربح الكل للمسيح واعظاً شعبه بمثاله الصالح فوق وعظه بكلامه وخطبه البديعة والآخذة بمجامع القلوب الحاملة سامعيها على الفضيلة والراعدة لهم عن الرزيلة واستمر على ذلك سبع سنوات إلى أن دهمته المنية في ٩ تموز سنة ١٧٣٢م فسلبت من عصره حليته الفاخرة ودرته الباهرة وذهب لينال ثواب أعماله الصالحة ومبراته الوافرة لدى من لا يضيع أجر إسقاء كأس ماء فكيف يضيع أجر من قضى سنته كلها مجاهداً متفانياً بحبه وعمل مرضاته.

وأما ما صنف وألف وهذب وعرب فكثير منه في اللغة كتابه باب الاعراب عن لغة الاعراب وهو معجم اللغة العربية انتقاه من قاموس الفيروزبادي وغيره من المعجمات وقد طبع هذا الكتاب الشيخ الكونت رشيد الدحداح وزاد عليه واستدرك بعض كلمات عن المؤلف وسمى كتابه. «أحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب» وألحق المؤلف بمعجمه كتاباً في العوامل العربية سماه الفصل المعقود حدا

به حذو ابن هشام الأنصاري في كتابه «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب». ومن تأليفه «كتاب بحث المطالب وحث الطالب» جمع به قواعد التصريف والحو بأوجز عبارة وأوضح إشارة. وقد طبع هذا الكتاب مرات لتداول أيدي الطلبة له في أكثر المدارس إلى الآن. ومن طبعاته طعة المعلم بطرس البستاني له بيروت وقد ذيلها بحواش كثيرة واستدرك على المؤلف ببعضها، على أن أكثر ما خطأه به كان من غرور النساخ أو سهوهم وبعضه لم يصب بتحفظته به. وقد انتقدت بعض ما جاء في تلك الحواشي بكتيب ألفته في خلال إقامتي في مدرسة مار يوحنا مارون مدرّساً لتلامذتها هذا الكتاب، على أن هذا الكتيب لم أشره حتى الآن. وللمؤلف كتاب بحث آخر أطول مما تتداوله أيدينا وأكثر بياناً وكان لدي نسخة من هذا المطوّل أخذت عن نسخة خطتها يد المؤلف واعتمدت عليها في كثير مما عارضت به المعلم بطرس المذكور. ومن كتبه في اللغة كتابه الموسوم «المثلثات الدرية» اقتدى فيه بمثلثات قطرب المشهورة جمع بها نظماً الأسماء المختلفة المعاني باختلاف حركة أولها بين الفتحة والكسرة والضمة وشرحها شرحاً مسهباً روحياً وأديباً وعلمياً ومنها كتابه الموسوم «بيلوغ الأرب في علم البديع» جمع به أنواع الجناس والبديع مرصعاً إياه بالشواهد من بديعيات من سلفه وغيرها. ومنها كتاب وسمه «برسالة الفوائد في فن العروض» ولم يكن معلوماً قبلاً بين مؤلفاته ولا منضوداً بسلك منظوماته. ومنها كتاب «ديوانه الشهير» وقد طبع مرات ولكن قلماً نجد طبعة أو نسخة من هذا الديوان سلمت من خطأ النساخ وقد شرّحه شرحاً مسهباً الخوري ارسانيوس الفاخوري الغزيري.

وله في الروحانيات والدينيات تعريب ترجمات القس يوسف الباني المذكور وهي ترجمات كتاب «ميزان الزمان» وكتاب «الكمال المسيحي» ثلاثة أجزاء وكتاب «المُعَرِّف والمُعْتَرِف، وكتاب «تفسير رؤيا يوحنا» و«تعريب ترجمات الأب بطرس فرماج اليسوعي في تفسيرات العهد الجديد في عدّة أجزاء». وللمؤلف أيضاً تعريب ترجمة أسفار العهد الجديد إلى العربية عن النسخة السريانية المعروفة بالبسيطة فأنّه أصلح تلك الترجمة العربية ونقّحها وطبق بينها وبين الأصل السرياني ثمّ رتب منها الفصول التي تتلى كل يوم في القدّاس من الأنجيل ورسائل بولس الرسول. وفي

طبعتي الأخيرة لهذين الكتاين زدت في مطابقة تلك الفصول مع النسخة السريانية حتى يمكن القارئ أن يعتمد على أن الترجمة العربية هي طبق ما في النسخة السريانية البسيطة. وكذلك فعل الخوري يوسف العلم رئيس كهنتنا ببيروت في كتابه «أقرب الوسائل في تفسير الرسائل» حيث جعل كلام الرسول بالعربية مطابقاً للأصل السرياني. ولصاحب الترجمة أيضاً تعريب الكتاب المعروف «بريش قريان» مشتملاً على فصول من نبوات الأنبياء وكتاب «أعمال الرسل» و«رسائل بولس الرسول» تقرأ في الصلوات في الكنائس أيام الأعياد وبعض آحاد السنة. وهو الذي رتب كتاب «السكساري» أي تراجم القديسين وعربه وأصلحه كما تتداوله الأيدي الآن، إلا أن كثرة الأيدي التي نسخته أوقعت به كثيراً من الخطأ. والتقدم في صناعة النقد في هذه الأيام كشفت لنا عن أغلاط كانت تظن في أيامه صواباً ولذلك ترانيم في مطاوي كلامي في هذا التاريخ نبهت إلى ما رأيته في هذا الكتاب من الخطأ في ما حملني مساق تاريخي على الكلام فيه، وفي عزمي ان قدرني الله أن أنقح هذا الكتاب وأطبعه حرصاً عليه من غفلة النساخ وتيسيراً لاقتنائه.

وله أيضاً كتاب: «ديوان البدع» جمع فيه أكثر البدع التي نشأت في بيعة الله وشيئاً من التنفيذ لبعضها. وله أيضاً كتاب وسمه بـ«فصل الخطاب» في صناعة الوعظ والخطابة وهو بديع في نوعه ويغني عن كتاب فصاحة في بعض أقسامه، وهذا الكتاب قد طبعه جماعة من البروتستانت ولم يخلوه من حذف وتحريف فأمر الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد بطبعه فطبع في مطبعة الرهبان اللبنانيين في دير طاميش سنة ١٨٦٧م عن نسخة بخط المؤلف وأمرني بتصحيح طبعه فأطعت الأمر وزدت عليه مقدمة طبعت في أوله. وله أيضاً بعض صلوات سريانية لتلى في الكنائس أيام بعض الأعياد إلى غير ذلك مما لم يخطر على ذاكرتي الآن. وقد ذكر القس جرجس منش الحلبي الماروني في ترجمته التي نشرتها مجلة الشرق في سنتها السابعة تأليف وتصحيحات وترجمات أخرى كثيرة والظاهر من مؤلفاته وإعراياته واقتطافاته وترتيباته ومن الكتب الكثيرة التي ترى بخط يده المباركة أنه لم يصرف ساعة من زمانه إلا في خدمة الخالق والاجداء بالفوائد على الخلائق رحمنا الله بصلواته ومن علينا بأمثاله ببركاته.

الأب بطرس مبارك

ولد هذا العلامة بقرية غوسطا في نحو سنة ١٦٦٠م وتخرج باللغات والعلوم في مدرسة الموارنة برومة فحاز قصبات السبق على أقرانه وأتقن من اللغات سبعا: العربية والسريانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والإيطالية والفرنسية. ولما رجع إلى الشرق سنة ١٦٨٥م رقاہ البطريرک اسطفانوس الدويهي إلى درجة الكهوت وأعادہ إلى رومة وکیلاً له، وسلم إليه بعض کتبه ليهتم بترجمتها ونشرها. ويظهر أنه ترجم منها إلى اللاتينية كتاب «نسة الموارنة» وكتاب «رد التهم عنهم» و«سلسلة بطاركتهم» إذ نرى العلامة السمعاني والعلامة لکویان يستشهدان بكلام الدويهي مأخوذاً عن هذه الترجمة. وإلى ذلك أشار الدويهي في رسالته إلى الخوري بطرس المذكور إذ أرسل إليه إجابة لطلبة ترجمة حياته ليشتتها في صدر الكتاب، وقد مرّ ذكر هذه الرسالة في ترجمة الدويهي. وبعد عوده من الشرق دعاه أمير توسكانا وأقامه على طبع الكتب الشرقية ثم أقیم مدرّساً للعلوم المقدّسة وريح أموالاً لم يرد أن ينفقها إلّا في سبيل الخير للمّته إرضاءً لله فأنشأ مدرسة في عينطورا وشرى لها من العقار ما يقوم ريعه بنفقة اثني عشر تلميذاً ثم سلّم تديرها إلى الآباء اليسوعيين الذين ضوى إلى جمعيتهم رغبةً في الزهد والانقطاع عن العالم. وإليك ملخص ما قاله المجمع اللبناني (صفحة ٥٤٨ الطبعة الحديثة) إنّنا نشني خير الثناء على تلك النية التقوية الجديرة بالرجل المتورع ولدنا الحبيب الأب بطرس مبارك أحد الآباء اليسوعيين وأحد تلامذة مدرستنا الرومانية ومن كهنة طائفتنا وهو الذي مع ما أحرزه عند الجمهور من الشهرة علماً وتقى لم ينس شعبه ولا بيت أبيه بل نظر في خير أبناء ملّته فبنى لهم على عهدنا مدرسةً في سورية بقرية عينطورا وأجرى عليها الرزق ووكل تديرها إلى المرسلين اليسوعيين معلقاً على ذلك بعض شروط خيفة أن يلم بطائفتنا المارونية شيء من الضرر في المستقبل. وقبل الأب رتر رئيس الرهبانية اليسوعية هذا التسليم بشروطه وذيلّه وأثبتته بصلك شرعي مؤرخ في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤م» وسنجيء على ذكر هذه المدرسة. وأقام بعد ذلك الأب مبارك مجدداً في إيتقان الفضائل والكمال الرهباني عاكفاً على عمل المبرات متفانياً بالغيرة على مجد الله مكتباً على تأليف الكتب النافعة وترجمتها إلى أن توفاه الله لرحمته سنة ١٧٤٢م.

وأما ما ألفه وترجمه فنعلم منه. ترجمته من السريانية إلى اللاتينية لمجلدين من تأليف القديس افرام السرياني وألحق بترجمته مقدمات بديعة دالة على طول باعه ووفرة إطلاعه وترجم قسماً من المجلد الثالث من التأليف المذكور ولم يكمله بل أتمه المطران اسطفانوس عواد السمعاني الآتي ذكره وألف مقالات ناقش بها يوحنا كوكليوس دلبرون في الوافير (رتب القداس) الشرقية. وله مقالة مسهبة في الرد على ريناودوسيوس في كلامه على بعض النوافير المنسوبة إلى بعض ذوي البدع وانسربت بين كتب الموارنة وليس فيها شيء يخالف المعتقد الكاثوليكي. وقد ذكر له هذه المقالة المطران اسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ٨٢ كتاب ٤٣) وقال إن هذه المقالة لم تطبع بعد. ولبطرس مبارك أيضاً ما ذكرناه من ترجمة كتب البطريرك اسطفانوس الدويهي العربية إلى اللاتينية وقد وضع المطران اسطفانوس عواد السمعاني ترجمة بطرس مبارك ونشرها باللاتينية في المطبعة الوايكانية ونأسف لعدم إطلاعنا على هذه الترجمة إذ لا بد أنها اشتملت على ذكر ما لا نعلمه من سيرة هذا الأب العالم العامل الذي يتفاخر به اليسوعيون ويحسبونه من كبار علمائهم وعلى كتب أخرى له فاتنا العلم بها.

عد ١٠٧٣

المطران جرجس بنيمين والخوري اندراوس اسكندر

أما المطران جرجس فهو ابن سركيس عبيد من إهدن تخرّج بدرس اللغات والعلوم في مدرسة الموارنة برومة وصير كاهناً ثم رقاہ البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى أسقفية إهدن في ٢٧ آب سنة ١٦٩٠م ويسمى المطران جرجس بنيمين واشتهر بغيرته على خلاص النفوس بعلومه ولاسيما مواعظه حتى لقب «الكاروز». وأنشأ بقرية زغرta مدرسة وكنيسة وعيّن لهما دخلاً كافياً لنفقة معلمين، ثم سلّم المدرسة إلى الآباء اليسوعيين بناءً على أن يقيموا بها معلّمين ويمارسون أعمال الرسالة في كنيسة زغرta كما سيجيء في الكلام على هذه المدرسة. واعتزل الأسقفية وانضوى إلى جمعية الآباء المذكورين وأقام بمدرسة طائفنا برومة مشغلاً بتمرين طلبتها على

عمل الرسائل والقاء المواعظ وإليك ما قاله آباء المجمع اللبناني بحقه: «وثني ثناءً حسناً على غيره الأخ المحترم المطران جرجس بنيمين الاهدني الطائر السمعة علماً وعظاً بكلمة الله، وكفى به رجلاً أنه اعتزل مقام الحبرية اتضاعاً منه وانتظم في سلك الرهبانية اليسوعية الجليلية، وأقام ياذن رؤسائه بمدرسة طائفتنا المارونية الرومانية حيث كان فيها طالباً، وهناك هو باذل قصارى جهده في تمرين الطلبة الذين أتقنوا معرفة الطقوس وفن الترتيل واللغتين السريانية والعربية على الوعظ وأعمال الرسالة المقدسة، وهو إذ كان مطراناً أنشأ في قرية زغرنا مدرسة وكنيسة وعيّن لهما دخلاً كافياً لمعاش معلّم، وتوطيداً لدعائم هذه المدرسة. وإتقاناً لإدارتها عهد بتدبيرها إلى الآباء اليسوعيين». ونعرف له من التأليف كتاباً بالعربية اشتمل على تفنيد كل البدع المشهورة ولا نعلم الآن متى كانت وفاته لكننا نعلم أنه كان حياً في ٣٠ أيلول سنة ١٧٣١م إذ زار بيت العذراء بلوراتا وأعطى حينئذ تقريراً في شأن هذا البيت.

وأما الخوري اندراوس اسكندر فقد ولد ونشأ بجزيرة قبرص ودرس اللغات والعلوم في مدرسة المواردنة برومة ونبغ فيها وبرع ثم رقي إلى درجة الكهنوت وسمي خوري الكنيسة البطريركية، واستخدمه الأبحار الأعظمون في جمع الكتب القديمة الشرقية إلى مكتبة الواتيكان، ونرى العلامة السمعاني ذاكراً كتباً كثيرة فيها مبيناً أنّ الخوري اندراوس اسكندر القبرصي جلبها إلى هذه المكتبة، وفاز بمرتبة صكّاك أو مسجل رسولي من الطبقة الأولى، وأقيم معلماً للغة العربية في المدرسة الكلية المعروفة في رومة بمدرسة السايانسا أي الحكمة وأستاذ اللغات الشرقية وترجمانها لدى الكرسي الرسولي ومجمع نشر الإيمان المقدس ونعرف من تأليفه مقالة في ترجمة القديس مارون وثبات المواردنة الدائم في الإيمان الكاثوليكي بالإيطالية ومقدمات علّقها على كتاب القدّاس بموجب رتبة طائفتنا الذي طبع تحت مناظرته سنة ١٧١٧م برومة.

ومن مبرّاته وقفه كل ما أحرزه من المال على مواطنيه المواردنة سكان جزيرة قبرص بموجب وصيته المدوّنة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٧٢ من الطبعة الحديثة وملخصها: «إنّ الخوري اندراوس اسكندر الماروني الصكّاك الرسولي من الطبقة الأولى... لما رأيت الحاجة الروحية في أبناء طائفتي المارونية سكان جزيرة قبرص

وطني العزيز عمدت أن أعيضمهم عما لم أستطع عمله بنفسي لإقامتي برومة بخدمة الكرسي الرسولي قياماً بما توجه علي نذوري التي أبرزتها بمدرسة الموارد برومة، فتركت مبلغ ستمائة ريال روماني بباريس تحت يد رئيس الرسائل العام لليسوعيين في هذه المدينة، وإرادتي هي أن يصرف ريع هذا المبلغ في بدل راتب سنوي لتلميذ ماروني قبرصي يتعلم في مدرسة عينطورا تحت نظارة الآباء اليسوعيين، وإذا تعذر وجود تلميذ ماروني قبرصي فيصرف الربيع المذكور عندئذ لمرسل في جزيرة قبرص من تلامذة مدرسة رومة أو مدرسة عينطورا أو من إحدى الرهبانيات المارونية يقيم هناك لتعليم الأحداث ومزاولة أعمال الرسالة وإذا تعذر هذا أيضاً فأريد أن يصرف الربيع المذكور في شراء أثاث وآنية مقدسة توزع على كنائس قبرص المارونية بمعرفة مطران الجزيرة المذكورة، وإذا بطلت مدرسة عينطورا لداع ما فأريد أن يحفظ هذا الربيع من رأس المال بيد الرئيس العام المذكور ويدفع الربيع كل سنة إلى رئيس مدرسة الموارد برومة ليصرفه بمعرفة وكيل السيد البطريرك في سبيل حاجات كنائس قبرص لمعاش معلّم أو مرسل فيها أو لشراء آنية مقدسة لها واسأل السيد البطريرك ومطران قبرص الماروني أن يتوفرا بتنفيذ وصيّتي هذه على الأوجه المبينة فيها. ولما كنت قد شريت ستة محلات في رومة بمبلغ سبعمائة واثنين وستين ريال دخلها كل سنة ثمانية عشر ريالاً رومانياً فأريد أن أحفظ لنفسي هذا الدخل ما دمت حياً، ومتى مت فوكيل السيد البطريرك يستلم الدخل وينفقه حسنة اثني عشر قداساً عن نفسي ونفس والدي في كنيسة مدرسة الموارد برومة، منها أربعة قداسات في أعياد القديس مارون وأحد الشعانين وانتقال العذراء والقديس يوحنا الإنجيلي، والثمانية الباقية تقدّس في آحاد وأعياد على اختيار رئيس المدرسة، وما فضل عن حسنة القداسات يرسله وكيل البطريرك لمعاش تلميذ أو كاهن ماروني يقيم بقبرص لمباشرة التعليم والرسالة وإذا تعذر ذلك فيشرى بقيمة الدخل أثاث لكنائس قبرص. وأريد أن يحفظ ذكر دائم لوثيقتي هذه فتحفظ نسخة منها بمدرسة الموارد وأخرى عند رهبان الموارد في دير القديسين بطرس ومرشلين، وأخرى عند وكيل السيد البطريرك، ونسخة في خزانة البطريركية. دُون في ١٥ آب سنة ١٧٣٤م والتوقيع الخوري اندراوس اسكندر القبرصي الماروني، وشهود هذه الوثيقة جرجس بنيمين مطران إهدن سابقاً، الأب يواصاف دبسي رئيس دير القديسين بطرس ومرشلين.

اشعيا جاماتي الدمشقي الماروني ميخائيل لويس دي لوقا الماروني من قبرص» ولم
نعثر إلى الآن على ما ينبئنا في أي سنة توفي بعد تاريخ وصيته هذه.

عد ١٠٧٤

العلامة الشهير الخوري بطرس التولاوي

ولد هذا العلامة سنة ١٦٥٧م ونشأ بقرية تولا ببلاد البترون من بيت زيتو وربما
كان الصحيح من بيت زيتون، وقد ذكر هو نسبه في مقدّمة كتاب تأملاته فقال
إنّه عبدالله بن بطرس بن اسحق التولاوي البتروني، وأرسله البطريرك جرجس
البسيلي إلى مدرسة الموارنة برومة سنة ١٦٦٨م لاقتباس العلوم إذ كان عمره إحدى
عشر سنة، فخرّج بهذه المدرسة بالعلوم والفنون فنبغ وفاق أقرانه وعاد إلى لبنان
حائزاً شهادة الملفنة سنة ١٦٨٢م، فرقاه فيها البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى
درجة الكهنوت على مذبح كنيسة العذراء بدير قنوين الكرسي البطريركي، ثم
أرسله سنة ١٦٨٥م إلى حلب واعظاً ومعلماً فاشتهر فيها بعلومه وذكائه حتى كان
العلماء المسلمون أنفسهم يجلسونه ويتهيبونه بل يستفتونه في مسائل فقهية أيضاً، لأنّه
درس الفقه الإسلامي وكان فيه من المبرزين المجتهدين. ويروون عنه عدّة فتاوى
بديعة كان يعتمد في بعضها على علم الطبيعيات الذي كان بارعاً فيه، ونما عرف
قداسته وتقواه فكان يقصده القاصي والداني للاستفادة بمشورته الصالحة وللإغتراف
من كنز علومه، ورقاه المطران جبرائيل البلوزاوي مطران حلب وقتئذٍ إلى مقام
خوري بردوط ورأسه على كهنة حلب سنة ١٦٩٨م وأقام مدرسة مسيحية لا
تنحط عن مدارس حلب الإسلامية الشهيرة في ذلك العصر، وتلمذ له كثيرون
فنبغوا واشتهروا وعدّوا من علماء النصارى المشاهير منهم العلامة المطران جرمانوس
فرحات الذي رأيت ترجمته، والمطران عبدالله قرألي مطران بيروت والمطران جبرائيل
حوا مطران قبرص، والقس عبد المسيح لبنان، والقس عطالله ونده، والشماس
عبدالله زاخر، والخوري نيقولاوس الصائغ الملكيان الكاثوليكيان، ومكرديج الأرمني
وغيرهم من العلماء المسيحيين الحلبيين في ذلك العصر.

وكان مع ذلك مدمناً الوعظ وارشاد النفوس مشهوراً فيهما بالفصاحة والبلاغة
نقص الكنائس بالمتقاربين لسماع وعظه من كل ملّة، ويقصده لينعم بارشاده كل
من رغب في الخلاص والتقوى، وهو لا يبرح مكباً على التأليف والتصنيف. فنعرف
من تأليفه بالعربية كتاب «المنطق» مشهوراً باسمه وكتاب غراماطيق للغة السريانية
وكتاب «مجموع المجامع المارونية» و«مجموعة دعوى المرسلين» و«ترجمة القديس
توما الكمبيسي» و«أخبار الجمع التريدينتي» و«رسالة في عبادة الوردية» وكتاب «ردّ
على قضايا الروم الخمس» و«ترجمة تأملات توما الكمبيسي» و«تعريب أعمال
الجمع التريدينتي» وكتاب «مواعظه» في مجلدين و«كتاباً في الالهيات أو علم ما
وراء الطبيعة» و«كتاباً في الطبيعيات» و«كتاباً في اللاهوت الاعتقادي» في خمسة
أجزاء وكتاباً سماه «مرآة النفوس في عمل الرياضات الروحية» إلى غيرها من كتب
مواعظ وتأملات روحية ومقالات ورسائل وفتاوى في الفقه الكنسي والعالمي.
وأدركته المنية في سنة ١٧٤٥م ومضى ينال ثواب جهاده ومبراته حالداً في الجنان.

عد ١٠٧٥

ترجمة العلامة يوسف سمعان السمعاني

كان من الأسرة السمعانية عدّة مشاهير في هذا العصر منهم المطران يوسف
شمعون السمعاني، رقاہ البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى أسقفية طرابلس في ١٤
تموز سنة ١٦٧٥م، وتوفي في ١١ كانون الأوّل سنة ١٦٩٥م، وهو عم صاحب
الترجمة، وله تأليف في علم الذمّة. ومنهم البطريرك يعقوب عواد والبطريرك سمعان
عواد المار ذكرهم. والذي فاق كل من تقدّمه أو اشتهر بعده من هذه الأسرة
وغيرها إنّما هو العلامة المونسنيور يوسف سمعان السمعاني رئيس أساقفة صور حلية
دهره وفريد عصره، وتأخذ ترجمة هذا النابغة المنقطع النظير عن سجل حرر عند
موته وحفظ في خزانة كنيسة القديس بطرس الكبرى برومة صندوق ٢٢ رزمة
٢٧، استنسخ لنا نسخة منه المرحوم الخوري يوسف السمعاني عند وجوده برومة
بداعي الجمع الفاتيكانى سنة ١٨٦٩م مصادقاً عليها أنّها طبق الأصل المحفوظ في
الكنيسة المذكورة من الأب أنريكو دي بليني أحد الخوارنة الموظفين بهذه

الكنيسة، ومتسلمي خزاينها فكلامنا في ترجمة هذا العلامة وتعداد مؤلفاته هو ترجمة هذا السجل.

ولد يوسف سمعان السمعاني السرياني الماروني في طرابلس الشام (هو من حصرون ولكن فريق من سكان هذه القرية يصرفون مدة من السنة في حي بطرابلس يسمى حارة الحصارنة من زمان مديد) في ٢٧ تموز سنة ١٦٨٧م من أسرة حسية ورياه منذ حداثة تربية تقوية عثم يوسف السمعاني مطران طرابلس، وكان رجلاً ورعاً مشهوراً بعلمه وأرسله صغيراً عمره ثماني سنين إلى مدرسة المواردنة برومة فبرع بالعلوم الإلهية والبشرية براعة دلّت على ما سيكون له من رفيع المقام بين العلماء، ولما أتمّ دروسه واستعدّ للرجوع إلى وطنه عهد إليه البابا اكليمينضوس الحادي عشر أن يصنع فهرساً لاتينياً للكتب الشرقية المخطوطة التي كان نسيه الياس السمعاني رئيس كهنة الكنيسة الأنطاكية قد أرسلها عن قرب إلى المكتبة الواتيكانية وان يلخص فحوايها، فأتمّ ما عهد إليه به الحبر الروماني بأحسن أسلوب وعلّق على الكتب المذكورة حواشي نفيسة وكثيرة موعة بالفقاهة والفوائد جعلت البابا يراه أهلاً لأن يعين مترجماً للكتب العربية والسريانية والكلدانية التي في المكتبة الواتيكانية، وأقامه على ذلك في ١٠ آذار سنة ١٧١٠م. وفي ٤ تموز في السنة المذكورة نال رتبة الملفنة في الفلسفة واللاهوت ثم سمي مستشاراً في اللجنة التي أقامها البابا المذكور لاصلاح الأسفار المقدسة التي يستعملها الشرقيون. وفي سنة ١٧١٥م أرسله الكرسي الرسولي إلى الشرق إجابة لطلب نسيه يعقوب بطرس عواد بطريرك أنطاكية للتفتيش على الكتب المخطوطة الشرقية فأتى منها إلى رومة بكتب وافرة العدد من كل ناحية من سورية ومصر وكان منها مادة غزيرة لوضع مؤلفه الشهير الموسوم بالمكتبة الشرقية الاكليمينضوسية الواتيكانية.

وفي ٣٠ من شهر أيلول سنة ١٧٣٠ سماه البابا اكليمينضوس الثاني عشر حافظاً ثانياً للمكتبة الواتيكانية، ثم في ٣ من كانون الثاني سنة ١٧٣٩م خلف كرلوس ما يولي مطران حمص في الرئاسة على هذه المكتبة، فعكف بغيرة لا يعرفونها مل على إتمام هذه الخطة إلى حين وفاته مجدداً على العلم بفوائد لا تقدّر، تدلنا على ذلك المؤلفات الكثيرة التي ألفها أو جعل غيره من العلماء يؤلفونها. وكان منذ ١٢ كانون الأول سنة ١٧١٣م قد سمي اكليريكيّاً ذا جعل في كنيسة

زعيم الرسل الكبرى برومة تمّ رقي إلى درجة الكهنوت في ٢١ تموز سنة ١٧١٩م خادماً النفوس في هذه الكنيسة إلى أن سمي في ١٦ كانون الأول سنة ١٧٣٨م قانونياً في جملة الكهنة القانونيين فيها، ثمّ عيّن مستشاراً في مجمع نشر الايمان المقدّس في مشاغل الكنائس الشرقية، وفي المحاماة عن الإيمان الكاثوليكي ونشره، وسماه البابا اكليمنضوس الثاني عشر في جوقه خدام غرفته camèriere سنة ١٧٣٢م ثمّ سماه سنة ١٧٣٥م في جوقه رؤساء غرفته Prelat Domestique مع الترخيص باستعمال التاج والعكاز، وقد أرسله البابا المذكور قاصداً إلى طائفته لاصلاح التهذيب البيعي فعقد مجعماً بلبنان لم يسمع بمثله في الشرق منذ قرون وأتمّ ما قصده البابا على أحسن مما كان ينتظر، ثمّ سماه كرلوس الرابع ملك نابولي وصقلية وهو ملك إسبانيا أيضاً باسم كرلوس الثالث مؤرخاً للمملكة نابولي سنة ١٧٣٩م. وفي السنة التابعة نال أن يحسب من أعيان هذه المملكة كالمولودين فيها.

وكان البابا بناديكتوس الرابع عشر كثيراً ما يستشيريه وأدخله في عداد المستشارين في مجمع الفحص المقدّس، فعاون هذا المجمع بكتاباته المتواترة التي كادت تكون في كل يوم وسماه البابا اكليمنضوس الثالث عشر عضواً في الديوان المعروف بديوان التوبة في ٢٤ أيلول سنة ١٧٥٩م، ثمّ سَمَاه مهرداراً أي حافظ الختم في ١ شباط سنة ١٧٦١م، ثمّ رقي إلى مطرانية صور في ١ كانون الأول سنة ١٧٦٦م ولما كان قد بلغ من العمر إلى الحادية والثمانين صرفها في ممارسة الفضائل والجهاد واكتساب محبة الجميع واعتبارهم رقد بالرب في ٣١ كانون الأول سنة ١٧٦٨م برومة متزوداً بالأسرار المقدّسة التي طلبها، ودفن في كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي بمدرسة الموارنة ونقش على صفيحة ذكراً لهذا الرجل ملخّص ما رويناه من ترجمته».

عد ١٠٧٦

مؤلفات السمعاني

إنّ ما سنذكره في هذا الفصل أيضاً هو مترجم عن السجل الواتيكاني السابق ذكره «مؤلفات يوسف سمعان السمعاني مطران صور التي طبعت إلى الآن».

المكتبة الشرقية الاكليمنضوسية الواتيكانية وهي تشتمل على ذكر الكتب المخطوطة السريانية والعربية وتنسيقها وترجمة كل مؤلف من مؤلفيها وتراها مقسّمة في أربعة مجلّدات المجلّد الأوّل في المؤلفين السريان الكاثوليكين طبع برومة في مطبعة نشر الإيمان سنة ١٧١٩م، المجلّد الثاني في المؤلفين السريان المونوفيزيتيين أي أصحاب الطبيعة الواحدة، المجلّد الثالث في المؤلفين السريان النساطرة، المجلّد الرابع في السريان النساطرة ومقالة في السريان أصحاب الطبيعة الواحدة.

كتاب في استعمال كهنة الروم أو غيرهم من الكهنة الشرقيين سر الثبوت، طبع برومة بمطبعة القاعة الرسولية سنة ١٧٢٥م.

التاريخ الشرقي لبطرس الراهب المصري قد ترجم هذا الكتاب أولاً ابراهيم الحاقلي من العربية إلى اللاتينية، ثم أعاد ترجمته يوسف السمعاني وألحق به أربع مقالات، طبع بالبندقية سنة ١٧٣١م.

مونولوجيون أي سنكساري الروم نشر أولاً باليونانية بأمر الملك باسيلوس ثم طبع باليونانية والأذينية مقسوماً إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوّل يشتمل على قصص القديسين في أيلول وتشرين الأوّل وتشرين الثاني، والقسم الثاني على قصصهم في كانون الأوّل وكانون الثاني وشباط، وهذا القسم ترجمه البابا اكليمنضوس الحادي عشر قبل ارتقائه إلى الحبرية العظمى، والقسم الثالث يشتمل على قصصهم في الأشهر الستة الباقية وهذا القسم ترجمه يوسف سمعان السمعاني وأعاد النظر في ترجمة القسمين السابقين، وطبع باوربان سنة ١٧٢٧م.

مؤلفات القديس افرام السرياني اليونانية ترجمها يوسف سمعان السمعاني إلى اللاتينية في ثلاثة مجلّدات، وعلّق عليها مقدّمات وحواشي وفهرستاً لجميع مؤلفات القديس افرام المطبوعة أو المخطوطة الموجودة في المكتبات. طبعت هذه الترجمة برومة بمطبعة الواتيكان سنة ١٧٣٢ وسنة ١٧٤٧م.

مقالة له قدّمها إلى الكردينال انبيال رئيس أساقفة البانو في القديسين بونيفاشيوس وريدمتون وأوطيخوس الكاهن الشهيد طبعت برومة ١٧٤٨م.

غراماطيق أي كتاب نحو اللغة اليونانية طبع باوربان في جزئين.

تأين لفريدريك أغوستوس الثاني ملك بولونيا ألقاه في كنيسة القديس
أكليمنضوس برومة في ٢٢ أيار سنة ١٧٣٣م وطبع بمطبعة الواتيكان.

تأين ألقاه في كنيسة الواتيكان الكبرى في ٢٢ شباط سنة ١٧٣٠م في جناز
البابا بناديكتوس الثالث عشر وطبع برومة سنى ١٧٣٢.

خطبة في انتخاب الحبر الروماني ألقاها للكرادلة الكليتيّ السموّ في كنيسة
الواتيكان الكبرى وطبعت سنة ١٨٤٠م.

براءة رسولية باسم البابا أكليمنضوس الثاني عشر أثبت بها نظام تدبير المكتبة
الواتيكانية والمحافظة على كتبها وكان السمعاني رئيس المكتبة المذكورة قد جمع
قوانين هذا النظام وطبعت بالمطبعة الواتيكانية سنة ١٧٣٩م.

أعمال المجلس البابوي الذي عقده البابا بناديكتوس الرابع عشر في ١٣ تموز
سنة ١٧٤٤م لتثبيت سمعان بطرس عواد بطريكاً على أنطاكية مع رسالة منفذة
من البطريرك والأساقفة إلى امام الأحبار المشار إليه طبعت في مطبعة نشر الإيمان
المقدس سنة ١٧٤٤م.

أعمال المجلس البابوي الذي عقده البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٦ تشرين
الثاني سنة ١٧٤٢م لتثبيت انتخاب بطرس ورتيت بطريكاً على أرمينيا وكيليكيا
ومنحه درع الرئاسة، طبعت في مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدّس سنة ١٧٤٢م.

أعمال المجلس البابوي الذي عقده البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٨ آذار
سنة ١٧٥٧ لتثبيت البطريرك طوبيا الخازن في بطريركية الموارنة الأنطاكية وإيلائه
درع الرئاسة، طبعت بمطبعة نشر الإيمان المقدّس سنة ١٧٥٧م.

قوانين وفرائض الرهبان السريان الموارنة اللبنانيين أنشأها هذا العلامة بالعربية
واللاتينية وعلق في فاتحتها رسالة عربية إلى الرئيس العام والرهبان ضمّنها الكلام
على أصل رهبانية القديس أنطونيوس الكبير في سورية وجبل لبنان وانتشارها فيهما.
طبعت برومة.

وله رسالة عربية إلى الرئيس العام والرهبان المنسويين إلى القديس أشعيا في أصل
الرهبان في جبل لبنان طبعت برومة سنة ١٧٤١م.

وله رسالة إلى الرئيس والراهبات الملكيات الباسيليات في أصل الراهات الباسيليات بسورية وجبل لبنان طبعت برومة بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٧٦٤م.

كلندريات الكنيسة كلّها يشتمل على أسماء القديسين وصورهم وأيام أعيادهم مأخوذة عن التماثيل والصور والكتب القديمة المخطوطة طبع برومة من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٥م في ستة مجلدات بقطع ربع.

مجموعة المؤرخين الإيطاليين مأخوذة عن كتب مخطوطة في المكتبة الواتيكانية وغيرها من المكتبات علّق عليها مقدّمات وحواشي طبعت برومة سنة ١٧٥١ إلى سنة ١٧٥٣م في أربع مجلدات قطع ربع، وفيها شروح وافية في تاريخ مملكتي نابولي وصقلية.

مكتبة التاموس الشرقي الكنسي والمدني في خمسة مجلدات: المجلد الأوّل يشتمل على مجموعة لقوانين كنيسة الروم طبع برومة سنة ١٧٦٢م قطع ربع، المجلد الثاني يشتمل على دستور الحقوق المدنية في كنيسة الروم طبع برومة سنة ١٧٦٢م بالقطع المذكور، المجلدات الثالث والرابع والخامس تشتمل على حاشية على دستور الحقوق البيعية والمدنية في كنيسة الروم طبعت برومة سنة ١٧٦٣ وسنة ١٧٦٤ وسنة ١٧٦٩م بالقطع المذكور.

وله رسالة عربية إلى الرئيس العام والرهبان الروم الملكيين الباسيليين في أصل أديار الرهبان الباسيليين وانتشارها في الكبادوك وسورية وجبل لبنان، طبعت بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٧٥٨م.

وله أيضاً ما يأتي ذكره من المؤلفات المخطوطة بعضها كان كاملاً وبعضها مبتدئاً فيه، فأبأدها حريق وقع في غرفة مكتبته وفي مكتبة اسطفانوس عواد السمعاني مطران حماة في المخادع التي بجانب المكتبة الواتيكانية في ٣٠ آب سنة ١٧٦٨م.

المجلد الخامس من المكتبة الشرقية يشتمل على التّرجمات السريانية والعربية للأسفار المقدّسة. المجلد السادس في كتب السريان البيعية. السابع في مجموعات

المجامع السريانية. الثامن في مجموعات المجامع العربية. التاسع في ترجمات كتب المؤلفين اليونان إلى السريانية والعربية. العاشر في المؤلفين العرب النصارى. الحادي عشر والثاني عشر في المؤلفين المسلمين.

تكملة مؤلفه كلندريات الكنيسة كلها: المجلد السابع في كلندريات اليونان والروم. المجلد الثامن في الكلندريات القديمة عند السريان والموارنة واليعاقبة والنساطرة. التاسع في الكلندريات القديمة عند الأرمن. العاشر في الكلندريات القديمة عند المصريين والأحباش. الحادي عشر والثاني عشر في الكلندريات القديمة عند اللاتينيين.

وقد أتمّ مؤلفه مجموعة المؤرخين الإيطاليين المطبوعة في أربعة مجلدات بالمجلدات الآتية: المجلد الخامس والسادس في المؤلفين القدماء من مملكتي نابولي وصقلية. المجلدات السابع والثامن والتاسع والعاشر تشتمل على ما بين أحوال نابولي وصقلية ويليهما بيان أحوال غيرهما من نواحي إيطاليا كمملكة لمبردية وأمريات رومة وسيولاتو وتوسكانا وغيرها.

وله مؤلف آخر في صور القديسين وذخائريهم: المجلد الأول في صور القديسين الفسيفسية (أي المنقوشة بالفسيفساء) والمصوّرة أو المنحوتة المحفوظة في الكنائس القديمة في الشرق والغرب. الثاني في صور القديسين المحفوظة في الكتب القديمة اللاتينية واليونانية والكتب الشرقية. الثالث في صور سيدنا يسوع المسيح. الرابع في صور العذراء أم الله المكرمة في الشرق والغرب. الخامس في الأماكن المقدسة بفلسطين وفي ذخائر سيدنا يسوع المسيح والعذراء القديسة. إنّ قسماً من المجلد الأول من هذا التأليف أشهره يوحنا بوتاريوس في مقالة نيقولاوس اليماني في أخربة لاتران المطبوعة سنة ١٧٥٦م من صفحة ١٣٥ إلى صفحة ٢٠١، وقسم آخر كبير من هذا التأليف نجا من الحريق وهو محفوظ بيد ورثة السمعاني المؤلف.

وله أيضاً تأليف وترجمة مجمع الموارنة اللبناني الذي عقده البطريرك يوسف الخازن وأساقفة ورؤساء الموارنة سنة ١٧٣٦ بجبل لبنان برئاسة السمعاني القاصد الرسولي من قبل البابا اكليمنضوس الثاني عشر، وقد أنشأه بالعربية وترجمه إلى اللاتينية. والنسخة اللاتينية التي أثبتها البابا بناديكتوس الرابع عشر محفوظة في

خزانة أوراق مجمع نشر الإيمان المقدس. والنسخة العربية التي عورضت بالأصل فوجدت مطابقة له نجت من الحريق وهي بيد ورثة السمعاني.

وله أيضاً أوخاليجيون الكنيسة الشرقية وهو يشتمل على الطقوس ورتبة القُدّاس والفروض البيعية ورتب الأسرار والتكريسات والبركات مضافاً إليها شروح من علماء شرقيين وغربيين غير مطبوعة قبلاً. وهذا التأليف مقسوم إلى سبعة كتب: الأوّل في أوخاليجيون السريان المارونية. الثاني في أوخاليجيون الكنيسة السريانية يعقوبية. الثالث في هذه الرتب في الكنيسة السريانية النسطورية. الرابع فيها في الكنيسة الملكية. الخامس فيها في الكنيسة الأرمنية. السادس فيها في كنيسة القبط المصرية. السابع فيها في كنيسة الأحباش.

وله أيضاً مؤلف في مجامع الكنيسة الشرقية مقسوم في ستة مجلّدات وأكثرها لم يشهر قبلاً كلّهُ أو بعضه وهو مأخوذ عن كتب شرقية مخطوطة: المجلّد الأوّل في مجامع الكنيسة السريانية المارونية. الثاني في مجامع الكنيسة الكلدانية النسطورية. الثالث في مجامع السريان يعاقبة. الرابع في مجامع الأقباط. الخامس في مجامع الأرمن. السادس في مجامع الروم والالبانيين والروتانيين.

وله أيضاً تسعة كتب في التاريخ الشرقي: الكتاب الأوّل في السريان الموارنة. الثاني في الروم الملكية. الثالث في الدروز والنصيرية. الرابع في المسلمين. الخامس في القبط. السادس في السريان يعاقبة. السابع في الأحباش. الثامن في السريان النساطرة. والتاسع في الأرمن.

وله تسعة كتب في تاريخ سورية القديمة والحديثة: الكتاب الأوّل في وصف سورية بالإيجاز. الثاني في فلسطين. الثالث في فينيقيا. الرابع في سورية وسورية المجوفة وسورية الفراتية. الخامس في ما بين النهرين. السادس في آشورية أي بلاد الأشوريين وهي العراق. السابع في كيليكية. الثامن في العربية أي بلاد العرب. التاسع في جزيرة قبرص. ثم إنّ الكتّابين الثامن والتاسع وقسماً من الكتب نجت من الحريق وهي بيد ورثة السمعاني.

وله أيضاً مقالة لاهوتية في صحّة الرسامات التي يياشرها أساقفة مصر ومقالات أخرى وتقريرات ومباحث في مواد شتى وحل مشاكل موردة من نصارى الشرق

ومحولة إليه من مجمع نشر الإيمان المقدّس ومجمع الفحص، ولم تزل أصولها محفوظة في خزائن المجمعين المذكورين ولو جمعت لتألف منها عدّة مجلّدات ضخمة.

وله أيضاً غراماطيق سرياني مطوّل ألفه بالعربية ووضع عليه الحركات السريانية نجا من الحريق وهو باقٍ عند الورثة، وله أيضاً كتاب منطق بالعربية نجا من الحريق وهو يدهم أيضاً.

وله أيضاً كتاب في الالهيات أي علم ما وراء الطبيعة بالعربية وكتاب لاهوت اعتقادي بالعربية وكتاب في تفسير الآيات الغامضة في العهدين القديم والحديث. ولهذه المؤلفات عدّة نسخ باقية إلى الآن. «هذا ختام ما جاء في السجل الواتيكاني».

ومن كتابه الأخير وهو تفسير الآيات الغامضة الخ. مخطوطة في مكتبة بطريركية الموارنة ولا أعلم لماذا أغفل كاتب السجل المذكور ذكر كتب أخرى للسمعاني ولا نشك في أنّه مؤلفها. منها فهرست الكتب الشرقية القديمة المخطوطة في المكتبة الواتيكانية الذي ألفه بمعاونة ابن أخته اسطفانوس عواد السمعاني. ومنها كتابه في البطريركيات الأربع وبطاركتها الذي ألفه بالعربية بمعاونة البطريرك سمعان عواد وهما يدرسان معاً برومة. ولهذا الكتاب الأخير عدّة نسخ ومنها كتاب في اللاهوت الأدبي ألفه بالعربية موسوماً بشرح الوصايا العشر ونسخته الأصلية في مكتبة الرهبان الموارنة برومة.

وقد أشار السمعاني في بعض كتبه الباقية إلى بعض كتبه المفقودة فقال في كتابه كلندريات الكنيسة (مجلّد ١ صفحة ٣٠١): «وتركت جانباً طبع هذا الكتاب لأشتغل في تكملة بعض كتب كنت قد بدأت فيها أحصّها: «كتاب سورية القديمة والحديثة» وكتاب «تاريخ الجامع» وكتاب «رتب نصارى الشرق» الذين انقسموا منذ قرون إلى سريان وملكية وأرمن وقبط ولأشتغل أيضاً بما يتعلّق بتاريخ إيطاليا وفقهاؤها وسأشهر عن قرب فهرستاً دالاً على ذلك». إلى أن قال بعد ذلك إنّّه يلزمه أن يتم كتابه كلندريات الكنيسة ليتفرّغ لجمع المواد اللازمة لكتابه في صور القديسين. وقال في آخر كتابه التاريخ الشرقي: «وكان في عزمي أن ألحق بذلك تاريخ بطاركة السريان الملكية والموارنة والنساطرة وتاريخ الأرمن والجركس

والأحباش ولكن رأيت أنّ سلسلة تاريخية مدققة لا يمكن إلحاقها بتاريخ للخلفاء والسلاطين والمسلمين لكنني لتكلمة ما عزمت عليه سوف أستعين بالكتب السريانية والعربية المأثري بها حديثاً إلى المكتبة الواتيكانية. ولما كان طابع هذا التاريخ يلح عليّ بتكملة طبعه أجلت إلى وقت آخر تكلمة هذا التاريخ الشرقي». وقد أشار إلى تأليف أخرى في المجلد الأول من المكتبة الشرقية إذ قال: «والمجلد الرابع سوف يشتمل على ذكر المؤلفين اليونان واللاتينيين وغيرهم المترجمة مؤلفاتهم إلى السريانية سواء كانوا كاثوليكين أم من أولي البدع... وسلسلة البطارقة السريان الموارنة والملكية واليعاقبة والنساطرة مأخوذة عن الكتب المخطوطة بالمكتبة الواتيكانية». فأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وإن مغرمًا، بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه من باقي أعماله.

عد ١٠٧٧

اعتبار الأحبار الأعظمين للعلامة السمعاني

يدلنا على علو منزلة هذا النابغة العلامة حقيقة عند الأحبار الأعظمين الذين كانوا في أيامه ما أولوه إياه من المناصب الرفيعة والوظائف العالية المتقدم ذكرها، وما أجلوه به من التقاريط المشرفة، فنرى البابا اكليمينضوس الثاني عشر قد عنون رسالته المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م التي أقامه بها قاصداً من لدنه لعقد المجمع اللبناني بهذا العنوان: «إلى الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني أحد رؤساء بلاطنا ونجينا وجليسنا الملازم لنا». وقال في حقّه في براءته إلى البطريرك يوسف الخازن المؤرخة في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م: «إننا موجهون إليك بعاطفة الحب وفقاً لطلبك منا قاصداً من قبلنا وهو الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني الموماً إليه من له في مدينتنا الشريفة هذه ذكر طنان مذ عدة سنين لاشتهاره بالتقى والدراية والعلم والخبرة بشؤون الشرقيين خصوصاً طائفتك». وقال في رسالته إلى الأساقفة بهذا الخصوص في التاريخ المذكور: «قد تعجلنا إنفاذ أمرنا إلى الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني حافظ مكتبتنا الرسولية الواتيكانية وأحد رؤساء بلاطنا المشهود له بالصلاح وسداد الرأي والخبرة بشؤون الشرقيين خصوصاً

طقوس طائفتكم المعروف عندنا بغير ذلك من الصفات الجليلة والعزیز علیکم والمحـب إليکم». وترى مثل ذلك وأعظم منه في براءة البابا بناديكتوس الرابع عشر في تثبيت المجمع اللبناني المطبوعة في كتاب هذا المجمع.

وقد عثرنا في كتاب المطران اسطفانوس عواد السمعاني فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية على رسالة من البابا بناديكتوس الرابع عشر إلى العلامة السمعاني لم نكن نعرفها ولا رأينا ذكرها في أحد الكتب إلى الآن فأجبنا أن نثبت ترجمتها في كتابنا هذا إحياءً لذكرها وبياناً لما كان عند الأبحار الأعظمين من علو المنزلة ورفیع الشأن لهذا العلامة المنقطع النظر. ذلك أنه بعد عقد المجمع اللبناني وسفر السمعاني إلى رومة وسوس بعض أصحاب المآرب المنحرفة إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن وبعض الأساقفة في أن يعترضوا على هذا المجمع ويمنعوا تثبيت الكرسي الرسولي له مدعين خاصة أن فصل الرهبان عن الراهبات في الأديار تحول دونه صعوبات وعقبات، وأن لسكنى الأساقفة كل في أبرشيته غوائل ومضارّ والأولى أن يستمروا على ما كانوا عليه من الإقامة جميعاً عند البطريرك، وأرسل المعترضون إلى رومة الخوري ميخائيل الغزيري والخوري الياس سعد البجاني تلميذي مدرسة الموارنة في رومة وأصبحوهما بعراض الشكوى من رسوم المجمع اللبناني في ما ذكر ومن تصرفات السمعاني في قصادته، وشاركهم في هذا الاعتراض والتشكي البطريرك كيرلس تاناس بطريرك الملكية الكاثوليكيين، فبلغ الموفدان إلى رومة وأكثر من التشكي والطعن بالسمعاني، فجمع البابا بناديكتوس الرابع عشر كرادلة مجمع نشر الإيمان وبعد إمعان النظر في رسوم المجمع وفي اعتراضات المعترضين أثبت أعمال المجمع وكلاً من رسومه في براءته المؤرخة في ١ أيلول سنة ١٧٤١م والمثبتة في ذيل المجمع اللبناني. ورغبة في تطييب قلب السمعاني وبياناً لأن المطاعن التي لققها خصومه تعود عليهم بالعار، وأرسل إليه الرسالة الآتية التي ترجمناها بما أمكن من الدقة:

«إلى الإبن الحبيب يوسف سمعان السمعاني معلّم بلاطنا الرسولي وأستاذ التبليغ في كلا ديوانينا ورئيس خدام غرفتنا ونجينا الملازم لنا من البابا بناديكتوس الرابع عشر.

«أيتها الابن الحبيب السلام والبركة الرسولية. إنّ ما نعتقده بكم من كرم الأخلاق والتقوى والرغبة في تقدّم الفنون والعلوم المقدّسة خاصّة ليس بحديث عندنا بل قد مضى عليه نحو من ثلاثين سنة، فقد عرفناكم بذلك مذ كنّا في المقامات الصغيرة قبل ارتقائنا إلى السدّة الرسولية والمتاعب الشاقّة التي قاسيتها في خدمة هذا الكرسي الرسولي والخصال الحميدة التي ما فتئتم تزدادون تجمّلاً بها جعلتنا ننزلكم أرفع منزلة من التوقير عندنا، لا إذ نحن في رومة فقط بل إذ كنّا مقيمين خارجاً عنها أيضاً، ولكي نبدي انعطافنا إليكم نقول إنّ الطيّب الذكر كرلوس مايولي رئيس أساقفة حمص (رئيس المكتبة الواتيكانية قبل السمعاني) الرجل الشهير بعلومه وخدماته للكرسي الرسولي كان يخبرنا وهو حيّ عن تصرفكم معه مدّة طويلة بالركة واللطف مثنيّاً على فقاھتكم بكل فن وحكمتكم وتقاوۃ سيرتكم وحسن خلوصكم ولطف معاشرتكم له، وأبحاثه معكم إلى أن خلفتم كرلوس المذكور بمرتبة قانوني في كنيسة القديس بطرس الكبرى برومة وبالرئاسة على المكتبة الواتيكانية، فنرى بكم مثلاً لذلك الرجل الشهير ونحبكم كما كنّا نحبه ويضاف إلى ذلك ما تبذلونه من الجهد الذي يكاد خاصّة لا يصدّق ومن العناية التي لا توصف منذ سنين متطاولة في المشاغل الشرقية خاصّة خدمة لمجامع إخواننا المحترمين كرادلة الكنيسة الرومانية المقدّسة في مجمع الفحص المقدّس العام ضدّ شرّ أولي البدع، ومجمع نشر الإيمان المقدّس، وما برحتم تثبتون بذلك ما لكم من الخبرة النافذة والحكمة الوفرة والعناية الكبرى حتى يتولانا السرور العظيم لرؤيتنا أنكم غاثمون الشاء والشكر من الجميع.

ثمّ إنّ ما شهرتموه من المجلّدات الكثيرة في المكتبة الشرقية وفي غيرها من العلوم والفنون قد أكسبكم عند القبائل القاصية أيضاً اسماً عظيماً وشهرة لا تمحوها الأيام والدهور وقد شملنا مزيد السرور عندما علمنا ونحن في مقام الكرادلة في بونونيا أنّ سالفنا السعيد الذكر البابا اكليمنضوس الثاني عشر وقبله سالفنا الطيّب الذكر البابا اكليمنضوس الحادي عشر قد أرسلاكم إلى أصقاع الشرق لتجمعوا الكتب المخطوطة يونانية وسريانية وعربية وغيرها من اللغات، ثمّ عهد إليكم البابا اكليمنضوس الثاني عشر بالقصادة الرسولية إلى طائفتكم المارونية بطلب مجمع نشر الإيمان المقدّس

لاصلاح ما طرأ على تهذيب طائفتكم من الخلل بمجمع إقليمي يعقده هناك الإخوة المحترمون بطريك هذه الطائفة وأساقفتها، ولما ارتقينا إلى هذه المصبة الرسولية السامية وكنا مهتمين باثبات هذا المجمع وتأييده بالسلطان الرسولي ساءنا كثيراً ما بلغنا من أنه أولاً نشأت اعتراضات ومحاورات في بعض الأمور المتضمنة في المجمع. ثانياً أنه انتشرت كتابات مخطوطة بل مطبوعة أيضاً لا تشتمل على إيضاح براهين تلك الاعتراضات والمحاورات أو حجج كاتبها بل على الطعن والقذف والتنديد مقصوداً بها بجسارة الحطة بقدركم ومقامكم وشخصكم وقد أذاعوها وتداولتها الأيدي. فبعد أن بحثنا عن هذه الأمور وظهرت لنا حقيقتها جلياً أصدرنا براءة مؤرخة في أول أيلول من هذه السنة أثبتاً فيها كل ما يلزم بيانه في هذا الشأن وأثبتنا فيها المجمع المذكور بسلطاننا الرسولي وأيدناه كل التأييد، ورأينا من الصواب والانصاف أن نمحو كل وصمة التحقت باسمكم من الكتابات المذكورة وأن ننزل التأديب بمؤلفيها وأن نعلن أنها تستحق أن تحرق بالنار لا أن تنشر. ولهذا نبذنا العريضة التي قدمها أحد الموفدين وبعض المحازين له باسم أخواننا المحترمين يوسف بطرس بطريك الموارنة الأنطاكي، واسم كيرلس بطريك الروم الملكيين الأنطاكي وربما كان اسمها مزوراً وجل ما حملنا على ردل هذه العريضة هو اشتغالها على الشكوى من أعمالكم والمقاومة لآرائكم والطعن بكم، ونجلكم بالثناء والمدائح الرسولية ونعلن أنكم تستحقون خير الجزاء ونصرح بأنكم أحسنتم كل الإحسان في تصرفكم بقصادتكم في المجمع المذكور وأحكمتم بدعوته وأتمتم كل شيء فيه بحسب رغائب الكرسي الرسولي وطبقاً لمقامه السامي، ولما يؤول إلى شرف الطائفة المارونية ونفعها.

فواظب إذاً أيها الابن الحبيب على مساعيك المشكورة ومتابعك المبرورة وعلى ما اعتدت عليه من الخدمات الصادقة للكرسي الرسولي لتفاضل في استيصال المحبة الأبوية التي نخصك بها، ومرغوبنا أن تكون متيقناً أننا نتوقع كل فرصة ووسيلة موافقة لنبدي لك عواطف اعتبارنا وعاطر ثنائنا وخالص تبجيلنا وشكرنا وعربوناً على ذلك نهديكم بركتنا الرسولية مكررة. دون برومة في جانب كنيسة مريم الكبرى ممهوراً بختم الصياد ١٤ أيلول سنة ١٧٤١م وهي السنة الثانية لحيريتنا.

المطران اسطفانوس عواد السمعاني

هو ابن أخت العلامة يوسف سمعان السمعاني تخرج باللغات والعلوم والفنون بمدرسة المواردنة برومة وارتقى درجة الكهنوت وشهد المجمع اللبناني مع خاله سنة ١٧٣٦م، وكان رقيباً فيه ثم رقاہ البطريرك يوسف ضرغام الخازن إلى الأسقفية على اباميا. والذي نعرفه من مؤلفاته كتاب في شرح أعمال الشهداء الغربيين والشرقيين لأوسايوس القيصري في مجلدين بقطع كامل وكتاب «فهرست الكتب المخطوطة الشرقية في المكتبة الماديشية في فيرانسا» وقد استشهدنا بهذا الكتاب مرات كثيرة وهو كتاب بديع حقاً اشتمل على ذكر خمس مئة وسبعة وثلاثين كتاباً وعلى تراجم أكثر مؤلفيها وعلى فحوى كل منها، وقد أتحفنا بإيراد حواش كثيرة معلقة على بعض الكتب ولاسيما على كتاب الأناجيل الأربعة القديم جداً المخطوط سنة ٥٨٦م، وكان في الكرسي البطريركي الماروني سنين متطاولة، وعلّق عليه البطارقة وغيرهم حواشي نافعة جداً استدللنا بها على أمور لم يكن سبيل غيرها إلى معرفتها، ولم نعلم كيف انتقل هذا الكتاب إلى المكتبة المذكورة. وله أيضاً كتاب «فهرست للكتب التي بمكتبة كيجي» في رومة. وله أيضاً «فهرست الكتب المخطوطة التي في المكتبة الوايكانية» ألفه مع خاله العلامة السمعاني في ثلاثة مجلدات وهو بديع أيضاً. وقد أشار إليها في مقدّمات كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية المار ذكره. وله كتاب «محاماة عن القديس يوحنا مارون» ألفه بالإيطالية ولم يعرفه باسمه وقد ترجم بعضه أو أكثره إلى اللغة العربية وطبع في المقالات المطبوعة في كتاب المحاماة عن المواردنة. وله أيضاً ترجمة التاريخ السرياني لابن العبري إلى اللغة اللاتينية وألحق به حواشي كثيرة الإفادة وكان يشاء طبعه كما روى عن نفسه في كتاب فهرست الكتب الشرقية بالمكتبة الماديشية صفحة ١٩٧ حث قال بعد ذكر هذا الكتاب وتفصيل ما اشتمل عليه: «وقد ترجمنا إلى اللاتينية كنز الحكمة الشرقية هذا وذيلناه بحواش وسوف نطبعه إن وفق الله رغبة في تقدّم العلوم». ولا نعلم أنّه طبعه وله أيضاً تكملة ترجمة المجلّد الثالث من كتب القديس أفرام السرياني إلى اللاتينية.

ومن شاء أن يعلم علو منزلة هذا العلامة عند علماء الغرب فليطالع الذيل الذي علّقه طابع كتاب الفهرست المذكور في آخره حيث أبان ما للمؤلف من طول الباع وسعة الإطلاع والخبرة الكملية بتاريخ الشرق والذكاء المتوقّد والثبات الذي لا يعروه ملل في الأعمال العلمية والفقاهاة الذي قلّ أن يكون له نظير فيها، والفضل الجزيل الذي كان له على العلم والعلماء. وقد ذكر له أكثر تأليفه التي أشرنا إليه وزاد على ذلك أنّه كان في عزمه أن يعود ثانيةً إلى فيرنسا ووعد بأنّه سوف يدوّن فهرساً آخر لجميع الكتب الشرقية الكائنة في باقي مكتبات هذه المدينة، وأنّه كان قد نظم الكتب الشرقية الوافرة العدد التي جمعها جبرائيل ماركيو العلامة في مكتبته الشهيرة وأنشأ لها فهرساً وذّله بحواشيه وملاحظاته، وأضاف إليه مقالة أبان فيها أنّ القديس مارون الوارد ذكره في كتاب القدّاس السرياني لم يكن مبتدع بدعة المشيئة الواحدة وأنّ أوّل من لُقّق هذه التهمة إنّما هو سعيد بن البطريق وفند زعمه وقد توفي هذا العلامة في سنة ١٧٨٢م.

عد ١٠٧٩

يوسف لويس السمعاني وابن أخيه القس سمعان السمعاني

أمّا يوسف لويس السمعاني فهو ابن أخي العلامة يوسف سمعان السمعاني ولد ونشأ بقرية حصرون وتخرّج باللغات والعلوم والفنون بمدرسة الموارنة برومة إذ كان عمّه وابن عمّته المطران اسطفانوس عواد فيها، وبرع واشتهر وعيّنّه البابا بناديكتوس الرابع عشر معلماً للغات الشرقية والطقوس في الكلية الرومانية المعروفة بالسايانسا (أي الحكمة)، وله مؤلفات كثيرة نعرف منها باللاتينية مؤلفه المعروف بها بالكوديكس لينورجيكوس أي كتاب رتب القدّاس والطقوس الدينية في ثلاثة عشر مجلداً بقطع الربع، وكان نادر الوجود حتى بيعت النسخة منه بثلاثة آلاف فرنك كما قال من طبعوه حديثاً، واستجلبنا نسخة منه لمكتبتنا بست وعشرين ليرا فرنسية. وله أيضاً كتاب في تاريخ بطاركة الكلدان والنساطرة وكتاب في الكنائس واحترامها وحمايتها طبع برومة سنة ١٧٦٦م، ومقالات في الاتحاد والاشتراك الكنسي وفي قوانين التوبة القديمة وفي مجمع الأبرشية. وله أيضاً ترجمة شحيم

(أي كتاب فروض) السريان في أربعة مجلّدات وترجمة كتاب قدّاس الكلدان إلى اللاتينية. وله أيضاً شرح على كتاب يوحنا موريوس في الرسامات عند اللاتين وعند الشرقيين طبع برومة سنة ١٧٥٦م. ويظهر من رسالة كتبها إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن مصونة في السجّلات البطريركية إذ كان كاهناً.

وأما القس سمعان السمعاني فهو ابن أخي يوسف لويس المار ذكره ولد بحصرون أيضاً ودرس العلوم في مدرسة الموارنة ونبغ فيها وانضوى إلى جمعية الرهبان الحلبيين اللبنانيين الموارنة وارتقى إلى درجة الكهنوت والذي نعرفه من تأليفه كتاب «فهرست للكتب المخطوطة الشرقية الكائنة في المكتبة النانية» في بادوا وكتاب «تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام» و«كتاب في الكرة الفلكية». كل ذلك في اللغة اللاتينية.

عد ١٠٨٠

غير هؤلاء من علماء الموارنة

الخوري ميخائيل الغزيري

من علماء الموارنة في القرن الثامن عشر الخوري ميخائيل الغزيري الطرابلسي أصله من غزير ونزح أهله إلى طرابلس وتفقه بالعلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقى إلى درجة الكهنوت وكان في المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م نائباً عن باسيليوس مطران طرابلس ويسمى غرسيه نسبة إلى عائلته. وقد وصف في هذا المجمع بأستاذ الفلسفة واللاهوت ونعرف من تأليفه كتاباً جزيلاً الفائدة اشتمل على «فهرست للكتب العربية في مكتبة اسكوريالي بإسبانيا» وهو مجلدان بقطع نصف نعلم أنّ منه نسختين في لبنان الواحدة كانت في مكتبة البطريركية الموارنة والثانية كانت في مكتبة الطيّب الذكر المطران نعمة الله الدحداح ونظّنها نقلت إلى مكتبة خليفته المطران بولس مسعد. وكان الخوري ميخائيل المذكور مع الخوري الياس سعد البجاني قد أرسلوا إلى رومة للاعتراض على بعض رسوم المجمع اللبناني والطعن بالعلامة السمعاني وقد رأيت من كلام البابا بنديكتوس الرابع عشر ما كان من النبذ لهذا الطعن.

اسطفانوس ورد ابن الخوري ابراهيم

المعلوم عندنا بالتقليد أنّه من قرية كفرحورا بالزاوية ورأيناه في بعض الكتب منسوباً إلى حلب وقد درس العلوم واللغات بمدرسة الموارنة برومة وارتقى إلى درجة الكهنوت وصار خورياً في صيدا، وشهد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م وكان كاتب أسرار المجمع. ونعرف له من التأليف كتاب «مواعظ» وكتاب «نزهة العباد» بالعربية ورسالة إلى أبناء ملته نجدها مثبتة في كتاب تاريخ الكنيسة الأنطاكية السريانية المارونية في صفحة ٨١٩ إلى صفحة ٨٥١.

الخوري أنطون القياي

ولد ببيروت في أواسط القرن الثامن عشر ودرس العلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقى إلى درجة الكهنوت وصار خورياً ببيروت ونعرف من تأليفه كتاباً ردّ فيه مطاعن القس يوحنا عجمي الملكي الكاثوليكي المار ذكره على الملة المارونية وقد طبع كتابه هذا في كتاب «الحمامة عن الموارنة». ومن طالع هذا الكتاب قضى بأن مؤلفه كان ضليعاً بالتاريخ وغيره من العلوم.

القس عيسى الجماماتي

ولد ونشأ بدمشق وتخرّج بالعلوم بمدرسة الموارنة برومة ونعرف من تأليفه كتاباً في «نسبة الموارنة وردّ التهم الواردة عليهم» بالعربية.

القس يوحنا اليازنجي

ولد بحلب ونعرف من تأليفه كتاباً في «الحمامة عن الموارنة» والعلماء الذين ذكرناهم في هذا الفصل لم نعر إلى الآن على ما ينبئنا بسنة مولدهم أو سنة وفاتهم أو جميع تأليفهم ونترك الآن البحث عن ذلك إلى وقت آخر أو لأحد العلماء بعدنا.

الفصل الرابع

المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن

عد ١٠٨١

المجمع اللبناني

إنَّ أهم المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن وأكملها وأعظمها إنَّما هو المجمع الذي عقده في دير السيدة بلويزة سنة ١٧٣٦م، وكان العلامة السمعاني قاصداً فيه من قبل البابا اكليمنضوس الثاني عشر، فإنَّ البطريرك يوسف ضرغام الخازن وأساقفته وعلية الاكليس الماروني والأعيان والأتقياء لما رأوا أنَّه قد تدرَّج إلى التهذيب البيعي بعض أشياء نادرة عن وضعه وبهائه الأولين رفعوا إلى الحبر الأعظم البابا اكليمنضوس الثاني عشر وإلى مجمع نشر الإيمان المقدَّس عرائض مؤرخة بين أواخر تموز وأوائل آب سنة ١٧٣٤م التمسوا بها بالحاح أن يبعث إليهم السيّد يوسف سمعان السمعاني ليتَّرس من قبل الكرسي الرسولي على مجمع يعقدونه لاصلاح التهذيب البيعي وسد ما اعتور عليه من الخلل وردّه إلى بهائه القديم فكتب السيّد البطريرك عريضة إلى امام الأحبار بهذا الصدد مؤرخة في ٢٨ تموز سنة ١٧٣٤م وكتب هو وأساقفته عريضة بهذا المعنى إلى مجمع نشر الإيمان المقدَّس وكذلك كتب البطريرك إلى بعض الكرادلة ورفع الرئيس العام على الرهبان اللبنانيين، ومدبروه الأربعة، عريضةً بهذا الشأن لقداسته.

فاجتمع آباء مجمع نشر الإيمان وأصدروا قراراً في ٢٤ تموز سنة ١٧٣٥م بلزوم إجابة بطريرك الموارنة وأساقفته إلى طلبهم عقد مجمع طائفي وارسال السيّد السمعاني إليهم، لذلك، وإثباتاً لهذا القرار أصدر البابا اكليمنضوس الثاني عشر براءة

رسولية مؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م إلى العلامة السمعاني ينصبه قاصداً من قبله إلى طائفته ليعقد المجمع بحضرته، وأبرز براءة أخرى مؤرخة في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م إلى السيّد البطريرك بها يجيبه إلى طلبه عقد المجمع وتوجيه السيّد السمعاني إليه لهذه الغاية وأصبحها براءة أخرى إلى رؤساء أساقفة الموارنة وأساقفتهم بهذا المعنى، وأرسل مجمع نشر الإيمان رسائل مؤرخة في ١٠ كانون الأوّل سنة ١٧٣٥م إلى البطريرك والأساقفة وإلى الرئيس العام على الرهبان اللبنانيين ومجمعهم بالمعنى الموماً إليه، وترى هذه البراءات والرسائل مثبتة في صدر أعمال هذا المجمع المطبوعة حديثاً.

ووصل السيّد السمعاني إلى بيروت في أواخر حزيران ونروي ما كان إلى نهاية المجمع ملخصاً عن عريضة رفعها إلى البابا اكليمنضوس الثاني عشر بتاريخ ١٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٧م قال: «شيعوني من بيروت إلى جبل لبنان محفوفاً بمظاهر الفرح والإجلال الخارقة العادة بصفة كوني قاصداً من قبلكم وتناولوا بواجب الإحترام المراسيم الحبرية والرسائل المنفذة إليهم من ذوي النياحة كرادلة الكنيسة الرومانية، وقُرئت باللاتينية والعربية على مسمع الجم الغفير من الاكليروس والشعب، وأنّ العبارة لتضيق عن وصف شعائر التقى والعبادة الحارة التي اقتبلوا بها هدية بركتكم الرسولية ونودي بانعقاد مجمع إقليمي لمرور ستة أسابيع أي في الخامس عشر من آب عيد انتقال العذراء في دير قنوين، إلّا أنّه روى يتعذّر على كثيرين الحضور إلى قنوين المجاورة لجيش والي طرابلس فأمرنا أن يكون الاجتماع في كسروان التي يتولاها مشايخ مسيحيون. وبعد انطلاقنا إلى كسروان اختلفت الآراء إذ كان بعضهم يؤثر هذا المكان وبعضهم غيره إلى أن أجمعوا جميعاً على اختيار دير لويظة. ولكن وفاء برغبة السيّد البطريرك والمشايخ ذوي قرابته رأينا أن نعقد بعض جلسات ابتدائية وخصوصية في دير ريفون الذي اعتاد البطريرك أن يقيم فيه لأنّه لبس فيه الاسكيم الرهباني، وفيه رقي إلى الأسقفية، ثمّ إلى البطريركية. ولما كان قد نشأ بين البطريرك والأساقفة بعض مسائل تتعلق بتوزيع الميرون وولاية وسلطة كل منهم وتعدّر البحث في هذه المسائل بدير ريفون دون قلق بسبب اضطراب هاجه بعض المشايخ أقرباء البطريرك، فرأيت مع بعض الرؤساء الأفاضل وجوب انطلاقنا من دير ريفون إلى دير لويظة مجانبةً للمنازعات ولقد تيسّر لنا ذلك

لأنّ المخالفين أنفسهم غيّرُوا رأيهم وبذلوا جهدهم في حمل البطريك على أن يتدارك العثار الناتج من الخصام فاعتمد البطريك فجأة إلى المسير إلى دير لوزية مع ذويه ليقرّر هناك الأمور التي شرع في فحصها، وأصدر البطريك أمراً باستئناف المذاكرات في السابع والعشرين من أيلول وحكم باتّفاق الآراء بعقد المجمع لمرور ثلاثة أيّام في دير لوزية. وفي تلك المجالس التي استغرقت ثلاثة أيّام متتالية كان اشتغال الأساقفة واللاهوتيين مقصوراً على تذليل المشاكل وتوثيق عرى الإتّفاق وتأليف الخواطر. وفي آخر الأمر تمّ لنا بحوله تعالى افتتاح المجمع بما أمكن من السرعة يوم الأحد آخر أيلول سنة ١٧٣٦م، وكان فيه عدا البطريك ورؤساء الموارنة أربعة من أساقفة الطوائف الشرقية والرئيسان العامان للرهبان اللبنانيين ورهبان مار اشعيا وعشرة من المرسلين اللاتينيين وقدرهم من خوارنة وخدمة كنائس وجمهور غفير من القسوس والرهبان وثلاثون من المشايخ الخازنيين، وإثنا عشر من الحبيشيين، وسبعة من وجهاء العوام. واستمرّ انعقاد المجمع ثلاثة أيّام وانحلّ في ثاني تشرين الأوّل والخواطر معقودة على أتمّ الوفاق، ولم يبقَ هناك إلّا أمانى مقدّسة وآراء سديدة وأعمال مبرورة ووقعوا جميعاً على أعمال المجمع وأخضعوا كل ما أُنبتوه وأقروه لسلطانك لتبدله وتهدّبه وتثبته، وقد عوّلت أن أبادر بعد انحلال المجمع إلى تفقّد الكنائس والأديار لأفقه كهنة الرعايا في واجباتهم وأضع للرهبان والراهبات القوانين اللازمة، وأحضّر الأساقفة على الاجتهاد بتدبير الإكليروس والعامّة بحسب رسوم المجمع المذكور وأنشأت رسالات وأقمت فيها تلاميذ مدرستنا المارونية أو رهبان دير رومة في أبرشيات صور وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وقبرص، وأمرت بفتح المدارس في الأديار لأجل تهذيب الأحداث، وقد خصصت لسكنى الراهبات على حدّة أربعة أديار وهي دير مار الياس الرأس ودير مار جرجس الرومية ودير سيدة الحقلّة ودير مار عبدا هريريا، وسعيت بنقل الراهبات من دير مار الياس بلونه ودير مار أنطونيوس بقعاتا حيث كانت الراهبات مقيمات بجوار سكن الرجال إلى غيرها من اديرة النساء. وأمّا القلق الذي أثاره بعض الرؤساء والمشايخ بسبب تجديد تهذيب الأديار والكنائس والخلاف على مسائل بيعية بين الرؤساء والسيد البطريك وبين العامّة والإكليروس وما يلزم لذلك من العلاج كل ذلك قد بسطته بالتطويل في رسائلي إلى مجمع نشر الإيمان المقدّس». فهذا ما لحّصناه من عريضة السمعاني

لقداسته البابا اكليمنضوس الثاني عشر في ١٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٧ رغبة في ما حوته من الفوائد.

وقد أثبت البابا باديكوس الرابع عشر قوانين الجمع اللبناني وأحكامه برمتها ببراءته المؤرخة في ١ أيلول سنة ١٧٤١ وترى هذه البراءة متبته في آخر ذيله المعلق على النسخة المطبوعة حديثاً سنة ١٩٠٠م والجمع المذكور مقسوم إلى أربعة أقسام: الأول في الإيمان الكاثوليكي وفيه خمسة أبواب. الثاني في الأسرار وفيه أربعة عشر باباً. الثالث في الخدام والقسوس والرؤساء وفيه ستة أبواب. الرابع في الكنائس والمدارس والأديار والترتيبات الجمعية وفيه سبعة أبواب وهو الدستور العام للملة المارونية وإليه المرجع في أمورها الروحية والبيعية.

عد ١٠٨٢

مجمع بقعاتا

عقد رؤساء المواردنة عدّة مجامع أخرى في هذا القرن لم يكن لها أهمية الجمع اللبناني ولا أبهته ولم يكن فيها ممثل للكرسي الرسولي ولم يشهدها المرسلون وأساقفة غيرهم من الطوائف كالجمع اللبناني، وأول هذه المجمع مجمع بقعاتا عقده البطريرك طوبيا الخازن في ٢٥ آب سنة ١٧٥٦م في دير القديس أنطونيوس في بقعاتا من كسروان، وكان الغرض من عقده بذل العناية للعمل برسوم الجمع اللبناني وكان المجتمعون فيه عدا البطريرك فيلبوس مطران قبرص واسطفانوس مطران بعلبك وجبرائيل مطران الرها وأنطونيوس مطران جبيل ويوسف اسطفان مطران بيروت. وقد فرضوا فيه تسعة عشر رسماً أكثرها مما كان قد رسم في الجمع اللبناني وحتموا بوضعه في العمل ووزعوا الأبرشيات على المطارين عملاً برسم هذا المجمع.

عد ١٠٨٣

مجمع غوسطا

عقد هذا الجمع البطريرك يوسف اسطفان في ١٦ أيلول سنة ١٧٦٨م بحضور الأب لويس رئيس رهبان القديس فرنسيس وكان جلّ الغرض من عقده إصلاح

بعض العادات في الطائفة والتشدد في حفظ رسوم المجمع اللبناني وكان حسدًا
إختلاف بين البطريرك المذكور وعمّه المطران يوحنا اسطفان على دير عين ورقة
فكتب آباء المجمع إلى المطران يوحنا يدعونه إليه وأرسلوا إليه المطران يواصاف
الديسي مطران صور والمطران ميخائيل الخازن فحضر، وبعد سماع ما أورده من
الحجج لجهة دير عين ورقة وأسقفية بيروت حكموا أنّه بعد تنزّله عن أبرشية بيروت
وعن رئاسة دير عين ورقة لابن أخيه البطريرك لم يبقَ له حق بالعود إليهما، لكنهم
سألوا البطريرك أن يبيحه الإقامة في دير عين ورقة مدّة حياته ولا يحق له أن يبيع
شيئاً من أملاك هذا الدير إلّا بإذن السيّد المطريرك. وكان خلاف في الطائفة بداعي
خدمة بعض الرهبان في الرعايا فحكموا أن لا يستخدم الرهبان في الرعايا إلّا
لضرورة، وفرضوا بعض قوانين تتعلّق بالرهبان وأديارهم على ما في المجمع اللبناني
إلى غير ذلك في مجلسين ١٦ و ١٧ أيلول سنة ١٧٦٨م.

وفي ١٨ أيلول عقد المجلس الثالث وبلغ البطريرك والأساقفة خبر وفاة المطران
جرمانوس صقر الحلبي بدير بكركي فحزنوا عليه، ومما حكموا به في هذا المجلس
لا يرقى أحد إلى الكهنوت إلّا بعد الفحص عن علمه وسيرته، وحتّموا على أبناء
الطائفة أن لا يزوّجوا بناتهم لغير أبناء ملّتهم ولو كانوا كاثوليكين إلّا برخصة
من مطرانهم ولداع لازم (نظرٌ هذا أصل العادة الجارية إلى الآن بين الموارنة
والمملكة الكاثوليكين وهي أنّ الأنسة المطلوبة للزواج لشخص من إحدى الملتين
يلزم رخصة مطرانها)، وجدّدوا إطلاق التأديب على من يلتجئون إلى الحكام
العالمين بما يمسّ الحرية الكنسية. وفي المجلس الرابع الذي عقد في ٢٠ أيلول
أقرّوا أن لا تعطى الوظائف البيعية بسبيل الارث وحتّموا بأن ترعى جميع رسوم
المجمع اللبناني بكل تدقيق، واتّفقوا على رفع عريضة إلى الحبر الروماني ليأمر
بطبع هذا المجمع، وأن لا يختلط كهنة الموارنة بكهنة غير الكاثوليكين في
الجنائزات وغيرها. وفي المجلس الخامس الذي عقد في ٢١ أيلول جرى البحث
في العشور وأجمعوا على أنّ كل أسقف يجبي العشور في أبرشيته بموجب دفتر
ثمّ يدفعه إلى السيّد البطريرك.

وادّعى في المجلس المذكور المطران روفائيل الحاقلاني بالولاية على أبرشية.

طرابلس لأنّ البطريرك طوبيا الخازن رقاها إلى كرسيها، فأحباب على ذلك الخوري جرجس يمين بالوكالة عن المطران يواكيم يمين أنّ البطريرك طوبيا الخازن لما ورّع الأبرشيات في مجمع بقعاتنا سلّمه أبرشية طرابلس فحكم المجمع أنّ الحق للمطران يواكيم بالولاية على هذه الأبرشية. وفي هذا المجلس أيضاً أثبت البطريرك قسمة الأبرشيات بموجب براءة البابا باديكثوس الرابع عشر وارشاد المجمع المقدّس فكان في أبرشية صور وصيدا المختصّة بالبطريرك المطران ارميا نجيم أسقف الناصرة وفي بيروت المطران أثناسيوس الشنيعي ولكن ولى على المدينة المطران ميخائيل فاضل وبعد وفاته تعود إلى مطران أبرشية بيروت، وفي أبرشية قبرص المطران الياس الجميل وفي دمشق المطران ارسانيوس عبد الأحد، ولكن ولى على عجلتون المطران ميخائيل الخازن ما دام حياً ويتبعه دير الرومية، وبعد وفاته يرجع ذلك إلى مطران دمشق، وولى على بسكنتا المطران يواصاف الدسي ويتبعها عين القبو وقعفرين وزبوغا ما دام حياً وبعد موته ترد إلى أبرشية دمشق، وولى على بعلبك المطران جبرائيل مبارك وعلى بلاد جبيل والبترون المطران أنطون محاسب، وعلى طرابلس المطران يواكيم يمين وتتبعها جبة بشري ما دام حياً وبعد موته ترد إلى مطران جبيل والبترون، وولى على حلب المطران ارسانيوس شكري، والدين وقّعوا على هذا المجمع البطريرك يوسف اسطفان وميخائيل مطران بابل ويواصاف مطران عكا وميخائيل فاضل مطران صور وجبرائيل مبارك مطران بعلبك وارميا مطران الناصرة وارسانيوس شكري مطران حلب وميخائيل الخازن مطران قيسارية وارسانيوس عبد الأحد مطران دمشق والياس الجميل مطران قرص والخوري جرجس يمين بالوكالة عن المطران يواكيم يمين ورئيس الفرنسيين وغيرهم من الافرنج.

عد ١٠٨٤

مجمع ميفوق

عقد هذا المجمع بأثر توقيف البطريرك يوسف اسطفان وما كان من القلق في الطائفة بسبب الراهبة حنة عجيمي المعروفة بهندية فأمر البابا بيوس السادس بعقدته وناب فيه عنه قاصده الأب بطرس موريثا وكان من شهوده من المطارين المطران

ميخائيل الخازن الذي أقيم نائباً عن البطريرك في مدّة إيقافه، ويواكيم يمين مطران طرابلس، وميخائيل فاضل مطران بيروت، وجبرائيل مبارك مطران بعلبك، وروفائيل الحاقلاقي مطران دمشق، وأنطون محاسب مطران جبيل برئاسة الأب موريثا القاصد الرسولي. وافتتح هذا المجمع في ٢٠ تموز سنة ١٧٨٠م بدير السيدة في ميفوق.

وعقد المجلس الأوّل في ٢١ تموز سنة ١٧٨٠م وتعيّن فيه أصحاب الوظائف، وعقد المجلس الثاني في ٢٣ تموز وافتتحه القاصد الرسولي بخطبة نفيسة ثمّ تليت الأوامر الرسولية وأجوبة البطريرك يوسف اسطفان التي كان قد رفعها إلى مجمع نشر الإيمان وصرّح آباء المجمع بقبول قصادة القاصد الرسولي وجاهروا بالطاعة والامتثال للأوامر الرسولية فرداً فرداً وهي الأوامر التي مرّ ذكرها أيضاً في ترجمة البطريرك يوسف أسطفان، وأولّها إبطال ما كان البطريرك قد حلّله من تناول المأكّل المزفرة يوم الجمعة عيد قلب يسوع. والأمر الثاني أن ليس للبطريرك أن يمنح غفراناً كاملاً إلاّ بإذن صريح من الخبر الروماني. الثالث أنّ الأساقفة لا يلتزمون أن يأخذوا منشوراً من السيّد البطريرك لزيارة رعاياهم. والرابع تثبيت المبلغ الذي تقرّر أن يدفعه كل من المطارين كل سنة إلى البطريرك بدل العشور وقدره ألفان وخمسمائة غرش موزّعة على الأبرشيات كما مرّ في ترجمة البطريرك يوسف اسطفان، وتقرّر أنّ للبطريرك أن يعطي مناشير لجبايتها مرّة واحدة لكل من الأساقفة إشارة إلى تعلّقهم به وخضوعهم له، ثمّ بعد مراجعة البطريرك بهذا الخصوص تقرّر أنّ كل أسقف يطلب كل سنة من البطريرك منشوراً لجباية العشور. ثمّ قرّروا في هذا المجلس أيضاً أن تبقى كراسي الأبرشيات ثمانية كما رسم في المجمع اللبناني ويحقّ للسيّد البطريرك أن يرقّي كهنة إلى الأسقفية شرفاً وعيّنوا حدود الأبرشيات كما ذكرها البابا بناديكطوس الرابع عشر في براءته لتقسيم الأبرشيات.

وعقد المجلس الثالث في ٢٤ تموز وقرروا فيه وجوب الامتثال لباقي الأوامر الرسولية المذكورة أعني الأمر الخامس لا يحقّ للبطريرك أن يكفّ الأساقفة عن التصرّف برعاياهم دون مشورة مجمع الأساقفة. السادس يسمح للرهبان أن يخدموا الرعايا لدى الحاجة إليهم. السابع لا يحقّ للبطريرك أن يقبل الكهنة

والرهبان الذين يعصون أمر رؤسائهم ويلتجئون إليه إلا بموجب ما رسم المجمع اللبناني في قسم ٤ باب ٢ عد ٩. والثامن لا يحق للبطريك أن يسمح بأن يقام في كنائسنا مديح يقدّس عليه كهنة غير كاثوليكين أو يعيّن موضع يدفنون فيه موتاهم في مقابر طائفتنا. التاسع لا يجوز لكهنة طائفتنا أن يتصرّفوا بحقوق كهنة الملكيين الكاثوليكين أو أن يحلّوا موانع الزواج لهم ومثل ذلك لا يجوز للأساقفة الملكيين ولا لغيرهم أن يتدخّلوا في قضاء اللوازم الروحية لأبناء ملتنا. وأما في الاعتراف فيحق لكهنة طائفتنا المصرفين بسر التوبة أن يعرفوا ويحلّوا كل من طلب أن يعترف عندهم بمقتضى الإذن القديم الممنوح لكهنة الموارنة. العاشر يلزم أن يعين كل من الأساقفة فاحصاً للكهنة وقيّمه في أبرشيته بموجب رسم المجمع اللبناني. الحادي عشر لا يسوغ للبطريك أن يقبل هدايا لتوزيع الزيوت المقدّسة. الثاني عشر قد تفاوض آباء المجمع في محل إقامة البطريك وأجمع رأيهم أن يكون هذا المحل دير بكركي بصفة دير تابع لدير قنوبين الكرسي البطريكي. الثالث عشر قرّروا أنّه يلزم البطريك أن يعقد مجمّعاً مع أساقفته كل ثلاث سنين مرّة. الرابع عشر حثّموا أن يهبي البطريك عن أن يدوّن في مناشيره للذكر المؤبّد أو يكتب في سنة كذا من حبريتنا تشبهاً بالخبر الروماني. الخامس عشر ارتأوا أن يتفق البطريك والمطارين على اداء العشور والتحاليل. السادس عشر بحثوا في ما إذا كان يحق للبطريك أن يرقّي إلى درجة الكهنوت من رعايا الأساقفة بغير علمهم وأن يحلّهم من التأديبات أو ينزلها بهم دون علم رؤسائهم، وكان الكرادلة قد أجّلوا الجواب على هذا المشكل إلى أن يرد من القاصد الرسولي إفادات ينجلي الأمر فيها. السابع عشر كان من الأسئلة المرفوعة للكرسي الرسولي هل يحق للبطريك أن يطلب دراهم إسعافاً لكرسيه من خوارنة الرعايا والأديار فارتأى الكرادلة أنّ الكهنة المرتقين حديثاً والأديار المحدثّة يلتزمون أن يعطوا ما يعطيه الكهنة القدماء والأديار السابقة البناء وأنّه يلزم تقرير مبلغ معيّن. الثامن عشر هل يجوز للبطريك أن يؤدّب الكهنة المزلين بعقوبات ثقيلة كالحبس والضرب فأجاب الكرادلة أنّه يلزم القاصد الرسولي أن يعلمهم بتفاصيل الواقع، وأن ينصح البطريك أن يسلك مع الكهنة ولاسيما الأساقفة بأكثر دعة وأن يتحاشى القسوة، وقرّر آباء هذا المجمع أن يسألوا البطريك والأساقفة أن لا يعاملوا الكهنة المزلين بالضرب

والوثائق والغرامات، وإذا لم يرتدعوا عن رلآتهم أطلقوا عليهم التآديآت السعفة. التاسع عتسر لما كان البطررك أكتر عدد الأساقفة والرعايا خلافاً لرسم الجمع اللبناى أآاب الكراذلة بأنه يلزم القاصد الرسولى أن يصرح للبطررك نابة عن مجمع نشر الإيمان المقدس أن يقتصر على ما رسم فى الجمع اللبناى. العشرون لما كان البطررك قد وضع كتاباً للقدس غير المستعمل قبلاً وفرض ثلاثة أيام صوم قبل عىء قلب يسوع وأباح فى هذا العىء أكل اللحم والأطعمة المزفرة ارتأى الكراذلة بأن ىرى فى ذلك رسم الجمع اللبناى بالدقة. وأبطل آباء الجمع ما أأدثه البطررك يوسف اسطفان وأبطلوا أيضاً عىء قلب يسوع لأنه فرضه دون مشورتهم وبغير استئذان الكرسى الرسولى، وأمروا أن يعىء لذكر الحبى بلا دنس بسىدتنا مريم العذراء فى جمىع الطائفة. الحادى والعشرون قد أمر أيضاً أن ىزال المذبح الذى أقم فوق قبر المطران جرمانوس صقر على الأقل أن ىرفع القندىل المعلق علىه فرفعه النائب البطرركى وأزال المذبح. فهذه هى أوامر الجمع المقدس التى ضمتها فى رسالته المؤرخة فى ١٥ آب سنة ١٧٧٤م، وقد قبل الأساقفة جمىعهم بالطاعة والامثال، وكان الجمع المقدس قد أرسل إلهم براءتىن من البابا بىوس السادس مؤرختىن فى ١٧ تموز سنة ١٧٧٩م، تشتمل الأولى منهما على نبذ انخداع الراهبة هندية وكذب أوحىتها وبطلان وهما باتحاد المسىء بها وتحرىم كتبها وتعالىمها والتأدىب لها ولنائبتها كاترىنا، فقبل الأساقفة بالاحترام هذه الأوامر ونفذها النائب البطرركى بموجب مطوقها. والبراءة الثانية فحواها إلغاء رهبانىة هندية وإخراج الراهبات من الأديار الأربعة التابعة لقانونها وهى دىر بكركى ودىر سىدة البزاز ودىر مار جرجس علما ودىر مار يوسف الحصن، فقرّر الأساقفة ذلك وأتمّه النائب البطرركى كما مرّ وعىتوا دىر بكركى لسكنى البطررك، وأشهرها أمر قداسه بالسكوت المطلق عن غوايات هندية وأعمالها وأبطلوا أخوىة قلب يسوع التى كانت هندية قد أنشأتها، وقبلوا المرسوم الثالث المتضمن طلب البطررك يوسف اسطفان لىشخص إلى رومة لىجاوب عن بعض أعماله تحت طائلة الحرم إن أبى الحضور، ومنعه عن كل تولّ بطرركى وأسقفى وإبقاء القسوسىة الخ. واختار الأساقفة المطران مىخائىل الخازن لىكون نائباً بطرركياً ما دام البطررك ممنوعاً وقبلوا وارتضوا بما رسم على المطران جرمانوس دىاب من الأمر بتأدىبه وتكذىب نفسه فى

كل ما كتبه وصنعه مساعدة لهدية، ونفذ النائب البطريكي كل ما ذكر. إلا أنَّ الأساقفة رفعوا عريضةً إلى الكرسي الرسولي يسألون بها أن يوفدوا أسقفاً أو أسقفين إلى أديار مار جرجس علماً وسيدة البزاز ومار يوسف الحصن ليفحصوا عن حال هذه الأديار ويعرضوا أمرها إلى النائب البطريكي، ومن لا يريد من رهبانها القسوس أن ينتقلوا إلى دير آخر لزمهم أن يخلعوا الاسكيم ويلبسوا زي الكهنة العالمين، وإن كانوا شمامسة لزمهم أن يلبسوا الشالات ويستقيموا في أديارهم بالتقوى والورع. وأمّا الراهبات اللواتي لا يردن الخروج من أديارهنَّ إلى أديار أخرى قانونية فيمكن إبقاؤهنَّ في أماكنهنَّ على شريطة أن يخلعن أثواب رهبانية هندية ويلبسن كالعابدات، والرئيسات اللائي كنَّ في هذه الأديار يعزلن ويقام غيرهنَّ ويتحدد انتخابهنَّ كل ثلاث سنين، ويمنع قبول بنات أو نساء مرشحات للرهبانية في هذه الأديار. وأمّا الراهبات اللواتي كنَّ بيكركي ومضين إلى أهلهنَّ بحلب أو لبنان فحكم آباء المجمع أن يعطين من مداخل الدير ما يعشن به مما يفضل عن النفقة اللازمة للدير، وبعد موتهنَّ يرجع كل ما لهنَّ إلى الدير. وقد أكثر الآباء التفتيش على كتب هندية فلم يجدوا شيئاً منها فقرروا أن ترسل مناشير حرم في كل الطائفة حتى من كان عنده شيء منها يقدمه إلى النائب البطريكي ومن كان له علم بها يعرض الأمر له. وفي المجلس الخامس والأخير أقرَّ الآباء بعض قوانين أكثرها من متضمنات المجمع اللبناني.

عد ١٠٨٥

مجمع عين شقيق

لما كان البطريك يوسف اسطفان قد رجع إلى البطريكية عقد هذا المجمع في ١٦ أيلول سنة ١٧٨٧م في كنيسة السيدة بعين شقيق من كسروان بموجب أمر البابا بيوس السادس، وكان في المجمع الأساقفة والرؤساء العامون للرهبانيات الثلاث والشيخ غندور ابن الشيخ سعد الخوري مأموراً من الكرسي الرسولي أن يكون مساعداً ومؤيداً لاجتماع المجمع وتنفيذ الأوامر الرسولية. وقد شهد أيضاً المشايخ الخوازنة والحبيشية وبيت الخوري صالح وبيت الظاهر وبيت الدحداح ومشايخ

العاقورة ومشايخ جبّة بشري وغيرهم من أعيان الملة، فقدّم المشايخ المذكورون عريضة إلى المجمع وجهوها إلى الشيخ غندور الخوري ترى صورتها مثبتة في كتاب «سلسلة بطارقة الموارنة» للمعلّم رشيد الشرتوني صفحة ٦٤ التمسوا بها أن يكون مقام الأساقفة في الكرسي البطريركي مع السيّد البطريرك موردين لذلك حججاً كثيرة. وسأل الشيخ البطريرك والأساقفة أن يتقبّلوا هذا الالتماس فتلوه في المجلس الأول وأجّلوا الجواب عليه إلى المجلس الثاني، وسأل البطريرك الأساقفة ما يرون بهذا الشأن فحسن عندهم قبول الالتماس على شرط أن يدوّن المشايخ صكاً يتعهّدون به بأنهم لا يتعرّضون للأساقفة ولا يتدخلون بترقيتهم ولا بتدبير الأمور الروحية، فتعهّد المشايخ بعدم التعرّض كما طلب منهم فقبل البطريرك والأساقفة التماسهم في المجلس الثاني وقدم المشايخ في المجلس الثالث الشكر لهم وتعهّدوا بأن تجرى الانتخابات من ذلك الحين فصاعداً طبقاً لرسم المجمع اللبناني.

وطلب أهل جبّة بشري أن يكون لهم مطران يسوسهم وحدهم منفصلاً عن مطران جبيل والبترون فحكم في المجلس الرابع بعدم التمكن من إجابة طلبهم لخالفته نصّ المجمع اللبناني. وفي المجلس الخامس ادّعى رهبان مار اشعيا أنّ دير بكركي يخصّهم فردّ آباء المجمع دعواهم لأنّه ثبت لهم بعد الفحص أنّ الرهبان المذكورين باعوا الدير المذكور وقبضوا ثمنه. وفي المجلس السادس عرض القس روفائيل مسابكي اللبناني للمجمع الالتماس أن ينظر بأمر المعاش لراهبات دير بكركي الحليات فتقرّر أن تعطى كل راهبة عشرين قرشاً في السنة. وفي المجلس السابع تلي تعهّد المشايخ بأنهم لا يعارضون البطريرك ولا الأساقفة في أمور الانتخابات وغيرها فقبل المجمع هذا التعهّد. وفي المجلس الثامن تقرّر أن تكون هندية في دير مار الياس غزير (ثمّ نقلت لدير الحقلّة كما مرّ) وكاترينا في دير مار الياس بلوني، ورسموا أيضاً أن تكون الأديار التي كانت لراهبات هندية خاضعة لمطارين الأبرشيات التي هي فيها. وفي المجلس التاسع أقرّوا إصدار نشرتين: الأولى تتضمن بعض رسوم في تهذيب الرهبان والراهبات القانونيين. والثانية في تهذيب حوارنة الرعايا والشعب. وفي المجلسين العاشر والحادي عشر قرروا بعض أمور أخرى لإصلاح شؤون الطائفة وأن يلتمسوا من الكرسي الرسولي تفويض السيّد البطريرك بمنح الغفرانات الكاملة.

والذين وقعوا على هذا المجمع هم البطريرك يوسف اسطفان، وسيخائيل فاضل مطران بيروت، وجبرائيل مبارك مطران بعلبك، وجرمانوس دياب مطران حمص، وبولس اسطفان مطران قورش، والمطران يوسف نجيم، ويوحنا الحلو مطران عكا، ويوسف التيان مطران دمشق. على أنّ قرار هذا المجمع بأن يسكن المطارين مع البطريرك لم يقبله المجمع المقدّس لمخالفته لرسم المجمع اللبناني ولم يثبت أيضاً هذا المجمع المعروف بمجمع وطا الجوز حيث كنيسة سيدة عين شقيق.

عد ١٠٨٦

مجمع بكركي الأوّل

التأم هذا المجمع بأمر البابا بيوس السادس أيضاً بدير بكركي سنة ١٧٩٠م وكان قاصد البابا فيه المطران جرمانوس آدم الملكي الكاثوليكي والداعي لعقده العناية بتهذيب الكليروس وإتمام الأساقفة وغيرهم فروضهم كما رسمها المجمع اللبناني، والفحص عن بعض أحكام كان بعض الأساقفة قد أبرزها، وعن بعض دعاوى موردة على بعضهم وإبطال مجمع عين شقيق وخاصة فصل أديار الرهبان عن أديار الراهبات.

قد عقد المجلس الأوّل من هذا المجمع في اليوم الثالث من كانون الأوّل سنة ١٧٩٠م بحضور البطريرك يوسف اسطفان والمطران جرمانوس آدم القاصد الرسولي، وتليت في هذا المجلس براءة البابا الآمرة بعقد المجمع وأوامر المجمع المقدّس وصار الامتثال لها بإجماع الآراء، وصرّح الآباء بقبول رسم المجمع اللبناني في شأن قسمة الأبرشيات كما أثبتّها البابا بناديكتوس الرابع عشر، وقرروا أن يكون حقوق انتخاب الأساقفة للسيد البطريرك والأساقفة لا للحكام العالميين، ويحق لكل أهل أبرشية أن يقدّموا مرشّحين أو ثلاثة للسيد البطريرك أو يظهرها رضاهم بمن ينتخبه. وبحث في المجلس الثاني في تعيين مقر ثابت لإقامة البطريرك وأرجئ القرار إلى مجلس آخر لاستيفاء المداولات بذلك. وفي المجلس الثالث نظر في دعوى المشايخ بيت أبي نصيف الحازن على أن ينتخبوا مطران طرابلس، وفي ما اتّهم به المطران جرجس بنيمين أنّه ترقى إلى الأسقفية بالسيمنية أي الرشوة فحكم ببراءته من هذه التهمة

وبأنّ انتخابه كان مطابقاً للقوانين. ولما لم يحضر المشايخ المذكورون لتقديم دعواهم فأرجئ الحكم بها إلى المجلس التالي. وفي المجلس الرابع أبرز هؤلاء المشايخ صكاً من البطريك يعقوب عواد يخولهم الحق أن ينتخبوا مطران عرقاً ثم صكاً آخر من البطريك يوسف اسطفان فحواه أنّ هذا الحق يبقى إذا أبطل مجمع عين شقيق الذي قضى بإقامة المطارين عند البطريك. وحيث أنّ هذا المجمع أبطل فعاد حقهم إليهم فأجابهم القاصد أنّ صكّ البطريك يعقوب لا يفيدهم لأنّه كان قبل المجمع اللبناني ومثله صكّ البطريك يوسف اسطفان لأنّه وإن أبطل مجمع عين شقيق فالمجمع اللبناني لم يطل وهو ألغى مثل هذه الحقوق فحكم الآباء بسقوط دعوى المشايخ وثبوت المطران جرجس بنيمين على أبرشية طرابلس.

وفي المجلس الخامس بحث في أنطوش دير القمر إذ كان الرهبان الحلبيون قد ادّعوا بأنّه ملكهم فقرّر السيّد البطريك أنّه سلّم هذا الأنطوش إلى الرهبان المذكورين وقرّر أهل دير القمر أنّهم لا يتعرّضون للرهبان بملكهم بل يطلبون أن يتقيّد الرهبان بخدمتهم الروحية فحكم المجمع كذلك. وفي المجلس السادس حكم بأن يقيم كل أسقف بأبرشيته، وأنّ لكل أسقف أن يتصرّف بماله الخاص به من ملك ثابت أو منتقل، وأمّا ما يخلفه الأساقفة نواب البطريك في مدّة نيابتهم فيخصّ الكرسي البطريكي وحكم أيضاً بأنّ تلامذة المدرسة الرومانية يكونون خاضعين لمطران أبرشيتهم كباقي خوارنة الرعايا وأنّ كلّاً من الأساقفة يهتم بتعيين كاهن أهل لفحص المرشّحين إلى الدرجات المقدّسة.

وفي المجلس السابع بحث في سكنى الرهبان والراهبات معاً فتلى أمر الكرسي الرسولي المؤرّخ في ١٢ حزيران سنة ١٧٩٠م وسأل القاصد آباء المجمع أن يبيّنوا رأيهم بذلك، فأجاب السيّد البطريك والأساقفة أنّهم يرون هذا لازماً وأنّه يجب منع كل اشتراك بين الرهبان والراهبات إلّا في الأمور الروحية. وتليت رسالة من السيّد يوسف سمعان السمعاني للبطريك بهذا المعنى فحتّموا بأن يهتم كل من الأساقفة بالعمل بموجبها. ثمّ بحث في أمر راهبات عينطورا التابعات لقانون القديس فرنسيس سالاسيوس وثبت لدى آباء المجمع أنّهنّ ملتزمات بحفظ الطقوس الماروني وخاضعات للسيّد البطريك، ثمّ بحث في شأن مدرسة عينطورا ونظر في الصك الذي دوّنه

رئيس الرهبان اليسوعيين العام للبطريرك فظهر من ذلك أنه يحق للسيد البطريرك أن يطلب مداخليل هذه المدرسة ويهتم بتنفيذ إرادة الراقفين.

وفي المجلس الثامن دوّنت بطلب القاصد الرسولي الرسوم الآتي ذكرها لتكون بمنزلة شريعة لا يحلّها أحد في ما بعد. الأول إنّ تفسيح السيد البطريرك من شريعة الإنقطاع عن المآكل المزفرة يوم الجمعة عيد قلب يسوع يكون باطلاً ويلزم الانقطاع. الثاني: أنّ السيد البطريرك لا يسوغ له أن يمنح غفراناً كاملاً إلا بتفويض الكرسي الرسولي. الثالث أنّ الأسقف لا يقتقر عند زيارة أبرشيته إلى منشور من السيد البطريرك ويلزمه أخذ هذا المنشور عند جباية العشور. الرابع إنّّه لما كان السيد البطريرك قد ادّعى بأن مبلغ العشور الذي تقرر له كان تقريره لست سنين وقد انقضت فيحق له أن يضع ترتيباً حديثاً لذلك، أجابه القاصد أنّ هذا يستلزم مراجعة المجمع المقدّس، ثم ادّعى البطريرك أنّه يحق له أن يزور بنفسه أو بوكيله كلاً من الأبرشيات كل ثلاث سنين مرّة فأجابه القاصد أنّ زيارة الأبرشيات تحقق له كما قال، وأما أخذه العشور فلا يحق له أن يحدث به شيئاً بعد أن عين الكرسي الرسولي المبلغ السنوي الذي يجب أدائه. الخامس أنّه لما كان قد تقرر قبلاً أنّ ليس للسيد البطريرك أن يعزل أحداً من الأساقفة عن أبرشيته قرّر السيد البطريرك أنّه محافظ على هذا الرسم وعلى أنّه لا ينكر على الرهبان جمع الحسنات، ولا يأذن لأحد منهم أن يذهب إلى مكانٍ ضدّ خاطر رؤسائه، فقبل المجمع تقرير البطريرك وجعله من رسومه.

وفي المجلس التاسع أضافوا رسوماً أخرى منها. أولاً أنّ كل منتدب إلى الدرجة الأسقفية يلزمه أن يدفع ستين قرشاً فقط تعويضاً عن ربح المدخول المعيّن على سبيل الإحسان للكرسي البطريركي وخدّام البطريرك. ثانياً أنّه يحق للسيد البطريرك أن يجمع العشور من أبرشية فرغ كرسيها إلى أن يقام أسقف لها. ثالثاً أنّ لا يؤخذ شيء قطعاً من المتقدّمين إلى الدرجات المقدّسة. رابعاً أنّ كل من ترقّى إلى الدرجات المقدّسة من العالميين والقانونيين يلزم أن يرقيه مطران الأبرشية أو تكون ترقيته بإذنه. خامساً يحظر على الرهبان تحت طائلة الرباط أن يوزّعوا سرّ التوبة على العالميين إلاّ بإذن صريح من أسقف الأبرشية. سادساً لا يبيّن الرهبان ديراً إلاّ بإذن السيد البطريرك وأسقف الأبرشية وعين حيثلّ نائبان أو وكيلان للسيد البطريرك وهما المطران يوحنا الحلو والمطران يوسف التّيان.

وأصدر آباء المجمع الحكم النهائي في أن يكون دير كركي مقراً ثابتاً للبطريرك وأن تختص به أملاكه الثابتة وغير الثابتة ورسموا الشروط الآتية . الأول أن يقيم البطريرك دائماً في هذا الدير لا ييارحه إلا لداع صوابي وإذا غاب عنه لزم أن يبقى فيه وكلاؤه وأن يعنى بينائه وإصلاح ملكه . الثاني أن يدفع كل سنة مائتي قرش للمطران جرمانوس دياب ما دام حياً ولكل راهبة من راهبات هذا الدير خمسة وثلاثين غرشاً كل سنة ما دمن في قيد الحياة، وقرروا أن يسألوا الحبر الروماني إثبات قرارهم هذا .

وفي المجلس العاشر جدّدوا قبول كل ما رسم في المجمع اللبناني وأوصوا بمطالعة رسومه والسلوك في أحكامهم على موجبها، ولم يزيدوا عليها إلا تكرار النهي عن الربا إلا لسبب ربح متعطل أو ضرر ناتج عن القرض، وحثموا أن لا يؤخذ على كل قرش من القرض إلا أربع بارات على الكثير في مدة السنة كاملة .

وفي المجلس الحادي عشر شدّدوا الحتم على الكهنة أن يعلموا التعليم المسيحي كل أحد وتثيّد وأن يقدّموا القداسات كما تعطى حسناتها وأن يحفظ في حق الولاية على الأوقاف ما رسمه المجمع اللبناني .

وفي المجلس الثاني عشر أعيدت تلاوة أعمال هذا المجمع وقبلها الآباء وتعهّدوا بالعمل بها ووقع عليها البطريرك يوسف اسطفان والمطران جرمانوس آدم القاصد الرسولي وجرجس بنيمين مطران طرابلس ويوسف التيان النائب البطريركي ويوحنا الحلو مطران عكا والنائب البطريركي وبطرس مبارك مطران بعلبك وبولس اسطفان مطران جبيل والبترون وفيلبوس الجميل مطران قبرص وجرمانوس دياب مطران حمص والمطران يوسف نجيم، ثمّ القس عمانوئيل الرشماني المدبر اللبناني بالنيابة عن جبرائيل مطران حلب، والخوري مارون العضم بالنيابة عن ميخائيل الخازن مطران دمشق، والخوري يوسف شرف الخازن بالنيابة عن ميخائيل فاضل مطران بيروت، والقس ميخائيل صاجاتي كاتب المجمع وجبرائيل الحاج موسى كاتب المجمع . أخذنا كلامنا في هذا الفصل ملخصاً عن أعمال هذه المجمع في السجّلات البطريركية .

الفصل الخامس

بعض أديار الموارنة ومدارسهم وكنائسهم

المنشأة في القرن الثامن عشر

عد ١٠٨٧

نذكر أولاً الأديار التي أنشأها الرهبان اللبنانيون والحلبيون أو سلّمت إليهم هذا القرن، لمّا تكاثرت عدد الرهبان وضاق دير مار اليشاع عن سكناهم وكانوا قد تركوا مرت مورا ياهدن ذهب بعضهم إلى قرية رشميا، وكانت عائلة مارونية تقيّة تعرف ببيت أبي صابر وقد بنوا كنيسة على إسم القديس المعمدان فسلموها إلى الرهبان، وأضافوا إليها عقاراً وقفوه عليهم على شريخ الخوري صالح الخوري وأولاده من رشميا وقفوا عليهم عقارات أنشأوا بها د أنطونيوس سير قريباً من رشميا سنة ١٧٠٧ م.

وقد ذكرنا قبلاً قدم دير مار قزحيا وشهرته وقيام أساقفة به، وكان منهم فيه المطران عبدالله حبقوق ولمّا توفي خلفه في هذا الدير المطران يوحنا - فسلمه إلى الرهبان سنة ١٧٠٨ م فزادوا في بنائه واقتنوا له أملاكاً كثيرة حتى على ممر الأيام أكبر أديار الموارنة وأشهرها. وقد مرّ أنّ الشيخ سلهب الحاقلاقي سنة ١٦٨٢ م دير السيدة بلويزة في خراج زوق مصبح وجعله لسكنى الرهبان وترهب فيه ولده القس اغناطيوس ثمّ سلم هذا الدير إلى الرهبان سنة ٥٧ ووقع في القسمة بين الرهبان اللبنانيين والحلبيين في نصيب الحلبيين ومثله د بطرس كريم التين في قاطع بيت شباب الذي كان المطران يوحنا حبقوق المذك

سَلَّمه إلى الرهبان سنة ١٧١٢م، وكان البابا اكليمنضوس الحادي عشر قد وهب لهؤلاء الرهبان دير القديسين بطرس ومرشليونس برومة على يد أحدهم القس جبرائيل حوا سنة ١٧٠٧م، فإنّ هذا البابا قد أرسل القس المذكور إلى مصر إلى أحد أساقفة القبط الذي كان قد أظهر ارتياحه لاعتناق الإيمان الكاثوليكي فنجح القس جبرائيل بمساعاه واستردّ الأسقف المذكور إلى حظيرة الإيمان القويم فكافأه البابا بأن وهب الدير المذكور لرهبانيته، ثمّ جعلوه مدرسة للرهبان سنة ١٧٢٥م. وأثبت البابا اكليمنضوس الثاني عشر قوانين هذه المدرسة إلى أن باعوها بأمر البابا بناديكتوس الرابع عشر سنة ١٧٥٣م، وشروا بتمنّها محلاً آخر برومة حذاء دير مار بطرس في السلاسل وجعلوه ديراً ومدرسة لهم على إسم القديس أنطونيوس أبي الرهبان، وقد وقع بالقسمة بين اللبنانيين والحلبين في نصيب الحلبيين، وهو قائم إلى الآن وقد زاده المرحوم المطران أمبروسيوس نطين الدرعوني بناءً وإتقاناً وأنشأ له عقارات وأبنية للاستئجار حتى كان الآن أغنى أديارهم.

وفي سنة ١٧١٢م أنشأ بعض أناس أتقياء دير مار الياس الرأس في جانب عينطورا ثمّ سلّم إلى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٣٦م، وخصّه السمعاني بسكنى الراهبات سنة ١٧٣٧م إثر المجمع اللبناني كما هو ظاهر من تقريره للبابا اكليمنضوس الثاني عشر، وكان المطران جبرائيل البلوزاوي قد بنى دير طاميش سنة ١٦٧٣م ثمّ سلّم إلى الرهبان سنة ١٧٢٧م، وأنشأ البطريرك سمعان عواد دير مشموشة ثمّ سلّمه الرهبان وتوفي به في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦م، ووهبهم الشيخ شاهين موسى الحاقلاقي دير مار يوسف البرج سنة ١٧٤٦م بموجب صك أثبته مؤلف النبذة التاريخية في المقاطعة الكسروانية صفحة ١٦٨، ثمّ أنشأ الرهبان اللبنانيون دير مار أنطونيوس حوب سنة ١٧٤٩م، وزاه منضمّاً إلى الأديار التي ملكهم إياها الأمير يوسف شهاب سنة ١٧٦٥م كما سيأتي، ودير مار موسى الحبشي بالمتن سنة ١٧٥٣م، ودير مار جرجس الناعمة سنة ١٧٥٣م، ودير مار ميخائيل بنايل سنة ١٧٥٦م، ودير مار ساسين بسكتنا للراهبات سنة ١٧٥٦م، ودير مار مارون بيرسنيين سنة ١٧٦٠م.

وفي سنة ١٧٦٥م ملكهم الأمير يوسف شهاب حاكم الجبل دير الشيدة في

ميفوق وما تبعه من العقارات القريبة إليه ودير مار قبريانوس في كفيفان وما تبعه، وأنطوش جبيل وما تبعه من العقار، وسلمهم كنيسة المدينة ودير مار أنطونيوس بحوب في جوار تنورين، وتبعه كنيسة مار دوميط وعقار عين الراحة، وكانت هذه الهبة للقس أقليمس المزرعاني الرئيس العام للرهبانية ومديرها القس عمانوئيل الرشمانى والقس مرقس الكفاعي والقس يعقوب البشراي والقس جرمانوس الديراني وكان ذلك بعناية الشيخ سعد الخوري والشيخ سمعان البيطار.

وفي سنة ١٧٦٦م سلم الشيخ منصور يوسف الدحداح إلى هؤلاء الرهبان أيضاً دير سيدة المعونات المعروف بدير البنات قرب جبيل، وسلمهم صكاً به كما كان تسلمه من الأمير يوسف شهاب ليجددوه ويتولوا عليه.

وكان هؤلاء الرهبان قد أنشأوا قبل ذلك دير مار الياس الكحلونية بالمتن سنة ١٧٦٢م، ودير مار أنطونيوس البادوي المعروف بدير النبع في قاطع بيت شباب سنة ١٧٨٥، ودير مار عبدا معاد سنة ١٧٩٥م.

وأما الأديار التي أنشأها وتسلمها رهبان مار اشعيا في هذا القرن فهي:

الأول دير مار اشعيا بناه المطران جبرائيل البلوزاوي كما مرّ. وأرسل إليه سنة ١٧٠٠م أربعة قسوس من دير طاميش وتبعهم بعد ذلك القس بطرس عطايا من ساحل علماء، والقس يواصف من عرمون كسروان، والقس سمعان عريض من قتاله. ولما رأى البطريرك اسطفانوس الدويهي رغبتهم في إنشاء رهبانية أثبت رسومهم وقانونهم، وكذلك خلفاؤه جبرائيل البلوزاوي ويعقوب عواد ويوسف ضرغام الخازن إلى أن أثبت الكرسي الرسولي قانون هذه الرهبانية سنة ١٧٤٠م.

الثاني دير مار الياس غزير وقد ذكرنا قبلاً إنشاء المشايخ الحبيشية وأهل غزير له ثم سلّموه إلى رهبان مار اشعيا أي إلى القس سليمان رئيس رهبان مار اشعيا بموجب صك مؤرخ سنة ١٧١٢م وصادق عليه من البطريرك يعقوب عواد.

الثالث دير مار عبدا المشمر سلّمه البطريرك يعقوب عواد إلى القس عطالله كريكر من بيت شباب وكان هناك كنيسة وحارة فقط من أيام البطريرك الدويهي.

الرابع دير مار الياس أنطلياس سلّمه البطريرك يعقوب عواد إلى الرهبان المذكورين سنة ١٧٢٢م بموجب صكين.

الخامس دير مار سركيس إهدن ذكرنا أنشاءه قبلاً، وكان يخص عائلة بيت الدويهي من إهدن فسّلّمه إلى الرهبان بولس يوسف الدويهي والخورى بولس والخورى أنطون والخورى حبيب جميعهم من بيت الدويهي سنة ١٧٢٩م.

السادس دير مار جرجس ضبيه المعروف بدير عوكر سلّمه البطريرك يوسف ضرغام الخازن إلى القس ابراهيم يواصاف الرئيس العام سنة ١٧٤٠م.

السابع دير مار يوحنا القلعة سلّمه الأمير يوسف مراد أي اللع إلى رئيس الرهبان المذكورين الأب سمعان عريض من قتاله وسلّمهم صكاً به يقال فيه إنه أجاز رئيس عام الرهبانية الأنطونية أن يسي ديراً في محل بيروت العتيقة فأنشأ الرئيس العام المذكور والقس ابراهيم عون المدوّن اسمه على باب كنيسة هذا الدير سنة ١٧٤٨م.

الثامن دير مار روكس زهر الحسين وقف أرضه آل قانصوه الخازن وبناه ديراً المطران بطرس الحاج من بكفيا، وكان من هذه الرهبة وكان ذلك سنة ١٧٦٢م. التاسع دير مار بطرس القطين سلّمه إلى الرهبة المطران جبرائيل عواد سنة ١٧٦٠م.

العاشر دير مار سمعان عين القبو سلّمه المطران يواصاف البسكتاوي سنة ١٧٦٩م إلى الرئيس العام القس إبراهيم عون.

الحادي عشر دير مار أنطونيوس بعبدا أنشأه بيت ياغي من قرية بعبدا قاصدين أن تدخل بناتهم في الرهبانية كبيت اسطفان وبيت الخازن وبيت آصاف وبيت صفير ولم يكن في الدير إلاّ معبد صغير للتقديس وبعض غرف حقيرة وكان ذلك سنة ١٧٦٤م في أيام البطريرك طوييا الخازن.

الثاني عشر دير مار أنطونيوس البادوي جزين أقامه الرهبان المذكورون بإذن البطريرك يوسف اسطفان ومطران الأبرشية ارميا مطران الناصرة لسكنى الراهبات به وأخذ الرهبان بينائه.

الثالث عشر دير مار أدنا الفتوح اتفق الأمراء الشهابيون والمشائخ الحبيشيون والقس طويبا عون رئيس الرهبنة العام أن يبنوا ديراً على إسم مار أدنا في مقاطعة الفتوح وأرسل الرئيس العام القس سلوانس جوده فرم أولاً الكنيسة القديمة التي كانت هناك وأذن له بطرس مبارك مطران الأبرشية والبطريرك يوسف اسطفان أن يخدم أبناء الطائفة القاطنين في تلك الناحية فعاون الأب نعمة الله الغزيري القس سلوانس جوده وأنشأ هذا الدير وكان ذلك سنة ١٧٩٢م.

فهذه هي أديار الرهبان الأنطونيين التي أنشئت في هذا القرن وأمّا الأديار التي أنشئت لغير هؤلاء الرهبان فمنها دير مار يوحنا البقيعة بعرامون كسروان ذلك أنّه في سنة ١٧٠٥م حدثت مشاجرة في دير سيد الحلقة بين الرئيس والقس سمعان والقس افرام من عرامون فخرج القسّان من الدير المذكور وبهذا الطاعة لرئيسهما ثم أعطاهما أبو عون صوبات قطعة أرض في البقيعة وشرط عليهما أن يبنيا في القطعة المذكورة محلاً يتعلّم به أولاد قرية عرامون وما جاور الدير. قال مؤلف النبذة التاريخية في كسروان: لاني طالعت الصك الذي حرّره أبو عون ثم انضمّ راهبان آخران من دير مار عبدا هرهريا إلى القسيسين المذكورين فشرخوا المحل حيث الدير الآن من الشيخ نادر أبي النصر الخازن بخمسة قروش وربع، وأخذوا سنة ١٧٢٥م ببناء الدير. وفي سنة ١٧١٨م جدّد الخوري يوسف حبيش (الذي رقي بعداً إلى الأسقفية) دير مار جرجس علما وجعله لسكنى الراهبات.

وسنة ١٧٢٦م تكرّست كنيسة هذا الدير وجدد رهبان مار اشعيا بناء دير بكركي الذي باعوه بعداً إلى الراهبة هندية.

وسنة ١٧٤٠م جدّد الحاج أبو رزق نطين وابنه القس يوحنا من درعون دير مار يوسف الحرف بجانب درعون. وفي سنة ١٧٤٤م كان إنشاء دير الزيارة بعينطورا بعناية الأب أنطونيوس رئيس رسالة اليسوعيين في سورية، فقد شرى محل الدير من الشيخ أبي شروان موسى بن طريه الخازن بثمن قدره ألف وتسعمائة قرش دفع ثلثي المبلغ مما جمعه من الإحسان ومن الطالبات الدخول في الدير، والثلث الباقي من الثمن وهبه الشيخ المذكور للدير لأنّه كان له ابنة وشقيقة انتظمتا في سلك الطالبات، وهذا ظاهر من سجل الدير وصك الشراء المؤرخ في ٧ حزيران سنة

١٧٤٤م. وبعد الثام الراهبات في الدير رأى الأب أنطونيوس المذكور أن يستسرن بقانون راهبات الزيارة الذي ألفه القديس فرنسيس سالس وأن يكون معرفته أحد الآباء اليسوعيين، واستماح الإذن بذلك من السيد البطريك وأساقفة الطائفة فأجازوا ذلك بشرط أن تبقى الراهبات حافظات الطقس الماروني. وفي سجل الدير صك الإجازة هذا مصرحاً فيه أن تبقى الراهبات خاضعات لسلطان بطريك الطائفة دون غيره من الأساقفة ومستيسرات بقانون القديس فرنسيس المذكور وحافظات الطقس الماروني وموقع عليه من البطريك سمعان عواد وبعض المطارين.

وفي سنة ١٧٤٩م أنشأ الشيخ عاد بن صخر الخازن الدير المعروف بدير سيدة البراز في كسروان للعبادات وأتبعن قانون الراهبة هندية قبل إلغاء رهبانيتها. وقد جاء في النبذة التاريخية في كسروان أنه في سنة ١٧٦٤م جدّد الشيخ نمر بن أبي نصيف نوفل الخازن دير مار الياس بلوني وهو من أديار كسروان التي جدّدت بعد خرابه، لكننا نعلم أنّ هذا الدير كان قبل هذا التاريخ لأنّه في سنة ١٧٣٧م نقل السمعاني الراهبات منه إلى الأديار التي خصّها بالراهبات كما أوضح في تقريره للبابا اكليمنضوس الثاني عشر.

ونحو هذا الزمان أنشأ الشيخ عبد السلام بن عبد الملك الخازن دير مار موسى في القرية المذكورة، وأنشأ البطريك طويبا الخازن الذي توفي سنة ١٧٦٦م دير مار أنطونيوس بقعاتا بكسروان، وقد أنشأه وهو مطران لأنّ السمعاني نقل الراهبات منه إلى الأديار التي خصّها بالراهبات كما مر. وفي السنة المذكورة كان أنشأ دير السيدة بمستيتا في بلاد جبيل ذلك أنّ الخوري بطرس ديب رئيس دير سيدة الحقلّة زار اتفاقاً في جبيل الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان وكانت له ابنة اعترها مرض أعى الأطباء شفاؤه فاستأذن الشيخ سمعان البيطار الأمير ليدخل الخوري إلى مخدع ابنته ليصلي عليها علّ الله ينعطف بصلاته إلى برئها. فدخل وصلى عليها فأنعم الله بشفاؤها فطابت نفس الأمير وزال غمّه، ودخل الشيخ سمعان على الأمير يهنئه بابلال ابنته من المرض، فحدّثه الأمير بما يكافئ الخوري فأجابه أنّ هذا درويش راغب عن أموال الدنيا فإن لاقى لدى مولاي وهبه قطعة أرض يحرثها مع جماعته، فحسن كلامه للأمير وأمر أن يعطى الأرض المسماة مستيتا كلّها ودون الشيخ

سمعان صكاً بها باسم الأمير للخوري. وشرط عليه الشيخ سمعان أن يبنى فيها ديراً على اسم السيدة فأخذ الخوري في بناء الكنيسة وبعض غرف بجانبها وكان الأمير يوسف المذكور أنعم على رهبان دير سيدة الحقلة بدير مار دوميط البوار بفتوح كسروان، ومحل القديسة صوفيا بأرض الصفرا هناك ثم حكم البطريك يوسف اسطفان بفصل دير البوار عن دير الحقلة.

وفي سنة ١٧٦٦م أيضاً أقام البطريك يوسف اسطفان في دير مار يوسف الحصن بغوسطا الذي كان قد أنشأه من ماله في محل خصّه من متروكات والده. وفي سنة ١٧٦٩م بنيت فيه كنيسة على إسم القديس يوسف البتول باحسان لويس الخامس عشر ملك فرنسة سيأتي ذكرها في جملة الكنائس.

وفي سنة ١٧٨١م استأثرت رحمة الله بالشيخ ميلان ابن البطريك يوسف ضرغام الخازن وكان قد وقف كل ما يملكه على إنشاء دير السيدة بيقلوش لأنه لم يكن له ولد، وباشر ببناء الدير وإعداده ليجمع إليه راهبات. وعاجلته المنية قبل أن يتم بناء الدير وخلفه في إتمام مشروعه ابن عمه الخوري يوسف شرف بن كسروان الخازن فأكمل بناء الكنيسة سنة ١٧٨٣م. وفي سنة ١٧٩٧م بنى الخوري موسى ديب رئيس دير الحقلة الدير المعروف بدير العفص في محل وقفه أقرباؤه.

أما الأديار التي أنشأها الأجانب في كسروان خاصة فهي دير مار أنطونيوس حريصا بناه رهبان القديس فرنسيس في محل وقفه عليهم الشيخ سنتو بن فياض الخازن مذ سنة ١٦٨١م، ودير القديس فرنسيس للكبوشيين، وكانوا قد حضروا إلى غزير وأقاموا أولاً في دير مار الياس غزير للموارنة باذن البطريك كما مرّ ثم أعطاهم الأمير حيدر شهاب والي لبنان قبواً من سراي الأمراء العسافيين وباشروا في بناء ديرهم المذكور سنة ١٧١٢م. ثم دير الخلّص المعروف بالكريم للأرمن فأنه في سنة ١٧٠٧م حضر أربعة شبان أرمن من حلب إلى لبنان فدخل منهم راهبان في رهبانية اللبنانيين في دير قزحيا واثان حضرا إلى كسروان، فوهبهما الشيخ صخر بن أبي قانصوه الخازن محل هذا الدير بغوسطا سنة ١٧١٦م، فترهباً به وأسس رهبانية الأرمن تابعين قانون رهبان القديس أنطونيوس اللبنانيين ثم سكن بطاركة الأرمن في هذا الدير إلى أن وقف عليهم الشيخ شرف دهام الخازن محل دير السيدة بيزمار

فأخذوا ببناء هذا الدير سنة ١٧٤٩م وجعلوه كرسياً لبطاركتهم ومدرسة لأكليرسهم. ومن هذه الأديار دير سيدة البشارة في جانب زوق مكاييل للملكيين الكاثوليكين فإنّ ثمان عذارى حلييات من هذه الطائفة حضرنَ إلى لبنان بقصد الرهبانية والتجأنَ إلى الآباء اليسوعيين المقيمين حينئذٍ بعينطورا فساعدوهنَّ على بناء هذا الدير في محلٍ وهبه لهنَّ الشيخ موسى الخازن سنة ١٧١٩م، ومنها دير مار ميخائيل بزوق مكاييل للرهبان الملكيين الكاثوليكين الحناوين بنوه في محلٍ وهبه لهم الشيخ موسى بن طريه الخازن سنة ١٧٤٧م، ثمَّ دير سيدة النياح أنشأه الرهبان الملكيون الكاثوليكون بنفقة ابراهيم خير الدمشقي كما هو مسطر في التاريخ المنقوش على باب كنيسة هذا الدير، ووهبهم المحل لبنائه أولاد أبي خطار فاضل الخازن سنة ١٧٥٣م، ثمَّ دير سيدة النجاة في الشرفة هذا درعون بناء الخوري يوسف مارون الطرابلسي. ولَمَّا فرَّ ميخائيل جروه بطريك السريان الكاثوليكين من ماردین إلى لبنان سلَّمه الموارنة الدير المذكور لسكناه سنة ١٧٨٣م.

عد ١٠٨٨

مدارس الموارنة المنشأة في هذا القرن

مدرسة عينطورا

أنبأنا العلامة الدويهي أنّ الآباء اليسوعيين كان أوّل سكناهم في لبنان سنة ١٦٥٣م، وقد أبانوا هم في إحدى رسائلهم المعروفة بالرسائل المعمرة أنّ الأب لمبر ورفيقه الذين سافروا إلى سورية سنة ١٦٥٣م ثارت على سفينتهم ريح شديدة ألقتها في محلٍ قريب من عينطورا فأخذهم أهل المحل إلى الشيخ أبي نوفل نادر الخازن حاكم ذلك المحل حينئذٍ، ولَمَّا عرف أنّهم مرسلون أنزلهم عنده وأكرمهم وأمر ببناء دار ومعد لهم في محلٍ من أملاكه بعينطورا، وكان يتردد إليهم ويلاطفهم ويساعدهم وهم يطنبون مدحه في رسائلهم المذكورة.

وجاء في الجمع اللبناني صفحة ٥٤٨ ما ذكرناه في ترجمة الأب بطرس مبارك وهو أنّ هذا الأب الورع العالم بنى لأبناء ملّته على عهد ذلك الجمع مدرسة بقرية عينطورا وأجرى عليها الأرزاق ووكل تديرها إلى المرسلين اليسوعيين معلقاً ذلك على بعض شروط خشية أن يلمّ بأبناء ملّته شيء من الضرر في المستقبل، فالمدرسة التي بناها الأب مبارك لم تكن محل اليسوعيين الذي بناه لهم الشيخ نادر الخازن بل كانت قرية منه أو ملاصقة له. وقد ذكر الجمع اللبناني الصك الذي دوّنه الأب فرنسيس رترز رئيس اليسوعيين العام عند استلامه هذه المدرسة وهذا ملخصه عن ذيل هذا الجمع صفحة ٦٧.

«فرنسيس رترز رئيس الرهبانية العام. لما كان بعض أفاضل الموارنة قد أسسوا مدرسة اكليريكية بقرية عينطورا التابعة أبرشية بيروت (هذا كان قبل الجمع اللبناني) وقد طلبوا أن تكون إدارتها بيد مرسلي جمعيتنا فأجابهم سالفنا إلى طلبهم ونصب رئيساً عليها الأب أنطون ماريانكي ونحن ثبت هذا الأمر الذي ينطبق على روح رهبانيتنا ونحكم ونجزم بأسطرننا هذه أن يستمر قائماً ثابتاً إلى ما شاء الله. ونعلن أنّ من نية المؤسسين الفضلاء أن يقبل في هذه المدرسة من طلبة الموارنة ولا ينفي غيرهم من طلبة باقي الطوائف وخصوصاً القبط والكلدان بشرط أنّ عدد هؤلاء لا يتجاوز ربع الطلبة، ونأمر وننهي نهياً جازماً رؤساء جمعيتنا ووكلائها ألا يصرفوا أرزاقها ومداخيلها إلى غير وجهة وأن لا يجسروا على تخصيصها بالرسالات أو صرفها في أي سبيل خيري أياً كان. ونريد أن تبقى هذه الإدارة بيد وكيل الرسالات الشرقية في باريس ووكيل معاونية فرنسة المستقر هنا برومة بحيث أنّ مداخيل هذه المدرسة لا تختلط مع مجموع المداخيل الخاصّة بالرسالات المذكورة وترسل إلى رئيس المدرسة على حدة، وإذا نزلت كارثة توجب نقل المدرسة من موقعها فحرصاً على نية المؤسسين نأمر بالآ تنقل إلى ما وراء حدود سورية أو إلى حيث لا يوجد موارنة ونأمر أن تبقى مداخيلها وأرزاقها في حالة نقلها ثابتة على حكمها كأنّ مركزها لم يتبدّل. وإذا ترك رجال جمعيتنا الرسالات السورية واضطروا إلى الخروج من سورية فتبقى إدارة أرزاق المدرسة وتديرها بيد من حكم الرئيس بأهليته للقيام مقامه إلى أن يرى الرئيس العام القائم وقتئذٍ من يجب تسليم الإدارة إليه في مدّة غياب المرسلين وينبغي أن ترد إليهم لحال رجوعهم إلى سورية

ولو قرر رؤساء الجمعية وجوب التخلي عن إدارة هذه المدرسة فعملاً بنية المحسنين التي أوضحوها لنا نعلن أنّ على الرئيس العام في هذه الحال أن يعهد بالمدرسة وبنائها ومداخيلها وكل ما يعرف بها إلى أشخاص آخرين يرى فيهم الجدارة لذلك مع التوفّر على رعاية الشروط الآتفة الذكر بحيث أنّ المداخيل والأرزاق تخصص وتصرف في سبيل قيام هذه المدرسة وحفظها إلى ما شاء الله وإذا تعدّر الحصول على ما ذكر فتقوم مقامها مدارس صغيرة ينشئها بطريرك الموارنة في بلاد طائفته على ما يرى. وبياناً لصحة ما تقدّم وقّعنا على هذا الصك بخط يدنا وخاتمتنا برومة في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤».

وبقي الآباء اليسوعيون يدبرون هذه المدرسة بحسب الشروط المذكورة نحواً من أربعين سنة ولما أُلغيت جمعيتهم سنة ١٧٧٣ استولى البطريرك يوسف اسطفان بطريرك الموارنة على هذه المدرسة ومدرسة زغرتا الآتي ذكرها ثمّ تحوّلت جميع أديار اليسوعيين في الشرق إلى الرهبان العازرين بموجب براءة من البابا بيوس السادس مؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٧٨٣، وأمر من لويس السادس عشر ملك فرنسا مؤرخ في ٢١ كانون الأوّل من السنة المذكورة. ففي سنة ١٧٩٢ أقام رئيس العازرين الدعوى على هذه المدرسة وطلب تسليمها إليه كباقي أديار اليسوعيين فسلمها البطريرك يوسف اسطفان إلى جمعيته طمعاً بأن يستحصلوا المبلغ الذي كان باقياً لهم عند إلغاء جمعية اليسوعيين وضبط في بنك باريس، وعلى الشروط التي مع اليسوعيين فلم يقبل العازريون هذه الشروط إذ أدخلوا بها فتسلّم البطريرك ما كان يخص المدرسة وتسلموا هم ما كان يخص اليسوعيين.

مدرسة زغرتا

جاء في المجمع اللبناني صفحة ٥٤٩ ما ذكرناه في ترجمة المطران جرجس بنيمين الاهدني وهو أنّ هذا الأسقف إذ كان مطراناً بسورية قد أنشأ في قرية زغرتا من أبرشية طرابلس مدرسة وكنيسة وعيّن لها دخلاً كافياً لمعاش معلّم وتوطيداً لدعائم هذه المدرسة قد عهد بتديرها إلى الآباء اليسوعيين الذين انضوى إلى جمعيتهم معتزلاً الأسقفية، وشرط عليهم أن يعلموا من يؤمنهم من الأحداث من

القرى الدانية أصول السريانية والعربية إما بأنفسهم وإما بواسطة معلّم يؤدون له أجرته، وأن يشرحوا التعليم المسيحي للتعجب أتيام الآحاد والأعياد كما يتبين من الصك الذي دونه الأب فرنسيس رتر رئيس اليسوعيين المار ذكره وهذا ملخص هذا الصك أيضاً.

«فرنسيس رتر رئيس الرهبانية اليسوعية العام. لما كان حضرة الأب جرجس بنيمين الماروني مطران إهدن سابقاً وأحد أبناء جمعيتنا الآن قد بنى وهو أسقف داراً بجانب كنيسة السيدة في زغرta وخصّص لهذه الدار من الحقول والعقارات الجارية على ملكه ما يفي بمعاش معلمين وإقامة مدرسة لتأديب الشبان في التقى والعلم، ولما كان سالفنا الأب ميخائيل تمبوريني عملاً بنيت الأب بنيمين الواقف ووفاء بالرغبة التي أبدأها خطأ خلفه مطران إهدن وبقية الوجهاء والسراة في زغرta وإهدن في أن يشاهدوا هذه المدرسة خاضعة لدينا بطرابلس ويروا مرسلينا يمارسون أعمال الرسالة في كنيسة السيدة بزغرta قد عهد بتدبير هذه المدرسة وإدارة أملاكها إلى رؤساء ديرنا القائمين وقتئذٍ، فنحن نثبت ونقرر بأسطرننا هذه النافذة أبداً حكم سالفنا في مدرسة زغرta والرسالة في الكنيسة القائمة بجانبها، ونحتّم ونجزم بأن يستمر هذا الحكم ثابتاً في المستقبل ونعلن أنّ نية المؤسس التي أوضحها لنا إنّما هي أن يتخذ من المعلمين بمقدار ما تحتمل مداخيل هذه المدرسة ويتحتّم عليهم أن يشربوا الأحداث الآتين إليهم من كل طائفة التقى والعلم دون طلب أجره، أمّا اختيار المعلمين فيجب أن يكون بيد رئيس المدرسة أو معتمد من قبله وللرئيس السلطان على عزلهم ونصب غيرهم وتعيين رواتبهم والنظر بما يراه عائداً على الطلبة بمعظم الفائدة. ونعلن أيضاً أنّ مدبّري هذه المدرسة لا يكلفون بأداء الحساب عن إدارة أرزاقها إلّا لرؤساء الجمعية وأنّ هذه الأرزاق تكون مخصّصة على الدوام ومعروفة بالمدرسة ولو اقتضت الحال أن تنقل إلى محل آخر، وبعد الحصول على الإذن الصريح من لدن الرئيس القائم وقتئذٍ. ونهي نهياً مشدداً هؤلاء الرؤساء والمديرين وكل من نيظ بهم إدارة شؤونها ونحظر عليهم بقوة الطاعة المقدّسة أن لا يقدموا على بيع أملاك هذه المدرسة الثابتة أو تبديلها ونريد أن يصرف كل الاجتهاد في الحرص على منقولاتها وأن لا تحول مداخيلها إلى وجوه أخرى ولو كانت للخير، وأن لا تخلط مع مجموع مداخيل باقي الأديار بل أن تكتب في دفتر مخصوص

وتنفق في سبيل قيام المدرسة بكل أمانة. وإذا عرض ما أُلجأ رحال جمعيتنا إلى الخروج من سورية دون أمل عود قريب ففريد تبعاً لنية المؤسس أن ترجع هذه المدرسة مع كل ما تملكه إلى يد مطران إهدن وأكابرها بكل أمانة وأن تسلم إليهم بما عليها من التكاليف مع هذا الشرط وهو أنه إذا عاد مرسلونا بعد مدة أية كانت إلى سورية يعتبر أن قد ردت المدرسة إليهم بمجرد رجوعهم. وكذلك إذا أراد الرئيس العام أن يتخلّى عن تدبير هذه المدرسة وإدارتها لدواع صوابية فعملاً بنية المؤسس ترد وتسلم مع أرزاقها إلى يد السيد مطران إهدن وسراتها بما عليها من التكاليف. وبياناً لصحة ما ذكر كتبنا هذا الرقيم موقعاً عليه بخط يدنا ومهوراً بخاتمتنا برومة في ١٠ كانون الأول سنة ١٧٣٥م. فرنسيس رتز. وبعد إلقاء الرهبانية اليسوعية سنة ١٧٧٣م ردت مدرسة زغرنا إلى مطران إهدن بحسب هذه الوثيقة.

مدرسة عين ورقة

يظهر أنّ العناية الربانية قد تداركت الطائفة المارونية بأعداد حليفة لمدرسة رومة قبل سقوطها فإنّ رجال جمهورية فرنسة عند دخولهم إلى رومة في آخر هذا القرن الثامن عشر ضبطوا مدرسة الموارنة فيها وباعوها إلى بعض العلمانيين وكان الله سبحانه قد ألهم البطريرك يوسف اسطفان أن يحوّل دير عائلته المعروف بعين ورقة إلى مدرسة عامّة للطائفة. فقد مرّ أنّ القس خيرالله اسطفان بنى دير عين ورقة سنة ١٦٩٠م وارتقى هذا القس بعد ذلك إلى الأسقفية ودعي جرجس، وأقام بهذا الدير وخلفه بعده عدّة أساقفة من هذه العائلة وأقاموا غالباً بهذا الدير وجمعوا إليه راهبات واستمرّ هذا الدير كذلك إلى أن عاد البطريرك يوسف اسطفان إلى البطريركية بعد توقيفه عنها فحينئذٍ حوّل دير عين ورقة إلى مدرسة إكليريكية عامّة للطائفة المارونية بتحريضات الشيخ غندور سعد الخوري الذي كان حينئذٍ قنصلاً لفرنسة بيروت. وله رسالتان إلى البطريرك يوسف اسطفان بهذا الشأن أثبتتهما المعلّم رشيد الخوري الشرتوني في كتابه سلسلة بطارقة الموارنة الذي طبعه سنة ١٩٠١م وهما ناطقتان بما كان لهذا الرجل الهمام من الحمية والغيرة على طائفته المارونية والعناية بخيرها ونفعها. وقد حمل البطريرك على هذا المشروع الخيري ابن أخيه

المطران يوسف اسطفان إذ كان بعد شماساً ثم صير كاهناً وأسقفاً ورئيساً لهذه المدرسة وله عليها أيادي بيضاء في نجاحها وتقدمها. وقد أنشأ البطريك المذكور سنة ١٧٨٩م صكاً مطوّلاً يبيّن فيه تحويل هذا الدير إلى مدرسة إكليريكية عامة ووضع فيه نظامها وأخصّ قانون تلامذتها وشرح حقوق كل أورشية مارونية على إدخال طلبة منها إليها إلى غير ذلك، وكتب إعلاماً وجهه إلى خلفائه من البطارقة الأنطاكيين وإلى مطارين الرعايا القائمين وقتئذٍ وإلى الشيخ غندور سعد القنصل الفرنسي ببيروت والمشايخ الخوازنة والحبيشية والدحادحة وكل مشايخ الطائفة وأعيانها القيمين حينئذٍ ومن يخلفهم ناشدهم بهذا الإعلام أن يسعفوا ويؤيدوا بأنظارهم وإحسانهم ومحاماتهم مشروعه المذكور العائد إلى خير طائفتهم جيلاً بعد جيل، وطلب أن يوقعوا على إعلامه المذكور بخطوطهم وأختامهم بياناً على رضاهم بهذا الأمر الخيري وقبولهم المحاماة عنه والمساعدة له وهذا الإعلام مؤرّخ في ١٤ كانون الثاني سنة ١٧٨٩م.

ونبغ من هذه المدرسة كثيرون من الرؤساء الأماجد والعلماء الأفاضل حتى كان في القرن التاسع عشر أكثر بطارقة الطائفة ومطارينها وكهنتها الأجلاء المشتهرين من تلامذة هذه المدرسة وسيأتي ذكر كثيرين منهم. وفي جملة الأساقفة من تلامذتها كاتب هذا التاريخ الحقيق ومن هذه المدرسة خاصة انبثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى سورية وغيرها من العلوم والفنون.

عد ١٠٨٩

كنائس الموارنة المنشأة في هذا القرن

إنّ الكنائس التي أنشأها الموارنة أو جدّدوها في هذا القرن الثامن عشر كثيرة وليس من تعدادها كبير فائدة يستوجب صرف زمان في البحث عنها ولذلك تقتصر على أن نذكر منها ما عرفناه بأقل كلفة.

ومن المعلوم أنّ كل ما ذكرناه في الفصلين السابقين في الأديار والمدارس أنشئ في كل منها كنيسة أو معبد وهي تربو على ستين ديراً ومدرسة ونعلم مما سواها كنيسة سيادة الوردية بزوق مصبح أنشأها كاهنان من هذه البلدة الخوري فرح والخوري

رزق الله الزوقيان سنة ١٧٠٨م كما يظهر من تاريخ نقش عليها من نظم الخوري نقولا الصائغ الملكي الكاثوليكي وكنيسة القديس يعقوب المقطع بدلنا شرع بنائها الخوري يعقوب الحصريني جد الطيّب الذكر البطريرك يوحنا الحاج سنة ١٧٢٢م.

وفي سنة ١٧٦٣م أنشأ أبو عبدالله الرامي وأقاربه كنيسة مار الياس النبي بفالوغا كما يظهر من التاريخ المنقوش على بابها وهو: «أنشأ هذا الهيكل المبارك على إسم القديس مار الياس وكان المعتمي فيه أبو عبدالله أنطونيوس ابن المرحوم الخوري جرجس بن حبيب الرامي وبقية عائلته وكان يومئذ على الكرسي الأنطاكي مار طوبيا الخازن الكلي الغبطة وكان المتولي في الحكم جناب الأمير شديد المحترم سنة ١٧٦٣م». وسنة ١٧٦٥م بنيت الكنيسة الكبيرة في دير سيدة الحقلة في أيام رئاسة الخوري بطرس ديب والقس يوحنا باسيل من معراب.

وفي سنة ١٧٦٩م أنشئت كنيسة مار يوسف الحصن بقرية غوسطا بإحسان لويس الخامس عشر ملك فرنسا فكان البطريرك يوسف اسطفان الذي أنشأ هذا الدير في محل ورثه عن أبيه كما مر. استمد هذا الإحسان من الملك المشار إليه فأنعم به عليه ويظهر أنّ مهندسين فرنسيين وضعوا هندسة هذه الكنيسة فحنية مذابحها خاصة بديعة وعلى مثلها بنى المطران يوسف أبو رزق رئيس مدرسة عين ورقة حنية كنيسة هذه المدرسة التي أنشأها في القرن التالي كما سيجيء.

ونحو هذا الزمان أو قبله بنيت كنيسة القديس جرجس القديمة للموارنة في بيروت وكانت صغيرة فسعى بتكبيرها الشيخ منصور آده وأخوه الشيخ بطرس بنفقة المطران يوسف فاضل مطران الأبرشية ونفقة الشيخين المذكورين ومعاونة وجوه الموارنة بالمدينة واستمرت هذه الكنيسة هي الكاتدرائية المارونية ببيروت إلى سنة ١٨٩٤م التي بها احتفلت نهار أحد الشعانين بالقداس الأوّل في الكاتدرائية الجديدة على اسم القديس جرجس أيضاً وكنت قد بدأت في بنائها سنة ١٨٨٤م وأنفقت عليها نحو مليونين من القروش كما سيأتي.

وفي سنة ١٧٨٩م وقف يزيك خيرالله وأخواه يوحنا ومنذر قطعة أرض في مزرعة الحصين التابعة قرية غباله بالفتوح بنيت فيها كنيسة على اسم السيدة وهي المعروفة الآن بسيدة الشقيف وكان بهذا الحبل خربة كنيسة قديمة مشهورة بعمل العجائب.

الباب التاسع عشر

تاريخ سورية في القرن التاسع عشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلطان العثمانيون العظام الذين تولوا سورية في هذا القرن

عد ١٠٩٠

تنمة أخبار ما كان في أيام السلطان سليم الثالث الغازي

قضى علينا مساق تاريخنا أن نجزي أخبار ما كان في أيام السلطان الغازي
سليم الثالث فذكرنا ما كان منها في القرن الثامن عشر إلى سنة ١٨٠٠م، وعدنا
الآن والعود أحمد إلى ذكر ما بقي منها.

إنّ السلطان سليم الثالث قد عجب بفراصة نابوليون بونابارت وبسالته وإن سطا
على بلاده في مصر وسورية، ونابوليون كان قد أبدى في غزوته لمصر تحاشيه لكل
غلو ديني وهيامه في نفع الناس وترقيتهم في مدارج التمدّن والفلاح من أي مذهب

كانوا، ولهذا بعد جلاء عساكر فرنسة عن مصر ونصب نابليون رئيساً للجمهورية باسم قنصل، كاشف سفير الدولة العلية بباريس المسمى أسعد أفندي باتفاق فرنسة معها وتجديد العلائق الحبية التي كانت بين الدولتين مبيّناً المضار الملتحقة بالدولة من جراء اتّحادها بانكلترا وروسيا، فعرض السفير الأمر لمولاه فارتاح له ففقدت بين الدولة العلية ونابليون سنة ١٨٠١م معاهدة فحواها ثبوت حقوق الدولة على مصر وسلامة ممالكها وتجديد امتيازات فرنسة في الشرق وأرسل بوناپارت الجنرال سبستياني إلى الآستانة وكانت له حظوة كبرى لدى السلطان، وبمساعيه عزل السلطان أميرى الفلاخ والبغدان المحازين لروسيا.

استاءت روسيا من هذا العزل وخشيت من امتداد نفوذ فرنسة في الشرق فجهزت جيشاً احتلّ الإمارات المذكورتين دون إعلان الحرب مدّعية أنّ تغيير أميرى الفلاخ والبغدان مضر بحقوق جوارها، فانتشبت نار الحرب بين الدولتين وناصرت إنكلترا روسيا فأرسلت أسطولاً قائده اللوردوك وودت فسطا على مدخل الدردنيل ورفع سفيرها بلاغاً إلى الباب العالي طالباً عقد محالفة بين الدولة العلية وإنكلترا وتسليم الأساطيل وقلاع الدردنيل لإنكلترا، والتخلي عن ولايتي الفلاخ والبغدان وطرد الجنرال سبستياني من الآستانة، وإلاّ فتضطر إنكلترا أن تبتاز بوغاز الدردنيل وتطلق مدافعها على الآستانة، فأبت الدولة إجابة إنكلترا إلى هذه المطالب وأخذت بتحصين البوغاز المذكور وإنشاء القلاع على ضفتيه، على أنّ الإنكليز لم يتركوا لهم وقتاً كافياً لهذه التحصينات بل اخترق أميرال الأسطول الإنكليزي بوغاز الدردنيل دون أن تناله مضرة تذكر من مقذوفات القلاع ورمى أناجره في فريضة كالبيولي ودمّر السفن العثمانية الراسية فيها، ومكث خارج البوسفور ينتظر تنفيذ اللائحة التي قدّمها إلى الباب العالي. واستولى الرعب على قلوب سكان الآستانة وحرار الوزراء في ما يعملون وبعد مداولات طويلة جزموا أن يذعنوا لمطالب إنكلترا وأرسلوا يكلفون الجنرال سبستياني إلى الخروج من الآستانة خيفة من تفاقم الخطب، فاستدعى الجنرال مستخدمي السفارة والضباط الفرنسيين الموظفين بجيوش الدولة وبحريتها وأجاب رسول الباب العالي لا أخرج من الآستانة إلاّ مكرهاً، وطلب أن يقابل السلطان فأجيب إلى طلبه، فعرض له أنّ فرنسة مستعدة لمساعدته وأنّ عاهاها

نابوليون الأول أصدر أوامره لجيوشه العسكرية في سواحل الأدرياتيك أن تسير مسرعة إلى الآستانة لإنجاده على إنكلترا ونبذ مطالبها، فاقنع جلالة السلطان بما عرضه له وأمر بتحصين العاصمة وإنشاء القلاع حولها وتسليحها بالمدافع الضخمة، وتجنّد من نزالة الفرنسيين بالآستانة مئتا مقاتل وأكثرهم من المدفعية وكذلك من نزالة إسبانيا لمقاومة سياسة إنكلترا، وجدّد كل من بالآستانة بهذه التحصينات الشيوخ والأحداث والنساء، وكان السلطان بنفسه يناظر على هذه الأشغال ويحثّ المشتغلين بها على مواصلة الليل بالنهار لإتمام القلاع، ولم تمر أيام إلا وأصبحت المدينة في مأمن من كل طارئ ووقفت عدّة سفن في مداخل البوسفور لمنع المهاجمة، وبذلت الهمة الناهضة في تحصين قلاع الدردنيل أيضاً، فلما رأى الأميرال الإنكليزي أنّه أمسى مستحيلاً عليه أن يدخل البوسفور وخاف من حصر أسطوله في ما بين البوغازين البوسفور والدردنيل قفل راجعاً إلى البحر الأبيض سنة ١٨٠٧م.

وأراد الأميرال الإنكليزي أن يوارى هزيمته فقصد ثغر الإسكندرية ومعه خمسة آلاف جندي عدا البحرية بأمر الجنرال فريزر، فاحتلّ هذا الثغر في ٢٠ آذار سنة ١٨٠٧م وأرسل فرقة من الجند لاحتلال ثغر رشيد فلم تنل منها مأرباً، وأعاد الكرة على رشيد فخاب أمله من الاحتلال فيها لارسال محمّد علي باشا النجيدات إليها، فلما رأى الأميرال ما في فتح مصر من العقبات والمصاعب مع اشتغال دولته بالحروب بأوروبا عدل عن مقصده وأقلع بأسطوله وجنوده من مصر في ١٤ أيلول سنة ١٨٠٧م.

إنّ أكبر المصاعب التي حملت الأسطول الإنكليزي على العود من مصر إنّما كان قبض محمّد علي باشا الشهير على أزمة حكومتها، فقد ولد هذا النابغة سنة ١٧٦٩م في مدينة غوله التي يسميها اليونان نيابوليس أي البلدة الجديدة في بلاد مكدونية وتجنّد في جملة من تجنّدوا لمحاربة الفرنسيين عند حملتهم على مصر، وشهد واقعة أبي قير ثمّ عيّنه خسرو باشا والي مصر قائداً على أربعة آلاف مقاتل، وأخذ في استمالة قلوب الجنود إليه للاستعانة بهم لدى الحاجة، فوقعت النفرة بينه وبين خسرو باشا وثار الجنود الأرناؤوط على خسرو باشا وطرده من القاهرة، واختار الأهلون طاهر باشا ليدبر شؤون البلاد ريثما ينصبّ الباب العالي خلفاً

لخسرو، ولكن لم يلبث أن ثار الانكشارية عليه وقتلوه ونصبوا رجلاً اسمه أحمد باشا فلم يقبله محمد علي، وأراد انتهاز الفرصة لنيل ما كان يتوخاه من مدة طويلة وهو الاستئثار بوادي النيل فكتب أحزابه أن يسرعوا إليه ولما وجد عددهم كافياً لمحاربة الانكشارية حاصر أحمد باشا المذكور في منزله وأكرهه على الخروج من مصر، ثم حارب الانكشارية مستعيناً بالأرناؤوط فقتل أكثرهم وهزم باقيهم فلم يبق في القاهرة من معارض له، فسار هو وعثمان بك البرديسي أحد مشاهير المماليك لمحاربة خسرو باشا الذي كان متحصناً بدمياط فأسره سنة ١٨٠٤م، وعاد به إلى القاهرة وسجنه في القلعة وعاد محمد بك الألفي أحد زعماء المماليك من سفره إلى إنكلترا ليستنجد الإنكليز على استقلاله بمصر، فخشي محمد علي من اتفائه مع البرديسي عليه فعمد إلى الفتنة بينهما، وأحس الألفي بذلك فسار إلى الصعيد وأهاج محمد علي الأهلين على البرديسي فحاصروه في منزله وأطلق محمد علي المدافع عليه حتى أخرجه من مصر مع باقي المماليك، وأرسل خسرو باشا إلى الآستانة فلم يبق له معارض فانتخبه أهل مصر والياً وعرضوا للباب العالي، فأصدر السلطان فرماناً بنصبه والياً على مصر وأذيع هذا فرمان في ١٠ ربيع الثاني سنة ١٢٢٠ الموافق ٨ تموز سنة ١٨٠٥م، ثم سعى الإنكليز به لدى الباب العالي طالبين عزله أو نقله إلى ولاية أخرى محتجين بأنه يخشى من استقلاله بمصر وهم يخشون معارضته لمقاصدهم فأمر الباب العالي بنقله إلى ولاية سالونيك فلم يقل علماء مصر ولا قادة الجيش بذلك ورفعوا عرائض يلتمسون بها إبقاءه على ولاية مصر، فأصدر السلطان فرماناً بتثيبته وصل إليه في ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٠٦م. ثم توفي الألفي والبرديسي المار ذكرهما، فصفا الجو لمحمد علي ولم يبق له منازع من الأمراء والمماليك، وبقي بعض جنودهم فأجهز عليهم في الواقعة المعروفة بوقعة القلعة في ١١ آذار سنة ١٨١١م فقرضهم، وهكذا أسس هذا الرجل الشهير هذه الخديوية الباقية إلى الآن وسيأتي ذكرها مكرراً.

ولنعد إلى الكلام في ما كان في الآستانة أن السلطان سليم الثالث اهتم بإدخال النظام الجديد في الجيش فامتعض الانكشارية من ذلك وتوسموا به مقدمة لإلغاء وجاقاتهم فسعوا هم وبعض العلماء لإلغاء الفرق المنظمة فلم يحسن للسلطان

إلغاؤها وأوقع الانكشارية الدولة العلية في ارتباكات كثيرة في الصرب والروملي وغيرها. في سنة ١٨٠٥م أصدر السلطان أمراً سامياً إلى جميع الولايات في تركية وأوروبا أن يجمعوا الشبان من الانكشارية والأهلين من بلغ الخامسة والعشرين ويدخلوهم في الجندية المنظمة فلم يقبل الانكشارية هذا الأمر وجأهروا بالتمرد والعصيان، وكانت رحى الحرب دائرة بين العثمانيين والروس ودخل والي بوسنه (البشناق) بجيشه إلى بلاد الصرب لمنع الثائرين عن اللحاق بالجيش الروسي، وسار الصدر الأعظم إلى مدينة شومله، وكان مصطفى باشا البيرقدار والي روستجك في بلغاريا يستعد للإغارة على بلاد الفلاخ بخمسة عشر ألف جندي عني هو بتنظيمهم وتدريبهم ومات حينئذ شيخ الإسلام الذي كان معضداً للسلطان على إدخال النظام وخلفه قاضي عسكر الروملي وكان مخالفاً للنظام المذكور واتفق مع الانكشارية ولفيف من العلماء على إبطال النظام الجديد قائلين إنه بدعة مخالفة للشرع وأخذوا يعرفون العساكر غير المنظمة بأن السلطان لم يأت بهم من بلادهم إلا للانخراط بسلك النظام وإكراههم على لبس الملابس الافرنجية والتزيي بزي النصارى، وذلك مخالف للمذهب حتى ملأوا عقول هؤلاء السذج من هذه الأباطيل. وأرسل مصطفى باشا قائمقام الصدر الأعظم من قال إنه أتى لإلباس الجنود غير المنظمين في إحدى القلاع المختلطة جنودها فهاجوا وماجوا وأرادوا قتل الآتي فمنعهم المنظمون، فكانت بينهم معركة جرت فيها الدماء ثم انتشرت الفتنة في قلاع أخرى بين المنظمين وغير المنظمين، ولما بلغ ذلك السلطان لطف له نائب الصدر مصطفى باشا المذكور الحادثة وقال إنها ليست بذات بال، وتمادى الجنود غير المنظمين بإيعاز مهيجيهم واجتمعوا في بيوكدره إحدى ضواحي الآستانة وانتخبوا رئيساً لهم اسمه قباتيجي أوغلي (ابن القباقي) وحملوا على الآستانة وحشد معهم من الانكشارية واجتمعوا في المحل المعروف بآت ميدان وقرأ عليهم أسماء المعاضدين للنظام الجديد من الوزراء والأعيان ووثب الثائرون على منازلهم وقتلوهم، وأتوا برؤوسهم ووضعوها أمام قدور الانكشارية التي كانوا قد وضعوها في محل اجتماعهم، فأصدر السلطان أمراً بإلغاء النظام فلم يكتف الثائرون بذلك بل قرروا خلع السلطان لئلا يعود إلى تنفيذ مشروعه، وساعدهم على ذلك شيخ الإسلام الذي هو محرك هذه الفتنة، فأفتى بأن كل سلطان يدخل نظام الافرنج وعوائلدهم ويجبر الرعية على السلوك بها

لا يصلح للملك، واستمرت الثورة يومين ثم نودي بخلع السلطان سليم الثالث وخلعوه في ٢٨ حزيران سنة ١٨٠٧م بعد أن ملك تسع عشر سنة. انتهى ملخصاً عن عدة مؤرخين.

عد ١٠٩١

ما كان بسورية في هذه المدة

ذكرنا في آخر القرن الثامن عشر استقلال الأمير بشير الكبير بالولاية واتفاقه مع الأمراء أولاد الأمير يوسف وجرجس باز مدبرهم على أنهم يلون جبيل والبترون من قبله، ففي سنة ١٨٠١م اتفق الأمير عباس أسعد شهاب مع المشايخ العمادية على أن يولوه البلاد مكان الأمير بشير وكتبوا إلى الجزار يلتمسون له الولاية فأجابهم إلى ذلك. ونهض الأمير عباس ومعه العمادية إلى عكا فأنعم عليه الجزار بخلعة الولاية وأنفذ معه معسكراً إلى صيدا وكتب إلى سليمان باشا واليها أن يكون قائداً للعسكر، وكان الشيخ بشير جنبلاط قد اتفق مع الأمير قعدان والأمير سلمان سيّد أحمد أن يطلبوا الولاية للأمير سلمان المذكور، وتعهدوا بدفع مئتين وخمسين ألف قرش للجزار فوعدهم بها، ولكن لما بلغ الأمير عباس إلى صيدا ثم إلى عانوت فرّ الأمير سلمان وأصحابه إلى جبيل واتفقوا مع أولاد الأمير يوسف وفرّ الأمير قعدان والشيخ بشير إلى المتن، أمّا الأمير عباس فحضر بالعسكر إلى ساحل بيروت وأرسل فرسان الجزار إلى جبيل للقبض على الأمراء وكان هؤلاء الأمراء قد حضروا إلى المتن برأي الأمير بشير وأرشدتهم أن يسرعوا إلى دير القمر هم والأمير قعدان والشيخ بشير جنبلاط فدخلوا دير القمر، فندم الأمير عباس على تركه لها ورجع إليه مع عسكر الجزار فلم يتمكن من الدخول إليها، فانصرف إلى الباروك ثم إلى البقاع فنهض الأمير بشير إلى حمانا وسار الأمير عباس بالعسكر إلى المتن فالتقاء الأمير بشير برجاله إلى خان مراد، وانتشبت الحرب بين الفريقين فانهزم الأمير عباس وعسكر الجزار، وكتب الأمير عباس إلى الجزار يشكو قادة العسكر بأن الأمير بشير رشاهم وكتبوا إليه هم يشكون الأمير عباس بأنه لم يقم

بنفقاتهم، فكتب الجزار إلى الأمير عباس أن يسير إلى حاصبيا وبلغ الأمير تبدهم فسار إلى دير القمر ومعه جرجس باز.

وفي سنة ١٨٠٢م اتفق العمادية مع الأمير سلمان سيّد أحمد على أن البلاد وسار إلى عين صوفر، فقرّر رأيهم أنّه يكون شريكاً للأمير عباس في عرضوا للجزار، فأجابهم أن يحضر الأمير سلمان إلى عكا فحضر فرحه ووعده بالولاية وبقي هناك. وفي سنة ١٨٠٣م عرض أصحابه العمادية للجزار يأمر الأمير حسن على بالقيام معهم لطرد الأمير بشير، فكتب إليه وإلى باقي الد أن يعاونوهم على طرد الأمير بشير فتظاهروا لذلك، وبلغ الأمير بشير ما نورو من دير القمر إلى عين صوفر ومعه الشيخ بشير جنبلاط والنكدي وجرجس فخاف أهل الجرد ودانوا له، وبلغ العمادية أنّ الأمير بشير يريد أن يدهمهم في فقرّوا ليلاً إلى رأس بيروت، وسار الأمير بشير من صوفر إلى خان الحصين فقد الأمراء اللمعيون وأعيان المتن والتلاحقة واستسلموا إليه ثمّ جمع أصحاب من البلاد وأعيانها وكتبوا عهداً بينهم أنّهم لا يقبلون والياً عليهم إلّا الأمير وكتبوا إلى الجزار يلتمسون له الولاية وعاد الأمير بمن معه إلى دير القمر.

وكتب الأمير بشير إلى سليمان باشا والي صيدا يستعطف خاطر الجزار فأوقف الجزار على رسالته وأثنى على الأمير بشير وصادق الحضور على كلامه الجزار أن يكتبوا إليه أن يرسل من يعتمد عليه، فأرسل كاتبه الشيخ يوسف الد فجعل الجزار يذكر له ذنوب الأمير قائلاً أين الفرنسية أين القبطان سميّد الصدر الأعظم؟ فقد بدد جميعهم سعد الجزار وخابت مساعي مولاك، مرجعه إلى هنا. وكتب إلى الأمير جواباً لطيفاً وكتب إليه سليمان باشا أن التقادم المعتادة فتوجّه له خلعة الولاية، فأرسل الأمير ستة من جياد الخيل بعدد وخمسين ألف غرش خدمة، فأرسل له خلعة الولاية على البلاد مستثنياً منهم جزين وبرجا وأمراً له أن يهدم جونه، وأن لا يباع فيها شيء، وأن يدفع ألف قرش في مدّة أربعة أشهر والباقي تباعاً. وأرسل له بعداً أربع مئة ألف عن أربع سنين مضت كما تعهّد له فأطلق له الأمير ابراهيم ابن أخيه جرجس باز وأمر الأمير سلمان أن يذهب إلى وادي التيم.

وفي سنة ١٨٠٤م توفي الجزار نعمة هذه البلاد وآفاتها الدهماء وقد أرخ موته
المعلم الياس بأبيات منها:

لله درك يا منون فقد بدت منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الانام وارخوه بمقصد هلك الشقي وإلى جهنم قد رحل

وبعد موت الجزار أخرج الشيخ طاهَا الكردي اسماعيل باشا من السجن ونادى
باسمه بناءً على أنَّ الجزار بايعه بالولاية بعده، وأخرج حايم اليهودي من السجن
وأرجعه إلى منصبه كما كان، وكتب اسماعيل باشا إلى عمال ايالته يشرهم
بولايته، وكتب متسلّم دمشق من قبل الجزار إلى الأمير بشير يستشيريه ويوصيه
بصيانة الطرق والمحافظة على مدن الولاية، فأجاب الأمير أنَّ الطرق مصونة وأنا
منتظر صدور الأوامر السامية، فمن ولّته الدولة طعته، وأما اسماعيل باشا فلا أخضع
لأوامره لأنّه اتخذ المنصب بدون أمر الدولة. فأرسل متسلّم دمشق هذا الجواب إلى
الآستانة فورد كتاب من وزير حلب إلى الأمير بشير مضمونه أنَّ الدولة العلية
أنعمت عليه بمنصب صيدا ودمشق وطرابلس عوض الجزار. وفي أثناء ذلك كتب
إليه الشيخ طاهَا المذكور أن يرسل التقادم إلى اسماعيل باشا فيكرمه بخلعة الولاية
ويطلق ولده الأمير قاسماً والأمير سليم ويوسف اللذين كانا مرهونين عند الجزار،
فأرسل الأمير التقادم وأرسل له الباشا خلعة الولاية فلم يحفل الأمير بها لعدم إرساله
الأميرين المرهونين، ثمّ ورد فرمان من السلطان سليم الثالث إلى الأمير بشير فحواه
أنّه نصب ابراهيم باشا مكان الجزار وأن يكون مطيعاً له متفقاً معه، ووصل ابراهيم
باشا إلى دمشق فأرسل الأمير إليه جرجس باز بمائة فارس فأمر ابراهيم باشا أن
تلتقيه قواد العساكر والأعيان، ودخل جرجس باز على الوزير فأكرمه وأجلّه وأجرى
له الاقامات وكان يستشيريه في مهامه وبقي عنده، وورد فرمان آخر إلى الأمير
مضمونه أن يتوجّه بعسكره لمساعدة ابراهيم باشا على اسماعيل باشا، وورد مرسوم
للأمير من الصدر الأعظم يقول له فيه بلغني أنَّ اسماعيل باشا دعاك إلى مساعدته
فما أجبت دعوته، وبلغني ما أجبت به متسلّم دمشق بأنك لا تخضع إلّا لمن توليه
الدولة العلية فسوف تنال من لدن الدولة ما تبتغي، ثمّ نهض ابراهيم باشا إلى صيدا

ومعه جرجس باز فقام الأمير بعسكره وكان نحو ستة آلاف إلى جسر صيدا واعتذر لابراهيم باشا عن مقابلته، لأنه بعد خروجه من سجن الجزار أقسم أن لا يقابل وزيراً بعد فقبل الوزير عذره وأرسل له خلعة الولاية، ولما سار الوزير إلى حصار عكا عاد الأمير إلى دير القمر وبقي جرجس باز ورجال الأمير مع ابراهيم باشا، فقتل اسماعيل باشا، وحسن لدى الدولة تسمية سليمان باشا والي صيدا قبلاً مكانه، وبعد مخابرات مع الأمير في شأن أموال كانت باقية من أيتام الجزار ودفع الأمير بعضها أطلق سليمان باشا الأميرين اللذين كانا مرهونين عند الجزار.

وفي سنة ١٨٠٧م كان مقتل الشيخ جرجس باز في دير القمر وأخيه الشيخ عبد الأحد باز في جبيل فالشيخ جرجس المذكور كان وصياً على أولاد الأمير يوسف شهاب وأقامهم على ولاية البلاد في أيتام الجزار، ثم شاطرهم الأمير بشير الولاية وتولى أولاد الأمير يوسف على بلاد جبيل وما يليها بالاتفاق مع جرجس باز كما مرّ، وكان أولاد الأمير يوسف لا يفعلون أمراً إلا بإذن مدبرهم المذكور وهو يفعل ما شاء بغير إذنهم ولا علمهم أيضاً، ثم أقام جرجس باز عند الأمير بشير في دير القمر وأخوه عبد الأحد عند أولاد الأمير يوسف في جبيل، وطابت لهما الأيتام وارتفعت منزلتهما وعظم قدرهما عند كثيرين من عمداء البلاد ولم تكن لهما حرمة للأمير بشير، بل كانا يفعلان أموراً تسوء فيضمّر لهما سوء. وكان حيثئذ أن المشايخ التلاحقة فعلوا ما أغاظ الأمير بشير فصادرهم بطلب أموال، وكان منحرفاً عن المشايخ آل عبد الملك فأرسل يضيّق عليهم، وكان جرجس باز يبحث الأمير على الانتقام منهم. وحضر الأمير حسن من غزير إلى دير القمر فشكا له أخوه الأمير بشير استطالة جرجس باز وأخيه واتّفقا سرّاً على إهلاكهما، وكاشفا الشيخ بشير جن بلاط ذلك فوافقهما ورجع الأمير حسن إلى غزير متظاهراً بالغيب من أخيه لعدم دفعه المصادرة عن المشايخ. وأرسل إليهم سرّاً يقول أن يتحمّلوا تلك الأثقال وهو يعوّضهم منها، واستدعى الشيخ علي تلحوق سرّاً فكاشفه بالأمر ووافقه عليه وأفهمه أن يعلم به من يثق بحفظه السر وأن يحضر هو وبعض المشايخ مظهرين أنّهم قاصدون المسير إلى جبيل ليلتمسوا من الأمراء أولاد الأمير يوسف أن يترك لهم الأمير ما يصادرهم به. وقبل مسيرهم طلبوا كتاباً من جرجس باز إلى

أخيه عبد الأحد أنهم يتوجهون إليه ليصحهم بتوصاة للأمير بشير وأرسلوه إليه قبل ذهابهم خدعة له كيلا يتوجس منهم إذا رآهم مقبلين، ثم سار المشايخ اليزيدية المذكورون وسار الأمير حسن معهم ومنعوا المارة إلى جبيل وأرسلوا سرذمة من قبلهم تخبر بقدمهم نزلاء على الأمراء وتمنع من إغراق المدينة وهجم المشايخ اليزيدية على الشيخ عبد الأحد فأطلق الرصاص على خطار المصطفى فقتله، وجرح الشيخ ناصر الدين العماد في يده، وأحاطت به الجماعة فألقى نفسه من سبائك فأدركه من كان أسفل وقتلوه. هذه رواية الأمير حيدر شهاب في تاريخه. والذي رواه طنوس الشدياق في أخبار الأعيان أنّ الشيخ ناصر الدين العماد هجم على الباب فصده الباب فأطلق عليه خادم الشيخ ناصر الرصاص فقتله فأطلق خادم الشيخ عبد الأحد الرصاص على القاتل فقتله، فدخل حينئذ الشيخ ناصر بجماعته على عبد الأحد وأطلق كل منهما الرصاص فأنجرحا واستلا السيوف وأحاطت الجماعة بعبد الأحد فألقى نفسه من الشباك فقتله من كانوا أسفل، وقضوا على عرب الشلفون والياس آده وغيرهما من حاشية أولاد الأمير يوسف.

وأما الأمير حسن فتوجه توّاً إلى القلعة وقبض على أولاد الأمير يوسف وهم الأمراء حسين وسعد الدين وسليم. وفي ذلك النهار نفسه دعا الأمير بشير الشيخ جرجس باز إليه فحضر ولما جلس بحضرته خرج الأمير وأغلق الباب وأمر بعض أعوانه من الدروز أن يدخلوا عليه ويقتلوه فدخلوا وخنقوه وكان مقتلهما في ٥ أيار سنة ١٨٠٧م على رواية الأمير حيدر. وفي ١٥ منه من السنة المذكورة على رواية طنوس الشدياق وأمر الأمير باخراج امرأة جرجس باز وأولاده من دارهم بالأمان وركب لساعته ومعه الشيخ بشير جنبلاط قاصداً جبيل خشية أن يكون أخوه الأمير حسن ما استطاع أن يتم الأمر المتفق عليه فالتقى برسول من قبله يخبره بما كان في جبيل فصرف الأمير بشير الرجال وحضر بعد حمسة أيام إلى جبيل وأمر بتوجيه أولاد الأمير يوسف ليقطنوا بدرعون وأن تشمل أعينهم فكان كذلك واستراح وطابت له الأيام. انتهى ملخصاً عن تاريخ الأمير حيدر وعن أخبار الأعيان لطنوس الشدياق.

السلطان الغازي مصطفى خان الرابع

هو ابن السلطان عبد الحميد الأول ولد سنة ١٧٧٩م وبعد أن نودي به سلطاناً سنة ١٨٠٧م كلف شيخ الإسلام أن يبلغ السلطان سليم الثالث خبر عزله قبله مظهراً أسفه، فأذعن السلطان سليم لهذا البلاغ مكرهاً وذهب إلى بلاطه المخصوص وتفترق الجنود المنظمون، وبطل مشروع السلطان سليم الذي كان عائداً على المملكة بالنجاح بدسائس الانكشارية ومن حازبهم. ولم يكن السلطان مصطفى يستطيع أن يكبح جماحهم فأثبت الوزراء الذين كانوا يحازبون الثائرين في مناصبهم وأقام قباقيبجي أوغلو رئيس الثورة حاكماً على جميع قلاع البوسفور وزاد الانكشارية تمرداً ولما بلغت أخبار ما كان في الآستانة إلى الجيوش العثمانية المشتغلة بمحاربة الروس شعر الانكشارية بما كان لأرفاقهم من الفوز ولما رأوا قائدهم العام حلمي ابراهيم باشا الصدر الأعظم أسفاً مما كان في الآستانة قتلوه وأقاموا مكانه جلبي مصطفى باشا ولولا اشتغال معظم جيش الروس بمحاربة نابوليون الأول لفعل الروس ما أرادوا بالجيوش العثمانية لكن نابوليون انتصر حينئذ على الروس في وقعة فريدلاند فتقهقرت الجنود الروسية المحتلة بالبغدان دون حرب وعقب ذلك الصلح بين فرنسا وروسيا بمقتضى معاهدة تلسيت سنة ١٨٠٧م وكان من شروطها أن تكف روسيا عن محاربة الدولة العلية إلى أن يتوسط نابوليون الصرف بينهما، وأن تنجلي عساكر الروس عن ولايتي الفلاخ والبغدان ولا تدخلها العساكر العثمانية إلى أن يتعقد الصلح بين الدولتين وقبل الفريقان ذلك ولكن لم تقم روسيا بما وعدت من إخلاء الولايتين المذكورتين.

وأما في الآستانة ف وقعت الثورة بين رؤساء الثورة واتفق قباقيبجي أوغلو مع شيخ الإسلام على عزل نائب الصدر الأعظم مصطفى باشا المذكور فعزلوه وأبعدوه عن الآستانة وأقاموا طاهر باشا مكانه ثم عزلوا هذا فسافر إلى روستجك في بلغاريا لاجئاً إلى واليها مصطفى باشا البيرقدار وكان هذا الوالي من محازبي السلطان سليم ويودّ إرجاعه إلى منصّة الملك فكاشف بذلك الصدر الأعظم وغيره من الوزراء وأقنعهم بلزوم مجازاة شيخ الإسلام وقباقيبجي أوغلو لخلعهما السلطان سليم

والاستئثار بالسلطة، فأصدر الصدر الأعظم الحكم على قباقيبجي بالإعدام ووكّل بتنفيذه حكمه إلى رجل اسمه حاجي علي، فتعهّد بالقبض عليه وسار إلى الآستانة بمائة فارس وهاجمه في داره وقتله وسار مصطفى باشا البيرقدار مع الصدر الأعظم إلى الآستانة بستة عشر ألف جندي وخيما في خارج المدينة فخاف السلطان مصطفى من هذه الأحداث وخشي أن تتصل إلى خلعه فعزل شيخ الإسلام وصرف جنود قباقيبجي أوغلو غير المنظّمة. وفي صباح الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٨٠٨م ألقي مصطفى البيرقدار القبض على الصدر الأعظم وسار بجيشه إلى سراي السلطان طالباً لإرجاع السلطان سليم إلى الملك فأمر السلطان بقتله والقاء جثته إلى التائرين علّهم يكفّون عن ثورتهم، فكان العكس لأنّهم ازدادوا هياجاً ونادوا بخلع السلطان مصطفى والحجر عليه في السراي حيث كان محجوراً على السلطان سليم وبعيد ذلك كان آخر العهد به وكانت مدّة ملكه ثلاثة عشر شهراً.

عد ١٠٩٣

السلطان الغازي محمود خان الثاني

هو ابن السلطان عبد الحميد الأوّل، ولد سنة ١٧٨٥م وكانت باكورة أعماله تقليده مصطفى باشا البيرقدار منصب الصدارة العظمى وأمره أن ينظّم وجاقات الانكشارية على طريقة النظام التي ستها قبلاً السلطان سليمان القانوني وأهمّل العمل بها، فانتقم البيرقدار من تسبّبوا بقتل السلطان سليم الثالث ثمّ جمع أعيان الدولة ووزراءها السابقين في مجلس حافل وخطب فيهم مبيناً ما كانت عليه حال الانكشارية أولاً وما آلت إليه الآن، وما يلزم أن يكون لهم من النظام، وأن يكون ييدهم من السلاح المخترع حديثاً الذي كان سبباً لانتصار جيش الروس عليهم في الحروب الأخيرة. وعرض عليهم عدّة اقتراحات جزيلة الفائدة منها ملازمة ثكناتهم ولاسيما غير المزوجين منهم وتمزّنهم على التعليمات العسكرية المفروضة في قانون السلطان سليمان، وعلى الأصول الجديدة المعمول بها في عساكر أوروبا، إلى غير ذلك من الإصلاحات التي لو عمل بها لأضحى جيش الانكشارية أقوى جيش

فاستحسن الحاضرون مشروع البيرقدار وأنشأوا مضبطة به وأخذ فتوى بلزوم إجرائه، وصدرت أوامره بذلك وأدخل كثيرين من العساكر المنظمة ضباطاً في جيش الإنكشارية، فاستاء هؤلاء من ذلك وتضافروا على الإيقاع به ولم يمض إلا زمان قليل حتى ساروا إلى فيليبية وأظهروا العصيان، فأرسل إليهم البيرقدار اثني عشر ألفاً من العساكر التي كان نظمها في روستجك ولم يبق عنده منها إلا أربعة آلاف، فانتهر الانكشارية هذه الفرصة فاحرّجوا وساروا إلى سراي السلطان مصطفى في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٨٠٨م قاصدين إرجاعه إلى منصّة الملك، فناصرهم البيرقدار ولمّا أحسّ بضعف عزيمته جيشه وخشي من فوز الثائرين وخلع السلطان محمود أمر بقتل السلطان مصطفى والقاء جسّته للثائرين فازدادوا هياجاً وأضرّمو النار في السراي، فأثر البيرقدار الموت على التسليم إلى هذه الفئة الباغية وصبر على الدفاع إلى أن قتل، وقيل إنّه تحصّن ببرج ولمّا يئس أشعل ما كان به من البارود فهلك ومن معه تحت أنقاضه شهيد الشهامة والشجاعة.

وكان رامز باشا أمير البحر قد أحضر ثلاث سفن وصوب مدافعها على ثكنات الانكشارية ثم نزل إلى البر مع فريق من البحارة والمدفعية نجدةً للبيرقدار، وعاونه عبد الرحمن باشا بفرقة منظمة مؤلفة من ثلاثة آلاف جندي فسبق السيف العذل، ولكن ما فتئ رامز باشا وعبد الرحمن باشا يقاتلان الانكشارية حتى هزمهم، وفي الغد سار جيش السلطان ومدافعه تقذف النار على الإنكشارية لاتلافهم، فلمّا رأى الثائرون أنّ لا مناص لهم أضرّمو النار في كل جانب من العاصمة، ولمّا كانت أكثر محلاتها مبنية بالأخشاب كاد الحريق يلتهم جميعها فاضطرّ السلطان محمود أن يذعن لطلبات الانكشارية وقاية للمدينة من الدمار العاجل مؤجلاً قرض الانكشارية إلى وقت آخر، وبذل قصارى جهده في إخماد النار.

وتفرّغ السلطان محمود لتأمين مملكته من الخارجين ليعود إلى إصلاح الشؤون الداخلية فعقد صلحاً مع الإنكليز في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٠٩م، وافتتح المخابرات بالصلح مع روسيا واستمرّت رحي الحرب دائرة بين الدولتين، وكانت النتيجة أن انهزم يوسف باشا ضياء الصدر الأعظم واستحوذ الروس على عدّة مدن من أملاك الدولة العلية سنة ١٨٠٩ وسنة ١٨١٠م، فعزل السلطان الصدر الأعظم

المذكور ونصب مكانه أحمد باشا فانتصر على الروس سنة ١٨١١م، وأخرجهم من روستجك ببلغاريا، وبعد عدة مواقع عاد الروس فاحتلوها إلى أن توقدت نار الحرب بين روسيا ونابوليون الأول عاهل الفرنسيين، فقبلت روسيا مصالح الدولة العلية وعقدت بينهما معاهدة بوخارست سنة ١٨١٢م، وكان من شروطها بقاء ولايتي الفلاخ والبغدان للدولة العلية وعود السرب إلى حوزتها مع بعض امتيازات، وحفظ روسيا لنفسها ولاية بساريا، فاعتبرت فرنسا عقد هذه المعاهدة خيانة لها من قبل الدول العلية إذ تفرغت بها جيوش روسيا لصدد إغارات عساكر فرنسا عن بلادها، وأجبرت نابليون على القهقري بعد أن كان قد اتصل إلى موسكو وأحرقها وهلك السواد الأعظم من جيشه عند عودهم مدحورين.

ولما علم السريون أن معاهدة بوخارست قضت عليهم بعودهم إلى حوزة العثمانيين وذهب سدى ما بذلوه من الأموال والأرواح آثروا الفناء بالدفاع عن استقلالهم، وأرسلت الدولة العلية جيوشها عليهم فأخضعتهم لسلطانها، فهاجر زعماء الثورة إلى النمسا والمجر منتظرين فرصة لإهاجة الأمة ثانية، وبقي أحدهم المسمى ميلوش أوبرينوفتش في بلاده مظهراً الولاء للدولة، فعينت في منصب حقير وذأب على بث روح الحرية والثورة إلى أن جمع سنة ١٨١٥م عصاة كبرى من الأهلين وشرع أعلام العصيان، وعاد المهاجرون إلى أوطانهم وامتدت الثورة في أنحاء السرب فرحفت إليهم الجيوش العثمانية فقاتلهم سنتين إلى أن قبل ميلوش المذكور بالنيابة عن أمته الرجوع إلى سلطة الدولة على شرط أنها لا تتدخل في شؤونهم الداخلية بل يعين لإدارة البلاد مجلس مؤلف من إثني عشر عضواً ينتخبهم أعيان الأمة وهم ينتخبون رئيساً عليهم يكون بمنزلة حاكم عام، وتكتفي الدولة بالمراقبة واحتلال الحصون والقلاع.

ونصبت الدولة مرعشلي باشا والياً للسرب وانتخب ميلوش رئيساً لمجلس الأمة سنة ١٨١٧م، فاستبد كملك مطلق التصرف لا سلطة للوالي العثماني إلا الإحتلال في الحصون والقلاع.

وظهرت في هذه الأثناء شيعة الوهايين في بلاد العرب ابتدعها رجل عربي اسمه عبد الوهاب وجل ضلاله تحريمه الشفاعة بغير الله والالتجاء إلى نبي أو رسول

أو ولي، وانبث هذا الضلال في أكثر العرية واستحوذ أصحابه على مكة والمدينة، فأمر السلطان محمود محمد علي باشا والي مصر بمحاربتهم فأرسل محمد علي باشا ابنه طوسن باشا في هذه الحملة سنة ١٨١١م، وقبل تسفيره أهلك جميع المماليك الذين كانوا آفة لمصر وعرقلة لمشروعاته، ونجح ابنه طوسن باشا بمحاربة الوهابيين سنة ١٨١٢م ولكنه اضطر أن يعود إلى مصر فجهز محمد علي باشا حملة أخرى على الوهابيين أمر عليها ابنه ابراهيم باشا فأكمل إخضاع الوهابيين وعاد إلى مصر سنة ١٨١٩م.

عد ١٠٩٤

استقلال اليونان

وفي سنة ١٨٢٢م ابتدأت ثورة اليونان التي آلت إلى استقلالهم فإن علي باشا والي باينا أظهر العصيان فأرسلت الدولة إليه خورشيد باشا لقمعه وإخضاعه فانتشبت الحرب بينهما فانتهاز اليونان هذه الفرصة فجاهروا بالعصيان وكانت وقائع بين العساكر العثمانية واليونان إلى ١٨٢٤م ولما رأى السلطان محمود إصرار اليونان على غيهم وصبرهم على القتال معتصمين بجبالهم الوعرة المسالك دعا محمد علي باشا والي مصر لمحاربتهم فلم يسعه إلا الإذعان لمولاه الأعلى، فجهز من مصر سبعة عشر ألف مقاتل أمر عليهم ابنه ابراهيم باشا وأصبحه بسليمان بك الفرنسي، فساروا بالمراكب المصرية في ١٦ تموز سنة ١٨٢٤م إلى رودس واجتمعوا هناك بالأسطول العثماني ثم سار ابراهيم باشا إلى كريت فاحتلها، ثم قصد سواحل المورة فأحل عساكره في مودن وكوردن ثم فتح مدينة نافارين وغيرها من المدن التي كانت بيد الثائرين، وعاون رشيد باشا رئيس الجيش العثماني على فتح ميسلونجي سنة ١٨٢٦م وعلى فتح أثينا سنة ١٨٢٧م.

وكان الرأي العام بأوروبا معاضداً لليونان واتفقت إنكلترا وفرنسا وروسيا على إجبار الدولة العلية على منح اليونان الاستقلال الإداري، وأن يدفع اليونان جزية معينة يتفق بين الدول على مقدارها وعلى التخوم بين الدولة واليونان، وأمهلته

الدول الباب العالي شهراً واحداً لإيقاف الحركات العدوانية، وبعد انقضاء الشهر أصدرت الدول الثلاث أوامرها إلى قوّاد أساطيلها أن يسيروا إلى سواحل اليونان فاجتمعت هذه الأساطيل في ميناء نافارين حيث كان الأسطول العثماني والمصري مؤلفين من ٨٣ مركباً وفي ٢٠ تشرين الأول سنة ١٨٢٧م انتشبت الحرب بين الفريقين وسلطت أساطيل الدول مدافعها على الأسطولين العثماني والمصري فدمرتهما ولم يبقَ منهما إلا خمسة عشر مركباً معوّهة، فأرسل الباب العالي بلاغاً إلى سفراء الدول المتّحدة أقام به الحجة على صنيع هذه الدول المخالف للقوانين الدولية وطلب امتناعها عن التداخل في شؤون رعاياه وتعويض الخسائر الناجمة عن تدمير المراكب فكان جواب السفراء قطع علاقاتهم مع الدولة ونزولهم إلى مراكبهم في ٨ كانون الأول سنة ١٨٢٧، فنشر السلطان خطاً شريفاً بين فيه سوء مقاصد الدول المتّحدة ودعا الأُمّة للجهاد في سبيل وقاية مملكتهم من الجور والعدوان فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العلية في ٢٦ نيسان سنة ١٨٢٨م.

ولمّا رأى ابراهيم باشا تألّب الدول على الدولة العلية وأنّ فرنسا أمرت بارسال جيش لمحاربته وإتمام استقلال اليونان اتّفق بأمر والده محمّد علي باشا مع ممثلي الدول المتّحدة على إخلاء المورة والعود إلى مصر وأخذ يسحب عساكره وكانت كلّما جلّت عن محل دخله الفرنسيون. وفي ١٦ تشرين الثاني من السنة المذكورة عقدت الدول المتّحدة مؤتمراً بلندرا لتقرير مسألة اليونان ودعت الدولة لترسل إليه مندوباً فلم ترسل لئلا يحسب ذلك إقراراً بما يستوّنه، وأجمع رأي الدول المتّحدة على استقلال المورة وباقي بلاد اليونان على هيئة حكومة مستقلّة يليها أمير مسيحي تنتخبه الدول ويكون تحت حمايتها، وتدفع هذه الحكومة للباب العالي كل سنة خمسمائة ألف قرش، فلم تقبل الدولة هذا القرار واشتغلت بمحاربة روسيا التي عالتها بالحرب كما سيجيء.

لَمّا رأى السلطان محمود أنّ العساكر المصرية المنظمة أتت بأعمال باهرة في محاربتها اليونان تمكن رأيه من إدخال النظام الجديد في الجندية، وجمع أعيان المملكة وكبار ضباط الانكشارية في أوائل سنة ١٨٢٦م وخطب بهم سليم محمّد باشا الصدر الأعظم مبيناً ما آلت إليه حال الانكشارية من الانحطاط ولزوم ادخال

النظام العسكري في وجقاتهم، فصوّب الحاضرون رأيه وقام كاتب سر الصدر الأعظم فتلا عليهم نظاماً لذلك مشتملاً على ستة وأربعين بنداً فقرروه ووقع عليه جميع الحاضرين حتى ضباط الانكشارية، وأفتى المفتي بجواز العمل ومعاقبة كل مخالف له. وابتدأ تدريب العساكر به بواسطة معلمين من الافرنج فتنبه الانكشارية إلى أنّ ذلك مضيع لحقوقهم ومحجف بامتيازاتهم. وفي ١٥ حزيران سنة ١٨٢٦م تعرّض بعضهم للجند وقت تعليمهم فأمر السلطان بمعاقبة كل متعرّض بالقتل فاجتمع المتعرّضون واثمروا على العصيان وتألّبوا في ساحة آت ميدان فأخرج السلطان العلم النبوي وسار بنفسه إليهم فأحاطت عساكره بهم وصوّبت عليهم المدافع من كل صوب وأخذت ترميهم بقللها فحكفوا إلى قلاعهم فأضمرت المدافع نارها عليها حتّى دمرتها وأهلكت من لجأ إليها.

وفي اليوم التالي صدر الفرمان الشاهاني بإبطال فيثتهم واصطلاحاتهم وملابسهم وقرضهم وصدرت الأوامر إلى جميع الولايات بإبادتهم فقتل منهم ألف مؤلفة فلم يبق باقية لهذه الفئة الباغية وأخذ السلطان ينظّم الجيوش بهمة لا يعرفها مل.

ولنعد إلى الكلام على الحرب مع روسيا فقد احتلّ جنودها عاصمة البغدان. وفي ١٣ من أيار سنة ١٨٢٨م دخلت بوخارست عاصمة الفلاخ وقبضت على حاكمي الولايات واستولت على عدّة مدن على ضفتي الطونة وحاصرت فارنه، وأتى القيصر نقولا بنفسه لمراقبة الحصار وفتحها أخيراً بخيانة من أحد العثمانيين واحتلّ الروس عدّة قلاع وحصون في آسيا واجتازوا الطونة واخترقوا جبال البلقان حتّى استحوذوا على ادرنه عنوة ولم يبق لهم من مانع عن الدخول إلى الآستانة إلّا معارضة الدول لروسيا في امتلاكها، فدخلت الدول حينئذ في الصلح بين الدولتين المتحاربتين فأوقفت روسيا جيوشها عن التقدّم وعقدت معاهدة ادرنه في ١٤ أيلول سنة ١٨٢٩م.

وخلاصة ما كان في هذه المعاهدة أنّ السلطان محمود قبل التصديق على قرار الدول المتّحدة بمؤتمر لندرا سنة ١٨٢٧م باستقلال اليونان، وأنّ تعيين حدود مملكتهم بمعرفة نواب عن هذه الدول وعن الباب العالي، وأن يكون لإدارتي الفلاخ والبغدان

استقلال إداري بحسب الإمتيازات الماضية وأنّ أميرى الولاياتين يكونان لمدة حياتهما ولا يعزلان إلا لدواعٍ كبيرة تصادق عليهما الروسية والدولة العلية وأن تقى للسرب الامتيازات المبينة في العهدة السابقة، وأن تعين التخوم بين الروسية والدولة العلية في أوروبا وفي آسيا وأن يكون لروسيا حق المرور في بوغازي البوسفور والدردينل دون تفتيش مراكبهم، وأن تدفع الدولة تعويضاً لتجار الروس ستة عشر مليون من الفرنكات. ثمّ أضيف إلى هذه المعاهدة أنّ التعويض لتجار الروس يدفع أنجماً على أربع سنين، وأن تدفع الدولة غرامة حرية للروس خمسة ملايين ليرة إنكليزية مقسطة عشرة أقساط على عشرة سنين ويكون جلاء عساكرهم تدريجاً بحسب دفع الأقساط المذكورة وأعلنت الدولة استقلال اليونان في ٣ أيار سنة ١٨٣٠م.

وكان في أيام السلطان محمود أيضاً احتلال جيش فرنسة جزائر الغرب سنة ١٨٣٠م ولا نطيل الكلام به، وكان في سنة ١٨٣١ خروج محمّد علي باشا والي مصر على سورية. ونرجئ الكلام عليه إلى الفصول التالية. وتوفي السلطان محمود إلى رحمة الله في ١ تموز سنة ١٨٣٩م.

عد ١٠٩٥

بعض ما كان بسورية في هذه المدة

بعد مقتل جرجس باز وأخيه عبد الأحد عاد الأمير بشير إلى دير القمر وفي سنة ١٨٠٨م سار إلى غزير يعود أخاه الأمير حسن الذي كان مريضاً ثمّ توفي وعمره ثلاث وأربعون سنة وله ولدان: الأمير ابراهيم المعنوي والأمير عبد الله، ودفن في القبة التي دفن بها أبوه وهي مدفن آل سيفا ولاية كسروان قبلاً. وسنة ١٨٠٩م أرسل سليمان باشا والي صيدا خلعة الولاية إلى الأمير بشير كالعادة مع كتاب نفيس أثبتته الأمير حيدر شهاب في تاريخه (صفحة ٩١٠) ومما قاله في هذا الكتاب: «قد أنعمنا عليه بالتزام جبل الشوف وكسروان وتوابعهما في مدة حياته ما دام مراعيّاً لتلك الشروط الممضاة ... وبما أنّ القانون المستديم أن تتجدّد الشروط عند دخول شهر مارث كل عام يتشرف المومأ إليه بحلعتنا». وفي هذه السنة بنى الأمير بشير جسر نهر الكلب وكان الأمير حسن قد بناه فهدم.

وفي سنة ١٨١٠م حمل بعض الوهابيين المار ذكرهم على حوران وهدّدوا دمشق فوجس واليهما يوسف باشا المسمى الكنج يوسف واستنجد سليمان باشا والي صيدا وكتب سليمان باشا إلى الأمير بشير يستمّده فجمع الأمير خمسة عشر ألف مقاتل وسار بهم إلى جهة طبريا حيث كان سليمان باشا فاستقبله بمزيد التجلّة والتكريم وبعد ثلاثة أيّام ورد الخبر من يوسف باشا أنّ العرب رجعوا من حوران بعد أن أنزلوا بأهلها شديد الوبال، فأسرّ سليمان باشا إلى الأمير بشير أنّ الباب العالي أرسل إليه فرمان بولاية دمشق واستشاره في ما يعمل قائلاً: «إن ساعدتني سرنا غداً إلى دمشق ما دام يوسف باشا غائباً وإن لم تساعدني رددت فرمان». فأجابه الأمير: «لبيك مولاي فأنا ورجالي لخدمتك نقاتل حتى نقتل أو نبلغك هناك». وكتب حينئذٍ سليمان باشا إلى جميع العمّال يعلمهم بذلك ويدعوهم إليه وكتب الأمير إلى الملك اسماعيل صاحب حمّاه وعلي بك الأسعد صاحب طرابلس وغيرهما من الولاة، وقام سليمان باشا والأمير بعساكرهما نحو دمشق وبلغ الخبر إلى يوسف باشا فعاد من المزاريب إلى دمشق فأرسل سليمان باشا يعلم أهل دمشق بما أنعمت الدولة العلية عليه ويطلب أن يدخل المدينة بحسب الأمر السلطاني فخرج إليه بعض الأعيان ووقفوا على فرمان المؤذن بنصبه، وأشار عليهم الأمير بالاذعان مبيّناً سوء عاقبة العصيان ومهدداً لهم فطلبوا مهلة ثلاثة أيّام وأخبروا يوسف باشا بما رأوا وحضّوه على التسليم فأبى، وبعد انقضاء المهلة تقدّم سليمان باشا والأمير إلى الجديدة وداريا فخرج إليهم يوسف باشا بعساكره وانتشبت نار الحرب بين الفريقين وكان النصر لعساكر سليمان باشا والأمير بشير، فانهزم يوسف باشا وعساكره مدحورين إلى المدينة وقتل منهم كثيرون. وعزم يوسف باشا أن يخرج ليلاً ويأغت عساكر أعدائه فإن ظفر بهم ثبتت قدمه بدمشق وإلا أبعد في البرية إلى حيث شاء الله وعرف الأمير بشير وأهلب رجاله ودرى عسكر يوسف باشا بما نوى وأخذوا ينهبون أمواله فلم يعد يأمن على نفسه وانهزم إلى البرية، وعند الصباح علم سليمان باشا بانهزام يوسف باشا فدخل المدينة يصحبه الأمير بشير ورجاله فالتقاهما الأهلون بالتكريم ونادى بالأمان وفوّض إلى الأمير بشير أن يختار العمال، فأرسل مصطفى آغا بربر إلى طرابلس، والملك اسماعيل إلى حمص وحمّاه، وحسين آغا سرّكجي متسلّم بيروت إلى اللاذقية، والأمير جهجاه الحرفوش إلى

بعلبك، وأنعم سليمان باشا على الأمير قاسم ابن الأمير بشير بولاية بلاد حبييل، وعلى أخيه الأمير خليل بولاية البقاع. وللمعلم نقولا ترك قصيدة طويلة حسنة يذكر فيها الوهابيين وبدعتهم وما كان في هذه الحملة ويهنئ الأمير بشير مادحاً له ومطلعيها: عرا الناس خطب هوله لا يقدر أثارته أوغاد من البدو فجر جموع كأعداد الرمال خوارج شرود لدين الله والكتب أنكروا وقال في بيت التاريخ:

وأولى الهنا للناس أرخت كلها فوالوه حمداً مستديماً وكرروا

سنة ١٢٢٥

وفي هذه السنة كان أول دخول مطعوم الجدري في لبنان، أحضر مادة التطعيم لورلاً قنصل النمسا إلى الأمير بشير فاختر في بعض حاشيته فظهر نفعه فوثق الأمير بذلك واستعمله لنفسه ولأسرته ففشا استعماله في البلاد. وفي سنة ١٨١١م أرسل دروز الجبل الأعلى يستنجدون الأمير بشير على أعدائهم فأرسل إليهم فارس الشدياق بجماعة وأرسل الشيخ بشير جنبلاط رجلاً من الدرور اسمه حسون ورد فحضر معهم إلى لبنان أربعمائة عائلة من الدرور وأنعم الأمير عليهم بمائة ألف قرش وأسكنهم بين الدرور بلبنان. وفي سنة ١٨١٢م شرع الأمير بعمل القناة لجر ماء نبع الصفا إلى بتدين. وفي سنة ١٨١٣م قدم من عكار إلى بتدين بطرس ابن ابراهيم كرامه الحمصي الملكي الكاثوليكي فأقامه الأمير أولاً معلماً لابنه الأمير أمين ثم كاتباً للخارجين عن بلاده ثم تقدّم في دولته كما سيجيء. وفي سنة ١٨١٤م بنى الأمير بأمر سليمان باشا جسراً على نهر الدامور أنفق عليه مائة ألف قرش دفعها له الوزير.

عد ١٠٩٦

عامية أنطلياس

وفي سنة ١٨١٩م توفي سليمان باشا وكان وزيراً حليماً عادلاً استتبت الراحة

١٥٥

في أيامه وكان صديقاً للأمير بشير كما رأيت وبعد وفاته أنعمت الدولة بمنصبه على عبدالله باشا الذي كان نائباً لسليمان باشا في عكا وهو ابن علي باشا الحزندار، وكتب إلى الأمير بشير يشره بإحالة الولاية إلى عهده، فأجابه الأمير مهتماً ومرسلاً التقادم المعتادة، فوجه إليه الوزير خلة الولاية.

وفي سنة ١٨٢٠م كتب إلى الأمير أن يرسل إليه مبلغاً من المال وأرسل أحد حاشيته ليقبضه فأرسل إليه الأمير المعلم بطرس كرامه ليمهله بهذا الطلب ويدفع له منه ما يتيسر. فحنق الوزير وأمر بتوجيه العسكر إلى حدود ولاية الأمير وكتب إلى متسلمي صيدا وبيروت أن يقبضوا على من يجدانه من اللبنانيين في مدينتهما، فقبض متسلم بيروت على مئة وثلاثين لبنانياً ومتسلم صيدا على أربعين منهم. فأعاد الأمير بطرس كرامه إلى عكا يستعطف خاطر الوزير ويعرض له أنه لم يعتذر أولاً إلا شفقة على الرعايا وهو الآن مستعد إلى أداء ما يريده الوزير فراق خاطره وأمر أن يرسل الأمير إليه صك تعهد بألفي كيس أي مليون من القروش لمضي شهرين، فكتبه الأمير وأرسله، فصدر أمره بإطلاق المقبوض عليهم من لبنان وبارسال خلة رضى عن الأمير وعلبة مرصعة بجواهر. فاستدان الأمير من الشيخ بشير جنبلاط مائتين وخمسين ألف قرش وأرسلها فأجابه الوزير مادحاً وآمراً بارسال تمة الألف كيس الأولى ويمهله بالباقي إلى حين جمع الأموال الأميرية، وأرسل الأمير جبة لجمعها فهاج النصارى في المتن وأبوا دفع المطلوب منهم قبل أوانه وكتبوا أهل كسروان أن يحذوا حذوهم فأجابوهم ألى ما طلبوا، واجتمع الفريقان بانطلياس وأقاموا لكل قرية من قراهم وكيلاً وأقسموا على أن لا يدفعوا سوى مال واحد وجزية واحدة على الروس، وكتبوا إلى باقي أعمال البلاد يطلبون وكلاء عن أهلها. وأتاهم الشيخ فضل الخازن وجعلوه شيخاً عليهم واجتمع عندهم حشد كبير من كل عمل إلا الشوف والأقاليم حتى بلغوا نحو ستة آلاف رجل، وكتبوا إلى عبدالله باشا يقولون إن سبب اجتماعهم إنما هو ظلم الأمير بشير لهم فأجابهم الوزير أن لا يدفعوا إلا مالاً واحداً حسب عاداتهم، وكان بعض الأمراء الشهابيين ولاسيما الأمير حسن علي والأمير سلمان سيّد أحمد يمالئونهم على هذا الصنيع، وقيل إن المطران يوسف اسطفان كان له ضلع معهم، وأرسل

الأمير يحذّره وينذرهم ويعدهم بالرأفة والحلم فلم يرعوا، فكتب حينئذٍ إلى الوزير إنني عجزت عن الولاية وتركتم بلادي وعيالي وتوجّهت نحو بلاد الشام أنتظر صفو خاطرهم عليّ. فوجه الوزير حينئذٍ بعض مشايخ الدروز الذين كان الأمير متكدرًا منهم وأصبحهم بسبعمائة مقاتل وأرسل معهم خلعة الولاية إلى الأمير حسن علي والأمير سلمان سيّد أحمد الشهابيين، وأرسل معهم الشيخ محمود الدسوقي ليرد الأميرين إلى الإسلام، فأقام الأمير بشير وكيلًا بداره الأمير منصور أسعد ونهض بأولاده وخدمه وعشرة من أقاربه إلى حمانا، فتقدّم إليه الأمراء اللعيون وأقسموا أنّهم لا يقبلون واليًا غيره، ثمّ نهض من حمانا إلى قب الياس بنحو خمسة آلاف رجل ومها إلى وادي التيم، وأمّا الأميران حسن علي وسلمان سيّد أحمد فتوشّحا بخلعة الولاية ونهضا بالعسكر إلى السمقانية فالتقاهما أصحاب عامية أنطلياس، وتظاهرا بالإسلام وسارا إلى دير القمر.

ثمّ سار الأمير سلمان بالعسكر إلى وادي التيم مصحوبًا بأمر من عبدالله باشا إلى أمراء حاصبيا وراشيا بالألّا يقبلوا الأمير بشيرًا في بلادهم، فنهض الأمير إلى مجدل شمس ببلاد الحولة ثمّ إلى حوران ورجع الأمير سلمان إلى دير القمر وضبط أملاك الأمير بشير وأصحابه، فكتب الأمير بشير إلى عبدالله باشا يستعطفه إليه فأجابه إنّ خاطري لم ينحرف عنك، ولو لم تترك الولاية لما وليت غيرك فطب قلبًا واسرع إلى عكا وإذا تأخّرت حسبنك تعلّقت بخدمة غيرنا، فلما وصل جواب الوزير إليه أجابه أرجو منك أن تدعني أقضي باقي عمري في خدمتك ورضاك وتلطّف الآن أن تأذن لي بالإقامة في بلاد جبيل أترقّب خدمتك، وكنت أود لو ساعدتني الحال أن أتشرف برحابك ولكن لا أتمكن من ترك من معي بين العرب ولا من إحضارهم معي، فأمنه الوزير وأذن له بالإقامة في بلاد جبيل وطلبه ليحضر إلى عكا بنفسه. فحضر الأمير إلى شفا عمرو وكان الأمير حسن والأمير سلمان أرسلًا إلى عكا المشايخ علي العماد وحمود نكد وعلي تلحوق بتقادم الخلعة المعتادة، فأمرهم الوزير أن يتعهّدوا بدفع ألفين ومئتي كيس فاعتذروا، فأمر أن يقوا في عكا إلى أن يتعهّد الأميران بدفع ذلك المبلغ، فقوّض إليهم الأميران بالتعهّد بذلك. وحينئذٍ كتب الأمير بشير إلى الوزير يستأذنه بالحضور إليه من شفا عمرو، فأجابه أنّ

حضوره وقتئذٍ يؤخر دفع ما تعهّد به المشايخ وخيّرهم بمكان إقامته فاختار الإقامة بجزين. وحضر إليها فالتقاه الناس بالرهج والتجّلة وأرسل الأميران يجيبان المال فأظهر الأهلون العصاوة وطرّدوا الجباة من المتن وكسروان وبلاد جبيل وأخذ مشايخ البلاد وأعيانها يتواردون إلى الأمير فطلب الأميران من مشايخ العقل أن يتوسّطوا الصلح بينهم وبين الأمير بشير وتمّ الاتفاق أنّ الأميرين يتنازلان عن الولاية ومن يختاره الجمهور يتولى. وبعدئذٍ قرّر رأي الجمهور على تولية الأمير بشير وكان عبدالله باشا قد استاء من مصالحة الأمير بشير للأميرين مع وعده له بالولاية لكنّه صفا خاطره عليه أخيراً وعهد إليه بالولاية مدّة حياته فتليت الأوامر بمحضر جماهير من البلاد بكل حفاوة وتجّلة وأنشد المعلّم بطرس كرامه حينئذٍ قصيدته المشهورة التي مطلعها:

ساقى المدام فزند الشوق قد قدحا قم واسقنيها سلافاً وأمل لي القدحا
وعاطنيها صبحاً كالصبح لقد رقّ النسيم وراقت والزمان صحا

عد ١٠٩٧

عامية بلاد جبيل المعروفة بعامية لحفد

إنّ الأمير حسن علي والأمير سلمان سيّد أحمد كانا قد حضرا لدى الأمير بشير فطيّب قلبهما لكنّهما ما برحا واجسين منه فرفعا عريضة إلى عبدالله باشا يستعطفانه ويديان خوفهما من الأمير بشير ويستأذنانه بالحضور إلى عكا، وأرسلا عريضتهما مع الأمير ملّا أرسلان من غريفه، ولمّا وصل بها إلى الوزير أمر بشنقه وأرسل عريضتهما إلى الأمير بشير يخبره بشنق الرسول وأنّه سيصنع كذلك بكل من أتاه بغير علم الأمير، ثمّ سار الأمير إلى بلاد جبيل وطلب الأمير سلمان أن يكون بخدمته فأبى الإجابة، فكتب الأمير حسن إلى الأمير سلمان يستغويه بمقاومة الأمير بشير وممالأة الجبيليين الذين كان قد بلغه هياجهم عليه فانقاد لرأيه، ولمّا بلغ الأمير بشير إلى نهر ابراهيم ورد له كتاب من ابنه الأمير قاسم أنّ أهل جبيل أظهروا العصيان وأنكروا دفع المال المرتّب، وبلغه أنّ أهل كسروان طردوا الجباة وكتبوا أهل

بلاد جبيل يشجعونهم، فقام الأمير إلى غرفين فأتاه الخبر بأن أهل تلك الجهة مجتمعون بشامات يريدون قطع الطريق له فغضب وأرسل يتهددهم وينذرهم وكتب إلى الشيخ بشير جنبلاط وغيره من المشايخ أن يلحقوه برجالهم، وبقي سائراً إلى لحفد فاجتمع في حافل أهل بلاد جبيل والبترون وبعض من كسروان وأتى رجال جبة بشري إلى إهمج وجمهر متاوله بلاد جبيل في رام مشمش وراسلوا الأمير بأنهم لا يدفعون إلا مالاً واحداً وجزية واحدة، وصمّموا على العصيان وطلبوا شروطاً لا يقبلها العقل، وكان الأمير حسن والأمير سلمان يجسرانهم على العصاوة وأرسل الأمير يقول للمجتمعين إنه ارتضى بمال واحد وجزية واحدة ويقوم هو من هذه البلاد وهم يجبون المال ويوردونه إليه.

وقبل عود رسل الأمير إليه ظهر على قمة الجبل قبالة عسكر الأمير نحو ألفي رجل حضروا من حافل إلى ميفوق ومعهم جماعة من أهل جبة بشري وظهر أمامهم إلى الجنوب جماعة من المتاوله، فأمر الأمير عسكره أن لا يتعرض لهم، وإذا هم أخذوا يطلقون الرصاص على العسكر وهو لا يسمح بالقتال إلا أن أصيب بعض ممن كانوا حوله فثار بعض العسكر واقتحموا أولئك الرجال وتبعهم الفرسان وأطبقوا عليهم وأعملوا فيهم السلاح وقتلوا منهم نحو ثمانين نفرًا وهزمهم، وكان بعضهم إذا ضاق بهم مجال الانهزام ألقوا نفوسهم من شاق إلى أسفل فيموتون وأخذوا كثيرين من الأسرى والجرحى، فعفا عنهم الأمير وأطلقهم وقتل من عسكر الأمير تسعة رجال ولما رأى المتاوله انهزام الثائرين أظهروا أنهم إنما حضروا طلباً لصفو خاطر الأمير، وقام الأمير في اليوم التالي راجعاً إلى عمشيت فطمع القوم به وتعرضوا له في غرفين فجمع رجاله في مكان واحد وأرسل عشرين فارساً يناوشونهم القتال وينكسرون أمامهم ليحتاطهم العسكر وفعل الفوارس ذلك مرات فلم يجسروا أن يلحقوهم، فسار الأمير إلى عمشيت ثم إلى جبيل فورد له أمر من عبدالله باشا فحواه أنه متأكد خلوصه وطاعته ولذلك أمر برد عهدة جبيل إلى ولده وكان أقام بها متسلمين فأمرهما بالخروج وتسليمها إلى الأمير.

وكان الأمير قد دعا الشيخ بشير جنبلاط والشيخ علي العماد وغيرهما أن يلحقوه بالرجال كما مرّ فنهضوا ومعهم نحو ألفي رجل لنجدته، فجمع الأمير حسن

علي بعض الرجال ليمنعوا مرورهم من نهر الكلب، وكتب الأمير سلمان سيّد أحمد إلى أهالي المتن والقاطع وكسروان أن يوافوه تلك الليلة إلى نهر الكلب، فشعر المشايخ بذلك فشتوا الأمراء وجمعهم في ساحل بيروت وسبقوهم إلى نهر الكلب فعارضهم شرذمة من الكسروانيين في نهر الكلب فهزموهم وبلغوا إلى جبيل عند الأمير وأما الأميران حسن وسلمان فعرجا إلى كسروان فلم يقبل الأهليون والمشايخ الخوازة أن يلتوا دعوتهم إلى مقاومة الأمير فسارا إلى العاقورة ثم إلى تنورين ثم إلى حدث الجبة، وإذ لم يجدا من يقوم معهما بوجه الأمير يئسا وسارا إلى بعلبك ثم إلى الزبداني. وعرض الأمير ما كان لعبدالله باشا فأجابه مثنياً عليه ومشدداً عزيمته وكتب مرسوماً إلى الرعايا يوبّخهم على عصيانهم ويهدّدهم. ومما قاله في مرسومه هذا عجبنا من دعواكم أنّ المال مضاعف، فالخراج يكون بجانب أثمان الريع ورطل الحرير كان يباع بعشرين درهماً فما دون وقد مضى على ذلك أعصار وتصاعدت الأثمان فكيف تخطر في عقولكم السخيفة هذه الدعوى الباطلة.

وأخذ الأهليون يتقاطرون إلى الأمير سائلين عفوه فنهض من جبيل إلى نهر أبي علي وحلّ عند ينبوع ماء في راسكيفا المسمى الفسقين فحضر إليه مشايخ جبة بشري يستميحون العفو فعفا عنهم وأمنهم ونهض من هناك إلى إهدن ثم سار إلى بشري فأجرى العقاب على بعض المذنبين، وجبى الأموال الأميرية وغرم أهل الجبة بمائتين وخمسين ألف غرش نفقة العسكر، ثم سار إلى جبيل وحصّن القلعة بحسب أمر عبدالله باشا وبقي هناك بأمره للمحافظة على جبيل من مراكب الأروام وغرم أهل كسروان مائتي ألف قرش وأهل القاطع بمئة ألف قرش، وأورد لعبدالله باشا ما كان قد تعهّد له به من الأموال ودفع للشيخ بشير جنبلاط ما كان قد اقترضه منه وكان ذلك سنة ١٨٢١م.

عد ١٠٩٨

حرب درويش باشا وعبدالله باشا واللبنانيين

بينما كان عبدالله باشا والياً على صيدا أرسل الباب العالي درويش باشا والياً على دمشق وحضر حينئذ حسن آغا العبد متسلّم البقاع إلى قرية عميق فطرده

أهلها ونهب مواشيهم ومواشي أهل الجبل وزحلة الموجودة عندهم، وبلغ ذلك إلى الأمير بشير فأمر أهل الجبل أن يرحلوا إلى الجبل وزحلة وأمر درويش باشا بالقبض على اللبنانيين الموجودين بدمشق وأرسل والياً إلى البقاع وأصبحه بمائتي فارس، فكتب الأمير إلى عبدالله باشا فأمره أن يرسل عسكرياً يطرد والي البقاع، فأرسل ابنه الأمير خليلاً ففرّ الوالي إلى دمشق ونهب عسكر الأمير خليل القرى الشرقية من البقاع وساق رجالاً منها سجنهم الأمير بشير ببتدين، فكتب أحد حاشية درويش باشا إلى الأمير يظهر رغبته في الاتفاق معه، فاستشار الأمير عبدالله باشا بذلك فأجابه لا بأس فيه، فأطلق الأمير من كانوا في سجنه من إيالة دمشق وأطلق واليها اللبنانيين الذين كانوا بسجنه، ولدى الخابرة بشروط هذا الاتفاق أبى عبدالله باشا أن يسلم بها لما بين الوزيرين من الأحقاد بل أمر الأمير بشير أن يرسل الأمير أفندي شهاب بعسكر ليطرد الأمير منصور والي راشيا، وأمر خمسمائة فارس من عسكره أن تسير لنجدة الأمير أفندي، ووجه الأمير ابنه الأمير خليلاً مع الأمير أفندي وأصبحهما بألف رجل من الشوف، وبلغ ذلك إلى والي دمشق فأرسل الأمير منصوراً إلى راشيا بأربعمائة فارس ثم سار خمسمائة مقاتل لنجدة، وولى الأمير فارس سيّد أحمد على حاصبيا وأرسل بصحبته أخاه الأمير سلمان المذكور (وكان درويش باشا أمّنه هو والأمير حسن علي وأقامهما عنده في دمشق) وانتشبت الحرب بين من أرسلهم عبدالله باشا ومن أرسلهم درويش باشا فكان النصر أولاً لعسكر دمشق ولكن عكف عسكر عبدالله باشا عليهم بوثة هائلة فكسّروهم فقتل من عسكر دمشق اثنا عشر رجلاً ومن جماعة عبدالله باشا ستة رجال.

ولمّا تحقّق الباب العالي أنّ عبد الله باشا هو المعتدي وعد درويش باشا بولاية صيدا فجهز حملة أخرى على راشيا وكتب الأمير خليل إلى والده الأمير بشير أنّ الأمير سلمان سيّد أحمد مع عسكر والي دمشق فنهض الأمير بشير ومعه حشد من الأمراء الشهابيين واللمعيين والمشائخ وحلّ في القرى المجاورة راشيا، فكتب إليه عبدالله باشا أنّ المهمة يسيرة ما كانت تقضي حضوره بنفسه وإنّه مع ذلك أمر عسكره المقيم عند جسر بنات يعقوب أن يبادر إليه، ولمّا بلغ درويش باشا حضور الأمير بشير إلى جهة راشيا أرسل إليها السرعسكر بأربعمائة فارس ودارت رحى

الحرب بين الفريقين فكان النصر للأمير بشير ومن معه من العسكر. وأرسل سرعسكر دمشق يطلب منه الأمان فأجابته إليه بشرط أن يسلمه الأمير حسن والأمير سلمان سيّد أحمد عدوّه ففرّ الأميران ليلاً إلى دمشق وتبعهما السرعسكر بجماعته، فالتقاهم درويش باشا شاتماً لهم وتافلاً بوجوههم، وعظم الأمر عليه وكتب الأمير بشير إلى عبدالله باشا يقص عليه ما كان فأجابته مثنياً عليه وأرسل له سيفاً مرصعاً بالجواهر وخلعةً فاخرةً وعاد بعد ذلك إلى بتدين.

ثم أرسل درويش باشا رجلين من حاشيته إلى الأمير بشير يشيران إليه أن لا يساعد عبدالله باشا ومهما يطلبه منه ينله، وأنّ وكيله بالآستانة أخبره بتوجيه ولاية صيدا إلى عهده عوضاً عن عبدالله باشا، فأرسل الأمير يخبر عبدالله باشا فأجابته أن يجمع عسكراً من بلاده ويتوجّه لمحاربة درويش باشا، فنهض الأمير إلى عكا قاصداً أن يقع عبدالله بالعدول عن حرب درويش باشا خشية أن يسخط عليه السلطان فأبى الإصغاء لنصيحته وأكرم الأمير وأرسله إلى حيث عسكره عند جسر بنات يعقوب، وكان الأمير قد أرسل ابنه خليلاً بعسكر إلى تلك الجهة فكتب إليه أن يلتقيه وسار الأمير بعسكر لبنان وعسكر عبدالله باشا حتى انتهى إلى المزة، فجمع درويش باشا عسكره وأضاف إليه الأمير حسن علي والأمير سلمان أحمد وأخاه الأمير فارساً وبعض المشائخ اليزبكية الذين انحازوا إلى درويش باشا واضطربت نار الحرب في المزة فكانت وقعة هائلة تذكر في هذه البلاد إلى الآن، وكانت الدائرة على عسكر دمشق وقتل منهم نحو مائتين وعشرين رجلاً وأسروا نحو خمسمائة رجل منهم الشيخ حسين تلحوق، وغرق منهم كثير في نهر بردى، ومن بقي منهم محاصراً في المزة قتل بعضهم واستسلم بعضهم إلى الأمير بشير، وفرّ الأمراء حسن علي وسلمان سيّد أحمد وأخوه فارس إلى صيدنايا ثم إلى قارة والنبك، وخاف درويش باشا من قدوم عسكر عبدالله باشا والأمير بشير وهياج الدمشقيين عليه فأقفل أبواب المدينة وتحصّن بالقلعة وأرسل الأمير بشير بعض الرؤوس المقطوعة وبعض الأسرى إلى عبدالله باشا وأطلق من أسر من اللبنانيين فكتب إليه عبدالله باشا يثني عليه أطيب الثناء.

وكان الباب العالي في هذه الأثناء عزل عبدالله باشا عن إيالة صيدا بناءً على تعديّه، ونصب مكانه درويش باشا وأمر مصطفى باشا والي حلب أن يحضر إلى دمشق لمعاونته وتنفيذ الأمر العالي، وأخذ بالسير فالتقاء الأمراء حسن علي وسلمان سيّد أحمد وأخوه فارس إلى حمص، ولمّا بلغ إلى دمشق كتب إلى الأمير بشير يخبره أنّه أتى دمشق لمساعدة درويش باشا وأرسل له صورة فرمان المؤذنة بتوليته إيالة صيدا، وأمره أن يطلق عساكره ويعود إلى بلاده مطيعاً للأوامر العالية، فأذعن الأمير وعاد إلى بتدين. وكتب درويش باشا كتاباً إلى اللبنانيين فحواه أنّ الدولة العلية عزلت عبدالله باشا وأمرت بنفيه وأنعمت علي بمنصب دمشق. وقال قد استدعينا الأمير بشير لخدمتنا فأبى ولذلك عزلناه عن ولايته، وتوسّط الشيخ بشير جنبلاط في إدخال الأمير في خاطر درويش باشا وبقائه في الولاية فطلب الباشا أن يحضر الأمير إليه طائعاً ويرهن له أحد أولاده، فأبى الأمير واتفق مع الشيخ بشير على تولية الأمير عباس أسعد وتحالفا على الأمانة وعدم الخيانة. وسعى الشيخ بشير بذلك لدى درويش باشا وتعهد له بدفع ألف قرش ورهن له عليها ابنه الشيخ نعمان، وقام الأمير بشير من بتدين إلى بيروت وولى درويش باشا على لبنان الأمير عباس أسعد، وكتب إلى الأمير بشير يشير عليه أن يقوم من البلاد وإلا فيقبض عليه درويش باشا، فسافر الأمير إلى مصر ومعه ابنه الأميران خليل وأمين وبعض حاشيته وسارت عساكر درويش باشا ومصطفى باشا إلى عكا فحاصرت عبدالله باشا فيها، وكان ذلك سنة ١٨٢٢ ومن شاء مزيد بيان في هذه الأحداث فليطالع تاريخ الأمير حيدر شهاب واخبار الأعيان للشيخ طنوس الشدياق فهما شاهدا عيان لها.

عد ١٠٩٩

ما كان للأمير بشير بمصر وعود عبدالله باشا إلى الولاية

إنّ الأمير بشير لقي من جانب محمّد علي باشا عزيز مصر ومن قبل عماله وأعوانه كل تجلّة وتكريم، وقد حظي بمقابلة العزيز مرات فبذل له صنوف التوقير

والإجلال وقد رأى ما تنهى به الأمير من الشهامة والشجاعة والأمانة فأسرّ إليه بما ينويه من الخروج إلى سورية وما ييسر للأمير أن يؤديه له من الخدم والمساعدة على غرضه، فعرض له الأمير ما كان لعبدالله باشا مطرئاً عليه وسأله أن يساعده لدى الدولة العلية لينال عفوها وعوده إلى خدمتها في إيلاته، فأجاب سؤاله وأرسل موفداً إلى الآستانة بهذا الشأن.

وكان حينئذ أن الدولة العلية نصبت مصطفى باشا المار ذكره والياً على إيالة صيدا مع بقاء درويش باشا والياً على إيالة دمشق، فكتب مصطفى باشا إلى الأمير بشير يدعوه إلى العود إلى بلاده فاستشار عزيز مصر بالجواب، فأمره أن يجيبه أنه مقيم بمصر مشمولاً بالتفات عزيزها فحنق مصطفى باشا من هذا الجواب وأمر الأمير عباس أسعد أن ينبه على أهل بلاده ألا يكتب أحدهم الأمير بشير. وتوفي وقتئذ الأمير بشير علي شهاب واجتمع أعيان البلاد في مأتمه فتلا الأمير عباس عليهم أمر الوزير وحذرهم من المخالفة وأمر محمد علي باشا الأمير بشير أن يرسل أحد خدمه إلى عكا يخبر عبدالله باشا أنه أرسل إلى الدولة طالباً إرجاعه إلى ولايته ويشدده على الثبوت بالحصار، فأرسل الأمير أحد خواصه ييشر عبدالله باشا بذلك وكتب إلى بعض أعيان البلاد يخبرهم به فاستبشروا وفرح محازبو الأمير.

وبعد أيام حضر فرمان بالعفو عن عبدالله باشا وأن يخرج من عكا بماله ورجاله ويذهب إلى مصر آمناً فلم يرصّ محمد علي باشا هذا الجواب، وأنفذ رسولاً إلى الصدر الأعظم يلحّ ببقاء عبدالله باشا بعكا، فورد له الجواب أن يبقى فيها ولكن دون ولاية فراجع العزيز الأمير بشيراً إليه وأعلمه بالخبر فاستأذن الأمير عزيز مصر بالعود إلى بلاده وكتب محمد علي باشا إلى مصطفى باشا أن يرفع الحصار عن عكا إلى أن يصل إليه فرمان العفو عن عبدالله باشا، وأنعم على الأمير وابنيه بحلل فاخرة وخيل جياد وأكرمه بمائة وخمسين ألف قرش. فسار الأمير ومعه سلاح دار من قبل العزيز وكتب إلى أعيان البلاد ييشرهم بقدمه ظافراً. ولما أقبل بالسفينة على عكا أمر عبدالله باشا بإطلاق المدافع ترحيباً له والتقاءه بأكابر دولته وأعيان المدينة بعظيم الإحتفاء. وفي الغد خرج السلاح دار إلى معسكر مصطفى

باشا وبلغه أمر الدولة برفع الحصار عن عكا، فأذعن للأمر وانصرف عن عكا وكتب عبدالله باشا والأمير إلى اللبنانيين يبشرانهم بما كان من الفوز، وأرسل الأمير ابنه إلى بتدين وكتب إلى الأمير عباس أن يبقى مباشراً الولاية، وأقام في عكا أربعين يوماً، ثم سار إلى صيدا فالتقاه أصحاب المناصب والأعيان مهئين وصحبوه بموكب عظيم إلى بتدين.

عد ١١٠٠

ما كان بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط
ويعرف بحركة المختارة

يظهر أنَّ الشيخ بشير جنبلاط كان قد اتَّفَق مع الأمير عباس شهاب والي لبنان على أمور تخالف رضى الأمير بشير في مدَّة غيابه بمصر، ولذلك كان الشيخ بشير واجساً بعد عود الأمير إلى الولاية، وقام إلى جباع الشوف وأرسل يستعطف خاطر الأمير ليكون عزيزاً لديه كما كان قبلاً، فأجابه طالباً منه ألف ألف قرش لأنَّ الدولة كانت تطلب من عبدالله باشا نفقة الجنود التي أرسلتها إلى سورية خمسة وعشرين ألف كيس، وأخصَّ الأمير بشير بمبلغ منها فدفع الشيخ بشير قسماً من المطلوب واعتذر عن دفع الباقي واستمرَّ واجساً، وطلب من والي دمشق أن يأذن له بالإقامة بوادي التيم تحت كنفه فأذنه، ونهض إليه من الأمراء اللمعيين الأمير سلمان وأخوه الأمير موسى ونصر وبعض الشوفيين والمتنبيين وانضمَّ إليه أيضاً الأمير عباس المذكور وأخوه الأمير حسن ومدبره الشيخ مرعي الدحداح وغيرهم من الأمراء الشهابيين. وكتب الأمير إلى والي دمشق أنَّ له على الأمير عباس مائتي ألف قرش من المال الأميري في أيتام ولايته، ولمَّا طوَلب بها قال إنَّها مطلوبة من الشيخ بشير. وفي سنة ١٨٢٣ سار الأمير عباس إلى عكا ملتجئاً من عبدالله باشا صفو خاطره عليه وعلى النازحين جميعاً ورفع الطلب عنه للمائتي ألف قرش، فكتب الباشا إلى الأمير يعلمه بذلك وأرسل إلى الشيخ بشير يطلب منه هذا المبلغ فأرسل له صكاً متعهداً بدفعه بعد عوده إلى بيته، وصكاً آخر بمبلغ أربعمئة وخمسين ألف قرش يجيئها من المقتدرين

فقبل الوزير الصك الأول ورفض الثاني، وأمر الأمير بشير من نرحوا إلى وادي التيم أن يعودوا إلى أوطانهم فعادوا. وحاول الشيخ بشير استرضاء الأمير فاستأذنه بالحضور إلى بتدين فأذنه، وخوفه أصبح معه نحو ألفي رجل تركهم على مقربة من بتدين ودخل على الأمير بجماعة قليلة رجلاً ذليلاً، فطيب الأمير قلبه لكنته لم يزل واجساً والأمير ما برح مؤاخذاً له بكترة الرجال الذين حضروا معه إلى قرب بتدين وعاد إلى إيالة دمشق، فورد أمر من عزيز مصر إلى والي دمشق أن يطرد الشيخ بشير من إيالته فخاف وتوجه إلى حوران ومعه الأمراء الأرسلازيون ومائتا رجل، فضبط الأمير بشير أملاكه كلها وطالبه والي دمشق بالمال الذي وعده به فاعتذر عن دفعه فتكدر منه وانضم في هذه المدة إلى الشيخ بشير الشيخ أسعد النكدي بجماعته والشيخ علي العماد وجماعته وكتبوا الأمراء سلمان سيد أحمد وأخاه فارساً وحسن أسعد الشهابيين ليقوموا معهم على الأمير بشير، فأجابوهم إلى ما طلبوا وحسنوا للأمير عباس أسعد الولاية فانضوى إليهم وتبعهم غيرهم من الأمراء الشهابيين وبعض اللمعيين. واجتمع هؤلاء جميعاً في المختارة سنة ١٨٢٥م وكتبوا الشيخ بشير ليسرع بالحضور إلى لبنان وكان حينئذ في جهات عكار فحضر إلى المية بجوار طرابلس ثم إلى البترون ثم إلى زوق ميكايل واستنهض المشايخ الخوازنة فلم يصحبه منهم إلا القليل، ثم سار إلى برمانا وحمانا ليحزب وجوه المتن معه أما الأمير بشير فأرسل ينصح المجتمعين بالمختارة فلم يقبلوا نصيحته. وكتب إلى عبدالله باشا فشجعه على مقاومتهم وأرسل إليه عسكرياً ولما علم المجتمعون ذلك أرسلوا فريقاً منهم يقطع الطريق على عسكري عبدالله باشا ونهضوا إلى السمقانية قاصدين حرب الأمير قبل وصول عسكري الوزير. وفي ٥ كانون الثاني سنة ١٨٢٥م أطلقوا على بتدين وأشهبوا الحرب وجعلوا يطلقون الرصاص فأرسل الأمير ابنه الأمير خليلاً ليمنعهم من الحرب فلم يثنوا فهبت إليهم حينئذ رجال الأمير وأصيب الشيخ علي العماد برصاص فرجع فانكسر أصحابه إلى السمقانية وتبعهم عسكري الأمير إلى هناك واشتد القتال إلى المغرب فقتل من عسكري الأمير رجلاً ومن عسكري الأمراء تسعة رجال ورجع عسكري الأمير إلى بتدين وذهب الآخرون إلى المختارة.

أما الشيخ بشير فوصل تلك الليلة إلى كفرنبرج وسار صباحاً إلى المختارة وطلب

الصلح من الأمير فلم يتفق عليه بينهما، وقام عبدالله باشا بعسكره إلى صيدا لنجدة الأمير وأرسل مؤناً ومدافع إلى الأمير لحصار المختارة، وكتب إليه مصطفى باشا والي دمشق أنّ عسكره مستعد لاسعافه، وحضر إليه الأمير حيدر اسماعيل والأمير شديد مراد اللمعيان بألفي رجل، وكتب إليه ابنه الأمير أمين الذي كان قد وجهه إلى مصر أنّ العزيز مستعد أن يرسل عسكراً مع ابنه طوسن باشا لتأييده، ثم نهض الأمير إلى السمقانية بالعساكر وأرسل شزيمة إلى مطل المختارة فالتقاهم عسكر الأمراء والشيخ بشير واصطلت نار الحرب واستمرت متسعة إلى المغيب، فقتل من عسكر الأمير سبعة رجال ومن عسكر الأمراء خمسة عشر رجلاً وأسر منهم جماعة، فأمر الأمير بشير باطلاقهم، ثم التقوا في اليوم التالي في ظهر الجديدة فقتل من عسكر الأمراء أربعون رجلاً ومن عسكر الأمير عشرة رجال، وفي تلك الليلة انفض رجال الشوف الذين مع الأمراء إلى أماكنهم وأرسل الأمير بشير ينصح من بقوا في المختارة أنّ من سلم منهم فله الأمان ما عدا الأمراء الشهابيين والشيخ بشيراً فانفض عنهم الأمراء اللمعيون برجالهم إلى المتن وبعض الأمراء الأرسلانيين إلى الشويفات. ولما رأى الأمراء الشهابيون والمشايخ ذلك فتروا ليلاً من المختارة إلى جزين قاصدين حوران.

أرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليلاً يتعقبهم بمؤازرة العساكر في ولايتي صيدا ودمشق وفارق بعض الأمراء الشيخ بشيراً واختبأوا إذ كان هو ومن بقي معه بحوران وفد إليهم عسكر دمشق وأخذ قائدهم يخادعهم ليسلموا إليه ضامناً لهم رضى وزير دمشق، فاطمأنوا ورجعوا إلى دمشق فقطع واليها رأس علي العماد وسجن الباقين في القلعة، وكتب إلى عبدالله باشا فطلب أن يرسلهم إليه فأرسلهم فحبسهم عبدالله باشا أولاً ثم أمر بشنق الشيخ بشير والشيخ أمين العماد وإبقاء جثتيهما مطروحتين أمام باب عكا ثلاثة أيام. وأمّا الأمراء سلمان سيّد أحمد وأخوه الأمير فارس والأمير عباس أسعد فقبض عليهم وأمر الأمير بسمل أعينهم وقطع رؤوس ألسنتهم ورجوعهم إلى منازلهم. وكتب عبدالله باشا إلى الأمير بشير أن يهدم الجامع الذي بناه الشيخ بشير في المختارة فهدمه.

حضور مراكب الأروام إلى بيروت وحصار قلعة سانور

في سنة ١٨٢٦ لما كانت حرب الاستقلال في المورة حضر ليلاً ثلاثة عشر مركباً من الأروام إلى بيروت ورسّت تجاه المحل المسمى برج أبي هدير (المسمى برج أبي حيدر الآن) وخرج منها عسكر إلى البر ونصبوا سلاط على سور المدينة ودخلوها وقدمت مراكبهم إلى المينا فهجم عليهم المسلمون فأخرجوهم من المدينة واستؤنف القتال في خارج الأسوار فقتل من الأروام سبعة رجال ومن المسلمين خمسة، فكتب متسلم بيروت إلى عبدالله باشا يخبره بما كان ولما علم بذلك الأمير بشير أرسل ابنه الأمير حليلاً ببعض الرجال إلى حرش بيروت ثم قام بنفسه إلى هناك وكتب إلى عماله بلبان أن يلتقوه بالرحال، وقدم مدير عبدالله باشا إلى بيروت فلما رأى الأروام كثرة العساكر أفلعوا إلى بلادهم، فشكا بعض المسلمين النصاري بأنّ قدوم مراكب الأروام كان بوسيلة من بعضهم، وقبض مدير الوزير على بعض النصاري فهربوا إلى الجبل فكتب الأمير بشير إلى الوزير يلتبس إطلاق المقبوض عليهم وردّ ما أحد منهم فأمر مدبره بإطلاقهم، فأطلقهم وأمن الفارين منهم وبدل رجال الشحنة من المسلمين وأقام مكانهم حامية من الأرناؤوط.

وفي سنة ١٨٢٩م انتقض النابلسيون على عبدالله باشا فأرسل عسكراً لكتبهم فتحصّنوا بقلعة سانور فكتب إلى الأمير بشير أن يجمع ألفي رجل من بلاده ويسير لفتح القلعة، فجمعهم وعهد بتدبير شؤون لبنان إلى ابنه الأمير أمين. وفي افتتاح سنة ١٨٣٠م سار إلى عكا فرحّب به الوزير وأكرمه وابنه الأمير خليل وبعض حاشيته بخلع وهدايا فاخرة ثم نهض الأمير بالعسكر إلى الناصرة ثم إلى قرية جين ثم أقبل على قلعة سانور حيث كان عسكر الوزير فاستقبلوه بالابتهاج وأخذ يدير العساكر في حصار هذه القلعة الحصينة، وفي ذات ليلة خرج النابلسيون من القلعة ودهموا الأرناؤوط من عساكر الوزير واستظهروا عليهم وحاولوا أخذ المدافع منهم فأرسل الأمير جماعة من عسكره فهزموا النابلسيين إلى القلعة ودنوا من جدارها، وكانت النساء من القلعة تغمس اللحف بالزيت وتشعلها وترميها لينظر النابلسيون عسكر الأمير ويطلقوا الرصاص عليهم فدام القتال إلى

الصباح ثم استؤنف في ثلاثة أيام. وجمهر النابلسيون الخارجون عن الحصار ومعهم ثلاث مئة فارس من العرب وأخذوا يمنعون العساكر عن استقاء الماء فوثب عليهم جماعة من عسكر الأمير فهزموهم إلى قرية عجة واعتصموا بها، فحاصروهم رجال الأمير فيها ثم ظهروا عليهم وهزموهم وأعملوا في أقفيتهم السلاح وأحرقوا القرية وقبضوا على من استمروا محاصرين فيها، فقتلوا منهم تسعين رجلاً وأسروا أربعة عشر فأرسل الأمير أولئك الأسرى ورؤوس القتلى إلى عبدالله باشا، فكتب إليه يشني على شجاعته وهمته. ثم أخذ عسكر الأمير والوزير يذهب ويحرق قرى بلاد نابلس حتى وقعت رهبة الأمير في قلوب جميعهم، وبدأوا يستسلمون إليه فئة فئة. وكان عبدالله باشا قد قبض على بعض مشائخ نابلس وأبقاهم في عكا فاستدعاهم حينئذ وأخذ يهددهم بالأمير بشير ووصلته فجعلوا يعتذرون إليه بأن ما فعله أصحابهم بنابلس لم يكن بعلمهم وتعهّدوا له بدفع مبلغ وافر من المال ورهنوا أولادهم عنده فطيّب قلبهم وخلع عليهم وصرفهم في بلادهم وأرسلهم إلى الأمير بشير فتعاطوا معه أمر تسليم القلعة، ولما تمّ ذلك وانتشرت أعلام الأمان طفق بنو الجرار وأصحابهم يخرجون من القلعة بعيالهم وأموالهم وأمر الأمير ابنه الأمير خليلاً أن يحافظ عليهم في طريقهم إلى موطنهم وكانت مدة الحصار ثلاثة أشهر. وأمر عبدالله باشا بدك القلعة حتى أسسها وتعطّل آبارها ومغاورها، وغشّى مدافعه بجوخ أحمر إشارة إلى أنّها فتحت هذه القلعة الشهيرة، ورجع الأمير بعسكره وعسكر الوزير إلى عكا ولم يسمح الوزير للأمير بالدخول إليها ضناً بحياته لأنّ الطاعون كان فاشياً فيها، فسار إلى بلاده والتقاء الأمراء والأعيان إلى صيدا ثم سار بالأبهة والمجد إلى بتدين وسمح برجوع من كانوا قد نزحوا من الدروز وغيرهم إلى أوطانهم وطيّب قلوب من كانوا واجسين منه وصفت له الأيام وطاب العيش.

عد ١١٠٢

خروج محمّد علي باشا على سورية

إنّ محمّد علي باشا كان ينوي الانتقاض على الدولة والخروج على سورية ولذلك بذل للأمير بشير صنوف التكريم لدى شخوصه إلى مصر وألح على الباب

العالي بالعفر عن عبدالله باشا وارجاعه إلى ولاية صيدا كما مرّ، وانتهاز فرصة اتحاد فرنسة وروسيا وانكلترا على استقلال اليونان خلافاً لمصلحة الدولة وتوسّل لخروجه بطلبه من عبدالله باشا المهاجرين من مصر إلى سورية بسبب السخرة فلم يجبه عبدالله باشا إلى ذلك، فأرسل سنة ١٨٣١م عساكره برّاً وبحراً إلى سورية وأمر عليها ابنه ابراهيم باشا الذي كان قد رأى كفايته ومهارته في حروبه للوهابيين واليونان في مورة، فسار ابراهيم باشا وسليمان بك الفرنسي بمنزلة قائمقام له في الأسطول المصري إلى حيفا وكان الجيش البري قد سبقه من طريق العريش وفتح غزّة ويافا وبيت المقدس ونابلس وجعل حيفا مركزاً لأركان حربه ومستودعاً للذخائر والعدد الحربية، ثم سار في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٨٣١م إلى عكا فحاصرها برّاً وبحراً وكتب ابراهيم باشا إلى الأمير بشير فالتقاءه إلى عكا فقبله مرحباً وأنزله في حيمة نصبت له في قرب خيمة الوزير، وكتب عزيز مصر إلى ابنه ابراهيم باشا أن يفوض إلى الأمير تدبير شؤون صيدا وأن يعتمد رأيه في تنصيب أصحاب الاقطاعات.

ولما بلغ الباب العالي ما كان اعتده عصياناً وانتقاضاً من محمّد علي وأوعز إلى عثمان باشا والي حلب أن يقوم بالعساكر لمناوأة ابراهيم باشا، فجمع نحو عشرين ألف جندي وسار قاصداً عكا فترك ابراهيم باشا فريقاً من جيشه يواصل حصار عكا وهبّ بمعظم جيشه للملاقاة عثمان باشا، وأوعز إلى الأمير خليل ابن الأمير بشير أن يتوجّه بألف رجل من اللبنانيين إلى طرابلس للمحافظة عليها من عسكر عثمان باشا ووجه الأمير قاسماً بألفي لبناني إلى زحلة للمحافظة على ذخائر العسكر المصري وعيّن لكل رجل من اللبنانيين خمسين قرشاً في الشهر. وأرسل عثمان باشا مدبّره من اللاذقية فجمع عسكراً في طريقه وأقبل على طرابلس فخرج إليه الأمير خليل وبدّد شمل جماعته، وكتب عثمان باشا إلى الطرابلسيين يعدمهم بقدمه فوق الكتاب بيد مصطفى آغا بربر حاكمها حينئذ فقتل الرسل وقبض على القاضي والمفتي وبعض الأعيان وأودعهم السجن بالقلعة، ثم أتى عثمان باشا بنحو أربعة آلاف مقاتل إلى المنية وتقدّم إلى طرابلس فالتقاءه الأمير خليل ومصطفى آغا بربر فهزموه وجنوده إلى محلّة البداوي في ظاهر

طرابلس، ثم وفد إليهم ابراهيم باشا ففرّ عثمان باشا ليلاً إلى جهة حماه ونهض ابراهيم باشا في أثره إلى حمص فكانت هناك وقعة هائلة انتصر بها ابراهيم باشا وبدد شمل عسكر عثمان باشا.

وعاد ابراهيم باشا إلى عكا فشدد عليها الحصار ودخلها عنوة في ٢٧ أيار سنة ١٨٣٢م وأخذ عبدالله باشا أسيراً وأرسله إلى مصر وأمنه على دمه وعرضه وماله، ثم سار ابراهيم باشا إلى دمشق ولاقاه الأمير بشير ومعه بعض الأمراء إلى داريا فجمع علي باشا والي دمشق عسكراً وخرج لقتال ابراهيم باشا فأرسل إليه فريقاً من عسكره فانهزم والي دمشق إلى حمص ودخلت العساكر المصرية المدينة ونادى ابراهيم باشا بالأمان، فجهزت الدولة العلية في هذه الأثناء جيشاً منظماً لا يقل عن ستين ألفاً وأمرت عليه حسين باشا فسار إلى سورية وبلغ إلى نواحي حمص فهض ابراهيم باشا ومعه الأمير بشير من دمشق فالتقى الجيشان عند بحيرة حمص وتسعرت نار الوغى فكان النصر لابراهيم باشا، وقتل من الجيش العثماني نحو ثلاثة آلاف رجل وأسر ألف وبات ابراهيم باشا الليلة بـحمص وترك الأمير بشيراً فيها وجدّ هو في لحاق العساكر العثمانية إلى حلب، فدخلها في ١٧ تموز سنة ١٨٣٢ بعد موقعة هائلة وانهزم حسين باشا وتحصّن في أمتع مضائق جبل طوروس المسّى بكيليك بوغازاي بوغاز كيليكيا المشهور بتاريخ اسكندر الكبير وتاريخ الصليبيين فلاحقه ابراهيم باشا إلى هناك بجيشه واشتد القتال بين الجيشين فشنت ابراهيم باشا الجيش العثماني في ٢٩ تموز من السنة المذكورة.

جهز الباب العالي جيشاً آخر أقر عليه رشيد باشا وأرسله إلى الأناضول إذ كان ابراهيم باشا استحوذ على كل ما كان من البلاد إلى مدينة قونية في وسط الأناضول فالتقى الجيشان على مقربة من هذه المدينة وتأججت نار الحرب بينهما وكانت الدائرة على الجيش العثماني إذ ظهر عليه الجيش المصري حتّى أخذ ابراهيم باشا رشيد باشا أسيراً في ١٢ كانون الأوّل سنة ١٨٣٢م، وسارت العساكر المصرية حتّى ضواحي مدينة بورصة فعظم القلق في الآستانة وخيف من مهاجمة ابراهيم باشا لها، وكتب ابراهيم باشا إلى الأمير بشير أنّه يريد أن يستدعي العساكر المقيمة في محافظة المدن، فعليه أن يرسل من أقاربه من يدبر أمور بيروت وصيدا وصور

فأرسل الأمير بشير الأمير ملحم حيدر إلى بيروت والأمير بشير ملحم إلى صيدا والأمير حسن أسعد إلى صور.

وفي سنة ١٨٣٣م أظهر بعض الصفديين العصيان ونهوا مال اليهود فأمر ابراهيم باشا الأمير بشير أن يجمع الرجال ويسير لتأديبهم وردعهم فصار بعسكر من لبنان فتهيئه الثائرون وخضعوا لسلطة الحكومة فطيب الأمير قلبهم وأمرهم بأن يردّوا ما سلبوه من اليهود وقبض على أكثر السالين، وأمر الأمير أفندي أن يجمع المال منهم. وأمره الوزير أن يجمع السلاح من صفد فجمعه من صفد ونواحي صور وعاد إلى بتدين. وقد ثار أيضاً بعض الطرابلسيين والنصيرية فكذب ابراهيم باشا إلى الأمير بشير أن يرسل ولده الأمير خليلاً بألف مقاتل إلى طرابلس للملاقة سليم بك المعين لردع الثائرين فصار الأمير خليل والتقاء سليم بك فأمر بالقبض على خمسة وعشرين رجلاً من الطرابلسيين وسجنهم في القلعة، ثم نهض إلى عكار فقبض على أسعد بك المرعب وأسعد بك الشديد وعلى ثلاثين رجلاً من وجوه عكار، وخاف مصطفى آغا بربر أن يعزى إليه عصيان الطرابلسيين فالتمس من الأمير بشير أن يستمخ له صفو خاطر ابراهيم باشا فأجابه الوزير إلى ذلك وأمن بربراً وعاد آمناً إلى داره في قرية إيعال، ثم نهض الأمير خليل وسليم بك المذكور إلى بلاد النصيرية فدوخا تلك البلاد بعد مناقشات في محلات كثيرة ونهبت العساكر وأحرقت كثيراً من قراهم.

وفي سنة ١٨٣٤م طلب ابراهيم باشا ألف وستمائة شاب من الدروز ليدخلهم بعسكره المنظم وأمر الأمير بشير بجمعهم فاعتذر له بأن ليس عندهم هذا العدد فاكتفى بنصفه وأمر الأمير أصحاب المناصب بجمعه فأبى الدروز الإذعان وتعصّبوا فكذب ابراهيم باشا إلى الأمير أنه قادم إلى بتدين لجمع سلاح الدروز، ثم حضر بعشرة آلاف من عسكره المنظم وحلّ بدير القمر فتولى الرعب الدروز وأخذوا يقدمون سلاحهم ثم طلب سلاح أعيانهم فقدموه، وأمر نصارى دير القمر بتقديم سلاحهم فقدموه ثم عمم أمره إلى جميع النصارى وأرسل الأمير رجلاً لجمعه ولما تمّ جمع السلاح أمر الأمير أن يطلب من الدروز ألف ومائتي شاب ليدخلهم في عسكره المنظم فجمع الأمير المطلبين وأرسلهم إلى عكا.

وفي سنة ١٨٣٥م أمر ابراهيم باشا بأخذ جنود من دروز حوران ووادي التيم

فأبوا وانضوى إليهم عرب تلك النواحي فأمر والي دمشق أن يرسل عليهم عسكرياً إلى اللجا فقاتلوا العسكر وكسروه، وأرسل عليهم عسكرياً آخر أمر عليه محمد باشا فحاربوه وقتلوا قائده، وكان دروز وادي التيم وإقليم البلان ينجدونهم وفي مقدمتهم رجل يسمى شبلي العريان، فكتب ابراهيم باشا إلى والده أن يرسل عسكرياً من الأرناؤوط لأنهم أصلح للحرب في الوعر، فأرسل له أربعة آلاف أرناؤوطي بإمرة مصطفى باشا فحارب الدروز ولم يفز منهم بطائل. فكتب ابراهيم باشا إلى الأمير بشير أن يوجه حفيده الأمير مجيد قاسم إلى جهات دمشق لصدد دروز لبنان عن إنجاد الدروز بحوران وأن يوجه حفيده الآخر الأمير محمود خليل إلى حاصبيا لارهاب الدروز، ولم يتمكن الأميران أيضاً من فوز يذكر وكان دروز لبنان ينجدونهم أولاً سرّاً ثم جهاراً، فحضر ابراهيم باشا إلى دمشق وكتب إلى الأمير بشير أن يجمع أربعة آلاف مقاتل من نصارى لبنان ويسلمهم أسلحة يملكهم إياها ويرسلهم بصحبة ولده الأمير خليل إلى حاصبيا، وقام ابراهيم باشا إلى هناك وكانت وقعات بين هؤلاء والدروز آخرها أن الدروز أكرهوا على التسليم ورجعوا إلى أوطانهم صاغرين وشبلي العريان طلب الأمان فأعطيه وجعله ابراهيم باشا قائداً على ألف فارس من الهوارة.

وفي سنة ١٨٣٦م أرسل ابراهيم باشا الأمير مسعود خليل شهاب لمحاربة العرب العاصين في الصفا فتوجه واستسلم العرب إليه وعاد إلى دمشق فأنعم الوزير بترك مال الإعانة لكل من كان معه. وسنة ١٨٣٧م التمس الأمير بشير من عزيز مصر قبول تلامذة من بلاده يتعلمون الطب بمدرسة مصر فأجابته إلى ذلك، وأرسل الأمير ثلاثة شبان ومملوكه سليماً فأتقنوا هذا العلم ونبغوا فيه. وفي سنة ١٨٣٨م أمر ابراهيم باشا أولاد الأمير أن يطرحوا العمائم فطرحوها واقتدى بهم بعض أقاربهم وغيرهم كثيرون إلى أن انتسخ هذا الزي.

عد ١١٠٣

إكراه الدول محمد علي باشا على جلاء عساكره عن سورية والأناضول بعد انتصار ابراهيم باشا على الجيش العثماني بقونية قلقت دول أوروبا وخشيت أن يستحوذ على الآستانة وكانت الروسية أكثر قلقاً لمطامعها المعلومة

فعرضت على الدولة العلية أن تساعد على مقاومة الجيش المصري فقبلت الدولة ذلك واحتلت روسيا على شواطئ الأناضول خمسة عشر ألف جندي لحماية الآستانة، فاضطربت فرنسا وانكلترا وخشيت من تدخل روسيا وألحت على الباب العالي أن يسرع بالاتفاق مع محمد علي باشا قبل أن يتفاقم الخطب، وبعد مخابرات اتفق الباب العالي والدولتان على أن المصريين يتخلّون عن الأناضول ويعطي محمد علي باشا الولاية على مصر مدّة حياته، ويحق له أن ينصب ولاية لولايات سورية الأربع أي عكا وطرابلس ودمشق وحلب، واكرت وصدرت بذلك إرادة سنّية مؤرخة في ٥ أيار سنة ١٨٣٩م على أن السلطان لم يقبل هذه التسوية إلّا ليكون له وقت للاستعداد للحرب واسترداد ما أخذ من مملكته قهراً ولم يقبلها محمد علي باشا لأنّها تخالف مقاصده.

وجرت مخابرات أخرى بين الدول لم يتفق فيها على حل راهن للمسألة فأوعز الباب العالي إلى حافظ باشا الذي خلف رشيد باشا بعد أسره وموته في قيادة الجيش العثماني الذي كان بأرمينية أن يسير بالعساكر نحو ولايات سورية والتقى بالجيش المصري في ٢٤ حزيران سنة ١٨٣٩م بجهات نصيبين (يسمىها الافرنج نزيب) واشتعلت نار الحرب وظهر الجيش المصري على الجيش العثماني تاركاً بيد المصريين ١٦٦ مدفعاً وعشرين ألف بندقية عدا الذخائر والأثقال وكان ذلك اليوم مشهوداً مشهوراً وتوفي حينئذ السلطان محمود الثاني وزاد على هذا الارتباك تسليم أحمد باشا أمير الأسطول العثماني مراكزه الحربية إلى محمد علي باشا خيانة وانتقاماً من أن السلطان لم ينصبه صدراً أعظم، بل أثر عليه خسرو باشا ولمّا علم بذلك سفراء الدول بالآستانة اختشوا من أن إبراهيم باشا يزحف بعساكره إلى الآستانة فترسل روسيا جيشها لمحاربته اعتماداً على اتفاقها السابق ذكره مع الدولة العلية فأرسلوا إلى البابا العالي لائحة في ٢٨ تموز سنة ١٨٣٩م وقّع عليها سفراء فرنسا وانكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا طلبوا بها منه أن لا يقرّر شيئاً في المسألة المصرية إلّا باطلاعهم فقبل الباب العالي هذه اللائحة واجتمع السفراء عند الصدر الأعظم وتداولوا بما يلزم أن يعطاه محمد علي فارتأى سفيرا إنكلترا والنمسا لزوم رد سورية إلى ولاية الدولة العلية وخالفهما سفيرا فرنسا وروسيا وطلبا أن يعطى

محمّد علي باشا مصر وولايات سورية الأربع المذكورة وانحاز سفير بروسيا إلى رأي إنكلترا والنمسا فتقرر بالأكثرية. وطلب دي مترنيخ وزير النمسا عقد مؤتمر دولي بفيانا أو لتقرير المسألة المصرية فأنكرت فرنسا خاصة ذلك وأعلنت روسيا أنّها لا ترضى أن يبحث المؤتمر الدولي في علاقاتها مع الباب العالي بل تحافظ المحافظة على المعاهدة السابقة المبرّجة بحقّها أن تحامي الدولة العلية بمراكبها وعساكرها فطلبت حينئذٍ فرنسا وإنكلترا أن يسمح الباب العالي بمرور مراكب الدولتين بالدرنيل لحماية الدولة لدى الاقتضاء من العساكر المصرية وسطو روسيا فاضطرب باقي السفراء واختشوا من الحرب بين الدول وأعلن سفير روسيا للباب العالي أنّه إذا سمح للبوادر الفرنسية والانكليزية بالدخول للبوغاز قطع للحال كل علاقة سياسية معه وسافر من الآستانة وكتبت النمسا إلى وزارتي لندره وباريس أنّ طلبهما هذا مخلّ بسلم أوروبا وإذا أصرتا عليه خرجت هي من التحالف وحفظت لنفسها أن تصنع ما تشاء ولمّا رأى الباب العالي ذلك خاف من تعاضم الخطب ونبذ طلب فرنسا وإنكلترا وسألهما إبعاد مراكبهما عن مدخل البوغاز، وهذا الخلاف أوقف المخاطرة مدّة.

وفي شهر أيلول سنة ١٨٣٩م عرض سفير إنكلترا على الباب العالي أنّ دولته مستعدة أن تلزم محمّد علي باشا برد الأسطول العثماني على شرط أن يكون لها الحق بإدخال مراكبها في بوغاز الآستانة لصدد روسيا إذا اقتضى عن الضرر بالدولة، وعلمت حكومة فرنسا فأرسلت أمراً مؤرخاً في ١٨ أيلول تلك السنة إلى الأميرال قائد أسطولها في البحر المتوسط أن لا يشترك مع بوادر الإنكليز في أيّة حركة عدوانية ضدّ حكومة مصر فظهر أنّ لا بدّ من حصول خلاف بين فرنسا وإنكلترا وخافت الدول عواقب هذا الخلاف، فأعلنت روسيا وبروسيا أنّهما تقبلان كل ما تقرّره الدول بشرط أن يقبله الباب العالي غير مجبر عليه، وأعلنت النمسا أنّها لا تحب التدخل بهذه المسألة لعدم قبول الدول ما عرضته من عقد المؤتمر في فيانا وكانت فرنسا تود أن يعطى محمّد علي وذريته مصر وسورية وولايته ادنه وترسيس مدّة حياته، وأمّا إنكلترا فلم تكن تريد أن يعطى محمّد علي إلّا ولاية مصر ورغبة في إرضاء فرنسا قبلت أن يعطى محمّد علي مع مصر نصف سورية

الجنوبي بشرط أن لا تكون عكا من هذا النصف، ورفضت فرنسا رأي إنكلترا وأعلنت النمسا وبروسيا استحسانها له، وأما روسيا فأرسلت سفيراً إلى لندره يقول إن القيصر مستعد إلى أن يترك لإنكلترا أن تعمل ما تشاء في مصر وأنه يساعد إنكلترا على إذلال محمد علي بشرط أن يتيح حلول جيش روسي بالقرب من الآستانة وبر الأناضول يتيسر له كبت ابراهيم باشا إذا حاول الهجوم على الآستانة، ومال بلمرستان إلى هذا الرأي لكن خالفه الرأي العام وتأجلت المخبرات في المسألة المصرية إلى حزيران سنة ١٨٤٠م وعلم محمد علي بكل هذه الأمور فأخذ يحصن سورية ويتجهز للحرب.

وفي سنة ١٨٤٠م عقد المؤتمر المطلوب بلندره فطلبت فرنسا إبقاء سورية كلها تحت ولاية محمد علي باشا فعارضتها إنكلترا وأصرّت على أنه لا يعطي إلا نصف سورية الجنوبي بشرط أن يكون له مدة حياته فقط ولا ينتقل لذريته بل يعود بعد موته إلى الدولة العلية وجارتها روسيا والنمسا وبروسيا، فلم يحصل وفاق بين الدول إلى أن تولى وزارة فرنسا تيار الشهير فلم يتبع خطة أسلافه لحسم المسألة بالإتفاق مع إنكلترا بل حاول أن يهيئها باتفاقه مع الباب العالي ومحمد علي، وأن يلزم الباب العالي أن يتخلى عن ولاية مصر وسورية لمحمد علي باشا وذريته وان لم يذعن الباب العالي لذلك ساعد محمد علي عليه. وأرسل يشجع محمد علي ويحرّضه على القتال، وأما بلمرستون وزير إنكلترا فحقن من مخالفة فرنسا له ومن استبدادها بهذه المسألة فاتفق مع روسيا والنمسا وبروسيا على إرجاع محمد علي إلى حدود مصر وإجباره بالقوة على ذلك إن لم يذعن، ووقع مندوبو هذه الدول مع مندوب الدولة على معاهدة في ١٥ حزيران سنة ١٨٤٠م.

وأخصّ مواد هذه المعاهدة أولاً أنه يلزم محمد علي أن يرد البلاد التي فتحها على الدولة العلية ويبقي لنفسه القسم الجنوبي من سورية ما عدا عكا. ثانياً أن يكون لإنكلترا والنمسا الحق أن تحاصر وتفتح سواني سورية بمساعدة كل من أراد من سكّان سورية خلع طاعة المصريين والرجوع إلى الدولة العلية. ثالثاً أن يكون لمراكب روسيا والنمسا وإنكلترا حق الدخول معاً إلى البوسفور لوقاية الآستانة إذا تقدّمت إليها العساكر المصرية. رابعاً أن لا يكون لإحدى الدول الحق بإدخال

مراكبها إلى البوسفور ما دامت الآستانة غير مهددة. خامساً أنه يلزم مندوبي الدول التوقيع على هذه المعاهدة في مدة لا تزيد عن شهرين.

وشرع عمال إنكلترا يهيجون اللبنانيين من موارنة ودرروز ومتاوله على خلع الطاعة للحكومة المصرية وأرسل سفيرها بالآستانة ترجمانه المستر رود إلى سورية لهذه الغاية، فقام بما عهد إليه به وانبث بين العامة روح العصيان وانبث ابراهيم باشا لذلك فأمر الأمير بشيراً أن يجمع السلاح من النصارى والدروز، فهاج الأهلون أولاً في دير القمر وجاهروا بالعصيان ثم اجتمع حشد من السكان وفي مقدمتهم أبو سمرا غانم من بكاسين في حرش بيروت وأخذوا ينهبون الطحين الوارد للعسكر المصري، وأتى إليهم الشيخ فرنسيس أبي نادر الخازن من غوسطا فجعلوه قائداً لهم ومالاهم بعض الأمراء الشهابيين واللمعيين، وأرسل الأمير بشير ينصحهم ويسترضيهم فلم يثنوا عن عزمهم متشكين من الحكومة المصرية بزيادة الأموال الأميرية والسخرة بحفر معدن الفحم بقرنايل ونكث عهدها باسترجاع السلاح الذي أعطتهم إياه، وأرسلوا الأمير محمود سلمان شهاب إلى جهة صيدا والأمير علي منصور قيديه إلى جهة البقاع وأبا سمرا غانم إلى جهة طرابلس ليقطعوا الطريق على العساكر المصرية، ومن بقي منهم بالحازمية والدكوانة أرادوا قتال العسكر المصري ببيروت فالتقاهم الأرناؤوط إلى الأشرفية فبددوا شملهم، ومن أرسلوهم جمع كل منهم في طريقه رجالاً سار بهم، فالأمير محمود سلمان قاومه عسكر صيدا والأمير مسعود والأمير مجيد حفيدا الأمير بشير فهزموه وجماعته وقتل منهم ثلاثة عشر رجلاً. وأمّا الأمير علي منصور ورجاله الذين جمعهم من المتن فانحدروا من المريجات إلى السهل وكانت وقعة بينهم وبين عساكر عثمان باشا الذي كان قد قدم من حلب إلى بعلبك فقتل منهم مائة وتسعة عشر رجلاً وانهزم الباقون منخزلين. وأمّا أبو سمرا فسار إلى غزير ثم جيل ثم البترون حتى انتهى إلى زغرتا وكان يجمع رجالاً يقيم بعضهم في الأماكن المذكورة ويسير ببعضهم، ولما علم والي طرابلس بقدمه إلى زغرتا أرسل إليه نحو أربعة آلاف عسكري فانتشبت الحرب بينهم فانكسر أبو سمرا إلى إيعال وقتل من جماعته سبعة رجال وقتل من العسكر عشرون رجلاً. ثم جمع أبو سمرا رجالاً في إيعال فقصدهم عسكر طرابلس على أنه في هذه الوقعة

كان النصر لأبي سمرا وطرد العسكر إلى حدود طرابلس وقتل منه نحو خمسين رجلاً ومن اللبنانيين نحو عشرين، ولكن انفض بعد ذلك اللبنانيون عن أبي سمرا لقلة المؤن فسار بعشرين نفرًا من المتأولة إلى الضنية، واتفق مع المشايخ بيت رعد فطردوا متسلّم الضنية ثم سطوا على متسلّم عكار واختبأ أبو سمرا بمزياره فخدمت هذه الثورة قليلاً واختبأ بعض رؤوسها واستسلم بعضهم طالباً العفو. ودخل عثمان باشا المذكور إلى المتن وجمع السلاح وأرسل الأمير بشير ابنه الأمير خليلًا إلى كسروان فجمع السلاح أيضاً بقساوة وقبض على الشيخ نقولا خارن وأرسله إلى بتدين وفّر الشيخ فرنسيس أبو نادر إلى قبرص وصار القبض على آخرين، منهم أربعة من الأمراء الشهابيين، وأربعة من الأمراء اللمعيين، وثلاثة من المشايخ النكديين وأرسلوهم إلى مصر، ثم إلى الخرطوم، ثم ردهم الإنكليز إلى لبنان بعد خروج المصريين منه.

وفي أثناء ذلك صدر أمر إنكلترا للأميرال ناير أن يسير بأسطوله إلى موانئ سورية ويأسر أو يحرق الأسطول العثماني الذي كان قد سلم إلى مصر وباقي مراكب مصر تجارية كانت أم حربية، فنبهت فرنسا محمّد علي لذلك، فاسترجع تلك المراكب إلى مصر فأخذ ناير من وجده من المراكب المصرية ووصل إلى بيروت في ١٤ آب سنة ١٨٤٠م، وأعلن للعساكر المصرية لزوم جلائها عن بيروت وعكا ونشر على أهل سورية ما قرّره الدول الأربع وحرضهم على الخضوع للدولة العلية والعصاوة على الحكومة المصرية. وفي النهار نفسه حضر قناصل الدول المتّحدة إلى محمّد علي باشا وبلغوه قرار دولهم وأمهله عشرة أيّام لاعطاء الجواب، وبعد انقضائها عادوا إليه وبلغوه أنّ الدول لا تسمح له ولذريته إلّا بولاية مصر فقط دون إلحاق قسم من سورية بها، فحنق عليهم وطردهم واستعدّت فرنسا للدفاع عن محمّد علي باشا فلم يكمل استعدادها واضطرّ الموسيو تيار أن يستقيل من الوزارة لهماج الرأي العام عليه. وفي ١٠ أيلول من السنة المذكورة وصلت مراكب النمسا والدولة العلية إلى بيروت تقل نحو عشرة آلاف جندي عثمانيين وإنكليز. وفي ١١ منه أنزلت هذه الجنود في شمالي بيروت وكان سليمان باشا الفرنساوي قد خبر ابراهيم باشا فحضر من بعلبك إلى بيروت، وبعد نزول العسكر إلى البر بلغه قائد

المراكب الانكليزية والنمساوية أن يخلي بيروت فطلب مهلة أربعة وعشرين ساعة ليداول ابراهيم باشا بذلك فلم يقبل طلبه. ومنذ الفجر في ١٢ أيلول ابتدأ إطلاق المدافع على بيروت فهدمت وأحرقت دوراً كثيرة وفُزَّ سليمان باشا بعسكره إلى الحازمية وكذلك فعلوا بأكثر ثغور سورية، وسارت بعض المراكب إلى جونبة فأحلت هناك عسكرياً وفُزَّ أعوان الحكومة المصرية إلى الجبل، وظهر المختبئون وحضر الشيخ فرنسيس أبو نادر الحازن إلى معسكر الدول، وكتب قائد العسكر من جونبة إلى اللبنانيين يستدعيهم لطرد العساكر المصرية فحضر إليه أناس من كسروان وباقي الأعمال مسلمين إليه، وكان يوزع السلاح عليهم وأرسل مركباً مشحوناً بالأسلحة إلى جبيل والبترون فوزعها على الأهلين المتقاطرين إليه، وكتب عزّت باشا القائد العثماني إلى أبي سمرا غانم فحضر بخمسمائة رجل فأكرمه وسلّمه أربعة آلاف بندقية ليسلمها لمن انضبوا إليه وأرسله إلى بلاد جبيل والبترون وجبة بشري فجمع أربعة آلاف رجل وتوجّه بهم إلى اليموني لمحاربة الأمير مجيد، ففرّ الأمير إلى عيناتا حيث كان العسكر المصري، وكان قتال بين أبي سمرا والعساكر المصرية فانتصروا عليه وقتل من عسكره ستون رجلاً، وانهزم إلى جبة بشري حيث جمع رجالاً عاد بهم إلى عيناتا، فهزم العسكر المصري وأرسل ابراهيم باشا عثمان باشا إلى وطا الجوز بكسروان ومعه ثمانية آلاف مقاتل والأمير خليل، فاستدعى السرعسكر العثماني الكسروانيين وجراهم على مقاتلة المصريين وأعطاهم سلاحاً ولوازمه فاجتمع منهم نحو ألف رجل واستمروا خمسة عشر يوماً يطلقون الرصاص من وراء الصخور ولا يجسرون أن يتقدّموا إلى العسكر، ولا العسكر المصري يصوب الهجوم عليهم فانطلق ابراهيم باشا من المتن إلى وطا الجوز وهجم على الكسروانيين فانهزموا فنهب عسكر ابراهيم باشا بعض قرى الجرد ورجع إلى وطا الجوز. وكان السرعسكر العثماني أرسل إلى الأمير بشير يخاطبه بالتسليم واعداً له أنه إن سلّم قبل مرور ثمانية أيّام بقي والياً كما كان بل بقيت الولاية لذريته من بعده، وإلا فلا يعود مقبولاً، فاعتذر الأمير بأن أولاده وأحفاده بين العسكر المصري. ولمّا مرّت الأيّام الثمانية كتب السرعسكر إلى الأمير بشير قاسم ملحم (تميّزاً له عن الأمير بشير قاسم عمر المعروف بالكبير) شهاب أن يسرع إليه فلبى دعوته وأتى إلى جونبة فسّر السرعسكر به وأكرم مثواه وأمره أن يتوجّه لمحاربة عثمان باشا في جرود

كسروان وأصبحه بألف جندي عثماني ومدفعين، واجتمع الكسروانيون ثانيةً وساروا إلى مطل وطا الجوز فوفد أمر من ابراهيم باشا إلى عثمان باشا أن ينهض حالاً بالعسكر إلى البقاع فقام صباحاً بعسكره ولما رآهم العسكر العثماني واللبنانيون أخذوا بالرحيل وثبوا وراءهم وجدوا في أثرهم وقتلوا بعض الساقة منهم أي المتأخرين ونهبوهم وأسروا بعضهم، وأشار المستر وود على الوزير العثماني أن يولي الأمير بشير قاسم على لبنان فولاه.

وحضر ابراهيم باشا بعسكره إلى بقليع فأرسل السرعسكر لمحاربته عمر بك النمساوي العثماني بعسكر عثماني ولبناني في طريق بحر صاف فنهض ابراهيم باشا لملتحاقهم، وأتى السرعسكر أيضاً لنجدة عسكره وانتشب القتال فانكسر عسكر ابراهيم باشا وانهزم هو منفرداً، ومزّ بصليما ووصل إلى قرنايل واجتمع إليه عسكره وكتب إلى سليمان باشا الذي كان مع عسكره في الحازمية أن يقوم حالاً بعسكره إلى البقاع فقام مسرعاً، وأمّا ابراهيم باشا فقصد أن يسير إلى بتدين وكان الأمير لما رأى ما آلت إليه الحال كتب إلى أحفاده أن يحضروا إليه وعزم على التسليم للدولة وسار ببعض ذويه إلى صيدا ولما علم ابراهيم باشا وهو في عين زحلنا بقيام الأمير بشير من بتدين انصرف بعسكره إلى المعلقة. وبعد أيام ورد له الأمر من والده محمّد علي باشا بأن يعود من سورية إلى مصر دون قتال، فقام وسيّر عساكره في عدّة طرق إحتياطاً من الغدر بهم وهو سار في طريق العريش وجميعهم تحمّلوا في هذا السفر مشاق لا تقدّر. وكانت مراكب الدول المتّحدة وعساكرهم قد خربت أكثر ثغور سورية واستحوذت عليها، ولما قامت العساكر المصرية من بعض القلاع التي كانت قد بقيت بيدهم أحرقوا بها البارود الذي كان باقياً عندهم. ومما أذكره وأنا حدث لي من العمر سبع سنين إنني أبصرت وأنا في راسكيفا في أوائل تشرين الأوّل سنة ١٨٤٠م عموداً ضخماً من الدخان ارتفع في الجو وسمعت صوتاً أشد من صوت المدفع ثم بلغ الخبر أنّ العسكر المصري عند قيامه من قلعة طرابلس أشعل ما كان بها من البارود وتهدّم جانب من القلعة.

أمّا الأمير بشير فعند وصوله إلى صيدا ومعرفة واليها خالد باشا أنّه أتى مسلماً عظم ملتقاه وسيّره بحراً إلى بيروت لمواجهة عزّت باشا السرعسكر فخيّره

السرعسكر أن يختار محلاً لإقامته ما عدا فرنسا وسورية ومصر فاختر جزيرة مالطة فسافر من صيدا إليها يصحبه زوجه وأولاده وأحفاده ومدبره بطرس كرامة ونحو سبعين رجلاً من خدمه، ثم سار من مالطة إلى الآستانة حيث توفي سنة ١٨٥٠م وأما محمد علي باشا فأقنعه الأميرال نابير الانكليزي بأن دولته تسعى له لدى السلطان في أن يتولى مصر وذريته من بعده إذا تنازل عن سورية، وردّ إلى الدولة الأسطول العثماني الذي كان قد تسلّمه، فامثل رأيه وقبل هذه الشروط. وبالمداولة مع الدول المتّحدة أنعم عليه السلطان بفرمان مؤرّخ في ٢١ ذي القعدة سنة ١٢٥٦ الموافق ١٣ شباط سنة ١٨٤١م يتضمّن منحه ولاية مصر على طريقة التوارث لذريته بنوع أنّه متى خلا منصب الولاية يعهد به إلى من تختاره السدّة الملوكية من أسرته، وإذا انقرض الذكور من ذريته لا يكون لأولاد نساء أسرته حق في الولاية، إلى شروط أخرى يتضمنها هذا الفرمان يمكن الاطلاع عليها في كتاب محمد فريد بك الموسوم بـ «تاريخ الدولة العلية». ثمّ التمس محمد علي باشا أن يخفف الباب العالي بعض الشروط المشتمل عليها الفرمان المذكور، فصار تعديلها بفرمان آخر مؤرّخ في ١٩ نيسان سنة ١٨٤١م تراه في الكتاب المذكور ثمّ عيّن بفرمان آخر مؤرّخ في ٢ تموز سنة ١٨٤١م المبلغ الذي تدفعه حكومة مصر وهو ثمانين ألف كيس ثمّ زيد هذا المبلغ إلى مائة وخمسين ألف كيس. انتهى ملخصاً عن عدّة مؤرخين وعن أخبار الأعيان لطنوس الشدياق الذي كان شاهد عيان لما كتبه.

عد ١١٠٤

السلطان الغازي عبد المجيد خان

هو ابن السلطان محمود خان ولد في ١٤ شعبان سنة ١٢٣٧هـ (سنة ١٨٢٢م) واستوى على أريكة الملك بعد وفاة والده سنة ١٨٣٩م وكانت حالة الدولة ما مرّ ذكره من انتصار ابراهيم باشا على الجيش العثماني في نصيبين وتدخّل دول أوروبا بينه وبين محمد علي باشا كما مرّ. وكانت باكورة أعماله إصداره فرمان الإصلاحات المعروفة بفرمان الكلخانة في ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩م

ضمنه عدّة إصلاحات ونظامات مفيدة وأعلن به التسوية بين رعاياه من أي مذهب كانوا.

وكانت في أ أيامه سنة ١٨٤٨م ثورة أهل الفلاخ والبغدان على أميريهما واکراههما على الفرار طلباً للاستقلال والانضمام إلى سكّان ترنسلفانيا، وتألّف مملكة جديدة سموها مملكة رومانيا، فأرسل السلطان عليهم جيشاً أمر عليه عمر باشا أحد قوّاده الشهيرين، فأرسلت روسيا عسكرياً إلى بلاد البغدان فطردت أصحاب الحكومة المؤقّعة الذين أقامهم الثائرون واحتلّت هذه البلاد، فأقام الباب العالي الحجة على هذا الإحتلال. وبعد مخابرات اتّفقت الدولتان على أنّ حقّ تصيب الأمراء بهذه البلاد يبقى للدولة العلية كما كان قبلاً، وأن يحتل البلاد جيش عثماني وروسي مدّة سبع سنين إلى أن يستتب الأمر، وسُمّي هذا الإتفاق إتفاق بلطه لي مان نسبة إلى المحل الذي وقع به.

ومن أهم ما كان في أ أيام السلطان عبد المجيد الحرب مع روسيا المعروفة بحرب القرم التي عاونت فرنسا وإنكلترا الدولة العلية بها، ومن أسبابها حصول المنازعات المعتادة بين اللاتين والكاثوليكين الذين تحامي فرنسا عنهم، وبين الروم غير المتّحدين الذين تحاميهم روسيا. ففي سنة ١٨٤٨م اعتدى كهنة الروم على حقوق اللاتين بينما كانت فرنسا منشغلة بالثورة على الملك لويس فيليب، ولما صير نابوليون الثالث رئيساً للجمهورية الفرنسية كاشف الباب العالي في إزالة هذا التعدي فعين الباب العالي لجنة مؤلّفة من أعضاء مختلفي المذاهب قرّرت الحق للاتين في عدّة كنائس وأديار فلم تقبل روسيا قرارها وهذّدت الدولة العلية بالحرب إن اتّخذت هذا القرار، وشدّدت فرنسا على التشبث بحقوقها، وأرسلت روسيا البرنس منشيكوف إلى الآستانة بصفة سفير غير اعتيادي للمخابرة ظاهراً بمسألة الأماكن المقدّسة، وأضمرت لإيجاد ذريعة لإعلان الحرب على الدّولة العلية، وكاشف القيصر سفير إنكلترا في روسيا في أمر اتّحاد إنكلترا معه على إضعاف نفوذ فرنسا في الشرق، وعلى تجرّئة أملاك الدولة فلم يجد أذناً صاغية لما ينوي، وخابر نابوليون الثالث ملكة إنكلترا بشأن الاتّحاد مع الدولة صدأ لمطامع روسيا وإيقاف نفوذها فراق لها رأيه وكان البرنس منشيكوف يلخّ بتجديد شروط المعاهدة السابقة القاضية بأنّ لروسيا حقّ.

الحماية لجميع النصارى الكائنين ببلاد الدولة والباب العالي يسوفه في الإجابة وأعاد حينئذ السلطان رشيد باشا إلى منصب الصدارة وكان قد عزله عنه إرضاءً لروسيا فنبذ رشيد باشا مطالب روسيا.

ولما رأى البرنس منشيكوف ذلك أرسل إلى الباب العالي بلاغاً نهائياً في ٥ أيار سنة ١٨٥٣م وطلب الإجابة إلى مطالب دولته في مدة خمسة أيام، ثم أضاف إليها ثمانية أيام، ولما لم ينل مرغوبه قطع العلاقات مع الدولة وبارح الآستانة مهدداً باحتلال جنود روسيا إمارتي الفلاخ والبغدان إن أصرت الدولة على عدم الإجابة، وأرسلت الدولة بلاغ روسيا إلى فرنسة وإنكلترا فأمرت الدولتان أساطيلهما أن تسير إلى مدخل بوزغاز الدردنيل لإنجاد الدولة على روسيا، واجتازت عساكر روسيا نهر ألبرت الفاصل بين أملاكها وأملاك الدولة في ٢ حزيران سنة ١٨٥٣م واحتلت الإماراتين المذكورتين، وكان عاهل النمسا يحب صرف هذه المشاكل دون حرب فعرض على روسيا وفرنسة وإنكلترا عقد مؤتمر في فيانا لفصل الخلاف فعقد ولكن لم يأت بجدوى، وأرسل الباب العالي بلاغاً إلى البرنس كورتشاكوف قائد الجيش الروسي المحتل بالإمارتين في ٤ تشرين الأول سنة ١٨٥٣م أن ينجلي بعسكره عنهما في مدة خمسة عشر يوماً، وأمر عمر باشا قائد الجيش العثماني أن يعبر نهر الطونة بعد انقضاء المدة المذكورة، ولما لم يحفل القائد الروسي بهذا البلاغ ففي ٢ تشرين الثاني عبر عمر باشا الطونة فكانت بين الجيشين وقعة هائلة كان النصر فيها للجيش العثماني لكنه لم يلحق أعداءه بسبب شدة البرد والثلج، فعاد إلى معاقله وكذلك انتصرت العساكر العثمانية في آسيا واحتلت بقلعة سان نقولا ووقفت رحي الحرب بسبب الشتاء.

وتقدمت في هذه الأثناء مراكب فرنسة وإنكلترا إلى البوسفور برضى السلطان لتكون أقرب إلى البحر الأسود وإلى الذب عن الآستانة لو هاجمها الروس. وفي ٣٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٤م دهم الأسطول الروسي الأسطول العثماني في ميناء سينوب على البحر الأسود فدمر أكثر مراكبه، فأمرت فرنسة وإنكلترا مراكبهما أن تدخل البحر الأسود فدخلت في ٤ كانون الثاني سنة ١٨٥٤م. وكتب نابوليون الثالث حينئذ رسالة إلى القيصر يكاشفه بالسلم ويظهر له عزمه على الحرب إن لم

يذعن لرغائبه فأجابه القيصر معتذراً مبيّناً عزمه على الحرب، واتّفقت وقتئذٍ فرنسا وإنكلترا على أن ترسل فرنسا خمسين ألف جندي وإنكلترا خمسة وعشرين ألفاً بشرط أن تجلّى عن بلاد الدولة بعد خمسة أسابيع من يوم عقد الصلح مع روسيا. وفي ٢٧ آذار أرسل نابليون الثالث رسالة إلى مجلس النواب يخبرهم بها بإعلانه الحرب مع إنكلترا على روسيا وأخذت الدولتان ترسلان الجنود إلى كاليبولي والآستانة في شهري نيسان وأيار.

وأرسل الأميرال الإنكليزي مركباً إلى أودسا ينقل منها قنصل إنكلترا ورعاياها فأطلقت من قلاعها القنابل عليه مع أنّه كان ناشراً علماً أبيض، فنهض بعض الأسطول الإنكليزي والفرنسي إلى أودسا وطلبا من حاكمها الترضية أو يرميان المدينة بقنابلهما وأمهله يوماً، ولمّا لم يجب طفقاً يرميان المدينة بالقنابل فدّمرّا قلاعها وأحرقا قسماً منها ثمّ انسحبا وروسيا أمام سيستوبول، ودعيا الأسطول الروسي للقتال فلم يخرج له، فأرسل بعض السفن تضرب ثغور روسيا الواقعة على البحر الأسود فضربا بعضها وأعلنت روسيا الحرب للدول المعادية لها، وأمر القيصر البرنس بسكيفتش قائد الجيش الذي على ضفة الطونة أن يعبر النهر فعبّر وحاصر مدينة سلسترية خمسة وثلاثين يوماً فلم يقوَ عليها بل رفع الحصار عنها، ففتبع أثره عمر باشا عازماً أن يحتل إمارتي الفلاخ والبغدان، ولكن سبقته جنود النمسا إلى احتلالها بمقتضى اتفاق كانت فرنسا وإنكلترا والدولة قد أبرمته مع النمسا على أن تحتل جيوش النمسا الفلاخ والبغدان إذا جلت عنها جنود روسيا وإن تتحد النمسا مع الدول إذا جاوزت جنود روسيا جبال البلغان، وفضلت روسيا احتلال جنود النمسا الفلاخ والبغدان لأنها تراها أسلم وأقل ميلاً إلى الحرب.

وقرّر المجلس الحربي للدول المتّحدة على إرسال عساكرهم إلى بلاد القرم ومحاصرة سياستوبل المنيع، وفي ٢٠ أيلول سنة ١٨٥٤م كانت أوّل وقعة بين جيش الدول المتّحدة وجيش روسيا وكان النصر لجيش الدول المتّحدة، لكنّهم لم يتتبّعوا أعداءهم إلى سياستوبل. وفي ١٧ تشرين الأوّل هاجموا هذه القلعة مهاجمة شديدة فلم ينالوا منها مأرباً، وبعد عدّة مهاجمات وخروج الروس مرات على غير طائل وقف القتال لشدة البرد، وتفشي الأمراض في العساكر. وفي آخر هذه السنة

دارت المحادثات بالصلح في فيانا، ذلك أنّ فرنسا وإنكلترا عرضتا على النمسا أن تتفق معهما على شرط أن تتعهد بحماية الفلاخ والبغدان ضدّ روسيا، وأنّ فرنسا وإنكلترا تساعدانها لو أعلنت روسيا الحرب عليها، فقبلت النمسا هذه الشروط ووقع على هذا الاتفاق في ٢ كانون الأول سنة ١٨٥٤م.

وفي ١٧ من شباط سنة ١٨٥٥م هاجم الروس من سياستوبل الجيش العثماني فردّهم عمر باشا على أعقابهم بعد أن قتل منهم كثيرين ومرض بعد ذلك القيصر نقولا وتوفي في ٢ آذار سنة ١٨٥٥م، وخلفه ابنه اسكندر الثاني. واتفق بهذه الأثناء فيكتور عمانويل ملك بياصوني مع الدول المتّحدة ضدّ روسيا، وأرسل إلى القرم ثمانية عشر ألف مقاتل بامرة الجنرال لامريرا للإشتراك في فتح سياستوبل. وفي ٧ حزيران فتحت جنود الدول المحلّة المعروفة بالقمّة الخضراء، وفي ١٨ منه هاجم الفرنسيون حصن ملاكوف وردّوا عنه خاسرين، وهاجم الإنكليز حصناً آخر فلم ينالوا منه مأرباً، ولكن انتصر المتّحدون في وقعة تراكوف في ١٦ آب وابتدأوا في اليوم التالي في الرمي على ملاكوف. وفي ١٨ أيلول احتلّها الجنرال ماك ماهون الشهير ثمّ نسفوها لعدم تمكّنهم من البقاء فيها وفي أثر ذلك استحوذوا على سياستوبل بعد أن أبدى من كان داخلها ومن كان محاصراً لها آيات البسالة فدخلتها عساكر الدول المتّحدة في ٩ أيلول سنة ١٨٥٥، وتقدّمت جيوش الدول المتّحدة نحو مدن أخرى في أملاك الروسية. وفي هذه السنة رمت الأساطيل الفرنسية والإنكليزية بقنابلهما عدّة ثغور في بحر بلك وأضرّت كثيراً بتجارة روسيا وتقهقر الجيش الروسي إلى داخلية بلاده، ولولا قدوم فصل الشتاء لأخذ المتّحدون مدناً أخرى.

وقد رأى القيصر اسكندر الثاني صعوبة الانتصار على الدول المتّحدة ضدّه وعرضت النمسا على الدول المتّحدة أن ترسل إلى روسيا بلاغاً نهائياً بمطالبها فإن نيزته روسيا استأنفت الحرب في سنة ١٨٥٦م بأعظم شدّة وانضمت إلى الدول المتّحدة جيوش النمسا.

فأقرّت هذه الدول ذلك وقلت روسيا مطالبها وقّرت رأي جميع الدول على عقد مؤتمر بياريس لتقرير السلم نهائياً ووقع على الاتفاق بفيانا في ١ شباط سنة ١٨٥٦م وعقد هذا المؤتمر بياريس في ٢٥ من الشهر المذكور إلى ٣٠ من آذار سنة ١٨٥٦م.

وخلاصة ما كان في هذا المؤتمر هي أنّ البلاد التي فتحت أو تواتها عساكر كلا الفريقين في مدّة الحرب تتخلّى عنها فيرد قيصر الروس على الدولة العلية مدينة قارص وقلعتها وكل ما استحوذت عساكر الروس عليه وكان للدولة، وترد الدولة المتّحدة على روسيا سباستوبل وغيرها من المدن التي تواتها عساكر الدول المتّحدة. وقد أعلنت هذه الدولة أنّ للباب العالي اشتراكاً في الحقوق والفوائد الأوروبية العامّة وتعهد ملوكها بأن يحترموا استقلال السلطنة العثمانية وإبقائها سالمة تامة، وإذا حدث بين الباب العالي والدول المتّحدة خلاف خيف منه اختلال ألفتهم فعلى الدول المتنازعة أن تقيم الدول الأخرى الداخلة في المعاهدة وسطاء بينهما حسماً لذلك الخلاف. وأنّ السلطان قد تفضّل عناية بخير رعاياه بأن يصدر منشوراً في تحسين أحوالهم بقطع النظر عن اختلافهم ديناً أو جنساً، وأنّه يطلع الدول على هذا المنشور، وأنّه يبقى معمولاً بالاتفاق السابق، على أنّ للسلطنة العثمانية إقبال باب بوغاز الدردنيل ومضيق جنق قلعة وأنّ البحر الأسود يكون مطلقاً السفر فيه للمراكب التجارية من كل الأمم، وكذلك يكون السفر في الدانوب مباحاً بنسبة باقي الأنهر الفاصلة بين عدّة ممالك. وإنّ أمارتي الفلاخ والغدان بقيان متمعتين تحت سيادة الباب العالي وكفالة الدول بالامتيازات والاعفاءات الحاصلة لهم الآن ولا يكون للدول الكافلة حق بالتعرّض لأمر سكانهما الداخلية، وتعهد الباب العالي أن يحفظ لهما إدارة أهلية مستقلة ويبقى لهما الحرية في الدين والاحكام الشرعية والمتجر وسفر البحر والأنهار، ويكون فيهما عسكر أهلي لتأمين داخل البلاد وحفظ تخومها وأنّ إقليم الصرب يبقى متعلقاً بالباب العالي على مقتضى الخط الهمايوني المبين حقوقه، ويكون من الآن فصاعداً تحت كفالة الدول المتعاهدة، ويحق لهذا الإقليم أن يحافظ على استقلاله بحكومة أهلية مع حرية المذهب والأحكام والمتجر والإبحار، ووقع على هذه المعاهدة في ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦م. وقد كانت في أيام السلطان عبد المجيد أيضاً الحرب الأهلية في سورية وبعثة العساكر الفرنسية إليها وسيجيء ذكر ذلك في كلامنا على سورية وقد توفي السلطان عبد المجيد خان وانتقل إلى رحمة الله في ١٧ ذي الحجة سنة ١٢٧٧هـ (٢ حزيران سنة ١٨٦١م).

ما كان بسورية في هذه المدة

قد مر ان السرعسكر العثماني نصب الامير بشير قاسم الشهابي والياً على جبل لبنان في مكان الامير بشير المعروف بالكبير، ولم تمض مدة وجيزة إلا ووقعت النفرة بينه وبين بعض اعيان الدروز أفضت الى احتشاد الدروز ومحاصرتهم له في دير القمر، فكانت من جراء ذلك بين النصارى والدروز الحروب الاهلية المعروفة عند العامة بالحركة الاولى سنة ١٨٤١م حيث كانت عدة وقعات بين الفريقين في ساحل بيروت والغرب والشحار ودير القمر وزحلة والمتن وكانت خاتمة هذه الحرب. ان الامير بشير قاسم الوالي قد خرج من دير القمر على يد سليم بك والسيد فتيحة المرسلين الى دير القمر من قبل وزير الالاية، فأهانته الدروز في خروجه وسلبوه سلاحه وسلاح جماعته وظل سائراً الى بيروت، وقدم في اثناء ذلك من الآستانة مصطفى باشا نوري لترتيب شؤون جبل لبنان فحجز الامير بشير المذكور وسيره الى الآستانة واستدعى اعيان النصارى والدروز وخلع عليهم وكاشفهم بإقامة والٍ عليهم من رجال الدولة، فأبى النصارى طالين الإبقاء على ولاية الامراء الشهابيين ورفعوا عرائض بذلك الى الباب العالي والى سفراء بعض الدول في الآستانة، وأما الدروز فأذعنوا لمشورته وارتضوا بولاية احد رجال الدولة.

وفي سنة ١٨٤٢م اقام مصطفى باشا المذكور والياً على لبنان يسمى عمر باشا النمساوي العثماني وارسله بعسكر الى بتدين ومعه الامير احمد واخوه الامين ارسلان واخذ عمر باشا مدبرين له الشيخ منصور الدحداح والشيخ خطار العماد وولى الشيخ فرنسيس أبا نادر الخازن على كسروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على الفتوح، وثلاثة مشايخ من الحمادية على بلاد جبيل والبترون والكورة العليا، فنفر المشايخ الخوازنة لانه ضم ولاياتهم الثلاث الى واحد منهم واساء اهل بلاد جبيل والبترون والكورة لان ولاية المتاوله على هذه البلاد كانت قد نسخت مذ سنوات متطاولة. وحاول عمر باشا ان يسترضي النصارى بولايتهم فادخل في خدمته جنوداً منهم وجعل ابا سمرا البكاسيني السابق ذكره ويوسف آغا الشنتيري

من بكفيا قائدين لهم، ومنع الدروز عن التعدي عليهم واستدعى ذات يوم الى بتدين الامير احمد ارسلان والمشايع نعمان جنبلاط ونصيف نكد وحسين تلحوق ويوسف عبد الملك، ولما اتوا قبض عليهم وارسلهم الى بيروت فأمر مصطفى باشا بالحجز عليهم، ثم الحق بهم الشيخ خطار العماد فاستاء الدروز من ذلك وطفقوا يتزلفون الى النصارى طالبين الصلح والاتحاد على عمر باشا.

وفي اثناء ذلك صدر امر الدولة العلية بالإجازة للبنانيين أن ينتخبوا لهم والياً وارسلت مفوضين يكتبان أسماء المنتخبين، فكتب اعيان النصارى ووجوههم يسترحمون رد الامير بشير عمر الى ولاية لبنان، واستدعى الدروز النصارى لطرد عمر باشا من الولاية فلم يجيبوهم، وزينوا للأمير اسعد قعدان أن ينهض معهم على عمر باشا فينتخبوه والياً، فمالأهم على ذلك وراسلوا النصارى ثانية بالاتحاد فأجابوهم اليه بشرط أن يدونوا صكاً يصرحون فيه انهم يرضون برجوع الولاية الى الامراء الشهابيين، فدونوه وشرطوا به أن يكون احد الامراء اللمعيين معاوناً للوالي الشهابي وأن يكون له اربعة مدبرين: مدبران درزيان ومدبران مسيحيان. واجتمع الامراء اللمعيون وبعض وجوه المتن وكسروان بانطلياس واستدعى الدروز شبلي العريان من حوران واجتمعوا في المختارة وحصلت بعض مناوشات بينهم وبين عسكر عمر باشا فبدهم العسكر.

وفي هذه الاثناء احيلت ولاية صيدا الى اسعد باشا فأرسل الى المجتمعين بانطلياس رسولاً يحذرهم من الخروج عن خاطر الدولة فمضى وحذرهم وتوجه الى بطريك الموارنة يستشيرهم بمن يصلح للولاية من الامراء اللمعيين، فأشار ان الامير حيدر اسماعيل هو الاصلح فعاد واخبر اسعد باشا ثم توجه اليه وجوه المجتمعين بانطلياس يطلبون والياً وطنياً عليهم فنصب الامير حيدر المذكور.

وكان في هذه الاثناء انه وُشي الى السرعسكر بأن المشايخ الدحادحة ساعون بما يكدر الدولة فأرسل بعض جنوده الى المشايخ أبناء حمزة حبيش في غزير يأمرهم أن يقبضوا على رسول الدحادحة ويرسلوه اليه فقبضوا عليه، وعلم الدحادحة فसार بعضهم بنحو خمسين رجلاً الى غزير وانفرد عنهم احدهم الشيخ رشيد ومعه بعض الرجال فاستخلص الرسول وعاد به الى عرامون، واما الباقون فالتقاهم اولاد حمزة

واقتتلوا معهم فقتل ثلاثة من اولاد حمزة وهم: فارس ويوسف ويعقوب وعمهم شديد فحقن السرعسكر وأرسل منيب باشا بعسكر فانهزم اهل عرامون والمشايخ، وأرسل منيب باشا يستدعي الدحادحة للتحقيق على ما كان فلم يحضروا فحضر الى عرامون وانزل العسكر في بيوت المشايخ واثقل على الاهلين ونبه اهالي كسروان أن لا يقبل احدهم الدحادحة، فاخترأوا وأرسل السرعسكر زيادة على عسكره وامر بالتفتيش عليهم في كل قرى كسروان وفي بلاد جبيل والبترون، وكتب الى والي طرابلس أن يرسل عسكراً الى جبة بشري للتفتيش، وبلغت فرقة منه الى عقبة حيرونا فالتقتها رجال اهدن وصدوها، وكانت وقعة انتصر بها الاهدنيون وانهزم العسكر الى طرابلس. وبلغ ذلك الى السرعسكر فأمر منيب باشا أن يقوم بعسكره والعسكر المقيم في زحلة الى جبة بشري، وأرسل كاشفاً بحث عن الواقعة فتحقق له ان الاعتداء وقع من عسكر طرابلس ولا ذنب للاهلين إلا المدافعة، فأطلق الامان لاهل جبة بشري وطلب الى المشايخ ان يوافوه الى الحدث حيث طلب أن يمر بعسكره بالجبة للتفتيش على المشايخ الدحادحة، فأبوا خشية أن يكون سبب بين العسكر والاهلين فأبقى عسكره في الحدث وتوجه بنفر قليل الى بشري والارز واهدن ورجع بعسكره الى طرابلس.

اما الامير حيدر اسماعيل اللامي فولاه اسعد باشا على نصارى لبنان من نهر ابراهيم الى آخر الاقطاعات الجنوبية منه وسماه قائمقام النصارى وولى على بلاد جبيل وتوابعهما والياً مسلماً، وولى الامير احمد عباس الارسلاني على الدروز وسماه قائمقامهم، وأمر بعقد ديوان حافل للتحقيق على اسلاب النصارى، فكتب كل اسلابه. ثم انشأ ديواناً آخر سماه ديوان التحقيق وادخله بعض الوجوه من صيدا وبيروت فحطوا من قيمة مسلوبات النصارى حتى جعلوا قيمتها نحو ستة عشر الف كيس وجعلوا مسلوبات الدروز الفين وخمسمائة كيس، وطرحوها من اصل مسلوبات النصارى فبقي لهم نحو ثلاثة عشر الف كيس وخمسمائة كيس. ولجموه على الدولة خمسة النجم كل نجم ألفا كيس وعلى الدروز ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس. ثم اختلف القائمقامان على المختلطين في اعمال لبنان من نصارى ودروز فكتب اسعد باشا الى الباب العالي فصدر الامر بقسمة البلاد فجعل

الوزير سكة دمشق فاصلاً بين القائمتين، وما كان منها الى الشمال تولاه قائمقام النصارى وما كان منها الى الجنوب قائمقام الدروز. وفي سنة ١٨٤٤ امر الباب العالي برجوع ولاية بلاد جبيل الى قائمقامية النصارى. وفي سنة ١٨٤٥ كانت الحرب الاهلية بين النصارى والدروز في لبنان وتعرف العامة هذه الحرب بالحركة الثانية، وكانت فيها عدة مواقع في ساحل بيروت والمتن والغرب والشحر والجرد والشوف، ولولا توسط رجال الحكومة في محلات كثيرة لأضرّ النصارى بالدروز اضراراً كبيرة. وكانت نهاية هذه الحرب في ان وجيهي باشا (الذي خلف اسعد باشا في حكم ايالة صيدا) جمع في بيروت بعض وجوه النصارى والدروز وأجرى بينهم الصلح واستكتبهم صكوكاً مانعة من تجديد الفتنة بينهم فكتبوها ووقعوا عليها، ثم وفد الى بيروت شكيب افندي مرسلًا من الآستانة لتدبير شؤون لبنان، وقدم نقيق باشا سرعسكر السلطان من دمشق بألف جندي وتوجه الى بتدين، وسار الى هناك شكيب افندي ومعه الامير حيدر اسماعيل قائمقام النصارى، والامير احمد ارسلان قائمقام الدروز، وامرهما شكيب افندي باستدعاء اصحاب الاقطاعات بلبنان ووكلاء منها فلم يحضر إلا قليلون، واختبأ اكثرهم خوفاً، ومن احضروا منهم حجزهم شكيب افندي في بتدين واخذ سلاحهم. واستحضر وجوه دير القمر وامر أن يسلموه سلاح بلدهم ففعلوا، وأمر القائمقامين أن يرسلوا اناساً لجمع السلاح من البلاد وفرق العساكر المنظمة في اعمال البلاد لهذه الغاية فأثقلوا على الاهلين ونهبوا بعض اشياء بحجة التفتيش عن السلاح وأهانوا بعض الكهنة بالحبس والضرب والشتم ولاسيما في كسروان، واختبأ بعض اصحاب المناصب وسار نقيق باشا بعسكره الى العاقورة واخذ سلاح اهلها ثم نهض الى تنورين فالتقاء اهل جبة بشري قاصدين صده، فناوشهم فانهزموا الى الحدث ولحقهم الى هناك ففروا الى بشري. وتوسط بطريك الموارنة امرهم بأن يقدموا سلاحهم الى الحدث ولا يدخل العسكر قراهم فرضى نقيق باشا ذلك ولما قدموا سلاحهم سار بعسكره الى طرابلس ثم الى بيروت.

ثم عزل شكيب افندي الامير احمد ارسلان عن قائمقامية الدروز وولى مكانه اخاه الامير اميناً وقسم البلاد بينه وبين الامير حيدر اسماعيل جاعلاً طريق دمشق

فاصلاً بينهما، واعطى الامير امين نصف ساحل بيروت، فلم يرضَ الامير حيدر والسكان ودخل قنصل الدول في ذلك فقسم الساحل بين القائمين فأعطى الامير حيدر الساحل الشرقي والأمير اميناً الساحل الغربي وجعل طريق دير القمر فاصلاً بينهما.

وحصل اختلاف بينهما على قريتين الشياح ووادي شحرور العليا فوضع الوزير يده عليهما وأتبعهما لولاية بيروت. واستتبت الراحة في لبنان في ايام ولاية الامير حيدر اسماعيل وكان حاكماً ورعاً عادلاً حليماً وقد أدركته الوفاة سنة ١٨٥٤م في قرية صربا بكسروان مفلوجاً بلا عقب وعمره سبع وستون سنة وحمل الى بكفيا فدفن بكنيسة الآباء اليسوعيين فيها.

فعين وامق باشا ابن اخيه الامير بشير عساف قائمقاماً للنصارى مؤقناً وكتب الى الآستانة يلتمس الولاية للامير بشير احمد اللامي فأجابه الباب العالي الى ذلك فخلع الوزير عليه. وفي سنة ١٨٥٩م كانت ثورة الكسروانيين على مشايخهم آل خازن وطردوهم من كسروان. وفي السنة المذكورة كانت وقعة بيت مري بين النصارى والدروز وعقبها في سنة ١٨٦٠م الملاحم التي كانت في دير القمر وحاصبيا ودمشق والتي توقف قلمنا عن تدوين تفصيلها لما بذلك من المحاذير من ايقاظ الضغائن والتذكير باحداث يكره الفريقان اعادة ذكرها ويودان لو لم تكن حصلت وهي من حوادث ايماننا. ومن عادة المؤرخين أن يتحاشوا ذكر حوادث ايامهم.

فنقتصر على القول ان ما جرى على النصارى لم تتحمله رافة السلطان الغازي عبد المجيد واشمأزت منه دول اوروبا وشعوبها، فأرسل جلالة السلطان فؤاد باشا بصفة مفوض بالاستقلال ليجزي كل من اشترك في المنكرات بما جنت يدها، ويؤمن رعايا الدولة ويعيد السكينة والراحة الى البلاد، وارسلت حكومة فرنسة ستة آلاف جندي فرنسي باسم دول اوروبا وامرت على عساكرها الجنرال بوفور دي تبول والجنرال ديكرو، وارسلت دول فرنسة وانكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا مفوضين للمداولة باصلاح ذات البين وفرض ما يلزم من النظام لمنع تجديد الفتن الاهلية، فأقاموا ببيروت. وبعد أن أجرى فؤاد باشا جزاء من وجددهم مذنبين بهذه

الفظائع بقتل كثيرين ونفي كثيرين وتأمين البلاد اخذ يتداول مع مفوضي الدول بوضع نظام يتكفل بامنية البلاد وراحتها وعدم تجديد الفتن والقتال . وكانت نتيجة مخابراتهم انهم وضعوا اولاً نظاماً في ٢٠ آذار سنة ١٨٦١ مؤلفاً من سبعة وأربعين مادة من متضمناته تقسيم حكومة جبل لبنان الى ثلاث قاطنات واحدة للموارنة وأخرى للدروز والثالثة للروم غير المتحدين، ثم تبدلت آراؤهم فعولوا على نظام آخر في اول ايار من السنة المذكورة مؤلفاً من ست عشرة مادة ومن فحواه أن يقام في الجبل حاكم واحد مسيحي ورفعوا النظامين الى الباب العالي ليتفق الباب العالي وسفراء الدول على احدهما مع ما يرون من الزيادة على المواد او الحذف او التبديل منها، ولدى اجتماعهم في ٣٠ ايار عند عالي باشا الصدر الاعظم وقتئذ دافع عالي باشا كل الدفاع عن وجوب وضع النظام الاول الموجب قسمة الجبل الى ثلاث قائممقاميات فعارضه اكثر السفراء في ذلك متشبثين بلزوم تقرير النظام الثاني اي أن يكون حاكم الجبل واحداً وارتضى اخيراً عالي باشا أن ينقاد الى آرائهم فتقرر أن يكون حاكم الجبل واحداً.

ثم بحث بعد ذلك في ما اذا كان هذا الحاكم يلزم أن يكون مسيحياً او غير مسيحي وتقرر ان يكون مسيحياً من مذهب اكثرية سكانه، ثم بحث في ما إذا كان هذا الحاكم يلزم أن يكون وطنياً او اجنبياً فكان انقسام في الآراء فكان من رأي عالي باشا الصدر الاعظم انه يلزم أن يكون اجنبياً ووافقه على ذلك السير هنري بولور سفير انكلترا فقام الموسيو المركيز دي لافالات سفير فرنسا مثبتاً انه يلزم ان يكون وطنياً حفظاً لامتياز اهل الجبل المعمول به من سنين متطاولة باثبات الدولة، ولأن الوطني اخبر بحالة البلاد ولغته . واسهب الكلام في ذلك ووافقه على رأيه البارون بروكش سفير النمسا، والبرنس لابانوف سفير روسيا، وأوضح الكونت كولنز سفير بروسيا انه لا يضاد الحاكم الوطني مع محافظته على حقوق السلطنة صاحبة السيادة في البلاد، وعرض طريقة للتوفيق بأن ينصب الآن حاكم اجنبي على سبيل التجربة والاختبار في مدة ثلاث سنين، وبعدها تعاد المخابرات وينظر بما بينه الاختبار. ولدى عرض الموسيو دي لافالات الى الموسيو توفانل وزير خارجية فرنسا بما كان بهذه المداولات أجابه بالتلغراف الآتي تعريه: « لا تترك محاماة الحكومة الوطنية بل

ابذل قصارى جهديك بها وإذا رأيت ان الضرورة تقتضي عليك بالتسليم بطريقة التوفيق فلا نوقع على القرار إلا مع التصريح بأن الحكام الوطنيين لا يكونون منفذين في ما بعد، وبعد أن تستوقف من علي باشا ان انتخابه للحاكم الاجنبي يكون واقعاً على داود افندي». ثم كتب له تلغرافاً في ٨ حزيران يقول به: «في الاجتماع الذي كان امس لما رأيت إجماع رأي زملائي السفراء على طريقة التوفيق سلمت بها». وعلى هذا البناء قد نصب داود افندي الارمني والياً على لبنان مدة ثلاث سنين على سبيل التجربة واتفق السفراء مع عالي باشا على انهم بعد انقضاء هذه المدة يجتمع السفراء والصدر الاعظم فيرون ما يكون الاختبار بينه فيعتمد عليه. (قطفنا هذا الكلام الاخير من الكتاب الرسمي الفرنسي المعروف بالكتاب الاصفر عن اعمال الدولة سنة ١٨٦١) وحضر داود الى لبنان وجلت عساكر فرنسة عنه.

عد ١١٠٦

السلطان الغازي عبد العزيز خان

بعد وفاة السلطان عبد المجيد في ٢٥ حزيران سنة ١٨٦١م ببيع بالخلافة اخوه السلطان عبد العزيز في اليوم التالي لوفاته، وكان السلطان عبد العزيز قد ولد في ١٤ شعبان سنة ١٢٤٥هـ الموافق ٩ شباط سنة ١٨٣٠م وكانت باكورة اعماله انه اقر الوزراء في مناصبهم الا ناظر الجهادية رضا باشا فانه بدله بنامق باشا. ومن الاحداث التي كانت في ايامه الحرب في الجبل الاسود، فإن أمير هذا الجبل المسمى دانيال كان قد طلب من مفوضي الدول في مؤتمر باريس سنة ١٨٥٦م الاعتراف باستقلاله فلم ينل طلبه قبولاً بل اشاروا عليه أن ينقاد للدولة العلية، وهي تتخلى له عن بعض املاكها في الهرسك لتوسيع تخومه، وتولية رتبة مشير، وتعين له راتباً مالياً في كل سنة، فلم يتفق على الحدود فحصلت لذلك عدة مواقع بين الجبليين وعساكر الدولة سنة ١٨٥٨م، وقتل الامير دانيال سنة ١٨٦٠م فخلفه ابن اخيه المسمى نقولا. وساعد اهل الهرسك في ثورتهم فأحمد عمر باشا ثورتهم وحاصر امارة الجبل فأرغم الأمير نقولا أن يوقع على الشروط التي وضعها له عمر باشا سنة ١٨٦٢م. وفي جمعتها ان تبني الدولة قلاعاً في

الطريق بين اشقودرة والهرسك وتوسطت دول اوروبا ولاسيما فرنسا وروسيا
فعدلت الدولة عن بناء القلاع في ارض الجبل على شريطة ان امير الجبل يتعهد
بحفظ هذه الطريق ويكفل ما يسلب من اموال التجار العثمانيين فيها وقبل الامير
هذا الشرط فانتهت الحرب وزال الخلاف سنة ١٨٦٤م.

ومما كان في السرب في ايام هذا السلطان انه لما كان قد تقرر في مؤتمر
باريس سنة ١٨٥٦م استقلال السرب تحت سيادة الباب العالي، وأن يكون للدولة
العلية الحق في اقامة حامية في ست قلاع بهذه البلاد. ففي سنة ١٨٦٢م حصلت
فيها فتنة بين المسلمين والنصارى وتدخل قائد الحامية العثمانية بنجدة المسلمين فعقد
مؤتمر في الآستانة حضره مفوضو الدول الموقعة على عهدة باريس، وتقرر فيها إخلاء
قلعتين من الجنود العثمانية، وبقاؤها في اربع قلاع من الست، وان من بقي من
المسلمين خارجاً عن القلاع الاربع لزمه أن يبيع املاكه ويهاجر، وان لا يتدخل
القواد العثمانيون في ادارة البلاد البتة. وجلت العساكر العثمانية عن السرب سنة
١٨٦٧م، فكمل استقلالها وتكملة لتاريخ هذه البلاد نقول ان ميخائيل أمير السرب
قتل سنة ١٨٦٨م وخلفه الامير ميلان فحارب الدولة لكن ظهرت عليه الجنود
العثمانية سنة ١٨٧٦م، فأرغم على عقد الصلح لكنه عاد الى القتال سنة ١٨٧٧م
لما رأى الجيش الروسي ظافراً الى ان قضى مؤتمر برلين باستقلال السرب وتوسيع
تخومها سنة ١٨٧٨م، وجعلت مملكة سنة ١٨٨٢م والامير ميلان ملكاً عليها، الى
أن تنزل لابنه عن الملك وسمي اسكندر. وقتل في هذه السنة في ٢٦ تموز سنة
١٩٠٣م على ما اذكر، وخلفه بطرس الاول. واما الفلاخ والبغدان فكانت معاهدة
ادريانوبل وضعت الفلاخ تحت حماية روسيا وحدها، ولكن في معاهدة باريس سنة
١٨٥٦م جعلت تحت حماية دول اوروبا الموقعة على تلك العهدة. وفي سنة
١٨٥٩م ضمت الى البغدان وتسمت الامارتان رومانيا، وكان يليهما معاً الامير
كوزا ولهما مجلس شورى واحد ووزارة واحدة، وسُمي اميرهما يوحنا اسكندر
الاول. وفي اواخر سنة ١٨٦١م صدر فرمان باجازه انضمام الولايتين، فثار
الاهلون عليه سنة ١٨٦٦م وارغموه على الاستقالة. واجتمع مفوضو الدول في
باريس يتداولون بأمر الخلافة للامير اسكندر الاول وقرروا أن يكون الوالي من

أشراف البلاد فلم يرَضَ الأهلون بل انتخبوا الأمير شارل دي هنزولرن من اسرة
بروسيا المالكة وسمي ملكاً بعد حرب روسيا الاخيرة. ومما كان في ايام السلطان
عبد العزيز ثورة اهل كريت وتخميند عالي باشا لها، وانعقاد مؤتمر بياريس من
مفوضي الدول الموقعة على معاهدتها سنة ١٨٥٦، وانتهت المسألة في ذلك الحين
باصدار السلطان ارادة سنية في ١٩ ايلول سنة ١٨٦٩م منح بها الجزيرة بعض
امتيازات، وعفا اهلها من دفع المال الاميري سنتين ومن الخدمة العسكرية. ومما فعله
السلطان عبد العزيز خلافاً لعادة اسلافه زيارته للقطر المصري سنة ١٨٦٣م وزيارته
لباريس سنة ١٨٦٧م واقامته لجنة لتأليف «مجلة الاحكام العدلية» سنة ١٨٦٩م.
وفي ايامه انتهى فتح خليج السويس سنة ١٨٦٩م. وقد تأمر بعض اصحاب المآرب
عليه بدسائس بعض الاجانب ايضاً على ما يظن وحملوا شيخ الاسلام خير الله
افندي على الفتوى بصحة خلعه ثم قضى اجله سنة ١٨٧٦م بطريقة يعلمها الله اذ
لم تزل غامضة الى الآن.

عد ١١٠٧

السلطان مراد خان الخامس

هو ابن السلطان عبد المجيد خان ولد في ٢٥ رجب سنة ١٢٥٦هـ (سنة
١٨٤٠م) وبعد تبليغ السلطان عبد العزيز الفتوى بعزله، وانتقاله الى سراي طوبقو
ببيع السلطان مراد بالخلافة والملك في اواخر ايار سنة ١٨٧٦م. وبعد استوائه على
سرير الملك اصدر فرماناً بابقاء الوزراء وجميع المأمورين على مناصبهم مبيناً فيه خطة
الاصلاح الذي يريد أن يجري عليها، لكنه لم يسمح الله له بابرار مقاصده الخيرية
الى حيز العمل لانه ظهرت عليه امارات الاضطراب العصبي بعد المبايعة له باسبوع
واحد ثم اخذت في الازدياد شيئاً فشيئاً ولاسيما بعد أن بلغه خبر قتل حسن بك
الجركسي وحسين عوني باشا ومحمد راشد باشا. وكان الصدر الاعظم يكتنم خبر
انحراف صحة السلطان عن العامة ولكن كان يديه عدم احتفاله بتسليم السيف
السلطاني في جامع ابي ايوب كالعادة، وعدم مقابلته سفراء الدول. ولما اشتد مرضه
دعا الوزراء الطبيب ليدزورف النمساوي الشهير، وبعد أن فحص جلالتة ولازمه

عدة ايام قضى بتعسر برءه من مرضه، فتشاور الوزراء وعرضوا على اخيه عبد الحميد افندي ان تسلم اليه مقاليد السلطنة لعدم لياقة اخيه لادارة شؤونها، فأجابهم رعاه الله انه لا ينبغي التسرع في الامر عسى الله يمن على اخيه بالفرج والعود الى ما كان عليه من حسن الذهن والذكاء، فامثل الوزراء على انهم رأوا بعد ذلك ان اختلال شعوره يتزايد فاجتمعوا في ١٠ شعبان سنة ١٢٩٣هـ (٣٠ آب سنة ١٨٧٦م) وقرروا لزوم المبايعة للسلطان عبد الحميد خان، واجتمعوا ثانية واستدعوا شيخ الاسلام خيرالله افندي وجميع الكبراء والعلماء والامراء والأعيان واستفتوا شيخ الاسلام فأفتى بوجوب عزله وهذا نص الفتوى:

«اذ جن امام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة من عهده والجواب يصح والله اعلم.

كتبه الفقير حسن خيرالله عفي عنه

عد ١١٠٨

السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني

هو سلطاننا الأعظم ومليكننا الأفخم ولي النعم ومن اشتهر بحكمته وحسن سياسته بين الأمم كنارٍ على علم نصره المولى المنان، وأبد أريكة ملكه ما تتالى الملوان، وجد الجديدان. «ان من عادة المؤرخين ان لا يدونوا تراجم ملوك أيامهم خشية أن يعزى اليهم التملق والمغالاة في مدحهم فنحذو حذوهم، ولا سيما ان ما من الله به على مولانا الاعظم من الحكمة السامية واصالة الرأي وسداد الفكر وتوقد الذهن وسمو المدارك وغير ذلك من الصفات النادرة المثل في الملوك الاعاظم هو غني عن البيان، ويعترف به كل لسان، فنقتصر على ذكر تاريخ مولده الشريف وسنة استوائه على العرش، وذكر بعض اعماله الباهرة، وبعض ما كان في ايامه الزاهرة. فقد كان مولده الشريف في ١٦ شعبان سنة ١٢٥٨هـ (٢٣ ايلول سنة ١٨٤٢م) وارتقى الى العرش في ١١ شعبان سنة ١٢٩٣هـ (٣١ آب سنة ١٨٧٦م)، وبعد القاء ذمة السلطنة والخلافة اليه اصدر فرماناً في ٢١

شعبان سنة ١٢٩٣هـ (١٠ ايلول سنة ١٨٧٦م) موجهاً الى محمد رشدي باشا الصدر الاعظم يبين فيه تقريره لوزراء في مناصبهم، وشديد رغبته في الاصلاح، ثم استقال محمد رشدي باشا من منصب الصدارة لتقدمه في السن فعهد بهذا المنصب الى احمد مدحت باشا في ٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣هـ (١٣ كانون الاول سنة ١٨٧٦م) وبعد اربعة ايام اصدر اليه الخط الشريف الهمايوني مرققاً اياه بالقانون الاساسي الشوردي وامر بتنفيذه.

وعند استواء جلالته على العرش العثماني كانت المملكة محفوفة بالمخاطر من قبل الثورات التي اثارها اصحاب المآرب السياسية في بلغاريا والسرب والجبل الاسود والهرسك والبشناق، واجتمع مؤتمر في الآستانة حضره مفوضو الدول في ٢٣ كانون الاول سنة ١٨٧٦م فاقترحوا على الدولة اقتراحات مغضة من كرامتها مضرة بمصلحتها فأبى الباب العالي إلا رفضها ونبذها فأشهرت روسيا الحرب على الدولة العلية في نيسان سنة ١٨٧٧م، وزحفت جيوش الطرفين للقتال ودول اوربا راضية عن اعتداء روسيا غير مساعدة بشيء للدولة العلية، فأظهر الجنود العثمانيون وقادتهم في هذه الحرب آيات البسالة والثبات ولاسيما في مواقع بلفنه وقارصن بنوع انهم وان تقهقروا الا انهم ابانوا لروسيا ولسائر دول اوربا ما اتصفوا به من البسالة والثبات في القتال والتجلد على المشاق فيه ما ادهش كل من سمع بأخبارهم وعظمت مهابتهم في أعين أعدائهم أنفسهم.

وهاجر المسلمون من بلغاريا وغيرها الى الآستانة مستظلين بأكتاف صاحب الخلافة فأثقلوا كاهل الدولة فوق اثقالها بالحرب ونفقاتها، ودخلت جيوش الروس الى ادرنة في ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٨م وهددت الآستانة بالحصار، فارتأى الباب العالي أن يرسل نامق باشا وسرور باشا لخبرة الغراندوق نيقولا بتوقيف الحرب فسارا اليه ومعهما نجيب باشا وعثمان باشا من جانب الجيش العثماني. ففي ٢٠ كانون الثاني سنة ١٨٧٨م وقّع الفريقان على اتفاقين الأول وقّع عليه الغراندوق نيقولا ونامق باشا وسرور باشا ومفاده منح الدولة العلية الاستقلال الاداري للبلغار والاستقلال السياسي لرومانيا والجبل الاسود وتعديل تخومهما والتخلي لهما عن بعض املاك الدولة، وتقرير غرامة حرية لروسيا تدفع منقودة او يستعاض عنها بأخذ

بعض القلاع والحصون. والاتفاق الثاني وقع عليه نجيب باشا وسرور باشا ومفوضين من قبل الجيش الروسي مفاده توقيف الحرب وشروط الهدنة.

ولما بلغ دول أوروبا الاتفاق على مبادئ الصلح وحصول الهدنة طلبت النمسا الى انكلترا عقد مؤتمر يجتمع فيه مفوضو الدول الموقعة على معاهدة باريس سنة ١٨٥٦م خشية أن يكون في هذا الصلح ما يحجب بحقوق الدولة، فأجابت انكلترا النمسا الى هذا الطلب واقترحت أن يكون عقد المؤتمر في مدينة باد، وشاع حينئذ ان روسيا ترغب في أن يكون الصلح مع الباب العالي بمعزل عن الدول، وشاع ايضاً ان عساكر الروس احتلت الآستانة فأمرت انكلترا اسطولها أن يدخل الى البوسفور لحماية رعاياها، فدخل الاسطول رغماً، واكتفى الباب العالي باقامة الحجة على دخوله فاغتنمت روسيا هذه الفرصة فطلب قائد جيشها ادخال فرق من الجيش الخيم قريباً من الآستانة الى المدينة بحجة الحمامة عن النصارى، فعارضت انكلترا كل المعارضة فعدلت روسيا عن ذلك.

وطلب الغراندوق أن ينقل مركز المخابرات من ادرنة الى البلدة المعروفة بسان اسطفانو في جوار الآستانة فقبلت الدولة ذلك. وفي ٢٤ شباط سنة ١٨٧٨م سافر الغراندوق الى البلدة المذكورة بألف جندي بصفة حرس له ثم تزايد عدد الجنود الروسية هناك حتى بلغ نحو عشرين ألف مقاتل، وحضر الى هناك صفوت باشا ناظر الخارجية وسعد الله بك سفير الباب العالي في المانيا والجنرال اينياتف مفوض روسيا. وبعد عدة اجتماعات طلب المفوض الروسي التصديق على اعمال المعاهدة قبل اليوم الثالث من آذار الواقع فيه عيد جلالة القيصر مهدداً بابطال الهدنة وسوق عساكر الروس الى الآستانة اذا لم يجر التصديق في اليوم المعين فاضطر مندوبا الدولة العلية الى التوقيع قبل التروي الكافي في مواد المعاهدة.

وهذه خلاصة مواد هذه المعاهدة التي يهم مطالعي تاريخنا معرفتها فقد تقرر في المادة الأولى تصحيح الحدود بين المملكة العثمانية والجبل الاسود بموجب خريطة صنعت لذلك، وأن يثبت الباب العالي استقلال امارة الجبل المذكور وأن تكون امارة السرب مستقلة ايضاً ومضبوطة تخومها بموجب خريطة، وان المسلمين الذين لهم املك في البلاد الملتحقة بالسرب لهم الخيار في أن يؤجروها او يقيموا وكلاء عنهم في ادارتها. وقد تقرر ايضاً أن يثبت الباب العالي استقلال رومانيا

وأن يكون البلغار اماره ممتازة تدفع مبلغاً معلوماً الى الدولة العلية، ويكون مأمورو الحكومة والعسكر من النصارى، وأن امير بلغاريا ينتخبه الاهلون وبشبهه الباب العالي بحيث لا يكون من اقارب ملوك اوروبا الجالسين على عرش الملك، ولا يبقى حق لعساكر الدولة أن تقيم في القلاع القديمة. وان لأصحاب الاملاك من المسلمين اذا ارادوا الاقامة في خارج الامارة أن يؤجروا أملاكهم أو يفوضوا من أرادوا بادارتها. وان الاصطلاحات التي تقرر في اول مجلس من مؤتمر الآستانة ينبغي تنفيذها دون تأخر في البشناق والهرسك مع التعديلات التي سوف تقرر بين الدولة العلية ودولتي روسيا والنمسا. وان الباب العالي يتعهد باجراء احكام النظام الاساسي الذي وضع لجزيرة كريت سنة ١٨٦٨م طبق طلب الاهالي، وأن يصدر عفواً عاماً عن جميع المتهمين بالاحداث الاخيرة ويطلق الاسرى والمسجونين لهذا الداعي، وان مبالغ التعويضات التي طلبها قيصر الروس وتعهد الباب العالي بدفعها هي مائتان وخمسة واربعين مليون ومائتان وسبعة عشر ألف وثلاثماية وإحدى وتسعون ليرة عثمانية وأعلن القيصر أن يأخذ بقسم كبير من هذه المبالغ املاكاً للدولة جرى تعيينها. وان خليج الآستانة وخليج جنائق قلعة يكونان مفتوحين للسفن التجارية التي تمر الى بلاد روسيا الى غير ذلك. ووقع على هذه المعاهدة في ١٩ شباط و ٣ آذار سنة ١٨٧٨م.

كونت انيانيف صفوت ليليدوف سعدالله

وقد رأت دول اوروبا هذه المعاهدة معظمة للنفوذ الروسي في الممالك المحروسة ومجلبة الخوف من استحواذ روسيا على الآستانة العلية فطلبت تعديل معاهدة سان اسطفانو هذه، وكانت انكلترا اشد تشبهاً بهذا الطلب. وفي ٧ آذار سنة ١٨٧٨م دعت النمسا جميع الدول لعقد مؤتمر في برلين تحت رئاسة البرنس بسمارك وطلبت انكلترا ان تنظر الدول في كل مواد معاهدة سان اسطفانو وانكرت روسيا ذلك على انها رأت انه لا بد من الاجابة الى هذا الطلب. ودعا بسمارك الدول لارسال مفوضيهم الى برلين لعقد المؤتمر في ١٣ حزيران سنة ١٨٧٨م، فعقدوا عشرين مجلساً في مدة شهر الى ١٣ تموز سنة ١٨٧٨م.

وهذا شيء مما كان في هذا المؤتمر ففي المادة الاولى تقرر استقلال اماره البلغار

في امورها الداخلية وأن تدفع في كل سنة خراجاً للباب العالي وتبقى تحت سيادة الحضرة السلطانية ويكون حاكمها مسيحياً وعساكرها وطنية وعين المؤتمر تخومها من كل جهاتها وقرر ان اهل البلغار لهم الحرية التامة أن ينتخبوا اميرهم وللباب العالي ان يقرره برضى الدول العظام ولا يكون من بيوت الملوك المالكة، وبعد انتخابه تجتمع اعيان البلغار لتسن نظاماً لامارتهم، وان اختلاف المذهب بين البلغاريين لا يخرج احدهم من الحقوق العمومية والمدنية، والخراج الذي يدفعه البلغار للحضرة السلطانية يكون تعيينه عند ختام السنة الأولى من العمل بالنظام الجديد باتفاق بين الدول ومراعاة حالة الدخل وقيمة ما يتحملة البلغار من ديون الدولة العامة وان تجلى العساكر العثمانية عن البلغار وتهدم القلاع التي لها في هذه البلاد. ثم تقرر أن تشكل على جنوب البلغار ولاية تسمى الروملي الشرقية تبقى على تابعيتها السياسية والعسكرية للباب العالي، ولكنها حائزة على استقلال اداري ويكون واليها مسيحياً الى مدة خمس سنين منصوباً من الباب العالي برضى الدول، وحدد المؤتمر تخوم هذه الولاية.

ثم قد تعهد الباب العالي أن يجري في جزيرة كريت النظام الذي تقرر وضعه لها سنة ١٨٦٨م مع بعض التعديل الذي يرى من العدل اجراؤه. وتقرر أن تتبوأ عساكر النمسا والمجر ولايتي البشناق والهرسك ويناط بها امر ادارتهما، وتتفق مع الدولة العثمانية على المواد المتعلقة باحتلال عساكرها هذه. وقد اعترف الباب العالي باستقلال الجبل الاسود واعترفت له بذلك الدول التي لم تقرر له به قبلاً، وتقرر أن اختلاف المذهب لا يخرج احداً من اهل الجبل عن الاهلية المدنية والسياسية وعينت تخوم هذا الجبل، وان المسلمين الذين يحبون أن يسكنوا خارجاً عن الجبل تبقى لهم الحرية بالتصرف بأملأهم، ويلزم الجبل الاسود أن يتحمل جانباً من الديون العامة على الدولة العلية. ثم وطد المؤتمر استقلالية السرب وعين تخوم هذه البلاد وأن تكون معاملة رعايا السرب القاطنين في السلطنة العثمانية بحسب اصول الاحكام المتداولة بين الدول. وأن تتحمل السرب قسماً من ديون الدولة العامة وتقرر ان اختلاف المذهب لا يخرج احداً من رعايا رومانيا عن الحقوق المدنية والوظائف العامة في هذه الامارة وان ترد هذه الامارة على روسيا اراضي بيسارابيا التي كانت قد اخذت من روسيا في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦م.

ثم تقرر ان الباب العالي يسلم الى روسيا في آسيا، واردهان وقارص وباطوم وغيرها وتعينت التخوم الفاصلة بين المملكتين، وان ترد روسيا على المملكة العثمانية اودية الثغرا ومدينة بايزيد، وان الباب العالي يتعهد بأن يجري دون تأخر في الولايات التي سكنها من الارمن الاصلاحات والتحسينات التي تحتاجها في امورها الداخلية، وبأن يأمن الارمن من تعدي الجراكسة والاكراد، وأن يفيد الدول عما يصنعه بذلك وهي تراقب كيفية اجرائه. ولما كان الباب العالي اظهر رغبته في حفظ اصول حرية الدين فالدول الموقعة على هذا المؤتمر تنزل هذه الرغبة منزلة العمل باختلاف الدين لا يخرج احد العثمانيين عن الاهلية لشيء من الحقوق المدنية والسياسية والدخول في الوظائف الاميرية او نيل مراتب الشرف او استعمال الصنائع، وأن يؤذن لجميع الناس أن يؤدوا الشهادة في المحاكم دون تمييز في الدين، ويحق لجميعهم استعمال امور دينهم بتمام الحرية ويكون الاكليرس والزوار والرهبان من جميع الامم الذين يسافرون في الممالك العثمانية حائزين حقوقاً متساوية ومفوض الى قناصل الدول ونوابها أن يحاموهم ويحموا محلاتهم الدينية والخيرية حماية رسمية في الاماكن المقدسة وغيرها، اما الحقوق المقررة لفرنسة فتبقى مرعية الاجراء. ومن المقرر انه لا يسوغ تبديل حال من الاحوال الحاضرة في الاماكن المقدسة، ثم قرروا اخيراً ان تبقى معاهدة باريس سنة ١٨٥٦م ومعاهدة لندن سنة ١٨٧١م مرعيتي الاجراء في جميع المواد التي لم تنسخها او تعدلها هذه المعاهدة ووقع نواب الدول على هذه المعاهدة ووضعوا عليها اختامهم في ١٣ تموز سنة ١٨٧٨م.

وكانت في ايام متبوعنا الاعظم ثورة اليونان سنة ١٨٩٨م، وفكت بهم الجنود العثمانية المظفرة واندعروا من وجهها في مواقع عديدة، ولولا شفقة جلالته ووساطة دول اوروبا لاستحوذ على بلادهم وأذاقهم الأمرين. ولا ينكر ما كان في ايام عظمتهم من النهضة العلمية في جميع ممالكه ولا سيما عند الاتراك من تأسيس المدارس والمكتبات والمطابع وترجمة الكتب، فقلما نجد الان كتاباً علمياً هاماً في اي فن او علم كان الا ونجده مترجماً الى التركية، وقد احيت مطبعة الطباعة كثيراً من رمم مؤلفات القدماء واغنت المكتبات بها وبياتي مطبوعاتها اطلال الله ايامه وزادها يمناً وسعداً وجعل الاقبال والرغد له رقاً وعبداً.

ما كان بسورية من سنة ١٨٦١ فصاعداً الى الآن

قل ما كان بسورية في هذه الفترة شيء من الامور الهامة، وتبدل على متصرفية لبنان الى الآن ستة ولاية او متصرفين فأولهم داود باشا الارمني سماه السلطان سنة ١٨٦١م برضى سفراء الدول الموقعة على نظام لبنان، ولم تخل ايام ولايته من القلق وكان فؤاد باشا قد سمى يوسف بك كرم وكيلاً لقائمقامية النصارى، وانتهت مأموريته هذه بوصول داود باشا الى لبنان واراد المتصرف أن يستعمله في احدى القائمقاميات لما كان للبك من نفوذ الكلمة بلبنان ومحبة الشعب له، لكن يوسف بك أبى قبول اية وظيفة كانت وأحب أن يعتزل طائعاً عن كل وظيفة، ولما ضويق ليقبل وظيفة سمي قائمقاماً لقضاء جزين لكنه استقال من هذا المنصب في اليوم الثالث من نصبه به، ومضى الى داره باهدين فوجس داود باشا من هذا الاعتزال وشكا الامر الى فؤاد باشا فكتب الى كرم أن يحضر اليه طلق العنان (كما في اصل الرسالة) فأسرع بالحضور دون ابطاء الى بيروت، ولما قابل فؤاد باشا امره ان يبقى حيث كان وقتئذ في القشلة العسكرية فبقي مكرماً، وبعد ايام صحبه فؤاد باشا معه بسفره الى الآستانة في اواخر سنة ١٨٦١م.

واقام كرم بك بالآستانة مطلقاً له ان يتوجه حيث شاء الا عوده الى سورية. وفي سنة ١٨٦٤م جددت ولاية داود باشا ولما عرف يوسف بك بذلك عاد الى زغرتا في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٦٤م، فاهتزت البلاد له، ورأى داود باشا انه يتعسر عليه ادارة البلاد وهو فيها وان لا قوة كافية لكتبته فأمنه وسافر سنة ١٨٦٥م الى الآستانة يستأذن ويستعد لحربه، وبعد عوده من الآستانة قبض في اواخر السنة المذكورة على بعض انسباء كرم وأصحابه، وعلم يوسف بك ما وراء الأكمة فأتى بجمهور من شمالي لبنان اكثرهم من اهل التعقل والسلامة لا من اهل الحرب آملاً أن يحمل الباشا على مصالحته، فبلغوا في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٦٦م الى دير مار ضوميط البوار، وبينما كان البك يسمع القداس وفد بعض فرسان الدراغون على رجال البك وناوشوهم القتال فاضطربت نار الحرب، وتقدم البك برجاله الى المعاملتين فزادت نار الحرب تسعراً وقتل من الطرفين عدة قتلى وعاد البك برجاله الى زغرتا.

فأرسل داود باشا العساكر في أثره فكانت وقعات بين كرم والعساكر سيأتي ذكرها وفي آخرها اختفى كرم وكانت العساكر تطلبه فلم تنل منه مأرباً. أخيراً سئمت نفسه الاختفاء فظهر واجتمع عليه نحو ثلاث مائة رجل قام بهم في وسط البلاد من جبة بشري الى بلاد البترون وجبيل وكسروان حتى بلغ الى قاطع بيت شباب وعسكر الحكومة يتبعه عن بعد، ولم يتحرش لقتاله إلا في الوادي الفاصل بين كسروان والقاطع ولما رأى داود باشا اتساع الحرق لجأ الى قنصل فرنسة لايجاد مخرج من هذه الحال السيئة، وبينما كان يوسف بك في القاطع ارسل اليه قنصل فرنسة كتاباً يعرض عليه به ان يكون تحت حماية فرنسة وهي تسفره من لبنان بكل امن الى فرنسة وارسل اليه القنصل بعض اعيان ليقنعوه بالاجابة الى طلبه فعاد البك حيثئذ برجاله الى دير بكركي كرسي بطريركية الموارنة الذي كان عينه القنصل موعداً للالتقاء به، فقبل البك حماية فرنسة وأن يسافر من لبنان تحت رايته. وبارح بكركي قاصداً بيروت للسفر منها الى فرنسة، فاجتمعت في بكركي الألوف المؤلفة ورافقته في سفره، وغصت الطريق بالملاقين له من بكركي الى بيروت، فكان لدخوله بيروت احتفال لم يكن له مثيل قبله فأقام فيها ثلاثة ايام وسافر الى مرسيليا في شهر شباط سنة ١٨٦٧م ثم الى جزائر الغرب.

وأما داود باشا فاستمر على متصرفية لبنان بعد ذلك نحو سنة وعزله الباب العالي برضى سفراء الدول سنة ١٨٦٨م، وسمى خلفاً له المرحوم فرانكو باشا كوسا واستمر يدبر هذه المتصرفية الى أن مات مأسوفاً عليه سنة ١٨٧٣م ودفن في الحازمية. وخلفه في متصرفية الجبل رستم باشا وأقام فيها عشر سنين الى سنة ١٨٨٣م حين سمي الباب العالي بدلاً له واصه باشا المارديني الأصل وبقي يدبر الجبل الى أن توفي في ٢٩ حزيران سنة ١٨٩٢م، ودفن في الحازمية ايضاً بجانب مدفن حرمه ومدفن بنته اللتين توفيتا بلبنان مدة ولايته. وخلفه سنة ١٨٩٢م نعم باشا ابن اخوت فرانكو باشا ودبر جبل لبنان الى سنة ١٩٠٢م حين انقضت مدة ولايته، فسمى الباب العالي خلفاً له برأي سفراء الدول المتصرف الحالي وهو دولتو مظفر باشا وفقه الله الى عمل ما به الخير ورضى المتبوع الاعظم ونجاح لبنان. وفي سنة ١٣٠٣هـ (اي سنة ١٨٨٥م) فصلت ولاية بيروت عن ولاية سورية

وجعلت مستقلة. وأول والي سُمي لولاية بيروت هو المغفور له علي باشا اقام على الولاية سنة إلا اياماً وتوفي وسمي موضعه حسين فوزي باشا ثم رؤوف باشا ثم عزيز باشا ثم اسماعيل بك ثم خالد بك ثم نصوحي بك ثم رشيد بك افندي ثم خليل خالد باشا والينا الحالي.

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن التاسع عشر

عد ١١١٠

بعض المشاهير السوريين في هذا القرن

١- الشيخ امين الجندي الحمصي

ولد بحمص في اوائل القرن الحادي عشر للهجرة ونشأ بها وأخذ العلوم عن علمائها وتردد الى دمشق وقرأ على أئمتها، ومن جملتهم الشيخ عمر اليافي الشهير. ثم عاد الى حمص واقام بها واتقن الشعر واشتهر به. وفي سنة ١٢٤٦هـ (سنة ١٨٣٠م) وشى به الى عامل حمص انه هجاه وندد به فقر الشيخ الى حماه فبعث العامل رجالاً قبضوا عليه وحبسوه ومنعوا عنه الطعام إلا ما يقيه الموت. واتفق حينئذ ان سليماً بن باكر من الدنادشة دخل حمص عنوة بمائتي رجل من عشيرته وقتل ذاك العامل، واخرج الشيخ امين من سجنه، ولما كان ابراهيم باشا المصري بسورية كان الشيخ امين متقرباً اليه لاثناً بعقوته كثيراً من القصائد في مدحه، ومن نظم الادوار ليتغنى بها بذكره ومنها:

سل عن مزيل جراداً جل عن وصفٍ يغشى كنييل بلاد الشام بالزحفِ
ابو خليل نعم افناه بالحتفِ وكم من جميل له في ذلك الحينِ
واللازمة لهذه الادوار

ان تبعديني فان الحب يدنيني من ذا يقيني وسهم اللحظ يرميني
والمبسم الدر منه الرشف يشفيني ان مسني الضر
وله غير ذلك كثيراً.

وقد عني بعضهم بجمع اكثر ما نظمه من القصائد والمقاطع والموشحات فكان
منه ديوان كبير وقد طبع حديثاً في بيروت بمطبعة المعارف ومن اغانيه:

يا بدر حسن تبدي من ورا الحجبِ يفتر ياقوته عن لؤلؤ رطبِ
ويا غزالاً زها بالتيه والعجبِ اراش عمداً لقتلي اسهم الهدبِ
سل بنديه عن عطفه من برديه ليلاً إذا بانا
من جفنيه ام لحظه ام كفيه دارت حميانا
ومن شعره تخميشه قصيدة حجازي افندي مفتي حلب ومطلعها:

شكر النسيم من العذيب ورودي ما بين روض عباهر وورودي
ناديت غب تمزقي لبرودي اهلاً بنشير من مهب زرودي
أحيى فؤاد العاشق المنجود

حيا الصبا تلك الربى فتعطرت وراح روحاً بالتواصل بشرت
ادى الرسالة مثلما قد سطرت وروى شذى خير العقيق ففجرت
فيه عيون الدمع فوق خدودي

وهذا التخميس مشهور متداول. وقد توفي بحمص سنة ١٢٥٧هـ (سنة
١٨٤١م).

٢- المعلم بطرس كرامة

هو بطرس بن ابراهيم كرامة من اعيان ملة الروم الكاثوليكين في حمص، ولد بها سنة ١٧٧٤م وبها نشأ وتأدب بالعلوم وكان له عم رقي الى الاسقفية سنة ١٧٦٣ على قلاية دمشق وسمي ارميا، واتى الى حمص ونزل في بيت اخيه ابراهيم. واتفق حينئذ أن حضر مطران من السريان الكاثوليكين فلم يقبله السريان اليعاقبة وحل ضيفاً على المطران ارميا واقام القداس هناك اياماً، فشكا مسعود آغا سويدان ابراهيم كرامة بانه جعل بيته كنيسة لمن لا تعرفهم الحكومة السنية فقبضت الحكومة على الكهنة الكاثوليكين وسجنوهم وغرموهم بمال، فسئمت نفس ابراهيم الإقامة بحمص فهاجر مع ابنه بطرس الى عكا ثم الى لبنان. وكان بطرس ضليعاً باللغة العربية ويحسن التركية فدعاه الامير بشير الشهابي المعروف بالكبير والي لبنان ليعلم ابنه خليلاً وأميناً سنة ١٨١٠م، فلبى دعوته واقام بخدمته فسر الامير بما رآه من درايته وسمو مداركه فرفع مكانته واعتمد عليه في تدبير شؤونه واشتهر بعلمه وتفننه وشعره وعظمت مهابته وبقي على ذلك الى أن نفي الامير بشير الى مالطة اولاً سنة ١٨٤٠م ثم سافر الى الآستانة. والمعلم بطرس اكبر مستشار له وتزلف هناك إلى رجال الدولة فعين مترجماً في المابين الهميوني الى أن أدركته المنية سنة ١٨٥١م في الآستانة وأرخ الشيخ ناصيف اليازجي وفاته بقوله:

مضى من كان اذكى من اياس بحكمته واشعر من زهير
فقل يا ابن الكرامة قر عيناً لبطرس ارحوه ختام خير

سنة ١٨٥١

وكان رحمه الله شاعراً مجيداً فصيح اللسان سيّال القلم طبع له ديوان في بيروت سنة ١٨٩٨ اشتمل على نحو سبعة آلاف بيت اكثرها في مدح الامير الشهابي ووصف اعماله وتقريظ من عاصره من الامراء والعظماء ومكاتبة الشعراء والأدباء، ومنهم عبد الباقي البغدادي الشهير.

ومن شعره يصف رشحاً أَلَمَّ به:

وليلة بت اشكو الرشح من ضرر حتى فنيت وحال الحال وانسابا
قالوا اترشح يا هذا فقلت لهم كلا ولكن انفي صار ميزابا
كأن عيني عين الماء في هطلٍ وصار انفي دلو الماء صبابا
وقصيدته الخالية التي التزم في كل بيت منها كلمة الحال وكل منها بمعنى
مشهورة ومطلعها:

امن خدّها الوردي افتتك الحال فسح من الاجفان مدمعك الحال
ونختامها:

لكل جماح ان تمادى شكيمة ولكن جماح الدهر ليس له خالُ

٣- الشيخ ناصيف اليازجي

هو ناصيف بن عبدالله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي الحمصي
الأصل اللبناني المولد والنشأة هاجر جده سعد المذكور من حمص نحو سنة
١٦٩٠م فتوطن في ساحل بيروت، وتفرق بعض هذه الاسرة في وادي التيم
ومحالٍ اخرى، واستمرت بقية منهم بحمص. وولد الشيخ ناصيف بقرية كفرشما
في ٢٥ آذار سنة ١٨٠٠م وتعلم القراءة على القس متى من قرية بيت شباب،
وكان والده طبيباً مشهوراً وكان يحسن الشعر وان قل نظم، فنشأ ناصيف على
الميل الى الأدب والشعر واقتبل بنفسه على الدروس والمطالعة لكتب النحو واللغة
ودواوين الشعراء واخذ ينظم وهو حدث السن، وأكّـب على نسخ الكتب حتى
يقال ان عند اسرته كتباً كثيرة بخط يده، ثم اتصل بالامير بشير الشهابي الشهير
فقربه اليه وجعله كاتباً له واقام في خدمته اثنتي عشرة سنة، ولما ترك الامير لبنان
سنة ١٨٤٠م انتقل الشيخ نصيف الى بيروت واقام بها متفرغاً للمطالعة والتأليف
والتدريس ونظم الشعر.

فمن تأليفه المشهورة ارجوزتان احدهما في التصريف والأخرى في النحو
اشتملتا على نحو من ألف وخمسمائة بيت استوفى فيها اصول هذين العلمين على
احسن اسلوب وشرحها بنفسه وتداولها ايدي اكثر الطلبة في المدارس المسيحية.
وله ايضاً ارجوزة في المنطق واخرى في العروض واخرى في المعاني والبيان وكتاب
«عقد الجمان» في المعاني والبيان. وله ايضاً «مجمع البحرين» وهو كناية عن ستين
مقامة نحا فيها نحو الحريري في مقاماته مرصعاً لها بأنواع البديع وامثال العرب
وفصيح الألفاظ. وجمع من شعره ثلاثة دواوين هي شاهدة بطول باعه وسعة
اطلاعه وجامعة بين دقة الصناعة ورقة العبارة وسمو البراعة. وقال الشيخ عبد الباقي
العمري البغدادي عند وقوفه على النبذة الأولى من ديوانه:

على نبذة من شعر ناصيف ذي الفضل وقفت ومني العين في موضع الرجل
وطأطأت إجلالاً لها رأس شامخ لا خمصه هام العلى موطئ النعل
الى أن قال:

اذا انكرت دعواه في الشعر فتية اقام عليها شاهد العقل والنقل
وان رام شعري ان يباري شعره يقول شعوري اني عنك في شغل
ومدحه ايضاً عبد الهادي نجا الايباري والشيخ ابراهيم الاحدب وكانت بينه
وبين شعراء زمانه مراسلات طبع جانب منها وشُي «فاكهة الندماء». ومن شعره
قوله عندما زاره محمد عزت باشا احد قواد الجنود السلطانية.

يا زائراً بيتي اراك فتنته فعليك بيت غيره من مثله
اجللته عني فصرت اهابه حتى كأني لم اكن من اهله
وقال في بخيل

قد قال قوم ان خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه

وقد بلي في آخر عمره ب وفاة ولده الحبيب ووجد عليه كثيراً واخذ في نظم قصيدة برثيه بها لكنه لم يعد يملك عنان قريحته فلم يكملها وهذا ما نظمه منها:

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفاً عليه ويا دموع اجيبي
ربيته للبين حتى جاءه في جنح ليل خاطفاً كالذبي
يا ايها الام الخزينة اجملي صبراً فان الصبر خير طبيب
اني وقفت على جوانب قبره أسقي ثراه بمدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته يا لوعتي في ذلك المكتوب
لك يا ضريح محبة وكرامة عندي لأنك قد حويت حبيبي

وكانت وفاة الشيخ ناصيف في ٨ شباط سنة ١٨٧١م بداء الفالج بعد أن لزمه سنتين.

٤٥٥ فتح الله مراش وابنه فرنسيس

اما فتح الله مراش فكان احد اعيان طائفة الروم الملكيين في حلب وله المام ببعض العلوم، وقد كتب مقالة في انبثاق الروح القدس من الابن وحده على مذهب الروم غير المتحدين، فرد هذه المقالة الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد إذ كان نائباً بطريركياً رداً مفحماً في كتاب أفرده لذلك ولما طالع فتح الله هذا الكتاب حصحص له الحق وأبكمته الأدلة السديدة التي أشمل الكتاب عليها فأذعن للعقيدة الكاثوليكية بأن الروح القدس ينبثق من الآب والابن وصار كاثوليكياً.

اما ابنه فرنسيس فولد في ٢٩ حزيران سنة ١٨٣٦م بحلب وسافر مع ابيه سنة ١٨٥٠م الى اوربا فتجولا بها مدة ثم ارسله ابوه الى حلب وبقي فيها الى سنة ١٨٥٣م، ثم اتى الى بيروت فأقام نحو سنة وعاد الى حلب عاكفاً على التخرج بالادب والعلوم ودرس الطب ايضاً ورحل الى باريس طلباً للاجازة الطبية من

مدرستها الكبرى فعاندته صروف الدهر واعتزته أسقام وضعف في البصر فحال ذلك دون بغيته ورجع الى حلب عليلاً كفيف البصر ومع ذلك اكب على نظم الشعر وتأليف الكتب فله منها أولاً: «غاية الحق» وهي رواية فلسفية طبعت في بيروت سنة ١٨٨١م وفي مصر ١٢٨٩هـ. ثانياً «مشهد الاحوال» وهو كتاب ادب نظم ونثر على اسلوب حديث ورونق لطيف طبع ببيروت سنة ١٨٧٠م. ثالثاً «مرآة الحسناء» وهو ديوان شعر طبع ببيروت سنة ١٨٧٤م. رابعاً «الصدف في غرائب الصدف». خامساً كتاب «رحلته الى باريس» طبع ببيروت سنة ١٨٦٧م. سادساً كتاب سماه «شهادة الطبيعة في وجود الله والشرعية» طبع ببيروت ١٨٩٢م. وله عدا ذلك رسائل كثيرة في مواضيع مختلفة ومن شعره:

صدقوني كل الأنام سواء	من ملوك الى رعاة البهائم
كل نفس لها سرور وحزن	لا تني في ولائم او مآثم
كم امير في دسته بات يشقى	باله والاسير في القيد نائم
اصغر الخلق مثل اكبرها جر	مأ لهذا وذا مزايا تلائم
النمل تستطيع الذي تعجز	عن فعله الاسود الضياغم
والخلايا للنمل اعجب صنعاً	من قصور الملوك ذات الدعائم

وكانت وفاته سنة ١٨٧٣.

٦- الحاج عمر الانسي البيروتي

هو ابن السيد محمد ديب بن اعرابي بن حسين المعروفين ببني الصعقان ولد ببيروت سنة ١٢٣٧هـ (سنة ١٨٢١م) وتعلم القرآن واحكام التجويد على الحافظ الشيخ حسين الجيزي المصري، ثم اكب على اقتباس العلم على الشيخ محمد الحوت والشيخ عبدالله خالد وهما اشهر علماء بيروت في القرن الحالي وتقلب في

عدة مناصب منها مديرية قضاء حيفا ثم قضاء صيدا ثم نيابة صور. وتوفاه الله سنة ١٢٩٣هـ (سنة ١٨٧٦م) وكان شاعراً مجيداً وله منظومات عُني نجله الدكتور عبد الرحمن افندي بجمع شتاتها، فألف منها ديواناً سماه المورد العذب وطبعه وابياته تزيد على ستة آلاف وخمس مائة بيت ومنه قوله:

قلوب الورى في مطمح الفكر قلب	وبرق المنى في غيهب الوهم خلّب
امانيك احلام والحلم يقظة	وامامك الاوهام والنفس اكذب
ويا رب نفس بالاماني عللت	وصاحبها من قابض الماء اخيب
فلا تعدن النفس بالخير طامعاً	اذا لم يكن للنفس في الخير مذهب
فكن صانع المعروف ما شئت انه	سبيل نجاح في الذي انت تطلب
فإن قلوب الناس كالماء راكداً	إذا ما تولاه الهوى يتقلب
إذ انت لم تعمل بما انت قائل	فانت اسير الجهل او انت تكذب

وقال يهجو خادماً في قهوة اسمه هلال:

تعس الهلال القهوجي لانه قد قطع الانفاس في انفاسه
هذا الهلال هو الهلاك وانما غلطوا فلم يضعوا العصا في رأسه

٨٧٠ اسكندر ابكارىوس واخوه يوحنا

هما ابنا يعقوب آغا الارمني وقد توفي اسكندر في بيروت سنة ١٨٨٥م وله مؤلفات حسنة منها: «تزيين نهاية الادب في اخبار العرب» طبع ببيروت سنة ١٨٦٧م وهو تاريخ قدماء العرب في اليمن والعراق والشام في زمان الجاهلية، ثم «روضة الادب في طبقات شعراء العرب» طبع ببيروت سنة ١٨٥٨ ذكر فيه تراجم شعراء الجاهلية والشعراء المخضرمين مشتملة على ابيات استحسناها من نظم كل

منهم وله كتاب «المناقب الابراهيمية والمآثر الخديوية» ضمنه ترجمة ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر عاونه في هذا الكتاب محمد مكاوي وطبع بمصر سنة ١٢٩٩هـ وله ايضاً نزهة النفوس وزينة الطروس طبع بمصر.

واما أخوه يوحنا فتوفاه الله بسوق الغرب من قرى لبنان سنة ١٨٨٩م. وله من التأليف كتاب سماه «قطاف الزهور في تاريخ الدهور» طبع بيروت سنة ١٨٨٣. وله معجم انكليزي عربي مطول طبع بيروت ايضاً ثم اختصر هذا المطول وطبعه. وله كتاب آخر سماه نزهة الخواطر يشتمل على روايات ادبية وتاريخية تلذ مطالعتها وطبع هذا الكتاب بيروت سنة ١٨٧٧م.

٩- الشيخ يوسف الاسير

هو ابن السيد عبد القادر الحسيني الاسير ولد بصيدا سنة ١٢٣٠هـ (سنة ١٨١٤م) وكان ميالاً الى العلم فدرس شيئاً منه على الشيخ احمد الشرمبالي ثم شخص الى دمشق وأقام مدة في مدرستها المرادية ثم مضى الى القاهرة واقام في الجامع الازهر سبع سنين فنبغ في العلوم النقلية والعقلية، ثم اعتراه مرض الكبد فعاد الى صيدا فسار الى طرابلس واشتغل بالتدريس فأخذ عنه العلم بعض فضلاء الطرابلسيين، واختار اخيراً الاقامة ببيروت فكثر مريدوه وتلامذته وتولى الفتوى بعكا مدة ونصب المدعي العمومي في لبنان في مدة متصرفه داود باشا ثم سار الى الآستانة العلية وتولى رئاسة التصحيح في دائرة نظارة المعارف وعاد الى بيروت مكباً على التعليم والتأليف، فألف في الفرائض كتاباً سماه «رائض في الفرائض» وشرح كتاب «اطواق الذهب» للعلامة الزمخشري وله نظم كثير جمع منه ديوان يعرف باسمه وله رسائل وردود مشهورة وكنت قد اقترحت عليه نظم كتاب فقه اللغة للثعالبي ليسهل حفظه على طلبة العلم فلبى وأخذ بالنظم وأجزته بشيء عنه ولا اعلم انه أتمه وأقامته في مدرسة الحكمة سنتين يدرس صفّاً من تلامذته الفقه وقوانين دولتنا العلية. وقد توفي سنة ١٣٠٧هـ (سنة ١٨٨٩م).

١٠ - الشيخ ابراهيم الاحدب

ولد بطرابلس سنة ١٢٤٢هـ (١٨٢٦م) واتقن علوم التفسير والحديث والاصول والكلام واللغة وآدابها وعكف على التدريس، فكان له تلامذة فضلاء وكان ذا قريحة شعرية حتى يقال ان ما نظمه بلغ ثمانين الف بيت وزار الآستانة ثم سار الى القطر المصري فأجله علماء مصر واشتهر ببراعته في الفقه الحنفي وامتدح كثيرين من الأمراء والوزراء وعين نائباً في المحكمة الشرعية ببيروت ثم رئيساً لكتابها وأقام على ذلك نحو ثلاثين سنة. ومن نظمته ثلاثة دواوين معروفة باسمه ونحو ثمانين مقامة على نحو مقامات الحريري. وله ايضاً كتاب سماه «فرائد الاطواق في اجياد محاسن الاخلاق» مشتمل على مائة مقالة نثراً ونظماً على مثال مقالات الزمخشري، وكتاب آخر سماه «اللآل في مجمع الامثال» نظم فيه الامثال التي جمعها الميداني في نحو ستة آلاف بيت ثم شرحه، وعني ابنه بطبعه. وكتاب آخر في الحكم والآداب. وله ايضاً «نشوة الصهباء في صناعة الإنشاء» و«كشف الأرب في سر الادب» ومهذب التهذيب في المنطق، وكشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان الى غير هذه. وقد توفاه الله سنة ١٣٠٨هـ (سنة ١٨٩٠م).

١١ - امين الشميل

هو ابن ابراهيم الشميل من كفرشما ببلبنان ولد في القرية المذكورة في ٢٤ شباط سنة ١٨٢٨م وتفقّه بالعلوم في مدرسة المرسلين الاميركيين ببيروت ودرس اللغة العربية والفقه على اساتذة افاضل منهم محيي الدين افندي اليافي، وجدّ كثيراً بإزالة خلاف وقع سنة ١٨٤٩م بين المرحومين البطريق مكسيموس مظلوم والمطران اغايوس الرياشي مطران بيروت، وقد عكف على التجارة مدة طويلة فحاز ثروة ثم خسرها بتجارة القطن وغيره فعدل عن التجارة الى محاماة الدعاوى فنجح بها وأنشأ جريدة الحقوق الباقية إلى الآن في مصر وأكّبت على التأليف. فمن مؤلفاته كتاب سماه «الوافي في المسألة الشرقية» قسمه الى ستة اجزاء وضمنه تاريخ المسلمين الى حرب الروس وطبع منه جزئين بمطبعة الاهرام في الاسكندرية سنة

١٨٧٩م وكتاب سماه «المبتكر» ضمنه خمس مقامات وست وعشرين قصيدة في الاوهام والآمال والأحلام، وله مقدمات تاريخية علمية نشرها تباعاً في «جريدة الحقوق» وله ايضاً «سهام المنايا» وهي رسالة ردّ فيها على بعض المعترضين على كتابه الوافي. وله مقالة في نظام الحكومة الانكليزية. وله «السدرة الجليلة في المباحث الفضائية». الى غير ذلك. وقد توفاه الله سنة ١٨٩٧م.

١٢ - نقولا الترك

هو شاعر كان يباب الامير بشير الشهابي الكبير لم نهتدِ الآن الى نسبه ولا الى سنة وفاته ونعلم ان له كتاب تاريخ حملة الفرنسيين على مصر في اواخر القرن الثامن عشر. وقد طبع كتابه هذا مع ترجمة له الى الافرنسية في باريس سنة ١٨٣٩م. وله ديوان اشعار كانت عندنا منه نسخة مخطوطة. وله قصائد كثيرة في مدح الامير بشير المذكور منها قصيدته عند عود الامير من مناصرة سليمان باشا على يوسف باشا والي دمشق حيث قال:

فلبى النداء بحر الندى قاهر العدا شهاب الهدى ذاك السعيد المظفر
بشير الملا بالنصر واليمن والعللا امير به اعتز الولا والتأمر
وساروا ومن احزاب قيس امامه رجال كآساد الفرائس تزأر
قروم صناديد قرون اماجد اسود صعاب للوغى قد تصدروا
وقد نظم تاريخ وفاة الامير حسن اخي الامير بشير المذكور فقال:

مات الذي قد كان عوناً للورى فبكى الوجود لفقده لما ارتقى
حسن الوجود اميرنا المولى الذي قد كان للدنيا شهاباً مشرقاً
فالجسم وسد في ضريح كان مضجعاً به قبلاً ابوه ذو التقى
والنفس منه مع ابيه ارخوا حقت بنعم الفوز في دار البقا

سنة ١٢٢٣هـ (سنة ١٨٠٨م)

١- عبد الله الشرقاوي

هو عبدالله بن حجازي المعروف بالشرقاوي المصري. له تأليف أشهرها «تحفة الناظرين في من ولي مصر من الولاة والسلطين» ضمها ما يتعلق بمصر وحكامها من اول الزمان الى ايامه، والحقها بذكر حملة الفرنسيين على مصر في آخر القرن الثامن عشر وطبعت في مصر سنة ١٢٨١هـ. وقد طبعت التحفة ايضاً على هامش «لطائف اخبار الاول في من تصرف في مصر من ارباب الدول» للاسحاقى. وللشرقاوي ايضاً حاشية على شرح محمد منصور الهدهدي لرسالة السوسى في التوحيد الموسومة بأمر البراهين والعقائد. وطبعت حاشية الشرقاوي هذه في القاهرة سنة ١٣١٠هـ. وله ايضاً شرح على كتاب «الحكم في التصوف» لابن عطاءالله الاشعري العقيدة. وطبع الشرح في بولاق سنة ١٢٨٥هـ. ثم طبع كتاب الحكم في القاهرة سنة ١٣٠٦هـ وعلى هوامشه شرح الشرقاوي. وقد توفي الشرقاوي سنة ١٢٢٧هـ (سنة ١٨١٢م).

٢- عبد الرحمن الجبرتي الحنفى

هو مؤرخ مصري اشهر تأليفه كتابه «عجائب الآثار في التراجم والاخبار» طبع بالقاهرة في اربعة اجزاء سنة ١٢٩٧هـ وهو تكملة لتاريخ ابن اياس، وتاريخ ابن اياس تنمة لتاريخ المقرئى، وابتدأ الجبرتي في تاريخه بذكر فتح السلطان سليم خان الاول مصر وانتهى منه في منتصف حكم محمد علي باشا سنة ١٢٣٦هـ. وكان شاهد عيان للحملة الفرنسية على مصر في آخر القرن الثامن عشر. وقد اوجز في تاريخ مصر مدة القرون السابقة لعصره واسهب في تاريخها في مدة الثلاثين سنة الاخيرة فهو فيها كجريدة حوادث يومية. وذكر تراجم اعيان عصره بالدقة وقد طبع تاريخه

ايضاً على هامش تاريخ ابن الاثير المعروف بالكامل الذي طبع بالقاهرة من سنة ١٢٩٠ الى سنة ١٣٠٣هـ وكانت وفاة الجبرتي في ١٢٣٧هـ (سنة ١٨٢٢م).

٣- حسن بن محمد العطار

له كتاب في الانشاء طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٨هـ ثم طبع بها سنة ١٣١٠هـ وهو مطلوب ومرغوب فيه من اكثر الناس، وهو مقسوم على قسمين: الأول في الخطابات، والثاني في الصكوك والشروط. وطبع في القسطنطينية بمطبعة الجوائب ايضاً مع كتاب «بديع الانشاء في المراسلات» لمرعي بن يوسف المقدسي الحلبي المتوفى بمصر سنة ١٦٢٠. وله حاشية على السمرقندية وهي رسالة في البيان لأبي الليث نصر السمرقندي من علماء النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة طبعت هذه الحاشية بالقاهرة سنة ١٣٠٩ وكان حسن العطار قد توفي في سنة ١٢٥٠هـ (سنة ١٨٣٤م).

٤- ابراهيم الباجوري

وهو عالم مصري شافعي ولد بالباجور في المنوخية بمصر سنة ١١٩٨هـ (سنة ١٧٨٣م) وتوفي سنة ١٢٧٦هـ (سنة ١٨٥٩م)، وله مؤلفات كثيرة تشهد بطول باعه منها: «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» والجوهرة كتاب لابراهيم اللقاني المالكي المتوفى سنة ١٠٤١هـ (سنة ١٦٣١م) في التوحيد. وقد طبعت التحفة بالقاهرة سنة ١٣٠٤هـ وبهامشها متن الجوهرة. وله ايضاً حاشية على شرح ابن هشام لقصيدة كعب بن زهير بانث سعاد. طبعت القصيدة وشرح ابن هشام وحاشية الباجوري عليه بمصر سنة ١٣٠٤هـ. وله ايضاً حاشية على شرح حسن افندي لكتاب شمائل النبي الذي يخص الترمذي، وسمى الباجوري حاشيته «المواهب اللدنية» وطبعت ببولاق سنة ١٢٨٠هـ وبالقاهرة ١٣٠٩هـ. ومن مؤلفاته حاشية على كتاب ابي شجاع احمد الاصفهاني في الفقه المعروف بالختصر

وبالتقريب وطبعت هذه الحاشية ببولاق سنة ١٢٨٣هـ. وله أيضاً حاشية على أم
البراهين والعقائد وهي رسالة للسنوسي في التوحيد وتعرف بـ«السنوسية الصغرى»
وطبعت حاشية الباجوري عليها ببولاق سنة ١٢٨٣هـ. ثم طبعت بمصر مراراً. وله
كتاب «تحقيق المقام في كفاية العوام» والكفاية كتاب للفضالي في العقائد شرحه
الباجوري في كتابه المذكور الذي طبع ببولاق سنة ١٣٠٩هـ. وله أيضاً حاشية على
كتاب «الايضاح» وهو شرح لأحمد الدمنهوري على أرجوزة الأخضرى في المطلق
التي سماها «السلم» فسمى الدمنهوري كتابه ايضاح المبهمة مما في السلم فوضع
الباجوري حاشيته على كتاب الايضاح وطبعت بالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ. وللباجوري
ايضاً حاشية على شرح الشيخ حامد الازهرى لقصيدة البوصيري المعروفة بـ«البردة»
طبع شرح الشيخ حامد وحاشية الباجوري عليه بالقاهرة سنة ١٣٠٢هـ. وله ايضاً
شرح على كتاب الترصيف لعبد الرحمن بن عيسى العمري في النحو وسمى
الباجوري شرحه فتح الخبير اللطيف على الترصيف وطبع كتابه بالقاهرة سنة
١٣١٠هـ وعلى هامشه متن الترصيف. ومن مؤلفاته ايضاً حاشية على شرح «الملوى»
لرسالة الاستعارات المعروفة بالسمرقندية في علم البيان لابي الليث نصر السمرقندي
وطبعت حاشية الباجوري ببولاق مراراً.

٥ - محمد الدمنهوري

هو عالم من دمنهور بمصر توفي سنة ١٢٨٨هـ (سنة ١٨٧١م) وله من التأليف
«الحاشية الكبرى على متن الكافي في علمي العروض والقوافي»، والكافي تأليف
الامام احمد بن عباد بن شعيب القناوي الشافعي وسمى الدمنهوري شرحه لهذا
الكتاب «الارشاد الشافعي على متن الكافي». وقد طبع هذا الشرح بمصر مراراً وله
ايضاً: «مختصر الشافي على متن الكافي» طبع بمصر ايضاً مراراً وبكازان من روسيا
سنة ١٨٩٥م. ولمحمد الدمنهوري ايضاً حاشية على الرسالة السمرقندية المار ذكرها
في البيان سماها «لقط الجواهر السنية على الرسالة السمرقندية» طبعت هذه الحاشية
ببولاق سنة ١٢٧٣هـ وبهامشها متن السمرقندية.

٦- عبدالله ابو السعود المصري

ولد سنة ١٢٤٤هـ (سنة ١٨٢٨م) وتفقّه بالعلوم في المدرسة التي انشأها محمد علي باشا بالقاهرة ثم عين في ادارة اعمال الحكومة، وكان شاعراً مجيداً، وقد اشتهر كثير من منظوماته ولا سيما ألفيته في تاريخ محمد علي باشا، نهج فيها منهج المعلقات وطبع ديوانه بالقاهرة. وله «نظم اللآلئ في السلوك في من حكم افرنسة من الملوك» ترجمه عن الفرنسية وطبع ببولاق سنة ١٢٥٧هـ، وجعل ثلثي هذا الكتاب في تاريخ ملوك فرنسة من الدولة الميروفنجية الى عهد الملك لويس فيليب. والثلاث الأخر ضمنه تاريخ من تولوا مصر من الخليفة ابي بكر الصديق الى السلطان عبد المجيد خان. وله «قانون المحاكمات والمخاصمات» اكثره مترجم عن الفرنسية والايطالية وقد طبع ببولاق سنة ١٢٣٨هـ. وقد توفي ابو السعود بمصر سنة ١٢٩٥هـ (سنة ١٨٧٨م).

٧- الدكتور كرنيليوس فان ديك

ليس الدكتور فان ديك سورياً أصلاً ولا شرقياً بل هو أميركي، لكنه اقام ببيروت خمس وخمسين سنة مشغلاً بنفع الناس بكتبه العلمية وبتعليمه وتطبيبه فقد ولد بقرية من اعمال ولاية نيويورك بأمریکا سنة ١٨١٨م وتلقى العلوم في بلاده واتقن اللغتين اليونانية واللاتينية فضلاً عن اللغة الانكليزية والهولندية ونال الدبلوما الطبية مع لقب دكتور ثم اختاره مجمع المرسلين الامريكيين مراسلاً وطبيباً لسورية، فبلغ الى بيروت سنة ١٨٤٠م وشرع يتعلم اللغة العربية فأثقفها وكان من احسن الكاتبين بها والغريب انه اتقن لفظها حتى اننا لا نعرف اعجمياً آخر نطق بأحرف العربية كلهجة السوريين سواه. ودرس هذه اللغة وفنونها على بطرس البستاني صديقه والشيخ نصيف اليازجي وتعلم ايضاً اللغتين العبرانية والسريانية وأقام بمدرسة عبيه اربع سنين مشغلاً بالتدريس والتأليف، ثم انتقل الى صيدا وكان عالي سميت

قد اخذ في ترجمة الاسفار المقدسة الى العربية. فتوفي سنة ١٨٧٥م فخلفه في هذا العمل الدكتور فان ديك فأتمه سنة ١٨٦٤، وتوجه سنة ١٨٦٥م الى الولايات المتحدة فطبع هذه الترجمة وعاد الى بيروت سنة ١٨٦٧م، واخذ بتأسيس المدرسة الكلية الطبية ووضع مع صديقه الدكتور يوحنا ورتبات نظاماً لدروسها، واخذ في التعليم فيها. وكان الدكتور فان ديك يعلم فيها الكيمياء وعلم الفلك، وقد عُني كثيراً ببناء المرصد الفلكي فيها وأنفق على اتقانه مبلغاً وافراً من ماله، واشتهر هذا المرصد باسمه الى ان نكبت هذه المدرسة بحادث شوه تاريخها فاعتزل فان ديك عنها وعوضته المدرسة مما تركه في مرصدها بخمسمائة ليرة انكليزية، ثم قُضي عليه بأن يترك التطبيب في المستشفى البروسيوي واخذ يعني بالمستشفى المعروف بمستشفى القديس جرجس للروم غير المتحددين باذلاً جهده في نجاحه مادياً ومعنوياً، واستمر على ذلك الى يوم وفاته، واقام له كثيرون من اهل سورية سنة ١٨٩٠م عيداً حافلاً لمرور خمسين سنة على اقامته فيها. وقد أدركته الوفاة في ١٣ تشرين الثاني سنة ١٨٩٥م واما مؤلفاته فهي:

- ١- «محيط الدائرة في علمي العروض والقوافي»، طبع ببيروت سنة ١٨٥٧م.
- ٢- «الاصول الهندسية»، طبع ببيروت مرتين.
- ٣- «الروضة الزهية في الاصول الجبرية»، طبعت ببيروت ثلاث طبعات.
- ٤- «المرآة الوضبة في الكرة الارضية» في الجغرافية، طبعت ببيروت ثلاث طبعات.
- ٥- «اصول الكيمياء»، طبعت ببيروت سنة ١٨٦٩.
- ٦- «اصول الباثولوجيا الداخلية» وهي مطولة في علاج الامراض طبعت ببيروت سنة ١٨٧٨م.
- ٧- «التشخيص الطبيعى»، طبع ببيروت سنة ١٨٧٤م.
- ٨- «اصول علم الهيئة» اي الفلك، طبعت ببيروت سنة ١٨٧٤م.
- ٩- «ارواء الظماء في محاسن القبة الزرقاء» وهو مرشد الى معرفة الاجرام السماوية ومواقعها، طبع ببيروت سنة ١٨٩٠م.

- ١٠- «النقش في الحجر» وهو تسعة اجزاء صغيرة في مبادئ العلوم الطبيعية.
- ١١- «الانساب ومساحة المثلثات»، طبع ببيروت سنة ١٨٧٣م.
- ١٢- «التفاكه» لتلامذة المدارس. هذا عدا رسائله وتكميله ترجمة الاسفار المقدسة الى العربية.
- وأما المشاهير من المواردنة فسوف نفردهم فصلاً في الملحق في تاريخهم المعلق في آخر هذا الباب وقد حددونا حدود اكثر المؤرخين في اننا لم نذكر تراجم العلماء الأحياء. انتهى.

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية في هذا القرن

عد ١١١٢

بطاركة انطاكية للروم الملكية غير المتحدين

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في تاريخ القرن الثامن عشر بذكر البطريرك افثيموس الذي استمر في البطريركية من سنة ١٧٩٣ إلى سنة ١٨١٣م وخلفه في السنة المذكورة سيرافيم وبقي على الكرسي الانطاكي إلى سنة ١٨٣٢م حين توفاه الله فخلفه السيد مثنديوس من ناكسوس فدبر البطريركية ثماني عشر سنة. وتوفي سنة ١٨٥٠م فخلفه في تلك السنة البطريرك اياروثاوس من غانوخورا، وقام يدبر شؤون البطريركية خمساً وثلاثون سنة، وتوفاه الله سنة ١٨٨٥م فخلفه تلك السنة السيد جراسيموس من المورة، فقام بأعباء البطريركية ست سنين وانتقل في سنة ١٨٩١م من بطريركية انطاكية إلى بطريركية اورشليم فخلفه على الكرسي الانطاكي البطريرك سبيريدون من قبرص سنة ١٨٩١م المذكورة، واستمر مديراً البطريركية الانطاكية ثماني سنين إلى أن خلفه السيد البطريرك الحالي ملاتيوس الثاني ابن موسى دوماني من دمشق، وهو الجالس الى الآن سنة ١٩٠٤م على

الكرسي الانطاكي متخذاً دمشق كأسلافه كرسيّاً لبطيركيته ولم نتوصل إلى معرفة ما صنعه هؤلاء البطارقة من الامور الخطيرة الجديرة بأن تؤرّخ، فاقصرنا على ذكر ما وجدناه مدوّناتاً في سلسلة بطارقة انطاكية للروم الملكية غير المتحدّين التي أرسلت إلينا من دمشق من قبل البطيركية، وما عثرنا عليه في الكتاب الموسوم بالأرج الزاكي في تهاني غبطة البطيرك الانطاكي للسيد ملاتيوس دوماني المطبوع بالمطبعة العثمانية في بعبداء سنة ١٨٩٩م.

عد ١١١٣

بطارقة انطاكية على الروم الملكية المتحدّين في هذا القرن

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطارقة في تاريخ القرن الثامن عشر بذكر انتخاب السيد اغايوس مطر الدمشقي وتثبيت البابا ييوس السادس له سنة ١٧٩٧م. والآن نقول ان البطيرك بعد تثبيته عقد مجمعاً في ١ ايلول سنة ١٧٩٧م في دير مار ميخائيل بزوق ميكائيل للنظر في شأن الرهبانية التي كان السيد اغناطيوس صروف مطران بيروت قد انشأها في دير القديس سمعان، وكان خلاف في آراء المجتمعين أفضى الى إلغاء هذه الرهبانية فشق ذلك على المطران اغناطيوس صروف، وظهر النفور والمخالفة للبطيرك فربطه البطيرك عن الخبرات ثم اصطلحا وكانت بينهما الفة ووداد. وفي ٢٣ تموز سنة ١٨٠٦م عقد هذا البطيرك مجمعاً بدير القديس انطونيوس في القرقفة وسلّ به فرائض وقوانين للتهذيب البيعي. وفي سنة ١٨١١م اشترى دار الشيخ سعد غندور الخوري في عين تراز وجعلها مدرسة اكليريكية واقام رئيساً عليها المطران مكسيموس مظلوم الذي كان قد رقاها الى اسقفية حلب سنة ١٨١٠م، فكان المطران المذكور يدرّس تلامذتها العلوم واللغات ثم توفي البطيرك اغايوس مطر في ٢١ كانون الثاني سنة ١٨١٢م في مدرسة عين تراز ودفن بكنيسة المدرسة.

وخلفه البطيرك اغناطيوس صروف وكان قد ولد بدمشق سنة ١٧٤٢م ودخل الرهبانية الحناوية سنة ١٧٥٨م، ورقي إلى درجة الاسقفية على بيروت سنة ١٨٧٧م

من يد البطريك توادوسيوس الدهان وانتخب بطريكاً في ٩ شباط سنة ١٨١٢م في مجمع اساقفة عقد في دير القديس جرجس بالغرب، وكان عمره سبعين سنة. وأقام بدير القديس سمعان لكنه لم يبق في البطريكية إلا نحو تسعة اشهر لانه بينما كان مجتازاً من الدير المذكور الى دير النياح في ٦ تشرين الثاني سنة ١٨١٢م سطا عليه أوغاد للام وهم الياس عماد وأولاده فاغتالوه ظلماً وعدواناً غير مختشين نعمة الله وعذابه، فقبض الامير بشير والي الجبل حينئذ عليهم وشقهم جميعاً. وانتقم الله من امرأة الرجل المذكور ايضاً إذ طارت شرارة من النار وعلقت شوبها فاحترقت حينئذ وقد نظم احد الشعراء تاريخ قتلهم ولا أتذكر من نظمه إلا فقرة التاريخ: الله ابلى القاتلين بشتنهم سنة ١٢٢٨هـ (سنة ١٨١٣).

وبعد البطريك اغناطيوس صروف قام في السدة البطريكية المطران اثناسيوس مطر وكان دمشقياً وأخا البطريك اغايوس مطر المار ذكره من الرهبانية المخلصية، وبعد انتخاب اخيه للبطريكية رماه الى اسقفية حوران سنة ١٨٩٨م ثم نقله الى كرسي صيدا سنة ١٨٠٠م ثم انتخب بطريكاً في ٣ آب سنة ١٨١٣م في مدرسة عين تراز، وأقام بهذه المدرسة على انه لم يستمر في البطريكية إلا ثلاثة اشهر إذ ابتلي بالطاعون ففضى اجله في ٢٨ ت^١ السنة المذكورة ودفن في دير النبي الياس بعبرا.

وبعد وفاة البطريك اثناسيوس المذكور اجتمع الاساقفة في دير المخلص في ٢٩ تشرين الثاني سنة ١٨١٣م فانتخبوا المطران مكاريوس الطويل اسقف الفرزل وزحله بطريكاً وثبته الكرسي الرسولي واقام بدير المخلص، واستأثرت به رحمة الله في ٣ كانون الاول سنة ١٨١٥م ودفن بالدير المذكور.

وبعد وفاة البطريك مكاريوس اجتمع الاساقفة في دير القديس انطونيوس المعروف بالقرقة فانتخبوا خلفاً له الخوري موسى القطان من زوق ميكايل في ١ تموز سنة ١٨١٦م، وسمي اغناطيوس وكان قبل انتخابه وكيلاً على ابرشية حلب من قبل الكرسي الرسولي. وأقام في دير مار ميخائيل في قرية الزوق المذكورة ونال التثبيت من الحبر سنة ١٨١٨م. وفي هذه السنة استحصل المطران جراسيموس اسقف الروم غير المتحددين فرماناً سلطانياً يجبر الروم الكاثوليكين على قضاء فروض

دينهم في كنيسة فأبى الكاثوليكيون ذلك وكان قلق جسيم أدى إلى فرار نحو خمسة عشر كاهناً وشماساً من حلب الى البطريرك اغناطيوس فأحلهم في بعض الاديار ولم يتمكنوا من الرجوع الى حلب إلا في سنة ١٨٢٥م. وكان مثل هذا القلق في دمشق سنة ١٨٢٠م إذ استحصل البطريرك سيرا فيم على الروم غير المتحدين امراً سامياً باجبار الروم الكاثوليكين على إقامة فروض الدين في كنيسة. وقد ابتلى البطريرك اغناطيوس بمرض في عينيه أفضى به إلى فقد بصره. ويحكى ان البطريرك يوسف حبش زاره وهو في هذه الحال فقال له البطريرك اغناطيوس: يا آل ودي انى تنكروني كهلاً من بعد عرفاني فتني

فاجابه البطريرك يوسف:

فلأذكرنك ما حييت وان امت فلتذكرنك اعظمي في قبرها

وتوفي البطريرك اغناطيوس في ٩ شباط سنة ١٨٣٣م.

وبعد وفاته اجتمع الاساقفة في دير القديس جرجس بالغرب لانتخاب خلف له فوق انتخابهم في ٢٤ اذار سنة ١٨٣٣م المذكورة على السيد مكسيموس مظلوم وكان هذا السيد قد ولد بحلب سنة ١٧٧٩م ووالده جرجس المظلوم ووالدته مريم البنا وانتخب ليكون كاهناً بحلب سنة ١٨٠٣م، فأمره المطران جرمانس ادم اسقف حلب حينئذ أن يتعلم العلوم اللازمة للكهنة فتضلع بها ورقاه إلى درجة الكهنوت سنة ١٨٠٦م ودعي ميخائيل. ولما توفي المطران جرمانوس المذكور سنة ١٨٠٩م دعاه البطريرك اغناطيوس مطر اليه وسلمه المنشور المعتاد بانتخاب خلف للسيد المتوفى فوق الانتخاب على نفسه، فاثبت البطريرك الانتخاب ورقاه الى اسقفية حلب في ٦ آب سنة ١٨١٠م. ودعي مكسيموس وأقام سنة ١٨١١ بمدرسة عين تراز رئيساً لها مع اسقفية على حلب. وفي سنة ١٨١٣م ارسله البطريرك اثناسيوس مطر الى اوروبا لدعاوي تخص الكرسي البطريركي في تريسته وليفرنو وسار منها الى رومة. وفي سنة ١٨١٥م تنزل عن ابرشية حلب وسماه البابا بيوس السابع رئيس اساقفة ميراليكيا، وعكف في مدة اقامته برومة على درس اللغات اليونانية واللاتينية والايطالية وعلى التضلع بالعلوم

البيعية، وسار في سنة ١٨١٨م الى فيانا ثم في سنة ١٨٢٠م الى مرسيليا ثم إلى باريس حيث تعلم اللغة الفرنسية وانشأ كنيسة لطائفته في مرسيليا على اسم القديس نيقولاوس، وعاد من مرسيليا سنة ١٨٢٣م إلى رومة حيث أقام ثمانين سنين عاكفاً على المطالعة والتأليف والترجمة الى العربية.

وفي سنة ١٨٣١م رخص له البابا غريغوريوس السادس عشر بالعود إلى الشرق ليدبر مدرسة الطائفة بعين تراز التي تقهقرت بغيابه، فعاد اليها وشرع في مرمتها وتوسيع بنائها، وجمع التلامذة اليها واستمر على ذلك إلى أن توفي البطريرك اغناطيوس وانتخب هو خلفاً له كما مر. ثم اخذ في زيارة رعيته وسار لذلك الى دمشق سنة ١٨٣٤م مصحوباً بأمر من محمد علي باشا والي سوريا حيثُ فاستقبل بغاية الحفاوة والاجلال وزار حوران ايضاً وعاد إلى لبنان. وفي ٢ من كانون الاول سنة ١٨٣٥م عقد مجمعاً في عين تراز وضع فيه ٢٥ قانوناً اثبتها الكرسي الرسولي. وسنة ١٨٣٨م نال براءة من السلطان الغازي محمود خان بتسميته رئيساً على كرسي انطاكية واسكندرية واورشليم ولما عرض ذلك للبابا غريغوريوس السادس عشر رخص له أن يوقع اسمه كذلك واقتدى به خلفاؤه، وسار إلى رومة سنة ١٨٤٠م ومنها الى مرسيليا سنة ١٨٤١م ثم سافر سنة ١٨٤٣م إلى الآستانة بداعي القلنسوة التي كان رؤساء الروم قد اخذوا امراً بنهي اكليروس طائفته عن لبسها مستديرة كقلنسوة الروم بل يلزم أن تكون مربعة كقلنسوة الارمن، ففاز بمرغوبه في الآستانة حتى عرفت الدولة العلية طائفته مستقلة عن طائفة الروم، ونال له ولعوض اساقفته البراءة السلطانية وانعم عليه السلطان بالنيشان المرصع كالنيشان الذي يعطاه بطاركة الروم القسطنطينيون، وعاد من الآستانة سنة ١٨٤٨م الى بيروت ثم سار متفقداً رعيته في صيدا وعكا واورشليم ثم دمشق ثم الاسكندرية وسار منها الى حلب وأقام فيها الى سنة ١٨٥٠م حين حلول تلك النازلة المشهورة واضطر أن يسافر من حلب متكرراً الى بيروت. وسنة ١٨٥٣م سافر الى الاسكندرية لبناء الكنيسة والدار البطريركية فكان هذا آخر اسفاره فتوفي هناك في ١٠ آب سنة ١٨٥٥م.

ولا نكير لما لهذا البطريرك من الفضل على ملته إذ مكّن استقلالها وعززها بما

كان له من الوجاهة ومن الاحتهاد في تثقيف اكليروسها واشاء الكنائس والمعاند ولاسيما بما ألفه وترجمه من الكتب، منها كتاب «كنز العبادة الثمين في اخبار القديسين» طبع في بيروت بمطبعة الآباء اليسوعيين. وكتاب «الاحوال الصربية في القواعد العربية» طبع برومة. وكتاب «النميقة البرهانية في دوام كنيسة الروم الكاثوليكية» طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت. و«الرسالة البرهانية في تدبير الديانة النصرانية» طبعت بمصر. وكتاب «حقيقة الانبثاق ودحض المصير على الانشقاق» طبع بأورشليم. وكتاب «القائد الامين في اثبات القضايا الخمس التي ينكرها الروم غير الكاثوليكين» طبع ببيروت. الى غير ذلك من الرسائل والمقالات والكتب ومنها رسالته في الكنيسة اليونانية وخروج الطوائف منها ثم كتاب في قدم اللغة اليونانية وان الكنيسة اليونانية هي الكنيسة الشرقية، وفي المجامع اليونانية وتسمية ملكيين. وهذه الرسالة وهذا الكتاب هما اللذان انتقدهما وردّ عليهما البطريرك بولس مسعد وهو اسقف في كتابه المشهور الموسوم بالدر المنظوم. وأما الكتب التي ترجمها فمنها: كتاب «أمجاد مريم» للقديس ليكوري طبع برومة سنة ١٨٢٧م وكتاب «الاستعداد للموت» للقديس المذكور وكتاب «الواسطة العظيمة» وكتاب «الرياضة اليومية» وكتاب «زيارة القربان». كل هذه الترجمات طبعت برومة، وكتاب «تأملات شهرية في عواقب الانسان» طبع ببيروت، وكتاب «حروب الصليبيين» طبع بأورشليم إلى غير ذلك من ترجماته.

وبعد وفاة البطريرك مكسيموس مظلوم اجتمع الاساقفة في دير المخلص في ١٩ آذار سنة ١٨٥٦م تلبية لدعوة القاصد الرسولي السيد بولس برنوني الذي حضر هذا الاجتماع فانتخبوا السيد اكليمنضوس بحوث بطريركاً، وكان قد ولد في شفا عمرو سنة ١٧٩٦م، ودخل الرهبانية المخلصية سنة ١٨١٦م ورقى إلى درجة الكهنوت وارسل الى ليفورنو لخدمة معبد فيها وتعلم اللغة اليونانية. وفي سنة ١٨٣٦م رقاہ البطريرك مكسيموس مظلوم إلى اسقفية عكا ثم انتخب بطريركاً كما مر. وثبته البابا بيوس التاسع في ١٦ حزيران سنة ١٨٥٦م. وفي سنة ١٨٥٧م اصدر منشوراً بوجوب اتباع الحساب الغريغوري فنشأ عن ذلك اختلاف جسيم في آراء ابناء الطائفة حتى الكهنة، فمنهم من امثل ومنهم من

أبى، بل ان بعض الاساقفة قبل ادخال الحساب في ابرشياتهم وبعضهم لم يقبل خيفة من شذوذ البعض، واتسع خرق هذه المسألة اتساعاً عظيماً وتباعدت الخواطر وتباينت الافكار وكثر القيل والقال، ولما رأى البطريرك تعاظم هذا الخلاف كتب الى الاساقفة وهو في دمشق سنة ١٨٥٨م صك استقالته موقعاً عليه القس ميخائيل بحوث بياناً لاعتزاله البطريركية، وكتب بعض الاساقفة إلى رومة فوراً الجواب بأن الخبر الروماني لم يقبل استقالة البطريرك فعاد هو الى مباشرة مهام البطريركية مواظباً على ذلك إلى سنة ١٨٦٤م، وحينئذ دعا الاساقفة للاجتماع بدير القديس يوحنا الصايغ بالشويز ولم يبين لهم سبب الاجتماع وبعد اجتماعهم في ٢٤ من ايلول تلك السنة دخل الكنيسة معهم متشحاً بالبطراشيل ويده العصا الحبرية. ولما انتهى إلى الخورس ألقاها من يده ونزع البطراشيل من عنقه معلناً استقالته بعبارات دالة على تواضعه وزهده في الدنيا، فكتب الاساقفة إلى السيد يوسف فالركا البطريرك الاورشليمي والقاصد الرسولي فسار اليهم واخبرهم ان البطريرك كتب من عهد قريب الى امام الاحبار مستقيلاً وان الخبر الروماني قبل استقالته، وانتخبوا حينئذ السيد غريغوريوس يوسف مطران عكا بطريركاً. وذهب السيد بحوث الى دير المخلص حيث قضى باقي سنه بالنسك والتقشفات والانقطاع إلى الله بسيرة معمرة، وقد دعي الى رومة سنة ١٨٦٩م ليشهد المجمع الفاتيكاني فلبى الدعوة. وبعد توقف المجمع اقام نحو ستة برومة ثم عاد الى دير المخلص معتزلاً كل عمل إلا عمل الخلاص، وفقد بصره فتحمل مصابه بالصبر الجميل الى أن نقله الله اليه في ١٣ حزيران سنة ١٨٨٢م.

اما السيد غريغوريوس يوسف المنتخب حينئذ بطريركاً فقد ولد برشيد إحدى مدن مصر في آخر تشرين الاول سنة ١٨٢٣م، ووالده انطون بن ميخائيل سيور من اعيان دمشق، وسمي يوحنا واستخدم في شبابه في الدوائر الاميرية في الاسكندرية الى أن قادته العناية الربانية الى دير المخلص سنة ١٨٤٠م، فانتظم في سلك رهبانه وسمي غريغوريوس ودخل مدرسة الآباء اليسوعيين بغزير مدة ثم ارسل الى مدرسة القديس اتناسيوس برومة، فنبغ في علومه الاكليريكية وتضلع بمعرفة اللغات ورقى إلى القسوسية في المدرسة المذكورة سنة ١٨٥٢م. ولما ارتقى

اكليمنضوس بحوث مطران عكا الى البطريركية رقاہ البطريرك الى اسقفية عكا سنة ١٨٥٦م، وبعد استقالة السيد بحوث من البطريركية اجتمع رأي الاساقفة على انتخابه بطريركاً في ٢٩ من ايلول سنة ١٨٦٤م، وكان اول اهتمامه ومعظمه ازالة الخلاف من ملته في امر الحساب ورد من شذ منهم الى الدين القويم، فتيسر له ذلك بعناية الله وذكائه، وتبته البابا بيوس التاسع في ٢٧ آذار سنة ١٨٦٥م. وفي تشرين الاول من تلك السنة اخذ في إنشاء المدرسة البطريركية في بيروت ولم يلبث بعد ذلك أن سار الى الآستانة العلية فأدى فرض الخضوع والطاعة لسلطان البلاد الاعظم فأنعم عليه بالبراءة السلطانية وبوسام الشرف المجيدي من الرتبة الاولى.

وفي السنة المذكورة جمع طلبة اكليركيين الى مدرسة عين تراز وكانت مقفرة منهم منذ سنة ١٨٦٠م، وفي سنة ١٨٦٧م لبي دعوة البابا بيوس التاسع بالشخص الى رومة ليشهد مع باقي رؤساء العالم الكاثوليكي الحفلات لعيد الرسولين بطرس وبولس القرني، ولاعلان قداسة بعض الشهداء. ثم سار الى مرسيليا وباريس وكان لي الحظ أن أتعرف به في هذه الاسفار إذ كنت بمعية بطريركا الطيب الذكر بولس مسعد وان اغنم برضاه عني ما دام حياً، ثم سار الى رومة مع بعض اساقفته سنة ١٨٦٩م لحضور المجمع الفاتيكاني وخطب فيه خطبتين في الحمامة عن حقوق الكنائس الشرقية، وقد استمر هذا السيد متفانياً بالغيرة على شعبه في ما بقي له من العمر منشئاً الكنائس والمعابد والمدارس والمكتبات معتنياً بتهذيب اكليروس طائفته وزيارته معلماً شعبه بخطبه ومواعظه ومثله منجداً له في كل ملمة غير مذكر لقباً ولا مالاً ولا اهتماماً في سبيل خير رعيته الروحي والزمني، إلى أن أدركه المنون سنة ١٨٩٧م، وذهب ليلقى أجر تجارته وربح الوزنات المسلمة اليه وقد وفية شيئاً من حقوق اعزازه لي وانتمائي اليه بتأين له في كنيسة بيروت عند الصلاة لراحة نفسه الذكية تأيئاً طبع حينئذ وحفظ كثيرون نسخاً منه.

وبعد وفاة البطريرك غريغوريوس يوسف اجتمع اساقفة طائفته في دير صربا برئاسة السيد كيرلس دي فال القاصد الرسولي فانتخبوا السيد بطرس الجريجيري بطريركاً مكان البطريرك غريغوريوس يوسف الذي رقاہ الى اسقفية بانياس في ٢٢

شباط سنة ١٨٨٦م، ثم خلفه بعد وفاته فأبدى السيد بطرس صنوف الغيرة والجهاد في خير طائفته، ولكن لم يفسح الله بأجله فعاجلته المنية في اوائل سنة ١٩٠٢م وبعد وفاته اجتمع الاساقفة في عين تراز فانتخبوا السيد كيرلس حجي مطران حلب بطريركاً في اواخر حزيران سنة ١٩٠٢م وهو بطريركهم الحالي اتاح الله التوفيق له لخير الدين الكاثوليكي وطائفته. اعتمدنا في ذكر هؤلاء البطاركة الى البطريرك غريغوريوس يوسف على الكتاب المعروف بمختصر تاريخ طائفة الروم الملكيين الكاثوليكين المطبوع ببيروت سنة ١٨٨٤م.

عد ١١١٤

بطاركة انطاكية على السريان الكاثوليكين

قد مر ان بعض السريان رجعوا الى الايمان الكاثوليكي على اثر الجمع القلورنسي لكنهم ما عتموا أن عادوا الى بدعتهم الى أن ارتد الى الايمان القويم اندراوس احيجان الحلبي على يد البطريرك يوسف العاقوري بطريرك الموارنة وارسله البطريرك يوحنا الصفراوي الى مدرسة الموارنة برومة فتهذب بالعلوم فرقاه الى درجة الكهنوت ثم الى الاسقفية سنة ١٦٥٦م وارسله إلى حلب وصحبه بالقس اسطفانوس الدويهي (الذي صار فيما بعد بطريركاً) فرد كثيراً من اليعاقبة الى الايمان الكاثوليكي. ولما توفي اغناطيوس سمعان بطريرك اليعاقبة سنة ١٦٥٩م ارسل المطران اندراوس احيجان صورة ايمانه الى الكرسي الرسولي فسماه البابا اسكندر السابع بطريركاً على السريان الكاثوليكين واستمر على البطريركية الى سنة ١٦٧٨م حين توفاه الله، وكان قد رقى أخاه الى اسقفية حلب وسمي ديوانيسيوس وخلفه في البطريركية على السريان الكاثوليكين اغناطيوس بطرس غريغوريوس وثبته البابا اينوشنسيوس الحادي عشر سنة ١٦٧٩م، ورقى الى الاسقفية ديوانيسيوس رزق على حلب وغريغوريوس يشوع على اورشليم وتوفي في السجن بأدنا بمكيدة جرجس بطريرك اليعاقبة سنة ١٧٠١م.

وبعد وفاة البطريرك المذكور لم يبق للسريان الكاثوليكين بطريرك إلا في سنة

١٧٨٣م فإن المطران ديونيسيوس ميخائيل جروة الحلبي جحد اليعقوبية واعترف بالايان الكاثوليكي وأقع اربعة اساقفة يعقوبين أن يقتدوا به ففعلوا وهم: ابراهيم ونعمة وموسى وجيورجيوس بشارة. وهؤلاء انتخبوه بطريكاً في دير ماردين، وشُمّي بطريكاً انطاكياً وثبته البابا بيوس السادس في ١٥ كانون الاول سنة ١٧٨٣م. وإذ لم يتمكن من السكنى بين اليعاقبة لجأ الى لبنان فقبله الموارنة بكل اعزاز، وبعد سكناه في دير سيدة النجاة المعروف بدير الشرفة الذي كان الخوري يوسف مارون الطرابلسي قد بناه سنة ١٧٥٧، وتوفى الله هذا البطريك في الدير المذكور في ١٤ ايلول سنة ١٨٠٠م.

وبعد وفاته اجتمع اساقفة السريان في الدير المذكور فانتخبوا كيرلس بهنام مطران الموصل بطريكاً عليهم فلم يقبل أن يكون بطريكاً فاجتمعوا ثانية وانتخبوا بإجماع رأيهم الخوري ميخائيل ضاهر الحلبي في ٢٤ نيسان سنة ١٨٠٢م، ودعوه من حلب فلبى دعوتهم فرقوه في ٤ ايار من تلك السنة الى الاسقفية ثم الى البطريركية، وثبته البابا بيوس السابع في ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٠٣م ثم استقال من البطريركية في ايلول سنة ١٨١٠م وبقي كرسيهم فارغاً مدة.

ففي سنة ١٨١٤م أقيم عليهم غريغوريوس سمعان الموصللي مطران اورشليم بطريكاً، ولكن قبل أن يبلغه تثبيت الخبر الروماني استقال بتمام رضاه من البطريركية كما يظهر من اوامر المجمع المقدس البارزة بهذا الشأن في ٢٠ حزيران سنة ١٨١٨م وبقي كرسيهم فارغاً الى ان اجتمع اساقفتهم في دير الشرفة وانتخبوا في ٢٥ شباط سنة ١٨٢٠م بطريكاً غريغوريوس بطرس جروة الحلبي ابن اخي البطريك ميخائيل جروة السابق ذكره، وكان مطراناً على اورشليم وطلب التثبيت من الكرسي الرسولي فلم يحسن له ان يعطيه اياه الى أن حضر إلى رومة فمنحه التثبيت الباب لاوون الثاني عشر في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٨٢٨. وفي سنة ١٨٣٩م أنعم عليهم السلطان الاعظم بفرمان يحررهم من مضايقة بطريك اليعاقبة لهم ويجعلهم طائفة مستقلة. وقد توفي البطريك بطرس جروة في حلب سنة ١٨٥١م وخلفه السيد انطونيوس السمحيري مطران ماردين في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٨٥٣م وثبته البابا بيوس التاسع في ٧ نيسان وجعل سكناه في ماردين حيث

بنى كنيسة وداراً بجانبها لسكنى بطاركتهم. وتوفي السيد السمجيري في سنة ١٨٦٤م وخلفه السيد فيلبوس عركوش سنة ١٨٦٦م، وتوفي سنة ١٨٧٤م وخلفه السيد جرجس شلحت مطران حلب في سنة ١٨٧٤م، ثم توفي سنة ١٨٩١م وخلفه السيد بهنام بني مطران الموصل سنة ١٨٩٣م، ثم توفي السيد بهنام المذكور في سنة ١٨٩٧م وخلفه السيد افرام الرحمانى مطران الرها اولاً ثم مطران حلب في ٩ آب سنة ١٨٩٨م وثبت في ٢٨ تشرين الثاني من السنة المذكورة وهو بطريركهم الحالي.

واما بطاركة الموارنة الانطاكيون فسوف نذكرهم في الملحق المعلق بآخر تاريخ هذا القرن.

الفصل الثاني

بطاركة اورشليم في هذا القرن وبطاركة الأرمن بلبنان

عد ١١١٥

بطاركة اورشليم على الروم غير المتحدين

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في تاريخ القرن الثامن عشر بذكر وفاة البطريرك افثيميوس سنة ١٨٠٨م فبعد وفاته انتخب بوليكر بوس بطريكاً وبعد جلوسه على الكرسي الاورشليمي احترق هيكل القيامة فاهتم بتجديده وكتب الى البطريرك القسطنطيني يستمده لذلك، ودون رسائل كثيرة الى الأعيان والوجوه يطلب اسعافهم، واخذ في البناء فلم تنته سنة ١٨١١م إلا وعاد الهيكل الى رونقه السابق وتوفي هذا البطريرك سنة ١٨٢٧م وبعد وفاته اجتمع الاساقفة والرؤساء فانتخبوا خلفاً له السيد اثناسيوس ويوصف بالخامس وقد انشأ بعض كنائس وكانت وفاته سنة ١٨٤٤م، فكان خلاف في انتخاب الخلف. وفي اواخر شهر

آذار سنة ١٨٤٥م انتخبوا كيرلس ويوصف بالثاني وأنشأ مدرسة للعلوم السامية واللغات ومدرسة استعدادية للذكور وأخرى للإناث. وتوفي سنة ١٨٧٢ فخلفه برروكويوس الثاني تلك السنة لكنه لم يقم في البطريركية إلا ثلاث سنين وتوفي سنة ١٨٧٥م فخلفه في تلك السنة ايروثيوس واستمر في البطريركية الى سنة ١٨٨٢م وخلفه البطريرك نيقوديموس ودبر البطريركية الى سنة ١٨٩٠م واعتزل البطريركية لخلاف وقع بينه وبين الرهبان ونظنه حياً الى الآن في الآستانة وانتخب خلفاً له السيد جراسيموس مستقيلاً من كرسي انطاكية الى كرسي اورشليم سنة ١٨٩١م فدبر البطريركية الاورشليمية الى سنة ١٨٩٧م وتوفي وخلفه السيد دميانوس وهو البطريرك الآن.

عد ١١١٦

بطاركة اورشليم اللاتينيون

قد قام من الافرنج بطاركة لاتينيون على انطاكية واورشليم في مدة ولاية الافرنج على هاتين المدينتين ذكرناهم في تاريخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر ولكن بعد مقتل كريستيانوس بطريرك انطاكية سنة ١٢٦٨هـ حين اخذ الملك الظاهر بيبس هذه المدينة وطرد الافرنج منها انقطع البطاركة اللاتينيون عن الاقامة في انطاكية وصار الاحبار الرومانيون يسمون بطاركة لانطاكية شرفاً يقيمون برومة. وكذلك كان في اورشليم فان نيقولاوس بطريركها الاخير غرق في البحر عند محاصرة الملك الاشرف عكا سنة ١٢٩١هـ فاختر البابا شالستينوس الخامس رودلفوس الثاني بطريركاً على اورشليم وكان رئيساً اقليمياً في الارض المقدسة فتوفي سنة ١٣٠٤هـ فصار الاحبار الرومانيون يسمون بطاركة شرفاً على اورشليم ويقيمون برومة الى أن حسن للبابا بيوس التاسع أن تكون اقامة بطاركة اورشليم بها فنصب السيد يوسف فالركا بطريركاً مقيماً بأورشليم سنة ١٨٤٧م واتى اليها سنة ١٨٤٨م ليخضع لسلطته اللاتينيون الذين بفلسطين وقبرص، فدبر هذه البطريركية واضيفت اليه بعد ذلك القصادة الرسولية في سورية الى ان توفاه الله سنة ١٨٧٣م

وخلفه في هذه البطريركية السيد منصور براكو وكان اسقفًا نائباً له وقد امره الكرسي الرسولي أن يرز اليمين المعتادة على يد اول اسقف كاثوليكي يجتمع به وعند سفره من اورشليم الى قبرص بطريق بيروت عرج الى دارنا الاسقفي وتلا اليمين امامنا فصادقنا على ذلك وبقي يدبر هذه البطريركية بالبر والقداسة والغيرة الى سنة ١٨٨٨م حين نقله الله لرحمته فأقام الكرسي الرسولي بطريكاً على اورشليم في ٢٨ آب سنة ١٨٨٩م السيد لودوفيكوس بيافي وكان قاصداً رسولياً بسورية ونائباً رسولياً بحلب وهو الآن البطريرك الاورشليمي.

عد ١١١٧

بطاركة الارمن بلبنان

يعلم كل من له إلمام بالتاريخ ان الارمن تابعو اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة على بدعتهم بواسطة برصوما الذي غرهم بهذا الضلال كما اضل يعقوب البردعي السريان وسموا يعاقبة، وقد رجع بعض رؤساء الارمن وبعض شعهم الى الايمان الكاثوليكي في اوقات متباعدة قبل المجمع الفلورنسي وفي مدة انعقاده وبعده، لكن اولئك المرتجعين لم يشبثوا زماناً طويلاً متمكنين بالايمان القويم بل عادوا الى عيهم الى أن أقام منهم ملكيور طاسباس مطران ماردين في اواسط القرن السابع عشر، وكان كاثوليكياً فانضم اليه جماعة ترأس عليهم الى أن نفى الى الآستانة بسعاية الأرمس غير المتحدين ومات في منفاه سنة ١٧١٤. وكان حينئذ ايضاً يعقوب مطران مرعش كاثوليكياً لكنه فرّ من الاضطهاد ولجأ الى البطريرك اسطفانوس الدويهي وأقام عنده في قنوين عدة سنين، ورقى بطرس بطريك كيليكيا ابريهام الأرمني العيتتايي الى اسقفية حلب سنة ١٧٠٨م. وكان ابريهام في جملة أتباع ملكيور طاسباس الكاثوليكي وصحبه في مفاه الى الآستانة ومات طاسباس على يده. فابريهام هذا انتخب في ٢٦ ت^٢ سنة ١٧٣٩م في حلب بطريكاً على الارمن بكيليكيا وسار الى رومة فثبته البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٦ ت^٢ سنة ١٧٤٢م بطريكاً على الارمن في كيليكيا. وانفذ البابا المشار اليه رسالة الى

بطريك الموارنة واساقفتهم وشعبهم مؤرخة في ٢٥ نيسان سنة ١٧٤٣م يوصيهم بها بالبطريك ابريهام المذكور وطائفته، فحضر هذا البطريك الى لبنان وجعل سكنه في دير المخلص المعروف بدير الكرم بكسروان الذي كان أربعة شبان من حلب قد انشأوه. فهؤلاء الشبان قصدوا هجر العالم والانقطاع لعبادة الله فهاجروا موطنهم حلب وقصدوا طرابلس وأسماءهم: يعقوب ومتياس ويوحنا وابراهيم. فانضوى يوحنا ويعقوب الى رهبان دير قزحيا ليتمرنا في السيرة الرهبانية، واتى ابراهيم ومتياس الى قرية غوسطا بكسروان فأعطاها الشيخ صخر بن قنصوه الخازن محل دير الكرم بموجب صك مؤرخ في سنة ١٧١٦م فعادا الى حلب لبيعا ما يملكان فيها وينفقاها في بناء الدير. فمات متياس بحلب ووجد ابراهيم رفيقاً عوضه يسمى انطون عاد معه الى كسروان وانضم اليهما يعقوب ويوحنا اللذان كانا بدير قزحيا فانشأوا سنة ١٨١٨م دير الكرم الذي ابتدأت فيه رهبانيتهم آخذة قوانين رهبان دير قزحيا دستوراً لها.

ففي الدير المذكور حل البطريك ابريهام المذكور وأبدى الموارنة له ولجماعته كل تجلّة وتكريم ومساعدة ودير رعيته بصنوف الغيرة على قدر ما مكنته الحال الى أن مضى الى لقاء ربه سنة ١٧٤٩م ودفن في دير الكرم، وخلفه يعقوب مطران حلب في ١٤ ت^١ سنة ١٧٤٩م وثبته البابا بناديكتوس الرابع عشر في ١٣ ايلول سنة ١٧٥٠م. وكان الشيخ شرف دهام الخازن وقف على طائفة الارمن الكاثوليك محل دير بزمار ودوّن به صكاً باسم المطارين بولس ويوسف ويوحنا الارمن مشرطاً الرجوع بوقفه ان رجع الموقوف عليهم عن الدين الكاثوليكي. فباشر البطريك والمطارين في بناء دير بزمار سنة ١٧٤٩م وتوفي البطريك يعقوب سنة ١٧٥٣م في دير بزمار ونقلت جثته فدفنت في دير الكرم، وانتخب ميخائيل مطران حلب خلفاً للبطريك يعقوب في ٢٣ حزيران سنة ١٧٥٣م وثبته البابا بناديكتوس الرابع عشر ايضاً في ٦ آذار سنة ١٧٥٤. وفي زمان هذا البطريك قلدهم البابا اكليمنضوس الثالث عشر الولاية على الارمن الذين بالجزيرة اي ما بين النهرين في ٢٠ تموز سنة ١٧٦٠م، وولاهم البابا اكليمنضوس الرابع عشر على طوقات وبركتيك في ١٢ آب سنة ١٧٩٦م. وتوفي البطريك ميخائيل سنة ١٧٧٠م ودفن بزمار في مدفن

خلفائه وخلفه باسيليوس مطران ادنه في اول كانون الاول سنة ١٧٨٠م وثبته البابا بيوس السادس في ٢٦ حزيران سنة ١٧٨١م، وتوفي سنة ١٧٨٨م فخلفه غريغوريوس مطران ادنا ايضاً في ١١ ايار سنة ١٧٨٨م وثبته البابا بيوس السادس ايضاً في ١٥ ك' سنة ١٧٨٨م واسس هذا البطريرك سنة ١٧٩٠م مدرسة في كرسية بيزمار وفرض أن ينذر تلامذتها العفة والفقر والطاعة كسائر الجمعيات القانونية بنوع ان مقتنى كل منهم يعود بعد وفاته الى الجمعية وتوفي البطريرك غريغوريوس سنة ١٨١٢م. وخلفه غريغوريوس الثاني مطران مرعش في ٢٣ حزيران سنة ١٨١٢م وثبته البابا بيوس السابع في ١٩ ايلول سنة ١٨١٩م وتوفي سنة ١٨٤٠م وخلفه يعقوب الثاني مطران اماسيا في ٣٠ حزيران سنة ١٨٤١م وثبته البابا غريغوريوس السادس عشر في ٢٧ ك' سنة ١٨٤٢م، وتوفي سنة ١٨٤٣م. وبعد وفاته خلفه ميخائيل اسقف قيسارية ودعي غريغوريوس الثالث في ٧ آب سنة ١٨٤٣م وثبته البابا غريغوريوس السادس عشر ايضاً في ٢٣ ك' سنة ١٨٤٤م وتوفي سنة ١٨٦٦م.

وبعد وفاة البطريرك غريغوريوس الثالث حسن للكرسي الرسولي أن يضم الارمن الذين يرعاهم الجاثليق المقيم في القسطنطينية الى الارمن المقيمين في بطريركية كيليكيا، فلدى اجتماعهم بعد وفاة البطريرك غريغوريوس بيزمار اختاروا السيد انطونيوس حسون جاثليق القسطنطينية بطريركاً لكيليكيا ايضاً في ١٤ ايلول سنة ١٨٦٦م، فساس الارمن الكاثوليك مدة ونشأت بينهم اختلافات افضت الى انشقاق طائفتهم بين حسونيين وكوبليانيين ودام الانشقاق سنتين الى أن حسن لدى الكرسي تسمية البطريرك حسون كردينالاً واقامته برومة، وانتخب الارمن الكاثوليكيون السيد اسطفانوس عازريان بطريركاً في ٢٤ حزيران سنة ١٨٨١م. وتوفي سنة ١٨٩٩م فخلفه بولس بطرس الحادي عشر عماقوليان في ١٤ تموز سنة ١٨٩٩م وثبته البابا لاون الثالث عشر في ١٤ كانون الاول سنة ١٨٩٩م. وتوفي في هذه السنة ١٩٠٤م.

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع عشر

الفصل الاول

حكام الموارنة واعيانهم

عد ١١١٨

حكام الموارنة في هذا القرن

من بعد اواسط القرن الثامن عشر الى سنة ١٨٦٠م كان حكام لبنان موارنة. فإن الامراء الشهابيين في هذه المدة الذين تولوا لبنان اي اولاد الامير يوسف والامير بشير وغيرهم كانوا موارنة، ولما قسم لبنان الى قائمقاميتين مارونية ودرزية كان على قائمقامية الموارنة اولاً الامير حيدر اسماعيل ابي اللمع ثم خلفه بعد وفاته الامير بشير احمد ابي اللمع الى ان كانت الحرب الاهلية سنة ١٨٦٠م، وكان للموارنة في نظام لبنان المعمول به الآن أربع قائمقاميات في اربع اعمال وهي البترون مع جبة بشري وزاوية طرابلس ثم كسروان مع الفتوح وبلاد جبيل ثم المتن مع قاطع بيت شباب وساحل بيروت ثم جزين مع ما يليها، ينصب فيها اربعة قائمقامين من الموارنة من الامراء وغيرهم واكثر المديرين في هذه القائمقاميات هم موارنة، ومنهم عدة مديرين في قائمقامية الشوف. واما في زحلة والكورة فلا مدير لهم فيهما لصغرهما وان كان من الموارنة جماعة كبيرة فيهما.

واما الاعيان الموارنة في هذا القرن فقد تكاثروا عديدهم وربما على ما تتمحله حالتهم وثروتهم، فالأمراء الشهابيون في لبنان صاروا جميعاً نصارى موارنة إلا قلائل منهم اتبعوا طقس الملكيين الكاثوليكين او الملكيين غير المتحدين، وكذلك الامراء اللمعيون إلا نفرأ منهم اتبعوا طقس الملكيين الكاثوليكين، وازداد ايضاً كثيراً عدد المشايخ الخازنيين والحبيشيين وآل ظاهر وآل دحداح ومشايخ جبة بشري وآل أبي صعب وآل هاشم، وهؤلاء كانوا دائماً ما برحوا موارنة قحاً. ولكن زيادة عددهم وتوفر احتياجات المعيشة والملبس والأثاث في هذا العصر آلت بكل هذه الأسر الشريفة الى الانحطاط وضيق ذات اليد في عيال كثيرة منهم، وقُلّ من بقي يتمكن من أن يعيش كما يقتضيه شرف اصلهم. وزاد في الطين بلة انتشار روح الحرية في هذا العصر فحمل الاهلين على ازدراء سلطتهم وانكار وجاهتهم وعدم رعاية شرف اصلهم، فثار اهل كسروان على مشايخهم الخوازنة وطردهم من اوطانهم واعتدوا على حاصلات املاكهم حتى قتلوا نفرأ منهم، فذهب ذلك بمهابتهم وجشمهم اضراراً وخسائر، وانتشرت هذه الروح في باقي اعمال لبنان فانحطت مهابة الامراء ايضاً وباقي المشايخ لا الموارنة فقط بل غيرهم ايضاً من اية طائفة كانوا. وعندنا ان هذه الحطة في مقام شرفاء البلاد أضرت بها كثيراً إذ كثر رؤساء القوم، ولا مشاحة انه حيث كثر الرؤساء كثر الخلاف ولم تستقم الحال. وبعد أن كانت سلطة البلاد تنحصر برأي كم وجيه من هذه الاسر امسينا ألعوبة، فتعددت آراؤنا بقدر تعداد افرادنا، على اننا لا ننكر ان بعض الجهلة من هذه الأسر تسبب بهذا الانحطاط بأعمالهم التي لم تنطبق على واجبات الحق والعدل والشرف، ولم يكن من جهة العقلاء من يتدارك غوائل عمل الجهلاء فأفضت الحال الى ما تراها فيه الآن والله في خلقه غايات لا تدرك.

وكان من اعيان الموارنة في اواخر القرن الثامن عشر واولل التاسع عشر الشيخ جرجس باز ابي شاكر من دير القمر وأخوه عبد الأحد، وكانا مدبري اولاد الامير يوسف شهاب والتمسا لهم سنة ١٧٩٢م من الامير حيدر والأمير قعدان والي لبنان حينئذ أن يؤجرهم بلاد جبيل فأجروهما اياها بستين ألف قرش كل سنة، وكان جرجس باز حازقاً خبيراً بأساليب السياسة استمال الى مخدميه أعيان البلاد

واصحاب المناصب فيها حتى آثروهم على الاميرين الوالين واستهانوا بهما، وأصبحا عاجزين عن ادارة البلاد وجباية المال الاميري منها، فأشار عليهما بعض اصحابهما ان يسلموا الولاية الى اولاد الامير يوسف حذراً من ان يستردها الامير بشير الكبير، فراسلا جرجس باز بذلك، فأرسل أخاه عبد الاحد إلى الجزار ومعه مائة ألف قرش فأرسل الجزار خلع الولاية إلى اولاد الامير يوسف وابقى عبد الاحد رهناً على ما بقي من المال، فلبس اولاد الامير يوسف الخلع وساروا مع جرجس باز الى دير القمر. ولما تغلب الامير بشير على اولاد الامير يوسف واخذ الولاية من الجزار سار جرجس باز بمخدوميه الى جبيل ولم يلبث الجزار أن تغير على الامير بشير سنة ١٧٩٤م وكتب الى اولاد الامير يوسف أن يحضروا لديه ليوليهم فحضروا من جبيل الى ساحل بيروت، فأرسل لهم الخلع فسار احدهم الامير حسين الى دير القمر ومعه مدبره جرجس باز وسار احدهم الامير سعد الدين الى جبيل، إلا ان الجزار تغير سنة ١٧٩٥م على اولاد الامير يوسف وعزلهم من الولاية وولى الامير بشير، فأراد ان ينتقم من اولاد الامير يوسف فعارضه بذلك جرجس باز مدبر الامراء، وتمكن في سنة ١٧٩٨م أن يرّد الولاية الى اولاد الامير يوسف، لكن اوقفهم الجزار عن المسير الى لبنان بسبب قدوم العساكر الفرنسية الى اسكندرية ثم الى عكا. وبعد أن ارتحل الفرنسيين عن عكا خلع على الاميرين حسين وسعد الدين ابني الامير يوسف وسيرهما الى لبنان وابقى اخاهما الامير قاسم رهناً عنده، فتوجه جرجس باز مع الامير حسين من جهة البقاع واخوه عبد الاحد مع الامير سعد الدين من جهة اقليم الخروب وطاردوا الامير بشير حتى اضطر الى الخروج من لبنان بدعوة سميث الاميرال الانكليزي له لمقابلة الصدر الاعظم في غزة، ولما عاد الامير بشير الى لبنان ومال السواد الاعظم من اهله الى إعادة الولاية اليه بقي جرجس باز معارضاً بما قدر عليه من التدابير الى أن وقع الصلح، على أن يتولى اولاد الامير يوسف بلاد جبيل والامير بشير باقي البلاد، واقام جرجس باز في دير القمر عند الامير بشير في اوج الوجاهة واخوه عبد الاحد في جبيل ويده زمام الحكومة.

ولما توفي الجزار ونصب ابراهيم باشا مكانه وبلغ الى دمشق ارسل اليه الامير بشير جرجس باز بمائة فارس فأمر الوزير أن تلتقيه قواد العساكر والاعيان ودخل

جرجس باز عليه فأكرمه وأجلّه وكان يستشير في مهامه، وعظمت منزلة جرجس باز واخيه عند اعيان البلاد ولم يكن لهما ميل الى الامير بشير بل كانا يصنعان افعالاً تنسوء، فأضمر لهما السوء واتفق مع اخيه الامير حسن على اغتيالهما ووافقهما على ذلك المشايخ اليزيكية الدروز وساروا مع الامير حسن الى جبيل في ٥ ايار سنة ١٨٠٧م، واحاطت جماعة بعبد الاحد باز في داره فألقى نفسه من شباك فقتله من كانوا اسفل، وفي النهار المذكور استدعى الامير بشير الشيخ جرجس باز ابيه ولما جلس بحضرته خرج الامير واغلق الباب وامر بعض الدروز أن يدخلوا ويقتلوه فدخلوا عليه وخنقوه.

وكان من اعيان الموارنة في هذا القرن المشايخ بنو ابي صعب فأبو صعب هو جرجس ابن الخوري بطرس بن يونان ابي سليمان من المتين وكان له اربعة اولاد اسعد والياس وغالب ونصيف وقد أقام بخدمة الامير يوسف شهاب واشترى املاكاً في جبيل وارثل البها، ولما نزع المقدمون بنو الشاعر من تولا سنة ١٧٧٠م اشترى ابو صعب دارهم في تلك القرية، ثم شرى بعض مزارع في جنوبي جبة بشري واستوطن احدهما المعروفة بمزرعة الحاج حسن وتعرف الان بمزرعة بيت ابي صعب، وعاون مشايخ جبة بشري على طرد المتاوله منها. وقد اشتهر ابنه اسعد بفراسته وشجاعته في وقائع عديدة في ايام الامير يوسف واولاده والامير بشير الكبير. وتوفي ابو صعب جرجس سنة ١٧٩٤م واستمر ابنه اسعد يزداد شهرة في بسالته في خدمة الامير بشير الى أن توفي سنة ١٨٢٣م وله ابنان جرجس ويوحنا، وسنة ١٨٣٤م دعا الامير امين ابن الامير بشير شهاب يوحنا المذكور لخدمته وجعله رئيس كتابه، وسافر سنة ١٨٤٠م معه ومع الامير بشير والده الى مالطة، فتعلم هناك اللغة الايطالية ثم سافر معهما الى الآستانة سنة ١٨٤١م فتعلم التركية وأتقن اصول الخط العربي فنبح فيها ورجع الى بيروت سنة ١٨٤٩م كاتباً عريباً في خدمة مصطفى باشا الشكودري، ثم استدعاه وامق باشا والي ايالة صيدا واعزه وجعله ترجماناً لطائفته عنده، ولما تولى الامير بشير احمد ابي اللع قائممقامية النصارى سنة ١٨٥٤م جعله رئيس كتابه وقربه اليه. وسنة ١٨٥٥م أنعم عليه وامق باشا بلقب بك فكتب له الامير ولأقاربه الأخ العزيز مثل باقي مشايخ لبنان، وتزوج

يوحنا زليجة اولى بنت يوسف فرنسيس نادر من المشايخ بيت الخازن، وخدم متصرفية لبنان مدات بوظيفة رئيس القلم العربي في مدة داود باشا وفرنكو باشا ورستم باشا وتوفي من سنين وكان شاعراً وله ديوان كبير.

وأما اخوه جرجس فقد اشتهر بالشجاعة في المواقع التي كانت بين النصارى والدروز سنة ١٨٤١م، وفي سنة ١٨٤٣م اختير عضواً لديوان الامير حيدر اسماعيل قائممقام النصارى، وعزل سنة ١٨٥١م ثم اعاده الامير حيدر الى وظيفته سنة ١٨٥٣م، ولما تولى الامير بشير احمد قربه اليه وبقي في خدمته الى أن توفي سنة ١٨٥٨م، وكان ابنه اسعد والياس في عضوية مجلس ادارة لبنان على التعاقب في نظام لبنان الحالي عدة سنين.

عد ١١١٩

يوسف بك كرم

هو ابن الشيخ بطرس كرم حاكم اهدن وما يليها. ولد بإهدن سنة ١٨٢٥م على ما نعلم ونشأ على روح الدين والتقوى وحب الشرف وطلب المعالي وأقام له ابوه من اهتم بتعليمه اللغة العربية والفرنسية ومبادئ العلوم، وتعلم علم السلاح من اطلاق رصاص وضرب سيف على الشيخ عماد الهاشم العاقوري الشهير وبرع في ذلك ولو كان للنصارى حظ في الجندية في الممالك المحروسة وتجنّد لكان للسلطنة فيه قائد من اعظم قواد هذا العصر كما سترى من ذكر اعماله. وفي نحو السنة العشرين من سنة نصبه الامير حيدر اسماعيل قائممقام النصارى حاكماً على اهدن اقطاع ابيه واسرته وله في مدة حكومته هذه اعمال تذكر فتشكر من اجراء عدالة وعفاف نفس ومحافظة على آداب، ورعاية دين وتدريب شبان على محبة الدولة والوطن، مقرناً كل ذلك بصلاح سيرة وورع وايمان حيّ وغيره على الدين والادب. وقد تفرر بحبه الطهارة حتى يمكن أن يقال عنه انه في حياته كلها ما نظر الى وجه امرأة نظراً يؤاخذ عليه، وقد عاش نحو عشرين سنة في مدن اوروبا كباريس

نابولي والناس تتعجب من فضيلته هذه، ورؤساء الدين يجعلونه مثلاً للظهر
يحثون على الاقتداء به. ومع ما كان عليه من الوجهة وسعة اليد استمر متبتلاً
حياته كلها.

وكان قد عزم في سنة ١٨٥٩م أن يجمع كهنة علماء ويوقف املاكه عليهم
ويعيش معهم مثابراً على اعمال الرسالة الدينية والروحية، وقد كاشفني بهذا ورغب
لي ان انضم اليهم وانا كاهن معلم في مدرسة القديس يوحنا مارون، فأجبتة أن
يلزم الثاني بفحص دعوته لأنني أرى ان المقتردين مثله على نفع عباد الله في
الزمنيات قليلون جداً، وأما الكهنة المقتردون على الرسالة فكثيرون، وعليه ارى ان
الله يدعوه لنفع عباد بالزمنيات بالاولى. كنا في هذا الحديث مساء بداره باهدن
السنة المذكورة، وفي اليوم التالي وردت الاخبار المنشة بحصول وقعة بين النصارى
والدروز في قرية بيت مري فرأيت شبت فيه نار الغيرة وهبت عاصفة الحمية والوطنية
واخذ يستدعي مشايخ جبة بشري والزواية ووجوهما لاجتماع في قرية بان حيث
خطب فيهم مبيناً ما يلزم عمله والاحتياط به وقاية من غوائل الحال المستقبل، وكأنه
ناظر بذكائه ما كان بعداً، ولدى اجتماعي به ثانية أبنت له أن الله يدعوه لغير
الرسالة. فقال حيثئذ: (لتكن مشيئة الله).

ولما انتشبت الحرب الاهلية بين النصارى والدروز سنة ١٨٦٠م ارسل صكوك
املاكه الكثيرة الى بيروت يرهنها عند من يدفع له ثلاثمائة الف غرش لينفقها في
انجاده النصارى، وقام في نحو اربع مائة شاب اختارهم من جبة بشري وصحبه في
سيره كثيرون الى أن بلغ بكفيا مجتمعاً اليه نحو الف مقاتل، فورد له رسالة من
قنصل افرنسة الكونت دي نيتي فوليو يمنعه فيها من التقدم الى بلاد الدروز لثلا
يثبت ان النصارى معتدون، فأجابه ان الجميع يعلمون ان الدروز ابتدأوا القتال وما
انفكوا يجددونه وما نحن إلا مدافعون عن نفوسنا واخوتنا، فأرسل القنصل اليه ثانية
يقول قد اتفقت انا وقناصل الدول وخورشيد باشا على ان دولته يمنع الدروز عن
كل عمل عدواني وانا أوقفكم في محلكم، وإذا لم تقفوا في بكفيا حيث انتم كان
النصارى جميعاً مسؤولين بعملكم. فأجابه قد امتثلت الامر وان كنت على يقين ان
الدروز لا يقفون عن القتال ولكني إذا شعرت بأقل حركة منهم اسرعت للحال الى

المدافعة. وبعد ارسال الجواب ورد الخبر ان الدروز والعرب وغيرهم محاصرون زحلة فهبّ البك برجاله طلق العنان، ولكنه لما اطل على زحله رأى النار تشتعل في بيوتها ثم التقى بالفارين منها فعاد الى المروج ثم الى جونية جاعلاً لها مركز المدافعة متجشماً نفقات لا تقدر على رجاله وعلى كثير من الفارين. وقد بقي بجونية مع رجاله الى ان وفد فؤاد باشا والعساكر الفرنسية الى بيروت فسماه فؤاد باشا وكيل قائممقامية النصارى وأظهر له الحجة والايأس، وقدره الفرنسيون ووكلاء الدول حق قدره وكان الجنود الفرنسيون يسمونه يوسف الاول، ولكنه اختلف اخيراً مع قسم من كبرائهم لنصحه لهم بترك بعض مظاهرات تعود على شأنهم بالانحطاط وعلى البلاد بالضرر، واستمر على وكالة القائمقامية الى أن سمي داود باشا متصرفاً للبنان.

وأراد داود باشا أن يستعمل كرم بك في احدى قائممقاميات لبنان لعلمه بما له من نفوذ الكلمة وما للشعب من الهوس به، لكن البك كان يعلم بما كان من المفاوضات بالآستانة من شأن متصرف جبل لبنان، وانه سمي احبباً على سبيل الاختبار مدة ثلاث سنين، وإذا لم ينجح فيها استبدل بحاكم وطني كما كانت فرنسا والنمسا وروسيا تبتغي، ولذلك ابى قبول اية وظيفة كانت. ولما كثر الالحاح عليه بقبول منصب شرط أن يستقيل منه متى أراد تخلصاً فسمي بقائمقامية (كانت حينئذ تسمى مديرية) جزين فاستقال منها في اليوم الثالث كشرطه وسار الى داره بإهدن.

وسمي الأمير مجيد شهاب قائمقاماً على كسروان والبترون (جعلاً بعدئذ قضاءين) ورغب في أن يتفق مع يوسف بك كرم وكاشفه بذلك على يد بطريركية الموارنة فأبى البك إلا الاعتزال عن كل خدمة للحكومة، فوجس داود باشا من هذا الاعتزال وشكا الامر الى فؤاد باشا فكتب الى كرم بك أن يحضر اليه طلق العنان (كما في اصل الرسالة) فأسرع بالحضور الى بيروت دون ابطاء، ولما قابل فؤاد باشا امره أن يبقى حيث كان في الثكنة العسكرية، فبقي فيها مكرماً وبعد ايام صاحبه فؤاد باشا معه مسافراً الى الآستانة في آخر سنة ١٨٦١م.

وأقام بالآستانة مكرماً مطلقاً له أن يتوجه حيث شاء إلا سورية وعين له راتب شهري، وانتقل بعد مدة الى قرية برنابا بجوار ازمير منتظراً نهاية مدة الاختبار بمرور

ثلاث سنين، ولكن عند نهايتها في سنة ١٨٦٤م كان بعض عمال فرنسة قد غير افكار رجال وزارتها في شأن طلب حاكم وطني، فعدلوا الى تجديد ولاية داود باشا. ولدى اجتماع سفراء الدول عند ناظر الخارجية بالآستانة تقرر هذا التجديد ولما عرف يوسف بك بذلك سار مسرعاً من برنابا الى ميناء طرابلس ثم الى زعرتا فبلغها في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٦٤، فاهتز لبنان له وأمه الناس افواجاً من كل انحاء لبنان، ورأى داود باشا ان لا قوة كافية له لكتبته فلجأ الى بطريك الموارنة واعداً أن يسترضي الدولة عن يوسف بك وينيله كل ما يتغني بحيث أن يكتب له كتاباً يبين فيه انه يريد الاقامة بوطنه خاضعاً للشرعية والنظام، وبعد الإلحاح على البك بذلك كتب له كما رغب وأجابه الباشا مؤمناً له ومبدياً كل انعطاف اليه.

صنع داود باشا هذا وسافر سنة ١٨٦٥م الى الآستانة عالماً انه لا تستقيم له حال إلا أن يذل كرم أو يبعده عن البلاد، وعرض الامر على الباب العالي مدعياً انه لا وسيلة له في حكم لبنان إلا بأن يستريح من كرم، واستعد لحربه واتى بفرقة من الدراغون الى لبنان، وبعد عوده من الآستانة قبض في آخر السنة المذكورة على بعض انسباء كرم واصحابه قاصداً تهيينه، وأتى وأقام بصحراء جونية يصحبه العسكر اللبناني والدراغون وفريق من العسكر العثماني، وعلم يوسف بك بما وراء الاكمة فأتى بجمهور من سكان شمالي لبنان غالبهم من اهل السلامة لا من اهل الحرب إذ كان مقصده ابداء مطاهرة تحمل الباشا على الصلح. وبلغ البك في حشده في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٦٦م الى دير مار دوميط البوار وبينما كان يسمع القداس اطل بعض فرسان الدراغون على رجال البك وناوشهم القتال فستبت نار الحرب، وتقدم البك برجاله الى المعاملتين فزادت نار الحرب تسعراً وقتل من الطرفين عدة قتلى، وأتى بعض الكسروانيين من جهة غزير لانجاد الكرنيين فصدهم العسكر الذي كان في غزير وعاد البك برجاله الى زعرتا.

ان في ما كان ليوسف بك كرم في الاحداث الآتي ذكرها موعظة فعالة ووزاعاً شديداً في ردع كل فرد من رعايا الحكومات عن أن يجسر ولاسيما في هذه الايام على أن يعاند السلطة العظمى ولو مهما كان متبوعاً او كان مزيناً به من الشجاعة والبهالة، حتى ولو كان معتقداً بأنه يخالف عمال الحكومة لا رأسها

فالحكومة ترى العصيان على عمالها عصيانياً عليها كما كان لهذا الرجل، فإنه بعد انكسار رجاله في المعاملتين كتب الى عمال الباب العالي بسورية والى قناصل الدول ببيروت يقيم الحجة على انه متشبث بالطاعة للمتبوع الاعظم ولا يريد العصيان ولا محاربة عسكر الدولة العلية، على انه لا بد له من المدافعة عن نفسه وأرفاقه إذا ارسل داود باشا العساكر عليه، فأخذ داود باشا يبين لهم ان ترك كرم في هذه الحال حطة في شأن الحكومة ولا يستقيم لها حال إلا باذلاله وابعاده، ويتعهد بكتبته بأقرب آن وبأسر وسيلة، فأجيب الى طلبه بتوجيه العسكر ثانية اليه فأرسل العسكر اللبناني ونحو ثلاثة آلاف مقاتل من جنود المملكة فقام البك من زغرتا الى بنشعي ومعه نحو اربعمائة رجل فتبع العسكر آثارهم واضطرمت نار الحرب ساعات وفي آخرها رجع عسكر داود باشا مدحورين الى طرابلس، وكسب الكرميون شيئاً كثيراً من سلاحهم استعانوا به على حربهم في مواقع اخرى.

فاتسع خرق هذه الفتنة وامسى ضربة لازب أن تنتصر الحكومة اعلاء لشأنها فجمع داود باشا نحو ثمانية آلاف مقاتل وسيرهم على كرم وهو في قرية سبعل واصحابه لا يبلغون خمسمائة رجل، فتلظت نار الوغى بين الفريقين من الصباح حتى المساء، وبات كل من المتحاربين متحفزاً للقتال، وعند الصباح رأى كرم انه لم يبق لرجاله بارود فصرف جمهوراً منهم ليذهبوا في سبيلهم ومضى بمن بقي الى داره في اهدن ثم عمد الى الاختباء ومعه نحو خمسة عشر رجلاً فدخل العسكر اهدن وحرق داره.

وكان كرم يغير مخبأه وقد كبسه مرات رجال الحكومة وكان يتملص منهم سالماً ظافراً فكبسه مرة مدير بشري ومعه نحو مائتي رجل وكان في خربة بيته بإهدن ومعه سبعة رجال بدد بهم حشد المدير. وكان مرة في وادي النسر في منعطف لنان من جهة بعلبك فجمع قائمقام بعلبك حشداً كبيراً من جنود وغيرهم نحو الف رجل وقصدوه في مخبئه فهب اليهم بسبعة رجاله فلم يجسروا ان يدنوا منه بل ولّوا هارين. واحتاطه مرة في نبع جوعيت نحو ألف رجل فانحدر امامهم في وادي النهر لجهة مزيارا فأقاموا له كميناً على الطريق التي بين سبعل ومزيارا واتبعه الرحال على ضفتي الوادي، ولما بلغ الكمين وابقن أن لا

مناص له صاح بأصحابه وكانوا نحو خمسة عشر رجلاً: سيوفكم يا أبطال واستلّ سيفه ومشى على القوم المشتبكين في الطريق وحوله رجاله فارتاع الكامنون وانحسروا من طريقه واجتار بينهم ومضى.

واحيراً سئمت نفسه الاحتفاء فهتّ متظاهراً على بيع جوعيت وتألّب اليه نحو ثلاثمائة شاب من نخبة رجاله، فسار بهم في وسط البلاد لا يعترضه احد بل رحب به الجم الغفير مازاً بجبة بشري وبلاد البترون وجبيل وكسروان الى أن بلغ بكفيا في أواسط كانون الثاني سنة ١٨٦٧م والعسكر اللبناني يتبعه عن بعد ولم يتحرش لقتاله إلا في الوادي الفاصل بين كسروان والقاطع، وقبل ان ينتهي القتال بلغ الى البك وفد من قبل القنصل الفرنسي العام يعرض عليه أن يكون مظلاً بحماية فرنسة ويسافر اليها بضمانتها وأن يلتقيه الى بطريركية الموارنة، ذلك ان داود باشا رأى اتساع الخرق على الراقع فلجأ الى قنصل فرنسة بهذه الوسيلة فأذعن البك لوساطة القنصل وعاد الى بكركي وجاء القنصل اليها.

وشهر القنصل اعلان حماية فرنسة لكرم على الجمهور وقبل البك هذه الحماية وأن يسافر الى فرنسة تحت رايتها وبارح بكركي قاصداً بيروت للسفر منها الى مرسيليا فاجتمعت في بكركي ألوف مؤلفة ورافقه اكثرهم الى بيروت وغصت الطرق بالملاقين له من بكركي الى بيروت وكان لدخوله الى بيروت ملتقى قلّ أن يسبق له نظير وسافر منها الى مرسيليا في شهر شاط سنة ١٨٦٧م.

وسار من مرسيليا الى جزائر العرب حيث اقام مدة وجعل له عاهل فرنسة جعلاً سنوياً ألف ليرة فرنسية ثم استأذن بعدها بالحضور الى باريس فشخص اليها، ولما لم يرَ من وزير خارجيتها ما يوافق مصلحته خرج منها الى اللجيك ثم اتى الى رومة فأقام بها مدة وصرف مدة اخرى في كورفو وعاد الى نابولي فتوطنها مدة طويلة. وفي سنة ١٨٨٧م بلغ الباب العالي انه يسعى ليأخذ الجنسية الايطالية فوجس من ذلك، وكنت تلك السنة برومة فأوعز اليّ سفير دولتشا العلية أن أقنعه بالعدول عن ذلك فعند مبارحتي رومة عرحت الى نابولي وكاشفته بما قيل عنه فحقق لي ان ما عُري اليه من اتخاذه جنسية ايطاليا لم يخطر له بهال وانه لو شاء أن يغير جنسيته العثمانية لأمكنه أن يتخذ جنسية دولة اخرى لكنه حافظ ويريد أن

يحافظ ما دام حياً على صبغته العثمانية، وانه كرر قيام الحجة مراراً على انه ما قصد البتة أن يخرج من طاعة السلطان الأعظم، بل ان كل ما عمله لم يكن إلا مدافعة عن نفسه من ظلم خصمه داود باشا. واستشهد جريدة الجوائب التي كانت في مدة حربه مع داود باشا تجد في اثبات هذه الحقيقة اي انه لم يكن عاصياً على الدولة بل على داود باشا، ولما بلغت الى الآستانة العلية وعرضت ما قاله لي على فخامة الصدر الاعظم كامل باشا أسمعني انه إذا اراد كرم نصّبه قائمقاماً او متصرفاً ايضاً على احدى مدن سورية خارجاً عن لبنان، فكاشفته بذلك فاجابني انه يابى كل خدمة ويؤثر ان يقضي ما بقي من حياته في الغربة. وهكذا كان، فإنه توفي بنابولي سنة ١٨٨٨م ودفن في احدى مدافنها ولم يحط. وبعد نحو خمسة عشر شهراً ارسل البكوات ابناء اخيه من يأتي برفاته الى موطنه فعجب كل من حضر من بقاء جثته سالمة من الفساد وقد آتت بها الى اهدن وشاهدها خلق كثير لا يحصى بريئة من الفساد والتغير ويعزو الجمهور ذلك الى فضيلة طهارته التي حافظ عليها في حياته كلها بشهادة كل من عرفه في المشرق والمغرب.

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم من الموارنة

عد ١١٢٠

المعلم بطرس البستاني

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن ابي شديد بن محفوظ بن ابي محفوظ البستاني (كذا ذكر نسبه في كتابه دائرة المعارف). ولد بقرية الدية باقليم الخروب سنة ١٨١٩م ودرس مبادئ العربية والسريانية على الخوري

ميخائيل البستاني ثم ارسله نسييه المطران عبدالله البستاني مطران صور وصيدا الى مدرسة عين ورقة، فتلقى فيها آداب اللغة العربية ثم اللغات السريانية والايطالية واللاتينية ثم العلوم الفلسفية واللاهوتية والشريعة الكنسية والتاريخ والجغرافية والحساب، وأراد البطريرك يوسف حبيش أن يرسله الى رومة للتكامل بعلومه فلم ترض أمه اذ كان ابوه توفي فعين معلماً في المدرسة المذكورة وبقي فيها الى سنة ١٨٤٠م، حين حضرت مراكب الدول الى ثغور سورية لاعانة الدولة العلية على اخراج الحكومة المصرية منها فاستخدمه الانكليز ترجماناً، وتعرف حينئذ ببعض القسوس الاميريكان فكان يعلمهم العربية ويعزب لهم الكتب التي ينشرونها، فتمكنت علاقات المودة بينه وبينهم حتى شايعهم وتابعهم على مذهبهم. وفي سنة ١٨٤٦م انشأ الدكتور فانديك مدرسة بعيه وجعله معلماً فيها وأقام على ذلك سنتين وألف إذذاك كتابه الموسوم بـ«كشف الحجاب في علم الحساب» ثم قدم الى بيروت فعين ترجماناً في قنصلية اميريكا بها وعكف على التأليف والترجمة ودرس في اثناء ذلك اللغتين العبرانية واليونانية وعاون الدكتور سميث الاميريكي على ترجمة الاسفار المقدسة الى العربية، فوضعا ترجمة اكثرها ثم توفي سميث فأتم الدكتور فانديك هذه الترجمة المشهورة وألف المعلم بطرس حينئذ معجمه الموسوم بـ«محيط المحيط». وانشأ في سنة ١٨٦٠م نشرة سماها «نفيير سورية». وسنة ١٨٦٣م انشأ ببيروت مدرسة سماها «المدرسة الوطنية» تخرج بها كثيرون من الطلبة وانعمت عليه الحضرة السلطانية بوسام الشرف مكافأة لخدمته. وكان ولده سليم رئيساً للمدرسة تحت إدارة والده ويدرس بها الطبيعيات والتاريخ والصف الاول في اللغة الانكليزية، ولما فرغ من معجمه محيط المحيط اقتطف منه مختصراً سماه «قطر المحيط». وفي سنة ١٨٧٠م انشأ مجلة علمية ادبية سياسية سماها «الجنان» وعهد بإدارتها وانشائها إلى ولده سليم، فكان له بها مقالات كثيرة جريئة الفائدة ثم انشأ جريدة اسبوعية سماها «الجنة» ونشرة يومية سماها «الجنينة».

وكان قد وعد في آخر محيط المحيط بتأليف معجم لأسماء الاعلام المشاهير ثم رأى أن يتوسع في مشروعه هذا فأخذ في تأليف مؤلفه الشهير المعروف بـ«دائرة المعارف» جامعاً فيه تراجم الاعلام من سلاطين وملوك وعلماء واعيان

ومدن واعمال ومقالات في العلوم والفنون على اختلاف مواضيعها، فترع فيه سنة ١٨٧٥م يعاونه به ابنه سليم وبعض الكتاب، فأكمل ستة مجلدات وتوفي في بدء السابع، فأتمّ ابنه سليم السابع والثامن وتوفي قبل شروعه في التاسع فأصدر أبنائوه الباقيون الجزء التاسع بمعاودة ابن عمهم سليمان خطار البستاني الذي اُخذ في اتمام هذا التأليف النافع مع نجيب ونسيب انبي المترجم، فصدر منه الجزء العاشر والحادي عشر، ومأخوذ في تأليف الثاني عشر. وتوفي المعلم بطرس في اول أيار سنة ١٨٨٣م بعد أن قضى حياته كلها خادماً للعلم. وله من التأليف ما سبقت الاشارة اليه وكتاب مسك الدفاتر وكتاب مفتاح المصباح في الصرف والنحو. وقد طبع كتاب «بحث المطالب» للمطران جرمانوس فرحات وذئله بحواش كثيرة وخطأه في بعضها لاعتماده على نسخ غير صحيحة، فانتقدت تلك الحواشي بكتاب لم يطبع. وللمترجم خطب ومواعظ كثيرة وأبنة وراثه بعد موته عدة من مشاهير قطرنا وفاضت الجرائد العربية وغيرها بالثناء والاسف على فقده. ومن أحب الاطلاع على ذلك فليطالع المجلد السابع من دائرة المعارف في كلمة دائرة وكتاب مشاهير القرن التاسع عشر لرجي افندي زيدان. وبعد وفاته عاد ابناءؤه وبعض بناته الى المذهب الكاثوليكي في الطقس الماروني وقد حافظ هو في حياته على طائفته المارونية بأيماله ومساعيه وكان ينوي العود الى المذهب الكاثوليكي لو لم يعاجله الموت بغتة وكذلك كان لابنه سليم.

عد ١١٢١

فارس الشدياق

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق من سلالة المقدم رعد بن خاطر الحصري الماروني الذي تولى جبة بشري في القرن السابع عشر. ولد بعشقوت من كسروان سنة ١٨٠٤م وانتقل والده الى الحدث في ساحل بيروت سنة ١٨٠٩م وتخرج اولاً بشيء من العلوم في مدرسة عين ورقة. وتوفي والده وهو صبي فأتقن صناعة الخط وكان ينسخ الكتب لنفسه

ولغيره بالاجرة، ثم سار الى مصر وفيها اتقن الدروس العربية وتولى كتابة جريدة «الوقائع» المصرية ثم سافر الى مالطة سنة ١٨٣٤م وأقام بها زهاء اربع عشرة سنة يدرس في مدرسة المرسلين الاميريكاني ويعرب ما يطبع في مطبعتهم. واخذ في التأليف والتصنيف. وفي جملة ما ألفه هناك كتابه الذي سماه: «الواسطة في معرفة احوال مالطة». وفي سنة ١٨٤٨م طلبته جمعية ترجمة الاسفار المقدسة بلندرا من حاكم مالطة ليعاونها في ترجمة الاسفار الى العربية، فعاونها بتعريب هذه الترجمة وتنقيحها وضبطها فكانت احسن الترجمات من حيث اللغة العربية. وعاد بعد فراغه من هذه الترجمة الى باريس فاجتمع بصديقه وابن وطنه الشيخ رشيد الدحداح نزيل باريس حيث، وكان الشيخ رشيد قد طالع كتاب المترجم الموسوم بـ«الفريق» واخبرني انه لامة وعته على تخطيطه به حدود الادب والحشمة واقترح عليه أن يكتب كتاباً آخر يصلح به ما فرط منه بالفريق فأخذ حيثذ بتأليف كتابه الموسوم بـ«كشف الخبا عن احوال اوربا» وصف به تلك البلاد وصفاً دقيقاً محكماً بعبارة فصيحة رقيقة وقضى مدة طويلة متجولاً بأوروبا بزيته العربي. وأتقن اثناء ذلك اللغتين الانكليزية والفرنسية وتزوج بسيدة انكليزية لم تلد له اولاداً ونال حماية دولة انكلترا. واتفق ان احمد باشا باي تونس زار فرنسة وهو فيها وأجزل عطاياه لقرائها فنظم له المترجم قصيدته الشهيرة ومطلعها:

زارت سعاد وقلبي اليوم متبول فما الرقيب بغير النشر مدلول
وما سعاد وقد زارت باسكن من ظباء وجرة تهديها مطافيل
وشاحها مثل قلبي لم يزل خلفقا وزندها اخرس الدملاج مجدول

وارسلها اليه الى تونس فأرسل الباي يستقدمه اليه على سفينة حرية فتعجب المترجم لهذه الدعوة وقال لعمرى ما كنت أحسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً رائجة. وأقام بتونس يدون بها جريدة «الرائد التونسي».

ومن جملة نظمه قصيدة مدح بها السلطان عبد المجيد ابان الحرب بينه وبين دولة روسيا تزيد على المائة والثلاثين بيتاً قال في مطلعها:

الحق يعلو والصلاح يعمُر والزور يحق والفسادُ يدمُر
ومنها من كان من بين الوري سلطانه عبد المجيد فإنه لمظفر
من جوهر الاخلاص صور ذاته رب قدير كيف شاء يصور
ولاه امر الدين والدنيا معا فهو الامام الحاكم المتأمر
فسرت جلالة السلطان بهذه القصيدة واوزت اليه بالقدوم الى الآستانة، وكان
قد شخص الى تونس فوله الباي احسن منصب فأسلم وشُمي احمد فارس
الشدياق فطلبه الصدر الاعظم من الباي فقدم الى الآستانة فتولى تصحيح الطباعة
العامة سنين.

وفي سنة ١٢٧٧هـ (سنة ١٨٦١م) انشأ جريدة «الجوائب» الشهيرة وأجاد في
انشائها وسبكها فأقبل عليها الجمهور وكثر المشتركون فيها في الهند وفارس والعراق
وبلاد العرب ومصر وسورية والمغرب، واقتطف ابنه سليم منها كتاباً يسمى
«منتخبات الجوائب» وقضت الاحداث بالغاء الجوائب سنة ١٨٨٤م وما زال عاكفاً
على التأليف والتصنيف الى آخر ايامه. وسار قبل وفاته الى مصر فلقى بها كل تجلة
واكرام من الخديوي ووزرائه وكبراء القوم وعلمائهم، ونعلم عن رسالة كتبها الى
احد انسابائه انه كان ينوي العود الى لبنان موطنه ليموت بين اهله ومواطنيه وابناء
ملته، فألجئ الى العود الى الآستانة حيث وافته المنية، وأوصى أن تنقل جثته الى
لبنان ويدفن بالقرب من ابنائه فدفنت في الحازمية على مقربة من الحدث موطنه سنة
١٨٨٧م.

اما مؤلفاته فمنها:

- ١- «سر الليال في القلب والابدان» وهو كتاب في اللغة قصد به بيان مدلولات
الاسماء والافعال من قلبها او تبديل بعض أحرفها وكشف اسرار معانيها
واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ او مثل. طبع بالآستانة سنة
١٢٨٤هـ وقد اهدى إلي نسخة منه عند وجودي بالآستانة بمعية الطبيب
الذكر البطريق بولس مسعد سنة ١٨٦٧م.

- ٢- «الجاموس على القاموس» انتقد به الفيروزبادي في قاموسه المحيط ضمنه افادات كثيرة لغوية، وترجمات صاحب القاموس وصاحب العباب والصباح والمحكم ولسان العرب، وانتقد القاموس من جهة عبارته وخطته ومعاني الفاظه واشتقاقها الى غير ذلك.
- ٣- «كشف الخبا عن فنون اوروبا» وتقدم ذكره.
- ٤- «الواسطة في احوال مالطة» وتقدم ذكره ايضاً.
- ٥- «اللفيف في كل معنى ظريف» جمع فيه كلمات مفيدة وحكماً مأثورة وأمثلاً وحكايات ونكتاً لغوية.
- ٦- «غنية الطالب ومنية الراغب» في التصريف والنحو.
- ٧- «الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية» و«المحاورة الانسية في اللغتين العربية والانكليزية».
- ٨- «السند الراوي في الصرف الفرنسي».
- ٩- «الساق على الساق في ما هو الفرياق». يريد بالفرياق فارس الشدياق وليته لم يكتب هذا الكتاب لأنه أورد به الفاظاً وحكايات وعبارات اراد بها المجون، لكنها تجاوزت حدود الأدب ويأبى الاديب مطالعتها. ولم يكن له من المفيد في هذا الكتاب إلا جمعه الالفاظ المترادفة ومجموعات اسماء كل موضوع على حدة كأسماء الآلات والمأكولات والمشروبات والمفروشات والحلى والجواهر واوصاف الرجال والنساء الى غير ذلك.

عد ١١٢٢

الكونت رشيد الدحداح

هو ابن الشيخ غالب بن سلوم الدحداح ولد سنة ١٨١٣م في قرية عرامون بكسروان وأحسن والداه تربيته فأقاما له الشمساس نهرا مراد (هو الذي صار بعداً

المطران نقولا مراد) معلماً فكان يهذه ويعلمه مع اخويه خليل وعباس (الذي ارتقى الى اسقفية دمشق وسمي نعمة الله) ثم ارسله والده الى مدرسة عين ورقة فتعلم بها اصول العربية والايطالية ثم دخل مدرسة بزار للارمن الكاثوليكين فأقن اللغة التركية. وفي سنة ١٨٣٨م ادخله الامير امين ابن الامير بشير الكبير في كتبة ديوان أبيه فأقام هناك سنتين ولما ابعد الامير بشير الى مالطة رجع الشيخ رشيد الى بيته بعراون ولما تولى عمر باشا لبنان سنة ١٨٤٢م قُرب اليه الشيخ رشيد وولاه نظارة البكاليك ببلبن فلم يمكث طويلاً إلا وكان ما دفعه الى ترك هذه النظارة. وفي تلك الاثناء قبض بعض خصومه على رسول له كان قد سيره الى البطريرك يوسف حبيش برسائل ذات بال، فنزل ببعض اقاربه ورجالهم الى غزير فأنفذ رسوله واسترد رسائله وكان حينئذ ما مر ذكره من القتال بين المشايخ الحبيشية والدحادحة فاضطر أن يفرّ ويختبئ الى أن ظهر بين الساعين بنصب الامير اسعد قعدان شهاب والياً على لبنان، وعين مديراً لاعماله سنة ١٨٤٣م. ولما لم يقبل عمر باشا تولية الامير اسعد تشنت شملهم وفر الشيخ رشيد الى صيدا حيث أقام سنتين منصباً على درس الفقه وتوسطت سفارة فرنسة لدى الباب العالي فصار الصفح عن المشائخ آل الدحداح فرجعوا الى اوطانهم ورجع الشيخ رشيد الى عراون.

ولما عاد الشيخ مرعي الدحداح من مرسليليا الى لبنان صحب معه حين عودته الى مرسليليا الشيخ رشيد وجعله كاتباً في محل تجارته وزوجه ابنته مرتا. وفي سنة ١٨٥٢م ترك محل تجارة عمه وأنشأ محلاً تجارياً بفرنسة ثم محلاً في انكلترا، واستدعى اخاه الشيخ سلوماً ليعاونه بتجارته. وكان مع انهماكه في المشاغل التجارية يعكف آونة الفراغ منها على التأليف والتصنيف فطبع سنة ١٨٤٩م «قاموس المطران جرمانوس فرحات» بعد أن هذبه وزاد عليه وسمى كتابه «احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب». ثم طبع ديوان الشيخ عمر بن الفارض مع شرحين عليه احدهما للشيخ عبد الغني النابلسي والثاني للشيخ حسن البوريني جامعاً بينهما. ثم انشأ في باريس جريدته المشهورة «برجيس باريس» و«أنيس الجليس». وله فيها مقالات الخطيرة الرنانة. ومما نشره فيها قصيدة رنانة في العاهل نابوليون الثالث مطلعها:

ماذا على الممتطي أعلى ذرى الدول حتى يفوق كرام الأعصر الأوّل

ونشر ايضاً مجموعة اشعار حكيمة لأشهر شعراء العرب سماها «طرب المسامع في الكلام الجامع». وقد تقرب الى سمو باي تونس فجعله ترجماناً له في مدة زيارته لفرنسة، وسعى له بقرض عاد على الباي بمنافع فتكرم عليه بمبلغ عظيم جعله له مكافأة على اتعابه. وللشيخ رشيد في مدحه قصيدته اللامية المشهورة ومطلعها:

بانت سعادتنا والفتح مكفولُ باسم المليك فلا تلهيك عطبول

وفي سنة ١٨٦٤م عاد الى فرنسة واستوطن باريس وامتلك قصراً في الشانزليزا حل به سنة ١٨٧٦م الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد والمطرانين يوحنا الحاج وبطرس البستاني وشقيقه الخوري نعمة الله والخوري يوحنا الحبيب، وهذا الكاتب، الى غيرنا من الخدم والحشم. وفي تلك السنة انعم عليه السعيد الذكر البابا يوس التاسع بلقب كونت روماني، وعلى بكر انجاله وسلالته من بعده. وفي سنة ١٨٧٥م اشترى بلدة دينار على شاطئ بحر المانش وأجال فيها يد العمارة واوصل اليها السكة الحديدية فصارت كبيرة وزادت قيمتها على ثمنها اضعافاً كثيرة فصارت ثروة طائلة.

ومن منشوراته ومؤلفاته ايضاً كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي طبعه بباريس سنة ١٨٦١م ثم طبع بمصر سنة ١٢٨٤هـ بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٨٨٥م في بيروت. وكتاب عنوانه «قمطرة طوامير» ضمنه مقالات ادبية وفوائد لغوية. وله كتاب كبير في عدة مجلدات لم يطبع سماه «السيار المشرق في بوار المشرق» نقل عنه نتفاً في كتابه قمطرة طوامير. وقد تلا عليّ المجلد الثاني منه سنة ١٨٧٥م إذ كنت بباريس فعجبت منه كثيراً وهو في العرب ومن تنصر منهم ومناظرات مع علماء التفسير من المسلمين وكلام في ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه. وله ايضاً رسالة في فن المناظرات نحو خمسين صفحة عنوانها: «تروح البال في القلم والمال». وقد أدركته المنية في ٥ أيار سنة ١٨٨٩م وهو في السادسة والسبعين من عمره الذي صرفه في خدمة الدين والعلم والاعمال الخطيرة.

ابراهيم بك النجار

هو ابن خليل النجار من دير القمر ولد سنة ١٨٢٢م بدير القمر ولما شخص الدكتور كلوط بك رئيس اطباء العساكر المصرية الى لبنان ورأى افتقار اهله الى اطباء نال من محمد علي باشا الرخصة بقبول بعض شبان سوريين يدرسون الطب في مدرسة قصر العيني بمصر، فانتخب الامير بشير الكبير ابراهيم بك المذكور وأرسله الى هذه المدرسة سنة ١٨٣٧م، فتلقى الدروس الطبية فيها بجد ونجاح حائزاً قصبات السبق بين أقرانه ونال الشهادة المعتادة في سنة ١٨٤٢م، واستأذن بالعود الى بلاده فأذن له به لكنه سافر من اسكندرية الى ازمير ليعود الى لبنان. وإذ كان الامير بشير الكبير انتقل حينئذ الى الآستانة فأثر أن يسير اليها قبل عوده الى لبنان ليشاهد من ربي بنعمته ويقضي الوطر بزيارة عاصمة السلطنة. فسار وقبله الامير بشير بالبشاشة والاكرام وامر بافراد منزل له في داره وكان في تلك الاثناء أن توفى الى اخراج حصاة من رجل رومي وزن الحصاة خمسة واربعين درهماً فكان ذلك وسيلة لتعرفة باريس الأطباء بالآستانة. ونال من كلية الطب الدكتوراه بعد الامتحان، واقام مدة في الآستانة يمارس المعالجات مع اطباء المدرسة وأتقن في هذه المدة اللغتين التركية والفرنسية. ثم عين في جملة الاطباء العسكريين براتب كاف، فأقام على ذلك اربع سنين وانعمت عليه الحضرة السلطانية برتبة سرهزار اي رئيس ألف، وأمرت بأن تكون خدمته في الآستانة العلية، فاسترحم أن يعفى من الخدمة في دار السعادة فصدرت الارادة بأن يكون طبيباً أولاً للعساكر ببيروت، فباشر صناعته للعساكر وعامة الناس بنجاح وشهرة لا ينساها الكثيرون، ويتذكرون ما كان عليه من اللطف والركة ودماثة الاخلاق وحب عمل الخير وفصاحة اللسان. وله من التأليف كتاب: «مصباح الساري ونزهة القاري» طبعه على نفقته ببيروت سنة ١٢٧٢هـ (سنة ١٨٥٨م) تكلم فيه عن اسفاره والسلاطين العثمانيين الى السلطان عبد المجيد خان، ووصف الآستانة ورتب الدولة ودخلها وخرجها. وله ايضاً كتاب سماه: «هدية الأحباب وهداية الطلاب» تكلم فيه في بعض المبادئ الطبيعية. وتوفي سنة ١٨٦٠م ولم نظفر بمعرفة سنة وفاته.

الفصل الثالث

بطاركة الموارنة ومن رقوهم الى الاسقفية في هذا القرن

عد ١١٢٤

البطريك يوسف التيان

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن الثامن عشر على بطاركة الموارنة بذكر وفاة البطريك فيلبوس الجميل وانتخاب البطريك يوسف التيان خلفاً له في ٢٨ نيسان سنة ١٧٩٦م وتثبيت البابا بيوس السادس له في ٢٤ تموز سنة ١٧٩٧م. ونقول الآن ان يوسف التيان ولد ببيروت وأرسله البطريك يوسف اسطفان الى مدرسة الطائفة برومة فتخرج بها باللغات والعلوم السامية، وفاق اقرانه وركي الى درجة الكهنوت. وفي سنة ١٧٨٤م أجمع رأي البطريك يوسف اسطفان ومطارين الطائفة واعيانها على أن يرسلوه الى رومة نائباً عن الطائفة لقضاء حاجاتها ولاسيما عود البطريك يوسف اسطفان الى مقامه البطريكي الذي كان قد وقف عنه. وفي خزائن اوراق البطريكية المارونية رسالة من الشيخ سعد الخوري الى الكردينال كرسيني جواب له عن رسالة أوصاه بها بالخوري يوسف التيان. فالشيخ المذكور يجيبه عنها بأنه عند وصول الخوري المشار اليه الى لبنان أبدى له كل مساعدة احتراماً لتوصاة نيافته ولاستحقاق هذا الكاهن نظراً الى اخلاقه وعلومه وسلوكه فانه جذب اليه محبة الجميع. ويكفي بياناً لذلك ان طائفتنا المارونية لم تجد اجدر منه للنيابة عنها امام الكرسي الرسولي فانتدب لذلك باجماع الرأي وبشكر لعناية نيافته التي جعلت مدرستنا تربي اشخاصاً نظيره وليت جميع تلامذتها يكونون مثله. فأتّم الخوري يوسف التيان وفادته الى رومة وقضى وطر الطائفة على احسن حال

وبأسرع زمان وعاد الى لبنان مصحوباً بالأوامر الرسولية لرد البطريرك الى مقامه وكرامته.

وفي ٦ آب سنة ١٧٨٦م رقاہ البطريرك يوسف اسطفان الى الاسقفية على دمشق فدير هذه الابريشية سنتين ثم استقال منها وجعل نائباً بطريركاً في الروحانيات، وسلمت ابرشية دمشق الى المطران ميخائيل الخازن سنة ١٧٨٨م. ولما توفي البطريرك فيلبوس الجميل اجتمع الاساقفة في دير بكركي فانتخبوا المطران يوسف التيان بطريركاً في ٢٨ نيسان سنة ١٧٩٦م، فأرسل القس لويس بلبيل الراهب اللبناني (الذي صار بعداً اسقفاً على قبرص سنة ١٧٩٨م) الى الحبر الروماني مستمداً التثبيت فأناله إياه البابا بيوس السادس في ٢٤ تموز سنة ١٧٩٧م، فأقام يدبر البطريركية بغيره لا يدانيها ملل متحملاً هذا العبء الثقيل طامعاً بالاجر المؤبد.

وفي سنة ١٧٩٩م كانت مناقشة بينه وبين المطران جرمانوس آدم الملكي الكاثوليكي مدارها على السلطة المطلقة للحبر الروماني على الاساقفة ولو مجتمعين، فكتب البطريرك الى المطران ثلاث رسائل يبين بها صراحة صحة آرائه ورهن رأي معارضه، وقد جمعت الرسائل الثلاث مع بعض شروح في كتاب لم يطبع واعرف منه نسختين احدهما في مدرسة مار يوحنا مارون طالعتها سنة ١٨٥٧م وأنا مدرس لتلامذه هذه المدرسة والأخرى في البطريركية في بكركي.

ان البطريرك يوسف التيان كان يؤثر العيشة بالنسك والزهد والانفراد على اعباء البطريركية ويرغب في العزلة متفرغاً لعبادة الله ومسؤولاً عن نفسه لا عن نفوس الطائفة جمعاء، وزاد في اضرام رغبته هذه معاكسة بعض الأساقفة لبعض رغائبه الخيرية واستمالوا اليهم بعض اصحاب الامر فاغتنم هذه الفرصة وسيلة لنوال بغيته فاستقال من البطريركية سنة ١٨٠٩م ولزم العيشة النسكية في دير القديس يوحنا مارون (الذي صير بعد ذلك مدرسة)، وفي دير قنوين. ويروون عنه في نسكه اخباراً معمرة يقتدي بها الى أن أدركته المنية في دير قنوين في ٢٠ شباط سنة ١٨٢٠م ودفن في مدفن البطارقة اسلافه حذاء مغارة القديسة مارينا. وقد تلا على المرحوم المطران بولس مطران طرابلس تاريخاً لوفاته بها، وقال اليّ إنه من نظم اسعد الشدياق فحفظه عنه وهو مخمساً:

يا شعب مارون الجليل المنقذ بالله ما للترب نشرأ قد شذي
فأجابني مسترجعاً بتعود هذا ضريح العالم الفرد الذي
أضحت به أحبارنا تتباهى

فسطا المنون على ذخيرة ملكنا وخبا بهذا الرمس معدن سبكنا
من حق من احشائنا ان يسكنا يوسف فريد العصر بطريركنا
فخر الأئمة مجدها وبهاها

فالدرس مندرس الطريقة بعده إذ خص في علم الحقيقة وحده
ولنشره في العمر افنى جهده وبكت له العلياء تندب بعده
حزناً كيحقوب وتصرخ اها

سهم المنية صح فيه رشقها وبدمع أعينها السخية شرفها
وبظلمة دجناء أمسى شرفها والبيعة الغراء أظلم أفقها
وجداد وقد ارخت غاب ضياها

١٨٢٠

وأما الاساقفة الذين رقامهم التيان فهم:

١- القس يوسف بلييل من ساقية المسك رقامه الى اسقفية قبرص في ١٢ آذار سنة
١٧٩٨ ودعي عبدالله، وتوفي سنة ١٨٤٢ بكرسيه المعروف بدير مار شليطا
بقرنة شهوان ودفن هناك.

٢- الخوري جرمانوس ثابت من بيروت رقامه في ٨ ايار سنة ١٨٠٠ الى الاسقفية
على الكرسي البطريركي وبلاد جبيل والبترون وكان اخا البطريرك لأمه. ولما
كانت ترقيته الى الاسقفية ببلاد جبيل والبترون مخالفة للقوانين لأن مطرانها
بولس اسطفان كان حياً امر الكرسي الرسولي بعزل المطران جرمانوس عن

٢٥٧

هذه الابرشية ورد المطران بولس اليها ولكن لما توفي المطران بولس انتخب المطران جرمانوس لتدبير هذه الابرشية فسلمها اليه البطريك يوحنا الحلو في ١٠ آذار سنة ١٨١٠م فدبرها الى أن توفي في ١٤ حزيران سنة ١٨٣٣م في مدرسة مار يوحنا مارون ودفن فيها.

٣- القس جرمانوس حوا من حلب رقاہ الى اسقفية هذه المدينة في ١ تموز سنة ١٨٠٤م ثم توفي في ١٣ حزيران سنة ١٨٢٧م.

٤- الخوري انطون الخازن من درعون رقاہ في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٠٥م الى اسقفية الناصرة ثم تسلم ابرشية بعلبك سنة ١٨٠٨م وتوفي في ١٨ شباط سنة ١٨٥٨م في دير بقلوش ودفن في كنيسة.

عد ١١٢٥

البطريك يوحنا الحلو

أصله من قرية غوسطا بكسروان انضوى الى احدى الرهبانيات وراقي الى درجة القسوس ثم رقاہ البطريك يوسف اسطفان في ١٦ آب سنة ١٧٨٧م الى اسقفية عكا وجعله نائباً بطريكياً في الزمانيات. وعند انتخاب البطريك فيلبوس الجميل كان المطارين تسعة فاتفقوا على ترشيح المطران يوحنا الحلو والمطران فيلبوس الجميل ويقترح السبعة الباقون فمن أصابته أربعة أصوات كان البطريك. فكانت الاصوات الاربعة للمطران فيلبوس الجميل فكان هو البطريك كما مر. وبعد ان استقال البطريك يوسف التيان من البطريكية اجتمع الاساقفة في دير القديس يوسف بعينطورا فانتخبوا المطران يوحنا الحلو بطريكاً في ٨ حزيران سنة ١٨٠٩م وطلب تثبيته من الكرسي الرسولي. ولما كان البابا بيوس السابع ممسكاً في سافونه بسبب الاضطهاد الذي جرى عليه أثبت انتخابه هناك في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٨١٠م، وكتب الى رئيس مجمع نشر الايمان أن يعلمه ذلك مؤجلاً تسليم الدرع والاحتفالات المعتادة الى زمن آخر، ولما عاد البابا الى رومة سنة ١٨١٤م أنفذ اليه درع الرئاسة واعمال التثبيت في ١٩ كانون الاول من السنة المذكورة. واما من كان موفد هذا البطريك الى الحبر الروماني فأرى فيه اختلافاً فروى الطيب الذكر

البطريك بطرس بولس مسعد في الدر المنظوم ان موفده الذي نال الثبوت على يده إنما هو القس ارسانيوس القرداحي. ويؤخذ عن بعض اوراق في سجل البطريكية ان موفده كان القس يوسف السمعاني الحصري. ولا وقت لي الآن لأحقق اي الروايتين أحق بالاتباع. ومما كان في ايام هذا البطريك من الامور الهامة انتقاله للسكنى بدير قنوين منذ سنة ١٨١١م، واخذه في اصلاح املاكه واحواله بعد أن كان مهملًا لسكنى البطارقة في كسروان، ثم تحويل دير مار يوحنا مارون بكفرحي مدرسة خاصة لأبرشية جبيل والبترون سنة ١٨١٢م، وجعل دير مار مارون الرومية بكسروان مدرسة عامة للطائفة سنة ١٨١٧م، وعقد مجمع لويته سنة ١٨١٨م. وقد ذهب للقاء ربه ونيل اجر جهاده في ١٢ أيار سنة ١٨٣٢م في دير قنوين ودفن في حائط الكنيسة الشمالي في مدفن صنعه لنفسه.

واما الذين رقاهم هذا البطريك الى الاسقفية فهم:

١- الخوري خيرالله اسطفان ابن اخي البطريك يوسف اسطفان رقاہ في ١٨ شباط سنة ١٨١٠م الى اسقفية قورش ورئاسة مدرسة عين ورقة، وكان بعد البطريك يوسف التيان أعلم اساقفتنا في عصره واشدهم غيرة وحمية، وكان له اليد الطولى في اقناع عمه البطريك وعائلته بجعل ديرهم عين ورقة مدرسة للطائفة، وهو الذي عني بتحسين احوالها ونجاح تلامذتها وجعلته غيرته يتحمل المشاق في سبيل خير المدرسة والطائفة حتى اضطر أن يختبئ مدة، واستمر مجاهدًا الى أن أدركته المنية في دير مار روحانا البقيعة في ٤ تشرين الثاني سنة ١٨٢٣م وأرخ احد الشعراء وفاته بقوله:

لما رأيت المدرسة	تنعي وفوها يشتكي
لفراق يوسف حبرها	ذاك الغيور الناسك
ناديتها خنساء لن	يلقى بكاؤك صخر
ورأيت عظم مصابها	ارخت غابت شمسك

سنة ١٨٣٢

- ٢- الخوري اسطفان الدويهي الاهدني رقاہ في ١٩ آذار سنة ١٨١٠م الى اسقفية عرقا وجعله نائباً له في الزمنيات، ثم اسقال من هذه النيابة وسلمت اليه اسقفية اهدن سنة ١٨١٣م واستمر عليها الى سنة ١٨٤٤م حين أدركته المنية وكان من تلاميذ مدرسة الموارنة برومة.
 - ٣- الخوري مارون العضم من زوق ميكائيل رقاہ في ٨ تشرين الثاني سنة ١٨١٤م اسقفاً على حماه وجعله نائباً له في الروحيات ودعي يوحنا مارون، وتوفي بزوق مكايل سنة ١٨٢٣م ودفن في كنيسة مار دوميط في القرية المذكورة.
 - ٤- القس انطونيوس زوين من يحشوش رقاہ في ٤ آب سنة ١٨١٤م الى اسقفية صور وجعله نائباً في الزمنيات، وتوفي في ٢٣ نيسان سنة ١٨٤٨م بدير حراش ودفن في كنيسة سيدة بكركي العليا حذاء جدارها الجنوبي.
 - ٥- الخوري عبدالله البستاني من الدبية رقاہ في ١٥ آب سنة ١٨١٩م الى اسقفية صيدا بمنزلة نائب فيها عن البطريرك لانها كانت ابرشية البطريرك، ثم صير اسقفاً شرعياً عليها في ٢٥ ايار سنة ١٨٣٧م، واخذ البطريرك يدبر ابرشية جبيل كابرشية خاصة له وتوفي المطران عبدالله البستاني في ٦ تشرين الثاني سنة ١٨٦٦م.
 - ٦- الخوري بطرس ابو كرم من بسكتتا في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٨١٩م على ابرشية بيروت وتوفي ببسكتتا في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٤٤م وهو من تلامذة مدرسة عين ورقة وله كتاب رد على «يونسكين والبروتستانت».
 - ٧- الخوري يوسف جوان من ساحل علما رقاہ في ٣ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م الى اسقفية طرابلس وهو الذي خلفه في البطريركية بعد وفاته.
 - ٨- الخوري يوحنا نصر الناصري رقاہ في ١٨ تشرين الاول سنة ١٨٢٠م الى اسقفية الناصرة وسمي جبرائيل وتولى القضاء للنصارى بلبنان وتوفي بغزير سنة ١٨٣٨م ودفن في كنيسة السيدة فيها.
- وقد رقي في ايام البطريرك يوحنا الحلو الاب لويس غندلفي العازاري القاصد

الرسولي الى الاسقفية، ولكن رقاها اليها البطريك يوسف التيان سنة ١٨١٦م وتوفي سنة ١٨٢٥ بدير مار يوسف بعينطورا.

عد ١١٢٦

البطريك يوسف حبيش

هو يعقوب ابن الشيخ جوان حبيش من ساحل علما بكسروان وتخرج بالعلوم بمدرسة عين ورقة ورقاه المطران انطون الحازن الى درجة الكهنوت في ٢٦ حزيران سنة ١٨١٤م على كنيسة مار جرجس بدير علما ودعي يوسف، ثم رقاها البطريك يوحنا الحلو الى اسقفية طرابلس في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م ولما توفي البطريك يوحنا الحلو في ١٢ أيار سنة ١٨٢٣م اجتمع الاساقفة في دير قنوين وانتخبوه بطريكاً في ٢٥ ايار من تلك السنة، ونال التثبيت ودرع الرئاسة من البابا لاوون الثاني عشر على يد وكيله القس باسيلوس ودروسون من رهبان الارمن الكرميين، فكان عاقلاً حازماً طاهراً دبر البطريكية اثنتين وعشرين سنة احسن تدبير واقدسه، وكان اول بطريك من مدرسة عين ورقة وافرخ جهده في نجاح هذه المدرسة وتقدمها في العلوم، وعني بتحويل دير مار عبدا هرهريا مدرسة عمومية للطائفة المارونية سنة ١٨٣٠م، وكذا فعل بدير مار سرقيس وباخوس بقرية ريفون سنة ١٨٣٢م، ثم جعل مدرسة الموارنة التي كانت بعينطورا ديراً للمرسلين اللبنانيين سنة ١٨٤٠م. ولما كانت الحرب الوطنية بين البصاري والدروز سنة ١٨٤١م كابد من جرائها اتعاباً وخسائر لا تقدر. واشتهر بكرمه على الفارين والمعوزين ولما تجددت هذه الحرب سنة ١٨٤٥م كانت سبباً لموته كمداً وحزناً فتوفاه الله في ٢٣ أيار سنة ١٨٤٥م المذكورة في دير الديمان الذي انشأه فوق وادي قديشا حيث دير قنوين ودفن في كنيسة قنوين في مدفن سالفه البطريك يوحنا الحلو.

اما الذين رقاها الى درجة الاسقفية فهم:

١- القس نقولا موسى من جزين الراهب الانطونياني رقاها الى اسقفية طرابلس في

٢ آذار سنة ١٨٢٦م ودعي بولس، وسكن أولاً في دار الامير عبدالله شهاب بغزير ثم انشأ لنفسه كرسياً في قرية كرم سدة من جبة بشري كمله سنة ١٨٤١م، ودير ابرشية طرابلس سبعاً واربعين سنة ونيفاً وتوفي في ٢٨ ايلول سنة ١٨٧٣م.

٢- القس بولس اروتين الحلبي رقاہ الى اسقفية حلب في ١٣ أيار سنة ١٨٢٩م وتوفي بها في ٢٦ نيسان سنة ١٨٥١م.

٣- الخوري يوحنا رزق من جزين تلميذ مدرسة عين ورقة رقاہ الى اسقفية قورش ورئاسة المدرسة المذكورة في ٣ أيار سنة ١٨٢٩م مع المطران بولس اروتين المذكور وسمي يوسف وتوفي في ٦ ك^٢ سنة ١٨٦٥م وقد جدد أكثر بناء مدرسة عين ورقة وزاد في املاكها.

٤- الخوري يوسف الخازن من عجلتون رقاہ الى اسقفية دمشق في ٦ نيسان سنة ١٨٣٠م وهو الذي خلفه بعد وفاته.

٥- الخوري نقولا جوان حبيش اخو البطريرك رقاہ الى اسقفية حماه ودير مار جرجس علما في ٢٨ آذار سنة ١٨٤١م ودعي فيلبوس وتوفي في ٨ شباط سنة ١٨٥٧م في دير علما المذكور.

٦- الخوري بولس مسعد من عشقوت رقاہ الى اسقفية طرسوس مع اخيه المطران فيلبوس في ٢٨ آذار سنة ١٨٤١م وجعله نائباً له في الروحانيات وكاتباً لاسراره ومراسلاته مع الاوروبيين واعتمد عليه في مشاغله.

٧- القس طوييا عون الراهب اللبناني من معلقة الدامور رقاہ في يوم واحد مع اخيه والمطران بولس مسعد الى اسقفية عكا ثم سلمت اليه ابرشية بيروت سنة ١٨٤٥م وتوفي في ٢ نيسان سنة ١٨٧١م ودفن بكرسيه الذي انشأه بعين سعادة لسكناء وجدد ووسع بناء القلاية الاسقفية في بيروت، واقتنى املاكاً وافرة لكرسيه ساعدتنا بعد خلافتنا له سنة ١٨٧٢م على المشروعات التي قمنا بها بعون الله.

واما الخوري روفائيل غنطوس كوبا الحلبي الماروني فقد رقاہ الكرسي الرسولي

برومة الى اسقفية ليفورنو في ١٠ تموز سنة ١٨٣٤م وتوفي هناك في ٣ ك^٢ سنة ١٨٤١م.

٨- الخوري يوسف جمعج من بشري تلميذ عين ورقة وخوري الموارنة بدمشق رقاہ في ٢٦ ك^١ سنة ١٨٤٣م الى اسقفية قبرص وتوفي في ١ تشرين الاول سنة ١٨٨٤م.

٩- الخوري نقولا مراد من عرامون بكسروان التمس البطريك في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٨٤١م من البابا غريغوريوس السادس عشر أن يرقه الى الاسقفية ليقى يرقى تلاميذ الموارنة المتعلمين برومة الى الكهنوت، فرقاہ الكردينال يعقوب فرنسوني رئيس مجمع نشر الايمان في ٥ ت^٢ سنة ١٨٤٣م الى اسقفية اللاذقية، ثم توفي في ٢٧ ك^١ سنة ١٨٦٣م بدير الرهبان الحلبيين برومة ودفن فيه ثم نقلت جثته الى مقبرة القديس لورنسيوس برومة.

عد ١١٢٧

البطريك يوسف الخازن

هو الشيخ شاس بن راجي بن بولس الخازن من عجالتون تخرّج بالعلوم بمدرسة عين ورقة وارتقى الى درجة الكهنوت ثم رقاہ البطريك يوسف حبش الى اسقفية دمشق في ٦ نيسان سنة ١٨٣٠م فساس الابرشية بالدعة والحلم والمثل الصالح ولما توفي البطريك يوسف حبش في ٢٣ أيار سنة ١٨٤٥م بدير الديمان. اجتمع الاساقفة في دير ميفوق وانتخبوه بطريكاً في ١٨ آب سنة ١٨٤٥م وارتأوا أن يتوجهوا الى دير الديمان ليشهروا انتخابه ويرقوه المقام البطريكي هناك، وكان اكثر الاعيان والمشايخ في بلاد جبيل والبترون وجبة بشري يؤثرون المطران بولس مسعد النائب البطريكي على المنتخب ولم يكونوا يعلمون ان الانتخاب قد تم. فأقبل حشد كبير من اهل بشري الى الديمان بعد وصول المطارين اليه قاصدين عمل مظاهرات يحملون المطارين بها على انتخاب من يؤثرون، ومن شيمة الجمهور أن لا يقف على حد ما يخططه لهم العقلاء فاتصل بعض الجهلة الى اهانة بعض المطارين

والكهنة والخدم فقام المطارين من الديمان وأتوا الى كسروان وهناك اكملوا حفلة الترقية للبطريرك وكتبوا الى الخبر الروماني يسألون تثبيت منتخبهم، فاثبتته البابا غريغوريوس السادس عشر في ١٩ ك^٢ سنة ١٨٤٦م على يد وكيله المطران نقولا مراد، وعاد في الصيف الى دير كرسية في الديمان فاستقبله الجميع ولاسيما أهل بشري بالاجلال والاحتفاء، ولقيهم البطريرك بحنان ابوي فكان حلم البطريرك وطاعة الاهلين متساويين باستحقاق المدح والثناء. ودبر هذا البطريرك الطائفة بروح الرب والدعة والمحبة الأبوية نيفاً وتسع سنين وانتقل الى لقاء ربه ونيل الثواب لفضائله في ٣ من تشرين الثاني سنة ١٨٤٥م في الديمان ودفن في الضريح الذي دفن به سالفاه البطريرك يوحنا الحلو والبطريرك يوسف حبيش.

ولم يرق هذا البطريرك الى الاسقفية إلا كاهنين الاول القس اقليموس الخازن رقه في ٢ نيسان سنة ١٨٤٨م الى اسقفية دمشق خلفاً له ودعي اسطفان وتوفي في ٨ ك^١ سنة ١٨٦٨م والثاني القس بولس جرجس مطر من حلب رقه الى اسقفية هذه المدينة في ٢٨ ايلول سنة ١٨٥١م وسمي يوسف.

عد ١١٢٨

البطريرك بولس مسعد

هو بولس بن مبارك مسعد من عشقوت يتصل نسبه بالشدياق خاطر الحصري حاكم جبة بشري، ولد بولس سنة ١٨٠٦م في قرية عشقوت وأرضعه والداه لبن التقى والبرارة وتخرج بالعلم مدة على العالم الفاضل الخوري انطون عريضة من بشري إذ كان يعلم بعض الطلبة في مدرسة الموارنة في عينطورا، ثم دخل مدرسة عين ورقة واتقن فيها اللغات السريانية والعربية والايطالية واللاتينية وبعض العلوم ولما رأى البطريرك يوسف حبيش ما من الله به عليه من الذكاء وتوقد الذهن والتقى أرسله الى رومة ليتم سائر علومه الكنسية في مدرسة مجمع نشر الايمان المقدس اذ كانت هذه المدرسة تقبل بعض الطلبة الموارنة وتنفق عليهم مما بقي من الدخل لمدرسة الموارنة برومة فأكمل في هذه المدرسة دروسه الفلسفية

واللاهوتية وما يلحق بها وفاق على أقرانه محرراً رضى رؤسائه وعجبتهم مما جعله الله به من الذكاء والتقى، وارتقى الى درجة الكهنوت وعاد الى لبنان سنة ١٨٣٠م فأمسكه البطريرك يوسف حبش عنده وجعله كاتبه وسلم اليه كل اوراقه اللازم حفظها، واعتمد عليه في مشاغله كلها وكان مجيباً الى رغائب البطريرك مجتهداً في خدمته اميناً على اسراره فزاد توقيير البطريرك له وعظم ميل الناس اليه ومحبتهم له، فراقه البطريرك في ٢٨ آذار سنة ١٨٤١م الى اسقفية طرسوس شرفاً وجعله نائباً له في الروحانيات مكافأة له، فازداد جهاداً في خدمته وإخلاصاً وأمانة لخدمته، فكان للبطريرك يوسف حبش كاليد اليمنى الى أن انتقل هذا البطريرك الى حياة الابرار في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥م.

ولما اجتمع الاساقفة في ميفوق لانتخاب خلف له كان المترجم مرشح أكثرتهم ومحل آمال غالب الأعيان والوجوه على ان حالة البلاد القلقة حيثئذ بسبب الحرب بين النصارى والدروز جعل الاساقفة يتحازون وهو مقدمهم الى انتخاب المطران يوسف الخازن أملاً بأن جاه أقبائهم وسلطتهم حيثئذ تعاون على ظفر النصارى فانتخبوه وابقى المطران بولس مسعد على نيابته الى أن توفاه الله في ٣ ت^٢ سنة ١٨٥٤م فاجتمع الاساقفة في بكركي وانتخبوا صاحب الترجمة بالصوت الحي واجماع الرأي خلفاً في ١ ت^٢ في السنة المذكورة، وأرخ المرحوم مارون النقاش وفاة السلف وانتخاب الخلف بقوله:

في أفق كرسي انطاكية عجبٌ بدّر توارى وبدّر فوق سدته
ان غاب ذاك واضنانا بغيبته قد ناب هذا وأشفانا بنوبته
دعا الله لذلك المصطفى خلفاً ارخت بولس مختار لدعوته

سنة ١٨٥٤

ونال التثبيت ودرع الرئاسة من البابا بيوس التاسع في ٢٣ آذار سنة ١٨٥٥م على يد وكيله القس امبروسيوس نطين الدرعوني الراهب الحلبي اللبناني واقام يدير الطائفة بحكمة وسداد وغيره، وعقد في سنة ١٨٥٦م مجمعاً طائفيّاً في دير

بكركي سنأتي على ذكره. واشتهر في سنة ١٨٦٠م بحنانه على الفارين من جنوب لبنان لسبب احداث لبنان وإنفاقه عليهم مبالغ طائلة على اختلاف طوائفهم وعقب ذلك الاحداث المعروفة بحوادث يوسف بك كرم فاشتهر فيها بحكمته ودرأته وحسن سياسته.

وقد سافر سنة ١٨٦٧م الى رومة لدعوة الحبر الروماني له للاحتفاء بالعيد القرني للقديسين الرسولين بطرس وبولس وعلان تطويب بعض الشهداء، وكنت بخدمته في سفره، وبعد عودتنا منه شهرت كتابي الموسوم بـ«سفر الاخبار في سفر الاخبار» جمعت فيه تاريخ المدن التي مررنا او أقمنا بها، واستوعبت شرح الحفلات التي كانت بأمر المدائن حيثئذ ووضعت ثلاث نبذ تاريخية: الاولى في رومة والرومانيين والثانية في تاريخ فرنسة والثالثة في القسطنطينية ومن ملك فيها من الملوك والسلطين. وقد سافر البطريرك من رومة الى باريس وتشرف بمقابلة نابوليون الثالث ونال من مكارمه كل تجلّة وتكريم وكنت في جملة حاشيته بهذه المقابلة، ثم سار الى القسطنطينية وغمرته حيثئذ ومن كان بمعيته من الاساقفة والكهنة نعم السلطان الاعظم السلطان الغازي عبد العزيز خان فأنعم بالمثل لديه على البطريرك وحاشيته وهذا الحقير في جملتهم، فكان ذلك في ١١ ايلول سنة ١٨٦٧م حين تلا البطريرك دعاء حميماً لجلالته بالعربية وترجمة فرنكو افندي (الذي سمي بعدئذ حاكماً للبنان) الى التركية. ولما كان قد سبق التكرم على البطريرك بالوسام المجيدي من الطبقة الاولى ولم تكن العادة أن يعطى البطارقة وقتئذ من هذا الوسام تكّرم جلالته على البطريرك بحقة عطوس من حجر ثمين مرصع بالالماس تساوي نحو اربعمائة ليرة، واحسن الى المطرانيين بطرس البستاني ويوحنا الحاج وبولس افندي حوا الذي كان بمعية غبطته والكونت رشيد الدحداح بالوسام المجيدي من الرتبة الثالثة، وعلى الخوارنة نعمة الله الدحداح ويوحنا حبيب وهذا الكاتب ويوسف افندي حوا وسمعان افندي مسعد بهذا الوسام من الرتبة الرابعة، وعلى جبرائيل الشمالي خدام غبطته وبطرس يوحنا الخوري (الذي صار بعد كاهناً بهذا الاسم) وخليل يوسف (هو الخوري بطرس مارون) من الرتبة الخامسة ولم يكن لاحد البطارقة قبل هذا البطريرك ما كان من التجلة والتكريم له في الآستانة، فقد أعد له ولحاشيته دار من

أفخر الدور فيها لنزوله وأقيم فيها معبد مخصوص بأمر من الصدر الاعظم لمباشرة الفروض الدينية وعينت عربتان واربعة فرسان للسير بمعية غبطته ودفع من النفقة لمصروف غبطته ما زاد عليها كثيراً، بعد الاقامة بهذه الضيافة السلطانية ثلاثة وعشرين يوماً، وما ادراك ما الضيافة السلطانية! وسافر غبطته من الآستانة عائداً الى لبنان في ٢٣ ايلول سنة ١٨٦٧م وبلغ طرابلس في غرة تشرين الاول ثم صعد الى دير كرسيه بالديمان ولا حاجة الى ذكر ما كان من الملتقى الشائق والاحتفاء الرائق لغبطته بطرابلس ولبنان، وقد استمر على الكرسي البطريركي نحو ست وثلاثين سنة. وقد أدركته المنية في ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠م وله من العمر نحو خمس وثمانين سنة وكان هذا البطريرك متسامياً بالفضائل والعلوم وقد خدمته نحو سبع عشرة سنة منها خمس سنين مدرساً لتلامذة المدرسة البطريركية المعروفة بمدرسة مار يوحنا مارون حيث كان يصرف كل سنة اشهرأ، وكنت اقضي لديه في الديمان مدة العطلة واثنتا عشرة سنة كنت فيها كاتبه وامين اسراره وملازماً له في اشغاله فعرفته حق المعرفة وسبرت فضائله العميقة، فكان من الطهارة في اعلى درجاتها بل ربما كان حريصاً على عفته اكثر مما يجب الحرص، وكان من الورع والزهد في اقصى غايتيهما وكذلك كان في سائر الفضائل، وكان يعترف عندي مرات فأحقق امام الله اني كنت أتلبك لأجد له مادة للحل. واما من حيث العلوم فكان بارعاً في كثير منها ولاسيما في اللاهوت ومعرفة القوانين البيعية والتاريخ وخاصة ما تعلق منه بالطوائف الشرقية ولاسيما طائفتنا المارونية فهو استاذي به، ولكنني حتى الآن بمعزل عن لحاقه، وقد تفرد بقوة ذاكرته فقد اتفق مرات أن يذكرني بأمر طالعها من سنين عديدة ويهديني الى محلها فأجدها كما قال.

واما مؤلفاته فمنها كتابه الموسوم بـ«الدر المنظوم رداً على المسائل والأجوبة المعزوة الى البطريرك مكسيموس مظلوم» مع الملحق به وقد طبع هذا الكتاب بدير طاميش سنة ١٨٦٣م بعد أن عهد اليّ بتنقيح بعض عباراته وكنت احب أن افصل فيه الفوائد التي لا تتعلق بموضوع الجدل في حواش اعلقها على ذيل الكتاب فلم يسمح لي بذلك خشية أن لا يحسن الطابعون تعليق تلك الحواشي. وله ايضاً كتاب في انبثاق الروح القدس من الآب والابن رد فيه على فتح الله مراش الحلبي

فأفحمه واعتنق الايمان الكاثوليكي. وهذا الكتاب طبع برومة وقد جمع شتات اوراق الكرسي البطريركي في هذه القرون الاخيرة فكان منه سجل كبير كأنه خزانة دراري. وله نبذة في تاريخ الاسرة الخازنية ومقالة في دوام بتولية العذراء ومقالات كثيرة في المدافعة عن حقوق الطائفة في بعض الاديار وعن المجمع اللبناني وعن حقوق البطريركية الى غير ذلك. وقد كان يجمع مواد لتكملة تاريخ الدويهي من سنة ١٧٠٤م الى ايامه، واعلم انه جمع اكثر المواد اللازمة لهذا التأليف وكان ينتظر فقط بعض افادات من حلب وقد سأله مرات وانا بخدمته ان يدفع لي تلك المواد لأتمم ما اعدتها له بارشاده فلم يسمح الوقت بذلك، وبعد أن رقاني الى اسقفية بيروت كنت ارجوه أن يسلم تلك المواد لاحد ليصنعها ويجعل له فهرساً فقط وكان يسوفني بذلك الى ان قال لي في آخر ايامه رحمه الله انه ما عاد يعلم اين وضع تلك المواد لكننا نجدتها بعد موته في المكتبة او في خزائن الاوراق.

اما الذين رقاها الى الأسقفية:

- ١- الخوري يوسف المريض من زوق مكايل رقاها في ١٨ ايار سنة ١٨٥٦ الى اسقفية عرقا وجعله نائباً روحياً وتوفي بغتة في ٢٣ ت^٢ سنة ١٨٨٦م.
- ٢- الخوري بطرس نادر البستاني من الدية رقاها في ٢٨ ايلول سنة ١٨٥٦م الى اسقفية عكا وجعله اولاً معاوناً لعمه المطران عبدالله البستاني المار ذكره وبعد وفاته سنة ١٨٦٦م سلم اليه ابرشية صور وصيدا الى أن فاضت روحه الذكية وذهبت لتنال اجر جهادها في ٢ من ت^٢ سنة ١٨٩٩م.
- ٣- الخوري بطرس مسعد اخوه رقاها الى اسقفية حماة شرفاً في ٢٧ شباط سنة ١٨٥٩م وجعله نائباً زمنياً له وتوفي بغتة سنة ١٨٨٥م.
- ٤- الخوري يوحنا الحاج من دلبتا رقاها في ١٥ آب سنة ١٨٦١م الى اسقفية بعلبك وهو الذي خلفه في البطريركية وسيجيء ذكره.
- ٥، ٦، ٧- في ١١ شباط سنة ١٨٧٢م رقى الخوري نعمة الله الدحداح الى اسقفية دمشق والخوري يوسف فريفر الى اسقفية اللاذقية شرفاً ورقاني انا الحقير الى اسقفية بيروت، وتوفي المطران نعمة الله في ٣ تشرين سنة ١٨٩٠م والمطران يوسف فريفر في ٨ شباط سنة ١٨٨٩م.

٨- الخوري اسطفان عواد رقاہ في ١٥ ك' سنة ١٨٧٨م الى اسقفية طرابلس.
١٠٩- في ١٥ آب سنة ١٨٨٢م رقي الخوري يوسف جبرائيل الزغبی الى اسقفية
قبرص والخوري يوسف سرکيس مسعد ابن عمه الى اسقفية عکا شرفاً.
١١- الخوري بولس حکيم من حلب رقاہ في ١٦ تموز سنة ١٨٨٥م الى اسقفية
هذه المدينة.

١٢ الى ١٥- في ١٤ ك' سنة ١٨٨٩م رقي الخوري یوحنا حبيب الى اسقفية
الناصره شرفاً والخوري الياس الخويک الى اسقفية عرقا شرفاً ونائباً روحياً
والخوري يوسف نجم على عکا نائباً زمنياً والخوري بولس مسعد ابن اخيه
على حماه شرفاً وسلمت اليه بعد وفاة المطران نعمة الله الدحداح ابرشية
دمشق سنة ١٨٩٠م. وتوفي المطران یوحنا حبيب في ٤ حزيران سنة
١٨٩٤م واما المطران امبروسيوس نطين الدرعوني فرقاہ الكردينال فرنکي
رئيس مجمع نشر الايمان المقدس سنة ١٨٧٥م باجازة البطريرک.

عد ١١٢٩

البطريرک یوحنا الحاج

هو ابن الخوري يعقوب الحاج من قرية دلبتا ولد بها سنة ١٨١٨م ويتصل
نسبه بالشدياق خاطر الحصري المذکور مراراً ودخل مدرسة عين ورقة سنة
١٨٣٠م، واتقن فيها اللغات السريانية والعربية واللاتينية والايطالية ثم العلوم
الرياضية والفلسفية واللاهوتية فنبغ في جميعها، وقد رقي الى درجة الكهنة واتقن
علم الفقه وتولى القضاء اولاً برفقة الخوري یوحنا حبيب، فكانا يقضيان في
دعوى النصارى خارجاً عن المحكمة. وبعد أن استقال الخوري یوحنا حبيب من
القضاء في محكمة قائممقامية النصارى في ١٣ ت' سنة ١٨٥٥م عهد اليه
بالقضاء فيها، وكان مثلاً للفة والاستقامة والامانة، ولما كان ما كان من الحرب
الاهلية سنة ١٨٥٩م وسنة ١٨٦٠م وجرى الصلح على طريقة مضى ما مضى
تمنع من التوقيع على صلح ولم يثن عزمته وعد ولا وعيد. وفي ١٥ آب

سنة ١٨٦١م رقاہ البطریق بولس مسعد الى اسقفیة بعلبك خلفاً للمرحوم المطران انطون الخازن فتاجر بوزناته احسن تجارة و ربح بها. ولم يكن لسالفه كرسي يقيم به بل كان مسكنه دير بقلوش المختص بأسرته، ولم يقتن لكرسي الابرشية عقاراً ولا خلف مالا فأخذ الاسقف الحديث یجدد فی انشاء كرسي لأبرشیته فشرى املاكاً وافرة ووقفه الله حتى اصبح كرسي بعلبك اغنى كراسي اسقفیات الموارنة وبنى لسكناه في قرية عرامون محلاً كافياً لاقامته به مع حاشيته، ولسكنی جمهور من التلامذة الاكليركيين مع معلمیهم. وبعد انتخابه بطریقاً خص الكرسي البطریكي ببعض الاملاك التي شراها ووقف بعضها الآخر على انشاء مدرسة عليا اكليركية تقام بجانب البطریكية، وبقي لكرسي بعلبك ما يقوم بنفقة اسقفها، ومدرسة اكليركية على سعة. وقد سافر مع البطریق بولس مسعد سنة ١٨٦٧م الى رومة وباريس والآستانة العلية كما مر. ولما توفي الطيب الذكر البطریق بولس مسعد في ٢٨ نيسان سنة ١٨٩٠م خلفه مطران بعلبك الغيور ونال التثبيت ودرع الرئاسة على يد قاصده المطران الياس الحويك. ومن اعماله الخطيرة في بطریركيته تجديد دير بكركي على طراز حديث حتى اصبح كقصر يعزله النظير، وقد سعى نائبه المطران الياس الحويك بارشاده، فنال تجديد مدرسة الموارنة برومة بفضل السعيد الذكر البابا لاوون الثالث عشر، ونال ايضاً من فضل حكومة فرنسة ثمانية كراسي لثمانية تلاميذ موارنة يتعلمون بمدرسة سان سوليس بباريس على نفقة حكومة فرنسة، واشترى في القدس داراً للموارنة يقيم بها نائب بطریكي يعتني بشؤون ابناء الطائفة المقيمين والمترددین الى هناك.

وقد نال من وسامات الشرف من عواطف سلاطينا العظام الوسام المجيدي من الرتبة الثالثة حين زيارته بمعية البطریق بولس مسعد سنة ١٨٦٧م، ثم الوسام المجيدي من الرتبة الاولى اثر ارتقائه الى البطریكية، ثم العثماني الاول سنة ١٨٩٨م، وتوفاه الله في ٢٦ ك' سنة ١٨٩٨م ودفن في كنيسة كرسية بكركي.

اما الذين رقاہم إلى الاسقفیة فهم:

- ١- الخوري نعمة الله سلوان احد المرسلين اللبنانيين رقاہ الى اسقفية قبرص في ١٢ حزيران سنة ١٨٩٢م.
- ٢- وفي النهار نفسه رقی ابن اخته الخوري يوحنا مراد الى اسقفية بعلبك محلفاً له.
- ٣- الخوري فرنسيس الشمالي احد المرسلين اللبنانيين رقاہ الى اسقفية حلب في ٢٦ ك' سنة ١٨٩٢م ودعي جرمانوس وتوفي سنة ١٨٩٥م.
- ٤- الخوري ارسانيوس انطون يوسف دياب من حلب رقاہ الى اسقفية هذه المدينة في ٢٢ آذار سنة ١٨٩٦ ودعي يوسف.
- ٥- وفي النهار المذكور نفسه رقی القس يوسف دريان الراهب الحلبي اللبناني من عشقوت الى اسقفية طرسوس شرفاً.
- ٦- الخوري بولس راجي عواد من حصرون رقاہ الى اسقفية الناصرة في ٢٤ ايلول سنة ١٨٩٦م.
- ٧- وفي النهار المذكور نفسه رقی الخوري يوسف اسطفان رئيس مدرسة عين ورقة الى اسقفية قورش ورئاسة هذه المدرسة.

عد ١١٣٠

البطريك الياس الحويك

هو الياس بن الخوري بطرس الحويك ولد بقرية حلتا من عمل البترون في كانون الاول سنة ١٨٤٣م تخرج اولاً بتعلم بعض اصول اللغتين السريانية والعربية في مدرسة مار يوحنا مارون، ثم دخل مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير وأتقن فيها اللغات اللاتينية والفرنسية والايطالية وبعض الرياضيات والفصاحة. ولما رآه البطريك بولس مسعد متوقد الذهن ورع السيرة قوي الصحة ارسله الى مدرسة مجمع نشر الايمان المقدس برومة ليتم علومه فأقام بها الى سنة ١٨٧٠م حائزاً قصبات السبق على اقرانه في الدروس الفلسفية واللاهوتية ونال رتبة الملقان في

الفلسفة واللاهوت ورقي الى درجة الكهنوت وعاد الى لبنان سنة ١٨٧٠م، فأقامه البطريرك بولس مسعد استاذاً لتلامذة مدرسة مار يوحنا مارون. ولما رقاني الى اسقفية بيروت سنة ١٨٧٢م سألته أن يكون لي كاتباً فأسرّ ان في نيته أن يجعله كاتباً له مكاني وكذلك صنع، فانه اتخذ الخوري الياس كاتباً وأميناً على اسراره فخدمه خدمة النصوص المتيقظ واحرز ثقته كاملة، وقام بأعباء وظيفته أحسن قيام، فأحبه الجميع وقدره حق قدره وعظم البطريرك منزلته لديه وتفانى هو بخدمة رئيسه وطائفته بالاستقامة والنزاهة والدراية فراقه البطريرك في ١٤ ك^١ سنة ١٨٨٩م الى اسقفية عكا مع المطارين يوحنا حبيب ويوسف نجم وبولس مسعد وجعله نائباً له في الروحيات فواصل خدمته الصادقة له الى وفاته. ولما انتخب المطران يوحنا الحاج الى مقام البطريركية سنة ١٨٠٩م ارسله الى رومة موفداً اياه الى الحبر الروماني يطلب التثبيت ودرع الرئاسة فناله له من لدنه، وبقي ساعياً بتجديد المدرسة المارونية برومة فغنم بذلك بنعمة البابا لاوون الثالث عشر. وسار الى فرنسة فأنعمت حكومتها بتعيين ثمانية كراسي لثمانية تلاميذ موارنة من الابرشيات الثماني يتعلمون على نفقتها في مدرسة سان سوليس بباريس وعاد الى لبنان سنة ١٨٩٢م معرجاً الى الآستانة حيث نال من تعطفات مولانا الاعظم احسن رعاية واحسن اليه بالوسام المجيدي من الرتبة الثانية والى مدرسة الموارنة برومة بعشرة آلاف فرنك، ثم سافر ثانية فشهد الجمع الاورشليمي في اورشليم سنة ١٨٩٣م مع المطارين اسطفان عواد ونعمة الله سلوان ويوحنا مراد وهذا الحقيق. ثم سرنا جميعاً «إلا المطران نعمة الله» الى رومة لتهنئة البابا لاوون الثالث عشر بيوبيله الكهنوتي، وبعد قضاء فرض التهنة نيابة عن الطائفة استمر المطران الياس في رومة يكمل مسعاه بتجديد المدرسة المارونية ثم سار الى فرنسة للاستعانة على هذا الغرض فدعاه الحبر الروماني ليشارك مع باقي البطارقة الشرقيين في مداولة قداسته معهم في شأن الكنائس الشرقية، وشرى حينئذ برومة المحل اللازم للمدرسة بما تكرم به امام الاحبار وما انعمت به الحضرة السلطانية وما جمعه المترجم وعاد الى لبنان وشرى داراً للبطريركية في القدس الشريف. وإذ لم تستقم إدارة المدرسة كما يحب الحبر الاعظم استدعى المطران الياس الى رومة وعهد اليه ادارتها واصلاح شؤونها وبقي هناك الى ٢٧ ك^١ سنة ١٨٩٨م إذ بلغه نعي

المثلث الرحمة البطريرك يوحنا الحاج فسافر الى لبنان وبلغ الى بيروت ثم الى
بكركي في ٥ ك^٢ سنة ١٨٩٩م.

وفي اليوم التالي وهو ٦ من ك^٢ عيد الغطاس اجتمعنا في الكنيسة وقدمنا
الابتهالات لله ليلهم ما به مجده وخير الطائفة واقترع فأصابته القرعة ليكون
بطريركنا. وفي الاحد التالي ٩ من الشهر المذكور اتممنا حفلة الترقية الى المنصب
البطريركي وشمل الطائفة جمعاء مزيد البهجة والسرور بانتخابه واستبشروا بالخير
والفلاح بعنايته، وعكف على تدير شؤون الطائفة بخيرها بغيرة لا تعرف الملل
معلماً بأقواله ومثاله عاملاً بكلية جهده ويشهد له الجميع حتى خصومه بالطهارة
والقداسة والورع وصلاح النية والرغبة في كل خير لطائفته ولجميع الناس، وكاد
ينجز الصرح العظيم الذي انشأه لكرسيه على مقربة من دير قنوين وسماه جديدة
قنوين، وسيكون بعد تمامه عن قرب ان شاء الله افسح من الصرح الذي جدده
سالفه في دير بكركي، فإياه تعالى نسأل أن يطيل عمره ويفيض عليه القوة من
العلاء لخير الدين الكاثوليكي ونفع شعبه، ولم يرق الى الاسقفية الى الآن إلا
الخوري بولس بصبوص رقا الى اسقفية صيدا سنة ١٩٠٠م وسلم اليه تدير أبرشية
صور ايضاً.

الفصل الرابع

ما عقده اساقفة الموارنة من المجمع في القرن التاسع عشر

عد ١١٣١

مجمع لوزة

في اوائل تشرين الثاني سنة ١٨١٦م أنفذ البابا بيوس السابع براءة الى البطريرك يوحنا الحلو واساقفة الموارنة مفتتحة بقوله: «لما كانت الكنيسة كلها» وارسل اليهم مجمع نشر الايمان المقدس صحبة القس يوسف السمعاني المدير الاول في رهبانيته الحلبية مرسوماً جل ما تضمنه الامر لهم بعقد مجمع طائفي يثبتون فيه منع الرهبان والراهبات عن السكنى في دير واحد وتعيين اديار لكل فريق منهم وتعيين محل يقيم به البطريرك وكراسي دائمة لكل اسقف في ابرشيته. فاجتمع البطريرك والاساقفة في دير السيدة بلوزة برئاسة السيد يوسف لويس غندلفي القاصد الرسولي. وعقد المجمع الاول في ١٣ من نيسان سنة ١٨١٨م فأقاموا عرشاً في وسط الكنيسة وضعوا فوقه كتاب الاناجيل الطاهرة والصليب الكريم وجلس المجتمعون حول العرش المذكور كل بحسب رتبته ومقامه، وبعد استمداد عون الروح القدس تليت براءة البابا ومرسوم المجمع المقدس وأخذ الآباء في البحث اولاً في منع سكنى الرهبان والراهبات في دير واحد، فختموا بلزوم هذا الافتراق وعينوا لسكنى الراهبات سبعة اديار وهي: دير مار عبدا هريريا، ودير سيدة الحقلة، ودير مار شليطا مقبس، ودير مار جرجس علماء، ودير مار الياس بلوني، ودير مار جرجس بحردق الجديد. وعينوا لسكنى الرهبان العباد ستة اديار وهي: دير السيدة بمستيئا، ودير مار دوميظ بغدراش، ودير مار روحانا بالبقية، ودير مار سرقيس بريفون، ودير مار

انطونيوس بيقعاتا، ودير مار جرجس بحردق القديم. وعينوا للعابدات خمسة اديار وهي: دير مار يوسف الحرف، ودير مار يوسف الحصن، ودير مار موسى ببلوني، ودير مار انطونيوس بالكنيسة، ودير السيدة بشوتيا. وجعلوا دير مار جرجس بالرومية مدرسة اكليزيكية عامة للطائفة، وسموها مدرسة مار مارون يتعلم فيها الطلبة الغراماطيق السرياني والنحو والصرف العربي وآداب هذه اللغة، ثم يرسلون الى مدرسة عين ورقة فيتعلمون المنطق والفصاحة والفلسفة واللاهوت النظري والادبي وارتأوا ان لا يقبل طلبة في عين ورقة لدرس اللغة السريانية والعربية وآدابهما، بل يدرس تلامذتها العلوم من الفصاحة والمنطق فصاعداً، وليت رأيهم هذا صار فعلاً. فالأصلح كثيراً أن تكون هذه المدارس الصغيرة ابتدائية وتكون مدرسة واحدة كبرى للعلوم السامية يجتمع فيها التلامذة الاكليزيكيون من كل الطائفة.

ثم صير آباء المجمع في دير مار يوحنا بذكريت مدرسة خاصة بأبرشية قبرص خاضعة لمطران هذه الابرشية، وحثموا أن يكون سلوك الرهبان في اديارهم على ما خطه لهم المجمع اللبناني، وأن تسير الراهبات بموجب القانون الذي وضعه لهنّ المطران عبدالله قرألي ما عدا اقامة الصلاة نصف الليل فقد عفاهنّ منها، واما العابدات فيتدبرنّ بحسب قانون سيؤلفونه لهنّ.

وقد حتموا ايضاً أن لا يقام رئيس لأديار الراهبات بل ينصب الاسقف وكيلاً لتدبير املاك الدير يديرها على مأثور رئيسة الدير ووكيلتها كما هو مرسوم بالمجمع اللبناني، وأن تكون دراهم الدير مسلمة الى الرئيسة والوكيلة لا الى وكيل الاملاك، وانه يلزم تقديم حساب الدخل والخرج كل سنة لاسقف الابرشية، وأن تجتمع الراهبات مرة كل ثلاث سنين وينتخبن الرئيسة ومن دونها من اصحاب الوظائف في الدير، وأن يكون مرشدهنّ كاهناً ورعاً متقدماً بالسن مشهوراً بالعلم والسيرة الصالحة، ولا يسمع وكيل الاملاك اعترافهنّ إن كان كاهناً، ولا يعترض المرشد في شيء من أمورهنّ الروحية. وحثموا بالخصوص أن يكون وكيل على املاك دير حراش وأن يتعين لراهباته أبّ روجيه اي مرشد حسب قانونهنّ، وأمرؤا اخيراً أمراً جازماً تحت طائلة الحرمان المحفوظ حله لاسقف بأن لا يترهب رجل في اديار الراهبات او العابدات ولا يسكن هناك راهب البتة ولو كان كاهناً إلا

الوكيل والمرشد وأن لا يدخل أحد اديارهن إلا بموجب رسم الجمع اللبناني . واما إقامة الصلاة في الخورس في اديار الراهبات القانونيات فقد عفوهن منها لعدم معرفتهن اللغة السريانية الى أن يتعلمن هذه اللغة، وأمروا أن تصلي الراهبات في الشبية والمسبحة ولا يسمح أن يقيم الصلاة في كنائسهن الرهبان او الكهنة من اية رتبة كانوا، وحتموا بأن لا تطلب دراهم من المرشحات الفقيرات لئلا يكون فقرهن سبباً مانعاً من دعوتهن الى الرهبانية، وأذنوا للرهبان المقيمين في اديار الاساقفة والمدارس بأكل اللحم لتكون المساواة في المائدة.

وكان لبعض العيال دعاوى على بعض الاديار والكنائس فعين آباء الجمع قضاة في هذه الدعاوى السيد يوسف لويس غندلفي القاصد الرسولي والسيد يوسف التيان المستقيل من البطريركية والمطران يوحنا مارون العضم لينظروا في الدعاوى المذكورة ويحكموا بها ويعرضوا حكمهم على الجمع المقدس ليرى إذا كان مطابقاً للقوانين، وقد اقام هؤلاء القضاة بدير مار شليطا وحكموا بعدة دعاوى.

وقد نصب آباء الجمع وكلاء على اديار الراهبات الخوري يوسف اصاف في دير مار عبدا هرهريا، والخوري موسى ديب في دير سيدة الحقلية، والخوري فرنسيس شلالا بدير مار شليطا مقبس، والخوري اسطفان الخازن في دير السيدة بيقلوش، والخوري يواكيم نجيم في دير مار جرجس بعلماء، والقس جرمانوس بدير مار الياس بلوني، والخوري حزقيال بدير مار جرجس بحدق. وأقاموا رؤساء على اديار الرهبان القس انطونيوس التحومي بدير مستيتا، والقس الياس بدير مار دوميط، والخوري موسى زوين بدير مار روحانا، وامر ابدال هؤلاء الوكلاء والرؤساء او عزلهم منوط برأي مطران الابرشية وهو يسهر على تصرفهم حتى إذا كانوا متغافلين او مذنبين عزلهم.

اما المجلس الثاني فعقدوه في ١٤ نيسان سنة ١٨١٨م وكان البحث فيه عن كراسي البطريرك والمطارين وصوبوا اقامة البطريرك يوحنا في كرسية قنوين، وامروا أن يكون دار الكنيسة في حلب مسكناً لاسقفها، ومدرسة مار يوحنا مارون مسكناً لاسقف جبيل والبترون، ودير مار سركيس وباخوس بريفون مقاماً لاسقف بعلبك، ودير مار انطونيوس بيقعاتا كرسياً لابرشية دمشق، ومدرسة قرنة شهبان

كرسياً لابرشية قبرص، ودير مار يوحنا بقتاله كرسياً لابرشية بيروت. واما مطران طرابلس فارتأوا أن يبقى حيث هو حيثئذ ريثما يتسنى له الإقامة في محل صالح لسكنائه في الابرشية، وابرشية صور وصيدا كانت وقتئذ ابرشية البطريرك. ومنعوا أخيراً جولان الرهبان للتسول في المدن والقرى إلا أن يكونوا مصحوبين بمنشير من رؤسائهم او من السيد البطريرك او من الاساقفة، ومن خالف فالاسقف يربطه ان كان كاهناً وينزع ثوبه الرهباني ان كان راهباً بسيطاً ويأخذ ما جمعه. وختموا مجمعهم بقولهم: قد قبلنا كل ما تدون بهذه الرسوم ووقعنا عليه بأختامنا. ويلي ذلك توقيع البطريرك يوحنا الحلو ويوسف لويس غندلفي القاصد الرسولي، والبطريرك يوسف التيان المتنازل عن البطريركية، ويوحنا مارون مطران حماه، واغناطيوس الخازن مطران طرابلس، واسطفان الخازن مطران دمشق، وميخائيل فاضل مطران بيروت، وعبدالله بلبيل مطران قبرص، وجرمانوس ثابت مطران جبيل والبترون، وانطونيوس الخازن مطران بعلبك، ويوسف اسطفان مطران قورش، وسمعان زوين مطران صور، والنائب البطريركي.

وقد رفع آباء المجمع اعمال مجمعهم الى البابا بيوس السابع ملتمسين اثباتها فائتها البابا في براءته المؤرخة في ٢٠ ايار سنة ١٨١٩م المتبدية «لما ظهر لنا». وفي جملة ما ضمنها اياه اطراؤه الموارنة لثباتهم على التشبث الدائم بعري الايمان الكاثوليكي المقدس، كما كان قد اثنى عليهم كثيراً في براءته التي اصدرها لعقد هذا المجمع سنة ١٨١٦م انتهى ملخصاً عن نسخة من اعمال هذا المجمع في خزائن الكرسي البطريركي.

عد ١١٣٢

مجمع بكركي الاخير

قد عقد الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد سنة ١٨٥٦م مجمعاً في بكركي سماه المجمع البلدي وكان مأموراً به من البابا بيوس التاسع، وترأس عليه نيابة عن قداسته السيد بولس برونوفي القاصد الرسولي، فدعا البطريرك الاساقفة والرؤساء العامين للرهبانيات الثلاث المارونية وبعض الاعيان ورؤساء المرسلين

اللاتينيين، وكان هو قد ألف رسوم هذا المجمع واعدتها لتتلى في محالسه. وبعد اجتماع المدعويين عقدوا ثلاثة مجالس في ١١ و ١٢ و ١٣ من شهر نيسان بحضرة القاصد الرسولي. وفي المجلس الاول خطب البطريرك وعدد المجمع التي عقدها بطاركة الموارنة واساقفتهم من مجمع البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦ الى مجمع لويزه سنة ١٨١٨م المار ذكره فكانت اثني عشر مجعاً ذكرنا اكثرها وزدنا عليها مجمع البطريرك ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠، وهذا المجمع مطوّل يفوق باقي المجمع المارونية إلا المجمع اللبناني. وقد افرغ مؤلفه جهده في نظامه وجعله مطابقاً للمجمع اللبناني مؤيداً له إلا في بعض الامور التي اقتضى العصر تبديلها او تلطيفها. منها مثلاً اعياد كنائس القرى التي فيها كنائس كثيرة فعفا من البطالة فيها إلا عيد الكنيسة الكبرى فيها. وبعد ختام المجمع وقع عليه من شهوده وضم الى كتاب وارسل الى رومة ليثبتته الكرسي الرسولي، والحق البطريرك في آخره بعض رسائل الأحرار الأعظمين المتعلقة بالموارنة فلم يثبتته الكرسي الرسولي ولم ينبذه الى الآن.

الفصل الخامس

الأديار والكنائس والمدارس التي أنشأها الموارنة في القرن التاسع عشر

عد ١١٣٣

الاديار مساكن البطريك والاساقفة

دير الكرسي البطريكي

منذ اواسط القرن الخامس عشر اخذ بطاركة الموارنة السكنى بدير قنوين القديم
واول من انتقل اليه البطريك يوحنا الجاجي الذي توفي سنة ١٤٤٥، وما زال
خلفاؤه يسكنون هذا الدير الى ايام البطريك يوسف ضرغام الخازن الذي ارتقى الى
البطيركية سنة ١٧٣٣م، فأقام بكسروان واقام خليفته البطريك سمعان عواد مدة
في دير مشموشة ثم خلفه البطريك طويا الخازن ثم البطريك يوسف اسطفان ثم
البطاركة ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل ويوسف التيان فأقاموا بكسروان. وتقرر
في مجمع بكركي سنة ١٧٩٠م أن يكون دير بكركي مقراً ثابتاً للبطريك، ولكن
بعد أن رقي البطريك يوحنا الحلو الى البطيركية سنة ١٨٠٩م جعل سكناه مذ سنة
١٨١١م في دير قنوين، واخذ في اصلاح املاكه واسترداد ما اخذ منها، واثبت
مجمع لويزه انتقاله اليه واكمل احسان حال هذا الدير البطريك يوسف حبيش
الذي ارتقى الى البطيركية سنة ١٨٢٢م، إلا انه لما كان دير قنوين صعب المسالك
ويتعاطم الحرّ فيه ايام الصيف انشأ هذا البطريك بعض مساكن في المحل المعروف

بالديمان وصاروا يصرفون به مدة الصيف ويقضون مدة الشتاء بكسروان. وكان كذلك في ايام البطريك يوسف الخازن والبطريك بولس مسعد، ولما ارتقى البطريك يوحنا الحاج الى البطريكية بدّل المساكن التي كانت بالديمان بغيرها في محل قريب منه وجدد دير بكركي وجعله على الطراز الجديد، فكان صرحاً قل له النظر بلبنان، وهو الآن سكن بطاركنا مدة الشتاء ولما تسلم كرسي البطريكية بطريكنا الحالي أخذ في إنشاء صرح آخر على مقربة من الديمان وقنوين وكاد بناؤه يتم وسيكون بعد تمامه أكبر وأفسح من دير بكركي، وسماه جديدة قنوين يقضي به البطريك مدة الصيف.

الأديار كراسي المطارين

كان مطارنة طائفتنا يقيمون في المحابس والمناسك او مع البطريك في دير واحد يعيشون عيشة مشتركة ويرسلهم البطريك لزيارة الابرشيات غير مقيد بأن يرسل الى كل ابرشية من ارتقى الى كرسيها، واستمروا على ذلك الى أن عقد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م فحتم ان يقيم كل اسقف في ابرشيته وبين رعيته، فلم يتيسر للحال أن ينشئ الأساقفة ادياراً في ابرشياتهم لسكنائهم فيها بل قطن كل منهم بدير اراده او كان مختصاً بأقاربه، فلم ير أعيان الطائفة ذلك ملائماً لشأن الطائفة وانتظام احوالها. ولما عقد المجمع المعروف بمجمع عين شقيق سنة ١٧٨٦م قدم المشايخ والاعيان رسالة الى الشيخ غندور الخوري الذي كان في المجمع يسألونه بها ان يسعى مع آباء المجمع ليقرروا وجوب سكنى الاساقفة مع البطريك في كرسيه، وارتضى آباء المجمع بالاجابة لطلبهم، ولما رفعت اعمال هذا المجمع الى الخبر الروماني رفض هذا الامر ونبذه وامر أن تكون اقامة الاساقفة كل في ابرشيته طبقاً لرسم المجمع اللبناني، فعاد الاساقفة الى السكنى بأحد الاديار، ثم عينت الاديار التي يقيم بها كل من المطارين في مجمع لوزة المار ذكره المنعقد سنة ١٨١٨م كما مر. إلا ان مطارين طائفتنا اخذوا ينشئون كراسي لسكنائهم مذ سنة ١٨٣٥م، فلم ينته القرن التاسع عشر إلا انشأ كل منهم ديراً لسكناه وبعضهم بنى ايضاً معهداً علمياً لتربية اكليرس ابرشيته على النحو الآتي بيانه.

كرسي طرابلس

لما ارتقى المطران بولس موسى لاسقفية طرابلس سنة ١٨٢٦م كان يسكن بغزير في دار الامير عبد الله شهاب فكان يتوجه لزيارة ابرشيته ثم يعود الى مأواه المذكور، على انه في سنة ١٨٣٥م اخذ في بناء دير لسكناه واختار كنيسة مار يعقوب الكائنة بين قريتي كرم سدة وكفرو، فأنشأ هناك ديراً على اسم القديس انطونيوس البادوي لانه استعان على البناء بمال كان لكنيسة هذا القديس في كفرزينا، وكان ينوي بناء مدرسة اكليريكية ايضاً فلم تساعد الحال عليها الى أن ارتقى الى هذه الاسقفية خليفته المطران اسطفان عواد فزاد كثيراً على ما بناه سالفه وجعله مدرسة اكليريكية لابرشيته وادخل اليها بعض التلامذة.

كرسي ابرشية قبرص

عين آباء مجمع لويظة مدرسة قرنة شهوان اي دير مار شليطا مقاماً لمطران قبرص، وسكن هناك المطران عبدالله بلبيل الى حين وفاته سنة ١٨٤٢م ولما خلفه المطران يوسف جعجع سنة ١٨٤٣م شرع في بناء دير لكرسيه على مقربة من دير مار شليطا المذكور، واتم القسم الاسفل اقبية فسيحة متينة وسكنها الى حين وفاته سنة ١٨٨١م. ولما خلفه المطران يوسف الزغبى سنة ١٨٨٢م بنى على الاقبية مساكن وصيّر لها مدرسة عالية اكليريكية سيأتي ذكرها في جملة المدارس. ولما توفي خلفه المطران نعمة الله سلوان مطران قبرص جدد بعض البناء وغير بعضه ليكون اكثر صلاحية لسكنى التلامذة واقامة مطران الابرشية.

كرسي أبرشية بيروت

عين آباء مجمع لويزة دير مار يوحنا بقتاله مقاماً لمطران بيروت، وكان المطران بطرس ابو كرم يقيم تارة فيه وطوراً ببيروت او قرى الابرشية او بيته في بسكنتا، ولما توفي سنة ١٨٤٤م وسلمت ابرشية بيروت الى سالفنا المطران طوبيا عون سنة ١٨٤٥م اقام مدة ببيروت ثم اخذ بإنشاء محل لسكنائه في مزرعة عين سعادة التابعة لبيت مري في عقار وقفه عليه عساف ماضي من المحل المذكور، ثم زاد على ما بناه بعض غرف لسكنى تلامذة اكليريكيين ادخل صفاً منهم بحياته، وجدد ببيروت المحلة المعروفة بالقلالية لسكنائه مدة الشتاء والربيع، وقنى لكرسيه املاكاً يكفي ريعها للنفقة عليه وعلى حاشيته والتلامذة. ولما دعاني الله لأخلفه في هذه الأبرشية زدت في عين سعادة عدة غرف واصلحت البناء السابق. ولما انتقضت بعض الغرف بالقلالية لبناء الكنيسة الكبرى انشأت فوق ما بقي منها محلاً لاشغال الأسقفية وللاجتماعات احتفالية على اني نقلت الصف الاكليريكي من مدرسة عين سعادة الى مدرسة الحكمة التي انشأتها ببيروت وسيأتي ذكرها في جملة المدارس، وزدت في عقارات الكرسي زيادة تذكر وشريت املاكاً كثيرة بجوانب المدرسة خصصتها بها.

كرسي أبرشية صور وصيدا

كان المطران عبدالله البستاني يسكن بعض قلالي في مشموشه، وبعد أن ارتقى ابن اخيه المطران بطرس الى كرسي عكا معاوناً له في حياته وخلفاً بعد موته شرى في بيت الدين المحل المعروف بالمقصف مسكن الامير بشير الكبير مدة الصيف وجعله كرسياً له، ثم شرى المقصف الآخر المعروف بمقصف الامير امين ابن الامير بشير المذكور والقناة الموصلة الماء الى سراي بتدين، والمقصفين المذكورين، وعقارات أخرى كثيرة هناك، وفي مزرعة بكفيا وغيرها، وخص كل ذلك بكرسيه فكان بهذه الابرشية مقر لأساقفتها له من الدخل ما يكفي لإنشاء مدرسة اكليريكية. وكان في

عزم المثلث الرحمة المطران بطرس المذكور أن ينشئها فلم تساعده الحال على ذلك وخاصة لانه كان يرغب في وفاء الدين الذي اضطر اليه في شراء ما مرّ من العقارات، وقد اخذ خليفته المطران بولس بصبوص في إنشاء هذه المدرسة في مقصف الامير امين المذكور.

كرسي ابرشية بعلبك

كان المطران انطون الخازن الذي دير هذه الابرشية اكثر من خمسين سنة يقيم في دير بقلوش الخاص بأسرته الخازنية، ولما توفي سنة ١٨٥٨م وارتقى الى هذا الكرسي المطران يوحنا الحاج سنة ١٨٦١م اخذ يجهد نفسه في انشاء كرسي لأبرشيته فوقه الله الى ذلك بأقرب وقت وشري عقارات كثيرة، ثم ابتاع دار قعدان بك الخازن بعرامون واخذ يبنى محلاً لسكناه ومدرسة اكلييريكية لأبرشيته، فكلل الله عمله بالنجاح ولما ارتقى الى البطريركية سنة ١٨٨٩م ورقى ابن اخته المطران يوحنا مراد الى اسقفية بعلبك خلفاً له اتم ما كان خاله قد أنشأه، ولكن لم يتيسر له الى الآن ادخال صف اكلييريكي الى المدرسة.

كرسي ابرشية دمشق

كان المطران اسطفان الخازن الاول يسكن في دير عائلته ببلوني ولما خلفه المطران يوسف الخازن سكن في دير البشارة بزوق مكاييل، ولما صير بطريركاً سنة ١٨٤٥م ورقى الى أسقفية دمشق المطران اسطفان الخازن الثاني سنة ١٨٤٨م سكن بدير مار موسى بلوني، وبعد أن توفي سنة ١٨٦٨م خلفه المطران نعمة الله الدحداح سنة ١٨٧٢م وسكن في محل المرسلين اللبنانيين بعينطورا، وبعد وفاته سلمت ابرشية دمشق سنة ١٨٩٠م الى المطران بولس مسعد اسقفها الحالي، فهم بإنشاء كرسي لهذه الأبرشية فوقه الله الى بناء هذا الكرسي في أعلى قرية ريفون مجتمعاً كل ما يلزم لإقامة اسقف وحاشيته وبعض التلامذة ايضاً.

مدرسة عين ورقة

حوّل البطريرك يوسف اسطفان دير عائلته عين ورقة مدرسة اكليريكية عامة للطائفة سنة ١٧٨٩م وادخل اليها صفّاً من الطلبة سنة ١٧٩٢م وترأس عليها الخوري خيرالله اسطفان، فصرف عنايته في نجاحها ولما رقي الى الاسقفية ازدادت المدرسة رونقاً وتقدماً الى أن رزئت بوفاته سنة ١٨٢٣م فقيض الله لها بعده المطران يوسف رزق الجزيني الذي رقاہ البطريرك يوسف حبیش الى اسقفية قورش ورئاسة هذه المدرسة سنة ١٨٢٩م، فغير كثيراً من ابنتها وانشأ كنيسة الشهيرة واستمر متراًساً عليها الى أن دعاه ربه اليه سنة ١٨٦٥م. ورأس من بعده الخوري يواكيم اسطفان ثم الخوري بولس اسطفان واخيراً الخوري يوسف اسطفان الذي رقاہ البطريرك يوحنا الحاج الى اسقفية قورش ورئاسة المدرسة سنة ١٨٩٦م فزاد بمدة رئاسته كثيراً في ابنية المدرسة واملاكها وحسن حالتها وهو رئيسها وينوي تجديد ابنية في هذه المدرسة التي عم نفعها لهذه الامصار، ومن تلامذتها انبعثت انوار العلوم الدينية في هذه الاقطار قبل كل ما سواها من المدارس الشرقية ونبغ منها رؤساء وعلماء كثيرون فمن تلامذتها بطاركتنا يوسف حبیش ويوسف الخازن وبولس مسعد ويوحنا الحاج، ومطارين طائفتنا عبدالله البستاني وبطرس ابو كرم وجبرائيل الناصري ويوسف رزق ونقولا مراد ويوسف جعجع ويوسف المريض ويوحنا حبيب وبطرس البستاني ويوسف مسعد ونعمة الله سلوان وانا الحقيير، ومن الكهنة الأجلاء يوسف الرزي الواعظ الشهير ويوحنا الصائغ المسمى الاسطنبولي ويوسف الصوري وفرنسيس زوين ويوحنا البزماني وارسانيوس ويوسف الفاخوري الى غيرهم. ومن العلماء المشاهير الشيخ بشارة الخوري والشدياق شاهين المزرعاني والمعلم بطرس البستاني واللغوي الشهير فارس الشدياق الى غيرهم.

مدرسة مار يوحنا مارون

جدد دير مار يوحنا مارون بكفرحي بعد اندراسه البطريرك يوسف اسطفان وأسكن به رهباناً عباداً الى أن جعله البطريرك يوحنا الحلو سنة ١٨١٢م مدرسة خاصة بابرشية جبيل والبترون ولم يكن لها من الدخل إلا ما يقوم بأود نحو عشرة تلاميذ، واستمر كذلك الى ايام البطريرك بولس مسعد حين جعل الخوري يوسف فريفر رئيساً عليها فجدد قسماً كبيراً من بنائها، ولما رقاها البطريرك الى اسقفية اللاذقية وجعله نائباً له في ابرشية جبيل والبترون ورئيساً للمدرسة لم يأل جهداً في انماء دخل هذه المدرسة وتكثير املاكها وتوسيع ابنيتها واتقانها وجمع تلامذة عالمين فيها زيادة على الاكليريكيين، فحسنت حالها وانتظمت امورها وبعد وفاته سنة ١٨٨٩ عهد برئاستها الى المونسنيور بطرس ارسانيوس من كور فزاد في مساكنها وما برح مهتماً في نجاحها ونظامها.

مدرسة مار مارون الرومية

كان تجديد دير مار مارون الرومية بكسروان سنة ١٦٩٦م عني بتجديده الخوري جرجس صفيير وأخوه ناضر الى أن ارتأى آباء مجمع لوزة المنعقد سنة ١٨١٨م أن يجعلوه مدرسة اكليريكية عامة للطائفة فصيير كذلك، إلا ان قلة الدخل لهذه المدرسة قصرت عدد تلامذتها على عشرة: ثمانية من ابرشيات الطائفة الثماني واثنين من عائلة بيت صفيير ولم تزل حالتها كذلك.

مدرسة مار عبدا هريريا

مرّ ان هذا الدير أنشأه القس يوسف اصفاف سنة ١٦٥٥م وسكن فيه رهبان وراهبات عابدات، وعين في مجمع لوزة سنة ١٨١٨م من جملة الاديوار التي

خصت بسكنى الراهبات، ثم اهتم البطريرك يوسف حبيش بجعله مدرسة اكليريكية عامة للطائفة المارونية. وكان لهذه المدرسة املاك وافرة ودخل جزيل وقد زادها رئيسها الخوري يوسف بن حاتم اصاف، وكان بناؤها غير صالح فأخذ من خمس سنين يجدد بناءها على الطراز الحديث. وقد نبغ من هذه المدرسة اساقفة وكهنة فضلاء وعلماء أجلاء. فمن تلامذتها الاساقفة المرحوم المطران جرمانوس الشمالي والمطران بولس عواد والمطران بولس بصبوص. ومن الكهنة رئيسها والخوري يوسف العلم وغيرهما. ومن علمائها اسطفان اصاف ويوسف الياس باخوس وغيرهما.

مدرسة ريفون

مرّ في تاريخ القرن السابع عشر ان دير ريفون أنشأه القس سليمان مبارك سنة ١٦٥٠م وكان يسكنه رهبان عباد، وعين في مجمع لويژه مقاماً لمطران بعلبك، ثم حسن للبطريرك يوسف حبيش أن يجعله مدرسة اكليريكية للطائفة سنة ١٨٣١م ولكن لما لم يكن لها من الدخل إلا ما يقيم بعشرة تلاميذ اقتصر فيها على هذا العدد، وقد جدد بناءها وحسنه الخوري فرنسيس مبارك وزاد فيه كنيسة ظريفة، وتوفي هذا الرئيس سنة ١٨٧٢م.

مدرسة الحكمة

كل ما مرّ ذكره من المدارس انشئ لتهديب الاكليريكيين وتعليمهم ولم يكن في طائفتنا مدرسة لتعليم الشبان العالميين، ولما دعاني الله بوافر سخائه لا باستحقاقي الى اسقفية بيروت كان اول اهتمامي انشاء هذه المدرسة للعالميين، واشرت الى ذلك في اول خطبة القيتها في هذه المدينة واخذت استعد لذلك وابحث عن محل يوافق هذا الغرض فشريت عدة قطع من الارض في المحلة المعروفة بالغابة سنة ١٨٤٧م وأخذت في البناء مستعيناً على ذلك بثمن معمل حرير بشملان كان المرحوم سالفني

قد شراه فبعته الى الخواجة يوحنا فريج بمائتي ألف غرش وبشمن نصف قرية كفريا بالبقاع الغربي كان المرحوم سالفى قد شراه فبعته الى الخواجة يوسف سرسق بمائتي ألف غرش ايضاً، بعد أن كاشفت بهذا البيع السيد البطريرك ومجمع نشر الايمان المقدس. وابتدأت في البناء السنة المذكورة بنوع انني أنجزت سنة ١٨٧٥م قسماً كبيراً منه وادخلت الطلبة اليه في اول ت^٢ من هذه السنة، وواصلت السعي في تكملة هذه المدرسة فوهبني الله التوفيق فكان اكثر البناء القائم الآن مع الكنيسة كاملاً في آخر سنة ١٨٧٨م. فمزيد اهتمامي بهذا المشروع وإلقائي الخطب في كنيسة بيروت الكبرى مدة الصوم مع الانقطاع والصوم سببت لي مرض احتقان الدماغ سنة ١٨٧٥م، ولولا براعة النطاسي الشهير الدكتور سوكه الفرنسي لكنت من يومئذ في الابدية. ولما بللت من مرضي أشار عليّ بالسفر الى اوروبا فعملت بمشورته وسرت الى رومة اولاً ونلت حظوة كبرى بعيني السعيد الذكر البابا ييوس التاسع والمثلث الرحمة الكردينال فرنكي رئيس مجمع نشر الايمان المقدس، فدفع إليّ نيافته كتب توصاة الى فرنسة لمساعدتي بمشروعي المذكور، وكنت قد أرسلت الخوري يوسف الزغبى والخوري لويس زوين الى فرنسة للتكمل بعلومهما ومعاونتي بعد عودهما على إدارة المدرسة، فسلمت إليهما كتب التوصاة فجمع أحدهما الخوري لويس من فرنسة نحو عشرين ألف فرنك والخوري يوسف الزغبى هذا القدر من بلجيكا وانكلترا فأوقفتهما بعد ذلك عن السؤال، فكان الداخل لهذا المشروع نحو اربعمائة الف قرش من ثمن العقارات المذكورة ومائتي ألف قرش ونيف من الإحسانات المشار إليها، وما كلفت أحداً من أبناء أبرشيتي أو غيرها لدفع شيء، ولا سألت بنفسى شيئاً من احد في اوروبا، ولا اعلم كيف بارك الله هذا العمل المقصود منه وجهه الكريم ونفع القريب حتى كان مجمل ما صرفته في هذه المدرسة من نفقة البناء والأثاث وشراء العقارات وتعمير مساكن للأجرة نحو ثلاثين ألف ليرة فرنسية الى الآن. وفي هذه المدرسة وجوانبها الآن نحو مائة ألف ذراع أرض. ولها من البيوت والمساكن ما يؤجر بنحو خمسة عشر الف غرش في السنة وكل هذه العقارات والبيوت خصصتها بالمدرسة مفروزة عن الاملاك المعروفة بالكرسي الاسقفي لنفقة الاسقف وحاشيته وخدمه، وقد نجحت والحمد الله هذه المدرسة ولا ينقص تلامذتها في كل سنة عن ثلاثمائة طالب السواد الاعظم منهم

داخليون، وقد نبغ منها كهنة علماء وخطباء وشعراء وكُتّاب وكنت ارسلت اخي الخوري بولس بعد اتمام دروسه في مدرسة عين ورقة الى باريس سنة ١٨٧٥م للتكامل في دروسه ومراعاة ادارة المدارس في اوروبا، فعاد إليّ سنة ١٨٨٠م وعهدت اليه بادارة هذه المدرسة ورئاستها فأتم ذلك بما يرضي الله ويعزيني عن اتعابي، فإياه تعالى أسأل أن يتيح لهذه المدرسة التوفيق والنجاح لمجد الله الاعظم وخير سكان هذه الامصار الشرقية بمّته وكرمه وشفاعة القديس يوسف شفيعها.

مدرسة قرنة شهوان ومدرسة غزير

أشرت انفاً اني ارسلت الخوري يوسف الزغبى والخوري لويس زوين الى فرنسا للتكامل بالعلوم ومعاونتي في مدرسة الحكمة بعد عودهما ثم عهدت اليهما بجمع شيء من الاسعاف لها فجمعاً ما ذكرته آنفاً فأوقفتها عن الجمع وبقي كل منهما مدة بعد ذلك في اوروبا، فيظهر ان الله بارك مساعيها واتاح لهما التوفيق فشرى الخوري لويس زوين بعد عوده دار الامير منقذ شهاب في غزير وزاد عليها وجعلها مدرسة على اسم مار لويس معدة لقبول طلبة عالميين واكليريكيين، وكذلك صنع الخوري يوسف جبرائيل الزغبى فانه بعد عوده من اوروبا سنة ١٨٨٢م وارفقائه الى اسقفية قبرص بنى طبقة عليا فوق الطبقة السفلى التي كان المطران يوسف جعجع قد أنشأها وجعلها مدرسة اكليريكية وعالمية. ولما توفي المطران المذكور وخلقه المطران نعمة الله سلوان سنة ١٨٩٢م زاد بعض البناء في هذه المدرسة وحسّن بعضه وجوّه اليها الماء من منبع في بحر صاف، وما برحت هذه المدرسة ناجحة موفقة وكان لي في هاتين المدرستين تعزية كبرى إذ كان لإنشاء مدرسة الحكمة سبباً لإنشاء مدرستين أخريين.

مدرسة المحبة في عرامون ومدرسة العريمة

اما مدرسة المحبة فأنشأها بمرامون الخوري جبرائيل شباط سنة ١٨٦٧م واستعان على إنشائها بإحسانات جمعها من اوروبا بأسفاره اليها وهي تقبل طلبة داخليين

قليبين وخارجيين، ولقلة دخلها لم تنجح كثيراً لكنها دامت من حين تأسيسها الى الآن. وبعد وفاة الخوري جبرائيل مؤسسها يديرها الآن اخوه يوسف شباط.

واما مدرسة العريمة فقد أنشئت سنة ١٨٦٥م بما وقفه المرحوم المطران نقولا مراد المتوفي برومة سنة ١٨٦٣م، ثم بما وقفه أخوه همام مراد من العقارات والنقود، وابتاع دار الشيخ منصور الدحداح في اسفل عرامون وبنى فيها كنيسة على اسم لقسيس نيقولاوس، وجعل بعده الولاية على هذه المدرسة لمجمع الايمان المقدس والرئاسة لمن ينتخبه من أقربائه ولم ينجح هذه المشروع الى الآن وقل من دخل هذه لمدرسة من التلامذة.

المدرسة الوطنية

نذكر هذه المدرسة في جملة المدارس التي أنشأها الموارنة لأن منشئها ماروني صلاً وهو المعلم بطرس البستاني، وقد افتتحها سنة ١٨٦٣ وجعلها تحت إدارة ابنه سليم الذي كان يعلم بها العلوم والصف الاول في اللغة الانكليزية، وتخرج بها كثيرون من الموارنة ايضاً ولم تكن تتعرض لتلامذتها في امر دينهم بل كانت تسلمهم لقضاء فروضهم الدينية في كنائس طوائفهم ودامت خمس عشرة سنة وقد قلت لما فتحت ابواب مدرسة الحكمة سنة ١٨٧٥م.

المدارس الرهبانية

اما الرهبانيات الثلاث في طائفتنا فكان رؤساؤها يخصصون ديراً من اديارهم لسليم المرشحين للكهنة فيه، وكان رؤساء الرهبانية اللبنانية يخصصون احياناً بين او ثلاثة اديار لهذا التعليم فكان كذلك دير قزحيا وكقيفان والقطارة وميفوق ناعمة. والآن اكبر مدرسة لرهبانهم في دير نسييه بغوسطا وقد شروا من بضع ين داراً في بيروت وجعلوها سكناً لنحو اثني عشر راهباً يتلقون الدروس السامية

في المدرسة الكلية للآباء اليسوعيين بهذه المدينة. واما الرهبان المعروفون بالانطونيانيين فيعلمون قسوسهم في أحد اديارهم كدير القلعة في بيت مري الى أن جعل القس عمانوئيل البعبداتي دير مار اشعيا في برمانا مدرسة للمرشحين من هؤلاء الرهبان للكهنة، وعززها اذ هو الآن الرئيس العام للرهبانية. واما الرهبان الحلبيون فديرهم برومة هو مدرسة لهم وقد زاد بناءها وأتمى دخله المطران امبروسيوس نطين الدرعوني وزادها نظاماً في هذه السنين الاخيرة الأب لويس الخازن رئيسها وكانوا يعلمون المعدن للدخول في هذه المدرسة مبادئ اللغات والعلوم في دير مار اليشاع بجانب بشري.

مدرسة المرسلين اللبنانيين

لما شرى الطيب الذكر المطران يوحنا حبيب وهو كاهن دير المخلص بالكريم وقفه على المرسلين اللبنانيين ليكون كرسياً لجمعيتهم ومدرسة للمرشحين للانضواء اليها، وكان كذلك، إلا انه حسن لآباء جمعيتهم حيناً ما أن يقيموا تلامذتهم في المحل الخاص بهم بعينطورا ثم وجدوا في ذلك بعض المصاعب فأرجعوا تلامذتهم الى الكريم فينقص عددهم او يزيد بالنسبة الى عدد الطالبين المنضوين اليهم ويعلمونهم من اللغات السريانية والعربية والفرنسية واللاتينية والعلوم الاكليريكية السامية.

ان ذكر انشاء كل هذه المدارس عند الموارد في هذا القرن يبين صريحاً النهضة العلمية في الطائفة ولاسيما ان راعيت ان اكثرية التلامذة في المدارس التي يديرها الآباء اليسوعيون والعزاريون والمرسلون المعروفون بإخوة التعليم المسيحي وغيرهم من شبان الموارد. فالرغبة في تعليم الآباء اولادهم هي عامة وشاملة حتى تراها تجاوزت الحدود ولو رغب عامة الناس وأواسطهم في تعليم اولادهم الصنائع والحرف لكان هذا أولى واصح بمصلحتهم ومصلحة البلاد.

اديار الرهبان اللبنانيين المنشأة بهذا القرن

ذكرنا في تاريخ القرن الثامن عشر ما أنشأه هؤلاء الرهبان من الأديار فيه ونذكر الآن ما أحدثوه في القرن التاسع عشر فقد بنوا دير مار مارون عثاية ببلاد جبيل سنة ١٨١٤م، ودير مار سركيس وباخوس بقرية قرطبا سنة ١٨١٥م، وفي سنة ١٨٤٩م فصلوا بعض املاك عن دير قزحيا وأقاموا بها ديرين: الاول على اسم مار انطونيوس في الجديدة وخصوا به املاك قزحيا التي كانت بمارشينا ونهر جرعت وكفرياشيت، والثاني دير مار جرجس عشاش وخصوا له الاملاك التي كانت لقزحيا في المحل المذكور وأنشأوا سنة ١٨٤٦م دير مار روكس بجانب عجلتون وأخذوا بينائه سنة ١٨٦٥م وفصلوا قسماً من املاك دير مشموشه سنة ١٨٤٩م وأنشأوا به اولاً دير مار تقلا بريمات ثم نقلوا هذا الدير الى بحنين وسموه باسم دير المخلص. واخذوا في هذه السنة ايضاً في بناء دير مار يوحنا بقبيع من قرى المتن الجنوبي وأنشأوا دير مار شليطا بالقطاره من بلاد جبيل سنة ١٨٥٢م وجعلوه مدرسة مدة ما ثم ابتنوا دير مار جرجس بحنين من قرى عكار سنة ١٨٥٣م، ودير مار يعقوب النصيبني بالحصن من بلاد البترون سنة ١٨٦٢م. وفصلوا قسماً آخر من املاك قزحيا وخصوه بدير مار سمعان بقرب ايطو وجعلوه مسكناً للراهبات، وفصلوا عن دير قزحيا ايضاً املاكه بقرية بصرما بالكورة وبعض املاكه بقرية بشنين بالزاوية واقاموا بها ديراً على اسم سيدة النجاة ببصرما سنة ١٨٧٦م، وجعلوا المدرسة التي كانت لهم بساقية المسك ديراً على اسم مار ميخائيل سنة ١٨٨٢م، واخذوا في سنة ١٨٨٠م بينون ديرهم بنسبيه بقرية غوسطا على اسم سيدة النصر وهو من اكبر أديارهم، ويعلمون فيه الآن المرشحين من الراهبات للكهنوت. وقد احدثوا في هذا القرن من المدارس لتعليم الاولاد القراءة والخط واصول الديانة مدرسة بيان من قرى بشري سنة ١٨٠٦م، وزادها القس افرام جعجع البشراي في مدة رئاسته لها بناء واملاكاً. ومدرسة العبادية سنة ١٨٣٠م فوقف بعض الامراء اللمعين عليهم بعض العقار وشرط عليهم اقامة مدرسة وقسوس بها يخدمون موارد هذه القرية ويعلمون اولادهم. وأنشأوا سنة ١٨٣٧م مدرسة رأس المتن، وسنة ١٨٣٩م مدرسة الشبانية، وسنة ١٨٥٥م مدرسة غباله. واحداث الأب عمانوئيل المتيني مدرسة المتين ولهم

مدرسة في حماما واخرى في بسكنتا، ومدرسة الفريكة ومدرسة كفرحيال قرب قرطبة انشأها القس دانيال الحديثي، ومدرسة في بصا بجوار تنورين واخرى في وادي جزين ومدرسة في صغبين، وانشأوا مدرسة حديثة في بدادون. هذا عدا مدرسة عجلتون التي انشأوها في القرن الثامن عشر سنة ١٧٥١م، ومدرسة وادي شحرور التي احدثوها سنة ١٧٨٥م بعقار وقفه بعض الامراء الشهابيين. ولهم من القناتيش انطوش جبيل احدثوه سنة ١٧٦٢م، وانطوش زحله سنة ١٧٦٩م، وانطوش دير القمر سنة ١٧٨٢م، وانطوش معلقة زحله سنة ١٨٠٨م، وانطوش يافا سنة ١٨٥٥م، وانشأوا فيها كنيسة في هذه السنين الاخيرة، وانطوش بعلبك أنشأوه سنة ١٨٥٧م، وانطوش ابلح سنة ١٨٦٠م، وانطوش مجدلون سنة ١٨٦٨م.

عد ١١٣٦

اديار الرهبان الانطونيين المنشأة بهذا القرن

ذكرنا في تاريخ القرن الثامن عشر ما انشأوه فيه من الاديار فنذكر هنا ما احدثوه منها في القرن التاسع عشر:

١- دير مار دوميط برومية اشترى محله وبعض العقار له القس ابراهيم عون ثم استأذن القس يوسف الشباي والقس تادروس جبارة البطريرك يوحنا الحلو بأن بنيا هناك ديراً فأقاما الجهة الجنوبية منه سنة ١٨١٨م وبنى بعدهما القس بولس الحمانى الجهة الشمالية والغربية والكنيسة كما يظهر من خط على باب مقعد الدير المذكور وكان رهبان دير القلعة يذهبون الى رومية فيشتغلون في بناء هذا الدير الاسبوع كله ويعودون مساء الاحد الى ديرهم.

٢- دير مار الياس بالكنيسة اتفق رئيس عام هذه الرهبانية ومديرها على بناء دير بالكنيسة واستأذنوا المطران يوسف جعجع مطران الابرشية بانشائه فاهتم به القسوس شاول وغريغوريوس والياس الذين كانوا من هذه القرية وخصصوا به بعض املاك كانت لدير مار دوميط رومية ودير مار سمعان بعين القبو.

٣- دير مار يوسف بحرصاف اخذ في انشائه القس فيلبوس الحاج بطرس من بكفيا سنة ١٨٥١م، لكنه بقي حقيراً الى أن ترأس عليه القس لويس الحاج

بطرس ثم صار مديراً في رهبانيته فأفرغ جهده بتوسيع بناء هذا الدير وتأسيسه وشراء عقارات له، وبنى فيه كنيسة ظريفة واستعان على ذلك ببعض الاحسانات .

٤- دير مار نوهرا القنزوح اخذ بانشائه القس برنردوس الغزي سنة ١٨٦٤م بعد الاستئذان من البطريرك بولس مسعد والمطران يوحنا الحاج اسقف الابرشية ثم اكمل بناءه القس فرنسيس المدير ابن اخي القس برنردوس المذكور.

٥- دير مار سرقيس بكفردلاقس هو دير صغير على مقربة من زغرتا اهتم بانشائه في هذا القرن القس انطون الحلبي، فانه شري عقارات باسم هذا الدير وسلمها الى القس تيموتاوس الاهدني فأخذ في بناء بعض قلاوي ثم بنى القس انطونيوس الاجبي الكنيسة.

٦- دير المخلص بقرية عين العلق أنشأه سنة ١٨٧٠ القس يوسف البعدياتي الرئيس العام وعهد بينائه الى القس يشوع الشباي واخيه القس ابراهيم فنياء وشريا له املاكاً.

٧- دير مار مارون الرويس في شننغير ابتاع ارضه القس مرقس الشننغيري والقس بولس الغزي وتعدر عليهما نقد الثمن فدفعه القس فيلبوس الحثوني الدلبتاي الانطونياني، واجاز الرئيس العام والمديرون أن يكون ديراً وأن يتسلمه القس فيلبوس المذكور، وأعطوه صكاً بذلك مؤرخاً في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٧٤م.

ولهذه الرهبانية عدة اناطيش:

١- انطوش زحله طلب القس ابراهيم عون المذكور قطعة ارض في زحله من الامير بشير قيديه اللامي وبنى فيها كنيسة وبعض مساكن وعهد اليه مطران الابرشية بخدمة النفوس هناك، وقد احترقت الكنيسة المذكورة مراراً آخرها سنة ١٨٨٢م مصادفة.

١- انطوش قب الياس انشأه القس توما مدلج الرئيس العام في قطعة ارض وهبه اياها الامير سيد احمد شهاب ثم باعه أرضاً فسيحة وكرماً، فأرسل رهباناً

يحرثونها ثم بنى هناك كنيسة على اسم ايليا النبي وبنى بجانبها بعض مساكن.

٣- انطوش قرنايل أنشأه الرئيس العام على هذه الرهبانية إذ سألته الامير يوسف مراد اللامي أن يبنى هناك كنيسة على اسم قديس ذي بطش وشجاعة فبناها على اسم ايليا النبي، ورغب الامير الى اهله أن يعتنقوا الدين الكاثوليكي في الطقس الماروني فنصر القس صامويل والقس يوسف حفيديه الامير بشير والد الامير سعيد بيت مري، والامير على والد الاميرين يوسف ومحمود علي.

٤- انطوش شملان بنى الامير حيدر الشهابي كنيسة هناك اولاً ثم وقف عليها عودتين لمعاش الكاهن الذي يخدمها، ثم وقفت امرأته اكثر املاكها على الرهبان، وكان القس يوسف البعبداتي يخدم دارهما فزاد هذا الوقف املاكاً بشرائه لها، وبنى مساكن يقيم بها الرهبان سنة ١٨٢٨م، وقد صيّر الرهبان هذا الانطوش مذ بضع سنين ديراً.

٥- انطوش حوش حالا في قائممقامية بعلبك أنشأه احد القسوس إذ شرى هناك ارضاً سنة ١٥٤٨م وبنى كنيسة على اسم القديس روكس وألحق بها بعض مساكن.

٦- انطوش قرنة الحمرا كان أنشأه الرئيس العام القس ابراهيم البسكنتاوي واتفق مع مدبري الرهبة واستأذنوا البطريرك يوسف حبيش سنة ١٨٢٧ بأن يبنوا مدرسة بقرنة الحمراء من قاطع بيت شباب، فأذن لهم وسلموا العناية بها الى القس يمين البجاني فبنى بعض المساكن ثم بنى الكنيسة القس جبرائيل من برمانا وقد صيّر هذا الانطوش ديراً منذ بعض سنين.

٧- انطوش قرنة شهوان اهتم بإنشائه القس شاول من الكنيسة الرئيس العام ليكون مدرسة للأولاد، فرخص له بذلك البطريرك يوسف حبيش والمطران عبدالله بلبيل، فوكل الرئيس العام باتمام ذلك الى القس زكريا من عائلة بيت جباره.

٨- انطوش بحنس كان لإنشائه سنة ١٨٥٢ في ارض وقفها رجل مستحسب اسمه يعقوب من القرية المذكورة شارطاً أن يبنى الرهبان فيها انطوشاً. وأن يقوموا بأوده ما دام حياً، فقبل القس فيلبوس الحاج بطرس الرئيس العام شرطه وأقام على اتمام ذلك القس يوسف البعبداتي.

٩- انطوش ترسيس أنشئ سنة ١٨٢٧ فان الموارنة المتوطنين بترسيس وادنا رفعوا عريضة للبطريك يوسف حبيش سائلين أن يرسل اليهم كاهناً لخدمتهم الروحية فأرسل اليهم القس فرنسيس جعاره الغزيري فأقام على خدمتهم. وفي سنة ١٨٥٦م أمر البطريك بولس مسعد الرئيس العام القس بطرس الغزيري أن يرسل كاهناً من رهبانه لخدمة اهل ترسيس الموارنة واعطاهم صكاً باختصاصهم بالرسالة بكيليكيا اي ترسيس وادنا ومرسين وأمرهم أن يبنوا كنيسة بترسيس فبنوها بمالهم وبعض الاحسان وما برح الرهبان يخدمون بها.

١٠- انطوش اسكلة طرابلس بني سنة ١٨٥٥ بأمر البطريك بولس مسعد للقس بطرس الغزيري الرئيس العام الذي اشترى هناك داراً وارضاً، واهتم الرهبان ببناء كنيسة ومساكن فيها واقام بعض قسوسهم يخدمون الموارنة هناك الى الآن.

١١- انطوش بسكتتا أنشئ سنة ١٨٥٧ باهتمام القس سلوانس البسكتتاوي وأذن الرئيس العام والمديرين فبنى فيها بعض قلالي وشري بعض العقار، وابتدأ في بناء الكنيسة وعاجله الموت فأكملها بعده القس بطرس كرم البسكتتاوي.

عد ١١٣٧

الاديار التي انشأها الرهبان الحلبيون وغيرهم في هذا القرن

١- دير مار دوميط بفيطرون اخذ الرهبان الحلبيون اللبنانيون بإنشائه سنة ١٨٥٤ لكن الذي كمل هذا الدير وجملته انما هو القس سابا دريان العشقوتي الذي استمر على رئاسة هذه الرهبانية سنين كثيرة، وجعله مدرسة ابتدائية يتعلم بها الرهبان المرشحون للدخول الى مدرستهم برومة.

٢- دير مار سركيس وباخوس بعشقوت أنشأه القس سابا العشقوتي الرئيس العام المذكور وشري له املاكاً.

٣- دير مار اليشاع في جبة بشري بناه الرهبان المذكورون في المحل المسمى مزرعة نهرا بين بشري وبقاع كفر لسكتناهم بدلاً من دير مار اليشاع القديم في

الوادي المقدس فلما كان الدير القديم صعب المسالك بنوا هذا الدير لسكنائهم
تارकिन الدير القديم على ما كان عليه .

٤- مدرسة عبيه رغب في إنشائها المرحوم المطران بطرس ابو كرم مطران بيروت
فكتب الى القس جناديوس الزوقي الرئيس العام حينئذ على الرهبان المذكورين
والى مدبري الرهبانية مظهراً رغبته فيها ومعيناً الشروط اللازمة لذلك، فأجابه
الرئيس والمديرون في ٥ اذار سنة ١٨٣٧م مصرحين بالاجابة الى رغبته
والاستنارة بالشروط التي ذكرها، وهي أن يكون من رهبانهم ثلاثة قسوس
يخدمون الرعية في عبيه ويكون احدهم مقيداً بتعليم اولاد القرية مجاناً .

في سنة ١٨٣١م وقفت ارملة الشيخ بشاره جفال الخازن وشقيقته دارهما في
في زوق مكاييل واملاكهما وكل ما يتعلق بهما على دير بني هناك وقبل البطريرك
يوسف حبيش ووقفهما وكرس دارهما ديراً على اسم سيدة البشارة، وفوض
البطريرك بالولاية على هذا الدير الى المطران يوسف الخازن مطران دمشق وجعله
مسكناً لراهبات يستسرن بقانون راهبات الزيارة .

وفي سنة ١٨٧٨م انشأ المطران بطرس مسعد كنيسة على اسم القديسين
الرسولين بطرس وبولس بقرية عشقوت وبنى حذاءهما بعض غرف، وشرى لها
بعض املاك لتكون مدرسة يتعلم بها اولاد القرية وغيرهم اذا امكن .

عد ١١٣٨

بعض الكنائس المنشأة للموارنة في هذا القرن

إن تعداد كل الكنائس التي أنشئت للموارنة في القرن التاسع عشر امر طويل
ممل قليل الفائدة، ولذلك اقتصر على ذكر الكنائس التي قدرني الله على بنائها في
بيروت واهتممت أن تبني بالقرى التابعة ابرشيتها . ففي سنة ١٨٧٤م ساعدني الله
على بناء كنيسة مار مارون بحي القيراط في ارض اشتريتها من المرحوم نعيم
افندي قيقانو وفرغت من بنائها وتجهيزها سنة ١٨٧٥م وكانت النفقة عليها نحو
مائتين وخمسين الف قرش، وفي سنة ١٨٧٨م انشئت بعون الله كنيسة القديس

يوسف بمدرسة الحكمة السابق ذكرها وكانت نفقتها في جملة النفقة على المدرسة المذكورة.

وفي سنة ١٨٨٢م بنيت بعون الله كنيسة القديس ميخائيل رئيس الملائكة بحي الرمل وكان في محلها كنيسة على اسم هذا القديس بنيت سنة ١٨٣١م بأمر ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر، فان الكنيسة كانت في الكوارنتينا حيث حلت عساكر ابراهيم باشا ولما رأى ان النساء يضطرون أن يمررن بين العساكر الى الكنيسة أمر الخوري ميخائيل ابي كرم أن يشتري لرعيته قطعة ارض خارجة عن الكوارنتينا وهو بني كنيسة الرعية على قياس كنيستهم القديمة، فذهب الخوري الى الامير حيدر احمد بشملاق فوهب قطعة الارض حيث الكنيسة الآن وشرط أن يقدم قداس كل سنة على نيته، ودفع ابراهيم باشا قيمة ثمن الارض الفين وخمسمائة قرش، وأشغل عسكره ببناءها على هيئة الكنيسة القديمة طولاً وعرضاً وعلواً، ثم زيد على هذا البناء في ما بعد سوق مسقوف بالاخشاب، فهدمت البناء القديم واقمت البناء الجديد وكمل بعون الله سنة ١٨٨٣م وكانت نفقته نحو مائة وستين ألف قرش.

في سنة ١٨٨٤م شرعت ببناء كنيسة مار جرجس الكاتدرائية فإن الكنيسة القديمة كانت قد أمست تضيق على ابناء الطائفة ومجالاتها حرجة، فأخذت بإنشاء هذه الكنيسة حدا القلاية مسكن الاسقفية وكنت قد صورت كنيسة مريم الكبرى برومة بكل أجزائها فجعلت كنيستنا على هيئتها ما أمكن، وأتاح الله لي رجلاً ايطالياً يسمى يوسف ماجيوري خبير بهيئات الكنائس ونقوشها أقمته على ذلك الى أن يسر الله الفراغ من العمل سنة ١٨٩٤م، ودشنتها باقامة القداس الاول فيها احد الشعانين من السنة المذكورة، وقد بلغ ما أنفقته عليها نحو مليونين من القروش.

وفي سنة ١٨٩٤م عنيت بأن صيرت الدار التي كنت قد اشتريتها من الخواجات ابناء كميد مدرسة للبنات مزيداً عليها طبقة ثالثة ومصلحاً فيها ما يلزم اصلاحه، واستحضرت اليها اربع راهبات من رهبانية العائلة المقدسة، وأخذن في التعليم فيها. وبعد خمس سنوات وجسن بأن البناء غير ثابت وتركن السكنى فيها فاضطرت الى هدمه وبناء اربع دور هناك معدة للاجرة. وسنة ١٩٠١م اخذت في

بناء كنيسة ايليا النبي في رأس بيروت، فان الكنيسة التي بنيت هناك في ايام
المرحوم سالفنا المطران طوييا أمست لا تسع الموارنة سكان ذلك الحي.

ومنذ السنة السالفة اي سنة ١٩٠٣م قد كان الفراغ من البناء الخارج وهمنا
الآن في تكميل ما يلزم بداخلها، وقد بلغت النفقة عليها الى الآن نحو ثلاثمائة
ألف قرش، وكل هذه النفقات على الكنائس لم أثقل على أحد بشيء منها بل
جميعها من دخل عقارات كنيسة مار جرجس الكبرى التي ساعدني الله على
زيادتها كثيراً وإثماء دخلها.

وأما الكنائس التي اهتمت بإنشائها بالقرى فهي كنيسة القديس يوسف في
قرية حريك وكنيسة مار ميخائيل في قرية الشياح، وكنيسة مار عبدا بقرية رومية،
وكنيسة مار ميخائيل بقرية رمحالا، وكنيسة القديس سركيس وباخوس في
بحنس. ومن الكنائس الصغيرة التي اهتمت بها وأقمت ببعض نفقتها كنيسة
بلبل وكنيسة عيناب وكنيسة المريجات. وقد انشأ الشيخ عقل شديد واولاده
كنيسة السيدة العذراء بالمتين وخولتهم حق الولاية عليها. وانشأ شهدان هيكل
الغريب كنيسة على اسم العذراء ايضاً في معلقة الدامور وفقنا الله الى كل ما به
مجده الاعظم وخير النفوس.

كان الفراغ من هذا المجلد الثامن وهو الأخير من تاريخ سورية في ١٥ اذار سنة ١٩٠٤م، بعد أن أخذنا بتأليفه في اول تشرين الاول سنة ١٩٠٢م وكنا صرفنا فصل الصيف في هذه السنة بسفر الى رومة العظمى لتهنئة السعيد الذكر البابا لاوون الثالث عشر بيوييله الحبري نيابة عن الطائفة والبطريرك وتجولنا ذهاباً بالآستانة العلية، وفيأنا الى رومة ثم سرنا الى فرنسة وباريس. تقبّل الله برحمته أتعابي جميعها بهذا التأليف، وجعلها مخلصه لوجهه الكريم، وكفّارة عن مآثمى، ومنفعة لقارئيه وسامعيه بمنّه وكرمه.

آمين.

الطبعة يوسف الدين

كتاب في أصول الدين
الدين في الدين

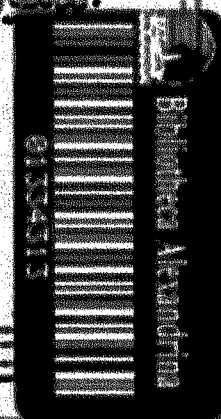
الجامع المفصل

فصل في تاريخ الموارد المتصلة

إشراف
نظير عبود

راجعة ودقته
الدكتور مارون رعد

كتاب في أصول الدين



تاريخ الموارد

المطران يوسف الدبس

الجامع المفصل

في تاريخ الموارنة المؤصل

الجزء التاسع

رأجه وطققه

الدكتور مارون رعد

إشراف

نظير عبود

ولر نظير عبود

فهرس

صفحة

عدد

المقالة الأولى

القديس مارون وتلاميذه

١٧ القديس مارون الناسك	١
٢٢ تلامذة القديس مارون	٢
	انتشار رهبان القديس مارون في سورية في القرن السادس وتسمية	٣
٢٥ متابعيهم موارنة نسبة إليهم	
	مناضلة الرهبان الموارنة عن الايمان الكاثوليكي وما عانوه من	٤
٣٠ الاضطهاد	
٣٥	رسالة رهبان القديس مارون إلى رؤساء اليعاقبة وجواب هؤلاء لهم .	٥

مقالة ثانية

تاريخ الموارنة في القرن السابع

الفصل الأول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

٤٢ سطوة المردة أي الموارنة في هذا القرن	٦
----	--	---

٤٧	هل المردة موارنة	٧
٥٢	أمرأء الموارنة والاثني عشر ألفاً المجلولين منهم	٨
٥٨	حرب الموارنة وعسكر الملك يوستينيانس الأخرم	٩
٦١	الانقسام بين الموارنة والملكية	١٠

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون وأسقفيته وبطريركيته وتآليفه

٦٥	منشأ القديس يوحنا مارون	١١
٦٧	أسقفية القديس يوحنا مارون	١٢
٧٠	بطريركية القديس يوحنا مارون	١٣
٧٨	مؤلفات القديس يوحنا مارون	١٤
٧٨	نافور أي رتبة القديس	
٧٩	كتاب ايضاح الايمان	
٨٤	كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة	
٨٤	رسالة في التريصاجيون	
٨٥	كتابه في الكهنوت	
٨٦	كتابه في شرح رتبة القديس	
٩١	هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة	١٥
٩٦	قداسة يوحنا مارون	١٦

الفصل الثالث

براءة المارونيين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

١٠٣	براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة	١٧
١٠٩	إثبات البابا بناديكتوس الرابع عشر قداسة القديس مارون	١٨
١١٦	براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة	١٩
١٢٤	براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة	٢٠
١٣٧	تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة ...	٢١

مقالة ثالثة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

٢٢	حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن	١٣٩
٢٣	بطاركة الموارنة في القرن الثامن	١٤١
٢٤	توافيلس الرهاوي الماروني	١٤٣
٢٥	ردّ ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على الموارنة	١٤٥
٢٦	الردّ على ما يعترض به على الموارنة بشهادة تيموتاوس بطريرك النساطرة	١٥٠

مقالة رابعة

تاريخ الموارنة في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر

٢٧	بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر	١٥١
٢٨	قيس الماروني	١٥٣
٢٩	ردّ مزاعم من اتهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر	١٥٥
٣٠	المطران داود الماروني	١٥٧

مقالة خامسة

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

٣١	حالتهم الدنيوية في هذا القرن	١٦٢
٣٢	بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر	١٦٥
٣٣	ما نعرفه من أديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر	١٧٣
٣٤	تفنيد زعم غوليلمس الصوري أنّ الموارنة ارعوا عن الضلال	١٧٨
	سنة ١١٨٢	١٧٨

مقالة سادسة

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

١٨٦	فتح المسلمين جبة بشري	٣٥
١٨٨	حروب كسروان	٣٦
١٩٣	بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر	٣٧
١٩٦ ...	ردّ ما يحتجّ به على الموارنة من كلام البابا اينوشنسيوس الثالث	٣٨

مقالة سابعة

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

٢٠١	ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن	٣٩
٢٠٢	بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر	٤٠
٢٠٦	من عرفناهم من أساقفة الموارنة بهذا القرن	٤١

مقالة ثامنة

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

٢٠٩ .	بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في أيامهم	٤٢
٢١٢	بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر	٤٣
٢٢١	من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر	٤٤
	تفنيد رأي من زعم أنّ الموارنة وأسقفهم الياس مطران قبرص	٤٥
٢٢٣	رجعوا إلى الايمان في أيام البابا أوجانيوس الرابع	

مقالة تاسعة

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

٢٣٣	بعض حكاهم وأعيانهم في هذا القرن	٤٦
-----------	---------------------------------	----

٤٧	بطارقة الموارنة في القرن السادس عشر	٢٣٩
	البطريك موسى العكاري	٢٣٩
٤٨	البطريك ميخائيل الرزي	٢٤٤
٤٩	البطريك سركيس الرزي	٢٤٩
٥٠	البطريك يوسف الرزي	٢٥١
٥١	المجمع الطائفي الذي عقد في أيام البطريك ميخائيل الرزي	
	سنة ١٥٨٠	٢٥٣
٥٢	المجمع الطائفي الذي عقده البطريك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦ ..	٢٥٧
٥٣	أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر	٢٦٠
	المطران جبرائيل اللحفدي	٢٦٠
٥٤	باقي أساقفة الموارنة في هذا القرن	٢٦٢
٥٥	المشاهير الدينون الموارنة في القرن السادس عشر	٢٧١

مقالة عاشر

تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارنة في القرن السابع عشر

٥٦	بعض أعيانهم في هذا القرن	٢٧٦
٥٧	ابو رزق البشعلاني وابنه يونس	٢٨٦
٥٨	أعيان موارنة آخرين	٢٩١

الفصل الثاني

بطارقة الموارنة في القرن السابع عشر

٥٩	البطريك يوحنا مخلوف	٢٩٣
----	---------------------	-----

البطريك جرجس عميره	٢٩٦	٦٠
البطريك يوسف العاقوري	٢٩٨	٦١
البطريكان يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي	٣٠٠	٦٢
العلامة البطريك اسطفانوس الدويهي	٣٠٣	٦٣

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

الأساقفة الذين رقاهم البطريكان يوسف الرزي ويوحنا مخلوف	٣٠٨	٦٤
أساقفة الموارنة إلى أيام الدويهي	٣١٣	٦٥
أساقفة الموارنة الذين رقاهم البطريك الدويهي	٣١٦	٦٦

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري	٣١٨	٦٧
القس جبرائيل الصهيوني الاهدني	٣٢٠	٦٨
العلامة ابراهيم الحاقلي	٣٢١	٦٩
مرهج بن نيرون الباني	٣٢٣	٧٠
مشاهير آخرون بالغيرة والنسك	٣٢٥	٧١

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

الأديار	٣٣٠	٧٢
ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بنيت في هذا القرن	٣٣٤	٧٣

ذيل

المجمع الذي عقده البطريك يوسف العاقوري في دير حراش

المقالة الحادية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الأول

أعيانهم الدنيويون في هذا القرن

المشايع آل خازن وآل حبيش في هذا القرن	٣٤١	٧٤
بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وأولاده	٣٤٣	٧٥
الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور	٣٤٥	٧٦
المشايع آل الضاهر	٣٤٩	٧٧
المشايع آل الدحداح	٣٥٠	٧٨
مشايع جبة بشري وطردهم المتأولة منها	٣٥١	٧٩
المشايع أبناء اده وغيرهم	٣٥٤	٨٠

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن الثامن عشر

البطريك جبرائيل البلوزاوي	٣٥٩	٨١
البطريك يعقوب عواد الحصري	٣٦٠	٨٢
البطريك يوسف ضرغام الخازن	٣٦٥	٨٣
البطريك سمعان عواد	٣٦٧	٨٤
البطريك طوبيا الخازن	٣٧٢	٨٥
البطريك يوسف اسطفان	٣٧٣	٨٦
البطريك كان ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل	٣٨٤	٨٧

الفصل الثالث

مشاهير العلم الموارنة في القرن الثامن عشر

٣٨٦ القس يوسف الباني الحلبي	٨٨
٣٨٧ المطران جرمانوس فرحات	٨٩
٣٩٠ الأب بطرس مبارك	٩٠
٣٩٢ المطران جرجس بنيمين والخورى اندراوس اسكندر	٩١
٣٩٤ العلامة الشهير الخوري بطرس التولاوي	٩٢
٣٩٦ ترجمة العلامة يوسف سمعان السمعاني	٩٣
٣٩٨ مؤلفات السمعاني	٩٤
٤٠٤ اعتبار الأبحار الأعظمين للعلامة السمعاني	٩٥
٤٠٨ المطران اسطفانوس عواد السمعاني	٩٦
٤٠٩ يوسف لويس السمعاني وابن اخيه القس سمعان السمعاني	٩٧
٤١٠ غير هؤلاء من علماء الموارنة	٩٨
٤١٠ الخوري ميخائيل الغزيري	
٤١١ اسطفانوس ورد ابن الخوري ابراهيم	
٤١١ الخوري انطون القياي	
٤١١ القس عيسى الجمامتي	
٤١١ القس يوحنا البازنجاني	

الفصل الرابع

المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن

٤١٢ المجمع اللبناني	٩٩
٤١٥ مجمع بقعاتا	١٠٠
٤١٥ مجمع غوسطا	١٠١
٤١٧ مجمع ميفوق	١٠٢
٤٢١ مجمع عين شقيق	١٠٣
٤٢٣ مجمع بكركي الأول	١٠٤

الفصل الخامس

- ١٠٥ بعض أديار الموارنة ومدارسهم وكنائسهم المنشأة في القرن
الثامن عشر ٤٢٧
- ١٠٦ مدارس الموارنة المنشأة في هذا القرن ٤٣٤
- ١٠٧ كنائس الموارنة المنشأة في هذا القرن ٤٣٩

المقالة الثانية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن التاسع عشر

الفصل الأول

حكام الموارنة وأعيانهم

- ١٠٨ حكام الموارنة في هذا القرن ٤٤١
- ١٠٩ يوسف بك كرم ٤٤٥

الفصل الثاني

بعض المشاهير بالعلم من الموارنة

- ١١٠ المعلم بطرس البستاني ٤٥١
- ١١١ فارس الشدياق ٤٥٣
- ١١٢ الكونت رشيد الدحداح ٤٥٦
- ١١٣ ابراهيم بك النجار ٤٥٨

الفصل الثالث

بطارقة الموارنة ومن رقوهم إلى الأسقفية في هذا القرن

١١٤	البطريك يوسف التيان	٤٥٩
١١٥	البطريك يوحنا الحلو	٤٦٢
١١٦	البطريك يوسف حبيش	٤٦٥
١١٧	البطريك يوسف الخازن	٤٦٧
١١٨	البطريك بولس مسعد	٤٦٨
١١٩	البطريك يوحنا الحاج	٤٧٣
١٢٠	البطريك الياس الحويك	٤٧٥

الفصل الرابع

ما عقده أساقفة الموارنة من المجامع في القرن التاسع عشر

١٢١	مجمع لوزة	٤٧٧
١٢٢	مجمع بكركي الأخير	٤٨٠

الفصل الخامس

الأديار والمدارس والكنائس التي أنشأها الموارنة في القرن التاسع عشر

١٢٣	الأديار مساكن البطريك والأساقفة	٤٨٢
٤٨٢	دير الكرسي البطركي	٤٨٢
٤٨٣	الأديار كراسي المطارين	٤٨٣
٤٨٤	كرسي طرابلس	٤٨٤
٤٨٤	كرسي أبرشية قبرص	٤٨٤
٤٨٤	كرسي أبرشية بيروت	٤٨٤
٤٨٥	كرسي أبرشية صور وصيدا	٤٨٥

٤٨٦	كرسي أبرشية بعلبك	
٤٨٦	كرسي أبرشية دمشق	
٤٨٧	المدارس التي أنشأها الموارنة في هذا القرن	١٢٤
٤٨٧	مدرسة عين ورقة	
٤٨٨	مدرسة مار يوحنا مارون	
٤٨٨	مدرسة مار مارون الرومية	
٤٨٨	مدرسة مار عبدا هرهريا	
٤٨٩	مدرسة ريفون	
٤٨٩	مدرسة الحكمة	
٤٩١	مدرسة قرنة شهوان ومدرسة غزير	
٤٩١	مدرسة المحبة في عرمون ومدرسة العريمة	
٤٩٢	المدرسة الوطنية	
٤٩٢	المدارس الرهبانية	
٤٩٣	مدرسة المرسلين اللبنانيين	
٤٩٣	أديار الرهبان اللبنانيين المنشأة بهذا القرن	١٢٥
٤٩٥	أديار الرهبان الأنطونيين المنشأة بهذا القرن	١٢٦
٤٩٨	الأديار التي أنشأها الرهبان الجلبليون وغيرهم في هذا القرن	١٢٧
٤٩٩	بعض الكنائس التي أنشأها الموارنة في هذا القرن	١٢٨
٥٠١	ذيل في زيادات عثرنا عليها أو انتبهنا إليها بعد الطبع	١٢٩

المقالة الأولى

القديس مارون وتلاميذه

عد ١

القديس مارون الناسك

نروي خبر القديس مارون عن توادوريطوس أسقف قورش الذي كان معاصراً ومجاوراً له ولا يبعد أن يكون عشييراً له. فإن توادوريطوس قال في مقدمة كتابه في النساك حيث تكلم في القديس مارون: «وكان يلدّ لي أن أطوف في براري قورش وأنعم عينا بهذه الأزهار العجيبة التي يزري عرفها بأفخر الطيوب». ومن المؤكد أنّ توادوريطوس رقي إلى كرسي أسقفية قورش سنة ٤٢٣م والقديس مارون كان كاهناً في أوائل القرن الخامس كما يظهر من رسالة فم الذهب إليه من منفاه وسنأتي على ترجمتها. وفم الذهب توفي سنة ٤٠٧م وإذا كان القديس مارون لقي ربه نحو سنة ٤٣٣م على قول بعضهم فيكون عاشر توادوريطوس أسقفاً، وإن كانت وفاته سنة ٤١٠م على قول آخرين فيكون عاشره كاهناً. فشهادة توادوريطوس للقديس مارون إذاً لا مرد لها ولا معترض عليها، لأنهما كانا في عصر واحد وبلد واحد وتوادوريطوس ثقة. وإليك ترجمة ما قاله في كتابه في النساك فصل ١٦ .

«سبيلي أن أذكر بعد هذا (أي شبسيماس) مارون، فإنّ هذا أيضاً جمل عقد القديسين الإلهي، فإنه عزم على أن يصرف حياته في البرية لا يأوي منزلاً، فتسلّق إلى قمة جبل (في قورش)، وكان هناك هيكل للوثنيين يعبدون فيه الأبالس فكّرّسه لله، وكان يتردد إليه. ونصب لنفسه مظلة حقيرة قلّ ما أوى إليها. وكان يجهد نفسه في الاعمال اليدوية التي اعتادها النساك، بل استنبط زيادة عليها حاشداً ثروة الحكمة واثقاً بأنّ المجاهد يزداد نعمة ما ازداد عملاً. فمنّ عليه الله الجود بموهبة

شفاء الأمراض سابعة، حتى ذاعت شهرته في كل قطر، واستأنت إليه الزائرين من كل فج. فكان يحقق خبرهم الخبر، وكنت ترى الحمى تزول بظّل بركته والأبالس ينهزمون من الممسوسين والمبتلين بأي نوع كان من المرض بعلاج واحد. فللأطباء في كل داء دواء وأما القديسون فلهم دواء واحد في كل الأدواء، وهو الصلاة. ولم يكن يشفي الأمراض الجسدية فقط بل كان يرى أيضاً النفوس المعتلة فيشفي هذا من داء البخل، وذاك من مرض الغضب، معلماً هذا القناعة وشارحاً لذاك وصايا العدل والبرّ حاثاً البعض على العفاف والطهارة ومحرضاً غيرهم على الدعة والتواضع. وقد انكبّ على الحراثة الروحية فغرست يداه اغراساً كثيرة مونة فيها ثمار الحكمة، وهذه اللجنة المحضلة المزهرة الآن في قورش إنما هي الله من صنع يديه. ومن ثمار هذه الحراثة يعقوب الكبير (يريد يعقوب تلميذ مارون الآتي ذكره) الذي حقّ له أن يخصّ به القول النبوي. «الصديق كالنخل يزهر ومثل أرز لبنان ينمي» وغيره ممن سنأتي على ذكر كل منهم ان شاء الله. وبينما كان منصباً على هذه الحراثة في كرم الرب شافياً النفوس والاجساد، دهمه مرض خفيف فقضى به منتقلاً إلى ربه. فكان نزاع شديد بين مجاوريه على جثته، ولما كان أهل البلد الاقرب إليه أكثر عدداً وقد أتوا جميعهم هزموا الباقين واختطفوا هذا الكنز النفيس وبنوا له هيكلاً عظيماً ويتفجعون إلى اليوم بمعونته، ويكرمون هذا البطل الظافر بحفلات عامة، وأما نحن فننعم ببركاته وإن كنا بعيدين عنه، ويغنيننا ذكره عن قرب ضريحه إلينا» انتهى مترجماً عن كتاب توادوريطوس في النساك الموسوم بالتاريخ الديني عن طبعة الأب مين (مجلد ٨٢ من مكتبة الآباء الشرقيين).

وكان القديس مارون صديقاً صدقاً للقديس يوحنا فم الذهب، يجمعهما ولاء مستديم وحب قديم، تدل على ذلك رسالة كتبها إليه فم الذهب في منفاه وهي السادسة والثلاثون من رسائله التي نشرها الأب مين (في المجلد ٥٢ من مكتبة الآباء الشرقيين) وإليك ترجمتها بما أمكن من الدقة.

«إلى مارون الكاهن الراهب»

أما بعد، فإنّ علاقات المودة والمعروف التي تضمنا إليك تجعل أبصارنا شاخصة إليك كأنك قائم هنا، فإنّ آواصر المحبة من طبعها أن لا يحجبها بعد المسافات ولا

يوهنا طول الزمان. وكان في ودنا أن تكون مكاتباتنا إليك متتالية، ولكن يحول دون ذلك مشقة الاسفار وندور المسافرين. والآن نهدي إليك طيب السلام ونسألك أن تتيقن أننا نذكرك كل حين وأن لك في فؤادنا منزلة أينما حللنا. فاهتم أنت إذا بأن تواتر إلينا أنباء عافيتك، فإن أخبار صحتك على بعدنا بالجسد تولينا عظيم السرور وتخولنا تعزية كبرى في غربتنا ووحدتنا، ويلد لنا كثيراً أن نعلم أنك متعافٍ وجل ما نسألك إياه أن تصلي وتبتهل لله من أجلنا.

وهذه الرسالة لم تكن مؤرخة، ولكن لا بد من أنها كتبت في إحدى السنين من سنة ٤٠٤ إلى سنة ٤٠٧م التي كان فيها فم الذهب في المنفى. وقد أنبأنا العلامة البطريرك اسطفانس الدويهي الأهدني (في كلامه في تاريخ الموارنة على القديس مارون) أن هذا القديس لم يقتصر على الإلمات والتقشف والعكوف على الصلوات وهو منتصب على قدميه، بل باشر أعمال الرسالة. فإنه كان يجول أحياناً متجهداً النساء والمجاهدين حاضاً لهم على تحمّل مشاق سيرتهم وعلى التقدّم في الكمال والحكمة الروحية، ويطوف في القرى والمدن مستملاً الكفرة والأثمة إلى سواء السبيل، حاثاً المؤمنين على مجانبة الرذائل والجد في السير في طريق الفضيلة، داعياً الموسرين إلى مباشرة أعمال الرحمة معزياً البائسين إلى غير ذلك من أعمال الرسالة.

أما سنة وفاة القديس مارون فلم يذكرها توادوريطوس ولم نثر في كتب القدماء على ما يعتقها. والذي رواه العلامة البطريرك بولس مسعد (في كتابه الدر المنظوم صفحة ١٣١) أنه لقي ربه سنة ٤١٠م. وجاء في المعجم التاريخي الجغرافي ليوليا (في طبعته الحادية والثلاثين التي صححها وهذبها عمدة من العلماء) «القديس مارون ناسك ورع كان في سورية في القرن الخامس رقي إلى درجة الكهنوت سنة ٤٠٥م وأدركته الوفاة سنة ٤٣٣م، وقد نسك على جبل قريب من قورش، واستدعى إليه جمعاً كبيراً من التلامذة، فأنشأوا أدياراً عديدة. ويعتد لذكره في ٩ و ١٤ شباط». وحذا لو كان مؤلف هذا المعجم أو مصححوه أنبأونا عمن من القدماء أخذوا رواية تاريخهم لترقي القديس مارون إلى الكهنوت ولوفاته. أما المعبد الذي أقيم على ضريحه ثم صار ديراً لرهبانه فلم يذكر توادوريطوس محله ولا اسم البلد الذي أهله اختطف جثة القديس مارون لأن ذلك كان معلوماً عند ذلك الجيل. والذي عليه المحققون، أن المعبد والدير كانا على شاطئ العاصي بين حماة

وحمص كما حقق السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٧) مفسراً كلام توادوريطوس، ومستشهداً باجيوس (في تاريخ سنة ٤٠٠ عد ١٩) الذي قال: «إنّ هذا الدير نزله الجميع منزلة أول الأديار في سورية الثانية كما يتبيّن من أعمال المجمع الخامس المسكوني الذي شهده بولس الشماس ويوحنا الكاهن ووقّعا على رسائل رهبان ذاك الاقليم إلى يوستينانس الملك، وإلى متّا بطريك قسطنطينية بمنزلة نواب دير القديس مارون أولى أديار سورية الثانية».

وقد أخذ المؤمنون يعيّدون للقديس مارون بعد وفاته كل سنة بحفلات عامة كما رأيت في كلام توادوريطوس. وتعيّد الكنيسة الرومانية له في ١٤ شباط ومثل ذلك كنيسة الروم وتسميه 'مارونيوس بحسب صيغة نهاية الاسماء اليونانية. وكان الموارنة قديماً يعيّدون له في الخامس من كانون الثاني وهو اليوم الذي كرّس فيه القديس يوحنا مارون كنيسة دير كفرحي باسمه في أواخر القرن السابع. قال العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي (في تاريخ الموارنة) تشهد للتعديد للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني نسخ الشحيم المخطوطة احداها خطّها الشماس الياس بن داود من بلاد اطرابلس سنة ١٨٠٥ يونانية توافق سنة ١٤٩٤م، وأخرى خطّها جرجس البردوط ابن يوحنا بن بشارة التحومي سنة ١٥٣٣م في قبرص بقرية قرباسية. وكان الموارنة يعيّدون للقديس يوحنا مارون البطريرك في ٩ من شباط وصاروا يحتفلون لذكر القديس مارون ويوحنا مارون في يوم واحد كما يظهر من فهرست أعيادنا المطبوع في روما. وفي سنة ١٧٨٧م نقل البطريرك يوسف اسطفان عيد القديس يوحنا مارون إلى الثاني من آذار واستمر عيد القديس مارون في ٩ شباط إلى اليوم (ملخص عن الدرّ المنظوم وتاريخ الأهدني).

وأما الأديار التي بُنيت على اسم القديس مارون- فكثيرة، منها الدير المذكور الذي بُني في محل مدفنه بين حماه وحمص بالرستن. ويقال أنه كان فيه ثمانمائة راهب، وكان يسمى دير البلّور. ومنها دير قريب من مخرج نهر العاصي ويسميه أبو الفدا مغارة الراهب، وقد نُقرت مخادعه كلها في صخرة صمّاء. ومنها دير على مقربة من دمشق قال الدويهي فيه: قد استدللنا برسوم وأطلاله الباقية إلى الآن على عظمتة وحسن رونقه. وقد ذكره ابن الحريري المؤرخ في كلامه على الملك الحاكم بأمر الله في تاريخ سنة ٣٨٦ للهجرة الموافقة لسنة ٩٩٥ م حيث قال: «إنّ الملك كان ينزل بمكان يقال له الدكة بين نهر يزيد وتورا، وقيل هي فوق نهر يزيد قرب

دير مارون». ومن أدياره الشهيرة دير بناء القديس يوحنا مارون في بلاد البترون في شرقي قرية كفرحي، فإنّ هذا البطريك لما فرّ من وجه جيش يوستينيانس الأخرم سنة ٦٩٤م سار على ما قيل من انطاكية إلى دير الرستن، فأخذ هامة القديس مارون ولما استقرّ في كفرحي بنى هيكلًا وديرًا على اسم القديس مارون ووضع هامة هنالك. وسمي ذلك الدير ريش مارو **وَمَهَا بَدْنَا** أي راس مارون أو **وَمَهَا دَكِي** (ريش مَارَن) أي راس سيدنا. وأمر أن يعيّد للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني كما مرّ ذكرًا لنقل هامته إلى هذا الدير.

قال العلامة الدويهي (في تاريخ الموارنة) روى لودوفيكس بن يعقوب في كتاب له جمع فيه تراجم القديسين الموجودة ذخائرهم في مدينته فولينيو بايطاليا أنه في سنة ١١٣٠م قدم الشام أحد رهبان القديس مبارك وطاف في الأماكن المقدسة، وبعد أن أتمّ زيارته جال في لبنان وظفر بهامة القديس مارون، ففرح بها فرحاً عظيماً وأخذها إلى وطنه، وطفق يخبر الشعب بفضائل هذا القديس وبالمعجزات التي أجزاها الله على يده والأمة المنتمة إليه، فبنى له أهل فولينيو كنيسة ووضعوا فيها هامة القديس مارون في ١٨ آب، فانتشر ذكره في تلك الأصقاع وكثر عداد من يحجون إلى كنيسته، وفرضوا عيداً سنوياً له. ومنح أحد الاحبار الرومانيين غفران مئتي يوم لمن زار كنيسته يوم عيده. ثم إنّ لوقا أسقف فولينيو نقل سنة ١١٩٤م راس القديس مارون من هذه الكنيسة إلى كنيسة الاسقفية وعمل له المؤمنون صواناً من فضة ويعيّدون له كل سنة في العاشر من آذار، ويطوفون به أمام الشعب بالتجلّة والاحتفاء.

هذا ما رواه العلامة الدويهي ونقله عنه العلامة البطريك بولس مسعد، وقد تسنى لي مدة اقامتي في روما سنة ١٨٨٧م أن قابلت أسقف فولينيو وحدثته في هذا الشأن، فحقق لي أنّ التقليد عندهم ينطبق على ما رويته. وإنه ما برح في كنيستهم شيء من هامة القديس مارون يعطون منه المؤمنين ذخائر، فسألته أن يتحفني بشيء منها فأهدى إليّ خمساً منها، فكنت له شاكرًا لهدية أثمن عندي من الذهب والجواهر.

وقد تعطّف الحبر الأعظم الروماني البابا اكليمنضس الثاني عشر ومنح في براءته المؤرخة في ١٥ نيسان سنة ١٧٣٤م، وفي براءة أخرى مؤرخة في ٢١

كانون الثاني سنة ١٧٤٠م غفراناً كاملاً يغنمه من اعترف بخطاياها، وتناول القربان الأقدس، وزار احدى كنائس الرهبان أو الراهبات اللبنانيين أو رهبان القديس أشعيا في ٩ شباط الذي يعيد به الموارنة للقديس مارون. ثم عظم العلامة البابا بناديكطس الرابع عشر في براءته المؤرخة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م هذا الغفران الكامل لكل من يزور أية كنيسة كانت من كنائس الطائفة المارونية المبنية وقشيد، والتي سوف تُبنى يوم عيد القديس مارون في ٩ شباط. ومن شاء الاطلاع على هذه البراءة فليراجعها في كتاب الدر المنظوم للمثلث الرحمة البطريرك بولس مسعد صفحة ١٣٣.

عد ٢

تلامذة القديس مارون

قد أشار توادوريطوس في كلامه في القديس مارون إلى أنه الغارس والحارث لجنة الله في قورش كما رأيت. وإنه قد أئعن من هذه الجنة ثمار شهية ذكر منها يعقوب معيناً، وقال إنه سيأتي على ذكر الباقيين مفصلاً. وعليه فيظهر أنّ أكثر النساك الذين ذكرهم بعد مارون إنما هم بأجمعهم تلاميذه أو متابعوه في طريقته. وقد صرح توادوريطوس في كلامه على كثيرين منهم بأنهم من تلاميذ القديس مارون، أخص هؤلاء أولاً يعقوب الناسك الذي وصفه توادوريطوس بالكبير. وقل إنه زاره وقد كان مضى على جهاده نحو من ثماني وثلاثين سنة، فرأى منه ما يُدهش العقول، وإنه يُروى عنه لا ما رواه له غيره بل ما رآه بنفسه من جهاده وتقشفه ولبسه المسيح، واثقاله نفسه بالحديد، وتعرضه لحرّ الشمس صيفاً، وللبرد القارس والعواصف والثلج والجليد شتاءً، واقتياته بقليل من العدس المبلول، وصرفه أكثر نهاره وليله بالصلوة والتأمل. وإنّ الله قد منّ عليه بموهبة صنع المعجزات. وقصّ توادوريطوس أخبار كثير منها، وفي جملتها اقامته ابن فلاح من الموت. وقال هذا المؤرخ عند ذكره هذه الآية: «لاني رأيت بنفسي هذا الغلام وسمعت أباه يخبر بهذه الآية الرسولية، وذكرتها لكثيرين عالماً بما يكون من الفائدة من هذا الخبر. وجاء في سنكسار طائفتنا في ٢٠ شباط أنّ هذا القديس أقام ابنة فلاح من الموت. ولا شك في أنّ ذلك زلة من قلم الناسخ لأنّ توادوريطوس المعزو خبر الآية إليه قال

إنَّ المنبعث ابن لا ابنة. ومن آيات القديس يعقوب التي رواها هذا المؤرخ العلامة الثقة مساعدته له في مضايقه بنوع عجيب، وبراؤه كثيرين من المرضى أمراضاً عضالة، وإخراج الأبالس من المسوسين وطرده الشيطان إذ تراءى له بصورة وحش ليخرجه من الجبل الذي كان ناسكاً عليه، وإذ تراءى لأحد تلاميذه بهيئة معلمه وكان يأخذ من يده الماء الذي استقاه له، ويريقه على الأرض ليعذب القديس بالظماً. فتقاطر الناس إليه من كل صوب حتى أنَّ الجبل الذي كان حامل الذكر قبل نسكه عليه أصبح يؤمه الناس من كل طبقة، ويأخذون من ترابه ويتهادون به تبركاً وطلباً للشفاء.

ومن تلامذة القديس مارون القديس تلاميوس المسمى ليمينائوس أيضاً، وقد كتب توادوريطوس ترجمته في الفصل ٢٢ من كتابه المذكور قائلاً إنَّ ما رواه عنه رآه بنفسه، إذ اجتمع به وأنس بحديثه العذب مرات. وإنه أتى إلى مارون العظيم إذ كان عنده يعقوب المار ذكره. ثم نسك في جبل قورش قريباً من القرية المدعوة جرجلة أو ترجلة، وأقام له حظيرة من حجر وحبس نفسه فيها لا يخرج منها ولا يُدخل أحداً إليها. بل يخاطب الناس من كوة في جدارها، ولم يفتح بابها لأحد إلا لتوادوريطوس عند زيارته له. وقد شابه الرسل بآياته فكان يُرى المرضى، ويشفي المسوسين. وقد اعتراه المرض المعروف بالقولنج، فلم يعالجه إلا بالصلوة. وداس في طريقه أرقم فلدغه عشر لدغات في يديه ورجليه فتحمل من ذلك آلاماً مبرحة صابراً. وسمح الله بمصابه تبياناً لصبره الجميل، ولم يتداو إلا بطلبه محال اللدغات بمهرم الصليب والصلوة. ورأى كثيرين من العمي يستعطون الصدقة فابتنى لهم مخادع حوله، وكان يُنفق عليهم من صدقات المؤمنين ويعلمهم التسبيح لله. واستمر على جهاده كييعقوب ثمانين وثلاثين سنة. ويعتد لذكره في ٢٢ شباط.

وذكر توادوريطوس بعد هذين يوحنا الناسك الذي انفرد في جبل شمالي قورش وأقام به خمساً وعشرين سنة غطاؤه الجو وفراشه الأرض وطعامه الخبز والملح ولباسه المسح مسترة به صفائح من حديد ثقيلة. ثم موسى الناسك الذي صرف سنين متطاولة في قمة جبل شامخ حذاء قرية تدعى راماص. ثم انطيوخس وانطونينوس اللذين زهدا في شيخوختهما وعكفا على الصلاة والسهر والصوم المديد. ثم زابينا الشيخ الذي كان القديس مارون يحبه حباً شديداً ويجلّه لتقدمه عليه سنناً، ويدعوه أباً ومعلماً له. وكان يرسل إليه من يقصدونه ليستمدوا البركة

منه. حتى أرسل إليه تلميذه يعقوب المار ذكره ليلبسه اللباس الشعري. ولما كان زابينا توفي قبل مارون، أوصى مارون تلاميذه أن يدفنوه في قبر زابينا. ومن هؤلاء أيضاً بوليكرونيوس، وموسى آخر، ودميانس، ويعقوب آخر، ذكر جميعهم توادوريطوس، وأخذ عنه العلامة الدويهي (في تاريخ الموارنة) موجز تراجمهم.

ومن مشاهير هؤلاء بردات ويسميه السريان ܒܪܕܬܐ (بَارْ هَدُذْ) ذكره توادوريطوس في الفصل السابع والعشرين. ووصف جهاده ونسكه العجيب، وقد اشتهر هو ويعقوب الكبير المار ذكره بفضائلهما بل بعلمهما أيضاً. حتى أنبأنا افاغريوس (ك ٢ من تاريخه فصل ٩): «إنَّ الملك لاون كتب رسائل عامة إلى جميع أساقفة المسكونة وإلى مَنْ تساموا في السيرة الرهبانية يسألهم عما يرون في شأن الجمع الخلكيدوني وترقية بطرس الأثني إلى كرسي اسكندرية». ومن هؤلاء سمعان العمودي... وبردات الراهب ويعقوب السريانيان. وروى كذلك توفان في تاريخ سنة ٤٥٢م قائلاً: «إنَّ الملك لاون كتب أيضاً إلى القديس سمعان العمودي وبردات الراهب ويعقوب صانع العجائب، واستحلفهم ليجيبوا كأنهم يؤدون لله حساباً عما يرون في هذه المسائل المختلف فيها. وقد ذكرهما أيضاً افرام البطريرك الانطاكي، كما أثبت فوتيوس (في مكتبته ك ٢٢٨) حيث قال أنَّ افرام هذا كتب رسالة ومما قاله فيها: «إنه يلزم الاقتداء بسمعان (العمودي) وبردات ويعقوب الذائع صيت فضائلهم في المسكونة كلها. وقد صرفوا حياتهم برمتها في السيرة الرهبانية». وقال (في ك ٢٢٩) في افرام أيضاً «إنَّ هذا كان مبشراً باسلاً بالجمع الخلكيدوني الذي أثبتته ثلاث مئة وسبعون أسقفًا بتوقيعهم، وأيد هذا الايمان سمعان ويعقوب وبردات العجيبة سيرتهم». ونرى رسالة بردات الجواب للملك معلقة في ذيل الجمع الخلكيدوني عدد ٦١. طالع المكتبة الشرقية (مجلد ١ صفحة ٢٥٥ و صفحة ١٩).

ولم يكن للقديس مارون تلاميذ فقط بل كانت له تلميذات أيضاً، منهنَّ مارانا وكورة، فهاتان كانتا من حلب من أسرة شريفة فتركنا مجد العالم وزهوه وحبستا نفسيهما في غرفة حجرة، ولم تتركا منفذاً فيه إلا كوة صغيرة تتناولان الطعام منها. وعكفتا على الورع والتهجد والصلوة، واقتدتا بايليا النبي بصومهما أربعين يوماً. ولم تكونا تكلمان أحداً إلا في الخمسين يوماً من أحد القيامة إلى أحد العنصرة، بل مارانا وحدها كانت تكلم الزائرين والمسترشدين، وكورة لم يسمعها أحد تتكلم. وكان لباسهما خشناً وثقلانه بالحديد حتى حدثت كورة لضعف جسمها. وقال

توادوريطوس أنه زارهما وقد قصدتا زيارة الأماكن المقدسة ومضيفتا ماشيتين لم تذوقا زاداً في سفرهما. ولما أتمتا زيارتهما تناولتا قوتاً ثم عادتا صائمتين إلى حلب. هذا ما وجدته في نصّ توادوريطوس (في طبعة الأب مين)، وأراه أصبح مما زوي في تاريخ الدويهي المطبوع حديثاً، وفي سنكسار طائفتنا في ٢٨ شباط من أنهما لم يأكلا شيئاً في سفرهما ذهاباً وإياباً. وقال العلامة الدويهي «لأنّ منزلهما في حلب كان معروفاً إلى أيامه بدار كورة».

ومن هؤلاء التلميذات دمنينا قال توادوريطوس فيها (فصل ٣٠) إنها اقتدت بالقدّيس مارون في نسكها، وكانت ابنة والدين حسييين غنيين. ولما توفيا ضربت كوخاً من هشيم الذرة في بستان أمها، وكانت تقضي يومها كله مصليّة باكية على ذنوبها وتبّل فراشها الشعري بدموعها. وكان طعامها العدس النقيع. وكانت تنفق من مال أمها على من ذكر من النساك والمعوزين. قال توادوريطوس إنّ كثيرات من النساء أحببن هذه الطريقة فأثر بعضهنّ السيرة المنفردة، وبعضهنّ العيشة المشتركة حتى ربا عدادهنّ إلى نحو مئتين وخمسين عابدة يأكلنّ طعاماً واحداً، ويرقدنّ على الحصر، ويغرلنّ الكتان، وأفواههنّ تترنم بالتسايح لله. انتهى

عد ٣

انتشار رهبان القدّيس مارون في سورية وتسمية متابعيهم موارنة نسبةً إليهم

قد مرّ قبلاً ذكر توافر عدد تلاميذ القدّيس مارون والأديار التي بُنيت على اسمه. فأولئك النساك المتوحدون في حياة القدّيس مارون قد انضوا بعده إلى رهبانية واحدة يضمها قانون واحد، وأقاموا لهم أدياراً كثيرة يعيشون فيها العيشة المشتركة، ومحابس للمتوحدين، ومدارس لاقتباس العلوم، ومنازل يأوي إليها الغرباء والفقراء. واقتنوا حقولاً ومزارع لتقوم بأود الرهبان والمتنسكين والمتعلمين والزائرين، حتى يظهر أنه كان لهم دير في قسطنطينية عاصمة الملك نفسها. فإنّ الرسائل التي رفعها مريان رئيس دير القدّيس دلماتيوس وغيره من رؤساء دير قسطنطينية إلى الملك يوستنيانوس، ومثا البطريرك القسطنطيني سنة ٥٣٦م تشفعاً بالرهبان الذين قدموا من سورية للتشكي على ساويرس بطريرك انطاكية، يتبيّن منها أنه كان في ضواحي

قسطنطينية دير على اسم القديس مارون، ونعلم أنّ رئيس هذا الدير شهد المجمع الخامس المسكوني، وقد دُوّن توقيعه في الرسائل المذكورة (توادورس القس برحمة الله رئيس دير القديس مارون وقعت وتضرعت (رواه البطريك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة). وقد ذكرنا قبلاً أنّ ديرهم الأكبر كان على ضفة العاصي بين حمص-وحماه، وأنه كان فيه نحو من ثمان مئة راهب، وأنه كان له الرياسة على أديار سورية الشمالية كلها، وإنهم كان لهم دير عند منبع العاصي وآخر في جوار دمشق. ويظهر من رسالتهم الآتي ذكرها أنهم أخذوا دير القديس سمعان العمودي ووسعوا مبانيه حتى كان يسع مئآت من الرهبان، كما يدل ما بقي من أطلاله التي ذكرها دي فوكراي في كتابه في آثار سورية (مجلد ١). ولا مرأى في أنه كان لهم أديار أخرى نجهل مواقعها ولا نشكّ في وجودها إذ نرى في رسالتهم المذكورة توقيع خمسة وعشرين رئيساً.

إنّ رهبان دير القديس مارون لم يكونوا يقتصرون على النسك والتكامل بالفضيلة وتخليص نفوسهم فقط، بل كانوا يباشرون الرسالة والاهتمام بخلاص الآخرين أيضاً، فيطوفون المدن والقرى منادين بكلام الله ومحرضين الشعب على اقتفاء الفضائل والتحاشي عن الرذائل، ولا سيما الكفر بالدين، ويناصبون أصحاب البدع والآراء الفاسدة ولا سيما النساطرة والساويريين واللاوطاخيين بخطيئهم ومكاتباتهم وجدالهم، فكان رؤسائهم كقادة جيش يدافعون عن الدين القويم، ورهبانه جنوده الباسلون وكماته الظافرون، وأديارهم كقلاع حصينة يلجأ إليها كل من ضايقه المارقون، ويؤمها كل من عازه سلاح العلم الصحيح لمناوأة الجاحدين، يستعين بهم الاساقفة والرعاة على حفظ خرافهم في حظيرة الدين القويم، ويستنجدهم الكهنة واولو الغيرة لارشاد الضالين وتقوية الضعفاء. وقد كان في المشرق من أقدم الأيام ما نراه إلى اليوم أنّ عامة الشعب يتبعون آثار رؤسائهم الروحانيين وينتمون إليهم، ويسترشدونهم ويكلون إليهم أمورهم الدينية والدنيوية، وكأنه رسخ في طبعهم الميل إلى الشيوكراسي أي الانقياد إلى السلطة الروحية. وعلى هذا النحو كان جميع المتشبهين بالدين الكاثوليكي في ذلك العصر ينقادون إلى رهبان القديس مارون، ويصغون لتعليمهم وينتمون إليهم، وهم يقيمون بنصرهم ويدافعون عنهم، وما جرى عليهم من الاضطهاد بحرق أديارهم وقتل جم غفير منهم كما سترى زاد الشعب علاقةً بحبهم واجلالاً لهم ذلك حظ كل مضطهد

ظلماء، فأخذ خصومهم ازدراء بهم يسمونهم مارونيين أو موارنة نسبةً إلى هؤلاء الرهبان، وإلى القديس مارون أبيهم على نحو ما يسمي بعض السفهاء والمارقين في هذا العصر يسوعيين من ينقادون إلى ارشاد الآباء اليسوعيين الأفاضل. فهذا كان أصل هذه التسمية وبداءتها وهم لم يكونوا يأنفون منها، وتمكنت فيهم وجعلوها شعاراً لهم بعد أن انفصلوا عن اولي البدع، وأقيم لهم القديس يوحنا مارون من رهبان القديس مارون بطريقاً عليهم.

ولنا على قولنا هذا الأخير أدلة جلية قاطعة أولها أنّ كثيرين من الأخبار الرومانيين سمو القديس مارون الرئيس أبا الطائفة المارونية، منهم بناديكتس الرابع عشر في براءته في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م التي بها «منح غفراناً كاملاً لكل من يزور كنيسة من كنائس الطائفة المارونية في اليوم التاسع من شهر شباط الذي يحتفل فيه الموارنة كل عام بعيد القديس مارون أبي طائفتهم الخصوصي من مساء مدخل العيد إلى مغرب الشمس يوم العيد». وقال هذا الخبر العلامة في رسالته إلى البطريرك سمعان عواد في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥م: «لا شك في أنّ قاصدنا الأب ايسيدورس حقق لاختوتك كم لنا من الغيرة والحبة لك أيها الأخ المحترم وللإخوان المطارين الموقرين وسائر الأبناء الأعزاء بني ملتك الجليّة والطائفة المارونية كلها التي تفتخر باقرارها بأنها أخذت عن القديس مارون بالخصوص الايمان الكاثوليكي، وإنّ ثباتها فيه ونموّه فيها من نتائج تشفعه بهم». وقد سمى القديس مارون أبا الطائفة المارونية في رسالته أيضاً إلى نيوقولاوس لركاري في ١٨ ايلول سنة ١٧٥٣م. ونرى مثل ذلك في براءات غيره من الأخبار الرومانيين. ثم إنّ المحققين من العلماء أثبتوا أنّ الموارنة سمو بهذا الاسم نسبةً إلى القديس مارون. تقتصر منهم على ذكر لكويان في كتابه الموسوم بالمشرك المسيحي في الفهرست الملحق بالمجلد الثالث حيث قال: «إنّ الموارنة سمو بهذا الاسم في القرنين الرابع والخامس نسبةً إلى مارون الكلي القداسة، ومن البعيد عن الصواب أن يكون هذا الاسم مشعراً ببذعة بل إنه دال على المعتقد الكاثوليكي خلافاً لبذعتي نسطور واولي الطبيعة الواحدة في المسيح، إذ كان كل من يهمهم حفظ الايمان الكاثوليكي يتقاطرون إلى دير القديس مارون فيرشدتهم رهبانه إلى الايمان الصحيح والثبات فيه. وعليه فكانوا يسمون موارنة كأنهم تابعون أخصاء لايمان رهبان القديس مارون». ونذكر أيضاً شهادة الأب بريسيوس الكبوشي في مختصر تاريخ بارونيوس في الحاشية على تاريخ سنة

٤٠٧م حيث قال: «وقد سُمي باسم هذا القديس مارون لا أبنائوه الرهبان فقط بل جمهور وافر العدد أيضاً قد اتبعوا في تلك الاصقاع دين الحق وتشبهوا بقوانين المجامع الستة التي انتصر لها تلاميذه الرهبان». وتحرير هذا المبحث أنّ اسم موارنة أطلق على الرهبان الذين تتلمذوا للقديس مارون أو طرّقوا طريقته، كما سُمّي انطونيون من تتلمذوا للقديس انطونيوس أو عملوا بدستوره، إلى غيرهم من الرهبانيات التي تنسب إلى واضعي طريقها. ثم أطلق خصوم رهبان القديس مارون هذا الاسم على من رأى رأي هؤلاء الرهبان في الايمان الصحيح من عامة الناس فسموهم موارنة نسبةً إلى هؤلاء الرهبان وإلى أبيهم القديس مارون. وهم لم يأنفوا من هذا الاسم بل تمكن ورسخ فيهم عندما انفصلوا عن اولي البدع واختار أساقفتهم بطريركاً على ملّتهم يوحنا مارون الذي اتخذ اسم مارون لأنه كان من رهبان القديس مارون. فمرجع هذه التسمية لئذا إلى القديس مارون لا إلى مارون اراتيكي كما وهم افثيشيوس المعروف بسعيد بن بطريق بطريرك الملكيين الاسكندري عن حسد وضمينة. وانتحل كلامه غوليلمس أسقف صور اللاتيني، وتابعهما على وهمهما جمهور من العلماء مغترين بشهادتهما، وخالفهم كثيرون من العلماء المحققين المدققين، بل كثيرون من الأحرار الرومانيين الأعظمين. ونكتفي الآن لرد هذا الهم بقول سعيد بن بطريق نفسه فهو قال: «كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون قال إنّ لسيدنا يسوع المسيح طبيعتين ومشية واحدة وأفسد مقالة الناس ... فسمي التابعون لدينه مارونيين نسبةً إلى مارون. ولما مات مارون بنى أهل حماه ديراً سموه دير مارون... وقورش بطريرك الاسكندرية وسرجيوس وبيرس أسقف قسطنطينية ومكدونيوس ومكاريوس أسقف انطاكية وانوريوس بابا رومية وهرقل الملك كانوا مارونيين». فكل من له أقل المام بالتاريخ يهيجّه هذا الكلام للضحك ويزدريه. فمما لا يمتري فيه أحد المؤرخين أنّ القديس مارون الذي بنى أهل حماه الدير على اسمه كان في عهد توادوسيوس الكبير واركاديوس ابنه الذي رقي سدّة الملك سنة ٣٩٥م وتوفي سنة ٤٠٨م، وإنّ موريق استوى على أريكة الملك سنة ٥٨٢م وتوفي سنة ٦٠٢م، فبين موريق ومارون نحو من قرنين. ومما أجمع عليه المؤرخون أيضاً أنّ بدعة المشية الواحدة في المسيح نشأت في قسطنطينية سنة ٦٢٨م فكيف ابتدعها مارون وقد مضى إلى ربه قبل ظهورها بنيف وقرنين، وإن قال أنه عني يوحنا مارون فيكذبه قوله أنّ أهل حماه بنوا ديراً على

اسمه، ولا جرم أنّ الذي بُني الدير على اسمه هو القديس مارون لا القديس يوحنا مارون، فضلاً عن أنّ يوحنا مارون لم يكن وُلد عند ظهور بدعة المشيئة الواحدة سنة ٦٢٨م أو كان حدثاً ليس في مقدوره أن يبدع بدعة، فقد أجمعوا على أنه رقي إلى أسقفية البترون نحو سنة ٦٧٥م، وإلى بطركية انطاكية سنة ٦٨٥م وتوفي سنة ٧٠٧م. فإن كان قد بلغ الثمانين من عمره فيكون مولده سنة ٦٢٧ أو سنة ٦٢٨م سنة ظهور هذه البدعة. ولا خلاف في أنّ قورش وسرجيوس وبيرس ومكدونيوس ومكاريوس هم مبدعو هذه البدعة وأنصارها، ولم ينسبها إلى مارون إلا ابن البطريق. ومن لا يسخر من قوله أنّ انوريوس بابا روما وهرقل الملك كانا مارونيين وهو لم يسند قوله إلى أحد، ولا ترى خطة تشير إليه في كل ما كتب مدة ثلاثة قرون (أي مذ نشأة هذه البدعة إلى أيامه)، ولا في المجامع التي عُقدت لتحريمها، ولا في كتب العلماء الذين ناصبوها أو دافعوا عنها، ولا في آثار المؤرخين الذين تقدموه، فرعّمه إذاً مردود بنفسه ويقضي كل عالم أنه هذيان. وأما قول غوليلمس الصوري فيفنده قوله نفسه في مقدمة تاريخه: «وقد اعتمدنا خاصة على شهادة الرجل المحترم سعيد بن بطريق البطريك الاسكندري» فقوله مبني إذاً على باطل، وكل مبني على باطل فهو باطل وكذا قل في كل من تابعهما على قولهما.

وسنعود إلى رد هذه التهمة في ما بعد بأكثر اسهاب. فنكتفي الآن ببرهان آخر هو أننا إذا سلمنا بقول ابن البطريق وغوليلمس ومن تابعهما وردت علينا معضلة أكثر اشكالاً من هذا التسليم، فالأخبار الرومانيون اثبتوا أنّ مارون قديس، وقد أفرد بناديكتس الرابع عشر رسالته إلى نيقولاوس ليركاري المار ذكرها لاثبات قداسته، ومنح البابا اكليمنضس الثاني عشر غفراناً كاملاً لمن يزور كنيسة من كنائس رهبان الموارنة يوم عيده في ٩ شباط. ثم عمم بناديكتس الرابع عشر هذا الغفران إلى زيارة جميع كنائس الموارنة. وقد ترك الأخبار الرومانيون كلهم الموارنة يسمون بهذا الاسم بل هم سموهم به كلما أتوا بذكرهم، فهل سموهم باسم مبتدع؟ ونراهم لم يتركوا السريان الكاثوليكين يسمون يعاقبة ولا الكلدان ليسموا نساطرة ولا الأرمن ليسموا براصمة فإذاً تسليماً بقول ابن بطريق يضطرنا إلى أحد أمرين: إما أن نقول أنّ الأخبار الرومانيين ضلّوا أو غلطوا، وإما أنّ ابن البطريق ضلّ أو غلط، وأي عالم منصف يؤثر أن يصم بالضلال الأخبار الاعظمين على أن يصم به ابن البطريق الذي شحن تاريخه بالأقاصيص والخرافات، وتعقبه بها كثير من العلماء الاعلام،

وسوف نبيّن بعضها وليت كتاب هذا العصر عصر الانتقاد ولا سيما الاورباويين منهم يتدبرون هذين البرهانين اللذين اقتصرنا الآن عليهما كيلا يتهافتوا إلى رشق الموارد بأسهم الاتهام مغترين بما كتبه سعيد بن بطريق أو غوليلمس أسقف صور أو غيرهما من المتابعين لهما، كبرجياه في معجمه اللاهوتي وكايتانس موروني في معجمه التاريخي، ويوليا في معجمه للتاريخي الجغرافي وغيرهم، ولو أكثروا من المطالعة كما يلزم كتاب التاريخ خاصة لوجدوا كثيرين من المحققين الاورباويين أنفسهم، منهم: يوحنا منسي، ويوحنا بلما، ورنكاليا، وباجيوس، أثبتوا ما يخالف زعمهم ولوقوا أنفسهم من الخطأ والموارنة من الاتهام.

عد ٤

مناضلة الرهبان الموارنة عن الايمان الكاثوليكي وما عانوه من الاضطهاد لذلك لا نرى أجدر بهذا المقام من ايراد الرسالة التي رفعها هؤلاء الرهبان إلى الحبر الروماني البابا هرمزدا الذي تبنوا السّنة الرسولية من سنة ٥١٤ إلى سنة ٥٢٣م، وأنفذوها إليه مع يوحنا وسرجيوس من اخوتهم، وقد أثبتنا لابي (في مجموعة المجامع مجلد ٤) ونقلها عنه روهربخر في تاريخه (ك ٤٣) ورواها البطريرك اسطفانس الدويهي الأهدني في تاريخ الموارنة (صفحة ٤١) وهذه هي الرسالة مترجمة عن ترجمتها الافرنسية.

«إلى بطريرك المسكونة كلها الحبر هرمزدا الكلي القداسة والطوبى الجالس على كرسي بطرس زعيم الرسل تضرّع وخشوع يرفعهما إليه أحقر رؤساء الأديار في سورية الثانية وغيرهم من رهبانها. أما بعد، فلما كانت نعمة الله مخلص جميعنا تدعونا أن نلجأ إلى طوباويتكم كما يلجأ إلى مرفأ لدن مهاب العواصف، فأتيناكم موقنين أننا ننجو مما يحف بنا من المخاطر، فإننا وإن قاسينا الاضطهاد فنتحملة مسرورين، ولما كان المسيح إلهنا قد أقامك رئيساً للرعاة ومعلماً للنفوس وطيباً لها، أنت وملكك الصالح كان لازماً أن نرفع إليك شرح ما حلّ بنا من الاضطهاد ونعلمك بالذئاب التي تفترس رعية المسيح لتقصيهم عن الحظيرة بعصا سلطانك، وتبرئ النفوس بكلمة تعليمك، وتضمّد جراحها بيلسم صلواتك، فهؤلاء المضطهدون المفوقون أسهمهم علينا إنما هم ساويرس وبطرس اللذان لا يعدان

في عداد المسيحيين لأنهما يحرمان كل يوم علانية المجمع الخلكيدوني المقدس، وأبانا لاون الحبر الأقدس غير مبالين بدينونة الله المرهبة، بل قد وطئا قوانين الآباء ورقيا إلى الاسقفية بسطوة الملك، وأذاقانا أعذبة مبرحة ليكرهانا على الاحتقار للمجمع المقدس المنوّه به. فبعض الناس ماتوا بتعذيبهم لهم، وقد قتلوا جمّاً غفيراً منا لأننا بينما كنا ذاهبين إلى دير القديس سمعان (العمودي) قد أكمّن لنا في طريقنا بعض الخبثاء الأشرار ووثبوا علينا وقتلوا منا ثلاث مئة وخمسين راهباً، وأثخنوا الجراح في كثيرين وأبسلوا في جانب المذبح من لجأوا إليه، وأحرقوا أديارنا وأرسلوا ليلاً جماعة من الأشرار ورشوهم بدراهم فنهبوا ما بقي ولم يبق إلا شيء يسير. ويتيسر لطلوبنا ويتكم أن تقف على تفصيل هذه الأمور بمطالعة المذكرة التي يرفعها اليكم أخوانا المحترمان يوحنا وسرجيوس اللذان كنا قد أرسلناهما إلى قسطنطينية آملين انصافنا ومنع هذا الجور عنا فلم يتنازل الملك إلى سماع شكواهما بل أمر بطردهما فعلمنا ما كان يلزمنا أن نعلمه من ذي قبل أنه هو علّة كل هذه الشؤون والأمر بها فنبتهل إليك أيها الأب الأقدس أن تأخذك الشفقة على كلوم الجسد فإنك أبو الجميع، وأن تتأثر للايمان والقوانين والآباء والمجمع، فقد أولاك الله سلطان الربط والحل فهلّم أيها الأب الأقدس لخلاصنا، واقتديّ بربنا الذي نزل من السماء إلى الأرض ناشداً الحروف الضال وتأمل ببطرس زعيم الرسل الذي تشرف كرسيه وبولس الاناء المختار فقد طافا المسكونة لينيراها، والكلوم الكبيرة تحتاج إلى أدوية عظيمة. إنّ المستأجرين إذا رأوا الذئب مقبلة تركوا الخراف لكنك أنت الراعي الحقيقي الذي سلّمت إليه الخراف، فإذا نجت الخراف من الوحوش الضارية مشت قدامك وعرفت راعيها وأتبعته صوته، كما قال ربنا إنّ خرافي تعرف صوتي وأنا أعرفها وهي تتبعني. فلا تهملنا إذا أيها الأب الأقدس نحن الذين تسطو علينا الوحوش الضارية في كل يوم، وبارشاد ملكك القدوس نحرم باستغاثتنا هذه منزلتيها منزلة دستور الايمان لك من ينبذهم كرسيك الرسولي، ونحرمهم أي نستطو واطيخا وديوسقورس وبطرس الالغ وبطرس القصار واكاشيوس وكل من يدافع عن أحد من هؤلاء الهرطقة». وقد ذكر البطريرك اسطفانس الدويهي في ذيل هذه الرسالة تواقع من وقّعوا عليها بخط أيديهم كمايلي:

١ أنا اسكندر برحمة الله قسيس ورئيس دير القديس مارون أتضّرّع

٢ شمعون برحمة الله قسيس ورئيس

- ٣ يوحنا برحمة الله قسيس ووكيل
- ٤ بروكوب برحمة الله قسيس ورئيس
- ٥ بطرس برحمة الله قسيس
- ٦ اوجان برحمة الله قسيس
- ٧ جيلاد برحمة الله قسيس
- ٨ بسوس برحمة الله قسيس
- ٩ رامولس برحمة الله قسيس
- ١٠ اورشال برحمة الله قسيس
- ١١ ملخس برحمة الله قسيس

وبعد هؤلاء توابع كثيرين وجملتهم مئتان وعشرة، منهم مئة واثنان وخمسون قسيساً وثلاثة وثلاثون شماساً وخمسة وعشرون رئيساً وهؤلاء الرؤساء ستة قسوس وثمانية شمامسة والباقيون دونهم درجة.

فلما وقع البابا على رسالتهم هذه أجابهم في ١٠ شباط سنة ٥١٨م برسالة ذكر روهريخر ملخصها في تاريخه (ك ٤٣)، وذكره أيضاً البطريرك اسطفانس الدويهي (في تاريخ الموارد صفحة ٤٤) عن لاباي (في مجموعة المجامع مجلد ٥)، وكلامه في هذه الرسالة المنفذة إليهم شامل جميع الكاثوليكين في المشرق، فيشجعهم على الثبات في الايمان القويم قائلاً إنّ هلاك الأبدان في سبيل الايمان لا يُعدّ خسراناً بل ربحاً وافراً بالنظر إلى الثواب الأبدي، وإلى أنّ المسيح يزيدهم في هذه الحياة أيضاً أبداً بنعمته. ويذكرهم بمثل المكايين قائلاً إنّ كانوا قاسوا ما قاسوه حباً بظل الحقيقة فكم يكون أولى بنا أن نتحمل الاضطهاد حباً بالحقيقة نفسها، وإنه يلزمهم أن يتجنبوا مخالطة ذوي الضلال ويرعوا أوامر الجمع الخلكيدوني ورسائل القديس لاون البابا، وأن ينبذوا لا مبدعي البدع فقط بل متابعيهم عليها أيضاً. وأشار إلى الملك انسطاس فقال إنّ سلطة الناس شيء وخدمة الأخبار شيء آخر، فلو اقتصر عوزيا على تدبير المملكة لما أصابه البرص الذي اعتراه لأنه أراد أن يجمع بين الملك والكهنة خلافاً لارادة خادمي الهيكل فخر الملك والكهنة معاً. ولم تغفل نحن عن شيء مما هو لازم في هذه الحن، فأرسلنا وفدين واستخدمنا التضمرات الدليلة وإيراد البراهين المعقولة والتصريح بالأوامر الخلاصية،

ولا يوقفنا الاصرار عن السلوك في جادة العدل فمن لا يرعون عن طريق الاثم سوف يهلكون دون أن يمسونا بضرر.

وبعد أن قضى الله على انسطاس الملك سنة ٥١٨م وخلفه الملك يوستينس، وأمر بأن يرجع الاساقفة المنفيون إلى كراسيهم، واستمر بطرس أسقف أباميا على غيّه واضطهاده الكاثوليكين، أخذ رؤسائهم في انطاكية ورهبان القديس مارون يرفعون الرسائل إليه وإلى يوحنا بطريرك قسطنطينية متشكين من بطرس المذكور واتباع ساويرس. فعقد البطريرك القسطنطيني مجمعاً في هذه المدينة شهده ثلاثة وأربعون أسقفاً، فحرموا ساويرس وبطرس المذكورين وأرسلوا رسالة مجمعية إلى بطريركيتي انطاكية وأورشليم، فعقد في أورشليم وصور المجمعين اللذين ذكرناهما في كلامنا على المجمع، وأرسل اكليرس انطاكية وصور إلى يوحنا البطريرك القسطنطيني ومجمعه رسالة مسهبة ذكرها البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارد (صفحة ٤٥) وقد اشتملت على عبارات كثيرة من العبارات الواردة في رسالة رهبان القديس مارون السالف ذكرها إلى البابا هرمزدا. وفي جملة تواقيعها تواقيع كثيرين من رهبان القديس مارون، وذكر الدويهي منهم يوحنا راهب دير القديس مارون. يعقوب راهب دير الرجل الصالح. قسطنطين راهب وقاصد دير استيرس ذي الذكر الصالح. نونيس شماس دير القديس بولس. سليمان راهب دير القديس اغاييطس. سرجيوس راهب دير القديس سمعان. حلفى راهب دير القديس يعقوب. سعيد راهب دير القديس يوحنا. سمعان راهب دير القديس بولس. بولس راهب دير القديس ليسيكس. عبد الأحد راهب دير القديس دوروثاوس. فلما علم الملك يوستينس بهذه الرسالة ألقى بطرس أسقف أباميا وأخسنيا أسقف منبج في السجن، وسمع ساويرس بذلك فوّلّى هارباً كما مرّ في كلامنا عليه.

وتوجد رسائل معلقة في ذيل المجمع الخامس من رهبان القديس مارون وهي ناطقة بما كان لهم من الحمية والغيرة على الايمان الكاثوليكي والمجمع الخلكيدوني، وما كان لهم من الاجلال للبابا لاون القديس الذي أمر بعقد هذا المجمع. ويتبين منها أيضاً أنه لما قدم البابا اغاييطس إلى قسطنطينية أنفذوا إليه وفدًا من أخوتهم ليرفعوا إليه فروض الطاعة والشكر لعزله انتميس بطريرك قسطنطينية عن كرسيه لزيغانه عن الايمان الصحيح. ولما عقد ممّا خليفة انتميس المذكور مجمعاً سنة ٥٣٦م كتب إليه رهبان القديس مارون رسالة وأنفذوها مع يوحنا القسّ سفيرهم ويرى توقيعه هكذا: «يوحنا برحمة الله القسيس الراهب سفير دير القديس مارون المترس

على جميع الأديار والرهبان في سورية الثانية، والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار والرهبان الذين في سورية هذا كتبت» ورفعوا رسالة أخرى إلى الملك يوستينيانس وأوفدوا إليه بها بولس الشماس وتوقيعه: «بولس الشماس برحمة الله سفير دير القديس مارون المقدم على جميع الأديار الموقرة في سورية الثانية والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار التي في سورية المذكورة تضرعت وقدمت» (عن تاريخ البطريك اسطفانس الدويهي صفحة ٤٩).

إن دير القديس مارون على العاصي الذي أشار رهبانه في رسالتهم المثبتة آنفاً إلى حرقه في أيام الملك انسطاس ودك أسواره، قد جدده الملك يوستينيانس الكبير كما أنبأنا بروكوب الكبادوكي (في مؤلفه في ابنية يوستينيانس ك ٥ فصل ٩). وكان بروكوب في دولة يوستينيانس وكاتباً لباليصار وقائد جيشه، ثم والياً في العاصمة كما رأيت آنفاً، فهو شاهد عيان. فعاد هذا الدير مزهراً برهبانه ومناضلتهم عن الايمان والجمع الخلكيدوني إلى سنة ٦٩٤م التي فيها دخلت جنود يوستينيانس الثاني الملقب بالأخرم إلى سورية فدكوه دكاً وجعلوه قاعاً صفصفاً انتقاماً من رهبانه الذين لم ينقادوا إليه في الاعتقاد بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح (طالع الدر المنظوم للمثلث الرحمة البطريك بولس مسعد صفحة ١٣١).

ويظهر ان هذا الدير جدده رهبان دير القديس مارون بعد انتفاضه فقد أفادنا الأب نو العالم الافرنسي بأنه طالع كتاباً سريانياً مخطوطاً في المتحف البريطاني في عدد ١٧١٦٧ فوجد معلقاً عليه ان هذا الكتاب كتبه رجل اسمه سركيس سنة ٥٨١ واشتره راهب من دير القديس مارون ووضعه في مكتبة هذا الدير سنة ٧٤٥ إذ كتب عليه حاشيتان الأولى ترجمتها: «فليكن ذكر صالح أمام الله الأب القدير على كل شيء وأمام سيدنا يسوع المسيح وأمام الروح القدس المحيي للكاهن مار متى من قرية قولاب في بلاد الصوفانيين الساكن بدير الطوباوي مار مارون ولتلاميذه الذين شروا هذا كتاب يوحنا الراهب مع عدة كتب غيره للانتفاع بها وقد دخل إذاً هذا الكتاب إلى مكتبة دير مار مارون سنة ١٠٥٦ (لاسكندر الموافقة لسنة ٧٤٥) في زمان الرئيس مار جرجس من خربة مارويا وكان حافظ المكتبة اتناسيوس من (الكلمة غير مقروءة في الأصل) ومار سركيس من ديلام ومار قزما من معرة منشرين (لعلها قنسرين) ومار زكريا من «متا» فدير القديس مارون كان قائماً إذاً سنة ٧٤٥.

ولكن يظهر أنّ هذا الدير خرب في القرن التالي أي في القرن التاسع واستدل الأب نو على ذلك بالحاوية الثانية المعلقة على هذا الكتاب أيضاً في القرن التاسع أو العاشر إذ قيل فيها: «إنّ هذا الكتاب وهبه اخوان متى وابراهيم راهبان من تكريت لكنيسة السيدة والدة الله كنيسة السريان في برية لاسقيط واستدل الأب نو من انتقال هذا الكتاب من دير مار مارون مع انه معلق عليه أنّ من أخذه يكون محروماً أنّ الدير خرب واتصل الكتاب المذكور ليد الراهبين اللذين وهباه لكنيسة الاسقيط. انتهى وقد أخذ هذا الكتاب من كنيسة الاسقيط رجل رومي اسمه باخوس وباعه سنة ١٨٤٥ للمتحف البريطاني حيث عثر عليه الأب نو.

عد ٥

رسالة رهبان القديس مارون إلى رؤساء إيعاقبة وجواب هؤلاء لهم

عثر الأب نو العالم المذكور في المتحف البريطاني في الكتاب المخطوط السرياني في عدد ١٢١٥٥ صفحة ١٦٣ على رسالة سريانية كتبها رهبان القديس مارون إلى رؤساء إيعاقبة بانطاكية وعلى جواب هؤلاء الرؤساء لهم ونشر ترجمة افرسية للرسالة وجوابها في جريدة الجمعية المعروفة بجمعية القديس لويس للموارنة في نشرتها السابعة والتسعين في شهر كانون الثاني والثامنة والتسعين في شهر نيسان من سنة ١٩٠٣ ثم طبع ذلك الأثر بالسريانية طبعاً فوتوغرافياً وأهدى إلينا عدة نسخ منه راغباً إلينا أن نترجمه إلى العربية وننشره وسنجيب إلي رغبتة إن شاء الله ونقتصر الآن على ما يأتي:

فمن رأي الأب نو أنّ هذا الأثر خط في القرن الثامن للميلاد وأنّ الرسالة والجواب عليها كتبها في أواخر القرن السادس وأوائل السابع وقد أنبأنا العلامة السمعاني (مجلّد ثانٍ من المكتبة الشرقية صفحة ٧٢) نقلاً عن ديوانسيوس التلموس أنّ العالمين بربوس ويوحنا بعد أن عضدا بسورية ومصر بطرس القالينيقي بطريرك إيعاقبة قلبا له ظهر الحن واعتقدا ما علمه الجمع الخلكيدوني وأحدثا قلقاً بين إيعاقبة في بلاد انطاكية. ولما توفي البطريرك المذكور سنة ٥٩١ طلبا من البطريرك انسطاس خليفته (كان من سنة ٥٩٥ إلى سنة ٥٩٩) أن يستدعي جميع

الرهبان إلى انطاكية ليبحثوا في الايمان وليثبتوا أنّ إنكار بطرس المذكور الطبعيتين في المسيح إنما هو أمر محدث في الكنيسة، فدعا الرهبان إلى انطاكية بنوع من الإكراه أيضاً وأمسكهم فيها ستة أشهر ويظهر أنه بهذا المعرض كانت كتابة رهبان القديس مارون لليعاقبة وجواب هؤلاء عليها.

ويظهر من الرسالة وجوابها أنّ رهبان القديس مارون كانوا رؤساء الحزب الكاثوليكي وأنّ هذا الحزب الذي قهره اليعاقبة في أوائل القرن السادس قد تغلب على اليعاقبة بعد ذلك وكان للرهبان المذكورين سيطرة على المسيحيين إذ ترى في جواب اليعاقبة أنهم يقولون لأهل هذا الحزب الكاثوليكي «إنكم تحملون العصي فتضربون وتضطهدون وتطهرون وتهينون الكهنة المؤمنين بالمسيح الذين لا يرضون أن يتابعوكم على عتوكم فتشبهون اللصوص وقطّاع الطرق العائثين في الجبال والبراري. ونرى ابن العري يصرّح بحصول شيء من ذلك في تاريخ سنة ٦٣٠ إذ قال في تاريخه السرياني: «إنّ رهبان مارون في منبج وحمص أبدوا قسوة شديدة فأخربوا كثيراً من الكنائس والأديار التي لليعاقبة. ولما كان جماعتنا يتشكون إلى هرقل الملك لم يكن يجيبهم على أنّ إله النعمة أرسل العرب لكي يخلصنا من الروم ومع ذلك لم ترد علينا كنائسنا بل بقي لكل فريق ما كان بيده ولا أقل من أننا نجونا من ظلم الروم وبغضهم لنا».

وفي سنة ٦٥٩ جادل الموارنة بعض رؤساء اليعاقبة بحضرة الخليفة معاوية وأفحموهم ففرض عليهم الخليفة تأدية عشرين ألف دينار كل سنة ليحميهم من خصومهم وكل ما مرّ يثبت إثباتاً قاطعاً أنّ الموارنة كانوا مخالفين لليعاقبة قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة سنة ٦٢٨ وحين ظهورها وبعده. ومما يعرفه الجميع أنّ منشئي هذه البدعة إنما هم رؤساء اليعاقبة وهي نتيجة لازمة من بدعتهم الطبيعة الواحدة ينتج من ذلك نتجاً يبيّن أنّ الموارنة براء لا من بدعة اليعاقبة فقط بل من بدعة المشيئة الواحدة أيضاً. ذكرنا ذلك استطراداً ولنعد إلى الغرض.

فهذه ترجمة رسالة رهبان القديس مارون عن أصلها السرياني:

«مباحث رهبان بيت مارون التي هي حكم على حزب بطرس (بطريك اليعاقبة) المنشقين وهم فرقة من فرق اوطاخي وساويروس وقد قبحوا أسماءهم

وجعلوا مساكنهم أشبه بمغاور السرقة واللصوص من رهبان بيت مارون المستقيمي
الايان أبناء البيعة المقدسة الكاثوليكية.

قال الكتاب الإلهي يكونون خزيًا لأبائهم ولا يتعلمون الأدب فقد صدق
عليكم وتحقق فيكم هذا الكلام لأن لكم وجوهاً من نحاس فلا تخجلون وإلا
فكنتم تقولون للعجال اسقطي علينا وللآكام غطينا فإننا من خمسة أيام نتوقع
الجواب منكم على المسائل الخمس التي سقطتم بها وما استطعتم أن تجابوا ومع
ذلك اهتممنا بكم وأنفذنا إليكم رسالة مشهورة على يد مار قسطنطين الجليل حفظه
الله وعلى هذه الرسالة أيضاً لم تجيبوا والتقرير الذي طلبناه منكم بمدينة الله
(انطاكية) نطلبه الآن منكم برسالتنا هذه ونستشهد عليكم الله والناس فأجيبونا إن
استطعتم أو يئنون لنا عذراً مقبولاً إن كان لكم في المسائل الخمس التي حجبناكم
بها أمام أهل المدينة كلهم وأمام غرباء عنهم شهدوا ما كان بيننا وبينكم فأجيبوا
بخوف الله وبالاتماد على علماء مشهود لهم بالفضل والقداسة ولا خلاف بيننا
وبينكم وبين أحد المسيحيين على صدق أقوالهم والأولى من المسائل الخمس هي
أيصح القول إن المسيح مضاعف (أي إله وإنسان) والثانية أيقال إن في المسيح
طبيعة مركبة والثالثة هل الطبيعة والأقنوم والقوام هي شيء واحد في المسيح والرابعة
هل حرم ديوسقورس معلمكم اوطاخي بعد أن قبله في شركته والخامسة هل
تحرمون كل من يقول إن في المسيح طبيعتين قبل الاتحاد وحين الاتحاد وبعده. هذه
هي المسائل الخمس.

أما المحامون الذين أتيتم بهم فإن أخذوا على أنفسهم أن يدافعوا عن الأضاليل
التي تسكعتم بها فليجيبوا أولاً على المسائل الخمس المذكورة آنفاً وإن كان لهم بعد
ذلك ما يقولون أو يحتجون به فليجاهروا به دون خوف وإن لم يصوبوا أن يدافعوا
عن هذه الخزعبلات فليحرموا القضايا الأربع المار ذكرها ويوقعوا على حرهم بها
ويبينوا أن ديوسقورس حرم اوطاخي. وبعد ذلك نذهب نحن إليكم فنتباحث معاً
دون مواربة ولا التباس ليتبين هل يلزم أن يقال إن في المسيح طبيعتين أو طبيعة
واحدة ومن دون أحد الأوجه المذكورة لا نقبل نحن البتة أن نخاطبكم أو نسمع
كلامكم ونستحلفكم بالثالوث الأقدس المتساوي جوهرًا وبإسكيمكم الموقر إن كنتم
توقرونه أن تطلعوا على رسالتنا هذه جميع الأساقفة القرييين منكم في جهة المشرق
وتجيبونا عليها كما تقدم.

وهذه ترجمة رسالة اليعاقبة عن أصلها السرياني :

«جواب وحل موجز للمسائل الخمس التي أرسلها رهبان بيت مارون من قرية ارماز بعد ذهابهم من انطاكية إلى الرهبان الأرثوذكسيين المقيمين بالأديار المقدسة في ما بين النهرين.

إلى غض الجفنة الخلكيدونية وفرع جرثومة لاون وأصل الحمض الذي نبغ في كرم توادوريطوس وبالإجمال إلى أبناء الشقاق الكبير الذي كان في الكنيسة وبذد أعضاء المسيح وقسم جسده إلى أقسام شتى إذ لم يأل أصحابه جداً في أن يبطلوا إيمان الحق الذي علمه الرسل القديسون بما أمكنهم من الجسارة إلى فيلبوس وتوما واهبي بيت مارون المستسيرين سيرة الله يعلمها والناس لا يجهلون بها بسوق الكلام توادورس أحقر أبناء الكنيسة التي أنشأتها يد الله وجعلت أسوارها الصخور المنتخبة أعني بطرس السليح وخلفاءه والرسل والأنبياء والملأفة قاصداً أن يبين بطلان زعمهما (أي زعم فيلبوس وتوما) في ما يخالفان به الحق وأنصاره.

لما بلغتنا رسالتكم المشتملة على الإهانات لنا وتصفّحنا كلامكم المتضمن الافتراء علينا لم نغتم لذلك بل يمكننا أن نقول إنه أوعب قلبنا سروراً لأنه أفصح لنا عن ضعف أفكاركم ووهن آرائكم وأبان لنا أنكم ليس لكم حجة كافية للدفاع عن بدعتكم السيئة إلا ما أحدثتموه قاصدين به الفرار من الحق والتستر من العار بحسب ما قال اللاهوتي (القديس غريغوريوس الزينزي) عندما تكلم في بعض السفستيين في خطبته على وصوله الأساقفة حيث قال: «يعدون أبحاثاً غامضة ليتستروا بها عن أن يفحموا ويتعسر لذلك إقناعهم». فأنتم أشبه بهؤلاء إذ لم تقدروا أن تجيئوا ببنت شفة على ما سألكم إياه تلاميذ الحق في انطاكية خطأ وشفهاً بل تريدون تستير عاركم بالكلام المهين وتحاولون الفرار من الحق المبين ولم تكتفوا بهذا بل تقولون إنَّ الرب «الذي غرس الأذن لا يسمع أم الذي جبل العين لا يبصر أم الذي يؤدب الأمم لا ييكت (مزمو ٩٣ عد ٩٠) فتطوفون كل محل مسرورين بالباطل وتعلقون آمالكم على الخداع وتستترون بالكذب فتضلون السدج وتذيعون الأحلام الافكية كما قال عنكم وعن أمثالكم النبي أنكم تتكلمون وتكتبون بالكذب... ثم يأخذ كاتب الرسالة يحاول الرد على المسائل الخمس التي ذكرها رهبان القديس مارون فيقول في الرد على المسألة الأولى وهي أبصح القول

إنَّ المسيح مضاعف «لأنني لمتعجب من جهلكم كيف تجهلون هذا وأنتم علماء افرام (يريد افرام البطريرك الانطاكي الذي كان عدوًّا ألدًّا لأصحاب الطبيعة الواحدة) فأشبهتم بهذا إنساناً يسأل نوراً في الثالثة أو السادسة أو التاسعة من النهار ونور الشمس ساطع ومع ذلك إذا ابغيتم بياناً لما هو بين وواضح فهذا القديس كيرلس لا خلاف على شهادته وهو يقول في رسالته التي كتبها إلى نسطور عدو الله حيث قال إنَّ كلمات الإنجيل الذي كتب لخلاصنا لا تؤذن لنا بأن نقسم المسيح إلى أقنومين أو قوامين فليس هو مضاعفاً من هو واحد أحد وإن تركب من شيئين فقد اجتمعاً بالوحدانية».

فاليعاقبة يتخذون آيات الكتاب وأقوال الآباء الدالة على أنَّ للمسيح أقنوماً واحداً ليدعموا ضلالهم بأنَّ فيه طبيعة واحدة.

ثم يأخذ الكاتب بالرد على المسألة الثانية وهي هل في المسيح طبيعة مركبة؟ فيقول: وأما مسألتكم الثانية فيظهر أنه ربما كان لكم نفع منها مع من يتابعكم على ضلالكم وأما من كان اعتمادهم على الصخرة الصلدة التي هي المسيح فيسخرون من هذه الخزعبلات ويظهر أنكم لا تفهمون ما تكتبون ولا تطالعون الكتب. فإذا كان مقصدكم أن تقولوا طبيعة متجسدة كما عبّر عنها الملائكة وأوجبوا أنَّ في المسيح طبيعة متجسدة فذلك صحيح، وأما إن كان مقصدكم بذلك أن تقولوا طبيعة مركبة أي مؤلفة من شيئين فيخالفكم بذلك القديس كيرلس إذ قال في خطبته الثالثة ما نصه: «إذا كانت بعض الأشياء التي لا تشابه بينها طبعاً تعاون على الوحدة في التركيب فلا ينبغي فصلها وجعلها اثنين ولو بقي شيء في كل منهما في المركب لأنَّ اجتماعهما لقيام الوحدة لا يمكنه أن يطل طبعها ولو ساغ لنا أن نسمي كل واحد من الأشياء المتحدة باسم لأنَّ المجموع من شيئين». إنَّ كلام القديس كيرلس هنا أيضاً هو في وحدانية أقنوم المسيح لا في طبيعته كما هو واضح خاصة من قوله إنَّ اجتماع الشيئين لقيام الوحدة لا يمكنه أن يطل طبعها فإذاً اجتماع الطبيعتين في المسيح لا يمكنه أن يطل طبع كل منهما.

وأما في المسألة الثالثة وهي هل الطبيعة والأقنوم والقوام في المسيح هي شيء واحد فقال: أنا أسألكم: «أقولون إنَّ الطبيعة والأقنوم والقوام هي شيء واحد في المسيح أم تقولون إنها مدلولات مختلفة؟ فإن قلتم إنها شيء واحد أثبتم أنَّ

أبحاثكم باطله ولا محل لها في هذا الموضوع وإن قلتم إنها ليست شيئاً واحداً نتج من قولكم إنكم تعترفون بثلاثة أشياء في المسيح هي: الطبيعة والأقنوم. والقوام، بل إن فيه أشياء أخرى كثيرة لكونه ابناً وسيداً وكلمة الله إلى غير ذلك من الأسماء الواردة في الأسفار الملهمة. وعلى ذلك يلزمكم أن تقولوا بطبيعتين وأقنومين بحسب تجديفكم وتجديف علمائكم إلى الآن ولا أن تعتقدوا الرابع عوضاً عن الثالث بل يجركم ذلك إلى ما هو أعظم... فاعلموا أننا لا نعتقد أن عمانوئيل ذو قوامين كما لا نعتقد أنه ذو طبيعتين أو أقنومين متبعين في ذلك القديس كيرلس الجليل الذي كتب في رسالته إلى نسطور: «لا يلزم أن نجزي سيدنا يسوع المسيح الوحيد إلى ابنين».

إن منع ضلال اليعاقبة هو عدم تفرقتهم بين الطبيعة والأقنوم فيعتقدون طبيعة واحدة لأن فيه أقنوماً واحداً والتعليم الكاثوليكي أن الطبيعة غير الأقنوم فنعتقد أن في الله ثلاثة أقانيم وطبيعة واحدة ونعتقد أن في الخلص أقنوماً واحداً وطبيعتين إلهية وبشرية.

وفي المسألة الرابعة قال كاتب رسالة اليعاقبة: أما مسألتكم الرابعة وهي هل حرم ديوسقورس معلمكم اوطيخا بعد أن قبله في شركته فهي باردة تفهه لا ذوق فيها ولا يليق إيرادها بأولاد يلعبون في الشوارع فاسألوا قبلنا آباءكم الذين هم عمدة مذهبكم فيجيئونكم أن انطوليوس بطريرك القسطنطينية صاح بأعلى صوته أمام كل آباء الجمع: إننا لا نخط ديوسقوروس بسبب الايمان بل لأنه يخالف رسالة البابا لاون ولأنه دعي ثلاث مرات فلم يحضر. فديوسقوروس لم يأتهم ضد الايمان ونحن وديوسقوروس وتيموتاوس نحرم اوطاخي ونسطور والجمع الخلكيدوني لأنهم مخالفون للدين على حد سواء وهم عندنا بمنزلة غير مؤمنين وعندنا إلى الآن رسالة لاوونكم الذي يسمى اوطاخي ابنه الروحي وابن مذهب وشريكه في الايمان ويحرضه على أن يصلح ما يميل إلى تعليم نسطور». وأورد الكاتب بعض أقوال ديوسقوروس التي يظهر منها أنه حرم اوطاخي وكلاهما يعتقدان الطبيعة الواحدة وهذا ما قصد رهبان القديس مارون أن يبينوه.

وأما في المسألة الخامسة وهي: هل تحرمون كل من يقول إن في المسيح طبيعتين قبل الاتحاد وحين الاتحاد وبعده؟ فيقول إن جميع الذين يحبون الحق

يعلمون أنكم تعتقدون هذه القضايا الثلاث أي إن في المسيح طبعين قبل الاتحاد وفي حينه وبعده وتلعنون كل من لم يعتقد بها. ويورد شهادات من القديس كيرلس ويوليوس الحبر الروماني وغريغوريوس نيصص وغيرهم تأييداً لزعمهم أن في المسيح طبيعة واحدة. لكن الكلام في كل منها على أن في المسيح أقنوماً واحداً وأنه مسيح واحد وابن واحد لله لكنهم لا يفرقون بين الطبيعة والأقنوم فيتوهمون أن تلك الشواهد تؤيد رأيهم وأساس ضلالهم هو عدم التفريق.

ويختتم الكاتب يعقوبي رسالته بقوله: «لما كنتم استحلفتمونا أن نطلع آبائنا على أفكاركم المنقوضة التي أرسلتموها من أرماز على يد اسحق وسمعان قد أتممنا ما سألتمونا رغبة في خلاصكم ولذلك عهدوا إليّ أنا الأخ توادورس من دير ماراباس بأن أجابكم فأتممت ذلك على ما بي من ضعف القوة فأستحلفكم أنا أيضاً بالثالوث الأقدس أن تقرأوا رسالتنا الحاوية التنفيذ لتجديفكم على جماعة بيت مارون كلها عليكم تستفيدون منها وأستحلفكم بإسكيمكم الموقر وأنا أعلم أنكم لا توقرونه ولا تظهرون أنفسكم أهلاً له إذ كنتم تحملون العصي فتضربون بها وتطردون وتضطهدون وتهينون الكهنة والمؤمنين بالمسيح الذين لا يتابعونكم على عشوكم فأنتم أشبه باللصوص وقطاع الطرق الذين يسكنون الجبال والبراري. فهذا ختام الجواب على مسائل بيت مارون المقيمين ببلاد اهاميا.

لا بد أن يكون رهبان القديس مارون أجابوا اليعاقبة على هذه الرسالة ولعله يأتي يوم يسعدنا الحظ فيه بالاطلاع على هذا الجواب.

مقالة ثانية

تاريخ الموارنة في القرن السابع

الفصل الأول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

عد ٦

سطوة المردة أي الموارنة في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة - في القرنين الخامس والسادس - القديس مارون وتلاميذه ، وتكاثر رهبانهم ، وأديارهم ، وتوافر الجمهور المنتمي إليهم والمسمى باسمهم . ونذكر في هذا العدد طورهم الدنيوي في هذا القرن ؛ وذلك درس نلقيه إلى أبناء ملتنا وجميع مواطنينا نحذّره به من التهوّر في مهواة المناوأة للسلطة السائدة. فيهم بوسوسة أصحاب الأغراض البعيدين عنهم . فمن المعلوم أن الخلفاء الراشدين صرفوا اهتمامهم عند أخذهم سورية وطردهم ملوك الروم منها إلى فتح مدنها ، ولم يكثرثوا لسكان جبالها لقلة أهميتها وعدم المنفعة منها، ولتعثر مسالكها وأن ملوك الروم ما انقطعت مطامعهم في استردادها، وظلوا يوسوسون لسكانها ليلبكو أمرها ولا تستقيم حالها، ليتيسر لهم العود إليها كما حاولوا مرات فلم يظفروا . فمن ذلك أنهم وسوسوا للموارنة وكانت مساكنهم حينئذ في الجبال من جبال الجليل إلى جبال انطاكية، فلبكوا حكومتهم وتوافرت غزواتهم في السهول حتى اضطرب بعض الخلفاء أن يعقد صلحاً مع ملوك الروم على شرائط سيأتي

ذكرها؛ ومنها أن يكتو الموارد الذين تلقبوا عندئذ مرده، ويصدّوهم عن غزواتهم. وكانت النتيجة حينئذ أن هؤلاء الملوك البيزنطيين أنفسهم الذين وسوسوا للموارنة وهيجوهم على مخالفة رضى حكومتهم انقلبوا على المردة وأذاقوهم الأثمين ومكروا بهم، فسبوا اثني عشر ألفاً من نخبة شبّانهم وأبعدوهم عن أوطانهم وجيشوا عليهم وأخربوا أكثر بلادهم، وحرّقوا أديارهم، وعمدوا إلى القبض على بطريركهم. واتصلوا إلى طرابلس على مقربة منه. ولو لم يتدارك الله أمرهم بالنصر على الجيش البيزنطي لأبادوهم عن آخرهم. فهذه هي الأمثلة التي نريد أن يتمثل بها أبناء ملتنا ومواطنونا ليخلصوا في الطاعة للحكومة السائدة عليهم. وإليك تفصيل هذه الأحداث.

قد روى كثيرون من علماء أمتنا أنه كان للموارنة في القرن السابع سطوة وصوله حتى ضبطوا كل ما كان من انطاكية إلى أطراف الجليل، على أننا نؤثر أن نروي أخبار هذه الأحداث عن كتب المؤرخين القدماء التي أخذ علماءنا عنها هذه الأخبار، لأنها أبعد مجالاً عن مظنة الغرض والغلو والتعصب لأمتهم. قال توفان المؤرخ الشهير (في تاريخ السنة التاسعة للملك قسطنطين اللحياني): «في هذه السنة خرج المردة من لبنان^(١) فضبطوا كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف اليوم بالجبل الأقرع فوق السويدية) إلى المدينة المقدسة (أورشليم) واستحوذوا على قمم لبنان، وانضمّ إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبح عددهم في مدة وجيزة ألفاً كثيرة، وسمع معاوية وأصحاب مشورته بذلك فخشوا جداً من عاقبته حتى فكروا بأن الله محام عن مملكة الرومانيين، وأرسلوا وفداً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح ويعدون بوفاء جزية كل سنة. فتقبّل الملك وفدهم بالإعزاز والتكريم وأجابهم إلى سؤالهم، وأوفد معهم إلى سورية البطريق يوحنا المسمّى بتسيكود وكان من رجال الندوة في حكومته، ومتّصفاً بالخبرة والحكمة وبحسن التعاطي والمداولة مع العرب ليتفق معهم على شرائط الصلح. ولما بلغ سورية قابله معاوية بالترحاب وعقد ديوان مشورته. وبعد المداولة بشروط الصلح قرّر رأيهم على كتابة عهده موثقة باليمين على أن يدفع العرب كل سنة إلى الرومانيين ثلاثة آلاف

(١) قال العالم يعقوب كوار محشى تاريخ توفان في حاشية علقها على هذا المحل ان ابراهيم الحاقلي الماروني يتفاخر بأنه لبناني ومن نسل هؤلاء المردة.

ذهب، وثمانية آلاف أسير، وخمسين جواداً من الخيل الجياد. وأبرم الصلح بين الرومانيين والعرب على هذه الشروط إلى ثلاثين سنة، ودوّنت العهدة ووقع على نسختين منها لكل فريق نسخة. وعاد ذاك الرجل الشهير البطريق يوحنا المتواتر ذكره إلى الملك بهدايا نفيسة جداً». وقال توفان أيضاً في تاريخ السنة الأولى لعبد الملك بن مروان: «في هذه السنة حدثت مجاعة شديدة وطاعون في سورية، وولّى عبد الملك في أمته، وتواترت غارات المردة في جوار لبنان، وثقلت وطأة الطاعون. فطلب عبد الملك تجديد عهدة الصلح التي كانت قد أبرمت في أيام معاوية، وأرسل وفوداً إلى الملك واعداداً أن يدفع كل سنة ثلاث مئة وخمسة وستين ديناراً. وكذلك من العبيد، وليس بأقل من ذلك من الخيل الجياد»^(١). وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانوس الملك: «في هذه السنة أرسل عبد الملك رسلاً إلى الملك لإبرام عهدة الصلح فعقد الصلح على الشروط الآتية: وهي أن الملك يمنع غارات عسكر المردة من لبنان ويصدّ غزواتهم، وعبد الملك يدفع إليه في كل يوم ألف دينار وفساً ومملوكاً، وأن الملكين يقتسمان بينهما خراج قبرص وأرمينيا وإيبيريا قسمة عادلة سوية. وأرسل الملك بولس ماجيستريانس إلى عبد الملك لإبرام عهدة الصلح فكتب صكّها ووقع عليه أمام الشهود. وعاد ماجيستريانس مكرماً إلى الملك. وأبرز الملك أمراً بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن أوطانهم، وقد أضعف بذلك قوة المملكة الرومانية لأنّ جميع المدن المجاورة لبنان من المصيبة إلى أرمينيا الرابعة كانت ضعيفة وكانت خالية من السكان بسبب غارات المردة الذين كتبهم الملك. وقد توالى من ذلك اليوم إلى الآن الحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطو العرب». وقال في تاريخ السنة الثانية ليوستينيانوس: «إنّ الملك مضى في هذه السنة إلى أرمينيا فقابل هناك عسكر المردة الذي كان قبلاً في لبنان بمنزلة سور نحاسي لمملكته فدكّه بيده». وقال في تاريخ السنة الخامسة للملك المذكور: «في هذه السنة نقض الملك يوستينيانوس لطيشه عهدة الصلح المبرمة مع عبد الملك». وذكر ما رويناه في الكلام على عبد الملك من أمره بنقل سكان قبرص وتعتته في قبول الدنانير الحديثة التي صكّها عبد الملك إلى أن قال ما ملخصه:

(١) قد لاحظ محشي تاريخ توفان المذكور أن عدد ثمانية الآلاف أسيراً في الفقرة الأولى كثير جداً وعدد الثلاثمائة والخمسة والستين ديناراً في هذه الفقرة قليل جداً فلا بد من غلط من النساخ في ذكر هذه الأعداد. وسترى أن المؤلف يخالف ذلك في الفقرة التالية.

« ولما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يسأل يوستينيانس أن لا ينقض العهدة المبرمة بينهما فظنَّ يوستينيانس أن عبد الملك يخاف سطوته ولم ينتبه إلى أنَّ العرب يتطلَّبون بعد كبت المردة علة لنقض عهدة الصلح، فكتب يوستينيانس إليهم أنه لا يريد العمل بالشروط المتفق عليها فأجابوه هم أنهم متشبِّثون بها وأنه إذا نقضها وأرغمهم على الحرب فيكون هو علة لنقضها. والتقى جيش الملك وجيش العرب في الكبدوك، فأرسلوا يسألونه أن لا يخالف العهد الوثيق الإبرام بينهما باليمين، وإلا فينتقم الله من المخالف فأعارهم أذنًا صمًا واقترح جيشهم فعلقوا الصحيفة المكتوبة عليها عهدة الصلح على رمح بمنزلة راية لهم. فدارت الدوائر على يوستينيانس وجيشه » - كما رأيت قبلاً. فهذا ما ترجمناه بما أمكن من الدقَّة عن تاريخ توفان .

واليك ما قاله شدرانس في موجز تاريخه: « في السنتين الثامنة والتاسعة (لقسطنطين اللحياني) دخل المردة لبنان فاستحوذوا على كل ما كان من الجبل الأسود (الجبل الأقرع) إلى المدينة المقدسة، وضبطوا أعالي لبنان، وتألَّب إليهم كثيرون من العبيد والأسرى والوطنيين حتى أصبحوا في مدة وجيزة ألوفاً كثيرة. فوجس منهم معاوية ومن معه وفكروا بأنَّ الله يحامي بعونه مملكة الرومانيين، فأرسلوا رسلاً إلى قسطنطين الملك يطلبون الصلح فأرسل الملك بيساكود إلى السراكسة واتفق معهم على الصلح ودوَّنوا صكّه في صفائح على شريطة أن يدفع السراكسة كل سنة إلى الرومانيين عشرة آلاف ذهب. (وفي كتاب زوناراس ثلاثة آلاف) ومائة عبد وخمسين جواداً أصيلاً. ولما علم ذلك سكان المغرب طلبوا هم أيضاً الصلح. وقال في تاريخ السنة الأولى ليوستينيانس: « في السنة الأولى للملكه أرسل إليه عبد الملك رسلاً لإثبات الصلح واتفقا على أنَّ الملك يحصر عسكر المردة في لبنان ويمنعهم عن الغارات، ويدفع العرب إلى الرومانيين في مقابلة ذلك في كل يوم ألف دينار وجواداً وعبدًا، فأرسل الملك بولس ماجستريانس إلى عبد الملك لإبرام العهد فوقع على العهدة أمام الشهود، وأرسل الملك قائداً فأبعد اثني عشر ألفاً من المردة فأضُرَّ ذلك بمصلحة المملكة الرومانية. فكل ما يستحوذ عليه العرب الآن من المصيصة إلى أرمينيا الرابعة كان واهناً لا قوة فيه وخالياً من السكان بسبب غزوات المردة، فكبتهم أنزل بالمملكة الرومانية مضارَّ كبيرة إلى اليوم. فيوستينيانس لم يكن حينئذٍ أكمل السادسة عشرة من عمره فتصرّفه كان على غير هُدى ». وقال في تاريخ السنة السادسة ليوستينيانس: « في هذه السنة نقض يوستينيانس بحماقة عهدة

الصلح مع عبد الملك لأنه أراد أن يأخذ جالية من قبرص لغير داع، وأنف من أن يأخذ من عبد الملك الدنانير التي صكّها حديثاً، ولاعتماده على عسكر اختاره من الصقلية (من اسكلافونيا) نقض المعاهدة المذكورة وزحف بهذا العسكر بكتائب من الفرسان إلى آسيا الصغرى، وأكره العرب بطيشه على نقض المعاهدة. ولما التقى الجيشان أقام العرب الحجة عليه ودعوا إلى الله أن ينتقم ممن نقض العهد، فلم يقف الملك بل سارع إلى تسعير نار الحرب، فعلق العرب صفيحة المعاهدة على علمهم ووثبوا على الجيش الروماني. وكان قائدهم يسمّى محمداً فتقهقر العرب أولاً ثم تغلبوا على الجنود الرومانيين وقتلوا كثيرين منهم، وقرض الملك من بقي من الصقلية مع أطفالهم ونسائهم

وقال زوناراس (في ك ١٤ من تاريخه في كلامه على يوستينيانس): «قد استوى يوستينيانس على منصبة الملك وعمره ست عشرة سنة، وكان يدبّر جميع مهام المملكة على هواه. فأوقع المملكة في مهالك كثيرة؛ منها أن شعباً يلقّب بالردة كان قد استحوز على مشارف جبل لبنان في أيام قسطنطين اللحياني، وكان العرب يخشون صولتهم حتى حملوهم على طلب الصلح من ملوك الرومانيين كما مرّ. (كان زوناراس قد ذكر عقد هذا الصلح قبيل كلامه هذا كما رويناه عن غيره). ولما كان معاوية قد توفي وخلفه عبد الملك أرسل رسلاً إلى الملك الذي ولي حديثاً سائلاً إياه تجديد الصلح وأن يبعد المردة عن لبنان. وإذا رضي هذا الشرط يدفع هو إلى الرومانيين في كل يوم ألف دينار ومملوكاً وجواداً من الجياد. ولما أبرم هذه العهدة أبعد الملك اثني عشر ألف مقاتل من المردة عن لبنان، فاطمأنّ العرب، ولم يبقَ ما يخشونه فأنزلوا بالمملكة الرومانية مصائب شتى. وأرسل يوستينيانس لأنتيوس بجيش فأخضع إيبيريا والبانيا وغيرها لسلطته ونقض عهده مع البلغار، ولم يرص أن يفوه الجزية بل غزا الأمصار الغربية وألب منها جيشاً من ثلاثين ألفاً من نخبة الشبان، وأعزّهم وسأهم الشعب المختار فعظم سروره بهم. واعتماده عليهم حتى أراد أن ينقض عهده للعرب أيضاً؛ متمحلاً لذلك سبباً بأنهم يؤدونه مال العهدة دنانير ليست عليها صورة الملوك الرومانيين بل دنانير عربية حديثة، مدّعيّاً أنه لا يسوغ صكّ الدنانير إلا وعليه صورة الملك الروماني، وأعلن عليهم الحرب معتمداً لا على جيش الرومانيين بل على شعبه المختار الحديث. وسأله العرب بالحاح أن لا ينقض العهد ويخالف صكّ

الموثق باليمن بالله وهو ينتقم لمن يتسبب بشبوب نار الحرب فصمّ أذنيه عن سماعهم، وأقدم على الحرب فعلق العرب صفيحة العهد على رايهم وأحموا القتال فانحاز عشرون ألفاً من أولئك المسمّين بالشعب المختار إلى العرب فتغلّبوا على الرومانيين وتتبّعوا آثارهم وقتلوا منهم كثيرين، وفزّ الملك بنفر قليل مدحوراً، وأمر بقتل من بقي من أولئك الجنود وإلقاء جثثهم في البحر وعاد إلى بيزنطية خجلاً». وروى ذلك أيضاً انسطاس المكتبي في تاريخ السنين الأولى والسابعة والثامنة ليوستينيانس. وروى الاهدني أنّ بولس الشماس قال ما قاله هؤلاء وذكر مقاله فإذا هو مطابق لما رويناه. ولم نعثر على كتابه لكن الاهدني ثقة في كل ما نقل، بل أشار ابن خلدون إلى ذلك (جزء ٣ صفحة ٧٠) إذ قال: «اشتدّ القتال أيام عبد الملك واجتمعت الروم واستجاشوا على أهل الشام، فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار خشية منه على المسلمين». وذكر ذلك ابن العبري أيضاً في تاريخ الدول (صفحة ١٩٤ من طبعة بيروت) فقال: «استجاش يوستينيانس ملك الروم على من بالشام من المسلمين فصالحهم عبد الملك على أن يؤدي إليه كل يوم جمعة ألف دينار وقيل كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً». هذا ما ذكره هؤلاء المؤرخون القدماء وقد تابعهم عليه كثيرون من الحداثاء منهم بارونيوس إمام المؤرخين في تاريخ السنين المذكورة، وديلارو في موجز تاريخ الملك السافل في كلامه على قسطنطين اللحياني ويوستينيانس الأخرم، ونطاليس اسكندر في كلامه عليهما في تاريخ القرن السابع، وروهر بخر في الكتاب الخمسين من تاريخه العام وكثيرون غيرهم.

عد ٧

هل المردة موارنة

إن سطوات الموارنة المازّ ذكرها وحربهم مع عساكر يوستينيانس التي سنروي أخبارها أكسبتهم لقب مردة الذي ستمهم به المؤرخون القدماء المذكورون. وهذا مما لا يمتري فيه عالم بالتأريخ أو مطالع لأقوال المؤرخين التي روينها مترجمة بحروفها، إذ صرّحوا بأنّ المردة سكان لبنان خرجوا من لبنان فاستحوذوا على ما جاوره وضبطوا مشارف وأعالي لبنان إلى غير ذلك مما يدلّ صراحة على أنّ هؤلاء

المردة إنما هم الموارنة سكان لبنان وجواره، وإلا فمن أين أتى هذا الشعب النفير الباسل إلى لبنان ومتى هاجر إليه ولم لا نرى في كتب المؤرخين القدماء والحدثاء خطلة تشير إلى مهاجرة شعب أوطانه وتوطنه في لبنان وجواره مكان أولئك المسيحيين المنتمين إلى القديس مارون ورهبانه، أو تنبئنا بأن أحد الملوك جلا شعباً غفيراً فأحلّه في لبنان وتغلّب على سكانه الأصليين. على أنّ الحدثاء من المؤرخين ولاسيما من ذكرناهم آنفاً وهم بارونيوس وديلاروك ونطاليس اسكندر وروهر بخر يسمون هؤلاء المردة الموارنة ويصبرّحون بأنهم إنما لقبوا مردة لتمردهم على الحكومات المارّ ذكرها ومحاربتهم عساكر يوستينيانس الأخرم. ونقتصر من إيراد أقوالهم على ذكر قول ديلاروك في كلامه على قسطنطين اللحياني قال: «إنّ الأئمة المارونية أشبه بالمواد الخفيفة. فلم يكن لتيار القبائل التي غشت سورية أن يغرقها وما برحت كذلك إلى اليوم ومساكنها لبنان العسر المسالك، وأهلها شديدو الحرص على دينهم وشرفهم وكانوا جنوداً كماة يحسنون الرمي وتفويق السهام، وفرسانهم أحسن الفرسان ورجالهم أشجع رجال المشرق. وقد أخذوا (في أيام قسطنطين اللحياني) يشنون الغارات على الأعمال المجاورة لهم واستحوذوا على قسم كبير من سورية وأنزلوا الرعب بالسكان من جهة إلى أورشليم، ومن أخرى إلى دمشق وتخوم بلاد العرب. وكانت أهم أعالي لبنان قلاعاً حصينة وابتنوا فيها مدناً كبيرة فوجس معاوية من غزواتهم وغاراتهم» إلى آخر كلامه. إلا أنّ هذه الغارات والسطوات التي كان ملوك الروم يحملونها عليها كانت عليهم وبالأحرى بمكر هؤلاء الملوك كما رأيت. فإنّ يوستينيانس الأخرم أبعد اثني عشر ألفاً من نخبة رجالهم. وسترى تفصيل ذلك في العدد التالي وترى في ما يليه إنفاذ جيشه إليهم وحرق أديارهم وتدمير قسم كبير من بلادهم.

هذا ما سطرته في تاريخ سورية ولكن ظهر في إحدى المجلات العلمية سنة ١٩٠٢ فصل لأحد العلماء اهتم كاتبه أن يجعل هذه المسألة محلاً للريب وجل ما قاله إنه يتعجب من ظهور المردة من أول أمرهم جاثمين فوق مشارف لبنان ضابطين مضائقه ثم خرجوا منه بغتة دون أن يبقى لهم أثر وأسند زعمه هذا إلى قول بعض المؤرخين إنّ المردة دخلوا إلى لبنان ونتج أنهم لم يكونوا من سكانه الموارنة وأورد آراء مختلفة في أصل المردة بين إن كانوا من آسيا الصغرى أو من بلاد العرب أو

الأرمن أو الكلدان. وقال إنهم بعد خروجهم من لبنان توطنوا في بلاد الأرمن أو جوار اضماليا وكان لهم نظام مخصوص وولاة على حدة.

فأجبتته على ذلك في المجلة المذكورة مبيّناً بطلان ما ادعم عليه في بحثه ومثبتاً أن ليس المردة إلا اسم للموارنة في القرن السابع وصفوا به لتمردهم وأن تعجبه من ظهورهم بغتة في لبنان وخروجهم منه دون أن يتركوا فيه أثراً يزول قطعاً إذا نظر في الأمر على بساطته، أي إن المردة هم الموارنة وكانوا يسكنون لبنان وما جاوره شمالاً وجنوباً وعند ثورتهم تحصّنوا به وجعلوه مركزاً لغزواتهم وآثارهم به باقية إلى الآن. ثم أوردت لإثبات هذه الحقيقة عدة براهين: الأول مأخوذ عن التقليد العام والثابت عند الموارنة والحال أنه في كل بلاد وعند كل أمة يعتمد في تواريخها على تقاليداتها مفضلة على غيرها فإذا يلزم الاعتماد على تقليد الموارنة في تاريخهم. الثاني أن اسمي مردة وملكية لشعبين في لبنان في القرن السابع اسمان تغلباً معاً على أمتين مقابلاً أحدهما الآخر وما من قائل إن الملكية أتوا من خارج لبنان إليه فكذلك المردة كانوا من سكانه وهم هم الموارنة. الثالث لما كان العالم المذكور عدّد كثيرين من العلماء الذين أيدوا رأينا المذكور وذكر ثلاثة شهود أو أربعة مخالفين لهذا الرأي أبنت له عظمة ثبوت شهادة من أيدوا رأي الموارنة وكثرة عديدهم وأن شهادة المخالفين ساقطة وهو أسقط بعضهم. والرابع أنه لو ثبت أن توفان قال إن المردة دخلوا لبنان وتحصّنوا به وأنه ضوى إليهم أسرى ووطنيون فلا ينتج من ذلك أن المردة غير الموارنة لأن هؤلاء كانوا منبثين في السهول والمدن المجاورة لبنان وحين ثورتهم دخلوا إليه معتمدين به وضوى إليهم أسرى وعبيد ومن كانوا بلبنان وليسوا موارنة. الخامس أن ما ذكره توفان وغيره من أن المردة المجلولين من لبنان أقاموا بأضماليا أو أرمينيا منفصلين عن باقي السكان بنظام مخصوص لهو بيّنة قاطعة على أن المردة لم يكونوا من آسيا أو أرمينيا ولا عسكر أرسله أحد ملوك الروم وإلا لما كان موجب لهذا الانفصال وهذا الامتياز. السادس أن توفان وغيره من مؤرخي الروم نصوا على عهدة صلح وقع عليها معاوية وقسطنطين اللحياني ومعاينة أخرى وقع عليها عبد الملك بن مروان ويوستينيانس الأخرم وفي كلتا العهدين شرط الخليفان منع إغارات المردة وصدّ غزواتهم. فلو كانوا شعباً دخل حديثاً إلى لبنان أو عسكراً أرسله الملك الروميان لشرط جلاء هذا العسكر أو الشعب الغريب عن لبنان لا صدّ غزواته. ثم إنه بعد الصلح الأول بقي هؤلاء الغزاة على سطوهم كما

أثبت المؤرخون المذكورون ولو كانوا عسكرياً لملك الروم لجلالهم حالاً بحكم الصلح وما كانت حاجة إلى أن يحتال ملك الروم بعد الصلح الثاني على سحب اثني عشر ألف منهم فإذا المردة كانوا من سكان لبنان وجواره وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا في تلك الظروف إلا من الموارنة. وزد على ذلك أن اختلاف من يضاد هذه الحقيقة في أصل المردة وعدم اتفاقهم على قول هو مما يبين بطلان زعمهم ويؤيد ما يخالفه.

إن العالم المذكور بعد اطلاعه على ردنا الذي لخصناه عاد إلى البحث دون أن يرد دليلاً واحداً من أدلتنا بل زعم أن المردة هم الجراجمة نسبة إلى مدينة اسمها جرجومة في جبل اللكام واستند إلى أقوال رواها البلاذري فيها ما يشبه ما ذكره توفان عن المردة وانتصر له عالم آخر باسطاً رأيه فأجبنهما بمقالة أثبتتها المجلة المذكورة منكرين عليهما أن ما ذكره من فقر البلاذري مطابق لما ذكره توفان عن المردة. وبيننا كثيراً من الفرق بين أقوال المؤرخين العربي والرومي وأبنا أن التشابه بين أمرين ليس بحجة للحكم بأن الأمرين واحد.

ثم قام بيننا عالم آخر يبين أن ما جاء به العالمان المذكوران من الشواهد والأدلة والنتائج هو أضعف من أن يردّ براهين علماء الموارنة. وأورد أدلة راهنة على أن سكان جبل اللكام والجراجمة أو أكثرهم كانوا في ذلك العصر موارنة كسكان لبنان. ومن هذه الأدلة أن رهبان دير القديس مارون كانوا حينئذ أنصاراً للإيمان الكاثوليكي والجمع الخلكيدوني مستشهداً بالأثر الذي وجد في المتحف البريطاني وهو رسالة هؤلاء الرهبان إلى اليعاقبة وجواب هؤلاء عليها وبالأثر الآخر الدالّ على جدالهم مع اليعاقبة بحضرة معاوية وبشهادة عالم يعقوبي في القرن السابع دالة على أن بدعة الموارنة ظهرت في أيام قسطنطين اللحياني ويراد بها انفصالهم عن باقي سكان البطريكية الأنطاكية بإقامتهم يوحنا مارون السرومي من جبل اللكام مطراناً على البترون ثم بطريكاً. وبالجملّة إن أكثر سكان جبل اللكام المسمون جراجمة كانوا موارنة كسكان لبنان.

وقال هذا العالم في النتيجة (إذا صحّ هذا التقدير المسند إلى الحقائق التي بين أيدينا ألا يصحّ أن يكون مردة توفان وجراجمة البلاذري وأصحاب بدعة الموارنة التي ذكرها. المؤلف اليعقوبي شيئاً واحداً وإن تعددت الأسماء؟ وأجاب على هذا

بقوله: (عندنا إنّ هذا أقرب إلى الصواب ولنا عليه أدلة شتى. وأورد من هذه الأدلة أنّ يوحنا مارون ولد ونشأ بسروم إحدى قرى جبل اللكام حيث الجراجمة. ومن تقليد الموارنة واليعاقبة أنّ الأمير ابراهيم ابن أخت هذا البطريك أتى إلى لبنان بزمرة الأبطال. وقد روى البلاذري أنّ أمر الجراجمة كان في أيام استيلاء الروم إلى بطريق انطاكية وواليتها.

فشهرنا نحن مقالة صادقا بها على رأي هذا العالم مبيّين أنّ ما ذكره توفان والبلاذري وابن العبري عن غزوات المردة وسطوهم على كل ما كان من جبل اللكام إلى جبل الجليل وعن بقائهم على ذلك سنين وإكراه معاوية وعبد الملك على عقد صلح مع ملوك الروم يقضي على كل متبصر أن يسلم بهذا الرأي بل لا يمكن من دون ذلك أن يفهم كيف يمكن شعب محصور بلبنان أن يسطو أو تمتد صولته إلى جبلي اللكام والجليل.

على أننا لا نعلم ما الذي حمل هذا العالم أن يعدل عن رأيه هذا الصائب إلى رأي لم يسبق إليه وهو أنّ المردة خيل أرسلهم الملك قسطنطين اللحياني إلى سورية لصعد فتوحات العرب وأسند رأيه هذا إلى قول للبلاذري قال به: (خرجت خيل الروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم سارت إلى جبل لبنان وقد ضوى إليها جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد وأباق واضطر عبد الملك أن يصالحهم على ألف دينار في كل جمعة. ووضع عبد الملك على قائد الروم سحيم بن المهاجر فكاد عليه وقتله مع أصحابه وأمن من ضووا إليه). فأجبنا نحن هذا العالم أنّ هذه الغزوة يراد بها أحدث غزوات المردة لا كلها ولا ينتج منها أنّ خيل الروم هم المردة لأنّ اسم الروم كان يطلق حينئذ على كل من كان من أنصار ملوك الروم وأنّ ابن الأثير الذي ذكر هذه الحادثة كالبلاذري قال: خرجت خيل الروم من الضواحي إلى جبل اللكام أي من ضواحي انطاكية وأصحاب هذه الغزوة قتلهم عسكر عبد الملك والمردة كانوا من أيام معاوية واستمروا بعد ذلك يحاربون.

وأورد العالم المذكور شهادة من السمعاني قال فيها إنّ المردة أقيموا بعد إبعادهم في بمفيليا ولهم حكام وقضاة مخصصون ونظام مخصص وكل يرى أنّ هذا القول هو حجة لنا لأنه إن كان المردة خيلاً لملك الروم فما الحاجة إلى أن يكون لهم حكام على حدة ونظام مخصص. وأورد أيضاً شهادتين لابن العبري قال

فيهما إنّ هؤلاء المردة يسميهم السريان جراجمة وإنهم استحوذوا على كل ما هو من جبل اللكام إلى جبل الجليل وإنّ عبد الملك لما رأى الحرب تحيط به من كل جهة خاصة من مردة الروم الذين بلبنان عقد صلحاً مع يوستينانس الذي أخرج من المردة اثني عشر ألفاً وكل متبصر يرى أنّ هذه الأقوال تؤيد رأينا لا رأي العالم المذكور.

لكنه اثنتي مordاً حججاً لم أرها صالحة مع ذلك أجبت مordاً هذين البرهاني الأول أنّ خيل الروم الذين ذكرهم البلاذري صرح بأنهم كانوا في أيام عبد الملك والمردة الذين ذكرهم توفان كانوا بلبنان منذ أيام معاوية وأكرهوه على عقد صلح مع الملك قسطنطين اللحياني قبل تسع سنين من خلافة عبد الملك فإذا لا يمكن خيل الروم هؤلاء أن يكونوا المردة إلا أن يقال إنهم كانوا قبل أن يكونوا. والثاني أنّ البلاذري صرح بأنّ خيل الروم وضع عليهم عبد الملك ابن المهاجر فكاد على قائدهم وقتله مع أصحابه. والحال أنّ المردة على ما صرح توفان استمروا يغزون إلى أن أكرهوا عبد الملك على صلح مع يوستينانس فإذا هؤلاء المردة لا يمكن أن يكونوا خيل الروم إلا أن يقال إنهم انبعثوا من قبورهم وعادوا إلى الحرب.

وسنداً إلى كل ما مرّ نقول إنّ المردة هم الموارنة حقيقة وإنّ الجراجمة كانوا أيضاً موارنة. ولما كان من يخالفوننا بذلك لم يردّوا براهيننا ولم يتفقوا على أصل للمردة حقّ لنا أن نبقي على رأينا ونعتقده مؤكداً إلى أن ترد براهيننا ونحتج بغيرها مما لا يمكن ردّه.

عد ٨

امراء الموارنة والاثني عشر ألفاً المجلوون منهم

قد روى العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٠١) نقلاً عن البطريك اسطفانس الدويهي الاهدني عن كتاب سرياني تحطّ سنة ١٦١٦ يونانية الموافقة سنة ١٣١٥م، ترجم الدويهي ما استشهد به من هذا الكتاب إلى العربية هكذا: «في بداية دولة العرب كان يوسف ملكاً على جبيل، وكسرى على الداخلة التي من اسمه تكثت كسروان، ثم في خلافة عمر بن ابي طالب (هنا سهو

من الكاتب والصحيح عمر بن الخطاب) كان أيوب متولي قيسارية فيلبس وبيت المقدس وبعد أيوب تخلف الياس . ولما توجه هرقل الملك إلى بلاد الشام كان ينجده بجيشه، ثم أنّ بعد هؤلاء تولى الملك يوسف تدبير جبيل وجبل لبنان وبعد وفاته تخلف عليه الملك يوحنا . إنّ العرب والسريان اعتادوا غالباً أن يسموا كل متول ملكاً ومن ذلك تسمية هؤلاء ملوكاً والمراد وال أو أمير كما كان قديماً لكل قبيلة أو فصيلة أمير يدبر مهامها، وله الكلمة النافذة فيها، وتنقاد إلى أمره. فالظاهر من العبارة المذكورة أنّ يوسف وكسرى كانا يليان جبيل وكسروان عند استفحال دولة العرب في العربية، ولما أخذوا يغالبون ملوك الروم على سورية في خلافة ابي بكر الصديق وعمر بن الخطاب . كان أيوب في خلافة عمر متولياً على قيصرية فيلبس ، وهي بانياس إلى القدس ، فقتل ايوب في الحروب الاولى في فلسطين أو توفي في أثنائها ، فخلفه الياس في الامارة على الموارنة ، فساعد هرقل في الحروب الأخيرة في خلافة عمر بن الخطاب ، ثم توفي ، فخلفه في هذه الامارة يوسف آخر (على ظاهر العبارة) . كان يلي جبيل وجبل لبنان ، وبعد وفاته خلفه الامير يوحنا ؛ وأما يوحنا هذا فقال السمعاني (في المحل المذكور) نقلاً عن الاهدني عن الكتاب السرياني المذكور ما ترجمته: « وقام بعد يوسف ملك (أمير) اسمه يوحنا واستحوذ على الأرض المقدسة (فلسطين) وخرج من لبنان ماضياً إلى الكرمل ومعه جم غفير، وأراد أن يمضي إلى أورشليم فخرج عليه لصوص كثيرون من محل الرغيزين (لم يبيّن السمعاني ولا الاهدني من المراد بهؤلاء فيظهر أنهم ينتسبون إلى محل اسمه رغيز في تلك النواحي، أو الكلمة كناية عن اناس أشرار لأنّ معناها اللغوي المغضوب عليهم) ، وأحاقوا به فوق برج الغرباء فقتلوا من جماعته ثلاثة آلاف بالسيف، فجمع شمل قومه ووثب على الرغيزين وبلدهم، وقتل منهم تسعة آلاف، وغنم منهم مالاً وحيوانات ونساء وأطفالاً، وعاد إلى محله وسكن في بسكنتا وتوفي شيخاً » . وروى الاهدني أنّ في جملة أعمال الامير يوحنا هذا أنّه جهز اثني عشر الف فارس وذهب بهم إلى البقاع فحلوا في قب الياس ، وشرعوا يغزون الجبل الشرقي ويشنون الغارات، فقطعت الطرق وسدت المسالك، فكان من ذلك ضيق شديد وصحبه طاعون وغلاء .

فهذه التعديات وما أشبهها حملت معاوية على مراسلة الملك قسطنطين اللحياني بطلب الصلح، فعقد بينهما كما رأيت من أقوال المؤرخين التي اثبتناها آنفاً، ولم ينفك هؤلاء الامراء وجماعتهم عن السطو والغزو وشن الغارات بوسوسة

ملوك الروم أنفسهم أملاً بأن يستردوا سورية إلى ولايتهم، حتى أكرهوا الخليفة عبد الملك ابن مروان أن يكشف يوستينيانس الثاني الملقب بالآخرم طالباً إليه منع هؤلاء الجماعة الذين سموهم لذلك مردة عن غزواتهم وصولاتهم، ومتعهداً أن يدفع له كل يوم الف دينار ومملوكاً وجواداً إن جلا عسكر هؤلاء المردة عن بلادهم لإيهان قوتهم، فانقاد يوستينيانس لطيشه وحدثت سنة فجلا من الموارنة اثني عشر ألفاً من نخبة شبانهم، كما تبين من أقوال المؤرخين المذكورين. على أن هؤلاء المؤرخين لم يفصلوا كيف توصل يوستينيانس إلى ابعاد هؤلاء الشبان عن مواطنهم ولا بأية وسيلة توصل إليه فجلاً ما ذكره بعضهم أنه توصل إلى ذلك بمكر ومكيدة وأنه أضمر مملكته بإبعاد هؤلاء على أن علماءنا قد نقبوا عن هذه الأمور وانبأونا بما علموه من تفاصيل هذه الاحداث فنرويه عنهم .

وروى العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٠٢) عن البطريك اسطفانس الدويهي الاهدني (فصل ٩ في تاريخ الموارنة) أن يوستينيانس جهز جيشاً وسيره إلى سورية وأشاع أنه حامل على العرب، ودفع إلى قائد جيشه خلعاً سلطانية ورسالة مشرفة ليسلمها إلى أمير لبنان، وأمره أن يقابل هذا الامير منفرداً وإذا سنحت له الفرصة قتله . وعند بلوغ القائد إلى البقاع مضى إلى يوحنا أمير المردة بنفر قليل إخفاءً لمكيدته، وقابله في قب الياس ودفع إليه الرسالة والخلع السلطانية ولم يُلْفِه متحذراً، بل قابله الامير يوحنا بالترحاب والإجلال، وأخذ القائد يستشير في محاربة العرب ويستنجد عليهم ثم دعاه إلى مؤاكلته . وبينما هم على المائدة أشار القائد إلى جنوده فوثبوا على الأمير وقتلوه. ودرى بذلك عسكر المردة فسعر نار الحرب على القائد وجيشه فاقتتلوا طويلاً وظهرت جيوش القائد المستعد للقتال على عسكر الامير الذي اندفع إليه بغتة. وإلى ذلك أشار الاسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في ازجاله في كسروان حيث قال :

سكن الامير في بسكنتا وارسل عساكر في بغتة
نهب البقاع بفرد نكته وقتل رجاله مع النسوان
طلع سكن في قب الياس وارسل عساكر مع حراس
والبقاع تحت حوافر خيله انداس طلع خبره للسلطان

بعث له خلعة مع قصاص تظمن واكل معهم زاد
عساكر وراهم تتجرد كبسوه في ساعة اطمئنان
قتلوه وانقتل معه العسكر وانقتل كثير من الاوחר

وجاء في تاريخ الموارنة المطبوع حديثاً في بيروت (صفحة ٧٤) بأثر ما مرّ من
تاريخ الدويهي: « ولما قتل أمير المردة أمّروا عليهم سمعان ابن أخت المقتول ، وكان
رجلاً شجاعاً فمضى في اثني عشر ألفاً إلى جهة أرمينية وهدم السد النحاسي ومن
هناك اجتاز إلى بلاد تراكية » . فهذه الرواية غير صحيحة ولا تلتحم مع ما تقدّمها
وكلمة هدم السد النحاسي مأخوذة من كلام المؤرخين أنّ يوستينيانس بإبعاده عسكر
المردة نقض بيده السد النحاسي الذي كان للمملكة في لبنان . ولا أشك في أنّ
النسخة التي اعتمد عليها المعلم رشيد الشرتوني طابع الكتاب المذكور غير صحيحة،
بل يظهر أنّ العلامة البطريك بولس مسعد قد اغتر أيضاً بهذه النسخة غير
الصحيحة حتى قال مثل هذا القول في درّه النظم صفحة ٩٦ . والصحيح ما رواه
السمعاني (في المحل المذكور أنفاً) من كلام الدويهي وهو: « اما جيش الملك فمن
بعد هذه المقاتلة أخذ يخمد جذوة غيظ سكان لبنان ويجامله ويعتذر عن سوء
صنيعه، ويقول إنّ قسطنطينية محفوفة بمخاطر شديدة من جراء حملات العرب
والفرس عليها، وهي في أقصى الحاجة إلى انجادهم، ومعاونتهم وأنّه يلزم تقديم
المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، واكثر من الوعود بأنّ الملك يجزل المكافآت
الملكية لمن يطيعه وينجده ، وبعد العناء الشديد، المديد حملهم على أن يقيموا
سمعان ابن أخت الامير يوحنا القتيل قائداً لهم، فمضى قائد يوستينيانس به وبإثني
عشر ألفاً منهم إلى ارمينيا (حيث قابلهم الملك يوستينيانس كما رأيت في كلام توفان
الذي رويناه أنفاً) ثم إلى تراكية » . فهذا ما رواه السمعاني من كلام الدويهي وعليه
الاعتماد. ويظهر من ذلك ما أشرنا إليه أولاً من أنّ ملوك الروم كانوا يوسوسون
للمردة ليخرجوهم عن طاعة الدولة السائدة بهم حتى صار للمردة ضلع مع هؤلاء
الملوك، ولولا ذلك لما صدقوا وعود قائدهم ولما أغضوا على قتل أميرهم. ويتبين لي
أنهم راعوا من جهة اسخاطهم لدولتهم بتعدياتهم، ومن جهة أخرى أنهم إذا عصوا
ملوك الروم أيضاً لم يكن لهم طاقة على معاندة الدولتين معاً، فأثروا مطاوعة القائد
والمسير معه على بقائهم في أوطانهم عرضة لتتكيل الدولتين بهم، وكانوا يرجون أنّ

يوستينيانس ينتفع بخدمتهم ويعيدهم إلى وطنهم، ولم يدروا باتفاق الدولتين على ابعادهم إلا بعد حلول المصائب بهم. ولا غرو ان عيالهم لحقت بهم ويظهر أنّ ذلك كان سنة ٦٨٥ أو سنة ٦٨٦م، إذ روى المؤرخون المذكورون أنّ ذلك كان للسنة الثانية ليوستينيانس الاخرم، وحينئذ أتمرّ الموارنة عليهم ابراهيم ابن أخت بطريركهم القديس يوحنا مارون كما سيأتي .

وأما ما كان للاثني عشر ألفاً المجلولين بعد مضيهم إلى ارمينيا ثم إلى تراكية وأين هي تراكية التي حلوا فيها ؟ فقد كان لعلمائنا في ذلك أقوال مبناها على الحدس والتخمين ولم ينبعثا السمعاني بشيء من ذلك في المكتبة الشرقية التي تتداولها أيدينا، ولما كنت في روما سنة ١٨٦٧م بخدمة المثلث الرحمة العلامة البطريرك بولس مسعد لحضور حفلات العيد القرني للقديسين الرسولين بطرس وبولس ولتطويب بعض القديسين، وكنت مهتماً بتأليف كتابي الموسوم بسفر الاخبار في سفر الاحبار، أخذت اتفقد بعض كتب مكاتبها لالتقط منها ما أضْمِنُهُ كتابي المذكور، فعثرت في مكتبة مجمع انتشار الايمان على كتاب العلامة السمعاني الموسوم بمكتبة الناموس الديني والمدني وهو نادر ولا يوجد إلا في اوربا في بعض المكاتب الشهيرة، ولا أعلم أنّ في الشرق نسخة منه فأخذت عنه بعض تعليقات ضَمَنْتُها كتابي سفر الاخبار ودونك خلاصتها .

قال العلامة السمعاني في المجلد الرابع من المؤلف المذكور المطبوع في رومة سنة ١٧٦٤م (فصل ٣٥ صفحة ٦٢٠) ما ملخصه : « إنّ توفان المؤلف الرومي الذي ذكر خبر ابعادهم لم ينبعثا أين اقاموا وجلّ ما قاله أنّ يوستينيانس إذ سافر إلى ارمينيا التقى هناك بعسكر المردة الذي أمر بإخراجه من لبنان، ودكّ بذلك السور النحاسي الذي كان لمملكته، إلا أنّ قسطنطين بروفيروجنات (هو قسطنطين السابع أحد ملوك الروم في قسطنطينية وبروفيروجنات لقب كان أبناء هؤلاء الملوك الذين يولدون لهم في مدة ملكهم يلقبون به وتأويل الكلمة المولود بالبرفير، إذ كانت القابلة تقبل الطفل بالبرفير أو تفرش غرفة الولادة بالبرفير ». ابن لاون الحكيم (هو لاون السادس أحد الملوك المذكورين) قال في كتابه الموسوم بتدبير الملك المطبوع في باريس (فصل ٥٠ صفحة ١٣٧) أنّ المردة نقلوا إلى بمفيلية، وقام قائدهم في مدينة اضاليا. وذكر في كتابه الاول في اعمال المملكة (فصل ١٤) عمل بمفيلية وفيه المردة الذين جلوا من لبنان يليهم قائد لهم وقد استمروا هناك من عهد يوستينيانس إلى أيام المؤلف

الذي كان في منتصف القرن العاشر. وقد أسهب هذا المؤلف الكلام فيهم في الفصل الخمسين من كتابه المذكور، ومما قاله ان ملك قسطنطينية كان يُنصب للمردة والياً منهم في اضايا يسمى قبطاناً، وأنّ الملك أباه نصّب لهم والياً اسمه استوراشيوس بلاتين، وادف السمعاني كلام قسطنطين بقوله يظهر مما قيل أنّ المردة كانوا في بمفيلية في عهد الملك لاون الحكيم وأخيه اسكندر وابنه قسطنطين صاحب التأليف المذكور - أي في سنة ٩٥٠م إلى أن قال كان الملك ينصب لهم قاضياً يسمى قاضي اضايا. وفي سنة ١٠٧٤م في أيام الملك ميخائيل السابع من ملوك الروم كان أحد هؤلاء القضاة اسمه ميخائيل الف كتاباً في التاموسين الديني والمدني طبع في فرنكفورت سنة ١٥٩٦م، وكان في قسطنطينية مرتبة لكبير المردة من ايام الملك ميخائيل المذكور إلى أن أخذت قسطنطينية من ملوك الروم سنة ١٤٥٣م. ويستشهد السمعاني لصحة ذلك كتاباً لغريغوريوس كودونيوس كوروبالات الذي كان حياً عند افتتاح العثمانيين قسطنطينية حيث ذكر كبير المردة في قسطنطينية، ومما قاله إنّه كان يحمل عكازاً من فضة مموها بالذهب. واستشهد أيضاً متى جاتر الراهب الكاهن في كتابه في مراتب القصر القسطنطيني حيث روى أنّ الرتبة السابعة عشرة بعد الملك كانت لكبير المردة. واستشهد أيضاً كتاباً آخر مجهول المؤلف. فالنتاج من كل ذلك أنّ الموارنة المجلون استمروا في بمفيلية ولهم ممثل في قسطنطينية إلى أن أخذت الدولة العثمانية قسطنطينية سنة ١٤٥٣م .

وأما تراكية التي أقاموا فيها فالصحيح أنّها قسم من كيليكيا وهي الآن ولاية ادنه، ومن المعلوم أن كيليكيا مقسومة إلى قسمين سهلية وجبلية فالسهلية قاعدتها ادنه وترسيس، والجبلية من مدنها سلوقية كيليكيا، وكان القدماء يسمونها تراكية أي الحجرية أو المحجرة، والآن يعبرون عنهما بكيليكيا الاولى وكيليكيا الثانية. وبمفيلية متاخمة لتراكية غرباً. وهذا يؤيد ما رواه السمعاني وليست تراكية تراسة أي الروملي كما فسر بعض علمائنا .

وأما ما كان من أمرهم بعد ذلك فلم نطلع إلى الآن على شيء أكيد منه قال بعضهم: ان المرديت المقيمين الآن في البانيا هم المردة الموارنة ارتحلوا من بمفيلية إلى هناك وروى بعضهم أنّ بعض هؤلاء المرديت حقق أنّ عندهم تقليداً يؤيد ذلك .

حرب الموارنة وعسكر الملك يوستينيانس الاخرم

إن يوستينيانس الأخرم لم يقصر على تدبير مملكته بطيشه وسوء تصرفه بل أراد أن يدبر كنيسة الله كذلك ، فعني بعقد مجمع بقصره وهو المعروف بمجمع قصر الملك دون أن يعلم الخبر الروماني به ، وأدخل الأساقفة في ذلك المجمع قوانين لا تسلم بها الكنيسة الكاثوليكية ، وطلب الملك إلى البابا أن يثبت ذلك المجمع فلم يجبه إلى سؤاله ، وتسكع يوستينيانس ببدعة المشيئة الواحدة وطفق يؤيد أصحابها ويضطهد الكاثوليكين ، فناصره البابا سرجيوس الخبر الروماني ، وناضل البطريرك يوحنا مارون وشعبه الموارنة عن المعتقد الكاثوليكي بالمشيئين ، فبلغ من حمق يوستينيانس ان ارسل قائداً من قادة جيشه إلى رومة ليشخص البابا سرجيوس إلى قسطنطينية وقائداً آخر إلى سورية لينكل الموارنة ويأتي إليه ببطريركهم . أما إرساله الجيش إلى رومة ليأتي إليه بالبابا فقد أثبتته كثير من المؤرخين ، ودونك ملخص ما رواه أحدهم روهريخر (في ك ٥٠ من تاريخه) نقلاً عن أنسطاس المكتبي في كلامه على البابا سرجيوس وعن بولس الشماس (في ك ٢ من تاريخه فصل ١١) قال: «إن الملك ارسل زكريا أحد أعوانه ليشخص البابا إلى قسطنطينية فاستشاط أهل إيطاليا والمغرب عند سماع هذا الخبر، فزحف الجنود من رافنا وغيرها تبعاً إلى رومية غيرة على دينهم ورئيسه، وشعر زكريا بدنوهم من المدينة ففزع إلى البابا يسأله أن يوصد أبواب المدينة ويقيم الحراس لئلا يقتلوه ، ولم يعبأ الجنود بتوصيد الابواب ولا بالحراس وانتهوا إلى قصر لاتران حيث كان البابا ، فأسرع زكريا مرتعداً إلى مخدع البابا يسأله بدموع سخينة ان ينجيه من الموت ، واختبأ تحت سرير البابا مرتعشاً مضيقاً رثده ، فسكن البابا روعه وأشرف على الجنود والشعب الغفير المتألب هناك فجاملهم وأسكن جيشانهم ولم ينفكوا حتى طردوا زكريا من رومة مذعوراً مسبباً .

وأما يوحنا مارون البطريرك فقد أنبأنا البطريرك إسطفانس الدويهي أن الملك عزم أولاً أن يرسل إليه لاون قائداً جيشه ليأتي به مكبلاً ، فأحجم القائد عن المسير معتذراً بأن البطريرك معزز بقومه فلا يمكن الإتيان به إلا بعد حرب شديدة . وكان هذا القائد يحب الموارنة وقد أنجدوه في حربه للعرب . فسخط الملك على لاون وطرحه في السجن ، وأمر موريق ومريقان أن يسيرا بجيش إلى سورية ، وأشاع انه سيرهم

لقتال العرب ودرى البطريك بما دبره الملك فاستدعى ابن اخته الأمير إبراهيم فأتاه باثني عشر ألف مقاتل، فنقلوا البطريك من دير القديس مارون على العاصي إلى سمر جبيل. وإليك ما رواه السمعاني (مجلد من المكتبة الشرقية صفحة ٤٠٥) نقلاً عن الدويهي في تاريخ الموارنة في شأن هذه الحملة عليهم: «لما كانت سنة ٦٩٤ بلغ جيش الملك في أواخر الربيع إلى سورية فوثبوا أولاً على دير القديس مارون لأنه علة هذه الحرب وقتلوا من رهبانه خمسمائة راهب، وجعلوا الدير قاعاً صفصفاً وتحولوا من هناك إلى قنسرين والعواصم وضربوا هذين البلدين المهمين في ذلك العمل، وقرض أصحاب المشيئة الواحدة سكانهما عن آخرهم، وتركوا كل ما فيهما غنيمةً للجنود، ولم يتوقفوا عن قتل أحد من اصحاب الإيمان القويم إلى ان انتهى مريق ومريقان إلى مدينة طرابلس وخرجوا منها، فضرب جيشهما أطناب خيامه في السهول المجاورة المدينة، فالتقاهم سكان الكورة واعدن أنهم يصنعون ما أمر الملك به إذا أعطوهم الامان، فاعطوه بطيبة خاطر بعد أن أقروا بالضلال (أي بدعة المشيئة الواحدة)، فحلّ الجيش في السهل الذي بين قرية أميون وقرية النواس الواقعتين في سفح جبل لبنان، فقدم لهم سكان القرى المجاورة ما يحتاجون من الزاد وغيره. وسأل بعض أعيان تلك البلاد مريق ومريقان القائدين ان يعطيهم هدنة واعدن ان يحملوا قومهم في تلك المدة على الطاعة والخضوع لمولاهم، فهادنوهم وأرسلوا إلى أمراء المردة رسائل يحضونهم بها على العمل بمقتضى أوامر الملك، واستحوذ الرعب على السكان الكاثوليكين لدنو العدو إليهم، وأيقنوا انهم لم يعد لهم منجاة إلا بالالتجاء إلى الله بصلوات خاشعة ودموع هامة، فاستجاب الرب صلواتهم وعزاهم بحدوث حدث لم يكن في حسابانهم، فقد وردت حينئذ رسائل من قسطنطينية من لاون (أولانتس) القائد المذكور آنفاً إلى البطريك يوحنا وإلى سمعان أمير لبنان يبشرهما فيها بخلع يوستينيانس من الملك وترقيته هو (أي لاون) إلى منصبه، ويأمرهما بضرب الجيش الذي أرسل إلى سورية بمنزلة عدو للملك، وذاع هذا الخبر بين الكاثوليكين فحمدوا الله وشكروه على هذه المنة واستبشروا بنصر ميين وارتأوا أنه لا يلزم انتظار العدو ليقدم إليهم فاندفقوا من أعالي الجبال اندفاق الماء المنهمر ووثبوا على جيش يوستينيانس وثبة الاسود، حتى ان كثيرين من الاعداء ولوا الفرار قبل وصول الواثبين إليهم، وتفرقت صفوف العدو وأحاق بهم الموارنة من ورائهم ومن جانبيهم فاثخنوا فيهم وابسلوا كثيرين منهم، ووقع موريق

قتيلاً فأخذ أهل الكورة جثته ودفنوها في أميون». وقال السمعاني بعد ذلك أن الدويهي استكمل خبر انتصار الموارنة مستشهداً بكتاب تعليم اليعاقبة وأشعار البطريك يوسف العاقوري واليك ما أشار السمعاني إليه من مقال الدويهي: «وهكذا أخبر اليعاقبة في كتاب معتقدهم» ولما انتهت الملكية إلى قرية اسمها أميون تميز مويرين (بالتصغير تحقيراً) وابن اخته بريهم من الملكية ولحقوا سمر جبيل وحملوا أهلها من أداء الجزية التي فرضها الملكية على من لا يتبع مذهبهم ووافق مارون كل السريان الذين في جبل لبنان ونجوا مما كانوا يخشون». وإلى ذلك أشار الخوري يوسف العاقوري (الذي صار بطريكاً على الموارنة بعد ذلك) في زجلياته التي أخبر بها عن قدوم عسكر الروم إلى لبنان في الميمر الذي الفه سنة ١٦٢٠م.

خرجوا من اسطنبول متفقيين مع جوقة أعداء شياطين والسيوف على الموارنة مسلولين خالفوا لمارون وطاعوا الملكية فيهم من طاع ومن خالف والسيوف فوق رأسه مؤلف والبعض من الفزع تخلف وطاعوا إلى الملكية داموا في الشر مصطدمين حتى نزل الأمير مسعود والمقدمين والعساكر في أميون مجتمعين والقتل وقع في الملكية انقتلوا القواد في أميون وانتصر جماعة مارون والروم على موريق ابتون كنيسة لليوم مسمية

هذا ما أشار السمعاني إلى أن الدويهي استكمل به خبر إنتصار الموارنة وأردفه بقوله إن الدويهي قال في مريق ومرقيان عند تفنيده مزاعم سعيد بن بطريق بطريك الإسكندرية: «من البين أن مريق قتل في الحرب التي ذكرناها، ودفنه الملكية في قرية أميون، وأقاموا على مدفنه كنيسة وجعلوا عيداً لذكره في اليوم ٢٦ من تموز وهو من الأعياد المشهورة عندهم. وأما مرقيان فجرح في وقعة الحرب فحمل إلى قرية شويطة في عكار ومات بعد قليل من الزمان، وأقام الملكية له هيكلًا وعيداً» وقد ورد مثل ذلك في مقالة مرهج بن نمرون الباني في أصل الموارنة.

انتهى كلام السمعاني وقد أشرنا أن ننقل عنه كلام الدويهي مترجماً عن

اللاتينية من ان ننقل كلام الدويهي العربي ؛ أولاً : لأن نقل العلامة السمعاني له يزيده قوة وثباتاً ولا سيما أنّ السمعاني قد انتقد الدويهي في كل ما كان من كلامه محلاً للنقد كما ستري ، وشرح كل ما كان مبهماً أو غامضاً فيه ثانياً ، لأن نسخ تاريخ الدويهي التي اعتمد عليها السمعاني في رومة أصبح من النسخ العربية التي تتداولها ايدينا في سورية ، وقد رأيت أنفاً ما أبناء من الخطأ في النسخة التي اعتمد عليها العلامة البطريك بولس مسعد وطابع كتاب تاريخ الدويهي ، ثالثاً لأننا نظن السمعاني لم يرو ما رواه عن الدويهي إلا معارضاً بنسخ كتابه العربية التي كانت في رومة وترجمته إلى اللاتينية. وقد أنبأنا (مجلد ١ من مكتبة الشرقية صفحة ٤٠٥) أن العلامة الآخر الاب بطرس مبارك اليسوعي الماروني قد ترجم هذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية، وهذا ايضاً مما يزيد شهادة الدويهي ثبوتاً وثقة بصدقها .

واقول ان ارسال يوستينيانوس عساكره في الدفتين لجلاء عسكر المردة من لبنان والقبض على بطريركهم لا بد ان كان بقوة المعاهدة المنعقدة بينه وبين عبد الملك ابن مروان وإلا فكيف تمكن دخول عساكر ملك الروم إلى سورية وهي بحوزة الخلفاء وان اوهت سلطتهم عليها غزوات المردة وعليه فارسال هذه العساكر إلى سورية هو مما يؤيد المعاهدة المذكورة التي لا ينكرها المؤرخون المسلمون .

عد ١٠

الإنقسام بين الموارنة والملكية

يشهد الله ، ويعلم كل من عاشرني وأطلع على دخيلتي ، أنني والحمد لله منزّه عن كل تعصّب طائفي لغير الحق وهائم بالإلفة والوفاق بين كل اصحاب المذاهب الدينية أيها كان ، كلفاً بالراحة والتضافر على كل ما به الخير العام والخاص والنجاح والقوة التي لا تقوم إلا بالاتحاد والخضوع للسلطة الشرعية . وعليه فما ذكرته في الفصل السابق ، وما سأذكره الآن ، لا يحملني عليه وآيم الله إلا بيان الحق كما يحصّص لي ويتجلى عليّ ، ولا أشاء ان اتقصّ ملة أو أحداً أيّاً كان بل ان اكشف عن وجه الحقيقة التاريخية كما أراها في كتب القدماء الموثوق بصدقهم .

روى الدويهي في تاريخه ان بدء الإنقسام بين الموارنة والملكية إنما كان بسبب التحامل على يوحنا مارون وبسبب الواقعة التي كانت بين جيش الروم وأهل الكورة وبين مجاورهم الموارنة . فالذين تبعوا جيش الروم وانقادوا لرأيهم سموا ملكية نسبة إلى الملك الذي كان من أهل البدعة، والذين ثبتوا على الإيمان وطاعة البطريرك يوحنا مارون استمروا يسمون موارنة. وقد أورد السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٠٧) . قول الدويهي كما ذكرناه وقول ابن نمرون الباني الماروني إلا أنَّ بعضهم رأى أن تسمية الملكية أقدم من ذلك العصر وقال انهم ينتسبون إلى الملك مرقيان والمجمع الرابع (الخلكيدوني) . وأول من قالوا بهذا القول من السريان على ما اعلم إنما هو ديونيسيوس بن صليبا سنة ١١٦٠م (في الفصل الاول من شرحه رتبة القديس) وهاك قوله «إنما سموا ملكية لانهم تركوا إيمان الآباء واتبعوا رأي الملك مرقيان» . وقال مثل ذلك من اليونان نيكوفور كالستس الذي كان مشهوراً في سنة ١٣٣٠م (في تاريخه ك ١٨ فصل ٥٢) وهاك قوله «ظهر في سورية شقاق عظيم في أيام يعقوب (البردعي) هذا الذي كان يدعو إلى بدعة الطبيعة الواحدة، فمن تشبثوا بالإيمان القويم سموا ملكية لأنهم اتبعوا المجمع الرابع المقدس والملك لان ملكو عند السريان تأويلها ملك» . ولا أذكر أحداً من المؤرخين اليونان والعرب واللاتينيين الذين كانوا بعد نيكوفور وابن صليبا كساويرس أسقف الاشمونيين ، وابن الراهب مؤلف التاريخ الشرقي وجيورجيوس بن العميد الذين اتبع بارونيوس رأيهم لأنهم انتحلوا كلام ابن صليبا ونيكوفور، ولا أحفل بذكر سعيد بن البطريق البطريرك الإسكندري وان كتب في القرن العاشر، وذكر الملكية متواتراً (مجلد ٢ صفحة ١٦ و ٣٣، و ٧٩ و ٩٥ و ١٠٠ و ١٠٣) ولم يذكر اصل هذا الاسم بل يتبين من كلامه انه كان مستعملاً قبل مرقيان الملك مراداً به اصحاب الإيمان القويم لأنه قال (صفحة ١٠٠) : «وكان مرقيان الملك حسن الامانة وكان يدين ويقا تل عن امانة الملكية» ولا اعبأ ايضاً بقول توما الحارقي اسقف كفرطاب من اصحاب بدعة المشيئة الواحدة الذي كانت محاوره بينه وبين يوحنا بطريرك الملكية سنة ١٠٨٩م، في ان في المسيح مشيئة واحدة اثبت فيها ان الملكية سموا بهذا الاسم لأنهم اتبعوا يارشاد القديس مكسيمس المعترف الملوك : مرقيان وأخاه وموريق سلفاء هرقل، وإليك قوله (عن كتابه الذي هو الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية) . «ان مكسيمس مضى إلى الملكيين مرقيان وأخيه وإلى

موريق الذي خلفهما في قسطنطينية فرخصوا له أن ينذر بمشيئتي المسيح في سورية، فمن امتثلوا أوامرهم سموا ملكية». قلت لا أعبا بهذا القول لانه لا شاهد له بل هو مخالف لجميع آثار التاريخ الكنسي التي نصت على ان الملك مرقيان كان قبل موريق الملك بمئة سنة ونيف وانه لم يكن أخ يشاركه في الملك ولم يكن في أيامه ولا في ايام موريق الملك بحث في مشيئتي المسيح بل نشأ هذا البحث في ايام الملك هرقل خليفة فوقا وموريق لنحو سنة ٦٢٨ م .

والذي أراه راجحاً أنّ اسمي الملكية والمردة كانا في عصر واحد وأحدهما يخالف الآخر، ولم يكونا يدلان في أول استعمالهما على دين أو طقس كما ارتأى بعض العلماء الموارنة، بل على غرض أو حزب مدني، وإن دلاً على ذلك بعداً أعني لما افترق كل فريق منهما عن الآخر بطقسه ورعائه ومذهبه، لان من عصوا الملك بسورية سموا مردة اي عصاة ومن استمروا على طاعة الملك سموا ملكية، وإنما كان هذا في أيام الملك قسطنطين اللحياني لما استحوز المردة على كل ما كان من الجبل الأسود (المعروف بالجبل الاقارع) إلى مدينة أورشليم المقدسة كما أثبت توفان وشدرانس. ويؤيد ذلك صمت جميع الآباء والمؤرخين القدماء عن ذكر الملكية، فقلب ما شئت كتب الآباء في القرون الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع فلا تجد ذكراً للملكية، ودقق في مطالعة تواريخ بروكوب وأفاغريوس وتوفان وشدرانس وزوناراس وتوافيلكتس، فلا تلقى أثراً لهذا الاسم في كتبهم بل لا نجد ذكراً للملكية في كتب اولي البدع ايضاً كبطرس القصار، وفيلوكسينس المنبجي، وساويرس، وبطرس الالغ، ويوحنا فيلوبون، والداراوي وغيرهم، بل تراهم سموا الكاثوليكين متواتراً خلكيديونيين او مجمعيين ولم يستوهم قط ملكيين. وبعكس ذلك ترى توفان وشدرانس صراحة مرات بذكر المردة ولم يصماهم ببدة وهذا دليل واضح على ان اسمهم دال على غرض أو حزب مدني لا على زيغان عن الدين، ولذلك سمي اعداء المردة ملكيين بلغة موطنهم. ولو أشعرت هذه التسمية ببدة لكان من كتبوا تاريخ تلك الايام والبدع التي نشأت فيها بسورية وصفوا إحدى الفرقتين باراتيكية ثم ان هذين الاسمين سريانين واول استعمالهما كان في سورية، ويؤيد ذلك اللفظ نفسه، وإقامة المردة والملكية قديماً وإلى الان في سورية. وقد ندر او انقطع وجود الامتين في غيرها، ولهذا لا يعبا بقول باجيوس (في تاريخ سنة ٦٢٢م) ان اسم ملكية وضع في ايام

مرقيان في مصر . . . إذ لم نر مؤرخاً قبل سعيد بن بطريق عزا اسم ملكية إلى مرقيان ولو وضع هذا الاسم في مصر لما سمي الكاثوليكيون ملكية، وهو لفظ سرياني أو عربي بل باسيلين عن لفظ ملك في اليونانية، أو بلفظ آخر من لغة المصريين والامر بيّن كالنور. فالمصريون لم يستعملوا السريانية قط ولم يتكلموا بالعربية إلا بعد مرقيان، والمجمع الخلكيدوني بقرنين لما فتح عمر بن الخطاب مصر. وأما تسمية العلماء الحدباء الروم المصريين ملكية فلا يحفل بها لأن اسم اليعاقبة لا مراء في انه منسوب إلى رجل سرياني، ووضع في سورية، وقد سمي به بعد ذلك اصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في مصر. فإن هذه الاسماء عرضة لتغير مدلولها، يؤيد ذلك اسم الملكية فقد كان أولاً دالاً على السريان الكاثوليكين والآن هو عبارة عن الروم المتحدين وغير المتحدين وعن المصريين اصحاب الطقس اليوناني، واللبنانيون كانوا يسمون في القرن السابع مردة، والآن يسمون موارنة نسبة إلى القديس مارون الذي بني له الدير على العاصي في جانب أبايا، وفيه نشأ يوحنا بطريركهم وقد سمي لذلك مارون». انتهى كلام السمعاني مترجماً بحروفه ولا يتسنى لي أن أزيده بياناً. فعمدة برهان هذا العلامة أنّ اسمي مردة وملكية يقابل أحدهما الآخر وقد كانا في عصر واحد ونشأ في بلاد واحدة وهي سورية وجل الخلاف في نسبة الملكية إلى مرقيان الملك. وهذه النسبة غير ثابتة إذ لا تجد لها ذكراً في كتاب من جميع كتب العلماء والمؤرخين من القرن الرابع إلى القرن العاشر كاثوليكين كانوا أو هراطقة. وأول من ذكرها هو رجل هائم أن يشرف امته ومعروف بطيشه وكثرة اغلاطه وهو سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري الملكي ومن أخص قواعد الانتقاد أنّ الاحداث الهامة إذا لم يذكرها مؤرخو القرن الذي حدثت فيه فلا يركن إلى صحتها ومن قالوا كسعيد بن البطريق بصحة هذه النسبة إلى مرقيان الملك يحمل كلامهم على انتحاله عنه أو على المتابعة له على زعمه ولا تصلح شهادتهم لتأخرها قروناً عن هذه التسمية ولم يعزوها إلى مؤرخ معاصر فلا أساس راهن لها، وعليه فهي ساقطة ولو كثر عدد القائلين بها من المتأخرين ولو صدقت هذه التسمية على من اتبعوا المجمع الخلكيدوني والملك مرقيان لكان رهبان القديس مارون أحق بها من سواهم؛ إذ ناضلوا عن هذا المجمع وسفك كثيرون منهم دمهم في الدفاع عنه كما روى كثيرون من القدماء والمتأخرين، وكما تشهد الكنيسة الرومانية بتعيينها لهم، ولا نرى أحداً دعاهم ملكية. والحق أقول أني لم

أجد أنا أيضاً في مطالعاتي (وان لم تقس على شيء من مطالعات العلامة السمعاني) قولاً واحداً من أقوال العلماء قبل القرن العاشر يثبت هذه النسبة، واحسبني سعيداً ان ظفرت بشيء من ذلك لأغث رأيي هذا.

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون واسقفيته وبطيركيته وتأليفه

عد ١١

منشأ القديس يوحنا مارون

نعتمد في ترجمة القديس يوحنا مارون على ما دونه العلامة السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٩٦ وما يليها) نقلاً عن الكتاب العربي الذي خطه سنة ١٤٩٥م جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي اسقف نيكوسيا بقبرص إلى القس جيورجيوس بن بشاره رداً على اليعاقبة، وقد اذاعه الأب فرنسيس كوراسمس مترجماً إلى اللاتينية سنة ١٦٣٩م في مؤلفه وصف الارض المقدسة (ك ١ فصل ٢٧ صفحة ٩٦)، ونقلاً عن العلامة البطريك اسطفانس الدويهي الاهدني في كتاب محاماته عن الموارنة (ك ١ فصل ٧ وما يليه).

قال السمعاني في المحل المذكور ولد يوحنا في قرية تسمى سرور موقعها في جبل السويدية على مقربة من مدينة انطاكية، وقد استشهد لصحة ذلك افاغريوس (في ك ٤ من تاريخه فصل ٣٨) وكاتب ترجمة يعقوب البردعي بالسريانية على ما روى الاهدني (في الفصل السادس من تاريخ الموارنة) حيث يقول: «اشتهر يعقوب بحفظ ايمان الرسل الذي تلقيناه من يعقوب أسقف أورشليم الاول، وملاً الكنيسة بأسرها بأعماله الحسنة، ولذا يلتقي الآن الهراطقة وأصحاب الايمان القويم فيسألهم الهراطقة من أنتم ومن تتبعون، فيجيبهم الارثوذكسيون اننا نتبع ايمان

يعقوب اول الرسل الذي سمي اخا الرب بالجد وهذا الايمان قد أرشدنا إليه يعقوب هذا الإلهي (أي البردعي) . واما المخالفون فيقولون نحن نتبع افرام الآمدي (بطريك انطاكية الذي ذكرنا ترجمته) أو يوحنا السرومي وهو البطريك المخالف لله . ولا مراء في أنّ كاتب هذه الترجمة اليعقوبي يريد بيوحنا السرومي يوحنا مارون الذي كان يناصر اليعاقبة في سورية لا يوحنا السرومي الآخر الذي خلف افثيشيوس بطريك قسطنطينية في أيام يوستينيانس الملك كما روى افاغريوس في المحل المذكور، لأنّ هذا السرومي لم تكن له علاقة أو بحث مع سكان لبنان وسورية بل ربما لم يعرفوه ولم يسموا باسمه .

وقد جاء في تاريخ البطريك اسطفانس الدويهي أنّ ابا يوحنا مارون كان اسمه اغاتون، وكان اسم أمه انوهاميا، وأنهما كانا حسيين شريفيين من نسل ملوك فرنسا. وقد اعتمد في ذلك على كتاب قديم كرشوني كان في كنيسة السيدة بدمشق قيل فيه: « كان رأس الأمة المارونية رجل اسمه يوحنا فاضل عالم مستقيم كثير الفضائل وهو من أصل شريف، اسم أبيه اغاتون واسم أمه انوهاميا واسم جده اليديس ابن أخت ملك فرنسا » وجاء مثل ذلك في ترجمة يوحنا مارون التي كتبها جبرائيل اللحفدي اسقف نيكوسيا إلى القس جرجس بن بشاره سنة ١٤٩٥م كما مرّ. وارتأى الدويهي وابراهيم الحاقلي (في شرحه قصيدة عبد يشوع الصوباوي) أنّ يوحنا مارون هو المراد بقول عبد يشوع **ܡܪܝܢܐ ܕܝܫܘܥ** أي يوحنا ابن الافرنج. على أنّ هذه الرواية لا يمكن تحقيقها ولا القطع بصحتها وان كنا لا ننكر أنّ كثيرين من الافرنج كانوا يسكنون وقتئذ في سورية للتجارة وللهرج الذي أحدثه الغطط والبندالة وغيرهم في اوربا في القرنين الخامس والسادس، بل قد اثبت القديس ايرونيوس أنه كان من أيامه كثيرون من الاوروبيين في سورية، وإن كان الدويهي بعد ان زوى ان اليديس جد يوحنا مارون كان ابن أخت كارلس الكبير ملك فرنسا، انتبه إلى ما يرد على ذلك من ان هذا الملك كان بعد يوحنا مارون بسنين متطاولة، وحل هذا المشكل بأنّ كثيرين من ملوك فرنسا سمو باسم كارلس وأنّ كارلس المذكور لم يكن ملكاً بل كان أميراً في انطاكية، ودعي ملكاً. جرياً على عادة السريان والعرب أن يسموا كل حاكم أو متولٍ ملكاً إلا أنّ كل ذلك لا يبلغ هذه الرواية إلى درجة التحقيق بل إلى درجة احتمال الصحة فقط، وقد أثبت العلامة السمعاني (مجلد ٢ صفحة ٣٠٦) أنّ الدويهي والحاقلي قد

انخدعا برواية عبد يشوع الصوبايوي وصحيح كلامه . **سورة حزقيال**
أي يوحنا ابن الفخارين لا ابن الافرنج، فمن ذكره عبد يشوع إذأ ليس يوحنا مارون
فلا يثبت قوله أنه كان افرنجياً .

إنّ والدي يوحنا سلماه مذ حدائته إلى المدارس لاقتباس العلوم في انطاكية أولاً
ثم في دير القديس مارون، فنبغ في العلوم اللغوية والرياضية والآلهية، ولشدة هيامه
بالعلم سار إلى قسطنطينية فاتقن تعلم اليونانية بفنونها، والفلسفة، وانكبّ على
مطالعة كتب الآباء القديسين وتفسيراتهم، وبلغه نعي والديه فعاد إلى انطاكية
وكانت له شقيقة لها ابنان يسمى احدهما ابراهيم والآخر قورش، وكان ابراهيم
فطناً أديباً شجاعاً فسلم إليه تدبير البيت والأملك وساد بعد ذلك في قومه وأخذ
يوحنا قورش أخاه وصعد به إلى دير القديس مارون الذي على ضفة العاصي زاهداً
في العالم ومجده وكرامته، فلبس هو وابن اخته قورش زي الرهبان ونذر يوحنا
نفسه لله ورقى إلى درجة الكهنوت وسمي يوحنا مارون نسبة إلى القديس مارون أو
إلى ديره، وتفانى في حب خلاص النفوس وارشاد الناس إلى الايمان القويم
والفضائل مناضلاً اولي البدع ومناصباً الأشرار، فصنّف كتباً كثيرة ووضع مقالات
شتى سنّاتي على ذكرها، وكان ينمو بالحكمة والنعمة كل يوم ويعظم ثوابه لدى
الله ويرتفع قدره لدى الناس ولم نظفر بما ينبتا بسنة مولده وقد أجمعوا على أنه
توفاه الله سنة ٧٠٧م، فإن قدير أنه عاش ثمانين سنة كان مولده سنة ٦٢٧ م .

عد ١٢

أسقفية القديس يوحنا ماررون

جاء في ترجمة يوحنا مارون التي ذكرها السمعاني (مجلّد ١ من المكتبة
الشرقية صفحة ٤٩٩) أنّ يوحنا مارون هدى كثيرين إلى الإيمان القويم، وكان
كثيرون يأتون إليه ويعملون بما يشير عليهم به . ولذلك رأى أوجان البرنس (أي
أمير أنطاكية) وجميع الإفرنج المقيمين في أنطاكية أن يقدموا يوحنا إلى الكردينال
سفير الكرسي الرسولي الروماني ليرقيه إلى درجة الأسقفية على مدينة البترون، ليقى
أهل جبل لبنان من الضلال ويثبتهم في إيمان الكنيسة الرومانية . وقد صرّح اليعاقبة
بإقرارهم بذلك في كتاب معتقدهم الذي كان في العربية بمكتبة مدرسة الموارنة

برومة حيث يقول مؤلف هذا الكتاب : « أنتم كلكم سريان وكان كرسي بلدكم لانطاكية السريان إلّا لما جارت ملوك الروم على السريان وقتلوهم قام مارون ووافق ملك الإفرنج الذي في أنطاكية وكان اسمه أوجان برنس، وقال له يا ملك الزمان نخاف على جبل لبنان أن تستميله أمة الملكية إلى معتقدهم فقلّ للكردينال الذي عندك وألزمه يكرسني مطراناً حتى أمسك بعض الناس على أمانة الفرنجية، إلّا أمانة يعقوب فلا أذكرها فكرسه مطراناً على البترون » انتهى كلام مؤلف كتاب تعليم اليعاقبة ولا شك في أنه يريد بمارون يوحنا مارون راهب دير القديس مارون .

ولم نرَ السمعاني تصدى في المكتبة الشرقية لشرح هذه الفقرة من ترجمة يوحنا مارون، لكننا رأينا شرحها بإسهاب في الكتاب الرابع من مكتبته في الناموس الديني والمدني في ثلاثة فصول هي : الثامن عشر، والتاسع عشر، والعشرون من الكتاب المذكور حيث أطلال وأجاد في ذكر إقامة يوحنا الفيلاذلفي (أسقف فيلاذلفيا وهي المعروفة اليوم بعمان في عبر الأردن) نائباً للكرسي الرسولي في بطريركيي أنطاكية وأورشليم كما ذكرنا في كلامنا على بطاركتهما في القرن السابع إذ لم تمكن الحال من إقامة بطريركين فيهما، وأورد البراءة التي نصب فيها البابا مرتينس يوحنا الفيلاذلفي في هذه النيابة ومما قاله فيها: « ونحرضك على أن تكون نائباً لنا في هذه الأمصار الشرقية في جميع المقتضيات البيعية فأسرع إلى إصلاح كل ما كان إصلاحه لازماً، وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة بطريركيي أنطاكية وأورشليم، إننا نأمرك بذلك بالسلطان الرسولي الذي أولانا الله إياه بواسطة بطرس زعيم الرسل (عن براءة البابا مرتينس التي أثبتها لاباي في مجلد ٦ من مجموعة الجوامع صفحة ٢٠). وقد أنفذ البابا مرتينس أيضاً رسالة أخرى عامة إلى جميع الكهنة والأساقفة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيي أنطاكية وأورشليم قال فيها إنه بالسلطان الذي أولاه الله إياه قد أقام يوحنا الفيلاذلفي نائباً له في المشرق، ويناشدهم أن يحسنوا الطاعة له وأن يجانبوا الأراطقة ولاسيما مكدونوس الذي غصب كرسي أنطاكية وبطرس الذي تدخل على كرسي اسكندرية وأعلمهم بحرمة بدعة المشيئة الواحدة في مجمع لاتران، وأنه أرسل إلى يوحنا الفيلاذلفي نسخة من أعمال هذا المجمع ليطلعهم عليها. وقد ذكر هذه الرسالة أيضاً لاباي في مجموعة الجوامع (مجلد ٦ صفحة ٢٩) والسمعاني في مكتبة الناموس (في المحل المذكور آنفاً) .

فأتم الفيلادلفي ما عهد إليه به البابا مرتينس رغماً عن تشييع الملك قسطنس بن هرقل وبطاركة قسطنطينية لأصحاب بدعة المشيئة الواحدة ، وتيسر له العمل بنيابته بعد موت قسطنس وخلافة ابنه قسطنطين اللحاني له ، إذ كان حسن المعتقد كثير الغيرة على الإيمان الكاثوليكي ؛ وقد رأيت ما كان من السطوة حينئذ لسكان لبنان وقد كان مكدونوس ومكاريوس بطريركا أنطاكية حينئذ متشبثين بدعة المشيئة الواحدة مقيمين في قسطنطينية . فسأل الكاثوليكيون في أنطاكية ولبنان يوحنا الفيلادلفي أن يرقى القس يوحنا مارون الذي كان اشتهر بعلمه وفضيلته ومناضلته أصحاب البدع إلى أسقفية البترون فرقاه إليها سنة ٦٧٥ أو سنة ٦٧٦ م .

حقق ذلك السمعاني في ك ٢ فصل ٢ من مكتبته في الناموسين وفي مجلد ٢ في مؤلفي تاريخ إيطاليا ، والبطريك يوسف أسطفان قسم ٣ فصل ٦ في قداسة يوحنا مارون ، والخوري أنطون قيالة البيروتي في رده كلام القس يوحنا عجيمي الملكي الكاثوليكي وروهر بخر في تاريخه لسنة ٦٦٨ م حيث قال : « إنَّ يوحنا الفيلادلفي الذي أقامه البابا مرتينس نائباً للكرسي الرسولي في المشرق سر بما بلغه من امتداد سطوة الموارنة ، ولغلا يفتقروا إلى المساعدات الروحية أقام لهم أسقفاً يوحنا مارون راهب دير القديس مارون » . روى كل ذلك البطريك بولس مسعد في الدر المنظوم صفحة ١٤١ .

وجاء في الترجمة التي أثبتها السمعاني في المجلد المذكور من المكتبة الشرقية أنَّ يوحنا مارون بعد ترقيته إلى أسقفية البترون انتقل من دير القديس مارون إلى فينيقية أي إلى أبرشيته ، وتفانى في حراثة كرم الرب ، وردَّ إلى الإيمان القويم كثيرين من أصحاب بدعتي الطبيعة الواحدة أو المشيئة الواحدة من رعيته وغيرها ، فنما شعبه وكثر عديدهم ، وانبسطت مساكن كثيرين منهم حتى أورشليم وبلاد الأرمن وكان بعضهم بكثرة الكهنة ورؤساء الكهنة لخلاص نفوسهم ، بل أقام لهم أمراء وقادة لجيشهم يذبّون عن جماعتهم ويحمون حماهم من كل معتد وكان من أمراء جيشهم ابراهيم ابن اخته الذي مرَّ بنا ذكره ، وكانت لهم السطوة والغزوات التي رويها عن توفان وشدراوس وزوناراس وغيرهم حتى ألجأوا معاوية وعبد الملك بن مروان إلى الإنفاق مع ملوك الروم عليهم بشرط أن يصدّوا غزواتهم ويجلوا عسكرهم كما مرَّ .

وأما دعوى القس يوحنا عجمي الملكي الكاثوليكي برسائله المنفذة إلى الخواجه الياس عبدو الحلبي بأن يوحنا مارون رقاہ إلى الأسقفية مكاريوس بطريرك أنطاكية المتسكع ببدعة المشيئة الواحدة فهي دعوى باطلة لم ينورها صاحبها بدليل راهن أو حجة قاطعة ولم يقل بها مؤرخ صادق، بل هي مخالفة لأقوال المؤرخين المحققين ومضادة لتصريح الأخبار الأعظمين ولاسيما البابا بناديكتس الرابع عشر العلامة، وقد فند الخوري أنطون القيارة البيروتي تلميذ مدرسة الموارنة في رومة رسالة القس يوحنا عجمي المذكورة، وأثبت هذا التنفيذ المطران ارسانيوس شكري أسقف حلب الماروني وقد طبع في بيروت هذه السنة ١٨٩٩م في كتاب الحمامة عن الموارنة وقديسيهم، فمن شاء زيادة بيان في هذا الشأن فليطالع الكتاب المذكور.

عد ١٣

بطريركية القديس يوحنا مارون

جاء في ترجمة يوحنا مارون التي أثبتها السمعاني في المحل المذكور من المكتبة الشرقية أنه في السنة الثانية للملك يوستيناس (الأخرم وهي سنة ٦٨٥م) قضى أجل توفان الذي أقامه آباء المجمع السادس بطريركاً على أنطاكية فاجتمع الرؤساء ليختاروا رجلاً صحيح المعتقد ليخلفه، وبعناية الله أجمعوا على انتخاب يوحنا الأسقف بطريركاً على أنطاكية وقلدوه رئاسة الكرسي الأنطاكي. وروى البطريرك اسطفانس الدويهي في تاريخ الموارنة أنه سار مع قاصد البابا من طرابلس إلى رومة إلى البابا سرجيوس فأحسن استقباله لأنه كان أنطاكي الأصل، ووشحه بدرع الرياسة ودفع إليه التاج والخاتم والعصا وخوَّله كل ما كان لأسلافه من المنح وعاد إلى أنطاكية، فأرغمه أصحاب البدع أن يفرّ أولاً إلى دير القديس مارون ومنه انفذ إلى اللبنانيين كتابه الموسوم بإيضاح الإيمان، ثم لم ينج هناك أيضاً من اضطهاد الملك يوستيناس الآخر وأولي البدع ففرّ إلى لبنان وأقام أولاً في سمر جبيل، ثم في كفرحى حيث بنى ديراً على اسم القديس مارون ووضع فيه هامته التي كان قد نقلها من ديرها على العاصي.

على أن السمعاني ذيل كلام البطريرك اسطفانس الدويهي بحاشية قال فيه ما ملخصه: «اعتمد اسطفانس الدويهي في بطريركية يوحنا مارون على التقليد العام

عند الموارنة ، وعلى إقرار اليعاقبة الذي مرّ ذكره ، وعلى مقدّمة كتاب يوحنا مارون الموسوم بإيضاح الإيمان الذي دوّنه وأنفذه إلى سكان لبنان حيث قيل: « ورأى (يوحنا) مارون أنّ الأولى به أن يغير مقام كرسیه ولا يغير الإيمان القويم الذي علمه الآباء الذين اجتمعوا في نيقية وأثبتته باقي المجامع ففر من أنطاكية وأتى إلى دير في جهة اباميا على ضفة العاصي (وهو دير القديس مارون) وكان في ذلك الدير ثمان مئة راهب أطهار قديسون فأقام كرسیه بينهم، وكتب ثمّ هذا الكتاب وأنفذه إلى سكان لبنان المقدس». وهذه المقدمة تراها في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية مدونة بالسريانية والعربية كما رويناها إلّا في تغيير يسير، وهذا الكتاب قد خط سنة ١٧٠٣ يونانية الموافقة لسنة ١٣٩٢ للميلاد علي أنّ انتخاب يوحنا مارون بطريركاً في مجمع أساقفة في أنطاكية لم يقل به إلّا الإهدني ولو انتخب بطريركاً في أنطاكية باجتماع أصوات الأساقفة لذكر المؤرخون الروم واللاتينيون اسمه في سلسلة بطاركة أنطاكية سواء كان كاثوليكياً أو أرثوذكسياً كما ذكروا أسماء جميع بطاركة أنطاكية الكاثوليكين وغير الكاثوليكين ممن كانوا قبله أو صيروا بعده . ولهذا أظن أنّ الأمثل أن يقال إنّ لم ينتخبه أساقفة الكرسي الأنطاكي الذين كانوا طوع يدي يوستينانوس ملك الروم ، بل انتخبه بطريركاً أساقفة المردة أي الموارنة . ويظهر لي أنّه يؤيد هذا اعتياد الموارنة إلى اليوم أن يقيموا لأنفسهم بطاركة بالإنفصال عن الروم واليعاقبة والنساطرة ، ولا يصدق أنّ جمهوراً كبيراً من الناس وقد استحوذوا على كلّ ما كان من الجبل الأسود إلى أورشليم كان خليلاً من رئيس وراع ، وانضوى إلى أمة واحدة تخالف غيرها في طقوسها وعوايدها دون أن يكون لهم رئيس يجمع شملهم، ولهذا لا ترى المؤرخين الروم واللاتينيين ذكروا أعمال يوحنا مارون لأنّها كانت في جبل لبنان ولم يذكر المؤلفون الروم بطريركيته لأنّ رعيته جميعها كانت من السريان وهم لا يذكرون إلى الآن خلفاء يوحنا مارون من بطاركة الموارنة في عداد البطاركة الأنطاكيين . أما ما رواه كوارسمس في ترجمة يوحنا مارون من أنّه أتى إلى رومة وأقامه البابا سرجيوس بطريركاً على أنطاكية فأظن مصدريه أنّ يوحنا مارون والموارنة تشبثوا بعري الكرسي الرسولي الروماني خلافاً لباقي السريان انتهى كلام السمعاني .

وقد انتحل لكويان (في مجلّد ٣ من المشرق المسيحي صفحة ٤٩ في بطاركة الموارنة) كلام السمعاني برمته ولم يزد عليه إلّا فقرة من كتاب يوحنا سافريوس في

رحلته إلى أورشليم (فصل ٢٧) نقلها عن مقالة نيرون الباني في الموارنة (صفحة ٣١) وهي: «أنَّ الموارنة لوجودهم بين أصحاب البدع الكثيرة في سورية التمسوا من الحبر الروماني أن يقيم عليهم بطريكاً خاصاً بهم فأجاب سؤالهم وأقام (يوحنا) مارون في المقام البطريركي ... فعاش مجملاً بالقداسة ومذ ذاك الحين أخذ الموارنة يختارون لأنفسهم دائماً بطريكاً خاصاً» .

والحاصل مما مرَّ أنَّ ترقية يوحنا مارون إلى البطريركية اختلفت فيها الأقوال فمن قائل إنَّ القاصد الرسولي في سورية أخذه بعد موت توفان إلى رومة وكان وقتئذ أسقفاً على البترون فأقامه البابا سرجيوس بطريكاً على أنطاكية . ومن قائل: إنَّ الأساقفة اجتمعوا في أنطاكية وأقاموه بطريكاً واضطروا أن يهرب منها إلى دير القديس مارون ثم إلى لبنان كما روى الاهدني . ومن قائل أنَّ أساقفة الموارنة اجتمعوا في لبنان واختاروه بطريكاً أنطاكياً عليهم كما روى السمعاني . وكل هذه الأقوال نراها محتملة الصحة ولا يتسنى لنا أن نرجح أحدها على الآخر ولا سيما أنَّ العلامة السمعاني لم يقطع بصحة قوله بل عبّر عنه بكلمة أظن ، ولم يقم عليه دليلاً إلَّا صمت المؤرخين اليونان واللاتين عن ذكر يوحنا مارون وخلفائه في سلسلة بطاركة أنطاكية . وكلَّ يعلم أنَّ هذا الدليل وحده ليس بقاطع ولكن بأيّ هذه الأقوال قلنا تبين أنَّ الأخبار الرومانيين أقروا ليوحنا مارون بالبطيركية على أنطاكية ولا سيما أنَّ توفان أثبت (في تاريخ سنة ٧٤٣م) أنَّ كنيسة أنطاكية لم يقم فيها راع مدة أربعين سنة، وتوافلكتس روى أنَّها استمرت حينئذ خمسين سنة خالية من بطريك وتابعه على ذلك إدوار برنردس في سلسلة بطاركة أنطاكية واعتمد لكويان هذه الأقوال (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) ولم يحقق وجود بطريك يقيم في أنطاكية إلَّا أسطفانس أقيم سنة ٧٤٢م (طالع عد ٦٩٢) ولا تسه عما كانت عليه حال سورية في تلك الأيام من الحروب والتشيع للبدع وما كان للمردة أي الموارنة من السطوة والصولة واستحواذهم على كل البلاد من الجبل الأسود إلى أورشليم . فهل يخطر على بال أنَّ الأخبار الرومانيين تركوا أنطاكية وسورية خلواً من رئيس يعني بأمر المؤمنين وقيهم الضلال ويشتهم في الإيمان الكاثوليكي، ويكفيها مؤونة البرهان في ذلك قول العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر بخطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م حيث قال: « لا يفوتكم أنَّه في أواخر القرن السابع عندما فشلت بدعة القائلين بمشيئة واحدة في المسيح وأفسدت سكان

البطيركية الأنطاكية ، جزم الموارنة حينئذ رغبةً في وقاية طائفتهم سالمة من ذلك الفساد أن يختاروا لهم بطيريكاً يثبت من الخبر الروماني . وقد أجمع كل من ذكروا هذه الأحداث أن البطيريك الذي اختاره الموارنة حينئذ إنما هو البطيريك يوحنا مارون .

وقد ورد في تاريخ أنسطاس المكتبي أنه كان في السنة الأولى ليوستينيانس الملك توادورس البطيريك القسطنطيني ، واسكندر البطيريك الأنطاكي . ولكن اسكندر هذا قل من ذكره ممن كتبوا تاريخ بطاركة أنطاكية ، وأثبت العلامة السمعاني في مكتبة الناموس (مجلد ٥ صفحة ٢٧) أن اسكندر هذا إنما هو جيورجيوس الآتي ذكره وكذلك سماه كثيرون جيورجيوس أو اسكندر وعن لكويان (في المشرق المسيحي في بطاركة أنطاكية) أن ابن البطريق لم يذكر اسكندر بل ذكر توما ، وقال إنه استمر في البطيركية عشرين سنة وقام بعده جيورجيوس في السنة الأولى لخلافة عبد الملك بن مروان ، فقال لكويان هذا عن التاريخ الصحيح بمراحل . وأما جيورجيوس فقد جاء اسمه في جملة توقيعات الأساقفة على مجمع قصر الملك الذي عقده يوستينيانس الأخرم سنة ٦٩٢م وقال فيه لكويان (في المحل المذكور) إنه يظهر من أعمال المجمع السادس المسكوني أن جيورجيوس هذا كان راهباً كاهناً في سبسطية (السامرة) بفلسطين وكان في جملة نواب بطيركية أورشليم في هذا المجمع ، ويظهر من توقيعه على مجمع قصر الملك ان صير بعد ذلك بطيريكاً على أنطاكية ، ولكن يتبين من توقيعه أنه زيد بعد انحلال المجمع من يد كاتب حديث . وقال السمعاني (في مكتبة الناموس مجلد ٥ صفحة ٣١) ان توقيعه على هذا المجمع ، كان على الهامش بهذه الصورة: « الحقير جيورجيوس أسقف أنطاكية وقعت حاكماً بما رسم » وإنه هو الذي سماه مكاريوس البطيريك الملكي في فهرست بطاركة أنطاكية ، اسكندر وأوجب أنه شهد مجمع قصر الملك لكنه أثبت أن البطاركة الأنطاكيين مكدونئوس ومكاريوس وتوفان وجيورجيوس هذا ارتقوا إلى بطركية أنطاكية في قسطنطينية ، واستمروا فيها إلى يوم وفاتهم إلا مكاريوس فإنه توفي في رومة بعد أن عزله المجمع السادس ، وحضور جيورجيوس في مجمع قصر الملك الذي نبذه الكرسي الرسولي إلى الآن والذي كان فيه الأساقفة طوع ידי يوستينيانس الأخرم لا يدل البتة على أن جيورجيوس كان صحيح العقيدة ، ويظن أنه كما اختار

قسطنط الملك مكدونوريوس ومكاريوس بطريركي أنطاكية لتشجيعهما لبدعة المشيئة الواحدة كما حقق السمعاني (مجلد ٤ من مكتبة الناموس فصل ٢٠) هكذا اختار يوستينيانس الأخرم جيورجيوس هذا وأقام في قسطنطينية كأسلافه . والحاصل ممّا مرّ أنّ جيورجيوس يشكّ في صيرورته بطريكاً أنطاكياً إذ لا يستدلّ على ذلك إلّا بتوقيعه وتوقيعه يشكّ في صحته على ما رأيت من كلام لكويان والسمعاني ويرجح أنّه لم يكن صحيح العقيدة وإنّ يوستينيانس أقامه بطريكاً إن صحّت بطريركيته، ومن المؤكّد أنّه لم يقيم في أنطاكية كما رأيت وقد فرغت بطريركية أنطاكية من بطريك بعد ذلك أربعين سنة أو خمسين كما أثبتنا وقد حققه السمعاني (في مكتبة الناموس مجلد ٥ صفحة ٢٧ و ٥٠٠ و ٥٠١) وفي مقالته في بطارقة اليعاقبة المعلقة على ترجمته لتاريخ ابن الراهب صفحة ١٧١).

فاذاً الخليفة الشرعي والكاثوليكي لتوفان الذي أقامه الجمع السادس بطريكاً لأنطاكية إنّما هو القديس يوحنا مارون، وفي مدّة أربعين أو خمسين سنة بعد ذلك لم يقيم بطريك على أنطاكية، ولم يكن بطريكها الكاثوليكي إلّا القديس يوحنا مارون، ومن بعده قورش ابن اخته وخلفاؤهما كما ستري. نعم إنّّه كان بطريكاً خاصاً على الموارنة ولكن لم يكن في تلك الحقبة بطريك أنطاكي كاثوليكي سواه وكان الموارنة السواد الأعظم من سكان هذه البطريركية الكاثوليكين، وكانوا محتازين كل ما كان من الجبل الأقرع إلى أورشليم كما رويناه عن ثقة من المؤرخين، وكان باقي السكان إما يعاقبة ولهم بطريك خاص بهم ينسب إلى أنطاكية، وإما متسكعين ببدعة المشيئة الواحدة لإتباعاً لأكثر ملوك قسطنطينية ورؤسائها، وإما كاثوليكين ولكنهم مشتتون في أصقاع كثيرة ويمنع الخلفاء من إقامة بطريك في أنطاكية، ولما رخصوا للنصارى بذلك اختاروا أسطفانس المارّ ذكره في أواسط القرن الثامن لكنه لم يكن بطريكاً عاماً لأنّ النساطرة أنشقوا عن بطريركية أنطاكية وأقاموا لهم بطريركية في بابل . واليعاقبة بعد موت ساويرس أخذوا يختارون بطارقة خاصين بهم يسمونهم أنطاكيين والموارنة اعتادوا إقامة بطريك خاص بهم يثبته الكرسي الرسولي ويوليه حقوق بطريركية أنطاكية كما رأيت وستري، فلم تكن أهمية للبطريك المقيم في أنطاكية، ولم يكن يلي إلّا الكاثوليكين القلائل المشتتين عدا الموارنة ولم يكن جميع هؤلاء البطاركة كاثوليكين، ولم يمضِ زمان طويل إلّا عمّ انفصال كنيسة الروم المشرق وأخذوا

يقيمون بطاركة في أنطاكية إلى اليوم، ولما زحف الإفرنج إلى هذه البلاد أقاموا بطاركة على أنطاكية وغيرها ولكن على اللاتينيين وحدهم ولما طردوا من هذه البلاد لم يبق لمن سمي بطريكاً إلا الشرف. وعلى هذا المتوال استمر خلفاء القديس يوحنا مارون البطاركة الشرعيين الكاثوليكين وحدهم لأنطاكية قروناً كثيرة. وفي القرن السابع عشر ارتدَّ بعض الملكية المنفصلين إلى الإيمان القديم فرخص لهم الحبر الروماني في القرن الثامن عشر أن يقيموا بطريكاً خاصاً بهم وأن يسمى أنطاكياً وارتدَّ بعض السريان عن اليعقوبية إلى الإيمان الكاثوليكي فرخص لهم الحبر الروماني أن يقيموا بطريكاً خاصاً بأمتهم وأن يسمى أنطاكياً أيضاً. فقد كانت هذه البطريكية أشبه بشجرة فصمت بعض أغصانها القديمة ونبت في موضعها فروع حديثة واستمرَّ غصن فيها متمسكاً بالأصل مزهراً مثمراً والحاصل من ذلك أنَّ القديس يوحنا مارون وخلفاءه إلى اليوم هم البطاركة الشرعيون الكاثوليكون لكروسي أنطاكية خلفاء توفان خليفة بطرس في الكروسي الأنطاكي. وإليك إثبات هذه الحقيقة بأقوال الأحرار الأعظمين أنفسهم والقول ما قالوا.

قال البابا أيتوشنسيوس الثالث في رسالته إلى بطريك الموارنة وأساقفتهم وشعبهم سنة ١٢٠٧م ما ترجمته: «إننا نثبت أيها الأخ البطريك لكنيستك على اسم العذراء يمانوح كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها الخاضعين بحق الرئاسة لك ولخلفائك؛ أي مطرانية مار اسيا تربل المنيطرة ورشعين وكفرو وعرقا وتأخذ باليوم درع ملء الخدمة الحبرية بحسب العادة فيسلمه إليك بطريك أنطاكية اللاتيني وكان البابا قد أرسل باليوم معه إليك) من غير ما صعوبة ونثبت لك العوايد الجارية التي كانت لك ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الأنطاكية إلى الآن ونهبها لك ولخلفائك بالسلطان الرسولي». وإنَّ كانت حالة القرون الوسطى لم تؤذ لنا بإيراد أقوال من الأحرار الأعظمين أسلاف أيتوشنسيوس الثالث فلنا الغنى عنها بقوله نثبت لك العوايد الجارية التي كانت لك ولمن سلفوا قبلك في الكنيسة الأنطاكية ولا نغفل عن أن براءات الأحرار الأعظمين الخمس عشرة التي كان الأسقف جبرائيل القلاعي يذكر البطريك بأنَّها موجودة في كروسيه بختومها ورصاصها ما برحت محفوظة في الكروسي البطريكي الماروني وجميعها نسجت على متوال براءة أيتوشنسيوس الثالث، ومنها براءة من البابا اسكندر الرابع يثني فيها على البطريك لقبوله في جملة رعيته من تخلفوا في سورية من اللاتين بعد

طرد الصليبيين منها ويسميه بطريكاً أنطاكياً كما صرح بذلك بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية المكرر ذكرها والبابا لاون العاشر في رسالته إلى البطريرك سمعان الحداثي في ١ آب سنة ١٥١٥م حيث يقول «لأننا اطلعنا في براءتي أيونشنسيوس (الثالث) واسكندر (الرابع) الصالحى الذكر أن أرميا الذي يسمى بطريكاً أنطاكياً (هو بطريكنا أرميا العمشيتي) أدى الطاعة كما اعتاد البطارقة تأديتها للكرسي المقدس في مدينة طرابلس بحضرة المطارنة والأساقفة على يد بطرس الكردينال ... قاصد الكرسي الرسولي». وكتب البابا أدريانس السادس إلى البطريرك المذكور في ٢٢ تشرين الأول سنة ١٥٢٢م: «أدريانس الأسقف عبد، عبيد الله إلى الأخ الموقر (سمعان) بطرس البطريرك الجالس على كرسي أنطاكية». وكذا كتب البابا بولس الخامس إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م، والبابا غريغوريوس الخامس عشر في براءته إلى هذا البطريرك في ١ تموز سنة ١٦٢٢م، والبابا أوربانس الثامن في ٣٠ آب سنة ١٦٢٥م وفي رسالته إلى البطريرك جرجس عميرة في ٣ آذار سنة ١٦٣٥م وأيونشنسيوس العاشر في رسالته إلى البطريرك يوسف العاقوري في ٢٠ أيلول سنة ١٦٤٦م، وفي رسالته إلى البطريرك يوحنا الصفراوي في ١٣ أيلول سنة ١٦٤٩م ومثلهم كتب البابا اسكندر السابع إلى البطريرك جرجس السبعلي في ٩ آذار سنة ١٦٥٩م حيث قال «لأن الكنيسة البطريركية الانطاكية التي تخص طائفة الموارنة وكان يدبرها يوحنا الصفراوي بطريك أنطاكية أضاعت تعزيتها براعيها لوفاة البطريرك يوحنا المذكور اذ قضى دين الطبيعة». وكذا كتب البابا اكليمنضس العاشر إلى البطريرك الدويهي في ٦ آب سنة ١٦٧٢م. وفي ١٢ كانون الأول من السنة المذكورة وفي ٢٠ أيار سنة ١٦٧٣م وأيونشنسيوس الحادي عشر في ٢٣ تشرين الآخر سنة ١٦٨٠م والبابا أكليمنضس الثاني عشر في رسالته ١ نيسان سنة ١٧٣٢م إلى البطريرك يعقوب عواد. وفي رسالته في ٢٩ تشرين الآخر سنة ١٧٣٥م إلى البطريرك يوسف درغام الخازن وكل هؤلاء الأحرار الأعظمين كانوا قبل البابا بناديكتس الرابع عشر الذي يدعي خصوم الموارنة أنه أول من سمى بطريكهم أنطاكياً.

ولا حاجة مع شهادة الأحرار الأعظمين إلى شاهد آخر، لكننا نورد شيئاً من شهادات العلماء مقتصرين على قول الأب فرنسيس سوريانس نائب اسكندر

السادس في الأرض المقدسة من رسالته في ٢٥ تشرين الآخر سنة ١٤٩٤م إلى البطريرك سمعان الحداثي: «إلى الأب الموقر (سمعان) بطرس الحداثي الرابع من استحق بنعمة سابعة أن يدعى بطريرك أنطاكية ومدير كرسيها من الخادم الحقيق فرنسيس سوريانس رئيس أديار الإفرنج ومدير الإخوة الصغار في أورشليم ونائب قداسة سيدنا البابا اسكندر في جميع الأرض المقدسة». وقول باجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م: «إن بطريرك الموارنة يسميه الأبحار الأعظمون في براءتهم الرسولية منذ أيام أينوشنسيوس الثالث بطريرك الموارنة الأنطاكي». وقول ديلاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٣٢) وهو «إن هذه الكنيسة (المارونية) يمكن أن تسمى الكنيسة الأولى في المشرق لكاثوليكيته وللبطيركية: الانطاكية التي هي كرسيها». وقول دومينيكس ماكري في اسم بطيركية وهو «إن في رومة أربع كنائس بطيركية تعين للبطاركة الأربعة إذا عقد مجمع عام في رومة وهي كنيسة مار يوحنا لاتران للبابا، وكنيسة القديس بطرس لبطيريك قسطنطينية وكنيسة القديس بولس لبطيريك اسكندرية، وكنيسة مريم الكبرى لبطيريك أنطاكية وهو وحده الآن كاثوليكي يرؤس ويدبر الطائفة المارونية الشديدة التعلق بالكنيسة المارونية الشديدة التعلق بالكنيسة الرومانية». طالع كتابنا روح الردود المطبوع مع ترجمته اللاتينية في بيروت صفحة ٢٧٣ إلى صفحة ٢٩٠.

وأما أعمال القديس يوحنا مارون في مدة بطيركيته فقد جاء ذكرها بإيجاز في ترجمته التي أثبتتها السمعاني في المحل المذكور فقال إنه بعد أن فرّ إلى دير القديس مارون على العاصي أمر ابن أخته ابراهيم على جماعته واستدعى إليه سمعان من لبنان، وسار بجيش وافر من دير القديس مارون إلى قلعة سمر جبيل فوق البترون، وقد ذكر ذلك مؤلف كتاب معتقد اليعاقبة إذ قال: «لما وصل تملك الملكية إلى قرية اسمها أميون ارتفع مويرين (مصغراً للتحقير) وابن اخته بريهم إلى سمر جبيل وحماهم من الجزية التي فرضها الملكية على من لا يتبع دينهم ووافقه كل السريان والذين في جبل لبنان وتبعوا مارون». وبعد أن ظفرت جماعة البطريرك بجيش مريق ومرقيان كما مرّ واستراح من عواصف الإضطهاد وأخذ يبحر في أعمال لبنان مجاهداً فيثبت المؤمنين ويعني يرد المخالفين إلى حظيرة الحياة، وينبشئ كنائس وأدياراً ويقم لها كهنة وخداماً وينصب أساقفة ويهتم بحالة كراسيهم ويجعل لهم أوقافاً تتكفل بحاجات معاشهم. ولما رأى أن جيش

موريق ومريقان ذلك دير القديس مارون وقتل رهبانه وضبط أملاكه » ليستأصل ذكره، أنشأ ديراً آخر على اسمه في شرقي قرية كفرحي من عمل البثرون . ويقال : إنّه نقل إليه هامة القديس مارون من ديره على العاصي ، وفرض عيداً في الخامس من كانون الثاني الذي كرس في الكنيسة على اسمه ولما أتم جهاده ودبّر قومه تدبير الرعاة الصالحين انتقل من دار الشقاء إلى دار البقاء لينال ثواب أعماله الصالحة ومبراته الجزيلة ممن لا يضيع أجر العاملين في كرمه الروحي، وكان انتقاله في التاسع من شباط (سنة ٧٠٧) في دير مارون بقرية كفرحي، فاجتمع الأساقفة والكهنة والرهبان وجمع لا يحيطه العدد من كل بلاد الموارنة ليتباركوا بجسده الطاهر، وحملوه بالمصاييح والبخور والترانيم ودفنوه في الدير المذكور كما جاء في ترجمته أنّه مات قديساً ودفن في كفرحي وقال الأسقف جبرائيل اللحفدي في قصيدته في المجامع : « في كفرحي مات ذا المختار » .

عد ١٤

مؤلفات القديس يوحنا مارون

لما كان البطريك أسطفانس الدويهي وإبراهيم الحاقلي الماروني قد ظنا أنّ يوحنا حنانياً (ابن الإنج) والصحيح حنانياً (ابن الفخارين) الذي ذكره عبد يشوع في قصيدته هو يوحنا مارون عزوا إلى هذا البطريك الكتب السبعة التي عزاها عبيد يشوع إلى يوحنا المذكور وأطال في شرحها، ولما كان العلامة السمعاني قد أثبت أنّهما انخدعا بهذا الاسم وأنّ يوحنا ابن الفخاري هو كاتب نستوري لا يوحنا مارون اقتصر على ذكر مؤلفات يوحنا مارون التي روى السمعاني أنّها في المكتبة الواتيكانية وأولها .

نافور أي رتبة القديس

إنّ فاتحة هذا النافور هي صموئيل صليبا وملكاه صموئيل ١٢٥ أمامك يا ملك الملوك وسيد السادات وهو مثبت في الكتاب الخامس من كتب الحاقلي

في المكتبة الواتيكانية صفحة ١٠٠، وقد خط في كمبليني بقبرص سنة ١٨٤٦ لاسكندر وهي سنة ١٥٣٥ للميلاد وقد ذكره الدويهي في كتابه المناير العشر (فصل ٢ في مؤلفي النوافير الكاثوليكية) حيث قال «يوحنا المسمى مارون الذي ارتقى بعد توفان بطريرك أنطاكية إلى ذلك الكرسي في سنة ٦٨٥م صنف النافور الذي بدؤه ~~هو صمدو صلدو~~». وقد نبذ رينودوسيوس (في مجلد ٢ من تأليفه في الليتورجيات الشرقية صفحة ١٥) هذا النافور مع غيره من مؤلفات يوحنا مارون ولم يورد سبباً لنبذه إلا قوله: «لا وجود له في مكتبة وإن توافرت فيها الكتب الشرقية» فكأنه أطلع على جميع المكاتب أو قلب كل الكتب في كل منها أو لم يبق في المشرق أثر لأحد المؤلفين إلا أتى به إلى مكاتب أوروبا. وقد احتج بعضهم على هذا النافور، بحجتين فقال إنّه مجموع من نوافير اليعاقبة الكثيرة. كما يظهر لمن يقابل وإن من طبعوا كتاب قداس الموارنة سنة ١٥٩٤م لم يطبعوا فيه هذا النافور فأجبنّا في كتابنا روح الردود على الحجة الأولى أن كلّ النوافير التي يستعملها السريان قل ما يختلف أحدهما عن الآخر ولا يمكن من يعارضها أن يقول إن أحدها لا يشبه الآخر، ولم يبيّن المعارض أي فقرات هذا الكتاب انتحلت إليه، ومن أي النوافير جمعت فيه، فلا سبيل إلى الإسهاب برد حجته القاصرة. واجبنا على الحجة الثانية بأنّ النوافير الكاثوليكية التي نعتقد صحتها خمسة وعشرون نافوراً ولم يطبع منها في كتاب قداسنا المذكور إلا أربعة عشر نافوراً فلا يستدل بعدم طبعه مع عشرة نوافير أخرى كاثوليكية على أنّه مجموع من نوافير اليعاقبة ولا على أنّه كان غير معلوم لأنّ الكتاب الواتيكاني المذكور المثبت فيه هذا النافور قد خط قبل إحدى وستين سنة من طبع كتاب قداسنا الذي اتّخذ حجة.

كتاب إيضاح الإيمان

قال العلامة السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٣) إن هذا الكتاب أنفذه يوحنا مارون إلى اللبنانيين من دير القديس مارون وهو مثبت بالسريانية مع ترجمته العربية في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي في المكتبة الواتيكانية، وقد خط سنة ١٣٩٢م كما يتبيّن من الذيل المعلق على آخره وهو: «كان الفراغ

من نسخ هذا الكتاب كتاب إيمان الكنيسة المقدسة سنة ١٧٠٣ (يونانية توافق سنة ١٣٩٢ للميلاد) بيد رجل حقير خاطي اسمه الشماس يوسف غريب من قرية اسمها ثمانية ومئة وثلاثين (يريد. **مهلا** بالسريانية وهي حاقل موطن ابراهيم الحاقلي) من عمل جبيل ساكن بقرية بان من جبة بشري وكان الفراغ منه في ٢٠ شهر شباط « وقد عثر الأب نوا العالم أحد كهنة باريس الفقهاء على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة الأمة في باريس في ٢٠٣ منها خطت سنة ١٤٧٠م ونشرها بالسريانية مع ترجمتها إلى الفرنسية في هذه السنة في القسم الأول من كتابه الموسوم بكتب مارونية وأهدى إلينا هذا الكتاب. وفي مكتبة بطريركيتنا نسختان منه إحداهما خطها الشدياق موسى وأخوه عيسى أبناء الخوري يوسف من قرية حاقل وقد أطلع عليها الأسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي وكتب عليها بعض تعليقات بخطه سنة ١٥٠٣م وقد طالعته مرات، والثانية قدمها بين لكتنها خلت من تاريخ نسخها لتمزق أولها وآخرها وفاتحته مترجمة عن السريانية: « بسم الله نأخذ في تدوين كتاب الإيمان المقدس الذي ألفه مارون المدعو يوحنا وكان بطريركاً على مدينة الله أنطاكية وسائر الشام وسورية وكان تأليفه بدير القديس مارون الطوباوي المنشح بالله ». وفاتحة ترجمته العربية « بسم الله نبتدي نكتب إيضاح الإيمان المقدس اعتقاد البيعة الرسولية الذي كتبه القديس يوحنا بطريرك أنطاكية في دير مارون على نهر العاصي بلد حماه وحمص وأورد ذلك إلى جبل لبنان ولأجل يسموا أهل الجبل المذكور موارنة على اسم الدير، ويسمى يوحنا المذكور مارون هو أيضاً على اسم الدير ».

قد علق الناسخ السرياني على هذا الكتاب مقدمة قال فيها ما ترجمته: « لما أنشأ نسطور وأوطيخا الأبله المعتقد الذي فصم وحدة ربنا وجعل اختلاطاً وامتزاجاً بين طبيعتي ربنا المجدتين والمتحدتين وطفق تلاميذ هذين المبتدعين يدافعون عن ضلالهما أخذ حينئذ يوحنا الذي سمي مارون يؤنبهم توبيهاً متصلاً ويرد زعمهم بالشهادات القاطعة الآتي ذكرها، وكذلك فعل برده مزاعم تلاميذ أنتميس (وعلى الهامش قورش وهو بطريرك اسكندري من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة كأنتيمس) الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملك ذلك الزمان ويوحنا نفسه أرسل هذا الكتاب إلينا ». وقال السمعاني بعد ذكره هذه المقدمة: « لا امترى في أن العبارة ، وكذلك فعل برده مزاعم تلاميذ أنتميس الخ قد أدخلها المترجم العربي

على الاصل لأنَّ يوحنا بطريركنا هذا لم يدافع عن بدعتهم كما جسر هذا المترجم أن يقول في ترجمته العربية ما نصَّه بحروفه: «وعندما نهضت مقالة نسطور الجاعل في تأنس ربنا أقنوميين ومن آخر يسمى أوطيخا قال إنَّ خاصَّتِي لاهوت الابن وناسوته تبلبلت واختلطت وصارت واحدة وعندما انقبل قولهم من كثيرين جعل يوحنا مارون يوضح بالبرهان ويردهم إلى الصدق من شهادات الكتب المقدَّسة الأنبياء والآباء. وأيضاً جعل شهادات ترد كثرة مقالات إخوتنا الملكيين أهل الراهب مكسيمس تلك المقالة التي جعلها على يد الملكيين مرقيان وأخيه باعتقاد مشيئتين» فقال السمعاني بعد إيراد هذا القول «ما هذه إلَّا أضغاث أحلام توما الكفرطابي فليس في كتاب يوحنا مارون كلمة في البحث عن مشيئتي المسيح بل هو برمته في رد مزاعم النساطرة وبدعة الطبيعة الواحدة مثبتاً أنَّ في أقنوم المسيح الواحد طبيعتين كاملتين وقد شهد البطريرك أسطفانس الدويهي الإهدني (في ك ٢ من محاماته عن الموارنة) أنَّ توما الكفرطابي إنما هو الذي ترجم هذا الكتاب إلى العربية وحرفه وأدخل عليه هذه العبارة وذلك بيِّن من النفس فإنَّ هذه العبارة هي بنفسها في كتاب توما المقسوم إلى عشر مقالات منفذاً إلى يوحنا بطريرك الملكيين، وهو معلق في آخر كتاب إيضاح الإيمان ليوحنا مارون، وقد أفرغ جهده بإيراد حجج واهنة ليؤيد بها بدعة المشيئة الواحدة طالع ما كتبه في شأنه نيرون الباني في كتابه افوليا (سلاح) الإيمان صفحة ٦٩ ولا عجب من أنَّ توما المغوي ببدعة المشيئة الواحدة يحرف كلام يوحنا مارون ليخدع الموارنة باسمه، وقد بلغ من جهله أن يزعم خلافاً لكل تاريخ صحيح أنَّ مكسيمس المعترف ابتدع بدعة المشيئتين في المسيح في أيام مرقيان وأخيه الملكيين (ومرقيان لم يكن له أخ شاركه في الملك وكان قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بنحو من قرنين) وقد عزا الكفرطابي إلى سفيانوس أسقف جبلة أيضاً كلاماً لم يقله ليخدع الناس ببذعته» انتهى كلام السمعاني وقد تابعه عليه لكويان (في مجلد ٣ من الشرق المسيحي صفحة ١٨) مبيناً تحريف الكفرطابي ومكره وترى في النسخة القديمة لهذا الكتاب في مكتبة بطريركيتنا أنَّ الأسقف جبرائيل اللحفدي ضرب بقلمه تلك العبارة وهي جعل شهادات كثيرة ترد مقالات إخوتنا الملكيين أهل الراهب مكسيمس «الخ. وكتب بخط يده «من هنا تبرهن أنَّ توما يعقوبي».

أمَّا توما الكفرطابي هذا فقد روى لنا خبره البطريرك اسطفانس الدويهي (فصل

١٦ من كتاب تاريخ الموارنة ورد التهم) فقال إنَّ توما مطران كفرطاب الأراتيكي أتى لبنان سنة ١١٠٤م وأقام فيه ست سنين مجدداً في إضلال الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة كما يظهر من تأليفه الموسوم بالمقالات العشر رداً على يوحنا بطريرك الملكية الأنطاكي ولرغبته في خدعة الموارنة سمى نفسه مارونياً. وقد ذكره الأسقف جبرائيل اللحفدي القلاعي بقوله وهو بحروفه :

تبعهم توما من حاران من قصته الصدق يبان
في كورة حلب كان مطران وكرسیه ليس هو سمعاني^(١)
قلت لي أنه من مردين زدني به رغبة ذا الحين
مردين مسكن الشياطين نسطور ويعقوب سكاني
قلت إنه جاء لجبل لبنان شهدت أنه جاب الطغيان

وقال الإهدني أيضاً إنَّ القلاعي عثر سنة ١٥٠٣م على كتاب المقالات العشر للكفرطابي فكتب عليه بخط يده : « إنَّ توما هذا ما كان مارونياً ولا كان للموارنة أسقف في كفرطاب وأنَّ جماعته اليعاقبة نفوه فسار إلى لبنان وأقرَّ بالطبعيتين خدعة للموارنة ليضلَّهم ببدعة المشيئة الواحدة » (وقد طالعت بنفسني ما خطَّه القلاعي فإنَّ هذا الكتاب ما زال محفوظاً في خزانة بطريركيّتنا) إلى أن يقول الإهدني إنَّ البطريرك يوسف الجرجسي والمطران أرسانيوس أسقف العاقورة ناصبا الكفرطابي فلم يغو بضلاله إلَّا الخوري فرشح في بلاد جبيل ونفراً قليلاً فعاد بخفي حنين نادياً سوء المنقلب، لكنَّه ترجم في مدَّة إقامته في لبنان كتاب الإيمان ليوحنا مارون فحرَّف بعض عباراته وأدخل الزيادة المحكى، عنها وكذا فعل في كتاب القوانين للأسقف داود الماروني الذي سوف يأتي ذكره .

وقد ضمَّن القديس يوحنا مارون كتابه هذا شهادات نحو من ثلاثين أباً من آباء الكنيسة الكاثوليكية وبعضهم شهادتين وثلاثاً وأكثر واستشهد أيضاً بأقوال الجامع ولاسيما الأربعة الأولى المسكونية لكنَّه لم يستشهد بالجمعين الخامس والسادس، أمَّا الخامس فلأنَّه لم يكن فيه ما يستعين به على إثبات مقصده لأنَّ كلَّ ما كان في

(١) أي ليس هو ببطرسي أو كاثوليكي .

هذا المجمع إنما هو تحريم الفصول الثلاثة وليس ثم ما يؤيد غرضه، وأما عدم استشهاده بالمجمع السادس فالأظهر فيه عند العلامة السمعاني أن يوحنا مارون كتب كتابه هذا قبل انعقاد هذا المجمع إذ كان أسقفاً أو كاهناً وتسميته بطريركاً في عنوان الكتاب المذكور إنما كتبها الناسخ لا المؤلف الذي لا إشارة في كتابه هذا إلى أنه كان بطريركاً عندما كتبه .

أما نظراً إلى قدم هذا الكتاب فقد مرَّ أن نسخة الفاتيكان كتبت سنة ١٣٩٢ للميلاد ونسخة مكتبة الأمة بباريس خطت سنة ١٤٧٠ على أن العلامة المستشرق الاب نو الافرنسي وجد دليلاً يتيب من أن كتاب يوحنا مارون هذا كتب في نحو القرن السابع للميلاد . ففي جملة الشهادات التي أوردها يوحنا مارون في هذا الكتاب أربع شهادات من أقوال القديس افرام السرياني إحداها مأخوذة عن ميمر هذا القديس في التجسد يقول فيها إن في المسيح طبيعتين . إلهية وبشرية . وقد نشر هذا الميمر المونسنيور لامي أحد أساتذة كلية لوفان بالبلجيكا مأخوذاً عن كتاب في المتحف البريطاني خط في القرن العاشر وعن كتب مؤتى بها من الموصل فإذا ما استشهد به يوحنا مارون من هذا الميمر ساقط منه في نسخة المونسنيور لامي لكن المونسنيور لامي قد نبه إلى أن هذا الميمر لعبت له أيدي اليعاقبة فأسقطوا منه كل ما يضاد بدعتهم ثم عثر الأب نو على رسالة من القديس يعقوب الرهاوي إلى شماس اسمه جرجس مصنونة في المتحف البريطاني في عد ١٢١٧٢ فنشر الاصل السرياني مع ترجمته الافرنسية في المجلة الموسومة بالمشرك المسيحي سنة ١٩٠١ فالرهاوي يستشهد القديس افرام في ميمره في الميلاد طبق ما استشهده يوحنا مارون في كتابه ايضاح الايمان . ولما كانت رسالة الرهاوي هذه كتبها في أواخر القرن السابع أو أوائل الثامن وأورد بها قول القديس افرام كما أورده يوحنا مارون نحو ذاك الزمان نفسه . ولما كانت نسخ هذا الميمر المخطوطة بعد ذلك الحين تجددها محرفة ساقطاً منها كل ما يخالف اليعاقبة نتج الأب نو من ذلك النتائج الآتية : الأولى أن اليعاقبة حذفوا هذا الميمر أو حذفوا منه ما يضادهم . الثانية أن يوحنا مارون عاش وكتب قبل تحريف الميمر المذكور بل إذ كان سالماً كاملاً كما استشهد به يعقوب الرهاوي ويوحنا مارون . الثالثة أن يوحنا مارون كان يستخدم كتباً لم يحرفها القائلون بالطبيعة الواحدة بل كانت تخص جماعة كاثوليكية . وبالجملة إن يوحنا مارون وأتباعه كانوا كاثوليكين .

قد خمن الأب نو أنّ اليعاقبة عاثوا بميمر القديس افرام المذكور بعد إفحام رهبان القديس مارون لهم بحضرة معاوية سنة ٦٥٩ كما سيجيء، إذ يظهر أنّ الرهبان الموارنة حتّجّوهم بقول القديس افرام إنّ في المسيح طبيعتين إلهية وإنسانية وهو نص صريح في نقض بدعتهم فعمدوا بعد ذلك إلى إسقاط هذا القول من ميمره المذكور.

كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة

أمّا كتابه في ردّ مزاعم أصحاب الطبيعة الواحدة فهو مثبت في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية بعد كتاب إيضاح الإيمان المذكور من صفحة ١٠٣ فصاعداً وفاتحته: «ثم نكتب شيئاً من الأبحاث رداً على أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح وهم من يزعمون أنّ طبيعة كلمة الله البسيطة قد امتزجت واختلطت بطبيعة ناسوته فكانت فيه طبيعة واحدة» إلى أن يقول: «قولوا لنا أيّها الإخوة الأبرار أنّ هذه الطبيعة التي تعتقدونها بربنا من بعد الإتحاد أهى مساوية للآب جوهرأ أم غير مساوية» أمّا كتابه في رد مزاعم النساطرة فهو مثبت في كتب الحاقلي المذكور أيضاً صفحة ١١٤ وفاتحته «ثم نكتب قليلاً من كثير في رد مزاعم النساطرة» إلى أن يقول: «قال بولس الرسول إنّ الله رضي عنا بموت ابنه».

رسالة في التريصاجيون

ويعزى إلى يوحنا مارون رسالة في التريصاجيون أي التقديسات الثلاثية قدوس الله، قدوس القوي، قدوس الذي لا يموت، عنوانها جواب على من يزعمون أنّنا نعزو الصلب إلى الثالث الأقدس، إذ نزيد على التقديسات يا من صلبت لأجلنا. وهذه الرسالة مثبتة في كتاب الحاقلي المذكور صفحة ١٢٥ لكنها مكتوبة بخط يختلف عن خط باقي أجزاء هذا الكتاب. ولذلك ارتاب السمعاني في صحة نسبتها إلى القديس يوحنا مارون لوجهين: الأوّل لأنّ الكتاب أردفها بمحاوراة بين رجل سرياني ورجل رومي على هذه الزيادة ومؤلف تلك المحاوراة غير معروف في

كتاب الحاقلي لأنه ممزق أو لأنه لم يكتب اسمه ، ولكن قد أنبأنا ابن العبري في كتاب ادبياته ان مؤلف هذه المحاوره إنما هو داود بن بولس من أساقفة اليعاقبة ، والبراهين الواردة في رسالة يوحنا مارون هي البراهين نفسها الواردة في المحاوره. والثاني أن بعض ورقات الرسالة ساقط من الكتاب المذكور وفتحة المحاوره ساقطة أيضاً فأدمج الكاتب الأثرين معاً، ثم إن الغرض من الرسالة والمحاوره واحد والنتيجة واحدة هي أن يثبت الكاتب أن السريان بزيادتهم يا من صلبت لأجلنا على التقديسات لا يعنون أقانيم الثالوث الأقدس بل أقنوم الابن الذي وحده تأنس وصلب، كما لا يعتقدون أن الأقانيم الثلاثة تجسدت هكذا لا يعتقدون أنها صلبت وإذا زادوا على التقديسات يا من صلبت يختصون بهذه الزيادة أقنوم الابن الذي تجسد. وقد نشر الأب نو الإفرنسي هذه المحاوره في جملة ما أشهره السنة ١٨٩٩م معنوناً كتب مارونية آخذاً إياها عن كتاب قديم في مكتبة باريس في عد ٢٠٣. ومهما يكن من أمر هذه الرسالة فليوحنا مارون فقرة من كتابه بهذا المعنى في شرح رتبة القداس (فصل ١٩) قال فيها: «إننا نبين لسؤالكم أيها الأبناء الأحباء هل ينبغي أن يترنم بالتقديسات مع الزيادة عليها يا من صلبت من أجلنا ومتى يترنم بذلك، فاعلموا أن هذه التسبحة توجه تارة إلى الثالوث الأقدس وتارة إلى أحد الأقانيم الإلهية فقط فإذا وجهت إلى الثالوث المسجود له لم يسغ البتة أن يلحق بها يا من صلبت، فإن هذا إنما هو ضلال بطرس بطريرك أنطاكية الملقب بالقصار الذي زعم أن الثالوث صلب بجملة أقانيمه وأوجب الألم على طبع أسمى من كل ألم وهذا اثم يرجح على كل اثم ولذا حرم عدلاً وحقاً عن كرسيه على أن التسبحة توجه أحياناً إلى أحد أقانيم الثالوث وهو الابن وذلك بين في نوافير الرسل القديسين وآبائنا الأطهار الذين ذكرناهم آنفاً فمتى وجهت هذه التسبحة إلى الابن فلا مانع أن يزداد عليها ذكر الآلام والصلب والموت والدفن والقيامة وباقي أسرار تدبير مخلصنا إذ لا وراء أن الابن تألم وصلب ومات من أجلنا » .

كتابه في الكهنوت

قال السمعاني (في مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٠) في جملة مؤلفات يوحنا مارون : « كتابه في الكهنوت مقسوماً إلى أربعين فصلاً وهو مثبت في

الكتاب ٦٤ من كتب الحاقلي بالمكتبة الوايكانية وقد خطه يد الحاقلي نفسه ولم يبين عن أية نسخة كتبه . والمحقق عندي أن هذا الكتاب ليوحنا أسقف دارا كما سألني عند الكلام فيه . وقال في المجلد الثاني من هذه المكتبة عند الكلام في الداراي (صفحة ١٢٣) « إنَّ قدم الكتاب (أي كتاب الداراي) الذي أطلعت عليه يثبت إثباتاً كافياً أنَّ ذلك الكتاب هو للداراي لا ليوحنا مارون ومنه إثبات وثلاثون فصلاً مثبتة في الكتاب الذي خطّه الحاقلي بيده وعزاه إلى يوحنا مارون » على أنَّه في كتابه الموسوم بفهرست الكتب القديمة المخطوطة في المكتبة الوايكانية الذي شاركه في تأليفه ابن اخته المطران أسطفانس عواد السمعاني ذكر كتاب الكهنوت ليوحنا مارون في عد ١٠١ في جملة الكتب التي عزاه إليها وقال إنَّ يوحنا أسقف دارا وديونيسيوس بن صليبا أسقف آمد انتحلا منه أشياء كثيرة فكأنَّه رجع عن رأيه الذي قال به في المكتبة الشرقية ويؤيد ذلك قول يوحنا مارون في فاتحة كتابه في شرح رتبة القديس (الذي سنثبت صحة نسبته إليه) « بعد أن كتبنا في الكهنوت البيعي بإسهاب ... بقي علينا أن نكتب في الذبيحة غير الدموية » هذا وقد كان يوحنا الداراي بعد يوحنا مارون وكان من عادة القدماء أن ينتحل المتأخر كلام المتقدم فأبي العجب من أن يكون الداراي انتحل كلام يوحنا مارون في كتاب سماه باسم كتابه وأن تكون تلك الفصول التي ذكرها السمعاني انتحلها الداراي عن كتاب يوحنا مارون ولم يأخذها الحاقلي عنه ويعزوها إلى يوحنا مارون .

كتابه في شرح رتبة القديس

قال السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥٢٠) في جملة تأليف يوحنا مارون « كتاب في شرح رتبة القديس وهو مثبت في الكتاب ٦٤ من كتب الحاقلي بعد كتابه في الكهنوت وقد خطّه الحاقلي بيده وهو مقسوم إلى خمسين فصلاً واستشهد به نيرون الباني في كتابه الموسوم بسلاح الإيمان، والإهدني في محاماته عن الموارنة وكلاهما أخذوا عن الحاقلي الذي كثيراً ما استشهد هذا الكتاب في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي، ولكن قد ظنَّ رينودوسيوس (في مجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٧٤) إنَّ الصحيح أنَّ هذا الكتاب هو لديونيسيوس بن صليبا وسوف أثبت بأدلة سديدة ظنَّه نظراً إلى هذه

المقالة الأخيرة عند كلامي في ابن صليبا». على أنه يظهر أن السمعاني عدل عن رأيه هذا لأنه لما تكلم في كتاب ابن صليبا في المجلد الثاني من هذه المكتبة صفحة ١٧٦ لم يأت بشيء من الأدلة السديدة التي وعد بها في المجلد الأول ولم يقل إن كتاب يوحنا مارون في شرح رتبة القداش هو لابن صليبا بل عزا إلى ابن صليبا كتاباً موسوماً بهذا العنوان وقال ذكره الإهدني في فصل ٧ في مؤلفي النوافير من الهراطقة قائلاً: «ديونيسيوس هو يعقوب بن صليبا من ملطيني أسقف آمد له شرح لرتبة القداش أنفذه إلى اغناطيوس مطران بيت القدس سنة ١٤٨٠ يونانية (توافق سنة ١١٦٩ م) ليقاوم به الإفرنج الذين كانوا قد تملكوا الأرض المقدسة». إلى أن يقول السمعاني: «وذكره رينودوسيوس في المجلد ٢ من كتابه في الليتورجيات الشرقية صفحة ٤٥٤ ونيرون في فهرست المؤلفين الذين ذكرهم في كتابه سلاح الإيمان. وفي المكتبة الواتيكانية نسخة له حديثة الخط وهي في عد ٣٦ من كتب الحاقلي، وجزء كبير من هذا التأليف الذي يعزوه السريان إلى ابن صليبا تراه كأثره بألفاظه في المقالة التي عزاها الحاقلي إلى يوحنا مارون كما أشرت في المجلد الأول صفحة ٥٢٠». والمطالع يرى أن لاستشهاد السمعاني بالإهدني والبانى إنما هو ليثبت أن لابن صليبا أيضاً كتاباً في شرح رتبة القداش لا يعزوه إليه كتاب يوحنا مارون، وقوله إن جزءاً كبيراً منه في المقالة التي عزاها الحاقلي إلى يوحنا مارون يحتمل المعنى أن ابن صليبا اتحل كلام يوحنا مارون عن أن الجزء وإن كبيراً لا يطلق على الكتاب كله.

هذا وقد ذكر السمعاني في فهرست المجلد الأول من مكتبته الشرقية صفحة ٥٧٨ في جملة كتب الحاقلي «عد ٣٦ شرح رتبة القداش لابن صليبا موجهاً إلى اغناطيوس أسقف اليعاقبة قاطني أورشليم خطه يوسف الحصري ابن خاطر سنة ١٦٤٦م». وفي صفحة ٥٨٠ «عد ٦٤ كتابان ليوحنا مارون: الأول في الكهنوت والثاني شرح رتبة قداش السريان مقسوماً إلى خمسين فصلاً صفحة ٢٤٩ خطه الحاقلي». وقد صرح بأن كتاب ابن صليبا ينطوي على عشرين فصلاً فقط وذكر خلاصة كل منها مع ذكره أن كتاب يوحنا مارون يُحوي خمسين فصلاً ثم أن الأب بطرس مبارك الماروني اليسوعي علّق مقالته على ترجمته لكتب القديس أفرام السرياني إلى اللاتينية، واستشهد بكتاب يوحنا مارون هذا مرات منها في صفحة ٨ و ٣٦ و ٤١ و ٤٨ و ٥٠، وكان السمعاني نفسه

الفاحص للمقالتين والمؤذن بطبعهما كما يظهر مما علّقه عليهما وكان بينهما إحاء، فكان على السمعاني لا أقل من أن ينبّه إلى أخطائه بعزوه كتاباً يعقوبياً إلى أوّل بطارقة الموارنة. والمجلّد الأوّل من المكتبة الشرقية طبع سنة ١٧١٩م وإجازة السمعاني طبع مقالتي مبارك كان سنة ١٧٤٠م، ثم إن يوسف لويس السمعاني ابن أخي السمعاني الشهير ألف كتاباً في رتب القديس عنوانه *codex liturgicus* أي كتاب الرتبة، وأثبت كتاب شرح رتبة القديس ليوحنا مارون في المجلّد الرابع من تأليفه المذكور مترجماً من السريانية إلى اللاتينية، وقد أيّد بأدلة قاطعة أنّ هذا الكتاب ليوحنا مارون وطبعه في رومية سنة ١٧٥٢م بحضرة عمّه السمعاني، فلو لم يكن عمّه ارعوى عن رأيه لنهاه عن طبع كتاب لأحد اليعاقبة معزواً إلى بطريك الموارنة. وقد أثبت البطريرك يوسف أسطفان (في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ٨) إنّ كتاب شرح رتبة القديس هو ليوحنا مارون حقيقة مورداً لتحقيق ذلك حججاً دامغة.

ولنأت إلى القول الفاصل في هذا الجدل! قد عثرت في مكتبة بطريركيتنا على كتاب شرح رتبة القديس ليوحنا مارون، خطّه الخوري بطرس مخلوف (الذي صار بعداً أسقفاً على قبرص) سنة ١٦٧٠م في رومة فعارضته بالفقرات التي رواها السمعاني في كتاب ابن صليبا فألفت الفرق بينهما أظهر من أن يبين، فكتاب ابن صليبا موجه إلى اغناطيوس أسقف اليعاقبة في أورشليم ولا شيء من ذلك في كتاب يوحنا مارون، وكتاب ابن صليبا ينطوي على عشرين فصلاً وكتاب يوحنا مارون يشتمل على خمسين فصلاً، وفي كتاب يوحنا مارون أمور شتى لا يمكن أن يقولها ابن صليبا وفي كتاب ابن صليبا أمور شتى لا يمكن أن يقولها يوحنا مارون، منها قول يوحنا مارون في فصل ١٦: «وأوحد اللاهوت والنفس والجسد بالأقنوم الإلهي وشوهد بطبيعتين إلهية وبشرية». وقوله في فصل ١٩ في التقديسات: «إذا وجهت إلى الثالوث المسجود له لم يسغ البتة أن يزداد عليها يا من صلبت فإنّ هذا إنّما هو ضلال بطرس بطريك أنطاكية الملقّب بالقصار... ولذا حرم عدلاً وحطّ عن كرسيه» وقوله في هذا الفصل: «كل من لا يعترف بأنّ كلمة الله اتحاد جوهري بالجسد مع حفظ الطبيعتين الإلهية والبشرية خواصهما متّحدتين بأقنوم الكلمة الواحد دون اختلاط... فليكن محروماً». وقوله في فصل ٢١ في تباع ديوسقورس «الذين زعموا في ربنا طبيعة واحدة

فكيف يمكن أن يكون بطبيعة واحدة إنساناً وإلهاً مائتاً وغير مائت صانعاً ومصنوعاً خالقاً ومخلوقاً أزلياً وزمناً». وقوله في هذا الرأس أيضاً: «حاشا أن نقول إن ابن الله تألم وصلب ومات بطبعه الإلهي ... لكأنه تألم وصلب ومات بالجسد». وأمثال ذلك كثيرة مما لا يمكن ابن صليبا أن يقوله لأنه نقض صريح لمذهبه. ومما قاله ابن صليبا ولا يمكن يوحنا مارون أن يقوله قوله في فصل ٦: «يلزم أن تكون البرشانات وتراً لا شفعا إلا الإثنتين». وقال يوحنا مارون فصل ١٨ مفنداً هذا الضلال: «أما نحن فنقول إنه يجوز للكاهن أن يقدم ما أراد من البرشانات وتراً أو شفعا». وقال ابن صليبا في فصل ٦ أيضاً «يتألف خبز الأسرار من القمح سر المياه ومن الخمير سر الهوى ومن الملح سر الأرض ومن الزيت سر النار هاك الإستقصات الأربع». وقال يوحنا مارون في فصل ١٦: «إن الخبز المقدم على المذبح يلزم أن يكون من القمح ولا شيء غيره». وقال ابن صليبا فصل ٧ «رتب الرسل ما كتب في القانون أن القربان يرفع على المذبح يوم خبزه لا بعد يوم فهذا لا يجوز». وأسهب الكلام في فصل ١٤: «إن القديس يتم بكلمات الرب ودعوة الروح القدس». واستشهد في فصل ١٦ «ساويرس البطريرك المسكوني» إلى غير ذلك مما لا يمكن أن يقوله يوحنا مارون أو ممّا صرّح بتفنيده. وعليه فلا يبقى محل للإرتياب في أن كتاب يوحنا مارون غير كتاب ابن صليبا الذي كان في أواخر القرن الثاني عشر قد انتحل بعض كلام يوحنا مارون الذي كان في القرن السابع على عادة القدماء، فلا مرية إذاً في أن كتاب شرح رتبة القديس إيمان هو ليوحنا مارون، وإذا ثبت ذلك رجح أن لم نقل ثبت أن الكتاب في الكهنوت أيضاً لهذا البطريرك إذ قال في مطلع كتاب الشرح المذكور: «بعد أن تكلمنا في الكهنوت بقي أن نتكلم في الذبيحة غير الدموية» كما مرّ. طالع كتابنا روح الردود من صفحة ١٨٨ إلى صفحة ٢٠٣ من طبعة بيروت.

وهذا ما جاء به العلامة يوسف لويس السمعاني في إثباته أن هذا الكتاب ليوحنا مارون قال (مجلّد ٥ في المقدمات صفحة ٦١) في المكتبة الواتيكانية: الكتاب الرابع والستون خطّه يد ابراهيم الحاقلي موضوعه الكهنوت مشتملاً على أربعين فصلاً وملحقاً به كتاب شرح رتبة القديس مقسوماً إلى خمسين فصلاً وشرح رتبة القديس هذا ذكره مرهج بن نيرون سالفني (في التعليم بمدرسة السايانسا برومة) في كتابه سلاح الايمان صفحة ١١٦ واستشهد به اسطفانس الدويهي

بطريرك الموارنة في ردّ التهم الذي لم يطبع بعد. على أنّ رينودوسيوس ظنّ في المجلد الثاني في الليتورجيات صفحة ٧٤ أنه تأليف ديونيسيوس بن صليبا وجاراه عمي السمعاني على رأيه ناسباً كتاب الكهنوت إلى يوحنا أسقف دارا وكتاب شرح رتبة القديس إلى ابن صليبا (المكتبة الشرقية مجلد ٢ فصل ١٨ و ٣٢) لكنني مع احترامي لهما أقول إنّ براهينهما التي اعتمدا عليها في إنكار كتاب شرح القديس على يوحنا مارون هي واهنة. فبرهان رينودوسيوس هو أنه ما أحد يعرف أنّ هذا الكتاب ألفه يوحنا مارون إلا الموارنة في هذه الأعصار وبرهان السمعاني أنّ كتب الداراي وابن صليبا بعض كلام يوحنا مارون بنفسه.

على أنني لا أرى أنّ هذه البراهين تثبت مدعاهما وإن سلّمت بما أورده فلا ينتج منه ما قصدنا أن يثبتاه وانتقد أولاً تقدير رينودوسيوس وافترضه فأقول إنّ الصمت عن ذكر كتاب لا يصلح برهاناً لإنكاره إلا أن تؤيد ذلك قرائن قوية تجعل السلب إيجاباً. فبرهان رينودوسيوس السلبي لم يثبت ولن يثبت قطعاً مدعاه وأي عجب من أن يخفي كتاب يوحنا مارون هذا ولا يعرفه إلا الموارنة ولم يكتب ولم يوجه إلا إلى الموارنة وحدهم والسواد الأعظم منهم قاطن بلبنان ولا موجب لنشره على غيرهم وأما تقدير عمي السمعاني فأراه ضعيفاً أيضاً أن يثبت أنه لا يمكن اتفاق مؤلفين على رأي واحد، وهذا لا يمكن إثباته بل كما يمكن اتفاق مؤلفين على رأي واحد يمكن اتفاقهما على التعبير عنه بألفاظ واحدة. والعادة المألوفة عند الشرقيين هي أنّ الكاتب الحديث ينتحل آراء من تقدّمه وألفاظه أيضاً إن لاءمت مقصده. وإذا ثبت ذلك انتقض تقدير عمي الذي هو أعلم الناس بهذه العادة عند المؤلفين الشرقيين وأنا عرفتها خاصة من الكتب التي جمعها من المشرق وعلّق عليها الشروح الضافية ثم إنّ يعقوب أسقف تكريت جمع شرحاً للرتب والصلوات أشبه بشرح ابن صليبا لرتبة القديس والتكريتي كان بعد ابن صليبا بقرن كامل. وقد طالع عمي بلا بد كتاب الكنوز الذي في المكتبة الواتيكانية. وفي القسم الثاني منه ما هو أشبه بشرح ابن صليبا لرتبة القديس فلم يعزّ أحد هذين الكتابين إلى ابن صليبا؟

ذكرت ما مرّ مفترضاً أنّ شرح يوحنا مارون وشرح ابن صليبا واحد بألفاظهما لكن هذا الافتراض غير صحيح وعمي يعلم ذلك حقيقة. فإنّ شرح ابن صليبا يختلف عن شرح يوحنا مارون أولاً بأنّ شرح ابن صليبا موجه إلى اغناطيوس

مطران أورشليم من أصحاب الطبيعة الواحدة ليردّ به على الإفرنج الذين كانوا حينئذٍ بيت المقدس وعلى الروم وغيرهم. ويثبت خلافاً لهم بشهادة الليتورجية السريانية وطقوس اليعاقبة (طالع المكتبة الشرقية مجلد ٢ صفحة ١٧٧). والحال أنّ شرح يوحنا مارون لا شيء فيه من ذلك كما ترى في هذا الشرح المعلق على هذا المجلد. ثانياً أنّ شرح ابن صليبا مقسوم إلى عشرين فصلاً وشرح يوحنا مارون يشتمل على خمسين فصلاً. ثالثاً أنّ شرح ابن صليبا يثبت استعمال الخبز الخمير وينبذ الفطير وشرح يوحنا مارون يثبت الخلاف. رابعاً أنّ ابن صليبا ينقض كلامه بكلامه لجهة دعوة الروح القدس ويعزو إليها الفاعلية في التقديس (طالع كلام السمعاني صفحة ١٩٥) ولا شيء من ذلك في شرح يوحنا مارون. فهذه وكثير غيرها تبين جلياً أنّ لكل من الشرحين مؤلفاً وليس المؤلف واحداً.

وزد على ذلك أنه يظهر أنّ الشرحين لم يكتبوا في زمان واحد. فشرح يوحنا مارون يظهر أنه كتب في صدر الإسلام وفيه إشارة إلى ذلك مع أنّ ابن صليبا كان في القرن الثاني عشر ولنا أدلة أخرى على أنّ هذا الكتاب ليوحنا مارون منها: أنّ نسق عباراته وألفاظه تطابق عبارات يوحنا مارون في الكتب التي لا يمتري السمعاني في نسبتها إليه، ومنها أنه يلزم أن يحكم شرعاً بهذا الكتاب ليوحنا مارون لأنه لا يمكن أن يعينّ ليه بتوكيد مؤلف آخر ولا أن يعينّ زمان كتب فيه غير زمان يوحنا مارون. فالكتاب له شرعاً وما قلناه إلى الآن يكفي مؤونة الإثبات لتقليد الموارنة في هذا الشأن.

عد ١٥

هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة

قال السمعاني (مجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٥١٠) هل كتب يوحنا مارون شيئاً في مشيئة المسيح؟ لا اجترأ أن أقطع بذلك فإني لم أر له إلى الآن مقالة في هذا الصدد ويظهر في إيضاح الإيمان الذي أنفذه إلى اللبنانيين أنّه لم يتكلّم قط في هذا البحث ولو كان قد كتب شيئاً يؤيد هذه البدعة لالفينا بلا مرأ في هذا الكتاب الذي ترجمه توما الكفرطائي إلى العربية وحرّفه، بل لكان توما المذكور استشهد به في كتابه الذي أنفذه إلى يوحنا بطريك المكيين (الأنطاكي) ليدافع عن

بدعة المشيئة الواحدة حيث أسهب في كلامه على الموارنة والملكية، وبعكس ذلك أن يوحنا مارون لو كان قد فُتد بدعة المشيئة الواحدة لتعقبه توما ونُدِّد به ولا أقل من أن يغتابه كما اغتاب القديس مكسيمس، ولوجد له في إيضاح الإيمان ما يؤنبه عليه لقوله في المسيح مشيئتين، ولو قال شيئاً من ذلك لاستشهد به علماء الموارنة والبابي والحقلي وابن القلاعي وغيرهم من القدماء ليرثوا أمتهم من بدعة المشيئة الواحدة. وبما أنني لم أجد أحداً فعل كذلك أرجح أن يوحنا مارون لم يكتب شيئاً في هذا البحث. وقد أورد البابي في مقالته في أصل الموارنة ودينهم وباجيوس في تاريخ سنة ٦٣٥م فقرة من كتاب يوحنا مارون في شرح رتبة القديس قال فيها: «قد كتبنا بإسهاب في هذه الأمور وأثبتنا بشهادات آبائنا الأولين في كتابنا الذي أنفذناه إلى محبتكم رداً على من خلطوا طبيعتي ربنا ومشيتيه». على أنه وإن ثبت أن هذا الكتاب ليوحنا مارون (وسأبين رأيي فيه) فالأظهر عندي أن هذه الفقرة زادها عليه كاتب حديث لأننا لا نرى يوحنا مارون كتب في إيضاح الإيمان شيئاً يثبت المشيئتين، وقلّ مثل ذلك في كل ما أورده البابي في مقالته المذكورة من أقوال يوحنا مارون ولم يكتب يوحنا مارون شيئاً في هذه البدعة. فالذي أراه إما أنه كتب قبل انتشارها، وإما أن اللبنانيين الذين كتب إليهم لم يكونوا يبالون بهذه البدعة بل كان كل جدالهم للنساطرة واليعاقبة في وحدة أقنوم المسيح وطبيعته وبدعة المشيئة الواحدة فرع لبدعة الطبيعة الواحدة. (كما مرّ) فاعتقد أن تنفيذه بدعة الطبيعة الواحدة هو تنفيذ أيضاً لبدعة المشيئة الواحدة وقد يكون كتب إيضاح الإيمان وهو راهب قبل أن تشتهر هذه البدعة ويحرمها المجمع السادس» انتهى كلام السمعاني ملخصاً.

على أن البطريرك يوسف أسطفان قد أثبت (في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ٧ وما يليه) رأي السمعاني أن يوحنا مارون لم يدافع عن بدعة المشيئة ولكن تعقبه في قوله لأنه لم يكتب شيئاً يدحضها به، مبيناً أن السمعاني لم يقطع بصحة رأيه بل عبّر عن ذلك بقوله يظهر، ولا اجترأ على القطع بذلك وأرجح. ثم أخذ في نقض أدلته وأولها أنه لو كتب يوحنا مارون رداً على بدعة المشيئة الواحدة لهجاه توما الكفرطابي كما هجا القديس مكسيمس، فيجيب البطريرك يوسف أسطفان أن توما الكفرطابي كان يدّعي أنه ماروني ويعزو القول بالمشيئة الواحدة إلى يوحنا مارون، فكان يخالف غرضه أن يهجو يوحنا مارون ويقرعه كما قرع مكسيمس وهذا بين بديهي وثانيها أن ليس من كتاب إيضاح

وقد جاء في فاتحة كتاب إيضاح الإيمان بالسريانية أن يوحنا لم يناصب النساطرة واليعاقبة فقط بل أصحاب المشيئة الواحدة أيضاً إذ قيل هناك: « وكذلك فعل برد مزاعم تلاميذ أفتييمس (أو قورش) بطريرك اسكندرية الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملك ذلك الزمان ». قلنا إن السمعاني قال إن هذه العبارة أدخلها المترجم العربي على الأصل السرياني لأن يوحنا مارون لم يفه بكلمة في بدعة المشيئة الواحدة، لكنه قال أيضاً إن الكفرطابي هو الذي ترجم هذا الكتاب إلى العربية وعبث به على أن الكفرطابي لا يدخل هذه العبارة المخالفة لزعمه وهي واردة بالأصل السرياني لا بالترجمة العربية. ولم يؤيد السمعاني كلامه هذا بغير دعواه وهي أن يوحنا مارون لم يكتب شيئاً في هذه البدعة وهو موضع البحث فلا يصلح أن يكون كلامه حجة له. وقد أثبت البطريرك يوسف أسطفان أن هذه العبارة مثبتة في نسخ كثيرة غير نسخة السمعاني ولا سيما في الأصل السرياني، وأورد لإثبات رأيه أدلة أخرى كثيرة منها أنه جاء في ترجمة يوحنا مارون في سنكساري الموارنة ما نصّه: « فصبوب الطوباوي يوحنا مارون رأي علماء الكنيسة الرومانية وألف مقالة أثبت فيها المشيئتين والفعلين برنا من الكتب المقدسة والأدلة اللاهوتية ». ومنها أن هذا التقليد كان مستمراً عند الموارنة، ومنها أن يوحنا مارون في كتابه شرح رتبة القديس الذي أثبتناه له في العدد السالف قال في الفصل الحادي والعشرين منه ما ترجمته: « وقد تمصّل بهؤلاء (أي تباع ديوسقورس) من بلبلوا مشيئتي ربنا وفعليه وعزوا ما قاله الآباء عن وحدة الإرادة والقوة والسلطان. في الثالث الأقدس إلى سر تدييره الخلاصي وخلطوا ما بين البسيط والمركب، على أننا لما كنّا كتبنا في هذه الأمور بإسهاب وحققنا بشهادات آبائنا الأطهار التي جمعناها في كتابنا نقضاً لزعم من يبلبلون طبيعتي ربنا ومشيعتيه ويخلطون خواصه وأرسلنا كتابنا إلى محبتكم فلنعد الآن إلى ما كنا في صدده » وقال في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب: « كل من لا يعترف ويقول إن ربنا اتحد بالجسد اتحاداً جوهرياً حفظت فيه طبيعتهما بخواصهما الإلهية والبشرية في أقنوم الكلمة الواحد متميزتين بالاتحاد ومُتحدتين بالتمييز بلا اختلاط ولا امتزاج فليكن محروماً، لأنه قاص عن الإيمان القويم وظلوم للحق ». وقال في الفصل الثالث والثلاثين من هذا الكتاب: « حاربها قديماً سيمون الساحر فسقط من الجوّ، حاربها آريوس فأفرت كرسه، حاربها مكدونوس مجدفاً على الروح القدس فطرح من كرسيه، حاربها نسطور

مجدفاً على العذراء والدة الله فتعزاً لسانه وانتن، حاربها ديسقورس الإسكندري وبلبل مع اوطيخا طيعتي ربنا، وحاربها قورش الإسكندري وأتباعه وبلبلوا مشيئتي ربنا وفعلوه فبادوا وتبددوا كالدخان في ما زالت ثابتة حتى انقضاء العالم لأنها مبنية على صخرة لا تتزعزع كما وعدها ربنا» وذكر البطريك يوسف أسطفان بعض ما ذكرناه في إثبات كتاب شرح رتبة القديس ليوحنا مارون واسترسل هذا البطريك العلامة في كلامه إلى إيراد حجج أخرى عدلنا عن ذكرها حباً بالإيجاز إلى أن قال ماذا يا ترى جرى على كتاب يوحنا مارون في المشيئين والفعلين في المخلص، وأجاب أن تقادم الدهر وما شئ من الحروب وما أصاب الموارد من إتلاف كتبهم وتخريف بعضها وإخفاء بعضها حرمتنا وصول هذا الكتاب إلينا كما حرمتنا من التوصل إلى كتب كثيرين من الآباء مع علمنا بها ولا سيما في الأعصر التي لم تكن فيها المطابع. ومن شاء زيادة في البيان فليطالع كتاب المحاماة عن الموارد المطبوع حديثاً حيث يجد كتاب البطريك يوسف أسطفان المذكور برمته وعندني نسخة من هذا الكتاب قد استنسختها في رومة سنة ١٨٩٣م عن نسخة في مدرسة الرهبان الموارد الحلبين وهي أصح من النسخة المطبوعة ولا سيما في الفقرات السريانية التي انسربت بها أغلاط.

ولأن حق لمثلي أن ييدي رأياً في هذا الجدال بين هذين الجهذين العلامتين السيد السمعاني والبطريك يوسف أسطفان قلت يظهر لي أن حجج البطريك ترجح على ما ذكره السيد السمعاني من الأدلة بل تبطلها ولا أقل من أن تضعفها كثيراً، وليس من المعقول أن يوحنا مارون وقد ناصب بدعتي نسطور وأوطيخا لم يكتب شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة وكانت السائدة في أيامه، وقد تسكع بها مكدونينوس ومكارينوس بطريركا أنطاكية وعقد الجمع السادس لنبذها وحرمتها، وقد شهد البابا بناديكتس الرابع عشر أن يوحنا مارون أقيم لوقاية الموارد من فسادها ولا سيما إنني موقن اعتماداً على ما قلته آنفاً بأن كتاب شرح رتبة القديس إنما هو ليوحنا مارون، وقد رأيت أقواله فيه وتصريحه بأنه كتب ضد هذه البدعة وأدلة السمعاني الثلاثة سلبية وهي عدم هجو الكفرطابي ليوحنا مارون، وعدم استشهاد الباني والحاقلي بكلامه وعدم وجود ما يستدل به من كتابه بأنه كتب ضد بدعة المشيئة الواحدة وزد البطريك على هذه الأدلة سديد وكأنه قاطع إذ قال في الرد على الأول أن الكفرطابي ادعى أنه ماروني فلا يوافق غرضه أن يهجو يوحنا مارون. وقال في

الثاني إنَّ الباني والحاقلي اعتمدا على نسخة حذف الكفرطائي منها كل ما يمكن أن يستشهد به. وقال في الثالث إنَّ السمعاني أيضاً اعتمد على هذه النسخة المعثو بها فلم يجد فيها ما يستدل به. فهذه خلاصة الكلامين وأظنَّ كلَّ متبصِّر منصف يرى ما رأيت وأيّ عجب من علامة كالسمعاني لا يصيب في أمر فله الكمال ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدَّ معائبه

وما تسامى به العلامة السمعاني نزاهته عن التعصّب فلا يصرفه عما يراه حقاً حب أمته أو وطنه، وأعظم شاهد لذلك أراؤه هنا في كتب يوحنا مارون في الكهنوت وفي شرح رتبة القداس وفي الرسالة وفي التقديسات، وفيه كتابه في رد بدعة المشيئة الواحدة. فكذا كذا فليكن العالم والكااتب قدرونا الله أن نكون كذلك .

عد ١٦

قداسة يوحنا مارون

قد أفرد، المطران اسطفانس عواد السمعاني (ابن أخت السيّد السمعاني الشهير كتاباً لإثبات قداسة يوحنا مارون دوّنه في اللغة الإيطالية وطبعه في رومة سنة ١٧٦٩م، وترى ترجمة عربية له في الكتاب الموسوم بالحمامة عن الموارنة وقديسيهم والمطبوع هذه السنة ١٨٩٩م. وكذلك أفرد البطريرك يوسف أسطفان كتاباً آخر لهذا الغرض نفسه كنا قد استنسخناه عن نسخة في رومة سنة ١٨٩٣م وقد طبع الآن في كتاب الحمامة المذكور. والداعي لتأليف هذين الكتاين هو ما ذكره مؤلفاهما أنَّ بعض إخواننا الملكيين الكاثوليكين شرعوا سنة ١٨١٥م يذيعون بين العامة أنَّ القديس مارون الرئيس أبا الطائفة المارونية ليس بقديس حقيقة بل تحتل الكنيسة الرومانية الموارنة يعتدونه قديساً، فشق هذا الأمر على الموارنة ورفع بعض رؤسائهم عريضة إلى الكرسي الرسولي يشكون من هذا التجني ويبينون ما لهم من المستندات في قداسة مارون الرئيس، فوكل الكرسي الرسولي إلى بولس ماريا لوشيني (الذي صار بعداً كردينالاً) الفحص عن هذا الأمر فرفع إلى الكرسي الرسولي حكمه بعد الفحص ومما قاله فيه: «إنَّ قداسة القديس مارون ثابتة وإن لم

تكن فيها براءة رسمية ككثيرين غيره من أصفياء الله في القرون الغابرة وإن وضعت قداسته تحت الريب اتسع المجال لإنكار قداسة كثيرين من الآباء والنسك والأبرار» فحمد سعي الخصومة لكنه لم يطفأ فإن بعض الملكيين الكاثوليكين حملوا بطريركهم كيرلس تاناس سنة ١٧٥٠م على تمزيق صورة للقديس مارون مطبوعة في رومة مدعياً تبعاً لزعم سعيد بن البطريق أنه مبتدع. وبلغت أخبار هذه الأحداث البابا بناديكتس الرابع عشر فكتب منشوراً إلى نيقولاوس لاركاري كاتب مجمع نشر الإيمان المقدس مؤرخاً في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣ يثبت به قداسة القديس مارون ويبرئه من تهمة البدعة ويؤنب البطريك كيرلس على فعلته وسوف نثبت ترجمة هذا المنشور برمته. وكان يرجى أن يسد باب المناظرة بحكم الكرسي الرسولي بهذا البحث إلا أن أصحاب تلك الضغائن لما ضاق ذرعهم عن التشبث بآتهام القديس مارون الرئيس ورأوا أنهم يعيدون له في ١٤ شباط عدلوا عنه إلى آتهام القديس يوحنا مارون بطريك الموارنة الأول بما كانوا قد آتهموا به القديس مارون وكتب أحد كهنتهم بحلب سنة ١٧٦٥م رسالة باسم طائفته إلى السيد أرسانيوس شكرى مطران الموارنة بحلب. ومما قاله فيها: «إن الملكية لا يريدون أن يكرموا مارون آخر غير مارون الرئيس الذي كتب ترجمته توادريطس، أمّا يوحنا مارون فيعدونه من القائلين بمشيئة واحدة وفعل واحد في المسيح ما لم يعترفه الخبر الروماني قديساً ويعلن قداسته بمنشور رسولي، واتبع ذلك بكثير من الطعن على الموارنة وبالغض من كرامة المطران أرسانيوس وكتب مثل ذلك إلى مجمع نشر الإيمان المقدس. وعقد الملكيون مجعاً في حلب حضره رؤسائهم ورؤساء السريان والأرمن واستدعوا إليه رؤساء المرسلين اللاتينيين واليسوعيين والفرنسيسيين والكرمليين والكبوشيين وبعض علماء الموارنة فقضى من شهدوا الجمع بالإتفاق أن يوحنا مارون قديسٌ يحق له الإكرام الذي يقدمه له الموارنة إلا الملكيين فإنهم كابروا وأبوا الإذعان، وما انفكوا عن مثالبهم فكان هذا الداعي الذي حمل المطران أسطفانس عواد السمعاني وهو في رومة إلى تدوين كتابه في قداسة يوحنا مارون وتبرئته وتبرئة الموارنة من وصمة بدعة المشيئة الواحدة. وكذلك حمل البطريك يوسف أسطفان أن يكتب إلى رئيس مجمع نشر الإيمان رسالة باسمه وباسم أساقفته ويردفها بكتابه في يوحنا مارون. فالكرسي الرسولي بعد التروّي والتحقيق على عادته أثبت رأي الموارنة، وأكبر شاهد لذلك منح البابا بيوس السابع في ٣٠ كانون الثاني

سنة ١٨٢٠م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي يوم عيده في ٢ آذار كل سنة، ثم مد هذا الغفران إلى جميع كنائس الأمة المارونية في منشوره في ٢٧ أيار سنة ١٨٢١م وسوف تثبت ترجمة المنشورين. وعن الكتاين المذكورين نأخذ نحن ما سنذكره في هذا الصدد بما يمكن من الإيجاز.

فقد استشهد البطريرك يوسف اسطفان لقداسة يوحنا مارون أولاً علماء الموارنة وهم جبرائيل القلاعي أسقف نيكوسية بقبرص الذي أخذ سنة ١٤٩٥م ترجمة يوحنا مارون عن كتاب قديم عثر عليه وضمها إلى كتابه إلى القس جرجس بن بشاره المار ذكره وقد ترجم الأب كواريسمس الفرنسي هذه القصة من العربية إلى اللاتينية، ونشرها في مؤلفه في وصف الأرض المقدسة، ثم البطريرك أسطفانس الدويهي وقد أخذ ترجمة يوحنا مارون عن كتاب قديم أطلعه عليه القس مخائيل المطوشي قيل فيه: «قد كان رأس الأمة المارونية اسمه يوحنا وكان رجلاً فاضلاً عالماً صالحاً مزيناً بكل الفضائل والمحامد». ثم مرهج بن نيرون الباني وقد أخذ ترجمة يوحنا مارون عن كتاب رآه عند الخوري يوحنا الرزي خوري بيروت ثم السمعاني الشهير وقد رأيت ترجمة يوحنا مارون مأخوذة عنه وقد انتحل كلامه برمته الأب مخائيل لكويان في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي (مجلد ٣ في بطاركة الموارنة). واستشهد هذا البطريرك لذلك أيضاً بترجمة يوحنا مارون في سنكسارى الموارنة وقال إنَّ منه نسختين قديمتين بالعربية والأحرف الكرثونية في مكتبة الواتيكان في عد ٢٧ و ٢٨ وفيها أخباره التي رويها في ترجمته عن أصله وعلومه وترهبه وأسقفيته وبطيركيته وجهاده ومناضلته المبتدعين ولاسيما أصحاب المشيئة الواحدة، واستشهد أيضاً بالمقدمة المعلقة بالعربية واللاتينية على طبعة كتاب قداس الموارنة سنة ١٧١٦م بعد أن فحصت ورخص بطبعها حيث ثناء وافر على هذا البطريرك وقداسته وحيث طبع نافور القداس الذي ألفه معنوناً نافور القديس يوحنا مارون البطريرك الأنطاكي .

ثم أخذ هذا البطريرك في القسم الثاني يخص بيوحنا مارون ما أثبت البابا بناديكتس الرابع عشر في المجلد الثاني من تأليفه في تطويب القديسين أنه لازم في التطويب وهو العيد المشهور الإحتفالي وحفظ صورة المطوب في الكنيسة بين صور القديسين والذكر له في الرتب البيعية والقداس في يوم انتقاله وتعارف الناس إياه طوباًوياً وقديساً، وأفرد لكل منهما فصلاً فقال في الأوّل إنَّ الكنيسة المارونية قد

عيّنت من أقدم الأيام اليوم التاسع من شهر شباط عيداً للقديس يوحنا مارون كل سنة كما يظهر من فهرست الأعياد السنوية المعلق على كتب القداوس وكتب الفروض وخصّ بالذكر الفهرست المعلق على كتاب الشحيم الذي طبع في رومية سنة ١٦٢٤ وسنة ١٦٤٧م بعد أن دقّق النظر فيه بأمر الأحبار الرومانيين بولس الخامس وغريغوريوس الخامس عشر وأدريانس الثامن وجماعة من العلماء منهم الكردينال بلرميلس الشهير. ففي هذا الفهرست «اليوم التاسع من شباط عيد القديس مارون البطريك» ومثل ذلك فهرست في كتاب قديم في كرسي قنوين وهو الآن في بطريكية الموارنة وفي كتاب آخر قديم في مكتبة الواتيكان في عد ٧ خطّ في نيموسية بقبرص سنة ١٨١٩ يونانية توافق سنة ١٥٠٨م. وفي كتب أخرى كان الموارنة يعيدون للقديس مارون في الخامس من كانون الثاني كما يظهر من كتاب للشدياق الياس بن داود الطرابلسي خطّ سنة ١٤٩٤م ومن كتاب لجرجس البرديوط خطّ سنة ١٥٢٣م اعتماداً على التقليد بأنّ يوحنا مارون كرّس في ذلك اليوم كنيسة كفرحي على اسم القديس مارون ووضع فيها هامته ورجّح أن يكون البطريك يوسف العاقوري قرّر أن يكون هذا العيد مفروضاً في مجمع عقده في دير حراش في ٥ تشرين الأوّل سنة ١٦٤٤م، ونسخة من أعمال هذا المجمع في المكتبة الواتيكانية في عدد ٣٣ كتب فيها: «مار يوحنا مارون البطريك في ٩ شباط» وكذلك في الفهرست المعلق على الشحيمة الصغيرة أي كتاب الفرض الأسبوعي المطبوع بأمر البابا أينوشتسيوس بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٦٤٧م وفي طبعاته التالية إلى سنة ١٧١٣م، إلى أن حسن لدى بطاركة الموارنة أن يفرضوا للقديس مارون ويوحنا مارون عيداً واحداً في ٩ شباط مجانبية لكثرة الأعياد كما يرى في كتاب القداوس المطبوع برومية سنة ١٧١٦م. وفي مطبعة روتلي سنة ١٧٦٢م حيث قيل: «٩ شباط عيد القديس مارون رئيس الدير والقديس يوحنا المسمى مارون أيضاً بطرك أنطاكية»، إلى أن أمر البطريك يوسف أسطفان أن يعيد للقديس يوحنا مارون وحده في الثاني من آذار سنداً إلى التقليد القديم أنّ وفاته كانت في ذلك اليوم. والحاصل من كل ذلك أنّ الموارنة كانوا وما برحوا يعيدون عيداً احتفالياً للقديس يوحنا مارون بعلم الكرسي الرسولي ورضاه وإثباته بل قال برتلماوس بياتسا في كتابه السنكساري الروماني الذي طبع في رومة سنة ١٦٧٦م وسنة ١٦٩٠م ما ترجمته: «في ٩ شباط يقام في رومة العظمى في كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي كنيسة مدرسة الموارنة عيد احتفالي للقديس يوحنا مارون الذي أقامه الكرسي الرسولي بطريكاً على الأُمَّة

المارونية يوم كانت تفسو البدع في الشرق فأعانه الله حتى صان بحسن تدبيره وحميد مسلكه تلك الأئمة نقية لم يمسها ضر البدعة وقد كابد في سبيل صونها شيئاً كثيراً من العناء والمشاق» .

وقال في الدليل الثاني اللازم للتطويب وهو تعليق صورة المطوب بين صور القديسين في الكنائس إنَّ البطريرك اسطفانس الدويهي حَقَّق في الفصل ٨ من كتابه الثاني في الاحتجاج أنه رأى بعينه صورتين للقديس يوحنا مارون إحداهما في قرية معاد في كنيسة القديس شربل والأخرى في كنيسة بحديدات ببلاد جبيل المبنية على اسم القديس توادورس، وقال إنَّ شكل بناء الكنيستين والنقوش التي فيهما تدلُّ على أنَّ بناءهما كان قبل عصر البطريرك أرميا العمشيتي الذي زار رومة في بدء القرن الثالث عشر. وقال الدويهي لولا تواتر الحروب والنكبات وخراب الكنائس في سورية لكان لنا أدلة أخرى كثيرة. وقد طبعت في رومة في أوائل القرن الماضي صورة القديسين بطرس وورشليس وإلى جانبيهما صورتا القديسين البطريركين يوحنا مارون وأرميا وفي أسفلهما كتابة هذا نصها: «القديس يوحنا مارون البطريرك الأنطاكي» ووزعت هذه الصورة في الآفاق برضى الكرسي الرسولي .

وقال في الدليل الثالث وهو ذكر المطوب في الرتب البيعية إنَّ ذكر القديس يوحنا مارون ورد متواتراً في كتب فروض الموارنة ورتبهم من ذلك ذكره في آخر صلوات المساء أيام الآحاد والأعياد حيث يقال **وِدْمَ مَدْمَا مَدْمَا** **لَحْمَ مَدْمَا مَدْمَا** **وِدْمَ مَدْمَا مَدْمَا** : أي ليذكر القديس يعقوب مع القديس مارون ويذكر رفاقه وفي صلوة الصباح يوم السبت يقال «يُنْذَر في الكنيسة المقدسة بالإيمان الذي علمنا إياه الآباء القديسون أعمدة البيعة والرعاة الصادقون والمعلمون المحققون ومفندو البدع باسيليوس وغريغوريوس الكبير وأثناسيوس وكيرلسي برج الحق وإوسطانيوس ويوحنا فم الذهب **مَدْمَا مَدْمَا** **لَحْمَ مَدْمَا مَدْمَا** أي والقديس أفرام المختار والقديس يعقوب والقديس مارون . قلت وقد أثبت السمعاني (في المجلد ١ من المكتبة الشرقية صفحة ٢٨٤) إنَّ المراد بمارون هنا القديس يوحنا مارون البطريرك لا القديس مارون الناسك الذي لا تحصيه الكنيسة في جملة علمائها المناضلين عن الإيمان بل في جملة قديسيها النساك الأفاضل . وهذه الصلوات في كنيستنا من أقدم الأيام بل لا نعرف لها بدءاً لتوغلها في القدم. وذكر مثل ذلك البطريرك يوسف أسطفان وقال

إنّ مثل هذا التذكّار وارد أيضاً في كتاب فروض الأعياد السنوي في صلوة عيد الختانة مع تذكّار القديسين باسيليوس وغريغوريوس وفي كتاب خدمة القديس المطبوع في رومة أربع مرات، وإنّ الموارنة يذكرون في رتبة قداسهم بعد التقديس ستة تذكّارات أي لرعاة الكنيسة الأحياء وجميع المؤمنين الكاثوليكين والملوك المسيحيين والعذراء مع القديسين والمعلمين الأبرار والموتى المؤمنين واستشهد الدويهي (فصل ٣ من كتاب الإحتجاج) حيث قال إنّهُ عثر على كتاب خدمة قديم ذكر فيه في تذكّار القديسين بولا وأنطونيوس وبخوميوس ومكاريوس وسمعان العمودي ... والقديس مارون الطوباوي». وفي تذكّار المعلمين القديسين « نذكر أيضاً المعلمين القديسين: الذين علموا الإيمان الحقيقي وبثوه في أقاصي العالم وهم الكواكب النيرة في البيعة المقدّسة أي اقليمس وديونييسيوس وأغناطيوس وايريناوس ... وغريغوريوس ... ويوحنا فم الذهب ... وإسحق ومارون ويعقوب السروجي». فمن لا يرى أنّ مارون الوارد ذكره في جملة النساك المتوحدين هو القديس مارون الناسك ومارون الوارد ذكره في جملة ملائكة البيعة هو القديس يوحنا مارون البطريرك. واستشهد أيضاً بعنوان نافور القديس الذي ألفه يوحنا مارون آخذاً إياه عن الكتاب السرياني الذي في المكتبة الواتيكانية في عد ٢٩ وهو « نافور القديس يوحنا بطريرك أنطاكية ومعلّم البيعة المدعو مارون ».

وقال في الدليل الرابع وهو إقامة القديس في يوم انتقال المطوّب ليس عند الشرقيين قداس خاص بكل من القديسين بل في رتبهم طلبات أو أبيات يتلوها الخادم في القديس مدحاً للقديس ففي عيد القديسين مارون ويوحنا مارون في ٩ شباط يترنّم خادم القديس بما يلي : « هلمّ نمدح مرشدنا مارون العظيم الذي صاننا من الضلال والبدع ووساوس المحتال ... ويوحنا مارون الفريد بالقداسة والرأي السديد الذي نرجو بطلباته الرضاء والقبول من الفادي المسؤول » وحقق البطريرك أنّ هذا مدوّن في كتاب الخدمة الذي فحصه الكرسي الرسولي وأثبت وأمر بطبعه في رومة ونهى أن لا يستعمل سواه وأنّ فيه ذكراً مبجلاً ليوحنا مارون يقال في كل قداس وإنّ الكاهن يقول في التذكّارات بصوت عال : « ساعدنا وثبتنا في محبتك بصلوات هؤلاء الملائكة الذين حملوا بشارتك مجتهدين في المسكونة وثبتوا بيعتك المقدّسة بإيمان مستقيم لكي نصعد لك المجد معهم وبينهم ». فيجيب الخادم بما هو مثبت في الخدمة المطبوعة برومة (صفحة ٧٣) « وهو أننا لنذكر أيضاً أولئك الذين

تقدّموا ورقدوا بين القديسين واستراحوا بالقداسة وحفظوا الإيمان الرسولي بغير عيب وإياه سلمونا . . . ونذكر آباءنا ومعلمينا المتوشحين بالله المستقيمي المجد ذلك الرسول يعقوب أخا الرب وذاك الشهيد ورئيس الأساقفة أغناطيوس وديونيسيوس وأثناسيوس وباسيليوس . . . والبار المنتخب القديس مارون الأب الطوباوي المقبول في كنيسة رومة المقدسة الكاثوليكية والبارّ يعقوب والبار أفرام الأفواه الناطقة وأعمدة بيعتنا المقدسة». ولا مرء في أن مارون المذكور هنا في جملة ملائكة البيعة هو القديس يوحنا مارون .

وقال في الدليل الخامس على القداسة وهو أن يتعارف الناس المطوّب بقديس وطوباوي، أن تعارف الخاصة والعامة يوحنا مارون بطوباوي أو قديس مستفيض في المشرق والمغرب، فإنّه ينعت بقديس في عنوان كتبه القديمة ولاسيما نافوره المذكور وكتابه إيضاح الإيمان كما ذكرناه في محلّه (في العدد السابق) وفي كثير من كتب الموارنة، وقد أثبتت الكنيسة المارونية اسمه في طلبه القديسين بين الأساقفة والمعلمين القديسين بعد اسمي أثناسيوس وكيرلس كما هو ظاهر في كتاب خط سنة ١٥٨٢م وهو اليوم في مكتبة مدرسة الموارنة وينعت بقديس في الجامع اللبنانية وفي السنكساري وفي كل ما كتبه الأسقف جبرائيل القلاعي ومرهج بن نيرون الباني والبطريك أسطفانس الدويهي والسيد يوسف السمعاني والأب بطرس مبارك اليسوعي وغيرهم ممن كتبوا بالسريانية أو العبرية أو اللاتينية. وأما من اللاتينيين فنكتفي بأن نذكر منهم الأب كوارسمس الذي طبع ترجمته باللاتينية في الكتاب الأوّل من تأليفه في وصف الأرض المقدسة (صفحة ٣٧) ويوحنا شيواربوس في كتاب رحلته إلى أورشليم وقد ذكرنا قوله آنفاً ومما قاله: «إن يوحنا مارون سلك كل حياته مسلك الفضل والقداسة». ومنهم عبد الأحد ماكري في رحلته إلى لبنان وكيرلس برتلماوس في كتابه في السنكساري الروماني، والبولانديون فإنهم لم يذكروا يوحنا مارون إلا مع وصفه بالقديس كما ترى في المجلّد الرابع لشهر تموز صفحة ٣ ومنهم باجيوس في الحواشي التي علّقها على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٣٣م والأب لكويان في المجلّد ٣ من تأليفه الموسوم بالشرق المسيحي (صفحة ١١) حيث قال: «ما أعجب ما فعل يوحنا مارون في سبيل إفادة أمته في أيام بطريكته فقد رقى أساقفة وكهنة وأرسلهم إلى أطراف البلاد ووضع كتباً كثيرة يتألّق فيها سناء علمه الفريد ويتلأّل إيمانه الصحيح الوطيد». إلى أن يقول: «إنّه

مات شهيداً بالقداسة ودفن في كفرحي وله في الكنيسة المارونية تذكّار سنوي يقام في ٩ شباط» .

ومن هؤلاء أيضاً الأب إيرونيمس دنديني اليسوعي فقد قال في كتاب بعثته إلى لبنان: «إنَّ يوحنا مارون أرسل إلى الحبر الأعظم رقاہ المقام البطريركي ووكل إليه رعاية أولئك المؤمنين الذين ما برحوا امناء و متمسكين أبداً بعروة الدين الكاثوليكي، ولم ينفكوا منذ حينئذٍ يؤدون الإحترام والطاعة للكرسي الرسولي الروماني ويوحنا المشار إليه سار سيرة الفضلاء والقديسين والموارنة يعدّونه من أصفياء الله وقديسيه وينعتونه بالقديس في مقدمة القداس ويدعون باسمه». ومنهم ديلاروك في رحلته إلى سوريا في المجلّد الثالث المطبوع في أمستردام سنة ١٧٢٣م، ومنهم الكردينال أورسي في تاريخه لسنة ٦٣٦م في المجلّد ٢١ صفحة ٣٢٢ من طبعة رومة سنة ١٧٦٧م، وقال لولا خشية ملل القارئ لذكرنا كثيرين غير هؤلاء. انتهى كلام البطريرك يوسف أسطفان ملخصاً وجاء مثله في كتاب المطران اسطفان عواد ولا نرى حاجة إلى الزيادة على ذلك.

الفصل الثالث

براءة المارونين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

عد ١٧

براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة

إنَّ براءة القديس مارون الرئيس من بدعة المشيئة الواحدة أصبحت في هذا العصر حقيقة مقررة يخجل كل من كان له أقلّ إلمام بالتاريخ أن يتّهمه بهذه البدعة لئلا يثبت جهله بهذا الاتّهام ولا ينقض من كرامة هذا القديس شيئاً. فمن الحقائق المقررة باجماع المؤرخين أنَّ القديس يوحنا فم الذهب توقّاه الله في أوائل القرن

الخامس ، وفي جملة رسائله الرسالة السادسة والثلاثون منقذة إلى القديس مارون ، وقد ترجمناها بحروفها (في عد ٦٤٢) نقلاً عن أصلها في كتب فم الذهب التي طبعها الأب مين . وفم الذهب كان في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس . ثم من هذه الحقائق المجمع عليها أن توادوريطس أسقف قورش كتب ترجمة القديس مارون في كتابه في النساك ، وقد ترجمنا كلامه بحروفه في العدد المذكور من كتابنا هذا نقلاً عن كتاب توادوريطس في طبعة الأب مين ، ومما لا خلاف فيه أن توادوريطس توفاه الله سنة ٤٥٨م ، ومن البديهي أن مارون كان قبله ومما لا خلاف فيه أيضاً أن بدعة المشيئة الواحدة نشأت في نحو سنة ٦٢٨م أي بعد وفاة القديس مارون بقرنين ونصف . فأى منصف أو أي عالم يتهمة بدعة لم يكن لها عين ولا أثر في الكنيسة إلا بعده بقرنين ؟ نعم وجد من قال بذلك في عصر الجهل وهو سعيد بن البطريق البطريرك الإسكندري الملكي . لكن روايته نفسها كفتنا مؤونة ردها فكانت مما قال فيه أحد خطباء الفرنسيين إن بعض الأقوال يكفي لردها ذكرها وحده فإن هذا البطريرك قال : « كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون قال إن لسيدنا يسوع المسيح طبيعة ومشية واحدة وأفسد مقالة الناس . . . فسمي التابعون لدينه موارنة نسبة إلى مارون ولما مات مارون بنى أهل حماه ديراً سموه دير مارون » . وقد أثبتنا بطلان هذا القول من نفسه في عدد ٦٦٨ ولاسيما أن موريق استوى على أريكة الملك سنة ٥٨٢م وتوفي سنة ٦٠٢م وهذا مجمع عليه والقديس مارون قضى نحبه سنة ٤١٠م فيكون بين ارتقاء موريق إلى منصبة الملك ووفاة القديس مارون مئة واثنان وسبعون سنة ، وبين وفاة موريق سنة ٦٠٢م وظهور بدعة المشيئة الواحدة سنة ٦٢٨م ست وعشرون سنة . فبطلان قول سعيد بن بطريق بين من الوجهين ؛ فلا مارون كان في أيام موريق ولا بدعة المشيئة الواحدة ظهرت في أيامه .

إن مثل هذه الأغلاط في تاريخ سعيد بن بطريق كثير متواتر وقد أشار إلى ذلك كثيرون من العلماء منهم لوقا هلستين في رسالته إلى الكردينال أنطونيوس ، وارينس حيث قال في تاريخ ابن البطريق : « إن هذا الكتاب طبعه السلداني ويخالف في أشياء كثيرة ما كتبه مؤرخو ذلك القرن ، وعندما طالعتہ تبين لي نصه أعجيباً مفعماً بالخرافات . . . ولا فائدة منه البتة بل يبلبل عقول من اعتادوا تصديق الخزعبلات وإيثارها على شهادة المؤرخين المحققين » . وقال الأب فلوري (في مجلد

١٣ من تاريخه مقالة ٣ عد ٧) : «إنَّ تاريخ سعيد بطريك اسكندرية ... قد كتب فيه أموراً مضحكة، وقد خلا كلامه من التدقيق حتى في ذكره أحداث عصره». وقال الأب لكويان (في الفهرست المعلق بالمجلد ٣ من تأليفه المشرق المسيحي) : «من البين أنَّ تاريخ سعيد هذا لا يستحق أقلَّ تصديق، فإنَّ تأليفه طام في كل محل منه بخزعבלات وتزهات شنيعة ويشوش بذلك كل تواريخ القرون التي تقدمته». وقال دومينيكس منسى في حواشيه على تاريخ غرافيزون (مجلد ٤ مقالة ٥ صفحة ٧٠ إنَّ تزهات سعيد في التاريخ الإسكندري لم يفضح بطلانها إلا تيوس فقط في ما كتبه على ما أشهره سلدانوس منها بل السمعاني الشهير أيضاً في مكتبته الشرقية مجلد ١ صفحة ٤٩٨، وقال غرافيزون نفسه في المجلد المذكور إنَّ تاريخ سعيد مشحون بغوايات وحكايات كثيرة. وقال بروكوكيوس الذي ترجم هذا التاريخ إلى اللاتينية وطبعه السلداني في فاتحة ترجمته : «إنَّه يشتمل على خرافات كثيرة في الأخبار القديمة».

على أننا لم نر في كلام هؤلاء العلماء وعلمائنا الموارنة إلا هذه الأحكام العامة، ولم نطلع على أمثلة لهذه التزهات أو الخرافات - كما سموها. وليس لدينا كتاب سعيد بن البطريق لننقده بنفسنا ونورد مثلاً لأغلاطه. فاجترأنا أن نأخذ مثلاً لذلك من كلام لكويان في بطارقة أنطاكية وأورشليم حيث ذكر ابن البطريق. قال: «إنَّ جيورجios خلف مكدونios (في بطريكية أنطاكية) في السنة الثالثة لخلافة عثمان ورقي في قسطنطينية وأقام فيها خمس سنين ولم يأت إلى أنطاكية بل مات في قسطنطينية ودفن فيها». ولم يذكر أحد من المحققين جيورجios هذا بل لم يذكروا بطريكاً بين مكدونios ومكاريوس اللذين ذكرهما ابن البطريق والسنة الثالثة لخلافة عثمان توافق سنة ٦٤٨ أو سنة ٦٤٩ م لأنه بويج بالخلافة سنة ٢٤ للهجرة وهي سنة ٦٤٥ أو سنة ٦٤٦ للميلاد. وكان مكدونios حياً سنة ٦٤٩ م، والمؤكد أنَّه توفي سنة ٦٥٥ م وخلفه مكاريوس الذي قال في رسالة: إنَّ مكدونios سالفه كان في أيام بطرس البطريك القسطنطيني وشهد مجمعه الذي نبد فيه التعليم الكاثوليكي وهذا قوله فيها بطرس الكلي القداسة البطريك المسكوني وسالف حقارتي مكدونios ذو الذكر السعيد». والمؤكد أنَّ بطرس هذا رقي إلى بطريكية قسطنطينية سنة ٦٥٥ م واستمرَّ إلى سنة ٦٦٦ م. فإذاً مكدونios كان حياً في كل المدة التي قال ابن البطريق إنَّ جيورجios كان

فيها بطريركاً فضلاً عن انفراده بذكره بين بطاركة أنطاكية . ولذلك عقب لكويان كلامه في هذا المحل بقوله : « إن تاريخ ابن البطريق لا يوثق به » .

وقال ابن البطريق في مكاريوس المذكور: « في السنة العاشرة لعثمان (وهي سنة ٦٥٥م) صير مكاريوس بطريركاً أنطاكياً وأقام في قسطنطينية ثمانين سنين ولم يأت إلى أنطاكية ومات في قسطنطينية ودفن فيها » . فيظهر من قوله إن مكاريوس توفي سنة ٦٦٣م . وقد أجمع المؤرخون على أن مكاريوس حضر المجمع السادس سنة ٦٨١م وأصر على ضلاله ببدعة المشيئة الواحدة ولذلك حرم وأرسل إلى رومة ومات فيها بعد ذلك مصرّاً على غيّه هذا . ويظهر من رسالة الملك قسطنطين اللحياني إلى البابا دمنس المعلقة في صدر المجمع السادس أن مكاريوس كان في قسطنطينية سنة ٩٧٨ وابن البطريق يحصيه بين الموتى مذ سنة ٦٦٣م . فتأمل . قال بعد ذلك وخلف توما توفان : « ومات بعد أن استمر في البطريركية عشرين سنة وقام بعده جيورجوس في السنة الأولى لخلافة عبد الملك بن مروان » وهي سنة ٦٨٤ أو سنة ٦٨٥ والمجمع عليه أن المجمع السادس بعد أن عزل مكاريوس سنة ٦٨١م أقام توفان مكانه . وهذا يبين من أعمال هذا المجمع فمن أين أتى ابن البطريق بتوما هذا . ومن أين العشرون سنة التي استمر فيها توما بطريركاً بعد توفان حتى خلفه جيورجوس سنة ٦٨٥م . فهذه العشرون سنة كان فيها على كرسي أنطاكية مكاريوس وتوفان كما رأيت . ولذلك قال لكويان بعد إيراده قول ابن البطريق هذا عن الصحة بمراحل بالنسبة إلى التاريخ الصحيح . وجيورجوس الذي ذكره لم يؤكد المحققون أنه كان بطريركاً وبه كان حقيقة فابن البطريق قال لأنه استمر بطريركاً أربعة وعشرين سنة ، فتكون نهاية بطريركيته على زعمه سنة ٧٠٩م لأنه صير بطريركاً سنة ٦٨٥م . وقال بأثر ذلك إن كرسي أنطاكية خلا من بطريك خمسين سنة ٧٥٩م . وعاد يقول : إن أسطفانس صير بطريركاً على أنطاكية في السنة الأولى للآون الأيسوري وهي سنة ٧١٧م فمن سنة ٧٠٩م إلى سنة ٧١٧م ثمانين سنين فأين الخمسون سنة فتأمل بهذا الخلط . والصحيح أن كرسي أنطاكية خلا حينئذ من بطريك أربعين أو خمسين سنة وأقيم أسطفانس بطريركاً نحو سنة ٧٤٤م في السنة الثانية لقسطنطين الزبلي وهي سنة ٧٤١م كما حقق توفان في تاريخه .

وقال بعد ذلك إن توادورس الأول صير بطريركاً على أنطاكية في سنة ٢٠

لخلافة ابي جعفر وهي سنة ٧٧١م، وأنه استمر بطريكاً ثلاثاً وعشرين سنة والصحيح ما رواه توفان أنه صير بطريكاً سنة ٧٥١م. وقال ابن البطريق بعد ذلك: إن توادوريطس خلف توادورس المذكور في السنة الثامنة لخلافة هرون الرشيد. والمحقق أن هرون الرشيد رقي منصبة الخلافة سنة ١٧٠ للهجرة الموافقة لسنة ٧٨٧ للميلاد. وكان توادوريطس حينئذ بطريكاً لأنه في هذه السنة كان الجمع النيقاوي الثاني وكان القس توما الراهب نائباً عنه في هذا الجمع. فكيف يصدق قوله إن توادوريطوس صير بطريكاً في السنة الثامنة للرشيد وقوله: إن توادورس سالفه دبر البطيركية ٢٣ سنة وقد زعم أنه صير بطريكاً سنة ٧٧١م.

وفي تاريخه لبطاركة أورشليم قال في إيليا بطريكها إنه صير بطريكاً في السنة السابعة عشرة لهشام وهي توافق سنة ٧٤٠ للميلاد. والصحيح أن توادورس سالفه رقي إلى البطيركية سنة ٧٥٢م واستمر حياً بعد سنة ٧٦٧م لأنه كتب في هذه السنة رسالة إلى البابا بولس الأول. ولا يعلم كم سنة عاش بعد ذلك ورسالته هذه بلغت بعد وفاة البابا بولس الأول إلى البابا قسطنطين الدخيل على الكرسي الروماني سنة ٧٦٧م فأرسلها إلى يبين ملك فرنسا، وذكر خلاصتها البابا أدريانس الأول في رسالته إلى الملك كرلس الكبير وبرأ هذا البابا توادورس مما طعنه به مخالفو الجمع النيقوي الثاني. فإبن البطريق إذاً ذكر هنا الخلف قبل السلف مشوشاً سنّي التاريخ، وإيليا الذي زعم أنه صير بطريكاً سنة ٧٤٠م لا شك في أنه كان حياً سنة ٧٨٧م إذ روى البولنديون في ٢٥ شباط أن يوحنا الكاهن أتى إلى نيقية ليشهد الجمع السابع المسكوني نائباً عن إيليا البطريك الأورشليمي وكذا يرى توقيعه على آخر المجلس السابع من هذا الجمع. ورجح لكوريان أن وفاته كانت سنة ٧٩٦ أو سنة ٧٩٧م فإن صحّ زعم ابن البطريق أنه صير بطريكاً سنة ٧٤٠م كانت مدة بطيركيته سبعة وخمسين سنة وابتلعت بطيركية توادورس سالفه.

وقال بعد ذلك إن جيورجيوس صير بطريكاً سنة ٢٠ لخلافة أبي جعفر المنصور وهي على زعمه سنة ٧٧٢ (وعن باجيوس أنها سنة ٧٥٤م)، وأنه استمر على البطيركية ثلاثين سنة. وقد مرّ بك أن إيليا سالفه توفي سنة ٧٩٧م. فمن هذه السنة إلى سنة ٨٠٧م التي قام فيها توما خليفته عشر سنين فمن أين العشرون سنة؟ وارتقاء توما سنة ٨٠٧م إلى بطيركية أورشليم ثابت برسائل منه إلى البابا لاون الثالث.

قال ابن البطريق: «إنَّ سلمون صير بطريكاً على أورشليم في السنة العاشرة لخلافة المتوكل على الله واستمرَّ بطريكاً خمس سنين». فالتوكل على الله ارتقى إلى عرش الخلافة في آب سنة ٨٤٦م؛ فتكون ترقية سلمون إلى البطيركية سنة ٨٥٦م وكان قد قال في سالفه سرجيوس إنَّه أقيم سنة ٨٤٣م واستمرَّ ست عشرة سنة؛ فيكون سرجيوس بقي على زعمه في البطيركية إلى سنة ٨٥٩م. فضلاً عن أنَّ الظاهر من المجمع الثامن المسكوني الذي عقد في قسطنطينية سنة ٨٦٩م أنَّ البطريك سرجيوس الأورشليمي كان في جملة من حرموا فوتيوس في هذا المجمع؛ فيكون خطأ ابن البطريق مضاعفاً أي في تعيينه مدة سرجيوس، وفي قوله إنَّ سلمون رقي إلى البطيركية سنة ٨٥٦م وتوفي بعد خمس سنين أي سنة ٨٦١م.

قال بعد ذلك: «إنَّ إيليا صير بطريكاً على أورشليم في السنة العاشرة لخلافة المهتدي، وإنَّه كان ابن منصور الذي ساعد على فتح دمشق وجلس على الكرسي ٢٩ سنة». قال لكويان: «وأما قول ابن البطريق أنَّه كان ابن منصور الذي ساعد على فتح دمشق فهو من جملة هذياناته. ففتح دمشق كان سنة ٦٣٥م قبل ارتقاء هذا البطريك بمئتين وثلاث وأربعين سنة.

وقال بعد ذلك: «إنَّ لاون (يسميه اللاتينيون لاونتيوس) صير بطريكاً للسنة الثالثة من خلافة المقتدر بالله ابن المقتفي بالله واستمرَّ سبع عشرة سنة».

وقال ابن العميد (في ك ٢ فصل ١٩): «إنَّ جعفر أبا الفضل المقتدر بالله بن المعتضد بالله بويح بالخلافة يوم وفاة أخيه المقتفي بالله». فالمقتدر إذاً أخو المقتفي لا ابنه كما وهم ابن البطريق.

فهذا قليل من كثير من أغلاط ابن البطريق على سبيل المثال ودونك هذا المؤرِّخ الثقة المحقِّق المدقِّق الذي ما برح خصوم الموارنة يحجونهم بحديث خرافة استنبطه وهذى به أنَّ القديس مارون الرئيس أنشأ بدعة المشيعة الواحدة وهو كان قبل إنشائها بقرنين وأكثر كما أثبتنا بينات وحجج دامغة، ولا يريد بعض من هؤلاء الخصوم أن يقفوا عند التواريخ الصادقة وأن يدعنوا للحجج القاطعة أو يصدقوا الأحبار الرومانيين، والقول ما قالوا في أمور الدين، أو أن يلتفتوا إلى أنَّ هذه الخرافة لم يأت بذكرها أحد من كل من كتبوا من أيام مارون إلى أيام ابن البطريق

في القرن العاشر بل يكابرون ويتعتنون بانتحال بعض المؤرخين هذه الخرافة في أعصر الجهل عن سعيد بن البطريق قبل عصر الإنتقاد الذي أصلح كثيراً من التواريخ . وقد فُتد علماء الموارنة وأنا أحقرهم وفي آخرهم هذه التهمة مرات وما برح بعض العدل أو الحسد يعيدون ذكرها دون أن يكلفوا نفوسهم لرد حجج التنفيذ لها وعليه يفضي الجدل إلى ما لا نهاية له . والعقل وقواعد الجدل نقضي عليهم أن ينقضوا ما أتى به علماؤنا ، وما أتينا به في هذا الكتاب ، وما أوردناه في كتابنا روح الردود بهذا الصدد ، قبل أن يحجوننا بهذه الأقوال الساقطة .

عد ١٨

إثبات البابا بناديكتس الرابع عشر قداسة القديس مارون

إننا رغبة في إككام المتعتنين ثبت هنا منشور البابا بناديكتس الرابع عشر العلامة الذي أثبت قداسة القديس مارون الرئيس بداعي أن البطريك كيرلس تاناس مزق صورة هذا القديس، وعرض أمر هذا التجني على قداسته فأنفذ إلى الأب نيقولاوس لركاري كاتب مجمع نشر الإيمان رسالة بنمط منشور هذه ترجمتها عن كتاب براءته (مجلد ٤ صفحة ٨٦ عن طبعته في رومة سنة ١٧٥٨م) البابا بناديكتس الرابع عشر .

أيها الإبن الحبيب السلام والبركة الرسولية

١- قد وجدنا بين القراطيس التي قدمتها لنا أخيراً عند مثولك لدينا ما يختص بتكريم القديس مارون الرئيس فان ولدنا العزيز الأخ داسيداريوس الراهب الفرنسي من كازاباشيانا الذي كنا قد أرسلناه قاصداً إلى الأخ المحترم بطريك الموارنة كتب إلى مجمع نشر الإيمان أن الأخ المحترم كيرلس بطريك الروم الملكيين مزق صور القديس مارون المطبوعة في رومة ، وأعلن أنه لا يجوز إحصاؤه بين القديسين لأنه عاش هراتيكياً، وأن هذا أنشأ مخاصمات ومشاجرات بين الموارنة والروم الملكيين ، وأنه يخشى من زيادة هذه الخصومات يوماً فيوماً لأنه لم يستطع لإخماد نار المشاجرة بل بعد أن برح الحل الذي كان فيه مجتداً في إطفائها قال له بعض الكهنة جهاراً إن لا سلطان له في فصل هذه المسألة . والحكم بأن مارون

كان قديساً أو مبتدعاً ولاسيما أنَّ بطريركهم كان ينذر أنَّه عاش ومات ملطَّخاً بالبدعة ، ولذلك توجَّه إلى دير المخلَّص حيث يقيم بطريرك الروم الملكيين ليحدثه في هذه المسألة . فلم يفز بمشاهدته وتعدَّر عليه أن يلحقه .

٢- فنحن لم نتعجَّب فقط بل اغتظنا أشدَّ الاغتياظ مما فعله الأخ المحترم كيرلس البطريرك بجسارة وعلى غير روية ، وكأنَّه أراد أن يتباهى بعلمه وبخبرته ، فلم يصلح ذات البين بل حاول أن يحكم بسلطانه في هذا الجدل كأن أمره مجهول عندنا وعند الجمع . وأقبح من ذلك أنَّه أفرغ جهده في أن يحرم من وصف بالقداسة مذ أجيال كثيرة برضى الكرسي الرسولي وإثباته من أن يوصف بقديس أو أن يُقدَّم له التكريم الذي يُقدَّم للقديسين .

٣- وأنت تعلم أنَّ القديس مارون كان في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس وتوادوريطس الذي يمكن أن يسمَّى معاصراً له (لأنَّه اشتهر في منتصف القرن الخامس) كتب ترجمته ، فأثنى على فضائله السامية ، وأطراً أفعاله الحميدة . فتوادوريطس هذا أسقف قورش ألف كتاباً في تراجم الآباء عنونه بمحبِّ الله أو التاريخ الديني ؛ ولهذا الكتاب ترجمتان لاتينيتان : إحداهما في كتاب تراجم الآباء الذي وضعه رسفيدس ، والأخرى في المجلد الثالث من مؤلفات توادوريطس التي جمعها جنتيانس هروات وطبعها سيرمندس . فتوادوريطس يثني على قداسة القديس مارون في ستة مواضع من تأليفه كما يظهر من طبعة رسفيدس لكتاب تراجم الآباء ؛ أعني فصل ١٦ صفحة ٨٢٧ و ٨٢٨ وفصل ٢١ صفحة ٨٣٢ وفصل ٢٢ صفحة ٨٣٨ وفصل ٢٤ صفحة ٨٤٠ وفصل ٣٠ صفحة ٨٥٠ ، وفي جملة رسائل القديس يوحنا فم الذهب رسالته السادسة والثلاثون إلى القديس مارون الرئيس وقد أطراً فيها فضائله ، واستغاث بصلواته على أنَّ بعضاً من أصحاب التعاليم غير الصحيحة أفرغوا جهدهم في أن يضعفوا شهادة توادوريطس في كتابه تراجم الآباء . ومن هؤلاء : أندراوس ريفيتس في كتابه الرابع الموسوم الانتقاد المقدَّس فصل ٢١ ، وروبرتس كوكس في كتابه الموسوم بانتقاد بعض المؤلفين القدماء صفحة ٣٩٠ ، وفريدريكس سبانهامبوس في كتابه في التاريخ المسيحي للقرن الخامس فصل ١٠ صفحة ١٠٣٠ . فناصر هؤلاء كثيرون من أصحاب العلم السامي والانتقاد الدقيق ، وسدّوا أفواههم بمدافعهم عن صحة تاريخ توادوريطس وترفعه عن كل شائبة ، وفي جملة هؤلاء لاهاي في مقالته في

توادوريطس المعلقة على تأليف بلرمينس في الكتبة البيعين الذي طبع في البندقية سنة ١٧٢٨م صفحة ١٥٥، ثم كرنيليوس في مقالته الثانية المعلقة على المجلد الخامس من كتب توادوريطس المطبوعة في باريس سنة ١٦٨٤م صفحة ١٩٩، وتلمون في ترجمة توادوريطس فصل ٤٨ مجلد ١٥ صفحة ٣٢٩، ونطاليس اسكندر في تاريخه البيعي للقرن الخامس فصل ٤ جزء ٢٨، ثم الفقيه كليز في تاريخه العام للمؤلفين الملهمين والبيعين مجلد ١٤ فصل ١٤ جزء ٢ صفحة ٩٤

٤- وأهم من كل ذلك أن أدق مؤرخي عصرنا وأوفرهم خبرة وأبعدهم عن الإسراع إلى تصديق كل ما يقال قد اعترفوا بصحة ترجمة القديس مارون التي كتبها توادوريطس، وأثنوا على فضائله، وأطروا أعماله الحميدة كما فعل توادوريطس، وهذا أكبر دليل على اعتقادهم صحة ما كتبه توادوريطس في ترجمة القديس مارون فطالع كتب البولنديين في اليوم الرابع عشر من شباط في المجلد الثاني لهذا الشهر، وبيلايوس في تراجم القديسين في اليوم الرابع عشر المذكور، وتلمون في المجلد ١٢ من تاريخه البيعي في ترجمة القديس مارون صفحة ٤١٢ وما يليها. ولا ينبغي أن نسهو عن أنه لما طبع كتاب قداس الموارنة في أيام حبرية البابا اكليمنضس الثامن وكان الكردينال جبرائيل بليوتس محامياً عن هذه الطائفة طلب الرخصة من الحبر الأعظم في طبع الكتاب المذكور فرخص له على شريطة أن تُعلّق على صدر الكتاب ترجمة القديس مارون مأخوذة عن تاريخ توادوريطس. فأتم ذلك إذعاناً للأمر كما شهد بذلك الكردينال يعقوب برونيوس الشهير حيث قال: «خاطبت سيدنا الكلي القداسة في شأن طبع كتاب القداس للموارنة الذي كان قد طبع قبلاً فأجاب سؤالي، وأمر أن يعلّق في صدر هذا الكتاب ترجمة القديس مارون مأخوذة عن توادوريطس.

٥- ثم إنّه قد كان دير شهير للقديس مارون - كما يظهر في رسالة رؤساء أديار سورية الثانية إلى هرمزدا الحبر الأعظم سنة ٥١٧م موقعاً عليها من اسكندر رئيس دير القديس مارون؛ وهذا ظاهر في المجلد الخامس من مجموعة الجامع للاباي، المطبوعة في البندقية صفحة ٥٩٨، وفي تاريخ بارونيوس لسنة ٥١٧م عد ٥٣. وقد جاء في أعمال الجمع القسطنطيني الذي عقد ٥٣٦ ذكر لهذا الدير، وقد وصف دائماً مارون باسم قديس أو طوباوي - كما يظهر للمطالع في المجلد

الخامس من مجموعة لابي المذكرة صفحة ٩٦٧ وصفحة ٩٧٨ و ٩٩٤ و ٩٩٩ و ١٠٧٥ و ١٠٨٣ و ١٠٩٩ و ١١١١ و ١٢٢٣ ثم إن باجيوس في تنقيحه تاريخ الكردينال بارونيوس لسنة ٤٠٠م عد ١٧ وما يليه قد أثبت على فضائل القديس مارون، ثم فاض في الكلام على ديره، وأطراً كثيراً تشبث رهبانه بعري الإيمان الكاثوليكي، وشبّهه بقلعة حصينة للدين الكاثوليكي في المشرق كله لمقاومة أصحاب البدع. وذكر استشهاد ثلاثماية وخمسين راهباً من رهبانه تكللوا بإكليل الشهادة في أيام الملك أنسطاس، لمداغتهم عن المجمع الخلكيدوني. وذكر هؤلاء الأبطال في اليوم ٣١ من تموز في السنكساري الروماني حيث نرى شروحاً علّقها عليه الكردينال بارونيوس. ولا تغفل عن أنّ صورة القديس مارون مقامة على المذبح الكبير في كنيسة مدرسة الموارنة في هذه المدينة العظمى، ويقدم لها الإكرام العلني، ويعيد للقديس مارون عيداً احتفالياً.

٦- إن هذه الحجج كلها تثبت إثباتاً قاطعاً قداسة القديس مارون، وتبين إننا تصرّفنا تصرفاً محكماً وعادلاً في استجابتنا سؤال الأخ المحترم سمعان عواد بطريك الموارنة الأنطاكي واقتفائنا آثار سلفائنا - ولا سيما سالفنا البابا اكليمنضس الثاني عشر؛ إذ منحنا في براءتنا المبرزة في ١٢ آب سنة ١٧٤٤م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين ذكوراً وإناثاً الذين يعترفون ويتناولون القربان الأقدس في اليوم التاسع من شباط الذي يحتفل به الموارنة بعيد القديس مارون شفيعهم الخصوصي، ويزورون كنيسة من كنائس الرهبان أو الراهبات من جمعية القديس أنطونيوس الكبير أو جمعية القديس أشعيا في جبل لبنان ويصلّون من أجل الاتفاق بين الملوك المسيحيين واستتصال البدع وارتفاع شأن الأم الكنيسة المقدسة. فكل واحدة من هذه الحجج تبين صريحاً سوء تصرف الأخ المحترم البطريرك كيرلس في مقاومته غير القانونية لتكريم القديس مارون.

٧- ولا يعسر علينا أن نبحث في الأسباب التي حملت الأخ المحترم البطريرك كيرلس على صنيع هذا الأمر؛ فقد أثبت الموارنة أنّ منشأ تسميتهم عن القديس مارون الرئيس، وأنهم لم ينحرفوا قط عن محبة الدين الكاثوليكي، ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك أنّهم إذا كانوا جدّدوا اتحادهم مع الكنيسة الرومانية وقتاً ما فلا ينبغي أن يتأول ذلك بمعنى أنّهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا إليه. على أنّ غيرهم يرون الخلاف ويؤمنون أنّ الموارنة برزوا من مدرسة أصحاب

المشيئة الواحدة ، وأنَّ مارون رئيسهم نفسه اتَّبَعَ هذه البدعة ، وأنَّهم لم يرتجعوا عنها إلاَّ في سنة ١١٨٢م على يد اميريكس الثالث بطريرك أنطاكية اللاتيني . فكل هذه الأقوال يمكن الإطِّلاع عليها في المعجم العام الافرنسي اللاتيني في المجلد الخامس في كلمة موارنة ، وفي معجم موراريوس طبعة باريس صفحة ١٧٤٧ مجلد ٦ في كلمة موارنة .

٨- ثم إنَّ أصحاب الرأي المضاد يوردون شهادة غوليلمس رئيس أساقفة صور الذي روى في كتاب ٢٢ في الحرب المقدَّسة فصل ٨ ما أشرنا إليه آنفاً على أنَّ شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الرأي المضاد للموارنة ، ولربَّما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله . ولذلك عزاه إلى المجلد الثاني من تاريخ سعيد الإسكندري الذي كتب في صفحة ١٩١ هكذا : « وكان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول إنَّ في المسيح طبيعتين ومشية واحدة وفعلاً واحداً وأقنوماً واحداً . ولما مات مارون بنى له سكان مدينة حماه ديراً سموه دير مارون واتَّبَعوا اعتقاد مارون » .

٩- على أنَّ علماء الموارنة لم يألوا جهداً في تبيان الأغلاط التي تسكَّع بها سعيد المذكور وغوليلمس الصوري وسائر من اتبعهما ، وفي تفنيد هذه الأغلاط وهذا بيِّن من مقالة مرهج بن نيرون في أصل الموارنة واسمهم ودينهم . ومَّا أجاد في إبانته بفقاهاة سامية ولدنا العزيز يوسف سمعان السمعاني المقدَّم في بلاطنا في المجلد الأوَّل من مكتبته الشرقية صفحة ٤٩٨ ، وتابعهما على ذلك باجيوس الافرنسي في تنقيحه تاريخ الكردينال بارونيوس سنة ١١٨٢م . والحق نقول إنَّ بدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح إمَّا كان أوَّل ظهورها في أيام هرقل الملك ؛ وهذا قد أجمع عليه العلماء فكيف أمكن أن يشتهر هذا الضلال في أيام موريق الملك ، وكيف يصحَّ ما قاله سعيد من أنَّ الدير أنشئ بعد موت مارون الذي تكلم فيه مع أنَّ هذا الدير قد بني قبل مئتي سنة على اسم القديس مارون الرئيس ، وبروكوبيوس القيصري أثبت في كتابه الخامس في أبنية يوستينانس الملك أنَّ هذا الملك دُمِّر دير القديس مارون . ومن البيِّن أنَّ الملك يوستينانس توفي سنة ٥٦٥م وموريق توفي سنة ٦٠٢م .

١٠- إمَّا لا نطبق أن يقصَّر شيء من محبة الكرسي الرسولي للموارنة وقد

جمعنا نحن تقاريط سلفائنا لهذه الأمة ، وأضفنا إليها ثناءنا عليها في خطبتنا في
مجفل كرادثة الكنيسة المطبوعة في حاشية كتاب «بولتنا» مجلد ٢ صفحة ٤٢
. وإذا تركنا جانباً كل استمالة إلى الأمة المارونية ، وأطلقنا لعلماء الموارنة المقيمين
في رومة أن يردّوا سهام خصومهم ويثبتوا تشبههم الدائم بعري الإيمان الكاثوليكي
إذا دعت الحاجة (ولا نرى حاجة) ، ويؤيدوا نسبتهم إلى القديس مارون
الرئيس ، وافترضنا ما رواه سعيد صحيحاً للحق فلا يمكن أن ينتج من ذلك إلا
أنه كان مارونان: أحدهما قديس ، والثاني هراتيكي . فإنّ الاسم وحده لا يجعل
القديس أراتيكياً أو الأراتيكي قديساً ، ولا الإكرام المقدم للقديس يحسب مقدماً
للمبتدع ومن هذا ينتج نتيجة واضحة أنّ الأخ المحترم البطريرك كيرلس بنهيه عن
تقديم التكریم للقديس مارون لم يتخطّ حدود سلطانه فقط بل تصرّف تصرفاً
مخالفاً للتقوى في حق رجل حُسيب أجيالاً كثيرة بين مصافّ القديسين ولم
يأبّ الأبحار الرومانيون أن يغروا الشعب بتقديم الإكرام له بمنحهم الغفرانات
المقدّم ذكرها .

١١- قد قلنا قبلاً إنّه وإن سلمنا بصحة ما رواه سعيد لا ينتج من ذلك إلا أنّه
كان مارونان: أحدهما قديس ، والآخر أراتيكي . فالأراتيكي إنّما هو من تكلم فيه
سعيد وقال إنّه عاش في أيام موريق الملك الذي قلنا أنّما أنّه توفي سنة ٦٠٢م ،
والقديس إنّما هو من اشتهر في أيام الملك أركاديوس الذي دبر الملك من سنة ٣٩٥
إلى سنة ٤٠٨م ، وقد كتب توادوريطس ترجمته وكان توادوريطس معاصراً له
وثقة . وقد أثبتنا أيضاً أنّ الاسم وحده لا يكون سبباً يجعل القديس أراتيكياً أو
الأراتيكي قديساً ، أو لاحتساب الإكرام المقدم للقديس تكريماً للأراتيكي ؛ وهذا أمر
مقرّر وظاهر بالنور الطبيعي ولا حاجة له إلى إثبات . لكننا نورد مثلاً لتسمية اثنين
اسماً واحداً . فقد كان اثنان باسم ريمندس لوليوس ، واثنان باسم يوحنا كنتس ؛
وقد تكلمنا على هؤلاء في كتابنا في تطويب القديسين . فأحد المسّمين ريمندس
كان شهيداً مشهوراً ، والآخر تعيساً حكم عليه بالموت . وأحد المسّمين يوحنا
كنتس هو طوباوي والكرسي الرسولي يثبت الإكرام العلني المقدم له ، والآخر كان
من أولي البدعة . ومن ذلك كلّ يظهر جلياً أنّ الأخ المحترم البطريرك كيرلس
تصرّف تصرفاً مخالفاً للقوانين والتقوى بنهيه عن تقديم التكریم المقدم على زعمه
لمارون الأراتيكي الذي ذكره سعيد مع أنّه بالحقيقة قد حرم من هذا الإكرام مارون

الكاثوليكي الذي أثنى عليه توادوريطس ، وأنّ الكرسي الرسولي لم يقصد بمنحه الغفران إلا تكريم ذلك الطوباوي مارون الرئيس الذي كتب توادوريطس ترجمته وأثنى على قداسته ؛ وهذا يظهر جلياً مما ذكرنا آنفاً أنّ البابا اكليمنضس الثامن عمله. فلك إذاً أن تخبر المجمع بكل هذا وتتخذ الوسائل اللازمة والمناسبة وتكتب بأمرنا وأمر المجمع إلى الأخ المحترم البطريرك كيرلس أن يرعوي عما أقدم عليه ولا يجسر من الآن فصاعداً أن يحرم من الإكرام الإحتفالي القديس مارون الرئيس ، ويتمنع عن إلقاء الفتنة بين الروم الملكيين والموارنة . وإن رأيت موافقاً أن تبعث إليه بهذه الرسالة المنفذة إليك ليكون على يقين من معرفة إرادتنا فالإرادة لك بهذا الخصوص ونمنحك في الختام البركة الرسولية .

أعطي برومة حذاء كنيسة القديسة مريم المعروفة الكبرى في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣م وهي السنة الرابعة عشرة لحبريتنا .

فهذا المنشور المحصّن بهذه الأدلة السديدة والحجج القاطعة لا يزداد تبيناً وتأكيداً بل نذيله بما كتبه البابا بناديكطس الرابع عشر نفسه بعد إبرازه هذا المنشور إلى البطريرك سمعان عواد في رسالته إليه في ١٢ آذار سنة ١٧٥٥م وهو : «إننا لا نرتاب في أنّ الأب ايسيدورس قاصدنا المارّ ذكره حقّق لإخوتك ما لنا من الحلم الرسولي والغيرة والمحبة لك أيّها الأخ المحترم وللأخوان المطارين المكرمين وسائر أبناء أمتك الجليلة العزيزة أي الموارنة كلّهم الذين يتفاخرون بإقرارهم بأنهم تلقوا الاعتقاد بالإيمان الكاثوليكي من القديس مارون بالنوع الأخص وبشفاعته نما وثبت فيهم . ولما كان قلبنا موعباً بهذه المحبة لأمتك قد شقّ علينا أنّ بعض الناس لا يحسنون الرأي في قداسة القديس مارون والإكرام المقدم له ، فبرأنا قداسته من التهم وأثبتناها بالسلطان الرسولي ، وقد أخبرنا قاصدنا المذكور أنّه كان لذلك وقع حسن ، فسرّ الجميع به ، وقد جرى في وقت ملائم ونافع . فسررنا نحن أيضاً لسرورهم » . ويرى كل منصف أنّه لم يبق من مجال للامتراء في قداسة القديس مارون أو للجدال في براءته من بدعة المشيئة الواحدة بعد حكم الكرسي الرسولي بذلك في المنشور المارّ ذكره وفي مناشير منح الغفران في يوم عيده وبعد كل ما أوردناه من الحجج الدامغة هدى الله المكابرين .

براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة

نجزئ كلامنا في إثبات هذه الحقيقة إلى الإستدلال عليها. أولاً. بشهادة الأبحار الأعظمين. ثانياً. بسيرة يوحنا مارون وتأليفه. ثالثاً. بشهادة أعدائه أنفسهم. رابعاً. بشهادة العلماء المحققين. خامساً. ببيان بطلان ما يرد على ذلك.

شهادة الأبحار الأعظمين

قال البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م: « لا يخفى عليكم أنه في أواخر القرن السابع عندما فشت بدعة القائلين بمشيئة واحدة بالمسيح وأفسدت سكان البطريركية الأنطاكية جزم الموارنة حينئذ رغبة في وقاية طائفتهم سالمة من ذلك الفساد أن يختاروا لهم بطريكاً يثبتهم الحبر الروماني ». وقد أجمع كل من ذكروا يوحنا مارون أو سلسلة بطاركة الموارنة أن البطريك الذي اختاره الموارنة حينئذ إنما هو القديس يوحنا مارون. أيتفق أن يكون يوحنا مارون من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة وأن يختاره الموارنة ليقوا طائفتهم من فسادها؟ أو يعرف هذا البابا العلامة أن يوحنا مارون متلوث بهذه البدعة ويقرظ الموارنة على انتخابه ليقمهم فسادها؟

إن البابا بيوس السابع قد منح في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م غفراناً كاملاً لجميع المؤمنين الذين يزورون كنيسة القديس يوحنا مارون في مدرسة كفرحي ببلاد البترون يوم عيده في الثاني من شهر آذار، ثم عمم نيل هذا الغفران لمن يزور أية كنيسة كانت من كنائس الموارنة في ذلك اليوم. وهذه ترجمة صورة منح الغفران: « إن سيّدنا الكلي القداسة بيوس السابع البابا بعناية الله قد منح بواسطتي أنا المدون اسمي أدناه كاتب مجمع نشر الإيمان المقدّس غفراناً كاملاً مؤبداً يمكن تقديمه إسعافاً للنفوس المعتقلة في المطهر لجميع المؤمنين إفراداً وإجمالاً رجالاً ونساء الذين يزورون بعبادة كنيسة القديس يوحنا مارون التي بقرية كفرحي في أبرشية البترون في يوم عيد القديس يوحنا مارون المذكور بحيث يكونون

نادمين ندامة حقيقية ويعترفون ويتناولون القربان الأقدس ويستهلون لله خاشعين مدة من ذلك اليوم من مشرق الشمس إلى مغيبها من أجل انتشار الإيمان المقدس . أعطى في رومة من ديوان المجمع المقدس في اليوم والسنة المذكورين أعلاه مجاناً ودون دفع شيء ولو بأية حجة كانت .

كرلس ماريا بيديشيني - كاتب المجمع

طبع في مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدس وهذه ترجمة صورة تعميم الغفران في مواجهة سيدنا الكلي القداسة في ١٧ أيار سنة ١٨٢١م .

إنَّ الغفران الكامل المؤبد الممنوح في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م لمن يزورون بعبادة كنيسة القديس يوحنا مارون بطريرك الموارنة الأنطاكي يوم عيد هذا القديس في اليوم الثاني من آذار كل سنة من جميع المؤمنين رجالاً ونساءً بحيث يكونون نادمين ندامة حقيقية ويعترفون ويتناولون القربان الأقدس؛ فهذا الغفران قد تعطف قداسة سيدنا البابا بيوس السابع بواسطتي أنا المدون اسمي أدناه كاتب مجمع نشر الإيمان المقدس وجعله عاماً لجميع كنائس الطائفة المارونية ولاسيما الكنيسة التي بنيت حديثاً إكراماً للقديس البطريرك المذكور، ويروم قداسته أن يستمر هذا الغفران موبداً مع حفظ كل شيء بحسب قوة المنح السابق وصورته أعطى برومة من ديوان المجمع المقدس المذكور، في اليوم والسنة المار ذكرهما مجاناً دون دفع شيء بأي حجة كانت .

كرلس ماريا بيديشيني

كاتب المجمع

طبع بمطبعة مجمع نشر الإيمان المقدس

إنَّ خصوم الموارنة يتهمونهم بهذه البدعة سنداً إلى أنَّ مارون أو يوحنا مارون ابتدعها أو تلوثا بها وعليه فجميع شهادات الأبحار الأعظمين التي أثبتوا فيها أنَّ الموارنة استمروا دائماً متشبثين بالإيمان الكاثوليكي ولم يزيغوا عنه البتة ثبت اتباعاً أنَّ هذين القديسين براء خلاء من هذه البدعة، وجمعنا كثيراً من شهاداتهم في

كتابنا روح الردود وسنورد بعضها في العدد التالي وعلى شهاداتهم المعول في أمر الدين ولا يوازيها شاهد أياً كان، ومن قال إنَّ أحدهم منح غفراناً تكرمةً لمبتدع أو ضال كان هو من الضالين .

ثم إنَّ تسمية الأبحار الأعظمين من أقدم الأيام هذه الأمة باسم موارنة دليل ناطق على أنَّهم لم يعتدوا مارون ويوحنا مارون هراتيكيين لأننا نراهم لم يسموا اليعاقبة الذين رجعوا إلى الإيمان الكاثوليكي يعاقبة بل سموهم سرياناً كاثوليكيين وكذلك لم يتركوا الكلدان الذين اتبعوا المذهب الكاثوليكي يسمون نساطرة بل كلداناً كاثوليكيين ولا الأرمن براصمة بل أرمناً كاثوليكيين، فلو كان أحد المارونين هراتيكياً لسموا المنتسبين إليهم سرياناً كاثوليكيين لا موارنة . وهذا دليل واضح وقاطع وقد ذكره كثيرون من العلماء اللاتينيين .

الدليل بسيرة يوحنا مارون وتأليفه

إنَّ تاهمي الموارنة يزعمون سنداً إلى اوهام سعيد بن البطريق أنَّ يوحنا مارون ابتدع بدعة المشيئة الواحدة، وهذا يستحيل عليهم إثباته إذ أجمع العلماء على أنَّ هذه البدعة كان أول ظهورها سنة ٦٢٨ م وأجمل كل من ذكروا يوحنا مارون أنَّه صير بطريكاً سنة ٦٨٥ م وتوفاه الله سنة ٧٠٧ م وقد مرَّ أنَّ لو فرضنا أنَّه عاش ثمانين سنة لكان مولده سنة ٦٢٧ م قبل ظهور هذه البدعة بسنة واحدة اطفال يبدع بدعة؟ وإن قالوا إنَّه تلوَّث بهذه البدعة وتشبَّث بها بعد بلوغه فإليك رد قولهم . إنَّ كل ما أوردناه في عد ٧٠٩ في قداسة يوحنا مارون من شهادات العلماء والكتب القديمة لإثبات قداسته والتعديد له كسائر أصفياء الله القديسين وعرض صورته في الكنائس كصورهم وذكره في الرتب البيعية في جملة أسماء الملائكة الكاثوليكيين ككيرلس وفم الذهب وأفرام وغيرهم وإقامة القداس يوم عيده وتعارف الناس والعلماء الكاثوليكيين له قديساً وطوباًوياً، فكل هذه بل كل واحدة منها تثبت أنَّ يوحنا مارون براء من كل بدعة ولا سيما بدعة المشيئة الواحدة . وقد مرَّ أنَّ كثيرين من المؤرخين أثبتوا أنَّ الملك يوستينيانس الأخرم المغوي ببدعة المشيئة الواحدة والحامي عنها قد اضطهد يوحنا مارون وأرسل جنوداً للقبض عليه فأحرقوا دير القديس مارون ودكوه وزحفوا إلى هات طرابلس للقبض على البطريك والتنكيل بقومه، فناصبهم الموارنة حرباً بارشاد

هذا البطريك وبقية ابن اخته الأمير ابراهيم. وقد ذكر كثيرون من أولئك المؤرخين أنَّ هذه الحرب كانت بسبب الدين ويؤيد ذلك حرق الدير ودكه فكيف يوفق هذا مع كون يوحنا مارون ورعيته من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة التي كان يوستينيانس يعنى بنشرها وتأبيدها. ثم إنَّ كلَّ ما أوردناه في عد ٧٠٧ و ٧٠٨ في تأليفات يوحنا مارون من تحقيقنا قوله في كتابه إيضاح الإيمان: «إنَّ للمسيح طبيعتين إلهية وبشرية ولهما مشيئتان كاملتان وفعالان كاملان» وقوله «إنَّ الذي كان يتألَّم مثلنا كان له كما لنا أفعال خصوصية طبيعية وبشرية». ومن تصحيحنا ما جاء في فاتحة كتابه المذكور من أنَّه: «كان يرد مزاعم تلاميذ قورش بطريك اسكندرية الذين كانوا يعتقدون مشيئة واحدة تبعاً للملك ذلك الزمان. ومن إثباتنا له كتابه في شرح رتبة القديس وقد قال فيه قد تمثل تباع ديوسقورس من بلبولوا مشيئتي ربنا وفعليه...» وحققنا بشهادات آبائنا الأطهار التي جمعناها في كتابنا نقضاً لزعم من يلبولون طبيعتي ربنا ومشيتي ويخلطون خواصه وأرسلنا كتابنا إليكم». وقال فيه أيضاً: «كل من لم يعترف ويقول إنَّ ربنا اتَّحد بالجسد اتحاداً جوهرياً حفظت فيه طبيعته بخواصهما الإلهية والبشرية... فليكن محروماً». وقال أيضاً: «حاربها (أي الكنيسة) قورش الإسكندري واتباعه ولبلوا مشيئتي ربنا وفعليه فبادوا وتبددوا كالدخان». فكل هذه الأقوال التي حققنا أنَّ يوحنا مارون كتبها لم تثبت فقط لإثباتاً جلياً براءته من بدعة المشيئة الواحدة بل تفنيده لها ومناضلة أصحابها أيضاً.

شهادة أعداء يوحنا مارون لبراءته من البدعة

إنَّ شهادة الخصم لخصمه لا مرد لها وقد أنبأنا الآثار وكتب اليعاقبة أنفسهم أنَّهم كانوا دائماً أعداء ليوحنا مارون والموارنة فشهادتهم لهذا القديس بينة دامغة فقد جاء في كتاب تعليمهم الذي كان محفوظاً في مكتبة مدرسة الموارنة برومة ما نصَّه بحروفه: «قام مارون (لا شك في أنَّ المراد يوحنا مارون كما هو بيِّن من الكلام الآتي) ووافق ملك الفرنج وكان أوجان البرنس وقال له يا ملك الزمان نحن خائفون على جبل لبنان أن تديره طائفة الملكية إلى أمانتهم (يظهر منه أنَّهم كانوا يعتقدون حينئذ المشيئة الواحدة) فقل للكردينال الذي عندك أن يكرِّسني مطرناً حتى أملك هؤلاء الناس على الأمانة الفرنجية والأمانة اليعقوبية لا أذكرها فكرِّسه

مطراً على البترون». وكان هؤلاء اليعاقبة يقذفون يوحنا مارون لأنه كان يعتقد طبيعتي المسيح ومشيتيه ويهزأون به كأنه يدّعي أنه أعلم من السيد المسيح فمن أقوالهم عليه في كتابهم المذكور: «إنّ مارون كان أعلم من السيّد المسيح بذاته وبسرّ اتحادهم متى سمعنا السيد المسيح قال إنّ لي طبيعتين ومشيتين» ويذكرون اسمه مصغراً تحقيراً له فمن أقوالهم في هذا الكتاب: «عندما وصل تملك الملكية إلى قرية اسمها أميون ارتفع ميورين وابن اخته بريهم عن الملكية إلى سمر جبيل وحماهم من الجزية التي فرضها الملكية». وقالوا في الكتاب المذكور أيضاً «ما رضيت الطوائف أن يؤمنوا حتى قلتم أنتم يا موارنة طبيعتين ومشيتين» طالع كتابي روح الردود ومن صفحة ١٤٧ إلى ١٥٧ في أقوال اليعاقبة هذه في كتاب تعليمهم وفي مؤلف هذا الكتاب الذي أثبتنا أنه ليس ليعقوب البردعي تبعاً لما حققه السمعاني في مجلد ٢ صفحة ٦٨ من مكتبته الشرقية، ثمّ عزاه في مجلد ٢ من مكتبته الشرقية صفحة ٤٦٨ إلى نوح البقوافي اللبناني بطريك اليعاقبة.

شهادة العلماء المحققين

استشهدنا في عد ٧٠٩ لقداسة يوحنا مارون بأقوال الأب كوارسميوس في الكتاب الأوّل من مؤلفه في وصف الأرض المقدّسة وشيواربوس في كتاب رحلته إلى أورشليم وكركلس برتلمائوس في كتابه السنكساري الروماني والبولنديين في المجلّد الرابع لشهر تموز والأب لكويان في المجلّد الثالث من كتابه المشرق المسيحي والأب ايرونيمس دنديني في كتاب بعثته إلى لبنان ودي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية والكردينال أورسي في تاريخه لسنة ٦٣٦م وباجيوس في حواشيه على تاريخ بارونيوس لسنة ٦٣٣م. فكل هؤلاء شهدوا لقداسة يوحنا مارون وبأولى حجة براؤه من بدعة المشيئة الواحدة ونزيد عليهم أيضاً الأب روهـر بخر في تاريخه لسنة ٦٣٨ حيث قال: «إنّ يوحنا الفلادلفي الذي أقامه القديس مرتينس البابا نائباً للكرسي البطريركي الرسولي في المشرق سرّه ما بلغه من أنّ الموارنة استحوذوا على جبل لبنان وما كان من أنطاكية إلى أورشليم فلـكي لا يحرموا من المساعدات الروحية أقام له يوحنا مارون راهب دير القديس مارون على العاصي أسقفاً عليهم». وقد برأ

علماء الموارنة يوحنا مارون من هذه التهمة بل أثبتوا قداسته وقد ذكرنا بعضهم آنفاً وأبناً ما اعتمدوا عليه في أقوالهم منهم جبرائيل اللحفدي أسقف نيكوسية بقبرص في محال كثيرة من تأليفه وإبراهيم الحاقلي وجبرائيل الصهيوني الإهدني والبطريك أسطفانس الدويهي في كتاب احتجاجه عن الموارنة ومرهج بن نمرون الباني في كتابه في أصل الموارنة واسمهم ودينهم ويوسف سمعان السمعاني في محال كثيرة من مكتبته الشرقية وفي مجلد ٢ فصل ٢٠ من مكتبته في الناموس ويوسف ولويس السمعاني في كتابهما في الرتب البيعية وأسطفانس عواد السمعاني في كتابه في أعمال الشهداء الشرقيين والغربيين وفي كتابه في قداسة يوحنا مارون والأب بطرس مبارك اليسوعي الماروني والبطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون في فصول شتى والخورى أنطوان قيالة في رده كراسة القس يوحنا عجمي وأخيراً العلامة البطريك بولس مسعد في رده المنظوم. وما أحسن ما قاله البطريك يوسف أسطفان (في قسم ٣ فصل ٤ من كتابه في قداسة يوحنا مارون) في درّه زعم من يقول إنّ الموارنة لا تقبل شهادتهم لبطريك طائفهم فقد قال ما ملخصه «لِمَ يصدق مؤرخو فرنسة وإسبانيا وإيطاليا وأستراليا وبلاد الروم في أخبار بلادهم وقبائلهم ولا يصدق الموارنة في رواية أخبار بلادهم ورؤسائهم، ولو صحَّ مبدأ الخصوم لم يبق تاريخ يعتمد عليه. ونرى المحققين يؤثرون الاعتماد في تواريخ كل قبيلة على ما كتبه علماؤها فضلاً على ما كتبه الأجانب عنها لزيادة الخبرة في الوطني على الأجنبي ولا يتصور البتة أنّ علماء كثيرين كمن ذكرناهم من الموارنة ومنهم أساقفة وبطاركة يتواطئون على نشر الكذب وعلى استنباط أخبار لم يتلقوها عن قدامائهم وعليه فشهادة علماء الموارنة في تاريخ بطريركهم هي أهل للتصديق كشهادة غيرهم. ولا سيما أننا ذكرنا شهادة كثيرين من اللاتينيين تطابق شهادتهم. إنّ لنا شهداء آخرين كثيرين يتبيّن لأوّل نظرة أنّ شهادتهم سلبية وهي بالحقيقة وضعية موجبة، فإذا حدثت مثلاً جريمة وشهد شاهدان عدل أنّ زيداً اقترفها وشهد مئة شاهد على أنّهم لم يروه اقترفها حكم بشهادة الشاهدين وردت شهادات المئة شاهد لأنّها قامت على السلب أو النفي، لكن الحكم على زيد بأنّه الفاعل تبرئة من الجريمة لكل من سواه وتكون هذه التبرئة وضعية موجبة لا سلبية. وكذلك في مبحثنا فقد عقدت مجامع للفحص عن بدعة المشيئة الواحدة ومبتدعيها وكتب تاريخها وغيرها من البدع علماء كثيرون وقضت تلك المجامع وأولئك العلماء أنّ

مبتدعيها إنما هم سرجيوس وبيرس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريك اسكندرية ومكدونيوس ومكاريوس بطريكاً أنطاكية وتوادورس أسقف فاران ببلاد العرب وأثناسيوس بطريك اليعاقبة وبعض الكهنة الحازيين لهؤلاء ولا ذكر لمارون أو الموارنة في واحد من كتب تلك المجامع أو أولئك العلماء وهذا تبرئة قاطعة للمارونيين والموارنة .

وليك هذا البرهان مبسوطاً قد عقد لنبد بدعة المشيئة الواحدة مجمع في أورشليم سنة ٦٣٤م عقده البطريرك صفرونيوس ومجمع آخر فيها سنة ٦٤١م ومجمع في قبرص سنة ٦٤٣م وأربعة مجامع في هذه الحقبة في إفريقيا اهتم بها القديس مكسيمس لمناسبة بيروس بطريك قسطنطينية ومجمع في رومة سنة ٦٤٦م دعا إليه البابا توادورس ومجمع آخر فيها سنة ٦٤٩م عقده القديس مرتينس البابا ومجمع في مديولان سنة ٦٧٩م ومجمع آخر في رومة سنة ٦٨٠م ثم عقد المجمع السادس المسكوني سنة ٦٨٠ إلى سنة ٦٨١م والمجمع المعروف بمجمع قصر الملك سنة ٦٩٢م ومجمع آخر في قسطنطينية سنة ٧١٢م تاييداً لهذه البدعة ومجمع آخر فيها سنة ٧١٥م دفعاً لها ولا أثر في كتب هذه المجامع كلها كاثوليكية أو غير كاثوليكية لمارون أو الموارنة . وكان من الأحرار الأعظمين مذ نشأت هذه البدعة إلى حين وفاة يوحنا مارون أنوريوس الأول واسفارنيس الثاني ويوحنا الرابع وتوادورس ومرتينس الأول وأوجانيوس وقيتاليوس ودوداتس ودونس وأغاتون الذي عقد المجمع السادس ولاون الثاني الذي أثبتته وبناديكتس الثاني ويوحنا الخامس وقنون وسرجيوس الذي أثبت يوحنا مارون بطريكاً ويوحنا السادس ويوحنا السابع الذي توفي في أيامه البطريرك المذكور ولا نرى أثراً في رسائلهم أو براءاتهم أو كتبهم لمارون أو الموارنة وترى فيها متواتراً ذكر مبدعي هذه البدعة وانصارها كما ذكرناهم .

وكان في زمان ظهور هذه البدعة وانتشارها علماء كثيرون منهم القديس مكسيمس المعتزف البطل الكمي في مقاومتها والقديس صفرونيوس بطريك أورشليم وقد ذكر في تأليفه أصحاب هذه البدعة ثم أندراوس المعروف بواضع القوانين ويوحنا الفيلاذلفي نائب الكرسي الرسولي في بطريركيتي أنطاكية وأورشليم وقبله أسطفانس أسقف دورا (الطنطورة) . وبعد انتشار هذه البدعة يوحنا الدمشقي وقد عدد في كتبه البدع والمبدعين، وبولس الشماس وتوفان في القرن الثامن وقد

ذكر غزوات المردة وسطوتهم، وأنسطاس المكتبي في القرن التاسع وقد ذكر غزوات الموارنة ولانسيوس في القرن العاشر وشدرانس في القرن الحادي عشر وزوناراس في الثاني عشر وقد ذكرا صولة الموارنة ونيكوفور كاليستس في الرابع عشر وقد عدد بدع المشرق وغير هؤلاء كثيرون ولا ترى خطة في كتبهم أجمع تشير إلى أن مارون أو الموارنة أبدعوا في بدعة أو تشبثوا بها فيا لأمر عجيب غريب لا يعرف له في التواريخ مثيل أن يبدع مارون أو الموارنة بدعة ولا يظهر لهم أثر يشير إلى ذلك في المجامع أو رسائل الأحرار الأعظمين أو كتب العلماء في قرون كثيرة كما رأيت .

بطلان ما يرد على ذلك

أجل ورد أثر لذلك في كتاب سعيد بن بطريق البطريك الملكي الإسكندري في منتصف القرن العاشر وهو قوله الذي ذكرناه أكثر من مرة وابنا بطلانه ولاسيما أنه زعم أن مارون كان في أيام موريق الملك وهو كان في أيام أركاديوس وبينهما نحو من قرنين، وأن مارون ابتدع بدعة المشيئة وهي لم تظهر إلا في سنة ٦٢٨م، فكان مارون قبلها بأكثر من قرنين بل قد فُتد بناديكتس الرابع عشر نفسه قوله كما رأيت في منشوره بالعدد السابق وقد نفعتنا ابن البطريق بقوله بعد موت مارون بنى أهل حماه ديراً له على العاصي فكان كلامه تبرئة ليوحنا مارون لأن هذا الدير بني على اسم مارون قبل يوحنا مارون بأكثر من قرنين كما رأيت ذلك في منشور البابا بناديكتس الرابع عشر. وكذا يصدر الله من الشر خيراً فكلام ابن البطريق في مارون فرية وتهمة وقوله الآخر في بناء الدير تبرئة ليوحنا مارون من تلك التهمة .

وورد قول آخر لغوليلمس أسقف صور (في تاريخ الحرب ك ٢٢ فصل ٨) قال فيه إن الموارنة: «تشبثوا بضلال مارون نحو خمس مئة سنة، ثم أقبلوا عنه بالإلهام الإلهي . . . وكان ضلالهم أن في الخُلص مشيئة واحدة وفعلاً واحداً كما يظهر من الجمع السادس الذي عقد ضدهم وحرّموا فيه» وقد انتحل غوليلمس هذا الكلام عن سعيد بن البطريق بدليل أنه قال في فاتحة كتابه «ألّفنا تاريخاً ينسب إلى خمس مئة وسبعين سنة . . . واقتفينا بشهادة الرجل المحترم سعيد بن بطريق البطريك الإسكندري» فكلامه إذاً مبني على شهادة سعيد الباطلة وما بني على اليباطل باطل

ويظهر أنَّ غوليلمس التقف كلام سعيد دون ترو أو تحزُّ يدُّنا على ذلك قوله إنَّ المجمع السادس عقد ضد الموارنة وقد حرمهم، ولو طالع أعمال المجمع السادس ولاسيما ترجمتها اللاتينية لأدرك أنَّ المجمع السادس حرم سرجيوس وبيرس إلى آخر من ذكرناهم آنفاً لا مارون أو الموارنة الذين ليس في المجمع المذكور خطة تشير إليهم ويكفيها مؤونة الرد لزعمه قول البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره الذي أثبتناه آنفاً: «إنَّ أصحاب الرأي المضاد (للموارنة) يوردون شهادة غوليلمس أسقف صور (وعين المحل الذي ذكرناه) على أنَّ شهادة غوليلمس لا تكفي لتأييد الرأي المضاد للموارنة ولربما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله، ولذلك عزاه إلى المجلد الثاني من تاريخ سعيد البطريك الإسكندري، وسوف نسهب الكلام إن شاء الله في رد زعم غوليلمس هذا في تاريخ القرن الثاني عشر. وإلى حينه طالع كتاب الدر المنظوم للعلامة البطريك بولس مسعد صفحة ١٥١ وما يليه. وكتابنا روح الردود من صفحة ١٢٣ إلى صفحة ١٣٢.

قليل إنَّه جاء في ترجمة عربية لأعمال المجمع السادس اسم مارون في جملة من تلوثوا بهذه البدعة؛ فإنَّ صبح هذا القيل كان زيادة من زيادات أعداء الموارنة على بعض الكتب ولا عبرة له البتة لأنَّ الأصل اليوناني والترجمة اللاتينية لا أثر فيها لاسم مارون كما حقَّق البطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون قسم ٣ فصل ١ وكذا لا عبرة لأقوال كثيرين من الحدباء الذين انخدعوا بقول سعيد بن البطريق وغوليلمس الصوري لعدم ترويههم، وقد خالفهم في ذلك كثيرون من الأبحار الأعظمين والعلماء المحققين. راجع ما ذكرناه في تاريخ الموارنة في القرن السادس.

عد ٢٠

براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

إنَّ كل ما ذكرناه في براءة القديسين مارون ويوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة هو حجج قاطعة لبراءة الموارنة من هذه البدعة لأنَّ جميع من اتَّهموا الموارنة بها زعموا أنَّهم تابعوا عليها مارون أو يوحنا مارون، فإذا قوض الأساس أصبح بناء هذه التهمة في الجو ولا أساس له فيسقط لا محالة وكان لنا أن نكتفي بهذه

الحجج لكننا لا نكتفي بها بل نزيد عرضنا إثباتاً بشهادة الأبحار الأعظمين والعلماء المحققين وبايراد بعض اعتبارات تاريخية تؤيد هذه البراءة .

شهادات الأبحار الأعظمين

قد جمعنا في كتابنا روح الردود الذي طبع سنة ١٨٧١م بالعربية واللاتينية كل ما تشنى لنا الوصول إليه من شهادات الأبحار الأعظمين المثبتة استمساك الموارنة في كل وقت منذ نشأتهم إلى الآن بعري الإيمان الكاثوليكي وعدم زيغان امتهم عنه، وأوردنا أقوالهم اللاتينية وترجمتها العربية. فنورد الآن بعض هذه الشهادات فمنها رسالة البابا أينوشنسيوس الثالث سنة ١٢٠٧ إلى بطريرك الموارنة التي يثبت له فيها حقوق البطريركية الأنطاكية، ورسالة البابا اسكندر الرابع في منتصف القرن الثالث عشر التي يوصي بها بطريرك الموارنة ان يعتد الإفرنج الذين لبثوا في سورية كشعبه. وقال البابا لاون العاشر في رسالته إلى البطريرك سمعان الحداثي في ١ آب سنة ١٥١٥م: «إِنَّكَ وشعبك ترون رأياً قوياً في الإيمان بل تجهدون نفوسكم كثيراً بالأصوام والخصال الحميدة والتقشف ومبرة السيرة؛ وهذا قد أطلعنا عليه في رسائلكم التي تولانا بتلاوتها السرور والبهجة وطابت باستماعها نفسنا وملئ فؤادنا فرحاً لا يوصف، فتحتم علينا أن نحمد الله ونشكره ما قدرنا على ما أسبغه عليكم من نعمة إذ اصطفاكم من بين الكنائس الشرقية لتعبده مؤمنين مصونين من الغرق في لجة الكفر والنوائب كما صين الورد من الشوك ليتمجد بذلك اسمه القدوس ولتكونوا عبرة صالحة لرجوع غير المؤمنين بمحافظتكم على عادات الكنيسة الجامعة الرومانية ورتبها بنقاوة دون خوف ولم تريغوا عن محبة الإيمان القويم مع تواتر تيار الضنك والإضطهاد المزمجر به غير المؤمنين والهراطقة والمشاقون باغضوا اسم مخلصنا كما علمنا من رسالتكم ورسالة الأب فرنسيس سوريان (قاصده عند الموارنة) المار ذكره، بل تزدادون قوة وثباتاً في تحمّل المصائب والتعبير حباً بالله) ومما قاله له في هذه الرسالة «إِنَّا فهمنا من براءات اينوشنسيوس (الثالث) واسكندر (الرابع) المذكورين الصالحي الذكر ان أرميا الذي يسمى بطريركاً أنطاكياً أدى فروض الطاعة كما اعتاد البطارقة تأديتها للكرسي المقدس في مدينة طرابلس بحضرة المطارنة

والأساقفة على يد بطرس الكردينال كاهن كنيسة القديس مرسلّس ذي الذكر الصالح» .

وقال البابا بيوس الرابع في براءته إلى البطريرك موسى العكاري في ١ أيلول سنة ١٥٦٢م: «قد علمنا من رسالتكم ما لكم من التوقير السامي والتجلة والتعلّق الشديد بكرسي بطرس زعيم الرسل وثباتكم وثبات أمتكم في التشبث بعري الإيمان الذي تعلمه الكنيسة المقدّسة الرومانية فنهنيك وأمتك ونسدي الشكر لرأفة الله من صميم فؤادنا لأنّه استبقى له في هذه الأمصار القاصية ألوفاً كثيرة لم تحنّ ركبها لباعال ولم يروّعها ثقل نير غير المؤمنين لتبعد عن الإيمان القويم ولم يعثّ بها قربها من الهرطقة والمشاقين ولم يستطع أن يفصلها عن الكنيسة الكاثوليكية». وقال البابا غريغوريوس الثالث عشر في براءة إنشائه مدرسة للموارنة في رومة سنة ١٥٨٣م: «إنّ الملة المارونية القاطنة في جبل لبنان ما فتحت مذقرون شتى متمسكة بالإيمان الكاثوليكي مزدانة بصنوف الطاعة والانقياد للكنيسة الرومانية المقدّسة ولو أحدثت بها الملل الأرائيكية وغير المؤمنين». وقال البابا اكليمينضس الثامن في رسالته إلى البطريرك سركيس الرزي في ١ نيسان سنة ١٥٩٥م: «أمّا أنت أيّها الأخ المحترم فنعانقك وأمتك معانقة مودة خاصة وحب فريد لاتحادكم بنا بوثاق المحبة وقيامكم أماناً بالروح كل وقت مع بعدكم عنا بالجسد بعداً شاسعاً، وقد استحققتم أن تنزلوا عندنا منزلة الأبناء الأعزاء جداً لثبوتكم في الإيمان الكاثوليكي وخضوعكم الفريد للكرسي الرسولي المقدّس ولم تبرحوا على عادة أسلافكم الحميدة تجاهرون بالطاعة المتوجبة لامكم وأم جميع المؤمنين ومعلمتهم الكنيسة الرومانية المقدّسة وتحفظون بنعمة الله السابغة عليكم الإيمان الذي أخذتموه عن الكنيسة الرومانية كاملاً سالماً وان احاطت بكم أمم غير مؤمنة وبدع المشاقين». وكذلك قال البابا بولس الخامس في رسالته إلى البطريرك يوسف الرزي في ١٣ كانون الآخر سنة ١٦٠٦م: «نسأل أيّا المراحم الأزلي أن يفيض الخيرات السموية عليكم وعلى سائر الإخوة الأساقفة والأبناء الأعزاء الإكليروس والشعب، لأننا نراكم مزهرين بنعمة الله كالورد بين الأشواك». وقال مثل ذلك في رسالته إلى الموارنة في ٢٨ كانون الأوّل سنة ١٦٠٨م .

وأجاد بمثل هذا التقريظ البابا اوربانس الثامن في رسالته إلى البطريرك يوحنا

مخلوف في ٣٠ آب سنة ١٦٢٥م قائلاً في الموارنة: «لم يذبل جمال الكرمل ولم يذو مجد لبنان ولو مدَّ العدو الباغي إليه يداً». ومشياً إياهم: «بجبل صهيون يزدرون الزعازع إذ وعده الرب أنه لن يتزعزع إلى الأبد». ومثل ذلك قال البابا اكليمنضس الحادي عشر في رسالته إلى البطريرك اسطفانس الدويهي في ٧ شباط سنة ١٧٠٢م وفي رسالته إلى البطريرك جبرائيل البلوزوي في ١٠ حزيران سنة ١٧٠٥م وفي رسالته إلى البطريرك يعقوب عواد في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٧٢١م ومثله كتب البابا اينوشنسيوس الثالث عشر إلى البطريرك المذكور في ١٢ شباط سنة ١٧٢٣م والبابا اكليمنضس الثاني في رسالته إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م مشياً الموارنة بوردة بين الأشواك وبصخرة صلدة تزدرى بتيار بحر هذا العالم. وقد أثنى البابا بناديكتس الرابع عشر العلامة على الموارنة في رسائل وبراءات كثيرة نخض منها بالذكر خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م حيث قال: «إنَّ الموارنة كانوا دائماً كما هم الآن كاثوليكيون للغاية مرتبطون بالاتحاد بهذا الكرسي المقدس ومودون الإحترام والطاعة الكاملة لبطريركهم والخبر الروماني». واستطرد إلى ذكر ما قرظهم به أسلافه مما مرَّ بنا ذكر بعضه واجاد بمثل ما مر البابا اكليمنضس الثالث عشر في منشوره إلى الأعيان والإكليرس والشعب الماروني في ١٩ حزيران سنة ١٧٦٧م والبابا اكليمنضس الرابع عشر في رسالته إلى البطريرك يوسف أسطفان في ١٠ تشرين الأوّل سنة ١٧٧٠م والبابا بيوس السادس في رسالته إلى المطارين والأساقفة والإكليرس والأعيان والشعب في ١٧ تموز سنة ١٧٧٩م والبابا بيوس السابع في رسالته إلى البطريرك يوحنا الحلو وأساقفته في ١ تشرين الثاني سنة ١٨١٦م وفي رسالته إليهم في ٢٠ أيار سنة ١٨١٩م والبابا بيوس الثامن في رسالته إلى البطريرك يوسف حبيش في ١١ ك ٢ سنة ١٨٣٠م والبابا غريغوريوس السادس عشر في رسالته إلى البطريرك المذكور في ١٤ تموز سنة ١٨٣٢م. ومثل ذلك كتب البابا بيوس التاسع في رسائل عديدة إلى البطريرك بولس مسعد وقد كتب إلى حقارتي في ٢٩ آب سنة ١٨٧٢م: «إنَّ إيمان طائفتك الذي لم يشبه دنس وطاعتهم المستمرة لهذا الكرسي المقدس التي دافعت عنها بصواب في محل آخر (أي في روح الردود) وبرأتها من الشبهات ... كل ذلك كان له عندنا أحسن قبول». وفريد عصره وزينة دهره البابا لاون الثالث عشر المالك سعيداً في كثير من رسائله

وخطبه، من ذلك ما قاله في خطبته في تثبيت البطريرك يوحنا الحاج وهو: «إنَّ الموارنة منتشرون في أنحاء لبنان ... وهم أمة اشتهرت بالوقائع الجليلة لكنها امتازت خاصة بالثبات الذي حفظت به الإيمان الكاثوليكي صحيحاً سالماً في بهرة امتحانات ومصاعب كثيرة». وقال في رسالته إليه في ١٧ آذار سنة ١٨٩٥م: «إنَّ ما كتبته حديثاً عن إيمانك وإيمان أمتك غير المتزعزع وعن طاعتكم السامية لهذا الكرسي الرسولي قد كان ساراً لنا للغاية فإنَّ هذه الأمور وإن كانت واضحة لدينا من ذي قبل لإعادة ذكرها تطربنا كثيراً». إلى أن يقول: «إنَّ الإيمان الذي حفظته ملتكم الشريفة سالماً كاملاً غير منثلم لا يدعنا نرتاب في أنكم وإن لم تحضروا في اجتماعاتنا مع الإخوة المحترمين البطارقة الشرقيين تذكعون لكل ما رسم في الرسائل الرسولية» وقد كتب إلى حقايرتي في ٢٢ آب سنة ١٨٧٨م: «قد سررنا بما ابنته أيها الأخ المحترم عن طاعتك وإجلال الموارنة لهذا الكرسي الرسولي فتعلق الموارنة بهذا الكرسي الرسولي في كل وقت كان شديداً وما قاسوه من الحن الثقيلة من أجل هذا السبب بمكر أعدائهم كان عظيماً ولكن أعظم من ذلك عدوة لدينا ما يبدونه لنا من مظاهر التكريم».

فشهادة كل هؤلاء الأحرار الأعظمين في بحث ديني بحث لا تقوم أمامها شهادة العلماء والمؤرخين أيّاً كانوا، وهي أكثر من كافية، ومع ذلك لا تقتصر عليها بل نورد شهادة العلماء المحققين.

نؤثر أن نورد أولاً شهادات كرادلة الكنيسة الرومانية لتيقن صدقهم ومخبرتهم قريهم من مركز وحدة الإيمان، فلشهادتهم المحل الثاني بعد شهادة الأحرار الأعظمين. قال الكردينال بنديني في رسالته إلى البطريرك يوحنا مخلوف في ٣٠ تموز سنة ١٦٢٥م مخبراً عن طبع بعض كتبنا البيعية في رومة: «بعد البحث الجهد في هذه الكتب ومطالعة لاهوتين آخرين لها عرضنا نتيجة فحصها على الآب الأقدس فتولاه سرور لا يوصف لأنَّ الله تنازل بحنوه الوافر أن يحفظ عندكم إيمان الكنيسة الرومانية كاملاً سالماً من الفساد وإن كنتم بعيدين عنها وبينكم وبينها أصقاع وبحور وإن احدث بكم من كل جانب أعداء كثيرون لهذه الكنيسة». وقال الكردينال يوليوس ماريّاً دلا صوماليا رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس في رسالته إلى البطريرك يوسف حبيش في ١٤ آب سنة ١٨٢٤م: «إنَّ سرور الآب الأقدس البابا لاون الثاني عشر لدى مطالعته إيضاحات طاعتكم الإبنية وتعلقكم الشديد بكرسيه

ومظاهر البهجة التي أبدىتموها تهنئة له بارتقائه إلى كرسي القديس بطرس كان سامياً وعظيماً كعظمة ثبوت الأمة المارونية على ممر الأيام في حفظ وديعة الإيمان من غير دنس وقيامها على الإتحاد بالكرسي الرسولي الروماني المقدس من دون انفصال في وقت من الأوقات» ورغبة في الإيجاز تقتصر على شهادة أخرى حديثة لكنّها صريحة وقاطعة وهي شهادة الكردينال لودوكسكي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس الآن في رسالته إلى البطريرك يوحنا الحاج في ١٨ شباط سنة ١٨٩٥م حيث قال إنّ رسالتكم إلى الآب الأقدس هي: «على غاية من اللياقة بحبر شريف ورئيس الكنيسة والأمة المارونية المجيدة التي كانت متحدة في كل وقت وبكل إخلاص بكرسي القديس بطرس المعصوم من الغلط وقد عرفت أن تحافظ على الإيمان الكاثوليكي المقدس في المشرق وتدافع عنه في كل عصر من أعصر الكنيسة بل ان تساعد مساعدة فعّالة على ارتجاع غيرها من الطوائف الشرقية إليه من ذلك على سبيل المثل مساعدتها على رجوع السريان والروم الملكية في القرن الماضي».

وبعد شهادة الكرادلة نثبت شهادات بعض من أرسلهم الكرسي الرسولي إلى المشرق لمهام دينية أو أدبية وأقاموا سنين متطاولة بين الموارنة فمن هؤلاء الأب فرنسيس سوريانس وقد أقام مدات بين الموارنة قال في عريضة رفعها إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٤م: «إنّ الموارنة أجمع محافظون بلا ريب على وديعة الإيمان القويم ومتشبهون بعراه ويؤدون كنيسة رومة المقدسة عظيم التكريم كالأبناء الصالحين المتعبدين ولم يزيغوا في وقت من الأوقات عن شيء مما يخص خلاص النفوس». ونسخة من هذه العريضة محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة أتى بها من رومة القس بطرس الماروني رسول البطريرك سمعان الحداثي إلى البابا لاون العاشر.

ومن هؤلاء أيضاً الإلب إيرونيمس دنديني اليسوعي وقد أرسله البابا اكليمنطس الثامن إلى الموارنة وعقد رؤساؤهم بحضرته مجعهم سنة ١٥٩٥م فهذا قال في فصل ١٩ من كتاب سفارته هذه متكلماً في يوحنا مارون وكان يرى أنّه مضى إلى رومة وهذه ترجمة قوله: «وعاد منها بطريركاً على أولئك المؤمنين الذين ما انفكوا أمناء ثابتين في الدين الكاثوليكي وما فتثوا من تلك الأيام إلى الآن يؤدون الكرسي الرسولي الروماني فروض طاعتهم». وقال في فصل ٢٧ من هذا الكتاب متكلماً عما يتهم الموارنة به: «قد بذلت أعظم الإهتمام باحثاً عن ذلك بنفسي ومتخذاً وسائل أخرى مدققة فلم أجد ما يدل على ذلك البتة...»

وأدركت جيداً أنَّ ما ذلك إلا تهمة رشقوا بها وما نسبة ذلك إليهم إلا من أفضح الكذب» ومن هؤلاء الأب عبد الأحد أنطونيوس دي لوكا من رهبان القديس فرنسيس فإنه قال في خطبته في ٦ نيسان سنة ١٧٦٧م بحضرة البابا اكليمنطس الثالث عشر والكرادلة ولقيف من الطوائف الشرقية بمعرض تثبيت البطريرك يوسف اسطفان وهاك قوله: «أيها الأب الأقدس إنَّ ما أثبتته البابا بناديكتس ١٤ سالف قداستكم متكلماً في أصل السريان الموارنة وإيمانهم وهو «إنَّ الموارنة كانوا كلَّ حين كما هم الآن كاثوليكين للغاية ومتحدين أكمل اتحاد بهذا الكرسي المقدس». فهذا يشهد به إخوتنا أيضاً وهم ما زالوا يشغلون بحسب طاقتهم في كرم الرب بسورية وفلسطين منذ زمان أيينا الأقدس فرنسيس حتى اليوم وأشهد به أنا أيضاً وقد باشرت الرسالة الرسولية في تلك الأصقاع سنين متطاولة على أنَّه ما حاجتنا إلى شهود وقد سمعنا في هذا النهار بطرس الرسول الذي أسَّس الكنيسة الأنطاكية مجتازاً بها وخلف لهذا الكرسي الروماني الرفيع السلطان الرسولي الذي قبله من الخُلص متكلماً بضم قداستكم بتقريظ سام ومشرف ليوسف بطرس المنتدب بطريركاً أنطاكياً ولأتمته الموما إليها» .

ومن شهادات باقي العلماء والمؤرخين نقتصر على إيراد شهادات من يأتي ذكرهم قال الأب يوسف بيسون اليسوعي في كتابه في سورية المقدسة: «إنَّ الأئمة المارونية كلّها مسيحية، كلّها كاثوليكية منذ اثني عشر قرناً». يريد بذلك من أيام القديس مارون الذي انتقل إلى ربّه في أوائل الخامس إلى القرن السابع عشر الذي كان فيه المؤلف . وقال الأب بريسيسوس الكبوشي في حواشيه على مختصر تاريخ بارونيوس لسنة ٤٠٧م وهذا الكتاب طبع في رومة سنة ١٦٥٣م وهاك قوله ملخصاً: «لا ذكر في التواريخ القديمة للبيع ولا في المجامع العامة أو الخاصة أنَّه كان رجل أراتيكي في أحد الأعصار اسمه مارون وليس من عادة المجامع الصمت عن ذكر المبدعين والبدع وحرّمها فقد ذكر فيها الأراطقة فرداً فرداً ولم نجد ذكراً لمارون أراتيكي في مجمع أو تاريخ، وليس من دأب المؤرخين أن يغفلوا عن أمر كهذا فقد عدد نيكوفورس المؤرّخ في تاريخه اليوناني المبتدعين الشرقيين كافةً واحداً فواحداً ولم يأت بذكر مارون أو الموارنة وإن قيل أنَّ ذلك ورد في الترجمة العربية للمجمع السادس وفي تاريخ سعيد بن بطريق وغيره من الملكية ومن نقل عنهم قلنا تلك زيادة من زياداتهم على المجامع وكذبها بين فاعمال المجامع اليونانية

لم ينحرفوا قط عن محبة الدين الكاثوليكي ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك انهم كانوا جددوا اتحادهم بالكنيسة الرومانية وقتاً ما، فلا ينبغي ان يتأول ذلك بمعنى انهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا اليه .

وجاء في كتاب اسطفانوس عواد السمعاني في محاماته عن يوحنا السرومي وهو يوحنا مارون، ان الياس مطران قبرص كان يروم التملص من سلطة بطريرك الموارنة والاستقلال بسلطته محتجاً بما خوله المجمع الافسسي (في عمل ٧ قسم ٢) لمطارنة قبرص من الاستقلال عن بطريرك انطاكية في ترقية اساقفتهم الى الاسقفية، فحسب منشقاً عن بطريركه ومتحداً مع تيموتائوس مطران النساطرة، فالجئ الى ان يتلو دستور ايمانه بحضرة اندراوس رئيس اساقفة رودس . ومهما يكن من امره فهو فرد ورعيته في قبرص فريق يسير من الموارنة، فمن لا يقنعه كلما اوردناه من الادلة لا يسوغ له ان يعيب الملة كلها بعمل بعض افرادها، كما لا تعاب الكنيسة اللاتينية بالكثيرين الذين خرجوا عن طاعتها وعصوها .

لا نشاء ان نختم هذا الفصل دون ان نذيله بما كتبه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٣) متكلماً في براءة البابا اوجانيوس الرابع في شأن اقرار تيموتائوس مطران الكلدان واسحق قاصد الياس مطران قبرص على الموارنة بالايمان حيث ذكر السمعاني فقرة من البراءة المذكورة قال فيها البابا: «لا يجسرنَّ احد من الشعب والاكليروس من الآن وصاعداً ان يدعو مطران الكلدان واسقف الموارنة المذكورين وشعبيهما واكليزسهما هراطقة او ان يسمى الكلدان نساطرة، ومن خالف امرنا هذا نأمر اسقفه ان يحرمه الى ان يصنع الترضية الكافية أو يغرم بجزاء آخر زمني يراه الاسقف» . واردف السمعاني ذلك بقوله: انظر الى الفرق الذي وضعه البابا بين اسمي الموارنة والنساطرة. فلما كان الموارنة لم يأخذوا اسمهم عن مبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة فقط. واما النساطرة فلما كانوا اخذوا اسمهم عن نسطور المبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة ونساطرة، وهذا ما راعاه باجيوس إذ كتب عن الموارنة في تاريخ سنة ٦٣٥م عد ١٣ «بل ان تسمية هذا الشعب نفسها موارنة ينتج منها انهم لم يسموا بهذا الاسم نسبة الى مارون مبتدع، فإن العادة المستمرة في الشرق والغرب ان الهراطقة الذين يرجعون الى الايمان الكاثوليكي ان كانوا غربيين كاللوتاريين والكلونيين دعوا كاثوليكين، وان كانوا شرقيين فإن كانوا يعاقبة دعوا سرياناً وان نساطرة تسموا كلداناً ويفهم بذلك انهم سريان كاثوليكيون

قال فيها إنَّ المؤلّف صدق جاهلاً حالة المؤلّفين أعداء السريان الموارنة من كلامه الذي ذكره على أنَّ المؤلّف الفقيه صاحب الحمامة عن القديس يوحنا السرومي المسمى مارون أوّل بطاركة السريان الموارنة الأنطاكي المطبوعة في رومة سنة ١٦٦٩م (وهذه الحمامة هي للمطران اسطفان عواد السمعاني) قد أبان بأدلة لا يشوبها ريب وحجج كثيرة قاطعة أنَّ كنيستهم كاثوليكية مذ وجدت ولم تكن مشاقة أو أرائيكية قط في أحد الأوقات بل استمرت متمسكة دائماً بعرى إيمان الكنيسة الرومانية فالإيجاز المندوبون إليه في هذا المعجم لا يؤذن لنا أن نبين كل ما يلزم هنا من الأحداث وأن نكشف عن المكر الذي يستخدمه أعداء كنيسة السريان الموارنة هذه ولا أن نبين مستشهدين بأعمال سامية وفريدة كم للكنيسة الرومانية عند هؤلاء الموارنة من الحرمة والاجلال وكم قلوبهم وعقولهم مفعمة بالبساطة المسيحية الحميدة. فنجتزئ بإقامة بعض بينات وثيقة جداً على إيمانهم وهي ثمة الفحص المدقق الذي أجراه الأبحار الرومانيون عن إيمان الموارنة المضطهد والموسع بأقبح التهمات المكريّة. فمن هؤلاء البابوات بيوس الرابع في براءته إلى بطريركهم موسى: «ويعدد كثيرين من الأبحار الأعظمين الذين قرظوا إيمان الموارنة إلى أن يقول: «والحاصل إنَّ الأمر المؤكّد جداً والذي لا يشوبه ريب أنَّ كنيسة السريان الموارنة لم تنفصل قط عن الكنيسة الرومانية». وقال مثل ذلك الأب دومينيكس منسى المدقق الشهير في تنقيحه تاريخ نطاليس اسكندر عند ذكره قول تيموتائوس القس القسطنطيني وسنذكر كلامه في الرد على هذا القول، والعلامة يوحنا بلما مدرس التاريخ في مدرسة نشر الإيمان، ومدرسة الاكليروس الروماني في المجلّد الثاني من دروس التاريخ البيعي صفحة ١٦٧. ونعدل اختصاراً عن ذكر كثيرين غير هؤلاء منهم كانيسيوس اليسوعي في مؤلفه في التعليم المسيحي وأنطونيوس بيصوين اليسوعي في كتابه الاستعداد للإيمان وباجيوس في كتابه الموسوم بسورية المقدسة وروهر بوخر في تاريخه البيعي للقرن السابع ومن ذكرنا شهاداتهم آنفاً إثباتاً لقداسة يوحنا مارون، وأضف إلى شهادات كل هؤلاء شهادات العلماء الموارنة الذين ذكرنا أسماءهم وأسماء كثير من مؤلفاتهم في العدد السالف وأبنا أنَّ شهاداتهم لأمتهم ليست أقلّ قدراً من شهادة غيرهم، وأي بحث تاريخي ورد في إثباته أكثر مما أوردناه من شهادات الأبحار الأعظمين والكرادلة والقصاص وهذا العدد الوافر من العلماء المحققين ونزيد على كل ذلك بعض براهين تاريخية .

براهين تاريخية

أولاً إنّ كل من اتّهموا الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة زعموا أنّهم تابعوا على هذه البدعة أحد المارونين أو كليهما والحال أننا قد أثبتنا براءة المارونين منها بكل ما مرّ من الكلام فيهما ولا سيما شهادة الأحرار الأعظمين التي لا ترد فالموارنة إذأ براء خلا من هذه البدعة فكبرى هذا القياس ثابتة بما أوردناه من قولي سعيد بن بطريق وغوليلمس الصوري وهما وكل من شأنوا الموارنة بهذه التهمة لم يسندوها إلّا إلى أنّ مارون كان مبتدعاً ولم يبين أحد المتهمين أصلاً لهذه التهمة إلّا هذا، وهذا غير صحيح . فتهمتهم غير صحيحة .

ثانياً: قد مرّ في عد ٦٩٧ ان ما بدعة المشيئة الواحدة إلّا فرع من بدعة الطبيعة الواحدة أو نتيجة لازمة عنها، فالمشيئة والفعل خاصتان لازمتان للطبيعة فحيث وجدت طبيعة واحدة وجدت مشيئة واحدة وفعل واحد كما في الثالث الأقدس . وحيث وجدت طبيعتان وجدت مشيئتان وفعلان كما في المختص، وقد أثبتنا في العدد المذكور أنّ بدعة المشيئة الواحدة ابتدعها أصحاب الطبيعة الواحدة ولم يكن تسليمهم الموقوت بالطبيعتين إلّا خدعة حتى إذا اعتقد غيرهم المشيئة الواحدة خلعوا ثوب الرياء وعادوا يشبّون ضلالهم القديم بأنّ في المسيح طبيعة واحدة بضلالهم الحديث بأنّ فيه مشيئة واحدة، وقد حققت بينات لا ترد أنّ الموارنة أنفوا دائماً من بدعة الطبيعة الواحدة وانفصلوا عن أصحابها لا سيما السريان منهم أي اليعاقبة وقاسوا الاضطهاد لمدافعتهم عن الطبيعتين والمجمع الخلكيدوني حتى نال إكليل الشهادة ثلاثماية وخمسون راهباً من رهبان القديس مارون كما مرّ. ويوحنا مارون كتب كتابه إيضاح الإيمان رداً على أصحاب الطبيعة الواحدة وهذا الكتاب لا ينكره عليه أحد. وقد رأيت إقوال اليعاقبة عليه وعلى الموارنة وقد ذكر كثيرون من علمائهم أنّ أمة الموارنة تخالف أمتهم منهم ابن صليبا في كتابه في البدع وابن العبري في كتابه تاريخ الدول لسنة ١٦٩ للهجرة وهي سنة ٧٨٥ للميلاد حيث قال إنّ توافيلس الرهاوي كان يدين بدين الموارنة سكان لبنان (صفحة ٢٢٠ من طبعة الآباء اليسوعيين لهذا الكتاب) فلو اعتقد الموارنة المشيئة الواحدة بالمسيح لما أنفوا من اعتقاد الطبيعة الواحدة ولا عاداهم كل من يقولون بها كل هذه العداوة ويؤيد هذا ما يأتي .

ثالثاً قد عثر الأب نو الافرنسي الذي ذكرناه مرات في لوندرة على كتاب قديم في عد ١٧٢١٦ في التاريخ يعزى إلى قيس الماروني الذي كان في القرن التاسع فأذاعه بالسريانية ثم نشر ترجمته الافرنسية هذه السنة ١٨٩٩م. ومما جاء فيه هذا التاريخ ما ذكرناه قبلاً وهو: « في سنة ٩٧٠ (يونانية توافق سنة ٦٥٩ م) وهي السابعة عشرة لقسطنت الملك ... في شهر حزيران أتى أساقفة اليعاقبة توادورس وسبكيوت إلى دمشق وأقاموا جدالاً بحضرة معاوية في الإيمان مع رؤساء بني مارون وأفحم اليعاقبة، فأمر معاوية أن يدفعوا عشرين ألف دينار وأمرهم أن يلزموا الصمت فجرت هذه العادة على أساقفة اليعاقبة كل سنة فكانوا يدفعون هذا الذهب إلى معاوية كي لا يرخي بهم يده فيضايقهم بنو البيعة. ومن كان يسميه اليعاقبة بطريكاً كان يوزع هذا المبلغ على جميع مساكن الرهبان والراهبات وغيرهم من أبناء مذهبه فيقدمونه كل سنة، وجعل نفسه **مؤلف** (وفسر الكلمة بالعربية مكتوبة بالأحرف الكرثونية والعربية مرتخص) لمعاوية لكي يطيعه كل اليعاقبة خوفاً منه » انتهى مترجماً عن النص السرياني . فهذا الأمر يتبين منه جلياً أنَّ الموارنة كانوا يخالفون اليعاقبة في معتقدهم وانهم أفحموهم بالجدال على مذهبهم ولأنهم كانوا على الأيمان القويم إذ سماهم المؤلف بني البيعة أي كاثوليكين، فاذاً كان الموارنة كاثوليكين يجادلون الهرطقة في القرن السابع . وقد نشر العالم بروكس في المجلة الأسبوعية الألمانية (سنة ١٨٩٦م صفحة ٢٦٩) كتاب تاريخ لعالم يعقوبي من حران أو الرها مجهول الاسم يتصل تاريخه إلى سنة ٨٤٦م ومما قال فيه: « وبعد أن ملك أبسيمان ثلاث سنين عاد يوستنيانوس من المنفى في جيش عظيم وقتل جميع رؤساء الروم فقاموا عليه وقتلوه وابنه طييارنوس وملكوا فيهم فيليبك سنة ونصفاً، ولما أراد أن يعقد مجعاً ليؤيد بدعة الموارنة قام عليه الروم وسملوا عينيه وملكوا عليهم أنسطاس (الثاني) ... وقبل هذا في أيام يوستنيانوس (الأخرم) وقسطنطين (الليحاني) التي كانت فيها بدعة الموارنة سنة ٩٩٠ (يونانية توافق سنة ٦٨٩ م) في ٣ نيسان حصل زلزال » الخ. فكلام هذا المؤلف اليعقوبي الذي كان في أواسط القرن التاسع بينة حديثة قاطعة على مخالفة الموارنة لليعاقبة في معتقدهم ولو اعتقد الموارنة حينئذ المشيئة الواحدة كما كان اليعاقبة يعتقدون لما سمي مذهبهم الديني بدعة كما رأيت (طالع مجلة الشرق عدد ١٠ من سنة ١٨٩٩م صفحة ٤٥٧)

وقد حقق السمعاني (في مقالة في المونوفيزيين) أنَّ بدعة المشيئة الواحدة لم تثبت بعد تحريمها في المجمع السادس إلا عند أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة .

رابعاً إذا نقبنا عن تاريخ القرون التابعة إلى آخر القرن الثاني عشر الذي يزعم الخصوم أنَّ الموارنة رجعوا فيه عن بدعة المشيئة الواحدة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية وجدنا آثاراً تنبئ بأنهم كانوا في كل هذه القرون كاثوليكين غير ملوثين ببدعة المشيئة الواحدة فسنذكر بطاركتهم الذين كانوا في القرون التابعة وإن لم يمكننا الغموض المستحوذ على تواريخ هذه القرون من الإطلاع على أعمالهم وأحوالهم وما كان بينهم وبين أخبار رومة من المراسلات ويكفي أن لا يوجد خطة في رسائل الأخبار الرومانيين الذين كانوا في مدة القرون الخمسة وفي أعمال المجمعين العامين السابع والثامن اللذين عقدا فيها تشير إلى أنَّ الموارنة ابتعدوا أو اتبعوا بدعة ولو كان ذلك لما غفلوا عن ذكره، ونعلم من جهة أخرى إنَّه كان من الموارنة في القرن الثامن توافيلس الرهاوي الماروني وذكر ترجمته السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢١) نقلاً عن أبي الفرج ابن العبري في تاريخ الدول لسنة ١٦٥ للهجرة، وقال إنَّه كان من مذهب الموارنة سكان لبنان المخالفين لمذهبهم . وكان أيضاً صاحب التاريخ المشار إليه آنفاً الذي ذكره المسعودي وسماه قيساً الماروني وحقق الأب نو وقبله العالم نللك الانكليزي (الذي نشر قسماً من هذا التاريخ) إنَّ هذا الكتاب لماروني ويتبين منه أنَّه كاثوليكي . وقد كان في منتصف القرن الحادي عشر المطران داود الماروني وقد ترجم سنة ١٠٥٩م كتاب القوانين ويسمى كتاب الهدى أيضاً وقد ذكره كثيرون من علمائنا وسوف نذكر ترجمته في محلها ومما قاله في هذا الكتاب ما رواه مرهج الباني صفحة ٨٩ من مقالته في أصل الموارنة نقلاً عن نسخة لهذا الكتاب كانت في مكتبة مدرسة الموارنة في رومية وهو: « الملكية يتفقون مع المارونية في نطق المشيئتين وقالت المارونية مشيئتين للجوهريين الإلهي والانساني » ولا عبرة لبعض التحريف الذي أدخله توما الكفرطابي على هذا الكتاب وقد أثبتنا زيفه في كتابنا روح الردود من صفحة ١٠٠ إلى ١٢٢ .

هذا وقد أشرنا إلى أنَّ توما أسقف كفرطاب أتى إلى لبنان سنة ١١٠٤م وأقام فيه ست سنين يفرغ مجهوده في استغواء الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة فقاومه

البطريك يوسف الجرجسي الماروني وأرسل ينهائه عن بث هذا الضلال وناصبه ارسانيوس مطران العاقورة الذي كان ساكناً في دير ماري أدنه قريباً من يانوح فأجابه الكفرطايي برسالة يثبت بها ضلاله وكل هذا بين في كتاب الكفرطايي الموسوم بالمقالات العشر حيث يندب سوء حفظه إذ لم يذعن لبدعته إلا خوري قرية فرشح في بلاد جبيل ونفر قليل، وأنه عاد من بلاد الموارنة بخفي حنين وهذه بينة قاطعة فلو كان الموارنة يعتقدون حينئذ المشيئة الواحدة لما أتى توما يستغويهم بها ولا قاومه بطريركهم ومطرانهم ولم يتابعه إلا كاهن واحد ونفر قليل .

وقد حقق الأسقف جبرائيل اللحفدي القلاعي في رسالته سنة ١٤٩٤م إلى البطريك سمعان الحداثي والبطريك أسطفانس الدويهي في كتاب احتجاجه عن الموارنة أن بطريركهم يوسف الجرجسي أرسل وفداً إلى الحبر الروماني طالباً درع التثبيت فأرسله إليه معهم البابا بسكال الثاني الذي رقي إلى الكرسي الرسولي سنة ١٠٩٩م وأن البابا إينوشنسيوس الثاني أرسل إلى المشرق الكردينال غويلمس سنة ١١٣٠م فجدد بطريك الموارنة وأساقفة وأعيان ملته إعلان طاعتهم للحبر الروماني بحضرة الكردينال المذكور في مدينة طرابلس فكل ما مرّ كان قبل سنة ١١٨٢م التي زعم أكثر متهمي الموارنة أنهم رجعوا فيها عن بدعة المشيئة الواحدة .

والحاصل من كل ما أوردناه إلى الآن أن الموارنة كانوا قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة يناضلون عن الإيمان الكاثوليكي والمجمعين الأفسسي والخلكيدوني حتى باراقة دمهم، وعند ظهور بدعة المشيئة الواحدة وانتشارها كانوا يناصبون أصحابها وكان بطريركهم يوحنا مارون يفند مزاعمهم بكتبه وخطبه تحقيقاً لآمال شعبه بأن يقيهم فسادها كما صرح العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر وفي الحقبة التي كانت من وفاته إلى سنة ١١٨٢م التي زعم خصومهم أنهم رجعوا فيها عن البدعة كانوا متشبثين دائماً بعري الإيمان الكاثوليكي كما أثبتناه بكل ما مرّ ولا سيما بهذه البراهين الأخيرة، وإن صيغ شيء مما رواه غويلمس عن ارتجاعهم سنة ١١٨٢م يلزم قصره على أفراد منهم كما أثبت العلامة لكويان في المشرق المسيحي وسوف نبين ذلك في محله إن شاء الله. وأمّا الأمة بجملتها فكانت في كل وقت كاثوليكية براء خلاء من كل ضلال يخالف الإيمان القويم وسوف نرد دعوى كل معترض عليهم أو متهم لهم في كلامنا عليهم في تاريخ كل من القرون الذي كان لهم فيه

متهم أو معترض ولما كان بعضهم يورد عليهم قولاً لتيموتاوس القسطنطيني زاعماً
أنه كان في هذا القرن السابع رأينا أن نرده هنا .

عد ٢١

تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة

إنَّ لتيموتاوس هذا القسطنطيني مقالة في من يقتربون إلى الكنيسة ألفتها وهو
قس ونشرها كمببفيسيوس في المجلد الثاني صفحة ٤٥٩ من تأليفه فاذا فيها فقرة
هذه ترجمتها: «إنَّ الموارنة الذين ينبذون المجامع الرابع والخامس والسادس ويزيدون
الصلب على التقديسات الثلاثة ويقولون بمشيئة واحدة وفعل واحد بالمسيح سموا
موارنة من دير مارون في سورية». فحجَّ الموارنة خصومهم بهذه الفقرة وانخدع
بها من لم يتروا فيها. وفي العصر الذي كان فيه تيموتاوس ومنهم نطاليس
اسكندر في تاريخ القرن السابع وعنه أخذ القديس ليكوري في كتابه تاريخ البدع
ودحضها على أنَّ المحققين كشفوا عن بطلان هذا الزعم وفندوه بأدلة كثيرة قاطعة
أولها أنَّ تيموتاوس هذا كان قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بنحو قرن كامل
وقبل الجمعين الخامس والسادس. قال السمعاني (في المجلد الأول من المكتبة
الشرقية صفحة ٢٩١ في الحاشية): «إنَّ تيموتاوس هذا كان قساً في كنيسة
قسطنطينية الكبرى، ثم خلف مكدونوس بطريركها سنة ٥١١ كما شهد
غوليلمس كافوس مجلَّد ٢ من تاريخه للعلماء صفحة ١٠١ وتوادورس القاري ك
٢ صفحة ٥٦٣ وكتابه المعنون في من يقتربون إلى ديننا الطاهر مثبت في كتب
الروم الطقسية وقد أُلِّفه وهو كاهن». وجاء في التاريخ الرهاوي في كلامه في
الملك أنسطاس: «إنَّه مكدونوس البطريرك القسطنطيني لأنَّه أبى أن ينبذ الجمع
(الخلكيدوني) وأقام تيموتاوس خلفاً له». (ذكره السمعاني في المحل المذكور
صفحة ٤٠٨) ومن البين أنَّ الملك أنسطاس كان في بدء القرن السادس وقال
كافوس في المحل المذكور إنَّ تيموتاوس كان في أوائل القرن السادس كما يظهر
من رسالة كتبها إليه البابا هرمزدا. ومما لا مرية فيه أنَّ هذا البابا كان في أوائل
القرن السادس وقد طبع العلامة كوتيلاريوس كتاب تيموتاوس هذا وقال فيه
صفحة ٣٧٧: «أظنه كان قبل أن تظهر بدعة المشيئة الواحدة لأنَّه لم يأت

بذكرها . فظهر من ذلك جلياً أنَّ تيموتاوس كان في القرن السادس قبل ظهور بدعة المشيئة الواحدة بقرن كامل فأننى استطاع أن يثبت أنَّ الموارنة توحدوا فيها فهذه الفقرة إذاً زيدت على كتابه بيد أخرى متأخرة عن أيامه .

الثاني إنَّ كوتيلاريوس طبع كتاب تيموتاوس في الكتاب الثالث من تأليفه في آثار الكنيسة اليونانية صفحة ٣٧٧ عن نسخة كرميزارس الذي أثنى عليه كميبيسيوس كثيراً ولا ذكر فيه للموارنة، ولذلك قال السمعاني في المحل المذكور صفحة ٥٠٩ أنَّ الكلمات المعزوة لتيموتاوس هي مدخلة في كتابه من يد رومي متأخر كما يظهر من نصّه الصحيح الذي طبعه كوتيلاريوس .

الثالث لا مرية في أنَّ العبارة الأولى من الفقرة المذكورة وهي: «إنَّ الموارنة ينبذون الجماع الرابع والخامس» هي كاذبة ولا يدعنا كل ما أوردناه حتى الآن أن نرتاب بكذبها، وهي أس بني عليه ما تلاها فإن سقطت لم يثبت ما بني عليه . وبما لا شك فيه أنَّ خصوم الموارنة أنفسهم لا يشكونهم بدعة الطبيعة الواحدة أو بالخالفة لرسوم الجمع الخلكيدوني لتشبههم برسومه بل عيروهم بذلك ودعواهم خلكيدونيين، وكان هذا الجمع محور الجدل بين الموارنة واليعاقبة . وقال فيهم ابن العبري في كلامه في توافيلس الرهاوي إنَّه من الموارنة الذين هم لإحدى فرق النصرانية أي من غير أمته ولذلك قال السمعاني (في المحل المذكور صفحة ٥٢١) بأنَّ لإيراده قول ابن العبري هذا: «هوذا ما يقوله في الموارنة هذا المؤلف اليعقوبي . وهو دال على كذب تيموتاوس القس أو أياً كان القائل لما رواه كميبيسيوس من أنَّ الموارنة ينبذون الجماع الرابع والخامس والسادس فلو كان هذا صحيحاً لما ميزهم ابن العبري عن ملته ولما جعلهم ملة قائمة بنفسها» .

وقد ذيل الأب منسي المدقق الشهير قول نطاليس اسكندر بحاشية هذه ترجمتها: «إنَّ قول تيموتاوس هذا في الموارنة وإن كان ثابتاً في طبعة كميبيسيوس فلا وجود له في النسخة التي طبعها كوتيلاريوس في آثار الكنيسة اليونانية في المجلد الثالث صفحة ٣٧٧، ولذا يظنُّ أنَّه زيد عليها بيد متأخرة إن صحَّ ظن كوتيلاريوس أنَّ تيموتاوس كان قبل الجمع السادس والنسخ التي يعد فيها الموارنة من أصحاب المشيئة الواحدة يقال فيها: «إنَّ الموارنة الذين ينبذون الجماع الرابع والخامس والسادس ويزيدون الصلب على التقديسات الثلاثة ويقولون بمشيئة واحدة وفعل

واحد في المسيح». فهذه الكلمات مشكوك فيها كما أشرت لأن بدعة المشيئة الراحدة لم تحرم إلا في الجمع السادس ولا عجب إذا وجدنا هذه العبارة في بعض النسخ لأن كتاب تيموتاوس هذا من جملة الكتب الطقسية التي تلحق بها كل كنيسة زيادات كإيثارها على أن السمعاني أثبت في مكتبته الشرقية (مجلد ١ صفحة ٥٢١) أن الموارنة براء من هذه البدعة خاصة. ولما كان القديس الفونس ليكوري اغتر في كتابه تاريخ البدع بقول نطاليس اسكندر المذكور فذيلنا ترجمتنا لكتابته المذكور بحاشية ضمنها بعض ما أوردها هنا .

مقالة ثالثة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

عد ٢٢

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

إن ابعاد الملك يوستينيانوس الاخرم اثني عشر الفاً من شبان الموارنة عن لبنان كما مرّ في تاريخهم في القرن السابع قد اضعف قوتهم وأوهن عزيمتهم وعاد بضرر كبير على مملكة الروم إذ كانوا بمثابة سد من نحاس لها كما قال كثيرون من المؤرخين. الروم أنفسهم على أن هذا لا يخلو من نفع، فقد احكمت التجارب الموارنة وعلمتهم أن لا يصغوا لوساوس الأجانب وأن يؤثروا الطاعة والانقياد للحكومة السائدة بهم على المعاندة والمخالفة لها وعلى مرضاة أصحاب السياسة الذين لا يهمهم إلا أغراضهم، فإذا قضوا منهم أوطارهم أحرقوا الآلة نفسها التي استخدموها لنيل تلك الاغراض إذا اقتضت ذلك مصلحتهم فتمثّل الموارنة بهذه الامثولة وكفوا عن تلك الغزوات، وشن تلك الغارات، ولزموا السكينة، واخلصوا في الطاعة لسلطة الخلفاء الأمويين والعباسيين، وتفرغوا لحراثة اراضيهم، وتربية ماشيتهم آمنين، متحصنين بلبنان. ويظهر أن حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان،

وتعذر احرار الثروة فيه جعلت الموارد سكانه في مأمن من السطو عليهم ، والمراحة لهم في امتلاك اراضيهم وغاباتهم فعاثوا فيه بهذا القرن وما يليه آمنين محافظين على دينهم وشأنهم ، ويظهر أنَّ الخلفاء كانوا يولون عليهم رجالاً منهم أو ولاية مسيحيين ، بل حقق العلامة السمعاني في الكتاب الرابع من مكتبة الناموس صفحة ٣٩٤ أنَّ الخلفاء أبقوا حيثث والياً على المردة من ابناء ملتهم كما كانوا قد ابقوا بطرس الشريف المسيحي والياً في بلاد العرب الحجرية وبتنليون في الارض المقدسة والياً على بعض المدن، وعزز السمعاني قوله بشهادة ابي الفرج بن العبري في القسم الأول من تاريخه السرياني. وذكر بعضهم امراء للموارد بعد ابراهيم ابن اخت القديس يوحنا مارون الذي توفي سنة ٧٢٨م مذ القرن الثامن إلى نهاية القرن الرابع عشر، ولكن لما كنا لا نقدر أن نثبت ذلك بأدلة قاطعة عدلنا عن ذكر هؤلاء الأمراء مقتصرين على القول اننا لا نجد في لبنان أثراً من تلك الاعصر يدل على اقامة حكام أو رعاء من المسلمين في انحاء لبنان قبل القرن الثالث عشر فلا أثر فيها للجوامع أو مآذن قبل القرن المذكور ومما لا يمتري فيه المؤرخون أنَّ المسلمين المقيمين على الشواطئ البحرية من صيدا إلى طرابلس أو في سفح لبنان الغربي إنما كانت إقامتهم بعد أن طرد الملوك المسلمين الصليبيين من هذه الأمصار فاسكنوا عشائر من التركمان وغيرهم من المسلمين في شواطئ البحر ليكونوا حاجزاً بين الافرنج إن عادوا إلى سورية وبين نصارى لبنان فمن هؤلاء من بقي إلى الآن من المسلمين في كورة طرابلس السفلى والبترون وجبيل وآثار الجوامع في المحلات المذكورة وفي ساحل علما وغيرها إلى صيدا .

على أنه لا يمكننا أن نصحح ما ورد في تاريخ الموارد الذي طبع حديثاً في بيروت من أنه في سنة ٧٥٢م سار المقدم الياس إلى البقاع فنهب تلك القرى وقتل أهلها فأرسل صاحب الشام إليه رسلاً ليعقد معه صلحاً ثم أرسل فكبسه في حين غفلة وقتله، وبعد رجوع عسكر الشام رجعت القرية تسمى قب الياس أي قبر الياس وأنه أقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن أخت المقتول، فثارت عليه عساكر الشام وكانت وقعة بينه وبينهم في قرية المروج ودامت الحرب مدة طويلة فإن صحَّ خبر هذه الأحداث فنظمتها كانت في أواخر القرن السابع لا في منتصف القرن الثامن هذا وقد روى كثيرون أنَّ اسم قب الياس مكسر عن قبر الياس وإنَّ القرية سميت بذلك لقتل أحد أمراء المردة ودفنه فيها. إلا أنَّ ذلك لم يكن في منتصف

القرن الثامن، وأكبر شاهد له ورد بعيد ذلك في الكتاب المذكور نقلاً عن تاريخ ابن القلاعي أنَّ قتل الأمير الياس وولاية ابن أخته الأمير سمعان كانا في أيام عبد الملك بن مروان الذي توفي في أوائل القرن الثامن وفي أيام يوستينيانس الأخرم الذي كانت وفاته سنة ٧١١م. ومما يلزم الانتباه إليه الغلط الواقع في خبر الأمير سمعان المذكور إذ بعد أن قيل إنَّه كان في أيام عبد الملك بن مروان قال إنَّه مضى يزور يوسف أمير جبيل فلاقاه البطريك غيغوريوس الحلاتي الذي كان في عهد البابا أينوثنسيوس الثاني الجالس يومئذ سنة ١١٣٠م. فرياسة البطريك غيغوريوس الحلاتي على الموارنة في القرن الثاني عشر لا شك فيها ولكن أين هو من الأمير سمعان الذي كان في أواخر القرن السابع؟ فلا مرأى في أنَّ النسخة التي نقل عنها من طبع تاريخ الموارنة لم تكن صحيحة، فروى الطابع ما رواه عنها على علته ولم يتعرض تأدباً لرد قول رآه معزواً إلى ابن القلاعي، لكننا على يقين أنَّ ابن القلاعي لم يقل ذلك بل الناسخ جمع بين خبر الأمير سمعان وخبر آخر ذكره ابن القلاعي عن أمير جبيل المذكور وبطريك الموارنة في أيامه في القرن الثاني عشر إلى أن نقول إنَّ المراد بالبطريك غيغوريوس لا الحلاتي بل غيغوريوس آخر. فإنَّ الخامس في سلسلة بطاركتنا بعد يوحنا مارون يسمى غيغوريوس أيضاً كما ستري. وحينئذ يلزم أن يكون الأمير سمعان لا سمعان الذي كان في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن بل سمعان آخر والله أعلم.

عد ٢٣

بطاركة الموارنة في القرن الثامن

قد نظم سلسلة بطاركة الموارنة العلامة البطريك أسطفانس الدويهي في مقالة أفردتها لذلك وترجمها من العربية إلى اللاتينية يوسف عسكر الكاهن الماروني الحلبي وطبعها في باريس سنة ١٧٣٣م، وقد روى البطريك سمعان عواد الذي دوَّن ترجمة الدويهي أنَّ هذا البطريك طاف بنفسه أكثر القرى الكبرى التي يسكنها الموارنة وقلب ما كان في كنائسها أو منازل الوجهاء منها من الكتب القديمة وكانت عادة الناسخ القدماء أن يذيلوا ما ينسخونه من الكتب باسم بطريك الطائفة ومطران الأبرشية في أيامهم فاستعان الدويهي بهذه التعليقات على ما دوَّنه في مقاله المذكورة.

وقد نظّم العلامة السمعاني أيضاً سلسلة بطاركة أنطاكية الموارنة في مقالة كتبها بالعربية وطبعها القس يوحنا نطين الراهب الحلبي اللبناني سنة ١٨٨١م في رومة بمطبعة مجمع نشر الإيمان المقدّس، ثمّ ذكر السمعاني سلسلة هؤلاء البطاركة في كتاب المجمع اللبناني (الذي هو مؤلفه) من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن الذي عقد المجمع اللبناني في أيامه سنة ١٧٣٦م. وقلّ ما كان من الخلاف بين روايتي الدويهي والسمعاني ونشر المعلّم رشيد الشرتوني الماروني هذه السلسلة فصولاً متتابعة في مجلة «المشرق» في بيروت للآباء اليسوعيين الأفاضل ثمّ ضمّها إلى درج واحد. وقد ذكر العلامة لكويان (في مجلّد ٣ صفحة ٤٩ وما يليها من مؤلفه الموسوم بالشرق المسيحي) سلسلة بطاركة الموارنة معتمداً فيها على مقالة البطريرك أسطفانس الدويهي التي ترجمها يوسف عسكر المذكور إلى اللاتينية ونحن نعتمد هنا رواية لكويان لاعتقادنا إياها أصح وأسلم من النسخ المخطوطة وأقرب إلى الأصل الصحيح وتزيدها شهادة لكويان وعسكر تأييداً وتحقيقاً.

بعد أن توفي الله القديس يوحنا مارون سنة ٧٠٧م اجتمع أساقفة الموارنة فاختروا قورش ابن اخته بطريكاً مكانه فكتب إلى الحبر الروماني يلتمس درع الرياسة والتثبيت فأرسله إليه، وقد جاء في ترجمة القديس يوحنا مارون (في المكتبة الشرقية مجلّد ١ صفحة ٤٩٨) أنّه عند مضيه إلى دير القديس مارون أخذ معه ابن اخته قورش فأتشع بالثوب الرهباني. فبعد وفاة خاله جعلوه خليفة له فدير رعيته تدبير الأبرار المجاهدين إلى حين وفاته التي لا نعلم متى كانت، فاختر الأساقفة خليفة له جبرائيل الأوّل. قال لكويان روى الدويهي أنّه بعد وفاة قورش انتخب جبرائيل من جبل لبنان وهذا وجدناه في بعض الكتب القديمة وأنّ الملكية عادوا بعد موت يوستينانس الثاني إلى الاعتقاد بطبيعتين ومشيتين بالمسيح وأنّهم اختاروا في أيام قسطنطين الزبلي بطريكاً جعل إقامته في دمشق.

وبعد وفاة جبرائيل اختير يوحنا الثاني وسُمّي مارون أيضاً لأنّه كان من رهبان القديس مارون وقد كتب عنه ابن القلاعي في قصيدته في المجماع:

وبعد، قام مارون ثان من الدير الرباني. معلم شاطر ملفاني. يدعى يوحنا البار. وجاء ليانوح وبطرك كان. ومسكنه في جبل لبنان. وإيمان مارون ما تغير.

وعندما رأى نفسه قريباً من الموت استدعى الأساقفة والكهنة واختار لهم بطريركاً يدعى يوحنا، وهو الثالث بهذا الاسم وكان من قرية دملصا ببلاد جبيل. قال الدويهي وعنه لكويان إنّ هذا وجد مدوناً في كتاب قديم كتب فيه خبر وفاة يوحنا الثاني المذكور.

قال لكويان (في المحل المذكور) قال الدويهي إنّ هؤلاء البطارقة لا شك في أنّهم توطنوا في جبل لبنان وخلف أحدهم الآخر، ويؤيد ذلك رسالة كتبها الأسقف جبرائيل القلاعي إلى القس جرجس بن بشاره فصل ١١ سنة ١٤٩٥م، وقد وجدنا أسماءهم مدونة في صفحة كتبت باللغة السريانية وكانت هذه الصفحة عند سالفنا البطريرك جرجس من قرية بسبعل مأخوذة عن كتاب كتبه رجل اسمه داود بن ابراهيم سنة ١٦٢٦ يونانية توافق سنة ١٣١٥ للميلاد، فهو قبل أيام ابن القلاعي بنحو مئة وثمانين سنة واطلعنا أخونا المحترم جرجس حبقوق مطران العاقورة على نسخ كثيرة تذكر هؤلاء البطارقة ولم يتعين بها مدة بطريركيتهم فكتبنا كما وجدنا. اما القس جرجس بن بشاره المذكور فكان مارونياً وانحاز إلى اليعاقبة فكتب له الأسقف جبرائيل القلاعي كتاباً مستقلاً يفند به مذهب اليعاقبة، ويبين له أصل الموارنة وثبوتهم في الإيمان الكاثوليكي.

ولما كنا لا نعلم عدد السنين التي دبر بها كل من هؤلاء البطارقة الأمة المارونية افترضنا أنّهم كانوا في هذا القرن الثامن تقريباً فوقفنا عند ذكرهم في تاريخ هذا القرن.

عد ٢٤

توافيلس الرهاوي الماروني

قد أخذ السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢١) ترجمة توافيلس هذا عن أبي الفرج بن العبري في تاريخ الدول لسنة ١٦٥ للهجرة، فقال إنّهُ اشتهر سنة ٧٧٠م: «وحكي أنّه لما همّ المهدي بالخروج إلى ماسبذان تقدّم إلى حسنة حظيته أن تخرج معه فأرسلت إلى توفيل بن توما النصراني المنجّم الرهاوي وهو رئيس منجمي المهدي (يراد بالمنجّم الخبير بعلم النجوم ولا يخفى ما كان لهم في ذلك العصر من الرغبة في رعي النجوم) قائلة له إنّك أشرت على أمير المؤمنين بهذا

السفر فجشمتنا سفرأ لم يكن في الحساب فعجل الله موتك وأراحنا منك. فلما بلغت رسالتها قال للجارية التي أتته بها ارجعي إليها وقولي لها إن هذه الإشارة ليست مني، واما دعاؤك عليّ بتعجيل الموت فهذا شيء قد قضى الله به وموتي سريع فلا تتوهمي أن دعوتك استجيت، ولكن اعدي لنفسك تراباً كثيراً فإذا مت فاجعليه على رأسك. فما زالت متوقعة تأويل قوله منذ توفي حتى توفي المهدي بعد عشرين يوماً وكان توفيل هذا على مذهب الموارنة الذين في جبل لبنان من مذاهب النصارى، وله كتاب تاريخ حسن ونقل كتابي أوميرس الشاعر على فتح مدينة ايلون في قديم الدهر من اليونانية إلى السريانية بغاية ما يكون من الفصاحة». انتهى كلام ابن العبري.

وذيل السمعاني قوله بأن توفيل كان على مذهب الموارنة بحاشية قال فيها: «هذا ما قاله المؤلف يعقوبي وهو ناطق بالدلالة على كذب تيموتاوس القس القسطنطيني أو الأولى أن نقول ما كتب باسمه في نسخة كميبيسيوس (مجلد ٢ في المؤلفين صفحة ٤٥٩)» إن الموارنة يبنذون المجامع الرابع والخامس والسادس «فلو صح هذا الزعم ما ميزهم قط أبو الفرج عن اليعاقبة ولا جعلهم فرقة مستقلة عمن سواها من فرق النصارى».

على أن لابن العبري قولاً آخر في توافيلس هذا أكثر بياناً فإنه قال في كتاب تاريخه السرياني الذي طبع في باريس (صفحة ١٢٧) ما ترجمته: «وقد اشتهر في هذا الزمان (أي زمان المهدي) توافيلس بن توما الرهاوي المنجم الماهر الذي كان تابعاً لبدعة الموارنة وله في التاريخ كتاب نفيس بالسريانية وإن طعن فيه على مستقيمي الإيمان وقرعهم» يريد بمستقيمي الإيمان اليعاقبة أهل شيعة ابن العبري، ولذلك سمى مذهب الموارنة بدعة وهذه بينة أخرى قاطعة على براءة الموارنة من بدعة الطبيعة الواحدة والمشيمة الواحدة.

وأتم السمعاني ترجمة توافيلس بقوله قد توفاه الله على ما روى ابن العبري سنة ١٦٩ هـ أي نحو سنة ٧٨٥ م وهي السنة التي توفي المهدي بها. وذكر أبو الفرج تاريخ توافيلس في كتابه المذكور أيضاً صفحة ٦٣. ويتبين مما رواه ان رأى توافيلس أنه كان من خلق العالم إلى بدء ملك اسكندر المكدوني ٥١٩٧ سنة (فاذا أضفت إليها ٣١١ من اسكندر إلى الميلاد كانت جملة السنين من آدم إلى الميلاد على رأيه ٥٥٠٨). وقد حقق الحاقلي (في حواشيه على قصيدة عبد يشوع الصوباوي في

المؤلفين (صفحة ١٨٠) إن رأي جمهور العلماء السريان أن توافيلس الرهاوي إنما هو الذي جعل صورة الحركات السريانية الخمس على شبه صورة الحركات اليونانية في ترجمته كتب أوميرس كيلا تختلف الألفاظ السريانية لاسيما الأعلام التي تكتب في اللغتين بأحرف واحدة عن الألفاظ اليونانية. وقد ذكر السمعاني ذلك في محل آخر أيضاً (المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٦٤) متكلماً في الكتاب السرياني القديم وهو الثالث من الكتب التي أتى بها من الشرق إلى المكتبة الواتيكانية مشتملاً على تفسير القديس أفرام السرياني لأسفار العهد القديم، وقد خط سنة ١١٧٢ يونانية وهي سنة ٨٦١ م. حيث قال «ومما يلزم الإنتباه إليه في هذا الكتاب القديم إنما هو أن صورة الحركات الخمس السريانية فيه هي أشبه بصور الحركات اليونانية ويحققون أن مخترع هذه الصور إنما هو توافيلس الرهاوي الماروني ... فإنه عند ترجمته أشعار أوميرس من اليونانية إلى السريانية ضبط الألفاظ الملتبسة بالحركات اليونانية فتابعه على كتابة صور هذه الحركات على هذا النحو السريان إلا النساطرة. وكتابة الكتاب المذكور القديم جداً تؤيد هذا الأمر في مواضع كثيرة منه ولاسيما تفسير القديس أفرام لبوة هوشع في صفحة ١٣٣ و ١٣٤ منه وارد أمثلة لذلك». إلى أن قال «وقد أبتأ أن هذا الكتاب خط في الرها سنة ٨٦١ م أي بعد وفاة توافيلس بنحو من سبعين سنة ومن نظر في الكتاب المذكور علم أن ناسخ هذا الكتاب إنما هو الذي ضبطه بالشكل».

عد ٢٥

رد ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على الموارنة

إن في بعض نسخ كتب القديس يوحنا الدمشقي فقرتين استشهد بهما خصوم الموارنة للطعن فيهم الأولى في رسالته إلى بردانوس الأرشمندريت في التقديسات الثلاثية جاء في بعض نسخها ما يأتي: «إن زيادة يامن صلبت لأجلنا على التقديسات الثلاثة» هي من هذيان بطرس القصار فانه لم يخجل أن يلحق هذه الزيادة على التقديسات بل أقدم بقحة وجسارة ودون خجل كأنه أعلم من الساروفيم وكأنه ظن ذلك ثوباً متسخاً أراد تنظيفه كقصار، فان ترنمنا بالتقديسات الثلاثة موجهة إلى الابن فلا يبقى التباس ونكون زدنا الصلب على التقديسات كما يصنع الموارنة». وفي اليونانية مارونيزمن أي نتمورن.

فنجيب على ذلك أولاً أنَّ في المكتبة الملكية في باريس نسختين من هذه الرسالة إحداهما في عد ١٨٢٩ والثانية في عد ٣٤٤٢ وفي كلتا النسختين لا ترى كلمة «مارونيز من» أي نصنع كالموارنة بل ترى في مكانها «بارونيز من» أي نصنع كما يصنعه السكارى. وقد طبعت هذه الرسالة في بال والكلمة فيها «بارونيز من» لا «مارونيز من». وقد ذكر ذلك الأب ميخائيل لكويان الذي ترجم كتب الدمشقي إلى اللاتينية وذيّلها بحواشٍ فصّرَح في الحاشية التي علقها على الفقرة المذكورة أنَّ الكلمة في نسختي المكتبة الملكية المذكورتين وفي طبعة بال «بارونيز من» لا «مارونيز من». ومع ذلك تراه في حاشيته المذكورة متردداً في هذا البحث بين أن يصحح ما ورد في بعض النسخ على الموارنة وبين أن يرثمهم من الضلال سنداً إلى أن هذه الزيادة تستعمل بمعنى كاثوليكي وقد استعملها الموارنة كذلك، على أنه لم يبقَ بعداً على هذا التردد بل أثبت في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي بحجج قاطعة وبيّنات دامغة ثبوت الموارنة في كل حين في الإيمان الكاثوليكي كما رأيت في ما أوردناه من كلامه في الباب السابق. وقد طبع لكويان ترجمته لكتاب الدمشقي سنة ١٧١٢م في باريس وكتابه الشرق المسيحي طبع سنة ١٧٤٠م.

ثانياً إنَّ كلمة مارونيز من أي نصنع كالموارنة لا تلتحم بكلام الدمشقي السابق والتابع فهو قد عدد في أحد كتبه جميع المبدعين والبدع من سيمون الساحر إلى بدعة محاربي الصور التي نشأت في أيامه ولم يذكر الموارنة في جملتهم، وتكلم في الجامع الستة العامة وبين من نبذتهم وحرمتهم ولم يأت بينت شفة تدل على الموارنة. ورد مزاعم اليعاقبة في مقالة أفردتها لذلك ولم يشر بخطة إلى متابعة الموارنة لهم على بدعتهم أو على زيادة ذكر الصليب على التقديسات، وقد تكلم في الفقرة المعترض بها على قحة بطرس القصار واقدامه على الزيادة المذكورة فلا يلتحم هذا مع قوله مارونيز من بل كان الأولى أن يقول نيافيز من أي نصنع كبطرس القصار المسمى نيافايوس أو ياكوييز من أي نصنع كاليعاقبة.

ثالثاً إنَّ السريان والروم والعرب لم يكونوا يستعملون في أيام الدمشقي الموارنة موارنة بل مرّة كما سماهم توفان وشدرانس وزاناراس وغيرهم وكما حقق السمعاني في مكتبة الناموس (مجلّد ٥ صفحة ٤٩٥) ولا عجب من أن يكون أحد خصوم الموارنة بدل حرف الباء من كلمة بارونيز من بحرف الميم حتى صارت

مارونيز من، وقد رأينا أصحاب البدع والأغراض السيئة حرّفوا كثيراً من أقوال الآباء وأدخلوا على بعضها فقرات بل فصولاً برمتها. ونسخة المكتبة الملكية في باريس التي وردت بها كلمة مارونيزمن هي أحدث من النسخ التي وردت فيها كلمة بارنيزمن كما حقق البطريك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون (فصل ١١).

رابعاً لو سلمنا مجازة أنّ الدمشقي كتب مارونيزمن لم ينتج من ذلك أنّ الموارنة لم يكونوا كاثوليكين إذ لنا بينات قاطعة على أنّ زيادة ذكر الصلب على التقديسات لم تعتدها الكنيسة دائماً أراثيكية فان القديس أفرام الآمدي البطريك الأنطاكي أثبت في محاماته عن القديس لاون الحبر الروماني والجمع الخلكيدوني أنّ هذه الزيادة يستعملها الكاثوليكون في بطريكية أنطاكية بمعنى كاثوليكي، فيسبحون المخلص بقولهم يا من صلبت لأجلنا ارحمنا وأما أهل بطريكية قسطنطينية والغريون فيوجهون هذه التقديسات إلى الثالوث الأقدس المتساوي جوهرأ فيأنفون من هذه الزيادة، وعليه فالفريقان أرثوذكسيان: « روى كلامه هذا فوتيس في مكتبته كتاب ٢٢٨ ومثل ذلك قال اولوجيوس البطريك الاسكندري على ما روى السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٠) والقديس اسحق الكبير في خطبته في الام الكلمة المتجسد والقديس يعقوب السروجي في خطبته في الآلام أيضاً (طالع المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٢٢٣)، وقال القديس يوحنا مارون في كتابه في شرح رتبة القداس الذي اثبتنا نسبته إليه: « نرى أنّه يلزمنا أن نبين لكم هنا إجابة إلى سؤالكم أيها الأبناء الأعزاء إذا كان يجوز استعمال هذه الزيادة ومتى يجوز ذلك فاعلموا أنّ هذا الترنيم يوجه تارة إلى الثالوث الأقدس المسجود له فلا يجوز قطعاً أن يلحق بذلك يا من صلبت لأجلنا لأنّ هذا ضلال بطرس القصار البطريك الأنطاكي الذي كان يزعم أنّ الثالوث بجملته صلب، وقد عزا الآلام إلى طبع تنزه عن كل ألم وهو اثم يرجع على كل اثم ولذلك حرم وخطأ عن كرسيه بكل عدل... وأما إذا خصّ هذا الترنيم الابن وحده فلا مانع من أن يزداد على ذلك ذكر الآلام والصلب والموت والدفن وسائر أسرار فداء المخلص لنا لأنّ ابن الله تألم ومات وصلب حقاً ».

إنّ الأب نو أستاذ كلية باريس الكاثوليكية عثر على كراريس قديمة وأذاعها

في السنة السالفة في اللغة السريانية ثم ألحقها بترجمتها إلى الفرنسية في كتابه الذي عنوانه «كراسات مارونية» وفي جملتها كراسة عشر عليها بين الكتب السريانية المخطوطة في باريس في عد ٢٠٣ تشتمل على محاوره بين سرياني ويوناني في هذا الموضوع، فال يوناني يسأل السرياني قل لي أيها السرياني لماذا تزدون يا من صلبت لأجلنا عندما تصلون قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت؟ فيجيبه السرياني مبيناً نفع هذه الزيادة إلى أن يقول له اليوناني ألا تعلم أيها السرياني أنك إذ تقول قدوس الله قدوس القوي قدوس الذي لا يموت تسبح الثالوث الأقدس، وإذ تزيد على ذلك يا من صلبت تصلب الثالوث الأقدس، فأين لي أين وجدتم مكتوباً أن الثالوث صلب، ومن علمكم من آبائكم هذه الزيادة؟ فيجيبه السرياني أتقول إن أحد أقانيم الثالوث تجسّد أم الثالوث كلّهُ؟ فقال اليوناني نقول أحد الأقانيم تجسّد لا الثالوث كلّهُ، فأجابه السرياني إن كان واحد من الأقانيم الثلاثة تجسّد لا الثلاثة تجسّد الثالوث كلّهُ، فنحن نقول إن واحداً من الأقانيم الثلاثة صلب لا الثالوث كلّهُ لأن من لم يتجسّد لم يصلب، ونحن أيها اليوناني لا نقول إن الثالوث صلب كما تزعم، بل نعتز أن أحد أقانيم الثالوث صلب لأجلنا فإذا قلنا: قدوس الله الذي صلب لأجلنا لا نقصد ولا نعني الثالوث كلّهُ بل أحد أقانيم الثالوث وهو ربنا يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور». فهذا أيضاً برهان صريح على أن السريان الكاثوليكين كانوا يفهمون هذه الزيادة بمعنى كاثوليكي وإذا ثبت أن الموارنة استعملوها بهذا المعنى فلا يؤخذ من ذلك أنهم كانوا غير كاثوليكين ولو ثبت أن الدمشقي قال مارونيزم مع أن ذلك غير ثابت كما رأيت، على أننا لا ننكر أن هذه الزيادة استعملت وقتاً ما في كتب فروضنا ولكن بالمعنى الكاثوليكي الذي أشار إليه القديس يوحنا مارون والذي أثبتته القديس أفرام البطريرك الأنطاكي وغيرهما كما مرّ. ولذلك لما أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر (في رسالته ١٤ شباط سنة ١٥٧٧م) برفع هذه الزيادة من كتبنا البيعية لم يوجب على الموارنة شبهة بدعة بل أثنى عليهم اقتفاءً بآثار سلفائهم وأطراً ثبوتهم كل وقت في الإيمان الكاثوليكي وقال إن هذه الزيادة دخلت في كتبهم دون تعمد وقصد وأمر برفعها ليكونوا متفقين مع الكنيسة الرومانية في كل تقليداتها.

وأما الفقرة الثانية التي يعترض بها على الموارنة من كتب الدمشقي فقد وردت في بعض نسخ كتابه الموسوم بالرأي القويم وقد عنونت بعض نسخه هكذا « كتيب ألفه الدمشقي ليرفعه إيليا الأسقف إلى بطرس متربوليت دمشق ». ففي آخر هذا الكتيب يقال في بعض النسخ « أقسم بالثالوث الأقدس المسجود له والمتساوي جوهرأ دون مكر ولا مخالطة، إنَّ هذا ما أراه ولا أعتقد شيئاً يخالفه ولا أشارك مع أحد ممن لا يعتقدون هذا المعتقد ولاسيما الموارنة ». فهذه الفقرة يمكن ردها بما ردت به الفقرة الأولى من البراهين التي ذكرناها آنفاً لأنَّ قوله: « ولاسيما الموارنة » لا وجود له في نسخ كثيرة من هذا الكتاب ولا ينتسق مع كلام الدمشقي الذي لم يذكر الموارنة في جملة أصحاب البدع وقد عدَّ منهم نحواً من مئة بدعة وذكر في هذا الكتاب نفسه الحجامع الستة العامة ومن حرموا فيها ولم يأت بذكر الموارنة فضلاً عن أنَّهم كانوا في أيام الدمشقي يسمون مرددة لا موارنة. وكل ذلك يبين أنَّ قوله ولاسيما الموارنة رقعة أدخلتها يد حديثة على كلامه أو هو تحريف والأصل « ولاسيما المانويين » الذين كان بعضهم قد جدد بدعتهم في ذلك العصر. وكتب الدمشقي محاوره بين مسيحي ومانوي كما رأيت في جدول كتبه وقد رد هذه التهمة المعزوة إلى الدمشقي العلامة السمعاني في مؤلفه مكتبة الناموس (ك ٥ فصل ٢٠) ومرهج بن نبيرون الباني في مقالته في أصل الموارنة وأسمهم ودينهم (صفحة ١٣١) والبطريرك يوسف أسطفان في كتابه في قداسة يوحنا مارون (قسم ٣ فصل ١١) والبطريرك بولس مسعد في كتابه الموسوم بالدر المنظوم (صفحة ١٤٩)، بل إنَّ الأب ميخائيل لكويان الذي كان قد جنح في ترجمته كتاب الدمشقي إلى رأي خصوم الموارنة قد ارعوى عن رأيه هذا في كتابه الموسوم بالشرق المسيحي وأثبت في مواضع شتى في المجلد الثالث منه براءة الموارنة من كل ضلال، وقد أوردنا كثيراً من أقواله في تاريخ الموارنة في القرن السابع بل نظم سلسلة بطارقة الموارنة من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن الذي قال في آخر كلامه إنَّه البطريرك الآن على الموارنة إذا لم يكن قد توفي ولم يقل في أحد منهم إنَّه ضلَّ عن الإيمان بل ذكر جميعهم بمنزلة بطارقة كاثوليكين. طالع أيضاً كتابي روح الردود في الرد على هذه التهمة.

الرد على ما يعترض به على الموارنة بشهادة تيموتاوس بطريرك النساطرة

إنّ بعض من اتهموا الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة يقولون إنّ هذا البطريرك كتب رسالة إلى رهبان دير مارون يشترط فيها لقبوله لهم في شركته شروطاً لم يكن منها أن يعترفوا أنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ونتجوا من ذلك أنّ أولئك الرهبان كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة. فنحن ردنا هذه التهمة بإسهاب في كتابنا روح الردود مبينين أنه ولو ثبت أنّ هذه الرسالة موجهة إلى رهبان دير مارون لا ينتج منها أنّ أولئك الرهبان كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة لأنه عند النساطرة يباح اعتقاد المشيئة أو المشيئتين. وأوضحنا رينا في توجيه هذه الرسالة إلى رهبان القديس مارون بسورية.

وقد أطلعنا في هذه الأيام الأخيرة على فصل دبحه الأب العالم الفاضل نو الافرنسي في المجلة الموسومة بالمشرق المسيحي في نشرتها الثانية من سنة ١٩٠٤ بحث فيه عن كلمة مارونيا التي ذكرها السمعاني في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية مراداً بها عشيرة من النساطرة سكان مرو في خراسان وكلمة مارونيا في السريانية تساوي حروفها كلمة مورونيا المسمى بها الموارنة سكان لبنان. وبعد أن أتم الأب نو كلامه عن المورنيا النساطرة قال إنّ مشابهة هذا الاسم لاسم الموارنة بلبنان جعلت البعض يظنون أنّ رسالة تيموتاوس بطريرك النساطرة الموجهة إلى هؤلاء هي منفذة إلى رهبان دير القديس مارون بسورية وليس الأمر كذلك. وأوضح الأب نو أنه كانت مدينة تسمى مارون بالقرب من الخليج العجمي وأنّ استرابون ذكرها وقال إنّ أهلها بعضهم حضر يحرقون الأرض وبعضهم رحل يأوون إلى الخيم وأنّ السمعاني جعل مساكن هؤلاء في مرو وأنّ رسالة هذا البطريرك الموجهة إلى هؤلاء الرهبان هي متوسطة بالوضع بين رسالة منه إلى رابان سرجيوس من عيلام ورسالة منه إلى رهبان مار جبرائيل في الموصل وأنّ هذا البطريرك كتب تسعة وخمسين رسالة ولا تجد واحدة منها إلى أحد في سورية. فيظهر من ذلك أنّ الرهبان الذين كتب إليهم لم يكونوا من سورية حيث لم يكن لهذا البطريرك من مكاتب وهو عنوان رسالته هكذا إلى الرهبان الساكنين في مظل مار مارون وكلمة مظل لم ترد قطعاً بمعنى دير ولم نر البتة مثل هذا التعبير مراداً به الموارنة أو رهبان

القديس مارون في كل ما رأيناه من الآثار واسم مارون مستفاض عند العرب وكذلك اسم مروان .

فإذاً يمكن أن يقال إنّ المراد بمن كتب إليهم رهبان كانوا ساكنين في مساكن أو نخيم رجل اسمه مارون أو كانت هذه المساكن في مدينة مارون عند خليج العجم أو في مروان في ما بين النهرين لأنّ المكتوبة إليهم باقي الرسائل هم في جهة عيلام والموصل .

مقالة رابعة

تاريخ الموارنة في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر

عد ٢٧

بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر

إنّ البطريرك أسطفانس الدويهي بعد ذكره البطاركة الذين دبروا كنيسة الموارنة إلى يوحنا مارون الثاني كما مرّ في تاريخ القرن الثامن قال (في كتابه في سلسلة بطاركة الموارنة): «أما باقي بطاركة الموارنة الذين رقوا إلى الكرسي الأنطاكي وأقاموا في لبنان إلى حين قدوم الافرنج إلى سورية فما أمكننا أن نعرف أخبارهم لقلة من كتبوا في تلك الأيام ولاتلاف غيّر الدهر ما وجد من الكتب واضطرار الناس إلى التنقل متواتراً، وقد حرقت بعض كتبنا وتشتت كثير منها على أُنّا عثرنا من مدّة على كتاب قديم يشتمل على رتبة القداس وقد علقت على آخره الصلوات التي يتلوها الخادم في القداس كل يوم، وفي إحدى هذه الصلوات ذكر البطاركة الذين دبروا رعية المسيح في الكرسي الأنطاكي وإليك ترجمة ما جاء في هذه الصلوات عن اللغة السريانية: «نذكر أيضاً جميع الرعاة المحققين والآباء القديسين من بطرس زعيم الرسل وأول جميع الرعاة . واغناطيوس تلميذه إلى

توافيلس ويشوع وداود وغريغوريوس ودومييط واسحق ويوحنا الذين خدموا مقام رئاسة الكهنوت في البيعة المقدسة الكاثوليكية والرسولية في الكرسي المقدس المجيد كرسي مدينة الله أنطاكية فارحمنا اللهم بصلواتهم المقدسة». ويلي ذلك تذكّار آخر أطول من الأوّل كتب فيه ما ترجمته: «نذكر توافيلس وغريغوريوس وأسطفانس ومرقس وأوسابيوس ويوحنا واسحق ويوحنا وسمعان وأرميا ويوحنا وسمعان. وسمعان هذا حبيب الله الذي يدبرنا الآن فارحمنا اللهم بصلوات هؤلاء جميعاً». قال العلامة الدويهي حصل عندنا رية في البطارقة الأربعة عشر الذين مرّ ذكرهم من وجهين الأوّل إنّ طقسنا قريب من طقس اليعاقبة فخشينا أن يكون هؤلاء البطارقة يعقوبيين. والثاني إنّ ندر أن يسمي الموارنة يشوع بطريكاً حرمة لمن فداننا بدمه. لكننا بالوقوف على سلسلة بطارقة اليعاقبة حصلنا على نسختين من كنيستهم في دمشق وحلب فلم نجد فيهما ذكراً لهؤلاء البطارقة الأربعة عشر، فتحققنا أنّهم لم يكونوا يعاقبة بل من بطارقة أمّتنا المارونية، وأمّا اسم يشوع فليس إلّا عيسى وكثيرون منا يسمون بهذا الاسم». انتهى كلام الدويهي وقد تابعه عليه لكويان في المشرق المسيحي ناقلاً عنه كلامه برمته قلنا إنّ بطارقة اليعاقبة معروفون الآن جيداً وقد نظم ابن العبري سلسلتهم إلى أيامه في تاريخه البيعي الذي ترجمه السيدان أبولس ولامي أستاذاً كلية لوفان إلى اللاتينية وعلقا على ترجمتها فوائد كثيرة وقد ذكر السمعاني أيضاً سلسلتهم عن ابن العبري في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية وليس منهم البطارقة الأربعة عشر المذكورون.

وجاء في مجمعنا اللبناني قسم ٣ فصل ٦ في كلامه على البطريرك والكرسي البطريركي ما يأتي: «وكان الكرسي البطريركي أولاً في دير القديس مارون بكفرحي من أبرشية البترون وجلس عليه من البطارقة من سنة ٦٨٥م فصاعداً يوحنا مارون وقورش وجبرائيل ثمّ نقل الكرسي إلى دير القديسة مريم ببيانوح من أبرشية البترون المذكورة، وجلس عليه بعد جبرائيل المذكور يوحنا الثاني ويسمى مارون أيضاً ثمّ يوحنا من دملصا وغريغوريوس واسطفانس ومرقس وأمسابيوس ويوحنا ويشوع وداود وغريغوريوس الثاني وتوافيلكتس ويشوع الثاني ودومييط واسحق ويوحنا وسمعان ويوسف الجرجسي إلى سنة ١١٢٠م ونقل الكرسي ثالثاً إلى دير القديسة مريم حذاء ميفوق بوادي ايليچ في أبرشية جبيل».

تداول أيدي الموارنة كتاباً يشتمل على عدّة تواريخ منها تاريخ بعض الأسرات وتاريخ بعض أحداث في جبة بشري وتاريخ الرهنة اللبنانية وفي جملتها سلسلة لبطاركة الموارنة من القديس يوحنا مارون إلى البطريرك يوسف حبيش وبعد أن ذكر أكثر البطاركة الذين ذكرناهم هنا أورد أسماء نحو من أربعين بطريركاً إلى البطريرك يوسف الجرجسي ولم يسند كلامه إلى شاهد ولا نعلم من أين جمع كل هذه الأسماء التي غفل عنها العلامتان البطريرك أسطفانس الدويهي ويوسف السمعاني، ولذلك لا نرى ما رواه صحيحاً. ويعزى هذا الكتاب إلى الشيخ أنطونيوس أبي خطار من عينطورين الذي كان مشهوراً بحبه المطالعة .

ولا نعجب من عدم التوصل إلى الأخبار المفصلة عن البطاركة الذين ذكرناهم في القرون الأربعة من بدء القرن الثامن إلى آخر القرن الحادي عشر فكل يعلم أنّ هذه القرون تسمى قرون الجهل وأنّ التاريخ الشرقي البيعي في هذه القرون ولاسيما تاريخ سورية هو سقيم غامض ومن دونه حنادس جهل لا يهتدي فيه إلى أمور أخرى أكثر أهمية. وقد رأيت ما قاله لكويان في الشرق المسيحي عن بطاركة أنطاكية وأورشليم في هذه القرون أنّه لم يكن لهم تاريخ غير ما نقب عنه الافرنج بعد استحواذهم على سورية في بدء القرن الثاني عشر وما ظنك ببطاركة الموارنة الذين لم يقيموا في المدن الشهيرة كأنطاكية وأورشليم بل في كفرحي ويانوح بين قمم لبنان الوعرة الصعبة المسالك مؤثرين العزلة في أصعب الحال مسلکاً على الإقامة في المدن والتعرّض للأخطار، وتعوزهم جميع وسائل العلم ويحسبون من السعادة أن يعيشوا مع رعاياهم آمنين ومحافظين على إيمانهم القويم .

عد ٢٨

قيس الماروني

جاء في كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي الذي طبع في ليدن سنة ١٨٩٤م صفحة ١٥٢ عند كلامه في مارون: «ولبعض متبعيه من المارونيين ويعرف بقيس الماروني كتاب حسن في التاريخ وابتداء الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم وأخبارهم وانتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي، ولم أر للمارونية

في هذا المعنى كتاباً مؤلفاً غيره». انتهى كلام المسعودي. والمعلوم أنَّ المكتفي ببيع له بالخلافة سنة ٢٨٩هـ الموافقة سنة ٩٠٢م وتوفي سنة ٢٩٥هـ أي سنة ٩٠٨م وعليه فيكون قيس الماروني عاش في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر على ما ذكر المسعودي ولكن من هو قيس هذا وما هو كتاب تاريخه الحسن؟ فزعم بعضهم أنَّه ليس هو إلا توافيلس الرهاوي الماروني الذي ذكرنا ترجمته في القرن الثامن، وهذا الزعم باطل من أوجه أحصَّها أنَّ توافيلس كان في أيام المهدي وتوفي في أيامه كما أثبتنا في ترجمته، والمهدي توفي سنة ١٦٩هـ الموافقة لسنة ٧٨٦م والمسعودي قال إنَّ قيس انتهى بتصنيفه إلى خلافة المكتفي وهذا ببيع بالخلافة سنة ٩٠٢م كما رأيت فكان قيس بعد توافيلس بأكثر من مئة سنة فلم يكن إياه.

وقد عثر الأب نو المستشرق الافرنسي في لندره على كتيب سرياني في عدد ١٧٢١٦ من الكتب المخطوطة ونشره في كتابه الذي عنوانه Opusculus Maronites (أي كراسات أو كتيبات مارونية) وطبعه في باريس سنة ١٨٩٩م. ففي صفحة ٣٢ فصاعداً من هذا الكتاب أثبت ما استطاع أن يقرأه من نصه السرياني واسماً إياه بفقر من تاريخ سرياني ماروني، وقد اهدى إليَّ الأب نو كتابه المذكور فطالعت فقراته وقد استشهدت ببعضها كما رأيت، وكل أصل هذا الكتيب يشتمل على خمسة عشر صفحة كما أشار الأب نو في نسخة الأصل، وجل ما تضمنه كلام موجز في آدم وبعض الآباء وبعض رؤساء كهنة اليهود وبعض ملوك اليونان وبعض ملوك الرومانيين وكلام في ماني المبتدع وأبو لينار اللاذقي المبتدع، وذكر بعض الزلازل وبعض الأحداث في أيام معاوية. وقد ظلَّ نو وغيره أنَّ تلك الفقرات مقاطع من كتاب قيس الماروني. وقد ذهب العلامة ريت الذي تكلم في الكتب السريانية القديمة المحفوظة في المتحف البريطاني أنَّ ذاك الكتيب قديم العهد واستبدل بصورة كتابته على أنَّه حُطَّ في القرن الثامن أو التاسع. وقد أطلال العلامة لذلك (في المجلَّة الآسيوية-الألمانية) الكلام في هذه الفقر وبين عظم أهميتها وعزاها إلى كاتب ماروني، وذهب إلى أنَّ الكاتب كان راهباً أو ناسكاً لكثرة ما ورد في تلك المقاطع من أسماء الأديار والمناسك ولم يقطع بأنَّه قيس الماروني.

فالحاصل من ذلك على ما نرى أولاً أن لا ريب في أنَّه كان مؤلِّف بين القرنين التاسع والعاشر يسمى قيس الماروني، وأنَّه ألَّف كتاباً حسناً جامعاً لتواريخ كثيرة كما أشار المسعودي الذي هو ثقة في نقله وقريب من عصر المؤلف المذكور ولا غرض

له في أن يتخلى هذا الخبر . ثانياً لأنه من المؤكد أيضاً أن قيس الماروني غير توافيلس
الرهاوي الماروني لا من قبيل التباين بين عصريهما كما مرّ بل من قبل أوجه أخرى
أيضاً، منها أن توافيلس كان رئيس منجمي المهدي والمقاطع المذكورة التي يرجح
أنها من كتاب قيس يظهر منها على ما ذهب إليه نللك أن كاتبها كان راهباً أو
ناسكاً . ثالثاً إن الأرجح عندنا أن القطع التي أشهرها نللك أو الكتيب الذي أذاع
الأب نو أصله وترجمته الافرنسية ليس هو كتاب قيس برمته حتى ولو أمكن قراءة
كل ما قال نو لأنه وجده ممحواً أو لم يتيسر له أن يقرأه، لأن هذا الأثر لا يشتمل
أصله إلا على خمس عشرة صفحة، والمسعودي قال إن كتاب قيس يتضمن ابتداء
الخليقة والأنبياء والكتب والمدن والأمم وملوك الروم وغيرهم فتاريخ كل ما ذكره لا
تسعه خمس عشرة صفحة وإن وسعته فلا يكون كتاباً حسناً في التاريخ كما
وصفه المسعودي . رابعاً يظهر لنا أن المقاطع المذكورة والكتيب السرياني الذي نشره
نو عن الأصل الكائن في المتحف البريطاني إنما هي جزء من كتاب قيس المذكور أو
فقرات منه نسخها غير المؤلف، إذ شهد من نقبوا عنها أن فيها أغلاطاً لغوية مع
صحة أخبارها ومطابقتها لما كتبه علماء ذلك العصر الذي لا نعرف فيه من علماء
الموارنة إلا توافيلس وقيس المذكور . والله أعلم .

عد ٢٩

رد مزاعم من اتهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر

اعترض على الموارنة بشهادة ساويرس أسقف الأشمونيين من القبط في القرن
العاشر سنداً إلى أن هذا الأسقف وهو من أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة قال في
كتاب ألفه منتقداً فيه عادات استطرقتها فرق النصارى في أيامه: «إن الموارنة فرقة
متميزة عن اليعاقبة والأرمن والملكية وعن اللاتينية أيضاً» . وكل يرى أن ليس في
هذا الكلام الذي رويناه بالحروف نفسها التي رواه بها المعارض ما يدل على ضلال
يستمسك به الموارنة فامتيازهم عن اليعاقبة بينة لهم على أنهم ليسوا على ضلالهم
باعتماد الطبيعة الواحدة في المخلص وكذلك امتيازهم عن الأرمن الذين كانوا في
عصر المؤلف كاليعاقبة باعتقادهم طبيعة واحدة في المسيح، وأما امتيازهم عن الملكية

فإن أراد بهم الكاثوليكين فالموارنة متميزون عنهم من حيث الطقس والطائفة والرعاة كما هم الآن، وإن أراد بهم غير الكاثوليكين فيكون كلامه بينة للموارنة على أنهم كاثوليكون صحيحو العقيدة خلافاً للملكية غير الكاثوليكين. وامتنيازهم عن اللاتينية كامتنيازهم عن الملكية الكاثوليكين لا يشعر بخلاف ديني بلا خلاف طقسي وطائفي. ويمكننا الآن أن نقول ولا حرج أننا متميزون عن اللاتينيين لأن لنا رعاة وتهذيباً وطقساً غير ما لهم من ذلك، والأمر بين وقد استوفينا الكلام فيه في كتابنا روح الردود صفحة ٩٢ من طبعة بيروت.

إن أول طاعن بالموارنة بل مصدر كل طعن عليهم بأنهم تشبثوا بدعة المشيئة الواحدة إنما هو سعيد بن بطريق البطريرك الملكي الاسكندري الذي كان في القرن العاشر وقد فئدنا زعمه ودحضناه كل الدحض في مواضع كثيرة من كتابنا هذا وفي عد ٦٦٨ في المجلد الرابع نقضنا قوله بقوله نفسه إن مارون مبدع بدعة المشيئة الواحدة كان في زمان موريق ملك الروم فابنا أن القديس مارون كان قبل موريق الملك بنحو من قرنين وقبل ظهور هذه البدعة بأكثر من قرنين. وفي عد ٧١٠ من هذا المجلد الخامس ردنا زعمه رداً مسهباً باقامة الحجج القاطعة الدامغة على كذبه وإيراد شهادات كثيرين من الأحرار الأعظمين والعلماء المحققين والاستدلال بقرائن وأدلة لا يشوبها ريب ثم عدنا كثيراً من أغلاطه الفاضحة في غير هذا البحث وفي عد ٧١١ من المجلد المذكور أثبتنا ترجمة رسالة البابا بناديكتس الرابع عشر إلى نيقولاوس لركاري بهيئة براءة في إثبات قداسة القديس مارون حيث فئد هذا الحبر العلامة زعم سعيد المذكور تفنيداً من المحال أن يعترض عليه أو يوجد ما يضعف قوته، وقد محققنا زعم سعيد المذكور في مواضع كثيرة من كتابنا روح الردود وقد فئدناه أخيراً كل تفنيدي في كتيبنا الذي رفعناه هذه السنة ١٩٠٠م بالفرنسية إلى مجمع الآثار القديمة في رومة ثم نشرناه بالعربية ووسمناه بالحجة القاطعة الجلية على من ينكرون ثبوت الموارنة الدائم في العقيدة الكاثوليكية وقد ذكرنا في كتيبنا المذكورة من فئد مزاعم سعيد بن بطريق من العلماء الاعلام ولاسيما علماء أمتنا المارونية حتى أصبحت هذه الحقيقة في جملة ما يقال فيه :

وليس يصح في الأذهان شيء إذ احتاج النهار إلى دليل
ولذا كان ديجور الجهل المنسدل على تواريخ هذه القرون الوسطى لا يمكننا من

الاطلاع على أمور كبيرة وعامة فلا عجب من أن نجعل تاريخ أمة صغيرة كانت مستأمنة في قمم لبنان وكهوفه في القرن العاشر حتى لا يتيسر لنا أن ندون شيئاً من تاريخها في هذا القرن .

عد ٣٠

المطران داود الماروني

كل ما نعلمه عن ترجمة هذا الأسقف أنه كان مارونياً ورئيس أساقفة، وأنه كان في هذا القرن الحادي عشر، وأنه ترجم من السريانية إلى العربية كتاباً كان أحد آباء الطائفة المارونية قد ألفه وقد عني بهذه الترجمة سنة ١٣٧٠ لاسكندر المكدوني توافق سنة ١٠٥٩م. وقد ذكر هذا الكتاب البطريرك أسطفانس الدويهي الاهدني في الفصل السادس من كتاب احتجاجه عن الموارنة ورفع التهم عنهم وسماه تارة كتاب «القوانين» وتارة كتاب «الهدى» أو كتاب «الهداية». وذكر مرهج بن نيرون الباني الماروني في مقالته في أصل الموارنة واسمهم ودينهم صفحة ٨٩، وفي كتابه المعنون أفوليا (أي سلاح الإيمان) صفحة ١٧٠، وإبراهيم الحاقلي في كتابه في أصل اسم بابا صفحة ٤٩٢، وأتى بذكره صفحة ٤٩٢ دي لوراك في كتاب سياحته في سورية وجبل لبنان مجلد ٢ صفحة ٩١ وقد ذكره العلامة السمعاني في كتابه فهرست الكتب المخطوطة القديمة الشرقية في المكتبة الواتيكانية الذي ألفه بمعاونة المطران أسطفان عواد السمعاني ابن اخته كما سيأتي، وقد ذكره مرات في مكتبته الشرقية وحقق أنه هو الذي أخذ هذا الكتاب من الشرق وضمه إلى المكتبة الواتيكانية، إذ روى في فهرست الكتب العربية التي نقلها من الشرق إلى المكتبة المذكورة، فقال في صفحة ٦٢٩ من المجلد الأول ما ترجمته: «الكتاب السادس والسبعون (من المكتبة المذكورة) يشتمل على رسالة الانبا يوسف إلى داود مطران الموارنة المؤرخة في سنة ١٣٧٠ (لاسكندر الموافقة لسنة ١٠٥٩ للميلاد)، والتي سأله بها أن يرسل إليه كتاب القوانين البيعية، ثم جواب المطران داود إلى الانبا يوسف. وقد أرسل إليه المقالة المشتملة على القوانين التابعة مجموعة القوانين تنطوي على ثلاثة وخمسين عنواناً: العنوان الأول في الإيمان، ٢ في الإيمان بسري التثليث والتجسد، ٣ في الصلاة، ٤ في الأشياء النجسة، ٥ في الأشياء الطاهرة، ٦ في القربان الأقدس، ٧

في التقادم، ٨ في الشركة، ٩ في المعمودية، ١٠ في الصوم، ١١ في العصور، ١٢ في مقدمة الخراف، ١٣ في مقدمة الثمار، ١٤ في شرح دستور الإيمان، ١٥ في القوانين المختصة بالمؤمنين أجمع، ١٦ في قوانين الرهبان والراهبات، ١٧ في قوانين الكهنة، ١٨ في قوانين المؤمنين والصلوات القانونية، ١٩ في الصوم والطلاق والزواج والامانة والقضاء، ٢٠ في البطارقة والأساقفة والكهنة والشماسية والرهبان والعامية، ٢١ قوانين المجمع القسطنطيني الثاني، ٢٢ قوانين كيرلس الأورشليمي في المعمودية والزيجة، ٢٣ في المسيح الاله، ٢٤ قانون يوحنا الانجيلي، ٢٥ قانون في الأسباب المسوغة هجر الرجل امرأته وبالعكس، ٢٦ في المسيح والثالث نقلاً عن كتاب عدي ابن ابراهيم المعروف بابن عديان الذي دُوِّن سنة ٣٨٦هـ (وهي سنة ٩٩٧م)، ٢٧ في الصلوة الربية، ٢٨ قوانين اكليمنضس، ٢٩ في حفظ أيام الأعياد، ٣٠ في تكريس الهياكل، ٣١ في الميرون المقدس، ٣٢ في المذابح، ٣٣ في الملابس الكهنوتية، ٣٤ في قوانين الرسل وهي واحد وثمانون قانوناً، ٣٥ قانون بطرس الرسول للكنيسة، ٣٦ في العصور والبيكور، ٣٧ مراسيم بطرس الرسول، ٣٨ مرسوم بولس، ٣٩ مرسوم بولس وعلى قول آخرين مرسوم يعقوب في ذكر الموتى، ٤٠ في جنازة الموتى، ٤١ في من يقاسون الاضطهاد من أجل الإيمان، ٤٢ في درجات الكهنوت، ٤٣ قانون بولس في تناول القربان، ٤٤ في قوانين المجمع النيقوي وهي اثنان وعشرون قانوناً، ٤٥ في قوانين مجمع أنقورة وهي ثلاثة وعشرون قانوناً، ٤٦ في قوانين مجمع قيصرية الحديثة وهي خمسة عشر قانوناً، ٤٧ في قوانين مجمع كنكرا وهي عشرون قانوناً، ٤٨ في قوانين مجمع أنطاكية وهي أربعة وعشرون قانوناً، ٤٩ في قوانين مجمع اللاذقية وهي تسعة وخمسون قانوناً، ٥٠ في قوانين مجمع قسطنطينية وهي أربعة قوانين، ٥١ في قوانين المجمع الخلكيدوني وهي سبعة وعشرون قانوناً، ٥٢ في قانون المجمع الأفسسي، ٥٣ في مراسيم الملوك قسطنطين وتوادوسيوس ولاون وهي مئة وأربعون مرسوماً. وأردف السمعاني هذا الفهرست بقوله: «وهو كتاب عربي خطُّ بالأحرف السريانية على رق بقطع الربع، صفحاته ٢٩٥ وكان خطُّه سنة ١٧١٣ لاسكندر توافق سنة ١٤٠٢ للميلاد. وقد ذكر السمعاني أيضاً المطران داود وكتابه في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية صفحة ٦٧ حيث تكلم في يعقوب البردعي فقال: «ذهب المطران داود الماروني في كتابه في القوانين وهو السادس والسبعون من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية إلى أنه سمى البردعي نسبة إلى

مدينة اسمها البردعة، وهاك قوله في الفصل الأول: «ثمَّ اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تدعى البردعة ولذلك يقال له يعقوب البردعي». وهذه المدينة ذكرها مؤلف جغرافية بلاد النوبة وأورد نيرون الباني قوله في كتابه أفوبليا (سلاح الإيمان) صفحة ٤٢ على أنَّ بردعة بنيت بعد يعقوب البردعي بزمان طويل أعني نحو سنة ٧٠٥م في أيام عبد الملك بن مروان على ما روى جلال الدين الأسيوطي في تاريخ الخلفاء على ما في الكتاب السادس والأربعين من الكتب العربية في المكتبة الواتيكانية صفحة ٨٠ حيث قال: «في سنة ٨٥هـ بنيت مدينة اردبيل ومدينة بردعة بناهما عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي». انتهى كلام السمعاني في المحل المذكور وإذ تكلم في صفحة ١٨١ من المجلد المار ذكره في عدد البرشانات على عادة اليعاقبة أن تكون وترأ لا شفعا إلا في البرشانتين قال: «قد اعترض توما من بيانسيا (في مؤلفه في الاهتمام برجوع جميع الأمم ك ٧ فصل ٦ صفحة ٤٩٩) على الموارنة بأنَّ لديهم شيئا من هذه العادة، وقال الأب اليانس اليسوعي إنَّه وجد أثرا لذلك في كتاب «الهدا» (هو كتاب المطران داود)، على أنَّ العلامة البطريك أسطفانس الدويهي الشهير قد أوضح (في احتجاجه عن الموارنة احتجاج ٦ فصل ٢) إنَّ هذا الظن أو التخمين باطل ولا صحة له».

إنَّ توما أسقف كفرطاب الذي أشرنا إلى شيء من أخباره في كلامنا على تاريخ الموارنة في القرن السابع وذكرنا أنَّه أتى إلى لبنان سنة ١١٠٤م ليستغوي الموارنة ببدعة المشيئة الواحدة، وأنَّه ترجم كتاب القديس يوحنا مارون في الإيمان وعبث به محرِّفاً إياه وزائداً عليه ما يوافق غرضه، فتوما هذا قد عبث بكتاب المطران داود المذكور أيضاً وعبث بادخال زيادات عليه وتحريفه له توسلاً لغرضه المذكور. وقد أثبت العلامة البطريك أسطفانس الدويهي (في الفصل السادس من كتابه في الاحتجاج عن الموارنة صفحة ٣٤٠ من كتاب تاريخ الموارنة المطبوع في بيروت) إنَّ توما الكفرطابي المذكور زاد على كتاب المطران داود القول التابع: «إنَّ أوَّل فرقة ظهرت من الفرق المشهورة هي الفرقة المنسوبة إلى آريوس وهي التي تدعى آريوسية، ثمَّ النسطورية وهي المنسوبة إلى نسطور، ثم اليعقوبية وهي المنسوبة إلى يعقوب البرادعي، ثمَّ الملكية وهي المنسوبة إلى مكسيمس المخالف الذي كان من ذرية السمرة، وأبوه كان اسمه زادوق، وكان يهودياً وأمه جارية عجمية كما تقدَّم عنه الوصف في الكتاب الكبير، وخبره مؤرِّخ في كتاب سعيد بن بطريق، ثمَّ

المارونية وهي المنسوبة إلى دير مارون وإلى الأب القديس الطاهر مار يوحنا بطريرك أنطاكية». إلى أن قال: «قد ذكرت خبرها بين الفرقتين الملكية والمارونية وشرحت بيان حالها شرحاً شافياً في الرسالة التي كتبتها إلى الأب القديس أرسانيوس أسقف عين قوره وسميتها رسالة العدل... وثبتت هذه الفرق أربعاً على أن الفرقتين الملكية والمارونية اللتين ذكرناهما إنما هما فرقة واحدة، ورأيهما في الاتحاد والجوهر الأقبويمي رأي واحد وإنما اختلفتا بالمشيئة. فقالت الملكية بالمشيئين وقالت المارونية بالمشيئة الواحدة واحتجت كل واحدة منهما بحجج، وقد ذكرنا حالهما وحججهما التي أوجبت الخلاف بينهما في الرسالة الموسومة ببداية العدد». فهذه هي الزيادة التي أدخلها توما أسقف كفرطاب على كتاب المطران داود في العنوان في الإيمان، وقد حجج الموارنة خصومهم بهذه الزيادة التي كان مطرانهم داود قد كتبها.

على أن العلامة الدويهي وغيره قد أثبتوا بحجج قاطعة وبيانات دامغة أن هذا الكلام كلام توما الكفرطابي وليس كلام المطران داود. وإليك بعض تلك الحجج أولها أن أرسانيوس أسقف العاقورة الذي يقول الكاتب إنه أرسل إليه رسالته المسماة رسالة العدل لم يكن في أيام المطران داود بل بعده بستين في أوائل القرن الثاني عشر، إذ كان توما الكفرطابي في لبنان. وقد صرح توما في كتابه الموسوم بالمقالات العشر أنه كتب رسالة مطولة إلى أرسانيوس أسقف العاقورة يبين فيها معتمداً على تواريخ ابن بطريق أن اعتقاد المشيئة الواحدة كان رأي معلمهم مارون ورأي الآباء وأن الموارنة لا يفترون عن الملكية إلا بهذا. ومثل ذلك الرسالة التي قال الكاتب إنه يبين فيها حال الموارنة والملكية وحججهما، فأما هي لتوما الكفرطابي وأثارها باقية في كتابه المقالات العشر وليست للمطران داود. الحجة الثانية أن توما الكفرطابي قد صرح في كتابه المذكور بأنه لا يقدم إلى لبنان إلا ليصحح معتقد الموارنة ليؤمنوا بأن في المسيح مشيئة واحدة، وجل كلامه في الكتاب المذكور موجه لهذا الغرض. وقد بذل جهده في رسالته إلى أرسانيوس أسقف العاقورة ليثبت زعمه هذا مستدلاً بأقوال سعيد بن البطريق بأن هذا كان معتقد مارون والموارنة، فإن كان الموارنة قد اعتقدوا قبله ببداية المشيئة الواحدة، وبهذا اختلفوا عن الملكية، وكان هذا معتقد أسقفهم داود في كتاب قوانينهم، فليتم هذا التعب والنصب والعناء لتصحيح عقيدتهم؟ ولم ندب توما سوء منقلبه وخسارة أتعابه وأوقاته إذ قاومه بطريرك الموارنة وعانده أرسانيوس أسقفهم ولم يدعن لكلامه إلا خوري قرية فرشع ونفر ببلاد

جبل؟ وكيف يوفق بين هذا وبين ما يرويه عن المطران داود أنَّ طائفته لا تفتقر عن الملكية إلاَّ باعتقادها المشيئة الواحدة خلافاً لهم؟ الحجة الثالثة أنَّ ما ورد في الزيادة المذكورة على كتاب المطران داود عن القديس مكسيمس إنما هو كلام سعيد ابن بطريق بحروفه، انتحله عنه توما الكفرطابي الذي جعل سعيد عمدة له في كتابه المقالات العشر ولم يذكر هذه الخرافة عن أبي القديس مكسيمس وأمه إلاَّ سعيد المذكور.

وقد أثبت السمعاني العلامة أنَّ ما علق على النسخة الواتيكانية من كتاب المطران داود إنما هو رقعة أدخلها عليه توما الكفرطابي، فأنه في كتابه فهرست الكتب القديمة الشرقية في المكتبة الواتيكانية الذي ألّفه بمعاونة المطران أسطفان عواد السمعاني لكتاب المطران داود في المكتبة الواتيكانية بعد أن كان في عد ٧٦ من الكتب التي أحضرها من الشرق: «إنَّ البطريرك الأنطاكي أسطفانس (الدويهي) علق حاشية على هامش هذا الكتاب صفحة ٢٥ أبان فيها أنَّ توما الكفرطابي أدخل على هذا الكتاب أشياء كثيرة ليث بدعة المشيئة الواحدة والفعل الواحد في المسيح». ثمَّ روى تلك الزيادة كما روينها قال: «ليس هذا كلام المطران داود بل كلام توما الكفرطابي، فإنَّ كاتب الرسالة إلى أرسانيوس (أسقف العاقورة) إنما هو توما، لا داود فالواضح إذاً أنَّ هذه الزيادة على كتاب القوانين للمطران داود أدخلتها يد توما الكفرطابي المذكور».

ولنا حجة أخرى قاطعة تبين تلك الزيادة مدخلة على نسخة كتاب المطران داود التي في المكتبة الواتيكانية وليست من كلام المطران المذكور، فإنَّ النسخ الأخرى لهذا الكتاب خالية عن هذه الزيادة بل تشتمل على ما يناقض ذلك، منها النسخة التي كانت في مكتبة مدرسة الموارد برومة وقد تداولتها يد القس مرهج بن نيرون الباني وأخذ عنها (في مقالته في أصل الموارد واسمهم ودينهم صفحة ٨٩) شهادة المطران داود حيث يقول: «إنَّ الملكية يتفقون مع الموارد باعتقادهم المشيئين فإنَّ الموارد يثبتون في المسيح مشيئين تبعاً لطبيعته الإلهية والبشرية». وقد أثبت ذلك دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان فقال (في المجلد الثاني صفحة ٩١ راداً زعم غوليلمس أسقف صور) ويثبت بطلان شهادة غوليلمس شهادة مطران سوري عالم اسمه يوسف (هذا سهو من المؤلّف أو خطأ من منظم حروف المطبعة ويصلحه قوله الثاني) كان عائشاً سنة ١٠٥٩م كما يظهر من رسالة كتبها الأنبا

يوسف تلك السنة إلى المطران المذكور يسأله بها أن يترجم من السريانية إلى العربية كتاب «القوانين البيعية» الذي عند السريان. وهذه الرسالة معلقة على فاتحة كتاب القوانين المذكورة. ومنه نسخة محفوظة في مكتبة مدرسة الموارنة برومة وترى في الفصل الأول من هذه القوانين الشهادة الآتية التي ترجمناها عن الأصل العربي: «إن الملكية يُتفقون مع الموارنة باعتمادهم المشيختين فإن الموارنة يشبتون أنَّ في المسيح مشيختين» الخ. قال مرهج بن نيرون (الباني الماروني): «كيف يصح إذا ما قاله غوليلمس الصوري عن الموارنة في سنة ١٨٤٤م من أنَّ هذه الطائفة تسكتت نحواً من خمسمائة سنة في ضلال مبدع اسمه مارون مع أنَّ المطران المذكور يشهد شهادة تنقض كل ذلك أعني الموارنة كانوا في سنة ١٠٥٩م التي ترجم فيها الكتاب المذكور يجاهرون باعتمادهم أنَّ في المسيح مشيختين». انتهى كلام دي لاروك.

طالع ما كتبه في هذا الشأن في كتابي «روح الردود» من صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٢٢ من المطبعة العربية ببيروت، ومن صفحة ٩٥ إلى صفحة ١١١ من ترجمته الافرنسية المطبوعة في اراس سنة ١٨٩٦م.

مقالة خامسة

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

عد ٣١

حالتهم الدنيوية في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن الثامن عد ٧٤٢ أنَّ حلم الخلفاء وصعوبة مسالك لبنان وتعذر إحراز الثروة فيه جعلت الموارنة سكانه في مأمن من السطو عليهم والمزاحمة لهم على أراضيه، وان يظهر أنَّ الخلفاء كانوا يولون عليهم ولاية

مسيحيين، وأيدنا ذلك بشهادة العلامة السمعاني في مؤلفه «مكتبة الناموس» (مجلّد ٤ صفحة ٣٩٤). والآن نقول يظهر أنّ الموارنة سكان لبنان استمروا على ذلك إلى هذا القرن وما بعده أيضاً متنعمين بنوع من الاستقلال الإداري بفضل الخلفاء، ولما أتى الفرنج وملكوا السواد الأعظم من سورية لم ينزعوا عنهم هذه النعمة بل تركوهم واستقلالهم المذكور. وهذا تؤكّده لنا أدلة كثيرة قاطعة فلم نعثر في كل ما قلّبناه من كتب التاريخ لأخذ تاريخ الخلفاء ما يؤذن بأنّ الخلفاء نصبوا عاملاً على لبنان أو على مدنه غير الساحلية، فقد ذكروا متواتراً عمال النواحي كطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحماه وحمص وبعبك، ولكن لم نرَ ذكراً لعامل في لبنان أو إحدى مدنه أو قراه الجبلية، بل لم نجد أثراً لإقامة المسلمين في أنحائه إلا بعد أواخر القرن الثالث عشر ولا في سواحله أو ما يقرب منها كإقامة أمراء الغرب من آل تنوخ في عمل الغرب القريب من بيروت، فإنّ الملوك والأمراء المسلمين أقاموا في مدة حريهم مع الفرنج هؤلاء الأمراء في العمل المذكور، وبعد طردهم الفرنج من هذه البلاد أسكنوا عشائر من المسلمين في سواحل لبنان ليكونوا حاجزاً بين نصارى لبنان وبين الفرنجة إذا عادوا إلى سورية كما سيأتي.

ولما فتح الفرنج سورية وملكوا مدنها الساحلية لم يعترضوا النصارى سكان لبنان في تدبير أمورهم الداخلية، ولم يمسوا ما كانوا عليه من الاستقلال، فلا نراهم نصبوا عاملاً على غير المدن الساحلية، ولا ألقينا ما يدل على أنّهم حاربوا سكانه أو أنّ سكانه استسلموا إليهم أو تركوا لهم تدبير شؤون بلادهم، كما لا نرى أنّ الحكام المسلمين استعانوا بهم على حرب الفرنج أو جندوا قوماً منهم لمحاربة الفرنج. ولو كانوا يلونهم كغيرهم من سكان السهول والمدن البحرية لما أهملوا تكليفهم إلى إنجادهم في حروبهم كما كانوا يصنعون مع باقي مسوديتهم بل لو كان للولاية المسلمين الولاية المطلقة على سكان الجبل لما استطاع الفرنج أن يتمكنوا في طرابلس وجبيل وبيروت وصيدا لاكتناف الجبل هذه المدن ومن عرف موقعها قضى بما نحن مثبتون.

وقد جاء في كتاب تاريخ الموارنة المطبوع في بيروت سنة ١٨٩٠م (صفحة ٢٧٩) ذكر أمراء لبنان مع تعيين أسمائهم وسني ولايتهم نقلاً عن رسالة للخوري يوسف مارون الدويهي الاهدني، فلا يمكن القطع بصحة هذه الرواية ولاسيما في تعيين الأسماء والسنين، لأنّ صاحب الرسالة لم يسند ما كتبه إلى أحد المؤرخين أو

أحد الكتب القديمة، وغموض التواريخ في تلك الحقبة معلوم مشهور فيتعذر على الكاتب أن يحقق هذه الأسماء وهذه السنين. وإذا كان العلماء لم يستطيعوا أن يعرفوا أسماء بعض البطارقة وسني رياستهم في تلك القرون فلا يظن أنه كانت وسيلة للعلم بأسماء أمراء منزوين في جبل وبسني ولايتهم. ولكن بقاء حكام أو أمراء في لبنان في تلك السنين لا ريبه فيه وكل ما مرّ آنفاً يؤيد أنّ هؤلاء الأمراء كانوا وطنيين ولنا شهادة قاطعة على أنّه كان في لبنان في القرن الثاني عشر ملك أو أمير ماروني في جبيل. وهذه الشهادة كتبها البطريك أرميا العمشيتي بخط يده على كتاب الأناجيل الأربعة الذي خطّ سنة ٨٩٧ يونانية الموافقة لسنة ٥٨٦ للميلاد. وكان هذا الكتاب في بطريكية الموارنة في أيام البطريك أرميا المذكور ثمّ اتّصل إلى المكتبة الماديشية في فيرنسا بإيطاليا، وذكره العلامة المطران أسطفان عواد السمعاني في الفهرست الذي وضعه للكتب الشرقية في هذه المكتبة وقد صنع مثلاً للكلمات نفسها التي خطّتها يد أرميا بالسريانية وسنذكرها عند الكلام فيه. ونجترئ الآن بذكر ما خصّ غرضنا منها، فانه بعد أن ذكر دعوة البطريك له وتصويره أسقفاً في دير كفتون قال: «وبعد مضي أربع سنين طلبني ملك (أي أمير) جبيل والأساقفة ورؤساء الكنيسة والكهنة وألقوا قرعة فأصابني وأقاموني بطريكاً في دير حالات». فأمر جبيل الذي دعا أسقفاً مارونياً وشهد انتخابه بطريكاً لا يمتري في أنّه ماروني.

ونرى لويس التاسع ملك فرنسا لما كان في عكا في أواسط القرن الثاني كتب في رسالته إلى الموارنة: «إلى أمير الموارنة بجبل لبنان وإلى بطريك وأساقفة الطائفة المذكورة». وصرّح في رسالته بأنّ الأمير سمعان أتى إليهم وقدم له هدايا فاخرة بل قد صرّح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته في كراذلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م بأنّه لما ملك المسلمون أنطاكية وطرّدوا الفرنج منها ولّى هؤلاء فارين إلى جبل لبنان، فقبلهم بطريك الموارنة بالاناس والترحاب فكتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكر له صنيعه ولم تزل براءة البابا اسكندر الرابع التي أشار إليها بناديكتس الرابع عشر محفوظة في خزانة أوراق بطريكية الموارنة حيث يوصيه هؤلاء الفرنج، ويخوّله الحق أن يسوسهم كشعبه. فلو لم يكن للموارنة حيثيّ نوع من الاستقلال لما هرب الفرنج إليهم ولما استطاع بطريك الموارنة أن يقبلهم ويضخّمهم إلى شعبه وسوف ترى شيئاً كثيراً يثبت ذلك.

بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر

لما قدم الفرنج إلى سورية في آخر القرن الحادي عشر كان يوسف الجرجسي بطريركاً على الموارنة ولا نعلم في أية سنة قبل ذلك رقي إلى هذا المقام، بل علمنا أنه لما فتح الفرنج أورشليم أقاموا غودفروا ملكاً عليهم واختاروا بطريركاً لاتينياً على أورشليم أرسلوا رسائل ووفداً إلى الحبر الروماني البابا أوربانس الثاني يبشرونه بما وقّعه الله إليه، وأرسل يوسف الجرجسي مع وفدهم نائباً عنه ورسالة إلى الحبر الروماني يحقق بها طاعته له وتشبّثه بالإيمان الكاثوليكي فبلغت هذه الرسالة إلى البابا بسكاليس الثاني لأنّ سالفه البابا أوربانس الثاني كان قد توفي قبل فتح أورشليم بأربعة عشر يوماً فسّر البابا بسكاليس بهذه الرسائل والوفد سروراً عظيماً وأرسل إلى بطريرك الموارنة تاجاً وعكازاً. وروى ذلك الأسقف جبرائيل اللحفدي المعروف بابن القلاعي في رسالة كتبها إلى البطريرك سمعان الحداثي سنة ١٤٩٤م ومرهج بن نيرون الباني في كتابه (أفوليا) سلاح الإيمان صفحة ٦٧، وأورد لكويان قوليهما في المشرق المسيحي (مجلد ٣) في كلامه على بطاركة الموارنة وكان هذا البطريرك ساكناً في يانوح من عمل جبيل.

وروى لكويان في المحل المذكور ما رويناه في كلامنا على توما أسقف كفرطاب أنه كان يعقوبياً وصار من أصحاب بدعة المشيئة الواحدة، وأتى إلى لبنان قاصداً أن يستغوي الموارنة وأنه قام لمناصبته يوسف بطريرك الموارنة وأرسانيوس مطران العاقورة وفندا تعليمه برسائلهما، فذله الجميع ولم يضل إلا خوري كفرشع وبعض المغفلين إلى أن قال لكويان إنّ هذا البطريرك بقي حياً إلى سنة ١١١٩م هذا إذا كان هو الذي كتب رسالة إلى البابا جيلاسيوس الثاني يهنئه بها بارتقائه إلى الحبرية العظمى ولما كان البابا جيلاسيوس لم يعيش إلا زماناً وجيزاً (سنة وخمسة أشهر) جاوبه البابا كاليستوس الثاني على رسالته سنة ١١١٩م كما روى ابن نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان صفحة ٦٨، وربما كان البطريرك بطرس خليفة يوسف المذكور هو الذي كتب هذه الرسالة.

وصيّر بعد البطريرك يوسف الجرجسي البطريرك بطرس الأول ولا شك في أنه كان بطريركاً على الموارنة سنة ١١٢١م، لأنّ الكتاب السابع من الكتب السريانية

المخطوطة التي نقلها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية علق كاتبه على صفحة ٢٦٢ منه هذه الحاشية بالسريانية وترجمتها: «أنا الحقير الراهب سمعان كتبت هذه الأسطر في هذا الكتاب الذي نسخته لأبينا الطوباوي بطيريكنا مار بطرس بطيريك الموارنة الساكن بدير ميفوق المقدس في وادي ايليح من عمل البترون، إلى أن أمرني أن أكون رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في أرض كوزيند بجزيرة قبرص في أيام الرهبان الساكنين في دير القديس يوحنا المذكور وهذه أسمائهم: الراهب داود القس موسى الراهب، يوسف النحتومي، والراهب جيورجيوس، والراهب دانيال. وهؤلاء كهنة يخدمون الله وكان ذلك سنة ١٤٣٢ يونانية (سنة ١١٢١م) في اليوم الثاني عشر». يريد من تشرين الأول الذي كان السريان يبدأون السنة منذ ذكر ذلك السمعاني في المجلد الأول من المكتبة المشرقية صفحة ٣٧٠ ثم ذكره صفحة ٦١١ و ٦١٢ من المجلد المذكور.

وقد ذكر الدويهي في تاريخه البطريرك بطرس هذا فقال: «وفيها (أي في سنة ١١٢١م) كان البطريرك بطرس قاطناً في دير سيدة ميفوق من أعمال البترون وبعث الرهبان القاطنون بدير مار يوحنا كزبند يخبرونه بوفاة رئيسهم ويسألونه أن يرأس عليهم القس سمعان الذي كان كاتباً عند قدسه، وله اليد الطولى في الخط، وفي تزويق التصاوير كما هو واضح من كتاب ميامر مار يعقوب السروجي الذي كتبه بخط استرنكالي على رق وهو مصان عندنا بدير سيدة قنوين». انتهى كلام الدويهي ويظهر منه أنّ هذا الكتاب الذي كان في قنوين نقله السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية.

وخلف غريغوريوس الثالث من حالات بطرس الأول وقد ذكره الأسقف جبرائيل القلاعي في رسالته إلى البطريرك سمعان الحداثي ومرهج بن نيرون الباني في كتابه سلاح الإيمان، وقال إنه أرسل سنة ١١٣٠م وفداً إلى البابا أينوشنسيوس الثاني يهتته بارتقائه إلى الحبرية العظمى، ولما أرسل هذا البابا الكردينال غوليلمس إلى الشرق بسبب الخلاف الشهير الذي كان حينئذٍ إذ غضب الباباوية بطرس لاون وسمى أناكليتس الثاني، التقى البطريرك غريغوريوس الكردينال غوليلمس إلى طرابلس وقدّم صك طاعته للبابا أينوشنسيوس الثاني البابا الشرعي. وقد ذكر ذلك البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه، فبعد أن أورد خبر هذا الخلاف ورجوع الأكثرين إلى طاعة البابا الشرعي واقتداء الفرنج الذين بسورية بهم قال: «وعلى شبه

من تقدّم ذكرهم نزل رؤساء الملة المارونية وعلمائها إلى مدينة طرابلس وعلى يد الكردينال غوليلمس قاصد البابا زخيا (أينوشنسيوس) حلقوا له الطاعة وأعطوه خطوط أيديهم أنّهم لا يتمسكون بغيره ولا يكرزون إلاّ باسمه».

وصيّر بعد غريغوريوس الثالث الخالتي يعقوب الأوّل من رامات ببلاد البترون وقد روى العلامة السمعاني (في المجلّد ١ من المكتبة المشرقية صفحة ٣٠٧) أنّه علق على أحد كتب القديس يعقوب السروجي (وهو السابع من الكتب السريانية التي نقلها السمعاني إلى المكتبة الواتيكانية) هذه الحاشية بالعربية: «لما كان تاريخ سنة ١٤٥٢ يونانية (توافق سنة ١١٤١م) في شهر تموز المبارك بعشرة أيام مضت منه حضر إلى عندي أنا بطرس بطريك الموارنة الجالس على الكرسي الانطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب دانيال من رهبان دير كفتون وقد أعطيته سلطاناً من الله، ومن حقارتي بأنّه يكون رئيساً ومديراً على دير مار يوحنا الكوزبند في جزيرة قبرص المحروسة من الله تعالى بحسب ما ورد من الأولاد الرهبان وأولهم الراهب عيسى وإيليا والراهب موسى، والراهب يوحنا وأخوه يعقوب برضاهم وخاطرهم وخط أيديهم ولربّنا أمين». وقال البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخ سنة ١١٤٠م: «وفيها كانت وفاة الرجل الفاضل القس سمعان رئيس دير ما يوحنا الكوزبند بقبرص، وأرسل لهم بدله البطريرك يعقوب من رامات من عمل جبيل القس دانيال من رهبان سيدة كفتون الذي في كورة طرابلس، ومن بعد يعقوب الراماتي رقي إلى الكرسي البطريركي يوحنا السابع سنة ١١٥١م، وقد ولد في لحفد من عمل جبيل وسكن أولاً في دير مار الياس في قريته، ثمّ انتقل إلى دير السيدة بهاييل، وأقام هناك ديراً، ووصفه الدويهي في تاريخ بطاركة الموارنة بأنّه كان ذا مكارم وفصاحة كما يظهر من النافور الذي كتبه، وأنّه في مدّة إقامته بلحفد رقى أربعة أساقفة لمعاونته على تدير الشعب، فسكن أحدهم في دير القديس حوشب، والثاني في دير القديس سمعان، والثالث في دير القديس اليشاع والرابع في دير السيدة بلحفد. وانه لما كان عيد العنصرة حضر إليه شعب كثير ومعهم شمامسة وكهنة ورهبان ورؤساء كهنة فانتقل من ديره إلى دير السيدة الذي فوق هاييل حيث لم يكن ماء، فحفّر بئراً وأنشأ ديراً كبيراً. وقد جاء في الآثار القديمة وفي الرسالة التي كتبها جبرائيل بن القلاعي إلى القس جرجس في الفصل الحادي عشر أنّ دير هاييل المذكور استمرّ كرسيّاً لبطاركة الموارنة إلى أيام البطريرك أرميا، إلاّ أننا لم نعر

على أسماء هؤلاء البطارقة الذين أقاموا به لنثبت ذكرهم. انتهى كلام الدويهي وقد وجد مكتوباً على كتاب الأناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة ثم نقل إلى المكتبة الماديشية بفرنسا. وذكر المطران أسطفان عواد الخطوط المعلقة عليه في كتابه فهرست هذه المكتبة فقال إنه كتب على صفحة ١٨ سطر ٢٣ وما يليه ما يأتي بالعربية: «لما كان تاريخ سنة ١٤٦٥ يونانية توافق سنة ١١٥٤م) ثامن يوم مضت من شهر أيلول حضر إلى عندي أنا بطرس بطريرك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي القاطن بدير سيدة ميفوق في وادي ايليغ الولد الراهب أشعيا من دير قزحيا وعملته رئيس على الرهبان القاطنين في دير ما يوحنا دير الكوزبندو في جزيرة قبرص حسبما ورد من الأولاد الرهبان بخط أيديهم وهم: الولد الراهب جبرائيل ورفيقه الراهب شمعون، والراهب حبقوق، والراهب ميخائيل، ولرب المجد آمين». فبطرس هذا هو يوحنا اللحفدي المذكور. ويظهر أنّ بطاركنا كانوا منذ تلك الأيام يزيدون على إسمهم بطرس، ويظهر أيضاً أنّه كان يقيم بسيدة ميفوق أيضاً. وقد ذكره السمعاني (في المجلد الأول من المكتبة المشرقية صفحة ٥٢٢)، وقال إنه ولد في لحفد، وأنه خلف البطريرك يعقوب الراماتي، وأنه دير الكنيسة المارونية من سنة ١١٥١م إلى سنة ١١٧٣م وأنه كتب نافوراً ذكره البطريرك أسطفانس الدويهي في كتابه المناثر العشر في الفصل الثاني في مؤلفي النوافير الكاثوليكين فقال: «يوحنا اللحفدي جلس على الكرسي الأنطاكي بعد الالف والمائة من سني السيد المسيح له نافور بدؤه **ⲛⲁⲩⲟⲩⲁ ⲛⲁⲩⲟⲩⲁ ⲛⲁⲩⲟⲩⲁ**، إليها الإله الكلّي القداسة وهو مثبت في كتب القداس الموجودة في دير قنوين.

إنّ البطريرك أسطفانس الدويهي ذكر بعد البطريرك يوحنا اللحفدي البطريرك أرميا العمشيتي، لكن قال ما رويناه آنفاً أنّ دير هاييل استمرّ كرسياً لبطاركة الموارنة إلى أيام البطريرك أرميا، إلّا أننا لم نعر على أسماء البطارقة الذين أقاموا هناك لندكرهم، فظهر أنّه كان بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي بطارقة آخرون. ولكويان في كلامه على بطارقة الموارنة جعل يوحنا اللحفدي الثامن والعشرين منهم، ثم وضع الأعداد ٢٩ و ٣٠ و ٣١ وبعدها بياضاً لأنّه لم يهتد إلى أسماء ثلاثة بطارقة ثم ذكر لوقا أيضاً قبل أرميا. وقال المطران أسطفانس دواد السمعاني في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ١٦ متكّلاً في كراسي بطارقة الموارنة. «رابعا في دير القديس الياس بلحفد من أبرشية جبيل حيث جلس يوحنا اللحفدي خليفة

يعقوب وهو الذي نقل الكرسي إلى دير القديسة مريم بهابيل من أبرشية جبيل المذكورة وهناك جلس بطرس وبطرس الآخر ولوقا المسمى بطرس. خامساً نقل الكرسي البطريركي ثانية إلى دير القديسة مريم بيانوح من أبرشية البترون حيث جلس أرميا». ولا أشك البتة في أنه كان بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي بطاركة آخرون. وعلى ذلك دليل قاطع غير ما مرّ من شهادة المؤرخين. فقد ذكر السمعاني وغيره أنّ يوحنا اللحفدي توفي سنة ١١٧٣م كما رأيت وأنّ أرميا توفي سنة ١٢٣٠م، فلو كان أرميا خلف يوحنا للزم أن يكون أرميا استمرّ بطريكاً سبعة وخمسين سنة وهذا لا يصدق. ومما لا ريب فيه أنّ أرميا العمشيتي شهد الجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥م، وإنّ البابا أينوشنسيوس الثالث كتب إليه براءته المثبتة في سجلات البراءات تلك السنة، فلو كان قد صير بطريكاً سنة ١١٧٣م لكان له في البطريركية حيثئذ اثنتان وأربعون سنة. فان فرضنا أنّه صير بطريكاً وعمره أربعون سنة فقط فيكون عمره سنة ١٢١٥م اثنتين وثمانين. سنة ومن يصدق أنّ هراً بهذا العمر يتحمّل مشاق السفر في تلك الأيام إلى رومة فإذا لا بدّ من أن يكون بطاركة آخرون بين يوحنا اللحفدي وأرميا العمشيتي أفلم ننظر ما يقوله المؤرخون في ذلك؟

قال لكويان في المشرق المسيحي (متكلّماً في بطاركة الموارنة) روى مرهج بن نيرون الباني في مقالته في اسم الموارنة وأصلهم ودينهم نقلاً عن جبرائيل بن القلاعي في قصيدته في أصحاب البدع أنّ من اتبعوا ضلال توما أسقف كفرطاب (الذي كان قد توفي) أطغوا غيرهم من الموارنة بيدعة المشيئة وتوافر عدد المطغين حتى أنّ البطريرك نفسه لم يذكر اسمه جنح إلى ذلك فان ابن القلاعي يقول ما معناه أنّه بعد توما قام ابن شعبان وأخذ يكتب ويعلم الأحداث ويذر الضلال بين الموارنة وملاً كتبهم من الزوان، وقام بعده ابن حسان من حدشيت وأطغى أهل كفر ياشيت وكتب وغير الصلوات وابنت سم الضلال في قرى أخرى حتى اتّصل إلى الرأس أيضاً إذ قال: «إنّ البطريرك ابتلع السم بقدر ما يسع الفم». ولذلك اجتمع رؤساء الموارنة وأعيانهم وكثيرون من الشعب وجزموا جميعاً برأي واحد على أن ينفصلوا من شركة البطريرك فلم يعودوا يؤدونه الطاعة ولا يقبلونه في البلاد بل حملتهم الحمية والغيرة الدينية على أنّهم حطّوه عن مقامه وانتخبوا بطريكاً آخر، فحنق لذلك أصحاب البطريرك المعزول وقتلوا البطريرك الجديد. وبعد قتل هذا

البطريك تعاضم الخلاف والشغب بينهم فتدارك أمرهم أميريكس البطريك الأنطاكي على اللاتين، وسكن روعهم وخمد جزوة غضبهم ورد المغوين عن غيهم، فاتفقوا جميعاً على انتخاب بطريك صحيح المعتقد. قال لكويان هذا ما جاء في التاريخ المذكور: «إنَّ إيميريكس ذا الذكر الصالح انتزع السم منهم وأرشدتهم فطاوعوه واهتمَّ بنيل البركة لهم من الكرسي الرسولي، واختاروا بطريكاً سكن في هابيل وحفظ كل ما في الإنجيل، وكان ضليعاً في تفسير الأسفار المقدسة وألف أشعاراً كثيرة في الإيمان». واختتم لكويان كلامه بقوله لا ريب عندي في أنَّ هذا ما حمل غوليلمس أسقف صور على ما كتبه من أنَّ الموارنة كلهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢م على يد إيميريكس البطريك الأنطاكي مع أنَّ هذا لا يصدّق على الملة كلّها، بل على بعضها فقط ويؤيد ذلك ما جاء في التاريخ المذكور: «لأنَّهم ثبتوا في إيمان مارون وذلّ المعاندون وعاد الوفاق والسلم ثابتين بين من كانوا مختلفين». وكان لكويان قد قال في مقدّمات كلامه على الموارنة كما لم يعجب فرنسة لإتباع كثيرين من اكليسها وأعيانها مذهب لوتارس وكلوينس هكذا لا يعيب الملة المارونية إتباع بعض أفرادها الضلال مدة ما.

وبعد إيراد لكويان خبر هذه الأحداث ذكر لوقا الأوّل قائلاً ما خمدت جذوة الاضطراب بين الموارنة إلّا وقام رجل يسمى ابن شعبان رومي أصلاً وعاونه مطران اسمه عيسى فبثا الضلال في بعض قرى لبنان، وكان البطريك اسمه لوقا وكان في آخر القرن الثاني عشر أو بدء الثالث عشر، فانهاز إليهما واستشهد لكويان لذلك نيرون الباني (في مقالته في اسم الموارنة صفحة ٩٨) الذي قال إنَّ المطران عيسى وابن شعبان علّما الناس أن يصنعوا إشارة الصليب باصبع واحدة، ونبذا الجمع الرابع. وأوجس الشيطان إلى راهبين أحدهما من يانوح والآخر من دير نبوح فرعما أنَّ المسيح لم تكن له نفس ولا تألّم ولا كان يستطيع أن يشعر بالألام، وإن البابا أرسل قاصداً لم يقبله لوقا فحرم البابا أصحاب هذا الضلال ونشأ بين الموارنة شقاق بسبب ذينك الراهبين. إلى أن يقول لكويان أنَّ هذا الشقاق استمرَّ إلى أن قام البطريك أرميا خليفة لوقا المذكور. انتهى.

إنَّ العلامة لكويان اعتمد في إيراد هذا الخبر وذكر البطريك لوقا على قول نيرون الباني، ونيرون اعتمد على قول جبرائيل ابن القلاعي في بعض زجلياته على أنَّ البطريك أسطفانس أفرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم عن الموارنة لتفنيد

قول ابن القلاعي المذكور مبيناً أنّ البطريك لوقا من بنهوان لم يكن في القرن الثاني عشر أو أوّل الثالث عشر بل في آخر القرن الثالث عشر أو أوّل الرابع عشر، وأنّه لم يحب بضلال، وأنّ الحكّام الذين ذكر ابن القلاعي أنّ هذه الأحداث كانت في أيامهم لم يكونوا في ذلك العصر بل بعده بسنين كثيرة، وإنّ جلّ مقصد ابن القلاعي كان يبين للمقدم عبد المنعم حاكم بشري الذي زاغ عن الإيمان القويم وشايح اليعاقبة أنّ كل من شدّوا عنه انتقم الله منهم، فلم يرع نظام تاريخ السنين إلى غير ذلك من الأدلّة القاطعة. فضلاً عن أنّ ابن شعبان الذي ذكره لكويان هنا كان ذكره قبلاً، وعن اننا سنبين أنّ أرميا العمشيتي كان بطريكاً في المدّة التي عيّنها لكويان للبطريك لوقا.

قد أفضل علينا العلامة المطران أسطفانس عواد السمعاني بنشره مثلاً لخط بيد البطريك أرميا عثر عليه في كتاب الأنجيل القديم الموجود الآن في المكتبة الماديشية بفرنسا، وكان قبلاً في بطريكية الموارنة، وطبع هذا المثال في كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة المذكورة، ومنه يتبين زمان ارتقاء أرميا إلى الأسقفية وسنة انتخابه بطريكاً والخط بالسريانية والأحرف المسماة استرنكلية وهذه ترجمته بحروفه:

«في سنة ١٥٩٠ يونانية في اليوم التاسع من شباط أتيت أنا الحقير أرميا من قرية دملصا المباركة إلى دير سيدتنا القديسة مريم بميفوق في وادي ايليچ من عمل البترون إلى سيّدنا بطرس بطريك الموارنة، ورسمني بيديه المقدّستين وجعلني مطراناً على دير كفتون المقدّس الذي على ضفة النهر، وبقيت هناك أربع سنين. وكان سكان الدير المذكور الراهب حزقيال ورفيقه الراهب أشعيا والراهب دانيال والراهب يشوع ورفيقه إيليا والراهب داود واثنين وثلاثين راهباً آخرين. وبعد انقضاء السنين الأربع طلبني أمير جبيل والأساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة وألقوا قرعة فأصابني وصيّروني بطريكاً في دير حالات المقدّس، ثم أرسلوني إلى رومة المدينة العظمى وتركت أناخانا المطران توادورس يدبر الرعية ويهتم بشؤونها».

إنّ في هذا الخطّ زلة قلم اما من الذي أخذ المثال أو من أرميا الذي كتب الخط فسنة ١٥٩٠ يونانية توافق سنة ١٢٧٩ مسيحية، وأرميا كان قبل هذه السنة بنحو قرن ويكفيها مؤونة بيان هذا الغلط براءة البابا اينوشنسيوس الثالث المنفذة إليه باسمه في سنة ١٢١٥م وقد أجمعوا على أنّه شهد الجمع اللاتراني الرابع، ولا يختلف اثنان

في أنّ هذا المجمع عقد سنة ١٢١٥م وليس بين أسماء بطاركتنا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر اسم أرميا هذا، ولذلك روى المطران أسطفان عواد في ترجمته هذه العبارة إلى اللاتينية سنة ١٤٩٠م لا سنة ١٥٩٠م، وذكر موافقتها لسنة ١١٧٩م لا لسنة ١٢٧٩م. وعليه فلما كان أرميا رقي إلى درجة الأسقفية سنة ١١٧٩م كما في صحيح الخط، وقال إنه انتخب بطريكاً بعد أربع سنين كان انتخابه بطريكاً سنة ١١٨٣م أي بعد حصول الوفاق بين الحزبين المختلفين من الموارنة بسنة واحدة أو ببعض أشهر فقط، لأنّ لا يحتمل أن يكون الوفاق حصل في آخر سنة ١١٨٢م وانتخاب البطريك كان في أوّل سنة ١١٨٣م. ولما كان رأينا هذا مستنداً إلى ما خطّه يد أرميا قد اعتمدناه مفضلاً على غيره لهذا الاستناد.

قال لكويان في المشرق المسيحي قال البطريك أسطفانس الدويهي في الجدول الذي وضعه لبطاركة الموارنة أنّ أرميا ارتقى إلى البطريكية سنة ١٢٠٩م وكان من عمشيت من عمل جبيل، وكان رجلاً فاضلاً باراً ذا غيرة على الدين القويم، أقام بيانوح ودخل رومة العظمى بنفسه، وحضر المجمع الذي انعقد بلاتران في أيام البابا أينو شنسوس الثالث. وقال نيرون الباني في مقاله المذكورة صفحة ١٠١ انه عندما صيّر بطريكاً مضى إلى رومة أغراه بذلك أمير جبيل، وترك المطران توادورس من كفرنو (بجبة بشري) نائباً له في البطريكية ليتمسّ علاجاً للشؤون التي كانت في أيام سالفه. وهذا يظهر أيضاً من براءة البابا أينو شنسوس الثالث حيث يقول إنه شهد المجمع اللاتراني. ولما بلغ إلى رومة خرّ على قدمي البابا وكلمه متذللاً وسأله بركته له ولشعبه، فعزاه البابا وأجابه إلى كل ما سأله، وبقي هناك مسروراً خمس سنين وستة أشهر. وروى ابن القلاعي والبطريك أسطفان الدويهي أنّ البطريك أرميا كان يوماً يقدس بحضرة البابا، ولما انتهى إلى رفع القربان رفعه وبقي معلقاً فوق رأسه. فعظم البابا قداسته وأمر بنقش صورة هذه الآية على جدار الكنيسة. قال الدويهي بقيت هذه الصورة إلى أيامنا في كنيسة القديس بطرس القديمة، وبعد أن فرغ أرميا من مهامه برومة سأل البابا أن يرخص له بالعود إلى بلاده فخرج من رومة مبتهجاً طيب القلب، لأنّ البابا نوّله سلطان طلبه وأرسل معه الكردينال غوليلمس مفوضاً إليه أن يأخذ من شعب لبنان دستور اعترافهم بالإيمان، وكان خروج أرميا من رومة في ٣ كانون الثاني سنة ١٢١٥م. (قال لكويان في حسابنا سنة ١٢١٦م لأنّ المجمع اللاتراني عقد سنة ١٢١٥م وهو سافر في ٣ كانون

الآخر) وبلغ إلى طرابلس في شهر آذار، ولما علم المطران توادورس نائبه بخبر قدومه جمع جمعاً غفيراً من الموارنة ولم يبدوا شعائر سرورهم إلا بعدما بلغهم البطريرك بركة الحبر الروماني وأنشأوا صكاً أثبتوا به إيمانهم وأختامهم أنهم متشبثون بإيمان بطرس لا يزوغون عنه وسلموا ذلك الصك إلى الكردينال غويللمس وكان عدد من وقّعوا عليه مائتين وسبعين رجلاً. وفي جدول بطاركة الموارنة الذي وضعه البطريرك الدويهي أنّ أرميا توفي سنة ١٢٣٠م في دير السيدة بميفوق. انتهت رواية لكويان.

وعندي في وفاة البطريرك أرميا سنة ١٢٣٠م نظر من قبيل أنّه كان صير بطريركاً سنة ١١٨٣م وهذا ثابت بخط أرميا نفسه، فيكون استمرّ بطريركاً سبعاً وأربعين سنة وهذا يصعب القطع به ولهذا أرى صيرورته بطريركاً سنة ١١٨٣م أثبت من أنّ وفاته كانت سنة ١٢٣٠م. لأنّ الأوّل مسنود إلى خط يده وأما الثاني فلا سند له كهذا ويضاده طول مدّة بطريركيته والله أعلم. وقد اتّحف البابا اينوشنسيوس البطريرك أرميا بتاج وعكاز وغيرهما من الملابس البيعية، وأخذ قدمائهما منذ ذلك الحين يقتربون من عادات اللاتينية في الملابس الكهنوتية وغيرها كما حقق السمعاني في المجلّد الرابع من مكتبة الناموس.

عد ٣٣

ما نعرفه من أديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر

لا نقصد أن نتكلّم عن أديار الموارنة وكنائسهم القديمة مستندي إلى قدمها بهيئة بنائها، فهذا يستلزم معاينتها ولا حظ لنا في ذلك. ويقتضي علم الآثار القديمة ولا خبرة لنا فيه فكلامنا مقصور على ما ورد له منها ذكر في التواريخ.

فأوّل أديار الموارنة الدير الذي بناه أهل حماة على ضريح القديس مارون بين حماه وحمص على العاصي وسمي دير البلور لحسن بنائه وكثرة الرهبان فيه حتى كان به ثمانماية راهب، وكان أوّل الأديرة في سورية الثانية كما يظهر من توقيع رئيسه على العريضة التي رفعت إلى البابا هرمزدا وعلى غيرها من العرائض المعلقة في ذيل أعمال الجمع الخامس، وقد دكّ هذا الدير الملك أنسطاس وقتل من رهبانه ثلاثماية وخمسين راهباً لسبب مدافعتهم عن رسوم الجمع الحلكيدوني المقدّس، ثمّ

تاريخه (صفحة ١١٣) ولم يزل موجوداً وهو **جمع الكنا من قبل الحلال**
حدها لا سقياها **لا سقياها** **لا سقياها** **لا سقياها** **لا سقياها**
لا سقياها **لا سقياها** **لا سقياها** **لا سقياها** **لا سقياها**

لما سقياها **لما سقياها** **لما سقياها** **لما سقياها** **لما سقياها**
في سنة ١٥٨٨ من سني اليونان (وهي سنة ١٢٧٧م) كمل بناء هذا الهيكل على اسم
والدة الله صلاتها معنا على يد أناس خطأة: داود القس ومرقس ويوحنا». وفي وسط هذا
الخط صليب كتب حوله بك نقهر أعداءنا وباسمك نذل مبغضينا. والذي رواه الدويهي
من هذا الخط نرى فيه كلمة **لا سقياها** بدلاً من كلمته **لا سقياها** أي كمل هذا
الهيكل المنسوب إلى يعقوب أحد البطارقة وهو الثالث من البطارقة الأربعة
المذكورين بالخط الأول، وقد ترك بطاركتنا السكنى بهذا الدير ثم عادوا إليه فاستقرّ
به البطارقة يعقوب ودانيال الحديشي ولوقا البهراني وشمعون ويوحنا وجبرائيل من
حجولا الذي توفي شهيداً سنة ١٢٦٧م.

والخامس دير القديس الياس في لحفد من عمل جليل استقرّ فيه البطريرك يوحنا
اللحفدي خليفة البطريرك يعقوب الراماتي وقد مرّ في كلامنا على البطريرك يوحنا
المذكور أنّه كان في لحفد أربعة أديار أخرى: دير القديس حوشب، ودير القديس
سمعان، ودير القديس اليشاع، ودير السيدة العذراء. أقام بها أربعة أساقفة على ما
في الرواية المذكورة.

والسادس دير السيدة العذراء في هاييل أنشأه البطريرك يوحنا اللحفدي بعد أن
انتقل من لحفد إلى هاييل في أواسط القرن الثاني عشر.

والسابع دير القديس أنطونيوس المعروف بدير قزحيا ويظهر أنّ هذا الدير قديم
جداً لأنّه جاء في براءة البابا أينوشنسيوس الثالث إلى البطريرك أرميا في سنة
١٢١٥م ذكر دير قزحيا بمنزلة أوّل كرسي لأساقفة الموارنة، لأنّه عند تعداده كراسي
الأساقفة الخاضعين لبطريركيته ذكر دير قزحيا أولاً. وكان بعض علمائنا لترجمتهم
كلام هذا البابا عن اللغات الأجنبية تصحف عليهم قزحيا بمار اسيا وتبعناهم على
ذلك عند ذكر كلام هذا البابا في بعض كتبنا إلّا أنّ العلامة السمعاني يسميه في
كتاب الجمع اللبناني باللاتينية HASSAYA فانتبهنا إلى أنّ المراد قزحيا.

وقد علق البطريك بطرس وهو يوحنا اللحفدي على كتاب الأناجيل القديم الخط الذي ذكرناه في كلامنا في العدد السالف على هذا البطريك منبأ بأنه حضر إليه سنة ١١٥٤م الراهب أشعيا من دير قزحيا ورأسه على دير الكوزبند في قبرص. الثامن دير القديس يوحنا في كوزبند بقبرص فهذا الدير قد جاء ذكره في عدة خطوط منها خط الراهب سمعان المعلق على الكتاب السابع من الكتب التي نقلها السمعاني من المشرق إلى المكتبة الواتيكانية مبيئاً فيه أنّ البطريك بطرس الذي كان سنة ١١٢١م جعله رئيساً وناظراً على دير القديس يوحنا في كوزبند، وقد ذكرنا هذا الخط بحروفه عند كلامنا على البطريك المذكور. ومنها الخط الذي علّقه البطريك يعقوب الراماتي على أحد كتب السروجي وفحواه أنّه قد رأس دانيال راهب دير كفتون على دير القديس يوحنا بكوزبند سنة ١١٤١م وقد ذكرنا هذا الخط أيضاً بحروفه في كلامنا على البطريك المذكور. ومنها الخط الذي ذكرناه آنفاً المؤذن بتسمية البطريك يوحنا اللحفدي أشعيا راهب دير قزحيا رئيساً على دير كوزبند.

ومنها خط في القرن الثالث عشر علّقه البطريك يوحنا الجاجي على كتاب الأناجيل المذكور بالسريانية وهذه ترجمته: «لما كانت سنة ١٥٥٠ يونانية (توافق سنة ١٢٣٩م) أنا بطرس بطريك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي والمسمى يوحنا من قرية جاج والساكن بالدير المبارك دير السيدة مريم بميفوق أتى إليّ من دير الكوزبند القس المسمى متى وهو كاهن تقي بتول وأخذ مني ثلاث مئة دينار وحققاً للميرون للدير المذكور وأخذ معه كتاب التوراة لموسى بالعربية وكتاب الناموس وكتاب الإيمان ولله المجد آمين».

التاسع دير كفتون وقد جاء ذكره في ما خطته يد البطريك أرميا العمشيتي على كتاب الأناجيل المذكور مراراً، قال إنّ البطريك بطرس رماه إلى الأسقفية على هذا الدير وأنّ رهبانه حينئذ كانوا اثنين وثلاثين راهباً وفي الخط الذي علّقه البطريك يعقوب الراماتي المؤذن بأنه رأس دانيال راهب دير كفتون على دير كوزبند وهذا الدير للموارنة انتقل في ما بعد إلى يد الروم الملكيين غير الكاثوليكين كما سوف ترى.

وجاء في الكتاب المذكور أيضاً صفحة ٩٨ بسم الله الحي قد وقفت اشمونة

ابنة الياس على دير القديس سرقيس الكرم الذي لها عند العين ليخولها الله خلاص نفسها وصحة جسدها وكان هذا الوقف سنة ١٤٠٩ يونانية (توافق سنة ١١٩٨م) يوم عيد القديس سرقيس ونشهد بذلك نحن الكهنة تادي وجيورجيوس وبولس.

الحادي عشر كنيسة القديسين نهرا وباسيليوس في سمار جبيل قال المطران أسطفان عواد السمعاني في كتابه المذكور أنّ كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا التي تسميها العامة ماري نوهرا والتي يكرّمها من أقدم الأيّام الموارنة بل الهراطقة والمشاؤون وغير المؤمنين أيضاً وهي في أبرشية جبيل (تحسب الآن من عمل البترون) حذاء القلعة الحصينة التي بناها حكام طرابلس من اللاتينيين في القرن الثاني عشر للذب عن هذه الناحية من غارات المسلمين، واطلالها الباقية إلى الآن دالة على عظمتها وقد اعتاد المؤمنون بل غير المؤمنين أيضاً أن يقدّموا البخور والشموع وغيرها من التقدّم لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بجانب هذه القلعة توسلاً بشفاعة هذين القديسين. وذكر من الخطوط المعلقة على كتاب الأناجيل الثاني المذكور خطأً علق على الصفحة الأولى منه بالسريانية هذه ترجمته «بسم علة كل مخلوق في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩م) أقتسم بنو الخوري اقليمس خدمة كنيسة القديسين باسيليوس ونهرا بينهم مشاهرة، فأصاب برصوما كانون وكانون وحزيران وتموز وأصحاب أخويه سليمان وفيلبس الثمانية الأشهر الباقية». وخطاً آخر علق على صفحة ٤ بالسريانية وهذه ترجمته: «بسم الله الحي في سنة ١٥٨٠ يونانية (توافق سنة ١٢٦٩م) قد وقف الشماس يوسف لكنيسة القديسين باسيليوس ونهرا جميع متروكات امرأته المتوفاة». وخطاً علق على صفحة ٩ بالعربية الا البسملة وهذا هو **بسم الله الحي** (بسم الله الحي) في سنة ألف وسبعماية كذا كتبت ولكن ترجمها المطران أسطفان المذكور سنة ١٥٦٥ لأنه وفقها إلى سنة ١٢٤٥م) وخمسة وستين يونانية سليمان ابن توما من حردو (لعلها حردين) أوهب لكنيسة مار باسيليوس ومار نهرا حققتي زيتون بقرب قرية بشري عن نفسه ونفس أخيه من يستخلصها يكون حظه مع يوضاس الاسخريوطي». فهذه الخطوط مؤرخة في القرن الثالث عشر لكنّها مشعرة بأنّ هذه الكنيسة أقدم من ذلك العصر. الثاني عشر كنيسة القديس ادنه في العاقورة فقد ورد مرات ذكر المطران أرسانيوس أسقف العاقورة الجالس في دير القديس ادنه في العاقورة، واطلال هذه الكنيسة ما زالت في العاقورة وتعرف بهذا الاسم الآن. وجاء في تاريخ سنة ١٢١١م من تاريخ البطريرك أسطفانس الدويهي: «في هذا الزمان أخذ أبناء ملتنا

بلبنان يقرعون نواقيس من نحاس بدل الخشب للصلاة والقداس، وفاضت نعم الله بين أيديهم فأنشأوا كنائس وأدياراً ومدارس يقصدها الناس لخدمة الله وخلاص نفوسهم. وكان للخوري باسيل من بشري ثلاث بنات أسماهن تقلا وصالومي ومريم نذرَ الله عذريتهن وأنفقن جميع ما يملكنَ في بناء الكنائس وتجهيزها، فبنت تقلا في هذه السنة كنيسة القديس جيورجيوس والقديس دومط في بقرقاشا، وكنيستين للقديس لابي الرسول والقديس سرجيوس الشهيد في بشنين بالزاوية. وفي سنة ١١١٣م رقدت بالرب. وبُنيت أختها مريم كنيسة القديس سابا في بشري وأختها صالومي كنيسة القديس دانيال في الحدث».

وأما دير قنوين فهو أقدم من هذه الكنائس، إذ يقال أنَّ الملك توادوسيوس أمر ببنائه. وفي رواية أنَّ توادوسيوس الذي بناه ليس هو الملك بل سائح يسمى توادوسيوس نسل في المغارة التي هناك وبنى شيئاً حولها، وسوف نتكلم عليه في ما بعد عندما نذكر نقل الكرسي البطريركي إليه في أواسط القرن الخامس عشر ان قدّرنا الله على إيصال تاريخنا إلى ذلك القرن.

عد ٣٤

تفنيد زعم غوليلمس الصوري أنَّ الموارنة ارعوا عن الضلال

سنة ١١٨٢م

روى غوليلمس أسقف صور اللاتيني في كتابه ٢٢ في الحرب فصل ٨ ما ترجمته: «لما استراحت المملكة (مملكة أورشليم) من حرب صلاح الدين سرّت سروراً موقوتاً في أنَّ ملّة من السريان تسكن في عمل من فينيقيا في سفح لبنان قريب من جبيل طراً عليها تغير مهم لأنّهم بعد أن كانوا اتبعوا مدة خمسمائة سنة ضلال مارون المبتدع وتسموا موارنة نسبة إليه، وكانوا يتممون أسرارهم منفصلين عن جماعة المؤمنين استفاقوا بالهام الله وهبوا من تقاعدهم واهلوا إلى ايميريكس بطريرك أنطاكية اللاتيني وهو الثالث من البطاركة اللاتين الذين تراسلوا هذه الكنيسة وارعوا عن الضلال الذي كانوا متسكّعين به ورجعوا إلى وحدة الكنيسة الكاثوليكية واعتنقوا الإيمان القويم، وحافظوا على تقليدات الكنيسة الرومانية بكل

احترام واجلال، ولم يكن عدد هذا الشعب يسيراً بل كان يقال أنّهم يجاوزون الأربعين ألفاً منتشرين في أسقفيات جبيل والبترون وطرابلس وسفح لبنان، وهذا الجبل كما مرّ. وكانوا رجالاً أشداء مدربين بالحروب وكانوا نافعين لنا جداً في مهامنا الخطيرة، وفي اغاراتهم المتواترة على الأعداء. ولهذا سرّ قومنا كلّ السرور برجوعهم إلى الإيمان القويم وأمّا ضلال مارون واتباعه فهو أنّه كان في ربنا يسوع المسيح مشيئة واحدة وفعل واحد كما يظهر من المجمع السادس أنّه عقد لنبد ضلالهم والذي حكم عليهم بالحرّم، وزادوا على هذا المعتقد المزدول من الكنيسة الأرثوذكسية أشياء أخرى مضرة بعد أن انفصلوا من جماعة المؤمنين، ولما ندموا على هذه الأشياء جميعها كما قدمنا ارعوا إلى الكنيسة الكاثوليكية مع بطريركهم وبعض أساقفتهم الذين كما تقدّموهم بالضلال تقدّموهم بالعود التقوي إلى الاقرار بالحقيقة. انتهى مترجماً بكل دقة عما رواه بارونيوس في تاريخ سنة ١١٨٢م بحروفه اللاتينية من كلام غوليلمس الصوري.

إنّ كلام غوليلمس هذا يتضمّن أمرين: الأوّل اخباره عن تسكّع الموارنة خمس مئة سنة في الضلال تبعاً لمارون المبتدع وانعقاد المجمع السادس لنبد ضلالهم وحرمة لهم. والثاني خبره عن ارجاعهم على يد ايميريكس بطريرك أنطاكية. فالأوّل كاذب بجملته والثاني صادق في بعض الموارنة لا كلّهم وهاك البيان الأوّل ان غوليلمس يقول أنّ المجمع السادس عقد ضد الموارنة (كما هي حرفية العبارة) وانه حرّمهم. فراهن كل من شاء على أن يبين لنا كلمة أو إشارة في النص اليوناني لهذا المجمع أو في ترجمته اللاتينية القديمة تشعر بأنّ هذا المجمع عقد ضد الموارنة أو بأنّه حرّمهم. فان ابانها سلمنا طائعين بكّلما يتهمنا به خصومنا من هذا القبيل وان استحال عليه أن يجد مثل هذه الكلمة أو الإشارة فليتكف عن ثلبنا، ويوقن غوليلمس اغتر باعتماده على تاريخ سعيد بن البطريق الذي جعل البابا أنوريوس والملك هرقل وسرجيوس وبيرس وبولس وبطرس بطاركة قسطنطينية وقورش بطريرك اسكندرية جميعاً موارنة وهو أمر مضحك يسخر منه كل عالم، وانكره على ابن البطريق كل محقق حتى بوكوك أوّل من ترجم تاريخه وسلدانس الذي طبعه.

إنّ زعم غوليلمس أنّ الموارنة اتّبعوا ضلال مارون المبتدع وتسكّعوا به خمس مئة سنة لا اس له إلّا خرافة سعيد بن البطريق، وقد ذكرناها مراراً ولا بدّ الآن من مراجعة خلاصتها: «كان في عصر موريق ملك الروم راهب اسمه مارون كان يقول

إنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً ولما مات بنى له سكان حماه ديراً واتبعوا اعتقاده سموا موارنة». وقد أقرّ غوليلمس نفسه أنّه اعتمد على شهادة سعيد بن البطريق إذ صرّح في مقدّمة كتاب تاريخه أنّ أموري ملك أورشليم دفع إليه بعض كتب عربية في جملتها تاريخ سعيد المذكور واقترح عليه كتب تاريخ فاعتمد خاصة على تاريخ الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريرك الاسكندري. وقد أشار إلى ذلك البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره الآتي ذكره بقوله: «إنّ شهادة غوليلمس ليست بكافية لتأييد الرأي المضاد للموارنة. ولربّما عرف غوليلمس نفسه ضعف قوله ولذلك عزاه إلى المجلّد الثاني من تاريخ سعيد الاسكندري». وأما كون حكاية سعيد هذه هي التي اعتمد عليها غوليلمس من الترهات البسباس فقد أجاد ببيانه العلامة البابا بناديكتس الرابع عشر في منشوره لإثبات قداسة القديس مارون الذي أثبتنا ترجمته في عدد ٧١١، أورد هذا البابا الجهد أدلة على ذلك يستحيل نقضها منها أنّ القديس مارون كان في آخر القرن الرابع وأوّل القرن الخامس، وبدعة المشيئة الواحدة لم تظهر إلّا في القرن السابع فبينه وبين ظهورها قرنان فمن المحال أن يكون مارون ابتدعها ومنها أنّ دير القديس مارون الذي روى ابن البطريق أنّ سكان حماه بنوه على اسمه كان قبل ظهور هذه البدعة بقرنين أيضاً إذ كان ديراً مشهوراً برهبانه الأفاضل من القرنين الخامس والسادس، كما يظهر من رسائلهم إلى البابا هرمزدا وغيره المعلقة في ذيل الجمع الخامس. ولما دك هذا الدير أنسطاس الملك جدّد بناه الملك يوستنيانس الأوّل الذي توفي سنة ٥٦٥م كما حقق بروكويوس القيصري في الكتاب الخامس في ابنية يوستنيانس. وهذا المؤرّخ كان من رجال ذولة يوستنيانس المذكور وعليه فمن شاء أن يكابر مدعيّاً صحّة شهادة غوليلمس المؤسسة على شهادة ابن البطريق فليرد ولو هذين الدليلين أوردتهما البابا بناديكتس أو يثبت أنّ غوليلمس اعتمد على غير سعيد في زعمه هذا عن الموارنة فنسلم طائعين.

بقي أن يقال أنّ مارون الذي ذكره ابن البطريق وانتحل غوليلمس قوله ليس مارون الرئيس بل يوحنا مارون البطريرك الذي كان في القرن السابع. فنجيب أنّ هذا الزعم أيضاً باطل بل محال لأنّ يوحنا مارون لم يكن في أيام موريق ولا بنى أهل حماه على اسمه ديراً كما قال ابن البطريق، بل صيّر أسقفاً على البترون سنة ٦٧٥م أو سنة ٦٧٦م وبطريقاً سنة ٦٨٥م وتوفي سنة ٧٠٧م. فاشتهر في عصر الملك قسطنطين اللحياني ويوستنيانس الثاني الأخرم لا في عصر موريق الذي كان

في آخر القرن السادس. وقد صرح البابا بناديكتس الرابع عشر في خطبته بكرادلة الكنيسة الرومانية في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م أنّ الموارنة إنّما انتخبوا بطريركاً خاصاً عليهم وهو يوحنا مارون ليقوا نفوسهم من بدعة المشيئة الواحدة، فما الذي يبقى من القوة لزعم غوليلمس أو غيره من خصومنا أنّ يوحنا مارون ابتدع هذه البدعة فضلاً عن الاجتماع على أنّ يوحنا مارون توفي سنة ٧٠٧م، وأنّ ظهور بدعة المشيئة الواحدة كان سنة ٦٢٨م. فلو فرضنا أنّه عاش ثمانين سنة لكان مولده سنة ٦٢٧م فكيف يبتدع بدعة وعمره سنة أو ستان. وإن قيل تبع هذه البدعة بدءاً فلم لا نجد اسمه بين من حرمهم المجمع السادس وغوليلمس يزعم أنّ المجمع السادس عقد ضدّ الموارنة وحرّمهم، ولا يستطيع هو أو غيره أياً كان أن يحجنا بكلمة أو إشارة من النص اليوناني لهذا المجمع أو من ترجمته اللاتينية يتبيّن بها اسم مارون أو الموارنة مع أنّ هذا المجمع عدّد أسماء كل منشئي هذه البدعة ومن شايهم عليها فلم صمت عن مارون أو يوحنا مارون أو الموارنة؟

إنّ كلّ ما أوردناه في المجلّد الخامس لاثبات براءة المارونيين والموارنة من هذه البدعة من شهادات الأحرار الأعظمين وكردالة الكنيسة الرومانية وقصاها والعلماء المحققين والأدلة القاطعة على ثبوت الموارنة في الإيمان الكاثوليكي منذ ظهور هذه البدعة إلى سنة ١١٨٢م كل ذلك يصلح أن يكون برهاناً قاطعاً على بطلان زعم غوليلمس أنّ الموارنة تشبّثوا ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة وارعوا عنها سنة ١١٨٢م.

وقد فتّد هذه التهمة كثيرون من العلماء المغريين والمشرقيين وزيفها من علمائنا كثيرون نخصّ بالذكر منهم البطريرك أسطفانس الدويهي في تاريخه، وفي كتابه ردّ التهم، والعلامة السمعاني في مواضع كثيرة من المكتبة المشرقية ومن مكتبة الناموس وغيرهما من كتبه، والمطران أسطفانس عواد السمعاني في محاماته عن القديس يوحنا مارون وفي كتابه فهرست الكتب المشرقية في المكتبة الماديشية، والبطريرك يوسف أسطفان في محاماته عن قداسة القديس يوحنا مارون والخوري أنطون القيارة في ردّه رسالة القس يوحنا عجيّم والبطريرك بولس مسعد في كتابه «الدر المنظوم» وأنا أحقر هؤلاء العلماء الذي لا أستحق أن أذكر في عديدهم في كتابي «روح الردود» وفي كتيب رفعته في السنة السالفة إلى علماء مجتمع الآثار القديمة الذي التأم برومة سنة ١٩٠٠م وسأذكر شهادة بعض مشاهير المؤرخين اللاتينيين.

وأما القسم الثاني من شهادة غوليلمس الصوري وهو ما رواه عن ارتداد الموارنة على يد ايميريكوس بطريك أنطاكية اللاتيني فلا نجد صدقه على فريق من الموارنة فقد رأيت ما ذكرناه في الكلام على بطاركة طائفتنا في هذا القرن عدد ٨٥٨ عن انخداع فريق من الموارنة لمقالة توما أسقف كفرطاب وبث بعد وفاته ابن شعبان وابن حشاش ضلاله بين الموارنة حتى أطغوا سكان بعض القرى منهم أهل كفرناشيت وجنح البطريك نفسه إلى ضلالهم فنهض لمقاومته باقي رؤساء الملة وأعيانها والسواد الأعظم من شعبها، وحملتهم الحمية والغيرة الدينية على حطه عن مقامه وإقامة بطريك آخر صحيح المعتقد فلم يكن من الأغرار المغوين بالضلال إلا أنهم جسروا على قتل البطريك الحديث، فعظم الأمر على الأكثرين المشبتهين بالإيمان القويم وعزموا أن يهلكوا أولئك الشاذين عن آخرهم، فتدارك أمرهم ايميريكوس بطريك أنطاكية اللاتيني وأرشد أولئك الضالين فارتدوا إلى محبة الدين القويم، وصالحهم مع اخوانهم وأدخلهم في طاعة رؤسائهم، فانخبوا متفقين بطريكاً عوضاً عن البطريك المقتول. وكل منصف يرى أن التهمة بالضلال والارتداد عنه لا تصدق في هذا الحادث إلا على ذلك الفريق القليل ولا تمس شأن الطائفة بجملتها، ولا يصدق عليها أتباع الضلال والرجوع عنه. فجنوح بطريك إلى ضلال وقتل بعض الأغرار المتحمسين للضلال بطريكاً من الكبائر الفظيعة، لكنّها من الأعمال الفردية المقصورة على فاعليها ولا تتعدى إلى الملة كلها ونهوض باقي رؤسائها وأعيانها وشعبها على البطريك المغتر وحطّه عن مقامه بينة دامغة على براءة ساحة الملة بجملتها من شائبة الضلال، بل دليل قاطع على تشبه المتين بعروة الإيمان القويم. ونجتريء بأن نورد إثباتاً لكل ما جئنا به في هذا الفصل شهادات باجيوس ولكويان وهما من كبار المؤرخين المدققين فالعلامة باجيوس انتقد تاريخ الكردينال بارونيوس امام المؤرخين ونقحه سنة فسنة. ولما كان بارونيوس ذكر رواية غوليلمس عن ارتداد الموارنة في تاريخ سنة ١١٨٢م الحق باجيوس بكلامه انتقاداً وتنقيحاً هذا ملخصه: «عدد ١٠ غلط غوليلمس الصوري في كل ما رواه عن ارتداد الموارنة ابنا في عد ٤ كم انخدع غوليلمس الصوري وما أشد بغضه للفرسان الأورشليميين إذ كتب أنهم كانوا قبلاً ينتمون إلى حماية القديس يوحنا الرحوم ولما ازداد مالهم استبدلوه بالقديس يوحنا المعمدان. ونبين هنا كم أخطأ بنسبته بدعة المشيئة الواحدة إلى ملة الموارنة بجملتها. وقد ذكر بارونيوس كلامه بجملته فاكتفي أنا بإيراد

ملخصه». ولخصه إلى أن قال: «عد ١١ إن غوليلمس الصوري اعتمد على حكايات كاذبة لا شك في أن الصوري انتحل في كتابة تاريخه أشياء كثيرة من تواريخ سعيد البطريك الاسكندري، وهذا لم يكن مدققاً في تواريخه بل أدخل بها حكايات كثيرة وروى أموراً تخالف رأي المؤلفين، وهي عن الصدق بمراحل. وقد صرح غوليلمس نفسه في مقدمة كتابه بان أموري ملك أورشليم دفع إليّ كتاباً عربية فكتبت تاريخاً آخر يتدئ من ظهور الاسلام إلى هذه السنة التي هي سنة ١١٨٤ للميلاد فينطوي على تاريخ خمس مئة وسبعين سنة وقد تبعت خاصة الرجل المحترم سعيد بن البطريق البطريك الاسكندري»... فتاريخ الصوري هذا لم يصل إلينا وما بقي منه في تاريخ الحرب المقدسة قال هو فيه: «لم يكن لدي في هذا القسم ما يرشدني إليه من الكتب اليونانية أو العربية فاعتمدت فيه على التقليدات وحدها إلا شيئاً يسيراً كونه فيه شاهداً عيانياً ونظمت سلسلة أخباره». على أن التقليدات التي اتبعها كانت غالباً غير صحيحة، ومما لا ريب أنه اعتمد في أكثرها على حكايات سعيد المذكور عن أصله العربي. فقال: «كان في أيام موريق راهب اسمه مارون» إلى آخر كلامه المعروف الذي رواه باجيوس هنا إلى أن قال: «عدد ١٢ أن تاريخ سعيد مشحون بالأقاصيص لأن بدعة المشيئة الواحدة لم تظهر في أيام موريق هذا ولا في عصر فوقاً خليفته بل في أيام هرقل، وهذا يعلمه جميعهم والدير الذي ذكره سعيد لم يكن بعد وفاة مارون هذا (أي يوحنا مارون) بل كان قبله بنحو مائتي سنة وكان مكرساً على اسم القديس مارون الرئيس. وقد استدلل نيرون على هذا بشهادة بروكوبيوس القيصري في الكتاب الخامس من ابنية يوستينانس حيث قال: «جدد واصلح فندق الفقراء على اسم القديس رومانس ودير القديس مارون فوق حماه». ومما لا يُمتري فيه أن يوستينانس توفي سنة ٥٦٥م وموريق تسلم منصبة الملك سنة ٥٨٣م وتوفي سنة ٦٠٢م فتجديد بناء الدير في أيام يوستينانس يستلزم أن يكون حينئذ قديماً جداً. وتؤيد ذلك أعمال المجمع الخامس المسكوني الذي عقد سنة ٥٥٢م في عصر يوستينانس المذكور إذ شهد هذا المجمع قصاد دير القديس مارون الذي كان طائر الشهرة، وكان أول جميع أديار سورية الثانية ورئيسها، وهذا يبين أيضاً من توقيع سفراء هذا الدير على أعمال المجمع المذكور. وقد أثبت أن مارون هذا (أي يوحنا مارون) كان راهباً في الدير المذكور نفسه وكان اسمه يوحنا فزاد عليه مارون آخذاً إياه من اسم دير القديس مارون

الرئيس. وقد استوفينا رد هذه الحكاية بأسهاب في تاريخ سنة ٦٣٥م» (نكتفي برده هنا عن رده في تاريخ السنة المذكور لتلاً يملّ القارئ): «عدد ١٣ إنّ بعض الموارنة زاغوا عن الإيمان». بقي لنا هنا أن نفند ما رواه بارونيوس عن الصوري من أنّ ملّة الموارنة بجملتها ارتدّت إلى الإيمان الكاثوليكي فلا ريب في أنّ المشيعة الواحدة انسربت في جبل لبنان واتّصل السم إلى البطريرك نفسه كما روينا في تاريخ سنة ١١٠٩م، وكان انسرابها في نحو أوائل هذا القرن بواسطة توما الحاراني أسقف كفرطاب كما قلنا في المحل المذكور.

«عدد ١٤ وفي هذه السنة ١١٨٢م أوقع أييريكس البطريرك الأنطاكي الصلح في كنيسة الموارنة، أنّ الموارنة بعد ذلك وبعد ما ذكرناه في تاريخ سنة ١١٠٩م انتخبوا بطريركاً كاثوليكياً فقتله الشاذون عن الإيمان وتوافرت الانقسامات والقلق بين الموارنة على انتخاب بطريرك كما روى نيرون، فتسارع أييريكس بطريرك أنطاكية اللاتيني وخمد جذوة حقهم ورد من أوجدوا الشقاق أو أتبعوه إلى الطاعة وحلّهم السلطان الحبر الروماني من الحرم الذي حلّ بهم لاقترافهم الجريمة الكبرى بقتل البطريرك واجتمعت كلمة الموارنة على انتخاب بطريرك حديث مشهور باستمساكه بالإيمان القويم». وأيد باجيوس كلامه بما جاء في مقالة نيرون من انقياد الموارنة بواسطة أييريكس وطلبه الحل لهم من الكرسي الرسولي وانتخابهم بطريركاً سكن في دير العذراء القديسة في هايل وحفظ كل ما في الإنجيل، وكان ضليعاً في تفسير الأسفار المقدسة وآلف ميامر كثيرة في الإيمان، ولم ينبذ إيمان مارون بل ثبت وتأيد إلى أن قال: «ومن ذلك ينتج نتجاً واضحاً أنّ الصوري لما علم أنّ الموارنة الذين اتبعوا شقاق توما الكفرطابي جمحدوا ضلاله على يد أييريكس وأقزوا بالإيمان الروماني هم والبطريرك بعد وقوع الصلح ظنّ أنّ الموارنة جميعاً كانوا متلوّثين ببدعة المشيعة الواحدة فنسب إلى كل الملة ما لا يصدق إلّا على فريق يسير منها ولا أهمية له فيها، وقد زاغ مدة فقط إلّا أن نقول أنّ الصوري انخدع بأخبار أحد من الذين ارتبكوا بشقاق توما الكفرطابي، ولكن لا معذرة البتة للصوري بزعمه أنّ المجمع السادس عقد ضدّ الموارنة وأنه حرّمهم، إذ لا كلمة واحدة في أعمال هذا المجمع تشير إلى ذلك.

عدد ١٥ قد أخطأ الصوري بنسبته إلى الملة جمعاء الضلال فكيف حقّ له أن يقول إنّ الموارنة تسكّعوا ببدعة المشيعة الواحدة خمس مئة سنة وأسقفهم داود الذي

كان سنة ١٣٧٠ لاسكندر وهي سنة ١٠٥٩م ألف كتاباً جمع فيه قوانين الكنائس الشرقية كما يظهر من رسالة الانبا يوسف إليه في طلب هذا الكتاب. وقد أثبت الأسقف داود في الفصل الأول منه أنَّ الموارنة يعترفون بمشيئتين في المسيح إذ قال: «إنَّ الروم يتفقون مع الموارنة بالاقرار بالمشيئتين والموارنة يعترفون بالمشيئتين تبعاً للطبيعتين الإلهية البشرية». فكيف يزعم الصوري أنَّهم كانوا ملوثين ببدعة المشيئة الواحدة خمس مئة سنة ولم يرفعوا عنها إلا سنة ١١٨٢م. أجل إنَّ بعض الموارنة سافر إلى قبرص حين انقسامهم وأطغى كثيرين ولكن لا ينتج من هذا إلا أنَّ كثيرين من الموارنة كانوا ضالين عن الإيمان الصحيح، على أنَّ هذا لا يوجب الضلال على الأمة جمعاء كما أنَّ كثيرين من الفرنسيين والجرمانيين تلوَّثوا بضلال كلوينوس ولا ينتج من ذلك أنَّ الأمتين ليستا كاثوليكيَّتين. وقد ندَّد بعضهم بالموارنة لأنَّه وجد في كتبهم ما يدل على بدعة ولاسيما بدعة الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة لكن هذا أدخله مكر اليعاقبة على كتب الموارنة، لأنَّه لما كانت الملتان تستعملان اللغة السريانية في صلواتهما فعني اليعاقبة بأن يدخلوا ضلالهم في كتب الموارنة محرفين لها أو زائدين عليها، وهذا ظاهرٌ مما كتبه بطرس بطريرك الموارنة إلى الكردينال أنطونيوس كارافا في ٢٥ آب سنة ١٥٨٣م، ورواه نيرون صفحة ٧٧ في مقالته المذكورة وهو: «قد كتب إليكم بعض الناس أنَّ في كتبنا بعض كلمات تخالف رأس الكنيسة المقدَّسة فنحن لا نقبل إلا ما تقبله الكنيسة المقدَّسة وما يوجد في بعض النسخ يمكن أن يكون أدخل على كتب الموارنة من كتب الملل المحدثه بنا من زمان مديد، فدع يا أخي جانباً كل شبهة باستقامة إيماننا فأساسنا ثابت منذ القديم على إيمان الكنيسة المقدَّسة الرسولية الرومانية، ولم نزع عن هذا الإيمان البتة ولا نكلمكم بفينا فقط بل بفمنا وقلبنا معاً والله الشاهد على ذلك». فصيح إذا أنَّ غوليلمس الصوري وكثيرين غيره من الحديثين الذين تساهلوا بتصديق أخباره عن ارتداد الموارنة قد انخدعوا انخداعاً كبيراً.

«انتهى كلام باجيوس وقد أوردناه مطولاً لما اشتمل عليه من الفوائد في هذا البحث.

وأما لكويان فقد ذكرنا شهادته في عدد ٨٥٨ فانه بعد أن ذكر ما كان بين الموارنة حينئذٍ وعناية أيميريكس بارتداد الزائغين عن الإيمان إلى محجته القويمة واذعانهم لارشاده والصلح بينهم قال: «لا ريب عندي في أنَّ هذا ما حمل

غوليلمس الصوري على ما كتبه من أنّ الموارنة كلّهم رجعوا عن الضلال سنة ١١٨٢م على يد أيميريكس البطريك الأنطاكي، مع أنّ هذا لا يصدّق على الملة كلّها بل على بعض أفرادها فقط». وكان قد قال في مقدّمة كلامه على الموارنة: «كما لم يعب فرنسة اتباع كثيرين من اكليسها وشعبها مذهب لوتاروس وكلونبوس هكذا لا يعيب الملة المارونية اتباع بعض أفرادها الضلال مدّة ما».

لأني أرى هذه الأدلّة التي أوردتها حتى الآن تجاوز حد الكفاية في دحض دعوى سعيد بن البطريق وغوليلمس أسقف صور على الموارنة الضلال الهم الله من يحسدوننا على نعمته وفضله أن ينصفونا ولا أقل من أن يجارونا في طريق الجدل المفروضة ولا يحجوننا في ما بعد بأقوال سعيد وغوليلمس قبل أن يردوا الأدلّة الواضحة والبيّنات القاطعة التي جئنا بها هنا وفي مواضع أخرى.

مقالة سادسة

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

عد ٣٥

فتح المسلمين جبة بشري

قال البطريك أسطفان الدويهي في تاريخ سنة ١٢٨٣م: «قد وقفنا على كتابين للصلاة كُتب أحدهما سنة ١٥٩٤ لاسكندر (الموافقة لسنة ١٢٨٣ للميلاد) في قطين الرواديف في أرض الحدث بقرب دير القديس يوحنا بدير مار ابون الذي كان الأسقف ابراهيم الحداثي مقيماً به. والثاني كتب بعد الأوّل بمئتين واحد وعشرين سنة أي سنة ١٨١٥ لاسكندر وهي سنة ١٥٠٤م، وقد كتب في كلا الكتابين أنّه في شهر أيار سارت العساكر الإسلامية إلى فتح جبة بشري وصعدت إلى وادي حيرونا شرقي طرابلس وحاصروا قرية إهدن حصاراً شديداً وملكوها بعد أربعين يوماً

في شهر حزيران وسلبوا ما وجدوا فيها وخربوا القلعة التي كانت في وسطها والحصن الذي على رأس الجبل (إنّ هناك الآن كنيسة تسمى سيدة الحصن) ثمّ انتقلوا إلى بقوفا ففتحوها في شهر تموز وقبضوا على أكابرها وأحرقوهم بالبيوت ودكوها إلى الأرض، وأكثروا من النهب والسلب وبعد أن أعملوا السيوف بأهل حصرون وكفرسارون وذبحوهم في الكنيسة زحفوا في ٢٢ آب إلى الحدث، فهرب أهلها إلى العاصي وهي مغارة فيها صهريج ماء فقتلوا من أدركوه وخربوا الحدث وبنوا برجاً قبالة المغارة وأبقوا حامية من العسكر. ثمّ هدموا جميع الأماكن الحصينة ولم يستطيعوا سبيلاً إلى فتح قلعة حوقا التي قبالة الحدث، فأشار عليهم ابن الصبحا من كفرسغاب أن يجروا إليها الماء الذي فوق بشري ففعلوا وملكوها بقوة الماء لأنّها كانت داخل الصخر، وأذنوا لابن الصبحا أن يلبس عمامة بيضاء، وأن تقوم العبيد بخدمته. ولما تراجع العسكر ندم ابن الصبحا على ما كان منه وبنى دير سيدة حوقا لسكن الرهبان وهو بالقرب من البرج الذي كان في الصخر». لا نشكّ في صحّة هذه الرواية لأنّ الدويهي خير ثقة، وقد صرّح بأنّه نقلها عن كتاب خط تلك السنة أي سنة ١٢٨٣م التي كانت فيها هذه النكبة فيظنّ أنّ الأسقف ابراهيم الحداثي الذي كان يسكن دير مار ابون هو الذي كتب خبر هذه الحادثة باثر وقوعها على كتاب الصلوة طبق عادة أسلافنا التي نعلم لها أمثالاً كثيرة ويؤيد ذلك تفصيل الخبر وتعيين الأماكن على ما نعلمها الآن مع الأيّام التي فتحت بها كل قرية. وقد جاء في كتاب الغرر الحسان خبر هذه الواقعة كما ذكرناه إلّا بناء ابن الصبحا دير حوقا، ولم يأت ذكر بشري في هذا الفتح مع أنّها واقعة بين بقوفا وحصرون، فلا يخلو إهمال ذكرها من أحد أمرين: إمّا أنّها لم تكن ذات أهمية حينئذٍ، إمّا أنّ المسلمين نكبوا عنها لأنّها كانت منيعة كثيرة السكان. والأظهر عندنا الثاني لأننا نعلم أنّها كانت قبل هذه النكبة وبعدها مأهولة بخلق كثير وينسب العمل كلّه إليها وكان فيها مقدّمون أصحاب بطش وصولاً كما ستري، فالأولى أن نقول أنّ المسلمين نكبوا حينئذٍ عنها على أنّ فتح هذه البلاد حينئذٍ لم يكن إلّا غزوة عابرة على عادة تلك الأيّام ولم يتوطّن المسلمون فيها بل قصدوا التنكيل بأهلها ربّما لأنّهم نجدوا الفرّج في حروب المسلمين الأخيرة لهم كما يظهر من أخبار حربهم الآتي ذكرها مع أهل كسروان ونرى بقوفا واهدن والحدث بعد مدّة وجيزة عامرة مأهولة بالنصارى الموارنة.

الحرب الأولى كانت في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر نروي أخبار هذه الحروب عن المؤرخين المسلمين أولاً ثم نردفها بأخبار المؤرخين النصاري جاء في كتاب تاريخ بيروت لصالح بن يحيى الذي نشره الأب لويس شيخو اليسوعي في المجلة العربية الموسومة بـ«المشرق» قال صالح: «في شهر شعبان سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢م توجه الأمير بيدرا (من مماليك الملك المنصور قلاوون) قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه بصحبته من الأمراء الأكابر شمس الدين سنقر الأشقر والأمير قراسنقر المنصوري، والأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي، والأمير بدر الدين العلائي. وأتاهم من جهة السانحل ركن الدين بيبرس طقصوا، والأمير عز الدين ابيك الحموي وغيرهما، والتقوا بالجبل وحضر إلى الأمير بيدرا من ثنى عزمه وكسر حزمه فحصل الفتور في أمرهم حتى تمكن الكسروانيون في بعض العسكر في تلك الأوعار ومضايق الجبال، فنالوا منهم وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم أهل تلك الجبال حتى اضطّر الأمير بيدرا أن يطيب قلوبهم ويحسن إليهم. وخلع على جماعة من أكابرهم فاشتطوا في الطلب فأجابهم إلى ما التمسوه من الإفراج عن جماعة منهم كانوا قد اعتقلوا بدمشق لذنوب وجرائم صدرت منهم، وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابانهم، وحصل للأمراء والعسكر من الآلام ما أوجب تسريح بعضهم لسوء تدبير الأمير بيدرا، ونسبوه إلى إهمال أمرهم واتهموه بالفتور عن قتالهم حتى تمكنوا مما تمكنوا منه لطمعه وأشاعوا أنه تبرطل منهم وأخذ رشوة كبيرة واحتج الناس بذلك». هذا ما قاله صالح بن يحيى وذيله الأب شيخو بحاشية قال فيها: «ورد خبر غزوة الأمير بيدرا لكسروان في تاريخ المماليك للمقريزي وتفاصيله لا تختلف عما ذكره المؤلف هنا».

وقال صالح المذكور بعد ما مرّ: «ثم توجه الأمير بيدرا بالعساكر إلى دمشق فتلقاه السلطان وأقبل عليه وترجل عند ترجله للسلام عليه، ولما أنكر عليه سوء اعتماده وتفريطه في العسكر عمل كلام السلطان فيه حتى مرض لذلك، وشيع الناس أنه سقي السم ثم عوفي... وكان الذي أخبر أن بيدرا ارتشى من الكسروانيين بيبرس طقصوا فاسرّ بيدرا الأمر في نفسه وترتب له، ولما قبض

السلطان على لاجين خاطب بيدرا السلطان في القبض على بيرس طقبصوا فقبض عليه مع لاجين لأنه كان قد تزوج ابنته».

والذي رواه البطريق أسطفانس الدويهي في تاريخه أنّ الكسروانيين الجرديين كانوا قد نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج عند حصار طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً، فبرز أمر حسام الدين لاجين نائب دمشق إلى قراسنقر أن يجمع العساكر الشامية ويروح بها لاستئصالهم واستشهد الدويهي ابن سباط فقال: «قال ابن سباط وكتب أيضاً إلى إثنين من أمراء غرب بيروت جمال الدين حجي بن محمد التنوخي وزين الدين بن علي أنّه إذا بلغهما توجّه المقر الشمسي سنقر المنصوري بالعساكر المنصورة إلى جهة الجرد وكسروان يتوجهان إليه بعساكرهما وأنّ من نهب امرأة كانت له جارية أو صبيّاً كان له مملوكاً ومن أحضر منهم رأساً فله دينار، وأنّ سنقر المذكور متوجّه لاستئصال شأفتهم وسي ذاريهم. هذا ما رواه الاهدني في تاريخ سنة ١٢٨٧م. ولا شكّ في أنّه مقدّمة لما ذكره صالح ولم يعد يذكر حرباً في كسروان انتصر بها الكسروانيون إلّا في سنة ١٣٠٢م كما سيأتي فنظّر أنّه فاته العلم بما كان من الأمر الذي أبرزه حسام الدين لاجين فلم يذكر الدويهي حرب سنة ٦٩١هـ سنة ١٢٩٢م التي ذكرها صالح بن يحيى، وكان قائدها بيدرا نائب السلطان بالشام بل ذكر الحرب التي كانت سنة ١٣٠٢م ويؤيد حصول هذه الحرب قول صالح بن يحيى أنّ العساكر الشامية توجّهت سنة ٧٠٥هـ إلى جبال كسروان: «وهي النوبة الثانية في أيّام السلطان الملك الناصر محمد ابن المنصور». فالحرب الأولى التي ذكرها سنة ٦٩١هـ كانت في أيّام الملك الأشرف خليل بن قلاوون لا في أيّام الملك الناصر وحرب سنة ٧٠٥هـ هي النوبة الثانية في أيّام الملك الناصر الذي ولي الملك سنة ٦٩٣، ثمّ خلعه كتبغا سنة ٦٩٤هـ، ثمّ ردّه إليه سنة ٦٩٨هـ وعهد حينئذ بنبابة السلطنة بالشمال إلى جمال الدين الأفرم الآتي ذكره كما مرّ في تاريخنا هذا. وهذا ما قاله الإهدني في هذه الحرب الثانية:

«سنة ١٣٠٢م (سنة ٧٠٢هـ) نزل الفرنج على نهر الدامور ليلة الأربعاء ثامن جمادي الأوّل فقتل هناك فخر الدين عبد الحميد بن جمال الدين التنوخي وأسر أخوه شمس الدين عبدالله، فاقتداه ناصر الدين الحسين بن خضر بثلاثة آلاف دينار. فرفعت الشكاوي إلى نائب دمشق الأفرم من الجرديين وأهل كسروان. قال

ابن الحريري أنّ في هذه السنة اجتمع النواب جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق وسيف الدين استدر نائب طرابلس، وشمس الدين سنقر المنصوري وحشدوا جيوش الشام إلى مقاتلة الجرديين وأهل كسروان، فاجتمع مقدّمو الجبال واستعدّوا للقاء الجيش فهزموه وقتلوا كثيرين وغنموا غنيمة كبيرة». قال الأسقف جبرائيل ابن القلاعي: «أنّ الوقعة كانت عند مدينة جبيل وأنّ المقدّمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدّمًا والمشهورون منهم خالد مقدّم مشمش وسان وأخوه سليمان مقدّمًا ايليّج وسعادة وسركيس مقدّمًا لحفد وعنتر مقدّم العاقورة وبنيامين مقدّم حردين، وربّوا ألفي مقاتل كمنوا على نهر الفيدار والفين على نهر المدفون ثمّ انحدروا بثلاثين ألف مقاتل لقتال الجيش، فوقعوا بحمدان القائد على الطريق منفرداً فقتلوه وحملوا على الجيش فهزموه وأهلكوا أكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم وأخذوا أربعة آلاف رأس خيل من خيلهم، وقدم الأكراد لنجدتهم فصدهم المكنون في الفيدار والمدفون فلم يخلص منهم إلّا القليل، وقتل من الأمراء التنوخية (أصحاب غرب بيروت) نجم الدين محمّد، وأخوة شهاب الدين أحمد ولدا جمال الدين حجي، ثمّ غزا الجرديون بلادهم وأحرقوا منها عين صوفر وشلمك وعين زونية وبحطوش وغيرها من بلاد المغرب، وقتل (في وقعة جبيل) من المقدّمين بنيامين مقدّم حردين ودفنوه عند باب الأركان في جبيل ثمّ صعدوا إلى معاد واقتسموا الغنائم».

أمّا الحرب الثالثة فإليك ما قاله فيها صالح بن يحيى: «ومما نقلناه عن النويري والصلاح الكتبي في فتوح كسروان ما روي من جملة حوادث سنة ٧٠٥ هـ (سنة ١٣٠٥م) وذكرنا توجه العساكر الشامية إلى جبال كسروان وإبادة أهلها وتمهيدها وهي النوبة الثانية في أيام الملك الناصر محمّد بن المنصور». فقالا: «كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدّت شوكتهم وتطاولوا إلى أذى العسكر عند انهزامه من التتر في سنة ٦٩٩ هـ (سنة ١٣٠٠م) وأغضى السلطان عنهم وتمادى في عقابهم فراد طغيانهم وأظهروا الخروج من الطاعة (ربّما أشارا بهذا إلى ما ذكرناه من الحرب الثانية) واعتزلوا بجبالهم المنبوعة ووثقوا بجمعهم الكثيرة وعلّلوا النفس بأنّه لا يمكن الوصول إليهم». انتهى ما نقله صالح عن النويري والصلاح الكتبي.

ثمّ أخذ صالح في تفصيل الخبر فقال: «ففي ذي الحجة سنة ٧٠٤ هـ (سنة ١٣٠٤م) جهز جمال الدين أقوش الأفرم نائب الشام زين الدين علّنان ثمّ توجه

بعده تقي الدين قراقوش وتحذثا معهم في الرجوع إلى الطاعة فأبوا، فأمر عند ذلك بتجريد العساكر إليهم من كل جهة ومن مملكة من ممالك الشام وتوجه أقوش الأفرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الإثنين الثاني من محرم سنة ٧٠٥ هـ (سنة ١٣٠٥ م) وجمع جمعاً كثيراً من الرجالة نحو خمسين ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين والجرديين، وتوجه سيف الدين استدرم نائب طرابلس وشمس الدين سنقر جاه المنصوري نائب صنفد، وطلع استدرم المذكور من جهة طرابلس وكان قد نسب إليه مباطلتهم، فجرد العزم وأراد أن يفعل في هذا الأمر ما ينفي عنه هذه التهمة، فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه، واجتمعت على أهله العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن سكانها يظنون أحداً يطأها، وقطعت كرومهم وأشربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفترقوا في البلاد واستخدم استدرم جماعة منهم في طرابلس بجامكية وجازاهم من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين وأقطع بعضهم أملاكاً». انتهى كلام صالح بن يحيى.

وهذا ما جاء في تاريخ البطريرك أسطفانوس الدويهي: «في سنة ١٣٠٤ م (سنة ٧٠٤ هـ) أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين بن عدنان يأمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم، ثم أرسل إليهم تقي الدين بن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش (تأمل المطابقة بين الدويهي وصالح بأسماء هؤلاء المنذرين) فلم يحصل إتفاق، فافتنى العلماء حينئذ بنهب بلادهم لاستمرارهم على العصيان، ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع تزداد من كل ناحية إلى سلخ (آخر) هذه السنة.

وسنة ١٣٠٧ م (سنة ٧٠٧ هـ) نرى هنا زلة قلم من الناسخ بتعيين هذه السنة والصواب سنة ٧٠٥ هـ، لأنه إذا كان أقوش أمر بجمع العساكر واجتمعت سنة ٧٠٤ هـ إلى آخرها فلا يظن أنه آخر مسيره إلى سنة ٧٠٧ هـ بل سار في أول سنة ٧٠٥ هـ، وقد اتفق كلاما صالح والدويهي على تعيين يوم الإثنين ثاني محرم ذكر ابن الحريري وابن سباط أنه في يوم الإثنين ثاني محرم سار أقوش الأفرم نائب دمشق بخمسين ألفاً بين فارس وراجل إلى جبال الجرد وكسروان التي حيال بيروت فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل، والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد، وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا

بحريهم وأموالهم وأولادهم ونحو ٣٠٠ نفس، واحتتموا في غار غربي كسروان يعرف بمغارة نيبية فوق أنطلياس بالقرب من مغارة البلانة، فدافعوا عن أنفسهم ولم يقدر الجيش أن ينال منهم ثمّ بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا، فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا الأمير قتلوا بك حارساً عليهم مدة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار.

ثمّ أحاط العسكر بتلك الجبال (أي جبال كسروان) ووطئوا أرضاً لم يكن أهلها يظنون أنّ أحداً من خلق الله يصل إليها فخرّبوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا وأسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعه بعد عزّتها وفي ١٨ جمادي الأخرى ركب بالشرائيش علي الدين البعلبكي وسيف الدين بكتمر وبكر الدين بكتاش وحسام الدين لاجين وعز الدين خطاب العراقي وتوجّهوا لأجل عمارة الجبل (أي تأمين السكان الذين لم يستطيعوا الفرار واسكان عشائر من المسلمين في السواحل كما سيأتي) وحفظ ميناء البحر مع الجماعة الذين ساروا من دمشق إلى بيروت... وأمر الملك الناصر محمّد بن قلاوون تركمان الكورة أن ينزلوا في ساحل كسروان ليحافظوا عليه من الفرنج وهم أهل عساف» وسوف نأتي على ذكر هؤلاء.

وأما من هم الدين سماهم صالح بن يحيى الجردين وسماهم الدويهي في أوّل كلامه الجلبين فلا شكّ في أنّهم غير الكسروانيين لذكر المؤرخين المذكورين فريقين لا فريقاً واحداً، وترى أنّهم سكان العمل المسمى إلى الآن الجرد ومن قرأه رشميا وشارون وبتاتر وبحمدون وأنهم كانوا دروزاً ويظهر أنّ هؤلاء لم يكونوا في طاعة الأمراء التنوخيين حكم المغرب وكانوا يسطون على بلادهم وقد صرح الدويهي بأنّ نذير أقوش أمرهم أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخية وكان قتل الأميرين التنوخيين عند الدامور يعزى إلى هؤلاء الجردين والكسروانيين معاً، إذ روى الدويهي أنّه بعد وقعة الدامور رفعت الشكوى إلى نائب دمشق من الجردين والكسروانيين ويظهر أنّ الدروز الجردين والموارنة الكسروانيين كانوا حينئذ متفقين ويؤيده هرب الجردين بعد أن دارت عليهم الدائرة في عين صوفر إلى غربي كسروان إلى نيبية وانطلياس التي كانت حينئذ من كسروان وكان تخمه من الغرب والجنوب نهر الجمعاني.

بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطاركة في القرن الثاني عشر بذكر وفاة البطريك أرميا وخلفه بعد وفاته دانيال من عمل جبيل وقطن أولاً في دير القديس فبريانوس بكفيفان. ثم انتقل إلى دير القديس مارون بكفريحي وأنه انتخب سنة ١٥٤١ يونانية أي سنة ١٢٣٠م على ما كتب يعقوب بن يوحنا البتروني (وفي نسخة أخرى البشراوي) على كتاب فرض القديسين الصيفي الذي طالعناه في كنيسة القديس سابا ببشري وكتب هناك أيضاً أنّ هذا البطريك كان ساكناً سنة ١٢٣٦م في دير القديس جيورجوس في الكفر وهي من عمل جبيل.

قال الدويهي يظهر من سلسلة البطاركة التي ذكرناها أولاً أنّ بطريكاً اسمه يوحنا كان بين أرميا وسمعان الآتي ذكره. وروى لكويان أنّ الدويهي قال بعد ذلك إنه لم يتوصل إلى معرفة البطريك الذي صير بعد يوحنا فأسمى الأمر غامضاً لا يهتدى إلى وجه بيانه، والذي أراه بفكرتي القاصرة أنّه ربّما كان يوحنا هذا بعد أرميا وقبل دانيال الشاماتي المار ذكره. وقد أثبتنا في كلامنا على أرميا العمشيتي تردّدنا في القطع بأنّ أرميا بقي في البطريكية من سنة ١١٨٣ إلى سنة ١٢٣٠م أي سبعا وأربعين سنة، فلا أرى مانعاً من أن نفترض أنّ يوحنا هذا الذي لم يهتد الدويهي ولكويان إلى زمانه كان في المدة التي انقضت من بعد عود أرميا رومة سنة ١٢١٦م إلى سنة ١٢٣٠م التي قالوا إنّ دانيال الشاماتي صير فيها بطريكاً، ويكون وجه التوفيق وإزالة الغموض الحاصل في هذا البحث والله أعلم. وصير بعد ذلك سمعان وقد ذكره الياس من معاد في حاشية علّقها على كتاب فرض الآلام الذي نسخه سنة ١٢٤٥م قال فيها «كان النجاز منه في أيام ساداتنا البطريك سمعان صاحب الكرسي الممدوح مدينة الله أنطاكية والمطران سمعان بجبل لبنان في سنة ١٥٥٦ لليونان» وهي سنة ١٢٤٥ للميلاد. وقال لكويان إن كان سمعان هو الذي خلف يوحنا فيكون هو الذي روى بياجوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدسة المطبوع برومة سنة ١٦٩٥ صفحة ٥٢ أنّه لما أخذت أنطاكية من يد الفرنج التجأ إليه كثيرون من الكاثوليكين سكانها فقبلهم وأكرم مثوهم في لبنان. وكتب إلى البابا اسكندر الرابع يخبره بحالتهم وشديد تعلّقهم بالكرسي

الرسولي، فأجابه البابا مثنياً على اهتمامه ومسمى إياه بطريركاً أنطاكياً. قال الدويهي إنَّ نسخة هذه الرسالة ما برحت مصانة عندنا إلى الآن في دير قنوبين (وهي إلى اليوم أيضاً في خزانة بطريركيتنا). وفي كتاب الفنقيط الصيفي الذي وقع بيدنا في كنيسة القديس سابا في بشري وجدنا مكتوباً أنَّه كان بعد حياً في سنة ١٢٧٧م، ولم نجد له خبراً ولا أثراً بعد ذلك، ولا علمنا من خلفه، ولكن وجدنا مكتوباً على صخر في الحائط الغربي من دير ميفوق عند تجديد بناء هذا الدير

حفظه الله تعالى وسعدنا به. ولله الحمد والبركات. وكتبه في سنة ١٥٨٨ لليونان (سنة ١٢٧٧م) تمَّ يعقوب هذا هيكل والدة الله مريم. وقال فمن يكون يعقوب هذا الذي جدد هذا الدير ونسب إليه؟ لا نستطيع أن نقول إلاَّ أنَّه كان بطريركاً لأنَّه قبل هذا التجديد وبعده كان هذا الدير مأوى للبطاركة. وقيل إنَّه اندفن فيه سبعة بطاركة. قلنا وقد ذكرنا هذا الخط في الكلام على دير ميفوق ولكن النسخة المحضرة لنا كتب فيها مكان **لله الحمد والبركات** أي كمل بناء هذا الهيكل. فربَّما شوشت الأيَّام حروف الكلمة وكانت في أيَّام الدويهي أظهر للقراءة أو أنَّ الناسخ لنا توهم من كلمة **لله الحمد والبركات** لأنَّ تكون دالة على أثر لليعاقبة فكتب موضعها **لله الحمد والبركات**.

وصير بعد ذلك دانيال الثاني وجاء في الكتاب الموسوم بسورية المقدسة أنَّ دانيال هذا خلف سمعان سنة ١٢٨١م. وقال الدويهي: «إنَّه كان من חדشيت من عمل بشري». وقد كتب القس يوحنا الراهب الذي من حجولا في آخر كتاب تكريس الميرون ما يأتي: «كمل هذا الكتاب في سنة ١٥٩٢ لاسكندر (توافق سنة ١٢٨١م) في أيَّام أيُّنا المختار البطريرك دانيال من חדشيت». ونرى صورته إلى الآن في كنيسة القديس رومانوس بالقرية المذكورة وقد وردت إليه براءة تثبيت من البابا نيقولاوس الثالث (الذي كان على السدة البطرسية من سنة ١٢٧٧ إلى سنة ١٢٨١م). وممَّا تضمَّنَّته الأمر له بأن يكون الميرون من زيت الزيتون والبلسم لا غير، وانتخب بعد دانيال الחדشيتي لوقا وكان من بنهران بسفح لبنان من عمل بشري. وروى الدويهي أنَّ انتخابه كان في سنة ١٢٨٣م التي فيها فتحت العساكر الإسلامية جبة بشري كما مرَّ. وقد وهم جبرائيل أسقف الافقسية بقبرص المعروف بابن القلاعي أنَّ هذا البطريرك مال إلى قول راهبين تشبَّهاً بضلال أبو لينار أنَّ المسيح لم تكن فيه نفس

بشرية بل ناب عنها اللاهوت، وزاغا عن الإيمان الصحيح، فأرسل الحبر الروماني
ينذرهم فلم يشأ البطريك قبول قصاص البابا. ومما قاله ابن القلاعي:

والبطريك ما راد يقبلهم يسمى لوقا من بنهران
كثير الشر وصاروا غرضين وثار الانشقاق من أجل اثنين
في ذا السبب ابنوا برجين وقسموا الملك في ذاك الآن
سمع بذلك السلطان برقوق وانفتح له باب كان مغلق
أرسل عساكر تحت وفوق تحاصر في جبل لبنان

على أنّ الدويهي أفرد الفصل التاسع من كتابه في رد التهم لتفنيد قول ابن
القلاعي هذا مثبتاً أنّ هذا الضلال لم يكن بلبنان فقط وأنّ أيام هذا البطريك
كانت موعبة بالحروب على الموارد في جبهة بشري وكسروان فلم يكن وقت
لاشتغال الشعب أو رؤسائه بالمباحث الدينية. وقد اتهمه بياجوس صاحب الكتاب
الموسوم بسورية المقدسة أنّه اتبع بدعة المشيئة الواحدة فقام عليه الرؤساء والشعب
وعقدوا مجمعاً حطوه فيه عن مقامه البطريكي وأقاموا مكانه البطريك جبرائيل من
حجولا سنة ١٢٩٠م، وتهمة البطريك لوقا بهذا الضلال باطلة ولا مسند لها ولو
افترضت صحيحة لتبين منها غير الموارد على الإيمان القويم بحطهم بطريكرهم.
وقد روى الدويهي على ما ذكر لكويان في كلامه على بطاركة الموارد أنّه بعد
لوقا أقيم البطريك جبرائيل من حجولا سنة ١٢٩٠م، وهذا هو الظاهر من كلام
بياجيوس في كتابه سورية المقدسة كما رويناه قبيل هذا، وأنّه نال التثبيت من الحبر
الروماني (البابا نيقولاوس الرابع) وأنّه نال إكليل الشهادة في خارج مدينة طرابلس
سنة ١٢٩٦م، وأنّ مدفنه يعرف اليوم بالشيخ مسعود في جانب المحل المسمى تل
الرميل في هذه المدينة، وأحصاه الموارد في عدد شهدائهم. هذا ما رواه لكويان
وعقبه بقوله: «على أنّه يظهر من الكتاب القديم الذي هو الثامن عشر من كتب
الحاقلي بالمكتبة الواتيكانية أنّ جبرائيل هذا كان بعد هذا العصر، فقد ذكر السمعاني
الكتاب المذكور في فهرست الكتب المعلق على المجلد الأوّل من مكتبته الشرقية
صفحة ٥٧٧ وهو كتاب لابن القلاعي وقال إنّ في جملة ما حواه قصيدة لابن

القلاعي. وقال إنّ في جملة ما حواه قصيدة لابن القلاعي: «في البطريك جبرائيل من حجولا الذي قضى شهيداً للإيمان الكاثوليكي في طرابلس سنة ١٣٦٧م، إلا إن يكون وقع غلط في تعيين تلك السنة، وادعى الحكم في ذلك لعلماء الموارنة». انتهى كلام لكويان.

وجاء في سلسلة بطارقة الموارنة التي أخذها المعلّم رشيد الشرتوني عن الدويهي ونشرها في المجلة الموسومة بالمشرق أنّ هذا البطريك نال إكليل الشهادة في طرابلس سنة ١٣٦٧م، وهذا يوافق ما رواه السمعاني كما ذكرنا قبلاً لكنّه يخالف ما رواه لكويان عن الدويهي كما قدمناه في هذا المحل. وكثيراً ما وجدنا ما رواه لكويان عن سلسلة الدويهي يخالف نسختها العربية ولا شكّ في أنّ ترجمتها اللاتينية التي اعتمد عليها لكويان هي أصح وأسلم من التحريف والغلط ومن جهة أخرى لا نعلم إذا كان السمعاني عيّن سنة ١٣٦٧م برأي نفسه أن نقلها على سبيل الحكاية عن ابن القلاعي الذي كشف له المتأخرون كثيراً من الخطأ في تعيين السنين. والذي يظهر لنا مرجحاً أنّ البطريك جبرائيل هذا رقي إلى البطريكية سنة ١٢٩٠م ونال إكليل الشهادة سنة ١٢٩٦م اعتماداً على ترجمة سلسلة الدويهي اللاتينية التي هي أصلح وأسلم من النسخة العربية التي كانت بيد المعلّم رشيد المذكور. ويؤيد ذلك ما نعلمه حقّ العلم من أنّ المسلمين لم تسبق لهم العادة بأن يسطوا على النصارى ولاسيما رؤساء الدين جهاراً وتصميماً إلا في وقت الحرب. وقد رأيت أنّ المدة من سنة ١٢٨٣م إلى سنة ١٣٠٥م كانت موعبة بالحروب في جبهة بشري وكسروان فضلاً عن الحروب مع الفرنج، ولا نعلم حصول شيء من هذه الحروب في لبنان سنة ١٣٦٧م ولذلك نرجّح أنّ استشهاد هذا البطريك كان في أواخر القرن الثالث عشر لا بعد نصف القرن الرابع عشر.

وقام بعد البطريك جبرائيل البطريك سمعان ونرجيء الكلام عليه إلى تاريخ القرن الرابع عشر.

عد ٣٨

رد ما يحتج به على الموارنة من كلام البابا أينوشتسيوس الثالث
إنّ خصوم الموارنة يحجونهم بفقرة وردت في رسالة أنفذهما أينوشتسيوس الثالث

سنة ١٢٥١م إلى البطريرك أرميا والمطارنة والأساقفة ورؤساء الأديار والإكليروس والشعب الموارنة. وقد أثبت العلامة البطريرك أسطفانس الدويهي ترجمة هذه الرسالة برمتها في الفصل الثامن من كتابه في رد التهم. فالعبارات التي يحجج الموارنة بها من هذه الرسالة هي قوله في من أفاض الله عليهم سوابغ نعمه فارعوا عن الضلال: «كما بلغنا وسرنا أنه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدة فانكم سابقاً كنتم كالخراف الضالة غير عالمين أنّ خطيئة المسيح واحدة... وأنّ الراعي الصالح واحد وهو السيد المسيح... ولما أرسلنا قبلاً إلى نواحيكم المرحوم الكردينال بطرس كاهن كنيسة القديس مرسلوس رجعتكم بالهام الرب إلى راعيكم وأسقف نفوسكم وفهتكم أننا نحن رأس الأقباط ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة... ولما كان الكردينال المذكور علم أنّكم تحتاجون إلى بعض أمور اجتهد في إيضاحها لكم حسب مآل الأمر الرسولي وأوصاكم بأن تقرّوا بمعزل عن كل ريب بما تمسكت به الكنيسة الرومانية، وهو أنّ الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب... وإن تحفظوا في المعمودية هذه الصورة، أي أنّ الثالث الأقدس يذكر مرّة واحدة في التغطيسات الثلاث لا أكثر، وأن سرّ التثبيت يتصرف به رؤساء الكهنة دون غيرهم... وأن تؤمنوا أنّ في المسيح طبيعتين ومشيتين إلهية وإنسانية. وهذه الوصايا ولو كنتم قبلتموها في ما سلف قبول الطائعين الخاضعين إلّا أنّ إعادتها عليكم الآن لأجل تأكيدها وإثباتها». فهذه هي العبارات المحتج بها.

وقد ردّ العلامة الدويهي في الفصل المذكور زعم من حجوا الموارنة بهذه العبارات وأثبت أنّ الموارنة براء من التهمة بالضلال، وأنّ هذه العبارات لا تصلح أن تكون حجة عليهم به. وصنع كذلك المرحوم البطريرك بولس مسعد في عدّة مواضع من كتابه الموسوم بالدر المنظوم أي صفحة ١٢١ و ١٦٧ و ١٦٨ و ١٧٦ فوإن لم أقس بهذين العلامتين فقد حذوت حذوهما في كتابي الموسوم بروح الردود وأسهب برد زعم خصومنا. باحتجاجهم علينا بكلام البابا المذكور.

والآن أقول إنّ في رسالة البابا أنوشنسيوس الثالث هذه نفسها فقرتين أخريين يتبين منهما جلياً أنّ الموارنة لم يكونوا على ضلال وارعوا عنه حينئذ. الفقرة الأولى هي قوله: «وأنت أيّها الأخ البطريرك لما كنت قبلاً في مدينة طرابلس مع قوم من مطارتك أعني يوسف مطران قزحيا، وتاودورس أسقف كفرفو، وجمع كبير من الكهنة، وجمهور وافر من الخاضعين لك حلفت أنت وهم عن نفوسكم

وعمن يتعلّق بكم بحضرة بعض أساقفة ورهبان وشمامسة في المدينة المذكورة اليمين على مثال الصورة التي يتعهد بها المطارنة بالطاعة للكرسي الرسولي». فحلف يمين الطاعة على مثال الصورة التي يتعهد بها الأساقفة بالطاعة للكرسي الرسولي ليس هو ارعواء عن ضلال، ولا يكتفى لمن كان ضالاً بحلف مثل هذا اليمين، بل الاكتفاء بها دليل بين وبينه قاطعة على أنّ من أبرزها لم يكن من ذوي البدعة والضلال.

والفقرة الثانية هي قوله: «ثمّ إنّنا نثبت لك بسلطاننا الرسولي كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرها، ونأمر أصحابها بالخضوع لكرسي كنيسة كنيسة السيدة في يانوح أيّها الأخ البطريرك الذي ولاك الله رئاستها، وإن يكونوا طائعين لك ولخلفائك نعني مطارنة قزحيا وجبة بشري وأساقفة المنيطرة ورشعين وكفرفو وعرقا... ونثبت لك النعم المعتادة الحاصل عليها أنت وأسلافك في الكنيسة الأنطاكية إلى هذا الآن بالسلطان الرسولي نمنحها لك ولذين يتخلّفون بعدك». وممّا لا ريب فيه أنّ من خرج عن الكنيسة أو زاغ عن إيمانها خسر بزيغان نفسه الحقوق والنعم وما اعتاد أن يكون له فيها. فإن كان بطريرك الموارنة وأسلافه قد تسكّعوا بالبدعة كيف يثبت أيونشنيوس الثالث النعم أو الحقوق أو الاستعمالات الحاصل عليها لا البطريرك أرميا وحده بل أسلافه أيضاً في الكنيسة الأنطاكية إلى الآن. ولو كان هؤلاء الأسلاف أصحاب بدعة لما بقي لهم حقوق ولا أثبتها البابا لهم وقد أبنا أنّ البطريرك أرميا الموجهة إليه هذه الرسالة قد انتخب بطريركاً سنة ١١٨٣م أي بعد سنة واحدة من الارعواء المدعى به على الموارنة، واعتمدنا في هذا على ما خطّه أرميا نفسه بيده. وأسلاف أرميا الذين أثبت لهم أيونشنيوس حقوقهم أو عوايدهم في الكنيسة الأنطاكية هم يوسف الجرجسي الذي أرسل قصاده مع قصاد الملك غودفروا إلى رومة سنة ١٠٩٩م بطلب التثبيت فأنعم عليه به البابا بسكالس الثاني سنة ١١٠٠م. ثمّ غريغوريوس الحلاتي الذي أرسل إليه البابا أيونشنيوس الثاني الكردينال غوليلمس سنة ١١٣١م يخبره أنّه هو البابا الشرعي لا بطرس دي لاون الذي تدخّل على الكرسي الروماني، فحلف البطريرك وأساقفته يمين الطاعة لأيونشنيوس كما حلف رؤساء الفرنج الذين كانوا حينئذٍ بسورية، إلى غير هؤلاء من بطارقة الموارنة. والحادثان المذكوران هنا رواهما لكويان في كلامه على بطارقة الموارنة في المجلّد الثالث من الشرق المسيحي.

فالبابا أيونشنيوس الثالث أثبت إذاً بالفقرتين اللتين ذكرناهما أنّ الموارنة لم

يكونوا هراطقة. فكيف يخرج قوله في الفقرة الأولى: «إنكم كنتم ضالين وأنّ الكردينال أمركم أن تعتقدوا أنّ في المسيح طبيعتين ومشيتين». إنّ لذلك مخرجين الأول إنّ البابا تكلم في هذه الفقرة على بعض الموارنة الذين كان أتباع توما الكفرطابي قد أغوهم ببدعة المشيئة الواحدة حتى استمالوا البطريك نفسه إليهم، فاجتمع الأساقفة وأعيان الأمة فحطوا البطريك عن مقامه وانتخبوا غيره فقتله أصحاب البطريك المنحط، وأصلح أموري بينهم فانتخبوا حينئذٍ أرميا الموجهة الرسالة إليه، فأشار البابا إلى هذه الأحداث التي ذكرنا تفصيلها في عدد ٨٥٨ وعدد ٨٦٠ وأراد بمن كانوا ضالين تلك الفئة من الموارنة التي كانت قد ضلّت مدة ثمّ ارعوت عن ضلالها إلى جادة الصواب على يد أموري بطريك أنطاكية وهذا لا يبعد عن الصواب وهو لازم للتوفيق بين قولين متضادين في رسالة واحدة.

والخروج الثاني إنّ الحبر الروماني تكلم في الفقرة الأولى على الموارنة والروم معاً وهذا ظاهر من كلامه الذي قدّمناه وهو «كما بلغنا وسرنا أنّه جرى لكنيسة الروم ولكم في هذه المدة فأنكم كنتم سابقاً كالخراف الضالة» الخ ثمّ من قوله الآخر إنّ الكردينال الذي أرسله أمرهم بأنّ يعترفوا «بأنّ الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب وإن يحفظوا من المعمودية الصورة التي يدعى بها الثالث الأقدس مرة واحدة لا أكثر وأنّ سرّ التثبيت يتصرّف به رؤساء الكهنة لا غيرهم: «ومن المؤكّد أنّ الروم إنّما هم الذين ينكرون انبثاق الروح القدس من الابن وكانوا يوجبون ذكر الثالث ثلاثاً عند تلاوة صورة المعمودية، وهم إلى الآن يمنح كهنتهم سرّ التثبيت وليس بمحفوظ للأساقفة، وما من أحد من العلماء المحققين عزا إلى الموارنة هذه الأغلاط. وينتج من ذلك نتجاً جلياً أنّ البابا تكلم بهذه الرسالة على الموارنة والروم معاً.

وقد قال بهذا المخرج كثيرون من العلماء اللاتينيين منهم الأب ايرونيμος دنديني في فصل ٢٨ من كتاب بعثته إلى الموارنة في أواخر القرن السادس عشر وهذا قوله: «إنّ هذه البراء (أي براءة أينوشيسوس الثالث) لا يتكلم بها البابا عن الموارنة وحدهم بل عن الروم أيضاً إذ رجعوا في طرابلس حينئذٍ إلى طاعة الكنيسة الرومانية ارتجاعاً حافلاً بحضرة كردينال كنيسة القديس مرشولوس القاصد الرسولي في هذه الجهات من الشرق، وبهذا يتيسر فهم السبب الذي أوجب نسبة أغلاط طائفة إلى أخرى». ومنهم أيضاً الأب توما بياتي الكرملّي الذي قال في الكتاب

السابع الفصل ٢٢ من مؤلفه الموسوم بلزوم الاهتمام بخلاص جميع الأمم ما ترجمته «إن بطريرك الموارنة قد احتفظ غاية الاحتفاظ على براءات الأحرار الرومانيين من أينوثنسيوس الثالث إلى غيره من الباباوات الذين أنفذوا إليهم قصداً كردينال كنيسة القديس مرسلوس وغيره ولما كان الأحرار الرومانيون يأمرن برسائلهم الموارنة أن يعجاشوا عن أغلاط الروم وينبذوها، حصل من ذلك أن بعض المرسلين من رومة توهّموا أن الموارنة تابعوا أكثر الروم على أغلاطهم كانبثاق الروح القدس من الآب وحده وانكار المطهر وما أشبه على أن الموارنة أثبتوا أنهم بمعزل عن هذه الأغلاط ويثبتوا في كتبهم ونوافير قّداسهم بينات كثيرة ناطقة بمدافعتهم كل حين عن العقائد الكاثوليكية». ونقتصر على إيراد شهادة هذين الشاهدين من العلماء اللاتينيين ونضرب حباً بالإيجاز عن إيراد أقوال علمائنا.

على أننا لا نعدّل عن قول العلامة البابا بناديكتوس الرابع عشر في رسالته الموجهة في ٢٨ أيلول سنة ١٧٥٣م إلى نيقولاوس لركاري وهذا قوله «قد أثبت الموارنة أنهم ينتسبون في أصلهم إلى القديس مارون الانبا، وأنهم لم يزيغوا البتة عن الإيمان الكاثوليكي، ولا انفصلوا قطعاً عن وحدة الكنيسة. وزادوا على ذلك أنهم إذا كانوا قد جدّدوا أحياناً اتّحادهم بالكنيسة الرومانية فلا ينبغي البتة أن يفهم ذلك بمعنى أنهم شدّوا عن الدين الكاثوليكي ثم رجعوا إليه». ومن ذلك بلا بد تجديد اتّحادهم بالكنيسة الرومانية بحضرة قاصد البابا أينوثنسيوس الثالث المذكور هنا والذي على تقريره المرفوع للحبر الروماني بنيت رسالته وربما لم يميز كما ينبغي بين من حجّجوا الضلال كروم طرابلس ومن جدّدوا اتّحادهم بالكنيسة الرومانية وحلفوا يمين الطاعة للحبر الروماني كالموارنة وقد صرّح البابا أينوثنسيوس الثالث بأن بطريرك الموارنة وأساقفته ومن حضر في طرابلس من كهنته وشعبه حلفوا هذه اليمين على هذه الصورة كما رأيت في كلامه الذي أوردناه آنفاً.

مقالة سابعة

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

عد ٣٩

ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

كانت في السنين الاولى من هذا القرن الحروب التي فتح بها عمل كسروان وقد ألقنا اخبارها بتاريخهم في القرن الثالث عشر متابعة، لئلا نقسم الكلام على هذه الحروب في تاريخ قرنين فليطالعا هناك من شاء.

وقل ما علمنا من تاريخ حالهم الدنيوية في هذا القرن، فجل ما علمناه انهم شرعوا يسمون حكام اعمالهم او قراهم الكبيرة مقدمين بدلاً من تسمية حكام الاعمال امراء. وجاء في اخبار الاعيان (ص ١٠٩) للمرحوم طنوس الشدياق انه في سنة ١٣٧٥ م توفي غزال القيسي الماروني مقدم العاقورة، ولم يخلف ولداً ذكرأ فورثته ابنته زوجة جرجس الملقب بالشدياق. ولم يذكر المؤلف مسنداً لهذا الخبر ولم يروه البطريك اسطفانوس الدويهي في تاريخه فيتعذر علينا القطع بصحته.

وروى البطريك الدويهي عن ابن سباط انه في سنة ١٤٨٨ م جهز الملك الظاهر برقوق العساكر المصرية لمقاتلة الناصري ومنطاش فجمع هذان عساكر الشام والعرب والترکمان وأهل كسروان والجردين وجرى بينهم حروب، فانتصر منطاش والناصري على عساكر مصر وهزموها. وفي اثناء ذلك انتشب القتال بين امراء الغرب وبين عشرين (فسر بعضهم هذه اللفظة بمعنى المتطوعين ونظن انها جمع العاشر وهو من يؤمن المارة من اللصوص) البر اهل كسروان والامراء اولاد الاعمى من تركمان كسروان. وكان امراء الغرب من حزب الملك الظاهر برقوق والكسروانيون من جهة ارغون نائب منطاش ببيروت فاستظهر اهل كسروان على

امراء الغرب وقتلوا منهم نحواً من تسعين شخصاً وأمسكوا جماعة منهم وقتلوا بعضهم ونهبوا ما وجدوا لأمرء الغرب في بيروت وأحرقوا عدة قرى من الغرب منها عين عنوب وعيناب وشملان وعيتات وغيرها. وبعد ان عاد الملك الظاهر الى السلطنة (كما مر) وجه عساكره الى تركمان كسروان (ويروى قصدت العساكر طومان شيخ التركمان حاكم كسروان) وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل في جورة منطاش بزوق ميكائيل فقتل من التركمان الامير علي واخوه الامير عمر ابنا الاعمى وجماعة كثيرة ونهبوا زوق ميكائيل.

فذكر أهل كسروان والجردين بعد ذكر التركمان يدل دلالة صريحة على ان الكسروانيين المذكورين هنا ليسوا من التركمان سكان سواحل كسروان بل من الموارنة الذين كانوا قد استمروا بكسروان بعد الفتح او كانوا قد رجعوا اليه بعد خرابه إذ كان قد مضى بعد الفتح اكثر من ثمانين سنة.

وروى الدويهي في تاريخ هذه السنة ان الملك الظاهر لما كان معتزلاً عن السلطنة أقام الشدياق يعقوب بن ايوب مقدماً على بشري وكتب له ذلك بصفيحة من نحاس. وقد ذكر هذا الخبر صاحب الغرر وروى العبارة الاخيرة. وكتب له صفيحة بختمه ان يكون شيخاً. ثم حلّ الملك الظاهر بدير قنوين وكان رئيسه كاهناً اسمه القس بطرس، فاحسن استقباله فعفا الدير من الاموال الاميرية وجعل له التقدم على جميع اديار تلك النواحي وكتب ذلك على صفيحة نحاسية. وفي كتاب الغرر اعطاه بذلك خطأ. ولما عاد الملك الظاهر الى الكرك وكان البطريك داود الذي دعي يوحنا مقيماً بدير مار سرقيس القرن بأرض حردين فجعل القس بطرس المذكور اسقفاً واسكنه دير قنوين.

عد ٤٠

بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر

إن آخر من ذكرناهم من بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر هو سمعان الخامس الذي صير بطريكاً في آواخر القرن المذكور واستمر على السدة البطريكية زماناً طويلاً حتى سنة ١٣٣٩م. فقد علمنا انه كان بطريكاً سنة ١٣٢٢م من

حاشية علقها الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس شامات (وفي تاريخ الموارد المطبوع، وفي سلسلة بطاركتهم المذاعة في الشرق قنات بدلاً من شامات) على كتاب الانجيل الذي نسخه بالاحرف السطرنكلية على رق سنة ١٣٢٢م قال فيها: «كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب في ايام ابينا البطريرك سمعان الجالس على كرسي انطاكية. وفي ايام بطرس رئيس اساقفة بشري سنة ١٦٣٣ يونانية» (توافق سنة ١٣٢٢م) قال الدويهي هذا الكتاب محفوظ في دير مار ميخائيل شاريا بقرية عينتورين وعلمنا من حاشية اخرى علقها القس يعقوب رئيس دير مرت مورا باهدن على كتاب الانجيل الذي بكنيسة بجة من بلاد جبيل انه كان الفراغ منه سنة ١٣٣٩م في أيام البطريرك شمعون (سمعان) وبطرس مطران اهدن.

وبعد وفاة البطريرك سمعان انتخب مكانه يوحنا وهو التاسع بهذا الاسم. روى ذلك لكويان نقلاً عن الدويهي سنداً إلى ما كتب على كتاب قديم بكنيسة القديس سركيس بحدشيت بالسريانية وهذه ترجمته :

كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب سنة ١٣٥٧ للتاريخ المسيحي في ايام سيدنا المختار يوحنا بطريرك انطاكية وجبل لبنان وسواحل البحر وفي ايام يوحنا مطران قبرص».

وروى البطريرك الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٧م ان يعقوب اسقف اهدن كتب في ذيل كتاب الانجيل الذي خطه سنة ١٦٧٧ لاسكندر (توافق سنة ١٣٦٧م المذكورة) انه في هذه السنة قصد ملك الاسكندرية بجيشه فقتل رجالها وأسر صغارها ونهب اموالها. فغضب سلطان المسلمين على النصارى وأمسك رؤساء الكنيسة وحبسهم بدمشق. وكان الاسقف المذكور في جملتهم فتمكن من الهرب. وكتب هذا الكتاب وهو مستتر. وقال الدويهي ان هذا الكتاب محفوظ بدير قنوين وهو سبعة وعشرون كراساً بالخط السرياني والكرشوني وقد ذكر الدويهي هذا توطئة لقوله التالي: «وفي هذه السنة كان على الكرسي الانطاكي البطريرك جبرائيل واستتر حين الاضطهاد بقرية حجولا من عمل جبيل، فكتب نائب دمشق بسببه إلى نائب طرابلس، وعند ما علم انه في حجولا قبض على اربعين رجلاً من هذه القرية وأمرهم باحضاره فاحضره وأمر بحرقه في اول نيسان خارج طرابلس عند جامع طيلان». انتهى كلام الدويهي في تاريخه على ما في النسخة التي عندنا.

وفي النسخة التي أخذ عنها المعلم رشيد الخوري الشرتوني تاريخ المواردة مقتطفاً عن تاريخ الدويهي ثم في سلسلة بطاركة المواردة التي نشرها في مجلة المشرق.

على أننا قد رويناه في تاريخ بطاركة المواردة في القرن الثالث عشر نقلاً عن لكويان في مؤلفه الشرق المسيحي، وعن صاحب الكتاب الموسوم بـ«سورية المقدسة» ان البطريك جبرائيل من حجولا صير بطريكاً سنة ١٢٩٦م. واستشهد بطرابلس سنة ١٢٩٦م ولكويان اعتمد في سلسلة بطاركة المواردة على الدويهي، لكنه قد استدرك كلامه في هذا البطريك وذكر ما يظهر انه يخالف ذلك. وهو ما رواه السمعاني عند ذكره (في المكتبة الشرقية مج ١ صفحة ٥٧٧) كتاباً لجبرائيل القلاعي الذي روى فيه استشهاد هذا البطريك. وقيل هناك انه كان سنة ١٣٦٧م. وترك لكويان حل هذا المشكل لعلماء المواردة فنحن عند كلامنا في هؤلاء البطاركة في القرن الثالث عشر رجحنا صحة رواية لكويان وصاحب سورية المقدسة ان جبرائيل هذا كان في آخر القرن الثالث عشر خاصة لعلمنا باعتماد لكويان على سلسلة بطاركة المواردة للدويهي مترجمة الى اللاتينية، وهي أصح من نسخها العربية وأسلم من التحريف. ونرى الآن لكويان في كلامه على بطاركة المواردة في هذا القرن لم يذكر جبرائيل بل ذكر داود المسمى يوحنا خليفة ليوحنا التاسع الذي قدمنا ذكره، وعزا ذلك الى الدويهي ايضاً. فلم يكن لنا حتى الآن يدان في حل هذا المشكل. في آخر القرن الثالث عشر كان جبرائيل ام بعد نصف القرن الرابع عشر! ويزيد المسألة ارتباكاً قول الدويهي في الفصل التاسع من رد التهم: «ان البطاركة مثل البطريك لوقا من بنهران والبطريك جبرائيل من حجولا ونظائرهما بتلك السنين ما استطعنا ان نقف لهم على خبر في كتاب ولا نعرف بأية سنة كانوا لعدم وجود تاريخ وانشغال الناس في تلك الايام بالحروب، فاكتفينا بإيراد ما علمناه من الاقوال في هذه المسألة دون القطع بصحة احدهما. ولا مزية في ان جبرائيل من حجولا كان بطريكاً على المواردة وقتل في طرابلس والاختلاف على الزمان فقط.

روى لكويان انه بعد وفاة يوحنا التاسع خلفه داود الثاني ويسمى يوحنا ايضاً. وكان ساكناً بدير القديس سرقيس في حردين، وهذا يظهر مما علقه الخوري دانيال من قرية بان على الكتاب الذي نسخه سنة ١٢٩٧م وهو: «كان النجاز منه سنة ١٧٨٠ يونانية (توافق سنة ١٣٩٧م) على يد الخوري دانيال ابن الحاج سمعان من قرية بان على زمان البطريك داود المكنى يوحنا القاطن بدير مار سرقيس القرن

بأرض حردين، وكان بطرس مطراناً على دير قنوين». ويستفاد من خط آخر كتبه كيرلس مطران جاج والخوري اليشاع الناسك والشماس موسى المارديني ان هذا البطريرك استمر الى سنة ١٤٠٤م التي كان فيها بطرس مطراناً هلى اهدن.

وقد زعم جبرائيل بن القلاعي ان هذا البطريرك طغاه حبيس اسمه اليشاع جال في بلاد اليعاقبة، وعند عودته ادخل في جبل لبنان رتبة جديدة وخلط الزيت بالقربان المقدس، فاغتر البطريرك بهذا الضلال حتى ابدى قسوة زائدة على رؤساء الكهنة الذين خالفوه، فوقع الخلف في الرعية وانقسموا حزيين. ذكر ذلك البطريرك الدويهي في الفصل العاشر من كتابه رد التهم عن الموارنة، وقال ان البطريرك الذي كان في عصر اليشاع الحبيس المذكور هو البطريرك داود المسمى يوحنا ايضاً الذي سكن في دير القديس سركيس بحردين، وكنا قبلاً نظن فيه انه بسبب تعليم اليشاع الحبيس وبسبب مجاورته لبعض اليعاقبة المقيمين بحردين تبع راي يعقوب وغير اسمه ودعا نفسه يوحنا، وأنشأ الاضطهاد على الملة المارونية وعلى رؤساء كهنتها، فقاومه اهل جبة بشري وبلاد جليل ورؤساء الاساقفة ولم يزيغوا عن الايمان القديم. ولكن لما بحثنا بحثاً شافياً عن هذه الامور تحققنا ان ظننا كان بعيداً عن دائرة الصواب، وتأكدنا ان الحبيس اليشاع كان رجلاً ناسكاً واتضح لنا من الكتب التي عثرنا عليها بخطه انه كان من قرية الحدث، وانه درس على فرح خوري قرية موسى ثم صار حبيساً وكاهناً في محبسة القديس سركيس بقرية الحدث. ولم نجد في الكتب التي شرع في كتابتها منذ سنة ١٧٠٢ لاسكندر (سنة ١٣٩١م) تعليماً جديداً ولا قولاً محدثاً. وإن صح ما رواه عنه ابن القلاعي من خلطه الزيت بالقربان فيكون ذلك خطأ محرماً، لكنه ليس بضلال يخالف الايمان لأنه لم يعلم ان ذلك لازم بل كان مقصوراً على عمله. والذي يتبادر الى الفهم انه كان يدهن القالب بالزيت لئلا يلتصق به خبز القربان كما ندهنه الآن بالشمع وهذا لا لوم عليه بعمله وكانت القوالب في ذلك الحين مجوفة.

لقد وقفنا على كتب كثيرة كتبت في ايام البطريرك داود المذكور فتحققنا منها انه سمي يوحنا منذ صير بطريكاً. وقال الخوري دانيال الباني في الكتاب الذي خطه سنة ١٣٩٧م في ايام البطريرك داود المسمى يوحنا وقدمنا هذا الخط. وكذلك ذكر المطران كيرلس الجاجي هذا البطريرك في الكتاب الذي نسخه سنة ١٧١٢

لاسكندر (سنة ١٤٠٤م). ودعاه الالب البطريك يوحنا ولم يطعن به. وذكره ايضاً المطران يعقوب اللحفدي في ذيل كتاب «الناموس» الذي نسخه للمطران داود الحدشيتي فقال: «وكان الفراغ من كتاب الناموس هذا سنة ١٧١٣ من ملك اسكندر بن فليس اليوناني (وهي سنة ١٤٢٠م) وهو برسم الاخ المغبوط المنتخب لله تعالى المطران داود بن جوسلين من قرية حدشيت وفي ايام ايينا ومعلمنا وسيدنا مار يوحنا المنتخب لله تعالى المؤيد بالمسيح والقاطن في دير مار سركيس القرن بقرب حردين رحمننا الرب ببركة صلواته المقدسة بشفاعاة السيدة ام النور وجميع القديسين آمين».

وقال الدويهي وهذا الكتاب هو محفوظ الى الآن عندنا بدير قنوين وهو برسم اخينا المطران يوسف الحصري.

واختتم الدويهي كلامه بقوله يتبين من هذه الشهادات وغيرها أضرربنا عن ذكرها ان هذا البطريك كان يسمى وقتاً يوحنا وآخر داود يوحنا وانه كان ذا ايمان قويم ولو كان قد زاغ عن محجة الايمان الصحيح ما كان ذكره المطران كييرلس والمطران يعقوب وسمياه ابانا. وما كان وصفه المطران يعقوب بانه بار ومتمتع لله ومؤيد بالمسيح ولا طلب من الله ان يرحمه ببركة صلاته المقدسة ولو كان البطريك المذكور، وقد عامل على قتل كهنته كما تجنوا عليه ما كان قرظه هؤلاء الاساقفة الذين كانوا في ايامه وفي جملة اساقفته بهذه المذائح والنعوت السامية على ان الاضطهاد الذي جرى على بعض رؤساء الكهنة لم ينزله بهم بطريك بل هو ما قدمنا ذكره في هذا الفصل بسبب حملة ملك قبرص على الاسكندرية وقتل اهلها ونهب اموالهم.

عد ٤١

من عرفناهم من اساقفة الموارنة بهذا القرن

الاول بطرس اسقف بشري ذكره البطريك الدويهي في تاريخ سنة ١٣١٥م. قال انه كان قاطناً ومترساً على دير مار اليشاع بوادي نهر قاديشا، ومن ذلك يظهر ايضاً ان هذا الدير قديم وكان يسكنه رهبان واساقفة قبل ان يأخذ السكنى به الرهبان الحلبيون مؤسسو الرهبة اللبنانية. ثم ذكر الدويهي المطران بطرس المذكور

في تاريخ سنة ١٣٢٢ سندا الى ما كتبه الشماس سابا بن سليمان ابن الخوري جرجس من قنات على كتاب الانجيل الذي كان محفوظاً في دير مار ميخائيل شاريا بعنتورين.

الثاني بطرس اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٣٩م. فقال ان الاحداث التي ذكرها في تاريخ تلك السنة كانت في ايام رئاسة بطرس اسقف اهدن والقس سركيس رئيس دير مورت مورا باهدن ويظهر من هذا ايضاً ان دير مورت مورا باهدن هو اقدم كثيراً من سكنى الرهبان الحلبيين مؤسسي الرهبة اللبنانية به. وجاء ذكر المطران بطرس الاهدني المذكور في الخط المار ذكره الذي علقه القس يعقوب رئيس دير مورت مورا المذكورة على كتاب الانجيل الذي كان بكنيسة بجة سنة ١٣٣٩م.

الثالث جيورجيوس مطران قبرص ذكره العلامة السمعاني (في المجلد ٤ من المكتبة الشرقية صفحة ٤٣٣) نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية بقبرص الذي عقده اليا رئيس اساقفة الكلدان بهذه الجزيرة سنة ١٣٤٠م حيث يعد في جملة من شهدوا هذا المجمع جيورجيوس مطران الموارنة، ويصرح بأن كل من شهدوا هذا المجمع اقروا بأن الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن، وإن الاب الاقدس البابا بناديكتوس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض.

الرابع يوحنا اسقف قبرص ايضاً وقد مر ذكره في الخط الذي نقله الدويهي عن الكتاب القديم الذي كان في كنيسة القديس سركيس بحدشيت، وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧م في ايام البطريرك يوحنا، ويوحنا اسقف قبرص. وقد ذكره لكويان ايضاً في جملة من ذكرهم من اساقفة الموارنة.

الخامس يعقوب اسقف اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٣٦٦م وقال انه كان في جملة الاساقفة الذين قبض عليهم نائب السلطنة بدمشق وانه فر واستتر وكتب في استتاره سنة ١٦٦٧م كتاب الانجيل الذي كان باقياً الى ايام الدويهي في دير قنوين وهو سبعة وعشرون كراساً بالسرياني والكرشوني. وذكره ايضاً المطران اسطفان عواد السمعاني في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية في جملة التعليقات التي نقلها عن كتاب الانجيل الذي كان في بطريركية الموارنة ونقل الى المكتبة المذكورة. وقد كتب عليه في صفحة ٢٢: «نهار السبت

١٥ من ايار سنة ١٦٧٢ يونانية (توافق سنة ١٣٦١م) يوحنا ابن سركيس من قرية بلوزا اوقف لدير قنوين عن نفسه الكرم الفوقاني عند العين شهد بذلك يعقوب مطران اهدن والخورى سمعان» وجاء بعد ذلك خط آخر هذا هو بحروفه: «القس سمعان ابن الخوري عبد المسيح من داريا ذو الذكر الصالح اوقف لدير قنوين اربعة عشر عرق زيتون بقرب قرية كفرشخنا في حقل الزهرة سنة ١٦٧٣ يونانية (توافق سنة ١٣٦٢م) شهد بذلك بخط يده المطران يعقوب.

السادس الاسقف حنين ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم فقال انه بسبب حملة قبرص على الاسكندرية وبسبب حريق وقع في دمشق صدر الامر بالقبض على رؤساء النصارى فوقع من رؤساء كهنة الموارنة بيد نائب السلطنة بدمشق منهم يعقوب مطران اهدن المار ذكره والبعض الآخر فروا هارين كما ذكر عن الاسقف حنين فإنه سار في البحر الى قبرص، والبعض اختفوا ولم ينبئنا الدويهي من اين كان حنين واين كان اسقفاً.

السابع المطران يعقوب اللحفدي ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب رد التهم وقال انه نسخ كتاب التاموس للمطران داود الحدشيتي وذيله بالحاشية التي ذكرناها في الكلام على البطريك داود في الفصل السابق.

الثامن المطران بطرس في دير قنوين ذكره الدويهي مرات منها في تاريخ سنة ١٣٨٨م حيث روى ان الملك برقوق لما كان معتزلاً عن الملك زار قنوين وأحسن القس بطرس رئيس الدير استقبله فرقه البطريك داود الى الاسقفية واسكنه دير قنوين. ومنها في الخط الذي نقله عن الكتاب الذي نسخه الخوري دانيال الباني سنة ١٣٩٧م وكتب انه فرغ من نسخه في ايام البطريك داود. واذا كان بطرس مطراناً في دير قنوين ثم ذكره الدويهي في مقدمة المطارين الذين كانوا سنة ١٤٠٠م.

التاسع كيرلس اسقف جاج ذكره الدويهي في تاريخه في جملة الاساقفة الموارنة الذين كانوا سنة ١٤٠٠م وفي سلسلة بطاركة الموارنة إذا استشهد خطأً موقفاً عليه من هذا المطران وغيره يتبين منه ان البطريك داود بقي حياً إلى سنة ١٤٠٤م كما مر.

العاشر يعقوب من قنية اسقف لحفد ذكره الدويهي في جملة مطارين الموارنة

الذين كانوا في سنة ١٤٠٠م وقال فيه في تاريخ هذه السنة انه كان من قنيا وكان قاطناً بلحفد بدير السيدة المعروف بدير المرج، وانه اخذ عنه أخبار المجاعة التي كانت بسورية تلك السنة.

الحادي عشر بطرس ابن القس سمعان (وقال في تاريخ سنة ١٤٠٣م ابن الخوري سمعان) اسقف اهدن ذكره الدويهي في جملة الاساقفة الذين كانوا سنة ١٤٠٠م ويظهر انه بقي حياً سنة ١٤٠٤م إذ روى الدويهي ايضاً في سلسلة بطارقة الموارنة الخط الذي دونه كيرلس اسقف جاج والخوري اليشاع الناسك ومما قيل فيه انه في هذه السنة كان بطرس مطراناً على اهدن.

الثاني عشر داود بن جوسلين الحدشيتي وقد جاء ذكره في جملة اساقفة الموارنة سنة ١٤٠٠م. وفي الذيل الذي كتبه المطران يعقوب اللحفدي على كتاب الناموس الذي نسخه للمطران داود بن جوسلين الحدشيتي. وقد روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤١٩م ان هذا الاسقف توفي في السنة المذكورة في ١٦ شباط.

هذا ما أمكن التوصل إلى معرفته من اسماء هؤلاء الاساقفة الموارنة في القرن الرابع عشر.

مقالة ثامنة

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

عد ٤٢

بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في ايامهم كان حكام الموارنة في هذا العصر يسمون مقدمين ومن عرفنا شيئاً من اخبارهم في هذا القرن يعقوب ابن ايوب مقدم بشري، فقد ذكرنا قبلاً ان الملك الظاهر برفوق نصبه مقدماً على بشري. وروى البطريك اسطفانوس الدويهي في تاريخه انه بقي حاكماً إلى ان توفي سنة ١٤٤٤م وكانت مدة ولايته ٦٢ سنة وخلفه في

المقدمة اولاده المقدمون سيفا وقمر ومزهر وزين وبدر على ما في تاريخ الدويهي المطبوع بيروت. ولكن في النسخة الخطية التي لدينا من هذا التاريخ: «سيفا وهو زين (اي الملقب بزین) وقمر وهو بدر ومزهر واجروا العدالة في حكومتهم. فاستراح اهل البلاد في ايامهم كما كانوا في ايام والدهم.

وأما اولاد المقدم يعقوب فبعد وفاة اجددهم سيفا خلفه في المقدمة ابنه عبد المنعم الاول ثم توفي سنة ١٤٦٩م فخلفه رزق الله ابن اخيه جمال الدين بن سيفا ابن يعقوب، ثم توفي رزق الله هذا سنة ١٤٧٢م وخلفه ابن اخيه عبد المنعم الثاني ايوب بن عساف ابن جمال الدين. هذا ما رأيته في النسخة التي لدينا من تاريخ الدويهي. ونرى هذه الرواية اصح مما جاء في التاريخ المطبوع من ان وفاة رزق الله كانت سنة ١٤٦٢م دون ذكر ولايته ولا ولاية عبد المنعم الاول، ومع ذكر وفاته مرة اخرى سنة ١٤٧٢م. قال البطريق الدويهي أنه في ايام هؤلاء المقدمين استتبت الراحة بلبنان وكثر العمران وانشئت الكنائس والمدارس حتى كان في قرية الحدث ستمائة زوج بقر، وفي الحارة العليا من اهدن سبعون بغلاً. وقد احصينا اسماء من كانوا من النساخ في ذلك العصر ممن وقفنا على كتبهم فاذا هم ينيفون على مئة وعشرة نساخ. وفي ذلك الوقت اهملوا الخط الاسترانكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور، ولما ظهرت اخبار ما ساد بلبنان من الامن والراحة قصده كثيرون من البلاد البعيدة للسكنى فيه مثل اولاد جمعه الذين تركوا عين حليا وتوطنوا في بشري، واولاد ايليا واخوهما الشدياق جرجس اولاد الحاج حسن انتقلوا من نابلس إلى حدشيت، والقس يعقوب ورفقاؤه هاجروا من الحبشة وترهبوا في دير مار يعقوب باهدن، ولذلك سمي دير الاحباش اضافة اليهم.

وفي سنة ١٤٧٨م وقع الشقاق في جبل لبنان بسبب المقدم عبد المنعم ايوب المار ذكره، فإن عبد المنعم هذا تعلم القراءة في ايام عمه المقدم رزق الله عند كاهن يعقوبي، ولما توفي عمه وخلفه في المقدمة كان يتردد اليه تاجر اسمه موسى بن عطشه (كذا في نسخة تاريخ الدويهي التي لدينا، وكانت بيدي ذي الذكر الصالح البطريق بولس مسعد مصححة بيده لا عطية كما في طبعة هذا التاريخ). وكان موسى المذكور مغوياً بيدعة الطبيعة الواحدة وقد اشعر ان المقدم كان فاتراً في دينه فأرسل اليه هدايا مع قسوس يعاقبة بفرصة عرسه، وهم اكثروا من الهدايا له والتودد اليه، فأحبهم وبني لهم كنيسة بقرب داره على اسم برصوما. واتفق حينئذ ان اقدم

من القدس القس نوح البقوفاوي (الذي ذكرنا ترجمته وسكن في الفراديس بأرض قرية بان واغوى بعض الاميين في عقائد الايمان، واستهواهم الى التعلم والرهبانية عنده، منهم عيسى وابن شعبان من حردين وموسى واخوه حنا ابنا ابراهيم ابن الحاج موسى من بقوفا، وسيما وابنه جرجس من لحفد، وموسى من قرية موسى، ودس فيهم سم بدعة اليعاقبة وسعى بارتقائهم الى درجة القسوس على يد استاذه ديسقوروس اسقف بيت المقدس فصاروا يرسمون اشارة الصليب باصبع واحدة دلالة على الطبيعة الواحدة، ولا يذكرون في شمالية القديس إلا ثلاثة مجامع. ولما بلغ خبرهم إلى البطريرك بطرس الحداثي ارسل اليهم كهنة ورؤساء كهنة يهنونهم عن هذا الطغيان فلم ينتهوا وحمى جانبهم المقدم عبد المنعم والغرباء الذين قدموا من صفد ونابلس والحبشة، وعظم الشقاق في البلاد وتهدد المقدم عبد المنعم من اعترض لهم بالنفي من بلاده وضبط املاكه.

إلا انه في سنة ١٤٨٨م مل يعقوب اسقف اهدن واهلها من انذار القس يعقوب والاحباش القاطنين بدير مار يعقوب باهدن ليرعوا عن ضلالهم وعن بته بين العامة فلم يقلعوا عن غيهم، فرزقوا إلى درجة الاسقفية ابراهيم بن حبلس وانزلوه عليهم في الدير فلم يتحملوه ليحكم فيهم، فرحلوا إلى وادي حدشيت وجعلوا نفوسهم تحت حماية الشدياق جرجس ابن الحاج حسن، وأسكنوا في دير مار جرجس وسمي دير الاحباش اضافة اليهم، فشق امرهم على الشدياق جرجس الذي كان شيخ حدشيت وعلى المقدم عبد المنعم، ولما لم تكن لهم مقدرة على مناوأة اهل اهدن استنجدوا باولاد زعزوع مقدم بشناتا فجمع هؤلاء رجال الضنية وقصدوا اهدن في صباح الاحد، وعلم اهل اهدن بقدمهم فأقاموا لهم كميناً في حميناً، ولما نزل رجال الضنية من الجبل وثب عليهم الكمين فأهلك كثيرين منهم. وتبع اهل اهدن من بقي منهم فيهم الى مرجة تولا ولما علم اليعاقبة بذلك ضربتهم ايدي سبا وتشنت شملهم، وفر بعضهم إلى حردين وبعضهم إلى كفرحورا وبعضهم ساروا الى قبرص، وارتحل القس يعقوب ورفقاؤه إلى دير مار موسى في البرية.

وفي سنة ١٤٩٣م عاد جبرائيل ابن القلاعي اللحفدي من اوروبا اذ كان قد انضوى إلى رهبانية القديس فرنسيس سنة ١٤٧١م وارسلوه إلى احد اديارهم لاقتباس العلوم، وعند عودته اخذ ينصح ويعلم من كانوا على غير هدى او اميين،

ويخاصم من زاغوا عن الايمان ويندد بهم بخطبه ورسائله واشعاره. ومنها قصيدة لأهل بشري يقول فيها مخاطباً هذه القرية:

وانت من شار عليك حتى دخل يعقوب فيك
من تجديفه حل عليك غضب الله في ذاك الآن
فاذاً توبي يا حره واطردي الغربا إلى برا
ويعقوب جسمه يتهرى ومارون اقبله في الاحضان

ثم كتب في سنة ١٤٤٩م كتاباً سماه مارون الطوباوي وأنفذه إلى البطريرك سمعان الحداثي واساقفته يثبت فيه اتحاد الملة المارونية في كل وقت بالكنيسة الرومانية، ويفند زعم من قال ان الموارنة فرقة من اليعاقبة.

وفي سنة ١٤٩٥م توفي المقدم عبد المنعم ايوب فظهر ان الله عاجله بالمنية كيلا يتأصل الشقاق في جبل لبنان، وتولى المقدمة على بشري بعده ولده جمال الدين يوسف، وكان راسخاً في الايمان القويم وامراته اصلحت كنيسة مار حوشب في بقاعكفرا عندما خربت حنيتها.

وافادنا الدويهي ايضاً انه كان في العاقورة في اواسط هذا القرن خليل بن مقلد على العاقورة وبنى القبو الذي عند عين القرية وأقام فوقه برجاً.

عد ٤٣

بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر

فرغنا من الكلام في بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر بذكر البطريرك داود المسمى يوحنا، وقلنا انه توفي سنة ١٤٠٤م. قال لكويان ذكر الدويهي ان داود خلفه يوحنا العاشر وكان من جاج ولا يعلم هل خلفه بعد وفاته او فرغ الكرسي البطريركي زماناً طويلاً إلى ان انتخب يوحنا الجاجي المذكور. والمعلوم انه لما وصلت اليه رسالة البابا اوجانيوس الرابع للدعوة إلى المجمع الفلورنسي ارسل الاب جوان (يوحنا) رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت الى البابا يحقق له طاعته للكرسي الروماني وخضوعه لكل ما يسنه المجمع ويلتمس درع الرئاسة وتثبيتته في

بطيركية انطاكية على الموارنة. قال الدويهي (فصل ١١ من كتاب رد التهم) ان هذا البطريك كان قد تولى رئاسة الكرسي الانطاكي قبل انعقاد المجمع المذكور لكنه لم يستطع ان يستمد التثبيت من رومة بسبب ما كان من المخاوف والمخاطر على من يسافر بحراً ولعدم وجود من يحسن معرفة اللغات الفرنجية إلى ان حضر اليه الاب يوحنا المذكور، وأعلمه بنهاية مدة رئاسته وإزماعه على السفر إلى رومة فأوفده البطريك إلى الحبر الروماني ورفع اليه معه عريضة مشفوعة بعرائض أخرى من الاساقفة واعيان الملة يجاهرون فيها تثبيتهم بعري الايمان الكاثوليكي المقدس وبإذعانهم لكل ما يسنه المجمع ويلتزمون تثبيت بطيركهم. قال المطران جبرائيل ابن القلاعي في الكتاب الذي رفعه إلى البطريك سمعان الحداثي سنة ١٤٤٩م: «ان ايمانكم وخطوط ايديكم منذ مئتين وثمانين سنة وصاعداً محفوظة برومة وهي المرسلة على يد فراغريفون وفرا اسكندر وفرا سمعان ومن قبلهم على يد فرا يوحنا رئيس دير بيروت، ووكيل بطيرككم يوحنا الجاجي الى مجمع فلورنسة ومن قبله الخ» فتثبت البابا اوجانيوس يوحنا الجاجي في بطيركية انطاكية وأرسل اليه صحبة قاصده تاجاً ودرعاً. وقال المطران جبرائيل ابن القلاعي في ذلك:

يوحنا الجاجي كان بطريك اقتبل من البابا تاج وتبارك

بعث للمجمع ولم يتحرك وثبته لمارون في رعيان

ولما رجع قاصد البطريك، انحدر الشعب الى لقاءه في طرابلس بمسرة وابتهاج فتوهم نائب المدينة انه جاسوس من قبل الفرنج فقبض عليه وعلى رفقته وأودعهم السجن، وعرف البطريك ذلك وكان قاطناً بدير سيدة ميفوق في وادي ايليح من اعمال البترون فأرسل قوماً من اعيان الملة ليوقفوا النائب على الحقيقة ويزيلوا ما توهمه فأخرجوا القاصد ومن كان معه من السجن بكفالة، فصعد فرا يوحنا الى دير ميفوق وبلغ البطريك رسالة البابا والبسه درع الرئاسة ثم سار إلى بيروت فطلبه نائب طرابلس فلم يجده فحنق حنقاً شديداً وأرسل عسكرياً في جلب البطريك والكفلاء فانهزموا، فنهب العسكر الدير واحرقوا البيوت وقتلوا كثيرين، واخذوا البعض مقيدين بالسلاسل الى طرابلس ومنذ ذلك الحين هجر البطريك دير ميفوق وأقام بدير قنوين تحت حماية يعقوب مقدم بشري المار ذكره.

ثم دعا البطريك احد رهبان القديس فرنسيس اسمه بطرس من فرارا وارسله

الى البابا اوجانيوس في شهر آب سنة ١٤٤٠م، وكتب اليه معه رسالة ضمنها الشكر لتكرمه عليه بالتبشير وتحقيق طاعته وطاعة امته للكرسي الرسولي في كل وقت، والخبر عما جرى لهم عند وصول قاصده إلى طرابلس وما قاسوه من الاضطهاد لذلك، فأرسل اليه الخبر الروماني الجواب مؤرخاً في ثاني كانون الاول من سنة ١٤٤١م. وسنذكر رسالة البابا اوجانيوس هذه في محل اخر ثم توفي البطريرك يوحنا الجاجي في دير قنوين سنة ١٤٤٥م وهو اول من سكن دير قنوين من بطارقة الموارنة. وخلفه يعقوب الثاني الحداثي. قال لكويان نقلا عن البطريرك اسطفانوس الدويهي في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يوحنا الجاجي اجتمع الاساقفة ورؤساء الاديار واعيان الشعب في دير قنوين وانتخبوا يعقوب بن عيد من الحدث بطريكاً وكان منذ صغر سنه قد تربى في السيرة الملكية بمحبسة القديس سركيس شرقي دير مار يوحنا المعروف بدير مار ابون، وكان لرئيس هذه المحبسة الرئاسة على جميع الحبساء في جبة بشري. وبعد انتخابه ارسل قاصداً الى البابا اوجانيوس الرابع يسأله ان يمن عليه بتبشيره في البطريركية وبارسال درع الرئاسة. واتفق ان مات البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٤٧ فارسل اليه البابا نيقولاوس الخامس براءة التبشير وكانت محفوظة في دير قنوين في ايام البطريرك اسطفانوس الدويهي، وربما هي اليوم باقية في الكرسي البطريركي، وربما كانت هي البراءة التي روى الدويهي في تاريخه ان البابا نيقولاوس الخامس ارسلها سنة ارتقائه الى الخبرة الى هذا البطريرك يطلب اليه ان يدعو له وان يوصي شعبه ليقصدوا باسلافهم في المحافظة على الاتحاد بالكنيسة الرومانية، وانه إذا احتاج الى شيء فليستشر اندراوس اسقف الافقسية بقبرص فهو نائبه بهذه الجزيرة ثم توفي البطريرك الحداثي في ٨ شباط سنة ١٤٦٨م.

ومن التعليقات على كتاب الاناجيل القديم الذي كان في بطريركية الموارنة وهو الان في المكتبة الماديشية ما نقله المطران اسطفان عواد السمعاني عنه في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة المذكورة وهو بحروفه: «لما كان تاريخ سنة ١٧٧٣ من سنين اسكندر (سنة ١٤٦٢م) اوقف البطريرك يعقوب العصا البور للدير المبارك قنوين، وعن الاب البطريرك بطرس اي من خرجها من الدير المبارك، او قالها انها له او يرهنها او يبيعها يكون محروم مفروز مغضوب ومسخوط من الله ومن كرسي مار بطرس ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا». وورد ذكر هذا البطريرك

في خط اخر على هامش الكتاب المذكور صفحة ١٩ وهو بحروفه «لما كان تاريخ سنة ١٧٧٢ من سنين اسكندر اليوناني سنة ١٤٦١م) اوقف الخوري جرجس والخوري هلال القاطنين في دير حوقا اوقفوا من تعبههم وعرق جبينهم للدير المبارك سيدة قنوبين الدست الكبير وجعلوه تذكراً صالحاً عن أنفسهم في الدنيا والاخرة ورحمهم الله آمين... وكان الوقف في ايام ابونا ومعلمنا ورئيسنا وتاجنا ومديرنا البطريرك مار يعقوب الحداثي رحمه الله ويرحمنا في بركة صلاته آمين.

والنتائج من هذين الخططين ان البطريرك يعقوب الحداثي استمر حياً الى ما بعد سنة ١٤٦٢م لانه توفي سنة ١٤٨٥م كما في تاريخ الدويهي المطبوع. وفي النسخة المخطوطة التي لدينا وأظن ان المرحوم البطريرك بولس مسعد اغتر لهذه النسخة حتى جعل وفاة البطريرك يعقوب الحداثي سنة ١٤٥٨م ومثله طابع تاريخ الدويهي. واظن ايضاً نقل كلامه عن الدويهي ومع ذلك عين لوفاته سنة ١٤٦٨م كما ذكرناها عنه وايد رأينا الخططان المذكوران.

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك يعقوب اجتمع الاساقفة والرؤساء والاعيان فانتخبوا الاسقف بطرس بطريكاً وعرفه الدويهي في تاريخه بانه بطرس ابن يوسف ابن يعقوب الشهير بابن حسان. وقال في الفصل ١٣ من الاحتجاج انه كان اخا البطريرك يعقوب المتوفي وأرسل البطريرك والأساقفة، وفرا غريفون الذي قدما ترجمته الى البابا بولس الثاني يلتمسون اثبات البطريرك ومنحه درع الرئاسة. هذا ما رواه الدويهي ونقله عنه لكويان واردفه بقوله ان في كتاب وصف الارض المقدسة لكوارزيموس (في اخر المجلد ٢) رسالة من البابا بولس الثاني الى هذا البطريرك مفتوحة: «بولس الاسقف عبد عبيد الله الى الاخ المحترم بطرس بطريك الموارنة المسمى انطاكيّاً السلام والبركة الرسولية ان اله القوات القادر على كل شيء» الى ان يقول: «ولما كنا لا نشك في انك مستعد لقبول هذه التعاليم وغيرها من الاوامر الرسولية يدعة وطيبة خاطر قد اردنا اقتفاء بآثار اسلافنا الصالحين الذكر اينوشنسيوس الثالث وأوجانيوس الرابع ان نثبت انتخابك ونسميك ونرقيك الى رئاسة كنيسة الموارنة الانطاكية وان نؤيد كل ما كان قبلاً ونثبت جميع الحقوق والعادات الممدوحة الآتلة لنفعك ونفع اسلافك وفائدة الطائفة المارونية... ونسلم اليك الاهتمام بهذه الطائفة في الروحانيات والزمنيات.

اعطي برومة حذاء كنيسة القديس بطرس في شهر آب سنة ١٤٦٩م وهي الخامسة لحبرتنا.

ومن الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المذكور خط علق على صفحة ٢٠ منه وهذا هو بحروفه. «لما كان تاريخ سنة ١٨٠٤ يونانية (سنة ١٤٩٣م) اوقف الاب البطريك بطرس بن داود بن حسان من قرية الحدث البدلة الحمراء وايضاً العصاة والعكاز الفضة واوقفهم بعد موته عن نفسه لدير الست السيدة قنوين فأبي من يرهنهم او يبيعهم او يشتريهم او يخرجهم من الدير بغير رجعة تكون هذه الحرومات المذكورة حالة عليه وعلى هامته، ويكون ممنوع محروم مفروز مغضوب مسخوط من الله تعالى ومن كرسي مار بطرس رئيس التلاميذ ومن جميع الكراسي ومن حقارتنا. وشهد على ذلك الاب المطران جرجس من جاج شهد بذلك الاب الخوري سمعان ابن عميد من قرية الحدث. شهد بذلك الاب الخوري يعقوب من قرية الحدث شهد بذلك العبد الحقير كاتبه دانيال.

قال لكويان توفي البطريك بطرس في ١٢ شباط سنة ١٤٩٢م والذي في تاريخ الدويهي انه توفي في ١٢ تشرين الاول سنة ١٤٩٢م ولا تعلم اي الروايتين هي الاصح والظاهر من الخط المذكور انه لم يكن حياً سنة ١٤٩٣ لان البطريك بن داود هو البطريك سمعان الآتي ذكره لا بطرس بن يوسف الذي كان قد توفي قبلاً.

وفي اليوم التاسع بعد وفاة البطريك بطرس اجتمع الاساقفة وانتخبوا خلفاً له الاسقف سمعان الحدثي ابن داود بن يوسف بن حسان الحدثي وهو ابن اخي البطريك بطرس، وبعد انتخابه بطريكاً ارسل يطلب تثبيته وفصل الدويهي ذلك في الفصل الخامس عشر من كتاب رد التهم عن الموارنة فقال ان هذا البطريك لم يفتقر بعد انتخابه بطريكاً من ارسال الرسائل إلى رومة يطلب تثبيته على يد الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس، ونائب الباباوات اسكندر السادس ويوس الثالث ويوليوس الثاني ولاون العاشر، وعلى يد الاب ارسان والاب اسكندر من رهبان القديس فرنسيس اللذين كانا قد حضرا الى البطريك، إلا انه لم يأتيه الجواب بسبب ما كان حيثئذ من اخطار السفر بحراً، والحروب في بلاد الشام، وتعاقب الباباوات في مدة يسيرة. ففي سنة ١٥١٣م ارسل البطريك كاهناً اسمه بطرس الى

الاب مرقس رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت يستلم منه عن وقت عود السفن الراسية في مرفأ بيروت الى اوربا ليرسل معها رسالة يطلب بها التثبيت. فعند وصول القس بطرس إلى بيروت كانت تلك السفن متحفزة للسفر وقد رفعت اناجرها فاقنع الرئيس القس بطرس ان يسافر الى رومة مع تلك السفن ودفع اليه كتاباً الى البابا لاون العاشر اخبره به ان الامة المارونية هي من اقدم الايام مطيعة للحبر الروماني في كل شيء، وان بطريركها ارسل عدة دفعات يطلب التثبيت فلم يتيسر له نيله، وذكر له اضطرار سفير البطريرك ان يسافر بغتة. وسأل ولما لم يستطع ان يجيب البابا وآل مشورته عما سئل عنه ارجعوه إلى بيروت برسالتين احدهما إلى البطريرك والثانية الى رئيس رهبان القديس فرنسيس في بيروت وانتخابهم البطريرك، وهل عندهم براءة او رسائل من الاحبار الرومانيين السالفين.

وفي بداية سنة ١٤١٤م عاد القس بطرس الى لبنان وأرسل البطريرك يخبر الاب فرنسيس سوريانوس والاب مرقس رئيس دير بيروت بما كان فساد الاب فرنسيس الى قنوين وصحب معه ترجماناً فترجم رسالة البابا الى العربية وكتب البطريرك الجواب مشيخاً إلى البابا فترجم الى اللاتينية. قال الدويهي ونسخة هذا الجواب اللاتينية لم تزل مصونة عندنا إلى الآن وهي تتضمن اولاً الاقرار بأن الله واحد مثلث الافانيم وان كلمة الله تجسد وتألم ومات وقام في الجسد الذي اخذه من مريم. ثانياً ان انتخاب البطريرك الجديد يكون باجتماع رؤساء الكهنة واعيان الشعب. ثالثاً انهم يقدسون الميرون على الطريقة القديمة. رابعاً شرح الرتب البيعية والحلل الكهنوتية وما تشير اليه. خامساً ان جميع البطارقة الذين سلفوا قبله كانوا خاضعين لصاحب الكرسي الروماني مع شعبهم كافة. سادساً طلب التثبيت لنفسه مع بدلة كاملة وصليب وخاتم ووجه للمذبح واربعة دروع للشماسة على شبه التي ارسلها قديماً البابا اينوشنسيوس الثالث ثم اوجانيوس الرابع. سابعاً ان يرسل حيناً بعد حين رجالاً فضلاء علماء لافتقاد الموارد وتوثيق عرى الاتحاد بينهم وبين الكنيسة الرومانية. ثامناً ان يمنع اسقف الفرنج في قبرص عن التعدي على اوقاف الموارد في هذه الجزيرة. تاسعاً ان يوصي حكام قبرص من البنادقة ان يعاملوا بالركة واللين من لجأ اليهم من النصارى. عاشراً ان يكتب رسالة الى المقدم الياس المدعو عساف بن يوسف من بشري لتكون له الغيرة على جماعته اهل لبنان. حادي عشر ان يمنح بعض الغفارين الكاملة للموارنة تنشيطاً لهم وانهاضاً لهمتهم في بناء الكنائس.

ثم بعث البطريك مع قاصده إلى الحبر الروماني ست براءات من البراءات التي ارسلها اسلافه إلى بطاركة الموارنة اعني براءة البابا اينوشنسيوس الثالث الى البطريك ارميا في سنة ١٢١٥م، وبراءة البابا اسكندر الرابع الى البطريك شمعون سنة ١٢٥٦م، وبراءة اوجانيوس الرابع الى البطريك يوحنا الجاجي سنة ١٤٣٩م، وبراءة البابا نيقولاوس الخامس الى البطريك يعقوب الحدثي سنة ١٤٤٧م، وبراءة البابا كاليستوس الثالث الى البطريك المذكور سنة ١٤٥٥م، وبراءة البابا بولس الثاني الى البطريك بطرس الحدثي سنة ١٤٦٤م. وكانت عريضة البطريك مؤرخة في ٨ من اذار سنة ١٥١٥م. وكتب الاب سوريانوس ايضاً الى الحبر الاعظم مصادقاً على ما عرضه البطريك من صحة عقيدتهم وثبوتهم في الايمان الكاثوليكي.

وسار القس بطرس راجعاً إلى رومة ورفع الى البابا لاون العاشر ما كان معه من الرسائل فسُرَّ بها واجاب البطريك في اليوم الاول من آب سنة ١٥١٥م وبما قاله في جوابه: «قد سررنا وطابت نفسنا بتلاوة رسائلك وسماعها وامتلاً فؤادنا طرباً لا يوصف، فترتب علينا ان نمجّد الله تعالى ونشكره بمجموع قوانا على ما اولاكم من نعمه وسوابغ آلائه لانه اصطفاكم من بين كنائس المشرق لتعبوده بايمان وصانكم في بهرة الكفر والبدع كما صين الورد بين الشوك ليتمجد اسمه بين غير المؤمنين، وقد تشبّتم بعادات الكنيسة الجامعة الرومانية وبرتبها بنقاوة لا ريب فيها ولم تزيغوا عن الايمان بالمسيح بسبب الضيم والضعف والاضطهاد الذي يلم بكم على ما علمنا من كتابكم، ورسالة الاب فرنسيس سوريانوس واثبته في البطريكية، وأرسل اليه مع القس بطرس المذكور درع الرئاسة وأوصاه ان يكون للموارنة مكان الراس وهم مكان الاعضاء، وامره ان لا يستعملوا في الميرون إلا الزيت والبلسم، كما تسلمت الكنيسة من الرسل الاطهار وكما تعهد قديماً البطريك ارميا في ايام اينوشنسيوس الثالث ان يكون تقديس الميرون كل سنة يوم خميس الاسرار، وان يعتقدوا ان الروح القدس ينبثق من الاب والابن كمن مبدأ واحد، وان يتناولوا القربان الاقدس ولو مرة في الفصح. وأرسل تاجاً مرصعاً وغفارتين احدهما قرمزية والاخرى مخملية حمراء وبطراشيلين، وغطاً للمذبح من مخمل احمر مزركش وستاراً للكرسي، وزناراً من حرير وقميصاً، وبعث ايضاً لشمامسته مدرعتين ممرعتين ومدرعتين حمراوين مزركشتين.

ثم كتب لاون العاشر اليه رسالة اخرى في اول ايلول من السنة المذكورة اعلمه

فيها انه ارسل كتاباً الى ليونندروس امير البندقية اوصاه فيه بالموارنة القاطنين بقبرص وكتاباً اخر الى المقدم الياس الماروني يوصيه فيه بالغيرة على امور الدين وبالاجتهد على نجاح طائفته، وكتاباً آخر الى مطران الافقسية ينهاه به بأمر الطاعة على الاعتداء. وكتب اعلاماً عاماً في ان الكنيسة المذكورة وسائر اوقاف الموارنة بقبرص يكون وليها بطريك الموارنة، وان من اعتدى عليها يسقط بالحرم، وان كان المعتدي اسقفاً فيكون مربوطاً. ثم منح غفراناً كاملاً مؤبداً لكل من يزور كنيسة الكرسي البطريركي في عيد انتقال العذرا وعيد ميلاد يوحنا المعمدان وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد ارتفاع الصليب إذا اعترف وتناول القربان الاقدس واحسن بشيء الى الكرسي البطريركي، وفوض المعرفين ان يحلوا من الخطايا المحفوظ حلها للرؤساء وان يذبلوا النذور باعمال اخرى صالحة ما خلا نذري العفة ودخول الرهبانية. وعاد القس بطرس بهذه المنح الى البطريرك فكان ذلك موجباً للسرور والابتهاج للبطريرك والملة جمعاء.

وفي السنة المذكورة انتهت مدة رئاسة الاب يوحنا من رهبانية القديس فرنسيس على دير بيروت فتوجه الى البطريرك سمعان الى قنوين وأقام عنده بضعة ايام، فأرسل البطريرك معه الى رومة الخوري يوسف وراهبين ليتعلما اللغة اللاتينية والعلوم وصحبهم برسالة الى البابا فبلغوا المدينة العظمى حين انعقاد الجمع اللاتراني الخامس فتليت رسالة البطريرك بالعربية ثم ترجمتها الى اللاتينية في الجمع، ودونت في اعمال المجلس الحادي عشر منه، وأمر البابا بأن ينزلوا عند الكردينال ستاكروس عند كنيسة مار اغوستينوس، وعند ما طلب الخوري يوسف ان يقدر امر الكردينال بأن يفحص كتاب القداش فلم يوجد في رومة من يحسن اللغة السريانية إلا رجل اسمه تاسيوس امبروسيوس كان يعرف هذه اللغة بسبب مخالطته للعبرانيين. هذا ما رواه الدويهي في كتاب الاحتجاج وكان قد روى في تاريخه ان تاسيوس المذكور درس السريانية على قصاص البطريرك، والعبرانية على رجل يهودي حينئذ اخذ الاوروبيون يدرسون السريانية.

ولما توفي البابا لاون العاشر سنة ١٥٢١م وخلفه البابا اوربانوس السادس ارسل البطريرك شمعون اليه القس موسى العكاري رئيس دير حوقا والراهب الياس بن زرزور الحداثي ناظر املاك دير قنوين، فحلاً برومة عند الكردينال. برندينوس سنتاكروس اسقف استيا، ثم رفعها الى البابا عريضة البطريرك فتقبلها البابا بالبشاشة

والدة الله يحل عليه. شهد بذلك المطران جرجس، والخوري سمعان والخوري يعقوب». وهناك خط آخر: لما كان تاريخ سنة ١٨٢٢ يونانية (توافق سنة ١٥٢١م) انقطع حجر طاحون بقرية بان وانتقل إلى طاحون دير قنوين وكلف مائة غرش بأيام ابينا بطرس (سمعان) البطريك الانطاكي والمطارين يعقوب الحداثي وجرجس. والا يخفى على القراء ما في ذكر هذه الخطوط من الفائدة في اثبات بطريركية البطريك سمعان المذكور وتعيين مدتها فضلاً عن الفكاهة بذكر هذه الامور القديمة.

عد ٤٤

من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر

نعرف من هؤلاء الاساقفة

الاول: المطران بطرس ابن الخوري سمعان من اهدن كان مترئساً على هذه البلدة في سنة ١٤٠٤م ذكره البطريك اسطفانوس الدويهي في تاريخ هذه السنة.

الثاني: المطران سمعان من قرية مشمش من عمل جبيل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٤٠م وقال انه سار مع البطريك عند انتقاله من دير ميفوق الى دير قنوين عندما جعل هذا الدير كرسيًا لبطريركية الموارنة.

الثالث: المطران الياس أسقف الموارنة بقبرص ذكره كثيرون منهم الدويهي. وعند اتحاد الروم بالكنيسة الرومانية في المجمع الفلورنسي اوفد الكاهن اسحق نائباً عنه الى البابا اوجانيوس الرابع، فسار تيموتاوس اسقف الكلدان الذي كان قد ارعوى عن بدعة النساطرة إلى الايمان القويم، فأثبت تيموتاوس ارتجاعه إلى الايمان الكاثوليكي باليمين، وحلف اسحق نيابة عن مطرانه الياس اليمين التي يحلفها رؤساء الكهنة في الكنيسة الرومانية على صحة ايمانهم وخضوعهم للكرسي الرسولي، فتوهم بعضهم ان المطران الياس والموارنة الساكنين بقبرص كانوا هراطقة وارعوا عن ضلالهم. وسنفرد لرد هذه التهمة الفصل التالي.

الرابع: المطران يعقوب نائب البطريك بطرس بن حسان الحداثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٥٨م وقال انه كان قائماً بمعاودة البطريك المذكور، وهو غير المار ذكره في احد الخطوط المثبتة آنفاً.

الخامس: المطران داود ابن المقدسي حنا ابن الاسقف داود الحديشي ذكره الدويهي ايضاً في تاريخ السنة المذكورة، وقال انه كان بمعاوضة البطريرك المذكور. وروى عنه في تاريخ ١٤٦٦م حصول قحط ومجاعة بسبب امحال الزروع مدة سنتين لطول القيظ، وان كان ذلك في ايام الملك الظاهر خشقدم المار ذكره.

السادس: المطران بطرس مطران اهدن ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٤٧٢م، ولا نظنه المطران بطرس ابن الخوري سمعان الذي روي انه كان مترسماً على اهدن سنة ١٤٠٤م، بل هو بطرس آخر توفي سنة ١٤٣٧م.

السابع: المطران يعقوب ابن رئيس اهدن (كذا في النسخة المخطوطة وفي تاريخ الدويهي المطبوع). سكن بدير مار سركيس رأس النهر وهو الذي طرد الرهبان اليعاقبة الاحباش من دير مار يعقوب اهدن.

الثامن: المطران يعقوب اسقف بشري ذكر الدويهي وفاته سنة ١٤٧٣م ايضاً. التاسع: المطران حزقيال وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا، وورد اليه رسالة من البابا خوسطوس الرابع في تاريخ ١١ ايار سنة ١٤٧٤م وتوفي سنة ١٤٨٩م. العاشر: المطران سمعان بن داود بن يوسف الحديشي رقاہ عمه البطريرك بطرس الحديشي الى اسقفية العاقورة واليموني سنة ١٤٨٠م، وسكن بدير قنوين ثم خلف عمه البطريرك بطرس كما مر.

الحادي عشر: المطران سمعان بن ظريفة، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٢م وقال انه انتقل من المنيطرة الى العاقورة من جور المستراحية الذين تقووا بالمنيطرة وعزلوا اولاد قصاص من المشيخة.

الثاني عشر: المطران ابراهيم بن حبلص من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٤٨٨م قائلاً: ان المطران يعقوب اسقف اهدن واعيانها سعوا بترقيته الى الاسقفية وانزلوه على الرهبان الاحباش اليعاقبة المقيمين بدير يعقوب اهدن حتى رحلهم عنه.

الثالث عشر: المطران يوسف اسقف بشري، روى الدويهي في تاريخ سنة ١٤٩٨م انه توفي حزقيال اسقف بشري الذي قدمنا ذكره، وخلفه في هذه الاسقفية المطران يوسف.

الرابع عشر: المطران جرجس صدقني من مزرعة الحدث.

الخامس عشر: المطران يوحنا المسمى بالقرنجي.

السادس عشر: المطران تادروس العينطوري.

السابع عشر: المطران يوسف القبرصي.

ذكر الدويهي هؤلاء جميعاً في تاريخ سنة ١٤٩٤م وقال انهم كانوا مع المطارين يعقوب الاهدني وابراهيم بن حبلص ويوسف اسقف بشري وداود الخدشيتي المار ذكرهم رجال ديوان البطريرك سمعان اذ قدم لهم جبرائيل بن القلاعي كتابه في ثبوت الموارنة الدائم على الايمان الكاثوليكي وروى ان المطران تادروس المذكور الذي كان مقيماً بدير السيدة بعنتورين توفي في ٢٩ من شهر اذار ١٥٠٠م وتسلم الدير تلميذة القس وهبه.

وقد عثرنا ايضاً على اسم المطران جرجس من جاج في الخطوط المعلقة على كتاب الاناجيل المحفوظ الآن في المكتبة الماديشية منها الخط الذي ذكرناه في الكلام على البطريرك سمعان الحدثي حيث ذكر من شهود وقفه لدير قنوين المطران جرجس من قرية جاج. وكذلك جاء ذكره بمنزلة شاهد في الخط المنبئ بشراء هذا البطريرك الزيتون في الحدث سنة ١٤٥٩م، وفي الخط الاخر المؤرخ في سنة ١٥٢١م. وجاء في الخطوط المعلقة على صفحة ٢٢ من الكتاب المذكور ذكر شهادة المطران في وقف سركيس من سرعل بستناً لدير قنوين سنة ١٤٩٦م ولا تعلم اهو المطران سمعان بن ظريفه المار ذكره ام هو مطران آخر؟

عد ٤٥

تفنيد رأي من زعم ان الموارنة واسقفهم الياس مطران قبرص

رجعوا الى الايمان في ايام البابا اوجانيوس الرابع

قد مر في عد ٩٥١ ان البابا اوجانيوس الرابع ارسل اندراوس رئيس اساقفة رودس الى الشرق بعد نقل الجمع الفلورنسي من فلورنسا الى رومة لتثبيت من اتحدوا بالكنيسة الرومانية في الجمع ودعوة من لم يتحدوا الى الاتحاد، وان اندراوس اتى الى قبرص فرد تيموتاوس مطران الكلدان من بدعة نسطور الى الايمان

الكاثوليكي، فتلا دستور ايمانه بحضرة اندراوس المذكور، وان الياس مطران الموارنة في هذه الجزيرة تلا دستور ايمانه ايضاً، ثم سار تيموتاوس إلى رومة وارسل المطران الياس اليها كاهناً اسمه اسحق لينوب عنه لدى البابا اوجانيوس في تقرير ايمانه الكاثوليكي. وبعد وصولهما إلى رومة كرروا تلاوة دستور ايمانها وحلفا على صحته سنة ١٤٤٤م بمجلس عقد في لاتران، فتوهم بعض المؤرخين ان المطران الياس والموارنة سكان قبرص وقتئذ كانوا ضالين ضلال مكاريوس بأن في المسيح مشية واحدة وفعلاً واحداً فارعوا عنه حينئذ وجاوز بعضهم حد كل اعتدال وصدق، وتوسعوا من البعض إلى الكل، فزعموا ان الموارنة اجمعين اقلعوا في ذلك الحين عن بدعة المشية الواحدة فنفتد زعم هؤلاء مبرئين اولاً ساحة الملة المارونية من كل ضلال واقلعهم عنه في ذلك الحين. ثانياً تبرئة ساحة الياس مطران قبرص الماروني وشعبه القبرصي من الضلال.

تبرئة الملة المارونية من ذلك

قد رأيت في عد ٩٥٣ ان البطريك يوحنا الجاجي الذي عقد المجمع الفلورنسي في ايامه ارسل الى البابا اوجانيوس الاب يوحنا رئيس دير رهبان القديس فرنسيس في بيروت مصحوباً بالرسائل منه ومن اساقفته واعيان شعبه يجاهرون فيها بتشبههم بعري الايمان الروماني وباذعانهم لكل ما يتقرر في المجمع المذكور ويلتمسون منح البطريك درع الرئاسة والتثبيت، فتوجه بها الاب يوحنا المذكور وقدم الرسائل الى البابا اوجانيوس المذكور سنة ١٤٣٩م وهو في المجمع بفلورنسا، فأثبت البابا البطريك وأرسل اليه مع قاصده درع الرئاسة وتاجاً، وعاد الاب يوحنا بذلك سنة ١٤٤٠م فاستقبله الموارنة باحتفال في طرابلس، فتوهم نائب المدينة ان القاصد جاسوس، فحبسه ومن كان معه، فكفله بعض ابناء الملة واخرجوه من السجن. ثم طلبه النائب فلم يحضر فارسل عسكرياً إلى ميفوق حيث كان البطريك فقتل ونهب ونكل فدعا البطريك الاب بطرس من فرارا من الفرنسيين وارسله إلى البابا في شهر آب سنة ١٤٤٠م مصحوباً برسالة ضمنها شكره للبابا على ما انعم عليه به من التثبيت واخباره بما كان عند وصول قاصده الاب يوحنا، فاجابه البابا اوجانوس

برسالة اثبتها برمتها البطريك اسطفانوس الدويهي في الفصل الحادي عشر من كتابه رد التهم عن الموارنة ونحن نلخصها هنا عنه .

«اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله إلى الاخ المحترم يوحنا بطريك الموارنة السلام والبركة الرسولية قد اطلعنا على ما كتبتموه لنا في شهر آب الفائت صحبة الولد العزيز الراهب بطرس من الاخوة الصغار ونظرنا فإذا نعمة الهنا وسيدنا يسوع المسيح معكم لقبولكم تعاليم ايمانه بكل رضى واختيار ولكم رجاء وطيد في الكرسي الرسولي وفي كل من يتولى، فالاله الضابط الكل يفيض نعمه عليكم وعلى الشعب الذي تحت طاعتكم، وكما كان الخضوع سبباً لانتظام الفضائل التي تمدحون عليها فلتكن طاعتكم ايضاً لكل ما نكتبه اليكم لتمثلوا حكمة ونعمة، ولا يكفي ان تسلكوا بها انتم وحدكم بل ان تقودوا ايضاً الشعب والامم الاخرى في تلك البلاد والاعمال القاصية الى الحياة الدائمة بامثال افعالكم. ولما لم يمكننا ان نبين لكم كل شيء في كتابنا هذا ارسلنا اليكم الولد العزيز الراهب انطونيوس من طورية من الرهبانية المعروفة بالاخوة الصغار (من رهبان القديس فرنسيس) وجعلناه رفيقاً لولدنا الراهب بطرس من فرارا وهما يشرحان لكم كل ما تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية. ولا يكفي ان تقبلوها وان تكونوا متحدين بالكرسي الرسولي بل ان تقووا نفوسكم ايضاً على الثبات والمحاربة لاجل الايمان لتنالوا الاكاليل، ولم نقل ذلك لريبة لنا في ثباتكم وثبات ملتكم بل لاننا علمنا انكم استقبلتم قصادنا وظهرتم بهجة ومسرة زائدة حتى اغتصبتم اعداءكم عليكم فقبضوا على البعض من رؤساكم وقتلوا البعض وصبرتم على ذلك بشهامة كبرى وضح فيكم قول الرسول انكم صبرتم على نهب اموالكم بفرح عظيم ويتحتم علينا في مخاطبتنا لكم ان نبين ما تستحقون عليه من الثناء والثواب، وإذا فعلتم ما ذكرناه وكنتم مستعدين للعمل به استشرتم في قلبكم بفرح جزيل من اجل الهبات العظيمة المنحدرة عليكم من لدن الله» .

كتب بفلورنسة سنة ١٤٤١م لتجسد المخلص في اليوم الثاني عشر من كانون الاول وفي السنة الحادية عشرة من حبريتنا.

ثم ان الموارنة سكان اورشليم وفلسطين رفعوا عريضة إلى البابا اوجانيوس الرابع سنة ١٤٣٨م عصابة الاب البرتس من الفرنسيين ايضاً يبينون بها تشبههم بعري

الايان الكاثوليكي وخضوعهم لكل ما يرسمه المجمع المذكور فأجابهم البابا بالرسالة الاتية وقد اثبت البطريرك الدويهي ترجمتها برمتها في الفصل الثاني عشر من كتابه في رد التهم عن الموارنة ونقلناها عنه مصلحين قليلاً العبارة العربية.

من اوجانيوس الاسقف عبد عبيد الله إلى الابناء المحبوبين الموارنة المقيمين باورشليم وجوارها وسائر بلاد المشرق السلام والبركة الرسولية.

«المجد لله في العلا وعلى الارض السلام والمسرة لبني البشر ذوي الارادة الصالحة. يحسن بنا ايها الابناء الاعزاء ان نهتف هتاف الفرح بنفس مبهجة يختلط ابتهاجها بابتهاج الملائكة إذ نبشركم بالسرور غير الموصوف الذي شمل جميع المسيحين، فان عقلنا ترطب بندى التعزية الالهية وفؤادنا تهلل بالرب ونرى نفسنا عاجزة عن وصف ما نشعر به من السرور وطمأنينة الخاطر، فنقتصر على ترديد اصوات التسبيح والحمد والشكر فان ما كنا نطلبه ونجد في نيله ان نرقى الى ذروة هذه الرئاسة قد نلناه برحمة الله ألا وهو زوال ذلك الشقاق المديد المبيد الذي وقع مذ اربع مئة وخمسين سنة بين الكنيستين الغربية والشرقية، ونحن مع إننا بذلنا كل ما في وسعنا لاصلاح هذه الشؤون فينبغي ان نعزو ذلك كله إلى جودة الله غير المتناهية، فكل ما يكون بغير امداده ومعونته فهو باطل اننا منذ ارتقائنا إلى الحرية لم نأل جهداً بل كنا ندأب ونكد حتى يسر الله اتحاد الكنيسة الشرقية بالغربية، فبعد ان وجهنا رسائل كثيرة إلى جهات مختلفة قدم الينا في العام المنصرم ولدنا المحبوب بالمسيح يوحنا باليالوغوس ملك الروم، واخونا ذو الذكر الصالح يوسف بطريرك قسطنطينية، ونواب بطاركة الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس، ورسل ملوك دربيزون واتيباريا والروس والفلاخ مع رؤساء كهنة واكليروس داراكنه وخلق كثير، وهم مقيمون على نفقتنا إلى هذا اليوم ولارتياحهم إلى هذا الاتحاد المقدس عرضوا نفوسهم للمشاق الباهظة ومخاطر البحر وحضروا إلى هذا المجمع المسكوني، وسألونا ان يكون الثامه بايطاليا ليتيسر لنا ان نشهده بنفسنا، واقبلوا على البحث والجدال بغير خصومة، اهتممنا بأن نجتمع من كل صقع علماء ضليعين بالشرائع الالهية والبشرية ليبينوا الحق لطالبيه. ولما حصحص الحق بمعونة الله بنصوص الكتب الالهية واقوال الآباء الاطهار الموثوق بكلامهم من اللاتين يينثق من الآب والابن معاً، وسلموا بطيبة خاطر ان سلطان الكنيسة الرومانية والكرسي المقدس الذي احتقره بعض الناس وافتروا عليه هو الاجل الاعظم، واقرأوا ايضاً باقي الحقائق كما واضح.

في المرسوم الموقع عليه المرسل اليكم مع الابن العزيز وكيلكم فرا البرتوس من الاخوة الصغار، وهو يخبركم عن كل ما كان مفصلاً، ويحق لنا ان نفتخر بالرب ونعلن انه قد جرى في عصرنا امر لم تر البيعة الكاثوليكية اعظم منه ولا افضل منذ تبشير الرسل، ولم تقف معجزات الله عند هذا الحد بل ان الله برحمته الغزيرة اطلع لنا سماء اخرى واسعة الارحاء ليتمكن شمس البر الذي ولد في الشرق من ان يسطر اشعته إلى ظلمة الكفر لينتشر خلاص الرب الى اقصى الارض، ويمجد الجميع بقم واحد وروح واحدة الهنا وانا ربنا يسوع المسيح. وها نحن متوقعون يوماً بعد يوم قدوم من وجهنا اليهم رسلنا، وبلغتنا البشرى ان طائفة كبرى من الارمن اشرق عليها ضياء الحق وهم مستعدون لطاعة الكنيسة الرومانية والكرسي الرسولي بكل شيء والاذعان لسننه وتعاليمه من غير تردد. فالان ايها الابناء الاعزاء قد ترتب علينا ان نقدم لله سيد الجميع قربان التسبحة والابتهاج من اجل النعم الغزيرة التي نلناها من كرمه وما برحنا نرجو غيرها. وكما اشركتم معنا بالفرح فاشتركوا معنا في اداء الشكر لجودة الله والتنافس بذلك امام كل مسيحي. والحمد على ما اولى من الخير واسألوه تعالى ان يتمم عمله الذي جعل يده على يدنا». كتب بمدينة فلورنسا سنة ١٤٣٩م في السابع من حزيران وهي التاسعة من حبريتنا.

فمن يا ترى يصدق ان البابا اوجانيوس الرابع يكتب الى الموارنة مثل هذا الكلام إذا كانوا غير خاضعين له قبلاً او رجعوا حديثاً إلى طاعته حيث لا إشارة الى رجوعهم ولا إلى قبولهم بل اقتصر الى تبشيرهم باتحاد الروم ورجائه باتحاد غيرهم، وكلفهم ان يشكروا الله معه وان يذيعوا ذلك عند جميع المسيحيين فضلاً عن ان رسالته مؤرخة سنة ١٤٣٩م، وخصماء الموارنة يزعمون انهم رجعوا إلى الايمان الكاثوليكي سنة ١٤٤٢. فكيف يوفقون هذا التناقض؟

وقد مر ان البطريرك سمعان الحداثي ارسل إلى البابا لاون العاشر صحيفة قاصده ست براءات من اسلافه تبين تشبث الموارنة بعرى الايمان الكاثوليكي، ومن هذه البراءات براءة من اينشنوسيوس الثالث بتاريخ ١٢١٥م، واخرى من البابا اسكندر الرابع مؤرخة سنة ١٢٥٦م، يتبين منهما جلياً ان الموارنة كانوا خاضعين للكرسي الرسولي قبل اوجانيوس الرابع بأعصر بل كانوا دائماً كذلك. وهذه البراءات الست

المذكورة وغيرها لم تزل الى اليوم محفوظة في خزانة بطريركية الموارنة، وهي تُخجل وتُفحم كل مكابر عنيد ولا حاجة إلى زيادة البيان في رد هذه التهمة لظهور بطلانها بما قدمناه، وفي مواضع كثيرة من هذا التاريخ وغيره، بل نأتي الى بيان انها لا تصدق ايضاً على الياس مطران الموارنة بقبرص وعلى رعيته فيها.

تبرئة الياس مطران قبرص والموارنة ساكنيها من هذه التهمة

لا ننكر ان البابا اوجانيوس الرابع كتب في براءته المفتوحة: «تبارك الله ابو ربنا يسوع المسيح» المؤرخة في سنة ١٤٤٥م عن كلامه في اندراوس رئيس اساقفة رودس ان اندراوس هذا هدى الى الايمان القويم تيموتاوس ومطران طرسوس الذي كان بقبرص وكان نسطورياً يعتقد ان في المسيح اقنومين وان العذرا لا تسمى والدة الله وانه رد الى الهدى الياس مطران الموارنة الذي كان مع جماعته بقبرص ملوثاً بضلال مكاريوس ان في المسيح مشيئة واحدة، وأنه جمع هؤلاء في كنيسة القديسة صوفيا كنيسة كرسي تلك الجزيرة فاقروا بالايمان الكاثوليكي جهاراً، ثم ارسل تيموتاوس المذكور والقس اسحق تلميذ الياس مطران الموارنة الى رومة فجحد تيموتاوس ضلال نسطور، واسحق ضلال مكاريوس في كنيسة لاتران برومة. ولا ننكر ايضاً ان المطران الياس جحد تعليم مكاريوس وافر بالايمان الكاثوليكي في كنيسة القديسة صوفيا بقبرص وكذلك فعل تلميذه القس اسحق برومة لكننا نقول ان اندراوس مطران رودس عند بلوغه إلى قبرص ومخاطبته تيموتاوس والياس الاسقفين ورؤيته انهما مستعدان للاقرار بالايمان الكاثوليكي انشأ لهما دستور الايمان الذي يلزم كلاً منهما ان يقرأ به جهاراً وباحتفال. ولما كان يعلم ان تيموتاوس نسطوري ضمن الدستور الذي اعد له جحود بدعة نسطور، ولعلمه من كتاب غوليلموس اسقف صور ان الموارنة كانوا يعتقدون المشيئة الواحدة ضمن الدستور الذي للمطران الياس الماروني جحود بدعة مكاريوس بطريرك انطاكية الذي كان مغوياً ببدعة المشيئة الواحدة، فتلا كل منهما في الكنيسة الدستور الذي اعد له اسقف رودس، وكتب الى البابا اوجانيوس انه هداهما إلى الايمان القويم، فاعتر البابا بما كتبه في براءته المذكورة. على ان اقرار المطران الياس لم يكن احداثاً لجحوده بل تقريراً او تجديداً له.

ولنا على اثبات ما قلناه ادلة بينة وحجج راهنة منها أولاً بدعة المشيئة الواحدة لم يبق لها من قرون قبل التاريخ المذكور قوام مستقل او انصار يقولون بها وحدها بل استمرت عند اليعاقبة لانها نتيجة لازمة من اعتقادهم الطبيعة الواحدة. وقد صرح بذلك السمعاني في مقالته في اصحاب الطبيعة الواحدة (مجلد ٢ في المكتبة الشرقية) وكثيرون غيره، وهؤلاء اليعاقبة يسمون مذهب الموارنة بدعة. تخص منهم بالذكر ابن العبري الذي قدمنا قوله بذلك، وقد صرح باعتقاده المشيئة الواحدة في المسيح فلا يعلم كيف امكن موارنة قبرص واسقفهم الياس ان يجددوا بدعة المشيئة الواحدة ويقولون بقول مكاريوس ان في المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة، وليس من قائل انهم كانوا يعاقبة. ثانياً اننا نعلم حق العلم ان الموارنة بقبرص كانوا متحدين مذهباً بإخوانهم في لبنان وخاضعين لبطريرك الملة وقد رأيت تواتر المكاتبات بين الاحبار الرومانيين وبطاركة الموارنة في تلك المدة ولا نجد أثراً في تقليدات ملتنا او خيراً في كتب المؤرخين ان موارنة قبرص او اسقفهم زاغوا عن الايمان وخلعوا طاعة بطريركهم وقد ذكرنا في تاريخ القرن الرابع عشر نقلاً عن اعمال مجمع نيقوسية الذي عقده البطريرك اساقفة الكلدان في هذه الجزيرة سنة ١٣٤٠م ان جيورجيوس مطران الموارنة يقبرص كان في جملة من شهدوا هذا المجمع وكانوا جميعاً كاثوليكين وأقروا في مجمعهم ان الكنيسة الرومانية هي ام جميع الكنائس ومعلمتهن، وان الاب الاقدس البابا بناديكتس الثاني عشر هو خليفة بطرس الطوباوي نائب المسيح في الارض. وقد ذكرنا ايضاً هناك يوحنا اسقف الموارنة بقبرص اعتماداً على خط نقله البطريرك الدويهي عن كتاب كان في كنيسة القديس سرقيس بحدشيت وقد علق عليه انه نسخ سنة ١٣٥٧م في ايام البطريرك يوحنا مطران قبرص. وعليه فاسلاف الياس كانوا كاثوليكين وهو لا نجد أثراً ولا خيراً يبين لنا انه جدد بدعة المشيئة الواحدة التي لم تبق إلا عند اليعاقبة، ولا يؤخذ قطعاً من براءة اوجانيوس المذكور انه كان يعقوباً.

ثالثاً قد روى هوراس يوستينيان في كتابه في اعمال المجمع الفلورنسي ان اوجانيوس الرابع امر ان ينقش على باب كنيسة القديس بطرس في صحائف من نحاس ذكر الامور الهامة التي جرت في ايامه، فنقش على تلك الصحائف: «هذا لذكر اوجانيوس الحبر الاثيل ونفسه السامية وعلمه المنيف ان الروم والارمن والحش واليعاقبة امنوا على يده ايمان رومة العظمى». وكتب على قبره بكنيسة القديس

بطرس المذكورة بعد وفاته. «بعنايته اتبع الروم والاحباش والارمن آثار الكنيسة الرومانية بأسرار الايمان ثم السريان والعرب الى تخوم الهند، وهذه عظام صغيرة بالنسبة الى نفسه السامية. ولا نرى في هاتين الكتابتين ذكر للموارنة بالعموم او لموارنة قبرص واسقفهم بالخصوص مع ان الملل المذكورة فيهما لم يرجع إلا قسم منها.

رابعاً الاب غريغون الشهير كتب سنة ١٤٦٩م رسالة من رومة الى الموارنة ومما قاله فيها: ان الموارنة الذين يبلاد الفرنج ورودس وقبرص وطرابلس وبيروت والقدس الشريف ما برحوا منذ الزمان القديم الى هذا اليوم يدخلون كنائس الفرنج وقيمون القداس على مذابحهم ويلبسون حللهم ويستعملون قربانهم ويرفعون الجسد والدم مثلهم ويرسمون الصليب على وجوههم كما يرسمه الفرنج ويعترفون عند كهنتهم ويتناولون من يدهم القربان الاقدس ويقبلون هداياهم كالتاج وغيره». وقال مثل ذلك الاب فرنسيس سوريانوس رئيس اديار القدس المذكور انفاً وكلاهما عهد اليهما عدة من الباباوات النيابة عنهم عند الموارنة وعاشراهم وعاشا بين ظهرانيهم سنين متطاولة بأثر ما كتب عن المطران الياس وموارنة قبرص، وقد صرحا أن الموارنة فيها يعملون كل ما ذكره منذ قديم الزمان أيسمح الفرنج في قبرص وكان حكامها حينئذ من امراء البندقية بأن يقدس كهنة الموارنة وهم هراطقة على مذابحهم، او جاز لكهنة الفرنج ان يناولوا من كانوا ملطخين ببدعة مكاريوس.

خامساً ان كثيرين من مشاهير المؤرخين الفرنج كبارونيوس ويوحنا مورينوس وغيرهما الذين كانوا انخدعوا بقول غوليتموس ان الموارنة ارعوا سنة ١١٨٢م عن الضلال اثبتوا انهم لم ينفكوا بعد ذلك البتة عن الاتحاد بالكنيسة الرومانية عامتهم وخاصتهم، ونخص بالذكر من هؤلاء القديس انطونيوس اسقف فلورنسا الذي كان معاصراً للبابا اوجانيوس الرابع لهذه الاحداث إذ توفي سنة ١٤٥٩م، فانه قال ان الموارنة جحدوا الضلال على يد ايميريكوس بطريرك انطاكية، وهم الى الآن متشبثون بالايمان الكاثوليكي و متمسكون بتقليدات الكنيسة الرومانية بحرص بليغ. فلو كان المطران الياس وموارنة قبرص ملطخين في البدعة الى سنة ١٤٤٤م وعادوا الى جادة الحق في أيام هذا الأسقف القديس لما أهمل ذكرهم ولما قال ان الموارنة متشبثون الى الان بالايمان الكاثوليكي الخ...

سادساً ان الامثل والاقرّب الى الصواب ان نقول ما قاله كثيرون من علمائنا

الأفاضل وهو ان اندراوس اسقف رودس لما رأى المطران الياس والموارنة القبارصة مستعدين للاقرار بالايان الكاثوليكي، وتوهم انهم من اصحاب بدعة المشيعة الواحدة انشأ لهم دستوراً للايمان ليتلوه ويحلقوا عليه ففعل ذلك المطران الياس بقبرص فكتب اندراوس كما توهم الى الخبر الروماني وما كان إدراك ما كانت تلك الايام وجهل الشرقيين لغة الغربيين، وجهل اللغات الشرقية، فكتب البابا اوجانيوس الرابع ما كتبه مغترأ باخبار قاصده، ولم تكن هذه الدفعة الوحيدة التي ترى بها مثل هذا الوهم بل جرى مثل ذلك مع بطرس كردينال كنيسة القديس مرشولوس عند ما رجع الروم على يده في طرابلس، وقدم الموارنة دستور ايمانهم حينئذ فتوهم انهم هراطقة ولم يميزهم عن الروم في ما كتبه الى البابا اينوشنسيوس الثالث فكانت براءته الى بطريك الموارنة سنة ١٢١٥م غير مميزة بينهم وبين الروم، وكذلك جرى لموارنة القدس إذ جددوا اقرارهم بالايان على يد ايميريكوس بطريك انطاكية الى غير ذلك.

وقال الاب ايرونيوس دنديني اليسوعي في فصل ١٨ من كتاب بعثته الى لبنان سنة ١٥٩٦م. «ان براءات الاحبار الاعظمين انما كتبت على النمط الذي نراها به من قبل الاخبار غير الصحيحة التي بلغتهم، وإذ كنت انا اعلم ذلك تمزيت هذا الامر وامعنت فيه ودققت في فحص كتبهم (اي كتب الموارنة) فرأيتها لا تضاد العقائد الكاثوليكية البتة. ولما لم يدقق غيري في فحص الكتب بالاجتهاد والامعان اللازمين كان لا بد من ان تعزى إلى الموارنة في براءات الاحبار الرومانيين اغلاط متنوعة. ولبيان الحقيقة بياناً جلياً يلزم أن تلاحظ أن جميع البراءات المعزوة فيه أغلاط الى الموارنة نسخت حرفاً فحرفاً عن براءة اينوشنسيوس الثالث. وكلام البابا في هذه البراءة ليس على الموارنة وحدهم بل على الروم ايضاً، فانهم عادوا حينئذ في طرابلس إلى طاعة الكنيسة الرومانية وقدم الموارنة في ذلك الوقت صلح تمسكهم بطاعتها الى كردينال كنيسة القديس مرشولوس وهو بطرابلس اذ كان قاصداً رسولياً في الشرق فكان ذلك سبباً لنسبة اغلاط طائفة الى اخرى. وقال مثل هذا المقال غير دنديني من علماء اللاتين ومرهج ابن نيرون الباني في مقالته في الموارنة والسمعاني في المكتبة الشرقية. ويمكن القول بمثل ذلك براءة اوجانيوس الرابع المذكورة. ويؤيد ذلك قول العلامة البابا بناديكتوس الرابع في رسالته الى نيقولاوس لركاري المؤرخة في ٢٨ ايلول سنة ١٧٥٢م، وهو قد اثبت الموارنة انهم

لم ينحرفوا قط عن محجة الدين الكاثوليكي ولم ينفصلوا عن الكنيسة، وزادوا على ذلك انهم كانوا جددوا اتحادهم بالكنيسة الرومانية وقتاً ما، فلا ينبغي ان يتأول ذلك بمعنى انهم غادروا الدين الكاثوليكي ثم عادوا اليه.

وجاء في كتاب اسطفانوس عواد السمعاني في محاماته عن يوحنا السرومي وهو يوحنا مارون، ان الياس مطران قبرص كان يروم التملص من سلطة بطريرك الموارنة والاستقلال بسلطته محتجاً بما خوله المجمع الافسسي (في عمل ٧ قسم ٢) لمطارنة قبرص من الاستقلال عن بطريرك انطاكية في ترقية اساقفتهم الى الاسقفية، فحسب منشقاً عن بطريركه ومتحداً مع تيموتاوس مطران النساطرة، فالجئ الى ان يتلو دستور ايمانه بحضرة اندراوس رئيس اساقفة رودس. ومهما يكن من امره فهو فرد ورعيته في قبرص فريق يسير من الموارنة، فمن لا يقنعه كلما اوردناه من الادلة لا يسوغ له ان يعيب الملة كلها بعمل بعض افرادها، كما لا تعاب الكنيسة اللاتينية بالكثيرين الذين خرجوا عن طاعتها وعصوها.

لا نشاء ان نختم هذا الفصل دون ان نذيله بما كتبه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٣) متكلماً في براءة البابا اوجانيوس الرابع في شأن اقرار تيموتاوس مطران الكلدان واسحق قاصد الياس مطران قبرص على الموارنة بالايمان حيث ذكر السمعاني فقرة من البراءة المذكورة قال فيها البابا: «لا يجسرُّ احد من الشعب والاكليروس من الآن وصاعداً ان يدعو مطران الكلدان واسقف الموارنة المذكورين وشعبيهما واكليوسهما هراطقة او ان يسمى الكلدان نساطرة، ومن خالف امرنا هذا نأمر اسقفه ان يحرمه الى ان يصنع الترضية الكافية أو يغزَم بجزاء آخر زمني يراه الاسقف». واردف السمعاني ذلك بقوله: انظر الى الفرق الذي وضعه البابا بين اسمي الموارنة والنساطرة. فلما كان الموارنة لم يأخذوا اسمهم عن مبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة فقط. واما النساطرة فلما كانوا اخذوا اسمهم عن نسطور المبتدع نهى عن ان يسموا هراطقة ونساطرة، وهذا ما راعاه باجيوس إذ كتب عن الموارنة في تاريخ سنة ٦٣٥م عد ١٣ «بل ان تسمية هذا الشعب نفسها موارنة ينتج منها انهم لم يسموا بهذا الاسم نسبة الى مارون مبتدع، فإن العادة المستمرة في الشرق والغرب ان الهراطقة الذين يرجعون الى الايمان الكاثوليكي ان كانوا غربيين كاللوتاريين والكلونيين دعوا كاثوليكين، وان كانوا شرقيين فإن كانوا يعاقبة دعوا سرياناً وان نساطرة تسموا كلداناً ويفهم بذلك انهم سريان كاثوليكيون

وكلدان كاثوليكيون.... واما الموارنة فهذا كان اسمهم دائماً، والاحبار الرومانيون يسمونهم به من ايام البابا اينوشنسيوس الثالث او يسمى بطريركهم بطريرك الموارنة الانطاكي. والنتائج من ذلك نتجاً لازماً ان هذا الاسم دل دائماً على شعب كاثوليكي». انتهى كلام باجيوس.

مقالة تاسعة

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

عد ٤٦

بعض حكامهم وأعيانهم في هذا القرن

كان في هذا القرن كثيرون من مقدمي الموارنة ومشايخهم يلون قومهم من قبل ولاية دمشق أو طرابلس أو غزير وما يليها. وقد ذكرنا في تاريخ القرن الخامس عشر أنّ المقدّم عبد المنعم الثاني مقدّم بشري توفي سنة ١٤٩٤م وخلفه ابنه يوسف، ثم توفي يوسف وخلفه ابنه المقدّم الياس بن يوسف المذكور. ونرى البطريرك اسطفانوس الدويهي روى في تاريخ سنة ١٥١٤م أنّ البطريرك سمعان الحداثي التمس من البابا لاون العاشر في جملة ما التمس منه أن يكتب رسالة إلى المقدّم الياس بن يوسف من بشري ليكون غيوراً على قومه أهل جبل لبنان. وروى في تاريخ سنة ١٥١٥م أنّ الحبر الروماني أنفذ الرسالة المطلوبة إلى المقدّم الياس المذكور وحثّه بها على أن تكون له العناية بأمر الدين الكاثوليكي واليقظة لسياسة ملّته. ثم توفي المقدّم الياس سنة ١٥١٩م ولم يكن له إلاّ ولد قاصر اسمه يوحنا. فتغلّب على المقدمة كمال الدين بن عبد الوهاب المعروف بابن عجرة من قيطو، وتزوج بست الملوك ابنة الشيخ علوان بن قمر من بشري، وكانت ذات ثروة عظيمة فبنى برجاً بقيطو وحكم الجهة الشمالية من البلاد. ويظهر أنّ بشري والجهة الجنوبية

لبثت بعهدة المقدم يوحنا، وسُمِّي عبد المنعم أيضاً. ففي سنة ١٥٣٧م كان اجتماع بيلوزا، ولما قدم مقدم بشري يوحنا المذكور لم يرد ابن عجرمة أن يلاقه أو يقف عند دخوله، فطعنه المقدم يوحنا بالرمح فقتله ودُفن بقيطو شرقي كنيسة مار سركيس. وفي سنة ١٥٤٧م كان مقتل المقدم عبد المنعم يوحنا فإن ست الملوك أرملة ابن عجرمة رغبة في أخذ ثأر زوجها استدعت إليها حماده رئيس الحمادية الذين أتوا من بلاد العجم إلى قهمز بلبنان، واتفقت مع نصارى ملكية من عين حليا فأكمنوا للمقدم في خارج داره، ولما خرج سحراً وثبوا عليه وقتلوه، ودخل الملكية الدار وقتلوا أولاده. وما انتشر الخبر حتى أسرع أهل بشري في طلب القتاتين فأدركوهم في محل يسمى الحرائص فقتلوا حماده وبعضاً من رفاقه. وانقرضت بمقتل يوحنا هذا ذرية المقدم سيفاً، وانتقلت إلى ذرية قمر، وسمي المقدمون من ذرية قمر العناحلة نسبة إلى عين حليا، لأن رجلاً من عين حليا اسمه عز الدين تزوج بنت حسام الدين بن أيوب بن قمر مقدم من بشري سنة ١٤٣٠م، فولد منها حسام الدين، وهذا رُزق أربعة أولاد هم: موسى ورزق الله، وداجر، وعاشينا. ولما انقرضت سلالة سيفاً أخذ هؤلاء الولاية على جبة بشري. ويظهر أن الذي أخذ الولاية منهم هو رزق الله، إذ روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٧م أن رزق الله هذا مقدم بشري كان حاضراً مع البطريك وثمانية مطارين ونحو أربعماية كاهن في تقديس الميرون يوم خميس الأسرار من السنة المذكورة. وروى في تاريخ سنة ١٥٧٠م أن رزق الله هذا كان قد تولّى المقدمة من قبل الأمير منصور بن عساف، وكان مجتداً في تعمير البلاد وجباية مال الحكومة، وكانت فتنة بينه وبين أخيه عاشينا لأن عاشينا لم يكن حسن السيرة بل كان يسطو على الناس وينهب ويقتل فحنق عليه أخوه المقدم رزق الله وأنبه أشد التأنيب فرحل إلى حصرون وكان متزوجاً بامرأة منها وأخذ يهدد أخاه بالقتل، فأصلح البطريك ما بينهما وأعاد عاشينا إلى البرج الذي كان قد بناه في أسفل بشري، لكنه لم ينكف عن طريقته السيئة ونفرت القلوب منه. وشكى إلى نائب طرابلس بأنه شلح قفلاً في المسيقة فأراد رزق الله أن يستريح من شره فدبر على قتله، ودعاه إليه إلى البرج الذي في أعلى القرية وكان قد تأمر مع رجال من الضنية على قتله، وكمّنوا له في البرج، ولما دخل إليه اغتالوه. وسمع البطريك فأتى إلى بشري وحرم رزق الله على مسمع الجمهور. وطلب صاحب القفل إلى المقدم أن يردّ له ما سلب منه، فثبّرأ من ذلك فدعاه إلى

الحكمة ونزل المقدّم إلى طرابلس مع مشايخ القرى للمحاسبة على الخراج . وحضر إلى القاضي فلم يقدّم صاحب القفل بيّنة ولا شاهداً، فتأجلت الدعوى إلى اقامة بيّنة . ثم عاد المقدّم بعد مدة إلى طرابلس ورقبه صاحب القفل حتى دخل الحمام فرشا الحارس في الحمام، وختّم طرف عمامة المقدّم بسمة بضاعته ، ولما خرج من الحمام أمسكه بيده وقال لا يحق لك يا مقدّم أن تأكل مال المسلمين . وأخذه إلى أمام القاضي وأراه سمة بضاعته على عمامة المقدّم فحكم القاضي عليه فربطوه في ذنب حصان وجزّروه حتى قضى أجله وهو بريء من تلك التهمة .

وبعد مقتل المقدّم رزق الله تولّى المقدمة سنة ١٥٧٣م أخوه داغر وعساف بن موسى أخيهما من قبل الأمير منصور بن عساف ، وأرسل الأمير رجالاً قتلوا موسى وداود ابني شلندى من بشري حمي المقدّم رزق الله ، وقيل أنهما عملاً على قتل صهرهما، وخاف أقارب بني شلندى فنزلوا إلى طرابلس وشكوا المقدّم داغر بأنه تسبب بقتل نسيبهم ، فطّيب نائب طرابلس خاطرهم . ولما أرسل جابي المال إلى بشري أمره بقتل المقدّم داغر، وبعد أن جبى مال القرية ركب حصانه وطعن المقدّم داغر برمح فقتله . ثم إنّ الأمير منصور عساف قتل المقدّم عساف ابن أخي داغر، وولّى على جبة بشري أبا سلهب القريعي . وكان ذلك مخالفاً لرضى أبي منصور حبّيش مدبر الأمير منصور . وفي سنة ١٥٧٤م وقعت النفرة بين أبي سلهب القريعي المذكور وأنسابه وبين البشرانية ، وقتل القريعي رجلين من بشري عند العين التي تحت بقاعكفره ، وقُدّمت الشكوى إلى الأمير منصور فعزل الأمير منصور أبا سلهب القريعي بتدبير الشيخ أبي منصور حبّيش عن مقدمة الجبة، وولّى مكانه مقلد ابن الياس ، وأشرك معه في الولاية الشدياق يوسف أبا رعد المعروف بخاطر ابن الشدياق شاهين الحصري من بيت مشروق . وأما اهدن فكان ثلاثة شمامسة يدبرون أمورها .

وفي سنة ١٥٧٩م قُدّمت الشكوى إلى الباب العالي على الأمير منصور عساف بقتله ابن شعيب حاكم طرابلس ، وامراء فتقا غيرهم فأمر السلطان بجعل طرابلس باشاوية لكسر شوكة الأمير منصور وجعل يوسف باشا ابن سيفا التركماني والياً عليها . فطلب المقدّم مقلد والشدياق خاطر فهرب الأمير مقلد إلى جهة الشوف فمات هناك وله صبي اسمه جمال الدين يوسف ، وبنت اسمها ست البنات . على أنّ يوسف باشا رضي عن الشدياق خاطر وكاتبه وأمنه وأعادته إلى

ولاية جبة بشري، وجعل الشدياق باخوس بن صادر الحدشيتي شريكاً له في الولاية. وتوفي الشدياق باخوس المذكور سنة ١٥٩٤م وخلفه ابنه الشدياق فرج في تدبير جبة بشري مع الشدياق خاطر.

وقد اشتهر بهذا العصر الشيخ حبيش بن موسى بن عبدالله بن مخائيل، فإنه انتقل من قرية يانوح بعياله إلى غزير بعد أن دَوَّخ السلطان سليم الأول العثماني سورية ومصر وأمنهما، وولّى الأمير عساف على كسروان وبلاد جبيل، فأقام الشيخ حبيش بغزير عند الأمير عساف، وكان له ثلاثة بنين يوسف ومهنا وسليمان. وتوفي الأمير عساف ١٥١٨م وتوفي بعده ابنه الأمير حسن فكان يوسف وسليمان ابنا حبيش مدبري حكمه. ثم قتل الأمير قيتبيه (قايديه) ابن الأمير عساف الأمير حسن والأمير حسين أخويه ببيروت، وقبض على يوسف وسليمان ابني حبيش وحبسهما ثم نفاهما إلى مصر. ثم توفي الأمير قيتبيه بن عساف وخلفه الأمير منصور ابن أخيه حسن فردّ الشيخين يوسف وسليمان ابني حبيش إلى خدمته سنة ١٥٢٣م. ولما حنق حمد آغا بن شعيب حاكم طرابلس على الأمير منصور، أرسل الأمير إليه سنة ١٥٢٨م ابني حبيش وعبد المنعم الآتي ذكره، فقتلوا ابن شعيب وألحقوا به ابنه في جامع طيلان بطرابلس وأصلحوا نفوسهم مع القاضي فحكم أنهم أبرياء. وقد مرّ ذلك.

ولما توزع القشلق (ضريبة للحكومة وقال بعضهم يراد به زمرة من الجند) على ولاية الشام سنة ١٥٧٢م وأصاب جبة بشري منه واحد وعشرون ألف سلطاني، وقيمة السلطاني ثلثا القرش، وأصاب دير قنوين منه مائتا سلطاني، وضبطت الحكومة الدير، فاستفكه البطريك ميخائيل الرزي بعناية الشيخ أبي منصور حبيش وهو الشيخ يوسف المذكور على ما يظهر. ولما حصل القتال بين القرعية وبين أهل بشري عني الشيخ أبو منصور حبيش بعزل القرعية عن حكومة الجبة، وولّى عليها مقلد بن الياس كما مرّ. وتوفي الشيخ أبو منصور يوسف حبيش سنة ١٥٨٣م وخلفه في تدبير ولاية غزير أخوه الشيخ أبو يونس سليمان. ولما قتل يوسف باشا سيفاً الأمير محمد العساف وتزوج امرأته، قبض يوسف باشا على سليمان حبيش المذكور وعلى منصور ابن أخيه مهنا وقتلها سنة ١٥٩٣م وهرب ولدهما يونس وحبيش إلى الشويفات ملتجئين إلى الأمير محمد بن جمال الدين التتوخي. هذا ما ذكره العلامة الدويهي في تاريخه ونقله عنه الشيخ طنوس الشدياق في تاريخ

الأعيان . وفي ذلك نظر فإن كان الشيخ يوسف والشيخ سليمان حبش انضويا إلى خدمة الأمير عساف سنة ١٥١٨م فلا بد أن كان عمرهما حينئذٍ نحواً من عشرين سنة على الأقل ، فيتعسر تصديق الرواية أن الشيخ سليمان خاصة عاش ثلاثة وتسعين سنة . وأظن أن في النسب خطأ وأن أبا منصور يوسف وأبا يونس سليمان هما غير يوسف وسليمان ابني حبش اللذين خدما الأمير عساف سنة ١٥١٨م والله أعلم .

وكان من أعيان الموارنة وحكامهم في هذا القرن مالك ابو الغيث ذكره البطريك الدويهي في تاريخ سنة ١٥٢٣م، فقال كان متكلماً على العاقورة أي حاكماً بها . وكان صاحب همة واقدام وسار إلى دمشق ولبث بها مدة، فاغتنم المتاوله فرصة غيابه وانتقلوا من حراجل إلى قرية تدمر التي فوق يانوح فعمروها واستوطنوا بها . وعلم بذلك الشيخ مالك فحمل عليهم وطردهم من هناك ، وأخذ كل ما كان لهم إلى العاقورة . وروي في تاريخ سنة ١٥٣٤م أنه كان فيها خصام بين مالك شيخ العاقورة وهو من غرض اليمنية ، وبين هاشم العجمي . فكبس مالك جبة المنيطرة مرتين وأحرق قراها ، واتفق أهل هذه القرى ومن كانوا من حزب القيسية في العاقورة وأكمنوا للملك في طريق الجرد فقتلوه غيلة ، فسار حنش وحرفوش أخوا مالك إلى دمشق يشكون إلى نائبها، فكتب إلى الأمير منصور عساف أن يقبض على الغرماء ويرسلهم إليه ، فأرسل الأمير منصور عبدالمنعم ابن عم هاشم ومعه رجال وأخو مالك للقبض على هاشم وقاتلي مالك . فانهزم هاشم إلى الأمراء الحرافشة لائذاً بهم فخانوه بسعاية عبد المنعم ابن عمه، إذ تعهد لهم بقتل الأمير منصور عساف وتسليمهم اقطاعاته ، فاغتالوا هاشماً ورموه في بئر عند الكرك يسمى باسمه . ووجس أهل العاقورة وفز القيسية منهم إلى طرابلس واليمنية إلى دمشق ، وخلت العاقورة من السكان سبع سنين . وقد ذكرنا ذلك في عدد ٩٦٠ .

وأما هاشم العجمي الذي ولاه الأمير منصور عساف على بلاد جبيل وابن عمه عبد المنعم الذي جعله دهقاناً على أمواله ، وبنى له داراً في غزير قُتل فيها كما مرّ في العد المذكور من كتابنا هذا . فلا نظن أنهما كانا من الموارنة وإنساب آل هاشم في العاقورة إلى هاشم المذكور لا نراه صحيحاً، بل ترى الأظهر ما نقلناه في العدد المذكور عن خط الصالح الذكر الشهير بمعرفة الانساب البطريك بولس مسعد وهو

أن نسبة هؤلاء المشايخ إنما هي إلى هاشم أحد أبناء الشيخ أيوب ابن الشماس توما الآتي ذكره .

الشيخ أيوب ابن الشماس توما من العاقورة ذكره العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٥٣٤م فقال وأما الشيخ أيوب وأخوه فضول ابنا الشماس توما فسكننا عند دير القديس أدنا كرسي أسقفية العاقورة وساعدهما الله على تعمير قريتهما ، ونالا أمراً من نائب دمشق بأن يجمعاً سكانها (الذين كانوا قد تشتتوا كما مرّ) وأن يكونا مشايخ فيها . وولد لأيوب ثلاثة بنين وهم هاشم المار ذكره وضاهر ورعد وأشهرهم هاشم جد آل هاشم ومشايخ العاقورة .

وفي سنة ١٥٤٥م انتقل الشدياق سر كيس الخازن من قرية جاج ببلاد جبيل إلى قرية البوار بالفتوح لاستحواذ الأمن والراحة في ولاية الأمير منصور عساف ، ثم انتقل من البوار إلى قرية بلونه بجوار عجلتون . وتوفي الشدياق سر كيس سنة ١٥٧٠م وله ابنان أبو صقر ابراهيم وأبو صافي رباح . وفي سنة ١٥٨٤م توفي الأمير قرقماز المعني في مغارة جزين منهزماً من أمام ابراهيم باشا والي مصر الذي كان السلطان قد أرسله للتنكيل بولاية لبنان لاتهامهم بسلب خزينته في جون عكار . فأرسلت أرملة الأمير قرقماز ابنيها الأميرين فخر الدين ويونس إلى بلونة مع الشيخ كيوان الماروني من دير القمر فخبأهما عند الشيخ أبي صقر ابراهيم الخازن ابن سر كيس . ولما انصرف ابراهيم باشا عاد الأميران فخر الدين ويونس إلى اعبيه عند خالهما الأمير سيف الدين التنوخي ، ولما بلغا أشدهما ردهما خالهما إلى ولاية أبيهما بالشوف فتذكرا معروف الشيخ ابراهيم الخازن ، ودعاه الأمير فخر الدين إليه وجعله مديراً لحكومته وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه في آخر هذا القرن سنة ١٦٠٠م ، فكان ذلك سبيلاً إلى تقدّم الأسرة الخازنية في المناصب كما سوف ترى .

الشيخ كيوان الماروني هذا من دير القمر كان مديراً لحكومة الأمير قرقماز ابن الأمير فخر الدين الأول . ولما توفي الأمير قرقماز سنة ١٥٨٤م عني كيوان بتخبئة ولديه فخر الدين ويونس عند الشيخين ابراهيم ورباح الخازن كما مرّ . ولم نعلم شيئاً آخر من أمر هذا الرجل .

الشيخ يوسف بن شكيان الحصاراتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٣٢م ،

فقال عبد الساتر الكردي حاكم البترون قصد أن يعصر الأمير منصور بن عساف فجهز له الأمير أربعين رجلاً قتلوه وألحقوا به أباه ، ووُلِّي مكانه يوسف بن شكيان الحصاراتي وصرفه ببلاد البترون لاشتهاره بالنزاهة والعدل والشجاعة .

ومن نكبات الموارنة في هذا القرن قتل جثم غفير منهم في قبرص عند فتح العثمانيين لها سنة ١٥٧٠م . فقد أنبأنا الدويهي في تاريخ السنة المذكورة أنّ الذين قُتلوا من الموارنة حينئذ كانوا نحو ثمانية عشر ألفاً ، وكان اثنا عشر ألف رجل منهم قد اعتصموا بقرية اسمها كاليباسي على قمة الجبل ، فحلفوا لهم إذا استسلموا إليهم لم يضربوا بهم ، بل يردون إليهم قراهم ويولونهم عليها ، فلما نزلوا إليهم قتلوه عن آخرهم فكان عدد قتلى الموارنة حينئذ ثلاثين ألفاً .

والنكبة الثانية أنه لما وزع القشلق على بلاد الشام سنة ١٥٧٢م وأصاب أهل جبة بشري منه واحد وعشرين ألف سلطانني كناية عن أربعة عشر ألف قرش ، فأكثر جباة هذه الضريبة من الصرامة والقسوة على الأهلين حتى اضطر كثيرون منهم إلى الفرار ، وخلت قراهم من السكان . وذكر الدويهي من هذه القرى سبعل وبنهران ومتريت والناووس وأدنيت وكفرفو وراس كيفا وسرعل ونيحا وحيرونا وبرحليون ورشديين وبقرقاشا .

عد ٤٧

بطارقة الموارنة في القرن السادس عشر وأولاً في البطريرك موسى العكاري

فرغنا من الكلام على هؤلاء البطارقة في القرن الخامس عشر بذكر البطريرك سمعان الحداثي ووفاته في أواخر شهر تشرين الثاني سنة ١٥٢٤م . وفي الحادي عشر من كانون الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة وأعيان الاكليروس والشعب وانتخبوا موسى بن سعادة من قرية الباردة بعكار ، وكان راهباً في دير السيدة بحوقا ، وكان البطريرك سمعان الحداثي سالفه قد أرسله سنة ١٥٢٢م إلى البابا أديانوس السادس . وبعد عودته رقاها إلى الأسقفية كما مرّ . وقال فيه العلامة السمعاني (في المكتبة الشرقية مجلد ١ صفحة ٥٢٢) نقلاً عن تاريخ الدويهي :

«إنه كان ذا عبادة جزيلة وغيره متقدمة دخل إلى روما وأحضر درع التثبيت للبطيريك سمعان (الحدثي) وصنّف قصيدة سريانية في سفره إلى رومية ، وقصيدة أخرى في مدح يوسف بن يعقوب ، وأنشأ أملاًكاً كثيرة لدير قنوين ، وترك له عند وفاته ثروة وافرة ، وحزن على موته شعب الموارنة كلهم ودفنوا جسده الطاهر في مغارة القديسة مارينا بالبكاء والنوح . وبعد دفنه جعلوا مخدعه الذي كان قرب باب كنيسة السيدة معبداً ، ونصبوا فيه مذبحين على اسم الرسولين بطرس وبولس كي لا يسكن هناك أحد بعده» .

وقال السمعاني بعد ذلك أنّ في دير الكرسي الرسولي البطيريك المذكور أربع رسائل من الأحبار الأعظمين منقذة إليه ، ولديّ منها أربع نسخ منقولة عن أصولها الأولى من البابا اكليمينضوس السابع مؤرخة في ٢٥ من كانون الثاني سنة ١٥٣١م ، والثانية من بولس الثالث مؤرخة في شهر كانون الأول سنة ١٥٤٢م ، والثالثة من بولس الرابع مؤرخة في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٥٥٦م ، والرابعة من بيوس الرابع مؤرخة في أوائل ايلول سنة ١٥٦٢م . وقد أرسل البطيريك موسى إلى هذا البابا جيورجios مطران دمشق لينوب عنه وعن ملّة الموارنة في المجمع التريدينيني . وهذا ظاهر من رسالة هذا البابا إليّ حيث يقول: «قد قابلنا بارتياح أخانا المحترم جيورجios مطران دمشق الذي حمل رسالتك إلينا» . إلى أن يقول: «وأما رغبتكم في أن نرسل المطران المذكور إلى المجمع التريدينيني ، فلم نرّ الاجابة إليها لازمة ولا سيما . لأنه لا يعرف اللاتينية ولا يحسن الكلام بالاطالية ، فلا يتمكن من بيان ما يراه ولا من فهم ما يبحث عنه ، ولهذا رأينا الأولى أنكم متى سنحت لكم الفرصة ترسلون إلينا رسالة تقرون بها بأنكم خاضعون أنتم وأساقفتكم واكليرسكم لجميع مراسيم المجمع التريدينيني وتثبتون كل ما أثبتته وترذلون كل ما رذله كما صنع أخونا المحترم عبد يشوع بطيريك الكلدان قبل سفره من عندنا عن عهد قريب» .

وفي أيام هذا البطيريك جدد وأيد البابا اكليمينضوس السابع في ١١ ايلول سنة ١٥٢٨م منح الغفران الذي كان سالفه البابا لاون العاشر قد أنعم به على من يزورون كنيسة الكرسي البطيريك في عيد ميلاد الخلّص وختانته وظهوره للتبشير (الغطاس) وصعوده وحلول الروح القدس (العنصرة) ، وأعياد: ميلاد يوحنا المعمدان ، وانتقال العذراء ، والقديسين بطرس وبولس ، ووجود الصليب بحيث أن يعترفوا ويتناولوا القربان الأقدس في تلك الأيام ويتبرعوا بدفع صدقة ما للكرسي

البطريركي أو لترميم غيره من كنائس الطائفة . وكذلك منح البابا بيوس الثالث في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٥٤٢م غفران سبع سنين وسبع أربعينات للموارنة كل مرة تلا أحدهم أمام صورة المصلوب خمساً الصلوة الربانية والسلام الملكي ، بحيث أن يكونوا تائبين ومعترفين حقيقة أن يقصدوا الاعتراف في الأزمنة المرسومة ، ثم إن البابا بيوس الرابع فوّض إلى البطريك موسى المذكور في رسالته المنفذة إليه في أول ايلول سنة ١٥٦٢م أن يحل من التأديبات البيعية جميع الهراطقة والمشاقين والمارقين سواء كانوا من الموارنة أو من أية ملّة كانت ، وأثبت الغفارين الممنوحة من سلفائه . وترى هذه المراسيم الحبرية في ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً .

ومن أعمال البطريك موسى المذكور أنه أرسل سنة ١٥٢٧م انطونيوس مطران دمشق لطلب التثبيت من الحبر الروماني ، فوقع بيد اللصوص بالبحر وسلبوا ما كان معه حتى رسائل البابا . ثم استفك نفسه ودخل إلى روما ونال حظوة لدى البابا اكليمنضوس السابع . وسلم إليه منشور الغفران المار ذكره ، ودفع إليه توصية إلى المؤمنين ليتصدقوا عليه ، ولم يرسل درع الرئاسة إلى البطريك لفقدان رسالته . وفي سنة ١٥٣٠م أرسل البطريك رسالتين إلى البابا اكليمنضوس السابع مع بعض المرسلين يحقق له دوام خضوع ملّته للكرسي الرسولي ، ويخبره عن الضنك الحاصل عليهم ، ويسأله أن يكرم عليه بالملابس الكهنوتية ، وأن يجعل الكردينال سنتاكروس وكيلاً عاماً للملّة المارونية ، فأجابه البابا في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٥٣١م أنه قد سرّ كثيراً بأن شعبه ما برح يزداد عبادة وتقوى واستمسكاً بعرى الايمان الكاثوليكي ، وأنه عين الكردينال المذكور وكيلاً بروما لأمة الموارنة وهو الذي ارتقى السدة الباباوية بعداً ، ودُعِيَ مرشّوس أو مرسل .

وفي سنة ١٥٤٢م أرسل البطريك رسالة إلى البابا بولس الثالث مع أحد المرسلين سأل قداسته فيها أن يوصي رئيس الرهبان فرنسيس أن يرسل إليه ستة كهنة لينشئوا مدرسة بلبنان لتعليم بعض الشبان اللغة اللاتينية مبيّناً له أنه من مدة طويلة لم يأت أحد من قبل الحبر الروماني لزيارتهم ، ولا استطاع هو أن يرسل أحداً يعرف اللغة إلى قداسته . وأثبت الدويهي ترجمة جواب البابا على هذه الرسالة في الفصل ١٦ من كتاب رد التهم . وفي سنة ١٥٤٥م أرسل كرلوس الخامس عاهل جرمانيا إلى البطريك موسى بدلة جميلة لخدمة الاسرار الالهية مع الطبيب ابراهيم العاقوري . قال الدويهي وهي محفوظة إلى الآن في دير قنوين . وفي سنة ١٥٥٣م

أخذ جابي المال في قبل والي طرابلس زيادة المال على المال المطلوب من دير قنوين، فرفع البطريرك موسى عريضة إلى السلطان سليمان خان الغازي وكان يومئذ بحلب، فصدرت لإرادته السنية يأمر لقاضي طرابلس أن ينظر في الدعوى ويأمر الجابي أن يرّد على دير قنوين ما أخذه منه وتاريخ هذا الأمر في ١٥ محرم سنة ٩٦١ هـ (سنة ١٥٥٤ م).

وفي سنة ١٥٥٥م ارتقى إلى السدة الرسولية البابا بولس الرابع فرفع البطريرك إليه رسالة يهنئه بها ويلتمس بركنه ودعاه. فأجابه البابا في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٥٥٦م وأرسل إليه عدّة كاملة للتقديس. وقد ذكر ذلك الدويهي مفصلاً في الفصل السادس عشر من كتابه ردّ التهم. وفي سنة ١٥٥٧م عقد مجمعاً نهار خميس الأسرار وقُدّس الميرون بحضرة ثمانية مطارين ونحو أربعماية كاهن ورزق الله مقدّم بشري وجم غفير. وفي هذه السنة أنشأ البطريرك كنيسة القديس جيورجوس بقرية شذرة من عمل عكار.

وفي سنة ١٥٦١م اتفق أن وقع رجل في بئر كنيسة الموارنة بأورشليم المعروفة بكنيسة القديس جرجس ومات. فهرب الرهبان الموارنة الذين كانوا في تلك الكنيسة، وأتى جماعة من القبط دفعوا الغرامة التي توجّبت على الكنيسة ووضعوا يدهم عليها. فأخذ البطريرك موسى أمراً من مصطفى باشا والي دمشق إلى قاضي القدس مؤرخاً في شهر محرم سنة ٩٧٢ هـ الموافقة ١٥٦٤ للميلاد، أن يسمع دعوى البطريرك ويرفع يد القبط عن الكنيسة، فسار البطريرك إلى القدس ومعه الدراهم اللازمة لاسترداد الكنيسة. وكان رئيس رهبان الفرنج اسمه بونيفاس فأقنع البطريرك أن لا يداعي القبط ولا يخسر الدراهم بل أن يقضي جماعته الموارنة فروضهم الدينية عند رهبانه في القدس في كنيسة الخلّص لكونهم قلائل. وكان لهم مذبح في كنيسة العلية الصهيونية، وإذا جار الزمان وخرج الرهبان أي رهبان القديس فرنسيس من القدس فتبقى كنيسة الخلّص بيد الموارنة. فاقنتع البطريرك بذلك، وعدل عن استرداد كنيسة القديس جرجس، ومداعاة القبط. واشترى بالدراهم داراً في القدس لجماعته. وهذا ظاهر من رسالة كتبها البطريرك موسى إلى البابا بيوس الرابع وأرسلها مع الأب بونيفاس المذكور عندما انقضت مدة رئاسته وعاد إلى رومة.

ودخلت سنة ١٥٦١ ولم ينل البطريك درع الرئاسة والتثبيت بالنوع المعتاد وإن تواترت عرائضه إلى الأحبار الرومانيين ونعمهم عليه كما رأيت، لأن الرسائل المرسلة مع المطران انطونيوس المذكور أتلّفها اللصوص، ولم يتيسر له كل هذه المدة أن يرسل أحداً من أبناء ملّته يطلب له التثبيت. ففي هذه السنة بلغه أنّ القس جرجس القبرصي يعرف اللغة الايطالية، فدعاه إليه وأمره أن يسير إلى روما، ودفع إليه رسالة منه ورسائل من أساقفة الملة وأعيانها إلى البابا بيوس الرابع لطلب درع الرئاسة، وأرسل معه ست براءات من أسلافه لبطاركة الموارنة. ولما وقف البابا على هذه الرسائل أنعم على البطريك بدرع الرئاسة وأرسل له مع قاصده عدة كاملة للتقديس وبراءة الغفران السابق ذكره ومرسوماً يحتم به أن لا يعارض أحد رؤساء الموارنة في الولاية على كنائسهم وأوقافهم، لأنّ البطريك كان قد شكّا إليه تعدي أسقف الأفقسية بقبرص اللاتيني على أوقاف الموارنة.

وكان البطريك قد سلّم إلى القس جرجس المذكور أوراقاً مهبورة بختمه دون كتابة شيء عليها، حتى إذا دعت الحاجة يكتب عليها ما شاء. فكتب على إحدى هذه الأوراق عريضة إلى قداسته يلتمس منه أن يرقي القس جرجس إلى أسقفية دمشق، ويرسله إلى المجمع التريدينيني لينوب عنه فيه، فأمر البابا بترقيته اكراماً للبطريك، واعتذر له عن ارساله إلى المجمع لأنه لا يعلم اللاتينية وليس ضليعاً بالايطالية كما رأيت آنفاً. ولما بلغ المطران جرجس إلى قبرص تلبث فيها ولم يصل إلى البطريك. وبلغت هذه الأخبار إلى البطريك موسى وهو في القدس كما مرّ. فأرسل إليه اعلاماً بربطه عن الإلهيات، وكتب إلى البابا يشكر له لانهامه بدرع الرئاسة ويخبره بما كان من تزوير قاصده.

وفي سنة ١٥٦٧ كانت وفاة البطريك موسى في ٩ آذار وله من العمر خمس وثمانون سنة، وفي البطريكية اثنان وأربعون سنة وثلاثة أشهر، ودُفن في مغارة القديسة مارينا كما مرّ.

البطريك ميخائيل الرزي

في اليوم الثاني عشر بعد وفاة البطريك موسى^(١) اجتمع رؤساء الطائفة وأعيانها لانتخاب بطريك، فأجمع رأيهم على انتخاب الحبيس ميخائيل بن يوحنا الرزي من قرية بقوفا، وكان ميخائيل المذكور أولاً رئيساً على دير قزحيا وعلى المحبسة. لكنه رغبة في العزلة عن الناس ترك رئاسة الدير وأقام بمحبسة القديس بيشاي القريبة من الدير. ولما انتخب للبطريركية تمتع جداً من قبولها، فألح عليه الأساقفة والأعيان بأن يخضع لمشيئة الله، فقبل البطريركية على كره منه، ثم أرسل أسقفًا يسمى يوليوس لزيارة شعبه بقبرص، وأمره أن يرسل إليه الشماس لوقا من قبرص لعلمه بأنه رجل فصيح خبير بلغات الافرنج. ولما أتى إليه رقاها إلى درجة الكهنوت ومقام البردوط، وأرسله إلى روما مصحوباً برسائل الطاعة وشهادات رؤساء الملة إلى الحبر الروماني طلباً لتثبيتته. ومّر لوقا المذكور بقبرص فوجد العساكر العثمانية محاصرة الجزيرة فاضطر أن يبقى فيها سنة كاملة. وبعد رفع الحصار سافر إلى روما ووقعت شبهة برسالة البطريك لأنها ممهورة بختم جديد وكانت الأفكار متنبهة بسبب التزوير التي كان الخوري جرجس القبرصي قد أقدم عليه قبله. فتوقف تثبيت البطريك. ثم إن الأب ايرونيμος فستائوس رئيس رهبان القديس فرنسيس انقضت مدة رئاسته فمضى يزور البطريك قبل سفره إلى روما فصحبه البطريك بعريضة أخرى إلى البابا يبيّن بها طاعته والتماسه، فقدمها الرئيس إلى قداسته على يد الكردينال كارافا وكيل الموارنة بروما، فسُرّ بها الحبر الروماني وحاشيته وهم بتثبيت البطريك واجابة مطالبه فإذا كتابات وردت من قبرص قيل فيها أنّ البطريك الجديد أصله يعقوبي خلافاً لما يقوله عنه ايرونيμος المذكور، فتشوشت الخواطر وأمر البابا الكردينال كارافا أن يستقصي في هذه الأخبار. وكتب البابا والكردينال كارافا

(١) نص الدويهي في تاريخه ان البطريك موسى توفي في التاسع من اذار ثم قال إنه في اليوم الثاني عشر (يفهم منه بعد وفاته) اجتمع رؤساء الملة وانتخبوا البطريك ميخائيل فيكون انتخابه في ٢١ اذار. ونقل عنه لكويان في المشرق المسيحي ان انتخابه كان في ٣١ اذار فلا نعلم هل الخطأ في العدد الأول وصوابه في ١٩ اذار أو في العدد الثاني وصوابه في ٢١ اذار والأظهر انه توفي في ١٩ اذار كما رواه الدويهي في كتابه رد التهم اه.

والأب ايرونيμος إلى رئيس القدس الأب فرنسيس أن يمضي عاجلاً إلى لبنان ويفحص جيداً عن البطريرك الجديد وسيرته ومعتقداته وأصله ، وأن يطوف في البلاد يستوضح يقطاً صحة الأخبار عن البطريرك وعوائده ملته . وكانت رسالة البابا هذه مؤرخة في ٨ حزيران ١٥٦٩ م .

فسار الأب فرنسيس المذكور عاجلاً إلى لبنان وأطلع البطريرك ميخائيل على الرسائل الواردة له ، فأمر البطريرك في آخر تشرين الثاني من السنة المذكورة باجتماع رؤساء الكهنة وعلماء الأئمة وقصّ عليهم ما ورد عليه من التهم ، فهتف جميعهم من فم واحد أن لا أصل لهذه التهمة الشنعاء وأنّ بطريركهم صحيح المعتقد جزيل التقوى والقداسة . وكتب المجتمعون تقريراً وممن وقّعوا عليه رئيس القدس المذكور والاسقف داود الحداثي ، وسركيس الدويهي أسقف اهدن ، وجرجس بن صرواص أسقف بشري ، وسركيس الرزي أسقف عرقا وغيرهم . وأثبتوا بهذا التقرير أنّ البطريرك قويم الايمان حسن السيرة ، حميد الخصال ما زاغ قطّ عن ايمان آبائهم وإنهم أكرهوه على قبول البطريركية . ومما كتبه البطريرك عن نفسه : « إن كنت قد غيّرت عادة من عوائد الكرسي الانطاكي فأكون مواخذاً أمام الله والكرسي الرسولي » .

وسبب هذه التهمة أنّ أهل بقوفا قرية هذا البطريرك كان بعضهم وهم سكان المحلة السفلى قد مالوا إلى اليعقوبية باغواء ديوسقوروس بن ضو اليعقوبي ، فوثب عليهم أهل اهدن ودكوا منازلهم وطردوهم من البلاد ، وأما بيت الرزي الذين كانوا يسكنون المحلة العليا من القرية فصانوا نفوسهم من الضلال ، لكنهم اضطروا إلى المهاجرة من قريتهم إلى قرية كفرحورا وما برحوا إلى اليوم يحافظون على ايمان آبائهم ، وقام منهم ثلاثة بطاركة دبروا الكرسي الانطاكي نحو إحدى وأربعين سنة . قال الدويهي الذي ننقل هذه الأخبار عن كتابه في رد التهم (فصل ١٦) : « وما زال أعقابهم إلى اليوم حكماً على زاوية رشعين يقومون بمعاودة الكرسي البطريركي بكل جهدهم كما يفعل الآن الشيخ أبو شديد ضاهر خليفة الشدياق انطونيوس بن الرزي » .

ثم إنّ البطريرك ميخائيل أرسل إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر المطران جرجس البسلوقي والخورى اقليمس الأهدني مصححين برسائل منه ومن رؤساء

الأمّة يؤدون بها فروض الطاعة ويلتمسون درع الرئاسة للبطريرك . ولما اطلع البابا على الرسائل سُرّ بها وأرسل إلى البطريرك رسالة مؤرخة في ١٤ شباط سنة ١٥٧٧م سنذكر ملخصها ، وأرسل مع القاصدين إلى البطريرك الأب جوان باطيسا (يوحنا المعمدان) اليان والأب توماراديوس من اليسوعيين وأمرهما أن يفحصا عن ايمان الموارنة وطاعتهم وكتبهم وعوائدهم ، وأرسل معهما للبطريرك عدة كاملة للتقديس ، ورسالة يوصيه بها بالأبوين المذكورين . ولما بلغا مع القاصدين البطريركيين إلى قنوين ، رحّب البطريرك بهم وأمر باجتماع الأساقفة ورؤساء الأديار وأعيان الشعب ، فأقرّ أمّاهم بأنه ماروني ابن ماروني متشبث بالخضوع لصاحب الكرسي الروماني ، وأقسم على أنه يقبل كل ما يقبله ويرذل كل ما يرذله . ثم كتب ذلك في صفيحة وطواها وقال ها هو اعتقادي، عليه أحيأ وعليه أموت .

ثم استأذن جوان باطيسا البطريرك أن يطوف ببلاد الموارنة ويطلع على كتبهم وعوائدهم ، وكان يعلم العربية ويُحسن قراءة الخط الكرشوني فشّر البطريرك بذلك ، وكتب رسالة بخط يده إلى الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان ليحسنوا ملتقاه واکرامه ويطلعوه على كل ما يحب من الكتب ، وأمر أخاه المطران سركيس والقس جرجس يونان من ايليچ أن يرافقه ، واستمر نحو سنة يجول في الأديار ويتفقد الكنائس ويطلع على الكتب . وصنع لنفسه ثلاثة دفاتر يكتب في الأول ما يراه من الغلط ، وفي الثاني ما يلزم استشارة البابا فيه ، وفي الثالث ما يلزم الكهنة والعامة التنبيه إلى حفظه . وبينما كان الناس يتوقعون انعقاد مجمع طائفي وفد أمر من رئيس اليسوعيين يطلب به عود جوان باطيسا إلى روما ، فودّع البطريرك في ٢٥ من شباط سنة ١٥٧٩م وسافر ، وأرسل البطريرك معه عريضة للبابا ورسالة إلى الكردينال كارافا ، وبعث معه شائين وهما جبرائيل الأدنيتي وكسبر القبرصي ليقبسا العلوم برومة .

وقد حفظ لنا مرهج بن نيرون الباني في كتابه في اسم الموارنة وأصلهم ودينهم فقرة من رسالة من هذا البطريرك إلى الكردينال كارافا مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٥٧٨م في شأن بعض العبارات التي أدخلها الهرطقة على كتبنا . ومما قاله « قد يمكن أن يكتب إليكم أحد أنّ في كتبنا كلمات تخالف معتقد الكنيسة المقدّسة فنقّ أخي أنا لا نقبل إلّا ما تقبله الكنيسة المقدّسة ، وإن كان في بعض النسخ شيء يخالف ذلك ، فقد أدخله الهرطقة المحدثون بنا على تلك الكتب من زمان

طويل . فدع كل ربية وشبهة باستقامة ايماننا فنحن مؤسسون من أقدم الأيام على صخرة ايمان الكنيسة المقدسة الرسولية الرومانية ، وقد تشبثنا به دائماً ولا نكلمكم بقمنا فقط بل بالضم والقلب معاً والله شاهد على ذلك » .

وأما جوان باطيسا فلما بلغ إلى روما مثل بحضرة البابا ودفع إليه رسالة البطريرك وأخبره عن أحواله وأحوال ملته مثنياً على طاعتهم للكرسي الرسولي وصحة ايمانهم وتقواهم . ثم قال إنه بسبب اختلاطهم بأهل البدع اندس في كتبهم بعض أغلاط واستطرقوا بعض عوائد غير حميدة . وسأل قداسته أن ينشيء لهم مدرسة في روما يتهدّب بها شبانهم المرشحون للدرجات الكهنوتية . فابتهج البابا بما سمعه منه وشكر الله على أنه حفظ في الايمان الكاثوليكي شعباً بعيداً بعداً شاسعاً عن روما . وفي أول سنة ١٥٨٠م أمر جوان باطيسا أن يعود إلى لبنان ومعه الأب جوان بردن من اليسوعيين أيضاً ، وأرسل للبطريرك معهما براءة التثبيت ودرع الرئاسة وكأساً وحللاً كهنوتية وآنية للميرون وقوالب للبرشان وصوراً ومسابع ورسالة للبطريرك يخوّله بها لبس درع الرئاسة ، ورسالة أخرى إلى الأسقف سركيس والأسقف داود ليتوليا تلبسه الدرع والشهادة على ابرازه يمين الطاعة . والرسالتان بتاريخ ١٢ آذار ١٥٨٠م . وفي عيد انتقال السيدة لبس البطريرك الدرع وحلف يمين الطاعة على موجب الصورة المرسومة في المجمع التريدينيني . وعُقد بعد ذلك المجمع الطائفي الذي سنفرد له فصلاً مخصصاً .

أما الرسالة التي أنفذها إليه البابا غريغوريوس الثالث عشر مع قاصديه والأب جوان باطيسا فهي المثبتة ترجمتها في الفصل الحادي عشر من ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً صفحة ٣٢ وخلاصة ما قال فيها : « قد بلغنا أنّ قميص الرب غير المحيط الذي حاول أعداء الكنيسة أن يشقوه ما زال محفوظاً على سلامته عند أبناء الروح الذين على بعد رجائهم ثبتوا غير متزعزعين في وحدة الكنيسة الرومانية كما عرفنا مؤخراً من فحوى رسالتك المكتوبة بخط يدك المرفوعة إلينا على يد الأخ المحترم والأسقف جرجس والابن الحبيب الخوري اقليمس اللذين أوفدتهما إلينا ، فنحن نسدي الحمد لله الذي عزانا بايمانك ونقبل بعاطفة المحبة الأبوية الطاعة التي أدتيموها . ونثني كثيراً على اخلاصكم ونصرّح بأننا قد اتخذناك أنت وجميع الموارنة تحت عهدتنا وحماية السدة الرسولية جرياً على آثار سلفائنا الأحرار الرومانيين . ونبدل لكم كل ما تفتقرون إليه من المساعدات وإذا كنتم في التماس

خلاص نفوسكم لم تزالوا بحول الله حافظين وديعة الايمان ، فرغبةً في مزيد نموكم في سبيل الخلاص والعمل بوصايا الله والكنيسة وحفظ تقليداتها رأينا من الواجب أن نحثكم بالنصائح الأبوية على الاجتهاد في أن ترعوا سالمًا ما عهدته إليكم سلفاؤنا ولا سيما اينوشنسيوس الثالث ، واوجان الرابع ، ولاون العاشر فإننا اقتداءً بهم ننبهكم إلى بعض أمور أدخلتموها عندكم على ما علمنا من خطأ منها ، على ما بلغنا أنكم في ذبيحة القدّاس تزيدون على التقديسات الثلاثية يا من وُلدت لأجلنا يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا وهي تعزى إلى الثالوث كله ، لذلك نحكم بوجوب حذف تلك الزيادة ، ونأمر أنّ الميرون المقدّس يكون من زيت الزيتون والبلسم الصرف دون أن يُخلط بمادة أخرى ، وأن يكون تكريسه يوم خميس الأسرار وأن لا يُسمح بتوزيع سر التثبيت إلّا للأساقفة . وإنه يلزم مناولة الأطفال سرّ القربان المقدّس ولا يُخفى على درايتك أنّ نصّ الشرع صريح بأنّ درجات القرباة الدموية والإلهية التي يُحرم معها عقد الزواج لا تتعدى الدرجة الرابعة . فهذا خلاصة ما جاء في هذه البراءة .

على أن زيادة يا من صُلبت لأجلنا على التقديسات كانت من عادة الكنيسة الانطاكية ، متى وجهت هذه الزيادة إلى ابن الله المتجسد لا إذا وُجّهت إلى الثالوث . وكذا نصّ على هذه الزيادة القديس يوحنا مارون في شرحه رتبة القداس ، ولذلك استمرت ملتنا تستعمل هذه الزيادة بالمعنى المذكور مقصوداً بها أنّ الله المتجسد . ومن أقدم الأيام اعتاد بعض أهل بطريركية انطاكية أن يزيّدوا في آخر التقديسات عند توجيهها إلى المسيح ، أيها المسيح الذي صُلبت لأجلنا أو الذي قمّت من بين الأموات ارحمنا كما نفعل نحن الآن . وكذلك كان الموارنة كباقي الشرقيين يضيفون في زيت الميرون البلسم وعقاقير أخرى ، فبعد هذه البراءة عدلوا عن أن يضيفوا في الزيت إلّا البلسم ، وكذلك كان كهنتنا يوزعون سر التثبيت كما يصنع باقي الشرقيين إلى اليوم ، إذ يمنحون هذا السر مع سر المعمودية ، وحُفظ بعد هذه البراءة توزيعه للأساقفة وحدهم ، إلّا أن يرخص البطريرك لأحد الكهنة بتوزيعه كما نصّ مجمعا اللبناني . وكان كهنتنا أيضاً يناولون الأطفال كباقي الشرقيين ، فامتنع بعدئذٍ هذا الأمر عندنا . ويظهر أنّ درجات القرباة المحرمة الزواج كانت تتصل إلى الدرجة الخامسة كما هي اليوم عند الروم فاقتصر بعد هذه البراءة على الدرجة الرابعة .

ومن الأحداث التي كانت في أيام البطريك ميخائيل أنّ المطران داود الذي كان متوكلاً على دير قزحيا انتقل مع الخوري مارون القبرصي والقس يعقوب بن حويص الحاقلي إلى دير حوقا، وهناك رقى دون مشورة البطريك إلى درجة الأسقفية القس يعقوب المذكور واستحضر الحبيس يونان وأخاه القس يوسف ابني جلوان من سمر جبيل راهبي دير قزحيا فرقاها أيضاً إلى الأسقفية، فلما علم البطريك بذلك ربط الحبيس يونان وأخاه وأمر الحاكم بخروجهما من دير قزحيا، وأخذ الحبيس يونان إلى محبسة القديس سمعان بالفرايس، وأخوه القس يوسف سار إلى سمر جبيل قريته. وبعد ثلاثة أشهر نزل المقدّم مقلد والشدياق خاطر الحصري وأعيان البلاد فاسترضوا البطريك عنهم وباركهم وأذنهم بالعود إلى دير قزحيا.

وانتقل البطريك ميخائيل من هذه الدنيا إلى راحة الأبرار في ٢١ أيلول سنة ١٥٨١م وقد استمر بالبطريركية أربع عشرة سنة وخمسة أشهر وواحدًا وعشرين يوماً. ووصفه الدويهي بأنه كان فصيح القلم حسن الخط لئن العريكة كثير المبرّات.

عد ٤٩

البطريك سرقيس الرزي

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريك ميخائيل، اجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان فانتخبوا أخاه المطران سرقيس الرزي إلى البطريركية بحضرة قاصدي البابا جوان باطيسا وجوان برون. ورفع البطريك والأساقفة العريضة إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، ورسالة إلى الكردينال كارافا وكيل الملة. وكلفوا الأب جوان برون أن يتوجه بها إلى رومية لطلب التثبيت ودرع الرئاسة للبطريك الجديد. فسار الأب جوان وأخذ معه أربعة شبان لاقتباس العلوم بروما: وهم الأول يوحنا بن يعقوب الحصري وهذا بعد عودته في سنة ١٥٩٠م لبس اسكيم القديس عبد الأحد ثم صار أسقفًا، والثاني مرقس بن اسطفان المطوشي القبرصي، والثالث يعقوب بن سمعان الحصري، والرابع انطونيوس الحصري. ولما انتهى الأب جوان إلى أم المدائن قدّم عرائض البطريك والأساقفة والأعيان إلى الحبر الأعظم فشرّ

قداسته وأرسل إلى البطريرك براءة تثبيته ودرع الرئاسة، ورسالة إلى أسقف طرابلس ليلبسه الدرع ويقبل منه يمين الطاعة. وتاريخ هذه البراءة الخامس من آذار سنة ١٥٨٢ م.

وبعد أن لبس البطريرك درع الرئاسة رفع عريضة الشكر للحبر الروماني مع القسّ يوحنا أيوب الحصري والقسّ يعقوب الدويهي والشماس ابراهيم الادنيّتي، وأرسل عشرة شبّان لاقتباس العلوم منهم جرجس بن عميرة الأهدني الذي صار بعداً أسقفاً على اهدن ثم بطريركاً، وسركيس بن موسى أخو البطريرك الذي صار بعداً أسقفاً على دمشق، وموسى العنيسي من العاقورة وصار أسقفاً على الأفقسية، وبطرس بن جبرائيل المطوشي ودخل بعداً شركة اليسوعيين. ثم أرسل البطريرك في السنة التالية أربعة شبّان من موارنة حلب حتى صار عدد تلاميذ الموارنة بروما نحو عشرين تلميذاً، فحينئذ أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر مدرسة خاصة للموارنة سنة ١٥٨٤م قال عند افتتاحها: «إنّ الموارنة سكان لبنان هم مستمرون من أعصار كثيرة على الايمان الكاثوليكي والخضوع والطاعة للكنيسة الرومانية دون سائر الطوائف الشرقية غير المؤمنة وغير المتحدة». وأمر البابا بنقل الشبان الموارنة إلى مدرستهم. وكانت النفقة عليهم أولاً من مال قداسته، ولما رقد بالرب سنة ١٥٨٥م وخلفه البابا سيستوس الخامس ولم يكن أقلّ محبة للموارنة رتب لهذه المدرسة دخلاً يقيم بأود خمسة عشر تلميذاً، ثم توفي الكردينال كارافا وكيل الموارنة سنة ١٥٩١م فوقف قبل وفاته تركته على مدرسة الموارنة وكانت تبلغ عشرة آلاف ريال رحمه الله وأجزل أجره، فأجدت هذه المدرسة على الموارنة بل على الكنيسة كلها بفوائد دينية وعلمية لا تقدّر. فإنه قام من تلاميذها بطاركة وأساقفة كثيرون ونبغ منهم جهابذة طبق ذكرهم الخافقين فأثاروا المغرب بتواريخ المشرق وكانت كتبهم وما برحت كمرقاة للعلوم ومشكاة يُستنار بنورها في أمور المشرق. وسنأتي على ذكر كثيرين منهم وعلى ذكر تأليفهم الغراء.

ولما ارتقى البابا اكليمنضوس الثامن إلى الخيرية العظمى رقى البطريرك سركيس ابن أخيه إلى الأسقفية. وأرسله سنة ١٥٩٥م لتهنئة البابا واداء الطاعة له، فقبله البابا أحسن قبول. ولما هم بالعود أرسل البابا معه ايرونيμος دنديني وغيابوس برون اليسوعي وأرسل معهما للبطريرك عدة كاملة للتقديس وأمرهما أن يفحصا عن أمور الطائفة وعوائدها، وكان وصولهم جميعاً في شهر آب سنة ١٥٩٦م. وبلغ

البطريرك أنه شاع في المغرب أنّ الموارنة كانوا ضالين وأنّ الأب جوان باطيسا هداهم في مجمع عقده في أيام البطريرك ميخائيل فتولاه غيظ شديد، فدعا في الثاني من ايلول الأساقفة والرؤساء والأعيان وعقد مجعاً تلا فيه رسالة البابا . أمام الأب دنديني عن طائفته، ومما قاله إنه هو كان يقدم الكتب للأب باطيسا عند تطوافه في جبل لبنان وكان يترجمها له ، وأنّ تلك الكتب لم تزل موجودة عند أصحابها ومرسومة بخطه باللاتيني . وأحضرت حينئذ تلك الكتب فظهر أنّ الأغلاط التي أشار إليها باطيسا لم تكن بكتب الموارنة بل بكتب اليعاقبة . ويّين البطريرك صحة ايمان الموارنة في كتبهم حتى تعجب الأب دنديني وأقرّ أنّ ما اتهم به قصاد الباباوات الموارنة هو تجنّ عليهم كما هو مدوّن في كتاب بعثته إلى لبنان . وكان عقد المجمع المذكور في ١٨ ايلول سنة ١٥٩٦م بحضرة الأب ايرونيوس دنديني اليسوعي المرسل من لدن البابا اكليمنضوس الثامن، وسنفرد للكلام فيه فصلاً مخصصاً . ثم توفي البطريرك سركيس الرزي في السابع والعشرين من شهر ايلول تلك السنة بعيد انحلال المجمع بعد أن دبر البطريكية ست عشرة سنة .

عد ٥٠

البطريرك يوسف الرزي

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك سركيس الرزي اجتمع الأساقفة ورؤساء الأديار والأعيان ، وانتخبوا خلفاً له المطران يوسف ابن أخيه موسى الرزي، فأوفد البطريرك الجديد سنة ١٥٩٨م الخوري جرجس بن يونان من قرية ايليچ، والشدياق يوسف الياس الحلبي إلى روما لاداء فروض الطاعة للحبر الأعظم، والتماس التثبيت ودرع الرئاسة فتعطّف عليه البابا اكليمنضوس الثامن بذلك سنة ١٥٩٩م. وفي سنة ١٦٠٣م رقى البطريرك القس يوحنا الحصري ابن الشدياق حاتم الحوشي إلى الأسقفية ، وكان من تلاميذ مدرسة روما ، وأوفده إلى البابا بولس الخامس ليقدم له فروض الطاعة، فعاد المطران يوحنا من سفره في سنة ١٦٠٦م، وكان البابا قد أوعز إليه أن يتبع الموارنة الحساب الغريغورياني الجديد . فأمر البطريرك باتباع هذا الحساب فعيد الموارنة بطرابلس وجبة بشري والبترون وجبيل عيد الرسل مع الافرنج قبل الطوائف الشرقية بعشرة أيام ، ثم اتبع باقي الموارنة هذا الحساب في دمشق وحلب

وسائر المدن والقرى إلا موارنة قبرص فاستمروا مدة على الحساب القديم وحينئذ ترك الموارنة أيضاً حساب سني اسكندر الذي كانوا يؤرخون به فصاروا يؤرخون بحساب سني ميلاد الخلق.

وكان للبطريك يوسف صداقة وانتماء إلى يوسف باشا بن سيف، فساعده كثيراً في تدبير طائفته وردّ إلى الطاعة من كان يخالفه من شعبه. وهو الذي أقام الجسر الذي على نهر اهدن بين عنطورين وكفر سغاب. وبني دير القديس دوميطة بأرض داريا وأنفق على ذلك نفقات ضخمة. وأراد حسام الدين أحد خدام يوسف باشا أن يتزوج بامرأة لا يحلّ له الزواج بها، فنهاء البطريك فلم ينته فطعنه بالحرم فمات بغتة. ولرغبته في اتحاد طائفته بالكنيسة الرومانية والسلوك على آثارها في كل شيء أباح الأساقفة أكل اللحم وأباح العامة أكل السمك وشرب الخمر في الصوم الكبير، وأبطل سبّة نينوى وهي أسبوع كانوا يكثرون فيه التقشفات والصلوات، وأوجز مدة الانقطاع عن أكل اللحم قبل عيد الرسل وقبل عيد الميلاد. على أنّ ذلك لم يرق للبابا بولس الخامس كما يظهر من الرسالة التي أنفذها إلى خليفته البطريك يوحنا مخلوف في ٦ آذار سنة ١٦١٠م حيث ينقض ما تسامح به البطريك يوسف المذكور، بناءً على أنّ ذلك من العوائد الحميدة التي إتصلت إليهم من آبائهم الأبرار. على أنّ ما ردّ ما صار التسامح به كان صعباً في أمور مثل هذه فقل من رجع إلى العوائد القديمة.

وكان في أيام هذا البطريك أناس في العرقوب يسمون البياضية يعتقدون النصرانية باطناً ويظهرون الاسلام ويعتّمون بعمائم بيضاء كالمسلمين. فدفع البطريك مبلغاً كبيراً من المال ليوسف باشا ابن سيف والي طرابلس فنال منه منشوراً أباح هؤلاء أن يتظاهروا بالمذهب الذي يؤثرونه دون خوف ولا حرج. فتظاهروا بالنصرانية. وفي سنة ١٦٠٧م أرسل أخاه المطران سركيس إلى البابا بولس الخامس وبعث معه القسّ الياس ابن الحاج حنا والقسّ جرجس مارون من اهدن والشماس يوسف فرحب البابا بهم وأكرم مثواهم، إلا أنّ البطريك قضى أجله بعد مدة قصيرة، فحزن عليه البابا وحاشيته حزناً شديداً، وكتب رسالة إلى الأساقفة والاكليروس والشعب الماروني يثني بها عليهم لحفظهم دائماً الايمان الكاثوليكي سالماً ويعزيهم بوفاة هذا البطريك ويطنب في الثناء عليه ويأمر بأن يكثروا من الأعمال الصالحة لراحة نفسه. وهذه الرسالة مؤرخة في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م

وتجدها برمتها في الفصل ١٨ من ردّ التهم للدويهي . ورجع القسّ الياس والقسّ جرجس بهذه الرسالة إلى لبنان وأمر البابا المطران سرّكيس أن يبقى بروما للعناية بطبع بعض الكتب اللازمة للطائفة وبقضاء بعض حاجاتها . وكانت وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨م وله في البطريركية إحدى عشرة سنة .

عد ٥١

المجمع الطائفي الذي عُقد في أيام البطريرك ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠م

لم يذكر العلامة الدويهي هذا المجمع بل قال في الفصل ١٦ من رد التهم أنّ الناس كانوا يتوقعون عقده سنة ١٥٧٩م، ولكن ورد أمر من رئيس اليسوعيين إلى الأب جوان باطيسا ليرجع إلى روما، فرجع إليها ثم عاد إلى لبنان سنة ١٥٨٠م. بل ورد في الفصل ١٧ من رد التهم أنّ البطريرك سرّكيس الرزي أخا البطريرك ميخائيل كان يحتج أمام الأب ايرونيوس دنديني سنة ١٥٩٦م أنّ أخاه البطريرك ميخائيل لم يعقد مجمعاً. فلا نعلم أفات الدويهي العلم بهذا المجمع أم أدخلت يد غير يده على كتابة العبارة السابق ذكرها أنّ البطريرك ميخائيل لم يعقد مجمعاً لأننا وجدنا المطران اسطفانوس عواد السمعاني ذكر في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ١١٧) نسخة من أعمال هذا المجمع. وكنا قد ترجمنا كلام المطران اسطفان عواد المذكور المشتمل على تلخيص هذه الأعمال وعزمنا أن نرسل نستنسخ أعمال هذا المجمع في المكتبة الماديشية المذكورة ولأعثرنا في المجلد الخامس من مكتبة الناموس للعلامة السمعاني (صفحة ٥٢١) على أعمال هذا المجمع برمتها عن نسخة أصلية فاكتفينا بتلخيصها عنه .

قال العلامة المذكور: «لدي نسخة أصلية باللاتينية والعربية من المجمع الذي عقده ميخائيل الرزي بطريرك الموارنة بدير قنوين في ١٦ آب سنة ١٥٨٠م بحضرة يوحنا باطيسا اليان ويوحنا برون اليسوعيين سفيّري الكرسي الرسولي من قبل البابا غريغوريوس الثالث عشر إلى الموارنة ومذلل بتوقيع البطريرك والأساقفة الآتي

ذكرهم ، وبشهادة يوحنا باطيسا المذكور بأنه ترجم الأعمال العربية إلى اللاتينية في ٢٠ ايلول سنة ١٥٨٠م ، والنسخة العربية كتبها الخوري يوحنا الحصري ، وقال إنه نسخها بأمر آباء المجمع والقاصدين الرسولين .

وفاتحة هذا المجمع أنه لما كان هذا المجمع المقدس اجتمع للمحافظة على الايمان الكاثوليكي وكان هذا الايمان متضمناً في الأسفار المقدسة والتقليدات الإلهية والمجامع المقبولة من الكنيسة ، فلهذا يثبت هذا المجمع ويقبل ويكرم أسفار العهدين العتيق والجديد كما ذكرتها المجامع المقدسة ولا سيما المجمع التريدينيني . ويحترم التقليدات الملاحظة الايمان والآداب ويجلّ المجامع وجميع الآباء الذين تقبل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية شهادتهم . ويشتمل هذا المجمع على عشرة عنوانات أو فصول .

العنوان الأول في الايمان الارثوذكسي ويشتمل على سبعة قوانين أولها ما تقدّم ذكره في الفاتحة ، يليه الاعتراف بوحداية الله : تثليث أقانيمه وانبثاق الروح القدس من الآب والابن . وإنّ في المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً ومشيتين وفعلين . ثم تحريم زيادة يا من صُلبت لأجلنا ارحمنا موجهة إلى الأقانيم الثلاثة ولزوم الاعتقاد بالمطهر . وإنّ الله يدين بعد الممات كل انسان كأعماله فيحصل الأبرار على السعادة والأشرار على العذاب في الحجيم بعد الموت حالاً .

العنوان الثاني في الأسرار بالعموم وفيه ثلاثة قوانين . إنّ أسرار الشريعة الجديدة سبعة وإنها تكتمل بالأشياء كأنها مادة وبالألفاظ كأنها صورة وبشخص الخادم الفاعل بنية ما تفعله الكنيسة ، وإنّ المعمودية والتثبيت والدرجة تجعل في النفس وسمّاً لا يمحي فلا تعاد .

العنوان الثالث في المعمودية وفيه ثمانية قوانين تبين فيها ضرورتها للخلاص مادتها وصورتها وخادمها ومفعولها ، وإنّ كل كنيسة تحفظ عاداتها في التعميد بالتغطيس أو السكب ، وإنّ القراية الروحية تكون بين القابلين والمعمد وأبيه وأمه وبين المعمد والمعمد وأبيه وأمه . وإنّ الولد إذا حملته أمه قبل طهرها لا يكتسب نجاسة سواء كان قبل العماد أو بعده .

العنوان الرابع في سر التثبيت وفيه أربعة قوانين تبين فيها أنّ مادة هذا السريهي البلسم مع الزيت المبارك وصورته وكونه غير المعمودية وكون خادمه هو الأسقف

ومفعولاته تقوية الروح القدس للمثبت في الحرب الروحية، وإن الأولى في تثبيت الأولاد الانتظار إلى السنة السابعة من عمرهم.

العنوان الخامس في سر الأوخاريسيا وفي ثلاثة قوانين تبين فيها أن مادة هذا السر الخبز القمحي وخمر الكرمة الممزوج بقليل من الماء، وإن صورته كلمات المسيح هذا هو جسدي الخ. وإن الخبز والخمر يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه ويكون تحت كل من الشككين كاملاً. وإن مناولة الأطفال ليست ضرورية للخلاص وأنه يلزم إزالة العادة بمناولة الأطفال تبعاً للكنيسة الرومانية.

العنوان السادس في سر التوبة وفيه ثلاثة قوانين تبين بها أن مادة هذا السر أعمال التائب وصورته قول الكاهن أنا أحلك وخادمه الكاهن الحائز على سلطة الحل.

العنوان السابع في سر المسحة الأخيرة وفيه قانونان تبين بهما أن مادته هي زيت الزيتون المبارك من الأسقف وأنه لا يُعطى إلا للمريض الذي يُخشى موته، وأنه يلزم دهن عينيه وأذنيه ومنخره وشفته ويديه ورجليه وصلب ظهره، وإن صورته هي الألفاظ التي يتلوها الكاهن عند دهنه كل عضو من أعضائه المذكورة.

العنوان الثامن في سر الدرجة وفيه ثلاثة قوانين تبين فيها أن مادته تسليم الشيء الذي تكمل فيه الدرجة مثلاً في الكاهن تسليمه الكأس مع الماء والخمر والصينية، وفي الشماسة تسليم الأناجيل، وفي الشدايقة تسليم الكأس فارغاً وآتيته الخمر والماء وكتاب الرسائل، وفي الشمعدانية تسليم الشمعدان واطفاء الشمعة، وفي المقسمين كتاب التقسيم، وفي القارئ كتاب القراءات، وفي البواب تسليم مفاتيح الكنيسة. وإن صورة هذا السر هي الألفاظ المعينة في كتاب الرسامات مع وضع يد الأسقف. وإن خادم هذا السر هو الأسقف.

العنوان التاسع في سر الزيجة وفيه خمسة قوانين تبين فيها أن العلة الفاعلة في الزواج هي الرضى المتبادل المصريح به بالألفاظ عن الزمان الحاضر، وإن الزيجة غير منحلة وإن أمكن الافتراق نظراً إلى الفراش، وإن الزواج المعقود شرعياً هو صحيح ولو كان دون رضى الوالدين. وإن الزواج مرات جائر إذا لم يضاد ذلك مانع آخر، وأنه يسوغ الزواج بين أختين وأختين والأب بالأم وزواج الابن مع بنتها لأن مانع الأهلية لا يكون بين أقرباء المتعاقدين بل بين كل منهما وأقرباء الآخر.

العنوان العاشر في التهذيب يشتمل على اثني عشر قانوناً تبين بها أنّ من نال درجة مقدّسة بالرشوة يُمنع من الشركة هو ومن رقاها إليها . وإنّ من نال درجة أو مقاماً بحيلة أو تزوير لزم عزله واقتصاؤه عن الشركة ، وإنّ من حاز درجة من غير أسقفه يُمنع من رقاها عن ترقية غيره مدة سنة ويربط من ترقى عن مباشرة درجته إلى أن يحسن لأسقفه أن يحله وأن يمنع من الدرجات من لم يقبل سر التثبيت أو لا يعلم مبادئ الايمان والقراءة والكتابة، وأن يجري الفحص على المتدرجين وينالوا الشهادة ، وأن لا يرقى أحد من الشدايقة قبل الثانية والعشرين من عمره . ولا إلى الشمامسة قبل الثالثة والعشرين . ولا إلى الكهنوت قبل الخامسة والعشرين وقبل أن يبرز أمام الأسقف اعترافه بالايمان الكاثوليكي . وإنه يلزم من قبل الدرجات المقدّسة أن يتلو الفرض المعتاد أو صلوات غيره تؤلف بصورة عامة من البطريرك أو بأمره . وإنه يلزم أن يكون رعاة في كل قرية أو خورنية ، وإنه يلزم البطريرك والأساقفة أن يزوروا رعاياهم بأنفسهم أو وكيلهم العام أقله كل سنتين مرة . وإنه يلزم عقد مجامع اقليمية أقله كل ثلاث سنين مرة . وإنه يلزم الكهنة أن يعلموا الأحداث التعليم المسيحي أقله في أيام الآحاد والأعياد . وأن لا يقتنى أحد كتباً موضوعها الأشياء المقدّسة ما لم تكن تلك الكتب مفحوصة ومثبتة من السيد البطريرك أو من أشخاص يعيّنهم لذلك ، وذلك تحت طائلة الحرم ، وكذلك يحظر على كل أحد أن يكتب كتباً تتعلّق بالأشياء المقدّسة أو يبيعها ما لم تكن مثبتة من الأساقفة . والقانون الأخير من هذه القوانين قيل فيه : « لما كان الحبر الروماني خليفة بطرس السليح رئيس الرسل ونائب المسيح ورئيس الكنيسة كلها وقد حاز بشخص بطرس الأمر أن يرعى ويدبر الكنيسة كلها وسلمت إليه السلطة المطلقة كما تبين في المجامع المقدّسة والعامة ، فنحن في هذا المجمع المقدّس نأمر بأنه كلما أنشخب حبر روماني جديد يعيّن الاكليروس الماروني واحداً أو أكثر منهم ليذهب باسم جميعهم ليقدم الطاعة والاحترام للحبر الروماني واعدأ بأن كنيسةنا هذه تبقى دائماً على هذه العادة كلما انتخب بطريك للموارنة يتوجه بنفسه أو يرسل غيره ليستمد له تثبيت انتخابه كما جرى من أقدم الأيام إلى الآن .

ويلي ذلك توقيع الآباء الذين شهدوا هذا المجمع هكذا : « أنا ميخائيل بطريك الموارنة الانطاكي . أنا يوحنا المعمدان اليان اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي . أنا يوحنا برون اليسوعي قاصد الكرسي الرسولي . أنا سركيس من كفرحورا أسقف

ورئيس دير قزحيا . أنا يوحنا رئيس أساقفة اهدن . أنا جرجس رئيس أساقفة دمشق . أنا اقليموس من اهدن معاون البطريك الانطاكي . أنا داود أسقف العاقورة . أنا يوسف رئيس أساقفة قبرص » .

عد ٥٢

المجمع الطائفي الذي عقده البطريك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦م

إنَّ الأب جوان باطيسا المذكور كان عند تطوافه بلبنان ومطالعة بعض كتب بيعية قد جمع بعض أغلاط عزاها إلى الموارنة ، وكان غيره أيضاً قد عزا إليهم أغلاطاً أخرى ، فعقد بسبب ذلك مجمع البطريك ميخائيل المذكور ، فكثرت الأقوال في أوروبا أنَّ الموارنة كانوا ضالين فهداهم جوان باطيسا ، فلم يتحمل البطريك سركيس هذه التقلّبات على ما يظهر ، وسأل البابا أن يوفد إليه قاصداً ليوضح له بطلان هذه التهم ، فأوفد إليه البابا اكليمنضوس الثامن الأب ايرونيμος دنديني اليسوعي ليفحص عن هذه الأمور في مجمع يعقده البطريك وأساقفته بحضرته . ومذ الثاني من أيلول سنة ١٥٩٦م أمر البطريك الأساقفة ورؤساء الأديار وعلية الكهنة والأعيان أن يجتمعوا لديه ، فحضر لديه كل من لم يحل مانع شرعي دون حضوره ، وكان في جملة الحاضرين من الأساقفة والأعيان يوسف رئيس دير قزحيا ويوسف رئيس دير القديس انطونيوس بالفراديس وموسى من بشري والشدياق يوسف خاطر من حصرون والشدياق فرج من حدشيت وكثير من الكهنة . وبعد اجتماعهم وبعد المفاوضات الابتدائية عُقد المجمع في ١٨ ايلول من السنة المذكورة بحضرة الأب ايرونيμος دنديني اليسوعي قاصد الخبر الروماني .

وترى أعمال هذا المجمع مثبتة في ذيل كتاب المجمع اللبناني المطبوع حديثاً (صفحة ٩) وخلاصتها: «إنَّ الأغلاط التي كانت تعزى إلى الطائفة هي أنَّ في المسيح طبعاً واحداً ومشية واحدة وفعللاً واحداً، وإنَّ الروح القدس ينبثق من الآب وحده، وإنَّ التقديسات الثلاث تدل على صلب الثالث بجملته وإنَّ لا وجود للمطهر ولا للخطيئة الأصلية، وإنَّ النفوس لا تنال ثواباً أو عقاباً قبل الديونة الأخيرة، وإنه يجوز انكار الايمان ظاهراً. وإنَّ سر التثبيت لا يمتاز عن المعمودية

وإنه يلزم خلط الميرون بغير البلسم أيضاً وإنه يلزم التقديس على الخمير ، وإن المسحة تكون بالزيت الذي يباركه الكاهن لا الذي يباركه الأسقف ، وإن طلاق الزوجة لعلّة الزنى أو المرض جائز ، وإن صوّر الأسرار ناقصة وإنها ابتهالية » فهذه هي الأغلاط التي كانت معزوة إلى الطائفة وجرى البحث عنها ، وأورد كل من المجتمعين رأيه فيها .

فكانت آراؤهم مجمعة على ما يخالفها أي أنّ في المسيح أقنوماً واحداً لإلهياً ، وطبعين إلهياً وبشرياً ومشيتين وفعلين ، وإنّ الروح القدس ينبثق من الآب والابن وإنّ التقديسات ترد في كتبهم إما مسندة إلى الثالوث الأقدس فلا يزداد عليها شيء وإما مسندة إلى الأقنوم الثاني وحده . وحينئذ يزداد عليها ذكر الميلاد والصلب باعتبار الجسد ، وإنّ المطهر موجود . ولذلك تصنع الحسنات والصلوات والقداسات عن نفوس الموتى وإنّ الخطيئة الأصلية لاحقة بجميع الناس وإنّ النفوس متى خرجت من أجسادها تثاب أو تعاقب حالاً ، إلا إذا كانت لم تستتم التكفير عن ذنوبها في هذه الحياة فتسجن بالمطهر إلى تمام تبريرها . وإنّ جحد الايمان محرم وإن ظاهراً وإنّ سر التثبيت قائم بنفسه وهو غير سر المعمودية ، وإنّ سر الميرون لا ينبغي أن يدا ف به إلا البلسم ، وإنّ عاداتهم المستمرة إنما هي التقديس على الخبز فطيراً ، وإنّ مسحة المدنفين يلزم أن تكون بالزيت المكرّس من الأسقف يوم خميس الأسرار ، وإنّ الطلاق محظور حتماً وإن جاز لدواعٍ الهجر والامتناع عن المساكنة الزوجية ، وإنّ صوّر الأسرار عندهم لا تختلف عن صوورها عند اللاتينيين . وأطلعوا الأب دنديني على كثير من كتبهم المثبتة ما أجمعوا عليه بحضرته وشهد هو أنه لم يعثر فيها على ما يخالف ذلك .

ثم تذكروا في بعض العادات الذميمة التي طرأت في بعض الجهات إما لجهل الكهنة وإما للاختلاط ببعض المشاقين أو ذوي البدعة ، وسنوا القوانين التابعة القانون (١) لا يؤجل التعميد أكثر من عشرة أو اثني عشر يوماً ، وعلى الكاهن أن يدوّن أسماء المعمدين وعرايهم . (٢) يلزم الأساقفة أن يوزعوا سر التثبيت كل سنة في أبرشياتهم . (٣) يلزم اتخاذ عراب للمثبتين . (٤) يلزم أن يرعى ما فُرض في المجمع التريدينيني في صدد القرابة الروحية الناشئة عن سري المعمودية والتثبيت . (٥) يتحتم على من يرعون الشعب أن يكونوا ممتازين بالعلم ، ويلزم تلاوة الفتاوي الذميمة أيام الآحاد في الكنائس الكبيرة ، ويكلف الكهنة المجاورون الحضور إليها .

(٦) أن تعيّن محفوظات للأساقفة والبطريرك ولا يحل منها غيرهم . (٧) يلزم حظر مناولة الأطفال قبل ادراكهم الرشد . (٨) يتحتم على الكهنة أن يستعملوا كتاب القداس المطبوع بروما ولا يستعملوا غيره إلّا بعد عرضه على البطريرك . (٩) يلزم منع الكهنة من أن يقدّسوا حفاة . (١٠) يلزم الكاهن أن تبقى أصابعه متضامة بعد التقديس لا تلمس شيئاً آخر . (١١) ينبغي على الكاهن أن يناول المؤمنين الجسد والدم . (١٢) يلزم أن تكون الآنية التي يُحفظ بها القربان من فضة أو ذهب ولا أقلّ من أن تكون نحاساً أو قصديراً لا خشباً . (١٣) يحظر على الفتى الزواج قبل السنة الرابعة عشرة من عمره وعلى الفتاة قبل الثانية عشرة وإن شُحح لهما بعقد الخطبة قبل ذلك . (١٤) يلزم عقد الزيجة بحضرة كاهن الرعية وشهود ويلزم الخوري أن يدوّن أسماء المتعاقدين والشهود وأن ينادي بالزواج ثلاثاً قبل انعقاده . (١٥) يحظر زواج البنات الهرطقة والمشاكين . (١٦) يلزم ادخال العادة القديمة باستعمال الماء المبارك بالكنايس . (١٧) يلزم أن ترعى أيام الأعياد بالقداسة وتشهر الأعياد المتحتم حفظها ويضاف إليها عيد الثالث الأقدس وعيد القربان المقدّس وعيد جميع القديسين . (١٨) ينبغي أن يُستأصل من أذهان النساء لزوم امتناعهن عن الاتيان إلى الكنيسة أيام حيضهن وأربعين يوماً بعد ولادتهنّ . (١٩) يلزم أن يكون عند البطريرك والأساقفة وسائر ذوي المقامات الشهيرة الكتب المقدّسة . (٢٠) يلزم البحث عن كتب الهرطقة والمشاكين وحفظها عند البطريرك في مكان مغلق ولا يأذن بمطالعتها إلّا للعلماء . (٢١) يلزم الأساقفة والكهنة أن يعتنوا باتخاذ كل الوسائل لحفظ هذه القوانين . ثم أعيدت تلاوة كل ما جرى بهذا المجمع فأقرّه المجتمعون والتمسوا تثبيته في لدن الحبر الروماني فوعدهم قاصده بذلك وانفض المجمع في ٢٠ أيلول سنة ١٥٩٦ م .

ولما كان البطريرك الرزي قد توفي بعيد ذلك في ٥ تشرين الأول وانتخب للبطريركية المطران يوسف الرزي وكان رئيس دير قزحيا، لم يكتفِ باثبات هذا المجمع بل زاد عليه القوانين التالية: القانون الأول يلزم جميع الكهنة أن يقدموا ذبيحة القداس وهم متوشحون بملايس التقديس إذ كان بعضهم يقدمها قبل اتشاحه بها وبعضهم بعده . (٢) مضمونه تحريض الكهنة على التبتل عملاً بمشورة الرسول وترك الخيار لهم . (٣) فحواه الحث للأساقفة أن يلبسوا لبس الأساقفة لا لبس الرهبان والأمر لهم أن لا يقيم منهم أكثر من واحد في مكان واحد إلّا عند

البطريك . (٤) أن يعيّن واعظون أهل للخطابة ليرشدوا الشعب ولا يُسمح لأحد بذلك إلاّ بأمر البطريك أو الرئيس المحلي . (٥) حظر الاكليريكيين عن اقتضاء الخراج للولاة غير المؤمنين . (٦) منع النساء من الدخول إلى أديار الرهبان إلاّ بإذن البطريك .

وبعد أن عاد الأب دنديني من لبنان ألّف كتاباً في بعثته وأوضح في الفصل الثاني والعشرين منه أنّ الموارنة براء من الأغلاط التي عزيت إليهم . وإنّ ما تدوّن في رسائل الأحبار الرومانيين اينوشنسيوس الثالث ولاون العاشر وغريغوريوس الثالث عشر من نسبة هذه الأغلاط إليهم ، إنما هي مبنية على أخبار تلقاها القصاد من مصادر لا يركن إليها ومطالعات لم يميزوا بها بين كتب ملّة وأخرى ، ولا بين الصحيح والمحرّف . ولما لم يصنع غيري التحري والتحقيق الذي صنّعه أنا انخدعوا ولم يهتدوا إلى الحقيقة ورفعوا التقرير إلى السدّة الرسولية كما خيّل لهم ، أما أنا فتحققت أنّ الأمر ليس كما زعموا لأنّي طالعت بنفسي الكتب التي هي كتبهم حقيقة فلم أجد فيها شيئاً يخالف التعليم الكاثوليكي ولكن القصاد الذين كانوا قبلي لم يمعنوا النظر في كتبهم الخاصة ولم يفرقوا بينها وبين كتب اليعاقبة فعزّوا إلى الموارنة من البدع ما هم براء منه ، ولذلك لا أتعجب مما كتب في رسائل الأحبار الرومانيين من هذا القبيل . انتهى .

عد ٥٣

أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر وأولاً في المطران جبرائيل اللحفدي

روى العلامة الدويهي في تاريخ سنة ١٤٧١م أنّه في هذه السنة دخل جبرائيل ابن بطرس المعروف بابن القلاعي من لحفد إلى القدس ، ولبس اسكيم القديس فرنسيس فأرسله رؤساؤه إلى روما لاقتباس العلوم ، ثم ذكر في تاريخ سنة ١٤٩٣م أنّ جبرائيل عاد من بلاد الافرنج مع رفيق له وهو القس حنا الماروني ، فانضوى أيضاً إلى رهبانية القديس فرنسيس ، وكانا كلاهما متضلّعين بالعلوم مجملين بالغيرة على الدين الكاثوليكي ، فالقس حنا غرق في البحر بينما كان مسافراً إلى القدس وأقام

جبرائيل بلبان مناضلاً بخطبه ورسائله المقدّم عبد المنعم مقدّم بشري ومرشداً الأمين إلى الايمان القويم . وفي سنة ١٤٩٤ ألف كتاباً يحقق فيه اتحاد الملة المارونية من أقدم الأيام بالكنيسة الرومانية، وسمى كتابه «مارون الطوباوي» ورفع به إلى البطريرك سمعان الحداثي وأساقفته وحاشيته وعلماء الملة ليفحصوه ويحجوا به المخالفين، ورقي جبرائيل إلى درجة الكهنوت في رهبانيته سنة ١٤٩٦م، وأقام بدير الصليب في الأفسسية بقبرص .

ولما توفي الأسقف يوسف بقبرص سنة ١٥٠٧م رقاها البطريرك سمعان الحداثي إلى كرسي الأفسسية وأخذ السكنى أولاً في المدينة المذكورة بدير القديسين نهرا وانطونيوس ثم انتقل إلى دير القديس جرجس بطالا فتفانى بالغيرة على رعيته والاجتهاد بنفعها .

وفي سنة ١٥١٦م انتقل هذا المجاهد المتاجر بالوزنات الخمس إلى رحمة ربه لينال الاكليل الذي أهله له أتعابه ومبذاته . قال الدويهي في تاريخ السنة المذكورة يعجز اللسان عن وصف قداسته وعلومه وتفانيه بالغيرة التي سند بها ملته المحدث بها اولو البدع ، ولم ينفعها بحياته فقط بل أفادها بعد وفاته أيضاً بمصنفاته التي نذكر بعضها .

فقد صنّف كتاباً في الناموس البيعي وكتاباً اشتمل على مواعظ كثيرة ، وكتاباً في الاعتراف ، وكتاباً في رئاسة الأبحار وأخبارهم ، وكتاباً في ملوك روما ، وكتاباً في معتقد الموارنة واتحادهم دائماً بالكنيسة الرومانية وكتاباً في علم الإلهيات وآخر في الإيمان القويم وأسرار حياة المسيح . وجمع خمس عشرة رسالة منفذة إلى بطاركة الموارنة من الأبحار الرومانيين من اينوشنسيوس الثالث إلى لاون العاشر . وكتب نحواً من خمس مئة رسالة لأبناء ملته لتثبيتهم في ايمان القديس مارون والكنيسة الرومانية . ونظم قصائد كثيرة وإن كانت منحطة لغة فهي كثيرة الفائدة . منها قصائد في سر الثالوث الأقدس وفي التجسد الرباني ، وفي حياة الخلّص وفي أحزان أمه عند الصليب وفي طبيعتي المسيح ومشيتيه وأقنومه الواحد ، وفي انبثاق الروح القدس من الآب والابن ، وفي مديح السيدة العذراء ، وفي أخبار الرسل ، وفي قسطنطين الكبير ومبادئ النصرانية ، وفي الجامع الأربعة الأولى العامة ، وفي مدح القديس مارون الانطاكي ، وفي ابراهيم الخليل ، وفي القديس نهرا السمراني ،

وفي القديس جيورجيوس الذي استشهد في اللّد، وفي القديس سمعان الجبيلي،
والقديس ريشا الروماني، والقديس شينا اللص، والقديسة بربارة البعلبكية،
وأفروسيينا الاسكندرية وقصييدة في حرب كسروان، وأخرى في من قصدوا زرع
الزوان بين المواردنة، ومرثية لرفيقه القس يوحنا المار ذكره، وفي راهبة شردت من
ديرها، وقصييدة في معرفة الأفلاك والأبراج والكواكب الثابتة والمتحركة إلى غير
ذلك من القصائد في العلوم وفي النفس والتوبة والموت وأوجه القراية في الزواج
وغير ذلك اقتصرنا عن ذكره. وما ذكرناه كافٍ ليفهم القارئ ما أشد ما كانت
غيرة الأسقف جبرائيل بن القلاعي. وقال المطران اسطفانوس عواد في فهرست
الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية بعد أن نقل (صفحة ٣٨٦) عن الدويهي ما
رويناه هنا «إنّ مؤلفات ابن القلاعي هذه محفوظة بين الكتب العربية في مكتبة
مدرسة المواردنة بروما، وفي المكتبة الواتيكانية عد ١٨ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٨١
وتحتوي أيضاً غير ما ذكرناه من تأليفه.

عد ٥٤

باقي أساقفة المواردنة في هذا القرن

الثاني من أساقفة المواردنة في هذا القرن السادس عشر اللحفدي هو قرياقوس
من بيت حبص من اهدن، رقاہ البطريك سمعان الحديثي إلى الأسقفية سنة
١٥١٣م بعد وفاة يعقوب مطران اهدن الذي ذكرناه في جملة أساقفة القرن
الخامس عشر. ووصفه الدويهي بأنه كان رجلاً شجاعاً أصيل الرأي حسن التدبير،
وكان يشغل الحبيس جبرائيل الأهدني بنسخ الكتب البيعية وبعنايته أئلف أهل جبة
بشري الجراد من بلادهم سنة ١٥٢٦م، ووقوا زروعهم وأشجارهم من مضرته،
وتوفي سنة ١٥٥٠م.

٣ - الأسقف مارون مطران قبرص رقاہ البطريك سمعان الحديثي إلى أسقفية
قبرص سنة ١٥١٦م خلفاً لجبرائيل بن القلاعي، وذكره الدويهي في تاريخ السنة
المذكورة.

٤ - الأسقف جبرائيل الأهدني وهو ابن أخي المطران قرياقوس بن حبص

المر ذكره، روى الدويهي أنه رقي إلى الأسقفية سنة ١٥٢٠م وأنه كان يسكن في قرية زغرنا ولم يبعثنا بسنة وفاته .

٥ - انطونيوس مطران دمشق ذكر الدويهي ترقيته إلى أسقفية دمشق سنة ١٥٢٣م. وقال إنَّ البطريك سمعان الحديثي أرسله لزيارة الموارنة بقرص، فجدد بناء كنيسة القديس جرجس بطالا، وفي سنة ١٥٢٧م أرسله البطريك موسى العكاري إلى روما فوقع بيد اللصوص، ثم استفل نفسه كما مرّ في ترجمة البطريك المذكور، ثم توفي سنة ١٥٢٩م .

٦ - المطران يعقوب بن عزيز الحديثي أنبأنا الدويهي بوفاته في تاريخ سنة ١٥٢٤م ولم نعلم متى كانت ترقيته إلى الأسقفية . وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة أيضاً وفاة المطران جرجس بن صدقني من مزرعة الحدث الذي ذكرناه في جملة أساقفة القرن الخامس عشر. وقال إنه كان باراً فاضلاً قضى أجله في قرية اليموني، وهو زائر للرعية. وبعد أن أقام القداس يوم وفاته علم أنّ أجله قد دنا فاستدعى الكهنة وأمر أن يجنزوه حياً وأن يدفنوه في مغارة القديسة مارينا بقنوين. واستراح بالرب بعد جنازه فحملوه ليلاً إلى قنوين ودفنوه حيث أوصى أن يُدفن .

٧ - المطران يوسف من كفر حورا بناحية الزاوية، لم يتحفنا الدويهي إلا بذكر وفاته سنة ١٥٢٧م .

٨ - الأسقف جرجس الحديثي مطران نيقوسية بقرص لم يذكره الدويهي ولكن ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٧١ حيث قال: « ٣٠٣ زبور داود ترجم من السريانية إلى العربية بعناية جرجس مطران نيقوسية السرياني الماروني . وفي آخر المزمور ١٥٠ المزمور المفتوح لما كنت صبياً قاله داود بعد انتصاره على جليات، وتسميه عامتهم الخارج عن عدد الزبور، وألحق بذلك التسايح التي وردت في العهدين القديم والحديث وعدتها عشر تسايح والصلوة الربية وقانون الايمان الذي وضعه آباء المجمع النيقوي، وفهرست الأعياد في مدار السنة، وجداول لمعرفة الأعياد المتنقلة وبعض ضوابط لمعرفة يوم عيد الفصح وأول الصوم الأربعيني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية . وأضيف إلى ذلك أمثال أو حكم أدبية مجموعة من كتب عدة مؤلفين، ثم حساب العشور البطريكية التي جمعها بأمر البطريك موسى العكاري

جرجس الحدثي مطران نيقوسية مترجم وناسخ هذا الكتاب سنة ١٨٣٩ لاسكندر (سنة ١٥٢٨ للميلاد) في جزيرة قبرص وهي السنة التي فرغ فيها من اشتغاله بهذا الكتاب كما هو بين من الحاشية التي علقها بيده على حساب العشور المذكور. ثم إن ترجمة الزبور هذه مع الأصل السرياني طُبعا بدير قزحيا سنة ١٥٨٥م بعناية سركيس الرزي بطريرك الموارنة وهو الرابع والأربعون من عداد بطاركتهم، وباهتمام يوسف خاطر من عائلة السماعنة حاكم جبل لبنان. والكتاب يشتمل على ٢٢١ صفحة بقطع الثمن مكتوبة بالأحرف السريانية واللغة العربية بيد جرجس مطران نيقوسية سنة ١٨٣٩ لاسكندر (سنة ١٥٢٨ للميلاد) كما هو مدوّن على آخر هذا الكتاب» .

٩ - المطران جرجس الأهدني روى الدويهي إنه بعد وفاة المطران انطونيوس أسقف دمشق سنة ١٥٢٩م صير هذا مكانه، وإنه في سنة ١٥٥٢م أرسله البطريرك موسى العكاري مع الأسقف داود ابن الخوري سمعان الحدثي إلى زيارة الموارنة الذين بقبرص فكرسا عدة كنائس مع فرنسيس أسقف الأفقسية الماروني، ورفقا القس مرقس بن انطون من قبرص إلى الأسقفية وأخذ السكنى في قرية مطوش، وإن المطران جرجس توفي سنة ١٥٦٢م .

١٠ - الأسقف سركيس بن نجيم روى الدويهي أنه سار إلى قبرص سنة ١٥٢٩م، وقيل أنه بعثه على هذا السفر تهمة اتهمه بها أهل قرية بكركي التي فوق جونية، فحرمهم وارتحل إلى قبرص، وكانت بكركي قرية كبيرة اعتاد أهلها أن يكونوا مكارين وسعاة وخربت بعد ذلك .

١١ و ١٢ - الأسقف إيليا الحدثي أنبأنا الدويهي بوفاته سنة ١٥٣٠م وأنه خلفه الأسقف تادروس من الحدث أيضاً، وكان معاوناً للبطريرك موسى العكاري في أشغال الكرسي البطريركي وتدير أملاك دير قنوين .

١٣ - الأسقف سمعان مطران طرابلس جاء في تاريخ الدويهي أنّ سمعان مطران طرابلس توفي سنة ١٥٣٤م وخلفه الراهب يوسف بن بطرس . ولكن جاء في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية للمطران اسطفانوس عواد السمعاني (كتاب ٥٤ صفحة ٩١) «كتاب الفرض الأسبوعي السرياني بحسب طقس الكنيسة الانطاكية المارونية»، يشتمل على ٢٢٢ صفحة بالأحرف واللغة

السريانية كُتب بروما بعناية البابا بولس الثالث الحبر الروماني في اليوم الثاني عشر من نيسان سنة ١٥٤٣م ويبد سمعان أسقف طرابلس الشام الماروني من جبل لبنان كما في الحاشية المعلقة على آخر هذا الكتاب . وقد روى البطريرك اسطفانوس الدويهي أنّ سمعان المذكور رقي إلى أسقفية طرابلس نحو سنة ١٥٣٥م ولما لم يتمكن من الإقامة في هذه المدينة بسبب الاضطهاد الجاري يومئذ على الكاثوليكين سار إلى روما يطلب الترخيص من البابا بولس الثالث بأن يقيم خارجاً عنها، فرخص له بذلك وعاد إلى وطنه وتوفي سنة ١٥٤٧م. انتهى كلام المطران اسطفانوس عواد ومنه يظهر أنّ نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا اعتراها غلط النساخ في ما رويناها آنفاً عنها ، وإنّ الصحيح أنّ المطران سمعان رقي سنة ١٥٣٤م أو سنة ١٥٣٥م إلى أسقفية طرابلس لا لأنه توفي تلك السنة . وقد رأينا مرات أنّ نسخ كتب الدويهي التي كانت بروما أصبح كثيراً من النسخ التي تتداولها أيدينا في المشرق . وقد أنبأنا المطران اسطفانوس عواد المذكور أنّ كتاب الفرض (الشحيمة) الذي عثر عليه في المكتبة الماديشية يطابق النسخ المجاز طبعها بروما في ١٢ تموز سنة ١٦٢١م بعد أن فحصها عدد من العلماء الاعلام ، وطُبعت في أيام البابا بولس الخامس ثم غريغوريوس الخامس عشر ثم اوربانوس الثامن ثم اينوشنسيوس العاشر، ثم بعناية البابا اكليمنضوس الحادي عشر. وطُبعت أخيراً بمطبعة نشر الايمان سنة ١٧٣٢م بعد أن نظر فيها وصححها البطريرك يعقوب عواد .

١٤ - الأسقف يوسف الجاجي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٤٠م فقال كان خصام بين أهل عينطورين وأهل بان على دير قزحيا ، وكل من الفريقين يدّعي أنه في خراج قريته ، فحكم القاضي أنه في خراج عينطورين وقبل أهلها دفع الخراج المرتّب عليه كل عام وقدره ثلاثمائة درهم . فاعتزل القس حنا بن نمرون الباني عن رئاسة الدير وترأس عليه الخوري يوحنا اللحفدي ، ثم خلع نفسه من الرئاسة فترأس عليه الأسقف يوسف الجاجي وكان رجلاً روحانياً كثير الجلد على نسخ الكتب البيعية ثم توفي سنة ١٥٤٤م .

١٥ - الأسقف جبرائيل بن أستيته الأهدني روى الدويهي في تاريخ سنة ١٥٤٤م أنه بعد وفاة الأسقف يوسف الجاجي ، خلفه جبرائيل المذكور في رئاسة دير قزحيا، فأنشأ له كثيراً من العقارات وأتمّ بناء القبو والدلهيز والمجلس والمطحنة التي على النهر . ووسّع الكنيسة التي في الصخر وأقام بها ثلاثة مذابح للسيدة

العدراء وللقديسين انطونيوس ومكاريوس وكان كثير الورع والتقشّف ، وكان يصنع في كل يوم من الصوم ألف مطانية ، وما كان يشرب الماء في مدة الصوم إلى خميس الأسرار . ومع هذا الجهاد لم يكن ينقطع عن نسخ الكتب ، فكثرت جداً كتبه في كنائس لبنان . ولم يدع كنيسة أجداده مار جرجس باهدن تحتاج إلى شيء من الكتب فكافأه البطريك موسى العكاري بترقيته إلى الأسقفية وتوفي سنة ١٥٥٦ م .

١٦ - الأسقف انطونيوس الحصري ابن الحاج فرحات صير أسقفاً على اهدن بعد وفاة المطران قرياقوس المار ذكره سنة ١٥٥٠ م وكانت أمه بنت عم المطران قرياقوس من الدويهيّة ، فترى عند أخواله بدير القديس يعقوب المعروف بدير الأحباش . وتضلّع في اللغات السريانية والعربية والتركية ، وكان مقداماً شجاعاً ، ولما قدم السلطان سليم الثاني إلى مدينة حلب مثل أمامه في جملة المشتكين الطرابلسيين ، فأنعّم عليه بخمسة مراسيم سلطانية سُجلت في سجلات طرابلس في أيام واليها حسين بك ، منها أنّ غلال الزيتون تقسم تحت أشجارها مناصفة فالنصف للمالك والربع حق وربع ظلم (كذا وجدنا مكتوباً ويتبادر إلى الفهم أنّ المراد برّبع حق أنّ الربع للعامل وبرّبع ظلم أنّ الربع الآخر بدل الخراج) . ومنها أن لا يعترض أحد النصارى في دينهم أو زواجهم ، ومنها أنه يرخص لهم بترميم كنائسهم ومنها أمر همايوني موجه إلى قاضي طرابلس بأن لا يعترض أحد بطريك الملة المارونية في أعمال بطريركيته بل أن يردع ويعاقب كل من تمرد عليه أو عانده . وكانت هذه الأوامر مؤرخة في أول ربيع الأول سنة ٩٥٦ (الموافقة سنة ١٥٤٩ م) فكافأه البطريك موسى العكاري عن أتعابه وغيرته بترقيته إلى الأسقفية . وكان أنّ أسقف الملكية بعمار استحوذ على دخل الموارنة بناحية عرقا وعكار سبع سنين ، فشكاه المطران انطونيوس إلى محكمة طرابلس فأمر القاضي أن يضع يده على مداخل مطران الملكية سبع سنين ليستوفي حقه ، وأكرم البطريك موسى المطران انطونيوس أن يتصرّف بعشور بلاد عكار ما دام حياً .

١٧ - الأسقف داود ابن الخوري سمعان الحداثي رقاہ البطريك موسى إلى الأسقفية ليكون معاوناً له مع المطران تادروس في تدبير الكرسي البطريكي سنة ١٥٥٢ م ، ثم أرسله مع المطران جرجس الأهدني المار ذكره لزيارة الموارنة بقبرص فكرسوا عدة كنائس .

١٨ - الأسقف مرقس بن انطونيوس من قبرص رقاہ سنة ١٥٥٢م الأسقفان داود وجرجس المذكوران مع أسقف الأفقسية إلى الأسقفية في مدة زيارتهما في قبرص، وكان ورعاً مجاهداً في خير الكنيسة، ونسخ الكتب، وأخذ السكنى بقرية مطوش بقبرص.

١٩ - الأسقف يوسف بن حرواص رقاہ البطريرك موسى العكاري سنة ١٥٥٦م إلى الأسقفية، وأقامه بدير القديس اليشاع بأرض بشري مجازاة لتعبه في بناء الدير المذكور.

٢٠ - الأسقف موسى بن أيوب بن قمر ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م، وقال إنه كان قاطناً بدير القديس ماما في بشري ومتكلماً على القرية.

٢١ - الأسقف ماكا البقوفاوي ذكره الدويهي وقال في حقه إنه لزم الحياة النسكية نحو ستين سنة، فأقام أولاً بدير قزحيا ثم بجانب كنيسة القديس دوميط بداريا، ثم في كنيسة السيدة المنقورة بالصخر تجاه عرجس، ثم في محبسة مار ميخائيل فوق قزحيا. وكان عبدة صالحة لكل ناظر إليه أو سامع به، وكان يطوي الصوم سبعة سبعة، ويقمع جسده بالصوم والعطش والمشى حافياً. ولم ينظر إلى وجه امرأة. ولم يكن بمحبسة مار ميخائيل ماء ولم يعد له قوة ليستقي من محبسة قزحيا فصلّى إلى الله فأخرج له من الصخر ماءً قليلاً، فنقر له جرنأ فصار يجتمع به ما يكفيه ويكفي زائريه. وشرفه البطريرك موسى بدرجة الأسقفية وتوفي سنة ١٥٦٠م.

٢٢ - الأسقف جرجس القبرصي ذكرنا قبلاً أنّ البطريرك موسى أرسله كاهناً إلى رومة ليأتيه بدرع الرئاسة، ودفع إليه أوتاراً ممهورة بختمه، ولم يكتب عليها شيئاً حتى إذا اضطر إلى أمر كتب عليها ما يحتاجه. وبينما كان بروما كتب على إحدى تلك الأوراق رسالة من البطريرك إلى الحبر الروماني يخبره بها بوفاة الأسقف جرجس الأهدني مطران دمشق ويسأله أن يرقى القس جرجس رسوله إلى هذه الأسقفية. فأمر البابا بترقيته إجابةً إلى سؤال البطريرك، فرقى إلى الأسقفية سنة ١٥٦١م. وعاد إلى قبرص فوجد أنّ الأسقف فرنسيس المار ذكره قضى أجله فضبط ما كان له، واستمر عند أهله بقبرص. وكان البابا قد أرسل إلى البطريرك معه غفارة وكانت طويلة فقصّها لتكون ملائمة لقامته، ولما علم

بذلك البطريك أطلق عليه تأديب الرباط . طالع ما سنقوله في الأسقف جرجس
اليسلوقيتي .

٢٣ - الأسقف سرقيس الأهدني خلف المطران انطونيوس الحصري أسقف
اهدن المار ذكره بعد وفاته سنة ١٥٦٥م وكان الأسقف سرقيس ابن القس
موسى الدويهي وتوفي سنة ١٥٧٧م بعد أن استمر بأسقفية اهدن اثنتي عشرة
سنة . ووصفه الدويهي بأنه كان أصيل الرأي شديد الغيرة على بناء الكنائس
والأديار .

٢٤ - الأسقف يوحنا بن عبيد خلف الأسقف سرقيس المار ذكره في
أسقفية اهدن سنة ١٥٧٧م ووصفه الدويهي بأنه كان ورعاً كثير العبادة مشهوراً
بنسخ الكتب .

٢٥ - الأسقف يوسف رقا البطريك ميخائيل الرزي إلى مطرانية بيروت سنة
١٥٧٧م مع الأسقف يوحنا المار ذكره .

٢٦ - الأسقف جرجس اليسلوقيتي رقا البطريك المذكور إلى مطرانية دمشق
سنة ١٥٧٧م أيضاً مع الأسقفين يوحنا ويوسف المار ذكرهما . ثم أرسله في اليوم
العاشر بعد تربيته إلى روما مع الخوري اقليمس الأهدني لطلب درع الرئاسة كما مرّ
في الكلام على البطريك ميخائيل الرزي ، وعادا من سفرهما سنة ١٥٧٨م مع
الأب جوان باطيسا . وقال المطران اسطفانوس عواد في كتاب فهرست الكتب
الشرقية في المكتبة الماديشية عند ذكره الكتاب الثاني والخمسين منها : « علة
صلوات » ترجمها من اللاتينية إلى العربية جرجس مطران دمشق الماروني وهذه
الصلوات تتلى قبل القداس وبعده . وقد منح الأبحار الأعظمون غفران سنين كثيرة
لمن يتلوها . فجرجس الماروني هذا هو ابن سليمان من قرية كليين بقبرص غير
بعيدة عن نيقوسية ، رقا البطريك ميخائيل الرزي إلى أسقفية دمشق وأرسله بعيد
ذلك لتقديم فروض الطاعة باسم البطريك وملته . وقبله البابا بيوس الخامس ثم
غريغوريوس الثالث عشر بالتكريم وأقام مدة بروما وطبع هناك هذا الكتاب كما
يظهر من الحاشية المعلقة على آخر هذا الكتاب بخط يده ، وعاد إلى لبنان سنة
١٥٧٨م مع الأب يوحنا المعمدان اليان (جوان باطيسا) ثم ذكر ما حواه
الكتاب المذكور أيضاً فقال « دستور ايمان الرسل والدستور النيقوي ثم صلاة يوم

الأحد ثم زبور داود التي تتلى في صلوات الفرض عند الموارنة والصلوة المؤلفة من فيلوكسينوس المنبجي ترجمها جرجس المذكور من السريانية إلى العربية». وقال أخيراً: «كتاب عدة صفحاته ١٥٩ صفحة بقطع صغير مكتوب بالأحرف الكرشونية كتبه بروما بأنظار بيوس الخامس الحبر الأعظم جرجس بن سليمان من قرية كليين بقبرص مطران دمشق سنة ١٥٧١م» كما في الحاشية المعلقة في آخر الكتاب.

وعليه فكان قول المطران اسطفانوس عواد أنّ المطران جرجس هذا كان من قبرص، ورقاه البطريك ميخائيل الرزي إلى الأسقفية في أوائل بطريركيته سنة ١٥٦٧م مخالفاً لقول الدويهي أنه كان من بسلوقيت ورقاه البطريك المذكور سنة ١٥٧٧م، واتفق العلامتان في الباقي. فعلى قول أيهما نعتمد؟ فإن حق لي أن أقول شيئاً وأن لا أصلح أن أكون تلميذاً لأحدهما. قلت يظهر لي أنّ صاحب الكتاب المذكور الذي ذكره المطران اسطفان عواد هو المطران جرجس القبرصي المار ذكره الذي كان قاصداً للبطريك موسى العكاري، واحتال على البابا بيوس الرابع حتى أمر بترقيته إلى الأسقفية، وربطه البطريك ويظهر أنه عاد إلى روما وأقام فيها إلى سنة ١٥٧١م التي كتب بها كتابه. وإنّ المطران جرجس البسلوقيّتي الذي ذكره الدويهي هو غير ذاك، وهو قاصد البطريك ميخائيل الرزي إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، مضى إلى روما سنة ١٥٧٧م وعاد منها سنة ١٥٧٨م. وجلّ ما يرجّح لي قلبي هذا أنه إذا كان المطران جرجس القبرصي أرسله ميخائيل الرزي في أوائل بطريركيته أي سنة ١٥٦٧م فلا يبقى بروما إلى سنة ١٥٧١م التي كتب فيها كتابه ولا إلى سنة ١٥٧٨م التي عاد بها مع جوان باطيسستا كما ذكر المطران اسطفان عواد. فقول الدويهي إذاً أوجه وأمثل والله أعلم.

٢٧ - الأسقف داود رئيس دير قزحيا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٧٧م وقال إنه كانت فتنة بينه وبين البطريك ميخائيل الرزي فانتقل من دير قزحيا مع الخوري مارون القبرصي والقس يعقوب بن حبلص الحاقلي إلى دير حوقا ورقى دون مشورة البطريك القس يعقوب المذكور إلى الأسقفية، ثم دعا من دير قزحيا الحبس يونان وأخاه القس يوسف ابني جلوان من سمار جبيل وراهبتي قزحيا فرقاها إلى الأسقفية أيضاً. ولما علم البطريك بذلك رفع عرض الواقع إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر في رسالة مؤرخة في ١٧ ايلول سنة ١٥٧٧م ومنع الحبس يونان وأخاه عن استعمال حقوق الأسقفية، وأمر الحاكم بخروجهما من دير قزحيا،

فحملوا الحبيس يونان بالنعش إلى دير القديس سمعان بالفرايس وأما أخوه يوسف فسار إلى قريته سمار جبيل ، وبعد ثلاثة أشهر مضى المقدم مقلد البشرياني والشدياق خاطر الحصريوني وبعض الأعيان ، فشفعوا بهم فباركهم البطريك وكان دير قزحيا قد خلا من الرهبان ، فرخص لهم بالعود إليه وأعطاهم عشرة رهبان وبقراً وماعزاً إلى غير ذلك مما يلزم لهم ، وفصل الدير عن المحبسة ليقوم كل منهما بنفسه . ويظهر أنه لم يصحح رسامة من رسمهم الأسقف داود .

٢٨ - الأسقف سركيس الرزي أخو البطريك ميخائيل الرزي لم يذكر الدويهي سنة ارتقائه إلى الأسقفية بل ذكر في تاريخ سنة ١٥٧٨م أنّ البطريك ميخائيل أرسل أخاه الأسقف سركيس والقس جرجس بن يونان مع الأب جوان باطيسا ليرافقه في تطوافه بلبنان ويقدم له ما يطلبه ، والأسقف سركيس هو الذي خلف بالبطريركية أخاه البطريك ميخائيل بعد وفاته سنة ١٥٨١م .

٢٩ - الأسقف سركيس من كفرحورا لم يذكره الدويهي ، ولكن وجدنا توقيعه على المجمع الطائفي المنعقد سنة ١٥٨٠م هكذا . أنا سركيس من كفرحورا أسقف ورئيس قزحيا .

٣٠ - الأسقف يوسف البسلوقيتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٠م فقال أنه نحو هذه السنة رقد بالرب يوسف البسلوقيتي الذي كان مستحبساً في دير القديس انطونيوس بالفرايس ، ولأجل سيرته الملكية وشيخوخته النقية رقاہ البطريك ميخائيل إلى الأسقفية ، ولما دنت ساعة وفاته مضى لزيارته ، ثم أمر بدفن جثته بمغارة البارة مارينا بجانب دير قنوين .

٣١ - الأسقف اقليمس الأهدني هو الذي كان البطريك ميخائيل الرزي قد أرسله كاهناً مع المطران جرجس البسلوقيتي إلى روما ، فرقاہ أخوه البطريك سركيس إلى الأسقفية سنة ١٥٨٤م ليكون معاوناً له في دير قنوين . وذكر الدويهي وفاته سنة ١٥٩٨م وقال إنه توجه إلى روما مرات وإنه كان حازماً أصيل الرأي .

٣٢ - الأسقف انطونيوس الجميل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٧م وقال إنه لما كان كاهناً عنيّ ببناء كنيسة القديس عبدا في قريته بكفيا وأنفق عليها ألف قبرصي عدا ما أنفقه أهل القرية وغيرهم ، فأراد البطريك سركيس الرزي أن يكافئه

فرقاه إلى الأسقفية وأكرمه ببذلة جميلة للقداس ، ولما كان البطريرك متوجهاً سنة ١٥٩٥م لزيارة كسروان لقيه المطران انطونيوس إلى البوار عازماً أن يمنعه عن الدخول إلى هذه البلاد فربطه البطريرك ، وفي اليوم الثالث بعد ذلك قضى أجله .

٣٣ و ٣٤ - الأسقف يوسف والأسقف يوحنا مطرانا قبرص ذكرهما الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٨م بقوله في هذه السنة كانت وفاة الأسقف يوسف بجزيرة قبرص ، ورقى البطريرك خلفاً له الأسقف يوحنا بن اسكيلا المعلم من الخيزفانية ثم ذكر وفاة يوحنا هذا في سنة ١٥٩٨م .

٣٥ - الأسقف يوسف الرزي هو ابن موسى الرزي أخى البطريرك سركيس ، رقاہ عمه البطريرك المذكور سنة ١٥٩٥م إلى الأسقفية في عيد ميلاد الرب ، وأرسله سفيراً إلى البابا اكليمنضوس الثامن لقضاء بعض حاجات الطائفة وتهنئة البابا بارتقائه إلى الخبرة العظمى ، فعاد من روما سنة ١٥٩٦م ومعه الأب ايرونيμος دنديني والأب فاييوس برون اليسوعيان لعقد المجمع المار ذكره ، وبعد وفاة عمه البطريرك سركيس سنة ١٥٩٦م خلفه في البطريركية كما مرّ .

٣٦ - الأسقف موسى العنيسي صير مطراناً على قبرص سنة ١٥٩٨م بعد وفاة الأسقف يوحنا بن اسكيلا المار ذكره ، وكان موسى المذكور من العاقورة وتهذب بالعلوم بروما .

ورقى البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية في آخر هذا القرن أي سنة ١٦٠٠م ابن أخيه الأسقف سركيس الرزي والأسقف جرجس بن عميرة الأهدني الذي انتخب بعداً بطريركاً ، والأسقف ميخائيل من بيت عبيد باهدن ، والأسقف موسى من عرجس . وأقام بدير مار اليشاع بيشري . ونُرجئ تنمة الكلام في هؤلاء إلى تاريخ القرن السابع عشر .

عد ٥٥

المشاهير الدينيون الموارنة في القرن السادس عشر

نريد بالمشاهير الدينيين من اشتهروا في هذا القرن من الموارنة بالنسك والزهد والعلوم الدينية أو نسخ الكتب ، وهم ليسوا بطاركة أو أساقفة ، واعتمدنا في تراجمهم على تاريخ العلامة الدويهي .

١ - كان من سلك النساك القس موسى العكاري ، وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا ، وكان تلميذاً للخوري اسطفان والقس ميخائيل رئيسي هذا الدير ثم رقى إلى الأسقفية ثم البطريركية كما مرّ.

٢ - الخوري يوحنا المعروف بالزطيمية ، فهذا كان من ترنج وارثل بعائلته سنة ١٥١٠ إلى قبرص في جملة من هاجروا من لبنان تلك السنة من جري الجور والضرائب . وكان الخوري يوحنا عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من الكتب البيعية ، وكان من جملة عمد الطائفة في تلك الأيام ، وكانت له مباحث دينية مع الروم بقبرص ، وكانوا يسمونه كروكلية لأنه كان يعتّم بعمامة زرقاء ، وعانى مشاق كثيرة من أبناء طائفته حسداً له . وبعد وفاته خلفه ابنه القس يوسف والشماس الياس واشتهرا بنسخ الكتب البيعية والأفعال الحسنة .

٣ - الخوري لوقا بن بطرس من ترنج أيضاً وأنشأ كنيسة جميلة في قرية كليين بقبرص على اسم القديس لوقا الانجيلي .

٤ - الخوري زكريا وكان من جملة النازحين من لبنان إلى قبرص ، وبنى كنيسة القديس ماما في قرية مطوش .

٥ - الحاج ميخائيل أخو الأسقف جبرائيل القلاعي انتقل من لحفد إلى قرية طالا بقبرص وزاد على كنيسة السيدة سوقاً آخر ومذبحاً على اسم القديس عبدا .

٦ - القس بطرس وهو الذي أرسله البطريرك سمعان الحداثي إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣م فردّه البابا إلى لبنان إذ لم يكن مصحوباً برسائل البطريرك ، ثم سفره البطريرك ثانية إلى أم المدائن سنة ١٥١٥م فنال التثبيت على يده كما قدمنا في الكلام على هذا البطريرك ، وهو الذي أحضر نسخة من رسالة فراغريفون إلى الحبر الروماني شهادة بصفة ايمان الموارنة كما مرّ .

٧ - الخوري يوسف الذي أرسله البطريرك سمعان الحداثي سنة ١٥١٥م إلى رومة مع راهبين لاقتباس اللغة اللاتينية والعلوم الدينية فعلموا اللغة السريانية وكانوا أول من علّمها بأوروبا .

٨ - الخوري يونان المتريتي رئيس دير قزحيا ، زاد في كنيسة هذا الدير سنة ١٥٢٦م على مذهب القديس بشاي مذهبين آخرين أحدهما على اسم السيدة

والثاني على اسم جبرائيل رئيس الملائكة . وفي سنة ١٥٣٩م اتفق مع رهبانه على نهى النساء عن الدخول إلى دير قزحيا ، وحلف جميعهم على ذلك وأقاموا لذلك احتفالاً وتطوافاً بالدير كله . وفي سنة ١٥٤٢م انتقل إلى رحمة ربه . وكتب عنه تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني أنه خدم الله بالطهارة والورع مدة خمسين سنة . وكان قبل وفاته بأربع سنين يصوم يومين يومين ولا يفطر في الصوم الكبير إلا يوم السبت والأحد ، ولم يكن عدد لمطانيته في سبة الآلام ، ولم يكن له مثيل في أعمال الرحمة . ويعجز القلم عن رقم فضائله . وشهد تلميذه الخوري يوحنا اللحفدي بأن الله صنع على يده آية كان هو شاهداً لها وهي أنه عازهم الزيت فوضع بخوراً وصلّى على خاية الزيت فطفحت به . وشهد جنازه البطريرك موسى المطران قرياقوس وجّم غفير تباركوا بجسده الطاهر . وقد ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ٢٦ إذ روى أنّ كتاب الزبور الذي كان قد كتبه حوشب في دير قزحيا سنة ١٣١٨م قد نسخه ملك جبرائيل من اهدن سنة ١٥٢٢م باهتمام الأب يوان الحبيس المتريتي . وروى ترجمة هذا الحبيس عن الدويهي كما رويناهما ، وذكر أيضاً تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني وهو ناسخ كتاب الزبور المذكور .

٩ - ألقس جرجس بن حرواص من قرية عرجس أنشأ دير القديس اليشاع ووسعه وأنفق عليه ١٣٧٥٠ درهماً عدا ما تبرّع به غيره من المحسنين . وكان عبد المنعم الأول مقدم بشري معاوناً له ومثله الحاجة سارة رفيقته في النسك وشريكته في بذل النفقة المذكورة ، وكان ذلك سنة ١٥٣٣م . ويظهر لنا أنّ القس جرجس هذا هو الذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م وقال إنّ المطران رقاہ إلى الأسقفية مكافأة له لبنائه دير مار اليشاع ببشري وإن سمي في هذا المحل الأخير يوسف لا جرجس .

١٠ - القس يوحنا بن نمرون الباني كان رئيساً على دير قزحيا سنة ١٥٢٩م وكان شهيراً بالورع والنسك ، ولما اختصم أهل بان وأهل عينطورين على دير قزحيا وحكم القاضي به لأهل عينطورين اعتزل القس يوحنا من الرئاسة وتولاها الخوري يوحنا اللحفدي كما مرّ عند ذكر الأسقف يوسف الجاجي . ثم عاد القس يوحنا إلى رئاسة دير قزحيا سنة ١٥٥٦م ولم يمكث بها طويلاً بل استقال منها وسكن دير القديس سمعان بقيطو ، إلا أنه في سنة ١٥٦٧م لما صير الحبيس ميخائيل

الرزقي المترئس على دير قزحيا بطريركاً أعادوا القس يوحنا إلى رئاسة هذا الدير فأُنشأ له مطحنة عند الدير وجَرّ الماء إليها من النهر. وعظمت شهرته بالبر والورع ، ولما توفاه الله خلفه بالرئاسة الخوري ابراهيم الحداثي .

١١ - الخوري يوحنا اللحفدي كان تلميذ الحبيس يونان المترتي وترأس على دير قزحيا بعد اعتزال القس يوحنا الباني المذكور ، ثم توفي سنة ١٥٤٢م بعد وفاة معلمه وقد اقتدى بفضائله ونسكه وتقشفاته وخدمته أربع عشرة سنة في مرضه ، وكان يقضي سبة الآلام متهجداً أكثر من الاماتات والمطانيات .

١٢ - الحبيس يونان بن جلوان من سمار جبيل ترهب في دير قزحيا مع أخيه القس يوسف ، وقد ذكرنا دعوة المطران داود رئيس دير قزحيا لهما إلى دير حوقا وترقيتهما سنة ١٥٧٦م إلى الأسقفية خلافاً لقوانين الكنيسة ومنع البطريرك لهما عن مباشرة حقوق الأسقفية وطاعتها ورضى البطريرك عنهما وردهما إلى دير قزحيا فأكملا حياتهما بالنسك والزهد والورع .

١٣ - القس يعقوب عصاص من بيت الزيات من أسمر جبيل ، لبس الأسكيم الملائكي بدير قزحيا ، وقضى حياته بالنسك والقداسة في محبة القديس سمعان بالفرايس وتوفي سنة ١٥٨٥م قال الدويهي ، وجسده ما زال سالماً في مغارة مار ادنه هناك لم يعثره فساد .

١٤ - الشهيد ابراهيم بن جرجس البشراي الحلبي ولد في حلب سنة ١٥٦٣ وكان والداه من بشري فهاجرا إلى حلب وكان من صغره على جانب عظيم من التقوى والعبادة ويظن أنّ الأب يوحنا ايليان المعروف بجوان باتيستا اختاره من حلب عند وصوله إليها سنة ١٥٨٢ ليكون مرشحاً للكهنة في مدارس رومية فدرس هناك أولاً مع التلامذة الذين كانوا في منزل الموارنة قبل أن تقام المدرسة وكان يتردد إلى الشبان المبتدئين في الرهبة اليسوعية فأثر فيه مثل سيرتهم وآدابهم ثم ذهب إلى رئيسهم يطلب منه الدخول بينهم فقبله بنوع غير اعتيادي وقضى زمان الامتحان مشهوراً بالعبادة والتقوى. وفي أواخر سنة ١٥٨٤ أرسله الرؤساء إلى المدرسة اليسوعية في فلورنسا ليتّم زمان امتحانه وينصبّ على الدرس فأقام هناك سنتين وأمره الرؤساء بالعود إلى رومية فدرس في المدرسة الرومانية العلوم الرياضية ثم الفلسفة واللاهوت على علماء يسوعيين شهيرين. وفي ٢٥ شباط سنة ١٥٨٨ قضى

الإكليل لابراهيم المذكور مع غيره حسب طقس الكنيسة اللاتينية ومن بعد أن أنجز دروسه رقي إلى درجة الكهنوت ثم أرسله رؤسائه إلى الهند سنة ١٥٩٢ وبعد أن أقام مدة في الهند سافر بأمر الطاعة إلى بلاد الحبشة في سنة ١٥٩٥ وكان وصوله إلى مصوع في آخر نيسان وبوصوله إلى هناك قبض عليه وأخذ إلى الحاكم فقضى الالب ابراهيم ليلته في الصلاة فرحاً وفي الصباح أوتي به من السجن أمام الحاكم فسأله عن اسمه ودينه وغاية سفره فأجاب إنني ولدت بمدينة حلب واسمي ابراهيم ابن جرجس وديني دين المسيح أتيت هذه البلدة لأذهب منها إلى بلاد الحبشة لأبشّر بالدين الكاثوليكي وأثبتته فتهدهده الحاكم بالقتل فلم ينثن فأخذ يتملقه فلبث مصرّاً فرجّه في سجن المجرمين مقيّداً بالسلاسل وأمر بعض الجنود أن يعذّبوه بالضرب والجوع والعطش فاحتمل كل ذلك بصبر وبعد أيام اجتمع أهل المجلس للحكم عليه بالموت فأمره الحاكم أن يشفق على شبابه ويكفر بالمسيح فأجابه: إنني أؤمن بالله واحد وبأنّ المسيح تجسّد ومات لخلاصنا فحنق الحاكم وأمر بقطع رأسه فتلقّى الحكم بفرح وتهليل ثم لبس رداءه الرهباني وجثا وقبّل الأرض وسلّم نفسه للجنود كالحمل فذهبوا به إلى محل العذاب وتبعه بعض النصارى فجثا وصلّى ثم حلّ ثوبه حول عنقه فضربه السيّاف ضربة هائلة فانكسر السيّاف فضجّ الشعب وغضب السيّاف وأخذ سيفاً آخر فضربه به فانثلم حدّه وأعاد الضربة فانكسر السيّاف ولم يجرح الشهيد إلا جرحاً خفيفاً فزاد ضجيج القوم وظهر تعجبهم فاستلّ السيّاف سيفاً ثالثاً وضربه فانفصل رأسه عن جسّته في أواخر نيسان سنة ١٦٩٥ ولم يكن تجاوز السنة الثالثة والثلاثين من عمره وشهد الله لقداسته بآيات عديدة ظهرت من جسّته حتى أخذ الوثنيون قسماً منها طرحوه في البحر وقسماً خلطوه بعظام موتاهم كي لا يكرمهم المسيحيون ومات كل من عاونوا على قتله بأمراض شنيعة في مدة الأربعين يوم بعد استشهادهِ وقتل الحاكم عليه بأمر حاكم خلفه. انتهى عن ترجمته في كتاب تطوييه إذ أحصاه الكرسي الرسولي عما قليل في مصاف الطوباويين.

مقالة عاشرة

تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارنة الدنيويون في القرن السابع عشر

عد ٥٦

بعض أعيانهم في هذا القرن

ذكرنا في آخر تاريخهم في القرن السادس عشر الشدياق الحصري والي جبة بشري فهذا توفي سنة ١٦١٢م وخلفه بولايته ابنه الشدياق رعد، وتزوج بست البنات بنت المقدم مقلد من المقدمين العناحلة (الذين أصلهم من عين حليا وقد مرّ ذكرهم) ويقال إنه كان يسئ المعاملة لها ويتهددها بالقتل وإنها دسّت له سمّاً في دجاجة أكل منها هو وأخوها جمال الدين بن مقلد المذكور، فماتا وانقرضت بجمال الدين سلسلة العناحلة. وأما امرأة رعد فتزوجها موسى البشري وسار بها إلى حلب فزوّق منها ولداً سمي عسافاً ودخل لإحدى رهبانيات الفرنج ومات كاهناً. ومن بعد وفاة المقدم رعد بن خاطر ولّى يوسف باشا سيفا والي طرابلس على جبة بشري أبا عاشينا شلهوب لأنه كان ابن بنت المقدم عاشينا الأول بن حسام الدين العنحلاني وولد له ثلاثة بنين وهم: عاشينا ويوحنا وميخائيل. ونازعه الولاية نعمة وداود وجرجس أولاد الشدياق خاطر فائتم عليهم مع الحاج سليمان

الملكي كاتب ديوان طرابلس فقبض يوسف باشا على نعمة وداود ابني خاطر وألقاهما في السجن، وكان يعدهما بأن يولييهما جبة بشري حتى استنزف الثروة التي تركها والدهما ثم أمر بخنقهما، وألقوهما في البير المعروف بالأزهرى. وقبض المقدم ابو عاشينا شلهوب على أخيهما جرجس وغرقه في النهر قريباً من المدينة، واستمر في الولاية على جبة بشري تسع سنوات. ففي سنة ١٦٢١م كبس ابنه عاشينا دير مار توما بحصرون وقتل القس دانيال العكاري طمعاً بدراهمه، وعرض الأمر للشيخ أبي صافي الخازن الذي كان الأمير فخر الدين المعني قد ولاه على جبة بشري، فقبض على عاشينا وأخذه إلى سمار جبيل وعرض أمره على الأمير فخر الدين فأمر باهلاكه، فقتله ودفنه عند جسر المدفون. وأتى والده المقدم شلهوب ليحتج عن ابنه فقبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن ورفع أمره إلى الأمير فخر الدين وبين أنه من غرض ابن سيفاً فأمر بقتله أيضاً فُقتل ورُج في المدفون.

وكانت الوجاهة الكبرى بلبنان في أيام الأمراء المعنيين للمشايخ بني الخازن، وقد مرّ في تاريخ القرن السادس عشر أنّ أرملة الأمير قرقماز معن أرسلت ولديها الأميرين فخر الدين ويونس فخبأتهما عند الشيخ ابراهيم ابن الشدياق سرّكيس الخازن، ولما راق كأس السياسة وعاد الأميران المذكوران إلى ولايتهما بالشوف، دعا الأمير فخر الدين ابراهيم الخازن وجعله معاوناً ومدبراً له في حكومته، وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه. ولما توفي الشيخ ابراهيم المذكور سنة ١٦٠٠م اتخذ الأمير فخر الدين ابنه خازناً المكنتى أبا نادر مدبراً له مكان أبيه، ولما اضطر الأمير فخر الدين أن يسير إلى أوروبا سنة ١٦١٢م ترك الشيخ أبا نادر مع أخيه الأمير يونس مدبراً له كما كان معه.

وفي سنة ١٦١٣م لما عاد الأمير يونس إلى ولاية الشوف أرسل الشيخ أبا نادر والشيخ أبا ضاهر حبّيش إلى كسروان ليحصيا الأشجار ويستوفيا ما عليها من المال مع ابن المسلماني الذي كان من رجال المعنيين. وأرسل الأمير يونس الشيخ أبا رحال خطاراً أخا أبي نادر إلى توسكانا إلى الأمير فخر الدين ليطلعه على أحوال البلاد. وفي سنة ١٦١٥م أرسل الأمير يونس الشيخ أبا نادر ومعه مملوك له اسمه ذو الفقار ليحكم في كسروان ويقيما بغزير. ولما عاد الأمير فخر الدين من رحلته سنة ١٦١٧ والتقاء الأمير يونس أخوه والشيخ أبو نادر إلى عكا، أنعم على أبي نادر وعلى ذريته بولاية عمل كسروان جزاءً لصدّق خدمته بحضوره وغيابه.

ثم سار أبو نادر مع الأمير فخر الدين لمقاتلة يوسف باشا سيفاً انجاداً لعمر باشا والي طرابلس، وعند عودهما حاصر الأمير فخر الدين قلعة جبيل التي كانت بيد جماعة ابن سيفاً وأخرجهم منهم بالأمان وولّى الشيخ أبا نادر على بلاد جبيل منضمة إلى كسروان. وفي سنة ١٦٢١م ورد أمر من الآستانة إلى الأمير فخر الدين أن يعاون والي طرابلس على يوسف باشا سيفاً إذا لم يذعن للوالي المذكور، وفرّ يوسف باشا إلى عكا فأرسل الأمير فخر الدين رجالاً طردوا من جبة بشري العمال الذين كان يوسف باشا قد أقامهم بها وولّى عليها الشيخ أبا صافي الخازن رباحاً عم الشيخ أبي نادر كما مرّ. وفي سنة ١٦٣١ أصلح الشيخ أبو نوفل نادر الخازن ما كان قد خرب من قلعة سمار جبيل بزلزال قتل فيه ابنه نوفل ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش. ولما قبض على الأمير فخر الدين في مغارة جزين سنة ١٦٣٣م كان بمعيته الشيخ أبو نادر وعمه الشيخ أبو صافي وأخذهما معه إلى دمشق، فكفلهما الأمير اليميني وعادا إلى كسروان. وأما أبو نوفل فكان قد فرّ مع الأمير حسين بن فخر الدين إلى قلعة المرقب، فأمسكهما خليل باشا وأخذهما إلى حلب. فانهزم أبو نوفل وعاد متنكراً إلى وطنه. ولما رأى الخازنيون شدة المضايقة لهم انهزم الشيخ أبو نادر وابنه نوفل نادر وأخوه أبو خطار عبدالله وسافروا إلى توسكانا بايطاليا سنة ١٦٣٥م وكان الشيخ أبو نادر مشهوراً عند الافرنج أيضاً فقابله دوك توسكانا بالمعزة والاكرام. ولما تولّى الأمير ملحم المعني بلاد الشوف عاد المشايخ بنو الخازن من ايطاليا فردهم إلى اقطاعاتهم سنة ١٦٣٨م وجعل أبا نادر مديراً له كما كان قبلاً. وفي سنة ١٦٤٥م توفي الشيخ أبو صافي رباح الخازن في ساحل علما. وفي أول تموز سنة ١٦٤٧م توفي الشيخ أبو نادر خازن بن ابراهيم بن سركيس الخازن بعد أن كان مديراً للحكومة بني معن عدة سنوات وحاكماً بكسروان وجبيل والبترون والجبة والمرقب، وخلفه بوجهته ومساعيه الحميدة ابنه نادر المكتى أبا نوفل.

وفي سنة ١٦٥٠م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل يجبي المال الأميري من بلاد البترون، وكان الأمير التزمه من عمر باشا والي طرابلس. وفي سنة ١٦٥٦م أنعم البابا اسكندر السابع على الشيخ أبي نوفل بلقب كافليز أي فارس. وفي سنة ١٦٥٨م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل ليحبي الأموال الأميرية من عكار وجبة بشري وبلاد البترون وأداها إلى الدولة بحسب تعهده، وكان

الحكام يثقون به كل الثقة . ولما توفي الأمير ملحم معن سنة ١٦٥٨م وخلفه في ولايته ابنه الأمير أحمد والأمير قرقماز جعلاً الشيخ أبا نوفل مديراً لهما كما كان عند والدهما . وسنة ١٦٥٩م أنعم لويس الرابع عشر ملك فرنسا على الشيخ أبي نوفل أن يكون قنصلاً لدولة فرنسا ببيروت ، ونال ذلك بعناية المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس ، وحاز أيضاً وكالة قنصلية البندقية . وقد رضي السلطان الأعظم عن اقامته في هذا المنصب وأتحفه بفرمان مؤذن بذلك ومبيّن حقوق منصبه . (تراه مترجماً في كتاب النبذة التاريخية في المقاطعة الكسروانية صفحة ٨٦) وهو الذي أسكن الرهبان اليسوعيين في عينطورا وأعطاهم محل ديرهم هناك من أملاكه . وفي الكتاب الموسوم بالرسائل المعمدة لليسوعيين رسالة مسهبة من هؤلاء الرهبان الذين أتوا حينئذ بالثناء على الشيخ أبي نوفل ومبراته وغيرته واتساع شهرته . يمكنك الاطلاع عليها في تاريخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٢٢ .

وقد سمعت مرات من الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد الشهير بمعرفته تاريخ ملتنا رواية ملخصها أنه لما فرّ الأمير أحمد والأمير قرقماز معن سنة ١٦٦٠م من وجه أحمد باشا كما مرّ ، واجتمع أعيان البلاد لاختيار حاكم غيرهما فانتخبوا الأمير محمد علم الدين اليميني ، ولم يدعوا الشيخ أبا نوفل وازدروه ، وعزل في تلك الأثناء علي باشا عن ايالة صيدا ، وقدم وال آخر فأخذ أبو نوفل يقدم له الذخائر من حلب حتى بلغ صحراء جونية فالتقاه الشيخ أبو نوفل فشكر الوزير له وسأله ما يريد ، فأجابه لا أطلب نعمة إلا أن لا تعطى خلعة الولاية على قصبية دير القمر إلا بواسطة خادكم العاجز ، فوعده الوزير بذلك . وعند حلوله بصيدا أسرع إليه أعيان الشوف يلتمسون تقرير ولاية الأمير محمد اليميني على دير القمر فأجابهم أنه لا يخلع على الأمير المذكور إلا أن يسأله ذلك الشيخ نوفل الخازن ، وأصرّ الوزير على قوله ، فاضطروا أن يحضر كثيرون منهم إليه في كسروان ، فبالغ في اكرامهم وسألوه أن يسير معهم إلى الوزير ، فتمنّع واكتفى بعريضة أصحابهم بها إليه ، فأجابهم إلى ما سألوه وعرفوا غلظتهم وتهيبوا الشيخ أبا نوفل . وكان البطريرك المذكور رحمه الله يقول لي إنّ البعض عزوا هذه الرواية إلى الشيخ أبي نادر ، ولكنني وجدت كتاباً قديماً دون الرواية بالتفصيل معزوة إلى أبي نوفل . ولا أتذكر ما عنوان الكتاب ولا أين يوجد .

وفي سنة ١٦٦٤م عاد الأمير أحمد معن إلى ولايته بعد أن انتصر على اليمينيين

فرجع المشايخ آل خازن إلى اقطاعاتهم، وعاد الشيخ نوفل مديراً لحكومة الأمير أحمد، وفي هذه الأثناء قسم أبو نوفل حكومة كسروان على بنيه وكانوا ثمانية فأعطى أبا قانصوه فياضاً قسماً، وأبا ناصيف نوفلاً قسماً، وخازناً قسماً، وطرييه قسماً، وبقي بيده قسم كبير سلّمه إلى أبنائه الصغار وهم خاطر وسليمان وقيس وأبو النصر. وفي سنة ١٦٧١م أحييت اقطاعات كسروان وبكفيا وغازير إلى عهدة الشيخ أبي نوفل وأولاده بموجب فرمان سلطاني حفظ أصله عند الشيخ بطرس كنعان الخازن، وترى ترجمته مثبتة في تايخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٤٢. وفي سنة ١٦٧٩م في ١٣ آب توفي الشيخ أبو نوفل نادر الخازن.

وخلف أبا نوفل ابنه أبو قانصوه فياض وتمشى على آثار والده أبي نوفل وشرع سنة ١٦٨٠م في بناء دار له في قرية غوسطا وبجانبتها كنيسة على اسم النبي الياس، وتولّى في كسروان على القسم الذي خصّه به أبوه، وخلفه في قنصلية فرنسة ببيروت. وفي سنة ١٦٧٨م لما ضايق والي طرابلس أولاد أبي رزق البشعلاني الآتي ذكره فزّ أحدهم يونس بأولاده وأولاد أخيه إلى كسروان واحتّمى عند الشيخ أبي قانصوه فياض المذكور، ودافع عنهم ابنه الشيخ حصن الآتي ذكره، فأقاموا في حماه، ونظن أنهم أقاموا بصليما ومنهم بيت البشعلاني الساكنين الآن في القرية المذكورة. وتوفي الشيخ أبو قانصوه فياض في ١٧ تشرين الأول سنة ١٦٩١م. وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة وفاة الشيخ المذكور وقال بعد موته عظمت شوكة بني حماده فقتلوا حنا الأسود في الكورة ونهبوا العاقورة. وكان الشيخ أبو قانصوه جزيل الكرم محباً للعلماء شجاعاً شديد البأس.

وخلف أبا قانصوه ابنه حصن في ولايته وأنعم عليه ملك فرنسة لويس الرابع عشر بأن يكون قنصلاً لفرنسة ببيروت كأبيه وجدّه. وقد حفظ لنا العالم دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٨٦) براءة تنصيب الشيخ حصن المذكور قنصلاً لفرنسة ببيروت، وإليك ترجمتها عن الفرنسية:

«مرسوم الملك بتنصيب الأمير حصن الخازن الماروني»

لويس ملك فرنسة وناقارا وكنت بروفنس الخ. السلام لكل من يطلع على مرسومنا هذا، لما كنا نرغب في اجابة سؤال الأمير حصن الخازن في عريضته التي

رفعها إلينا وأن نعززه باحالة قنصلية بيروت إلى عهده كما كان أبوه وجدّه بمقتضى مرسومنا الصادر في غرة كانون الثاني سنة ١٦٦٢م، ولعلمنا بما له من الغيرة والصدق بخدمتنا وعنايته بخير رعايانا قد نصبناه بمرسومنا هذا الموقع عليه بيدنا قنصلاً على مدينة بيروت إذ فصلنا هذه المدينة عن قنصلية صيدا المتعلقة بها الآن، ونريد أن تبقى منفصلة عنها إلى أن نصدر أمراً آخر يخالف مرسومنا هذا. وقد أقمنا وأمرنا ونصبنا ونقيم ونأمر وننصب السيد حصن الخازن المذكور قنصلاً للأمة الفرنسية في فرضة بيروت المذكورة وملحقاتها ومتعلقاتها فله بتخويله هذا المنصب أن يلي ويباشر مدة حياته جميع الحقوق والسلطة والامتيازات والانعامات التي لباقي القناصل في المشرق، ورضعنا له أن يقيم عنده نائب قنصل بحيث يكون من أمة الفرنسيين ويكون هو مسؤولاً عنه في الأمور المدنية. وقد أعلمنا مستشارنا وسفيرنا في المشرق السيد شاتوناف دي كاستنيار إنه إذا ظهر له أنّ السيد حصن الخازن متصف بالسيرة الحميدة وحسن الآداب وتمسك بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني يصرفه بالقنصلية المذكورة، وبما لها من الحقوق ولا يمنعه من ذلك أي مرسوم كان يخالف ما ذكرنا، وعلى السفير المذكور أن يبذل له كل مساعدة وعناية، ونأمر ربان كل مركب وسفينة تحت العلم الفرنسي وكل تاجر من أمتنا أن يعترفوا بأنه قنصلنا ويمثلوا أمره، ولا يمنع من ذلك الأمر الذي أصدرناه في ١١ آذار سنة ١٦٨٥م بأن لا ينصب من الأجانب قناصل لفرنسة لأننا استثنينا ونستثني من هذا الأمر السيد حصن الخازن فلا مفعول لذلك الأمر من قبله، فهذه هي ارادتنا ومسرتنا ونرغب إلى الباشاوات والولاة الاجلاء ونسأل من كان منهم الآن ومن يكونون من بعدهم ببيروت وملحقاتها أن يمكنوا السيد حصن الخازن من تكميل فروض منصبه ولا يسمحوا بأن يكون له أقل مانع من اتمام فروض منصبه بل يبذلون له بعكس ذلك كل مساعدة ورعاية، واشعاراً بذلك قد وقّعنا بختمنا على هذه البراءة الصادرة في ١٢ حزيران سنة ١٦٩٧م من سني النعمة وهي الخامسة والخمسون للملكنا. التوقيع لويس. وعلى طي البراءة بأمر الملك كونت بروفنس فيليب وختم بالمهر الكبير على الشمع الأصفر.

واليك أيضاً ترجمة جواب لويس الرابع عشر إلى الشيخ حصن قنصل فرنسة ببيروت نقلاً عن الكتاب المذكور:

« إلى السيد الأجلّ الأمير حصن قنصل الأمة الفرنسية ببيروت »

أيها السيد الأجلّ، إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافير الماروني رسولكم، رفع إلينا الرسالة التي كتبتموها إلينا في شهر كانون الأول سنة ١٦٩٥م تطلبون بها أن نصبكم قنصلاً ببيروت، ولا أشك في أنكم تقدرون حمايتي لكم حق قدرها وتصرفون عنايتكم إلى مساعدة رعاياي الذين يتاجرون في سورية، ولذلك أردت رغبةً في مصلحتكم أن أفصل مدينة بيروت عن قنصلية صيدا وأجعلها قنصلية مخصصة، وأمرت أن ترسل إليكم براءة تنصيبكم بها وبقوتها يكون لكم الحق لا أن ترفعوا العلم الفرنسي فقط على باب داركم كما كان يصنع جدكم وأبوكم، بل تكون لكم أيضاً الحقوق والانعامات التي يحرزها قناصل الأمة الفرنسية. وقد سلمتُ إلى رسولكم عدة رسائل إلى سفيرتي بالقسطنطينية، وإلى قناصل فرنسا بجواركم وأمرتهم بأن يبدلوا لكم كل الرعاية والعناية بكل ما يتعلق بكم عند طلبكم ذلك، لنفعمكم ومساعدة أبناء ملتكم. وأسأله تعالى أن يرعاكم أيها السيد الأجلّ بعين حراسته المقدسة. كُتب في فرسايل في ١٣ من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الرسالة، كولبر» (وهو وزير لويس الرابع عشر).

ويلي ذلك في الكتاب المذكور رسالتان إلى الشيخ حصن إحداهما موقع عليها بونتشرتان فحواها أنه تلا على مسامع جلالة الملك رسالته التي سلمه إياها يوحنا مارماكون رسوله. وإنّ جلالته تعطف بفصل قنصلية بيروت عن صيدا وتحويلها إلى عهده، وإنه مرسل له البراءة في طي كتابه وهي في تاريخ ٢ حزيران سنة ١٦٩٧م. والثانية بتوقيع دي تورسي وفحواها أنّ عظمة العاهل تعطف عليه بإيلائه المنصب الذي كان فيه المرحوم أبوه، وإنه تلا الرسالة التي كان هو أنفذها باسم أبيه بعد عرضه الرسالة على مسامع جلالة الملك انعطف إلى إيلائه قنصلية بيروت. وكتب في ذلك إليه وإلى سفيره في القسطنطينية وإلى قناصل فرنسا بجواره يأمرهم بمعاونته ورعايته في كل ما يتعلق به وبملته. وتاريخ هذه الرسالة في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م.

ويظهر أنّ الشيخ ناصيف بن نوفل ابن عم الشيخ حصن القنصل قد رفع أيضاً إلى الملك لويس الرابع عشر عريضة يشكو بها سوء حالهم عند نكبة دولة المعنيين المار ذكرها واختفاء الأمير معن فأجابه الملك لويس برسالة هذه ترجمتها:

« إلى السيد الأجلّ ناصيف أمير الموارنة »

أيها السيد الأجلّ، إنّ كتابكم الذي رفعه إلينا السيد يوحنا مارماكون الكافليّر الماروني موفدكم إلينا علمنا منه سوء المعاملة التي يعاملكم بها الحاكم الجديد الذي نصب عن عهد قريب مكان الأمير أحمد بن معن، واتّضح لنا منه أيضاً أنّ من اللازم تفادياً من الضّرّ للدين الكاثوليكي ورغبةً في تأييده في بلادكم أن نصرف عنايتنا لدخولكم بصفة حاكم على البلاد التي كنتم تتولون ادارتها من عهد قريب إذ تدفعون للبasha والي طرابلس المال المفروض على هذه البلاد. ولما كنت أرغب رغبةً شديدة في أن أساعدكم على ما يعود بالنفع عليكم ولا سيما متى كان ذلك ملائماً للحماية التي بذلتها في كل وقت للكاثوليكين بالشرق قد سلمت إلى موفدكم أوامر وجهتها إلى سفيري بالقسطنطينية ليصرف عنايته الفعالة لينال لكم ما تبتغون. وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة. دُونَ بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة، كولبر.

وكتب الوزير دي تورسي كتاباً آخر إلى الشيخ ناصيف هاك ترجمته.

«أيها السيد الشريف الأجلّ، إنكم تعلمون من الرسالة التي كتبها إليكم سيدي العاهل جواباً على رسالتكم التي أنفذتموها إليه على يد السيد مارماكون رسولكم، كم تهتم جلالته بما يعود بالنفع عليكم وعلى الدين الكاثوليكي، ولا أشك في أنكم تشعرون بأقرب وقت بمفاعيل الحماية التي يبذلها لكم بواسطة أوامره الموجهة إلى سفيره بالقسطنطينية ليصرف عنايته الشديدة ليستمد لكم ما ينقذكم من الضيق الحاصل عليكم، وينفع المسيحيين أبناء ملّتكم. ولم يبق لي إلّا أن أحقق لكم إني لا أنفك عن أن أرجو جلالته ليواصل كل وقت حمايته لكم وأن تثيقنوا أنني صديقكم المخلص». التوقيع ديتورسي عن فرسايل في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م. ويظهر أنّ رئيس أساقفة نيقوسية ومتربوليت قبرص نائب البطريرك اسطفانوس الدويهي في مدة غيابه رفع عريضة إلى لويس الرابع عشر بالمعنى الذي كتب به الشيخ ناصيف الخازن، وبالتماس القنصلية للشيخ حصن فأجابه الملك عليها وهاك ترجمة الجواب.

« إلى السيد الأجلّ رئيس أساقفة نيقوسية متربوليت قبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في جبل لبنان في غياب البطريرك اسطفانوس^(١) »

أيها السيد الأجلّ تناولت الكتاب الذي رفعه إليّ من قبلكم السيد يوحنا مارماكون رسول طائفكم، وبه تبيّنون لي الضيق الحاصل ببلادكم الآن وتسألوني فيه أيضاً أن أنصب الأمير حصناً قنصلاً لفرنسة بيروت، فعنايتي بجميع الذين يقرون بالدين القويم في أية جهة كانوا من العالم لا تدع لكم محلاً للريب في عنايتي بكم خاصة، ولذلك شئت بطيبة خاطر أولي الأمير حصناً قنصلية بيروت مفصولة لهذه الغاية عن قنصلية صيدا، وقد كتبت في الوقت نفسه إلى سفيرتي بالقسطنطينية وإلى قناصل حلب وصيدا وطرابلس أن يذلوا العناية الفعالة بما يعود بالنفع على ملّتكم وكاثوليكي المشرق الآن وفي كل فرصة تسنح لذلك. وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة. دوّن بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧ م. والتوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة. كولبر.

وهذه ترجمة الرسالة التي بعث بها لويس الرابع عشر إلى سفيره بالآستانة.

« إلى السيد دي كاستنيار مستشار دواويني وسفيري غير العادي بالقسطنطينية »

إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافير الماروني الموفد من قبل الأميرين ناصيف وحصن ومن قبل مطران نيقوسية رئيس الدين الكاثوليكي الروماني بغياب البطريرك اسطفانوس قد رفع إليّ رسائل منهم يسألون بها حمايتي من الضيق الملّم بهم بعد أنّ السيد الأعظم (السلطان) ولّى على بلادهم الأمير أبا موسى علم الدين عوضاً

(١) أين كان الدويهي حينئذ لا نعلم حقيقة. على اننا نعلم ان نكباته كانت كثيرة وغياباته عن كرسيه متواترة.

عن الأمير أحمد بن معن ، ولتتمسكون أن يعطى أحدهم الأمير حصن قنصلية بيروت ليتمكن من نشر العلم الفرنسي ونيل حقوق القنصلية والانعامات المختصة بقناصل الأئمة الفرنسية ، ويحمد بذلك جدوة ماحاق بهم من الضيق . ولما كان عزمي أن أساعد بكل وسعي على راحة جميع المستنيرين بالإنجيل المقدس في أي قطر كانوا من العالم ، فأنا مرسل إليكم كتابي لأبلغكم ارادتي ومرغوبي أن تستوعبوا ما يشرحه لكم معتمدكم المذكور لخير الدين الكاثوليكي ونفعه ، وأن تبدلوا بعد ذلك العناية باسمي لتتولوه كل ما يبتغيه من الأمور المعقولة ، وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم بحراسته المقدسة أيها السيد دي كستنيار . كُتب في فرسايل في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م . والتوقيع لويس . وفي أسفل الصفحة كولبر .

وقد أصبح المركيز دي تورسي الوزير وكاتب سر المملكة الكافير يوحنا مارماكون برسالة إلى السفير المذكور مرسلأ له أمر الملك وموصياً بالكافير المذكور . وتاريخ رسالته ١٣ تموز سنة ١٦٩٧م . وقد كتب الوزير دي تورسي المذكور أيضاً رسالة بأمر الملك إلى قناصل فرنسة بحلب وصيدا وطرابلس فحواها أن جلالة الملك أمره أن يكتب إليهم مبيئاً رغبة جلالته بمساعدة الأميرين نصيف وحصن الخازن ومطران نقوسية نائب البطريرك بغيابه ، وأن يبدلوا بكل فرصة عنايتهم الفعالة بالمذكورين ليشعروا بمفاعيل حماية جلالته . وإنه جعل الأمير حصناً قنصلأ ببيروت منفصلة عن صيدا ، وإن مقصد جلالته بذلك أن يخفف من جهة ثقل الضيق الملم بالمذكورين وأن يزيد من جهة أخرى عنايته برعاياه الذين يتجرون بالمدينة المذكورة وملحقاتها . وإنه كتب إليهم بطيبة خاطر توصاة بالكافير يوحنا مارماكون معتمدكم لدى جلالته . وتاريخ هذه الرسالة ٣ من تموز سنة ١٦٩٧م .

وبعد وفاة الشيخ حصن قنصل فرنسة سمي ابنه الشيخ نوفل قنصلأ مكانه كما سترى في تاريخ القرن الثامن عشر .

وكان من أعيان طائفتنا في هذا القرن المشايخ آل حبيش فكان منهم الشيخ أبو ضاهر حبيش الذي أرسله الأمير يونس المعني إلى كسروان مع الشيخ أبي نادر الخازن سنة ١٦١٣م ليعدا الأشجار في هذا العمل ويجيبا المال المفروض عليها . وكان منهم أيضاً الشيخ أبو فارس حبيش الذي قُتل في الواقعة التي كانت بين القيسية واليمينية في مرحاتا سنة ١٦٣٦م كما في تاريخ هذه السنة .

وفي سنة ١٦٨٠م كتب الأمير أحمد المعني صكاً للشيخ طريه بن موسى
حبيش وللشيخ أبي شديد سيف بن طالب حبيش يولييهما له على غزير، فكانت
اقتطاعاً لآل حبيش.

عد ٥٧

أبو رزق البشعلاني وابنه يونس

كان من أعيان الموارنة في هذا القرن الشيخ أبو رزق البشعلاني، وقد ذكره
العلامة الدويهي لأول مرة في تاريخ سنة ١٦٤٣م، ولم يبيننا بأصله ولا نسبه بل
قال في هذه السنة غُزل محمد باشا الأرناؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن
باشا، وكان كأخيته الشيخ أبو رزق البشعلاني (نسبةً إلى بشعلي في عمل
البترون). ثم قال في تاريخ سنة ١٦٤٩م غُزل (ثانيةً) الأرناؤوط عن ايالة
طرابلس وتولاها صهره عمر بك، واسترد ابن الصهيوني وأبا رزق البشعلاني
ونصب أخاه أبا صعب البشعلاني شيخاً على جبة بشري. ثم قال في تاريخ سنة
١٦٥١م غُزل عمر باشا المذكور عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا فأسلم أمورها
إلى الشيخ أبي رزق البشعلاني، إلى أن قال ثم تقوى عليهم (أي على أبي رزق
وحلفائه) ابن الصهيوني وتسلم تدير أمور طرابلس، وصادر أبا رزق وأتباعه. وقال
في تاريخ سنة ١٦٥٣م قبض محمد باشا الأرناؤوط على الشيخ أبي رزق بحجة
أن بعض آل حبيش قدموا إلى داره ومعهم جمعة بداعي زواج أحد أولادهم، فنمّ
بعض أهل الفساد إلى الباشا قدومهم إنما كان لمضرة له، فأمر الباشا بالقبض على
أبي رزق وأولاده وضيوفه وسجنهم بالقلعة مكبلين بالقيود، وكان عددهم تسعين
نفساً. ونهبوا داره واستباحوا ماله، وبعد ذلك ورد الخبر بعزل الأرناؤوط وتولية قرا
حسن. فتوجه الأرناؤوط إلى حماه لجباية المال وأخذ أبا رزق والسجناء معه. ودعا
أبا رزق للحساب عما دخل ليده من المال، وادعى أن الباقي عليه اثنا عشر ألفاً،
وبلغ الوالي الجديد إلى حماه وأعاد الحساب بينهما فثبت أن الباقي على أبي رزق
أربعة آلاف وخمس مئة قرش دفعها عنه ابن الصهيوني، وخلي قرا حسن الوالي
الجديد سبيله وسبيل السجناء. وأراد أن يعهد بتدبير أموره إلى الشيخ أبي رزق،
ولكن وصل قبوجي من الباب العالي يطلب رأسه، فأشار عليه الوالي وابن

الصهيوني لم يسلم فدية لنفسه ، فأذعن مكرهاً لرايها . وأعطوا القبوجي ألف قرش فعاد إلى الآستانة . ودخل أبو رزق طرابلس مع قرا حسن والتزم منه جبلة واللاذقية وأوصى قبل سفره إليهما أخاه أبا صعب أن يأخذ أولاده ويسير بهم إلى بلاد ابن معن ، فشق ذلك على الوالي ووجس أبو رزق من مضرتة له فتزوج بامرأة موسى باشا ليبعد الوالي عن الظن بردته . وفي سنة ١٦٥٤م صير بشير باشا نائب حلب وزيراً وسار قاصداً الآستانة ، وعند وصوله إلى أذنه قُدمت له الشكوى على أبي رزق أنه كان ميلاً إلى ابن معن ، وأرسل أولاده إليه مع أخيه أبي صعب وإن أخاه هذا كان مع ابن معن في وقعة وادي القرن المار ذكرها . فأمر بقتله فقتل في أوائل شهر آذار من السنة المذكورة . ذكرنا بعض هذه الأخبار في التاريخ العام وأعدنا ذكرها هنا لعزمنا أن نفصل من هذا التأليف تاريخ الموارنة في كتاب على حدة ، فكان لا بد من هذه الاعادة .

وأما الشيخ يونس ابن أبي رزق المذكور فقال في حقه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٧م إنَّ حسين باشا والي طرابلس قبض على الشيخ يونس وأخوته عبد الله ورزق وأولاهم بسبب دعوى والدهم أبي رزق البشعلاني ، فاضطر يونس أن يطلب الاسلام لينجي عيالهم من القتل والاسلام . فهربوا جميعاً في ٢٩ ايلول ومعهم نحو عشرين نفساً إلى قاطع كسروان مستجيرين بالأمر أحمد معن والشيخ أبي قانصوه فياض الخازن ، فنجدهم ابنه حصن وأمنهم برجاله حتى حلوا بحكومة ابن معن سالمين ، وهناك جاهر يونس بصحة عقيدته . ثم قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩٧م قبض قبلان باشا والي طرابلس على الشيخ يونس بن أبي رزق البشعلاني وعرض عليه الاسلام فتمنّع فرفعه على الخازوق في ٢١ أيار من السنة المذكورة .

هذا ما رواه الدويهي ، ولكن أتخفنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٦٣) بترجمة الشيخ يونس المذكور مسمى أياه أميراً فنلخص عنه ما يأتي قال:

« كان الأمير يونس من أسرة شريفة بلبنان ومن ذوي قربي حاكم الملة المارونية ، وله أملاك في سفح لبنان في ناحيتي طرابلس وجبيل لا يقل دخلها عن ألف ليرة ، وكان حسن الشكل زكي العقل محنكاً بالسياسة ، يحبه الجمهور ويشق

به وزراء الباب العالي . وقد استعمله كثيرون من ولاية سورية في أهم أعمال حكومتهم حتى كاد قدره يساوي قدر الولاية . على أنّ ثروته ومنزلته هيّجتا عليه حسد أقرانه . ومباشرة أعمال منصبه أورثته خصوماً له ائتمرا على اهلاكه ، وأسخطوا عليه قبلاّن باشا ابن المطرجي والي طرابلس وشكوه بجرائم كثيرة ، وتمحلوا لها دليلاً بزيادة ثروته ، فارتاح الباشا إلى سماع شكواهم وقبض على الأمير يونس وأخيه الأمير يوسف وزوجتيهما وأولادهما وكثيرين من أنسبائهما وأتباعهما ، وكانوا نحو خمسين شخصاً ألقوهم في السجن ، وهددوا الأمير يونس بالقتل والحاق جماعته به إلا أن يعجّد الدين المسيحي ويسلم . فأظهر بادئ ذي بدء الشجاعة والثبات وازدري التهديد والوعيد على أنه لدى تبصره بحالة أسرته والخطر الذي يلم بها من جهة الدين إذا قُتل قبلهم عوّل على أن يتظاهر بالاسلام فيقي نفسه وذويه من التهلكة واشترط شرطاً صريحاً أن يسلم وحده وتبقى أسرته وذووه نصارى ، وأن يخلّى سبيلهم أجمع . فقبل الباشا شرطه وأكتفى أن ينطق هو وحده بالشهادتين . وأباح ذويه حرية دينهم وأخرجهم من السجن . وقد قال يونس قبل مقتله إنه قام بضميره حينئذ أنّ عمله هذا جائز بل مندوب إليه لينجي ذويه وينقذ بناته وبنات أخيه من الزواج برجال مسلمين .

وجامل الأمير يونس الباشا بعد ذلك أربعين يوماً ليخفي مقصده وأرسل سرّاً امرأته وأولاده وذوي قرباه إلى أعلى جبل كسروان . ولما تحقق أنهم أصبحوا آمنين فرّ هو من طرابلس وسار أولاً توّاً إلى بطريك الموارنة معترفاً بالضعف الذي استحوذ عليه وبأكيّا من جراء ائمه وصرّح بأنه ما انفك مسيحياً . وتلّي دستور ايمانه وتقبّل القانون الذي فُرض عليه وحلّه البطريك من ائمه . ورغبةً في أن يبرئ ساحته أمام الناس أيضاً جمع رؤوس التشكيات الواردة عليه وبيّنات الاكراه الذي أنزل به وأرسل ذلك إلى الآستانة مصحوباً بالحجج اللازمة للدفاع عن نفسه على يد أحد أصدقائه ، وعرض أمره في الديوان السلطاني . ولما كان من متعلقات الدين أمر جلالة السلطان أن يحال النظر بالدعوى إلى المفتي الأكبر بالآستانة ، وهذا بعد التحري بالدعوى حكم أنّ تظاهر الأمير يونس بالاسلام لا يعول عليه لصدوره عن اكراه . وأن لا يؤاخذ فيما بعد باسلامه . فأنّى الكثيرون على عدالة العثمانيين وانصافهم .

ولم تكن راحة لضمير الأمير يونس من جراء العثار الذي تسبب به بطرابلس فنزل إليها وجاهر أمام الباشا وديوانه بدينه المسيحي ، وطاف بالمدينة مصرحاً

بذلك ، فأغضى المسلمون على هذا الصنيع وغزل والي المدينة ونُصب غيره فدعا الأمير يونس وأقامه على برية طرابلس واستحصل له أمراً سامياً مثبّثاً حكم المفتي السالف ذكره . ومبيحاً إياه وعائلته البقاء على دينهم المسيحي دون أن يزعمهم أحد . فاستمر الأمير يونس وذووه راتعين في بحبوحة الأمن والرغد خمس سنين مباشراً أعمال مأموريته بكل أمانة ونزاهة ، إلا أنه سنة ١٦٩٥م بُدِّل والي طرابلس ومات من كان له من الأصدقاء في الآستانة إذ انقلب الدهر عليهم ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ليهلكوه . فاتهموه بعدة جرائم وشكوه إلى والي الجديد وادّعوا عليه أنه سبَّ دينهم وقذف بالاسلام . فقبض عليه والي وغلله في السجن وما انفك مدة سنتين يقربه ويهدده ويتملقه ليكفر بدينه ، ووعده بأن يوليه أسمى المراتب ويرشحه إلى الخلافة بعده بحكومة طرابلس فلم تستمله كل هذه الوسائل إلى الاذعان للوالي ، بل كان يشكر الله على انزال هذا الاضطهاد به تكفيراً عن زلّته السالفة . وحاول والي مرات أن يستميله فلم يكثرث بكلامه ، وأسمعه أخيراً ما أوغر صدره عليه ومزّق ثوبه وحكم عليه أن يموت على الخازوق . وكان الولاة في تلك الأيام مسلمين على حياة الرعايا وموتهم ، وقبل تنفيذ الحكم عليه أرسل والي عدداً من أصحابه يغرونه بالرضوخ لمرغوبه فأبى ، ثم حملوه الخازوق وخرجوا به إلى تلّ قريب من المدينة والناس من أمامه وورائه بعضهم يقرّعه ، بعضهم يحثه على ارضاء والي وهو أبكم أصمّ عن سماع كلامهم . وقبل رفعه عليّ العود أرسل والي يعده بالعفو عنه وعن ذويه ورد أملاكه إليه فلم يكن يجيب إلا أسلم نفسي بيد الله وهو يهتم بي وبذوي وأملاكي ، ولم ينفك دقيقة موته يسبّح الرب ويشكره ويدعو باسمه ويلجأ إلى رحمته وإلى العذراء والقديسين ، ويكرر تلاوة قانون إيمانه إلى أن أسلم نفسه بيد الله في شهر أيار سنة ١٦٩٧م .

وبقيت جثته خمسة أيام على آلة عذابه وشرذمة من الجند تحرسها ، وشهد شهود عدل وبتوا شهادتهم باليمين أنهم رأوا اكليلاً من نور على رأسه ليلاً مدة بقائه على تلك الحال ، وشاهده الحراس فدهشوا وفزّوا . وأخيراً سأل بعض المسلمين والي أن يأمر بدفن جثته تفادياً من حصول ثورة من جرا ذلك ، فسمح والي لأحد اقربائه أن يُنزل جثته فأنزلها ووضعها أولاً في بئر قريبة من مقبرة الموارنة ثم نقلها سراً بعد يومين إلى مدفن خلف المنبر في كنيسة القديس يوحنا بطرابلس .

وبعد موت الأمير يونس اهتم بعض أصحابه أن يخرج الأمير يوسف أخاه من السجن الذي كان به ، فاسترضوا الباشا عنه وخرج وسار إلى أوروبا يسأل المحسنين ما يقوم به بأوده وأود عائلته وعائلة أخيه . قال دو لاروك قد رأيته بباريس مدة أشهر صابراً على مصابه مسلماً إلى مشيئة الله راضياً بأحكامه ، وقد أكرمه الملك وكتب إلى سفيره بالآستانة يوصيه به . ومثل ذلك كتب إلى قناصله ودون رسالة إلى بطريرك الموارنة يعزیه بهذه الفاجعة . ودفع إلي الأمير يوسف المذكور شرحاً وافياً في حياة أخيه وموته فأخذت عنه هذا المختصر وهو مطابق لما كتبه بطريرك الموارنة إلى الحبر الروماني وملك فرنسا بهذا الشأن مصادقاً عليه من أساقفة جبل لبنان . وللتقرير الذي كتبه قنصل فرنسا بطرابلس مصادقاً عليه من الرهبان الفرنسيين والاسبانيين في المدينة المذكورة . وروى هنري موندل الانكليزي في كتاب رحلته من حلب إلى أورشليم أنّ قنصل انكلترا صحبه للفرجة على قلعة طرابلس في ٨ أيار سنة ١٦٩٧م وكان يونس مسجوناً فيها لأنه أسلم ثم ارتد . ولأنه مات على الخازوق بعد يومين من سفر هذا الكاتب أي في ١٢ أو ١٣ أيار سنة ١٦٩٧م .

وهذه ترجمة المنشور الذي كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهي موصياً بالشيخ يوسف المذكور .

«الحقير اسطفانوس بطرس البطريرك الانطاكي»

السلام والبركة الرسولية لكل مطالع أو سامع وثيقتنا هذه

ليكن معلوماً أنّ ولدنا العزيز أبا يوسف رزق هو رجل ماروني كاثوليكي من رعيتنا ومن أعيان الملة المارونية ، وهو أخو الشيخ يونس الذي أكره على أن يبدي جحود الايمان بضمه لا بقلبه ليخلص نفسه وأولاده ، لكنه حالما ساعده الله على الفرار بعد نحو أربعين يوماً انسلّ ليلاً بأولاده إلى ناحية كسروان وهناك اعترف بإثمه ، وقبل طائعاً خاشعاً القانون المفروض عليه ، واهتم بعد ذلك فنال من جلالة السلطان الأعظم أمراً سامياً مسنداً إلى حكم القضاة بأنّ جحوده ايمانه مكرهاً لا يعتمد عليه ، وتظاهره بالاسلام باطل ولا صحة له . وبعد ذلك سار إلى طرابلس وجاهر علانية بدينه المسيحي مدة خمس سنوات ، وأضمر له الضغينة والحقد بعض

أصحاب الأمر بالمدينة المذكورة إلى أن تمكنوا من القائه بالسجن واماتته على الخازوق، وكان يجاهر في مدة هذا العذاب بجسارة وبسالة بالايان بيسوع المسيح، وقد قبض معه على أخيه يوسف رزق وألقي بالسجن أيضاً، وألجأه الحال إلى خسارة مبالغ وافرة من المال. وباعت الحكومة أملاكه وأثاثه حتى بيته نفسه، ولما لم يعد يستطيع أن يعيش ببلاده بحسب مقامه ولا أن يقوم بأود عائلته أي أولاده وأولاد أخيه يونس هم خمسة عشر شخصاً، وقد اضطر إلى استدانة مبالغ من المال لتقديم النفقة اللازمة لحياتهم وليس له ما يفي، وقد لجأوا إلينا مراراً سائلين أن نصحب بهذه الوثيقة يوسف المذكور أبا هؤلاء الصغار وعمهم فمأمولنا بغيره أصحاب عمل الخير ومحبتهم لجراح المخلص ووالدته الكلية الطهر أن تأخذهم الشفقة على المذكورين وأن يمدوا يد سخاهم إلى الشيخ يوسف المذكور وأولاده وأولاد أخيه ويكون لهم من لدنه تعالى الأجر العظيم والمجد والتسبيح لمن قال في انجيله المقدس: «ما صنعتموه إلى أحد أخوتي هؤلاء الصغار فأليّ صنعتموه» ونسأله جلّ شأنه نحن وهم أن يجزيهم على احسانهم مائة ضعف في هذه الحياة والحياة الأخرى الأبدية.

أعطي بكرسينا قنوين في اليوم الخامس من شهر تشرين سنة ١٦٩٩م. «وعدا توقيع البطريرك في أعلى هذه الوثيقة دُيِّلت بتوقيع يوسف الحصاراتي أسقف جبيل بحوقا ويوسف حبقوق أسقف البترون بقزحيا وجبرائيل الدويهي».

عد ٥٨

أعيان موارنة آخرون

من أعيان الموارنة أيضاً في هذا القرن الشيخ أبو كرم الحداثي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٥م. فقال إنّ مصطفى باشا والي طرابلس أقام على حكومة جبة بشري الشيخ أبا كرم يعقوب ابن الرئيس الياس الحداثي، وقال في تاريخ سنة ١٦٣٩م تولى طرابلس محمد باشا الأرناؤوط فأتى للسلام عليه أصحاب الاقطاعات ما عدا أصحاب آل سيفا وأبا كرم الحداثي. وفي سنة ١٦٤٠م في ١٦ نيسان أرسل والي طرابلس المار ذكره عسكرياً للقبض على الشيخ أبي كرم الحداثي

حاكم جبة بشري لأنه لم يحضر للسلام عليه، فقبض العسكر على ابن عمه سعد، وضيق على الأديار والقرى بحجة التفتيش عليه وعلى أولاده وأتباعه وضبط أملاكه، وعظم الضيق وكثر الخراب والسلب والنهب فلم يتحمل أبو كرم هذا التنكيل بأهل بلاده فانحدر إلى طرابلس طائعاً مستسلماً على يد القاضي، فأمر الوالي بأن يُلقى في السجن بالقلعة، ثم طوّفه على جمل بشوارع المدينة وفي قفاه مشاعل نار، وعرضوا عليه الاسلام فأبى إلا التشبث بدينه فمات مشنوقاً.

ومنهم أبو جبرائيل يوسف الاهدني وكان شريكاً للشيخ أبي كرم الحداثي وتوفي سنة ١٦٤١م بعد أن حكم جبة بشري عشر سنين، وخلفه بعد وفاته أخوه الشدياق أبو ذيب ابن الشماس جرجس الأهدي فقتله محمد العراك بقرية زغرنا بدسياسة من بيت حماده المتأولة ومصطفى بك ابن الصهيوني مدبر إيالة طرابلس. وتولّى حكم جبة بشري بعده المقدم زين الصواف، وكان معه أبو عون بن الغمة من بكفيا.

ومن هؤلاء أيضاً أبو كرم بن بشاره، وقد ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٦م وقال إنّ حسن باشا لما استقر على ولاية إيالة طرابلس ولّى أبا كرم بن بشاره على جبة بشري، وأرى أنّ أبا كرم هذا هو جد آل كرم. وقد خلف أبا جبرائيل يوسف الأهدي وأخاه الشدياق أبا ديب جرجس المار ذكره في الولاية على جبة بشري، ولكن أمن عائلتهما كانا أم من عائلة أخرى لا أستطيع أن أحققه حتى الآن، ولكن مما لا ريب فيه أنّ العامة في اهدن تسمي آل كرم بيت أبي كرم إلى الآن.

ومن هؤلاء الكافليير يوحنا مارماكون الذي تقدّم ذكره، وكان موفد الشيخ حصن والشيخ ناصيف الخازن ومطران نيقوسية بقبرص إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا كما مرّ. ولكن من هو هذا يوحنا مارماكون؟ فالذي يتبادر إلى فهمي أنه الكافليير ناضر صفيير الذي بنى هو وأخوه الخوري جرجس صفيير دير القديس مارون بالرومية المعروف الآن بمدرسة الرومية نحو سنة ١٦٩٦م، إلا أن يكون مارماكون من موارنة قبرص لأنه موفد مطران نيقوسية أيضاً. وقد أثبت دي لاروك في كتابه المذكور صفحة ٣٠٨ براءة تسميته كافليير أي فارساً من جمعية الفرسان المنسوين إلى سيدة الكرمل، والقديس العازر حيث يقول فيليب دي كورسيليون ماركي دي

دانجو رئيس هذه الجمعية لرغبتنا في اجابة سؤال الكافير يوحنا مارماكون الماروني الموفد من جلالة الملك من قبل الأمراء ناصيف وحصن ومطران نيقوسية بقبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني بلبنان في مدة غياب البطريرك اسطفانوس أن نقله ونحصيله في عداد فرسان سيده الكرمل والقديس العازر بأورشليم. وبعد أن اتضح لنا أنه ثابت بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني وأنه حسن السيرة ، وإنّ الداعي لقدمه إلى فرنسة إنما هو ليتهل إلى جلالة الملك في أن يبذل عنايته لدى السلطان العثماني لينوّل نصارى بلاده الراحة والأمن . ولما كان الملك سماه كافليراً في مرسومه إلى ناصيف أمير الموارنة ، وفي مرسومه إلى سفيره بالآستانة ، وكان يهمننا أمر جبل لبنان والأرض المقدّسة حيث أنشأت جمعية فرسان القديس العازر ، قد أحببنا سؤاله وقبلناه في جوقه هؤلاء الفرسان وأحصيناه في عديدهم ليكون له ما لهم من الشرف والحقوق والانعامات . وعليه أن يبرز يمين الأمانة المعتاد ، ويلزم أفراد هذه الجوقة في أي مقام كانوا أن يعرفوه كذلك . وبياناً لذلك قد وقّعنا على هذه الوثيقة بخط يدنا ومهرناه بمهر الجمعية . أعطي بيّريس في ١٦ تموز سنة ١٦٩٧ م .

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ٥٩

البطريرك يوحنا مخلوف

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨ م . وبسبب القلق بالبلاد لم يتمكن الأساقفة من الاجتماع في اليوم التاسع بعد وفاته كالعادة لانتخاب خلف له ، فتأجل الانتخاب إلى أوائل شهر حزيران سنة ١٦٠٩ م فاجتمع حينئذ الأساقفة

والأعيان واختاروا الأسقف يوحنا بن مخلوف من اهدن . وكان البطريرك يوسف الرزي قد رقه إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م ليكون معاوناً له في تدبير أمور دير قنوين . وبعد انتخابه بطريركاً سَير إلى روما القس جرجس بن مارون والقس الياس ابن الحاج يوحنا من اهدن والشماس يوسف من كرم سدة ليأتوه بالتشيت من البابا بولس الخامس . وعند مرورهم بقبرص أخذوا معهم القس كسبر الماروني تلميذ مدرسة روما ، وكان مشهوراً بالعلم والبرارة فنالوا من لدن الحبر الأعظم الاعزاز والتكريم ودرع الرئاسة للبطريرك وعاد المذكورون إلى لبنان في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م . وقال بياجوس ترسي (في كتابه سورية المقدسة صفحة ٥٣) في حق هذا البطريرك : « قد تَلَأَّت به أنوار الفضائل فتسامى بها حتى لُقِّب بالقدّيس . وأثار الكنيسة الشرقية بعلمه وعزاها بغيرته . وكان له لدى الأحرار الأعظمين أعلى مرتبة فأثخفوه بهدايا نفيسة ونولوه نعماً مشرفة موازية لفضله واستيهاه » . ففي سنة ١٦١٢م أرسل إليه البابا بولس الخامس في تاريخ ٢٢ تشرين الثاني رسالة يفوّض إليه بها أن يمنح البركة الباباوية لجميع الموارنة رجالاً ونساءً ، ومن حضر منح هذه البركة وكان معترفاً ومتناولاً يربح غفراناً كاملاً . وترى ترجمة هذه الرسالة مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٧ .

ولما ارتقى البابا غريغوريوس الخامس عشر إلى كرسي الحبرية العظمى أرسل البطريرك يوحنا يهنئه بارتقائه ويطلب منه البركة له ولشعبه ، وأن يتكرّم على الطائفة بطبع كتاب الشحيم كما كان سالفه قد أمر بذلك . فورد له الجواب في تاريخ ١ تموز سنة ١٦٢٢م صحبة قاصده الأب ليونردوس من رهبان القديس فرنسيس إنه صار الشروع في طبع الشحيم ، وثبت له الغفارين الذين كان البابا بولس الخامس قد أنعم بها على من يزورون كنيسة قنوين الكرسي البطريركي في عيد بشارة العذراء وعيد انتقالها ، وعيد الرسولين بطرس وبولس ليربحوا غفراناً كاملاً إذا كانوا معترفين ومغتذنين بالقربان الأقدس . ومنح زوار كنيسة قنوين الغفارين التي يربحونها لو زاروا كنيسة زعيم الرسل بروما أو غيرها من الكنائس القائمة داخل أسوار رومة . وترجمة هذه الرسالة تراها مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٣ . وفي السنة المذكورة كان قحط في البلاد فأمر البطريرك بنصب كرم درغاتا مفلح نحو عشرة فدادين وأشغل به عملة كثيرين ، فكانوا يأكلون نهاراً على نفقة الكرسي ويأخذون مساءً الزاد لعيالهم .

وفي سنة ١٦٢٤ جعل دير حوقا مدرسة ابتدائية يتعلّم بها الشبان العلوم الاكليريكية ، ومن نبغ منهم أرسله إلى مدرسة الطائفة بروما . وأرسل الخوري يوحنا ابن قرياقوس الحصري من بيت صندوق (هو الذي صار بعداً أسقفاً وكان مع الصهيوني بباريس) إلى البابا أوربانوس الثامن يهنئه بتسليمه الكرسي الرسولي ويخبره بجعله دير حوقا مدرسة ملّته في المشرق ، وأرسل حينئذ اثني عشر طالباً للمدرسة روما ، فسوّ البابا بكتابة البطريرك وعيّن مبلغاً سنوياً للمدرسة حوقا ودوّن لها دستوراً للعمل به فيها . وفي السنة التابعة أي سنة ١٦٢٥م بعث إلى البطريرك تاجاً ثميناً وغفرات نفيسة وكتباً وحللاً ورسالة مشرفة افتتحها بقوله : « لم يذبل البتّة جمال الكرمل ولم يذو مجد لبنان » وقد استشهدنا بفقرات منها مرات في كتبنا بياناً لثبوت الموارنة كل حين على الايمان الكاثوليكي . وتراها مترجمة برمتها في الفصل ١٨ من رد التهم الملحق بتاريخ الدويهي صفحة ٤٥٤ .

وكان هذا البطريرك في أوائل بطريركته قد اضطر من قبل المظالم الجارية في جبة بشري ومضادة الشدياق خاطر الحصري له أن يتوجه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين المعني ، والتقليد المحفوظ في جبة بشري والذي رواه الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٠٩م أنّ البطريرك بينما كان سائراً في أرض بريسات لإحدى قرى الجبة طعن بالحرم الشدياق خاطر لأنه تسبب بخروجه من وطنه . ويقولون إنّ الحاضرين ارتجفوا من الحرم وسألوا البطريرك أن يرفعه عن المقدم خاطر ، ولمعرفة البطريرك بسذاجتهم قال رفعته عنه وحولته إلى هذه الصخرة . فانشقت الصخرة . وإلى الآن ترى صخرة فوق الحدث مشققة تسميها العامة الصخرة المحرومة ، ويروون عنها هذه الرواية . وعندما دخل البطريرك على الأمير فخر الدين أحسن استقباله وبالح في اكرامه ، وكان ابنه الأمير علي قد اشترى قرية مجدل المعوش بالعرقوب الشمالي من سكانها المسلمين وأسكن فيها جماعة من النصاري ، فحل البطريرك في هذه القرية وبنى فيها داراً وكنيسة وهي المعروفة الآن بكنيسة السيدة بالقرية المذكورة . وقد زرتها مرات لأنها باقية إلى اليوم ، وبنائها أشبه ببناء كنيسة القديسة مورا التي بناها هذا البطريرك أيضاً بكفر زينا في آخر حياته سنة ١٦٣٢م ، إلى أن سار الشدياق خاطر الحصري وغيره من أعيان البلاد إليه إلى مجدل معوش وأرجعوه إلى كرسيه بقنوين . وهذا البطريرك هو الذي رقى اسحق الشدراوي الآتي ذكره إلى أسقفية طرابلس سنة ١٦٢٩م . ولهذا الأسقف

قصيدتان بالسريرية . الأولى في مدح البابا أوربانوس الثامن . والثانية في مدح هذا البطريك . وكلتاهما مثبتتان في كتاب سرياني بمكتبة مجمع نشر الايمان المقدس . وفي أيام هذا البطريك واجابة لالتماسه طُبع بروما كتاب فرضنا الكبير المعروف بالشحيم ، بعد الفحص الدقيق والتروي به من علماء شهرين منهم الكردينال بلرمينوس كما سترى .

وفي ١٥ من كانون الأول سنة ١٦٣٣م كان انتقال هذا البطريك من دار الشقاء إلى دار البقاء المؤيد لينال جزاء جهاده ومبراته ، وكان ذلك في قرية كفرزينا موطني بزواية طرابلس ، وحُمل ليلاً إلى دير قنوين فُدفن فيه . وقال الدويهي في حقه ، كان لئن العريكة منخفض الجانب ، كريم الأخلاق محب السلامة ، كثير الصدقات . اتخذ سيرة النسك بدير قزحيا ، ولما تسامى بفضائله وشديد غيرته على خلاص النفوس رقاہ البطريك يوسف الرزي أسقفاً معاوناً له بدير قنوين . وأنشأ لهذا الدير عقارات كثيرة في جبة بشري وزاوية طرابلس . ولما توفي البطريك يوسف الرزي خلفه في بطريكية انطاكية على الموارنة . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان في سلسلة بطاركة الموارنة وغيرهما .

عد ٦٠

البطريك جرجس عميره

ذكر الدويهي بعض ترجمته في الفصل الثامن عشر من رد التهم فقال: كان البطريك المذكور من: «أنسبائنا ، وذهب به خاله القس يعقوب الدويهي إلى روما سنة ١٥٨٤م لاقتباس العلوم في مدرسة الموارنة الحديثة النشأة حينئذ . وبعد أن أتمن العلوم العقلية والنقلية والإلهية ، نشر باللاتينية كتاباً في نحو اللغة السريانية طُبع بروما سنة ١٦٩٦م وعلّق عليه فاتحة تشهد له بطول الباع وغزارة الاطلاع أبان فيها قدم اللغة السريانية وسموها على غيرها وفائدتها ، حتى قال إنها اللغة الأولى للناس وأم لغة العبرانية . ولكن انتقد فالتون في مقدمات البوليكولوتا (الكتاب المقدس بعدة لغات) الانكليزية بعض أدلة عميره ، ثم اختصر بطرس المطوشي القبرصي الماروني

كتاب عميرة هذا وكذلك صنع جبرائيل عواد الحصري، فأشهرها كتابين في نحو اللغة السريانية موجزين عن كتب عميرة وكان كتابهما محفوظين بمكتبة مدرسة الموارد بروما ومكتبة نشر الايمان المقدس .

وعاد عميرة إلى لبنان سنة ١٥٩٥م واشتهر في السنة التابعة بعلمه وفقاهته في المجمع الطائفي الذي عقده تلك السنة البطريرك سركيس الرزي بأمر البابا اكليمنضوس الثامن لتبئة الموارد من بعض الأغلاط المعزوة إليهم بسبب بعض عبارات في كتبهم كما مرّ. ولما توفي البطريرك سركيس الرزي بعيد هذا المجمع وخلفه ابن أخيه يوسف الرزي رقي عميره إلى الأسقفية على اهدن فتفانى بجهادته وتعليمه وظهر ما كان عليه من ذكاء العقل ورسوخ الورع واتقاد الغيرة على نشر الفضيلة والدين القويم .

ولما توفي البطريرك يوحنا مخلوف في سنة ١٦٣٣م أجمع الأساقفة على انتخاب المطران جرجس عميره أسقف اهدن بطريكاً في ٢٧ كانون الأول سنة ١٦٣٣م، فأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن سعادة بن أنطون بن شمعون بن فهد الحصري ليستمد له التثبيت ودرع الرئاسة من البابا أوربانوس الثامن فثبته سنة ١٦٣٥م . وفي أيام هذا البطريرك أنشئت مدرسة للموارد بمدينة رافنا بإيطاليا من تركة الخوري نصر الله شلق العاقوري . وسيأتي ذكرها في ترجمة الخوري نصر الله المذكور . وفي أيامه أيضاً تشكى أهل بقسميا الذين كانوا من الملكية غير المتحدين على القس يوحنا بن بهينا الأجبعي رئيس دير القديس مارون بكفرحي إلى ابن سيف، فقبض عليه وأهانته وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير فخرّب إلى أن جدد بناءه البطريرك يوسف اسطفان كما سيجيئ . وفي سنة ١٦٣٨م لما قدم السلطان مراد إلى حلب أنعم على الموارد وبتطريخهم ببراءة أثنى فيها على ولائهم للدولة العلية وشدة تعلقهم بالأريكة السلطانية .

وفي التاسع والعشرين من تموز سنة ١٦٤٤م أنشبت المنية أظفارها بالبطريرك جرجس عميرة بعد أن استمر على الكرسي البطريركي عشر سنين وسبعة أشهر . ودُفن بقنوين في جانب كنيسة القديسة مارينا ، وله كتاب هندسة الأبنية اقترحه عليه الأمير فخر الدين المعني .

قال دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان في ترجمة فرنسيس كالوب

دي شاستول الفرنسي الذي نسك بلبنان وسيأتي ذكره . إنّ بعض الموارنة سألوا فرنسيس الناسك المذكور أن يصير بطريكاً عليهم بعد وفاة البطريرك جرجس عميرة فأبى كل الابهاء وأشار عليهم أن ينتخبوا بطريكاً الياس مطران اهدن الذي كان مرشده الروحي ، وأشار عليه أن يقبل البطريركية ، فانتخبوه، وبعد ستة أشهر مات الناسك المذكور في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م كما يظهر من الكتابة المنقوشة على ضريحه . على أنّ هذه الرواية غير صحيحة ويخالفها كل ما ورد في تواريخ ملّتنا المجمعّة على أنّ البطريرك يوسف العاقوري خلف البطريرك جرجس عميره دون متوسط بينهما . ولذلك قال لكويان بعد ايراده الرواية المذكورة فليتبصّر اللبيب كيف تتفق هذه الرواية مع ما رواه الدويهي أنّ جرجس عميره خلفه البطريرك يوسف العاقوري ابن المطران بطرس العاقوري المعروف بابن حليب في ١٥ آب من سنة ١٦٤٤م ، ومع ما رواه السمعاني في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ حيث قال مات جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م وفي هذا اليوم نفسه توفي البابا أوربانوس الثامن . وقال في الصفحة التالية إنّ يوسف العاقوري خلف جرجس عميره في ١٥ آب سنة ١٦٤٤م فليزّ القارئ أي القولين أولى بالاتباع . انتهى كلام لكويان . فنحن نرى أنّ رواية دي لاروك هذه غير صحيحة ولا سيما أنه لا ريب في أنّ الناسك المذكور توفي في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م والبطريرك جرجس عميره توفي بعده في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي وعن المشرق المسيحي للكويان وعن المكتبة الشرقية للسمعاني .

عد ٦١

البطريرك يوسف العاقوري

هو ابن المطران بطرس بن حليب ابن الخوري سابا العاقوري . وكان المطران بطرس متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة ثم توفيت امرأته فرقاه البطريرك يوسف الرزي سنة ١٦٠١م في عشرين من تشرين الثاني إلى الأسقفية خلفاً لموسى أسقف العاقورة . وتوفي المطران بطرس سنة ١٦٠٦م في العبادية بالمتن ودُفن ببيروت كما مرّ . وكان له من الأولاد يوسف هذا الذي تزوج أيضاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة . ونعلم أنه كانت له بنت تزوجت بدمشق كما سيأتي . ثم

ارتقى يوسف إلى درجة الكهنوت، ثم رقاہ البطريرك يوحنا مخلوف إلى أسقفية صيدا سنة ١٦٣٦م، فأقام في الأسقفية ثماني عشرة سنة دائباً على فلاحه كرم الرب متفانياً في الأعمال الخيرية والمبرات. وفي سنة ١٦٤٣م اشترى من آل حبيش أرضاً في حراش بنى فيها كنيسة وديراً للراهبات كما سيأتي.

ولما توفي البطريرك جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م اجتمع الأساقفة والأعيان في ١٥ آب من السنة المذكورة فانتخبوه بطريكاً. ويظهر أنه أرسل في هذه السنة المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس يستمد له درع الرئاسة من الحبر الروماني فأعاقه مرض أو غيره عن الوصول إلى روما، وهذا بين من الفاتحة التي علّقها القس عبد المسيح الحدّثي الآتي ذكره على كتاب الشحيمة (الفرض) المطبوع بروما حيث يذكر وفاة البطريرك جرجس عميره سنة ١٦٤٤م وانتخاب المطران يوسف العاقوري بطريكاً في ١٥ آب عيد انتقال العذراء من السنة المذكورة. ويقول ما خلاصته: «إنّ البطريرك الجديد استشار أساقفته وأعيان طائفته في ارسال المطران اسحق الشدراوي عملاً بعادة طائفتنا إلى روما ليؤدي الطاعة نيابة عنه للبابا اينوشنسيوس العاشر وما صار في ذلك نصيب (أما لأنّ المطران المذكور تعذر عن السفر حينئذٍ أو مرض في الطريق لأنه توجه بعداً إلى روما سنة ١٦٤٧م كما يظهر من هذه الفاتحة أيضاً). فلما جئت أنا الحقيق (القس عبد المسيح بن الياس بن الطويل من قرية الحدث تلميذ مدرسة الموارنة بروما وخوري أقاربي بعين ابل) أقبل اقدام سيدنا البطريرك أمرني أن أتوجه إلى روما نيابة عنه وأطلب التثبيت له وأقضي بعض حاجات الطائفة، وطلبت منه رفيقاً فرفقني بالشدياق مرقس راهب من رهبان مار شليطا. فوصلنا إلى روما في ٢ من تموز سنة ١٦٤٥م فقبلنا الحبر الروماني بالاعزاز وأنعم على البطريرك بدرع الرئاسة والتثبيت وأمر بطبع الشحيم مختصراً (وهو كتاب الفرض الاسبوعي المعروف بالشحيمة) وطبع غرامطيق سيدنا البطريرك يوسف الذي أرسله معنا وأخذنا بطبع ذلك بعنايته، ولكن وجدنا في الشحيمة بعض أغلاط فأصلحناها نحن وحضرة سيدنا المطران اسحق لأنه لحقنا عند آخر طبع صلوة الصبح يوم السبت. وأضفنا إلى ذلك ما يحتاجه الكاهن في ممارسة خدمته إلّا رتبة الصلاة على العرسان فلم نجد لها نسخة بروما. وتمّ ذلك في ٣٠ من شهر آذار سنة ١٦٤٧م». ونظن أنّ هذه الشحيمة هي المعروفة باليوسفية نسبةً إلى البطريرك يوسف هذا.

وأما الغرامطيق الذي ألفه هذا البطريك فقد كمل طبعه بروما بمطبعة مجمع نشر الايمان سنة ١٦٤٥ م . ولهذا البطريك أشعار كثيرة بلغة العامة أكثرها في الموارنة والملكية . وقد ذكرنا فقرة منها في تاريخ القرن السابع عند ذكر وقعة أميون بين الموارنة ومريق ومرقيان قائدي عسكر يوستنيانوس الأخرم . وبعد فراغه من أخبار هذه الوقعة ، أخذ يفتد بعض أغلاط الملكية ويندد بهم لعدم اتباعهم الحساب الذي أصلحه البابا غريغوريوس الثالث عشر . وأول من اتبعه في المشرق البطريك يوسف الرزي وطائفته المارونية سنة ١٦٠٦ م كما مر .

وقد رقي هذا البطريك في بداية رئاسته إلى الأسقفية المطران يوسف بن عميمة الكرمسدي والمطران ميخائيل بن سعادة الحصري سفير سالفه إلى الحبر الروماني وجعلهما معاونين له في شؤون الكرسي البطريكي . وعزا إليه بياجيوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدسة صفحة ٥٣ مقالة شعرية في رئاسة الحبر الروماني . وتوفي في ٢٣ من شهر تشرين الثاني (كذا في نسخة لكويان وفي النسخة التي بيدنا في ٣ منه) سنة ١٦٤٨ م فلم يبق في البطريكية إلا ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ودُفن بقرية العاقورة في كنيسة القديس بطرس المنقورة في الصخر . وقال الدويهي في حقه: كان شجاعاً ورعاً محباً للعلماء غيوراً في أمور الدين راغباً في انشاء الكنائس . وقاسى مشقات كبرى من جراء أعمال صهره زوج بنته المدعو قرقماز لأنه جحد الايمان في دمشق فنأصبه الموارنة بدمشق فتحملوا بسببه خسائر جمة ، واضطروا إلى المهجرة والتشتت . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان ، والمجلد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٥٣ وعقد هذا البطريك مجعاً طائفياً بدير حراش سنلخص ما كان فيه في آخر هذا الملحق .

عد ٦٢

البطريكيان يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي

أما يوحنا الصفراوي فروى الدويهي أنه كان من بيت البواب من قرية الصفرا في فتوح كسروان . ولم نعلم حتى الآن أين تعلّم ولا متى صير كاهناً . ويظهر أنّ البطريك جرجس عميره رقه إلى الأسقفية سنة ١٦٣٦ م . وفي اليوم التاسع بعد

ذفن البطريك يوسف العاقوري اجتمع الأساقفة والأعيان بدير قنوين سنة ١٦٤٨م في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول واختاروه بطريكاً وأقاموه موضعه، وأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن صابونه الحصري فثبته البابا اينوشنسيوس العاشر سنة ١٦٤٩م. وفي أيام هذا البطريك أصدر لويس الرابع عشر ملك فرنسا براءة جدد فيها الحماية لبطريك الموارنة وأساقفته واكليروسه وشعبه. وهذه ترجمة البراءة المذكورة عن الفرنسية.

«لويس بنعمة الله ملك فرنسا وناظرًا»

سلام لكل مطلع على خطنا هذا، فليكن معلوماً عند كل واقف على براءتنا هذه أننا بعد استشارة الملكة النائية عنا في الملك السيدة والدتنا المحترمة قد أخذنا ووضعنا ونأخذ ونضع تحت حمايتنا الخاصة السيد الكلي الاحترام بطريك الموارنة وجميع أساقفته واكليروسه وعامة شعبه الساكنين خاصةً بلبنان. ونؤد أن يشعروا بمفاعيل حمايتنا ومساعدتنا ولذلك نرغب إلى السيد دي لاهيونتلي أحد أعضاء مجلس الشورى في مملكتنا، وسفيرنا إلى المشرق وإلى جميع من يخلفونه في مقامه أن يمدوهم بعنايتهم بهم اجمالاً وأفراداً ويذلوا لهم الحماية لدى أعتاب صديقنا الأكمل السلطان الأعظم، وفي أي محل آخر كان لدي الحاجة إلى الحماية كيلا تجري عليهم معاملة سيئة وغير مشروعة، بل يتيسر لهم قضاء أعمالهم والتصرف بمقتضيات مراتبهم الروحية بتمام الحرية، ونأمر قناصل الأمة الفرنسية ونواب قناصلها المنصوبين في فرض المشرق وغيرها من الأماكن المشترع بها العلم الفرنسي الآن، وفي ما يأتي من الزمان أن يساعدوا بكل وسعهم البطريك المشار إليه وجميع الموارنة سكان جبل لبنان، وأن يسيروا في المراكب الفرنسية أو غيرها كل ماروني أراد السفر إلى بلاد النصارى، اما لدرس العلوم واما لغير ذلك، ولا يكلفوهم إلا ما يمكنهم دفعه، ويعاملوهم بالحبّة والرفقة. ونسأل السادة العظام عمال الحضرة العلية السلطانية ومستخدميها أن يذلوا رعايتهم ومساعدتهم لحضرة رئيس أساقفة طرابلس وجميع الاكليروس والشعب الماروني، ونعدهم من قبلنا أننا نصنع هذا الصنيع إلى كل رجل من أمتهم يوصون عمالنا به.

أُعطِي في سن جهان بمدينة لاي في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م وهي السادسة للملكنا » .

والبطريك يوحنا هذا هو الذي رقى إلى درجة الكهنوت ثم الأسقفية على السريان اندراوس أخيعخان بعد أن كان جحد اليعقوبية على يد البطريك يوسف العاقوري . ودرس العلوم بمدرسة طائفتنا في روما كما مرّ في ترجمته وفي الثالث والعشرين من كانون الأول سنة ١٦٥٦م انتقل البطريك يوحنا إلى راحة الأبرار الأبدية لينال ثواب جهاده ومبراته ، وكان انتقاله بدير قنوين ، ودُفن هناك . وقد وصفه الدويهي بأنه كان طاهراً قنوعاً رضي الأخلاق بعيداً عن الكدر والمكر تربي منذ حدائته بالتقوى والنسك وحاز على أعلى مراتب الورع والاتضاع ، وكان مدمناً على الصلوات وتلاوة المسبحة وغيرها من النوافل زيادةً على صلوات الفرض ، كثير الصوم والتقشف في مدة كهنوته ولا سيما في مدة أسقفيته التي كانت اثنتي عشرة سنة ، وفي مدة بطريركيته التي كانت ثمانين سنين ونيف .

أما البطريك جرجس السبعلي فقال فيه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٧م إنه كان ابن الحاج رزق الله من سبعل بزاوية طرابلس (وهي الآن قرية حقيرة) وكان البطريك الصفراوي قد رماه إلى الأسقفية في ٢٥ من تموز سنة ١٦٥٦م ليكون معاوناً له في تدبير شؤون البطريركية . ولما توفي هذا البطريك في ٢٣ من كانون الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة والأعيان في اليوم التاسع بعد وفاته أي في أول كانون الثاني سنة ١٦٥٧م فانتخبوه بطريكاً ، وأرسل الأب يوحنا الكرمللي الذي كان قاطناً بدير القديس اليشاع في جانب بشري إلى روما وأصبحه بعرائض اداء الطاعة واستمداد التثبيت من الحبر الروماني البابا اسكندر السابع فاتفق أن مات الأب المذكور لدن بلوغه إلى روما فاضطر البطريك أن يجدد الالتماس ، وتأخر تثبيته إلى سنة ١٦٥٩م . وقال في حقه دي لاروك في كتاب رحلته المذكور (صفحة ١٣١) إنه كان ضليعاً باللغات الشرقية ومبرزاً في معرفة الشرائع والقوانين البيعية ، وفي أيام هذا البطريك قدم من فرنسة أربعة رجال قاصدين العزلة عن العالم للتجرد لخدمة الله في محابس جبل لبنان فاختر بعضهم السكنى بدير مار اسيا بكفر صارون ، وبعضهم بدير مار ابون بأرض الحدث ، وبعضهم بدير القديس انطونيوس في جوار قنوين . فأمر البطريك بمرمة الأديار المذكورة واصلاحها للسكن ، وأن يعطوا الزاد من دير الكرسي البطريكي . وفي ١٢ من شهر نيسان

سنة ١٦٧٠م كانت وفاة البطريرك جرجس بدير مار شليطا مقبس بكسروان ودُفن هناك وضريحه ظاهر إلى الآن . وقال الدويهي في حقه إنه كان شجاعاً كريم الأخلاق ، صبوراً تحمّل كثيراً من جور الحكام في تلك الأيام ومن داء السلّ الذي بُلي به واستمر على الكرسي البطريركي ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان .

عد ٦٣

العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي

نعمد في ترجمة هذا العلامة على ما كتبه عن نفسه في رسالة أنفذها إلى القس بطرس مبارك أحد تلاميذ مدرسة الموارنة بروما ، فهذا أرسل كتاباً للبطريرك يسأله به أن يلخص له ترجمته ليثبتها في مقدمة كتاب كان يريد طبعه ، فأجابه البطريرك برسالته المذكورة التي وُجدت في خزانة أوراق الكرسي البطريركي . وإليك نص هذه الرسالة بحروفها:

« البركة والنعمة وحلول الروح القدس تكون حالة على ولدنا القس بطرس المكرم الخ . أشرت لنا حتى نكتب لك عن سيرتنا لتقتطف منه الذي يحسن برأيك وتجعله في مدخل الكتاب على جاري العادة بين الافرنج في طبع الكتب . يا ولدنا نحن نقرّ أننا أخطأ الناس وأرذلهم بالنسبة إلى النعمة التي تفضل بها الله علينا ، لكن لأجل خاطرك نذكر لك أننا من طائفة الدويهيّة المشهورة بين جماعتنا (الموارنة) في التقوى والعلم وسياسة الشعب ، قد خرج منها في الجيلين الماضيين ثمانية مطارين وبطركين وكان مولدنا سنة ١٦٣٠م) في ٢ شهر آب نهار تذكّار ما اسطفانوس ، وسمينا على اسمه ومنذ الصبا سلمونا والدينا إلى القراءة السريانية . وفي سنة ١٦٤١م) أرسلنا المرحوم البطريرك جرجس بن عميره التي أمه كانت من الطائفة (الدويهيّة) إلى روما بصحبة القس سمعان (التولاوي) ويوسف فتيان (الحصريوني) . وفي مقامنا في المدرسة سعيّا في اقامة المجمع (جمعية أو أخوية) باسم السيدة الطاهرة وكانت قبلنا انقطعت المجادلات (أي المباحث العامة الحافلة) فعملنا جهداً كليّاً عند معلمي المدارس وعند الجنرال

حتى جددنا العادة التي انقطعت ، وعملنا مجادلة الفلسفة على اسم الكردينال كابون ،^١ وتماز علم اللاهوت على اسم المرحوم البطريرك حنا الصفرأوي . وسنة ١٦٥٥م كانت عودتنا إلى البلاد وكرم علينا مجمع انتشار الايمان أن نكون من جملة المرسلين وفي ترددنا في البلاد اعتنينا على علم الأولاد وعلى الوعظ وتهذيب الشعب بدرجة الكهنوت . وعندما طلبوا جماعتنا (الموارنة) الحلبية من المرحوم بطريرك جرجس (السبعلي) أن نكرز عليهم ثبتنا عندهم نكرز عليهم ونعلم أولادهم ونتعاطى في أمورهم مدة ست سنين وعندما في سنة ١٦٦٨م توجهنا من عندهم إلى زيارة المواضيع المقدسة في العودة مسكننا البطريرك المرحوم وقدمنا إلى درجة المطرانية على أسقفية قبرص فزرناهم وتعبنا فيهم جهدا . وفي السنة الثانية عندما انتقل البطريرك جرجس ابن الحاج رزق الله إلى رحمة خالقه ألزمننا رؤساء الكهنة ورؤساء الشعب في درجة البطريركية . وفي كل هذه المدة احتملنا مشقات واضطهاد لا يوصف من جور العصاة . حتى أننا طفرنا إلى بلاد كسروان وإلى بلاد الشوف ، ولأجل هذه الديورة والكنائس والنصارى التزمنا نرجع لأجل حفظهم ، ولأن كانوا شردوا والله الحمد قائمين بحملتنا وفي عمار الكرسي والطائفة . وفي كل هذه المدة تعبنا تعباً بليغاً حتى جمعنا غالب رتبها كما هو (هنا كلمة غير مقروءة) .

١ **ܕܐܡܪܐ ܕܡܚܝܝܐ ܕܡܚܝܐ** (كتاب الشرطونية وأظن أن المراد جمعه هذا الكتاب وترتيبه) ٢ **ܕܝܘܢܡܐ** (قبل هذه الكلمة كلمة مخزوقة فكأنها نظام أو قانون الرهبان) ٣ **ܕܡܚܝܐ ܕܡܚܝܐ ܕܡܚܝܐ** (رسم البيعة وأثاثها) **ܕܡܚܝܐ ܕܡܚܝܐ** (أي كتاب الصلوات) وبعثناه إلى روما . ٥ كتاب النوافير (وهو غير كتاب منارة الأقداس الذي عدّد به النوافير بل كتاب برأسه عدد فيه النوافير وعني بترجمة مؤلفيها وذكر صورة كلام التقديس في كل منها ، وضّم إليه نافور رسم الكأس . وهذا الكتاب كان في دير مار شليطا مقبس فثقل حديثاً إلى مكتبة البطريركية) ٦ **ܕܐܪܐ ܕܡܚܝܐ** (أسرار البيعة) ٧ **ܕܡܚܝܐ ܕܡܚܝܐ** (أعياد) كل السنة (وهو كتاب جمع فيه رتب الموارنة على مدار السنة بالسريانية عدد صفحاته ٣٧٩ كرتبة تبريك الماء يوم عيد الغطاس ، ورتبة أحد الشعانين وغيرها . وهذا الكتاب الآن في مكتبة البطريركية منقولاً إليها من مكتبة مار شليطا) ٨ سجلات الباباوية ومكاتيب البطارقة وأرباب الدولة وحجج وقوفات الدير ومن غير (وما عدا) الكتب البيعية

التي جمعناه . وذكرنا إننا عاملون متعيين على كتاب الجنازة وغيره ، ثم إننا شرحنا عن كتاب الشرطونية . وفي كتاب آخر عن تكريس البيعة وأوانيتها . وفي كتاب آخر عن تفسير القداس والمناثر ، وأيضاً في قصص الآباء أصحاب النوافير المقبولة وأيضاً عن سلسلة بطاركة الملة المارونية ، وأيضاً على أصل الملة المارونية ودوام اتحادها مع الكنيسة الرومانية وهي التي عندك . وأيضاً في التواريخ من بدء الهجرة إلى وقتنا هذا بل الذي تعبنا عليه بزيادة من قدوم الفرنج إلى هذه البلاد . وأيضاً جمعنا رؤوس الأبيات السريانية وفككتناها على موجب وزن الشعر ونعمل متعيين بسبب مدرسة الموارنة بروما ونفعها ونشر تلاميذها . ومن غير تعبنا مع طائفتنا ما تأخرنا أيضاً عن نفع الطوائف التي بجيرتنا لأن المرحوم القنصل بيكت ، كان بعث عشر مكاتيب للمرحوم البطريرك حنا من صفرا حتى يرسم القس اندراوس أخيهان فما تنازل معه حتى دخلت أنا بينهم وأزحت عن بال البطريرك الصعوبات التي كانت تمنعه . وبعد أن ارتسم مطراناً صار أنه طفر (فتر) إلى جبل لبنان لأجل خاطر القنصل وسيطه إلى الرجوع ، ورحت أنا بنفسي معه وكنت أساعده في المقدرة وفي كتابة الكرز الذي كنت أعطيه . وكذلك طفر لعندنا القس اسحق (السرياني) وأنا بطريرك مسكته عندنا سنتين ورتبته ورسمته أيضاً ، وعندما طفر بعده إلى عندنا بطرس بطريرك السريان (نظنه اغناطيوس بطرس الذي خلف أخيهان في البطريركية على السريان الذي توفي في السجن بأدنه بمكيدة بطريرك اليعاقبة) ثبت عندنا مدة من الزمان بكل اعزاز واکرام ، ثم بعد المذكورين التجا إلينا الخوري نعمة والقس سيمان السريان من جور بطريركهم الضال ، وكذلك مطران الأرمن على مرعش عندما التجا إلينا قبلناه بكل كرامة وأمرنا جماعتنا بحلب ليقبلوا جميع المرتدين من اليعاقبة والأرمن والنساطرة وغيرهم ويتلمذونهم ويقضون مصالحهم . حُرر في أول شهر أيار سنة ١٧٠١ ربانية . وقد طبع المعلم رشيد الشرتوني من تأليف الدويهي شرح الشرطونية والتكريسات ، وشرح المناثر العشر وسلسلة بطاركة الموارنة مع اضافات . وأخذ من كتابه في أصل الموارنة ودوام اتحادهم بالكنيسة الرومانية . ومن التاريخ كتابه المعروف بتاريخ الطائفة المارونية وطبعه سنة ١٨٩٠ م .

إنَّ البطريرك سمعان عواد الطيب الذكر قد وضع ترجمة العلامة الدويهي آخذاً عنه وعن ثقة من معاصريه . وهذه الترجمة أثبتتها المعلم رشيد الشرتوني في فاتحة

تاريخ الموارنة للدويهي الذي طبعه بيروت سنة ١٨٩٠م فنكتطف منها ما يلزم لتتمة الترجمة . وبيانها أنّ والد الدويهي يسمى مخايل واسم أمه مريم وهي من آل الدويهي أيضاً ، وأرسله إلى روما عمه المطران الياس الدويهي على يد البطريرك جرجس عميره . وقد قال عن نفسه أنه كان يقضي وقت التنزه وهو في المدرسة في القراءة والدرس ، وكثيراً ما كان يقوم عن فراشه ليلاً فيصلي ويدرس على نور المصباح الساعتين والثلاث حتى أصيب ببصره ، فكان يطلب إلى رفقائه أن يقرأوا على مسمعه الدروس اليومية ، ثم شفي بشفاعة العذراء . وكان استاذة في اللاهوت الأب سبرسا اليسوعي . يقول مرات علّمت في بلاد كثيرة ولم أر مثل اسطفان علماً وعملاً . وشهد عارفوه أنهم لم يكونوا يجدون عليه خطيئة توجب الحل . وألّف بعد انجاز دروسه كتاباً ضخماً باللاتينية في الفردوس الأرضي . وبعد رجوعه إلى وطنه رُقي إلى درجة الكهنوت وأنشأ مدرسة في اهدن وأخذ يعلم الأولاد ويعظ الشعب إلى أن أرسله البطريرك جرجس السبعلي إلى حلب واعظاً ومرسلاً . واهتدى على يده كثير من الملكية والنساطرة واليعاقبة . وصنّف في تلك الأثناء مؤلفاً في الوعظ والارشاد في مجلدين . وقد جرى انتخابه بطريركاً سنة ١٦٧٠م بغير مشورة الشيخ أبي نوفل الخازن ، فاستاء فأتى البطريرك إلى داره بكسروان فأجلّ الشيخ قدره واستغفره عما فرط منه . وأرسل إلى روما القس يوسف شمعون الحصري (الذي صار بعداً أسقفاً) في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠م فثبته البابا اكليمنضوس العاشر (في ٨ آب سنة ١٦٧٢م) .

وبعد بطريركيته أخذ يطوف جميع الأبرشيات ويختار كهنة من ذوي العلم والتقوى ويفحص الكتب البيعية ويصلح ما أوقعه النساخ أو أصحاب الأغراض من الخطأ فيها . وكان معتنياً برد العوائد القديمة ، ورتب الطقوس . وذكر له البطريرك سمعان عواد بعض الكتب التي ذكرها هو في ترجمة نفسه وما قرظه به العلماء من طائفته كمرهج بن نيرون الباني والمطران يوسف شمعون الحصري والبطريرك يعقوب عواد . ومن غير طائفته نخص بالذكر منهم الكردينال نرلي في كتابه في مشاهير المدرسة المارونية بروما . ولما علم البطريرك كيرليس الحلبي بطريرك الروم الانطاكي أنّ الخبز والخمر لا يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه بقوة كلام التقديس وحده بل بدعوة الروح القدس أيضاً . فاعترضه ورد زعمه بنصوص الكتاب والجامع والآباء . ولما اطلع بطريرك الروم على حججه أحب أن يجادله

وحضر لجداله ومعه أربعة مطارين، وكان الجدل بحضرة أمير الشوف في دير القمر. فأفحم الدويهي بطريك الروم وأساقفته حتى أوجب عليهم الأمير والحاضرون أن يذعنوا لتعليم الدويهي. وكان هذا سبباً لاعتناقهم الدين الكاثوليكي، وقد قاومه بعض أساقفته لأنه تشدد عليهم بعمل واجباتهم فأرسل لهم رسالة يؤنبهم بها ويهددهم فخرجوا وتسارعوا إليه يستغفرونه عما فرط منهم. وهم أن يتنازل عن البطيركية فمنعه أبناء الطائفة. وكان شديد الغيرة على مدرسة الطائفة في روما وعلى نشاط تلامذتها وتقدمهم بالتقوى والعلم. وله رسالتان إليهم (مثبتان في ترجمته المتعلقة على تاريخ الموارنة) يتبين منهما كم كان له من العناية بهم والهام في نجاح هذه المدرسة. وقد أنبأنا صاحب ترجمته بآيات كثيرة صنعها الله على يده في حياته وبعد وفاته.

وقد أهانه قبل وفاته الشيخ عيسى حماده إذ جاء مع بعض أقاربه إلى قنوين طالبين منه مبلغاً من المال، فكتب إلى الشيخ حصن الخازن عما جرى له فجهز رجالاً من كسروان مع أخيه الشيخ ضرغام (هو الذي صير بعداً بطريكاً) إلى قنوين، ولما علم بذلك الشيخ عيسى أتى متوقعاً متذللاً أمام البطريك ليغفر له ويعدل عن السفر إلى كسروان، وأراد المشايخ الخوازنة أن يطيخوا به فنهاهم البطريك عن ذلك وسار معهم إلى كسروان فالتقاه الأهلون بالتجلة والاحتراف وأقام بدير مار شليطا مقبس نحواً من أربعة أشهر، ثم وردت له رسائل من والي طرابلس على يد الخواجه طرييه ترجمان قنصلية فرنسة أن يعود إلى كرسيه آمناً فعاد في ١٩ من نيسان سنة ١٧٠٤م يوم السبت وفي صباح الأحد أقام قداساً حافلاً ومنح غفراناً كاملاً لجميع الحاضرين. وفي غد الاثنين ودعه من كانوا قد رافقوه من كسروان فشيّعهم إلى باب الدير وأراد أن يرجع إلى غرفته فتعذر عليه أن يخطو فحمله شماسه إلى فراشه، وعلم أن قد دنا أجله وأن الله استجاب طلبته أن لا يميته خارجاً عن كرسيه، وأخذته حمى شديدة لم تمنعه عن التسبيح لله ومباركة شعبه وتناول الأسرار المقدسة إلى أن توفاه الله ونقله إلى راحة الأبرار صحبة القديسين الملائكة باسيليوس واثناسيوس وفم الذهب نهار السبت في الساعة الثالثة من النهار في ٣ من أيار سنة ١٧٠٤م وعمره أربع وسبعون سنة.

وقد حفظ لنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان رسالة أنفذها لويس الرابع عشر ملك فرنسة إلى هذا البطريك هذه ترجمتها:

«أيها البطريرك اسطفانوس بطرس الانطاكي»

أيها السيد الأجلّ، قد رفع إليّ الخوري الياس كاتب سرّكم الرسالة التي كتبتموها إليّ في ٢٠ من آذار سنة ١٧٠٠م وعلمت منها متأسفاً الحزن التي يقاسيها الكاثوليكيون أبناء ملّتكم المارونية في جبل لبنان وشدة الضنك الذي تقاسونه لوقاية شخصكم من الاهانات التي ينزلها البعض بكم. ولما كنت مستعداً أن أبذل دائماً كل ما بوسعي من العناية بتأييد الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في كل مكان ولا سيما في أرجاء بطريركيّكم حيث تعاظمت الحزن، قد سلمت إلى كاتب سرّكم رسالة جددت بها الأمر الذي أصدرته قبلاً إلى سفيري بالقسطنطينية أن يصرف عنايته واهتمامه لينال من الباب العثماني كل ما يمكن من الأمور العائدة بالنفع للدين الكاثوليكي في بلاد الموارنة ليجعلكم تشعرون بمفاعيل حمايتنا واجلالنا لكم خاصة. وأسأله تعالى أيها السيد الأجلّ أن يحفظكم بحراسته المقدّسة. كُتب في مارلي في ١٠ آب سنة ١٧٠١م التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة كولبر».

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ٦٤

الأساقفة الذين رقاهم البطريركان يوسف الرزي ويوحنا مخلوف

قال الدويهي إنّ البطريرك يوسف الرزي رقى ابن أخيه سرّيس الرزي إلى أسقفية دمشق سنة ١٦٠٠م وكان حبيباً بدير قزحيا. وكان قد درس العلوم في

روما وأقام بعد تسقفه بالحبسة المذكورة أيضاً. هذا ما جاء في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا، وفي النسخة التي أخذ عنها رشيد الشرتوني في طبعه تاريخ الموارنة. لكن الدويهي نفسه قال في الفصل ١٨ من رد التهم أنّ البطريك يوسف الرزي أرسل أخاه الأسقف سركييس سنة ١٦٠٧م سفيراً إلى البابا بولس الخامس ومعه القس الياس ابن الحاج يوحنا والقس جرجس بن مارون من اهدن، فلا يظن الأسقف سركييس هذا أخا البطريك هو غير سركييس ابن أخيه بل هما واحد. وفي رواية الدويهي في تاريخه خطأ من النساخ لأنّ البابا بولس الخامس ذكره في رسالته إلى أساقفة الموارنة وشعبهم في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م داعياً إياه أخا البطريك الذي كان قد توفي، ويعزيهم لفقده. وأمر البابا حينئذ أن يبقى الأسقف سركييس في روما للعناية بطبع الكتب وحاجات الطائفة. واستمر بروما إلى سنة ١٦٣٨م التي توفي بها. والذي علمناه مما باشره بروما في هذه المدة هو طبع كتاب الشحيم بعد أن عهد البابا بولس الخامس بفحصه إلى الكردينال بطرس الدبرندينوس محامي الموارنة وقتئذ. والكردينال روبرتوس بلرمينوس الشهير والكردينال أوكتافيوس بندينوس والأب بطرس المطوشي الماروني اليسوعي. ولما توفي الكردينال الأولان في أثناء هذا الفحص تعيّن بدلهما الكردينال روبرتوس أو بلدينوس والكردينال اسكندر أوسينوس. وبعد أن أجاز هؤلاء طبعه سنة ١٦٢١م شرع الأسقف سركييس بطبعه تحت مناظرته فنجز طبعه في أيام البابا أوربانوس سنة ١٦٢٥م كما هو بيّن من رسالة الكردينال أوكتافيوس بندينوس محامي الموارنة إلى البطريك يوحنا مخلوف المعلقة على طبعة الشحيم المذكورة. ثم إنه صحح بمدة اقامته بروما نسخة الأسفار المقدّسة العربية معارضاً لها بنسخ كثيرة أخذت من المشرق، وترجمها إلى اللاتينية برفقة غيره من العلماء كما يتبيّن من المقدمة التي علقها عليها. وطُبعت نسخته هذه سنة ١٦٧١م بعد وفاته مع النسخة اللاتينية العامة ومنها نسخ كثيرة في المشرق، بل كانت هي النسخة التي تتداولها أيدي العامة قبل طبع النسخة اليسوعية ببيروت. وذكر بعضهم أنّ المطران سركييس كان له يد أيضاً مع جبرائيل الصهبيوني والخوري يوحنا الحصريوني في تهذيب الترجمات السريانية والعربية اللتين طُبعتا في البوليكوتا البارسية، ولا يبعد ذلك عن الصحة لأنّ البوليكوتا شرع في طبعها سنة ١٦٢٨م وهو توفي سنة ١٦٣٨م.

وذكر لكويان في جملة الأساقفة الموارنة وقال: أثبت تورينانوس أنّ رودريكوس

اليسوعي الذي بعثه البابا ييوس الرابع إلى الموارة عارض القوانين العربية التي ترجمها إلى اللاتينية مع سركييس هذا أسقف دمشق الماروني . وأسهب الكلام على علمه وفقاهته . وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨ « وفيها في شهر حزيران توفي بروما الحبييس سركييس بن الرزي مطران دمشق وله من العمر ست وستون سنة ، وكان قد اقتبس العلوم بروما وعاش ناسكاً بمحبسة قرحيا مدة وعني في روما بطبع الشحيم ووقف متروكاته على مساعدة الطائفة وكان محبوباً من رؤساء الكنيسة الرومانية .

٢ - المطران بطرس العاقوري ذكره الدويهي وعرفه بأنه ابن الخوري سابا العاقوري من بيت حليب ، وإن البطريك يوسف الرزي رقاہ إلى أسقفية العاقورة في ٢٠ من تشرين الثاني بعد وفاة موسى أسقفها . وكان المطران بطرس هذا متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدسة ، ومن أولاده البطريك يوسف العاقوري وتوفي بالعبادية (من المتن) ونُقلت جثته إلى بيروت ودُفن في كنيسة مار جرجس فيها . وكان شديد الغيرة كثير العبادة وصنّف مدائح كثيرة .

٣ - المطران يوحنا الحصريوني ابن الشدياق حاتم الحوشبي رقاہ البطريك يوسف الرزي إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م وجعله معاوناً له في تدبير شؤون دير قنوين . وكان قد درس العلوم بروما ودخل رهبانية القديس عبد الأحد وترجم جزءاً من كتب القديس توما الأكويني إلى العربية . ثم أرسله البطريك المذكور سفيراً إلى الحبر الروماني ، وعاد من روما إلى لبنان سنة ١٦٠٦م وأصبحه البابا بولس الخامس بجواب أثني فيه على الموارة ، وأرسل للبطريك حلاً كهنوتية وغيرها من الهدايا ، وحينئذٍ أمر البطريك باتباع الحساب الذي أدخله البابا غريغوريوس الثالث وعيد الموارة في طرابلس وجبة بشري وجبيل والبترون عيد الرسل مع الافرنج قبل طوائف المشرق بعشرة أيام . ثم تطرّق استعمال هذا الحساب إلى دمشق وحلب وسائر المدن والقرى إلا جزيرة قبرص ، وتركوا التاريخ بسني اسكندر وأخذوا يؤرخون بسني الميلاد . ولما حضّر هذا الأسقف على اتباع هذا الحساب في حلب ناصبه رؤساء الطوائف الشرقية ودفعوا للحكومة مبلغاً من المال لاهلاكه ، فاحتج بالحكمة مثبّتاً صحة هذا الحساب وأفحم معانديه وتوفي بروما سنة ١٦٣٢م ودُفن في دير القديس بطرس حيث صلب . وهو غير الأسقف يوحنا ابن قورياقوس الحصريوني المعروف من بيت حندوق الآتي ذكره .

٤ - ومن رقاھم البطریق یوسف الرزی إلى الأسقفیة الأسقف یوحنا مخلوف الذی صیر بعداً بطریقاً، والأسقف جرجس بن عمیره الذی صیر بطریقاً أيضاً، ورقی أيضاً أساقفة آخرین فی تاریخ القرن السادس عشر .

وأما الأساقفة الذین رقاھم البطریق یوحنا مخلوف فنعرف منهم یوحنا الشدراوی وقد ذكره الدویهی فی تاریخ سنة ١٦٠٩م قائلاً إنّ هذا البطریق رقی فیها إلى الأسقفیة الخوری یوحنا الشدراوی . وقد ذكره المطران اسحق الشدراوی فی مقدمة غرامطیقه، وقال إنه عم أبیه وإنه كتب إليه رسائل عديدة فی هذا التألیف فأفادته، وكانت له بمنزلة مشكاة فأنارته . وفی سنة ١٦١٠م رقی الأسقف یوسف بن بشاره من بیت السوق وهو ابن أخی الأسقف اقلیموس الأهدنی المار ذكره . وفی سنة ١٦١٤م رقی جرجس بن مارون الأهدنی إلى أسقفیة الأفقسیة بقبرص وهو الذی كان قد أرسله إلى روما یطلب التثبیت وأحضره له . وروی الدویهی أيضاً أنه فی ٢٢ من تشرين الأول سنة ١٦١٩م توفي الأسقف یوسف بن یوحنا ابن القس تادروس السمرانی وله فی الرهبانیة بدير قزحیا خمس وخمسون سنة . وذكر فی تاریخ سنة ١٦٢٢م توفي الأسقف یونان بن جلوان السمرانی (نسبة إلى سمار جبیل) الذی استحبس بدير قزحیا، ونظن أنّ هذین هما الحبس یونان وأخوه القس یوسف اللذان روی الدویهی فی تاریخ سنة ١٥٧٦م أنّ المطران داود رئیس دیر قزحیا رقاھما إلى الأسقفیة خلافاً لقوانین الكنیسة .

فمنعهما البطریق عن مباشرة حقوق الأسقفیة فخصما، فرضی عنهما وردھما إلى دیر قزحیا فأكملا حیاتھما مستنسکین .

الأسقف یوحنا بن قوریا قوس الحصرونی من بیت صندوق فهذا درس العلوم فی مدرسة الموارنة بروما ورقی إلى درجة الكهنوت . وفی ١٦٢٥م أرسله البطریق یوحنا مخلوف لتهنئة البابا أوربانوس الثامن بارتقائه إلى الحبریة العظمی فرحب البابا به وأرسل إلى البطریق رسالة نفیسة یشنی بها على الموارنة لثباتھم فی الایمان الكاثولیکی، وأهدى إليه تاجاً ثمیناً وكتباً وحلاًلاً یعیة . ویوحنا هذا عاون القس جبرائیل الصهیونی الأهدنی على ضبط الترجمتین السریانیة والعربیة المثبتتین فی البولیكلوتا (الأسفار المقدسة بعدة لغات) الباریسیة التي عني بطبعها میخائیل لی جای . ویظهر أنه بقی فی أوروبا لأنّ البولیكلوتا المذكورة شرع فی طبعا سنة

١٦٢٨م. وقد ذكر كثيرون معاونته عليها ومنهم والتن في المقدمات على البوليكوتا اللوندية، وبعد عودته إلى لبنان رقاہ البطريک یوحنا مخلوف إلى الأسقفية مكافأة لأتعاہ. وأقام بدير مار جرجس بقرقاشا لكنه لم يستمر في الأسقفية إلا أربعة أشهر وتوفي في أحد الشعانين.

الأسقف یوحنا من بیت قزوح رقاہ البطريک یوحنا في ٢٠ تشرين سنة ١٦٢٥م على دير القديس اليشاع يبشري وعلى دير الأحمر. ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ونظّمه من بشري.

الأسقف سركيس السمراني ذكر الدويهي وفاته في تموز سنة ١٦٢٦م وقال إنه كان قد استحبس بدير قزحيا وكان ورعاً راغباً في العلوم ونسخ الكتب فرقى البطريک یوحنا مخلوف مكانه ابن أخيه الأسقف بولس والأسقف يوسف العاقوري من بیت حليب على صيدا وهو الذي صير بعداً بطريکاً، والأسقف يوسف البلوزاوي على بيروت. وروى في تاريخ سنة ١٦٣٧م أنّ الأسقف بولس المذكور إذ كان ساکناً في دير قزحيا شكاه القس حنا ابن البري من غوسطا لاختلافهما على الماء إلى الأمير عساف بن يوسف باشا سيفاً فدعا الأمير الأسقف إلى جبيل وأجرى عليه أنواعاً من العذاب حتى فقت عينه ولم يتركه إلى أن دفع أربعة آلاف قرش.

الأسقف اسحق الشدرابي، ذكر السمعاني ترجمته في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ فقال ما ملخصه؛ دخل مدرسة الموارنة بروما سنة ١٦٠٣ فأقام فيها إلى سنة ١٦١٨م وبرع من خلال هذه المدة في اقتباس اللغات اللاتينية والسريانية والعربية والعلوم السامية، فرقاہ جرجس عميرة مطران اهدن وقتل إلى الدرجات الصغار سنة ١٦١٩م. وفي السنة التالية رقاہ إلى درجة الكهنوت وجعله رئيس كهنة بيروت. وكان قد تزوج قبل ارتقاہ إلى هذه الدرجة على عادة الشرقيين ثم ماتت امرأته. وفي ٢٥ آذار سنة ١٦٢٩م رقاہ البطريک یوحنا مخلوف إلى الأسقفية على طرابلس كما اخبر عن نفسه في فاتحة المقالة اللاهوتية المثبتة في كتاب بمكتبة نشر الايمان. وله كتاب سرياني في نحو اللغة السريانية (غرامطيق) طبعه بروما في مدرسة الموارنة سنة ١٦٣٦م، وقصيدتان على أحرف الهجاء الواحدة في مدح البابا اوربانوس الثامن، والثانية في مدح یوحنا مخلوف بطريک الموارنة مثبتتان في كتاب بمكتبة مدرسة نشر الايمان. وله بالعربية مباحث لاهوتية بطريقة

السؤال والجواب على عمل الرب في ستة أيام الخلق وفي الفردوس الأرضي والخطيئة الأصلية والموت ويمبوس الآباء والفردوس وجهنم والمطهر وقيامه الموتى والدينونة الأخيرة، وهي في الكتاب المذكور في مكتبة مدرسة نشر الايمان. وله أيضاً ترجمة رسائل اليا بطريك الكلدان إلى الحبر الروماني، وترجمة أعمال المجمع الذي عقده بآمد سنة ١٦١٧م من السريانية إلى اللاتينية كما مرّ. وقد أرسله وهو أسقف البطريرك يوسف العاقوري إلى البابا اينوشنسيوس العاشر ليستمد له منه التثبيت فتعدّر سفره، فأرسل البطريرك الخوري عبد المسيح ابن الطويل الحداثي عوضه ومرقس راهب دير مار شليطا مقبس، ثم لحقهما المطران اسحق وكانا يطبعان الشحيمة فأصلح معهما ما كان باقياً من طبعهما كما شرح الخوري عبد المسيح المذكور في المقدمة على الشحيمة المذكورة. وروى دي لاروك أنّ الكردينال فريدريك بوروماوس استدعاه إلى مديولان لينظّم مكتبته الشهيرة في هذه المدينة. وتوفي المطران اسحق سنة ١٦٦٣م في مدينة جبيل ودُفن في كنيسة مار يعقوب التي في سهل جبيل. ومن التقليد أنّ المطران المذكور هو جد آل طريه من طرابلس وجبة بشري. وكان أحدهم ترجماناً لقنصل فرنسة منذ أيام البطريرك الدويهي. وكان منهم بعده تراجمة كثيرون حتى أيامنا هذه. وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨م وفاة المطران عبدالله الهدناني بدير قنوين بعد أن كان له في الرئاسة ست وثلاثون سنة، وكان حازماً واشترى عقاراً كثيراً لدير قنوين ولم يكن ذكر ترقيته إلى الأسقفية.

عد ٦٥

أساقفة الموارنة إلى أيام الدويهي

في سنة ١٦٣٨م رقى البطريرك جرجس عميرة المطران الياس بن يوحنا من عائلة الصراصرة من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ السنة المذكورة، وقال في تاريخ سنة ١٦٥١م إنّه فتح سوق القلعة الشرقي بقرية زغرنا، وأضافه إلى الكنيسة وبيّضه وكوّسه لكثرة المترددين إلى الكنيسة. وروى في تاريخ سنة ١٦٥٩م أنه توفي في هذه السنة وأنه كان ورعاً غيوراً وتربى بدير قزحيا، وسكن في القدس نحو عشرين سنة، واشترى فيها دار الازي بأمر البطريرك، ودخل إلى روما صحبة الأسقف جرجس بن مارون وخدم رئاسة الكهنوت عشرين سنة بمزيد التقوى.

الأسقف يوسف بن عميمة الكرمسدي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م فقال إنّ البطريك يوسف العاقوري بعد ارتقائه إلى سدة البطيركية في هذه السنة رقى يوسف الكرمسدي إلى أسقفية دمشق، وكان معاوناً للبطريك. وذكر في تاريخ سنة ١٦٥٣م أنّ هذا الأسقف توفي فيها لرحمة الله.

الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصري ذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّ البطريك يوسف العاقوري رقاها إلى أسقفية طرابلس مع الأسقف يوسف الكرمسدي، وكانت ترقيتهما في دير حراش ليكونا معاونين له. وذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٩م حيث قال في ١٣ من شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصري في مدينة طرابلس، وبموجب وصيته دُفن في مغارة القديسة مارينا بقنوين. وكان قد اقتبس العلوم في مدرسة الموارنة بروما وخدم الأسقفية ست وعشرين سنة بكل طهارة.

الأسقف جرجس البشعلاني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٨م فقال في ٢٤ من شباط من السنة المذكورة رقى البطريك يوسف العاقوري القس جرجس بن حبقوق البشعلاني إلى الأسقفية على العاقورة وأخذ السكنى بدير قنوين. الأسقف يوسف البلوزاوي ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٥٠م قائلاً فيها توفي الأسقف يوسف بن ناتان البلوزاوي ولم يكن قد ذكر سنة ترقيته ولا من رقاها.

الأسقف يعقوب الرامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٣م فقال فيها توفي الأسقف يوسف الكرمسدي (المرار ذكره)، وفي يوم عيد انتقال العذراء رقى البطريك يوحنا الصفراوي عوضه الأسقف يعقوب الرامي على دمشق.

الأسقف يوسف الحصاراتي ذكر الدويهي ترقية البطريك يوحنا الصفراوي له إلى الأسقفية في يوم عيد انتقال العذراء سنة ١٦٥٣م مع الأسقف يعقوب الرامي الآنف الذكر على جبيل. وكان رئيساً لدير حوقا، واستمر نائباً على البطريك المذكور في رئاسة هذا الدير. قال لكويان في أساقفة الموارنة، وقال دي لاروك في كتاب رحلته صفحة ٢٨٤ إنّ البطريك اسطفانوس الدويهي كتب منشوراً في ٥ تشرين الأول سنة ١٦٩٩م (وهو المنشور الذي ذكرناه توصية بيوسف أخي الأمير بولس) ووقع عليه يوسف الحصاراتي مطران جبيل بدير حوقا، وربما كان يوسف

هذا غير يوسف الذي نكتب ترجمته لأنّ للدويهي رسالة أخرى في ١٢ حزيران سنة ١٦٧٣م، وفيها توقيع يوسف الحصاراتي. فالفرق الذي هو ست وعشرون سنة يجعلنا نظنّ أنّ يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٩٩م هو غير يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٧٣م.

الأسقف جرجس من بيت شوك من قرية عرجس، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م وقال البطريك يوحنا الصفراوي رقاہ إلى الأسقفية وجعله معاوناً له في تدبير مهام الكرسي البطريكي.

الأسقف ابراهيم السمراني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م أيضاً وقال إنّ البطريك أقامه بدير قرحيا، ثم ذكر وفاته وهو في هذا الدير في تاريخ سنة ١٦٧٧م وترقية ابنه القس يوحنا أسقفاً على البترون، وسلّم إليه تدبير دير قرحيا، وسوف نذكره في محله.

الأسقف جرجس ابن الحاج من سبعل وهو الذي انتخب من بعد بطريكاً. ذكر الدويهي ارتقاءه على الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٥٦م وجعله معاوناً للبطريك في قنوين.

الأسقف سركيس الجمري من اهدن، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٨م فقال فيها رجع القس سركيس الجمري من فرنسة إلى بلاده وكان له في الكهنوت ثلاث وعشرون سنة، فطلب الشيخ أبو نوفل الخازن ترقية إلى أسقفية دمشق، ثم ذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٨م وقال فيها كانت وفاة الأسقف سركيس بن الجمري بمدينة مرسليليا في أواخر أيار.

الأسقف جبرائيل البلوزاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٣م قائلاً فيها كانت ترقية المطران جبرائيل بن يوحنا من بلوزا على مدينة حلب خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي. وقد ذكرنا ارتقاءه إلى الأسقفية سنة ١٦٥٠م. وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٣م أنّ المطران جبرائيل هذا أنشأ ديراً جديداً بأرض طاميش في قاطع بيت شباب على اسم العذراء وهو دير طاميش المشهور.

المطران اسطفانوس الدويهي هو العلامة الدويهي ذكر ترقية إلى الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٦٨م فقال توجهنا لزيارة القدس الشريف، وبعد أن تباركنا بتلك المواضع المقدسة ومعنا والدتنا وأخونا الحاج موسى رجعنا بالسلامة لتقبيل أيدي

السيد البطريك جرجس (السبعلي) بدير قنوين ، فرعنا إلى درجة المطرانية على الأفسسية بقبرص في ٨ تموز وأمرنا أن نخرج لزيارة الرعية في ايلة طرابلس وجزيرة قبرص ، ولعلنا نكون بطالين أشغلنا أنفسنا في سياسة الشعب وفي جمع هذه الأخبار لافادة نفوسنا ولنتطلع على معرفة أحوال بلاد نحن فيها ساكنون .

الأسقف يوحنا التولاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٩م فقال في ٢٣ شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادته الحصري (الذي مر ذكره) ورقي الأسقف يوحنا التولاوي على صيدا ، وذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٨٠م قائلاً فيها في ٢١ من نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن في قرية بعبدا .

عد ٦٦

أساقفة الموارنة الذين رقاهم البطريك الدويهي

الأسقف لوقا القبرصي القرباصي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧١م قائلاً إنه رقاها إلى الأسقفية على الأفسسية بقبرص ، وأخذ السكنى في الجزيرة . وذكر في سجله المحفوظ بخزينة أوراق الكرسي البطريكية أنه رقاها في ١ كانون الأول سنة ١٦٧٢م .

الأسقف بطرس بن مخلوف من غوسطا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٤م فقال إنه رقاها في ٥ من تموز من السنة المذكورة على كرسي الأفسسية بقبرص (يظهر أن الأسقف لوقا المار ذكره توفي حينئذ) بحضرة سفير فرنسة الذي توجه تلك السنة إلى القدس ثم سار إلى لبنان وزار البطريك فرقى الأسقف المذكور بحضرته وذكره في سجله المذكور أيضاً .

الأسقف يوسف الحصري ذكره في تاريخ سنة ١٦٧٥م قائلاً وفيها قدمنا كاتبنا القس يوسف الحصري إلى رئاسة الكهنوت على طرابلس ، وكان ذلك في دير مار شليطا مقبس ، وكتب في سجله أنه رقاها في ١٤ تموز من السنة المذكورة وعرفه بأنه الخوري يوسف شمعون الايودياكن الحصري وتوفي في ١١ كانون سنة ١٦٩٥م ، وقد حضر إلى المتين سنة ١٦٨٥م ، ورقي في ٢٦ تشرين اول إلى درجتي المرتل والقاري الياس بن أبي عون وجرجس بن أبي سليمان ويوسف بن

أبي رزق وهاشم بن أبي هاشم وموسى بن أبي ناكوزة كما دَوَّن بخطه على كتاب الشحيم في كنيسة مار جرجس بقرية المتين المذكورة .

الأسقف يوحنا بن جلوان ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٧م قائلاً فيها في ١٨ أيار انتقل إلى رحمة ربه الأسقف ابراهيم بدير قزحيا وقد مرّ ذكره . وفي نهار تاسعه ورقينا ولده القس يوحنا أسقفاً على البترون وتسلم تدبير الدير المذكور وتوفي سنة ١٦٩١م .

الأسقف بطرس الاهدني ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٠ قائلاً في ٢١ نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن ببعدات كما مرّ . ورقينا مكانه على صيدا القس بطرس ابن القس ابراهيم الاهدني كاتبنا وقلدناه مصالح الكرسي . وذكر في تاريخ سنة ١٦٨٣م أنّه توفي في ٢٦ من أيار منها ، وهو زائر في الشمال فنُقلت جثته من البهلولة إلى ضهر صفرا وله من العمر اثنتان وخمسون سنة .

الأسقف يوسف بن مبارك ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٣م وقال إنّهُ كان من رهبان دير مار سركيس ريفون ، ولما توفي الأسقف بطرس الاهدني رقاها بدله على صيدا في ٦ حزيران من السنة المذكورة . وهذا الأسقف توفي في ٨ ايلول سنة ١٧١٣ في ريفون بعد أن دبر البطريركية ثلاث سنين عند توقيف البطريرك يعقوب عواد كما سوف يجي .

الأسقف جرجس الاهدني لم يذكره الدويهي في نسخة تاريخه التي بيدنا ، وجاء ذكره في سجله ويظهر منه أنّه رقاها في ٢٧ آب سنة ١٦٩٠م على اهدن وإنه ابن سركيس عبيد الاهدني ويسمى بنيامين والكاروز وإنه دخل الرهبة اليسوعية وتوفي بروما . وسيأتي ذكره .

الأسقف يوسف الشامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩١م وقال إنه رقاها في ٢٧ كانون الثاني إلى أسقفية بيروت وتوفي سنة ١٧١٣م .

الأسقف يوحنا حبقوق من بشعلي ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٩١م قائلاً: وفيها كانت وفاة المطران يوحنا بن جلوان السمراني رئيس دير قزحيا ورقينا عوضه الخوري حنا بن حبقوق من قرية بشعله في ٨ من أيلول على دير قزحيا ، وهذا الأسقف سلم الدير المذكور إلى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٠٨م وتوفي سنة ١٧١٨م .

الأسقف ميخائيل الغزيري ذكر الدويهي وفاته في ٦ من تشرين الثاني سنة ١٦٩٧م، وقال أنه كان مطران دمشق، ودُفن بدير طاميش. ولم يذكر ترقيته إلى الأسقفية في تاريخه ولا في سجله فكأنه رقاؤه أحد أسلافه.

الأسقف جبرائيل الدويهي رقاؤه الدويهي على صرند في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٦٩٣م وترى اسمه في جملة أسماء الاساقفة الذين كانوا في المجمع اللبناني، ولم يشهده بنفسه ولكن ناب عنه القس بطرس عطايا وتوفي سنة ١٧٣٩م.

الأسقف يوحنا محاسب الغوسطاوي رقاؤه الدويهي على عرقا ودير مار شليطا في ٧ ايلول سنة ١٦٩٨ وتوفي بالدير المذكور سنة ١٧١٢م.

الأسقف يعقوب عواد الحصري رقاؤه الدويهي على طرابلس في ٦ تموز سنة ١٦٩٨م وهو الذي صير بطريركاً بعده وسيأتي ذكره.

الأسقف خير الله اسطفان الغسطاوي رقاؤه الدويهي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠٣م أسقفاً على العاقورة ودُعي جرجس، وتوفي في عين ورقة سنة ١٧٣٣م وهؤلاء الاساقفة الأربعة لا ذكر لهم في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا فأسمائهم مأخوذة عن سجله. انتهى.

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

عد ٦٧

بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري

أما بطرس المطوشي نسبةً إلى قرية مطوش في قبرص فهو أحد تلاميذ مدرسة الموارنة بروما، أرسله إليها البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٨٤م مع تسعة تلاميذ.

آخرين منهم جرجس عميرة الذي صار بعداً بطريركاً، وسركيس الرزي أخى البطريك الذي صار أسقفاً على دمشق، وموسى العنيسي من العاقورة الذي صار مطراناً على قبرص. وبعد أن أنجز بطرس المذكور بمدرسة روما علومه انضوى إلى جمعية الآباء اليسوعيين فكان من فضلائهم وعلمائهم، وقد أرسله البابا بولس الخامس إلى ايليا بطريك الكلدان مع سفيره آدم رئيس شمامسة كرسية، وصحبته الأب مارينوس اليسوعي أيضاً ليقبل الكلدان بحضورهم رجوعهم إلى الايمان الكاثوليكي، وقد انفذ البابا المذكور معهما رسالة إلى بطريركنا يوحنا مخلوف مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٦١٤م بها يرغب إليه أن يرشد بطرس المطوشي ويوحنا مارينوس إلى ما يتصرفان به مع بطريك الكلدان في أمر رجوعهم فذهبا إلى آمد، وجمع البطريك أساقفته بحضرتهم واجحدوا ضلال نسطور كما تقدّم في الكلام على هذا البطريك. وفي جواب البطريك إلى الخبر الروماني بولس الخامس أطيّب الثناء على الموارنة الذين تعبوا معه في هذه المهمة وترجموا رسائله وأعمال مجمعهم من السريانية إلى اللاتينية.

وقد ذكر دي لاروك بطرس المطوشي وقال في حقه إنه من جمعية اليسوعيين ولاهوتي مبرز وله غرامطيق سرياني لاتيني ومقالة في اللاهوت الأدبي هي في مكتبة مدرسة الموارنة بروما. وكان الأب المطوشي في جملة من عيّنتهم الكرسي الرسولي لفحص كتاب الفرض الكبير (الشحيم) مع الكردينال بلرمينوس وغيره من العلماء لطبع هذا الكتاب كما مرّ.

وأما نصر الله بن شلق فأصله من العاقورة وقد درس العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ فيها ورقي إلى درجة الكهنوت، وأقام بأوروبا إلى حين، وله مؤلف في الكنيسة وترجمة سفر أيوب من السريانية إلى اللاتينية ومقالات أخرى. وقد أحرز ثروة وافرة فأوصى عند وفاته أن تُنشأ بها مدرسة لأبناء طائفتنا في مدينة رافانا من أعمال إيطاليا. وأقام القس جبرائيل بن عواد الحصري منفذاً لوصيته فأنشأ المدرسة كما عهد إليه على أنها لم تلبث طويلاً. فكان تأسيسها سنة ١٦٣٩م ثم أقفلت سنة ١٦٦٤م ونُقل تلاميذها إلى مدرسة الموارنة بروما. وكانت وفاة الخوري نصر الله سنة ١٦٣٥م.

القس جبرائيل الصهيوني الاهدني

وُلد باهدن نحو سنة ١٥٧٧م من بيت الصهيوني أحد فروع أسرة كرم الشهيرة، وتلقّى العلوم بمدرسة المواردنة بروما، ونبغ وحاز قصبات السبق ونال مرتبة الملفان في اللاهوت، وركب إلى درجة القسوس في روما، وأُقيم أستاذاً للغتين. العربية والسريانية في مدرسة السابابنسا (الحكمة) الشهيرة بروما، وحاز من الشهرة ما جعل لويس الثالث عشر ملك فرنسا يدعوه سنة ١٦١٤م ليكون معلماً في المدرسة الملكية بباريس، ثم شرفه بلقب ترجمان ملكي. ولما همّ الأب ميخائيل لي جاي أن ينشر البوليكوتا (الأسفار المقدسة بعدة لغات) الباريسية وكل إليه تعريب النسخة العربية وضبطها وتنقيح النسخة السريانية ومعارضتها بنسخ عديدة، ثم ترجمة العربية والسريانية إلى اللاتينية، وعهد معه هذه المهمة إلى ابراهيم الحاقلي الماروني الشهير والخوري يوحنا الحصري الذي صير فيما بعد أسقفًا، وقد قدمنا ذكره وأنبأنا فالريانوس دي فلا فيني معلم العبرانية في مدرسة باريس في رسائل نشرها لانتقاد طبعة لي جاي أنّ العلامة الصهيوني كان قد أعدّ مقالة مسهبة في الترجمة العربية، ولا نعلم ما الذي منعه عن اشهارها، وقد فرغ لي جاي من طبعته هذه سنة ١٦٤٥م.

على أنّ والتن العلامة الانكليزي الذي عني بطبع البوليكوتا في لوندرة سنة ١٦٥٧م قد انتفع كثيراً بأتعاب الصهيوني ورفاقه المواردنة المذكورين. وهذا ما قاله والتن في مقدماته على طبعته المذكورة في حق الصهيوني «إنّ هذا الرجل العظيم بذل تعباً شاقاً وكثير الفائدة لكل من يرغبون في أن يتضلّعوا باللغات الشرقية والأسفار المقدسة. ومن لم يقرّر له بالفضل كان غامطاً الاحسان، فنحن نعترف بفضلته ونرى أنه يلزم الجميع أن يؤدوه شكراً لا ينقضي». وله أيضاً ترجمة كتاب الزبور من العربية إلى اللاتينية طبعه بروما سنة ١٦١٤م. وكتاب في نحو اللغة العربية طبع بباريس سنة ١٦١٦م. وترجمة جغرافية أبي عبد الله محمد الادريسي من العربية إلى اللاتينية طُبعت بباريس سنة ١٦١٩م ومقالة في بعض مدن الشرق ودين أهلها وعاداتهم وخصالهم عاونه على بعض هذه التأليف الخوري يوحنا الحصري المار ذكره، وطبعه بباريس سنة ١٦٢٥م بالعربية واللاتينية. وفي المكتبة

الماديشية نسخة من هذا الكتاب مخطوطة بيد الصهيوني نفسه سنة ١٦١٢م كما يظهر من الحاشية المعلقة على آخرها، قد ذكرها المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في هذه المكتبة. وروى أكثر ما رويناه من ترجمة الصهيوني هنا وقال إنه توفي بباريس سنة ١٦٤٨م وكذا ذكر وفاته دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان. انتهى.

عد ٦٩

العلامة ابراهيم الحاقلي

وُلد هذا العلامة ونشأ بقرية حاقل من عمل جبيل بلبنان وتلقّى العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ وفاق أقرانه وعلم العربية والسريانية أولاً بروما، وقد عهد إليه الأب لي جاي في طبع البوليكلوتا الباريسية بما عهد به إلى الصهيوني والحصري المار ذكرهما. ومن مؤلفاته ترجمة كتاب ابن الراهب المصري القبطي في التاريخ الشرقي والحقاه بترجمته مقالات مسهبة في تاريخ العرب وأنسابهم، وقد طبعه بباريس سنة ١٦٥١ ومنها ترجمته قصيدة عبد يشوع الصبواوي المشهورة في المؤلفين البيعيين إلى اللاتينية وشرحه لها وحواشيه عليها، طبع بروما سنة ١٦٥٣م وقد شرحها العلامة السمعاني بعده في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية، واستدرك على الحاقلي قوله في محال كثيرة. وقد شرح السمعاني أيضاً كتاب ابن الراهب المذكور وانتقد على الحاقلي في عدة مواضع. وللحاقلي أيضاً كتاب في نحو اللغة السريانية طبع بروما سنة ١٦٢٨م وترجمة الكتاب الخامس والسادس والسابع من تأليف ابولونيوس في الهندسة من العربية إلى اللاتينية اقترح عليه هذه الترجمة فردينوس الثاني دوق توسكانا. وله أيضاً مختصر في الفلسفة الشرقية طبع بباريس سنة ١٦٤١م وترجمة قوانين القديس انطونيوس الكبير ومواعظه وأجوبته من العربية إلى اللاتينية وطبع هذه الترجمة بباريس سنة ١٦٤٦م. وله ترجمة ديوان الحيوان للسيوطي إلى اللاتينية.

وللحاقلي أيضاً كتاب الانتصار لافتيشوس أي سعيد بن بطريق، ذلك أن السلداني ترجم كتاب سعيد هذا إلى اللاتينية، وادّعى في مقدمات ترجمته أنه

أثبت في كلامه على المراتب البيعية أنّ درجة القسوس والأساقفة واحدة ، وهذا من مزاعم لوتار وكلوين والسلداني من مشاييعهما ، فردّ الحاقلي زعم السلداني منتصراً لسعيد البطريك الاسكندري بكتاب انطوى على مئتين واثنين وأربعين صفحة مفنداً أدلة السلداني ومبيناً بشهادة الكتاب والتقليد الثابت في الكنيسة منذ نشأتها أنّ درجة الأساقفة غير درجة القسوس ، وهي تفوقها مقاماً وسلطة بموجب الوضع الألهي ، وإنّ كلام سعيد لا يؤخذ منه ما توهمه السلداني . وألحق بهذا الكتاب جزءاً آخر اشتمل على نحو من خمس مئة صفحة تكلم فيه على أصل كلمة بابا ورياسته مضاداً فيه السلداني المذكور . ومما قاله في اسم البابا نقلاً عن مؤلفين نصارى ومسلمين أنّ هذا الاسم اصطلاح عليه أولاً بطاركة الاسكندرية واستشهد في جملة شهوده أبا بكر العباسي : « في القسم الثاني من مقالته ضد النصارى » حيث قال : « فإنّ القسوس والعامّة لما سمعوا أساقفتهم يسمون البطريك أباً قالوا في نفوسهم : إذا كنّا نحن نسمي الأسقف أباً والأسقف يسمي البطريك أباً فيجب علينا أن نسمي البطريك بابا أي الأب أي الجد إذ كان أباً لأبينا . ثم لما سمعوا الأساقفة والبطاركة يسمون صاحب رومية أباً قالوا في أنفسهم إذا كنّا نحن نسمي البطريك أباً والبطريك يسمي صاحب رومية أباً فيجب علينا نحن أن نسمي صاحب رومية بابا ، فعرف صاحب رومية بهذا الاسم دون غيره إلى الآن عند أهل النصرانية جميعاً » . والأظهر أنّ هذا الاسم أخذ عن السريانية **ܐܒܐ ܡܪܝܬܐ** أي أبو الأب وهو الجد على أنّ اختصاص الأحرار الرومانيين به لم يكن بأمر بل كان من باب التغلب والاستحسان . وللحاقلي في آخر هذا المؤلّف ردّ على هوتنجارس في كلامه في تاريخ العرب .

وللحاقلي أيضاً ترجمة قوانين الجمع النيقوي المعروفة بالقوانين العربية لأنها أخذت عن كتب عربية ، فالحاقلي عارض هذه القوانين على ست نسخ عربية منها ، وترجمها إلى اللاتينية وأشهرها مطبوعة . فمن هذه القوانين باليونانية واللاتينية عشرون قانوناً ، لكن الشرقيين يعزون إلى الجمع المذكور أربعة وثمانين قانوناً وتتداولها أيدي الشرقيين أي الملكية والموارنة والقبط واليعاقبة والأحباش والنساطرة ، ومنها ثلاثة وسبعون قانوناً ترجمها ماروتا أسقف تكريت في أواخر القرن الرابع من اليونانية إلى السريانية كما روى عبد يشوع الصوباي في مختصر القوانين ، وأضاف إليها بعض المؤلفين العرب (لا نعلم من هم) أحد عشر قانوناً فصارت

أربعة وثمانين قانوناً. وقد دافع الحاقلي عن هذه القوانين في كتيّب أشهره وهو مثبت في مجموعة الجامع للاباي (مجلد ١١). وذكر مرهج بن نيرون الباني الماروني في كتابه افوليا (سلاح) الايمان وأثبتها الأب كونزالس اليسوعي في كتابه عصمة الأخبار الرومانيين، ولكن نبذها غيرهم من العلماء ولم يعتدوا نسبتها إلى المجمع النيقوي صحيحة.

وقد توفي الحاقلي بروما في ١٥ تموز سنة ١٦٦٤م، ونقلت كتبه إلى المكتبة الواتيكانية بعد وفاته وذكرها السمعاني في فهرست الكتب الذي علّقه على المجلد الأول من المكتبة الشرقية وعددها أربعة وستون كتاباً.

عد ٧٠

مرهج بن نيرون الباني

أما مرهج فولد بيان إحدى قرى جبة بشري ويسميه الغربيون فاستطوس ترجمة كلمة مرهج. وروى دي لاروك أنّ خاله ابراهيم الحاقلي المار ذكره أخذه إلى روما وتلقى العلوم في مدرسة الموارد بها، وحاز قصبات السبق وأقامه الكرسي الرسولي استاذاً للغة السريانية في مدرسة السابيانسا (الحكمة) الكلية في روما خلفاً لخاله ابراهيم الحاقلي. ثم صار قانونياً في كنيسة القديس اوسطاكيوس هناك ولم يشغله ذلك عن الانصباب على التأليف والتصنيف وتنقيح كتب طائفته البيعية والعناية بطبعها. ومن تأليفه كتابه في أصل الموارد ودينهم واسمهم وهو مشهور واستشهدنا به مرات في خلال تاريخنا هذا. وقد طبع بروما سنة ١٦٧٩م وله كتاب آخر واسمه بافوليا (أي سلاح) الايمان الكاثوليكي، وقد استشهدنا به أيضاً مرات وقد طبع بروما سنة ١٦٩٤م جمع به من كتب السريان والكلدان القديمة البيئات الراهنة على صحة الايمان الكاثوليكي خلافاً للبروتستانت، وقد عني بتنقيح الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، وطُبعت بمناظرته بالسريانية والعربية بأحرف كرشونية بروما سنة ١٧٠٣م، وأضاف إليها مقدمة كثيرة الفائدة دالة على فقاوته وطول باعه، وعاونه على تصحيح هذه الطبعة القس يوسف الباني الماروني مدرّس اللغتين السريانية والعربية في مدرسة نشر الايمان المقدس. وقد أخذت الطبعة السريانية عن نسخة كانت في مدرسة الموارد بروما مرسلّة من بطريركهم إلى البابا غريغوريوس

الثالث عشر (لم يذكر مرهج في مقدماته اسم البطريك مرسل هذه النسخة ، ويلزم أن يكون ميخائيل الرزي أو أخوه سركييس الرزي فهما كانا في أيام البابا المذكور) وهي الترجمة السريانية المعروفة بالبيسطة التي استعملتها طائفتنا من أقدم الأيام . وأما العربية فكان الأب ميخائيل المطوشي قد أتى بها من جزيرة قبرص ، وكانت أكثر تهذيباً وضبطاً من سائر النسخ التي عورضت بها ، ولكنها لا تختلف عنها حتى يصح القول أنّ هذه العربية ترجمت عن اليونانية ولا مزية في أنها عن السريانية ، وتقرب من النسخة التي هذبها المطران سركييس الرزي وطُبعت مع اللاتينية العامية سنة ١٦٧١م بروما ، وتختلف كثيراً عن العربية المطبوعة في البوليكلوتا كما تأكدت بمعارضتي هذه النسخ لدن وجودي في روما . وعن طبعة الأب مرهج هذه أخذ المطران جرمانوس فرحات النسخة التي عرّبها والمستعملة الآن في طائفتنا ، ولدى كتابتي تفسير الانجيل زدتها مطابقة للسريانية وأوعزت إلى الأب يوسف العلم لما كان رئيس دير الكرم للمرسلين ، فصنع كذلك في كتابه تفسير رسائل القديس بولس الرسول وباقي الرسل .

وروى دي لاروك (في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان صفحة ١٢٩) إنه كان بينه وبين مرهج مكاتبة وأثنى على رسائله وأنه كتب إليه في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠١م أنه كان مشغولاً بطبع العهد الجديد بالسريانية والعربية وقد أنجز طبعه فيما بعد . وإنه توفي سنة ١٧١١م وعمره نحو ثمانين سنة مشهوراً بتقواه ومهارته بالعلوم الشرقية وأنه يرغب في أن يكون كاهناً اتضاعاً بل كان شماساً وقانونياً في كنيسة ... (ترك اسم الكنيسة بياضاً ونعلم أنها كنيسة القديس اوسطاكايوس روما كما مرّ) ، ونرى مرهج في عنوانات كتبه لم يصف نفسه بكاهن أو قس . ولكن رأينا الدويهي يقول في تاريخ سنة ١٦٥٦م : « دخل إليه (أي إلى البطريك يوحنا الصفراوي) القس مرهج بن نيرون فوجده ملقى على الأرض والنور ينبعث من وجهه » ولا نعلم أصحاب الترجمة أراد أم غيره يسمى باسمه فبين سنة ١٦٥٦م التي كان فيها ذلك وسنة ١٧١١م التي توفي صاحب الترجمة فيها خمس وخمسون سنة أبقى مرهج كل هذه المدة كاهناً ولا عجب إذا كان عاش ثمانين سنة وكان ارتقاؤه إلى الكهنوت وعمره خمس وعشرون سنة . انتهى .

مشاهير آخرون بالغيرة والنسك

إنّ من اشتهروا بالغيرة والنسك لجديرون بالذكر كالعلماء فهم أصحاب الفلسفة الروحية الحقّة، ومن هؤلاء من الموارنة في القرن السابع عشر انطونيوس الصهيوني الاهدني، والذي نعلمه من أمره أنه تلقى العلوم في مدرسة الموارنة بروما كما روى المطران اسطفانوس عواد السمعاني (في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٥١) ثم اتخذ الطريقة الرهبانية وركب إلى درجة الكهنوت بل صار رئيس كهنة اوبرديوط لأنّ المطران اسطفانوس وصفه بكلمة رئيس كهنة في ترجمة كلامه الذي وضعه على الكتاب الآتي ذكره وهو كتاب الأنجيل ورسائل بولس الرسول وباقي أسفار العهد الجديد حتى رؤيا يوحنا. وقد نسخ بالعرية والأحرف الكرثونية نسبةً إلى رجل اسمه كرثون من الجزيرة، كان أول من كتب العرية بهذه الأحرف السريانية فأخذ النصارى يكتبون الأسفار المقدّسة بهذه الطريقة ليخفوا أسرار دينهم عن المسلمين العرب، هذا ما ذهب إليه الصهيوني ومرهج الباني والمطران اسطفانوس عواد في كتابه المذكور. وكان هذا الكتاب في جملة الكتب التي أخذت عنها طبعة أسفار العهد الجديد التي عني بها مرهج الباني المذكور سنة ١٧٠٣م. وكان انطونيوس الصهيوني نسخه قبل تسعين سنة بأمر البابا بولس الخامس ويوحنا مخلوف بطريك الموارنة عن كتب كانت بمدرسة الموارنة كما هو بيّن من الدليل الذي علّقه انطونيوس المذكور على آخر هذا الكتاب وهو: «في سنة ١٦١١م في السادس والعشرين من حزيران كان النجاز من نسخ هذا الكتاب في أيام آبائنا بولس الخامس الحبر الروماني الكلي الطوبى والبار يوحنا (مخلوف) الاهدني البطريك الانطاكي الذي كرسه بلبنان وتمتد سلطته الروحية إلى سورية كلها والامصار القاصية، وهو مشتمل أسفار العهد الجديد أي الأنجيل... بيد الحقيّر انطونيوس بن اوفيمياني (كذا) الصهيوني رئيس الكهنة، والراهب من اهدن بجبل لبنان السرياني الماروني الذي كتب بأمر الرؤساء فصول الأنجيل الأربعة وسائر أسفار العهد الجديد بحسب تقسيمها وعددها في النسخة العامية الرومانية آخذاً ايها عن ثلاث نسخ كانت في مدرسة الموارنة بروما. وقد دوّن هذا المجلد السيد الشريف يوحنا راتموندوس» المشهور بمعرفة اللغات الشرقية.

وقد نسخ انطونيوس الصهيووني القسم الأول من فلسفة السريان المشتمل على أربعة كتب وهي كتاب الایساغوجي لبرفيریوس وثلاثة كتب من تألیف أرسطو الفلسفية . وهذه الكتب ترجمها حنین بن اسحق السرياني الطيب من اليونانية إلى السريانية ، والكتاب الذي نسخه الصهيووني هو في المكتبة الماديشية في عدد ١٧٦ وصفحاته ٣٥٠ صفحة . ونسخ أيضاً القسم الثاني من فلسفة السريان وهو يشتمل على تسع مقالات فلسفية لأرسطو وهو لحنين بن اسحق أيضاً ، ونسخه الصهيووني في عدد ١٧٧ من المكتبة المذكورة وعدد صفحاته ٢٠٨ . وله أيضاً نسخ القسم الثالث من فلسفة السريان لحنين المذكور أيضاً وهو في عدد ١٧٨ من المكتبة المذكورة منظوياً على ٢٠٠ صفحة . وله أيضاً نسخ القسم الرابع من هذه الفلسفة لحنين في الفصاحة والشعر عدده في المكتبة المذكورة ١٧٩ وصفحاته ٣٩٥ . وهذه الكتب الأربعة بالسريانية . وفي هذه المكتبة أيضاً الكتاب ٢٧٤ مقالة في الحساب والجبر بالعربية لأبي عبد الله أحمد شهاب الدين بن أبي جعفر (الذي كان في أواخر القرن الرابع عشر) ، ومقالة في الخطوط الهندسية لأحمد بن علي . والمقالتان بخط انطونيوس الصهيووني . وهذا الكتاب يشتمل على ٢٤١ صفحة . فهذا ما علمناه من ترجمة هذا العالم العامل .

وقد ذكر الدويهي في تاريخه عدة من أصحاب الفضل والنسك ، فمنهم القس يعقوب الدويهي رئيس دير مار يعقوب باهدن ، وقال إنه كان ورعاً فاضلاً عني بيناء الدير المذكور وتعليم الأولاد ، وتوفي سنة ١٦١٦م . ومنهم الخوري ميخائيل الاهدني الذي أخذ طريقة الحبسا بمحبسة مار ميخائيل في وادي قزحيا التي بناها أولاً القس بركة ، ثم خلفه فيها القس موسى من اليمونة ، وبعده القس يعقوب من بلاد البترون ثم القس ميخائيل ثم القس يوحنا ، ثم القس ميخائيل ، ثم القس جبرائيل ثم الخوري ميخائيل المذكور ، وجميع هؤلاء من اهدن . وتوفي الخوري ميخائيل سنة ١٦١٧م وخلت المحبسة بعده من الحبسا .

ومنهم القس يوحنا ابن القس يوسف محاسب من غوسطا الذي اهتم سنة ١٦٢٨م بتجديد بناء دير مار شليطا مقبس بكسروان وهو أول الأديار المجددة في كسروان ، وكان أخوه القس سرکيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إلى مار شليطا المذكور . وتوفي القس يوحنا سنة ١٦٤٠م وقام بالرئاسة بعده أو في حياته ابن أخيه الخوري سرکيس . وسيأتي ذكره عند الكلام على هذا الدير .

ومنهم القس يوسف ابن القس اصاف عن عرامون الذي بنى كنيسة مار عبدا هرهريا في فتح كسروان، ثم كنيسة السيدة هناك. وليس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا وأختهم رفقا وسيأتي ذكرهم.

من هؤلاء خاصة مؤسسو الرهينة الحلبية اللبنانية وهم جبرائيل حوا وعبد الله بن عبد الأحد قرألي ويوسف بن البتّن، فهؤلاء ألهمهم الله أن ينشعوا رهبانية قانونية عامة فخرجوا من حلب سوية سنة ١٦٩٣م وساروا تَوّاً إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدّسة والتبرّك بها. ثم امتثلوا أمام السيد البطريرك اسطفانوس الدويهي في أول شباط سنة ١٦٩٤م وكاشفوه بعزمهم على اقامة رهبانية تستسير بقانون واحد ويرأسها رئيس عام واحد، ويكون لكل دير من أديارها رئيس خاضع لسُلطان الرئيس العام ويرتبط رهبانهم بنذور الطاعة والعفة والفقر الاختياري والاتضاع على اسم القديس انطونيوس أبي النساك، فشَرّ البطريرك بعزمهم وشكر لمساهم ولَبّى دعوتهم وأبقاهم عنده. وفي اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ١٦٩٥م ألبسهم الزي الرهباني في دير قنوبين على سبيل التجربة قبل ابرازهم النذور، وسلّم إليهم دير القديسة مورا حذاء اهدن ليصلحوا بناءه وقيموا به. ولحق بهم في آخر سنة ١٦٩٥م جبرائيل فرحات، وكان من عصبتهم بل زعيمهم. وجعلوا أحدهم جرائيل حوا رئيساً عليهم وشرعوا في انشاء هذه الرهبانية ودعوا إليها باشتهار قداستهم وفضائلهم، فأتمهم كثيرون للترهب معهم. ورقى البطريرك رئيسهم إلى درجة القسوس وأخذوا يجمعون لهم قانوناً من وصايا القديس انطونيوس وتلامذته، وأخذوا سنة ١٦٩٦م دير اليشاع النبي حذاء بشري وسكنه بعضهم ورأسوا عليه عبد الله قرألي بعد أن رقي إلى درجة القسوس. وعندما عقدوا مجمعهم العام سنة ١٦٩٩م انتخبوا القس عبدالله هذا رئيساً عاماً بدلاً من القس جبرائيل حوا، وثبتت البطريرك اسطفانوس الدويهي قانون رهبانيتهم سنة ١٧٠٠م وسنعود في تاريخ القرن الثامن عشر على ذكر هؤلاء الأفاضل.

وقد نُسك في لبنان في هذا القرن الحبيس فرنسيس كالوب دي شاستويل الفرنسي، وذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٢م حين قدم إلى لبنان، وفي سنة ١٦٤٣م حيث توفاه الله لرحمته. وروى دي لاروك ترجمته مطوّلة في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان من صفحة ١٥٢ إلى صفحة ٢٦٠ فلخصّ ترجمته عنه بايجاز. فقد وُلد باكس من فرنسة في ١٩ آب سنة ١٥٨٨م وظهرت عليه

امارات التقوى منذ حدثته، ودرس من جملة علومه اللغة العبرانية وأتقنها وعلّق ملاحظات على النسخة السامرية من التوراة، وأرسلت هذه النسخة وملاحظاته إلى جبرائيل الصهيوني الماروني لتعلّق في البوليكلوتا الباريسية المتقدّم ذكرها. وكان هائماً بمطالعة الأسفار المقدّسة، علامة بتفسيرها، فقصد أن يعتزل بفلسطين بعيداً عن الناس ناسكاً متكاملاً بعلم الأسفار المقدّسة. واتفق أنّ سفير فرنسة بالآستانة كان مسافراً إليها فسافرا معاً من مرسيليا في ٢٠ تموز سنة ١٦٣١م فأقام فرنسيس مدة في الآستانة مجاناً الناس. ومع ذلك ظهر فضله وعلمه وعرف اليهود بمهارته بلغتهم العبرانية وتضلعه بمعرفة الأسفار المقدّسة فأكثرُوا من التردد إليه والاعجاب به، وأهدى أحدهم وكان أعلمهم إلى الايمان القويم وأرسله إلى فرنسة موصياً أخاه به. ونما عرف فضله وعظم اجلال الناس له من كل طبقة وملة فتعمد الخروج من الآستانة فسافر منها في ٢٠ تموز سنة ١٦٣٢م وبلغ إلى صيدا وعزم أن يتنسك بلبنان فسار إلى بيروت ومنها إلى لبنان فبلغ إلى حصرون في ١٥ ايلول تلك السنة، ولبس زي الموارنة وسار من حصرون إلى اهدن ليستشير بأمره أسقف هذا البلد الذي كان حينئذ جرجس عميرة، فقبله بالترحاب وأمسكه عنده أربعين يوماً، وكان يودّ لو بقي دائماً عنده، لكنّه أيقن أنّ الله يدعوه للانفراد عن العالم. وكان البطريك والأساقفة حتى الأمير فخر الدين قد أرسلوا يترحبون به، فمضى يزورهم مبتدئاً بالأمير فخر الدين ثم البطريك والأساقفة وقابله الجميع بالاجلال والاحتفاء ولا سيما البطريك يوحنا مخلوف الذي أمسكه عنده أياماً، وكاشفه فرنسيس بعزمه على الانفراد عن العالم للتوبة والنسك وسأله أن يقبله في عداد أبنائه، فعجب البطريك به ووطّد عزمه وباركه فانصرف من عنده يزور الأرز، وعاد إلى اهدن التي فضّل الإقامة بها ليتعلّم اللغة السريانية ليطالع الأسفار المقدّسة بها، وكان باهدن حينئذ كاهن فاضل من رهبان قزحيا اسمه القس الياس اعتزل عن الناس في محل قريب من اهدن، فأثر فرنسيس السكنى بالقرب إليه في دير مار يعقوب المنقور بالصخر وعزم أن لا يخرج إلّا لضرورة قصوى. وعاش هناك عيشاً قشفاً صارماً صارفاً أوقاته بالتأمل والصلوة والمطالعات الروحية مانعاً نفسه من أكل اللحم وشرب الخمر مكثراً الصوم إلى الساعة الرابعة بعد الظهر مقتنعاً يوم الأربعاء والجمعة والسبت من كل الصوم بالخبز والماء لا غير، ينام قليلاً (إذا اضطّر إلى الراحة) على فراش خشن. ولما كانت الحملة على فخر الدين كما مرّ وفترّ سكان القرى اضطّر فرنسيس أن يفترّ أيضاً مع القس الياس المذكور وأن يختبئ في المغاور

والكهوف ويعانينا مشاق الجوع والعطش . ولما استكن عاصف القلق في البلاد عاد إلى نسكه وتقشفاته ، وقصده بعض التجار الافرنج وأرادوا أن يدفعوا له مالاً يستعين به على معاشه فلم يقبل شيئاً . وكانت مطالعته لأسفار العهد القديم بالعبرانية ولأسفار العهد الجديد باليونانية والسريانية التي تعلمها . ولما صير القس الياس مطراناً على اهدن (هو الذي ذكرناه في جملة الأساقفة وقتلنا أنه من عائلة الصراصرة) وسكن في دير مار سركيس اهدن أسكنه معه واستمر عاكفاً على اماتاته وصلواته ثم انتقل المطران من اهدن فلم يشأ الحبس أن يبرح مخدعه في الدير إلى أن أتى الأب شالستينوس رئيس الكرملين في لبنان فأقنعه أن يترك هذا الدير ويأتي فيسكن معه في دير مار اليشاع ، فأتى ولكن لم يشأ أن يغير شيئاً من عيشته النسكية وصلواته وتأملاته حتى كان الرهبان يتعجبون كيف يمكن شخصاً ربي بالتنعم أن يعيش مثل هذه العيشة الخشنة . ومرض أخيراً فتحمل أوجاعه بالصبر الجميل والهشاشة والتسليم لمشيئة الله والاشتياق إلى ملاقة ربه الذي نقله إلى الحياة الخالدة مع النساك المجاهدين في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م ليلة عيد العنصرة ، ودُفن بدير مار اليشاع المذكور . وذكر دي لاروك أنّ الله صنع بواسطته آيات كثيرة في حياته وبعد وفاته .

والذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّه استحبس أولاً بدير السيدة بحوقا ثم بدير مار يعقوب الأحباش ، ثم بدير مار سركيس على رأس النهر في رئاسة الأسقف الياس . ولما سكن هذا الأسقف في اهدن انتقل الحبس إلى دير مار اليشاع في بشري وانتقل إلى الراحة التي لا زوال لها . وكان عبدة صالحة لأهل البلاد وبلغ أسمى المراتب بالورع والصوم والسهرة وتلاوة الكتب وفي قمع جسده وتجرده عن العالم وتعلقه بالإلهيات حتى صدر منه معجزات وسبق فأنبأ بمزروعات . انتهى .

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

عد ٧٢

الأديار

من الأديار التي جددتها أو أنشأها الموارنة في هذا القرن دير مار شليطا مقبس بكسروان ، والظاهر من عبارة الدويهي أنّ هذا الدير لم يكن حينئذٍ أول انشائه لأنه قال بتاريخ سنة ١٦٢٨م: « اهتم القس يوحنا ابن القس يوسف المدعو المحاسب من قرية غوسطا بتجديد بناء دير مار شليطا في أرض مقبس ببلاد كسروان وصار أول الأديار التي أنشئت في تلك البلاد » .

وكان أخوه القس سركيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إليه . وقال في تاريخ سنة ١٦٧٢م عندما سقطت كنيسة دير ما شليطا بمقبس جددتها الخوري سركيس على يد البنا القس جرجس الأميوني الماروني ، وفي جانبها من جهة الشمال بنينا (يتكلم الدويهي عن نفسه) داراً لسكنى البطارقة إذا توجهوا إلى تلك الناحية . وفي المشرق نقلاً عن رسالة كتبها الخوري يعقوب عواد الذي صير بعداً بطريركاً أنّ جد بيت المحاسب المسمى باسيل من ميناء طرابلس رحل مع أولاده إلى ساحل علما ثم إلى غوسطا ، وإنّ أحد أولاد باسيل هذا المسمى سركيس ارتقى إلى درجة الكهنوت وكان خبيراً بالحساب فلقب محاسب ، ومن نسله الخوري يوسف وولده الخوري يوحنا الذي جدد بناء هذا الدير . وقد أنبأنا صاحب الرسالة المذكورة أنّه كان في المحل الذي بنى الدير فيه كنيسة قديمة اشتراها الخوري يوسف المذكور مع الأرض الكائنة فيها من أبي يوسف المقيم من غوسطا سنة ١٦١٥م ، ولا يعلم في

أَيَّ وقت بُنيت الكنيسة القديمة على اسم القديس شليطا ، وأما بناء الدير فقد نُقش تاريخه على عتبة باب الكنيسة الغربي هكذا: « بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد كمل عمار هذا الدير المبارك مار شليطا في أيام سيدنا البطريرك حنا (مخلوف) الانطاكي في تاريخ سنة ألف وستمائة وثمانية وعشرين مسيحية بيد المعلم نقولا الشامي. وكان المعتني الخوري المحاسب والخوري عطيا والخوري فرح والقرايا القرية غوسطا ودرعون وبطحا وعجلتون وعشقوت». وتوفي القس يوحنا في ٢١ تموز سنة ١٦٤٠م وترك رئاسة الدير لابن أخيه الخوري سركيس ، وكان القس حنا مزوجاً قبل أن يصير كاهناً وله ولد اسمه الشدياق الياس بنى كنيسة القديس سمعان العمودي في قرية غوسطا كما في إحدى نسخ تاريخ الدويهي لسنة ١٦٤٥م، حيث يقول اعتنى الشدياق ايلياس ابن القس حنا الحاسب مع أهل غوسطا وجددوا كنيسة مار سمعان . وكان دير مار شليطا لسكنى الرهبان والراهبات كما كان في بعض الأديار قبل رسم المجمع اللبناني بالفصل بين الرهبان والراهبات . وكان بجانبه مسكن للبطاركة (قبل أن يزيده الديهي). ومن سكنه منهم البطريرك جرجس السبعلي ، وتوفي فيه بالطاعون فلم يُدفن في الكنيسة بل خارجها ومدفنه قائم حتى الآن نُقش عليه تاريخ وفاته . وقد زاد البرديوط سركيس الرقوم هذا الدير أملاكاً وشهرة .

وأقام الدويهي فيه مدة فأنشأ فيه مكتبة فجعل الرهبان ينسخون كتباً ، وجمع غيرها وبقي إلى الآن قسم منها وقسم اغتالته أيدي الضياع . وتوفي سركيس البرديوط رئيس هذا الدير سنة ١٦٨١م وترك الرئاسة لابن أخيه القس يوحنا ، وكان في هذا الدير الأسقف يوحنا محاسب رقاہ الدويهي إلى أسقفية عرقا سنة ١٦٩٨م وأقام في هذا الدير وتوفي به سنة ١٧١٢م كما مرّ في الكلام على الأساقفة .

ومن هذه الأديار دير حراش ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٣م فقال اشترى الأسقف يوسف العاقوري (هو الذي صار فيما بعد بطريكاً) من الشيخ يوسف أبي حبيش أرض مار يوحنا حراش بخراج درعون بناحية كسروان، وأنشأ كنيسة جميلة على اسم السيدة العذراء وديراً جعله لسكنى الراهبات المنتسكات وبلغ عددهنّ إلى نحو ثلاثين راهبة، ورأس عليهنّ رفقة ابنة القس يوحنا المحاسب . وبعد وفاة هذه الرئيسة خلفتها في الرئاسة على هذا الدير ابنة أختها مريم ، وكتب

البطريك الدويهي إلى القس يوحنا رئيس دير مار شليطا وإليها رسالة لفصل خلاف كان بينهما تراها في «المشرق» (صفحة ٣٠٢ من السنة الخامسة). وفي سنة ١٦٤٤م عقد البطريك يوسف العاقوري مع أساقفته مجمعا في هذا الدير لاصلاح بعض العوائد البيعية. وسنأتي على ذكر هذا الجمع.

ومنها دير مار سركيس وباخوس في ريفون، وأول من أنشأه القس سليمان مبارك من غوسطا. وكان هذا الكاهن مزوجاً وله سبعة بنين، فبعد وفاة امرأته رغب هو وبنوه الاعتزال عن العالم في أحد الأديار فأتوا أولاً دير مار شليطا حيث أقاموا بعض سنين منضوين إلى رهبان هذا الدير، ثم انفصلوا عنهم وأتوا إلى ريفون سنة ١٦٥٥م فأنشأوا الدير القديم على خربة معبد كانت هناك، وقضوا حياتهم فيه مثابرين على النسك والعمل بما يعود عليه بالنفع إلى أن توفي القس سليمان سنة ١٧١٣م كما يظهر من الخط المنقوش على ضريحه في الدير المذكور. ومن أبنائه المطران يوسف مبارك الذي انتخب بطريكاً بعد تنزيل البطريك يعقوب عواد سنة ١٧١٠م، ثم حكم الكرسي الرسولي بارجاع البطريك يعقوب وأبطل انتخاب المطران يوسف إلى البطركية.

ومنها دير مار عبدا هريريا وقد ذكر الدويهي انشاءه فقال في تاريخ سنة ١٦٥٥م: «فيها اهتم القس يوسف ابن القس اصاف من قرية عرامون وبنى كنيسة مار عبدا هريريا في طرف فتوح جبيل ثم كنيسة السيدة قبوا، وليس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا ثم أختهم رفقا ثم أبوهم وأمهم بعد أن تتركوا حقوق الزواج بينهما برضاهما، وإذن مطران الأبرشية، وانقطعا عن العالم ووفقا كل ما يملكانه للدير راغبين في الفقر، وفي أن يكونوا جميعاً طائعين للقس يوسف إلى نهاية حياة كل منهم، وصاروا عبدة صالحة للناس باتخاذ الطريقة الرهبانية وبالسيرة الصالحة والعبادة والورع إلى نهاية عمرهم.

ومنها دير مار الياس النبي في غزير، بنى هناك الشيخ طريه بن حبيش كنيسة على اسم ايليا النبي في أسفل غزير، ووقف لها بعض العقار، ثم بنى حذاء الكنيسة بعض مساكن فصارت ديراً، وكان ذلك نحو سنة ١٦٦٥م. وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٣م رام المشائخ الحبشية أن يبيعوا للرهبان الكبوشيين كنيسة مار الياس التي بنوها في أسفل غزير فمنعناهم عن ذلك، ولكن سمحنا لهم

بأن يقيموا بها خمساً وعشرين سنة . وفي سنة ١٦٧٠م جدد القس يوسف اصاب المذکور آنفاً بناء دير سيدة الحقة ، وقيل إنّ هذا الدير ودير مار عبدا هريريا كانا مشتركين فحصل نزاع بين الخدام على حراثة الأملاك أفضى إلى فصل أحدهما عن الآخر برأي بطريك الطائفة وأساقفتها . وفي سنة ١٦٧٣م أنشأ المطران جبرائيل البلوزاوي دير السيدة في طاميش في جنوبي نهر الكلب ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ، ويظهر من خط كان منقوشاً على عتبة باب الدير القديمة أنّ الشيخ أبا نوفل الخازن وأولاده اعتنوا ببنائه وتعبد به القس عطاالله وتلميذه من غزير .

وفي سنة ١٦٨٢م أنشأ الشيخ سلهب الحاقلاني دير السيدة بلوزيه في خراج زوق مصبح وجعله لسكنى الرهبان العباد ثم ترهب فيه ولده القس اغناطيوس . وتسلم الدير ثم تسلمه الرهبان الحلييون اللبنانيون سنة ١٧٠٧م وخصّ عند القسمة الرهبان الحليين .

وفي سنة ١٦٩٠م بنى القس خيرالله اسطفان دير عين ورقة في المحل المسمى المشرع ، ثم هطلت أمطار غزيرة فخربت ما بنى ، فجدد البناء في المحل الذي فيه الآن مدرسة عين ورقة الشهيرة ، وهذا الكاهن ارتقى فيما بعد إلى الأسقفية ودُعي جرجس . وفي سنة ١٦٩٦م جدد الخوري جرجس صفيير وأخوه ناضر بناء دير القديس مارون في الرومية بجانب القليعات بكسروان الذي صار فيما بعد مدرسة كما سيجيئ .

وفي سنة ١٦٩٠م جدد البطريك اسطفانوس الدويهي بناء دير مار سرقيس اهدن فإنه قال في خط عُثر عليه في بعض نسخ تاريخه ما ملخصه : « أنّ بناء دير مار سرقيس كان على قناطر ، ولما تزعزعت رممها ابن عمنا المطران بولس يمين ، ولما سكن في الدير ابن أختينا الخوري ميخائيل ردم قناطره ثم تداعى عماره فلم يسكنه أحد مدة ، فدُثر فوضعنا يدنا عليه وأزلنا القناطر كلها وأقمنا حائطاً متيناً في الوسط وعمرنا قبوين في الداخل أمام كل كنيسة قبو ، وبنينا فوقهما قلالي وأقمنا الحائط الغربي من الأرض فصاعداً . وكان البنّاؤون أربعة من رشميا والمتكلم عليهم القس جرجس الأميوني الماروني من قرية أميون بالكورة » فهذا القس كان من الملكية فصار كاثوليكياً مارونياً . وكذلك ذكر الدويهي في الخط المذكور أنه في سنة ١٦٩١م جدد بناء دير القديسة مورا في اهدن بعد أن خرب ، فإنّ أبا ميخائيل

انطونيوس من أصنون ترهب فعمرنا له هذا الدير ثم أعطى الدويهي هذا الدير
للرهبان الحلبيين عند تأسيسهم الرهبانية فزادوا في بنائه.

عد ٧٣

ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بُنيت في هذا القرن

كنيسة السيدة في قرية بشعلة قال فيها الدويهي في تاريخ سنة ١٦٢٦م فيها
القس يوسف ابن القس حبيب من قرية بشعلة نقض بناء كنيسة السيدة وعقدها
قبواً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م فيها القس يوحنا بن الشمالي أنشأ بقرية درعون
بيلاد كسروان كنيسة القديس انطونيوس قبواً، وأخوه القس فرح بنى كنيسة
السيدة. وكان الأخوان ورعين ولهما اليد الطولى في نسخ الكتب البيعية. وفيها
نقض الشيخ أبو عماد بن الجميل كنيسة القديس عبدا في بكفيا وعقدها قبواً بثلاثة
أسواق بمساعدة أهل بكفيا على يد البتاء يوحنا الشامي. وكذلك القس بشارة من
بيت الخراط اهتم بتوسيع كنيسة الملائكة بقرية بكفيا أيضاً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م: «اهتم البطريرك يوحنا مخلوف فجدد كنيسة
القديسة مورا بقرية كفر زينا» بقيت هذه الكنيسة على ما كانت عليه إلى أيامنا.
ومن بعض سنين نقض أهل القرية البناء القديم وبدلوه بالبناء الحالي، وقد مدَّيَّتهم
بعض الاسعاف لأنها كنيسة القرية التي ربيت فيها. وقال الدويهي في تاريخ هذه
السنة أيضاً إنَّ أهل كفرحاتا بالزاوية جدّدوا كنيستهم على اسم القدس ماما،
وكان هذا البطريرك منذ سنة ١٦٠٩م توجه إلى مجدل معوش بالعرقوب الشمالي
وأقام بها مدة، وبنى هناك كنيسة السيدة الباقية حتى الآن على هيئتها القديمة.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٦م: «وفيها انتهى ببناء كنيسة السيدة بالعربانية من
قرى المتن وكرسها المطران يوسف بن حليب العاقوري مطران صيدا في السادس من
تموز، وكان المهتم ببنائها الشيخ عون المكارى وأبو عطاالله ابن القبرصي والحاج
ميخائيل أبو نعمه. وقال في تاريخ سنة ١٦٣٨م إنَّ كنيسة الموارنة بأياس كانت قد
خربت وكنيستهم بحلب احترق سقفاً مع الدرايزين، وقدم السلطان إلى حلب

فاستأذنوه في بنائهما فأذن به ، فجدد الموارنة جزوع كنيسة ايليا النبي بحلب ، وعمر الأرمن كنيسة باياس لتكون مشتركة بين الملتين المارونية والأرمنية .

وقال في تاريخ سنة ١٦٤١م إنّ كنيسة الموارنة بالكفریات بقبرص كانت قد رعت بيد الروم لأنّ الروم أغروا الخوري جرجس خادماً وبعض أقبائمه فاتبعوا مذهب الروم وأخذوا الكنيسة وصار حينئذ الخوري بطرس خادماً لكفریات . وكان ذا نفوذ وغيره فاستفتى العلماء فأفتوا له أنّ الكنيسة لم تكن للخوري جرجس بل للموارنة ، فاستحصل خطباً شريفاً باعادتها إلى طائفته ، وفي هذه الأثناء بنى الشيخ أبو نوفل نادر الخازن كنيسة السيدة في عجلتون وعين جعلاً لكاهن يقدّس بها كل يوم .

وقال في تاريخ سنة ١٦٥٤م إنّ القس جرجس ابن القس رزق الله البجاني أنشأ بمساعدة أهل بيت شباب كنيسة القديس جرجس في بحدق بقاطع بيت شباب ، وقال في تاريخ سنة ١٦٧٣م إنّ الشيخ أبا فارس وأخاه الشيخ أبا ناضر ابني الحاج أبي منصور الاهدني كاتب الأمير أحمد بن معن نقضوا كنيسة السيدة في دير القمر وعقدوها قبواً . وقال في تاريخ سنة ١٦٨٥م عن نفسه جدّدنا كنيسة مار عبدا على نهر الكلب (الدير المعروف الآن بدير مار عبدا المشمر) بعد أن كانت قد خربت من زمان طويل ، وأنشأنا في جانبها داراً تابعة لدار ما شليطا بمقبس .

وفي سنة ١٦٨٩م تمّ بناركنيسة مار الياس بغوسطا أنشأها الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن بجانب الدار التي بناها لنفسه بالقرية المذكورة .

ذيل

المجمع الذي عقده البطريرك يوسف العاقوري

في دير حراش

عقد هذا المجمع البطريرك يوسف العاقوري في ٥ من كانون الأول سنة ١٦٤٤م في دير حراش ووُجدت نسخة منه في هذا الدير، ولكن سقط منها ورقة مشتملة على بعض الكلام في سري التوبة والأوخاريسيا، ومنه نسخة أخرى في دير الرهبان الموارنة بروما، وقد أخذنا ملخص قوانين هذا المجمع عن نسخة حراش إذ لم نعثر على غيرها، ونرى فيها بعض ما يخالف التهذيب المعمول به الآن متنبهاً لنا بما كان في تلك الأيام. وإليك ملخص قوانين هذا المجمع معربة عن النسخة المذكورة.

أولاً في المعمودية هي سرٌّ من أسرار الكنيسة السبعة ويلزم أن يكون التعميد في اليوم الثامن بعد المولد وإذا دعت ضرورة فبعد أربعين يوماً، ويكون غسل الطفل بعد تعميده حالاً. ٢ لا يؤخر التعميد لغيبة العراب أو لصنع حفلة أو تقديم هدايا. ٣ لا يُسمح أن يكون العراب من الهرطقة. ٤ لا يرشم الطفل (أي لا يُعمد دون تلاوة الصلوات التي في رتبة التعميد) إلا عند خطر الموت، وإذا لم يوجد حينئذ كاهن أو شماس فيحق لأي رجل أو امرأة كان أن يعمد بحيث يتلو الكاهن الكلمات الجوهرية وهو يسكب الماء على الطفل وهي: «أن أعمدك يا فلان أو يا فلانة بسم الآب والابن والروح القدس آمين» ومن عُمد كذلك لا يجوز إعادة صورة التعميد عليه بل تتلى عليه صلوات رتبة المعمودية ويُدهن بالميرون والزيت المقدس ويُغسل للحال، وإن حصلت ريبة في صحة تعميده السابق فيُعمد ثانية. بقول المَعْمَد: «إن كنتَ لست معمداً فأنا أعمدك يا فلان الخ». ٥ لا يُستعمل

في التعميد إلا الماء الطبيعي صرفاً بارداً أم سخناً خلياً من العكر . ٦ يلزم الكهنة المعمدين أن يدونوا بسجل مخصوص اسم من عُمد واسم أبيه وأمه وعرايه وزمان تعميده .

في التثبيت هو سر من أسرار الكنيسة السبعة وخادمه هو الأسقف ويعطي هذا السر من كان عمره خمس سنين فصاعداً ويلزم تدوين أسماء المثبتين كأسماء المعمدين .

في الاعتراف هو سر من أسرار الكنيسة السبعة وهنا الورقة الساقطة وهي تشتمل على القوانين المتعلقة بسر التوبة وسر الأوخارستيا وبعض القوانين المتعلقة بسر الزيجة إلى القانون السادس منها .

القانون السادس زواج أخوين بأختين وقطريب لقطريته (ريب لربيته) غير جائز إلا باذن السيد البطريرك (هذا مباح الآن) . ٧ كل من تعدى على خطيئة غيره أو استعان بحكام عالميين على ذلك أو رشاهم ومن يؤذن بهذا التعدي أو يأمر أو يرتضي به من أقربائها أو غيره فليكن ساقطاً بالحرم والكاهن الذي يكللهما فليكن محروماً (لطف الأيام هذا القانون) . ٨ كل من طلب أو أخذ رشوة من أهل العروس وأقربائه ليكن محروماً . ٩ لا يذهب العريس عند العروس بل يلزم الاكليل في بيت العريس . ١٠ كل من تزوج بابنة عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته أو بخالته امرأة أبيه أو بامراة عمه ومن أشبه كانت زيجته باطله والبطريرك يوضح بطلانها . ١١ من تزوج بامراة وماتت فلا يحل له أن يتزوج ببنت عمها أو بنت خالته . ١٢ إذا شذ احد الزوجين عن دينه أو ثبت على المرأة الفسق أو جن أحدهما أو طرأ عليه مرض مهما كان فالزواج ثابت ولا طلاق إلا بالممات . ١٣ يمنع عقد الزواج من اليوم الأول من كانون الأول إلى الغطاس ومن الأحد الأول في الصوم إلى الأحد الجديد ولا يحل الزواج إلا من نهار الاثنين بعده وصاعداً . ١٤ المهر يكون برضى أهل العريس والعروس . ١٥ القرابة من جهة الميرون لا تمنع الزواج إلا في الوجه الأول أعني بين القابل والمقبول وبين أبي المعمد وأمه وبين الذي يعمد . ١٦ يلزم أن يكون في المعمودية عزاب وعزابة . ١٧ لا تكن زيجة بين ابن العرابة والبنت التي قبلتها أمه (أي فليونتي لابني كما هي حرفية كلام الجمع وقد حصر الجمع اللبناني القرابة الروحية بين العرايين وبين

المعمود وأبويه ثم بين المعمد والمعمد وأبويه لا سوى) . ١٨ المعمد أو الراشم لا يحل له أن يتزوج أم المعمد أو المعمدة . ١٩ المعمد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعمد أو الراشم . ٢٠ أبر المعمد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعمد . ٢١ المعمد لا يحل له أن يتزوج بالبت التي عمدها . ومن تزوج خلافاً للقوانين المذكورة فُسخ عقد زواجه .

درجة الكهنوت القانون الأول الكهنوت سر من أسرار البيعة السبعة ، وكل من ضرب كاهناً أو شدياقاً أو راهباً أو أهانهم محروماً ولا يحلّه إلاّ البطريك . ٢ إذا قدّس كهنة جملة عن نفس ميت فالأولى أن يتشع كلّ منهم بأثواب التقديس ليفي الزامه بالقداس الذي أخذ حسنته (هذا القانون غير معمول به الآن ويكفي لباقي الكهنة أن يتشعوا بالمدركة والبطراشيل أو البطرشيل وحده . ٣ لا يجوز للكاهن أن يكون جانياً لمال الحكومة أو شيخاً لقرية أو يتقلّد فريضة من أحد ولا يجوز لأحد العامة أن يُكرمه على ذلك ومن خالف يؤدبه أسقفه . ٤ الرؤساء والكهنة يصير جنازهم وعليهم عدة التقديس كاملة ولا يكون دفنهم غير بالكتونة فقط . ٥ من تزوج بنتين واحدة بعدالأخرى أو تزوج بأرملة لا يصير كاهناً وكذلك من كان أعور أو مفلوجاً أو يقع في الهلّة أو ارتكب القتل عمداً . ٦ وكيل كرسي قنوبين يناط به تدبير أرزاقها دائماً وليس للبطريك أن يعزله إلاّ برأي المطارين . ٧ كل من صار مطراناً أو بطريكاً حرمت عليه المآكل المزفرة .

مسحة المرضى القانون الأول هي سر من أسرار البيعة ولا يُمسح المريض إلاّ عند خطر الموت . ٢ لا يتقاعدن أحد من الكهنة عن مسحة المريض المشرف على الموت لأنها سر ضروري لحماية نفس الميت من محاربة الشيطان . ٣ كل من مات محروماً بغير اعتراف لا يحل لأحد من الكهنة أن يجنزه ويدفنه في مقبرة مكرّسة . في الميراث القانون الأول الارث لا يكون إلاّ بعد وفاء الدين وحسنة القداسات وباقي ما يلزم لدفن الميت . ٢ إذا مات رجل عن امرأة ووارث تعطى المرأة أولاً نقدها والثلث من متروكاته أي ثلاثة قراريط من أربعة وعشرين قيراطاً .

قوانين أخرى غير ما تقدم

القانون الأول كل كاهن افرنجي عزف وناول جماعتنا الموارنة بغير أمر البطريرك يكون محروماً ، وكل ماروني اعترف وتناول عند الافرنج أو غيرهم يكون محروماً .
ليس لأحد من الرهبان أن ينتقل من موضع إلى آخر دون اذن السيد البطريرك ، لا يتعدى أحد من الكهنة على رعية غيره في الأمور الروحية فليس له أن يعرف أحداً بغير اذن خوري الرعية إلا في ساعات الموت لتعميد طفل أو حل مريض مشرف على الموت .

وصايا الكنيسة

القانون الأول لا يجوز لأحد تناول الأطعمة المزفرة يومي الأربعاء والجمعة إلا ما وقع منها في عيد الميلاد إلى عيد الغطاس ومن القيامة إلى عيد الصعود . ٢ عيد التجلي وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد انتقال العذراء إذا وقعت يوم اربعاء أو يوم جمعة توكل فيها المأكّل المزفرة . ٣ الصوم الكبير يصام إلى الساعة التاسعة كالعادة ويلزم سماع القداس إذا وُجد وإلا فتلزم الصلاة . ٤ يبدأ في صوم الميلاد من اليوم الخامس من كانون الأول ويصام إلى الظهر وإذا وقع بدؤه يوم الأحد فيبتدى في الصوم يوم الاثنين . ٥ يبتدى بقطاعة الرسل في اليوم الخامس عشر من حزيران وفي قطاعة السيدة من أول يوم من شهر آب وإذا وقع بدؤها يوم الأحد لا يصام . ٦ على كل مسيحي أن يحضر القداس أيام الآحاد والأعياد المأمورة بطالتها ، ومن أهمل ذلك أخطأ خطأ مميتاً رجلاً كان أو امرأة .

وهذه هي الأعياد الواجبة بطالتها تشرين الأول في ٢٨ منه عيد القديس سمعان القانوني ويهوذا الرسول . تشرين الثاني في أول يوم منه عيد جميع القديسين وفي ٣٠ منه عيد القديس اندراوس الرسول . كانون الأول في الواحد وعشرين منه عيد القديس توما الرسول وفي ٢٥ منه عيد ميلاد سيدنا يسوع المسيح وفي ٢٦ منه عيد السيدة والقديس اسطفانوس وفي ٢٧ منه عيد مار يوحنا الانجيلي . كانون الثاني في اليوم الأول منه عيد ختانة المسيح وفي السادس منه عيد

الغطاس . شباط في الثاني منه عيد دخول المسيح للهيكل وفي التاسع منه عيد مار مارون البطريرك . آذار في ١٩ منه عيد مار يوسف خطيب مريم وفي الخامس والعشرين منه عيد بشارة العذراء . أيار في أوله عيد فيلبس ويعقوب الرسولين . حزيران في الرابع والعشرين منه عيد ميلاد يوحنا المعمدان وفي ٢٩ منه عيد القديسين بطرس وبولس . تموز في الخامس والعشرين منه عيد يعقوب بن زبدي الرسول . آب في السادس منه عيد التجلي وفي الخامس عشر عيد انتقال العذراء وفي الرابع والعشرين عيد برتلماوس الرسول . أيلول في الثامن منه عيد ميلاد العذراء وفي الرابع عشر عيد ارتفاع الصليب وفي الحادي والعشرين عيد متى الرسول وفي التاسع والعشرين عيد ميخائيل رئيس الملائكة .

وأما الأعياد المنتقلة فهي عيد القيامة وثانيه ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة وثانيه ، وعيد الثلاث الأقدس في الأحد الذي بعد العنصرة ، وعيد جسد المسيح وهو في الخميس الثاني بعد العنصرة ، وعيد كنيسة المحل . هذه هي الأعياد اللازمة البطالة بها وحضور القداس وعلى الكهنة أن يشهروا في رعاياهم وجوب البطالة في هذه الأعياد ويجهتدوا في حفظ ذلك . انتهت أعمال هذا المجمع ولم نجد في نسخة حراش المذكورة اسم الأساقفة الذين وقّعوا عليه أو شهدوه بل قيل هناك أنه انتهى في اليوم الخامس من كانون الأول سنة ١٦٤٤م وعاد كل من المطارين إلى كرسية الكهنة والرهبان إلى محلاتهم .

المقالة الحادية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الأوّل

أعيانهم الدنيويون في هذا القرن

عد ٧٤

المشايع آل خازن وآل حبيش في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر من كانوا من آل خازن قناصل لدولة فرنسة في بيروت، وأنّ الشيخ حصن بن فياض الخازن كان في هذا المقام، وبعد وفاته صير ابنه الشيخ نوفل الخازن قنصلاً لفرنسة في بيروت وبقي في هذه القنصلية إلى أن عقد الجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م فكان الشيخ نوفل قنصل فرنسة في بيروت كاتباً فيه.

وبعد أن انتقلت الولاية على جبل لبنان من آل معن إلى آل شهاب في أواخر القرن السابع عشر كان مدبرو الأمراء الحاكمين من آل شهاب غالباً من الموارنة وأبقوا آل خازن على ولايتهم بكسروان وآل حبيش على ولايتهم بغزير وما يليها، ولما تولى الأمير يوسف علم الدين اليمني على لبنان بمساعي محمود باشا أبي هرموش كما مرّ واضطرّ الأمير حيدر موسى الشهابي الحاكم حينئذ أن يفزّ من وجهه سار أولاً إلى كسروان معتصماً بالمشايع آل خازن وآل حبيش ولما تقوى عليه

عسكر الأمير يوسف علم الدين ودخلوا غزير وأحرقوها ترك الأمير حيدر عياله في كسروان فخبأهم المشايخ آل خازن في بعض قراهم، وكانوا يقدمون خفية كل ما يلزم لنفقتهم ونفقة الأمير حيدر الذي اختبأ مع بعض خواصه في الهرمل، ثم لما سمعت نفوس أعيان البلاد ولاية الأمير يوسف علم الدين لجأ أعيان القيسية إلى الخازنيين ليكاتبوا الأمير حيدر شهاب المذكور أن يعود إلى البلاد فيناصروه جميعاً على اليمنية فحضر الأمير حيدر إلى المتن وكان معه الشيخ خازن الخازن وبعض أبناء عمّه وحضروا معه وقعة عنددارا المشهورة حيث انتصر القيسية على اليمنية وظفروا بهم ظفراً تاماً فأقرّ الأمير حيدر المشايخ على ولايتهم في كسروان وكتب لهم الأخ العزيز، وكان في المصطلحات في تلك الأيَّام أن يفرقوا بين طبقات الناس أن يكتبوا إليهم عزيزنا أو محبّتنا أو أعزّ الحبيين أو الأخ العزيز.

وفي ١٧٢٥م تولى الشيخ عبدالله بن فاضل الخازن ناحية عكار ولما كان راجعاً من دير قزحيا إلى كسروان التقاه نحو ثلاثين رجلاً من المشايخ الحمادية وأتباعهم وأرادوا إهانتته لأنّه تولّى الناحية المذكورة وهم يدّعون أنّ لهم حق الولاية عليها فعاونوه عليهم الرهبان فتملّص منهم. وشكا آل خازن الحمادية إلى والي طرابلس سليمان باشا العظم فأرسل عسكرياً فنكل بالحمادية، ولكن نهب عسكره بلاد جبيل والبترون (عن سجل الرهبة اللبنانية)، ولما اضطرّ البطريك يعقوب عواد أن يبارح كرسيه قنوين بسبب مناصرته للبطريك كيرلس تاناس كما مرّ وأن يرقى الخوري يوسف صالح الدويهي الأسقفية ويسلمه تدبير دير قنوين، كتب له صكاً بذلك ووقع عليه مع بعض أساقفته. وكتب له بعض آل خازن أيضاً وثيقة مشعرة برضاهم بهذه الوكالة ليتهيّبه المتأولة وغيرهم، ولما عقد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م شهدته كثيرون من آل خازن وآل حبيش وترى تواقعهم على آخره في النسخة المطبوعة حديثاً.

وفي سنة ١٧٥٠م لما اعتدى بنو منكر الشيعة على إقليم جزين وقتلوا رجلين من أصحاب الشيخ علي جنبلاط حشد الأمير ملحم الشهابي الرجال لكبت الشيعة المذكورين فتوجه مع الأمير الشيخ ميلان الخازن ببعض رجال كسروان وعند اشتداد القتال في جباع الخلاوة أغار الشيخ ميلان برجاله على برج هناك كان الشيعة قد اعتصموا به فأنخن فيهم وبدد شملهم فأكرمه الأمير وعظمت منزلته عنده. وفي سنة ١٧٧٠م لما افضت ولاية البلاد إلى الأمير يوسف الشهابي

وتزلف إليه المشايخ آل خازن ولي الشيخ رامج بن حيدر بن قيس الخازن على
لحفد وترتج ببلاد جبيل وجعلها اقطاعاً خاصاً به وبذريته وبقيت كذلك إلى أن
الغى النظام لبنان الاقطاعات فيه.

عد ٧٥

بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وأولاده

إننا نشق ذكر الأعيان بهذا الفصل بحسب زمان اشتهارهم وخدمتهم لولادة
البلاد. فبطرس الشدياق هو من سلالة رعد الحصريني جد المقدّم خاطر الحصريني
الذي تقدّم ذكره في هذا التاريخ وفهد والد بطرس الذي سمي الشدياق ارتحل من
حصرون إلى كسروان بأولاده وعائلته وأقاموا بعشقوت. وفي سنة ١٧١٥م دعا
الشيخ أبو شيان الخازن بطرس الشدياق بن فهد وعهد إليه بمحاسبة الأموال الأميرية
في ولايته بكسروان ثم جعله دهقاناً على عقاراته لما رأى فيه من الدراية والأمانة،
إلى أن توجّه الشيخ المذكور سنة ١٧٢٣م إلى دير القمر ومعه الشدياق بطرس
المذكور، فرأى الأمير حيدر الشهابي الوالي حينئذ ما رآه أبو شيان في بطرس
المذكور فطلبه منه وأقامه رئيساً لكتيبته وأحبّه لصدق خدمته وإخلاصه وجعله مديراً
له. ولما تولّى الأمير ملحم شهاب بعد والده الأمير حيدر أبقي الشدياق مديراً له
كما كان عند والده إلا أنه في سنة ١٧٢٧م تغيّر عليه لوشايات رفعها حساد
الشدياق إليه فوضعه في محرس منفرداً دون أن يكشف له سبب تغيّره عليه فعظم
الأمر على الشدياق حتى أخرجه عن دائرة رشده، واذ كان يوماً بالكنيف ضرب
بطنه بسكين فخرقه وأغمي عليه، ولما أبطأ كشفه الحارس فرآه مطروحاً على الأرض
وأعلم الأمير بذلك وأمر بإحضار طبيب عالجه فلم يشف، وكان مديراً للأمير حيدر
سبع سنين ولابنه الأمير ملحم ثماني سنين، وكان له ابنان ظاهر وخطار قبض الأمير
ملحم عليهما وعلى ابن أخيه منصور وضبط مالهم وخيلهم، ثم أمر بإطلاقهم
وارجاع بعض عقارهم، لكنّه وهب داري بطرس وابن أخيه منصور بعشقوت للشيخ
أبي صليبي مرعب الخازن، فارتحل منصور إلى حارة الحدث ببعض أقربائه فتوطنوا
وسكن ظاهر وخطار ابنا بطرس في بيروت.

وفي سنة ١٧٤١م سار منصور بأهله إلى بعلبك فخدم الأمير حيدر الحرفوش واستأجر منه أرضاً للزراعة، وقد قتل مصادفةً أحد أقربائه رجلاً متوالياً فطيب الأمير حيدر قلب منصور وأقربائه وأمر المتأولة أن لا يسوموهم ضراً ومن خالف أمره قتله، لمحبته لمنصور لاستقامته في تدبير أموره ولسعيه بالصلح بينه وبين الأمراء الشهابيين. وسنة ١٧٤٣م رجع منصور بأقربائه إلى حارة حدث بيروت، وسنة ١٧٥٧م أقامه الأمير ملحم الشهابي مديراً لابن أخيه الأمير قاسم عمر وأرسلهما إلى دار السلطنة يلتمسان للأمير ملحم ولاية جبل الشوف وكسروان، وللأمير قاسم ولاية بلاد جبيل. ولما عرف بذلك الأمير منصور الشهابي أمر بقطع الأشجار التي لمنصور الشدياق في الحازمية ونال الأمير قاسم ومنصور أمراً سامياً إلى والي دمشق ليجيوا الأمير إلى مطلوبة، لكن توفي والي دمشق قبل الإجابة فيمض الأمير قاسم من الفوز وصالح عمه الأمير منصوراً وعوّض منصور الشدياق عما تلف له أو تكلف بيوتاً وعقاراً في قب الياس وأبقاه في خدمته، فسعى بعض المشايخ بتغييره على منصور وقتله. وكان منصور مأذوناً له أن يفتح الكتب الواردة للأمير ففتح ذاك الكتاب ثم ختمه وأعادته إلى الرسول فدفعه إلى الأمير فلم يخف الأمير ما فيه على منصور وطيب قلبه، فقال له منصور لا تلقى خيراً عند عمك الأمير منصور ما دمت أنا في خدمتك، واستأذنه بأن يفارقه ويتوجه إلى بلاد بشاره، فأبى الأمير وألح منصور فرضي الأمير وأكرمه ودفع إليه كتاب توصاة إلى والي تلك البلاد، فارتحل منصور بأقربائه إلى قرية عين لبل فسكنها مدة ثم انتقل إلى رميش، وسنة ١٧٦٣م دعاه الأمير قاسم إليه فأتى إلى حارة الحدث وعاد إلى خدمة الأمير قاسم مديراً كما كان.

ومرض الأمير قاسم سنة ١٧٦٨م فجعل منصوراً وصياً على أولاده ودهقاناً لأملأكه، ثم استقال من الأمير منصور من هذه الوصاية سنة ١٧٧٠م فاستدعاه الأمير أفندي وأخوه الأمير سيد أحمد الشهابيان واتخذاه مديراً لحكومتها وبقي كذلك إلى أن فرّ الأمير سيد أحمد شهاب سنة ١٧٨٥م من وجه أخيه الأمير يوسف إلى حوران فسار منصور معه فأمر الأمير يوسف بقطع الأشجار التي له في الحازمية. وسنة ١٧٩٣م توفي منصور الشدياق بن جعفر وعمره سبع وستون سنة ودفن بحارة الحدث وله ثلاثة أولاد فارس ويوسف وسليمان.

أما فارس فاستدعاه الأمير يوسف الشهابي الوالي إلى خدمته سنة ١٧٨٦م وكان الشيخ سعد الحوري مديراً الأمير المذكور يحب فارساً كثيراً فأحبّه الأمير

يوسف ولما مرّ الأمير يوسف ببلاد بعلبك سنة ١٧٨٨م مطروداً من الأمير بشير قاسم الشهابي الذي كان قد أخذ الولاية أرسل الأمير جهجاه الحرفوش يقول للأمير يوسف تحوّل عن بلادي أو صليت عليك القتال، فارتبك الأمير يوسف بالجواب فقال فارس للأمير يوسف الجواب عندي. وشمّ الرسول وضربه بدبوس من حديد وقال له اذهب فقلّ لأميرك من أنت حتى تمنع الأمير يوسف عن المرور فهو يأمرك أن تقوم حالاً من بلاد بعلبك أو فاجأك برجاله. ولما بلغ الأمير جهجاه هذا الجواب فرّ هارباً إلى بلاد الشرق وظلّ الأمير يوسف سائراً إلى الزبداني ثم إلى حوران، وأمر فارس الشدياق أن يقيم بدمشق وكيلاً له، ولما وعد الجزار الأمير يوسف برّده إلى الولاية وحضر لديه إلى عكا كتب الأمير يوسف إلى فارس أن يلحقه إلى عكا فتوجّه ومعه خمسة عشر فارساً فأغار عليهم في الطريق عرب عنزه والسردية فقاتلهم قتالاً شديداً وقتل بعضهم لكنّهم استظفروا عليه أخيراً ورموه عن جواده إلى الأرض، فنثر لهم نقوداً ألهاهم بها وفرّ من بينهم إلى قعدان البعيش شيخهم مستجيراً به فأجاره على عادة العرب، وردّ له ولفرسانه كلّ ما سلب منهم، ولم يكن ورثة القتلى من العرب من مضرة نزيله. وسأله فارس أن يصحبه بمن يوصله إلى إقليم البلان فأصبحه بخمسين فارس، وعند وداعه قدّم له فارس سيفه وكان ثميناً، وسار متكرراً إلى عكا خوفاً من الأمير بشير. وسنة ١٧٩٠م لما حضر الشيخ غندور الخوري إلى عكا يسأل الجزار الولاية للأمير يوسف أنعم عليه بها وأمره أن يبقى الشيخ غندوراً رهناً عنده وأن يأخذ فارس الشدياق مدبراً له فكان كذلك. وفي سنة ١٧٩٨ دعا الأمراء أولاد الأمير يوسف فارساً بن منصور الشدياق لخدمتهم فأقام عندهم واستمرّ فارس في خدمتهم ثم خدمة الأمير بشير إلى أن توفي سنة ١٨١٧م.

عد ٧٦

الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور

إنّ أسرة الخوري تنسب إلى الخوري صالح من عائلة مبارك. ارتحل الخوري صالح المذكور من كسروان إلى قرية رشميا سنة ١٧٠٠م، ويقال إنّ الخوري عبدالله من هذه الأسرة كان مع الأمير حيدر الشهابي الوالي في وقعة عندارا سنة ١٧١١م،

وقبض على أميرين من اليمنية فأقطعه الأمير حيدر قرية رشميا ورفع عنها المال الأميري، وتعاقب الكهنة من هذه الأسرة واحدهم الخوري عبدالله ولد غندور، وغندور ولد الشيخ سعد، وسعد ولد الشيخ غندور اللذين نكتب ترجمتهما. فلما تولّى الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧٧١م اتخذ الشيخ سعداً ابن غندور مديراً له فأحرز ثقته وعظم اعتباره لدى الأمير المذكور ولدى ملته المارونية بل لدى الكرسي الرسولي كما سيأتي.

في تلك السنة اجتمع المشايخ آل حمادة ودهموا الأمير بشير حيدر الشهابي في العاقورة وهو يجبي الأموال الأميرية وعاونوه عليهم شيخا بشري واهدن وغيرهما من أهل البلاد، ولما علم الأمير يوسف بذلك أرسل مديّره الشيخ سعد بعسكر من قبل الجزار ومن رجال البلاد فأدرك الشيخ سعد المتأولة بقرية دير بعشتار فأغار عليهم وحاربهم من الظهر إلى المساء، فظفر بهم وفزّ الباقون مدحورين فتبعهم الشيخ سعد إلى القلمون وأهلك منهم نحو مائة رجل، وقبض على الشيخ أبي النصر حمادة. وفي سنة ١٧٨٣م رهن الأمير يوسف عند الجزار مديّره الشيخ سعد الخوري وأحضر ابنه الشيخ غندور سنة ١٧٨٤م وجعله مديراً له عوضاً عن أبيه. وسار الجزار إلى الحج فأخذ الشيخ سعد معه إلى دمشق فاعتراه مرض ولما عاد الجزار من الحج سأله أن يرتخص له بالعود إلى بلاده لمرضه فرخص له فحضر الشيخ سعد إلى جبيل ثم إلى زوق مصبح طلباً للتداوي عند جبور الجلدي الحلبي الماروني جدّ عائلة طبيب، فلم ينجح به العلاج فعاد إلى جبيل وتوفي بعيد ذلك سنة ١٧٨٥م وعمره ثلاث وستون سنة وقد رثاه المعلم الياس آده بأبيات مطلعها:

فلا ريب بعد السعد لا شيء فاخرّ وقد قرحت بالدمع منا الحاجز
والمصرع الأوّل في هذا البيت ختم به رثاءه وجعله تاريخاً لوفاته لكن مجموع حروف هذا المصرع بحساب الجمل سنة ١٧٨٦م.

وكان الشيخ سعد عالماً للملة المارونية وعضداً لها وكان في أيامه ابعاد البطريرك يوسف اسطفان إلى الكرمل بأمر البابا بيوس السادس بسبب الراهبة هندية، ورفع الشيخ سعد عرائض إلى الحبر الروماني وبعض كرادلة الكنيسة الرومانية مؤرخة في ١٥ آذار سنة ١٧٨٤م ملتصقاً بإرجاع البطريرك إلى كرسيه مبرئاً ساحته مما قذف به، وأوعز إلى أساقفة الملة ورؤساء الرهبانيات والمشايخ فاقتدوا به، وأرسل

الشيخ سعد الخوري يوسف التيان تلميذ مدرسة الموارنة برومة إلى البابا وأصحابه برسالتين من الأمير يوسف حاكم البلاد إحداهما إلى الحبر الروماني والثانية إلى مجمع نشر الإيمان مبرئاً البطريرك مما طعن عليه ومترجياً عوده إلى مقامه. وترى صور هذه الرسائل مأخوذة عن السجلات البطريركية في كتاب سلسلة بطارقة الموارنة الذي طبعه المعلم رشيد الشرتوني في سنة ١٩٠١م. وكتب أيضاً الشيخ سعد رسائل أخرى بهذا الصدد إلى الكردينال رئيس المجمع المقدس وإلى المنسنيور بورجيا كاتب المجمع وإلى الكردينال ديرنس وغيرهم. وترى نسخ هذه الرسائل في الكتاب المذكور مع صورة جواب البابا ييوس السادس للشيخ سعد الخوري حيث يفتحه بقوله: «إلى الإبن الحبيب والرجل الشريف الحبيب السلام والبركة الرسولية» حيث أفاض الكلام معه بما أخذ فيه على البطريرك، وأنه لما كان أقَرَّ بغلظه وعرف سوء تصرّفه أمر البابا بعوده إلى مقامه خاصة حباً بالطائفة المارونية لتشبهها الدائم بعري الإيمان الكاثوليكي. وتاريخ هذا الجواب ٢٨ أيلول سنة ١٧٨٤م. ولمّا توفي الشيخ سعد وبلغ خبر وفاته إلى رومة كتب الكردينال أنطونلي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس رسالة إلى البطريرك يوسف اسطفان يعزيه وطائفته فيها بهذه الخسارة العظيمة ويبين أمانيه بأن ابنه الشيخ غندور يخلفه بوجاهته وغيرته. وترى صورة هذا الجواب في الكتاب المذكور أيضاً. أمّا الشيخ غندور بن سعد فلم يكن أقل ذكاءً وغيره ووجاهة من أبيه وكان الأمير يوسف اتّخذ مدبراً له منذ رهن أباه عند الجزار كما مرّ، وقد أحسن الخدمة وتناهى بالاخلاص لخدمته وجدّ في السعي لراحة مواطنيه ونجاحهم، وقد أرسل البطريرك يوسف اسطفان بطريرك الموارنة يومئذ الخوري أنطون القيايالي البيروتي إلى باريس سائلاً الملك لويس السادس عشر أن ينعم بقنصلية فرنسة على الشيخ غندور فتكرّم الملك عليه بها سنة ١٧٨٧م فكان قنصلاً لفرنسة ومدبراً للحكومة جبل لبنان. ويظهر أنّ الأمير يوسف كان قد كتب إلى ملك فرنسة يسأله أن ينعم على الشيخ غندور بالقنصلية وأن يواصل حمايته للموارنة كما يظهر من براءة الملك بإيلاء الشيخ غندور هذا المنصب المحفوظة في خزائن البطريركية وترى نسخة منها في كتاب المعلم رشيد المار ذكره في خزائن البطريركية أيضاً صورة رسالة كتبها الأميرال دي كاستريس الفرنسي إلى الأمير يوسف جواباً عن عريضة للملك بها يبيّن له سرور الملك برسالته ودوام حمايته للموارنة وترى صورة هذا الجواب أيضاً في كتاب المعلم رشيد المذكور.

وللشيخ غندور أيادي جزيلة على أهل لبنان ولاسيما أبناء ملته المارونية وفي جملة مساعيه النافعة لهذه الملة إغراؤه البطريك يوسف اسطفان على تحويل دير عين ورقة الذي كان أقرباؤه قد أنشأوه لسكنى الراهبات مدرسة إكليريكية عامّة للموارنة. وفي خزائن أوراق البطريكية المارونية رسالتان أنفذهما الشيخ غندور إلى البطريك يوسف اسطفان يرجوه ويحثّه فيهما على جعل هذا الدير مدرسة للموارنة. ويظهر أنّ البطريك تردّد في الإجابة عندما وردت عليه الرسالة الأولى فانشئ الشيخ غندور مبيناً له لزوم هذا الأمر ومنافعه الجمة وسهولة وضعه بالعمل لأنّ الدير خاص بعائلته. ومن جملة ما قاله في هذه الرسالة الثانية بحروفه: «ما هي الإفادة إذا راحوا ثمان راهبات من عين ورقة إلى السماء وكان إكليروس ينوف عن ثلاثة آلاف لا يحسنون قراءة الإنجيل». فقع البطريك وأقنع أقرباءه ودوّن صكاً مؤرخاً في ١٤ كانون الثاني سنة ١٧٨٩م بتحويل هذا الدير إلى مدرسة وترى صورة رسالتي الشيخ غندور هاتين بحروفهما في كتاب سلسلة بطاركة الموارنة المذكور على أنّ صكّ تحويل دير عين ورقة مدرسة الذي ذكر في الكتاب المذكور ليس هو الصك الذي دوّن بذلك متضمناً قانون المدرسة ونظامها إلى غير ذلك ولما عقد البطريك يوسف اسطفان بأمر البابا بيوس السادس مجمع عين شقيق سنة ١٧٨٧م كان الشيخ غندور حاضراً به لأنّ الخبر الأعظم كان قد أمر أن يحضره سعد الخوري والده ويكون مساعداً على تنفيذ الأوامر الرسولية. ولما كان سعد قد توفي فأقيم ابنه مقامه وكتب الشيخ غندور إلى مشايخ الموارنة أن يشخصوا إلى هذا المجمع بحسب أمر البابا ودعوة البطريك فلبى أكثرهم الدعوة ورفعوا إلى الشيخ غندور كتاباً يسألونه به أن تكون له العناية بأن يأمر هذا المجمع بإقامة المطارين عند السيّد البطريك في قنوين وبكركي ويمضون وقتاً بعد وقت لزيارة أبرشياتهم وسندوا ذلك إلى جملة اعتبارات فأمر هذا المجمع بذلك ولكن لم يحسن لدى الكرسي الرسولي أن يجيبهم إلى طلبهم بل أثار أن يقيم كل أسقف في أبرشيته كما رسم بالمجمع اللبناني. وسنأتي على ذكر هذا المجمع.

وقد سعى الشيخ غندور بطبع المجمع اللبناني فطبع الطبعة الأولى في دير القديس يوحنا بالشويعر، وقد ولاه الأمير يوسف على مجدل معوش ووادي الست وبحمدون وعين تراز مدّة، ولما ردّ الجزّار الأمير يوسف الشهابي إلى ولاية لبنان سنة ١٧٩٠م رهن عنده ولده الأمير حسين ومدبّره الشيخ غندور ولم يلبث الجزّار

أن أعاد الأمير بشير قاسم إلى الولاية فأخذ يشكو من أن دسائس الأمير يوسف تمنعه من إجراء الأحكام وجباية المال فأمر الجزار بشنق الأمير يوسف الذي كان باقياً في عكا وشنق مدبره الشيخ غندور كما مّر. وقيل إن الشيخ غندور لم يشنق بل مات خوفاً فكذا يزول مجد العالم.

عد ٧٧

المشايع آل الضاهر

أنبأنا العلامة البطريك الدويهي أن أصل هذه الأسرة من بيت الرز الذين كان منهم ثلاثة بطارقة وأنهم عندما دكت أهل إهدن منازل من اتبع اليعاقبة في بقوفا هاجر بيت الرز إلى كفرحورا بالزاوية في القرن السادس عشر وهم متشبثون بالإيمان القويم وما زال اعقابهم إلى اليوم حكماً على زاوية رشعين يقومون بمعاوضة الكرسي البطريكي بكل جهدهم كما يفعل الآن الشيخ أبو شديد ضاهر خليفة الشدياق أنطونيوس بن الرز . انتهى كلام الدويهي . وفي القرن الثامن عشر استمروا حكماً للزاوية كان يوليهم عليها والي طرابلس أو ولاية لبنان . وفي سنة ١٧٥٠م كتب لهم الأمير ملحم الشهابي الأخ العزيز كباقي مشايخ لبنان الكبار، وكان منهم الشيخ كنعان الظاهر وكان مشهوراً بشجاعته وإقدامه ونخوته . ويروون عن فراسته روايات غريبة وكانت بينه وبين بعض الطرابلسيين محاسدة وخصام فشكوه سنة ١٧٤١م إلى عبد الرحمان باشا والي طرابلس فقبض عليه وألقاه في السجن وعرض عليه أن يسلم فأبى وأكثر له من الوعد إذا طأوعه ومن الوعيد إذا خالفه فاستمر مجاهراً بإيمانه لا يحيله عنه حائل وتيقن أن الباشا مصمم على قتله فاحتال حتى اجتمع بالخورى ميخائيل من إهدن فاعترف عنده اعترافاً عاماً ويتر له الله أن يناوله القربان المقدس زاداً أخيراً وبعد ذلك أمر الباشا بقطع رأسه عند باب التبانى فنفذ الأمر والتقليد الذي ينقله الشيوخ أن الله صنع آيات كثيرة إلى من زاروا مدفنه وأن بعض النصارى قطعوا يده بعد مقتله ووضعوها في كنيسة العذراء المعروفة بسيدة الحارة في طرابلس فأجرى الله آيات لمن تبركوا بها ولا نعلم أهو كنعان ضاهر الوارد اسمه في جملة أعيان الموارنة الذين شهدوا الجمع اللبناني أم غيره . ويترجح عندنا أنه هو هو إن صح أن مقتله كان سنة ١٧٤١م . واستمر آل الظاهر على إقطاعهم الزاوية

يولي الأمراء الحاكمون واحداً منهم عليه إلى أن ألغى نظام لبنان الاقطاعات سنة ١٨٦١م.

عد ٧٨

المشايع آل الدحداح

إنّ هؤلاء المشايخ ينتسبون إلى جرجس الدحداح من العاقورة، وفي مبادئ هذا القرن الثامن عشر كان أحدهم الشيخ يوسف ابن الخوري جرجس ضليعاً في اللغة التركية حسن الخط بها وباللغة العربية، فاستخدمه الأمير حسين الحرفوش، ثم انتقل إلى خدمة الشيخ اسماعيل حمادة فوهبه بعض عقارات في عمل الفتوح فارتحل نحو سنة ١٧٠٥م إلى الكفور بالفتوح ثم إلى عرمون بكسروان. وتوفي يوسف المذكور سنة ١٧١٢م وكان ابنه موسى قد استخدمه الأمير منصور شهاب سنة ١٧٦١م، وبقي أخواه سليمان ومنصور يخدمان أولاد الشيخ اسماعيل حمادة المذكور كأبيهما، وعلم موسى ابنه نصيفاً وسلوماً اللغة التركية وأجاد نصيف الخط والانشاء. وفي سنة ١٧٦٣م اتفق موسى وأخوه منصور مع الشيخ سعد الخوري على طلب ولاية بلاد جبيل للأمير يوسف الشهابي وبدلاً ما بوسعهما من هذا القبيل. ولما نجح هذا المسعى وتولى الأمير يوسف بلاد جبيل والبترون استخدم الأمير يوسف ابني أخيهما سليمان وهما يوسف ونادر مع كتبة ديوانه وجعل ناصيف بن موسى جايياً للمال الأميري، واستحضر أخاه سلوماً من خدمة زوجة الأمير مراد منصور شهاب وعيّنه بخدمته. وفي سنة ١٧٧١م جعل الأمير يوسف عمل الفتوح عهداً لبني الدحداح ولما أرسل أخاه الأمير حيدرأ عاملاً على بلاد جبيل أرسل معه بعض المشايخ الدحداح، ولما حاصره أخوه الأمير سيد أحمد في قلعة جبيل نجده المشايخ برجال الفتوح فأنعم عليهم الأمير يوسف ببعض عقارات في ساحل بلاد جبيل. وفي سنة ١٧٨٠م توفي الشيخ منصور بن يوسف الدحداح بعرمون فأبقى الأمير يوسف ابنه يوحنا معزراً كأبيه. ولما تولى الأمير بشير الكبير البلاد سنة ١٧٩٠م وانهزم الأمير يوسف إلى نواحي دمشق كان مع الأمير يوسف بعض المشايخ الدحداح، ولما نزل إلى عكا وحجسه الجزار وحبس من كان معه من الدحداح وهم سلوم ويوسف وابراهيم فطلبهم الأمير بشير من الجزار وحبسهم في دير القمر، وطلب أحدهم

نصيلاً من أخيه الأمير حسن فانهزم بعياله إلى الضنيّة. ولمّا تولى الأمير حيدر والأمير قعدان سنة ١٧٩٢م أخرجوا المشايخ الدحاحة من السجن ثمّ تولّى أولاد الأمير يوسف فاستعملوا المشايخ المذكورين في الكتابة لهم. ثمّ تولى الأمير بشير الكبير سنة ١٧٩٥م ففرّ الشيخ سلوم الدحاح باخوته مع أولاد الأمير يوسف إلى جبيل فكتب إليه الأمير بشير يهدده بأنّه إذا لم يرجع باخوته من جبيل إلى خدمته يأمر بهدم مساكنهم بعرامون وبقطع أشجارهم. فرجع الشيخ سلوم إلى خدمة الأمير بشير واخوته إلى خدمة أخيه الأمير حسن. ولمّا تغلب أولاد الأمير يوسف على الأمير بشير سنة ١٧٩٩م وانهزم الأمير بشير وأخوه الأمير حسن إلى الحصن صاحبهما من آل الدحاح سلوم ويوسف وإبراهيم ومنصور ابن سلوم ثمّ توجه الأمير بشير إلى مصر لمقابلة الصدر الأعظم بواسطة الأميرال سميث الانكليزي فصحبه الشيخ سلوم وبقي يوسف وإبراهيم ومنصور ابن سلوم مع الأمير حسن في الحصن، وبقي بعض آل دحاح في خدمة الأمراء الشهابيين في القرن التاسع عشر كما ستري في تاريخه.

عد ٧٩

مشايخ جبة بشري وطردهم المتأولة منها

قد مرّ ذكر كثيرين من حكام جبة بشري في القرون السابقة كالشدياق خاطر الحصري ومقدّمي بشري والشيخ أبو كرم الحدّثي وأبو جبرائيل يوسف وأبو كرم بشاره جدّ آل كرم من إهدن وغرضنا الآن الكلام على من كان من مشايخ هذا العمل في القرن الثامن عشر. قد رأيت في ما مرّ أنّ المشايخ آل حمادة المتأولة تولوا مرات بلاد جبيل والبترون وجبة بشري وعزلوا أو طردوا من هذه الولاية، إلا أنّه في أواخر القرن السابع عشر أي سنة ١٦٩١م قرّر محمّد باشا والي طرابلس المشايخ الحمادية على إقطاعاتهم فتولى الشيخ حسين بن سرحال على بلاد البترون وابنه الشيخ اسماعيل على الكورة، والحاج موسى بن أحمد حمادة على الجبة، وأولاد حسن ديب على الضنيّة. ولكن في سنة ١٦٩٢م غيّر والي طرابلس من كان سالفه قد ولاهم فنصب في بلاد جبيل حسين آغا بن الحسامي، وفي بلاد البترون المقدّم

قديده ابن الشاعر، وفي الزاوية والجة الشيخ ميخائيل بن نحلوس من إهدن ابن
أخت كرم أبي بشاره وهو من قيل عنه في الأغاني الشعبية:

يحرس دينك يا نحلوس حميت الضيعة بالدبوس
جامع رشعين هديته وفي زغرتا دقيت ناقوس

إلى أن اغتال رجل متوالي اسمه ابن الشقراني الشيخ المذكور في الضنية
وعادت الولاية على الجبة إلى بيت أحمد حمادة، فكانت فتنة بينهم وبين الشيخ
عبد السلام ابن الشيخ اسماعيل حمادة فهزمهم عبد السلام إلى الهرمل سنة
١٧٠٣م، وأقام في الجبة نحو أربعين يوماً، وحضر إليه بعض وجوهها خيفة من
شره وفّر بعضهم، وفرض ضريبة على قرى الجبة ومن لم يدفع ما أصابه منها أخذ
رجال طاسات النساء وسلاح الرجال والمؤن. وكتب إلى طرابلس يلتمس الولاية
على الجبة فلم يعطها حينئذ. وفي سنة ١٧١٥م حكم جبة بشري أولاد أبي
محمّد عيسى وأولاد عمهم حسين المشطوب مشتركين ثمّ قسّموا البلاد مناصفة
فأخذ حسين من أبي محمّد عيسى بشري وقنوين وقيطو وبزعون، وأسعد ابن
أخيه موسى أخذ حصرون وكفر صغاب وبلوزا وتولا وكرمسي وراسكيفا، وأخذ
أولاد حسين المشطوب النصف الآخر وكانوا ثلاثة وهم أبو ناصيف وأبو حسين
وأبو قاسم فأخذ أبو ناصيف إهدن وحدها، وأبو حسين صالح أخذ عين طورين
ومزرعة التفاح وبنشعي وقنات وبرحليون وحماطورا وكفر صارون وبيت زعير في
بان، وأخذ أخوهما أبو قاسم دير قزحيا وحديث وبقاعكفرا، وكان في
حكومتهم شيء من العدل والإستقامة واقتنوا أملاكاً سموها بكاليك مزارا وسبعل
وسرعل ووطا الرامات وكفرفو وبان وحقا وثلث سرعل ودير نهرا والحدث وطرذا
وبقرقاشا ونيحا وبنهران ومترت. على أنّ أولاد هؤلاء المشايخ لم يسلكوا مسلك
آبائهم بل عكفوا على السلب والنهب والجور حتى القتل. ومن سنة ١٧٥٠ إلى
سنة ١٧٥٩م سلبوا راحة الأهلين ونكّدوا عيشتهم وقتلوا كثيرين. وكان حينئذ من
مشايخ القرى المشهورين الشيخ جرجس بولس من إهدن والشيخ عيسى الخوري
والشيخ حنا ضاهر كيروز من بشري والشيخ أبو سليمان عواد من حصرون
والشيخ أبو يوسف الياس من كفر صغاب والشيخ أبو خطار من عين طورين

والشيخ أبو ضاهر من حدشيت. فائتمر المشايخ المتأولة على قتلهم فقتلوا منهم الشيخ أبا ضاهر من حدشيت واغتالوا كثيرين من وجوه الأهلين، وحملتهم الجسارة على أن يرسلوا ليقبضوا على المطران يواكيم يمين من إهدن فلم يكن أهل الجبة ليطيقوا هذا الجور ولا ليتحملوا هذا الذل والعار فالتقى أهل إهدن رجال المتأولة الآتين للقبض على المطران، وأوقدوا عليهم النار وأشغلوا بهم السيوف وطردوهم وتتبعوا أثرهم إلى درج قنوين ونحييم الظلام بينهم. وفي النهار التالي غصت إهدن بالآتين إليها من باقي القرى وقدم المطران يواكيم بكيسة القديس جرجس بإهدن وحلف جميعهم يمين الأمانة وعدم الخيانة، وقبضوا على رجل متوالي واشتركوا في قتله جميعاً، وجعلوا مشايخ القرى المار ذكرهم مشايخ لهم وحكاماً عليهم مكان المشايخ المتأولة، وأبقوا قسمة قرى البلاد كما كانت في أيام المتأولة. ونزل هؤلاء المشايخ إلى طرابلس وكان واليها حينئذ عثمان باشا الكرجي فالتزموا أي استأجروا منه قرى بلادهم ودفعوا المال المرتب عليها وكان ذلك سنة ١٧٥٩م.

وأقام هؤلاء المشايخ ثلاثة بكباشية من البلاد وهم بشاره كرم من إهدن وأبو ضاهر الفرز من بشري وأبو الياس العفريت من حصرون وعينوا رجالاً من البلاد للمحافظة، وكان عثمان باشا والي طرابلس يشجعهم ويمدّهم بالمساعدات لكثرة ما كان المتأولة يقدمون عليه من التعديات في الزاوية وحدود طرابلس، وكان المشايخ يلتزمون قراهم منه ولذلك كانوا يسمونهم ملتزمي جبة بشري. وسنة ١٧٦١م هاجم المتأولة قرية بشري آتين من بعلبك إذ كان بعض المشايخ والأهلين في الساحل فدخلوها وقتلوا منها أبا ضاهر الفرز البكباشي، وجبور أصيلة، وأبا أنطونيوس سكر، وأبا رزق جعجع، وجبور رحمة ونهبوا القرية ثم رجع المتأولة ثانية من بلاد بعلبك وبلاد جبيل بنحو ألفي رجل فالتقاهم مشايخ الجبة في أرض بشري وانتشب القتال بين الفريقين نحو ثماني ساعات ودارت الدوائر على المتأولة فاندعروا وقتل منهم اثنا عشر قتيلاً. وفي سنة ١٧٦٣م سار عليهم والي طرابلس محمد باشا ابن عثمان باشا المذكور عسكرياً إلى جبة المنيطرة وقسمه إلى قسمين: أرسل فريقاً على طريق الجبل وكان معهم بشاره كرم البكباشي المذكور ورجاله، وفريقاً على طريق الساحل وكان معهم الشيخ ضاهر حاكم الزاوية ويوسف الشمر من كفرحاتا، فعسكر الجبل شتت المتأولة فهرب بعضهم إلى ناحية بعلبك وفرّ بعضهم في وادي

الميحال نحو الساحل فالتقاهم العسكر الآتي من الساحل فنكل بهم وأحرق مزارعهم التي كانت بساحل جبيل، ولكن بينما كان بشاره كرم عائداً مع رجاله تحت المغيرة كمن له بعض المتأولة فقتلوه وستة من رجاله.

وفي سنة ١٧٦٤م توجه مشايخ الجبة إلى الأمير منصور الشهابي فولاهم على بلادهم وأمدّهم أيضاً بمحافظين لردع المتأولة عن التعدي فلم يكن ذلك كافياً لكتبهم عن إقلاق أهل البلاد إلى أن كان ما ذكرناه في عدد ١٠٤٢م من أن المشايخ الحمادية دهموا الأمير بشير حيدر نائب الأمير يوسف الشهابي في بلاد جبيل وهو في العاقورة ومعه شيخا بشري واهدن فقاتلهم وظهر عليهم وأبعدهم عن العاقورة، ثم حضر لتجدته رجال الجبة وبلغ الخبر الأمير يوسف فوجه مديره الشيخ سعد الخوري بعسكر فأدركهم الشيخ سعد في دير بعشتار وأثنخ فيهم وظل يطردهم إلى القلمون وكان ذلك سنة ١٧٧٧م. وعلى هذا النحو استمر مشايخ الجبة المذكورون يحكمون بلادهم أي بيت كرم في إهدن وما يليها، وبيت حنا ضاهر وبيت عيسى الخوري في بشري وما يليها، وبيت أبي سليمان عواد في حصرون وما يليها، وبيت أبي يوسف الياس بكفر صغاب وما يليها، وبيت أبي خطار بعنطورين وما يليها، كما كانت القسمة في أيام المتأولة إلا بعض تغيرات. وكان حكام البلاد يولون من اختاروه من كل من هذه البيوت على إقطاعاتهم إلى أن ألغيت الإقطاعات بحكم نظام لبنان سنة ١٨٦١م ووضع المشايخ يدهم على بكاليك المتأولة واستمروا على ذلك إلى أن صالح المشايخ أهل القرى البكاليك على حقوقهم بها أو باعوه هذه الحقوق. انتهى عن كتاب تاريخ لأحد هؤلاء المشايخ أنطونيوس أبي خطار واعتماداً على التقليد المحفوظ في هذه البلاد.

عد ٨٠

المشايخ أبناء آده وغيرهم

أصل هذه الأسرة من آدة إحدى قرى بلاد جبيل وأول من عرفناه من وجوها هو الشيخ يوسف إده خدم الأمراء آل معن في آخر مديتهم ثم انتقل إلى خدمة الأمراء الشهابيين فنال حظوة لديهم ودعوه شيخاً وكان متزوجاً بامرأة من

أسرته. اسمها قمره ولها أخوان منصور وبطرس إذّه استدعاهما إليه وأدخلهما على الأمراء الشهابيين فسروا بذكائهما وحديثهما ورأوا فيهما ملامح النجابة والأمانة والفراسة واختصّوهما بخدمتهم واکرامهم، فخدم الشيخ منصور الأمير منصور الشهابي فأقامه على تدبير شؤونه وأملاكه، وجعل بطرس رئيس الشرط. ولما أفضت ولاية الجبل وبيروت إلى الأمير يوسف الشهابي في حياة عمّه الأمير منصور عظم أمر أبناء ادة وكان منصور معدوداً من أهل السيف والقلم، وأما أخوه بطرس فاشتهر بالسيف أكثر من اشتهاره بالقلم. ومن مساعيهما الحسنة بناء كنيسة القديس جرجس في بيروت للموارنة وكانت صغيرة فكبراهما بنفقتهما ونفقة مطران بيروت حينئذٍ وهو المطران يوسف فاضل، وقد كتب على مذهب هذه الكنيسة: قد تمّ بناء هذا الهيكل المبارك بسعي الشيخ منصور اده. والمعلوم أنه عاونه على ذلك أخوه الشيخ بطرس وابن أخته الشيخ الياس الآتي ذكره. ثمّ توفي الشيخ منصور ببيروت سنة ١٧٦٩م وقبره في جانب الكنيسة المذكورة مكتوب عليه: قد درج هنا الشهير ذكره والجليل قدره الشيخ منصور اده الجليل التقوى والعبادة الذي بعد أن تمّ سعي حياته البارة بعمل هذه الكنيسة وجميع أعمال البر محبوباً من الله والناس انتقل بغتة إلى مقر الراحة من هذا العالم بتحرّش، وبكاه جميع القبائل وذلك في اليوم الخامس في شهر شباط سنة ١٧٦٩م، وتوفي أخوه الشيخ بطرس ببيت شباب سنة ١٧٨٦م.

وولد ليوسف اده المذكور سنة ١٧٤١م ولد سماه الياس وبرع بالكتابة والإنشاء، ولما توفي أبوه سنة ١٧٦٦م خلفه في رتبته وكتب في ديوان الأمير يوسف ابن الأمير ملحم الشهابي إلى أن رآه أحد عمّال الجزّار عند الأمير يوسف فعجب من حذاقته وطلبه من الأمير يوسف فاستكتبه إلى سنة ١٧٨٦م، وغضب الجزار وقتل على ميخائيل وبطرس السكروج كاتبه ثمّ على يوسف مارون وقتله وعيّن مكانه لكتابته الياس اده فأقام في خدمته مدّة راضياً عنه، ثمّ سخط عليه وأرسل جنوداً استاقوه إليه من الكنيسة يريد قتله، على أنّه تمكّن بفصاحته وحذاقته أن يستعطفه إليه فرضي عنه وأهداه محبرة من فضة، لكن المعلم الياس ما برح واجساً منه خائفاً على نفسه. وبعد مدّة استأذنه بأن يحضر إلى بيروت ليأخذ عياله إلى عكا فأذن له بأن يغيب شهراً وكان ذلك سنة ١٧٨٧م فأخذ يفكر بوسيلة للنجاة من شراك هذا الظالم وعوّل على الفرار إلى حلب، فسار إليها واختبأ في

الدار الأسقفية لطائفته وأقام هناك عدّة سنين، فحنّ إلى وطنه وانتهر فرصة محاربة نابوليون بوناپارت لعكا فرجع إلى وطنه ووجد الجزائر ضبطت أملاكه في بيروت وفي جملتها أربعة دور عند باب الدركة، فتوجّه إلى الجبل إلى بيت الدين فأكرمه الأمير بشير الكبير الشهابي ولكنّه لم يأمن على نفسه هناك من سخط الجزائر، فتوطّن مدّة في جهات جبيل مستخفياً إلى وفاة الجزائر سنة ١٨٠٤م. وبعد وفاته استخدمه الأمير بشير المذكور لكنّه عاد إلى بيروت يسعى في استرجاع أملاكه وأملاك أقاربه التي ضبطها الجزائر فاسترجع الأملاك التي كانت في الجبل بعدالة الأمير بشير، وأقام حينئذ مدّة ببيروت إلى أن بلغه كتاب من مصطفى آغا متسلم طرابلس وكان من أصدقائه بأن الملك اسماعيل الكردي صاحب حمص وحماه يطلبه ليكون كاتباً عنده، فتوجّه إلى حمص فرحب به الملك اسماعيل وأعزّه ورأسه على كتبه ديوانه وأقام هناك خمس سنين. وفي سنة ١٨١٠م كانت نفرة بين يوسف باشا كنج والي دمشق والأمير بشير كادت تفضي إلى الحرب بينهما فأرسل الملك اسماعيل المعلم الياس اده ليسعى بالسلم بينهما ويسوي الخلاف فنجح بدرايته وأزال الخلاف، فكتب الأمير بشير إلى الملك اسماعيل يثني على مسعاه ويطلب منه المعلم الياس ليكون في ديوانه، فأرسله الملك اسماعيل وأكرم مثواه الأمير بشير وأعزّه. ولكن غلت مراجل الحسد في قلوب أعدائه ونظرائه فسعوا به لدى الأمير بشير فتغيّر عليه وأمره أن يسكن بعيدا هو وعياله مبقياً له جعلاً سنوياً، فسكن بعيدا قرير العين إلى أن توفي بها سنة ١٧٢٧م وعمره خمس وثمانون سنة، ودفن أمام الكنيسة ونقش على مدفنه تاريخ من نظم الشيخ ناصيف اليازجي الذي كان يتردد ويتخرّج عليه بآداب اللغة وهو:

حكم الاله بما ارتضى واختار للفردوس عبده
والحال قال مؤرخاً هذا رضى الياس اده

وكان الياس اده شاعراً وله كثير من النظم ولا يخلو نظمه من أغلاط نحوية وخلل في أوزانه الشعرية ويعذر بذلك لأنّه لم يتخرّج بمدرسة بل كان يهتدي إلى النظم بالفطرة السليمة والسليقة الطبيعية.

ومنه قصيدة يمدح بها المطران جبرائيل كنيذر مطران حلب الماروني مطلعها:

أمنذُ ملك قد جاء للبشر أم طالع السعد وافى داحض الكدر
أم ضوء صبح يلاشي ظلمة دهمت أم البشير أتى في أطيب الخبر
إلى أن قال:

خذها إليك وإن كانت مقصرة فشان مثلك ينفي العيب بالغذر
واستر فاني تركت الشعر من زمن لشاغل عنه غشى مقلة الفكر
ولما بلغ خبر وفاة الجزار إلى الأمير بشير وهو بحضرته فاقترح عليه أبياتاً
بديهة في موته فقال:

وافى السرور وصحّ ترجيح الأمل بهلاك عالج لا يعادله مثل
عين المآثم والمظالم والردى شرّ العوالم إن تفكر أو عمل
إلى أن قال:

لله درك يا منون لقد بدت منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الأنام وارخوه بمقصدي هلك الشقي وإلى جهنم قد رحل
ومن نظمه تاريخ لوفاة بطرس تابت:

لا تحزنوا يا آل قوم عشيرتي إنّ البقاء في الدهر ماضٍ فائت
الموت حتم للبرية شامل كل ابن أنثى لا محالة مائت
وكفى يقين حيث تاريخي روى إني على إيمان بطرس ثابت

وتاريخ لوفاة منصور امرأة بطرس المذكور:

إنّ التقية بالشرى قد أدرجت وسعت لتلك الغاية المأثوره

طوبى لنفس ارخوها ببرها ولجت لجنة ربّها منصورة
ومن نكته أنه مات صديق اسمه ابراهيم وله أخ اسمه يحيى لم يكن يحبه
فقال:

مات ابراهيم خلي آه وأسفي عليه
ليته قد كان يحيى ورحمة الله عليه

وله غير ذلك كثير طالع ترجمة الأب لويس شيخو له في المشرق لسنته الثانية
صفحة ٦٩٣ وصفحة ٧٣٦.

وقد نصّر الخوري ميخائيل فاضل البيروتي الأمير ابن الأمير حيدر الشهابي سنة
١٧٥٤م ثم نصّر البطريك يوسف اسطفان الأمير قاسم عمر شهاب وعائلته سنة
١٧٦٨م في غزير وقبلهم في الطائفة المارونية، ونصّر بعده الخوري أنطون القياسي
البيروتي من أولاد الأمير ملحم الأمير قاسم والأمير سيّد أحمد والأمير حيدر وتبعهم
غيرهم من آل شهاب وآل بلعم حتّى أصبح أكثر هؤلاء الأمراء المقيمين بلبنان في
آخر هذا القرن السابع عشر نصارى وموارنة، فلزم ذكرهم وحسبانهم من أعيان
الموارنة. وكان من هؤلاء الأعيان أيضاً سمعان البيطار وهو ابن يعقوب بن سمعان
البيطار الذي ارتحل من قرية جاج وسكن بكفيا ورزق هناك ثلاثة بنين توفي اثنان
منهم وبقي الثالث واسمه يعقوب، ولما انسلخت ولاية الخوازنة عن القاطع وسلمت
إلى الأمراء اللمعيين وكان يعقوب معزوزاً عند الشيخ أبي نوفل حصن الخازن رغب
إليه أن يقيم بقرية غوسطا، فقدم إليها من بكفيا وولد له فيها سمعان صاحب
الترجمة، وكان عاقلاً كريماً حسن الإدارة يعتمد عليه في مهام الحكومة، سلّمه
الأمير يوسف الشهابي عمل البترون وجعله شيخاً به، فاهتمّ بعمران هذه البلاد
ونجاح سكّانها وأظهر غيرة عظيمة على الأمور الدينية وأقنع الأمير يوسف حتى ملك
الرهبانية اللبنانية أديار حوب وكفيفان وميفوق وأنطوش جبيل وأنعم على رهبان دير
الحقلة بمزرعة مستيتا ودير مار دوميط البوار وكنيسة القديسة صوفيا هناك وبنى
كنيسة القديس بندليمون بقرية بجدرفل وحسن بناء كنيسة بسينا وساعد أهل
البترون على بناء كنيستهم. وتوفي في مدينة عكا سنة ١٧٩٤م ودفن في ساحة
كنيستها وخلفه ابنه يعقوب البيطار بمداركه واستقامته وحسن ديانتته وغيرته. وكان

في هذا القرن أيضاً من الأعيان جرجس باز وعبد الأحد باز مدبران لأولاد الأمير يوسف شهاب، لكن رأينا أن نرجئ أخبارهما إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن الثامن عشر

عد ٨١

البطريك جبرائيل البلوزاوي

ولد هذا البطريك بيلوزا إحدى قرى جبة بشري واتخذ الطريقة الرهبانية ورقاه البطريك جرجس البسبعلي إلى أسقفية حلب سنة ١٦٦٣م خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي الذي كان قد رقي إلى هذه الأسقفية سنة ١٦٥٠م، كما مرّ وأنشأ سنة ١٦٧٣م دير طاميش في جنوبي نهر الكلب وكان يسكنه متى عاد من زيارة أبرشيته الحلبية، ثم أنشأ سنة ١٧٠٠م دير مار اشعيا في أرض برمانا وأسّس فيه الرهبانية المعروفة الآن بالرهبانية الأنطونية أو رهبان مار اشعيا، ووضع لها قانوناً أثبته أولاً البطريك اسطفانوس الدويهي ثم أثبته الكرسي الرسولي سنة ١٧٤٠م وقلماً يختلف عن قانون الرهبان اللبنانيين، وبقي مديراً أبرشية حلب المارونية مدة إحدى وأربعين سنة، وأكثر من مقنتى الأملاك لدير طاميش حتى صار من أعظم الأديار حينئذ. ولما توفي البطريك اسطفانوس الدويهي في ٣ أيار سنة ١٧٠٤م أجمع أساقفة الملة المارونية على انتخابه بطريكاً في ١١ أيار من السنة المذكورة وثبته البابا أكليمنضوس الحادي عشر على يد قاصده الأب إيليا الكرملّي الافرنسي، وبقي بعد أن صار بطريكاً، كما كان أسقفاً عائشاً العيشة الرهبانية ناسكاً متقشفاً، على أنّ أيام بطريكته لم تكن طويلة لأنه توفي لرحمة الله في ٣١ من تشرين الأول سنة ١٧٠٥م، ودفن أمام معبد القديسة مارينا بقنوين.

ولم نجد أنه رقى إلى الأسقفية إلا ابن أخيه القس صافي البلوزاوي على أبرشية حلب في شهر تموز سنة ١٧٠٤م وسماه ميخائيل، وكان يسكن في دير طاميش حيث سكن عمه وهو أسقف، ثم إن المطران ميخائيل هذا تنزل لعجزه عن تدبير هذه الأبرشية وخلفه فيها سنة ١٧٢٥م القس جبرائيل فرحات الشهير ودعي جرمانوس وستأتي ترجمته.

عد ٨٢

البطريك يعقوب عواد الحصري

هو ابن الخوري يوحنا عواد من حصرون درس العلوم بمدرسة الموارنة برومة فرع فيها، ولما عاد إلى وطنه جعله البطريك أسطفانوس الدويهي كاتباً له لمهارته في تعاطي الأعمال البطريركية ولفصاحته في تدوين الرسائل وتخريجه في السياسة، قام بما عهد البطريك به إليه أحسن قيام، ولذلك رقا هذا البطريك إلى الأسقفية على مدينة طرابلس سنة ١٦٩٨م، ولما توفي البطريك جبرائيل البلوزاوي في ٣١ تشرين الأول سنة ١٧٠٥م اجتمع الأساقفة في ٥ تشرين الثاني من السنة المذكورة فانتخبوه بطريكاً وثبته البابا اكليمنضوس الحادي عشر على يد قاصده الأب فرديندوس الكرملي سنة ١٧٠٦م. على أن سلامة سريرة هذا البطريك وقلة تحذره أوقعته في عداوة كثيرين، واستمال أعداؤه وحساده أكثر مطارين الملة فعقدوا مجمعاً وحكموا عليه بالعزل خلافاً للقوانين، واستدعوه إلى مجمعهم، وتقدم مقدم الأساقفة فعراه من الحلل الحبرية وأقاموه في دير لويزه كسروان محظوراً عليه الخروج منه، وانتخبوا بطريكاً مكانه المطران يوسف مبارك وعرضوا للكرسي الرسولي طالبين تثبيتته، فلم يشأ البابا اكليمنضوس الحادي عشر أن يثبت بل أرسل الأب لورنسيوس حافظ الأرض المقدسة ليفحص عن حقيقة ما كان، فأتى إلى كسروان وجمع الأساقفة والسيد يوسف مبارك الذي انتخبوه بطريكاً وأخذ ما لزم من التقارير وأرسلها إلى الكرسي الرسولي وأتى بالبطريك إلى صيدا وأقامه بدير الفرنسيسيين هناك.

وقد عهد البابا اكليمنضوس الحادي عشر بهذه المهمة إلى مجمع نشر الإيمان

المقدس، فاجتمع آباء المجمع بمجلس عام في ٢٠ آذار سنة ١٧١٣م فأبرزوا الحكم الآتي تلخيصه: «قد نظر آباء هذا المجمع بالوشايات الموردة على البطريرك يعقوب عواد الأنطاكي وتبصّروا بكل ما يتعلّق بذلك في عدّة مجالس فوجدوا شهادات الشهود المقدّمة على البطريرك باطلة ولا التحام ولا نظام لها، ثمّ تدبّروا الفحص الذي أجراه الأب الأكرم لورنسيوس الفاحص الرسولي وأمعنوا النظر في تقارير الشهود الذين أدّوا شهاداتهم بحضرته، وطالعوا أيضاً العرائض المرفوعة إلى الأب الأقدس من مطارنة وأساقفة وغيرهم في جبل لبنان، وأصغوا إلى ما قرره السيّد المطران جرجس بنيمين الإهدني الموكل من قبل المذكورين، وبعد مراعاة كل ما وجب مراعاته والامعان المدقق في كل هذه الأمور حكموا بأنّ كل ما قذف به البطريرك يعقوب المذكور لا ثبات له ولا اعتماد عليه، ولا سيّما أنّ المطارين ما أمهلوه المهلة اللازمة ليحامي عن نفسه كما يقتضي العدل والصواب، ولذلك برروا ساحته لأنّه لم يثبت عليه ذنب يستحقّ شرعاً شيئاً من التأديب، وحكموا أيضاً أنّ المطارين والأساقفة لم يكن لهم حق ولا سلطة أن يحطّوه ويخلعوه من مقامه البطريركي، وأثبتوا رأي الأب لورنسيوس الفاحص الرسولي، وأرجعوا البطريرك إلى بطريركيته محافظةً على شأنه وكرامته، على أنّه لما كان تقرر أنّ البطريرك تنزل عن بطريركيته في تلك الفترة حكموا أنّه لا بدّ من الفحص في مجلس آخر عن صحّة هذا التنزل وحذراً من أن يتأتّى ضررٌ على الكرسي الرسولي أو على الإيمان الكاثوليكي، أمر آباء المجمع أن يكون الأقدم بين المطارين وكيلاً وناظراً على البطريركية، ولا يحق لأحد أن يدعوا هذا الوكيل بطريركاً ولا هو يسوغ له أن يطمع بالبطريركية لتدبيره شؤونها في تلك المدة، وفرضوا على الجميع الصمت عن هذه الأمور، وأمروا كاتب المجمع أن يترجم حكمهم هذا إلى العربية ويشهره في لبنان وغيره وفي ٤ نيسان سنة ١٧١٣ عرض الكردينال يوسف ساكريني رئيس مجمع نشر الإيمان حكم الكرادلة على الأب الأقدس فأثبتته وأمر أن يكون العمل بموجبه.

وفي اليوم الثامن من أيار سنة ١٧١٣م عقد آباء مجمع نشر الإيمان مجلساً آخر عاماً بحثوا فيه عن صحّة تنزل البطريرك بعد إمعان النظر في التقارير المقدّمة بهذا الشأن من كل جهة واعتبار ما يلزم اعتباره حكموا بتأييد البطريرك وإرجاعه إلى مقامه وكرسيه، وأن تردّ عليه كل حقوقه وأبرشيته، وعزلوا الوكيل الذي كانوا قد أقاموه في ٢٠ آذار وعزلوا أيضاً كل دخيل وغاصب للبطريركية، وأعلنوا أن

تنزل البطريك باطل. وكان قد تنزل مرتين الأولى لما أعادوه إلى البطريكية في ١٣ آب سنة ١٧١١م على شرط تنزله عنها، والثانية في ١٤ من الشهر المذكور في دير حريصا بحضرة الفاحص الرسولي، وأبطلوا أيضاً الانتخاب المدعى به لبطريك آخر والوكالة له ولاشوهما كأنهما لم يكونا، وأمروا جميع المطارنة والأساقفة وجميع الكليس والشعب الماروني أن يعرفوا السيد البطريك يعقوب عواد وحده بطريكاً حقيقياً وشرعياً على الملة المارونية جمعاء، وأن يهتموا بأن يمثل الجميع هذا الحكم وكل من خالف قولاً أو فعلاً هذه المراسيم سقط بالتأديب الذي سنته القوانين المقدسة على مثل هؤلاء المخالفين والحل منه محفوظ إلى الحبر الأعظم والجمع المقدس. وفي ٩ من شهر أيار عرض هذا الحكم على الأب الأقدس اكليمنضوس الحادي عشر فأثبته وأمر أن يكون العمل بموجبه.

وكتب البابا اكليمنضوس الحادي عشر بأثر ذلك براءة إلى المطارنة والأساقفة والاكليس والأمراء والشعب الماروني مؤرخة في ٢ تموز سنة ١٧١٣م وتراها مثبتة في ذيل الجمع اللبناني المطبوع حديثاً صفحة ٢٩. فالحبر الأعظم بهذه البراءة قرظ الموارنة على ثباتهم الدائم في الإيمان الكاثوليكي وطاعتهم المستمرة للكرسي الرسولي، وأعرب عن شدة انعطافه إلى هذه الملة ومحبتة لها وعظمة استيائه مما حدث عندهم أخيراً بدسائس بعض أصحاب المآرب المقلقين من عزلهم بطريركهم، وأوضح أنه وبجّه عنايته الحبرية لتدارك هذا الأمر الخطير ووكّل إلى آباء مجمع نشر الإيمان التحري بهذا الأمر. وبعد الفحص عن الدعوى بكل دقة حكموا بأن عزل البطريك كان مخالفاً للعدل وباطلاً من كل جهة وكذلك حكموا بأن تفرغه عن البطريكية باطل، فلهذا برروا ساحتهم وأعادوه إلى حقوق بطريكيته وعزلوا كل دخيل أياً كان وأثبت هو هذه الأحكام بسلطانه الرسولي وقال إنه بعد صدور الحكم وصل إلى رومة القس أندراوس اسكندر بن سمعان الماروني من قبل المطران يوسف الريفوني ويده عرائض ورسائل من البطريك فطالعها آباء الجمع بتأن فحكموا أنّ لا ثبات لها ولا اعتماد عليها وإنما يلزم الاعتماد على الحكم السابق (هذه الفقرة الأخيرة لم نجدها في براءة البابا المثبتة ترجمتها في ذيل الجمع اللبناني لكننا وجدناها في نسخة أخرى).

ولما كانت هذه الدعوى قد انتهت الآن كان أملنا وطيداً بأنكم تسارعون إلى طاعة أمرنا والعمل بأحكام الجمع المقدس وتعرفون أنّ البطريك يعقوب هو

بطريرككم الحقيقي والشرعي وتقدّمون له الطاعة والتكريم، ومن المؤكّد عندنا أنّ الطاعة التي أثبتموها بدلائل كثيرة من قديم الزمان إلى الآن دون سائر الملل الشرقية هي الآن أكثر لزوماً وضرورة لاقتلاع الزوان الذي زرعه عدو بينكم الخ.

ولما شهرت براءة البابا وحكم الجمع المقدّس على الملة المارونية أذعن الجميع لها ورجع البطريرك يعقوب إلى كرسيه ومقامه، ولكن ما برح بعض الخلاف والانقسام بين أبناء الملة ورؤسائها، ولذلك نرى البابا اكليمنضوس الحادي عشر وجه رسالة أخرى إلى البطريرك والأساقفة والأمراء والشعب مؤرخة في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٧٢١م يدعوهم بها إلى إزالة بواعث الخلاف والسعي وراء السلام وتأليف الخواطر، وأرسل إليهم بهذه الرسالة الأب جبرائيل حوّا الراهب الحلبي اللبناني الذي كان برومة ليلغهم بركته ورغائبه بأكثر تفصيل، وهذه الرسالة تجد ترجمتها مثبتة في ذيل الجمع اللبناني صفحة ٤٢.

وعاش البطريرك يعقوب بعد ذلك مكرماً مهابةً دائماً على عمل المبرّات والقيام بأعباء البطريركية أحق قيام، وأنبأنا العلامة السمعاني في مقدّمة المجلّد الأوّل من مكتبته الشرقية أنّ هذا البطريرك عاونه كثيراً على وجدان الكتب الشرقية التي أحضرها إلى المكتبة الواتيكانية لا من لبنان فقط وليس من عند الموارنة وحدهم بل من دمشق وحلب وحمص ومصر أيضاً من عند الطوائف الأجنبية.

وأما الذين رقّاهم البطريرك يعقوب عواد إلى درجة الأسقفية فقد أخذنا أسماءهم عن سجلّات بطريركيتنا فهم:

الأوّل الخوري صافي الجميل من بكفيا رقاہ سنة ١٧٠٦م وسمي الياس وتوفي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧١٦م في دير مار عبدا هريريا ودفن به.

الثاني الخوري باسيليوس باسيل البجاني من بيت شباب رقاہ سنة ١٧١٠م إلى كرسي طرابلس وتوفي في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٧٣٦م، وجاء اسمه في الجمع اللبناني وان لم يحضره لعجزه، وناب عنه القس ميخائيل العزيري الطرابلسي المسمّى غرسيه.

الثالث جبرائيل مبارك الغوسطاوي رقاہ أخوه المطران يوسف الريفوني عندما تغلّب على البطريركية سنة ١٧١٣م إلى كرسي صيدا وتوفي في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٣م في ريفون.

الرابع الخوري سمعان عواد ابن أخي البطريرك يعقوب رقاہ سنة ١٧١٦م إلى كرسي دمشق وكان متسلماً أبرشية صيدا وهو من آباء المجمع اللبناني.

الخامس القس عبدالله قرأ إلى الحلبي رقاہ سنة ١٧١٦م إلى كرسي بيروت وكان من آباء المجمع المذكور وتوفي في ٦ كانون الثاني سنة ١٧٤٢م في زوق مصبح ونقلت جثته إلى دير لوزة وكان مديراً لدير حراش ورتب القانون لراهبات هذا الدير، وفي سنة ١٧٢٧م دخل إليه ثمان عشرة راهبة.

السادس الخوري الياس محاسب من غوسطا رقاہ في ١٤ أيلول سنة ١٧١٧م إلى كرسي عرقا ودبر دير مار شليطا مقبس، وكان يزور المتن والجرد وجبيل والبترون والفتوح وكان من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٧ آب سنة ١٧٤٨م في دير مار شليطا المذكور.

السابع القس جبرائيل حوّا رقاہ سنة ١٧٢٣م إلى كرسي قبرص وتوفي برومة سنة ١٧٥٢م.

الثامن القس جبرائيل فرحات الحلبي رقاہ في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥م إلى كرسي حلب وسكن فيها وسمي جرمانوس وتوفي في ٩ تموز سنة ١٧٣٣م وستأتي ترجمته.

التاسع الخوري فرح الجميل من بكفيا رقاہ سنة ١٧٢٦م إلى كرسي جبيل وسمي فيلبوس وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ١٧ تموز سنة ١٧٧٤م في دير شويا.

العاشر الخوري يوسف صالح الدويهي ابن أخي البطريرك اسطفانوس الدويهي رقاہ في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٧٢٨م إلى كرسي البترون ودعي اسطفانيوس وجعله نائباً بطريركياً ودبر أبرشية بعلبك ومات في دير ريفون.

الحادي عشر الخوري يوسف ضرغام الخازن ابن أبي قانصوه الخازن رقاہ سنة ١٧٢٨م إلى كرسي غوسطا ثم صار بطريركاً.

الثاني عشر الخوري اغناطيوس شراية رقاہ في ٢ تشرين الثاني سنة ١٧٣٢م إلى كرسي صور وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٧٤٧م، ويظهر أنه كان يسكن في دير مار الياس بلوني ودير لوزة حيث توفي.

الثالث عشر الخوري يوحنا اسطفان رقاہ في ١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٢م إلى كرسي اللاذقية متسلّم أبرشية بيروت وكان من آباء المجمع اللبناني وتوفي سنة ١٧٧٩م في عين ورقة.

الرابع عشر القس جبرائيل عواد بن عيسى أخي البطريرك رقاہ في ٢٦ تشرين الأوّل سنة ١٧٣٢م إلى كرسي عكا وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٥ آذار سنة ١٧٦٣م.

الخامس عشر الخوري ميخائيل البلوزاوي الثاني بهذا الاسم رقاہ في كانون الثاني سنة ١٧٣٣م إلى كرسي بانياس وهو من آباء المجمع اللبناني.

السادس عشر هو القس جبرائيل حوشب رقاہ إلى كرسي حلب في ١ كانون الثاني سنة ١٧٢٢م وحضر إلى المجمع اللبناني فلم يصل إلّا بعد نهايته فوقّ عليه وعاد إلى حلب سنة ١٧٣٧م.

السابع عشر القس طوبيا ابن الشيخ أبي كنعان قيس الخازن رقاہ في ١ كانون الثاني سنة ١٧٣٣م إلى كرسي نابلس وسمي تارة مطران طرابلس وتارة مطران قبرص وهو من آباء المجمع اللبناني موقعاً مطران قبرص، وتسلّم الوكالة على الكرسي البطريركي ثم صار بطريركاً.

وقد توفّي البطريرك يعقوب عواد في ٩ شباط سنة ١٧٣٣م ودفن في كنيسة مار شليطا مقبس.

عد ٨٣

البطريرك يوسف ضرغام الخازن

هو ضرغام بن أبي قانصوه فياض بن أبي نوفل نادر الخازن وقد تزوّج أولاً وولد له ولد اسمه ميلان، ثم توفّي زوجته فصار كاهناً، ثم رقاہ البطريرك يعقوب عواد سنة ١٧٢٨م إلى أسقفية غوسطا. ولما توفي البطريرك يعقوب المذكور في ٩ شباط سنة ١٧٣٣م اجتمع الأساقفة في ٢٣ من الشهر والسنة المذكورين لانتخاب خلف له، فاختر ستة منهم: المطران عبدالله قرألي مطران بيروت، واختر ستة آخرون الياس محاسب مطران عرقا، واختر اثنان اسطفانوس

الدويهي مطران البترون، وطال الخلاف بينهم وكان المطران يوسف ضرغام الخازن يحرضهم على الاتفاق ويلومهم على الخلاف ويبين لهم العثار الذي سيكون من تعمدهم رغائب بشرية وعدم اتفاقهم بروح الرب على من يرون به أهلية لتمجيد الله ونفع طائفتهم، فأتم رأيهم أخيراً على انتخابه فانتخبوه بطريركاً في ٢٤ شباط سنة ١٧٣٣م في دير ريفون وثبته البابا اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٤م على يد موفده القس عبدالله ابن الحاج عون من عجلتون. وفي أيامه سلمت مدرسة عينطورا ومدرسة زغرنا إلى الآباء اليسوعيين بشروط بيّنها الأب الرئيس العام لجمعية الآباء المذكورين بوثيقتين الأولى بشأن مدرسة عينطورا مؤرخة في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤م، والأخرى بشأن مدرسة زغرنا مؤرخة في ١٠ كانون الأول سنة ١٧٣٥م. وسيأتي ذكر هاتين المدرستين بأكثر تفصيل. وفي أيامه أيضاً عقد المجمع اللبناني الشهير الذي هو دستور الأمور الروحية في طائفتنا إلى اليوم وسنفرد فصلاً برأسه للكلام في هذا المجمع. وفي أيامه أيضاً وبعنايته جدّد لويس الخامس عشر ملك فرنسا الحماية للموارنة بموجب براءة مؤرخة في ١٢ نيسان سنة ١٧٣٧م، إقتداءً بأبيه لويس الرابع عشر الذي كان قد جدّد لهم هذه الحماية براءة مؤرخة في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م لإعتماداً على الحماية التي بذلتها فرنسا للموارنة بموجب براءة القديس لويس التاسع ملك فرنسا عند شخوصه إلى قبرص وسورية سنة ١٢٤٩م.

وأما الكهنة الذين رقامهم البطريرك يوسف ضرغام الخازن إلى الأسقفية فلا نعرف منهم إلا اسطفان عواد السمعاني الذي كان مع خاله السيد يوسف سمعان السمعاني في المجمع اللبناني وكان رقيباً فيه فرقاه البطريرك بعد ذلك إلى أسقفية أباميا. وقد عثرنا في السجلات البطريركية على رسائل من هذا المطران إلى البطريرك المذكور مؤرخة بعد المجمع المذكور، ولم نعثر في هذه السجلات على أسماء من رقامهم هذا البطريرك للأسقفية كما عثرنا على أسماء من رقامهم غيره. ويظهر أنه من سنة ١٧٣٣م التي ارتقى فيها إلى البطريركية إلى سنة ١٧٣٦م التي عقد فيها المجمع اللبناني لم يسقف أحداً لأن جميع الأساقفة الذين وقّعوا على المجمع اللبناني كان سالفه البطريرك يعقوب عواد قد سقّفهم إلا المطران جبرائيل أسقف صافية فقد كان البطريرك اسطفانوس الدويهي قد رقاه كما رأيت وأما هل رقى البطريرك يوسف ضرغام بعد المجمع اللبناني غير اسطفانوس عواد المار ذكره فلا

نعلم ولم نجد في السجلات البطريركية أنه رقي أسقفاً آخر كما وجدنا أسماء من رقاهم أسلافه وخلفاؤه. والله أعلم.

وتوفي البطريرك يوسف ضرغام في ١٣ أيار سنة ١٧٤٢م في دير ريفون ودفن في كنيسة النبي الياس في غوسطا.

عد ٨٤

البطريرك سمعان عواد

هو ابن أخي البطريرك يعقوب عواد رقاہ عمه إلى أسقفية دمشق سنة ١٧١٦م كما مرّ، وبعد وفاة البطريرك يوسف ضرغام الخازن اجتمع الأساقفة في عين ورقة فانتخبوه بطريركاً فأبى قبول الانتخاب زهداً وتورعاً، فانتخبوا المطران الياس محاسب الغسطاوي أسقف عرقا، وكان المطران طوبيا الخازن غائباً فلم يقبل انتخاب المطران الياس المذكور بل اتفق مع المطران جبرائيل من طائفة السريان فرقيا إلى الأسقفية كاهنين من قسوس دير لوزة وهما القس عبد الله حبقوق الذي توفي في ٧ آب سنة ١٧٥٨م بكفر صغاب والقس جرمانوس صقر من حلب فانتخباه بطريركاً في دير لوزة. وأظنّ أنّ بعض المطارين المجتمعين في عين ورقة كانوا قد انتخبوا المطران طوبيا حتى ساغ له أن يدعي البطريركية وينازع المطران الياس عليها وقدم كلّ من المنتخبين أي المطران الياس والمطران طوبيا العرائض للحبر الأعظم طالباً إثباته في البطريركية ووجه كلّ منهما موفداً إلى رومة لحماة دعواه مصحوباً ببيانات وأدلة على صحّة دعواه وسقوط دعوى خصمه منشأة من رجال فقهاء، فعين البابا بناديكطوس الرابع عشر بعضاً من كرادلة مجمع نشر الإيمان المقدّس ليجمعوا أمامه ويفحصوا حجج كلّ منهما ويسمعوا تقارير كلّ من موفديهما، فظهر للكرادلة أنّ الانتخابين باطلان ويلزم إعلان بطلانهما، وكان الحبر الروماني متردداً واجساً من المصاعب التي تكون من قبل الفريقين واستشار الكردينال فشنسيوس بترا رئيس مجمع نشر الإيمان الذي كان يثق بعلمه وسعة إطلاعه على القوانين البيعية فأشار بإبطال الانتخابين، واستشار أيضاً العلامة السمعاني الذي كان موثقاً بعلمه واستقامته ومخبرته في بني ملته فأشار بإيضاح بطلان الانتخابين واختيار

المطران سمعان عواد الذي كان الأساقفة قد انتخبوه فأبى، فعول الخبر الأعظم على ذلك وكتب براءة مؤرخة في ١٦ آذار سنة ١٧٤٣م موجهة إلى الأساقفة أبطل بها انتخاب المطران الياس والمطران طوييا وأمر بأن يكون المطران سمعان عواد بطريركاً، وحثّم على المطارنة والأساقفة والاكليروس والأعيان والشعب أن يخضعوا لسلطته ويمثلوا أوامره، وصرّح بأنّ انتخابه هذا البطريرك لا يقصد به تبطيل حقوق أساقفة الموارنة على انتخاب بطريركهم في ما يأتي من الزمان بل جلّ المقصد إزالة المنازعات وإرجاع الهدوء والسلامة. وكتب رسالة إلى البطريرك سمعان يعلمه بانتخابه ويأمره أن يباشر السلطان البطريركي على كل مخالف، وأرسل هذه الأوامر الرسولية إلى الأب يعقوب من لوكا أحد رؤساء رهبان القديس فرنسيس، وأمره أن يتوجّه بها إلى لبنان بمنزلة قاصد رسولي ويشهرها على رؤساء الملة المارونية، وخوّله كل سلطة لازمة لتنفيذها. فتوجّه القاصد المذكور من القدس إلى كسروان ودعا إليه المطارنة والأساقفة وعلية الاكليروس والأعيان إلى دير حريصا فشر عليهم أوامر عظيم الأحبار فأذعن جميعهم دون مخالف للأوامر الحبرية بملء الرضى والطاعة المخلصة، وأجابوا أجمعين بما قاله آباء الجمع الخلكيديوني أنّ بطرس تكلم بلسان خليفته بناديكتوس الرابع عشر وأقبل جميعهم ينحنون أمام البطريرك سمعان مهينين له ومبدين عواطف الطاعة والسرور.

ورفع حينئذ البطريرك والأساقفة عرائض الطاعة والامتنان لأمر الأب الأقدس وأصبحها الاكليروس والأعيان بعرائض الشكر والثناء لقداسته، وعرض القاصد المذكور للبابا ولجمع نشر الإيمان مبيناً باندهاش ما رآه من شعائر الطاعة للكرسي الرسولي عند الموارنة، فبلغت هذه العرائض إلى رومة سنة ١٧٤٤م وكان البطريرك قد وكّل إلى المونسنيور يوسف السمعاني أن ينوب عنه بالتماس التثبيت له من الخبر الأعظم فجمع امام الأحبار الكرادلة ومقدمي البلاط الواتيكاني والرؤساء والأعيان في ٣ تموز سنة ١٨٤٤م ونطق بخطبة يحق للموارنة أن يدوّنوها بالتبر ويخلدوا ذكرها ولا نتمالك من أن نورد بعض فقراتها وإن كنّا أسلفنا ذكر بعضها. قال ونعم العلامة القائل:

« لا شك في أنّكم تعلمون جيّداً أنّ الموارنة هم مسيحيون سريان يختصون بالبطريركية الأنطاكية لأنّهم يسكنون سوريا وسواحل فينيقيا وجبالها وفلسطين وقبرص ومصر وغيرها من الأمصار الشرقية، والسواد الأعظم منهم يقطنون في

لبنان، ولا يفوت علمكم أيضاً أنّه لما فشلت في أواخر القرن السابع بدعة القائلين إنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً وأفسدت سكان البطريركية الأنطاكية الموارنة رغبةً في أن يصونوا ملّتهم ويوقوها ذلك الفساد عزموا على أن ينتخبوا لهم بطريكاً يثبت من الحبر الروماني ويستمدّ منه درع الرياسة. ولما مرّت قرون وأخذ السراكسة أنطاكية وطرّدوا منها اللاتينيين الكاثوليكين فرّ هؤلاء اللاتينيون إلى جبل لبنان وقبلهم بطريك الموارنة بالترحاب والمؤانسة والوداد، فكتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكره لذلك ويدعوه البطريرك الأنطاكي. وما برج بطاركة الموارنة يعرفون بهذا الاسم مع إنّهم نصبوا كراسيهم ثابتةً في جبل لبنان. وقد كان الموارنة كلّ حين كما هم الآن كاثوليكين كلّ الكتلّة مرتبطين بالاتحاد الكرسي المقدّس باذلين الطاعة والاحترام التام للحبر الروماني ولبطريركهم، ولكن من حيث هم بشر فليس يعجب أن يحدث بينهم أو إن حدث نقص بشري في شأن بطريركهم وربما يتذكّر بعضكم ما جرى في أيّام سالفنا السعيد الذكر اكليمنضوس الحادي عشر من عزل البطريرك يعقوب وما التحق بذلك الحبر الجليل من الإهانة العائدة أيضاً إلى حقوق الكرسي الرسولي... ولما تأكّد البابا برارة ذلك البطريرك وبراءته حكم برجوعه إلى كرسيه الذي حظّ عنه ظلماً فقدم الموارنة حينئذٍ دليلاً حديثاً على حسن طاعتهم وخضوعهم للكرسي الرسولي.

ونحمد الله على أنّه لم يصدر منهم في أيّام حبريتنا عزل بطريرك لكنّه حدث حادث كدرنا كدراً عظيماً وهو أنّه في سنة ١٧٤٢م انتقل إلى رحمة الله يوسف بطرس الخازن البطريرك، وعندما اجتمع المطارنة والأساقفة كالعادة لينتخبوا خلفاً له انقسموا إلى قسمين، فاختار بعضهم الياس مطران عرقا وبعضهم طوبيا مطران قبرص». وأردف البابا كلامه بإخبارهم عن عرائض المنتخبين له وإرسال كل منهما موفداً إليه واختياره بعض كرادلة مجمع نشر الإيمان للفحص عن ذلك بحضرته وحكمهم ببطلان الانتخابين واستصوابهم تعيين بطريرك غير المنتخبين وتصويبه العمل برأيهم لإقتداء ببعض أسلافه في حوادث كهذه ذكرها لهم وإصداره الأوامر بذلك إلى أن قال: «فهذا ما لزم إيضاحه لكم قبل تلاوة رسالة البطريرك الذي اخترناه ورسائل المطارنة والأساقفة الموارنة فمنها تحيطون علماً بما قد جرى». فتقدّم المونسنيور يوسف السمعاني فرفع إلى قداسته الرسائل المذكورة فدفعها البابا إلى كاتب البراءات الرسولية وأمر فتليت أولاً باللغة العربية ثمّ تليت ترجمتها اللاتينية.

فحملوا الحبيس يونان بالنعش إلى دير القديس سمعان بالفرايس وأما أخوه يوسف فسار إلى قريته سمار جبيل ، وبعد ثلاثة أشهر مضى المقدم مقلد البشرياني والشدياق خاطر الحصريوني وبعض الأعيان ، فشفعوا بهم فباركهم البطريك وكان دير قزحيا قد خلا من الرهبان ، فرخص لهم بالعود إليه وأعطاهم عشرة رهبان وبقراً وماعزاً إلى غير ذلك مما يلزم لهم ، وفصل الدير عن المحبسة ليقوم كل منهما بنفسه . ويظهر أنه لم يصحح رسامة من رسمهم الأسقف داود .

٢٨ - الأسقف سرقيس الرزي أخو البطريك ميخائيل الرزي لم يذكر الدويهي سنة ارتقائه إلى الأسقفية بل ذكر في تاريخ سنة ١٥٧٨م أنّ البطريك ميخائيل أرسل أخاه الأسقف سرقيس والقس جرجس بن يونان مع الأب جوان باطيستا ليرافقه في تطوافه بלבناو ويقدم له ما يطلبه ، والأسقف سرقيس هو الذي خلف بالبطريركية أخاه البطريك ميخائيل بعد وفاته سنة ١٥٨١م .

٢٩ - الأسقف سرقيس من كفرحورا لم يذكره الدويهي ، ولكن وجدنا توقيعه على المجمع الطائفي المنعقد سنة ١٥٨٠م هكذا . أنا سرقيس من كفرحورا أسقف ورئيس قزحيا .

٣٠ - الأسقف يوسف البسلوقيتي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٠م فقال أنه نحو هذه السنة رقد بالرب يوسف البسلوقيتي الذي كان مستحبساً في دير القديس انطونيوس بالفرايس ، ولأجل سيرته الملكية وشيخوخته النقية رقاها البطريك ميخائيل إلى الأسقفية ، ولما دنت ساعة وفاته مضى لزيارته ، ثم أمر بدفن جثته بمغارة البارة مارينا بجانب دير قنوين .

٣١ - الأسقف اقليمس الأهدني هو الذي كان البطريك ميخائيل الرزي قد أرسله كاهناً مع المطران جرجس البسلوقيتي إلى روما ، فراقه أخوه البطريك سرقيس إلى الأسقفية سنة ١٥٨٤م ليكون معاوناً له في دير قنوين . وذكر الدويهي وفاته سنة ١٥٩٨م وقال إنه توجه إلى روما مرات وأنه كان حازماً أصيل الرأي .

٣٢ - الأسقف انطونيوس الجميل ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٧م وقال إنه لما كان كاهناً عني ببناء كنيسة القديس عبدا في قريته بكفيا وأنفق عليها ألف قبرصي عدا ما أنفقه أهل القرية وغيرهم ، فأراد البطريك سرقيس الرزي أن يكافئه

فرقاه إلى الأسقفية وأكرمه ببدة جميلة للقداس ، ولما كان البطريرك متوجهاً سنة ١٥٩٥م لزيارة كسروان لقيّه المطران انطونيوس إلى البوار عازماً أن يمنعه عن الدخول إلى هذه البلاد فربطه البطريرك ، وفي اليوم الثالث بعد ذلك قضى أجله .

٣٣ و ٣٤ - الأسقف يوسف والأسقف يوحنا مطرانا قبرص ذكرهما الدويهي في تاريخ سنة ١٥٨٨م بقوله في هذه السنة كانت وفاة الأسقف يوسف بجزيرة قبرص ، ورقى البطريرك خلفاً له الأسقف يوحنا بن اسكيلا المعلم من الخيزفانية ثم ذكر وفاة يوحنا هذا في سنة ١٥٩٨م .

٣٥ - الأسقف يوسف الرزي هو ابن موسى الرزي أخي البطريرك سركيس ، رقه عمه البطريرك المذكور سنة ١٥٩٥م إلى الأسقفية في عيد ميلاد الرب ، وأرسله سفيراً إلى البابا اكليمنضوس الثامن لقضاء بعض حاجات الطائفة وتهنئة البابا بارتقائه إلى الخبرة العظمى ، فعاد من روما سنة ١٥٩٦م ومعه الأب ايرونيوس دنديني والأب فايوس برون اليسوعيان لعقد المجمع المار ذكره ، وبعد وفاة عمه البطريرك سركيس سنة ١٥٩٦م خلفه في البطريركية كما مرّ .

٣٦ - الأسقف موسى العنيسي صير مطراناً على قبرص سنة ١٥٩٨م بعد وفاة الأسقف يوحنا بن اسكيلا المار ذكره ، وكان موسى المذكور من العاقورة وتهذب بالعلوم بروما .

ورقى البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية في آخر هذا القرن أي سنة ١٦٠٠م ابن أخيه الأسقف سركيس الرزي والأسقف جرجس بن عميرة الأهدني الذي انتخب بعداً بطريكاً ، والأسقف ميخائيل من بيت عبيد باهدن ، والأسقف موسى من عرجس . وأقام بدير مار اليشاع ببشري . وترجئ تنمة الكلام في هؤلاء إلى تاريخ القرن السابع عشر .

عد ٥٥

المشاهير الدينيين الموارنة في القرن السادس عشر

نريد بالمشاهير الدينيين من اشتهروا في هذا القرن من الموارنة بالنسك والزهد والعلوم الدينية أو نسخ الكتب ، وهم ليسوا بطاركة أو أساقفة ، واعتمدنا في تراجمهم على تاريخ العلامة الدويهي .

١ - كان من سلك النساك القس موسى العكاري ، وكان رئيساً على دير السيدة بحوقا ، وكان تلميذاً للخوري اسطفان والقس ميخائيل رئيسي هذا الدير ثم رقى إلى الأسقفية ثم البطريركية كما مرّ .

٢ - الخوري يوحنا المعروف بالزطيمية ، فهذا كان من ترّج وارثحل بعائلته سنة ١٥١٠ إلى قبرص في جملة من هاجروا من لبنان تلك السنة من جري الجور والضرائب . وكان الخوري يوحنا عالماً فاضلاً نسخ كثيراً من الكتب البيعية ، وكان من جملة عمد الطائفة في تلك الأيام ، وكانت له مباحث دينية مع الروم بقبرص ، وكانوا يسمونه كروكلياً لأنه كان يعتّم بعمامة زرقاء ، وعانى مشاق كثيرة من أبناء طائفته حسداً له . وبعد وفاته خلفه ابنه القس يوسف والشماس الياس واشتهرا بنسخ الكتب البيعية والأفعال الحسنة .

٣ - الخوري لوقا بن بطرس من ترّج أيضاً وأنشأ كنيسة جميلة في قرية كليين بقبرص على اسم القديس لوقا الانجيلي .

٤ - الخوري زكريا وكان من جملة النازحين من لبنان إلى قبرص ، وبنى كنيسة القديس ماما في قرية مطوش .

٥ - الحاج ميخائيل أخو الأسقف جبرائيل القلاعي انتقل من لحفد إلى قرية طالا بقبرص وزاد على كنيسة السيدة سوقاً آخر ومذبحاً على اسم القديس عبدا .

٦ - القس بطرس وهو الذي أرسله البطريرك سمعان الحداثي إلى البابا لاون العاشر سنة ١٥١٣م فردّه البابا إلى لبنان إذ لم يكن مصحوباً برسائل البطريرك ، ثم سفره البطريرك ثانية إلى أم المدائن سنة ١٥١٥م فنال التثبيت على يده كما قدمنا في الكلام على هذا البطريرك ، وهو الذي أحضر نسخة من رسالة فراغريفون إلى الحبر الروماني شهادة بصفة ايمان الموارنة كما مرّ .

٧ - الخوري يوسف الذي أرسله البطريرك سمعان الحداثي سنة ١٥١٥م إلى رومة مع راهبين لاقتباس اللغة اللاتينية والعلوم الدينية فعلموا اللغة السريانية وكانوا أول من علّمها بأوروبا .

٨ - الخوري يونان المترتي رئيس دير قزحيا ، زاد في كنيسة هذا الدير سنة ١٥٢٦م على مذهب القديس بشاي مذهبين آخرين أحدهما على اسم السيدة

والثاني على اسم جبرائيل رئيس الملائكة . وفي سنة ١٥٣٩م اتفق مع رهبانه على نهى النساء عن الدخول إلى دير قزحيا ، وحلف جميعهم على ذلك وأقاموا لذلك احتفالاً وتطوافاً بالدير كله . وفي سنة ١٥٤٢م انتقل إلى رحمة ربه . وكتب عنه تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني أنه خدم الله بالطهارة والورع مدة خمسين سنة . وكان قبل وفاته بأربع سنين يصوم يومين يومين ولا يفطر في الصوم الكبير إلا يوم السبت والأحد ، ولم يكن عدد لمطانيته في سبة الآلام ، ولم يكن له مثل في أعمال الرحمة . ويعجز القلم عن رقم فضائله . وشهد تلميذه الخوري يوحنا اللحفدي بأن الله صنع على يده آية كان هو شاهداً لها وهي أنه عازهم الزيت فوضع بخوراً وصلّى على خاوية الزيت فطفحت به . وشهد جنازه البطريرك موسى المطران قرياقوس وجمّ غفير تباركوا بجسده الطاهر . وقد ذكره المطران اسطفانوس عواد في فهرست المكتبة الماديشية صفحة ٢٦ إذ روى أنّ كتاب الزبور الذي كان قد كتبه حوشب في دير قزحيا سنة ١٣١٨م قد نسخه ملك جبرائيل من اهدن سنة ١٥٢٢م باهتمام الأب يونان الحبيس المترتي . وروى ترجمة هذا الحبيس عن الدويهي كما رويناها ، وذكر أيضاً تلميذه الحبيس جبرائيل الأهدني وهو ناسخ كتاب الزبور المذكور .

٩ - القس جرجس بن حرواص من قرية عرجس أنشأ دير القديس اليشاع ووسعه وأنفق عليه ١٣٧٥٠ درهماً عدا ما تبرّع به غيره من المحسنين . وكان عبد المنعم الأول مقدم بشري معاوناً له ومثله الحاجة سارة رفيقته في النسك وشريكته في بذل النفقة المذكورة ، وكان ذلك سنة ١٥٣٣م . ويظهر لنا أنّ القس جرجس هذا هو الذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٥٥٦م وقال إنّ المطران رقاہ إلى الأسقفية مكافأة له لبنائه دير مار اليشاع ببشري وإن سمي في هذا المحل الأخير يوسف لا جرجس .

١٠ - القس يوحنا بن نمرون الباني كان رئيساً على دير قزحيا سنة ١٥٢٩م وكان شهيراً بالورع والنسك ، ولما اختصم أهل بان وأهل عينطورين على دير قزحيا وحكم القاضي به لأهل عينطورين اعتزل القس يوحنا من الرئاسة وتولاها الخوري يوحنا اللحفدي كما مرّ عند ذكر الأسقف يوسف الجاجي . ثم عاد القس يوحنا إلى رئاسة دير قزحيا سنة ١٥٥٦م ولم يمكث بها طويلاً بل استقال منها وسكن دير القديس سمعان بقيطو ، إلا أنه في سنة ١٥٦٧م لما صير الحبيس ميخائيل

الرزقي المترؤس على دير قزحيا بطريركاً أعادوا القس يوحنا إلى رئاسة هذا الدير فأنشأ له مطحنة عند الدير وجّر الماء إليها من النهر . وعظمت شهرته بالبر والورع ، ولما توفاه الله خلفه بالرئاسة الخوري ابراهيم الحداثي .

١١ - الخوري يوحنا اللحفدي كان تلميذ الحبيس يونان المريتتي وترأس على دير قزحيا بعد اعتزال القس يوحنا الباني المذكور ، ثم توفي سنة ١٥٤٢م بعد وفاة معلمه وقد اقتدى بفضائله ونسكه وتقشفاته وخدمته أربع عشرة سنة في مرضه ، وكان يقضي سبة الآلام متهجداً مكثراً من الاماتات والمطانيات .

١٢ - الحبيس يونان بن جلوان من سمار جبيل ترهب في دير قزحيا مع أخيه القس يوسف ، وقد ذكرنا دعوة المطران داود رئيس دير قزحيا لهما إلى دير حوقا وترقيتهما سنة ١٥٧٦م إلى الأسقفية خلافاً لقوانين الكنيسة ومنع البطريرك لهما عن مباشرة حقوق الأسقفية وطاعتها ورضى البطريرك عنهما وردهما إلى دير قزحيا فأكملا حياتهما بالنسك والزهد والورع .

١٣ - القس يعقوب عصاص من بيت الزيات من أسمر جبيل ، لبس الأسكيم الملائكي بدير قزحيا ، وقضى حياته بالنسك والقداسة في محبة القديس سمعان بالفرايس وتوفي سنة ١٥٨٥م قال الدويهي ، وجسده ما زال سالماً في مغارة مار ادنه هناك لم يعثره فساد .

١٤ - الشهيد ابراهيم بن جرجس البشراي الحلبي ولد في حلب سنة ١٥٦٣ وكان والداه من بشري فهاجرا إلى حلب وكان من صغره على جانب عظيم من التقوى والعبادة ويظن أنّ الأب يوحنا ايليان المعروف بجوان باتيستا اختاره من حلب عند وصوله إليها سنة ١٥٨٢ ليكون مرشحاً للكهنة في مدارس رومية فدرس هناك أولاً مع التلامذة الذين كانوا في منزل الموارنة قبل أن تقام المدرسة وكان يتردد إلى الشبان المبتدئين في الرهبة اليسوعية فآثر فيه مثل سيرتهم وآدابهم ثم ذهب إلى رئيسهم يطلب منه الدخول بينهم فقبله بنوع غير اعتيادي وقضى زمان الامتحان مشهوراً بالعبادة والتقوى . وفي أواخر سنة ١٥٨٤ أرسله الرؤساء إلى المدرسة اليسوعية في فلورنسا ليتّم زمان امتحانه وينصبّ على الدرس فأقام هناك سنتين وأمره الرؤساء بالعود إلى رومية فدرس في المدرسة الرومانية العلوم الرياضية ثم الفلسفة واللاهوت على علماء يسوعيين شهيرين . وفي ٢٥ شباط سنة ١٥٨٨ قضى

الإكليل لابراهيم المذكور مع غيره حسب طقس الكنيسة اللاتينية ومن بعد أن أنجز دروسه رقي إلى درجة الكهنوت ثم أرسله رؤساؤه إلى الهند سنة ١٥٩٢ وبعد أن أقام مدة في الهند سافر بأمر الطاعة إلى بلاد الحبشة في سنة ١٥٩٥ وكان وصوله إلى مصوع في آخر نيسان وبوصوله إلى هناك قبض عليه وأخذ إلى الحاكم فقضى الالب ابراهيم ليلته في الصلاة فرحاً وفي الصباح أوتي به من السجن أمام الحاكم فسأله عن اسمه ودينه وغاية سفره فأجاب إني ولدت بمدينة حلب واسمي ابراهيم ابن جرجس وديني دين المسيح أتيت هذه البلدة لأذهب منها إلى بلاد الحبشة لأبشّر بالدين الكاثوليكي وأثبتته فتهدده الحاكم بالقتل فلم يثن فأخذ يتملقه فلبث مصراً فزجّه في سجن المجرمين مقيداً بالسلاسل وأمر بعض الجنود أن يعذّبوه بالضرب والجوع والعطش فاحتمل كل ذلك بصبر وبعد أيام اجتمع أهل المجلس للحكم عليه بالموت فأمره الحاكم أن يشفق على شبابه ويكفر بالمسيح فأجابه: إني أؤمن بالله واحد وبأنّ المسيح تجسّد ومات لخلاصنا فحنق الحاكم وأمر بقطع رأسه فتلقى الحكم بفرح وتهليل ثم لبس رداءه الرهباني وجثا وقبّل الأرض وسلّم نفسه للجنود كالحمل فذهبوا به إلى محل العذاب وتبعه بعض النصارى فجثا وصلّى ثم حلّ ثوبه حول عنقه فضربه السيّاف ضربة هائلة فانكسر السيّاف فضجّ الشعب وغضب السيّاف وأخذ سيفاً آخر فضربه به فانشلم حدّه وأعاد الضربة فانكسر السيّاف ولم يجرح الشهيد إلا جرحاً خفيفاً فزاد ضجيج القوم وظهر تعجبهم فاستلّ السيّاف سيفاً ثالثاً وضربه فانفصل رأسه عن جسده في أواخر نيسان سنة ١٦٩٥ ولم يكن تجاوز السنة الثالثة والثلاثين من عمره وشهد الله لقداسته بآيات عديدة ظهرت من جسده حتى أخذ الوثنيون قسماً منها طرحوه في البحر وقسماً خلطوه بعظام موتاهم كي لا يكرمهم المسيحيون ومات كل من عاونوا على قتله بأمراض شنيعة في مدة الأربعين يوم بعد استشهاداه وقتل الحاكم عليه بأمر حاكم خلفه. انتهى عن ترجمته في كتاب تطوييه إذ أحصاه الكرسي الرسولي عما قليل في مصاف الطوباويين.

مقالة عاشرة

تاريخ الموارد في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارد الدنيويون في القرن السابع عشر

عد ٥٦

بعض أعيانهم في هذا القرن

ذكرنا في آخر تاريخهم في القرن السادس عشر الشدياق الحصري والي جبة بشري فهذا توفي سنة ١٦١٢م وخلفه بولايته ابنه الشدياق رعد، وتزوج بست البنات بنت المقدم مقلد من المقدمين العناحلة (الذين أصلهم من عين حليا وقد مر ذكرهم) ويقال إنه كان يسي المعاملة لها ويتهددها بالقتل وإنها دسّت له سمّاً في دجاجة أكل منها هو وأخوها جمال الدين بن مقلد المذكور، فماتا وانقرضت بجمال الدين سلسلة العناحلة. وأما امرأة رعد فتزوجها موسى البشراي وسار بها إلى حلب فزرق منها ولداً سمي عسافاً ودخل إحدى رهبانيات الفرنج ومات كاهناً. ومن بعد وفاة المقدم رعد بن خاطر ولّى يوسف باشا سيفا والي طرابلس على جبة بشري أبا عاشينا شلهوب لأنه كان ابن بنت المقدم عاشينا الأول بن حسام الدين العنحلاني وولد له ثلاثة بنين وهم: عاشينا ويوحنا وميخائيل. ونازعه الولاية نعمة وداود وجرجس أولاد الشدياق خاطر فاقترع عليهم مع الحاج سليمان

الملكى كاتب ديوان طرابلس فقبض يوسف باشا على نعمة وداود ابني خاظر وألقاهما في السجن ، وكان يعدهما بأن يولييهما جبة بشري حتى استنزف الثروة التي تركها والدهما ثم أمر بخنقهما ، وألقوهما في البير المعروف بالأزهرى . وقبض المقدم ابو عاشينا شلهوب على أخيهما جرجس وغرقه في النهر قريباً من المدينة ، واستمر في الولاية على جبة بشري تسع سنوات . ففي سنة ١٦٢١م كبس ابنه عاشينا دير مار توما بحصرون وقتل القس دانيال العكاري طمعاً بدراهمه ، وعرض الأمر للشيخ أبي صافي الخازن الذي كان الأمير فخر الدين المعني قد ولاه على جبة بشري ، فقبض على عاشينا وأخذته إلى سمار جبيل وعرض أمره على الأمير فخر الدين فأمر باهلاكه ، فقتله ودفنه عند جسر المدفون . وأتى والده المقدم شلهوب ليحتج عن ابنه فقبض عليه الشيخ أبو نادر الخازن ورفع أمره إلى الأمير فخر الدين ويّنه أنه من غرض ابن سيفاً فأمر بقتله أيضاً فقتل وزُجّ في المدفون .

وكانت الواجهة الكبرى بلبنان في أيام الأمراء المعنيين للمشايخ بني الخازن ، وقد مرّ في تاريخ القرن السادس عشر أنّ أرملة الأمير قرقماز معن أرسلت ولديها الأميرين فخر الدين ويونس فخبأتهم عند الشيخ ابراهيم ابن الشدياق سرّكيس الخازن ، ولما راق كآس السياسة وعاد الأميران المذكوران إلى ولايتهما بالشوف ، دعا الأمير فخر الدين ابراهيم الخازن وجعله معاوناً ومديراً له في حكومته ، وجعل أخاه رباحاً دهقاناً لأملاكه . ولما توفي الشيخ ابراهيم المذكور سنة ١٦٠٠م اتخذ الأمير فخر الدين ابنه خازناً المكتّى أبا نادر مديراً له مكان أبيه ، ولما اضطر الأمير فخر الدين أن يسير إلى أوروبا سنة ١٦١٢م ترك الشيخ أبا نادر مع أخيه الأمير يونس مديراً له كما كان معه .

وفي سنة ١٦١٣م لما عاد الأمير يونس إلى ولاية الشوف أرسل الشيخ أبا نادر والشيخ أبا ضاهر حبيش إلى كسروان ليحصيا الأشجار ويستوفيا ما عليها من المال مع ابن المسلماني الذي كان من رجال المعنيين . وأرسل الأمير يونس الشيخ أبا رحال خطاراً أخا أبي نادر إلى توسكانا إلى الأمير فخر الدين ليطلعه على أحوال البلاد . وفي سنة ١٦١٥م أرسل الأمير يونس الشيخ أبا نادر ومعه مملوك له اسمه ذو الفقار ليحكم في كسروان ويقيما بغزير . ولما عاد الأمير فخر الدين من رحلته سنة ١٦١٧ والتقاء الأمير يونس أخوه والشيخ أبو نادر إلى عكا ، أنعم على أبي نادر وعلى ذريته بولاية عمل كسروان جزاءً لصدق خدمته بحضوره وغيابه .

ثم سار أبو نادر مع الأمير فخر الدين لمقاتلة يوسف باشا سيفاً مجاداً لعمر باشا والي طرابلس، وعند عودهما حاصر الأمير فخر الدين قلعة جبيل التي كانت بيد جماعة ابن سيف وأخرجهم منهم بالأمان وولّى الشيخ أبا نادر على بلاد جبيل منضمة إلى كسروان. وفي سنة ١٦٢١م ورد أمر من الآستانة إلى الأمير فخر الدين أن يعاون والي طرابلس على يوسف باشا سيفاً إذا لم يدعن للوالي المذكور، وفّر يوسف باشا إلى عكا فأرسل الأمير فخر الدين رجالاً طردوا من جبة بشري العمال الذين كان يوسف باشا قد أقامهم بها وولّى عليها الشيخ أبا صافي الخازن رباحاً عم الشيخ أبي نادر كما مرّ. وفي سنة ١٦٣١ أصلح الشيخ أبو نوفل نادر الخازن ما كان قد خرب من قلعة سمار جبيل بزلزال قتل فيه ابنه نوفل ووالدته بنت الشيخ معتوق حبيش. ولما قبض على الأمير فخر الدين في مغارة جزين سنة ١٦٣٣م كان بمعيته الشيخ أبو نادر وعمه الشيخ أبو صافي وأخذهما معه إلى دمشق، فكفلهما الأمير اليميني وعادا إلى كسروان. وأما أبو نوفل فكان قد فّر مع الأمير حسين بن فخر الدين إلى قلعة المرقب، فأمسكهما خليل باشا وأخذهما إلى حلب. فانهزم أبو نوفل وعاد متكرراً إلى وطنه. ولما رأى الخازنيون شدة المضايقة لهم انهزم الشيخ أبو نادر وابنه نوفل وأخوه أبو خنطار عبدالله وسافروا إلى توسكانا بايطاليا سنة ١٦٣٥م وكان الشيخ أبو نادر مشهوراً عند الافرنج أيضاً فقابلته دوك توسكانا بالمعزة والاكرام. ولما تولّى الأمير ملحم المعني بلاد الشوف عاد المشايخ بنو الخازن من ايطاليا فردهم إلى اقطاعاتهم سنة ١٦٣٨م وجعل أبا نادر مديراً له كما كان قبلاً. وفي سنة ١٦٤٥م توفي الشيخ أبو صافي رباح الخازن في ساحل علما. وفي أول تموز سنة ١٦٤٧م توفي الشيخ أبو نادر خازن بن ابراهيم بن سركيس الخازن بعد أن كان مديراً للحكومة بني معن عدة سنوات وحاكماً بكسروان وجبيل والبثرون والجبة والمرقب، وخلفه بوجهاته ومساعدته الحميدة ابنه نادر المكتّى أبا نوفل.

وفي سنة ١٦٥٠م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل يجبي المال الأميري من بلاد البثرون، وكان الأمير التزمه من عمر باشا والي طرابلس. وفي سنة ١٦٥٦م أنعم البابا اسكندر السابع على الشيخ أبي نوفل بلقب كافلير أي فارس. وفي سنة ١٦٥٨م أرسل الأمير ملحم معن الشيخ أبا نوفل ليحبي الأموال الأميرية من عكار وجبة بشري وبلاد البثرون وأداها إلى الدولة بحسب تعهده، وكان

الحكام يثقون به كل الثقة . ولما توفي الأمير ملحم معن سنة ١٦٥٨م وخلفه في ولايته ابنه الأمير أحمد والأمير قرقماز جعلوا الشيخ أبا نوفل مديراً لهما كما كان عند والدهما . وسنة ١٦٥٩م أنعم لويس الرابع عشر ملك فرنسا على الشيخ أبي نوفل أن يكون قنصلاً لدولة فرنسا ببيروت ، ونال ذلك بعناية المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس ، وحاز أيضاً وكالة قنصلية البندقية . وقد رضي السلطان الأعظم عن اقامته في هذا المنصب وأثخفه بفرمان مؤذن بذلك ومبين حقوق منصبه . (تراه مترجماً في كتاب النبذة التاريخية في المقاطعة الكسروانية صفحة ٨٦) وهو الذي أسكن الرهبان اليسوعيين في عينطورا وأعطاهم محل ديرهم هناك من أملاكه . وفي الكتاب الموسوم بالرسائل المعمدة لليسوعيين رسالة مسهبة من هؤلاء الرهبان الذين أتوا حينئذ بالثناء على الشيخ أبي نوفل ومبراته وغيرته واتساع شهرته . يمكنك الاطلاع عليها في تاريخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٢٢ .

وقد سمعت مرات من الطيب الذكر البطريك بولس مسعد الشهير بمعرفته تاريخ ملتنا رواية ملخصها أنه لما فرّ الأمير أحمد والأمير قرقماز معن سنة ١٦٦٠م من وجه أحمد باشا كما مرّ ، واجتمع أعيان البلاد لاختيار حاكم غيرهما فانتخبوا الأمير محمد علم الدين اليميني ، ولم يدعوا الشيخ أبا نوفل وازدروه ، وعزل في تلك الأثناء علي باشا عن ايالة صيدا ، وقدم والي آخر فأخذ أبو نوفل يقمّم له الذخائر من حلب حتى بلغ صحراء جونية فالتقاه الشيخ أبو نوفل فشكر الوزير له وسأله ما يريد ، فأجابه لا أطلب نعمة إلا أن لا تعطى خلعة الولاية على قسبة دير القمر إلا بواسطة خادمكم العاجز ، فوعده الوزير بذلك . وعند حلوله بصيدا أسرع إليه أعيان الشوف يلتمسون تقرير ولاية الأمير محمد اليميني على دير القمر فأجابهم أنه لا يخلع على الأمير المذكور إلا أن يسأله ذلك الشيخ نوفل الخازن ، وأصرّ الوزير على قوله ، فاضطروا أن يحضر كثيرون منهم إليه في كسروان ، فبالغ في اكرامهم وسألوه أن يسير معهم إلى الوزير ، فتمنّع واكتفى بعريضة أصحابهم بها إليه ، فأجابهم إلى ما سألوه وعرفوا غلطهم وتهيبوا الشيخ أبا نوفل . وكان البطريك المذكور رحمه الله يقول لي إنّ البعض عزوا هذه الرواية إلى الشيخ أبي نادر ، ولكنني وجدت كتاباً قديماً دَوّن الرواية بالتفصيل معزوة إلى أبي نوفل . ولا أنذكر ما عنوان الكتاب ولا أين يوجد .

وفي سنة ١٦٦٤م عاد الأمير أحمد معن إلى ولايته بعد أن انتصر على اليمينيين

فرجع المشايخ آل خازن إلى اقطاعاتهم، وعاد الشيخ نوفل مديراً لحكومة الأمير أحمد، وفي هذه الأثناء قسم أبو نوفل حكومة كسروان على بنيه وكانوا ثمانية فأعطى أبا قانصوه فياضاً قسماً، وأبا ناصيف نوفلاً قسماً، وخازناً قسماً، وطرييه قسماً، وبقي بيده قسم كبير سلّمه إلى أبنائه الصغار وهم خاطر وسليمان وقيس وأبو النصر. وفي سنة ١٦٧١م أُحيلت اقطاعات كسروان وبكفيا وغزير إلى عهدة الشيخ أبي نوفل وأولاده بموجب فرمان سلطاني حفظ أصله عند الشيخ بطرس كنعان الخازن، وترى ترجمته مثبتة في تايخ الموارنة المطبوع ببيروت صفحة ٢٤٢. وفي سنة ١٦٧٩م في ١٣ آب توفي الشيخ أبو نوفل نادر الخازن.

وخلف أبا نوفل ابنه أبو قانصوه فياض وتمشى على آثار والده أبي نوفل وشرع سنة ١٦٨٠م في بناء دار له في قرية غوسطا وبجانيتها كنيسة على اسم النبي الياس، وتولّى في كسروان على القسم الذي خصّه به أبوه، وخلفه في قنصلية فرنسة ببيروت. وفي سنة ١٦٧٨م لما ضايق والي طرابلس أولاد أبي رزق البشعلاني الآتي ذكره فرّ أحدهم يونس بأولاده وأولاد أخيه إلى كسروان واحتوى عند الشيخ أبي قانصوه فياض المذكور، ودافع عنهم ابنه الشيخ حصن الآتي ذكره، فأقاموا في حماه، ونظن أنهم أقاموا بصليما ومنهم بيت البشعلاني الساكنين الآن في القرية المذكورة. وتوفي الشيخ أبو قانصوه فياض في ١٧ تشرين الأول سنة ١٦٩١م. وذكر الدويهي في تاريخ هذه السنة وفاة الشيخ المذكور وقال بعد موته عظمت شوكة بني حماده فقتلوا حنا الأسود في الكورة ونهبوا العاقورة. وكان الشيخ أبو قانصوه جزيل الكرم محباً للعلماء شجاعاً شديداً البأس.

وخلف أبا قانصوه ابنه حصن في ولايته وأنعم عليه ملك فرنسة لويس الرابع عشر بأن يكون قنصلاً لفرنسة ببيروت كأبيه وجدّه. وقد حفظ لنا العالم دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٨٦) براءة تنصيب الشيخ حصن المذكور قنصلاً لفرنسة ببيروت، وإليك ترجمتها عن الفرنسية:

«مرسوم الملك بتنصيب الأمير حصن الخازن الماروني»

لويس ملك فرنسة وناقارا وكنت بروفنس الخ. السلام لكل من يطلع على مرسومنا هذا، لما كنا نرغب في اجابة سؤال الأمير حصن الخازن في عريضته التي

رفعها إلينا وأن نعززه بحالة قنصلية بيروت إلى عهده كما كان أبوه وجدّه بمقتضى مرسومنا الصادر في غرة كانون الثاني سنة ١٦٦٢م، ولعلمنا بما له من الغيرة والصدق بخدمتنا وعنايته بخير رعايانا قد نصبناه بمرسومنا هذا الموقع عليه بيدينا قنصلاً على مدينة بيروت إذ فصلنا هذه المدينة عن قنصلية صيدا المتعلقة بها الآن، ونريد أن تبقى منفصلة عنها إلى أن نصدر أمراً آخر يخالف مرسومنا هذا. وقد أقمنا وأمرنا ونصبنا ونقيم ونأمر وننصب السيد حصن الخازن المذكور قنصلاً للأمة الفرنسية في فرضة بيروت المذكورة وملحقاتها ومتعلقاتها فله بتخويله هذا المنصب أن يلي ويباشر مدة حياته جميع الحقوق والسلطة والامتيازات والانعامات التي لباقي القناصل في المشرق، ورخصنا له أن يقيم عنده نائب قنصل بحيث يكون من أمة الفرنسيين ويكون هو مسؤولاً عنه في الأمور المدنية. وقد أعلمنا مستشارنا وسفيرنا في المشرق السيد شاتوناف دي كاستنيار إنه إذا ظهر له أنّ السيد حصن الخازن متصف بالسيرة الحميدة وحسن الآداب ومتمسك بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني يصرفه بالقنصلية المذكورة، وبما لها من الحقوق ولا يمنعه من ذلك أي مرسوم كان يخالف ما ذكرنا، وعلى السفير المذكور أن يبدل له كل مساعدة وعناية، ونأمر ربان كل مركب وسفينة تحت العلم الفرنسي وكل تاجر من أمتنا أن يعترفوا بأنه قنصلنا ويمثلوا أمره، ولا يمنع من ذلك الأمر الذي أصدرناه في ١١ آذار سنة ١٦٨٥م بأن لا ينصب من الأجانب قناصل لفرنسة لأننا استثنينا ونستثني من هذا الأمر السيد حصن الخازن فلا مفعول لذلك الأمر من قبله، فهذه هي ارادتنا ومسرتنا ونرغب إلى الباشاوات والولاة الاجلاء ونسأل من كان منهم الآن ومن يكونون من بعدهم ببيروت وملحقاتها أن يكونوا السيد حصن الخازن من تكميل فروض منصبه ولا يسمحوا بأن يكون له أقل مانع من اتمام فروض منصبه بل يبدلون له بعكس ذلك كل مساعدة ورعاية، وأشعاراً بذلك قد وقّعنا بختمننا على هذه البراءة الصادرة في ١٢ حزيران سنة ١٦٩٧م من سني النعمة وهي الخامسة والخمسون للملكنا. التوقيع لويس. وعلى طي البراءة بأمر الملك كونت بروفنس فيليب وختم بالمهر الكبير على الشمع الأصفر.

واليك أيضاً ترجمة جواب لويس الرابع عشر إلى الشيخ حصن قنصل فرنسة ببيروت نقلاً عن الكتاب المذكور:

« إلى السيد الأجلّ الأمير حصن قنصل الأمة الفرنسية ببيروت »

أيها السيد الأجلّ، إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافلير الماروني رسولكم، رفع إلينا الرسالة التي كتبتموها إلينا في شهر كانون الأول سنة ١٦٩٥م تطلبون بها أن ننصبكم قنصلاً ببيروت، ولا أشك في أنكم تقدرون حمايتي لكم حق قدرها وتصرفون عنايتكم إلى مساعدة رعاياي الذين يتاجرون في سورية، ولذلك أردت رغبةً في مصلحتكم أن أفصل مدينة بيروت عن قنصلية صيدا وأجعلها قنصلية مخصصة، وأمرت أن ترسل إليكم براءة تنصيبكم بها وبقوتها يكون لكم الحق لا أن ترفعوا العلم الفرنسي فقط على باب داركم كما كان يصنع جدكم وأبوكم، بل تكون لكم أيضاً الحقوق والانعامات التي يحرزها قناصل الأئمة الفرنسية. وقد سلمت إلى رسولكم عدة رسائل إلى سفيري بالقسطنطينية، وإلى قناصل فرنسة بجواركم وأمرتهم بأن يبدلوا لكم كل الرعاية والعناية بكل ما يتعلق بكم عند طلبكم ذلك، لنفعمكم ومساعدة أبناء ملتكم. وأسأله تعالى أن يرعاكم أيها السيّد الأجلّ بعين حراسته المقدّسة. كُتِبَ في فرسايل في ١٣ من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الرسالة، كولبر» (وهو وزير لويس الرابع عشر).

ويلي ذلك في الكتاب المذكور رسالتان إلى الشيخ حصن إحداهما موقع عليها بونشترتران فحواها أنه تلا على مسامع جلالة الملك رسالته التي سلمه إياها يوحنا مارماكون رسوله. وإنّ جلالته تعطف بفصل قنصلية بيروت عن صيدا وتحويلها إلى عهده، وإنه مرسل له البراءة في طي كتابه وهي في تاريخ ٢ حزيران سنة ١٦٩٧م. والثانية بتوقيع دي تورسي وفحواها أنّ عظمة العاهل تعطف عليه بإيلائه المنصب الذي كان فيه المرحوم أبوه، وإنه تلا الرسالة التي كان هو أنفذها باسم أبيه بعد عرضه الرسالة على مسامع جلالة الملك انعطف إلى إيلائه قنصلية بيروت. وكتب في ذلك إليه وإلى سفيره في القسطنطينية وإلى قناصل فرنسة بجواره يأمرهم بمعاونته ورعايته في كل ما يتعلّق به وبمجلّته. وتاريخ هذه الرسالة في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م.

ويظهر أنّ الشيخ ناصيف بن نوفل ابن عم الشيخ حصن القنصل قد رفع أيضاً إلى الملك لويس الرابع عشر عريضة يشكو بها سوء حالهم عند نكبة دولة المعنيين المار ذكرها واختفاء الأمير معن فأجابه الملك لويس برسالة هذه ترجمتها:

« إلى السيد الأجلّ ناصيف أمير الموارنة »

أيها السيد الأجلّ، إنّ كتابكم الذي رفعه إلينا السيد يوحنا مارماكون الكافير الماروني موفدكم إلينا علمنا منه سوء المعاملة التي يعاملكم بها الحاكم الجديد الذي نصب عن عهد قريب مكان الأمير أحمد بن معن، واتّضح لنا منه أيضاً أنّ من اللازم تفادياً من الضّرّ للدين الكاثوليكي ورغبةً في تأييده في بلادكم أن نصرف عنايتنا لدخولكم بصفة حاكم على البلاد التي كنتم تتولون ادارتها من عهد قريب إذ تدفعون للبasha والي طرابلس المال المفروض على هذه البلاد. ولما كنت أرغب رغبةً شديدة في أن أساعدكم على ما يعود بالنفع عليكم ولا سيما متى كان ذلك ملائماً للحماية التي بذلتها في كل وقت للكاثوليكين بالشرق قد سلمت إلى موفدكم أوامر وجهتها إلى سفيرى بالقسطنطينية ليصرف عنايته الفعالة لينال لكم ما تبتغون. وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدسة. دُونَ بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧م. التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة، كولبر.

وكتب الوزير دي تورسي كتاباً آخر إلى الشيخ ناصيف هاك ترجمته.

« أيها السيد الشريف الأجلّ، إنكم تعلمون من الرسالة التي كتبها إليكم سيدي العاهل جواباً على رسالتكم التي أنفذتموها إليه على يد السيد مارماكون رسولكم، كم تهتم جلالته بما يعود بالنفع عليكم وعلى الدين الكاثوليكي، ولا أشك في أنكم تشعرون بأقرب وقت بمفاعيل الحماية التي يبذلها لكم بواسطة أوامره الموجهة إلى سفيره بالقسطنطينية ليصرف عنايته الشديدة ليستمد لكم ما ينقذكم من الضيق الحاصل عليكم، وينفع المسيحيين أبناء ملّتكم. ولم يبق لي إلّا أن أحقق لكم لاني لا أنفك عن أن أرجو جلالته ليواصل كل وقت حمايته لكم وأن تتيقنوا أنني صديقكم المخلص ». التوقيع ديتورسي عن فرسايل في ٢ تموز سنة ١٦٩٧م. ويظهر أنّ رئيس أساقفة نيقوسية ومتربوليت قبرص نائب البطريرك اسطفانوس الدويهي في مدة غيابه رفع عريضة إلى لويس الرابع عشر بالمعنى الذي كتب به الشيخ ناصيف الخازن، وبالتماس القنصلية للشيخ حصن فأجابه الملك عليها وهاك ترجمة الجواب.

« إلى السيد الأجلّ رئيس أساقفة نيقوسية متربوليت قبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في جبل لبنان في غياب البطريرك اسطفانوس^(١) »

أيها السيد الأجلّ تناولت الكتاب الذي رفعه إليّ من قبلكم السيد يوحنا مارماكون رسول طائفكم، وبه تبيّنون لي الضيق الحاصل ببلادكم الآن وتسألونني فيه أيضاً أن أنصب الأمير حصناً قنصلاً لفرنسة بيروت، فعنايتي بجميع الذين يقرون بالدين القويم في أية جهة كانوا من العالم لا تدع لكم محلاً للريب في عنايتي بكم خاصة، ولذلك شئت بطيبة خاطر أولي الأمير حصناً قنصلية بيروت مفصولة لهذه الغاية عن قنصلية صيدا، وقد كتبت في الوقت نفسه إلى سفييري بالقسطنطينية وإلى قناصل حلب وصيدا وطرابلس أن يذلّوا العناية الفعالة بما يعود بالنفع على ملّتكم وكاثوليكيي المشرق الآن وفي كل فرصة تسنح لذلك. وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم أيها السيد الأجلّ بحراسته المقدّسة. دوّن بفرساي في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧ م. والتوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة. كولبر.

وهذه ترجمة الرسالة التي بعث بها لويس الرابع عشر إلى سفييره بالآستانة.

« إلى السيد دي كاستنيار مستشار دواويني وسفييري غير العادي بالقسطنطينية »

إنّ السيد يوحنا مارماكون الكافليير الماروني الموفد من قبل الأميرين ناصيف وحصن ومن قبل مطران نيقوسية رئيس الدين الكاثوليكي الروماني بغياب البطريرك اسطفانوس قد رفع إليّ رسائل منهم يسألون بها حمايتي من الضيق الملّم بهم بعد أنّ السيد الأعظم (السلطان) ولّى على بلادهم الأمير أبا موسى علم الدين عوضاً

(١) أين كان الدويهي حينئذ لا نعلم حقيقة. على اننا نعلم ان نكباته كانت كثيرة وغياباته عن كرسيه متواترة.

عن الأمير أحمد بن معن ، ولتتمسكون أن يعطى أحدهم الأمير حصن قنصلية بيروت ليتمكن من نشر العلم الفرنسي ونيل حقوق القنصلية والانعادات المختصة بقناصل الأمة الفرنسية ، ويحمد بذلك جذوة ماحق بهم من الضيق . ولما كان عزمي أن أساعد بكل وسعي على راحة جميع المستنيرين بالإنجيل المقدس في أي قطر كانوا من العالم ، فأنا مرسل إليكم كتابي لأبلغكم ارادتي ومرغوبي أن تستوعبوا ما يشرحه لكم معتمدكم المذكور لحير الدين الكاثوليكي ونفعه ، وأن تبدلوا بعد ذلك العناية باسمي لتتولوه كل ما يبتغيه من الأمور المعقولة ، وأخيراً أسأله تعالى أن يحفظكم بحراسته المقدسة أيها السيد دي كستنيار . كتب في فرسايل في الثالث من تموز سنة ١٦٩٧ م . والتوقيع لويس . وفي أسفل الصفحة كولبر .

وقد أصبح المركيز دي تورسي الوزير وكاتب سر المملكة الكافير يوحنا مارماكون برسالة إلى السفير المذكور مرسلأ له أمر الملك وموصياً بالكافير المذكور . وتاريخ رسالته ١٣ تموز سنة ١٦٩٧ م . وقد كتب الوزير دي تورسي المذكور أيضاً رسالة بأمر الملك إلى قناصل فرنسة بحلب وصيدا وطرابلس فحواها أن جلالة الملك أمره أن يكتب إليهم مبيئاً رغبة جلالته بمساعدة الأميرين نصيف وحصن الخازن ومطران نقوسية نائب البطريرك بغيايه ، وأن يذلوا بكل فرصة عنايتهم الفعالة بالمذكورين لي شعروا بمفاعيل حماية جلالته . وإنه جعل الأمير حصناً قنصلاً ببيروت منفصلة عن صيدا ، وإن مقصد جلالته بذلك أن يخفف من جهة ثقل الضيق الملم بالمذكورين وأن يزيد من جهة أخرى عنايته برعاياه الذين يتجرون بالمدينة المذكورة وملحقاتها . وإنه كتب إليهم بطيبة خاطر توصاة بالكافير يوحنا مارماكون معتمدكم لدى جلالته . وتاريخ هذه الرسالة ٣ من تموز سنة ١٦٩٧ م .

وبعد وفاة الشيخ حصن قنصل فرنسة سمي ابنه الشيخ نوفل قنصلاً مكانه كما سترى في تاريخ القرن الثامن عشر .

وكان من أعيان طائفتنا في هذا القرن المشايخ آل حبيش فكان منهم الشيخ أبو ضاهر حبيش الذي أرسله الأمير يونس المعني إلى كسروان مع الشيخ أي نادر الخازن سنة ١٦١٣ م ليعدا الأشجار في هذا العمل ويجيبا المال المفروض عليها . وكان منهم أيضاً الشيخ أبو فارس حبيش الذي قُتل في الوقعة التي كانت بين القيسية واليمينية في مرحاتا سنة ١٦٣٦ م كما في تاريخ هذه السنة .

وفي سنة ١٦٨٠م كتب الأمير أحمد المعني صكاً للشيخ طرييه بن موسى حبيش وللشيخ أبي شديد سيف بن طالب حبيش يوليها له على غزير، فكانت اقطاعاً لآل حبيش.

عد ٥٧

أبو رزق البشعلاني وابنه يونس

كان من أعيان الموارنة في هذا القرن الشيخ أبو رزق البشعلاني، وقد ذكره العلامة الدويهي لأول مرة في تاريخ سنة ١٦٤٣م، ولم ينبئنا بأصله ولا نسبه بل قال في هذه السنة عُزل محمد باشا الأرنؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا، وكان كأخيته الشيخ أبو رزق البشعلاني (نسبةً إلى بشعلي في عمل البثرون). ثم قال في تاريخ سنة ١٦٤٩م عُزل (ثانيةً) الأرنؤوط عن ايالة طرابلس وتولاها صهره عمر بك، واسترد ابن الصهيوني وأبا رزق البشعلاني ونصب أخاه أبا صعب البشعلاني شيخاً على جبة بشري. ثم قال في تاريخ سنة ١٦٥١م عُزل عمر باشا المذكور عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا فأسلم أمورها إلى الشيخ أبي رزق البشعلاني، إلى أن قال ثم تقوى عليهم (أي على أبي رزق وحلفائه) ابن الصهيوني وتسلم تدبير أمور طرابلس، وصادر أبا رزق وأتباعه. وقال في تاريخ سنة ١٦٥٣م قبض محمد باشا الأرنؤوط على الشيخ أبي رزق بحجة أن بعض آل حبيش قدموا إلى داره ومعهم جمعة بداعي زواج أحد أولادهم، فتم بعض أهل الفساد إلى الباشا قدومهم إنما كان لمضرة له، فأمر الباشا بالقبض على أبي رزق وأولاده وضيوفه وسجنهم بالقلعة مكبلين بالقيود، وكان عددهم تسعين نفساً. ونهبوا داره واستباحوا ماله، وبعد ذلك ورد الخبر بعزل الأرنؤوط وتولية قرا حسن. فتوجه الأرنؤوط إلى حماه لجباية المال وأخذ أبا رزق والسجناء معه. ودعا أبا رزق للحساب عما دخل ليده من المال، وادعى أن الباقي عليه اثنا عشر ألفاً، وبلغ الوالي الجديد إلى حماه وأعاد الحساب بينهما فثبت أن الباقي على أبي رزق أربعة آلاف وخمس مئة قرش دفعها عنه ابن الصهيوني، وخلى قرا حسن الوالي الجديد سبيله وسبيل السجناء. وأراد أن يعهد بتدبير أموره إلى الشيخ أبي رزق، ولكن وصل قبوجي من الباب العالي يطلب رأسه، فأشار عليه الوالي وابن

الصهيوني لم يسلم فدية لنفسه ، فأذعن مكرهاً لرأيهما . وأعطوا القبوجي ألف قرش فعاد إلى الآستانة . ودخل أبو رزق طرابلس مع قرا حسن والتزم منه جبلة واللاذقية وأوصى قبل سفره إليهما أخاه أبا صعب أن يأخذ أولاده ويسير بهم إلى بلاد ابن معن ، فشق ذلك على الوالي ووجس أبو رزق من مضرتة له فتزوج بامرأة موسى باشا ليبعد الوالي عن الظن بردته . وفي سنة ١٦٥٤م صير بشير باشا نائب حلب وزيراً وسار قاصداً الآستانة ، وعند وصوله إلى أدنه قُدمت له الشكوى على أبي رزق أنه كان ميالاً إلى ابن معن ، وأرسل أولاده إليه مع أخيه أبي صعب وإن أخاه هذا كان مع ابن معن في وقعة وادي القرن المار ذكرها . فأمر بقتله فُقتل في أوائل شهر آذار من السنة المذكورة . ذكرنا بعض هذه الأخبار في التاريخ العام وأعدنا ذكرها هنا لعزمننا أن نفصل من هذا التأليف تاريخ الموارنة في كتاب على حدة ، فكان لا بد من هذه الاعادة .

وأما الشيخ يونس ابن أبي رزق المذكور فقال في حقه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٧م إنَّ حسين باشا والي طرابلس قبض على الشيخ يونس وأخوته عبدالله ورزق وأولاهم بسبب دعوى والدهم أبي رزق البشعلاني ، فاضطر يونس أن يطلب الاسلام لينجي عيالهم من القتل والاسلام . فهربوا جميعاً في ٢٩ ايلول ومعهم نحو عشرين نفساً إلى قاطع كسروان مستجيرين بالأمر أحمد معن والشيخ أبي قانصوه فياض الخازن ، فنجدتهم ابنه حصن وأمنهم برجاله حتى حلوا بحكومة ابن معن سالمين ، وهناك جاهر يونس بصحة عقيدته . ثم قال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩٧م قبض قبلان باشا والي طرابلس على الشيخ يونس بن أبي رزق البشعلاني وعرض عليه الاسلام فتمنّع فرفعه على الخازوق في ٢١ أيار من السنة المذكورة .

هذا ما رواه الدويهي ، ولكن أتحفنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان (مجلد ٢ صفحة ٢٦٣) بترجمة الشيخ يونس المذكور مسمى أياه أميراً فنلخص عنه ما يأتي قال:

« كان الأمير يونس من أسرة شريفة بلبنان ومن ذوي قربي حاكم الملة المارونية ، وله أملاك في سفح لبنان في ناحيتي طرابلس وجبيل لا يقل دخلها عن ألف ليرة ، وكان حسن الشكل زكي العقل محنكاً بالسياسة ، يحبه الجمهور ويثق

به وزراء الباب العالي . وقد استعمله كثيرون من ولاية سورية في أهم أعمال حكومتهم حتى كاد قدره يساوي قدر الولاية . على أن ثروته ومنزلته هيّجتا عليه حسد أقرانه . ومباشرة أعمال منصبه أورثته خصوماً له ائتمرا على اهلاكه ، وأسخطوا عليه قبلان باشا ابن المطرجي والي طرابلس وشكوه بجرائم كثيرة ، وتمحلوا لها دليلاً بزيادة ثروته ، فارتاح الباشا إلى سماع شكواهم وقبض على الأمير يونس وأخيه الأمير يوسف وزوجتيهما وأولادهما وكثيرين من أنسبائهما وأتباعهما ، وكانوا نحو خمسين شخصاً ألقوهم في السجن ، وهددوا الأمير يونس بالقتل والحاق جماعته به إلا أن يجحد الدين المسيحي ويسلم . فأظهر بادئ ذي بدء الشجاعة والثبات وازدري التهديد والوعيد على أنه لدى تبصره بحالة أسرته والخطر الذي يلم بها من جهة الدين إذا قُتل قبلهم عوّل على أن يتظاهر بالاسلام فيقي نفسه وذويه من التهلكة واشترط شرطاً صريحاً أن يسلم وحده وتبقى أسرته وذووه نصارى ، وأن يخلي سبيلهم أجمع . فقبل الباشا شرطه وأكتفى أن ينطق هو وحده بالشهادتين . وأباح ذويه حرية دينهم وأخرجهم من السجن . وقد قال يونس قبل مقتله إنه قام بضميره حينئذ أن عمله هذا جائز بل مندوب إليه لينجي ذويه وينقذ بناته وبنات أخيه من الزواج برجال مسلمين .

وجامل الأمير يونس الباشا بعد ذلك أربعين يوماً ليخفي مقصده وأرسل سراً امرأته وأولاده وذوي قرباه إلى أعلى جبل كسروان . ولما تحقق أنهم أصبحوا آمنين فرّ هو من طرابلس وسار أولاً تَوّاً إلى بطريك الموارنة معترفاً بالضعف الذي استحوذ عليه وباكياً من جراء ائمه وصرّح بأنه ما انفك مسيحياً . وتلى دستور ايمانه وتقبل القانون الذي فُرض عليه وحلّه البطريرك من ائمه . ورغبةً في أن يبرئ ساحته أمام الناس أيضاً جمع رؤوس التشكيات الواردة عليه ويثبتات الاكراه الذي أنزل به وأرسل ذلك إلى الآستانة مصحوباً بالحجج اللازمة للدفاع عن نفسه على يد أحد أصدقائه ، وعرض أمره في الديوان السلطاني . ولما كان من متعلقات الدين أمر جلالة السلطان أن يحال النظر بالدعوى إلى المفتي الأكبر بالآستانة ، وهذا بعد التحري بالدعوى حكم أن تظاهر الأمير يونس بالاسلام لا يعول عليه لصدوره عن اكراه . وأن لا يؤخذ فيما بعد باسلامه . فأثنى الكثيرون على عدالة العثمانيين وانصافهم .

ولم تكن راحة لضمير الأمير يونس من جراء العثار الذي تسبب به بطرابلس فنزل إليها وجاهر أمام الباشا وديوانه بدينه المسيحي ، وطاف بالمدينة مصرحاً

بذلك ، فأغضى المسلمون على هذا الصنيع وغزل والي المدينة وتُصب غيره فدعا الأمير يونس وأقامه على برية طرابلس واستحصل له أمراً سامياً مثبتاً حكم المفتي السالف ذكره . ومبيحاً اياه وعائلته البقاء على دينهم المسيحي دون أن يزعجهم أحد . فاستمر الأمير يونس وذووه راتعين في بحبوحة الأمن والرغد خمس سنين مباشراً أعمال مأموريته بكل أمانة ونزاهة ، إلا أنه سنة ١٦٩٥م بُدِّل والي طرابلس ومات من كان له من الأصدقاء في الآستانة إذ انقلب الدهر عليهم ، فاغتنم أعداؤه هذه الفرصة ليهلكوه . فاتهموه بعدة جرائم وشكوه إلى والي الجديد وأدعوا عليه أنه سبَّ دينهم وقذف بالاسلام . فقبض عليه والي وغلله في السجن وما انفك مدة سنتين يقرفه ويهدده ويتملقه ليكفر بدينه ، ووعده بأن يوليه أسمى المراتب ويرشحه إلى الخلافة بعده بحكومة طرابلس فلم تستمله كل هذه الوسائل إلى الاذعان للوالي ، بل كان يشكر الله على انزال هذا الاضطهاد به تكفيراً عن زلته السالفة . وحاول والي مرات أن يستميله فلم يكثرث بكلامه ، وأسمعه أخيراً ما أوغر صدره عليه ومزَّق ثوبه وحكم عليه أن يموت على الخازوق . وكان الولاة في تلك الأيام مسلطين على حياة الرعايا وموتهم ، وقبل تنفيذ الحكم عليه أرسل والي عدداً من أصحابه يغرونه بالرضوخ لمرغوبه فأبى ، ثم حملوه الخازوق وخرجوا به إلى تلّ قريب من المدينة والناس من أمامه وورائه بعضهم يقرّعه، بعضهم يحثه على ارضاء والي وهو أبكم أصمّ عن سماع كلامهم . وقبل رفعه عليّ العود أرسل والي يعده بالعفو عنه وعن ذويه ورد أملاكه إليه فلم يكن يجيب إلا أسلم نفسي بيد الله وهو يهتم بي وبذوي وأملاكي ، ولم ينفك دقيقة موته يستبج الرب ويشكره ويدعو باسمه ويلجأ إلى رحمته وإلى العذراء والقديسين ، ويكرر تلاوة قانون ايمانه إلى أن أسلم نفسه بيد الله في شهر أيار سنة ١٦٩٧م .

وبقيت جثته خمسة أيام على آلة عذابه وشرذمة من الجند تحرسها ، وشهد شهود عدل وبتوا شهادتهم باليمين أنهم رأوا اكليلاً من نور على رأسه ليلاً مدة بقاءه على تلك الحال ، وشاهده الحراس فدهشوا وفزّوا . وأخيراً سأل بعض المسلمين والي أن يأمر بدفن جثته تفادياً من حصول ثورة من جرا ذلك ، فسمح والي لأحد اقربائه أن يُنزل جثته فأنزلها ووضعها أولاً في بئر قرية من مقبرة الموارنة ثم نقلها سراً بعد يومين إلى مدفن خلف المنبر في كنيسة القديس يوحنا بطرابلس .

وبعد موت الأمير يونس اهتم بعض أصحابه أن يخرج الأمير يوسف أخاه من السجن الذي كان به ، فاسترضوا الباشا عنه وخرج وسار إلى أوروبا يسأل المحسنين ما يقوم به بأوده وأود عائلته وعائلة أخيه . قال دو لاروك قد رأيته بباريس مدة أشهر صابراً على مصابه مسلماً إلى مشيئة الله راضياً بأحكامه ، وقد أكرمه الملك وكتب إلى سفيره بالآستانة يوصيه به . ومثل ذلك كتب إلى قناصله ودون رسالة إلى بطريرك الموارنة يعزیه بهذه الفاجعة . ودفع إليّ الأمير يوسف المذكور شرحاً وافياً في حياة أخيه وموته فأخذت عنه هذا المختصر وهو مطابق لما كتبه بطريرك الموارنة إلى الحبر الروماني وملك فرنسة بهذا الشأن مصادقاً عليه من أساقفة جبل لبنان . وللتقرير الذي كتبه قنصل فرنسة بطرابلس مصادقاً عليه من الرهبان الفرنسيين والاسبانيين في المدينة المذكورة . وروى هنري موندل الانكليزي في كتاب رحلته من حلب إلى أورشليم أنّ قنصل انكلترا صحبه للفرجة على قلعة طرابلس في ٨ أيار سنة ١٦٩٧م وكان يونس مسجوناً فيها لأنه أسلم ثم ارتد . وإنه مات على الخازوق بعد يومين من سفر هذا الكاتب أي في ١٢ أو ١٣ أيار سنة ١٦٩٧م .

وهذه ترجمة المنشور الذي كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهي موصياً بالشيخ يوسف المذكور .

« الحقيير اسطفانوس بطرس البطريرك الانطاكي »

السلام والبركة الرسولية لكل مطالع أو سامع وثيقتنا هذه

ليكن معلوماً أنّ ولدنا العزيز أبا يوسف رزق هو رجل ماروني كاثوليكي من رعيتنا ومن أعيان الملة المارونية ، وهو أخو الشيخ يونس الذي أكره على أن ييدي جحود الايمان بفمه لا بقلبه ليخلص نفسه وأولاده ، لكنه حالما ساعده الله على الفرار بعد نحو أربعين يوماً انسلّ ليلاً بأولاده إلى ناحية كسروان وهناك اعترف بإثمه ، وقبل طائعاً خاشعاً القانون المفروض عليه ، واهتم بعد ذلك فنال من جلالة السلطان الأعظم أمراً سامياً مسنداً إلى حكم القضاة بأنّ جحوده ايمانه مكرهاً لا يعتمد عليه ، وتظاهره بالاسلام باطل ولا صحة له . وبعد ذلك سار إلى طرابلس وجاهر علانية بدينه المسيحي مدة خمس سنوات ، وأضمر له الضغينة والحقد بعض

أصحاب الأمر بالمدينة المذكورة إلى أن تمكنوا من القائه بالسجن واماتته على الخازوق، وكان يجاهر في مدة هذا العذاب بجسارة وبسالة بالايان ييسوع المسيح، وقد قبض معه على أخيه يوسف رزق وألقي بالسجن أيضاً، وألجأه الحال إلى خسارة مبالغ وافرة من المال. وباعت الحكومة أملاكه وأثاثه حتى بيته نفسه، ولما لم يعد يستطيع أن يعيش ببلاده بحسب مقامه ولا أن يقوم بأود عائلته أي أولاده وأولاد أخيه يونس هم خمسة عشر شخصاً، وقد اضطر إلى استئانة مبالغ من المال لتقديم النفقة اللازمة لحياتهم وليس له ما يفي، وقد لجأوا إلينا مراراً سائلين أن نصحب بهذه الوثيقة يوسف المذكور أبا هؤلاء الصغار وعمهم فمأولنا بغيره أصحاب عمل الخير ومحبتهم لجراح المخلص ووالدته الكلية الطهر أن تأخذهم الشفقة على المذكورين وأن يمدوا يد سخاهم إلى الشيخ يوسف المذكور وأولاده وأولاد أخيه ويكون لهم من لدنه تعالى الأجر العظيم والمجد والتسبيح لمن قال في انجيله المقدس: «ما صنعتموه إلى أحد أخوتي هؤلاء الصغار فألّي صنعتموه» ونسأله جلّ شأنه نحن وهم أن يجزيهم على احسانهم مائة ضعف في هذه الحياة والحياة الأخرى الأبدية.

أعطي بكرسينا قنوين في اليوم الخامس من شهر تشرين سنة ١٦٩٩م. «وعدا توقيع البطريك في أعلى هذه الوثيقة دُيِّلت بتوقيع يوسف الحصاراتي أسقف جبيل بحوقا ويوسف حبقوق أسقف البترون بقزحيا وجبرائيل الدويهي».

عد ٥٨

أعيان موارد آخرون

من أعيان الموارد أيضاً في هذا القرن الشيخ أبو كرم الحديدي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٥م. فقال إنّ مصطفى باشا والي طرابلس أقام على حكومة جبة بشري الشيخ أبا كرم يعقوب ابن الرئيس الياس الحديدي، وقال في تاريخ سنة ١٦٣٩م تولّى طرابلس محمد باشا الأرناؤوط فأتى للسلام عليه أصحاب الاقطاعات ما عدا أصحاب آل سيف وأبا كرم الحديدي. وفي سنة ١٦٤٠م في ١٦ نيسان أرسل والي طرابلس المار ذكره عسكرياً للقبض على الشيخ أبي كرم الحديدي

حاكم جبة بشري لأنه لم يحضر للسلام عليه ، فقبض العسكر على ابن عمه سعد ، وضيّق على الأديار والقرى بحجّة التفتيش عليه وعلى أولاده وأتباعه وضبط أملاكه ، وعظم الضيق وكثر الخراب والسلب والنهب فلم يتحمل أبو كرم هذا التنكيل بأهل بلاده فانحدر إلى طرابلس طائعاً مستسلماً على يد القاضي ، فأمر الوالي بأن يُلقى في السجن بالقلعة ، ثم طوّفه على جمل بشوارع المدينة وفي قفاه مشاعل نار ، وعرضوا عليه الاسلام فأبى إلاّ التشبث بدينه فمات مشنوقاً .

ومنهم أبو جبرائيل يوسف الاهدني وكان شريكاً للشيخ أبي كرم الحدثي وتوفي سنة ١٦٤١م بعد أن حكم جبة بشري عشر سنين ، وخلفه بعد وفاته أخوه الشدياق أبو ذيب ابن الشمس جرجس الأهدني فقتله محمد العراك بقرية زغرتا بدسياسة من بيت حماده المتأولة ومصطفى بك ابن الصهيوني مدير ايالة طرابلس . وتولّى حكم جبة بشري بعده المقدّم زين الصواف ، وكان معه أبو عون بن الغمة من بكفيا .

ومن هؤلاء أيضاً أبو كرم بن بشاره ، وقد ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٦م وقال إنّ حسن باشا لما استقر على ولاية ايالة طرابلس ولّى أبا كرم بن بشاره على جبة بشري ، وأرى أنّ أبا كرم هذا هو جد آل كرم . وقد خلف أبا جبرائيل يوسف الأهدني وأخاه الشدياق أبا ذيب جرجس المار ذكره في الولاية على جبة بشري ، ولكن أمين عائلتهما كانا أم من عائلة أخرى لا أستطيع أن أحققه حتى الآن ، ولكن مما لا ريب فيه أنّ العامة في اهدن تسمي آل كرم بيت أبي كرم إلى الآن .

ومن هؤلاء الكافير يوحنا مارماكون الذي تقدّم ذكره ، وكان موفد الشيخ حصن والشيخ ناصيف الخازن ومطران نيقوسية بقبرص إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا كما مرّ . ولكن من هو هذا يوحنا مارماكون؟ فالذي يتبادر إلى فهمي أنه الكافير ناضر صفير الذي بنى هو وأخوه الخوري جرجس صفير دير القديس مارون بالرومية المعروف الآن بمدرسة الرومية نحو سنة ١٦٩٦م ، إلاّ أن يكون مارماكون من موارنة قبرص لأنه موفد مطران نيقوسية أيضاً . وقد أثبت دي لاروك في كتابه المذكور صفحة ٣٠٨ براءة تسميته كافير أي فارساً من جمعية الفرسان المنسويين إلى سيدة الكرمل ، والقديس العازر حيث يقول فيليب دي كورسبليون ماركي دي

دانجو رئيس هذه الجمعية لرغبتنا في اجابة سؤال الكافليز يوحنا مارماكون الماروني الموفد من جلالة الملك من قبل الأمراء ناصيف وحصن ومطران نيقوسية بقبرص ورئيس الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني بلبنان في مدة غياب البطريرك اسطفانوس أن نقبله ونحصىه في عداد فرسان سيدة الكرمل والقديس العازر بأورشليم. وبعد أن اتضح لنا أنه ثابت بالدين الكاثوليكي الرسولي الروماني وأنه حسن السيرة، وإنّ الداعي لقدمه إلى فرنسة إنما هو ليهتله إلى جلالة الملك في أن يبذل عنايته لدى السلطان العثماني لينتول نصارى بلاده الراحة والأمن. ولما كان الملك سماه كافليراً في مرسومه إلى ناصيف أمير الموارنة، وفي مرسومه إلى سفيره بالآستانة، وكان يهمننا أمر جبل لبنان والأرض المقدسة حيث أنشأت جمعية فرسان القديس العازر، قد أحببنا سؤاله وقبلناه في جوقه هؤلاء الفرسان وأحصىناه في عديدهم ليكون له ما لهم من الشرف والحقوق والانعامات. وعليه أن يبرز يمين الأمانة المعتاد، ويلزم أفراد هذه الجوقة في أي مقام كانوا أن يعرفوه كذلك. وبياناً لذلك قد وقّعنا على هذه الوثيقة بخط يدنا ومهرناه بمر الجمعية. أعطي بباريس في ١٦ تموز سنة ١٦٩٧ م.

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ٥٩

البطريرك يوحنا مخلوف

فرغنا من كلامنا على هؤلاء البطاركة في القرن السادس عشر بذكر وفاة البطريرك يوسف الرزي في شهر آب سنة ١٦٠٨ م. وبسبب القلق بالبلاد لم يتمكن الأساقفة من الاجتماع في اليوم التاسع بعد وفاته كالعادة لانتخاب خلف له، فتأجل الانتخاب إلى أوائل شهر حزيران سنة ١٦٠٩ م فاجتمع حينئذ الأساقفة

والأعيان واختاروا الأسقف يوحنا بن مخلوف من اهدن . وكان البطريرك يوسف الرزي قد رقيه إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م ليكون معاوناً له في تدبير أمور دير قنوين . وبعد انتخابه بطريركاً سَير إلى روما القس جرجس بن مارون والقس الياس ابن الحاج يوحنا من اهدن والشماس يوسف من كرم سدة ليأتوه بالتثييت من البابا بولس الخامس . وعند مرورهم بقبرص أخذوا معهم القس كسبر الماروني تلميذ مدرسة روما ، وكان مشهوراً بالعلم والبرارة فنالوا من لدن الحبر الأعظم الاعزاز والتكريم ودرع الرئاسة للبطريرك وعاد المذكورون إلى لبنان في ١٠ آذار سنة ١٦١٠م . وقال بياجوس ترسي (في كتابه سورية المقدسة صفحة ٥٣) في حق هذا البطريرك : « قد تَلَأَّت به أنوار الفضائل فتسامى بها حتى لُقِّب بالقدّيس . وأُناَر الكنيسة الشرقية بعلمه وعزاها بغيرته . وكان له لدى الأُحبار الأعظمين أعلى مرتبة فأَتَحَفَّوه بهدايا نفيسة ونولوه نعماً مشرفة موازية لفضله واستيهاه » . ففي سنة ١٦١٢م أرسل إليه البابا بولس الخامس في تاريخ ٢٢ تشرين الثاني رسالة يفوِّض إليه بها أن يمنح البركة الباباوية لجميع الموارنة رجالاً ونساءً ، ومن حضر منح هذه البركة وكان معترفاً ومتنولاً يربح غفراناً كاملاً . وترى ترجمة هذه الرسالة مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٧ .

ولما ارتقى البابا غريغوريوس الخامس عشر إلى كرسي الحبرية العظمى أرسل البطريرك يوحنا يهنئه بارتقائه ويطلب منه البركة له ولشعبه ، وأن يتكرّم على الطائفة بطبع كتاب الشحيم كما كان سالفه قد أمر بذلك . فورد له الجواب في تاريخ ١ تموز سنة ١٦٢٢م صحبة قاصده الأب ليونردوس من رهبان القديس فرنسيس إنه صار الشروع في طبع الشحيم ، وثبت له الغفرانين الذين كان البابا بولس الخامس قد أنعم بها على من يزورون كنيسة قنوين الكرسي البطريركي في عيد بشارة العذراء وعيد انتقالها ، وعيد الرسولين بطرس وبولس ليربحوا غفراناً كاملاً إذا كانوا معترفين ومغتذيين بالقربان الأقدس . ومنح زوار كنيسة قنوين الغفرانين التي يربحونها لو زاروا كنيسة زعيم الرسل بروما أو غيرها من الكنائس القائمة داخل أسوار رومة . وترجمة هذه الرسالة تراها مثبتة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٢٣ . وفي السنة المذكورة كان قحط في البلاد فأمر البطريرك بنصب كرم درغاتا مفلح نحو عشرة فدادين وأشغل به عملة كثيرين ، فكانوا يأكلون نهاراً على نفقة الكرسي ويأخذون مساءً الزاد لعيالهم .

وفي سنة ١٦٢٤ جعل دير حوقا مدرسة ابتدائية يتعلّم بها الشبان العلوم الاكليريكية ، ومن نبغ منهم أرسله إلى مدرسة الطائفة بروما . وأرسل الخوري يوحنا ابن قرياقوس الحصري من بيت صندوق (هو الذي صار بعداً أسقفاً وكان مع الصهيوني بباريس) إلى البابا أوربانوس الثامن يهنئه بتسليمه الكرسي الرسولي ويخبره بجعله دير حوقا مدرسة للثّ في المشرق ، وأرسل حينئذ اثني عشر طالباً لمدرسة روما ، فشرّ البابا بكتابة البطريك وعيّن مبلغاً سنوياً لمدرسة حوقا ودوّن لها دستوراً للعمل به فيها . وفي السنة التابعة أي سنة ١٦٢٥ م بعث إلى البطريك تاجاً ثميناً وغفارات نفيسة وكتباً وحللاً ورسالة مشرفة افتتحها بقوله : « لم يذبل البتّة جمال الكرمل ولم يذو مجد لبنان » وقد استشهدنا بفقرات منها مرات في كتبنا بياناً لثبوت الموارنة كل حين على الايمان الكاثوليكي . وتراها مترجمة برمتها في الفصل ١٨ من رد التهم الملحق بتاريخ الدويهي صفحة ٤٥٤ .

وكان هذا البطريك في أوائل بطريركته قد اضطر من قبل المظالم الجارية في جبة بشري ومضادة الشدياق خاطر الحصري له أن يتوجه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين المعني ، والتقليد المحفوظ في جبة بشري والذي رواه الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٠٩ م أنّ البطريك بينما كان سائراً في أرض بريسات إحدى قرى الجبة طعن بالحرم الشدياق خاطر لأنه تسبب بخروجه من وطنه . ويقولون إنّ الحاضرين ارتجفوا من الحرم وسألوا البطريك أن يرفعه عن المقدم خاطر ، ولمعرفة البطريك بسداجتهم قال رفعته عنه وحولته إلى هذه الصخرة . فانشقت الصخرة . وإلى الآن ترى صخرة فوق الحدث مشققة تسميها العامة الصخرة المحرومة ، ويروون عنها هذه الرواية . وعندما دخل البطريك على الأمير فخر الدين أحسن استقباله وبالح في اكرامه ، وكان ابنه الأمير علي قد اشترى قرية مجدل المعوش بالعرقوب الشمالي من سكانها المسلمين وأسكن فيها جماعة من النصارى ، فحل البطريك في هذه القرية وبنى فيها داراً وكنيسة وهي المعروفة الآن بكنيسة السيدة بالقرية المذكورة . وقد زرتها مرات لأنها باقية إلى اليوم ، وبنائها أشبه ببناء كنيسة القديسة مورا التي بناها هذا البطريك أيضاً بكفر زينا في آخر حياته سنة ١٦٣٢ م ، إلى أن سار الشدياق خاطر الحصري وغيره من أعيان البلاد إليه إلى مجدل معوش وأرجعوه إلى كرسيه بقنوين . وهذا البطريك هو الذي رقى اسحق الشدراوي الآتي ذكره إلى أسقفية طرابلس سنة ١٦٢٩ م . ولهذا الأسقف

قصيدتان بالسريانية . الأولى في مدح البابا أوربانوس الثامن . والثانية في مدح هذا البطريك . وكلتاهما مثبتتان في كتاب سرياني بمكتبة مجمع نشر الايمان المقدس . وفي أيام هذا البطريك واجابة لالتماسه طُبع بروما كتاب فرضنا الكبير المعروف بالشحيم ، بعد الفحص الدقيق والتروي به من علماء شهيدين منهم الكردينال بلرمنيوس كما سترى .

وفي ١٥ من كانون الأول سنة ١٦٣٣م كان انتقال هذا البطريك من دار الشقاء إلى دار البقاء المؤبد لينال جزاء جهاده وميراثه ، وكان ذلك في قرية كفرزينا موطني بزاوية طرابلس ، وحمل ليلاً إلى دير قنوين فُدفن فيه . وقال الدويهي في حقه ، كان لَيّن العريكة منخفض الجانب ، كريم الأخلاق محب السلامة ، كثير الصدقات . اتخذ سيرة النسك بدير قزحيا ، ولما تسامى بفضائله وشديد غيرته على خلاص النفوس رقاہ البطريك يوسف الرزي أسقفًا معاوناً له بدير قنوين . وأنشأ لهذا الدير عقارات كثيرة في جبة بشري وزاوية طرابلس . ولما توفي البطريك يوسف الرزي خلفه في بطريكية انطاكية على الموارنة . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان في سلسلة بطاركة الموارنة وغيرهما .

عد ٦٠

البطريك جرجس عميره

ذكر الدويهي بعض ترجمته في الفصل الثامن عشر من رد التهم فقال: كان البطريك المذكور من: «أنسبائنا ، وذهب به خاله القس يعقوب الدويهي إلى روما سنة ١٥٨٤م لاقتباس العلوم في مدرسة الموارنة الحديثة النشأة حينئذ . وبعد أن أتقن العلوم العقلية والنقلية والإلهية ، نشر باللاتينية كتاباً في نحو اللغة السريانية طُبع بروما سنة ١٦٩٦م وعلّق عليه فاتحة تشهد له بطول الباع وغزارة الاطلاع أبان فيها قدم اللغة السريانية وسمّوها على غيرها وفائدتها ، حتى قال إنها اللغة الأولى للناس وأم للغة العبرانية . ولكن انتقد فالتون في مقدمات البوليكولوتا (الكتاب المقدس بعدة لغات) الانكليزية بعض أدلة عميرة ، ثم اختصر بطرس المطوشي القبرصي الماروني

كتاب عميرة هذا وكذلك صنع جبرائيل عواد الحصريوني، فأشهرها كتابين في نحو اللغة السريانية موجزين عن كتب عميرة وكان كتاباهما محفوظين بمكتبة مدرسة الموارنة بروما ومكتبة نشر الايمان المقدس .

وعاد عميرة إلى لبنان سنة ١٥٩٥م واشتهر في السنة التابعة بعلمه وفقاهته في المجمع الطائفي الذي عقده تلك السنة البطريرك سركيس الرزي بأمر البابا اكليمنضوس الثامن لتبرئة الموارنة من بعض الأغلاط المعزوة إليهم بسبب بعض عبارات في كتبهم كما مرّ. ولما توفي البطريرك سركيس الرزي بعيد هذا المجمع وخلفه ابن أخيه يوسف الرزي رقي عميره إلى الأسقفية على اهدن فتفانى بجهاده وتعليمه وظهر ما كان عليه من ذكاء العقل ورسوخ الورع واتقاد الغيرة على نشر الفضيلة والدين القويم .

ولما توفي البطريرك يوحنا مخلوف في سنة ١٦٣٣م أجمع الأساقفة على انتخاب المطران جرجس عميره أسقف اهدن بطرياً في ٢٧ كانون الأول سنة ١٦٣٣م، فأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن سعادة بن أنطون بن شمعون بن فهد الحصريوني ليستمد له التثبيت ودرع الرئاسة من البابا أوربانوس الثامن فثبته سنة ١٦٣٥م . وفي أيام هذا البطريرك أنشئت مدرسة للموارنة بمدينة رافنا بايطاليا من تركة الخوري نصر الله شلق العاقوري . وسيأتي ذكرها في ترجمة الخوري نصر الله المذكور . وفي أيامه أيضاً تشكى أهل بقسميا الذين كانوا من الملكية غير المتحدين على القس يوحنا بن بهينا الأجبعي رئيس دير القديس مارون بكفرحي إلى ابن سيفاً ، فقبض عليه وأهانته وسامه ما هو فوق طاقته فترك الدير فخرّب إلى أن جدد بناءه البطريرك يوسف اسطفان كما سيجئ . وفي سنة ١٦٣٨م لما قدم السلطان مراد إلى حلب أنعم على الموارنة وبطريركهم ببراءة أثنى فيها على ولائهم للدولة العلية وشدة تعلقهم بالأريكة السلطانية .

وفي التاسع والعشرين من تموز سنة ١٦٤٤م أنشبت المنية أظفارها بالبطريرك جرجس عميرة بعد أن استمر على الكرسي البطريركي عشر سنين وسبعة أشهر . ودُفن بقنوين في جانب كنيسة القديسة مارينا ، وله كتاب هندسة الأبنية اقترحه عليه الأمير فخر الدين المعني .

قال دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان في ترجمة فرنسيس كالوب

دي شاستول الفرنسي الذي نسك بلبان وسيأتي ذكره . إنّ بعض الموارنة سألوا فرنسيس الناسك المذكور أن يصير بطريكاً عليهم بعد وفاة البطريك جرجس عميرة فأبى كل الالباء وأشار عليهم أن ينتخبوا بطريكاً الياس مطران اهدن الذي كان مرشده الروحي ، وأشار عليه أن يقبل البطريكية ، فانتخبوه ، وبعد ستة أشهر مات الناسك المذكور في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م كما يظهر من الكتابة المنقوشة على ضريحه . على أنّ هذه الرواية غير صحيحة ويخالفها كل ما ورد في تواريخ ملّتنا المجمعّة على أنّ البطريك يوسف العاقوري خلف البطريك جرجس عميره دون متوسط بينهما . ولذلك قال لكويان بعد ايراده الرواية المذكورة فليتبصّر اللبيب كيف تتفق هذه الرواية مع ما رواه الدويهي أنّ جرجس عميره خلفه البطريك يوسف العاقوري ابن المطران بطرس العاقوري المعروف بابن حليب في ١٥ آب من سنة ١٦٤٤م ، ومع ما رواه السمعاني في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ حيث قال مات جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م وفي هذا اليوم نفسه توفي البابا أوربانوس الثامن . وقال في الصفحة التالية إنّ يوسف العاقوري خلف جرجس عميره في ١٥ آب سنة ١٦٤٤م فليزّ القارئ أي القولين أولى بالاتباع . انتهى كلام لكويان . فنحن نرى أنّ رواية دي لاروك غير صحيحة ولا سيما أنه لا ريب في أنّ الناسك المذكور توفي في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م والبطريك جرجس عميره توفي بعده في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي وعن المشرق المسيحي للكويان وعن المكتبة الشرقية للسمعاني .

عد ٦١

البطريك يوسف العاقوري

هو ابن المطران بطرس بن حليب ابن الخوري سابا العاقوري . وكان المطران بطرس متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة ثم توفيت امرأته فرقاه البطريك يوسف الرزي سنة ١٦٠١م في عشرين من تشرين الثاني إلى الأسقفية خلفاً لموسى أسقف العاقورة . وتوفي المطران بطرس سنة ١٦٠٦م في العبادية بالمتن ودُفن ببيروت كما مرّ . وكان له من الأولاد يوسف هذا الذي تزوج أيضاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدّسة . ونعلم أنه كانت له بنت تزوجت بدمشق كما سيأتي . ثم

ارتقى يوسف إلى درجة الكهنوت ، ثم رقاہ البطريرك يوحنا مخلوف إلى أسقفية صيدا سنة ١٦٣٦م ، فأقام في الأسقفية ثماني عشرة سنة دائماً على فلاحة كرم الرب متفانياً في الأعمال الخيرية والمبرات . وفي سنة ١٦٤٣م اشترى من آل حبش أرضاً في حراش بنى فيها كنيسة وديراً للراهبات كما سيأتي .

ولما توفي البطريرك جرجس عميره في ٢٩ تموز سنة ١٦٤٤م اجتمع الأساقفة والأعيان في ١٥ آب من السنة المذكورة فانتخبوه بطريكاً . ويظهر أنه أرسل في هذه السنة المطران اسحق الشدراوي مطران طرابلس يستمد له درع الرئاسة من الحبر الروماني فأعاقه مرض أو غيره عن الوصول إلى روما ، وهذا بين من الفاتحة التي علقها القس عبد المسيح الحداثي الآتي ذكره على كتاب الشحيمة (الفرض) المطبوع بروما حيث يذكر وفاة البطريرك جرجس عميره سنة ١٦٤٤م وانتخاب المطران يوسف العاقوري بطريكاً في ١٥ آب عيد انتقال العذراء من السنة المذكورة . ويقول ما خلاصته : «إنَّ البطريرك الجديد استشار أساقفته وأعيان طائفته في ارسال المطران اسحق الشدراوي عملاً بعادة طائفتنا إلى روما ليؤدي الطاعة نيابة عنه للبابا اينوشنسيوس العاشر وما صار في ذلك نصيب (أما لأنَّ المطران المذكور تعذر عن السفر حيثئذٍ أو مرض في الطريق لأنه توجه بعداً إلى روما سنة ١٦٤٧م كما يظهر من هذه الفاتحة أيضاً) . فلما جئت أنا الحقيير (القس عبد المسيح بن الياس بن الطويل من قرية الحدث تلميذ مدرسة الموارنة بروما وخوري أقاربي بعين ايل) أقبل اقدام سيّدنا البطريرك أمرني أن أتوجه إلى روما نيابة عنه وأطلب التثبيت له وأقضي بعض حاجات الطائفة ، وطلبت منه رقيقاً فرفقني بالشدياق مرقس راهب من رهبان مار شليطا . فوصلنا إلى روما في ٢ من تموز سنة ١٦٤٥م فتقبلنا الحبر الروماني بالاعزاز وأنعم على البطريرك بدرع الرئاسة والتثبيت وأمر بطبع الشحيم مختصراً (وهو كتاب الفرض الاسبوعي المعروف بالشحيمة) وطبع غرامطيق سيّدنا البطريرك يوسف الذي أرسله معنا وأخذنا بطبع ذلك بعنايته ، ولكن وجدنا في الشحيمة بعض أغلاط فأصلحناها نحن وحضرة سيّدنا المطران اسحق لأنه لحقنا عند آخر طبع صلوة الصبح يوم السبت . وأضفنا إلى ذلك ما يحتاجه الكاهن في ممارسة خدمته إلّا رتبة الصلاة على العرسان فلم نجد لها نسخة بروما . وتمّ ذلك في ٣٠ من شهر آذار سنة ١٦٤٧م . ونظن أنّ هذه الشحيمة هي المعروفة باليوسفية نسبةً إلى البطريرك يوسف هذا .

وأما الغرامطيق الذي ألفه هذا البطريك فقد كمل طبعه بروما بمطبعة مجمع نشر الايمان سنة ١٦٤٥ م . ولهذا البطريك أشعار كثيرة بلغة العامة أكثرها في الموارنة والملكية . وقد ذكرنا فقرة منها في تاريخ القرن السابع عند ذكر وقعة أميون بين الموارنة ومريق ومرقيان قائدي عسكر يوستينيانوس الأخرم . وبعد فراغه من أخبار هذه الوقعة ، أخذ يفتد بعض أغلاط الملكية ويندد بهم لعدم اتباعهم الحساب الذي أصلحه البابا غريغوريوس الثالث عشر . وأول من اتبعه في المشرق البطريك يوسف الرزي وطائفته المارونية سنة ١٦٠٦ م كما مر .

وقد رقي هذا البطريك في بداية رئاسته إلى الأسقفية المطران يوسف بن عميمة الكرمندي والمطران ميخائيل بن سعادة الحصري سفير سالفه إلى الحبر الروماني وجعلهما معاونين له في شؤون الكرسي البطريكي . وعزا إليه بياجوس ترسي في كتابه الموسوم بسورية المقدسة صفحة ٥٣ مقالة شعرية في رئاسة الحبر الروماني . وتوفي في ٢٣ من شهر تشرين الثاني (كذا في نسخة لكويان وفي النسخة التي بيدنا في ٣ منه) سنة ١٦٤٨ م فلم يبق في البطريكية إلا ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ودُفن بقرية العاقورة في كنيسة القديس بطرس المنقورة في الصخر . وقال الدويهي في حقه: كان شجاعاً ورعاً محباً للعلماء غيوراً في أمور الدين راغباً في انشاء الكنائس . وقاسى مشقات كبرى من جراء أعمال صهره زوج بنته المدعو قرقماز لأنه جحد الايمان في دمشق فناصبه الموارنة بدمشق فتحملوا بسببه خسائر جمّة ، واضطروا إلى المهاجرة والتشتت . انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحيي للكويان ، والمجلد الأول من المكتبة الشرقية للسمعاني صفحة ٥٥٣ وعقد هذا البطريك مجمعاً طائفيّاً بدير حراش سنلخص ما كان فيه في آخر هذا الملحق .

عد ٦٢

البطريكيان يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي

أما يوحنا الصفراوي فروى الدويهي أنه كان من بيت البواب من قرية الصفرا في فتوح كسروان . ولم نعلم حتى الآن أين تعلّم ولا متى صير كاهناً . ويظهر أنّ البطريك جرجس عميره رقاه إلى الأسقفية سنة ١٦٣٦ م . وفي اليوم التاسع بعد

ذفن البطريك يوسف العاقوري اجتمع الأساقفة والأعيان بدير قنوين سنة ١٦٤٨م في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول واختاروه بطريكاً وأقاموه موضعه، وأرسل إلى روما الخوري ميخائيل بن صابونه الحصري فبثته البابا اينوشنسيوس العاشر سنة ١٦٤٩م. وفي أيام هذا البطريك أصدر لويس الرابع عشر ملك فرنسا براءة جدد فيها الحماية لبطريك الموارنة وأساقفته واكليروسه وشعبه. وهذه ترجمة البراءة المذكورة عن الفرنسية.

«لويس بنعمة الله ملك فرنسا وناظرًا»

سلام لكل مطلع على خطنا هذا، فليكن معلوماً عند كل واقف على براءتنا هذه أننا بعد استشارة الملكة النابتة عنا في الملك السيدة والدتنا المحترمة قد أخذنا ووضعنا وتأخذ ونضع تحت حمايتنا الخاصة السيد الكلي الاحترام بطريك الموارنة وجميع أساقفته واكليروسه وعامة شعبه الساكنين خاصةً بلبنان. أونود أن يشعروا بمفاعيل حمايتنا ومساعدتنا ولذلك نرغب إلى السيد دي لاهيونتلي أحد أعضاء مجلس الشورى في مملكتنا، وسفيرنا إلى المشرق وإلى جميع من يخلفونه في مقامه أن يمدوهم بعنايتهم بهم اجمالاً وأفراداً ويذلوا لهم الحماية لدى أعتاب صديقنا الأكمل السلطان الأعظم، وفي أي محل آخر كان لدي الحاجة إلى الحماية كيلا تجري عليهم معاملة سيئة وغير مشروعة، بل يتيسر لهم قضاء أعمالهم والتصرف بمقتضيات مراتبهم الروحية بتحام الحرية، ونأمر قناصل الأمة الفرنسية ونواب قناصلها المنصوبين في فرض المشرق وغيرها من الأماكن المشترع بها العلم الفرنسي الآن، وفي ما يأتي من الزمان أن يساعدوا بكل وسعهم البطريك المشار إليه وجميع الموارنة سكان جبل لبنان، وأن يسيروا في المراكب الفرنسية أو غيرها كل ماروني أراد السفر إلى بلاد النصارى، اما لدرس العلوم واما لغير ذلك، ولا يكلفوهم إلا ما يمكنهم دفعه، ويعاملوهم بالحبّة والرفقة. ونسأل السادة العظام عمال الحضرة العلية السلطانية ومستخدميها أن يذلوا رعايتهم ومساعدتهم لحضرة رئيس أساقفة طرابلس وجميع الاكليروس والشعب الماروني، ونعدهم من قبلنا أننا نصنع هذا الصنيع إلى كل رجل من أمتهم يوصون عمالنا به.

أُعطي في سن جهان بمدينة لاي في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م وهي السادسة
لملكنا» .

والبطريك يوحنا هذا هو الذي رقى إلى درجة الكهنوت ثم الأسقفية على
السريان اندراوس أخيه بعد أن كان جحد اليعقوبية على يد البطريك يوسف
العاقوري . ودرس العلوم بمدرسة طائفنا في روما كما مرّ في ترجمته وفي الثالث
والعشرين من كانون الأول سنة ١٦٥٦م انتقل البطريك يوحنا إلى راحة الأبرار
الأبدية لينال ثواب جهاده ومبراته ، وكان انتقاله بدير قنوين ، ودُفن هناك . وقد
وصفه الدويهي بأنه كان طاهراً قنوعاً رضي الأخلاق بعيداً عن الكدر والمكر ترتي
منذ حداثته بالتقوى والنسك وحاز على أعلى مراتب الورع والاتضاع ، وكان مدمناً
على الصلوات وتلاوة المسبحة وغيرها من النوافل زيادةً على صلوات الفرض ، كثير
الصوم والتقشف في مدة كهنوته ولا سيما في مدة أسقفيته التي كانت اثنتي عشرة
سنة ، وفي مدة بطريكيته التي كانت ثمانين سنين ونيف .

أما البطريك جرجس السبعلي فقال فيه الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٧م إنه
كان ابن الحاج رزق الله من سبعل بزاوية طرابلس (وهي الآن قرية حقيرة) وكان
البطريك الصفراوي قد رقاها إلى الأسقفية في ٢٥ من تموز سنة ١٦٥٦م ليكون
معاوناً له في تدبير شؤون البطريكية . ولما توفي هذا البطريك في ٢٣ من كانون
الأول من السنة المذكورة اجتمع الأساقفة والأعيان في اليوم التاسع بعد وفاته أي
في أول كانون الثاني سنة ١٦٥٧م فانتخبوه بطريكاً ، وأرسل الأب يوحنا الكرمللي
الذي كان قاطناً بدير القديس اليشاع في جانب بشري إلى روما وأصبحه بعرائض
اداء الطاعة واستمداد التثبيت من الحبر الروماني البابا اسكندر السابع فاتفق أن مات
الأب المذكور لدن بلوغه إلى روما فاضطر البطريك أن يجدد الالتماس ، وتأخر
تثبيته إلى سنة ١٦٥٩م . وقال في حقه دي لاروك في كتاب رحلته المذكور
(صفحة ١٣١) إنه كان ضليعاً باللغات الشرقية ومبرزاً في معرفة الشرائع والقوانين
البيعية ، وفي أيام هذا البطريك قدم من فرنسة أربعة رجال قاصدين العزلة عن العالم
للتجرد لخدمة الله في محابس جبل لبنان فاختار بعضهم السكنى بدير مار اسيا
بكفر صارون ، وبعضهم بدير مار ابون بأرض الحدث ، وبعضهم بدير القديس
انطونيوس في جوار قنوين . فأمر البطريك بمزمة الأديار المذكورة واصلاحها
للسكن ، وأن يعطوا الزاد من دير الكرسي البطريكي . وفي ١٢ من شهر نيسان

سنة ١٦٧٠م كانت وفاة البطريرك جرجس بدير مار شليطا مقبس بكسروان ودفن هناك وضريحه ظاهر إلى الآن. وقال الدويهي في حقه إنه كان شجاعاً كريم الأخلاق، صبوراً تحمّل كثيراً من جور الحكام في تلك الأيام ومن داء السلّ الذي بُلي به واستمر على الكرسي البطريركي ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر. انتهى ملخصاً عن تاريخ الدويهي والمشرق المسيحي للكويان.

عد ٦٣

العلامة البطريرك اسطفانوس الدويهي

نعتمد في ترجمة هذا العلامة على ما كتبه عن نفسه في رسالة أنفذها إلى القس بطرس مبارك أحد تلاميذ مدرسة الموارنة بروما، فهذا أرسل كتاباً للبطريرك يسأله به أن يلخص له ترجمته ليثبتها في مقدمة كتاب كان يريد طبعه، فأجابه البطريرك برسالته المذكورة التي وُجدت في خزانة أوراق الكرسي البطريركي. وإليك نص هذه الرسالة بحروفها:

« البركة والنعمة وحلول الروح القدس تكون حالة على ولدنا القس بطرس المكرم الخ. أشرت لنا حتى نكتب لك عن سيرتنا لتقتطف منه الذي يحسن برأيك وتجعله في مدخل الكتاب على جاري العادة بين الافرنج في طبع الكتب. يا ولدنا نحن نقرّ أنّا أخطأ الناس وأرذلهم بالنسبة إلى النعمة التي تفضل بها الله علينا، لكن لأجل خاطرك نذكر لك إنّنا من طائفة الدويهيّة المشهورة بين جماعتنا (الموارنة) في التقوى والعلم وسياسة الشعب، قد خرج منها في الجليلين الماضيين ثمانية مطارين وبطركين وكان مولدنا سنة ١٦٣٠م (سنة ١٦٣٠م) في ٢ شهر آب نهار تذكّار ما اسطفانوس، وسمينا على اسمه ومنذ الصبا سلمونا والدينا إلى القراءة السريانية. وفي سنة ١٦٤١م) أرسلنا المرحوم البطريرك جرجس بن عميره التي أمه كانت من الطائفة (الدويهيّة) إلى روما بصحبة القس سمعان (التولاوي) ويوسف فتيان (الحصري). وفي مقامنا في المدرسة سعينا في اقامة المجمع (جمعية أو أخوية) باسم السيدة الطاهرة وكانت قبلنا انقطعت المجادلات (أي المباحث العامة الحافلة) فعملنا جهداً كلياً عند معلمي المدارس وعند الجنرال

حتى جددنا العادة التي انقطعت ، وعملنا مجادلة الفلسفة على اسم الكردينال كابون ، وتقام علم اللاهوت على اسم المرحوم البطرك حنا الصفراوي . وسنة ١٦٥٥م كانت عودتنا إلى البلاد وكرم علينا مجمع انتشار الايمان أن نكون من جملة المرسلين وفي ترددنا في البلاد اعتنينا على علم الأولاد وعلى الوعظ وتهذيب الشعب بدرجة الكهنوت . وعندما طلبوا جماعتنا (الموارنة) الحلبية من المرحوم بطريك جرجس (السبعلي) أن نركز عليهم ثبتنا عندهم نركز عليهم ونعلم أولادهم ونتعاطى في أمورهم مدة ست سنين وعندما في سنة ١٦٦٨م توجهنا من عندهم إلى زيارة المواضع المقدسة في العودة مسكنا البطريك المرحوم وقدمنا إلى درجة المطرانية على أسقفية قبرص فزرنهم وتعينا فيهم جهدنا . وفي السنة الثانية عندما انتقل البطريك جرجس ابن الحاج رزق الله إلى رحمة خالقه ألزمننا رؤساء الكهنة ورؤساء الشعب في درجة البطركية . وفي كل هذه المدة احتملنا مشقات واضطهاد لا يوصف من جور العصاة . حتى أننا طفرنا إلى بلاد كسروان وإلى بلاد الشوف ، ولأجل هذه الديورة والكنايس والنصارى التزمنا نرجع لأجل حفظهم ، ولأن كانوا شردوا والله الحمد قائمين بحملتنا وفي عمار الكرسي والطائفة . وفي كل هذه المدة تعبنا تعباً بليغاً حتى جمعنا غالب رتبها كما هو (هنا كلمة غير مقروءة) .

١ **ܕܐܚܕ ܕܝܚܝܬܐ ܕܡܪܝܬܐ** (كتاب الشرطونية وأظن أن المراد جمعه هذا الكتاب وترتيبه) ٢ **ܕܝܘܢܐ** (قبل هذه الكلمة كلمة مخزوقة فكأنها نظام أو قانون الرهبان) ٣ **ܕܡܚܕܝܬܐ ܕܡܬܡܪ** (رسم البيعة وأثاثها) **ܕܡܚܕܝܬܐ ܕܡܬܡܪ** (أي كتاب الصلوات) وبعثناه إلى روما . ٥ كتاب النوافير (وهو غير كتاب منارة الأقداس الذي عدّد به النوافير بل كتاب برأسه عدد فيه النوافير وعني بترجمة مؤلفيها وذكر صورة كلام التقديس في كل منها ، وضّم إليه نافور رسم الكأس . وهذا الكتاب كان في دير مار شليطا مقبس فنقل حديثاً إلى مكتبة البطركية) ٦ **ܕܐܪܐ ܕܡܚܕܝܬܐ** (أسرار البيعة) ٧ **ܕܡܚܕܝܬܐ ܕܡܬܡܪ** (أعياد) كل السنة (وهو كتاب جمع فيه رتب الموارنة على مدار السنة بالسريانية عدد صفحاته ٣٧٩ كرتبة تبريك الماء يوم عيد الغطاس ، ورتبة أحد الشعانين وغيرها . وهذا الكتاب الآن في مكتبة البطركية منقولاً إليها من مكتبة مار شليطا) ٨ سجلات الباباوية ومكاتيب البطارقة وأرباب الدولة وحجج وقوفات الدير ومن غير (وما عدا) الكتب البيعية

التي جمعناه . وذكرنا إننا عاملون متعبين على كتاب الجنازة وغيره ، ثم إننا شرحنا عن كتاب الشرطونية . وفي كتاب آخر عن تكريس البيعة وأوانيها . وفي كتاب آخر عن تفسير القديس والمنائر ، وأيضاً في قصص الآباء أصحاب النوافير المقبولة وأيضاً عن سلسلة بطاركة الملة المارونية ، وأيضاً على أصل الملة المارونية ودوام اتحادها مع الكنيسة الرومانية وهي التي عندك . وأيضاً في التواريخ من بدء الهجرة إلى وقتنا هذا بل الذي تعبنا عليه بزيادة من قدوم الفرنج إلى هذه البلاد . وأيضاً جمعنا رؤوس الأبيات السريانية وفككتها على موجب وزن الشعر ونعمل متعبين بسبب مدرسة الموارنة بروما ونفعها ونشر تلاميذها . ومن غير تعبنا مع طائفتنا ما تأخرنا أيضاً عن نفع الطوائف التي بجيرتنا لأن المرحوم القنصل بيكت ، كان بعث عشر مكاتيب للمرحوم البطريك حنا من صفرا حتى يرسم القس اندراوس أخيهان فما تنازل معه حتى دخلت أنا بينهم وأزحت عن بال البطرك الصعوبات التي كانت تمنعه . وبعد أن ارتسم مطراناً صار أنه طفر (فر) إلى جبل لبنان لأجل خاطر القنصل وسيطه إلى الرجوع ، ورحت أنا بنفسي معه وكنت أساعده في المقدرة وفي كتابة الكرز الذي كنت أعطيه . وكذلك طفر لعندنا القس اسحق (السرياني) وأنا بطريك مسكته عندنا سنتين ورتبته ورسمته أيضاً ، وعندما طفر بعده إلى عندنا بطرس بطريك السريان (نظنه اغناطيوس بطرس الذي خلف أخيهان في البطريركية على السريان الذي توفي في السجن بأذنه بمكيدة بطريك اليعاقبة) ثبت عندنا مدة من الزمان بكل اعزاز واکرام ، ثم بعد المذكورين التجا إلينا الخوري نعمة والقس سيمان السريان من جور بطريركهم الضال ، وكذلك مطران الأرمن على مرعش عندما التجا إلينا قبلناه بكل كرامة وأمرنا جماعتنا بحلب ليقبلوا جميع المرتدين من اليعاقبة والأرمن والنساطرة وغيرهم ويتلمذونهم ويقضون مصالحهم . حُرر في أول شهر أيار سنة ١٧٠١ ربانية . وقد طبع المعلم رشيد الشرتوني من تأليف الدويهي شرح الشرطونية والتكريسات ، وشرح المنائر العشر وسلسلة بطاركة الموارنة مع اضافات . وأخذ من كتابه في أصل الموارنة ودوام اتحادهم بالكنيسة الرومانية . ومن التاريخ كتابه المعروف بتاريخ الطائفة المارونية وطبعه سنة ١٨٩٠ م .

إنَّ البطريك سمعان عواد الطيب الذكر قد وضع ترجمة العلامة الدويهي آخذاً عنه وعن ثقة من معاصريه . وهذه الترجمة أثبتتها المعلم رشيد الشرتوني في فاتحة

تاريخ الموارنة للدويهي الذي طبعه ببيروت سنة ١٨٩٠م فنكتطف منها ما يلزم لترجمة الترجمة. وبيانها أنّ والد الدويهي يسمى مخايل واسم أمه مريم وهي من آل الدويهي أيضاً، وأرسله إلى روما عمه المطران الياس الدويهي على يد البطريرك جرجس عميره. وقد قال عن نفسه أنه كان يقضي وقت التنزه وهو في المدرسة في القراءة والدرس، وكثيراً ما كان يقوم عن فراشه ليلاً فيصلي ويدرس على نور المصباح الساعتين والثلاث حتى أصيب ببصره، فكان يطلب إلى رفقائه أن يقرأوا على مسمعه الدروس اليومية، ثم شفي بشفاعة العذراء. وكان استاذة في اللاهوت الأب سبرسا اليسوعي. يقول مرات علّمت في بلاد كثيرة ولم أر مثلاً اسطفان علماً وعملاً. وشهد عارفوه أنهم لم يكونوا يجدون عليه خطيئة توجب الحل. وألّف بعد انجاز دروسه كتاباً ضخماً باللاتينية في الفردوس الأرضي. وبعد رجوعه إلى وطنه رُقّي إلى درجة الكهنوت وأنشأ مدرسة في اهدن وأخذ يعلم الأولاد ويعظ الشعب إلى أن أرسله البطريرك جرجس السبعلي إلى حلب واعظاً ومرسلاً. واهتدى على يده كثير من الملكية والنساطرة واليعاقبة. وصنّف في تلك الأثناء مؤلفاً في الوعظ والارشاد في مجلدين. وقد جرى انتخابه بطريركاً سنة ١٦٧٠م بغير مشورة الشيخ أبي نوفل الخازن، فاستاء فأثى البطريرك إلى داره بكسروان فأجلّ الشيخ قدره واستغفره عما فرط منه. وأرسل إلى روما القس يوسف شمعون الحصري (الذي صار بعداً أسقفاً) في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠م فثبته البابا اكليمنضوس العاشر (في ٨ آب سنة ١٦٧٢م).

وبعد بطريركيته أخذ يطوف جميع الأبرشيات ويختار كهنة من ذوي العلم والتقوى ويفحص الكتب البيعية ويصلح ما أوقعه النساخ أو أصحاب الأغراض من الخطأ فيها. وكان معنياً برد العوائد القديمة، ورتب الطقوس. وذكر له البطريرك سمعان عواد بعض الكتب التي ذكرها هو في ترجمة نفسه وما قرظه به العلماء من طائفته كمرهج بن نieron الباني والمطران يوسف شمعون الحصري والبطريرك يعقوب عواد. ومن غير طائفته نخص بالذكر منهم الكردينال نرلي في كتابه في مشاهير المدرسة المارونية بروما. ولما علم البطريرك كيرليس الحلبي بطريرك الروم الانطاكي أنّ الخبز والخمر لا يستحيلان إلى جسد المسيح ودمه بقوة كلام التقديس وحده بل بدعوة الروح القدس أيضاً. فاعترضه ورد زعمه بنصوص الكتاب والحجج والآباء. ولما اطلع بطريرك الروم على حججه أحب أن يجادله

وحضر لجداله ومعه أربعة مطارين، وكان الجدل بحضرة أمير الشوف في دير القمر. فأفحم الدويهي بطريك الروم وأساقفته حتى أوجب عليهم الأمير والحاضرون أن يذعنوا لتعليم الدويهي. وكان هذا سبباً لاعتناقهم الدين الكاثوليكي، وقد قاومه بعض أساقفته لأنه تشدد عليهم بعمل واجباتهم فأرسل لهم رسالة يؤنبهم بها ويهددهم فخرجوا وتسارعوا إليه يستغفرونه عما فرط منهم. وهم أن يتنازل عن البطريركية فمنعه أبناء الطائفة. وكان شديد الغيرة على مدرسة الطائفة في روما وعلى نشاط تلامذتها وتقدمهم بالتقوى والعلم. وله رسالتان إليهم (مثبتتان في ترجمته المعلقة على تاريخ الموارنة) يتبين منهما كم كان له من العناية بهم والهيام في نجاح هذه المدرسة. وقد أنبأنا صاحب ترجمته بآيات كثيرة صنعها الله على يده في حياته وبعد وفاته.

وقد أهانه قبل وفاته الشيخ عيسى حماده إذ جاء مع بعض أقاربه إلى قنوبين طالبين منه مبلغاً من المال، فكتب إلى الشيخ حصن الخازن عما جرى له فجهز رجالاً من كسروان مع أخيه الشيخ ضرغام (هو الذي صير بعداً بطريكاً) إلى قنوبين، ولما علم بذلك الشيخ عيسى أتى متوقعاً متذللاً أمام البطريك ليغفر له ويعدل عن السفر إلى كسروان، وأراد المشايخ الخوازنة أن يبطشوا به فنهاهم البطريك عن ذلك وسار معهم إلى كسروان فالتقاه الأهلون بالتجلة والاحتفاء وأقام بدير مار شليطا مقبس نحواً من أربعة أشهر، ثم وردت له رسائل من والي طرابلس على يد الخواجه طريه ترجمان قنصلية فرنسة أن يعود إلى كرسيه آمناً فعاد في ١٩ من نيسان سنة ١٧٠٤م يوم السبت وفي صباح الأحد أقام قداساً حافلاً ومنح غفراناً كاملاً لجميع الحاضرين. وفي غد الاثنين ودعه من كانوا قد رافقوه من كسروان فشيّعهم إلى باب الدير وأراد أن يرجع إلى غرفته فتعذر عليه أن يخطو فحمله شماسه إلى فراشه، وعلم أن قد دنا أجله وأن الله استجاب طلبته أن لا يميته خارجاً عن كرسيه، وأخذته حمى شديدة لم تمنعه عن التسبيح لله ومباركة شعبه وتناول الأسرار المقدسة إلى أن توفاه الله ونقله إلى راحة الأبرار صحبة القديسين الملائكة باسيليوس واثناسيوس وفم الذهب نهار السبت في الساعة الثالثة من النهار في ٣ من أيار سنة ١٧٠٤م وعمره أربع وسبعون سنة.

وقد حفظ لنا دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان رسالة أنفذها لويس الرابع عشر ملك فرنسة إلى هذا البطريك هذه ترجمتها:

«أيها البطريرك اسطفانوس بطرس الانطاكي»

أيها السيد الأجلّ، قد رفع إليّ الخوري الياس كاتب سركم الرسالة التي كتبتموها إليّ في ٢٠ من آذار سنة ١٧٠٠م وعلمت منها متأسفاً الحزن التي يقاسيها الكاثوليكيون أبناء ملّتكم المارونية في جبل لبنان وشدة الضنك الذي تقاسونه لوقاية شخصكم من الاهانات التي ينزلها البعض بكم. ولما كنت مستعداً أن أبذل دائماً كل ما بوسعي من العناية بتأييد الدين الكاثوليكي الرسولي الروماني في كل مكان ولا سيما في أرجاء بطريركيّكم حيث تعاظمت الحزن، قد سلمت إلى كاتب سركم رسالة جددت بها الأمر الذي أصدرته قبلاً إلى سفيرى بالقسطنطينية أن يصرف عنايته واهتمامه لينال من الباب العثماني كل ما يمكن من الأمور العائدة بالنفع للدين الكاثوليكي في بلاد الموارنة ليجعلكم تشعرعون بمفاعيل حمايتنا واجلالنا لكم خاصة. وأسأله تعالى أيها السيد الأجلّ أن يحفظكم بحراسته المقدّسة. كُتب في مارلي في ١٠ آب سنة ١٧٠١م التوقيع لويس. وفي أسفل الصحيفة كولير».

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

عد ٦٤

الأساقفة الذين رقاهم البطريركان يوسف الرزي ويوحنا مخلوف

قال الدويهي إنّ البطريرك يوسف الرزي رقى ابن أخيه سركيس الرزي إلى أسقفية دمشق سنة ١٦٠٠م وكان حبيباً بدير قزحيا. وكان قد درس العلوم في

روما وأقام بعد تسقفه بالحبسة المذكورة أيضاً. هذا ما جاء في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا، وفي النسخة التي أخذ عنها رشيد الشرتوني في طبعه تاريخ الموارد. لكن الدويهي نفسه قال في الفصل ١٨ من رد التهم أنّ البطريك يوسف الرزي أرسل أخاه الأسقف سركيس سنة ١٦٠٧م سفيراً إلى البابا بولس الخامس ومعه القس الياس ابن الحاج يوحنا والقس جرجس بن مارون من اهدن، فلا يظن الأسقف سركيس هذا أخا البطريك هو غير سركيس ابن أخيه بل هما واحد. وفي رواية الدويهي في تاريخه خطأ من النساخ لأنّ البابا بولس الخامس ذكره في رسالته إلى أساقفة الموارد وشعبهم في ٢٨ من تشرين الثاني سنة ١٦٠٨م داعياً إياه أخا البطريك الذي كان قد توفي، ويعزيهم لفقده. وأمر البابا حينئذ أن يبقى الأسقف سركيس في روما للعناية بطبع الكتب وحاجات الطائفة. واستمر بروما إلى سنة ١٦٣٨م التي توفي بها. والذي علمناه مما باشره بروما في هذه المدة هو طبع كتاب الشحيم بعد أن عهد البابا بولس الخامس بفحصه إلى الكردينال بطرس الدبرندينوس محامي الموارد وقتئذ. والكردينال روبرتوس بلرمينوس الشهير والكردينال أوكتافيوس بندينوس والأب بطرس المطوشي الماروني اليسوعي. ولما توفي الكردينال الأولان في أثناء هذا الفحص تعيّن بدلهما الكردينال روبرتوس أو بلدينوس والكردينال اسكندر أوسينوس. وبعد أن أجاز هؤلاء طبعه سنة ١٦٢١م شرع الأسقف سركيس بطبعه تحت مناظرته فنجز طبعه في أيام البابا أوربانوس سنة ١٦٢٥م كما هو بيّن من رسالة الكردينال أوكتافيوس بندينوس محامي الموارد إلى البطريك يوحنا مخلوف المعلقة على طبعة الشحيم المذكورة. ثم إنه صحح بمدة إقامته بروما نسخة الأسفار المقدسة العربية معارضاً لها بنسخ كثيرة أخذت من المشرق، وترجمها إلى اللاتينية برفقة غيره من العلماء كما يتبيّن من المقدمة التي علقها عليها. وطُبعت نسخته هذه سنة ١٦٧١م بعد وفاته مع النسخة اللاتينية العامة ومنها نسخ كثيرة في المشرق، بل كانت هي النسخة التي تتداولها أيدي العامة قبل طبع النسخة اليسوعية ببيروت. وذكر بعضهم أنّ المطران سركيس كان له يد أيضاً مع جبرائيل الصهيووني والخوري يوحنا الحصريوني في تهذيب الترجمتين السريانية والعربية اللتين طُبعتا في البوليكوتا الباريسية، ولا يبعد ذلك عن الصحة لأنّ البوليكوتا شرع في طبعها سنة ١٦٢٨م وهو توفي سنة ١٦٣٨م.

وذكر لكويان في جملة الأساقفة الموارد وقال: أثبت توريانوس- أنّ رودريكوس

اليسوعي الذي بعثه البابا بيوس الرابع إلى الموارنة عارض القوانين العربية التي ترجمها إلى اللاتينية مع سركيس هذا أسقف دمشق الماروني . وأسهب الكلام على علمه وفقاهته . وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨ « وفيها في شهر حزيران توفي بروما الحبيس سركيس بن الرزي مطران دمشق وله من العمر ست وستون سنة ، وكان قد اقتبس العلوم بروما وعاش ناسكاً بمحبسة قرحيا مدة وعني في روما بطبع الشحيم ووقف متروكاته على مساعدة الطائفة وكان محبوباً من رؤساء الكنيسة الرومانية .

٢ - المطران بطرس العاقوري ذكره الدويهي وعرفه بأنه ابن الخوري سابا العاقوري من بيت حليب ، وإنّ البطريرك يوسف الرزي رقيه إلى أسقفية العاقورة في ٢٠ من تشرين الثاني بعد وفاة موسى أسقفها . وكان المطران بطرس هذا متزوجاً قبل ارتقائه إلى الدرجات المقدسة ، ومن أولاده البطريرك يوسف العاقوري وتوفي بالعبادية (من المتن) ونُقلت جثته إلى بيروت ودُفن في كنيسة مار جرجس فيها . وكان شديد الغيرة كثير العبادة وصنّف مدائح كثيرة .

٣ - المطران يوحنا الحصريوني ابن الشدياق حاتم الحوشبي رقيه البطريرك يوسف الرزي إلى الأسقفية سنة ١٦٠٣م وجعله معاوناً له في تدبير شؤون دير قنوين . وكان قد درس العلوم بروما ودخل رهبانية القديس عبد الأحد وترجم جزءاً من كتب القديس توما الأكويني إلى العربية . ثم أرسله البطريرك المذكور سفيراً إلى الحبر الروماني ، وعاد من روما إلى لبنان سنة ١٦٠٦م وأصبحه البابا بولس الخامس بجواب أثنى فيه على الموارنة ، وأرسل للبطريرك حلاًلاً كهنوتية وغيرها من الهدايا ، وحينئذٍ أمر البطريرك باتباع الحساب الذي أدخله البابا غريغوريوس الثالث وعيد الموارنة في طرابلس وجبة بشري وجبيل والبترون عيد الرسل مع الافرنج قبل طوائف المشرق بعشرة أيام . ثم تطرّق استعمال هذا الحساب إلى دمشق وحلب وسائر المدن والقرى إلا جزيرة قبرص ، وتركوا التاريخ بسني اسكندر وأخذوا يؤرخون بسني الميلاد . ولما حضّر هذا الأسقف على اتباع هذا الحساب في حلب ناصبه رؤساء الطوائف الشرقية ودفعوا للحكومة مبلغاً من المال لاهلاكه ، فاحتج بالحكمة مثبتاً صحة هذا الحساب وأفحم معانديه وتوفي بروما سنة ١٦٣٢م ودُفن في دير القديس بطرس حيث صلب . وهو غير الأسقف يوحنا ابن قورياقوس الحصريوني المعروف من بيت حندوق الآتي ذكره .

٤ - ومن رقاھم البطریق یوسف الرزی إلى الأسقفیة الأسقف یوحنا مخلوف الذی صیر بعداً بطریقاً، والأسقف جرجس بن عمیره الذی صیر بطریقاً أيضاً، ورقی أيضاً أساقفة آخرین فی تاریخ القرن السادس عشر .

وأما الأساقفة الذین رقاھم البطریق یوحنا مخلوف فنعرف منهم یوحنا الشدراوی وقد ذكره الدویهی فی تاریخ سنة ١٦٠٩م قائلاً إنّ هذا البطریق رقی فیها إلى الأسقفیة الخوری یوحنا الشدراوی . وقد ذكره المطران اسحق الشدراوی فی مقدمة غرامطیقه، وقال إنه عم أبیه وإنه كتب إليه رسائل عديدة فی هذا التألیف فأفادته، وكانت له بمنزلة مشكاة فانارت . وفی سنة ١٦١٠م رقی الأسقف یوسف بن بشارة من بیت السوق وهو ابن أخی الأسقف اقلیموس الأهدنی المار ذكره . وفی سنة ١٦١٤م رقی جرجس بن مارون الأهدنی إلى أسقفیة الأفقسیة بقبرص وهو الذی كان قد أرسله إلى روما یطلب التثبیت وأحضره له . وروی الدویهی أيضاً أنه فی ٢٢ من تشرين الأول سنة ١٦١٩م توفي الأسقف یوسف بن یوحنا ابن القس تادروس السمرانی وله فی الرهبانیة بدير قزحیا خمس وخمسون سنة . وذكر فی تاریخ سنة ١٦٢٢م توفي الأسقف یونان بن جلوان السمرانی (نسبة إلى سمار جبیل) الذی استحبس بدير قزحیا، ونظن أنّ هذین هما الحیسس یونان وأخوه القس یوسف اللذان روی الدویهی فی تاریخ سنة ١٥٧٦م أنّ المطران داود رئیس دیر قزحیا رقاھما إلى الأسقفیة خلافاً لقوانین الكنيسة .

فمنعهما البطریق عن مباشرة حقوق الأسقفیة فخضعوا، فرضی عنهما وردھما إلى دیر قزحیا فأکملا حیاتھما مستنسکین .

الأسقف یوحنا بن قوریا قوس الحصرونی من بیت صندوق فهذا درس العلوم فی مدرسة الموارنة بروما ورقی إلى درجة الكهنوت . وفی ١٦٢٥م أرسله البطریق یوحنا مخلوف لتهنئة البابا أوربانوس الثامن بارتقائه إلى الحیریة العظمی فرحب البابا به وأرسل إلى البطریق رسالة نفیسة یثنی بها على الموارنة لثباتھم فی الایمان الكاثولیکی، وأهدى إليه تاجاً ثمیناً وكتباً وحللاً بیعیة . ویوحنا هذا عاون القس جبرائیل الصھیونی الأهدنی على ضبط الترجمتین السریانیة والعربیة المثبتتین فی البولیکلوتا (الأسفار المقدسة بعدة لغات) البارسیة التي عني بطبعها میخائیل لی جایی . ویظهر أنه بقی فی أوروبا لأنّ البولیکلوتا المذكورة شرع فی طبعها سنة

١٦٢٨م. وقد ذكر كثيرون معاونته عليها ومنهم والتن في المقدمات على البوليكولوتا اللوندية، وبعد عودته إلى لبنان رقاہ البطريرک یوحنا مخلوف إلى الأسقفية مكافأة لأتباعه. وأقام بدير مار جرجس بقرقاشا لكنه لم يستمر في الأسقفية إلا أربعة أشهر وتوفي في أحد الشعانين.

الأسقف یوحنا من بیت قزوح رقاہ البطريرک یوحنا في ٢٠ تشرين سنة ١٦٢٥م على دير القديس الیشاع بيشري وعلى دير الأحمر. ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة ونظّمه من بشري.

الأسقف سركيس السمراني ذكر الدويهي وفاته في تموز سنة ١٦٢٦م وقال إنه كان قد استحبس بدير قزحيا وكان ورعاً راغباً في العلوم ونسخ الكتب فرقى البطريرک یوحنا مخلوف مكانه ابن أخيه الأسقف بولس والأسقف يوسف العاقوري من بیت حليب على صيدا وهو الذي صير بعداً بطريركاً، والأسقف يوسف البلوزاوي على بيروت. وروی في تاريخ سنة ١٦٣٧م أنّ الأسقف بولس المذكور إذ كان ساكناً في دير قزحيا شكاه القس حنا ابن البري من غوسطا لاختلافهما على الماء إلى الأمير عساف بن يوسف باشا سيفاً فدعا الأمير الأسقف إلى جيل وأجرى عليه أنواعاً من العذاب حتى فقت عينه ولم يتركه إلى أن دفع أربعة آلاف قرش.

الأسقف اسحق الشدراوي، ذكر السمعاني ترجمته في المجلد الأول من المكتبة الشرقية صفحة ٥٥٢ فقال ما ملخصه؛ دخل مدرسة الموارنة بروما سنة ١٦٠٣ فأقام فيها إلى سنة ١٦١٨م وبرع من خلال هذه المدة في اقتباس اللغات اللاتينية والسريانية والعربية والعلوم السامية، فرقاہ جرجس عميرة مطران اهدن وقتل إلى الدرجات الصغار سنة ١٦١٩م. وفي السنة التالية رقاہ إلى درجة الكهنوت وجعله رئيس كهنة ببيروت. وكان قد تزوج قبل ارتقاؤه إلى هذه الدرجة على عادة الشرقيين ثم ماتت امرأته. وفي ٢٥ آذار سنة ١٦٢٩م رقاہ البطريرک یوحنا مخلوف إلى الأسقفية على طرابلس كما اخبر عن نفسه في فاتحة المقالة اللاهوتية المثبتة في كتاب بمكتبة نشر الايمان. وله كتاب سرياني في نحو اللغة السريانية (غرامطيق) طبعه بروما في مدرسة الموارنة سنة ١٦٣٦م، وقصيدتان على أحرف الهجاء الواحدة في مدح البابا اوربانوس الثامن، والثانية في مدح یوحنا مخلوف بطريرک الموارنة مثبتتان في كتاب بمكتبة مدرسة نشر الايمان. وله بالعربية مباحث لاهوتية بطريقة

السؤال والجواب على عمل الرب في ستة أيام الخلق وفي الفردوس الأرضي والخطيئة الأصلية والموت ويمبوس الآباء والفردوس وجهنم والمطهر وقيامه الموتى والدينونة الأخيرة، وهي في الكتاب المذكور في مكتبة مدرسة نشر الايمان . وله أيضاً ترجمة رسائل اليا بطريك الكلدان إلى الخبر الروماني ، وترجمة أعمال المجمع الذي عقده بآمد سنة ١٦١٧م من السريانية إلى اللاتينية كما مرّ . وقد أرسله وهو أسقف البطريرك يوسف العاقوري إلى البابا اينوشنسيوس العاشر ليستمد له منه التثبيت فتعلّم سفره ، فأرسل البطريرك الخوري عبد المسيح ابن الطويل الحداثي عوضه ومقرس راهب دير مار شليطا مقبس ، ثم لحقهما المطران اسحق وكانا يطبعان الشحيمة فأصلح معهما ما كان باقياً من طبعهما كما شرح الخوري عبد المسيح المذكور في المقدمة على الشحيمة المذكورة . وروى دي لاروك أنّ الكردينال فريدريك بوروماوس استدعاه إلى مديولان لينظّم مكتبته الشهيرة في هذه المدينة . وتوفي المطران اسحق سنة ١٦٦٣م في مدينة جبيل ودُفن في كنيسة مار يعقوب التي في سهل جبيل . ومن التقليد أنّ المطران المذكور هو جد آل طريه من طرابلس وجبة بشري . وكان أحدهم ترجماناً لقنصل فرنسا منذ أيام البطريرك الدويهي . وكان منهم بعده تراجمة كثيرون حتى أيامنا هذه . وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٨م وفاة المطران عبدالله الهدناني بدير قنوين بعد أن كان له في الرئاسة ست وثلاثون سنة ، وكان حازماً واشترى عقاراً كثيراً لدير قنوين ولم يكن ذكر ترقيته إلى الأسقفية .

عد ٦٥

أساقفة الموارنة إلى أيام الدويهي

في سنة ١٦٣٨م رقى البطريرك جرجس عميرة المطران الياس بن يوحنا من عائلة الصراصرة من اهدن ذكره الدويهي في تاريخ السنة المذكورة ، وقال في تاريخ سنة ١٦٥١م إنّه فتح سوق القلعة الشرقي بقرية زغرتا ، وأضافه إلى الكنيسة ويّضه وكرسه لكثرة المترددين إلى الكنيسة . وروى في تاريخ سنة ١٦٥٩م أنه توفي في هذه السنة وأنه كان ورعاً غيوراً وتربى بدير قزحيا ، وسكن في القدس نحو عشرين سنة ، واشترى فيها دار الازي بأمر البطريرك ، ودخل إلى روما صحبة الأسقف جرجس بن مارون وخدم رئاسة الكهنوت عشرين سنة بمزيد التقوى .

الأسقف يوسف بن عميمة الكرمسدي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م فقال إنّ البطريك يوسف العاقوري بعد ارتقائه إلى سدة البطيركية في هذه السنة رقى يوسف الكرمسدي إلى أسقفية دمشق، وكان معاوناً للبطريك. وذكر في تاريخ سنة ١٦٥٣م أنّ هذا الأسقف توفي فيها لرحمة الله.

الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصريوني ذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّ البطريك يوسف العاقوري رقاها إلى أسقفية طرابلس مع الأسقف يوسف الكرمسدي، وكانت ترقيتهما في دير حراش ليكونا معاونين له. وذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٩م حيث قال في ١٣ من شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصريوني في مدينة طرابلس، وبموجب وصيته دُفن في مغارة القديسة مارينا بقنوبين. وكان قد اقتبس العلوم في مدرسة الموارنة بروما وخدم الأسقفية ست وعشرين سنة بكل طهارة.

الأسقف جرجس البشعلاني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٨م فقال في ٢٤ من شباط من السنة المذكورة رقى البطريك يوسف العاقوري القس جرجس بن حبقوق البشعلاني إلى الأسقفية على العاقورة وأخذ السكنى بدير قنوبين.

الأسقف يوسف البلوزاوي ذكر الدويهي وفاته في تاريخ سنة ١٦٥٠م قائلاً فيها توفي الأسقف يوسف بن ناتان البلوزاوي ولم يكن قد ذكر سنة ترقيته ولا من رقاها.

الأسقف يعقوب الرامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٣م فقال فيها توفي الأسقف يوسف الكرمسدي (المار ذكره)، وفي يوم عيد انتقال العذراء رقى البطريك يوحنا الصفراوي عوضه الأسقف يعقوب الرامي على دمشق.

الأسقف يوسف الحصاراتي ذكر الدويهي ترقية البطريك يوحنا الصفراوي له إلى الأسقفية في يوم عيد انتقال العذراء سنة ١٦٥٣م مع الأسقف يعقوب الرامي الأنف الذكر على جبيل. وكان رئيساً لدير حوقا، واستمر نائباً على البطريك المذكور في رئاسة هذا الدير. قال لكويان في أساقفة الموارنة، وقال دي لاروك في كتاب رحلته صفحة ٢٨٤ إنّ البطريك اسطفانوس الدويهي كتب منشوراً في ٥ تشرين الأول سنة ١٦٩٩م (وهو المنشور الذي ذكرناه توصية بيوسف أخي الأمير بولس) ووقع عليه يوسف الحصاراتي مطران جبيل بدير حوقا، وربما كان يوسف

هذا غير يوسف الذي نكتب ترجمته لأنّ للدويهي رسالة أخرى في ١٢ حزيران سنة ١٦٧٣م، وفيها توقيع يوسف الحصاراتي. فالفرق الذي هو ست وعشرون سنة يجعلنا نظنّ أنّ يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٩٩م هو غير يوسف الذي وقّع على الرسالة سنة ١٦٧٣م.

الأسقف جرجس من بيت شوك من قرية عرجس، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م وقال البطريك يوحنا الصفراوي رقاہ إلى الأسقفية وجعله معاوناً له في تدبير مهام الكرسي البطريركي.

الأسقف ابراهيم السمراني ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٥م أيضاً وقال إنّ البطريك أقامه بدير قزحيا، ثم ذكر وفاته وهو في هذا الدير في تاريخ سنة ١٦٧٧م وترقية ابنه القس يوحنا أسقفاً على البترون، وسلّم إليه تدبير دير قزحيا، وسوف نذكره في محله.

الأسقف جرجس ابن الحاج من سبل وهو الذي انتخب من بعد بطريكاً. ذكر الدويهي ارتقاءه على الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٥٦م وجعله معاوناً للبطريك في قنوين.

الأسقف سركيس الجمري من اهدن، ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٥٨م فقال فيها رجع القس سركيس الجمري من فرنسة إلى بلاده وكان له في الكهنوت ثلاث وعشرون سنة، فطلب الشيخ أبو نوفل الخازن ترقيته إلى أسقفية دمشق، ثم ذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٦٨م وقال فيها كانت وفاة الأسقف سركيس بن الجمري بمدينة مرسيليا في أواخر أيار.

الأسقف جبرائيل البلوزاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٣م قائلاً فيها كانت ترقية المطران جبرائيل بن يوحنا من بلوزا على مدينة حلب خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي. وقد ذكرنا ارتقاءه إلى الأسقفية سنة ١٦٥٠م. وذكر الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٣م أنّ المطران جبرائيل هذا أنشأ ديراً جديداً بأرض طاميش في قاطع بيت شباب على اسم العذراء وهو دير طاميش المشهور.

المطران اسطفانوس الدويهي هو العلامة الدويهي ذكر ترقيه إلى الأسقفية في تاريخ سنة ١٦٦٨م فقال توجهنا لزيارة القدس الشريف، وبعد أن تباركنا بتلك المواضع المقدسة ومعنا والدتنا وأخونا الحاج موسى رجعنا بالسلامة لتقبيل أيدي

السيد البطريك جرجس (السبعلي) بدير قنوين، فرفعنا إلى درجة المطرانية على الأفسسية بقبرص في ٨ تموز وأمرنا أن نخرج لزيارة الرعية في ايلة طرابلس وجزيرة قبرص، ولئلا نكون بطالين أشغلنا أنفسنا في سياسة الشعب وفي جمع هذه الأخبار لافادة نفوسنا ولنطلع على معرفة أحوال بلاد نحن فيها ساكنون.

الأسقف يوحنا التولاوي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٦٩م فقال في ٢٣ شباط كانت وفاة الأسقف ميخائيل بن سعادة الحصري (الذي مّر ذكره) ورقي الأسقف يوحنا التولاوي على صيدا، وذكر وفاته في تاريخ سنة ١٦٨٠م قائلاً فيها في ٢١ من نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن في قرية بعدات.

عد ٦٦

أساقفة الموارنة الذين رقاهم البطريك الدويهي

الأسقف لوقا القبرصي القرباصي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧١م قائلاً إنه رقاها إلى الأفسسية على الأفسسية بقبرص، وأخذ السكنى في الجزيرة. وذكر في سجله المحفوظ بخزينة أوراق الكرسي البطريكية أنه رقاها في ١ كانون الأول سنة ١٦٧٢م.

الأسقف بطرس بن مخلوف من غوسطا ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٤م فقال إنه رقاها في ٥ من تموز من السنة المذكورة على كرسي الأفسسية بقبرص (يظهر أنّ الأسقف لوقا المار ذكره توفي حينئذ) بحضرة سفير فرنسا الذي توجه تلك السنة إلى القدس ثم سار إلى لبنان وزار البطريك فرقي الأسقف المذكور بحضرته وذكره في سجله المذكور أيضاً.

الأسقف يوسف الحصري ذكره في تاريخ سنة ١٦٧٥م قائلاً وفيها قدمنا كاتبنا القس يوسف الحصري إلى رئاسة الكهنوت على طرابلس، وكان ذلك في دير مار شليطا مقبس، وكتب في سجله أنه رقاها في ١٤ تموز من السنة المذكورة وعرفه بأنه الخوري يوسف شمعون الايودياكن الحصري وتوفي في ١١ كانون سنة ١٦٩٥م، وقد حضر إلى المتين سنة ١٦٨٥م، ورقي في ٢٦ تشرين اول إلى درجتي المرتل والقاري الياس بن أبي عون وجرجس بن أبي سليمان ويوسف بن

أبي رزق وهاشم بن أبي هاشم وموسى بن أبي ناكوزة كما دُون بخطه على كتاب الشحيم في كنيسة مار جرجس بقرية المتين المذكورة .

الأسقف يوحنا بن جلوان ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٧٧م قائلاً فيها في ١٨ أيار انتقل إلى رحمة ربه الأسقف ابراهيم بدير قزحيا وقد مَرَّ ذكره . وفي نهار تاسعه ورقينا ولده القس يوحنا أسقفاً على البترون وتسَلَّم تديرير الدير المذكور وتوفي سنة ١٦٩١م .

الأسقف بطرس الاهدني ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٠ قائلاً في ٢١ نيسان توفي الأسقف يوحنا التولاوي ودُفن ببعبدا كما مَرَّ . ورقينا مكانه على صيدا القس بطرس ابن القس ابراهيم الاهدني كاتبنا وقلدناه مصالح الكرسي . وذكر في تاريخ سنة ١٦٨٣م أنه توفي في ٢٦ من أيار منها ، وهو زائر في الشمال فنُقلت جثته من البهلوية إلى ضهر صفرا وله من العمر اثنتان وخمسون سنة .

الأسقف يوسف بن مبارك ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٨٣م وقال إنه كان من رهبان دير مار سركيس ريفون ، ولما توفي الأسقف بطرس الاهدني رماه بدله على صيدا في ٦ حزيران من السنة المذكورة . وهذا الأسقف توفي في ٨ ايلول سنة ١٧١٣ في ريفون بعد أن دبر البطريركية ثلاث سنين عند توقيف البطريرك يعقوب عواد كما سوف يجيء .

الأسقف جرجس الاهدني لم يذكره الدويهي في نسخة تاريخه التي بيدنا ، وجاء ذكره في سجله ويظهر منه أنه رماه في ٢٧ آب سنة ١٦٩٠م على اهدن وأنه ابن سركيس عبيد الاهدني ويسمى بنيامين والكاروز وأنه دخل الرهنة اليسوعية وتوفي بروما . وسيأتي ذكره .

الأسقف يوسف الشامي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٩١م وقال إنه رماه في ٢٧ كانون الثاني إلى أسقفية بيروت وتوفي سنة ١٧١٣م .

الأسقف يوحنا حبقوق من بشعلي ذكره الدويهي أيضاً في تاريخ سنة ١٦٩١م قائلاً: وفيها كانت وفاة المطران يوحنا بن جلوان السمراني رئيس دير قزحيا ورقينا عوضه الخوري حنا بن حبقوق من قرية بشعله في ٨ من ايلول على دير قزحيا ، وهذا الأسقف سلم الدير المذكور إلى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٠٨م وتوفي سنة ١٧١٨م .

الأسقف ميخائيل الغزيري ذكر الدويهي وفاته في ٦ من تشرين الثاني سنة ١٦٩٧م، وقال أنه كان مطران دمشق، ودُفن بدير طاميش. ولم يذكر ترقيته إلى الأسقفية في تاريخه ولا في سجله فكأنه رقاہ أحد أسلافه.

الأسقف جبرائيل الدويهي رقاہ الدويهي على صرند في ٢٨ كانون الثاني سنة ١٦٩٣م وترى اسمه في جملة أسماء الاساقفة الذين كانوا في المجمع اللبناني، ولم يشهده بنفسه ولكن ناب عنه القس بطرس عطايا وتوفي سنة ١٧٣٩م.

الأسقف يوحنا محاسب الغوسطاوي رقاہ الدويهي على عرقا ودير مار شليطا في ٧ ايلول سنة ١٦٩٨ وتوفي بالدير المذكور سنة ١٧١٢م.

الأسقف يعقوب عواد الحصري رقاہ الدويهي على طرابلس في ٦ تموز سنة ١٦٩٨م وهو الذي صير بطريكاً بعده وسيأتي ذكره.

الأسقف خير الله اسطفان الغسطاوي رقاہ الدويهي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠٣م أسقفاً على العاقورة ودُعي جرجس، وتوفي في عين ورقة سنة ١٧٣٣م وهؤلاء الاساقفة الأربعة لا ذكر لهم في نسخة تاريخ الدويهي التي بيدنا فأسمائهم مأخوذة عن سجله. انتهى.

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

عد ٦٧

بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري

أما بطرس المطوشي نسبةً إلى قرية مطوش في قبرص فهو أحد تلاميذ مدرسة الموارنة بروما، أرسله إليها البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٨٤م مع تسعة تلاميذ

آخرين منهم جرجس عميرة الذي صار بعداً بطريركاً، وسركيس الرزي أخى البطريك الذي صار أسقفاً على دمشق، وموسى العنيسي من العاقورة الذي صار مطراناً على قبرص. وبعد أن أنجز بطرس المذكور بمدرسة روما علومه انضوى إلى جمعية الآباء اليسوعيين فكان من فضلائهم وعلمائهم، وقد أرسله البابا بولس الخامس إلى ايليا بطريك الكلدان مع سفيره آدم رئيس شمامسة كرسية، وصحبته الأب مارينوس اليسوعي أيضاً ليقبل الكلدان بحضورهم رجوعهم إلى الايمان الكاثوليكي، وقد انفذ البابا المذكور معهما رسالة إلى بطريكنا يوحنا مخلوف مؤرخة في ٢٥ آب سنة ١٦١٤م بها يرغب إليه أن يرشد بطرس المطوشي ويوحنا مارينوس إلى ما يتصرفان به مع بطريك الكلدان في أمر رجوعهم فذهبوا إلى آمد، وجمع البطريك أساقفته بحضرتهمما وجحدوا ضلال نسطور كما تقدم في الكلام على هذا البطريك. وفي جواب البطريك إلى الخبر الروماني بولس الخامس أطيب الثناء على الموارنة الذين تعبوا معه في هذه المهمة وترجموا رسائله وأعمال مجمعهم من السريانية إلى اللاتينية.

وقد ذكر دي لاروك بطرس المطوشي وقال في حقه إنه من جمعية اليسوعيين ولاهوتي مبرز وله غرامطيق سرياني لاتيني ومقالة في اللاهوت الأدبي هي في مكتبة مدرسة الموارنة بروما. وكان الأب المطوشي في جملة من عيّنهم الكرسي الرسولي لفحص كتاب الفرض الكبير (الشحيم) مع الكردينال بلرمينوس وغيره من العلماء لطبع هذا الكتاب كما مرّ.

وأما نصر الله بن شلق فأصله من العاقورة وقد درس العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ فيها ورقي إلى درجة الكهنوت، وأقام بأوروبا إلى حين، وله مؤلف في الكنيسة وترجمة سفر أيوب من السريانية إلى اللاتينية ومقالات أخرى. وقد أحرز ثروة وافرة فأوصى عند وفاته أن تُنشأ بها مدرسة لأبناء طائفتنا في مدينة رافانا من أعمال ايطاليا. وأقام القس جبرائيل بن عواد الحصري منفذاً لوصيته فأنشأ المدرسة كما عهد إليه على أنها لم تلبث طويلاً. فكان تأسيسها سنة ١٦٣٩م ثم أقفلت سنة ١٦٦٤م ونُقل تلاميذها إلى مدرسة الموارنة بروما. وكانت وفاة الخوري نصر الله سنة ١٦٣٥م.

القس جبرائيل الصهيوني الاهدني

وُلد باهدن نحو سنة ١٥٧٧م من بيت الصهيوني أحد فروع أسرة كرم الشهيرة ، وتلقّى العلوم بمدرسة المواردنة بروما ، ونبغ وحاز قصبات السبق ونال مرتبة الملفان في اللاهوت ، ورقى إلى درجة القسوس في روما ، وأقيم أستاذاً للغتين . العربية والسريانية في مدرسة الساباينسا (الحكمة) الشهيرة بروما ، وحاز من الشهرة ما جعل لويس الثالث عشر ملك فرنسا يدعوه سنة ١٦١٤م ليكون معلماً في المدرسة الملكية بباريس ، ثم شرفه بلقب ترجمان ملكي . ولما هم الأب ميخائيل لي جاي أن ينشر البوليكوتا (الأسفار المقدسة بعدة لغات) الباريسية وكل إليه تعريب النسخة العربية وضبطها وتنقيح النسخة السريانية ومعارضتها بنسخ عديدة ، ثم ترجمة العربية والسريانية إلى اللاتينية ، وعهد معه هذه المهمة إلى ابراهيم الحاقلي الماروني الشهير والخوري يوحنا الحصري الذي صبر فيما بعد أسقفاً ، وقد قدمنا ذكره وأنبأنا فالريانوس دي فلا فيني معلم العبرانية في مدرسة باريس في رسائل نشرها لانتقاد طبعة لي جاي أنّ العلامة الصهيوني كان قد أعدّ مقالة مسهبة في الترجمة العربية ، ولا نعلم ما الذي منعه عن اشهارها ، وقد فرغ لي جاي من طبعته هذه سنة ١٦٤٥م .

على أنّ والتن العلامة الانكليزي الذي عني بطبع البوليكوتا في لوندرة سنة ١٦٥٧م قد انتفع كثيراً بأتعاب الصهيوني ورفاقه المواردنة المذكورين . وهذا ما قاله والتن في مقدماته على طبعته المذكورة في حق الصهيوني «لأنّ هذا الرجل العظيم بذل تعباً شاقاً وكثير الفائدة لكل من يرغبون في أن يتضلّعوا باللغات الشرقية والأسفار المقدسة . ومن لم يقرّ له بالفضل كان غامطاً الاحسان ، فنحن نعترف بفضلته ونرى أنه يلزم الجميع أن يؤدوه شكراً لا ينقضي» . وله أيضاً ترجمة كتاب الزبور من العربية إلى اللاتينية طبعه بروما سنة ١٦١٤م . وكتاب في نحو اللغة العربية طبع بباريس سنة ١٦١٦م . وترجمة جغرافية أبي عبد الله محمد الادريسي من العربية إلى اللاتينية طُبعت بباريس سنة ١٦١٩م ومقالة في بعض مدن الشرق ودين أهلها وعاداتهم وخصالهم عاونه على بعض هذه التأليف الخوري يوحنا الحصري المار ذكره ، وطبعه بباريس سنة ١٦٢٥م بالعربية واللاتينة . وفي المكتبة

الماديشية نسخة من هذا الكتاب مخطوطة بيد الصهيوني نفسه سنة ١٦١٢م كما يظهر من الحاشية المعلقة على آخرها ، قد ذكرها المطران اسطفانوس عواد السمعاني في فهرست الكتب الشرقية في هذه المكتبة . وروى أكثر ما روينا من ترجمة الصهيوني هنا وقال إنه توفي بباريس سنة ١٦٤٨م وكذا ذكر وفاته دي لاروك في كتاب رحلته إلى سورية ولبنان . انتهى .

عد ٦٩

العلامة ابراهيم الحاقلي

وُلد هذا العلامة ونشأ بقرية حاقل من عمل جبيل بلبنان وتلقّى العلوم بمدرسة الموارنة بروما فنبغ وفاق أقرانه وعلم العربية والسريانية أولاً بروما ، وقد عهد إليه الأب لي جاي في طبع البوليكولوتا الباريسية بما عهد به إلى الصهيوني والحصري المار ذكرهما . ومن مؤلفاته ترجمة كتاب ابن الراهب المصري القبطي في التاريخ الشرقي والحاقه بترجمته مقالات مسهبة في تاريخ العرب وأنسابهم ، وقد طبعه بباريس سنة ١٦٥١ ومنها ترجمته قصيدة عبد يشوع الصوباوي المشهورة في المؤلفين البيعين إلى اللاتينية وشرحه لها وحواشيه عليها ، طبع بروما سنة ١٦٥٣م وقد شرحها العلامة السمعاني بعده في المجلد الثالث من المكتبة الشرقية ، واستدرك على الحاقلي قوله في محال كثيرة . وقد شرح السمعاني أيضاً كتاب ابن الراهب المذكور وانتقد على الحاقلي في عدة مواضع . وللحاقلي أيضاً كتاب في نحو اللغة السريانية طُبع بروما سنة ١٦٢٨م وترجمة الكتاب الخامس والسادس والسابع من تأليف ابولونيوس في الهندسة من العربية إلى اللاتينية اقترح عليه هذه الترجمة فردينوس الثاني دوق توسكانا . وله أيضاً مختصر في الفلسفة الشرقية طُبع بباريس سنة ١٦٤١م وترجمة قوانين القديس انطونيوس الكبير ومواعظه وأجوبته من العربية إلى اللاتينية وطبع هذه الترجمة بباريس سنة ١٦٤٦م . وله ترجمة ديوان الحيوان للسيوطي إلى اللاتينية .

وللحاقلي أيضاً كتاب الانتصار لافتيشوس أي سعيد بن بطريق ، ذلك أنّ السلداني ترجم كتاب سعيد هذا إلى اللاتينية ، وادّعى في مقدمات ترجمته أنه

أثبت في كلامه على المراتب البيعية أنّ درجة القسوس والأساقفة واحدة ، وهذا من مزاعم لوتار وكلوين والسلداني من مشاييعيهما ، فردّ الحاقلي زعم السلداني منتصراً لسعيد البطريك الاسكندري بكتاب انطوى على مئتين واثنين وأربعين صفحة مفنداً أدلّة السلداني ومبيّناً بشهادة الكتاب والتقليد الثابت في الكنيسة منذ نشأتها أنّ درجة الأساقفة غير درجة القسوس ، وهي تفوقها مقاماً وسلطة بموجب الوضع الألهي ، وإنّ كلام سعيد لا يؤخذ منه ما توهمه السلداني . وألحق بهذا الكتاب جزءاً آخر اشتمل على نحو من خمس مئة صفحة تكلم فيه على أصل كلمة بابا ورياسته مضاداً فيه السلداني المذكور . ومّا قاله في اسم البابا نقلاً عن مؤلفين نصارى ومسلمين أنّ هذا الاسم اصطلاح عليه أولاً بطاركة الاسكندرية واستشهد في جملة شهوده أبا بكر العباسي : « في القسم الثاني من مقالته ضد النصارى » حيث قال : « فإنّ القسوس والعامّة لما سمعوا أساقفتهم يسمون البطريك أباً قالوا في نفوسهم : إذا كنّا نحن نسمي الأسقف أباً والأسقف يسمي البطريك أباً فيجب علينا أن نسمي البطريك بابا أي الأب أي الجد إذ كان أباً لأبينا . ثم لما سمعوا الأساقفة والبطاركة يسمون صاحب رومية أباً قالوا في أنفسهم إذا كنّا نحن نسمي البطريك أباً والبطريك يسمي صاحب رومية أباً فيجب علينا نحن أن نسمي صاحب رومية بابا ، فعرف صاحب رومية بهذا الاسم دون غيره إلى الآن عند أهل النصرانية جميعاً » . والأظهر أنّ هذا الاسم أخذ عن السريانية **ܐܒܐ** أي أبو الأب وهو الجد على أنّ اختصاص الأبحار الرومانيين به لم يكن بأمر بل كان من باب التغلّب والاستحسان . وللحاقلي في آخر هذا المؤلّف ردّ على هوتنجارس في كلامه في تاريخ العرب .

وللحاقلي أيضاً ترجمة قوانين المجمع النيقوي المعروفة بالقوانين العربية لأنها أخذت عن كتب عربية ، فالحاقلي عارض هذه القوانين على ست نسخ عربية منها ، وترجمها إلى اللاتينية وأشهرها مطبوعة . فمن هذه القوانين باليونانية واللاتينية عشرون قانوناً ، لكن الشرقيين يعزون إلى المجمع المذكور أربعة وثمانين قانوناً وتتداولها أيدي الشرقيين أي الملكية والموارنة والقبط واليعاقبة والأبحاش والنساطرة ، ومنها ثلاثة وسبعون قانوناً ترجمها ماروتا أسقف تكرنيت في أواخر القرن الرابع من اليونانية إلى السريانية كما روى عبد يشوع الصوباي في مختصر القوانين ، وأضاف إليها بعض المؤلفين العرب (لا نعلم من هم) أحد عشر قانوناً فصارت

أربعة وثمانين قانوناً. وقد دافع الحاقلي عن هذه القوانين في كتيّب أشهره وهو مثبت في مجموعة الجامع للاباي (مجلد ١١). وذكر مرهج بن نيرون الباني الماروني في كتابه افوليا (سلاح) الايمان وأثبتها الأب كوزالس اليسوعي في كتابه عصمة الأحبار الرومانيين، ولكن نبذها غيرهم من العلماء ولم يعتدوا نسبتها إلى المجمع النيقوي صحيحة.

وقد توفي الحاقلي بروما في ١٥ تموز سنة ١٦٦٤م، ونقلت كتبه إلى المكتبة الواتيكانية بعد وفاته وذكرها السمعاني في فهرست الكتب الذي علّقه على المجلد الأول من المكتبة الشرقية وعددها أربعة وستون كتاباً.

عد ٧٠

مرهج بن نيرون الباني

أما مرهج فوُلد ببلان إحدى قرى جبة بشري ويسميه الغربيون فافسطوس ترجمة كلمة مرهج. وروى دي لاروك أنّ خاله إبراهيم الحاقلي المار ذكره أخذه إلى روما وتلقى العلوم في مدرسة المواردن بها، وحاز قصبات السبق وأقامه الكرسي الرسولي استاذاً للغة السريانية في مدرسة السايانسا (الحكمة) الكلية في روما خلفاً لخاله إبراهيم الحاقلي. ثم صار قانونياً في كنيسة القديس اوسطاكيوس هناك ولم يشغله ذلك عن الانصباب على التأليف والتصنيف وتنقيح كتب طائفته البيعية والعناية بطبعها. ومن تأليفه كتابه في أصل المواردن ودينهم واسمهم وهو مشهور واستشهدنا به مرات في خلال تاريخنا هذا. وقد طبع بروما سنة ١٦٧٩م وله كتاب آخر واسمه بافوليا (أي سلاح) الايمان الكاثوليكي، وقد استشهدنا به أيضاً مرات وقد طبع بروما سنة ١٦٩٤م جمع به من كتب السريان والكلدان القديمة البينات الراهنة على صحة الايمان الكاثوليكي خلافاً للبروتستانت، وقد عني بتنقيح الأناجيل وسائر أسفار العهد الجديد، وطُبعت بمناظرته بالسريانية والعربية بأحرف كرشونية بروما سنة ١٧٠٣م، وأضاف إليها مقدمة كثيرة الفائدة دالة على فقاھته وطول باعه، وعاونه على تصحيح هذه الطبعة القس يوسف الباني الماروني مدرّس اللغتين السريانية والعربية في مدرسة نشر الايمان المقدس. وقد أخذت الطبعة السريانية عن نسخة كانت في مدرسة المواردن بروما مرسلّة من بطريركهم إلى البابا غريغوريوس

الثالث عشر (لم يذكر مرهج في مقدماته اسم البطريرك مرسل هذه النسخة ، ويلزم أن يكون ميخائيل الرزي أو أخوه سركيس الرزي فهما كانا في أيام البابا المذكور) وهي الترجمة السريانية المعروفة بالبيسطة التي استعملتها طائفتنا من أقدم الأيام . وأما العربية فكان الأب ميخائيل المطوشي قد أتى بها من جزيرة قبرص ، وكانت أكثر تهذيباً وضبطاً من سائر النسخ التي عورضت بها ، وهي لا تطابق السريانية المطبوعة معها كل المطابقة كما لاحظت ذلك ، ولكنها لا تختلف عنها حتى يصح القول أن هذه العربية ترجمت عن اليونانية ولا مرية في أنها عن السريانية ، وتقرب من النسخة التي هذبها المطران سركيس الرزي وطُبعت مع اللاتينية العامية سنة ١٦٧١م بروما ، وتختلف كثيراً عن العربية المطبوعة في البوليكلوتا كما تأكدت بمعارضتي هذه النسخ لدن وجودي في روما . وعن طبعة الأب مرهج هذه أخذ المطران جرمانوس فرحات النسخة التي عرّبها والمستعملة الآن في طائفتنا ، ولدى كتابتي تفسير الانجيل زدتها مطابقة للسريانية وأوعزت إلى الأب يوسف العلم لما كان رئيس دير الكرم للمرسلين ، فصنع كذلك في كتابه تفسير رسائل القديس بولس الرسول وباقي الرسل .

وروى دي لاروك (في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان صفحة ١٢٩) إنه كان بينه وبين مرهج مكاتبة وأثنى على رسائله وأنه كتب إليه في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٧٠١م أنه كان مشغولاً بطبع العهد الجديد بالسريانية والعربية وقد أنجز طبعه فيما بعد . ولأنه توفي سنة ١٧١١م وعمره نحو ثمانين سنة مشهوراً بتقواه ومهارته بالعلوم الشرقية وأنه يرغب في أن يكون كاهناً اتضاعاً بل كان شماساً وقانونياً في كنيسة . . . (ترك اسم الكنيسة بياضاً ونعلم أنها كنيسة القديس اوسطاكوس روما كما مرّ) ، ونرى مرهج في عنوانات كتبه لم يصف نفسه بكاهن أو قس . ولكن رأينا الدويهي يقول في تاريخ سنة ١٦٥٦م : « دخل إليه (أي إلى البطريرك يوحنا الصفراوي) القس مرهج بن نيرون فوجده ملقى على الأرض والنور ينبعث من وجهه » ولا نعلم أصحاب الترجمة أراد أم غيره يسمى باسمه فبين سنة ١٦٥٦م التي كان فيها ذلك وسنة ١٧١١م التي توفي صاحب الترجمة فيها خمس وخمسون سنة أبقى مرهج كل هذه المدة كاهناً ولا عجب إذا كان عاش ثمانين سنة وكان ارتقاؤه إلى الكهنوت وعمره خمس وعشرون سنة . انتهى .

مشاهير آخرون بالغيرة والنسك

لأن من اشتهروا بالغيرة والنسك لجديرون بالذكر كالعلماء فهم أصحاب الفلسفة الروحية الحقّة ، ومن هؤلاء من الموارنة في القرن السابع عشر انطونيوس الصهيوني الاهدني، والذي نعلمه من أمره أنه تلقى العلوم في مدرسة الموارنة بروما كما روى المطران اسطفانوس عواد السمعاني (في كتاب فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية صفحة ٥١) ثم اتخذ الطريقة الرهبانية وراقي إلى درجة الكهنوت بل صار رئيس كهنة اورديوط لأنّ المطران اسطفانوس وصفه بكلمة رئيس كهنة في ترجمة كلامه الذي وضعه على الكتاب الآتي ذكره وهو كتاب الأنجيل ورسائل بولس الرسول وباقي أسفار العهد الجديد حتى رؤيا يوحنا . وقد نسخه بالعربية والأحرف الكرشونية نسبةً إلى رجل اسمه كرشون من الجزيرة ، كان أول من كتب العربية بهذه الأحرف السريانية فأخذ النصارى يكتبون الأسفار المقدّسة بهذه الطريقة ليخفوا أسرار دينهم عن المسلمين العرب ، هذا ما ذهب إليه الصهيوني ومرهج الباني والمطران اسطفانوس عواد في كتابه المذكور . وكان هذا الكتاب في جملة الكتب التي أخذت عنها طبعة أسفار العهد الجديد التي عني بها مرهج الباني المذكور سنة ١٧٠٣م . وكان انطونيوس الصهيوني نسخه قبل تسعين سنة بأمر البابا بولس الخامس ويوحنا مخلوف بطريرك الموارنة عن كتب كانت بمدرسة الموارنة كما هو بيّن من الذيل الذي علّقه انطونيوس المذكور على آخر هذا الكتاب وهو : « في سنة ١٦١١م في السادس والعشرين من حزيران كان النجّاز من نسخ هذا الكتاب في أيام آبائنا بولس الخامس الحبر الروماني الكلي الطوبى والبار يوحنا (مخلوف) الاهدني البطريرك الانطاكي الذي كرسيه بلبان وتمتد سلطته الروحية إلى سورية كلها والامصار القاصية ، وهو مشتمل أسفار العهد الجديد أي الأنجيل ... بيد الحقيّر انطونيوس بن اوفيمياني (كذا) الصهيوني رئيس الكهنة ، والراهب من اهدن بجبل لبنان السرياني الماروني الذي كتب بأمر الرؤساء فصول الأنجيل الأربعة وسائر أسفار العهد الجديد بحسب تقسيمها وعدادها في النسخة العامة الرومانية آخذاً ايهاها عن ثلاث نسخ كانت في مدرسة الموارنة بروما . وقد دوّن هذا المجلد السيد الشريف يوحنا راثموندوس » المشهور بمعرفة اللغات الشرقية .

وقد نسخ انطونيوس الصهيووني القسم الأول من فلسفة السريان المشتمل على أربعة كتب وهي كتاب الایساغوجي لبرفيريوس وثلاثة كتب من تأليف أرسطو الفلسفية . وهذه الكتب ترجمها حنين بن اسحق السرياني الطبيب من اليونانية إلى السريانية ؛ والكتاب الذي نسخه الصهيووني هو في المكتبة الماديشية في عدد ١٧٦ وصفحاته ٣٥٠ صفحة . ونسخ أيضاً القسم الثاني من فلسفة السريان وهو يشتمل على تسع مقالات فلسفية لأرسطو وهو لحنين بن اسحق أيضاً ، ونسخه الصهيووني في عدد ١٧٧ من المكتبة المذكورة وعدد صفحاته ٢٠٨ . وله أيضاً نسخ القسم الثالث من فلسفة السريان لحنين المذكور أيضاً وهو في عدد ١٧٨ من المكتبة المذكورة منطوياً على ٢٠٠ صفحة . وله أيضاً نسخ القسم الرابع من هذه الفلسفة لحنين في الفصاحة والشعر عدده في المكتبة المذكورة ١٧٩ وصفحاته ٣٩٥ . وهذه الكتب الأربعة بالسريانية . وفي هذه المكتبة أيضاً الكتاب ٢٧٤ مقالة في الحساب والجبر بالعربية لأبي عبد الله أحمد شهاب الدين بن أبي جعفر (الذي كان في أواخر القرن الرابع عشر) ، ومقالة في الخطوط الهندسية لأحمد بن علي . والمقاتلان بخط انطونيوس الصهيووني . وهذا الكتاب يشتمل على ٢٤١ صفحة . فهذا ما علمناه من ترجمة هذا العالم العامل .

وقد ذكر الدويهي في تاريخه عدة من أصحاب الفضل والنسك ، فمنهم القس يعقوب الدويهي رئيس دير مار يعقوب باهدن ، وقال إنه كان ورعاً فاضلاً عني ببناء الدير المذكور وتعليم الأولاد ، وتوفي سنة ١٦١٦م . ومنهم الخوري ميخائيل الاهدني الذي أخذ طريقة الحبسا بمحبسة مار ميخائيل في وادي قزحيا التي بناها أولاً القس بركة ، ثم خلفه فيها القس موسى من اليمونة ، وبعده القس يعقوب من بلاد البترون ثم القس ميخائيل ثم القس يوحنا ، ثم القس ميخائيل ، ثم القس جبرائيل ثم الخوري ميخائيل المذكور ، وجميع هؤلاء من اهدن . وتوفي الخوري ميخائيل سنة ١٦١٧م وخلت المحبسة بعده من الحبسا .

ومنهم القس يوحنا ابن القس يوسف محاسب من غوسطا الذي اهتم سنة ١٦٢٨م بتجديد بناء دير مار شليطا مقبس بكسروان وهو أول الأديار المجددة في كسروان ، وكان أخوه القس سرقيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إلى مار شليطا المذكور . وتوفي القس يوحنا سنة ١٦٤٠م وقام بالرئاسة بعده أو في حياته ابن أخيه الخوري سرقيس . وسيأتي ذكره عند الكلام على هذا الدير .

ومنهم القس يوسف ابن القس اصاف عن عرامون الذي بنى كنيسة مار عبدا هريريا في فتح كسروان، ثم كنيسة السيدة هناك. وليس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا وأختهم رفقا وسيأتي ذكرهم.

من هؤلاء خاصة مؤسسو الرهبة الحلبية اللبنانية وهم جبرائيل حوا وعبد الله بن عبد الأحد قرألي ويوسف بن البتن، فهؤلاء ألهمهم الله أن ينشعوا رهبانية قانونية عامة فخرجوا من حلب سوية سنة ١٦٩٣م وساروا توأ إلى أورشليم لزيارة الأماكن المقدسة والتبرك بها. ثم امتثلوا أمام السيد البطريرك اسطفانوس الدويهي في أول شباط سنة ١٦٩٤م وكاشفوه بعزمهم على اقامة رهبانية تستسير بقانون واحد ويرأسها رئيس عام واحد، ويكون لكل دير من أديارها رئيس خاضع لسلطان الرئيس العام ويرتبط رهبانهم بنذور الطاعة والعفة والفقر الاختياري والانضاع على اسم القديس انطونيوس أبي النساك، فشرّ البطريرك بعزمهم وشكر لمساهم ولتبي دعوتهم وأبقاهم عنده. وفي اليوم العاشر من تشرين الثاني سنة ١٦٩٥م ألبسهم الزي الرهباني في دير قنوين على سبيل التجربة قبل ابرازهم النذور، وسلم إليهم دير القديسة مورا حذاء اهدن ليصلحوا بناءه وقيموا به. ولحق بهم في آخر سنة ١٦٩٥م جبرائيل فرحات، وكان من عصبتهم بل زعيمهم. وجعلوا أحدهم جبرائيل حوا رئيساً عليهم وشرعوا في انشاء هذه الرهبانية ودعوا إليها باشتهار قداستهم وفضائلهم، فأثمهم كثيرون للترهب معهم. ورقى البطريرك رئيسهم إلى درجة القسوس وأخذوا يجمعون لهم قانوناً من وصايا القديس انطونيوس وتلامذته، وأخذوا سنة ١٦٩٦م دير اليشاع النبي حذاء بشري وسكنه بعضهم ورأسوا عليه عبد الله قرألي بعد أن رقي إلى درجة القسوس. وعندما عقدوا مجمعهم العام سنة ١٦٩٩م انتخبوا القس عبد الله هذا رئيساً عاماً بدلاً من القس جبرائيل حوا، وثبت البطريرك اسطفانوس الدويهي قانون رهبانيتهم سنة ١٧٠٠م وسنعود في تاريخ القرن الثامن عشر على ذكر هؤلاء الأفاضل.

وقد نesk في لبنان في هذا القرن الحبيس فرنسيس كالوب دي شاستويل الفرنسي، وذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٣٢م حين قدم إلى لبنان، وفي سنة ١٦٤٣م حيث توفاه الله لرحمته. وروى دي لاروك ترجمته مطوّلة في المجلد الثاني من رحلته إلى سورية ولبنان من صفحة ١٥٢ إلى صفحة ٢٦٠ فلخص ترجمته عنه بايجاز. فقد وُلد باكس من فرنسة في ١٩ آب سنة ١٥٨٨م وظهرت عليه

امارات التقوى منذ حدثته ، ودرس من جملة علومه اللغة العبرانية وأتقنها وعلّق ملاحظات على النسخة السامرية من التوراة ، وأرسلت هذه النسخة وملاحظاته إلى جبرائيل الصهيوني الماروني لتعلّق في البوليكلوتا الباريسية المتقدّم ذكرها . وكان هائماً بمطالعة الأسفار المقدّسة ، علامة بتفسيرها ، فقصد أن يعتزل بفلسطين بعيداً عن الناس ناسكاً متكاملأً بعلم الأسفار المقدّسة . واتفق أنّ سفير فرنسة بالآستانة كان مسافراً إليها فسافراً معاً من مرسيليا في ٢٠ تموز سنة ١٦٣١م فأقام فرنسيس مدة في الآستانة متعلّماً بمعرفة الأسفار المقدّسة فأكثرها من التردد إليه والاعجاب به ، وأهدى أحدهم وكان أعلمهم إلى الايمان القويم وأرسله إلى فرنسة موصياً أخاه به . ونما عرف فضله وعظم اجلال الناس له من كل طبقة وملة فتعمد الخروج من الآستانة فسافر منها في ٢٠ تموز سنة ١٦٣٢م وبلغ إلى صيدا وعزم أن يتنسك بلبنان فسار إلى بيروت ومنها إلى لبنان فبلغ إلى حصرون في ١٥ ايلول تلك السنة ، ولبس زي الموارنة وسار من حصرون إلى اهدن ليستشير بأمره أسقف هذا البلد الذي كان حينئذ جرجس عميرة ، فقبله بالترحاب وأمسكه عنده أربعين يوماً ، وكان يودّ لو بقي دائماً عنده ، لكنّه أيقن أنّ الله يدعو للانفراد عن العالم . وكان البطريرك والأساقفة حتى الأمير فخر الدين قد أرسلوا يترحبون به ، فمضى يزورهم مبتدئاً بالأمير فخر الدين ثم البطريرك والأساقفة وقابله الجميع بالاجلال والاحتراف ولا سيما البطريرك يوحنا مخلوف الذي أمسكه عنده أياماً ، وكاشفه فرنسيس بعزمه على الانفراد عن العالم للتوبة والنسك وسأله أن يقبله في عداد أبنائه ، فعجب البطريرك به ووطّد عزمه وباركه فانصرف من عنده يزور الأرز ، وعاد إلى اهدن التي فضّل الإقامة بها ليتعلّم اللغة السريانية ليطالع الأسفار المقدّسة بها ، وكان باهدن حينئذ كاهن فاضل من رهبان قزحيا اسمه القس الياس اعتزل عن الناس في محل قريب من اهدن ، فآثر فرنسيس السكنى بالقرب إليه في دير مار يعقوب المنقور بالصخر وعزم أن لا يخرج إلّا لضرورة قصوى . وعاش هناك عيشاً قشفاً صارماً صارفاً أوقاته بالتأمل والصلوة والمطالعات الروحية مانعاً نفسه من أكل اللحم وشرب الخمر مكثراً الصوم إلى الساعة الرابعة بعد الظهر مقتنعاً يوم الأربعاء والجمعة والسبت من كل الصوم بالخبز والماء لا غير ، ينام قليلاً (إذا اضطر إلى الراحة) على فراش خشن . ولما كانت الحملة على فخر الدين كما مرّ وفّر سكان القرى اضطّر فرنسيس أن يفّر أيضاً مع القس الياس المذكور وأن يختبئ في المغاور

والكهوف ويعانينا مشاق الجوع والعطش . ولما استكن عاصف القلق في البلاد عاد إلى نسكه وتقشفاته ، وقصده بعض التجار الأفرنج وأرادوا أن يدفعوا له مالاً يستعين به على معاشه فلم يقبل شيئاً . وكانت مطالعته لأسفار العهد القديم بالعبرانية ولأسفار العهد الجديد باليونانية والسريانية التي تعلمها . ولما صير القس الياس مطراناً على اهدن (هو الذي ذكرناه في جملة الأساقفة وقتلنا أنه من عائلة الصراصرة) وسكن في دير مار سركيس اهدن أسكنه معه واستمر عاكفاً على اماتاته وصلواته ثم انتقل المطران من اهدن فلم يشأ الحبس أن يرح مخدعه في الدير إلى أن أتى الأب شالستينوس رئيس الكرملين في لبنان فأقنعه أن يترك هذا الدير ويأتي فيسكن معه في دير مار اليشاع ، فأتى ولكن لم يشأ أن يغير شيئاً من عيشته النسكية وصلواته وتأملاته حتى كان الرهبان يتعجبون كيف يمكن شخصاً ربي بالتنعم أن يعيش مثل هذه العيشة الحشنة . ومرض أخيراً فتحمل أوجاعه بالصبر الجميل والهشاشة والتسليم لمشيئة الله والاشتياق إلى ملاقة ربه الذي نقله إلى الحياة الخالدة مع النساك المجاهدين في ١٥ أيار سنة ١٦٤٤م ليلة عيد العنصرة ، ودُفن بدير مار اليشاع المذكور . وذكر دي لاروك أنّ الله صنع بواسطته آيات كثيرة في حياته وبعد وفاته .

والذي ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٤م أنّه استحبس أولاً بدير السيدة بحوقا ثم بدير مار يعقوب الأحباش ، ثم بدير مار سركيس على رأس النهر في رئاسة الأسقف الياس . ولما سكن هذا الأسقف في اهدن انتقل الحبس إلى دير مار اليشاع في بشري وانتقل إلى الراحة التي لا زوال لها . وكان عبدة صالحة لأهل البلاد وبلغ أسمى المراتب بالورع والصوم والسهر وتلاوة الكتب وفي قمع جسده وتجرّده عن العالم وتعلّقه بالإلهيات حتى صدر منه معجزات وسبق فأنبأ بمزوعات . انتهى .

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

عد ٧٢

الأديار

من الأديار التي جدّدها أو أنشأها الموارنة في هذا القرن دير مار شليطا مقبس بكسروان ، والظاهر من عبارة الدويهي أنّ هذا الدير لم يكن حينئذٍ أول انشائه لأنه قال بتاريخ سنة ١٦٢٨م: «اهتم القس يوحنا ابن القس يوسف المدعو المحاسب من قرية غوسطا بتجديد بناء دير مار شليطا في أرض مقبس ببلاد كسروان وصار أول الأديار التي أنشئت في تلك البلاد» .

وكان أخوه القس سركيس مترهباً بدير قزحيا فانتقل إليه . وقال في تاريخ سنة ١٦٧٢م عندما سقطت كنيسة دير ما شليطا بمقبس جدّدها الخوري سركيس على يد البنا القس جرجس الأميوني الماروني، وفي جانبها من جهة الشمال بنينا (يتكلم الدويهي عن نفسه) داراً لسكنى البطارقة إذا توجهوا إلى تلك الناحية. وفي المشرق نقلاً عن رسالة كتبها الخوري يعقوب عواد الذي صير بعداً بطريركاً أنّ جد بيت المحاسب المسمى باسيل من ميناء طرابلس رحل مع أولاده إلى ساحل علما ثم إلى غوسطا ، وإنّ أحد أولاد باسيل هذا المسمى سركيس ارتقى إلى درجة الكهنوت وكان خبيراً بالحساب فلُقّب محاسب ، ومن نسله الخوري يوسف وولده الخوري يوحنا الذي جدّد بناء هذا الدير . وقد أنبأنا صاحب الرسالة المذكورة أنّه كان في الحل الذي بنى الدير فيه كنيسة قديمة اشتراها الخوري يوسف المذكور مع الأرض الكائنة فيها من أبي يوسف المقيّر من غوسطا سنة ١٦١٥م ، ولا يعلم في

أي وقت بُنيت الكنيسة القديمة على اسم القديس شليطا ، وأما بناء الدير فقد نُقش تاريخه على عتبة باب الكنيسة الغربي هكذا: « بسم الآب والابن وروح القدس إله واحد كمل عمار هذا الدير المبارك مار شليطا في أيام سيدنا البطريرك حنا (مخلوف) الانطاكي في تاريخ سنة ألف وستماية وثمانية وعشرين مسيحية بيد المعلم نقولا الشامي. وكان المعتني الخوري المحاسب والخوري عطيا والخوري فرح والقرايا القرية غوسطا ودرعون وبطحا وعجلتون وعشقوت ». وتوفي القس يوحنا في ٢١ تموز سنة ١٦٤٠م وترك رئاسة الدير لابن أخيه الخوري سرقيس ، وكان القس حنا مزوجاً قبل أن يصير كاهناً وله ولد اسمه الشدياق الياس بنى كنيسة القديس سمعان العمودي في قرية غوسطا كما في إحدى نسخ تاريخ الدويهي لسنة ١٦٤٥م، حيث يقول اعتنى الشدياق ايلياس ابن القس حنا الحاسب مع أهل غوسطا وجددوا كنيسة مار سمعان . وكان دير مار شليطا لسكنى الرهبان والراهبات كما كان في بعض الأديار قبل رسم المجمع اللبناني بالفصل بين الرهبان والراهبات . وكان بجانبه مسكن للبطاركة (قبل أن يزيده الديهي) . ومن سكنه منهم البطريرك جرجس السبعلي ، وتوفي فيه بالطاعون فلم يُدفن في الكنيسة بل خارجها ومدفنه قائم حتى الآن نُقش عليه تاريخ وفاته . وقد زاد البرديوط سرقيس الرقوم هذا الدير أملاكاً وشهرة .

وأقام الدويهي فيه مدة فأنشأ فيه مكتبة فجعل الرهبان ينسخون كتباً، وجمع غيرها وبقي إلى الآن قسم منها وقسم اغتالته أيدي الضياع . وتوفي سرقيس البرديوط رئيس هذا الدير سنة ١٦٨١م وترك الرئاسة لابن أخيه القس يوحنا، وكان في هذا الدير الأسقف يوحنا محاسب رقاہ الدويهي إلى أسقفية عرقا سنة ١٦٩٨م وأقام في هذا الدير وتوفي به سنة ١٧١٢م كما مرّ في الكلام على الأساقفة .

ومن هذه الأديار دير حراش ذكره الدويهي في تاريخ سنة ١٦٤٣م فقال اشترى الأسقف يوسف العاقوري (هو الذي صار فيما بعد بطريكاً) من الشيخ يوسف أبي حبيش أرض مار يوحنا حراش بخراج درعون بناحية كسروان، وأنشأ كنيسة جميلة على اسم السيدة العذراء وديراً جعله لسكنى الراهبات المتنسكات وبلغ عددهنّ إلى نحو ثلاثين راهبة، ورأس عليهنّ رفقة ابنة القس يوحنا المحاسب . وبعد وفاة هذه الرئيسة خلقتها في الرئاسة على هذا الدير ابنة أختها مريم، وكتب

البطريك الدويهي إلى القس يوحنا رئيس دير مار شليطا وإليها رسالة لفصل خلاف كان بينهما تراها في «المشرق» (صفحة ٣٠٢ من السنة الخامسة). وفي سنة ١٦٤٤م عقد البطريك يوسف العاقوري مع أساقفته مجمعاً في هذا الدير لأصلاح بعض العوائد البيعية. وسنأتي على ذكر هذا المجمع.

ومنها دير مار سركيس وباخوس في ريفون، وأول من أنشأه القس سليمان مبارك من غوسطا. وكان هذا الكاهن مزوجاً وله سبعة بنين، فبعد وفاة امرأته رغب هو وبنوه الاعتزال عن العالم في أحد الأديار فأتوا أولاً دير مار شليطا حيث أقاموا بعض سنين منضوين إلى رهبان هذا الدير، ثم انفصلوا عنهم وأتوا إلى ريفون سنة ١٦٥٥م فأنشأوا الدير القديم على خربة معبد كانت هناك، وقضوا حياتهم فيه مثابرين على النسك والعمل بما يعود عليه بالنفع إلى أن توفي القس سليمان سنة ١٧١٣م كما يظهر من الخط المنقوش على ضريحه في الدير المذكور. ومن أبنائه المطران يوسف مبارك الذي انتخب بطريكاً بعد تنزيل البطريك يعقوب عواد سنة ١٧١٠م، ثم حكم الكرسي الرسولي بارجاع البطريك يعقوب وأبطل انتخاب المطران يوسف إلى البطريكية.

ومنها دير مار عبدا هريريا وقد ذكر الدويهي انشاءه فقال في تاريخ سنة ١٦٥٥م: «فيها اهتم القس يوسف ابن القس اصاف من قرية عرامون وبني كنيسة مار عبدا هريريا في طرف فتوح جبيل ثم كنيسة السيدة قبواً، ولبس الاسكيم الرهباني هو واخوته اندراوس وانطونيوس ويوحنا ثم أختهم رفقا ثم أبوهم وأمهم بعد أن تتركوا حقوق الزواج بينهما برضاهما، وإذن مطران الأبرشية، وانقطعا عن العالم ووفقا كل ما يملكه للدير راغبين في الفقر، وفي أن يكونوا جميعاً طائعين للقس يوسف إلى نهاية حياة كل منهم، وصاروا عبدة صالحة للناس باتخاذ الطريقة الرهبانية وبالسيرة الصالحة والعبادة والورع إلى نهاية عمرهم.

ومنها دير مار الياس النبي في غزير، بنى هناك الشيخ طريه بن حبيش كنيسة على اسم ايليا النبي في أسفل غزير، ووقف لها بعض العقار، ثم بنى حذاء الكنيسة بعض مساكن فصارت ديراً، وكان ذلك نحو سنة ١٦٦٥م. وقال الدويهي في تاريخ سنة ١٦٨٣م رام المشائخ الحبشية أن يبيعوا للرهبان الكبوشيين كنيسة مار الياس التي بنوها في أسفل غزير فمنعناهم عن ذلك، ولكن سمحنا لهم

بأن يقيموا بها خمساً وعشرين سنة. وفي سنة ١٦٧٠م جدد القس يوسف اصفاف المذكور آنفاً بناء دير سيدة الحقل، وقيل إن هذا الدير ودير مار عبدا هريريا كانا مشتركين فحصل نزاع بين الخدام على حراثة الأملاك أفضى إلى فصل أحدهما عن الآخر برأي بطريك الطائفة وأساقفتها. وفي سنة ١٦٧٣م أنشأ المطران جبرائيل البلوزاوي دير السيدة في طاميش في جنوبي نهر الكلب ذكره الدويهي في تاريخ هذه السنة، ويظهر من خط كان منقوشاً على عتبة باب الدير القديمة أن الشيخ أبا نوفل الخازن وأولاده اعتنوا ببنائه وتعب به القس عطالله وتلميذه من غزير.

وفي سنة ١٦٨٢م أنشأ الشيخ سلهب الحاقلاني دير السيدة بلوزيه في خراج زوق مصبح وجعله لسكنى الرهبان العباد ثم ترهب فيه ولده القس اغناطيوس. وتسلم الدير ثم تسلمه الرهبان الحلييون اللبنانيون سنة ١٧٠٧م وخصص عند القسمة الرهبان الحليين.

وفي سنة ١٦٩٠م بنى القس خيرالله اسطفان دير عين ورقة في المحل المسمى المشرع، ثم هطلت أمطار غزيرة فخربت ما بنى، فجدد البناء في المحل الذي فيه الآن مدرسة عين ورقة الشهيرة، وهذا الكاهن ارتقى فيما بعد إلى الأسقفية ودُعي جرجس. وفي سنة ١٦٩٦م جدد الخوري جرجس صفير وأخوه ناضر بناء دير القديس مارون في الرومية بجانب القليعات بكسروان الذي صار فيما بعد مدرسة كما سيجئ.

وفي سنة ١٦٩٠م جدد البطريك اسطفانوس الدويهي بناء دير مار سركيس اهدن فإنه قال في خط عُثر عليه في بعض نسخ تاريخه ما ملخصه: «أن بناء دير مار سركيس كان على قناطر، ولما تزعزعت رممها ابن عمنا المطران بولس يمين، ولما سكن في الدير ابن أخينا الخوري ميخائيل ردم قناطره ثم تداعى عماره فلم يسكنه أحد مدة، فذُثر فوضعنا يدنا عليه وأزلنا القناطر كلها وأقمنا حائطاً متيناً في الوسط وعمرنا قبوين في الداخل أمام كل كنيسة قبو، وبنينا فوقهما قلائي وأقمنا الحائط الغربي من الأرض فصاعداً. وكان البنائون أربعة من رشميا والمتكلم عليهم القس جرجس الأميوني الماروني من قرية أميون بالكورة» فهذا القس كان من الملكية فصار كاثوليكيّاً مارونياً. وكذلك ذكر الدويهي في الخط المذكور أنه في سنة ١٦٩١م جدد بناء دير القديسة مورا في اهدن بعد أن خرب، فإن أبا ميخائيل

انطونيوس من أصنون ترهب فعمرنا له هذا الدير ثم أعطى الدويهي هذا الدير
للرهبان الحلبيين عند تأسيسهم الرهبانية فزادوا في بنائه.

عد ٧٣

ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بُنيت في هذا القرن

كنيسة السيدة في قرية بشعلة قال فيها الدويهي في تاريخ سنة ١٦٢٦م فيها
القس يوسف ابن القس حبيب من قرية بشعلة نقض بناء كنيسة السيدة وعقدها
قبواً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م فيها القس يوحنا بن الشمالي أنشأ بقرية درعون
ببلاد كسروان كنيسة القديس انطونيوس قبواً، وأخوه القس فرح بنى كنيسة
السيدة. وكان الأخوان ورعين ولهما اليد الطولى في نسخ الكتب البيعية. وفيها
نقض الشيخ أبو عماد بن الجميل كنيسة القديس عبدا في بكفيا وعقدها قبواً بثلاثة
أسواق بمساعدة أهل بكفيا على يد البنا يوحنا الشامي. وكذلك القس بشارة من
بيت الخراط اهتم بتوسيع كنيسة الملائكة بقرية بكفيا أيضاً.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٢م: «اهتم البطريرك يوحنا مخلوف فجدد كنيسة
القديسة مورا بقرية كفر زينا» بقيت هذه الكنيسة على ما كانت عليه إلى أيامنا.
ومن بعض سنين نقض أهل القرية البناء القديم وبدلوه بالبناء الحالي، وقد مدّيتهم
بعض الاسعاف لأنها كنيسة القرية التي ربيت فيها. وقال الدويهي في تاريخ هذه
السنة أيضاً إنّ أهل كفرحاتا بالزاوية جدّدوا كنيستهم على اسم القدس ماما،
وكان هذا البطريرك منذ سنة ١٦٠٩م توجه إلى مجدل معوش بالعرقوب الشمالي
وأقام بها مدة، وبنى هناك كنيسة السيدة الباقية حتى الآن على هيئتها القديمة.

وقال في تاريخ سنة ١٦٣٦م: «وفيها انتهى بنيان كنيسة السيدة بالعربانية من
قرى المتن وكرسها المطران يوسف بن حليب العاقوري مطران صيدا في السادس من
تموز، وكان المهتم ببنائها الشيخ عون المكارى وأبو عطاالله ابن القبرصي والحاج
ميخائيل أبو نعمه. وقال في تاريخ سنة ١٦٣٨م إنّ كنيسة الموارنة بأياس كانت قد
خربت وكنيستهم بحلب احترق سقفها مع الدرايزين، وقدم السلطان إلى حلب

فاستأذنه في بنائهما فأذن به ، فجدد الموارنة جزوع كنيسة ايليا النبي بحلب ، وعمر الأرمن كنيسة باياس لتكون مشتركة بين الملتين المارونية والأرمنية .

وقال في تاريخ سنة ١٦٤١م إنّ كنيسة الموارنة بالكفریات بقبرص كانت قد رتعت بيد الروم لأنّ الروم أغروا الخوري جرجس خادماً وبعض أقربائه فاتبعوا مذهب الروم وأخذوا الكنيسة وصار حينئذ الخوري بطرس خادماً لكفریات . وكان ذا نفوذ وغيره فاستفتى العلماء فأفتوا له أنّ الكنيسة لم تكن للخوري جرجس بل للموارنة ، فاستحصل خطباً شريفاً باعادتها إلى طائفته ، وفي هذه الأثناء بنى الشيخ أبو نوفل نادر الخازن كنيسة السيدة في عجلتون وعين جعلاً لكاهن يقّس بها كل يوم .

وقال في تاريخ سنة ١٦٥٤م إنّ القس جرجس ابن القس رزق الله البجاني أنشأ بمساعدة أهل بيت شباب كنيسة القديس جرجس في بحردق بقاطع بيت شباب ، وقال في تاريخ سنة ١٦٧٣م إنّ الشيخ أبا فارس وأخاه الشيخ أبا ناضر ابني الحاج أبي منصور الاهدني كاتب الأمير أحمد بن معن نقضوا كنيسة السيدة في دير القمر وعقدوها قبواً . وقال في تاريخ سنة ١٦٨٥م عن نفسه جدّنا كنيسة مار عبدا على نهر الكلب (الدير المعروف الآن بدير مار عبدا المشمر) بعد أن كانت قد خربت من زمان طويل ، وأنشأنا في جانبها داراً تابعة لدار ما شليطاً بمقبس .

وفي سنة ١٦٨٩م تمّ بناركنيسة مار الياس بغوسطا أنشأها الشيخ أبو قانصوه فياض الخازن بجانب الدار التي بناها لنفسه بالقرية المذكورة .

ذيل

المجمع الذي عقده البطريرك يوسف العاقوري

في دير حراش

عقد هذا المجمع البطريرك يوسف العاقوري في ٥ من كانون الأول سنة ١٦٤٤م في دير حراش وُجِدت نسخة منه في هذا الدير، ولكن سقط منها ورقة مشتملة على بعض الكلام في سري التوبة والأوخاريسيتيا، ومنه نسخة أخرى في دير الرهبان الموارنة بروما، وقد أخذنا ملخص قوانين هذا المجمع عن نسخة حراش إذ لم نعثر على غيرها، ونرى فيها بعض ما يخالف التهذيب المعمول به الآن منبأً لنا بما كان في تلك الأيام. وإليك ملخص قوانين هذا المجمع معربة عن النسخة المذكورة.

أولاً في المعمودية هي سرّ من أسرار الكنيسة السبعة ويلزم أن يكون التعميد في اليوم الثامن بعد المولد وإذا دعت ضرورة فبعد أربعين يوماً، ويكون غسل الطفل بعد تعميده حالاً. ٢ لا يؤخر التعميد لغيبة العراب أو لصنع حفلة أو تقديم هدايا. ٣ لا يُسمح أن يكون العراب من الهرطقة. ٤ لا يرشم الطفل (أي لا يُعمد دون تلاوة الصلوات التي في رتبة التعميد) إلّا عند خطر الموت، وإذا لم يوجد حينئذ كاهن أو شماس فيحق لأي رجل أو امرأة كان أن يعتمد بحيث يتلو الكاهن الكلمات الجوهرية وهو يسكب الماء على الطفل وهي: «أن أعمدك يا فلان أو يا فلانة بسم الآب والابن والروح القدس آمين» ومن عُمد كذلك لا يجوز إعادة صورة التعميد عليه بل تتلى عليه صلوات رتبة المعمودية ويُدهن بالميرون والزيت المقدّس ويُغسل للحال، وإن حصلت رية في صحة تعميده السابق فيُعتمد ثانية. بقول المَعتمد: «إن كنتَ لست معمّداً فأنا أعمدك يا فلان الخ». ٥ لا يُستعمل

في التعميد إلا الماء الطبيعي صرفاً بارداً أم سخناً خلياً من العكر. ٦ يلزم الكهنة المعمدين أن يدونوا بسجل مخصوص اسم من عُمد واسم أبيه وأمه وعرايه وزمان تعميده .

في التشبث هو سر من أسرار الكنيسة السبعة وخادمه هو الأسقف ويعطي هذا السر من كان عمره خمس سنين فصاعداً ويلزم تدوين أسماء المبتتين كأسماء المعمدين .

في الاعتراف هو سر من أسرار الكنيسة السبعة وهنا الورقة الساقطة وهي تشتمل على القوانين المتعلقة بسر التوبة وسر الأوخارستيا وبعض القوانين المتعلقة بسر الزيجة إلى القانون السادس منها .

القانون السادس زواج أخوين بأختين وقطرب لقطريته (ريبب لربيته) غير جائز إلا باذن السيد البطريك (هذا مباح الآن). ٧ كل من تعدى على خطيية غيره أو استعان بحكام عالميين على ذلك أو رشاهم ومن يؤذن بهذا التعدي أو يأمر أو يرتضي به من أقربائها أو غيره فليكن ساقطاً بالحرم والكاهن الذي يكللهما فليكن محروماً (لطف الأيام هذا القانون). ٨ كل من طلب أو أخذ رشوة من أهل العروس وأقربائه ليكن محروماً. ٩ لا يذهب العريس عند العروس بل يلزم الاكليل في بيت العريس. ١٠ كل من تزوج بامنة عمه أو بنت عمته أو بنت خاله أو بنت خالته أو بخالته امرأة أبيه أو بامرأة عمه ومن أشبه كانت زيجته باطلة والبطريك يوضح بطلانها. ١١ من تزوج بامرأة وماتت فلا يحل له أن يتزوج ببنت عمها أو بنت خالته. ١٢ إذا شذ أحد الزوجين عن دينه أو ثبت على المرأة الفسق أو جن أحدهما أو طرأ عليه مرض مهما كان فالزواج ثابت ولا طلاق إلا بالممات. ١٣ يمنع عقد الزواج من اليوم الأول من كانون الأول إلى الغطاس ومن الأحد الأول في الصوم إلى الأحد الجديد ولا يحل الزواج إلا من نهار الاثنين بعده وصاعداً. ١٤ المهر يكون برضى أهل العريس والعروس. ١٥ القرابة من جهة الميرون لا تمنع الزواج إلا في الوجه الأول أعني بين القابل والمقبول وبين أي المعمد وأمه وبين الذي يعمد. ١٦ يلزم أن يكون في المعمودية عزاب وعزابة. ١٧ لا تكن زيجة بين ابن العرابة والبنت التي قبلتها أمه (أي فليوتني لابني كما هي حرفية كلام الجمع وقد حصر الجمع اللباني القرابة الروحية بين العرايين وبين

المعمود وأبويه ثم بين المعمد والمعمد وأبويه لا سوى). ١٨ المعمد أو الراشم لا يحل له أن يتزوج أم المعمد أو المعمدة. ١٩ المعمد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعمد أو الراشم. ٢٠ أبو المعمد لا يحل له أن يتزوج بامرأة المعمد. ٢١ المعمد لا يحل له أن يتزوج بالبت التي عمدها. ومن تزوج خلافاً للقوانين المذكورة فُسخ عقد زواجه.

درجة الكهنوت القانون الأول الكهنوت سر من أسرار البيعة السبعة، وكل من ضرب كاهناً أو شدياقاً أو راهباً أو أهانهم محروماً ولا يحلّه إلا البطريرك. ٢ إذا قدّس كهنة جملة عن نفس ميت فالأولى أن يتشج كلّ منهم بأثواب التقديس ليفي الزامه بالقداس الذي أخذ حسنته (هذا القانون غير معمول به الآن ويكفي لباقي الكهنة أن يتشجوا بالمدركة والبطراشيل أو البطرشيل وحده. ٣ لا يجوز للكاهن أن يكون جانياً لمال الحكومة أو شيخاً لقرية أو يتقلّد فريضة من أحد ولا يجوز لأحد العامة أن يُكرمه على ذلك ومن خالف يؤدبه أسقفه. ٤ الرؤساء والكهنة يصير جنازهم وعليهم عدة التقديس كاملة ولا يكون دفنهم غير بالكتونة فقط. ٥ من تزوج بنتين واحدة بعد الأخرى أو تزوج بأرملة لا يصير كاهناً وكذلك من كان أعور أو مفلوجاً أو يقع في الهلّة أو ارتكب القتل عمداً. ٦ وكيل كرسي قنوبين يناط به تدبير أرزاقها دائماً وليس للبطريرك أن يعزله إلا برأي المطارين. ٧ كل من صار مطراناً أو بطريركاً حرمت عليه المآكل المزفرة.

مسحة المرضى القانون الأول هي سر من أسرار البيعة ولا يُمسح المريض إلا عند خطر الموت. ٢ لا يتقاعدن أحد من الكهنة عن مسحة المريض المشرف على الموت لأنها سر ضروري لحماية نفس الميت من محاربة الشيطان. ٣ كل من مات محروماً بغير اعتراف لا يحل لأحد من الكهنة أن يجنزه ويدفنه في مقبرة مكرّسة. في الميراث القانون الأول الارث لا يكون إلا بعد وفاء الدين وحسنة القداسات وباقي ما يلزم لدفن الميت. ٢ إذا مات رجل عن امرأة ووارث تعطى المرأة أولاً نقدها والثلث من متروكاته أي ثلاثة قراريط من أربعة وعشرين قيراطاً.

قوانين أخرى غير ما تقدّم

القانون الأول كل كاهن أفرنجي عزّف وناول جماعتنا الموارنة بغير أمر البطريك يكون محروماً، وكل ماروني اعترف وتناول عند الافرنج أو غيرهم يكون محروماً. ليس لأحد من الرهبان أن ينتقل من موضع إلى آخر دون إذن السيد البطريك، لا يتعدى أحد من الكهنة على رعية غيره في الأمور الروحية فليس له أن يعرف أحداً بغير إذن خوري الرعية إلا في ساعات الموت لتعميد طفل أو حل مريض مشرف على الموت.

وصايا الكنيسة

القانون الأول لا يجوز لأحد تناول الأطعمة المزفرة يومي الأربعاء والجمعة إلا ما وقع منها في عيد الميلاد إلى عيد الغطاس ومن القيامة إلى عيد الصعود. ٢ عيد التجلي وعيد الرسولين بطرس وبولس وعيد انتقال العذراء إذا وقعت يوم اربعاء أو يوم جمعة توكل فيها المأكّل المزفرة. ٣ الصوم الكبير يصام إلى الساعة التاسعة كالعادة ويلزم سماع القديس إذا وُجد وإلا فتلزم الصلاة. ٤ يبدأ في صوم الميلاد من اليوم الخامس من كانون الأول ويصام إلى الظهر وإذا وقع بدؤه يوم الأحد فيبتدى في الصوم يوم الاثنين. ٥ يبتدى بقطاعة الرسل في اليوم الخامس عشر من حزيران وفي قطاعة السيدة من أول يوم من شهر آب وإذا وقع بدؤها يوم الأحد لا يصام. ٦ على كل مسيحي أن يحضر القديس أيام الآحاد والأعياد المأمورة بطلاتها، ومن أهمل ذلك أخطأ خطأ مميتاً رجلاً كان أو امرأة.

وهذه هي الأعياد الواجبة بطلاتها تشرين الأول في ٢٨ منه عيد القديس سمعان القانوني ويهوذا الرسول. تشرين الثاني في أول يوم منه عيد جميع القديسين وفي ٣٠ منه عيد القديس اندراوس الرسول. كانون الأول في الواحد وعشرين منه عيد القديس توما الرسول وفي ٢٥ منه عيد ميلاد سيدنا يسوع المسيح وفي ٢٦ منه عيد السيدة والقديس اسطفانوس وفي ٢٧ منه عيد مار يوحنا الانجيلي. كانون الثاني في اليوم الأول منه عيد ختانة المسيح وفي السادس منه عيد

الغطاس . شباط في الثاني منه عيد دخول المسيح للهيكل وفي التاسع منه عيد مار مارون البطريرك . آذار في ١٩ منه عيد مار يوسف خطيب مريم وفي الخامس والعشرين منه عيد بشارة العذراء . أيار في أوله عيد فيلبس ويعقوب الرسولين . حزيران في الرابع والعشرين منه عيد ميلاد يوحنا المعمدان وفي ٢٩ منه عيد القديسين بطرس وبولس . تموز في الخامس والعشرين منه عيد يعقوب بن زبدي الرسول . آب في السادس منه عيد التجلي وفي الخامس عشر عيد انتقال العذراء وفي الرابع والعشرين عيد برتلماوس الرسول . أيلول في الثامن منه عيد ميلاد العذراء وفي الرابع عشر عيد ارتفاع الصليب وفي الحادي والعشرين عيد متى الرسول وفي التاسع والعشرين عيد ميخائيل رئيس الملائكة .

وأما الأعياد المنتقلة فهي عيد القيامة وثانيه ، وعيد الصعود ، وعيد العنصرة وثانيه ، وعيد الثلاث الأقدس في الأحد الذي بعد العنصرة ، وعيد جسد المسيح وهو في الخميس الثاني بعد العنصرة ، وعيد كنيسة المحل . هذه هي الأعياد اللازمة البطالة بها وحضور القداس وعلى الكهنة أن يشهروا في رعاياهم وجوب البطالة في هذه الأعياد ويجهدوا في حفظ ذلك . انتهت أعمال هذا المجمع ولم نجد في نسخة حراش المذكورة اسم الأساقفة الذين وقّعوا عليه أو شهدوه بل قيل هناك أنه انتهى في اليوم الخامس من كانون الأول سنة ١٦٤٤م وعاد كل من المطارين إلى كرسيه والكهنة والرهبان إلى محلاتهم .

المقالة الحادية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الأوّل

أعيانهم الدنيويون في هذا القرن

عد ٧٤

المشايع آل خازن وآل حبيش في هذا القرن

ذكرنا في تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر من كانوا من آل خازن قناصل لدولة فرنسا في بيروت، وأنّ الشيخ حصن بن فياض الخازن كان في هذا المقام، وبعد وفاته صير ابنه الشيخ نوفل الخازن قنصلاً لفرنسة في بيروت وبقي في هذه القنصلية إلى أن عقد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م فكان الشيخ نوفل قنصل فرنسة في بيروت كاتباً فيه.

وبعد أن انتقلت الولاية على جبل لبنان من آل معن إلى آل شهاب في أواخر القرن السابع عشر كان مدبرو الأمراء الحاكمين من آل شهاب غالباً من الموارنة وأبقوا آل خازن على ولايتهم بكسروان وآل حبيش على ولايتهم بغزير وما يليها، ولما تولى الأمير يوسف علم الدين اليميني على لبنان بمساعي محمود باشا أبي هرموش كما مرّ واضطرّ الأمير حيدر موسى الشهابي الحاكم حينئذ أن يفرّ من وجهه سار أولاً إلى كسروان معتصماً بالمشايع آل خازن وآل حبيش ولما تقوى عليه

عسكر الأمير يوسف علم الدين ودخلوا غزير وأحرقوها ترك الأمير حيدر عياله في كسروان فخبأهم المشايخ آل خازن في بعض قراهم، وكانوا يقدمون خفية كل ما يلزم لنفقتهم ونفقة الأمير حيدر الذي اختبأ مع بعض خواصه في الهرمل، ثم لما سئمت نفوس أعيان البلاد ولاية الأمير يوسف علم الدين لجأ أعيان القيسية إلى الخازنيين ليكتبوا الأمير حيدر شهاب المذكور أن يعود إلى البلاد فيناصروه جميعاً على اليمنية فحضر الأمير حيدر إلى المتن وكان معه الشيخ خازن الخازن وبعض أبناء عمه وحضروا معه وقعة عنددارا المشهورة حيث انتصر القيسية على اليمنية وظفروا بهم ظفراً تاماً فأقرّ الأمير حيدر المشايخ على ولايتهم في كسروان وكتب لهم الأخ العزيز، وكان في المصطلحات في تلك الأيام أن يفرقوا بين طبقات الناس أن يكتبوا إليهم عزيزنا أو محبتنا أو أعز المحبين أو الأخ العزيز.

وفي ١٧٢٥م تولى الشيخ عبدالله بن فاضل الخازن ناحية عكار ولما كان راجعاً من دير قزحيا إلى كسروان التقاه نحو ثلاثين رجلاً من المشايخ الحمادية وأتباعهم وأرادوا إهانتهم لأنه تولى الناحية المذكورة وهم يدعون أنّ لهم حق الولاية عليها فعاونوه عليهم الرهبان فتملّص منهم. وشكا آل خازن الحمادية إلى والي طرابلس سليمان باشا العظم فأرسل عسكرياً فكل بالحمادية، ولكن نهب عسكره بلاد جبيل والبترون (عن سجل الرهبة اللبنانية)، ولما اضطرّ البطريرك يعقوب عواد أن يبارح كرسيه قنوين بسبب مناصرته للبطريرك كيرلس تاناس كما مرّ وأن يرقى الخوري يوسف صالح الدويهي الأسقفية ويسلمه تدبير دير قنوين، كتب له صكاً بذلك ووقع عليه مع بعض أساقفته. وكتب له بعض آل خازن أيضاً وثيقة مشعرة برضاهم بهذه الوكالة لتهيئة المتأولة وغيرهم، ولما عقد الجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م شهدته كثيرون من آل خازن وآل حبيش وترى توافيعهم على آخره في النسخة المطبوعة حديثاً.

وفي سنة ١٧٥٠م لما اعتدى بنو منكر الشيعة على إقليم جزين وقتلوا رجلين من أصحاب الشيخ علي جنبلاط حشد الأمير ملحم الشهابي الرجال لكبت الشيعة المذكورين فتوجّه مع الأمير الشيخ ميلان الخازن ببعض رجال كسروان وعند اشتداد القتال في جباع الحلاوة أغار الشيخ ميلان برجاله على برج هناك كان الشيعة قد اعتصموا به فأنخن فيهم وبدد شملهم فأكرمه الأمير وعظمت منزلته عنده. وفي سنة ١٧٧٠م لما افضت ولاية البلاد إلى الأمير يوسف الشهابي

وتزلف إليه المشايخ آل خازن ولى الشيخ رامج بن حيدر بن قيس الخازن على الحفد وترج ببلاد جبيل وجعلها اقطاعاً خاصاً به وبذريته وبقيت كذلك إلى أن الغى نظام لبنان الاقطاعات فيه.

عد ٧٥

بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وأولاده

إننا ننسّق ذكر الأعيان بهذا الفصل بحسب زمان اشتهارهم وخدمتهم لولاة البلاد. فبطرس الشدياق هو من سلالة رعد الحصريني جد المقدم خاطر الحصريني الذي تقدّم ذكره في هذا التاريخ وفهد والد بطرس الذي سمي الشدياق ارتحل من حصرون إلى كسروان بأولاده وعائلته وأقاموا بعشقوت. وفي سنة ١٧١٥م دعا الشيخ أبو شيان الخازن بطرس الشدياق بن فهد وعهد إليه بمحاسبة الأموال الأميرية في ولايته بكسروان ثم جعله دهقاناً على عقاراته لما رأى فيه من الدراية والأمانة، إلى أن توجّه الشيخ المذكور سنة ١٧٢٣م إلى دير القمر ومعه الشدياق بطرس المذكور، فرأى الأمير حيدر الشهابي الوالي حينئذ ما رآه أبو شيان في بطرس المذكور فطلبه منه وأقامه رئيساً لكتيبته وأحبّه لصدق خدمته وإخلاصه وجعله مديراً له. ولما تولّى الأمير ملحم شهاب بعد والده الأمير حيدر أبقي الشدياق مديراً له كما كان عند والده إلا أنه في سنة ١٧٢٧م تغيّر عليه لوشايات رفعها حساد الشدياق إليه فوضعه في محرس منفرداً دون أن يكشف له سبب تغيّره عليه فعظم الأمر على الشدياق حتى أخرجه عن دائرة رشده، واذ كان يوماً بالكنيف ضرب بطنه بسكين فخرقه وأغمي عليه، ولما أبطأ كشفه الحارس فرآه مطروحاً على الأرض وأعلم الأمير بذلك وأمر بإحضار طبيب عاجله فلم يشف، وكان مديراً للأمير حيدر سبع سنين ولابنه الأمير ملحم ثماني سنين، وكان له ابنان ظاهر وخطار قبض الأمير ملحم عليهما وعلى ابن أخيه منصور وضبط مالهم وخيلهم، ثم أمر بإطلاقهم وارجاع بعض عقارهم، لكنّه هب داري بطرس وابن أخيه منصور بعشقوت للشيخ أبي صليبي مرعب الخازن، فارتحل منصور إلى حارة الحدث ببعض أقربائه فتوطنوا وسكن ظاهر وخطار ابنا بطرس في بيروت.

وفي سنة ١٧٤١م سار منصور بأهله إلى بعلبك فخدم الأمير حيدر الحرفوش واستأجر منه أرضاً للزراعة، وقد قتل مصادفة أحد أقربائه رجلاً متوالياً فطيب الأمير حيدر قلب منصور وأقربائه وأمر المتأولة أن لا يسوموهم ضراً ومن خالف أمره قتله، لحبته لمنصور لاستقامته في تدبير أموره ولسعيه بالصلح بينه وبين الأمراء الشهابيين. وسنة ١٧٤٣م رجع منصور بأقربائه إلى حارة حدث بيروت، وسنة ١٧٥٧م أقامه الأمير ملحم الشهابي مديراً لابن أخيه الأمير قاسم عمر وأرسلهما إلى دار السلطنة يلتمسان للأمير ملحم ولاية جبل الشوف وكسروان، وللأمير قاسم ولاية بلاد جبيل. ولما عرف بذلك الأمير منصور الشهابي أمر بقطع الأشجار التي لمنصور الشدياق في الحازمية ونال الأمير قاسم ومنصور أمراً سامياً إلى والي دمشق ليجيبوا الأمير إلى مطلوبه، لكن توفي والي دمشق قبل الإجابة فبفس الأمير قاسم من الفوز وصالح عمه الأمير منصوراً وعوّض منصور الشدياق عما تلف له أو تكلف بيوتاً وعقاراً في قب الياس وأبقاه في خدمته، فسعى بعض المشايخ بتغييره على منصور وقتله. وكان منصور مأذوناً له أن يفتح الكتب الواردة للأمير ففتح ذاك الكتاب ثم ختمه وأعادته إلى الرسول فدفعه إلى الأمير فلم يخف الأمير ما فيه على منصور وطيب قلبه، فقال له منصور لا تلقى خيراً عند عمك الأمير منصور ما دمت أنا في خدمتك، واستأذنه بأن يفارقه ويتوجه إلى بلاد بشاره، فأبى الأمير وألح منصور فرضي الأمير وأكرمه ودفع إليه كتاب توصية إلى والي تلك البلاد، فارتحل منصور بأقربائه إلى قرية عين إبل فسكنها مدة ثم انتقل إلى رميش، وسنة ١٧٦٣م دعاه الأمير قاسم إليه فأتى إلى حارة الحدث وعاد إلى خدمة الأمير قاسم مديراً كما كان.

ومرض الأمير قاسم سنة ١٧٦٨م فجعل منصوراً وصياً على أولاده ودهقاناً لأملاكه، ثم استقال من الأمير منصور من هذه الوصاية سنة ١٧٧٠م فاستدعاه الأمير أفندي وأخوه الأمير سيّد أحمد الشهابيان واتّخذاه مديراً لحكومتها وبقي كذلك إلى أن فرّ الأمير سيّد أحمد شهاب سنة ١٧٨٥م من وجه أخيه الأمير يوسف إلى حوران فسار منصور معه فأمر الأمير يوسف بقطع الأشجار التي له في الحازمية. وسنة ١٧٩٣م توفي منصور الشدياق بن جعفر وعمره سبع وستون سنة ودفن بحارة الحدث وله ثلاثة أولاد فارس ويوسف وسليمان.

أمّا فارس فاستدعاه الأمير يوسف الشهابي الوالي إلى خدمته سنة ١٧٨٦م وكان الشيخ سعد الخوري مدير الأمير المذكور يحب فارساً كثيراً فأحبّه الأمير

يوسف ولما مرّ الأمير يوسف ببلاد بعلبك سنة ١٧٨٨م مطروداً من الأمير بشير قاسم الشهابي الذي كان قد أخذ الولاية أرسل الأمير جهجاه الحرفوش يقول للأمير يوسف تحوّل عن بلادي أو صليت عليك القتال، فارتبك الأمير يوسف بالجواب فقال فارس للأمير يوسف الجواب عندي. وشمّ الرسول وضربه بدبوس من حديد وقال له اذهب فقل لأميرك من أنت حتى تمنع الأمير يوسف عن المرور فهو يأمرك أن تقوم حالاً من بلاد بعلبك أو فاجأك برجاله. ولما بلغ الأمير جهجاه هذا الجواب فرّ هارباً إلى بلاد الشرق وظلّ الأمير يوسف سائراً إلى الزبداني ثم إلى حوران، وأمر فارس الشدياق أن يقيم بدمشق وكيلاً له، ولما وعد الجزار الأمير يوسف برده إلى الولاية وحضر لديه إلى عكا كتب الأمير يوسف إلى فارس أن يلحقه إلى عكا فتوجّه معه خمسة عشر فارساً فأغار عليهم في الطريق عرب عنزه والسردية فقاتلهم قتالاً شديداً وقتل بعضهم لكنّهم استظهروا عليه أخيراً ورموه عن جواده إلى الأرض، فنثر لهم نقوداً ألهاهم بها وفرّ من بينهم إلى قعدان البعيش شيخهم مستجيراً به فأجاره على عادة العرب، وردّ له ولفرسانه كلّ ما سلب منهم، ولم يمكن ورثة القتلى من العرب من مضرة نزله. وسأله فارس أن يصحبه بمن يوصله إلى إقليم البلان فأصبحه بخمسين فارس، وعند وداعه قدّم له فارس سيفه وكان ثميناً، وسار متكرراً إلى عكا خوفاً من الأمير بشير. وسنة ١٧٩٠م لما حضر الشيخ غندور الخوري إلى عكا يسأل الجزار الولاية للأمير يوسف أنعم عليه بها وأمره أن يقي الشيخ غندوراً رهناً عنده وأن يأخذ فارس الشدياق مديراً له فكان كذلك. وفي سنة ١٧٩٨ دعا الأمراء أولاد الأمير يوسف فارساً بن منصور الشدياق لخدمتهم فأقام عندهم واستمرّ فارس في خدمتهم ثمّ خدمة الأمير بشير إلى أن توفي سنة ١٨١٧م.

عد ٧٦

الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور

إنّ أسرة الخوري تنسب إلى الخوري صالح من عائلة مبارك. ارتحل الخوري صالح المذكور من كسروان إلى قرية رشميا سنة ١٧٠٠م، ويقال إنّ الخوري عبدالله من هذه الأسرة كان مع الأمير حيدر الشهابي الوالي في وقعة عندار سنة ١٧١١م،

وقبض على أميرين من اليمنية فأقطعه الأمير حيدر قرية رشميا ورفع عنها المال الأميري، وتعاقب الكهنة من هذه الأسرة واحدهم الخوري عبدالله ولد غندور، وغندور ولد الشيخ سعد، وسعد ولد الشيخ غندور اللذين نكتب ترجمتهما. فلما تولّى الأمير يوسف الشهابي سنة ١٧٧١م اتخذ الشيخ سعداً ابن غندور مديراً له فأحرز ثقته وعظم اعتباره لدى الأمير المذكور ولدى ملته المارونية بل لدى الكرسي الرسولي كما سيأتي.

في تلك السنة اجتمع المشايخ آل حمادة ودهموا الأمير بشير حيدر الشهابي في العاقورة وهو يجبي الأموال الأميرية وعاونوه عليهم شيخا بشري واهدن وغيرهما من أهل البلاد، ولما علم الأمير يوسف بذلك أرسل مديّره الشيخ سعد بعسكر من قبل الجزار ومن رجال البلاد فأدرك الشيخ سعد المتأولة بقرية دير بعشتار فأغار عليهم وحاربهم من الظهر إلى المساء، فظفر بهم وفترّ الباقون مدحورين فتتبعهم الشيخ سعد إلى القلمون وأهلك منهم نحو مائة رجل، وقبض على الشيخ أبي النصر حمادة. وفي سنة ١٧٨٣م رهن الأمير يوسف عند الجزار مديّره الشيخ سعد الخوري وأحضر ابنه الشيخ غندور سنة ١٧٨٤م وجعله مديراً له عوضاً عن أبيه. وسار الجزار إلى الحج فأخذ الشيخ سعد معه إلى دمشق فاعتراه مرض ولما عاد الجزار من الحج سأل أن يرخص له بالعود إلى بلاده لمرضه فرخص له فحضر الشيخ سعد إلى جبيل ثم إلى زوق مصبح طلباً للتداوي عند جبور الجلدي الحلبي الماروني جدّ عائلة طبيب، فلم ينجع به العلاج فعاد إلى جبيل وتوفي بعيد ذلك سنة ١٧٨٥م وعمره ثلاث وستون سنة وقد رثاه المعلم الياس آده بأبيات مطلعها:

فلا ريب بعد السعد لا شيء فاختر وقد قرحت بالدمع منا المحاجر
والمصرع الأول في هذا البيت ختم به رثاءه وجعله تاريخاً لوفاته لكن مجموع حروف هذا المصرع بحساب الجمل سنة ١٧٨٦م.

وكان الشيخ سعد علماً للملة المارونية وعضداً لها وكان في أيامه ابعاد البطريرك يوسف اسطفان إلى الكرمل بأمر البابا بيوس السادس بسبب الراهبة هندية، ورفع الشيخ سعد عرائض إلى الحبر الروماني وبعض كرادلة الكنيسة الرومانية مؤرخة في ١٥ آذار سنة ١٧٨٤م ملتصقاً لإرجاع البطريرك إلى كرسيه مبرئاً ساحته مما قذف به، وأوعز إلى أساقفة الملة ورؤساء الرهبانيات والمشايخ فاقتدوا به، وأرسل

الشيخ سعد الخوري يوسف التيان تلميذ مدرسة الموارنة برومة إلى البابا وأصبحه برسالتين من الأمير يوسف حاكم البلاد إحداهما إلى الحبر الروماني والثانية إلى مجمع نشر الإيمان مبرئاً البطريرك مما طعن عليه ومترجياً عوده إلى مقامه. وترى صور هذه الرسائل مأخوذة عن السجلات البطريركية في كتاب سلسلة بطاركة الموارنة الذي طبعه المعلم رشيد الشرتوني في سنة ١٩٠١م. وكتب أيضاً الشيخ سعد رسائل أخرى بهذا الصدد إلى الكردينال رئيس المجمع المقدس وإلى المنسيور جورجيا كاتب المجمع وإلى الكردينال دبيرنس وغيرهم. وترى نسخ هذه الرسائل في الكتاب المذكور مع صورة جواب البابا بيوس السادس للشيخ سعد الخوري حيث يفتتحه بقوله: «إلى الإبن الحبيب والرجل الشريف الحبيب السلام والبركة الرسولية» حيث أفاض الكلام معه بما أخذ فيه على البطريرك، وأنه لما كان أقرّ بغلظه وعرف سوء تصرفه أمر البابا بعوده إلى مقامه خاصة حباً بالطائفة المارونية لتشبيها الدائم بعري الإيمان الكاثوليكي. وتاريخ هذا الجواب ٢٨ أيلول سنة ١٧٨٤م. ولما توفي الشيخ سعد وبلغ خبر وفاته إلى رومة كتب الكردينال أنطونلي رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس رسالة إلى البطريرك يوسف اسطفان يعزيه وطائفته فيها بهذه الخسارة العظيمة ويبين أمانيه بأن ابنه الشيخ غندور يخلفه بوجاهته وغيرته. وترى صورة هذا الجواب في الكتاب المذكور أيضاً. أما الشيخ غندور بن سعد فلم يكن أقل ذكاءً وغيره ووجاهة من أبيه وكان الأمير يوسف اتخذ مدبراً له منذ رهن أباه عند الجزار كما مرّ، وقد أحسن الخدمة وتناهى بالاخلاص لمخدومه وجدّ في السعي لراحة مواطنيه ونجاحهم، وقد أرسل البطريرك يوسف اسطفان بطريك الموارنة يومئذ الخوري أنطون القيايالي البيروتي إلى باريس سائلاً الملك لويس السادس عشر أن ينعم بقنصلية فرنسة على الشيخ غندور فتكرّم الملك عليه بها سنة ١٧٨٧م فكان قنصلاً لفرنسة ومديراً لحكومة جبل لبنان. ويظهر أنّ الأمير يوسف كان قد كتب إلى ملك فرنسة يسأله أن ينعم على الشيخ غندور بالقنصلية وأن يواصل حمايته للموارنة كما يظهر من براءة الملك بإيلاء الشيخ غندور هذا المنصب المحفوظة في خزائن البطريركية وترى نسخة منها في كتاب المعلم رشيد المار ذكره في خزائن البطريركية أيضاً صورة رسالة كتبها الأميرال دي كاستريس الفرنسي إلى الأمير يوسف جواباً عن عريضة للملك بها بيّن له سرور الملك برسالته ودوام حمايته للموارنة وترى صورة هذا الجواب أيضاً في كتاب المعلم رشيد المذكور.

وللشيخ غندور أيادي جزيلة على أهل لبنان ولاسيما أبناء ملّته المارونية وفي جملة مساعيه النافعة لهذه الملة إغراؤه البطريك يوسف اسطفان على تحويل دير عين ورقة الذي كان أقرباؤه قد أنشأوه لسكنى الراهبات مدرسة إكلييريكية عامّة للموارنة. وفي خزان أوراق البطريكية المارونية رسالتان أنفذهما الشيخ غندور إلى البطريك يوسف اسطفان يرجوه ويحثّه فيهما على جعل هذا الدير مدرسة للموارنة. ويظهر أنّ البطريك تردّد في الإجابة عندما وردت عليه الرسالة الأولى فأنثنى الشيخ غندور مبيناً له لزوم هذا الأمر ومنافعه الجمة وسهولة وضعه بالعمل لأنّ الدير خاص بعائلته. ومن جملة ما قاله في هذه الرسالة الثانية بحروفه: «ما هي الإفادة إذا راحوا ثمان راهبات من عين ورقة إلى السماء وكان إكليروس ينوف عن ثلاثة آلاف لا يحسنون قراءة الإنجيل». فقع البطريك وأقنع أقرباءه ودوّن صكاً مؤرخاً في ١٤ كانون الثاني سنة ١٧٨٩م بتحويل هذا الدير إلى مدرسة وترى صورة رسالتي الشيخ غندور هاتين بحروفهما في كتاب سلسلة بطاركة الموارنة المذكور على أنّ صكّ تحويل دير عين ورقة مدرسة الذي ذكر في الكتاب المذكور ليس هو الصك الذي دوّن بذلك متضمناً قانون المدرسة ونظامها إلى غير ذلك ولما عقد البطريك يوسف اسطفان بأمر البابا بيوس السادس مجمع عين شقيق سنة ١٧٨٧م كان الشيخ غندور حاضراً به لأنّ الحبر الأعظم كان قد أمر أن يحضره سعد الخوري والده ويكون مساعداً على تنفيذ الأوامر الرسولية. ولما كان سعد قد توفي فأقيم ابنه مقامه وكتب الشيخ غندور إلى مشايخ الموارنة أن يشخصوا إلى هذا المجمع بحسب أمر البابا ودعوة البطريك فلبى أكثرهم الدعوة ورفعوا إلى الشيخ غندور كتاباً يسألونه به أن تكون له العناية بأن يأمر هذا المجمع بإقامة المطارين عند السيّد البطريك في قنوبين وبكركي ويمضون وقتاً بعد وقت لزيارة أبرشياتهم وسندوا ذلك إلى جملة اعتبارات فأمر هذا المجمع بذلك ولكن لم يحسن لدى الكرسي الرسولي أن يجيبهم إلى طلبهم بل أثر أن يقيم كل أسقف في أبرشيته كما رسم بالمجمع اللبناني. وسنأتي على ذكر هذا المجمع.

وقد سعى الشيخ غندور بطبع المجمع اللبناني فطبع الطبعة الأولى في دير القديس يوحنا بالشويرة، وقد ولاه الأمير يوسف على مجدل معوش ووادي الست وبحمدون وعين تراز مدّة، ولما ردّ الجزار الأمير يوسف الشهابي إلى ولاية لبنان سنة ١٧٩٠م رهن عنده ولده الأمير حسين ومدبره الشيخ غندور ولم يلبث الجزار

أن أعاد الأمير بشير قاسم إلى الولاية فأخذ يشكو من أن دسائس الأمير يوسف تمنعه من إجراء الأحكام وجباية المال فأمر الجزار بشنق الأمير يوسف الذي كان باقياً في عكا وشنق مدبره الشيخ غندور كما مرّ. وقيل إنَّ الشيخ غندور لم يشنق بل مات خوفاً فكذا يزول مجد العالم.

عد ٧٧

المشايع آل الضاهر

أنبأنا العلامة البطريرك الدويهي أنَّ أصل هذه الأسرة من بيت الرز الذين كان منهم ثلاثة بطاركة وأنهم عندما دكَّت أهل إهدن منازل من اتبع اليعاقبة في بقوفا هاجر بيت الرز إلى كفرحورا بالزاوية في القرن السادس عشر وهم متشبثون بالإيمان القويم وما زال اعقابهم إلى اليوم حكماً على زاوية رشتين يقومون بمعاوضة الكرسي البطريركي بكل جهدهم كما يفعل الآن الشيخ أبو شديد ضاهر خليفة الشدياق أنطونيوس بن الرز . انتهى كلام الدويهي . وفي القرن الثامن عشر استمرّوا حكماً للزاوية كان يوليهم عليها والي طرابلس أو ولاية لبنان . وفي سنة ١٧٥٠م كتب لهم الأمير ملحم الشهابي الأخ العزيز كباقى مشايخ لبنان الكبار، وكان منهم الشيخ كنعان الظاهر وكان مشهوراً بشجاعته وإقدامه ونخوته . ويروون عن فراسته روايات غريبة وكانت بينه وبين بعض الطرابلسيين محاسدة وخصام فشكوه سنة ١٧٤١م إلى عبد الرحمان باشا والي طرابلس فقبض عليه وألقاه في السجن وعرض عليه أن يسلم فأبى وأكثر له من الوعد إذا طاعه ومن الوعيد إذا خالفه فاستمرّ مجاهراً بإيمانه لا يحيله عنه حائل وتيقن أنَّ الباشا مصمّم على قتله فاحتال حتى اجتمع بالخورى ميخائيل من إهدن فاعترف عنده اعترافاً عاماً ويسر له الله أن يناوله القربان المقدّس زاداً أخيراً وبعد ذلك أمر الباشا بقطع رأسه عند باب التبانى فنفذ الأمر والتقليد الذي ينقله الشيوخ أنَّ الله صنع آيات كثيرة إلى من زاروا مدفنه وأنَّ بعض النصارى قطعوا يده بعد مقتله ووضعوها في كنيسة العذراء المعروفة بسيدة الحارة في طرابلس فأجرى الله آيات لمن تبرّكوا بها ولا نعلم أهو كنعان ضاهر الوارد اسمه في جملة أعيان الموارنة الذين شهدوا المجمع اللبناني أم غيره . ويترجح عندنا أنه هو وإن صحَّ أنَّ مقتله كان سنة ١٧٤١م . واستمرّ آل الظاهر على إقطاعهم الزاوية

يولي الأمراء الحاكمون واحداً منهم عليه إلى أن أُلغى نظام لبنان الاقطاعات سنة ١٨٦١م.

عد ٧٨

المشايع آل الدحداح

إنّ هؤلاء المشايخ ينتسبون إلى جرجس الدحداح من العاقورة، وفي مبادئ هذا القرن الثامن عشر كان أحدهم الشيخ يوسف ابن الخوري جرجس ضليعاً في اللغة التركية حسن الخط بها وباللغة العربية، فاستخدمه الأمير حسين الحرفوش، ثمّ انتقل إلى خدمة الشيخ اسماعيل حمادة فوهبه بعض عقارات في عمل الفتوح فارتحل نحو سنة ١٧٠٥م إلى الكفور بالفتوح ثمّ إلى عرمون بكسروان. وتوفي يوسف المذكور سنة ١٧١٢م وكان ابنه موسى قد استخدمه الأمير منصور شهاب سنة ١٧٦١م، وبقي أخواه سليمان ومنصور يخدمان أولاد الشيخ اسماعيل حمادة المذكور كأبيهما، وعلم موسى ابنه نصيفاً وسلوماً اللغة التركية وأجاد نصيف الخط والانشاء. وفي سنة ١٧٦٣م اتفق موسى وأخوه منصور مع الشيخ سعد الخوري على طلب ولاية بلاد جبيل للأمير يوسف الشهابي وبذلاً ما بوسعهما من هذا القبيل. ولما نجح هذا المسعى وتولى الأمير يوسف بلاد جبيل والبترون استخدم الأمير يوسف ابني أخيهما سليمان وهما يوسف ونادر مع كتبة ديوانه وجعل ناصيف بن موسى جايماً للمال الأميري، واستحضر أخاه سلوماً من خدمة زوجة الأمير مراد منصور شهاب وعيّنه بخدمته. وفي سنة ١٧٧١م جعل الأمير يوسف عمل الفتوح عهداً لبني الدحداح ولما أرسل أخاه الأمير حيدراً عاملاً على بلاد جبيل أرسل معه بعض المشايخ الدحداح، ولما حاصره أخوه الأمير سيّد أحمد في قلعة جبيل نجده المشايخ برجال الفتوح فأنعم عليهم الأمير يوسف ببعض عقارات في ساحل بلاد جبيل. وفي سنة ١٧٨٠م توفي الشيخ منصور بن يوسف الدحداح بعرمون فأبقى الأمير يوسف ابنه يوحنا معزراً كأبيه. ولما تولّى الأمير بشير الكبير البلاد سنة ١٧٩٠م وانهزم الأمير يوسف إلى نواحي دمشق كان مع الأمير يوسف بعض المشايخ الدحداح، ولما نزل إلى عكا وحبسه الجزار وحبس من كان معه من الدحداح وهم سلوم ويوسف وإبراهيم فطلبهم الأمير بشير من الجزار وحبسهم في دير القمر، وطلب أحدهم

نصيلاً من أخيه الأمير حسن فانهزم بعياله إلى الضنية. ولما تولى الأمير حيدر والأمير قعدان سنة ١٧٩٢م أخرجوا المشايخ الدحادحة من السجن ثم تولّى أولاد الأمير يوسف فاستعملوا المشايخ المذكورين في الكتابة لهم. ثم تولى الأمير بشير الكبير سنة ١٧٩٥م ففرّ الشيخ سلوم الدحادح باخوته مع أولاد الأمير يوسف إلى جبيل فكتب إليه الأمير بشير يهدده بأنه إذا لم يرجع باخوته من جبيل إلى خدمته يأمر بهدم مساكنهم بعرامون وبقطع أشجارهم. فرجع الشيخ سلوم إلى خدمة الأمير بشير واخوته إلى خدمة أخيه الأمير حسن. ولما تغلب أولاد الأمير يوسف على الأمير بشير سنة ١٧٩٩م وانهزم الأمير بشير وأخوه الأمير حسن إلى الحصن صحبهما من آل الدحادح سلوم ويوسف وإبراهيم ومنصور ابن سلوم ثم توجه الأمير بشير إلى مصر لمقابلة الصدر الأعظم بواسطة الأميرال سميث الانكليزي فصحبه الشيخ سلوم وبقي يوسف وإبراهيم ومنصور ابن سلوم مع الأمير حسن في الحصن، وبقي بعض آل دحادح في خدمة الأمراء الشهابيين في القرن التاسع عشر كما سترى في تاريخه.

عد ٧٩

مشايخ جبة بشري وطردهم المتأولة منها

قد مرّ ذكر كثيرين من حكام جبة بشري في القرون السابقة كالشدياق خاطر الحصري ومقدمي بشري والشيخ أبو كرم الحدّثي وأبو جبرائيل يوسف وأبو كرم بشاره جدّ آل كرم من إهدن وغرضنا الآن الكلام على من كان من مشايخ هذا العمل في القرن الثامن عشر. قد رأيت في ما مرّ أنّ المشايخ آل حمادة المتأولة تولوا مرات بلاد جبيل والبترون وجبة بشري وعزلوا أو طردوا من هذه الولاية، إلا أنّه في أواخر القرن السابع عشر أي سنة ١٦٩١م قرّر محمّد باشا والي طرابلس المشايخ الحمادية على إقطاعاتهم فتولى الشيخ حسين بن سرحال على بلاد البترون وابنه الشيخ اسماعيل على الكورة، والحاج موسى بن أحمد حمادة على الجبة، وأولاد حسن ديب على الضنية. ولكن في سنة ١٦٩٢م غيّر والي طرابلس من كان سالفه قد ولاهم فنصب في بلاد جبيل حسين آغا بن الحسامي، وفي بلاد البترون المقدم

قيدييه ابن الشاعر، وفي الزاوية والجبّة الشيخ ميخائيل بن نحلوس من إهدن ابن
أخت كرم أبي بشاره وهو من قيل عنه في الأغاني الشعبية:

يحرص دينك يا نحلوس حميت الضيعة بالدبوس
جامع رشعين هديته وفي زغرتا دقيت ناقوس

إلى أن اغتال رجل متوالي اسمه ابن الشقراني الشيخ المذكور في الضنية
وعادت الولاية على الجبّة إلى بيت أحمد حمادة، فكانت فتنة بينهم وبين الشيخ
عبد السلام ابن الشيخ اسماعيل حمادة فهزمهم عبد السلام إلى الهرمل سنة
١٧٠٣م، وأقام في الجبّة نحو أربعين يوماً، وحضر إليه بعض وجوهها خيفة من
شرّه وفرّ بعضهم، وفرض ضريبة على قرى الجبّة ومن لم يدفع ما أصابه منها أخذ
رجال طاسات النساء وسلاح الرجال والمؤن. وكتب إلى طرابلس يلتمس الولاية
على الجبّة فلم يعطها حينئذ. وفي سنة ١٧١٥م حكم جبّة بشري أولاد أبي
محمّد عيسى وأولاد عمّهم حسين المشطوب مشتركين ثمّ قسموا البلاد مناصفة
فأخذ حسين من أبي محمّد عيسى بشري وقنوين وقيطو وبزعون، وأسعد ابن
أخيه موسى أخذ حصرون وكفرصغاب وبلوزا وتولا وكرمسدي وراسكيفا، وأخذ
أولاد حسين المشطوب النصف الآخر وكانوا ثلاثة وهم أبو ناصيف وأبو حسين
وأبو قاسم فأخذ أبو ناصيف إهدن وحدها، وأبو حسين صالح أخذ عين طورين
ومزرعة التفاح وبنشعي وقنات وبرحليون وحماطورا وكفرصارون وبيت زعيتر في
بان، وأخذ أخوهما أبو قاسم دير قزحيا وحدثيت وبقاعكفرا، وكان في
حكومتهم شيء من العدل والإستقامة واقتنوا أملاكاً سموها بكالكليك مزيارا وسبعل
وسرعل ووطا الرامات وكفرفو وبان وحقا وثلاث سرعل ودير نهرا والحدث وطرذا
وبقرقاشا ونيحا وبنهران ومتريت. على أنّ أولاد هؤلاء المشايخ لم يسلخوا مسلك
آبائهم بل عكفوا على السلب والنهب والجور حتى القتل. ومن سنة ١٧٥٠ إلى
سنة ١٧٥٩م سلبوا راحة الأهلين ونكدوا عيشتهم وقتلوا كثيرين. وكان حينئذ من
مشايخ القرى المشهورين الشيخ جرجس بولس من إهدن والشيخ عيسى الخوري
والشيخ حنا ضاهر كيروز من بشري والشيخ أبو سليمان عواد من حصرون
والشيخ أبو يوسف الياس من كفرصغاب والشيخ أبو خطار من عين طورين

والشيخ أبو ضاهر من حدشيت. فائتمر المشايخ المتاولة على قتلهم فقتلوا منهم الشيخ أبا ضاهر من حدشيت واغتالوا كثيرين من وجوه الأهلين، وحملتهم الجسارة على أن يرسلوا ليقبضوا على المطران يواكيم يمين من إهدن فلم يكن أهل الجبة ليطلقوا هذا الجور ولا ليتحملوا هذا الذل والعار فالتقى أهل إهدن رجال المتاولة الآتين للقبض على المطران، وأوقدوا عليهم النار وأشغلوا بهم السيوف وطردوهم وتتبّعوا أثرهم إلى درج قنوين وخيّم الظلام بينهم. وفي النهار التالي غصّت إهدن بالآتين إليها من باقي القرى وقُدس المطران يواكيم بكنيسة القديس جرجس بإهدن وحلف جميعهم يمين الأمانة وعدم الخيانة، وقبضوا على رجل متوالي واشتركوا في قتله جميعاً، وجعلوا مشايخ القرى المار ذكرهم مشايخ لهم وحكاماً عليهم مكان المشايخ المتاولة، وأبقوا قسمة قرى البلاد كما كانت في أيّام المتاولة. ونزل هؤلاء المشايخ إلى طرابلس وكان واليها حينئذ عثمان باشا الكرجي فالتزموا أي استأجروا منه قرى بلادهم ودفعوا المال المرتب عليها وكان ذلك سنة ١٧٥٩م.

وأقام هؤلاء المشايخ ثلاثة بكباشية من البلاد وهم بشاره كرم من إهدن وأبو ضاهر الفرز من بشري وأبو الياس العفريت من حصرون وعيّنوا رجالاً من البلاد للمحافظة، وكان عثمان باشا والي طرابلس يشجّعهم ويمدّهم بالمساعدات لكثرة ما كان المتاولة يقدمون عليه من التعديات في الزاوية وحدود طرابلس، وكان المشايخ يلتزمون قراهم منه ولذلك كانوا يسمونهم ملتزمي جبة بشري. وسنة ١٧٦١م هاجم المتاولة قرية بشري آتين من بعلبك إذ كان بعض المشايخ والأهلين في الساحل فدخلوها وقتلوا منها أبا ضاهر الفرز البكباشي، وجبور أصيلة، وأبا أنطونيوس سكر، وأبا رزق جعجع، وجبور رحمة ونهبوا القرية ثم رجع المتاولة ثانية من بلاد بعلبك وبلاد جبيل بنحو ألفي رجل فالتقاهم مشايخ الجبة في أرض بشري وانتشب القتال بين الفريقين نحو ثماني ساعات ودارت الدوائر على المتاولة فانزعروا وقتل منهم اثنا عشر قتيلاً. وفي سنة ١٧٦٣م سار عليهم والي طرابلس محمد باشا ابن عثمان باشا المذكور عسكرياً إلى جبة المنيطرة وقسمه إلى قسمين: أرسل فريقاً على طريق الجبل وكان معهم بشاره كرم البكباشي المذكور ورجاله، وفريقاً على طريق الساحل وكان معهم الشيخ ضاهر حاكم الزاوية ويوسف الشمر من كفرحاتا، فعسكر الجبل شتت المتاولة فهرب بعضهم إلى ناحية بعلبك وفرّ بعضهم في وادي

الميحال نحو الساحل فالتقاهم العسكر الآتي من الساحل فنكّل بهم وأحرق مزارعهم التي كانت بساحل جبيل، ولكن بينما كان بشاره كرم عائداً مع رجاله تحت المغيرة كمن له بعض المتأولة فقتلوه وستة من رجاله.

وفي سنة ١٧٦٤م توجه مشايخ الجبة إلى الأمير منصور الشهابي فولاهم على بلادهم وأمدّهم أيضاً بمحافظين لردع المتأولة عن التعدي فلم يكن ذلك كافياً لكتبهم عن إقلاق أهل البلاد إلى أن كان ما ذكرناه في عدد ١٠٤٢م من أن المشايخ الحمادية دهموا الأمير بشير حيدر نائب الأمير يوسف الشهابي في بلاد جبيل وهو في العاقورة ومعه شيخا بشري واهدن فقاتلهم وظهر عليهم وأبعدهم عن العاقورة، ثم حضر لنجدته رجال الجبة وبلغ الخبر الأمير يوسف فوجه مديره الشيخ سعد الخوري بعسكر فأدركهم الشيخ سعد في دير بعشتار وأثنى فيهم وظل يطردهم إلى القلمون وكان ذلك سنة ١٧٧٧م. وعلى هذا النحو استمرّ مشايخ الجبة المذكورون يحكمون بلادهم أي بيت كرم في إهدن وما يليها، وبيت حنا ضاهر وبيت عيسى الخوري في بشري وما يليها، وبيت أبي سليمان عواد في حصرون وما يليها، وبيت أبي يوسف الياس بكفر صغاب وما يليها، وبيت أبي خطّار بعنطورين وما يليها، كما كانت القسمة في أيام المتأولة إلّا بعض تغيرات. وكان حكام البلاد يولون من اختاروه من كل من هذه البيوت على إقطاعاتهم إلى أن ألغيت الإقطاعات بحكم نظام لبنان سنة ١٨٦١م ووضع المشايخ يدهم على بكاليك المتأولة واستمرّوا على ذلك إلى أن صالح المشايخ أهل القرى البكاليك على حقوقهم بها أو باعوه هذه الحقوق. انتهى عن كتاب تاريخ لأحد هؤلاء المشايخ أنطونيوس أبي خطّار واعتماداً على التقليد المحفوظ في هذه البلاد.

عد ٨٠

المشايخ أبناء اده وغيرهم

أصل هذه الأسرة من ادة إحدى قرى بلاد جبيل وأوّل من عرفناه من وجوها هو الشيخ يوسف اده خدام الأمراء آل معن في آخر مدّتهم ثم انتقل إلى خدمة الأمراء الشهابيين فنال حظوة لديهم ودعوه شيخاً وكان متزوجاً بامرأة من

أسرته. اسمها قمرة ولها أخوان منصور وبطرس إذّه استدعاهما إليه وأدخلهما على الأمراء الشهابيين فسروا بذكائهما وحديثهما ورأوا فيهما ملامح النجابة والأمانة والفراسة واختصّوهما بخدمتهم واکرامهم، فخدم الشيخ منصور الأمير منصور الشهابي فأقامه على تدبير شؤونه وأملاكه، وجعل بطرس رئيس الشرط. ولما أفضت ولاية الجبل وبيروت إلى الأمير يوسف الشهابي في حياة عمّه الأمير منصور عظم أمر أبناء أدة وكان منصور معدوداً من أهل السيف والقلم، وأمّا أخوه بطرس فاشتهر بالسيف أكثر من اشتهاره بالقلم. ومن مساعيها الحسنة بناء كنيسة القديس جرجس في بيروت للموارنة وكانت صغيرة فكبرها بنفقتها ونفقة مطران بيروت حينئذٍ وهو المطران يوسف فاضل، وقد كتب على مذبح هذه الكنيسة: قد تمّ بناء هذا الهيكل المبارك بسعي الشيخ منصور اده. والمعلوم أنه عاونه على ذلك أخوه الشيخ بطرس وابن أخته الشيخ الياس الآتي ذكره. ثمّ توفي الشيخ منصور ببيروت سنة ١٧٦٩م وقبره في جانب الكنيسة المذكورة مكتوب عليه: قد درج هنا الشهير ذكره والجليل قدره الشيخ منصور اده الجزيل التقوى والعبادة الذي بعد أن تمّ سعي حياته البارة بعمل هذه الكنيسة وجميع أعمال البر محبوباً من الله والناس انتقل بغتة إلى مقر الراحة من هذا العالم بتحسّر، وبكاه جميع القبائل وذلك في اليوم الخامس في شهر شباط سنة ١٧٦٩م، وتوفي أخوه الشيخ بطرس ببيت شباب سنة ١٧٨٦م.

وولد ليوسف اده المذكور سنة ١٧٤١م ولد سماه الياس وبرع بالكتابة والإنشاء، ولما توفي أبوه سنة ١٧٦٦م خلفه في رتبته وكتب في ديوان الأمير يوسف ابن الأمير ملحم الشهابي إلى أن رآه أحد عمّال الجزّار عند الأمير يوسف فعجب من حذاقته وطلبه من الأمير يوسف فاستكتبه إلى سنة ١٧٨٦م، وغضب الجزار وقتئذٍ على ميخائيل وبطرس السكروج كاتبه ثمّ على يوسف مارون وقتله وعيّن مكانه لكتابته الياس اده فأقام في خدمته مدّة راضياً عنه، ثمّ سخط عليه وأرسل جنوداً استاقوه إليه من الكنيسة يريد قتله، على أنّه تمكّن بفصاحته وحذاقته أن يستعطفه إليه فرضي عنه وأهداه محبرة من فضة، لكن المعلم الياس ما برح واجساً منه خائفاً على نفسه. وبعد مدّة استأذنه بأن يحضر إلى بيروت ليأخذ عياله إلى عكا فأذن له بأن يغيب شهراً وكان ذلك سنة ١٧٨٧م فأخذ يفكر بوسيلة للنجاة من شراك هذا الظالم وعوّل على الفرار إلى حلب، فسار إليها واختبأ في

الدار الأسقفية لطائفته وأقام هناك عدّة سنين، فحنّ إلى وطنه وانتهر فرصة محاربة نابوليون بوناپارت لعكا فرجع إلى وطنه ووجد الجزائر ضبطت أملاكه في بيروت وفي جملتها أربعة دور عند باب الدركة، فتوجّه إلى الجبل إلى بيت الدين فأكرمه الأمير بشير الكبير الشهابي ولكنّه لم يأمن على نفسه هناك من سخط الجزائر، فتوطّن مدّة في جهات جبيل مستخفياً إلى وفاة الجزائر سنة ١٨٠٤م. وبعد وفاته استخدمه الأمير بشير المذكور لكنّه عاد إلى بيروت يسعى في استرجاع أملاكه وأملاك أقاربه التي ضبطها الجزائر فاسترجع الأملاك التي كانت في الجبل بعدالة الأمير بشير، وأقام حينئذ مدّة ببيروت إلى أن بلغه كتاب من مصطفى آغا متسلم طرابلس وكان من أصدقائه بأن الملك اسماعيل الكردي صاحب حمص وحماه يطلبه ليكون كاتباً عنده، فتوجّه إلى حمص فرحب به الملك اسماعيل وأعزّه ورأسه على كتبه ديوانه وأقام هناك خمس سنين. وفي سنة ١٨١٠م كانت نفرة بين يوسف باشا كنج والي دمشق والأمير بشير كادت تفضي إلى الحرب بينهما فأرسل الملك اسماعيل المعلم الياس آده ليسعى بالسلم بينهما ويسوي الخلاف فنجح بدرايته وأزال الخلاف، فكتب الأمير بشير إلى الملك اسماعيل يشني على مسعاه ويطلب منه المعلم الياس ليكون في ديوانه، فأرسله الملك اسماعيل وأكرم مثواه الأمير بشير وأعزّه. ولكن غلت مراجل الحسد في قلوب أعدائه ونظرائه فسعوا به لدى الأمير بشير فتغيّر عليه وأمره أن يسكن بعيداً هو وعياله مبقياً له جعلاً سنوياً، فسكن بعيداً قرير العين إلى أن توفي بها سنة ١٧٢٧م وعمره خمس وثمانون سنة، ودفن أمام الكنيسة ونقش على مدفنه تاريخ من نظم الشيخ ناصيف اليازجي الذي كان يتردد ويتخرّج عليه بأدب اللغة وهو:

حكم الاله بما ارتضى واختار للفردوس عبده
والحال قال مؤرخاً هذا رضى الياس آده

وكان الياس آده شاعراً وله كثير من النظم ولا يخلو نظمه من أغلاط نحوية وخلل في أوزانه الشعرية ويعذر بذلك لأنّه لم يتخرّج بمدرسة بل كان يهتدي إلى النظم بالفطرة السليمة والسليقة الطبيعية.

ومنه قصيدة يمدح بها المطران جبرائيل كنيدر مطران حلب الماروني مطلعها:

أمنذُ ملك قد جاء للبشر أم طالع السعد وافى داحض الكدر
أم ضوء صبح يلاشي ظلمة دهمت أم البشير أتى في أطيب الخبر
إلى أن قال:

خذها إليك وإن كانت مقصرة فشان مثلك ينفي العيب بالْعذر
واستر فاني تركت الشعر من زمن لشاغلٍ عنه غشى مقلة الفكر
ولما بلغ خبر وفاة الجزار إلى الأمير بشير وهو بحضرته فاقترح عليه أبياتاً
بديهة في موته فقال:

وافى السرور وصحّ ترجيح الأمل بهلاك عِلج لا يعادله مثل
عين المآثم والمظالم والردى شرّ العوالم إن تفكر أو عمل
إلى أن قال:

لله درّك يا منون لقد بدت منك الحياة وطاب حكمك واعتدل
فاز الأنام وارخوه بمقصدي هلك الشقي وإلى جهنّم قد رحل
ومن نظمه تاريخ لوفاة بطرس تابت:

لا تحزنوا يا آل قوم عشيرتي إنّ البقاء في الدهر ماضٍ فائت
الموت حتمٌ للبرية شاملٌ كل ابن أنثى لا محالة مائت
وكفى يقين حيث تاريخي روى إني على إيمان بطرس ثابت

وتاريخ لوفاة منصور امرأة بطرس المذكور:

إنّ التقية بالشرى قد أدرجت وسعت لتلك الغاية المأثورة

طوبى لنفس ارخوها ببرها ولجت لجنة ربّها منصورة
ومن نكتّه أنّه مات صديق اسمه ابراهيم وله أخ اسمه يحيى لم يكن يحبه
فقال:

مات ابراهيم خلي آه وأسفي عليه
ليته قد كان يحيى ورحمة الله عليه

وله غير ذلك كثير طالع ترجمة الأب لويس شيخو له في المشرق لسنته الثانية
صفحة ٦٩٣ و صفحة ٧٣٦ .

وقد نصّر الخوري ميخائيل فاضل البيروتي الأمير ابن الأمير حيدر الشهابي سنة
١٧٥٤م ثم نصّر البطريك يوسف اسطفان الأمير قاسم عمر شهاب وعائلته سنة
١٧٦٨م في غزير وقبلهم في الطائفة المارونية، ونصّر بعده الخوري أنطون القياي
البيروتي من أولاد الأمير ملحم الأمير قاسم والأمير سيّد أحمد والأمير حيدر وتبعهم
غيرهم من آل شهاب وآل بلع حتّى أصبح أكثر هؤلاء الأمراء المقيمين بلبنان في
آخر هذا القرن السابع عشر نصارى وموارنة، فلزم ذكرهم وحسبانهم من أعيان
الموارنة. وكان من هؤلاء الأعيان أيضاً سمعان البيطار وهو ابن يعقوب بن سمعان
البيطار الذي ارتحل من قرية جاج وسكن بكفيا ورزق هناك ثلاثة بنين توفي اثنان
منهم وبقي الثالث واسمه يعقوب، ولما انسلخت ولاية الخوازنة عن القاطع وسلمت
إلى الأمراء اللمعيين وكان يعقوب معزوزاً عند الشيخ أبي نوفل حصن الخازن رغب
إليه أن يقيم بقرية غوسطا، فقدم إليها من بكفيا وولد له فيها سمعان صاحب
الترجمة، وكان عاقلاً كريماً حسن الإدارة يعتمد عليه في مهام الحكومة، سلّمه
الأمير يوسف الشهابي عمل البترون وجعله شيخاً به، فاهتمّ بعمران هذه البلاد
ونجاح سكّانها وأظهر غيرة عظيمة على الأمور الدينية وأقنع الأمير يوسف حتّى ملك
الرهبانية اللبنانية أديار حوب وكفيفان وميفوق وأنطوش جبيل وأنعم على رهبان دير
الحقلة بمزرعة مستيتا ودير مار دوميط البوار وكنيسة القديسة صوفيا هناك وبنى
كنيسة القديس بندليمون بقرية بجدرفل وحسن بناء كنيسة بسبينا وساعد أهل
البترون على بناء كنيستهم. وتوفي في مدينة عكا سنة ١٧٩٤م ودفن في ساحة
كنيستها وخلفه ابنه يعقوب البيطار بمداركة واستقامته وحسن ديانته وغيرته. وكان

في هذا القرن أيضاً من الأعيان جرجس باز وعبد الأحد باز مديران لأولاد الأمير يوسف شهاب، لكن رأينا أن نرجئ أخبارهما إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن الثامن عشر

عد ٨١

البطريك جبرائيل البلوزاوي

ولد هذا البطريك بيلوزا إحدى قرى جبة بشري واتخذ الطريقة الرهبانية ورقاه البطريك جرجس البسبعلي إلى أسقفية حلب سنة ١٦٦٣م خلفاً للأسقف يوسف البلوزاوي الذي كان قد رقي إلى هذه الأسقفية سنة ١٦٥٠م، كما مرّ وأنشأ سنة ١٦٧٣م دير طاميش في جنوبي نهر الكلب وكان يسكنه متى عاد من زيارة أبرشيته الحلبية، ثم أنشأ سنة ١٧٠٠م دير مار اشعيا في أرض برمانا وأسس فيه الرهبانية المعروفة الآن بالرهبانية الأنطونية أو رهبان مار اشعيا، ووضع لها قانوناً أثبتته أولاً البطريك اسطفانوس الدويهي ثم أثبتته الكرسي الرسولي سنة ١٧٤٠م وقلماً يختلف عن قانون الرهبان اللبنانيين، وبقي مديراً أبرشية حلب المارونية مدة إحدى وأربعين سنة، وأكثر من مقتني الأملاك لدير طاميش حتى صار من أعظم الأديار حينئذ. ولما توفي البطريك اسطفانوس الدويهي في ٣ أيار سنة ١٧٠٤م أجمع أساقفة الملة المارونية على انتخابه بطريكاً في ١١ أيار من السنة المذكورة وثبته البابا أكليمندوس الحادي عشر على يد قاصده الأب إيليا الكرملّي الفرنسي، وبقي بعد أن صار بطريكاً، كما كان أسقفاً عائشاً العيشة الرهبانية ناسكاً متقشفاً، على أنّ أيام بطريكيته لم تكن طويلة لأنه توفي لرحمة الله في ٣١ من تشرين الأوّل سنة ١٧٠٥م، ودفن أمام معبد القديسة مارينا بقنوين.

ولم نجد أنه رقى إلى الأسقفية إلا ابن أخيه القس صافي البلوزاوي على أبرشية حلب في شهر تموز سنة ١٧٠٤م وسماه ميخائيل، وكان يسكن في دير طاميش حيث سكن عمه وهو أسقف، ثم إن المطران ميخائيل هذا تنزل لعجزه عن تدبير هذه الأبرشية وخلفه فيها سنة ١٧٢٥م القس جبرائيل فرحات الشهير ودعي جرمانوس وستأتي ترجمته.

عد ٨٢

البطريك يعقوب عواد الحصريوني

هو ابن الخوري يوحنا عواد من حصرون درس العلوم بمدرسة الموارنة برومة فبرع فيها، ولما عاد إلى وطنه جعله البطريك أسطفانوس الدويهي كاتباً له لمهارته في تعاطي الأعمال البطريركية ولفصاحته في تدوين الرسائل وتخرجه في السياسة، قام بما عهد البطريك به إليه أحسن قيام، ولذلك رقا هذا البطريك إلى الأسقفية على مدينة طرابلس سنة ١٦٩٨م، ولما توفي البطريك جبرائيل البلوزاوي في ٣١ تشرين الأول سنة ١٧٠٥م اجتمع الأساقفة في ٥ تشرين الثاني من السنة المذكورة فانتخبوه بطريكاً وثبته البابا اكليمنضوس الحادي عشر على يد قاصده الأب فرديندوس الكرملّي سنة ١٧٠٦م. على أنّ سلامة سريرة هذا البطريك وقلة تحذره أوقعته في عداوة كثيرين، واستمال أعداؤه وحساده أكثر مطارين الملة ففقدوا مجعماً وحكموا عليه بالعزل خلافاً للقوانين، واستدعوه إلى مجمعهم، وتقدم مقدّم الأساقفة فعزاه من الحلل الحبرية وأقاموه في دير لويزه كسروان محظوراً عليه الخروج منه، وانتخبوا بطريكاً مكانه المطران يوسف مبارك وعرضوا للكرسي الرسولي طالبين تثبيته، فلم يشأ البابا اكليمنضوس الحادي عشر أن يثبته بل أرسل الأب لورنسيوس حافظ الأرض المقدسة ليفحص عن حقيقة ما كان، فأتى إلى كسروان وجمع الأساقفة والسيد يوسف مبارك الذي انتخبوه بطريكاً وأخذ ما لزم من التقارير وأرسلها إلى الكرسي الرسولي وأتى بالبطريك إلى صيدا وأقامه بدير الفرنسيين هناك.

وقد عهد البابا اكليمنضوس الحادي عشر بهذه المهمة إلى مجمع نشر الإيمان

المقدس، فاجتمع آباء المجمع بمجلس عام في ٢٠ آذار سنة ١٧١٣م فأبرزوا الحكم الآتي تلخيصه: «قد نظر آباء هذا المجمع بالوشايات الموردة على البطريرك يعقوب عواد الأنطاكي وتبصّروا بكل ما يتعلّق بذلك في عدّة مجالس فوجدوا شهادات الشهود المقدّمة على البطريرك باطلة ولا التحام ولا نظام لها، ثمّ تدبّروا الفحص الذي أجراه الأب الأكرم لورنسيوس الفاحص الرسولي وأمعنوا النظر في تقارير الشهود الذين أدّوا شهاداتهم بحضرته، وطالعوا أيضاً العرائض المرفوعة إلى الأب الأقدس من مطارنة وأساقفة وغيرهم في جبل لبنان، وأصغوا إلى ما قرره السيّد المطران جرجس بنيمين الإهدني الموكّل من قبل المذكورين، وبعد مراعاة كل ما وجب مراعاته والامعان المدقق في كل هذه الأمور حكموا بأنّ كل ما قذف به البطريرك يعقوب المذكور لا ثبات له ولا اعتماد عليه، ولاسيّما أنّ المطارين ما أمهلوه المهلة اللازمة ليحامي عن نفسه كما يقتضي العدل والصواب، ولذلك برروا ساحته لأنّه لم يثبت عليه ذنب يستحقّ شرعاً شيئاً من التأديب، وحكموا أيضاً أنّ المطارين والأساقفة لم يكن لهم حق ولا سلطة أن يحطّوه ويخلعوه من مقامه البطريركي، وأثبتوا رأي الأب لورنسيوس الفاحص الرسولي، وأرجعوا البطريرك إلى بطريركيته محافظةً على شأنه وكرامته، على أنّه لما كان تقرر أنّ البطريرك تنزل عن بطريركيته في تلك الفترة حكموا أنّه لا بدّ من الفحص في مجلس آخر عن صحّة هذا التنزّل وحذراً من أن يتأتّى ضررٌ على الكرسي الرسولي أو على الإيمان الكاثوليكي، أمر آباء المجمع أن يكون الأقدم بين المطارين وكيلاً وناظراً على البطريركية، ولا يحقّ لأحد أن يدعو هذا الوكيل بطريركاً ولا هو يسوغ له أن يطمع بالبطريركية لتدبيره شؤونها في تلك المدة، وفرضوا على الجميع الصمت عن هذه الأمور، وأمروا كاتب المجمع أن يترجم حكمهم هذا إلى العربية ويشهره في لبنان وغيره وفي ٤ نيسان سنة ١٧١٣ عرض الكردينال يوسف ساكريني رئيس مجمع نشر الإيمان حكم الكرادلة على الأب الأقدس فأثبته وأمر أن يكون العمل بموجبه.

وفي اليوم الثامن من أيار سنة ١٧١٣م عقد آباء مجمع نشر الإيمان مجلساً آخر عامّاً بحثوا فيه عن صحّة تنزل البطريرك بعد إمعان النظر في التقارير المقدّمة بهذا الشأن من كل جهة واعتبار ما يلزم اعتباره حكموا بتأييد البطريرك وإرجاعه إلى مقامه وكرسيه، وأن تردّ عليه كل حقوقه وأبرشيته، وعزلوا الوكيل الذي كانوا قد أقاموه في ٢٠ آذار وعزلوا أيضاً كل دخيل وغاصب للبطريركية، وأعلنوا أن

تنزل البطريك باطل. وكان قد تنزل مزيّن الأولى لما أعادوه إلى البطريكية في ١٣ آب سنة ١٧١١م على شرط تنزله عنها، والثانية في ١٤ من الشهر المذكور في دير حريصا بحضرة الفاحص الرسولي، وأبطلوا أيضاً الانتخاب المدعى به لبطريك آخر والوكالة له ولاشوهما كأتهما لم يكونا، وأمروا جميع المطارنة والأساقفة وجميع الاكليس والشعب الماروني أن يعرفوا السيّد البطريك يعقوب عواد وحده بطريكاً حقيقياً وشرعياً على الملة المارونية جمعاء، وأن يهتموا بأن يمثل الجميع هذا الحكم وكل من خالف قولاً أو فعلاً هذه المراسيم سقط بالتأديب الذي سنّته القوانين المقدسة على مثل هؤلاء المخالفين والحل منه محفوظ إلى الحبر الأعظم والمجمع المقدس. وفي ٩ من شهر أيار عرض هذا الحكم على الأب الأقدس اكليمنضوس الحادي عشر فأثبته وأمر أن يكون العمل بموجبه.

وكتب البابا اكليمنضوس الحادي عشر بأثر ذلك براءة إلى المطارنة والأساقفة والاكليس والأمراء والشعب الماروني مؤرخة في ٢ تموز سنة ١٧١٣م وتراها مثبتة في ذيل المجمع اللبناني المطبوع حديثاً صفحة ٢٩. فالحبر الأعظم بهذه البراءة قرظ الموارنة على ثباتهم الدائم في الإيمان الكاثوليكي وطاعتهم المستمرة للكرسي الرسولي، وأعرب عن شدة انعطافه إلى هذه الملة ومحبة لها وعظمة استيائه ممّا حدث عندهم أخيراً بدسائس بعض أصحاب المآرب المقلقين من عزلهم بطريكهم، وأوضح أنّه وجّه عنايته الحبرية لتدارك هذا الأمر الخطير ووكّل إلى آباء مجمع نشر الإيمان التحري بهذا الأمر. وبعد الفحص عن الدعوى بكل دقة حكموا بأنّ عزل البطريك كان مخالفاً للعدل وباطلاً من كل جهة وكذلك حكموا بأنّ تفرغه عن البطريكية باطل، فلهذا برروا ساحته وأعادوه إلى حقوق بطريكيته وعزلوا كل دخيل أياً كان وأثبت هو هذه الأحكام بسلطانه الرسولي وقال إنّ بعد صدور الحكم وصل إلى رومة القس أندراوس اسكندر بن سمعان الماروني من قبل المطران يوسف الريفوني ويده عرائض ورسائل من البطريك فطالعتها آباء المجمع بتأنّ فحكموا أنّ لا ثبات لها ولا اعتماد عليها وإنّما يلزم الاعتماد على الحكم السابق (هذه الفقرة الأخيرة لم نجدّها في براءة البابا المثبتة ترجمتها في ذيل المجمع اللبناني لكننا وجدناها في نسخة أخرى).

ولما كانت هذه الدعوى قد انتهت الآن كان أملنا وطيداً بأنكم تسارعون إلى طاعة أمرنا والعمل بأحكام المجمع المقدس وتعرفون أنّ البطريك يعقوب هو

بطريرككم الحقيقي والشرعي وتقدّمون له الطاعة والتكريم، ومن المؤكّد عندنا أنّ الطاعة التي أثبتوها بدلائل كثيرة من قديم الزمان إلى الآن دون سائر الملل الشرقية هي الآن أكثر لزوماً وضرورة لاقتلاع الزوان الذي زرعه عدو بينكم الخ.

ولما شهرت براءة البابا وحكم الجمع المقدّس على الملة المارونية أذعن الجميع لها ورجع البطريرك يعقوب إلى كرسيه ومقامه، ولكن ما برح بعض الخلاف والانقسام بين أبناء الملة ورؤسائها، ولذلك نرى البابا اكليمنضوس الحادي عشر ووجه رسالة أخرى إلى البطريرك والأساقفة والأمراء والشعب مؤرخة في ٢٩ كانون الثاني سنة ١٧٢١م يدعوهم بها إلى إزالة بواغث الخلاف والسعي وراء السلام وتأليف الخواطر، وأرسل إليهم بهذه الرسالة الأب جبرائيل حوّا الراهب الحلبي اللبناني الذي كان برومة ليلغهم بركته ورغائبه بأكثر تفصيل، وهذه الرسالة تجد ترجمتها مثبتة في ذيل الجمع اللبناني صفحة ٤٢.

وعاش البطريرك يعقوب بعد ذلك مكرماً مهابةً دائماً على عمل المبرّات والقيام بأعباء البطريركية أحق قيام، وأناباً العلامة السمعاني في مقدّمة المجلّد الأوّل من مكتبته الشرقية أنّ هذا البطريرك عاونه كثيراً على وجدان الكتب الشرقية التي أحضرها إلى المكتبة الواتيكانية لا من لبنان فقط وليس من عند الموارنة وحدهم بل من دمشق وحلب وحمص ومصر أيضاً من عند الطوائف الأجنبية.

وأما الذين رقاهم البطريرك يعقوب عواد إلى درجة الأسقفية فقد أخذنا أسماءهم عن سجلّات بطريركيتنا فهم:

الأوّل الخوري صافي الجميل من بكفيا رقاہ سنة ١٧٠٦م وسمي الياس وتوفي في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧١٦م في دير مار عبدا هرهريا ودفن به.

الثاني الخوري باسيليوس باسيل البجاني من بيت شباب رقاہ سنة ١٧١٠م إلى كرسي طرابلس وتوفي في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٧٣٦م، وجاء اسمه في الجمع اللبناني وإن لم يحضره لمعجزه، وناب عنه القس ميخائيل العزيزي الطرابلسي المسمّى غرسيه.

الثالث جبرائيل مبارك الغوسطاوي رقاہ أخوه المطران يوسف الريفوني عندما تغلّب على البطريركية سنة ١٧١٣م إلى كرسي صيدا وتوفي في ٢٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٣م في ريفون.

الرابع الخوري سمعان عواد ابن أخي البطريرك يعقوب رقاہ عمہ سنة ١٧١٦م إلى كرسي دمشق وكان متسلماً أبرشية صيدا وهو من آباء المجمع اللبناني.

الخامس القس عبدالله قرأ إلى الحلبي رقاہ سنة ١٧١٦م إلى كرسي بيروت وكان من آباء المجمع المذكور وتوفي في ٦ كانون الثاني سنة ١٧٤٢م في زوق مصبح ونقلت جثته إلى دير لويظة وكان مديراً لدير حراش ورتب القانون لراہبات هذا الدير، وفي سنة ١٧٢٧م دخل إليه ثمانی عشرة راہبة.

السادس الخوري الياس محاسب من غوسطا رقاہ في ١٤ أيلول سنة ١٧١٧م إلى كرسي عرقا ودبر دير مار شليطا مقبس، وكان يزور المتن والجرد وجبيل والبترون والفتوح وكان من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٧ آب سنة ١٧٤٨م في دير مار شليطا المذكور.

السابع القس جبرائيل حوّا رقاہ سنة ١٧٢٣م إلى كرسي قبرص وتوفي برومة سنة ١٧٥٢م.

الثامن القس جبرائيل فرحات الحلبي رقاہ في ٢٩ تموز سنة ١٧٢٥م إلى كرسي حلب وسكن فيها وسمي جرمانوس وتوفي في ٩ تموز سنة ١٧٣٣م وستأتي ترجمته.

التاسع الخوري فرح الجميل من بكفيا رقاہ سنة ١٧٢٦م إلى كرسي جبيل وسمي فيلبوس وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ١٧ تموز سنة ١٧٧٤م في دير شويا.

العاشر الخوري يوسف صالح الدويهي ابن أخي البطريرك اسطفانوس الدويهي رقاہ في ٢٠ تشرين الأول سنة ١٧٢٨م إلى كرسي البترون ودعي اسطفانيوس وجعله نائباً بطريركياً ودبر أبرشية بعلبك ومات في دير ريفون.

الحادي عشر الخوري يوسف ضرغام الخازن ابن أبي قانصوه الخازن رقاہ سنة ١٧٢٨م إلى كرسي غوسطا ثم صار بطريركاً.

الثاني عشر الخوري اغناطيوس شراية رقاہ في ٢ تشرين الثاني سنة ١٧٣٢م إلى كرسي صور وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٩ تشرين الأول سنة ١٧٤٧م، ويظهر أنّه كان يسكن في دير مار الياس بلوني ودير لويظة حيث توفي.

الثالث عشر الخوري يوحنا اسطفان رقاہ في ١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٢م إلى كرسي اللاذقية وتسلم أبرشية بيروت وكان من آباء المجمع اللبناني وتوفي سنة ١٧٧٩م في عين ورقة.

الرابع عشر القس جبرائيل عواد بن عيسى أخي البطريرك رقاہ في ٢٦ تشرين الأول سنة ١٧٣٢م إلى كرسي عكا وهو من آباء المجمع اللبناني وتوفي في ٢٥ آذار سنة ١٧٦٣م.

الخامس عشر الخوري ميخائيل البلوزاوي الثاني بهذا الاسم رقاہ في كانون الثاني سنة ١٧٣٣م إلى كرسي بانياس وهو من آباء المجمع اللبناني.

السادس عشر هو القس جبرائيل حوشب رقاہ إلى كرسي حلب في ١ كانون الثاني سنة ١٧٢٢م وحضر إلى المجمع اللبناني فلم يصل إلا بعد نهايته فوقع عليه وعاد إلى حلب سنة ١٧٣٧م.

السابع عشر القس طوبيا ابن الشيخ أبي كنعان قيس الخازن رقاہ في ١ كانون الثاني سنة ١٧٣٣م إلى كرسي نابلس وسمي تارة مطران طرابلس وتارة مطران قبرص وهو من آباء المجمع اللبناني موقعاً مطران قبرص، وتسلم الوكالة على الكرسي البطريركي ثم صار بطريركاً.

وقد توفي البطريرك يعقوب عواد في ٩ شباط سنة ١٧٣٣م ودفن في كنيسة مار شليطا مقبس.

عد ٨٣

البطريرك يوسف ضرغام الخازن

هو ضرغام بن أبي قانصوه فياض بن أبي نوفل نادر الخازن وقد تزوج أولاً وولد له ولد اسمه ميلان، ثم توفيت زوجته فصار كاهناً، ثم رقاہ البطريرك يعقوب عواد سنة ١٧٢٨م إلى أسقفية غوسطا. ولما توفي البطريرك يعقوب المذكور في ٩ شباط سنة ١٧٣٣م اجتمع الأساقفة في ٢٣ من الشهر والسنة المذكورين لانتخاب خلف له، فاختار ستة منهم: المطران عبدالله قرألي مطران بيروت، واختار ستة آخرون الياس محاسب مطران عرقا، واختار اثنان اسطفانوس

الدويهي مطران البترون، وطال الخلاف بينهم وكان المطران يوسف ضرغام الخازن يحرضهم على الاتفاق ويلومهم على الخلاف ويبين لهم العثار الذي سيكون من تعمدهم رغائب بشرية وعدم اتفاقهم بروح الرب على من يرون به أهلية لتمجيد الله ونفع طائفتهم، فأتم رأيهم أخيراً على انتخابه فانتخبوه بطريركاً في ٢٤ شباط سنة ١٧٣٣م في دير ريفون وثبته البابا اكليمنضوس الثاني عشر سنة ١٧٣٤م على يد موفده القس عبدالله ابن الحاج عون من عجلتون. وفي أ أيامه سلمت مدرسة عينطورا ومدرسة زغرنا إلى الآباء اليسوعيين بشروط بينها الأب الرئيس العام لجمعية الآباء المذكورين بوثيقتين الأولى بشأن مدرسة عينطورا مؤرخة في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤م، والأخرى بشأن مدرسة زغرنا مؤرخة في ١٠ كانون الأول سنة ١٧٣٥م. وسيأتي ذكر هاتين المدرستين بأكثر تفصيل. وفي أ أيامه أيضاً عقد المجمع اللبناني الشهير الذي هو دستور الأمور الروحية في طائفتنا إلى اليوم وسنفرد فصلاً برأسه للكلام في هذا المجمع. وفي أ أيامه أيضاً وبعنايته جدّد لويس الخامس عشر ملك فرنسا الحماية للموارنة بموجب براءة مؤرخة في ١٢ نيسان سنة ١٧٣٧م، إقتداءً بأبيه لويس الرابع عشر الذي كان قد جدّد لهم هذه الحماية ببراءة مؤرخة في ٢٨ نيسان سنة ١٦٤٩م إعتماً على الحماية التي بذلتها فرنسا للموارنة بموجب براءة القديس لويس التاسع ملك فرنسا عند شخوصه إلى قبرص وسورية سنة ١٢٤٩م.

وأما الكهنة الذين رقاهم البطريرك يوسف ضرغام الخازن إلى الأسقفية فلا نعرف منهم إلا اسطفان عواد السمعاني الذي كان مع خاله السيّد يوسف سمعان السمعاني في المجمع اللبناني وكان رقيباً فيه فرقاها البطريرك بعد ذلك إلى أسقفية أباميا. وقد عثرنا في السجلات البطريركية على رسائل من هذا المطران إلى البطريرك المذكور مؤرخة بعد المجمع المذكور، ولم نعر في هذه السجلات على أسماء من رقاها هذا البطريرك للأسقفية كما عثرنا على أسماء من رقاها غيره. ويظهر أنه من سنة ١٧٣٣م التي ارتقى فيها إلى البطريركية إلى سنة ١٧٣٦م التي عقد فيها المجمع اللبناني لم يسقف أحداً لأن جميع الأساقفة الذين وقّعوا على المجمع اللبناني كان سالفه البطريرك يعقوب عواد قد سقّفهم إلا المطران جبرائيل أسقف صارفية فقد كان البطريرك اسطفانوس الدويهي قد رقاها كما رأيت وأما هل رقى البطريرك يوسف ضرغام بعد المجمع اللبناني غير اسطفانوس عواد المار ذكره فلا

نعلم ولم نجد في السجلات البطريركية أنه رقي أسقفًا آخر كما وجدنا أسماء من رقاهم أسلافه وخلفاؤه. والله أعلم.

وتوفي البطريرك يوسف ضرغام في ١٣ أيار سنة ١٧٤٢م في دير ريفون ودفن في كنيسة النبي الياس في غوسطا.

عد ٨٤

البطريرك سمعان عواد

هو ابن أخي البطريرك يعقوب عواد رقاہ عمہ إلى أسقفية دمشق سنة ١٧١٦م كما مرّ، وبعد وفاة البطريرك يوسف ضرغام الخازن اجتمع الأساقفة في عين ورقة فانتخبوه بطريركاً فأبى قبول الانتخاب زهداً وتورعاً، فانتخبوا المطران الياس محاسب الغسطاوي أسقف عرقا، وكان المطران طوييا الخازن غائباً فلم يقبل انتخاب المطران الياس المذكور بل اتفق مع المطران جبرائيل من طائفة السريان فرقيا إلى الأسقفية كاهنين من قسوس دير لوزية وهما القس عبد الله حبقوق الذي توفي في ٧ آب سنة ١٧٥٨م بكفر صغاب والقس جرمانوس صقر من حلب فانتخباه بطريركاً في دير لوزية. وأظنّ أنّ بعض المطارين المجتمعين في عين ورقة كانوا قد انتخبوا المطران طوييا حتى ساغ له أن يدّعي البطريركية وينازع المطران الياس عليها وقدم كلّ من المنتخبين أي المطران الياس والمطران طوييا العرائض للحبر الأعظم طالباً لإثباته في البطريركية ووجه كلّ منهما موفداً إلى رومة لمحاماة دعواه مصحوباً ببيّنات وأدلة على صحّة دعواه وسقوط دعوى خصمه منشأة من رجال فقهاء، فعين البابا بناديكتوس الرابع عشر بعضاً من كرادلة مجمع نشر الإيمان المقدّس ليجتمعوا أمامه ويفحصوا حجج كلّ منهما ويسمعوا تقارير كلّ من موفديهما، فظهر للكرادلة أنّ الانتخابين باطلان ويلزم إعلان بطلانهما، وكان الحبر الروماني متردداً واجساً من المصاعب التي تكون من قبل الفريقين واستشار الكردينال فشنسيوس بترا رئيس مجمع نشر الإيمان الذي كان يثق بعلمه وسعة إطلاعه على القوانين البيعية فأشار بإبطال الانتخابين، واستشار أيضاً العلامة السمعاني الذي كان موقناً بعلمه واستقامته ومخبرته في بني ملته فأشار بإيضاح بطلان الانتخابين واختيار

المطران سمعان عواد الذي كان الأساقفة قد انتخبوه فأبى، فعول الحبر الأعظم على ذلك وكتب براءة مؤرخة في ١٦ آذار سنة ١٧٤٣م موجهة إلى الأساقفة أبطل بها انتخاب المطران الياس والمطران طويبا وأمر بأن يكون المطران سمعان عواد بطريركاً، وحتم على المطارنة والأساقفة والاكليروس والأعيان والشعب أن يخضعوا لسلطته ويمثلوا أوامره، وصرح بأن انتخابه هذا البطريرك لا يقصد به تبطيل حقوق أساقفة الموارنة على انتخاب بطريركهم في ما يأتي من الزمان بل جلّ المقصد لإزالة المنازعات وإرجاع الهدوء والسلامة. وكتب رسالة إلى البطريرك سمعان يعلمه بانتخابه ويأمره أن يباشر السلطان البطريركي على كل مخالف، وأرسل هذه الأوامر الرسولية إلى الأب يعقوب من لوكا أحد رؤساء رهبان القديس فرنسيس، وأمره أن يتوجه بها إلى لبنان بمنزلة قاصد رسولي ويشهرها على رؤساء الملة المارونية، وخوّل كل سلطة لازمة لتنفيذها. فتوجه القاصد المذكور من القدس إلى كسروان ودعا إليه المطارنة والأساقفة وعلية الاكليروس والأعيان إلى دير حريصا فنشر عليهم أوامر عظيم الأحبار فأذعن جميعهم دون مخالف للأوامر الحبرية بملء الرضى والطاعة المخلصة، وأجابوا أجمعين بما قاله آباء المجمع الخلكيدوني أنّ بطرس تكلم بلسان خليفته بناديكتوس الرابع عشر وأقبل جميعهم ينحنون أمام البطريرك سمعان مهنيين له ومبدين عواطف الطاعة والسرور.

ورفع حينئذ البطريرك والأساقفة عرائض الطاعة والامتنان لأمر الأب الأقدس وأصبحها الاكليروس والأعيان بعرائض الشكر والثناء لقداسته، وعرض القاصد المذكور للبابا ولجمع نشر الإيمان مبيناً بانهاش ما رآه من شعائر الطاعة للكرسي الرسولي عند الموارنة، فبلغت هذه العرائض إلى رومة سنة ١٧٤٤م وكان البطريرك قد وكل إلى المونسنيور يوسف السمعاني أن ينوب عنه بالتماس التثبيت له من الحبر الأعظم فجمع امام الأحبار الكرادلة ومقدمي البلاط الواتيكاني والرؤساء والأعيان في ٣ تموز سنة ١٨٤٤م ونطق بخطبة يحق للموارنة أن يدوّنوها بالتبر ويخلدوا ذكرها ولا تتمالك من أن نورد بعض فقراتها وان كنا أسلفنا ذكر بعضها. قال ونعم العلامة القائل:

«لا شك في أنّكم تعلمون جيّداً أنّ الموارنة هم مسيحيون سريان يختصون بالبطريركية الأنطاكية لأنهم يسكنون سوريا وسواحل فينيقيا وجبالها وفلسطين وقبرص ومصر وغيرها من الأمصار الشرقية، والسواد الأعظم منهم يقطنون في

لبنان، ولا يفوت علمكم أيضاً أنّه لما فشّت في أواخر القرن السابع بدعة القائلين إنّ في المسيح مشيئة واحدة وفعلاً واحداً وأفسدت سكان البطريركية الأنطاكية فالموارنة رغبةً في أن يصونوا ملتهم ويوقوها ذلك الفساد عزموا علي أن ينتخبوا لهم بطريكاً يثبت من الحبر الروماني ويستمدّ منه درع الرياسة. ولما مرّت قرون وأخذ السراكسة أنطاكية وطرّدوا منها اللاتينيين الكاثوليكين فرّ هؤلاء اللاتينيون إلى جبل لبنان وقبلهم بطريك الموارنة بالترحاب والمؤانسة والوداد، فكتب إليه البابا اسكندر الرابع يشكره لذلك ويدعوه البطريرك الأنطاكي. وما برح بطاركة الموارنة يعرفون بهذا الاسم مع إنّهم نصبوا كراسيهم ثابتةً في جبل لبنان. وقد كان الموارنة كلّ حين كما هم الآن كاثوليكين كلّ الكتلّة مرتبطين بالاتحاد بالكرسي المقدّس باذلين الطاعة والاحترام التام للحبر الروماني ولبطريركهم، ولكن من حيث هم بشر فليس يعجب أن يحدث بينهم أو إن حدث نقص بشري في شأن بطريركهم وربما يتذكّر بعضكم ما جرى في أيّام سالفنا السعيد الذكر اكليمندوس الحادي عشر من عزل البطريرك يعقوب وما التحق بذلك الحبر الجليل من الإهانة العائدة أيضاً إلى حقوق الكرسي الرسولي... ولما تأكّد البابا برارة ذلك البطريرك وبرأته حكم برجوعه إلى كرسيه الذي حظّ عنه ظلماً فقدم الموارنة حينئذٍ دليلاً حديثاً على حسن طاعتهم وخضوعهم للكرسي الرسولي.

ونحمد الله على أنّه لم يصدر منهم في أيّام حبريتنا عزل بطريك لكنّه حدث حادث كدّرنا كدراً عظيماً وهو أنّه في سنة ١٧٤٢م انتقل إلى رحمة الله يوسف بطرس الخازن البطريرك، وعندما اجتمع المطارنة والأساقفة كالعادة لينتخبوا خلفاً له انقسموا إلى قسمين، فاختار بعضهم الياس مطران عرقا وبعضهم طوبيا مطران قبرص». وأردف البابا كلامه بإخبارهم عن عرائض المنتخبين له وأرسال كل منهما موفداً إليه واختياره بعض كرادلة مجمع نشر الإيمان للفحص عن ذلك بحضرته وحكمهم ببطلان الانتخابين واستصوابهم تعيين بطريك غير المنتخبين وتصويبه العمل برأيهم إقتداءً ببعض أسلافه في حوادث كهذه ذكرها لهم وإصداره الأوامر بذلك إلى أن قال: «فهذا ما لزم إيضاحه لكم قبل تلاوة رسالة البطريرك الذي اخترناه ورسائل المطارنة والأساقفة الموارنة فمنها تحيطون علماً بما قد جرى». فتقدّم المونسنيور يوسف السمعاني فرفع إلى قداسته الرسائل المذكورة فدفعها البابا إلى كاتب البراءات الرسولية وأمر فتليت أولاً باللغة العربية ثمّ تليت ترجمتها اللاتينية.

وحيثُ استأنف قداسته الكلام فقال: «أفهمتم أيتها الإخوة المحترمون أنّه انتهى بعون الله القادر على كل شيء أمر انتخاب بطريك بكل سلامة وعلى النحو الذي ألهمنا الله إليه ... والمطرانان الياس وطوبيا المنتخبان قبلاً إلى البطريركية حالما سمعا بانتخابنا البطريرك سمعان عواد أذعنا وقدّما على الفور الطاعة والخضوع له وبيننا بذلك عظم طاعتهما لهذا الكرسي الرسولي، فلا غرو أنّ المطارنة والأساقفة والطائفة المارونية جمعاء يستحقون الثناء الجزيل، ولذلك نجملهم من صميم فؤادنا بتلك المدائح السامية التي قرظهم بها أسلافنا الأبحار الرومانيون فقد شبههم بيوس الرابع بالألوف الكثيرة العدد التي لم تحن ركبها لباعال ... وأثبت هذا القول اكليمنضوس الثامن وزاد عليه بأنّ الموارنة قدّموا دائماً وفي كل حين الطاعة للكنيسة الرومانية أم سائر الكنائس ومعلمتهم، وشبّههم البابا بولس الخامس بالورد بين الأشواك. وقال في حقّهم أوربانوس الثامن لم يذبل بهاء الكرم ولم ينقص مجد لبنان لأنّ بطريك الموارنة وأساقفتهم وكهنتهم وشعبهم يحترمون سلطان القديس بطرس ويكرمونه بشخص الخبر الروماني». وختم البابا خطبته بمنح التثبيت للبطريك فانبرى العلامة السمعاني فباه في ذلك المحفل بخطبة شكر لقداسته معداً نعم الآباء وأسلافه على الملة المارونية ولا تسأل عمّا حوته تلك الخطبة من المعاني السامية والعبارات البليغة والأساليب الشائقة.

ثمّ أخذ البطريرك سمعان يتفانى بحراثة كرم الرب متجرّاً بالوزنات الخمس رابحاً أضعافها بجهاده غير ضنين بتعب أو نصب في سبيل نفع شعبه واقتياده إلى المراعي الخلاصيّة وتنكبه عن الضلال والاثم، مكدّاً مجدّاً بالوعظ والانذار والتعليم. ولمّا رأى أنّ مصلحة شعبه تقضي عليه بالاغتراب هاجر وطنه وكرسيه في دير قنوين وأقام بدير مشموشه في الطرف الجنوبي من لبنان، فأنشأ هذا الدير وسلّمه إلى الرهبان اللبنانيين وتوفي به في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦م. ولهذا البطريرك عدّة تأليف والذي نعرفه منها كتاب «النجاة» يشتمل على مواعظ بليغة مؤثرة، وكتاب في «اللاهوت الأدبي» ويتبعه كتاب في أسرار الكنيسة سمّاه «خزانة الأسرار»، وكتاب في «حلّ المشاكل الواردة في الأسفار المقدّسة»، وكتاب «عنوانه زيارة الأسقف الصالح» ضمّنه إرشادات للأساقفة في زيارتهم لرعاياهم.

وأما الذين رقاهم إلى الأسقفية فهم:

الأول الخوري ميخائيل الصائغ رقاہ في ٢٨ شباط سنة ١٧٤٦م إلى أسقفية دمشق وكان يدبر أبرشية بلاد جبيل والبترون.

الثاني الخوري أنطون محاسب من غوسطا رقاہ إلى أسقفية عرقا سنة ١٧٤٨م وكان يدبر دير مار شليطا وأبرشية جبيل والبترون والفتوح وتوفي في ١٣ أيلول سنة ١٧٨٠م في الدير المذكور.

الثالث القس يواصاف الدبسي من بسكتنا رقاہ سنة ١٧٤٨م إلى كرسي صور ويسمى مطران عكا وتوفي في ٢٦ حزيران سنة ١٧٦٠ في دير مار ساسين بسكتنا.

الرابع القس بطرس عطايا من رهبان مار اشعيا وأصله من ساحل علما رقاہ سنة ١٧٤٩م على أبرشية طرابلس عاش خمسة أشهر وتوفي في ١٥ شباط سنة ١٧٥٠م في زميرين ببلاد الخواي.

الخامس الخوري يوسف اسطفان من غوسطا رقاہ في شهر آب سنة ١٧٥٠م إلى أبرشية بيروت وهو الذي صار بطريركاً.

السادس القس يمين الحاج بطرس من ساقية المسك من رهبان مار اشعيا رقاہ سنة ١٧٥٢ على بانياس ودعي بطرس.

السابع الخوري يوسف ابن الشيخ أبي نصار ياغي حبش من ساحل علما رقاہ سنة ١٧٥٥م إلى أبرشية صيدا وتوفي في ٢ شباط سنة ١٧٧٠ في دير مار جرجس علما.

الثامن الخوري يواكيم يمين من إهدن رقاہ في ٢٤ تموز سنة ١٧٥٥م وتوفي في ٢٦ حزيران سنة ١٧٨١ بزغرتا ودفن في كنيستها.

التاسع القس ارسانيوس عبد الأحد رقاہ في ٦ أيلول سنة ١٧٥٥م على أبرشية دمشق ودير حراش وسمي مطران بعلبك وتوفي نحو سنة ١٧٨٨ في دير الرهبان برومة ودفن فيه.

العاشر القس طوييا الراهب اللبناني ابن طريه ابن الشدياق ابن المطران إسحاق الشدراوي رقاہ ليكون وكيلًا على الكرسي البطريركي ودعي إسحاق باسم جدّه

ولم نجد تاريخ سنة ترقيته ولكن عثرنا على أنّه توفي بطرابلس في ٢٥ تشرين الثاني سنة ١٧٥٣ .

الحادي عشر القس جبرائيل صقر من حلب من الرهبان اللبنانيين رقاہ إلى الأسقفية سنة ١٧٥٢ وتوفي في ٥ كانون الأول سنة ١٧٥٣ في دير حراش وعمره ثمانون سنة وهو أخو المطران جرمانوس الذي رقاہ المطران طوييا الخازن والمطران جبرائيل السرياني إلى الأسقفية مع القس عبد الله حبقوق لزيادة عدد الأساقفة المحازيين للمطران طوييا، وكان ذلك في ٢٠ أيار سنة ١٧٤٢. وتوفي المطران جرمانوس صقر في ١٨ أيلول سنة ١٧٦٨ وتوفي البطريرك سمعان بدير مشموشه في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦ .

عد ٨٥

البطريرك طوييا الخازن

هو ابن أبي كنعان قيس الخازن رقاہ البطريرك يعقوب عواد إلى أسقفية نابلس سنة ١٧٣٣م ودعي مطران قبرص، وبعد وفاة البطريرك يوسف ضرغام الخازن انتخبه بعض الأساقفة للبطريركية، وانتخب باقيهم المطران الياس محاسب فأبطل البابا بنادكتوس الرابع عشر إنتخابهما كما مرّ. ولما توفي البطريرك سمعان عواد في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦م اجتمع الأساقفة في ٢٨ منه وانتخبوه بطريركاً في كنيسة القديس يوسف بعينطورا وثبته البابا بنادكتوس الرابع عشر في ٢٧ آذار سنة ١٧٥٧م على يد موفده المطران ارسانيوس عبد الأحد الحلبي مطران بعلبك المار ذكره وكان يقيم في كسروان ولاسيما في دير مار روحانا البقيعة، وقد أنشأ هذا البطريرك دير القديس أنطونيوس في بقعاتا. أمّا الذين رقاہم إلى الأسقفية فهم:

الأول القس ارسانيوس شكري الحلبي رقاہ إلى أسقفية حلب في ٢٦ آذار سنة ١٧٦٢م وتوفي في شهر أيلول سنة ١٧٨٦م في دير عين شقيق حين اجتماع مجمع هناك سيأتي ذكره ونقلت جثته إلى دير لوزة.

الثاني الخوري ميخائيل فاضل البيروتي رقاہ في ١١ حزيران سنة ١٧٦٢م إلى

أسقفية صور وجعله نائباً للكرسي البطريركي ثم سلّمت إليه أبرشية بيروت سنة ١٧٨١م.

الثالث القس عبدالله الطرابلسي رقاہ إلى أسقفية عرقا سنة ١٧٦٢م وسكن في دير النبي الياس ببلوني مديراً بعض قرى كسروان وتوفي في الدير المذكور.

الرابع القس مبارك بن عبدالله مبارك من زوق مصبح رقاہ سنة ١٧٦٣م إلى أسقفية الرها ودعي جبرائيل ودبّر أبرشية بعلبك وسكن دير ريفون وتوفي به سنة ١٧٨٨م بعد أن تنزل عن تدير الأبرشية.

الخامس القس روفائيل الحاقلاني من زوق مصبح رقاہ إلى أسقفية طرابلس سنة ١٧٦٥م وسَمّي مطران دمشق أيضاً وتوفي في ٦ أيلول سنة ١٧٨٠م ودفن في دير لويزة.

وتوفي البطريرك طوبيا في ١٩ أيار سنة ١٧٦٦ في عجلتون ودفن في كنيسة السيدة بها المختصة بعائلته.

عد ٨٦

البطريرك يوسف اسطفان

هو أحد تلامذة مدرسة الموارنة برومة درس بها اللغات والعلوم الكنسية فبرع وفاق أقرانه وارتقى إلى درجة الكهنوت المقدسة وتفانى بالغيرة على خلاص النفوس فرقاہ البطريرك سمعان عواد إلى أسقفية أبرشية بيروت سنة ١٧٥٠م وبعد وفاة البطريرك طوبيا الخازن في ١٩ أيار سنة ١٧٦٦م اجتمع الأساقفة فانتخبوه بطريركاً في ٩ حزيران من السنة المذكورة، ونال التثبيت من البابا اكليمنضوس الثالث في ٦ نيسان سنة ١٧٦٧م على يد موفده الأب عبد الأحد أنطونيوس من لوكا أحد رهبان القديس فرنسيس، وجعل إقامته بدير مار يوسف الحصن بغوسطا الذي كان قد أنشأه من ماله في عقارٍ ورثه عن أبيه. وفي أيام هذا البطريرك قد تثبتت قسمة الرهبانية اللبنانية إلى بلدية وحلبية فقد كان هؤلاء الرهبان قد أجروا القسمة بينهم في أيام البطريرك سمعان إلا أنه بقيت منازعات بينهم عرض أمرها

لمجمع نشر الإيمان المقدّس فصدر أمر البابا اكليمنضوس الثالث عشر إلى البطر
يوسف اسطفان وإلى رئيس الرهبان الفرنسيين ومحافظ الأرض المقدّسة أن ي
فيما بينهم من الخلاف ويزيلاه بما يريانه ملائماً، فاجتمع البطريرك والرئيس المذك
في دير حريصا في ٨ كانون الأوّل سنة ١٧٦٨م فدعيا الأب عمانوئيل
رشميا رئيس البلديين ومدبريه، والأب لويس الحلبي رئيس الحلبيين ومدبريه و
القسمه بينهما وأزالا الخلاف، ودوّنا صكاً بذلك وقّع عليه الرئيسان الع
والمدبرون، وعرضا الأمر للكرسي الرسولي فأثبت البابا اكليمنضوس الرابع
هذه القسمه سنة ١٧٧٠م.

إنّ أهمّ الأحداث التي كانت في أيّام هذا البطريرك هو أمر الراهبة حنّة عجم
المعروفة بهندية وانخداعه بقداستها وصحّة إيمانها، ومحاماته عنها أوجبت الكر
الرسولي أن يطلبه إلى رومة ويربطه عن التصرف بسلطانه البطريركي، فالح
المذكورة كانت أصلاً من قرية بشري وهاجر أهلها إلى حلب فولدت بهذه الم
وانضوت إلى أخوية قلب يسوع التي أنشأها الآباء اليسوعيون بحلب، ولح
سيرتها وذكائها جعلت رئيسة لهذه الأخوية ودار في خلدتها أن تنشئ ر
تعرف: «بقلب يسوع الأقدس»، ولم تز محلاً أكثر ملائمة لذلك من جبل لب
فحضرت سنة ١٧٥١م إلى كسروان صحبة أحد الآباء اليسوعيين فأقامت أولاً
دير حراش وأخذت تبحث عن محل يناسب مقصدها فاشتريت دير بكركي
الرئيس العام والمديرين لرهبة مار اشعيا بثلاثة آلاف وخمس مئة قرش، و
المطران جرمانوس صقر الحلبي الساكن وقتئذ في دير حراش يعضدها ويعاونها
مشروعها، وكان لها أخ انضوى إلى جمعية الآباء اليسوعيين قاومها أولاً لخوفه
عدم نجاحها، ولما رأى تقدّمها في مسعاها عاونها وابتدأت سنة ١٧٥٢ في تو
بناء دير بكركي وإحكامه وإتقانه، ثمّ جمعت إليه شابات اهتمّت بتحقيق
وارشادهنّ في طريق الفضيلة والكمال، ثمّ ألبستهنّ الزيّ الرهباني فزاع سيط
الراهبة وكثرت راهباتها واشتهرن بحسن سيرتهنّ وتورعهنّ، وجمعت هندية
رهباناً وكلت إليهم تدبير أملاك الدير وقضاء مهامه الخارجية، ولما توفي المد
جرمانوس صقر معاضدها المذكور بذلت عنايتها في ترقية أحد رهبان ديرها
أسقفية حمص ودير بكركي القس ارسانيوس دياب سنة ١٧٦٨م وسوّي جرمان
وعظمت شهرة هندية حتى اعتدّها البعض قديسة وأكثر المؤمنون من ال

بالإحسانات على ديرها فزادت في بنائه وعزمت أن تبني كنيسة كبيرة في العرصة التي بين دير الرهبان إلى الغرب وسكن الراهبات إلى الشرق.

وفي سنة ١٧٧١م طلبت هندية من البطريك يوسف اسطفان ومطارين الطائفة تثبيت قانون رهبانيتها الذي كانت قد جمعته من قوانين بعض الرهبانيات، فأبى البطريك إجابة سؤالها إذ لم يكن لها إلا دير بكركي، فألح عليه بعض المطارين والأعيان وارتأوا أن يضاف إلى رهبانية هندية دير مار يوسف الحصن ودير مار جرجس علما وكان بهما راهبات عابدات، فحسن ذلك لدى البطريك وأضاف الديرين المذكورين إلى بكركي وأثبت القانون.

وسنة ١٧٧٧م داخل بعضهم الريب في صحّة إيمان هندية فرفعوا عرائض إلى البابا بيوس السادس والمجمع المقدّس يدّعون بها أنّها تعلّم ضلالاً مخالفاً للإيمان القويم، فسأه البطريك وأكثر مطارينه هذا التشكي وغلب على أفكارهم أنّ ذلك دسائس مبغضين وأحجولات حاسدين فحاموها وزيقوا تلك الأقوال، فأرسل البابا قاصداً يبحث عن الحقيقة فحضر إلى بكركي وأجرى الفحص فكانت خلاصته تقريره: «لني حضرت إلى بكركي وفحصت عن أحوال راهباته ومعتقدهنّ وسيرتهنّ وكذلك فحصت عن باقي جمهور الدير المنتمين إلى قانون قلب يسوع وكنت أخالني ألقي شبكتي في نهر متدفّق بالفضائل فوجدت أني ملقيها في بحر متموّج بالأعمال الصالحة وشعائر القداسة».

فشهادة هذا القاصد بعد فحصه زادت البطريك وبعض الأساقفة تمسكاً بهندية واعتباراً لصحّة إيمانها وبرارتها فاندفعوا إلى المحاماة عنها، لكن المضادين لها ما انفكوا يثلبونها ويطعنون في استقامة معتقدها، وكثر مضادوها وانضمّ إليهم بعض راهبات ديرها فاضطرّ المجمع المقدّس سنة ١٧٧٨م أن يرسل قاصداً آخر لإعادة الفحص عن تعليمها ولدى مطالعته كتاباً ألّفته وسمّته «اللاهوت السري» عثر به على ما يوجب الشك في صحّة معتقدها فأثارت فيه: «إنّ الإنسان الكاثوليكي إذا تناول القربان المقدّس حاصلاً على النعمة المبررة اتّحد بلاهوت المسيح اتّحد لاهوته بناسوته سنداً إلى قول الرسول (قرنثية فصل ٧ عد ١٧) «من التصق برّبنا كان معه روحاً واحدة». فعرض الفاحص ذلك للمجمع المقدّس مع ما قرره له المضادون فأصدر البابا بيوس السادس أمراً مؤرخاً في ٢٥ حزيران سنة ١٧٧٩م

قاضياً بإلغاء رهبانيتها وإبعادها وراهابتها عن ديرها بكركي، وموجباً اللوم الشديد على البطريرك لتغاضيه عنها ومحاماته لها، وأمر بتوزيع الراهبات في أديار كسروان التي للعبادات، وتعيين لإقامة هندية الدير المعروف بدير سيدة الحلقة حيث قضت حياتها بالتوبة والورع وكانت وفاتها به سنة ١٨٠٢ م.

أمّا البطريرك فطلب القاصد منه الرجوع عن أوامر كان قد أصدرها محاماة لهندية، وأن يوقع على صورة إقرار كان المجمع المقدّس قد أرسلها ليذيلها بتوقيعه فلم يشأ أن يوقع عليها كما كانت منشأة بل نقّحها وغيّر شيئاً فيها، وشكاه بعض خصومه أنّه التجأ إلى الذراع العالمي في هذه الأمور، ولمّا بلغ القاصد ذلك إلى المجمع المقدّس صدر أمر الحبر الروماني بأن يكون مربوطاً عن التصرف بسلطانه البطريركي وأن يشخص إلى رومة ليعطي جواباً عن محاماته لهندية وعن عصاوته برفضه التوقيع على صورة الإقرار المقدّمة له من القاصد الرسولي، وأقام السيّد ميخائيل الخازن مطران قيسارية ليكون مديراً للبطريركية ما دام البطريرك مربوطاً، فسارع البطريرك بالطاعة للأمر وسار إلى دير النبي الياس في الكرمل ليسافر من حيفا إلى رومة فاعترى البطريرك هناك مرض منعه من السفر.

فعظم القلق في الطائفة وكان حينئذ الشيخ سعد الخوري مديراً للأمير يوسف والي لبنان فجعله يكتب إلى البابا بيوس السادس رسالة يبرئ بها ساحة البطريرك من كل لائمة ويلتمس عوده إلى منصبه البطريركي. ورفع الشيخ سعد عرائض إلى البابا المشار إليه وإلى نيافة الكردينال رئيس المجمع المقدّس والمونسنيور بورجيا كاتب هذا المجمع والكردينال دبيرنس الفرنسي مذكراً لإيّاه بحماية فرنسة للموارنة والكردينال كرسيني جواباً له عن كتاب كان قد أرسله إليه توصية بالخوري يوسف تيان عند عوده من رومة إلى لبنان. وفي كل هذه العرائض كان الشيخ سعد يبرئ البطريرك من كل شائبة ومن كل مخالفة لأوامر الكرسي الرسولي، ويعتب لمعاملة البطريرك هذه المعاملة التي تكسر خاطر الطائفة وتحزن قلبها، وأوعز الشيخ سعد إلى الأساقفة ورؤساء الرهبانيات والأعيان ليرفعوا مثل هذه العرائض، وأرسل بها إلى رومة الخوري يوسف التيان المذكور وقد أثبت المعلّم رشيد الشرتوني (في كتابه سلسلة بطارقة الموارنة نقلاً عن السجلات البطريركية) صور كل هذه العرائض وشفّعها باثبات مرسوم الجواب من البابا بيوس السادس إلى الشيخ سعد الخوري باللاتينية وترجمته العربية مؤرخاً في ١٨ أيلول سنة ١٧٨٤ م مفتتحاً بقوله: «أيّها

الابن الحبيب والرجل الشريف السلام والبركة الرسولية. لم يخامرنا ريب البتة في عنايتك أيتها الابن العزيز والرجل الشريف بالمحافظة على الإيمان الكاثوليكي دون انثلام بل نثني عليك أطيب الثناء مقرين بأن إطفاء تلك النار البكرية كان خاصة باهتمامك ويعزى إليك إزالة ذلك القلق اعتماداً على مراسيمنا الصادرة سنة ١٧٧٩م، ولم يخطر لنا ببال أن نوجب اللوم على أخينا المحترم البطريرك يوسف اسطفان لالتجائه إليك واعتضاده بك ليتمكن من أن يقيم بحاجاته من المداخيل الزمنية لكرسيه البطريركية». ثم بين له أن ما أوجب اللوم على البطريرك إنما هو ما بلغه عنه أنه لم يشأ أن يوقع على صورة الإقرار المرسله إليه من المجمع المقدس وتأليفه بحسب هواه صورة مخالفة للمرسله إليه، كأنه قاض بدعواه، وأنه التجأ إلى حكام عالمين ولم يلتفت إليك أنت مدبر حاكمه المعلومة تقواك، وأنه لما كان أقر بغلظه نادماً عليه ووقع على صورة إقراره كما أرسلت إليه فؤض إلى قاصده الأسقف أنوش أن يحضر إلى كسروان ويرد البطريرك إلى كرسيه وحقوقه جزاء لطاعته وإجابة لالتماس جمهور الأساقفة ورغائب الطائفة وتوصاة الأمير يوسف الجليل والسامي الاقتدار وتوسله أي توسل الشيخ سعد.

أما صورة الإقرار الذي قدّمه البطريرك حينئذ إلى البابا بيوس السادس فقد ضمّنها في براءته المنفذة إلى مطارين الطائفة وأعيانها مؤرخة في ٢٨ أيار سنة ١٧٨٤م فنلخصها عن هذه البراءة: «أنا المدّون إسمي أدناه أقرّ وأعترف بغلطي واعتقادي الباطل بقدااسة حنة عجيبي راهبة دير بكركي وانخداعها وأقبل وأصادق على مرسوم المجمع المقدس الأوّل المؤرخ في ٢٥ حزيران سنة ١٧٧٩م والمثبت من سيّدنا البابا بيوس السادس الكلي القداسة (المتضمّن تحريم تعليم هندية) ثمّ إنّي أقرّ وأعترف أنّ هندية المذكورة كانت مخدوعة بخبث واضح وأنّ تخيلاتها وأوحيتها ونبواتها التي كانت تتفاخر بها وجميع آرائها الحديثة المستغربة ولاسيما زعمها أنّ جسدها ونفسها يتحدان مع جسد المسيح ونفسه. فهذه كلها باطلة واختراعات وقحة ولا تخلو على الأقل من رائحة البدعة، ولهذا أنقض كل اعتقاد سلف مني بمثل هذه الخداعات والأوهام النفاقية وأبطل وألاشي كل فعل أظهرت به وشهرت شيئاً من هذه الأشياء ولاسيما منشوري المؤرخ في ١٧ أيار سنة ١٧٧٧م وكل ما صدر مني لتأييد مثل هذه الأشياء المرذولة، ثمّ أقبل وأوقر واحترم المرسومين الآخرين المبرزين من مجمع نشر الإيمان المقدس والمثبتين من قداسته في تاريخ ٢٥ حزيران

سنة ١٧٧٩م أيضاً. وقد تضمن الأول منهما لإبطال وإلغاء الرهبانية التي أنشأتها الراهبة المذكورة تحت اسم أخوية قلب يسوع، والثاني يشتمل على الحكم المبرز علي بالمنع عن التصرف بكل سلطان بطريركي إلى أن يتحسن للأب الأقدس. وأما نظراً إلى الأمر لي بأن أشخص إلى رومة لأجواب أمام قداسته عن ذنوبي السالفة فكنت قد أخذت في السفر فمنعني أمراضه وأرسلت من يقرأ عذري ففقتني رافة الأب الأقدس من المثل بشخصي وها أنذا قابل بطيبة خاطر أن أبقى مربوطاً إلى أن يرى قداسته أن يحلني من هذا الرباط، وأقبل أن يكون السيد ميخائيل الخازن متصرفاً بالسلطان البطريركي ما دمت مقيماً بهذا الرباط».

ولما كان بعض مطارين الطائفة قد رفعوا إلى مجمع نشر الإيمان المقدس سنة ١٧٧٤م عدّة مشكلات وقعت بينهم وبين البطريرك وسأل البطريرك المجمع المذكور أن يصغي إلى تقريراته في هذه المشاكل، وأرسل روفائيل الحاقلااني مطران دمشق وكيلاً عنه إلى رومة، ولدى التبصر بحجج الفريقين حكم آباء هذا المجمع في ٢٢ آذار سنة ١٧٧٧م في هذه المشكلات كما سيأتي، فلذلك أضاف البطريرك إلى إقراره المذكور قوله: «لئنني أقبل وأطيع مسرعاً جميع مراسيم مجمع نشر الإيمان المقدس الصادرة في ٨ تموز سنة ١٧٧٤ ولاسيما المراسيم السبعة الصادرة منه في ٢٢ آذار سنة ١٧٧٧م».

فهذه المشكلات ومراسيم الأجوبة الصادرة بشأنها هي سبعة وهذا ملخصها: الأول أنّ البطريرك كان قد أجاز أكل الأطعمة المزفرة يوم الجمعة الواقع في اليوم التاسع بعد عيد جسد المسيح ونصحه المجمع المقدس أن يبطل هذه الإجازة فعرض السؤال هل يلزم تكرار الأمر للبطريرك ليبطل هذه الإجازة فأجاب الآباء أن تتجدد مراسيم المجمع اللبناني (قسم ١ باب ٤ عد ٣ وعد ٥) حيث عينت في العدد الثالث الأصوام المفروضة وفي العدد الخامس رخص للبطريرك لضرورة عامة أن يجعل بدء صوم الرسل في ٢٥ حزيران وبدء صوم انتقال العذراء في ٧ آب وبدء صوم الميلاد في ١٣ كانون الأول. ونبه البطريرك أن لا يقدم على هذا الترخيص على إطلاقه بل في صوم واحد ومرة واحدة بحسب مقتضيات المكان والزمان والمسوغات.

وعرض السؤال الثاني هل يستطيع بطريرك الموارنة أن يمنح غفرانات كاملة دون

إذن الكرسي الرسولي في أيام معينة فأجاب الآباء لا يستطيع ويلزم القاصد أن يعلن ذلك للموارنة.

والسؤال الثالث هل للسيد البطريك أن يلزم أساقفة الأبرشيات بأن يأخذوا منه مناشير لزيارة أبرشياتهم، فأجاب الآباء لا يلتزم الأساقفة أن يأخذوا منشور الإجازة منه عندما يزورون أبرشياتهم بالحق المعتاد لهم.

والسؤال الرابع أيجب أن يعين مبلغ دراهم يدفعه الأساقفة كل سنة للسيد البطريك على سبيل العشور وبأي شروط. فأجاب الآباء أنه يلزم أن يعين مبلغ يدفعه الأساقفة كل سنة للبطريك وعينوا قدره ألفين وخمسمائة قرش كل سنة موزعة كما سيجيء. ويحق للبطريك أن يعطي مناشير لجمع العشور لكل من المطارين الموجودين مزة واحدة فقط بياناً لخضوعهم له، وكذلك المطارين الذين سيكونون عند دخولهم على الأبرشية لا غير. وأمّا المبلغ المعين فقيمه ٤٥٠ قرش على مطران طرابلس و ٣٥٠ على مطران حلب و ٣٠٠ قرش على كل من مطارين جبيل و بعلبك و بيروت و صور و صيدا و ٢٥٠ على كل من مطراني دمشق و قبرص مجموع ذلك قيمته ٢٥٠٠ قرش. وزادوا على ذلك أنّ هذا التعين يدوم ست سنين إلى أن يرى المجمع المقدس غير ذلك ويلزم كل مطران أن يطلب منشوراً من البطريك لجباية العشور كل سنة ويدفع ما عليه للبطريك دفعتين. ومن تأخر عن الدفع بغير عذر مقبول حق للبطريك أن يرجع عليه بالمطالبة بحقوقه الأولى.

والسؤال الخامس أيجب للبطريك أن يعزل المطارنة من أبرشياتهم و يمنعهم من التصرف بسلطانهم أو يجري عليهم ما يخفف شأنهم أمام الشعب لدواع غير كافية ودون مشورة المطارين ولا إعلام الكرسي الرسولي فأجاب الآباء لا يحق للبطريك أن يعزل المطارين من أبرشياتهم أو يمنعهم من التصرف الكلي بسلطانهم دون مشورة مجمع المطارنة، وفي ما سوى ذلك له أن يؤدّبهم بحسب قوانين الكنيسة.

والسؤال السادس أيلزم الترخيص للرهبان بأن يجهلوا في الأبرشيات لجمع الإحسان. وكان الداعي بهذا السؤال أنّ مجمّعاً عقد بغوسطا نهى الرهبان عن الجولان بالأبرشيات لجمع الإحسان، فأجاب الآباء أن يلزم المحافظة على قوانين الرهبان وعلى ما دوّن في المجمع اللبناني (قسم ٤ باب ٢ عد ٨) حيث قيل وليس

للرهبان «أن يتسولوا أو يبعثوا راهباً أو عالمياً في سبيل السؤال بلا رخصة من الرئيس المحلي». وزاد الآباء على ذلك نصيح الأساقفة أن يتساهلوا في منح الإذن للرهبان بالتسول متى تحقق عندهم احتياجهم إليه، وللرهبان أن يعرضوا أمرهم للسيد البطريرك إذا امتنع الأسقف ضدّ الصواب عن إعطائهم الإذن بالتسول.

والسؤال السابع أيقن للبطريرك أي يقبل الكهنة أو الرهبان غير الخاضعين لرؤسائهم ويرتخص لهم بالذهاب إلى محل خلافاً لإرادة رؤسائهم فأجاب الآباء لا يحق له ذلك وفقاً لما تدوّن في المجمع اللبناني في قسم ٤ باب ٢ عد ٩ و ١١. فهذه خلاصة المراسيم التي قال البطريرك في إقراره إنّها يقبلها ويطيعها.

وقال بعد ذلك: «فجميع هذه المراسيم وغيرها مهما كانت مما انتشر أو سوف ينشر من أوامر المجمع المقدّس لأجل تدبير الطائفة المارونية أعلن أنني أقبلها وأقرها وأقوم بتكميلها بدون مخالطة أو غش وأقدّم بكل خضوع لإقراري واعترافي هذا أمام قداسة سيّدنا البابا بيوس السادس وأبتهل إليه أن يحلّني من كل تأديب التحق بي ويردني إلى نعمته وحنانه ويقبلني كابن نادم وتائب، ومتى تنازل وتقبّل توبتي الصادقة يرّدني إلى التصرف بالسلطان البطريركي وإلى تدبير طائفتي قاصداً أن أظهر نفسي في الزمان المقبل ابناً خاضعاً وطائعاً للكرسي الرسولي وأثبت كل ما قدّمته بقسمي عليه وبخط يدي وختمي أمام شاهدين في ٨ آذار سنة ١٧٨٤م. والتوقيع يوسف بطرس اسطفان البطريرك الأنطاكي والشاهدان على ذلك القس يوسف التيان مرسل رسولي والقس سمعان الصباغ مرسل رسولي.

ثمّ أردف البابا كلامه في براءته المذكورة المأخوذ عنها كل ما مرّ بقوله: «لا شكّ في أنّ من تاب حقيقة عن زلاته حقّ له أن ينال الغفران فلا هرون بعد توبته فقد كهنوته، ولا سمعان بعد ندامته على سقطته أضاع مقامه الأعلى الرسولي» ولذلك قد أمرنا الأسقف أنوش أن يسير سريعاً إلى كسروان ويردّ الأخ الموقر يوسف اسطفان إلى بطريركيته ويخوله مقامه السابق وسلطانه وجلّ رغائبنا أن تتخذوا ذلك برهاناً أكيداً على حبّنا الأبوي للطائفة المارونية وعربونا لاعتبارنا لها لغيرتها على الإيمان الكاثوليكي وثباتها في الاحترام للسدة البطرسية في ٢٨ أيلول سنة ١٧٨٤م وهي السنة العاشرة لحبريتنا.

وأتمّ القاصد المذكور ما أمر به فدعا البطريرك من دير الكرمل وسار به إلى دير مار يوسف الحصن بغوسطا حيث كانت إقامته، فالتقاه أبناء الطائفة باحتفال عظيم شائق وبهجة وسرور فائق وشرع الأعيان والكهنة والأهلون يتقاطرون من كل فج لتهنئته وأقام البطريرك يوسف اسطفان مجدداً مكدداً في خير طائفته وحرارة كرم الرب وأرسل سنة ١٧٨٦م الخوري أنطون القيايالي البيروتي إلى باريس لطلب قنصلية فرنسة للشيخ غندور بن سعد الخوري، فتكرّم الملك لويس السادس عشر عليه بها. وسنة ١٧٨٩م أمر بتحويل دير عائلة مار أنطونيوس عين ورقة إلى مدرسة عامة إكليريكية للطائفة وكان قبلاً ديراً للعابدات، فصار بعداً معهداً علمياً رقى الطائفة في مدارج التقدّم والفلاح، وأجدى عليها بكثيرين من البطارقة والأساقفة والعلماء كما ستري. وعقد مع مطارينه المجمع المعروف بمجمع عين شقيق أو مجمع وطا الجوز سنة ١٧٨٧م، ومجمع بكركي الأول سنة ١٧٩٠م. وسوف نلخص ما كان بهذين المجمعين.

وفي ١٢ نيسان سنة ١٧٩٣م ارتحل هذا البطريرك إلى دار البقاء في دير مار يوسف الحصن بغوسطا ودفن فيه وكان من العلماء الأعلام وله مؤلفات كثيرة وكانت عنده مكتبة جامعة تبددت من بعده ونقل بعضها إلى دير بكركي. ومن مؤلفاته كتاب بديع في قداسة يوحنا مارون تراه مطبوعاً في كتاب «الحمامة عن الموارنة»، ورسالة مطوّلة في تربية الأولاد كتبها لسكان أبرشية بيروت إذ كان مطراناً عليهم. وله بالسريانية عدّة فروض لتلى في الكنائس أيام أعياد القديسين يعقوب وليمانوس تلميذي القديس مارون والثلاث مئة وخمسين شهيداً تلاميذه والقديس افرام السرياني وغيره. وله أيضاً عدّة منظومات من المعروفة بالأفراميات التي يترنّم بها في القدّاس منها أفرامية للقديس مارون، وأفراميات للرسولين بطرس وبولس والاثني عشر رسولاً. وله أيضاً طلبات لبعض القديسين يترنّم بها في مساء أعيادهم، ورتب للخدمة في القدّاس في أعياد كثيرين من القديسين، وهو الذي هذب الرتب في طائفتنا وألّف بعضها كرتبة منح الغفران الكامل والبركة البابوية ورتبة تبريك الماء يوم عيد القديسين بطرس وبولس ورتبة منح البركة بصورة العذراء المعروفة بسيدة الثوب، ألّفها وهو في الكرمل، ورتبة منح البركة بالصلب أيام الجمعة في الصوم ورتبة الاستعداد للميلاد لتسعة أيام قبل الميلاد ورتبة السجدة يوم عيد العنصرة إلى غير ذلك.

وأما الذين رقاهم إلى الأسقفية فهم:

الأول الخوري ارميا نجيم من غوسطا رقاہ إلى أسقفية الناصرة في ١٧ تشرين الأول سنة ١٧٦٧م وتوفي في ١٥ تشرين الأول سنة ١٧٧٥م في دير الحصن.

الثاني الخوري ميخائيل حرب الخازن من عجلتون رقاہ إلى أسقفية قيصرية فلسطين في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٧٦٧م ثم دبر أبرشية دمشق والبطريركية مدّة منع البطريرك يوسف أسطفان عن التصرف بها. وكانت وفاته في دير رام بودقن.

الثالث الخوري الياس الجميل الثاني بهذا الاسم رقاہ في ١٢ كانون الثاني سنة ١٧٦٨م إلى أسقفية قبرص وتوفي في ٦ أيلول سنة ١٧٧٩م في شويا.

الرابع القس أنناسيوس الحاج موسى الشنيعي من غوسطا رقاہ في ٢٩ حزيران سنة ١٧٦٨م وتوفي في أيلول سنة ١٧٧٨م ودفن بدير الحصن بغوسطا.

الخامس القس ارسانيوس دياب الحلبي رقاہ إلى أسقفية حمص ودير بكركي سنة ١٧٦٩م وسمي جرمانوس وتوفي سنة ١٧٩٩م بدير القمر ودفن في كنيسة التلة.

السادس القس ارميا نجيم الثاني ابن أخت المطران ارميا نجيم الأول رقاہ إلى أسقفية الناصرة سنة ١٧٧٧م وكان نائباً بطريركياً وتوفي في ٢٧ آب سنة ١٧٧٩م ودفن بدير الحصن.

السابع القس بولس اسطفان أخوه رقاہ إلى أسقفية قورش ونيابة الكرسي البطريركي في حزيران سنة ١٧٧٧م، ثم سلمت إليه أبرشية جبيل والبترون وتوفي بمدرسة عين ورقة سنة ١٨٠٨م.

الثامن القس يوسف نجيم أخو المطران ارميا نجيم الثاني رقاہ في ١١ تشرين الأول سنة ١٧٧٩م إلى أسقفية بيروت وتوفي في ٦ آب سنة ١٨٠٢م في دير مار جرجس علما.

التاسع القس يوحنا الحلو من غوسطا رقاہ إلى أسقفية عكا في ٦ آب سنة ١٧٨٨م وكان نائباً بطريركاً في الأشياء الزمنية وهو الذي انتخب بعداً بطريركاً.

العاشر الخوري يوسف التيان من بيروت رقاہ إلى أسقفية دمشق في ٦ آب سنة ١٧٨٦م وكان نائباً بطريركياً في الروحيات ثم استقال من مطرانية دمشق وسلمت إلى المطران ميخائيل الخازن سنة ١٧٨٨م.

الحادي عشر الخوري دانيال الجميل رقاہ إلى أسقفية قبرص في ٣٠ تشرين الأول سنة ١٧٨٦م وسمي فيلبوس وصار بعداً بطريركاً.

الثاني عشر الخوري جرجس يمين ابن المطران يواكيم من إهدن رقاہ إلى أسقفية طرابلس في ١٨ أيار سنة ١٧٨٧م وتوفي سنة ١٧٩٥م بزغرتا.

الثالث عشر الخوري جبرائيل كنيدر من حلب رقاہ إلى أسقفية حلب في ٩ أيلول سنة ١٧٨٧م وتوفي بها سنة ١٨٠٢م.

الرابع عشر القس اغناطيوس الخازن من عجلتون رقاہ إلى أسقفية نابلس في ٢٩ حزيران سنة ١٧٨٧م ثم سلّمت إليه أبرشية طرابلس بعد وفاة المطران جرجس يمين إلى أن توفي سنة ١٨١٩م بعجلتون.

الخامس عشر القس فرنسيس مبارك رقاہ إلى أسقفية بعلبك بعد أن تخلّى عنها المطران جبرائيل مبارك الثاني في ٢٦ آب سنة ١٧٨٧م ودعي بطرس وتوفي في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٨٠٨م في دير ريفون وفي أيامه رقي المونسنيور يوسف سمعان السمعاني العلامة الشهير في رومة إلى مطرانية صور في ٣١ تموز سنة ١٧٦١. وتوفي في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٧٦٨م.

البطريركان ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل

أمّا البطريرك ميخائيل فاضل فهو من بيروت وكان البطريرك طويلاً الخازن قد رماه في ١١ حزيران سنة ١٧٦٢م إلى أسقفية صور وجعله نائباً بطريركياً إلى أن تسلّم تدبير أبرشية بيروت سنة ١٧٨١م. ولما توفي البطريرك يوسف أسطفان في ٢٢ نيسان سنة ١٧٩٣م تأجل اجتماع الأساقفة لانتخاب بطريرك بسبب الطاعون الذي كان مستحوذاً تلك السنة في البلاد ولاسيما كسروان إلى أن اجتمعوا في ١٠ أيلول سنة ١٧٩٣م، فانتخبوا المطران ميخائيل فاضل وأرسل الخوري جرجس غانم البيروتي إلى رومة ليستمدّ له التثبيت ودرع الرئاسة من الحبر الروماني فلم يبلغ إليها إلّا بعد وفاة هذا البطريرك التي كانت في ١٧ أيار سنة ١٧٩٥م في دير حراش ودفن به، على أنّ البابا بيوس السادس أراد احصاءه في مصاف البطاركة إذ قال بخطبته في الاجتماع المنعقد لذلك في ٢٧ حزيران سنة ١٧٩٦م: «ولمّا كانت غير الزمان لم تسمح لنا بأن نمّحه التثبيت وهو حي نمّحه إياه وهو ميت ونريد أن يحصى في سلسلة بطاركة الموارنة ولو أحرّمته المنية قبول زينة درع الرئاسة». ولا نعلم أنه رقى أحداً إلى الأسقفية إلّا الخوري جرمانوس قيس الخازن من عجلتون سنة ١٧٩٤م وهذا توفي في دير مار روحانا البقيعة سنة ١٨٠٥م.

وأما البطريرك فيلبوس الجميل فكان من بكفيا وكان البطريرك يوسف اسطفان قد رماه إلى أسقفية قبرص في ٣٠ تشرين الأوّل سنة ١٧٨٦م. وبعد وفاة البطريرك ميخائيل فاضل في ١٧ أيار سنة ١٧٩٥م اجتمع الأساقفة في دير بكركي في ١٢ حزيران في السنة المذكورة وكان الأساقفة تسعة فاتفقوا أن يرشّحوا للبطريكية المطران يوحنا الحلو والمطران فيلبوس الجميل المذكور ويرمي السبعة الباقون القرعة. فمن حاز أربعة أصوات كان بطريركاً فوقع الأربعة أصوات للمطران فيلبوس المذكور وثبته البابا بيوس السادس في ٢٧ حزيران سنة ١٧٩٦م على يد معتمده القس ارسانيوس القرداحي الراهب الحلبي اللبناني. وقبل أن يصل إليه درع الرئاسة عاجلته المنية في ١٢ نيسان سنة ١٧٩٦م في دير السيدة في بكركي حيث دفن.

ولا نعلم أنه رقى إلى الأسقفية سوى القس أقليمس الخازن من عجلتون على

أبرشية جبيل والبترون وسمي اسطفان. ولما كان ذلك مخالفاً للقوانين البيعية لأن مطران هذه الأبرشية كان حياً وهو المطران بولس أسطفان المذكور فعزل عنها. وبعد وفاة المطران جرمانوس الخازن السالف ذكره سلمت إليه أبرشية دمشق سنة ١٨٠٥م وتوفي في ٣١ كانون الأول سنة ١٨٢٩م في دير مار موسى بلوني ودفن به.

ثم رقى البطريرك فيلبوس الخوري ميخائيل فاضل إلى أسقفية بيروت وسمي أنطونيوس لكن تغلب عليه اسم المطران ميخائيل فاضل الثاني. وتوفي في ٦ تموز سنة ١٨١٩م.

وبعد وفاة البطريرك فيلبوس الجميل اجتمع الأساقفة في ٢٨ نيسان سنة ١٧٩٦م في دير بكركي فانتخبوا المطران يوسف التيان مطران دمشق قبلاً والنائب البطريركي بطريركاً، فكان السادس بهذا الاسم وثبته البابا بيوس السادس في ٢٤ تموز سنة ١٧٩٧م على يد معتمده القس لويس بلييل الراهب اللبناني الذي رقاها إلى أسقفية قبرص سنة ١٧٩٨. ونرجى تكملة ترجمة هذا البطريرك إلى تاريخ القرن التاسع عشر.

الفصل الثالث

مشاهير العلم الموارنة في القرن الثامن عشر

نحسب هذا القرن قرن الذهب في طائفتنا لكثرة علمائها فيه ولوفرة ما خلفوه من التصانيف البديعة والتأليف النفيسة حتى أفادوا الغرب بتاريخ المشرق ونقلوا إليه ما لا يحصى من آثار الشرقيين وكتبهم وكانوا كمشكاة استنار بضوئها أهل المشرق بعلوم أهل الغرب ورقوا مواطنهم في مدارج العلم وشهد لهم علماء الغرب بالفضل واعتمدوا على ما أثبتوه إلى الآن وتفاخر بهم أبناء جلدتهم شاكرين لهم ما أجدوا عليهم به. والفضل في كل ذلك للعهد العلمي الذي

أنشأه لهم البابا غريغوريوس الثالث عشر فإن أكثر هؤلاء العلماء نبغوا منه وعنه أخذوا أنوار تعاليمهم النافعة وها نحن نأخذ بتدوين تراجم من عرفناه منهم وذكر ما علمناه من تأليفهم الغراء .

عد ٨٨

القس يوسف الباني الحلبي

هو يوسف بن القس جرجس الحلبي ارتحل أسلافه من قرية بان بجبل لبنان إلى حلب الشهباء فولد ونشأ بها وأرسل إلى رومة طلباً للتخرج بالعلوم في مدرسة الموارنة فنبغ وحاز قصبات السبق وارتقى إلى درجة الكهنوت وقال في حقّه القس جبرائيل فرحات (هو المطران جرمانوس فرحات لكثته كتب ما يأتي قبل تسقيفه) في مقدمة تفسيره لرؤيا يوحنا: «الأب الفاضل والعالم العامل ذخيرة ملته المارونية وسراج الكنيسة الرومانية غذي بلبانها فترعرع وبني على أساسها فلم يتزعزع الذي ضاءت أشعة شهب علومه في أفق شهبائه حتى استعشت. وأرضع بني حلب مما حلب من فواق ثدي فضله حتى عاشت ونعشت وأفاض مما فاض من معارفه على الطلبة المستفيدين قاصيها ودانيها ودان لنتيجة مقدّمات عمله الصادق بيانها بالفضل والتقدّم قاصيها ودانيها فأفادنا الدهر به ما كنا قبل نتمناه وجاد علينا بوجوده الرضى ما كان بغيره يأباه» .

وقد أنبأنا الأب جبرائيل المذكور بلسانه أنّه قصد أم المدائن ابتغاء التخرج بالعلوم فيها فأتقن معرفة اللغات وتضلع بعلوم الفلسفة واللاهوت وآب إلى حلب موطنه وكان يتقلب بين أن ينفق بضاعته بترشيح الكلام أو أن يخلدها في بطون الأوراق بتوشيح الأقلام واعتمد على الثاني لأنّه يحيى بحياة الدهور والأزمان ولذلك ترجم إلى العربية عدّة من الكتب التي فاق معناها وراق مبنائها منها: كتاب «ميزان الزمان وقسطاس أبدية الإنسان» وقد طبع هذا الكتاب مرّات منها طبعة في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت وأردفه بترجمة كتاب «الكمال المسيحي» في ثلاثة أجزاء وهذا الكتاب أيضاً طبع مرّات. ثمّ كتاب «المعروف والمُعترف» في علم الدمة إلى غير ذلك في التأمّلات العقلية والرسائل الروحية. وقد عزا إليه القس جرجس منش الحلبي الماروني في ترجمة جرمانوس فرحات أربعة مجلّدات في تفسير الرسائل

وخمسة في تفسير الأناجيل وثمانية في تفسير العهد القديم، وقال إنّ فرحات صحّح هذه الترجمات. ذكرت هذه الرواية على عهده وما لا شكّ فيه وأشهر تأليفه كتاب: «العنوان العجيب في رؤيا الحبيب» وهو تفسير لكتاب رؤيا يوحنا الحبيب أحد أسفار العهد الجديد وأغوصها معنى وأعسرها بياناً انتقاه من تفسيرات الأب كورينلوسن الحجري اليسوعي مقتصراً منها ما أمكن اقتصاره وزائداً عليها ما رأى زيادته لازمة. وقد فرغ من هذا التأليف سنة ١٧١٣م وقد عنيت وأنا كاهن بطبع هذا الكتاب سنة ١٨٧٠م بالمطبعة العمومية الكاثوليكية التي قنيتها بمساعدة الخواجا رزق الله حضرا بعد أن عارضته كلمة فكلمة بالنسخة التي خطتها يد معربها القس جبرائيل فرحات المذكور وبنسخة أخرى أخذت عنها.

إنّ ترجمات القس يوسف الباني هذه قد عربها كلّها القس جبرائيل فرحات وأظنّ أنّه عني بذلك قبل أن صير أسقفاً على حلب مدعوّاً بجرمانوس سنة ١٧٢٥م. وقد ذكرت في كتابي «سفر الأخبار في سفر الأخبار» أنّ للقس يوسف الباني أيضاً ترجمة تفسير العهد الجديد إلى العربية والذي أراه الآن أنّ ترجمة تفسير هذه الأسفار إلى العربية عدا الرؤيا إنّما هي للأب بطرس فرماج اليسوعي معربة بقلم المطران جرمانوس فرحات. ولم أعثر إلى الآن على سنة وفاة الأب يوسف الباني ولا أشكّ في أنّه توفي بعد سنة ١٧١٣ التي فرغ فيها من تأليف كتابه في تفسير الرؤيا كما صرّح بذلك.

عد ٨٩

المطران جرمانوس فرحات

ولد هذا النابغة في ٢٠ تشرين الثاني سنة ١٦٧٠م من أسرة مطر التي ارتحلت من قرية حصرون بلبنان إلى حلب الشهباء فرّياه والداه بالتقوى والورع وتخرّج باللغة السريانية في مكتب الموارنة بحلب، ثمّ تعلّم اللغة الإيطالية ودرس التصريف والنحو على الشيخ سليمان الحلبي المعروف بالنحوي ثمّ اشتغل في علم المعاني والبيان والعروض والقوافي والبديع ثمّ أتقن الفلسفة واللاهوت على العلامة النحرير الحوري بطرس التولاوي الآتي ذكره. ولما أتى الأفاضل الثلاثة وهم جبرائيل حوا

وعبدالله قرألي ويوسف بن البتن من حلب إلى لبنان سنة ١٦٩٤م لتأسيس الرهبنة تبعهم جبرائيل فرحات بعد سنتين وانضمّ إلى المؤسسين المذكورين مجاهداً في طريقة النسك الرهبانية متفانياً بحب الله مضطرباً بالغيرة على خلاص النفوس عاكفاً على التأملات الروحية مجاهداً في الأعمال الصالحة مكتباً على التأليف والتصنيف ونظم الأشعار الروحية والأدبية متغزلاً فيها بحب الله والفضيلة ومريم العذراء وقد انتخبه اخوته الرهبان رئيساً عاماً على رهبانيتهم في ثلاثة مجامع متتالية أي من سنة ١٧١٦م إلى سنة ١٧٢٥م ويظهر من بعض قصائده أنّه زار ضريح الرسولين في رومة أم المدائن.

وفي ٢٩ تموز من السنة المذكورة رقاها البطريك يعقوب عواد إلى أسقفية حلب المارونية ودعي جرمانوس فازداد غير وجهاداً في القيام بأعباء مقامه الثقيلة مثابراً على الوعظ والإرشاد دائماً على عمل المبرات غير منقطع عن التأليف والتصنيف والتعريب وغير تارك تأملاته وتقشفاته الرهبانية مصيراً نفسه كلاً للكل ليربح الكل للمسيح واعظاً شعبه بمثاله الصالح فوق وعظه بكلامه وخطبه البديعة والآخذة بمجامع القلوب الحاملة سامعيها على الفضيلة والراذعة لهم عن الرذيلة واستمرّ على ذلك سبع سنوات إلى أن دهمته المنية في ٩ تموز سنة ١٧٣٢م فسلبت من عصره حليته الفاخرة ودرته الباهرة وذهب لينال ثواب أعماله الصالحة ومبرّاته الوافرة لدى من لا يضيع أجر إسقاء كأس ماء فكيف يضيع أجر من قضى سنّيه كلها مجاهداً متفانياً بحبه وعمل مرضاته.

وأما ما صنف وألّف وهذّب وعرب فكثير منه في اللغة كتابه باب الاعراب عن لغة الاعراب وهو معجم اللغة العربية انتقاه من قاموس الفيروزبادي وغيره من المعجمات وقد طبع هذا الكتاب الشيخ الكونت رشيد الدحداح وزاد عليه واستدرك بعض كلمات عن المؤلف وسمى كتابه «أحكام باب الإعراب عن لغة الأعراب» وألحق المؤلف بمعجمه كتاباً في العوامل العربية سماه الفصل المعقود هذا به حذو ابن هشام الأنصاري في كتابه «مغني اللبيب عن كتب الأعراب». ومن تأليفه «كتاب بحث المطالب وحث الطالب» جمع به قواعد التصريف والنحو بأوجز عبارة وأوضح إشارة. وقد طبع هذا الكتاب مرات لتداول أيدي الطلبة له في أكثر المدارس إلى الآن. ومن طبعاته طبعة المعلم بطرس البستاني له ببيروت وقد ذيلها بحواشٍ كثيرة واستدرك على المؤلف ببعضها، على أنّ أكثر ما خطأه به

كان من غرور النساخ أو سهوهم وبعضه لم يصب بتخطئته به. وقد انتقدت بعض ما جاء في تلك الحواشي بكتيب ألفت في خلال إقامتي في مدرسة مار يوحنا مارون مدرّساً لتلامذتها هذا الكتاب، على أنّ هذا الكتيب لم أشهره حتى الآن. وللمؤلف كتاب بحث آخر أطول مما تتداوله أيدينا وأكثر بياناً وكان لديّ نسخة من هذا المطوّل أخذت عن نسخة خطتها يد المؤلف واعتمدت عليها في كثير مما عارضت به المعلّم بطرس المذكور. ومن كتبه في اللغة كتابه الموسوم «المثلثات الدرية» اقتدى فيه بمثلثات قطرب المشهورة جمع بها نظماً الأسماء المختلفة المعاني باختلاف حركة أولها بين الفتحة والكسرة والضمة وشرحها شرحاً مسهباً روحياً وأديباً وعلمياً ومنها كتابه الموسوم «بيلوغ الأرب في علم البديع» جمع به أنواع الجنس والبديع مرصّعاً إيّاه بالشواهد من بديعيات من سلفوه وغيرها. ومنها كتاب وسمه «برسالة الفوائد في فن العروض» ولم يكن معلوماً قبلاً بين مؤلفاته ولا منضوداً بسلك منظوماته. ومنها كتاب «ديوانه الشهير» وقد طبع مرات ولكن قلّما نجد طبعة أو نسخة من هذا الديوان سلمت من خطأ النساخ وقد شرّحه شرحاً مسهباً الخوري ارسانيوس الفاخوري الغزي.

وله في الروحيات والدينيات تعريب ترجمات القس يوسف الباني المذكور وهي ترجمات كتاب «ميزان الزمان» وكتاب «الكمال المسيحي» ثلاثة أجزاء وكتاب «المُعَرِّف والمُعَرِّف، وكتاب «تفسير رؤيا يوحنا» و«تعريب ترجمات الأب بطرس فرماج اليسوعي في تفسيرات العهد الجديد في عدّة أجزاء». وللمؤلف أيضاً تعريب ترجمة أسفار العهد الجديد إلى العربية عن النسخة السريانية المعروفة بالبيسطة فأنّه أصلح تلك الترجمة العربية ونقّحها وطبق بينها وبين الأصل السرياني ثمّ رتب منها الفصول التي تتلى كل يوم في القدّاس من الأناجيل ورسائل بولس الرسول. وفي طبعتي الأخيرة لهذين الكتاين زدت في مطابقة تلك الفصول مع النسخة السريانية حتى يمكن القارئ أن يعتمد على أنّ الترجمة العربية هي طبق ما في النسخة السريانية البسيطة. وكذلك فعل الخوري يوسف العلم رئيس كهنتنا ببيروت في كتابه «أقرب الوسائل في تفسير الرسائل» حيث جعل كلام الرسول بالعربية مطابقاً للأصل السرياني. ولصاحب الترجمة أيضاً تعريب الكتاب المعروف «بريش قريان» مشتملاً على فصول من نبوات الأنبياء وكتاب «أعمال الرسل» و«رسائل بولس الرسول» تقرأ في الصلوات في الكنائس أيام الأعياد وبعض آحاد السنة. وهو الذي

رتب كتاب «السنكساري» أي تراجم القديسين وعربه وأصلحه كما تتداوله الأيدي الآن، إلا أن كثرة الأيدي التي نسخته أوقعت به كثيراً من الخطأ. والتقدم في صناعة النقد في هذه الأيام كشفت لنا عن أغلاط كانت تظن في أيامه صواباً ولذلك تراني في مطاوي كلامي في هذا التاريخ نبهت إلى ما رأيته في هذا الكتاب من الخطأ في ما حملني مساق تاريخي على الكلام فيه، وفي عزمي ان قدرني الله أن أنقح هذا الكتاب وأطبعه حرصاً عليه من غفلة النساخ وتيسيراً لاقتنائه.

وله أيضاً كتاب: «ديوان البدع» جمع فيه أكثر البدع التي نشأت في بيعة الله وشيئاً من التنفيذ لبعضها. وله أيضاً كتاب وسمه بـ«فصل الخطاب في صناعة الوعظ والخطابة» وهو بديع في نوعه ويغني عن كتاب فصاحة في بعض أقسامه، وهذا الكتاب قد طبعه جماعة من البروتستانت ولم يخلوه من حذف وتحريف فأمر الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد بطبعه فطبع في مطبعة الرهبان اللبنانيين في دير طاميش سنة ١٨٦٧م عن نسخة بخط المؤلف وأمرني بتصحيح طبعه فأطعت الأمر وزدت عليه مقدّمة طبع في أوله. وله أيضاً بعض صلوات سريانية لتتلى في الكنائس أيام بعض الأعياد إلى غير ذلك مما لم يخطر على ذاكرتي الآن. وقد ذكر القس جرجس منش الحلبي الماروني في ترجمته التي نشرتها مجلة الشرق في سنتها السابعة تأليف وتصحيحات وترجمات أخرى كثيرة والظاهر من مؤلفاته واعراباته واقتطافاته وترتيباته ومن الكتب الكثيرة التي ترى بخط يده المباركة أنه لم يصرف ساعة من زمانه إلا في خدمة الخالق والاجداء بالفوائد على الخلائق رحمنا الله بصلواته ومنّ علينا بأمثاله ببركاته.

عد ٩٠

الأب بطرس مبارك

ولد هذا العلامة بقرية غوسطا في نحو سنة ١٦٦٠م وتخرّج باللغات والعلوم في مدرسة الموارنة برومة فحاز قصبات السبق على أقرانه وأتقن من اللغات سبعا: العربية والسريانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والإيطالية والفرنسية. ولما رجع إلى الشرق سنة ١٦٨٥م رقاہ البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى درجة الكهنوت وأعادته إلى رومة وكيلاً له، وسلم إليه بعض كتبه ليهتم بترجمتها ونشرها. ويظهر أنه ترجم منها إلى

اللاتينية كتاب «نسبة الموارنة» وكتاب «رد التهم عنهم» و«سلسلة بطاركتهم» إذ نرى العلامة السمعاني والعلامة لكويان يستشهدان بكلام الدويهي مأخوذاً عن هذه الترجمة. وإلى ذلك أشار الدويهي في رسالته إلى الخوري بطرس المذكور إذ أرسل إليه إجابة لطلبه ترجمة حياته ليثبتها في صدر الكتاب، وقد مرّ ذكر هذه الرسالة في ترجمة الدويهي. وبعد عوده من الشرق دعاه أمير توسكانا وأقامه على طبع الكتب الشرقية ثم أقيم مدرّساً للعلوم المقدّسة وبيع أموالاً لم يرد أن ينفقها إلا في سبيل الخير لملته لإرضاء الله فأنشأ مدرسة في عينطورا وشري لها من العقار ما يقوم ريعه بنفقة اثني عشر تلميذاً ثم سلّم تديرها إلى الآباء اليسوعيين الذين ضوى إلى جمعيتهم رغبة في الزهد والانقطاع عن العالم. وإليك ملخص ما قاله المجمع اللبناني (صفحة ٥٤٨ الطبعة الحديثة) إنّنا نشني خير الثناء على تلك النية التقوية الجديرة بالرجل المتورع ولدنا الحبيب الأب بطرس مبارك أحد الآباء اليسوعيين وأحد تلامذة مدرستنا الرومانية ومن كهنة طائفتنا وهو الذي مع ما أحرزه عند الجمهور من الشهرة علماً وتقى لم ينس شعبه ولا بيت أبيه بل نظر في خير أبناء ملته فبنى لهم على عهدنا مدرسة في سورية بقرية عينطورا وأجرى عليها الرزق ووكل تديرها إلى المرسلين اليسوعيين معلقاً على ذلك بعض شروط خيفة أن يلّم بطائفتنا المارونية شيء من الضرر في المستقبل. وقبل الأب رتز رئيس الرهبانية اليسوعية هذا التسليم بشروطه وذبله وأثبتته بصك شرعي مؤرخ في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤م وسنجد على ذكر هذه المدرسة. وأقام بعد ذلك الأب مبارك مجدداً في إتيقان الفضائل والكمال الرهباني عاكفاً على عمل الميزات متفانياً بالغيرة على مجد الله مكتباً على تأليف الكتب النافعة وترجمتها إلى أن توفاه الله لرحمته سنة ١٧٤٢م.

وأما ما ألفه وترجمه فعلم منه ترجمته من السريانية إلى اللاتينية لمجلدين من تأليف القديس افرام السرياني وألحق بترجمته مقدّمات بديدة دالة على طول بابه ووفرة إطلاعه وترجم قسماً من المجلد الثالث من التأليف المذكور ولم يكمله بل أتمّه المطران اسطفانوس عواد السمعاني الآتي ذكره وألف مقالات ناقش بها يوحنا كوكليوس دلبرون في النوافير (رتب القدّاس) الشرقية. وله مقالة مسهبة في الرد على ريناودوسيوس في كلامه على بعض النوافير المنسوبة إلى بعض ذوي البدع وانسربت بين كتب الموارنة وليس فيها شيء يخالف المعتقد الكاثوليكي. وقد ذكر

له هذه المقالة المطران اسطفانوس عواد السمعاني في كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية (صفحة ٨٢ كتاب ٤٣) وقال إنّ هذه المقالة لم تطبع بعد. ولبطرس مبارك أيضاً ما ذكرناه من ترجمة كتب البطريرك اسطفانوس الدويهي العربية إلى اللاتينية وقد وضع المطران اسطفانوس عواد السمعاني ترجمة بطرس مبارك ونشرها باللاتينية في المطبعة الوايكانية ونأسف لعدم اطلاعنا على هذه الترجمة إذ لا بدّ أنها اشتملت على ذكر ما لا نعلمه من سيرة هذا الأب العالم العامل الذي يتفاخر به اليسوعيون ويحسبونه من كبار علمائهم وعلى كتب أخرى له فاتنا العلم بها.

عد ٩١

المطران جرجس بنيمين والخورى اندراوس اسكندر

أما المطران جرجس فهو ابن سرقيس عبيد من إهدن تخرّج بدرس اللغات والعلوم في مدرسة الموارنة برومة وصير كاهناً ثم رقاہ البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى أسقفية إهدن في ٢٧ آب سنة ١٦٩٠م ويسمى المطران جرجس بنيمين واشتهر بغيرته على خلاص النفوس بعلومه ولاسيما مواعظه حتى لقّب «الكاروز». وأنشأ بقرية زغرta مدرسة وكنيسة وعيّن لهما دخلاً كافياً لنفقة معلمين، ثم سلّم المدرسة إلى الآباء اليسوعيين بناءً على أن يقيموا بها معلّمين ويمارسون أعمال الرسالة في كنيسة زغرta كما سيجيء في الكلام على هذه المدرسة. واعتزل الأسقفية وانضوى إلى جمعية الآباء المذكورين وأقام بمدرسة طائفنا برومة مشغلاً بتمرين طلبتها على عمل الرسائل والقاء المواعظ وإليك ما قاله آباء المجمع اللبناني بحقه: «ونثني ثناءً حسناً على غيره الأخ المحترم المطران جرجس بنيمين الاهدني الطائر السمعة علماً وعظّة بكلمة الله، وكفى به رجلاً أنّه اعتزل مقام الحبرية اتضاعاً منه وانتظم في سلك الرهبانية اليسوعية الجليّة، وأقام بإذن رؤسائه بمدرسة طائفنا المارونية الرومانية حيث كان فيها طالباً، وهناك هو باذل قصارى جهده في تمرين الطلبة الذين أتقنوا معرفة الطقوس وفن الترتيل واللغتين السريانية والعربية على الوعظ وأعمال الرسالة المقدّسة، وهو إذ كان مطراناً أنشأ في قرية زغرta مدرسة وكنيسة وعيّن لهما دخلاً كافياً لمعاش معلّم، وتوطيداً لدعائهم. هذه المدرسة. ولتقناً لإدارتها عهد بتدبيرها إلى

الآباء اليسوعيين». ونعرف له من التأليف كتاباً بالعربية اشتمل على تفنيد كل البدع المشهورة ولا نعلم الآن متى كانت وفاته لكننا نعلم أنه كان حياً في ٣٠ أيلول سنة ١٧٣١م إذ زار بيت العذراء بلوراتا وأعطى حينئذ تقريراً في شأن هذا البيت.

وأما الخوري اندراوس اسكندر فقد ولد ونشأ بجزيرة قبرص ودرس اللغات والعلوم في مدرسة الموارنة برومة ونبغ فيها وبرع ثم رقي إلى درجة الكهنوت وسُمّي خوري الكنيسة البطريركية، واستخدمه الأحبار الأعظمون في جمع الكتب القديمة الشرقية إلى مكتبة الواتيكان، ونرى العلامة السمعاني ذاكراً كتباً كثيرة فيها مبيناً أنَّ الخوري اندراوس اسكندر القبرصي جلبها إلى هذه المكتبة، وفاز بمرتبة صكك أو مسجل رسولي من الطبقة الأولى، وأقيم معلماً للغة العربية في المدرسة الكلية المعروفة في رومة بمدرسة السايانسا أي الحكمة وأستاذ اللغات الشرقية وترجمانها لدى الكرسي الرسولي ومجمع نشر الإيمان المقدس ونعرف من تأليفه مقالة في ترجمة القديس مارون وثبات الموارنة الدائم في الإيمان الكاثوليكي بالإيطالية ومقدمات علّقها على كتاب القدّاس بموجب رتبة طائفتنا الذي طبع تحت مناظرته سنة ١٧١٧م برومة.

ومن مبرّاته وقفه كل ما أحرزه من المال على مواطنيه الموارنة سكان جزيرة قبرص بموجب وصيته المدوّنة في ذيل المجمع اللبناني صفحة ٧٢ من الطبعة الحديثة وملخصها: «إنَّ الخوري اندراوس اسكندر الماروني الصكك الرسولي من الطبقة الأولى... لما رأيت الحاجة الروحية في أبناء طائفتي المارونية سكان جزيرة قبرص وطني العزيز عمدت أن أعيضهم عما لم أستطع عمله بنفسي لإقامتي برومة بخدمة الكرسي الرسولي قياماً بما توجبه عليّ نذورتي التي أبرزتها بمدرسة الموارنة برومة، فتركت مبلغ ستمائة ريال روماني بباريس تحت يد رئيس الرسائل العام لليسوعيين في هذه المدينة، وإرادتي هي أن يصرف ربع هذا المبلغ في بدل راتب سنوي لتلميذ ماروني قبرصي يتعلّم في مدرسة عينطورا تحت نظارة الآباء اليسوعيين، وإذا تعذّر وجود تلميذ ماروني قبرصي فيصرف الربع المذكور عندئذٍ لمرسل في جزيرة قبرص من تلامذة مدرسة رومة أو مدرسة عينطورا أو من إحدى الرهبانيات المارونية يقيم هناك لتعليم الأحداث ومزاولة أعمال الرسالة وإذا تعذّر هذا أيضاً فأريد أن يصرف الربع المذكور في شراء أثاث وأنية مقدّسة توزع على كنائس قبرص المارونية بمعرفة مطران الجزيرة المذكورة، وإذا بطلت مدرسة عينطورا لداعٍ ما فأريد أن يحفظ هذا

الريع من رأس المال بيد الرئيس العام المذكور ويدفع الريع كل سنة إلى رئيس مدرسة الموارنة برومة ليصرفه بمعرفة وكيل السيّد البطريرك في سبيل حاجات كنائس قبرص لمعاش معلّم أو مرسل فيها أو لشراء آنية مقدّسة لها واسأل السيّد البطريرك ومطران قبرص الماروني أن يتوفرا بتنفيذ وصيّتي هذه على الأوجه المبينة فيها. ولما كنت قد شريت ستة محلات في رومة بمبلغ سبعمائة واثنتين وستين ريال دخلها كل سنة ثمانية عشر ريالاً رومانياً فأريد أن أحفظ لنفسني هذا الدخل ما دمت حياً، ومتى مت فوكيل السيّد البطريرك يستلم الدخل وينفقه حسنة اثني عشر قداساً عن نفسي ونفس والدي في كنيسة مدرسة الموارنة برومة، منها أربعة قداسات في أعياد القديس، مارون وأحد الشعانين وانتقال العذراء والقديس يوحنا الإنجيلي، والثمانية الباقية تقدّس في آحاد وأعياد على اختيار رئيس المدرسة، وما فضل عن حسنة القداسات يرسله وكيل البطريرك لمعاش تلميذ أو كاهن ماروني يقيم بقبرص لمباشرة التعليم والرسالة وإذا تعدّر ذلك فيشرى بقيمة الدخل أثاث لكنائس قبرص. وأريد أن يحفظ ذكر دائم لوثيقتي هذه فتحفظ نسخة منها بمدرسة الموارنة وأخرى عند رهبان الموارنة في دير القديسين بطرس ومرشلين، وأخرى عند وكيل السيّد البطريرك، ونسخة في خزانة البطريركية. دوّن في ١٥ آب سنة ١٧٣٤م والتوقيع الخوري اندراوس اسكندر القبرصي الماروني، وشهود هذه الوثيقة جرجس بنيمين مطران إهدن سابقاً، الأب يواصاف دبسي رئيس دير القديسين بطرس ومرشلين. اشعيا جاماتي الدمشقي الماروني ميخائيل لويس دي لوقا الماروني من قبرص» ولم نعر إلى الآن على ما ينبئنا في أي سنة توفي بعد تاريخ وصيته هذه.

عد ٩٢

العلامة الشهير الخوري بطرس التولاوي

ولد هذا العلامة سنة ١٦٥٧م ونشأ بقرية تولا ببلاد البترون من بيت زيتو ورمّا كان الصحيح من بيت زيتون، وقد ذكر هو نسبه في مقدّمة كتاب تأملاته فقال إنّهُ عبدالله بن بطرس بن اسحق التولاوي البتروني، وأرسله البطريرك جرجس البسبلي إلى مدرسة الموارنة برومة سنة ١٦٦٨م لاقتباس العلوم إذ كان عمره إحدى عشر سنة، فتخرّج بهذه المدرسة بالعلوم والفنون فنبغ وفاق أقرانه وعاد إلى لبنان

حائزاً شهادة الملقنة سنة ١٦٨٢م، فرقاه فيها البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى درجة الكهنوت على مذبح كنيسة العذراء بدير قنوين الكرسي البطريركي، ثم أرسله سنة ١٦٨٥م إلى حلب واعظاً ومعلماً فاشتهر فيها بعلومه وذكائه حتى كان العلماء المسلمون أنفسهم يجلبونه ويتهييونه بل يستفتونه في مسائل فقهية أيضاً، لأنه درس الفقه الإسلامي وكان فيه من المبرزين المجتهدين. ويروون عنه عدة فتاوى بديعة كان يعتمد في بعضها على علم الطبيعيات الذي كان بارعاً فيه، ونما عرف قداسه وتقواه فكان يقصده القاصي والداني للاستفادة بمشورته الصالحة وللإغتراف من كنز علومه، ورقاه المطران جبرائيل البلوزاوي مطران حلب وقتئذ إلى مقام خوري بردوط ورأسه على كهنة حلب سنة ١٦٩٨م وأقام مدرسة مسيحية لا تنحط عن مدارس حلب الإسلامية الشهيرة في ذلك العصر، وتعلم له كثيرون فنبغوا واشتهروا وعدوا من علماء النصارى المشاهير منهم العلامة المطران جرمانوس فرحات الذي رأيت ترجمته، والمطران عبدالله قرألي مطران بيروت والمطران جبرائيل حوا مطران قبرص، والقس عبد المسيح لبنان، والقس عطالله ونده، والشماس عبدالله زاهر، والخوري نيقولاوس الصائغ الملكيان الكاثوليكيان، ومكرديج الأرمني وغيرهم من العلماء المسيحيين الحلبيين في ذلك العصر.

وكان مع ذلك مدمناً الوعظ وارشاد النفوس مشهوراً فيهما بالفصاحة والبلاغة تغص الكنائس بالمتقاطرين لسماع وعظه من كل ملّة، ويقصده لينعم بارشاده كل من رغب في الخلاص والتقوى، وهو لا يبرح مكباً على التأليف والتصنيف. فنعرف من تأليفه بالعربية كتاب «المنطق» مشهوراً باسمه وكتاب غراماطيق للغة السريانية وكتاب «مجموع المجامع المارونية» و«مجموعة دعوى المرسلين» و«ترجمة القديس يوحنا الكمبيسي» و«أخبار المجمع التريدنتي» و«رسالة في عبادة الوردية» وكتاب «ردّ على قضايا الروم الخمس» و«ترجمة تأملات توما الكمبيسي» و«تعريب أعمال المجمع التريدنتي» وكتاب «مواعظه» في مجلدين و«كتاباً في الالهيات أو علم ما وراء الطبيعة» و«كتاباً في الطبيعيات» و«كتاباً في اللاهوت الاعتقادي» في خمسة أجزاء وكتاباً سماه «مرآة النفوس في عمل الرياضات الروحية» إلى غيرها من كتب مواعظ وتأملات روحية ومقالات ورسائل وفتاوى في الفقه الكنسي والعالمي. وأدرسته المنية في سنة ١٧٤٥م ومضى ينال ثواب جهاده ومبزاته خالداً في الجنان.

ترجمة العلامة يوسف سمعان السمعاني

كان من الأسرة السمعانية عدّة مشاهير في هذا العصر منهم المطران يوسف شمعون السمعاني، رقاہ البطريرك اسطفانوس الدويهي إلى أسقفية طرابلس في ١٤ تموز سنة ١٦٧٥م، وتوفي في ١١ كانون الأول سنة ١٦٩٥م، وهو عم صاحب الترجمة، وله تأليف في علم الذمة. ومنهم البطريرك يعقوب عواد والبطريرك سمعان عواد المار ذكرهم. والذي فاق كل من تقدّمه أو اشتهر بعده من هذه الأسرة وغيرها إنّما هو العلامة المونسنيور يوسف سمعان السمعاني رئيس أساقفة صور حلية دهره وفريد عصره، ونأخذ ترجمة هذا النابغة المنقطع النظير عن سجل حرر عند موته وحفظ في خزانة كنيسة القديس بطرس الكبرى برومة صندوق ٢٢ رزمة ٢٧، استنسخ لنا نسخة منه المرحوم الخوري يوسف السمعاني عند وجوده برومة بداعي الجمع الفاتيكاني سنة ١٨٦٩م مصادقاً عليها أنّها طبق الأصل المحفوظ في الكنيسة المذكورة من الأب أنريكوس دي بليني أحد الخوارنة الموظفين بهذه الكنيسة، ومتسلّمي خزائنها فكلّامنا في ترجمة هذا العلامة وتعداد مؤلفاته هو ترجمة هذا السجل.

ولد يوسف سمعان السمعاني السرياني الماروني في طرابلس الشام (هو من حصرون ولكن فريق من سكان هذه القرية يصرفون مدّة من السنة في حي بطرابلس يسمى حارة الحصارنة من زمان مديد) في ٢٧ تموز سنة ١٦٨٧م من أسرة حسيية ورباه منذ حدائته تربية تقوية عمّه يوسف السمعاني مطران طرابلس، وكان رجلاً ورعاً مشهوراً بعلمه وأرسله صغيراً عمره ثماني سنين إلى مدرسة المواردة برومة فبرع بالعلوم الإلهية والبشرية براعة دلّت على ما سيكون له من رفيع المقام بين العلماء، ولمّا أتمّ دروسه واستعدّ للرجوع إلى وطنه عهد إليه البابا اكليمنطوس الحادي عشر أن يصنع فهرساً لاتينياً للكتب الشرقية المخطوطة التي كان نسيبه الياس السمعاني رئيس كهنة الكنيسة الأنطاكية قد أرسلها عن قرب إلى المكتبة الواتيكانية وان يلخّص فحاويها، فأتمّ ما عهد إليه به الحبر الروماني بأحسن أسلوب وعلّق على الكتب المذكورة حواشي نفيسة وكثيرة موعبة بالفقاهة والفوائد جعلت البابا يراه أهلاً لأن يعين مترجماً للكتب العربية والسريانية والكلدانية التي في

المكتبة الواتيكانية، وأقامه على ذلك في ١٠ آذار سنة ١٧١٠م. وفي ٤ تموز في السنة المذكورة نال رتبة الملقنة في الفلسفة واللاهوت ثم سمي مستشاراً في اللجنة التي أقامها البابا المذكور لاصلاح الأسفار المقدسة التي يستعملها الشرقيون. وفي سنة ١٧١٥م أرسله الكرسي الرسولي إلى الشرق لإجابة لطلب نسييه يعقوب بطرس عواد بطريرك أنطاكية للتفتيش على الكتب المخطوطة الشرقية فأثى منها إلى رومة بكتب وافر العدد من كل ناحية من سورية ومصر وكان منها مادة غزيرة نوضع مؤلفه الشهير الموسوم بالمكتبة الشرقية الاكليمنضوسية الواتيكانية.

وفي ٣٠ من شهر أيلول سنة ١٧٣٠ سماه البابا اكليمنضوس الثاني عشر حافظاً ثانياً للمكتبة الواتيكانية، ثم في ٣ من كانون الثاني سنة ١٧٣٩م خلف كرلوس ما بولي مطران حمص في الرئاسة على هذه المكتبة، فمكف بغيرة لا يعرفها ملل على إتمام هذه الخطة إلى حين وفاته مجدداً على العلم بفوائد لا تقدر، تدلنا على ذلك المؤلفات الكثيرة التي ألفها أو جعل غيره من العلماء يؤلفونها. وكان منذ ١٢ كانون الأول سنة ١٧١٣م قد سمي اكليريكياً ذا جعل في كنيسة زعيم الرسل الكبرى برومة ثم رقي إلى درجة الكهنوت في ٢١ تموز سنة ١٧١٩م خادماً النفوس في هذه الكنيسة إلى أن سمي في ١٦ كانون الأول سنة ١٧٣٨م قانونياً في جملة الكهنة القانونيين فيها، ثم عين مستشاراً في مجمع نشر الايمان المقدس في مشاغل الكنائس الشرقية، وفي المحاماة عن الإيمان الكاثوليكي ونشره، وسماه البابا اكليمنضوس الثاني عشر في جوقه خدام غرفته camèriere سنة ١٧٣٢م ثم سماه سنة ١٧٣٥م في جوقه رؤساء غرفته Prelat Domestique مع الترخيص باستعمال التاج والعكاز، وقد أرسله البابا المذكور قاصداً إلى طائفته لاصلاح التهذيب البيعي فعقد مجعماً بلبنان لم يسمع بمثله في الشرق منذ قرون وأتم ما قصده البابا على أحسن مما كان ينتظر، ثم سماه كرلوس الرابع ملك نابولي وصقلية وهو ملك إسبانيا أيضاً باسم كرلوس الثالث مؤرخاً لمملكة نابولي سنة ١٧٣٩م. وفي السنة التابعة نال أن يحسب من أعيان هذه المملكة كالمولودين فيها.

وكان البابا بناديكطوس الرابع عشر كثيراً ما يستشيريه وأدخله في عداد المستشارين في مجمع الفحص المقدس، فعاون هذا المجمع بكتاباته المتواترة التي كادت تكون في كل يوم وسماه البابا اكليمنضوس الثالث عشر عضواً في الديوان المعروف بديوان التوبة في ٢٤ أيلول سنة ١٧٥٩م، ثم سماه مهرداراً أي حافظ

الختم في ١ شباط سنة ١٧٦١م، ثم رقي إلى مطرانية صور في ١ كانون الأول سنة ١٧٦٦م ولما كان قد بلغ من العمر إلى الحادية والثمانين صرفها في ممارسة الفضائل والجهاد واكتساب محبة الجميع واعتبارهم رقد بالرب في ٣١ كانون الأول سنة ١٧٦٨م برومة متزوداً بالأسرار المقدسة التي طلبها، ودفن في كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي بمدرسة الموارنة ونقش على صفيحة ذكراً لهذا الرجل ملخص ما رويناه من ترجمته».

عد ٩٤

مؤلفات السمعاني

إنّ ما سنذكره في هذا الفصل أيضاً هو مترجم عن السجل الواتيكانى السابق ذكره «مؤلفات يوسف سمعان السمعاني مطران صور التي طبعت إلى الآن».

المكتبة الشرقية الاكليمنضوسية الواتيكانية وهي تشتمل على ذكر الكتب المخطوطة السريانية والعربية وتنسيقها وترجمة كل مؤلف من مؤلفيها وتراها مقسمة في أربعة مجلدات المجلد الأول في المؤلفين السريان الكاثوليكين طبع برومة في مطبعة نشر الإيمان سنة ١٧١٩م، المجلد الثاني في المؤلفين السريان المونوفيزيتيين أي أصحاب الطبيعة الواحدة، المجلد الثالث في المؤلفين السريان النساطرة، المجلد الرابع في السريان النساطرة ومقالة في السريان أصحاب الطبيعة الواحدة.

كتاب في استعمال كهنة الروم أو غيرهم من الكهنة الشرقيين سر التشبث، طبع برومة بمطبعة القاعة الرسولية سنة ١٧٢٥م.

التاريخ الشرقي لبطرس الراهب المصري قد ترجم هذا الكتاب أولاً ابراهيم الحاقلي من العربية إلى اللاتينية، ثم أعاد ترجمته يوسف السمعاني وألحق به أربع مقالات، طبع بالبنديقية سنة ١٧٣١م.

مونولوجيون أي سنكساري الروم نشر أولاً باليونانية بأمر الملك باسيلوس ثم طبع باليونانية واللاتينية مقسوماً إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يشتمل على قصص القديسين في أيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني، والقسم الثاني على قصصهم في كانون الأول وكانون الثاني وشباط، وهذا القسم ترجمه البابا اكليمنضوس الحادي

عشر قبل ارتقائه إلى الحبرية العظمى، والقسم الثالث يشتمل على قصصهم في الأشهر الستة الباقية وهذا القسم ترجمه يوسف سمعان السمعاني وأعاد النظر في ترجمة القسمين السابقين، وطبع باوربان سنة ١٧٢٧م.

مؤلفات القديس افرام السرياني اليونانية ترجمها يوسف سمعان السمعاني إلى اللاتينية في ثلاثة مجلدات، وعلّق عليها مقدّمات وحواشي وفهرستاً لجميع مؤلفات القديس افرام المطبوعة أو المخطوطة الموجودة في المكتبات. طبعت هذه الترجمة برومة بمطبعة الواتيكان سنة ١٧٣٢ وسنة ١٧٤٧م.

مقالة له قدّمها إلى الكردينال انبيل رئيس أساقفة البانو في القديسين بونيفاشيوس وريدمتون وأوطيخوس الكاهن الشهيد طبعت برومة ١٧٤٨م.

غرامطيق أي كتاب نحو اللغة اليونانية طبع باوربان في جزئين.

تأين لفريدريك أغوستوس الثاني ملك بولونيا ألقاه في كنيسة القديس اكليمينضوس برومة في ٢٢ أيار سنة ١٧٣٣م وطبع بمطبعة الواتيكان.

تأين ألقاه في كنيسة الواتيكان الكبرى في ٢٢ شباط سنة ١٧٣٠م في جناز البابا بناديكتوس الثالث عشر وطبع برومة سني ١٧٣٢.

خطبة في انتخاب الحبر الروماني ألقاها للكرادلة الكليسيّ السموّ في كنيسة الواتيكان الكبرى وطبعت سنة ١٨٤٠م.

براءة رسولية باسم البابا أكليمينضوس الثاني عشر أثبت بها نظام تدبير المكتبة الواتيكانية والحفاظة على كتبها وكان السمعاني رئيس المكتبة المذكورة قد جمع قوانين هذا النظام وطبعت بالمطبعة الواتيكانية سنة ١٧٣٩م.

أعمال المجلس البابوي الذي عقده البابا بناديكتوس الرابع عشر في ١٣ تموز سنة ١٧٤٤م لتثبيت سمعان بطرس عواد بطريكاً على أنطاكية مع رسالة منفذة من البطريرك والأساقفة إلى امام الأخبار المشار إليه طبعت في مطبعة نشر الإيمان المقدّس سنة ١٧٤٤م.

أعمال المجلس البابوي الذي عقده البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٤٢م لتثبيت انتخاب بطرس ورتبت بطريكاً على أرمينيا وكيليكيا ومنحه درع الرئاسة، طبعت في مطبعة مجمع نشر الإيمان المقدّس سنة ١٧٤٢م.

أعمال المجلس البابوي الذي عقده البابا بناديكتوس الرابع عشر في ٢٨ آذار سنة ١٧٥٧ لتثبيت البطريرك طوييا الخازن في بطريركية الموارنة الأنطاكية وإيلائته درع الرئاسة، طبعت بمطبعة نشر الإيمان المقدس سنة ١٧٥٧م.

قوانين وفرائض الرهبان السريان الموارنة اللبنانيين أنشأها هذا العلامة بالعربية واللاتينية وعلق في فاتحتها رسالة عربية إلى الرئيس العام والرهبان ضمّنها الكلام على أصل رهبانية القديس أنطونيوس الكبير في سورية وجبل لبنان وانتشارها فيهما. طبعت برومة.

وله رسالة عربية إلى الرئيس العام والرهبان المنسويين إلى القديس أشعيا في أصل الرهبان في جبل لبنان طبعت برومة سنة ١٧٤١م.

وله رسالة إلى الرئيس والراهبات الملكيات الباسيليات في أصل الراهبات الباسيليات بسورية وجبل لبنان طبعت برومة بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٧٦٤م.

كلندريات الكنيسة كلّها يشتمل على أسماء القديسين وصورهم وأيام أعيادهم مأخوذة عن التماثيل والصور والكتب القديمة المخطوطة طبع برومة من سنة ١٧٥٠ إلى سنة ١٧٥٥م في ستة مجلدات بقطع ربع.

مجموعة المؤرخين الإيطاليين مأخوذة عن كتب مخطوطة في المكتبة الواتيكانية وغيرها من المكتبات علّق عليها مقدّمات وحواشي طبعت برومة سنة ١٧٥١ إلى سنة ١٧٥٣م في أربع مجلدات قطع ربع، وفيها شروح وافية في تاريخ مملكتي نابولي وصقلية.

مكتبة الناموس الشرقي الكنسي والمدني في خمسة مجلدات: المجلد الأول يشتمل على مجموعة لقوانين كنيسة الروم طبع برومة سنة ١٧٦٢م قطع ربع، المجلد الثاني يشتمل على دستور الحقوق المدنية في كنيسة الروم طبع برومة سنة ١٧٦٢م بالقطع المذكور، المجلدات الثالث والرابع والخامس تشتمل على حاشية على دستور الحقوق البيعية والمدنية في كنيسة الروم طبع برومة سنة ١٧٦٣ وسنة ١٧٦٤ وسنة ١٧٦٩م بالقطع المذكور.

وله رسالة عربية إلى الرئيس العام والرهبان الروم الملكيين الباسيليين في أصل

أديار الرهبان الباسيليين وانتشارها في الكبادوك وسورية وجبل لبنان، طبعت بمطبعة مجمع نشر الإيمان سنة ١٧٥٨م.

وله أيضاً ما يأتي ذكره من المؤلفات المخطوطة بعضها كان كاملاً وبعضها مبتدئاً فيه، فأبادها حريق وقع في غرفة مكتبته وفي مكتبة اسطفانوس عواد السمعاني مطران حماة في المخادع التي بجانب المكتبة الواتيكانية في ٣٠ آب سنة ١٧٦٨م.

المجلد الخامس من المكتبة الشرقية يشتمل على الترجمات السريانية والعربية للأسفار المقدسة. المجلد السادس في كتب السريان البيعية. السابع في مجموعات الجامع السريانية. الثامن في مجموعات الجامع العربية. التاسع في ترجمات كتب المؤلفين اليونان إلى السريانية والعربية. العاشر في المؤلفين العرب النصارى. الحادي عشر والثاني عشر في المؤلفين المسلمين.

تكملة مؤلفه كلندريات الكنيسة كلها: المجلد السابع في كلندريات اليونان والروم. المجلد الثامن في الكلندريات القديمة عند السريان والوارنة واليعاقبة والنساطرة. التاسع في الكلندريات القديمة عند الأرمن. العاشر في الكلندريات القديمة عند المصريين والأحباش. الحادي عشر والثاني عشر في الكلندريات القديمة عند اللاتينيين.

وقد أتم مؤلفه مجموعة المؤرخين الإيطاليين المطبوعة في أربعة مجلدات بالمجلدات الآتية: المجلد الخامس والسادس في المؤلفين القدماء من مملكتي نابولي وصقلية. المجلدات السابع والثامن والتاسع والعاشر تشتمل على ما بين أحوال نابولي وصقلية ويليها بيان أحوال غيرهما من نواحي إيطاليا كمملكة لمبردية وأمريات رومة وسيولانو وتوسكانا وغيرها.

وله مؤلف آخر في صور القديسين وذخائرهم: المجلد الأول في صور القديسين الفسيفسية (أي المنقوشة بالفسيفساء) والمصوّرة أو المنحوتة المحفوظة في الكنائس القديمة في الشرق والغرب. الثاني في صور القديسين المحفوظة في الكتب القديمة اللاتينية واليونانية والكتب الشرقية. الثالث في صور سيدنا يسوع المسيح. الرابع في صور العذراء أم الله المكرّمة في الشرق والغرب. الخامس في الأماكن المقدسة بفلسطين وفي ذخائر سيدنا يسوع المسيح والعذراء القديسة. إنّ قسماً من المجلد

الأول من هذا التأليف أشهره يوحنا بوتاوريوس في مقالة نيقولاوس اليماني في أخربة لاتران المطبوعة سنة ١٧٥٦م من صفحة ١٣٥ إلى صفحة ٢٠١، وقسم آخر كبير من هذا التأليف نجا من الحريق وهو محفوظ بيد ورثة السمعاني المؤلف.

وله أيضاً تأليف وترجمة مجمع الموارد اللبناني الذي عقده البطريرك يوسف الخازن وأساقفة ورؤساء الموارد سنة ١٧٣٦ بجبل لبنان برئاسة السمعاني القاصد الرسولي من قبل البابا اكليمنضوس الثاني عشر، وقد أنشأه بالعربية وترجمه إلى اللاتينية. والنسخة اللاتينية التي أثبتها البابا بناديكطوس الرابع عشر محفوظة في خزانة أوراق مجمع نشر الإيمان المقدس. والنسخة العربية التي عورضت بالأصل فوجدت مطابقة له نجت من الحريق وهي بيد ورثة السمعاني.

وله أيضاً أوخاليجيون الكنيسة الشرقية وهو يشتمل على الطقوس ورتبة القديّاس والفروض البيعية ورتب الأسرار والتكريسات والبركات مضافاً إليها شروح من علماء شرقيين وغربيين غير مطبوعة قبلاً. وهذا التأليف مقسوم إلى سبعة كتب: الأول في أوخاليجيون السريان المارونية. الثاني في أوخاليجيون الكنيسة السريانية اليعقوبية. الثالث في هذه الرتب في الكنيسة السريانية النسطورية. الرابع فيها في الكنيسة الملكية. الخامس فيها في الكنيسة الأرمنية. السادس فيها في كنيسة القبط المصرية. السابع فيها في كنيسة الأحباش.

وله أيضاً مؤلف في مجامع الكنيسة الشرقية مقسوم في ستة مجلدات وأكثرها لم يشهر قبلاً كلّه أو بعضه وهو مأخوذ عن كتب شرقية مخطوطة: المجلد الأول في مجامع الكنيسة السريانية المارونية. الثاني في مجامع الكنيسة الكلدانية النسطورية. الثالث في مجامع السريان اليعاقبة. الرابع في مجامع الأقباط. الخامس في مجامع الأرمن. السادس في مجامع الروم والالبانيين والروتانيين.

وله أيضاً تسعة كتب في التاريخ الشرقي: الكتاب الأول في السريان الموارنة. الثاني في الروم الملكية. الثالث في الدروز والنصيرية. الرابع في المسلمين. الخامس في القبط. السادس في السريان اليعاقبة. السابع في الأحباش. الثامن في السريان النساطرة. والتاسع في الأرمن.

وله تسعة كتب في تاريخ سورية القديمة والحديثة: الكتاب الأول في وصف سورية بالإيجاز. الثاني في فلسطين. الثالث في فينيقيا. الرابع في سورية وسورية

الجوفة وسورية الفراتية. الخامس في ما بين النهرين. السادس في آشورية أي بلاد الآشوريين وهي العراق. السابع في كيليكيا. الثامن في العربية أي بلاد العرب. التاسع في جزيرة قبرص. ثم لأنّ الكتابين الثامن والتاسع وقسماً من الكتب نجت من الحريق وهي بيد ورثة السمعاني.

وله أيضاً مقالة لاهوتية في صحّة الرسامات التي يياشرها أساقفة مصر ومقالات أخرى وتقريرات ومباحث في مواد شتى وحل مشاكل موردة من نصارى الشرق ومحوّلة إليه من مجمع نشر الإيمان المقدّس ومجمع الفحص، ولم تزل أصولها محفوظة في خزائن الجمعين المذكورين ولو جمعت لتألف منها عدّة مجلّدات ضخمة.

وله أيضاً غراماطيق سرياني مطوّل ألفه بالعربية ووضع عليه الحركات السريانية نجاً من الحريق وهو باقي عند الورثة، وله أيضاً كتاب منطبق بالعربية نجاً من الحريق وهو بيدهم أيضاً.

وله أيضاً كتاب في الالهيات أي علم ما وراء الطبيعة بالعربية وكتاب لاهوت اعتقادي بالعربية وكتاب في تفسير الآيات الغامضة في العهدين القديم والحديث. ولهذه المؤلفات عدّة نسخ باقية إلى الآن. «هذا ختام ما جاء في السجل الواتيكاني».

ومن كتابه الأخير وهو تفسير الآيات الغامضة الخ. مخطوطة في مكتبة بطريركية الموارنة ولا أعلم لماذا أغفل كاتب السجل المذكور ذكر كتب أخرى للسمعاني ولا نشك في أنّه مؤلفها. منها فهرست الكتب الشرقية القديمة المخطوطة في المكتبة الواتيكانية الذي ألفه بمعاونة ابن أخته اسطفانوس عواد السمعاني. ومنها كتابه في البطريركيات الأربع وبطاركتها الذي ألفه بالعربية بمعاونة البطريرك سمعان عواد وهما يدرسان معاً برومة. ولهذا الكتاب الأخير عدّة نسخ ومنها كتاب في اللاهوت الأدبي ألفه بالعربية موسوماً بشرح الوصايا العشر ونسخته الأصلية في مكتبة الرهبان الموارنة برومة.

وقد أشار السمعاني في بعض كتبه الباقية إلى بعض كتبه المفقودة فقال في كتابه كلنديات الكنيسة (مجلّد ١ صفحة ٣٠١): «وتركت جانباً طبع هذا الكتاب لأشتغل في تكملة بعض كتب كنت قد بدأت فيها أخصّها: «كتاب سورية القديمة والحديثة» وكتاب «تاريخ الجامع» وكتاب «رتب نصارى الشرق»

الذين انقسموا منذ قرون إلى سريان وملكية وأرمن وقبط ولأشغل أيضاً بما يتعلق بتاريخ إيطاليا وفقهاؤها وسأشهر عن قرب فهرساً دالاً على ذلك». إلى أن قال بعد ذلك إنه يلزمه أن يتم كتابه كلندريات الكنيسة ليتفرغ لجمع المواد اللازمة لكتابه في صور القديسين. وقال في آخر كتابه التاريخ الشرقي: «وكان في عزمي أن ألحق بذلك تاريخ بطاركة السريان الملكية والموارنة والنساطرة وتاريخ الأرمن والجركس والأحباش ولكن رأيت أن سلسلة تاريخية مدققة لا يمكن إلحاقها بتاريخ للخلفاء والسلاطين والمسلمين لكنني لتكلمة ما عزمت عليه سوف أستعين بالكتب السريانية والعربية المأثري بها حديثاً إلى المكتبة الواتيكانية. ولما كان طابع هذا التاريخ يلج عليّ بتكملة طبعه أجلت إلى وقت آخر تكلمة هذا التاريخ الشرقي». وقد أشار إلى تأليف أخرى في المجلد الأول من المكتبة الشرقية إذ قال: «والمجلد الرابع سوف يشتمل على ذكر المؤلفين اليونان واللاتينيين وغيرهم المترجمة مؤلفاتهم إلى السريانية سواء كانوا كاثوليكين أم من أولي البدع... وسلسلة البطاركة السريان الموارنة والملكية واليعاقبة والنساطرة مأخوذة عن الكتب المخطوطة بالمكتبة الواتيكانية». فأعجب بهذا الرجل الذي يعجز رجل وإن مغرماً، بالمطالعة عن أن يقرأ في حياته ما ألفه هو في أوقات فراغه من باقي أعماله.

عد ٩٥

اعتبار الأخبار الأعظمين للعلامة السمعاني

يدلنا على علو منزلة هذا النابغة العلامة حقيقة عند الأخبار الأعظمين الذين كانوا في أيامه ما أولوه إياه من المناصب الرفيعة والوظائف العالية المتقدم ذكرها، وما أجلوه به من التقاريط المشرفة، فنرى البابا اكليمينضوس الثاني عشر قد عنون رسالته المؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م التي أقامه بها قاصداً من لدنه لعقد المجمع اللبناني بهذا العنوان: «إلى الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني أحد رؤساء بلاطنا ونجيننا وجليسنا الملازم لنا». وقال في حقّه في براءته إلى البطريرك يوسف الخازن المؤرخة في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م: «إننا موجهون إليك بعاطفة الحب وفقاً لطلبك منا قاصداً من قبلنا وهو الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني الموماً إليه من له في مدينتنا الشريفة هذه ذكر طنان مذ عدّة سنين

لاشتهاره بالتقى والدراية والعلم والخبرة بشؤون الشرقيين خصوصاً طائفته. وقال في رسالته إلى الأساقفة بهذا الخصوص في التاريخ المذكور: «قد تعجلنا إنفاذ أمرنا إلى الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني حافظ مكتبتنا الرسولية الواتيكانية وأحد رؤساء بلاطنا المشهود له بالصلاح وسداد الرأي والخبرة بشؤون الشرقيين خصوصاً طقوس طائفته المعروف عندنا بغير ذلك من الصفات الجليلة والعزیز عليكم والمحبيب إليكم». وترى مثل ذلك وأعظم منه في براءة البابا بناديكتوس الرابع عشر في تثبيت الجمع اللبناني المطبوعة في كتاب هذا الجمع.

وقد عثرنا في كتاب المطران اسطفانوس عواد السمعاني فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية على رسالة من البابا بناديكتوس الرابع عشر إلى العلامة السمعاني لم تكن نعرفها ولا رأينا ذكرها في أحد الكتب إلى الآن فأحبينا أن نثبت ترجمتها في كتابنا هذا إحياءً لذكرها وبياناً لما كان عند الأحرار الأعظمين من علو المنزلة ورفيع الشأن لهذا العلامة المنقطع النظير. ذلك أنه بعد عقد الجمع اللبناني وسفر السمعاني إلى رومة وسوس بعض أصحاب المآرب المنحرفة إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن وبعض الأساقفة في أن يعترضوا على هذا الجمع ويمنعوا تثبيت الكرسي الرسولي له مدعين خاصة أن فصل الرهبان عن الراهبات في الأديار تحول دونه صعوبات وعقبات، وأن لسكنى الأساقفة كل في أبرشيته غوائل ومضارّ والأولى أن يستمروا على ما كانوا عليه من الإقامة جميعاً عند البطريرك، وأرسل المعترضون إلى رومة الخوري ميخائيل الغزيري والخوري الياس سعد البجاني تلميذي مدرسة المواردية في رومة وأصبحوهما بعرائض الشكوى من رسوم الجمع اللبناني في ما ذكر ومن تصرفات السمعاني في قصادته، وشاركهم في هذا الاعتراض والتشكي البطريرك كيرلس تاناس بطريرك الملكية الكاثوليكيين، فبلغ الموفدان إلى رومة وأكثر من التشكي والطعن بالسمعاني، فجمع البابا بناديكتوس الرابع عشر كرادلة مجمع نشر الإيمان وبعد إمعان النظر في رسوم الجمع وفي اعتراضات المعترضين أثبت أعمال الجمع وكلاً من رسومه في براءته المؤرخة في ١٠ أيلول سنة ١٧٤١م والمثبتة في ذيل الجمع اللبناني. ورغبة في تطييب قلب السمعاني وبياناً لأن المطاعن التي لققها خصومه تعود عليهم بالعار، وأرسل إليه الرسالة الآتية التي ترجمناها بما أمكن من الدقة:

«إلى الابن الحبيب يوسف سمعان السمعاني معلّم بلاطنا الرسولي وأستاذ التبليغ

في كلا ديوانينا ورئيس خدام غرفتنا ونجينا الملازم لنا من البابا بناديكتوس الرابع عشر.

«أيها الابن الحبيب السلام والبركة الرسولية. إنّ ما نعتقده بكم من كرم الأخلاق والتقوى والرغبة في تقدّم الفنون والعلوم المقدّسة خاصّة ليس بحديث عندنا بل قد مضى عليه نحو من ثلاثين سنة، فقد عرفناكم بذلك مذ كنّا في المقامات الصغيرة قبل ارتقائنا إلى السدّة الرسولية والمتاعب الشاقّة التي قاسيتها في خدمة هذا الكرسي الرسولي والخصال الحميدة التي ما فتئتم تزادون تجمّلاً بها جعلتنا ننزلكم أرفع منزلة من التوقير عندنا، لا إذ نحن في رومة فقط بل إذ كنّا مقيمين خارجاً عنها أيضاً، ولكي نبدي انعطافنا إليكم نقول إنّ الطيّب الذكر كرلوس مايولي رئيس أساقفة حمص (رئيس المكتبة الواتيكانية قبل السمعاني) الرجل الشهير بعلومه وخدماته للكرسي الرسولي كان يخبرنا وهو حيّ عن تصرّفكم معه مدّة طويلة بالرفقة واللطف مثنيّاً على فقاھتكم بكل فن وحكمتكم وتقاوة سيرتكم وحسن خلوصكم ولطف معاشرتكم له، وأبحاثه معكم إلى أن خلفتم كرلوس المذكور بمرتبة قانوني في كنيسة القديس بطرس الكبرى برومة وبالرئاسة على المكتبة الواتيكانية، فنرى بكم مثلاً لذلك الرجل الشهير ونحبكم كما كنا نحبه ويضاف إلى ذلك ما تبذلونه من الجهد الذي يكاد خاصّة لا يصدّق ومن العناية التي لا توصف منذ سنين متطاولة في المشاغل الشرقية خاصّة خدمة لجامع إخواننا المحترمين كرادلة الكنيسة الرومانية المقدّسة في مجمع الفحص المقدّس العام ضدّ شرّ أولي البدع، ومجمع نشر الإيمان المقدّس، وما برحتم تثبتون بذلك ما لكم من الخبرة الثابتة والحكمة الوفرة والعناية الكبرى حتى يتولانا السرور العظيم لرؤيتنا أنكم غائمون الثناء والشكر من الجميع.

ثمّ إنّ ما شهرتموه من المجلّدات الكثيرة في المكتبة الشرقية وفي غيرها من العلوم والفنون قد أكسبكم عند القبائل القاصية أيضاً اسماً عظيماً وشهرة لا تمحوها الأيّام والدهور وقد شملنا مزيد السرور عندما علمنا ونحن في مقام الكرادلة في بونونيا أنّ سالفنا السعيد الذكر البابا اكليمنضوس الثاني عشر وقبله سالفنا الطيّب الذكر البابا اكليمنضوس الحادي عشر قد أرسلاكم إلى أصقاع الشرق لتجمعوا الكتب المخطوطة يونانية وسريانية وعربية وغيرها من اللغات، ثمّ عهد إليكم البابا اكليمنضوس الثاني عشر بالقصادة الرسولية إلى طائفتكم المارونية بطلب مجمع نشر الإيمان المقدّس

لاصلاح ما طرأ على تهذيب طائفتكم من الخلل بجمع إقليمي يعقده هناك الإخوة المحترمون بطريرك هذه الطائفة وأساقفتها، ولما ارتقينا إلى هذه المنصة الرسولية السامية وكنا مهتمين باثبات هذا الجمع وتأييده بالسلطان الرسولي ساءنا كثيراً ما بلغنا من أنه أولاً نشأت اعتراضات ومحاورات في بعض الأمور المتضمنة في الجمع. ثانياً أنه انتشرت كتابات مخطوطة بل مطبوعة أيضاً لا تشتمل على إيضاح براهين تلك الاعتراضات والمحاورات أو حجج كاتبيها بل على الطعن والقذف والتنديد مقصوداً بها بجسارة الحطة بقدركم ومقامكم وشخصكم وقد أذاعوها وتداولتها الأيدي. فبعد أن بحثنا عن هذه الأمور وظهرت لنا حقيقتها جلياً أصدرنا براءة مؤرخة في أول أيلول من هذه السنة أثبتاً فيها كل ما يلزم بيانه في هذا الشأن وأثبتنا فيها الجمع المذكور بسلطاننا الرسولي وأثبتناه كل التأييد، ورأينا من الصواب والانصاف أن نمحو كل وصمة التحقت باسمكم من الكتابات المذكورة وأن ننزل التأديب بمؤلفيها وأن نعلن أنها تستحق أن تحرق بالنار لا أن تنشر. ولهذا نبذنا العريضة التي قدمها أحد الموفدين وبعض المحازين له باسم أخواننا المحترمين يوسف بطرس بطريرك الموارنة الأنطاكي، واسم كيرلس بطريرك الروم الملكيين الأنطاكي وربما كان اسمها مزوراً وجل ما حملنا على رذل هذه العريضة هو اشتغالها على الشكوى من أعمالكم والمقاومة لآرائكم. والطعن بكم، ونجلكم بالثناء والمدائح الرسولية ونعلن أنكم تستحقون خير الجزاء ونصرح بأنكم أحسنتم كل الإحسان في تصرفكم بقصادتكم في الجمع المذكور وأحكمتم بدعوته وأتممت كل شيء فيه بحسب رغائب الكرسي الرسولي وطبقاً لمقامه السامي، ولما يؤول إلى شرف الطائفة المارونية ونفعها.

فواظب إذاً أيها الابن الحبيب على مساعيك المشكورة ومتابعك المبرورة وعلى ما اعتدت عليه من الخدمات الصادقة للكرسي الرسولي لتتفاضل في استيهال المحبة الأبوية التي نخصك بها، ومرغوبنا أن تكون متيقناً أننا نتوقع كل فرصة ووسيلة موافقة لنبدي لك عواطف اعتبارنا وعاطر ثنائنا وخالص تجيلنا وشكرنا وعربوناً على ذلك نهديكم بركتنا الرسولية مكررة. دؤن برومة في جانب كنيسة مريم الكبرى ممهوراً بختم الصياد ١٤ أيلول سنة ١٧٤١م وهي السنة الثانية لحبريتنا.

المطران اسطفانوس عواد السمعاني

هو ابن أخت العلامة يوسف سمعان السمعاني تخرّج باللغات والعلوم والفنون بمدرسة الموارنة برومة وارتقى درجة الكهنوت وشهد المجمع اللبناني مع خاله سنة ١٧٣٦م، وكان رقيباً فيه ثم رقاہ البطريرك يوسف ضرغام الخازن إلى الأسقفية على اباميا. والذي نعرفه من مؤلفاته كتاب في شرح أعمال الشهداء الغربيين والشرقيين لأوسابيوس القيصري في مجلدين بقطع كامل وكتاب «فهرست الكتب المخطوطة الشرقية في المكتبة الماديشية في فيرانسا» وقد استشهدنا بهذا الكتاب مرات كثيرة وهو كتاب بديع حقاً اشتمل على ذكر خمس مئة وسبعة وثلاثين كتاباً وعلى تراجم أكثر مؤلفيها وعلى فحوى كل منها، وقد أتحفنا بإيراد حواش كثيرة معلقة على بعض الكتب ولاسيما على كتاب الأناجيل الأربعة القديم جداً المخطوط سنة ٥٨٦م، وكان في الكرسي البطريركي الماروني سنين متطاولة، وعلق عليه البطارقة وغيرهم حواشي نافعة جداً استدللنا بها على أمور لم يكن سبيل بغيرها إلى معرفتها، ولم نعلم كيف انتقل هذا الكتاب إلى المكتبة المذكورة. وله أيضاً كتاب «فهرست للكتب التي بمكتبة كيجي» في رومة. وله أيضاً «فهرست الكتب المخطوطة التي في المكتبة الواتيكانية» ألفه مع خاله العلامة السمعاني في ثلاثة مجلدات وهو بديع أيضاً. وقد أشار إليها في مقدمات كتابه فهرست الكتب الشرقية في المكتبة الماديشية المار ذكره. وله كتاب «محاماة عن القديس يوحنا مارون» ألفه بالإيطالية ولم يعرفه باسمه وقد ترجم بعضه أو أكثره إلى اللغة العربية وطبع في المقالات المطبوعة في كتاب المحاماة عن الموارنة. وله أيضاً ترجمة التاريخ السرياني لابن العبري إلى اللغة اللاتينية وألحق به حواشي كثيرة الإفادة وكان يشاء طبعه كما روى عن نفسه في كتاب فهرست الكتب الشرقية بالمكتبة الماديشية صفحة ١٩٧ حث قال بعد ذكر هذا الكتاب وتفصيل ما اشتمل عليه: «وقد ترجمنا إلى اللاتينية كنز الحكمة الشرقية هذا وذيلناه بحواش وسوف نطبعه إن وفق الله رغبة في تقدّم العلوم». ولا نعلم أنّه طبعه وله أيضاً تكملة ترجمة المجلد الثالث من كتب القديس أفرام السرياني إلى اللاتينية.

ومن شاء أن يعلم علو منزلة هذا العلامة عند علماء الغرب فليطالع الذيل الذي

علّقه طابع كتاب الفهرست المذكور في آخره حيث أبان ما للمؤلف من طول الباع وسعة الإطلاع والخبرة الكملية بتاريخ الشرق والذكاء المتوقّد والثبات الذي لا يعروه ملل في الأعمال العلمية والفقاهة الذي قلّ أن يكون له نظير فيها، والفضل الجزيل الذي كان له على العلم والعلماء. وقد ذكر له أكثر تأليفه التي أشرنا إليه وزاد على ذلك أنّه كان في عزمه أن يعود ثانية إلى فيرنسا ووعد بأنّه سوف يدوّن فهرساً آخر لجميع الكتب الشرقية الكائنة في باقي مكتبات هذه المدينة، وأنّه كان قد نظم الكتب الشرقية الوافرة العدد التي جمعها جبرائيل ماركيو العلامة في مكتبته الشهيرة وأنشأ لها فهرساً وذيلته بحواشيه وملاحظاته، وأضاف إليه مقالة أبان فيها أنّ القديس مارون الوارد ذكره في كتاب القُدّاس السرياني لم يكن مبتدع بدعة المشيئة الواحدة وأنّ أوّل من لُقّق هذه التهمة إنّما هو سعيد بن البطريق وفند زعمه وقد توفي هذا العلامة في سنة ١٧٨٢م.

عد ٩٧

يوسف لويس السمعاني وابن أخيه القس سمعان السمعاني

أمّا يوسف لويس السمعاني فهو ابن أخي العلامة يوسف سمعان السمعاني ولد ونشأ بقرية حصرون وتخرّج باللغات والعلوم والفنون بمدرسة الموارنة برومة إذ كان عمّه وابن عمّته المطران اسطفانوس عواد فيها، وبرع واشتهر وعيّنّه البابا بناديكطوس الرابع عشر معلّماً للغات الشرقية والطقوس في الكلية الرومانية المعروفة بالسايانسا (أي الحكمة)، وله مؤلفات كثيرة نعرف منها باللاتينية مؤلّفه المعروف بها بالكوديكس لينورجيكوس أي كتاب رتب القُدّاس والطقوس الدينية في ثلاثة عشر مجلّداً بقطع الربع، وكان نادر الوجود حتى بيعت النسخة منه بثلاثة آلاف فرنك كما قال من طبعوه حديثاً، واستجلبنا نسخة منه لمكتبتنا بست وعشرين ليرا فرنسية. وله أيضاً كتاب في تاريخ بطاركة الكلدان والتساطرة وكتاب في الكنائس واحترامها وحمايتها طبع برومة سنة ١٧٦٦م، ومقالات في الاتحاد والاشترك الكنسي وفي قوانين التوبة القديمة وفي مجمع الأبرشية. وله أيضاً ترجمة شحيم (أي كتاب فروض) السريان في أربعة مجلّدات وترجمة كتاب قُدّاس الكلدان إلى اللاتينية. وله أيضاً شرح على كتاب يوحنا موريوس في الرسامات عند اللاتين

وعند الشرقيين طبع برومة سنة ١٧٥٦م. ويظهر من رسالة كتبها إلى البطريرك يوسف ضرغام الخازن مصونة في السجلات البطريركية إذ كان كاهناً.

وأما القس سمعان السمعاني فهو أبن أخي يوسف لويس المار ذكره ولد بحصرون أيضاً ودرس العلوم في مدرسة الموارنة ونبغ فيها وانضوى إلى جمعية الرهبان الحلبيين اللبنانيين الموارنة وارتقى إلى درجة الكهنوت والذي نعرفه من تأليفه كتاب «فهرست للكتب المخطوطة الشرقية الكائنة في المكتبة النانية» في بادوا وكتاب «تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام» و«كتاب في الكرة الفلكية». كل ذلك في اللغة اللاتينية.

عد ٩٨

غير هؤلاء من علماء الموارنة

الخوري ميخائيل الغزيري

من علماء الموارنة في القرن الثامن عشر الخوري ميخائيل الغزيري الطرابلسي أصله من غزير ونزح أهله إلى طرابلس وتفقّه بالعلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقي إلى درجة الكهنوت وكان في المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م نائباً عن باسيلوس مطران طرابلس ويسمى غرسيه نسبة إلى عائلته. وقد وصف في هذا المجمع بأستاذ الفلسفة واللاهوت ونعرف من تأليفه كتاباً جزيلاً الفائدة اشتمل على «فهرست للكتب العربية في مكتبة اسكوريالي بإسبانيا» وهو مجلدان بقطع نصف نعلم أنّ منه نسختين في لبنان الواحدة كانت في مكتبة البطريركية الموارنة والثانية كانت في مكتبة الطيّب الذكر المطران نعمة الله الدحداح ونظّمها نقلت إلى مكتبة خليفته المطران بولس مسعد. وكان الخوري ميخائيل المذكور مع الخوري الياس سعد البجاني قد أرسلوا إلى رومة للاعتراض على بعض رسوم المجمع اللبناني والطعن بالعلامة السمعاني وقد رأيت من كلام البابا بناديكوس الرابع عشر ما كان من النبذ لهذا الطعن.

اسطفانوس ورد ابن الخوري ابراهيم

المعلوم عندنا بالتقليد أنّه من قرية كفرحورا بالزاوية وأيناه في بعض الكتب منسوباً إلى حلب وقد درس العلوم واللغات بمدرسة الموارنة برومة وارتقى إلى درجة الكهنوت وصار خورياً في صيدا، وشهد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م وكان كاتب أسرار المجمع. ونعرف له من التأليف كتاب «مواعظ» وكتاب «نزهة العباد» بالعربية ورسالة إلى أبناء ملته نجدها مثبتة في كتاب تاريخ الكنيسة الأنطاكية السريانية المارونية في صفحة ٨١٩ إلى صفحة ٨٥١.

الخوري أنطون القيلي

ولد ببيروت في أواسط القرن الثامن عشر ودرس العلوم بمدرسة الموارنة برومة ورقي إلى درجة الكهنوت وصار خورياً ببيروت ونعرف من تأليفه كتاباً ردّ فيه مطاعن القس يوحنا عجمي الملكي الكاثوليكي المار ذكره على الملة المارونية وقد طبع كتابه هذا في كتاب «الحمامة عن الموارنة». ومن طالع هذا الكتاب قضى بأن مؤلفه كان ضليعاً بالتاريخ وغيره من العلوم.

القس عيسى الجاماتي

ولد ونشأ بدمشق وتخرّج بالعلوم بمدرسة الموارنة برومة ونعرف من تأليفه كتاباً في «نسبة الموارنة وردّ التهم الواردة عليهم» بالعربية.

القس يوحنا اليازنجي

ولد بحلب ونعرف من تأليفه كتاباً في «الحمامة عن الموارنة» والعلماء الذين ذكرناهم في هذا الفصل لم نعث إلى الآن على ما ينبئنا بسنة مولدهم أو سنة وفاتهم أو جميع تأليفهم ونترك الآن البحث عن ذلك إلى وقت آخر أو لأحد العلماء بعدنا.

الفصل الرابع

المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن

عد ٩٩

المجمع اللبناني

إنّ أهمّ المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن وأكملها وأعظمها إنّما هو المجمع الذي عقده في دير السيدة بلويزة سنة ١٧٣٦م، وكان العلامة السمعاني قاصداً فيه من قبل البابا اكليمنضوس الثاني عشر، فإنّ البطريرك يوسف ضرغام الخازن وأساقفته وعلية الاكليرس الماروني والأعيان والأتقياء لما رأوا أنّه قد تدرّج إلى التهذيب البيعي بعض أشياء نادرة عن وضعه وبهائه الأولين رفعوا إلى الحبر الأعظم البابا اكليمنضوس الثاني عشر وإلى مجمع نشر الإيمان المقدّس عرائض مؤرخة بين أواخر تموز وأوائل آب سنة ١٧٣٤م التمسوا بها بالحاح أن يبعث إليهم السيّد يوسف سمعان السمعاني ليتّأس من قبل الكرسي الرسولي على مجمع يعقدونه لاصلاح التهذيب البيعي وسد ما اعتور عليه من الخلل وردّه إلى بهائه القديم فكتب السيّد البطريرك عريضة إلى امام الأبحار بهذا الصدد مؤرخة في ٢٨ تموز سنة ١٧٣٤م وكتب هو وأساقفته عريضة بهذا المعنى إلى مجمع نشر الإيمان المقدّس وكذلك كتب البطريرك إلى بعض الكرادلة ورفع الرئيس العام على الرهبان اللبنانيين، ومدبروه الأربعة، عريضة بهذا الشأن لقداسته.

فاجتمع آباء مجمع نشر الإيمان وأصدروا قراراً في ٢٤ تموز سنة ١٧٣٥م بلزوم إجابة بطريرك الموارنة وأساقفته إلى طلبهم عقد مجمع طائفي وارسال السيّد السمعاني إليهم، لذلك، وإثباتاً لهذا القرار أصدر البابا اكليمنضوس الثاني عشر براءة رسولية مؤرخة في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م إلى العلامة السمعاني ينصبه

قاصداً من قبله إلى طائفته ليعقد المجمع بحضرته، وأبرز براءة أخرى مؤرخة في ٢١ تشرين الثاني سنة ١٧٣٥م إلى السيّد البطريرك بها يجيبه إلى طلبه عقد المجمع وتوجيه السيّد السمعاني إليه لهذه الغاية وأصبحها براءة أخرى إلى رؤساء أساقفة الموارنة وأساقفتهم بهذا المعنى، وأرسل مجمع نشر الإيمان رسائل مؤرخة في ١٠ كانون الأوّل سنة ١٧٣٥م إلى البطريرك والأساقفة وإلى الرئيس العام على الرهبان اللبنانيين ومجمعهم بالمعنى الموماً إليه، وترى هذه البراءات والرسائل مثبتة في صدر أعمال هذا المجمع المطبوعة حديثاً.

ووصل السيّد السمعاني إلى بيروت في أواخر حزيران ونروي ما كان إلى نهاية المجمع ملخصاً عن عريضة رفعها إلى البابا اكليمينضوس الثاني عشر بتاريخ ١٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٧م قال: «شيعوني من بيروت إلى جبل لبنان محفوفاً بمظاهر الفرح والإجلال الخارقة العادة بصفة كوني قاصداً من قبلكم وتناولوا بواجب الاحترام المراسيم الحبرية والرسائل المنفذة إليهم من ذوي النياقة كرادلة الكنيسة الرومانية، وقرئت باللاتينية والعربية على مسمع الجم الغفير من الاكليس والشعب، وأنّ العبارة لتضيق عن وصف شعائر التقى والعبادة الحارة التي اقبلوا بها هدية بركتكم الرسولية ونودي بانعقاد مجمع إقليمي لمرور ستة أسابيع أي في الخامس عشر من آب عيد انتقال العذراء في دير قنوين، إلّا أنّه روى يتعدّر على كثيرين الحضور إلى قنوين المجاورة لجيش والي طرابلس فأمرنا أن يكون الاجتماع في كسروان التي يتولاها مشايخ مسيحيون. وبعد انطلاقنا إلى كسروان اختلفت الآراء إذ كان بعضهم يؤثر هذا المكان وبعضهم غيره إلى أن أجمعوا جميعاً على اختيار دير لوزية. ولكن وفاء برغبة السيّد البطريرك والمشايخ ذوي قرابته رأينا أن نعقد بعض جلسات ابتدائية وخصوصية في دير ريفون الذي اعتاد البطريرك أن يقيم فيه لأنّه لبس فيه الاسكيم الرهباني، وفيه رقي إلى الأسقفية، ثمّ إلى البطريركية. ولما كان قد نشأ بين البطريرك والأساقفة بعض مسائل تتعلق بتوزيع الميرون وولاية وسلطة كل منهم وتعدّر البحث في هذه المسائل بدير ريفون دون قلق بسبب اضطراب هاجه بعض المشايخ أقرباء البطريرك، فرأيت مع بعض الرؤساء الأفاضل وجوب انطلاقنا من دير ريفون إلى دير لوزية مجانية للمنازعات ولقد تيسّر لنا ذلك لأنّ المخالفين أنفسهم غيروا رأيهم وبدلوا جهدهم في حمل البطريرك على أن يتدارك العثار الناتج من الخصام فاعتمد البطريرك فجأة إلى المسير إلى دير لوزية مع ذوي

ليقرّر هناك الأمور التي شرع في فحصها، وأصدر البطريك أمراً باستئناف المذاكرات في السابع والعشرين من أيلول وحكم باتّفاق الآراء بعقد المجمع لمرور ثلاثة أيّام في دير لوزية. وفي تلك المجالس التي استغرقت ثلاثة أيّام متتالية كان اشتغال الأساقفة واللاهوتيين مقصوراً على تذليل المشاكل وتوثيق عرى الإثّفاق وتألّيف الخواطر. وفي آخر الأمر تمّ لنا بحوله تعالى افتتاح المجمع بما أمكن من السرعة يوم الأحد آخر أيلول سنة ١٧٣٦م، وكان فيه عدا البطريك ورؤساء الموارنة أربعة من أساقفة الطوائف الشرقية والرئيسان العامان للرهبان اللبنانيين ورهبان مار اشعيا وعشرة من المرسلين اللاتينيين وقدرهم من خوارنة وخدمة كنائس وجمهور غفير من القسوس والرهبان وثلاثون من المشايخ الحازنيين، وإثنا عشر من الحبيشيين، وسبعة من وجهاء العوام. واستمرّ انعقاد المجمع ثلاثة أيّام وانحلّ في ثاني تشرين الأوّل والخواطر معقودة على أتمّ الوفاق، ولم يبقَ هناك إلّا أمني مقدّسة وآراء سديدة وأعمال مبرورة ووقعوا جميعاً على أعمال المجمع وأخضعوا كل ما أثبتوه وأقرّوه لسلطانك لتبدله وتهذبه وتثبته، وقد عوّلت أن أبادر بعد انحلال المجمع إلى تفقّد الكنائس والأديار لأفقه كهنة الرعايا في واجباتهم وأضع للرهبان والراهبات القوانين اللازمة، وأحضّ الأساقفة على الاجتهاد بتدبير الإكليروس والعامّة بحسب رسوم المجمع المذكور وأنشأت رسالات وأقمت فيها تلاميذ مدرستنا المارونية أو رهبان دير رومة في أبرشيات صور وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس وقبرص، وأمرت بفتح المدارس في الأديار لأجل تهذيب الأحداث، وقد خصصت لسكنى الراهبات على حدّة أربعة أديار وهي دير مار الياس الرأس ودير مار جرجس الرومية ودير سيدة الحلقة ودير مار عبدا هرهريا، وسعيت بنقل الراهبات من دير مار الياس بلونه ودير مار أنطونيوس بقعاتا حيث كانت الراهبات مقيمات بجوار سكن الرجال إلى غيرها من اديرة النساء. وأمّا القلق الذي أثاره بعض الرؤساء والمشايخ بسبب تجديّد تهذيب الأديار والكنائس والخلاف على مسائل بيعية بين الرؤساء والسيد البطريك وبين العامّة والإكليروس وما يلزم لذلك من العلاج كل ذلك قد بسطته بالتطويل في رسائلي إلى مجمع نشر الإيمان المقدّس». فهذا ما لحّصناه من عريضة السمعاني لقداسته البابا اكليمنضوس الثاني عشر في ١٧ كانون الثاني سنة ١٧٣٧ رغبة في ما حوته من الفوائد.

وقد أثبت البابا بناديكتوس الرابع عشر قوانين المجمع اللبناني وأحكامه برمتها

ببراءته المؤرخة في ١ أيلول سنة ١٧٤١ وترى هذه البراءة مثبتة في آخر ذيله المعلق على النسخة المطبوعة حديثاً سنة ١٩٠٠م والمجمع المذكور مقسوم إلى أربعة أقسام: الأوّل في الإيمان الكاثوليكي وفيه خمسة أبواب. الثاني في الأسرار وفيه أربعة عشر باباً. الثالث في الخدام والقسوس والرؤساء وفيه ستة أبواب. الرابع في الكنائس والمدارس والأديار والترتيبات الجمعية وفيه سبعة أبواب وهو الدستور العام للملّة المارونية وإليه المرجع في أمورها الروحية والبيعية.

عد ١٠٠

مجمع بقعاتا

عقد رؤساء الموارنة عدّة مجامع أخرى في هذا القرن لم يكن لها أهمية المجمع اللبناني ولا أبهته ولم يكن فيها ممثل للكرسي الرسولي ولم يشهدها المرسلون وأساقفة غيرهم من الطوائف كالمجمع اللبناني، وأوّل هذه المجمع مجمع بقعاتا عقده البطريرك طوبيا الخازن في ٢٥ آب سنة ١٧٥٦م في دير القديس أنطونيوس في بقعاتا من كسروان، وكان الغرض من عقده بذل العناية للعمل برسوم المجمع اللبناني وكان المجتمعون فيه عدا البطريرك فيلبوس مطران قبرص واسطفانوس مطران بعلبك وجبرائيل مطران الرها وأنطونيوس مطران جبيل ويوسف اسطفان مطران بيروت. وقد فرضوا فيه تسعة عشر رسماً أكثرها مما كان قد رسم في المجمع اللبناني وحتّموا بوضعه في العمل ووزعوا الأبرشيات على المطارين عملاً برسم هذا المجمع.

عد ١٠١

مجمع غوسطا

عقد هذا المجمع البطريرك يوسف اسطفان في ١٦ أيلول سنة ١٧٦٨م بحضرة الأب لويس رئيس رهبان القديس فرنسيس وكان جلّ الغرض من عقده لإصلاح بعض العادات في الطائفة والتشدد في حفظ رسوم المجمع اللبناني وكان حينئذٍ اختلاف بين البطريرك المذكور وعمّه المطران يوحنا اسطفان على دير عين ورقة فكتب آباء المجمع إلى المطران يوحنا يدعونه إليه وأرسلوا إليه المطران يواصف

الدبسي مطران صور والمطران ميخائيل الخازن فحضر، وبعد سماع ما أورده من الحجج لجهة دير عين ورقة وأسقفية بيروت حكموا أنّه بعد تنزّله عن أبرشية بيروت وعن رئاسة دير عين ورقة لابن أخيه البطريرك لم يبقَ له حق بالعود إليهما، لكنهم سألوا البطريرك أن يبيحه الإقامة في دير عين ورقة مدّة حياته ولا يحقّ له أن يبيع شيئاً من أملاك هذا الدير إلّا بإذن السيّد البطريرك. وكان خلاف في الطائفة بداعي خدامة بعض الرهبان في الرعايا فحكموا أن لا يستخدم الرهبان في الرعايا إلّا لضرورة، وفرضوا بعض قوانين تتعلق بالرهبان وأديارهم على ما في الجمع اللبناني إلى غير ذلك في مجلسين ١٦ و ١٧ أيلول سنة ١٧٦٨م.

وفي ١٨ أيلول عقد المجلس الثالث وبلغ البطريرك والأساقفة خبر وفاة المطران جرمانوس صقر الحلبي بدير بكركي فحزنوا عليه، ومما حكموا به في هذا المجلس لا يرقى أحد إلى الكهنوت إلّا بعد الفحص عن علمه وسيرته، وحتموا على أبناء الطائفة أن لا يزوّجوا بناتهم لغير أبناء ملّتهم ولو كانوا كاثوليكين إلّا برخصة من مطرانهم ولداع لازم (نظرٌ هذا أصل العادة الجارية إلى الآن بين الموارنة والملكية الكاثوليكين وهي أنّ الآنسة المطلوبة للزواج لشخص من إحدى الملتين يلزم رخصة مطرانها)، وجدّدوا إطلاق التأديب على من يلتجئون إلى الحكام العالمين بما يمسّ الحرية الكنسية. وفي المجلس الرابع الذي عقد في ٢٠ أيلول أقرّوا أن لا تعطى الوظائف البيعية بسبيل الارث وحتموا بأن ترعى جميع رسوم الجمع اللبناني بكل تدقيق، واتّفقوا على رفع عريضة إلى الحبر الروماني ليأمر بطبع هذا الجمع، وأن لا يختلط كهنة الموارنة بكهنة غير الكاثوليكين في الجنازات وغيرها. وفي المجلس الخامس الذي عقد في ٢١ أيلول جرى البحث في العشور وأجمعوا على أنّ كل أسقف يجبي العشور في أبرشيته بموجب دفتر ثمّ يدفعه إلى السيّد البطريرك.

وادّعى في المجلس المذكور المطران روفائيل الحاقلاّني بالولاية على أبرشية طرابلس لأنّ البطريرك طوبيا الخازن رقاها إلى كرسيها، فأجاب على ذلك الخوري جرجس يمين بالوكالة عن المطران يواكيم يمين أنّ البطريرك طوبيا الخازن لما ورّع الأبرشيات في مجمع بقعاتا سلّمه أبرشية طرابلس فحكم الجمع أنّ الحق للمطران يواكيم بالولاية على هذه الأبرشية. وفي هذا المجلس أيضاً أثبت البطريرك قسمة الأبرشيات بموجب براءة البابا بناديكتوس الرابع عشر وارشاد الجمع المقدّس فكان

في أبرشية صور وصيدا المختصة بالبطريرك المطران ارميا نجيم أسقف الناصرة وفي بيروت المطران أثناسيوس الشنعي ولكن ولى على المدينة المطران ميخائيل فاضل وبعد وفاته تعود إلى مطران أبرشية بيروت، وفي أبرشية قبرص المطران الياس الجميل وفي دمشق المطران ارسانيوس عبد الأحد، ولكن ولى على عجلتون المطران ميخائيل الخازن ما دام حياً ويتبعه دير الرومية، وبعد وفاته يرجع ذلك إلى مطران دمشق، وولى على بسكنتا المطران يواصاف الدبسي ويتبعها عين القبو وقعفرين وزبوغا ما دام حياً وبعد موته ترد إلى أبرشية دمشق، وولى على بعلبك المطران جبرائيل مبارك وعلى بلاد جبيل والبترون المطران أنطون محاسب، وعلى طرابلس المطران يواكيم يمين وتتبعها جبة بشري ما دام حياً وبعد موته ترد إلى مطران جبيل والبترون، وولى على حلب المطران ارسانيوس شكري، والذين وقّعوا على هذا الجمع البطريرك يوسف اسطفان وميخائيل مطران بابل ويواصاف مطران عكا وميخائيل فاضل مطران صور وجبرائيل مبارك مطران بعلبك وارميا مطران الناصرة وارسانيوس شكري مطران حلب وميخائيل الخازن مطران قيسارية وارسانيوس عبد الأحد مطران دمشق والياس الجميل مطران قبرص والخوري جرجس يمين بالوكالة عن المطران يواكيم يمين ورئيس الفرنسيين وغيرهم من الافرنج.

عد ١٠٢

مجمع ميفوق

عقد هذا المجمع بأثر توقيف البطريرك يوسف اسطفان وما كان من القلق في الطائفة بسبب الراهبة حنة عجمي المعروفة بهندية فأمر البابا بيوس السادس بعقده وناب فيه عنه قاصده الأب بطرس موريثا وكان من شهوده من المطارين المطران ميخائيل الخازن الذي أقيم نائباً عن البطريرك في مدة إيقافه، ويواكيم يمين مطران طرابلس، وميخائيل فاضل مطران بيروت، وجبرائيل مبارك مطران بعلبك، وروفاثيل الحاقلائي مطران دمشق، وأنطون محاسب مطران جبيل برئاسة الأب موريثا القاصد الرسولي. وافتتح هذا المجمع في ٢٠ تموز سنة ١٧٨٠م بدير السيدة في ميفوق.

وعقد المجلس الأول في ٢١ تموز سنة ١٧٨٠م وتعيّن فيه أصحاب الوظائف، وعقد المجلس الثاني في ٢٣ تموز وافتتحه القاصد الرسولي بخطبة نفيسة ثمّ تليت الأوامر الرسولية وأجوبة البطريرك يوسف اسطفان التي كان قد رفعها إلى مجمع نشر الإيمان وصرح آباء المجمع بقبول قصادة القاصد الرسولي وجأهروا بالطاعة والامتثال للأوامر الرسولية فرداً فرداً وهي الأوامر التي مرّ ذكرها أيضاً في ترجمة البطريرك يوسف أسطفان، وأولها إبطال ما كان البطريرك قد حلله من تناول المأكّل المزفر يوم الجمعة عيد قلب يسوع. والأمر الثاني أن ليس للبطريرك أن يمنح غفراناً كاملاً إلاّ بإذن صريح من الحبر الروماني. الثالث أنّ الأساقفة لا يلتزمون أن يأخذوا منشوراً من السيّد البطريرك لزيارة رعاياهم. والرابع تثبيت المبلغ الذي تقرّر أن يدفعه كل من المطارين كل سنة إلى البطريرك بدل العشور وقدره ألفان وخمسمائة غرش موزّعة على الأبرشيات كما مرّ في ترجمة البطريرك يوسف اسطفان، وتقرّر أنّ للبطريرك أن يعطي مناشير لجبايتها مرة واحدة لكل من الأساقفة إشارة إلى تعلّقهم به وخضوعهم له، ثمّ بعد مراجعة البطريرك بهذا الخصوص تقرّر أنّ كل أسقف يطلب كل سنة من البطريرك منشوراً لجباية العشور. ثمّ قرروا في هذا المجلس أيضاً أن تبقى كراسي الأبرشيات ثمانية كما رسم في المجمع اللبناني ويحقّ للسيّد البطريرك أن يرقّي كهنة إلى الأسقفية شرفاً وعتياً حدود الأبرشيات كما ذكرها البابا بناديكتوس الرابع عشر في براءته لتقسيم الأبرشيات.

وعقد المجلس الثالث في ٢٤ تموز وقرروا فيه وجوب الامتثال لباقي الأوامر الرسولية المذكورة أعني الأمر الخامس لا يحقّ للبطريرك أن يكفّ الأساقفة عن التصرف برعاياهم دون مشورة مجمع الأساقفة. السادس يسمح للرهبان أن يخدموا الرعايا لدى الحاجة إليهم. السابع لا يحقّ للبطريرك أن يقبل الكهنة والرهبان الذين يعصون أمر رؤسائهم ويلتجئون إليه إلاّ بموجب ما رسم المجمع اللبناني في قسم ٤ باب ٢ عد ٩. والثامن لا يحقّ للبطريرك أن يسمح بأن يقام في كنائسنا مذهب يقُدّس عليه كهنة غير كاثوليكين أو يعيّن موضع يدفنون فيه موتاهم في مقابر طائفتنا. التاسع لا يجوز لكهنة طائفتنا أن يتصرفوا بحقوق كهنة الملكيين الكاثوليكين أو أن يحلّلوا موانع الزواج لهم ومثل ذلك لا يجوز للأساقفة الملكيين ولا لغيرهم أن يتدخّلوا في قضاء اللوازم الروحية لأبناء ملّتنا. وأمّا في الاعتراف فيحقّ لكهنة طائفتنا المصرفين بسرّ التوبة أن يعرفوا ويحلّلوا كل من طلب

أن يعترف عندهم بمقتضى الإذن القديم الممنوح لكهنة الموارنة. العاشر يلزم أن يعين كل من الأساقفة فاحصاً للكهنة وقيمه في أبرشيته بموجب رسم المجمع اللبناني. الحادي عشر لا يسوغ للبطريرك أن يقبل هدايا لتوزيع الزيوت المقدسة. الثاني عشر قد تفاوض آباء المجمع في محل إقامة البطريرك وأجمع رأيهم أن يكون هذا المحل دير بكركي بصفة دير تابع لدير قنوين الكرسي البطريركي. الثالث عشر قرروا أنه يلزم البطريرك أن يعقد مجعماً مع أساقفته كل ثلاث سنين مرة. الرابع عشر حتموا أن ينهي البطريرك عن أن يدون في مناشيره للذكر المؤبد أو يكتب في سنة كذا من حيرتنا تشبهاً بالخبر الروماني. الخامس عشر ارتأوا أن يتفق البطريرك والمطارين على أداء العشور والتحليل. السادس عشر بحثوا في ما إذا كان يحق للبطريرك أن يرقى إلى درجة الكهنوت من رعايا الأساقفة بغير علمهم وأن يحلّهم من التأديبات أو ينزلها بهم دون علم رؤسائهم، وكان الكرادلة قد أجلبوا الجواب على هذا المشكل إلى أن يرد من القاصد الرسولي إفادات بنبجلي الأمر فيها. السابع عشر كان من الأسئلة المرفوعة للكرسي الرسولي هل يحق للبطريرك أن يطلب دراهم إسعافاً لكرسيه من خوارنة الرعايا والأديار فارتأى الكرادلة أنّ الكهنة المرتقين حديثاً والأديار المحدثّة يلتزمون أن يعطوا ما يعطيه الكهنة القدماء والأديار السابقة البناء وأنه يلزم تقرير مبلغ معيّن. الثامن عشر هل يجوز للبطريرك أن يؤدب الكهنة المزلين بعقوبات ثقيلة كالحبس والضرب فأجاب الكرادلة أنّه يلزم القاصد الرسولي أن يعلمهم بتفاصيل الواقع، وأن ينصح البطريرك أن يسلك مع الكهنة ولاسيما الأساقفة بأكثر دعة وأن يتحاشى القسوة، وقرّر آباء هذا المجمع أن يسألوا البطريرك والأساقفة أن لا يعاملوا الكهنة المزلين بالضرب والوثاقات والغرامات، وإذا لم يرتدعوا عن زلّاتهم أطلقوا عليهم التأديبات البيعية. التاسع عشر لما كان البطريرك أكثر عدد الأساقفة والرعايا خلافاً لرسم المجمع اللبناني أجاب الكرادلة بأنّه يلزم القاصد الرسولي أن يصرّح للبطريرك نيابة عن مجمع نشر الإيمان المقدّس أن يقتصر على ما رسم في المجمع اللبناني. العشرون لما كان البطريرك قد وضع كتاباً للقداس غير المستعمل قبلاً وفرض ثلاثة أيّام صوم قبل عيد قلب يسوع وأباح في هذا العيد أكل اللحم والأطعمة المزفزة ارتأى الكرادلة بأن يرعى في ذلك رسم المجمع اللبناني بالدقة. وأبطل آباء المجمع ما أحدثه البطريرك يوسف اسطفان وأبطلوا أيضاً عيد قلب يسوع لأنّه فرضه دون

مشورتهم وبغير استئذان الكرسي الرسولي، وأمروا أن يعيد لذكر الحبل بلا دنس بسيدتنا مريم العذراء في جميع الطائفة. الحادي والعشرون قد أمر أيضاً أن يزال المذبح الذي أقيم فوق قبر المطران جرمانوس صقر على الأقل أن يرفع القنديل المعلق عليه فرفعه النائب البطريكى وأزال المذبح. فهذه هي أوامر الجمع المقدس التي ضمنها في رسالته المؤرخة في ١٥ آب سنة ١٧٧٤م، وقد قبل الأساقفة جميعهم بالطاعة والامتثال، وكان الجمع المقدس قد أرسل إليهم براءتين من البابا بيوس السادس مؤرختين في ١٧ تموز سنة ١٧٧٩م، تشتمل الأولى منهما على نبذ انخداع الراهبة هندية وكذب أوحيتها وبطلان وهما باتحاد المسيح بها وتحريم كتبها وتعاليمها والتأديب لها ولنائبها كاترينا، فقبل الأساقفة بالاحترام هذه الأوامر ونفذها النائب البطريكى بموجب منطوقها. والبراءة الثانية فحواها إلغاء رهبانية هندية وإخراج الراهبات من الأديار الأربعة التابعة لقانونها وهي دير بكركي ودير سيدة البراز ودير مار جرجس علما ودير مار يوسف الحصن، فقرر الأساقفة ذلك وأتمه النائب البطريكى كما مرّ وعيّنوا دير بكركي لسكنى البطريك، وأشهروا أمر قداسته بالسكوت المطلق عن غوايات هندية وأعمالها وأبطلوا أخوية قلب يسوع التي كانت هندية قد أنشأتها، وقبلوا المرسوم الثالث المتضمن طلب البطريك يوسف اسطفان ليشخص إلى رومة ليجاوب عن بعض أعماله تحت طائلة الحرم إن أبى الحضور، ومنعه عن كل تولّ بطريكى وأسقفى وبقاء القسوسية الخ. واختار الأساقفة المطران ميخائيل الخازن ليكون نائباً بطريكياً ما دام البطريك ممنوعاً وقبلوا وارتضوا بما رسم على المطران جرمانوس دياب من الأمر بتأديبه وتكذيب نفسه في كل ما كتبه وصنعه مساعدة لهندية، ونفذ النائب البطريكى كل ما ذكر. إلا أنّ الأساقفة رفعوا عريضةً إلى الكرسي الرسولي يسألون بها أن يوفدوا أسقفاً أو أسقفين إلى أديار مار جرجس علما وسيدة البراز ومار يوسف الحصن ليفحصوا عن حال هذه الأديار ويعرضوا أمرها إلى النائب البطريكى، ومن لا يريد من رهبانها القسوس أن ينتقلوا إلى دير آخر لزمهم أن يخلعوا الاسكيم ويلبسوا زي الكهنة العالمين، وإن كانوا شمامسة لزمهم أن يلبسوا الشالات ويستقيموا في أديارهم بالتقوى والورع. وأمّا الراهبات اللواتي لا يردن الخروج من أديارهنّ إلى أديار أخرى قانونية فيمكن إبقاؤهنّ في أماكنهنّ على شريطة أن يخلعن أثواب رهبانية هندية ويلبسن كالعابدات، والرئيسات اللائي كنّ في هذه الأديار يعزلن

ويقام غيرهنّ ويتجدد انتخابهنّ كل ثلاث سنين، ويمنع قبول بنات أو نساء مرشحات للرهبانية في هذه الأديار. وأمّا الراهبات اللواتي كنّ بيكركي ومضين إلى أهلهنّ بحلب أو لبنان فحكم آباء المجمع أن يعطين من مداخيل الدير ما يعشن به بما يفضل عن النفقة اللازمة للدير، وبعد موتهنّ يرجع كل ما لهنّ إلى الدير. وقد أكثر الآباء التفتيش على كتب هندية فلم يجدوا شيئاً منها فقرّروا أن ترسل مناشير حرم في كل الطائفة حتى من كان عنده شيء منها يقدمه إلى النائب البطريركي ومن كان له علم بها يعرض الأمر له. وفي المجلس الخامس والأخير أقرّ الآباء بعض قوانين أكثرها من متضمنات المجمع اللبناني.

عد ١٠٣

مجمع عين شقيق

لما كان البطريرك يوسف اسطفان قد رجع إلى البطريركية عقد هذا المجمع في ١٦ أيلول سنة ١٧٨٧م في كنيسة السيدة بعين شقيق من كسروان بموجب أمر البابا بيوس السادس، وكان في المجمع الأساقفة والرؤساء العامون للرهبانيات الثلاث والشيخ غندور ابن الشيخ سعد الخوري مأموراً من الكرسي الرسولي أن يكون مساعداً ومؤيداً لاجتماع المجمع وتنفيذ الأوامر الرسولية. وقد شهدته أيضاً المشايخ الخوازنة والحبيشية وبيت الخوري صالح وبيت الظاهر وبيت الدحداح ومشايخ العاقورة ومشايخ جبّة بشري وغيرهم من أعيان الملة، فقدّم المشايخ المذكورون عريضة إلى المجمع وجهوها إلى الشيخ غندور الخوري ترى صورتها مثبتة في كتاب «سلسلة بطارقة الموارنة» للمعلّم رشيد الشرتوني صفحة ٦٤ التمسوا بها أن يكون مقام الأساقفة في الكرسي البطريركي مع السيّد البطريرك موردين لذلك حججاً كثيرة. وسأل الشيخ البطريرك والأساقفة أن يتقبلوا هذا الالتماس فتلوه في المجلس الأول وأجلّوا الجواب عليه إلى المجلس الثاني، وسأل البطريرك الأساقفة ما يرون بهذا الشأن فحسن عندهم قبول الالتماس على شرط أن يدوّن المشايخ صكّاً يتعهدون به بأنهم لا يتعرّضون للأساقفة ولا يتدخلون بترقيتهم ولا بتدبير الأمور الروحية، فتعهد المشايخ بعدم التعرّض كما طلب منهم فقبل البطريرك والأساقفة التماسهم في

المجلس الثاني وقدم المشايخ في المجلس الثالث الشكر لهم وتعهدوا بأن تجرى الانتخابات من ذلك الحين فصاعداً طبقاً لرسم المجمع اللبناني.

وطلب أهل جبّة بشري أن يكون لهم مطران يسوسهم وحدهم منفصلاً عن مطران جبيل والبترون فحكم في المجلس الرابع بعدم التمكن من إجابة طلبهم لخالفته نصّ المجمع اللبناني. وفي المجلس الخامس ادّعى رهبان مار اشعيا أنّ دير بكركي يخصّهم فردّ آباء المجمع دعواهم لأنّه ثبت لهم بعد الفحص أنّ الرهبان المذكورين باعوا الدير المذكور وقبضوا ثمنه. وفي المجلس السادس عرض القس روفائيل مسابكي اللبناني للمجمع الالتماس أن ينظر بأمر المعاش لراهبات دير بكركي الحلبيات فتقرّر أن تعطى كل راهبة عشرين قرشاً في السنة. وفي المجلس السابع تلي تعهد المشايخ بأنّهم لا يعارضون البطريك ولا الأساقفة في أمور الانتخابات وغيرها فقبل المجمع هذا التعهد. وفي المجلس الثامن تقرّر أن تكون هندية في دير مار الياس غزير (ثمّ نقلت لدير الحقلّة كما مرّ) وكاترينا في دير مار الياس بلوني، ورسوموا أيضاً أن تكون الأديار التي كانت لراهبات هندية خاضعة لمطارين الأبرشيات التي هي فيها. وفي المجلس التاسع أقرّوا إصدار نشرتين: الأولى تتضمن بعض رسوم في تهذيب الرهبان والراهبات القانونيين. والثانية في تهذيب خوارنة الرعايا والشعب. وفي المجلسين العاشر والحادي عشر قرّروا بعض أمور أخرى لإصلاح شؤون الطائفة وأن يلتمسوا من الكرسي الرسولي تفويض السيّد البطريك بمنح الغفرانات الكاملة.

والذين وقعوا على هذا المجمع هم البطريك يوسف اسطفان، وميخائيل فاضل مطران بيروت، وجبرائيل مبارك مطران بعلبك، وجرمانوس دياب مطران حمص، وبولس اسطفان مطران قورش، والمطران يوسف نجيم، ويوحنا الحلو مطران عكا، ويوسف التيان مطران دمشق. على أنّ قرار هذا المجمع بأن يسكن المطارين مع البطريك لم يقبله المجمع المقدّس لخالفته لرسم المجمع اللبناني ولم يثبت أيضاً هذا المجمع المعروف بمجمع وطا الجوز حيث كنيسة سيدة عين شقيق.

مجمع بركري الأول

التأم هذا المجمع بأمر البابا بيوس السادس أيضاً بدير بركري سنة ١٧٩٠م وكان قاصد البابا فيه المطران جرمانوس آدم الملكي الكاثوليكي والداعي لعقده العناية بهتذيب الكليس وإتمام الأساقفة وغيرهم فروضهم كما رسمها المجمع اللبناني، والفحص عن بعض أحكام كان بعض الأساقفة قد أبرزها، وعن بعض دعاوى موردة على بعضهم وإبطال مجمع عين شقيق وخاصّة فصل أديار الرهبان عن أديار الراهبات .

قد عقد المجلس الأول من هذا المجمع في اليوم الثالث من كانون الأول سنة ١٧٩٠م بحضرة البطريرك يوسف اسطفان والمطران جرمانوس آدم القاصد الرسولي، وتليت في هذا المجلس براءة البابا الآمرة بعقد المجمع وأوامر المجمع المقدّس وصار الامتثال لها لإجماع الآراء، وصرّح الآباء بقبول رسم المجمع اللبناني في شأن قسمة الأبرشيات كما أثبتتها البابا بناديكتوس الرابع عشر، وقرروا أن يكون حقوق انتخاب الأساقفة للسيد البطريرك والأساقفة لا للحكام العالميين، ويحق لكل أهل أبرشية أن يقدّموا مرشحين أو ثلاثة للسيد البطريرك أو يظهرها رضاهم بمن ينتخبه. وبحث في المجلس الثاني في تعيين مقر ثابت لإقامة البطريرك وأرجئ القرار إلى مجلس آخر لاستيفاء المداولات بذلك. وفي المجلس الثالث نظر في دعوى المشايخ بيت أبي نصيف الخازن على أن ينتخبوا مطران طرابلس، وفي ما اتّهم به المطران جرجس بنيمين أنّه ترقى إلى الأسقفية بالسيمونية أي الرشوة فحكم ببراءته من هذه التهمة وبأنّ انتخابه كان مطابقاً للقوانين. ولما لم يحضر المشايخ المذكورون لتقديم دعواهم فأرجئ الحكم بها إلى المجلس التالي. وفي المجلس الرابع أبرز هؤلاء المشايخ صكاً من البطريرك يعقوب عواد يخوّلهم الحق أن ينتخبوا مطران عرقا ثمّ صكاً آخر من البطريرك يوسف اسطفان فحواه أنّ هذا الحق يبقى إذا أبطل مجمع عين شقيق الذي قضى بإقامة المطارين عند البطريرك. وحيث أنّ هذا المجمع أبطل فعاد حقهم إليهم فأجابهم القاصد أنّ صكّ البطريرك يعقوب لا يفيدهم لأنّه كان قبل المجمع اللبناني ومثله صكّ البطريرك يوسف اسطفان لأنّه وإن أبطل مجمع عين شقيق

فالمجمع اللبناني لم يطل وهو ألقى مثل هذه الحقوق فحكم الآباء بسقوط دعوى المشايخ وثبوت المطران جرجس بنيمين على أبرشية طرابلس.

وفي المجلس الخامس بحث في أنطوش دير القمر إذ كان الرهبان الحلبيون قد ادّعوا بأنّه ملكهم فقرّر السيّد البطريرك أنّه سلّم هذا الأنطوش إلى الرهبان المذكورين وقرّر أهل دير القمر أنّهم لا يتعرّضون للرهبان بملكهم بل يطلبون أن يتقيّد الرهبان بخدمتهم الروحية فحكم المجمع كذلك. وفي المجلس السادس حكم بأن يقيم كل أسقف بأبرشيته، وأنّ لكل أسقف أن يتصرّف بماله الخاص به من ملك ثابت أو متنقل، وأمّا ما يخلفه الأساقفة نواب البطريرك في مدّة نيابتهم فيخصّ الكرسي البطريركي وحكم أيضاً بأنّ تلامذة المدرسة الرومانية يكونون خاضعين لمطران أبرشيتهم كباقي خوارنة الرعايا وأنّ كلّاً من الأساقفة يهتم بتعيين كاهن أهل لفحص المرشّحين إلى الدرجات المقدّسة.

وفي المجلس السابع بحث في سكنى الرهبان والراهبات معاً فتلي أمر الكرسي الرسولي المؤرّخ في ١٢ حزيران سنة ١٧٩٠م وسأل القاصد آباء المجمع أن يبيّنوا رأيهم بذلك، فأجاب السيّد البطريرك والأساقفة أنّهم يرون هذا لازماً وأنّه يجب منع كل اشتراك بين الرهبان والراهبات إلّا في الأمور الروحية. وتليت رسالة من السيّد يوسف سمعان السمعاني للبطريرك بهذا المعنى فحثّوا بأن يهتم كل من الأساقفة بالعمل بموجبها. ثمّ بحث في أمر راهبات عينطورا التابعات لقانون القديس فرنسيس سالاسيوس وثبت لدى آباء المجمع أنّهنّ ملتزمات بحفظ الطّقس الماروني وخاضعات للسيّد البطريرك، ثمّ بحث في شأن مدرسة عينطورا ونظر في الصك الذي دوّنه رئيس الرهبان اليسوعيين العام للبطريرك فظهر من ذلك أنّه يحقّ للسيّد البطريرك أن يطلب مداخيل هذه المدرسة ويهتمّ بتنفيذ إرادة الواقفين.

وفي المجلس الثامن دوّنت بطلب القاصد الرسولي الرسوم الآتي ذكرها لتكون بمنزلة شريعة لا يحلّها أحد في ما بعد. الأوّل إنّ تفسيح السيّد البطريرك من شريعة الإنقطاع عن المأكّل المزفرة يوم الجمعة عيد قلب يسوع يكون باطلاً ويلزم الانقطاع. الثاني: أنّ السيّد البطريرك لا يسوغ له أن يمنح غفراناً كاملاً إلّا بتفويض الكرسي الرسولي. الثالث أنّ الأسقف لا يفتقر عند زيارة أبرشيته إلى منشور من السيّد البطريرك ويلزمه أخذ هذا المنشور عند جباية العشور. الرابع أنّه لمّا كان السيّد

البطريك قد ادعى بأن مبلغ العشور الذي تقرر له كان تقريره لست سنين وقد انقضت فيحق له أن يضع ترتيباً حديثاً لذلك، أجابه القاصد أن هذا يستلزم مراجعة المجمع المقدس، ثم ادعى البطريك أنه يحق له أن يزور بنفسه أو بوكيله كلاً من الأبرشيات كل ثلاث سنين مرة فأجابه القاصد أن زيارة الأبرشيات تحقق له كما قال، وأما أخذه العشور فلا يحق له أن يحدث به شيئاً بعد أن عين الكرسي الرسولي المبالغ السنوي الذي يجب أدائه. الخامس أنه لما كان قد تقرر قبلاً أن ليس للسيد البطريك أن يعزل أحداً من الأساقفة عن أبرشيته قرر السيد البطريك أنه محافظ على هذا الرسم وعلى أنه لا ينكر على الرهبان جمع الحسنات، ولا يأذن لأحد منهم أن يذهب إلى مكان ضدّ خاطر رؤسائه، فقبل المجمع تقرير البطريك وجعله من رسومه.

وفي المجلس التاسع أضافوا رسوماً أخرى منها. أولاً أن كل منتدب إلى الدرجة الأسقفية يلزمه أن يدفع ستين قرشاً فقط تعويضاً عن ربح المدخول المعين على سبيل الإحسان للكرسي البطريكي ونحوه البطريك. ثانياً أنه يحق للسيد البطريك أن يجمع العشور من أبرشية فرغ كرسيها إلى أن يقام أسقف لها. ثالثاً أن لا يؤخذ شيء قطعاً من المتقدمين إلى الدرجات المقدسة. رابعاً أن كل من ترقى إلى الدرجات المقدسة من العالمين والقانونيين يلزم أن يرقبه مطران الأبرشية أو تكون ترقيته بإذنه. خامساً يحظر على الرهبان تحت طائلة الرباط أن يؤزعو سرّ التوبة على العالمين إلا بإذن صريح من أسقف الأبرشية. سادساً لا يبيح الرهبان ديراً إلا بإذن السيد البطريك وأسقف الأبرشية وعين حينئذ نائبان أو وكيلان للسيد البطريك وهما المطران يوحنا الحلو والمطران يوسف النتيان.

وأصدر آباء المجمع الحكم النهائي في أن يكون دير بكركي مقراً ثابتاً للبطريك وأن تختص به أملاكه الثابتة وغير الثابتة ورسموا الشروط الآتية: الأول أن يقيم البطريك دائماً في هذا الدير لا يبارحه إلا لداع صوابي وإذا غاب عنه لزم أن يبقى فيه وكلاؤه وأن يعنى بينائه وإصلاح ملكه. الثاني أن يدفع كل سنة مائتي قرش للمطران جرمانوس دياب ما دام حياً ولكل راهبة من راهبات هذا الدير خمسة وثلاثين غرشاً كل سنة ما دمن في قيد الحياة، وقرروا أن يسألوا الخبر الروماني إثبات قرارهم هذا.

وفي المجلس العاشر جددوا قبول كل ما رسم في المجمع اللبناني وأوصوا بمطالعة

رسومه والسلوك في أحكامهم على موجبها، ولم يزدوا عليها إلا تكرار النهي عن الربا إلا لسبب ربح متعطل أو ضرر ناتج عن القرض، وحتموا أن لا يؤخذ على كل قرش من القرض إلا أربع بارات على الكثير في مدة السنة كاملة.

وفي المجلس الحادي عشر شددوا الحتم على الكهنة أن يعلموا التعليم المسيحي كل أحد وعيد وأن يقدموا القداسات كما تعطى حسناتها وأن يحفظ في حق الولاية على الأوقاف ما رسمه المجمع اللبناني.

وفي المجلس الثاني عشر أعيدت تلاوة أعمال هذا المجمع وقبلها الآباء وتعهدوا بالعمل بها ووقع عليها البطريرك يوسف اسطفان والمطران جرمانوس آدم القاصد الرسولي وجرجس بنيمين مطران طرابلس ويوسف التيان النائب البطريركي ويوحنا الحلو مطران عكا والنائب البطريركي وبطرس مبارك مطران بعلبك وبولس اسطفان مطران جبيل والبترون وفيلبوس الجميل مطران قبرص وجرمانوس دياب مطران حمص والمطران يوسف نجيم، ثم القس عمانوئيل الرشماني المدير اللبناني بالنيابة عن جبرائيل مطران حلب، والخوري مارون العضم بالنيابة عن ميخائيل الخازن مطران دمشق، والخوري يوسف شرف الخازن بالنيابة عن ميخائيل فاضل مطران بيروت، والقس ميخائيل صاجاتي كاتب المجمع وجبرائيل الحاج موسى كاتب المجمع. أخذنا كلامنا في هذا الفصل ملخصاً عن أعمال هذه المجمع في السجلات البطريركية.

الفصل الخامس

بعض أديار الموارنة ومدارسهم وكنائسهم المنشأة في القرن الثامن عشر

عد ١٠٥

نذكر أولاً الأديار التي أنشأها الرهبان اللبنانيون والحلبيون أو سلّمت إليهم في هذا القرن، لمّا تكاثرت عدد الرهبان وضاق دير مار اليشاع عن سكناهم جميعاً وكانوا قد تركوا مرت مورا ياهدن ذهب بعضهم إلى قرية رشميا، وكانت هناك عائلة مارونية تقيّة تعرف ببيت أبي صابر وقد بنوا كنيسة على إسم القديس يوحنا المعمدان فسلموها إلى الرهبان، وأضافوا إليها عقاراً وقفوه عليهم على شريطة أن يعلم الرهبان أولاد القرية، فأنشأوا دير مار يوحنا رشميا سنة ١٧٠٦م، ثمّ إنّ الخوري صالح الخوري وأولاده من رشميا وقفوا عليهم عقارات أنشأوا بها دير مار أنطونيوس سير قريباً من رشميا سنة ١٧٠٧م.

وقد ذكرنا قبلاً قدم دير مار قزحيا وشهرته وقيام أساقفة به، وكان منهم أخيراً فيه المطران عبدالله حبقوق ولمّا توفي خلفه في هذا الدير المطران يوحنا حبقوق فسلمه إلى الرهبان سنة ١٧٠٨م فزادوا في بنائه واقتنوا له أملاكاً كثيرة حتى أصبح على ممر الأيام أكبر أديار الموارنة وأشهرها. وقد مرّ أنّ الشيخ سلهب الحاقلاّني أنشأ سنة ١٦٨٢م دير السيدة بلويزة في خراج زوق مصبح وجعله لسكنى الرهبان العباد وترهب فيه ولده القس اغناطيوس ثمّ سلم هذا الدير إلى الرهبان سنة ١٧٥٧م، ووقع في القسمة بين الرهبان اللبنانيين والحلبيين في نصيب الحلبيين ومثله دير مار بطرس كريم التين في قاطع بيت شباب الذي كان المطران يوحنا حبقوق المذكور قد

سَلَّمه إلى الرهبان سنة ١٧١٢م، وكان البابا اكليمنضوس الحادي عشر قد وهب لهؤلاء الرهبان دير القديسين بطرس ومرشليوس برومة على يد أحدهم القس جبرائيل حوا سنة ١٧٠٧م، فإنّ هذا البابا قد أرسل القس المذكور إلى مصر إلى أحد أساقفة القبط الذي كان قد أظهر ارتياحه لاعتناق الإيمان الكاثوليكي فنجح القس جبرائيل بمسعاه واستردّ الأسقف المذكور إلى حظيرة الإيمان القويم فكافأه البابا بأن وهب الدير المذكور لرهبانيته، ثم جعلوه مدرسة للرهبان سنة ١٧٢٥م. وأثبت البابا اكليمنضوس الثاني عشر قوانين هذه المدرسة إلى أن باعوها بأمر البابا بناديكتوس الرابع عشر سنة ١٧٥٣م، وشروا بضمها محلاً آخر برومة حذاء دير مار بطرس في السلاسل وجعلوه ديراً ومدرسة لهم على إسم القديس أنطونيوس أبي الرهبان، وقد وقع بالقسمة بين اللبنانيين والحليين في نصيب الحليين، وهو قائم إلى الآن وقد زاده المرحوم المطران أمبروسيوس نطين الدرعوني بناءً وإتقاناً وأنشأ له عقارات وأبنية للاستجار حتى كان الآن أغنى أديارهم.

وفي سنة ١٧١٢م أنشأ بعض أناس أتقياء دير مار الياس الرأس في جانب عينطورا ثم سَلَّم إلى الرهبان اللبنانيين سنة ١٧٣٦م، وخَصَّه السمعاني بسكنى الراهبات سنة ١٧٣٧م إثر الجمع اللبناني كما هو ظاهر من تقريره للبابا اكليمنضوس الثاني عشر، وكان المطران جبرائيل البلوزاوي قد بنى دير طاميش سنة ١٦٧٣م ثم سَلَّم إلى الرهبان سنة ١٧٢٧م، وأنشأ البطريرك سمعان عواد دير مشموشة ثم سَلَّمه الرهبان وتوفي به في ١٢ شباط سنة ١٧٥٦م، ووهبهم الشيخ شاهين موسى الحاقلاقي دير مار يوسف البرج سنة ١٧٤٦م بموجب صك أثبته مؤلف النبذة التاريخية في المقاطعة الكسروانية صفحة ١٦٨، ثم أنشأ الرهبان اللبنانيون دير مار أنطونيوس حوب سنة ١٧٤٩م، ونراه منضمّاً إلى الأديار التي ملكهم إيّاها الأمير يوسف شهاب سنة ١٧٦٥م كما سيأتي، ودير مار موسى الحبشي بالمتن سنة ١٧٥٣م، ودير مار جرجس الناعمة سنة ١٧٥٣م، ودير مار ميخائيل بناييل سنة ١٧٥٦م، ودير مار ساسين بسكننا للراهبات سنة ١٧٥٦م، ودير مار مارون بيرسنيين سنة ١٧٦٠م.

وفي سنة ١٧٦٥م ملكهم الأمير يوسف شهاب حاكم الجبل دير السيدة في ميفوق وما تبعه من العقارات القرية إليه ودير مار قبريانوس في كفيفان وما تبعه، وأنطوش جليل وما تبعه من العقار، وسلمهم كنيسة المدينة ودير مار أنطونيوس

بحوب في جوار تنورين، وتبعه كنيسة مار دوميط وعقار عين الراحة، وكانت هذه الهبة للقس أقليمس المزرعاني الرئيس العام للرهبانية ومديرها القس عمانوئيل الرشمانى والقس مرقس الكفاعي والقس يعقوب البشراي والقس جرمانوس الديراني وكان ذلك بعناية الشيخ سعد الخوري والشيخ سمعان البيطار.

وفي سنة ١٧٦٦م سلم الشيخ منصور يوسف الدحداح إلى هؤلاء الرهبان أيضاً دير سيدة المعونات المعروف بدير البنات قرب جليل، وسلّمهم صكاً به كما كان تسلّمه من الأمير يوسف شهاب ليجددوه ويتولوا عليه.

وكان هؤلاء الرهبان قد أنشأوا قبل ذلك دير مار الياس الكحلونية بالمتن سنة ١٧٦٢م، ودير مار أنطونيوس البادوي المعروف بدير النبع في قاطع بيت شباب سنة ١٧٨٥، ودير مار عبدا معاد سنة ١٧٩٥م.

وأما الأديار التي أنشأها وتسلّمها رهبان مار اشعيا في هذا القرن فهي:

الأول دير مار اشعيا بناه المطران جبرائيل البلوزاوي كما مرّ. وأرسل إليه سنة ١٧٠٠م أربعة قسوس من دير طاميش وتبعهم بعد ذلك القس بطرس عطايا من ساحل علما، والقس يواصف من عرمون كسروان، والقس سمعان عريض من قتاله. ولما رأى البطريرك اسطفانوس الدويهي رغبتهم في إنشاء رهبانية أثبت رسومهم وقانونهم، وكذلك خلفاؤه جبرائيل البلوزاوي ويعقوب عواد ويوسف ضرغام الخازن إلى أن أثبت الكرسي الرسولي قانون هذه الرهبانية سنة ١٧٤٠م.

الثاني دير مار الياس غزير وقد ذكرنا قبلاً إنشاء المشايخ الحبيشية وأهل غزير له ثم سلّموه إلى رهبان مار اشعيا أي إلى القس سليمان رئيس رهبان مار اشعيا بموجب صك مؤرخ سنة ١٧١٢م وصادق عليه من البطريرك يعقوب عواد.

الثالث دير مار عبدا المشمّر سلّمه البطريرك يعقوب عواد إلى القس عطالله كريكر من بيت شباب وكان هناك كنيسة وحارة فقط من أيام البطريرك الدويهي.

الرابع دير مار الياس أنطلياس سلّمه البطريرك يعقوب عواد إلى الرهبان المذكورين سنة ١٧٢٢م بموجب صكين.

الخامس دير مار سركيس إهدن ذكرنا أنشاءه قبلاً، وكان يخص عائلة بيت

الدويهي من إهدن فسّلمه إلى الرهبان بولس يوسف الدويهي والخوري بولس والخوري أنطون والخوري حبيب جميعهم من بيت الدويهي سنة ١٧٢٩م.

السادس دير مار جرجس ضبيه المعروف بدير عوكر سلّمه البطريك يوسف ضرغام الخازن إلى القس ابراهيم يواصاف الرئيس العام سنة ١٧٤٠م.

السابع دير مار يوحنا القلعة سلّمه الأمير يوسف مراد أبي اللمع إلى رئيس الرهبان المذكورين الأب سمعان عريض من قتاله وسلّمهم صكاً به يقال فيه إنّه أجاز رئيس عام الرهبانية الأنطونية أن يبنى ديراً في محل بيروت العتيقة فأنشأ الرئيس العام المذكور والقس ابراهيم عون المدوّن اسمه على باب كنيسة هذا الدير سنة ١٧٤٨م.

الثامن دير مار روكس زهر الحسين وقف أرضه آل قانصوه الخازن وبناه دير المطران بطرس الحاج من بكفيا، وكان من هذه الرهبة وكان ذلك سنة ١٧٦٢م. التاسع دير مار بطرس القطين سلّمه إلى الرهبة المطران جبرائيل عواد سنا سنة ١٧٦٠م.

العاشر دير مار سمعان عين القبو سلّمه المطران يواصاف البسكنتاوي سنا ١٧٦٩م إلى الرئيس العام القس ابراهيم عون.

الحادي عشر دير مار أنطونيوس بعداً أنشأه بيت ياغي من قرية بعداً قاصدين أن تدخل بناتهم في الرهبانية كبيت اسطفان وبيت الخازن وبيت آصاف وبيت صفير ولم يكن في الدير إلاّ معبد صغير للتقديس وبعض غرف حقيرة وكان ذلك سنة ١٧٦٤م في أيام البطريك طوبيا الخازن.

الثاني عشر دير مار أنطونيوس البادوي جزين أقامه الرهبان المذكورون بإذن البطريك يوسف اسطفان ومطران الأبرشية ارميا مطران الناصرة لسكنى الراهبات به وأخذ الرهبان بينائه.

الثالث عشر دير مار أدنا الفتوح اتفق الأمراء الشهابيون والمشايخ الحبشبيود والقس طوبيا عون رئيس الرهبة العام أن يبنوا ديراً على إسم مار أدنا في مقاطع الفتوح وأرسل الرئيس العام القس سلوانس جوده فرم أولاً الكنيسة القديمة التي كانت هناك وأذن له بطرس مبارك مطران الأبرشية والبطريك يوسف اسطفان أد

يخدم أبناء الطائفة القاطنين في تلك الناحية فعاون الأب نعمة الله الغزيري القس سلوانس جوده وأنشأ هذا الدير وكان ذلك سنة ١٧٩٢م.

فهذه هي أديار الرهبان الأنطونيين التي أنشئت في هذا القرن وأما الأديار التي أنشئت لغير هؤلاء الرهبان فمنها دير مار يوحنا البقيعة بعرامون كسروان ذلك أنه في سنة ١٧٠٥م حدثت مشاجرة في دير سيد الحقلة بين الرئيس والقس سمعان والقس افرام من عرامون فخرج القسّان من الدير المذكور وبهذا الطاعة لرئيسهما ثم أعطاهما أبو عون صوباط قطعة أرض في البقيعة وشرط عليهما أن يبنيا في القطعة المذكورة محلاً يتعلّم به أولاد قرية عرامون وما جاور الدير. قال مؤلف النبذة التاريخية في كسروان: لاني طالعت الصك الذي حرّره أبو عون ثم انضمّ راهبان آخران من دير مار عبدا هريريا إلى القسيسين المذكورين فشروا المحل حيث الدير الآن من الشيخ نادر أبي النصر الخازن بخمسة قروش وربيع، وأخذوا سنة ١٧٢٥م ببناء الدير. وفي سنة ١٧١٨م جدّد الخوري يوسف حبيش (الذي رقي بعداً إلى الأسقفية) دير مار جرجس علما وجعله لسكنى الراهبات.

وسنة ١٧٢٦م تكرّست كنيسة هذا الدير وجدد رهبان مار اشعيا بناء دير بكركي الذي باعوه بعداً إلى الراهبة هندية.

وسنة ١٧٤٠م جدّد الحاج أبو رزق نطين وابنه القس يوحنا من درعون دير مار يوسف الحرف بجانب درعون. وفي سنة ١٧٤٤م كان إنشاء دير الزيارة بعينطورا بعناية الأب أنطونيوس رئيس رسالة اليسوعيين في سورية، فقد شرى محل الدير من الشيخ أبي شروان موسى بن طريه الخازن بثمن قدره ألف وتسعمائة قرش دفع ثلثي المبلغ مما جمعه من الإحسان ومن الطالبات الدخول في الدير، والثلث الباقي من الثمن وهبه الشيخ المذكور للدير لأنّه كان له ابنة وشقيقة انتظمتا في سلك الطالبات، وهذا ظاهر من سجل الدير وصك الشراء المؤرّخ في ٧ حزيران سنة ١٧٤٤م. وبعد التمام الراهبات في الدير رأى الأب أنطونيوس المذكور أن يستسرن بقانون راهبات الزيارة الذي ألفه القدّيس فرنسيس سالس وأن يكون معرفته أحد الآباء اليسوعيين، واستماح الإذن بذلك من السيّد البطريك وأساقفة الطائفة فأجازوا ذلك بشرط أن تبقى الراهبات حافظات الطقس الماروني. وفي سجل الدير صك الإجازة هذا مصرحاً فيه أن تبقى الراهبات خاضعات لسلطان بطريك الطائفة دون

غيره من الأساقفة ومستيسرات بقانون القديس فرنسيس المذكور وحافظات الطقس الماروني وموقع عليه من البطريك سمعان عواد وبعض المطارين.

وفي سنة ١٧٤٩م أنشأ الشيخ عاد بن صخر الخازن الدير المعروف بدير سيدة البراز في كسروان للعبادات واتبعت قانون الراهبة هندية قبل إلغاء رهبانيتها. وقد جاء في النبذة التاريخية في كسروان أنه في سنة ١٧٦٤م جدّد الشيخ نمر بن أبي نصيف نوفل الخازن دير مار الياس بلوني وهو من أديار كسروان التي جدّدت بعد خرابه، لكننا نعلم أنّ هذا الدير كان قبل هذا التاريخ لأنّه في سنة ١٧٣٧م نقل السمعاني الراهبات منه إلى الأديار التي خصّها بالراهبات كما أوضح في تقريره للبابا اكليمنضوس الثاني عشر.

ونحو هذا الزمان أنشأ الشيخ عبد السلام بن عبد الملك الخازن دير مار موسى في القرية المذكورة، وأنشأ البطريك طوبيا الخازن الذي توفي سنة ١٧٦٦م دير مار أنطونيوس بقعاتا بكسروان، وقد أنشأه وهو مطران لأنّ السمعاني نقل الراهبات منه إلى الأديار التي خصّها بالراهبات كما مر. وفي السنة المذكورة كان أنشأ دير السيدة بمستيتا في بلاد جبيل ذلك أنّ الخوري بطرس ديب رئيس دير سيدة الحقلّة زار اتفاقاً في جبيل الأمير يوسف الشهابي حاكم لبنان وكانت له ابنة اعتراها مرض أعى الأطباء شفاؤه فاستأذن الشيخ سمعان البيطار الأمير ليدخل الخوري إلى مخدع ابنته ليصلي عليها علّ الله ينعطف بصلاته إلى برئها. فدخل وصلى عليها فأنعم الله بشفائها فطابت نفس الأمير وزال غمّه، ودخل الشيخ سمعان على الأمير يهنئه بابلال ابنته من المرض، فحدّثه الأمير بما يكافئ الخوري فأجابه أنّ هذا درويش راغب عن أموال الدنيا فإن لاقى لدى مولاي وهبه قطعة أرض يحرقها مع جماعته، فحسن كلامه للأمير وأمر أن يعطى الأرض المسماة مستيتا كلّها ودوّن الشيخ سمعان صكّاً بها باسم الأمير للخوري. وشرط عليه الشيخ سمعان أن يبني فيها ديراً على اسم السيدة فأخذ الخوري في بناء الكنيسة وبعض غرف بجانبها وكان الأمير يوسف المذكور أنعم على رهبان دير سيدة الحقلّة بدير مار دوميط البوار بفتوح كسروان، ومحل القديسة صوفيا بأرض الصفرا هناك ثمّ حكم البطريك يوسف اسطفان بفصل دير البوار عن دير الحقلّة.

وفي سنة ١٧٦٦م أيضاً أقام البطريك يوسف اسطفان في دير مار يوسف

الحصن بغوسطا الذي كان قد أنشأه من ماله في محل خصّه من متروكات والده.

وفي سنة ١٧٦٩م بنيت فيه كنيسة على إسم القديس يوسف البتول باحسان لويس الخامس عشر ملك فرنسا سيأتي ذكرها في جملة الكنائس.

وفي سنة ١٧٨١م استأثرت رحمة الله بالشيخ ميلان ابن البطريرك يوسف ضرغام الخازن وكان قد وقف كل ما يملكه على إنشاء دير السيدة ببقولش لأنّه لم يكن له ولد، وبأشر ببناء الدير وإعداده ليجمع إليه راهبات. وعاجلته المنية قبل أن يتم بناء الدير وخلفه في إتمام مشروعه ابن عمّه الخوري يوسف شرف بن كسروان الخازن فأكمل بناء الكنيسة سنة ١٧٨٣م. وفي سنة ١٧٩٧م بنى الخوري موسى ديب رئيس دير الحلقة الدير المعروف بدير العفص في محل وقفه أقرباؤه.

أمّا الأديار التي أنشأها الأجانب في كسروان خاصّة فهي دير مار أنطونيوس حريصا بناه رهبان القديس فرنسيس في محل وقفه عليهم الشيخ سنتو بن فياض الخازن منذ سنة ١٦٨١م، ودير القديس فرنسيس للكبوشيين، وكانوا قد حضروا إلى غزير وأقاموا أولاً في دير مار الياس غزير للموارنة باذن البطريرك كما مرّ ثمّ أعطاهم الأمير حيدر شهاب والي لبنان قبواً من سراي الأمراء العسافيين وبأشروا في بناء ديرهم المذكور سنة ١٧١٢م. ثمّ دير الخلّص المعروف بالكريم للأرمن فأنه في سنة ١٧٠٧م حضر أربعة شبان أرمن من حلب إلى لبنان فدخل منهم راهبان في رهبانية اللبنانيين في دير قزحيا واثنا حضرا إلى كسروان، فوهبهما الشيخ صخر بن أبي قانصوه الخازن محل هذا الدير بغوسطا سنة ١٧١٦م، فترهبّا به وأسسّا رهبانية الأرمن تابعين قانون رهبان القديس أنطونيوس اللبنانيين ثمّ سكن بطاركة الأرمن في هذا الدير إلى أن وقف عليهم الشيخ شرف دهام الخازن محل دير السيدة بيزمار فأخذوا ببناء هذا الدير سنة ١٧٤٩م وجعلوه كرسيّاً لبطاركتهم ومدرسة لاكليرسهم.

ومن هذه الأديار دير سيدة البشارة في جانب زوق مكاييل للملكيين الكاثوليكين فإنّ ثمان عذارى حليبات من هذه الطائفة حضرنّ إلى لبنان بقصد الرهبانية والتجأنّ إلى الآباء اليسوعيين المقيمين حيثنّ بعينطورا فساعدوهنّ على بناء هذا الدير في محل وهبه لهنّ الشيخ موسى الخازن سنة ١٧١٩م، ومنها دير مار ميخائيل بزوق مكاييل للرهبان الملكيين الكاثوليكين الخناوين بنوه في محل وهبه لهم الشيخ موسى بن طرييه الخازن سنة ١٧٤٧م، ثمّ دير سيدة النياح أنشأه الرهبان

الملكيون الكاثوليكيون بنفقة ابراهيم خير الدمشقي كما هو مسطر في التاريخ المنقوش على باب كنيسة هذا الدير، ووهبهم المحل لبنائه أولاد أبي خطار فاضل الخازن سنة ١٧٥٣م، ثم دير سيدة النجاة في الشرفة حذا درعون بناه الخوري يوسف مارون الطرابلسي. ولما فرّ ميخائيل جروه بطريك السريان الكاثوليكين من ماردن إلى لبنان سلّمه الموارنة الدير المذكور لسكنائه سنة ١٧٨٣م.

عد ١٠٦

مدارس الموارنة المنشأة في هذا القرن

مدرسة عينطورا

أنبأنا العلامة الدويهي أنّ الآباء اليسوعيين كان أول سكناهم في لبنان سنة ١٦٥٣م، وقد أبانوا هم في إحدى رسائلهم المعروفة بالرسائل المعمرة أنّ الأب لمبر ورفيقه الذين سافروا إلى سورية سنة ١٦٥٣م ثارت على سفينتهم ريح شديدة ألقتها في محل قريب من عينطورا فأخذهم أهل المحل إلى الشيخ أبي نوفل نادر الخازن حاكم ذلك المحل حينئذ، ولما عرف أنّهم مرسلون أنزلهم عنده وأكرمهم وأمر ببناء دار ومعبد لهم في محل من أملاكه بعينطورا، وكان يتردد إليهم ويلطفهم ويساعدهم وهم يطنبون مدحه في رسالتهم المذكورة.

وجاء في المجمع اللبناني صفحة ٥٤٨ ما ذكرناه في ترجمة الأب بطرس مبارك وهو أنّ هذا الأب الورع العالم بنى لأبناء ملّته على عهد ذلك المجمع مدرسة بقرية عينطورا وأجرى عليها الأرزاق ووكل تديرها إلى المرسلين اليسوعيين معلقاً ذلك على بعض شروط خشية أن يلتم بأبناء ملّته شيء من الضرر في المستقبل، فالمدرسة التي بناها الأب مبارك لم تكن محل اليسوعيين الذي بناه لهم الشيخ نادر الخازن بل كانت قرية منه أو ملاصقة له. وقد ذكر المجمع اللبناني الصك الذي دوّنه الأب فرنسيس رتز رئيس اليسوعيين العام عند استلامه هذه المدرسة وهذا ملخصه عن ذيل هذا المجمع صفحة ٦٧.

«فرنسيس رتزر رئيس الرهبانية العام. لما كان بعض أفاضل الموارنة قد أسسوا مدرسة اكليريكية بقرية عينطورا التابعة أبرشية بيروت (هذا كان قبل الجمع اللبناني) وقد طلبوا أن تكون إدارتها بيد مرسلي جمعيتنا فأجابهم سالفنا إلى طلبهم ونصب رئيساً عليها الأب أنطون ماريانكي ونحن نثبت هذا الأمر الذي ينطبق على روح رهبانيتنا ونحكم ونجزم بأسطرننا هذه أن يستمر قائماً ثابتاً إلى ما شاء الله. ونعلن أنّ من نية المؤسسين الفضلاء أن يقبل في هذه المدرسة من طلبة الموارنة ولا ينفي غيرهم من طلبة باقي الطوائف وخصوصاً القبط والكلدان بشرط أنّ عدد هؤلاء لا يتجاوز ربع الطلبة، ونأمر وننهي نهياً جازماً رؤساء جمعيتنا ووكلائها ألا يصرفوا أرزاقها ومداخيلها إلى غير وجهه وأن لا يجسروا على تخصيصها بالرسالات أو صرفها في أي سبيل خيري أياً كان. ونريد أن تبقى هذه الإدارة بيد وكيل الرسالات الشرقية في باريس ووكيل معاوية فرنسة المستقر هنا برومة بحيث أنّ مداخل هذه المدرسة لا تختلط مع مجموع المداخل الخاصة بالرسالات المذكورة وترسل إلى رئيس المدرسة على حدة، وإذا نزلت كارثة توجب نقل المدرسة من موقعها فحرصاً على نية المؤسسين نأمر بالألا تنقل إلى ما وراء حدود سورية أو إلى حيث لا يوجد موارنة ونأمر أن تبقى مداخيلها وأرزاقها في حالة نقلها ثابتة على حكمها كأن مركزها لم يتبدّل. وإذا ترك رجال جمعيتنا الرسالات السورية واضطروا إلى الخروج من سورية فتبقى إدارة أرزاق المدرسة وتديرها بيد من حكم الرئيس بأهليته للقيام بمقامه إلى أن يرى الرئيس العام القائم وقتئذٍ من يجب تسليم الإدارة إليه في مدّة غياب المرسلين وينبغي أن ترد إليهم لحال رجوعهم إلى سورية ولو قرر رؤساء الجمعية وجوب التخلي عن إدارة هذه المدرسة فعملاً بنية المحسنين التي أوضحوها لنا نعلن أنّ على الرئيس العام في هذه الحال أن يعهد بالمدرسة وبنائها ومداخيلها وكل ما يعرف بها إلى أشخاص آخرين يرى فيهم الجدارة. لذلك مع التوفّر على رعاية الشروط الآنفه الذكر بحيث أنّ المداخل والأرزاق تخصص وتصرف في سبيل قيام هذه المدرسة وحفظها إلى ما شاء الله وإذا تعدّر الحصول على ما ذكر فتقوم مقامها مدارس صغيرة ينشئها بطريرك الموارنة في بلاد طائفته على ما يرى. وبياناً لصحة ما تقدّم وقّعنا على هذا الصك بخط يدنا وخاتمتنا برومة في ٢٧ شباط سنة ١٧٣٤».

وبقي الآباء اليسوعيون يدبرون هذه المدرسة بحسب الشروط المذكورة نحواً من أربعين سنة ولما ألغيت جمعيتهم سنة ١٧٧٣ استولى البطريك يوسف اسطفان بطريك الموارنة على هذه المدرسة ومدرسة زغرتا الآتي ذكرها ثم تحوّلت جميع أديار اليسوعيين في الشرق إلى الرهبان العازريين بموجب براءة من البابا بيوس السادس مؤرخة في ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٧٨٣، وأمر من لويس السادس عشر ملك فرنسا مؤرخ في ٢١ كانون الأول من السنة المذكورة. ففي سنة ١٧٩٢ أقام رئيس العازريين الدعوى على هذه المدرسة وطلب تسليمها إليه كباقي أديار اليسوعيين فسلمها البطريك يوسف اسطفان إلى جمعيته طمعاً بأن يستحصلوا المبلغ الذي كان باقياً لهم عند إلغاء جمعية اليسوعيين وضبط في بنك باريس، وعلى الشروط التي مع اليسوعيين فلم يقبل العازريون هذه الشروط إذ أحلوا بها فتسلم البطريك ما كان يخص المدرسة وتسلموا هم ما كان يخص اليسوعيين.

مدرسة زغرتا

جاء في المجمع اللبناني صفحة ٥٤٩ ما ذكرناه في ترجمة المطران جرجس بنيمين الاهدني وهو أنّ هذا الأسقف إذ كان مطراناً بسورية قد أنشأ في قرية زغرتا من أبرشية طرابلس مدرسة وكنيسة وعيّن لها دخلاً كافياً لمعاش معلّم وتوطيداً لدعائم هذه المدرسة قد عهد بتديرها إلى الآباء اليسوعيين الذين انضوى إلى جمعيتهم معتزلاً الأسقفية، وشرط عليهم أن يعلموا من يؤمنهم من الأحداث من القرى الدانية أصول السريانية والعربية إمّا بأنفسهم وإمّا بواسطة معلّم يؤدون له أجرته، وأن يشرحوا التعليم المسيحي للشعب أّيّام الآحاد والأعياد كما يتبيّن من الصك الذي دوّنه الأب فرنسيس رتز رئيس اليسوعيين المار ذكره وهذا ملخّص هذا الصك أيضاً.

«فرنسيس رتز رئيس الرهبانية اليسوعية العام. لما كان حضرة الأب جرجس بنيمين الماروني مطران إهدن سابقاً وأحد أبناء جمعيتنا الآن قد بنى وهو أسقف داراً بجانب كنيسة السيدة في زغرتا وخصّص لهذه الدار من الحقول والعقارات الجارية على ملكه ما يفي بمعاش معلمين وإقامة مدرسة لتأديب الشبان في التقى والعلم، ولما كان سالفنا الأب ميخائيل تمبوريني عملاً بنية الأب بنيمين الواقف ووفاء بالرغبة

التي أبدأها خطأ خلفه مطران إهدن وبقية الوجهاء والسراة في زغرنا وإهدن في أن يشاهدوا هذه المدرسة خاضعة لديرنا بطرابلس ويروا مرسلينا يمارسون أعمال الرسالة في كنيسة السيدة بزغرنا قد عهد بتدبير هذه المدرسة وإدارة أملاكها إلى رؤساء ديرنا القائمين وقتئذ، فنحن نثبت ونقرر بأسطرننا هذه النافذة أبداً حكم سالفنا في مدرسة زغرنا والرسالة في الكنيسة القائمة بجانبها، ونحتّم ونجزم بأن يستمر هذا الحكم ثابتاً في المستقبل ونعلن أنّ نية المؤسس التي أوضحها لنا إنّما هي أن يتّخذ من المعلمين بمقدار ما تحتّم مداخليل هذه المدرسة ويتحتّم عليهم أن يشربوا الأحداث الآتين إليهم من كل طائفة التقى والعلم دون طلب أجره، أمّا اختيار المعلمين فيجب أن يكون بيد رئيس المدرسة أو معتمد من قبله وللرئيس السلطان على عزلهم ونصب غيرهم وتعيين رواتبهم والنظر بما يراه عائداً على الطلبة بمعظم الفائدة. ونعلن أيضاً أنّ مدرّسي هذه المدرسة لا يكلفون بأداء الحساب عن إدارة أرزاقها إلّا لرؤساء الجمعية وأنّ هذه الأرزاق تكون مخصّصة على الدوام ومعروفة بالمدرسة ولو اقتضت الحال أن تنقل إلى محل آخر، وبعد الحصول على الإذن الصريح من لدن الرئيس القائم وقتئذ. وننهي نهياً مشدداً هؤلاء الرؤساء والمديرين وكل من نيظ بهم إدارة شؤونها ونحظر عليهم بقوة الطاعة المقدّسة أن لا يقدموا على بيع أملاك هذه المدرسة الثابتة أو تبديلها ونريد أن يصرف كل الاجتهاد في الحرص على منقولاتها وأن لا تحول مداخليلها إلى وجوه أخرى ولو كانت للخير، وأن لا تخلط مع مجموع مداخليل باقي الأديار بل أن تكتب في دفتر مخصوص وتنفق في سبيل قيام المدرسة بكل أمانة. وإذا عرض ما ألجأ رجال جمعيتنا إلى الخروج من سورية دون أمل عود قريب فنريد تبعاً لنية المؤسس أن ترجع هذه المدرسة مع كل ما تملكه إلى يد مطران إهدن وأكابرها بكل أمانة وأن تسلّم إليهم بما عليها من التكاليف مع هذا الشرط وهو أنّه إذا عاد مرسلونا بعد مدّة أية كانت إلى سورية يعتبر أن قد ردت المدرسة إليهم بمجرد رجوعهم. وكذلك إذا أراد الرئيس العام أن يتخلّى عن تدبير هذه المدرسة وإدارتها لدواع صوابية فعملاً بنية المؤسس ترد وتسلّم مع أرزاقها إلى يد السيّد مطران إهدن وسراتها بما عليها من التكاليف. وبياناً لصحّة ما ذكر كتبنا هذا الرقيم موقعاً عليه بخط يدنا ومهوراً بخاتمتنا برومة في ١٠ كانون الأوّل سنة ١٧٣٥م. فرنسيس رتز. وبعد إلغاء الرهبانية اليسوعية سنة ١٧٧٣م ردّت مدرسة زغرنا إلى مطران إهدن بحسب هذه الوثيقة.

مدرسة عين ورقة

يظهر أنّ العناية الربانية قد تداركت الطائفة المارونية بأعداد خليفة لمدرسة رومة قبل سقوطها فإنّ رجال جمهورية فرنسة عند دخولهم إلى رومة في آخر هذا القرن الثامن عشر ضبطوا مدرسة الموارنة فيها وباعوها إلى بعض العلمانيين وكان الله سبحانه قد ألهم البطريرك يوسف اسطفان أن يحوّل دير عائلته المعروف بعين ورقة إلى مدرسة عامّة للطائفة. فقد مرّ أنّ القس خيرالله اسطفان بنى دير عين ورقة سنة ١٦٩٠م وارتقى هذا القس بعد ذلك إلى الأسقفية ودعي جرجس، وأقام بهذا الدير وخلفه بعده عدّة أساقفة من هذه العائلة وأقاموا غالباً بهذا الدير وجمعوا إليه راهبات واستمرّ هذا الدير كذلك إلى أن عاد البطريرك يوسف اسطفان إلى البطريركية بعد توقيفه عنها فحينئذٍ حوّل دير عين ورقة إلى مدرسة إكليريكية عامّة للطائفة المارونية بتحريضات الشيخ غندور سعد الخوري الذي كان حينئذٍ قنصلاً لفرنسة ببرت. وله رسالتان إلى البطريرك يوسف اسطفان بهذا الشأن أثبتهما المعلم رشيد الخوري الشرتوني في كتابه سلسلة بطاركة الموارنة الذي طبعه سنة ١٩٠١م وهما ناطقتان بما كان لهذا الرجل الهمام من الحمية والغيرة على طائفته المارونية والعناية بخيرها ونفعها. وقد حمل البطريرك على هذا المشروع الخيري ابن أخيه المطران يوسف اسطفان إذ كان بعد شماساً ثم صير كاهناً وأسقفاً ورئيساً لهذه المدرسة وله عليها أيادي بيضاء في نجاحها وتقدّمها. وقد أنشأ البطريرك المذكور سنة ١٧٨٩م صكاً مطوّلاً يبيّن فيه تحويل هذا الدير إلى مدرسة إكليريكية عامّة ووضع فيه نظامها وأخصّ قانون تلامذتها وشرح حقوق كل أبرشية مارونية على إدخال طلبة منها إليها إلى غير ذلك، وكتب إعلاماً وجهه إلى خلفائه من البطاركة الأنطاكيين وإلى مطارين الرعايا القائمين وقتئذٍ وإلى الشيخ غندور سعد القنصل الفرنسي ببيروت والمشايخ الخوازنة والحبيشية والدحادحة وكل مشايخ الطائفة وأعيانها القيمين حينئذٍ ومن يخلفهم ناشدهم بهذا الإعلام أن يسعفوا ويؤيّدوا بأنظارهم وإحسانهم ومحاماتهم مشروعه المذكور العائد إلى خير طائفتهم جيلاً بعد جيل، وطلب أن يوقعوا على إعلامه المذكور بخطوطهم وأختامهم بياناً على رضاهم بهذا الأمر الخيري وقبولهم المحاماة عنه والمساعدة له وهذا الإعلام مؤرّخ في ١٤ كانون الثاني سنة ١٧٨٩م.

ونبغ من هذه المدرسة كثيرون من الرؤساء الأماجد والعلماء الأفاضل حتى كان في القرن التاسع عشر أكثر بطارقة الطائفة ومطارينها وكهنتها الأجلاء المشتهرين من تلامذة هذه المدرسة وسيأتي ذكر كثيرين منهم. وفي جملة الأساقفة من تلامذتها كاتب هذا التاريخ الحقير ومن هذه المدرسة خاصة انبثت علوم اللغتين العربية والسريانية بين نصارى سورية وغيرها من العلوم والفنون.

عد ١٠٧

كنائس الموارد المنشأة في هذا القرن

إنّ الكنائس التي أنشأها الموارد أو جدّدوها في هذا القرن الثامن عشر كثيرة وليس من تعدادها كبير فائدة يستوجب صرف زمان في البحث عنها ولذلك نقتصر على أن نذكر منها ما عرفناه بأقل كلفة.

ومن المعلوم أنّ كل ما ذكرناه في الفصلين السابقين في الأديار والمدارس أنشئ في كل منها كنيسة أو معبد وهي تربو على ستين ديراً ومدرسة ونعلم مما سواها كنيسة سيده الوردية بزوق مصبح أنشأها كاهنان من هذه البلدة الخوري فرح والخوري رزق الله الزوقيان سنة ١٧٠٨م كما يظهر من تاريخ نقش عليها من نظم الخوري نقولا الصائغ الملكي الكاثوليكي وكنيسة القديس يعقوب المقطع بدلبتا شرع بينائها الخوري يعقوب الحصري جد الطيّب الذكر البطريرك يوحنا الحاج سنة ١٧٢٢م.

وفي سنة ١٧٦٣م أنشأ أبو عبدالله الرامي وأقاربه كنيسة مار الياس النبي بفالوغا كما يظهر من التاريخ المنقوش على بابها وهو: «أنشأ هذا الهيكل المبارك على إسم القديس مار الياس وكان المعتمي فيه أبو عبدالله أنطونيوس ابن المرحوم الخوري جرجس بن حبيب الرامي وبقية عائلته وكان يومئذ على الكرسي الأنطاكي مار طوييا الخازن الكلي الغبطة وكان المتولي في الحكم جناب الأمير شديد المحترم سنة ١٧٦٣م». وسنة ١٧٦٥م بنيت الكنيسة الكبيرة في دير سيده الحقة في أيام رئاسة الخوري بطرس ديب والقس يوحنا باسيل من معراب.

وفي سنة ١٧٦٩م أنشئت كنيسة مار يوسف الحصن بقرية غوسطا بإحسان لويس الخامس عشر ملك فرنسة فكان البطريرك يوسف اسطفان الذي أنشأ هذا

الدير في محل ورثه عن أبيه كما مرّ. اشتمدّ هذا الإحسان من الملك المشار إليه فأنعم به عليه ويظهر أنّ مهندسين فرنسيين وضعوا هندسة هذه الكنيسة فحنية مذابحها خاصّة بديعة وعلى مثلها بنى المطران يوسف أبو رزق رئيس مدرسة عين ورقة حنية كنيسة هذه المدرسة التي أنشأها في القرن التالي كما سيجيء.

ونحو هذا الزمان أو قبله بنيت كنيسة القديس جرجس القديمة للموارنة في بيروت وكانت صغيرة فسعى بتكبيرها الشيخ منصور اده وأخوه الشيخ بطرس بنفقة المطران يوسف فاضل مطران الأبرشية ونفقة الشيخين المذكورين ومعاونة وجوه الموارنة بالمدينة واستمرّت هذه الكنيسة هي الكاتدرائية المارونية ببيروت إلى سنة ١٨٩٤م التي بها احتفلت نهار أحد الشعانين بالقداس الأوّل في الكاتدرائية الجديدة على اسم القديس جرجس أيضاً وكنت قد بدأت في بنائها سنة ١٨٨٤م وأنفقت عليها نحو مليونين من القروش كما سيأتي.

وفي سنة ١٧٨٩م وقف يزبك خيرالله وأخواه يوحنا ومنذر قطعة أرض في مزرعة الحصين التابعة قرية غباله بالفتوح بنيت فيها كنيسة على اسم السيدة وهي المعروفة الآن بسيدة الشقيف وكان بهذا المحل خربة كنيسة قديمة مشهورة بعمل العجائب.

المقالة الثانية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن التاسع عشر

الفصل الاول

حكام الموارنة واعيانهم

عد ١٠٨

حكام الموارنة في هذا القرن

من بعد اواسط القرن الثامن عشر الى سنة ١٨٦٠م كان حكام لبنان موارنة. فإن الامراء الشهابيين في هذه المدة الذين تولوا لبنان اي اولاد الامير يوسف والامير بشير وغيرهم كانوا موارنة، ولما قسم لبنان الى قائمقاميتين مارونية ودرزية كان على قائمقامية الموارنة اولاً الامير حيدر اسماعيل ابي اللمع ثم خلفه بعد وفاته الامير بشير احمد ابي اللمع الى ان كانت الحرب الاهلية سنة ١٨٦٠م، وكان للموارنة في نظام لبنان المعمول به الآن أربع قائمقاميات في اربع اعمال وهي البترون مع جبة بشري وزاوية طرابلس ثم كسروان مع الفتوح وبلاد جبيل ثم المتن مع قاطع بيت شباب وساحل بيروت ثم جزين مع ما يليها، ينصب فيها اربعة قائمقامين من الموارنة من الامراء وغيرهم واكثر المديرين في هذه القائمقاميات هم موارنة، ومنهم عدة مديرين في قائمقامية الشوف. واما في زحلة والكورة فلا مدير لهم فيهما لصغرهما وان كان من الموارنة جماعة كبيرة فيهما.

واما الاعيان الموارنة في هذا القرن فقد تكاثروا عديدهم وربما على ما تتمحله

حالتهم و ثروتهم، فالأمراء الشهابيون في لبنان صاروا جميعاً نصارى موارنة إلا قلائل منهم اتبعوا طقس الملكيين الكاثوليكين او الملكيين غير المتحدين، وكذلك الامراء اللمعيون إلا نفرأ منهم اتبعوا طقس الملكيين الكاثوليكين، وازداد ايضاً كثيراً عدد المشايخ الخازنيين والحبيشيين وآل ظاهر وآل دحداح ومشايخ جبة بشري وآل أبي صعب وآل هاشم، وهؤلاء كانوا دائماً ما برحوا موارنة قحاً. ولكن زيادة عددهم وتوفر احتياجات المعيشة والملبس والأثاث في هذا العصر آلت بكل هذه الأسر الشريفة الى الانحطاط وضيق ذات اليد في عيال كثيرة منهم، وقُلّ من بقي يتمكن من أن يعيش كما يقتضيه شرف اصلهم. وزاد في الطين بلة انتشار روح الحرية في هذا العصر فحمل الاهلين على ازدراء سلطتهم وانكار وجاهتهم وعدم رعاية شرف اصلهم، فنار اهل كسروان على مشايخهم الخوازنة وطردهم من اوطانهم واعتدوا على حاصلات املاكهم حتى قتلوا نفرأ منهم، فذهب ذلك بمجاثمتهم وجشمهم اضراً وخسائر، وانتشرت هذه الروح في باقي اعمال لبنان فانحطت مهابة الامراء ايضاً وباقي المشايخ لا الموارنة فقط بل غيرهم ايضاً من اية طائفة كانوا. وعندنا ان هذه الحطة في مقام شرفاء البلاد أضرت بها كثيراً إذ كثر رؤساء القوم، ولا مشاحة انه حيث كثر الرؤساء كثر الخلاف ولم تستقم الحال. وبعد أن كانت سلطة البلاد تنحصر برأي كم وجيه من هذه الاسر امسينا ألعوبة، فتعددت آراؤنا بقدر تعداد افرادنا، على اننا لا ننكر ان بعض الجهلة من هذه الأسر تسبب بهذا الانحطاط بأعمالهم التي لم تنطبق على واجبات الحق والعدل والشرف، ولم يكن من جهة العقلاء من يتدارك غوائل عمل الجهلاء فأفضت الحال الى ما تراها فيه الآن والله في خلقه غايات لا تدرك.

وكان من اعيان الموارنة في اواخر القرن الثامن عشر واول الثاسع عشر الشيخ جرجس باز ابي شاكراً من دير القمر وأخوه عبد الأحد، وكانا مدبري اولاد الامير يوسف شهاب والتمسا لهم سنة ١٧٩٢م من الامير حيدر والأمير قعدان والي لبنان حينئذ أن يؤجرهم بلاد جبيل فأجروهما اياها بستين ألف قرش كل سنة، وكان جرجس باز حازقاً خبيراً بأساليب السياسة استمال الى مخدوميه اعيان البلاد واصحاب المناصب فيها حتى آثروهم على الاميرين الواليين واستهانوا بهما، وأصبحتا عاجزين عن ادارة البلاد وجباية المال الاميري منها، فأشار عليهما بعض اصحابهما ان يسلما الولاية الى اولاد الامير يوسف حذراً من ان يستردها الامير بشير الكبير،

فراسلا جرجس باز بذلك، فأرسل أخاه عبد الاحد إلى الجزار ومعه مائة ألف قرش فأرسل الجزار خلع الولاية إلى اولاد الامير يوسف وابقى عبد الاحد رهناً على ما بقي من المال، فلبس اولاد الامير يوسف الخلع وساروا مع جرجس باز إلى دير القمر. ولما تغلب الامير بشير على اولاد الامير يوسف واخذ الولاية من الجزار سار جرجس باز بمخدوميه إلى جبيل ولم يلبث الجزار أن تغير على الامير بشير سنة ١٧٩٤م وكتب إلى اولاد الامير يوسف أن يحضروا لديه ليوليهم فحضروا من جبيل إلى ساحل بيروت، فأرسل لهم الخلع فسار احدهم الامير حسين إلى دير القمر ومعه مدبره جرجس باز وسار احدهم الامير سعد الدين إلى جبيل، إلا ان الجزار تغير سنة ١٧٩٥م على اولاد الامير يوسف وعزلهم من الولاية وولى الامير بشير، فأراد ان ينتقم من اولاد الامير يوسف فعارضه بذلك جرجس باز مدبر الامراء، وتمكن في سنة ١٧٩٨م أن يرّد الولاية إلى اولاد الامير يوسف، لكن اوقفهم الجزار عن المسير إلى لبنان بسبب قدوم العساكر الفرنسية إلى اسكندرية ثم إلى عكا. وبعد أن ارتحل الفرنسيين عن عكا خلع على الاميرين حسين وسعد الدين ابني الامير يوسف وسيرهما إلى لبنان وابقى اخاهما الامير قاسم رهناً عنده، فتوجه جرجس باز مع الامير حسين من جهة البقاع واخوه عبد الاحد مع الامير سعد الدين من جهة اقليم الخروب وطاردوا الامير بشير حتى اضطر إلى الخروج من لبنان بدعوة سميت الاميرال الانكليزي له لمقابلة الصدر الاعظم في غزة، ولما عاد الامير بشير إلى لبنان ومال السواد الاعظم من اهله إلى إعادة الولاية إليه بقي جرجس باز معارضاً بما قدر عليه من التدابير إلى أن وقع الصلح، على أن يتولى اولاد الامير يوسف بلاد جبيل والامير بشير باقي البلاد، واقام جرجس باز في دير القمر عند الامير بشير في اوج الوجاهة واخوه عبد الاحد في جبيل ويده زمام الحكومة.

ولما توفي الجزار ونصب ابراهيم باشا مكانه وبلغ إلى دمشق ارسل إليه الامير بشير جرجس باز بمائة فارس فأمر الوزير أن تلتقيه قواد العساكر والاعيان ودخل جرجس باز عليه فأكرمه وأجلّه وكان يستشيريه في مهامه، وعظمت منزلة جرجس باز واخيه عند اعيان البلاد ولم يكن لهما ميل إلى الامير بشير بل كانا يصنعان افعالاً تسوءه، فأضمر لهما السوء واتفق مع اخيه الامير حسن على اغتيالهما ووافقهما على ذلك المشايخ اليزبكية الدروز وساروا مع الامير حسن إلى جبيل في ٥ ايار سنة ١٨٠٧م، واحاطت جماعة بعبد الاحد باز في داره فألقى نفسه من

شباك فقتله من كانوا اسفل، وفي النهار المذكور استدعى الامير بشير الشيخ جرجس باز اليه ولما جلس بحضرته خرج الامير واغلق الباب وامر بعض الدروز أن يدخلوا ويقتلوه فدخلوا عليه وخنقوه.

وكان من اعيان الموارنة في هذا القرن المشايخ بنو ابي صعب فأبو صعب هو جرجس ابن الخوري بطرس بن يونان ابي سليمان من المتين وكان له اربعة اولاد اسعد والياس وغالب ونصيف وقد أقام بخدمة الامير يوسف شهاب واشترى املاكاً في جبيل وارثل البها، ولما نزع المقدمون بنو الشاعر من تولا سنة ١٧٧٠م اشترى ابو صعب دارهم في تلك القرية، ثم شرى بعض مزارع في جنوبي جبة بشري واستوطن احدهما المعروفة بمزرعة الحاج حسن وتعرف الان بمزرعة بيت ابي صعب، وعاون مشايخ جبة بشري على طرد المتاولة منها. وقد اشتهر ابنه اسعد بفراسته وشجاعته في وقائع عديدة في ايام الامير يوسف واولاده والامير بشير الكبير. وتوفي ابو صعب جرجس سنة ١٧٩٤م واستمر ابنه اسعد يزداد شهرة في بسالته في خدمة الامير بشير الى أن توفي سنة ١٨٢٣م وله ابنان جرجس ويوحنا، وسنة ١٨٣٤م دعا الامير امين ابن الامير بشير شهاب يوحنا المذكور لخدمته وجعله رئيس كتابه، وسافر سنة ١٨٤٠م معه ومع الامير بشير والده الى مالطة، فتعلم هناك اللغة الايطالية ثم سافر معهما الى الأستانة سنة ١٨٤١م فتعلم التركية وأتقن اصول الخط العربي فنبغ فيها ورجع الى بيروت سنة ١٨٤٩م كاتباً عربياً في خدمة مصطفى باشا الشكودري، ثم استدعاه وامق باشا والي ايلة صيدا واعزه وجعله ترجماناً لطائفته عنده، ولما تولى الامير بشير احمد ابي اللمع قائممقامية النصارى سنة ١٨٥٤م جعله رئيس كتابه وقربه اليه. وسنة ١٨٥٥م أنعم عليه وامق باشا بلقب بك فكتب له الامير ولأقاربه الأخ العزيز مثل باقي مشايخ لبنان، وتزوج يوحنا زيجة اولى بنت يوسف فرنسيس نادر من المشايخ بيت الخازن، وخدم متصرفية لبنان مدات بوظيفة رئيس القلم العربي في مدة داود باشا وفرنكو باشا ورستم باشا وتوفي من سنين وكان شاعراً وله ديوان كبير.

وأما اخوه جرجس فقد اشتهر بالشجاعة في المواقع التي كانت بين النصارى والدروز سنة ١٨٤١م، وفي سنة ١٨٤٣م اختير عضواً لديوان الامير حيدر اسماعيل قائممقام النصارى، وعزل سنة ١٨٥١م ثم اعاده الامير حيدر الى وظيفته سنة ١٨٥٣م، ولما تولى الامير بشير احمد قربه اليه وبقي في خدمته الى أن توفي

سنة ١٨٥٨م، وكان ابنه اسعد والياس في عضوية مجلس ادارة لبنان على التعاقب في نظام لبنان الحالي عدة سنين.

عد ١٠٩

يوسف بك كرم

هو ابن الشيخ بطرس كرم حاكم اهدن وما يليها. ولد بإهدن سنة ١٨٢٥م على ما نعلم ونشأ على روح الدين والتقوى وحب الشرف وطلب المعالي وأقام له ابوه من اهتم بتعليمه اللغة العربية والفرنسية ومبادئ العلوم، وتعلم علم السلاح من اطلاق رصاص وضرب سيف على الشيخ عماد الهاشم العاقوري الشهير وبرع في ذلك ولو كان للنصارى حظ في الجندية في الممالك المحروسة وتجنّد لكان للسلطنة فيه قائد من اعظم قواد هذا العصر كما سترى من ذكر اعماله. وفي نحو السنة العشرين من سنة نصبه الامير حيدر اسماعيل قائمقام النصارى حاكماً على اهدن اقطاع ابيه واسرته وله في مدة حكومته هذه اعمال تذكر فتشكر من اجراء عدالة وعفاف نفس ومحافظة على آداب، ورعاية دين وتدريب شبان على محبة الدولة والوطن، مقرناً كل ذلك بصلاح سيرة وورع وايمان حيّ وغيره على الدين والادب. وقد تفرر بحبه الطهارة حتى يمكن أن يقال عنه انه في حياته كلها ما نظر الى وجه امرأة نظراً يؤاخذ عليه، وقد عاش نحو عشرين سنة في مدن اوروبا كباريس و نابولي والناس تتعجب من فضيلته هذه، ورؤساء الدين يجعلونه مثلاً للطهر ويحثون على الاقتداء به. ومع ما كان عليه من الوجاهة وسعة اليد استمر متبتلاً حياته كلها.

وكان قد عزم في سنة ١٨٥٩م أن يجمع كهنة علماء ويوقف املاكه عليهم ويعيش معهم مثابراً على اعمال الرسالة الدينية والروحية، وقد كاشفني بهذا ورغب الي ان انضم اليهم وانا كاهن معلم في مدرسة القديس يوحنا مارون، فأجبتة أن يلزم الثاني بفحص دعوته لأنني أرى ان المقتدرين مثله على نفع عباد الله في الزمنيات قليلون جداً، وأما الكهنة المقتدرون على الرسالة فكثيرون، وعليه ارى ان الله يدعوه لنفع عبادته بالزمنيات بالاولى. كنا في هذا الحديث مساء بداره باهدن

السنة المذكورة، وفي اليوم التالي وردت الاخبار المنبئة بحصول وقعة بين النصارى والدروز في قرية بيت مري فرأيته شبت فيه نار الغيرة وهبت عاصفة الحمية والوطنية واخذ يستدعي مشايخ جبة بشري والزاوية ووجوههما لاجتماع في قرية بان حيث خطب فيهم مبيناً ما يلزم عمله والاحتياط به وقاية من غوائل الحال المستقبل، وكأنه ناظر بذكائه ما كان بعداً، ولدى اجتماعي به ثانية أئنت له أن الله يدعو لغير الرسالة. فقال حينئذ: (لتكن مشيئة الله).

ولما انتشبت الحرب الاهلية بين النصارى والدروز سنة ١٨٦٠م ارسل صكوك املاكه الكثيرة الى بيروت يرهنها عند من يدفع له ثلاثمائة الف غرش لينفقها في المجاهدة النصارى، وقام في نحو اربع مائة شاب اختارهم من جبة بشري وصحبه في سيره كثيرون الى أن بلغ بكفيا مجتمعاً اليه نحو الف مقاتل، فورد له رسالة من قنصل افرنسة الكونت دي نيتي فوليو يمنعه فيها من التقدم الى بلاد الدروز لئلا يثبت ان النصارى معتدون، فأجابه ان الجميع يعلمون ان الدروز ابتدأوا القتال وما انفكوا يجددونه وما نحن إلا مدافعون عن نفوسنا واخوتنا، فأرسل القنصل اليه ثانية يقول قد اتفقت انا وقناصل الدول وخورشيد باشا على ان دولته يمنع الدروز عن كل عمل عدواني وانا أوقفكم في محلكم، وإذا لم تقفوا في بكفيا حيث انتم كان النصارى جميعاً مسؤولين بعملكم. فأجابه قد امتثلت الامر وان كنت على يقين ان الدروز لا يقفون عن القتال ولكني إذا شعرت بأقل حركة منهم اسرعت للحال الى المدافعة. وبعد ارسال الجواب ورد الخبر ان الدروز والعرب وغيرهم محاصرون زحلة فهبّ البك برجاله طلق العنان، ولكنه لما اطل على زحله رأى النار تشتعل في بيوتها ثم التقى بالفارين منها فعاد الى المروج ثم الى جونية جاعلاً لها مركز المدافعة متجشماً نفقات لا تقدر على رجاله وعلى كثير من الفارين. وقد بقي بجونية مع رجاله الى ان وفد فؤاد باشا والعساكر الفرنسية الى بيروت فسماه فؤاد باشا وكيل قائممقامية النصارى وأظهر له المحبة والايانس، وقدره الفرنسيون ووكلاء الدول حق قدره وكان الجنود الفرنسيون يسمونه يوسف الاول، ولكنه اختلف اخيراً مع قسم من كبارائهم لنصحهم لهم بترك بعض مظاهرات تعود على شأنهم بالانحطاط وعلى البلاد بالضرر، واستمر على وكالة القائممقامية الى أن سمي داود باشا متصرفاً للبنان. وأراد داود باشا أن يستعمل كرم بك في احدى قائممقاميات لبنان لعلمه بما له من نفوذ الكلمة وما للشعب من الهوس به، لكن البك كان يعلم بما كان من

المفاوضات بالآستانة من شأن متصرف جبل لبنان، وانه سمي اجنبياً على سبيل الاختبار مدة ثلاث سنين، وإذا لم ينجح فيها استبدل بحاكم وطني كما كانت فرنسا والتمسا وروسيا بتبغي، ولذلك ابى قبول اية وظيفة كانت. ولما كثر الإلحاح عليه بقبول منصب شرط أن يستقيل منه متى أراد تخلصاً فسمي بقائمقامية (كانت حينئذ تسمى مديرية) جزين فاستقال منها في اليوم الثالث كشرطه وسار الى داره بإهدن.

وسمي الأمير مجيد شهاب قائمقاماً على كسروان والبترون (جعلاً بعدئذ قضاءين) ورغب في أن يتفق مع يوسف بك كرم وكاشفه بذلك على يد بطريركية الموارنة فأبى البك إلا الاعتزال عن كل خدمة للحكومة، فوجس داود باشا من هذا الاعتزال وشكا الامر الى فؤاد باشا فكتب الى كرم بك أن يحضر اليه طلق العنان (كما في اصل الرسالة) فأسرع بالحضور الى بيروت دون ابطاء، ولما قابل فؤاد باشا امره أن يبقى حيث كان في الثكنة العسكرية، فبقي فيها مكرماً وبعد ايام صحبه فؤاد باشا معه مسافراً الى الآستانة في آخر سنة ١٨٦١م.

وأقام بالآستانة مكرماً مطلقاً له أن يتوجه حيث شاء إلا سورية وعين له راتب شهري، وانتقل بعد مدة الى قرية برنابا بجوار ازير منتظراً نهاية مدة الاختبار بمرور ثلاث سنين، ولكن عند نهايتها في سنة ١٨٦٤م كان بعض عمال فرنسا قد غير افكار رجال وزارتها في شأن طلب حاكم وطني، فعدلوا الى تجديد ولاية داود باشا. ولدى اجتماع سفراء الدول عند ناظر الخارجية بالآستانة تقرر هذا التجديد ولما عرف يوسف بك بذلك سار مسرعاً من برنابا الى ميناء طرابلس ثم الى زغرتا فبلغها في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٨٦٤، فاهتز لبنان له وأثمه الناس افواجاً من كل انحاء لبنان، ورأى داود باشا ان لا قوة كافية له لكبته فلجأ الى بطريرك الموارنة واعدأ أن يسترضي الدولة عن يوسف بك وينيله كل ما يبتغي بحيث أن يكتب له كتاباً يبين فيه انه يريد الإقامة بوطنه خاضعاً للشرعية والنظام، وبعد الإلحاح على البك بذلك كتب له كما رغب وأجابه الباشا مؤمناً له ومبدياً كل انعطاف اليه.

صنع داود باشا هذا وسافر سنة ١٨٦٥م الى الآستانة عالماً انه لا تستقيم له حال إلا أن يدلل كرم أو يبعده عن البلاد، وعرض الامر على الباب العالي مدعياً انه لا وسيلة له في حكم لبنان إلا بأن يستريح من كرم، واستعد لحربه واتى بفرقة

من الدراغون الى لبنان، وبعد عوده من الآستانة قبض في آخر السنة المذكورة على بعض انبياء كرم واصحابه قاصداً تهيججه، وأتى وأقام بصحراء جونية يصبحه العسكر اللبناني والدراغون وفريق من العسكر العثماني، وعلم يوسف بك بما وراء الاكمة فأتى بجمهور من سكان شمالي لبنان غالبهم من اهل السلامة لا من اهل الحرب إذ كان مقصده ابداء مظاهرة تحمل الباشا على الصلح. وبلغ البك في حشده في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٦٦م الى دير مار دوميط البوار وبينما كان يسمع القداس اطل بعض فرسان الدراغون على رجال البك وناوشهم القتال فشبت نار الحرب، وتقدم البك برجاله الى المعاملتين فزادت نار الحرب تسعراً وقتل من الطرفين عدة قتلى، وأتى بعض الكسروانيين من جهة غزير لانجاد الكرنيين فصدتهم العسكر الذي كان في غزير وعاد البك برجاله الى زغرتا.

ان في ما كان ليوسف بك كرم في الاحداث الآتي ذكرها موعظة فعالة ووزاعاً شديداً في ردع كل فرد من رعايا الحكومات عن أن يجسر ولاسيما في هذه الايام على أن يعاند السلطة العظمى ولو مهما كان متبوعاً او كان مزيناً به من الشجاعة والبسالة، حتى ولو كان معتقداً بأنه يخالف عمال الحكومة لا رأسها فالحكومة ترى العصيان على عمالها عصياناً عليها كما كان لهذا الرجل، فإنه بعد انكسار رجاله في المعاملتين كتب الى عمال الباب العالي بسورية والى قناصل الدول ببيروت يقيم الحجة على انه متشبث بالطاعة للمتبوع الاعظم ولا يريد العصيان ولا محاربة عسكر الدولة العلية، على انه لا بد له من المدافعة عن نفسه وأرفاقه إذا ارسل داود باشا العساكر عليه، فأخذ داود باشا يبين لهم ان ترك كرم في هذه الحال حطة في شأن الحكومة ولا يستقيم لها حال إلا باذلاله وابعاده، ويتعهد بكبته بأقرب آن وبأيسر وسيلة، فأجيب الى طلبه بتوجيه العسكر ثانية اليه فأرسل العسكر اللبناني ونحو ثلاثة آلاف مقاتل من جنود المملكة فقام البك من زغرتا الى بنشعي ومعه نحو اربعمائة رجل فتبع العسكر آثارهم واضطربت نار الحرب ساعات وفي آخرها رجع عسكر داود باشا مدحورين الى طرابلس، وكسب الكرميون شيئاً كثيراً من سلاحهم استعانوا به على حربهم في مواقع اخرى.

فاتسع خرق هذه الفتنة وامسى ضربة لازب أن تنتصر الحكومة اعلاء لشأنها فجمع داود باشا نحو ثمانية آلاف مقاتل وسيرهم على كرم وهو في قرية سبعل واصحابه لا يبلغون خمسمائة رجل، فتلظت نار الوغى بين الفريقين من الصباح

حتى المساء، وبات كل من المتحاربين متحفزاً للقتال، وعند الصباح رأى كرم انه لم يبق لرجاله بارود فصرف جمهوراً منهم ليذهبوا في سبيلهم ومضى بن بقي الى داره في اهدن ثم عمد الى الاختباء ومعه نحو خمسة عشر رجلاً فدخل العسكر اهدن وحرق داره.

وكان كرم يغير مخبأه وقد كبسه مرات رجال الحكومة وكان يتملص منهم سالماً ظافراً فكبسه مرة مدير بشري ومعه نحو مائتي رجل وكان في خربة بيته بإهدن ومعه سبعة رجال بدد بهم حشد المدير. وكان مرة في وادي النسر في منعطف لبنان من جهة بعلبك فجمع قائمقام بعلبك حشداً كبيراً من جنود وغيرهم نحو الف رجل وقصدوه في مخبئه فهب اليهم بسبعة رجاله فلم يجسروا ان يدنوا منه بل ولوا هاربين. واحتاطه مرة في نبع جوعيت نحو ألف رجل فانحدر امامهم في وادي النهر لجهة مزارا فأقاموا له كميناً على الطريق التي بين سبل ومزارا واتبعه الرجال على ضفتي الوادي، ولما بلغ الكمين وايقن أن لا مناص له صاح بأصحابه وكانوا نحو خمسة عشر رجلاً: سيوفكم يا أبطال واستل سيفه ومشى على القوم المشتبكين في الطريق وحوله رجاله فارتاع الكامنون وانحسروا من طريقه واجتاز بينهم ومضى.

واخيراً سمعت نفسه الاختفاء فهت متظاهراً على نبع جوعيت وتألّب اليه نحو ثلاثمائة شاب من نخبة رجاله، فسار بهم في وسط البلاد لا يعترضه احد بل رحب به الجم الغفير مازاً بجبة بشري وبلاد البثرون وجبيل وكسروان الى أن بلغ بكفيا في أواسط كانون الثاني سنة ١٨٦٧م والعسكر اللبناني يتبعه عن بعد ولم يتحرش لقتاله إلا في الوادي الفاصل بين كسروان والقاطع، وقبل ان ينتهي القتال بلغ الى البك وفد من قبل القنصل الفرنسي العام يعرض عليه أن يكون مظللاً بحماية فرنسة ويسافر اليها بضمائنها وأن يلتقيه الى بطيركية الموارنة، ذلك ان داود باشا رأى اتساع الخرق على الراقع فلجأ الى قنصل فرنسة بهذه الوسيلة فأذعن البك لوساطة القنصل وعاد الى بكركي وجاء القنصل اليها.

وشهر القنصل اعلان حماية فرنسة لكرم على الجمهور وقبل البك هذه الحماية وأن يسافر الى فرنسة تحت رايتها وبارح بكركي قاصداً بيروت للسفر منها الى مرسيليا فاجتمعت في بكركي ألوف مؤلفة ورافقه اكثرهم الى بيروت وغصت

الطرق بالملاقين له من بكركي الى بيروت وكان لدخوله الى بيروت ملتقى قل أن يسبق له نظير وسافر منها الى مرسيليا في شهر شباط سنة ١٨٦٧م.

وسار من مرسيليا الى جزائر الغرب حيث اقام مدة وجعل له عاهل فرنسة جعلاً سنوياً ألف ليرة فرنسية ثم استأذن بعدها بالحضور الى باريس فشخص اليها، ولما لم يز من وزير خارجيتها ما يوافق مصلحته خرج منها الى البلجيك ثم اتى الى رومة فأقام بها مدة وصرف مدة اخرى في كورفو وعاد الى نابولي فتوطنها مدة طويلة. وفي سنة ١٨٨٧م بلغ الباب العالي انه يسعى ليأخذ الجنسية الايطالية فوجس من ذلك، وكنت تلك السنة برومة فأوعز اليّ سفير دولتنا العلية أن أقنعه بالعدول عن ذلك فعند مبارحتي رومة عرجت الى نابولي وكاشفته بما قيل عنه فحقق لي ان ما عزي اليه من اتخاذه جنسية ايطاليا لم يخطر له ببال وانه لو شاء أن يغير جنسيته العثمانية لأمكنه أن يتخذ جنسية دولة اخرى لكنه حافظ ويريد أن يحافظ ما دام حياً على صبغته العثمانية، وانه كرر قيام الحجة مراراً على انه ما قصد البتة أن يخرج من طاعة السلطان الأعظم، بل ان كل ما عمله لم يكن إلا مدافعة عن نفسه من ظلم خصمه داود باشا. واستشهد جريدة الجوائب التي كانت في مدة حربه مع داود باشا تجد في اثبات هذه الحقيقة اي انه لم يكن عاصياً على الدولة بل على داود باشا، ولما بلغت الى الآستانة العلية وعرضت ما قاله لي على فخامة الصدر الاعظم كامل باشا أسمعني انه إذا اراد كرم نصّبه قائمقاماً او متصرفاً ايضاً على احدى مدن سورية خارجاً عن لبنان، فكاشفته بذلك فاجابني انه يابى كل خدمة ويؤثر ان يقضي ما بقي من حياته في الغرب. وهكذا كان، فإنه توفي بنابولي سنة ١٨٨٨م ودفن في احدى مدافنها ولم يحنّط. وبعد نحو خمسة عشر شهراً ارسل البكوات ابناء اخيه من يأتي برفاته الى موطنه فعجب كل من حضر من بقاء جثته سالمة من الفساد وقد آتت بها الى اهدن وشاهدها خلق كثير لا يحصى بريئة من الفساد والتغير ويعزو الجمهور ذلك الى فضيلة طهارته التي حافظ عليها في حياته كلها بشهادة كل من عرفه في المشرق والمغرب.

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم من الموارنة

عد ١١٠

المعلم بطرس البستاني

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن ابي شديد بن محفوظ بن ابي محفوظ البستاني (كذا ذكر نسبه في كتابه دائرة المعارف). ولد بقرية الدبية باقليم الخروب سنة ١٨١٩م ودرس مبادئ العربية والسريانية على الخوري ميخائيل البستاني ثم ارسله نسيه المطران عبدالله البستاني مطران صور وصيدا الى مدرسة عين ورقة، فتلقى فيها آداب اللغة العربية ثم اللغات السريانية والايطالية واللاتينية ثم العلوم الفلسفية واللاهوتية والشرعية الكنسية والتاريخ والجغرافية والحساب، وأراد البطريرك يوسف حبش أن يرسله الى رومة للتكامل بعلومه فلم ترض أمه اذ كان ابوه توفي فعين معلماً في المدرسة المذكورة وبقي فيها الى سنة ١٨٤٠م، حين حضرت مراكب الدول الى ثغور سورية لاعانة الدولة العلية على اخراج الحكومة المصرية منها فاستخدمه الانكليز ترجماناً، وتعرف حينئذ ببعض القسوس الاميريكان فكان يعلمهم العربية ويعزب لهم الكتب التي ينشرونها، فتمكنت علاقات المودة بينه وبينهم حتى شايهم وتابعهم على مذهبهم. وفي سنة ١٨٤٦م انشأ الدكتور فان ديك مدرسة بعيه وجعله معلماً فيها وأقام على ذلك سنتين وألّف إذذاك كتابه الموسوم بـ«كشف الحجاب في علم الحساب» ثم قدم الى بيروت فعين ترجماناً في قنصلية اميركا بها وعكف على التأليف والترجمة ودرس في اثناء ذلك اللغتين العبرانية واليونانية وعاون الدكتور سميت الاميريكي على ترجمة الاسفار المقدسة الى العربية، فوضعا ترجمة اكثرها ثم توفي سميت فأتم الدكتور فان ديك هذه الترجمة المشهورة وألّف المعلم بطرس حينئذ معجمه الموسوم

بـ«محيط المحيط». وانشأ في سنة ١٨٦٠م نشرة سماها «نفيير سورية». وسنة ١٨٦٣م انشأ ببيروت مدرسة سماها «المدرسة الوطنية» تخرج بها كثيرون من الطلبة وانعمت عليه الحضرة السلطانية بوسام الشرف مكافأة لخدمته. وكان ولده سليم رئيساً للمدرسة تحت إدارة والده ويدرس بها الطبيعيات والتاريخ والصف الاول في اللغة الانكليزية، ولما فرغ من معجمه محيط المحيط اقتطف منه مختصراً سماه «قطر المحيط». وفي سنة ١٨٧٠م انشأ مجلة علمية ادبية سياسية سماها «الجنان» وعهد بإدارتها وانشائها إلى ولده سليم، فكان له بها مقالات كثيرة جريدة الفائدة ثم انشأ جريدة اسبوعية سماها «الجنة» ونشرة يومية سماها «الجنة».

وكان قد وعد في آخر محيط المحيط بتأليف معجم لأسماء الاعلام المشاهير ثم رأى أن يتوسع في مشروعه هذا فأخذ في تأليف مؤلفه الشهير المعروف بـ«الدائرة المعارف» جامعاً فيه تراجم الاعلام من سلاطين وملوك وعلماء واعيان ومدن واعمال ومقالات في العلوم والفنون على اختلاف مواضيعها، فشرع فيه سنة ١٨٧٥م يعاونه به ابنه سليم وبعض الكتاب، فأكمل ستة مجلدات وتوفي في بدء السابع، فأتم ابنه سليم السابع والثامن وتوفي قبل شروعه في التاسع فأصدر أبنائه الباقيون الجزء التاسع بمعاونة ابن عمهم سليمان خطاط البستاني الذي اخذ في اتمام هذا التأليف النافع مع نجيب ونسيب ابني المترجم، فصدر منه الجزء العاشر والحادي عشر، وأخوذ في تأليف الثاني عشر. وتوفي المعلم بطرس في اول أيار سنة ١٨٨٣م بعد أن قضى حياته كلها خادماً للعلم. وله من التأليف ما سبقت الاشارة اليه وكتاب مسك الدفاتر وكتاب مفتاح المصباح في الصرف والنحو. وقد طبع كتاب «بحث المطالب» للمطران جرمانوس فرحات وذيله بحواش كثيرة وخطأه في بعضها لاعتماده على نسخ غير صحيحة، فانتقدت تلك الحواشي بكتاب لم يطبع. وللمترجم خطب ومواعظ كثيرة وأبنته ورثاه بعد موته عدة من مشاهير قطرنا وفاضت الجرائد العربية وغيرها بالثناء والاسف على فقده. ومن أحب الاطلاع على ذلك فليطالع المجلد السابع من دائرة المعارف في كلمة دائرة وكتاب مشاهير القرن التاسع عشر لرجي افندي زيدان. وبعد وفاته عاد ابناءؤه وبعض بناته الى المذهب الكاثوليكي في الطقس الماروني وقد حافظ هو في حياته على طائفته المارونية بأيماله ومسايعه وكان ينوي العود الى المذهب الكاثوليكي لو لم يعاجله الموت بغتة وكذلك كان لابنه سليم.

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق من سلالة المقدم رعد بن خاطر الحصري الماروني الذي تولى جبة بشري في القرن السابع عشر. ولد بعشقوت من كسروان سنة ١٨٠٤م وانتقل والداه الى الحدث في ساحل بيروت سنة ١٨٠٩م وتخرج اولاً بشيء من العلوم في مدرسة عين ورقة. وتوفي والده وهو صبي فأتقن صناعة الخط وكان ينسخ الكتب لنفسه ولغيره بالاجرة، ثم سار الى مصر وفيها اتقن الدروس العربية وتولى كتابة جريدة «الوقائع» المصرية ثم سافر الى مالطة سنة ١٨٣٤م وأقام بها اربع عشرة سنة يدرس في مدرسة المرسلين الاميريكاني ويعرب ما يطبع في مطبعتهم. واخذ في التأليف والتصنيف. وفي جملة ما ألفه هناك كتابه الذي سماه: «الواسطة في معرفة احوال مالطة». وفي سنة ١٨٤٨م طلبته جمعية ترجمة الاسفار المقدسة بلندرا من حاكم مالطة ليعاونها في ترجمة الاسفار الى العربية، فعاونها بتعريب هذه الترجمة وتنقيحها وضبطها فكانت احسن الترجمات من حيث اللغة العربية. وعاد بعد فراغه من هذه الترجمة الى باريس فاجتمع بصديقه وابن وطنه الشيخ رشيد الدحداح نزيل باريس حينئذ، وكان الشيخ رشيد قد طالع كتاب المترجم الموسوم بـ«الفرياق» واخبرني انه لامة وعته على تخطيطه به حدود الادب والحشمة واقترح عليه أن يكتب كتاباً آخر يصلح به ما فرط منه بالفرياق فأخذ حينئذ بتأليف كتابه الموسوم بـ«كشف الخبا عن احوال اوروبا» وصف به تلك البلاد وصفاً دقيقاً محكماً بعبارة فصيحة رقيقة وقضى مدة طويلة متجولاً بأوروبا بزيته العربية. وأتقن اثناء ذلك اللغتين الانكليزية والفرنسية وتزوج بسيدة انكليزية لم تلد له اولاداً ونال حماية دولة انكلترا. واتفق ان احمد باشا باي تونس زار فرنسا وهو فيها وأجزل عطايه لفقرائها فنظم له المترجم قصيدته الشهيرة ومطلعها:

زارت سعاد وقلبي اليوم متبول فما الرقيب بغير النشر مدلول
وما سعاد وقد زارت باسكن من ظباء وجرة تهديها مطافيل

ونشأها مثل قلبي لم يزل خلقاً وزندھا اخرس الدملوج مجدول

وارسلھا اليه الى تونس فأرسل الباى يستقدمه اليه على سفينة حربية فتعجب المترجم لهذه الدعوة وقال لعمري ما كنت أحسب ان الدهر ترك للشعر سوقاً رائجة. وأقام بتونس يدون بها جريدة «الرائد التونسي».

ومن جملة نظمہ قصيدة مدح بها السلطان عبد المجيد ابان الحرب بينه وبين دولة روسيا تزيد على المائة والثلاثين بيتاً قال في مطلعها:

الحق يعلو والصلاح يعمُر والزور يحق والفساد يدمُر
ومنها من كان من بين الورى سلطانه عبد المجيد فإنه لمظفر
من جوهر الاخلاص صور ذاته رب قدیر كيف شاء يصور
ولاه امر الدين والدنيا معا فهو الامام الحاكم المتأمر

فسرت جلالة السلطان بهذه القصيدة واوزت اليه بالقدوم الى الآستانة، وكان قد شخص الى تونس فولاه الباى احسن منصب فأسلم وشي أحمد فارس الشدياق فطلبه الصدر الاعظم من الباى فقدم الى الآستانة فتولى تصحيح الطباعة العامرة سنين.

وفي سنة ١٢٧٧هـ (سنة ١٨٦١م) انشأ جريدة «الجوائب» الشهيرة وأجاد في انشائها وسبكها فأقبل عليها الجمهور وكثر المشتركون فيها في الهند وفارس والعراق وبلاد العرب ومصر وسورية والمغرب، واقتطف ابنه سليم منها كتاباً يسمى «منتخبات الجوائب» وقضت الاحداث بالغاء الجوائب سنة ١٨٨٤م وما زال عاكفاً على التأليف والتصنيف الى آخر ايامه. وسار قبل وفاته الى مصر فلقي بها كل تجلة واکرام من الخديوي ووزرائه وكبراء القوم وعلمائهم، ونعلم عن رسالة كتبها الى احد انسابائه انه كان ينوي العود الى لبنان موطنه ليموت بين اهله ومواطنيه وابناء ملته، فألجئ الى العود الى الآستانة حيث وافته المنية، وأوصى أن تنقل جثته الى لبنان ويدفن بالقرب من ابنائه فدفنت في الحازمية على مقربة من الحدث موطنه سنة ١٨٨٧م.

اما مؤلفاته فمنها:

- ١- «سر الليال في القلب والابدان» وهو كتاب في اللغة قصد به بيان مدلولات الاسماء والافعال من قلبها او تبديل بعض أحرفها وكشف اسرار معانيها واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ او مثل. طبع بالآستانة سنة ١٢٨٤هـ وقد اهدى إلي نسخة منه عند وجودي بالآستانة بمعية الطيب الذكر البطريق بولس مسعد سنة ١٨٦٧م.
- ٢- «الجاموس على القاموس» انتقد به الفيروزبادي في قاموسه المحيط ضمنه افادات كثيرة لغوية، وترجمات صاحب القاموس وصاحب العباب والصباح والمحكم ولسان العرب، وانتقد القاموس من جهة عبارته وخطته ومعاني الفاظه واشتقاقها الى غير ذلك.
- ٣- «كشف الخبا عن فنون اوروبا» وتقدم ذكره.
- ٤- «الواسطة في احوال مالطة» وتقدم ذكره ايضاً.
- ٥- «اللفيف في كل معنى ظريف» جمع فيه كلمات مفيدة وحكماً مأثورة وأمثالاً وحكايات ونكتاً لغوية.
- ٦- «غنية الطالب ومنية الراغب» في التصريف والنحو.
- ٧- «الباكورة الشهية في نحو اللغة الانكليزية» و«المحاور الانسية في اللغتين العربية والانكليزية».
- ٨- «السند الراوي في الصرف الفرنسي».
- ٩- «الساق على الساق في ما هو الفرياق». يريد بالفرياق فارس الشدياق وليته لم يكتب هذا الكتاب لأنه أورد به الفاظاً وحكايات وعبارات اراد بها المجون، لكنها تجاوزت حدود الأدب ويأبى الاديب مطالعتها. ولم يكن له من المفيد في هذا الكتاب إلا جمعه الالفاظ المترادفة ومجموعات اسماء كل موضوع على حدة كأسماء الآلات والمأكولات والمشروبات والمفروشات والحلى والجواهر واوصاف الرجال والنساء الى غير ذلك

الكونت رشيد الدحداح

هو ابن الشيخ غالب بن سلوم الدحداح ولد سنة ١٨١٣م في قرية عرامون بكسروان وأحسن والداه تربيته فأقاما له الشماس نهرا مراد (هو الذي صار بعداً المطران نقولا مراد) معلماً فكان يهذه ويعلمه مع اخويه خليل وعباس (الذي ارتقى الى اسقفية دمشق وسمي نعمة الله) ثم ارسله والده الى مدرسة عين ورقة فتعلم بها اصول العربية والايطالية ثم دخل مدرسة بزار للارمن الكاثوليكين فأقن اللغة التركية. وفي سنة ١٨٣٨م ادخله الامير امين ابن الامير بشير الكبير في كتبة ديوان أبيه فأقام هناك سنتين ولما ابعد الامير بشير الى مالطة رجع الشيخ رشيد الى بيته بمرامون ولما تولى عمر باشا لبنان سنة ١٨٤٢م قُرب اليه الشيخ رشيد وولاه نظارة البكاليك بلبنان فلم يمكث طويلاً إلا وكان ما دفعه الى ترك هذه النظارة. وفي تلك الاثناء قبض بعض خصومه على رسول له كان قد سيره الى البطريرك يوسف حبش برسائل ذات بال، فنزل ببعض اقاربه ورجالهم الى غزير فأنفذ رسوله واسترد رسائله وكان حينئذ ما مر ذكره من القتال بين المشايخ الحبيشية والدحداحة فاضطر أن يفِر ويختبئ الى أن ظهر بين الساعين بنصب الامير اسعد قعدان شهاب والياً على لبنان، وعين مدبراً لاعماله سنة ١٨٤٣م. ولما لم يقبل عمر باشا تولية الامير اسعد تشنت شملهم وفر الشيخ رشيد الى صيدا حيث أقام سنتين منصباً على درس الفقه وتوسطت سفارة فرنسة لدى الباب العالي فصار الصفح عن المشائخ آل الدحداح فرجعوا الى اوطانهم ورجع الشيخ رشيد الى عرامون.

ولما عاد الشيخ مرعي الدحداح من مرسيليا الى لبنان صحب معه حين عودته الى مرسيليا الشيخ رشيد وجعله كاتباً في محل تجارته وزوجه ابنته مرتا. وفي سنة ١٨٥٢م ترك محل تجارة عمه وأنشأ محلاً تجارياً بفرنسة ثم محلاً في انكلترا، واستدعى اخاه الشيخ سلوماً ليعاونه بتجارته. وكان مع انهماكه في المشاغل التجارية يعكف آونة الفراغ منها على التأليف والتصنيف فطبع سنة ١٨٤٩م «قاموس المطران جرمانوس فرحات» بعد أن هذبه وزاد عليه وسمى كتابه «احكام باب الاعراب عن لغة الاعراب». ثم طبع ديوان الشيخ عمر بن الفارض مع شرحين عليه احدهما للشيخ عبد الغني النابلسي والثاني للشيخ حسن البوريني جامعاً

بينهما. ثم انشأ في باريس جريدته المشهورة «برجيس باريس» و«أنيس المجلس». وله فيها المقالات الخطيرة الرنانة. ومما نشره فيها قصيدة رنانة في العاهل نابوليون الثالث مطلعها:

ماذا على الممتطي أعلى ذرى الدول حتى يفوق كرام الأعصر الأوّل

ونشر أيضاً مجموعة اشعار حكيمة لأشهر شعراء العرب سماها «طرب المسامع في الكلام الجامع». وقد تقرب الى سمو باي تونس فجعله ترجماناً له في مدة زيارته لفرنسة، وسعى له بقرض عاد على الباي بمنافع فتكرّم عليه بمبلغ عظيم جعله له مكافأة على اتعابه. وللشيخ رشيد في مدحه قصيدته اللامية المشهورة ومطلعها:

بانت سعادتنا والفتح مكفولُ باسم المليك فلا تلهيك عطبول

وفي سنة ١٨٦٤م عاد الى فرنسة واستوطن باريس وامتلك قصراً في الشانزليزا حل به سنة ١٨٧٦م الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد والمطرانين يوحنا الحاج وبطرس البستاني وشقيقه الخوري نعمة الله والخوري يوحنا الحبيب، وهذا الكاتب، الى غيرنا من الخدم والحشم. وفي تلك السنة انعم عليه السعيد الذكر البابا ييوس التاسع بلقب كونت روماني، وعلى بكر انجالة وسلالته من بعده. وفي سنة ١٨٧٥م اشترى بلدة دينار على شاطئ بحر المانش وأجال فيها يد العمارة وواصل اليها السكة الحديدية فصارت كبيرة وزادت قيمتها على ثمنها اضعافاً كثيرة فصارت ثروة طائلة.

ومن منشوراته ومؤلفاته أيضاً كتاب «فقه اللغة» لأبي منصور الثعالبي طبعه بباريس سنة ١٨٦١م ثم طبع بمصر سنة ١٢٨٤هـ بمطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٨٨٥م في بيروت. وكتاب عنوانه «قمطرة طوامير» ضمنه مقالات ادبية وفوائد لغوية. وله كتاب كبير في عدة مجلدات لم يطبع سماه «السيار المشرق في بوار المشرق» نقل عنه نتفاً في كتابه قمطرة طوامير. وقد تلا عليّ المجلد الثاني منه سنة ١٨٧٥م إذ كنت بباريس فعجبت منه كثيراً وهو في العرب ومن تنصر منهم ومناظرات مع علماء التفسير من المسلمين وكلام في ما اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه. وله أيضاً رسالة في فن المناظرات نحو خمسين صفحة عنوانها: «تروح البال في

القلم والمال». وقد أدركته المنية في ٥ أيار سنة ١٨٨٩م وهو في السادسة والسبعين من عمره الذي صرفه في خدمة الدين والعلم والاعمال الخطيرة.

عد ١١٣

ابراهيم بك النجار

هو ابن خليل النجار من دير القمر ولد سنة ١٨٢٢م بدير القمر ولما شخص الدكتور كلوط بك رئيس اطباء العساكر المصرية الى لبنان ورأى افتقار اهله الى اطباء نال من محمد علي باشا الرخصة بقبول بعض شبان سورين يدرسون الطب في مدرسة قصر العيني بمصر، فانتخب الامير بشير الكبير ابراهيم بك المذكور وأرسله الى هذه المدرسة سنة ١٨٣٧م، فتلقي الدروس الطبية فيها بجد ونجاح حائزاً قصبات السبق بين أقرانه ونال الشهادة المعتادة في سنة ١٨٤٢م، واستأذن بالعود الى بلاده فأذن له به لكنه سافر من اسكندرية الى ازمير ليعود الى لبنان. وإذا كان الامير بشير الكبير انتقل حينئذ الى الآستانة فآثر أن يسير اليها قبل عوده الى لبنان ليشاهد من ربي بنعمته ويقضي الوتر بزيارة عاصمة السلطنة. فسار وقبله الامير بشير بالبشاشة والاكرام وامر بافراد منزل له في داره وكان في تلك الاثناء أن توفى الى اخراج حصاة من رجل رومي وزن الحصاة خمسة واربعين درهماً فكان ذلك وسيلة لتعريفه بباريس الأطباء بالآستانة. ونال من كلية الطب الدكتوراه بعد الامتحان، واقام مدة في الآستانة يمارس المعالجات مع اطباء المدرسة وأتقن في هذه المدة اللغتين التركية والفرنسية. ثم عين في جملة الاطباء العسكريين براتب كافٍ، فأقام على ذلك اربع سنين وانعمت عليه الحضرة السلطانية برتبة سرهزار اي رئيس ألف، وأمرت بأن تكون خدمته في الآستانة العلية، فاسترحم أن يعفى من الخدمة في دار السعادة فصدرت الارادة بأن يكون طبيباً أولاً للعساكر ببيروت، فباشر صناعته للعساكر وعامة الناس بنجاح وشهرة لا ينساها الكثيرون، ويتذكرون ما كان عليه من اللطف والرقّة ودماثة الاخلاق وحب عمل الخير وفصاحة اللسان. وله من التأليف كتاب: «مصباح الساري ونزهة القاري» طبعه على نفقته ببيروت سنة ١٢٧٢هـ (سنة ١٨٥٨م) تكلم فيه عن اسفاره والسلاطين العثمانيين الى السلطان

عبد المجيد خان، ووصف الآستانة ورتب الدولة ودخلها وخرجها. وله ايضاً كتاب سماه: «هدية الأحباب وهداية الطلاب» تكلم فيه في بعض المبادئ الطبيعية. وتوفي سنة ١٨٦٠م ولم نظفر بمعرفة سنة وفاته.

الفصل الثالث

بطاركة الموارنة ومن رقوهم الى الاسقفية في هذا القرن

عد ١١٤

البطريك يوسف التيان

فرغنا من كلامنا في تاريخ القرن الثامن عشر على بطاركة الموارنة بذكر وفاة البطريك فيلبوس الجميل وانتخاب البطريك يوسف التيان خلفاً له في ٢٨ نيسان سنة ١٧٩٦م وتثبيت البابا بيوس السادس له في ٢٤ تموز سنة ١٧٩٧م. ونقول الآن ان يوسف التيان ولد ببيروت وأرسله البطريك يوسف اسطفان الى مدرسة الطائفة برومة فتخرج بها باللغات والعلوم السامية، وفاق اقرانه ورقي الى درجة الكهنوت. وفي سنة ١٧٨٤م أجمع رأي البطريك يوسف اسطفان ومطارين الطائفة واعيانها على أن يرسلوه الى رومة نائباً عن الطائفة لقضاء حاجاتها ولاسيما عود البطريك يوسف اسطفان الى مقامه البطريكي الذي كان قد وقف عنه. وفي خزان اوراق البطريكية المارونية رسالة من الشيخ سعد الخوري الى الكردينال كرسيني جواب له عن رسالة أوصاه بها بالخوري يوسف التيان. فالشيخ المذكور يجيبه عنها بأنه عند وصول الخوري المشار اليه الى لبنان أبدى له كل مساعدة احتراماً لتوصاة نيافته ولاستحقاق هذا الكاهن نظراً الى اخلاقه وعلومه وسلوكه فانه جذب اليه محبة الجميع. ويكفي بياناً لذلك ان طائفتنا المارونية لم تجد اجدر منه للنيابة عنها امام الكرسي الرسولي فانتدب لذلك باجماع الرأي وبشكر لعناية نيافته

التي جعلت مدرستنا تربي اشخاصاً نظيره وليت جميع تلامذتها يكونون مثله . فأتّم الخوري يوسف التيان وفادته الى رومة وقضى وطر الطائفة على احسن حال وبأسرع زمان وعاد الى لبنان مصحوباً بالأوامر الرسولية لرد البطريرك الى مقامه وكرامته ..

وفي ٦ آب سنة ١٧٨٦م رقاہ البطريرك يوسف اسطفان الى الاسقفية على دمشق فدبر هذه الابرشية سنتين ثم استقال منها وجعل نائباً بطريركاً في الروحيات، وسلمت ابرشية دمشق الى المطران ميخائيل الخازن سنة ١٧٨٨م. ولما توفي البطريرك فيلبوس الجميل اجتمع الاساقفة في دير بكركي فانتخبوا المطران يوسف التيان بطريركاً في ٢٨ نيسان سنة ١٧٩٦م، فأرسل القس لويس بلييل الراهب اللبناني (الذي صار بعداً اسقفاً على قبرص سنة ١٧٩٨م) الى الحبر الروماني مستمداً التثبيت فأناله إياه البابا بيوس السادس في ٢٤ تموز سنة ١٧٩٧م، فأقام يدبر البطريركية بغيره لا يدانيها ملل متحملاً هذا العبء الثقيل طامعاً بالاجر المؤبد.

وفي سنة ١٧٩٩م كانت مناقشة بينه وبين المطران جرمانوس آدم الملكي الكاثوليكي مدارها على السلطة المطلقة للحبر الروماني على الاساقفة ولو مجتمعين، فكتب البطريرك الى المطران ثلاث رسائل بيّن بها صراحة صحة آرائه ورهن رأي معارضه، وقد جمعت الرسائل الثلاث مع بعض شروح في كتاب لم يطبع واعرف منه نسختين احدهما في مدرسة مار يوحنا مارون طالعتها سنة ١٨٥٧م وأنا مدرس لتلامذه هذه المدرسة والأخرى في البطريركية في بكركي.

ان البطريرك يوسف التيان كان يؤثر العيشة بالنسك والزهد والانفراد على اعباء البطريركية ويرغب في العزلة متفرغاً لعبادة الله ومسؤولاً عن نفسه لا عن نفوس الطائفة جمعاء، وزاد في اضرام رغبته هذه معاكسة بعض الاساقفة لبعض رغائبه الخيرية واستمالوا اليهم بعض اصحاب الامر فاغتنم هذه الفرصة وسيلة لنوال بغيته فاستقال من البطريركية سنة ١٨٠٩م ولزم العيشة النسكية في دير القديس يوحنا مارون (الذي صير بعد ذلك مدرسة)، وفي دير قنوين. وروون عنه في نسكه اخباراً معمرة يقتدي بها الى أن أدركته المنية في دير قنوين في ٢٠ شباط سنة ١٨٢٠م ودفن في مدفن البطارقة اسلافه حذاء مغارة القديسة ماريانا. وقد تلا على المرحوم المطران بولس مطران طرابلس تاريخاً لوفاته بها، وقال اليّ إنه من نظم اسعد

الشدياق فحفظه عنه وهو مخمساً:

يا' شعب مارون الجليل المنقذ بالله ما للترب نشرأ قد شذي
فأجابهني مسترجعاً بتعوذ هذا ضريح العالم الفرد الذي
أضحت به أحبارنا تتباهى

فسطا المنون على ذخيرة ملكنا وخبا بهذا الرمس معدن سبكنا
من حق من احشائنا ان يسكننا يوسف فريد العصر بطيركنا
فخر الأئمة مجدها وبهاها

فالدرس مندرس الطريقة بعده إذ خص في علم الحقيقة وحده
ولنشره في العمر افنى جهده وبكت له العليا تنذب بعده
حزناً كييعقوب وتصرخ اها

سهم المنية صح فيه رشقها ويدمع أعينها السخية شرفها
وبظلمة دجناء أمسى شرفها والبيعة الغراء أظلم أفقها
وجدا وقد ارخت غاب ضياها

١٨٢٠

وأما الاساقفة الذين رقاهم التيان فهم:

١- القس يوسف بلييل من ساقية المسك رقاها الى اسقفية قبرص في ١٢ آذار سنة ١٧٩٨ ودعي عبدالله، وتوفي سنة ١٨٤٢ بكرسيه المعروف بدير مار شليطا بقرنة شهوان ودفن هناك.

٢- الخوري جرمانوس ثابت من بيروت رقاها في ٨ ايار سنة ١٨٠٠ الى الاسقفية على الكرسي البطريركي وبلاد جبيل والبترون وكان اخا البطريرك لأمه. ولما كانت ترقيته الى الاسقفية ببلاد جبيل والبترون مخالفة للقوانين لأن مطرانها

بولس اسطفان كان حياً امر الكرسي الرسولي بعزل المطران جرمانوس عن هذه الابرشية ورد المطران بولس اليها ولكن لما توفي المطران بولس انتخب المطران جرمانوس لتدبير هذه الابرشية فسلمها اليه البطريرك يوحنا الحلو في ١٠ آذار سنة ١٨١٠م فديرها الى أن توفي في ١٤ حزيران سنة ١٨٣٣م في مدرسة مار يوحنا مارون ودفن فيها.

٣- القس جرمانوس حوا من حلب رقاہ الى اسقفية هذه المدينة في ١ تموز سنة ١٨٠٤م ثم توفي في ١٣ حزيران سنة ١٨٢٧م.

٤- الخوري انطون الخازن من درعون رقاہ في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٨٠٥م الى اسقفية الناصرة ثم تسلم ابرشية بعلبك سنة ١٨٠٨م وتوفي في ١٨ شباط سنة ١٨٥٨م في دير بقلوش ودفن في كنيسة.

عد ١١٥

البطريرك يوحنا الحلو

أصله من قرية غوسطا بكسروان انضوى الى احدى الرهبانيات ورقي الى درجة القسوس ثم رقاہ البطريرك يوسف اسطفان في ١٦ آب سنة ١٧٨٧م الى اسقفية عكا وجعله نائباً بطريركياً في الزمانيات. وعند انتخاب البطريرك فيلبوس الجميل كان المطارين تسعة فاتفقوا على ترشيح المطران يوحنا الحلو والمطران فيلبوس الجميل ويقترح السبعة الباقون فمن أصابته أربعة أصوات كان البطريرك. فكانت الاصوات الاربعة للمطران فيلبوس الجميل فكان هو البطريرك كما مر. وبعد ان استقال البطريرك يوسف التيان من البطريركية اجتمع الاساقفة في دير القديس يوسف بعينطورا فانتخبوا المطران يوحنا الحلو بطريركاً في ٨ حزيران سنة ١٨٠٩م وطلب تثبيته من الكرسي الرسولي. ولما كان البابا بيوس السابع ممسكاً في سافونه بسبب الاضطهاد الذي جرى عليه أثبت انتخابه هناك في ٢٥ كانون الثاني سنة ١٨١٠م، وكتب الى رئيس مجمع نشر الايمان أن يعلمه ذلك مؤجلاً تسليم الدرع

والاحتفالات المعتادة الى زمن آخر، ولما عاد البابا الى رومة سنة ١٨١٤م أنفذ اليه درع الرئاسة واعمال التثبيت في ١٩ كانون الاول من السنة المذكورة. واما من كان موفد هذا البطريك الى الحبر الروماني فأرى فيه اختلافاً فروى الطيب الذكر البطريك بطرس بولس مسعد في الدر المنظوم ان موفده الذي نال التثبيت على يده إنما هو القس ارسانيوس القرداحي. ويؤخذ عن بعض اوراق في سجل البطريكية ان موفده كان القس يوسف السمعاني الحصري. ولا وقت لي الآن لأحقق اي الروايتين أحق بالاتباع. ومما كان في ايام هذا البطريك من الامور الهامة انتقاله للسكنى بدير قنوين منذ سنة ١٨١١م، واخذه في اصلاح املاكه واحواله بعد أن كان مهملاً لسكنى البطاركة في كسروان، ثم تحويل دير مار يوحنا مارون بكفري مدرسة خاصة لأبرشية جيل والبترون سنة ١٨١٢م، وجعل دير مار مارون الرومية بكسروان مدرسة عامة للطائفة سنة ١٨١٧م، وعقد مجمع لويزه سنة ١٨١٨م. وقد ذهب للقاء ربه ونيل اجر جهاده في ١٢ أيار سنة ١٨٣٢م في دير قنوين ودفن في حائط الكنيسة الشمالي في مدفن صنعه لنفسه.

واما الذين رقاهم هذا البطريك الى الاسقفية فهم:

١- الخوري خيرالله اسطفان ابن اخي البطريك يوسف اسطفان رقا في ١٨ شباط سنة ١٨١٠م الى اسقفية قورش ورئاسة مدرسة عين ورقة، وكان بعد البطريك يوسف التيان أعلم اساقفتنا في عصره واشدهم غيرة وحمية، وكان له اليد الطولى في اقناع عمه البطريك وعائلته بجعل ديرهم عين ورقة مدرسة للطائفة، وهو الذي عني بتحسين احوالها ونجاح تلامذتها وجعلته غيرته يتحمل المشاق في سبيل خير المدرسة والطائفة حتى اضطر أن يخبئ مدة، واستمر مجاهداً الى أن أدركته المنية في دير مار روحانا البقيعة في ٤ تشرين الثاني سنة ١٨٢٣م وأرخ احد الشعراء وفاته بقوله:

لما رأيت المدرسة تنعي وفوها يشتكي
لفراق يوسف حبرها ذاك الغيور الناسك

ناديتها خنساء لن يلقي بكاؤك صخر
ورأيت عظم مصابها ارخت غابت شمسك

سنة ١٨٣٢

٢- الخوري اسطفان الدويهي الاهدني رقاہ في ١٩ آذار سنة ١٨١٠م الى اسقفية عرقا وجعله نائباً له في الزمنيات، ثم اسقтал من هذه النيابة وسلمت اليه اسقفية اهدن سنة ١٨١٣م واستمر عليها الى سنة ١٨٤٤م حين أدركته المنية وكان من تلاميذ مدرسة الموارنة برومة.

٣- الخوري مارون العضم من زوق ميكائيل رقاہ في ٨ تشرين الثاني سنة ١٨١٤م اسقفاً على حماه وجعله نائباً له في الروحيات ودعي يوحنا مارون، وتوفي بزوق مكابيل سنة ١٨٢٣م ودفن في كنيسة مار دوميط في القرية المذكورة.

٤- القس انطونيوس زوين من يحشوش رقاہ في ٤ آب سنة ١٨١٤م الى اسقفية صور وجعله نائباً في الزمنيات، وتوفي في ٢٣ نيسان سنة ١٨٤٨م بدير حراش ودفن في كنيسة سيدة بكركي العليا حذاء جدارها الجنوبي.

٥- الخوري عبدالله البستاني من الدية رقاہ في ١٥ آب سنة ١٨١٩م الى اسقفية صيدا بمنزلة نائب فيها عن البطريرك لانها كانت ابرشية البطريرك، ثم صير اسقفاً شرعياً عليها في ٢٥ ايار سنة ١٨٣٧م، واخذ البطريرك يدبر ابرشية جبيل كابرشية خاصة له وتوفي المطران عبدالله البستاني في ٦ تشرين الثاني سنة ١٨٦٦م.

٦- الخوري بطرس ابو كرم من بسكتتا في ٢٨ تشرين الثاني سنة ١٨١٩م على ابرشية بيروت وتوفي ببسكتتا في ١٥ كانون الثاني سنة ١٨٤٤م وهو من تلامذة مدرسة عين ورقة وله كتاب رد على «يونسكين والبروتستانت».

٧- الخوري يوسف جوان من ساحل علما رقاہ في ٣ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م الى اسقفية طرابلس وهو الذي خلفه في البطريركية بعد وفاته.

٨- الحوري يوحنا نصر الناصري رقاہ في ١٨ تشرين الاول سنة ١٨٢٠م الى اسقفية الناصرة وسمي جبرائيل وتولى القضاء للنصارى بلبنان وتوفي بغزير سنة ١٨٣٨م ودفن في كنيسة السيدة فيها.

وقد رقي في ايام البطريك يوحنا الحلو الاب لويس غندلفي العازاري القاصد الرسولي الى الاسقفية، ولكن رقاہ اليها البطريك يوسف التيان سنة ١٨١٦م وتوفي سنة ١٨٢٥م بدير مار يوسف بعينطورا.

عد ١١٦

البطريك يوسف حبيش

هو يعقوب ابن الشيخ جوان حبيش من ساحل علما بكسروان وتخرج بالعلوم بمدرسة عين ورقة ورقاه المطران انطون الخازن الى درجة الكهنوت في ٢٦ حزيران سنة ١٨١٤م على كنيسة مار جرجس بدير علما ودعي يوسف، ثم رقاہ البطريك يوحنا الحلو الى اسقفية طرابلس في ٣٠ كانون الثاني سنة ١٨٢٠م ولما توفي البطريك يوحنا الحلو في ١٢ أيار سنة ١٨٢٣م اجتمع الاساقفة في دير قنوين وانتخبوه بطريكاً في ٢٥ ايار من تلك السنة، ونال التثبيت ودرع الرئاسة من البابا لاوون الثاني عشر على يد وكيله القس باسيليوس ودروسون من رهبان الارمن الكرميين، فكان عاقلاً حازماً طاهراً دبر البطريكية اثنتين وعشرين سنة احسن تدبير واقدسه، وكان اول بطريك من مدرسة عين ورقة وافرج جهده في نجاح هذه المدرسة وتقدمها في العلوم، وعني بتحويل دير مار عبدا هريريا مدرسة عمومية للطائفة المارونية سنة ١٨٣٠م، وكذا فعل بدير مار سرقيس وباخوس بقرية ريفون سنة ١٨٣٢م، ثم جعل مدرسة الموارنة التي كانت بعينطورا ديراً للمرسلين اللبنانيين سنة ١٨٤٠م. ولما كانت الحرب الوطنية بين النصارى والدروز سنة ١٨٤١م كابد من جرائها اتعاباً وخسائر لا تقدر. واشتهر بكرمه على الفارين والمعوزين ولما تجددت هذه الحرب سنة ١٨٤٥م كانت سبباً لموته كمدأ وحزناً فتوفاه الله في ٢٣ أيار سنة ١٨٤٥م المذكورة في دير الديمان الذي انشأه فوق

وادي قديشا حيث دير قنوين ودفن في كنيسة قنوين في مدفن سالفه البطريرك
يوحنا الحلو.

اما الذين رقاهم الى درجة الاسقفية فهم:

- ١- القس نقولا موسى من جزين الراهب الانطونياني رقاہ الى اسقفية طرابلس في
٢ آذار سنة ١٨٢٦م ودعي بولس، وسكن اولاً في دار الامير عبدالله شهاب
بغزير ثم انشأ لنفسه كرسياً في قرية كرم سدة من جبة بشري كمله سنة
١٨٤١م، ودبر ابرشية طرابلس سبعا واربعين سنة ونيفاً وتوفي في ٢٨ ايلول
سنة ١٨٧٣م.
- ٢- القس بولس اروتين الحلبي رقاہ الى اسقفية حلب في ١٣ أيار سنة ١٨٢٩م
وتوفي بها في ٢٦ نيسان سنة ١٨٥١م.
- ٣- الخوري يوحنا رزق من جزين تلميذ مدرسة عين ورقة رقاہ الى اسقفية قورش
ورئاسة المدرسة المذكورة في ٣ أيار سنة ١٨٢٩م مع المطران بولس اروتين
المذكور وسمي يوسف وتوفي في ٦ ك ٢ سنة ١٨٦٥م وقد جدد اكثر بناء
مدرسة عين ورقة وزاد في املاكها.
- ٤- الخوري يوسف الخازن من عجلتون رقاہ الى اسقفية دمشق في ٦ نيسان سنة
١٨٣٠م وهو الذي خلفه بعد وفاته.
- ٥- الخوري نقولا جوان حبيش اخو البطريرك رقاہ الى اسقفية حماه ودير مار
جرجس علما في ٢٨ اذار سنة ١٨٤١م ودعي فيلبوس وتوفي في ٨ شباط
سنة ١٨٥٧م في دير علما المذكور.
- ٦- الخوري بولس مسعد من عشقوت رقاہ الى اسقفية طرسوس مع اخيه المطران
فيلبوس في ٢٨ آذار سنة ١٨٤١م وجعله نائباً له في الروحانيات وكاتباً
لاسراہ ومراسلاته مع الاورويين واعتمد عليه في مشاغله.
- ٧- القس طوييا عون الراهب اللبناني من معلقة الدامور رقاہ في يوم واحد مع
اخيه والمطران بولس مسعد الى اسقفية عكا ثم سلمت اليه ابرشية بيروت سنة
١٨٤٥م وتوفي في ٢ نيسان سنة ١٨٧١م ودفن بكرسيه الذي انشأه بعين

سعادة لسكناه وجدد ووسع بناء القلاية الاسقفية في بيروت، واقتنى املاكاً وافرة لكرسيه ساعدتنا بعد خلافتنا له سنة ١٨٧٢م على المشروعات التي قمنا بها بعون الله.

واما الخوري روفائيل غنطوس كوبا الحلبي الماروني فقد رقاہ الكرسي الرسولي برومة الى اسقفية ليفورنو في ١٠ تموز سنة ١٨٣٤م وتوفي هناك في ٣ ك^٢ سنة ١٨٤١م.

٨- الخوري يوسف جعجع من بشري تلميذ عين ورقة وخوري الموارنة بدمشق رقاہ في ٢٦ ك^١ سنة ١٨٤٣م الى اسقفية قبرص وتوفي في ١ تشرين الاول سنة ١٨٨٤م.

٩- الخوري نقولا مراد من عرامون بكسروان التمس البطريرك في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٨٤١م من البابا غريغوريوس السادس عشر أن يرقه الى الاسقفية ليقبى يرقى تلاميذ الموارنة المتعلمين برومة الى الكهنوت، فرقاہ الكردينال يعقوب فرنسوني رئيس مجمع نشر الايمان في ٥ ت^٢ سنة ١٨٤٣م الى اسقفية اللاذقية، ثم توفي في ٢٧ ك^١ سنة ١٨٦٣م بدير الرهبان الحلبيين برومة ودفن فيه ثم نقلت جثته الى مقبرة القديس لورنسيوس برومة.

عد ١١٧

البطريرك يوسف الخازن

هو الشيخ شاس بن راجي بن بولس الخازن من عجلتون تخرج بالعلوم بمدرسة عين ورقة وارتقى الى درجة الكهنوت ثم رقاہ البطريرك يوسف حبيش الى اسقفية دمشق في ٦ نيسان سنة ١٨٣٠م فساس الابرشية بالدعة والحلم والمثل الصالح ولما توفي البطريرك يوسف حبيش في ٢٣ أيار سنة ١٨٤٥م بدير الديمان. اجتمع الاساقفة في دير ميفوق وانتخبوه بطريركاً في ١٨ آب سنة ١٨٤٥م وارتأوا أن يتوجهوا الى دير الديمان ليشهروا انتخابه ويرقوه المقام البطريركي هناك، وكان اكثر الاعيان والمشايخ في بلاد جبيل والبترون وجبة بشري يؤثرون المطران بولس مسعد النائب البطريركي على المنتخب ولم يكونوا يعلمون ان الانتخاب قد تم. فأقبل

حشد كبير من اهل بشري الى الديمان بعد وصول المطارين اليه قاصدين عمل مظاهرات يحملون المطارين بها على انتخاب من يؤثرون، ومن شيمة الجمهور أن لا يقف على حد ما يختطه لهم العقلاء فاتصل بعض الجبهة الى اهانة بعض المطارين والكهنة والخدم فقام المطارين من الديمان وأتوا الى كسروان وهناك اكملوا حفلة الترقية للبطريرك وكتبوا الى الحبر الروماني يسألون تثبيت منتخبهم، فاثبتته البابا غريغوريوس السادس عشر في ١٩ ك^٢ سنة ١٨٤٦م على يد وكيله المطران نقولا مراد، وعاد في الصيف الى دير كرسية في الديمان فاستقبله الجميع ولاسيما أهل بشري بالاجلال والاحتفاء، ولقيهم البطريرك بحنان ابوي فكان حلم البطريرك وطاعة الاهلين متساويين باستحقاق المدح والثناء. ودبر هذا البطريرك الطائفة بروح الرب والدعة والمحبة الأبوية نيفاً وتسع سنين وانتقل الى لقاء ربه ونيل الثواب لفضائله في ٣ من تشرين الثاني سنة ١٨٤٥م في الديمان ودفن في الضريح الذي دفن به سالفاه البطريرك يوحنا الحلو والبطريرك يوسف حبيش.

ولم يرق هذا البطريرك الى الاسقفية إلا كاهنين الاول القس اقليموس الخازن رقيه في ٢ نيسان سنة ١٨٤٨م الى اسقفية دمشق خلفاً له ودعي اسطفان وتوفي في ٨ ك^١ سنة ١٨٦٨م والثاني القس بولس جرجس مطر من حلب رقيه الى اسقفية هذه المدينة في ٢٨ ايلول سنة ١٨٥١م وسمي يوسف.

عد ١١٨

البطريرك بولس مسعد

هو بولس بن مبارك مسعد من عشقوت يتصل نسبه بالشدياق خاطر الحصري حاكم جبة بشري، ولد بولس سنة ١٨٠٦م في قرية عشقوت وأرضعه والداه لبن التقى والبراة وتخرج بالعلم مدة على العالم الفاضل الخوري انطون عريضة من بشري إذ كان يعلم بعض الطلبة في مدرسة الموارنة في عينطورا، ثم دخل مدرسة عين ورقة واتقن فيها اللغات السريانية والعربية والايطالية واللاتينية وبعض العلوم ولما رأى البطريرك يوسف حبيش ما من الله به عليه من الذكاء وتوقد الذهن والتقى أرسله الى رومة ليتم سائر علومه الكنسية في مدرسة مجمع

نشر الايمان المقدس اذ كانت هذه المدرسة تقبل بعض الطلبة الموارنة وتنفق عليهم مما بقي من الدخل لمدرسة الموارنة برومة فأكمل في هذه المدرسة دروسه الفلسفية واللاهوتية وما يلحق بها وفاق على أقرانه محرراً رضى رؤسائه وعجبهم مما جمّله الله به من الذكاء والتقوى، وارتقى الى درجة الكهنوت وعاد الى لبنان سنة ١٨٣٠م فأمسكه البطريرك يوسف حبيش عنده وجعله كاتبه وسلم اليه كل اوراقه اللازم حفظها، واعتمد عليه في مشاغله كلها وكان مجيئاً الى رغائب البطريرك مجتهداً في خدمته اميناً على اسراره فزاد توقير البطريرك له وعظم ميل الناس اليه ومحبتهم له، فرقاه البطريرك في ٢٨ آذار سنة ١٨٤١م الى اسقفية طرسوس شرفاً وجعله نائباً له في الروحانيات مكافأة له، فزاد جهاداً في خدمته وإخلاصاً وأمانة لخدمته، فكان للبطريرك يوسف حبيش كاليد اليمنى الى أن انتقل هذا البطريرك الى حياة الابرار في ٢٣ ايار سنة ١٨٤٥م.

ولما اجتمع الاساقفة في ميفوق لانتخاب خلف له كان المترجم مرشح أكثريتهم ومحل آمال غالب الأعيان والوجوه على ان حالة البلاد القلقة حيثئذ بسبب الحرب بين النصارى والدروز جعل الاساقفة يتحازون وهو مقدمهم الى انتخاب المطران يوسف الخازن أملاً بأن جاه أقربائه وسلطتهم حيثئذ تعاون على ظفر النصارى فانتخبوه وأبقى المطران بولس مسعد على نيابته الى أن توفاه الله في ٣ ت^٢ سنة ١٨٥٤م فاجتمع الاساقفة في بكركي وانتخبوا صاحب الترجمة بالصوت الحي واجماع الرأي خلفاً في ١ ت^٢ في السنة المذكورة، وأرّخ المرحوم مارون النقاش وفاة السلف وانتخاب الخلف بقوله:

في أفق كرسي انطاكية عجبٌ بدرّ توارى وبدّر فوق سدتِه
ان غاب ذاك واضنانا بغيبتهِ قد ناب هذا وأشفانا بنوبتهِ
دعا الله لذاك المصطفى خلفاً ارخت بولس مختار لدعوتِه

سنة ١٨٥٤

ونال التثبيت ودرع الرئاسة من البابا ييوس التاسع في ٢٣ آذار سنة ١٨٥٥م على يد وكيله القس امبروسيوس نطين الدرعوني الراهب الحلبي اللبناني واقام يدبر

الطائفة بحكمة وسداد وغيره، وعقد في سنة ١٨٥٦م مجمعا طائفيًا في دير بكركي سنأتي على ذكره. واشتهر في سنة ١٨٦٠م بحنانه على الفارين من جنوب لبنان لسبب احداث لبنان وإنفاقه عليهم مبالغ طائلة على اختلاف طوائفهم وعقب ذلك الاحداث المعروفة بحوادث يوسف بك كرم فاشتهر فيها بحكمته ودرأته وحسن سياسته.

وقد سافر سنة ١٨٦٧م الى رومة لدعوة الحبر الروماني له للاحتفاء بالعيد القرني للقديسين الرسولين بطرس وبولس وعلان تطويب بعض الشهداء، وكنت بخدمته في سفره، وبعد عودتنا منه شهرت كتابي الموسوم بـ«سفر الاخبار في سفر الاخبار» جمعت فيه تاريخ المدن التي مررنا او أقمنا بها، واستوعبت شرح الجفلات التي كانت بأمر المدائن حينئذ ووضعت ثلاث نبد تاريخية: الاولى في رومة والرومانيين والثانية في تاريخ فرنسا والثالثة في القسطنطينية ومن ملك فيها من الملوك والسلاطين. وقد سافر البطريرك من رومة الى باريس وتشرف بمقابلة نابوليون الثالث ونال من مكارمه كل تجلّة وتكريم وكنت في جملة حاشيته بهذه المقابلة، ثم سار الى القسطنطينية وغمرته حينئذ ومن كان بمعيته من الاساقفة والكهنة نعم السلطان الاعظم السلطان الغازي عبد العزيز خان فأنعم بالمشول لديه على البطريرك وحاشيته وهذا الحقير في جملتهم، فكان ذلك في ١١ ايلول سنة ١٨٦٧م حين تلا البطريرك دعاء حميمًا لجلالته بالعربية وترجمة فرنكو افندي (الذي سمي بعدئذ حاكمًا للبنان) الى التركية. ولما كان قد سبق التكرم على البطريرك بالوسام المجيدي من الطبقة الاولى ولم تكن العادة أن يعطى البطارقة وقتئذ من هذا الوسام تكريم جلالته على البطريرك بحقة عطوس من حجر ثمين مرصع بالالماس تساوي نحو اربعمائة ليرة، واحسن الى المطرانين بطرس البستاني ويوحنا الحاج وبولس افندي حوا الذي كان بمعية غبطته والكونت رشيد الدحداح بالوسام المجيدي من الرتبة الثالثة، وعلى الخوارنة نعمة الله الدحداح ويوحنا حبيب وهذا الكاتب ويوسف افندي حوا وسمعان افندي مسعد بهذا الوسام من الرتبة الرابعة، وعلى جبرائيل الشمالي خادم غبطته وبطرس يوحنا الخوري (الذي صار بعد كاهنًا بهذا الاسم) وخليل يوسف (هو الخوري بطرس مارون) من الرتبة الخامسة ولم يكن لاحد البطارقة قبل هذا البطريرك ما كان من التجلة والتكريم له في الآستانة، فقد أعد له ولحاشيته دار من فخر الدور فيها لنزوله وأقيم فيها معبد مخصوص بأمر من الصدر الاعظم لمباشرة

الفروض الدينية وعينت عربتان واربعة فرسان للسير بمعية غبطته ودفع من النفقة لمصروف غبطته ما زاد عليها كثيراً، بعد الاقامة بهذه الضيافة السلطانية ثلاثة وعشرين يوماً، وما ادراك ما الضيافة السلطانية! وسافر غبطته من الآستانة عائداً الى لبنان في ٢٣ ايلول سنة ١٨٦٧م وبلغ طرابلس في غرة تشرين الاول ثم صعد الى دير كرسية بالديمان ولا حاجة الى ذكر ما كان من الملتقى الشائق والاحتفاء الرائق لغبطته بطرابلس ولبنان، وقد استمر على الكرسي البطريركي نحو ست وثلاثين سنة. وقد أدركته المنية في ١٨ نيسان سنة ١٨٩٠م وله من العمر نحو خمس وثمانين سنة وكان هذا البطريرك متسامياً بالفضائل والعلوم وقد خدمته نحو سبع عشرة سنة منها خمس سنين مدرساً لتلامذة المدرسة البطريركية المعروفة بمدرسة مار يوحنا مارون حيث كان يصرف كل سنة اشهرأ، وكنت اقضي لديه في الديمان مدة العطلة واثنتا عشرة سنة كنت فيها كاتبه وامين اسراره وملازماً له في اشغاله فعرفته حق المعرفة وسبرت فضائله العميقة، فكان من الطهارة في اعلى درجاتها بل ربما كان حريصاً على عفته اكثر مما يجب الحرص، وكان من الورع والزهد في اقصى غايتها وكذلك كان في سائر الفضائل، وكان يعترف عندي مرات فأحقق امام الله اني كنت أطلبك لأجد له مادة للحل. واما من حيث العلوم فكان بارعاً في كثير منها ولا سيما في اللاهوت ومعرفة القوانين البيعية والتاريخ وخاصة ما تعلق منه بالطوائف الشرقية ولا سيما طائفتنا المارونية فهو استاذي به، ولكنني حتى الآن بمعزل عن لحاقه، وقد تفرد بقوة ذاكرته فقد اتفق مرات أن يذكرني بأمر طالعها من سنين عديدة ويهديني الى محلها فأجدها كما قال.

واما مؤلفاته فمنها كتابه الموسوم بـ«الدر المنظوم رداً على المسائل والأجوبة المعزوة الى البطريرك مكسيموس مظلوم» مع الملحق به وقد طبع هذا الكتاب بدير طاميش سنة ١٨٦٣م بعد أن عهد اليّ بتنقيح بعض عباراته وكنت احب أن افصل فيه الفوائد التي لا تتعلق بموضوع الجدل في حواش اعلقها على ذيل الكتاب فلم يسمح لي بذلك خشية أن لا يحسن الطابعون تعليق تلك الحواشي. وله ايضاً كتاب في انبثاق الروح القدس من الآب والابن رد فيه على فتح الله مراش الحلبي فأفحمه واعتنق الايمان الكاثوليكي. وهذا الكتاب طبع برومة وقد جمع شتات اوراق الكرسي البطريركي في هذه القرون الاخيرة فكان منه سجل كبير كأنه خزانة دراري. وله نبذة في تاريخ الاسرة الخازنية ومقالة في دوام بتولية العذراء ومقالات

كثيرة في المدافعة عن حقوق الطائفة في بعض الاديار وعن الجمع اللبناني وعن حقوق البطيركية الى غير ذلك. وقد كان يجمع مواد لتكملة تاريخ الدويهي من سنة ١٧٠٤م الى ايامه، واعلم انه جمع اكثر المواد اللازمة لهذا التأليف وكان ينتظر فقط بعض افادات من حلب وقد سأله مرات وانا بخدمته ان يدفع لي تلك المواد لأتمم ما اعدها له بارشاده فلم يسمح الوقت بذلك، وبعد أن رقاني الى اسقفية بيروت كنت ارجوه أن يسلم تلك المواد لاحد ليصنعها ويجعل له فهرساً فقط وكان يسوفني بذلك الى ان قال لي في آخر ايامه رحمه الله انه ما عاد يعلم اين وضع تلك المواد لكننا نجدها بعد موته في المكتبة او في خزائن الاوراق.

اما الذين رقاها الى الأسقفية:

- ١- الخوري يوسف المريض من زوق مكاييل رقاها في ١٨ ايار سنة ١٨٥٦ الى اسقفية عرقا وجعله نائباً روحياً وتوفي بغتة في ٢٣ ت^٢ سنة ١٨٨٦م.
- ٢- الخوري بطرس نادر البستاني من الدية رقاها في ٢٨ ايلول سنة ١٨٥٦م الى اسقفية عكا وجعله اولاً معاوناً لعمه المطران عبدالله البستاني المار ذكره وبعد وفاته سنة ١٨٦٦م سلم اليه ابرشية صور وصيدا الى أن فاضت روحه الذكية وذهبت لتنال اجر جهادها في ٢ من ت^٢ سنة ١٨٩٩م.
- ٣- الخوري بطرس مسعد اخوه رقاها الى اسقفية حماة شرفاً في ٢٧ شباط سنة ١٨٥٩م وجعله نائباً زمنياً له وتوفي بغتة سنة ١٨٨٥م.
- ٤- الخوري يوحنا الحاج من دلبتا رقاها في ١٥ آب. سنة ١٨٦١م الى اسقفية بعلبك وهو الذي خلفه في البطيركية وسيجيء ذكره.
- ٥، ٦، ٧- في ١١ شباط سنة ١٨٧٢م رقى الخوري نعمة الله الدحداح الى اسقفية دمشق والخوري يوسف فريفر الى اسقفية اللاذقية شرفاً ورقاني انا الحقيير الى اسقفية بيروت، وتوفي المطران نعمة الله في ٣ تشرين سنة ١٨٩٠م والمطران يوسف فريفر في ٨ شباط سنة ١٨٨٩م.
- ٨- الخوري اسطفان عواد رقاها في ١٥ ك^١ سنة ١٨٧٨م الى اسقفية طرابلس.
- ٩، ١٠- في ١٥ آب سنة ١٨٨٢م رقى الخوري يوسف جبرائيل الزغبى الى اسقفية قبرص والخوري يوسف سركيس مسعد ابن عمه الى اسقفية عكا شرفاً.

١١- الخوري بولس حكيم من حلب رقاہ في ١٦ تموز سنة ١٨٨٥م الى اسقفية هذه المدينة.

١٢ الى ١٥- في ١٤ ك^١ سنة ١٨٨٩م رقي الخوري يوحنا حبيب الى اسقفية الناصرة شرفاً والخوري الياس الخويك الى اسقفية عرقا شرفاً ونائباً روحياً والخوري يوسف نجم على عكا نائباً زمنياً والخوري بولس مسعد ابن اخيه على حماہ شرفاً وسلمت اليه بعد وفاة المطران نعمة الله الدحداح ابرشية دمشق سنة ١٨٩٠م. وتوفي المطران يوحنا حبيب في ٤ حزيران سنة ١٨٩٤م واما المطران امبروسيوس نطين الدرعوني فرقاہ الكردينال فرانكي رئيس مجمع نشر الايمان المقدس سنة ١٨٧٥م باجازة البطريرك.

عد ١١٩

البطريرك يوحنا الحاج

هو ابن الخوري يعقوب الحاج من قرية دلبتا ولد بها سنة ١٨١٨م ويتصل نسبه بالشدياق خاطر الحصري المذكور مراراً ودخل مدرسة عين ورقة سنة ١٨٣٠م، واتقن فيها اللغات السريانية والعربية واللاتينية والاطالية ثم العلوم الرياضية والفلسفية واللاهوتية فنبغ في جميعها، وقد رقي الى درجة الكهنة واتقن علم الفقه وتولى القضاء اولاً برفقة الخوري يوحنا حبيب، فكانا يقضيان في دعاوى النصارى خارجاً عن المحكمة. وبعد أن استقال الخوري يوحنا حبيب من القضاء في محكمة قائمية النصارى في ١٣ ت^١ سنة ١٨٥٥م عهد اليه بالقضاء فيها، وكان مثلاً للعفة والاستقامة والامانة، ولما كان من الحرب الاهلية سنة ١٨٥٩م وسنة ١٨٦٠م وجرى الصلح على طريقة مضى ما مضى تمنع من التوقيع على صلح ولم يثن عزمته وعد ولا وعيد. وفي ١٥ آب سنة ١٨٦١م رقاہ البطريرك بولس مسعد الى اسقفية بعلبك خلفاً للمرحوم المطران انطون الخازن فتاجر بوزناته احسن تجارة وربح بها. ولم يكن لسالفه كرسي يقيم به بل كان مسكنه دير بقلوش المختص بأسرته، ولم يقن لكرسي الابرشية عقاراً ولا خلف مالا فأخذ الاسقف الحديث يجد في انشاء كرسي

لأبرشيته فشرى املاكاً وافرة ووقفه الله حتى أصبح كرسي بعلبك اغنى كراسي اسقفيات الموارنة وبنى لسكناه في قرية عرامون محلاً كافياً لاقامته به مع حاشيته، ولسكنى جمهور من التلامذة الاكليريكيين مع معلمهم. وبعد انتخابه بطريركاً خص الكرسي البطريركي ببعض الاملاك التي شراها ووقف بعضها الآخر على انشاء مدرسة عليا اكليريكية تقام بجانب البطريركية، وبقي لكرسي بعلبك ما يقوم بنفقة اسقفها، ومدرسة اكليريكية على سعة. وقد سافر مع البطريرك بولس مسعد سنة ١٨٦٧م الى رومة وباريس والآستانة العلية كما مر. ولما توفي الطبيب الذكر البطريرك بولس مسعد في ٢٨ نيسان سنة ١٨٩٠م خلفه مطران بعلبك الغيور ونال التشييت ودرع الرئاسة على يد قاصده المطران الياس الحويك. ومن اعماله الخطيرة في بطريركيته تجديد دير بكركي على طراز حديث حتى اصبح كقصر يعزله النظر، وقد سعى نائبه المطران الياس الحويك بارشاده، فنال تجديد مدرسة الموارنة برومة بفضل السعيد الذكر البابا لاوون الثالث عشر، ونال ايضاً من فضل حكومة فرنسة ثمانية كراسي لثمانية تلاميذ موارنة يتعلمون بمدرسة سان سولبيس بباريس على نفقة حكومة فرنسة، واشترى في القدس داراً للموارنة يقيم بها نائب بطريركي يعتني بشؤون ابناء الطائفة المقيمين والمترددين الى هناك.

وقد نال من وسامات الشرف من عواطف سلاطيننا العظام الوسام المجيدي من الرتبة الثالثة حين زيارته بجمعية البطريرك بولس مسعد سنة ١٨٦٧م، ثم الوسام المجيدي من الرتبة الاولى اثر ارتقائه الى البطريركية، ثم العثماني الاول سنة ١٨٩٨م، وتوفاه الله في ٢٦ ك^١ سنة ١٨٩٨م ودفن في كنيسة كرسية بكركي.

اما الذين رقاهم إلى الاسقفية فهم:

١- الخوري نعمة الله سلوان احد المرسلين اللبنانيين رقاہ الى اسقفية قبرص في ١٢ حزيران سنة ١٨٩٢م.

٢- وفي النهار نفسه رقى ابن اخته الخوري يوحنا مراد الى اسقفية بعلبك خلفاً له.

- ٣- الخوري فرنسيس الشمالي احد المرسلين اللبنانيين رقاہ الى اسقفية حلب في ٢٦ ك^١ سنة ١٨٩٢م ودعي جرمانوس وتوفي سنة ١٨٩٥م.
- ٤- الخوري ارسانيوس انطون يوسف دياب من حلب رقاہ الى اسقفية هذه المدينة في ٢٢ آذار سنة ١٨٩٦ ودعي يوسف.
- ٥- وفي النهار المذكور نفسه رقي القس يوسف دريان الراهب الحلبي اللبناني من عشقوت الى اسقفية طرسوس شرفاً.
- ٦- الخوري بولس راجي عواد من حصرون رقاہ الى اسقفية الناصرة في ٢٤ ايلول سنة ١٨٩٦م.
- ٧- وفي النهار المذكور نفسه رقي الخوري يوسف اسطفان رئيس مدرسة عين ورقة الى اسقفية قورش ورئاسة هذه المدرسة.

عد ١٢٠

البطريك الياس الخويك

هو الياس بن الخوري بطرس الخويك ولد بقرية حلتا من عمل البترون في كانون الاول سنة ١٨٤٣م تخرّج اولاً بتعلم بعض اصول اللغتين السريانية والعربية في مدرسة مار يوحنا مارون، ثم دخل مدرسة الآباء اليسوعيين في غزير وأتقن فيها اللغات اللاتينية والفرنسية والايطالية وبعض الرياضيات والفصاحة. ولما رآه البطريك بولس مسعد متوقد الذهن ورع السيرة قوي الصحة ارسله الى مدرسة مجمع نشر الايمان المقدس برومة ليتم علومه فأقام بها الى سنة ١٨٧٠م حائزاً قصبات السبق على اقرانه في الدروس الفلسفية واللاهوتية ونال رتبة الملقان في الفلسفة واللاهوت وركي الى درجة الكهنوت وعاد الى لبنان سنة ١٨٧٠م، فأقامه البطريك بولس مسعد استاذاً لتلامذة مدرسة مار يوحنا مارون. ولما رقاني الى اسقفية بيروت سنة ١٨٧٢م سألته أن يكون لي كاتباً فأسرّ ان في نيته أن يجعله كاتباً له مكاني وكذلك صنع، فانه اتخذ الخوري الياس كاتباً وأميناً على اسراره فخدمه خدمة النصوص المتيقظ واحرز ثقته كاملة، وقام بأعباء وظيفته أحسن قيام،

فأحبه الجميع وقدره حق قدره وعظم البطريرك منزلته لديه وتفانى هو بخدمة رئيسه وطائفته بالاستقامة والنزاهة والدراية فرقاه البطريرك في ١٤ ك^١ سنة ١٨٨٩م الى اسقفية عكا مع المطارين يوحنا حبيب ويوسف نجم وبولس مسعد وجعله نائباً له في الروحيات فواصل خدمته الصادقة له الى وفاته. ولما انتخب المطران يوحنا الحاج الى مقام البطريركية سنة ١٨٠٩م ارسله الى رومة موفداً اياه الى الحبر الروماني يطلب التثبيت ودرع الرئاسة فناله له من لدنه، وبقي ساعياً بتجديد المدرسة المارونية برومة فغنم بذلك بنعمة البابا لاوون الثالث عشر. وسار الى فرنسة فأُنعمت حكومتها بتعيين ثمانية كراسي لثمانية تلاميذ موارنة من الابرسيات الثماني يتعلمون على نفقتها في مدرسة سان سوليبس بباريس وعاد الى لبنان سنة ١٨٩٢م معرجاً الى الآستانة حيث نال من تعطفات مولانا الاعظم احسن رعاية واحسن اليه بالوسام المجيدي من الرتبة الثانية والى مدرسة الموارنة برومة بعشرة آلاف فرنك، ثم سافر ثانية فشهد المجمع الاورشليمي في اورشليم سنة ١٨٩٣م مع المطارين اسطفان عواد ونعمة الله سلوان ويوحنا مراد وهذا الحقيق. ثم سرنا جميعاً «إلا المطران نعمة الله» الى رومة لتهنئة البابا لاوون الثالث عشر بيوبيله الكهنوتي، وبعد قضاء فرض التهنة نيابة عن الطائفة استمر المطران الياس في رومة يكمل مسعاها بتجديد المدرسة المارونية ثم سار الى فرنسة للاستعانة على هذا الغرض فدعاه الحبر الروماني ليشترك مع باقي البطاركة الشرقيين في مداولة قداسته معهم في شأن الكنائس الشرقية، وشرى حينئذ برومة المحل اللازم للمدرسة بما تكرم به امام الاحبار وما انعمت به الحضرة السلطانية وما جمعه المترجم وعاد الى لبنان وشرى داراً للبطريركية في القدس الشريف. وإذ لم تستقم إدارة المدرسة كما يحب الحبر الاعظم استدعى المطران الياس الى رومة وعهد اليه بادارتها واصلاح شؤونها وبقي هناك الى ٢٧ ك^١ سنة ١٨٩٨م إذ بلغه نعي المثلث الرحمة البطريرك يوحنا الحاج فسافر الى لبنان وبلغ الى بيروت ثم الى بركري في ٥ ك^٢ سنة ١٨٩٩م.

وفي اليوم التالي وهو ٦ من ك^٢ عيد الغطاس اجتمعنا في الكنيسة وقدمنا الابهالات لله ليلهم ما به مجده وخير الطائفة واقترع فأصابته القرعة ليكون بطريركنا. وفي الاحد التالي ٩ من الشهر المذكور اتممنا حفلة الترقية الى المنصب البطريركي وشمل الطائفة جمعاء مزيد البهجة والسرور بانتخابه واستبشروا بالخير

والفلاح بعنايته، وعكف على تدبير شؤون الطائفة بخيرها بغيرة لا تعرف الملل معلماً بأقواله ومثاله عاملاً بكلية جهده ويشهد له الجميع حتى خصومه بالطهارة والقداسة والورع وصلاح النية والرغبة في كل خير لطائفته ولجميع الناس، وكاد ينجز الصرح العظيم الذي انشأه لكرسيه على مقربة من دير قنوين وسماه جديدة قنوين، وسيكون بعد تمامه عن قرب ان شاء الله افسح من الصرح الذي جددته سالفه في دير بكركي، فإياه تعالى نسأل أن يطيل عمره ويفيض عليه القوة من العلاء لخير الدين الكاثوليكي ونفع شعبه، ولم يرق إلى الاسقفية إلى الآن إلا الحوري بولس بصبوص رقاها إلى اسقفية صيدا سنة ١٩٠٠م وسلم إليه تدبير أبرشية صور ايضاً.

الفصل الرابع

ما عقده اساقفة الموارنة من المجامع في القرن التاسع عشر

عد ١٢١

مجمع لوزة

في اوائل تشرين الثاني سنة ١٨١٦م أنفذ البابا بيوس السابع براءة إلى البطريرك يوحنا الحلو واساقفة الموارنة مفتوحة بقوله: «لما كانت الكنيسة كلها» وارسل اليهم مجمع نشر الايمان المقدس صحبة القس يوسف السمعاني المدير الاول في رهبانيته الحلبية مرسوماً جل ما تضمنه الامر لهم بعقد مجمع طائفي يثبتون فيه منع الرهبان والراهبات عن السكنى في دير واحد وتعيين اديار لكل فريق منهم وتعيين محل يقيم به البطريرك وكراسي دائمة لكل اسقف في ابرشيته. فاجتمع البطريرك والاساقفة في دير السيدة بلوزة برئاسة السيد يوسف لويس غندلفي القاصد الرسولي. وعقد المجمع الاول في ١٣ من نيسان سنة ١٨١٨م فأقاموا عرساً في وسط الكنيسة وضعوا فوقه كتاب الاناجيل الطاهرة والصليب الكريم وجلس المجتمعون حول العرش المذكور كل بحسب رتبته ومقامه، وبعد استمداد عون الروح

القدس تليت براءة البابا ومرسوم الجمع المقدس وأخذ الآباء في البحث أولاً في منع سكنى الرهبان والراهبات في دير واحد، فختموا بلزوم هذا الاقتراح وعينوا لسكنى الراهبات سبعة أديار وهي: دير مار عبدا هريريا، ودير سيدة الحلقة، ودير مار شليطا مقبس، ودير مار جرجس علما، ودير مار الياس بلوني، ودير مار جرجس بحردي الجديد. وعينوا لسكنى الرهبان العباد ستة أديار وهي: دير السيدة بمسيتا، ودير مار دوميط بغداس، ودير مار روحانا بالبقية، ودير مار سرقيس بريفون، ودير مار انطونيوس ببقعاتا، ودير مار جرجس بحردي القديم. وعينوا للعبادات خمسة أديار وهي: دير مار يوسف الحرف، ودير مار يوسف الحصن، ودير مار موسى بلوني، ودير مار انطونيوس بالكنيسة، ودير السيدة بشوياً. وجعلوا دير مار جرجس بالرومية مدرسة اكليزيكية عامة للطائفة، وسموها مدرسة مار مارون يتعلم فيها الطلبة الغراماطيق السرياني والنحو والصرف العربي وآداب هذه اللغة، ثم يرسلون الى مدرسة عين ورقة فيتعلمون المنطق والفصاحة والفلسفة واللاهوت النظري والادبي وارتأوا ان لا يقبل طلبة في عين ورقة لدرس اللغة السريانية والعربية وآدابهما، بل يدرس تلامذتها العلوم من الفصاحة والمنطق فصاعداً، ولبت رأيهم هذا صار فعلاً. فالأصلح كثيراً أن تكون هذه المدارس الصغيرة ابتدائية وتكون مدرسة واحدة كبرى للعلوم السامية يجتمع فيها التلامذة الاكليزيكيون من كل الطائفة.

ثم صير آباء الجمع في دير مار يوحنا بذكريت مدرسة خاصة بأبرشية قبرص خاضعة لمطران هذه الابرشية، وحتموا أن يكون سلوك الرهبان في اديارهم على ما خطه لهم الجمع اللبناني، وأن تسيّر الراهبات بموجب القانون الذي وضعه لهن المطران عبدالله قرألي ما عدا اقامة الصلاة نصف الليل فقد عفاهن منها، واما العبادات فيتدبرن بحسب قانون سيولفونه لهن.

وقد حتموا ايضاً أن لا يقام رئيس لأديار الراهبات بل ينصب الاسقف وكيلاً لتدبير املاك الدير يدبرها على مأثور رئيسة الدير ووكيلتها كما هو مرسوم بالجمع اللبناني، وأن تكون دراهم الدير مسلمة الى الرئيسة والوكيلة لا الى وكيل الاملاك، وانه يلزم تقديم حساب الدخل والخرج كل سنة لاسقف الابرشية، وأن تجتمع الراهبات مرة كل ثلاث سنين وينتخب الرئيسة ومن دونها من اصحاب الوظائف في الدير، وأن يكون مرشدهن كاهناً ورعاً متقدماً بالسن مشهوراً بالعلم والسيرة الصالحة، ولا يسمع وكيل الاملاك اعترافهن إن كان كاهناً، ولا يعترض

المرشد في شيء من أمورهنّ الروحية. وحتّموا بالخصوص أن يكون وكيل على املاك دير حراش وأن يتعين لراهباته أبّ روعي اي مرشد حسب قانونهنّ، وأمروا اخيراً أمراً جازماً تحت طائلة الحرم المحفوظ حلّه للاسقف بأن لا يترهب رجل في اديار الراهبات او العابدات ولا يسكن هناك راهب البتة ولو كان كاهناً إلا الركيل والمرشد وأن لا يدخل احد اديارهن إلا بموجب رسم الجمع اللبناني. واما إقامة الصلاة في الخورس في اديار الراهبات القانونية فقد عفوهن منها لعدم معرفتهن اللغة السريانية الى أن يتعلمن هذه اللغة، وأمروا أن تصلي الراهبات في الشبية والمسبحة ولا يسمح أن يقيم الصلاة في كنائسهن الرهبان او الكهنة من اية رتبة كانوا، وحتّموا بأن لا تطلب دراهم من المرشحات الفقيرات لئلا يكون فقرهن سبباً مانعاً من دعوتهن الى الرهبانية، وأذنوا للرهبان المقيمين في اديار الاساقفة والمدارس بأكل اللحم لتكون المساواة في المائدة.

وكان لبعض العيال دعاوى على بعض الاديار والكنائس فعين آباء الجمع قضاة في هذه الدعاوى السيد يوسف لويس غندلفي القاصد الرسولي والسيد يوسف التيان المستقيل من البطريركية والمطران يوحنا مارون العضم لينظروا في الدعاوى المذكورة ويحكموا بها ويعرضوا حكمهم على الجمع المقدس ليرى إذا كان مطابقاً للقوانين، وقد اقام هؤلاء القضاة بدير مار شليطا وحكموا بعدة دعاوى.

وقد نصب آباء الجمع وكلاء على اديار الراهبات الخوري يوسف اصاف في دير مار عبدا هرهريا، والخوري موسى ديب في دير سيدة الحقلّة، والخوري فرنسيس شلالا بدير مار شليطا مقبس، والخوري اسطفان الخازن في دير السيدة بقلوش، والخوري يواكيم نجيم في دير مار جرجس بعلماء، والقس جرمانوس بدير مار الياس بلوني، والخوري حزقيال بدير مار جرجس بحردق. وأقاموا رؤساء على اديار الرهبان القس انطونيوس التحومي بدير مستيتا، والقس الياس بدير مار دوميط، والخوري موسى زوين بدير مار روحانا، وامر ابدال هؤلاء الوكلاء والرؤساء او عزلهم منوط برأي مطران الابرشية وهو يسهر على تصرفهم حتى إذا كانوا متغافلين او مذنبين عزلهم.

اما المجلس الثاني فعقدوه في ١٤ نيسان سنة ١٨١٨م وكان البحث فيه عن كراسي البطريرك والمطارين وصوبوا اقامة البطريرك يوحنا في كرسيه قنوين، وأمروا

أن يكون دار الكنيسة في حلب مسكناً لاسقفها، ومدرسة مار يوحنا مارون مسكناً لاسقف جبيل والبترون، ودير مار سرقيس وباخوس بريفون مقاماً لاسقف بعلبك، ودير مار انطونيوس ببقعاتا كرسياً لابرشية دمشق، ومدرسة قرنة شهوان كرسياً لابرشية قبرص، ودير مار يوحنا بقتاله كرسياً لابرشية بيروت. واما مطران طرابلس فارتأوا أن يبقى حيث هو حيث ريثما يتسنى له الإقامة في محل صالح لسكناه في الابرشية، وابرشية صور وصيدا كانت وقتئذ ابرشية البطريرك. ومنعوا أخيراً جولان الرهبان للتسول في المدن والقرى إلا أن يكونوا مصحوبين بمناشير من رؤسائهم او من السيد البطريرك او من الاساقفة، ومن خالف فالاسقف يربطه ان كان كاهناً وينزع ثوبه الرهباني ان كان راهباً بسيطاً ويأخذ ما جمعه. وختموا مجمعهم بقولهم: قد قبلنا كل ما تدون بهذه الرسوم ووقعنا عليه بأختامنا. ويلي ذلك توقيع البطريرك يوحنا الحلو ويوسف لويس غندلفي القاصد الرسولي، والبطريرك يوسف التيان المتنازل عن البطريركية، ويوحنا مارون مطران حماه، واغناطيوس الخازن مطران طرابلس، واسطفان الخازن مطران دمشق، وميخائيل فاضل مطران بيروت، وعبدالله بلبل مطران قبرص، وجرمانوس ثابت مطران جبيل والبترون، وانطونيوس الخازن مطران بعلبك، ويوسف اسطفان مطران قورش، وسمعان زوين مطران صور، والنائب البطريركي.

وقد رفع آباء المجمع اعمال مجمعهم الى البابا بيوس السابع ملتجئين اثباتها فائبتها البابا في براءته المؤرخة في ٢٠ ايار سنة ١٨١٩م المتبدية «لما ظهر لنا». وفي جملة ما ضمنها اياه اطراؤه الموارنة لثباتهم على التشبث الدائم بعرى الايمان الكاثوليكي المقدس، كما كان قد اثنى عليهم كثيراً في براءته التي اصدرها لعقد هذا المجمع سنة ١٨١٦م انتهى ملخصاً عن نسخة من اعمال هذا المجمع في خزائن الكرسي البطريركي.

عد ١٢٢

مجمع بكركي الاخير

قد عقد الطيب الذكر البطريرك بولس مسعد سنة ١٨٥٦م مجمعاً في بكركي سماه المجمع البلدي وكان مأموراً به من البابا بيوس التاسع، وترأس عليه

نيابة عن قداسته السيد بولس برونوفي القاصد الرسولي، فدعا البطريرك الاساقفة والرؤساء العامين للرهبانيات الثلاث المارونية وبعض الاعيان ورؤساء المرسلين اللاتينيين، وكان هو قد ألّف رسوم هذا المجمع واعدها لتتلى في مجالسه. وبعد اجتماع المدعوين عقدوا ثلاثة مجالس في ١١ و ١٢ و ١٣ من شهر نيسان بحضرة القاصد الرسولي. وفي المجلس الاول خطب البطريرك وعدد المجمع التي عقدها بطاركة الموارنة واساقفتهم من مجمع البطريرك سرقيس الرزي سنة ١٥٩٦ الى مجمع لويزه سنة ١٨١٨م المار ذكره فكانت اثني عشر مجمعاً ذكرنا اكثرها وزدنا عليها مجمع البطريرك ميخائيل الرزي سنة ١٥٨٠، وهذا المجمع مطّول يفوق باقي المجمع المارونية إلا المجمع اللبناني. وقد افرد مؤلفه جهده في نظامه وجعله مطابقاً للمجمع اللبناني مؤيداً له إلا في بعض الامور التي اقتضى العصر تبديلها او تلطيفها. منها مثلاً اعياد كنائس القرى التي فيها كنائس كثيرة فعفا من البطالة فيها إلا عيد الكنيسة الكبرى فيها. وبعد ختام المجمع وقع عليه من شهوده وضم الى كتاب وارسل الى رومة ليثبت الكرسى الرسولي، والحق البطريرك في آخره بعض رسائل الأبحار الأعظمين المتعلقة بالموارنة فلم يثبت الكرسى الرسولي ولم ينبذه الى الآن.

الفصل الخامس

الأديار والكنائس والمدارس التي أنشأها الموارنة في القرن التاسع عشر

عد ١٢٣

الاديار مساكن البطريك والاساقفة

دير الكرسي البطريكي

منذ اواسط القرن الخامس عشر اخذ بطاركة الموارنة السكنى بدير قنوين القديم
واول من انتقل اليه البطريك يوحنا الجاجي الذي توفي سنة ١٤٤٥، وما زال
خلفاؤه يسكنون هذا الدير الى ايام البطريك يوسف ضرغام الخازن الذي ارتقى الى
البطريركية سنة ١٧٣٣م، فأقام بكسروان واقام خليفته البطريك سمعان عواد مدة
في دير مشموشة ثم خلفه البطريك طوبيا الخازن ثم البطريك يوسف اسطفان ثم
البطاركة ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل ويوسف التيان فأقاموا بكسروان. وتقرر
في مجمع بكركي سنة ١٧٩٠م أن يكون دير بكركي مقراً ثابتاً للبطريك، ولكن
بعد أن رقي البطريك يوحنا الحلو الى البطريركية سنة ١٨٠٩م جعل سكناه مذ سنة
١٨١١م في دير قنوين، واخذ في اصلاح املاكه واسترداد ما اخذ منها، واثبت
مجمع لويزه انتقاله اليه واكمل احسان حال هذا الدير البطريك يوسف حبيش
الذي ارتقى الى البطريركية سنة ١٨٢٢م، إلا انه لما كان دير قنوين صعب المسالك
ويتعاضم الحرّ فيه ايام الصيف انشأ هذا البطريك بعض مساكن في المحل المعروف

بالديمان وصاروا يصرفون به مدة الصيف ويقضون مدة الشتاء بكسروان. وكان كذلك في ايام البطريك يوسف الخازن والبطريك بولس مسعد، ولما ارتقى البطريك يوحنا الحاج الى البطريكية بَدَل المساكن التي كانت بالديمان بغيرها في محل قريب منه وجدد دير بكركي وجعله على الطراز الجديد، فكان صرحاً قل له النظر بلبنان، وهو الآن سكن بطاركتنا مدة الشتاء ولما تسلم كرسي البطريكية بطريكنا الحالي أخذ في إنشاء صرح آخر على مقربة من الديمان وقنوين وكاد بناؤه يتم وسيكون بعد تمامه أكبر وأفسح من دير بكركي، وسماه جديدة قنوين يقضي به البطريك مدة الصيف.

الأديار كراسي المطارين

كان مطارنة طائفتنا يقيمون في المحابس والمناسك او مع البطريك في دير واحد يعيشون عيشة مشتركة ويرسلهم البطريك لزيارة الابرشيات غير مقيد بأن يرسل الى كل ابرشية من ارتقى الى كرسيها، واستمروا على ذلك الى أن عقد المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦م فحتم ان يقيم كل اسقف في ابرشيته وبين رعيته، فلم يتيسر للحال أن ينشئ الأساقفة ادياراً في ابرشياتهم لسكنائهم فيها بل قطن كل منهم بدير اراده او كان مختصاً بأقاربه، فلم ير أعيان الطائفة ذلك ملائماً لشأن الطائفة وانتظام احوالها. ولما عقد المجمع المعروف بمجمع عين شقيق سنة ١٧٨٦م قدم المشايخ والاعيان رسالة الى الشيخ غندور الخوري الذي كان في المجمع يسألونه بها ان يسعى مع آباء المجمع ليقرروا وجوب سكنى الاساقفة مع البطريك في كرسيه، وارتضى آباء المجمع بالاجابة لطلبهم، ولما رفعت اعمال هذا المجمع الى الخبر الروماني رفض هذا الامر ونبذه وامر أن تكون اقامة الاساقفة كل في ابرشيته طبقاً لرسم المجمع اللبناني، فعاد الاساقفة الى السكنى بأحد الاديار، ثم عينت الاديار التي يقيم بها كل من المطارين في مجمع لوزة المار ذكره المنعقد سنة ١٨١٨م كما مر. إلا ان مطارين طائفتنا اخذوا ينشئون كراسي لسكنائهم مذ سنة ١٨٣٥م، فلم ينته القرن التاسع عشر إلا انشأ كل منهم ديراً لسكناه وبعضهم بنى ايضاً معهداً علمياً لتربية اكليرس ابرشيته على النحو الآتي بيانه.

كرسي طرابلس

لما ارتقى المطران بولس موسى لاسقفية طرابلس سنة ١٨٢٦م كان يسكن بغزير في دار الامير عبد الله شهاب فكان يتوجه لزيارة ابرشيته ثم يعود الى مأواه المذكور، على انه في سنة ١٨٣٥م اخذ في بناء دير لسكنائه واختار كنيسة مار يعقوب الكائنة بين قريتي كرم سدة وكرفو، فأنشأ هناك ديراً على اسم القديس انطونيوس البادوي لانه استعان على البناء بمال كان لكنيسة هذا القديس في كفرزينا، وكان ينوي بناء مدرسة اكلييريكية ايضاً فلم تساعد الحال عليها الى أن ارتقى الى هذه الاسقفية خليفته المطران اسطفان عواد فزاد كثيراً على ما بناه سالفه وجعله مدرسة اكلييريكية لابرشيته وادخل اليها بعض التلامذة.

كرسي ابرشية قبرص

عين آباء مجمع لوزة مدرسة قرنة شهوان اي دير مار شليطا مقاماً لمطران قبرص، وسكن هناك المطران عبدالله بليبل الى حين وفاته سنة ١٨٤٢م ولما خلفه المطران يوسف جعجع سنة ١٨٤٣م شرع في بناء دير لكرسيه على مقربة من دير مار شليطا المذكور، واتم القسم الاسفل اقبية فسيحة متينة وسكنها الى حين وفاته سنة ١٨٨١م. ولما خلفه المطران يوسف الزغبى سنة ١٨٨٢م بنى على الاقبية مساكن وصيّر لها مدرسة عالية اكلييريكية سيأتي ذكرها في جملة المدارس. ولما توفي خلفه المطران نعمة الله سلوان مطران قبرص جدد بعض البناء وغير بعضه ليكون اكثر صلاحية لسكنى التلامذة واقامة مطران الابرشية.

كرسي ابرشية بيروت

عين آباء مجمع لوزة دير مار يوحنا بقتاله مقاماً لمطران بيروت، وكان المطران بطرس ابو كرم يقيم تارة فيه وطوراً ببيروت او قرى الابرشية او بيته في بسكنتا،

ولما توفي سنة ١٨٤٤م وسلمت أبرشية بيروت الى سالفنا المطران طوبيا عون سنة ١٨٤٥م اقام مدة بيروت ثم اخذ بإنشاء محل لسكنائه في مزرعة عين سعادة التابعة لبيت مري في عقار وقفه عليه عساف ماضي من المحل المذكور، ثم زاد على ما بناه بعض غرف لسكنى تلامذة اكليريكيين ادخل صفاً منهم بحياته، وجدد ببيروت المحلة المعروفة بالقلاية لسكنائه مدة الشتاء والربيع، وقنى لكرسيه املاكاً يكفي ريعها للنفقة عليه وعلى حاشيته والتلامذة. ولما دعاني الله لأخلفه في هذه الأبرشية زدت في عين سعادة عدة غرف واصلحت البناء السابق. ولما انتقضت بعض الغرف بالقلاية لبناء الكنيسة الكبرى انشأت فوق ما بقي منها محلاً لاشغال الأسقفية والاجتماعات احتفالية على اني نقلت الصف الاكليريكي من مدرسة عين سعادة الى مدرسة الحكمة التي انشأتها ببيروت وسيأتي ذكرها في جملة المدارس، وزدت في عقارات الكرسي زيادة تذكر وشريت املاكاً كثيرة بجوانب المدرسة خصصتها بها.

كرسي أبرشية صور وصيدا

كان المطران عبدالله البستاني يسكن بعض قلالي في مشموشه، وبعد أن ارتقى ابن اخيه المطران بطرس الى كرسي عكا معاوناً له في حياته وخلفاً بعد موته شرى في بيت الدين المحل المعروف بالمقصف مسكن الامير بشير الكبير مدة الصيف وجعله كرسيّاً له، ثم شرى المقصف الآخر المعروف بمقصف الامير امين ابن الامير بشير المذكور والقناة الموصلة الماء الى سراي بتدين، والمقصفين المذكورين، وعقارات أخرى كثيرة هناك، وفي مزرعة بكفيا وغيرها، وخص كل ذلك بكرسيه فكان بهذه الابرشية مقر لأساقفتها له من الدخل ما يكفي لإنشاء مدرسة اكليريكية. وكان في عزم المثلث الرحمة المطران بطرس المذكور أن ينشئها فلم تساعده الحال على ذلك وخاصة لانه كان يرغب في وفاء الدين الذي اضطر اليه في شراء ما مرّ من العقارات، وقد اخذ خليفته المطران بولس بصبوص في إنشاء هذه المدرسة في مقصف الامير امين المذكور.

كرسي أبرشية بعلبك

كان المطران انطون الخازن الذي دبر هذه الابرشية اكثر من خمسين سنة يقيم في دير بقلوش الخاص بأسرته الخازنية، ولما توفي سنة ١٨٥٨م وارتقى الى هذا الكرسي المطران يوحنا الحاج سنة ١٨٦١م اخذ يجهد نفسه في انشاء كرسي لأبرشيته فوفقه الله الى ذلك بأقرب وقت وشري عقارات كثيرة، ثم ابتاع دار قعدان بك الخازن بعرامون واخذ بيني محلاً لسكنائه ومدرسة اكليريكية لأبرشيته، فكلل الله عمله بالنجاح ولما ارتقى الى البطريركية سنة ١٨٨٩م ورقى ابن اخته المطران يوحنا مراد الى اسقفية بعلبك خلفاً له اتم ما كان خاله قد أنشأه، ولكن لم يتيسر له الى الآن ادخال صف اكليريكي الى المدرسة.

كرسي أبرشية دمشق

كان المطران اسطفان الخازن الاول يسكن في دير عائلته ببلوني ولما خلفه المطران يوسف الخازن سكن في دير البشارة بزوق مكاييل، ولما صير بطريركاً سنة ١٨٤٥م ورقى الى أسقفية دمشق المطران اسطفان الخازن الثاني سنة ١٨٤٨م سكن بدير مار موسى بلوني، وبعد أن توفي سنة ١٨٦٨م خلفه المطران نعمة الله الدحداح سنة ١٨٧٢م وسكن في محل المرسلين اللبنانيين بعينطورا، وبعد وفاته سلمت أبرشية دمشق سنة ١٨٩٠م الى المطران بولس مسعد اسقفها الحالي، فهم بإنشاء كرسي لهذه الأبرشية فوفقه الله الى بناء هذا الكرسي في أعلى قرية ريفون مجتمعاً كل ما يلزم لإقامة اسقف وحاشيته وبعض التلامذة ايضاً.

المدارس التي انشأها الموارنة في هذا القرن

مدرسة عين ورقة

حوّل البطريرك يوسف اسطفان دير عائلته عين ورقة مدرسة اكليزيكية عامة للطائفة سنة ١٧٨٩م وادخل اليها صفاً من الطلبة سنة ١٧٩٢م وترأس عليها الخوري خيرالله اسطفان، فصرف عنايته في نجاحها ولما رقي الى الاسقفية ازدادت المدرسة رونقاً وتقدماً الى أن رزئت بوفاته سنة ١٨٢٣م فقيض الله لها بعده المطران يوسف رزق الجزيني الذي رقاہ البطريرك يوسف حبيش الى اسقفية قورش ورئاسة هذه المدرسة سنة ١٨٢٩م، فغير كثيراً من ابنيها وانشأ كنيسة الشهيبة واستمر متراًساً عليها الى أن دعاه ربه اليه سنة ١٨٦٥م. ورأس من بعده الخوري يواكيم اسطفان ثم الخوري بولس اسطفان واخيراً الخوري يوسف اسطفان الذي رقاہ البطريرك يوحنا الحاج الى اسقفية قورش ورئاسة المدرسة سنة ١٨٩٦م فزاد بمدة رئاسته كثيراً في ابنية المدرسة واملاكها وحسن حالتها وهو رئيسها وينوي تجديد ابنية في هذه المدرسة التي عم نفعها لهذه الامصار، ومن تلامذتها انبعثت انوار العلوم الدينية في هذه الاقطار قبل كل ما سواها من المدارس الشرقية ونبغ منها رؤساء وعلماء كثيرون فمن تلامذتها بطاركتنا يوسف حبيش ويوسف الخازن وبولس مسعد ويوحنا الحاج، ومطارين طائفنا عبدالله البستاني وبطرس ابو كرم وجبرائيل الناصري ويوسف رزق ونقولا مراد ويوسف جعجع ويوسف المريض ويوحنا حبيب وبطرس البستاني ويوسف مسعد ونعمة الله سلوان وانا الخليل، ومن الكهنة الأجلاء يوسف الرزي الواعظ الشهير ويوحنا الصائغ المسمى الاسطنبولي ويوسف الصوري وفرنسيس زوين ويوحنا البزماني وارسانيوس ويوسف الفاخوري الى غيرهم. ومن العلماء المشاهير الشيخ بشارة الخوري والشدياق شاهين المزرعاني والمعلم بطرس البستاني واللغوي الشهير فارس الشدياق الى غيرهم.

مدرسة مار يوحنا مارون

جدد دير مار يوحنا مارون بكفرحي بعد اندراسه البطريرك يوسف اسطفان وأسكن به رهباناً عباداً الى أن جعله البطريرك يوحنا الحلو سنة ١٨١٢م مدرسة خاصة بابرشية جبيل والبترون ولم يكن لها من الدخل إلا ما يقوم بأود نحو عشرة تلاميذ، واستمر كذلك الى ايام البطريرك بولس مسعد حين جعل الخوري يوسف فريفر رئيساً عليها فجدد قسماً كبيراً من بنائها، ولما رقاها البطريرك الى اسقفية اللاذقية وجعله نائباً له في ابرشية جبيل والبترون ورئيساً للمدرسة لم يأل جهداً في انماء دخل هذه المدرسة وتكثير املاكها وتوسيع ابنتها واتقانها وجمع تلامذة عالمين فيها زيادة على الاكليريكيين، فحسنت حالها وانتظمت امورها وبعد وفاته سنة ١٨٨٩ عهد برئاستها الى المونسنيور بطرس ارسانيوس من كور فزاد في مساكنها وما برح مهتماً في نجاحها ونظامها.

مدرسة مار مارون الرومية

كان تجديد دير مار مارون الرومية بكسروان سنة ١٦٩٦م عني بتجديده الخوري جرجس صفيير وأخوه ناضر الى أن ارتأى آباء مجمع لويظة المنعقد سنة ١٨١٨م أن يجعلوه مدرسة اكليريكية عامة للطائفة فصيير كذلك، إلا ان قلة الدخل لهذه المدرسة قصرت عدد تلامذتها على عشرة: ثمانية من ابرشيات الطائفة الثماني واثنين من عائلة بيت صفيير ولم تزل حالتها كذلك.

مدرسة مار عبدا هريريا

مرّ ان هذا الدير أنشأه القس يوسف اصاب سنة ١٦٥٥م وسكن فيه رهبان وراهبات عابدات، وعين في مجمع لويظة سنة ١٨١٨م من جملة الاديار التي خصت بسكنى الراهبات، ثم اهتم البطريرك يوسف حبيش بجعله مدرسة اكليريكية

عامّة للطائفة المارونية. وكان لهذه المدرسة املاك وافرة ودخل جزيل وقد زادهما رئيسها الخوري يوسف بن حاتم اصف، وكان بناؤها غير صالح فأخذ من خمس سنين يجدد بناءها على الطراز الحديث. وقد نبغ من هذه المدرسة اساقفة وكهنة فضلاء وعلماء أجلاء. فمن تلامذتها الاساقفة المرحوم المطران جرمانوس الشمالي والمطران بولس عواد والمطران بولس بصبوص. ومن الكهنة رئيسها والخوري يوسف العلم وغيرهما. ومن علمائها اسطفان اصف ويوسف الياس باخوس وغيرهما.

مدرسة ريفون

مرّ في تاريخ القرن السابع عشر ان دير ريفون أنشأه القس سليمان مبارك سنة ١٦٥٠م وكان يسكنه رهبان عباد، وعين في مجمع لويزه مقاماً لمطران بعلبك، ثم حسن للبطريرك يوسف حبيش أن يجعله مدرسة اكليريكية للطائفة سنة ١٨٣١م ولكن لما لم يكن لها من الدخل إلا ما يقيم بعشرة تلاميذ اقتصر فيها على هذا العدد، وقد جدد بناءها وحسنه الخوري فرنسيس مبارك وزاد فيه كنيسة ظريفة، وتوفي هذا الرئيس سنة ١٨٧٢م.

مدرسة الحكمة

كل ما مرّ ذكره من المدارس انشئ لتهديب الاكليريكيين وتعليمهم ولم يكن في طائفتنا مدرسة لتعليم الشبان العالميين، ولما دعاني الله بوافر سخائه لا باستحقاقي الى اسقفية بيروت كان اول اهتمامي انشاء هذه المدرسة للعالميين، واشرت الى ذلك في اول خطبة القيتها في هذه المدينة واخذت استعد لذلك وابحث عن محل يوافق هذا الغرض فشريت عدة قطع من الارض في المحلة المعروفة بالغابة سنة ١٨٤٧م وأخذت في البناء مستعيناً على ذلك بثمان معمل حرير بشملان كان المرحوم سالفني قد شراه فبعته الى الخواجة يوحنا فريج بمائتي ألف غرش وبثمان نصف قرية كفريا بالبقاع الغربي كان المرحوم سالفني قد شراه فبعته الى الخواجة يوسف سرسق بمائتي

ألف غرش أيضاً، بعد أن كاشفت بهذا البيع السيد البطريرك ومجمع نشر الايمان المقدس. وابتدأت في البناء السنة المذكورة بنوع انني أنجزت سنة ١٨٧٥م قسماً كبيراً منه وادخلت الطلبة اليه في اول ت^٢ من هذه السنة، وواصلت السعي في تكملة هذه المدرسة فوهبني الله التوفيق فكان اكثر البناء القائم الآن مع الكنيسة كاملاً في آخر سنة ١٨٧٨م. فمزيد اهتمامي بهذا المشروع وإلقائي الخطب في كنيسة بيروت الكبرى مدة الصوم مع الانقطاع والصوم سببت لي مرض احتقان الدماغ سنة ١٨٧٥م، ولولا براعة النطاسي الشهير الدكتور سوكة الفرنسي لكنت من يومئذ في الابدية. ولما بللت من مرضي أشار عليّ بالسفر الى اوروبا فعملت بمشورته وسرت الى رومة اولاً ونلت حظوة كبرى بعيني السعيد الذكر البابا بيوس التاسع والمثلث الرحمة الكردينال فرنكي رئيس مجمع نشر الايمان المقدس، فدفع إليّ نيافته كتب توصاة الى فرنسة لمساعدتي بمشروعي المذكور، وكنت قد أرسلت الخوري يوسف الزغبى والخوري لويس زوين الى فرنسة للتكمل بعلومهما ومعاونتي بعد عودهما على إدارة المدرسة، فسلمت إليهما كتب التوصاة فجمع أحدهما الخوري لويس من فرنسة نحو عشرين ألف فرنك والخوري يوسف الزغبى هذا القدر من بلجيكا وانكلترا فأوقفتهما بعد ذلك عن السؤال، فكان الداخل لهذا المشروع نحو اربعمائة الف قرش من ثمن العقارات المذكورة ومائتي ألف قرش ونيف من الإحسانات المشار إليها، وما كلفت أحداً من أبناء أبرشيتي أو غيرها لدفع شيء، ولا سألت بنفسي شيئاً من احد في اوروبا، ولا اعلم كيف بارك الله هذا العمل المقصود منه وجهه الكريم ونفع القريب حتى كان مجمل ما صرفته في هذه المدرسة من نفقة البناء والأثاث وشراء العقارات وتعمير مساكن للأجرة نحو ثلاثين ألف ليرة فرنسية الى الآن. وفي هذه المدرسة وجوانبها الآن نحو مائة ألف ذراع أرض. ولها من البيوت والمساكن ما يؤجر بنحو خمسة عشر الف غرش في السنة وكل هذه العقارات والبيوت خصصتها بالمدرسة مفروزة عن الاملاك المعروفة بالكروسي الاسقفى لنفقة الاسقف وحاشيته وخدمه، وقد نجحت والحمد الله هذه المدرسة ولا ينقص تلامذتها في كل سنة عن ثلاثمائة طالب السواد الاعظم منهم داخلون، وقد نبغ منها كهنة علماء وخطباء وشعراء وكتّاب وكنت ارسلت اخي الخوري بولس بعد اتمام دروسه في مدرسة عين ورقة الى باريس سنة ١٨٧٥م للتكمل في دروسه ومراعاة ادارة المدارس في اوروبا، فعاد إليّ سنة ١٨٨٠م

وعهدت اليه بادارة هذه المدرسة ورئاستها فأتم ذلك بما يرضي الله ويعزيني عن
اتعابي، فإياه تعالى أسأل أن يتيح لهذه المدرسة التوفيق والنجاح لمجد الله الاعظم
وخير سكان هذه الامصار الشرقية بمّنه وكرمه وشفاعة القديس يوسف شفيعها.

مدرسة قرنة شهوان ومدرسة غزير

أشرت انفاً اني ارسلت الخوري يوسف الزغبى والخوري لويس زوين الى فرنسا
للتكامل بالعلوم ومعاونتي في مدرسة الحكمة بعد عودهما ثم عهدت اليهما بجمع
شيء من الاسعاف لها فجمعاً ما ذكرته آنفاً فأوقفتها عن الجمع وبقي كل منهما
مدة بعد ذلك في اوروبا، فيظهر ان الله بارك مساعيها واثاح لهما التوفيق فشرى
الخوري لويس زوين بعد عوده دار الامير منقذ شهاب في غزير وزاد عليها وجعلها
مدرسة على اسم مار لويس معدة لقبول طلبة عالميين واكليريكيين، وكذلك صنع
الخوري يوسف جبرائيل الزغبى فانه بعد عوده من اوروبا سنة ١٨٨٢م وارثائه الى
اسقفية قبرص بنى طبقة عليا فوق الطبقة السفلى التي كان المطران يوسف جمع
قد أنشأها وجعلها مدرسة اكليريكية وعالمية. ولما توفي المطران المذكور وخلفه
المطران نعمة الله سلوان سنة ١٨٩٢م زاد بعض البناء في هذه المدرسة وحسّن بعضه
وجرّ إليها الماء من منبع في بحرصاف، وما برحت هذه المدرسة ناجحة موفقة وكان
لي في هاتين المدرستين تعزية كبرى إذ كان إنشاء مدرسة الحكمة سبباً لإنشاء
مدرستين أخريين.

مدرسة المحبة في عرامون ومدرسة العريمة

اما مدرسة المحبة فأنشأها بعرامون الخوري جبرائيل شباط سنة ١٨٦٧م واستعان
على إنشائها بإحسانات جمعها من اوروبا بأسفاره اليها وهي تقبل طلبة داخليين
قليلين وخارجيين، ولقلة دخلها لم تنجح كثيراً لكنها دامت من حين تأسيسها الى
الآن. وبعد وفاة الخوري جبرائيل مؤسسها يدبرها الآن اخوه يوسف شباط.

واما مدرسة العريمة فقد أنشئت سنة ١٨٦٥م بما وقفه المرحوم المطران نقولا
مراد المتوفي برومة سنة ١٨٦٣م، ثم بما وقفه أخوه همام مراد من العقارات والنقود،

وابتاع دار الشيخ منصور الدحداح في اسفل عرامون وبني فيها كنيسة على اسم القديس نيقولاوس، وجعل بعده الولاية على هذه المدرسة لمجمع الايمان المقدس والرئاسة لمن ينتخبه من أقربائه ولم ينجح هذه المشروع الى الآن وقل من دخل هذه المدرسة من التلامذة.

المدرسة الوطنية

نذكر هذه المدرسة في جملة المدارس التي أنشأها الموارنة لأن منشئها ماروني أصلاً وهو المعلم بطرس البستاني، وقد افتتحها سنة ١٨٦٣ وجعلها تحت إدارة ابنه سليم الذي كان يعلم بها العلوم والصف الاول في اللغة الانكليزية، وتخرج بها كثيرون من الموارنة ايضاً ولم تكن تتعرض لتلامذتها في امر دينهم بل كانت ترسلهم لقضاء فروضهم الدينية في كنائس طوائفهم ودامت خمس عشرة سنة وقد اقفلت لما فتحت ابواب مدرسة الحكمة سنة ١٨٧٥م.

المدارس الرهبانية

اما الرهبانيات الثلاث في طائفتنا فكان رؤساؤها يخصصون ديراً من اديارهم لتعليم المرشحين للكهنة فيه، وكان رؤساء الرهبانية اللبنانية يخصصون احياناً ديرين او ثلاثة اديار لهذا التعليم فكان كذلك دير قزحيا وكفيفان والقطارة وميفوق والناعمة. والآن اكبر مدرسة لرهبانهم في دير نسبيه بغوسطا وقد شروا من بضع سنين داراً في بيروت وجعلوها سكناً لنحو اثني عشر راهباً يتلقون الدروس السامية في المدرسة الكلية للآباء اليسوعيين بهذه المدينة. واما الرهبان المعروفون بالانطونيانيين فيعلمون قسوسهم في أحد اديارهم كدير القلعة في بيت مري الى أن جعل القس عمانوئيل البعداتي دير مار اشعيا في برمانا مدرسة للمرشحين من هؤلاء الرهبان للكهنة، وعززها اذ هو الآن الرئيس العام للرهبانية. واما الرهبان الحلبيون فديرهم برومة هو مدرسة لهم وقد زاد بناءها وأتمى دخله المطران امبروسيوس نطين الدرعوني

وزادها نظاماً في هذه السنين الاخيرة الأب لويس الخازن رئيسها وكانوا يعلمون
المعدين للدخول في هذه المدرسة مبادئ اللغات والعلوم في دير مار اليشاع بجانب
بشري.

مدرسة المرسلين اللبنانيين

لما شرى الطيب الذكر المطران يوحنا حبيب وهو كاهن دير المخلص بالكريم
وقفه على المرسلين اللبنانيين ليكون كرسياً لجمعيتهم ومدرسة للمرشحين للانضمام
اليها، وكان كذلك، إلا انه حسن لآباء جمعيتهم حيناً ما أن يقيموا تلامذتهم في
المحل الخاص بهم بعينطورا ثم وجدوا في ذلك بعض المصاعب فأرجعوا تلامذتهم
الى الكريم فينقص عددهم او يزيد بالنسبة الى عدد الطالبين المنضمين اليهم
ويعلمونهم من اللغات السريانية والعربية والفرنسية واللاتينية والعلوم الاكليريكية
السامية.

ان ذكر انشاء كل هذه المدارس عند الموارنة في هذا القرن يبين صريحاً النهضة
العلمية في الطائفة ولاسيما ان راعيت ان اكثرية التلامذة في المدارس التي يديرها
الآباء اليسوعيون والعزاريون والمرسلون المعروفون بإخوة التعليم المسيحي وغيرهم من
شبان الموارنة. فالرغبة في تعليم الآباء اولادهم هي عامة وشاملة حتى تراها تجاوزت
الحدود ولو رغب عامة الناس وأواسطهم في تعليم اولادهم الصنائع والحرف لكان
هذا أولى واصح بمصلحتهم ومصلحة البلاد.

عد ١٢٥

اديار الرهبان اللبنانيين المنشأة بهذا القرن

ذكرنا في تاريخ القرن الثامن عشر ما أنشأه هؤلاء الرهبان من الأديار فيه
ونذكر الآن ما أحدثوه في القرن التاسع عشر فقد بنوا دير مار مارون عتاية ببلاد
جبييل سنة ١٨١٤م، ودير مار سركيس وباخوس بقرية قرطبا سنة ١٨١٥م، وفي
سنة ١٨٤٩م فصلوا بعض املاك عن دير قزحياً وأقاموا بها ديرين: الاول على اسم

مار انطونيوس في الجديدة وخصوا به املاك قزحيا التي كانت بمارشينا ونهر جرعت وكفرياشيت، والثاني دير مار جرجس عشاخ وخصوا له الاملاك التي كانت لقزحيا في الحبل المذكور وأنشأوا سنة ١٨٤٦م دير مار روكس بجانب عجلتون وأخذوا بينائه سنة ١٨٦٥م وفصلوا قسماً من املاك دير مشموشه سنة ١٨٤٩م وأنشأوا به اولاً دير مار تقلا بريمات ثم نقلوا هذا الدير الى بحنين وسموه باسم دير المخلص. واخذوا في هذه السنة ايضاً في بناء دير مار يوحنا بقبيع من قرى المتن الجنوبي وأنشأوا دير مار شليطا بالقطاره من بلاد جليل سنة ١٨٥٢م وجعلوه مدرسة مدة ما ثم ابتنوا دير مار جرجس بحنين من قرى عكار سنة ١٨٥٣م، ودير مار يعقوب النصيبي بالحصن من بلاد البترون سنة ١٨٦٢م. وفصلوا قسماً آخر من املاك قزحيا وخصوه بدير مار سمعان بقرب ايطو وجعلوه مسكناً للراهبات، وفصلوا عن دير قزحيا ايضاً املاكه بقرية بصرما بالكورة وبعض املاكه بقرية بشنين بالزاوية واقاموا بها ديراً على اسم سيدة النجاة ببصرما سنة ١٨٧٦م، وجعلوا المدرسة التي كانت لهم بساقية المسك ديراً على اسم مار ميخائيل سنة ١٨٨٢م، واخذوا في سنة ١٨٨٠م بينون ديرهم بنسبيه بقرية غوسطا على اسم سيدة النصر وهو من اكبر أديارهم، ويعلمون فيه الآن المرشحين من الراهبات للكهنوت. وقد احدثوا في هذا القرن من المدارس لتعليم الاولاد القراءة والخط واصول الديانة مدرسة بيان من قرى بشري سنة ١٨٠٦م، وزادها القس افرام جعجع البشري في مدة رئاسته لها بناء واملاكاً. ومدرسة العبادية سنة ١٨٣٠م فوقف بعض الامراء اللمعيين عليهم بعض العقار وشرط عليهم اقامة مدرسة وقسوس بها يخدمون موارد هذه القرية ويعلمون اولادهم. وأنشأوا سنة ١٨٣٧م مدرسة رأس المتن، وسنة ١٨٣٩م مدرسة الشبانية، وسنة ١٨٥٥م مدرسة غباله. وحدث الأب عمانوئيل المتيني مدرسة المتين ولهم مدرسة في حمانا واخرى في بسكنتا، ومدرسة الفريكة ومدرسة كفرحيا قرب قرطبة انشأها القس دانيال الحديثي، ومدرسة في بصا بجوار تنورين واخرى في وادي جزين ومدرسة في صغبين، وأنشأوا مدرسة حديثة في بدادون. هذا عدا مدرسة عجلتون التي انشأوها في القرن الثامن عشر سنة ١٧٥١م، ومدرسة وادي شحرور التي احدثوها سنة ١٧٨٥م بعقار وقفه بعض الامراء الشهابيين. ولهم من القناتيش انطوش جليل احدثوه سنة ١٧٦٢م، وانطوش زحله سنة ١٧٦٩م، وانطوش دير القمر سنة ١٧٨٢م، وانطوش معلقة زحله سنة ١٨٠٨م، وانطوش يافا

سنة ١٨٥٥م، وأنشأوا فيها كنيسة في هذه السنين الاخيرة، وانطوش بعلبك أنشأوه سنة ١٨٥٧م، وانطوش ابلح سنة ١٨٦٠م، وانطوش مجدلون سنة ١٨٦٨م.

عد ١٢٦

اديار الرهبان الانطونيين المنشأة بهذا القرن

ذكرنا في تاريخ القرن الثامن عشر ما انشأوه فيه من الاديار فنذكر هنا ما احدثوه منها في القرن التاسع عشر:

- ١- دير مار دوميط برومية اشترى محله وبعض العقار له القس ابراهيم عون ثم استأذن القس يوسف الشبايي والقس تادروس جباره البطريرك يوحنا الحلو بأن بنيا هناك ديراً فأقاما الجهة الجنوبية منه سنة ١٨١٨م وبنى بعدهما القس بولس الحمانى الجهة الشمالية والغربية والكنيسة كما يظهر من خط على باب مقعد الدير المذكور وكان رهبان دير القلعة يذهبون الى رومية فيشتغلون في بناء هذا الدير الاسبوع كله ويعودون مساء الاحد الى ديرهم.
- ٢- دير مار الياس بالكنيسة اتفق رئيس عام هذه الرهبانية ومدبروها على بناء دير بالكنيسة واستأذنوا المطران يوسف جعجع مطران الابرشية بانثائه فاهتم به القسوس شاول وغريغوريوس والياس الذين كانوا من هذه القرية وخصوا به بعض املاك كانت لدير مار دوميط رومية ودير مار سمعان بعين القبو.
- ٣- دير مار يوسف بحرصاف اخذ في انشائه القس فيلبوس الحاج بطرس من بكفيا سنة ١٨٥١م، لكنه بقي حقيراً الى أن ترأس عليه القس لويس الحاج بطرس ثم صار مدبراً في رهبانيته فأفرغ جهده بتوسيع بناء هذا الدير وتأسيسه وشراء عقارات له، وبنى فيه كنيسة ظريفة واستعان على ذلك ببعض الاحسانات .
- ٤- دير مار نوهرا القنزوح اخذ بانثائه القس برنردوس الغزيري سنة ١٨٦٤م بعد الاستئذان من البطريرك بولس مسعد والمطران يوحنا الحاج اسقف الابرشية ثم اكمل بناءه القس فرنسيس المدبر ابن اخي القس برنردوس المذكور.

٥- دير مار سرقيس بكفردلاقس هو دير صغير على مقربة من زغرنا اهتم بإنشائه في هذا القرن القس انطون الحلبي، فانه شري عقارات باسم هذا الدير وسلمها الى القس تيموتاوس الاهدني فأخذ في بناء بعض قلالي ثم بنى القس انطونيوس الاجبي الكنيسة.

٦- دير المخلص بقرية عين العلق أنشأه سنة ١٨٧٠ القس يوسف البعداتي الرئيس العام وعهد بينائه الى القس يشوع الشباني واخيه القس ابراهيم فبنايه وشريا له املاكاً.

٧- دير مار مارون الرويس في شنعير ابتاع ارضه القس مرقس الشنعيري والقس بولس الغزيري وتعذر عليهما نقد الثمن فدفعه القس فيلبوس الحثوني الدليتاوي الانطونياني، واجاز الرئيس العام والمديرون أن يكون ديراً وأن يتسلمه القس فيلبوس المذكور، وأعطوه صكاً بذلك مؤرخاً في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٨٧٤م.

ولهذه الرهبانية عدة اناطيش:

١- انطوش زحله طلب القس ابراهيم عون المذكور قطعة ارض في زحله من الامير بشير قيديه اللامي وبنى فيها كنيسة وبعض مساكن وعهد اليه مطران الابرشية بخدمة النفوس هناك، وقد احترقت الكنيسة المذكورة مراراً آخرها سنة ١٨٨٢م مصادفة.

٢- انطوش قب الياس أنشأه القس توما مدلج الرئيس العام في قطعة ارض وهبه اياها الامير سيد احمد شهاب ثم باعه أرضاً فسيحة وكرماً، فأرسل رهباناً يحرقونها ثم بنى هناك كنيسة على اسم ايليا النبي وبنى بجانبها بعض مساكن.

٣- انطوش قرنايل أنشأه الرئيس العام على هذه الرهبانية إذ ساله الامير يوسف مراد اللامي أن يبنى هناك كنيسة على اسم قديس ذي بطش وشجاعة فبناها على اسم ايليا النبي، ورغب الامير الى اهله أن يعتنقوا الدين الكاثوليكي في الطقس الماروني فنصر القس صامويل والقس يوسف حفيديه الامير بشير والد

- الامير سعيد بيت مري، والامير على والد الاميرين يوسف ومحمود علي.
- ٤- انطوش شملان بنى الامير حيدر الشهابي كنيسة هناك اولاً ثم وقف عليها عودتين لمعاش الكاهن الذي يخدمها، ثم وقفت امرأته اكثر املاكها على الرهبان، وكان القس يوسف البعبداتي يخدم دارهما فزاد هذا الوقف املاكاً بشرائه لها، وبنى مساكن يقيم بها الرهبان سنة ١٨٢٨م، وقد صيّر الرهبان هذا الانطوش مذ بضع سنين ديراً.
- ٥- انطوش حوش حالا في قائممقامية بعلبك أنشأه احد القسوس إذ شرى هناك ارضاً سنة ١٥٤٨م وبنى كنيسة على اسم القديس روكس وألحق بها بعض مساكن.
- ٦- انطوش قرنة الحمرا كان أنشأه الرئيس العام القس ابراهيم البسكنتاوي واتفق مع مدبري الرهبنة واستأذنوا البطريرك يوسف حبش سنة ١٨٢٧ بأن يبنوا مدرسة بقرنة الحمراء من قاطع بيت شباب، فأذن لهم وسلموا العناية بها الى القس يمين البجاني فبنى بعض المساكن ثم بنى الكنيسة القس جبرائيل من برمانا وقد صيّر هذا الانطوش ديراً منذ بعض سنين.
- ٧- انطوش قرنة شهوان اهتم بإنشائه القس شاول من الكنيسة الرئيس العام ليكون مدرسة للأولاد، فرخص له بذلك البطريرك يوسف حبش والمطران عبدالله بلبيل، فوكل الرئيس العام باتمام ذلك الى القس زكريا من عائلة بيت جباره.
- ٨- انطوش بحنس كان إنشاؤه سنة ١٨٥٢ في ارض وقفها رجل مستحسب اسمه يعقوب من القرية المذكورة شارطاً أن يبنى الرهبان فيها انطوشاً. وأن يقوموا بأوده ما دام حياً، فقبل القس فيلبوس الحاج بطرس الرئيس العام شرطه وأقام على اتمام ذلك القس يوسف البعبداتي.
- ٩- انطوش ترسييس أنشئ سنة ١٨٢٧ فان الموارنة المتوطنين بترسييس وادنا رفعوا عريضة للبطريرك يوسف حبش سائلين أن يرسل اليهم كاهناً لخدمتهم الروحية فأرسل اليهم القس فرنسيس جعاره الغزيري فأقام على خدمتهم. وفي سنة ١٨٥٦م أمر البطريرك بولس مسعد الرئيس العام القس بطرس الغزيري أن يرسل كاهناً من رهبانه لخدمة اهل ترسييس الموارنة واعطاهم صكاً باختصاصهم بالرسالة بكليكيّا اي ترسييس وادنا ومرسين وأمرهم أن

بينوا كنيسة بترسيس فبنوها بمالهم وبعض الاحسان وما برح الرهبان يخدمون بها.

١٠- انطوش اسكلة طرابلس بني سنة ١٨٥٥ بأمر البطريرك بولس مسعد للقس بطرس الغزيري الرئيس العام الذي اشترى هناك داراً وارضاً، واهتم الرهبان ببناء كنيسة ومساكن فيها واقام بعض قسوسهم يخدمون الموارنة هناك الى الآن.

١١- انطوش بسكنتا أنشئ سنة ١٨٥٧ باهتمام القس سلوانس البسكنتاوي وأذن الرئيس العام والمديرين فبنى فيها بعض قلالي وشري بعض العقار، وابتدأ في بناء الكنيسة وعاجله الموت فأكملها بعده القس بطرس كرم البسكنتاوي.

عد ١٢٧

الاديار التي انشأها الرهبان الحلبيون وغيرهم في هذا القرن

١- دير مار دوميط بفيطرون اخذ الرهبان الحلبيون اللبنانيون بإنشائه سنة ١٨٥٤ لكن الذي كمل هذا الدير وجعله انما هو القس سابا دريان العشقوتي الذي استمر على رئاسة هذه الرهبانية سنين كثيرة، وجعله مدرسة ابتدائية يتعلم بها الرهبان المرشحون للدخول الى مدرستهم برومة.

٢- دير مار سرقيس وباخوس بعشقوت أنشأه القس سابا العشقوني الرئيس العام المذكور وشري له املاكاً.

٣- دير مار اليشاع في جبة بشري بناه الرهبان المذكورون في المحل المسمى مزرعة نهرا بين بشري وبقاع كفرا لسكنائهم بدلاً من دير مار اليشاع القديم في الوادي المقدس فلما كان الدير القديم صعب المسالك بنوا هذا الدير لسكنائهم تاركين الدير القديم على ما كان عليه.

٤- مدرسة عبيه رغب في إنشائها المرحوم المطران بطرس ابو كرم مطران بيروت فكتب الى القس جناديوس الزوقي الرئيس العام حينئذ على الرهبان المذكورين والى مدبري الرهبانية مظهراً رغبته فيها ومعيناً الشروط اللازمة لذلك، فأجابه الرئيس والمدبرون في ٥ اذار سنة ١٨٣٧ مصرحين بالاجابة الى رغبته

والاستشارة بالشروط التي ذكرها، وهي أن يكون من رهبانهم ثلاثة قسوس يخدمون الرعية في عبيه ويكون احدهم مقيداً بتعليم اولاد القرية مجاناً.

في سنة ١٨٣١م وقفت ارملة الشيخ بشاره جفال الخازن وشقيقته دارهما في في زوق مكايل واملاكهما وكل ما يتعلق بهما على دير بني هناك وقبل البطريرك يوسف حبيش ووقفهما وكرس دارهما ديراً على اسم سيدة البشارة، وفوض البطريرك بالولاية على هذا الدير الى المطران يوسف الخازن مطران دمشق وجعله مسكناً لراهبات يستسرن بقانون راهبات الزيارة.

وفي سنة ١٨٧٨م انشأ المطران بطرس مسعد كنيسة على اسم القديسين الرسولين بطرس وبولس بقرية عشقوت وبني حذاءهما بعض غرف، وشرى لها بعض املاك لتكون مدرسة يتعلم بها اولاد القرية وغيرهم اذا امكن.

عد ١٢٨

بعض الكنائس المنشأة للموارنة في هذا القرن

إن تعداد كل الكنائس التي أنشئت للموارنة في القرن التاسع عشر امر طويل ممل قليل الفائدة، ولذلك اقتصر على ذكر الكنائس التي قدرني الله على بنائها في بيروت واهتممت أن تبني بالقرى التابعة ابرشيتها. ففي سنة ١٨٧٤ ساعدني الله على بناء كنيسة مار مارون بحي القيراط في ارض اشتريتها من المرحوم نعيم افندي قيقانو وفرغت من بنائها وتجهيزها سنة ١٨٧٥م وكانت النفقة عليها نحو مائتين وخمسين الف قرش، وفي سنة ١٨٧٨م انشئت بعون الله كنيسة القديس يوسف بمدرسة الحكمة السابق ذكرها وكانت نفقتها في جملة النفقة على المدرسة المذكورة.

وفي سنة ١٨٨٢م بنيت بعون الله كنيسة القديس ميخائيل رئيس الملائكة بحي الرميل وكان في محلها كنيسة على اسم هذا القديس بنيت سنة ١٨٣١م بأمر ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر، فان الكنيسة كانت في الكوارثينا حيث حلت عساكر ابراهيم باشا ولما رأى ان النساء يضطرون أن يمررن بين العساكر الى الكنيسة أمر الخوري ميخائيل ابي كرم أن يشتري لرعيته قطعة ارض

خارجة عن الكوارنتينا وهو يمني كنيسة الرعية على قياس كنيستهم القديمة، فذهب الخوري الى الامير حيدر احمد بشملان فوهب قطعة الارض حيث الكنيسة الآن وشرط أن يقدم قداس كل سنة على نيته، ودفع ابراهيم باشا قيمة ثمن الارض الفين وخمسمائة قرش، وأشغل عسكره ببناءها على هيئة الكنيسة القديمة طويلاً وعرضاً وعلواً، ثم زيد على هذا البناء في ما بعد سوق مسقوف بالاخشاب، فهدمت البناء القديم واقمت البناء الجديد وكمل بعون الله سنة ١٨٨٣م وكانت نفقته نحو مائة وستين ألف قرش.

في سنة ١٨٨٤م شرعت ببناء كنيسة مار جرجس الكاتدرائية فإن الكنيسة القديمة كانت قد أمست تضيق على ابناء الطائفة ومجالاتها حرجة، فأخذت بإنشاء هذه الكنيسة حذا القلاية مسكن الاسقفية وكنت قد صورت كنيسة مريم الكبرى برومة بكل أجزائها فجعلت كنيستنا على هيئتها ما أمكن، وأتاح الله لي رجلاً ايطالياً يسمى يوسف ماجيوري خبير بهيئات الكنائس ونقوشها أقمته على ذلك الى أن يسر الله الفراغ من العمل سنة ١٨٩٤م، ودشنتها باقامة القداس الاول فيها احد الشعانين من السنة المذكورة، وقد بلغ ما أنفقته عليها نحو مليونين من القروش.

وفي سنة ١٨٩٤م عنيت بأن صيرت الدار التي كنت قد اشتريتها من الخواجات ابناء كميد مدرسة للبنات مزيداً عليها طبقة ثالثة ومصلحاً فيها ما يلزم اصلاحه، واستحضرت اليها اربع راهبات من رهبانية العائلة المقدسة، وأخذن في التعليم فيها. وبعد خمس سنوات وجسن بأن البناء غير ثابت وتركن السكنى فيها فاضطرت الى هدمه وبناء اربع دور هناك معدة للاجرة. وسنة ١٩٠١م اخذت في بناء كنيسة ايليا النبي في رأس بيروت. فان الكنيسة التي بنيت هناك في ايام المرحوم سالفنا المطران طويلاً أمست لا تسع الموارنة سكان ذلك الحي.

ومنذ السنة السالفة اي سنة ١٩٠٣م قد كان الفراغ من البناء الخارج وهمنا الآن في تكميل ما يلزم بداخلها، وقد بلغت النفقة عليها الى الآن نحو ثلاثمائة ألف قرش، وكل هذه النفقات على الكنائس لم أثقل على أحد بشيء منها بل جميعها من دخل عقارات كنيسة مار جرجس الكبرى التي ساعدني الله على زيادتها كثيراً وإثماء دخلها.

وأما الكنائس التي اهتمت بإنشائها بالقرى فهي كنيسة القديس يوسف في

قرية حريك وكنيسة مار ميخائيل في قرية الشياح، وكنيسة مار عبدا بقرية رومية، وكنيسة مار ميخائيل بقرية رمحالا، وكنيسة القديس سركيس وباخوس في بحنس. ومن الكنائس الصغيرة التي اهتمت بها وأقامت ببعض نفقتها كنيسة بلبل وكنيسة عيناب وكنيسة المريجات. وقد انشأ الشيخ عقل شديد واولاده كنيسة السيدة العذراء بالمتين وخولتهم حق الولاية عليها. وانشأ شهدان هكل الغريب كنيسة على اسم العذراء ايضاً في معلقة الدامور وفقنا الله الى كل ما به مجده الاعظم وخير النفوس.

عد ١٢٩

ذيل في زيادات عثرنا عليها أو انتبهنا إليها بعد الطبع

١ - أوردنا في صفحة ١٥٠ في ذكر الخلاف الذي كان بين الموارنة واليعاقبة شهادة ابن العبري في كتابه تاريخ الدول لسنة ٧٨٥ وله شهادة أخرى أكثر صراحة وبياناً وهي قوله في تاريخه السرياني (صفحة ٢٧٠ و ٢٧٤) حيث يشكو من أنّ الخلكيدونيين يضايقونهم أشدّ الضيق بإرشاد رهبان مارون ويقول: «وأخذ رهبان مارون الذين في منبج وحمص يظهرون قسوتهم فهدموا كثيراً من الكنائس والأديار ولما كان جماعتنا (أي اليعاقبة) يشكون إلى هرقل لم يكن يستجيبهم وإنما إله النعمة أرسل العرب لينقذونا من الروم ولكن لم ترجع كنائسنا إلينا» بل أمر الخليفة أن تبقى بيد كل فريق الكنائس التي ييدهم.

٢ - في صفحة ١٥١ أثبتنا هذا الخلاف بين الموارنة واليعاقبة بذكر الجدل الذي كان بين بني مارون وأساقفة اليعاقبة بحضرة الخليفة معاوية سنة ٦٥٩ وإفحام الموارنة أساقفة اليعاقبة. وفاتنا أن نستشهد في هذا المقام برسالة رهبان القديس مارون إلى اليعاقبة وجواب هؤلاء لهم على تلك الرسالة بالتقريع لهم على تمسكهم بالجمع الخلكيدوني ورسالة البابا لاون الكبير وكنا قد أثبتنا الرسالة والجواب في المقالة الأولى من هذا التاريخ عدد ٥ مأخوذين عن نسخة فوتوغرافية عن الأثر الذي في المتحف البريطاني ١٢١٥٥ صفحة ١٦٣.

٣ - في صفحة ١٥٤ عدد ٢١ فُتدنا ما يُعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من الطعن بالموارنة بأنهم ينكرون المجامع الرابع والخامس والسادس مبينين أنّ تيموتاوس

هذا كان في أوائل القرن السادس فلا تصلح شهادته على إنكار الموارنة المجمعين الخامس والسادس بل هي مزادة على كتابه ويثبت أنه لا وجود لكلامه في نسخة كتابه التي طبعها كوتيلاريوس. ففي هذه السنة ١٩٠٦ نشر الأب برغوار أحد الآباء الصعوديين في الآستانة كتاباً في الكنيسة البيزنطية أفرد فيه فصلاً للكلام في الطائفة المارونية فطعن بهم وأورد لذلك شهادة القديس جرمانس بطريرك القسطنطينية خليفة تيموتاوس المذكور فرددنا قول الأب برغوار المذكور مبينين أنّ ما قاله القديس جرمانس هو: «ويصنع ذلك من يسمون موارنة فإنّ دير هؤلاء الكائن في جبال سورية وكثيرون منهم ينكرون المجمع السادس بل الخامس والرابع أيضاً. ولا مرأى بأنّ كلام القديس جرمانس هذا منتحل عن الكلام المعزوّ إلى خلفته تيموتاوس وذاك بطلانه ظاهر فلا قوة لكلام هذا. وألحقنا برّدنا هذا استشهادنا بأثر المتحف البريطاني المشار إليه آنفاً وهو يثبت لا ترد على أنّ الموارنة كانوا يدافعون عن المجمع الرابع لا ينكرونه.

إنّ الأب برغوار المذكور استشهد لطحنه بالموارنة توادورس أبي كارا ولدى إمعان النظر في ذلك وجدنا أنّ كلمة ماروني التي يستند عليها ليست لأبي كارا بل وجدت في مخطوط في القرن الثامن عشر. ولما طبع الأب قسطنطين الباشا خطبة أبي كارا التي فيها العبارة المحكى عنها وخشي أن يمس إحساسات الموارنة فبدل كلمة ماروني بمونرتيليتي فأثبتنا في ردّنا على الأب المذكور أنّ كلمة ماروني المدخلة في خطبته المذكورة لا أصل لها في كلامه ولم توجد إلا في المخطوط الذي كتب في القرن الثامن عشر لأننا تفحصنا نحن وغيرنا تأليف أبي كارا التي طبعها الأب مين في المجلد ٩٧ من مكتبة الآباء الذين كتبوا باليونانية. فلم نجد أثراً لكلمة ماروني بل وجدناه يصحّح بأنّ سرجيوس وبيرس وقورش الخ. هم الذين ابتدعوا بدعة المشيئة الواحدة ولا ذكر في كلامه لمارون أو الموارنة مع أنّ سياق كلامه كان يقتضي ذلك لو كان هو الذي كتب كلمة ماروني في هذا المجلد وكان في القرن الثامن عشر يوحنا عجمي الملكي الكاثوليكي قد طعن بالموارنة سنداً إلى هذه الكلمة. ونظن أنه أخذها عن المخطوط المذكور آنفاً لأنّ يوحنا المذكور هو من جون في جنوب لبنان القريبة من دير المخلص حيث يوجد المخطوط المذكور الذي اعتمد عليه الأب قسطنطين الباشا. وقد ردّ الأب انطون القياسي البيروتي طعن عجمي بإسهاب وتفصيل وترى ردّه في كتاب المحاماة عن الموارنة المطبوع حديثاً.

الطائر يوسف النسي

تاريخ سورينام

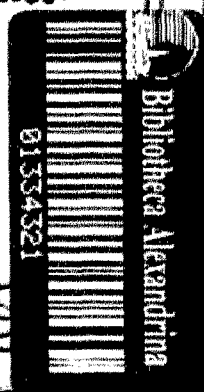
الدكتور يوسف النسي

الفهارس

إشراف
نظير عبود

راجته ودقته
الدكتور مارون رشيد

كتاب نظير عبود



تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الديني والدنيوي

الجزء العاشر

الفهارس

إشراف

نظير عبود

راجعه ودققه

الدكتور مارون رعد

دار نظير عبود

المحتويات

يتضمن هذا الجزء فهارس الأعداد والمواضيع لكافة أجزاء كتاب تاريخ سورية الديني والدنيوي من الجزء الأول وحتى الجزء التاسع. كما يتضمن كافة الفهارس الهجائية.

فهرس المواضيع	الفهرس الهجائي
الأول	الأول ١٠٩
الثاني	الثاني ١٣٥
الثالث	الثالث ١٧٣
الرابع	الرابع ٢٠٠
الخامس	الخامس ٢٢٠
السادس	السادس ٢٣٧
السابع	السابع ٢٦٠
الثامن	الثامن ٢٨٢
التاسع	التاسع ٢٩٨

فهرس الأعداد والموضوعات

الجزء الأول

صفحة	عد
١٥	مقدمة المدقق
١٧	مقدمة المؤلف
٢٠	مقدمة الكتاب
٢٣	مقالة افتتاحية

الفصل الأول

لمعة في جغرافية سورية واسمها

٢٤ تخوم سورية	١
٢٥ جبال سورية	٢
٢٦ أنهر سورية	٣
٢٩ بحيرات سورية	٤
٢٩ مدن سورية	٥
٣١ اسم سورية	٦

الفصل الثاني

الخطوط المصرية والهيروغليفية والخطوط المسمارية ومن اكتشف رموزها

٧	الخطوط المصرية	٣٤
٨	الخطوط المسمارية	٣٦

الفصل الثالث

خلق العالم والإنسان

٩	خلق العالم	٣٩
١٠	تكوّن الكائنات	٤١
١١	خلق الإنسان	٤٤
١٢	إثبات إبداع الله العالم والإنسان بالآثار القديمة	٤٥

الفصل الرابع

١٣	محل الفردوس الأرضي	٥٣
١٤	تقليدات القبائل في شأن الفردوس الأرضي	٥٧

الفصل الخامس

شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر والحياة ومعصية الإنسان

١٥	شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة	٥٩
١٦	الحية	٦٢
١٧	آثار القبائل القديمة الدالة على ما في الكتاب بهذا الباب	٦٣

٦٦	عاهدة الصلح بين رعمسيس ملك مصر وكتاسار ملك الحثيين . ١٧٩
٦٧	زواج رعمسيس بابنة ملك الحثيين ١٨١
٦٨	تيسر حرب المصريين والحثيين ودخول بني إسرائيل أرض الموعد ١٨٣
٦٩	بقية ما كان بين خلفاء رعمسيس والحثيين ١٨٤

الفصل الرابع

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثار الآشوريين

٧٠	الحثيون وتجلت فلاصّر الأول ١٨٥
٧١	كركميش مدينة الحثيين ١٨٦
٧٢	الحثيون وآشور نسيربال ١٨٨
٧٣	الحثيون وسلمناصّر الثالث ١٨٩
٧٤	الحثيون وخلفاء سلمناصّر حتى تجلت فلاصّر الثاني ١٩١
٧٥	الحثيون وسرغون ملك آشور ١٩٣

الفصل الخامس

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثارهم

٧٦	آثار الحثيين وتعسر فهم رموزها إلى اليوم ١٩٥
٧٧	لغة الحثيين وصناعاتهم ١٩٧
٧٨	ديانة الحثيين ١٩٩
٧٩	ملابس الحثيين وأسلحتهم ٢٠٠

الفصل السادس

آثار الحثيين الدالة على توطنهم آسيا الصغرى وولايتهم فيها

٨٠	تمثال نمفيو ٢٠١
٨١	آثار الحثيين في بوغاز كوي ويازيل كايا ٢٠٢
٨٢	آثار أخرى للحثيين في آسيا الصغرى ٢٠٥

١١٦	مصريّيم بن حام وأعقابيه	٣٥
١١٨	فوط بن حام	٣٦
١١٩	كنعان بن حام وذريّته	٣٧
١٢٠	ابناء سام	٣٨
١٢٢	يقطان وولده جدود العرب	٣٩
١٢٦	ابناء آرام	٤٠
١٢٦	بنو يافت	٤١
١٣١	مجمّل هذه الأنساب	٤٢

الفصل التاسع

برج بابل

١٣٤	آيات الكتاب في برج بابل ثم منّ بناءه	٤٣
١٣٥	موقع برج بابل	٤٤
١٣٧	الآثار المثبتة تاريخ برج بابل	٤٥

الفصل العاشر

اللغة

١٣٩	اللغة الأولى	٤٦
١٤١	ببلّة اللغة	٤٧
١٤١	علم معارضة اللغات	٤٨
١٤٣	اللغات الساميّة	٤٩
١٤٥	السنسكريت وفروعها	٥٠

الفصل الحادي عشر

لمحة في الكتابة

١٤٨	الكتابة بالصّور	٥١
١٥٠	الكتابة بالحروف	٥٢

الفصل الثاني عشر سكان سورية الأولون

٥٣	سكان سورية قبل الطوفان	١٥١
٥٤	سكان سورية بعد الطوفان	١٥٢

مقالة في الحثيين

الفصل الأول

أصل الحثيين وموطنهم وما يظهر من تاريخهم في الكتاب المقدس

٥٥	الحثيون الجنوبيون	١٥٤
٥٦	الحثيون الشماليون	١٥٦
٥٧	أصل الحثيين بالخصوص	١٥٩

الفصل الثاني

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار القديمة

٥٨	مصادر تاريخ الحثيين	١٦١
----	---------------------	-----

الفصل الثالث

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن الآثار المصرية

٥٩	هيئة الحثيين ونوع حكومتهم وبسطة ملكهم	١٦٣
٦٠	قادس مدينة الحثيين	١٦٤
٦١	الروتانو والحثيون في سورية الشمالية	١٦٦
٦٢	غزوات توتمس الثالث ملك مصر للروتانو والحثيين	١٦٨
٦٣	الحثيون ورعمسيس الأول	١٧١
٦٤	الحثيون وساتي الأول	١٧٢
٦٥	الحثيون ورعمسيس الثاني	١٧٤

٦٦	عاهدة الصلح بين رعمسيس ملك مصر وكيثاسار ملك الحثيين . ١٧٩
٦٧	زواج رعمسيس بابة ملك الحثيين ١٨١
٦٨	تيسر حرب المصريين والحثيين ودخول بني إسرائيل أرض الموعد ١٨٣
٦٩	بقية ما كان بين خلفاء رعمسيس والحثيين ١٨٤

الفصل الرابع

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثار الآشوريين

٧٠	الحثيون وتجلت فلاصر الأول ١٨٥
٧١	كركميش مدينة الحثيين ١٨٦
٧٢	الحثيون وآشور نسيربال ١٨٨
٧٣	الحثيون وسلمناصر الثالث ١٨٩
٧٤	الحثيون وخلفاء سلمناصر حتى تجلت فلاصر الثاني ١٩١
٧٥	الحثيون وسرغون ملك آشور ١٩٣

الفصل الخامس

تاريخ الحثيين مأخوذاً عن آثارهم

٧٦	آثار الحثيين وتعتبر فهم رموزها إلى اليوم ١٩٥
٧٧	لغة الحثيين وصناعتهم ١٩٧
٧٨	ديانة الحثيين ١٩٩
٧٩	ملابس الحثيين وأسلحتهم ٢٠٠

الفصل السادس

آثار الحثيين الدالة على توطنهم آسيا الصغرى وولايتهم فيها

٨٠	تمثال نمفيو ٢٠١
٨١	آثار الحثيين في بوغاز كوي ويازيلي كايا ٢٠٢
٨٢	آثار أخرى للحثيين في آسيا الصغرى ٢٠٥

الفصل السابع

جاليات الحثيين إلى بلاد اليونان وإيطاليا وقبرص

٢٠٧	٨٣
٢٠٨	٨٤
٢١٠	٨٥
٢١٢	٨٦
٢١٤	٨٧
٢١٥	٨٨

الفصل الثامن

غارة الحثيين على مصر أي في الملوك الرعاة

٢١٩	٨٩
٢٢٠	٩٠
٢٢٤	٩١
٢٢٦	٩٢
٢٢٨	٩٣
٢٢٩	٩٤
٢٣٢	٩٥
٢٣٣	٩٦
٢٣٤	٩٧
٢٣٦	٩٨
٢٣٨	٩٩
٢٣٩	١٠٠

مقالة في الفينيقيين

الفصل الأول

الكنعانيون

١٠١	أصل الكنعانيين ومهاجرهم الأولى وداعي ارتحالهم إلى سورية .. ٢٤١
١٠٢	زمان ارتحال الكنعانيين إلى سورية ٢٤٢
١٠٣	المحال التي توطنها الكنعانيون في سورية ٢٤٣
١٠٤	حال الممالك الكنعانية : ٢٤٦
١٠٥	تشّتت الكنعانيين وجالياتهم ٢٤٨

الفصل الثاني

اسم فينيقية وتخومها وأشهر مدنها

١٠٦	اسم فينيقية ٢٤٩
١٠٧	تخوم فينيقية ٢٥٠
١٠٨	مدن فينيقية ٢٥١

الفصل الثالث

الصيدونيون واختراعهم الملاحة ومستعمراتهم وحالتهم السياسيّة

١٠٩	اختراع الصيدونيين الملاحة وانكبابهم عليها ٢٥٥
١١٠	مستعمرات الفينيقيين في مدّة سؤدد صيدا ٢٥٧
١١١	الحال السياسيّة على عهد الصيدونيين ٢٦١
١١٢	قيام الفينيقيين بعمارة مصر البحريّة ٢٦١
١١٣	تقهقر صيدا وسقوطها ٢٦٢

الفصل الرابع

الفينيقيّون في عصر سيادة صور إلى بناء قرطاجنة

١١٤	جعل صور عاصمة للفينيقيين وانضمامهم إليها ٢٦٤
-----	--

٢٦٧	١١٥
٢٧١	١١٦
٢٧٢	١١٧
٢٧٥	١١٨
٢٧٩	١١٩

الفصل الخامس

الفينيقيون وملوك الآشوريين

٢٨١	١٢٠
٢٨٤	١٢١
٢٨٧	١٢٢
٢٨٩	١٢٣
٢٩١	١٢٤
٢٩٣	١٢٥

الفصل السادس

الفينيقيون في مدة ملك الكلدان والفرس

٢٩٥	١٢٦
٢٩٧	١٢٧
٣٠٠	١٢٨
٣٠١	١٢٩
٣٠٢	١٣٠
٣٠٦	١٣١

الفصل السابع

تجارة الفينيقيين

١٣٢	تجارة فينيقية وصور خاصة على ما ذكرها حزقيال النبي	٣٠٨
١٣٣	تجارة فينيقية في آسيا نسبة إلى الجهات الثلاث التي كانت	
٣١٠	تسير فيها	
١٣٤	تجارة فينيقية في افريقية	٣١٢
١٣٥	تجارة فينيقية في أوروبا	٣١٣

الفصل الثامن

صناعة الفينيقيين

١٣٦	البرفير ويعرف بالأرجوان	٣١٥
١٣٧	صنع الفينيقيين الزجاج	٣١٦
١٣٨	اصطناع الفينيقيين المتاع والآنية الخزفية والمعدنية وغيرها	٣١٧

الفصل التاسع

اختراع الفينيقيين الكتابة بالحروف وفي لغتهم وعلومهم

١٣٩	الفينيقيون أخذوا حروف الكتابة عن الخطوط الهيروكليفية	٣٢٠
١٤٠	إن حروف كتابة الفينيقيين أصل لحروف الكتابة في كل اللغات	٣٢٢
١٤١	الحروف الفينيقية وما طرأ عليها من التغيير	٣٢٥
١٤٢	لغة الفينيقيين	٣٢٦
١٤٣	آثار الفينيقيين	٣٢٧
١٤٤	علوم الفينيقيين	٣٢٩

الفصل العاشر

ديانة الفينيقيين

٣٣٢ الوثنية عند الفينيقيين وغيرهم	١٤٥
٣٣٣ معبودات الفينيقيين	١٤٦
٣٣٦ ذبائح الفينيقيين	١٤٧
٣٣٨ كهنة الفينيقيين وهياكلهم	١٤٨
٣٤٠ آثار أبنية الفينيقيين	١٤٩
٣٤٢ مدافن الفينيقيين	١٥٠

الجزء الثاني

صفحة

عد

مقالة في العبرانيين ١٧

الفصل الأول

ابراهيم الخليل

١٨	نسب ابراهيم وعصره	١٥١
٢٢	منشأ ابراهيم اي في اور و حاران	١٥٢
٢٤	ارتحال ابراهيم إلى ارض الكنعانيين وما قيل في ولايته في دمشق ..	١٥٣
٢٦	انحدار ابراهيم إلى مصر	١٥٤
٣٠	محادبة ابراهيم لكدرلاعومر واحلافه	١٥٥
٣٧	ملكىصادق الذي التقى ابراهيم عند عوده من حرب الملوك ...	١٥٦
٣٨	تجديد الله مواعده لابراهيم وولادة اسماعيل	١٥٧
٣٩	أمر الله لابراهيم بالختان	١٥٨
٤١	ظهور الملائكة الثلاثة لابراهيم وسارة وانطلاقهم إلى سدوم وتدميرها	١٥٩
٤٤	ارتحال ابراهيم إلى جرار ومولد اسحق	١٦٠
٤٥	خروج اسمعيل من بيت ابيه ابراهيم وزواجه وولده	١٦١
٤٦	امتحان ابراهيم بذبح ابنه اسحق	١٦٢
٤٧	موت سارة ودفنها في المغارة المضاعفة	١٦٣
٤٩	زواج اسحق	١٦٤
٥٠	زواج ابراهيم بقطورة وولده منها وموته	١٦٥

الفصل الثاني

اسحق وابناه يعقوب وعيسو

١٦٦	اسحق	٥٢
١٦٧	ارتحال يعقوب إلى حاران وزواجه فيها وولده	٥٥
١٦٨	مقتل شمعون ولاوي ابني يعقوب اهل شكيم وتتمة	
١٦٩	اخبار رحلة يعقوب	٥٨
	عيسو وولده	٥٩

الفصل الثالث

يوسف

١٧٠	محبة يعقوب ليوسف وحسد اخوته له وما كان منه	٦٠
١٧١	بيع يوسف لقوطيفار ومراودة امرأته له وسجنه	٦٢
١٧٢	تعبير يوسف حلم فرعون واستيزار الملك له	٦٧
١٧٣	تدبير يوسف شؤون مصر والمجاعة فيها	٧١
١٧٤	ما يعزى إلى يوسف في مصر	٧٤
١٧٥	انحذار اخوة يوسف إلى مصر وتعرفه بهم	٧٦
١٧٦	انحذار يعقوب إلى مصر بأسرته وفي محلهم فيها	٨١
١٧٧	وفاة يعقوب ثم يوسف في مصر	٨٣

الفصل الرابع

اخبار بني اسرائيل في مصر

١٧٨	حالة بني اسرائيل في مصر واشتراكهم مع المصريين	
١٧٩	في بعض غزواتهم	٨٦
١٨٠	بدء اضطهاد بني اسرائيل في مصر	٨٨
١٨١	مولد موسى ومنشأه في بيت فرعون وفراره من مصر	٩١
	إقامة موسى في بلاد مدين وزواجه فيها وعوده إلى مصر	٩٢

١٨٢	مخاطبة موسى وهرون فرعون ليطلق بني إسرائيل
٩٤	وما كان من قسوته
١٨٣	ضربات مصر وهي آيات الله فيها على يد موسى وهرون

الفصل الخامس

أخبار خروج بني إسرائيل من مصر إلى البرية

١٨٤	مدة إقامة بني إسرائيل في مصر
١٨٥	المحل الذي ارتحل منه بنو إسرائيل وفي طريق خروجهم
١٨٦	أقوال العلماء في طريق بني إسرائيل ومعبرهم في البحر الأحمر
١٨٧	نجاة بني إسرائيل وغرق جنود فرعون في البحر الأحمر

الفصل السادس

أخبار بني إسرائيل في برية سيناء

١٨٨	لمعة في شبه جزيرة سيناء
١٨٩	مراحل بني إسرائيل من جانب البحر الأحمر إلى برية سيناء ...
١٩٠	المرحى
١٩١	السلوى
١٩٢	ارتحال بني إسرائيل من برية سيناء إلى رفيديم
١٩٣	آية اجراء الماء من الصخرة
١٩٤	حرب العمالقة
١٩٥	إتيان يثرو حمي موسى إليه في البرية ومشورته عليه
١٩٦	في القضاء للشعب
١٩٧	ارتحال بني إسرائيل من رفيديم إلى برية سيناء ونزولهم من الجبل وأبي الجبال هو
١٩٨	تنزيل الله السنة
١٩٩	إبطاء موسى في الجبل وعبادة بني إسرائيل عجل الذهب
١٣٨	نخباء المحضر ورد لأزعام من جحدوا صحة كلام الكتاب

الفصل السابع

ما بقي من مراحل بني إسرائيل إلى صحراء موآب

- ٢٠٠ ارتحال بني إسرائيل من جبل سيناء إلى قبور الشهوة ١٤٢
٢٠١ ارتحال بني إسرائيل من قبور الشهوة إلى حصيروت وغيرها حتى
قادش وتذمر مريم وهرون على موسى بسبب إمرأته ١٤٤
٢٠٢ ما كان لبني إسرائيل في قادش أعني وفاة مريم أخت موسى
وإجراء الماء من الصخرة ثانية وإرسال الجواسيس إلى أرض الموعد .. ١٤٦
٢٠٣ ارتحال بنو إسرائيل من قادش في جانب جبل أدوم إلى جبل
هور وموت هارون هناك ١٤٩
٢٠٤ حربهم مع ملك عراد ومراحلهم من جبل هور إلى صحراء موآب . ١٥٠

الفصل الثامن

تملك بني إسرائيل البلاد التي في شرقي الأردن

- ٢٠٥ نهى الرب بني إسرائيل عن محاربة الأدوميين والموابيين والعمونيين
وفي من سكن بلادهم قبلهم ١٥٣
٢٠٦ تملك بني إسرائيل بلاد سيحون ملك الأموريين وعوج ملك باشان . ١٥٥
٢٠٧ دعوة بالاق ملك الموابيين لبلعام ليلعن بني إسرائيل ١٥٦
٢٠٨ اغواء بنات موآب ومدين لبني إسرائيل والانتقام من المدينيين ... ١٥٩
٢٠٩ تمليك موسى سبطي راويين وجاد ونصف سبط منسا الأرض التي
في شرقي الأردن ١٦١
٢١٠ إحصاء موسى بني إسرائيل وتسليمه قيادتهم إلى يشوع
بن نون وموته ١٦٣
٢١١ الأسفار التي كتبها موسى ١٦٥

الفصل التاسع

يشوع بن نون وأخبار بني إسرائيل في أيامه

- ٢١٢ يشوع بن نون والسفر المنسوب إليه ومجمل أعماله ١٧٠

٢١٣	عبور يشوع الاردن بيني اسرائيل واختتانهم	١٧٢
٢١٤	سقوط اسوار أريحا وإرسال بني اسرائيل جميع ما كان فيها ..	١٧٤
٢١٥	محاربة بني اسرائيل أهل العي	١٧٥
٢١٦	مسألة بني اسرائيل لسكان جبعون	١٧٧
٢١٧	تألب ملوك الجنوب على يشوع وبني اسرائيل	١٧٨
٢١٨	إيقاف يشوع الشمس والقمر عن مسيرهما	١٨٠
٢١٩	افتتاح يشوع مدناً أخرى في جنوبي فلسطين	١٨٢
٢٢٠	اعتصاب ملوك شمال فلسطين على بني اسرائيل	
١٨٣	وتشتيت يشوع شملهم	
٢٢١	محاربة يشوع بني عناق وتدويخه بلادهم	١٨٥
٢٢٢	قسمة أرض فلسطين على بني اسرائيل	١٨٦
٢٢٣	نصب خباء المحضر في شيلو	١٨٩
٢٢٤	وفاة يشوع بن نون ومدفنه	١٩٠

الفصل العاشر

قضاة بني اسرائيل بعد يشوع

٢٢٥	سفر القضاة	١٩٤
٢٢٦	مدة قضاة بني اسرائيل	١٩٥
٢٢٧	محاربة بني يهوذا وشمعون وبني يوسف بعض الكنعانيين	١٩٨
٢٢٨	تسلط كوشان رشعنائيم ملك ارام على بني اسرائيل وتخليص	
٢٠٠	عتثيل لهم	
٢٢٩	تعبد بني اسرائيل لعجلون ملك مواب وتنجية اهود لهم	٢٠١
٢٣٠	دابورة وباراق وتخليصهما بني اسرائيل من يد ملك حاصور ..	٢٠٣
٢٣١	جدعون وتخليص بني اسرائيل من المدينيين	٢٠٥
٢٣٢	اييملك وتولع ويائير	٢١٠
٢٣٣	يفتاح	٢١٢
٢٣٤	شمشون والفلسطينيون	٢١٥
٢٣٥	مولد شمشون وزواجه	٢١٧

٢٣٦	إحراق شمشون زروع الفلسطينيين وقتله كثيرين منهم بلحى الحمار	٢١٩
٢٣٧	اقتلاع شمشون باب غزة وحمله وقبض الفلسطينيين عليه وموته	٢٢٢
٢٣٨	احداث داخلية في مدة القضاة	٢٢٥

الفصل الحادي عشر

راعوت وعالي الخبر وصموئيل النبي

٢٣٩	راعوت الموابية	٢٢٦
٢٤٠	عالي الخبر	٢٢٩
٢٤١	ضربات الله الفلسطينيين لامساكهم تابوت العهد واضطرارهم إلى رده	٢٣٠
٢٤٢	مولد صموئيل وخدمته في هيكل الرب في شيلو	٢٣٣
٢٤٣	الاسفار المنسوبة إلى صموئيل	٢٣٥
٢٤٤	محاربة بني اسرائيل للفلسطينيين وظفرهم بهم بارشاد صموئيل .	٢٣٦
٢٤٥	الحاح بني اسرائيل على صموئيل ان يقيم لهم ملكاً	٢٣٨

الفصل الثاني عشر

شاوول وتمة اخبار صموئيل

٢٤٦	تولية صموئيل شاوول ملكاً على اسرائيل	٢٣٩
٢٤٧	محاربة شاوول لناحاش ملك العمونيين	٢٤١
٢٤٨	محاربة شاوول للفلسطينيين	٢٤٢
٢٤٩	محاربة شاوول للعمالقة	٢٤٥
٢٥٠	مسح صموئيل داود ليكون ملكاً موضع شاوول	٢٤٧
٢٥١	قتل داود جليات الجبار	٢٥٠
٢٥٢	حصول النفرة بين شاوول وداود	٢٥٢
٢٥٣	هرب داود من وجه شاوول واتيانه إلى احيملك الكاهن	٢٥٣
٢٥٤	هرب داود إلى جت ومواب وقتل شاوول كهنة نوب	٢٥٥
٢٥٥	مطاردة شاوول لداود وعفو داود عن قتله	٢٥٦
٢٥٦	وفاة صموئيل	٢٥٨

٢٥٧	تتمة اخبار داود في مفره وعفوه ثانية عن قتل شاول	٢٥٩
٢٥٨	محاربة الفلسطينيين لشاول وقتله	٢٦١
٢٥٩	محاربة داود العمالقة ومناحته على شاول وبنيه	٢٦٤

الفصل الثالث عشر

اخبار داود في مدة ملكه

٢٦٠	اقامة بني يهوذا داود ملكاً وسائر بني اسرائيل اشبوشث بن شاول .	٢٦٥
٢٦١	استقلال داود في ملك اسرائيل وفتح قلعة صهيون ومحالفته لحيرام	٢٦٧
٢٦٢	حرب وادي الجبارة بين داود والفلسطينيين	٢٦٩
٢٦٣	نقل داود تابوت عهد الرب إلى اورشليم واهتمامه ببناء بيت الله ..	٢٧٠
٢٦٤	اخضاع داود الفلسطينيين والموآبيين وملك صوبة ورامي دمشق ..	٢٧٢
٢٦٥	حرب داود مع العمونيين والاراميين	٢٧٥
٢٦٦	اثما داود وتوبته	٢٧٨
٢٦٧	خروج ابشالوم على داود ابيه	٢٧٩
٢٦٨	مدفن ابشالوم	٢٨٢
٢٦٩	عودة داود إلى اورشليم وما كان حينئذ	٢٨٢
٢٧٠	المجاعة في أيام داود وقتل ابناء شاول	٢٨٥
٢٧١	وقائع اخرى لداود مع الفلسطينيين	٢٨٦
٢٧٢	احصاء داود بني اسرائيل وغضب الرب لذلك	٢٨٧
٢٧٣	شيخوخة داود وتمليك سليمان قبل وفاته	٢٨٨
٢٧٤	ما اعدّه داود لبناء الهيكل والخدمة فيه	٢٩٠
٢٧٥	وصايا داود لرؤساء الشعب وسليمان ووفاته	٢٩٢

الفصل الرابع عشر

سليمان

٢٧٦	بواكير اعمال سليمان	٢٩٥
٢٧٧	زواج سليمان بابنة فرعون	٢٩٧
٢٧٨	حكمة سليمان وقضاؤه بين المرأتين البغيين	٢٩٨

٢٧٩	هيئة حكومة سليمان وموارد دخله ونفقاته	٣٠٠
٢٨٠	محالفة سليمان لحيرام ملك صور واخشاب الارز	٣٠١
٢٨١	هيكل سليمان وأولاً سنة بنائه	٣٠٤
٢٨٢	محل الهيكل وهيئته	٣٠٨
٢٨٣	تدشين سليمان للهيكل	٣١١
٢٨٤	باقي أبنية سليمان في أورشليم	٣١٢
٢٨٥	أبنية سليمان في غير أورشليم	٣١٦
٢٨٦	بعلة التي بناها سليمان وبعلبك	٣١٨
٢٨٧	تجارة سليمان	٣٢١
٢٨٨	اوفير محل تجارة سليمان وطلع تجارتها	٣٢٣
٢٨٩	سليمان وملكة سبا	٣٢٥
٢٩٠	آثام سليمان وإثارة الفاتنين عليه	٣٢٨
٢٩١	وفاة سليمان وما كتبه	٣٣١

الفصل الخامس عشر

انشقاق مملكة بني اسرائيل وملك يهوذا واسرائيل إلى آحاب

٢٩٢	ملك رحبعام بن سليمان وياربعام بن نباط	٣٣٣
٢٩٣	حملة شيشاق ملك مصر على رحبعام ملك يهوذا	٣٣٧
٢٩٤	وفاة رحبعام وملك ابنه اييا وحربه مع ياربعام	٣٣٩
٢٩٥	آسا ملك يهوذا وناداب وبعشا ملكي اسرائيل	٣٤٢
٢٩٦	خروج زارح الكوشي على آسا ملك يهوذا	٣٤٣
٢٩٧	خروج بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وخروج ملك ارام على بعشا	٣٤٥
٢٩٨	ملك ايله وزمري وعمري ملوك اسرائيل وتتمة اخبار آسا ملك يهوذا	٣٤٨
٢٩٩	يوشافاط ملك يهوذا	٣٤٩

الفصل السادس عشر

اخبار احاب ملك اسرائيل وخلفاؤه حتى ياهو واحزيا ملكي يهوذا

٣٠٠	احاب وايزابل وايليا النبي	٣٥٢
-----	---------------------------------	-----

٣٥٣	آية انحباس المطر بكلمة ايليا وقتله أنبياء البعل	٣٠١
٣٥٦	فرار ايليا من وجه ايزابل وامر الرب له أن يمسح حزائيل	٣٠٢
٣٥٧	وياهو واليشاع	٣٠٣
٣٥٩	خروج ابن هدد علي احاب	٣٠٤
٣٦١	احاب والآشوريون	٣٠٥
٣٦٢	اختلاس احاب كرم نابوت	٣٠٦
٣٦٤	حرب احاب وملك دمشق وقتل احاب	٣٠٧
٣٦٧	احزيا بن احاب وارتفاع ايليا نحو السماء	٣٠٨
٣٦٨	يورام بن احاب	٣٠٩
٣٧٢	صفحة ميشاع	٣١٠
٣٧٤	الحرب بين ملك ارام وملك اسرائيل والمجاعة في السامرة	٣١١
٣٧٦	يورام ملك يهوذا	٣١٢
	احزيا ملك يهوذا وياهو ملك اسرائيل	

الفصل السابع عشر

باقي ملوك يهوذا واسرائيل إلى خراب السامرة

٣٨٠	قتل عتليا ابناء النسل الملكي ونجاة يواش	٣١٣
٣٨١	يواش ملك يهوذا	٣١٤
٣٨٢	يواحاز بن ياهو ملك اسرائيل ويواش ابنه	٣١٥
٣٨٤	امصيا ملك يهوذا	٣١٦
٣٨٥	ياربعام الثاني ملك اسرائيل ويونان النبي	٣١٧
٣٨٩	عزريا بن امصيا ملك يهوذا	٣١٨
٣٩٠	زكريا بن ياربعام وشلوم ومنحيم ملوك اسرائيل	٣١٩
٣٩٣	فقحيا وفاقح ملكي اسرائيل ويوتام وإحاز ملكي يهوذا	٣٢٠
٣٩٧	هوشع ملك اسرائيل	٣٢١
٣٩٩	من افتتح السامرة وجلاء بني اسرائيل	٣٢٢
٤٠٠	محال إقامة بني اسرائيل في آشور	٣٢٣
٤٠١	أصل من جلاهم سرغون إلى السامرة	٣٢٤

٣٢٥	معبودات سكان السامرة المجلون إليها	٤٠٣
٣٢٦	تنمة أخبار سرغون في غزواته لسورية	٤٠٦
٣٢٧	سنو ملوك يهوذا وملوك إسرائيل	٤٠٩

الفصل الثامن عشر

سائر ملوك يهوذا إلى الجلاء البابلي

٣٢٨	حزقيا ملك يهوذا	٤١٢
٣٢٩	حملة سنحاريب على حزقيا ملك يهوذا	٤١٦
٣٣٠	اجراء حزقيا الماء إلى اورشليم ووفاته	٤٢٦
٣٣١	منسا بن حزقيا ملك يهوذا	٤٢٨
٣٣٢	حملات اسرحدون وآشور بانيبال على سورية ومصر	
	في عهد منسا ملك يهوذا	٤٣١
٣٣٣	قتل يهوديت اليفانا في أيام منسى الملك	٤٣٥
٣٣٤	ما جاء من الآثار الآشورية مؤيداً أخبار سفر يهوديت	٤٤٠
٣٣٥	وفاة منسا وخلافة آمون ابنه له	٤٤٣
٣٣٦	يوشيا بن آمون ملك يهوذا	٤٤٤
٣٣٧	يوحاز والياقيم ابنا يوشيا ويوخانيا ملوك يهوذا	٤٤٨
٣٣٨	صدقيا ملك يهوذا	٤٥١
٣٣٩	من ارتحلوا من بني إسرائيل إلى مصر وحملات بختنصر عليها	٤٥٣
٣٤٠	سنو ملوك يهوذا من خراب السامرة إلى الجلاء البابلي	٤٥٦

الفصل التاسع عشر

أخبار بني إسرائيل في بلاد الكلدان

٣٤١	حال بني إسرائيل في بابل وإنذار الأنبياء لهم	٤٥٨
٣٤٢	طوبيا البار	٤٦٠
٣٤٣	دانيال النبي	٤٦٥
٣٤٤	دانيال وسوسنة	٤٦٦

٤٦٨ حلم بختنصر وتعبير دانيال له	٣٤٥
٤٧١ تمثال بختنصر وطرح حننيا وميشائيل وعزريا في الاتون	٣٤٦
٤٧٥ الحلم الثاني لبختنصر وجنونه وتعبير دانيال لحلمه	٣٤٧
٤٧٨ بلشصر ملك بابل وتعبير دانيال رؤياه	٣٤٨
٤٨٠ باقي ملوك بابل إلى انقراض دولتهم	٣٤٩
٤٨٢ طرح دانيال في جب الأسد	٣٥٠
٤٨٤ كشف دانيال خديعة كهنة بال	٣٥١
٤٨٦ قتل دانيال التنين	٣٥٢
٤٨٧ رؤى دانيال	٣٥٣
٤٨٩ وفاة دانيال وصحة تنزيل سفره	٣٥٤
٤٩١ رؤى حزقيال وموته ومدفنه	٣٥٥

الفصل العشرون

أخبار بني إسرائيل عند عودهم من الجلاء وبعده

إلى ملك اسكندر الكبير

٤٩٦ أمر كورش بعود بني إسرائيل إلى فلسطين	٣٥٦
٤٩٨ آثار كورش المؤيدة قول الكتاب	٣٥٧
٥٠٠ تجديد بناء هيكل اورشليم	٣٥٨
٥٠١ ملوك فارس إلى داريوس	٣٥٩
٥٠٤ استئناف بناء الهيكل وإتمامه	٣٦٠
٥٠٥ تتمة أخبار دارا	٣٦١
٥٠٧ عزرا الكاهن	٣٦٢
٥٠٨ حظر عزرا على بني إسرائيل الزواج بالأجنبيات	٣٦٣
٥٠٩ تتمة أخبار عزرا ووفاته وأسفاره	٣٦٤
٥١١ نحميا وبناءه اسوار اورشليم	٣٦٥
٥١٣ تتمة أخبار نحميا	٣٦٦
٥١٣ سفر استير ومن كانت هي زوجة له	٣٦٧
٥١٥ ملخص خبر أستير عن سفرها	٣٦٨

٣٦٩	أخبار ارتخششتا وخلفاؤه إلى أيام اسكندر الكبير	٥١٩
٣٧٠	حالة اليهود بعد أيام نحميا إلى أيام اسكندر الكبير	٥٢١

الفصل الواحد والعشرون

النبوة والانبياء الكبار

٣٧١	تعريف النبي والنبوة وامكانها ونوعها	٥٢٢
٣٧٢	الانبياء اجمالاً	٥٢٥
٣٧٣	اشعيا	٥٢٧
٣٧٤	ارميا	٥٣٠
٣٧٥	حزقيال	٥٣٦
٣٧٦	دانيال	٥٣٧

الفصل الثاني والعشرون

الأنبياء الصغار

٣٧٧	هوشع	٥٣٨
٣٧٨	يوئيل	٥٣٩
٣٧٩	عاموس	٥٤١
٣٨٠	عوبديا	٥٤٢
٣٨١	يونان	٥٤٤
٣٨٢	ميخا	٥٤٦
٣٨٣	نحوم	٥٤٧
٣٨٤	حبقوق	٥٤٧
٣٨٥	صفنيا	٥٤٨
٣٨٦	حجاي	٥٤٩
٣٨٧	زكريا	٥٥٠
٣٨٨	ملخيا	٥٥٢

الجزء الثالث

صفحة

عد

- فاتحة الجزء الثالث ١٥
مقالة في تاريخ سورية على عهد اسكندر وخلفائه ١٦

الفصل الأول

أخبار اسكندر الكبير

- ٣٨٩ ملحة في تاريخ اليونان إلى مولد اسكندر ١٦
٣٩٠ مولد اسكندر وترجمة حياته إلى ملكه ١٨
٣٩١ ملك اسكندر واختضاعه آسيا ٢٠
٣٩٢ وقعة ايسوس بين اسكندر ودارا ٢٢
٣٩٣ أعمال اسكندر في سورية إلى حصار صور ٢٥
٣٩٤ حصار اسكندر صور وفتحها ٢٧
٣٩٥ ذهاب اسكندر إلى أورشليم ٣٣
٣٩٦ فتح اسكندر غزه ٣٥
٣٩٧ إستسلام مصر إلى اسكندر وبنائه الإسكندرية ٣٦
٣٩٨ عود اسكندر من مصر لمحاربة دارا ووقعة اربيل ٣٧
٣٩٩ استحواذ اسكندر على بابل وشوشن وغيرهما وقتل دارا ٤٠
٤٠٠ غزوة اسكندر الهند وعوده منها ٤٣
٤٠١ أعمال اسكندر بعد عودته ووفاته ٤٥

الفصل الثاني

انقسام ملك اسكندر وفي خلفائه الأولين في سورية

٤٠٢	ما كان من كبراء دولة اسكندر بعد وفاته	٥٠
٤٠٣	ولاية لاميدون في سورية وانتزاع بتلميس لها من يده	٥٥
٤٠٤	انتزاع انتيكون سورية من يد بتلميس	٥٦
٤٠٥	أخذ ديمتريوس قبرص وحرب رودس واسترجاع بتلميس بعض سورية	٥٨
٤٠٦	سلوقس وديمتريوس في سورية	٦١
٤٠٧	محاربة سلوقس ليسيماك وقتله واغتيال سلوقس	٦٤

الفصل الثالث

انطيوكوس الأول والثاني وسلوقس الثاني والثالث ملوك سورية

وفي ما كان في أيامهم

٤٠٨	انطيوكوس الأول	٦٧
٤٠٩	انطيوكوس الثاني وما كان في أيامه	٦٨
٤١٠	نبوة دانيال على ما ذكرنا من الأحداث	٧٠
٤١١	وفاة بتلميس وما يعزى إليه من العناية بالترجمة السبعينية	٧١
٤١٢	قتل لوزيقة انطيوكس الثاني وامراته برنيس ثم مقتل لوزيقة وأخذ سورية	٧٥
٤١٣	سلوقس الثاني وما كان في أيامه	٧٧
٤١٤	سلوقس الثالث	٨١

الفصل الرابع

انطيوكس الثالث الملقب بالكبير

٤١٥	حروب انطيوكس الأولى في شرقي المملكة وفي سورية	٨٢
-----	---	----

٤١٦	حرب انطيوخس وبتلميس في سورية	٨٥
٤١٧	قتل انطيوخس اخايوس وانتهائه بغزوته إلى الهند	٨٩
٤١٨	وفاة بتلميس فيلوباتور واسترداد انطيوخس فلسطين وما تبعها	٩٠
٤١٩	حملة انطيوخس على آسيا الصغرى ومناصبه الرومانيين العداوة له ..	٩٣
٤٢٠	حروب انطيوخس والرومانيين	٩٥
٤٢١	الصلح بين انطيوخس والرومانيين وغرامة الحرب	٩٨
*	ذيل في سفري المكابيين	١٠١
٤٢٢	مقتل انطيوخس الكبير وذكره في سفري المكابيين	١٠٢

الفصل الخامس

سلوقس الرابع وانطيوخس ابيفان ابني انطيوخس الكبير وغيرهما من ملوك سورية

٤٢٣	سلوقس الرابع	١٠٦
٤٢٤	ملك انطيوخس الرابع الملقب ابيفان وصفاته	١٠٩
٤٢٥	غزوتي انطيوخس ابيفان الأولتين لمصر	١١٠
٤٢٦	تزلف اليهود إلى انطيوخس وأخذه أورشليم وانتهابه الهيكل	١١٣
٤٢٧	حملة انطيوخس الثالثة على مصر	١١٦
٤٢٨	حملة انطيوخس الرابعة على مصر	١١٧
٤٢٩	اضطهاد انطيوخس لليهود واكراهه لهم على اتباع مذهبه	١١٩
٤٣٠	قتل انطيوخس العازار والاخوة السبعة المكابيين	١٢٢
٤٣١	انتصار يهوذا المكابي على عساكر انطيوخس وغيرهم	١٢٤
٤٣٢	هلاك انطيوخس ابيفان	١٢٩
٤٣٣	تملك انطيوخس الخامس وسياسة ليسياس مديره	١٣٣
٤٣٤	حروب يهوذا مع بعض العشائر وعمال الملك	١٣٥
٤٣٥	محاربة انطيوخس الخامس لليهود	١٣٧
٤٣٦	مقتل انطيوخس الخامس وليسياس وملك ديمتريوس سوتر	١٣٩
٤٣٧	حروب جنود ديمتريوس ويهوذا المكابي إلى مقتله	١٤١

٤٣٨	محاربات يوناتان وبكيديس قائد جيش الملك	١٤٥
٤٣٩	تزلف ديمتريوس إلى الرومانيين والمؤامرة عليه واستحواذ اسكندر	
	على عكا	١٤٦
٤٤٠	جد كل من الملكين في استمالة يوناتان إليه وقتل اسكندر	
	ديمتريوس	١٤٧
٤٤١	مصاهرة اسكندر لبتملايس وتعزيزه يوناتان وهيكل اليهود في مصر .	١٥٠
٤٤٢	ثورة ديمتريوس الثاني على الملك اسكندر	١٥١
٤٤٣	سوء تصرف ديمتريوس لكانور	١٥٣
٤٤٤	الثورة على ديمتريوس لكانور	١٥٥
٤٤٥	ما كان في أيام انطيوخس السادس	١٥٧
٤٤٦	اغتيال تريفون يوناتان وانطيوخس السادس	١٦٠
٤٤٧	ما كان في أيام تريفون إلى مقتله	١٦٢
٤٤٨	حرب انطيوخس السابع مع اليهود	١٦٥
٤٤٩	تتمة أخبار انطيوخس السابع	١٦٨
٤٥٠	عود ديمتريوس الثاني إلى سورية وما كان إلى مقتله	١٧٠

الفصل السادس

قلوبطرة وزينا وانطيوخس كريوس وانطيوخس الشيزيكي ملوك سورية

٤٥١	قلوبطرة	١٧٣
٤٥٢	زينا ويوحنا هرکان أمير اليهود	١٧٤
٤٥٣	انطيوخس كريوس	١٧٥
٤٥٤	انطيوخس الشيزيكي	١٧٧
٤٥٥	اسكندر ملك اليهود وبتملايس لاثير وقلوبطرة في سورية	١٧٩
٤٥٦	تتمة أخبار انطيوخس كريوس وانطيوخس الشيزيكي أخيه	١٨١

الفصل السابع

باقي ملوك اليونان في سورية إلى انقراض دولتهم فيها

٤٥٧	سلوقوس بن انطيوخس كريوس وانطيوخس اوساب	١٨٢
-----	--	-----

٤٥٨	اختيار السوريين تغران ملكاً عليهم وبقاء سيلانة في عكا	١٨٤
٤٥٩	انطيوخس الآسيوي واستيلاء الرومانيين على سورية	١٨٥
٤٦٠	فهرست الملوك اليونان في سورية ومصر وسني ملكهم	١٨٧
٤٦١	تتمة أخبار الملك اسكندر ووفاته	١٩١
٤٦٢	ملك اسكندرية وابنها هركان	١٩٢
٤٦٣	ارسطوبولس الثاني	١٩٤
٤٦٤	ما كان في أيام هركان الثاني	١٩٦
٤٦٥	انتيكون وهيرودس	١٩٩

مقالة في تاريخ سورية في أيام الرومانيين

فصل

أخبار سورية واليهودية منذ استحوذ عليهما الرومانيين إلى مولد المخلص

٤٦٦	لمعة في تاريخ الرومانيين إلى ملك اغسطس قيصر	٢٠١
٤٦٧	الولاية الرومانيين على سورية إلى مولد المخلص	٢٠٥
٤٦٨	قتل هيرودس ارسطوبولس وشكواه إلى مرقس انطونيوس	٢٠٨
٤٦٩	محاربة هيرودس للعرب وتزلفه إلى اغسطس	٢٠٩
٤٧٠	قتل هيرودس مريمنا امرأته واسكندرية أمها	٢١١
٤٧١	الأبنية التي انشأها هيرودس وبعض حسناته	٢١٣
٤٧٢	قتل هيرودس ابنه اسكندر وارسطوبولس	٢١٦
٤٧٣	باقي مظالم هيرودس وموته	٢١٩
٤٧٤	مولد المخلص وسنته	٢٢٢

الباب الأول
تاريخ سورية في القرن الأول للميلاد

القسم الأول
تاريخ سورية الدنيوي في القرن الأول

(تمهيد)

٤٧٥ الملوك الرومانيين في القرن الأول ٢٢٥

الفصل الأول
أخبار سورية في المدة التي بين مولد المخلص وحرب اليهود والرومانيين

٤٧٦	ارشيلانوس بن هيرودس	٢٣٠
٤٧٧	هيرودس انتيباس وفيليبس	٢٣٣
٤٧٨	ليسانتيوس ويسمى ليسانياس	٢٣٥
٤٧٩	ولادة اليهودية بعد الميلاد إلى يلاطس البنطي	٢٣٨
٤٨٠	اغريبا الأول	٢٤٠
٤٨١	اغريبا الثاني	٢٤٣
٤٨٢	ولاية سورية من الرومانيين إلى حين حربهم لليهود	٢٤٦
٤٨٣	ولاية اليهودية بعد يلاطس إلى بداية حربهم مع اليهود	٢٤٨

الفصل الثاني
ذكر الحروب بين اليهود والرومانيين

٤٨٤	ايقاد فلورس نار الحرب وما كان في مدة ولايته	٢٥٣
٤٨٥	مقتل اليهود في مدن عديدة	٢٥٦
٤٨٦	حصار غلوس أورشليم	٢٥٨

٢٦٠	ولاية يوسفوس على الجليل والمناسبة له	٤٨٧
٢٦٢ ...	ارسال نبيرون فسبسيان لحرب اليهود واستحواذه على الجليل	٤٨٨
٢٦٧	الحرب الأهلية في أورشليم	٤٨٩
٢٧١	أعمال فسبسيان في اليهودية واقامته ملكاً	٤٩٠
٢٧٥	حصار طيطوس أورشليم وفتحها وخراب الهيكل	٤٩١
٢٨١	تنمة أخبار الحرب	٤٩٢

ذيل

٢٨٣	بعض مشاهير الكتّاب السوريين الدنيويين في القرن الأول	٤٩٣
-----------	--	-----

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الأول

الفصل الأول

العهد الجديد والمخلص له المجد

٢٨٧	العهد الجديد	٤٩٤
٢٩٢	سنة مولد المخلص وتبشيريه وموته	٤٩٥
٢٩٦	نسب المسيح بما أنّه انسان	٤٩٦
٢٩٩	حياة المخلص منذ البشارة به إلى ظهوره للتبشير	٤٩٧
٣٠٣	اللغة التي تكلم بها المسيح	٤٩٨
٣١٠	حياة المخلص وأعماله بحسب الاناجيل	٤٩٩
٣٢١	شهادة أعداء يسوع المسيح له	٥٠٠
٣٢٤	شهادة الآثار القديمة للمسيح وتعليمه	٥٠١

الفصل الثاني

العذراء والرسول

٣٢٩ العذراء والدة الله	٥٠٢
٣٣٦ الرسل اجمالاً	٥٠٣
٣٤١ بطرس الرسول	٥٠٤
٣٥٢ رئاسة بطرس على الرسل والكنيسة جمعاء	٥٠٥
٣٥٨ بولس الرسول	٥٠٦
٣٨١ رسائل بولس	٥٠٧
٣٨٣ يوحنا الرسول	٥٠٨
٣٨٧ رؤيا يوحنا	٥٠٨ م
٣٩٠ متى الرسول	٥٠٩
٣٩٣ يعقوب الرسول بن حلفى	٥١٠
٣٩٦ باقي الرسل	٥١١

الفصل الثالث

التلاميذ والمبشرين والمبتدعين

٤٠٦ التلاميذ اجمالاً	٥١٢
٤٠٧ مرقس الانجيلي	٥١٣
٤٠٩ لوقا البشير الانجيلي	٥١٤
٤١٢ الشمامسة السبعة	٥١٥
٤١٧ لعازر واختاه مرتا ومريم	٥١٦
٤٢٠ تادي رسول ابجر	٥١٧
٤٢٦ خلفاء بطرس في كرسي أنطاكية في القرن الأول	٥١٨
٤٢٨ سمعان خليفة يعقوب الرسول في اورشليم في القرن الأول ...	٥١٩
٤٢٩ بعض أساقفة في مدن سورية في القرن الأول	٥٢٠
٤٣١ المبتدعون الذين كانوا في سورية في القرن الأول	٥٢١

الباب الثاني تاريخ القرن الثاني

القسم الأول التاريخ الديني

(تمهيد)

٥٢٢ لمحة في تاريخ الملوك الرومانيين في هذا القرن ٤٣٥

(فصل)

ذكر بعض أحداث في سورية على عهد هؤلاء الملوك

- ٥٢٣ بعض الأحداث في أيام تريان ٤٤٠
٥٢٤ أحداث في سورية في أيام اديان الملك ٤٤٢
٥٢٥ ما كان في أيام انطونيوس بيوس في سورية ٤٤٧
٥٢٦ ذكر أحداث في سورية في أيام مرقس اورليوس ٤٥٠
٥٢٧ ذكر ما كان من الأحداث في سورية في عهد
سبتيموس ساويروس ٤٥٢

الفصل الثاني

ما يؤخذ عن الآثار من تاريخ سورية في القرن الثاني والثالث

- ٥٢٨ ما يؤخذ من ذلك عن آثار تدمر وخطوطها القديمة ٤٥٨
٥٢٩ ما يؤخذ من تاريخ هذا القرن عن الآثار في حوران وما يليها ٤٦٤
٥٣٠ آثار أخرى في القرن الثاني في انحاء عديدة من سورية ٤٦٨
٥٣١ ذيل في مشاهير سورية الدينيين في القرن الثاني ٤٦٩

القسم الثاني
التاريخ الديني في القرن الثاني

الفصل الأول

بطاركة أنطاكية وأورشليم وبعض الأساقفة في سورية في هذا القرن

٥٣٢	بطاركة أنطاكية في القرن الثاني	٤٧٣
٥٣٣	بطاركة أورشليم في القرن الثاني	٤٧٥
٥٣٤	من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن الثاني	٤٧٨

الفصل الثاني

من نعلمهم غير هؤلاء من المشاهير الدينيين في سورية في القرن الثاني

٥٣٥	القديس يوستينس الفيلسوف والشهيد	٤٧٩
٥٣٦	غير يوستينس من العلماء في سورية في هذا القرن	٤٨٢
٥٣٧	من عاصر العلماء المذكورين من العلماء غير السوريين	٤٨٤
٥٣٨	الشهداء في سورية في القرن الثاني	٤٨٩
٥٣٩	ممن كان من المبتدعين في سورية في هذا القرن	٤٩١

خاتمة هذا المجلد

٥٤٠	المبحث الذي كان في كنائس سورية في يوم تعييد الفصح ...	٤٩٦
-----	---	-----

الجزء الرابع

صفحة

عدد

الباب الثالث

تاريخ سورية في القرن الثالث

القسم الأول في تاريخها الديني

٥٤١ تمهيد في ذكر الملوك الرومانيين في هذا القرن ١٧

الفصل الأول

ما كان في سورية من الأحداث في أيام هؤلاء الملوك

- ٥٤٢ ما كان فيها من الأحداث في أيام كركلا وماكرين واليوكبل . ٢٥
٥٤٣ ما كان من الأحداث في أيام اسكندر ساويروس ٣١
٥٤٤ استحواذ سابور ملك الفرس على سورية وانتصار اذينة امير
تدمر عليه في ايام فالريان ٣٦
٥٤٥ زينب (زبيدة) ملكة تدمر ومحاربة اورليان لها ٣٨
٥٤٦ ملوك بني غسان في دمشق وما يليها ٤٤

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدنيويين في القرن الثالث

٥٤٧	برفير الفيلسوف الصوري	٤٩
٥٤٨	لنجين ويوليوس	٥١

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثالث

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة

في سورية في هذا القرن

٥٤٩	بطاركة انطاكية في القرن الثالث	٥٤
٥٥٠	بطاركة اورشليم في القرن الثالث	٥٨
٥٥١	من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الثالث	٥٩

الفصل الثاني

المشاهير والشهداء في سورية بهذا القرن

٥٥٢	اوريجانس	٦٦
٥٥٣	بمفيل ودوروتاوس وملكايون	٧٢
٥٥٤	من عاصر هؤلاء المشاهير في سورية من الأباء والعلماء	
	في غيرها	٧٦
٥٥٥	الشهداء في سورية في القرن الثالث واوائل الرابع	٧٩

الفصل الثالث

ما كان من المباحث الدينية والبدع والمجامع في سورية في القرن الثالث

- ٥٥٦ ما كان من المباحث الدينية في سورية في هذا القرن ٨٥
٥٥٧ المبتدعين والبدع في سورية في القرن الثالث ٨٩
٥٥٨ المجامع التي عقدت في سورية في القرن الثالث ٩١

الباب الرابع

تاريخ سورية في القرن الرابع

القسم الأول

تاريخها الديني

الفصل الأول

الملوك الرومانيين والقسطنطينيين في هذا القرن واعمال بعضهم

في سورية

- ٥٥٩ الملوك الرومانيين في القرن الرابع وفي قسطنطين الكبير ٩٤
٥٦٠ قسطنطين الكبير وابناؤه ٩٥
٥٦١ يوليانس الجاحد ٩٩
٥٦٢ يوفيان الملك ١٠٥
٥٦٣ والتنتيان ١٠٧
٥٦٤ والنس الملك ١١٠
٥٦٥ غراسيان ووالنتيان الثاني الملكين ١١٤
٥٦٦ توادوسيوس الملك ونقضه هياكل الاصنام وشرائعه الدينية ١١٧
٥٦٧ ثورة اهل انطاكية على توادوسيوس الملك ١٢٠
٥٦٨ مقتلة سالونيك وما كان بسببها للملك توادوسيوس مع
القديس امبروسيوس ١٢٥

٥٦٩	ما بقي من اخبار توادوسيوس الملك إلى وفاته	١٢٨
٥٧٠	مشاهير العلماء الدينيين في القرن الرابع	١٣٠

الفصل الثاني

اطوار السوريين في القرون الاربعة الاولى

٥٧١	الادارة السياسية في سورية بهذه الحقبة	١٣٣
٥٧٢	الزراعة في سورية في القرون الأولى	١٣٧
٥٧٣	الصناعة في سورية في القرون الاولى	١٣٩
٥٧٤	التجارة في سورية في القرون الأولى	١٣٩

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الرابع

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في القرن الرابع

٥٧٥	بطاركة انطاكية بهذا القرن	١٤٤
٥٧٦	بطاركة اورشليم في القرن الرابع	١٥٥

الفصل الثاني

اساقفة سورية في القرن الرابع

٥٧٧	اوسابيوس اسقف قيصرية فلسطين	١٦٠
٥٧٨	اوسابيوس اسقف حمص	١٦٣
٥٧٩	القديس ايفان اسقف سلمينا في قبرص	١٦٥
٥٨٠	القديس يوحنا فم الذهب	١٧٠
٥٨١	اساقفة آخرون في سورية	١٧٨

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء الاساقفة في سورية من مشاهير الاساقفة والعلماء في غيرها

١٨٨ مشاهير علماء السريان في هذا القرن	٥٨٢
١٩٣ مشاهير العلم في مصر في القرن الرابع	٥٨٣
١٩٨ مشاهير الابرء والعلماء في اسيا في هذا القرن	٥٨٤
٢٠٣ مشاهير الابرء والعلماء من اللاتينيين في هذا القرن	٥٨٥

الفصل الرابع

المجامع التي عقدت في سورية إلى القرن الرابع

٢٠٧ المجامع التي عقدت في انطاكية	٥٨٦
٢١١ المجامع التي كانت في اورشليم	٥٨٧
٢١٣ باقي المجامع التي عقدت في سورية	٥٨٨

الفصل الخامس

اشهر الكنائس التي انشئت في سورية في هذا القرن

٢١٤ كنيسة القيامة في اورشليم	٥٨٩
٢١٨ كنيسة صعود المخلص في جبل الزيتون	٥٩٠
٢٢٠ كنيسة مغارة المولد في بيت لحم	٥٩١
٢٢١ كنيسة صور القديمة	٥٩٢
٢٢٢ كنائس اخرى في سورية في هذا القرن	٥٩٣

الفصل السادس

القديسون الذين كانوا في القرن الرابع في سورية من شهداء ومعترفين

٢٢٥ القديس جيورجيوس	٥٩٤
٢٢٧ القديسان سرجيوس وبكخس	٥٩٥

٢٢٨	القديس ايلاريون	٥٩٦
٢٣٠	القديس ملخس	٥٩٧
٢٣٢	توادورس الكاهن وتوادورس الشاب ويوليانس الانطاكيون	٥٩٨
٢٣٤	شهداء آخرون في ايام يوليانس	٥٩٩

الفصل السابع

ما كان من البدع والمبتدعين في سورية في القرن الرابع

٢٣٦	اريوس وبدعته	٦٠٠
٢٣٩	مكدونيوس عدو الروح القدس	٦٠١
٢٣٤	ابولينار وغيره من المبتدعين	٦٠٢

الباب الخامس

تاريخ سورية في القرن الخامس

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

ذكر الملوك القسطنطينيين الذين تولوا سورية في القرن الخامس

٢٤٤	اركاديوس الملك	٦٠٣
٢٤٤	الملك ثودوسيوس الصغير	٦٠٤
٢٤٧	بلوشاريا ومرقيان الملك	٦٠٥
٢٤٨	الملك لاون الكبير وحفيده لاون الثاني	٦٠٦
٢٥٠	الملوك زينون وباسيليوس ولاونس	٦٠٧
٢٥٤	انسطاس الملك	٦٠٨

الفصل الثاني

بعض الاحداث في سورية في هذا القرن

- ٦٠٩ الحرب التي كانت بين الاسود احد ملوك الحيرة وبني
غسان ملوك الشام ٢٦٠
٦١٠ غزوة معاوية لفينيقية وفلسطين وحرب ابنها المنذر مع آل غسان ٢٦٢

الفصل الثالث

مشاهير العلماء الدينيين في سورية ومن عاصروهم في غيرها

- ٦١١ سوزومانس المؤرخ ٢٦٥
٦١٢ ايناي الغزي ومارينس الدمشقي وغيرهما ٢٦٧
٦١٣ من عاصر هؤلاء العلماء في غير سورية من مشاهير العلم ٢٦٨

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

- ٦١٤ بطاركة انطاكية في القرن الخامس ٢٧١
٦١٥ بطاركة اورشليم في القرن الخامس ٢٧٩

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن الخامس

- ٦١٦ توادوريطس اسقف قورش ٢٨٣
٦١٧ توادورس اسقف المصيصة ٢٨٦
٦١٨ اسكندر وقورش واخسنيا اساقفة منبج ٢٨٨

٢٩٢	ايريناوس اسقف صور	٦١٩
٢٩٥	باقي اساقفة صور في هذا القرن غير ايريناوس	٦٢٠
٢٩٧	من نعرفهم من اساقفة صيدا وبيروت وجبيل بهذا القرن	٦٢١
٣٠٠	من نعرفهم من اساقفة البترون وطرابلس وعرقا وارتوسيا وارواد	٦٢٢
٣٠٠	في القرن الخامس	٦٢٣
٣٠٢	من نعرفهم من اساقفة جبلة واللاذقية والسويدية وحلب	٦٢٤
٣٠٣	في القرن الخامس	٦٢٥
٣٠٣	من نعرفهم من اساقفة دمشق وحمص وما يليهما بهذا القرن	٦٢٦

الفصل الثالث

غير هؤلاء البطارقة والاساقفة من المشاهير في سورية في القرن الخامس

٣٠٦	القديس سمعان العمودي	٦٢٥
٣١٠	القديس اسحق الكبير	٦٢٦
٣١٢	القديس اوتيميوس وبعض تلامذته النساك	٦٢٧
٣١٤	القديس سابا	٦٢٨
٣١٦	برصوما الارشيمندريت	٦٢٩

الفصل الرابع

من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم في غير سورية

٣١٩	القديس اوغسطينوس	٦٣٠
٣٢١	القديسان كيرلس الاسكندري وايسيدورس القرمي	٦٣١
٣٢٣	القديس ماروتا اسقف ميافرقين	٦٣٢
٣٢٦	رابولا وايهيبا اسقفا الرها	٦٣٣
٣٢٨	بعض المشاهير الغربيين	٦٣٤

الفصل الخامس

البدع والمبدعون بسورية في القرن الخامس

٦٣٥	بيلايوس وبدعته	٣٣٠
٦٣٦	نسطور وبدعته	٣٣٣
٦٣٧	اوطيخا	٣٣٧

الفصل السادس

الجامع التي عقدت في سورية أو شهدها سوريون في القرن الخامس

٦٣٨	المجمع الافسسي المسكوني	٣٤٢
٦٣٩	مجمع افسس المنعوت باللصي	٣٤٧
٦٤٠	المجمع الخلكيدوني العام	٣٥٠
٦٤١	الجامع الخاصة التي عقدت في سورية في هذا القرن	٣٥٧

ملحق

في تاريخ الموارنة

٦٤٢	القديس مارون الناسك	٣٦٢
٦٤٣	تلامذة القديس مارون	٣٦٧

الباب السادس

تاريخ سورية في القرن السادس

القسم الأول

تاريخها الديني

الملوك القسطنطيون في هذا القرن وما كان بسورية في أيامهم

٦٤٤	الملك يوستينس	٣٧٠
-----	---------------	-----

٦٤٥	خراب انطاكية في ايام يوستينس	٣٧٣
٦٤٦	يوستينيانس الملك	٣٧٥
٦٤٧	حملة كسرى ملك الفرس على سورية في ايام يوستينيانس	٣٧٨
٦٤٨	ثورة السامريين وخراب مدن سورية بالزلزال في ايام يوستينيانس	٣٨١
٦٤٩	يوستينس الثاني	٣٨٣
٦٥٠	طيار الملك	٣٨٧
٦٥١	موريق الملك	٣٨٩

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون بسورية ومن عاصرهم بغيرها في القرن السادس

٦٥٢	المشاهير الدينيون بسورية في هذا القرن	٣٩٢
٦٥٣	بعض من عاصر هؤلاء خارجاً عن سورية	٣٩٤

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السادس

الفصل الأول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية

في هذا القرن

٦٥٤	بطاركة انطاكية في القرن السادس	٤٠١
٦٥٥	بطاركة اورشليم في القرن السادس	٤٠٧
٦٥٦	من نعرفهم من اساقفة سورية بهذا القرن	٤١١

الفصل الثاني

من نعرفهم من مشاهير سورية الدينيين غير البطاركة والاساقفة

٦٥٧	يوحنا الابامي وتلميذه يعقوب	٤١٦
٦٥٨	بروكوب الغزي ولانتيوس البيزنطي الاورشليمي ودوتاوس الرئيس	٤١٧
٦٥٩	يوحنا الانطاكي البطريرك القسطنطيني والقديس يوحنا الرحوم	
٦٦٠	ويوحنا السلمي	٤١٨
٦٦١	القدّيس يعقوب السروجي	٤٢٠
٦٦٢	سمعان الفارسي اسقف بيت ارشم ويوحنا سابا واسحق النينوي	٤٣٠
٦٦٣	يعقوب البرادعي	٤٣٣
	يوحنا اسقف اسيا	٤٣٧

الفصل الثالث

المجمع الخامس المسكوني وما كان في سورية من المجمع والبدع في هذا القرن

٦٦٤	الفصول الثلاثة	٤٣٩
٦٦٥	المجمع المسكوني الخامس	٤٤٣
٦٦٦	المجمع التي عقدت في سورية في القرن السادس	٤٤٩
٦٦٧	البدع بسورية في القرن السادس	٤٥١

ملحق

في تاريخ الموارنة في هذا القرن

٦٦٨	انتشار رهبان القديس مارون في سورية وتسمية متابعيهم	
٦٦٩	موارنة نسبة إليهم	٤٥٤
	مناضلة الرهبان الموارنة عن الإيمان الكاثوليكي وما عانوه	
	من الاضطهاد لذلك	٤٥٨

الباب السابع
تاريخ سورية في القرن السابع

القسم الأول
تاريخها الديني في هذا القرن

فصل في الملوك الرومانيين في هذا القرن وما كان بسورية
في ايامهم

٦٧٠	فوقا الملك وما كان في ايامه بسورية	٤٦٣
٦٧١	ثورة اليهود في سورية ونهاية ملك فوقا	٤٦٦
٦٧٢	هرقل الملك وحملة الفرس في ايامه على سورية	٤٦٧
٦٧٣	حرب هرقل مع الفرس وانتصاره عليهم واسترداده خشبة الصليب المقدس	٤٧٠
٦٧٤	تتمة تاريخ هرقل	٤٧٣
٦٧٥	جدول في اسماء الملوك الرومانيين وسني تملكهم ووفاتهم أو عزلهم	٤٧٧

الجزء الخامس

صفحة

عد

الفاتحة ١٩

القسم الأول

تتمة التاريخ الديوي في القرن السابع

الفصل الاول

ذكر الخلفاء الراشدين وبعض بني أمية الذين ملكوا سورية

في هذا القرن

٢١ ذكر ابي بكر الصديق	٦٧٦
٢٣ ذكر عمر بن الخطاب	٦٧٧
	فتح مصر وغيرها من البلاد وما كان من الاحداث	٦٧٨
٢٦ في ايام عمر بن الخطاب	
٢٩ خلافة عثمان بن عفان	٦٧٩
٣٣ ذكر اخبار علي بن ابي طالب	٦٨٠
٣٥ ذكر مقتل علي بن ابي طالب	٦٨١
٣٧ ذكر خلافة معاوية	٦٨٢
٣٨ ذكر خلافة يزيد بن معاوية	٦٨٣
٤٠ ذكر معاوية بن يزيد ومروان بن الحكم	٦٨٤
٤٢ ذكر اخبار عبد الملك بن مروان	٦٨٥

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون بسورية وما جاورها في القرن السابع

٦٨٦	جرير	٤٨
٦٨٧	الفرزدق	٤٩
٦٨٨	الأخطل	٥١
٦٨٩	زهير بن ابي سلمى المزني	٥٣
٦٩٠	النابعة الدياني	٥٥
٦٩١	عنتره العبسي	٥٧

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن السابع

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

٦٩٢	بطاركة انطاكية في القرن السابع	٦١
٦٩٣	بطاركة أورشليم في القرن السابع	٦٥

الفصل الثاني

من نعرفهم من اساقفة سورية في القرن السابع

٦٩٤	توما الحرقلي اسقف مرعش	٧٠
٦٩٥	يوحنا اسقف بصرى بحوران وسرجيوس رئيس اساقفة قبرص ..	٧٢
٦٩٥	اسطفانوس اسقف دورة ويوحنا اسقف فيلادلفيا وغيرهما	٧٤
٦٩٦	يعقوب الرهاوي	٧٦

الفصل الثالث

بدعة المشيئة الواحدة والمجامع التي حرمتها

٦٩٧	منشئو هذه البدعة وانتشارها	٨٦
-----	----------------------------------	----

٦٩٨	المجمع السادس المسكوني الذي حرّم بدعة المشيئة الواحدة	٩٣
٦٩٩	مجامع أخرى حرّمت بدعة المشيئة الواحدة	١٠٠

ملحق

تاريخ الموارنة في هذا القرن السابع

الفصل الاول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

٧٠٠	سطوة المردة أي الموارنة في هذا القرن	١٠٣
٧٠١	امراء الموارنة والاثني عشر ألفاً المجلّون منهم	١٠٩
٧٠٢	حرب الموارنة وعسكر الملك يوستينيانس الاخرم	١١٥
٧٠٣	الانقسام بين الموارنة والملكية	١١٨

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون واسقفيته وبطريركيته وتآليفه

٧٠٤	منشأ القديس يوحنا مارون	١٢٢
٧٠٥	اسقفية القديس يوحنا مارون	١٢٤
٧٠٦	بطريركية القديس يوحنا مارون	١٢٧
٧٠٧	مؤلفات القديس يوحنا مارون	١٣٥
	نافور أي رتبة القُداس	١٣٥
	كتاب ايضاح الايمان	١٣٦
	كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة	١٤٠
	رسالة في التريصاجيون	١٤٠
	كتابه في الكهنوت	١٤١
	كتابه في شرح رتبة القُداس	١٤٢
٧٠٨	هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة	١٤٥
٧٠٩	قداسة يوحنا مارون	١٥٠

الفصل الثالث

براءة المارونيين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

٧١٠	براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة	١٥٨
٧١١	اثبات البابا بناديكتس الرابع عشر قداسة القديس مارون	١٦٣
٧١٢	براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة	١٧٠
١٧٠	شهادة الاحبار الاعظمين	١٧٠
١٧٢	الدليل بسيرة يوحنا مارون وتأليفه	١٧٢
١٧٤	شهادة اعداء يوحنا مارون لبراءته من البدعة	١٧٤
١٧٤	شهادة العلماء المحققين	١٧٤
١٧٧	بطلان ما يرد على ذلك	١٧٧
٧١٣	براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة	١٧٩
١٧٩	شهادات الاحبار الاعظمين	١٧٩
١٨٧	براهين تاريخية	١٨٧
٧١٤	تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة ...	١٩١

الباب الثامن

تاريخ سورية في القرن الثامن

القسم الاول

تاريخ سورية الديوي في هذا القرن

الفصل الاول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن الثامن

٧١٥	الوليد بن عبد الملك بن مروان	١٩٤
٧١٦	سليمان بن عبد الملك بن مروان	١٩٦
٧١٧	عمر بن عبد العزيز	١٩٧

٧١٨	يزيد بن عبد الملك بن مروان	١٩٩
٧١٩	هشام بن عبد الملك	٢٠٠
٧٢٠	الوليد بن يزيد بن عبد الملك	٢٠١
٧٢١	يزيد بن الوليد الاول	٢٠٢
٧٢٢	ابراهيم بن الوليد الاول بن عبد الملك	٢٠٣
٧٢٣	مروان بن محمد بن مروان بن الحكم	٢٠٤
٧٢٤	ابو العباس السفاح اول الخلفاء العباسيين	٢٠٧
٧٢٥	ابو جعفر المنصور	٢٠٨
٧٢٦	خلافة المهدي	٢١١
٧٢٧	خلافة الهادي	٢١٣
٧٢٨	خلافة هرون الرشيد	٢١٤

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدنيويون في القرن الثامن

٧٢٩	بعض المشاهير الدنيويين بسورية في هذا القرن	٢١٧
٧٣٠	مكحول الشامي	٢١٧
	الامام الاوزاعي	٢١٨
	ديك الجن الشاعر	٢١٨
	من عاصر هؤلاء المشاهير خارجاً عن سورية	
	وأولاً الفقهاء السبعة	٢١٩
٧٣١	ائمة الفقه اصحاب المذاهب الاربعة	٢٢١
٧٣٢	ائمة النحو في هذا القرن	٢٢٣
	سيبويه	٢٢٥
	الكسائي	٢٢٦
	الأخفش	٢٢٦

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الثامن

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية
في هذا القرن

٧٣٣	بطاركة انطاكية في القرن الثامن	٢٢٨
٧٣٤	بطاركة أورشليم في القرن الثامن	٢٣٠
٧٣٥	من عرفناهم من أساقفة سورية في القرن الثامن	٢٣٣

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون السوريون ومن عاصروهم في القرن الثامن

٧٣٦	القديس يوحنا الدمشقي وغيره من السوريين	٢٣٨
٧٣٧	القديس توفان المؤرخ	٢٤٣
٧٣٨	جيورجوس سنشلس الملازم وبولس الشماس	٢٤٤
٧٣٩	ييدا المكرم	٢٤٥

الفصل الثالث

بدعة محاربي الصور والمجمع السابع المسكوني

٧٤٠	بدعة محاربي الصور	٢٤٨
٧٤١	المجمع السابع المسكوني وهو النيقوي الثاني	٢٥٢

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

٧٤٢	حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن	٢٥٨
-----	---	-----

٢٦٠	بطارقة الموارنة في القرن الثامن	٧٤٣
٢٦٢	توافيلس الرهاوي الماروني	٧٤٤
٢٦٤	رد ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على الموارنة	٧٤٥

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع

القسم الأول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء في القرن التاسع وما كان من الأحداث في أيامهم

٢٦٩	الامين بن هرون الرشيد	٧٤٦
٢٧١	المأمون بن هرون الرشيد	٧٤٧
٢٧٣	المعتصم بن هرون الرشيد	٧٤٨
٢٧٥	الواثق بالله بن المعتصم	٧٤٩
٢٧٧	المتوكل على الله بن المعتصم بالله	٧٥٠
٢٧٨	المنتصر والمستعين والمعتز	٧٥١
٢٨٠	المهتدي والمعتمد على الله	٧٥٢
٢٨١	أحمد بن طولون وولده اصحاب مصر وسورية	٧٥٣
٢٨٥	تممة أخبار المعتمد وخلافة المعتضد	٧٥٤

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون بسورية وما جاورها في القرن التاسع

٢٨٦	أبو تمام صاحب الحماسة	٧٥٥
٢٨٨	البحثري	٧٥٦
٢٩١	بعض مشاهير العلم غير السوريين في القرن التاسع	٧٥٧

٢٩١	قطرب
٢٩١	الفراء
٢٩٢	الأصمعي
٢٩٣	أبو نواس
٢٩٤	المازني
٢٩٤	حنين بن اسحق الطبيب
٢٩٦	المبرد
٢٩٧	الزجاج

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن التاسع

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من أساقفة سورية في هذا القرن

٢٩٨	بطاركة انطاكية في القرن التاسع	٧٥٨
٣٠٠	بطاركة أورشليم في القرن التاسع	٧٥٩
٣٠٣	من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن التاسع	٧٦٠

الفصل الثاني

مشاهير العلم الديني في القرن التاسع

٣٠٥	ديونيسيوس بطريرك اليعاقبة	٧٦١
٣٠٧	يوحنا الداراوي وموسى بركيفا	٧٦٢
٣٠٩	أنسطاس المكتبي وسمعان متفرست	٧٦٣

الفصل الثالث

الشقاق الذي كان في كنيسة قسطنطينية في القرن التاسع

٣١١	فوتيوس والقديس اغناطيوس البطريرك القسطنطيني وما كان بينهما	٧٦٤
-----	---	-----

٧٦٥	المجمع الثامن المسكوني	٣١٦
-----	------------------------	-----

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن التاسع

٧٦٦	بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر	٣٢١
٧٦٧	قيس الماروني	٣٢٣

الباب العاشر

تاريخ سورية في القرن العاشر

القسم الأول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

الخلفاء الذين تولوا سورية في القرن العاشر

٧٦٨	المكتفي بالله	٣٢٦
٧٦٩	المقتدر بالله	٣٢٩
٧٧٠	غزوات المهدي العلوي لمصر وغيرها	٣٣١
٧٧١	خلافة القاهرة بالله	٣٣٣
٧٧٢	ذكر خلافة الراضي بالله	٣٣٥
٧٧٣	ولاية الأخشيد وابن رائق في سورية	٣٣٧
٧٧٤	خلافة المتقي بالله	٣٣٩
٧٧٥	خلافة المستكفي بالله والمطيع لله	٣٤١
٧٧٦	غزوات سيف الدولة أمير حلب في بلاد الروم وغزوات الروم في بلاد المسلمين	٣٤٣
٧٧٧	ما رواه المؤرخون النصاري من هذه الحوادث	٣٤٥
٧٧٨	ذكر حوادث أخرى في سورية	٣٤٨
٧٧٩	الطائع لله والقادر بالله	٣٥١

٧٨٠	الخلفاء العلويون الفاطميون في سورية والعزير خاصة	٣٥٢
٧٨١	الحاكم بأمر الله العلوي الفاطمي	٣٥٤
٧٨٢	بقية أخبار الحاكم بأمر الله	٣٥٧

الفصل الثاني

مشاهير العلم السوريين في القرن العاشر

٧٨٣	القاضي التنوخي وابنه المحسن	٣٦١
٧٨٤	أبو القاسم سليمان الطبراني وأبو الرقعمق	٣٦٣
	محمد أبو الفرج الوأواء الدمشقي	٣٦٤

الفصل الثالث

من عاصر هؤلاء المشاهير من أمثالهم غير السوريين

٧٨٥	المشاهير بالفقه والطب والتاريخ وغيرها من العلوم	٣٦٥
	الطبري	٣٦٥
	أبو بكر الرازي	٣٦٦
	أبو نصر الفارابي	٣٦٦
	المسعودي	٣٦٨
	العبادي الطبيب	٣٦٨
٧٨٦	بعض المشاهير في الخطابة والإنشاء	٣٦٩
	ابن نباتة	٣٦٩
	بديع الزمان الهمذاني	٣٧٠
٧٨٧	بعض المشاهير في اللغة والشعر	٣٧٠
	ابن سهل	٣٧٠
	ابن دريد	٣٧١
	النحاس النحوي	٣٧٢
	أبو الطيب المتنبي	٣٧٣
	النامي الشاعر	٣٧٤
	الخرجاني	٣٧٥

٣٧٦	الازهري
٣٧٧	السيرافي النحوي
٣٧٨	أبو علي الفارسي

القسم الثاني

التاريخ الديني في القرن العاشر

الفصل الأول

بطاركة انطاكية وأورشليم وأساقفة سورية في هذا القرن

٣٧٩	بطاركة انطاكية في القرن العاشر	٧٨٨
٣٨١	بطاركة أورشليم في القرن العاشر	٧٨٩
٣٨٥	من نعرفهم من أساقفة سورية في القرن العاشر	٧٩٠

الفصل الثاني

المشاهير الدينيين في القرن العاشر

٣٨٨	نيقولاوس بطريك قسطنطينية وسعيد بن البطريق بطريك اسكندرية	٧٩١
٣٩٠	جيورجوس متروبوليت اربل والموصل وغيرهم من مشاهير هذا القرن	٧٩٢
٣٩١	اكومانيوس	
٣٩١	اريتاس	
٣٩٢	جيورجوس الراهب	
٣٩٢	لاون الشمس	
٣٩٤	سويدا	

ذيل

٣٩٤	ما كان عند نهاية القرن العاشر	٧٩٣
-----	-------	-------------------------------	-----

ملحق

تاريخ الموارنة

٧٩٤ رد مزاعم من اتهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر ٣٩٧

الباب الحادي عشر

تاريخ سورية في القرن الحادي عشر

القسم الاول

تاريخها الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

الخلفاء العلويون الذين تولوا سورية في القرن الحادي عشر
وما كان في أيامهم من الاحداث

- ٧٩٥ الظاهر لاعزاز دين الله ٤٠٠
٧٩٦ المستنصر بالله وبعض ما كان في أيامه بسورية خاصة ٤٠٣
٧٩٧ تنمة أخبار المستنصر بالله العلوي وما كان في أيام ملكشاه
السلجوقي بسورية ٤٠٨
٧٩٨ ما كان من الاحداث في أيام خلفاء ملكشاه السلجوقي
والمستعلي بالله خليفة مصر ٤١٣

الفصل الثاني

المشاهير في العلم في سورية ومن عاصروهم في القرن الحادي عشر

- ٧٩٩ المشاهير السوريون في هذا القرن ٤١٧
ابو العلاء المعري ٤١٧
عبد المحسن الصوري ٤١٩
مخلص الدولة صاحب قلعة شيزر ٤٢١
المسقلاني ٤٢٢
ابن حيّوس الدمشقي ٤٢٣

٤٢٤ ابن الخياط الدمشقي	
٤٢٥ من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم غير السوريين	٨٠٠
٤٢٥ البستي الشاعر	
٤٢٦ الرئيس ابن سينا	
٤٢٩ الثعالبي صاحب اليتيمة	
٤٣٠ ابو اسحق الشيرازي	

الفصل الثالث

ملوك الروم إلى آخر هذا القرن والخلفاء العباسيون فيه

٤٣٢ ملوك الروم من بعد هرقل إلى آخر القرن الحادي عشر	٨٠١
٤٣٨ الخلفاء العباسيون في القرن الحادي عشر	٨٠٢

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الحادي عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية وأورشليم ومن نعرفهم من اساقفة سورية في هذا القرن

٤٤١ بطاركة انطاكية في القرن الحادي عشر	٨٠٣
٤٤٤ بطاركة أورشليم في القرن الحادي عشر	٨٠٤
٤٤٦ من نعرفهم من اساقفة سورية وجوارها في هذا القرن	٨٠٥

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الحادي عشر بسورية وغيرها

٤٥٠ ابو الفرج عبدالله بن الطيب	٨٠٦
٤٥٥ ابن بطلان	٨٠٧
٤٥٧ توافيلكتس وشدرانس	٨٠٨

- ٨٠٩ بعض مشاهير الآباء اللاتينيين في هذا القرن ٤٥٨
القديس بطرس دميانس ٤٥٨
القديس انسلمس اسقف كنتورباري ٤٥٩
القديس انسلمس اسقف لوكا ٤٦١

الفصل الثالث

ما كان من البدع والشقاق في القرن الحادي عشر

- ٨١٠ البدع في هذا القرن ٤٦٢
الشقاق الذي أحدثه ميخائيل شيرولاريوس البطريرك القسطنطيني ٤٦٤

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الحادي عشر

- ٨١٢ المطران داود الماروني ٤٧٢

الجزء السادس

صفحة

عد

الباب الثاني عشر تاريخ القرن الثاني عشر

القسم الاول تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

فاتحة الكتاب

الفصل الاول

قدوم الفرنج إلى سورية واستحوازم على بعض مدنها وما كان من الحروب في هذا القرن

٨١٢	تألب الفرنج في بلادهم ومسيرهم إلى قسطنطينية	٢٢
٨١٣	ما كان بين الفرنج وملك الروم ومسيرهم إلى انطاكية	٢٦
٨١٤	حصار الفرنج انطاكية وفتحها	٣٠
٨١٥	حصار المسلمين للفرنج في انطاكية	٣٤
٨١٦	ذيل في اقوال العلماء في الحربة التي وجدت حينئذ في انطاكية ..	٣٩
٨١٧	سير الفرنج من انطاكية إلى اورشليم	٤٢

٨١٨	حصار اورشليم وفتحها	٤٥
٨١٩	وقعة عسقلان وغيرها إلى وفاة غودفروا ملك اورشليم	٥٠
٨٢٠	انتخاب بودوين ملكاً وبعض الاحداث في ايامه	٥٣
٨٢١	فتح بودوين عكا وحربه في يافا ووقعة حران	٥٦
٨٢٢	فتح الفرنج طرابلس وغيرها	٥٨
٨٢٣	ذكر مسير عساكر السلطان محمد السلجوقي إلى قتال الفرنج .	٦١
٨٢٤	خلافة بودوين الثاني وما كان في ايامه	٦٤
٨٢٥	ملك فولك دي انجو وما كان من الاحداث في ايامه	٦٨
٨٢٦	حملة يوحنا كمنانس ملك الروم على سورية	٧٢
٨٢٧	ملك بودوين الثالث على اورشليم واخذ المسلمين الرها	٧٥
٨٢٨	حملة الصليبيين الثانية على سورية	٧٧
٨٢٩	حصار دمشق	٨١
٨٣٠	اخذ الفرنج مدينة عسقلان	٨٣
٨٣١	ذكر غير ذلك من الحوادث في ايام بودوين الثالث	٨٥
٨٣٢	اموري الاول وما كان في ايامه	٨٦
٨٣٣	بودوين الرابع وبعض ما كان في ايامه	٩١
٨٣٤	حروب واحداث اخرى في ايام بودوين الرابع	٩٤
٨٣٥	سوء حال الفرنج في هذه المدة	٩٨
٨٣٦	وقعة حطين الشهيرة	١٠٢
٨٣٧	ما فتحه صلاح الدين في بلاد الفرنج بعد وقعة حطين	١٠٦
٨٣٨	فتح صلاح الدين اورشليم	١٠٨
٨٣٩	حصار صلاح الدين لمدينة صور وفتح بعض مدن غيرها	١١١
٨٤٠	غزوة صلاح الدين في شمالي سورية	١١٤
٨٤١	حملة الفرنج الثالثة على سورية	١١٧
٨٤٢	حصار الفرنج عكا	١٢٠
٨٤٣	المدن التي اخذها الفرنج من المسلمين بعد فتح عكا	١٢٤
٨٤٤	الهدنة التي عقدت بين الفرنج والسلطان صلاح الدين	١٢٨
٨٤٥	وفاة السلطان صلاح الدين ومن ملك بعده	١٣٠
٨٤٦	بعض الاحداث إلى نهاية هذا القرن	١٣١

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الثاني عشر

١٣٤	المشاهير السوريون	٨٤٧
١٣٤	محمد بن الخضر المعري	
١٣٥	ابراهيم الغزي الشاعر	
١٣٦	ابن منير الطرابلسي	
١٣٧	ابن عساكر الدمشقي	
١٣٨	ابن الذكي الدمشقي	
١٣٩	ابن القيسراني	
١٤٠	محيي الدين الشهرزوري	
١٤١	تقية ابنة الصوري	
١٤٢	اسامة بن منقذ	
١٤٤	بعض من عاصر هؤلاء من امثالهم في غير سورية	٨٤٨
١٤٤	ابو حامد الغزالي	
١٤٦	الطغرائي صاحب لامية العجم	
١٤٧	ابو محمد الحريري	
١٤٨	الفتح بن خاقان	
١٤٩	الرمخشري	
١٥١	الادريسي	
١٥٢	ابن رشد	
١٥٣ ...	ذيل في الخلفاء العلويين وملوك الروم في القرن الثاني عشر	٨٤٩

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الثاني عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم ومن نعرفهم من الاساقفة في هذا القرن

٨٥٠	بطاركة انطاكية في القرن الثاني عشر	١٥٦
٨٥١	بطاركة اورشليم في القرن الثاني عشر	١٥٩
٨٥٢	بطاركة انطاكية واورشليم اللاتينيون في القرن الثاني عشر	١٦٣
٨٥٣	اساقفة سورية في القرن الثاني عشر	١٦٦
	توما اسقف كفرطاب	١٦٦
	غوليلمس الصوري	١٦٨
٨٥٤	ديوانيسوس بن صليبا	١٦٩

الفصل الثاني

مشاهير العلم الدينيون في القرن الثاني عشر

٨٥٥	بعض المشاهير الشرقيين في هذا القرن	١٧١
	البطريرك ميخائيل الكبير	١٧٢
	يوحنا زوناراس	١٧٣
	حنه كومنانس	١٧٣
٨٥٦	بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن	١٧٣
	القديس برنردس	١٧٤
	بطرس اللمبردي	١٧٥
	ذيل	١٧٥

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

١٧٦	٨٥٧	حالتهم الدنيوية في هذا القرن
١٧٨	٨٥٨	بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر
١٨٧	٨٥٩	ما نعرفه من اديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر
١٩٢	٨٦٠	تفنيد زعم غوليلمس الصوري ان الموارنة ارعوا عن الضلال
١٩٢	٨٦١	سنة ١١٨٢ م

الباب الثالث عشر

تاريخ سورية في القرن الثالث عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

الاحداث التي كانت في القرن الثالث عشر

٢٠٠	٨٦١	استقلال الملك العادل بالسلطنة وبعض اعماله
٢٠٤	٨٦٢	ما كان من الحرب بين الملك العادل والفرنج
٢١٠	٨٦٣	اخذ الفرنج دمياط وانتزاعها من يدهم
٢١٤	٨٦٤	حملة فريدريك الثاني ملك المانيا على سورية وترك الملك الكامل القدس له
٢١٨	٨٦٥	بعض احداث في سورية إلى وفاة الملك الكامل
٢٢٤	٨٦٦	اخبار الفرنج بسورية بعد عود عاهل الالمان إلى المغرب
٢٢٦	٨٦٧	ما كان من الاحداث بين الملوك الايوبيين بعد وفاة الملك الكامل ..
٢٣١	٨٦٨	غزوات الخوارزمية في سورية
٢٣٥	٨٦٩	حملة الفرنج السابعة على سورية بأمر الملك لويس التاسع

٢٣٧	٨٧٠	ذكر وفاة الملك الصالح وخلافة ابنه ووقعة المنصورة
٢٤٠	٨٧١	اخذ الملك لويس اسيراً ونجّاه من الاسر
٢٤٣	٨٧٢	باقي اخبار الامراء الايوبيين إلى انقراض دولتهم
٢٤٦	٨٧٣	تتمة الكلام في حملة القديس لويس وعوده إلى فرنسا
٢٤٩	٨٧٤	اغارات التتر على سورية
٢٥٣	٨٧٥	بعض الاحداث في ايام الملك الظاهر بيبرس البندقداري
٢٥٥	٨٧٦	حروب الملك الظاهر مع الفرنج إلى حين وفاته
٢٦١	٨٧٧	خلافة ولدي الملك الظاهر له ثم خلعهما وتمليك قلاوون الصالحي
٢٦٣	٨٧٨	وقعة حمص بين الملك المنصور وقلاوون والتتر
٢٦٤	٨٧٩	وفاة صاحب حماه وفتح قلعة المرقب وصهيون
٢٦٦	٨٨٠	ذكر فتوح طرابلس
٢٦٩	٨٨١	ذكر فتوح عكا
٢٧٤	٨٨٢	فتح صور وصيدا وبيروت وغيرها
٢٧٦	٨٨٣	ذكر بعض الاحداث في ايام الملك الاشرف إلى مقتله ومقتل قاتليه
٢٨٠	٨٨٤	حملة التتر على سورية مرة اخرى

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم الدينيين بسورية في القرن الثالث عشر

٢٨٣	٨٨٥	المشاهير السوريون
٢٨٣		ابن الساعاتي
٢٨٤		فتيان الشاغوري
٢٨٤		الشيخ علي الطرابلسي
٢٨٥		رشيد النابلسي
٢٨٥		ياقوت الحموي
٢٨٧		ابن عنين
٢٨٨		بهاء الدين ابن شداد
٢٨٨		عبد الرحمن العسقلاني
٢٨٩		عبد المحسن التنوخي

٢٩٠	ابن النجار الدمشقي
٢٩١	ابن ابي اليسر الدمشقي
٢٩١	عون الدين الحلبي
٢٩٢	ابن ابي اصيبعة
٢٩٣	ابن الحموي
٢٩٣	بهاء الدين ابن النحاس الحلبي
٢٩٤	علاء الدين ابو الحسن الدمشقي
٢٩٥	محمد بن مالك
٢٩٦	جمال الدين الحموي
٢٩٧	من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين
٢٩٧	فخر الدين الرازي
٢٩٩	مجد الدين ابن الاثير
٣٠٠	عز الدين ابن الاثير المؤرخ
٣٠١	ضياء الدين ابن الاثير
٣٠٢	عثمان ابن الحاجب
٣٠٣	ابن البيطار
٣٠٤	البهاء زهير
٣٠٥	عمر ابن الفارض
٣٠٥	ابن خلكان
٣٠٦	البيضاوي

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الثالث عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم من الشرقيين والغربيين

٨٨٧	بطاركة انطاكية في القرن الثالث عشر	٣٠٧
٨٨٨	بطاركة اورشليم في القرن الثالث عشر	٣٠٩
٨٨٩	بطاركة انطاكية واورشليم من اللاتين في القرن الثالث عشر ...	٣١٠

الفصل الثاني

المشاهير الدينيون في القرن الثالث عشر

٨٩٠	غريغوريوس ابن العبري المعروف بأبي الفرج	٣١٢
٨٩١	ابن العسال ويعقوب اسقف تكريت ويوحنا ابن المعدني	٣٢٠
	يعقوب اسقف تكريت	٣٢١
٨٩٢	بعض المشاهير الغربيين في هذا القرن	٣٢٢
	القديس البرتس الكبير	٣٢٢
	القديس توما الاكويني	٣٢٣
	القديس بوناونتورا	٣٢٤

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

٨٩٣	فتح المسلمين جبة بشري	٣٢٥
٨٩٤	حروب كسروان	٣٢٦
٨٩٥	بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر	٣٣١
٨٩٦	رد ما يحتج به على الموارنة من كلام البابا اينوشنسيوس الثالث ...	٣٣٥

الباب الرابع عشر
تاريخ سورية في القرن الرابع عشر

القسم الاول
تاريخها الديوي

الفصل الاول

من تولوا سورية بهذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

- ٨٩٧ تنمة اخبار الملك الناصر وما كان في ايامه ٣٤٠
٨٩٨ العشائر الاسلامية التي اقيمت في سواحل لبنان في هذه الاثناء ٣٤٥
٨٩٩ احداث اخرى في ايام الملك الناصر إلى حين وفاته ٣٥٠
٩٠٠ وفاة الملك الناصر وتعاقب ابنائه في الخلافة ٣٥٢
٩٠١ بعض احداث غير ما ذكر في ايام هؤلاء الملوك ٣٥٨
٩٠٢ الملك المنصور والملك الاشرف وما كان في ايامهما ٣٥٩
٩٠٣ المنصور بن الاشرف واخوه الصالح وما كان في ايامهما ٣٦٣
٩٠٤ دولة المماليك الجراكسة واولهم الملك الظاهر برقوق ٣٦٥
٩٠٥ انتفاض الناصري واستيلائه على الشام ومصر واعتقال السلطان
برقوق بالكرك ٣٦٨
٩٠٦ ثورة منطاش ونكبة الجواني وحبس الناصري ٣٧٠
٩٠٧ خروج السلطان برقوق من الكرك وظفره بعساكر الشام وحصاره
دمشق وعوده إلى كرسيه ٣٧١
٩٠٨ ذكر احداث اخرى في ايام السلطان الظاهر إلى مقتل منطاش ٣٧٤
٩٠٩ بقية اخبار الملك الظاهر برقوق وابنه إلى نهاية هذا القرن ٣٧٧

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الرابع عشر

المشاهير السوريون في هذا القرن	٣٧٩	٩١٠
ابن منظور	٣٧٩	
فخر الدين الحموي قاضي حلب	٣٨٠	
شمس الدين الدمشقي	٣٨٠	
الملك المؤيد اسماعيل ابو الفداء	٣٨٠	
بدر الدين محمد الكتاني الحموي	٣٨٢	
هبة الله الحموي	٣٨٢	
عمر ابن الحسام الدمشقي	٣٨٣	
ابن الوردي	٣٨٤	
صلاح الدين الكتبي الحلبي	٣٨٥	
صلاح الدين الصفدي	٣٨٦	
صدر الدين الدمشقي	٣٨٦	
محمود القدسي	٣٨٦	
من عاصر هؤلاء المشاهير من امثالهم غير السوريين	٣٨٧	٩١١
قطب الدين محمود الشيرازي	٣٨٧	
شهاب الدين احمد ابن عبد الوهاب	٣٨٧	
الصنهاجي صاحب الاجرومية	٣٨٨	
اثير الدين ابو حيان النحوي المغربي	٣٨٨	
صفى الدين الحلبي	٣٨٩	
ابن هشام الانصاري	٣٨٩	
ابو الضياء خليل بن اسحق المالكي	٣٩٠	
ابن عقيل	٣٩١	
ابن بطوطة	٣٩١	
السعد التفتزاني	٣٩٢	

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن الرابع عشر

الفصل الاول
بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

٩١٢	بطاركة انطاكية	٣٩٣
٩١٣	بطاركة اورشليم في القرن الرابع عشر	٣٩٤

الفصل الثاني
بعض المشاهير الدينيين في القرن الرابع عشر

٩١٤	محبوب بن قسطنطين مطران منبج اليعقوبي	٣٩٦
٩١٥	عبد يشوع مطران صوبا	٣٩٨
٩١٦	دانيال الكاهن وخامس بن القرداحي	٤٠١
٩١٧	تيموتاوس الثاني بطريرك النساطرة واغناطيوس بن وهب بطريرك اليعاقبة	٤٠٢
٩١٨	عمرو بن متى	٤٠٣
٩١٩	مشاهير آخرون في هذا القرن	٤٠٥
	جبرائيل اسقف الموصل	٤٠٥
	نيقوفور كاليستوس	٤٠٥
	توادورس القاري	٤٠٦
	نيقوفور كراكوراس	٤٠٦

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

- ٩٢٠ ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن ٤٠٦
٩٢١ بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر ٤٠٨
٩٢٢ من عرفناهم من اساقفة الموارنة في هذا القرن ٤١٢

الباب الخامس عشر

تاريخ سورية في القرن الخامس عشر

القسم الاول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الاول

السلاطين الذين تولوا سورية في هذا القرن وما كان من الاحداث في ايامهم

- ٩٢٣ حملة تيمورلنك على سورية ٤١٥
٩٢٤ ما كان من الاحداث في ايام الملك الناصر فرج إلى وفاته ... ٤١٨
٩٢٥ الملك المؤيد شيخ وما كان في ايامه ٤١٩
٩٢٦ الملك المظفر احمد ابن الملك المؤيد والملك الظاهر ططر ٤٢٢
٩٢٧ الملك الصالح محمد بن ططر ٤٢٤
٩٢٨ الملك الاشرف برسباني الدقماقي الظاهري ٤٢٤
٩٢٩ الملك العزيز يوسف ابن الملك الاشرف ٤٢٧
٩٣٠ الملك الظاهر جقمق العلائي الظاهري ٤٢٨
٩٣١ الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر والملك الاشرف
اينال العلائي ٤٣٠
٩٣٢ الملك المؤيد احمد ابن الملك الاشرف ٤٣٣

٩٣٣	الملك الظاهر خشقدم	٤٣٤
٩٣٤	الملك الظاهر بلباي المؤيدي	٤٣٦
٩٣٥	الملك الظاهر ترمبغا الظاهري	٤٣٧
٩٣٦	الملك الاشرف قايتباي المحمودي الظاهري	٤٣٨
٩٣٧	الملك الناصر محمد ابن الملك الاشرف قايتباي	٤٤٥
٩٣٨	الملك الظاهر قانصوه الاشرفي	٤٤٧
٩٣٩	الملك الاشرف جان بلاط الاشرفي	٤٤٩
٩٤٠	الملك العادل طومان باي	٤٥٢

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم في القرن الخامس عشر

٩٤١	المشاهير السوريون	٤٥٤
	ابن الحبيب الحلبي	٤٥٤
	علاء الدين البهائي الغزولي الدمشقي	٤٥٤
	ابن الشحنة الحلبي	٤٥٥
	البدر الشنكي الدمشقي	٤٥٥
	ابن حجة الحموي	٤٥٥
	علي بن خليل الطرابلسي	٤٥٦
	شهاب الدين الرملي القدسي	٤٥٦
	ابن حجر العسقلاني	٤٥٦
	شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي	٤٥٨
	محمد بن قرقماس الناصري	٤٥٨
	ابو حامد المقدسي	٤٥٩
	ابن مزهر الدمشقي	٤٥٩
٩٤٢	بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين	٤٥٩
	ابن خلدون الإشبيلي	٤٥٩
	محمد بن موسى الدميري	٤٦٠
	علي بن محمد الجرجاني	٤٦١
	ابن الهائم	٤٦١

٤٦٢	ابن الملتن
٤٦٢	محمد الفيروزابادي الشيرازي
٤٦٤	البرهان البيجوري
٤٦٤	تقي الدين احمد بن علي المقرئزي
٤٦٦	محمود العيني
٤٦٧	ابو الحسن بن تغري بردي
٤٦٧	تقي الدين الشمني
٤٦٨	محمد السنحاوي
٤٦٩	الشيخ شمس الدين القادري

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الخامس عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

٩٤٣	بطاركة انطاكية في القرن الخامس عشر	٤٧٠
٩٤٤	بطاركة اورشليم في القرن الخامس عشر	٤٧١

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدينيين في القرن الخامس عشر

٩٤٥	نوح البقوافي بطريرك اليعاقبة	٤٧٤
٩٤٦	الاخ (فرا) غريفون	٤٧٥
٩٤٧	الكردينال بساريون وتوادورس غازا	٤٧٨

الفصل الثالث

اخص الاحداث الدينية في هذا العصر اي اتحاد كنيسة الروم بالكنيسة الرومانية

٩٤٨	ما كان بهذا الشأن قبل القرن الخامس عشر	٤٨٠
٩٤٩	مجمع فرازا	٤٨٤
٩٥٠	اعمال هذا المجمع في فلورنسا	٤٩١
٩٥١	ما كان بعد اتحاد الروم في هذا المجمع	٤٩٩

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

٩٥٢	بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في ايامهم .	٥٠٤
٩٥٣	بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر	٥٠٧
٩٥٤	من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر	٥١٦
٩٥٥	تفنيد رأي من زعم ان الموارنة واسقفهم الياش مطران قبرص	
	رجعوا إلى الايمان ايام البابا اوجانيوس الرابع	٥١٨

الباب السادس عشر

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

القسم الاول

تاريخها الديني في هذا القرن

فصل

ما كان من الاحداث إلى ان فتح السلطان سليم سورية ومصر

٩٥٦	الملك قانصوه الغوري	٥٢٨
٩٥٧	طومان باي آخر ملوك الجراكسة	٥٣٢

الجزء السابع

عدد	صفحة
٩٥٨	أصل السلاطين العثمانيين وملوكهم إلى السلطان سليم الأول
١٧	فاتح سورية

تاريخ سورية في القرن السادس عشر

الفصل الأول

السلاطين الذين تولّوا سورية في هذا القرن وما كان في أيامهم

٩٥٩	تكملة أخبار السلطان سليم الأول
٩٦٠	السلطان الغازي سليمان خان الأول وما كان في أيامه
٩٦١	السلطان الغازي سليم خان الثاني وما كان في أيامه
٩٦٢	السلطان الغازي مراد خان الثالث
٩٦٣	السلطان محمد خان الثالث وما كان في أيامه

الفصل الثاني

بعض المشاهير الدنيويين في القرن السادس عشر

٩٦٤	بعض المشاهير السوريين في هذا القرن
٤٥	أبو عبدالله محمد بن قاسم الغزي

٤٦	عبد البر الحلبي	٩٦٥
٤٦	برهان الدين المقدسي	
٤٦	عائشة الباعونية الدمشقية	
٤٧	زين الدين عمر الحلبي	
٤٧	محمد بن يوسف الدمشقي	
٤٨	محمد بن علي الحموي	
٤٨	الشيخ بدر الدين محمد الغزي	
٤٩	شمس الدين بن طولون الدمشقي	
٤٩	ابراهيم الحلبي	
٥٠	برهان الدين الحلبي	
٥١	شمس الدين محمد الحلبي	
٥٢	شمس الدين محمد الغزي	
٥٢	شمس الدين الرملي	
٥٣	داوود الانطاكي الضرير	
٥٣	تقي الدين الغزي	
٥٤	بعض من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين	
٥٤	جلال الدين السيوطي	
٥٧	أحمد القسطلاني	
٥٧	أبو يحيى زكريا الانصاري	
٥٩	محمد بن أبياس المصري	
٦٠	محمد الخضرى	
٦٠	عبد الرحيم العبادي	
٦١	حسين بن محمد الديار بكري	
٦١	ابن نجيم المصري	
٦٢	عبد الوهاب الشعراني	
٦٣	أحمد الهيثمي	
٦٤	محمد البيركلي	
٦٤	أبو السعود العمادي	

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن السادس عشر

الفصل الأول
بطاركة انطاكية وأورشليم في القرن السادس عشر

٩٦٦	بطاركة انطاكية في هذا القرن	٦٥
٩٦٧	بطاركة أورشليم في القرن السادس عشر	٦٧

الفصل الثاني
المشاهير الدينيون في القرن السادس عشر

٩٦٨	يوحنا سلوقا بطريرك الكلدان	٦٨
٩٦٩	موسى المارديني	٧٢
٩٧٠	عبد يشوع بطريرك الكلدان	٧٣

الفصل الثالث
الأحداث الدينية في هذا القرن

٩٧١	لوتار وتلاميذه	٧٧
٩٧٢	كلوين وتلميذه بيزا	٨١
٩٧٣	تفنيد بعض غوايات مدعي الإصلاح ولاسيما انكار رئاسة بطرس وخلفائه	٨٥
٩٧٤	رد زعمهم أنّ لكل فرد الحق في تفسير الأسفار المقدسة	٨٧
٩٧٥	تفنيد زعمهم أن ليس للإنسان حرية في أعمال الخلاص	٩١
٩٧٦	تفنيد زعمهم أنّ الأعمال الصالحة غير لازمة للخلاص ويكفي الإيمان وحده	٩٣
٩٧٧	وجود جسد المسيح حقيقة في القربان المقدس	٩٧
٩٧٨	المجمع التريدينيني	١٠٠

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

٩٧٩	بعض حكامهم وأعيانهم في هذا القرن	١٠٧
٩٨٠	بطاركة الموارنة في القرن السادس عشر	١١٣
	وأولاً في البطريرك موسى العكاري	١١٣
٩٨١	البطريرك ميخائيل الرزي	١١٨
٩٨٢	البطريرك سركيس الرزي	١٢٣
٩٨٣	البطريرك يوسف الرزي	١٢٥
٩٨٤	المجمع الطائفي الذي عُقد في أيام البطريرك ميخائيل الرزي	
	سنة ١٥٨٠	١٢٧
٩٨٥	المجمع الطائفي الذي عقده البطريرك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦ ...	١٣١
٩٨٦	أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر	١٣٤
	المطران جبرائيل اللحفدي	١٣٤
٩٨٧	باقي أساقفة الموارنة في هذا القرن	١٣٦
٩٨٨	المشاهير الدينيون الموارنة في القرن السادس عشر	١٤٥

الباب السابع عشر

تاريخ سورية في القرن السابع عشر

القسم الأول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الأول

السلطين العظام الذين تولوها بهذا القرن وما كان في أيامهم

٩٨٩	السلطان أحمد خان الأول	١٤٩
-----	------------------------------	-----

- ٩٩٠ أخبار الأمير فخر الدين المعني إلى عوده من أوروبا ١٥٢
- ٩٩١ السلطانان مصطفى خان الأول وعثمان خان الثاني ١٥٨
- ٩٩٢ ما كان بسورية في أيام هذين السلطانين ١٥٩
- ٩٩٣ السلطان الغازي مراد خان الرابع ١٦٤
- ٩٩٤ ما كان بسورية في أيام السلطان مراد خان الرابع ١٦٦
- ٩٩٥ السلطان ابراهيم خان الأول ١٧٤
- ٩٩٦ ما كان بسورية في عهد السلطان ابراهيم الأول ١٧٥
- ٩٩٧ السلطان محمد خان الرابع ١٧٧
- ٩٩٨ ما كان بسورية في أيام السلطان محمد الرابع ١٨٢
- ٩٩٩ نكبة القيسية ونهضتهم ١٨٥
- ١٠٠٠ تتمة أخبار سورية إلى سنة ١٦٨٧ ١٨٨
- ١٠٠١ السلطان سليمان خان الثاني والسلطان أحمد خان الثاني ١٩٢
- ١٠٠٢ ما كان بسورية في أيام السلطانين سليمان الثاني وأحمد الثاني ١٩٣
- ١٠٠٣ السلطان مصطفى خان الثاني ١٩٦
- ١٠٠٤ ما كان بسورية في أيام السلطان مصطفى الثاني ١٩٧

الفصل الثاني

مشاهير القرن السابع عشر

- ١٠٠٥ المشاهير السوريون في هذا القرن ٢٠١
- ١ - أحمد القرماني ٢٠١
- ٢ - حسن البوريني ٢٠٢
- ٣ - ابن الجوهري ٢٠٣
- ٤ - ابن الجزري ٢٠٤
- ٥ - ابن حبيب الغزي ٢٠٥
- ٦ - البهاء العاملي ٢٠٦

- ٢٠٨ ٧ - فتح الله البيلوني الحلبي
- ٢٠٩ ٨ - نور الدين بن برهان الحلبي
- ٢١٠ ٩ - عبد الرحمان العمادي
- ٢١٠ ١٠ - ابراهيم البتروني
- ٢١١ ١١ - صالح التمرتاشي الغزي
- ٢١٢ ١٢ - النجم الغزي
- ٢١٤ ١٣ - ابن النقيب البيروتي
- ٢١٤ ١٤ - أبو الوفاء العرضي الحلبي
- ٢١٥ ١٥ - خير الدين الرملي
- ٢١٦ ١٦ - عبد اللطيف البهائي
- ٢١٧ ١٧ - ابن السمان الدمشقي
- ٢١٧ ١٨ - علي البصير مفتي طرابلس
- ٢١٨ ١٩ - الكواكبي الحلبي
- ٢١٩ ٢٠ - الشيخ ابراهيم الفتال الدمشقي
- ٢٢٠ ٢١ - محمد المحبي
- ٢٢٠ ١٠٠٦ بعض المشاهير غير السوريين في هذا القرن
- ٢٢٠ ١ - أبو بكر الشنواني
- ٢٢١ ٢ - عبد الرؤوف المناوي
- ٢٢٣ ٣ - ابراهيم اللقاني
- ٢٢٤ ٤ - ابن شيخان
- ٢٢٤ ٥ - الاسحاقي
- ٢٢٥ ٦ - الشهاب الخفاجي
- ٢٢٧ ٧ - الجوهرى المكي
- ٢٢٨ ٨ - برهان الدين الميموني
- ٢٢٨ ٩ - عبد القادر قدرى
- ٢٢٩ ١٠ - ابن بيري

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن السابع عشر

الفصل الأول
بطاركة انطاكية وأورشليم في هذا القرن

- ١٠٠٧ بطاركة انطاكية في القرن السابع عشر ٢٣٠
١٠٠٨ بطاركة أورشليم في القرن السابع عشر ٢٣٣

الفصل الثاني
بعض المشاهير الدينيين السوريين وغيرهم في القرن السابع عشر

- ١٠٠٩ ايليا بطريك الكلدان ٢٣٦
١٠١٠ آدم الرئيس وهو تيموتاوس أسقف آمد ٢٤٠
١٠١١ جبرائيل مطران الكلدان ٢٤٢
١٠١٢ يوسف الثاني بطريك الكلدان ٢٤٣
١٠١٣ اندراوس أخيجان بطريك السريان الكاثوليكين ٢٤٦
١٠١٤ بولس الزعيم ٢٤٨
١٠١٥ أفثيموس الصيفي مطران صيدا الملكي الكاثوليكي ٢٤٩

ملحق
تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول
أعيان الموارنة الدنيويون في القرن السابع عشر

- ١٠١٦ بعض أعيانهم في هذا القرن ٢٥٠
١٠١٧ أبو رزق البشعلاني وابنه يونس ٢٦٠

١٠١٨ أعيان موارد آخرون ٢٦٥

الفصل الثاني

بطارقة الموارد في القرن السابع عشر

- ١٠١٩ البطريك يوحنا مخلوف ٢٦٧
١٠٢٠ البطريك جرجس عميره ٢٧٠
١٠٢١ البطريك يوسف العاقوري ٢٧٢
١٠٢٢ البطريكتان يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي ٢٧٤
١٠٢٣ العلامة البطريك اسطفانوس الدويهي ٢٧٧

الفصل الثالث

أساقفة الموارد في القرن السابع عشر

- ١٠٢٤ الأساقفة الذين رقامهم البطريك يوسف الرزي ويوحنا مخلوف .. ٢٨٢
١٠٢٥ أساقفة الموارد الى أيام الدويهي ٢٨٧
١٠٢٦ أساقفة الموارد الذين رقامهم البطريك الدويهي ٢٩٠

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارد وفضلائهم في القرن السابع عشر

- ١٠٢٧ بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري ٣٩٢
١٠٢٨ القس جبرائيل الصهيوني الأهدني ٢٩٤
١٠٢٩ العلامة ابراهيم الحاقلي ٢٩٥
١٠٣٠ مرهج بن نيرون الباني ٢٩٧
١٠٣١ مشاهير آخرون بالغيرة والنسك ٢٩٩

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

- ١٠٣٢ الأديار ٣٠٤
١٠٣٣ ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بُنيت في هذا القرن ٣٠٨

ذيل

المجمع الذي عقده البطريرك يوسف العاقوري في دير حراش ... ٣١٠

الباب الثامن عشر

تاريخ سورية في القرن الثامن عشر

القسم الأول

تاريخ سورية الدنيوي في هذا القرن

الفصل الأول

السلطين العثمانيون العظام الذين تولوا سورية في هذا القرن

وما كان في أيامهم

- ١٠٣٤ السلطان الغازي أحمد خان الثالث ٣١٥
١٠٣٥ ما كان بسورية من الأحداث في أيام السلطان أحمد الثالث .. ٣١٨
١٠٣٦ السلطان الغازي محمود خان الأول ٣٢٣
١٠٣٧ ما كان بسورية في أيام السلطان محمود الأول ٣٢٦
١٠٣٨ السلطانان عثمان الثالث ومصطفى الثالث ٣٣٠
١٠٣٩ بعض ما كان بسورية في أيام السلطانين عثمان الثالث
ومصطفى الثالث ٣٣٣

٣٣٨	١٠٤٠	خروج الأمير علي بك المصري والشيخ ظاهر العمر في سورية .
٣٤٥	١٠٤١	أحداث أخرى بلبنان في هذه الأثناء
٣٤٨	١٠٤٢	السلطان عبد الحميد خان الأول
	١٠٤٣	ما نعلمه من أخبار سورية في أيام السلطان عبد الحميد الأول
٣٥١	١٠٤٤	السلطان الغازي سليم خان الثالث
٣٦١	١٠٤٥	ما نعرفه من تاريخ سورية في أيام السلطان سليم الثالث إلى سنة ١٨٠٠
٣٦٦		

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن الثامن عشر

٣٧٩	١٠٤٦	المشاهير السوريون في هذا القرن
٣٧٩	١	- عبد الجليل المواهي
٣٨٠	٢	- السيد ابراهيم بن حمزة
٣٨١	٣	- محمد الكفيري
٣٨٢	٤	- أبو السعود الكواكبي
٣٨٢	٥	- الشيخ عبد الغني النابلسي
٣٨٤	٦	- أحمد الغزي
٣٨٥	٧	- أحمد العكي
٣٨٥	٨	- عبد الله الطرابلسي
٣٨٦	٩	- عبد المعطي الخليلي
٣٨٦	١٠	- خليل الفتال
٣٨٧	١١	- مصطفى البكري
٣٨٩	١٢	- محمد الغزي
٣٨٩	١٣	- حامد العمادي
٣٩٠	١٤	- سعيد السمان
٣٩١	١٥	- محمد السفاريني
٣٩٢	١٦	- حسن البخشي

- ١٧ - أحمد شاكر الحموي ٣٩٣
- ١٨ - عبدالله اليوسفي الحلبي ٣٩٤
- ١٩ - محمد خليل المرادي ٣٩٥
- ١٠٤٧ من عاصر هؤلاء من المشاهير غير السوريين ٣٩٦
- ١ - السيد عبد الله الحدادي اليمني ٣٩٦
- ٢ - علي العمري ٣٩٧
- ٣ - خليل المصري ٣٩٨
- ٤ - محمد ابن الطيب ٣٩٨
- ٥ - عبدالله السويدي ٤٠٠
- ٦ - يوسف الحفني ٤٠١
- ٧ - محمد التونسي ٤٠٢
- ٨ - عبد الرحمن العيدروس ٤٠٢
- ٩ - عمر البغدادي ٤٠٣
- ١٠ - عطية الله الاجهوري ٤٠٤
- ١١ - محمد الكردي ٤٠٤
- ١٢ - محمد مرتضي ٤٠٥
- ١٣ - محمد الصبان ٤٠٥

الجزء الثامن

صفحة

عد

القسم الثاني

تاريخ سورية الديني في القرن الثامن عشر

الفصل الاول

بطاركة انطاكية واورشليم في هذا القرن

- | | | |
|------|--|----|
| ١٠٤٨ | بطاركة انطاكية الروم غير المتحدين في هذا القرن | ١٣ |
| ١٠٤٩ | بطاركة انطاكية على الروم الملكية المتحدين في القرن | |
| ١٥ | الثامن عشر | |
| ١٠٥٠ | بطاركة اورشليم في القرن الثامن عشر | ٢٢ |

الفصل الثاني

من نعرفهم من المشاهير الدينيين في القرن الثامن عشر

- | | | |
|------|--|----|
| ١٠٥١ | الشماس عبدالله زاهر | ٢٥ |
| ١٠٥٢ | الخوري نقولا الصايغ والخوري يواكيم مطران | ٢٦ |
| ١٠٥٣ | نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي واولاده | ٢٧ |
| ١٠٥٤ | الخوري يوحنا عجمي | ٣٠ |
| ١٠٥٥ | السيد جرمانوس آدم | ٣١ |

ملحق

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الاول

اعيانهم الدنيويون في هذا القرن

- ١٠٥٦ المشايخ آل الخازن وآل حبيش في هذا القرن ٣٣
١٠٥٧ بطرس الشدياق وابن اخيه منصور واولاده ٣٥
١٠٥٨ الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور ٣٨
١٠٥٩ المشايخ آل الضاهر ٤١
١٠٦٠ المشايخ آل الدحداح ٤٢
١٠٦١ مشايخ جبة بشري وطردهم المتأولة منها ٤٤
١٠٦٢ المشايخ ابناء اده وغيرهم ٤٧

الفصل الثاني

بطارقة الموارنة في القرن الثامن عشر

- ١٠٦٣ البطريرك جبرائيل البلوزاوي ٥٢
١٠٦٤ البطريرك يعقوب عواد الحصريوني ٥٣
١٠٦٥ البطريرك يوسف ضرغام الخازن ٥٩
١٠٦٦ البطريرك سمعان عواد ٦٠
١٠٦٧ البطريرك طوييا الخازن ٦٦
١٠٦٨ البطريرك يوسف اسطفان ٦٧
١٠٦٩ البطريركان ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل ٧٨

الفصل الثالث

مشاهير العلم الموارنة في القرن الثامن عشر

- ١٠٧٠ القس يوسف الباني الحلبي ٨٠

١٠٧١	المطران جرمانوس فرحات	٨١
١٠٧٢	الاب بطرس مبارك	٨٥
١٠٧٣	المطران جرجس بنيمين والخورى اندراوس اسكندر	٨٦
١٠٧٤	العلامة الشهير الخوري بطرس التولاوي	٨٩
١٠٧٥	ترجمة العلامة يوسف سمعان السمعاني	٩٠
١٠٧٦	مؤلفات السمعاني	٩٢
١٠٧٧	اعتبار الأحبار الأعظمين للعلامة السمعاني	٩٩
١٠٧٨	المطران اسطفانوس عواد السمعاني	١٠٣
١٠٧٩	يوسف لويس السمعاني وابن اخيه القس سمعان السمعاني	١٠٤
١٠٨٠	غير هؤلاء من علماء الموارنة	١٠٥
١٠٥	الخورى ميخائيل الغزي	١٠٥
١٠٦	اسطفانوس ورد ابن الخوري ابراهيم	١٠٦
١٠٦	الخورى انطون القياي	١٠٦
١٠٦	القس عيسى الجاماتي	١٠٦
١٠٦	القس يوحنا اليازنجي	١٠٦

الفصل الرابع

المجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن

١٠٨١	المجمع اللبناني	١٠٧
١٠٨٢	مجمع بقعاتا	١١٠
١٠٨٣	مجمع غوسطا	١١٠
١٠٨٤	مجمع ميفوق	١١٢
١٠٨٥	مجمع عين شقيق	١١٦
١٠٨٦	مجمع بكركي الاول	١١٨

الفصل الخامس

١٠٨٧ بعض اديار الموارنة ومدارسهم وكنائسهم المنشأة في

١٢٢	القرن الثامن عشر
-----	------------------

١٠٨٨	مدارس المواردنة المنشأة في هذا القرن	١٢٩
١٢٩	مدرسة عينطورا	١٢٩
١٣١	مدرسة زغرتا	١٣١
١٣٣	مدرسة عين ورقة	١٣٣
١٠٨٩	كنائس المواردنة المنشأة في هذا القرن	١٣٤

الباب التاسع

تاريخ سورية في القرن التاسع عشر

القسم الاول

تاريخها الديني في هذا القرن

الفصل الاول

السلطان العثمانيون الذين تولوا سورية في هذا القرن

١٠٩٠	تتمة اخبار ما كان في ايام السلطان سليم الثالث الغازي	١٣٦
١٠٩١	ما كان بسورية في هذه المدة	١٤١
١٠٩٢	السلطان الغازي مصطفى خان الرابع	١٤٦
١٠٩٣	السلطان الغازي محمود خان الثاني	١٤٧
١٠٩٤	استقلال اليونان	١٥٠
١٠٩٥	بعض ما كان بسورية في هذه المدة	١٥٣
١٠٩٦	عامية انطلياس	١٥٥
١٠٩٧	عامية بلاد جبيل المعروفة بعامية لحفد	١٥٨
١٠٩٨	حرب درويش باشا وعبدالله باشا واللبنانيين	١٦٠
١٠٩٩	ما كان للامير بشير بمصر وعود عبدالله باشا إلى الولاية	١٦٣
١١٠٠	ما كان بين الأمير بشير والشيخ بشير جنبلاط ويعرف بحركة المختارة	١٦٥
١١٠١	حضور مراكب الأروام إلى بيروت وحصار قلعة سانور	١٦٨
١١٠٢	خروج محمد علي باشا على سورية	١٦٩

١١٠٣	اكراه محمد علي باشا على جلاء عساكره عن سورية والاناضول .	١٧٣
١١٠٤	السلطان الغازي عبد المجيد خان	١٨١
١١٠٥	ما كان بسورية في هذه المدة	١٨٧
١١٠٦	السلطان الغازي عبد العزيز خان	١٩٣
١١٠٧	السلطان مراد خان الخامس	١٩٥
١١٠٨	السلطان الغازي عبد الحميد خان الثاني	١٩٦
١١٠٩	ما كان بسورية من سنة ١٨٦١ فصاعداً إلى الآن	٢٠٢

الفصل الثاني

بعض المشاهير في القرن التاسع عشر

١١١٠	بعض المشاهير السوريين في هذا القرن	٢٠٤
١	الشيخ امين الجندي الحمصي	٢٠٤
٢	المعلم بطرس كرامه	٢٠٦
٣	الشيخ ناصيف اليازجي	٢٠٧
٤ و ٥	فتح الله مراش وابنه فرنسيس	٢٠٩
٦	الحاج عمر الانسي البيروتي	٢١٠
٧ و ٨	اسكندر ابكار يوس واخوه يوحنا	٢١١
٩	الشيخ يوسف الاسير	٢١٢
١٠	الشيخ ابراهيم الاحدب	٢١٣
١١	امين الشميل	٢١٣
١٢	نقولا الترك	٢١٤
١١١١	بعض المشاهير غير السوريين	٢١٥
١	عبدالله الشرقاوي	٢١٥
٢	عبد الرحمن الجبرتي الحنفي	٢١٥
٣	حسن بن محمد العطار	٢١٦
٤	ابراهيم الباجوري	٢١٦
٥	محمد الدمنهوري	٢١٧
٦	عبدالله ابو السعود المصري	٢١٨
٧	الدكتور كرنيليوس فان ديك	٢١٨

القسم الثاني
تاريخ سورية الديني في القرن التاسع عشر

الفصل الاول
بطاركة انطاكية في هذا القرن

- ١١١٢ بطاركة انطاكية للروم الملكية غير المتحدين ٢٢١
١١١٣ بطاركة انطاكية على الروم الملكية المتحدين في هذا القرن ٢٢٢
١١١٤ بطاركة انطاكية على السريان الكاثوليكين ٢٢٩

الفصل الثاني
بطاركة اورشليم في هذا القرن وبطاركة الارمن بلبنان

- ١١١٥ بطاركة اورشليم على الروم غير المتحدين ٢٣١
١١١٦ بطاركة اورشليم اللاتينيين ٢٣٢
١١١٧ بطاركة الارمن بلبنان ٢٣٣

ملحق
تاريخ الموارنة في القرن التاسع عشر

الفصل الاول
حكام الموارنة واعيانهم

- ١١١٨ حكام الموارنة في هذا القرن ٢٣٦
١١١٩ يوسف بك كرم ٢٤٠

الفصل الثاني

بعض مشاهير العلم من الموارنة

٢٤٦ ١١٢٠ المعلم بطرس البستاني
٢٤٨ ١١٢١ فارس الشدياق
٢٥١ ١١٢٢ الكونت رشيد الدحداح
٢٥٤ ١١٢٣ ابراهيم بك النجار

الفصل الثالث

بطاركة انطاكية الموارنة ومن رقوهم إلى الاسقفية في هذا القرن

٢٥٥ ١١٢٤ البطريرك يوسف التيان
٢٥٨ ١١٢٥ البطريرك يوحنا الخلو
٢٦١ ١١٢٦ البطريرك يوسف حبيش
٢٦٣ ١١٢٧ البطريرك يوسف الخازن
٢٦٤ ١١٢٨ البطريرك بولس مسعد
٢٦٩ ١١٢٩ البطريرك يوحنا الحاج
٢٧١ ١١٣٠ البطريرك الياس الحويك

الفصل الرابع

ما عقده اساقفة الموارنة من المجامع في القرن التاسع عشر

٢٧٤ ١١٣١ مجمع لوزة
٢٧٧ ١١٣٢ مجمع بكركي الاخير

الفصل الخامس

الاديار والكنائس والمدارس التي انشأها الموارنة

في القرن التاسع عشر

٢٧٩ ١١٣٣ الاديار مساكن البطريرك والاساقفة
-----	---

٢٧٩	دير الكرسي البطريركي
٢٨٠	الاديار كراسي المطارين
٢٨١	كرسي طرابلس
٢٨١	كرسي ابرشية قبرص
٢٨٢	كرسي ابرشية بيروت
٢٨٢	كرسي ابرشية صور وصيدا
٢٨٣	كرسي ابرشية بعلبك
٢٨٣	كرسي ابرشية دمشق
٢٨٤	١١٣٤ المدارس التي انشأها الموارنة في هذا القرن
٢٨٤	مدرسة عين ورقة
٢٨٥	مدرسة مار يوحنا مارون
٢٨٥	مدرسة مار مارون الرومية
٢٨٥	مدرسة مار عبدا هرهريا
٢٨٦	مدرسة ريفون
٢٨٦	مدرسة الحكمة
٢٨٨	مدرسة قرنة شهبان ومدرسة غزير
٢٨٨	مدرسة المحبة في عرامون ومدرسة العريمة
٢٨٩	المدرسة الوطنية
٢٨٩	المدارس الرهبانية
٢٩٠	مدرسة المرسلين اللبنانيين
٢٩١	١١٣٥ اديار الرهبان اللبنانيين المنشأة بهذا القرن
٢٩٢	١١٣٦ اديار الرهبان الانطونيين المنشأة بهذا القرن
٢٩٥	١١٣٧ الاديار التي انشأها الرهبان الحلبيون وغيرهم في هذا القرن
٢٩٦	١١٣٨ بعض الكنائس المنشأة للموارنة بهذا القرن

الجزء التاسع

صفحة

عدد

المقالة الأولى

القديس مارون وتلاميذه

١٧ القديس مارون الناسك	١
٢٢ تلامذة القديس مارون	٢
	انتشار رهبان القديس مارون في سورية في القرن السادس وتسمية	٣
٢٥ متابعيهم موارنة نسبة إليهم	
	مناضلة الرهبان الموارنة عن الايمان الكاثوليكي وما عانوه من	٤
٣٠ الاضطهاد	
٣٥	رسالة رهبان القديس مارون إلى رؤساء اليعاقبة وجواب هؤلاء لهم .	٥

مقالة ثانية

تاريخ الموارنة في القرن السابع

الفصل الأول

حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن

٤٢ سطوة المردة أي الموارنة في هذا القرن	٦
٤٧ هل المردة موارنة	٧
٥٢ أمراء الموارنة والاثنى عشر ألفاً المجلولين منهم	٨

٩	حرب الموارنة وعسكر الملك يوستينيانس الأخرم	٥٨
١٠	الانقسام بين الموارنة والملكية	٦١

الفصل الثاني

منشأ القديس يوحنا مارون وأسقفيته وبطريركيته وتأليفه

١١	منشأ القديس يوحنا مارون	٦٥
١٢	أسقفية القديس يوحنا مارون	٦٧
١٣	بطريركية القديس يوحنا مارون	٧٠
١٤	مؤلفات القديس يوحنا مارون	٧٨
	نافور أي رتبة القديس	٧٨
	كتاب ايضاح الايمان	٧٩
	كتابه في رد مزاعم اليعاقبة والنساطرة	٨٤
	رسالة في التريصاجيون	٨٤
	كتابه في الكهنوت	٨٥
	كتابه في شرح رتبة القديس	٨٦
١٥	هل كتب يوحنا مارون شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة	٩١
١٦	قداسة يوحنا مارون	٩٦

الفصل الثالث

براءة المارونيين والموارنة من بدعة المشيئة الواحدة

١٧	براءة القديس مارون الناسك من هذه البدعة	١٠٣
١٨	إثبات البابا بناديكتوس الرابع عشر قداسة القديس مارون	١٠٩
١٩	براءة القديس يوحنا مارون من بدعة المشيئة الواحدة	١١٦
٢٠	براءة الموارنة من بدعة المشيئة الواحدة	١٢٤
٢١	تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من اتهام الموارنة ...	١٣٧

مقالة ثالثة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن

٢٢	حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن	١٣٩
٢٣	بطاركة الموارنة في القرن الثامن	١٤١
٢٤	توافيلس الرهاوي الماروني	١٤٣
٢٥	ردّ ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن على الموارنة	١٤٥
٢٦	الردّ على ما يعترض به على الموارنة بشهادة تيموتاوس بطريرك النساطرة	١٥٠

مقالة رابعة

تاريخ الموارنة في القرن التاسع والعاشر والحادي عشر

٢٧	بطاركة الموارنة إلى آخر القرن الحادي عشر	١٥١
٢٨	قيس الماروني	١٥٣
٢٩	ردّ مزاعم من اتهموا الموارنة بالضلال في القرن العاشر	١٥٥
٣٠	المطران داود الماروني	١٥٧

مقالة خامسة

تاريخ الموارنة في القرن الثاني عشر

٣١	حالتهم الدنيوية في هذا القرن	١٦٢
٣٢	بطاركة الموارنة في القرن الثاني عشر	١٦٥
٣٣	ما نعرفه من أديار الموارنة وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر	١٧٣
٣٤	تفنيد زعم غوليلمس الصوري أنّ الموارنة ارعوا عن الضلال	١٧٨
	سنة ١١٨٢	

مقالة سادسة

تاريخ الموارنة في القرن الثالث عشر

١٨٦	فتح المسلمين جبة بشري	٣٥
١٨٨	حروب كسروان	٣٦
١٩٣	بطاركة الموارنة في القرن الثالث عشر	٣٧
١٩٦ ...	ردّ ما يحتجّ به على الموارنة من كلام البابا اينوشنسيوس الثالث	٣٨

مقالة سابعة

تاريخ الموارنة في القرن الرابع عشر

٢٠١	ما نعلمه من حالة الموارنة الدنيوية في هذا القرن	٣٩
٢٠٢	بطاركة الموارنة في القرن الرابع عشر	٤٠
٢٠٦	من عرفناهم من أساقفة الموارنة بهذا القرن	٤١

مقالة ثامنة

تاريخ الموارنة في القرن الخامس عشر

٢٠٩ .	بعض مقدمي الموارنة في القرن الخامس عشر وما كان في أيامهم	٤٢
٢١٢	بطاركة الموارنة في القرن الخامس عشر	٤٣
٢٢١	من نعرفهم من مطارين الموارنة في القرن الخامس عشر	٤٤
	تفنيد رأي من زعم أنّ الموارنة وأسقفهم الياس مطران قبرص	٤٥
٢٢٣	رجعوا إلى الايمان في أيام البابا أوجانيوس الرابع	

مقالة تاسعة

تاريخ الموارنة في القرن السادس عشر

٢٣٣	بعض حكامهم وأعيانهم في هذا القرن	٤٦
-----------	----------------------------------	----

٢٣٩	بطارقة الموارنة في القرن السادس عشر	٤٧
٢٣٩	البطريك موسى العكاري	٤٨
٢٤٤	البطريك ميخائيل الرزي	٤٩
٢٤٩	البطريك سركيس الرزي	٥٠
٢٥١	البطريك يوسف الرزي	٥١
٢٥٣	سنة ١٥٨٠	٥٢
٢٥٧ ..	١٥٩٦	٥٣
٢٦٠	أساقفة الموارنة في القرن السادس عشر	٥٤
٢٦٠	المطران جبرائيل اللحفدي	٥٥
٢٦٢	باقي أساقفة الموارنة في هذا القرن	
٢٧١	المشاهير الدينيون الموارنة في القرن السادس عشر	

مقالة عاشر

تاريخ الموارنة في القرن السابع عشر

الفصل الأول

أعيان الموارنة في القرن السابع عشر

٢٧٦	بعض أعيانهم في هذا القرن	٥٦
٢٨٦	ابو رزق البشعلاني وابنه يونس	٥٧
٢٩١	أعيان موارنة آخرين	٥٨

الفصل الثاني

بطارقة الموارنة في القرن السابع عشر

٢٩٣	البطريك يوحنا مخلوف	٥٩
-----------	---------------------	----

٢٩٦ البطريك جرجس عميره	٦٠
٢٩٨ البطريك يوسف العاقوري	٦١
٣٠٠ البطريك يوحنا الصفراوي وجرجس السبعلي	٦٢
٣٠٣ العلامة البطريك اسطفانوس الدويهي	٦٣

الفصل الثالث

أساقفة الموارنة في القرن السابع عشر

٣٠٨ الأساقفة الذين رقاهم البطريكان يوسف الرزي ويوحنا مخلوف	٦٤
٣١٣ أساقفة الموارنة إلى أيام الدويهي	٦٥
٣١٦ أساقفة الموارنة الذين رقاهم البطريك الدويهي	٦٦

الفصل الرابع

المشاهير من علماء الموارنة وفضلائهم في القرن السابع عشر

٣١٨ بطرس المطوشي القبرصي ونصرالله شلق العاقوري	٦٧
٣٢٠ القس جبرائيل الصهيوني الاهدني	٦٨
٣٢١ العلامة ابراهيم الحاقلي	٦٩
٣٢٣ مرهج بن نيرون الباني	٧٠
٣٢٥ مشاهير آخرون بالغيرة والنسك	٧١

الفصل الخامس

الأديار والكنائس التي أنشئت للموارنة في هذا القرن

٣٣٠ الأديار	٧٢
٣٣٤ ما نعرفه من كنائس الموارنة التي بنيت في هذا القرن	٧٣

ذيل

المجمع الذي عقده البطريك يوسف العاقوري في دير حراش

المقالة الحادية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن الثامن عشر

الفصل الأول

أعيانهم الدنيويون في هذا القرن

المشايع آل الخازن وآل حبيش في هذا القرن	٣٤١	٧٤
بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وأولاده	٣٤٣	٧٥
الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور	٣٤٥	٧٦
المشايع آل الظاهر	٣٤٩	٧٧
المشايع آل الدحداح	٣٥٠	٧٨
مشايع جبة بشري وطردهم المتأولة منها	٣٥١	٧٩
المشايع أبناء اده وغيرهم	٣٥٤	٨٠

الفصل الثاني

بطاركة الموارنة في القرن الثامن عشر

البطريك جبرائيل البلوزاوي	٣٥٩	٨١
البطريك يعقوب عواد الحصري	٣٦٠	٨٢
البطريك يوسف ضرغام الخازن	٣٦٥	٨٣
البطريك سمعان عواد	٣٦٧	٨٤
البطريك طوبيا الخازن	٣٧٢	٨٥
البطريك يوسف اسطفان	٣٧٣	٨٦
البطريك ميخائيل فاضل وفيلبوس الجميل	٣٨٤	٨٧

الفصل الثالث

مشاهير العلم الموارنة في القرن الثامن عشر

٣٨٦ القس يوسف الباني الحلبي	٨٨
٣٨٧ المطران جرمانوس فرحات	٨٩
٣٩٠ الأب بطرس مبارك	٩٠
٣٩٢ المطران جرجس بنيمين والخورى اندراوس اسكندر	٩١
٣٩٤ العلامة الشهير الخوري بطرس التولاوي	٩٢
٣٩٦ ترجمة العلامة يوسف سمعان السمعاني	٩٣
٣٩٨ مؤلفات السمعاني	٩٤
٤٠٤ اعتبار الأخبار الأعظمين للعلامة السمعاني	٩٥
٤٠٨ المطران اسطفانوس عواد السمعاني	٩٦
٤٠٩ يوسف لويس السمعاني وابن اخيه القس سمعان السمعاني	٩٧
٤١٠ غير هؤلاء من علماء الموارنة	٩٨
٤١٠ الخوري ميخائيل الغزيري	
٤١١ اسطفانوس ورد ابن الخوري ابراهيم	
٤١١ الخوري انطون القيايالي	
٤١١ القس عيسى الجماماتي	
٤١١ القس يوحنا البازنجاني	

الفصل الرابع

الجامع التي عقدها رؤساء الموارنة في هذا القرن

٤١٢ المجمع اللبناني	٩٩
٤١٥ مجمع بقعاتا	١٠٠
٤١٥ مجمع غوسطا	١٠١
٤١٧ مجمع ميفوق	١٠٢
٤٢١ مجمع عين شقيق	١٠٣
٤٢٣ مجمع بكركي الأول	١٠٤

الفصل الخامس

١٠٥	بعض أديار الموارنة ومدارسهم وكنائسهم المنشأة في القرن الثامن عشر	٤٢٧
١٠٦	مدارس الموارنة المنشأة في هذا القرن	٤٣٤
١٠٧	كنائس الموارنة المنشأة في هذا القرن	٤٣٩

المقالة الثانية عشرة

تاريخ الموارنة في القرن التاسع عشر

الفصل الأول

حكام الموارنة وأعيانهم

١٠٨	حكام الموارنة في هذا القرن	٤٤١
١٠٩	يوسف بك كرم	٤٤٥

الفصل الثاني

بعض المشاهير بالعلم من الموارنة

١١٠	المعلم بطرس البستاني	٤٥١
١١١	فارس الشدياق	٤٥٣
١١٢	الكونت رشيد الدحداح	٤٥٦
١١٣	ابراهيم بك النجار	٤٥٨

الفصل الثالث

بطاركة الموارنة ومن رقوهم إلى الأسقفية في هذا القرن

١١٤	البطريك يوسف التيان	٤٥٩
١١٥	البطريك يوحنا الحلو	٤٦٢
١١٦	البطريك يوسف حبيش	٤٦٥
١١٧	البطريك يوسف الخازن	٤٦٧
١١٨	البطريك بولس مسعد	٤٦٨
١١٩	البطريك يوحنا الحاج	٤٧٣
١٢٠	البطريك الياس الحويك	٤٧٥

الفصل الرابع

ما عقده أساقفة الموارنة من المجامع في القرن التاسع عشر

١٢١	مجمع لوزة	٤٧٧
١٢٢	مجمع بكركي الأخير	٤٨٠

الفصل الخامس

الأديار والمدارس والكنائس التي أنشأها الموارنة في القرن التاسع عشر

١٢٣	الأديار مساكن البطريك والأساقفة	٤٨٢
	دير الكرسي البطركي	٤٨٢
	الأديار كراسي المطارين	٤٨٣
	كرسي طرابلس	٤٨٤
	كرسي أبرشية قبرص	٤٨٤
	كرسي أبرشية بيروت	٤٨٤
	كرسي أبرشية صور وصيدا	٤٨٥

٤٨٦	كرسي أبرشية بعلبك	
٤٨٦	كرسي أبرشية دمشق	
٤٨٧	المدارس التي أنشأها الموارنة في هذا القرن	١٢٤
٤٨٧	مدرسة عين ورقة	
٤٨٨	مدرسة مار يوحنا مارون	
٤٨٨	مدرسة مار مارون الرومية	
٤٨٨	مدرسة مار عبدا هريريا	
٤٨٩	مدرسة ريفون	
٤٨٩	مدرسة الحكمة	
٤٩١	مدرسة قرنة شهوان ومدرسة غزير	
٤٩١	مدرسة المحبة في عرمون ومدرسة العريمة	
٤٩٢	المدرسة الوطنية	
٤٩٢	المدارس الرهبانية	
٤٩٣	مدرسة المرسلين اللبنانيين	
٤٩٣	أديار الرهبان اللبنانيين المنشأة بهذا القرن	١٢٥
٤٩٥	أديار الرهبان الأنطونيين المنشأة بهذا القرن	١٢٦
٤٩٨	الأديار التي أنشأها الرهبان الحلبيون وغيرهم في هذا القرن	١٢٧
٤٩٩	بعض الكنائس التي أنشأها الموارنة في هذا القرن	١٢٨
٥٠١	ذيل في زيادات عثرنا عليها أو انتبهنا إليها بعد الطبع	١٢٩

الفهرس الهجائي

المجلد الأوّل

الأرقام يراد بها الأعداد المقسم هذا الكتاب إليها

(أ)

الآباء الأولون عد ٢١. طول أعمارهم ٢٢. التطابق بين عددهم في الكتاب وعددهم في آثار القبائل ٢٣. جدول في عددهم وأسمائهم في الكتاب وفي آثار الكلدان ثمة.

آبائي أحد الملوك الرعاة الذي استوزر يوسف وفي أئة سنة للملكه استوزره عد ٩٤. حرب الرعاة والمصريين في أيامه ٩٧.

أباميا اعتقاد أهلها أن مهبط سفينة نوح كان فيها ٢٨.

ابراهيم أي نهر ابراهيم منبعه ومصبه ٢. تسميته أدونيس طالع أدونيس.

أبر علي أي نهر ابي علي يناعيه ومصبه ٢.

أبيدان من هو ٢٣ و ٤٥.

أيمائيل من بني يقطان ومنازل ذريته ٣٩.

أحمس بن أبانا أمير البحارة وما كتب على مدفنه ٩٨.

أحنوخ بن يارد وانتقاله ٢١.

آدم خلق الله له ١١. إثبات إبداع الله له وللعالم بالآثار القديمة القديمة ١٢ مخالفته
وصية الله ١٥ آثار القبائل الدالة على ذلك ١٧.

أدونيس عبادته في جيل ولبنان وصورة مقتله وقيامته ٧٨ و١٤٦
الآدوميون أصلهم ومساكنهم ٥٤ تنكيل سرغون بهم ١٢٢ استسلامهم إلى
سنحاريب ١٢٣ خضوع ملكهم قدموه لأسرحدون ١٢٤
أراراط جبال أرمينية واستقرار فلك نوح عليها ٢٨ و٢٩.

آرام وما شُي به ٦ آرام بن سام ومقام ذريته ٣٨ بنوه ٤٠ اختلاطهم مع الروثانو
أي اللوديين ٦١ خضوعهم لساني الأول ٦٤ اشتراكهم في الثورة على
رعسيس الثاني ٦٥. توسيعهم تخوم ولايتهم ١١٦ إشارة إلى غزوات
تجلت فلاضر لهم ١٢٠.

أرباد أي تل أرفاد في أنحاء حلب حصار تجلت فلاضر لها وفتحها ٧٤.
أرتخششتا الأول ملك الفرس ومن شُي باسمه من ملوك هذه الدولة ١٣٠.
الأردنّ منابعه وموقعها ٢.

الأرض السفلى في حدشي ما معنى هذه الآية وأين هذه الأرض ٥٦.
أرفكشاد أو أرفخشاد بن سام ومساكن ذريته ٣٨.
أرك إحدى مدن نمرود موقعها ٣٤.

أرواد موقعها وأول سكانها ٥ شيء من تاريخها ١٠٨.
الأرواديون مساكنهم ٣٧ فتح توتمس الثالث مدينتهم ٦٢ اشتراكهم في الثورة على
رعسيس الثاني ٦٥ أداؤهم الجزية إلى آشور نرربال ٧٢ و١٢٠ بقاؤهم
على شيء من الانفصال عن سائر مدن فينيقية ١١٤ ملكهم ماتينبل
واشتراكهم في الثورة على سلمناضر ١٢١ سيادة صيدا عليهم ثمة.
استسلامهم إلى سنحاريب ١٢٣ خضوع ملكهم لأسرحدون ١٢٤ خضوع
ملكهم ويكنلو لآشور بانيال ١٢٥ أخذ خضرع ملك مصر جزيرتهم ١٢٨.

الآريانيون من هم ١٧.
أذدوبار بطلٌ قديم يُظنّ أنه نمرود لروايته تاريخ الطوفان ٢٨.

آسرحدّون بن سنحاريب ارتقاه منصّة الملك وحملته على سورية وافتتاحه صيدا
١٢٤ استحوذاه على بلاد العرب وتهزيمه ترهاقة ملك مصر وخضوع منشأ
ملك يهوذا له ونقش صورته على معبر نهر الكلب وتنزيله عن الملك لابنه
ثمّة.

اسكندر بن فيلبوس المكدوني ارتقاؤه منصّة الملك وسلبه داريوس الثالث ملكه
وولايته فينيقية ١٣٠.

اسماعيل نزوله في جرهم وتزوّجه منهم ٣٩.

اشكناز بن جومر بن يافت ومقام ذريته ٤١.

آشور بن سام ويُراد به بلاده أيضاً ٣٤ مساكن ذريته ٣٨ خضوع ملك آشور
لتوتمس الثالث ٦٢.

آشور بانيبال مبايعة أبيه له بالملك وحملاته على مصر وخضوع فينيقية وسورية له
١٢٥. آشور نزيربال حروبه في سورية ٧٢ و١٢٠ حملته على فينيقية ثمّة.

آفاري مدينة الملوك الرعاة موقعها ٩٦ و١٠٠ حصار المصريين لها ٩٨ استسلامها
٩٩.

الأقرع أي الجبل الأقرع موقعه ٢.

آكّد مدينة نمرود موقعها والمراد بها ٣٤.

أكريت الجزيرة احتلال بعض الفينيقيين فيها ١١٠ خروج الفلسطينيين منها ارجع إلى
فلسطين.

الكاريون قدماء رودس واختلاطهم بالفينيقيين ١١٠.

ألولا ملك صور ١٢٢ مدافعتة عن صور في أيام سرغون ١٢٢ انتصار سنحاريب
عليه ١٢٣.

نهر الأوّلي منبعه ومصبه ٢.

أليسار بنت موتون ملك صور ومهاجرتها من صور مع جاليتها ١١٩.

أليشه بن يawan بن يافت مساكن قبيلته في بلاد اليونان ٤١.

أليقيم من قدماء سكان سورية ٥٤.

أمانوس جبل طالع اللكّام
أمريكا الآثار الدالّة على الطوفان فيها ٢٨.
الأموريون مساكنهم ٣٧.
أم العواميد موقعها وآثارها ١٠٨.
الموداد بن يقطان ومساكن ذريّته ٣٩.
أنطاكية بحيرتها ٣.
آنوش بن شيت ١٩ ابتداءه بالدعاء باسم الله وما معنى هذا ٢١.
أورشليم حصار بختنصر لها ونهبه الهيكل وحرقه ١٢٧.
أوزال بن يقطان ومنازل ولده ٣٩.
أوفير بن يقطان ومساكن نسله ٣٩.
أوفير علم لبلد أو بلدين ٣٩.
أوروبا ارتحال سكانها من آسيا وقسمتهم إلى خمس قبائل ٤١ لغات أهلها الأصول والفروع ٥٠.
الإيباريون أصلهم ومساكنهم ٤٢.
إيرابوليس تقليد الطوفان فيها ٢٨ كونها في محل كركميش ٧١٥.
إيطورية مملكة قديمة محلها ٤٠.
إيتوبعل ملك صور إقامة سنحاريب له ملكاً بدلاً من ألولا ١٢٣.
الإيميون من سكان سورية القدماء ٥٤.
أيوق في الكابدوك آثار الحثيين فيها ٨٢.

(ب)

بابل موقعها عد ٣٤ وعد ٤٤ أداء ملكها الجزية لتوتمس الثالث عد ١٢ ملوكها طالع كلمة كلدان.

برج بابل آيات الكتاب فيه عد ٤٢ وهل كان من بنوه جميع الناس حيث عد ٤٣
موقعه ٤٤ الآثار المثبتة تاريخه ٤٥ .

باروز كاتب تاريخ الكلدان عد ٢٨ وعد ٤٥ .

البترون ومن بناها عد ٥ و ١٠٨ .

بختنصر ملك بابل حربه مع ملك مصر في سورية وإكراهه يواقيم ملك يهودا على
الخضوع وأخذة آنية هيكل أورشليم وحرقة وسبي بعض اليهود ١٢٧ جنونه
وموته ١٣٠ .

البرفير صنع الفينيقيين له ومادته وصبغه ١٣٦ .

نهر بردي منبعه ومصبه عد ٢ .

البشر وبيان أنواعهم عد ٣٢ .

بعلبك موقعها ومن بناها عد ٥ .

بيكماليون ملك صور وما كان له مع أخته أليسا ١١٩ .

البلاسج الأولون وأصلهم عد ٣٥ التفريق بينهم وبين البلاسج المتأخرين وأن الأولين
حثيون على راي دي كارا عد ٨٦ وعد ٨٨ عهدتهم مع الليبيين وتسطيعهم
على الفينيقيين ١١٢ .

بوليستور (اسكندر) عد ٤٥ .

بوغاز كوي في آسيا الصغرى آثار الحثيين فيها عد ٨١ .

نهر بيروت منبعه ومصبه عد ٢ .

بيروت وأول سكانها عد ٥ استسلامها إلى توتمس الثالث عد ٦٢ لم يكن سكانها
الأولون كنعانيين بل آراميين ١٠٣ شيء من تاريخها عد ١٠٨ استسلام
أهلها إلى حكومة مصر ١١١ جفظهم استقلالهم في أيام سؤدد صور ١١٤ .
بيزيريس ملك الحثيين وخضوعه لتجلى فلاصر الثاني عد ٧٤ حروبه مع الآشوريين
عد ٧٥ .

(ت)

- تبنيت ملك صيدا واكتشاف مدفنه وما كُتب عليه ١٤١ و ١٤٣ و ١٥٠ .
- التتر من ذرية ماجوج وشيء من تاريخهم عد ٤١ غارتهم على آسيا الصغرى وسورية ١٢٥ فتك شيكسر بهم ١٢٦ .
- التتون من قبائل أوروبا وفروعها السكندنافي والجرمان والإنكليزي عد ٤٢ .
- تجلت فلاصّر الأول وحروبه مع الحثّيين عد ٧٠ غزواته في سورية ١٢٠ .
- تجلت فلاصّر الثاني وغزواته في سورية وبلاد الحثّيين عد ٧٤ .
- تدمر موقعها ومَن بناها عد ٥ .
- تراخونيد أرجوب عند القدماء اللجاء موطن عوص بن آرام عد ٤٠ .
- ترشيش اسبانيا عد ٤١ .
- ترشيش بن يوان بن يافت ومساكن ذريته عد ٤١ .
- الترك وأصلهم من ولد يافت عد ٤٢ .
- تروك كاتب روماني في القرن الثاني للميلاد ١١٩ .
- تموز أدونيس ارجع إلى هذه الكلمة .
- توبل قاين من ذرية قاين أول مَن عمل بالمعادن عد ٢٠ .
- توبل بن يافت ومساكن قومه عد ٤١ .
- توتمس الأول اخضاعه الكنعانيين والروثانو لسلطته ١١١ .
- توتمس الثالث ملك مصر وغزوته الروثانو والحثّيين عد ٦٢ و ١١١ .
- توتمس الرابع غزوته الحثّيين عد ٦٢ .
- توجرمة بن جومر بن يافت ومساكن قبيلته في أرمينية الغربية عد ٤١ .
- توعي ملك حماة خضوعه لداود عد ٥٦ .
- تيراس بن يافت ومقام ذريته عد ٤١ .

(ث)

ثمود وجديس من القبائل العربية أصلهما ومساكنهما عد ٤٠.

(ج)

جائر بن آرام ومقام أعقابه في الجيدور عد ٤٠.

الجبارة ذكرهم في الكتاب وفي آثار القبائل وما المراد باسمهم عد ٢٤.

جيبيل وأول سكانها عد ٥ لم يكن سكانها الأوثلون كنعانيين بل آراميين عد ١٠٣
مملأة أهلها لرعمسيس الثاني عد ٦٥ كانت تخماً لأملاك المصريين والحيثيين
في عهدة الصلح بينها عد ٦٦ أداء أهلها الجزية لآشور نزيروال عد ٧٢
خضوع ملكها سيبتي بعل لتجلت فلاصّر عد ٧٤ شيء من تاريخها ١٠٨
حلول بعض الجيبيليين في قبرص قبل الصيدونيين ١١٠ حلول بعضهم في
مالوس ثمة استسلامهم إلى ولاية مصر ١١١ حفظهم استقلالهم المحلي في
عهد سيادة صور ١١٤ يظهر أن المهندس والبنّائين والنحاتين الذين أرسلهم
حيرام إلى سليمان كانوا من جيبيل ١١٧ أخذ الملك آشور نزيروال الجزية من
أهلها ١٢٠ وكذا فعل ابنه سلمناصّر ١٢١ استسلامها إلى سنحاريب في
أيام ملكها أورملك ١٢٣ خضوع ملكها آصاف لأسرحدون ١٢٤ ولابنه
آشور بانيبال ١٢٥ أخذ حفرع ملك مصر جيبيل ١٢٨ إقامة ملكها المسمّى
يهو ملك نصباً لعشثروت بعلّة جيبيل ١٤٣ معبوداتها الثلاثة ١٤٦.

الجرمانيون ومساكنهم عد ٣٧.

جزائر بحر الروم أقوال العلماء في سكانها القدماء عد ٨٤.

نهر الجوز منبعه ومصبه عد ٢.

جومر بن يافت ومساكن ذرّيته حذاء البحر الأسود عد ٤١.

جيحون أحد الأنهر التي تسقي الفردوس عد ١٣.

(ح)

حام بن نوح وتحقق بنوة أبيه في ذريته عد ٣٠ ولده عد ٣٣ مجمل الكلام في مساكن أبنائه عد ٤٢.

حبرون (الخليل) أول سكانها عد ٥.

حث بن كنعان ومساكن ذريته عد ٣٣.

الحيثيون الجنوبيون في حبرون وعلاقتهم مع العبرانيين عد ٥٥ مشاركتهم الياوسيين في بناء أورشليم ثمة الحيثيون الشماليون ومساكنهم في شمالي سورية عد ٥٦ تسمية أرض الموعد أرض الحيثيين ثمة أصل الحيثيين وكونهم حاميين لا ساميين عد ٥٧ مصادر تاريخهم وكيف اهتدى إلى آثارهم عد ٥٨ هيئتهم ونوع حكومتهم وبسطة ملكهم عد ٥٩ و٦٣ انتزاعهم أملاك الآراميين عد ٦١ و٦٣ غزوات توتمس الثالث والرابع لبلادهم عد ٦٢ حملة رعمسيس الأول عليهم واضطراره إلى عقد عهدة صلح معهم عد ٦٣ محاربة ساتي الأول لهم وتجديده عهدة الصلح معهم عد ٦٤ حروبهم مع رعمسيس الثاني وعقده الصلح معهم عد ٦٥ نص عهدة الصلح بين ملكهم كيتاسار ورعمسيس الثاني عد ٦٦ زواج رعمسيس بابنة ملكهم عد ١٧ اشتراك الحيثيين الجنوبيين في حرب الكنعانيين لبني إسرائيل وعدم اشتراك الشماليين فيها عد ٦٩ اشتراكهم في حملة شعوب آسيا الصغرى وجزر اليونان على مصر ووقوع ملكهم أسيراً وتقلص مملكته نحو الشمال ثمة. أخبارهم مع تجلت فلاصّر الأول وتنكيله بهم عد ٧٠ محاربة آشور نزيربال لهم وما فرضه عليهم جزية عد ٧٢ حروبهم مع سلمناصّر الثالث ملك آشور وخلعهم نير آشور بعد موته عد ٧٣ حملة رمان نيرار عليهم وخضوعهم الموقوت له عد ٧٤ حروبهم مع تجلت فلاصّر الثاني ثمة. انتصار سرغون عليهم وجلاء سكان كركميش إلى بلاد آشور عد ٧٥ آثارهم وخطوطهم وتعسر فهم رموزها عد ٧٦ لغتهم وصناعاتهم ٧٧ ديانتهم الظاهر أنهم أخذوها عن بابل ٧٨ ملابسهم وأسلحتهم ٧٩ ولايتهم على آسيا الصغرى وآثارهم فيها عد ٨٠ و٨١ و٨٢ جالياتهم في بلاد اليونان عد ٨٣

رأي الأب دي كارا أن سكان قبرص الأولين حثيون عد ٨٥ رأيه أن السكان الأولين في جزر بحر الروم وبلاد اليونان وبعض إيطاليا حثيون أيضاً وأن الحثيين والبلاسج الأولين قبيلة واحدة ٨٦.

حشيون (حسبان) عد ٥.

حضر موت بن يقطان ومساكن نسله عد ٣٣.

حفرع ملك مصر إبطاؤه في إنجاد صور والحرب بين أسطوله المصري والأسطول الفينيقي وثل بختنصر عرشه ١٠٨.

حلب موقعها عد ٥ وفتح توتمس الثالث لها عد ٦٢ اشترك أهلها في الثورة على رعمسيس الثاني عد ٦٥ غرق ملكها في بحيرة قادس عند محاربة رعمسيس ثمة.

حماء موقعها عد ٥ توعي ملكها خضع لداود عد ٥٦ لإيراكوينا ملكها ممن تحالفوا على سلمناصر الثالث في موقعة كركر عد ٧٣ استسلامها إلى تجلت فلاصر الثاني وسببه من أهلها جمّاً غفيراً في أيام دانيال ملكها عد ٧٤.

الحماثيون من بني كنعان مساكنهم عد ٧٤.

حمص بحيرتها عد ٤ موقعها عد ٥ عبادة الحجر فيها ١٤٦.

حنون أي درج حنون كتاب كتب بالفينيقية ١٤٦.

حواء خلق الله لها عد ١١ ووسوسة الحية لها ١٦.

الحوريون سكان جبل سدير عد ٥٤.

حول بن آرام ومساكن ذريته عد ٤٠.

الحولة بحيرتها عد ٤.

حويلة أرض حويلة موقعها عد ١٣.

حويلة بن يقطان ومساكن ذريته عد ٣٩.

حويلة بن كوش ومساكن ذريته عد ٣٣.

الحويون من بني كنعان مساكنهم عد ٣٧.

الحَيَّة وإغواؤها لحواء عد ١٦ .

حيرام ملك صور صديق داود ١١٦ .

حيرام الثاني صديق سليمان وقطعه خشب الأرز له من لبنان ومراسلتها ١١٧ اباءه
أن يأخذ القرى التي أراد سليمان هبتها له وتزوج سليمان ببنته وشركتهما
في إرسال السفن إلى أوفير ثمة.

حيرام الثالث أداؤه الجزية لتجلىت فلاصر الثاني عد ١٢١ .

(خ)

الخضارمة ومنازلهم وفروعهم عد ٣٩ .

الخطية الأصلية ووجه اتصالها بجميع الناس عد ١٥ آثار القبائل الدالة عليها عد ١٧ .

خلدوا خلده في جنوبي بيروت عد ١٠٨ .

خلق الله العالم في ستة أيام وما معنى اليوم عد ٩ .

(د)

داريوس ملك الفرس تملكه وقتله سمرديس وقسمة مملكته إلى ١٩ ولاية ووفاته ١٣٠ .

باقي مَنْ سَمُوا باسمه من ملوك هذه الدولة ثمة.

نهر الدامور منبعه ومصبه عد ٢ .

دجلة ومنبعه عد ١٣ .

ددان بن رعمه بن كوش عد ٣٣ .

دقله من بني يقطان ومنازل نسله عد ٣٩ .

دمشق موقعها واسمها عد ٥ ولاية الآراميين والحثيين عليها عد ٥٩ استسلام أهلها

لتوتمس الثالث عد ٦٢ ابن هدد ملكها ممن تحالفوا على سلمناصر الثالث عد

٧٣ أسر رامان نيرار ملك آشور مرياح ملكها عد ٧٤ خضوع ملكها راسن

لتجلبت فلابصر ثمة ١٢١ فتح سرغون لها عد ٧٥ حملة سلمناصر الثالث
على مدن حزائيل ملكها ١٢١ وخسارة ابن هدد ملكها عشرين ألف من
رجالها في حرب سلمناصر ثمة غارة رامن نيرار عليها ثمة.
دودانيم أو رودانيم بن ياوان بن يافت ومساكن ذريته عد ٤١ .
دوكليون وحديثه في الطوفان عد ٢٨ .
ديدو بنت ملك صور ارجع إلى أليسار.

(ر)

رابة مواب (ربة) عد ٥ .
راسن مدينة نمروود وموقعها عد ٣٤ .
راموت جلعاد (الصلت) عد ٥ .
الرفائيم من سكان سورية الأولين عد ٥٤ .
ربة عمون عمان عد ٥ .
الرعاة أي الملوك الرعاة أصلهم والبلاد التي هاجروا منها عد ٨٩ أقوال العلماء في
أصلهم ومنشأهم وقول علماء العرب إنهم عمالقة عد ٩٠ تحرير قول دي
كارا فيهم وحجج قوله بأنهم حثيون عد ٩١ إثبات كونهم حثيين مما
سمّتهم به الآثار المصرية عد ٩٢ عصر غارتهم ومدة ملكهم عد ٩٣ بيان
سني عبودية بني إسرائيل في مصر بسني الملوك الرعاة عد ٦٤ أعمالهم في
مصر عد ٩٥ ندرة آثارهم وأسبابها عد ٩٦ حروبهم عد ٩٧ حصار آفاري
مدينتهم عد ٩٨ استسلامهم وخروجهم منها عد ٩٩ موقع آفاري مدينتهم
عد ٩٨ استسلامهم وخروجهم منها عد ٩٩ موقع آفاري مدينتهم.

رعمسيس الأول أصله وحربه في سورية وفلسطين عد ٦٣ .
رعمسيس الثاني وحروبه في سورية ونقش صورته على صخور نهر الكلب ومحاويلته
اخضاع الحثيين واضطراره إلى عقد الصلح معهم عد ٦٥ ما حاق به من

الخطر في حرب قادس ووصف الشاعر المصري بسالته ثمة خروج أكثر
أعمال فلسطين عن طاعته ثمة أيضاً. عهدة الصلح بينه وبين كيتاسار ملك
الحثيين عد ٦٦ زواجه بابنة ملك الحثيين عد ٦٧.
رعمه أو رعمه بن كوش ومساكن ولده عد ٣٣.
رامان نيرار ملك آشور حملته على سورية عد ٧٤.
الروثانو سكان سورية الشمالية عد ٦١ قسمة الآثار المصرية لهم إلى روثانو المغرب
وهم سكان دمشق وروثان المغرب وهم سكان شمالي سورية عد ٤٠
انبساط سلطتهم في سورية واحتمال أنهم لوديون أي من ولد لود عد ١١
تغلب الحثيين عليهم عد ٦٣.
اخضاع توتمس الأول وتوتمس الثالث لهم عد ١١١.
ريغات بن جومر بن يافت مساكن قبيلته عد ٤١.

(ز)

الزجاج لإيجاد الفينيقيين له ١٣٧.
الزوزيم أو الزوزيون من سكان سورية القدماء عد ٥٤.
الزيب عد ١٠٨ استسلام أهلها إلى سنحاريب ١٢٣.

(س)

سابالت ملك الحثيين عد ٦٣.
ساتي الأول ملك مصر وحربه مع العرب والسوريين واللبنانيين عد ٦٤.
سام بن نوح وبنوه عد ٣٨ كلام مجمل في أبنائه ومساكنهم عد ٤٢.
الसारما المراد به عد ٢٣.

السامرة ومَن بناها عد ٥ فتح سرغون الآشوري لها وجلاء أهلها عد ٧٥ و ١٢٢
حصار سلمناصّر لها ١٢٢.
السامريون أصلهم عد ٥٤.
سبا بن كوش وذريّته عد ٣٣.
سبا بن يقطان ومساكن ذريّته ٣٩.
سبتا بن كوش وموطن ولده عد ٣٣.
ستخ أو شتخ معبود الحثّيين واتصال عبادته إلى مصر بواسطة الملوك الرعاة ٧٨.
سرتبا سرفند عد ١٠٨.
سردينيا حلول الفينيقيين فيها وشيء من تاريخها ١١٥.
سرغون ملك آشور حروبه في سورية وفتح السامرة وصور ودمشق وتنكيه بملوك
فلسطين ويهوذا وآدوم ومواب وضّمه قبرص إلى مملكته ومقتله ١٢٢.
سفار عاصمة سبتا عد ٣٣.
السكانديناف مَن هم عد ١٧.
السلت من قبائل أوروبا القديمة منها الغال سكان إفرنسة عد ٤٢.
سلمناصّر الثالث وحروبه في سورية عد ٧٣.
سلمناصّر الخامس وحروبه مع العبرانيين وحصاره صور عد ٧٥ و ١٢٢.
سمرديس بن كوش وقتل أخيه كمبيس له وأخذ مجوسي اسمه ومحاولة الولاية
فقتله داريوس ١٣٠.
سنحاريب ملك آشور ولايته وغزوته في سورية وافتتاحه صور ١٢٣ ونقش صورته
على معبر نهر الكلب ثمة مقتل ابنه له ١٢٤.
سنغار ملك الحثّيين وإذلال آشور نزيروال له عد ٧٢ حربه مع سلمناصّر الثالث
عد ٧٣.
سكونيانون البيروتي وكتابه وترجمة فيليون الجبيلي له ١٤٤.
سورية تخومها عد ١ جبالها عد ٢ أنهرها عد ٣ بحيراتها عد ٤ مدنها عد ٥

اسمها وأصله عد ٦ سكانها قبل الطوفان عد ٥٣ سكانها بعد الطوفان عد ٥٤ اخضاع توتمس الثالث لها عد ٦٢ استسلامها إلى ساتي الأول عد ٦٤ محاربة سلمناصر الثالث للموكها عد ٧٣ حملة رمان نيرار ملك آشور عليها وغزوة تجلت فلاصر الثاني لها وانقياد ملوكها إليه في أرباد عد ٧٤ و ١٢١ حالتها في عهد رعمسيس الثاني نقلاً عن أخبار عامل مصري ١١١ غزوة سنحاريب لها ١٢٣ وأسرحدون وآشور بانيبال ١٢٤ و ١٢٥ غارة التتر عليها ١٢٥ خروج نكو ملك مصر عليها ١٢٦ استسلامها إلى بختنصر ملك الكلدان ١٢٧ وللكوك الفرس ١٣٠ كيف عرف أهلها الحرير ١٣٣ تقديمهم الضحايا البشرية ١٤٧.

سويداس من هو عد ٢٣.

سميراميس امرأة نينوس ١٢٠.

(ش)

شالف بن يقطان ومساكن ذريته عد ٣٩ شبا بن رعمه بن كوش عد ٣٣. شبطون في جهة الحصن وإيقاف رعمسيس جنوده فيها عد ٦٥. شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة عد ١٥ وعد ١٧. شموليون كاشف أسرار الخطوط المصرية مولده ووفاته عد ٧. شمسة ملكة العرب وعقاب تجلت فلاصر لها ١٢١. شنعار اي أرض شنعار وتأويل اسمها عد ٤٤. شيت بن آدم مولده وتسمية بنيه أبناء الله عد ١٩. شيشاق ملك مصر ودسائسه في سورية عد ١١٨.

(ص)

الصقالبة أو السلاف منهم سكان روسيا والبشناق والسرب والبلغار والبولونيون عد ٤٢.

صقلية الجزيرة حلول الفينيقيين فيها وبناهم هناك مدناً وشيء من تاريخها ١١٥.
صميرا أو سميرا من مدن فينيقية موقعها عد ١٠٨.

الصمريون من بني كنعان مساكنهم عد ٣٧.

صور اول سكانها عد ٥ اداء ملكها الجزية إلى آشور نزيال عد ٧٢ خضوع ملكها حيرام لتجلىت فلاصر الثاني عد ٧٤ فتح سرغون لها عد ٧٥ شيء من تاريخها عد ١٠٨ و ١١١ اتخاذ الفينيقيين لها عاصمة ١١٤ قدمها وموقعها القديم وشيء من تاريخها ثمة استيجار أهلها ملاحين وحرساً من الأجانب ثمة. مستعمرات الفينيقيين في مدة سؤدها ١١٥ ملوكها حيرام الأول وأبيعل وحيرام الثاني واتفاقهم مع داود وسليمان ١١٦ و ١١٧ غيرهم من ملوكها إلى بناء قرطاجنة ١١٨ أخذ آشور نزيال الجزية من أهلها ١٢٠ وكذا فعل ابنه سلمناصر ١٢١ إرسال تجلىت فلاصر الثاني قائداً إليها وافتداء ملكها مياب ملكه بدراهم ثمة. انتصار الصوريين على أسطول سلمناصر الخامس ١٢٢ ومقاومتهم لسرغون واضطرارهم إلى عقد عهدة صلح معهم وفصله مدن فينيقية عن صور وخسارتها بعض مستعمراتها في البحر المتوسط ثمة. حصار سنحاريب وفتحه له ١٢٣ خضوع ملكها بعل لاسرحدون ١٢٤ عصيان ملكها بعل على آشور بانيبال وافتتاح هذا صور بعد حصارها سنين ١٢٥ التقاء ملكها نكو ملك مصر بالترحاب ١٢٦ حصار بختنصر لها ثلاث عشرة سنة وفتحها وأسره أيتو بعل ملكها وكثيراً من أعيان قومه ١٢٧ حالتها في عهد ملوك بابل بعد فتح بختنصر لها وذكر بعض ملوكها ١٢٩ ذلها لاسكندر الكبير ١٣٠ تجارتها كما وصفها حزقيال النبي ١٣٢ معبوداتها الثلاثة ١٤٦.

الصلب: إرجع إلى راموت جلعاد.

صيدا أوّل سكانها عد ٥ مملأة أهلها لرعمسيس الثاني عد ١١١ إداء ملكها الجزية إلى آشور نزيال عد ٧٢ شيء من تاريخها ١٠٨ اختراع أهلها الملاحة ١٠٩ سوددها في الفينيقيين ١١٠ و ١١١ وتقهقرها وسقوطها لوجود مبار لها في الملاحة ١١٢ تدمير الفلسطينيين لها ١١٣ بقاؤها على استقلالها لدى فتح يشوع بن نون أرض الموعد ١١٦ أخذ آشور نزيال الجزية من أهلها ١٢٠ وكذا فعل ابنه سلمناصر ١٢١ حملتهم على أرواد وفتحها ثمة استسلامها إلى سنحاريب عد ١٢٣ إفتتاح أسرحدوم لها في عهد ملكها عبد ملكوت وجلاءه بعض سكانها إلى آشور ١٢٤ اشتراك ملكها بالمخالفة مع ملك مصر على بختنصر ١٢٧ فتح الأسطول المصري لها ١٢٨ حصار أرتحششتا لها وإحراق أهلها أنفسهم في بيوتهم ١٣٠ اكتشاف مدفن ملكها تبنيت ١٤١ و ١٤٣.

صيدون بكر كنعان وموطن ذريته عد ٣٧.

(ط)

طبرية بحيرتها عد ٣.
الطور جبل الطور موقعه عد ٢.
الطوفان رواية الكتاب خبره عد ٢٥ أعاماً كان أم خاصاً عد ٢٦ هل يثبت علم الجيولوجية حصوله عد ٢٧ آثار الأقدمين الدالة عليه عد ٢٨ مستقر السفينة بعده عد ٢٩.

(ع)

عابو بن شالح ونسبة العبرانيين إليه عد ٣٨ تيسير حروب الحثيين والمصريين امتلاك العبرانيين أرض الموعد عد ٦٨ بيان سني عبوديتهم في مصر بسني الملوك الرعاة عد ٩٤.

عاد لإحدى قبائل العرب البائدة من ولد عوص بن آرام عد ٤٠ .
العاصي نهر مصدره وموقعه عد ٢ .
عبودية بني إسرائيل في مصر وكم كانت سنوها عد ٩٤ .
العرب العاربة والعرب البائدة والعرب المستعربة عد ٣٩ .
عراعر عراعر عد ٥ .
عرقا موقعها عد ١٠٨ .
العرقيون من بني كنعان مساكنهم عد ٣٧ .
عزيز دورا اخباره أزدوبار عن الطوفان عد ٢٨ .
عفرين نهر منبعه ومصبه عد ٢ .
عكا أقدم سكانها عد ٥ و ١٠٨ استسلامها إلى سنحاريب ١٢٣ .
عمريت موقعها عد ٥ و ١٠٨ المعبد الذي فيها ١٤٨ .
العمو وما المراد بهم عد ٥٩ وعد ١٠٢ .
العمونيون أصلهم ومساكنهم عد ٥٤ اشترك ملوكهم في المحالفة مع ملك مصر
على بختنصر ١٢٧ .
بنو عناق من قبائل سورية القدماء عد ٥٤ بناؤهم حبرون وتسميتها قرية أربع عد ٥٥ .
عناهيم بن مصرائيم وذريته عد ٣٥ .
عوبال من بني يقطان ومساكن ذريته عد ٣٩ .
عوص بن آرام ومسكن ذريته عد ٤٠ .
عيلام بن سام ومساكن ذريته عد ٣٨ .

(غ)

غزة أول من بناها عد ٥ إتصال تجلت فلاصر الثاني بغزوته إليها وفرار ملكها حنون
إلى مصر ١٢١ .

(ف)

فتروسيم من ولد مصرائيم ومساكنهم عد ٣٥ .
الفردوس الأرضي وموقعه عد ١٣ تقليدات القبائل بشأنه عد ١٤ .
الفرزيون ليسوا من عشائر الكنعانيين بل يراد بهم سكان القرى عد ١٠٤ .
الفرس دولتهم وحروبهم في مصر وأكثر ملوكهم ١٣٠ .
الفلسطينيون أصلهم ومساكنهم عد ٣٥ وعد ٥٤ اشتداد ساعدهم ومضايقتهم بني
إسرائيل وتدميرهم صيدا ١١٣ .
فيشون أحد الأنهر التي تسقي الفردوس عد ١٣ .
فيلون الجبيلي وترجمته كتاب سنكوتيانون ١٤٤ .
الفوطيون بنو فوط مساكنهم عد ٣٢ وعد ٣٦ .
فينيقية اسمها عد ١٠٦ تخومها عد ١٠٧ مدنها عد ١٠٨ اختراعهم الملاحة عد
١٠٩ مستعمراتهم في مدة سؤدد صيدا جالياتهم في قبرص ورودس وغيرهما
من جزر الأرخبيل وعبروهم إلى البحر الأسود وجنوبي جبل قاف ١١٠
محالهم التجارية في شطوط الأبير وجنوبي إيطاليا وفي صقلية مصر وقرطاجنة
وبلاد العرب والكلدان وأرمينية ثمة حالهم السياسة على عهد سؤدد صيدا
١١١ مسالمتهم لفراعنة مصر موثرين راحتهم ونجاح تجارتهم على الحرب ثمة
قيامهم على أسطول مصر البحري ١١٢ تسطي البلاسج عليهم واضطرارهم
إلى ترك أكثر مستعمراتهم في بحر الروم وإلى انقطاعهم عن السفر إلى البحر
الأسود ١١٣ مضايقة بني إسرائيل والفلسطينيين لهم ثمة جعلهم صور
عاصمة لهم وانضمامهم إليها ١١٤ توثق عرى اتحادهم ثمة مستعمراتهم في
مدة سؤدد صور في إفريقيا وإسبانيا ومالطة وصقلية وسردينيا وإيطاليا ومراكش
وغيرها ١١٥ ما كانوا يستجلبونه من إسبانيا خاصة الفضة وكثرتها ثمة
دوران سفنهم حول قارة إفريقيا ثمة اتفاقهم مع بني إسرائيل ١١٦ ما كان
بين حيرام الثاني وسليمان ١١٧ تزوج سليمان بابنة حيرام وآحاب بايزبال ابنة
ايتو بل ونفوذ مملكة صور في مملكتي بني إسرائيل. ثمة ملوك صور إلى بناء

قرطاجنة ١١٨ أوّل من غزا فينيقية من الآشوريين ١٢٠ هل غزاها تجلت
فلاصر الأوّل. ثمة حملات آشور نزيال عليها. ثمة غزوات سلمناصر الثالث
لها واستسلامها إليه ١٢١ خسارة الفينيقيين بعض أملاكهم في جزر الأرخبيل
أخذها منهم الدوريون اليونان ثمة غارة رامن نيرار الثالث عليها ثمة استحواذ
سلمناصر الخامس عليها ١٢٢ استسلام مدنها إلى سنحاريب عدا صور ١٢٣
حملة أسرحدون عليها وخضوع ملوكها له ١٢٤ خضوعهم لابنه آشور
بانيال ثمة عصيانهم عليه وقهره لهم ١٢٥ خضوعهم طوعاً لنكو ملك مصر
وتواصل جالياتهم في أوروبا ١٢٦. استسلامهم إلى بختنصر أوّل ثمة
محالفتهم ملك مصر عليه وحصاره صور ١٣ سنة وتدميرها ١٢٧ محاربة
أسطولهم الأسطول المصري في أمواه قبرص ١٢٨ حالتهم مع ملوك الفرس
وخضوع حيرام الرابع لكورش ١٣٠ لإنقيادهم وإنجادهم لكمبيس ابنه
وخلافهم له في غزوة قرطاجنة. ثمة استمرارهم على الطاعة لداريوس وآباءهم
الاشتراك في الثورة عليه. ثمة ما كان مع باقي ملوك الفرس. ثمة حملة
أرتخششتا عليهم وحصاره صيدا ثمة. ولاية اليونان على فينيقية ثمة فهرس
ملوك فينيقية ١٣١ تجارة فينيقية ١٣٢ تجارتها في آسيا بفروعها الثلاثة ١٣٣
تسيار سفنهم في بحر الهند ومواد تجارتهم في تلك الأنحاء ثمة تجارتهم في
إفريقيا ١٣٤ جالاتهم على ساحل الأتلتيك ثمة تجارتهم في أوروبا ١٣٥
اقرار الأوروبيين بفضلهم بإيصال الحضارة والتمدن إلى بلادهم. ثمة صناعة
الفينيين في البرفير ١٣٦ صنعهم الزجاج واهتداؤهم إليه ١٣٧ اصطناعهم
الآنية الخزفية والمعدنية خاصة النحاس الأصفر والحلى والعاج ١٣٨ خمرهم
وآلات الحراثة عندهم وتقديهم الاسماك ومزية أبنتهم ثمة إيجادهم الكتابة
بالحروف وأخذ حروفهم عن العلامات الهيروكليفية ١٣٩ حروف كتابتهم
أصل للحروف في كل اللغات وتقسيم كتابة هذه اللغات إلى طوائف ١٤٠
ما طرأ من التغيير على الحروف الفينيقية ١٤١ لغة الفينيقيين سامية وأمّا هم
فحاميون ١٤٢ آثارهم وندرتها والسبب في ذلك ١٤٣ علومهم ١٤٤
ديانتهم ١٤٥ عبادتهم نوع من الثالوث. ثمة ذبائحهم عد ١٤٧ كهنتهم
وهياكلهم ١٤٨ آثار أبنتهم ١٤٩ ندورها وسببه وقلة استعمالهم عقد الأبنية.
ثمة مدافنهم وما كانوا يضعون فيها ١٥٠ أصنامهم. ثمة لغتهم وفروعها ٤٩

(ق)

قادس مدينة الحثيين عد ٥٦ موقعها وصورها في آثار مصر والمدن الأخرى المسماة باسمها عد ٦٠ افتتاح توتمس الثالث لها مرتين عد ٦٢ حصار ساتي الأول وافتتاحه لها وردها بعهدة الصلح على الحثيين عد ٦٤ محاربة رعمسيس الثاني للحثيين على أسوارها عد ٦٥ هجر الحثيين لها عد ٦٩ .

قادس في إسبانيا بناء الفينيقيين لها عد ١١٥ .

قاي بن آدم مولده وقتله أخاه عد ١٨ ذريته عد ٢٠ .

قبرص سكانها يونان أو حثيون عد ٤١ وعد ٤٨ اسمها في الآثار الآشورية عد ٨٤ رأي الأب دي كارا في أصل سكانها الأولين إنهم حثيون عد ٨٥ و ١١٠ شيء من تاريخها ١١٠ الحروف التي استعملت فيها إلى أيام اسكندر ربما كانت الحروف الحثية ٧٦ خضوع ملوكها لأسرحدوم ١٢٤ استيلاء اليونان عليها في مدة ولاية الفرس ١٣٠ الآثار التي وجدت فيها ١٤٣ .

قدموس ارتحاله إلى بلاد اليونان ووضع الحروف لأهلها ووقت هذا الارتحال عد ٨٧ ولايته وولاية بعض أعقابها في تاب من بلاد اليونان عد ١٠٥ .

قرطاجنة بناها عد ١١٩ .

قلموس القلمون عد ١٠٩ .

قويق نهر حلب منبعه ومصبه عد ٢ .

قينان بن أنوش عد ٢١ .

(ك)

تكوين الكائنات عد ١٠ إثبات إبداع الله لها بالآثار القديمة عد ١٢ .

كاتون القديم كاتب روماني في القرن ٣ ق م عد ١١٩ .

كاسيوس طالع كلمة الأقرع .

كالح مدينة نمرود وموقعها وبعض تاريخها عد ٣٤ كاور قلعة سى (قلعة الكفار) في
أنحاء انقوره الآثار الحثية فيها عد ٨٢.

الكبير النهر الكبير منبعه ومصبه عد ٢.

كبيريم أي الآلهة الكبار وعددها عند الفينيقيين ١٤٦.

الكتابة بالصور وأنواعها عد ٥١ الكتابة بالحروف وإيجاد الفينيقيين لها عد ٥٢
و ١٣٥.

كتيم بن يوان بن يافت ومسكن ذريته عد ٤١ و ٨٤.

كركميش موقعها في محل ايرابوليس الآن عد ٥ و ٧١ وجعلها مركزاً لدولة
الحثيين بعد هجر قادس عد ٦٩ عدم افتتاح تجلت فلاصر لها عد ٧٠ افتتاح
سرغون لها وبناءه فيها صرحاً وكذا افتتاحها سلمناصر عد ٧١ جلاء
سرغون أهلها وإقامة آشوريين فيها وحاكماً آشورياً عد ٧٥ صعود نكو ملك
مصر لقتالها ثمة.

الكرمل جبل موقعه عد ٢.

كسلوحييم من ولد مصرائيم ومساكنهم عد ٣٥.

كغثوريم أو الكغثوريون يراد بهم سكان جزيرة كريت عد ٣٥.

نهر الكلب منبعه ومصبه عد ٢.

كلنه مدينة نمرود وموقعها عد ٤.

الكلدان قرضهم دولة الآشوريين وولايتهم مكانهم ١٢٦ حربهم مع نكو ملك مصر
في سورية ١٢٧ آخر ملوكهم وانتصار الفرس عليهم وافتتاح بابل ١٣٠.
كعبيس بن قورش ملك الفرس خلافته لأبيه وولايته على مصر والصعيد وحملته
على الحبشة وموته ١٣٠.

كنعان بن حام سبب لعن نوح له بدلاً من حام عد ٣٠ ابنائه ومساكن كل منهم
عد ٣٧.

الكنعانيون مساكنهم عد ٣٢ وعد ٥٤ أصلهم ومهاجرهم الأولى وداعي ارتحالهم
إلى سورية عد ١٠١ زمان ارتحالهم إلى سورية عد ١٠٢ المحال التي

توطنوها في سورية عد ١٠٣ حالة ممالكهم لاسيما مع المصريين بعد طرد
الرعاة عد ١٠٤ تشتتهم في عهد يشوع بن نون وجالياتهم في بلاد
اليونان وإفريقية عد ١٠٥ .

كورش وافتتاحه بابل وخضوع المدن الفينيقية له وموته عد ١٣٠ .
كوش المراد بهذا الاسم عد ١٣ مساكن الكوشيين عد ٣٣ و ٣٤ إينا كوش هناك
كبير مواب الكرك عد ٥ .

الدولة الكينية عد ٨ .

كيتاسار ملك الحثيين عد ٦٥ عهدة الصلح بينه وبين رعمسيس الثاني عد ٦٦ .
كي خسرو الأول ملك الفرس وغيره ممن سمو بهذا الاسم في دولة الفرس ١٣٠ .

(ل)

لامك من ذرية قاين عد ٢٠ .

لامك بن متو شلح عد ٢١ .

اللاتين من قبائل أوروبا القديمة منهم بعض الفرنسيين وسكان إيطاليا وغيرها عد ٤٢ .
لبنان الغربي والشرقي عد ٢ فتح توتمس الثالث قسمه الشمالي وتقديم اللبنانيين
جزيتهم له ثمة خروجهم عن طاعته وتنكيله بهم عد ٦٢ حرب ساتي الأول
لهم واخضاعهم وقطعهم أخشاب الأرز لابنته عد ٦٤ استيلاء آشور نزيروبال
على لبنان وأنه أكب على الصيد فيه عد ٧٢ و ١٢٠ أخشاب الأرز التي
قطعها حيرام لسليمان ومن أئمة ناحية كانت ١١٧ ذكر هذه الأخشاب بين
الجزيات التي افترضها تجلت فلاصر الأول على البلاد التي فتحها ١٢٠
عبادة أدونيس فيه ١٤٦ .

اللغة الأولى ورأي الآباء والعلماء فيها عد ٤٦ بلبلتها في بابل عد ٤٧ .
اللغات القديمة وما تعاقب عليها من الأدوار عد ٤٦ علم معارضة اللغات عد ٤٨

رد اللغات القديمة إلى أصلين السامي أو السرياني العربي وفروعه
والسنسكريت وردها إلى أصلين الهندي الإيراني والهندي الأوربي وفروع
هذين الأصلين عد ٥٠ إدخال المصريين في لغتهم بعض ألفاظ من فروع
اللغة السريانية عد ٦٧.

اللكام جبل موقعه عد ٢ احتلال الحثيين فيه عد ٥٩ خضوعه لتجلى فلاحصر الأول
عد ٧٠ تدويخ آشور نزيال لأهله عد ٧٢ ما فرضه سلمناصر جزية عليهم
عد ٧٣.

لهاهيم بن مصرائيم ومساكن ذريته عد ٣٥.
لود بن سام ومساكن ذريته عد ٣٨ هو أخو آرام لا ابنه ولا يبعد أن يكون أصل
الروثانو عد ٤٠.

لوديم بن مصرائيم وذريته عد ٣٥.
لوزافي بيت أيل ولوزافي أرض الحثيين عد ٥٦.
ليبيا وتخومها ومساكنها عد ٣٥.
الليطاني نهر منبعه ومصبه عد ٢.

(م)

ماجوج بن يافت ومساكن ذريته عد ٤١.
ماداي بن يافت ومساكن قبيلته المادييين عد ٤١.
المادة يستحيل أن تكون أزلية عد ٩.
ماش بن آرام ومقام ذريته عد ٤٠.
ماشك بن يافت ومواطن ذريته عد ٤١.
مالطة احتلال الفينيقيين فيها ١١٥.
متو شلح بن أخبوخ عد ٢١.

مجدو (اللجون) موقعها عد ٥ محاربة توتمس الثالث جحافل ملوك سورية فيها
عد ٦٢.

المدينيون أصلهم ومساكنهم عد ٥٤.

المرج بحيرة المرج عد ٣.

مرعش الآثار الحثية فيها عد ٨٢.

الخطوط المسمارية ومن كشف أسرارها عد ٨.

مصريايم بن حام واعقابه عد ٣٥.

نهر المقطع مخرجه ومصبه عد ٢.

المكتبة الملكية القديمة في نينوى عد ٨.

ملكوت هيكلة في صور وما كان فيه ١٠٢ و ١٤٨.

منبع في أنحاء حلب وهيكل الآلهة الأم فيها ٧٨.

منحيم ملك السامرة خضوعه لتجلى فلاحصر عد ٧٤.

منفتاح فرعون الخروج خلافته لأبيه رعمسيس وإرساله مؤنات للحثيين عد ٦٦.

مهلائيل بن قينان عد ٢١.

المواييون أصلهم ومساكنهم عد ٥٤ تنكيل سرغون بهم ١٢٢ استسلامهم إلى

سنحاريب ١٢٣ خضوع ملكهم موصوري لأسرحدون ١٢٤ اشتراك ملكهم

بمخالفة ملك مصر على بختنصر ١٢٧.

موتنار ملك الحثيين وعهدة الصلح مع ساتي الأول عد ٦٤ محاربته رعمسيس الثاني

عد ٦٥ قتله غيلة ثمه.

ميشا عند مصب الفرات عد ٣٩.

(ن)

النبات خلق الله له واحتياجه إلى النور عد ١٠.

الأنساب التي ذكرها موسى وأهميتها عد ٣١ وهل تعم البشر كلهم والظاهر أنه ذكر أنساب النوع الأبيض فقط عد ٣٢.

نهر النعمان مصدره ومصبه عد ٢.

نفتوحيم بن مصرائيم عد ٣٥.

نكو ملك مصر ومقاومته الآشوريين في مصر ١٢٥ غزوته سورية في أثر إنقراضهم ١٢٦.

نمرود بن كوش عد ٣٤ المدن التي وليها أو بناها ثمة. بناؤه نينوى عد ٣٤. نمنفيو في أنحاء أزمير والتمثال الحثي فيها عد ٨٠.

نوح مولده وأبناؤه عد ٢١ صنعه الفلك ونجاته من الطوفان عد ٢٥ تنمة أخباره بعد الطوفان عد ٣٠.

نود أرض شرقي عدن عد ١٨.

نينوى من بناها وبعض تاريخها وموقعها عد ٣٤ حصارها وسقوطها ١٢٦ الكشف عن أخربتها ثمة.

نينوى حقيقة أمره وعصره ١٢٠.

(هـ)

هاثيل بن آدم مولده وتأويل اسمه ومقتله عد ١٨.

هدد أي ابن هدد ملك دمشق انتصار سلمناصر الثالث عليه ولحاقه في البحر ١٢١.

هدورام بن يقطان ومساكن ذريته عد ٣٩.

هوشع ملك إسرائيل استنجاده بشباك ملك مصر على سلمناصر الخامس الآشوري ١٢٢.

الخطوط الهيروغليفية ومن كشف عن كنوزها وأنواعها عد ٧.

(و)

الوثيقة واحدة عند الفينيقيين وغيرهم ١٤٥ و ١٤٧ .
وجه الحجر في جانب البترون عد ١٠٨ .

(ي)

اليابوسيون من ولد كنعان ومساكنهم عد ٣٧ .
يارح بن يقطان ومساكن ذريته عد ٣٩ .
يارد بن مهلائيل عد ٢١ .
يافت بن نوح وأبناؤه ومساكنهم عد ٤١ كلام مجمل في أبنائه ومساكنهم عد ٤٢ .
ياذيلي كايا في آسيا الصغرى: آثار الحثيين فيها عد ٨١ .
ياوان بن يافت ومساكن ذريته اليونان عد ٤١ عد ٨٤ .
يقطان أو قحطان جد العرب العاربة وولده ومساكنهم عد ٣٩ .
يوباب من بني يقطان ومساكن ذريته ٣٩ .
اليوم ما المراد به في أيام خلق العالم عد ٩ .
اليونان أقوال العلماء في سكان بلادهم القدماء عد ٨٤ رأي الأب دي كارا أن
أصلهم حثيون عد ٨٦ أخذهم كثيراً في صناعته عن الحثيين ٧٧ .

المجلد الثاني

(أ)

ابراهيم. نسبه وعصره واختلاف نسخ الكتاب في عداد السنين من الطوفان إلى مولده ١٥١ سنة شخوصه إلى سورية بعد خلق الانسان وقبل ميلاد المخلص ثمة. منشأه أي في اور و حاران ١٥٢ ارتحاله إلى أرض كنعان وولايته في دمشق ١٥٣ انحداره إلى مصر وقوله عن سارة إنها أخته ووعد الله له ١٥٤ محاربته لكدرلا عومر ملك عيلام وأحلافه ١٥٥ إثبات الله الوعد له وتغيير اسمه وولادة اسمعيل ١٥٧ امر الله له بالختان ١٥٨ ظهور الملائكة له ولسارة عند تدمير سدوم وتبشيرها باسحق ١٥٩ ارتحاله إلى جرار ومولد اسحق ١٦٠ خروج اسمعيل من بيته ١٦١ إمتحان الله له بذبح ابنه اسحق ١٦٢ شراؤه المغارة المضاعفة لدفن سارة ١٦٣ تزويجه اسحق ١٦٤ زواجه بقطورة وولده منها ١٦٥ وفاته ومدفنه ثمة

ابشالوم بن داود. خروجه على أبيه ٢٦٧ قتله ثمة. مدفنه ٢٦٨.

اهل بيت معكة. موقعها ومحاصرة يواب شابع فيها ٢٦٩ اخذ ابن هدد لها ٢٩٧. اهل محولة. موقعها ومطاردة جدعون المدينيين إليها ٢٣١ وتلمذة ايليا اليشاع فيها ٣٠٢.

اهل الكروم. موقعها ٢٣٣.

ابصان قاضي اسرائيل ٢٣٣.

ابنير بن نير عم شاول وقائد جيشه ٢٤٨ تمليكه اشبوشث بن شاول بعد موت أبيه ٢٦٠ انضمامه إلى داود وقتل يواب له ثمة.

ايا ملكه في يهوذا وحربه مع ياربعام ٢٩٤ وموته ثمة

ابي غوش طالع قرية يعاريم .

اييملك قاضي اسرائيل قتل لإخوته وثورة أهل شكيم وقتله ٢٣٢ .

اجاج ملك عماليق وقتل شاول له ٢٤٩ .

احاب ملك اسرائيل وصنعه الشر ٣٠٠ لتقاؤه يايليا وجمعه الشعب وكهنة البعل
٣٠١ خروج ابن هدد عليه ٣٠٣ ومسالته له بعد الحرب ثمة. احاب
والآشوريون ووجه تساهله مع ابن هدد ٣٠٤ اختلاسه كرم نابوت وقتله له
٣٠٥ حربه مع ملك دمشق وقتله ٣٠٦ توفيق قولي الكتاب في موضع
لحس الكلاب دمه ثمة .

احاز ملك يهوذا. ملكه ومحاربه فاقح ملك ورصين ملك دمشق له ٣٢٠ التجاؤه
إلى تجلت فلاصر وإرساله الهدايا له فعاد ذلك وبالأعلى عليه ثمة. تقدمته
الضحايا للاوثان وموته ثمة

احزيا بن يورام ملك اسرائيل. ملكه وخروجه مع ملك اسرائيل لمحاربة حزائيل ملك
دمشق ٣١٣ .

احزيا بن احاب. ملكه واشتراكه مع سليمان في بناء السفن وتمرد الموابيين عليه
وموته ٣٠٧ .

احشورش او ارتحششتا الأول ابن كيخسر وملكه ٣٦١ رسالته إلى عزرا ٣٦٢ وما
كان له من خير استير ومردكاي ٣٦٨ تنمة أخباره وذكر خلفائه ٢٦٩
ارتحششتا الثاني. ملكه وثورة المصريين عليه وإيقاعه الفتنة بين اعدائه وسيادته
على قبرص وخلع المصريين ولايته ٣٦٩ ارتحششتا الثالث وقتل اقاربه ٣٦٩
احيملك الحبر الذي اعطى داود خبز التقدمة وتسميته ايبانار في بشارة
مرقس ٢٥٣ .

احيور قائد بني عمون وما كان له مع اليفانا وأتباعه مذهب اليهود ٣٣٣ .

الأخوين رواية الأخوين في مصر ١٧١ .

أدونيصادق ملك أورشليم رئيس العصبة على يشوع ٢١٧ .

أدوم بلاد أدوم وتسمية عيسو أدوم ١٥٥ و١٦٩ و٢٠٣ .

الأدوميون أصلهم ونهي بني إسرائيل عن محاربتهم ٢٠٥ تنكيل يواب بهم وملك
هدد فيهم ٢٩٠ خروجهم على يوشافاط ملك يهوذا ٢٩٩ انحيازهم إلى
ميشاع ملك مواب ٣٠٨ خروجهم عن ولاية ملوك يهوذا ٣١١ قتل أمصيا
عشرة آلاف منهم وفتح مدينتهم ٣١٦ محالفة رصين وفاقح لهم ٣٢٠.

أدونيا بن داود وطعمه أن يملك مكان أبيه ٢٧٣ قتل سليمان له ٢٧٦.
أذرعاي ذرعات موقعها وتملك بني إسرائيل لها ٢٠٦ وقوعها في نصيب نصف
سبط منسى ٢٢٢.

الآراميون حربهم مع داود ٢٦٤ و ٢٦٥ إذلال مملكة آشور لهم ٣٠٤ خروجهم
على يورام وانهزامهم ٣١٠.

الارز خشب الارز وارساله إلى داود وسليمان ٢٦١ و ٢٨٠ ومن قطعه ومن أين
ثمة. آثاره عند المصريين والآشوريين ثمة.

ارطاس وادي ارطاس حيث جنة سليمان ٢٨٤.
أرفادتل أرفاد موقعها ومحاربة آشور نيرار لها ٣١٧ حرب ملوك سورية لتجلى
فلاصر فيها ٣١٩.

أرفاد ملك شنعار من هو ١٥٥.
أرميا النبي اضطهاد الياقيم له وحرقة نبوته ٣٣٧ ايضاء بختنصر به وأخذ قومه له
مكرهاً إلى مصر ونبوته على ما سيكون لهم هناك ٣٣٩ وفاته ومحلها ثمة
رسالته إلى المجلولين ٣٤١. ترجمته وتفصيل نبوته ومراثيه وتفصيلها ٣٤٧.
أرنون النهر الموجب ٢٠٦.

أريوك ملك الآسار حليف كدرلا عومر ١٥٥.
أرونا بيدر أرونا شراء داود له ليكون ثمة الهيكل ٢٧٣.
أريحا سقوط أسوارها ٢١٤ تجديد بنائها وتأويل اسمها ثمة.
آسا ملك يهوذا وحسن مسعاه وكسره التماثيل ٢٩٥ خروج زارح الكوشي عليه
٢٩٦ انحياز كثيرين إليه من أسباط أفرائيم ومنسى وشمعون ثم خروج بعشا
عليه ٢٩٧ موته ٢٩٨.

أستير صحة السفر المنسوب إليها ومن كتبه وزوجه من هي ٣٦٧ ملخص خبرها عن سفرها ٣٦٨.

اسحق مولده وختانته ١٦٠ وافتداء الله له بالحمل ١٦٢ زواجه برفقه ١٦٤ ولادته عيسو ويعقوب ١٦٦ قوله عن رفقة أنها أخته ومعاهدته مع أيملك ملك جرار ووفاته ثمة.

أسرحدون بن سنحاريب سنة ملكه وحملاته على سورية ومصر ٣٣٢ جلاؤه لبعض السوريين إلى آشور وغيرهم إلى السامرة وأخذه مصر ثمة.

إسماعيل مولده ١٥٧ خروجه من بيت أبيه وتزوجه وولده عد ١٦١.

أشبوشت بن شاول تملكه بعد موت أبيه ٢٦٠ وقتل بعض رجاله له ثمة.

أشتاوول أشوع موقعها ٢٣٥ و ٢٣٧.

أشدود والمرض الذي أصاب أهلها عند امساكهم تابوت العهد ٢٤١ حرب سرغون لها ٣٢٦.

أشعيا تفسير بعض نبوآته ٣٢٦ نبؤته على جلاء بابل ورد مزاعم الملحددين ٣٢٨ نبوآته على مصر ٣٣٢ وتفصيل بعض نبوآته ٣٤١.

آشور بانيبال استبداده بالملك وآثاره وحره في مصر وخضوع ملوك سورية له ٣٣٢ لإرساله اليفانا في حملات عديدة وبعض آثاره ٣٣٣ و ٣٣٤ تمرد أخيه سموسو موقين عليه ثمة بعض ما حوته مكتبته الشهيرة ٣٤٣.

آشور داثيل ملك آشور وغزواته سورية ٣١٧.

آشور نيرار غزوته سورية ٣١٧.

الآشوريون لمعة من تاريخهم ٣٠٤ ملوكهم طالع أسماءهم.

أشير نصيب سبطه مع أرض الموعد ٢٢٢.

أطاد بيدر أطاد موقعه ١٧٧.

العالا العال موقعها وبناء بني راوين لها ٢٠٩.

العاي الكديرة موقعها ١٥٣ و ٢٥١ افتتاح يشوع لها ٢١٥.

أفرائيم نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢.

أفيق محلّة الفلسطينيين عند محاربتهم لإسرائيل في أيام عالي موقعها ٢٤٠.

أفيق الفيك موقعها وحرب أحاب وابن هدد فيها ٣٠٣ انتصار يواش ملك لإسرائيل على ملك دمشق ٣١٥.

أكريت الجزيرة منشأ الفلسطينيين أو أوّل محلّة لهم وتسميتهم كريتين ٢٣٤.

اكتشاف موقعها وأنّ ملكها من المعتصمين على يشوع ٢٢٠.

الاسار سنقرة موقعها ١٥٥.

اليشاع أمر الرب إيليا أن يمسخه نبيّا ٣٠٢ تتلمذه لإيليا ثمة خلافته له وإثبات رسالته بآيات ٣٠٧ أرسل ملك آرام ليقبض عليه وضربه جنوده بالعمى وتثبته على انهزام الآراميين ٣١٠ تشجيعه يواش ملك لإسرائيل على محاربة ملك دمشق وموته وقيامة ميّت وضع في قبره ٣١٥.

اليفانا حملاته بأمر آشور بانيبال وقتل يهوديت له ٣٣٣.

امصيا ملك يهوذا ملكه وقتله قاتلي أبيه وتنكيله بالأدوميين ٣١٦ وحربه مع يواش ملك لإسرائيل وذله وقتله في لاكيش ٣١٦.

الآموريون من هم وأين كانت مساكنهم ١٥٥ مملكتهم في عبر الأردن وأصلها وموقعها ٢٠٦.

أمون ملك يهوذا ملكه وعبادته الأوثان وقتل عبيده له وقتل الشعب القاتلين ٣٣٥ أهود قاضي إسرائيل وقتله عجلون ملك مواب ٢٢٩.

أور موقعها ١٥٢.

أورشليم قتل يشوع ملكها ٢١٧ لإفتتاح بني يهوذا لها ٢٢٧ فتح داود قلعة صهيون فيها وجعلها قصبة ملكه ٢٦١ أبنية سليمان فيها وجر الماء إليها ٢٨٤ وإحاطتها بأسوار ثمة انتهاب شيشاق لها ٢٩٣ نهب الفلسطينيين والعرب مال بيت الملك يورام فيها وسبي بنيه ونسائه ٣١١ نهب يواش ملك لإسرائيل لها ٣١٥ لإجراء حزقيا الماء إليها ٣٣٠ فتح بختنصر لها وجلاؤه بعض شبانها ٣٣٧ إحراق جنوده لها وإجلاء صديقها ملكها وعلية قومها إلى

بابل ٣٣٨ عود زربابل وقومه إليها واهتمامهم ببناء الهيكل ٣٥٦ تجديد بناء الهيكل فيها وتوقيف أعداء اليهود لهم عنه ٣٥٨ استئناف بناء الهيكل فيها وإتمامه ٣٦٠.

أوريا الحثي مفاجرة داود امرأته وقتله ٢٦٦.

أون المطرية في مصر ١٧٢.

أوفير محل تجارة سليمان موقعها وبلغ تجارتها ٢٨٨.

أويل مروداك ملك بابل ٣٤٩.

إيتام محطة بني إسرائيل موقعها ١٨٦.

إيزبال امرأة أحاب وإقادتتها زوجها لعبادة الأوثان وقتل كهنة الرب ٣٠٠.

ايلة على البحر الأحمر ٢٠١.

ايله ملك إسرائيل وقتله ٢٩٨.

إيليا النبي مقاومته لآحاب وإيزابل ٣٠٠ انحباس المطر بكلمته وقتله انبياء البعل ٣٠١ فراره من وجه إيزابل وأمر الرب له أن يمسخ حزائيل وياهو واليشاع ٣٠٢ وصومه أربعين يوماً ثم إمامته رئيسي الخمسين اللذين أرسلهما أحزيا إليه وارتفاعه إلى السماء ٣٠٧ الأقوال في بقاءه حياً وإتيانه قبل اليوم الأخير ثمة كتاباته إلى يورام بعد ارتفاعه ومصدرها ٣١١.

أيلون الزابلوني قاضي إسرائيل ٢٣٣.

إيليم من محلات بني إسرائيل ١٨٩.

الآيميون من هم وضرب كدرلاعومر لهم ١٥٥ مساكنهم ٢٠٥.

(ب)

بابل عژها ومساحة أسوارها في أيام ملوكها ٣٤١ بعض ملوكها إلى انقراضهم ٣٤٩ دخول كورش إليها ثمة. وتذليل أو إذلال كيخسرو أهلها ٢٦١.

باراق تخليصه بني إسرائيل من يد ملك حاصور ٢٣٠.

باروك النبي وسفره وإثبات تنزيله ٣٧٤ .
بازق موقعها وتشتيت بني إسرائيل الكنعانيين فيها وقبضهم على ملكها ٢٢٧ .
باصر بصر الحريري من مدن الملجأ ٢٠٩ .
بالاق دعوته بلعام ليلعن بني إسرائيل ٢٠٧ .
بئر سبع موقعها وسبب تسميتها بهذا الاسم ١٦٠ تسميتها بئر سبع بمعنى الشبع ١٦٦ .
بثروت البيري موقعها ٢١٦ .
البثرون بناء ايتوبعل لها ٣٠١ .
بحوريم موقعها ٢٦٧ .
البحيرات المرة ١٨٦ والقول بعبور بني إسرائيل بها .
بختنصر قيادته جيش آشور وظفره بعسكر مصر في كركميش وخضوع ملوك سورية له ٣٣٧ ارتقاؤه منصبة الملك وفتح اورشليم ونهبها ثمة . وجلأؤه بعض شبانها ثمة . أخذه يوحنا أسيراً إلى بابل ثمة . غزوته في سورية ثانية وحصاره أورشليم وصور ٣٤٨ إخضاعه مصر وقهره خفرع ملكها ٣٣٩ حلمه الأول وتعبير دانيال له ٣٤٥ التمثال الذي أقامه وإثبات ذلك بالآثار ٣٤٦ حلمه الثاني وجنونه والآثار الدالة عليه ٣٤٧ موته ثم أعماله في اليهودية ٣٧٤ .
برية سين موقعها ١٨٩ .
بساميتيك ملك مصر وعصاوته على آشور بانيبال ٣٣٤ .
البطمة وادي البطمة كلوني موقعها ٢٥١ نزول بني إسرائيل فيه عند قتل داود جليات ثمة .
بعشا ملك إسرائيل ٢٩٥ خروجه على أسا وخروج ملك آرام عليه ٢٩٧ وموته ثم .
بعلبك هل هي بعله التي بناها سليمان وشيء من تاريخها ٢٨٦ .
بعل جاد في بقعة لبنان بانياس امتداد يشوع إليها ٢٢٠ .
بعله التي بناها سليمان وهل هي بعلبك ٢٨٦ .

بعل صفون موقعها ١٨٦.

بعل معون تل معين موقعها وتملك بني إسرائيل لها ٢٠٩.

بقاع غور الجولان اعتصاب أهلها على يشوع ٢٢٠.

بلشصر ملك بابل تعبير دانيال رؤياه ٣٤٨ ورد مزاعم الملحددين في أمره ثمة بلعام أصله ومحله ودعوة بالاق له ليلعن بني إسرائيل ونطق أثنائه ٢٠٧ وهل هو نبي صادق وهل نطق أثنائه كلام ثمة.

بلما بلعمة موقعها ٣٣٣.

بنيامين نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢ ومحاربة بني إسرائيل لهم لسبب امرأة اللاوي ٢٣٨.

بنيايا بن يوياداع قتله أدونيا ويواب وشمعي بأمر سليمان وقيادته جيشه ٢٧٦.

بنو إسرائيل نموهم في مصر واشتراكهم مع المصريين في بعض غزواتهم ١٧٨ عود بعضهم إلى فلسطين قبل خروج باقيهم من مصر ثمة. بدء اضطهادهم في مصر وتسخيرهم وبيئته وقتل أطفالهم ١٧٩ في عهد أي الفراعنة خرجوا من مصر ثمة لضناكهم بعمل اللبن وإنكار اللبن عليهم وبيئات ذلك ١٨٢ وذبحهم خروف الفصح لأول مرة في مصر ١٨٣ استعارتهم الحلي والثياب من المصريين ثمة مدّة إقامتهم في مصر ١٨٤ في المحل الذي ارتحلوا منه وطريق ارتحالهم ١٨٥ أقوال العلماء في طريق ارتحالهم ومعبرهم في البحر الأحمر ١٨٦ نجاتهم وغرق جنود فرعون ١٨٧ إثبات خروجهم بالآثار وانشقاق البحر والرد على الملحددين ثمة. مراحلهم من البحر الأحمر إلى برية سين ١٨٩ إنزال المن عليهم ١٩٠ والسلوى ١٩١ ارتحالهم من برية سين إلى رفيديم ١٩٢ إجراء الماء لهم من الصخرة ومحل هذه الصخرة ١٩٣ حربهم مع العمالقة ١٩٤ ارتحالهم من رفيديم إلى برية سينا وأين حلّوا ١٩٦ تنزيل الله السنة عليهم ١٩٧ عبادتهم عجل الذهب ١٩٨ عملهم خباء المحضر ١٩٩ ارتحالهم من جبل سينا إلى قبور الشهوة ٢٠٠ ارتحالهم حتى قادش ٢٠١ ثورة قورح بينهم ثمة. إجراء الماء من الصخرة لهم ثانية ٢٠٢ إرتياعهم من دخول أرض الموعد وقتل من رؤّعهم والقضاء عليهم بأن لا يدخل من كان

عمره عشرين سنة فصاعداً عند خروجهم من مصر ثمة ارتحالهم من قادش إلى جبل هور ٢٠٣ حربهم مع الملك عراد ٣٠٤ إرسال الحياة عليهم لتذمرهم ثمة. أين أقاموا في المدة الثماني والثلاثين سنة ثمة. نهى الرب لهم عن محاربة الأدوميين والموايين الخ ٢٠٥ تملكهم بلاد سيحون وعوج ٢٠ أغواء بنات مواب ومدین لهم ٢٠٨ تملك بعضهم الأرض التي في شرقي الأردن ٢٠٩ حروبهم وفتوحهم في أيام يشوع بن نون طالع يشوع قسمة أرض الموعد على أسباطهم ٢٢٢ قضاتهم وأحداثهم في أيامهم طالع قضاة واسم كل منهم. محاربة بني يهوذا وشمعون ويوسف بعض الكنعانيين ٢٢٧ تسلط كوشان ملك آرام عليهم وتخليص عتيثيل لهم ٢٢٨ تعيدهم لمجلون ملك مواب وتنجية أهود لهم ٢٢٩ حربهم مع الفلسطينيين في أيام عالي ٢٤٠ حربهم معهم في عهد صموئيل ٢٤٤ إلحاحهم على صموئيل بإقامة ملك ٢٤٥ أخبارهم في أيام ملوكهم طالع أسماءهم. انشقاق مملكتهم وقسمتها إلى مملكة يهوذا ومملكة إسرائيل ٢٩٢ انقراض مملكة إسرائيل وجلاء كبرائها إلى آشور ٣٢١ محال إقامتهم في آشور ٣٢٣ جدول ملوك يهوذا وإسرائيل إلى خراب السامرة وتوفيق سنيهم ٣٢٧ ارتحال بعضهم إلى مصر من وجه بختنصر ووقوعهم بيده فيها ٣٣٩ جدول ملوك يهوذا بعد خراب السامرة ٣٤٠ حالهم في بابل وإنذار الانبياء لهم ٣٤١ أخبارهم عند عودهم من الجلاء وبعده ٣٥٦ وما يليه. حالهم بعد نحميا إلى اسكندر الكبير ٣٧٠.

بنو عناق أصلهم وتدويخ يشوع لهم ٢٢١.

بنيرار ملك آشور غزوته سورية واحتمال نجدة ياربعام له ٣١٧.

بوعز زوج راعوت ونسبه وولده إلى داود ٢٣٩.

بيت أيل بيت اين موقعها ١٥٤ افتتاح بني يوسف لها ٢٢٧ النبي الكاذب الذي كان فيها ٢٩٢ أخذ أيبا لها من ياربعام ٢٩٤.

بيت حورون بيت أور موقعها ومطاردة يشوع الملوك إليها ٢١٧ تحصين سليمان لها ٢٨٥.

بيت الشطة موقعها ٢٣١.

بيت شمس عين شمس موقعها ٢٤١ ضربة أهلها لإقلال احترامهم لتابوت العهد
ثمة.

بيت فلوى سانور أو المدينة الطويلة موقعها وتضييق اليفانا على أهلها وتنحية يهوديت
لهم ٣٣٣.

بيت كار عين كارم؟ موقعها ٢٤٤.

بيت ملو موقعها ٢٣٢.

بيت نمره تل نمرين بناء بني جاد لها ٢٠٩.

بيت هاوان تل رامة بناء بني جاد لها ٢٠٩.

(ت)

تاباص توباس موقعها ٢٣٢.

تابوت العهد أخذ الفلسطينيون له ٣٤٠ وردّهم له إلى بيت شمس ٣٤١ إخفاء أرميا
له في جبل نبو ٣٦٠.

تانيس (سان) حيث كان موسى يخاطب فرعون ١٨٢ و ١٨٥.

تجلّت فلاصر الأوّل وغزوته سورية ٣٠٤.

تجلّت فلاصر الثاني سنة ملكه ٣١٧ تسمية الكتاب له فول وغزواته سورية وأخذه
الجزية من ملوكها ٣١٩ حربهم له في أرفاد وانتصاره عليهم وإذلالهم ثمة
عوده إلى سورية بدعوة احاز وأخذه مدن فلسطين وسبيه كثيرين من سكّان
دمشق ٣٢٠ نهاية ملكه ثم.

تحفّيس تل دفنه في مصر ونبوات أرميا عليها وما كشف عنه فيها مصداقاً لذلك
٣٣٩.

التحنيط ونوع عمله في مصر ودلالته على تيقّنهم بحياة أخرى ١٧٧.

تدعال أو ترغال ملك الأمم من هو ومن هم ١٥٥.

تدمر بناء سليمان لها وتجارها والباقي من بنائها ٢٨٥.

ترتان قائد سرغون وحصاره أشدود ٣٢٦.
ترشيش سفن ترشيش التي عملها سليمان ما المراد بها ٢٨٧.
ترصة تلوزا موقعها وإقامة بعشا فيها ٢٩٧ قساوة منحيم على أهلها ٢١٩.
ترهاقة ملك مصر والحبشة وحربه مع سنحاريب ٣٢٩ استظهار أسرحدون عليه
٣٣٢ وقهر آشور بانيبال له ثمة.
تسبة مدينة إيليا ٣٠٠.
تقوع موقعها وحرب يوشافاظ فيها ٢٩٩.
تمنة تبتة موقعها مدينة امرأة شمشون ٢٣٥.
توعي ملك حماه حروبه مع ملوك صوبة وتهنئة لداود والعهد بينهما ٢٦٤ تولع
قاضي إسرائيل ٢٣٢.
تية بني إسرائيل موقعه ٢٠٤.

(ث)

ثمنة سارح تبتة موقعها وإعطاؤها ليشوع ٢٢٢.

(ج)

جاد نصيب سبطه في شرقي الأردن ٢٢٢.
جازر موقعها ٢١٩ و ٢٧٧ وفتح يشوع لها وقتل ملكها هورام ٢١٩ ومطاردة داود
الفلسطينيين إليها ٢٦٢ وإعطاؤها مهراً لابنة فرعون امرأة سليمان ٢٧٧
تحصين سليمان لها ٢٨٥.
أرض جاسان موقعها في مصر ١٧٦.
الجبابة وادي الجبابة الحرب بين داود والفلسطينيين فيه ٢٦٢.
جبتون موقعها وحرب ناداب فيها ٢٩٥.

جبع بنيامين جبعة موقعها وتحصين آسا لها ٢٩٧ .
جبع تل الفول موقعها ٢٣٨ و ٢٤٨ وحدث امرأة اللاوي فيها ٢٣٨ وهي موطن
شاول ٢٤٦ إقامة بعض جنوده فيها ٢٤٨ .
جبعون الجب موقعها ومسألة بني إسرائيل أهلها خدعة ٢١٦ جعلهم محتطيين
ومستقي ماء وإهلاك شاول جمأ منهم ثمة و ٢٧٠ التقاء جيش داود
وجيش أشبوشث فيها ٢٦٠ إقامة مذبح الرب فيها ٢٧٨ .
جبل موسى مهبط الشريعة ١٩٦ .
جبل إنزال خشب الأرز منها إلى يافا وكثير من عملة الهيكل كانوا منها ٢٨٠ .
جت ذكرين أو تل الصافي موقعها ٢٢١ و ٢٥٤ وبقاء بني عناق فيها ٢٢١
نقل الفلسطينيين تابوت العهد إليها وضربة أهلها ٢٤١ هرب داود إليها
٢٥٤ حربه فيها مع الفلسطينيين ٢٧١ تحصين راحبعام لها ٢٩٢ هدم
عزريا سورها ٣١٨ .
جت حافر هي مجاد في الجليل ٣٨١ .
جدعون تخليصه بني إسرائيل من المدينيين ٢٣١ .
جدليا إقامة بختنصر له والياً في اليهودية وقتل إسماعيل له ٣٣٨ ، ٣٧٤ .
جرار ام الجرار موقعها ١٦٠ و ٣٩٦ ومطاردة آسا زارح إليها ٢٩٦ .
جشور موقعها ولجوء أبشالوم إلى ملكها ٢٦٧ .
جلبوع جبل جلبون موقعه وحلول جيش شاول فيه ٢٥٨ .
الجلجال موقعها ٢١٣ إصعاد شاول المحرقة فيها دون انتظار صموئيل ٢٤٨ إنذار
صموئيل شاول فيها بشق الملك عنه ٢٤٩ .
جلعاد السلط وقوعها في نصيب سبط جاد ٢٢٢ .
جوزان من أعمال ما بين النهرين وإقامة بني إسرائيل فيه ٣٢٣ .
جولان في سهل الجولان مدينة ملجأ ٢٠٩ .
جليات الجبار قتل داود له ٢٥١ .
جيلو بيت جالا موقعها ٢٦٧ .

(ح)

حاران موقعها ١٢٥.

حاصور موقعها وفتح يشوع لها وقتل ملكها ٢٢٠ مضايقة ملكها لبني إسرائيل وانتصار دابورة وباراق على جنوده ٣٢٠ تحصين سليمان لها ٢٨٥.

حبرون الخليل موقعها وبنائها قتل صوعن في مصر ١٥٤ فتح يشوع لها ٢١٩ أسماؤها القديمة ١٢٣ استيلاء بني يهوذا عليها ٢٢٧ تحصين راحبعام لها ٢٩٢.

حقوق النبي وتفصيل نبوته ٣٨٤.

حجاي النبي وتفصيل نبوته ٣٧٦.

حجر النصر وموقعه ٢٤٠ و ٢٤٤.

حدراك مدينة في سورية وموقعها ٣٨٧.

حدراك موقعها ومحاربة آشور دانييل وآشور نيرار لها ٣١٧.

حروشة الأمم الحرائية موقعها ٢٣٠.

حرمون جبل الشيخ وما سمي به قديماً ٢٠٦.

حزائيل أمر الرب إيليا أن يمسه ملكاً على دمشق ٣٠٢ نبوة اليشاع على ملكه وتسببه بموت ابن هدد ٣١٠ محاربته ليورام ملك إسرائيل وانتصاره عليه ٣١٢ ضربة بني إسرائيل ثمة. خروجه على يواش وانتصاره على جيشه ٣١٤ خروجه على يواحاز وأخذه منه كل ما في عبر الأردن ٣١٥.

حزقيا ملك يهوذا ملكه وعنايته بأمر الدين ٣٢٨ مرضه وبرئه منه رجوع الظل ورد سخرية فولتر من ذلك ثمة. إرسال بروداك بالادان الهدايا إليه ثمة. حملة سنحاريب عليه ٣٢٩ اجراؤه الماء إلى أورشليم والخط الذي كشف دالاً على ذلك ٣٣٠ وفاته ثمة.

حزقيال رؤاه وموته ومدفنه ٣٥٥ غموض سفره وبأية لغة كتب ثمة ، ترجمته وتفصيل نبوته ٣٧٥.

حشبون حسبان فتح بني إسرائيل لها ٢٠٦ تملك بني رأوين لها ٢٠٩ وقوعها في نصيب سبطهم ٢٢٢.
حصاصون تامار موقعها ١٥٥.
حلاح حالا في ما بين النهرين وإقامة بني إسرائيل المجلون فيها ٣٢٣.
حماء جلاء بعض أهلها إلى السامرة ٣٢٤ إيلو بيد ملكها ثمة.
حننيا طرحه في الأتون مع ميشائيل وعزريا ونجاتهم ٣٤٦.
حوريب جبل في سينا موقعه ١٩٣ مضى إيليا إليه ٣٠٢.
الحوريون من هم وضرب كدرلاومر لهم ١٥٥ ملوكهم ١٦٩ مساكنهم ٢٠٥.
الحية النحاسية التي أقامها موسى في البرية وتفنيذ مزاعم الملحدون في شأنها ٢٠٤.
حيرام ملك صور محالفته لداود ١٦١ ومحالفة حيرام الآخر لسليمان وإرساله إليه خشب الأرز ٢٨٠.

(خ)

خابور نهر ما بين النهرين وإقامة بني إسرائيل عنده ٣٢٣.
خباء المحضر وكيف كان ورد لإزعاج الملحدون في شأنه ١٩٩ نصبه في شيلو ٢٢٣
إقامته في جبعون ٢٧٨.
خفرع ملك مصر لإنجاده ملوك سورية على بختنصر ٣٣٨ تنكيل بختنصر به وقهره ٣٣٩.
الختان قدمه وأمر الله إبراهيم به ١٥٨.
الخليل طالع حبرون.

(د)

دابورة تخليصها بني إسرائيل ٢٣٠.

داريوس ملك الفرس (دارا) قتله غوماتوس الجوسي الذي اختلس الملك واختياره ملكاً ٣٥٩ أمره بإتمام بناء الهيكل ومعاونته عليه ٢٦٠ تقسيمه مملكته إلى ولايات وقدر جزيات بعضها وحربه في تراسه وبلاد اليونان ووفاته ٣٦١. دار الثاني واستظهاره على أعدائه ٣٦٩ دارا الثالث وموته قتيلاً في الحرب مع اسكندر الكبير ٣٦٩.

داريوس المادي من هو ٣٥٠.

دان موقعها ١٥٥ و ٢٢٢ أخذ بني دان لها ثمة. أخذ بن هدد لها ٢٩٧. دان بن يعقوب نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢ لإضافتهم إليه دان وموقعها ثمة. دانيال النبي جلاؤه إلى بابل وتلقيه العلوم في مدرسة قصر الملك مع رفقاته حنانيا وميشائيل وعزريا ٣٤٣ تخليصه سوسنة ٣٤٤ تعبيره حلم بختنصر الأول وتسليطه على إقليم بابل ٣٤٥ شهادة الآثار لصحة ذلك ثمة. تعبيره حلم بختنصر الثاني ٣٤٧ تعبيره رؤيا بلشصر ٣٤٨ طرحه في جب الأسد ٣٥٠ الآثار المثبتة له ثمة. كشفه خديعة كهنة بال ٣٥١ قتله التنين ٣٥٢ رؤاه وتفسيرها ٣٥٣ رد مزاعم الملحدين في نبواته ثمة. وفاته وصحة تنزيل سفره وبأية لغة كتب ٣٥٤ ، ٣٧٦.

داود مسح صموئيل له ملكاً ٢٥٠ تفريجه كرب شاول بكفارته وحل المعضلة بجهل شاول له عند قتله جليات ثمة. قتله جليات ٢٥١ حصول النفرة بينه وبين شاول ٢٥٢ قتله مئتي رجل من الفلسطينيين ثمة. وزواجه بابنة شاول ثمة. هربه من وجه شاول وإتيانه إلى احيملك الكاهن وأخذه سيف جليات وأخذه خبز التقدم ٢٥٣ هربه إلى جت ومواب ٢٥٤ تظاهرة بالجنون وهربه إلى مغارة عدلام ثمة. مطاردة شاول له وعفو داود عن قتله ٢٥٥ تخليصه أهل عقيلة ثمة. عفوه ثانية عن قتل شاول ٢٥٧ ما كان له مع نابال وامرأته ثمة. وعوده إلى أكيش ملك جت وتمليك صقلاج ثمة. حربه مع العمالقة ومناحته على شاول ويوناتان وقتله من أخبره بقتلهما ٢٥٩ إقامة بني يهوذا له ملكاً ومخالفة سائر بني إسرائيل ٢٦٠ قتله قاتلي أشبوش بن شاول ثمة. استقلاله في الملك وفتح قلعة صهيون ومحالفته لحيرام ١٦١ نسوته وولده ثمة. حربه في وادي الجبابرة مع الفلسطينيين ٢٦٢ تمنيه الماء من بحر بيت لحم وإتيانه به

فلم يشربه ثمة. نقله التابوت إلى أورشليم واهتمامه ببناء الهيكل ٢٦٣ إخضاعه
الفلسطينيين والموايين وملك صوبا وأرامي دمشق ٢٦٤ مساعدة أحوال مصر
وآشور على انبساط ملكه ثمة. تسمية بنيه كهنة وما معناها ثمة. حربه مع
العمونيين والآراميين ٢٦٥ اثمائه وتوبته ٢٦٦ خروج ابنه أبشالوم عليه ٢٦٧
عوده إلى أورشليم وما كان حينئذ ٢٦٩ المجاعة في أيامه وقتله أبناء شاول
٢٧٠ وقائع أخرى له مع الفلسطينيين ٢٧١ إحصاؤه الشعب وغضب الرب
لذلك ٢٧٢ شيخوخته وتمليك سليمان قبل وفاته ٢٧٣ ما أعدّه لبناء الهيكل
والخدمة فيه ٢٧٤ وصاياه لروساء الشعب ولسليمان ووفاته وزبوره ٢٧٥.
ديبر خربة سراسير موقعها وفتح يشوع لها ٢١٩.
دفقة من محلات بني إسرائيل ١٩٢.
دمشق ولاية ابراهيم فيها ١٥٣ حرب داود مع آراميين وملكها هدد ٢٦٤ ملك
رزون فيها ٢٩٠ جدول ملوكها إلى رصين الثاني ٢٩٧ في أخبارهم طالع
أسماءهم حصار سلمناصر لها وقطع أشجارها ٣١٢ أخذ تجلت فلاصر لها
وسبي بعض أهلها ٣٢٠ إحراق اليفانا حقولها وقطع أشجارها ٣٣٣.
دوتائين تل دوتان موقعها ١٧٠ و ٣٣٣ حلول جيش اليفانا تجاهها ٣٣٣.
دورا التي أقيم فيها تمثال بختنصر ٣٤٦.
ديون ديبان موقعها وبناء بني جاد لها ٢٠٩.
دينة بنت يعقوب وما كان لها في شكيم ١٦٨.
الدينونة العامة أين تكون افي وادي يوشافاظ ام غيره ٣٧٨.

(ر)

راحيل امرأة يعقوب ولادتها بنيامين وموتها ومدفنها ١٦٨.
راحاب البغي وإخفاؤها الجواسيس ٢١٣.
راحبعام بن سليمان ملكه وإنشقاقه ٢٩٢ وانضمام اللاويين إلى مملكته ثم حملة

شيشاق ملك مصر عليه ٢٩٣ نقش صورته في الكرنك وأسماء بعض مدن
فلسطين مطابقة لأسماء المدن التي حصّنها رجبعام ثم وفاته ٢٩٤ .
راعوت المواية وخبرها وسفرها ومن كتبه ٢٣٩ .
الرافائيون من هم ١٥٥ .
راموت جلعاد ريمون مدينة ملجأ ٢٠٩ حرب أحاب وابن هدد عليها ٣٠٦ .
الرامة الرام موقعها وأخذ بعشا لها من آسا واسترداد هذا لها ٢٩٧ .
الرامتائيم صوفيم أو الرامة محل إقامة صموئيل موقعها ٢٤٢ .
رأوبين نصيب سبطه ٢٢٢ .
ربة عمون عمان موقعها ٢٠٦ وقوعها في نصيب سبط جاد ٢٢٢ فتح داود لها
٢٦٥ .
ربة موقعها وأخذ نكو يواحازا إليها ٣٣٧ .
رحوب وبيت رحوب موقعها ٢٠٢ و ٣٦٥ واشتراك أهلها في المحاربة لداود ٢٦٥ .
رزون بن الياداع فنتته على سليمان وتمليكه في دمشق ٢٩٠ تعزيز مملكته ومحالفته
لرجبعام ٣٩٢ .
رصين ملك دمشق اتّفاقه مع فاقح ملك إسرائيل لأخذ مملكة يهوذا ٣٢٠ أخذه
كثيرين من بني يهوذا أسرى ثم تنكيل تجلت فلاصر بيلاده وقتله له ثمة .
رعمسيس الثاني ملك مصر وجود تمثاله ١٧٦ اضطهاده بني إسرائيل وتسخيرهم
ببناء فيتوم ورعمسيس ١٧٩ .
رعمسيس المدينة في مصر موقعها وبناء بني إسرائيل لها ١٧٦ و ١٧٩ .
رفيديم من محلات بني إسرائيل موقعها ١٩٢ .
الرقية وذكرها في الكتاب وغيره ١٨٣ انتشارها في مصر والهند ثمة . الرمون صخرة
رومان موقعها واختفاء بني بنيامين فيها ٢٣٨ .

(ز)

زابلون نصيب سبطه في أرض الموعد ٢٢٢.
زارح الكوشي من هو وخروجه على آسا ملك يهوذا ٢٩٦.
زحلت حجر زحلت موضعه في ضواحي أورشليم ٢٧٣.
زربابل أحد أمراء يهوذا وعوده برأس المجلوس إلى أورشليم ٣٥٦ اباءته الإشتراك مع
السامريين في بناء الهيكل ٣٥٨ عوده إلى بابل وعود كثيرين معه إلى
أورشليم ٣٦٠.
زكريا ملك إسرائيل ملكه ومخالفة شلوم عليه وقتله ٣١٩.
(زكريا النبي وتفصيل نبوته ٣٨٧).
زمرى ملك إسرائيل قتله ايله وقرضه ذرية بعشا وإحراق نفسه ٣٩٨.
الزوزيون من هم وضرب كدرا لعمور لهم ١٥٥ مساكنهم ٢٠٥.
زيف برية زيف تل زيف موقعها وهرب داود إليها ٢٥٥ خيانة أهلها لداود ٢٥٧.

(س)

سارة امرأة ابراهيم ١٥٣ قولها إنها أخت ابراهيم ١٤٥ أخذها إلى دار ابيمالك ملك
جرار ١٦٠ موتها ودفنها ١٦٣.
السامرة بناء عمري لها ٢٩٨ حصار بن هدد لها ٣٠٣ حصاره ثانية لها والمجاعة
فيها ٣١٠ حصار سلمناصر لها ٣٢١ من الفاتح لها أسلمناصر أم سرغون
٣٤٢.
السامريون توراتهم ٤١١ و ٣٢٥ وأصل من جلاهم سرغون إلى السامرة ٣٢٤
ومعبوداتهم وإرسال كاهن إسرائيلي إليهم ٣٢٥.
سان أو صان راجع تانيس.
سبأ ملكة سبأ وإتيانها إلى سليمان ومن هي وما كان من أمرها ٢٨٩.

سبمه سوميا موقعها وتملك بني رأوين لها ٢٠٩ .
سدوم واحتراقها ومحلها القديم ١٥٩ .
سربال جبل سربال في سينا موقعه وهل هو مهبط الشريعة ١٩٦ .
سرغون إقامته ملكاً وهل هو فاتح السامرة ٣٢٢ غزواته في سورية ٣٢٦ .
سرفوت مياه سرفوت صرفند لحاق يشوع أعداءه إليها ٢٢٠ .
جبل سعيير موقعه وسكانه القدماء ١٥٥ و ١٦٩ و ٢٠٥ .
سكوت إحدى مراحل بني إسرائيل موقعها ١٨٦ .
سكوت أو عالا في عبر الأردن موقعها وما عمله جدعون بأهلها ٢٣١ .
سفروائيم موقعها وجلاء بعض أهلها إلى السامرة ٣٢٤ .
سلمناصر الثاني وغزواته سورية ٣٠٤ محاربته حزائيل ملك دمشق ودفع ياهو الجزية إليه ٣١٢ .

سلمناصر الثالث وغزوته سورية ٣١٧ .
سلمناصر الرابع صعوده على هوشع ملك إسرائيل وحصاره السامرة ٣٢١ .
سليمان مسحه ملكاً في حياة أبيه ٢٧٣ اسمه ويواكير أعماله أي قتله أدونيا ويواب
وشمعي الذي لعن داود وخلعه ابياتار من الخبرة ٢٧٦ زواجه بانبه فرعون
وهل كان هذا الزواج محظوراً ٢٧٧ قضاؤه بين المرأتين البغيين ٢٧٨ فؤوقه
أباه وشاول بحكمته وسياسته ثمة. هيئة حكومته وموارد دخله ونفقاته ٢٧٩
عدد مذواد خيله ورد تجني فولتر ثمة. محالفته لحيرام وإرسال هذا خشب
الأرز إليه ٢٨٠ بناؤه الهيكل ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٨٣ باقي أبنيته في أورشليم
٢٨٤ جؤه الماء إلى أورشليم من البرك المنسوبة إليه ثمة. جنّته في عتّان
ووادي أرتاس ثمة. أبنيته في غير أورشليم ٢٨٥ بناؤه بعة وهل هي بعلبك
٢٨٦ تجارته ٢٨٧ و ٢٨٨ إتيان ملكة سبأ إليه وأحاجيها وهداياها ورد
هذيان فولتر ٢٨٩ أثامه وإثارة الرب الفاتنين عليه ٢٩٠ وفاته وما كتبه
٢٩١ أتاب وخلص أم أصر وهلك ثمة.

السلوى إلقاؤها على بني إسرائيل وما هي ١٩١ و ٢٠٠ .

سمرديس بن كورش إقامة أبيه له والياً على الأقاليم الشمالية وقتل أخيه كمبيس له
سراً وأدعاء مجوسي بأنه هو وملكه في بابل ٣٥٩.

سنحاريب بن سرغون سنة ملكه وآثاره وحملته على حزقيا وقتل ملاك الرب كثيراً
من جيشه وقتل ابنه له ٣٢٩ لإثبات ذلك بآثاره وقرائن أخرى ثمة. سهل
الراحة حيث حلّ بنو إسرائيل في طورسينا ١٩٩.

سو ملك مصر ولايته الحبشة ثم مصر ولجوء هوشع ملك إسرائيل إليه ٣٢١ وحربه
مع سرغون ٣٢٦.

سوريق وادي سوريق حيث قبض الفلسطينيون على شمشون ٢٣٧.
سوسنة إتهامها والقضاء عليها وتخليص دانيال لها والصورة التي تمثلها ٣٤٤ من
كتب خبرها وترجماته القديمة ثمة.

سوكو خربة الشويكة موقعها ٢٥١ الحرب مع الفلسطينيين فيها عند قتل داود
جليات ثمة.

سيحون ملك الأموريين ضرب موسى له ٢٠٦ وجود تمثاله ثمة.

سيسرا رئيس جيش ملك حاصور وقتل ياعيل له ٢٣٠.

سينا شبه جزيرة سينا تخومها وجبالها وأرضها ومن بحث فيها ١٨٨.

(ش)

شابع بن بكري وثورته على داود ٢٦٩.

شاوول إقامة صموئيل له ملكاً على إسرائيل ٢٤٦ ما معنى أنّه تنبأ وإقامته مدارس
الانبياء أي المعلمين ثمة. محاربته ناحاش ملك العمونيين ٢٤٧ محاربته
الفلسطينيين ٢٤٨ تهديد صموئيل له بخلعه من الملك ثمة. وحربه مع
الموابين والعمونيين وملوك صوبا ثمة. حربه مع العمالقة ٢٤٩ مخالفته أمر
الرب بعدم إبادةهم وإنذار صموئيل له ثمة. اعتراء داء الملنخوليا له ٢٥٠
حربه مع الفلسطينيين عند قتل داود جليات ٢٥١ حصول النفرة بينه وبين

داود ٢٥٢ معاودة دائه له ثمة قتله كهنة نوب ٢٥٤ مطاردته لداود وعفو
داود عن قتله في عين جدي ٢٥٥ عفو ثمانية عن قتله في برية زيف ٢٥٧
محاربة الفلسطينيين له ٢٥٨ استشارته عرافة عين دور وظهور صموئيل له
وأقوال العلماء في ذلك ثمة. انتحاره بعد جرحه ثمة. مناحة داود عليه
٢٥٩ قتل داود أبناءه بدم الجيعونيين ٢٧٠.
شكيم سوخار نابلس ١٥٣ كانت مدينة ملجأ ٢٢٢ تحصين ياربعام لها وجعلها
عاصمة ملكه ٢٩٢.
شلوم ملك إسرائيل ملكه شهراً وقتل منحيم له ٣١٩.
شمجر قاضي إسرائيل قتله ستمائة رجل من الفلسطينيين ٢٢٩.
شمرون سمونية موقعها وملكها من المعتصمين على يشوع ٢٢٠.
شمشون مولده وزواجه ٢٣٥ الرد على ناكري اشتياريه العسل من جوف الأسد
ثمة. إحراقه زروع الفلسطينيين عليه وموته ٢٣٢ وجود مدفنه ثمة. شمعون
نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢.
شونم سونم موقعها وحلول جيش الفلسطينيين فيها عند محاربة شاول ٢٥٨.
شوى قريناثيم موقعها ١٥٥.
شيشاق ملك مصر وهرب ياربعام إليه ٢٩٠ حملته على رحبعام ملك يهوذا ٢٩٣.
شيلو خربة سيلون نصب خباء المحضر فيها وموقعها ٢٢٣ أخذ الفلسطينيين تابوت
العهد منها ٢٤٠.

(ص)

صبوعين وادي صبوعين موقعه ٢٤٨.
صدقيا ملك يهوذا وإقامة بختنصر له ملكاً ٣٣٨ تمردده عليه وحصار أورشليم
والقبض عليه وقتي بختنصر عينيه وأخذه إلى بابل ثم ذهاب بناته إلى مصر
٣٣٩ ، ٣٧٤.

صرود عين صرود موقعها ٢٣١.
 صرعة مدينة شمشون موقعها ٢٣٥.
 صفات أو صفاته موقعها ٢٢٧ و ٢٩٦ وأخذ بني يهوذا وشمعون لها ٢٢٧ حرب
 آسا فيها ٢٩٦.
 صفنيا النبي وتفصيل نبوته ٣٨٥.
 صفورة امرأة موسى وإنقاذها لإياه من الهلكة ١٨١ كلام هرون ومريم على موسى
 بسببها ٢٠١.
 صقلاج موقعها وإقامة داود فيها ٢٥٧.
 صلفحاد طلب بناته أرث أبيهما ٢٠٩.
 صموئيل مولده وخدمته في بيت الرب في شيلو ٢٤٢ تجلي الرب له وإعلامه بما
 يحل بعالي ثمة. الأسفار المنسوبة إليه ٢٤٣ انتصار بني إسرائيل بإرشاده على
 الفلسطينيين ٢٤٤ إلحاح بني إسرائيل عليه بإقامة ملك عليهم ٢٤٥ تقليد
 أبنيه القضاء ثمة. توليته شاول ملكاً على إسرائيل ٢٤٦ إنذاره له بأخذ
 الملك منه ٢٤٨ و ٢٤٩ مسحه داود ملكاً ٢٥٠ وفاته وفضائله وما كتبه
 وإنشأه مدرسة الانبياء ٢٥٦.
 صوبا المزة على قول بعضهم ١٥٥.
 صوبة مملكة صوبة وموقعها وإذلال داود ملكها ٤٦٤.
 صور وملكها حيرام طالع حيرام وسليمان حصار آشور بانيبال لها وظفره بها ٣٣٢
 حصار بختنصر لها ٣٣٨.
 صوعر التي هرب لوط إليها من سدوم ١٥٩.
 صيباقيم بيت شاول إتيانه إلى لقاء داود وسعايته بمولاه ٢٦٩.
 صيدا لحاق يشوع أعداءه إليها ٢٢٠ أخذ سنحاريب ملك لولي ملكها ونصبه توبعل
 مكانه ٣٢٩ تدمير أسرحدون لها ٣٣٢ حصار ارتخششتا الثالث لها وإحراق
 أهلها أنفسهم ٢٦٩.

(ط)

- الطاووس من سلع تجارة سليمان واول دخوله من آسيا إلى أثينا ٢٨٨.
طبات موقعها ٢٣١.
طوب موقعها ٢٣٣.
طوب مملكة طوب موقعها وحرب أهلها مع داود ٢٦٥.
طويا البار سفره ومن كتبه وخلاصته ٣٤٢ حل ما فيه من الإشكال واختلاف روايات ترجماته وتوفيقيها مع الآثار ثمة.

(ع)

- عالي الخبر من ذرية ايتامار بن هرون وضعفه مع ابنه وأخذ الفلسطينيين تابوت العهد في أيامه وموته ٢٤٠.
عاموس النبي وتفصيل نبوته ٣٧٩.
عبدون قاضي إسرائيل ٢٣٣.
اللغة العبرانية المكتوبة بها التوراة ٢١١.
عتاب موقعها وقرض بني عناق فيها ٢٢١.
عتاتوت موطن ارميا ٣٧٤.
عتان جنة سليمان ٢٨٤.
عتيشيل قاضي بني إسرائيل وتخليصه لهم من كوشان ملك ارام ٢٢٨.
عتليا أم أحزيا ملك يهوذا إهلاكها جميع النسل الملكي واستبدادها بالملك وقتلها ٣١٣.
عجلون موقعها وملكها دبير من المتألبين على يشوع ٢١٧ فتح يشوع لها ٢١٩.
عجلون ملك مواب وتنكيله ببني إسرائيل وقتل أسود له ٢٢٩.

عدلام خربة خريتون موقعها وهرب داود إليها ٢٥٤.
عراير عراير فتح بقني إسرائيل لها ٢٠٦ و ٢٠٩ وقوعها في نصيب سبط رأوين
٢٢٢.

العرب المستعربة والعرب العاربة ١٦١ انتصار عزريا على العرب ٣١٨.
عزرا الكاتب ونسبه وسفره إلى أورشليم ٣٦٢ حظره على بني إسرائيل الزواج
بالأجنبيات ٣٦٣ تنمة أخباره والأسفار المنسوبة إليه ٣٦٤.

عزريا أو عزيا يهوذا ملكه واستظهاره على الفلسطينيين ٣١٨ نصرته على العرب
والمعونين وإذلاله العمونيين وتحصينه أورشليم وعمله المنجنيقات ثمة. ابتلاؤه
بالبرص وموته ثم رياسته عصبة المتحالفين على تجلّت فلاصر ٣١٩.

عزريا طرحه مع رفيقيه في الآتون ونجاتهما ٣٤٦.
عزيقة موقعها ٢١٧ و ٢٥١ ومطاردة يشوع الملوك إليها ثمة. قتل داود جليات عند
الحرب فيها ٢٥١.

عسقلان افتتاح بني يهوذا لها ٢٢٧ جلاء سنحاريب بعض أهلها مع ملكها زدقا
٣٢٩.

عسلين حيث مدفن شمشون موقعها ٢٣٧.
عشثروت قرنائيم موقعها ١٥٥ تل عشثرة في الجولان ووقعها في نصيب نصف
سبط منسى ٢٢٢.

عصيون جابر موقعها ٢٠١ عمل سليمان وحيرام السفن فيها ٢٨٧ غرفة مدينة
جدعون فرعاتا ٢٣١ الأفود الذي صاغه جدعون فيها ثمة.

غفرة الطيبة موقعها ٢٤٨ أخذ أيا لها من ياربعام ٢٩٤.
عقرون عاقر افتتاح بني يهوذا لها ٢٢٧ نقل الفلسطينيين تابوت العهد إليها وضربة
أهلها ٢٤١ تسليم أهلها ملكهم بادي إلى حزقيا وقسوة سنحاريب عليهم
٣٢٩.

عقيلة موقعها وتخليص داود أهلها ٢٥٥.

العمالقة من ذرية من هم وضرب كدرلاعومر لهم ١٥٥ و ١٩٤ محاربة شاول لهم
٢٤٩ محاربة داود لهم ٢٥٩.

عمان طالع ربة عمون.

عمري ملك إسرائيل وبنائوه السامرة ومحالفته ملك يهوذا وملك صور ٢٩٨ وزواج
ابنه آحاب يايزابيل بنت ملك صور وموته ثمة.

العمونيون أصلهم ١٥٩ ٢٠٥ ونهي الرب بني إسرائيل عن محاربتهم ٢٠٥
مضايقتهم بني إسرائيل وإذلال يفتاح لهم ٢٣٣ تشتيت شاول شملهم
وقتل ملكهم ناحاش ٢٤٧ حربهم مع داود ٢٦٥ خروجهم على يوشافاط
٢٩٩ استرداد ياربعام بلادهم إلى مملكة إسرائيل ٣١٧ إذلال عزريا لهم
٣١٨.

عناتوت عيناتا موقعها ٢٧٦.

عوا موقعها وجلاء بعض أهلها إلى السامرة ٣٢٤.

عوبديا النبي وتفصيل نبوته ٣٨٠.

عوج ملك باشان وضرب موسى له ٢٠٦ أصل مملكته وموقعها ثمة.

عيسو مولده ١٦٦ بيعة بكريته ثمة. تزوجه بامرأتين حثيتين وبابنة عمه اسمعيل ثم
لقياه أخاه يعقوب عند عودته من حران ١٦٧ نساؤه وولده ١٦٩ تسميته
ادوم ثمة. ووفاته ثمة. استمرار ادوم في ملك ولده إلى أيام موسى ٢٠٣.

عيطم صخرة عيطم وإقامة شمشون فيها ٢٣٦.

عيلام بن سام أبو قبيلة العيلاميين وغزوات ملوكهم سورية ١٥٥.

عين جدي موقعها وما كان بين داود وشاول فيها ٢٥٥.

عين دور موقعها وإستشارة شاول العرافة فيها ٢٥٨.

عين مشفط إي قادش موقعها ١٥٥.

عيون تل دبين موقعها وأخذ بن هدد لها ٢٩٧.

العين المختومة موقعها ٢٨٤.

عيون موسى موقعها ١٨٩.

(غ)

غزة إفتتاح بني يهوذا لها ٢٢٧ إقتلاع شمشون بابها ٢٣٧ أخذ تجلت فلاصر لها
٣٢٠ حرب سرغون لها وقبضه على ملكها حنون ٣٢٦.
غور السديم في جهة سدوم موقعه ١٥٥.
غيضة حارث موقعها وعود داود من مواب اليها ٢٥٤.

(ف)

فاران مدينة سينا ١٩٤ برية فاران موقعها ٢٠١.
فاقح ملك إسرائيل قتله فقحيا وأخذه الملك وإتفاقه مع ملك دمشق على أخذ مملكة
يهوذا ٣٢٠ قتله من بني يهوذا مئة وعشرين ألفاً وأخذه منهم أسرى ثمة.
وتنكيل تجلت فلاصر بيلاده وقتل هوشع له ثمة.
فتور مدينة بلعام موقعها ٢٠٧.
فرعتون فرعون موقعها ٢٣٣.
فرعون الذي كانه في أيام ابراهيم ١٥٤ من هو فرعون الذي استوزر يوسف ١٧٢
فرعون الخروج طالع كلمة منفثا فرعون حمو سليمان ٢٧٧.
الفسجة راس السياغة من حيث رأى موسى أرض الموعد ٢١٠.
الفصح خروف الفصح أمر الله بذبحه ١٨٣.
فقحيا ملك إسرائيل ملكه ومخالفة فاقح عليه وقتله ٣٢٠.
فلسطين بلاد فلسطين حالتها في أيام يشوع وعن آثار مصر ٢١٢.
الفلسطينيون قتل شجر منهم ست مئة رجل ٢٢٩ أصلهم ومن أين أتوا وأقوال
العلماء بهم ٢٣٤ إفتتاحهم صيدا وهل هم حاميون أو يافتيون ثمة. تنكيل
شمشون بهم ٢٣٥ و ٢٣٦ و ٢٣٧ حربهم مع بني إسرائيل في أيام عالي
وأخذهم تابوت العهد ٢٤٠ ضربات الله لهم لذلك وردهم التابوت ٢٤١

صورة داجون معبودهم ثمة. محاربتهم بني إسرائيل في عهد صموئيل ٢٤٤
محاربة شاول لهم ٢٤٨ تشتيت شملهم عند قتل داود جليات ٢٥١
محاربتهم لشاول وقتلهم له ٢٥٨ حربهم مع داود في وادي الجبابرة ٢٦٢
إذلال داود لهم ٢٦٤ وقائع أخرى لهم مع داود ٢٧١ ثورتهم على يورام
٣١١.

فم الحيروت محطة بني إسرائيل موقعها ١٨٦.
فنجاس قتله الإسرائيلي والمدينة ٢٠٧ انتصاره على المدينيين ثمة.
فنوئيل في عبر الأردن موقعها وما عمله جدعون بأهلها ٢٣١ تجديد ياربعام بناءها
٢٩٢.

وادي فيران في سينا ١٩٢ و ١٩٤.
الفيلك طالع أفيق.

(ق)

قادش من محلات بني إسرائيل ٢١٠.
قادش في الجليل مدينة ملجأ ٣٢٢ موقعها ٣٣٠.
قبور الشهوة موقعها ٢٠٠.
قبرص ضم سرغون لها إلى مملكته ٣٢٦ استحوذ أرتمششتا الثاني عليها ٣٦٩.
قرية يعاريم أبو غوش موقعها ٢١٦ نقل تابوت العهد من بيت شمس إليها ٢٤١
نقله منها إلى أورشليم ٢٦٣.
قضاة بني إسرائيل السفر المنسوب إليهم ومتى كتب ومن كتبه وعلى ما احتوى
٢٢٥ مدة قضااتهم وجدول منبئ بسنيهم ٢٢٦ أحداث في مدة قضااتهم
٢٣٨ في الأحداث في أيامهم طالع اسم كل منهم.
قطورة امرأة ابراهيم ١٦٥.
قليمون تل قليمون موقعها ٣٣٣.

قورح وثورته مع أصحابه ٢٠١.

قورش ملك الفرس انتصاره على استياج ملك الماديين ٣٤٥ دخوله إلى بابل ثمة.
أمره بعود بني إسرائيل إلى فلسطين ٣٥٦ أمره برد آنية الهيكل إليه ثمة.
آثاره المؤيدة قول الكتاب ٣٥٧ لم يكن موحداً كمذهب الفرس بل كان
يجل الهة الكلدان ثمة. ولم يكن مبيداً الأصنام كما كان سنداً إلى آيات
من الكتاب ثم مقتله في حرب التتر ٣٥٩.

قرتائيم القرية موقعها وتملك بني رأوين لها ٢٠٩.

قيشون النهر المقطع حيث ذبح إيليا كهنة البعل ٣٠١.

(ك)

كالب ابن يوفنا وجسه أرض الموعد وإغراؤه بني إسرائيل على أخذها ٢٠٢ إعطاؤه
صحراء الخليل ميراثاً ٢٢٢ و ٢٢٧.

كدرلاعومر ملك عيلام ومحاربة ابراهيم له ١٥٥.

الكديرة طالع العاي.

خربة الكرمل حيث أقام شاول نصباً موقعها ٢٤٩.

كركميش استحواذ نكو ملك مصر عليها ٣٣٦.

نهر كريت الذي أقام عنده إيليا ٣٠١.

كفيرة خربة قفيرة موقعها ٢١٦.

كلوني طالع وادي البطمة.

كمبيس بن كورش ملك فارس مدّة ملكه وتوقيفه بناء الهيكل ٣٥٨ حملته على
مصر وإنجاد الفينيقيين له على غير إخوانهم في قرطاجنة وسياسته في مصر
وعوده مجنوناً من حملته على الحبشة وموته ٣٥٩.

كنروت أبو شوشة موقعها ونسبة بحيرة جناشر إليها ٢٢٠.

كوت مدينة في عمل بابل وجلاء سرغون من أهلها إلى السامرة ٣٢٤ تسمية السامريين كوتيين ثمة.

كوشان رشعائيم ملك آرام من هو وتسلمه على بني إسرائيل ٢٢٨.
كيخسرو ملك الفرس ائخانه بالمصريين وتذليله أهل بابل وحربه اليونان وإحراقه أثينا واغتياله ٢٦١.

كيخسرو الثاني وقتل أخيه له ٢٦٩.

(ل)

اللاويون المدن التي أعطوها ٢٠٩ لم يعطوا سهماً معيناً بل قرى مشتتة في كل سبط ٢٢٢.

لاكيش أم ألاكيس موقعها وملكها فرآم ٢١٧ افتتاح يشوع لها ٢١٩ حرب سنحاريب لها ٣٢٩.

لبنة موقعها وفتح يشوع لها ٢١٩ حرب سنحاريب لها ٣٢٩ لبنة التي تمرّدت على يورام موقعها ٣١١.

لبنان خشب أرزه ٢٨٠ إخضاع سليمان الكنعانيين في أنحائه ٢٨٥.

رامة لحي حيث ألقى شمشون لحي الحمار موقعها وتفسير الآية ٢٣٦.
لوز موقعها ٢٢٧.

لوط ابن من هو ١٥١ انتزاحه عن عمه ابراهيم وإقامته في جهة سدوم مع بنتيه وما كان منهما ١٥٩.

(م)

مادون خربة مادين وملكها يوباب من المعتصبين على يشوع ٢٢٠.

مارة عين حوارة في سينا ١٨٩.

ماكير بن منسا بن يوسف تملك بنيه جلعاد ٢٠٩ .

مجدو موقعها تحصين سليمان لها وأهميتها عند القدماء ٢٨٥ قتل نكو يوشيا فيها ٣٣٦ .

مجدول محطة بني إسرائيل موقعها ١٨٦ .

محنائيم محنة وإقامة أشبوش بن شاول بعد تملكه فيها ٢٦٠ إقامة داود فيها عند هربه من وجه ابشالوم ٢٦٧ .

المدينيون أصلهم وشيء من تاريخهم ١٦٥ و ١٨١ و ١٩٥ إغواء بناتهم بني إسرائيل ٢٠٧ إنتصار فنجاس على ملوكهم ٢٠٧ الغنائم التي أخذت منهم ثمة. ورد زعم الملحدين ثمة مضايقتهم لبني إسرائيل وانتصار جدعون عليهم ٢٣١ .

مردكاي عم استير رفعة مقامه عند أرتخششتا وتخليصه اليهود بواسطة استير ٣٦٨ .

مروداك بلادان ملك بابل هداياه لحزقيا وشيء من تاريخه ٣٢٨ إذلال سنحاريب له ٣٢٩ .

مريشة موقعها وحرب آسا فيها مع زارح الكوشي ٢٩٦ .

مريم أخت موسى ١٨٠ لم تتزوج ١٩٤ و ٢٠٢، تكلمها في موسى أخيها وبرصها وبرؤها ٢٠١ وفاتها ٢٠٢ .

مصر وجود الخيل والجمال فيها ١٥٤ و ١٧٤ ذكر الحصيان في آثارها وآداب نسائها ١٧١ واعتبار الأحلام عند وجهائها وقدم الكرم فيها واستعمال الخمر فيها ثمة عادة التحلي بالخاتم والطوق فيها ١٧٢ المجاعة فيها أيام يوسف وغيرها ١٧٣ ملك الأرض فيها للملك ١٧٤ استعمال التفائل بالاجوم فيها ١٧٥ اعتبار الرعاة أرجاساً فيها ١٧٥ وثوب الليبيين عليها ١٨٢ ضرباتها في أيام موسى ١٨٣ عبادة أهلها الضفادع والنيل وجعلهم بعض الحيوان مثلاً للاله ثمة. إثبات آثارها للتوراة ٢١١ ولوع أهلها بالخيال في أيام بعض دولها ٢٨٧ بعض ملوكها ٣٢١ افتتاح اسرحدون لها وقسمتها إلى ٢٥ ولاية ٣٣٢ حملة آشور بانيبال عليها ثمة. استقلالها عن ولايته ٣٣٤ و ٣٣٥ * خروج ملكها على ملك آشور ٣٣٦ ظفر بختنصر بجنوده وعقدة

عهدة بينهما ٣٣٧ عود بختنصر إليها وقهره خفرع ملكها ٣٣٩ نبوات
حزقيال على ذلك وأثباته بالآثار ثمة.

المصنعات أرض المصفاة البقاع واعتصاب أهلها على يشوع ٢٢٠.
المصفاة سوف في عبر الأردن موقعها ٣٣٣ هرب داود إليها واقامته أباه وأمه عند
الملك فيها ٢٥٤.

المصفاة التي كان يتردد إليها صموئيل شعفات الآن موقعها ٢٤٤ تمليك شاول فيها
٢٤٦ تحصين آسا لها بحجارة الرامة ٢٩٧.

معون برة معون تل معين موقعها وهرب داود إليها ٢٥٥.

المغارة المضاعفة ومن دفن فيها ومن زارها ١٦٣.

مفيبوش بن شاول واعطاء داود بعض حقوله لصيباقيم بيته ٢٦٩.

مقيدة المغار موقعها واختفاء الملوك فيها من وجه يشوع ٢١٧.

مكماش مخماس موقعها واقامة شاول جنوده فيها ٢٤٨.

ملخيا النبي وتفصيل نبوته ٣٨٨.

ملكي صادق من هو والتقاؤه ابراهيم وتقدمته ١٥٦.

ملكاهم ملك العمونيين وتاجه والرد على فولتر به ٢٦٥.

ملو وايد في اورشليم ردم داود له ٢٦١.

الملوك أسفار الملوك من كتبها ٢٤٣ و ٢٧٣.

منحيم ملك إسرائيل ملكه وقسوته على أهل ترصة ٣١٩ اعطاؤه الفضة لملك آشور
لينصرف عنه ثم ودفعه الجزية وموته ثمة.

منسا بن حزقيال ملك يهوذا وعبادته الأوثان وقتله كثيرين ٣٣١ وأخذه أسيراً إلى
بابل وعوده إلى ملكه وأثبات ذلك بالآثار الآشورية ثمة. حملات أسرحدون

وأشور بانيال على سورية ومصر في أيامه ٣٣٢ قتل يهوديت اليفانا في
عهده ٣٣٣ و ٣٣٤ وفاته وخلافة ابنه أمون له ٣٣٥.

منسا نصيب سبطه ٢٢٢.

منفتاح بن رعمسيس فرعون الخروج ١٨٢ قساوة قلبه على ضربات الله وموت بكره
والآثار الدالة عليه ١٨٣ لم يغرق مع جنوده في البحر الأحمر ١٨٧ .
المن انزاله على بني إسرائيل وما كان والفرق بينه وبين المن الشجري ١٩٠ .
منيت موقعها ٢٣٣ .

المواييون أصلهم ١٥٩ نهى بني إسرائيل عن محاربتهم ٢٠٥ اغواء بناتهم بني
إسرائيل ٢٠٧ قتل بني إسرائيل منهم نحو عشرة آلاف ٢٢٩ تبديد داود
شملهم وقتله وأسره كثيرين منهم ٢٦٤ خروجهم على يوشافاط ٢٩٩
تردهم على احزيا ملك إسرائيل ٣٠٧ ثورة ميشاع ملكهم على يورام
٣٠٨ .

جبل مورية في أورشلیم ١٦٣ .

موسى مولده ومنشأه في بيت فرعون وفراره من مصر ١٨٠ وإقامته في مدين
وزواجه وعوده إلى مصر ١٨١ وإرادة الملاك قتله لإهماله ختان ابنه ثمة.
طلبه إلى فرعون لإطلاق بني إسرائيل ١٨٢ الضربات التي أنزلها بمصر ١٨٣
شق البحر الأحمر وإجازة بني إسرائيل ١٨٧ تحليته الماء لبني إسرائيل ١٨٩
استنزاه المن والسلوى وإجراؤه الماء من الصخرة ١٩١ و ١٩٣ حربه مع
العمالقة ١٩٤ إتيان حميه إليه ومشورته عليه في القضاء ١٩٥ تنزيل الله
السنة عليه ١٩٧ إثبات كونه كتب السنة خلافاً للملحدين ثمة. كسره
لوحى الوصايا وسحقه عجل الذهب وقتله كثيرين من الشعب ١٩٨ عمله
خباء المحضر ١٩٩ إخراج الماء من الصخرة ثانية والقضاء عليه أن لا يدخل
أرض الموعد ٣٠٢ إرساله الجواسيس إلى أرض الموعد ثمة. إقامته الحية
النحاسية ٢٠٤ ضربه سيحون وعوج ٢٠٦ قسمته غنائم مدين ٣٠٨ تمليك
بعض بني إسرائيل الأرض التي في شرقي الأردن ٢٠٩ تعليمه بني إسرائيل
قسمة الميراث ثمة. إحصاءه الشعب وتسليمه قيادتهم إلى يشوع بن نون
ومواعظه الأخيرة وموته ٢١٠ الأسفار التي كتبها وإثبات صحتها ونسبتها
إليه ٢١١ وجود شيء منها بخطه في أيام يوشيا ٣٣٦ .

مياه ميروم بحيرة الحولة وضرب يشوع الملوك عندها ٢٢٠ .

ميخا عمله الصنم الذي أخذه بنو دان وعبدوه ٢٣٨ ،
ميخا النبي وتفصيل نبوته ٣٨٢ .
ميدبا موقعها ٢٠٩ وقوعها في نصيب سبط رأوين ٢٢٢ .
ميشائيل طرحه مع رفيقه في الأتون ونجاتهم ٣٤٦ .
ميشاع ملك مواب وثورته على يورام ملك إسرائيل ٣٠٨ صحيفته ومن كشف
عنها وما تضمنته ومطابقته لكثير من آي الكتاب ٣٠٩ .
ميكال ابنة شاول وامرأة داود هزؤها به لرقصه أمام التابوت وعدم ولادتها ولدأ
٢٦٣ .

(ن)

ناهوت اختلاس آحاب كرمه وقتله ٣٠٥ .
نابونيد ملك بابل ٣٤٨ و ٣٤٩ تحصينه بابل ثمة .
ناتان النبي إنذاره لداود ٢٦٦ .
ناداب ملك إسرائيل ملكه ومحالفته بعشا وقتله ٢٩٥ .
نبو موقعها وتملك بني إسرائيل لها ٢٠٩ .
النبي معنى الكلمة في الكتاب ٢٤٦ ، النبي تعريفه ٣٧١ .
النبوة تعريفها وشرايطها وإثبات امكانها ووجودها ٣٧١ .
الانبياء عددهم وقسمتهم وسني نبواتهم ٣٧٢ .
نحوم النبي زمانه ونبوته على تاب ٣٣٢ ، ٣٨٣ .
نحميا إرسال أرتحششتا له إلى أورشليم وبناء أسوار أورشليم ٣٦٥ استئصاله بعض
العوائد السيئة من قومه ٣٦٦ إنشاؤه مكتبة ثمة .
نركليسور ملك بابل ٣٤٧ و ٣٤٩ .
نفتالي نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢ .

النقود المصكوكة ومتى ذكرها الكتاب ١٦٣ .
نكو رئيس ولايات مصر أولاً ثم ملكها ٣٣٢ .
نكو الثاني ملك مصر خروجه على ملك آشور واستحواده على كركميش وقتله
يوشيا ٣٣٦ ، قبضه على يواحاز ملك يهوذا وأخذه أسيراً ٣٣٧ ، ٣٧٤ .
نمرين تل نمرين طالع بيت نمره .
نوامون أي مدينة الآله امون وهي تاب عاصمة مصر العليا وهي المقصودة بقول
نحوم النبي ٣٣٢ ، ٣٨٣ .
نوب بيت نوبا أو عنابي موقعها وإتيان داود إلى احيملك فيها ٢٥٣ قتل شاول
كهنتها وأهلها ٢٥٤ .
نينوى انذار يونان أهلها ومن كان ملكها طالع يونان . خرابها وكيف كان ٣٣٦ ،
٣٨٥ .

(هـ)

هاجر ام اسمعيل ١٥٧ .
هام مدينة الزمزميين موقعها ١٥٥ .
هامان وشايتة باليهود وموته مصلوباً بواسطة استير ٣٦٨ .
هدد ملك دمشق وحربه مع داود ٢٦٤ .
إبن هدد وخروجه على مملكة إسرائيل ٢٩٧ وخلفائه ثم خروجه على أحاب
وإنكساره ٣٠٣ حربه مع أحاب وقتله له ٣٠٦ حربه مع يورام ابنه وهرب
جنود ابن هدد وموته ٣١٠ .
هرون مولده ١٨٠ مخاطبته فرعون مع موسى طالع كلمة موسى . سبكة عجل
الذهب وهل اثم بذلك ١٩٨ وفاته ومدفنه ٢٠٣ .
هور جبل هور موقعه ٢٠٣ .

هوشع ملك إسرائيل ملكه بعد قتله فاقح وصعود سلمناصر عليه وأخذه مكتوفاً
٣٢١.

هيكل أورشليم متى جدده زربابل ٣٨٦.
هيكل سليمان سنة بنائه وجداول تلاحظ ذلك ٢٨١ محله وهيئته ٢٨٢ تدشينه
٢٨٣ تجديد بنائه بعد العود من الجلاء ٣٥٨ و٣٦٠.
هدد الادومي وثورته على سليمان ٢٩٠ و٢٩٧.

(ي)

يائير الجلعاوي قاضي إسرائيل ٢٣٢.
يائيش جلعاوي وموقعها ونزول ملك العمونيين عليها ٢٤٧ أخذ أهلها جثث شاول
وبنيه عن سور بيسان وإحراقها ودفن عظامها ٢٥٨.
ياين ملك حاصور رئيس العصبة على يشوع ٢٢٠ يابن الآخر مضايقته بني إسرائيل
٢٣٠.
ياربعام بن نباط ثورته على سليمان ٢٩٠ ملكه في مملكة إسرائيل ٢٩٢ صنع
عجلي الذهب ثمة. وإقامته كهنة من لفيف الشعب ويس يده وهو يبخر
ثمة.

حربه مع ايبا ملك يهوذا ووفاته ٢٩٤.
ياربعام الثاني ملك إسرائيل ملكه وإستظهاره على ملك دمشق وإسترداده بلاد
العمونيين والموابين إلى إسرائيل ٣١٧ علة فوزه بذلك وموته ثمة
ياعيل قاتلة سيسرا وتبرئتها ٢٣٠.
ياهو امر الرب إيليا أن يمسه ملكاً ٣٠٢ ملكه وإبادته بيت احاب وقتله ايزابل
وكهنة البعل ٣١٢ إلتجاؤه إلى ملك اشور على حزائيل ودفعه الجزية
لسلمناصر وموته ثمة
بينه موقعها وهدم عزريا سورها ٣١٨.

يبوق نهر الزرقاء ٢٠٦.

يترون (شعيب) حمو موسى ١٨١ إتيانه إليه في البرية ومذهبه الديني ١٩٥.

يجيبه خربة الجبيهة بناء بني جاد لها ٢٠٩.

يرموت يرموك موقعها ٢١٧.

يزرعيل زرعين موقعها وحرب شاول والفلسطينيين فيها ٢٥٨ بناء احاب قصرأ فيها ٣٠١.

يساكر نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢.

يشافه موقعها وأخذ اييا إليها من ياربعام ٢٩٤.

يشوع بن نون حربه مع العمالقة ٩٤ جسسه أرض الموعد وإغراؤه لبني إسرائيل على أخذها ٢٠٢ تسليم موسى قيادة الشعب إليه ٢١٠ السفر المنسوب إليه ٢١٢ ما أعدّه الله له ثمة: عبوره الاردن ببني إسرائيل ٢١٣ وختنه الشعب ثمة. فتحه اريحا ٢١٤ وأخذه العي ٢١٥ مسالته أهل جبعون تألب ملوك الجنوب عليه وتشيت شملهم ٢١٧ إيقافه الشمس والقمر عن مسيرهما وشرح ذلك ٢١٨ اعتصاب ملوك شمالي فلسطين عليه وتشيت شملهم ٢٢٠ محاربتة بني عناق وتدويخه مدنهم ٢٢١ قسمته الأرض على بني إسرائيل ٢٢٢ إعطاؤه ثمة سارح ثمة. وفاته وتحقيق محل مدفنه ومثاله ٢٢٤.

يعزير موقعها وتملك بني جاد لها ٢٠٩ و٢٢٢.

يعقوب مولده وشراؤه بكرية عيسو وهل اثم بذلك ١٦٦ ذهابه إلى حاران وزواجه وولده ١٦٧ رويته السلم في المحل الذي سماه بيت ايل وما عمله بغنم حميه لابان وتفسير كل من اسماء بني ثمة. قتل ابنيه شمعون ولاوي أهل شكيم ١٦٨ انحداره باسرتة إلى مصر ١٧٦ وفاته وتنبؤه على ما يكون لذرية كل من ولده ومدفنه ١٧٧.

يفتاح قاضي إسرائيل وتخليصه بني إسرائيل من العمونيين ٢٣٣ وتضحية بنته وما معناها وضربه بني افرايم ثمة

يهودا نصيب سبطه من أرض الموعد ٢٢٢ مملكة يهوذا وملوكها وجدول سنيهم طالع بني إسرائيل

يهوديت قتلها اليفانا وخلاصة السفر المنسوب إليها ومن كتبه ٣٣٣ الآثار الآشورية المؤيدة سفر يهوديت ٣٣٤.

يواب بن صروية أخت داود وقائد جيشه وانتصاره على رجال اشبوشث ٢٦٠ قتلته ابنيير بن نير ثمة. حربه مع العمونيين والاراميين ٢٦٥ قتلته ابشالوم ٢٦٧ قتلته عماسا احد قادة جنود داود ٢٦٩ قتل بنايا بن يوياداع له بامر سليمان ٢٧٦.

يواحاز ملك إسرائيل ملكه وخروج حزائيل وابنه عليه وإذلاله وموته ٣١٥ يواحاز ملك يهوذا ملكه وقبض نكو عليه وأخذه أسيراً إلى مصر ٣٣٧ كلام حزقيال فيه وارميا ثمة

يوخانيا أو يوياكين ملك يهوذا ملكه وإكراهه على تسليم نفسه وأسرته إلى بختنصر وأخذه له إلى بابل وجلاؤه معه عشرة الاف من يهوذا ٣٣٧ وإطلاق ابن بختنصر له ثمة.

يواش بن يواحاز ملك إسرائيل ملكه وإنتصاره على ابن هدد الثالث واسترداده منه أملاكه في عبر الاردن ٣١٥ حربه مع امصيا ملك يهوذا وقبضه عليه ونهبه اورشليم ثمة.

يوتام ملك يهوذا ملكه ووفاته ٣٢٠.

يورام ملك يهوذا وتزوجه بعثليا بنت احاب وايزبال وخروج الادوميين من أيدي ملوك يهوذا في أيامه ٣١١ قتلته إخوته الستة وبعض الرؤساء ثمة. ورود كتابه إليه من إيليا بعد إرتفاعه وما هي ثمة. ضرب الرب له وموته ثمة يورام ابن احاب ملكه وإعادته عبادة العجل وثورة ميشاع ملك مواب عليه ٣٠٨ محاربة ملك ارام له ٣١٠ موته ٣١٢.

يواش ملك يهوذا نجاته من شر عتليا وتمليك يوياداع رئيس الاحبار له ٣١٣ إحسانه المسعى اولاً وترميمه ما كان تهدم في الهيكل وخروج حزائيل عليه وإرسال الجزية اليه وإنكسار جيشه امام الاراميين وفك مسوديه به ٣١٤ يوسف محبة أبيه وحسد إخوته له وبيعه للتجار ١٧٠ شراء فوطيفار له ومراودة امرأته له وسجنه ١٧١ تعبيره حلم فرعون واستيثاره ١٧٢ تديره شؤون

مصر والمجاعة فيها ١٧٣ في ما يعزى إليه في مصر ١٧٤ تمليك فرعون أرض مصر وتعليمه المصريين مساحة الارضين وقياس ماء النيل ثمة. إنحدار إخوته إلى مصر وتعرفه إليهم ١٧٥ إنحدار أبيه وإخوته اليه في مصر ١٧٥ وفاته وجملة سنيه ونقل عظامه إلى فلسطين ١٧٧ و١٨٥.

يوشافاط ملك إسرائيل وإحسانه المسعى وإرساله منذرين في مملكته ٢٩٩ استعظام عداد جنوده ثم تزويج ابنه يورام بعثليا بنت احاب ثم مرافقته احاب في حرب راموت جلعاد ثم وفي عد ٣٠٦. إتفاقه مع احزيا ملك إسرائيل على عمل سفن إلى ترشيش ثمة. خروج المواين وغيرهم عليه وانتصاره ثمة. مرافقته يورام ملك إسرائيل بحرب الموايين ٢٠٨ موته ٢٩٩.

يوشيا بن امون ملك يهوذا ملكه وتطهير مملكته من عبادة الاوثان وترميمه الهيكل ٣٣٦ وجدان سفر التوراة في أيامه بخط موسى ورد مزاعم فولتر والملحددين في ذلك ثمة. قسوته العادلة ثمة. قتل نكو له في مجدو ثمة.

يوناتان بن شاول ضربه الفلسطينيين وإرادة أبيه لأنه تناول من عسل البرية خلافاً لأمره بالصوم ٢٤٨ مصادقته لداود وكف أبيه عن قتله ٢٥٢ حنق أبيه عليه لحبه لداود وإعلامه داود ليفر من أبيه ٢٥٣ قتله في حرب الفلسطينيين ٢٥٨.

يونان النبي وعلة تردده عن الذهاب إلى نينوى وآثاره فيها ٣١٧، هربه من وجه الله وتفصيل سفره ٣٨١.

يواقيم أو الياقيم ملك يهوذا إقامة ملك مصر له وضرريته على الشعب ليفي غرامة مصر ٣٣٧ لإدخاله نظام التسخير واضطهاده الانبياء وارميا ثمة. موته قبل أن يبلغ بختنصر إلى اورشليم أو هو قتله وقول ارميا به ثمة ،

يواقيم ملك يهوذا ونبوته ٣٧٤.

يواكين اخذه اسيراً إلى بلاد الكلدان ٣٧٤.

المجلد الثالث

(أ)

- ابجر ملك الرها ورسالته إلى المسيح وبسط هذه المسألة ٥١٧ .
الأبلية وموقعها في سوق وادي بردى والخطوط الدالة على ذلك ٤٨٧ .
أبيجان رئيس حرس أنطيوخس كان ناصحاً له فقتله هرمياس وزيره ٤١٥ .
أبوليناريوس أسقف إيرابوليس ٥٣٤ .
أبيون المبتدع وبدعته ٥٢١ .
أتيناغورا الأثيناوي ٥٣٧ .
أحماتا همزان المعروفة الآن بتخت سليمان ٤٣٢ .
أخايوس خال سلوقوس الثالث تديره المملكة وانتصاره على أثال ملك برغام ٤١٤
استبداده في آسيا الصغرى وقتل أنطيوخس الثالث له ٤١٧ .
أدريان الملك الروماني موجز ترجمته ٥٢٢ بعض الأحداث في سورية في أيامه
٥٢٤ .
الأدوميون هراطقة ٥٣٩ .
الأدوميون استدعاء المشاغبين لهم ليأتوا إلى أورشليم وقت حصارها وما كان منهم
من الضر ٤٨٩ دخول جنود فسبسيان بلادهم والتنكيل بهم ٤٩٠ .
آل أذينة وبعض نسبهم ومناصبهم ٥٢٨ .
أرستيد فيلسوف ٥٣٧ .
أرسطوبولس بن هركان قتل هيرودس له ٤٦٨ .

أرسطوبولس ابن الملك اسكندر اليهودي تسنمه الملك ومقاومة أنبياتر له تشيخاً لأخيه هركان، وتحكيم بمبايوس بينهما، وقبضه على أرسطوبولس، وأخذ مع ابنه إلى رومة ٤٦٣، رجوعه إلى فلسطين ومحاربه الرومانيين وأخذ ثانية أسيراً إلى رومه، وعوده منها بأمر قيصر وقتله ٤٦٤.

أرسطوبولس بن يوحنا هركان خلافته لأبيه في الملك، وقهره أهل اللجا، واجبارهم على أن يختتنوا، ووفاته ٤٥٥.

أرستاي عامل بتلمايس رسالته في خبر الترجمة السبعينية ٤١١. أرشيلوس بن هيرودس ولايته في اليهودية، وثورة الجمهور عليه وقسوته عليهم، وشكواهم إياه إلى أغوستوس، وعزله وموته ٤٧٦.

أريان المؤرخ سنة مولده ٤٠١.

أريتاس (الحارس) ملك العرب حربه مع هيرودس أنتياس ٤٧٧ و ٥٢٩. أريداي أخو اسكندر الكبير ملك مدة أخيه وقتل أولبيا أم اسكندر له ٤٠٢. إسطفانس رئيس الشامسة ترجمته ٥١٥.

اسكندر الكبير مولده وتعليم أرسطو له ٣٩٠، ملكه واخضاعه آسيا ٣٩١، مرضه في ترسيس، ثم وقعة لسيوس بينه وبين دارا ٣٩٢، أعماله في سورية إلى حصار صور ٣٩٣، رسالته إلى دارا ثم حصاره صور وفتحها ٤٩٤، رسالته الثانية إلى دارا، ثم ذهابه إلى أورشليم واجلاله الهيكل ورئيس الأحبار ٣٩٥، فتحه غزه وقتله باتيس واليه ٣٩٦، استسلام أهل مصر إليه، وزيارته هيكل المشتري عمون وبناءه الإسكندرية ٣٩٧، عوده من مصر لمحاربة دارا ووقعة أرييل ٣٩٨، استحواذه على بابل وشوشن وقتل دارا وقهره باسس ٣٩٩، تزوجه بركسان الفارسية ثم غزوته الهند وعوده منها ٤٠٠، أعماله بعد عودته من الهند ووفاته ٤٠١، نقل جثته إلى الإسكندرية ونبوة دانيال عنه، ثم اختلاف كبراء دولته على الخلافة له وقسمة المملكة ٤٠٢.

اسكندر بن اسكندر الكبير ملك مدة مع أريداي عمه ٤٠٢.

اسكندر بن أرسطوبولس حارب الرومانيين فقتل بأمر بمبايوس ٤٦٤.

اسكندر بن هركان خلافته لأخيه في الملك، وحصاره عكا لرفضهم طاعته ٤٥٥،

مقاومة اليهود له وقسوته عليهم، ومحاربته العرب وغيره، ووفاته ٤٦١ .

اسكندرة أرملة اسكندر ملك اليهود، ملكها وتحكم الفريسيين بالرعية، وموتها ٤٦٢

أشعيا النبي ترجمته وتفصيل نبوته ٤٧٣ .

الاضطهادات التي أثّرت على المسيحيين ٥٣٨ .

أغريبا الأول ابن أرسطوبولس بن هيرودس أقام غايوس له ملكاً في الجليل وعبر الأردن واليهودية، وقتله يعقوب بن زبدي وقبضه على بطرس وباقي أعماله، وموته، والآثار التي وجدت له في حوران ٤٨٠ .

أغريبا الثاني اقامته أولاً ملكاً على كلشيش، ثم على الجولان والجيدور وحوران والأبلية وباقي أعماله، ومحاكمة بولس الرسول أمامه ٤٨١، وآثاره في البثنية وحوران ثمة اهتمامه بتسكين اليهود وقت الثورة ٤٨٤، مضيه بعد الحرب إلى رومة وموته فيها ٤٩٢ .

أغايطوس أسقف دمشق ٥٣٠ .

اغناطيوس بطريرك أنطاكية ٥١٨ .

أغوسطوس قيصر حروبه وملكه ٤٦٦، ترجمته بإيجاز ٤٧٥ .

أفيديوس كاسيوس وثورته في سورية ٥٢٦ .

ألبينوس ملك الرومانيين ٥٢٢، برج أفيق موقعه ٤٨٥ .

ألعازر الشيخ قتل أنطيوخس له ٣٠ .

أكليمنضوس الإسكندري ٥٣٧ .

ألكيموس، اقامة لسياس له رئيس كهنة فخان امته ٤٣٧ وفاته ٤٣٨ .

أنتياتر والي مكدونية بعد وفاة اسكندر وموته وتركه الولاية لبوليسبركون ٤٠٢ .

أنتياس أو أنتياتر أبو هيرودس، دخوله في حاشية الملك اسكندر وتشيعه لهركان ابنه بعد وفاته، واعتضاده بيمبيوس ٤٦٣ إنجاده لقيصر عند غزوته مصر وجعله مديراً لليهودية تحت أمرة هركان ٤٦٤ .

أنتيوتريس (كفرسابا أو مجدل بابا)، موقعها ومن بناها ٤٨٦.

أندراوس الرسول ترجمته ٥١١.

أنتيكون والي بمفيليا واستفحال أمره في آسيا وطمعه في أن يخلف اسكندر، مناوآته لبتمايس والي مصر وكسندر والي مكدونية، وليسيماك والي تراسة ٤٠٢، وتقرير ولايته في سورية وفينيقية ٤٠٢ و ٤٠٤، تسميته نفسه ملكاً في سورية ٢٠٤، حملته على مصر مع ابنه ديمتريوس وعوده عنها مدحوراً ٤٠٥، قتله ٤٠٢.

أنتيكون بن أرسطوبولس، تمليك البرتين على اليهود ٤٦٤، حربه مع هيرودس والرومانيين وقتله ٤٦٥.

أنطاكية بناء سلوقس لها ٤٠٦، خلفاء بطرس في بطريركيتها في القرن الأول ٥١٨، الزلزال الذي دمرها في أيام تريان ٥٢٣، اقامته سبتيموس ساويروس فيها ٥٢٧.

أنطونيوس بيوس ملك الرومانيين موجز ترجمته ٥٢٢، ما كان في أيامه بسورية ٥٢٥.

أنطيوكس الأول سوتر ملكه وحملته على فيلاتر ملك برغام وعوده مدحوراً، وتسمية ابنه أنطيوكس الثاني ملكاً وموته ٤٠٨.

أنطيوكس الثاني وحربه مع بتلمايس الثاني، واصطلاحهما وانفصال البرتين عن مملكته، واقامته ارساس ملكاً وخسارته كل أملاكه في ما وراء دجلة ٤٠٩، قتل امرأته لوزيقة له ٤١٢.

أنطيوكس بن أنطيوكس الثاني حارب أخاه سلوقس فظهر عليه أخوه، ولجأ إلى مصر فسجن ثم فر فقتله اللصوص ٤١٣.

أنطيوكس الثالث بن سلوقس الثاني، تمليكه وزواجه واهتمامه برد سورية المحوفة من ملك مصر فعاد خائباً، ثم مضى لكبت مولون واسكندر اللذين كان ولاهما ماداي وفارس فعصياه فظفر بهما ٤١٥، حربه مع بتلمايس في سورية واسترداده بعض المدن، ولكن قوي عليه بتلمايس فصالحه على أن يئقني بعض سورية له ٤١٦، انتصاره على أخايوس الذي استبد في آسيا

الصغرى، وقتله وانتهأؤه بغزوته إلى الهند ٤١٧، حربه مع أرساس ملك البرتين وغنيمته ومع اوتيدم ملك بقطريان، والصلح بينهما ثمة استرداده فلسطين وما تبعها من ملك مصر ٤١٨، انتصاره على الجيش المصري في بانياس وصيدا ثمة، حملته على آسيا الصغرى ومناصب الرومانيين العداوة له ٤١٩، حربه معهم وانكسار جيشه ٤٢٠، وقيعته معهم في تساليا وتشتيت جيشه ثمة، الصلح بينه وبين الرومانيين، وغرامة الحرب ٤٢١ مقتله وتوفيق كلام سفري المكابين فيه ٤٢٢.

أنطيوخس الرابع ايفان أخذه الملك وانتصاره على هليودروس وصفاته ٤٢٤، غزواته الأوليان لمصر ٤٢٥، نزلف اليهود إليه وأخذه أورشليم، وانتهابه الهيكل ٤٢٦، حملته الثالثة على مصر ٤٢٧، حملته الرابعة على مصر ٤٢٨، دحر الرومانيين له عنها ثمة، اضطهاده لليهود واکراهه لهم على أتباع دينه ٤٢٩، قتله ألعازر والاخوة السبعة ٤٣٠.

انتصار يهوذا المكابي على عسكره ٤٣١ هلاكه ورسالته إلى اليهود ٤٣٢. أنطيوخس الخامس ومدة ملكه ورضاه عن اليهود، وسياسة ليسانس مدبره ٤٣٣ محاربتة لليهود ثم تقريره لهم حق التدين بدينهم ٤٣٥، مقتله ٤٣٦. أنطيوخس السادس أحضار تريفون له من بلاد العرب ٤٤٤، ما كان في أيامه ٤٤٥، قتل تريفون له ٤٤٦.

أنطيوخس السابع صيدات زواجه بامرأة أخيه ديمتريوس وتغلبه على تريفون وملكه ٤٤٧، محاربتة لليهود ٤٤٨، محاربتة للبرتين، وتعداد صفاته الحسنة وقتله ٤٤٩.

أنطيوخس الثامن كريوس تملك أمه له ثم قتله لها ٤٥١، الحرب بينه وبين أخيه أنطيوخس الشيزكي وتغلب هذا عليه ٤٥٣، قسمته الملك مع أخيه ٤٥٤ وفاته ٤٥٦.

أنطيوخس التاسع الشيزكي تغلبه على أخيه، ثم اتفاه معه وقسم المملكة بينهما ٤٥٣ و ٤٥٦، وفاته ٤٥٧.

أنطيوخس العاشر أوساب بن أنطيوخس الشيزكي تهزيمه ابن عمه سلوقوس، وقتله أخاه

الذي كان سمي ملكاً بعد موت أخيه سلوقوس (وهو أنطيوخس الحادي عشر)، وحروبه مع أبناء عمّه الآخرين ٤٥٧، نهاية حياته ٤٥٨.

أنطيوخس الثاني عشر دانيس ابن كريوس ملك في دمشق مكان أخيه ديمتريوس ٤٥٧.

أنطيوخس الثالث عشر الآسيوي ابن أنطيوخس أوساب وسيلانة ملك في سورية، وفي أيامه استحوذ عليها بمبايوس القائد الروماني ٤٥٩.

أنيبال القرطجني وانضمّاه إلى أنطيوخس الكبير في مناوأة الرومانيين وحصار الرودسيين له ٤٢٠.

أوتون العاهل الروماني شيء من ترجمته ٤٧٥.

أوديوس بطريك أنطاكية ٥١٨.

أودكسية شهيدة في بعلبك ٥٣٨.

أورس بطريك أنطاكية ٥٣٤.

أورشليم، فتح البرتيين لها ٤٦٤، الشغب والقتل الذي كان فيها في أيام فلورس ٤٨٤، حصار غلوس لها ٤٨٦، الحرب الأهلية فيها حين حصار الرومانيين لها ٤٨٩، حصار طيطوس لها وفتحها والجماعة فيها وخراب هيكلها ٤٩١، بطاركتها في القرن الأوّل ٥١٩، تسميتها اليا ٥٢٢، بطاركتها في القرن الثاني ٥٣٣.

أولبيان الفقيه بعض ترجمته ٥٣١.

القديس إيريناوس ٥٣٧.

(ب)

بابل استسلامها إلى اسكندر ٣٩٩، احتفاره فيها مرفأ ٤٠١، يراد بها رومة في قول بطرس الرسول ٥٠٥.

باييا الأسقف ترجمته ٥٣٧.

باينيان البيروتي ٥٣١.

باروز المؤرخ البابلي الشهير ٤٠٩.

باسس والي بقطريانا (في تركستان) محاربة اسكندر له ٣٩٩.

بالا أي اسكندر بالا دعواه أنه ابن أنطيوخس أيفان وأخذه عكا ٤٣٩، حربه مع

ديميتريوس واستظهاره عليه وقتله واستبداد بالا بالملك ٤٤٠، زواجه بابنة

بتلميس وتعزيزه يوناتان المكابي ٤٤٠، ثورة ديميتريوس الثاني عليه ٤٤١،

حربه مع حميه بتلميس السادس وفراره إلى أمير عربي قتله ٤٤٢.

باسيليدس المبتدع وبدعته ٥٢١.

بانياس انتصار أنطيوخس الكبير على الجيش المصري فيها ٤١٨.

بتلميس وزير اسكندر والي مصر بعد وفاته ٤٠٢، قتله برديكاس بعد انتصاره عليه

وعلى محازبيه ثمة. انتصاره على أنتيكون وأخذه منه قبرص، وتسميته نفسه

ملكاً في مصر ثمة، رده مهاجمة أنتيكون وديميتريوس لمصر ٣٠٥، واسترداده

فنيقية وسورية الجوفة من أنتيكون ثم تخليه عن الملك وموته ٤١٧.

بتلميس الثاني حربه مع أنطيوخس الثاني واصطلاحهما ٤٠٩، وفاته وما يعزى إليه

من العناية بالترجمة السبعينية ٤١١.

بتلميس الثالث افرجات حملته على سورية واستيلاؤه عليها وقتل لوزيقة بثأر اخته

ضرتها ٤١٢، وفاته ٤١٣.

بتلميس الرابع فيلوباتور حربه مع أنطيوخس الثالث في سورية ٤١٦ وفاته ٤١٨.

بتلميس الخامس ابيفام ملكه ووصاية الرومانيين عليه ٤١٨ المؤامرة في مصر عليه

٤١٩، وفاته مسمماً ٤٢٣.

بتلميس السادس وصاية أمه قلوبطرة عليه وأخذه إلى خاله أنطيوخس أيفان،

وإسقاط الإسكندريين له من الملك وترقية أخيه إليه ٤٢٥.

بتلميس السابع أخو الخامس ترقته إلى الملك بعد إسقاط أخيه ٤٢٥، التجاؤه إلى

الرومانيين وأخذهم بناصره وناصر أخيه واشترائه مع أخيه في الملك ٤٢٧،

حملته على سورية لينجد صهره اسكندر بالا وفي نيته الاستيلاء عليها،

واستحوذه على المدن الساحلية إلى السويدية، ودخوله أنطاكية ووضعه على
رئاسة تاج مصر وتاج سورية ٤٤٢، ووفاته بعد ذلك ثمة.

بتلميس الثامن افرجات (وسموه فيسيكون البطن)، تزوجه بقلوبطرة وقتل ابنها في
حضرها ٤٤٣، فظائعه في الإسكندرية وقتله ابنه وفراره إلى قبرص، وعوده
إلى الإسكندرية ظافراً ٤٥٠، وفاته ٤٥٣.

بتلميس التاسع لاتير شارك أمه قلوبطرة في الملك ٤٥٣، لإنجاده أهل السامرة على
يوحنا هرکان ٤٥٤، انهزاه من وجه أمه إلى قبرص واستنجد أهل عكا له
على اسكندر بن هرکان وتغيرهم عليه وحبهم مع اسكندر المذكور وعوده
خائباً ٤٥٥، عوده إلى ملك مصر بعد مقتل أمه ٤٥٧، وفاته ٤٥٨.

بتلميس العاشر اسكندر أخو لاتير ملكه مع أمه ٤٥٥ قتله لها وطرده من الملك
٤٥٧.

بتلميس الحادي عشر ابن اسكندر أرسله الرومانيون ليملك في مصر مكان عمه
لاتير، فتزوج بقلوبطرة ابنته وملك معها وقتلها فقتله المصريون أو هزموه
٤٥٨.

بتلميس الثاني عشر اولات ملكه المصريون بعد بتلميس الحادي عشر ٤٥٨،
بتلميس الثالث عشر دانيس ابن السابق ملكه وتزوجه باخته قلوبطرة الشهيرة
٤٥٨، هربه من وجه الرومانيين وغرقه ٤٥٩.

بتلميس الرابع عشر ملكه ووفاته ٤٥٩.

بتلميس الخامس عشر ابن قيصر وقلوبطرة ملكه وقتله ٤٥٩.

برتلموس الرسول ترجمته وهل هو نتائيل ٥١١.

برديصان مبتدع ٥٣٩.

برمناس أحد الشمامسة السبعة ٥١٥.

برتينكس ملك الرومانيين موجز ترجمته ٥٢٢.

برديكاس وزير اسكندر الكبير وقد سلمه خاتمه عند احتضاره، وكان يطعم في أن
يخلفه ٤٠٢، قتل بتلميس له ثمة.

برسابوليس مدينة الفرس فتح اسكندر لها ٣٣٩، اشتقاق اسمها وموقعها ٤٣٢ .
برمينيون وزير اسكندر قتل هذا الملك له ولابنه ٣٩٩ .
برنيس امرأة أنطيوخس الثاني قتلها وابنيها ضربتها لوديقة فثار بها أخوها بتلمائيس
أفرجات فقتل لوديقة وأخذ سورية ٤١٢ .
بركورس أحد الشاماسة السبعة ٥١٥ .
بطرس الرسول وترجمته كلها ٥٠٤، اثبات رياسته على الرسل والكنيسة جمعاء
٥٠٥ .
بعلبك بناء الرومانيين الهيكل فيها وكون بنائها القديم قبلهم ٥٢٣ و ٥٢٧ .
البلاسج وأصلهم وتفرقهم ٣٨٩ .
بلوترك الفيلسوف اليوناني سنة تولده ٤٠١ .
مبايوس القائد الروماني أخذه سورية ٤٥٩، محاربته أرتياس ملك العرب ومضيه إلى
أورشليم ودخوله إليها رغماً على محازبي أرسطوبولس ٤٦٣ .
بنتانوس الفيلسوف وترجمته ٤٣٧ .
بولس الرسول نسبه وترجمته ٥٠٦، رسائله وتاريخ كتابتها ٥٠٧ .
بولس وتاتا امرأته شهيدان في دمشق ٥٣٨ .
بولودر المهندس الدمشقي ٥٣١ .
بيت صيدا وموقعها ٥٠٤ .
بيروت أين مكان موقعها لما أحرقها تريفون ٤٤٧، الحكم على ابني هيرودس فيها
٤٧٢، تخويل أغوستوس لها الحقوق الرومانية، وتسميته لها جوليه فاليكس
باسم ابنته وتوليته عليها مرقس اغريبا الروماني، وتزويجه بجوليه ٤٧٥، بناء
اغريبا الأول فيها مشاهد وحمامات ٤٨٠، زيادة اغريبا الثاني في أبنيتها
وزينتها ٤٨١، قتل اليهود رجالاً منها كانوا في الجليل زمان الحرب ٤٨٥،
اتيان فسبيسان إليها بعد إقامته ملكاً ووفود المهنيين له وكسره أغلال
يوسيفوس فيها ٤٩٠، اتيان بطرس إليها وأول أسقف عليها كوارتس ٥٢٠،

محبة أهلها لسبتيموس ساويروس وبعض علمائها ٥٢٧، ييسان ما كان فيها
بين اليهود والوثنيين في زمان الحرب ٤٥٨ .
بيلاطوس البنطي ولايته في اليهودية، وأعماله فيها وشهادته للمخلص في رسالته إلى
طياربوس ونفيه ٤٧٩، صحة هذه الرسالة ونسخة منها ثمة.

(ت)

تادي المبشر رسول ابجر ملك الرها ٥١٧ .
التاريخ العامي للميلاد وأصله والفرق بينه وبين التاريخ الحقيقي ٤٦٨ و ٤٧٤ و
٤٩٥ .
تاسيان غوايته وتأليفه ٥٣٦ و ٥٣٩ .
تدمر ما كانت عليه في أيام سبتيموس ساويروس ٥٢٧ ما يؤخذ عن أثارها من
التاريخ ٨٢٥ تجارتها وعظمتها وشعبها ثمة .
ترايان الملك مختصر ترجمته ٥٢٢ بعض الأحداث في سورية في أيامه ٥٢٣ .
ترتوليانوس ترجمته ٥٣٧ .
الترجمة السبعينية وعناية بتلمايس فيلادلفوس بها ٤١١ .
ترويا تاريخ حربها المشهور ٣٨٩ .
تريفون عامل اسكندر بالا وإحضاره ابنه من بلاد العرب، وتمليكه محل ديمتريوس
٤٤٤ احتياله وقتل يونانان ثم أنطيوخس السادس ٤٤٦، ارتقاؤه إلى سدة
الملك ومراسلته الرومانيين فلم يقرؤا له بالملك، والثورة عليه وقتله ٤٤٧ .
تريفون اليهودي شيء من ترجمته ٥٣١ .
التلاميذ اجمالاً ٥٣١ .
التلمود وزمان كتابة الرابين له وقسمته ٥٢٤ .
توادوطس مبتدع ٥٣٩ .

توادوطس أسقف بعلبك ٥٣٤.
توافيلوس بطريرك أنطاكية ٥٣٢ و ٥٣٦.
توافيلوس أسقف قيصرية ٥٣٦.
توما الرسول ترجمته ومحال تبشير ٥١١.

(ج)

جبيل استسلام أهلها إلى اسكندر ٣٩٣ أول أسقف عليها ٥٢٠.
جسكال (الحش) وما كان فيها في أيام حرب اليهود ٤٨٤ و ٤٨٨.
جيرانوس بتلمايس فيلادلفوس قتله سلوقوس، وتمليكه في مملكة ليسيماك ثم أسره
الغاليون وقتلوه ٤٠٧.

(ح)

بيت حجلة المعروفة الآن بعين حجلة في عبر الاردن حرب يوناتان وبيكيديس فيها
٤٣٨.
حلبون في جوار دمشق وهي المراد في كلام حزقيال (٢٧) ٤٨١.
حنان ابن حنان رئيس الكهنة عزل أغريبا له عن الرئاسة ٤٨٤.
حنانيا معمد بولس، القول بأسقفية في دمشق ٥٢٠، استشهاد ٥٣٨.
حوران، بعض آثار الرومانيين فيها ٥٢٣ وما كان عليه أهلها في أيام سبتيموس
ساويروس ٥٢٧، ما يؤخذ عن آثارها من التاريخ ٥٢٩.

(٥)

دارا واقعة أيسوس بينه وبين اسكندر ٣٩٢، رسالته إلى اسكندر ٣٩٣، أخذ برمنيون وزير اسكندر خزاينه من دمشق، ثم وفاة امرأة دارا واحتفاء اسكندر بدفنها وانكسار جيشه في أربيل وهزيمته ٣٩٨، قتله ٣٩٩.

دانيال النبي، نبوة دانيال عن خلفاء اسكندر وعما كان من الأحداث بين أنطيوخس الثاني وبتلميس الثاني ٤١٠.

ديودر الصقلي عصره وتأليفه ٤٠١.

درسيطيان العاهل الروماني، شيء من ترجمته وآثاره في العاقورة ٤٧٥.

ديمترئوس بن أنتيكون انتصار بتلميس وسلوقس عليه في غزة ٤٠٢ و ٤٠٤، فتحه أثينا وإقامته فيها حكومة جمهورية، واسترداده قبرص من بتلميس ٤٠٢ انتصاره على شيل قائد جيش بتلميس ٤٠٤، غزوته النبطيين وعقده العهدة معهم ثم أخذه قبرص وحربه في رودس ٤٠٥، اعتداؤه على أملاك ليسيماك ومصالحته سلوقس ثم وقوع النفرة بينهما ٤٠٦، تنكيله بأهل أثينا وخسرانه أملاكه في سورية وقيليقية، وقتله اسكندر بن كسندر وملكه في مكدونية ثم طرده منها وأخذ سلوقس له أسيراً، وموته ٤٠٦.

ديمترئوس الأول سوتر تسلمه أريكة الملك ٤٣٦، حروبه مع يهوذا المكابي ٤٣٧، تزلفه إلى الرومانيين والمؤامرة عليه ٤٣٩، حربه مع اسكندر بالا وقتله ٤٤٠.

ديمترئوس الثاني ابن الأول ثورته على الملك اسكندر بالا واستبداده في الملك ٤٤٢ سؤ تصرفه فيه وتغريزه يوناتان واليهود بأخذ مال مقطوع على بلادهم وما ألحق بها ٤٤٣، الثورة عليه من الشعب ثم من تريفون، وطرده الملك وتمليك أنطيوخس السادس ٤٤٤، استنجاهه على البرتيين وحربه معهم، وأخذه أسيراً وتزوجه بابنة ملكهم ٤٤٧، عوده إلى ملك سورية وأعماله ٤٥٠، منازعة زينا له الملك وانتصاره عليه في دمشق وقتله في صور ثمة.

ديمترئوس أوثر رابع ابناء أنطيوخس كريوس عاونه بتلميس لاثير فملك في دمشق ٤٧٥.

ديونيسوس. أسقف قرنتيه ٥٣٧.

(ر)

الرسول اجمالاً ٥٠٣، كلامهم في اللغات بعد حلول روح القدس بأي معنى ثمة. رودس محاربة أهلها ديمتريوس وعهدة الصلح بينهما ٤٠٥، اقامة أهلها تمثال الشمس ثمة.

رومة، اثبات مجيء بطرس الرسول إليها وتعبيره عنها ببابل ٥٠٥. الرومانيون، وصايتهم على بتلمايس أيفام ٤١٨، مناصبتهم العداوة لأنطيوخس الكبير ٤١٩، حربهم معه وقهرهم له ٤٢٠، خضوع مدن آسيا الصغرى لهم ثمة أخذهم بناصر بتلمايس الخامس وبتلمايس السادس ٤٢٧، وفدهم إلى أنطيوخس الخامس ٤٣٦، عقدتهم الموالاة مع اليهود ٤٣٧، تجديدهم هذا العقد مع سمعان المكابي ٤٤٧، تشيعهم ليوحنا هرکان ٤٥٢ لمعة في تاريخهم إلى ملك أغوستوس ٤٦٦، ولاتهم على سورية إلى مولد المختلص ٤٦٧، ولاتهم عليها من المولد إلى حين الحرب مع اليهود ٤٨٢.

(ز)

زينا حملة بتلمايس السابع على حرب ديمتريوس فقتله، واقتسم ملك سورية بينه وبين قلوبطرة امرأته ٤٥٠، إحسانه التصرف بملكه وموالاته يوحنا هرکان وقتله ٤٥٢.

بيت زكريا في ناحية بيت لحم ٤٣٥.

(س)

ساتورنينوس المبتدع وبدعته ٥٢١ .
ساردن قائد جيش أنطيوخس وانتصار يهوذا المكابي عليه ٤٣١ .
سيرتا حروب أهلها مع الأثيناويين وتغلب البرتيين ٣٨٩ .
السامرة حصار هركان لها ودكّه أبنيتها ٤٥٤ ، فتنة السامريين واليهود ٤٨٢ ، محاربة
فسييسان لهم وقتله كثيرين منهم ٤٨٨ .
السامريون انجادهم لاسكندر وعدم تنويلهم ما أطلقه لليهود ٣٩٥ ، ثورتهم على
عمال اسكندر وتنكيله بهم ٣٩٨ .
السبعة الاخوة المكابيون مقتلهم ٤٣٠ .
سبتيموس ساويروس ملك الرومانيين موجز ترجمته ٥٢٢ وما كان من الأحداث في
سورية في أيامه ٥٢٧ . استفحال سراييون بطرك أنطاكية ٥٣٢ و ٥٣٦ .
سلوقس بن أنطيوخس كان رئيساً على الفرسان بعد وفاة اسكندر ٤٠٢ ، امره في
بابل وبداية تاريخ السلوقيين به ، ثم تسميته نفسه ملكاً في سورية ، ثم بناء
أنطاكية وسلوقية وأباميا واللاذقية ومصالحته ديمتريوس ٤٠٦ ، حربه مع
ليسيماك وقتله ثم اغتيال سلوقس ٤٠٧ .
سلوقس الثاني ابن أنطيوخس الثاني تسلمه عرش الملك ٤١٢ ، محاولته أن يسترد ما
أخذه بتلمايس من مدنه وعوده مدحوراً ، ومحاربته لأخيه أنطيوخس
وانكساره أولاً ثم ظهوره عليه ٤١٣ ، حربه مع ارساس ملك البرتيين ووقوعه
أسيراً وموته ثمة .
سلوقس الثالث ملكه ووهن عزيمته ووفاته ٣١٤ .
سلوقس الرابع خلفته لأبيه أنطيوخس الكبير ومحاولته سلب خزانة الهيكل وموته
مسمماً ٤٢٣ .
سلوقس بن أنطيوخس كريبوس قتله عمه الشيزكي ، وولايته في سورية وحربه مع
ابن عمّه أنطيوخس اوساب الذي انتصر عليه وأحرقه أهل المصيصة ٤٥٧ .

سلوقس بن ديمتريوس الثاني ملكه وقتل أمه له ٤٥١ .
سلوقية على العاصي، استحواذ بتلمايس افرجات عليها ووضع حامية فيها، واسترداد
أنطيوخس الثاني لها ٤١٦ .

سلمينا (قبرص)، حرب ديمتريوس وتلمايس فيها ٤٠٥ .
سمعان بن جيورا أحد رؤساء المشاغبين في أورشليم حين الحرب وما كان منه
في أورشليم وخارجاً عنها ٤٨٩، استسلامه إلى الرومانيين وأخذه أسيراً
إلى رومة ٤٩٢ .

سمعان المكابي اشتراكه مع أخيه يوناتان في الحروب وخلافته في الرئاسة، وإقامته
مدافن المكابيين في مودين ٤٤١، تجديد الرومانيين عقد الموالة وكتابة
السبرطين إليه وتقرير اليهود الرئاسة الدنياوية والدينية عليهم ٤٤٧، تغير
أنطيوخس السابع عليه وعلى اليهود وإرساله ابنه يهوذا ويوحنا لمقاتلة جيشه
فانتصرا، ولكن اغتال بطلمائوس والي بقعة أريحا سماعيل وابنه يهوذا ٤٤٨،
سمعان الرسول ترجمته ٥١١ .

سمعان خليفة يعقوب الرسول في أورشليم ٥١٩ و ٥٣٣ .
بني السميدع وآثارهم في حوران ٥٢٩ .

سورية فتح اسكندر مدنها ٣٩٢ إلى ٣٩٦، ولاية لاميدون عليها وانتزاع بتلمايس
لها من يده ٤٠٣، ولاية أنتيكون عليها ٤٠٤، استرداد بتلمايس بعض مدنها
٤٠٥، استيلاء بتلمايس افرجات عليها ٤١٢، استرداد أنطيوخس الثالث
بعضها ٤١٦، استرداد كلها ٤١٨، الخلاف في قسمتها بين خلفاء اسكندر
٤٢٥، اختيار أهلها تفران ملك أرمينيا ليملك عليهم مكان الملوك اليونان
٤٥٨، افتتاح ممبايوس لها ٤٥٩ واليها في أيام كلود ونيرون أو ميديوس
كوادراتوس عن خط في بيروت ٤٧٥، من كان كان فيها من مشاهير
الكتاب في القرن الأول ٤٩٣، بعض أساقفتها في القرن الأول ٥٢٠،
قسمتها في أيام سبتيموس ساويروس ٥٢٧ .

سيلانة أرملة أنطيوخس أو ساب ملكها في عكا، وبعض فينيقيي وسورية الجوفة
٤٠٨ أرسلها ابنها أنطيوخس وسلوقس إلى رومة لتأخذ تاج مصر ثمة .

سيمون الساحر وبدعته ٥٢١.
السويدية أول أسقف عليها ٥٢٠.

(ش)

شردون مبتدع ٥٣٩.
الشماسة السبعة تراجهم ٥١٥.
شوشن مدينة الفرس استسلامها إلى اسكندر ٣٩٩.
شيبون الافريقي قائد جيش الرومانيين في محاربة أنطيوخس الكبير ٤٢٠.

(ص)

الصدوقيون شيعة من اليهود منشأهم وعقائدهم ٤٥٤
صفورية تشييع أهلها للرومانيين حين الحرب ٤٨٨.
صور حصار اسكندر لها وفتحها ونبوات الانبياء على خرابها ٣٩٤، فتح أنتيكون
لها ٤٠٢ و ٤٠٤، شراء أهلها حق استقلالهم من الرومانيين ٤٦٧، قتل
أهلها كثيرين من اليهود وقت الحرب ٤٨٥، حرق جنود نيجر لها وتجهيد
ساويروس بنائها ٥٢٧.
صيدا ترحيب أهلها باسكندر ٣٩٣، انتصار أنطيوخس الكبير على المصريين فيها
٤١٨.
الصين هل بشر توما الرسول أهلها ٥١١.

(ط)

طرابلس أول أسقف عليها ٥٢٠

طياربوس قيصر شيء من ترجمته ٤٧٥ .
طيارية، بناء هيرودس انتيباس لها ٤٧٧، عصاوة أهلها على يوسفوس وحيلته
لإدخالهم في طاعته ٤٨٧ .
طيطوس العاهل الروماني شيء من ترجمته ٤٧٥، حصاره أورشليم وفتحها وخراب
الهيكل ٤٩١ .
طيمون أحد الشمامسة السبعة ٥١٥ .

(٤)

عبدوليم اقامه اسكندر ملكاً على صيدا ٣٩٣ .
عبرون في عبر الأردن ٤٣٤ .
عدلام (عبر الماء) في ناحية بيت جبرين ٤٣٤ .
العرب ارتحال قبائل منهم إلى حوران ودمشق ٥٢٨ .
عكا قبض تريفون على يوناتان المكابي فيها ٤٤٦، مقاومة أهلها لاسكندر بن
هركان والمجاهد بتلمايس لاتير ٤٥٥، حضور قلوبطرة امرأة بتلماوس السابع
إليها ثمة، ملك سيلانة أرملة أنطيوخس أو ساب فيها ٤٥٨، قتل أهلها
ألفين من اليهود وقت الحرب ٤٨٥، حلول فسبسيان فيها ٤٨٨ .
العهد الجديد عدد أسفاره وأثبت صحتها وعدم تحريفها ٤٩٤ النسخ القديمة لها
ثمة.

(٥)

غايوس كليكولا شيء من ترجمته ٤٧٥ .
غايوس واسكندر شهيدان في اباميا ٥٣٨ .
غزة، حصار اسكندر لها وفتحها وقتل باتيس واليها ٣٩٦، أول أسقف عليها ٥٢٠ .

غسان، بنو غسان ارتحلهم إلى الشام ٥٢٨ .
غلبه العاهل الروماني، شيء من ترجمته ٤٧٥ .

(ف)

فاروس كانت جزيرة عند الإسكندرية فالحقت باليابسة ٤١١ .
الفريسيون منشأ شيعتهم وعقائدهم ٤٥٤ .
فسبسيان العاهل الروماني اقامته في فلسطين وشيء من ترجمته ٤٧٥ ، ارسال نيرون
له لحرب اليهود وأخذه الجليل ٤٨٨ ، أعماله في اليهودية واقامته ملكاً ٤٩٠ .
الفصح المبحث الذي كان عنه يوم تعييده ٥٤٠ .
فقرة أي قلعة فقرا بناؤها في أيام الملك كلود والخطوط الدالة على ذلك ٤٧٥ .
فلورس والي اليهودية وتسببه بثورة اليهود ٤٨٤ .
فوقاً بطريق انطالي شهيد ٥٣٨ .
فيلس عاهل روماني شيء من ترجمته ٤٧٥ .
فيلبوس بن أنطيوخس كريوس حارب ابن عمه أنطيوخس أوساب فهزمه وملك في
أنطاكية وأخوه ديمتريوس في دمشق ٤٥٧ .
فيلبوس ابن هيرودس والي الجيدور واللجا ٤٧٧ .
فيلبس الرسول ترجمته ٥١١ .
فيلبس أحد الشمامسة السبعة ٥١١ و ٥١٥ .
فلبس خصي ملكة الحبشة ٥١٥ .
فلبس القرني ٥٣٧ .
فيلودور من كادارا (أم قيس) ترجمته وبعض تأليفه ٤٩٣ .
فيلون اليهودي ترجمته وتأليفه ٤٩٣ .

فيلون الجبيلي ترجمته ٥٣١.

فيلون شماس كنيسة ترسييس شهيد ٥٣٨.

(ق)

قبرص أخذ بتلمائيس لها من أنتيكون ٤٠٢، واسترداد ابنه ديمتريوس لها ٤٠٥.
قدموس الفينيقي ومهاجرته إلى بلاد اليونان ٣٨٩.

قلوبطرة ابنة بتلمائيس السادس زوجة اسكندر بالا ثم تزوجت بديمتريوس الثاني،
وبعد معاملتها على قتله ملكت قسماً من سورية، وزينا قسماً آخر ٤٥٠،
قتلها ابنها سوقلوس بيدها كيلا ينازعها الملك ٤٥١، تملكها ابنها الصغير
أنطيوخس كريوس وعزمها أن تهلكه أيضاً فأهلكها ٤٥١.

قلوبطرة امرأة بتلمائيس السابع ملكها مع ابنها بتلمائيس لاتير ٤٥٣، اشتراكها مع
ابنها اسكندر في الملك وحضورها إلى سورية لمقاومة ابنها لاتير ٤٥٥،
تزويجها ابنتها سيلانة امرأة ابنها لاتير بأنطونيوس كريوس ليقوى على أخيه
حليف لاتير ٤٥٦، عزمها على أن تغتال ابنها اسكندر فأرسل جنوداً قتلوها
٤٥٧.

قلوبطرة ابنة بتلمائيس اولات الشهيرة زواجها بتلمائيس الثاني عشر واختلافها معه،
وحكم قيصر لها وتزوجه بها، وبعد مقتله تسرى به مرقس أنطيوخس، وبعد
انتحاره حاولت أن تستغوي أغوستوس فحبط مسعاها فقتلت نفسها ٤٥٩
و ٤٦٦، ولايتها على أملاك ليسانياس ٤٧٨.

قلعة أنطونية في اورشليم ومن بناها ٤٨٤، حصار اليهود لها وفتحها ثمة، تدمير
الرومانيين لها ٤٩١.

دير القلعة تسميته قديماً بعل مرقد وبعض الخطوط فيه ٤٧٥.

قورنيوس والي سورية وتوفيق أقوال الإنجيل والمؤرخين في زمان ولايته فيها ٤٦٧.
قيصر وداشيوسي ورفقاؤهما شهداء في دمشق ٥٣٨.

قيصرية بانياس أول أسقف عليها ٥٢٠.
قيصرية فلسطين دعوى اليهود والوثنيين بها وبداية الثورة هناك ٤٨٤، أساقفتها في
القرن الأول ٥٢٠.

(ك)

كابارا (كبرا) في الجليل موقعها وفتح فسبسيان لها ٤٨٨.
كادارا (أم قيس) في عبر الأردن موقعها استسلام أهلها إلى فسبسيان ٤٩٠.
كاسيوس أسقف صور ٥٣٤.
كربوكرات مبتدع ٥٣٩.
كرنيليوس بطريك أنطاكية ٥٣٢.
كسندر بن أنثيتر وزير اسكندر وقتله أولبيا أم اسكندر ٤٠٢ تزوجه باخت اسكندر
واستفحال أمره في مكدونية، وانتصاره على حلفاء أنتيكون في بلاد اليونان،
وقتله اسكندر أكوس بن اسكندر الكبير وأمه ركسان، وتسميته نفسه ملكاً
في مكدونية ثمة.
كفر سلامه موقعها في فلسطين، وحرب يهوذا المكابي ونيكانور قائد جيش
ديمتريوس فيها ٤٣٧.
الكرك في جانب بحيرة طبرية وما كان ليوسيفوس فيها ٤٨٧.
كومود الملك ابن مرقس أورليوس موجز ترجمته ٥٢٢.
كلشيس عنجر، موقعها ٤٧٨.
كلود العاهل الروماني شيء من ترجمته ٤٧٥.
كلاروس أسقف عكا ٥٣٤.
كنداكا ملكة الحبشة ومحل مملكتها ٥١٥.
كوراتوس أسقف بيروت ٥٢٠.

كودراتوس أسقف أثينا ٥٣٧ .

كونيتوس كرس المؤرخ عصره ٤٠١ .

كيرنتون المبتدع وبدعه ٥٢١ .

(ل)

لاوميدون وزير اسكندر ولي سورية وفينيقية بعد وفاته ٤٠٢ ، انتزاع بتلميس سورية من يده ٤٠٣ .

اللاذقية أول أسقف عليها ٥٠٢ .

لاونسيوس شهيد في طرابلس ٥٣٨ .

لعازر أخو مريم ومرتا ترجمته ٥١٦ .

اللد أول أسقف عليها ٥٢٠ .

اللغة السريانية اثبات كون المخلص تكلم بها ٤٩٨ ، وكونها كانت لغة السوريين في القرون الأولى ٥٢٩ .

لوذيقة قتلها زوجها أنطيوخس الثاني، وقتل بتلميس لها بثأر أخته ضرّتها ٤١٢ .

لوسيان السميساطي فيلسوف، شيء من ترجمته ٥٣١ .

لوقا الإنجيلي ترجمته وإنجيله وكتابه في أعمال الرسل ٥١٤ .

ليسيماك وزير اسكندر ولي تراسة بعد وفاته ٤٠٢ ، تسميته نفسه ملكاً في تراسة ثم محاربة سلوقوس له وقتله ٤٠٧ .

ليساس عامل أنطيوخس أبيفان وحربه مع يهوذا المكابي ٤٣١ ، تعديل سياسته في بدء أيام أنطيوخس الخامس ٤٣٣ ، حملة له على محاربة اليهود ٤٣٥ مقتله ٤٣٦ .

ليسانيوس أو ليسانياس والي الأبلية من هو؟ الرد على ستروس بالاعتراض به على لوقا ٤٧٨ ، الخطوط القديمة الدالة عليه ثمة.

(م)

- متيا الكاهن أبو المكابيين غيرته للرب ٤٢٩ .
- متيا الرسول انتخابه للرسالة وترجمته ٥١١ .
- متى الرسول ترجمته وإنجيله ٥٠٩ .
- مرتا ومريم أختا لعازر ترجمتهما وتصحيح رواية بتبشيرهما في جنوبي فرنسة ٥١٦ .
- مرقس الإنجيلي ٥١٣ .
- مرقس أورليوس ملك الرومانيين موجز ترجمته ٥٢٢ بعض أحداث في سورية في أيامه ٥٢١ .
- مريقيون أو مرشيون مبتدع ٥٣٩ .
- مريم العذراء نسبها وبتولتها وسائر ترجمتها ٥٠٢ .
- مريمنا امرأة هيرودس، فتوره في محبتها وقتله أخيها أرسطوبولس ٤٦٨، قتله لها ٤٧٠ .
- مصر، استسلامها إلى اسكندر ٣٩٧، حملات أنطيوخس أبيفام عليها وتغلبه عليها ٤٢٥ - ٤٢٨، جعلها اقليماً رومانياً ٤٦٦ .
- منلاوس اليهودي خائن ملته، فظائعه وأخذه رئاسة الكهنة بالرشوة ٤٢٦، قتله ٤٣٥ .
- منتانوس مبتدع ٥٣٩ .
- المكابيون والسفران المنسوبان إليهم ملحق بعدد ٤٢١، اشتقاق اسمهم ٤٣٠ أعمال يهوذا ويوناتان المكابيين طالع هذه الاسماء .
- مكسيموس الفيلسوف الصوري ترجمته ٥٣١ .
- مكسيمينوس بطريرك أنطاكية ٥٣٢ .
- مودين المدينة، اكتشاف مدافن المكابيين فيها ٤٤٦ .
- ميندرس المبتدع وبدعته ٥٢١ .

(ن)

- النبطيون سلسلة ملوكهم ٥٢٩ .
النبي تعريفه ٣٧١ .
نتنائيل هل هو برتلمائوس ؟ ٥١١ .
نرسييس بطريك أورشليم ٥٣٢ .
نرفا (مرقس) العاهل الروماني ، شيء من ترجمته ٤٧٥ .
نقولا الدمشقي ترجمته ٤٩٣ .
نيقولائوس الدخيل الأنطاكي أحد الشمامسة السبعة هل تسبب بيدعة النيقولاويين ؟
٥١٥ .
النيقولايون وبدعتهم ٥٢١ .
نيرون الملك شيء من ترجمته ٤٧٥ .
نيكوكاس ملك الباف (في قبرص) محالفته لانتتيكون وانتحاره ٤٠٤ .
نيجر ليشينوس ملك الرومانيين ٥٢٢ .

(هـ)

- هايل مبتدع ٥٣٩ .
هجيسبسوس أصله وزمانه وبعض أقواله ٥١٠ و ٥٣٦ .
هركان ابن الملك اسكندر اليهودي رياسته على الكهنة ، وتمليك الفريسيين له وتخليه
عن الملك لأخيه ٤٦٢ ، رد بمبايوس له إلى الملك ومناصبه أخيه أرسطوبولس
وابنيه له فيه ٤٦٤ ، تعزيز قيصر جانبه ثم قبض البرتين عليه وتسليمه إلى
أنتيكون ابن أرسطوبولس ، وأخذه إلى بلادهم إلى أن استدعاه هيرودس وقتله
ثمة ٤٦٩ .

هرون بطريك أنطاكية ٥٣٢.

هرمياس وزير أنطيوخس الثالث كان معتسفاً فقتله الملك ٤١٥.

هليدورس عامل سلوقس الرابع وما أصابه عند محاولته نهب خزانة الهيكل وتسلمه الملك ٥٢٣.

الهند غزوة اسكندر لها وعوده منها ٤٠٠، تبشير توما الرسول فيها ٥١١.
هوشع النبي وتفصيل نبوته ٣٧٧.

هيرودس الكبير، اقامة مرقس أنطونينوس له ملكاً على اليهودية، ومحاربته أنتيكون ٤٦٥، قتله أرسطوبولس أخا مريمنا زوجه ٤٦٨، محاربته العرب وتزلفه إلى أغوستوس ٤٦٩، قتله مريمنا زوجه وأُمُّها اسكندرة ٤٧٠، تجديده بناء السامرة وتسميتها سبسطية واقامته قيصرية وأسوار أورشليم، وتجديده الهيكل أو الزيادة عليه ٤٧١، قتله ابنه اسكندر وأرسطوبولس ٤٧٢، باقي مظالمه أي على حكمه ابنه انتباتر بالموت، وقتله كثيرين من الفريسيين وأطفال بيت لحم ومرضه وموته ٤٧٣، نساؤه وأولاده ٤٧٥.

هيرودس أنتيباس والي الجليل تحصينه بيت صيدا وبنائه طيبارية وزواجه ابنة ملك العرب وطلاقها وتزوجه بهيروديا وحربه مع حميه وعزله ٤٧٧.

هيكل أورشليم متى جدده زربابل ٣٨٦، تجديد هيرودس بناءه أو زيادته عليه ٤٧١، خرابه في أيام طيطوس ٤٩١.

(و)

والنتينوس مبتدع ٥٣٩.

(ي)

ياسون أخو أونيا الحبر، أخذه الحبرية بالرشوة، وصرفه الشعب إلى عادات الأمم، وقتله أخاه أونيا وقتل منلاوس له ٤٢٦.

يافا، خرابها وهلاك سكانها حين الحرب مع الرومانيين ٤٩٠، تغريق اليهود فيها ٤٣٠.

يسوع المسيح مولده والاختلاف على سنة مولده ٤٧٤، وتبشير وموته ٤٩٥، نسبه بما أنه انسان وتوفيق نسبي متى ولوقا ٤٩٦، حياته من البشارة به إلى ظهوره للتبشير ٤٩٧، اللغة التي تكلم بها وإثبات كونها السريانية ٤٩٨، حياته وأعماله بحسب الأناجيل ٤٩٩، شهادة أعدائه له ٥٠٠، شهادة الآثار القديمة له وتعليمه ٥٠١، رسالة أبجر إليه ورسالته إلى أبجر هل هما صحيحتان ٥١٧.

يعقوب الرسول بن حلفى ترجمته ورسالته ٥١٠ رجم حنان له ٤٨١.
يعقوب بن زبدى ترجمته ٥١١.

اليهود اكرام اسكندر لهم ٣٩٥، قسوة بتلميس عليهم ثم رضاه عنهم وأخذه جنوداً منهم ٤٠٣، الضيق الذي أصابهم في أيام أنطيوخس الكبير ٤٢٢، تخلقهم بأخلاق اليونان واقامتهم مدرسة في اورشليم على سنن الأمم ٤٢٦، استراحتهم في أيام أنطيوخس الخامس ٤٣٣، تقرير هذا الملك لهم أن يدينوا بدينهم ٤٣٥، ما عفاهم منه ديمتريوس من الضرائب وإيثارهم اسكندر بالا عليه ٤٤٠، موالة الرومانيين لهم القربى بينهم وبين السبرتين ٤٤٥، ملوكهم في اليهودية بعد اليونان ٤٦١ إلى ٤٦٦ ثورتهم في أيام أرشيلالوس ٤٧٦، ثورتهم في أيام بيلاطوس ٤٧٩، فتنهم مع السامريين ٤٨٢، ثوارهم وقلقهم في أيام كومانوس وفيلكس وفستس والبين وملورس ولالة اليهودية الذين تسببوا بالثورة ٤٨٣، حروبهم مع الرومانيين التي أفضت إلى تشتيتهم وخراب اورشليم وحرق الهيكل ٤٨٤ إلى ٤٩٢، مقتلة أهل الإسكندرية بهم ٤٨٥، وثورتهم وتشتيتهم في أيام ترايان الملك ٥٢٣، وفي أيام أدریان ٥٢٤، الحرب بينهم وبين السامريين ٥٢٧.

اليهودية ولاتها بعد الميلاد إلى بيلاطوس البنطي ٤٧٩، ولاتها بعد بيلاطوس إلى حين الحرب ٤٨٣، جعل فسبسيان لها ملكاً خاصاً به وباع من أرضها بالمزايدة فكانت له ثروة منها ٤٩٢.

يهوذا المكابي انتصاره على عساكر أنطيوخس أبيفام وعشائر كثيرة ٤٣١، حروبه مع
عشائر أخرى وعمال الملك ٤٣٤، تقدمته الذبيحة عن الموتى ثمة، تولية
أنطيوخس الخامس له على ما كان من عكا إلى آخر بلادهم ٤٣٥، حروبه
مع عساكر ديمتريوس ٤٣٧، وعقده الموالاة مع الرومانيين ومقتله ودفنه ثمة.
يهوذا الرسول المسمى تادي ولاي، ترجمته وليس هو تادي المرسل إلى أبجر ٥١١،
رسالته وما ينتقد فيها ثمة.

يوتاباط (جفت) موقعها وحرب يوسيفوس مع الرومانيين فيها ٤٨٨.
يوحنا المعمدان شهادة يوسيفوس له ٤٧٧.

يوحنا الرسول نسبه وباقي ترجمته وإنجيله ورسائله ٥٠٧، رؤياه وخلاصة تفسيرها
٥٠٨.

يوحنا ابن سمعان المكابي قتله من أتوا لقتله وباقي أعماله، وتقلده رئاسة الكهنوت
وتسميته هرکان ٤٤٨ بسطه حدود ولايته واستبداده في الملك على اليهود
وخلعه طاعة ملوك سورية ٤٥٠.

يوحنا الجشي صفاته ومناصبته ليوسيفوس والي الجليل ٤٨٧، هربه من الجش إلى
أورشليم ٤٨٨، وما صنعه فيها من المضار ٤٨٩، استلامه إلى الرومانيين
وأخذه أسيراً إلى رومة ٤٩٢.

يوستوس الطبراني كاتب يهودي ترجمته ٤٩٣.

القديس يوستينوس وفقر من محاماته التي رفعها إلى الملك أنطونينوس ٥٢٥، ترجمته
وذكر تأليفه ٥٣٥.

يوسف خطيب مريم ٥٠٢.

يوسيفوس اليهودي ولايته على الجليل أيام الحرب وما دبره فيها ٤٨٧، استسلامه
إلى فسبسيان ونبوته له عن ملكه ٤٨٨، ترجمته وتأليفه ٤٩٣، كتابته
تاريخه بالسريانية أولاً ٤٩٨.

يوليوس بولس الفقيه ٥٣١.

يوليانس. ساويروس ملك الرومانيين ٥٢٢.

اليونان لحظة في تاريخهم إلى مولد اسكندر ٣٨٩.

يوناتان المكابي اقامته رئيساً مكان يهوذا أخيه ٤٣٧، حربه مع بكيديس قائد جيش ديمتريوس واسكندر بالاً الملكين المتنازعين له ٤٤٠، تعزيز الملك اسكندر له ٤٤١، أخذه يافا وحربه مع أبولونيوس والي بقاع سورية من قبل ديمتريوس الثاني ٤٤٢، حصاره قلعة أورشليم وتعزيز ديمتريوس له وانخضاعه بلاده وثلاث مدن ألحقا به وهي الطيبة واللد والرمثاء ٤٤٣، إنجاده ديمتريوس عند الثورة عليه ٤٤٤، خدماته لأنطيوخس السادس مع أخيه سمعان ومراسلته الرومانيين البرتيين ٤٤٥، أخذ تريفون له بحيلة إلى عكا والقبض عليه وقتله ٤٤٦.

المجلد الرابع

(أ)

- اباميا نقض هياكل الأصنام فيها ٥٦٦ أسقفها القديس مرسل وقتل الوثنيين له ثمة
عدد سكانها في أيام اغسطس ٥٧٢ .
- أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ أساقفتها في القرن السادس ٦٥٦ .
- الابلية أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٤ وفي السادس ٥٦٥ .
- ابولينار المبتدع ٦٠٢ .
- القديس ايفان أسقف سلمينا بقبرص ترجمته ومؤلفاته ٥٧٩ .
- القديس اثناسيوس الكبير ترجمته ٥٨٢ .
- اخسنيا أسقف منبج ٦١٨ .
- أذينة أمير تدمر انتصاره على الفرس في سورية وتسمية قومه له ملكاً وتسمية
الرومانيين له امبراطوراً أي غازياً ٥٤٤ .
- أرواد أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ والخامس ٦٢٢ والسادس ٦٥٦ .
- اريوس المبتدع ٦٠٠ وبدعته .
- اريتاس (حارث) ملك النبطيين ٥٧١ .
- اركاديوس الملك ترجمته ٦٠٣ .
- اسكندر ساويرس العاهل الروماني ٥٤١ ترجمته إلى مقتله ٥٤٣ .
- اسكندر بطريرك أورشليم في القرن الثالث شهيد ٥٥٠ .
- اسكندر البطريرك الانطاكي ٦١٤ .

- اسكندرية أمر كركلا بنهبها ٥٤١ ثورة الوثنيين على النصارى فيها ٥٦٦ .
- اسحق الشيخ تلميذ القديس افرام ٥٨٢ .
- القديس اسحق الكبير ترجمته ٦٢٦ .
- اسحق النينوي ترجمته ٦٦١ .
- اسطفانس الأول والثاني والثالث بطاركة انطاكية ٦١٤ .
- اسطفانس بطريرك انطاكي اريوسي ٥٧٥ .
- استيريوس أسقف اللد ٥٨١ .
- اسكلاياد بطريرك انطاكي ترجمته ٥٤٩ .
- الاسود بن المنذر من اللخيين حربه مع ملوك آل غسان ٦٠٩ .
- الأسافليون بدعتهم ٦٦٧ .
- طرابلس أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٢ وفي السادس ٦٥٦ الشهداء في القرن الثالث ٥٥٥ أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ .
- اغاثيا المؤرخ ٦٥٣ .
- القديس اغوستينوس ترجمته ٦٣٠ .
- افاغريوس المؤرخ ترجمته ٦٥٢ .
- افاغريوس بطريرك انطاكية ٥٧٥ .
- افرهات الناسك وتوبيه والنس ٥٦٤ .
- القديس افرام السرياني ترجمته ٥٨٢ .
- أفسس الجمع الأفسسي المسكوني ٦٣٨ والجمع اللصبي الذي عُقد فيها ٦٣٩ .
- افلايانس بطريرك انطاكية وخطبته بحضرة توادوسيوس الملك ٥٦٧ اقامته بطريركاً ٥٧٥ .
- افلايانس الثاني ٦١٤ .
- أفقا نقض قسطنطين هيكل الزهرة فيها ٥٦٠ و ٥٩٣ تجديده في أيام يوليانس ونقضه ثانية في أيام اركاديوس ٥٦١ .

اكاشيوس أسقف قيصرية فلسطين ٥٨١ .
اكاشيوس بطريرك انطاكية ٦١٤ .
اكويلينس أسقف جبيل ٦٢١ .
أليوكبل العاهل الروماني ٥٤١ تملكه وأعماله في روما ومقتله ٥٤٢ .
القديس امبروسيوس تونيه للملك توادوسيوس ٥٦٨ ترجمته ٥٨٥ .
امفيون أسقف صيدا ٥٨١ .
اناطوليوس أسقف اللاذقية وتأليفه ٥٥١ .
امونيوس الفيلسوف المسيحي ٥٥٤ .
اميان مرشليينوس المؤرخ الانطاكي ترجمته ٥٧٠ .
امرؤ القيس الشاعر العربي ترجمته في الذيل على عدد ٦٥٣ .
ايوليوطوس الاسقف ومؤلفاته ٥٥١ .
انسطاس الملك ترجمته ٦٠٨ .
انطيوكس أسقف عكا ٥٨٠ و ٥٨١ .
انطاكية بطاركتها في القرن الثالث ٥٤٩ شهداؤها في هذا القرن ٥٥٥ المجامع التي
عُقدت بها فيه ٥٥٨ ما كان بين أهلها ويوليانس الجاحد ٥٦١ ثورة أهلها
على توادوسيوس الملك ٥٦٧ بطاركتها في القرن الرابع ٥٧٥ المجامع التي
عُقدت فيها في هذا القرن ٥٨٦ كنيستها التي بناها قسطنطين الملك ٥٩٣
بطاركتها في القرن الخامس ٦١٤ المجامع التي عُقدت بها فيه ٦٤١ خرابها
في أيام الملك يوستينس ٦٤٥ فتح كسرى لها ٦٤٧ بطاركتها في القرن
السادس ٦٥٤ .
انياس أسقف عكا ٥٨١ .
انياس الغزي فيلسوف ٦١٢ .
انطونيوس الكبير ترجمته ٥٨٣ .
اودوكسيوس بطريرك انطاكي اريوسي تغلب على كرسي قسطنطينية ٥٧٥ .

أورشليم بطاركتها في القرن الثالث ٥٥٠ محاولة يوليانس الجاحد تجديد هيكلها
٥٦١ بطاركتها في القرن الرابع ٥٧٦ المجامع التي عُقدت فيها في القرن
الرابع ٥٨٧ بطاركتها في القرن الخامس ٦١٥ المجامع الخاصة التي عُقدت
بها فيه ٦٤١ بطاركتها في القرن السادس ٦٥٥.

اوذايوس أسقف قيصرية فلسطين ٥٨١.

اوريجانس ترجمته ٥٥٢.

اورانيوس أسقف صور ٥٨١.

اورليان العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ محاربته زبيدة وأخذها أسيرة ٥٤٥.

اوروز ترجمته ٦٣٤.

اوسطاتيوس أسقف بيروت ٦٢١.

اوسابيوس أسقف قيصرية فلسطين الشهير ترجمته ومؤلفاته ٥٧٧.

اوسابيوس أسقف حمص ترجمته ٥٧٨.

اوسابيوس أسقف بيروت ثم نيكومية ٥٨١.

اوسابيوس أسقف سميساط ٥٨١.

اوطيخا بدعته ٦٣٧.

اولبيان البيروتي وتديره المملكة في بدء ملك اسكندر ساويرس ٥٤٣.

اوسطاتيوس قديس بطريك انطاكية في القرن الرابع وعزله ٥٧٥.

اولاليوس بطريك انطاكي اريوسي ٥٧٥.

اوتاب العالم من سرد ٥٧٠.

القديس ايرونيμος ترجمته ٥٤٩.

القديس ايلاريون ترجمته ٥٨٥.

القديس ايلاريون الناسك ترجمته ٥٩٦.

ايوليوطوس الاسقف ومؤلفاته ٥٥١.

ايهيبا أسقف الرها ترجمته ٦٣٣.
ايريناوس أسقف صور ترجمته ٦١٩.

(ب)

بايلا البطريك الانطاكي الشهيد ٥٤٩.
بابيان الفقيه البيروتي قتل كركلا له ٥٤١.
باسيليوس أسقف جبيل ٥٨١.
باسيليوس بطريك انطاكية ٦١٤.
باسيليوس (القديس) الكبير ترجمته ٥٨٤.
باسيليك الملك ٦٠٧.
بالاي السرياني ٥٨٢.
بانياس الشهداء بها في القرن الثالث ٥٥٥.
بايان ولبليان ملكان رومانيان ٥٤١.
البترون أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٢ وفي السادس ٦٥٦.
براليوس بطريك أورشليم ٦١٥.
برفير الفيلسوف الصوري ترجمته ٥٤٧.
برفيروس بطريك انطاكي ٦١٤.
برويس العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١.
بريل أسقف بصرى تأليفه وجدال اوريغانس له ٥٥١ و ٥٥٧.
بروكلس أو بروقلس فيلسوف ٦١٣.
برصوما الارشمندريت ترجمته ٦٢٩ أضاليل بعض تباعه ٦٦٧.
بروسبر (القديس) ترجمته ٦٣٤.

بردات من تلاميذ القديس مارون ٦٤٣ .
بروكوب المؤرخ ترجمته ٦٥٣ .
بروكوب الغزي ترجمته ٦٥٨ .
بصرى بحوران شيء من تاريخها ٥٤١ و ٥٥١ أسقفها بربل ٥٥١ المجمع الذي
عُقد فيها ٥٥٨ .
بطرس القصار الدخيل على بطريركية انطاكية ٦١٤ .
القديس بطرس كرنسولوغوس ترجمته ٦٣٤ .
بعلبك ما بناه فيها كركلا ٥٤٢ تحويل هيكلها إلى كنيسة ٥٦٦ و ٥٩٣ شهداؤها
في القرن الرابع ٥٩٩ أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٤ .
القديس بمفيل الشهير البيروتي أصلاً ترجمته ٥٥٣ .
بلاديوس البطريرك الانطاكي ٦١٤ .
بلوشاريا الملكة ترجمتها ٦٠٥ .
بولينوس بطريرك انطاكية ٥٧٥ .
بولس السميساطي بطريرك انطاكية ترجمته وبدعته ٥٤٩ و ٥٥٧ .
بولينوس أسقف صور ترجمته ٥٨١ .
بولس أسقف صور ٥٨١ .
بيروت استشهاد القديسة مريانا فيها وكنيستها ٥٥٥ حرق هذه الكنيسة ٥٦٢
تجارة أهلها في إيطاليا وغيرها وإقامة أسقف منهم في باريس أساقفتها في
القرن الخامس ٦٢١ والمجمع الذي عُقد فيها ٦٤١ أساقفتها في القرن
السادس ٦٥٦ .

(ت)

تاسيت، العاهل الروماني، شيء من ترجمته ٥٤١ .

- تاسيتوس الفصيح البغلاغوني ٥٧٠.
- تدمر حصارها على زينب وفتحها وخرابها إلى الآن ٥٤٥ أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٤.
- تريفيليوس أسقف نيكوسيا في قبرص ترجمته ٥٨١.
- توادوسيوس الكبير ونقضه هياكل الأصنام وشرائعه ٥٦٦ ثورة الانطاكيين عليه ورفقه بهم ٥٦٧ مقتلة أهل سالونيك بأمره وتوبته لتونيبي القديس امبروسيوس له ٥٣٨ تنمة أخباره إلى وفاته ٥٦٩.
- توادوسيوس الملك الصغير ٦٠٤.
- توادوسيوس أسقف طرابلس ٥٨١.
- توادوسيوس أسقف صيدا ٥٨١.
- توادورس الكاهن الانطاكي شهيد ٥٩٨.
- توادورس الشاب شهيد ٥٩٨.
- توادوتس البطريك الانطاكي ٦١٤.
- توافيلس بطريك اسكندرية. ومناصبته فم الذهب ٥٧٩ و ٥٨٠.
- توادورس أسقف المصيصة ترجمته ٦١٧.
- توادوريطوس أسقف قورش ترجمته ٦١٦.
- تيموتاوس بطريك انطاكي في القرن الثالث ٥٤٩.
- تيرانوس بطريك انطاكية ٥٧٥.

(ج)

- الجاحدون المبحث في قبولهم دون توبة مشتهرة ٦٥٦.
- جبله أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ وفي الخامس ٦٢٢ وفي السادس ٦٥٦.

جبل أسقفها اوتاليوس في القرن الثالث ٥٥١ تجارتها بالمنسوجات ٥٧٣ أساقفتها
في القرن الخامس ٦٢١ وفي السادس ٦٥٦ .
جيتا بن سبتيموس ساويروس قتل أخيه له ٥٤١ .
القديس جيورجيوس ترجمته ٥٩٤ .

(ح)

حاتم الطائي ترجمته ذيل ٦٥٣ .
الحارث أحد ملوك غسان وحربه في سورية مع اللخمين ٦١٠ .
حلب أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ وفي الخامس ٦٢٣ وفي السادس ٦٥٦ .
حمص الهيكل الذي كان فيها الحجر الاسود الذي نقله أليوكبل إلى روما ٥٤٢ .
حرب زينب واورليان فيها ٥٤٥ أسقفها سلوانس الشهيد في القرن الثالث ٥٥١ و
٥٥٥ بريتها في أيام الرومانيين ٥٧٢ أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ وفي
القرن الخامس ٦٢٤ .
الحميريون لمعة من تاريخهم في القرن السادس ٦٤٤ .
حنظلة الطائي الشاعر ترجمته ذيل ٦٥٣ .
حوران أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ .

(خ)

خلكيذونية المجمع الخلكيذوني الذي عُقد فيها ٦٤٠ .
خسوستوس الموصوف بابا روما ٦٥٧ .

(د)

- داشيوس أو داكوس العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ .
دمتريانس بطريرك انطاكي ٥٤٩ .
دمشق شهداؤها في القرن الثالث ٥٥٥ جناتها في أيام الرومانيين ٥٧٢ أساقفتها في
القرن الرابع ٥٨١ وفي الخامس ٦٢٤ وفي السادس ٦٥٦ .
الدمشقي فيلسوف ٦١٢ .
دمنة الحمصية امرأة سبتيموس ساويروس وعلمها ونفوذها ٥٤٢ .
دمنوس البطريرك الانطاكي ٥٤٩ و ٦١٤ .
دوروتائوس كاهن انطاكية ترجمته ٥٥٣ .
دوروتائوس الفقيه البيروتي ٦٤٦ و ٦٥٢ .
دومينا تلميذة القديس مارون ٦٤٣ .
ديديميس الاسكندري ترجمته ٥٨٣ .
ديوكلتيان العاهل الروماني بعض ترجمته ٥٤١ و ٥٥٩ .
ديودورس أسقف صور ٥٨١ .
القديس ديونسيوس الاسكندري ترجمته ٥٥٤ .

(ر)

- رابولا أسقف الرها ترجمته ٦٣٣ .

(ز)

- زايينوس بطريرك انطاكي ٥٤٩ .

- زانو أو زينون أسقف صور ٥٨١.
زبدى بطريك أورشليم في القرن الثالث ٥٥٠.
زينب ملكة تدمر وحربها مع أورليان وأخذه لها أسيرة ٥٤٥.
زينون الثاني أسقف صور ٥٨١.
زينون الملك ٦٠٦ و ٦٠٧.

(س)

- القديس سابا الناسك ترجمته وديره ٦٢٨.
سايلليوس مبتدع وبدعته ٥٥٧.
سالونيك مقتلة أهلها بأمر توادوسيوس الملك ٥٦٨.
السامريون ثورتهم في زمان يوستنيانوس ٦٤٨.
ساويرس سولبيسيوس ترجمته ٦٣٤.
ساويروس بطريك انطاكية ترجمته ٦٥٤.
سبيريدون أسقف لمسون بقبرص ٥٨١.
القديس سراييون الناسك ترجمته ٥٨٣.
السراكسة من هم وبمّ تسموا كذلك ٥٦٤.
سرجيوس الرشعيني ترجمته ٦٥٢.
القديسان سرجيوس وباخوس ترجمتهما ٥٩٥.
سريانس الفيلسوف ٦١٣.
سفريانوس أسقف جبلة ما كان له مع فم الذهب ٥٨٠.
سقراط المؤرخ ترجمته ٦١٣.
سميساط أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١.

سمعان العمودي الكبير ٦٢٥.

سمعان العمودي الصغير ٦٦١.

سمعان الفارسي أسقف بيت أرشم ترجمته ٦٦١.

سوزومانس المؤرخ ترجمته ٦١١.

سورية استحواذ سابور ملك الفرس عليها ٥٤٤ الشهداء فيها في القرن الثالث
٥٥٥ المجامع التي عُقدت فيها في هذا القرن ٥٥٧ نقض هياكل الأصنام
فيها ٥٦٦ استمرارها اقليمياً ملكياً والادارة السياسية فيها في القرون الأولى
٥٧١ الزراعة والصناعة والتجارة فيها طالع كلمة سوريين أساقفتها في
القرن الرابع ٥٧٧ وما يليه بعض كنائسها في هذا القرن ٥٩٣ المجامع
الخاصة التي عُقدت فيها في القرن الخامس ٦٤١ حملة كسرى عليها في
أيام يوستينيانس ٦٤٧ خرابها بالزلازل ٦٤٨ المجامع التي عُقدت فيها في
القرن السادس ٦٦٦ البدع فيها في هذا القرن ٦٦٧ وما كان فيها في
أيام فوقا ٦٧٠ حملة الفرس عليها في أيام هرقل ٦٧٢ افتتاح الخلفاء
الراشدين لها ٦٧٤.

السوريون تديبرهم للملكة الرومانية أربعين سنة ٥٤٣ أطوارهم في القرون الأربعة
الأولى الادارة السياسية ٥٧١ الزراعة ٥٧٢ الصناعة ٥٧٣ التجارة ٥٧٤.
السويدية أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ في القرن الخامس ٦٢٣ وفي القرن
السادس ٦٥٦.

سيماخوس السامري تشييعه لأبيون وثوراته ٥٥٧.

(ش)

شعراء النصرانية في القرن السادس ذيل ٦٥٣.

الشهداء السبعة الراقدون في الكهف والخلاف في بعثهم ٦٠٤ و ٦١٤:

(ص)

صعود الخُلص تاريخ كنيسته في أورشليم ٥٩٠.
الصليب أخذ الفرس خشبته من أورشليم ٦٧٢ استرداد هرقل لها ٦٧٣.
صور أساقفتها في القرن الثالث ٥٥١ شهداؤها في هذا القرن ٥٥٥ حال تجارة
أهلها في ايطاليا ٥٧٤ أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ المجمع الذي عُقد فيها
على القديس اثناسيوس ٥٨٨ كنيستها القديمة ٥٩٢ أساقفتها في القرن
الخامس ٦٢٠ المجمع الذي عُقد فيها بدعوى ايهيا ٦٤١ أساقفتها في القرن
السادس ٦٥٦.
صيدا أساقفتها في القرن الثالث ٥٥١ استشهاد زينوبيوس فيها في القرن الثالث
٥٥٥ أساقفتها في القرن الخامس ٦٢١ وفي السادس ٦٥٦.

(ط)

طرسوس تجديد قسطنس بناءها وتسميتها قسطنسية ٥٦٠.
طيار الملك ترجمته ٦٥٠.

(ع)

العرب وطبقاتهم الثلاث وبعض أنسابهم ٥٤٦ بدعة بعض علمائهم ٥٥٧ شعراؤهم
ذيل ٦٥٣.
عرقا أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٢ وفي السادس
٦٥٦.
عكا أسقفها يوحنا في القرن الثالث ٥٥١ أساقفتها في القرن الخامس ٦٢١ وفي
السادس ٦٥٦.

(غ)

- غاليان العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ .
غراسيان الملك ترجمته ٥٦٥ .
القديس غريغوريوس صانع العجائب أسقف قيصرية الكبادوك ٥٥٤ .
غريغوريوس أسقف بيروت ٥٨١ .
القديس غريغوريوس أسقف نيصص ترجمته ٥٨٤ .
غزة أسقفها سلوانس الشهيد في القرن الثالث ٥٥١ شهداؤها في هذا القرن مع
سلوانس أسقفها ٥٥٥ شهداء آخرون فيها ٥٩٩ .
بنو غسان أصلهم وملوكهم في دمشق وبعض آثارهم ٥٤٦ و ٥٧١ حربهم مع
الاسود اللخمي ٦٠٩ .
الغطط بعض تاريخهم ٥٦٤ مصالحة غراسيان لهم ٥٦٥ .
غلوس العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ .

(ف)

- فايوس بطريك انطاكي ٥٤٩ .
فالريان العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ محاربة الفرس له وأخذهم له أسيراً
٥٤٤ .
الفصول الثلاثة وما كان بسببها من القلق ٦٦٤ .
الفساديون وغير الفسادين أصحاب بدعة ٦٦٧ .
فلسطين شهداؤها في أيام ديوكلتيان ٥٥٥ أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ .
فوقا ملك قسطنطينية ٦٧٠ .
فيلاتس بطريك انطاكي ٥٤٩ .

- فيلبس العربي العاهل الروماني ترجمته ٥٤١ .
فيتاليوس بطريك انطاكية ٥٧٥ .
فيلوكينوس بطريك انطاكية ٥٧٥ .
فيلون أسقف بقبرص ٥٨١ .
الفرمي القديس ايسيدوروس ٦٣١ .

(ق)

- القبر المقدس في أورشليم تاريخ كنيسته ٠٨٩ .
قبرص أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ .
قسطنطين الكبير ترجمته وظهور الصليب له وقسمته الملك بين أبنائه ٥٦٠ .
قسطنس بن قسطنطين ملك المشرق ترجمته ٥٦٠ .
قسطنطينية المجمع القسطنطيني الثاني وهو الخامس من المجمع العامة ٦٦٥ .
دير قنوين بناء توادوسيوس الملك له ٥٦٩ .
قيصرية فلسطين أساقفتها في القرن الثالث ٥٥١ شهداؤها في هذا القرن ٥٥٥ .

(ك)

- كاران العاهل الروماني قتلته ٣٤١ .
كاروس العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ .
القديس كبريانس أسقف قرطاجنة ترجمته ٥٥٤ .
كر كلا بن سبتيموس ساويروس ترجمته ٥٤١ تكميله أبنية أبيه في بعلبك ٥٤٢ .
كرلوس بطريك انطاكي في القرن الثالث ٥٤٩ .

- القديس كرنيليوس الحبر الروماني ورسائله ٥٥٤ .
كلود الثاني العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٤١ .
كليب أخو المهلهل ترجمته ذيل ٦٥٣ .
كلنديون بطريك انطاكية ٦١٤ .
كورديان الأول والثالث ملوك رومانيون ٥٤١ .
القديس كيرلس بطريك أورشليم ٥٧٦ .
القديس كيرلس الاسكندري ٦٣١ .
كيرلس البعلبكي شهيد ٥٩٩ .

(ل)

- البابا لاون الأول الكبير ترجمته ٦٣٤ .
الملك لاون الكبير وحفيده لاون الثاني ٦٠٦ .
لاونس الملك ٦٠٧ .
لاونتيوس البيزنطي ترجمته ٦٥٨ .
اللذ المجمع الذي عُقد فيها ٦٤١ .
اللاذقية أساقفتها في القرن الثالث ٥٥١ أساقفتها في القرن الرابع ٥٨١ وفي القرن السادس ٦٥٦ .
لنجين الفيلسوف ترجمته ٥٤٨ .
لوشينوس أسقف عرقا ٥٨١ .
ليبانيوس الانطاكي ترجمته ٥٧٠ .
ليسانياس الأول والثاني وزينودر ولاة الالبية ٥٧١ .
ليشينيوس ملك المشرق وقتل قسطنطين الكبير له ٥٦٠ .
ليميناوس تلميذ القديس مارون ٦٤٣ .

(م)

- مارانا وكورة تلميذتا القديس مارون ٦٤٣ .
القديس ماروتا أسقف ميافرقين ٦٣٢ .
القديس مارون الناسك ترجمته ٦٤٢ تلامذته ٤٦٣ انتشار رهبانيته ونسبة الموارنة
إليه وإليهم والردّ على سعيد بن بطريق باتهامه له بالبدعة ٦٦٨ مناضلتهم
عن الايمان واضطهادهم ٦٦٩ .
مارينس فيلسوف نسطوري ٦١٢ .
مازابان بطريرك أورشليم في القرن الثالث ٥٥٠ .
ماني المبتدع وأتباعه ٥٥٧ .
ماوية ماء السماء حربها في سورية ٦١٠ و ٦٥٣ .
متوديوس أسقف صور وتأليفه ٥٥١ .
مرتيريوس بطريرك انطاكية ٦١٤ .
القديس مرسل أسقف اباميا ٥٦٦ .
مرعش أساقفتها في القرن السابع ٦٥٦ .
مرقيان الملك ترجمته ٦٠٥ .
مصر ولاية زينب عليها ٥٤٥ .
المصلون هراطقة ٥٨٦ .
القديس مكاريوس بطريرك أورشليم ٥٧٦ .
مكرين العاهل الروماني شيء من ترجمته ٥٦١ مصالحته الفرس والأرمن ونهاية
ملكه ٥٤٢ .
مكدونيوس المبتدع ٦٠١ .
مكدونيوس أسقف بيروت ٥٨١ .
مكدونيوس الناسك ٥٦٧ .

مكسيموس العاهل الروماني ٥٤١.
 مكسيميان العاهل الروماني بعض ترجمته ٥٤١ و ٥٥٩.
 مكسيموس بطريك انطاكية ٦١٤.
 مكسيموس شهيد ٥٩٩.
 مكسيموس الملك قاتل غراسيان وشريك والنتيان في ملك المغرب ٥٦٥.
 مكسيموس (القديس) بطريك أورشليم ٥٧٦.
 ملخس (القديس) الراهب المسيحي ٥٩٧.
 ملكيون الكاهن الانطاكي ٥٥٣.
 ملاتيوس (القديس) بطريك انطاكية ٥٧٥.
 ممّا أم اسكندر ساويروس ومراسلتها اوريغانس وتربية ابنها ٥٤٢ دعوتها اوريغانس
 إلى انطاكية ٥٥٢.
 المنذر بن ماء السماء وحربه مع آل غسان ٦١٠ زمانه ذيل ٦٥٣.
 منبج أساقفتها في القرن الخامس ٦١٨.
 المهلهل أخو كليب ترجمته ذيل ٦٥٣.
 موريق الملك ترجمته ٦٥١.
 مولد الخُلص تاريخ كنيسته في بيت لحم ٥٩١.
 موسى أسقف العرب بالحيرة ٦١٠.
 ميزا جدة أليوكبل واسكندر ساويروس ٥٤٢.
 مينوشيوس فليكس ٥٥٤.

(ن)

النبطيون بعض ملوكهم وانقراض دولتهم ٥٧١.
 نسطور وبدعته ٦٣٦.

نكتايوس أسقف عكا ٥٨١ .
نمریان الملك تمليكہ وقتله ٥٤١ .
نيقية المجمع النيقوي الأول ٦٠٠ .

(هـ)

هرقل الملك ترجمته ٦٧٢ و ٦٧٣ أخذ الخلفاء سورية منه ٦٧٤ .
هرمون بطريرك أورشليم في القرن الرابع ٥٧٦ .
هرون بن أشير عالم يهودي ٦١٣ .
هلنيكس أسقف طرابلس ٥٨١ .
هيلانة أم قسطنطين كشفها عن آلات آلام المخلص ٥٧٦ .

(و)

والنتيان الملك ترجمته ٥٦٣ .
والنتيان الثاني ترجمته ٥٦٥ .
والنس الملك ترجمته ٥٦٤ .
ويتاليس أسقف صور ٥٨١ .

(ي)

يافا ردها لليهود بعد أن أخذها الرومانيون منهم ٥٧١ .

- يبرود أساقفتها في القرن الخامس ٦٢٤ وفي السادس ٦٥٦ .
- اليعاقبة ونسبتهم إلى يعقوب البردعي ٦٦٢ بعض أضاليلهم ٦٦٧ .
- يعقوب تلميذ القديس مارون ٦٤٣ .
- القديس يعقوب النصيبيني ترجمته ٥٨٢ .
- يعقوب البردعي ترجمته ٦٦٢ .
- القديس يعقوب السروجي ترجمته وإثبات صحة إيمانه ٦٦٠ .
- اليهود مهاجراتهم وتجارتهن في أيام الرومانيين ٥٧٤ ثورتهم في سورية في أيام فوقا ٦٧١ .
- يوحنا فم الذهب مواعظه في انطاكية ٥٦٧ شهادة ليبيانيوس له ٥٧٠ ترجمته ومؤلفاته ٥٨٠ .
- يوحنا الأول بطريرك انطاكية ٦١٤ .
- يوحنا الثاني بطريرك أورشليم ٥٧٦ .
- يوحنا أسقف آسيا ترجمته ٦٦٣ .
- يوحنا سابا ترجمته ٦٦١ .
- القديس يوحنا السلمي ٦٥٩ .
- القديس يوحنا الرحوم البطريرك ٦٥٩ .
- يوحنا الانطاكي البطريرك القسطنطيني ٦٥٩ .
- يوحنا بن مرقيان بطريرك أورشليم ٦٥٥ .
- يوحنا الابامي ترجمته ٦٥٧ .
- يوحنا كاسيان ترجمته ٦٣٤ .
- يوسطينوس الملك ترجمته ٦٤٦ .
- يوسطينوس الملك الثاني ترجمته ٦٤٩ .
- يوفيان الملك ترجمته ٦٥٢ .

- يوفنتيس شهيد ٥٩٩ .
يوفينال بطريك أورشليم ٦١٥ .
يوليوس الافريقي ترجمته ٥٤٨ .
الملك يوليانس الجاحد ترجمته ٥٦١ .
يوليانس الانطاكي شهيد ٥٩٨ .
يوليانس البطريك الانطاكي ٦١٤ .

المجلد الخامس

(أ)

- إبراهيم بن الوليد الأول ترجمته ٧٢٢ .
ابن بطلان الطبيب ٨٠٧ .
ابن حيوس الدمشقي الشاعر ٧٩٩ .
ابن الحياط الدمشقي الشاعر ٧٩٩ .
ابن دريد اللغوي الشاعر ٧٨٧ .
ابن سينا الرئيس ترجمته وتأليفه ٨٠٠ .
ابن سهل اللغوي الشاعر ٧٨٧ .
ابن مقلة وزير القاهر بالله ٧٧١ وفاته ٧٧٢ .
ابن نباتة الخطيب ٧٨٦ .
ابن نباتة الشاعر ٧٨٦ .
أبو بكر الصديق ترجمته ٦٧٦ .
أبو بكر بن عبد الرحمن أحد الفقهاء السبعة ٧٣٠ .
أبو عبيدة حروبه في الشام ٦٧٧ .
أبو العلاء المعري ٧٩٩ .
أبو حنيفة النعمان ٧٣١ .
أبو تمام صاحب الحماسة ترجمته ٧٥٥ .
أبو نواس الشاعر ٧٥٧ .

- أبو المعالي ابن سيف الدولة خلافته لأبيه ٧٧٨ وفاته ٧٨٠.
- أبو اسحق الشيرازي ٨٠٠.
- أبو علي الفارسي النحوي ٧٨٧.
- أبو مسلم الخراساني ٧٢٥.
- أثناسيوس بطريرك اليعاقة ٦٩٢.
- أثناسيوس أسقف بيروت في القرن الثامن ٧٣٥.
- أحمد بن حنبل ترجمته ٧٣١.
- الأخفش النحوي ٧٣٢.
- الأخشيذ ولايته بالرملة ثم دمشق ثم مصر ٧٧٢ ولايته بسورية ٧٧٣ وفاته ٧٧٥.
- الأخطل الشاعر المشهور ٦٨٨.
- أرتياس أسقف قيصرية الكبادوك ٧٩٢.
- أرواد فتح المسلمين لها أولاً ٦٧٩.
- الأزهري النحوي الفقيه ٧٨٧.
- أسطفانس أسقف دورا ٦٩٣ و ٦٩٥.
- الأصمعي اللغوي النحوي ٧٥٧.
- إسكندرية، فتح المسلمين لها وحرقت مكتبتها ٦٧٨.
- أغابيوس مطران حلب ٧٦٠.
- الأغلبيون ملوك إفريقية أصلهم وولايتهم ٧٤٩ إنقراض دولتهم ٧٦٩.
- إفريقيا فتح المسلمين لها أولاً ٦٧٩.
- القديس إغناطيوس بطريرك قسطنطينية ٧٦٤.
- أقسنقر والي حلب ٧٩٧ و ٧٩٨.
- أكومانيوس ٧٩٢.
- ألب ارسلان السلجوقي ولايته ٧٩٦.

الأمين بن هرون الرشيد ترجمته ٧٤٦.
بنو أمية بدء دولتهم ٦٧٨ وما يليه، انقراضها ٧٢٣ بدء دولتهم بالأندلس ٧٢٣.
القديس أنسلم أسقف لوكا ٨٠٩.
القديس أنسلموس أسقف كنترباري ٩٨٠.
أنطاكية بطاركتها أنسطاس المكتبي ٧٦٣.
أنطاكية بطاركتها في القرن السابع ٦٩٢ بطاركتها في القرن الثامن ٧٣٣ بطاركتها
في القرن التاسع ٧٥٨ فتح نيقفور ملك الروم لها ٧٧٧ بطاركتها في
القرن العاشر ٧٨٨ أخذ سليمان السلجوقي لها من الروم ٧٩٧ بطاركتها
في القرن الحادي عشر ٨٠٣.
اندراس أسقف كريت ٧٩٦.
أورشليم بطاركتها في القرن السابع ٦٩٣ بطاركتها في القرن الثامن ٧٣٤ بطاركتها
في القرن التاسع ٧٥٩ بطاركتها في القرن العاشر ٧٨٩ بطاركتها في القرن
الحادي عشر ٨٠٤.
الأوزاعي الإمام ترجمته ٧٢٩.
إيليا أسقف يبرود ٧٣٥.
إيليا أسقف دمشق النسطوري ٧٩٠.

(ب)

بارنغاريوس المبتدع ٨١٠.
باغي سنان والي أنطاكية ٧٩٧ و ٧٩٨.
البحتري الشاعر ترجمته ٧٥٦.
البرامكة قتل هرون الرشيد لهم ٧٢٨.
بديع الزمان الهمذاني ترجمته ٧٨٦.

- بركيارق بن ملك شاه ونزاعه لإخوته وعمه على الملك ٨٩٨ .
البصرة بناؤها ٦٧٧ و ٦٧٨ .
القديس بطرس دميانس ٨٠٩ .
بطرس أسقف دمشق ٧٣٥ .
بغداد شروع المنصور بينائها ٧٢٥ .
بكجور ولايته بدمشق وعزله ٧٨٠ .
البابا بناديكتس الرابع عشر منشوره بإثبات قداسة القديس مارون ٧١١ .
البستي الشاعر ٨٠٠ .
بولس أسقف صيدا ٧٣٥ .
بولس الشمساس ترجمته ٧٣٨ .
بنو بويه حكام العراق أصلهم ٧٧١ .
بيدا المكرم ترجمته ٧٣٩ بيروت فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ الآية التي كانت
فيها في القرن الثامن وتنصّر اليهود بها وبعض كنائسها القديمة ٧٣٥ حصار
سمسق لها وأخذه منها صورة المخلص التي صنعت الآية المذكورة ٧٩٢ .
بيسان فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ .

(ت)

- تتش بن ألب أرسلان إقطاع أخيه ملك شاه الشام له وأخذه أعمالها ٧٩٧، حربه
مع ابن عمه سليمان على حلب ثم حربه مع ابن أخيه محمود ٧٩٨ .
ترسيس تجديد هرون الرشيد بناءها ٧٢٨ .
توادورس أبو كارا أسقف بفلسطين ٧٣٥ .
القديس توفان المؤرخ ترجمته ٧٣٧ .
توفان بطريرك أنطاكية ٦٩٢ .

- توافيلس الرهاوي الماروني ترجمته ٧٤٤.
توافيل ملك الروم وحربه مع المعتصم ٧٤٨.
توافيلكتس أسقف كريد ٨٠٨.
توما الحرقلي أسقف مرعش ترجمته ٦٩٤.
توما الكفرطابي مجيئه إلى لبنان وتحريفه كتاب يوحنا مارون ٧٠٧ رسالته إلى يوحنا بطرك أنطاكية ٨٠٣ تحريفه كتاب المطران داود الماروني ٨١٢.
توما مطران بيروت ثم صور ٧٦٠.
تيموتاوس القسطنطيني ردّ ما يعزى إليه ضد الموارنة ٧١٤.

(ث)

الثعالبي صاحب يتيمة الدهر ٨٠٠.

(ج)

- الجامع الأموي وبناء الوليد له ٧١٥ إحتراقه ٧٩٦.
جيل فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧.
جرير الشاعر ترجمته ٦٨٦.
الرجاني الفقيه الشاعر ٧٨٧.
الجزيرة فتح المسلمين لها أولاً ٦٧٨.
جيورجوس شنسلوس الملازم ترجمته ٧٣٨.
جيورجوس مطران إربل ٧٩٢.
جيورجوس الراهب ٧٩٢.

(ح)

- الحاكم بأمر الله العلوي ترجمته ٧٨١ تكملة أخباره ٧٨٢ .
- الحركات السريانية أخذت من اليونانية ٧٤٤ .
- الحسين بن علي من ولد علي بن أبي طالب خروجه في أيام الهادي ٧٢٧ .
- حلب فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ ولاية يانس المؤنسي عليها وأخذ سيف الدولة بن حمدان لها منه ٧٧٣ و ٧٧٥ و ٧٧٦ فتح الروم لها ٧٧٦ و ٧٧٧ ولاية بني مرداس بها ٧٨١ ملك الدزبري بها ٧٩٦ ملك رضوان السلجوقي لها ٧٩٨ .
- حماء حصارها وفتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ .
- حمص حصارها وفتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ ثورة أهلها في أيام يزيد بن الوليد ٧٢١ ثورتهم في أيام مروان الثاني ٧٢٣ ثورتهم في أيام الأمين ٧٤٦ ثورتهم على الراقي والأنباري ٧٥٠ شغبهم في أيام المستعين وحرقت مدينتهم ٧٥١ استيلاء القرامطة على حمص ٧٦٨ أخذ مسلم بن قريش لها ٧٩٧ استيلاء سيف الدولة عليها ٧٧٣ .
- حمزة أحد دعاة الحاكم وكتبه ٣٨٢ .
- حنين بن اسحق الطبيب ٧٥٧ .

(خ)

- خارجة بن زيد الانصاري أحد الفقهاء السبعة ٧٣٠ .
- خشبة الصليب أخذ الفرس لها من أورشليم ورد هرقل لها إليها ٦٩٣ .
- الخط العربي وتغير هيأته ٧٧١ .
- الخليل الإمام في النحو ٧٣٢ .
- خمارويه بن طولون ولايته مصر وسورية ٧٥٣ .

(د)

- المطران داود الماروني وكتابه ٨١٢.
- الدرزي أحمد بن اسماعيل من دعاة الحاكم قيل إن الدروز ينتسبون إليه ٨٧٢.
- الدرزية كلام في أصلهم وبعض معتقدهم ٨٧٢.
- دقاق بن تتش السلجوقي ملكه دمشق ٧٩٨.
- دمشق حصارها وفتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ الفتنة فيها بين المضرية واليمينية ٧٢٨ أسقفها بطرس ٧٣٥ ثورة القيسية بها ٧٤٩ جعلها قسبة الملك في أيام المتوكل ٧٥٠ ولاية ماجور عليها ٧٥٢ أخبارها في أيام خمارويه ٧٥٣ حصار القرامطة لها ثم حصارهم ثانية لها ٧٦٨ ولاية سيف الدولة عليها ٧٧٣ و ٧٧٥ فتح المعز العلوي لها وغيرها من مدن سورية ٧٧٨ ولاية الدزيري بها ٧٩٦ ولاية يوسف الخوارزمي عليها ٧٩٧ ملك دقاق السلجوقي لها ٧٩٨.
- الدنانير والدرهم أول ضربها في الإسلام ٦٨٥.
- ديك الجن الشاعر ٧٢٩.
- ديونيسيون بطريك اليعاقبة ٧٦١.

(ر)

- الرازي أبو بكر ٧٨٥.
- الراضي بالله العبّاسي ٧٧٢.
- الراوندية تعريفهم وثورتهم على المنصور ٧٢٥.
- رضوان بن تتش السلجوقي وملكه حلب ٧٩٨.
- الرها والولاة بها في القرن الحادي عشر ٧٩٥ أخذه ملك شاه لها ٧٩٧.
- رودس فتح المسلمين لها وتمثالها ٦٧٩.

الروم وملوكهم في قسطنطينية من هرقل إلى آخر القرن الثاني عشر ٨٠٠.
رومانس الرابع ملك الروم وغزوته سورية ٧٩٥ أسر ألب أرسلان له ٧٩٦.

(ز)

الزجاج النحوي ٧٥٧.
زهير بن أبي سلمى المازني ٦٨٩.

(س)

سالم بن عمر بن الخطاب الفقيه ٧٣٠.
سامونا أسقف غزة في القرن الحادي عشر ٨٠٥.
سرجيوس رئيس أساقفة قبرص ٦٩٥.
سرجيوس أسقف دمشق في القرن الحادي عشر ٨٠٥.
سر من رأى سامراء مدينة العباسيين ٨٤٨.
سعيد بن البطريق بيان أغلاطه ومثال منها ٧١٠ ترجمته ٧٩١ رد قوله ٧٩٤.
السفاح أول الخلفاء العباسيين ٧٢٤.
السلجوقية أصل دولتهم وانبساط ولايتهم ٧٩٦.
سليمان بن عبد الملك ترجمته وما كان في أيامه ٧١٦.
سليمان بن يسار الفقيه ٧٣٠.
سمسق ملك الروم وامتلاكه بعض مدن سورية ٧٧٧.
سمعان متفرست ترجمته ٧٦٣.
سويدا المؤرخ ٧٩٢.
سيويو إمام النحاة ترجمته ٧٣٣.

سيف الدولة بن حمدان ولايته حلب وحمص ودمشق ٧٧٣ و ٧٧٥ غزواته في بلاد الروم ووفاته ٧٧٦ ولاية ابنه حلب وما تبعها ٧٧٧.

(ش)

الشافعي الإمام ترجمته ٧٣١.
شدرانس المؤرخ ٨٠٨.
شيرز فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧.
الشيرازي طالع كلمة أبو إسحق
شيرولايوس ميخائيل بطريك قسطنطينية ٨١١.

(ص)

صالح بن مرداس ولايته حلب وذريته بعده ٧٨١.
صفرونيوس بطريك أورشليم ترجمته ٦٩٣.
صقلية فتح المسلمين لها ٧٤٩ بعض ولايتها ٧٧٠.
صور حصار بدر أمير الجيوش المصرية لها ٧٩٦ أخذ المصريين لها ٧٩٧.
الصور بدعة محاريبها ٧٤٠.
صيدا فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ أسقفها بولس ٧٣٥ أخذ المصريين لها ٧٩٧.

(ط)

الطائع لله العباسي ٧٧٩.
الطبراني سليمان أبي القاسم ٧٨٤.

الطبري الفقيه ٧٨٥.
طرابلس فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧.
طغرل بك السلجوقي وولايته ٧٩٦.
طولون أحمد بن طولون تولية المعتز له على مصر ٧٥١.

(ظ)

الظاهر لإعزاز دين الله العلوي ٧٩٥.

(ع)

عبد الله بن علي العباسي والي الشام ٧٢٥.
عبد الله بن الزبير ٦٨٣ و ٦٨٤ و ٦٨٥.
عبد الله بن الطيب أبو الفرج ٨٠٦.
عبد الملك بن مروان ترجمته ٦٨٥ مع يوستنيانوس على كبج المردة ثم عبيد الله بن عتبة الفقيه ٧٣٠.
العبادي الطيب ٧٨٥.
العباسيون خلفاؤهم في القرن الحادي عشر ٨٠٢.
بنو العباس تعريفهم وبدء دولتهم ٧٢٣ الخلفاء منهم ٧٢٤ وما يليه.
عبد المحسن الصوري ترجمته ٧٩٩.
عثمان بن عفان ترجمته ٦٧٩.
عرقا فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧ فتح نيقفور ملك الروم لها ٧٩٢.
عروة بن الزبير بن العوام الفقيه ٧٣٠.
العسقلاني الخطيب ٧٩٩.

العزیز العلوی حربہ فی سورۃ ۷۷۸ و ۷۸۰ .
علی بن أبی طالب ترجمتہ ۶۸۰ مقتله ۶۸۱ .
العلویون بدء دولتهم ۷۶۹ ولايتهم سورۃ ۷۸۰ .
عمر بن الخطاب ترجمتہ ۷۷۷ .
عمر بن العاص فتحہ مصر ۶۷۸ .
عمر بن عبد العزیز الأموي ترجمتہ وما كان بأيامہ ۷۱۷ .
عموريه أخذ المعتصم لها من توافيل ملك الروم ۷۴۸ .
عنترۃ العبسي ترجمتہ ۶۹۱ .

(غ)

غزة فتحها في صدر الإسلام ۶۷۷ .

(ف)

الفراء النحوي ۷۵۷ .
بلاد فارس فتح المسلمین لها ۶۷۹ .
الفارسي طالع أبو علی الفارسي
الفارابي أبو نصر ترجمتہ ۷۸۵ .
الفرزدق الشاعر المشهور ترجمتہ ۶۸۷ .
الفقهاء السبعة ۷۱۸ .
فوتیوس والشقاق الذي أجراه في قسطنطينية ۷۶۴ .

(ق)

- القادر بالله العباسي ٧٧٩.
قاسم بن محمّد بن أبي بكر الفقيه ٧٣٠.
القاهر بالله العباسي ٧٧١.
القائم بأمر الله العلوي ٧٧٥.
القاضي التنوخي الشاعر ٧٨٣.
قبرص فتح المسلمين لها أولاً ٦٧٩.
القرآن ونسخه في أيام عثمان ٦٧٩.
القرامطة أصلهم وبعض أعمالهم ٧٥٣ حصارهم دمشق وولايتهم في حمص وغيرها
٧٦٨ ملكهم دمشق والرملة وغيرها ٧٧٨.
قرعوية غلام سيف الدولة استيلاؤه على حلب ٧٧٨.
القرن العاشر ما كان عند نهايته ٧٩٣.
قزما أسقف مايوما ٧٣٥.
قسطنطينية حصار سليمان بن عبد الملك لها ٧١٦.
قطرب الشاعر النحوي ٧٥٧.
قنسرين فتحها في صدر الإسلام
قيس الماروني ترجمته ٧٦٧.

(ك)

- كرلس الكبير مولاته لهرون الرشيد ٧٢٨.
الكسائي أحد أئمة النحو ٧٣٢.
الكوفة بناؤها ٦٧٨.

(ل)

لأون الشمس ٧٩٢.

(م)

القديس مارون براءته من كل بدعة ٧١٠ براءة بناديكتس الرابع عشر بإثبات قداسته ٧١١.

المازني اللغوي ٧٥٧.

مالك الإمام ترجمته ٧٣١.

المأمون بن هرون الرشيد ترجمته ٧٤٧.

المبرد النحوي البصري ٧٥٧.

المبرقع اليماني خروجه بفلسطين ٧٤٨.

المتقي لله العباسي ٧٧٤.

المتنبي أبو الطيّب ترجمته ٧٨٧.

المتوكل على الله بن المعتصم ترجمته ٧٥٠.

المجمع السادس المسكوني وأخص أعماله ٦٩٨.

المجمع السابع المسكوني وأخص أعماله ٧٤١.

المجمع الثامن المسكوني ٧٦٥.

المحسن بن القاضي التنوخي ٧٨٣.

محمد بن عبد الله من ولد علي بن أبي طالب ظهوره على المنصور ٧٢٥.

محمود بن ملك شاه توليه وحربه مع أخيه ٧٩٨.

مخلص الدولة صاحب شيزر ٧٩٩.

مروان بن الحكم خلافته ٦٨٤.

مروان الثاني ترجمته ٧٢٣.
مسيلمة الكذاب وقتله ٦٧٦.
المسعودي ترجمته ٧٨٥.
المستنصر بالله العلوي ترجمته ٧٩٦ و ٧٩٧.
المستعلي بالله العلوي ٧٩٨.
المستكفي بالله والمطيع لله ٧٧٥.
المشيعة الواحدة أي البدعة التي قال أصحابها بالمشيعة الواحدة في المسيح بمنشئها
وانتشارها ٦٩٧ حرما بالمجمع السادس ٦٩٨ وبمجامع أخرى ٦٩٩.
مصر فتح المسلمين لها أولاً ٦٧٨ ولاية الأخشيذ بها ٧٧٣ وفتح المعز العلوي لها
٧٧٨.
معاوية توليته الشام ٦٧٨ و ٦٧٩ قصده قسطنطينية ٦٧٩ حربه مع علي بن أبي
طالب ٦٨٠ خلافته ٦٨٢ وتسييره الجيش لقسطنطينية ومعاheadته للملك الروم
ليمنع غزوات المردة ثم معاوية بن يزيد ترجمته ٦٨٤.
معرة النعمان فتحها في صدر الإسلام ٦٧٧.
المعتصم بن هرون الرشيد ترجمته ٦٤٨.
المعتضد بالله ترجمته ٧٥٤.
المعري طالع كلمة أبو العلاء.
المعز لدين الله العلوي فتحه مصر ٧٧٨.
المقتدر بالله ٧٦٩.
المقنع الخراساني الساحر وقتله ٧٢٦.
مكارئوس بطريرك أنطاكية ٦٩٢.
مكدونيوس بطريرك أنطاكية ٦٩٢.
المكتفي بالله ترجمته ٧٦٨.
مكحول الشامي الفقيه ٧٢٩.

- ملك شاه السلجوقي وملكه أكثر سورية ٧٩٧ خلفاؤه ٧٩٨.
- المنديل الذي مسح الخلف وجهه به نقله من الرها إلى قسطنطينية ٧٧٤.
- المنصور أبو جعفر الخليفة العباسي ٧٢٥.
- المنصور بالله العلوي خلافته ٧٧٥.
- المنتصر والمستعين والمعتز بالله ٧٥١.
- المهدي الخليفة العباسي ٧٢٦.
- المهتدي والمعتمد على الله ٧٥٢.
- المهدي العلوي وغزواته لمصر ٧٧٠ وفاته ٧٧٢.
- الموارنة تاريخهم في القرن السابع سطوتهم في هذا القرن ٧٠٠ أمراؤهم ومن نفى منهم ٧٠١ حربهم مع عسكر يوستينيانس ٧٠٢ الإنقسام بينهم وبين الملكية ٧٠٣ لإثبات براءتهم من بدعة المشيئة الواحدة ٧١٣ ردّ ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من الطعن بهم ٧١٤ تاريخهم في القرن الثامن وحالتهم الدنيوية فيه ٧٤٢ بطاركتهم في القرن الثامن ٧٤٣ الردّ على ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن فيهم ٧٤٥ بطاركتهم إلى آخر القرن الحادي عشر ٧٦٦ تاريخهم في القرن العاشر ودحض ما يعزى إلى ساويروس أسقف الأشمونيين وردّ مقالة سعيد بن البطريق ٧٩٤.
- موسى بركيفا الأسقف ٧٦٢.
- ميخائيل شيرولايوس طالع هذه الكلمة.

(ن)

- النابعة الذبياني ٦٩٠.
- ناصر الدولة بن حمدان ولايته بمصر ٧٩٧.
- النامي الشاعر ٧٨٧.
- النحاس النحوي ٧٨٧.

نيقوفور ملك الروم حربه مع الرشيد ٧٢٨.
نيقوفور الآخر فتحه بعض مدن بسورية ٧٧٧.
نيقولانوس بطريك قسطنطينية ٧٩٦.

(هـ)

الهادي الخليفة العباسي ٧٢٧.
هرون الرشيد ترجمته ٧٢٨.
هارون بن خمارويه طولون ٧٥٣.
هشام بن عبد الملك ترجمته ٧١٩.

(و)

الواثق بالله بن المعتصم ترجمته ٧٤٩.
الوأواء الدمشقي الشاعر ٧٨٤.
الوليد بن عبد الملك بن مروان ترجمته وما كان في أيامه ٧١٥.
الوليد الثاني ابن يزيد عبد الملك ترجمته ٧٣٠.

(ي)

يبرود ايليا أسقفها ٧٣٥.
اليرموك الحرب فيها بين المسلمين والنصارى ٦٧٦.
يزيد بن الوليد الأول ترجمته ٧٢١.
يزيد بن معاوية ترجمته ٦٨٣.

- يزيد بن عبد الملك ترجمته ٧١٨.
- يعقوب أسقف الرها ترجمته وإثبات صحة عقيدته ٦٩٦.
- يوحنا أسقف فيلدلفيا ٦٩٣ و ٦٩٥.
- يوحنا أسقف بصرى بحوران ٦٩٥.
- يوحنا مارون منشأه ٧٠٤ أسقفيته ٧٠٥ بطريركيته ٧٠٦ مؤلفاته ٧٠٧ هل كتب شيئاً في بدعة المشيئة الواحدة ٧٠٨ قداسته ٧٠٩ إثبات براءته من بدعة المشيئة الواحدة ٧١٢.
- القديس يوحنا الدمشقي ترجمته ومؤلفاته ٧٣٦ الردّ على ما يعزى إليه من الطعن في الموارنة ٧٤٥.
- يوحنا أسقف اللاذقية تلميذ الدمشقي ٧٣٥.
- يوحنا أسقف دارا اليعقوبي ٧٦٢.
- يوحنا الرابع بطريرك أنطاكية ٨٠٣.
- يوحنا برشوشان بطريرك اليعاقبة ٨٠٥.

المجلد السادس

(أ)

- ابراهيم الغزي الشاعر ٨٤٧ .
- ابن أبي اليسر الدمشقي ٨٨٥ .
- ابن أبي اصبيعه ٨٨٥ .
- ابن بري المقدسي ٨٤٧ .
- ابن بطوطة ٩١١ .
- ابن البيطار ترجمته ٨٨٦ .
- ابن ثغرى بردي أبو المحاسن ٩٤٢ .
- ابن حبيب الحلبي ترجمته ٩٤١ .
- ابن حجر العسقلاني ٩٤١ .
- ابن حجة الحموى ٩٤١ .
- ابن حيان النحوي ٩١١ .
- ابن الحموي ٨٨٥ .
- ابن خلدون الاشيلي ٩٤٢ .
- ابن خلكان ٨٨٦ .
- ابن الذكي الدمشقي ترجمته ٨٤٧ .
- ابن رشد ترجمته ٨٤٨ .
- ابن الساعاتي ترجمته ٨٨٥ .

- ابن الشحنة الحلبي ٩٤١ .
- ابن العسال ٨٩١ .
- ابن عساكر الدمشقي ترجمته ٨٤٧ .
- ابن عقيل ٩١١ .
- ابن عمار حاكم طرابلس ٨٢٢ .
- ابن عنين ترجمته ٨٨٥ .
- ابن القلاعي جبرائيل أسقف قبرص دخوله رهبانية مار فرنسيس وعوده ومواعظه للموارنة ٩٥٢ .
- ابن القيسراني ترجمته ٨٤٧ .
- ابن مزهر الدمشقي ٩٤١ .
- اسامة ابن منقذ ٨٤٧ .
- ابن الملقن ٩٤٢ .
- ابن منير الطرابلسي ترجمته ٨٤٧ .
- ابن منظور ترجمته ٩١٠ .
- ابن النجار الدمشقي ٨٨٥ .
- ابن الهاشم ٩٤٢ .
- ابن هشام الانصاري ٩١١ .
- ابن الوردي ترجمته ٩١٠ .
- أبو حامد الغزالي ترجمته ٨٤٨ .
- أبو حامد المقدسي ٩٤١ .
- أبو الضيا خليل المالكي ٩١١ .
- أبو الفدا الملك المؤيد صاحب التاريخ ترجمته ٩١٦ .
- أبو محمد الحريري ترجمته ٨٤٨ .

- الاثارب ملك الفرنج لها ٨٢٢ .
- الادريسي ترجمته ٨٤٨ .
- ادوار بن أنريكوس الثالث ملك انكلترا في الحملة الثامنة واعماله وجرحه ٨٧٦ .
- الأرمن رجوعهم في المجمع الفلورنسي ٩٥١ بطاركتهم بلبنان ٩٥١ .
- أرميا العمشيتي بطريركيته وسنة انتخابه ووفاته ٨٥٨ .
- اسحق خوري المطران الياس في قبرص وارساله إلى رومة ٩٥١ و ٩٥٤ .
- الاسكندرية قصد ملك قبرص لها واستحواذه عليها ونهبها ٩٠٢ .
- الاسماعيلية والنصيرية ازدلافهم إلى الملك لويس وهو بعكا ٨٧٣ .
- الملك الأشرف عثمان بن الناصر تمليك بيقا له بعد خلع المنصور واعماله إلى مقتله ٩٠٢ .
- الملك الأشرف صلاح الدين خليل ملكه وفتح عكا ٨٨١ ثم صور وصيدا وبيروت ٨٨٢ احداث أخرى في أيامه ومقتله ٨٨٣ .
- الملك الأشرف برسباي وما كان في أيامه ٩٢٨ .
- الملك الأشرف انبال وما كان بأيامه ٩٣١ .
- الملك الأشرف قيتباي الحمودي وما كان بأيامه ٩٣٦ .
- الملك الأشرف جان بلاط وما كان بأيامه ٩٣٩ .
- الملك الأشرف صاحب اليمن تمليكه بدل شجرة الدر ٨٧٢ .
- اغناطيوس بن وهيب بطريك اليعاقبة ٩١٧
- الافضل بن صلاح الدين ملكه بالشام ٨٤٥ اخذ عمه العادل الملك منه ٨٤٦ .
- القديس البرتوس الكبير ترجمته ٨٩٢ .
- الكسيس كومنانوس ملك الروم استمداده الفرنج وغدره بهم ٨١٢ و ٨١٣ رجوعه عن انجاد الفرنج بانطاكية ٨١٥ محاولته مرة أخرى الاضرار بهم ٨٢٠ .
- اليا مطران قبرص الماروني تجديد اقراره بالإيمان بقبرص ٩٥١ و ٩٥٤ تبرئته من الضلال ٩٥٥ .

اموري الأول ملك أورشليم وما كان في أيامه ووفاته ٨٣٢ .
أموري الثاني ملك أورشليم وفاته وخلافة يوحنا دي بريان له ٨٦٢ .
أندراوس رئيس أساقفة رودس ارسال البابا أوجانيوس له إلى الشرق ورده مطران
النساطرة بقبرص ٩٥١ .

أندراوس أخيجان ارتجاعه على يد الموارنة وصيرورته بطريركاً على السريان ٩٥١ .
أنطاكية حصار الصليبية لها وفتحها ٨١٤ بطاركتها في القرن الثاني عشر ٨٥٠
بطاركتها اللاتين في هذا القرن ٨٥٢ أخذ بيبرس لها وتشتيت أهلها ٨٧٦
بطاركتها في القرن الثالث عشر ٨٨٧ بطاركتها اللاتين في هذا القرن ٨٨٩
بطاركتها في القرن الرابع عشر ٩١٢ بطاركتها في القرن الخامس عشر ٩٤٣

أورشليم حصار الفرنج لها وفتحها ٨١٨ أخذ صلاح الدين لها محاولة الفرنج
استردادها من صلاح الدين ٨٤٣ بطاركتها في القرن الثاني عشر ٨٥١
بطاركتها اللاتين في هذا القرن ٨٥٣ تخلية الملك الكامل عنها لفريدريك
عاهل ألمانيا ٨٦٤ بطاركتها في القرن الثالث عشر ٨٨٨ بطاركتها اللاتين
في هذا القرن ٨٨٩ بطاركتها في القرن الرابع عشر ٩١٣ بطاركتها في
القرن الخامس عشر ٩٤٤ .

أيدمر أسقف بوي مسيره براس الصليبيين ٨١٢ موته بأنطاكية ٨١٥ .
أيلغازي والي ماردين حربه للفرنج وقتله روجه بن ريشار أمير أنطاكية ٨٢٤ .

(ب)

باغي سنان والي أنطاكية عند فتحها وقطع رأسه ٨١٤ .
بايزيد السلطان العثماني اهدأه الحربة التي طعن بها المخلص إلى البابا أينوشنسيوس
الثامن ٨١٦ .
البدر الشتكى الدمشقي ٩٤١ .

- بدر الدين الحموي ترجمته ٩١٠ .
- البرلي اقوش عصيانه على الملك الظاهر بدمشق ٨٧٥ .
- برتران بن ريموند كونت طرابلس ٨٢٢ .
- برقوق الملك الظاهر أوّل ملوك الجراكسة ملكه وبعض أعماله ٩٠٣ و ٩٠٤ ،
انتفاض الناصري ومنطاش عليه واعتقاله بالكرك ٩٠٥ خروجه من الكرك
وعوده إلى السلطنة ٩٠٧ احدث أخرى في أيامه ٩٠٨ وفاته ٩٠٩ .
- القديس برنردوس ترجمته ٨٥٦ .
- البرهان البيجوري ٩٤٢ .
- بشري عدم ذكرها في فتح الجبة ٨٩٣ دخول اليعاقبة بها ٩٥٢ .
- بطرس السائح مجيئه إلى أورشليم ودعوته لانذار الأرض المقدسة ٨١٢ رياسته على
قسم من جيش الصليبيين وما كان له .
- بطرس اللمبردي معلم الآراء ترجمته ٨٥٦ .
- بطرس القس رسول بطريك الموارنة إلى البابا لاون العاشر ٩٥٣ .
- بعلبك اعطاء صلاح الدين اياها إلى أخيه توران شاه ٨٣٤ استيلاء الأشرف عليها
٨٦٥ ولاية الصالح اسماعيل عليها ٨٦٧ أخذ حسام الدين لها .
- بلسامون توادورس البطريرك الأنطاكي ترجمته ٨٥٠ .
- بهاء الدين بن شداد ترجمته ٨٨٥ .
- بهاء الدين ابن النحاس ٨٨٥ .
- البهاء زهير ٨٨٦ .
- بودوين أخذه الرها واقامته ولاية للفرنج بها ٨١٣ إقامته ملكاً على أورشليم وبعض
أعماله ونجاته من الخطر ٨٢٠ فتحه عكا وحربه بيافا ووقعة حران ٨٢١ .
- بودوين حاكم الرها اسره ٨٢١ وتمليكه في أورشليم ٨٢٤ محاربه ايلغازي والي
ماردين وانتصاره ٨٢٤ وقوعه أسيراً في يد بلق ثم افتداء نفسه وزحفه على
حلب فلم يملكها لكنه هزم المسلمين عن املاك الفرنج ٨٢٤ وفاته .

بودوين الثالث ملكه بأورشليم وصفاته وبعض أعماله ٨٢٧ بعض الأحداث في أيامه ٨٣١ وفاته .

بودوين الرابع وبعض ما كان في أيامه ٨٣٣ عجزه عن تدبير الملك لمرضه وإقامته مدبراً له كوي لوسينيان ثم تخليه عن الملك لابن اخته وسماه بودوين الخامس ٨٣٥ وفاة بودوين الرابع وتويج لوسينيان .

القديس بوناونتورا ترجمته ٨٩٢ .

بيومند فتح أنطاكية بواسطته وولايته عليها ٨١٤ حربه في حران ٨٢١ وتنكره بالذهاب إلى أوروبا وعوده وحربه مع الكسيس ووفاته ٨٢١ .

بيقا نائب السلطنة في أيام المنصور والأشرف وقتله ٩٠٢ .

بيدرا نائب السلطنة قتله الملك الأشرف ٨٨٣ وأخذ السلطنة وقتل ممالك الأشرف له ٨٨٣ .

بيروت حصار بودوين لها وفتحها ٨٢٢ حصار صلاح الدين لها ورجوعه عنها ٨٣٤ أخذه لها ٨٣٧ أخذ الفرنج قلعتها ٨٤٦ فتح عساكر الأشرف لها ٨٨٢ حضور أسطول من جنوى إليها وتنكيه بأهلها ٩٠٤ .

(ت)

تاج الملوك بوري بن طغتكين والي دمشق وما كان في أيامه ٨٢٥ .

التتر اغارتهم على سورية ٨٧٤ حربهم مع الملك المنصور ٨٧٨ اغارتهم على سورية ثانية ٨٨٤ .

ترسيس أخذ الصليبيين لها ونزاعهم عليها ٨١٣ .

تقية ابنة الصوري الشاعرة ٨٤٧ .

التوخيون في غرب بيروت اقامتهم هناك وبعض أخبارهم ٨٩٨ .

تنكراد مسيره إلى الجليل وملكه لها ٨١٩ فتحه حيفا والمنازعة له عليها ٨٢٠ وفاته ٨٢٣ .

- توادورس الفارس ٩١٩ .
 توادورس غازا ٩٤٧ .
 القديس توما الأكويني ترجمته ٨٩٢ .
 توما أسقف كفرطاب ترجمته ٨٥٣ .
 تيموتاوس بطريرك النساطرة ٩١٧ .
 تيموتاوس مطران النساطرة بقرص رجوعه إلى الإيمان الكاثوليكي ٩٥١ .

(ج)

- جبرائيل الصهيوني ترجمته، جغرافية الادريسي ٨٤٨ .
 جبرائيل أسقف الموصل ٩١٩ .
 جبلة أخذ صلاح الدين لها ٨٤٠ .
 جبة بشري فتح المسلمين لها ٨٩٣ .
 جبيل حصار الفرنج لها وتسليمها إليهم ٨٢٢ وتسليمها إلى صلاح الدين ٨٣٧ .
 الجرجاني علي بن محمد الجرجاني ٩٤٢ .
 جوسلين امارته في الرها ومحاربه لبلك وأسرته وتخليصه ٨٢٤ .
 جوسلين الثاني تقاعده عن الذب عن الرها حتى أخذها زنكي ثم أسر ابن زنكي
 جوسلين وحبسه فمات بحبسه ٨٢٧ .
 جمال الدين الحموي ترجمته ٨٨٥ .

(ح)

- الحبشة رجوع ملكها وبعض شعبها في المجمع الفلورنسي ٩٥٦ .
 حران وقعة مع الفرنج لها ٨٢١ .

الحربة التي طعن بها جنب المخلص وجدان الصليبيين لها بأنطاكية ٨١٥ أقوال العلماء بها ٨١٦ .

الحريري راجع أبو محمّد .

حطين وقعة صلاح الدين والفرنج بها ٨٣٦ .

حلب حصار الفرنج لها وطرد اقسنقر لهم عنها ٨٢٤ بعض ولايتها المسلمين ٨٢٥ حصار يوحنا كومنانوس ملك الروم لها ورحيله عنها ٨٢٦ ولاية مسعود بن مودود عليها ثم ولاية ابن عمه عماد الدين فيها ٨٣٤ تسلّم صلاح الدين لها هناك وفاة الملك الظاهر بن صلاح الدين أميرها وخلافة ابنه الملك العزيز له ٨٦٢ و ٨٦٥ ثم وفاة هذا وخلافة ابنه الناصر يوسف عليها ٨٦٥ حرب عسكرها مع الخوارزمية ٨٦٨ أخذ هولاءكو التتري لها ودك أسوارها ٨٧٤ كسرة الأرمن . عساكر والي حلب ٨٩٧ .

حماة حصار الفرنج لها وهي لصلاح الدين ٨٣٤ تولية صلاح الدين ابن أخيه عليها هناك محاولة المعظم ملك دمشق أخذها من الملك الناصر ٨٦٥ ثم أعطاه للملك المظفر هناك محاولة الحلبيين أخذها من يده ٨٦٧ تسليم أهلها إلى هولاءكو ٨٧٤ نيابة قراسنقر فيها ٨٨٣ ولاية أبي الفدا عليها ٨٩٧ .

حمص تولية صلاح الدين ابن عمه عليها ٨٣٤ عفو تيمورلنك عنها ٩٢٣ .
حنه بنت الكسيس كمناس الكاتبة ٨٥٥ .

(خ)

خامس بن القرادحي ترجمته ٩١٦ .

الخلفاء العلويون في القرن الثاني عشر ٨٤٩ .

الخلفاء العباسيون في مصر ٨٧٥ .

الخوارزمية غزواتهم بسورية ٨٦٨ .

(د)

دانيال الكاهن ٩١٦ .

دمشق حصار الفرنج لها وعودهم عنها ٨٢٩ أخذ نور الدين بن زنكي لها من مجير الدين ٨٣١ تنازع العادل والأفضل على ملكها ٨٤٦ ملك المعظم لها ثم ابنه الناصر داود ثم أخذها منه واعطاها للملك الأشرف ٨٦٥ ثم وفاته وولاية أخيه الصالح اسماعيل عليها هناك استيلاء الملك الصالح ابن الكامل عليها ٨٦٧ فتح الخوارزمية لها ٨٦٨ تولية هولاء ابن الذكي عليها ٨٧٤ ودخول كتبغا نائب هولاء إليها بالأمان وثورة المسلمين على النصارى فيها هناك استيلاء التتر عليها ٨٨٤ .

الدميري محمد بن موسى ٩٤٢ .

دمياط أخذ الفرنج لها وانتزاعها من يدهم ٨٦٣ حصار الملك لويس لها وأخذها ٨٦٩ .

ديونيسيوس ابن صليبا ترجمته ٨٥٤ .

(ر)

رشيد النابلسي ترجمته ٨٨٥ .

الرها أخذ بودوين لها واقامته ولاية للفرنج بها ٨١٣ أخذها من الفرنج وعودها لولاية المسلمين ٨٢٧ .

الروم ارتجاعهم في مجمع ليون ٩٤٨ اتحادهم في المجمع الفلورنسي ٩٤٩ و ٩٥٠ في ما كان منهم بعد الاتحاد ٩٥١ .

ريشار ملك انكلترا اتيانه في الحملة الثالثة إلى سورية وأخذ قبرص من ملك الروم بمروره ٨٤١ اعماله في سورية ٨٤٢ و ٨٤٣ واعطاؤه قبرص إلى لوسنيان هناك واختياره كونراد ملكاً لأورشليم وعوده إلى ملكه ووقوعه أسيراً بيد أعدائه بأوروبا ٨٤٣ .

ريموند كونت طرابلس ٨٣٥ و ٨٣٦ .

(ز)

الزمخشري ترجمته ٨٤٨ .

زنكي راجع عماد الدين .

(س)

الكونت سالساوري في الحملة السابعة وأعماله ٨٧٠ .

السخاوي محمد ٩٤٢ .

(دير القديس) سرقيس حردين قدمه ٩٥٩ .

السعد التفتزاني ٩١١ .

الملك السعيد بركة ابن يبيرس سلطنته واضطراره أن يخلع نفسه عنها ٨٧٧ .

السلطان سليم خان الأول الغازي فتحه سورية ومصر ٩٥٦ و ٩٥٧ .

سنقر الأشقر خروجه بدمشق على الملك المنصور وانهزامه إلى التتر وتشتيت شمله ثم صلحه مع السلطان ٨٧٧ القبض عليه وموته ٨٨٣ .

(ش)

شاوور وزير مصر وقتل صلاح الدين له ٨٢٢ .

شاه سوار خارجي في أيام خشقدم ٩٣٣ .

شجرة الدر زوجة الملك الصالح تملكها ٨٧١ خلعها عن الملك وتمليك الأشرف من الأيوين ٨٧٢ .

شمس الملوك اسماعيل حفيد طغتكين وخلافه مع أخيه على بعلبك ٨٢٥ وأخذه بانياس من الفرنج واغارته على بلادهم في طبرية وموته .

شمس الدين الدمشقي ترجمته ٩١٠ .

الشمسي تقي الدين ٩٤٢ .
شهاب اتلدين بن الوهاب ٩١١ .
شهاب الدين الرملي المقدسي ٩٤١ .
شهاب الدين بن عرب شاه الدمشقي ٩٤١ .
شيركوه عم صلاح الدين ارسال نور الدين بن زنكي له إلى مصر لمقاومة شاور
والفرنج وأخذ صلاح الدين معه واقامته والياً بالاسكندرية ٨٣٢ .
شيزر حصار يوحنا كومناوس لها ٨٢٦ .

(ص)

الملك الصالح ابن الكامل ولايته بدمشق وحربه مع أخيه العادل وانتصاره عليه ٨٦٧
وفاته ٨٧٠ .
الملك الصالح بن الأشرف أخو الملك المنصور ولايته وخلع برقوق له ٩٠٣ وهو آخر
المماليك البحرية .
الصالح اسماعيل صاحب بعلبك مخادعته لابن أخيه الملك الصالح أيوب ودخوله
دمشق ومؤامراته على ابن أخيه المذكور ٨٦٧ .
الملك الصالح محمّد بن ططر وما كان في أيامه ٩٢٧
صدر الدين الدمشقي ٩١٠ .
صفد حصار صلاح الدين قلعتها ٨٣٩ أخذ بيبرس لها ٨٧٦ .
صفي الدين الحلبي ٩١١ .
صلاح الدين الأيوبي ارسال نور الدين له إلى مصر وولايته الاسكندرية ثم الوزارة
فيها ٨٣٢ قرضه دولة الفاطميين هناك حصاره الكرك وارسال أخيه إلى
اليمن فامتلكها هناك أيضاً دعوة الأمراء من الشام له ليملك ٨٣٣ وملكه
دمشق وحمص وحمّة وحلب وغيرها هناك انتصار الفرنج عليه في فلسطين
هناك اغارته على بلاد الفرنج ٨٣٤ حملته على الجزيرة وأخذ بعض مدنها

هناك رسالة البابا إليه وجوابه ٨٣٥ وقعة حطين مع الفرنج ٨٣٦ ما فتحه من بلاد الفرنج بعد وقعة حطين ٨٣٧ فتحه أورشليم ٨٣٨ حصاره صور ورده عنها ٨٣٩ غزوته شمالي سورية ٨٤٠ أخذ عكا منه ٨٤٢ وأخذ يافا ٨٤٣ الهدنة بينه وبين الفرنج ٨٤٤ وفاته ومن ملك بعده ٨٤٥ .

صور فتح الفرنج لها ٨٢٤ حصار صلاح الدين لها وامتناعها عليه ٨٣٩ فتح عسكر الأشرف لها ٨٨٢ .

صلاح الدين الكتبي الحلبي ٩١٠ .

صلاح الدين الصفدي ٩١٠ .

الصنهاجي صاحب الاجرومية ٩١١ .

قلعة صهيون فتح قلاوون لها .

صيدا ملك الفرنج أولاً لها ٨٢٢ أخذ صلاح الدين لها ٨٣٧ تجديد الملك لويس أسوارها ودك التركمان ما بني فيها وقتل الحامية ٨٧٣ فتح الملك الأشرف لها ٨٨٢ قصد بعض مراكب الفرنج إليها وقتلهم جماعة من أهلها ٩٠١ حضور أسطول من جنوى إليها ٩٠٤ .

(ض)

الضنية حملة اقوش الافرم على سكانها ٨٩٧ .

ضياء الدين بن الأثير ترجمته ٨٨٦ .

(ط)

طرابلس تهزيم الفرنج لواليتها وعسكره عند مرورهم إلى أورشليم ٨١٧ فتحهم لها ٨٢٢ أخذ السلطان قلاوون لها من الفرنج ٨٨٠ .

الطغرائي صاحب لامية العجم ترجمته ٨٤٨ .

طغتكين والي دمشق ولايته وموته ٨٢٥ .
طومان باي الأول الملك العادل راجع العادل .
طومان باي الثاني الملك الأشرف آخر ملوك الجراكسة توليته وحروبه مع السلطان
سليم الفاتح وانكساره وقتله ٩٥٧ .

(ظ)

الملك الظاهر ططر وما كان في أيامه ٩٢٦ .
الملك الظاهر جقمق وما كان في أيامه ٩٣٠ .
الملك الظاهر خشقدم وما كان بأيامه ٩٣٣ .
الملك الظاهر بلباي وما كان بأيامه ٩٣٤ .
الملك الظاهر تمرغا وما كان بأيامه ٩٣٥ .
الملك الظاهر قانصوه الأشرفي وما كان بأيامه ٩٣٨ .

(ع)

العادل أخو صلاح الدين أخذه احتيالا ولاية الشام من ابن أخيه الأفضل ٨٤٦ أخذه
يافا من الفرنج هناك استقلاله بالسلطنة وبعض أعماله ووفاته ٨٦١ حروبه مع
الفرنج ٨٦٢ كتابة البابا اينوشنسيوس الثالث رسالة إليه « .
الملك العادل ابن الكامل خلفته لأبيه ٨٦٥ محاربته لأخيه الملك الصالح على
دمشق ووفاته ٨٦٧ .
الملك العادل سلامش بن بيبرس تمليكه وخلعه ٨٧٧ .
الملك العادل طومان باي وما كان بأيامه ٩٤٠ .
عبد الرحمن العسقلاني ترجمته ٨٨٥ .
عبد المحسن التنوخي ترجمته ٨٨٥ .

- عبد يشوع مطران صوبيا ٩١٥ .
- عثمان بن الحاجب ترجمته ٨٨٦ .
- عرقا حصار الفرنج لها ٨١٧ فتح بيبرس لها ٨٧٦ .
- العزیز بن صلاح الدين ملكه بمصر ٨٤٥ وما كان بينه وبين أخيه الأفضل ملك الشام من الوحشة ٨٤٦ وفاته وخلافة ابنه المنصور له .
- الملك العزيز صاحب حلب وفاته ٨٦٥ .
- الملك العزيز يوسف بن الأشرف ٩٢٩ .
- عز الدين ابن الأثير ٨٨٦ .
- أهل عساف اقامتهم بساحل كسروان ٨٩٨ .
- عسقلان حصار الفرنج لها أولاً ٨١٩ أخذهم لها ٨٣٠ أخذ صلاح الدين لها من يدهم تخريب صلاح الدين لها وأخذ الفرنج إياها ثانية ٨٤٣ استردادها من يدهم ٨٦٧ .
- عكا فتح الفرنج لها أولاً ٨٢١ استسلامها إلى صلاح الدين ٨٣٧ استرداد الفرنج لها منه ٨٤٢ حصار بيبرس لها ٨٧٦ فتح الملك الأشرف خليل لها ٨٨١ .
- علم الدين سنجر الحلبي نائب الشام دعا الناس إلى سلطنته بالشام ٨٧٤ انتصاره على سنقر الأشقر بدمشق ٨٧٧ وزارته في أيام الناصر ٨٨٣ قتل كتبغا له ٨٨١ .
- عماد الدين زنكي أمير الموصل ثم حلب ٨٢٥ أخذه حماة وحمص وحربه مع الفرنج على الأتارب ومحاولته أخذ دمشق إلى غير ذلك من أعماله هناك إيقاعه بعساكر الروم ٨٢٦ فتحه الرها ٨٢٧ .
- عمر بن الفارض ٨٨٦ الخلاف بين العلماء بمصر على عقيدته ٩٣٦ .
- عمر بن الحسام الدمشقي ٩١٠ .
- عمرو بن متى العالم النسطوري ترجمته ٩١٨ .
- عون الدين الحلبي ٨٨٥ .

- علاء الدين الدمشقي ٨٨٥ .
 علاء الدين البهائي الدمشقي ٩٤١ .
 الشيخ علي الطرابلسي ترجمته ٨٨٥ .
 علي ابن الخليل الطرابلسي ٩٤١ .
 العيتي راجع محمّد .

(غ)

- أمراء غربي بيروت راجع التنوخيون .
 غزة الموقعة بين الفرنج والمسلمين بها ٨٦٦ اتيان الخوارزمية إليها وانتصارهم مع
 عسكر صاحب مصر على عسكر صاحب الشام والفرنج ٨٦٨ .
 الغزالي راجع أبو حامد .
 غريغوريوس ابن العبري ترجمته مطولة ٨٩٠ .
 غراغريفون البلجي ترجمته ٩٤٦ .
 غودفروا مسيره بامرة فريق من الجيش ٨١٢ و ٨١٣ اقامته ملكاً على أورشليم ٨١٨
 سنه النظام للمملكة الجديدة ووفاته ٨١٩ .
 الغوري راجع قانصوه .
 غوليلموس أسقف صور ترجمته ٨٥٣ رد ما زعمه عن ارعواء الموارنة عن الضلال
 ٨٦٠ .

(ف)

- الفاطميون قرض دولتهم بمصر وسورية ٨٣٢ .
 الفتح بن خاقان ترجمته ٨٤٨ .

فتيان الشاغوري ترجمته ٨٨٥ .

فخر الدين الرازي ترجمته ٨٨٦ .

فخر الدين الحموي ترجمته ٩١٠ .

الفرنج تالهم وسيرهم أولاً إلى الشرق ٨١٢ مسيرهم من القسطنطينية إلى أنطاكية
وما كان لهم فيه ٨١٣ حصارهم أنطاكية وفتحها ٨١٤ حصار المسلمين
لهم فيها ٨١٥ مسيرهم إلى أورشليم ٨١٧ حصارهم لها وفتحها ٨١٨
حملتهم الثانية على سورية بقيادة ملك فرنسا وملك ألمانيا ٨٢٨ سوء معاملة
الروم وملكهم لهم هناك حصارهم دمشق وعودهم عنها ٨٢٩ إقامتهم
شحنة بمصر وأخذهم قسماً من الدخل ٨٣٢ تبديدهم بوقعة حطين ٨٣٦
أخذ أورشليم منهم ٨٣٨ حملتهم الثالثة على سورية ٨٤١ استردادهم عكا
٨٤٢ الهدنة بينهم وبين صلاح الدين ٨٤٤ حملتهم الرابعة على سورية
وحرهم مع العادل وأولاده ٨٦٢ حملتهم الخامسة هناك حملتهم على
دمياط ٨٦٣ اتيان بعض أشرافهم إلى عكا وحرهم بغزة ٨٦٦ حملتهم
السادسة حربهم مع الخوارزمية ٨٦٨ حملتهم السابعة مع الملك لويس التاسع
٨٦٨ حربهم في المنصورة ٨٧٠ حملتهم الثامنة ٨٧٦ نهاية ملكهم بسورية
٨٨١ و ٨٨٢ .

فريدريك الثاني ملك ألمانيا حملته على سورية وتخليه الكامل عن أورشليم وسوء
تصرفه ٨٦٤ .

فريدريك ملك ألمانيا اتيانه إلى الشرق في الحملة الثالثة وما قاسوه في آسيا الصغرى
ووفاته ٨٤١ .

الفرسان الاسبيتاليون أصلهم وأخذهم رودس ٨٩٧ .

فولك دي انجو تمليكهم بأورشليم ٨٢٥ ووفاته ٨٢٦ .

الفيروزبادي محمد الشيرازي صاحب القاموس ٩٤٢ .

فيليب ملك فرنسا اتيانه سورية بالحملة الثالثة ٨٤١ مساعدته على استرداد عكا
وعوده ٨٤٢ .

(ق)

- القادري الشيخ شمس الدين ٩٤٢ .
- قازان أمير التتر حملته على سورية واشترك فرسان الفرنج معه بالحرب ومكاتبته للحبر الروماني ٨٨٤ .
- الملك قانصوه الغوري تملكه وبعض ما كان في أيامه ٩٥٦ حربه مع السلطان سليم الأول في مرج دابق وانكساره وموته كمداً هناك .
- القبط رجوعهم إلى الإيمان ٩٥١ .
- قراسنقر نائب السلطنة بدمشق ثم بحلب وعصاوته على الناصر ٨٩٧ .
- (دير) قزحيا قدمه ٨٥٩ .
- قطب الدين الشيرازي ٩١١ .
- قطز الملك المظفر قتله المنصور واستبداده بالسلطنة وقتل بيبرس البندقاري ٨٧٢ حربه مع التتر وانتصاره عليهم وتشتيتهم ٨٧٤ .
- قلج ارسلان سلطان قونية محاربته للفرنج ٨١٣ .
- قلاوون راجع الملك المنصور .
- القليعات بعكار أخذ العادل لها من الفرنج ٨٦٢ ورجوعها إلى الفرنج وأخذ بيبرس لها ٨٧٦ .
- قنسرين استحواذ الصليبيين عليها ٨١٣ .
- قيصرية فتح بودوين لها ٨٢٠ أخذ صلاح الدين لها واسترداد الفرنج إياها ٨٤٢ فتح بيبرس لها ٨٧٦ .

(ك)

- الملك الكامل بن الملك العادل ومحاربته للفرنج على دمياط ٨٦٣ تركه القدس لفريدريك ملك ألمانيا ٨٦٤ استيلاؤه على بعض بلاد الشام ٨٦٥ حصاره آمد وأخذها وبقي أعماله إلى وفاته هناك .

كتبغا نائب هولاءو بسورية وأخذه دمشق بالأمان ٨٧٤ .
كتبغا نائب السلطنة في أيام الناصر ٨٨٣ قتله سنجر الشجاعى الوزير وحجره على
الناصر وأخذه ملكه وتسميته الملك العادل هناك ووئوب لاجين عليه
واضطاره إلى خلع نفسه هناك وفاته ٨٩٧ .
كربوغا حصاره للفرنج بأنطاكية ٨١٥ .
الكرك حصار العادل أخى صلاح الدين لها ٨٣٩ .
كسروان الحروب التي كانت فيه وفتح المسلمين له ٨٩٤ اقامة التركمان في ساحله
٨٩٨ .
كوكب حصنها وحرب الفرنج والمسلمين عليه ٨٣٩ .
كونراد ميركيز مونتي فراتا تحصينه صور وولايته بها ٨٣٩ ادعاؤه ملك أورشليم
لتزوجه بايزبال ابنة اموري ٨٤٢ وتمليك ريشار ملك انكلترا وقتله غيلة
٨٤٣ .

(ل)

لاتران الجمع الذي عقد فيها سنة ١٢١٥ ، ٨٦٢ .
لاجين نائب السلطنة بالشام عزل الأشرف له ومشاركته بقتل هذا السلطان واختفاؤه
٨٨٣ اتخاذه كتبغا العادل نائباً له ووئوبه على العادل واكراهه على خلع
نفسه وأخذ لاجين الملك هناك ارساله العساكر إلى بلاد الأمن وأخذه
حموض معتقله هناك أيضاً .
لاذقية أخذ صلاح الدين لها من الفرنج ٨٤٠ خراب قلعتها ٨٦٥ .
اللد اقامة الفرنج أسقفاً وكهنة فيها عند مرورهم إلى أورشليم ٨١٧ .
لويس السابع ملك فرنسا وما قاساه في الحملة الثانية على سورية ٨٢٨ .
الملك لويس التاسع حملته على مصر وسورية ٨٦٩ حربه في المنصورة ٨٧٠ اسره
ونجاته منه ٨٧١ تكملة أخباره في سورية وعوده إلى فرنسا ٨٧٣ عوده ثانية
إلى الشرق وحملته على تونس وفاته بها ٨٧٦ .

لوسينيان ملك أورشليم تملكه ٨٣٥ اسره في وقعة حطين ٨٣٦ اطلاقه وحصاره
عكا ٨٤٢ .

(م)

- مجد الدين ابن الأثير ٨٨٦ .
مجمع ليون الذي رجع به الروم إلى الاتحاد ٩٤٩ .
مجمع فرارا الذي عقد لذلك ٩٠ نقله إلى فلورنسا ٩٥١ .
محبوب أسقف منبج ٩١٤ .
محمّد بن قرقماس الناصري ٩٤١ .
محمّد العيني ٩٤٢ .
محمّد بن مالك ترجمته ٨٨٥ .
السلطان محمّد السلجوقي ارسال عساكره لقتال الفرنج وما كان منها ٨٢٣ .
محمّد بن الخضر المعري ترجمته ٨٤٧ .
محمود القدسي ٩١٠ .
محيي الدين الشهرزوري ترجمته ٨٤٧ .
حصن المرقب حصار الملك قلاوون له وأخذه بالامان ٨٧٩ .
الملك المظفر صاحب حماة ووفاته وخلافة أخيه المنصور له ٨٦٧ .
الملك المظفر خلافته لأبيه تملكه حماة ٨٧٩ وفاته ٨٨٣ .
الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد وما كان في أيامه ٩٢٦ .
الملك المنصور قلاوون تملكه في مصر وعصيان سنقر الأشقر عليه بالشام وملكه
وتسميته الملك الكامل ٨٧٧ محاربه للتر عند حمص ٨٧٨ حصاره خضن
المرقب ٧٨٧ فتحه طرابلس ٨٨١ وفاته ٨٨١ .
الملك المنصور صاحب حماة وفاته وخلافة ابنه المظفر له ٨٧٩ .

الملك المنصور محمد بن المظفر اقامة بيبقا نائب السلطنة له ملكاً وخروج استدمر عليه بدمشق وكتبته ثم خلع بيبقا المنصور ٩٠٢ .

الملك المنصور علي بن الأشرف عماله وبعض أعماله ووفاته ٩٠٣ .

الملك المعظم ولايته بدمشق ومحاولته أخذ حماة ووفاته ٨٦٥ .

الملك المعظم بن الملك الصالح خلافته لأبيه ٨٧٠ قتله ٨٧١ .

معرة النعمان فتح الفرنج لها ٨١٧ أخذها من يد الملك المظفر ٨٦٧ رد الملك قطز لها إلى الملك المنصور صاحب حماة من يد الحلبيين ٨٧٤ ردها إلى ولاية أبي الفداء ٨٩٩ .

المعز ايك خلعه الملك الأشرف الأيوبي وتزوجه شجرة الدر وقرضه الأيوبيين بمصر واغتياله ٨٧٢ .

الموارنة هدايتهم للفرنج الطريق إلى القدس بطرابلس وتقديمهم الزاد لهم ٨١٧ تاريخهم في القرن الثاني عشر حالتهم الدنيوية ٨٥٧ بطاركتهم في هذا القرن ٨٥٨ أديارهم وكنائسهم إلى القرن الثاني عشر ٨٥٩ ارسالهم وفداً وهدايا إلى الملك لويس وهو بعكا ٨٧٣ فتح المسلمين جبة بشري ٨٩٣ فتح كسروان ٨٩٤ بطاركتهم في القرن الثالث عشر ٨٩٥ رد ما يحتاج به عليهم من براءة اينوشنسيوس الثالث ٨٩٦ حالتهم الدنيوية في القرن الرابع عشر ٩٢٠ بطاركتهم في هذا القرن ٩٢١ من عرفناهم من أساقفتهم في القرن المذكور ٩٢٢ تاريخهم في القرن الخامس عشر بعض مقدميهم يعقوب بن أيوب وعبد المنعم الأول والثاني ودخول اليعاقبة بينهم الخ ٩٥٢ بطاركتهم في القرن الخامس عشر ٩٥٣ ابتدا سكناهم بقتوين هناك من نعرفهم من أساقفتهم بهذا القرن ٩٥٤ رد راي من زعم انهم والياس مطران ملتهم بقرص وكاهنه اسحق رجعوا إلى الإيمان على يد البابا أوجانيوس الرابع ٩٥٥ براءة البابا أوجانيوس لبطريركهم ثم براءته الأخرى لموارنة فلسطين ٩٥٥ .

مودود صاحب الموصل محاربته للفرنج ومقتله بدمشق ٨٢٣ .

ملوك الروم في القرن الثاني عشر ٨٤٩ .

منطاش انتقاضه على السلطان برقوق ٩٠٤ و ٩٠٥ ثورته وحروبه ٩٠٦ و ٩٠٧ و مقتله ٩٠٨ .

الملك المؤيد شيخ ترجمته وما كان في أيامه ٩٢٥ قتله نوروز الذي خرج عليه .

الملك المؤيد أحمد بن الأشرف وما كان بأيامه ٩٣٢ .

المقريري تقي الدين أحمد المؤرخ ٩٤٢ .

ميخائيل الكبير بطريك اليعاقبة ٨٥٥ .

(دير) ميفوق قدمه ٨٥٩ .

(ن)

الملك الناصر صاحب حلب ملكه دمشق ٨٧٢ وحربه مع المصريين وانهزامه واصلاح الخليفة بين الفريقين هناك حربه مع المماليك البحرية وصاحب الكرك وفراره من التتر وقتل هولاكو له وانقراض الأيوبيين له هناك أيضاً .

الملك الناصر أخو الأشرف اقامته سلطاناً ٨٨٣ حجر كتبغا عليه وأخذه ملكه هناك عوده إلى الملك هناك أيضاً تنحيه عن الملك وقيام بيبرس الجاشنكير به وعود الناصر إليه ٨٩٧ باقي أخباره ٨٩٩ وفاته وتعاقب بنيه الثمانية في الملك .٩٠٠

الملك الناصر فرج بن برقوق ولايته ٩٠٩ بعض أعماله واختفاؤه ثم ظهوره ٩٢٤ مقتله هناك . الملك الناصر محمد بن قايتباي وما كان بأيامه ٩٣٧ .

الناصرى انتقاضه على الظاهر برقوق ٩٠٥ حبسه ٩٠٦ .

(دير القديس) نهرا سمار جبيل قدمه ٨٥٩ .

نور الدين بن زنكي حربه مع أمير أنطاكية وقتله له ٨٣١ أخذه دمشق من مجير الدين هناك تداخله في أمور مصر ٨٣٢ وارساله شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إليها ووفاته وذكر بعض أعماله هناك أيضاً .

نوح البقوافوي بطريك اليعاقبة ٩٤٥ .

نيقية أخذ الفرنج لها ٨١٣ .

نيكوفور كراكوراس ٩١٩ .

نيكوفور كاليستوس ٩١٩ .

(هـ)

هبة الله الحموي ترجمته ٩١٠ .

هنري كونت شمبانيا اختياريه ملكاً لأورشليم بعد مقتل كونراد ٨٤٣ وفاته ٨٤٦ .

هولاكو ملك التتر واغارته على سورية ٨٧٤ .

(و)

وايمير البطريرك الأورشليمي اللاتيني عد ٨١٩ و ٨٢٠ .

(ي)

يافا أخذ الفرنج لها ثم أخذ العادل أخو صلاح الدين لها منهم ٨٣٧ استرداد الفرنج

لها ٨٤٣ أخذ العادل لها ٨٤٦ حصار الخوارزمية لها ٨٦٨ أخذ بيبرس لها

٨٧٦ .

ياقوت الحموي ترجمته ٨٨٥ .

اليعاقبة رجوع بعضهم في المجمع الفلورنسي ٩٥١ .

يعبر أمير العرب حليف منطاش ٩٠٨ .

يعقوب النسطوري معلم ابن العبري ٨٩٠ .

يعقوب أسقف تكريت ٨٩١ .

يوحنا كومنانوس ملك الروم حملته على سورية ودخوله أنطاكية وخروجه منها
ومحاولته فتح حلب وشيزر فلم ينجح ٨٢٦ عوده إلى أنطاكية ومحاولته
التشبث بها فلم يمكنه أميرها من ذلك هناك .

يوحنا زوناراس ترجمته ٨٥٥ .

يوحنا ابن المعدني ٨٩١ .

المجلد السابع

(أ)

- السلطان ابراهيم الأول وما كان في أيامه ٩٩٥.
ابراهيم البتروني ١٠٠٥.
ابراهيم الحلبي ترجمته ٩٦٤ /
الشيخ ابراهيم الفتال الدمشقي ١٠٠٥.
ابراهيم اللقائي ١٠٠٦.
ابراهيم الحاقلي الماروني ترجمته، مؤلفاته ١٠٢٩.
ابراهيم بن حمزة الدمشقي ١٠٠٥.
ابن بيري ١٠٠٦.
ابن الجوهري ١٠٠٥.
ابن حبيب الغزي ١٠٠٥.
ابن الجزري ١٠٠٥.
ابن السمان الدمشقي ١٠٠٥.
ابن شيخان ١٠٠٦.
ابن عجرة مقدم قيطو ٩٧٩.
ابن نجيم المصري ٩٦٥.
ابن النقيب البيروني ١٠٠٥.
ابن تميم تسميتهم أمراء عند وقعة عيندارا ١٠٣٥.

- أبو بكر الشنواني ١٠٠٦.
- أبو جبرائيل الاهدني حاكم جبة بشري ٩٩٦ و ١٠١٨.
- أبو ديب حاكم جبة بشري وقتله ٩٩٦ و ١٠١٨.
- أبو الذهب خروجه من قبل الأمير علي بك المصري على سورية وفتح دمشق ورجوعه عنها ١٠٤٠ عوده إلى مصر وخلعه الأمير علي بك واليها وجلوسه على تخت القاهرة هناك ومحاربته لظاهر العمر وتهزيمة من عكا ونكبه دير الكرمل ووفاته هناك أيضاً.
- أبو رزق البشعلاني مدبر والي طرابلس ٩٩٦ و ٩٩٨ القبض عليه وتظاهرة بالاسلام وتوليته على جبلة واللاذقية هناك. ترجمته وأعماله ١٠١٧.
- أبو السعود العمادي ٩٦٥.
- أبو السعود الكواكبي ١٠٤٦.
- أبو صعب البشعلاني حاكم جبة بشري ٩٩٨ و ١٠١٧.
- أبو عبد الله محمد الغزي ترجمته ٩٦٤.
- أبو كرم الحداثي والي جبة بشري وقتله بطرابلس ٩٩٦ و ١٠١٨.
- أبو كرم بن بشاره من اهدن ولايته على جبة بشري ١٠٠٠ و ١٠١٨.
- أبو الوفاء الحلبي ١٠٠٥.
- أبو يحيى زكريا الانصاري ترجمته ٩٦٥.
- أثناسيوس جوهر بطريرك الملكية الكاثوليك ١٠٤٩.
- السلطان أحمد الأول وما كان في أيامه ٩٨٩.
- السلطان أحمد الثاني وما كان في أيامه ١٠٠١.
- السلطان أحمد الثالث وما كان في أيامه ١٠٣٤.
- أحمد شاعر الحموي ١٠٤٦.
- الأمير أحمد شهاب ولايته بلبنان ١٠٣٨ و ١٠٣٩.
- أحمد العكي ١٠٤٦.

أحمد الغزي ١٠٤٦.

أحمد القرمانى ترجمته ١٠٠٥.

أحمد القسطلانى ترجمته ٩٦٥.

الأمير أحمد وأخوه الأمير قرقماس ابنا الأمير ملحم معن اختبأؤهما من وجه عساكر الدولة، وتأمينهما والغدر بهما، وقتل الأمير قرقماس ونجاة الأمير أحمد وحربه لليمنية وانتصاره وعوده إلى الولاية على الشوف حتى كسروان ٩٩٩. توليته اقطاعات الحمادية وعدم قبوله لها بعد أن نكر بهم ١٠٠٠ و ١٠٠٢. ازاحته عن اقطاعاته وعوده إليها ١٠٠٢ وفاته وتركته ١٠٠٤.

أحمد الهيثمي ٩٦٥.

آدم موفد بطريك الكلدان إلى روما ١٠١٠.

المطران اسحق الشدراوي ترجمته قصيدة عبد يشوع بطريك الكلدان عد ٩٧٠ ذهابه إلى روما من قبل البطريك يوسف العاقوري ١٠٢١ ترجمته ١٠٠٤.

الاسحاقى ١٠٠٦.

اسكندر بك أمير البانيا حربه مع عساكر السلطان مراد الثاني عد ٩٥٨ مصالحة السلطان محمد الثاني له وترك ولاية البانيا له هناك، استئناف الحرب معه ثم وفاته هناك، فرنسة اتحادها مع السلطان سليمان عد ٩٦٠ تقدم سفيرها على زملائه عند السلطان ٩٦٢ النفرة بينها وبين العثمانيين اتحادها بالنمسا واستيلاؤها على الجزائر وتونس ٩٩٧ معاهدتها مع الدولة العلية ١٠٣٦ غزوة عساكرها مصر ١٠٤٤ اكرت فتح عساكر السلطان ابراهيم الأول اكثرها ٩٩٥.

اكريكولا (يوحنا) من تلاميذ لوتار ٩٧١.

أفتموس الصيفي مطران صيدا ١٠١٥.

الياس مقدم بشري ٩٧٩.

اندراس اخيجان بطريك السريان ترجمته ١٠١٣.

انطاكية بطاركتها في القرن السادس عشر ٩٦٦، بطاركتها في القرن السابع عشر ١٠٠٧.

أنطونيوس مطران دمشق رسول البطريك موسى العكاري إلى الحبر الروماني ٩٨٠ و ٩٨٧.

الانكشارية أول تجندهم عد ٩٥٨ عصيانهم على السلطان محمد الثاني ثم شغبهم في أيام السلطان مراد الثالث ٩٦٢. خلعهم السلطان عثمان الثاني وتحكمهم في السلطان مصطفى والرعية ٩٩١. تمردهم في أيام السلطان مراد الرابع ٩٩٣ خلعهم السلطان ابراهيم الأول ٩٩٥ قتل خلق كثير منهم ٩٩٧ خلعهم السلطان مصطفى الثاني ١٠٠٣ تحكمهم وشغبهم في أيام السلطان أحمد الثالث ١٠٣٤.

انكلترا مقاومتها لغزوة بونايرت لمصر ١٠٤٤.

السلطان اورخان ابن السلطان عثمان الأول عد ٩٥٨.

أورشليم بطاركتها في القرن السادس عشر ٩٦٧ بطاركتها في القرن السابع عشر ١٠٠٨.

ايليا بطريك الكلدان ١٠٠٩.

دير الياص النبي بغزير انشاؤه ١٠٣٢.

اياص كنيسة الموارنة بها ١٠٣٣.

الشيخ أيوب ابن الشماس توما من العاقورة تجديده عمران قريته ٩٦٠ و ٩٧٩.

(ب)

البابا أصل هذا الاسم وتغلبه على الحبر الروماني ١٠٢٩.

الشدياق باخوس بن صادر الحديثي اشراكه في الولاية على جبة بشري لخاطر الحصريوني ٩٦٢ و ٩٧٩.

باسيليوس الدباس البطريك ١٠٤٨ و ١٠٤٩.

السلطان بايزيد الأول حروبه وفتوحه وأسر تيمورلنك له ووفاته عد ٩٥٨ .
السلطان بايزيد الثاني عد ٩٥٨ .
بدر الدين محمد الغزي ترجمته ٩٦٤ .
برهان الدين الحلبي ترجمته ٩٦٤ .
برهان الدين المقدسي ترجمته ٩٦٤ .
برهان الدين الميموني ١٠٠٦ .
البروتستانت في منشئي بدعتهم ٩٧١ تفنيد بعض بدعهم عد ٩٧٣ إلى عد ٩٧٧ .
البشناق محاربة السلطان محمد الثاني لأمرها وأسرهم مع ابنه وضمها إلى أملاك الدولة ٩٥٨ .
الأمير بشير شهاب الأول توليته أقطاعات بيت معن وبعض أعماله ١٠٠٤ ولايته من صفد إلى المعاملتين ووفاته ١٠٣٥ .
الأمير بشير قاسم الشهابي الكبير توليته البلاد ومطاردته الأمير يوسف ١٠٤٣ التحالف على طرده واختيار الأمير حيدر ملحم وابن أخيه الأمير قعدان وحربه مع اللعيين والمنية ١٠٤٥ عزله عن الولاية واعادته إليها هناك ثم عزله وعناية الأميرال الانكليزي به وتوجهه لدى الصدر الأعظم في مصر هناك . عوده إلى الولاية واصلاحه مع أولاد الأمير يوسف هناك .
بشعلي كنيستها ١٠٣٣ .
بطرس الرسول اثبات رئاسته ورئاسة خلفائه رداً على البروتستانت ٩٧٣ .
بطرس الأكبر قيصر الروس حربه مع ملك السويد وحصار عساكر السلطان أحمد الثالث له ١٠٣٤ .
بطرس المطوشي الماروني ١٠٢٧ .
البغدان محاربة السلطان محمد الثاني أميرها عد ٩٥٨ اغارة ملك بولونيا عليها وصد عساكر السلطان بايزيد الثاني له هناك . عصيان أهلها في أيام السلطان مراد الثالث ٩٦٢ .

بلغاريه ضم السلطان بايزيد الأول لها إلى الأملاك العثمانية وعودها إلى استقلالها
عد ٩٥٨ .

البندقية حرب جمهوريتها مع السلطان محمد الثاني عد ٩٥٨ المعاهدة التجارية مع
السلطان سليمان ٩٦٠ اتفاقهم مع اسبانيا وفرسان مالطه وضربهم الأسطول
العثماني ٩٦١ ثم اتفاقهم مع السلطان سليم الثاني هناك . استيلائهم على
بعض أملاك الدولة ٥٩٥ و ٩٩٧ احتلالهم بعض ثغور بلاد اليونان ١٠٠١ .
البهاء العالمي ١٠٠٥ .

بولس الزعيم بن البطريرك مكاريوس ١٠١٤ .
بولونيا حرب السلطان عثمان الثاني لهم ٩٩١ واحتلال السلطان محمد الرابع بعض
مدنهم ٩٩٧ حرب السلطان مصطفى الثاني لهم ١٠٠٣ اعلان روسيا
والنمسا الحرب لهم ١٠٣٦ و قسمة بلادهم بين روسيا والنمسا وبروسيا
١٠٤٢ .

بونايرت نابولون الأول وغزوته مصر وحصاره عكا ١٠٤٤ .
البياضية ٩٨٣ .

بيروت ضرب الأسطول الروسي لها نجدة لظاهر العمر ١٠٤٠ .
بيزا تلميذ كلوين ترجمته ٩٧٢ .

(ت)

التحالف المقدس هو تألب النمسا والبندقية وبولونيا وروسيا على الدولة العلية ٩٩٧ .
التريصاجيون كيف يستعمله الموارنة ٩٨١ .
تقي الدين الغزي ترجمته ٩٦٤ .
تلحوق الشيخ شاهين بعض أعماله ١٠٣٧ .
البطريرك توادوسيوس الدهان ١٠٤٩ .

(ج)

- جان بولاد علي باشا ولايته حلب وقهر عساكر الدولة ٩٨٩ .
المطران جبرائيل الحفدي المعروف بابن القلاعي ٩٨٦ .
جبرائيل مطران الكلدان ١٠١٦ .
القس جبرائيل الصهيوني الماروني ترجمته ومؤلفاته ١٠٢٨ .
جرجس عميره بطريك الموارنة ترجمته ١٠٢٠ .
جرجس السبعلي بطريك الموارنة ١٠٢٢ .
جرجس باز مدبر الأمير يوسف شهاب ١٠٤٥ .
المطران جرمانس آدم ترجمته ١٠٥٥ .
الجزار أحمد باشا أصله وولايته بيروت وعصيانه بها وطرده منها ١٠٤٠ تسميته
والياً على إيالة صيدا ١٠٤٣ حربه مع علي بن ظاهر العمر هناك وولايته
على دمشق سنة واحدة هناك .
جلال الدين السيوطي ترجمته ٩٦٥ .
جم أخو السلطان بايزيد الثاني محاربته لأخيه وانهزامه والتجاؤه إلى فرسان رودس
عد ٩٥٨ .
جنبلاط الشيخ علي، خلافته لقبلان القاضي بالولاية على جزين ١٠٣٥ .
الجوهري المكي ١٠٠٦ .

(ح)

- حامد العمادي ١٠٤٦ .
الحبيشية ارتحال جدهم حبيش من يانوح إلى غزير ٩٥٩ و ٩٧٩ قتل يوسف باشا
سيفا سليمان ومنصور حبيش ٩٦٢ ولايتهم لغزير وبعض وجهائهم ١٠٥٦ .
دير حراش انشاؤه ١٠٣٢ الجمع الذي عُقد فيه ذيل على العدد ١٠٣٣ .

الحرية في أعمال الخلاص اثباتها ردًا على البروتستانت ٩٧٥.
الحرفوش الأمير علي، تهزيمه أبناء عمه عمر، ولايته على بعلبك ١٠٠٠ قتل الأمير
عمر الحرفوش الأمير فارس شهاب هناك، تولية الأمير شديد الحرفوش
بعلبك ثم طرده منها هناك.

حسن البخشي ١٠٤٦.

حسن ابن الأمير عساف توليته على كسروان وبلاد جبيل ٩٥٥ مقتل أخيه قتيبيه له
مع أخيه حسن هناك.

حسن البوريني ١٠٠٥.

حسين بن محمد الديار بكري ٩٦٥.

أولاد الحسامي توليتهم جبيل ٩٦٠ جعلهم في سلك الانكشارية ٩٩٦.

بنو حماده المتأولة تقديم الأمير محمد عساف لهم عنده بغزير وانتقالهم مع يوسف
باشا إلى طرابلس ٩٦٢ حربهم باهمج مع الأمير اسماعيل الكردي ٩٩٤
تنكيل والي طرابلس بهم ٩٩٦ تولية أحدهم أحمد حماده على جبة بشري
٩٩٨ حرق قبلان باشا قراهم بوادي علمات وفرارهم إلى كسروان هناك.
عودهم إلى ولاية جبيل والبترون وطردهم منها لعدم دفعهم المال ١٠٠٠ ثم
عود بعضهم إلى الولاية على جبيل والبترون والجنة وتعدياتهم وطردهم
١٠٠٢ تنكيل الأمير يوسف شهاب بهم ١٠٣٩ مدهمتهم الأمير بشير
حيدر وطردهم إلى الكورة ١٠٤١.

حوقا، مدرسة حوقا أنشأها البطريك يوحنا مخلوف ١٠١٩.

الأمير حيدر شهاب خلافته للأمير بشير شهاب وحربه للمتأولة في بلاد بشاره
ولليمنية وحريق غزير واختفاؤه ثم ظهوره ووقعة عيندارا المشهورة ١٠٣٥
وفاته ١٠٤١.

الأمير حيدر ملحم ولايته مع ابن أخيه الأمير قعدان بلبنان ١٠٤٥.

بنو حيمور في البقاع سطو الأمير فارس شهاب عليهم وقتله بعضهم ١٠٠٠.

(خ)

خازن الشدياق سر كيس انتقاله مع أولاده من جاج إلى كسروان وتقدّم اولاده عند
فخر الدين معن ٩٨٩. أبو نوفل نادر الخازن فرّ مع الأمير حسين ابن فخر
الدين إلى قلعة المرقب، ولما قبض على الأمير هناك فرّ نادر إلى كسروان
٩٩٤، أبو نادر الخازن قبض عليه مع فخر الدين وكفله الأمير علي علم
الدين فأطلق هناك. وفاته ٩٩٦، وجاهة أبي نادر عند فخر الدين وولايته
على كسروان ووجاهة ابنه أبي نوفل ثم ابنه أبو قنصوه ثم ابن هذا حصن
وجعلهم قناصل لفرنسا ببيروت ١٠١٦. بعض أعيانهم في القرن الثامن عشر
١٠٥٦.

الشدياق خاطر الحصري مقدم جبة بشري هربه من وجه يوسف باشا سيفا وتأمين
هذا له وردّه إلى ولايته ٩٦٢ ولايته على جبة بشري مع مقلد ابن الياس
٩٧٩ وفاته وأولاده وحكام الجبة بعده ١٠١٦.

خليل القتال ترجمته ١٠٤٦.

خليل المصري ١٠٤٧.

خير الدين باشا استعمال السلطان سليمان له في غزو الفرنج واحتلاله تونس وطرده
منها وفتح بعض الجزر عد ٩٦٠.

خير الدين الرملي ١٠٠٥.

(د)

داغر وأخوه عساف أخوا رزق الله مقدم بشري ولايتهما عليها بعده وقتل داغر
٩٧٩.

داود الانطاكي الضير ترجمته ٩٦٤.

الدروز اتيان بعضهم من الجرد إلى برمانا وجوارها ٩٥٩.

درعون تجديد كنائسها ١٠٣٣.

دير القمر بناء كنيسة السيدة فيها ١٠٣٣.

الدويهي (البطريرك اسطفانوس) جداله مع بطرك الروم وبعض أساقفته واقناعهم بالايان الكاثوليكي ١٠٠٧ و ١٠٤٩، منشوره لأخي يونس البشعلاني ١٠١٧ ترجمته ومؤلفاته ١٠٢٣ رسالة الملك لويس الرابع عشر إليه هناك.

(ر)

بيت الرز الموارنة الذين تسموا بيت الضاهر ٩٨١.

رزق مقدم بشري قتله أخاه عاشينا ومقتله هو ٩٧٩.

الرهانية الحلبيه اللبنانية تأسيسها ومؤسسوها ١٠٣١.

رودس حصار السلطان سليمان لها وخروج الفرسان منها إلى مالطه ٩٦٠.

ريفون دير مار سركيس وباخوس فيها ١٠٣٢.

(ز)

زابولي والي الحجر من قبل السلطان وموته ٩٦٠.

زين الدين الحلبي ترجمته ٩٦٤.

(س)

سركيس الرزي بطريرك الموارنة ٩٨٢.

سركيس الرزي مطران دمشق ١٠٢٤.

دير مار سركيس باهدن تجديده ١٠٣٢.

الشيخ سعد الخوري وصايته على أولاد الأمير ملحم شهاب ١٠٣٧ مساعيه في
تولية الأمير يوسف أحدهم وتديره حكومته ١٠٣٩ ايقاعه بالمتاوله في
الكورة وطردهم إلى القلمون وقتل كثيرين منهم ١٠٤١، وفاته ١٠٤٣.
سعيد السمان ١٠٤٦.
السلطان سليم الأول تملكه بعد تنازل أبيه بايزيد الثاني وفتح سوريه ومصر عد
٩٥٨ و ٩٥٩.

السلطان سليم الثاني وما كان في أيامه ١٠٦١.
السلطان سليم الثالث وما كان في أيامه ١٠٤٤.
السلطان سليمان الأول وما كان في أيامه ٩٦٠.
السلطان سليمان الثاني وما كان في أيامه ١٠٠١.
سويدية فتح السلطان سليم الأول لها عد ٩٥٨.

(ش)

الشدياق بطرس وابن أخيه منصور وأولاده ١٠٥٧.
دير مار شليطا مقبس تجديده وبعض تاريخه ١٠٣٢.
شمس الدين طولون ترجمته ٩٦٤.
شمس الدين محمد الحلبي ترجمته ٩٦٤.
شمس الدين محمد الغزي ترجمته ٩٦٤.
شمس الدين الرملي ترجمته ٩٦٤.
الشهاب الخفاجي ١٠٠٦.
آل شهاب أصلهم وقدمهم إلى لبنان ١٠٠٤.

(ص)

صالح الغزي ١٠٠٥.

الصرب ثورة أميرها على السلطان مراد وقهر هذا له عدد ٩٥٨ ازالة السلطان محمد الثاني استقلالها هناك.

الصهيوني طالع جبرائيل.

الصهيوني انطونيوس الكتب التي نسخها من مؤلفات أرسطو وغيره ١٠٣١.

(ط)

دير طاميش ومنشؤه ١٠٣٢.

(ظ)

ظاهر العمر أصله وولايته على عكا ١٠٤٠ تسويل نفسه له الانتقاض ومعاونة الأسطول الروسي له على ذلك هناك، توليته على ايلة صيدا ومحاربة أبي الذهب له وفراره ثم رجوعه بعد موت أبي الذهب هناك، ارسال الدولة أسطولاً لمحاربه وأخذ الأسطول عكا ومقتله هناك أيضاً.

(ع)

عائشة الباعونية ترجمتها ٩٦٤.

عبد الله الحدادي اليمني ١٠٤٧.

الشماس عبد الله زاخر ترجمته ١٠٥١.

عبد الله السويدي ١٠٤٧.

- عبد الله اليوسفي الحلبي ١٠٤٦ .
- عبد الله البر الحلبي ترجمته ٩٦٤ .
- عبد الجليل المواهبي شيء من ترجمته ١٠٤٦ .
- السلطان عبد الحميد الأول وما كان في أيامه ١٠٤٢ .
- عبد الرؤوف المناوي ١٠٠٦ .
- عبد الرحيم العبادي ٩٦٥ .
- عبد الرحمن العبادي ١٠٠٥ .
- دير مار عبدا هرهريا انشاؤه ١٠٣٢ .
- عبد المعطي الخليلي ١٠٤٦ .
- الشيخ عبد الغني النابلسي ترجمته ومؤلفاته ١٠٤٦ .
- عبد القادر قدري ١٠٠٦ .
- عبد اللطيف البهائي ١٠٠٥ .
- المقدم عبد المنعم الأول والثاني مقدما بشري ٩٧٩ .
- عبد الوهاب الشعراني ٩٦٥ .
- عبد يشوع بطريرك الكلدان ترجمته ٩٧٠ .
- السلطان عثمان الأول ترجمته ٩٥٨ .
- السلطين العثمانيون أصلهم وترجمة بعضهم إلى السلطان سليم فاتح سورية عد ٩٥٨ .
- السلطان عثمان الثاني ٩٩١ .
- السلطان عثمان الثالث ١٠٣٨ .
- عجلتون بناء كنيسة السيدة فيها ١٠٣٣ .
- العربانية بناء كنيسة فيها ١٠٣٣ .
- الأمير عساف التركماني تولية السلطان سليم له على كسروان وبلاد جبيل ووفاته ٩٥٩ .

عساف بن يوسف باشا حربه مع ابن اخته علي سيفاً ٩٩٤ .
 عاشينا أخو رزق الله مقدم بشري ٩٧٩ .
 الأمير علي علم الدين ولايته بالشوف بعد فخر الدين ومحاربة الأمير ملحم معه له
 ٩٩٤ ، حربه مع القيسية هناك توليته على الشوف ثانية وانتصار الأمير ملحم
 عليه ٩٩٨ ووفاته ٩٩٩ .
 علي سيفاً ولايته جليل والبثرون والضنية ٩٩٤ .
 الأمير علي بك المصري خروجه إلى سورية ١٠٤٠ عوده من سورية إلى مصر
 يسترد ولايته ومناوأة أبي الذهب له وجرحه ووفاته هناك .
 الشيخ علي بن ظاهر العمر حربه مع الجزائر ومقتله ١٠٤٣ .
 علي العمري ١٠٤٧ .
 عمر البغدادي ١٠٤٧ .
 العناحله مقدمو بشري ٩٧٩ .
 عطية الاجهوري ١٠٤٧ .
 عيندارا الموقعة الشهيرة بها بين اليمنية والقيسية ١٠٣٥ .
 دير عين ورقة انشاؤه أولاً ١٠٣٢ .

(غ)

الغزالي ولايته بدمشق عد ٩٥٩ انتقاضه على السلطان سليمان وقتله ٩٦٠ .
 غزير حرقها في الحرب بين القيسية واليمنية ١٠٣٥ .
 الشيخ غندور سعد الخوري تديره حكومة الأمير يوسف بعد موت والده، وموته
 ١٠٤٣ و ١٠٤٥ .
 غوسطا بناء كنيسة الياس النبي فيها ١٠٣٣ .

(ف)

المقدم فارس مراد بللمع التزامه جبة بشري ٩٩٨.

فتح الله البيلوني ١٠٠٥.

الأمير فخر الدين وأخوه يونس ابنا الأمير قرقماس معن واختفاؤهما عند آل خازن بعد موت أبيهما ٩٦٢ و ٩٩٠، حرب فخر الدين ليوسف باشا سيفاً بنهر الكلب ٩٦٣ و ٩٩٠ استرضاء مراد باشا الصدر الأعظم فولّى ابنه صيدا ويبروت وغزير ٩٩٠، حرب عساكر الدولة له واكراهه على الفرار إلى أوروبا هناك، حرب هذه العساكر لأخيه الأمير يونس هناك، انجاد الأمير فخر الدين بعد عوده من توسكانا لعمر باشا والي طرابلس في حرب يوسف باشا سيفاً ٩٩٢ وحصاره وهدمه قلعة جبيل وصلحه مع يوسف باشا وحصاره طرابلس وتوليه محافظتها إلى غير ذلك من أعماله وأحواله هناك. توليه بعلبك وحربه بعكار انجاداً لوالي طرابلس وتوليه محافظة هذه المدينة ثانية، وتعميره القليعات وأخذه تدمر ٩٩٤، توجيه أسطول عساكر الدولة عليه والقبض عليه في مغارة جزين وأخذه إلى الأستانة وقتل ولده الأمير علي وقتل أخيه الأمير يونس ٩٩٤ قتله في الأستانة مع ثلاثة من أولاده هناك.

الفرس استفحال أمر ملكهم شاه اسماعيل ومحاربة سليم له عد ٩٥٨ محاربتهم في أيام السلطان مراد الثالث والصلح معهم ٩٦٢ حربهم في أيام السلطان أحمد الأول ٩٨٩ حربهم في أيام السلطان مراد الرابع والصلح معهم ٩٩٣ الحرب معهم في أيام السلطان أحمد الثالث ١٠٣٤ قهرهم حتى طلبوا الصلح في أيام السلطان محمود الأول ١٠٣٦.

فرنسيس كالوب الافرنسي الناسك بلبنان ترجمته ١٠٣١.

الفلاخ محاربة السلطان محمد الثاني للمكها وتهزيمه وعزله عد ٩٥٨ ابداء أهلها العصيان في أيام السلطان مراد الثالث وانتصار أميرهم ميخائيل ٩٦٢ انتفاض أميرهم على السلطان ٩٩٧ تسليم شؤونهم إلى أغنياء الروم ١٠٣٦.

قينا حصار السلطان سليمان لها ٩٦٠ حصرها ثانية في أيام السلطان محمد الرابع ٩٩٧.

(ق)

- الأمير قاسم شهاب سفره إلى الأستانة وولايته في الشوف ووفاته ١٠٣٩ .
- قاسم باشا بن يوسف باشا سيفا ولايته على طرابلس وخلعه ٩٩٤ .
- قبرص فتح السلطان سليم الثاني لها ٩٦١ .
- الشيخ قبلان القاضي حاكم جزين ووفاته ١٠٣٥ .
- القربان المقدس فيه جسد المسيح رداً على البروتستانت ٩٧٧ .
- الأمير قرقماس معن تولية السلطان سليم له على الشوف ٩٥٩ مصادرة ابراهيم باشا له بسرقة خزانة السلطان وهربه إلى مغارة نيحا وموته فيها ٩٦٢ و ٩٩٠ .
- القرم ضم هذه البلاد إلى المملكة العثمانية عد ٩٥٨ .
- قره يازجي صاحب ثورة في أيام السلطان محمد الثالث ٩٦٣ .
- دير قزحيا مطبعته من سنة ١٥٨٥ عد ٩٨٧، بعض رؤسائه ٩٨٨ .
- القسطنطينية حصار السلطان بايزيد الأول لها عد ٩٥٨ حصار السلطان مراد لها هناك فتح السلطان محمد الثاني لها ثمة .
- القوانين العربية لمجمع نيقية ١٠٢٩ .
- قيتيه ابن الأمير عساف ولايته بكسروان عد ٩٥٩ .
- القيسية نكبتهم ونهضتهم ٩٩٩ .

(ك)

- كاترينا الثانية قيصرية الروس ١٠٣٨ .
- الكتاب المقدس تفسيره ليس لكل أحد رداً على البروتستانت ٩٧٤ .
- كفرزينا انشاء البطريرك يوحنا مخلوف كنيسة ١٠٣٣ .
- كليبير قائد جيش فرنسة بمصر بعد سفر بونايرت ومقتله ١٠٤٤ .

كيرلس تاناس بطريرك الملكية الكاثوليكيين ١٠٤٩.
كلوين المبتدع ٩٧٢.
الكواكبي الحلبي ١٠٠٥.
الشيخ كيوان الماروني من دير القمر تقدمه عند آل معن ٩٧٩.

(ل)

لوتار وتلاميذه ٩٧١.
دير لويظة انشاؤه ١٠٣٢.

(م)

مالطة أخذ نابوليون الأول لها ١٠٤٤.
مالك شيخ العاقورة ومقتله ٩٦٠ و ٩٧٩.
مالنطون (فيلبس) تلميذ لوتار ٩٧١.
المتوكل على الله آخر الخلفاء العباسيين تخليه عن الخلافة للسلطان سليم الأول ٩٥٩.
المتاولة اتيانهم من بعلبك إلى كسروان ٩٥٩.
مجدل المعوش شراء الأمير علي المعني لها واسكانه النصارى بها ٩٩٠ و ١٠١٩،
بناء البطريرك يوحنا مخلوف كنيسة بها ١٠٣٣.
الحجر حرب السلطان مراد الثاني لملكهم واجباره على ترك كل ما كان له على عدوة
الدانوب ثم قتله عد ٩٥٨، محاربة السلطان سليمان لهم ٩٦٠ استئنافه
الحرب وقتله ملكهم والنزاع على ملكه ثم جعله الحجر ولاية عثمانية هناك،
اغارة السلطان مصطفى الثاني على الحجر ١٠٠٣ وتخليه عنها بمعاهدة صلح
هناك.

- المجمع التريدينيني ملخصه ٩٧٨ .
- السلطان محمد الأول تملكه وحروبه وفتوحه عد ٩٥٨ .
- السلطان محمد الثاني فاتح القسطنطينية تملكه وحروبه وفتوحه عد ٩٥٨ .
- السلطان محمد خان الثالث وما كان في أيامه ٩٦٣ .
- محمد آغا ابن شعيب من عرقا التزامه طرابلس ووقوع النفرة بينه وبين بني سيفا وقتل الأمير منصور له ٩٦٠ .
- الأمير محمد عساف مقاتلته ليوسف باشا سيفا وقتل هذا له وانقراض سلالة عساف به ٩٦٢ .
- محمد بن يوسف الدمشقي ترجمته ٩٦٤ .
- محمد بن علي الحموي ترجمته ٩٦٤ .
- محمد بن اياس ترجمته ٩٦٥ .
- محمد الحضري ترجمته ٩٦٥ .
- محمد البيركلي ٩٦٥ .
- محمد المحبي ١٠٠٥ .
- محمد الكفيري شيء من ترجمته ١٠٤٦ .
- محمد الغزي ١٠٤٦ .
- محمد السفاريني ١٠٤٦ .
- محمد خليل المرادي ١٠٤٦ .
- محمد بن الطيب ١٠٤٧ .
- محمد التونسي ١٠٤٧ .
- محمد الكردي ١٠٤٧ .
- محمد مرتضى ١٠٤٧ .
- محمد الصبان ١٠٤٧ .

- السلطان محمود الأول وما كان في أيامه ١٠٣٦ .
- محمود باشا أبو هرموش وأعماله ١٠٣٥ .
- السلطان مراد خان الأول ملكه وفتوحه ووفاته ٩٥٨ .
- السلطان مراد خان الثاني تملكه وحروبه ووفاته ٩٥٨ .
- السلطان مراد الثالث وما كان في أيامه ٩٦٢ .
- مرهج بن نيرون الباني ترجمته ومؤلفاته ١٠٣٠ .
- السلطان مراد الرابع وما كان في أيامه ٩٩٣ قدومه إلى حلب ٩٩٤ .
- مصر فتح السلطان سليم لها ٩٥٨ غزوة نابوليون الأول لها ١٠٤٤ .
- السلطان مصطفى الأول ٩٩١ .
- السلطان مصطفى الثاني وما كان في أيامه ١٠٠٣ .
- السلطان مصطفى الثالث ١٠٣٨ .
- معن أصل هذه العشيرة ٩٩٠ الحكام منها طالع فخر الدين وملحم وأحمد معن انقراضها ١٠٠٤ .
- المقدم مقلد شريك الشدياق خاطر في حكومة جبة بشري وموته بالشوف ٩٦٢ .
- مكاروريوس الزعيم بطريك الروم الانطاكي ورحلته ١٠٠٧ .
- الأمير ملحم ابن الأمير يونس معن فراره بعد القبض عليه وتجديده القتال ٩٩٤ ولايته على بلاد البترون وظهوره على والي دمشق ٩٩٨ ووفاته هناك .
- الأمير ملحم شهاب حكومته بلبنان وأعماله ١٠٣٧ ولايته على بعلبك وبيروت واعتزاله الولاية ووفاته هناك .
- الأمير منصور عساف ولايته على كسروان وما يليه إلى عكار عد ٩٩٠ ومؤامرة أمراء فتقا على قتله هناك وانبساط ولايته من نهر الكلب إلى حمص وحماة ٩٦١ .
- منصور الشدياق وأولاده ١٠٥٧ .
- الأمير منصور شهاب حاكم لبنان ١٠٣٨ و ١٠٣٩ .

الموارنة حكامهم وأعيانهم في القرن السادس عشر ٩٧٩ نكباتهم بهذا القرن هناك بطاركتهم فيه ٩٨٠ إلى ٩٨٣ مدرستهم بروما ٩٨٢ مجتمعهم سنة ١٥٨٠ وسنة ١٥٩٦، عد ٩٨٥ أساقفتهم في القرن السادس عشر ٩٨٦ و ٩٨٧ النساك والحبساء منهم في القرن المذكور ٩٨٨ أعيانهم الدنيويون في القرن السابع عشر ١٠١٦ بطاركتهم في هذا القرن ١٠١٩ إلى ١٠٢٣ براءة حماية لويس الرابع عشر لهم ١٠٢٢ أساقفتهم في القرن السابع عشر ١٠٢٤ إلى ١٠٢٦ اتباعهم الحساب الغريغورياني ١٠٢٤ علماؤهم وفضلاؤهم في القرن السابع عشر ١٠٢٧ إلى ١٠٣١ مدرستهم برافينا ١٠٢٧ بعض نساكهم وفضلاؤهم في القرن السابع عشر ١٠٣١ أديارهم المنشأة بهذا القرن ١٠٣٢ كنائسهم التي بُنيت فيه ١٠٣٣.

المورة استحوّاز السلطان محمد الثاني عليها عد ٩٥٨ أخذ البنادقة لها واسترداد السلطان أحمد الثالث لها منهم ١٠٣٤.

موسى المرديني ترجمته ٩٦٩.

الأمير موسى علم الدين توليته اقطاع الأمير أحمد معن وقتله في الأستانة ١٠٠١ إلى ١٠٠٤.

موسى العكاري بطريك الموارنة ٩٨٠.

الشيخ مخائيل ابن نحلوس الأهدني ولايته في الزاوية والجبة ١٠٠٢.

(ن)

النجم الغزي ١٠٠٥.

نصر الله بن شلق العاقوري الماروني ١٠٢٧.

الخوري نقولا الصائغ ١٠٥٢.

المشايع النكدية وما كان بين الشيخ خطار والشيخ كليب منهم ١٠٣٧ و ١٠٣٩ قتالهم مع عسكر الجزائر في السعديات ١٠٤٥ مقتلهم هناك.

النمسا حربها مع السلاطين العثمانيين والصلح بينهما ٩٦٠ و ٩٦١ استئناف هذه

الحرب في أيام السلطان مراد الثالث ٩٦٢ حرب السلطان محمد الثالث لهم ٩٦٣ محاربة السلطان أحمد الأول له ٩٨٩ حرب السلطان محمد الرابع لهم ٩٩٧ وتألّبهم عليه مع البندقية وبولونيا وروسيا هناك أخذهم بعض القلاع والمدن من أملاك الدولة واسترداد بعضها منهم ١٠٠١ حربهم مع الدولة في أيام السلطان أحمد الثالث ١٠٣٤ وفي أيام محمود الأول ١٠٣٦ وفي أيام سليم الثالث ١٠٤٤ .
نور الدين بن برهان الحلبي ١٠٠٥ .

(هـ)

هاشم بن أيوب شيخ العاقورة جد آل هاشم ٩٦٠ و ٩٧٩ .
هاشم العجمي تولية الأمير منصور له على بلاد جبيل وقتله ٩٦٠ و ٩٧٩ .

(ي)

اليزبكية والجنبلاطية ١٠٣٩ .
يوحنا سلوقا بطريك الكلدان ترجمته ٩٦٨ .
الكافليير يوحنا مارماكون موفد الموارنة إلى ملك فرنسا ١٠١٨ .
يوحنا مخلوف بطريك الموارنة ١٠١٩ .
يوحنا الصفراوي بطريك الموارنة ١٠٢٢ .
المطران يوحنا الخوشي الحصري ١٠٢٤ .
المطران يوحنا الحصري من بيت حندوق ١٠٢٤ .
الخوري يوحنا عجمي ١٠٥٤ .
الخوري يواكيم مطران ١٠٥٢ .
يوسف بن شكيان الحصاراتي توليه على البترون عد ٩٦٠ و ٩٧٩ .

يوسف الحفني ١٠٤٧.

يوسف باشا سيفا ولايته على طرابلس ٩٦٢ عزله عنها ومصادرة جعفر باشا
خلفه له بسرقة خزينة السلطان هناك قتله الأمير محمد عساف وضبط
أملاكه وتزوجه بأرملته هناك أيضاً، نصرة فخر الدين عليه بوقعة نهر
الكلب ٩٦٣ تنكيه بالمتاولة بيبلك هناك، حربه لعمر باشا وفخر الدين
٩٩٢ وفاته ٩٩٤.

يوسف الرزي بطريك الموارنة ٩٨٣.

يوسف الثاني بطريك الكلدان ترجمته ١٠١٢.

يوسف العاقوري بطريك الموارنة ١٠٢١ المجمع الذي عقده بحراش ذيل على العدد
١٠٣٣.

الأمير يوسف ملحم شهاب ولايته في جبيل أولاً ثم في لبنان ١٠٣٩ مسيره
لقتال آل رعد بالضنية وحربه لعثمان باشا في البقاع ١٠٤١ عصيان أخيه
الأمير سيد أحمد وأفندي ١٠٤٣ قتله أحدهما أفندي هناك. ثم تولية
الجزار أخاه سيد أحمد ونخاله الأمير اسماعيل وطردهما له، ثم ردّ الجزار
الأمير يوسف للولاية ثم تغير عليه وحاكمه وأكرهه على الاعتزال هناك.
رضى الجزار عنه واستدعاه إليه ليوليه ثم قتله ١٠٤٥، استئجار أولاده
ولاية جبيل من الأمير حيدر ملحم والأمير قعدان ثم ولايتهم بلبنان
وعزلهم عنها واعادتها إلى الأمير بشير ١٠٤٥ ثم اعادتهم إليها هناك
واصلاحهم مع الأمير بشير هناك.

المجلد الثامن

(أ)

- ابراهيم باشا والي عكا تنصيبه بعد الجزار والياً ١٠٩١ .
- ابراهيم باشا بن محمّد علي باشا فتحه سورية ١١٠٢ حربه فيها عند إخراج
عساكره منها ١١٠٣ .
- ابراهيم الباجوري ترجمته ١١١١ .
- ابراهيم بك النجار ١١٢٣ .
- الشيخ ابراهيم الأحذب البيروتي ١١١٠ .
- أبو سمرا غانم أعماله عند اخراج العساكر المصرية من سورية ١١٠٣ تعيين عمر باشا
له قائداً للجنود المسيحيين ١١٠٥ .
- اثناسيوس الدباس بطريك أنطاكية على الروم ومعتقده ١٠٤٨ و ١٠٤٩ .
- اثناسيوس جوهر تنزل كيرلس تاناس له واقامته بطريركاً ١٠٤٩ .
- اثناسيوس مطر بطريك أنطاكية الملكي الكاثوليكي ١١١٣ .
- أدة، المشايخ أبناء أدة ١٠٦٢ احدهم الياس هناك .
- دير مار ادنا الفتوح ١٠٨٧ .
- الأرمن رجوعهم إلى الإيمان الكاثوليكي وبطاركتهم في لبنان ١١١٧ .
- المطران اسطفانس عواد السمعاني ترجمته وتأليفه ١٠٧٨ .
- الخوري اسطفانوس ورد الماروني ١٠٨٠ .
- اسماعيل باشا ولايته على عكا بعد الجزار ١٠٩١ .

- اسكندر ابكارىوس وأخوه يوحنا ١١١٠.
- دير مار اشعيا ١٠٨٧.
- طرابلس، كرسي أبرشيته ١١٣٣.
- أغاييوس مطر البطريرك الأنطاكي على الروم المتّحدين ١٠٤٩ و ١١١٣.
- اغناطيوس صروف بطريرك أنطاكية على الروم المتّحدين ١١١٣.
- اغناطيوس الدهان البطريرك الملكي الكاثوليكي ١١١٣.
- افرام الرحماني بطريرك السريان ١١١٤.
- اكليمندوس بحوت البطريرك الملكي الكاثوليكي ١١١٣.
- دير مار الياس الراس تسليمه إلى الرهبان ١٠٨٧.
- دير مار الياس غزير ١٠٨٧.
- دير مار الياس أنطلياس ١٠٨٧.
- دير مار الياس بلوني ١٠٨٧.
- البطريرك الياس الحويك ١١٣٠.
- الشيخ أمين الجندي الحمصي ترجمته ١١١٠.
- امين الشميل ١١١٠.
- اناطيش الرهبان اللبنانيين ١١٣٥ أناطيش الرهبان الأنطونيين ١١٣٦.
- اندراس اخيجان بطريرك السريان الكاثوليكيين ١١١٤.
- الخوري أندراوس اسكندر القبرصي ١٠٧٣.
- أنطاكية بطاركتها في القرن السادس عشر على الروم غير المتّحدين عد ١٠٤٨
- بطاركتها على الروم المتّحدين عد ١٠٤٩ بطاركتها في القرن ١٩ -
- ١١١٢ بطاركتها من الروم المتّحدين ١١١٣ بطاركتها على السريان
- ١١١٤.
- الخوري أنطون القياي ١٠٨٠.

دير مار أنطونيوس سير بناء الرهبان له ١٠٨٧.
دير مار أنطونيوس حوب ١٠٨٧.
دير مار أنطونيوس البادوي ١٠٨٧.
دير مار أنطونيوس بقعاتا ١٠٨٧.
دير مار أنطونيوس حريصا ١٠٨٧.
أنطونيوس سمحيري بطريك السريان ١١١٤.
انطلياس عامية أنطلياس ١٠٩٦.
انكلترا دخول أسطولها بالدرديل سنة ١٨٠٧ عد ١٠٩٠ صلحها مع السلطان محمود ١٠٩٣.
الانكشارية وثورتهم في أيام السلطان سليم الثالث ١٠٩٠ و ١٠٩٢ وقرضهم ثمة
أورشليم بطاركتها في القرن الثامن عشر عد ١٠٥٠ بطاركتها في القرن
التاسع عشر على الروم ١١١٥ بطاركتها اللاتينيون ١١١٦.

(ب)

دير بحرصاف ١١٣٦.
دير بحنين ١١٣٥.
بربر مصطفى آغا ولايته على طرابلس ١٠٩٥.
برلين مؤتمر الدول فيها ١١٠٨.
دير سيدة البزاز ١٠٨٧.
دير بزمار ١٠٨٧ بطاركة الأرمن الذين سكنوا فيه ١١١٧.
دير البشارة ١٠٨٧.
دير البشارة بزوق مكايل ١١٣٧.
الأمير بشير الكبير اتفاهه مع أولاد الأمير يوسف وجرجس باز ١٠٩١ أحداث في

أيامه ١٠٩٥ تثبيت عبدالله باشا له في الولاية ١٠٩٦ وتغييره عليه وردّه إليها ثمة حربه مع درويش باشا والي دمشق في المزة ١٠٩٨ في ما كان له بمصر ١٠٩٩ حربه مع الشيخ بشير جنبلاط في المختارة ١١٠٠ حصار قلعة سانور ١١٠١ استسلامه إلى الدولة العلية وسفره إلى مالطة ثم إلى الآستانة ووفاته ١١٠٣.

الأمير بشير قاسم ملحّم ولايته على لبنان مكان الأمير بشير الكبير ١١٠٣ الثورة عليه وخلعه من الولاية ١١٠٥.

الأمير بشير أحمد اللّمعني جعله قائمقاماً للنصارى ١١٠٥.
بشير جنبلاط وحربه مع الأمير بشير ١١٠٠ وشنق عبدالله باشا له.
دير بصرما ١١٣٥.

الأب بطرس مبارك الماروني اليسوعي ١٠٧٢.
الخوري بطرس التولاوي الشهير ترجمته وتآليفه ١٠٧٤.
دير مار بطرس كريم التين تسليمه إلى الرهبان ١٠٨٧.
دير مار بطرس وورشلين برومة تسليمه إلى الرهبان ١٠٨٧ وجعله مدرسة لهم ثم استبداله بدير مار بطرس في السلاسل ثمة.

دير مار بطرس القطين ١٠٨٧.
بطرس كرامة دخوله في خدمة الأمير بشير ١٠٩٥ ترجمته ١١١٠.

بطرس البستاني ترجمته ١١٢٠.
بطرس الجريجيري البطريرك الملكي الكاثوليكي ١١١٣.

بعلبك كرسي أبرشيته ١١٣٣.

دير السيدة بقلوش ١٠٨٧.

دير بكركي ١٠٨٧.

بلغاريا نظامها في مؤتمر برلين ١١٠٨.

دير البنات ١٠٨٧.

البطريك بولس مسعد ومؤلفاته ومن رقاها إلى الأسقفية ١١٢٨ .
بهنام بني بطريك السريان ١١١٤ .
بيروت بناء كنيسة مار جرجس القديمة فيها ١٠٨٩ حضور مراكب الأروام إليها
١١٠١ حلول مراكب وعساكر الدول المتحدة ضد الحكومة المصرية بها
وضربها ١١٠٣ كرسي أبرشيتها ١١٣٣ .

(ث)

ثواديوسوس الدهان البطريك الأنطاكي على الروم المتحدين ١٠٤٩ .

(ج)

البطريك جبرائيل البلوزاوي الماروني ١٠٦٣ .
جبة بشري مشايخها وطردهم المتأولة منها ١٠٦١ .
جبل الأسود حرب واليه مع الدولة العلية ١١٠٦ .
دير الجديدة ١١٣٥ .
المطران جرجس بنيمين الاهدني ترجمته ١٠٧٣ .
دير مار جرجس الناعمة ١٠٨٧ .
دير مار جرجس ضبيه ١٠٨٧ .
دير مار جرجس علما ١٠٨٧ .
جرجس باز مقتله مع أخيه عبد الأحد ١٠٩١ وما كان له من الوجاهة ١١١٨ .
جرجس شلحت بطريك السريان ١١١٤ .
المطران جرمانوس آدم ترجمته ١٠٥٥ .
جرمانوس فرحات مطران حلب ترجمته وتأليفه ١١٧١ .
الجزار ووفاته ١٠٩١ .

(ح)

- آل حبيش في القرن الثامن عشر ١٠٥٦ ما كان بينهم وبين آل دحداح ١١٠٥.
حسن بن محمّد العطار ترجمته ١١١١.
مدرسة الحكمة ببيروت ١١٣٤.
حنّة عجيمة (هندية) وأخبارها ١٠٦٨.
الأمير حيدر موسى شهاب وحربه مع الأمير يوسف علم الدين ١٠٥٦.
الأمير حيدر اسماعيل ولايته على النصارى بלבنا ١١٠٥.

(خ)

- آل خازن في القرن الثامن عشر ١٠٥٦.
خريستوس البطريك الأورشليمي ١٠٥٠.

(د)

- المشايع آل دحداح تاريخهم ١٠٦٠ ما كان بينهم وبين آل حبيش ونكتبهم حينئذ ١١٠٥.
الدروز حربهم مع عسكر ابراهيم باشا باللجا ١١٠٢.
درويش باشا والي دمشق حربه مع عبدالله باشا واللبنانيين ١٠٩٨.
دلبتا كنيسة مار يعقوب فيها ١٠٩٨.
دير مار دوميط البوار ١٠٨٧.
دير مار دوميط برومة ١١٣٦.
دمشق كرسي أبرشيتها ١١٣٣.
ديوانيسوس جروه بطرك السريان ١١١٤.

(ر)

- الكونت رشيد الدحداح ترجمته ١١٢٢ .
دير مار روحانا البقيعة ١٠٨٧ .
روسيا حربها مع الدولة في أيام السلطان سليم الثالث ١٠٩٠ وفي أيام السلطان محمود ١٠٩٣ و ١٠٩٤ .
حربها مع فرنسا هناك اتفاقها مع الباب العالي على اخراج العساكر المصرية من المملكة العثمانية ١١٠٣ حربها في القرم مع الدولة العلية ١١٠٤ حربها مع الدولة العلية ١٨٧٧ عد ١١٠٨ .
دير مار روكس شهر الحسين ١٠٨٧ الروملي الشرقية نظامها في مؤتمر برلين ١١٠٨ .
رومانيا تأليف هذه المملكة من الفلاغ والبغدان واستقلالها ١١٠٤ ملوكها ١١٠٦ .
مدرسة الرومية ١١٣٤ .
مدرسة ريفون ١١٣٤ .

(ز)

- زغرتا مدرستها ١٠٨٨ .
زوق مصبح كنيسة ١٠٨٩ .
دير الزيارة بعينطورا ١٠٨٧ .

(س)

- دير مار ساسين بسكتنا ١٠٨٧ .
سان اسطفانو معاهدتها بين الدولة العلية والروسية ١١٠٨ .

دير ساقية المسك ١١٣٥.
السرب حربهم للاستقلال ١٠٩٣ الثورة بينهم وبين المسلمين واستقلالهم وتاريخهم
إلى الآن ١١٠٦ و ١١٠٨.
دير مار سرقيس اهدن ١٠٨٧.
الشيخ سعد الخوري وابنه غندور ١٠٥٨.
السلطان سليم الثالث ١٠٩٠ وعهده مع فرنسا ومقتله ١٠٩٢.
سليمان باشا ولايته على دمشق ١٠٩٥.
سمعان البيطار ترجمته ١٠٦٢.
البطريك سميان عواد الماروني ترجمته ١٠٦٦.
القس سميان السمعاني ترجمته ١٠٧٩.
دير مار سميان عين القبو ١٠٨٧.
سليستروس بطريك أنطاكي على الروم غير المتحددين ١٠٤٨ و ١٠٤٩.

(ش)

بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وأولاده ١٠٥٧.
الأمراء الشهابيون تنصّرتهم ١٠٦٢.
دير الشرفة ١٠٨٧.
شكيب أفندي وما أجراه في لبنان ١١٠٥.
دير شننغير ١١٣٦.

(ص)

المشايع أبناء أبي صعب ١١١٨.
صور وصيدا كرسي أبرشيتهما ١١٣٣.

(ط)

- طرابلس كرسي أبرشيتها ١١٣٣.
- دير طاميش تأسيسه وتسليمه إلى الرهبان ١٠٨٧.
- البطريك طويلا الخازن الماروني ترجمته ومن رقاهم إلى الأسقفية ١٠٦٧.

(ظ)

بنو الظاهر ١٠٥٩.

(ع)

- الأمير عباس أسعد شهاب ولايته بلبنان ١٠٩١ تجديد ولايته فيه ١٠٩٨.
- الشماس عبدالله زاهر ترجمته ١٠٥١.
- عبدالله باشا ولايته بعكا ١٠٩٦ حربه مع درويش باشا ١٠٩٨ عوده إلى الولاية بعد الأمر بعزله ١٠٩٩.
- عبدالله الشرقاوي ١١١١.
- عبد الرحمن الجبرتي ١١١١.
- عبدالله أبو السعود المصري ١١١١.
- مدرسة مار عبدا هرهريا ١١٣٤.
- السلطان عبد الحميد خان وما كان في أيامه ١١٠٤.
- السلطان عبد العزيز خان وما كان في أيامه ١١٠٦.
- دير عجالتون ١١٣٥.
- السلطان عبد الحميد خان الثاني وما كان في أيامه ١١٠٨.

- مدرسة عرامون ١١٣٤.
مدرسة العريمة ١١٣٤.
دير عشاش ١١٣٥.
دير عشقوت ١١٣٧.
عمر باشا ولايته على لبنان ١١٠٥.
الشيخ عمر الانسي البيروتي ١١١٠.
القس عيسى الجاماتي ١٠٨٠.
مدرسة عينطورا ١٠٨٨.
مدرسة عين ورقة ١٠٨٨ و ١١٣٤.
دير عنايه ١١٣٥.
دير عين العلق ١١٣٦.

(غ)

- غريغوريوس يوسف البطريك الملكي الكاثوليكي ١١١٣.
غريغوريوس سمعان بطريك السريان ١١١٤.
غريغوريوس جروة بطريك السريان ١١١٤.
مدرسة غزير ١١٣٤.
غوسطا كنيسة مار يوسف الحصن فيها ١٠٨٩.

(ف)

- فارس الشدياق ١١٢١.
فالوغا كنيسة مار الياس فيها ١٠٨٩.

- فؤاد باشا ارساله بالاستقلال إلى سورية ١١٠٥.
دير مار فرنسيس في غزير ١٠٨٧.
فرنسة بعثة عساكرها إلى سورية ١١٠٥.
البطريك فيلبوس الجميل الماروني ١٠٦٩.
فيلبوس عركوش بطريك السريان ١١١٤.
دير فيطرون ١١٣٧.

(ق)

- قبرص كرسي أبرشيتها ١١٣٣.
دير مار قبريانوس كفيفان ١٠٨٧.
دير قبيع ١١٣٥.
مدرسة قرنة شهوان ١١٣٤.
دير قرطبا ١١٣٥.
دير قزحيا تسليم المطران يوحنا حبقوق له للرهبان ١٠٨٧.
دير القطارة ١١٣٥.
دير القنزوح ١١٣٦.
دير قنوين كرسي بطاركة الموارنة ١١٣٣.
دير مار سمعان قيطو ١١٣٥.

(ك)

- دير الكحلونية ١٠٨٧.
دير الكريم ١٠٨٧ و ١١١٧.

- مدرسة الكريم ١١٣٤.
الدكتور كرنيلوس فان ديك ترجمته ١١١١.
دير كفردلاقوس ١١٣٦.
دير الكنييسة ١١٣٦.
كيرلس الثالث بطريرك أنطاكية هل هو كاثوليكي أو مشاق ١٠٤٨ و ١٠٤٩.
كيرلس تاناس بطريرك الروم المتحدين ١٠٤٩.
كيرلس سياج بطريرك الروم المتحدين ١٠٤٩.
كيرلس جحي بطريرك الملكية الكاثوليكيين ١١١٣.
كيرلس بهنام بطريرك السريان ١١١٤.

(ل)

- لبنان قسمته إلى قائمقاميتين ونظامه الجديد ١١٠٥.
لحفد، عامية لحفد ١٠٩٧.
دير لوزة تسليمه إلى الرهبان ١٠٨٧.

(م)

- دير مار مارون برسنين ١٠٨٧.
المجمع اللبناني ١٠٨١.
مجمع بقعاتا ١٠٨٢.
مجمع غوسطا ١٠٨٢.
مجمع ميفوق ١٠٨٤.
مجمع عين شقيق ١٠٨٥.

مجمع بكركي الأول ١٠٨٦ مجمعها الأخير ١١٣٢.

مجمع لويزة ١١٣١.

محمّد علي باشا وكيل مصر ترجمته ١٠٩٠ قهره الوهابيين ١٠٩٣ حربه مع اليونان ١٠٩٤ خروجه على سورية ١١٠٢ اكراه الدول له على جلاء عساكره منها ١١٠٣ خروجه من سورية ومنح السلطان له ولذريته الولاية على مصر ١١٠٣.

محمّد الدمنهوري ترجمته ١١١١.

السلطان محمود خان الثاني وما كان في أيامه ١٠٩٣.

السلطان مراد خان الخامس ١١٠٧.

دير مزرعة نهرا ١١٣٧.

دير سيدة مستيتا ١٠٨٧.

دير مشموشة تأسيسه وتسليمه إلى الرهبان ١٠٨٧.

مصر ولاية محمّد علي بها ١٠٩٠ المبلغ المقطوع عليها عند منح السلطان محمّد علي باشا وذريته الولاية عليها ١١٠٣.

السلطان مصطفى خان الرابع وما كان في أيامه ١٠٩١.

مصطفى باشا البيرقدار وانتصاره للسلطان سليم الثالث ١٠٩٢ تقليده منصب الصدارة العظمى ١٠٩٣ ومقتله.

مكاربوس الطويل البطريرك الملكي الكاثوليكي ١١١٣.

مكسيموس مظلوم البطريرك الملكي الكاثوليكي ١١١٣.

مكسيموس حكيم البطريرك الأنطاكي على الروم الكاثوليكين ١٠٤٩.

الموارنة أعيانهم في القرن الثامن عشر ١٠٦١ و ١٠٦٢ بطاركتهم بهذا القرن ١٠٦٣ مشاهيرهم في القرن الثامن عشر ١٠٧٠ وما يليه مجامعهم في هذا القرن ١٠٨١ وما يليه أديارهم المنشأة في القرن الثامن عشر ١٠٨٧ وما يليه مدارسهم في هذا القرن ١٠٨٨ كنائسهم ١٠٨٩ تاريخهم في القرن التاسع عشر ١١١٨ وما يليه حكامهم وأعيانهم ١١١٨ بطاركتهم ١١٢٤ وما يليه

مجامعهم في هذا القرن ١١٣١ أديارهم المنشأة فيه ١١٣٣ مدارسهم
١١٣٤ أديارهم للرهبان ١١٣٥ وما يليه بعض كنائسهم خاصة ببيروت
١١٣٨.

دير مار موسى الحبشة ١٠٨٧.

دير مار موسى بلوني ١٠٨٧.

دير مار ميخائيل بنايل ١٠٨٧.

دير مار ميخائيل زوق مكاييل ١٠٨٧.

البطريك ميخائيل فاضل ترجمته ١٠٦٩.

الخوري ميخائيل الغزيري ترجمته ١٠٨٠.

دير ميفوق ١٠٨٧.

(ن)

نعمة الله ابن الخوري توما الحلبي وأولاده ١٠٥٣.

الخوري نقولا الصائغ وترجمته ١٠٥٢.

نقولا الترك ١١١٠.

الشيخ ناصيف اليازجي ترجمته ١١١٠.

دير سيدة النياح ١٠٨٧.

(و)

المدرسة الوطنية ١١٣٤.

الوهابيون ظهور بدعتهم وقمعهم ١٠٩٣.

(ي)

- البطريك يعقوب عواد الماروني ترجمته ١٠٦٤ المطارين الذين رقاهم ثمة.
الخورى يواكيم مطران ترجمته ١٠٥٢.
الخورى يوحنا عجيمي ترجمته ١٠٥٤.
القس يوحنا اليازنجي ١٠٨٠.
دير مار يوحنا رشميا تسليمه للرهبان ١٠٨٧.
دير مار يوحنا القلعة ١٠٨٧.
البطريك يوحنا الحلو ومن رقاهم إلى الأسقفية ١١٢٥.
البطريك يوحنا الحاج ومن رقاهم إلى الأسقفية ١١٢٩.
مدرسة مار يوحنا مارون ١١٣٤.
البطريك يوسف ضرغام الخازن ترجمته ١٠٦٥.
البطريك يوسف اسطفان الماروني ترجمته ١٠٦٨.
البطريك يوسف التيان والمطارين الذين رقاهم ١١٢٤.
البطريك يوسف حبش ومن رقاهم إلى الأسقفية ١١٢٨.
البطريك يوسف الخازن ومن رقاهم إلى الأسقفية ١١٢٧.
العلامة يوسف سمعان السمعاني ترجمته ١٠٧٥ مؤلفاته ١٠٧٦ في اعتبار الأخبار الأعظمين له ١٠٧٧.
يوسف لويس السمعاني ترجمته ومؤلفاته ١٠٧٩.
القس يوسف الباني ترجمته ١٠٧٠.
دير مار يوسف البرج ١٠٨٧.
دير مار يوسف الحرف ١٠٨٧.
دير مار يوسف الحصن ١٠٨٧.

- الأمير يوسف شهاب ولاية أولاده بلبنان وجبيل ١١١٨.
- يوسف بك كرم أخذ فؤاد باشا له معه إلى الآستانة ورجوعه إلى لبنان ١١٠٩
- ترجمته وحربه مع داود باشا ١١١٩.
- الشيخ يوسف الأسير البيروتي ١١١٠.
- اليونان استقلالهم بعد حروبهم مع الدولة العلية ١٠٩٤.

الجزء التاسع

(أ)

- العلامة ابراهيم الخاقللي ٦٩.
- ابراهيم بك النجار ١١٣.
- الشهيد ابراهيم بن جرجس البشراني الحلبي اليسوعي ٥٥.
- ابن عجرمة مقدم قيطو ٤٦.
- أبو رزق البشعلاني وابنه يونس منشور الدويهي بالتوصية بأخي بونس ثمة ٥٧.
- أبو كرم الحديي وقتله بطرابلس لأنه لم يشأ أن يجحد دينه ٥٧.
- أبو كرم بشاره الاهدي والي جبة بشري ٥٨.
- المشائخ أبناء اده أحدهم الياس ثمة ٨٠.
- ادنه دير مار ادنه بالعاقورة ٣٣.
- ارميا العمشيتي بطريك الموارنة ٣٢ و ٣٧.
- المطران اسحق الشدراوي ٦٤.
- المطران اسطفان عواد السمعاني كتابه في قداسة يوحنا مارون ١٦.
- ترجمته ٩٦.
- البطريرك اسطفانوس الدويهي وتأليفه ٦٣.
- القس اسطفانوس ورد ٩٨.
- الياس دير القديس الياس بلحفد ٣٣.
- الياس مقدم بشري كتابة لاون العاشر إليه ٤٣ و ٤٦.

الياس مطران قبرص والرد على من زعموا أنه رجع مع موارنة قبرص إلى الايمان
القوم في أيام أوخانيوس الرابع ٤٥
دير مار الياس النبي بغزير لإنشاؤه ٧٢
البطريك الياس الحويك ومن رقاهم إلى الأسقفية ١٢٠.
انطيوخس وأنطونيس من تلامذة القديس مارون ٢.
انطونيوس الصهيوني الاهدني ٧١.
الخوري اندراوس اسكندر ٩١.
الخوري انطون القياسي ٩٨.
اهدن انتصار أهلها على مقدم بشناتا ورجاله ٤٢ تشتت اليعاقبة بسبب ذلك ثمة
تدبير أمورها بيد ثلاثة شمامسة ٤٦ دك أهلها مساكن اليعاقبة بيقوفا ٤٨.
اينوشنسيوس الثالث تفسير ما يحجج به الموارنة من براءته ٣٨.

(ب)

الشدياق باخوس بن صادر من حدشيت شريك الشدياق خاطر بتدبير جبة بشري
٤٦.
بردات الناسك العالم ١٢.
دير سيده البزاز ١٠٥.
بشري مقدموها ٤٦.
بطرس الأول بطريك الموارنة ٣٢.
القس بطرس رسول البطريك سمعان الحدثي إلى البابا لاون العاشر ٤٣ و ٥٥.
بطرس المطوشي القبرصي اليسوعي ٦٧.
بطرس الشدياق وابن أخيه منصور وابنه فارس ٧٥.
المعلم بطرس البستاني ١١٠.

- الأب بطرس مبارك الماروني اليسوعي ٩٠.
العلامة الخوري بطرس التولاوي ٩٢.
دير السيدة بقلوش ١٠٥.
البطريك بولس مسعد ومن رقاها إلى الأسقفية ١١٨.
البابا بناديكتوس الرابع عشر في تثبيت البطريك سمعان عواد ٨٤.
البياضية ٥٠.

(ت)

- تاوافيلوس الرهاوي الماروني ٢٤.
تاوادورس أبو كارا الرد على ما يعزى إليه من الطعن بالموارنة ١٢٩.
توما الكفرطايي تحريفه كتاب المطران داود ورد ما زاده عليه ٣٠ و ٣٣.
تيموتاوس بطريك النساطرة الرد على ما يعترض به بشهادته على الموارنة ٢٦ و ١٢٩.

(ج)

- جبرائيل من حجولا بطريك الموارنة ٣٧ و ٤٠.
جبرائيل ابن القلاعي وعوده من أوروبا وكتابه إلى البطريك والمطارين ٤٢.
ترجمته وتأليفه ٥٣.
القس جبرائيل الصهيوني الاهدني وتأليفه ٦٨.
البطريك جبرائيل البلوزاوي ٨١.
جبة بشري فتح المسلمين لها ٣٥ مقدموها في القرن السابع عشر ٥٦ مشايخها في
القرن الثامن عشر ٧٩ طردهم المتأولة آل حماده منها ثمة

- القس جرجس بن حرواص ٥٥.
البطريك جرجس السبعلي ٦٢.
المطران جرجس بنيمين ٩١.
دير مار جرجس علما لإنشأؤه ١٠٥.
جرجس باز أبي شاكرو وأخوه عبد الأحد ١٠٨.
القدیس جرمانوس أسقف القسطنطينية الرد على ما يؤخذ من كلامه من الطعن بالموارنة ١٢٩.
المطران جرمانوس فرحات ٨٩.
جمال الدين يوسف بن عبد المنعم مقدم بشري ٤٢.

(ح)

- الشيخ حبیش أصل آل حبیش ٤٦ ولاية آل حبیش على غزير ٥٦
دير حراش لإنشأؤه ٧١.
حردین دير مار سرکیس وباخوس فیها ٣٣.
دير الحقله ٧٢.
آل حمادة تولیهم جبة بشري وغيرها وطردهم منها ٧٩.

(خ)

- الشيخ سرکیس أصل آل خازن قدومه من جاج إلى كسروان ٤٦ .
تقدمه مع أولاده بخدمة الأمیرین فخر الدين ويونس معن ٥٦.
ولايتهم في كسروان وبلاد جبیل ٥٦ ونصب ملك فرنسة أبا نادر وأبا نوفل
وحصن الخازن قناصل في بيروت والرسائل الرسمية بذلك وغيره ٥٦.
الشدياق خاطر الحصري مقدم جبة بشري ٤٦ و٥٦.

(د)

دانيال من شامات بطريك الموارنة ٣٧.

دانيال من حدشيت بطريك الموارنة ٤٠.

داود الثاني من بطاركة الموارنة ٤٠.

المطران داود الماروني ٣٠.

المشائخ آل الدحداح ٧٨.

دمينا تلميذة القديس مارون ٢.

(ر)

الكونت رشيد الدحداح ١١٢.

الشدياق رعد بن خاطر الحصري مقدم جبة بشري ٥٦.

الرهبة اللبنانية مؤسسوها ٧١ قسمتها إلى لبنانية وحلبية ٨٦ أديارهم المنشأة في

القرن الثامن عشر ١٠٥ أديارهم في القرن التاسع عشر ١٢٥.

دير مار روحانا البقعة بعرامون لإنشأؤه ١٠٥.

دير مار مارون الرومية ٧٢ و ١٢٤

ريفون دير مار سركيس وباخوس فيها ٧٢.

(ز)

زاينا الناسك غير القديس مارون ٢.

مدرسة زغرتا ١٠٦.

(س)

- ساويروس أسقف الأشمونيين ورد ما يعترض على الموارنة في كلامه ٢٩.
- الشيخ سعد الخوري وابنه الشيخ غندور ٧٦ تسمية لويس السادس عشر له قنصلاً
لفرنسة ٨٦.
- سعيد بن بطريق رد اتهمه مارون والموارنة ببدعة المشيئة الواحدة ٣ تزييف قوله أيضاً
١٧ و ١٨ و ٢٩ و ٣٤ و ١٠٦.
- البطريك سركيس الرزي ٤٩.
- المطران سركيس الرزي ٦٤.
- دير مار سركيس اهدن ٧٢.
- سمعان بطريك الموارنة ٣٧ و ٤٠.
- سمعان الحداثي بطريك الموارنة ٤٣.
- سمعان البيطار ٨٠.
- البطريك سمعان عواد ومن رقايم إلى الأسقفية ٨٤.
- القس سمعان السمعاني ٦٧.

(ش)

- دير مار شليطا مقبس ٧٢.
- الأمراء الشهابيون وتنصّر أكثرهم ٨٠ الحكام منهم في القرن السابع عشر والثامن
عشر والتاسع عشر ٨٠.
- دير السيدة في شوبا لإنشاؤه ١٠٥.

(ص)

المشائخ بنو صعب ١٠٨.

(ض)

المشائخ آل الضاهر ٧٧.

(ط)

دير طاميش ٧٢.

آل طريه بطرابلس ٦٢.

البطريك طوييا الخازن ٨٥ من رقايم إلى الأسقفية ثمة ٧٧.

(ع)

عبد المنعم الأول والثاني مقدمي بشري ٤٢ ما كان من القلق في أيام الثاني بجبة
بشري ثمة أولاد عبد المنعم هذا ٤٦.

دير مار عبدا هريريا تاريخه ٧٢

العناحلة مقدمو بشري ٤٦ و ٥٦.

دير الزيارة بعينطورا ١٠٥.

مدرسة عينطورا للموازنة ١٠٦.

القس عيسى الجاماتي ٩٨.

مدرسة عين ورقه ٧٢ و ١٠٦ و ١٢٤.

(غ)

غريغوريوس الحلاتي بطريك الموارنة ٣٢.
غوليلموس الصوري تفنيد زعمه عن ارتداد الموارنة ٣٤.

(ف)

فارس الشدياق ١١١.
فرنسيس كالويه الناسك الفرنسي بلبنان ٧١.
البطريك فيلبوس الجميل ٨٧.

(ق)

دير قزحيا قدمه ٣٣.
قنوين قدم هذا الدير ٣٣ جعله كرسيّاً بطريركياً ٤٣.
قيس الماروني ترجمته وكتاب تاريخه ٢٨.

(ك)

كسروان حروب أهله والمسلمين ٣٦.
كفتون دير الموارنة بها ٣٣.
الشيخ كنعان الظاهر وقتله بطرابلس لأنه لم يسلم ٧٧.
كوزبند دير القديس يوحنا فيها ٣٣.
الشيخ كيوان الماروني مدبر الأمير قرقماس معن ٤٦.

(ل)

لوقا من بنهران بطريك الموارنة ٣٢ و ٣٧.

دير لويظة ٧٢.

ليميناوس تلميذ القديس مارون ٢.

(م)

القديس مارون الناسك عد ١ رسالة فم الذهب إليه ثمة عيده والأديار التي على اسمه ومنح الغفران الكامل لمن زار كنيسة مارونية يوم عيده ثمة تلاميذه عد ٢ انتشار رهبانه في القرن السادس عد ٣ مناضلة رهبانه عن الايمان القويم عد ٤ حرق دير على العاصي ودكه وتجديده ثمة رسالة رهبانه إلى رؤساء اليعاقبة وجوابهم عليها عد ٥ إثبات قداسته وبراءته من كل بدعة ١٧ إثبات بناديكتوس الرابع عشر قداسته ١٨ دير على العاصي وبكفرحي ٣٣.

مارانا وكورة تلميذتا القديس مارون ٢.

مالك أبي الغيث مقدم العاقورة ٤٦.

المجمع الذي عقد في أيام البطريك ميخائيل الرزي ٥١.

المجمع الذي عقد في أيام البطريك سركيس الرزي سنة ١٥٩٦ ٥٢.

المجمع الذي عقده البطريك يوسف الدويهي ذيل على المجمع اللبناني ٩٩.

مجمع بقعاتا ١٠٠.

مجمع غوسطا ١٠١.

مجمع ميفوق ١٠٢.

مجمع عين شقيق ١٠٣.

مجمع بكركي الأول ١٠٤.

مجمع لوزية ١٢١.

مجمع بكركي الثاني ١٢٢.

مرهج بن نيرون الباني ٧٠.

الملكية أصل هذه التسمية وزمانها والانقسام بينهم وبين الموارنة ١٠.

الموارنة تسميتهم بهذا الاسم نسبة إلى القديس مارون عد ٣ حالتهم الدنيوية في القرن السابع وكونهم المردة عد ٦ و ٧ أمراؤهم والاثنان عشر ألفاً المجلون منهم عد ٨ حربهم مع عسكر يوستينيانوس الأخرم ٩ الانقسام بينهم وبين الملكية ١٠ بطاركتهم هم البطاركة الشرعيون على كرسي انطاكية ١٣ براءتهم من بدعة المشيئة الواحدة ٢٠ تفنيد ما يعزى إلى تيموتاوس القسطنطيني من الاتهام ٢١ حالتهم الدنيوية في القرن الثامن ٢٢ بطاركتهم في القرن الثامن ٢٣ رد ما يعزى إلى الدمشقي من الطعن بهم ٢٥ الرد على من يعترض عليهم بشهادة تيموتاوس بطريك النساطرة ٢٦ تاريخهم في القرن التاسع إلى آخر القرن الحادي عشر ٢٧ بطاركتهم في هذه القرون ثمة ورد من اتهمهم بالضلال في القرن العاشر ٢٩ تاريخهم في القرن الثاني عشر ٣١ بطاركتهم في هذا القرن ٣٢ أديارهم وكنائسهم إلى آخر القرن الثاني عشر ٣٣ تفنيد زعم غوليلموس الصوري بارعواء جميعهم عن الضلال سنة ١١٨٢ ٣٤ تاريخهم في القرن الثالث عشر ٣٥ بطاركتهم في هذا القرن ٣٧ الرد على ما يحجبهم خصومهم به من براءة اينوشنسيوس الثالث ٣٨ تاريخهم في القرن الرابع عشر ٣٩ حالتهم الدنيوية في هذا القرن ثمة بطاركتهم في ٤٠ أساقفتهم فيه أيضاً ٤١ تاريخهم في القرن الخامس عشر ٤٢ وما يليه بعض مقدميهم فيه ٤٢ بطاركتهم فيه ٤٣ ما أصابهم من الضيق عند عود قاصد البطريرك من رومية ثمة أساقفتهم في هذا القرن ٤٤ رد رأي من زعموا أنّ موارنة قبرص أقلعوا عن الضلال في أيام أوجانيوس الرابع ٤٥ تاريخهم في القرن السادس عشر ٤٦ وما يليه حكاهم وأعيانهم في هذا القرن ثمة بطاركتهم فيه ٤٧ بعض عوائلهم البيعية التي تركوها في أيام البطريرك ميخائيل الرزي ٤٨ إنشاء مدرستهم برومة ٤٩ اتباعهم الحساب الغريغوري ٥٠

و٦٤ المجامع التي عقدها رؤساؤهم طالع كلمة مجمع أساقفتهم في القرن السادس عشر ٥٣ و٥٤ نساكهم وكتابهم في هذا القرن ٥٥ تاريخهم في القرن السابع عشر وأعيانهم فيه ٥٦ تجديد الملك لويس الرابع عشر براءة حمايتهم وصورة البراءة ٦٢ أساقفتهم في القرن السابع عشر ٦٣ و٦٤ و٦٥ و٦٦ طبع كتبهم برومة بعد فحصها ٦٤ علماؤهم وفضلاؤهم في القرن السابع عشر ٦٧ وما يليه الأديار والكنائس التي أنشأوها في هذا القرن ٧٢ و٧٣ تاريخهم في القرن الثامن عشر ٧٤ وصاعداً أعيانهم آل خازن وآل حبيش ٧٤ بطاركتهم في هذا القرن ٨١ وما يليه علماؤهم فيه ٨٨ وما يليه مجامعهم في هذا القرن ٩٩ وما يليه أديارهم ومدارسهم في هذا القرن ١٠٥ وما يليه كنائسهم المنشأة بهذا القرن ١٠٧ حكاهم في القرن التاسع عشر ١٠٨ علماؤهم فيه ١١٠ بطاركتهم فيه ١١٤ أديار ومساكن البطريك والأساقفة ١٢٣ مدارسهم المنشأة في هذا القرن ١٢٤ أديارهم فيه ١٢٥ وما يليه كنائسهم فيه ١٢٨.

البطريك موسى العكاري ٤٧.

القس موسى العكاري ناسك وهو الذي صار بطريكاً ٥٥.

موسى الناسك من تلامذة القديس مارون ٢.

دير القديسة مورا باهدن ٧٢.

البطريك ميخائيل الرزي ٤٨.

البطريك ميخائيل فاضل ٨٧.

الخوري ميخائيل الغزيري ٩٨.

المطران ميخائيل البلوزاوي ٨١.

ميخائيل آخر ٨٢.

ميفوق دير السيدة بميفوق ٣٣.

(ن)

نصر الله شلق العاقوري ٦٧.
مار نوهرا بسمر جليل قدم هذه الكنيسة ٢٣.

(هـ)

هايل دير السيدة بها ٣٣.
هاشم العجمي ومقتله ٤٦.
هاشم بن الشيخ أيوب ابن الشمس توما جد المشائخ آل هاشم ٤٦.
هرمزدا البابا رسالة رهبان القديس مارون إليه وجوابه لهم ٤.
هندية حنة عجيمة وأخبارها ٨٦.

(ي)

يانوح دير السيدة بها كرسي البطريركية ٣٣.
يعقوب الناسك تلميذ القديس مارون ٢.
يعقوب الراماتي بطريك الموارنة ٣٢.
يعقوب الحدثي بطريك الموارنة ٤٣.
البطريك يعقوب عواد ٨٢ تنزيله وعوده ثمة من رقاهم إلى الأسقفية ثمة
القس يعقوب الدويهي ٧١.
يوحنا فم الذهب رسالته إلى القديس مارون ١.
يوحنا مارون البطريك منشأه وتعليمه وترهبه عد ١١ أسقفية ١٢ وبطريركيته

- وأعماله فيها ١٣ مؤلفاته ١٤ إثبات كونه كتب ضد بدعة المشيعة الواحدة
١٥ إثبات قداسته ١٦ تبرئته من بدعة المشيعة الواحدة ١٩.
- منح الغفران لمن يزور كنائس الموارنة يوم عيده ثمة
البطريك يوحنا الحلو ١١٥.
- البطريك يوحنا الحاج ومن رقاهم إلى الأسقفية ١١٩.
- يوحنا الدمشقي رد ما يعزى إليه من الطعن بالموارنة ٢٥.
- يوحنا اللحفدي بطريك الموارنة ٣٢.
- يوحنا الثاني من بطاركة الموارنة ٤٥.
- يوحنا الحاجي بطريك الموارنة ٤٣ هجر وادي ايليح ونقل كرسية إلى قنوبين ثمة
الخوري يوحنا الزمايمية عالم ناسخ ٥٥.
- الخوري يوحنا بن نمرون الباني رئيس قزحيا ٥٥.
- يوحنا مارماكون موفد الشيخ حصن الخازن إلى فرنسة ٥٨.
- البطريك يوحنا مخلوف ٥٩.
- البطريك يوحنا الصفراوي ٦٢.
- القس يوحنا محاسب ٧١.
- القس يوحنا البازنجاني ٦٨.
- البطريك يوسف التيان ١١٤.
- البطريك يوسف حبيش ١١٦.
- يوسف الجرجسي بطريك الموارنة ٣٢.
- يوسف بن حسان الحديثي بطريك الموارنة ٤٣.
- يوسف شكيان الحصاراتي حاكم البترون ٤٦.
- يوسف الرزي بطريك الموارنة ٥٠.
- البطريك يوسف العاقوري ٦١.

- القس يوسف اصفاف ٧١.
- البطريك يوسف اسطفان ٨٦ توقيفه عن البطريكية وإرجاعه إليها ثمة مؤلفاته ومن رقاهم إلى الأسقفية ١٥ و ١٦.
- يوسف بك كرم ١٠٩.
- يوسف لويس السمعاني رده على عمه السمعاني بأن كتاب الكهنوت للداراوي ١٤ وإثباته أن شرح رتبة القداس ليوحنا مارون خلافاً لعمه ثمة
- البطريك يوسف راجي الخازن ١١٧
- البطريك يوسف ضرغام الخازن ٨٣.
- العلامة يوسف سمعان السمعاني ترجمته ٩٣ ومؤلفاته ٩٤ اعتبار الأبحار الأعظمين له ٩٥.
- يوسف لويس السمعاني ترجمته ومؤلفاته ٦٧.
- دير مار يوسف الحرف ١٠٥.
- الخوري يوزان المتريتي رئيس قرحيا ٥٥.

